موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

القرآن الكريم

تفسير سورتي الفاتحة والبقرة

www.nabulsi.com
info@nabulsi.com

تفسير سورة الفاتحة

التفسير المطول - سورة الفاتحة 001 - الدرس (1-2) :تفسير الآيات 1-2 ، كيفية الحمد
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-09-06

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآنُ الكريم جُمع في الفاتحة:

سوف نفسِّر إن شاء الله تعالى سورةَ الفاتحة، لأن هذه السورة عظيمة القدر، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))

[مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه]

سماها النبي عليه الصلاة والسلام أساس القرآن، وسماها أم القرآن، وسماها فاتحة الكتاب، ولها عشرة أسماء وقد جُمع القرآنُ في الفاتحة، لهذه الأسباب كلّها رأيت من المناسب أن أفسر سورةَ الفاتحةِ بعد السورِ القصيرة الأخيرة التي خُتم بها القرآن الكريم.

أولاً يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98))

(سورة النحل)

أجمع العلماء أن كلمة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ليست آية، لكن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يقرأ القرآن الكريم إلا ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، امتثالاً لقوله تعالى:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98))

(سورة النحل)

العلماء قالوا مندوب أن نقرأها في غير الصلاة وواجب أن نقرأها في الصلاة، فيجب أن نتعوذ بالله من الشيطان الرجيم في الصلاة ولكن سراً، تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك، سراً، ثم تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم سراً.

النبي عليه الصلاة والسلام كان دائماً يتعوذ بالله ولاسيما في السورتين الأخيرتين:

أما البسملة فالأكثرُ على أنها تُقرأ جهراً، وأبو حنيفة رضي الله عنه يرى أن تُقرأ أيضاً سراً، ومذهبُه رضي الله عنه يبدأ القراءة بقوله: الحمد لله رب العالمين، لكن الأكثرَ على قراءة البسملة جهراً، أما التعوذ فيجمعون على أنه يُقرأ سراً وهذا في الصلاة.

((اسْتَبَّ رَجُلانِ عِنْدَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَباً، قدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قالَ: أعُوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ))

[البخاري عن سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ]

إذا سافر عليه الصلاة والسلام وأدركه الليل ونزل في أرض فإنه كان يقول:

((يا أرض، ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك ومن شر ما فيك وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن شر ساكن البلد، ووالد وما ولد))

[رواه أبو داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما]

النبي عليه الصلاة والسلام كان دائماً يتعوذ بالله ولاسيما في السورتين الأخيرتين:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ الْفَلَق (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق)

وأيضاً:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ النَّاس (1) مَلِكِ النَّاس (2) إلَهِ النَّاس (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاس الْخَنَّاس (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُور النَّاس (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس (6))

(سورة الناس)

الأسماء الحسنى كلها جمعت في كلمة "الله":

قال بعضهم: العوذ هو الالتجاء لقوي كي تتقي به الشر، وأما اللوذ بمعنى لاذ به، الاحتماءُ بقويٍّ من أجل أن يجلب لك الخير، عاذ به، ولاذ به، عاذ اتقاء للشر، ولاذ طلب الخير، فربنا سبحانه وتعالى يأمرنا أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأما كلمة الله فهي اسم الله الأعظم الجامع

للأسماء الحسنى كلها، وهو عَلَمٌ على الذات، وأكبر أسماء الله اسم الله الأعظم، يجمع كل أسمائه، أعوذ بالله، يعني أعوذ بالله الرحيم، أعوذ بالله الحكيم، أعوذ بالله اللطيف، أعوذ بالله القوي، أعوذ بالله الغني، أعوذ بالله العادل، أعوذ بالله الفرد، الصمد، الواحد، الأحد، القهار، الجبار، أعوذ بالله الودود، إذا قلت: الله، فإن الأسماء الحسنى كلها جمعت في كلمة الله، لو قال قائل: أعوذ بالرحيم، والأمر محتاج إلى قوة، فهذه الاستعاذة لا تصح، أما أعوذ بالله إن كنت تخاف شيئاً قوياً فَعُذْ بالله فهو القوي، وإن كنت بحاجة إلى رحمة فعذ بالله فهو الرحيم، وإن كنت بحاجة إلى إمداد فعذ بالله فهو رب العالمين، وإن كنت بحاجة إلى لطف فعذ بالله فهو اللطيف الخبير، وإن كنت بحاجة إلى علم فعذ بالله فهو العليم الخبير، فكلمة أعوذ بالله يعني أنا ألتجئ إلى الذات الكاملة التي جمعت الأسماء الحسنى كلها، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(180))

(سورة الأعراف)

الله سبحانه وتعالى حينما خلقنا رسم لنا منهجاً:

لِمَ سُمِّي الشيطان شيطاناً ؟ لأنه شَطَنَ، بمعنى ابتعد وخرج عن طريق الحق، والله سبحانه وتعالى حينما خلقنا رسم لنا منهجاً، قال تعالى:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

وقال:

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30))

(سورة فصلت)

ما دمت على المنهج الإلهي فلا تخف ولا تحزن:

ما دمت على المنهج الإلهي فلا تخف ولا تحزن، قال تعالى:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16))

(سورة المائدة)

إذا اتبعت رضوان الله سبحانه وتعالى يهديك بمنهجه إلى سبلِ السلام، سلام في بيتك، سلام في صحتك، سلام في أولادك، سلام في تجارتك، سلام في عملك، سلام في ماضيك، سلام في حاضرك، سلام في مستقبلك، سلام في خريف عمرك:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16))

(سورة المائدة)

الشيطان هو ذلك المخلوق الذي خرج عن المنهج القويم الذي رسمه الله لعباده المؤمنين:

عندما يطبق الإنسان المنهج الإلهي يَسْلَم، وللإيضاح أضرب مثلاً بآلة ثمينة جداً، معها تعليمات دقيقة جداً من خبراء الشركة، إذا اتبعتَ التعليمات فإن هذه الآلة تخدمك إلى أمد طويلٍ طويل، وإذا خالفتَ التعليمات فسوف تصاب بالعطب، وتخسرها، وتخسر ثمنها، إذاً مَن هو الشيطان ؟ ذلك المخلوق الذي خرج عن المنهج القويم، الذي رسمه الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين، لذلك قال الله تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً(9))

(سورة الإسراء)

من منا لا يحب أن يعيش حياةً سعيدة فيها سلام، وفيها رضا، فيها طمأنينة، وفيها ثقة بالله، من منا لا يحب أن ينجو من الخوف، وأن ينجو من القلق، أن ينجو من القهر، وأن ينجو من الألم:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16))

(سورة المائدة)

كل مخلوق خرج عن المنهج الإلهي فهو شيطان:

إذاً الشيطان ذلك المخلوق الذي خرج عن المنهج الإلهي، وكل مخلوق خرج عن المنهج الإلهي فهو شيطان، هناك شياطين الإنس، وهناك شياطين الجن، قال تعالى:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76))

(سورة القصص)

يعني خرج عن طريقتهم الصحيحة، قال تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43))

(سورة طه)

الطغيان خروج عن طريق الحق، والبغي خروج عن طريق الحق، والشطن خروج عن طريق الحق، والفسق خروج عن طريق الحق، قال الله سبحانه وتعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(1))

(سورة الأنعام)

وقال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1))

(سورة الكهف)

يُحمد الله مرتين ؛ مرةً على خلق السماوات والأرض، ومرة على هذا المنهج القويم الذي أنزله على أنبيائه.

ما دمت في طاعة الله فأنت في ظلّ الله وذمته:

ملخص الكلام أن لله في الأرض منهجاً، وأن لله في الأرض قرآناً، وشرَعَ لنا شرعاً، فما دمت ضمن الشرع فأنت في سلام، في حياتك الدنيا، ويوم تقوم الساعة، ويوم تقوم القيامة، وأنت في جنات عدن خالداً فيها إلى أبد الآبدين، ما دمت وفق هذا المنهج، فإذا خرجت عنه تدفع الثمن، ما دمت في طاعة الله فأنت في ظل الله وذمته، فإذا خرجت عن طاعته خرجت من حيّز ظله، تحمَّل المتاعب حينئذٍ، جاء أعرابي النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله عظني وأوجز، قال: قل آمنت بالله ثم استقم، قال: أريد أخفَّ من ذلك، قال إذاً فاستعد للبلاء.

قضية واضحة كالشمس، إما أن تطبق التعليمات، وإما أن تستعد للبلاء، قل أعوذ بالله من الشيطان، هذا المخلوق الذي طغى، والذي غوى، والذي بغى، والذي شطن بمعنى ابتعد، وبعضهم قال: الشيطان من شاط، بمعنى احترق، احترق بنار البُعد، شقي بالبعد، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((.. فالناس رجلان رجل بَرَّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله..))

[الترمذي والبيهقي عن ابن عمر]

أي لو أن في الأرض إنساناً واحداً بعيداً عن الله، وهو يعيش سعيداً رغْمَ بُعْده عن الله لكان هذا الدين باطلاً، ولو أن إنساناً واحداً كان متصلاً بالله، وهو شقي في حياته رغمَ طاعته وتقواه لكان هذا الدين باطلاً، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

وقال:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97))

(سورة النحل)

آيات في كتاب الله تَعِدُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بالتعويض الجزيل:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الرجيم أي البعيد، والأصح من كلمة البعيد المُبعَد لأنه خرج عن طريق الحق، وشطن ابتعد فاحترق فأبعد، قال تعالى: الشيطان يعدكم الفقر، الشيطان يخوفكم، الشيطان يأمركم بالفحشاء من طريق الأمر بالفحشاء، يغريك بالمعاصي، يزين لك المعاصي، يعدك بالفقر، يوسوس لك إذا أنفقت مالك تبقى فقيراً، ثماني آيات في كتاب الله تَعِدُ الذين ينفقون أموالهم بالتعويض الجزيل قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245))

(سورة البقرة)

وقال:

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39))

(سورة سبأ)

وقال:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (77))

(سورة النساء)

الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم في الصلاة واجبة:

إذاً:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ (98))

[سورة النحل]

إذا قرأته خارج الصلاة فهذا مندوب، أما إذا قرأته في الصلاة فهذا واجب، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يعوذ بالله من كل شيء، من دار يدخلها، ومن دابة يركبها، كان إذا ركب دابة يقول:

((أعوذ بالله، اللهم إني أسألك خير هذه الدابة، وخير ما خُلقت له، وأعوذ بك من شرها، وشر ما خلقت له.))

[ورد في الأثر]

الاستعاذة بالله من دابة، من بيت، من عمل لا يرضي الله عز وجل، من رفقاء السوء، من نزهة قد تكون فيها النهاية الوبيلة.

الإنسان المؤمن من علامة إيمانه أنه دائماً يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم أنْ يضله، أو أن يغريه، أو أن يفسده، أو أن يفتنه، أو أن يحمله على معصية، أو أن يوسوس له، أو أن يبعده عن أهل الحق، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

هناك معنيان للبسملة:

أما كلمة

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

فلها حديث طويل، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النمل:

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

(سورة النمل)

النبي عليه الصلاة والسلام من سنته المطهرة أنه كان يبدأ كل أفعاله ببسم الله الرحمن الرحيم، ونحن نرى على مقدمة الكتب بسم الله الرحمن الرحيم، وفي أكثر المجالات بسم الله الرحمن الرحيم، وأصبحت تقليداً، قد يكون الكتاب يتحدث عن نظرية داروين، ويبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، البسملة خلاف المضمون.

الموضوع في

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

أن هذه الباء حرف جر، أي أبدأ بسم الله، وأسماء الله كلها حسنى، الرحمن الرحيم، كأن الكلام ناقص، هناك فعل يتعلق بهذه الباء، يعني أبدأ عملي بسم الله، آكل بسم الله، أؤلف هذا الكتاب بسم الله، أصدر هذا الحكم كقاضي بسم الله، فما معنى بسم الله ؟

إذا أردت أن تأكل، وقلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

هناك معنيان لهذه البسملة:

1- المعنى الأول أن طعامك وشرابك وغير ذلك إنما هو من نعم الله عز وجل:

أن هذا الطعام الذي تأكله إنما هو من نعم الله عز وجل، فكل هذا الطعام باسم الرزاق، كل هذا الطعام باسم المغني، بسم المقيت، بسم المجيد، بسم الواهب، بسم اللطيف، بسم الله، الله كما قلت قبل قليل: اسم جامع لأسماء الله الحسنى، فإذا قلت: باسم الله فالبسملة بحسب الموضوع الذي أنت بصدده، فإذا أكلت، وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، يعني أنك آمنت بأن هذا الذي تأكله من صنع الله فهل فكرت في ذلك ؟ وأن الله سبحانه هو الرزاق، قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71))

(سورة يس)

إذا شربت كأس ماء وقلت بسم الله الرحمن الرحيم، هل فكرت في أن هذا الماء أصله شمس سُلطت على بحار شاسعة، فتبخر ماؤها، وتقطر، وأصبح بخاراً عالقاً في الجو، واجتمع سحباً ساقته الرياح إلى أرض عطشى، أنزله الله بفضله وبقدرته ماءً ثجاجاً أنبت به الزرع والزيتون، أودعه في الجبال، فجره ينابيع، أساله أنهاراً، فالشمس ساهمت في هذا الكأس، والمجرات، والأنواء، والمناخ، والرياح، والحرارة، والبرودة، والجبال، فإذا قلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

أي هل فكرت بسم الرزاق، باسم المعطي، باسم الواهب، باسم الغني،

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

يعني أشرب الكأس بسم الله الرحمن الرحيم.

2- المعنى الثاني أن لله في خلقه سنةً:

أن لله في خلقه سنةً، في شرب الماء إذا قلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

فلا ينبغي أن تشرب الماء خلاف السنة، أن تشربه مصاً، ولا تعبه عباً، أن تشربه على ثلاث مراحل، أن تشربه وتحمد الله عز وجل، أن تبعد الإناء عن فيك، ألا تتنفس في الإناء، هذه سنة النبي المطهرة، نهانا عن التنفس في الإناء.

الآن ثبت أن هناك أمراضاً تنتقل عدواها عن طريق الزفير الذي يختلط بالماء المشروب، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أبنْ القدح عن فيك.))

[رواه البيهقي وسمويه عن أبي سعيد الخدري]

بين الشربتين أبنْ القدح عن فيك، لئلا يختلط النَفَس بالماء، وكان عليه الصلاة والسلام قد قال:

((مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً، فإن الكباد من العب.))

[رواه ابن السني والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها]

مرض الكبد يأتي من عب الماء، وكان عليه الصلاة والسلام إذا شرب حمد الله وكل هذا من سنته المطهرة، إذا قلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

لها معنيان، الأول: هل فكرت في هذه النعم ؟ والثاني: هل أنت مطبق سنة رسول الله في شرب الماء ؟ هذا في الشرب.

على الإنسان أن يحمد الله ويشكره على نعمه في كل حركاته وسكناته:

في الطعام، قال تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ((31))

(سورة الأعراف)

كلوا واشكروا له:

((الحمد لله الذي أطعمني فأشبعني، وسقاني فأرواني.))

[أبو يعلى عن عبد الله بن قيس]

((إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها.))

[رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه]

ليرضى عن العبد، يعني إذا أكل الإنسان وشبع فليقل: الحمد لله، فإذا قلت: بسم الله فهذه التسمية تعني أنْ فَكّر في هذه النعم، وأنها من رزق الله تعالى، وطبق أمر الله في الطعام، وإذا دخلت البيت وقلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا (27))

(سورة النساء)

إذاً بيوتكم أولى بالسلام على مَن فيها، والنبي صلى الله عليه وسلم قال فيما معناه: إن الرجل إذا دخل بيته ولم يسلم على أهله قال الشيطان وجدنا المبيت، فيبيت الشيطان في المنزل، ويعيث فيه فساداً ما شاء له أن يعبث تلك الليلة، إذاً إن هذا أمر الله، وهو أن تسلم إذا دخلت المنزل، وإذا قلت: بسم الله، وفتحت باب المنزل، فلتقل أيضاً: الحمد لله الذي آواني، فكم من الناس من لا مأوى له، هل شعرت أن هذه نعمة، نعمة المأوى كبيرة جداً ؟ كم ممن لا مأوى له، في أكثر دول شرقي آسيا ينام الناس على الأرصفة، يتخذون بيوتاً قوارب في الأنهار، في بعض الدول الفقيرة تشاهد الآلاف ينامون هم وزوجاتهم وأولادهم على الرصيف، وصار ذلك منظراً مألوفاً جداً في بلادهم، فإذا كنت في بيت وفتحت باب البيت وقلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

فمعنى ذلك: الحمد لله الذي آواني، وتذكّرت كم من الناس مَن لا مأوى له.

بسم الله تجعلك على بصيرة من الأمر:

هل رأيت نعم الله عز وجل ؟ إذا فتحت الماء لتتوضأ، وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، هل عرفت أن هذه نعمة لا تُقدر بثمن، نعمة الماء داخل المنزل، الآن إذا دخلت إلى البيت وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، يعني:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (19))

(سورة النساء)

((أكرموا النساء فو الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً.))

[ورد في الأثر]

يعني البسملة، إذا قدت سيارتك وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، فليبادر ذهنك إلى أين أنت ذاهب ؟ هل أنت ذاهب إلى مكان لا يرضي الله عز جل، فيتناقض ذلك بين البسملة وبين هذا المكان، فتنثني عن ذهابك عندئذٍ وتعود إلى صوابك.

هل تشكر الله على نعمة المركب ؟ هل تسخرها لعباد الله ؟ هل تعين بها الضعيف ؟ هل تنقذ بها المريض ؟ القضية واسعة جداً، النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر.))

[أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة]

يعني: مقطوع الخير، ألّفت كتاباً، هل تذكر في الكتاب شيئاً باطلاً، فإذا كتبت في صدر صفحاته بسم الله، فإنك تدقق: هل هدفك من هذا التأليف خالص لوجه الله أم تبتغي به السمعة والرفعة، بسم الله تجعلك على بصيرة من الأمر.

العلماء حاروا في الفرق بين الرحمن والرحيم:

هذه البسملة تضعك أمام شيئين، تذكرك بنعم الله عز وجل، وأن هذا من نعمة الله، وتذكرك بأمر الله في هذا الموضوع، في الطعام، في الشراب، في دخول المنزل، في الخروج إلى السوق، وكان النبي الكريم يعوذ بالله من صفقة خاسرة إذا دخل السوق، ويمينٍ فاجرة، يقول لك البائع: الله وكيلك بعتُك برأسمالها، وهو يكذب، لقد باع دِينَه كله بكلمة واحدة، النبي كان يعوذ بالله من يمين فاجرة، ومن صفقة خاسرة، فإذا جمع الإنسان مالاً من حرام فإنّ الله عز وجل يريه أن هذه الصفقة فيها ربح وفير فيشتريها، ويكون إفلاسه عن طريقها، هذا الذي جمعه من حرام أذهبه الله في صفقة خاسرة، فإذا دخل الإنسان إلى السوق فهناك بسملة، إذا دخل بيته فهناك بسملة، إذا ركب في مركبة فهناك بسملة، إذا شرب الماء، إذا تناول الطعام، حتى إذا التقى مع أهله فهناك بسملة، لئلا تأتيك ذرية سيئة، بسم الله، فهذه الباء تعني التجئ وألوذ بسم الله، آكل بسم الله، أتزوج بسم الله، أدخل إلى بيتي بسم الله، دائماً هذه البسملة تذكرك بأسماء الله الحسنى، وتذكرك بأوامره المثلى،

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

وبعد فالحقيقة إن العلماء حاروا في الفرق بين الرحمن والرحيم.

قال بعضهم: الرحمن بخلقه جميعاً، والرحيم بالمؤمنين.

وقال بعضهم: الرحمن بجلائل النعم، والرحيم بدقائقها.

وقال بعضهم: الرحمن في الأولى، والرحيم في الآخرة.

وقال بعضهم: الرحمن في ذاته، والرحيم في أفعاله.

وهذا الأخير من أوجه التفسيرات، لأنك قد تلتقي بطبيب يرى مريضاً فيسرع إلى إنقاذه أمام ملأ من الناس، فإنقاذُ هذا المريض يكسب الطبيبَ سمعةً طيبة، فنقول: هذا الطبيب رحيم، لكن الطبيب لا ينطوي على رحمة في قلبه، بل فعَلَ هذا ابتغاء السمعة، فهو رحيم، لكنه لم ينطلق في عمله من رحمة في قلبه.

الرحمة الشيء الذي يرتاح له الإنسان فالله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا:

هناك فرق بين الرحمن والرحيم، الرحمن في ذاته، والرحيم في أفعاله، ذاته رحيمة، وأفعاله رحيمة، الرحمن الرحيم، والرحمة شيء يبعث الراحة في النفس، فالمطر من رحمته، تهطل الأمطار فتمتلئ الينابيع، وينبت النبات، وتثمر الأشجار، ونأكل، وترخص الأسعار، فهذا من رحمته، والأبناء من رحمته، يبدلون سكون البيت حركة وحياة، ويبعثون الأنس في البيت، وإذا كبر الابن يعين والديه، فالابن رحمة من الله، قال تعالى:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ (84))

(سورة الأنعام)

وهبنا له، فالرحمة كل شيء يرتاح له الإنسان، فأن تعمل هذه الأجهزة عملاً منتظماً فهو من رحمة الله، وأن تأكل طعاماً لذيذاً فهو من رحمة الله، وأن تشرب ماءً عذباً فراتاً فهو من رحمة الله، وأن تسكن إلى زوجة، تطيعك إذا أمرتها، وتسرك إذا نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، فهو من رحمة الله، وأن ترى طفلاً كالملاك يتحرك في البيت، فهو من رحمة الله، وإن كان لك عملٌ يدرُّ عليك دخلاً فهو من رحمة الله، وإذا ذهبت إلى بستان فمتعت النظر بجماله فهو من رحمة الله، وإذا هبت نسمات لطيفة عَطَّلت عمل المكيفات، وأوقفته فهو من رحمة الله، وإذا كان الدفء فهو من رحمة الله، فالرحمة الشيء الذي يرتاح له الإنسان، فالله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119))

(سورة هود)

ليرحمنا في الدنيا، ويرحمنا في الآخرة، أما أن يقول الإنسان: سبحان الله، خلقنا الله ليعذبنا، هذا كلام الشيطان، ما خُلقت يا أخي للعذاب بل خُلقت للرحمة، كي يسعدك في الدنيا والآخرة.

الله تعالى خلقنا ليرحمنا هذا هو الهدف الإلهي الكبير:

في الدنيا إذا آمنت بالله يمتعك إلى حين ويؤتي كل ذي فضل فضله، حتى في الدنيا فيها سعادة، وفيها سرور لمن أطاع الله عز وجل:

(مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (147))

(سورة النساء)

خلقنا ليرحمنا هذا هو الهدف الإلهي الكبير، ولكن العذاب الذي يعذبنا الله به من صنع أيدينا، من معاصينا، من ضلالنا، من انحرافنا، من طغياننا، مِن بُعْدِنا، ومن تقصيرنا، حتى الهمُّ يهتم له الإنسان إنه انعكاس لأعماله الزائغة. بعضهم قال: هذه البسملة ينبغي أن تدور مع الإنسان في كل نواحي حياته، وفي كل نشاطاته، إذا قام ليتوضأ، إذا دخل البيت، إذا قام ليأكل، إذا قام ليشرب، قمت لتأكل فقلت بسم الله الرحمن الرحيم، النبي أمرنا بالوضوء قبل الطعام، ووضوء الطعام ليس وضوءاً كاملاً، غسل اليدين والفم فقط:

((وبركة الطعام الوضوء قبله، والوضوء بعده.))

[أبو داود والترمذي عن سلمان]

أجمع العلماء على أن وضوء الطعام غير وضوء الصلاة، وضوء الطعام غسل اليدين والفم، كنت في الطريق، غبار، صافحت إنساناً، أمسكت بحذائك، يعني هذه اليد أمسكت بأشياء كثيرة، بركة الطعام الوضوء قبله، فلو قمت إلى الطعام فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، قف اذهب واغسل يديك وفمك، هذا معنى

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

تسمية الفاتحة بعدة أسماء:

قال تعالى:

(الحمد لله رب العالمين(2))

(سورة الفاتحة)

الآن نبدأ بالفاتحة، الفاتحة سماها النبي عليه الصلاة والسلام الصلاة، لقوله:

((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب.))

[متفق عليه عن عبادة بن الصامت]

شيء آخر سُميت الفاتحة بسورة الحمد لأنها مصدرة بالحمد لله رب العالمين، وسميت فاتحة الكتاب لأن القرآن الكريم افتتح بها، وسميت أم الكتاب، وأم الشيء أصله، ربنا عز وجل قال:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ (7))

(سورة آل عمران آية 7)

آيات الفاتحة كلها آيات محكمات، الفاتحة سماها النبي عليه الصلاة والسلام أم الكتاب، وسُميت أم القرآن، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الحمد لله أم القران وأم الكتاب والسبع المثاني.))

[الترمذي عن أبي هريرة]

سميت الشفاء، لأنه عليه الصلاة والسلام قال:

((في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء.))

[البيهقي عن عبد الله بن جابر]

سُميت الأساس، أساس الكتاب القرآن، يعني أساس الكتب السماوية القرآن، وأساس القرآن الفاتحة، وسُميت الوافية، وسميت الكافية، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أم القرآن عوض عن غيرها، وليس غيرها عوضاً عنها.))

[الحاكم عن عبادة بن الصامت]

وقد ورد في تفسير القرطبي: **" إن جميع القرآن فيها ".**

أذكر حديثاً روى عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ أنّ الله أنزل مئة كتاب وأربعة كتب، جمع سرّها في الأربعة، وجمع سرّ الأربعة في القرآن، وجمع سرّ القرآن في الفاتحة، وجمع سرّ الفاتحة في هاتين الكلمتين:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها.))

[مسلم عن أنس بن مالك]

الحمد على النعمة أفضل من النعمة نفسها:

سأتلو عليكم حديثاً شريفاً يبعث في أنفسكم الطمأنينة هو:

((الحمدُ على النعمة أمانٌ لزوالها.))

[الديلمي عن عمر]

أية نعمة تحمد الله عليها لن تزول، ولن تضيع، وأن تقول الحمد لله على النعمة أمان من زوالها، وهناك حديث دقيق جداً يقول الحسن: " ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها." كيف ؟

يعني إذا أعطاك الله نعمة الصحة، وكنت شديداً عتيداً قوياً نشيطاً كالحصان، لا بد من سنوات تمضي وتمضي حتى يأتي الأجل، ويموت الإنسان فأين هذه النعمة ؟ زالت، لكنك إذا حمدت الله عليها، وارتقت نفسك في مدارج الحمد، وسَمَتْ سعدت بحمدك إلى الأبد، إذاً الحمد على النعمة أفضل من النعمة نفسها قال الحسن: **"ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها ".**

لو أنك وهبت زوجةً صالحة، فأعانتك على متاعب الحياة، وحصنتك، وسكنت إليها، فلا بد من ساعة تفارقها، أو تفارقك، إما أن تفارقها أولاً، وإما أن تفارقك أولاً، لكنك إذا حمدت الله على نعمة الزوجة الصالحة فإنّ هذا الحمد تسعد بثوابه إلى أبد الآبدين.

الحمد لله على النعمة أمان من زوالها:

لذلك لقي أحدُهم شريحاً القاضي، فقال: يا شريح كيف حالك في بيتك ؟ قال: منذ عشرين سنة لم أجد ما ينغص حياتي، أو يعكر صفائي، قال: وكيف ذلك ؟ قال: خطبت امرأة من أسرةً صالحة، فلما خلوت بها، صليت ركعتين شكراً لله على نعمة الزوجة الصالحة، فلما سلمت وجدتها تصلي بصلاتي، وتسلم بسلامي، وتشكر بشكري، فلما دنوت منها قالت: على رسلك يا أبا أمية، إني امرأة غريبة، لا أعرف ما تحب، ولا ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أمية لقد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله، فاتق الله فيّ، وامتثل قوله تعالى:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229))

(سورة البقرة)

قال: ثم قعدتْ، يعني هذه الزوجة الصالحة تنتظر ردّ زوجها، ذكرت هذه القصة للإفادة مما فيها من عِبر، فالقاضي شريح، حينما دخل على زوجته الصالحة صلى ركعتين صلاة الشكر، إذاً الحمد على النعمة أمان من زوالها، أية نعمة، نعمة الصحة لن تزول، يمتعك الله بسمعك، وبصرك، وعقلك، وقوتك ما أحياك، هل تغض الطرف عن محارم الله هذه العين لن تُفجع بها، هل تمسك أذنك عن سماع أي صوت لا يرضي الله، هذه الأذن لن تفجع بها، هل ينطق لسانك بالحق، ولا ينطق بالباطل، هذا اللسان لن تُفجع به، هذه الذاكرة، تستخدمها لماذا ؟ بالحق أم بالباطل ؟ إن استخدمتها في حفظ كتاب الله، وحفظ أحكام الله، وحفظ الأحاديث الشريفة، فإن الله سبحانه وتعالى لن يفجعك بها، وهذه اليد، وهذه القوة وغير ذلك من النعم، فالحمد لله على النعمة أمان من زوالها.

كلمة الحمد لله أفضل عند الله من الدنيا وما فيها:

قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ))

[ابن ماجة عن أنس بن مالك]

العبد ماذا أعطي ؟ هذه الكلمة، كلمة الحمد لله، هذه الكلمة التي أعطاها العبد لربه أفضل عند الله مما أخذ، لو أخذ بيتاً ثمنه خمسة ملايين، وقال: يا رب لك الحمد، فكلمة الحمد لله أفضل عند الله من هذا البيت، لأن هذا البيت مصيره إلى الخراب، لكن هذا الحمد يسعد به الإنسان إلى الأبد، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك كله.))

[الديلمي وابن عساكر وابن النجار عن أنس]

الدنيا بحذافيرها يعني بيوتها الفخمة، وبساتينها النضرة، ومالها الوفير، ونساءها الجميلات، ومراكبها الفخمة، كلمة الحمد لله يعني أنك تعرف الله، وإذا عرفته عرفت كل شيء وإذا فتّه فاتك كل شيء، لو أن الدنيا بحذافيرها بيدك وقلت: الحمد لله، فكلمة الحمد لله أفضل عند الله من الدنيا وما فيها.

لذلك العلماء حاروا أيهما أفضل، الحمد لله، أم لا إله إلا الله ؟ هناك أقوال تقول: إن الحمد لله أفضل، وبعضهم قال: لا إله إلا الله أفضل، لكن كلمة الحمد لله هي الحمد الأولى في كتاب الله تبارك:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3))

(سورة الفاتحة)

أما الحمد، لمَ لم يقل الله عز وجل حمداً لله رب العالمين، بل قال سبحانه: الحمد لله ؟ قالوا: هذه الألف واللام لاستغراق الحمد كله، يعني الحمد كله بحذافيره كله، وجزؤه ـ مهما كان حجمه ـ صغيره وكبيره لله عز وجل.

أرحم الخلق بالخلق النبي عليه الصلاة والسلام:

لا يوجد جهة أخرى تستحق الحمد إلا الله، أبداً، أصغ سمعك إلى قول ربنا عز وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أرحم الخلق بالخلق، لو جمعت رحمة أمهات الأرض منذ آدم إلى يوم القيامة لا تعادل رحمة النبي بأمته، قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

(سورة التوبة)

((أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمر الله عمر...))

[أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن أنس]

أما أرحم الخلق بالخلق النبي عليه الصلاة والسلام، يعني أرحم بك من نفسك، ومع ذلك قال الله عز وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

الرحمة كلها من الله والنبي عليه الصلاة والسلام أوتي طرفاً منها:

قال ربنا عز وجل:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (58))

(سورة الكهف)

ما الفرق بين "رحمة" المُنكَرة في آية آل عمران، و"الرحمة" المُعرَّفة في آية سورة الكهف ؟ قال هذه الرحمة الثانية، هذه ليست أل التعريف، إنما للاستغراق، يعني الرحمة كلها من الله، والنبي عليه الصلاة والسلام أوتي طرفاً منها.

الآن الحمد كله لله، ذكرت قصة قبل شهر أو أكثر أن الحَجَّاج أمر بضرب أعناق عشرة رجال، فأذن المغرب، وبقي رجل لم تضرب عنقه، فقال لأحد وزرائه: خذه إلى بيتك وائت به غداً، هذا الرجل في الطريق قال له: والله لم أخرج على طاعة الأمير، وما آذيتُ أحداً من المسلمين، فهل تأذن لي أن أذهب لأهلي فأوصي قبل أن أموت وأرى أولادي، واكتب وصيتي، فضحك هذا الوزير وقال: أو مجنون أنا ! فقال: عهداً لله إن أطلقتني لأعودَنَّ إلى بيتك قبل الفجر، فما زال هذا الرجل يقنعه حتى سمح له، فلما سمح له شعر بضيق لا يُحتمل، قال: نمتُ أطول ليلة في حياتي، لأنه سيموت مكانه غداً ـ مكان الرجل ـ إن لم يرجع، ما إن أذن الفجر حتى طُرق الباب، وجاء هذا الرجل الذي عاهده على أن يعود، جاء ليموت، فلما كان الغد ذهب به إلى الحجاج فقال له: سأنبئك بما حصل البارحة، فلما أنبأه قال له الحجاج: أتحب أن أهبه لك، قال: نعم، قال: إذاً هو لك، يعني ما دام عنده هذا الوفاء عَفَوْنا عنه، فلما خرج قال له: يا هذا اذهب لوجهك، فهذا الذي عُفي عنه لم يتكلم، ولم ينظر إليه، ولم يشكره، ولم يقل كلمة، إلا أنه توجه إلى السماء، وقال: الحمد لله.

هذا الذي سعى بإطلاق سراحه وتخليصه من الموت المحتم تألم ! لو أنه شكرني، قال: ثم جاءه بعد ثلاثة أيام و قال: أحمدك على عملك، ولكنك حين قلت لي: اذهب لوجهك كرهت أن أحمد مع الله أحداً.

الحمد لله رب العالمين أساس معرفة العبد بربه:

الإنسان أحياناً يلوح له شبح مصيبة، كأن يصاب بورم لم يعرف أهو خبيث أم غير خبيث ؟ أجرى تحليلاً، فإذا هو ورم طبيعي، أول شيء عليه أن يقول: الحمد لله رب العالمين، ولا تحمد مع الله أحداً.

هناك التهاب في السحايا على وشك الوفاة مع الابن الأصغر، فنجا من الموت بتوفيق الله وقدرته، لا تقل: واللهِ إنّ الطبيب لا يفهم، قال لي: اجرِ تحليلاً في وقت مبكر قل: الحمد لله رب العالمين، فلذلك الحمد لله رب العالمين أساس معرفة العبد بربه، هناك حديث دقيق جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده.))

[عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عمرو]

قال بعضهم: الحمد حالة نفسية، والشكر سلوك، فليس هناك سلوك شاكر إلا على أساس حالة حمد، فإذا لم يكن عند الإنسان حالة حمد فسلوكه باطل، وهو في حالة نفاق ومداهنة:

((الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده.))

[عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عمرو]

الحمد أولاً والشكر ثانياً، قال تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ داود شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13))

(سورة سبأ)

الشكر عمل

(اعْمَلُوا آلَ داود شُكْراً)

أما الحمد فهو حالة نفسية، أحياناً يقدم لك إنسان خدمة تحس أنك ممتن من أعماقك منه، تعبر عن الامتنان أحياناً بخدمة، أحياناً بكلمة طيبة، أحياناً بقولك جزاك الله عني كل خير، ولكن هذا الكلام أو هذه الخدمة أساسها حالة نفسية شعرت بها هذا هو الحمد.

نعمة الرضا أكمل نعمة:

أنت في الصلاة تصلي الفرض، الفروض فقط في اليوم سبعة عشر ركعة، ومثلها سنن، يعني تقول: الحمد لله في الصلاة حوالي أربعين مرة، هل أنت في مستوى هذه الآية ؟ يعني راض عن الله عز وجل، راض عن صحتك، عن دخلك، عن ضيقك، عن عملك، راضٍ وأنت من أصحاب الدخل المحدود، أم ترى نفسك دائماً أنك محروم، إذا كان دخل الرجل محدوداً مثلاً يقضي عمره كله غير راضٍ، بينما يجد بائع فلافل دخله خمسة آلاف وهو أميّ، يقول صاحب الدخل المحدود: أنا حائز على شهادة ليسانس، ودخلي فقط ألف ومائتان بالشهر تقريباً، فهو دائماً غير راضٍ، أما إذا كان مؤمناً وقال: الحمد لله رب العالمين، فليس عنده حرمان أبداً، إن نعمة الرضا أكمل نعمة، لو جاءك مئة مليون في الشهر وأنت على ضلال فالنهاية إلى جهنم، أما المؤمن فكلمة الحمد لله رب العالمين تدل على أنه راضٍ عن الله عز وجل: يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ قال: يا عبدي هل أنت راض عني حتى أرضى عنك.

هل أنت راض عن الله عز وجل ؟ هل تقول الحمد لله من أعماقك، من أعماق أعماقك ؟ أراضٍ، وليس عندك إلا بنات فقط، وليس عندك ولا ذكر واحد، فهل أنت راضٍ ؟ هل رأيت حكمة الله عز

وجل أنه يحبك على هذا، ليس عندك أولاد إطلاقاً، بل عقيم راض عن الله عز وجل، عندك زوجة سيئة الخلق، فهل أنت راض بها ؟ هل ترى أن الله شاءت حكمته أن تكون كذلك ؟ لك عمل محدود دخله، أنت في مرض عضال مزمن بشكل مستمر تعاني من بعض الأمراض هل تقول الحمد لله رب العالمين ؟ هذه البطولة.

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتق الله البطل

***

الحمد لله في السراء والضراء ، في الغنى والفقر ، في القوة والضعف ، في إقبال الدنيا وإدبارها ، في الرفعة والضعة ، في العز والذل ، الحمد لله على كل حال ، الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه ، المكروه نعمة ، لكنه نعمة باطنة .

الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نحمده وألا نحمد أحداً معه :

الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نحمده ، وأمرنا ألا نحمد أحداً معه كيف ؟ قال تعالى :

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32))

(سورة النجم)

مثلاً نراك تحاضر محاضراتٍ كثيرة عن زيد وعبيد ، وقد تكون مجانباً الحق في كثير مما تحاضر ، إذاً فإنه لا يستحق الحمد إلا الله ، وإذا سئلت تقول : الله أعلم بحاله ذلك علمي به ، وعن الصديق تقول : ذلك علمي به ، فإن بدل وغير فلا أعلم الغيب ، لم اختار سيدنا أبو بكر سيدنا عمر ؟ ألم يقل : لا أعلم من هو خير منه ؟ وقال : ذلك علمي به فإن بدل وغيّر فلا أعلم الغيب ، الله قال :

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32))

(سورة النجم)

هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله ، كان النبي عليه الصلاة والسلام عند صحابي متوفى ، كشف عن وجهه فقبله ، سمع امرأة تقول :

((هنيئاً لك أبا السائب الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك يا أم معاذ ؟ أما هو فقد جاءه اليقين ولا نعلم إلا خيراً .))

[الطبراني عن سالم أبى النضر]

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32))

(سورة النجم)

الحمد أنواع وقد جُمع كل هذا في الفاتحة :

لذلك الحمد لله وحده ، أما البشر فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ، كانوا قديماً إذا كلفوا إنساناً ليزكي إنساناً آخر لزواج أو لشهادة يكتب : أعلم منه الصلاح والتقى ، والله أعلم ، معنى والله أعلم قد يكون غير ذلك ، قد يكون منافقاً ، والله أعلم ، فالإنسان ليس مكلفاً ليقيّم الآخرين ، وليس أهلاً لذلك ، ولا يملك الأداة الصحيحة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((احثوا في وجه المداحين التراب .))

[رواه ابن عياش عن عبد الله بن عمرو]

((إن الله يغضب إذا مدح الفاسق في الأرض .))

(البيهقي عن أنس رضي الله عنه)

مثلاً رجل يشرب الخمر تقول عنه : أكابر ، أخلاقه عالية ، لبق جداً ، ما معنى قولك لبق جداً ؟ أيُّ لباقة هذه على شرب الخمر ، وعلى ترك الصلاة ؟ فهذا الذي يقوله الناس عن بعض الناس رغم شربهم للخمر ، ورغم تركهم للصلاة ، ورغم أكلهم للربا ، إنّ أخلاقه عالية ، لبق ، هذا كلام باطل :

((إن الله يغضب إذا مدح الفاسق في الأرض .))

(البيهقي عن أنس رضي الله عنه)

العلماء قالوا : هناك حمد لذات الله ، وهناك حمد له لنعمة سبقت منه ، وهناك حمد له لنعمة ترجوها منه ، وهناك حمد له خوفاً منه ، إذاً الحمد أنواع ، وقد جُمع كل هذا في الفاتحة .

الحمد لله لذاته ، فالإنسان أحياناً تحمده من دون أن يصيبك من خيره شيء ، وقف موقفاً أخلاقياً أمامك من شخص آخر ، هذا الموقف الأخلاقي تحمده عليه ، مع أنك لست معنياً بهذا الموقف ، وقد ينعم عليه فتحمده ، الحمد لله لذاته ، رب العالمين لنعمه ، الرحمن الرحيم لما نطمع من رحمته ، مالك يوم الدين خوفاً منه .

الحمد في بادئ الأمر إنشاء وفي نهاية الأمر واقع ثابت :

بعضهم قال : ربنا عز وجل بدأ قرآنه الكريم بالحمد لله رب العالمين ، وآخر كلمة يقولها الناس وهم يدخلون الجنة :

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

(سورة يونس)

أمَرنا أن ننشئ الحمد كما هو الحال في الفاتحة ، وفي نهاية الحياة كان الحمد واقعاً كما في آية سورة يونس السابقة ، أحياناً يقول لك أحد الناس : اشكرني ، ويعاملك معاملة سوء ، أي شكر هذا ؟

أساء لك المعاملة ، ويطلب منك أن تحمده ، لكن ربنا عز وجل أمرك أن تحمده وبعد أن اتصلت به، وسعدت بقربه تحمده ، تحمده على نعمه التي وقعت ، إذاً الحمد في بادئ الأمر إنشاء ، وفي نهاية الأمر واقع ثابت .

شيء آخر ، الحمد لله على أنه أوجدنا ، والحمد لله على أنه بث فينا الروح ، والحمد لله على أنه أمدنا بالطعام ، والشراب ، وكل ما نحتاج ، والحمد لله على أنه قومنا ، الأمراض ، والهموم ، والمتاعب ، والأحزان ، هذه كلها ألفاظ خفية من أجل التقويم ، هناك نعمة الإيجاد ، ونعمة الخلق ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الرزق ، ونعمة الحياة الروحية ، ونعمة الهدى ، ونعمة التقويم .

نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى ، ونعمة التقويم أربع نعم كبرى .

الله سبحانه وتعالى شعر بعجزنا عن حمده فعلمنا كيف نحمده :

هناك شيء آخر ، الحمد لله على ما أعطى ، أن تعرف أن هذه النعمة من الله عز وجل ، أن تعرف من أعطاك ، وأن ترضى بما أعطاك ، وألا تعصي الله فيما أعطاك ، هذا من معاني الحمد ، آخر شيء في الحمد ، مع أن هذه الآية تنقضي الأيام ، ولا ينقضي شرحها ، ولكنّ أخذَ القليل خيرٌ من تركِ الكثير :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(1))

(سورة الأنعام)

وقال :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1))

(سورة الكهف)

إنّ نعمة الهدى كما في آية الكهف تعادل نعمة الخلق كما في آية الأنعام ، والحمد لله الذي له ما في السماوات والأرض ولم يكن لغيره ، إن الإنسان لئيم ، فلو كان الأمر والخلق لغيره لمُنع الناس القطر ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا أن نحمده الحمد لله الذي له ما في السماوات والأرض .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قالوا : جمعت هذه الآية نعمة الهدى ، ونعمة الإمداد ، وأكبر نعمة هي أن الله سبحانه وتعالى علمنا كيف نحمده :

((قال موسى : يا رب كيف شكرك ابن آدم ؟ فقال : علم أن ذلك مني فكان ذلك شكره .))

[الحكيم عن الحسن مرسلا]

نحمد الله بطريقة علمنا إياها الله سبحانه وتعالى ، شعر بعجزنا عن حمده فعلمنا كيف نحمده .

الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين :

كلمة الحمد لله يقولها الناس في اليوم آلاف المرات ، كيف حالك ؟ يكون ملحداً ويقول : الحمد لله ، وهي من فلتات اللسان عنده ، لكن إذا وقفت على معانيها تماماً تذوب محبة لله على كل شيء ، فإذا كان فهمك عميقاً جداً تحمده على المصيبة :

((إذا أحب الله عبده ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضي اصطفاه .))

[ورد في الأثر]

تعاني من مصيبة مزعجة ، ولعلمك برحمة الله ، وحكمته ، ولطفه ، وحرصه على هدايتك ، وحرصه على إسعادك ، ففي أثناء المصيبة تقول : الحمد لله رب العالمين على هذه المصيبة ، إنها عناية من الله ، وأحياناً يقسو المعلم على تلميذه كي يكون الأول في الصف ، فإذا صار الأول يحمده على قسوته لا على جوائزه ، نعم بحمده على قسوته ، كذلك إذا عرفت الله حق المعرفة تحمده على المصائب ، قال سيدنا علي كرم الله وجهه : " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين " .

أعلى درجة في اليقين برحمة الله أن ترضى بمكروه القضاء ، القضاء الذي لا تحبه ، الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ، والحمد لله تعني معرفة الله ، علامة أنك تعرفه ، وأنك تحمده، تعرفه فتحمده ، أما إذا كنت لا تعرفه فلا تحمده .

التفسير المطول - سورة الفاتحة - 001 - الدرس (2-2) : تفسير الآيات 2-2 ، الحمد والتوحيد لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-09-13

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد حالة نفسية مبنية على معرفة بفضل الله عز وجل:

أيها الأخوة المؤمنون لا زلنا في سورة الفاتحة، وفي الدرس الماضي وضحت بتوفيق الله عز وجل معنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ومعنى بسم الله الرحمن الرحيم، وشرحنا طرفاً من قوله تعالى الحمد لله رب العالمين، كلمة الحمد كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الحمد رأس الشكر ما شكر اللهَ عبدٌ لا يحمده.))

[عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عمرو]

الحمد حالة نفسية مبنية على معرفة بفضل الله عز وجل، فالكلمة الأولى في الإسلام "الحمد لله"، "الحمد لله" على إيجادنا، فأول نعمة هي نعمة الإيجاد، فلان الفلاني ابن فلان وُلِد في دمشق عام كذا، من أخرجك إلى هذا الوجود، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

(سورة الإنسان)

إذا ولدت عام ثمانية وثلاثين فأين كنت عام ستة وثلاثين ؟ إذا وقع تحت يديك كتاب طُبع عام ثلاثين أين كنت حينما طُبع هذا الكتاب ؟ لم تكن شيئاً مذكوراً، "الحمد لله" على نعمة الإيجاد، و"الحمد لله" على نعمة الإمداد، أمدنا بكل ما نحتاج، و"الحمد لله" على نعمة الإرشاد، الإيجاد، والإمداد، والإرشاد، قال تعالى:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7))

(سورة الحجرات)

الحمد مقياس للقرب من الله عز وجل:

كلمة "الحمد لله" إحدى أكبر شعارات المؤمن، "الحمد لله" على السراء وعلى الضراء، على الصحة وعلى المرض، على إقبال الدنيا وعلى إدبارها، على الغنى وعلى الفقر، على الزواج، وقبل الزواج، وبعد الزواج، "الحمد لله" تعني أنك تعرف أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، هو على كل شيء قدير، فإذا حرمك من شيء فهذا حرمان معالجة لا حرمان عجز، "الحمد لله" تعني أن الذي خلقك يحبك، يحبك أكثر مما تحب نفسك لذلك يعالجك ولولا المعالجة لما اهتديت.

موضوع "الحمد لله" موضوع واسع جداً، لكن علماء البلاغة قالوا: الحمد مسلَّم به، لكن لمن ؟ ربنا قال: لله، كلمة الحمد تقتضي وجود نِعَم، والنِّعم ظاهرة لا ينكرها جاحد، حتى الذي ينكر وجود الله لا ينكر النعم، يقول لك: الطبيعة، استثمار المياه في الطبيعة، استثمار الخيرات، تحسين النسل، هذه موضوعات يعالجها الكفرة أيضاً، فالنعم لا ينكرها أحد، حتى الذين أنكروا وجود الله عز وجل لا يستطيعون إنكار النعم، الهواء، الماء، الطعام، الشراب، النبات، الأسماك، الأطيار، الأزهار، هذه الشروط الدقيقة جداً التي خلقها الله عز وجل موافقةً لطبيعتنا، هذه نِعم لا ينكرها أحد، ولكن المشكلة في الآية أن الحمدَ لله فقط، أما أهل الدنيا فإنهم يحمدُ بعضهم بعضاً ويشكرُ بعضهم بعضاً.

"الحمد لله" ؛ فصار الحمد أمراً مؤكداً لا يمكن أن تحمد الله إلا إذا عرفته، وقبل أن تعرفه لا تحمده، بل تحمد أنداداً له، تحمد شركاء تظنهم شركاءه، فالحمد تقتضي المعرفة، لذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سُمي محمداً لأنه أحمد الخلق قاطبةً، ما من مخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى حمده أكثر منه عليه الصلاة والسلام، كأن الحمد مقياس للقرب من الله عز وجل، سيد الحامدين هو سيد الخلق، فاسم أحمد، ومحمد، وحامد، هذه كلها من الحمد، والله سبحانه وتعالى خلق لنا النِّعم، وعلمنا كيف نحمده عليها، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، كيف أثنى الله على نفسه ؟ بقوله تعالى:

(الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

لذلك فإن النبي الكريم قال:

((عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له.))

[مسلم عن صهيب]

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن حالة الحمد التي يعيشها المؤمن:

((كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا أتاه الأمر يسره قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد لله على كل حال.))

[البيهقي عن عائشة]

إذا أردت فرقاً أساسياً بين المؤمن وغير المؤمن لا أقول: كلمة الحمد التي يقولها الناس جميعاً، بل حالة الحمد، المؤمن يعيش حالةً دائمةً من الحمد لله عز وجل، فهو شاكر، جاء من أسرة فقيرة "الحمد لله"، رزقه الله زوجة ليست صالحة، كيف يفهم هذا الأمر ؟ يفهم هذا الأمر أن الله سبحانه وتعالى رزقه هذه الزوجة ليصلحها، ويكسب بها أجراً عند الله كبيراً، رزقه الله أولاداً ذكوراً "الحمد لله"، وإن رزقه إناثاً "الحمد لله"، ذكوراً وإناثاً "الحمد لله"، جعله الله عقيماً "الحمد لله"، له وظيفة متعبة "الحمد لله"، مريحة "الحمد لله"، دخلها قليل "الحمد لله"، كبير "الحمد لله"، ولكن هناك نقطة

دقيقة جداً، إياكم أن تفهموا من هذا الكلام أنه في أي وضع تحمد الله عليه ولا تحاول تحسين هذا الوضع، لا، هذا يتنافى مع أخلاق المؤمن، هو يحاول تحسين وضعه المادي، يحاول تحسين وضعه العلمي، يحاول رفع مستواه في كل الميادين، فإذا بذل كل طاقته، ووصل إلى هذا المستوى، وليس في إمكانه أن يتجاوزه فيقول: "الحمد لله"، هنا "الحمد لله".

قدم طالبٌ امتحاناً ولم ينجح "الحمد لله"، إذا كنت باذلاً جهدك كله فقل "الحمد لله"، لكن إذا ما درست فهذا جزاء التقصير، ليس له علاقة بالحمد، هذا جزاء التقصير، عندما يبذل الإنسان كل جهده، ولا يُحقق مطلبه عندئذ "الحمد لله" على كل حال.

كأني أقول: إن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، لا أقول كلمة الحمد، بل حالة الحمد التي يحياها، المؤمن لِمَ يحمد الله ؟ لأن الله بيده كل شيء، لا إله إلا الله، وهو الغني، لم تهطل أمطار "الحمد لله"، وهو القدير على كل شيء، ليس لله عز وجل أندادٌ يمنعونه من أي تصرفٍ، صغيراً كان أم كبيراً، وهو الغني والقدير.

النعم لا ينكرها أحد ولكن المشكلة في أن هذه النعم تُعزى لغير الله:

أنت تعمل في دائرة مثلاً، المعلومات تصل إلى من هو فوقك غير صحيحة، يثنى على المقصر، ويذم المجتهد، أما العلم الصحيح فهو عند الله، لأنه سبحانه عليم، هو الغني، هو القدير، هو العليم، هو السميع، وهو القريب، تكلمت أم لم تتكلم يعلم السر وأخفى، لماذا "الحمد لله" ؟ لأنه لا إله إلا الله أولاً، لا إله إلا الله الغني،

قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21))

(سورة الحجر)

إله إلا الله القدير، هو الواحد القهار، والله يحكم لا معقب لحكمه، القاضي مثلاً يحكم في قضية ثم ترفع إلى قاض آخر أعلى منه فينقض حكمه، لكن الله سبحانه يحكم لا معقب لحكمه، "الحمد لله" لأنه لا إله إلا الله، و"الحمد لله" لأنه غني، و"الحمد لله" لأنه قوي، و"الحمد لله" لأنه سميع، و"الحمد لله" لأنه بصير، و"الحمد لله" لأنه عليم، و"الحمد لله" لأنه رحيم، فلمَ لا تحمد الله عز وجل ؟

الحقيقة إذا عرفت أسماء الله فلا تحزن أبداً على أي حال كنت، لأنك لا ترى إلا حكمة بالغةً في تصرفات الله عز وجل، فالآية في مبدئها تشير إلى أن النعم التي أسبغها الله علينا ظاهرة، وجلية، وواضحة، وناصعة، وهي كالشمس، لا يستطيع أحد على ظهر الأرض أن ينكرها، ولكن المشكلة أن هذه النعم تُعزى لغير الله، جاء قوله تعالى:

(الحَمْدُ لِلَّهِ (2))

((إن الجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلي العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي)).

[الجامع الصغير عن أبي الدرداء بسند ضعيف]

النعم لا ينكرها أحد، ولكن المشكلة في أن هذه النعم تُعزى لغير الله:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106))

(سورة يوسف)

المؤمن كلما تفتحت بصيرته يرى أن كل من يقدم له خدمةً في الحياة إنما هي بفضل الله:

قد يرى بعضهم أن فلاناً الفلاني بيده نفعه وضره، هذا إشراك، قد يرى أن هذه الزوجة ملجأ له وملاذ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى جعلها سكناً لك، ولولا أن الله سبحانه وتعالى ألقى في قلبها محبتك، أو ألقى في قلبها رجاءك لَمَا خدمتك، فالمؤمن كلما تفتحت بصيرته يرى أن كل من يقدم له خدمةً في الحياة إنما هي بفضل الله، وبإذن الله، والحمد لله وحده، فلذلك نعمة الصحة نعمة كبرى، وليس العجب أن يمرض الإنسان، بل العجب ألا يمرض، لأن هناك آلاف الآلاف من الشروط التي تتوافر جميعها كي تقول صباحاً: "الحمد لله رب العالمين"، الأجهزة لديك تعمل، جهاز الهضم، بدءاً من الفم، إلى اللعاب، إلى البلعوم، إلى لسان المزمار، إلى المريء، إلى المعدة، إلى البنكرياس، إلى الإثني عشر، خلايا الامتصاص في الأمعاء الدقيقة، الأمعاء الغليظة، جهاز التصفية البولية إلى الكليتين، جهاز القلب إلى الرئتين، العضلات، العظام، الجلد، هذا كله يعمل بانتظام، الجهاز الودي النظير، الجهاز العصبي، الجهاز الهرموني، الغدة النخامية، الغدة الدرقية، غدة الكظر، البنكرياس كله يعمل بانتظام، "الحمد لله"، هذه معجزة، أن تستيقظ صباحاً وتحس أنك بصحة تامة "الحمد لله".

أكلت طعاماً، مَن خَلَقه ؟ من سخره ؟ من جعله مناسباً لنا ؟ طعماً، ولوناً، ورائحةً، وقواماً، ومضموناً، وغذاءً، من نَوَّع هذه الأغذية ؟ البروتينات، والفيتامينات، والسكريات، والمواد الدسمة، من وزعها على هذا الطعام الذي بين أيدينا ؟ إذا أكلت لقمة خبز فمن خلق القمح ؟ الأرض، والقمر، والشمس، والبحار اشتركت في صنع هذا الرغيف، إن شربت كأس ماء من سخره لك ؟ إن لترَ الماء المحلى في دول النفط يكلف ثلاثة ريالات، أيْ عشر ليرات سورية تقريباً، هذا الينبوع ينبوع عين الفيجة الذي سخره الله لنا، والذي بلغني مؤخراً أن حوضه الجيولوجي يمتد إلى حدود كبيرة جداً، من سخره لنا ماءً عذباً فراتاً ؟ "الحمد لله" على كأس الماء، "الحمد لله" على رغيف الخبز، "الحمد لله" على هذه التفاحة التي تأكلها، إياك أن تظن أنك دفعت ثمنها لا، دفعت ثمن خدمتها، لو اجتمع أهل الأرض لا يستطيعون صنع تفاحة واحدة، من جعل هذه الكميات بكميات معقولة، لو كان

التفاح قليلاً جداً لكان ثمن الكيلو مئتي ليرة، من يأكله إذاً ؟ من الذي عمل تناسباً بين الإنسان ومتطلباته ؟ لو أن الدجاجة تبيض في السنة بيضة لكان ثمنها ألف ليرة، أما إذا كانت تبيض كل يوم بيضة فثمنها نصف ليرة هذه معقولة، إذاً "الحمد لله"، الحليب، البيض، الجبن، اللحوم، هذه كلها من نعم الله، فهذه النعم لا يستطيع أحد أن ينكرها، لكن المشكلة في أن أهل الأرض معظمهم يعزونها إلى غير الله فجاء قوله تعالى:

(الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

"الحمد لله" كلمة تعني الله المسير:

كلما تعمقت في الإيمان بالحركة تحمده بالسكون، فإذا نظرت إلى ابنك قلت: "الحمد لله"، من جعله بهذه الصورة الحسنة، إذا نظرت إلى زوجتك، أو دخلت إلى بيتك، وأشعلت المدفئة، وأدرت المروحة، من سخر هذه القوى ؟ من أودع في الأرض هذه المادة التي تُسمى الطاقة، وعن طريقها تولدت الكهرباء ؟ "الحمد لله".

"الحمد لله" كلمة تعني الله المسير، هناك خالق ورب وإله، فالخالق الذي خلق، والرب هو الممد، والإله هو المسير، وتقريباً لأذهانكم أقول: هذه السيارة لها معمل صنعها، وتحتاج إلى إمداد مستمر بالزيت والوقود، وما إلى ذلك، وتحتاج إلى من يقودها، فالذي يسيرها اسمه المسيِّر، والذي يمدها اسمه الرب، والذي صنعها اسمه الخالق، فإذاً "الحمد لله" لأن أمورك جميعها، صغيرها وكبيرها، عظيمها وحقيرها، دقيقها وكبيرها، بيد الله عز وجل، إليه يُرجع الأمر كله، هذا هو التوحيد.

إذا كنت تريد أن تلخص الإسلام في كلمات ففي كلمة " لا إله إلا الله"، وكلمة "الحمد لله" هو كل شيء، ويحمد على كل شيء، وهو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، يحمد على كل شيء، و"الحمد لله" الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

ما من حادث يقع، ما من مصيبة تقع، ما من فقر ينزل بإنسان، ما من مرض يلحق بجسم إنسان إلا بأمر الله، قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22))

(سورة الحديد)

وقال:

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166))

(سورة آل عمران)

هذا هو التوحيد، وهذا هو الحمد، وكأنني بهذه الآية أدرك أن عبارة "الحمد لله" جمعت لا إله إلا الله والحمد لله.

الدين كله توحيد وحمد:

"الحمد لله" جمعت التوحيد والحمد، وهذا هو الدين كله، توحيد وحمد، وبعد النظر إلى المشركين تجد الشركَ وسخطَ الكافر السماتِ العميقة بتفكيره وتصرفاته، أول شيء لديه الشرك، فلان، وفلان، وفلان، يرجو فلاناً، يخاف فلاناً، يتمنى رضاء فلان، يحسب لفلان حساباً، يعيش بدوامة الشرك، قلبه فارغ، يكاد ينفطر خوفاً من فلان، يكاد يذوب حباً بفلان، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً.))

[البخاري والبيهقي عن ابن عباس]

ليس هناك إنسان أحبَّ إنساناً على وجه الأرض كحبِّ سيدنا أبي بكر لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك "الحمد لله"، من سخر هذا الصديق لهذا النبي العظيم ؟ الله عز وجل، لو خُلِق الصِّديق عام ألف وخمسمئة وخمسين لما التقى معه، من جعله بعصره ؟ الله عز وجل، إذاً الحمد لله رب العالمين.

نسأل كل واحد منا: من جمعك بهذه الزوجة ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذي قدَّر وجمع، من رزقك هؤلاء الأولاد ؟ الله سبحانه وتعالى، من أعطاك هذا الذكاء فحصلت، وأصبحت لك خبرات ترتزق منها؟ الله سبحانه وتعالى، طبيب، محامٍ، مهندس، مدرس، خبير ببعض الحاجات، بيده مصلحة بأعلى مستوى تدر عليه أرباحاً طائلة، "الحمد لله"، لو أن نقطة دم كرأس الدبوس تجمدت في أحد شرايين الدماغ لفقدت كل ذاكرتك وخبراتك.

الكافر دائماً ساخط على كل شيء ويشك في حكمة الله:

فلان خبير بهذه المصلحة، عمله نظيف جداً، حتى تتمكن من إنجاز عمل عنده تحتاج إلى شهرين، الفضل لمن ؟ لله عز وجل، إن كنت طبيباً ناجحاً، أو مدرساً ناجحاً، أو تاجراً ناجحاً، أو صاحب معمل ناجحاً، أو كان عندك مشروع زراعي ناجحٌ، أو كنت أباً ناجحاً أو كنت موفقاً في زواجك فـ "الحمد لله" رب العالمين، هذا هو الدين كله توحيد وحمد، الكافر يحيا في شرك وسخط، الكافر دائماً ساخط على كل شيء، متشائم، دائماً يشك في حكمة الله، أحياناً يقول لك: فلان ليس أهلاً للنعمة، يستكثر نعمة الله على بعض عباده، ويستقلها على آخرين، كأنه شاك في حكمة الله، مع أنك لو تعمقت في الأمور وكُشف الغطاء، وأطلعنا الله على كل شيء لكان هذا هو الصواب و لقلنا: الحمد لله رب العالمين، قال تعالى:

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ "الحمد لله" رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

(سورة يونس)

تحدث في الأرض زلازل، وفيضانات، وبراكين، وأعمال عنف، وهناك قوي وضعيف، فيها صحة، فيها فقر مدقع، فيها مجاعات، الحمد لله رب العالمين، لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

لكن المشكلة أن هذه الحياة الدنيا بالنسبة إلى الدار الآخرة لا شيء، لذلك ربنا سبحانه وتعالى قد يضحي بها من أجل الهداية، فإذا أغلق صاحب المحل محله مثلاً والصانع نسي شمعة مشتعلة، وفي الساعة الثانية ليلاً أبلغوه أن المحل احترق، المحل فيه بضاعة بثلاثة ملايين، فإذا أخذ يصلي على أثر هذا الحريق فهذا عند الله حكمة بالغة، أما عند الناس فماذا يقولون ؟ ليت هذا الصانع لم ينس الشمعة مشتعلة، هي عند الله حكمة بالغة، لأن هذا المحل بكل هذه البضاعة التي احترقت إذا أثمر احتراق المحل توبة لصاحبه فهذا خير كبير لا يعلمه إلا عند الموت.

لو كُشفت للإنسان الحقائق لما اختار إلا أن يكون كما كان:

قال تعالى:

(يَومَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُون (42))

(سورة يونس)

أي يُكشف عن كل شيء ساقه الله إليك،

(وَيُدْعَونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُون)

خجلاً، وصغاراً، وشعوراً بالخزي، والعار، وكانوا يدعون إلى السجود من قبل وهم سالمون، فـ"الحمد لله" رب العالمين، وقع هنا بعض العلماء في حيرة، أيهما أفضل كلمة "لا إله إلا الله" أم "الحمد لله" ؟

ملخص الملخص قال الإمام الغزالي: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان "**، بعضهم فهمَ هذا الكلام فهماً مغلوطاً ؛ والصواب في فهم العبارة: ليس في إمكان المخلوق أبدع مما أعطاه الله عز وجل، الذي أعطاك الله عز وجل هو أنسب شيء إليك، ولو كُشفت لك الحقائق لما اخترت إلا أن تكون كما كنت.

بعض الناس يتمنى الغنى، بعض الناس يتمنى الصحة، لو كُشفت لك الحقائق لن تتمنى إلا أن تكون كما كنت لأن الله عز وجل يعلم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن، لو كان كيف كان يكون ؟ لذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان.

هذه الزوجة أنسب امرأة لك، يقول معترضاً: لأن الحق على أمي، لا ليس الحق على أمك، خطبتها بسرعة، كانت مستعجلة، رأوها في الليل، وقعوا في الغش، ليس في الإمكان أبدع مما كان، علامة واحدة تصير مهندساً، ليس في الإمكان أبدع مما كان، اسمي ورد في القائمة، آخر اسم، كنت سأوفد في بعثة، ليس في الإمكان أبدع مما كان، لو نظرت إلى الأمور بعين التوحيد لرأيت أن الله وحده بيده كل شيء، قدَّم وأخر، سمح ومنع، يسَّر وعسَّر، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً:

((إن الله إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه.))

[الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس]

الذي ساقه الله إليك مبني على علم وحكمة وخبرة ورحمة:

قال تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11))

(سورة الرعد)

وقال:

(يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2))

(سورة فاطر)

"الحمد لله" رب العالمين كلما تعمقت في الإيمان ازددت تمثلاً بهذه الآية، كم جزئية في حياتك ؟ أعتقد أن في حياة أحدنا خمسين ألف أو مئة ألف جزئية، نوع بيته، ذاكرته ضعيفة قليلاً، "الحمد لله" أنسب شيء معلوماته، ما عنده إمكانية لدخول فروع علمية، هكذا خلقني الله، أنا أحب الحفظ عند مذاكرة الدروس، الحمد لله رب العالمين، يعني إمكاناتك الفكرية والجسدية قدرُك، جعلك طويلاً وقوياً، أو جعلك ضعيفاً، جعلك من أسرة غنية، من أسرة فقيرة، جعلك في بيئة راقية في بيئة متخلفة، كله ليس في الإمكان أبدع مما كان، يعني ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، هذا الذي أعطاك الله عز وجل، لو كُشف لك الغطاء لما اخترت غيره، وقد يكون هذا الشيء طريقك إلى الجنة، الفقر هو الهادي، قال تعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7))

(سورة الرعد)

يهتدي إنسان عن طريق الفقر، ويهتدي آخر عند موت أحد أقاربه، وثالث يهتدي بمصيبة مؤلمة، أو بإكرام كبير، هذا الذي ساقه الله إليك مبني على علم، وحكمة، وخبرة، ورحمة، "الحمد لله"، الله المسير الذي لا إله إلا الله، لا مسير غيره، لا رافع، ولا خافض، ولا معز، ولا مذل، ولا معطي، ولا مانع، ولا قابض، ولا باسط إلا الله عز وجل، الحمد لله رب العالمين.

كل إنسان يتلقى من الله عز وجل تربيتين ؛ تربية لجسمه، وتربية لنفسه:

الإله نفسه رب العالمين، الممد، هذا عطاؤنا، المياه من عطاء الله عز وجل، نهر الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعب بالثانية ، نبع الفيجة أحياناً بأيام الخير يفيض، يلبي حاجة دمشق بكاملها ويفيض عن حاجتها، نصف كثافته يرفد بها نهر بردى، ربنا ممد فأمدنا بالماء.

أحياناً يكون هناك شح في الماء، ترى النباتات صفراء، قال لي صديق: والله دفعت في الأسبوع الماضي خمسمئة ليرة، كل أربعة أيام أدفع خمسمئة ليرة ثمن ماء لسقي المزروعات في المزرعة، الأمر صعب جداً وإلا تموت الأشجار، فالذي أمدنا بالماء هو الله سبحانه وتعالى، نهر الفرات يبلغ عرضه أحياناً في أيام الفيضانات أحد عشر كيلو متراً، بعمق كبير جداً، الآن إذا مشى الإنسان فيه لا يتجاوز مستوى الماء ركبتيه، الحمد لله رب العالمين على عطائه، وعلى منعه، عطاؤه عطاء، ومنعه عطاء، الحمد لله رب العالمين، المُمِدُّ بكل نعمة، لكن ربنا عز وجل يمد هذه الأجسام بكل ما تحتاجه من الهواء، إلى الماء، إلى الطعام، إلى الشراب، إلى كل شيء، سواء أكان هذا الشيء أساسياً أو ثانوياً، الأساسي الطعام والشراب، والثانوي الأزهار هل تؤكل هذه ؟ لا، هذا الجمال الذي بثه الله في الأرض، هذه السماء التي زينها بالنجوم، هذه الأماكن الجميلة التي جعلها منتجعاً لنا كلها من عطاء الله، الحمد لله رب العالمين.

لكن معنى الربوبية يشمل التربية النفسية أيضاً، فكل أنواع المصائب مشتقة من قولـه تعالى: الحمد لله رب العالمين، الأب مثل مصغر، يمد ابنه بكل ما يحتاج، حاجاته، أدواته، كتبه، دفاتره، ألبسته الصيفية والشتوية، غرفته بما فيها من تدفئة، طاولة إنارة، سرير، وسائد مثلاً، فرش وثيرة، أغطية مناسبة صيفية وشتوية، هذا إمداد، فإذا ضبطه يكذب فقد يضربه، والضرب أيضاً تربية، فالتربية لها معنيان ؛ معنى الإمداد بما تحتاجه من مواد، والمعنى الثاني التربية النفسية، فكل إنسان يتلقى من الله عز وجل تربيتين ؛ يتلقى تربية لجسمه، ويتلقى تربية لنفسه، فكل ما يحدث لك فهو من الله عز وجل، بناءً على واقعك، وعلى نفسيتك، الحمد لله رب العالمين.

الله سبحانه وتعالى رحمن رحيم ؛ رحمن في ذاته، رحيم في أفعاله:

في درس سابق قلت لكم: إن كلمة "رب" تقتضي العلم، وتقتضي الخبرة، وتقتضي الغنى، وتقتضي الإشراف الدائم، وتقتضي الحكمة، وتقتضي الرحمة، لا بد أن يكون رب العالمين قوياً، وغنياً، وحكيماً، وعليماً، وخبيراً، ورحيماً، وقيوماً، دائم الإشراف، لا يُسمى المربي ناجحاً إذا غاب عن الذي يربيه، لا يُسمى المعلم ناجحاً إذا تغيب عن الطلاب، لا بد أن يكون رب العالمين قوياً، وغنياً، وقديراً، وحكيماً، ورحيماً، ودائم الإشراف، وقيوماً، الحمد لله رب العالمين.

كلمة "رب" فيها عطاء، ربنا عز جل ما قال: الحمد للإله، ما قال: الحمد للخالق، بل قال: الحمد لله رب العالمين، أي أن لك رباً، ذات مرةٍ سمعت في الطريق رجلاً يقول وهو في حالة غضب: مَنْ ليس له أب ليس له رب ؟ تأثرت بهذه الكلمة، قد ينشأ أحدنا يتيماً ولا أب له، لكن الله موجود.

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهن أمان

***

إذا أعطاك فمن يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

***

كن مع الله تر الله معـك واترك الكل وحاذر طمعك

***

(الحمد لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3))

الرحمن في ذاته، الرحيم في أفعاله، ذاته رحيمة، هناك تطابق كامل بين أفعاله وبين ذاته، أحياناً تكون هناك مسافة بين الإنسان وبين أفعاله وبين نفسيته، هناك مسافة بين أفعاله وبين نفسيته، قد يفعل عملاً فيه رحمة ولكن قلبه قاس كالحجر، الظروف اضطرته لذلك، ذكاؤه أرشده لذلك، لكن الله سبحانه وتعالى رحمن رحيم ؛ رحمن في ذاته، رحيم في أفعاله.

الرحمن يعذب أما الرحيم لا يعذب:

قال سبحانه حكاية سيدنا إبراهيم:

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (45))

(سورة مريم)

الرحمن يعذب أما الرحيم لا يعذب، انظر إلى دقة الآية السابقة، ربنا عز وجل رحمن في ذاته، تقتضي رحمته أن يسوق لعبده بعض الشدائد، هذه الشدائد تُسمى شدائد، أما الرحمة فهي رخاء، لذلك قال ربنا عز وجل:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147))

(سورة الأنعام)

انظر الإعجاز أي تقتضي رحمته ألا يرد بأسه عن المجرم، قال تعالى:

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (45))

(سورة مريم)

الرحيم صفة أفعاله، أما الرحمن صفة ذاته، ماذا بقي ؟ هو الإله، وهو الرب، وهو الرحمن الرحيم، والرحمن الرحيم اسم جامع لأسماء الله الحسنى، فقوته من رحمته، ولطفه من رحمته، وبطشه من رحمته، وأفعاله نابعة من رحمته، لذلك هناك أسماء جامعة، الرحيم من الأسماء الجامعة.

إذا جاء يوم الدين فلا اختيار لك وكل شيء أصبح ملكاً لله وحده:

لكن:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4))

لو عقلنا معناها لارتعدت فرائصنا، أنتم الآن مخيرون ما دام في القلب حياة، ما دام القلب ينبض فأنت مخير، كل شيء ممكن الآن، الإصلاح ممكن، والتوبة ممكنة،

قال تعالى:

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (82))

(سورة طه)

لكن:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4))

إذا جاء يوم الدين فلا اختيار لك، هذه الأمانة التي أودعها الله فيك، هذا التكليف وهذا الاختيار الذي منحك الله إياه، هذا الكون الذي وهبه الله لك، هذا العقل والفكر الذي ميزك الله به كله انتهى،

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4))

وهو في الدنيا مالك، وأنت مختار، لكنه في الآخرة ملك كل شيء، وملك اختيارك، إذاً لا تستطيع أن تفعل شيئاً يوم الدين، يوم الجزاء، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، قال عليه الصلاة والسلام:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن جابر]

افعل ما شئت، أعط أولا تعط، اعدل أو اظلم، أحسن أو لا تحسن، اعملوا ما شئتم فإن يوم الدين هو يوم الجزاء، عاملت زوجتك بالإحسان، فهو لك، وإن أسأت فعليك، أنفقت مالك في سبيل الله فهو لك، لم تنفق فمغبة البخل عليك.

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (286))

(سورة البقرة)

وقال:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

(سورة الروم)

الآية التالية تحض على العمل الصالح:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4))

إذا جاء ملك الموت انتهى كل شيء، الاختيار انتهى، والأمانة انتهت، والشهوات نزعت، والكون طوي، والفكر تعطل، كل شيء انتهى، يوم الدين يوم الجزاء والله مالكه، أما الآن فأنت تملك الاختيار، مخير أن تتوب أو لا تتوب، أن تسيء أو تحسن، لكن يوم الدين ينتهي فيه الاختيار، كأن هذه الآية تحضك على العمل الصالح، فإياك أن تصل إلى هذا اليوم وليس لك عمل صالح تلقى الله به، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102))

(سورة آل عمران)

يوم الدين يوم جزاء، نحن الآن في يوم عمل، في العام الدراسي مثلاً، الطالب يأتي للمدرسة، يحب أن يدرس أو لا يدرس، يجتهد أو لا يجتهد، يراجع أو لا يراجع، يذاكر أو لا يذاكر، يكتب وظائفه أو لا يكتبها أو ينقلها من رفاقه، يستطيع لأنه مخير، لكن إذا قُرع جرس الامتحان في آخر العام وطرحت الأسئلة هذا اليوم يوم الجزاء، وفي الامتحان يكرم المرء أو يهان، أما في أثناء العام الدراسي فلا إهانة للكسول، معه مهلة، أُعطي فرصة، ونحن الآن كذلك، الآن نحن في فرصة، أنت حر، تحب أن تأتي إلى هذا المجلس أو لا تأتي، هناك من يسهر وراء جهاز لهو، يقول لك: والله هذه المحطة أمتع، لكن تلك المحطة ناشفة وبرامجها هزيلة، اليوم دار عمل، لكن الآخرة دار جزاء، قالوا: الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، في الآخرة انتهى الاختيار وانتهى التكليف، انتهت كلمة حرام وحلال، أنت في جنة عرضها السماوات والأرض، لا غض بصر في الآخرة، ولا استيقاظ لصلاة الصبح باكراً، وليس هناك بذل مال، ولا مشي في الشمس، ولا حر، في جنة عرضها السماوات والأرض.

جزاء المؤمن يوم الدين كما وردت في بعض آيات الذكر الحكيم:

قال ربنا عز وجل:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58))

(سورة يس)

هنيئاً لهم، هذا الوقت:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

وقال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

وقال:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19))

(سورة الذاريات)

وقال:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة الحاقة)

جمع القرآن في الفاتحة:

نحن الآن في دار عمل، ويوم الدين دار جزاء وحساب، أما إذا وصل الإنسان إلى يوم الدين فقد انتهى كل شيء، انتهى اختياره، وانتهت الفرص كلها، أمّا الآن فالفرص كلها مفتحة، أبواب الرحمة مفتحة، أبواب التوبة مفتحة، أبواب الاستقامة مفتحة، أبواب العمل الصالح مفتحة، لكن إذا جاء يوم الدين انتهى كل شيء، انتهت حرية الاختيار، انتهت الدنيا، ليس التعامل هناك بالأموال بل بالحسنات والسيئات، يؤخذ من حسنات المسيء ويعوض بها عما اغتصبه:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

بعد هذه المقدمة:

(الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((جمع القرآن في الفاتحة))

[ورد في الأثر]

والله معه الحق، لأن كل شيء في الفاتحة، الألوهية، والحمد، والربوبية، واسم الله الأعظم:

(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

والمصير الذي لا مفر منه،

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

الآن موقفك المنطقي ؛

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

لو أن الله عز وجل قال: نعبد إياك لاختلف الأمر، إذا سبق المفعول به الفعل فهذا أسلوب الحصر ؛ أيْ نعبدك ولا نعبد أحداً معك، لو قال: (نعبد إياك) شيء، و(إياك نعبد) شيء آخر، لذلك فإن أعلى مرتبة يبلغها الإنسان في الأرض أن يدرك أن حق العبادة لله وحده، وأعلى مقام بلغه النبي أنه كان عبداً لله، عبداً حقيقياً، فتطابقَ اختياره مع أمر الله تماماً، نحن أحياناً لا يتطابق اختيارنا مع أمر الله، نطبق مثلاً تسعين بالمئة، وهناك مثلاً عشرة بالمئة لم تطبقها في عملك، فلست إذاً عبداً كاملاً، أما العبودية الكاملة أن يكون اختيارك موافقاً مئة بالمئة لما أمر به الله عز وجل، إذاً أنت عبد لله، وإن لم تكن عبداً لله فلا بد أن تكون عبداً لشهواتك:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

إن لم تكن عبداً لله فأنت عبد لشهوتك، وإن لم تكن عبداً لشهوتك فأنت عبد لعبد من عبيد الله، فأنت عبد لعبد لئيم، كن للهِ عبداً فعبد الله حر.

العلة الكبرى لخلق الإنسان على وجه الأرض أن يعبد الله:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

إن العبادة طاعة تامة، مبنية على معرفة، ومنتهية بسعادة، التعريف الدقيق: طاعة تسبقها معرفة، وتعقبها سعادة، وإلا لما كانت لها هذه الأهمية، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

العلة الكبرى لخلق الإنسان على وجه الأرض أن يعبد الله، أي أن يعرفه فيطيعه ويسعد بقربه،

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

لا نعبد إلا إياك، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

التوحيد والعبودية لله عز وجل قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

وقال:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16))

(سورة طه)

والله هذه الآية تكفي، الكافر عنده أمل طويل.

الركوع هو الإعلان عن الخضوع لله والسجود هو طلب العون منه:

قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

نهيٌ إلهيٌ عظيم جداً

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

قال تعالى:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

لكن العبادة لله عز وجل تحتاج إلى عون من الله عز وجل، فأنت في الركوع تعلن عن خضوعك لله، وفي السجود تطلب العون منه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لكل سورة حظها من الركوع والسجود.))

[البيهقي عن أبي العالية]

تقول:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)

الأنبياء الصديقين، الصالحين، المؤمنين، أهل العقل، أهل اللب الطيب، وذوي النفوس الزكية.

الفرق بين " المغضوب عليهم" و "الضالين":

قال تعالى:

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

هناك أناس عرفوا وعصوا هؤلاء الذين غضب الله عليهم، وهناك أناس ما عرفوا الله عز وجل فهؤلاء هم الضالون:

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

يقول لك الله عز وجل وكأنه يخاطبك في الصلاة:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(30))

(سورة النور)

في الركوع تقول: "سبحان ربي العظيم"، أي خضوعاً لك يا رب بهذا الأمر، أنا خاضع لك، أنا مطيع لك، في السجود تقول: "سبحان ربي الأعلى"، يا ربي أعني على تنفيذ هذا الأمر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لكل سورة حظها من الركوع والسجود.))

[البيهقي عن أبي العالية]

آيات من الذكر الحكيم عن ضعف الإنسان:

كل آية تقرؤها في الصلاة لها ركوع خاص بحسب مضمونها، ولها سجود خاص بحسب مضمونها، تبدأ:

(الحمد لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

لا نعبد إلا إياك، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكننا ضعاف:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (28))

(سورة النساء)

وقال:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33))

(سورة يوسف)

إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

على عبادتك، إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

عندئذ تتوجه إلى الله عز وجل:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)

هؤلاء الناجحون، هؤلاء المفلحون، هؤلاء المؤمنون السعداء في الدارين، الذين عرفوك، وأطاعوك، وتقربوا إليك، وعقلوا عنك، وسعدوا بقربك،

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)

من يطع الله ورسوله يحشره الله عز وجل مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

هؤلاء الذين عرفوا الله، وحادوا عن شريعته، سمعنا وعصينا، هذا الذي يقول: نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، وثمة أدعية من صنع أحدهم: أمرتنا فما ائتمرنا، ونهيتنا فارتكبنا، ولا يسعنا إلا فضلك، هؤلاء مغضوب عليهم.

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

البطولة أن تقرأ الفاتحة وأنت متمثل لمعانيها:

عرفت الله وتعصيه، قال رجل لابن الأدهم: ائذن لي بالمعصية، قال: أشياء خمس إذا فعلتها لن تضرك المعصية، قال: وما هي ؟ قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، قال: وأين أسكن إذاً ؟ قال: فكيف إذاً تسكن أرضه وتعصيه ؟ قال: الثانية ؟ قال: إذا أردت أن تعصيه فاجهد ألا تأكل من رزقه، قال: وماذا آكل إذاً ؟ قال: كيف إذاً تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه ؟ قال: هات الثالثة، قال: إذا أردت أن تعصيه فاجتهد ألا يراك، قال: وكيف لا يراني وهو رب العالمين ؟ قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه، ويراك ؟! لذلك:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

نختم هذا الدرس بقوله عليه الصلاة والسلام:

((القرآن كله في الفاتحة))

[ورد في الأثر]

تقرؤها في كل ركعة:

((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))

[متفق عليه عن عبادة بن الصامت]

البطولة أن تقرأ الفاتحة، وأنت متمثل لمعانيها.

(الحمد لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

الإنسان عندما يطيع الله عز وجل وهو مفتقر إليه يعينه على طاعته:

عند إياك نعبد، وإياك نستعين بدأ موقفك العملي، ما دام الله سبحانه وتعالى رب العالمين، وهو الرحمن الرحيم، الذي لا إله إلا هو، يُحمد على كل شيء، فماذا تنتظر ؟!!

تفسير سورة البقرة

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس(01- 95): مقدمة عن اسم السورة ـ الآيات المكية والمدنية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-06-26

بسم الله الرحمن الرحيم

كل شيءٍ في الدنيا زائل إلا عملاً يتصل بالآخرة:

اليوم نبدأ تفسير سورة البقرة، ولكن أُقدِّم لكم هذه الحقيقة، أي شيءٍ في الدنيا زائل إلا عملاً يتصل بالآخرة، وكل واحد من الأخوة الحاضرين إذا لم يكن له عمل متعلق بالآخرة فهناك خسارة كبيرة؛ الدنيا تمضي، البيوت تزول، لاحِظوا: الميت ترك كل شيء إلا عملاً صالحاً ينزل معه في قبره، فالله عزَّ وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (108))

(سورة يوسف)

كُلُّ من يتبع نبي الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يدعَو إلى الله بطريقةٍ أو بأخرى، وقلت لكم من قبل: استقيموا يُسْتَقَم بكم، الموقف الصادق دعوة، الموقف الأمين دعوة، الوَرَع دعوة، الصدق دعوة، الإتقان دعوة، قد يكون لكل واحد عمل طيّب، هذا العمل يُسَبب اتساع دائرة المسلمين، فالدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، والدعوة إلى الله في حدود ما تعلم ومع من تعرف، وكل

إنسان جلس في مجلس علم، واستمع إلى تفسير صار مؤاخذاً، صار مسؤولاً، صار مكلَّفاً أن ينقل هذا إلى الآخرين إما بلسانه، أو بشريط، أو بلقاء، لا بدَّ أن تُلْقي بعد أن استمعت، لا بد أن تعطي بعد أن أخذت، وهذا الذي يبقى، الذي يحَرِّك المؤمن في الدعوة إلى الله حديثٌ لرسول الله،

والله أيها الأخوة لو تلوت هذا الحديث على مسامعكم آلاف المرات لا أشبع منه:

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها))

[البخاري عن سهل بن سعد]

((فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

((خير له مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الطبراني عن أبي رافع]

الجهاد الدَعَوي من أكبر أنواع الجهاد:

الجهاد كما تعلمون ذِروة سنام الإسلام، ومن مات ولم يجاهد، ولم يحدِّث نفسه بالجهاد مات على ثلمةٍ من النفاق.

الجهاد الدَعَوي من أكبر أنواع الجهاد، والدليل قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

(سورة الفرقان)

جميل جداً أن يمتلئ المسجد بطُلاَّب العلم، والأجمل من هذا أن ينتشر هذا العلم خارج المسجد، جميل جداً أن يفكِّر كُلٌ منا كيف ينْقُل الحق إلى أخيه، إلى صديقه، إلى جاره، إلى موظفي محلّه، إلى زملائه، إلى أقربائه، لأننا جميعاً كل الأخوة الحاضرين طرفٌ واحد، ولكن البطولة أن تُدخل إلى هذا المجموع الطيِّب إن شاء الله أطرافاً جديدة، فكل واحد مكلف أن يبحث من أقربائه، من زملائه، من جيرانه، من أتباعه، ممن هم دونه، ممن هم فوقه، بطريقةٍ أو بأخرى لنشر هذا الحق، هذا الذي يبقى، وترون كيف يموت الناس ولا يأخذون معهم شيئاً، إلا عملاً صالحاً ابتغوا به وجه الله عزَّ وجل، فتعليم العلم من أعظم الأعمال الصالحة، نشر الحق صنعة الأنبياء:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

(سورة فصلت)

كلما اتسع الحق صارت الاستقامة سهلة:

بدأ هذا الدرس أيها الأخوة في عام 1976 بأربعة أشخاص فقط، وترون هذا الإقبال ـ وهذا من فضل الله عزَّ وجل ـ هؤلاء الذين يأتون لطلب العلم، ولمعرفة كلام الله عزَّ وجل، وسنة رسوله، هؤلاء يبتغون وجه الله عزَّ وجل، فالبطولة أن تتعلم، وأن تُعَلِّم، وأن تستمع، وأن تُلْقي، وأن تتلقَّى، وأن تعطي، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))

[البخاري عن عثمان]

على الإطلاق، خيرية مطلقة، وكلما اتسعت دوائر الحق ضاقت دوائر الباطل، وكلما اتسع الحق صارت الاستقامة سهلةً، قال تعالى:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

(سورة النور)

وقال تعالى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا (103))

(سورة آل عمران)

الفضل لله عزَّ وجل، وهذا القرآن الكريم مائدة الله، وهذا القرآن الكريم حبل الله المتين، دستوره القويم، الصراط المستقيم، المنهج الصحيح، هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الكتاب فيه نبأ من قبلكم وذكر مَن بعدكم، فيه الأمر، فيه النهي، فيه الحلال، فيه الحرام، فيه أخبار الأمم السابقة، فيه مشاهد من يوم القيامة، فالحقيقة الفضل لله عزَّ وجل أن سورة يونس والتي بعدها مُفَسَّرَةٌ بشكلٍ مفصل إلى نهاية المصحف، ومسجَّلة بأشرطة واضحة جداً، واليوم نبدأ الثلث الأول لهذا الكتاب الكريم، ونبدأ بسورة البقرة.

النقطة الأولى سميت هذه السورة بسورة البقرة تأكيداً على الإيمان باليوم الآخر:

قبل أن نبدأ في شرح هذه السورة لا بد أن نسأل هذا السؤال: لماذا سميت سورة البقرة، مع أن البقرة ليست حيواناً مألوفاً في الجزيرة العربية ؟ الحقيقة أن هذه البقرة التي سُمِّيَت بها السورة الأولى في القرآن الكريم بعد الفاتحة، هذه البقرة لها قصة ؛ كان هناك رجل غني جداً من بني إسرائيل، كان ثرياً جداً، ولم يكن له أولاد، فقتله ابن أخيه، وألقى الجثة بعيداً على مشارف قريةٍ بعيدة، واتُّهِمَ أهل هذه البلدة بقتل هذا الرجل، ونَشِبَ خلافٌ بين القرية الأولى والقرية الثانية، إلى أن جاء أولياء القتيل ليسألوا موسى عليه السلام عَن الذي قتل هذا الرجل، فربنا عزَّ وجل في الآية الثالثة والسبعين من هذه السورة الكريمة ذكر قصة هذه البقرة، فقال:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

الأمر الإلهي أن يذبح بنو إسرائيل أيَّة بقرة، فإذا أخذوا أحد أعضائها، وضربوا به هذا القتيل يحيى، ويقف، ويقول: فلان قتلني، أي كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُثْبِت لبني إسرائيل الحياة بعد الموت ؛ نقف قليلاً لننتقل إلى موضوع اليوم الآخر.

الحقيقة الكبرى أيها الأخوة أنه بعد الإيمان بالله ـ وهو الرُكن الأول ـ أن تؤمن باليوم الآخر، لأن الحياة الدنيا من دون إيمانٍ باليوم الآخر غابة يأكل القوي فيها الضعيف، يستغلُّ الغني الفقير، وهذا ما يجري في العالم اليوم، هو عالم لا يؤمن باليوم الآخر، فالقوي هو الذي يسحقُ الضعيف، والغني هو الذي يستغلُّ الفقير، والأقوى هو الذي يعتدي على الأضعف.

لم ينجح مجتمع على وجه الأرض إلا مجتمعاً آمن بالله واليوم الآخر:

الأحداث كلُّها تشير إلى أنه لن تقوم حياةٌ إلا أن تؤمن باليوم الآخر، وكل ما يقال من كلامٍ لا معنى له ؛ ضمير يقِظ، وازع داخلي، هذا كلُّه إن لم يُدَعَّم بالإيمان باليوم الآخر لا جدوى منه، ولم ينجح مجتمع على وجه الأرض إلا مجتمعاً آمن بالله واليوم الآخر ؛ فربنا سبحانه وتعالى من خلال قصة البقرة أراد أن يبيِّن لبني إسرائيل أن هذا الذي تراه ميتاً سوف يُحْييه الله يوم القيامة لينال جزاء عمله، فماذا فعل بنو إسرائيل ؟ هذا الأمر لم يتلقَّوه بالقبول، ولم يستقبلوه بالرضا، ولم يستقبلوه بالانصياع، بل استقبلوه بالتشكيك والسخرية:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67))

نبيٌّ كريم يستهزئ ؟! يمزح !!

(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ(68))

هنا..

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

وانتهى الأمر.

الذي يموت ذاتُهُ باقية وسوف يحاسب:

أية بقرةٍ تُجْزِؤكم، وأية بقرةٍ لو أخذتم أحد أعضائها وضربتم به الميت لقام، وتكلَّم، وقال: قتلني فلان، ولكن بني إسرائيل شددوا على أنفسهم:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا (72))

كل طرفٍ ألقى التهمة على الطرف الآخر:

(وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73))

يقول الناس عن الذي يموت: الفقيد الفلاني، هذا الذي يموت خلع ثياباً فقط، أما ذاتُهُ فباقية، وسوف يحاسب، وسوف يعيش حياةً أبدية في جنةٍ يدومُ نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

تدل الآيات التي نزلت في أول الدعوة الإسلامية على شيئين:

اخواننا الكرام تُلحُّ الآيات التي نزلت في أول الدعوة الإسلامية على شيئين ؛ أن تؤمن بالله، وأن تؤمن باليوم الآخر، لأن الإيمان بالله لا معنى له من دون أن تؤمن أنَّه مطلعٌ عليك، وسيحاسِب، وسيعاقِب، لن تستقيم على أمر الله إن لم تؤمن أنه مطلعٌ عليك، وسيحاسب، وسيعاقب، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

أي إنك تستقيم حينما تعلم أن الله يعلم، وأنَّك في قبضته وسيحاسب ؛ ولن تجد إنساناً مستقيماً إلا بسبب أنه يُدْخل في حساباته اليوم الآخر ؛ والذي يثير العجَبَ أن الإنسان حينما يأكل المال الحرام، وحينما يعتدي على أعراض الآخرين، وحينما يتفلَّت من منهج الله عزَّ وجل، كيف ينام الليل ؟ كيف يتوازن مع نفسه ؟ إذا قرأ قول الله تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

خصوصية هذه الدنيا أن النعم التي أنت فيها لا بدَّ أن تفارقها عند الموت:

حينما يوقن الإنسان المؤمن أن كل حركةٍ، وكل سكنة، وكل تصرفٍ، وكل عطاءٍ، وكل منعٍ، وكل وصلٍ، وكل قطعٍ، وكل زيارةٍ، وكل نظرةٍ، وكل كلمةٍ سوف تَدْخُل في ميزان أعماله، وسوف يُسأل عنها يوم القيامة، عندئذٍ يستقيم الإنسان على أمر الله، ولن تجد في الأرض إنساناً مستقيماً إلا إذا كان إيمانه باليوم الآخر عظيماً، هذه الدنيا فيها نِعَم، وفيها مُتَع، وفيها شهوات، وفيها حظوظ، ما الذي يحصل ؟ هذه الحظوظ، وهذه الشهوات، وهذه المُتع، وهذه النِعم بشكل عام إما أن تفارقَك وأنت حي، وإما أن تفارقها عند الموت ؛ لا بدَّ من الفراق، لأنّ خصوصية هذه الدنيا أن النعم التي أنت فيها لا بدَّ أن تفارقها عند الموت، وقد تفارقك قبل الموت ؛

من هنا كان دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا))

[رزين عن نافع مولى ابن عمر]

أما الدار التي لا تفارقك فيها النعم ولا تفارقها هي الدار الآخرة.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

وقال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

هناك قلق في الدنيا، الإنسان قَلِق على صحته وكلما تقدَّم به العمر يزداد هذا القلق، يا ترى أأُصاب بالمرض الفلاني ؟ أو بالمرض الفلاني ؟ والأمراض كثيرة جداً، هذا أكبر قلق، قلقٌ على الصحة ؛ يوجد قلق على الدخل، هل يبقى هذا الدخل أم يتقلَّص ؟ هل أبقى في هذه الوظيفة ؟ هل تبقى لي هذه التجارة ؟ هل يبقى لي هذا الدخل ؟ الحياة الدنيا مشحونة بالقلق، لأنك لا بدَّ أن تُغادر الدنيا، إذاً سوف تفارق كل النعم ؛ وأوضح شاهد إذا تَبِعْتَ جنازةً، ورأيت الميت كيف يدفن، كان ساكناً في بيت، قد تكون مساحته مئتي متر، قد يكون أربعمئة متر، قد يكون بيت بأحياء دمشق الراقية، قد يكون بيتاً له إطلالة جميلة، له شرفات ومُعْتَنى به، غرف للنوم، غرف للاستقبال، غرف للجلوس ؛ فيه كل شيء، فيه تدفئة، تكييف، أين مصير صاحب هذا البيت ؟ تحت أطباق الثرى، في حفرةٍ صغيرة ؛ هذا مصيرُ كل حي.

أكثر ركنين متلازمين من أركان الإيمان هما الإيمان بالله واليوم الآخر:

هذه النعم، لا بدَّ أن تفارقها بالموت، وقد تفارقُكَ قبل الموت ؛ أما الآخرة فحياةٌ أبديةٌ سرمدية، حياةٌ لا نغص فيها، ولا شيخوخة فيها، ولا حُزْنَ فيها، ولا قلق فيها، ولا برد، ولا حر، ولا مرض، ولا فقر، ولا غنى، ولا قهر.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

وقال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

إذاً أراد الله جلَّ جلاله حينما جعل هذه السورة تحمل اسم سورة البقرة أن يذكّرنا باليوم الآخر، وأن الإيمان باليوم الآخر يأتي بعد الإيمان بالله تماماً، ولو تتبعت الآيات التي تذكر الإيمان لوجدت أن أكثر ركنين متلازمين من أركان الإيمان هما الإيمان بالله واليوم الآخر ؛ والحياة الدنيا من دون إيمان باليوم الآخر غابة ؛ يأكل القوي الضعيف، يستغل الغني الفقير، شعوبٌ تُقْهَر، شعوبٌ تموت

من الجوع، وشعوبٌ تُطعِم كلابها من اللحم ما لا تأكله شعوب بأكملها في جنوبي آسيا، هناك محلات، وهناك رَفاه لكلابهم يفوق رفاه بعض الشعوب ؛ حياةٌ القوي فيها هو المسيطر، والضعيف مسحوق، هذه حياةٌ دُنيا من دون يوم آخر، انظر إلى مجتمع إيماني صغير، أفراده مؤمنون باليوم الآخر، تجد الإنسان يأخذ ما له ويدع ما ليس له، قلت مرةً في موضوع الزواج: لماذا ينجح الزواج الإسلامي ؟ لأن الله بين الزوجين، لأن كل طرفٍ يخشى أن يظلم الطرف الآخر، يخشى الله، يخاف من الله أن يظلم الطرف الآخر، وكل طرفٍ يرجو رحمة الله بخدمة الطرف الآخر، فكلا الزوجين يرتقيان إلى الله، ويزداد التفاهم والوئام بينهما بسبب إيمانهما بالله واليوم الآخر.

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه:

أنا أُلِحُّ على الإيمان باليوم الآخر ؛ يجب أن يدخل هذا اليوم ـ اليوم الآخر ـ في الحسابات اليومية، وقال لي أخ: في الحسابات الساعيِّة، والأصح أن يدخل هذا اليوم في الحسابات اللحظيَّة، كل لحظة، كل عملٍ سوف تحاسب عليه.

(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49))

(سورة الكهف)

الإنسان المؤمن شخصية فَذَّة ؛ ذكرت مرة أن الشخصية الفَذَّة فيها درجة علمية، من هو المؤمن ؟ المؤمن عرف الحقيقة الكُبرى في الكون، عرف الله، هذا أكبر عالم لأنه عرف الله ـ دققوا في هذا القول ـ فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، القرآن الكريم هذا الكتاب وازن بينه وبين أي كتابٍ آخر، المسافة بينهما كما بين الله وهذا المؤلّف، لأن هذا كلام الله ؛ وازن بين من عرف الدنيا، وبين من عرف الله، بينهما كما بين الله وخلقه ؛ هذا الذي عرف الله إنسان كبير جداً، عرف الحقيقة العظمى وانسجم معها فسعد في الدنيا والآخرة، والإيمان درجة أخلاقية، لأن المؤمن محكوم بمنظومة قيمٍ أخلاقيةٍ كثيرةٍ كبيرةٍ جداً، ففي حياته نهج دقيق تفصيلي، وذكرت سابقاً أنه ما وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه اليوم إلا لأنهم توهَّموا أن الإسلام مجموعة عبادات شعائرية فقط، هي الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، بينما يحوي الإسلام ـ وأرجو ألا أُبالغ ـ مئة ألف بند تقريباً ؛ بنود في

كسب المال، بنود في إنفاق المال، بنود في الزواج، بنود في الطلاق، بنود في المجالس، بنود في أداء الحِرَف، بنود في السفر، بنود في الإقامة، بنود في تربية الأولاد، منهج كامل ؛ حينما فهم المسلمون أن الإسلام بضعة عبادات شعائرية كانوا خلف الأمم جميعاً، أما حينما فهم الصحابة الكرام أن الدين هو الحياة كما أرادها الله عزَّ وجل ساروا وفق المنهج التفصيلي، لذلك طلب العلم فرضٌ على كل مسلم، في حياة المسلمين لا شيء يعلو على طلب العلم ؛ إنَّك بالعلم تعرف من أنت، وتعرف موقعك بين الناس، وتعرف ماذا بعد الموت، وماذا قبل الموت، وما المنهج الذي ينبغي أن تسير عليه ؟ فلذلك حينما يؤمن المؤمن باليوم الآخر تنتهي مشاكله.

الدين كله محاسبة ذاتية:

هذه قصة نموذجية أرويها دائماً ؛ أخ من إخواننا يعمل في لف المحركات قال لي: أنا قبل أن أصطلح مع الله يأتيني محرك محروق، طبعاً أجرة لفِّ المحرك خمسة آلاف تقريباً، قال لي: أفتحه، فإذا به قَطْع بسيط جداً في خط خارجي، يُصلَّح في دقيقة، قال لي: قبل الصلح مع الله أُصلِّح هذا المحرِّك وآخذ خمسة آلاف عداً ونقداً، لأن صاحب المحرك لا يعرف ماذا حدث ؟ يعرف أن المحرك واقف عن العمل، إذاً هو محروق، وجاء به للفّه، قال لي: بعد أن عرفت الله عزَّ وجل أقول له: كلِّف خمساً وعشرين ليرة، مع أن الشرط خمسة آلاف، دخل بالمحاسبة الذاتية، هذه هي القصة كلّها.

الدين كله محاسبة ذاتية، الدين كله كما قال هذا الأعرابي، هذا البدوي لسيدنا عمر، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، فقال له: ليست لي، قال له: قل لصاحبها ماتت، ليست لي، خذ ثمنها، ليست لي، ثم ألحّ عليه، قال له: والله إنني في أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب لصدَّقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟ هذا الدين كله، الدين كله أن تؤمن باليوم الآخر، ضبطْتَ لسانك، ضبطت كسبك للمال، ضبطت إنفاقك للمال، ضبطت عَيْنَك، ضبطت أذنك، ضبطت يدك، ضبطت حركاتك وسكناتك.

أيها الأخوة الكرام سُمِّيت هذه السورة التي هي أطول سورةٍ في القرآن، سميت بالبقرة لأن البقرة دليلٌ لبني إسرائيل على اليوم الآخر، كيف أن الله سبحانه وتعالى أحيا هذا الميت الذي قال: فلان قتلني.

هذه واحدة، فلذلك الإنسان عندما يعصي الله عزَّ وجل يجب أن يعلم أن إيمانه باليوم الآخر ضعيف ؛ لو كان إيمانه باليوم الآخر قوياً لما عصى الله أبداً ؛ مستحيلٌ أن يعصي الله إذا كان مؤمناً أنه سيحاسب ؛ إذا ذهبت إلى بلد مجاور، ووجدت في أثناء الذهاب تفتيشاً دقيقاً جداً، وأنه لا يمكن لشيء أن يمر إلا بمحاسبة دقيقة، هل تشتري شيئاً هناك ؟ أبداً، شيء طبيعي، ما دام هناك حساب دقيق لا تشتري شيئاً، يقول لك رخيصة: ليست المشكلة أنها رخيصة، ولكن كيف سأنقلها إلى بلدي

؟ لا تمر، والمؤمن كذلك، أي شيء، قد لا يوجد عليه رقابة، أنت موثوق، الطبيب موثوق، المهن الراقية كلها موثوق بأصحابها، لو قال طبيب لمريض: تحتاج إلى تحليل، عشرة تحاليل، هل يستطيع المريض أن يناقش الطبيب ؟ لا يستطيع، تحتاج إلى التحليل الفلاني، انتهى ؛ من الذي يعلم أن هذا التحليل ضروري أو غير ضروري؟ هو الله وحده، إذا قال لك المحامي: الدعوى رابحة، وهي خاسرة حتماً، هل بإمكانك أن تناقشه ؟ من يعلم ذلك ؟ الله وحده، والله أيها الأخوة لو صح إيمان المسلمين باليوم الآخر لأغلق قصر العدل أبوابه.

الدين منهج كامل وليس عبادات شعائرية فحسب:

بقي سيدنا عمر وزير عدل مع سيدنا الصديق سنتين، ولم يَرفع له أحد قضية، لو أنصف الناس لاستراح القاضي ؛ نحن مشكلتنا الإيمان باليوم الآخر، وأنك سوف تُسأل.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

مرة ثانية يا اخواننا الكرام، أكبر وهم نتوهمه أن الذي يأتي إلى المسجد ويصلي هو صاحب دين ؛ تأتي إلى هنا لتأخذ تعليمات الصانع فقط، وتعود مرة ثانية لتقبض الثمن، دينك بعملك، دينك بدكّانك، دينك بمكتبك، دينك بعيادتك، دينك بشركتك، دينك بالحقل، دينك بالمعمل، دينك مع أولادك، هنا تأخذ تعليمات الصانع، وتعود إلى الحياة كي تُمارس هذه التعليمات ؛ وأوضح شيء كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيت الله عزَّ وجل يقول:

((اللَّهمَّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللَّهمَّ إني أسألك من فضلك))

[مسلم عن أبي حميد]

يا رب أشعرني بقربي منك، أما إذا خرج من المسجد يقول:

((اللَّهمَّ إني أسألك من فضلك))

[مسلم عن أبي حميد]

العمل خارج الجامع، هناك الدين، هناك الاستقامة، هناك ضبط اللسان، هناك ضبط الدخل، هناك ضبط الإنفاق ؛ نحن حينما فهمنا الدين خمس عباداتٍ شعائرية صرنا في مؤخَّرة الأمم، ولكننا يجب أن نفهم الدين منهجاً كاملاً، لهذا أكبر شيء يشغل المؤمن: ما حكم الشرع في هذا الموضوع ؟

الله عزّ وجل قادر أن يُعيدَنا جميعاً مرةً أخرى:

سميت سورة البقرة لأن الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ليضربوا ببعضها هذا المقتول، فيعيد الله جل جلاله له الحياة فيقف، ويقول: فلان قتلني ! أي أن الله عزّ وجل قادر أن يُعيدَنا جميعاً مرةً أخرى، وهذا الذي ذكره القرآن الكريم .

الشيء الثاني: كان في بني إسرائيل رجل صالح، وكان مستقيماً ورعاً مخلصاً، لم يَدَع لأهله إلا بقرة ؛ هذه كل ثروته في الدنيا لابنه الوحيد، هذه الصفات التي في سورة البقرة:

(صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69))

انطبقت جميعها على هذه البقرة، فلم يرض صاحبها (ابن هذا الصالح) بثمن أقل من أن يُملأ جلدها ذهباً فكانت ثروةً طائلة ؛ يستنبط من هذا: أن الإنسان إذا كان صالحاً تولّى الله مِن بعده رعاية أولاده ؛ يقول الله عزّ وجل في الأثر القدسي:

((عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول هذا العبد: يا ربِ أنفقته على كل محتاجٍ ومسكين لثقتي بأنك خيرٌ حافظاً وأنت أرحم الراحمين ـ يقول الله عزّ وجل في هذا الأثر القدسي ـ عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك)).

[ورد في الأثر]

معنى ذلك: تحرِّ الحلال، ولا تأخذ ما ليس لك، ولا تَخْشَ على أولادك من بعدك، الله وليُّهم هو الحافظ الأمين، هو الذي يرعى لك أولادك بعد موتك، هو الذي يسترهم، هو الذي يرزقهم، هو الذي يحفظُهم، هو الذي يُكرمهم ؛ كم من أبٍ ترك ملايين طائلة لأولاده كسبها بالحرام من أجلهم، فكانت النتيجة أنهم بدّدوا هذه الأموال في وقتٍ قصير وعاشوا فقراء ؛ وكم من أبٍ خاف الله عزّ وجل في كسبه فتولّى الله من بعده رعاية أولاده، لا تقلق على أولادك، اقلق على شيء واحد هو: أن تقع في معصية ؛ هذا الذي مَكّنك الله منه ؛ معظم الناس الآن يكسبون المال الحرام من أجل أولادهم، من أجل بناء مستقبل أولادهم، شراء بيوت، تزويج أولادهم، يكسبون المال الحرام، ما الذي يحدث ؟ هذا المال الذي كسبوه حراماً يبدَّد، ويذهب كما أتى، ويبقى أولادهم فقراء، تتمة الأثر القدسي يقول الله لعبدٍ آخر:

((عبدِ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا ربِ لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، يقول الله عزّ وجل: إن الذي خشيت على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم))

[ورد في الأثر]

النقطة الثانية احرص على الدخل الحلال وعلى طاعة الله والله سيتولى أولادك من بعدك:

هي بقرة مباركة، لأن الأب كان صالحاً:

(وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً (82))

(سورة الكهف)

بنى سيدنا الخضِر الجدار لأن أباهُما كان صالحاً، فلذلك الحقيقة الثانية في هذه السورة: احرص على الدخل الحلال، احرص على طاعة الله، ولا تفكر في مصير أولادك، لأن الله سيتولى أمرهم، إذا كنت أباً صالحاً سيحفظ الله لك أولادك من بعدك، وسيتولى أمرهم ؛ والله كم من قصةٌ مؤثرةٍ ؛ رجل اتقى الله فكان أولاده من بعده أعلاماً، قمماً، وكم من رجل لم يتق الله في كسب المال، ترك أيضاً ملايين طائلة فرأى صديق المتوفى ابن صديقه في الطريق فقال له: إلى أين أنت ذاهب ؟ قال بالحرف الواحد: إنني ذاهبٌ لأشرب الخمر على روح أبي، روح الميت تُرفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبَن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلَّ وحرم فأنفقته في حله وفي غير حله فالهناء لكم والتبعة علي.

النقطة الثانية: أن هذه البقرة التي جاءت صفاتها مفصَّلةً انطبقت على تلك البقرة التي كانت لرجلٍ صالح فأبى ولده ثمناً لها إلا مِلءَ جلدها ذهباً، أحياناً يَدَعُ أب صالح قطعة أرض، بيتاً، دُكَّاناً صغيرة، تدرّ هذه الدكان على أولاده من بعده خيراً كثيراً، لأنه كان صالحاً، لا تقلق على أولادك، اقلق على دخلك، حلال هو أم حرام ؟ أنت لست مكلفاً أن تُطعم أولادك المال الحرام، هذه النقطة الثانية.

النقطة الثالثة أن هذه السورة سورة مدنية :

النقطة الثالثة في هذا الدرس: أن هذه السورة سورة مدنية ؛ طبعاً القرآن الكريم كما تعلمون مكيٌّ ومدني، والعلماء اختلفوا هل الآية التي نزلت في مكة مكية، والتي نزلت في المدينة مدنية إطلاقاً ولا علاقة للزمن بها، مراعين المكان فقط ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام بعد فتح مكة أُنزل عليه القرآن، فالآيات التي أُنزلت عليه في مكة مكيةٌ أم مدنية ؟ هناك علماء راعوا الزمن فقط، فكل آيةٍ نزلت بعد الهجرة في أي مكان فهي مدنية، وكلُّ آيةٍ نزلت قبل الهجرة في أي مكان فهي مكية، هذا مقياس زمني، ويوجد مقياس مكاني ؛ فكل آيةٍ نزلت في مكة بأي وقت فهي مكية، وكل آية نزلت في المدينة فهي مدنية.

الذي يعنينا أن القرآن المكي له خصائص، والمدني له خصائص ؛ يركّز القرآن المكي على الإيمان بالله عن طريق الآيات، ويركّز على اليوم الآخر، اِقرأ سورة من الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم، سورة عمَّ، النازعات، المرسلات، يركّز على الإيمان بالله، وعلى الإيمان باليوم الآخر،

لأنهما أصلا العقيدة، يركز على الرد على الكفار والملحدين، والمشركين والمنكرين، وعلى ذكر الجنة والنار، تكاد هذه القواسم تتجاذب السور المكية، الإيمان بالله من خلال الآيات، الإيمان باليوم الآخر، الرد على المشركين والكفار والملحدين، ذكر الجنة والنار، لو انتقلت إلى البقرة، إلى آل عمران، إلى النساء، إلى الأنعام، يختلف الأمر، تجد آيات التشريع اِفعل ولا تفعل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ (282))

(سورة البقرة)

شيء جميل، تشريع.

كل دعوةٍ إلى الله لا بد أن تمر بمرحلتين:

يوجد منافقين..

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا (120))

(سورة آل عمران)

صار هناك طبقة منافقين، لم يكن في مكة منافقون لأن الإسلام كان مُضطهَداً، فلا داعي لأحد أن ينافق؛ إذا أعلن الكفر يمشي على عرض الطريق، كان المسلمون مضطهَدين، لذلك لم يكن نفاق في مكة، أما حينما أُسس للمسلمين دولة قوية في المدينة صار هناك نفاق ؛ تجد في السور المدنية حديثاً عن التشريع، وحديثاً عن المنافقين ليحذِّر المؤمنين، وحديثاً عن علاقة المسلمين بغيرهم، هذا في المدينة.

ما الذي يعنينا ؟ الذي يعنينا هو أن كل دعوةٍ إلى الله لا بد أن تمر بمرحلتين: مرحلة التعريف بالله واليوم الآخر، ومرحلة التعريف بالمنهج، وأية دعوةٍ إلى الله غَفَلَت عن تعريف أتباعها بالله واليوم الآخر دعوةٌ عرجاء، دعوةٌ لا تنجح، فأنت حينما تأمر الإنسان أن يصلي، يصلي لمن ؟ تأمره أن يستقيم، يستقيم خوفاً مِن مَن ؟ لا يعرف الله !! وكنت أقول دائماً: إذا عرف الإنسان الأمر، ولم يعرف الآمر تفنن في التفلُّت من هذا الأمر، وهذا حال المسلمين اليوم أعظم من أن يُخفى، مغنية تسأل عالماً: إنني تبت فهل يوجد مانع أن أغني ؟ لا يوجد مانع بموضوعات دينية ؟ صار الغناء مسموحاً، والاختلاط مسموحاً، والبنوك مسموحة في مصر، لم يعد هناك شيء، كل شيء له فتوى، وكنت أقول متحسّراً: إنَّ لكل معصيةٍ فتوى.

إذا عرف الإنسان الأمر ولم يعرف الآمر تفنن في التفلت من هذا الأمر، وهذا حال المسلمين ؛ صار الإسلام فلكلوراً، مظاهراً، لباساً إسلامياً ؛ آيات قرآنية نزين بها البيت، وتوجد سهرات لا ترضي الله في هذا البيت، توجد أجهزة لا ترضي الله في هذا البيت، توجد علاقات لا ترضي الله في هذا البيت، أما كله آيات قرآنية، وصورة الكعبة، وآية الكرسي ؛ بقي الإسلام مظاهراً، مؤتمرات إسلامية، كتباً فخمة جداً، العنوان على عرض الكتاب، أناقة بالطباعة، أشرطة مرئية ومسموعة، ومكتبات، وكل شيء في أعلى درجة، لكن لا توجد استقامة، لا يوجد التزام ، وكأن الله عزّ وجل تخلّى عنا.

الآيات المكية تُعرفنا بالآمر بينما الآيات المدنية تُعرفنا بالأمر الإلهي:

ذكرت هذا فيما مضى، أن شخصاً سألني فقال لي: لِمَ ندعو الله فلا يستجيب لنا ؟ قلت له: سُئل الإمام إبراهيم بن الأدهم هذا السؤال مرةً في البصرة فقيل له: إن الله تعالى يقول:

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (60))

(سورة غافر)

ونحن ندعو الله فلا يستجيب لنا ؟ قال: " لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء ؛ ادعيتم أنكم آمنتم بالله ولم تنصاعوا لأمره، قرأتم القرآن فلم تعملوا به، ادعيتم حب نبيِّكم فلم تعملوا بسنَّته، قلتم: إن النار حق فلم تتقوها، قلتم: إن الجنة حق فلم تعملوا لها، دفنتم موتاكم فلم تعتبروا.." ذكر اثني عشر بنداً، وقال: فكيف يُستجاب لكم ؟!!

الذي أريده ما دام هناك مّكي ومدني، معنى ذلك أن القرآن المكي يدعوك إلى الإيمان بالله واليوم الآخر عن طريق الآيات، وأيَّة دعوةٍ إلى الله تُغفل هذا الشطر الكبير من الدين فهي دعوةٌ عرجاء لا تنجح، والآن ترى أننا اعتنينا بالفقه على حساب العقيدة، يجب أن نعتنيَّ بالفقه والعقيدة معاً، والشيء الدقيق أن الإنسان حينما يؤمن بالله إيماناً صحيحاً، هو يبحث عن أمره ونهيه، يبحث بشكلٍ حثيث، لذلك المؤمن الصادق شغله الشاغل ما حكم الشرع في هذا ؟

أنت أحياناً موظف في شركة، نُحِّيَ المدير العام السابق عن عمله وجاء مدير جديد، أنت تسأل: من هو؟ فلان، ما ثقافته ؟ ما أخلاقه ؟ ما طبيعته ؟ ما طباعه ؟ بعد أن عرفت شيئاً عن شخصيته الآن تنتظر الأوامر والنواهي ؛ سلوك طبيعي جداً أن تعرف الآمر أولاً، ثم الأمر ثانياً ؛ فنحن في المكّي عرفنا الآمر، الآن في المدني يجب أن نعرف الأمر ؛ لذلك أيُّ أمرٍ لم يسبقه تعريفٌ بالآمر هذا الأمر لا قيمة له، لأن شرف الرسالة من شرف المُرسل، وقيمة الأمر من قيمة الآمر، وكلَّما عرفت الله أكثر وَقَرْتَ أمره أكثر، وكلَّما عرفت الله أكثر صدَّقتَ بوعده أكثر، وكلَّما عرفت الله أكثر صدَّقتَ بوعيده أكثر ؛ القضية دقيقة جداً، لذلك لا تحاول أن تُملي على الناس الأوامر الإلهية دون

أن تعرِّفهم من أمر بها ؛ ماذا عند الله لو أطعته ؟ وماذا عنده لو عصيته ؟ إذا لم يكن هناك فكرة واضحة ماذا ينتظر الطائع، وماذا ينتظر العاصي فلا تعبأ لا بالأمر ولا بالنهي.

بالكون تعرف الله وبالشرع تعبده:

هذا درس بليغ لنا، فلذلك أنا حاولت في أول التفسير أن أبدأ بالقسم المكي أي بالثلث الأخير ثم بالثلث الثاني، ورجوت الله عزّ وجل أن يُمَكِّن الإيمان بالله في قلوب الأخوة المؤمنين.

الآن يأتي التشريع تاجاً يتوَّج به المؤمن ؛ أنت حينما تعرف الله تبحث عن أمره ونهيه تبحث عما يرضيه، لذلك بالكون تعرفه وبالشرع تعبده ؛ هذان الخطَّان في عهد النبي ؛ الخط الأول: التعريف بالآمر، والثاني: التعريف بالأمر ؛ الحد الأدنى الآن أن يسير الخطَّان معاً، لذلك لا بد من درسٍ تعرف الله فيه، التفكُّر في خلق السماوات والأرض هذا الخط الأول، كل إنسان يأكل، ويشرب، ويتزوج، وينام، ويستيقظ، ويتأمَّل، وينظر، يجب أن تعلم أن أرقى عبادة على الإطلاق تتقرَّب بها إلى الله أن تتفكَّر في خلق السماوات والأرض، من أجل أن تزيد معرفتك بالله، من أجل أن يكون أمر الله عندك عظيماً:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

(سورة نوح)

إذا فكَّرت في خلق الإنسان أطواراً ترجو لله الوقار، من أين يأتي الوقار ؟ يأتي إذا فكَّرت في خلق الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: الآية 28)

أيها الأخوة الكرام، علمتنا كلمة مكي ومدني أن الدعوة ينبغي أن تمر بمرحلتين ؛ مرحلةٍ نتعرف فيها إلى الآمر، والمرحلةٍ الثانية نتعرف بها إلى الأمر الإلهي.

النقطة الرابعة يُعَلِّمنا الله جلَّ جلاله أن التوجيه غير المباشر أبلغ أثراً من التوجيه المباشر:

هذه السورة أيها الأخوة ـ سورة البقرة ـ من أطول سور القرآن الكريم، فيها خاصة ثالثة أُسأل عنها دائماً، هذه الخاصة: حديثٌ طويل عن بني إسرائيل وما علاقتنا ببني إسرائيل:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ (134))

(سورة البقرة)

صفحات طويلة، سيدنا موسى، وعلاقته بفرعون، وعلاقته بقومه، وكيف نجَّاه الله من فرعون ؟ وكيف انتقل إلى سيدنا شعيب ؟ الحديث عن بني إسرائيل له مغزى هو: أن الأسلوب التربوي الحكيم ينطلق من هذه المقولة: " إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة "، يُعَلِّمنا الله جلَّ جلاله أن التوجيه غير المباشر أبلغ أثراً من التوجيه المباشر، فكل الأمراض التي وقعت بها بنو إسرائيل المسلمون مرشَّحون لأن يقعوا بها، فأيُّ مرضٍ من أمراض بني إسرائيل نحن مُرشَّحون لأن نقع فيه:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

(سورة البقرة)

هذا يعتقده المسلمون اليوم، يعتقدون بمفهومٍ ساذج للشفاعة، اِفعل ما شئت، والنبي عليه الصلاة والسلام يشفع لك:

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24))

(سورة المائدة)

هذا مرضٌ أصاب المسلمين:

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا (93))

(سورة البقرة)

لو تتبعت أمراض بني إسرائيل لوجدت أن كل هذه الأمراض قد تلبَّسنا بها ؛ فإذا قرأنا قصة بني إسرائيل نقرأها كي نتعظ، كي نعتبر من هؤلاء القوم الذين خرجوا عن منهج ربهم فاستحقوا لعنة الله عزّ وجل، هذه النقطة الثالثة.

ملخص لأهم نقاط الدرس:

نعيد ملخص هذه النقط:

الأولى: سميت هذه السورة بسورة البقرة تأكيداً على الإيمان باليوم الآخر، وأن الناس جميعاً سيحاسبون حساباً دقيقاً جداً، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم..))

[ابن سعد والبيهقي والديلمي عن أبي البجير]

العبرة باليوم الآخر.

الشيء الثاني: أن الذي يحيا حياةً مستقيمة ينبغي ألا يقلق على أولاده من بعده، لأن الله عزّ وجل هو الذي سيحفظ له أولاده من بعده، أي عليك أن تستقيم وانتهى الأمر:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

وقال:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144))

(سورة الأعراف)

النقطة الثالثة: هي أن هذه السورة مدنية، والسور المدنية فيها تشريعات، والتشريع مكانه الطبيعي بعد معرفة المُشَرِّع، الأمر مكانه الطبيعي بعد معرفة الآمر، فإذا عرفنا الآمر وعرفنا الأمر تكاملنا، ولا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى جعل التشريع نصف الدين تماماً.

والنقطة الرابعة في سورة البقرة: أن كل قصص بني إسرائيل بأمراضهم، وتقصيرهم، وانحرافاتهم تنطبق علينا، ذكرت مرة أنّ هؤلاء الذين نسوا:

(حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (14))

(سورة المائدة)

معنى ذلك متى تكون بيننا العداوة والبغضاء ؟ إذا نسينا حظاً مما ذُكرنا به، كأن للعداوة والبغضاء قانون.

في مجتمعنا قواسم مشتركة كبيرة جداً ومع ذلك هناك عداوة وبغضاء:

قال تعالى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ (91))

(سورة المائدة)

وقال:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (14))

(سورة المائدة)

معناها في مجتمعنا قواسم مشتركة كبيرة جداً، ومع ذلك عداوة وبغضاء مع هذه القواسم المشتركة، وصف الله عزّ وجل بني إسرائيل فقال:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى (14))

(سورة الحشر)

يحوي المجتمع عشرات العوامل المشتركة، ومع ذلك عداوةٌ وبغضاء ما بعدها من عداوةٍ وبغضاء، هذا قانون ثالث، فأردت من هذا الدرس أن يكون مقدمةً للدروس القادمة التفصيلية، اسم البقرة، والأبُ الصالح، وبنو إسرائيل، لماذا كثر ذكرهم في هذه السورة ؟ والشيء الرابع المكي والمدني.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (02- 95):تفسير الآيتان 1 - 2، فضل القرآن الكريم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-07-03

بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة من تكريم الله للإنسان وهي أداة اتصالٍ راقية جداً:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة البقرة.

(الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

أيها الأخوة الكرام... الكتاب هو الذي يُحْفَظُ في السطور، ويُقرأ مدى الدهور، والقرآن هو الذي يُحفظ في الصدور، ويُقرأ، يغلب على القرآن أنه يُقرأ، إذاً يحفظ في الصدور، ويغلب على الكتاب أنه يكتب، ويحفظ في السطور ؛ فالقرآن والكتاب اسمان لشيءٍ واحد ؛ لكن هذا يُذَكِّرنا بقوله تعالى:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

البيان اللُّغة، واللغة من تكريم الله للإنسان ؛ أداة اتصالٍ بين أفراد النوع، أداة اتصال راقية جداً، أداةٌ يعبِّر بها الإنسان عن فكره وشعوره، أداةٌ اجتماعية ؛ يتَّصل الإنسان مع الآخرين عن طريق اللغة ؛ لو أن اللغة تُقرأ، لو أن اللغة تقتصر على أن تُلقى، وأن تُسمع، لما انتقلت ثقافةٌ من جيلٍ إلى جيل، ولا من أمةٍ إلى أمة، لذلك قال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4))

(سورة العلق)

البيان من أخص خصائص الإنسان:

اللغة حديثٌ واستماع، واللغة كتابةٌ وقراءة ؛ حينما مَكَّنَ الله الإنسان من أنْ يكتب اللغة، ومن أن يقرأ المكتوب، معنى ذلك أن هذه العلوم التي بين يدي الإنسان انتقلت من جيلٍ إلى جيل، ومن عصرٍ إلى عصر، وعن طريق الترجمة من أمةٍ إلى أمة ؛ فالإمام القُرطبي مثلاً صاحب التفسير المشهور، لو لم يكن هناك كتابة أين علمه ؟ ضاع بموته، فأيُّ عالمٍ صَبَّ علمه في كتاب، فهذا الكتاب انتفع به أبناء عصره الذين لم يلتقوا به، وانتفع به الذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة، وانتفعت به الأمم الأخرى عن طريق الترجمة، إذاً معنى قوله تعالى:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

البيان من أخص خصائص الإنسان، وهو من تكريم الله للإنسان ؛ عَلَّمك أن تنطق، وعلَّمك أن تفهم الكلام الذي ينطقه غيرك، وعلمك أن تكتب، وعلمك أن تقرأ المكتوب ؛ فلذلك الكتاب محفوظٌ في السطور، ويقرأ على مدى الدهور، والقرآن محفوظٌ في الصدور، ويُقْرَأُ بلسانٍ عربيٍ مبين.

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه:

أيها الأخوة... أما كلمة الكتاب.

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

هذه (أل) العهد، أيْ: هذا الكتاب الذي يتميَّز عن كتب أهل الأرض من آدم إلى يوم القيامة، أيُّ كتابٍ ألَّفه إنسان، أُدخل إلى أضخم مكتبةٍ في العالم، كل هذه الكتب في كفة، وهذا القرآن في كفةٍ أخرى؛ إنه كلام الله، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ؛ لذلك هذا الكتاب، هو كتابنا المقرر، هو أساس سعادتنا، هو منهجنا، هو دستورنا، هو حبل الله المتين، هو الصراط المستقيم، هو النور المبين ؛ لا تنس هذه المقولة " فضل كلام الله على كلام خلقه، اِقتنِ أعلى كتاب ألَّفه إنسان في العالم، المؤلف إنسان لكن هذا القرآن من عند خالق الأكوان.

دخل مغنٍ بريطاني شهير إلى مكتبة في إيطاليا فرأى فيها القرآن الكريم، فسأل صاحب المكتبة: من مؤلِّف هذا الكتاب ؟ رفع صاحب المكتبة يده إلى السماء، وأشار إلى الله عزَّ وجل، استهزأ هذا المغنِي بهذه الكلمة، واشترى الكتاب ليقرأه، ولينتقده، وليوبِّخ صاحب المكتبة على هذا الادعاء ؛ فلما قرأه آمن به، وترك الغناء، وصار من دعاة الإسلام، واشترى بثروته الطائلة، كل تسجيلاته، وأحرقها ؛ فهذا الكتاب كتاب خالق الأكوان، هذا كتابنا، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خيركم من تعلم القرآن و علمه)).

[البخاري عن عثمان]

خيركم على الإطلاق.

الجهاد الكبير هو نشر كتاب الله و تبيانه و شرحه و حَمْل الناس على تطبيقه:

الجهاد ذِرْوة سنام الإسلام، أعلى شيء في الإسلام الجهاد، وسمَّى الله نشر هذا الكتاب وتِبيانَه للناس، وتفسيره، وشرحه، و حَمْل الناس على تطبيقه سمَّى ذلك: جهاداً كبيراً، فقال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

والشقي كلُّ الشقي الذي جاء إلى الدنيا، وخرج منها، ولم يفهم كلام الله.

(ذَٰلِكَ الْكِتَابُ (2))

هذه (أل) العهد، أيْ: كتاب الله، هذا الكتاب متميِّز عن كتب بني البشر قاطبةً ؛ فما من كتابٍ على وجهِ الأرض إلا فيه خطأ، وفيه صواب، أما الكتاب الذي لا ريب فيه فهو هذا الكتاب، فلن تجد في هذا الكتاب حرفاً ثبت أنه خطأ، لأنه كلام خالق البشر.

ابتعاد القرآن الكريم عن الخلل لأنه كلام خالق البشر:

أنا أقول لكم هذه الكلمة: مهما كان المؤلف عظيماً، قد تكون معطيات العصر الذي أُلِّف فيه الكتاب واضحةً، فإذا قرأت كتابه بعد مئة عام وجدت فيه خللاً ؛ هذا الكتاب الذي أنزله الله على النبي صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرناً، هل في تقدُّم العلوم المُذهل في كل أنواع العلوم ؛ في الفلك، وفي الطب، وفي علم القارَّات، وفي الجيولوجيا، وفي التاريخ، هل هناك حقيقةٌ علميةٌ قاطعةٌ صَدَمت آيةً قرآنية ؟ مستحيل، لأنه كلام خالق البشر ؛ وليس هذا الكلام من عند النبي عليه الصلاة والسلام. مثلاً: قال تعالى:

(وَالْخَيْلَ (8))

والخيل أمام النبي..

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً (8))

(سورة النحل)

هذا الشيء موجود في الجزيرة العربية، لو كانت هذه الآية من صنع النبي، لانتهت عند هذا الحد..

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

لم يكن في عهد النبي طائرة، لم يكن في عهد النبي سيَّارة، ولم يكن في عهد النبي حَوَّامة، ولم يكن في عهد النبي مركبة فضائية، لكنه كلام خالق الكون، قال تعالى:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

(سورة النحل)

فالذي يركب طائرةً ويقرأ هذه الآية يرى أن الطائرة دخلت في هذه الآية، والذي يركب مركبةً فخمة ويقرأ هذه الآية يرى أن المركبة دخلت في هذه الآية، لأنه كلام خالق البشر.

من استوعب كلام خالق البشر سعد به في الدنيا والآخرة :

يقول الله عزَّ وجل:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

(سورة الحج)

الإنسان يعجَب، لِمَ لَمْ يقل الله عزَّ وجل:

(من كل فجٍ بعيد)

القصد أن الفج بعيد، لكن لأن الأرض كرة فإنك كلما ابتعدت عن إحدى نقاطها صار البعد عمقاً..

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (28))

(سورة النحل)

إذاً هذا الكتاب غير كتب أهل الأرض، وما أتعس الذي أمضى حياته مع كتبٍ من صنع بشر ؛ أمضى حياته في الأدب، في الشعر، في القصة، كل هذا من صنع البشر، أما إذا استوعب كلام خالق البشر سعد به في الدنيا والآخرة .

تميز القرآن الكريم عن كل الكتب السماوية السابقة:

شيءٌ آخر..

(ذَلِكَ (2))

و(أل) للعهد، أي أن هذا الكتاب متميزٌ عن كل الكتب السماوية السابقة، كيف ؟ اِئتمن الله البشر على الكتب السماوية السابقة لحكمةٍ أرادها، وكانت معجزة النبي شيئاً، والكتاب الذي أُنزل عليه شيءٌ آخر ؛ معجزة سيدنا عيسى أنه أحيا الموتى ؛ ومعجزة سيدنا موسى أنه ضَرَبَ البحر فكان طريقاً يبساً، والأفعى، والعصا، فالمعجزة شيء، والكتاب الذي نُزِّل عليه شيءٌ آخر، الكتب السماوية اِئتمن الله البشر عليها، بينما القرآن الكريم يتمَيَّز من بين الكتب السماوية أن الله تولى حفظه بذاته، قال:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9))

(سورة الحجر)

القرآن الكريم هو المُهَيمن على كل الكتب الأخرى:

لذلك لا يستطيع بشر أن يبدِّل حرفاً واحداً، ولا أن يبدِّل حركةً، ولا أن يضع آيةً مكان آية، وليس معنى حفظ الله عزَّ وجل لهذا القرآن أنه لا تجري محاولةٌ لتغييره، الآن في الإنترنت سور اِدّعى الذي وضعها أنها من سورة البقرة، رقم ثلاثة وعشرين، ولا علاقة لها بالقرآن إطلاقاً ؛ الأمر

يكشفه الأطفال، وفي درسٍ آخر إن شاء الله أقرأ عليكم هذه السور التي افتعلها أعداء الدين، وجعلوها كأنها سور من كتاب الله عزَّ وجل ؛ إنك إذا قرأتها أمام طفل يكشف أنها اِدِّعاء وكذب، أمام طفل من المسلمين ؛ إذاً هذا الكتاب كتاب الله عزَّ وجل يتميز عن بقية الكتب السماوية أن الكتب السماوية اِئتمن الله خَلْقَهُ على حفظها، فما الذي حصل ؟

(وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ (13))

(سورة المائدة: آية " 13 ")

أو بدلوا وحرَّفوا لأهوائهم، فالكتب السماوية السابقة غاب منها قسم وحرف وبُدل منها قسمٌ آخر، إذاً ليست هي كلمة الله الآن ؛ وكما أن الكتب السابقة أُنزلت على قومٍ معيَّنين لفترةٍ معينة ؛ بينما القرآن الكريم هو المُهَيمن على كل هذه الكتب..

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ (85))

(سورة آل عمران)

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ (33))

(سورة الصف)

القرآن جامعٌ لكل أحكام السماء من بدايات الرسالات حتى يَرِثَ الله الأرض ومن عليها:

إذاً:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

هذا الكتاب متميِّز على كل الكتب السماوية السابقة، وعلى كل الكتب التي ألَّفها بنو البشر قاطبةً..

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

بعضهم قال: القرآن جامعٌ لكل أحكام السماء، من بدايات الرسالات، حتى يَرِثَ الله الأرض ومن عليها، هذا الكتاب ليس للأمة العربية، ولا للمسلمين، بل هو لكلِّ أبناء الأرض قاطبةً، والله تولى بنفسه.. بذاته.. حفْظَ كتابه ؛ والعلماء يُضيفون على ذلك أنه من لوازم حفظ كتاب الله جلَّ جلاله حفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن سنة النبي مبيِّنة للقرآن، فإذا ضاع التفسير ضاع الأصل ؛ فإذا قلت: إن الله تولى حفظ القرآن الكريم، معنى ذلك أنه تولى أيضاً حفظ سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كيف تولى حفظها ؟ عن طريق علماء آتاهم الله قدراتٍ عاليةً جداً فمحَّصوا، ونَقَّبوا، ودققوا، وحفظوا سنة رسول الله الصحيحة.

تولي الله عز وجل بذاته حفظ القرآن الكريم :

يطمئننا الله عزَّ وجل أن هذا القرآن لن (لن تفيد تأبيد النفي) أي لن تصل إليه يد التحريف والتبديل، لذلك قال:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ (2))

إذا قرأته لا يمكن أن يتبادر إليك شكٌ طفيف أن هذه الكلمة ليست من القرآن، هذا الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم هوَ هو بين أيدينا، بسوره، وآياته، وكلماته، وحركاته، وسكناته..

(لَا رَيْبَ فِيهِ (2))

لأن الله بذاته تولى حفظ القرآن الكريم ، لذلك لا يمكن أن يطرأ عليه أي تغيير، لكن ليس معنى ذلك أنه لا تجري محاولات، تجري، بدأها مسيلمة الكذاب، فإذا قرأت ما صاغه، وادَّعى أنه وحيٌ من السماء لأخذك الضحك إلى مكانٍ بعيد.

الإعجاز في القرآن الكريم على أنواع منها :

1 - الإعجاز الإخباري:

أيها الأخوة الكرام... قد يسأل سائل: ما السبيل إلى أن أؤمن أن هذا القرآن من عند خالق الأكوان ؟ السبيل كلمة واحدة: إعجازه، لا يستطيع بنو البشر مجتمعين إلى يوم الدين أن يأتوا بآيةٍ واحدة إطلاقاً، فهذا الكتاب فيه إعجاز، والإعجاز أي أن البشر يَعْجزون عن أن يأتوا بمثله، أولاً فيه إعجاز إخباري..

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ (44))

(سورة آل عمران: آية " 44 ")

ما كنت لديهم، جاء القرآن الكريم بآيات تبيِّن، وتوضِّحُ التاريخ البشري بدقةٍ متناهية ؛ ففي مصر مثلاً كان هناك فراعنة، وفي حقبةٍ قصيرةٍ جداً حكم مصر ملوك، الحاكم الذي عاصر سيدنا يوسف جاء ذكره في القرآن ملك فقال:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ (54))

(سورة يوسف)

أما الذي عاصر سيدنا موسى كان فرعوناً:

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ (51))

(سورة الزخرف)

هناك دقة بالغة لأن هذه القصص سمَّاها العلماء: من إعجاز القرآن الإخباري، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

(سورة الروم)

إعجاز القرآن الإخباري يتناول الماضي والحاضر والمستقبل:

إعجاز القرآن الإخباري يتناول الماضي والحاضر والمستقبل ؛ قصة فرعون مع سيدنا موسى، وقصة سيدنا يوسف مع ملك مصر، وقصة أقوام عادٍ وثمود جاءت بتفصيلٍ شديد ودقةٍ شديدة، هذا اسمه: الإعجاز في الإخبار عن الماضي ؛ وفي القرآن الكريم إخبارٌ عن الحاضر البعيد مكانياً عن رسول الله ؛ وفي القرآن الكريم إعجازٌ إخباريٌ عن المستقبل، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

(سورة الروم)

وفعلاً في بضع سنين تزيد عن الثلاثة وتقِلُّ عن التسعة غلب الرومُ الفرسَ في أدنى الأرض، قال بعض علماء التفسير: أي في أخفض نقطةٍ من الأرض، ولم يكن أحدٌ يعلم قبل عشرات السنين أن غور فلسطين أخفض نقطةٍ في الأرض، عُرِفَ بعد اكتشاف أشعة الليزر أن غور فلسطين أخفض نقطة في الأرض إطلاقاً، والمعركة تاريخياً تَمَّت في غور فلسطين، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

(سورة الروم)

في القرآن الكريم إعجاز إخباري ؛ إخبار عن الماضي، وإخبار عن الحاضر، وإخبار عن المستقبل.

2 ـ الإعجاز العلمي:

وفي القرآن الكريم إعجاز علمي، مثلاً، اكتشف علماء الفيزياء الآن أن كل عنصرٍ في الأرض من دون استثناء ذرَّات، وفي الذرة نواة، وحول النواة مسارات، وعلى المسارات كهارب، قال تعالى:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40))

(سورة يس)

مثل آخر: اِكتشف أن جنس المولود ذكراً كان أو أنثى يحدده الحوين لا البويضة، ولا علاقة للبويضة بتحديد جنس المولود، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

(سورة الحج)

الأرض كرة.

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

(سورة النمل)

الأرض تدور، تمُرُّ الجبال مر السحاب ثلاثين كيلو متراً بالثانية، كل ثانية تقطع الأرض في دورتها حول الشمس ثلاثين كيلو متراً، في الدقيقة تقطع ألفاً وثمانمئة كيلو متر، في العشر دقائق ثمانية عشر ألف كيلو متر، نحن الآن مشينا عشرين ألف كيلو متر، من بداية الدرس وحتى الآن..

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (88))

(سورة النمل)

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، وإلى بضع عشراتٍ من السنين كان يُظَن أن الشمس ثابتة، والكواكب تدور من حولها، على أقل تقدير المجموعة الشمسية تدور حول الشمس، ثم اكتشف أن الشمس تجري، قال تعالى:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38))

(سورة يس)

يوجد بالقرآن إعجاز علمي ؛ لم يكن على عهد النبي طائرات، ولا صواريخ، ولا مناطيد، قال:

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ (125))

(سورة الأنعام)

ترى أنت السحاب سقفاً أبيضاً، فإذا ركبت طائرةً ترى السحاب من فوق جبالاً، ودياناً، هِضاباً، سهولاً.. كتضاريس الأرض تماماً.. وهذا ذكر في القرآن الكريم ؛ طبعاً أنا أعطيكم أمثلة على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الآن أصبح اختصاصاً اسمه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

فَهِمَ العلماء أن هذا البخار يصعد إلى السماء ويرجع مطراً، هذا المعنى الذي يتناسب مع معطيات ذلك العصر، ثم فهموا أن هذه الموجات الكهرطيسية تصعد إلى السماء فتردُّها طبقة الأثير، ولولا هذه الطبقة التي ترجع هذا البث لما كان هناك إذاعة ولا نقل صورة عبر الفضاء..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

ثم اكتشف العلماء أن كل كوكبٍ في الكون يسير في مسارٍ مُغْلَق، معنى مسار مغلق أنه يرجع إلى مكان انطلاقه بعد حين، فالصفة الجامعة المانعة الشاملة لكل الكون أن السماء ذاتُ رجعٍ..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

3 - الإعجاز البلاغي:

الطريقة كي تؤمن أن هذا القرآن كلام الله هو الإعجاز ؛ الإعجاز الإخباري، الإعجاز العلمي، الإعجاز البلاغي..

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (6))

(سورة هود)

احذف (مِن) الكلام ليس قرآناً، لأن من تفيد استغراق أفراد النوع، احذف (ما) و (إلا) ليس قرآناً، لأن أسلوب النفي والاستثناء يفيد الحصر والقصر، لو ألغينا النفي والاستثناء فقد ألغينا القصر، اِحذف (على).. ما من دابةٍ إلا الله يرزقها.. ليست قرآناً، لأن حذف (على) ألغى الإلزام الذاتي لله عزَّ وجل، قل: الدواب صار محدوداً (أل) العهد، بعض الدواب، الدواب الأهلية، أما جاءت دابة منكَّرة، مُنَكَّرة تنكير شمول ؛ قد تقف أمام آيةٍ ترى فيها إعجازاً بلاغياً، هنا استثناء، هنا حصر، هنا قصر، هنا تقديم، هنا تأخير، قال تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ (5))

(سورة الفاتحة)

إذا قال: نعبد إياك.. هل يختلف المعنى ؟ يختلف اختلافاً كبيراً، إذا قلت: نعبد إيَّاك يا رب، لا يمنع أن نعبد غيرك، أما إذا قلت:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ (5))

(سورة الفاتحة)

قدَّمت إياك على الفعل، أي لا نعبد إلا أنت..

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ (59))

(سورة الأنعام)

لـو قال: مفاتح الغيب عنده، فهي عنده، وعند غيره، أما حينما جاءت عنده قبل مفاتح الغيب، أصبح المعنى حصراً ؛ هذا موضوع طويل جداً، الإعجاز العلمي طويل جداً، يحتاج إلى أشهر، الإعجاز البلاغي يحتاج إلى أشهر، الإعجاز التاريخي، الإخباري، إعجاز النظم، شيء مذهل.

فيا أيها الأخوة الكرام... طريق الإيمان بهذا الكتاب هو الإعجاز.

أي فعلٍ من أفعال الله هو شهادة الله لنا أن هذا القرآن كلامه:

هناك شيء آخر: الذي أنزل هذا الكتاب، الذي أنزله يشهد لنا أنه كلامه، كيف يشهد لنا أن كلامه الذي أنزله ؟ من خلال التأويل، والتأويل بأدق التعاريف: وقوع الوعد والوعيد ؛ أي حينما يمحق الله مال المُرابي، محق مال المرابي شهادة الله لهذا المرابي قوله تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (279))

(سورة البقرة)

هو كلامه، محقُ مال المرابي شهادة الله للمرابي أن هذا القرآن كلامه ؛ والشاب الذي يؤمن بالله ويعمل صالحاً ويحيا حياةً طيبة، الحياة الطيبة التي يحياها الشاب هي شهادة الله له أن هذا القرآن كلام الله ؛ وحينما تنفِقُ من مالك فيزداد مالك، فزيادة المال شهادة الله لك أن القرآن كلام الله عزَّ وجل..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ (276))

(سورة البقرة)

أي فعلٍ من أفعال الله هو شهادة الله لنا أن هذا القرآن كلامه..

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ (40))

(سورة الحج)

يوجد توازن قُوى في العالم:

(لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ (40))

(سورة الحج)

فحينما أُلغي هذا التوازن عانت الشعوب ما عانت، عانت الأمَرَّين كان هذا التوازن بين قُوى الأرض نعمة من نعم الله العظمى، غفلنا عن هذه النعمة فعرفناها بفقدها ؛ كان التوازن نعمةً من نعم الله العظمى،

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض)

توازن القوى، شرق وغرب، فلما اختل هذا التوازن، وصار هناك قوة واحدة، فقَدْنا هذه النعمة ؛ اللهمَّ عرفنا نعمك بكثرتها لا بزوالها، لابدَّ من أن نعرف النعم، إما أن نعرفها بوفرتها أو بزوالها.

القرآن كلام الله وحبله المتين ومنهجه للعالمين:

شيءٌ آخر: هذا القرآن كلام الله، وحبل الله المتين، والصراط المستقيم، ومنهج ربِّ العالمين، والنور المبين، غنىً لا فقر بعده، ولا غنىً دونه، من أوتي القرآن فهماً وتفسيراً فرأى أن أحداً أُوتي خيراً منه فقد حقَّرَ ما عظَّمه الله عزّ وجل ؛ أهل القرآن أهل الله، أنت حينما تأتي إلى بيتٍ من بيوت الله لتتعلم كلام الله فلا شيء في حياتك يعلو على هذا الهدف ؛ لا شيء، أي أهم ألف مرة من أن

تؤدي امتحاناً جامعياً يُبنى عليه مستقبلك، إنك تتعرف إلى كلام الله، إلى منهج الله، إلى افعل ولا تفعل، هذا حرام وهذا حلال، فلذلك يقول الله جلَّ جلاله:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (1))

(سورة الأنعام)

نحمد الله على أنه أوْجد الكون، وفي المستوى نفسه:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف)

أي أن الكون كلُّه في كَفَّة وهذا القرآن في كفة، الكون خَلْقه والقرآن كلامه، لا معنى لخلق الكون من دون منهجٍ تسير عليه ؛ يتَّضحُ هذا في قوله تعالى:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3))

(سورة الرحمن)

ترتيب تعليم القرآن مع خلق الإنسان ترتيبٌ رُتَبي وليس ترتيباً زمنيَّاً:

يا رب كيف تعلِّم الإنسان القرآن قبل أن تخلقه ؟ ليس هذا هو المعنى..

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3))

(سورة الرحمن)

المعنى: أن ترتيب تعليم القرآن مع خلق الإنسان ترتيبٌ رُتَبي، وليس ترتيباً زمنيَّاً، بمعنى أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهجٍ يسيرُ عليه، اِذهب إلى بعض الشعوب، ماذا يعبد شعب في الهند بأكمله ؟ البقر، وشعبٌ آخر يعبد الجرذان، وعندي تحقيقٌ علمي لمجلةٍ محترمةٍ جداً فيها صورٌ لا تُصدَّق، معبد ضخم جداً.. إله هذا المعبد الجُرذان.. لذلك قال الله تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف)

نحن نعبد الله عزّ وجل، نعبد خالق السماوات والأرض، نعبد الذي بيده ملكوت كُلِّ شيء، نعبد الذي إليه يرجع الأمر كله، نعبد الذي إذا قال لشيءٍ: كن فيكون، نعبد القوي، نعبد الغني، نعبد صاحب الأسماء الحُسنى، والصفات الفُضلى.

النعم الكبرى التي أنعمها الله عز وجل على الإنسان:

لذلك أحد أكبر النعم بعد نعمة الوجود نعمة الهدى ؛ هناك ثلاث نعم ؛ نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهُدى والرشاد، يؤكد هذا المعنى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1))

(سورة الكهف)

من أجل أن تطمئن أن هذا الكتاب الذي بين يديك هو نفسه الكتاب الذي أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من دون زيادةٍ ولا نقص، قال تعالى:

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ (27))

(سورة الكهف)

لا تُبَدَّل، ولا تُغَيَّر، ولا تُحَرَّف، ولا يُضاف عليها، ولا يُحذف منها إطلاقاً.. تولّى الله بذاته حفظ كتابه..

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ (27))

(سورة الكهف)

الله تعالى دعا الإنسان ليؤمن به طوعاً ليكون إيمانه اختياراً لا إكراهاً :

أنت حينما تؤمن طوعاً ترقى به، لو أراد الله عزَّ وجل أن نؤمن به قسراً لفعل، ولكن هذا لا يُسعدنا، لو أراد الله أن نؤمن بهذا القرآن قسراً لكان ذلك، ولكن هذا الإيمان القَسري لا يسعدنا، قال تعالى مخاطباً نبيه محمد:

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4))

(سورة الشعراء)

لكن الله دعانا لنؤمن به طوعاً، لنرقى بهذا الإيمان، ليكون إيماننا اختياراً لا إكراهاً:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (256))

(سورة البقرة)

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ: آية تدل على إعجاز الله عز وجل في قرآنه :

يقسم ربنا جلَّ جلاله رحمةً بنا فيقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75))

(سورة الواقعة)

لا يعرف معنى هذه الآية إلا من درس الفلك ؛ أذاعت محطة أخبار عالمية خبراً من سنة ونصف أنه: تمّ اكتشاف مجرة تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية ؛ أقرب نجم مُلتهب للأرض يبعُد عنا أربع سنوات ضوئية، أجْرِ مساءً على الآلة الحاسبة ما معنى أربع سنوات ضوئية ؟ أي (ثلاثمئة ألف كيلو متر بالثانية × 60 بالدقيقة × 60 بالساعة × 24 باليوم × 365 بالسنة × 4 هذا الرقم قسمه على مئة)، عندنا سيارة نريد أن نصل بها إلى هذا الكوكب، السرعة مئة، ثم قَسِّم هذا الرقم على الساعات، أي 24 تعرف عدد الأيام، ثم قسم هذا الرقم على 365، يظهر معنا أننا نحتاج

لأن نصل إلى أقرب نجم ملتهب إلى خمسين مليون سنة، وبإمكانك أن تجري هذا الحساب مساءً، تقود سيارة خمسين مليون سنة لتصل إلى أقرب نجم ملتهب للأرض، هذه المجرة الأخيرة، ثلاثمئة ألف بليون، أي ثلاثمئة ألفْ ألف مليون سنة ضوئية ؛ قال الله عزّ وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

فما جواب هذا القسم ؟

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77))

(سورة الواقعة)

جواب هذا القسم إن هذا كلامي يا عبادي.

زوال الكون أهون على الله من ألاّ يحقِق وعده للمؤمنين:

ذكرت قبل يومين في حفل ـ بدأت الحفل هكذا ـ قلت: زوال الكون أهون على الله من ألاّ يحقِق وعده للمؤمنين:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ (55))

(سورة النور)

أين الاستخلاف ؟

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ (55))

(سورة النور)

أين التمكين ؟

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ (55))

(سورة النور)

أين الاطمئنان ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا (38))

(سورة الحج)

أين الدفاع ؟

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141))

(سورة النساء)

لهم علينا ألف سبيلٍ وسبيل..

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ (7))

(سورة محمد)

أين النصر ؟ زوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعده للمؤمنين.

إضاعة الصلاة و اتباع الشهوات تبعد الإنسان عن الله عز وجل:

ولكن:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59))

(سورة مريم)

الساعة الخامسة قيام ليل الحمد لله !!

قيام ليل بقنوات المجاري، لا بالتحليق مع الله عزّ وجل..

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59))

هذا هو الجواب، فلذلك:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77))

(سورة الواقعة)

فضل القرآن الكريم :

إذا عرف الإنسان قيمة هذا القرآن لا ينام الليل، لا يغيب عن درس تفسيرٍ واحد، كلام الله دستورنا، منهجنا، نور الله المبين، صراطه المستقيم، حبلُ الله المتين، هو الغِنَى، هو العِز، كلكم يعلم إذا تفوَّق عالم في القرآن الكريم ومات ترتج الدنيا له، مات وأخذ معه كُلَّ شيء، أخذ معه كل الخير، أما أهل الدنيا إذا ماتوا فيتركون كل شيء ؛ الذين عرفوا الله، وأمضوا حياتهم في الدعوة إليه يأخذون معهم كل الخير، إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً، تعلَّموا القرآن وعلموه، اِفهموا أحكامه، ولقنوا أحكامه لأبنائكم، وربوا أبناءكم على هذا القرآن الكريم، وعلى حُبِّ نبيِّكم، وعلى حب صحابته الكرام.

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ (2))

(سورة يونس)

يشكك أكثر أعداء الدين في هذا القرآن أنه جاء به بشر، ولكن أنتم يا من تشكّكون بهذا القرآن ألا تتبعون نبيًّا من بني البشر ؟

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا (2))

(سورة يونس)

هذه سُنَّة الله في خلقه، أنزل الله هذا القرآن على سيد الخلق، وحبيب الحق، أنزله على أمين وحيِّ السماء..

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1))

(سورة هود)

عبادة الله عز وجل فَحْوى القرآن كُلّه:

هذا الكتاب كله ملخَّصه كلمة واحدة: ألا تعبدوا إلا الله:

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2))

(سورة هود)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (110))

(سورة الكهف)

فَحْوى هذا القرآن كُلّه:

(أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (110))

(سورة الكهف)

هذه آية تلخيص، يلخِّص الله عزّ وجل لنا قرآنه كله..

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف)

من عمل أعمالاً صالحة ألقى الله في قلبه الأمن و الطمأنينة و السعادة:

قد تنتظر سنوات وسنوات، ولا تستطيع أن تقابل مَلِكاً، لكن ملك الملوك يقول لك:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف)

ثمن اللقاء عملٌ صالح، اِجعل عملك صالحاً فأنت مع الله، تلقَ الله في الدنيا قبل الآخرة، يُلقي عليك أنواره، يُلقي عليك تجليّاته، يملأ قلبك أمناً وطمأنينةً، يملأ قلبك سعادةً، يملأ قلبك رضاً.

جاءت سيدَنا الصديقَ استغاثةٌ من أحد قواده في بلاد الفرس ـ في نهاوند ـ المسلمون ثلاثون ألفاً، والأعداء مئةٌ وثلاثون ألفاً، أرسل سيدنا خالد إلى سيدنا الصديق يطلب منه النجدة، بعد حين جاءت النجدة، أقل شيء ثلاثون ألفاً مع الثلاثين، أو خمسون ألفاً، أو سبعون ألفاً، فكانت النجدة رجلاً واحداً اسمه القَعْقَاع، عندما وصل إليه نظر إليه فقال له: أين النجدة ؟ فقال له: أنا، معي هذا الكتاب فاقرأه، فتح الكتاب: " من عبد الله أبي بكر إلى خالد بن الوليد، أحمد الله إليك، يا خالد لا تعجب أن أرسلت إليك واحداً، فو الذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يُهزم "، وانتصر الجيش وفيه القعقاع، القرآن يصنع بطولات، القرآن يجعل منك ألفاً، القرآن يجعل منك مئة ألف، أنت واحد، هذه كلها حقائق.

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً:

لذلك:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2))

(سورة هود)

فَحْوى هذا القرآن كله:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (2))

(سورة هود)

الأدق من ذلك أنّ فحوى دعوة الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم هو التوحيد..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

قصص القرآن الكريم أحسن القصص:

ما من مكتبة الآن في الأرض إلا فيها قصص، ساعة تسمى أدباً مكشوفاً، وساعة تسمى أدباً واقعياً، فالإنسان البعيد عن الله في الوحل، الإنسان ساقط، الإنسان شهواني، الإنسان خائن، الإنسان أناني، الإنسان متعجرف، يقول الله عزّ وجل:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (3))

(سورة يوسف)

اِقرأ قصة سيدنا يوسف تَسْمُ نفسك ـ إنسان مبدأ ـ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال فقال:

(أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28))

(سورة المائدة)

كان عبداً فجعله الله مَلِكاً بطاعته لله، وقف سيدنا موسى مع الحق، ولم يعبأ:

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ (15))

(سورة القصص)

وخرج من مصر خائفاً يترقب، وصل إلى سيدنا شُعَيب، وزوَّجه ابنته، وعاد إلى فرعون رسولاً:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (7))

(سورة القصص)

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7))

(سورة القصص)

هذا القرآن الكريم ؛ امرأة فرعون آسية مَثَل أعلى لكل النساء، إن إيمان المرأة مستقلةٌ به عن زوجها، أكثر النساء الفاسقات يقُلن: هكذا يريد زوجي، سوف تُسألين أنت وحدك عن إيمانك:" لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ".

فرعون وما أدراكم ما فرعون، الجبار الطاغية ما استطاع أن يحمل امرأته على أن تؤمن به..

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11))

(سورة التحريم)

قصص القرآن الكريم تغطي جميع الأحوال التي يمر بها البشر :

أيها الأخوة: القرآن فيه قصص، إذا قرأ أحدهم قصة نوح وكان عنده ابن سيئ يمتلئ قلبه جبراً، ومن يقرأ قصة سيدنا إبراهيم وعنده أبٌ سيئ:

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي (43))

(سورة مريم)

ومن كانت زوجته سيئة جداً فليصبر عليها..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ(10))

(سورة التحريم)

والتي عندها زوجٌ شرير، فلها في امرأة فرعون القدوة..

(رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ (11))

(سورة التحريم)

والذي يحتل مكانة عَلِيَّة في المجتمع بإمكانه أن يكون صالحاً، قصة ذي القرنين، مكَّنه الله في الأرض وجعله مؤمناً كبيراً صالحاً، والذي لا ينجب الأولاد، سيدنا زكريا، وإذا دخل إنسان السجن ظُلماً، سيدنا يوسف، نبيٌّ كريم دخل السجن، ليس السجن وصمة عار بحق الإنسان أحياناً، فإذا قرأت القرآن الكريم تجد أن كل قصة دواء، إنسان ظُلِم فرضاً له في سيدنا يوسف أسوةٌ حسنة ؛ امرأةٌ عفيفةٌ طاهرةٌ تكلَّم الناس في عرضها ظلماً وزوراً لها في السيدة عائشة أسوة حسنة ؛ كأن قصص القرآن تُغَطِّي كل الأحوال..

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (3))

(سورة يوسف)

الآيات القرآنية تعطي الإنسان إيماناً فطرياً:

أما إذا قرأت مثل هذه الآيات:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ (2))

(سورة الرعد)

هل يستطيع أحدٌ من بني البشر أن يدَّعي ذلك ؟ إلا أن هذا كلام الله عزّ وجل، أي أنت بالفطرة إذا قرأت هذه الآية:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ (2))

(سورة الرعد)

من يستطيع من بني البشر أن يدَّعي ذلك ؟ هذه الآيات تُعطيك إيماناً فطرياً، وهذا القرآن في النهاية:

(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (1))

(سورة إبراهيم)

الكافر في ظلام، في ظُلُماتٍ بعضها فوق بعض، وأما المؤمن إذا قرأ القرآن فهو على بيّنةٍ من ربِّه، إنه في نور الله عزّ وجل، حتى إنّ بعضهم قال: الله نور السماوات والأرض، نوَّرها بهذا القرآن الكريم، بيَّن، ووضَّح.

أعلى خُلُقٍ على الإطلاق أن يتخلق الإنسان بأخلاق القرآن الكريم:

اقرأ القرآن تعرف أنك المخلوق الأول ، اقرأ القرآن تعرف أن هذه الدنيا لعبٌ، ولهوٌ، وزينة، وأن الآخرة هي دار القرار، اقرأ القرآن تعلم أن العمل الصالح هو رأس مالِكَ في الدنيا، اقرأ القرآن تعلم أن أعلى خُلُقٍ على الإطلاق أن تتخلق بأخلاق القرآن ؛ سُئلت السيدة عائشة عن أخلاق رسول الله ؟ قالت: كان خلقه القرآن، فأنت إذا قرأت القرآن، تلوْتَه حق تلاوته، فهمتَ آياته، تدبَّرْتها، وعملت بها سعدت في الدنيا والآخرة، كنت في ظلام البعد وظلام الجهل، فانتقلت إلى نور العلم والمعرفة، والدعاء: " اللهمَّ أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، من وحول الشهوات إلى جنَّات القربات ".

فاليوم:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

إن شاء الله في الدرس القادم سنتابع قوله تعالى:

(لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (03- 95):تفسير الآية 2، أحاديث عن أهمية قراءة السورة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-07-10

بسم الله الرحمن الرحيم

الشهوات تدفع الإنسان إلى الحركة لأن السِمة العامة للإنسان أنَّه حَرَكيّ:

لا زلنا في قوله تعالى :

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

فكلمة (ذلك) ذا: اسم إشارة، فيها إشارةٌ إلى هذا القرآن الكريم، أما هذه (اللام) فيسميها النُحاة لامَ البعد، أو لام التعظيم، وذاك غير ذلك.

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

الكاف للخطاب، فالله سبحانه وتعالى يشير إلى هذا الكتاب، ويبيِّن لنا عظمته، ويخاطب به جميع الناس، الشيء الذي ينبغي أن نقف عنده وقفةً متأنية كلمة:

(هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

أيها الأخوة الكرام الإنسان حركة، لماذا ؟ لأن الله أودعَ فيه الشهوات، فالشهوات تدفعه، حاجته إلى الطعام تدفعه إلى العمل، حاجته إلى المرأة تدفعه إلى الزواج، أو إلى طريقٍ آخر، حاجته إلى تأكيد الذَّات تدفعه إلى التفوّق، فهذه الحاجات التي أودعها الله في الإنسان تجعله يتحرَّك، فالسِمةُ العامة للإنسان أنَّه حَرَكيّ ؛ أما هذا الكأس فلا يتحرك لو وضعناه في هذا المكان مئات السنين، لأنه لا يحتاج إلى شيءٍ يدفعه ليبقى موجوداً، لا يحتاج إلى أن يزهو على أقرانه، لا يحتاج إلى طرفٍ يُكَمِّله ؛ الجماد ساكن، بينما الإنسان متحرك.

خالق الإنسان وحده هو الذي يرسُم للإنسان هدفاً لأن الإنسان ليس أهلاً لذلك:

طبيعة الإنسان متحركة ؛ سبب هذه الحركة كما قال الله عزَّ وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ (14))

(سورة آل عمران)

هذه الشهوات التي أُودعت في الإنسان تجعله يتحرَّك، الآن نحو ماذا يتحرك ؟ هنا السؤال، ما دام هناك حركة فهناك هدف، من هي الجهة التي تَرْسُمُ له الهدف الصحيح ؟ هي الجهة الخالقة ؛

الإنسان أحياناً يرسم لنفسه هدفاً، هدفاً غير صحيح، غير نافع، غير مفيد، وقد يكون هدفاً مُدَمِّراً، فالإنسان ليس أهلاً أن يرسم لذاته هدفاً ؛ رُسِمَ الهدف، ما هو الطريق المناسب لهذا الهدف ؟ قد أسلُكُ طريقاً وعراً، قد أسلك طريقاً لا يوصلني إلى هذا الهدف، قد أسلك طريقاً طويلاً، من هي الجهة ـ مرةً ثانية ـ المؤهَّلة كي ترسم لي أقصر طريق وأسلم طريق ؟ الحقيقة خالق الإنسان وحده هو الذي يرسُم لهذا الإنسان هدفاً، وهو الذي يرسم له طريقاً؛ أما لو رسم الإنسان هدفاً، فالأهداف متحركة، والأهداف متبدِّلة، والأهداف غير ثابتة، والأهداف مِزاجية أحياناً ؛ هؤلاء البشر أمامكم منذُ آلاف السنين ؛ انغمس أناسٌ في الشهوات إلى قِمم رؤوسهم، وقدَّس أناسٌ العقل، فكان العقل سبب دمارهم، قدس أناسٌ العادات والتقاليد فكانت العادات والتقاليد سبب تخلفهم، أناسٌ قَدَّسوا المادة، أناسٌ قدَّسوا الروح، أناسٌ قهروا النفس، رسمت الشعوب والأمم أهدافاً لذواتها، وكانت الأهداف غير صحيحة ؛ ادَّعت شعوبٌ أنها الشعب المختار في الأرض، فأرادت أن تَقْهر بقية الشعوب، فدُمِّرت وانتهت، الآن هدف الشعوب الغربية المُتعة بأي طريق، وبأية وسيلة ؛ قضت المتعة عليها، وإذا كانت هذه الدول تقوم فهي تقوم على أدمغة الآخرين، لا على أدمغة أبنائها.

لا بدَّ أن تستهدي الله بالهدف الذي تسعى إليه وبالطريق الموصل إلى هذا الهدف :

أوَّل نقطة في هذا الدرس: مَن هي الجهة المؤهَّلة لأن ترسم لهذا الإنسان هدفاً ؟ الله جلَّ جلاله، من هي الجهة المؤهَّلة التي ترسم لهذا الهدف طريقاً ؟ الله جلَّ جلاله، كلمة (هُدًى) دقق، إنسان وصل إلى مدينة ولا بدَّ أن يلتقي بشركة، ولا يعرف أين هذه الشركة، إذاً هو يحتاج إلى دليل، يحتاج إلى هادي، هو مهتدٍ، ويحتاج إلى هادٍ، والهدف الشركة والطريق ؛ كلمة هُدى تعني: الهدف والطريق والهادي والمهتدي، المهتدي أنت، الهادي، والهدف، والطريق من عند الله عزَّ وجل، فكل إنسان استهدى الله بتحديد الهدف، واستهدى الله بتحديد الطريق نجح، وأفلح، وفاز، ونجا، خلافاً للإنسان الذي وضع هدفاً من عنده ؛ هناك إنسان هدفه المتعة، وإنسان هدفه المال، وإنسان هدفه العلُوّ في الأرض، وإنسان هدفه موضوع معيَّن، فكل إنسان ينصرف إلى الهدف الذي رسمه ؛ لكن متى تُخَيِّبُهُ هذه الأهداف ؟ في النهاية، حينما يكتشف أن المال ليس بشيء، جعله هدفاً في مقتبل حياته، قَدَّسه، باع من أجله دينه وعِرضه، وصل إلى المال، ثم اكتشف أن هذا الهدف سخيف، متى يكتشف هذا ؟ بعد فوات الأوان وهو على فِراش الموت ؛ أدق فكرة في هذا الدرس أنه لا بدَّ من أن تستهدي الله بالهدف الذي ينبغي أن تسعى إليه، ولا بدَّ من أن تستهدي الله بالطريق الموصل إلى هذا الهدف.

((يا عبادي، كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيتُه، فاسْتَهدُوني أهْدِكم))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

لاحظ هذه الشعوب فيما حولنا، صار العالم الآن قرية، العالم بيت، العالم الآن غرفة واحدة، شعوب بمئات الملايين تعبد البقر، شعوب تعبد ذواتها، شعوب تقدِّس العقل إلى درجة الحماقة، شعوب تقدس الشهوة، شعوب تقدس التاريخ والعادات والتقاليد، فهذه الشعوب رسمت أهدافاً لكنها ضلَّت سواء السبيل؛ من هو الناجح ؟ من هو الرابح ؟ من هو المُفْلح ؟ هو الذي سأل الله عن الهدف الصحيح ؛ الهدف هو الجنة، لأن الإنسان خُلِق للجنة، والطريق طاعة الله عزَّ وجل.

فكلمة

(هُدًى)

أي هناك هدف، وهناك حركة نحو الهدف، وهادٍ، و مهتدٍ، أربعة أركان لكلمة الهُدى، فأنت المهتدي، والهادي هو الله، يهديك إلى الهدف الصحيح، ويهديك إلى الطريق الصحيح ؛ والله جلَّ جلاله هدى أنبياءه ورسله إلى الأهداف الصحيحة، فَسَلِموا، وسعدوا هم وأتباعهم في الدنيا والآخرة، والذين شردوا عن طريق الدين رسموا أهدافاً أخرى.

آياتٌ من القرآن متعلِّقة بالهدى :

إذا نظرت أيها الأخ الكريم إلى شارع مزدحم بالناس تجد أن في بال كل إنسان هدفاً يسعى إليه، السعيد والرابح والناجي هو الذي تطابَق هدفه مع الهدف الذي رسمه الله لهذا الإنسان لذلك أيها الأخوة هناك آياتٌ متعلّقة بالهدى مهمةٌ جداً ينبغي أن تكون تحت سمعنا وبصرنا:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

هل هناك ثمرة بعد هذه الثمرة ؟

(فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ (38))

مِن المستقبل كله:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

على الماضي كله:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

وقال:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، اِجمع الآيتين، من يتبع هدى الله عزَّ وجل لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت.

الهدى مبذول لكل الناس:

الهدى الحقيقي، الفوز الحقيقي، المعرفة الحقيقية.

(قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ (73))

(سورة آل عمران)

لا يمكن أن يوصف إنسان بأنه مهتدٍ إن لم يعرف الله، قد يتفوق في الدنيا، ولكنه ليس مهتدياً، إن الهدى الحقيقي الهدى المنجي الهدى المسعد (قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ) فلا يوجد إلا حل واحد ؛ إما أنك مع الله، وإما أنك مع الهوى.

(قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ (73))

هناك آية أخرى:

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى (120))

(سورة البقرة)

لذلك قد تجد إنساناً ذكياً لكن لن يكون الإنسان عاقلاً إلا إذا اهتدى بهدي الله:

((كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيْتُه، فاسْتَهدُوني أهْدِكم))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

هذا الهدى مبذول لكل الناس..

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (88))

(سورة الأنعام)

ألزم الله سبحانه وتعالى نفسه بهداية البشر :

الله عزَّ وجل قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

ألزم الله سبحانه وتعالى نفسه بهداية البشر، هداهم بهذا الكون، الكون كلُّه يدلُّ على الله، وهداهم بهذا القرآن، وهداهم بالعقل، وهداهم بالفطرة، وهداهم بأفعاله ؛ أفعاله تدل عليه، والفطرة مجبولة على الإيمان به، والعقل مركبٌ على مبادئ توصله إلى الله عزَّ وجل، وكل ما في الكون يدل على الله، يدل على الله خالقاً ومربياً ومسيراً، موجوداً وواحداً وكاملاً ؛ فلذلك أيها الأخوة أنت متحرك شئت أم أبيت، لا يوجد حل وسط، هناك مَلَكٌ وهناك شيطان، الملك يُلْهم والشيطان يوسوس ولا بدَّ من أن تستجيب لأحدهما لأنك كائن متحرك، إذاً هناك هدف، الهدف إما أنه من صنعِك، وإما أنه من الله عزَّ وجل، إذا كان من صنعِك في الأعم الأغلب فالهدف غلط، يصاب الإنسان بخيبة أمل حينما يكتشف أنه عاش عمراً مديداً، وقد ضلّ سواء السبيل:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

الإنسان مخلوقٌ للجنة وطريقُها طاعة الله عزَّ وجل:

أيها الأخوة ورد في بعض الآثار أن الكافر حينما يأتيه ملك الموت يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا من شدة الندم.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(15))

(سورة الزمر)

أخطر شيء أن تعرف إلى أين تتحرك ؟ لجمع المال فقط من طريقٍ مشروع أو غير مشروع، هذا ضلال، تتحرك لتكون منزلتك عّلية بحقٍ أو بباطل، لتستعلي على الناس، هذا ضلال، تتحرك لتنغمس في المتع الرخيصة إلى أن يأتي الموت هذا ضلال ؛ ما الهدف ؟ متعة، مال، مكانة، استعلاء، ما الهدف؟ الهدف الحقيقي أنت مخلوقٌ للجنة، وطريقُها طاعة الله عزَّ وجل، يجب أن تُصْغي إلى خالقك الذي رسم لك الهدف، والدليل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون (56))

(سورة الذاريات)

وقال:

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (119))

(سورة هود)

وقال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

البشرية قسمان ؛ إنسان استهدى الله فهداه، وإنسان شرد عن الله:

هذا القرآن هُدى، يحتاج الإنسان في حركة الحياة إلى هدف فرَسَمَ له القرآن الهدف، ويحتاج الإنسان في سعيه نحو الهدف إلى طريق فرسَمَ له القرآن الطريق، وهذا القرآن كلام الله عزَّ وجل، إذاً يمكن أن نقَسِّم البشرية إلى قسمين ؛ إنسان استهدى الله فهداه، وإنسان شرد عن الله، والشرود عن الله آلاف الأنواع، أنواع منوعة، التاريخ أمامكم والشعوب من حولكم والأخبار بين أيديكم، أكثر الشعوب تسير في طريق مسدودة، لو أنها ازدهرت في حياتها الدنيا، لو أنها ـ كما يقولون ـ سخَّرت

الطبيعة، لكنهم حينما يأتي ملك الموت يفاجؤون أنهم خلقوا لحياة أبدية، وأن هذه الحياة الدنيا هي إعداد لتلك الحياة، فجعلوها مقراً، وجعلوها منتهى أمانيهم، ومَحَطَّ رحالهم، فضلوا سواء السبيل.

أيها الأخوة لا تنسوا هاتين الآيتين:

(فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

وقال:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

وقال:

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى (120))

(سورة البقرة)

هو الهدى وحده، الحق لا يتعدد.

هناك طريقان إما أن تستجيب لأمر الله عزَّ وجل وإما أن تستجيب لهواك :

دققوا في هذه الآية:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ (50))

(سورة القصص)

إن لم تستجب لرسول الله فأنت على الباطل قطعاً، هناك طريقان إن لم تكن على أحدهما فأنت على الثاني حتماً ؛ إما أن تستجيب لأمر الله عزَّ وجل، وإما أن تستجيب لهواك، إما أن تكون على طريق الحق، وإما أن تكون على طريق الباطل.

الهدى كما قلت قبل قليل مبذول، كُلُّ شيءٍ يدلك على الله إن أردت الهدى ؛ فإن لم ترد الهدى لو التقيت بالأنبياء جميعاً، ورأيت معجزاتهم جميعاً، وكل شيء أمامك واضح فلن تبلغ الهدى، الشيء الذي يلفت النظر أن بعض العلماء في أوربا أو أمريكا اطّلعوا على حقائق مذهلة في خلق الإنسان أو في الأكوان، اطلعوا على حقائق مذهلة، لكنْ لماذا لم يؤمنوا ؟ لأنهم ما أرادوا الهُدى، ولو أرادوا الهدى لوصلوا إليه، القضية قضية قرار، فإما أن تتخذ قراراً بالبحث عن الحقيقة، وعندئذٍ كلُّ شيءٍ يوصلك إليها، وإما أن تعزف عن الحقيقة، ولو رأيت الأنبياء جميعاً، واستمعت إليهم جميعاً، ورأيت معجزاتهم جميعاً، ورأيت كتاباً ينزل من السماء، ورأيت ناقةً خرجت من الجبل، ورأيت بحراً أصبح طريقاً يبساً، ورأيت العصا أصبحت أفعى أو ثعباناً، ورأيت النار تمتنع عن إحراق إبراهيم لن تستفيد شيئاً، إلا أن تتخذ قراراً من الداخل بالبحث عن الحقيقة.

أنواع الهداية:

أيها الأخوة قال العلماء: هناك هداية دلالة، وهناك هداية توفيق، وهناك هداية مصلحة، كيف ؟ نحن بني البشر هدانا الله عزَّ وجل إلى مصالحنا، يحتاج الإنسان إلى الطعام، فيشعر بالجوع، الإحساس بالجوع هداية إلى المصلحة، لو أن الإنسان يجوع دون أن يشعر بالجوع لمات، يوجد عند الإنسان جهاز توازن لو اختل توازنه يستعيد توازنه، فالحفاظ على التوازن هذه مصلحة ؛ عينا الإنسان، وأذناه، وأنفه، وحواسه كلها تهديه إلى ما حوله، أنت موصول مع المحيط الخارجي بهذه الحواس.

أحياناً قصة لها دلالة، إنسان يقود سيارته من حمص إلى دمشق، وهو في حديثٍ ممتعٍ مع صديقه لم يلتفت إلى مشير الحرارة، ارتفعت الحرارة، واحترق المحرِّك لخلل أصابه ؛ قال لي: لو نظرت إلى اللوحة مرة واحدة، ورأيت الحرارة مرتفعة لوقفت ووفرت ثلاثين ألفاً ؛ لم ألتفت إلى اللوحة لأنني منغمس في حديث ممتع مع صديقي فاحترق المحرك، اللوحة إذاً ناقصة، لأن المؤشر يعطي حركة فهو يحتاج إلى نظر، وتحدث مشكلة إذا غفل السائق عن النظر للمؤشر، فما قولك بعداد له صوت ؟ يمكن أن ترى، ويمكن أن تسمع وهو أبلغ، فإذا كان الإنسان ضعيفَ السمع يحتاج إلى ضوء، عداد فيه ضوء، وصوت، وحركة يكون أقوى.

1- هداية المصالح:

جهازنا الذي زودنا به ربنا عز وجل هذا الجهاز المعقد هداك إلى مصالحك، تجد الإنسان إذا جاع يبحث عن الطعام، إذا كان الطعام فاسداً تقيؤه، آلية التقيؤ دقيقة جداً ؛ يقوم جهازه وهو نائم بآليات عجيبة جداً، لسان البلعوم يتحرك وأنت نائم حركة معقدة، ويأتيه إشارة من الفم إلى الدماغ أن هناك لعاباً، فالدماغ يعطي أمراً، لسان المزمار هذا يغلق القصبة الهوائية إغلاقاً تاماً ويفتح طريق المريء، فيدخل هذا اللعاب في مري الإنسان وأنت نائم، فالإنسان مبني بناء دقيقاً جداً.

لو دخل جرثوم هناك جهاز المناعة المكتسب، جهاز دقيق جداً، لمجرد دخول جرثوم تخرج عناصر استطلاعية من جهاز المناعة تتصل بهذا الجرثوم، وتكشف هويته، وتأخذ شفرته الكيماوية وتعود إلى معامل صنع السلاح العقد الليمفاوية ؛ تهيئ هذه العقد سلاحاً مضاداً، تأتي عناصر ثالثة مقاتلة تحمل هذا السلاح، تنطلق إلى الجرثوم وتقاتله فتقتله، ثم تأتي عناصر خدمات تزيل هذه الجثث من ساحة المعركة، وأنت لا تشعر.

هداية المصالح واضحة جداً عند الحيوانات:

إنسان رأى أفعى، هذه الصورة انطبعت على شبكية عينه، شبكية العين فيها إحساس نُقِلت إلى الدماغ، الدماغ فيه إدراك بحسب المفاهيم والخبرات السابقة، يدرك الدماغ الخطر ويتصل بملكة الجهاز الهرموني عن طريق ضابط اتصال هو جسم تحت السرير البصري ؛ الدماغ ملك والنخامية ملكة، ملك وملكة لا بدَّ أن يلتقيا عن طريق وسطاء ؛ ترسل الملكة أمراً إلى الكظر أن هناك خطراً ليتصرَّف، فيرسل الكظر أمراً إلى القلب ليرفع ضربات القلب، إذا ارتفعت الضربات أسرع الدم في الأوعية، ووصل الدم إلى العضلات بطريقةٍ أسرع ؛ ويرسل أمراً ثانياً إلى الرئتين فيزداد وجيبهما كي يتناسب وجيب الرئة مع ضربات القلب، ويرسل أمراً ثالثاً إلى الأوعية المحيطة في الجسم فتضيق لمعتها ويصفر، لون الخائف، لأنه بحاجة إلى الدم لا إلى لون وردي، وأمراً رابعاً إلى الكبد فيطرح كميةً زائدة من السكر كي تكون وقوداً إضافياً في معركته مع هذه الأفعى، وأمراً خامساً بإطلاق هرمون التجلُّط، فلو أنه جُرح لئلا ينزف دمه كله، الدم يتجلط، هذه هداية، فإذا كان هناك خطر توجد آلية معقدة، دخل جرثوم توجد آلية معقدة، دخل الطعام هناك هضم معقد، على كلٍ هذا طريق طويل، هذه الهداية، اسمها هداية المصالح، أي أن الله عزَّ وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم.

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

هذه هداية المصالح وهي تبدو واضحة جداً عند الحيوانات، يقوم الحيوان بآليات معقدة جداً من دون تعليم، من دون تدريب، والدليل فور ولادة الطفل الصغير الآن يضع فمه على ثدي أمه ويقوم بآلية معقدة جداً تسَمَّى آلية المص، مَن علَّمه وضَعَ شفتيه على حُلْمَة ثدي أمه، وأحْكَم إغلاق شفتيه، وسحب الهواء فجاءه الحليب ؟ لولا هذه الآلية لما كان هذا الدرس، ولما كانت هذه البلدة، ولما كان إنسان واحد في العالم، آلية المص، سموه: مُنْعَكَس المص.

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

هذه هداية المصالح، نحن وغيرنا سواء فيها ؛ بالعكس الغرائز أعلى عند غيرنا من الأعمال الإرادية.

2- هداية الدلالة:

الهداية الثانية أيها الأخوة هداية الدلالة، أنزل ربنا عزَّ وجل هذا القرآن على نبيه ليدلُّنا على ذاته، ليدلنا على هدفنا، ليدلنا على طريقنا، ليدلنا على منهجنا، اِفعل ولا تفعل، هذه هداية ثانية، هداية الدلالة.

3- هداية التوفيق:

الهداية الثالثة:

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13))

(سورة الكهف)

هداية التوفيق.

كل واحد منا مهتدٍ إلى مصالحه، يجوع يأكل، يدخل طعام فاسد فيتقيَّأ، يتعب جهازه العصبي فينام، يقول لك: أريد أن أنام، متضايق فينام ويستريح، يشتهي في الصيف المأكولات الباردة، مأكولات فيها ماء، يشتهي الخس، يشتهي البطيخ، يشتهي الحلو في الشتاء لوجود البرد، يحتاج إلى غذاء فيه طاقة حرارية عالية جداً، فالإنسان مهتدٍ إلى مصالحه.

أدلة من القرآن الكريم عن هداية التوفيق:

أجرى بعض أطباء الأطفال تجربة رائعة جداً، وضعوا عشرة أطفال أمام غذاء مفتوح، أنواع منوَّعة من الغذاء وسمحوا للأطفال أن يأكلوا كما يشاءون ؛ ورسم علماء كبار في التغذية لعشرة أطفال آخرين منهجاً رائعاً في التغذية، فالفيتامينات، والسكريات، والبروتينات، والنشويات، كل الأغذية النظامية ؛ وجدوا أن نمو أجسام الأطفال الذين تُركوا وشأنَهم ليأكلوا كما يشاءون أرقى بكثير من نمو الذين رسمت لهم خطط دقيقة جداً في غذائهم ؛ فالإنسان مهتدٍ إلى مصالحه، يهتدي إلى مصالحه، والله عزَّ وجل هداه إليه، هداه هداية دلالة، فإذا قبلت الهدى أيها الإنسان هُديت هدايةً ثالثة، هُديت توفيقاً، الله يوفقك، تستوعب الحق، يعينك على طاعته، يعينك على العمل الصالح، يجمعك مع أهل الحق، يشرح صدرك للإسلام، هذه كلها هداية توفيق، فأنت بين هداية المصلحة وبين هداية الدلالة، وبين هداية التوفيق، ثلاثة هدايات ؛ هداية مصلحة، هداية دلالة، هداية توفيق، تتوَّج هذه الهدايات أنك تهتدي إلى الجنة، يدخل المؤمنون الجنة بفضل الله عزَّ وجل.

أيها الأخوة معنى قوله تعالى:

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13))

(سورة الكهف)

هذا الهُدى هداية التوفيق:

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (17))

(سورة فصلت)

هذا هو الاختيار:

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى (76))

(سورة مريم)

أيضاً هداية التوفيق.

هناك أخطار محدقة بالإنسان لأنه وحده قَبِلَ حمل الأمانة:

شيءٌ آخر ؛ يقول الله عزّ وجل في الآية الكريمة:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ (50))

(سورة القصص)

معنى ذلك أنه لا شيء على الإنسان لو اتبع هواه وفق هدى الله عزّ وجل، لأنه ليس في الإسلام حِرْمان، بل هناك تنظيم، كل شهوةٍ أودعها الله في الإنسان فتح لها قناةً نظيفة تسري خلالها.

أيها الأخوة الكرام هذا الكتاب هدىً لمن ؟

(لِلْمُتَّقِينَ)

كلمة متقين، المتقي اسم فاعل من الفعل اتقى، اتقى مزيد، مجرَّده وقى ؛ وقى من الوقاية، الوقاية فيها خطر، معنى ذلك هناك أخطار محدقة بالإنسان لأنه وحده قَبِلَ حمل الأمانة، رَكّب الله المَلَك من عقلٍ بلا شهوة وركّب الحيوان من شهوةٍ بلا عقل وركّب الإنسان من كليهما، اختارت الملائكة العبادة من دون مسؤولية، هُم مع الله دائماً، واختارت الحيوانات الشهوة من دون مسؤولية، فالحيوان همه أكله فقط لكنه لا يُحاسب وهو غير مكلَّف، لكن الله خلق الإنسان من طين الأرض، ونَفَخَ فيه من روحه، ففيه نفخةٌ من الله، وفيه قبضةٌ من الطين، فيه نوازع أرضية، وفيه ميول علوية، إذاً يوجد عنده خطأ ؛ فإذا غلبت نوازعُه الأرضية أخَلَّ بالأمانة، إذا غلبت نوازعه الأرضية فسد لأن عنده دوافع وشهوات ؛ الفساد بالضبط كمركبة فيها محرك، الشهوة هي المحرك، قوة اندفاع، والمنهج هو المِقود، تصور مركبة بلا مِقود، والطريق فيه انعطافات، وفيه حفر، وفيه وديان على اليمين واليسار، فمركبة تنطلق بسرعة عالية في طريق فيه انعطافات، والدنيا ليل فلا بدَّ أن تهوي في الوادي ؛ فكلمة متقي: مِن اتقى، واتقى مزيد من وقى، ووقى من الوقاية، والوقاية من الخَطَر، معناها يوجد خطر، لأنك إنسان تحوم حولك أخطار، فما الخطر ؟ الخطر أن تتحرّك وفق شهواتك من دون منهج الله عزّ وجل، هذه هي القصة كلها.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ (50))

(سورة القصص)

المتقي هو الذي اتقى عقاب الله عزّ وجل:

إذا أحب الإنسانُ المرأة، والتقى معها لقاءً خارج نطاق الزوجية، فقد اعتدى على بشرٍ مخلوق، قضى وطره دون أن يربطها بعلاقة زوجية تضمن لها مصالحها ومستقبلها، إذاً هو ماذا فعل ؟

اعتدى على الآخرين بدافع من شهوته، الإنسان يحب المال، قد يأكل أموال الناس بالباطل بدافع من حب المال، فالشهوات إن لم تنضبط بمنهج الله فلا بدّ أن تؤدِّي إلى فساد وقد قال الله عزّ وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (41))

(سورة الروم)

ما هو الفساد ؟ إخراج الشيء عن خصائصه ؛ صمم الله عزّ وجل هذا الماء لا لون له ولا طعم له ولا رائحة، لو كان فيه رائحة غير مقبولة لأصبح الماء فاسداً، ولو فيه عكر شديد أصبح الماء فاسداً، لو فيه ألوان غير مقبولة أصبح ماء فاسداً ؛ إفساد الماء إخراجه عن طبيعته، هذا هو الإفساد، فلأن الله أودع في الإنسان الشهوات فإذا لم يهتد بهدي الله عزّ وجل فلا بد أن يفسد، والفساد أساسه مخلوقٌ مخير أودعت فيه الشهوات، تحرَّك وفق الشهوات من دون منهج الله عزّ وجل، لذلك ليس هناك فساد في عالم الملائكة، وليس هناك فساد في عالم الحيوان، الفساد فقط عند الإنسان الذي مُكِّنَ من الشهوات ولم يهتد بمنهج الله عزّ وجل ؛ فلذلك لأني أنا إنسان يوجد حولي أخطار ؛ خطر الشهوة، خطر تَحَمُّل العقاب على عدواني على الآخرين ؛ ما الذي يجري الآن ؟ أناس يعتدي بعضهم على بعضٍ، وربنا عزّ وجل يحاسبهم حساباً دقيقاً، فأنت أمام خطر أن تغريك نفسك بأخذ ما ليس لك، فيعاقبك الله عقاباً أليماً، هذا خطر ؛ فالمتقي هو الذي اتقى عقاب الله عزّ وجل ؛ الله عزّ وجل له أسماءُ جلالٍ ؛ الله جبار، الله منتقم، الله كبير، الله قهَّار، الله مهيمن، هذه أسماء الجَلال، ورحيم، ولطيف، وحكيم هذه أسماء الجمال.

معنى كلمة (تقوى):

ما معنى اتقيت الله ؟ اتقيت أسماء جلاله بأسماء جماله، أي أنا أطلب رحمة الله بطاعته، أتقي غضبه، أتقي بطشه، أتقي انتقامه:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

وهو:

(الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9))

(سورة الرعد)

قال:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ (18))

(سورة الأنعام)

هذه أسماء الجلال أما إذا أنا أطعته:

(إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90))

(سورة هود)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً (96))

(سورة مريم)

إذاً كلمة التقوى أن تتقي غضب الله، تتقي عقابه، تتقي أن تكون تحت أسماء جلاله وتتقي عقابه الأبدي وهو النار، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ (102))

(سورة آل عمران)

أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تنساه، وأن تشكره فلا تكفره.

حينما يستقيم الإنسان على أمر الله يتقي أسماء الجلال ويطلب أسماء الجمال والإكرام:

أيها الأخوة الكرام، الهدى إنسان شعر بالخطر، بحث عن الخلاص من خلال هذا الكتاب، لذلك

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

كلما تمعَّنت، كلما تأمَّلت في هويتك أنت إنسان فيك شهوات أرضية، وفيك مطالب علوية، فإذا غلبت عليك شهوتك فالمصيبة كبيرة جداً، حينما تحركت الشهوة عشوائياً رافقها العدوان على أعراض الناس، وعلى أموالهم، والعدوان مصيره العقاب، وأنت حينما تستقيم على أمر الله تتقي عقاب الله، حينما تستقيم على أمر الله تتقي أسماء الجلال، وتطلب أسماء الجمال والإكرام:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

إن لم يبحث الإنسان عن الحقيقة فهذا الكتاب لا يعنيه، فلو جلس إنسان في مكان جميل وليس عنده هدف فهو لا يسأل عن شيء، ولا يبحث عن شيء، أما إذا جاء إنسان إلى بلدة غريبة عليه، وله مبلغ ضخم ليقبضه من مؤسسة، وهو لا يعرف عنوان المؤسسة فتجده يسأل لأن هناك هدفاً، الهدف أن يأخذ هذا المبلغ من هذه المؤسسة، والمؤسسة لا يملك عنوانها، فإنه يسأل، فأخطر شيء أن تكون إنساناً بلا هدف، أنا ذهبت إلى بلاد بعيدة جداً، قيل لي: ماذا رأيتَ ؟ قلت: رأيت إنساناً بلا هدف، يأكل، ويشرب، ويستمتع:

(كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

(سورة محمد)

أخطر شيء أن تكون بلا هدف، وأعظم شيء أن يكون لك هدف عظيم، هذا الهدف يدفعك إلى مكارم الأخلاق.

لذلك أيُّها الأخوة، الشيء اللطيف أن المؤمن لا يشيخ أبداً، المؤمن شابٌ دائماً، قد يصل إلى المئة ولكنه لا يشيخ بل يبقى شاباً، شابٌ بهمته، لأن هدفه كبير، هدفه الله عزّ وجل.

حينما يكون الله هدفك فأنت في شبابٍ دائم:

النقطة الدقيقة: متى يسأم الإنسان الحياة ؟ حينما تكون أهدافه أرضية ؛ هدفه الزواج فتزوج، هدفه أن يكون معه مال فجَمَّع المال، هدفه أن يحتل مكانة رفيعة فنالها، والإنسان دائماً يكتشف تفاهة أهدافه المادية، فمستحيل أن يمدك شيئاً من الدنيا بسعادةٍ مستمرَّة، كلما بحثت عن هدفٍ مادي ووصلت إليه اكتشفت تفاهته، أما حينما يكون الله هدفك أنت في شبابٍ دائم.

ثمة فكرة ذكرتها كثيراً: إن الإنسان يبحث عن السعادة في أعماقه، وتحتاج السعادة بالمفهوم المادي إلى صحة، وإلى وقت، وإلى مال، ودائماً عنصر من هذه العناصر مفقود، ففي أول الحياة الوقت موجود والصحة موجودة ولكن لا يوجد مال، في منتصف الحياة الصحة موجودة والمال موجود ولكن لا يوجد وقت، في آخر الحياة المال موجود والوقت موجود ولكن لا توجد صحة، معنى هذا أن الإنسان طوال حياته شقي، دائماً ينقصه شيء، لكن المؤمن غير هذا، المؤمن لا ينطبق عليه هذا الحكم، لماذا ؟ لأن هدفه الله عزّ وجل ؛ هو شاب يسعد بالله، وهو متزوج يسعد بالله، وهو فقير يسعد بالله ؛ القصة كلها أن لا يكون هدفك محدوداً، إذا كان الهدف محدوداً ووصلت إليه انتهيت، تصبح الحياة مملة، تصبح الحياة مُتْعِبة، تصبح الحياة عبئاً ؛ لذلك تجد الكبراء، أصحاب الأموال، أصحاب المراتب العالية في المجتمع تجلس معهم فتتضايق، يقول لك: المال أمر تافه، لا شيء فيه، مع أن معه أموالاً طائلة، وليس عنده مشكلة.

ذكر لي أحد الأخوة مفارقة عجيبة جداً: زاره شخص، أقسم بالله أن حجمه المالي بضعة آلاف الملايين، لا بضع مئات، بل بضعة آلاف، شكا له عن حياته وعن ملله، لا يعجبه شيء، ولا يوجد شيء يرضيه، قال لي: شيء عجيب، خرجت من عنده وليس لي قوائم تحملني، فما هذا الإنسان ؟!! لا يوجد عنده مشكلة، المال كله بين يديه ؛ وتابع هذا الأخ حديثه قائلاً: طلبت أسرة فقيرة مساعدة مني، دخلت إلى بيت في إحدى قرى دمشق، فإذا هو بيت متواضع جداً تحت درج، الزوج موجود، والزوجة موجودة، والأطفال في سعادة، والدخل محدود، طلبوا أجرة البيت فقط ؛ ألف ليرة فقط، قال لي: شعرت أن في هذا البيت سعادة غامرة، مع أنه يشكو من ضيق الدخل، فالإنسان حينما يفقِد الهدف يصير إنساناً عبئاً، فالذي أقوله لكم: يجب أن تختار هدفاً يفوق كل قدراتك، هو الله عزّ وجل، كل إنسان هدفه الله فهو سعيد، في شباب دائم، ليس ثمة ملل ولا سأم، لأنه يبحث عن شيء مهما بذل من أجله فلن يحيط بالله عزّ وجل، أما الدنيا فمحدودة، وتنتهي.

ثَمَن الجنة ضبط الشهوة والشقاء أن تغلبك شهوتك :

إنسان صار معه مال، أكل جميع المأكولات ولم يبقَ عنده الرغبة الجامحة للأكل، تزوج فألِفَ هذه العلاقة، احتل مكانة رفيعة في المجتمعَ فألِفَ هذا التعظيم، وهذه المكانة، لكنه يبحث عن شيء، لذلك توجد نقطة دقيقة، ذات مرة ألقيت فيها درساً عنوانه: " ثم ماذا ؟"

جمعت المال، ثم ماذا ؟ وصلت إلى مكانةٍ عَلِيَّة، ثم ماذا ؟ يوجد قبر بعد الدنيا، انغمستَ في كل المتع الرخيصة، ثم ماذا ؟ السِمة التي تجمع كل المنحرفين الملل والسأم والضجر، لماذا تجد المؤمن أسعد الناس ؟ لأن هدفه كبير، فهو موعود بالجنة.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص)

أيها الأخوة هذه الآية الكريمة:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

أي إذا شعرت أن هناك خطراً، الخطر أن تغلبك شهوتك:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا (106))

(سورة المؤمنون)

أي غلبتنا شهواتنا، الشقاء أن تغلبك شهوتك وهذا هو الامتحان الصعب، ثَمَن الجنة ضبط الشهوة:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن:

أنت حينما تشعر أن هناك خطراً، الخطر أن تغلبك شهواتك على منهج ربك، أنت إذاً الآن مُتَّق، تتقي الخطر، تتقي أن تقع تحت وطأة عذاب الله، تتقي أن تكون تحت وطأة أسماء الجلال، بطش الله شديد، هناك زلازل، هناك أمراض عضالة، هناك قهر، وفقر، وانقباض، وهم، وحزن، تتقي أن تكون تحت وطأة أسماء الجلال، تتقي العقاب الأكبر وهو النار، ما دمت تتقي فأنت تبحث عن الهدى، والهدى موجود في القرآن الكريم، القرآن رسم لك الهدف ورسم لك الطريق:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

أي أنه ما من جهةٍ في الأرض مؤهلةٍ أن ترسم لك الهدف الصحيح إلا الله عزّ وجل، وما من جهةٍ في الكون مؤهلة أن ترسم لك الطريق الصحيح لهذا الهدف ؛ هدف المؤمن الجنة، هدفه أن يعرف الله، وأن يعرف منهج الله، وأن يسلُك الطريق الصحيح ؛ فعنده توازن، وعنده رضىً، وعنده قناعة، لا يوجد عنده شعور بالقلق للمستقبل، لأن الخط البياني للإنسان المؤمن صاعد صعوداً مستمراً، أما حينما ينسى الله عزّ وجل يكون الصعود حاداً، والسقوط مُريعاً ؛ هذا الفرق بين المؤمن الذي يمشي على منهج الله عزّ وجل، وخطُّه البياني صاعد صعوداً مستمراً، بينما غير المؤمن يكون صعوده حاداً، وانهياره سريعاً.

بعض الأحاديث الشريفة التي تتعلّق بسورة البقرة:

أيها الأخوة إن شاء الله تعالى نُتابع هذا في الدرس القادم:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

بالمناسبة اسمحوا لي أن أضع بين أيديكم بعض الأحاديث الشريفة التي تتعلّق بسورة البقرة، قد يسأل أحدكم ما هذه التفصيلات ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ))

[أحمد عن ابن بريدة عن أبيه]

وفي حديثٍ آخر:

((تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ))

[أحمد عن ابن بريدة عن أبيه]

و في حديثٍ ثالث:

((وعَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَقَالَ: قَرَأْتَ سُورَتَيْنِ فِيهِمَا اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى))

[الدارمي عَنْ مَسْرُوق بن عَبْدِ اللَّهِ]

((كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ في أعيننا))

[رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك]

جدَّ: أي عظُم في أعيننا.

((مَنْ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَاءَتَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقُولانِ رَبَّنَا لا سَبِيلَ عَلَيْهِ))

[الدارمي عَنْ كَعْبٍ]

((ما خيَّب الله امرأ قام في جوف الليل فافتتح سورة البقرة وآل عمران))

[الطبراني عن ابن مسعودٍ]

ربنا عزّ وجل وصف المؤمنين والمنافقين والكفار في أوائل هذه السورة :

أوائل هذه السورة مباركة جداً، لأن ربنا عزّ وجل وصف المؤمنين بخصائص كبرى والمنافقين والكفار، هؤلاء الأصناف الثلاث، فالإنسان عليه أن يحرص على أن تنطبق عليه صفات المؤمنين، طبعاً في الدرس القادم:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ (5))

والهدى يرفعهم عند الله:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

إذا فهمنا هذه الآيات فهماً دقيقاً وانطبقت علينا سَلِمْنا وسعدنا في الدنيا والآخرة، أخرج الإمام مسلم وأحمد والترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ))

[مسلم وأحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

((أفضل القرآن سورة البقرة وأعظم آيةٍ فيها آية الكرسيّ وإن الشيطان ليفر من بيتٍ تُقْرأ فيه سورة البقرة))

[الحارث عن الحسن مرسلاً]

هناك أحاديث كثيرة عن فضل هذه السورة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنا إلى متابعة فهم هذه السورة والعمل بها.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (04- 95):تفسير الآيات 3-5، عالم الشهود و عالم الغيب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-07-17

بسم الله الرحمن الرحيم

عالم الشهود:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة البقرة، ومع الآية الثالثة، إحدى أكبر صفات هؤلاء المتَّقين أنهم يؤمنون بالغيب، فما هو الغيب ؟ هناك عالَم الشهود، وهناك عالَم الغيب ؛ عالَم الشهود ما تشاهده، ما تسمع به، ما تشُمُّه، ما تُحِسُّ به، تسمعه، أو تراه، أو تشمُّه، أو تتذوَّقه، أو تحس به، المعلومات التي تأتينا عن الحواس الخمس، عالم الشهود ؛ هذا الضوء متألق، وهذه المروحة تدور، وهذا الصوت يُكَبَّر نعرفه بآذاننا.

أيها الأخوة الكرام، لذلك قالوا: " ليس مع العين أين "، ليس مع العين أين الدليل ؟ لا نحتاج مع العين إلى دليل ؛ لا يختلف البشر جميعاً على المحسوسات، لذلك العلوم المادية متَّفق عليها في كلِّ قارات الأرض ؛ علم الفيزياء، والكيمياء، والضوء، والميكانيك، والحرارة، وعلم المستحاثات.

العلوم المادية، ليس بين علماء الأرض خلافٌ حولها إطلاقاً، لأن الحس يقيني، هذا هو عالَم الشهود، الشيء الذي تدركه بسمعك، تسمع صوته، أو تراه بعينك، أو تلمسه بيدك، أو تشُمُّه بأنفك، أو تتذوَّقُه بلسانك، هذا عالم الشهود.

قد تتوهم أن الحواس خمس، والحقيقة الحواس أكبر من خمس بكثير، أمامك وعاءان مغلقان، فأيهما ممتلئ وأيهما فارغ ؟ لا تعرف بأذنك، ولا بعينك، ولو وضعت يدك على الوعاء، ولا بيدك، ولا بأنفك، ولا بلسانك، تحمل أحد الوعاءين تراه خفيفاً، تحمل الثاني فتراه ثقيلاً، هذه حاسة إدراك الثقل ؛ إذا وضعت وعاء تحت الصنبور، كلّما ازداد الماء في الوعاء تشعر أن يدك تقاوم أكثر، يزداد الوزن، تشعر من خلال عضلاتك أن الوزن يزداد، هذه حاسةٌ أيضاً ؛ تُعطى قطعتين من قماش من

مستوى واحد، بالشكل واللون، أيُّهما أرَقّ ؟ تأتي بإصبعين، تعرف من خلال الإصبعين سماكَة الشيء، هذه أيضاً حاسة ؛ تنام على السرير نوماً مديداً، تضغط العضلات مع الهيكل العظمي على العضلات التي تحت الهيكل العظمي، فهناك مراكز ضغط في العضلات تُنْبئ الدماغ أن الضغط اشتد، والأوعية ضاقت لمعتها، والتروية ضعفت، وحدث حس بتنميل وخدر، تذهب هذه المعلومة إلى الدماغ ؛ يعطي الدماغ أمراً، فيتقلَّب النائم ثمانٍ وثلاثين مرة ذات اليمين وذات الشمال، فإدراك الضغطِ هذا قوةٌ إدراكية عند الإنسان ؛ إدراك الثقل قوة إدراكية، إدراك الثخانة قوة إدراكية، غير السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس ؛ نحن ألفنا أنَّ الحواس خمس، ولكن هناك قوىً إدراكية عند الإنسان كثيرة جداً.

استواء البشر و غير البشر في عالم الشهود :

كيف يشعر الإنسان أنه جائع ؟ يا ترى المؤشر صوتي ؟ لا، جائع وهو ساكت، فهل المؤشر كيماوي ؟ لا نعرف، ضوئي ؟ لا نعرف، عصبي ؟ لا نعرف، نعرف أننا جائعون، نريد أن نأكل، هذا أيضاً إدراك؛ يحس الإنسان بالعطش أحياناً ؛ فالإحساس بالجوع، والإحساس بالعطش، وتقدير سماكة الشيء، وتقدير وزن الشيء، والمُدركات الأُخرى هذه كُلُّها من عالم الشهود.

أيها الأخوة، هذه الحواس الخمس، وغير الخمس كثيرة جداً، وهذه من هداية المصلحة ؛ هدانا إلى مصالحنا، الإنسان يتوازن، راكب الدرَّاجة إذا مال درجتين يدرك فيصحّح، لولا جهاز التوازن لما استطاع أحد أن يركب دراجة، ولا أن يمشي على قدمين إطلاقاً ؛ انظر إلى المجسَّمات في محلات بيع الألبسة تحددها تستند إلى قاعدة كبيرة جداً ؛ لا يوجد ميت يقف على قدميه، من يقدر أن يوقف ميتاً ؟ إنه يقع لأن جهاز التوازن تعطل، أما الإنسان يمشي بقدمين لطيفتين، يتنقل لأنه متوازن، فالتوازن إحساس، اختل التوازن ؛ الإنسان أحياناً يأكل أكلة متفسِّخة، يتقيَّؤها رأساً، أدرك أن الطعام فاسد، حدث القيء ؛ القيء أساسه إدراك، التوازن أساسه إدراك، الجوع أساسه إدراك، العطش أساسه إدراك، معرفة وزن الشيء أساسه إدراك، معرفة ثخانته إدراك، تتم معرفة أشياء كثيرة هذه كلها عن طريق الإدراك، هذا عالم الشهود، يستوي فيه البشر جميعاً، ويستوي فيه البشر وغير البشر.

عالم الغيب :

ما هو عالم الغيب ؟ الغيب كل شيءٍ غاب عن حواسِّنا وعن مدركاتنا ؛ يؤمن الحيوان بحواسِّه، أما الإنسان فهو مُكَرَّم أعطاه الله قوةً إدراكية تزيد عن حواسه الخمس وعن مدركاته الحسِّية ؛ أعطاه الله عقلاً، بالعقل تؤمن بالغيب، الشيء الذي غاب عنك تدركُه بعقلك ؛ تمشي في طريق ترابي تجد أثر عجلتين، تقول: مرَّت من هنا سيارة، ولعلها صغيرة لقلة المسافة بين العجلتين، ولعلها كبيرة، ولعلها شاحنة كبيرة، أنت لم تر السيارة، ولكن رأيت آثارها، فعن طريق العقل أيقنتَ بأن هناك سيارةً مرت ؛ البعرةُ تدل على البعير، والماء يدلُّ على الغدير، أفسماء ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، ألا تَدُلاَّن على الحكيم الخبير ؟

المدركات الحسية تجعل الإنسان مع عالم الشهود وجهاً لوجه لأن أساسه الحواس الخمس:

أساس عالم الشهود الحواس الخمس وكل أدوات الإدراك الحسية ؛ من وزن، من ثخانة، إحساس بالجوع، إحساس بالعطش، إحساس بالتوازن، إحساس بفساد الطعام، إحساس بالانضغاط.

أحياناً يزداد اللعاب في فمك، وأنت نائم، وأنت غارق في النوم، وأنت ترى مناماً معيناً، تذهب إشارة من الفم إلى الدماغ، زاد اللُّعاب عن حده المعقول، يعطي الدماغ أمراً للسان المزمار، يغلق فتحة الهواء إغلاقاً محكماً، ويفتح فتحة المريء فتحاً واسعاً، فالإنسان يبتلع ريقه وهو نائم، لولاها لوجدت ريق الإنسان على الوسادة، وأنت نائم هناك عملية معقدة جداً للسان المزمار ؛ وتتم أنت نائم عمليَّات أخرى كالتقلُّب يُمْنَةً ويُسرةً ؛ فالمدركات الحسية، وأدوات الإدراك الحسية، والحواس الخمس هذه أدائك إلى عالم الشهود، وهذه من نعمة الله الكبرى، هذه هداية ولكنها هداية المصالح.

وأنت تعلم ما حولك عن طريق الحواس، تقول: توجد رائحة كريهة في البيت، الرائحة أحد وسائل إدراك الأشياء، تنتهي وظيفة عينك في العبث عند الجدار، بينما تمتد أذنك إلى ما بعد الجدار ؛ فتقول: هناك حركة في البيت، من دخل إلى البيت ؟ من فتح الباب ؟ وأنت جالس في غرفتك عينك لا تكشف أما الأذن فقد كشفت ؛ أما لو أن حشرةً ماتت، أو فأرةً ماتت تحت السرير، فلا تسمع صوتها، ولا ترى جُثَّتَها، ولكن تشم رائحتها بعد حين، تقول: هناك رائحة كريهة ؛ حتى الغاز الذي

نستعمله، الرائحة الكريهة في الغاز أُضيفَتْ له قصداً، الغاز ليس له رائحة، هذه الرائحة الكريهة في الغاز أضيفت له من أجل أن نشعر بالتسرب فلا يحترق البيت ؛ فهذه المدركات الحسية تجعلك مع عالم الشهود وجهاً لوجه، ولكنك مخلوقٌ مكرم زُوِّدتَ بعقلٍ يدرك ما غاب عنك.

الغيب الشهودي غيبٌ له آثار ووسيلة إدراكه العقل :

الآن: الله جلَّ جلاله لا تدركه الأبصار، الله جلَّ جلاله غَيبٌ عنك، لكن الكون كله من آثاره، فعن طريق العقل إذا أعملته تتعرف على الله عزَّ وجل بهذه المخلوقات هذا عالم الغيب ؛ عالم الغيب شيءٌ غاب عنك ولكن له آثاراً، فأنت عندك حواس، وأدوات إدراك لهذه الآثار، فهذه الحواس، وأدوات الإدراك تَنقل إلى الدماغ معطيات الآثار، والدماغ يحكم على الذي غاب عنك ؛ أول خصيصة للإنسان المؤمن أنه يؤمن بالغيب، يؤمن بالله ولا يرى الله، يؤمن بعظمة الله من خلال عظمة خلقه، يؤمن بتسيير الله من التسيير الذي يراه بعينه، يؤمن بالمسيِّر من التسيير، يؤمن بالحكيم من الحكمة، يؤمن بالمنظِّم من النظام، يؤمن بالخالق من الخَلْق، يؤمن بالمُبْدِع من الإبداع ؛ إن أكبر قضية في حياة المؤمن أن الله أعطاه عقلاً، والكون كلُّه أثر من آثار الله عزَّ وجل، فهذا العقل إذا وَجَّهْتَه إلى هذه الآثار دلّك على المؤثر.

القضية بسيطة جداً، أنت أمام جدار، وراء الجدار دخان، والقاعدة " لا دخان بلا نار " فإذا ذهبت إلى خلف الجدار رأيت النار بعينك، " ليس مع العين أين "، لا نريد دليلاً ؛ أما إذا ابتعدت عن الجدار ورأيت الدخان، الآن يحكم عقلك من أثر النار على وجود النار، تقول: لا دخان بلا نار، ما دام هناك دخان إذاً يوجد نار، مع أنَّك لم ترَ النار، هذا أحد أنواع الغيوب، غيبٌ له آثار، شيءٌ غاب عنك وله آثار، فوسيلة إدراكه العقل ؛ يمكن أن نسمي هذا الغيب: بالغيب الشهودي، الغيب الذي له في عالم الشهود آثار.

وفي كل شيءٌ له آية تدل على أنَّه واحدٌ

***

كل ما في الكون ينطق بوجود الله و بوحدانيته:

كل ما في الكون ينطق بوجود الله، كل ما في الكون ينطق بوحدانية الله، كل ما في الكون ينطق بكمال الله، كل ما في الكون ينطق برحمة الله، ينطق بلطف الله، ينطق بقوة الله، ينطق بعلم الله، كل ما في الكون ينطق بأسماء الله الحسنى، لذلك الطريق الواضح الصارخ القصير، أن تعرف الله من خلقه..

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

لا زلنا في عالم الشهود، تشعر بالحاجة إلى النوم، هذه حاسة، يقول لك: نعست لا أستطيع الاستمرار، فما الذي أشعرك أنك بحاجة إلى النوم ؟ تَعِب الجهاز العصبي، كيف ينقل لك هذا الجهاز أنه تَعِب وبحاجة إلى النوم ؟ هذا إدراك، نمت ثماني ساعات، استيقظت، ما الذي أشعرك أنك قد أخذت قسطاً من الراحة ؟ الاستيقاظ أيضاً إدراك، الأمثلة دقيقة وكثيرة جداً؛ عالم الشهود، العالم المحسوس، إنْ صوتاً، أو شكلاً، أو رائحةً، أو ذوقاً، أو ملمساً، أو ثِقَل الأشياء، وثخانة الأشياء، والإحساس بالتوازن، والإحساس بالجوع، والإحساس بالعطش، والإحساس بالحاجة إلى النوم، والإحساس بالحاجة إلى الاستيقاظ، الإحساس بأنه يجب أن نتقلب بالفراش، الإحساس بأنه لا بدَّ أن نبتلع اللُّعاب في فمنا، وما إلى ذلك من إحساسات لا يعلمها إلا الله، وهي إحساسات لا تنتهي.

أنواع الغيب:

إذا انتقلنا إلى عالَم الغيب، كل ما غاب عنك، كل ما غاب عن حواسك الخمس ومدركاتك الحسية، هذا هو عالم الغيب، أعظم غيبٍ يجب أن تؤمن به الله، غابت عنك ذاته وأمامك آثاره، والأدوات العقل، لذلك هناك معرفة عقلية ومعرفة حسية.

لكن يوجد شيء غاب عنك وليس له آثار، الملائكة غائبةٌ عنا لكن ليس لها آثار، الجن مخلوقاتٌ غابت عنا وليس لها آثار، اليوم الآخر غاب عنا وليس له آثار، هذه معرفة ثالثة.

الغيب الأول، غيبٌ له آثار أداته العقل.

الغيب الثاني غيب الأخبار غيبٌ ليس له آثار، أداته الأخبار فقط، والخبر أساسه أن يكون صادقاً، فإذا كان الخبر صادقاً هذه معرفة من نوع ثالث، إما أن ترى بعينك، وإما أن تستدل بعقلك، وإما أن تُصْغي بأذنك، فأخبرنا الله عزَّ وجل أن هناك ملائكة، هذا نوع ثالث، أخبرنا أن هناك عالماً هو

عالم الجن، أخبرنا أن هناك يوماً آخر، أخبرنا أن في هذا اليوم نار جهنم، وجنة عرضها السماوات والأرض، كل هذه الغيوب التي لا أثر لها، والتي لا يستطيع العقل أن يصل إليها أخبرنا الله عنها.

فالغيب الثالث غيب إخباري، الغيب الثاني غيب استدلالي، وهناك غيبٌ استأثر الله به لا يعلمه أحدٌ إلا الله.

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (27))

(سورة الجن)

فإذا أخبرنا النبي عن شيءٍ في المستقبل فهو من إعلام الله له لا من علمه الذاتي.

من رحمة الله بالإنسان أنه ترك له علامات لكل شيء :

فيا أيها الأخوة..(يؤمنون بالغيب)، شيء غاب عنك، لكنك تعرف آثاره، أنت الآن أمام أداة كهربائية معطلة، يا ترى التيار الكهربائي معطل ؟ تأتي بأداة أخرى تضع شريطها في هذا المأخذ، فإذا عمل معنى ذلك أن المأخذ سليم، حصرت العطل، يا تُرى هذه المِكواة معطلة بسبب شريطها ؟ تأتي بشريط جديد تضعه تجدها تعمل، إذاً العطل من الشريط، أساساً هذا هو العمل العقلي ؛ كل الحضارة قائمة على الفكر ؛ شيء لا يراه الإنسان ولكن يرى آثاره ؛ لا يرى الطبيب الجراثيم، يقول لك المريض: عندي ارتفاع حرارة، و قيئ، و إسهال، يقول لك الطبيب: معك الجرثوم الفلاني في الأمعاء ؛ قال الله عزَّ وجل:

(وَعَلَامَاتٍ (16))

(سورة النحل)

من رحمته بنا ترك ربنا عزَّ وجل علامات، أعطانا علامات، علامات للنباتات، علامات للأمراض، علامات للجراثيم، علامات لكل شيء..

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16))

(سورة النحل)

سمعنا في الأخبار أنه ستأتي موجةٌ حارة بعد يومين مثلاً، هل يُعَدُّ هذا غيباً ؟ هناك ليس غيباً بل هو واقع، هو غيب عندنا، وواقع في بلاد أوروبا، والرياح لها سرعة، فنحن بعد يومين تصلنا هذه الموجة، ليس هذا غيباً بالمعنى الذي استأثر الله به، هذا غيبٌ سمح الله للإنسان أن يكشفه إما بمعرفة سرعة الرياح، أو باتصالات لاسلكية عن طريق الأقمار الصناعية تعرف ما سيكون بعد يومين، هذا ليس من علم الغيب الذي استأثر الله به، هذا من علم الغيب الذي سمح الله به.

أحياناً مسألة رياضيات، تأخذ بعض المُعطيات تصل إلى المجهول، المجهول ليس غيباً، غيبٌ سمح الله أن تعرفه عن طريق المعطيات، المسلمات ؛ أحياناً يُسرَق بيت، وهناك من يتعامل مع الجن، ويَكشف الجني لعميله الإنسي أين المسروقات مثلاً ؟ هذا غيبٌ سمح الله به.

تعرف العقل عن طريق نظام السببية والغائية وعدم التناقض إلى الله عزَّ وجل:

نحن يجب أن نعرف أن هناك عالم الشهود، الواقع المحسوس المادي، و أن لعالم الشهود أدوات لمعرفته، يوجد عندنا حواس خمس، ويوجد عندنا عشرات الأدوات الإدراكية الحسية في الجسم، أما الذي غاب عنا هو من عالم الغيب، وأهم شيء في عالم الغيب الله جلَّ جلاله، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ؛ ما دام الكون أحد آثار الله عزَّ وجل، ما دام الكون تجسيداً لأسمائه الحسنى، ما دام الكون مظهراً لأسمائه الحسنى، فالكون من آثار الله عزَّ وجل، ويوجد عقل، والعقل عن طريق نظام السببية والغائية وعدم التناقض، يتعرَّف إلى الله عزَّ وجل.

لكن أن تقول: هناك جنة ونار هذه لا ترى بالاستدلال، إنَّ هناك ملائكة وجناً هذه لا تُرى بالاستدلال، إنَّ هناك صراطاً، وحوضاً، ولوحاً محفوظاً، وإن أصل البشر آدم وحوَّاء، هذا كلُّه من عالم الغيب الذي ليس له آثار فينفعنا عقلنا بها، هذا من عالم الغيب الذي ليس له آثار، أداته الوحيدة الإخبار، الإخبار لا بدَّ من أن يكون صادقاً حتى يكون صحيحاً، فإذا أخبر الله عن شيء فهو حقٌ كأنك تراه لذلك:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1))

(سورة الفيل)

من منكم رأى ذلك ؟ مع أن الله يُخاطبنا، معنى هذه الآية أن الله إذا أخبرك عن شيء فينبغي أن تؤمن به كأنَّك تراه..

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ (3))

(سورة البقرة)

آمنا بالله هناك غيبٌ استأثر الله به لا يعلمه أحدٌ من خلقه.. وغيبٌ استأثر الله به، وسمح لبعض الأنبياء أن يعرفوه، فكل أحاديث آخر الزمان، ومجيء سيدنا عيسى، هذه كلها من الغيب الذي سمح الله لنبيِّه أن يَعلمه.

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (27))

(سورة الجن)

وأما الغيب الذي أخبرنا الله به ؛ الإيمان بالملائكة، الإيمان بالجن، الإيمان بالجنة، الإيمان بالنار، الإيمان بالصراط، الإيمان بالحوض، الإيمان باللوح المحفوظ، هذه كلُّها من الغيب الذي غاب عنا، وليس له آثار، لكن الله أخبرنا به.

على الإنسان أن يعرف هوية أية قضية تُعرض عليه :

أخواننا الكرام، الآن الشيء الدقيق جداً يجب أن تعرف هويّة أية قضيةٍ تُعرض عليك، هذه قضية حِسِّية مرجعها العلماء، يأتي شخص فيقول: أستاذ: أعمَلُ عملية ؟ أقول له: ماذا قال لك الطبيب ؟ هذه قضية علمية تحتاج إلى طبيبٍ حاذقٍ ورعٍ مسلم، إخبار الطبيب الحاذق الورع المسلم ؛ هو الحَسم، هو الفيصل؛ القضية حسية، قضية تُقاس بمقاييس، يوجد ميزان حرارة، يوجد ميزان ضغط، يوجد إيكو للقلب، يوجد مِرنان، يوجد أدوات، يوجد تحليلات، الأمور الحسيِّة لها مقاييس حسية، قال تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7))

(سورة الأنبياء)

الأمور الغيبية إن كان لها آثار فأداتها الوحيدة العقل، و نقول عنها: غيبٌ استدلالي، أما الأمور الغيبية التي ليس لها آثار، وسمح الله أن نعرفها أداتها الأخبار، فصار عندنا يقينٌ حسي، يقينٌ عقلي، وخبر صادق عنها، وهناك غيب استأثر الله به، فأية قضيةٍ في الدين، يجب أن تعرف هويَّتها، من النوع المحسوس أم المعقول أم الإخباري.

على الإنسان أن يبتعد عن القضايا الإخبارية أثناء حواره مع الآخر:

أكبر مطب يصيب بعض المسلمين في أثناء الحوار مع غير المسلمين عندما يأتون بقضية إخبارية يجعلونها عقلية، أخي أثبتْ لي أنه يوجد جن ؟ والله لا يوجد معي دليل، أثبت لي أنه يوجد جهنم ؟ يقول له: طول بالك لا يوجد الآن معنا دليل، هذه قضية إخبارية، ليست قضية حسية ولا قضية عقلية، أنت بعد أن تؤمن بالله، وتؤمن بكلامه، وأن كلامه حق أخبرك الله أن هناك دار آخرة، وهناك نار، وهناك جنة ؛ إياك أن تخطئ، القضايا الحسية أداتها الحواس، القضايا الغيبية التي لها آثار أداتها العقل، القضايا الغيبية التي ليس لها آثار أداتها الإخبار ؛ أعلى خبر، القرآن الكريم، قال لك: بدأت البشرية بآدم وحواء، لذلك تركل بقدمك كل نظرية علمية أساسها أن الإنسان أصلُه قرد، اركلها بقدمك، لأن أعلى خبر

عندنا كلام الله، قضية بدء الخليقة هذه غيب ليس له آثار، طريقه الوحيد الإخبار، أخبرنا أصدق القائلين أنَّ البشر بدؤوا بآدم وحواء، انتهى الأمر.

منهج البحث في الإسلام دقة الحواس صحة الاستدلال وصدق الخبر :

إذاً أنا عند وجود قضايا إخبارية أعتني بصحة الخبر فقط، وعند القضايا العقلية أعتني بصحة الاستدلال، وعند القضايا الحسية أعتني بدقة الحواس ؛ دقة الحواس، وصحة الاستدلال، وصدق الخبر؛ هذا منهج البحث في الإسلام، أداة المعرفة الحسية: دقة الحواس، فلان يوجد عنده عمى ألوان، هذا أداته فيها خلل، فلان عنده ضعف في الشم لا يستطعم مثلاً، فلان عنده ضعف في خلايا الذوق، فالمعرفة الحسية أداتها دقة الحواس، والمعرفة العقلية أساسها صحة الاستدلال، كل إنسان فان، علمونا إياه في الثانوي، سقراط إنسان سقراط فان، فهذا استدلال عقلي، القضايا الغيبية التي ليس لها آثار أداتها الوحيدة صحة الأخبار، أعلى خبر كلام الله، بعده الحديث المتواتر، بعده الحديث الصحيح ، بعده الحسن.. إلى حد هنا يكفي.. الضعيف له إشكال.

قيمة الإيمان بالغيب:

الآن:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ (3))

جيِّد، ما قيمة الإيمان بالغيب ؟ آمنت أن لهذا الكون خالقاً، آمنت أن لهذا الكون مسيَّراً، آمنت أن لهذا الكون مربيًّا، آمنت أن هذا الخالق عظيم، ما قيمة هذا الإيمان إن لم تتصل به ؟ أنا أكاد أموت عطشاً، وعلمت أن هناك ماءً عذباً بارداً سائغاً، ما قيمة هذا الإيمان إن لم أتحرك إليِّه ؟ الإيمان النظري لا قيمة له إطلاقاً، **" العلم ما عُمل به فإن لم يُعمل به كان الجهل أولى ".**

إقامة الصلاة بعد الإيمان بالغيب:

لذلك بعد الإيمان بالغيب:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ (3))

((لا خَيْرَ فِي دِينٍ لا رُكُوعَ فيه))

[مسند أحمد عَنْ عُثْمَانَ بْن أبِي العَاص]

((الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

الصلاة غُرَّة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، الصلاة هي الفرض الذي لا

يسقط بحال، الشهادة تؤدَّى مرة واحدة، والحج يسقط عن الفقير والمريض، والصيام يسقط عن المسافر وعن المريض، والزكاة تسقط عن الفقير، الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسْقط بحال، يؤدى قائماً، أو قاعداً، أو مضطجعاً، أو بالإيماء، تؤدى الصلاة برموش العين، الفرض الذي لا يسقط بحال.. لأنك إذا ألغيت الصلاة ألغيت الدين: بين المرء والكفر ترك الصلاة فمن تركها فقد كفر..

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ (3))

أنت بأمسِّ الحاجة للمال، وعلمت أن هناك إنساناً عظيماً، وهو يحب أن يعطيك، ما الذي يمنعك من أن تصل إليه ؟ ما الذي يحجزك عنه ؟ إن أيقنت أنه يعطيك ويحب أن يعطيك، وأنت في أمسِّ الحاجة إليه، فلا بدّ بعد أن عرفته أن تذهب إليه.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف)

ثمن هذه الصلاة:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

هذا الدين كله.

الدين كلّه يقوم على الإيمان بالله و إقامة الصلاة و الإنفاق :

الدين كله في هذه الكلمات الثلاث:

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

أوسع آية بالإنفاق، أعطاك الله جاهاً أنفق هذا الجاه وانصر الضعيف، أعطاك الله علماً أنفق هذا العلم وعلّم الجاهل، أعطاك مالاً أنفق هذا المال وارحم الفقير، أعطاك حكمةً أصلح بين شخصين، أعطاك عضلاتٍ قوية شُدَّها في معاونة الضعيف..

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

يقول لك أخ: أنا أُتقِن التبليط، فأنا جاهز لأي خدمة للمسجد، هذا أدَّى الذي عليه، " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم "، أنا طبيب، ويمكن أن أعالج الفقراء، بارك الله بك، أنا محلل، ويمكن أن أجري تحاليل للفقراء.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

أنا محامي، إذا كان هناك أخ ضعيف فقير له قضية شائكة فأنا أدافع عنه من دون مقابل، يبذل المحامي اختصاصه، والطبيب يبذل اختصاصه، والمهندس يبذل اختصاصه، والبائع يبذل اختصاصه، والغني يبذل اختصاصه، والعالم يبذل اختصاصه.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

الضعيف، خبير بالتدفئة مثلاً، التدفئة بدون صوت تحت الأرض، المسجد بحاجة لتدفئة هادئة أنفق هذا العلم، باب الإنفاق مفتوحٌ على مصراعيه..

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

العمل الصالح وسيلة الإنسان للاتصال بالله عز وجل:

اخواننا الكرام، هذه آية مذهلة، آمنت بالغيب، لأنك آمنت بالغيب فلابدّ أن تتصل بالله عزّ وجل، والوسيلة هي العمل الصالح، الآية دقيقة..

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف)

هذا الدين، الدين بسيط جداً، ولكننا عَقَّدناه، نحن جعلنا الدين عُقَداً، وعقبات ؛ آمن بالله من خلال خلقه، في رأسك عقل، وثمة كون معجز، إذا أعملت العقل قليلاً عرفت أن لهذا الكون خالقاً.

من لوازم الإيمان بالله وكتبه و رسله أن نؤمن أن رسالات الله عزّ وجل غير منقطعة:

إخواننا الكرام، الآن هناك إنجازات علمية مذهلة، ما يحدث في أي مكان في العالم يراه كلُّ الناس في القارات الخمس، نقل الصورة عن طريق الأقمار الصناعية هل هو شيء سهل ؟ والملوَّنة والآن ذات الأبعاد الثلاثة ؛ نقل الرسالة بجهاز، بمجرد أن تضع الرسالة في هذا الجهاز يظهر في أقصى بلاد الدنيا.. بالفاكس.. هل هذا قليل ؟ هذا الهاتف الخلوي قليل ؟ الإنترنت قليل ؟ لو أعمَل الإنسان

عقله في الكون بجهد واحد من المليار مما أُنجز من هذه المنجزات لعرف الله ؛ آمنتَ بالغيب، أقمت الصلاة، ثمن هذه الصلاة الإنفاق ؛ أنفقْ أُنْفِق عليك؛ من هم المتقون ؟ الذين اتقوا الخطر..

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

الله عزّ وجل خالق الكون، والخلق كلُّهم عياله منذ أن خلَقهم، وحتى قيَّام الساعة، فلا معنى أن تؤمن أن الله أرسل نبيًّا لنا وحدنا.. قال لا:

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4))

نؤمن بالأنبياء جميعاً، نؤمن بالكُتب السماوية كلِّها، نؤمن أن الله لا يدع عباده من دون رسل وأنبيَّاء..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7))

(سورة الرعد)

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (78))

(سورة غافر)

فمن لوازم الإيمان بالله، والإيمان بالكتاب، والإيمان بالنبيِّ أن تؤمن أن رسالات الله عزّ وجل غير منقطعة، على مدار الزمان هناك رسالات، وهناك أنبيَّاء، وهناك هداية، لأن الله عزّ وجل قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (19))

(سورة آل عمران)

لو تتبَّعت في آيات القرآن نبيًّا نبيًّا لوجدت أن الله وصف كل نبي بأنه مسلم، فالإسلام بالمعنى الواسع: الخضوع لله، وبالمعنى الضَيِّق: آخر رسالة نزلت على رسول الله، فالمعنى الواسع للإسلام إذاً هو الانصياع لله، حتى فرعون حينما أدركه الغرق قال:

(وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

(سورة يونس)

أي أنا خضعت لهذا الوحي الذي جاء به موسى، ولكن بعد فوات الأوان، قال:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91))

(سورة يونس)

المشكلات التي يعانيها المسلمون اليوم نتيجة ضعف إيمانهم باليوم الآخر :

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4))

(سورة البقرة)

والله أيها الأخوة الكرام، في نفسي عن هذه الكلمة معانٍ كثيرة جداً، كل مشكلاتنا التي نعانيها لضعف إيماننا باليوم الآخر، لو أنَّك آمنت أنك سوف تُحَاسب حساباً دقيقاً:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

لا يمكن أن تأخذ ما ليس لك، ولا يمكن أن تعتدي على حق أحد، ولا يمكن لك أن تستطيل على إنسان، ولا أن تَبْتَزَّ مال إنسان، ولا أن تحتال على إنسان ؛ كل ما ترى عينك من معاصٍ يفعلها الناس فهذا لضعف إيمانهم باليوم الآخر ؛ وأحد ثاني أكبر ركن في الدين هو: اليوم الآخر.

الإيمان بالله و اليوم الآخر يبعدان الإنسان عن معصية الله تعالى:

الآن تنتهك مجتمعات قوية، تنتهك حُرمات الشعوب، تستغل خيراتها، تعتدي على حُريَّاتها، ماذا يتوهم هؤلاء الأقوياء ؟ أنهم أذكياء، وأن عندهم العلم، والسلاح الفَتَّاك، والإعلام والمصارف، هم بمقياس اليوم الآخر أغبياء، وسوف يحاسبون حساباً عسيراً..

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

لمجرد أن تؤمن باليوم الآخر، وفي هذا اليوم لن تُغَادرُ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها الله عزَّ وجل..

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49))

(سورة الكهف)

لمجرد أن تؤمن باليوم الآخر، وأن الله سيَسْأل كل الخلق عن الكلمة، وعن النظرة، من سابع المستحيلات أن تعصي الله.

العاقل و المتفوق من آمن بالله وعمل لليوم الآخر:

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ (5))

هذا الهدى رَفَعَهم،

(على)

تفيد الاستعلاء، رفعهم إلى أعلى عليِّين، رفع قدرهم، ورفع مكانتهم، ورفع اسمهم..

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

هم الأذكياء، هم المتفوِّقون، هم العقلاء، هم الناجحون، هم الفائزون.

اتباع منهج الله عز وجل أساس الوقاية من أخطار الدنيا والآخرة :

إخواننا الكرام، هذا المقطع من سورة البقرة يُمَثِّل المؤمنين، لأنك كائن أودعت فيك الشهوات سبب حركتك، والشهوات تحتاج إلى منهج، إلى هدى من الله، فهناك خطر كبير أن تندفع بدافعٍ من شهواتك من دون منهج، هذا الخطر كيف يُتَّقى ؟

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

من أراد الوقاية من أخطار الدنيا والآخرة، من أراد الوقاية من مصائب الدنيا، ومن نار جهنم، فعليه باتباع هذا المنهج..

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

من عند الله..

(لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

خصائص المتقين :

هؤلاء المتَّقون أولى خصائصهم: يؤمنون بالغيب الذي له آثار عن طريق العقول، وبالغيب الذي ليس له آثار إلاّ عن طريق الإخبار، وبغيبٍ استأثر الله به لا يعلمه أحدٌ إلا هو؛ الإيمان بالغيب.. وأعظم شيءٍ في هذا الغيب الله جلَّ جلاله ؛ بعد أن آمنت به لا بدَّ من أن تتصل به.. وإلا ليس للإيمان معنى، لو فرضنا أنَّ شخصاً مصاباً بمرض جلدي، وعلاجه الوحيد هو التعرض لأشعة الشمس، بقي جالساً في غرفة مظلمة قميئة، وفيها رطوبة عالية، وفيها عفونة، قال: أنا مؤمن بالشمس، الشمس ساطعةٌ، الشمس مضيئةٌ، الشمس شافيةٌ.. فما معنى هذا الكلام ؟ اخرج من هنا، ما دام لا يوجد حركة فإن هذا الكلام كله (خزعبلات)، ما لم تخرج إلى أشعة الشمس ليشفى هذا المرض فهذا كلام (فارغ).

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ (3))

التقيت مرة في سهرة مع شخص يحمل دكتوراه في العلوم، ودكتوراه في الآداب، وله مؤلَّفات، ذكي وطليق اللسان، ومتحدث لبق، والله أنا أعجبت به، قال لي في آخر السهرة: لكن أنا لا أصلي، سبحان الله سقط من عيني، كل هذا العلم، وكل هذا الفهم، ولا تُصلي ؟!

كيف ؟ الثمن ؟ الطريق ؟ السبب ؟..

(وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (78))

(سورة غافر)

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

تؤمن، فتنفق، فتصلي، هذا هو الدين كله.

الإيمان بالله يرفع الإنسان و يعلي شأنه و يحفظه :

الدين الذي أنت مؤمنٌ به ليس حلقةً في فراغ بل حلقة في سلسلة، أرسل الله عزّ وجل سيدنا عيسى، وسيدنا موسى، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا نوح.

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (78))

(سورة غافر)

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ (4))

كل الخلق عباده..

البداية:

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ (3))

والنهاية:

(وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى (5))

إيمانك يرفعك، يُعلي قدرك، يرفع شأنك، يعزُّك، يحفظك..

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ (5))

دقق.. الهدى قيود.

التقيد بالقيم الدينية يجعلك حراً و التفلّت منها يجعلك مقيداً محروماً :

يوجد عندك منظومة قيم ؛ هذه حرام، هذه لا تجوز، هذه معاونة على المنكر، المنهج مئة ألف بند، وفي كل بند أمر ونهي، ومباح ومندوب، وسنة مؤكدة، وغير مؤكدة، ومستحب، الهُدى كله قيود لكنه يجعلك حراً.. دقق.. مُواطنٌ ينضبط بكل الأنظمة فهو حُر، جالس في بيته مرتاح، يرغب أن يسافر، أو أن يقيم، أو أن يأخذ تأشيرة خروج، فهو يذهب أينما شاء، لأنه قيد نفسه بالقوانين فصار حراً ؛ أما لو ارتكب أحدهم مخالفة كبيرة لَفَقَدَ حُريَّته، هناك أشياء فيها علاقة عكسية، التقيد بالقيم الدينية يجعلك حراً، والتفلُّت منها يجعلك مقيداً محروماً.

(أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32))

(سورة الأحقاف)

أي أن آخرته إما كآبة، ومرض نفسي، أو في السجن.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ (5))

الهدى يرفعك، التفلت يسقطك ويضلك.

الإيمان بالله والاتصال به أساس الوقاية من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة :

أولئك الذين أرادوا الوقاية من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بحثوا عن المنهج فوجدوه في كتاب الله، فآمنوا بالله غيباً، واتصلوا به عن طريق الإنفاق مما رزقهم، وآمنوا بسلسلة الرسالات، وآمنوا بالآخرة هذا اليوم الفصل، قال تعالى :

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

فما قولكم إذا كنا ممن تنطبق علينا هذه الآيات ؟ والله هذا هو الفوز العظيم، هذا هو العقل، هذا هو التفوق، أن تكون من الصفوة المختارة ممن رضي الله عنهم، ممن ألقى في قلوبهم الهدى، ممن دلَّهم عليه، هذا هو الفوز، هذا هو النجاح، هذا هو التفوق، هذا هو الفَلاح.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

لماذا قلت لكم في الدرس الماضي: إن هذه السورة مباركة، وكان يقول بعض الصحابة: **" كان أحدنا إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ في أعيُّننا ".**

الآيات المكية آيات كونية، لها شرح هادئ، قضايا دقيقة جداً مفصَّلة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذا الدرس، وأن ينقلب إلى واقع وإلى سلوك، إيمان بالغيب، إنفاق، اتصال بالله، هذا هو الفلاح، وهذا هو النجاح.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (05- 95):تفسير الآيتان 6-7، وصف المؤمنين والكافرين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-07-24

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الله تعالى عن الكفار والمؤمنين في الآيات التالية:

مع قوله تعالى في الآية السادسة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

تكلَّم الله عن المؤمنين في الآيات السابقة عندما قال:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

هؤلاء الصِنْفُ الأول.

الإيمان والكفر نموذجان متقابلان، متعاكسان، متناقضان:

الصِنف الثاني:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

يمكن أن يُقَسَّم البشر على اختلاف أجناسهم، وأعراقهم، وألوانهم، وانتماءاتهم، وأقاليمهم، وأمْصارهم، وقبائلهم، وطوائفهم، ومِلَلِهم، ونِحَلِهم إلى قسمين: مؤمنٍ وكافرٍ؛ مؤمنٍ عرف الله، واستقام على أمره، وأقبل عليه، وانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، وحقق الغاية من خلقه، وحقق الحكمة من

وجوده؛ وكافرٍ غَفَل عن الله، وتَفَلَّت من منهجه الله، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة، ولن تجد صنفاً ثالثاً، الثالث منافق، وهو في الأصل كافر، لكن مصالحه تقتضي أن يظهر ما لا يبطن، إن المنافقين هم الكافرون، فالتقسيم الحقيقي: مؤمن وكافر.

الإيمان تصديق، الكُفر تكذيب، الإيمان كشف، الكفر غطاء، الإيمان إقبال، الكفر إعراض، الإيمان شُكر، الكفر جحود؛ نموذجان متقابلان، متعاكسان، متناقضان؛ الإيمان تصديق، الكفر تكذيب، الإيمان إشهار وكشف، الكفر غِطاء، الإيمان إقبال، الكفر إعراض، الإيمان شكر، الكفر جحود.

المنتفع لا يُناقش لأنه يدافع عن منافِعِهِ لا عن أفكاره:

يُستثنى صنفٌ من الكفار، صنف كفر لنقص المعلومات فلما توافرت له آمن، كَفرَ لأن المعلومات وصلت إليه مشوَّهة فلما صححت له آمن، أما هذا الذي تخبر عنه الآية :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

المقصود هو الكافر المنتَفِعُ بكفره، الذي يعبد شهوته، ومن لوازم عبادة شهوته أن يكفر بالله، فكفره مَصْلَحِيّ، كفره متعلقٌ باختياره، كفره متعلقٌ بمصالحه، كفره متعلقٌ بشهواته، كفره متعلقٌ بمكانته، كفره متعلقٌ بمكاسبه؛ هو الكافر الذي اتخذ الكفر وسيلةً إلى مكاسبه. دققوا، الإنسان قد تغيب عنه الحقائق فإذا تجلَّت له آمن، هذا الإنسان ليس معنياً بهذه الآية، الإنسان أحياناً قد تأتيه الحقائق عن الدين مشوَّهةً فإذا صححت له هذه الحقائق آمن، هذا الإنسان ليس معنياً بهذه الآية، الإنسان أحياناً قد يغفل فإذا ما صحا آمن، هؤلاء ليسوا معنيين بهذه الآية، أما الذي اتخذ الكفر وسيلةً للدنيا، الذي انتفع بكفره، الذي هيَّأ له كفره مكانةً عالية، أو مكسباً كبيراً، أو مالاً وفيراً، أو منصباً رفيعاً، أو مكانةً مرموقة، هذا الإنسان سواءٌ عليه أأنذرته أم لم تنذره لا يؤمن، لأنه لا يبحث عن الحقيقة، ولا يرجوها، ولا يتمنَّاها، ولا تعنيه إطلاقاً.

ذكرت مرةً مثلاً وسأُعيده، لأنه مناسبٌ لهذا المعنى، مثل افتراضي؛ إنسان فقير جداً يعمل عَتَّالاً على دابة، فلما ماتت هذه الدابة فَقَدَ دخله كلياً؛ دفنها، وأقام عليها بناءً وقبةً خضراء، وأعطاها اسماً من اختراعه، وزعم أن هناك ولياً مدفوناً في هذا المكان، وجاءه الناس زُرافاتٍ ووحدانا يتبركون بهذا الولي، ويعطونه العطايا الكثيرة، فهذا الإنسان انتفع بهذه الكذبة، وهذا الدجل انتفاعاً لم يكن يخطر له على بال؛ هل في الأرض قوةٌ يمكن أن تُقنعه أن المدفون هنا دابة ؟ لا، قناعته أشد من قناعة الذي يناقشه، لكنه ليس من صالحه إطلاقاً أن يعترف أن المدفون في هذا المكان دابة، هو يقاتل من أجل دَجَلِه، يقاتل من أجل فكرته، يقاتل من أجل كذبه، يقاتل من أجل الخُرافة التي نشرها بين الناس، هو يدافع عن مصلحته، يدافع عن دخلِه، يدافع عن مكانته، يدافع عن مكاسبه، فهذا الذي اتَّخذ الكفر وسيلةً للدنيا، هذا الذي هيَّأ له كفره مكانةً عالية، ودخلاً كبيراً، وهيمنةً على الناس عظيمة، هذا سواءٌ عليه أأنذرته أم لم تنذره لا يؤمن؛ هو بعيدٌ جداً عن موضوع الفكر وعن

موضوع العقيدة، وعن موضوع المبادئ وعن موضوع الأهداف، أنت في واد وهو في واد؛ المنتفع لا يُناقَش لأنه يدافع عن منافِعِهِ لا عن أفكاره. ليس الذين كفروا هم الذين شوِّهَت لهم المعلومات فكفروا فلما صُحِحَت آمنوا، لا ليسوا هؤلاء، وليسوا هم الذين غابت عنهم الحقائق فلما حصَّلوها آمنوا، ليسوا هؤلاء، إن الذين كفروا هم الذين انتفعوا بكفرهم، والذين وصلوا إلى الدنيا بكفرهم، والذين أطاعهم الناس لكفرهم.

المؤمن إنسان مبادئ وقيم بينما الكافر إنسان مصالح وشهوات :

أيها الأخوة حدثنا ربنا عزَّ وجل عن اليهود كيف أنهم يعرفون النبي، أية معرفةٍ بديهية؛ وأية معرفةٍ يقينية، أية معرفةٍ سهلة، أية معرفةٍ قصيرة من أن تعرف ابنك، فإذا نظر أحدهم إلى ابنه هل يقول له: ما اسمك يا بني ؟ مستحيل، من أنت ؟ ترتيبك الثاني أم الثالث ؟ مستحيل، قال ربنا عزَّ وجل:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ (146))

(سورة البقرة)

لماذا كفروا ؟ كفروا حسداً، هناك مصالح، لذلك كأن الله عزَّ وجل ينصحنا أن لا نناقش المنتفع بكفره، لا تحاورَه:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

حاور من لم ينتفع بكفره ففيه خير، معلوماته قليلة، معلوماته مشوَّهة، لو وصل إلى الحقيقة لآمن بها، هذا يأخذ الله بيده إلى الإيمان، أما الذين عناهم الله بهذه الآية فهم المنتفعون بكفرهم، المؤمن إنسان مبدأ، الكافر إنسان مصلحة، المؤمن إنسان قِيَم، الكافر إنسان شهوات، المؤمن يسعى للآخرة، الكافر يسعى للدنيا، مبادئ المؤمن فوق كل مصالحه، مصالح الكافر فوق كل مبادئه.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (6))

من معاني الكفر كما قلت قبل قليل الجُحود، يقول الله سبحانه وتعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

من لوازم الإيمان الشكر ومن لوازم الكفر الجحود :

أي أن من لوازم الإيمان الشكر ومن لوازم الكفر الجحود، فالمؤمن يشكر والكافر يجحد، لذلك قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((رأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أرَ كَالْيَوْمِ مَنْظراً قطُّ وَرَأَيْتُ أكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ قالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قالَ: بِكُفْرِهِنَّ. قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ ؟ قالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ (العشير هو الزوج) وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً قالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قطُّ))

[البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه]

هذا لا ينطبق طبعاً على النساء المؤمنات الصالحات الصادقات، اللواتي يعرفن حق الزوج، واللواتي يَرْعَين الزوج، واللواتي يربين الأولاد.

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً (5))

(سورة التحريم)

جنس النساء قبل أن يعرفن الله يَكْفُرْن العشير **" مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قطُّ "**، قال لها: ولا يوم الطين، فسكتت، هذه قصة طويلة عن أحد ملوك الأندلس، واسمه ابن عبَّاد، أحب جاريةً وتزوَّجها، وجعلها السيدة الأولى، اشتهت حياة الفقر مرةً وحَنَّت إليها، فطلبت أن تدوس في الطين، فعجن لها الكافورَ والمسك بماء الورد، وقال: هذا هو الطين؛ فلما خسر المُلك، وأخذه منه ابن تاشفين، وأودعه السجن، افتقر، فكانت زوجته تسيء معاملته وتقول له: ما رأيت منك خيراً قط؛ فقال لها مرةً: ولا يوم الطين ؟ فسكتت.

كلمة كفر تعني أن هناك إيماناً بالفطرة وهناك جحود باللسان :

الكفر هو الجحود، والكفر هو التكذيب، والكفر هو الإعراض، والكفر هو الغِطاء، دقق الآن؛ قال بعض الشعراء في الجاهلية: **" في ليلةٍ كفر النجومَ غمامُها."**

النجوم: مفعول به مُقَدَّم، غمامُها: أي سحابها، وهي فاعل مؤخَّر؛ أي غَطَّت السحب النجوم؛ فالكفر هو الغطاء والستر؛ الآن منطقياً يظهر معنى جديد، معنى الذي كفر أنه يؤمن بالله بفطرته لكنه غَطَّى هذه الحقيقة، الشيء الموجود يَسْبِق الغطاء، ماذا أنت تغطي ؟ كلمة كفر تعني الغطاء والستر، الستر والغطاء مصدر، فلا بدَّ من شيءٍ تَسْتُره، لا بدَّ من شيءٍ تُغَطِّيه؛ كلمة الكفر تعني تغطية الإيمان، أنت مؤمن لكنَّك تُغَطِّي إيمانك، مؤمن ولكن تَسْتُر إيمانك، مؤمنٌ بفطرتك ولكن مصلحتك تقتضي أن تغطِّي هذه الحقيقة، أن تُعَمِّيها على الناس، لذلك يوم القيامة:

(قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23))

(سورة الأنعام)

فقال الله عزَّ وجل:

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (24))

(سورة الأنعام)

المعنى دقيق جداً الكفر هو السَتْر والغطاء في أصل اللُّغة، وهذا القرآن بلسانٍ عربيٍ مبين، فالإنسان حينما يكفر يُغَطِّي حقيقةً آمن بها بفطرته، والإنسان حينما يكفر يستر حقيقةً تُدرَك بالبديهة، والشيء المُغَطَّى يسبق الغطاء، والشيء المستور يسبق السِتر، فكلمة كفر تعني أن هناك إيماناً بالفطرة، وهناك جحود باللسان:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (24))

(سورة الأنعام)

الكفار المنتفعون بكفرهم أنت في واد وهم في واد:

أيها الأخوة، هؤلاء الكفار المنتفعون بكفرهم:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

أي أنت في واد، وهم في واد .

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو ناراً نفخت فيها أضاءت ولكنَّك تنفخ في رماد

***

نعوذ بالله من الكفر، الناس رجلان مؤمنٌ وكافر، مؤمنٌ يعرف الله وكافرٌ كَذَّبَ بالحق لما جاءه، مؤمن مقبل وكافر معرض، مؤمن شاكر وكافر جاحد، مؤمن يرى ويشهد وكافر أعمى:

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72))

(سورة الإسراء)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

الله تعالى قدّم السمع على البصر:

كأن الله جلَّ جلاله ينصحنا أن هذا الذي اتخذ الكفر مغنماً، واتخذ الكفر سبيلاً للدنيا أنّ وَقْتُكَ أثمن من أن تُضَيِّعَه معه، ابحث عن إنسانٍ آخر يبحث عن الحقيقة؛ يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9))

(سورة الأعلى)

لماذا لا يؤمنون ؟ هنا المشكلة:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (7))

الإنسان له عين وله سمع، قُدِّمَ السمع مبدئياً على البصر:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ (7))

قال العلماء: " العين لا ترى إلا أمامها، ولا ترى بعد الحواجز، ولا ترى إلا بواسطة، فزاوية الرؤية نحو الأمام، فإذا كان هناك جدار منع الرؤية، ولا بدَّ من نورٍ يتوسَّط بين العين وبين المرئي، ولكن الأذن تتصل بالجهات الست، الأمام، والخلف، واليمين، واليسار، وفوق، وتحت، بالجهات الست، والأذن لا تحتاج إلى وسيط، وإن كان الهواء هو الوسيط فلولا الهواء ما انتقلت الأمواج الصوتية، ولكننا يمكن أن نغفل الوسيط لكونه دائماً وثابتاً.

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (7))

هذه الغشاوة حُبُّ الدنيا، الشهوات، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((حُبُّك الشيء يُعمي ويُصِم))

[أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء]

الشهوة غشاوة على الأذن وغشاوة على العين:

لما أحب الشهوة وآثرها على كل شيء، وعبدها من دون الله، وجعلها نهاية آماله، ومحطَّ رحاله كانت هذه الشهوة غشاءً على عينيه، وغشاءً على أذنيه، فهو لا يرى الآيات، ولا يستمع إلى الحق؛ والإنسان إما أن يرى الآيات الدَّالة على عظمة الله، وإما أن يُصغي لكلمة الحق تلقى في أذنه، فالشهوة غشاوة على الأذن، وغشاوة على العين؛ الفكر أو ما يدعى مجازاً العقل الذي في الرأس، هناك عقل في القلب، وعقل في الرأس:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا (179))

(سورة الأعراف)

إن أردنا أن نسمي ما في الرأس فكراً، الفكر جهاز استدلال، جهاز استنباط، جهاز محاكمة، جهاز اتخاذ قرار، جهاز معرفة، أداة إدراكيَّة منافذها السمع والبصر، فإذا فُتح البصر، وفُتِحَ السمع، جاءت المعلومات إلى الدماغ، والدماغ درسها وحللها، وحاكم جُزْئيَّاتها واتخذ قراراً، وكلما تعمَّق

هذا القرار في الذهن انتقل إلى القلب ليستقر فيه، فالقلب قلبُ النفس، فيه تستقر الحقائق، حينما يضع الإنسان غشاوةً على عينه وهي الشهوة، وحينما يضع غشاوةً على أذنه وهي الشهوة، حيث السمع والبصر هما مَنْفَذا الحقائق:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

فالإنسان بهذا الحال لن يسمع.

منفذا القلب هما السمع والبصر:

الآن ادعُ إنساناً متفلّتاً همُّه النساء، همه المال، همُّه الشهوات، همه أن ينغمس في شهوات الدنيا، ادعه إلى درس علم يستحيل أن يستجيب لك، ما لي ولهذا الدرس ماذا أفعل به ؟ كلام فارغ، كلام أعرفه، أنا لا أحبُّ أن أُضيِّع وقتي، هو في واد وأنت في واد، فالإنسان إذا أحب الشهوات أحب الدنيا، أحب المال، أحب النساء، أحب الانغماس في المُتَع الرخيصة، هذه الشهوة غشاءٌ على عينه وغشاءٌ على سمعه، بقي الفكر بلا معلومات، لم يسمح الإنسان لعينه أن ترى الآيات فيستنبط منها الحقائق، ولم يسمح لأذنه أن تصغي إلى الحق فيعرف الحقيقة، وضع على أذنه غشاوة وعلى عينه غشاوة، فالفكر تعطل، والفكر هو المورِّد للقلب، تعطَّل القلب قال علماء التفسير: هذا خُتْمٌ حكمي؛ أي إذا أغلقنا الأبواب الخارجية للمسجد إغلاقاً محكماً، فهذه الأبواب الداخلية مغلقةٌ حكماً، حتى لو أنها مفتوحة لن يصل إليها إنسان ما دام البابان الخارجيان مُغْلقين، فالأبواب الداخلية مغلقةٌ حُكماً.

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (7))

منفَذا القلب السمع والبصر، وعلى السمع غشاوة، وعلى البصر غشاوة .

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (7))

والغشاوة هي حبُّ الدنيا.

وصف الله عزَّ وجل قلب الكافر بصفاتٍ كثيرة:

أيها الأخوة الكرام، وصف الله عزَّ وجل قلب الكافر بصفاتٍ كثيرة، وصفه بالخَتْم.

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (7))

والطبع، والضيق، والمرض، والرَيْن، والموت، والقساوة، والانصراف، والحَمِيَّةِ، والإنكار، هذه عشرة أوصاف لقلب الكافر، والحقيقة يقول سيدنا عمر: **" تعاهد قلبك ".**

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

رأس مالِكَ الأوَّل في الآخرة قلبك السليم، هذا القلب الذي استقرت فيه الحقائق، هذا القلب الذي امتلأ شكراً لله، هذا القلب الذي امتلأ حباً لله، وهذا القلب الذي امتلأ تعظيماً لله.

((يا رب أيّ عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

الآلاء للتعظيم، النَعْماء للحب، البلاء للخوف؛ معنى ذلك أن القلب السليم فيه تعظيمٌ لله، وحبٌ له، وخوفٌ منه، البلاء يُورثُ الخوف، والآلاء تورث التعظيم، والنعم تورث الحب؛ فالقلب السليم فيه خوف، وفيه حب، وفيه تعظيم، أما قلب الكافر فيه الختم، والطبع، والضيق، والمرض، والرَين، والموت، والقساوة، والانصراف، والحَمِيَّة، والإنكار:

(قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ (22))

(سورة النحل)

أي تُنكر الحقائق، تَعاف الحقيقة.

آيات من القرآن الكريم عن الحمية الجاهلية:

ذكر لي أخ أنه حدَّث إنساناً بكلامٍ طيبٍ عن الدين، فأجابه: هذه المعلومات لا أهتَمُّ لها، ولا أصغي إليها، ولا أزنها بأي ميزان، إنني أسعى لامرأةٍ جميلة وبيتٍ واسع وسيارةٍ فارهة.

(وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22))

(سورة النحل)

وقال في الحمية:

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ (26))

(سورة الفتح)

تجد عاطفة هَوْجاء، تَعَصُّباً أعمى، انحيازاً غير معقول، يفور بلا سبب، يقسو بلا سبب، يقتل بلا سبب، يغضب بلا سبب، حميَّة جاهلية، حمية عمياء، ينجرف انجرافاً مخيفاً بلا أسباب معقولة.

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ (26))

(سورة الفتح)

يغضب الإنسان الجاهلي فيرتكب جريمة، يغضب فيقذِف بأبشع الكلمات، يغضب فيُطلّق بلا سببٍ وجيه، يغضب فيعتدي، هذه الحمية الجاهلية، من صفات قلب الكافر.

آيات أخرى من القرآن الكريم عن الانصراف والقساوة:

وفي الانصراف قال تعالى:

(ثُمَّ انْصَرَفُوا (127))

(سورة التوبة)

انصرف عن الحق إلى الباطل، انصرف عن المسجد إلى دور اللهو، انصرف عن الحقائق إلى القَصَص، انصرف عن دروس العلم إلى المُسَلْسَلات.

(ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127))

(سورة التوبة)

مكانك الطبيعي في أعلى عليين فَغُصْتَ في أسفل سافلين، مكانك الطبيعي في السماء أنت في وحول الأرض انصرفت إلى الدنيا، أخلدْت إلى الأرض، وقال في القساوة :

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ((22)

(سورة الزمر)

ما هذا القلب أيها الأخوة ؟ يكبر ويكبر ولا نرى كِبَرَه، فيتصاغر أمامه كل كبير، ويصغر ولا نرى صغره فيتعاظم عليه كل حقير؛ من هم الأنبياء العظام ؟ لهم قلوبٌ كبيرة وَسِعَت هموم الناس، القلب الكبير يحمل هموم المسلمين، لا يرتاح إذا حقق مصالحه المادية فقط، هذه لا تعنيه كثيراً، يعنيه أن يحقق إنجازاً للمسلمين.

القلب منظر الرب يتصل بالله فيمتلئ رحمة:

والقلب أيُّها الأخوة منظر الرَّب:

((إنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إلَى أجْسَادِكُمْ وَلا إلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ وَأشَارَ بِأصَابِعِهِ إلَى صَدْرِهِ))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

القلب منظر الرَّب، وقد ورد في الحديث القدسيّ:

((عبدي طهَّرتَ منظر الخلق سنين أفلا طهَّرت منظري ساعة ؟))

[ورد في الأثر]

القلب بيت الرَّب، والقلب أيها الأخوة يتَّصل بالله فيمتلئُ رحمةً؛ الرحمة إحساس داخلي مُنْعَكَساتها اللين واللطف والخدمة والتواضع؛ قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ (159))

(سورة آل عمران)

أي بسبب رحمةٍ استقرت في قلبك يا محمد من خلال اتصالك بنا كنت لهم ليِّناً، فلما كنت ليناً معهم التفوا حولك وأحبّوك، ولو كنت منقطعاً عنا لكان قلبك قاسياً، والقسوة من لوازمها الفظاظة والغِلظة:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (159))

(سورة آل عمران)

قوانين، تتصل بالله يمتلئ القلب رحمةً، إذا امتلأ القلب رحمةً كنت ليناً مع الناس رحيماً بهم، منصفاً متواضعاً، مُعطياً كريماً، سخياً عفُوّاً فأحبك الناس والتفّوا حولك؛ أما إذا كنت منقطعاً عن الله امتلأ قلبك قسوةً.

قسوة القلب علامة البُعد ورقّة القلب علامة الرحمة:

مؤشِّر الإيمان يتحرك تماماً مع مؤشِّر الرحمة، أنت رحيمٌ بقدر ما أنت مؤمن، وأنت قاسي القلب ـ لا سمح الله ـ بقدر بُعْدِكَ عن الله.

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22))

(سورة الزمر)

وفي آيةٍ أخرى:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ (74))

(سورة البقرة)

قلب الكافر كالصخر، لا يرحم، ولا يعطف، ولا يتألّم، يبني مجده على أنقاض الآخرين، يبني غناه على إفقارهم، يبني حياته على موتهم، يبني أمنه على خوفهم، قلبٌ كالصخر؛ فهؤلاء الذين خاضوا حروباً عالمية خَلَّفت خمسين مليون قتيل ـ الحرب العالمية الثانية ـ قلوبهم كالصخر من البعد عن الله؛ كلما ابتعدت عن الله كلما قسا القلب، فقسوة القلب علامة البُعد، ورقّة القلب علامة الرحمة.

" يا أمير المؤمنين إن الناس خافوا شدتك "، قال: **" والله يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى ".**

وقالوا لسيدنا الصديق " أتولي علينا عمراً !؟ **" قال: أتخوِّفونني بالله ؟ أقول: يا رب ولَّيْتُ عليهم أرحمهم، هذا علمي به فإن بدَّل وغيَّر فلا علم لي بالغيب ".**

مواقف تدل على رحمة سيدنا عمر رضي الله عنه:

" أيُّها الناس: إن الناس خافوا شدتي وبطشي، إن هذه الشدة على أهل البغي والعدوان أما أهل العفة والإيمان فأنا ألْيَن لهم من أنفسهم، سأضع لهم خدي ليطؤوه بأقدامهم ـ هذا قول سيدنا عمر ـ أيها الناس خمس خصالٍ خذوني بها: لكم عليّ ألا آخذ من أموالكم إلا بحقها، وألاَّ أنفقها إلا بحقها، ولكم عليَّ ألا أُجَمِّركم في البعوث ـ ترسله لمهمة سنة، فيدع زوجته وأولاده ـ ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا ".

من رحمة سيدنا عمر أنه كان يتجوَّل في المدينة ليلاً مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف فرأوا قافلةً قد استقلَّت في ظاهر المدينة، فقال: تعال نحرسها.

بكى طفل فقال عمر إلى أمه: أرضعي طفلك؛ أرضعته فسكت، ثم بكى فقام إليها وقال: أرضعي طفلك؛ أرضعته فسكت؛ ثم بكى، فغضب عمر، قال لها: يا أمة السوء أرضعي ابنكِ. فقالت له: وما شأنك بنا ؟ ـ ما دخلك ـ إنني أفطمه. قال: ولِمَ ؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام ـ أي التعويض العائلي ـ فضرب جبهته، وقال: ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين.

عندما صلَّى سيدنا عمر صلاة الفجر ما عرف أصحابه قراءته من شدة بكائه من شدة خوفه من الله، قال: يا ربِّ هل قبلت توبتي فأهَنِّئ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟

قلب رحيم، اشتهى أن يأكل اللحم في عالم الرَّماد، ولكنه قال لبطنه: **" قرقر أيها البطن أو لا تقرقر، فو الله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين ".**

تقرّحت يد السيدة فاطمة من الطحن، ومن سحب الماء بالدلو، وتعبت تعباً شديداً، فشكت إلى زوجها سيدنا علي، قال: اذهبي إلى أبيك واطلبي منه خادمةً ـ كل شيء بيد أبيك ـ فذهبت إليه، فقال: ما الذي جاء بك يا بُنيتي ؟ استحيت وقالت: جئت لأسلِّم عليك؛ عادت إلى البيت وقالت لزوجها: ائتِ معي ـ استحيت أن تطالب أباها بخادمة ـ فجاءت مع سيدنا علي، تكلم سيدنا علي مع النبي عن

حاجتها إلى خادمة وعن تعبها وعن مشقتها، فقال: والله يا بُنَيَّتي لا أُؤثرك على فقراء المسلمين، لا أدع أهل الصفة يتضوَّرون جوعاً، قولي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله "، وانتهى الأمر.

رحمة في القلب شملت المؤمنين جميعاً بدون تمييز.

((مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ))

[البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي:

((الراحمون يرحمهم الرحمن))

[الترمذي عن عبد الله بن عمرو]

مواقف من الكتاب والسنة عن القاسية قلوبهم:

((دخلت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْه عن ابن عمر]

قال تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ (22))

(سورة الزمر)

قد يموت القلب، يقول الله عزّ وجل :

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36))

(سورة الأنعام)

الذين ماتت قلوبهم:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14))

(سورة المطففين)

هذا الرّان، فالشهوات والمعاصي والأخطاء تجعل طبقة تحول بين القلب وبين معرفة الحقيقة.

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

(سورة البقرة)

قلوبهم مُغَلَّفة:

(بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ (88))

(سورة البقرة)

كُفْرُهم ومعاصيهم وانحرافهم سبب تغليف قلوبهم.

تبدأ أمراض القلب بعد الموت ويتعذَّب صاحبها بها إلى أبد الآبدين:

وقال تعالى:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً (10))

(سورة البقرة)

القلب يمرض، القلب المُتَكَبِّر مريض، والقلب الجاحد مريض، والشُح مرض، والأنانية مرض، وأن تظلم الناس مرض، وأن تَبْخَسَ الناس أشياءهم مرض، هذه كلها أمراض.

أخواننا الكرام، أمراض الجسم مهما تكن عُضالة؛ سرطان، تَشَمُّع كبد، فشل كلوي تنتهي مع الموت، فإذا كان المرء مؤمناً فإلى الجنة، وتبدأ أمراض القلب بعد الموت ويتعذَّب صاحبها بها إلى أبد الآبدين، فمليون مرض بالجسم ولا مرض واحد بالقلب، والدليل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

قلبك السليم رأسُ مالك، هناك كِبْر، وهناك حسد، وبَغْي، وعدوان، واستعلاء، وجحود، وهضم حقوق الآخرين، وهناك أن تَبْخَسَهُم حَقَّهُم، أمراض القلب لا تُعَدُّ ولا تحصى، وكل هذه الأمراض تبدأ آلامها بعد الموت، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا.

ربنا عزّ وجل يعاوننا على الإيمان:

حدثني أخ: إنسان كان يقود سيارة بسرعةٍ طائشة في الساعة الثانية ليلاً في مدينة مجاورة في بيروت، دهس طفلاً، يبدو أن في قلب هذا السائق حياة، لم يذق طعم النوم عشرين يوماً، تألَّم، زار طبيباً نفسياً فنصحه أن يدفع ديَّةً لأهل الطفل، ليرتاح ضميره وينام، فإذا كان في القلب حياة فهذه نعمةٌ كُبرى، أما إذا كان القلب مغلفاً ومليئاً بالمعاصي عندئذٍ انتهى، وقال الله تعالى في الضيق :

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً (125))

(سورة الشعراء)

وهذه نعمةٌ كُبرى:

((إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

أي أن ربنا عزّ وجل يعاوننا على الإيمان، فإذا اتخذ الإنسان قراراً صحيحاً يشرح الله له صدره، تجده مبسوطاً، وإذا اتخذ قراراً آخر غير صحيح يضيق صدره:

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ (7))

(سورة الحجرات)

قلب المؤمن طاهر بفطرته مصطبغ بكمال الله :

القلب قضية كبيرة.

((أعرف في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))

[متفق عليه عن النعمان بن بشير]

رأس مالك قلبك، قلب المؤمن نظيف، قلبه صاف، قلبه بريء، قلبه مطمئنٌ لعدالة الله، لا يحمل حقداً على أحد، ولا يحسد، ولا يبغي، ولا يتكبر، قلبه سليم وهو موصول بالله، طاهر بفطرته، مصطبغ بكمال الله، باتصاله بالله، هذا قلب المؤمن، والطبع :

(فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3))

(سورة المنافقون)

هذا الطبع حكمي أيضاً، مثلا: انتسب إنسان إلى الجامعة بضغطٍ من أبيه، ولم يحضر أي درس ولا ساعة، وما قَدَّم أي امتحان، ولا قرأ ولا صفحة، هل يفقه هذا شيئاً ؟ لماذا لا يفقه ؟ لأنه أغلق بيده منافذ المعرفة، لو سمع درس يتعلَّم كلمة، لو قرأ كتاباً ليتعلم، لو زار الأستاذ ليتعَلَّم، فلما أعرض عن حضور أي درس، وعن سماع أية محاضرة ولو بالشريط، وعن قراءة أي موضوع، فإنه أغلق بيديه منافذ المعرفة، إذاً ختم قلبُه ختماً حكمياً.

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (5))

(سورة الصف)

إذا عُزيت الإزاغة إلى الله، أو عُزيَ الإضلال إلى الله، أو عُزي الخَتْمُ إلى الله، أو عزي (ران على قلوبهم) إلى الله هذا كله زيغ جزائي مبني على اختيار؛ وأوضح مثل: قلت هذا قبل قليل: طالب لم يقدم أي امتحاناً، ولا حضر ولا مادة ولا قرأ، جاءه إنذار من إدارة الجامعة؛ إنذار ثانٍ، إنذار ثالث، ولم يستجب، صدر قرار بترقين قيده من الجامعة، هل في هذا القرار افتراءٌ عليه ؟ أم هو تجسيدٌ لاختياره ؟

حبُّ الكفار للدنيا واختيارهم للشهوات وإصرارهم عليها جعلها كغشاوةٍ على أعينهم وعلى سمعهم:

قال تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (5))

(سورة الصف)

إذا عُزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري، وإذا عُزي الخَتْمُ إلى الله فهو الختم الجزائي المبني على سد منافذ المعرفة باختيارك، فقوله تعالى:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

هو الخَتْمُ الحُكْمِي، لأن:

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ(7))

الختم من صنع أيديهم؛ حبُّهم للدنيا، واختيارهم للشهوات، وإصرارهم عليها جعل هذه الشهوات كغشاوةٍ على أعينهم وعلى سمعهم، ولأن العينين والسمع منافذ للفكر، والفكر مورِّد للقلب فصار القلب مختوماً عليه حكماً:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

أنواع العذاب:

يوجد بالقرآن عذاب أليم، ويوجد عذاب مهين، ويوجد عذاب عظيم، هؤلاء الذين أضلّوا الناس وتبعهم الناس على إضلالهم، هؤلاء لهم يوم القيامة عذابٌ مهين، يُعذَّبون أمام أتباعهم الذين أضلّوهم، والعذاب المهين أشدُّ من العذاب الأليم.

لو كان الإنسان له مكانة كبيرة جداً وأهنته أمام الناس جميعاً، كأنْ تضربه ضرباً مهيناً أمام أتباعه جميعاً فإن هذا عذاب مهين؛ ويوجد عذاب أليم له ألم حسِّي شديد؛ العذاب المهين معنوي، والعذاب الأليم حِسي، أما العذاب العظيم منسوبٌ لقدرة الله؛ أنت إن أردت أن تعذِّب إنساناً يوجد حدود ينتهي عندها العذاب، مات فلا تستطيع إكمال العذاب، تنتهي قدرتك على تعذيبه بعد أن يموت، لكن الله عزّ وجل قادر على أن يُعَذِّب الإنسان إلى أبد الآبدين:

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (56))

(سورة النساء)

هذا عذاب عظيم، ويوجد عذاب مهين، ويوجد عذاب أليم؛ العذاب المهين أن يعذِّبه أمام من خضعوا له بكفره، أي إنسان أنكر وجود الله عزّ وجل وقال: الشهوة هي كل شيء، يوجد علماء هكذا، يوجد طغاة هكذا، فهؤلاء الذين أضلّوا الناس وحملوهم على الكفر يعذَّبون عذاباً مُهيناً أمام أتباعهم،

والذين كفروا وجحدوا يعذَّبون عذاباً عظيماً، أي عذاباً مستمراً لا ينتهي، أما الإنسان إذا عَذَّب فَله حد ينتهي عنده التعذيب، عندما يموت من يعذبه.

ملخص لأهم نقاط الدرس:

أيها الأخوة، افتتح ربنا عزّ وجل هذه السورة العظيمة بوصف المؤمنين، ووصف الكافرين؛ أما المؤمنون فهم:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (6))

الإيمان تصديق، والكفر تكذيب، الإيمان إقبال، الكفر إعراض، الإيمان شكر، الكفر جحود:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (6))

وانتفعوا بكفرهم، وجعلوه مَطِيَّةً لشهواتهم:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

مكان العقل القلب:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (7))

لأن مَنفَذي القلب هما السمع والبصر:

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (06- 95):تفسير الآيات 8-12، الخطر الكبير الذي يهدد المسلمين هو النفاق و المنافقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-07-31

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن والكافر و المنافق:

أيها الأخوة، بيَّن الله جلَّ جلاله في مطلع هذه السورة الكريمة صفات المؤمنين في آياتٍ قليلة، وبيَّن صفات الكافرين في آيتين، وبيّن صفات المنافقين في ثلاث عشرةَ آية، لماذا ؟ لأن المؤمن واضح، والكافر واضح، المؤمن كان جريئاً آمن بهذا الدين العظيم، وقبض الثمن، ضَحَّى قليلاً وأخذ كثيراً، والكافر كان جريئاً ردَّ الحق ودفع الثمن، المؤمن مُنسجم مع نفسه، والكافر منسجم مع نفسه، المؤمن منسجم مع الحقيقة ومع نفسه، الكافر غير منسجم مع الحقيقة لكنه مُنسجم مع نفسه، فالمؤمن واضح والكافر واضح.

لكن الإنسان الخطير هو المنافق، لأنه غامض، له ظاهر، وله باطن، له موقف معلن، وله موقف باطن، له شيءٌ يفعله في جلوته، وله شيءٌ يفعله في خلوته، علانيته ليست كسريرته، فالمنافق خطر، والمؤمن واضح، والكافر واضح أيضاً، المؤمن انسجم مع الحقيقة ومع نفسه، كان جريئاً وقبل الحق، وضحَّى وقبض الثمن، والكافر انسجم مع نفسه فقط، كان جريئاً، ورد الحق، ودفع الثمن، المؤمن كلُّه خير، كله عطاء، كله إكرام، كله إحسان. الكافر شَرُّه محدود لأنه مكشوف، أذاه محدود لأنه ظاهر، الناس يتقونه لأنه كافر.. أما المنافق فخطره كبير، لأنه يوهم المؤمنين أنه مؤمن وهو مع الكُفَّار، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ (145))

(سورة النساء)

أخذ المنافق ميزات المؤمنين، وعومل كما يُعامَل المؤمنون، أخذ كل امتيازاتهم لأنه أظهر الإيمان، واستفاد من الكُفَّار، وغَشَّ المؤمنين، لذلك فهو في الدَرْك الأسفل من النار، وصف الله المؤمنين في بضع آيات، وفي آيتين فقط وصف الله الكافرين، وفي ثلاث عشرة آية وصف الله المنافقين.

النفاق أخطر شيءٍ في حياة المؤمنين :

أيها الأخوة، يبتلي الله عزَّ وجل المؤمنين ابتلاءاتٍ متعددة، يبتليهم فيمنحهم القوة، ويبتليهم فيضعفهم، المؤمنون مبتلَوْنَ حينما يظهرهم الله على أعدائهم، ومبتلون حينما يستضعفون، فإذا كان الابتلاء استضعافاً كَثُرَ الكفار، لأنهم لا يخافون أحداً.. وإذا كان البلاء قوةً كثر المنافقين، و في مكة المكرَّمة لم يكن هناك منافقون، لأن الإنسان يكفر جهاراً، ويتَّهم النبي جهاراً، ويقول: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه شاعر، وإنه أفَّاك، وينام مطمئناً في بيته، ولا يناله أحد بأذى، لأن المؤمنين ضِعاف، يكثر الكافرون مع ضعف المؤمنين، أما في المدينة فقد أصبح للمؤمنين شَوْكَة، وهم قوة، لذلك كثر المنافقين، المنافق كافر لكنه رأى من مصلحته أن يَنْضَمَّ إلى المؤمنين صورةً وأن يتعاون مع الكافرين حقيقةً، لذلك أخطر شيءٍ في حياة المؤمنين النفاق، المؤمن كما قلت قبل قليل واضح، والكافر واضح، المؤمن انسجم مع الحقيقة، ومع نفسه، وكان مصدر عطاءٍ للخلق، والكافر انسجم مع نفسه فقط، لا مع الحقيقة، شره محدود، لأن هويّته معلنة، المؤمن جريء آمن بالحق، وضحَّى، وقبض الثمن، والكافر جريء، ردَّ الحق وكسب بعض المكاسب المؤقَّتة، ودفع ثمنًا باهظاً، لكن المنافق متلوِّن لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

(سورة البقرة)

من رُقِيّ النفس أن يتهمها صاحبها دائماً بالنفاق:

أيها الأخوة الكرام، من رُقِيّ النفس أن يتهمها صاحبها دائماً بالنفاق، اتهام، قال أحد التابعين الأجِلاَّء: التقيت أربعين صحابياً ما منهم واحدٌ إلا وهو يظن نفسه منافقاً، فالمؤمن يتقلب في اليوم الواحد بأربعين حالاً خشية النفاق، والمنافق يَثْبُتُ على حالٍ واحد أربعين عاماً ولا يشعر

أنه منافق، النفاق ازدواج، النفاق حالة من حالات انفصام الشخصية، له شخصيتان، يتظاهر مع المؤمنين بالتقوى والصلاح، ويطرح أسئلة فقهية دقيقة جداً، يسألك مثلاً: حبة سُمسم بقيت بين أسنانه ما حكم صيامه يا أستاذ ؟ تجده ظاهراً يغلي ورعاً، وله معاصٍ كبيرةٌ جدًّا يغفلها، كلما جلس مع المؤمنين طرح عليهم أسئلة كثيرة، وفتاوى، وقضايا، ليظهر أمامهم أنه مؤمن، وليأخذ امتيازات المؤمنين، وليكسب مكاسِبَهُم، أما هو في الحقيقة فمع الكافرين، يقول الله جلَّ جلاله: ومن الناس من يقول.. بلسانه.. والقول سهل:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ (8))

والله عزَّ وجل كَذَّبَهُم، فقال:

(وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8))

الإنسان لا يقيّم بأقواله بل بأفعاله:

لا يقيّم الإنسان بأقواله بل يقيَّم بأفعاله، فكم ممن يقول لك: أنا مؤمنٌ باليوم الآخر، فإذا بحثت في أعماله لم تجد عملاً صالحاً واحداً يؤكّد إيمانه باليوم الآخر، وإذا بحثت في حياته الخاصَّة لم تجد عملاً واحداً يُنبئُ عن أنَّه يخاف النار، يأكل المال الحرام، يجلس مع نساءٍ لا يحللن له، يعتدي على حقوق الآخرين، على أعراضهم، على أموالهم، إما صراحةً أو ضمناً بالكذب، والغش، والاحتيال، ويحقق مصالحه، ويَدَّعي أنه مؤمن، والإيمان بريءٌ منه، مثلاً استطاع رجل أن يُخَلِّص بيتاً ثمنه سبعة ملايين بسبعمئة ألف، بأساليب ملتوية غير شرعية، وهو يرتاد المساجد. ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حَجَّةً بعد حجة الإسلام.

فالنفاق أخطر شيء في حياة المؤمنين، ازدواج الشخصية، انفصام الشخصية، موقف معلن، وموقف خفي، شيءٌ يفعله أمام الناس، وشيءٌ يفعله فيما بينه وبين نفسه، سريرته ليست كعلانيته، خلوته ليست كجلوته، شيءٌ يفعله في بلده فإذا سافر فعل شيئاً آخر، وكم من امرأةٍ محجَّبةٍ تراها في الطائرة جاءت من بلدٍ الحجاب فيه إلزامي، فلما ركبت الطائرة خلعت كل شيء، وكأنها لا تؤمن بشيءٍ من الدين، هذا نفاق، يلاحظ الإنسان هذا الازدواج في حياته، إذا كان يفعل فعلاً أمام الناس مقبولاً ويفعل خلافه فيما بينه وبين نفسه، فهذه حالة من النفاق، ولا تنسوا أيها الأخوة أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، أخطر شيءٍ في حياة المؤمن أن تَزِلَّ قدمه إلى النفاق.

أنواع النفاق:

ولكن لا أكتمكم أن هناك من النفاق ما هو ضعفٌ في الإيمان، أو ضعفٌ أمام الشهوات، هذا المنافق الذي انطلق من ضعفٍ في اليقين، وضعفٍ في الإرادة، لعل الله سبحانه وتعالى يُعالجه فيأخذ بيده

إلى الإيمان، وهناك حالاتٌ كثيرة ممن عاصروا النبي عليه الصلاة والسلام كانوا منافقين فتاب الله عليهم، ولكن النفاق الذي يُنْتَفع به لمكاسب دنيوية ـ كما قلت في الدرس الماضي ـ حينما ينتفع الإنسان بالكفر، وحينما يتخذ الكفر وسيلةً لمكاسب مادية، هذا الكافر يصبح مع الكافرين:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

والمنافق الذي أصله كافر كفراً اعتقادياً، وكفراً سلوكياً، وهو مع المؤمنين في ظاهره، هذا أيضاً لا ينتفع بأية موعظةٍ يتلقَّاها..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ (8))

قول.

النفاق تمثيل متقن جداً :

الله عزَّ وجل يقول:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

(سورة محمد)

ما قال: فقل، القول سهل، وكل إنسان ذكي، والآن التمثيل في هذا العصر متفوِّق تفوِّقاً كبيراً، فأذكى الأذكياء يُتْقِن التمثيل، وبإمكانه أن يوهمك أنه مؤمن، بكلام، وبحركات، وبسكنات، وبتصرفات، وبمواقف، وما هو كذلك ولا سيما في موضوع الزواج، هو يوهم أنه صالح، تقي، ونقي، وعفيف، و بعد القِران يظهر لك إنساناً آخر، وهي توهمه أنها تحفظ كلام الله، ولها شيخةٌ تأخذ عنها العلم، وتخاف من الله، وتتحجَّب أمامه، فإذا دخل وقتٌ آخر رأيتها امرأة أخرى، فالتمثيل الآن متقن جداً، أي أن الخبرات التمثيلية في أعلى درجة، والتمثيل نفاق في الحقيقة، أوضح شيء أن الممثل قد يأخذ دور إنسان صالح، وهو كذلك، وقد يأخذ دور إنسان سيّئ، وهو كذلك، على كلٍ هناك إتقان للأدوار، فالنفاق، والتمثيل يلتقيان، المنافق ممثل، والنفاق أنواع، والتمثيل أنواع، وهناك تمثيل متقن جداً، وتمثيل غير متقن.

ذكرت لكم مرة أنه تمثيلية في معهد شرعي عن سيدنا بلال، وعن أمية بن خلف: هو مَن عذب سيدنا بلالاً، وكان مالكه في الجاهلية، كيف يعذِّبه ويقول بلالٌ: أحدٌ أحد، فهذا الذي يمثل دور أمية، قال له: لن أرفع عنك العذاب حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، طبعاً تمثيل غير متقن، لأنه قال: صلى الله عليه وسلم، المنافق ممثّل، ممثل ذكي جداً.

أعمال الإنسان تؤكد مكانته:

الآن..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8))

يقيّم الإنسان من أعماله فقط، أعماله تؤكّدُ مكانته، لذلك تجد إنساناً يؤمن بشيء علانيةً، ولكن أفعاله لا تؤكد ذلك، ليس في فعل المنافق فعلٌ واحد، يؤكد أنه مؤمن بالجنة، هو لا يعمل لها.. وليس في فعل المنافق فعلٌ واحدٌ يخاف من مؤمن يؤكد أنه بالنار، لأنه لا يتقيها.. هؤلاء الذين ينغمسون إلى قمة رؤوسهم في المال الحرام أين هي الجنة والنار في حياتهم ؟ والله لو أن الإنسان آمن أن هناك ناراً سيدخلها إلى أبد الآبدين لعدَّ إلى المليون قبل أن يأكل درهماً حراماً، ولو آمن أن هناك حساباً عسيراً..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

الإيمان عمل و التزام:

حينما لا تجد في عمل الإنسان عملاً يؤكّد أنه يتقي النار، ولا تجد في عمل الإنسان عملاً يؤكّد أنه يرغب في الجنة فهذا نوعٌ من النفاق، وحينما تستقر حقيقة الإنسان في قلب المؤمن تُعَبِّرُ هذه الحقيقة عن ذاتها بخدمة الآخرين، يتحرك نحو خدمة الخلق، يحاسب نفسه حساباً دقيقاً، إذاً الإيمان عمل، والإيمان التزام..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا (72))

(سورة الأنفال)

الإيمان حركة، لا يوجد إيمان سكوني أبداً، مؤمن ساكن !! مؤمن مقيم على معصية !! ومؤمن لا يعمل الصالحات !! ليس هذا مؤمناً، الإيمان الحقيقي ما أكَّده العمل، الإيمان إقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان، والإيمان ما استقر في القلب، وصدَّقه اللسان، وأكَّده العمل، قناعةٌ في القلب، وإقرارٌ باللسان، وعمل بالأركان، هذا هو الإيمان، لذلك قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (7))

(سورة البينة)

ورد أكثر من مئتي مرة قارناً العمل الصالح بالإيمان:

(آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (7))

الله جلَّ جلاله كَرَّم المؤمنين فجعل عدوهم عدواً له وجعل إكرامهم إكراماً له:

(يخادعون الله)

والحقيقة هم يخادعون المؤمنين، لم يؤمنوا بالله إيماناً يحملهم على طاعته، فهم يخادعون المؤمنين، ولكن الله جلَّ جلاله كَرَّم المؤمنين فجعل مخادعتهم مخادَعةً له، وجعل عدوهم عدواً له، وجعل إكرامهم إكراماً له..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ (53))

(سورة الزمر)

الياء ياء النسب، هذه نسبة تشريف وتكريم، شرَّف الله المؤمن بأن نسبه إلى ذاته، لذلك المنافق يُخادع المؤمنين فقط، لكن الله عزَّ وجل جعل مخادعة المؤمنين مخادعةً له، فعدوّ المؤمن عدوٌ لله، والذي يُخادعه يخادع الله، والذي يُكْرِمُه يكرم الله، **" من أكرم أخاه فكأنما أكرم ربه "** ، من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم ربه، وهذا أعلى أنواع التشريف..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

من حرم نفسه الخير فقد خدعها:

كيف خدعوا أنفسهم ؟ حرموها الخير، فلو أن إنساناً يوجد معه كيلو من المعدن الخسيس، الرخيص جداً لا يساوي ليرة، أقنع الناس بذكاء وبجهدٍ جهيد، وبحِيَل أن هذا المعدن ذهب، فصدقه الناس، وأكبروا هذه الثروة، من الخاسر، الناس أم هو ؟ طبعاً هو وحده الخاسر، لأنه اطمأن إلى قناعتهم، وهو في الحقيقة لا يملك شيئاً، كذلك المنافق يخدع المؤمنين، ويشعر بنشوة أنه استطاع أن يخدعهم، وأن يقنعهم أنه مؤمن.. وماذا إذا أقنعتهم ؟ أنت لست مؤمناً.. ولا تأخذ من امتيازات المؤمنين شيئاً

أقنعتني في النهاية أنَّك تحمل أعلى شهادة، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، هل تستطيع أن تنتفع بأميتك ؟ أقنعتني بجلسةٍ عابرة أن معك شهادة عليا، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، هل تستطيع أن تنتفع بأُمِّيَّتِك ؟ لا تنتفع بها أبداً، إذاً كيف يخادعون أنفسهم ؟ فالمنافق هو ارتاح عندما أقنع المؤمنين أنه مؤمن، ونجحت الخطة، ولكن ما قيمة هذا النجاح ؟ نجحت خطتك لكنك لست مؤمناً، لن تنجو من عذاب الله، ولا من عقابه.. ولا من تأديبه، لن تنجو من إتلاف مالك، ولا من تأديبٍ في صحتك، ولا من تأديبٍ في أهلك، ما أخذت شيئاً من ميزات المؤمنين، أقنعتهم أنك مؤمن وصدَّقوك، أنت في الحقيقة تخدع نفسك، مثلك كالنعامة حينما يتبعها عدوٌ لها فتغمس رأسها في الرمل، عندئذٍ لا ترى، هل هي ذكيَّة ؟ هي في منتهى الغباء، فحينما غمست رأسها في الرمل فلم تراه، اطمأنت فجاء عدوها، وقد ثبتت في مكانها فأكلها، هل خدعت عدوها، أم خدعت نفسها ؟ طبعاً خدعت نفسها.

علاقة كل إنسان مع الله عز وجل:

الملخَّص أنك إذا استطعت أن تخدع الناس، وأن توهمَهم أنك مؤمن، والناس ببساطة أو بسذاجة صدقوك، وأثنوا على إيمانك، وأنت لست كذلك، فعلاقتك مع الله، وسوف يعرضك الله عزَّ وجل لامتحاناتٍ صعبةٍ ولعقاباتٍ شديدةٍ، ولن تأخذ شيئاً من امتيازات المؤمنين، فمن خدع الآخر ؟ قال الابن لأبيه: أنا أقنعك أن هؤلاء ثلاث دجاجات، وهي في الواقع دجاجتان، قال له أبوه أنا سوف آكل واحدة، وسوف تأكل أمك واحدة، وأنت كُل الثالثة.. كلام فارغ لا معنى له..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

إنهم ساذّجون، أغبياء، أوهمتني أنك مؤمن وأنت لست مؤمناً، ماذا حققت ؟ علاقتك مع من ؟ مع الله، وأبلغ شيءٍ في هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ))

[البخاري ومسلم عن أم سلمة]

طليق اللسان، سريع البديهة يقلب الحق إلى باطل، بذكاءٍ بارع.. جاء أحدهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأقنعه بشيء فحكم له النبي صلى الله عليه وسلم، وقال:

((لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[البخاري ومسلم عن أم سلمة]

لم يستفد شيئاً، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

الله عز وجل يحول بين المرء و نفسه و يعلم خواطره و نواياه و بواعثه وأهدافه :

لو دُعيت إلى طعام نفيس جداً، وأنت في درجة عالية من الجوع، فأوهمت الذي دعاك أنَّك أكلت طعاماً أنفس من هذا قبل قليل، فقال لك: إذاً لا تؤاخذني فلا تكثر منه، أنت خدعته أم هو الذي خدعك ؟ ماذا استفدت من هذا الكلام ؟ حرمت نفسك من هذا الطعام، أوهمته أنك أكلت طعاماً نفيساً قبل قليل، وأنت من يومين لم تأكل، والطعام طيِّب جداً، عندما أوهمته فكفَّ هو عن دعوتك إلى الطعام، وجلست أنت تتلوى جوعاً، والطعام النفيس أمامك، من خدع الآخر ؟ أنت خدعت نفسك فقط.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

(وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

هذا هو الغباء بعينه، وهذا هو الحُمق بعينه، لا تتظاهر بما ليس فيك، علاقتك مع الله، لا تخفى عليه خافية، أنت مكشوفٌ أمامه تماماً، خواطرك يعلمها، يحول بين المرء وقلبه، خواطرك، نواياك، بواعثُك، أهدافك، طموحاتك، احتيالك..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46))

(سورة إبراهيم)

علاقة الإنسان مع الله وحده ولن ينجو من عذاب الله إلا بطاعته :

والله أيها الأخوة، أرى كل يوم إنساناً يُقْنِع الناس بشيء، وهو على خلاف ذلك، فيسقط، ولا ينجو من عذاب الله أبداً، ولن ينجو، نقيم حفلاً، عقد قرانٍ، ندعو كل العلماء، والعلماء ببساطةٍ يقفون ويثنون على هاتين الأسرتين الكريمتين الأصيلتين إلخ.. والأسرتان ليستا كذلك، لو أن إنساناً مدحك هل تنجو من عذاب الله ؟ يقولون لك: دعونا فلاناً، وألقى كلمة، وفلاناً ألقى كلمة، فلما صار العرس، نساءٌ كاسيات عاريات، وزِّعَت الخمور، وجيء بالراقصات، وجيء بالمصوِّرين، قبل يومين، عقد الرجال.. أسرتان عريقتان، أصيلتان، والطيبون للطيبات، وبعد يومين النساء كاسيات عاريات، والخمور توزَّع، والراقصات ترقص، وكل المعاصي والآثام في هذا العقد.. أنت حينما

أتيت بهؤلاء ليلقوا كلمات ماذا فعلت ؟ أوهمت الناس أنك جيد، أنك صالح، علاقتك مع الله وحده، ولن تنجو من عذاب الله إلا بطاعته، وأما إيهامك للناس أنَّك مؤمن هذا لا يقدِّم ولا يؤخِّر.

تروى طرفة عن شخص دخل على محامٍ.. فكر المحامي أنه إذا أجرى أمام الشخص عدة مكالمات هاتفية يعلو في نظره كثيراً، فاتصل مع شخصيات مهمة، القضية نجحت، القضية نجحت، نجحت، ثم سأل المحامي الشخص عن حاجته، فقال له: لقد أتيت لكي أصل لك سلك الهاتف.. ولأنه لم يكن عنده هاتف !! ممكن أن تتكلم كلاماً، فتتوهم أنك ارتفعت، في الحقيقة سقط الإنسان.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

الصدق منجاة من عذاب الله تعالى:

إذا علم المنافق أنه منافق فليس منافقاً، المشكلة أنه لا يشعر، يظن نفسه ذكياً، عاقلاً، شاطراً بالتعبير الدارج، وهو ليس كذلك، لا توهم أحداً بشيء، لتكن علاقتُك بالله صادقة، كن مع الله صادقاً، أَخْلِص دينك يكفك القليل من العمل.

تخلّف سيدنا كعب بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة خطر في بال كعب أن يعتذر له كما يعتذر المنافقون، قال: فلما حضر النبي عليه الصلاة والسلام ووقف بين يديه، وقال: والله يا رسول الله لو جلست إلى أحدٍ من الناس لخرجتُ من سخطه، فقد أوتيت جدلاً..(و أنا طليق اللسان ومعي حجة).. ولكنني أخشى أن أرضيك اليوم كذباً، فيسخِّطُك الله علي، وأرجو إن صدقتك اليوم أن يعفو الله عني، رأى الله وحده، ما أراد أن يخدع رسول الله، ثمانون منافقاً أعطوه حججاً قويةً، وأعذاراً قويةً، والنبي استغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فلما جاء كعب وكان صادقاً معه فقال: أما هذا فقد صدق، بكلمة أما هذا فقد صدق فكل هؤلاء الذين اعتذروا أمامه، وقَبِل اعتذارهم في الظاهر، ووكل سرائرهم إلى الله، ولم يكونوا صادقين، قال: أما هذا فقد صدق، الصدق منجاة، فكن صادقاً، وليس معنى ذلك بأن تفضح نفسك، لست مكلفاً أن تفضح نفسك، ولكن لا تظهر بشيء خلاف ما أنت عليه، واسأل الله السلام، واسأل الله الستر..

(وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

مرض.

حبّ الدنيا رأس كل خطيئة :

حدَّثْتُكم في الدرس الماضي أن متاعب أمراض القلب تبدأ بعد الموت، وإلى أبد الآبدين.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

حب الدنيا مرض، حب الدنيا يعمي ويصِم، حب الدنيا رأس كل خطيئة، لكن ليس من حب الدنيا أن يكون لك بيت تشتريه بمالك الحلال، ليس هذا من حب الدنيا، وأن تحب أن تقترن بامرأةٍ صالحة، ليس هذا من حب الدنيا، و أن تحب أن يكون لك دخلٌ حلال، ليس هذا من حب الدنيا، حب الدنيا ما حملك على العدوان، وعلى أخذ ما ليس لك، على أن تعتدي على أموال الآخرين، وعلى أعراضهم، وأن تنافس الناس على الدنيا، وأن تحطِّمَهُم من أجل مصلحتك، هذا هو حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة..

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

تفاقم أمراض النفس لأن الإنسان في الأساس حركي ديناميكي:

تتفاقم أمراض النفس لأن الإنسان في الأساس حركي.. ديناميكي.. إن عمل عملاً طيباً قاده لعملٍ أطيب، وإن عمل عملاً سيئاً قاده لعملٍ أسوأ.. نظرةٌ، فابتسامةٌ، فسلام، فكلامٌ، فموعدٌ، فلقاء..

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا (32))

(سورة الإسراء)

(لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ (21))

(سورة النور)

فالإنسان حركي فإذا مرض قلبه فإن هذا المرض ينقله إلى مرضٍ آخر، مثلاً يوجد في قلبه مشكلة، أدوية القلب تَرَكَت قرحةً في المعدة، فمرض القلب نقله إلى مرضٍ في المعدة، تطورت القرحة إلى ورمٍ خبيث في المعدة.. انظر بدأ بمرض في القلب فانتقل إلى المعدة ثم انتقل إلى ورم خبيث، هذه الحالات كثيرة جداً.. المرض ينتقل إلى مرض أشد دائماً، حتى في المركبات إذا كان هناك خطأ ينتقل لخطأ أكبر، فرضاً إنسان هبط ضغطه، فإذا بقي الضغط منخفضاً ست ساعات فإن الكلية تتوقف، كان بالضغط أصبح بالكلية، هذه طبيعة الأمراض، الأمراض تتفجَّر من مرض إلى مرض،

ارتفع السكر.. فقد بصره.. ارتفع السكر.. خثرة في الدماغ.. سببت الخثرة شللاً، الشلل سبب تقرحاً في الجلد..

حياة الكافر سلسلة انفجارية:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (10))

من مرض إلى مرض، كان بالنظر فأطلق البصر، إطلاق البصر نقله إلى الحديث اللطيف مع الجنس الآخر، نقله الحديث إلى لقاء، واللقاء انتهى به إلى الزنا، والزنا انتهى به إلى السجن، ثم إلى مرض الإيدز، بدأ من نظرة.. هكذا سمعت أن سائقاً ركبت معه امرأة.. سألها: إلى أين ؟ قالت له: إلى حيث تشاء، فهم، وعدَّ هذا مغنماً كبيراً، وبعد أن انتهى أعطته رسالةً، وظرفاً فيه مال، فتح الظرف.. وجد خمسة آلاف دولار.. ورسالة مكتوب فيها: مرحباً بك في نادي الإيدز، نقلت له المرض، ذهب ليصرف المبلغ، فإذا هو مزور، فأودِع في السجن.

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (10))

حياة الكافر سلسلة انفجارية، يأكل مالاً حراماً، يسرق، يتورَّط مع السرقة إلى جريمة قتل، حكموه ثلاثين سنة.. انتهى.. بدأ بالسرقة وانتهى بالقتل، لا يُصلي، طلَّق زوجته لسبب تافِه، طلقها وعنده خمسة أولاد.. هي أصرت ألا ترجع.. ذهبت إلى أهلها، واعتصمت بهم، بقي أولاده بلا مربية، كان في شيء، وصار في شيء آخر، الكافر أعمى، والمنافق أعمى ينتقل من طور إلى طور، حياته كلَّها متفجِّرات، وألغام..

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (10))

الكذب أكبر صفة تُهلك الإنسان :

معنى آخر:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

وهو حب الدنيا..

(فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (10))

حينما أصرَّوا عليها أطلقهم الله إليها، كانت شهوةً بإمكانهم أن يتوبوا منها فصارت واقعاً..

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10))

عذاب أليم، فأكبر صفة تُهلك الإنسان هي الكذب، ورد في الحديث الصحيح:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه]

لا يمكن للمؤمن أن يكذب أبداً، ولا أن يخون، قد يُخْطئ المؤمن فهو مذنب توَّاب، أما أن يكذب فلا.. أن يخون مستحيل..

((ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له))

[رواه البغوي عن أنس رضي الله عنه]

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10))

عذابهم أليم لأنهم يخدعون الناس..

الخطر الكبير الذي يهدد المسلمين هو من أدعياء الدين لا من أعداء الدين :

الحقيقة أيُّها الأخوة: من أين تأتي الأخطار للمسلمين ؟ من أنفسهم، لأن الحق لا يتعدد، والحق واحد، مستحيل أن تقع معركةٌ بين حقَّين أبداً، فالحق لا يتعدد، وإن وقعت معركةٌ بين حقٍ وباطل، فالمعركة قصيرة جداً، لأن الله مع الحق، أما بين باطلين فإن المعركة لا تنتهي، وأكبر خطر يُهَدد المسلمين ليس من أعداء الدين.. فأعداء الدين مكشوفون.. وإنما الخطر هو من أدعياء الدّين ـ المنافقون ـ.

الأخطار التي أهلكت المسلمين ليست من أعداء الدّين، بل من أدعياء الدّين، والأعداء أيُّها الأخوة أعداء المسلمين في العالَم، ولاسيما في العالَم الغربي كشفوا أن هذا الدّين أقوى وأكبر من أن يُواجَه، ماذا فعلوا؟ أرادوا أن يفجِّروه من داخله عن طريق المنافقين، فكل إنسان يغيِّر في عقيدة المسلمين، يُحل لهم الحرام، يحرِّم عليهم الحلال، يُبتدع في الدين شيئاً ما أنزل الله به من سلطان، هذا منافق يفجِّر الدّين من داخله، والآن الخطة واضحة جداً ومكشوفة، يحاول أعداء الدّين أن يفجِّروا حياة المسلمين من داخلهم، كم من أعمالٍ إرهابية ما فعلها المؤمنون، ولكن فعلها المنافقون ليُشوِّهوا سمعة الدين، وليجعلوا المسلم إرهابياً، وهو أبعد الناس عن هذه الصفة أبداً، دائماً يتهددنا الخطر من المنافقيّن، هؤلاء يندَّسون بين المؤمنين، ويفعلون ما لا تُحمدُ عُقباه، والحديث عن هذا الموضوع طويل، فكم من أعداء ألِدَّاء للدين تزيّوا بزي المؤمنين، وفعلوا أعمالاً إجرامية أُلصقت بالمؤمنين، هذا سلوك واضح متكرر مكشوف، لذلك الخطر الكبير الذي يهدد المسلمين ليس من أعدائهم، فأعداؤهم مكشوفون،.. الحق لا يتعدد.. إنما هو من المنافقين الذين يرضون المؤمنين..

المؤمن يقرِّب و يصل والمنافق يبعد ويقطع:

مثال ذلك: إذا قلنا قولهم:.. القرآنُ الكريم، إنه كلام رب العالمين، لكن قطع اليد وحشية، لا بدّ من وسيلة ردعٍ أخرى غير قطع اليد، ماذا فعلوا ؟ هدِّموا أحكام القرآن، هل غاب عن الله عزّ وجل أن هذه الوسيلة وحشية، ولا بدَّ من وسيلة أخرى ؟ أي حينما يتزيّا الإنسان بزي الدين، ويهاجم القرآن، يهاجم السنة، يهاجم رسول الله بشكل أو بآخر، إما بادعائه الموضوعية، أو بالبحث العلمي الدقيق، أو بالنظرة الحضارية، هذا منافقٌ يهدِّم الدين بمعولٍ خطير تحت هذه الأغطية المضحكة، وهو لا يشعر، لذلك فالخطر القاسي الذي يهدد المؤمنين هو من أدعياء الدين لا من أعداء الدين، وللإمام الشافعي كلمة تناسب هذا المقام يقول: **" لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين ".**

الارتزاق بالرقص ارتزاق، ولكن الراقص لا يُقتدى به أبداً، أما هذا الذي يرتزق بالدين يوهم الناس أنه مؤمن، يوجِّه النصوص لمصلحته، يأخذ المال الذي لا يحق له أن يأخذه، يعطي أسوأ سمعةٍ للناس حول الديّن، فإذا انصرف الناس عن الدين فبسبب هذا الإنسان المنافق الذي نفَّر الناس من الدين، المؤمن يقرِّب، والمنافق يبعد، المؤمن يصل، والمنافق يقطع، المؤمن يحبِّب، والمنافق ينفِّر، المؤمن يوصل، المنافق يقطع..

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

(سورة البقرة: آية " 27 ")

المؤمن يَقَرِّب، المنافق يُبَعِّد..

مهمة المنافق دائماً إفساد النفوس و البيئة :

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

هذا الماء غير فاسد، لأنه لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، كيف نفسده ؟ إذا غيَّرنا لونه، أو طعمه، أو رائحته، وإفساد الشيء إخراجه عن صفاته الأساسية، إفساد الفتاة إخراجُها عن العِفَّة والحياء، إفساد الموظَّف إخراجه عن خدمة المواطنين، إفساد القاضي إخراجه عن العدل، إفساد الطبيب إخراجه عن النصح للمريض، إفساد المُحامي أن يكذب على موكّليه، إفساد المدرِّس أن يعطي المعلومات الصغيرة في وقتٍ مديد، أي لم يعلمهم شيئاً، أخذ مبلغاً من المال ولم يُعلِّم شيئاً، فكل حرفة، وكل شخصية، وكل هوية لها طريقٌ قويم، ولها طريقٌ فاسد، فالمنافق يريد شهوات الدنيا فيفسد المرأة بإغرائها أن تُسْفِر، وأن تعرض مفاتنها للناس في الطريق، يُغْري إنساناً أن يأخذ المال الحرام، (عندك أولاد والناس كلّها هكذا).. أفسدهم، فالمنافق مهمَّته دائماً إفساد النفوس، أو حتى إفساد البيئة، إفساد الهواء، إفساد الماء..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (11))

الإنسان مأمور أن يزيد الصلاح صلاحاً:

الحقيقة الإنسان مُكلَّف أن يزيد الصلاح صلاحاً، مثلاً: بئر ماء هناك احتمال أن يتهدم، ننزل فيه قميصاً معدنياً، فالبئر صالح للاستخدام لكنك زدته، المؤمن يزيده الصلاح صلاحاً، أما لو أبقيته كما هو ما أفسدته، أما لو هدمته فقد أفسدته، صار هناك إفساد، وعدم إفساد، وأن تزيد في الصلاح، المؤمن مُكَلَّف أن يزيد في الصلاح فإذا أفسد فقد أفسد مرتين، مرة لأنه تَركَ الفساد، ومرة لأنه أفسد الشيء، وأنت في الأصل مأمور أن تزيد الصلاح صلاحاً، فالمؤمن يصلح بين الناس، يصلح البيئة.
قبل خمسين عاماً كما أذكر كان الناس يشربون من هذه الأنهار، نهر يمشي في دمشق، وماؤه يُشْرَب، ما كان أحد يجرؤ أن يلقي فيه شيئاً، الآن تُصب كل المجاري في الأنهار، وازن بين نبع بردى وبين مصبه، ما الذي طرأ عليه في سيره إلى مصبه ؟ روافد كلُّها مياه سوداء، فإفساد الشيء إخراجه عن صفته الأصيلة، فهذا إفساد للماء، إفساد للمزروعات بهذه الهرمونات، فالمزارع يهمُّه الربح يرش هرموناً محرَّماً يمنع استيراده، فيأتي به تهريباً، ويرشه فيصبح الإنتاج بحجم أكبر، وألوان أزهى، ولكن هذا الهرمون مُسرطن، هذه المبيدات كلُّها تُملّح التربة، وتسبب أمراضاً للنباتات، وأمراضاً للإنسان، وأما العلف فهناك طحين لحم الجيف والدم المجفف، وهي أشياء محرَّمة بالأساس، سبب جنون البقر، جنَّ البقر من جنون البشر، أطعموا البقر طحيناً.. لحم الجيف.. فماذا حصل ؟ اضطروا أن يحرقوا ثلاثة عشر مليون بقرة، ثمنها ثلاثة وثلاثون مليار جنيه إسترليني، أفسدوا اللحوم، أفسدوا الهواء، حتى هذه المحطات الكثيرة جداً في الهواء تُسَبِّب فساداً في الاتصالات، الأمراض تأتي للإنسان من كثرة هذا البَثْ في الهواء، الضجيج، الماء الملوَّث، التربة الملوَّثة بالملوحة الزائدة، وبالمبيدات الكيماوية، كل ذلك لماذا ؟ لأن هدف الإنسان الربح فقط..

حب المال يجعل الإنسان يفسد في الأرض :

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

المرض حبُّ المال، من أجل حب المال نفعل كل شيء، لذلك يغيرون خلق الله عزّ وجل، هل من الممكن أن تضع مادة في بعض المواد الغذائية، وهي مادة كيميائية محضة لا يقبلها الجسم لتُبَيِّض هذا الإنتاج فيزداد سعره ؟.

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

حب المال جعلهم يفسدون هذا الإنتاج..

(فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

طبعاً يصلحون جيوبَهم، يصلحون معيشتهم وحدهم، ويبحثون عن مصالحهم الضَيِّقة.

كل منافق يرى ربحه هو الصلاح ولو على حساب كل شيء:

أخواننا الكرام، أول صفة للمؤمن أنَّه يُصلح والمنافق يفسد، بمطلق معنى هذه الكلمة: يُفسد كل شيء، يفسد علاقة بين زوجين، علاقة بين شريكين، علاقة بين جارين، علاقة بين أمٍ وابنها، علاقة بين ابنٍ وأبيه، مهمَّة المنافق دائماً إفسادُ العلاقات، مهمة المنافق تحقيق الربح ولو على حساب إفساد البيئة، يُفسد البيئة، ويفسد الهواء، ويفسد الماء، ويفسد المزروعات، ويفسد الصناعة، ويبث الأفكار غير الصحيحة إفساداً للعقائد، يُفسد العقيدة، يُفسد علاقة الإنسان بالله عزَّ وجل، يغريه بأشياء محرَّمة.. (ما فيها شيء يا أخي أنت عايش خارج العصر)؟ يجب أن تتنوَّر، أن ترى ماذا يجري في العالم، ركب لك صحناً ؟.. لئلا تبقى منعزلاً عن العالم، فإذا دخل الصحن إلى البيت صار شيءٌ آخر، ربما ترك الصلاة، ربما فعل المُنكرات، ربما طلَّق زوجته، طبعاً لم تعد تعجبه، فلذلك الإفساد واسع ؛ إفساد عقائد، إفساد أخلاق، إفساد علاقات، إفساد بيئة، إفساد صناعة، إفساد زراعة، إفساد ماء، إفساد هواء..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (11))

هم وَقِحون يركبون رؤوسَهم، يقولون:

(إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

يرى الصلاح في الفساد، يرى ربحه هو الصلاح ولو على حساب كل شيء..

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

المؤمن مُبارك يجمع ولا يُفرِّق، يُصلح ولا يُفسد:

المؤمن مُبارك يجمع ولا يُفَرِّق، يُصلح ولا يُفسد، يقرِّب ولا يُبَعِّد، يحبب ولا ينفر، دمَغَهم ربنا عزّ وجل عندما قال :

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (07- 95):تفسير الآيات 11-16، أعظم أنواع الفساد إفساد العقيدة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-08-07

بسم الله الرحمن الرحيم

المنافق يَجْهَدُ في الإفساد بأوسع معاني هذه الكلمة:

مع الآية الحادية عشرة وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

ذكرت في الدرس الماضي أن الفساد إخراج الشيء عن أصل تركيبه، عن أصل طبيعته، عن أصل جِبِلّته، فالمنافق يَجْهَدُ في الإفساد بأوسع معاني هذه الكلمة، إفساد البيئة، إفساد العلاقات، إفساد النفوس، إفساد الأسرة، إفساد التجارة، إفساد الصناعة، إفساد الزراعة، إفساد العلاقات، إفساد الفتاة، إفساد الشاب، إفساد الجيل، إفساد الماء، إفساد الهواء، إفساد ما يُطْبَع، إفساد ما يُنْشَر، إفساد ما يُبَثّ. الفساد جزءٌ أساسي من سلوك المنافق، لأن شهوته تُروى مع الفساد، ومصلحته تتحقق مع الفساد، والفساد يحقق له نهمه الشديد إلى النزوات التي أودعت في جسمه والتي يُصَرِّفُها بخلاف ما أمر الله عزّ وجل.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

في الحياة الخاصّة هذا المنافق لو أن عنده آلةً غالية الثمن، عظيمة النفع، كثيرة الربح وتعطلت، إلى من يلجأ ؟ هذا المنافق، هذا المُتَفَلِّت، هذا الذي يَرُدُّ منهج الله، هذا الذي يبحث عن منهجٍ أرضي، هذا الذي يرفض طاعة الله عزّ وجل، لو أن عطباً أصاب آلةً يملكها عظيمة النفع، غالية الثمن، شديدة التعقيد، إلى أين يلجأ ؟ يلجأ إلى الخبير، يلجأ إلى الشركة، أو إلى وكلائها، أو إلى تعليمات الصانع ـ النشرة التي ترفق مع الآلة ـ هو يعتمد في مصالحه الدنيوية على الخبير، يلجأ إلى الخبير، مُرَكَّبٌ في أعماقه أنه لا يجوز أن نتصرف بهذه الآلة إلا وفق تعليمات الصانع، فلماذا تلجأ أيها المنافق في حل مشكلاتك إلى منهجٍ غير منهج الله، إلى منهجٍ لا يتعلّق بالخالق يتعلّق بالمخلوق، لماذا تستشِر من ليس خبيراً في حقيقة الإنسان ؟

الكلمة الجامعة المانعة للمنحرفين الشاردين العصاة كلمة فساد:

قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

وقال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ (15))

(سورة لقمان)

فالمنافق متناقِض، يلجأ في أموره الدنيوية إلى الخبير أما في أمور الآخرة فهو يلجأ إلى منهجٍ غير منهج الله، لذلك كان الفساد، صمم الله المرأة لكي تكون أماً أو زوجةً أو أختاً أو بنتاً، أرادها المنافق بصفةٍ أخرى، أراد أن يستمتع بها من دون أن يتحمّل تبعات هذا اللقاء، لأن الزواج تَبِعة ومسؤولية، هو أراد المتعة ولم يرد أن يتحمّل التبعة فزنى، لما زنى أفسد هذه الفتاة هي بلا زوج، بلا أولاد، بلا أقارب، ما دام فيها رمق تأكل بثدييها ـ إن صح التعبير ـ فإذا زوت محاسنها أصبحت ملقاةً في الطريق، ألم يفسدها؟ انظر إلى امرأةٍ ساقطة عندما ترى بعينها امرأةً مؤمنة مع زوجها وأولادها تذوب كالشمعة تمنّياً أن تكون كهذه المرأة الشريفة، من الذي أفسدها ؟ المنافق، أفسد فتاةً، أفسد شاباً دلّه على الانحراف، أفسد عقلاً حين أودَعَ فيه الشُبُهات، أفسد علاقةً حين باعد بين الزوجين، أفسد علاقةً وباعد بين الشريكين، فالكلمة الجامعة المانعة للمنحرفين الشاردين العصاة كلمة فساد، العلاقة فاسدة، الأمور فاسدة.

إذا أخرجنا الشيء عن قواعده، عن أصل بنائه، عن خصائصهِ، عن وصفه الطبيعي أفسدناه، والشيء الفاسد لا يصلحه إلا الخبير، إلا العليم، إلا الحكيم، يعمل المنافقون ليلاً نهاراً لإفساد كُلّ شيء، أحياناً يصنع مادةً فاسدة يبيعها ولا يعبأ، لولا المراقبة الشديدة لأكل الناس سموماً، لكن هناك مراقبة شديدة، هو طواعيةً لا يصلح بل بالقهر، ولولا المراقبة المادية لباع بضاعةً فاسدة، لباع دواءً فاسداً، لابْتَزّ أموال الناس لأنه فاسد، هدفه المال والمال بأي شكل وبأي طريق.

أعظم أنواع الفساد أن تُفْسِد العقيدة:

قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

كم حرفة مَبْنية على معصية ؟ مبنية على مخالفة منهج الله كم حرفة ؟ مئات الحرف، هذه المقاصف وما فيها من موبقات ومن خمور ومن تَبَدُّل، مبنية على معصية، فلذلك موضوع الفساد موضوع

طويل جداً، فأنت حينما تُفسد الماء فهذا من صفات المنافق، فهو لا يعبأ، تفسد الهواء، تفسد البيئة، تفسد المزروعات.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (11))

الحقيقة أعظم أنواع الفساد أن تُفْسِد العقيدة، أن تفسد دين الإنسان، أن تُعَلِّقَهُ بأوهام ما أنزل الله بها من سلطان، أن تعلقه بشفاعةٍ ساذجة.

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

أن تُعَلِّقَهُ بحديثٍ موضوع، أن تعلقه بحديثٍ ضعيف، أن تعلقه بتأويلٍ غير صحيحٍ لآيات الله، أن تأتيه بقصص لا أصل لها في الدين، أن تأتيه بِقِيَم رفضها الإسلام، لذلك لو استمعت إلى منافق تجد أن كل كلامه غلط، كلامه، منطلقاته، أهدافه، أدلته كلها غلط، ليست إسلامية، ليست دينية، ليست مشروعة، يأخذ من هذا كلمة، ومن هذا كلمة، ومن هذا تعليق، ومن هذا حكمة، ومن هذا مقياس، بلا ضوابط، المؤمن واضح، واضح وضوح الشمس.

وصف الله عزّ وجل الكُفّار بوصفٍ معجز :

قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (11))

يركب رأسه، ويُصم أذنيه عن سماع التوجيه الصحيح.

(قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

مصلِح بنظره، فكسب المال هو الصلاح عنده، كسب المال عنده أساسه إفساد العلاقات، دخله قليل، يؤجّر بيته تأجيراً لا يُرضي الله، يقول لك: يؤجر بالليلة عشرة آلاف، بالليلة عشرون ألفاً، علما أن أجرة النوم في أفخر فندق خمسة آلاف، معنى ذلك أنه يوجد مشكلة بالبيت وليست قضية نوم، أنت تعرف من السعر، يجيبك أنا ليس لي علاقة، أريد أن أربح، لذلك قضية الفساد قضية واسعة جداً، فحركاته،

سكناته، حتى لو زار شقيقته يفسد علاقة أخته بزوجها بكلمة شيطانية لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً، يفسد علاقة أخته بزوجها بتعليقات غير صحيحة، بنظرة، بنقدٍ مُرٍّ حادّ. أيها الأخوة، حركة المنافق حركة فساد، حركة إيقاع بين الناس، حركة تقطيع علاقات، حركة قطع ما أمر الله به أن يوصل، حركة تغيير معالم الشيء، وصف الله عزّ وجل الكُفّار بوصفٍ معجز، قال:

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً (45))

(سورة الأعراف)

الأمور كلها مُعْوَجّة، غير صحيحة.

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً (45))

صفة المؤمن الأساسية الإصلاح، وصفة المنافق الأساسية الفساد:

أحد أكبر صفات المؤمن الإصلاح، يصلحون إذا فسد الناس، أحباب النبي عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان يصلحون إذا فسد الناس، فإذا سألتني عن صفة أساسية للمؤمن قلت: الإصلاح، التوفيق، التقريب، الجَمع، النصيحة، الرحمة، الإنصاف، العدل، إن سألتني عن صفة أساسية في حياة المنافق قلت: الإفساد، طبعاً تحت غطاء، نحن فرضاً في بعض البلاد المجاورة ننشئ نادياً للقمار بكلفة خمسين أو ستين مليوناً، يقول لك: يدر علينا دخلاً كبيراً، الإله هو المال، فأي شيء يجلب المال صار بجهله إصلاحاً، يمارس مصلحة مبنية على المعصية، يقول لك: هذه مصلحة رائجة الآن يا أخي، يبدِّل مصلحته فوراً إلى مصلحة أو إلى حرفة أساسها إفساد الشباب، يقول لك: هذه أربح، يقول لك: أليس العمل عبادة ؟ تكون حرفته غلط كلها، فساد كلها، يعُدّ العمل عبادةً !! فقضية الفساد صفةٌ جامعةٌ مانعةٌ للمنافق، حتى في بيته، حتى في تَبَدُّله في البيت، حتى في إلقاء نظراته، نظراته خبيثة، ثيابه بعيدة عن الحشمة، امرأةً كانت أو رجلاً.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

يرى الصلاح بكسب المال، يرى الصلاح بتحقيق المتعة، يقول لك: أنا أستخدم في العمل فتيات لأنهن أكثر إيناساً، وأقل مَؤونَةً، وأكثر طواعية، وأحفظ سراً، يرى ميزات عمله فقط، والناحية الثانية يُغْفِلُها، وهي هذا الشاب الذي ينتظر عملاً ليتزوج، لقد أصبح الطريق مسدوداً أمامه.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

طبعاً لا يشعر، هو في أعماقه يشعر أنه فاسد، ولكن لا يشعر أن هذا العمل له آثار قد لا تَخْطُر في باله.

الهدف عند المنحرفين أن تفسد من أجل أن تربح:

قال تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ (12))

(سورة يس)

فرضاً من باب الجدل، لو أن إنساناً أفسد فتاة، يشعر أنه أفسدها، وأخرجها عن طبيعتها، وعن قوامها الذي أراده الله لها، خلقها الله لتكون زوجة طاهرة تنجب أولاداً، فَلِذة أكبادها، فلما أفسدها أخرجها عن طبيعتها، وجعلها تمتهن الانحراف، هو لا يشعر أنه بعد مئة عام قد يأتي من نسلها مئة ألف، مئة ألف فتاةٍ فاسدة، كلهن في صحيفة هذا الذي أفسد الأولى، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ (12))

(سورة يس)

لو اطلع الإنسان على الآثار الوبيلة التي يتركها عمله لارتعدت فرائصه، كل هذا محاسبٌ عليه، يسُنُّ الإنسان أحيان سنةً سيئةً فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، الذي اخترع البارود، شعر بجريمته بعد أن اخترع البارود، فرصَدَ كل أمواله كجائزة سنوية لمن يُقَدِّم أعظم بحثٍ يعود على الإنسانية بالخير.

لذلك أيها الأخوة، الحديث عن الفساد حديث طويل، فالهدف عند المنحرفين أن تفسد من أجل أن تربح، الإفساد من أجل أن تربح المال، أو أن تنغمس في الشهوة، الهدف إما ربح مال، والمال مادة الشهوات، أو تحقيق لذّة دنيا سافلة، فإما أن يتمتّع، وإما أن يكسب المال، من أجل هذين الهدفين يفعل كل شيء، ويفسد كل شيء، ويحرف كل شيء، ويزوّر كل شيء.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

يركبون رؤوسهم، يتعنّتون.

قصص من العالم عن انتشار الفساد بما كسبت أيدي الناس:

لكن الله سبحانه وتعالى قوله الحق:

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

قصة مشهورة بأوروبا وأمريكا: أن شاباً رأى فتاةً فأعجبته، فاستشار أباه، قال له: لا يا بني إنها أختك، وأمك لا تدري، ثم رأى فتاةً أخرى فاستشار والده، قال: لا يا بني إنها أختك، وأمك لا تدري، ثم أعجبته فتاةٌ ثالثة، فاستشار أباه، فقال له: القول السابق، فضَجِر وحدّث أمه فقالت: يا بني خذ أياً شئت، فأنت لستَ ابنه، وهو لا يدري، هذه هي الحياة البعيدة عن منهج الله، أحياناً يأتي خبير يقيم سنتين بعيداً عن وطنه وزوجته، ثم يدعو أصدقاءه لحفل بمناسبة أنه رُزق مولوداً، أنت مقيم

هنا منذ سنتين !! لا يهم، ولكن جاء له مولود من زوجته، هكذا حياتهم، حياة فوضى، أطول زواج يستمر سنتين في عالم الفساد.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (41))

(سورة الروم)

ذكرت لكم سابقاً أن أحد إخواننا الكرام كان مسافراً إلى بلد بعيد في أمريكا فرجع، حدثنا عن شركة كمبيوتر من أرقى الشركات في أمريكا زَفّت بشرى إلى عُمّالها وموظفيها أن من كان له شريكٌ مِثْلي، شريكٌ جنسي، أو موظفةٌ لها شريكةٌ جنسية يُعَدُّ هذان الكيانان كيان أسرة، ويستحقُّ الشريكان الأولان والأخريان التعويضات والإجازات والمكافآت، كما لو أنشأ أسرةً، تعد الكيانات الشابة المنحرفة الآن كيانات صحيحة، هذا هو الفساد.

أجري برنامج في بعض الولايات عن الزنى، فجاءت هواتف كثيرة؛ ملخّص هذه الهواتف أن ثُلث حالات الزنى حالات زنى محارم، وهذه ظاهرة خطيرة جداً، هذا هو الفساد، علاقات إباحية، اختلاط أنساب، فقد يأخذ الطبيب غير المنضبط حوينات من رجل، ويعطيها لامرأة أخرى، فتنجب طفلاً، وتسعد بهذا الابن، وهو ليس من زوجها، هو من زوج آخر، اختلاط أنساب، علاقات إباحية، هذا هو العالم الغربي اليوم، يقولون: أَلْغِيَ الرقيق، هناك الآن رقيق أبيض، هناك بحوث لا تصدق من شركات عملاقة في العالم تشتري الفتيات والصغار من شرق آسيا، وتبيعهم لأشنع الأعمال وأخَسِّها في بلاد الغرب الغنية، هذا هو الفساد في البر والبحر، بما كسبت أيدي الناس.

الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع فكل ما يَدْعَمها ويقوّيها هو إيمان:

الحديث عن الفساد طويل جداً، قال الله عزّ وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

(سورة الروم)

هناك فساد في كل مكان، تركب طائرة تجد الفساد، كلما قدمت الشركات خدمات أكثر تفلّتاً كانت أكثر رواجاً، تقدم المشروبات في الجو، وفي البر، وفي البحر، وفي الفنادق، ما معنى الفندق الآن بالمفهوم العصري ؟ هناك مصطلح جديد اسمه السياحة الجنسية، يسافر من أجل الجنس أليس هذا فساداً ؟ بارت سوق الزواج، وراجت سوق الفساد، وهذا مما يُرضي المنافقين.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

(سورة الروم)

لذلك دعم الأسرة إيمان، وتحطيم الأسرة نِفاق، أي إجراءٍ يَدْعَم الأسرة ويقوّيها فهو إيمان، لأنها اللبنة الأولى في المجتمع، وأي إجراءٍ يضعفها، يزلزلها، يفككها، فهذا عمل من أعمال المنافقين، وهذا هو الفساد، فكم من بيتٍ تَهَدَّم من فعل الفساد، كم من علاقةٍ تحطمت بفعل الفساد، كم من مالٍ

أُهْدِر بفعل الفساد، كم من ضياعٍ مخَرّبٍ بفعل الفساد، والفهم كفاية، فالإنسان يتعلّم حرفاً والتكرار ألف.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ (12))

أروع ما في المؤمن عدم التناقض الذي نجده عند المنافق:

ربنا عزّ وجل يقرر، وكلامه هو الحق.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

تترتب على فسادهم نتائج خطيرة لا يشعرون بها:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

أروع ما في المؤمن عدم التناقض الذي نجده عند المنافق، كيف التناقض ؟ هُم يخادعون الله والذين آمنوا، يخادعون الذين آمنوا بقولهم إنهم مؤمنون، إذاً:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (3))

إذا كنتم تعدون الإيمان سفاهةً فلماذا تخادعون المؤمنين بأنكم مؤمنون ؟ مركبٌ في أعماق الإنسان أن الإيمان هو الحقيقة الصّحيحة، وأن الكفر هو الخطأ الكبير.

الوقت هو وعاء كل شيء فإذا ألغي هذا الوعاء انتهى كل شيء:

قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13)

بالمناسبة من هو السفيه ؟ هو الذي يُضَيّع النفيس ويأخذ الخسيس، فإذا أتلف إنسان ماله فرضاً، أو أنفق ماله إنفاقاً غير معقول نسميه سفيهاً، والسفيه يُحْجَرُ عليه، فأيهما أثمن ؟ والآن كلام دقيق، من هو السفيه الحقيقي ؟ إذا رأيت إنساناً يمسك مئة ألف ليرة عدّها أمامك، ثم جاء بعود ثقاب فأحرقها أمامك، ثم ألقى الرماد في سلة المهملات، ألا تعتقد أنه مجنون، أو أنه سفيه ؟ مئة بالمئة، مثل هذا الإنسان الذي يُحْرِق مئة

ألف يُحْجَر على تصرفاته لأنه سفيه، قد يكون الإنسان مصاباً بمرض، وهو بحاجة لعمليةٌ جراحية معقدةٌ جداً، باهظة التكاليف، تُجْرى له في بلدٍ بعيد، كُلفة هذه العملية بقدر ثمن بيته، لا يتردّد أبداً فيبيع بيته ليجري عمليةً يتوهّم أنها تُمد له بضعة سنوات في عمره، لماذا فعل هذا ؟ لأنه مركبٌ في أعماقه أن الوقت أثمن من المال فضَحّى بالمال من أجل الوقت.

إذا أتلف الإنسان أمامك مئة ألف تعده سفيهاً، فإذا ضيّع الوقت أمامك ألا تعده أشد سفاهةً ؟ بالتأكيد، أخطر شيء أن تُمضي سهرة إلى الساعة الواحدة ؟ لمتابعة مسلسل، شيء سخيف، بمتابعة قصة فارغة، بمتابعة حديث فارغ، بلعب النرد، هذا الذي يقتل وقته، أنت وقت، أنت بضعة أيام فقط، كلما انقضى يومٌ انقضى بِضْعٌ منك، أثمن شيء تملكه هو الوقت، طبعاً أثمن من المال بما لا يُقَدَّر، ماذا يفعل الإنسان بالمال عندما تنتهي حياته ؟ فلو ترك ألف مليون، انتهت حياته، الوقت هو وعاء كل شيء فإذا أُلْغي هذا الوعاء انتهى كل شيء، مركبٌ في أعماق كل منا أن الوقت أثمن من المال، فالذي يتلف ماله يُعَدُّ سفيهاً، والذي يُضَيّع وقته يعد أشد سفاهةً.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

قيمة الإنسان في آخر الزمان بقيمة متاعه فقط لا بإيمانه ولا بأخلاقه :

لعلهم يتوهمون أن الفقراء هم السُفهاء، فالسفهاء في رأيهم تعني الفقراء لأن مقاييسهم ماديّة محضة، يُقَدِّرون الإنسان بحجم ماله، بنوع بيته، بمساحة بيته، بموقع بيته، بنوع مركبته، بالرقم الذي على خلف المركبة، فحجم الإنسان عند هؤلاء السفهاء بحجم متاعه، وقيمة الإنسان في آخر الزمان بقيمة متاعه فقط، لا بإيمانه، ولا بأخلاقه.

كان الأحنف بن قيس إذا غضب غَضِبَ لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب، مع أنه كان قصير القامة، أسمر اللون، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، أحنف الرجل، ضَيّق المَنْكِبَين، ومع ذلك كان إذا غَضِب غَضِبَ لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيما غَضِبْ، فقيمة الإنسان بإيمانه، وأخلاقه، وعمله.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

غاص إنسان في البحر، وتَجَشّم المشاق، ورأى اللآلئ أمامه فتركها وأخذ الأصداف ألا يُعَدُّ سفيهاً ؟ فهذا الذي يأتي إلى الدنيا، ويخرج منها، وما فعل شيئاً، إلا أنه أكل، وشرب، ونام، واستمتع فقط كالبهائم.

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

صفات المنافقين كما وردت في القرآن الكريم:

قال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ (4))

(سورة المنافقون)

وقال:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51))

(سورة المدثر)

وقال:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً (5))

(سورة الجمعة)

وقال:

(كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ (176))

(سورة الأعراف)

وقال:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

هذه صفات المنافقين في القرآن الكريم.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

كل إنسان يعصي الله مدموغٌ بالجهل والكفر :

لو ذهب إنسان إلى بلد غربي لكي يحصل على الدُكتوراه، على أن يعود إلى بلده ليتقَلّد أعلى منصب، ويأخذ أجمل بيت بكل الميّزات، فنسي مهمته الأساسية، وتَسَكّع في الطُرقات، واندَسّ هناك في الملاهي وعُلَب الليل حتى أصبح متسولاً، ألا يُعد هذا سفيهاً؟ مُهَيّأ له أن يكون في أعلى منصب، وفي أعلى درجة، وفي أعلى ميزة، ترك كل هؤلاء وانصرف إلى سفاسف الأمور، قال تعالى :

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

كان النبي عليه الصلاة والسلام يمشي مرةً مع أصحابه فرأى مجنوناً فقال: من هذا ؟ ـ سؤال العارف ـ قالوا: هو مجنون، قال: لا هذا مُبْتَلى، المجنون من عصى الله.

هذا الذي يعصي الله، ولا يعبأ بالموت، ولا يعبأ بما بعد الموت، ولا بالحساب، لا بالبرزخ، ولا بالجنة، ولا بالنار، يعيش لحظته، يعيش لذّته، يقتنص المال بأي طريق وبأي أسلوب هذا سفيه، هذا أحمق، لذلك يعد المنحرف أحمقَ، قال الإمام الغزالي : " يا نفس لو أن طبيباً حذّرك من أكلةٍ تحبّينها لا شَكَّ أنّك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً ما أكفرَك، أيكون وعيدُ الطبيب أشدّ عندك من وعيد الله إذاً ما أجهلك ". كل إنسان يعصي الله مدموغٌ بالجهل وبالكفر.

حياة المؤمنين واضحة جداً لا يوجد عندهم شيء يستحيون به:

قال تعالى:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ (14))

لقوا: في الطريق، في مكان عام، في مسجد، تحت ضوء الشمس.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا (14))

قال عليه الصلاة والسلام :

((قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[أحمد وابن ماجة عن العرباض بن سارية]

يكون الإنسان جالساً أحياناً في بيته مع زوجته، يُطرق الباب فيفتحه بهدوء وبراحة وبشكل طبيعي وعفوي، فإذا شقيق زوجته، أهلاً وسهلاً تفضل، جلسا يتحدثان، تُقَدّم له ضيافة شيء طبيعي جداً، فهو شيء مشروع لأن هذه زوجته، كان عليه الصلاة والسلام معتكفاً جاءته امرأته بطعام، فلما أرادت أن تعود رافقها عليه الصلاة والسلام، مرّ صحابيان فاستحيا من رسول الله فأسرعا، قال:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قالا: سُبْحَانَ اللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ ! قَالَ: إِنّ الشّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدّمِ، فَخَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً، أَوْ قَالَ: شَرّاً))

[سنن أبي داود عن صفية]

((على البيضاء ليلها كنهارها))

تجد عرساً، فترى السيارات، وتسمع أبواقها، شيء علني ومكشوف، يتزوج الإنسان فتحمل زوجته، يفرحون ويهيئون، تنجب هذه الزوجة، فتُقام الأفراح، تُقدّم الهدايا، شيء مكشوف واضح ! أما لو أن إنساناً يجلس مع زوجة صديقه دون علم صديقه في خلوةٍ في بيته، طُرق الباب فذهب ليفتح فإذا هو صَديقه، تراه يضطرب ماذا يفعل ؟ يطفئ الأنوار، فقال له: من ؟ هناك صوت !! فهل هناك باب

آخر ليخرجها منه ؟ لا يوجد باب آخر، أين يخبّئها ؟ ماذا يقول لزوجها ؟ كل هذا الاضطراب، كل هذا الخوف، كل هذا الارتباك لأنه شيء محرّم.

الباطل يحتاج إلى خَلوة:

قال تعالى:

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ (14))

وقال:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا (14))

لقاء في مكان عام، في مسجد، في الطريق، في مجتمع، في مدرسة، في مشفى، حياة المؤمنين واضحة جداً لا يوجد عندهم شيء يستحيون به، لا يوجد عندهم جلوة وخلوة، علانيّتهم كسريرتهم، جلوتهم كخلوتهم، خلوتهم كجلوتهم، الأمور واضحة:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا (14))

أما الباطل فيحتاج إلى خَلوة، فهل من الممكن لإنسان أن يغش الحليب أمام الشاري ؟ مستحيل، يتم الغش في خلوة، في غرفة ثانية، في مكان مظلم، كل شيء منحرف يحتاج إلى خلوة، أما كل شيء صحيح لا يحتاج إلى خلوة، تفعله على مرأى الناس جميعاً، تفعله وأنت مطمئن، الإثم ما حاك في صدرك وخشيت أن يَطّلع عليه الناس، كل شيء تستحي به فهو باطل وكل شيء لا تستحي به فهو حق، لذلك:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ (14))

توجد خلوة مع الشياطين، يوجد سر، أبواب موصدة، كلام بصوت منخفض، شيء غير معقول. حياة المؤمن واضحة، حياة المؤمن معروضةٌ على الملأ، حياته في رابعةِ النَهار، تحت ضوء الشمس، الحق لا يخشى البحث، لا يُستحيا به، لا يحتاج أن تكذب له ولا أن تكذب عليه، ولا أن تبالغ فيه، ولا أن تُضَخِّمَهُ، ولا أن تقلل من خصومه:

((قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[أحمد وابن ماجة عن العرباض بن سارية]

العمل المشروع لا يُستحيا به ولا تضطرب معه أبداً أما العمل غير المشروع فعلى العكس:

أما الأعمال المنحرفة، الخيانات، المؤامرات، هذا كلّه يحتاج إلى خلوة، وإلى همس، وإلى غمز، وإلى لمز، وإلى مراقبة الطريق، كهذا الزوج الذي يجلس مع زوجة صديقه في خلوةٍ محرمةٍ، يُفاجئهُ زوجها، أين يضعها ؟ أين يُخبئها ؟ من أيّ بابٍ يدفعها ؟ فإذا أراد أن يدفعها يراقب هل هناك

أحد في الطريق ؟ لم هذا الاضْطراب ؟ لمَ هذا الخوف ؟ لم هذا الوَجَل ؟ لم هذه الاحتياطات ؟ لأن العمل غير صحيح، غير مشروع.

يمشي الإنسان أحياناً مع زوجته هادئ البال، أما لو أن شاباً يمشي مع فتاةٍ، وسَمِعَتْ همساً ترتعد فرائصها، لعله أبوها، لعله أخوها، فالعمل المشروع لا يُستحيا به، لا تضطرب معه أبداً، لا تخاف أبداً، أما العمل غير المشروع، مرة كنت في فندق فجاء شخص مع فتاة، فقال له الموظف: من هذه ؟ قال له: معي، قال له: من هذه ؟ أين دفتر العائلة ؟ فلم أر إنساناً بحالة ذُل كهذا الذُل، قال له: من هذه ؟ هل هي زوجتك ؟ فقال له: معي، كيف معك ؟ أين دفتر العائلة ؟ طرده طبعاً، أما الذي اصطحب زوجته يُقال له: تفضل، لا توجد هناك مشكلة، طبعاً هذه أمثلة.

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14))

هذا المنافق، شخصية مزدوجة، كأن معه انفصام شخصية، مؤمن مع المؤمنين، معنى هذا أنه ممثل، من هو الممثل ؟ قد يكون أفسق إنسان يمثل أحياناً دور صحابيّ، طُهر، وهدوء، ووقار، وحوقلة، وبسملة، ولا إله إلا الله، هذا كلّه تمثيل:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14))

وصف دقيق للشقي كما ورد في القرآن الكريم:

دقق، أول آية:

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ (12))

ثاني آية:

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

ثالث آية:

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

كلام خالق الكون، كلام قطعي:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب)

القضية منتهية، من هو الشقيّ ؟ الذي وصمه الله بأنه فاسق، وصمه الله بأنه سفيه، وصمه الله بأنه مُفْسِد.

يرفع الله عزّ وجل قدر الإنسان وأحياناً يَفْضَحُهُ فالعبرة بالعاقبة:

لذلك أيها الأخوة، عَلّم أحد علماء الحديث تلميذاً له الأحاديث الموضوعة أولاً كي يَحْذَرها، وهذا الوصف الدقيق هؤلاء هم المنافقون، أولاً: مفسدون، ثانياً: سفهاء، ثالثاً: عندهم ازدواج شخصية:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

يرفع الله عزّ وجل قدر الإنسان، وأحياناً يَفْضَحُهُ:

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ (18))

(سورة الحج)

مما ورد في الأثر الحديث:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم..))

[ابن سعد والبيهقي والديلمي عن أبى البجير]

العبرة بالنهاية، العبرة بالعاقبة، العبرة لمن يضحك أخيراً:

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

حينما ترى الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره:

دقق:

(وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15))

هذه سُنَّة الله في خلقه، أنت إنسان مخيَّر، ولا بدَّ أن تأخذ أبعادك كلّها، ولا بدَّ أن يسمح لك أن تصل إلى نهاية الطريق، إلى هنا حدود الفساد، إلى هنا حدود الانحراف، لا بدَّ من أن يُرْخ لك الحبل، لذلك حينما ترى الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره، هناك قصد، إذا وجدت النعم، ووجدت القوة، ووجد المال، ووجدت الوسامة، وهناك انحراف، وكفر، فهذا الإنسان يحتاج إلى ضربةٍ واحدة:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29))

(سورة يس)

عندما يُعَالج ربنا عزّ وجل الإنسان بالتدريج هذه نعمةٌ عظمى، عندما يتابعه ويُحاسبه على ذنوبه ذنباً ذَنباً , وخطيئةً خطيئةً، هذه نعمةٌ كبرى، عندما يغلط المؤمن فيأتي العقاب فوراً هذه نعمةٌ ما بعدها نعمة، أي أن الله سبحانه وتعالى يتابعك، ويربّيك، أما حينما يتابع الإنسان كل المعاصي، والانحرافات، والله عزّ وجل لا يعالجُهُ، فإن هذه علامة خطيرة جداً، أنه سوف يقْصم قَصْماً.

كل إنسان تحت ألطاف الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15))

يُمَدُّ له، يُرْخى له الحبل، لكن دقق الإنسان في قبضة الله، في أية لحظة تنقلب حياته إلى جحيم، بأي لحظة ينقلب أمنه إلى خوف، خوف مدمِّر، ينقلب غناه إلى فقرٍ شديد في أية لحظة، وفي أية لحظة تنقلب قوته إلى ضعفٍ شديد، الله هو القوي يقوي الإنسان وفي أية لحظةٍ يضعفه، الله هو الغني يغني إنساناً وفي أية لحظةٍ يفقره، الله عزّ وجل يُمِدُّ إنساناً وفي أية لحظة يأخذ منه، الإنسان تحت ألطاف الله عزّ وجل، فأولئك:

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

معنى

(يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)

يحتقر عملهم، يحتقر سخافتهم، أحياناً الإنسان بسذاجةٍ، بضيق أفقٍ، بجهلٍ فاضح يظُنُّ أنه إذا خدع الناس فهو ذكي، أنه إذا خدعهم، وأقنعهم بشيء، وهو على خلاف ذلك فهذه حِنْكة ما بعدها حنكة، هذا حَمَقٌ ما بعده حمق، علاقتك بالله وحده، وأنت عند الله مكشوف، وهؤلاء الذين تَخْدَعُهم وتوهمهم لا يملكون لك ضراً ولا نفعاً، ولا حياةً ولا نشوراً، تخدع إنساناً ضعيفاً، تصوروا إنساناً عمره أربعون سنة، وأمامه طفل عمره خمس سنوات مثلاً وهو يحاول أن يقنعه أنه غني، فإذا أقنعتَه أو لم تُقنعه ماذا يفعل هذا الطفل أمامك ؟ شيء لا يُصدّق، فكل إنسان ينسى الله، ينسى أن الله يكشفه، ينسى أن الله مُطّلعٌ على سرائره ويخدع الناس، إذا توهَّم أنه حاذقٌ ومُحَنَّك فهو أحمق، لأن هذا الذي تخدعه لا يملك لك نفعاً، ولا ضراً، ولا حياةً، ولا نشوراً، ولا رزقاً، ولا أمناً.

سيد الخلق لا يعلم الغيب ولا يملك لكم نفعاً ولا ضراً:

يأمر الله عزّ وجل النبي أن يقول لقومه:

(قُلْ)

وهو ليس شخصاً عادياً بل سيد الأنبياء والمرسلين:

(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ (76))

(سورة المائدة)

والأبلغ من ذلك:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً (49))

(سورة يونس)

وقال:

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ (50))

(سورة الأنعام)

سيد الخلق لا يعلم الغيب، وسيد الخلق لا يملك لكم نفعاً ولا ضراً:

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

الله تعالى بيده كل شيء:

دقق في هذه الفكرة: أنت من تخدع ؟ هذا الذي تخدعُه عبدٌ مثلك هل يملك لك شيئاً ؟ والذي تتجاهله هو الله بيده كل شيء، بيده مقاليد أمرك:

(اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

يَحْتقر عملهم، لأن عملهم سيحجبهم عن مصدر السعادة، سيحجبهم عن الجنة، سيمنعهم من التمتُّع بالقرب من الله عزّ وجل:

(وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَئِكَ الّذِينَ اشْتَرَوُا الضّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16))

العملية في النهاية عملية تجارية، يعيش الإنسان في الدنيا سنواتٍ معدودة فيطيع الله عزّ وجل ويلتزم بما أمر، وينتهي عما عنه نهى وزجر، فيستحق دخول الجنة إلى أبد الآبدين، تماماً كإنسان اشترى شيئاً بدراهم معدودات فباعه بملايين طائلة، تاجر:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10))

(سورة الصف)

الخاسر الحقيقي هو الذي خسر الآخرة:

التجارة رأس مال ومبيع وربح بينهما، أما مع الله عزّ وجل الشراء بدرهم والمبيع بمئة مليون، خلقنا الله عزّ وجل لنربح عليه، هؤلاء المنافقون الذين خَدعوا المؤمنين، وفسدوا، واستهزؤوا، وقالوا عنهم: هم سفهاء، هؤلاء المنافقون خسروا في تجارتهم، عاشوا سنوات معدودة، لعلهم كانوا

في بحبوحة، لعل المال الكثير جاء إليهم بسبب نفاقهم، ولكنهم خسروا الآخرة، ما ربحت تجارتهم، فهم تنعّموا لسنواتٍ معدودة وضيّعوا الأبد كلّه، قال:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16))

المعنى المخالف: أن المؤمن ربحت تجارته، أحد الصحابة كان في طريقه إلى المدينة يبدو أن الكفار كَمَنوا لهم، أرادوا أن يصرفوه عن الهجرة، قال لهم: خذوا كلّ مالي في مكة ودَلّهم عليه فأطلقوا سراحه، خذوا كل مالي، خَبّأ ماله في مكان معين في البيت، قال لهم: مالي في المكان الفلاني خذوه ودعوني، فتركوه، فلما وصل المدينة أخبر النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا قال النبي ؟ قال: ربحت التجارة أبا يحيى، ربحت تجارتك، ضَحّى بماله كلّه من أجل أن يصل إلى النبي، ربحت تجارتك.

وازن بين الدنيا والآخرة بعقلية تجارية، إنسان كسب الدنيا وقد يكسب مالاً وفيراً، ومكانةً عليةً، وبيتاً واسعاً، ومركبةً فارهةً، ويخسر الآخرة، ربح أم خسر ؟ أكبر خسارة:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (45))

(سورة الشورى)

من هو الخاسر الحقيقي ؟ الذي خسر الآخرة، أما هذه الدنيا مهما تكن مُتْعِبة، مهما تكن شاقة، مهما تكن المعيشة فيها خَشِنةً، لكنها تمضي ويبقى المؤمن إلى الأبد في جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

الموت عرس المؤمن وهو نقلة نوعية من دار متعبة إلى دار النعيم:

وازن بعقلية تجارية بين الدنيا والآخرة، ألم تدخل إلى بيوت ثمنها ملايين، وأصحابها تحت أطباق الثرى ؟ ألا يرى الإنسان الجنائز ؟ صلينا اليوم على امرأةٍ، فهل يوجد إنسان من الحاضرين ـ وأنا معكم ـ يمكن أن ينجو من ألا يُصلّى عليه في المسجد ؟ أبداً، لا بدّ من يوم تدخل فيه المسجد أفقياً ليُصلّى عليك، وأنا معكم، لا ينجو أحد، شاهدت مرة في بلد عربي كلمة كتبت على محل تجاري: **" صَلِّ قبل أن يُصلّى عليك "**، إذا استعمل الإنسان عقله، وفكّر في الدنيا الزائلة، لا يوجد ضمانة، الآن توجد أخبار يومية عن حدوث جلطة في عمر خمسة وعشرين ! هذه الأزمات التي كانت تجيء بالخمسينات، بالسبعينات، أصبحت تحدث بسن الخامسة والعشرين، بالخامسة والثلاثين،

شاب في مقتبل العمر مات، منذ أسبوع أجرى طبيب في ريعان الشباب عملية لطفل، ثم نزل إلى غرفته فمات فيها ! فأنت لا تملك من ضمانة إلا طاعة الله عزّ وجل، يجب أن يصطلح المؤمن مع الله، ويطيعه، ويُسَلِّم أمره إليه، ومتى يأتي الموت فهو تحفته، والموت عرس المؤمن، والموت نقلة نوعية من دار متعبة إلى دار النعيم، من دار المرض، والقلق، والهم، والحزن، والمشكلات إلى دار لا شيء يُنَغِّصُ الحياة فيها.

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (16))

(سورة الفرقان)

تجارة المؤمن رابحة أما تجارة الكافر فخاسرة:

لذلك تجارة المؤمن رابحة ، ربحت التجارة أبا يحيى، وغير المؤمن:

(فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ (16))

عملية تجارية، حياتك سنوات محدودة، إذا قلنا لشخص: تمتع بمئة مليون خلال سنة، وسوف تدخل إلى السجن لتمضي عشر سنوات مع التعذيب، هل يقبل هذا ؟ لا أحد يقبل، فلو تمتع سنة، وعشر سنوات تعذيب، فإنه لا يقبل، كيف إذا كانت الدنيا من الآخرة ليست بشيء ؟ لا أحد ينتبه أبداً إذا كان رقم واحد في الأرض وأصفار إلى الشمس، وبين الأرض والشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر وكل ميلي متر صفر، ما هذا الرقم ؟ هذا الرقم إذا قيس باللانهاية قيمته صفر، تصور الرقم واحد بالأرض، وأمامه مئة وستة خمسون مليون أصفار، كل ميليمتر صفر، فكيف إلى المشتري ؟ كل ميلي متر صفر، هذا الرقم إذا قيس باللانهاية الآخرة قيمته صفر، فهؤلاء الناس من أجل عشر سنوات معدودات؛ فسق، وفجور، وانحراف، وأكل مال حرام، ويدع ساعة الموت خارج كل حساباته، يأتي الموت فجأةً فإذا الإنسان في قبضة الله عزّ وجل.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (08- 95):تفسير الآيات 17-20، أصناف المنافقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-08-14

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص ما جاء في الدروس السابقة:

لا زلنا مع الآيات التي تصف المنافقين، الآيات التي تصف المؤمنين خمسُ آيات، والآيات التي تصف الكافرين آيتان، بينما الآيات التي تصف المنافقين ثلاث عشرةَ آية، هؤلاء المنافقون الذين يقولون:

(آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

هؤلاء المفسدون في الأرض.

(إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

هؤلاء الذين :

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14))

هؤلاء الذين يستهزئون بالمؤمنين:

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16))

هناك في الأصل علاقةٌ تجارية، تدفع شيئاً وتقبض شيئاً، فالمؤمن ربحت تجارته مع الله ؛ بينما المنافق خسرت تجارته مع الله، شُرِحَت هذه الآيات في درسين سابقين.

طريقة المثال أحد أساليب القرآن الكريم الرائعة في توضيح الحقائق وتَجْلِيَة الأمور :

نصل الآن إلى قوله تعالى:

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17))

أما كلمة

(مَثَلُهُم)

أراد الله جلّ جلاله أن يضرب لنا مثلاً للمنافقين، والمثل صورة حسية واضحة جداً تنطبق على حقيقةٍ معنوية مُعَقّدة، فالمثل طريقةٌ في التعبير رائعة، وطريقةٌ في التعبير واضحة، وطريقةٌ في التعبير قريبة، وطريقةٌ في التعبير صادقة، وطريقة المثال أحد أساليب القرآن الكريم الرائعة في توضيح الحقائق وتَجْلِيَة الأمور.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً (5))

(سورة الجمعة)

ضع على ظهر الحمار كُتُباً قيمة، وسر به مسافةً طويلة، ثم اسأله عن بعض الحقائق التي في الكتب، لا يزيد عن أن ينهق، لأنه لم يفقه شيئاً، فعلاقة هؤلاء الذين أوتوا الكتاب، ولم يفهموا مضمون هذا الكتاب، ولم يعملوا به كعلاقة هذه الدّابة البهيمة بكتابٍ حُمِّل على ظهرها.

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ (176))

(سورة الأعراف)

يلهث على اختلاف أحواله إن كان جائعاً، أو مرتاحاً، أو مُتْعَباً، فهو يلهث، هذا مثل آخر ضربه الله عزّ وجل، ومن اللطيف جداً أن نرجع إلى القرآن الكريم لنرى هذه الأمثال الرائعة التي ضربها الله تعالى توضيحاً لبعض الحقائق.

استخدم النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة أسلوب المثل :

استخدم النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة أسلوب المثل، فَشَبَّه الجماعة بأنهم رُكّاب سفينة واقتسموا أماكنهم، أراد بعضٌ هؤلاء الركاب أن يخرق مكانه ليأخذ الماء سريعاً، قال:

((فإن تَرَكُوهُمْ وما أرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعاً، وإنْ أخذُوا على أيديهِمْ نَجَوْا ونَجَوْا جَميعاً))

[أخرجه البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير]

إذا أخذوا على يده نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا، مثل رائع في المسؤولية الجماعية، نحن في قاربٍ واحد فإذا أراد بعضنا أن يخرق المساحة التي له من هذا القارب يُهْلكنا جميعاً، فإذا أخذنا على يده نجونا جميعاً وإن تركناه هلكنا جميعاً، هذا من أمثلة النبي عليه الصلاة والسلام.

((الصلاة عماد الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

خيمة فيها عمودٌ يبرز كيانها، فإذا أُزيح العماد أصبحت الخيمة قماشاً ملقى على الأرض، لا يظهر كيان هذه الخيمة إلا بالعماد الذي في وسطها.

((الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

آياتٌ كثيرة فيها أمثلةٌ صارخة، وأحاديث كثيرة فيها أمثلة صادقة، يستخدم الدعاة أحياناً طريقة المثل، وهي من أروع الطرق في توضيح الحقائق.

المنافقون ليس لهم في الآخرة رصيد كل رصيدهم في الدنيا:

أيها الأخوة، إن أردت أن تُعَلِّم، أو أردت أن توضِّح، أو أردت أن تلقي الحقيقة فاستخدم المثل، لأن المثل أسلوبٌ قرآني، وأسلوبٌ نبوي، وليس هناك من عملٍ أعظم من أن تُشابه أسلوب القرآن، والأسلوب النبوي، هؤلاء منافقون لأنّهم أحبوا الدنيا فقط، ولأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، أحبوا الدنيا، وجعلوها نهاية آمالهم ومَحَطّ رحالهم، وبذلوا جهداً جهيداً من أجلها، فأسسوا وبنوا ومكّنوا أنفسهم في الأرض، فلما أرادوا أن يقطفوا ثمار هذا الجهد الطويل، هذا الجهد الجهيد، هذا الجهد الذي استغرق من حياتهم مثلاً أربعين عاماً، أو ستين عاماً فاجأهُم الموت، وأخذ منهم كل شيء في ثانيةٍ واحدة.

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً (17))

استوقد وزن استفعل في اللغة وزنٌ يعني الطلب ؛ طلب النار، طلب النار لتضيء له حياته، أي طلب المال، طلب العز، طلب المكانة العلية، طلب الجمال، طلب البيت المريح، طلب المركبة، هذه طلباته.

(اسْتَوْقَدَ نَاراً (17))

من أجل أن تنير له، فبعد جهدٍ جهيد، وعمرٍ مديد، وعملٍ مضنٍ، تألقت النار وأضاءت له ما حوله، جاء ملك الموت فجأةً وأخذ منه كل هذا الجهد، وكل هذه المكتسبات، هذا حال المنافقين، ليس لهم

في الآخرة رصيد، كل رصيدهم في الدنيا، كل البيض في سلةٍ واحدة، فإذا أُخذت منه هذه السلة فقد كل شيء، ليس للمنافق مستقبل أبداً، له حاضر قد يكون رائعاً جداً.

أمثلة عن أناس فاجأهم الموت وهم في أوج تألقهم :

قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ (4))

(سورة المنافقون)

ماله وفير، مكانته عَلِيَّة، ولكن ليس له مستقبل، كل ما عنده من مال، كل ما عنده من وجاهة، كل ما عنده من مكانة، كل ما عنده من أساليب يستمتع بها بمباهج الحياة الدنيا منوطةٌ بقطر شريانه التاجي، منوطةٌ بسيولة دمه، منوطةٌ بنمو خلاياه فإذا اضطرب نمو خلاياه فقد كل شيء وإذا ضاق شريانه التاجي فقد كل شيء، وإذا تَجَمَّد دمه في مكانٍ ما فقد كل شيء.

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً (17))

يسعى ويعمل ويسهر ويُسافر ويؤسس ولا ينام الليل ويخاصم من أجل الدنيا فقط، من أجل المال، من أجل المكانة، فإذا أضاءت ما حوله، أي بدأ يقطف ثمار عمله فاجأه الموت في أحرج الأوقات، بل في أوج تألقه، في أوج استمتاعه بالدنيا، فاجأه الموت بعد أن انتهى من إنشاء العمارة، بعد أن انتهى من تحصيل هذه الشهادة، بعد أيامٍ من زواجه، بعد سنواتٍ من تألُّقِه، وهناك آلاف الأمثلة، سعى إنسان في بناء بيتٍ سنواتٍ طويلة، فلما انتهى البيت فاجأه الموت بعد أيام.

حدثني أخٌ كريم عن إنسان اشترى بيتاً في مكان جميل، واعتنى بكسوته عناية تفوق حد الخيال، وجاء بأمتعته ليستقر بهذا البيت، وجاء بالوجبة الثانية، وبالوجبة الثالثة، وبقي جهازٌ ينبغي أن يركب في بيته، رُكِّب الجهاز، ولما حان موعد المجيء النهائي، والاستقرار في هذا البيت، وافته المنيَّة في اليوم نفسه الذي أزمع فيه أن يسكن هذا البيت.

المنافق إنسان بلا هدف أخروي وبلا مستقبل :

هذا كلام عام، يسعى الإنسان إلى الدنيا بكل جهده، بكل وقته، بكل ماله، بكل تعبه، بكل كده، بكل عرقه، فإذا امتلك منها شيئاً أضاءت ما حوله، أي صارت له مكانة، له دخل ثابت، يسكن بيتاً مريحاً، له مركبة مريحة، أمره نافذ، اتصالاته جيّدة، معارفُهُ كُثُر، أتباعه كثيرون، يأتيه ملك الموت وهو في هذه اللحظة من النشوة ليأخذ منه كل شيء في ثانيةٍ واحدة، المنافق إنسان بلا هدف أُخروي، وإنسان بلا مستقبل، وأوضحُ مثلٍ هذا المثلُ.

(اسْتَوْقَدَ (17))

بذل الجهد المضني إلى أن أضاءت ما حوله، استمتاعه بها لسنوات معدودة، وهذه الدنيا أمامكم، من دون مفاجآت، حتى يصل الإنسان إلى الحد المعقول يحتاج إلى أربعين عاماً من حياته، ماذا بقي له من حياته حسب متوسط العمر في الدنيا ؟ يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

((معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين.))

[الحكيم عن أبي هريرة]

كل سنة يعيشها بعد الستين مَكْسَب، عندما يبلغ عمره الستين عاماً يشعر بأنه قد يفاجأ بالموت في كل لحظة، وقد يموت وعمره خمسون عاماً، ففي أحسن الاحتمالات بعد الستين، أصبح احتمال الموت بعد الستين قائماً في كل لحظة، ماذا استمتع من حياته ؟ عشرون سنة. ضيّع الأبد بعشرين عاماً مشحونة بالمتاعب والخصومات والدعاوى، انظر إلى قصر العدل عشرات بل مئات الألوف من الدعاوى، هناك دعاوى بين الناس وهناك خلافات أسرية، وخلافات تجارية، وعلل بصحته، وهو يطلب الدنيا بكل ما يملك، هذا حال المنافق.

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ (17))

معان متعددة لآية (استوقد ناراً):

1- المعنى الأول أن المنافق يريد من النار أن تضيء له حياته ليكون سعيداً:

أراد المنافق من النار ضوءها طبعاً، قد تُريد النار من أجل الدفء، وقد تُريدها من أجل طهو الطعام، وقد تُريدها من أجل النور. هنا أراد الله عزّ وجل أن يبيّن لنا أن المنافق يريد من النار أن تضيء له حياته، أن تكون حياته سعيدة، فيها بهجة، فيها عِز، فيها فخامة، فيها رفاه، وكم من بيتٍ فخمٍ لم يسكنه صاحبه، وكم من مركبةٍ فارهةٍ ركبها أياماً معدودة، ثم فاجأه ملك الموت، هذا الذي يجعل كل مكتسباته محصورة في الدنيا، يقامر ويغامر.

المؤمن له مستقبل، والمؤمن يأتيه ملك الموت، ولكن يأتيه ملك الموت وله عند الله رصيدٌ كبير، قدّم ماله أمامه فسهُل عليه اللحاق به، رصيده عند الله كبير، استقامته، وطلبه للعلم، وعمله الصالح،

ونفعه للمسلمين، صدقه، وأمانته، وتربية أولاده، هذه كلها أرصدة هائلة مودَعَةٌ له في الآخرة، فإذا فاجأه الموت يقول له: مرحباً، الموت تحفة المؤمن، الموت عرس المؤمن، لا تكن أيها الأخ الكريم كالذي وضع كل إمكاناته في الدنيا، هذه الإمكانات العالية في الدنيا تُنهيها جلطة، تنهيها سكتةٌ قلبيةٌ مفاجئة، تنهيها خثرةٌ دماغية، ينهيها نمو الخلايا العشوائي، أما الذي له عند الله رصيدٌ كبير من العمل الصالح، ومن الانضباط الشرعي، ومن الدعوة إلى الله، لو جاءه الموت، الموت تحفته، الموت عُرسه.

2- المعنى الثاني رفض المنافقين لدعوة النبي التي كانت ستوصلهم للسعادة في الدنيا والآخرة:

المعنى الثاني في هذه الآية أن اليهود كانوا يتحدَّوْنَ المنافقين قبل مجيء الرسالة النبوية بقولهم: آن أوان مجيء نبيٍ نؤمن به، فالمنافقون كان عليهم أن يؤمنوا بهذا النبي ليتحدّوا اليهود الذين بشروهم بهذا النبي، فلما جاء النبي الذي كانوا ينتظرونه، وكانوا يبحثون عنه، كي يردوا على كيد اليهود، وكي يقفوا أمامهم نداً لند، كذّبوا به، فهم استوقدوا ناراً، فلما أضاءت ما حولهم أذهب الله نورهم الذي كان من الممكن أن يُرْشِدهم إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة برفضهم لدعوة هذا النبي.

3- المعنى الثالث أنهم كفار حقيقة لكن مصالحهم تعلقت بالمؤمنين فأظهروا ما لا يبطنون:

هناك معنى ثالث: أن هؤلاء المنافقين هم في الحقيقة كُفّار، ولكن مصالحهم تعلّقت بالمؤمنين، فأعلنوا إسلامهم، وأخفوا كفرهم، وهم أرادوا الدنيا فقط، هؤلاء انتفعوا بكفرهم، ولكنهم يختلفون عن الكافرين بأن لهم مصالح مع المؤمنين، فأظهروا ما لا يُبطنون، وأعلنوا ما لا يُسِرُّون، والدليل على ذلك:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

هذه منافذ الإيمان.

الاستماع الذي أراده الله هو الذي يعقبه تطبيق:

صممٌ أصَم لا يسمع.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37))

(سورة ق)

الإنسان إذا أصغى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا (4))

(سورة التحريم)

المؤمن يصغي إلى الحق لكن المنافق لا يصغي، قد يجلس في مجلس علم، لأنه على موعد مع شخص، قال له: نلتقي في الجامع، يجلس، ويستمع إلى الدرس كُلِّه، ولا يفقه منه شيئاً، لأنه ليس هناك، هو في واد والدرس في واد آخر،

(صُمٌّ)

وقد تجلس وتحدِّثه عن الله يتثاءب، ويتشاغل، ذهنه في أسعار العملات، في الصفقات، في الدرهم والدينار، في النساء، فإذا حدَّثته حديثاً مصيرياً وخطيراً فأنت في واد وهو في وادٍ آخر،

(صُمٌّ)

لذلك أهل النار يوم القيامة يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

لا يرى القرآن الكريم أن الاستماع هو أن تُعْطي أذنك للقائل، الاستماع الذي أراده الله هو الذي يعقبه تطبيق.

صفات المنافقين:

قال تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21))

(سورة الأنفال)

مصيبةٌ كبيرة أن يأتي الإنسان إلى درس علم وأن يسمع كلاماً خطيراً مُتَعَلِّقاً بمصيره وأن لا يأبه له، هو لم يسمع شيئاً هذه علامة الأصمّ.

(فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44))

(سورة فصلت)

المنافق أصم.

(صُمٌّ بُكْمٌ (18))

لا يسأل، لأن الأمر لا يعنيه إطلاقاً، ولا ينطق بالحق، هو لا ينطق بالحق من باب أولى، وهو لا يسأل، لأن لسانه لا يستخدمه إلا للدنيا، للغيبة والنميمة، للحديث عن النساء، للحديث عن مظاهر الدنيا.

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ (18))

لا يرى الحقائق، لا يرى الآيات الدالة على عظمة الله، لا يرى أفعال الله عزّ وجل التي تهتز لها القلوب.

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

كيف يرجعون وهم على ما هم عليه من الصمم، من الخَرَس، من العَمَى ؟!!

يأتي الموت في وقت غير مناسب أبداً وغير متوقع وهذا من حكمة الله عزّ وجل :

أول معنى في هذه الآية: أن المنافق يبحث عن الدنيا، ولا يعنيه إلا الدنيا، لا يعنيه من الدنيا إلا الدِرهم والدينار، جَمَعَ الدرهم والدينار، اشترى البيت الفخم، والمركبة، ورَفّه نفسه رفاهاً عالياً جداً، ثم يفاجأ أن كل هذا التَعَب ذهب أدراج الرياح.

قال لي طالب: لي خال عنده دار سينما ـ القصة قديمة جداً والقصة بالستينات على ما أظن ـ قال لي: جمع خمسة ملايين بالستينات ـ أي ما يعادل تقريباً خمسمئة مليون حالياً ـ من أجل أن يعيش خريف عمره في بحبوحةٍ كبيرة ويستمتع بالدنيا، جاءه مرضٌ خبيث وهو في سن مبكر فصار يبكي وهو على فراش الموت، قال لابن أخته وهو طالبٌ عندي: جمعت هذا المال من طريق غير مشروع لأستمتع به فلم يتح لي أن أستمتع به. هذه قصةٌ متكررة.

أيها الأخوة الكرام، المنافق يسعى للدنيا:

((حُبُّك الشيء يُعمي ويصم.))

[أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء]

الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمر، سأروي قصة رمزية ذكرتها لكم كثيراً، أن إنساناً أراد أن ينتحر جاءه ملك الموت ودلّه على طريقةٍ يغتني بها، أصبح هذا الرجل غنياً جداً، ثم أُتيح له أن يتزوّج ابنة الملك وأصبح صهر الملك، فاجأه ملك الموت وهو في يوم عُرْسه، قال له: تأخذني الآن !! ليتك أخذتني من قبل، يوم كنت مزمعاً أن أنتحر من أجل الدِرهم والدينار، يأتي الموت في وقت غير مناسب أبداً، في وقت غير متوقّع، وهذا من حكمة الله عزّ وجل، المؤمن مستعد للقاء الله عزّ وجل، أهلاً

وسهلاً، أناسٌ كثيرون من أهل الإيمان يأتيهم ملك الموت، وهم في أحلى حالاتهم، وهم على شوقٍ له.

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

كيف يرجعون ؟ أدوات الرجوع مُعَطّلة، أداة السمع الأذن صمّاء، أداة رؤية الآيات عليها غشاوة، أداة طلب العلم مُعَطّلة، هذا الصنف من المنافقين كفار.

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

الصنف الآخر من ضعاف النفوس الذين تحدث عنهم القرآن :

أما الصنف الثاني الذين ضَعُفَت نفوسهم أو اشتبهت عليهم الأمور هؤلاء منهم خير.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ (19))

هذا الدين كهذا السحاب كُلّه خير، يقول لك: سحابة تحمل ثلاثمئة مليون طن من الماء سوف تنزل على الأرض، سوف تصبح الأرض عُشباً أخضر، محاصيل، أشجار مثمرة، ينابيع فوّارة، الماء هو أساس الرزق.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ (19))

لكن هذا السحاب يَحْجُب أشعة الشمس، أيام الشتاء غائمة، وقد يسمع الإنسان صوت رعدٍ فينخلع قلبه، وقد يرى ضوء برقٍ فيخطف بصره، ما رأى المنافقون ما في هذه السحابة من الخير، أزعجهم الغيم الذي حجب أشعة الشمس، أزعجهم صوت الرعد، أزعجهم وميض البرق، هذه أزعجتهم فرفضوا هذه السحابة، هناك في الإسلام غض بصر، فيه دفع زكاة، فيه ضبط لسان، فيه قواعد، فيه صلوات، فيه صيام، فيه انضباط، أزعجتهم هذه التكاليف فرفضوا كُلّ الدين.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19))

ضعاف النفوس يريدون من الإسلام مكاسبه لا متاعبه:

الذي يُمَيّزُهم عن الأولين هو قوله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20))

هؤلاء يريدون من الإسلام مكاسبه لا متاعبه، يريدون المغانم لا المغارم، يريدون أن يعتزّوا بالإسلام، أن يقطفوا ثماره دون أن يدفعوا الثمن، هؤلاء حالهم مع الإسلام:

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ (19))

الإسلام فيه تكاليف، لذلك تخفف الفِرَق الضالة دائماً التكاليف، هذه قاعدة، تؤلِه الفرق الضالة الأشخاص، تعتمد النصوص الموضوعة والضعيفة، ذات نزعة عدوانية.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ (19))

الفرق بين المؤمنين وبين ضعاف النفوس :

المؤمن يُصلي الفجر حاضراً، يقرأ القرآن، يضبط لسانه، ينفق من ماله، يُرَبّي أولاده، يجهد، ولكن هناك نموذجاً آخر هو نموذج مستمتع بالحياة، هناك إنسان يُعطي وإنسان يأخذ، إنسان يسترخي وإنسان يجهد.

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ (19))

ينخلع قلبه لذكر الموت، هناك أُناسٌ يكرهون القرآن، لماذا ؟ لأنه يُتلى في مناسبات الحُزن، كأن القرآن يذكِّرهم بالموت، هناك أناسٌ يكرهون بعض النباتات لأنها توضع على القبور، يكرهون كل شيءٍ يذكِّرهم بالآخرة من شدة تعلُّقهم بالدنيا، حتى أنك لا ترى في بعض البلدان جنازة إطلاقاً، من المستشفى بسيارة إسعاف إلى المقبرة لا ترى فيها نعياً على الجدران، بلادٌ كثيرة إسلامية النعي فيها ممنوع، الجنائز ممنوعة، لا ترى الموت على الإطلاق، ترى حياة، لكننا نحن نستمع أحياناً إلى إعلام في المئذنة يذكرنا بالموت، نقرأ النعي كل يوم، نرى جنازة أمامنا، فالإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أكثروا من ذكر هادم اللذات ـ مفرق الأحباب ـ مشتت الجماعات))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن سهل بن سعد و البيهقي عن جابر]

هذا الذي يريد من الإسلام المغانم، إذا كان هناك احتفال، أو نزهة، أو توزيع شيء هو أول شخص يأتي، إذا كان هناك تكليف هو ليس هنا، يريد المكاسب لا المتاعب، المغانم لا المغارم، يريد قطف الثمار لا بذل الجهد.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ)

ضعاف النفوس ليس عندهم قيود أبداً فهم ضد الضبط وضد المَنْهَجِيّة لأنهم لا يحتملونها:

يحتاج الإسلام أحياناً إلى جهد، وإلى قوة إرادة، وإلى ضغط، لا يعجبه الجهد المبذول، ولا الضغط الشديد، بل يعجبه التفَلُّت، يجلس المنافق مع من يشاء، أنثى أو ذكر، متزوجة أم غير متزوجة، تحل له أو لا تحل له، ليس عنده مشكلة إطلاقاً، ينظر إلى أي شيء ولا فرق عنده بين شيء يجوز أن يراه وشيء لا يجوز، يقول لك: نتعلم، يُطلق بصره في كل شيء، يتكلّم أي شيء، لا يوجد عنده قيود أبداً، هو ضد الضبط، ضد الإرادة القوية، ضد المَنْهَجِيّة لأنه لا يحتملها.

(فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ (19))

يحب ألا يسمع الكلام الذي يُزعجه، يضع إصبعه في أُذنه، وهذا واقع، تتحدث حديثاً عن الآخرة تجده يتثاءب، اعتذر لأن عنده موعد، اجعل الحديث عن الدنيا تجده جلس معك حتى الساعة الواحدة، ولم يقل لك: عندي موعد، ما دام الحديث عن الدنيا هو مصغٍ إليه، كتلة نشاط وحيوية، حدثه عن الآخرة تجده تململ وتثاءب وتأفف واعتذر.

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ (19))

يظنون إذا تجاهلوا ذكر الموت، وإذا تجاهلوا الدار الآخرة، أنهم لا تصيبهم الآخرة ولا يموتون ؟

(وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19))

هناك قوانين واقعة عليك وإن لم تؤمن بها :

هذه نقطة مهمة جداً، توجد قوانين هي واقعةٌ عليك وإن لم تؤمن بها، مطبقةٌ عليك شئت أم أبيت، وأقرب مثل: قانون السقوط، السقوطُ الحرّ له قانون، مظلة الطائرة مبنية على هذا القانون، فإذا سخر الإنسان من هذا القانون، واحتقر هذا القانون، ولم يعبأ بهذا القانون وكذّب هذا القانون، وألقى بنفسه من الطائرة، القانون لا يُطَبَّقُ عليه ؟ إذا كذّب بقانون السقوط هل ينزل سليماً بلا مظلة ؟ ينزل ميتاً، يعني سيّان أن تؤمن أو لا تؤمن، أن تعترف أو لا تعترف، أن تصدق أو لا تصدق، القانون مُطبَق. هو لا يحتمل سماع الحق، لا يحتمل التذكير بالآخرة، لا يحتمل ذكر الموت، يجعل أُصبعه في أُذنيه لئلا يصل إليه الحق لكن الله محيطٌ به، إذاً فهو غبيٌ جداً، كالنعامة إذا غَمَسَت

رأسها في الرمل، ظنّت أن الخطر لن يقترب منها، مع أنها أصبحت لقمةً سائغة لعدوها، حينما غمست رأسها في الرمل غاب عنها منظر عدوها، فتوهمت أن عدوها اختفى، هي أخفت رؤيته عن ذاتها، فكانت لقمةً سائغة لعدوها، هذا الحال دقيق جداً:

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ (20))

ذكر الجنة ـ الحور العين ـ يقول لك: الله يطعمنا إياها، الحور العين تعجبه:

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة التحريم: آية "8")

تُعجبه:

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ (160))

(سورة آل عمران)

تعجبه، إذاً ادفع الثمن.

وصف دقيق للإنسان غير المتوازن كما ورد في القرآن الكريم:

قال تعالى:

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (20))

تكون تجارته أحياناً رائجة تماماً، صار يحب الدين، ويحب العلم، والمشايخ، والدروس لأن تجارته رائجة، عندما تتوقف تجد أن وضعه اختلف، تضعضعت صلاته، ضعفت ثقته بالله، تلاشى أمله الكبير، فهذا الذي يسير كلّما أضاء له البرق، وإذا أظلم عليه لم يسر، فهذا إنسان غير متوازن، وهذا وصفٌ دقيقٌ لهذا الإنسان:

(كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (20))

المنافق:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11))

(سورة الحج)

المنافق يميل مع مصالحه و المؤمن لا يبدل ولا يغير :

المؤمن لا يُغيّر:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

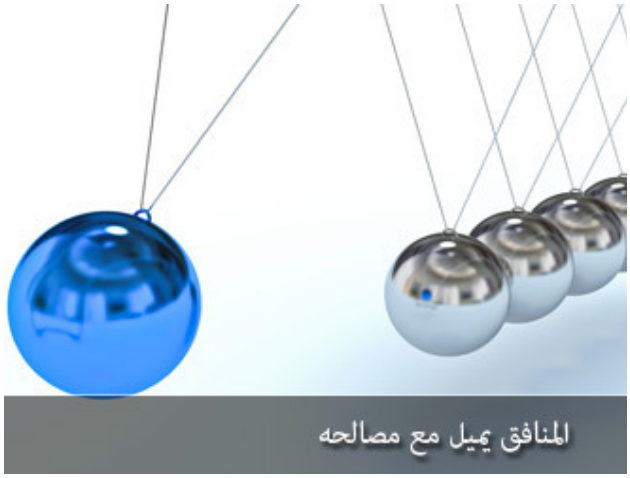

المؤمن ما بدّل ولا غيّر، ولكن المنافق يميل مع مصالحه، تجده حيثما تكون مصالحه جيدة، الآن حتى في أمور الخلافيّات مثلاً يملك هذا المنافق بيتاً، هذا البيت لا يخرج منه المستأجر بحكم القانون، فالطريق مسدود لأن المستأجر محميٌّ، يلجأ للمشايخ، ويقول: أنا أريد الشرع، يريد حُكْمَ الله فقط، لأنه شعر بالحاسة السادسة أن القانون ليس معه، بحكم القانون مستحيل أن يخرج المستأجر، تراه يتّخذ تديّن المستأجر نقطة ضعف، فهو يريد حكم الله، بالأسبوع نفسه موضوع ثانٍ وجد أن الطريق مسدود بالدين صار له مصلحة بالقانون، يوكّل محامياً، يقول لك: نحن في دولة فيها نظام وقانون، اختلف النغم، قبل يومين كان يريد الشرع والآن يريد القانون، إنه يلحق مصالحه، ويوجد عنده قدرة لمعرفة أين تتحقق مصلحته، إذا كانت مصلحته تتحقق بالشرع فإنه يُحكِّم المشايخ، وإذا كانت مصلحته لا تتحقق عن طريق الدين فإنه يحكِّم المحامين والقضاة، فهو يميل مع الهواء أينما مال.

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (20))

الفرق بين المنافقين وبين ضعاف النفوس :

إذا نجح ابنه بتفوق فإنه يحب الجامع الذي فيه ابنه، وشيخ ابنه، ويقول له: يا بني خذ أخاك معك إلى الجامع، وإذا رسب ابنه عزا كل أخطاء ابنه للشيخ والجامع، الجامع ليس له علاقة بالموضوع، ابنك هو المقصِّر، لا يوجد عنده حل موضوعي، إنه يميل مع مصالحه.

(وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ (20))

هم بقية خير، لذلك منافقون كُثُر في عهد النبي حَسُن إيمانهم، هناك نموذج كافر ينتفع بكفره، لكن مصلحته مع المؤمنين فيظهر ما لا يُبطن هذا أول قسم:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

يوجد صنف ثانٍ: ضعفت نفسه أمام شهواته، واختلط الأمر عليه، فمال مع شهواته وله ثقةٌ بالمؤمنين فهو لا مع هؤلاء ولا مَعَ هؤلاء، إذا وجدت مع المؤمنين ميزات تهمُّه مشى، وإذا حدثت متاعب اختفى، يعني أيّ خطر يلغي كل تديّنه، قد يدعُ الصلاة إذا كان شعر أن هناك خطر من هذا الاتجاه الذي هو فيه، أما المؤمن لا يغير:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

آية المنافق ثلاث :

أيها الأخوة آية المنافق ثلاث:

((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ))

إذا تاب عن الكذب أُزيلت منه إحدى صفات النفاق.

((وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ))

إذا تاب عن إخلاف الوعد أُزيحت عنه إحدى صفات النفاق.

((وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

إذا تاب عن خيانة الأمانة أُزيحت عنه صفةٌ ثالثة، لا يوجد شيء ثابت، طبعاً أول قسم من المنافقين مُخيف، أول قسم كافر، أما القسم الثاني فيه أمل كبير فإذا كان فيه خطأ أو تقصير، فيه ازدواجية، فيه سر وجهر يُصَلّح هذا ويُبَدّل. لذلك كان أصحاب النبي عليهم رضوان الله وهم على ما هم عليه من مرتبةٍ عالية كان أحدهم يتهم نفسه بالنفاق، واتهام النفس بالنفاق حالةٌ صحيةٌ طيبة، لأن المنافق يعيش أربعين عاماً في حالٍ واحد، بينما المؤمن يطرأ عليه في اليوم الواحد أربعون حالاً. يكون أحياناً مرتاحاً ومطمئناً، ويكون أحياناً قلقاً، أحياناً خائفاً، تَعْتريُه هذه الأحوال، دليل إيمانه، ودليل صدق إيمانه، ودليل حرصه على رضوان الله عزّ وجل.

أيها الأخوة الكرام، مطلع هذه السورة مهمٌ جداً لأن الناس رجلان ؛ مؤمن وكافر، أما الثالث فمحيّر، تظنه مؤمناً، وهو ليس كذلك، وهذا الصنف الثالث بعضهم منتمون إلى الكُفّار قطعاً، وبعضهم يمكن أن يصلح حالهم، وأن يعودوا إلى صف المؤمنين، ولا أدَلّ على ذلك من أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يفضح المنافقين، بل سترهم، لكنه أعطى أسماءهم لسيدنا حذيفة رضي الله عنه، والشيء الذي لا يصدّق أن سيدنا عمر عملاق الإسلام قال له: يا حذيفة بربك هل اسمي مع المنافقين ؟ من شدة خوفه من الله ومن شدة حرصه على رضوان الله.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (09- 95):تفسير الآية 21، العبادة طاعة وسلوك لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-08-21

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص للدروس السابقة من سورة البقرة:

مع الآية الواحدة والعشرين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21))

كان هناك في الدروس السابقة وصفٌ للمؤمنين في خمس آيات، ووصفٌ للكُفّار في آيتين، ووصفٌ للمنافقين في ثلاثَ عشرةَ آية، وانتهت آيات المنافقين بمثلين دقيقين ؛ الأول:

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

هؤلاء المنافقون الذين انتفعوا بكفرهم، هم في الحقيقة كُفّار، لكن مصالحهم متعلقةٌ بالمؤمنين فنافقوا، وهم:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

المنافق هو من أظْهَر الإيمان وأبطن الكفر وهو الأخطر على الإسلام:

أما النموذج الآخر فهو من ضَعُفَ إيمانهم، وكَثُرَت الشُبُهات في عقولهم، فمالؤوا المؤمنين، وضعفت نفوسهم عن الالتزام التام، هؤلاء يرجى لهم الشفاء، لذلك لم يُخْبر النبي عن أسمائهم، بل أسَرّ أسماءهم لسيدنا حُذَيفة، الزمرة الثانية:

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19))

هؤلاء يتعلّقون بالمغانم ويبتعدون عن المغارم، هؤلاء يحبون ثمار الإيمان ولا يدفعون ثمن هذه الثمار:

(كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (20))

وقال:

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20))

انتهى وصف المؤمنين، والكفار، والمنافقين، والحقيقة هناك رجلان ؛ مؤمنٌ وكافر، أما الثالث فهو من أظْهَر الإيمان وأبطن الكفر.

الأول واضح، والثاني واضح، الأول جريء قَبِلَ الحق وقبض ثمنه، والثاني ردّ الحق ودفع الثمن باهظاً، أما الثالث فجبان، لم يجرؤ على أن يلتزم، ولم يجرؤ على أن يكفر، فهو بَيْنَ بَيْن، مصدر الخطر من الثالث، لأن الأول ينفعك، والثاني تحذره، أما الثالث فيغشك، لذلك يُخشى على الدين لا من أعدائه، بل من أدعيائه من المنافقين، والمنافق هنا من كان عليم اللسان، جاهل القلب، من كان عمله غير ملتزم بالدين، من أظهر ما لا يُبطن، ومن أبطن ما لا يُظهر.

من سنة الله تعالى أنّه يُخاطب عامّة الناس بأصول الدين بينما يخاطب المؤمنين بفروع الدين:

أيها الأخوة ننتقل الآن إلى فقرةٍ جديدة من الآيات:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

من سنة الله جلّ جلاله أنّه يُخاطب عامّة الناس بأصول الدين بينما يخاطب المؤمنين بفروع الدين، كلمة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ (21))

هذا توجيهٌ عام لكلّ البشر:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

أما:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183))

(سورة البقرة)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً (6))

(سورة التحريم)

يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا، أي يا من آمنتم بي، يا من عرفتموني، يا من عرفتم رحمتي، يا من عرفتم سر وجودكم، يا من خُلِقتم لسعادةٍ أبدية افعلوا هذا ولا تفعلوا هذا، هناك عَقدٌ إيمانيٌ مع الله.

مهمة المؤمن أن يتحرّى أمر الله ويطبّقه فقط:

المؤمن على عقدٍ إيماني مع الله عز وجل، من لوازم هذا العقد أن يطبق كل ما جاءه عن الله:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (111))

(سورة التوبة)

باع نفسه، والثمن هو الجنة.

(يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111))

(سورة التوبة)

يخاطب الله عزّ وجل عامّة الناس بأصول الدين، ويخاطب خاصّتهم وهم المؤمنون بفروع الدين، المؤمن آمن بالله، وعرف لماذا خلقه الله، عرف أنه قد خُلِقَ لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، وعرف أن هذه الجنة ثمنها طاعة الله عزّ وجل، وتلقّى الأمر عن الله عزّ وجل، فمهمة المؤمن أن يتحرّى أمر الله ويطبّقه فقط، يخاطب الله الشاردين البعيدين، الذين بعدوا عن الله عزّ وجل، والذين تعلّقوا بالدنيا، هؤلاء الكفار يخاطبهم الله عزّ وجل بشكلٍ عام:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

الإنسان مخلوقٌ على وجه الأرض من أجل أن يعبد الله عزّ وجل:

أيها الأخوة أكبر سؤالٍ يُطْرَحُ علينا هو: لماذا نحن في الدنيا ؟ لماذا خُلقنا ؟ صدقوني أيها الأخوة أن ملايين طائلة من الناس يتحركون كل يوم، يعملون عملاً شاقاً، يكسبون الأموال، يسكنون البيوت، يتزوّجون، يسافرون، يتاجرون، يفرحون، يمرحون، ولا يعلم أحدهم لماذا خلقه الله ؟ إذا ذهبت إلى بلد، ونزلت في أحد فنادقه، واستيقظت صبيحة اليوم الأول، وتناولت طعام الفطور، وارتديت ثيابك قد تسأل: إلى أين سأذهب ؟ نحن نسألك لماذا جئت إلى هنا ؟ إن جئْتَ هذا البلد تاجراً فاذهب نحو المعامل والمؤسسات، وإن جئته سائحاً فاذهب نحو المقاصف والمتنزّهات، وإن جئته طالب علمٍ فاذهب نحو المعاهد والجامعات، متى تَصِحُ حركتك ؟ إذا عرفت سرّ وجودك، هذا سؤال دقيق جداً يجب على كلٍ منا أن يسأله بشكلٍ جاد، ليسألْ نفسه: لماذا أنا في الأرض ؟ الذي خلقني في الأرض لماذا خلقني ؟ إن كنت تعرف فهذه نعمةٌ عظمى، وإن كنت لا تعرف فربنا أخبرك:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

شيءٌ يغيب عن معظم الناس، أنت مخلوقٌ على وجه الأرض من أجل أن تعبد الله عزّ وجل، نُرسل أحياناً طالباً إلى بلد أجنبي، هناك آلاف الأبنية، آلاف الأماكن، دور لهو، دور سينما، ملاعب، مسارح، متاحف، مقاصف جميلة، مكتبات، صناعة، تجارة، هذا الطالب الذي ذهب إلى هذا البلد له هدفٌ واحد، أن يأتي بدكتوراه، هدفٌ واحد، إذا كان هذا الهدف ماثلاً في ذهنه، واضحاً في فكره، يُحَقِق هذا الهدف، أما إذا ذهب إلى بلدٍ أجنبي ودُهِش، فأمضى يوماً في مسرح، ويوماً في سينما، ويوماً في ملهى، ويوماً في متحف، ويوماً يقرأ قصة، ويوماً في مُتَنَزّه، مضى العام الدراسي ولم ينتسب للجامعة، فقد أخفق إخفاقاً كبيراً جداً، لأنه ما عرف سر وجوده هناك، لو عرف سر وجوده لما فعل هذا.

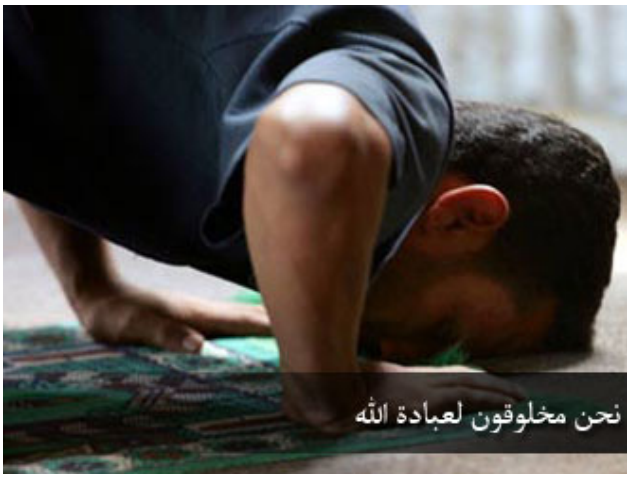

خُلِق الإنسان للجنة ولكن هذه الجنة لا بدّ لها من ثمن:

أيها الأخوة الأكارم، كلامٌ دقيق، أكبر سؤال يجب أن تسأله لنفسك: لماذا أنا هنا على وجه الأرض ؟ متى تعرف الحقيقة ناصعةً ؟ حينما يأتي ملك الموت:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً (100))

(سورة المؤمنون)

أعظم شيء في هذه الدنيا أن تعمل صالحاً، لأن عملك الصالح طريقُك إلى الجنة، العمل الصالح ثمن الجنة، أنت في الأصل مخلوقٌ للجنة، أنت في الأصل مخلوقٌ لجنةٍ إلى أبد الآبدين فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، حينما خُلقت خُلِقتَ للجنة.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (119))

(سورة هود)

خلقك ليرحمك، خلقك ليُسْعدك، ولكن هذه السعادة الأبدية المتنامية لا بدّ لها من ثمن، والدليل: اجلس مع إنسان حَصّل دكتوراه فَخْرية، زار بلداً وأقيم له احتفال ومنح هذه الدكتوراه الفخرية، بالمقابل اجلس مع إنسان حصل دكتوراه حقيقية، درس ثلاثاً وثلاثين سنة، وألّف أطروحة، ونجح نجاحاً باهراً، تجد فرقاً كبيراً بين مَن بذل هذا الجهد ونال هذه المرتبة، وبين من أخذها بلا سبب وبلا جُهد.

عندما حمل الإنسان الأمانة سُخِّرَت له الأكوان:

من أجل أن تسعد في الآخرة سعادةً متنامية إلى أبد الآبدين، من أجل أن تحتل أعلى مرتبةٍ نالها مخلوق، من أجل أن تصل إلى أعلى مرتبة، لأن:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72))

(سورة الأحزاب)

لمّا حملها الإنسان سُخِّرَت له الأكوان، مُنح عقلاً هو أعظم آلةٍ في الكون، مُنِحَ فطرةً سليمة تدلُّه على خطئه، منح كوناً مسخَّراً له تسخير تعريفٍ وتسخير تكريم، مُنح شهوةً تحرّكه إلى الله عزّ وجل يرقى بها مرّتين، يرقى بها صابراً ويرقى بها شاكراً، منح حرية اختيار ليُثَمِّنَ عملُه، ليأتي ربه طائعاً لا مُكْرهاً، الإنسان مُخَيَّر فيه شهوات هي سلمٌ يرقى به، فيه عقل أداة معرفة الله وهو القوة الإدراكية الأولى.

أطلعني أخٌ على جهاز حاسوب بحجم الكف، بإمكانه أن يُرسل أي رسالة عَبْرَ الفاكس وأن يتصل بالإنترنت، وفيه كل البرامج الضخمة، بحجم الكف، ماذا فعل هذا العقل البشري ؟ وصل إلى القمر، وإلى المريخ، وإلى المشتري، غاص إلى أعماق البحار، نقل الصورة ملونةً عَبْرَ القارّات الخمس، أنجز إنجازاً مُذهلاً، لو بذل الإنسان من هذا الجهد واحداً بالمليون لوصل إلى الله فسعد بقربه، حقق العقل البشري الآن إنجازات ضخمة لكِنَّه مع الأسف الشديد لم يُستخدم لما خُلِقَ له، استُخدم للدنيا فأنتج الأعاجيب، ولو أنه استُخدم للآخرة لكان سبب سعادة الأمم والشعوب.

مفهوم العبادة :

أيها الأخوة الكرام، يجب أن تعلموا علم اليقين أن علّة وجودكم على وجه الأرض أن تعبدوا الله، وللناس مفاهيم ساذجةٌ في العبادة، أي نطيعه.

(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

فعلاً أطيعوا ربكم، لكن أطيعوا ربكم طاعةً طوعية وليست قسرية، حينما تطيع الله مقهوراً هذه ليست عبادة، أنت حينما تطيع إنساناً قوياً هل تُعَدُّ عابداً له ؟ قد تكرهه، لكن العبادة التي أرادها الله هي الطاعة الطوْعية الممزوجة بالمحبة القلبية، المبنية على معرفةٍ يقينية، التي تُفضي بك إلى سعادة أبدية، هذه هي العبادة، طاعةٌ

طوعية مبنيةٌ على معرفةٍ يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية. هذا المفهوم يدلّنا على أن في الإسلام كُلّيةً علمية، وكليةً سلوكية، وكليةً جمالية، لا بد في الكلية العِلمية من أن تطلب العلم، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه، أدنى مراتب الإيمان معرفة، أدنى مراتب الإيمان علم:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

(سورة محمد)

وقال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر)

وقال:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (11))

(سورة المجادلة)

أول مرحلة في عبادة الله أن تعرفه:

اعتمد الله جلّ جلاله قيمة العلم، فالعلم قيمةٌ مُرَجِّحةٌ بين الخلق، لذلك:

((الناس رجلان عالمٌ ومتعلِّم ولا خير فيما سواهما.))

[الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود]

رجلان، وليس أجر العالم بأكثر من أجر المتعلِّم.

((تواضعوا لمن تَعَلّمُون منه وتواضعوا لمن تُعَلِّمُون.))

[أبو الشيخ في الثواب عن أبي هريرة]

مشاركة، الحقيقة التعليم تعاون، تبادل خبرات:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (2))

(سورة المائدة: آية " 2")

العبادة معرفة، أول مرحلة في عبادة الله أن تعرفه وإلا من تعبد ؟ من تخافُ ؟ من تحبُ ؟ رحمة مَن ترجو ؟ عذابَ من تخشى ؟ أصل الدين أن تعرف الله، إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في تطبيق الأمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلّت من أمره، وهذا ما يفعله معظم الناس، يبحث عن فتوى مهما تكون ضعيفة يقبلها ويعتمد عليها ويقول: إن شاء الله بذمة من أفتى بذلك، علماً أنّك لو استخلصت فتوى من فم رسول الله سيد الخلق وحبيب الحق ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله، فهذا الذي يتعلّق بفتوى من بني البشر هناك خللٌ في عقله، لأن الله جلّ جلاله هو الذي سيحاسب:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

فالعبادة طلب علم.

من أساسيات الإيمان بالله أن تعرفه من خلال أسمائه الحُسنى:

المشكلة أيها الأخوة أنّ معظم الناس يطلبون العلم الشرعي إذا كان عندهم وقت فراغ، الأصل كَسْبُهم للمال، الأصل مصالحهم، الأصل أهواؤهم، يأتي إذا كان هناك درس قصير وممتع جداً، جلسة مريحة، يأتي ليزيد من مُتَع الدنيا، الأمر غير ذلك، طلب العلم حقٌ واجبٌ على كل مسلم:

((طلب العلم فريضة على كل مسلم.))

[ابن ماجه عن أنس]

كيف أن الهواء شرط لبقائنا، نموت فوراً من دون هواء، الهواء أساسيٌ في بقائنا، شرب الماء أساسيٌ في بقائنا، تناول الطعام والشراب أساسيٌ في بقائنا، الزواج أساسيٌ في بقاء النوع، كذلك العلم أساسيٌ في سلامتك وسعادتك، فإذا قلتُ لك: اعبد الله، أي أُطلب العلم من أجل أن تعرف من ينبغي أن تعبد، معظم الناس يعبدون بعضهم بعضاً، معظم الناس اتخذ إلهه هواه.

جلس عالم في أمريكا في حديقة إلى جانب إنسان أمريكي، وعندما تعرّف عليه، وعرف أنه من بلاد الشرق الأوسط، وأنّه مُسلم قال له: هل تحدثني عن دينك ؟ فهذا العالم بارعٌ في الحديث ويُتقن اللغة الأجنبية، حدّثه عن الإسلام، وعن عقيدة المسلمين، وعن أخلاق المسلمين، وعن عبادات المسلمين، وعما ينتظر المسلمَ من عطاءٍ أبدي، بعد أن انتهى من حديثه كله أخرج هذا الأمريكي من جيبه دولاراً، وقال: هذا إلهي أعبده من دون إلهك.

هم هكذا، يعبدون الدرهم والدينار، بل إنّهم، وهذا شيءٌ غريب اقتبسوا من الإسلام حقائق تنفعُهم في حياتهم الدنيا، فإذا ذهبت إلى بلدٍ غربي ترى أن إيجابيّات هذا البلد إسلامية، لكن لا حباً بالله، ولا طاعةً له، ولكن حباً بالدرهم والدينار.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

أي اطلب العلم من أجل أن تعرف من ينبغي أن تعبد، لماذا تعبد الله ؟ لماذا ترجوه وحده ؟ لماذا تخافه وحده ؟ لماذا تعلِّق الأمل على رضاه وحده ؟ لماذا تُفني شبابك في سبيله ؟ لماذا تنفق مالك من أجله ؟ لماذا تُعادي من تعادي في سبيل الله وتصالح من تصالح في سبيل الله؟ ينبغي أن تعرف من هو الله ؟ لذلك جزءٌ من معرفة الله أن تعرف أسماءَهُ الحسنى ؛ كيف أن الله رحيم ؟ كيف أنه حكيم ؟ عليم، قدير، سميع، رؤوف،

لطيف، قوي، جبَّار، مُهَيْمِن، منتقم، رافع خافض، مُعِزٌ مُذِلّ، ضار نافع، جزءٌ أساسيٌ من إيمانك أن تعرف الله من خلال أسمائه الحُسنى، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

يتوهَّم الناس أنها كلمة "اعبد ربك"، لا ليست كذلك، العبادة طاعةٌ طوعيةٌ مع محبةٍ قلبية أساسها معرفةٌ يقينية.

لا هدف يعلو على طلب العلم ولا شغل يفوق أن تشتغل بمعرفة الله عزّ وجل :

كم من الوقت بذلت لمعرفة الله ؟ اِسأل إنساناً يحمل دكتوراه يدرس ثلاثاً وثلاثين سنة من أجل أن يضع على بطاقته حرف الدال قبل اسمه، وربما لا يستفيد من هذه المدةِ التي قضاها في الدراسة، مستحيل، مستحيل أن يستفيد إنسان من الدكتوراه بسنواتٍ توازي سنوات الدراسة، أقل بكثير، سنوات معدودات بعدها، أفمن أجل أن تنال درجة في الدنيا تبذل هذه الدراسة الطويلة، ومن أجل أن تعرف الله، وأن تعرف هذا المصير الأبدي ألا تحتاج إلى طلب العلم ؟ هذا الذي يقول لك: ليس عندي وقت فراغ لأحضر مجلس علم هذا إنسان جاهل، كما لو أن إنساناً ذهب إلى بلدٍ أجنبي، لينال دكتوراه وقد وعِد بأعلى منصبٍ في بلده حينما يعود ـ مثلاً وُعِد بأفخر بيتٍ، وبأجمل زوجةٍ ـ يأتي وقت الدوام في الجامعة، وليس له عمل إطلاقاً في هذا البلد إلا نيل هذه الشهادة، يقول: والله لا يوجد عندي فراغ لأحضر المحاضرات شيء عجيب !! إذاً عندك فراغ لماذا ؟ إذا كان الهدف الأول من هذا السفر الطويل، وهذه المشقَّة، أن تنال هذه الشهادة من هذه الجامعة، وحينما حان وقت الدوام تقول: ليس عندي وقت ؟! لا هدف يعلو على طلب العلم، ولا شغل يفوق أن تشتغل بمعرفة الله عزّ وجل.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

أي اعرفوه، تفكَّر في خلق السماوات والأرض، هل تصدق أن في أنفك عشرين مليون نهاية عصبية، في كل نهايةٍ عصبية سبع أهداب، كل هُدْبٍ محاطٌ بمادةٍ مخاطية تتفاعل مع الرائحة، ينتج عن هذا التفاعل شكلٌ هندسي، كرة، موشور، أسطوانة، مفتاح، ينقل هذا الشكل الهندسي إلى الدماغ إلى الذاكرة الشَمِّية التي تحوي ملفاً فيه عشرة آلاف بند، يعرض هذا الشكل الهندسي الذي هو مُحَصِّلة تفاعل الرائحة مع الأهداب على عشرة آلاف بند، توافق مثلاً مع البند خمسمئة وأحد عشر، إذاً ياسمين، في لمح البصر.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ (64))

(سورة غافر)

آيات دالة على عظمة الله عزّ وجل :

هناك آيات في جسمك، والله لا تكفي سنوات وسنوات لشرحها، في جسمك الذي هو أقرب شيء إليك، هو أقرب آيةٍ دالةٍ على عظمة الله عزّ وجل، شعرُك ثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرةٍ عضلة، وعصبٌ محرك، وغدةٌ دهنيةٌ، وغدة صبغيةٌ، ووريدٌ وشريان في كل شعرة، هناك مئة وثلاثين مليون عُصَيّة ومخروط في شبكية العين، عصب العين تسعمئة ألف عصب، تفرز المعدة خمسة وثلاثين مليون عصارة هاضمة، تحوي الكلية مليون نفروناً، يسير الدم في الكليتين في اليوم الواحد مسافة مئة كيلو متر ليتصفّى، يضخ قلبك في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعبة، قد تستهلك في العام كلِه متراً مكعباً من الوقود السائل، وقلبك يضخ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعبة، ويضخ في عمرٍ متوسط ما يملأ أكبر ناطحة سحابٍ في العالم، ينبض القلب ليلاً نهاراً وأنت نائم لا يمل ولا يَكَل.

أيها الأخوة الكرام حينما يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

أي اعرفوه أولاً، ولا شيء يعلو على معرفة الله، والله أيها الأخوة لو عرفنا ما نحن قادمون عليه في الدار الآخرة لشُغِلنا عن كل شيء بمعرفة الله، لشُغلنا عن كل شيء، و لأمضينا الوقت كله في معرفته وطاعته، لأن هذه السنوات المعدودة التي نمضيها ستحدد مصيرنا الأبدي، لاحظ مثلاً الطلاب، ينجح الطالب من الصف السابع إلى الثامن كل الصف ناجح، سواء أكان في المرتبة الأولى أو الأخيرة، من السابع إلى الثامن، ثامن تاسع، تاسع عاشر، التاسع مصيري، إما تعليم عام وإما مهني، إذا لم يحصل على مئة وثمانين علامة فليس له مكان في التعليم العام، دخل تعليماً عامّاً: عاشر، حادي عشر، ثاني عشر، الآن ستحدد علاماته مهنته، حصل على علامات طب صار طبيباً، حصل على علامات مهندس، حصل على علامات صيدلي، أتى بعلامات شريعة، أتى بعلامات حقوق، أتى بعلامات علوم، رياضيات ـ مثال للتقريب ـ فعلاماته في هذه الشهادة مصيرية، وهي ستحدد مصيره في الحياة، تحدد حرفته، مكانته الاجتماعية، وأنت في هذه السنوات المعدودات سوف يتحدد مصيرك الأبدي، إلى أبد الآبدين:

((والذي نفسي بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.))

[أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي وفيه انقطاع]

إما جنةٌ يدوم نعيمها وإما نارٌ لا ينفد عذابها.

الآيات الكونية في القرآن منهج للتفكّر:

حينما يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

تعرفوا إليه، تعرف إليه من خلقه، في القرآن الكريم ألفٌ وثلاثمئةٍ واثنتان وعشرون آية كونية، ما الهدف منها ؟ لماذا جعل الله سُدُس القرآن آيات كونية ؟ للتسلية ؟! للقراءة ؟! أم لنتعرف على الله من خلالها ؟ جعل الله هذه الآيات منهجاً للتفكّر،

لما قال الله عزّ وجل:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

(سورة الحجر)

لو أن الله كلّفنا أن نُخَزّن المياه التي نستعملها طوال العام، يحتاج كل منا إلى مستودع يساوي حجم بيته تماماً، مثلاً لو كانت مساحة بيته مئة وخمسين متراً مضروبة بثلاثة أمتار، أربعمئة وخمسين متر مكعب، تحتاج الأسرة في السنة كلها أربعمئة وخمسين متراً مكعباً، نريد ضعف أبنية العالم، قال الله عزّ وجل:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

تجد نهراً كالأمازون كثافته في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف متر مكعب، هذه دمشق الشام فيها خمسة ملايين ونصف إنسان، ويوجد قول: ستة ونصف في النهار، تشرب كلّها من نبع الفيجة، كثافته ستة عشر متراً مكعباً في الثانية:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

مياه هذا النبع مُخَزّنة في هذا الجوف الجيولوجي الذي يمتد إلى حمص، ونصف لبنان فوق هذا الجيب الجيولوجي، يمتد هذا الجيب قريباً من تَدْمُر، هذا هو الحقل أو المستودع الجيولوجي لهذا النبع:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

معرفة الله تعالى توصلنا إلى طاعته :

عندما يشرب الإنسان ماء القوارير يفاجأ أنه يحوي ثلاثة عشر معدناً فيه، مغنيزيوم وصوديوم وغير ذلك، ماء معدني، مياه الآبار مياه معدنية، هل فكّرت في هذا الماء ؟ هل فكّرت في هذا الهواء المتوازن؟ نحن نستهلك الأوكسجين دائماً، جعل الله النبات يستهلك عكسنا يستهلك النبات غاز الفحم ويعطي الأوكسجين، هذا التوازن رائع ودائماً يجعل نسب الأوكسجين ثابتة في الهواء الخارجي، من فعل هذا ؟! ألف آيةٍ وآية، أينما تحرّكت، أينما نظرت ؛ في طعامك، في شرابك، في ابنك، في النبات، في الطير، في السمك، في الجبل، في السهل، في البحر.

وفي كل شيءٍ له آية تدلُّ على أنّه واحدُ

***

وقال:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

أي تعّرفوا إليه من أجل أن تطيعوه، لأن العبادة طاعةٌ طوعية تسبقها معرفةٌ يقينية تُفضي إلى سعادةٍ أبدية.

فضل طلب العلم:

أيها الأخوة الكرام:

((طلب العلم فريضة على كل مسلم.))

[ابن ماجه عن أنس]

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتَهُما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كُلّك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظلُّ المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظنّ أنّه قد علِم فقد جهل، العلِم، ثم العلِم، ثم العلم:

((فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد)).

[أخرجه النسائي وابن ماجة عن ابن عباس]

((أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك.))

[رواه البيهقي وابن عبد البر عن أبي بكرة]

هذه الكُلِّية الأولى، لا بدّ من أن تزداد كلَّ يومٍ علماً بالله عزّ وجل، ورد في بعض الأدعية أن **" لا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً."**

المساجد مفتَّحةٌ أبوابُها، مفتَّحةٌ على مصراعيها من أجل طلب العلم، لا بدّ لك من درسٍ أسبوعي، لا بدّ لك من أن تفهم كلام الله، لا بدّ لك من أن تعرف سنة رسول الله، لا بدّ لك من أن تعرف سيرة رسول الله، لا بدّ لك من أن تعرف أحكام الفِقْه، لا بدّ لك من أن تعرف أسلوب الرُقي الرُوحي، هذا كلُّه تأخذه في المسجد، لذلك:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

يعني اعرفوا ربَّكم لأن العبادة طاعةٌ طوعية ممزوجةٌ بمحبةٍ قلبية أساسها معرفةٌ يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية.

الإسلام سلوك:

الآن السلوك، البند الثاني في العبادة هو السلوك، إسلام بشكل انتماء فقط لا معنى له، إسلام فولكلوري ومظاهر لا معنى له، إسلام تعاطف لا معنى له، خلفية إسلامية ـ هذه مصطلحات جديدة ـ وأرضية إسلامية، ونزعة إسلامية، واتجاه مُحافظ، وثقافة إسلامية، ومشاعر إسلامية، هذا كلُّه لا يُجدي، لا بدّ من أن تضبط كل شيء وفق منهج الله، لا بدّ من أن تضبط دخلك، هذا القرش من أين اكتسبته ؟ وكيف أنفقته ؟ هذا البيت الذي هو بيتك هل أقمت الإسلام فيه ؟ هذا العمل الذي هو عملك هل كنت صادقاً فيه؟ هل نفعت المسلمين ؟

المؤسف أيها الأخوة أن بعض الناس يتوهَّمون أن الإسلام هو هذه العبادات أي صلاة وصيام وحج وزكاة وانتهى الأمر، أما حياته فهي حياة أخرى لا علاقة لها بالإسلام إطلاقاً، أنا أكاد أقول: الإسلام مئة ألف بند، الصلاة هي واحد من هذه البنود، والصيام، والحج، والزكاة هذه خمسة من مئة ألف تقريباً، كل شيءٍ له حكمٌ شرعي ؛ إما أنه فرض، أو أنَّه واجب، أو أنه مندوب، أو أنَّه سُنَّة مؤكَّدة، أو سُنَّة غير مؤكَّدة، أو مُباح، أو مكروه كراهة تنزيهية أو كراهة تحريمية، أو حرام، أي شيءٍ على وجه الأرض لا بد من أن تَعْتَرِيَهُ هذه الأحكام الخمسة.

يا أيها الأخوة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا (72))

(سورة الأنفال)

يجب أن ترى الإسلام صارخاً في حياة المؤمن، أن ترى الإسلام في مواعيده، أن ترى الإسلام في عمله، في صدقه، في أمانته، في إخلاصه، في محبّته، في رحمته، في إنصافه، في إحسانه، الإسلام سلوك، أي أن المؤمن الصادق يُشار له بالبنان، يعني أنشأ بناء ولسببٍ أو لآخر لم يتَمَكّن من إفراغ المُلْكِيّة لأصحابها، ظنّ الذين اشتروا منه هذا البناء أنه يتلكّأ ليأخذ من أموالهم، عرضوا عليه مبلغاً ضخماً فقال: لا أنا بعتكم وقبضت ثمن ما بعتكم به ، وربحت عليكم، ولا شيء لي عندكم، فلما أُتيح له أفرغ كل البناء لأصحابه، هذا الإسلام.

البند الثاني في العبادة الانضباط السلوكي:

الإسلام عفة عن المحارم، الإسلام عفة عن المطامع، الإسلام صدق، الإسلام أمانة، الإسلام عفاف، الإسلام كرم، الإسلام شجاعة، الإسلام تواضع، الإسلام علم، الإسلام سخاء. المؤمن إسلامه صارخ، أما أن يتميّز المسلم عن غير المسلم بالصلاة فقط هذا شيء مضحك، الصلاة عبادة من العبادات أما الإسلام منظومة قِيَم، إذاً البند الثاني في العبادة: الانضباط السلوكي ؛ ضبط الجوارح، ضبط اللسان، ضبط العين، ضبط الأذن، ضبط اليد، ضبط الرجل، ضبط الكَسْب، ضبط الإنفاق، ضبط البنات، ضبط الشباب، ضبط الزوجة، الإسلام منظومة قيَم، هذا الذي يتوهّم أن الإسلامَ صلاةٌ وصيامٌ شيء مضحك.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

اعرفوه أولاً، وأطيعوه ثانياً، واتصلوا به ثالثاً، هذا الجانب الجمالي في العبادة، فأرجو الله سبحانه وتعالى أن أوضّح لكم هذه الحقيقة، إن لم تقل: أنا أسعد الناس فلَسْتَ مؤمناً، أنت موصول بالله فهل تشقى ؟!! لك اتصالٌ بخالق الكون، لك اتصالٌ بأصل الجمال، لك اتصالٌ بأصل الكمال، لك اتصالٌ بأصل النوال، بالأصول، الذي يُعْطي وحده هو الله، والجميل وحده هو الله، والكامل وحده هو الله، أن تتصل بالله فتقول: أنا غير سعيد، فهذه مشكلة !!

أيها الأخوة الكرام:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ (36))

(سورة العنكبوت)

عبادة الله من أجل اليوم الآخر، من أجل أن نصل إلى دار السلام بسلام، من أجل الجنّة، من أجل السعادة الأبدية، لا ترى العبادة عبئاً عليك، ثمن قليل لخيرٍ كثير.

بعض الآيات القرآنية عن العبادة:

قال تعالى:

(اعْبُدُوا اللّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36))

وقال:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23))

(سورة المؤمنون)

أي لا خيار، لا يوجد إلهٌ ثانٍ، الله عزّ وجل لا يخَيّرك أن اعبدني أو اعبد فلاناً:

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (23))

(سورة المؤمنون)

لا إله إلا الله، فإن لم تعبده فأنت مع من ؟ مع لا شيء.

(وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ (72))

(سورة المائدة)

وجوب عبادة الله من لحظة معرفة الإنسان به وحتّى الموت:

إن لم تعبد الله فما النتيجة ؟ الجنة محرمةٌ على المُشرك ومأواه النار:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36))

(سورة العنكبوت)

وقال:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99))

(سورة الحجر)

يجب أن تعبد الله من لحظة معرفتك به وحتّى الموت:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11))

(سورة الحج)

يجب أن تعبده في الأعماق ولا يهزّك أقل شيء، هناك أشخاص تهزهم كلمة، كلمة تجعله يدع الجامع كلّه لأجل خلاف بسيط مع أخ فهل يعقل هذا ؟!! دخلت كلية الطب ومصيرك طبيب تركت

هذه الكلية لخلافٍ بسيط مع صديق أو مع أستاذ ؟ لا يفعلها عاقل في الدنيا فكيف في الآخرة ؟ أساء لك أخ، تكلّم معك كلمة نابية، تضحي بدينك ؟! تضحي بآخرتك ؟! مستحيل.

على المؤمن أن يعتزل من يعبد غير الله:

هذا الذي يعبد الله على حرف مقاومته هشةٌ جداً لأن علمه هزيل، إرادته ضعيفة، مقاومته هَشّة، يعبد الله على حرف، أما الناس إذا عَبَدوا بعضهم بعضاً، وعبدوا أهواءهم، وعبدوا من دون الله جِهاتٍ لا تملك لهم من الله شيئاً هؤلاء يجب أن يُعتَزَلوا، قال تعالى:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (16))

(سورة الكهف)

يجب أن تعتزلهم إلى أن يعبدوا الله عزّ وجل:

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133))

(سورة البقرة)

أما الذين يعبدون من دون الله، قال:

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ (40))

(سورة يوسف)

أي تعبدون أشخاصاً، أشخاصاً ضِعافاً، أنت تحيطهم بهالةٍ كبيرة، فمن قال: إنّ بوذا إله، من قال ؟ له تمثال كبير توضع الفواكه له قيل: ليأكلها في الليل (يأكلها السَدَنة)، لأنه حجر لا يأكل شيئاً، تعيش شعوب بأكملها في خرافاتٍ مضحكة.

آيات من القرآن الكريم عن أشخاص أشركوا مع الله آلهة أخرى :

قال تعالى:

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ (40))

(سورة يوسف)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ (17))

(سورة العنكبوت)

وقال:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42))

(سورة مريم)

وقال:

(يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً (43))

(سورة مريم)

العبادة ثمن الجنة وهي الهدف من هذه الحياة:

أيها الأخوة الكرام، قضية العبادة قضيةٌ خطيرةٌ جداً هي هَويَّتك، هي سر وجودك، هي هدفك من هذه الحياة، العبادة ثمن الجنة، العبادة ثمن السلامة، العبادة ثمن السعادة، العبادة ثمن التقوى.

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية أوّل آية بعد أن وصف الله المؤمنين والمنافقين والكفار:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

وهذه الآيةُ إن شاء الله تُفَسَّرُ في الدرس القادم، والله المستعان.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (10- 95):تفسير الآيتان 21-22، العبادة ، الأرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-08-28

بسم الله الرحمن الرحيم

الخالق عز وجل هو وحده يستحق العبادة:

مع الآية الثانية والعشرين وهي قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

والآية التي قبلها:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21))

من الذي يستحق العبادة ؟ الذي خَلَقْ، الذي خلقك هو وحده يستحق العبادة، والذي أمدَّك بكل ما تحتاجه هو وحده يستحق العبادة، والذي أمْرُك بيده هو وحده يستحق العبادة، والذي مصيرك إليه هو وحده يستحق العبادة، خلقك، وأمدك، وجعل أمرك بيده، ومصيرك إليه هذا الذي ينبغي أن تعبده، بعض الناس يعبدون ما لا يملك لهم نفعاً، ولا ضراً، ولا رزقاً، ولا حياةً ولا نشوراً، وهذا هو الخطأ الجسيم، الحُمْقُ البالغ، والغباء الشديد أن تتجه إلى جهةٍ لا تملك لك نفعاً ولا ضراً، لا تملك لك، ولا تملك لذاتها نفعاً ولا ضراً، وكأن الطريق مسدود، هناك إحباطٌ شديد يصيب هؤلاء الذين عبدوا من دون الله، لأن كل جهةٍ دون الله عزَّ وجل ليس لها من الأمر شيء ولا تملك لك نفعاً، ولا ضراً، ولا رزقاً، ولا حياةً، ولا أمناً، ولا توفيقاً، ولا نصراً، ولا تطميناً، ولا تمكيناً، لا تملك لك شيئاً، ومع ذلك فالإنسان يعبد هذه الجهة ويَمْحَضُها حُبَّه وولاءه، وهو بهذا يمشي في طريقٍ مسدود، لذلك يقول الله عزَّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (48))

(سورة النساء)

يغفر الله ما يشاء إلا الشرك به:

كنت قد ضربت حول هذه الفكرة مثلاً أنه يمكن أن تتجه إلى مدينة، ولك فيها مبلغٌ كبيرٌ جداً، يُمكن أن ترتكب وأنت في الطريق إليها آلاف الأغلاط، لكنَّك تسير نحوها وستأخذ هذا المبلغ، أما الخطأ الذي لا يُغْتَفَر أن تتجه في طريقٍ معاكس لا تجد فيه شيئاً.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ (48))

(سورة النساء)

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي ـ الله رؤوف رحيم، رؤوف رحيم ـ لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

لا يليق بالإنسان أن يعبد غير الله وإلا فإنه يحتقر نفسه:

الذي خلقك، الذي أمَدَّك، الذي يُسَيِّرُك، الذي أمْرُكَ بيده، الذي إليه يُرْجَعُ الأمر كله، الذي مصيرك إليه، هذا وحده الذي ينبغي أن تعبده، ولا ينبغي أن تعبد سواه، ولا ينبغي أن تتجه إلى سواه، ولا ينبغي أن تكون محسوباً على غيره، يجب أن تكون محسوباً على الله وحده، لا يليق بك أن تكون لغير الله، إنَّك إذاً تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

(سورة البقرة)

أنت تحتقر نفسك حينما تتجه إلى غير الله، عبدٌ ضعيفُ مثلك، نقطة دم في دماغه تجعله مشلولاً، ونموٌ عشوائيٌ في بعض أنسجته يجعله مصاباً بمرضٍ خبيث يُسَلِّم الأمر لغيره، الإنسان ضعيفٌ جداً، فكيف تتجه إليه ؟ وكيف تعلّق الأمل عليه ؟ وهو لا يملك حياته !!

أيها الأخوة الكرام ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والدين كله توحيد.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

أقرب اسمٍ من أسماء الله تعالى إلى العبد اسم الرب، وأقرب شيءٍ إلى الطفل أمُّه، لأنها تربيه، تمدُّه بالحليب، تمده بالرعاية، تعطف عليه، ترعى شؤونه، تأخذ بيده، ترقى به، أقرب كائنٍ في حياة الطفل أمه، وأقرب اسمٍ من أسماء الله الحسنى إلى الإنسان ربُّ العالمين، فهو يربيه، إذا أودع الله في قلب الأب رحمةً فمن الله عزَّ وجل، إذا رأيت أباً يرحم ابنه هذه رحمة الله، إذا رأيت أماً تعطف على ابنها هذه رحمة الله.

كلُّ الخلائق يتراحمون بجزءٍ من رحمة الله:

تروى قصةٌ رمزية ـ لها معنى عميق ـ أن أحد الأنبياء رأى امرأةً تَخْبُزُ وابنها إلى جنبها، كلما وضعت رغيفاً في التنور ضَمَّت ابنها وقَبَّلته، فعجب هذا النبي من رحمة هذه الأم بولدها، فقال الله له:

هذه رحمتي يا عبدي، وسأنزعها، فلما نزع من قلبها الرحمة بكى طفلها فألقته في التنور.

إذا رأيت أماً تعطف على ابنها فهذه رحمة الله، إذا رأيت حيواناً يعطف على أولاده هذه رحمة الله، كلُّ الخلائق يتراحمون بجزءٍ من رحمة الله، بل إن الرحمة التي في قلبك تتناسب مع اتصالك بالله عزَّ وجل بالضبط، أشدُّ الخلق اتصالاً بالله هو رسول الله، إذاً هو أرحم الخلق بالخلق على الإطلاق. ذهب إلى الطائف، وكذَّبوه، وسخروا منه، وأغْرُوا صبيانهم بإيذائه، فلما جاءه جبريل وقال: يا محمد أمَرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لم ينتقم، مع أنهم بالغوا في الإساءة إليه، قال:

((لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً))

[متفق عليه عن عائشة]

يا أيها الأخوة الكرام، إليكم هذا القانون، وهو مستنبط من هذه الآية:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ (159))

(سورة آل عمران: آية " 159")

كنت ليِّناً معهم بسبب رحمةٍ استقرَّت في قلبك من خلال اتصالك بنا، فالتفوا حولك، وأحبّوك، وفدوك بأرواحهم وأولادهم ونسائهم، وكانوا معك في كل شيء إلى نهاية الطريق، قال أبو سفيان: " ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحابُ محمدٍ محمداً "، وهذا الذي يفقده المسلمون اليوم.

مظاهر الإسلام صارخة، ولكن الحب معدوم بين المسلمين، ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً.

العبادة غاية الخضوع:

أيها الأخوة الكرام، هل تصدِّقون أن امرأةً أنصارية تتفقَّد أقرباءها عقب معركة أحد، تذهب إلى ساحة المعركة فإذا زوجها شهيدٌ، ثم ترى أباها شهيداً، ثم ترى أخاها، ثم ترى ابنها، معقول ؟! زوجها، وأبوها، وأخوها، وابنها وتقول: ما فعل رسول الله ؟ فلما رأته بأم عينها، واطمأنت على سلامته قالت: يا رسول الله كل مصيبةٍ بعدك جلل، هكذا كان أصحاب النبي، هكذا كان حبُّهم لرسول الله، هكذا كانت تضحياتهم، بهذا وصلوا إلى المَشرِقين، بهذا مكَّنهم الله في الأرض، بهذا استخلفهم، بهذا بدَّل خوفهم أمناً، بهذا دانت لهم أنحاء الأرض.

جاءت رسالة إلى هارونَ الرشيد من إمبراطور الروم، تقول هذه الرسالة: إن الإمبراطورة التي سبقتني دفعت لك الجزية، وكان الأولى أن تأخذها منك، فَرُدَّ كل شيءٍ أخذْتَه منها وإلا بيني وبينك القتال، فأجابه: من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى كَلب الروم، الجواب ما تراه لا ما تسمعه، فغزاه، وقهره، وجعله يدفع الجزية ضِعْفَاً.

هكذا كان المسلمون يوم كانوا مع الله، كلمتهم هي النافذة، هي العُليا، ولكن حينما تركوا سُنَّة رسول الله اختلف الوضع:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

(سورة مريم)

أيها الأخوة الكرام، قضية عبادة الله عزَّ وجل أخطر موضوعٍ في حياة المؤمن، من تعبد ؟ العبادة غاية الخضوع، لمن تخضع ؟ هل تخضع لغير الله ؟ أقول لكم هذه الكلمة التي قلتها مراراً: حينما يطيع الإنسان مخلوقاً ـ كائناً من كان ـ ويعصي ربَّه، فهو لم يقل: الله أكبر، ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لماذا ؟ لأنه تصوَّر أن طاعة هذا المخلوق ـ القوي في نظره ـ أثمن عنده من طاعة الله، إذاً لم يقل: الله أكبر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، الذي يَغُشُّ المسلمين ما قال: الله أكبر، ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى أن هذا المال الذي يأخذُه من هذا الغش أثمن عنده من طاعة الله.

كلمة المسلمين ليست هي العليا لأنهم اعتزّوا بغير الله:

قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

(سورة مريم)

الذي لا يقيم الإسلام في بيته إرضاءً لزوجته ما قال: الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنَّه رأى إرضاء أهله وأولاده أثمن عنده من إرضاء الله عزَّ وجل، قضيةٌ مصيرية هو الجواب عن سؤالٍ كبير لماذا نحن كذلك ؟ لماذا يعد المسلمون خُمس العالم مليار ومئتي مليون، وليست كلمتهم هي العُليا ؟ ترتعد فرائصهم إذا حدث شيءٌ في العالم ونُسب إليهم، لأن الغضب سينصَبُّ عليهم، أهذه حياة؟!! لأنهم اعتزّوا بغير الله، لأنهم ما أرادوا عزاً عن طريق الدين، بل عن طريق شيءٍ آخر.

أيها الأخوة الكرام:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (21))

هو الذي خلقك، وهو الذي يربيك، يُمِدُّك بما تحتاج، وهو الذي يربِّي نفوسنا، ينقلها من حالٍ إلى حال، من طور إلى طور، هو الذي يراقب أعمالنا، يطَّلع على ما في سرائرنا، يحاسبنا على خواطرنا، هو الذي بيده كل شيء، وإليه مصير كل شيء.

الربَّاني الذي لا يشغل ساحتَه إلا اللهُ:

أيها الأخوة، ينبغي أن تعبد هذا الإله، ينبغي أن تنتمي إليه، ينبغي أن يكون ولاؤك لـه، حُبُّك له، إخلاصك له، شبابك له، حياتك كلها له، مالك له، ذكاؤك له، طلاقة لسانك له، خبرتك له، علمك له:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162))

(سورة الأنعام)

هذا هو الربَّاني:

(وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِينَ (79))

(سورة آل عمران)

الربَّاني الذي لا يشغل ساحتَه إلا اللهُ، لا يعمل إلا لله، لا يرضي غير الله، لا يخاف إلا من الله، لا يسعى إلا لطاعة الله، لا يهاب أحداً إلا الله، هذا هو التوحيد، ائتني باثنَي عشر ألف موحّد ولن يُغلبوا في الأرض، ورد في الحديث الصحيح:

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

(لن تغلب) تفيد تأبيد النفي:

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

إن لم يصلح المجتمع كُلُّه فعليك بإصلاح نفسك، إن لم يصطلح الناس مع ربهم اصطلح أنت مع الله، إن لم يُقِم الناس الإسلام في بيوتهم فأقم أنت الإسلام في بيتك، أقم الإسلام في عملك، كن مع الله ولا تُبال.

أسماء الجلال وأسماء الجمال:

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية الأساسية:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21))

قضيةٌ ثابتة، من يستطيع أن يدَّعي أنه خلق الناس ؟ من يستطيع أن يدَّعي أنه خلق الأرض ؟ أنه أنزل الماء من السماء ؟ شيءٌ بديهي حتى إن الكُفر يعني الإيمان ! كيف ؟ كفر: غطَّى، غطَّى

شيئاً، ما هذا الذي تغطيه ؟ هو الإيمان، الكافر يقول: مصرف إسلامي، المعنى أن المصارف الأخرى غير إسلامية.

أيها الأخوة الكرام:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21))

لعلكم تتقون أسماء جلاله بأسماء جماله، أسماء جلاله: قَهَّار..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

الله منتقم، هذه أسماء الجلال، كيف تتقيها ؟ بطاعته، فإذا أطعته نِلتَ أسماء الجمال ؛ هو الرحيم، هو اللطيف، هو المعطي، هو المُعِزّ، هو الرافع، هو العَدل، تتقي أسماء جلاله بأسماء جماله.

عناصر الأرض متنوِّعة لحكمةٍ بالغةٍ أرادها الله:

أيها الأخوة الكرام، شرحَت هذه الآية في الدرس الماضي، بعدها:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

الحقيقة الفِراش مُريح، ما كان الفراش فراشاً إلا لترتاح عليه، ليِّن، مُريح، نظيف، يتناسب مع جسمك، يتفاعل مع خطوط جسمك، ترتاح عليه، قدَّم الله لك نموذجاً لشيءٍ قريبٍ منك، فالإنسان وهو نائم أقرب شيءٍ إليه فراشه، ما سُمي فراشاً إلا لأنه مريح، جعل الله جلَّ جلاله لك الأرض فراشاً، أي جعلها مستوية، فلو جعلها متعرِّجة ؟!! قد تشتري أرضاً في سفح جبل تنفق عليها مئات الألوف لتجعلها مصاطب، شيء متعب، جعل لك الأرض فراشاً، جعلها مستوية، ماذا تفعل بها لو جعلها صخرية ؟ جعلها تربة تنبت لك الزرع، جعلك مستقراً عليها عن طريق الجاذبية، جعلها لك فراشاً، أودع فيها الماء، أودع فيها المعادن، أودع فيها أشباه المعادن.

عناصر الأرض متنوِّعة لحكمةٍ بالغةٍ أرادها الله، جعل لكل عنصر درجة انصهار خاصة، ولو أن كل العناصر لها درجة انصهار واحدة لوجدت الأرض كلها صلبة، أو سائلة، أو غازاً، تجد شيئاً صُلباً، الحديد قاسٍ، الصخر قاسٍ، الرخام قاسٍ، المعادن قاسية، قاسية ومتينة، تجد بالمقابل بعض الأجسام الليِّنة، الكاوتشوك، الفَلّين، بعض النباتات، الصوف، القطن. هناك أشياء سائلة، و أشياء غازية، هذا التنوُّع بين الصلب، واللَّزج، والمَرن، والسائل، والغاز لتكون الأرض فراشاً، تحتاج إلى هواء تستنشقه؛ غاز، تحتاج إلى ماء تشربه سائل، تحتاج إلى فراش تنام عليه ليِّن، تحتاج إلى معدن قاسٍ تصنع منه المركبة والمحراث كالحديد، جعلها الله فراشاً، جعلها تنبت.

الله تعالى جعل الأرض فراشاً فيها استقرارك واستمرار حياتك:

جعلها فراشاً بمعنى أنه جعل فيها أسباب استقرارك عليها واستمرار حياتك فيها، لو سكنت في بيت لا ماء فيه تخرج منه، لو سكنت في بيت ليس فيه تدفئة في الشتاء تخرج منه، لو سكنت في بيت لا يوجد فيه تكييف في الصيف تخرج منه، لو سكنت في بيت لا يوجد فيه فراش، كيف تنام على الأرض؟

هذا البيت لماذا تستقر فيه ؟ فيه ماء، فيه هواء، فيه طعام، هناك ثلاجة، غرفة ضيوف، غرفة جلوس، هناك حمام، ومطبخ، وغرفة للأولاد، هذه الغرف، وهذا الفَرْش، وهذه الأدوات كلها وسائل الاستقرار والاستمرار في هذا البيت، وكذلك الأرض جعل الله أسباب استقرارك واستمرارك فيها، إذاً هي كالفراش. تحتاج إلى معدن تصنع منه طائرة يجب أن يكون خفيفاً جداً ومتيناً جداً ؛ الألمنيوم، هو معدن يتميَّز عن غيره، لو أن الطائرة من حديد لكانت كُلفة طيرانها عشرة أضعاف، لكن معدن الطائرة متين وخفيف في وقتٍ واحد، تحتاج إلى معدن يَنْصَهر بدرجة مئة، كيف تعامل الحديد مع الحجر ؟ عندَّك دُكَّان ولها باب، تريد أن تضع القفل على الحجر، ينصهر معدن الرصاص في درجة مئة، هذا المعدن له خاصة ينفرد بها أنه حينما يبرد يزداد حجمه، فيكفي أن تحفر الحجر على شكل إجاصة، وأن تضع الحديد في الحجر، وأن تسكب الرصاص، فحينما يبرد يتمدد، وعندئذٍ توجد قوة تنزع الحديد من الحجر. من خلق هذا المعدن خصيصاً لهذا الاستعمال ؟ الله جلَّ جلاله، تحتاج إلى معدن يكون قِيَماً للأشياء جعل الذهب والفضة، هذا المعدن مهمته أن يكون قيماً للأشياء يصنع منه النقد، تحتاج إلى معدن ينقل الحرارة ؛ النحاس، أسلاك الكهرباء من النحاس، أواني المطبخ من النحاس، تحتاج إلى معدن ليِّن ؛ قصدير، معدن قاسٍ، معدن متين، معدن مقاوم، معدن لا يصدأ، رأيت صورةً لسبائك ذهبية استخرجت من البحر حيث غرقت قبل مئة عام، غرقت سفينة بين أمريكا وأوربا وفيها خمسة أطنان من الذهب على شكل سبائك، بحث عنها ووجدت، استخرجت والله كأن هذا الذهب سُبْكَ من يومه، مئة عام في أعماق البحر لم يتأثر إطلاقاً، خلق لك هذا المعدن خصيصاً ليكون نقداً.

هناك حيوانات خُلِقت مذللة خصيصاً للإنسان:

الألمنيوم له فائدة، والرصاص له فائدة، والنحاس له فائدة، والحديث عن المعادن يطول، وكل معدن له خصائص، وإذا دَمَجْتَ معدنين جاءت خصائص جديدة ليست في أحد المعدنين، علم المعادن علمٌ عميقٌ وطويلٌ وفيه أسرار كبيرة جداً، من الذي خلق هذه المعادن ؟ المعدن الأساسي الذي هو قوام حياتنا ؛ الحديد:

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (25))

(سورة الحديد: آية " 25")

ما من شيءٍ تراه عينك إلا والحديد أحد أسباب وجوده، كل الأدوات من الحديد، فهذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

هناك أسماك تأكلها، وأطيار، وحيوانات، حيوانات خُلِقَت مذللة خصيصاً لك.

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (72))

(سورة يس: آية " 72 ")

البقرة مذلَّلة، أما إذا جنَّت لا تُبقي ولا تذر، يضطر صاحبها أن يطلق عليها الرصاص، خلقت بالأصل مذللة، أما إذا أصابها مرض الجنون يطلق عليها صاحبها الرصاص بعد أن دفع ثمنها مئة ألف، لأنها تصبح مجرمةً، من ذللها ؟ يوجد خروف ويوجد ضبع، من رَكَّب في الخروف هذه الطباع الليِّنة، لا تخاف منه، لا تتهيَّبه أبداً، ينساق لك، حتى إلى الذبح ينساق لك، بينما الضبع تحسب له ألف حسابٍ وحساب.

آيات دالة على عظمة الله:

الحيوان الذي تأكل منه مذلل، والماء الذي تشربه مذلل، من جعل هذا الماء عذباً فراتاً بعد أن كان مِلحاً أجاجاً ؟ شيء لا يصدق، من أجل أن يتبخَّر ماء البحر فيصبح سحاباً وينقلب إلى أمطار، وتكون هذه الأمطار في أعماق الأرض، جُعِلت هذه المسطَّحات المائية الواسعة جداً، فأربعة أخماس اليابسة بحر، يتبخَّر هذا البحر ليشكِّل سحاباً، ليصبح أمطاراً ليستقر في باطن الأرض، من أودع في هذه الأرض الينابيع ؟ في بعض البلاد أربعة آلاف جزيرة، وفي كل جزيرةٍ نبعٌ يتناسب مع مساحتها، وتأخذ كل هذه الجُزُر المياه من جبالٍ في آسيا، إذاً هناك تمديدات من أعماق الجبال إلى هذه الجزر، هذا صُنْعُ الله عزَّ وجل.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

الأرض فيها هواء، والهواء متوازن، لو أن الهواء على شكلٍ آخر، لو أن نِسَب الأوكسجين في الهواء عالية لاحترق كل شيء، ولو أن نسب غاز الفحم عالية لما اشتعلت النار إطلاقاً، ولو أن النبات يتنفَّس الأوكسجين مثلنا ويعطي غاز الفحم لانتهى الأوكسجين من آلاف السنين، ما هذا التوازن الرائع ؟ يأخذ النبات غاز الفحم ويعطي الأوكسجين، ويأخذ الإنسان الأوكسجين ويعطي غاز الفحم .

خصائص الماء: لا لون له، لا رائحة، لا طعم، يتبخَّر بدرجة أربعة عشر، سريع النفوذ، هذا الماء لا يقبل الضغط، لو وضعت متراً مكعباً من الماء وفوقه ثمانمائة طن لا تنضغط ولا ميلي، أما

حينما يتمدد لا يقف أمامه شيء، يُصَدِّع الفولاذ. إذا جَمَّدت الماء في الفولاذ تمدد الماء بعد التجَمد فيتصدع الفولاذ من تمدد الماء، الماء مصمم، الماء كأي عنصر إذا برَّدته ينكمش، ولكنه يتمدد عند الدرجة الحَرِجة (+4)، ولولا هذا التمدد لما كنا في هذا المسجد، ولا وجدت كائناً حياً على وجه الأرض، تمدد الماء في الدرجة (+4) سر الحياة على الأرض، فراش بهوائها، بمائها، بنسب البحار إلى اليابسة.

كل شيءٍ في الأرض خلقه الله تكريماً للإنسان:

اليابسة فيها مناطق خضراء، وفيها صحارى قاحلة، قد يقول قائل: لمَ هذه الصحارى ؟ لو أن الأرض كلها خضراء لما عشنا، هذه الصحارى الحارَّة تُشَكِّل حرارة تسَخِّن الهواء الذي فوقها، إذا سخن الهواء يتخلخل، فيقل ضغطه، وعندما ينكمش الهواء البارد يزداد ضغطه، من وجود ضغطين متفاوتين تمشي الرياح، أساس الرياح منطقتان ذواتا ضغطين متباينين، الهواء في القطب بارد منكمش ضغطه مرتفع، وفي خط الاستواء الهواء مخلخل ضغطه منخفض، تأتي الرياح من الشمال إلى الجنوب، والأرض تدور، تأتي الرياح إذاً من الشمال إلى الجنوب الشرقي، هذا مسير الرياح، ولبحث الرياح بحوثٌ طويلة.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

الله عزّ وجل فضلاً عن أنه هيَّأ لنا الأساسيَّات أعطانا الأشياء المُحَسِّنة، توجد أزهار فهناك بعض المُجَلَّدات ـ ثمانية عشر مجلداً ـ كل صفحةٍ في هذه المجلدات فيها رسم زهرةٍ، وكل هذه الصفحات في ثمانية عشر مجلداً هي أنواع الأزهار التي خلقها الله لهذا الإنسان، فالأزهار خُلِقَت تكريماً للإنسان، خُلِقت الروائح العطرية تكريماً للإنسان، خُلِقت التوابل تكريماً للإنسان، توجد أطعمة كثيرة، وتوجد نباتات كثيرة، وتوجد روائح كثيرة هدفها أن تقوم حياتك بها، هدفها أن تتنعم بها، وهذا يشير إلى اسم الودود:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16))

(سورة البروج)

هذا كلُّه من معنى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

الليل والنهار من الآيات الدالة على عظمة الخالق:

أيُّها الأخوة، الحقيقة الحديث عن أن الأرض فراش لا ينتهي، كل شيءٍ في الأرض مخصَّص للإنسان، بدءاً من حجم الأرض، لو كان حجم الأرض عشرة أضعاف لكان وزنك عشرة أضعاف،

لو حجمها العُشر لكان وزنك العُشر، لو لم تكن هناك جاذبية لكانت الحياة لا تُطاق لأن الله عزّ وجل يقول:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً (61))

(سورة النمل: آية " 61")

أنت مستقر عليها بفعل الجاذبية، وثمة شيء آخر: لو كان الليل مئة ساعة لما أُطيقت الحياة ؛ تنام وتستيقظ، وتنام وتستيقظ، طاقتك للنوم ثماني ساعات، والليل مئة ساعة، ناس يعملون في الليل، ولا أحد ينام، ضجيج وعمل، جعل ربنا عزّ وجل الليل اثنتي عشرة ساعة، والنهار اثنتي عشرة ساعة، ويختلفان من فصلٍ إلى فصل، حتى الليل والنهار مصمم للإنسان، وزن الإنسان مصمم، هذا التناسب مثلاً: هذا الحليب الذي تنتجه البقرة يتناسب تناسباً مذهلاً مع جسم الإنسان، وهو غذاءٌ كامل، لأن الذي خلق الإنسان هو الذي خلق البقرة، وخلق هذا الحليب خصيصاً له حيث إن وليد البقرة يحتاج إلى اثنين كيلو في اليوم، بينما تعطي البقرة أربعين كيلو.

هذا الخروف تنتفع من كل شيءٍ فيه ؛ من جلده، وصوفه، ولحمه، ودهنه، وشحمه، وأمعائه، وكل أعضائه، فهو خُلِقَ خصيصاً لك.

الفواكه وتصميمها من الآيات الدالة على عظمة الله تعالى:

الفواكه.. انظر إلى التفّاحة ؛ شكلها جميل، حجمها معقول، رائحتها عطرة، قشرتها مانعة، طعمها لذيذ، فيها غذاء مفيد، فيها مواد سكرية ومعادن، وفيها حديد، فمن الذي جعل مقوِّماتها، عناصرها، قِوامها ؟ كيف تأكلها لو أنها كالصخر ؟ تحتاج إلى مطحنة بحص، فإنها لا تؤكل معك، قوامها معقول، قشرتها، حتى قَطْفُها سهل، لو أردت أن تسحب عنقود العنب سحباً لعُصِر في يدك ولا ينسحب معك، أما بحركة معاكسة تنزعه من على الشجرة، كل شيء مصمم، هذا البطيخ يجب أن ينضج خلال تسعين يوماً لأنه فاكهة الصيف، لو أنه نضج في يومٍ واحد لا تنتفع منه إطلاقاً، كذلك الخضراوات، أما المحاصيل فيجب أن تنضج في يومٍ واحد تسهيلاً لجنيها، وهذه الفواكه مبرمجة، كل فترة من الصيف تنضج فاكهة، تبدأ بهذه الفاكهة ثم هذه الفاكهة، مبرمجة فيما بينها، ومبرمجة في نضجها في ذاتها، والثمار الكبيرة على الأرض، لو أنها على الشجر لصار هناك حوادث موت كثيرة جداً، لو وقعت بطيخة وزنها اثنتي عشرة كيلو على إنسان فإنها تُميته، البطيخ على الأرض، والفواكه اللطيفة على الشجر، والشجر قريب، هناك تصميم مذهل في الكون .

هذه الأرض فِراش، بحجمها فِراش، بنسب الماء إلى اليابسة فِراش، بليلها ونهارها فِراش، بشَمسِها؛ لو أن الشمس أقرب لاحترق كل ما على الأرض، نموذج قبل أسابيع بلغت الحرارة إحدى وخمسين درجة كاد الناس يخرجون من جلودهم، من صمم هذه الحرارة بشكل معتدل بين الخمسة والخمسة وثلاثين على مدار السنة ؟ هذه فِراش، فحجم الأرض، وشكل الأرض الكُروي، والشمس،

والليل والنهار، والجاذبية، والماء والهواء، والمحاصيل والفواكه والخضراوات، والأسماك والأطيار، والمعادن وأشباه المعادن، والفيتامينات، وتصميم الفواكه والخضراوات مع جسمك، هذا كلُّه لأنه شيء مريح جعل لكم الأرض فِراشاً.

حينما تركع وتسجد لا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى خلق لك الأرض فِراشاً:

أيّها الأخوة الكرام، توجد أشياء لا تنتهي، والله ما ذكرت إلا القليل إلا الذي حضرني وأنا ألقي هذا الدرس، أما استقصاء هذه الحقائق فيشمل الأرض كلَّها، حينما تقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

(سورة الفاتحة)

حينما تركع، وحينما تسجد فلا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى خلق لك الأرض فِراشاً، سمح لك أن تبني بيتاً، أعطاك مواداً أولية للبناء، ليس هذا الإسمنت في الأساس من صنع البشر من أعطى هذه المواد ـ مواد الإسمنت ـ خصائصها فسهُل عليك البناء ؟ من أعطى الحديد خصائصه فسهُل عليك البناء؟ من خلق هذا الوقود السائل فسَهُلت عليك الحركة ؟ لأن الآية الكريمة:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

(سورة النحل)

عُزي خَلْقُ المركبة، والطائرة، والباخرة إلى الله، ومعنى عُزي إلى الله: أي هو الذي خلق موادها الأولية، وهو الذي خلق الوقود السائل الذي أودعه الله في الأرض، هذه الطاقة من خلقها ؟

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

(سورة يس)

أحدث نظرية للبترول أنه في العصور المطيرة انطمرت هذه النباتات العملاقة في باطن الأرض، وهي طاقةٌ مخزونة فأصبحت بترولاً، وصناعات البترول لا تُعدُّ ولا تُحصى، بل إن استهلاك البترول في الوقود يُعدُّ استهلاكاً له غير معقول لأن له استعمالات أخرى، الآن كل شيء بالبترول، فهذه الأرض فِراش.

لا تزال الأرض تملك ثروات لا يعلمها إلا الله :

هناك شيء يلفت النظر، في الحرم المكي والمدني رخامٌ أبيض تدوسه عند الظهيرة الحرارة قد تصل تحت أشعة الشمس إلى الثمانين، تدوس على هذا الرخام فإذا هو بارد، شيء لا يُصدَّق، أحد أنواع الرخام النادر بالعالم كأن الله صممه لهذا الحدث، إنَّ الحُجاج والعُمَّار يطوفون حفاةً والدليل: أن الرخام القديم تحت الأروقة لو جاءته الشمس وسِرْتَ عليه كما لو وضعت يدك على مكواة حارة

بالضبط، لا تستطيع أن تسير عليه، من صمم هذا الرخام ؟ فكل شيء في الأرض جاهز، ولا تزال الأرض تملك ثروات لا يعلمها إلا الله، قال تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6))

(سورة طه)

المعادن والفلذات التي اكتشُفت والتي لم تُكتشَف، يوجد في البحر وحده مليون نوع من السمك، ليس مليون سمكة بل مليون نوع من السمك، بدءاً من الحيتان الزرقاء وزن مئة وخمسين طناً ـ هو شيء لا يُصدَّق مخلوق هائل ـ مدينة، يخرج منه تسعون برميل زيت، فيه خمسون طن لحماً، وخمسون طن دهناً، وفيه أرقام لكبده ولدماغه ولمعدته شيء لا يُصدَّق، وليده يرضع منه ثلاثمئة كيلو في الرضعة الواحدة، وهو يحتاج ثلاثة رضعات في اليوم، فيرضع منه طن حليب، إلى سمكٍ صغير تراه في بعض أحواض السمك ـ سمك تزييني ـ سمكة صفراء، سمكة خضراء، سمكة فسفورية، سمكة شفافة، سمكة سوداء هذه للمنظر فقط سمك تزييني.

النباتات ؛ يعيش هذا النخل ستة آلاف عام، هناك نخلٌ نأكل منه التمر كان على عهد النبي عليه الصلاة والسلام، تعيش النخلة ستة آلاف عام وتعطي تمراً فيه ست وأربعون مادة غذائية، التمرة صيدلية، العسل، ماذا أقول ؟ أنواع النباتات لا تُعدُّ ولا تُحصى.

سخَّر الله للإنسان كل شيء تكريماً له أمَّا هذا المُسخَّر له فهو غافل عن الله:

ذهبت ذات مرة إلى بلد غربي ودخلت إلى مكان لبيع الخضراوات فرأيت عشرة أنواع لا أعرف اسمها ولا شكلها، شيء غريب، أنواع النباتات لا تُعَدُّ ولا تُحصى، أنواع الأزهار، أنوع الأطيار، أنواع الأسماك، أنواع المعادن، أنواع الفِلزات، هذا كلُّه من أجل الإنسان، سخَّر الله لنا كل شيء تكريماً لنا، أمَّا هذا المُسخَّر له فهو غافل عن الله:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6))

(سورة الإسراء)

أما الذي سُخِّرَت له كل هذه النعم هو وحده الغافل، ما موقفه يوم القيامة وقد رأى كل المخلوقات سُخِّرت له وهي تسبِّح الله عزّ وجل ؟ والله أيها الأخوة لو عرفنا الحقيقة لم نَنَم الليل.

لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ، ولا دخلتم بيوتكم تستظلون بها، ولذهبتم إلى الصُعُدات تبكون على أنفسكم.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

فو الله ما ذكرت شيئاً من هذه الكلمة:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

كالفراش تماماً، أنت الآن في الحر تجد وسائل لتخفيف الحر، يوجد برد فهناك وقود ومدافئ، أنت تحتاج إلى الماء، الماء موجود تستخرجه من أي مكان، أي مكان إذا حفرت بئراً تصل إلى الماء، من أودع الماء في الأرض ؟ الله جلَّ جلاله، نظام المطر، نظام الرياح، هذا كلُّه يحتاج إلى دراسات.

على المؤمن أن يحمد الله تعالى لأنه هداه إليه:

أيها الأخوة، كلمة (فِراش) كلمة دقيقة جداً يجب أن نذوب شكراً لله عزّ وجل، والإنسان حينما يقف بين يدي الله عزّ وجل ليقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

هل حمدت الله على أنَّه أوجدك ؟ وهل حمدت الله على أنه أمَدَّك ؟ وهل حمدت الله على أنه هداك إليه ؟ هناك شعوب ؛ تسعمئة مليون في بعض البلاد يعبدون البقر، شعب اليابان يعبد ذكر الرجل، شعوبٌ تعبدُ الجرذان، شعوبٌ تعبد النار، والشعوب المتحضِّرة تعبد أهواءها أي تعبد المرأة، تعبد شهوتها.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (43))

(سورة الفرقان)

لكن المؤمن وحده يعبد الله، يعبد خالِقَ الكون، يعبد ربَّ العالمين، يعبد المُسَيِّر، يعبد الحكيم، يعبد القدير، يعبد الغَني:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

وفي درسٍ آخر إن شاء الله نُتابع هذه الآية.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (11-95) تفسير الآية 22 ، بناء السماء
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-09-04

بسم الله الرحمن الرحيم

السماء بناء لأن هناك نظاماً للجاذبية بين الكواكب:

مع الآية الثانية والعشرين، وهي قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

أولاً أيها الأخوة الكرام: السماء بناء لأن هناك نظاماً للجاذبية فيما بين الكواكب، لولا حركة الكواكب في مساراتٍ مغلقةٍ لأصبح الكون كُتلةً واحدة، لأن الجسم الأكبر يجذب الأصغر، فحركة الكواكب ينشأ عنها قوى نابذة تكافئ القِوى الجاذبة، فالسماء بناء، لولا هذه المسارات المُغْلقة لاضطربت الحركة، وأن السماء كما قال الله عزّ وجل:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

أي أن كل كوكبٍ يدور في مسارٍ مغلق، تتناسب هذه الدورة باتساعها وسرعتها مع قوة جذب النجم الآخر له، إذاً ينشأ ما يُسمى في الميكانيك توازن حركي، كل شيء متحرّك وكل شيء متوازن، هذا بناء ضخم، فلا بدّ من توضيح هذه الحقيقة، لو أتيت بسطحٍ سوي مستوٍ تماماً وجئت بكتلتين مغناطيسيتين بحجم بعضهما تماماً وأتيت بكرةٍ بينهما، لاستطعت بجهد خيالي أن تثبّت هذه الكرة في المتوسط بين الكُتلتين، بحيث يتكافأ جذب الكُتلتين لهذه الكرة فتقف في الوسط، أما لو زاحت عُشْر الميليمتر لانجذبت إلى الكتلة الأولى، لو زاحت عُشر الميلي بجهة الكتلة الثانية لانجذبت إلى الكتلة الثانية، هي تحتاج إلى جهد كبير جداً كي تستقر في الوسط، أما إذا كانت الكتلتان غير متساويتين، تحتاج إلى حسابات رياضية كثيرة جداً، وإذا كانت الكتلتان ثلثين وثلثاً فلا بدّ من أن تضعها في مسافةٍ تتناسب مع جذب الكبرى ومسافةٍ تتناسب مع جذب الصغرى، حسابات.

هذا الكون مبنيٌ بناءً رائعاً أساسه التوازن الحركي:

أما إن كانت ثلاث كتل أو أربع كتل، وكل كتلة لها حجم، ولها قوة جذب !! الحديث قبل قليل على سطح مستوٍ، أما إذا كانت هذه الكتل في فراغ وكانت متحرّكة وبأحجام مختلفة، ومسافات مختلفة، وسُرعات مختلفة، فالإعجاز أن تتوازن هذه الكتل المتفاوتة في الحجم والسرعة والمسافة وهي في فراغ ومتحركة، والمحصلة توازن، هذا هو التوازن الحركي المعجز.

(وَالسّماوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ (67))

(سورة الزمر: آية " 67 ")

بيده ملكوت السماوات والأرض، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسّمَاءَ بِنَاءً (22))

السماء بناء، والله سبحانه وتعالى هو الذي بنى هذا النظام وبنى هذه المجرّات، قد يسأل أحدكم: كم مجرة في الكون ؟ لا يزال الكون مجهولاً، أما المعلومات المتواضعة التي وصل إليها العلماء مليون مليون مجرة، وفي أكثر هذه المجرات مليون مليون كوكب ونجم، وكل هذه المجرات مُترابطة مع بعضها البعض بقوى التجاذب، ومتحرّكة بمساراتٍ مغلقة حيث إن هذا الكون مبنيٌ بناءً رائعاً أساسه التوازن الحركي.

(وَجَعَلْنَا السّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً (32))

(سورة الأنبياء: آية " 32 ")

أروع ما في هذه الآية أن كلمة (تزول) أعطت معنيين في آنٍ واحد:

أيها الأخوة الكرام، من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى، قول الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (41))

(سورة فاطر: آية " 41 ")

تحمّلوا قليلاً، هذه آياتٌ دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل.

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (41))

(سورة فاطر: آية " 41 ")

الزوال هو الانحراف، أي إن لهذا الكوكب مسار، لو أنه خرج عن مساره، ماذا يحصل ؟ لو أنه زال عن مساره، أقرب مثال هو الأرض، لو أن الأرض في دورتها حول الشمس خرجت عن مسارها ما الذي يحصل ؟ قال: حينما تبتعد هذه الأرض عن مسارها، تبتعد عن مصدر الطاقة والحرارة، تُصبح الأرض كوكباً جليدياً متجمّداً تنعدم فيها الحياة لأن الوجه غير المقابل للشمس، إذا ثبتت الأرض من دون أن تدور تهبط حرارته إلى مئتين وسبعين تحت الصفر، تنعدم الحياة، لو أن الأرض توقفت لصار طرف الوجه المقابل للشمس ثلاثمئة وثلاثين درجة، بينما بلغت على الوجه

الآخر مئتين وسبعين درجة تحت الصفر، انتهت الحياة، لو أنها خرجت عن مسارها وانطلقت بعيداً في الفضاء الخارجي، وحُرِمت من أشعة الشمس ومن طاقتها ودفئها أيضاً لأصبحت كوكباً متجمداً، ومع الصفر المُطلق تتلاشى حركة الذرّات، ومع تلاشي حركة الذرّات تنتهي الأرض، أروع ما في هذه الآية أن كلمة تزول أعطت معنيين في آنٍ واحد، لو أن الأرض انحرفت عن خط سيرها، لو أن الأرض زالت عن خط سيرها لزالت وتلاشت.

حركة الأرض حول الشمس من الآيات الدالة على عظمة الله تعالى:

قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (41))

(سورة فاطر: آية " 41 ")

للتقريب لو أن الأرض خرجت عن مسارها، وأردنا أن نعيدها إلى مسارها ـ طبعاً هذا كلام كله افتراضي، لكن الهدف منه أن تعرف ما معنى ارتباط الأرض بالشمس ـ قال: نحتاج إلى مليون مليون حبل فولاذي ـ أمتن عنصر في الكون الفولاذ المَضفور، لذلك المصاعد والتليفريكات كلها تستخدم الحبال الفولاذية المضفورة لأنها أمتن عنصر ـ لو أردنا أن نعيد الأرض إلى مسارها حول الشمس لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي، قطر كل حبل خمسة أمتار، ما معنى حبل فولاذي قطره خمسة أمتار ؟ أي أن هذا الحبل يقاوم من قوى الشد مليوني طن، ملخّص الكلام أن الأرض مرتبطة بالشمس بقوة جذبٍ تساوي مليون مليون ضرب مليوني طن، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (41))

(سورة فاطر: آية " 41 ")

لو أنها خرجت عن سيرها لزالت وتلاشت، الأرض مربوطة بقوة جذب تساوي مليونين ضرب مليون مليون طن، كل هذه القوة من أجل أن تُزيح الأرض عن مسارٍ مستقيم ثلاثة ميلي في الثانية، من ثلاثة ميلي كل ثانية ينشأ مسار مُغلق حول الشمس، ثلاثة ميلي في الثانية على مدى العام ينشأ مسار حول الشمس مغلق، هذه حركة الأرض حول الشمس.

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (41))

(سورة فاطر: آية " 41 ")

أجل رحيم على جهل عباده، وعلى انحرافهم.

مسار الأرض إهليلجي:

هناك شيء ثانٍ أيها الأخوة ـ لعلي قلته لكم سابقاً لكن لا بدَّ من إعادة ذكره الآن ـ مسار الأرض في دورتها حول الشمس إهليلجي ؛ بيضوي، والشكل البيضوي له قطران أصغري وأعظمي، وإذا كانت الأرض في القطر الأصغري تزيد من سرعتها لينشأ من هذه السرعة الزائدة قوةٌ نابذةٌ زائدة تكافئ المسافة القليلة التي تزداد فيها قوة جذب الشمس، توازن دقيق، في المنطقة ذات القُطر الأدنى تزيد السرعة، أما في المنطقة ذات القطر الأعظمي تتباطأ السرعة، لو أنها زادت لتفلّتت الأرض من جذب الشمس، فكلما أبطأت السرعة زاد الجذب، وكلما زادت السرعة قلَّ الجذب، ففي القطر الأصغر تزيد السرعة، وفي القطر الأكبر تقل السرعة، ينشأ من هذه الزيادة وهذا النقصان تفاوت في سرعة الأرض، أما لو كان هذا التفاوت عنيفاً، أو لو كان التسارع عالياً لتهدم ما على الأرض، معنى أن التسارع عالٍ نقول: هذه السيارة تنطلق من صفر إلى مئة في ثلاث ثوان تسارع عالٍ جداً، من صفر إلى مئة في عشرين ثانية تسارع أقل، لو أن التسارع كان عالياً جداً لتهدم كلُّ ما على الأرض، الله لطيفٌ بعباده، تزداد السرعة شيئاً فشيئاً وتنخفض شيئاً فشيئاً، من هذا الازدياد البطيء والانخفاض البطيء يسلم كل ما على الأرض، هذا معنى قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً (22))

السماء مبنية.

الله جلّ جلاله يمسك السماء أن تقع على الأرض:

يقول الله جلّ جلاله في آيةٍ أخرى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ (65))

(سورة الحج: آية " 65 ")

لو أن كوكباً انجذب إلى كوكبٍ واصطدما لانتهت الحياة على الكوكبين، فالله جلّ جلاله يمسك السماء أن تقع على الأرض، رَصدوا قبل سنوات وسنوات مذنباً يتّجه نحو الأرض وظنوا أنه سوف يصطدم بها، وظنوا أن هذا هو يوم القيامة، ثمَّ حوّل المذنب وجهته قبل مسافةٍ طويلة، فلو سمح الله عزّ وجل في

أية لحظة لكوكبٍ أن يصطدم بكوكب آخر لانتهت الحياة، فالله جلّ جلاله يقول:

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ (65))

وفي آيةٍ ثالثة:

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً (32))

(سورة الأنبياء: آية " 32 ")

لننظر في الظواهر التي تجري في العالم الآن، فمثلاً هذا الفيضان الذي شَرَّد مئتين وخمسين مليون إنساناً في الصين وجعلهم بلا مأوى، والذي أنهى آبار النفط كلها، والذي أتلف المحاصيل كلها، وجعل الصين تعيش في مصيبةٍ ما بعدها من مصيبة وذلك كله بسبب ارتفاع درجات الحرارة في الأرض، وهذا الارتفاع بسبب تَخَلْخُل طبقة الأوزون التي هي السقف المحفوظ للأرض، والسبب أن الإنسان حينما تعلّم ولم يوازي علمه دينه غيّر خلق الله عزّ وجل، قال تعالى:

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ (119))

(سورة النساء)

نهاية العلم أن يعود الإنسان إلى التصميم الإلهي:

هناك غازات ناجمة عن بعض الصناعات أثرت على طبقة الأوزون المحيطة بالأرض والتي مهمتها الخطيرة حفظ الأرض من وصول القسم الضار من أشعة الشمس إليها، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً (32))

(سورة الأنبياء: آية " 32 ")

محفوظاً من كل ما يؤذي الإنسان، فلما تخلخلت هذه الطبقة ارتفعت الحرارة، فذابت الثلوج في القطبين، وهذا انعكس على مُناخ الأرض، فالمُناخ الذي تمر به الأرض مناخ غير طبيعي، ما عهدنا أن تصل الحرارة في دمشق في الشمس إلى إحدى وسبعين درجة، وما عهدنا أنها تصل في الظل إلى إحدى وخمسين درجة، ما عهدنا أنها تصل في الخليج إلى أربعة وثمانين درجة بالشمس، وإلى سبع وخمسين بالظل، وضع غير طبيعي، ناجم عن تغيير خلق الله عزّ وجل، تحتل مشكلة البيئة في العالم كله الآن المرتبة الأولى، اخترع الإنسان وصَنَّع لكن هذا الاختراع كان وبالاً عليه، ويسير الإنسان الآن في طريق العودة إلى أصل التصميم الإلهي.

سمعت أن الدول المتقدمة بالمفهوم العصري تشتري الفاكهة التي لم تُسَمَّد بالأسمدة الكيماوية، والتي لم تُرش بالمبيدات الكيماوية، بعشرة أضعاف ثمن الفاكهة التي سُمِّدت وكوفحت آفاتها بالأدوية الكيماوية، حرصاً على عدم تغيير بنية هذه الفاكهة، وهذا ينعكس على أجسامنا أوراماً خبيثة، فالقضية يجب أن نعود إلى أصل التصميم الإلهي، الأصل أن الله جعل السماد طبيعياً وجعل

المكافحة حيوية، وهذا ما يطمح إليه العالم في المستقبل، نهاية التقدُّم، نهاية العلم أن تعود إلى التصميم الإلهي في إنبات النبات وتسميده، ومكافحة الحشرات والأوبئة النباتية.

تقنين الله عز وجل تقنين تأديب لا تقنين عجز:

أيها الأخوة الكرام تقول الآية الكريمة:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً (22))

هناك علاقة وثيقة بين قوله تعالى في الآية السابقة، وبين تتمة الآية:

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ (32))

لحكمةٍ إلهية جعل الله رِزْقَ الإنسان في الأمطار، الأمطار وحدها آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته، من أين جاءت هذه البحار ؟ فقد سمعت أن مرصداً عملاقاً في أوروبا يستخدم الأشعة فوق البنفسجية في كشف النجوم، اكتشف سحابة كونية، سحابة واحدة من بين آلاف السحب تستطيع هذه السحابة أن تملأ البحار كلّها ستين مرة في يوم واحد بالماء العذب، فكل من يقول: إن الرزق محدد، وهناك أزمة مياه في العالم وأزمة رزق في العالم، فرد عليه بأن:

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58))

(سورة الذاريات)

إن ربنا حينما يقنن، يقنن تقنين تأديب، ولا يقنن تقنين عجز.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27))

(سورة الشورى)

الكون من آيات الله الدالة على عظمته:

الحديث عن السماء وكيف أنها بناء حديثٌ دقيقٌ جداً، السماء بناء بكل معنى الكلمة، ذكرت مرةً أن الإنسان لو أراد أن يصل إلى أقرب نجم ملتهب من الأرض، نحن حولنا كواكب منطفئة، القمر منطفئ، المريخ منطفئ، أما إذا أردنا أن نصل إلى أقرب نجم ملتهب قال العلماء أن بعده عنا أربع سنوات ضوئية،

بحسابٍ بسيط جداً يقطع الضوء في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر ضرب ستين في الدقيقة، ضرب ستين بالساعة، ضرب أربعة وعشرين في اليوم، ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين في السنة، ضرب أربع سنوات، هذا الرقم سهل لتقوموا أنتم بحسابه احسبوه مساء اليوم ثلاثمئة ـ اترك الأصفار مبدئياً ـ ضرب ستين ضرب ستة ضرب ستة ضرب أربعة وعشرين ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين بعد ذلك أضف الأصفار المحذوفة، ينتج معك رقمٌ هو المسافة بالكيلو مترات بيننا وبين هذا النجم الملتهب.

لو فرضنا تبسيطاً للحقيقة ركبت سيارتي واتجهت إلى هذا النجم بسرعة مئة كيلومتر في الساعة، تقسم هذا الرقم الذي هو بعد النجم عن الأرض على مئة، كم ساعة ؟ على الأربعة والعشرين كم يوم ؟ على ثلاثمئة وخمسة وستين كم سنة ؟ تحتاج إلى خمسين مليون سنة كي تصل إلى أقرب نجم مُلتهب، و الأدق من ذلك ثمانية وأربعين تقريباً وحساب الرقم سهل جداً، أربع سنوات ضوئية، ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربعة وعشرين ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، هذا هو الرقم، تقسيم مئة كم ساعة ؟ تقسيم أربعة وعشرين كم يوم ؟ تقسيم ثلاثمئة وخمسة وستين كم سنة ؟ يكون الناتج قريباً من خمسين مليون سنة.

دقق الآن ؛ بُعد نجم القطب عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، كنا أربع سنوات صرنا أربعة آلاف بُعد نجم القطب، تبعد عنا ـ مجرة المرأة المسلسلة وهي صغيرة ـ مليون سنة ضوئية، كشف العلماء قبل خمس أو ست سنوات أبعد مجرة أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، ورد من سنة ونصف في محطة أخبار عالمية أنهم أرسلوا مرصداً على مركبة إلى المشتري، ورصد أبعد مجرة حتى الآن رقم بسيط جداً، ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، الرقم أحفظه بدقة لأنه ملفت للنظر، نحن على بعد أربع سنوات نحتاج خمسين مليون سنة إلى أن نصل فما بالك بثلاثمئة ألف بليون ؟!!

خشية الله محصورةٌ في العلماء:

قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

لو تعلمون:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (28))

(سورة فاطر: آية " 28 ")

كلمة

(إنما)

تعني أن العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشون الله،

(إنما)

الخشية محصورةٌ في العلماء، مطلق العلماء، يقول أحد أكبر علماء الفيزياء: كل إنسان لا يرى فوق هذا الكون قوةً هي أقوى ما تكون، عليمةً هي أعلم ما تكون، رحيمةً هي أرحم ما تكون، حكيمةً هي أحكم ما تكون، هو إنسانٌ حي في جسده وشكله ولكنه ميت في عقله ونفسه وفطرته التي تَنَكَّرَ لها.

معرفة الله تسمو بنا وإلا فنحن كالدابة كما ورد في الذكر الحكيم:

إخواننا الكرام والله الذي لا إله إلا هو إن الذي لا يعرف الله عزّ وجل، والله هو كالدابة تماماً.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً (5))

(سورة الجمعة: آية " 5 ")

هذه هي الحقيقة:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

وقال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21))

(سورة النحل)

لا بدَّ من أن نعرف الله، معرفة الله عِلّة وجودنا، معرفة الله تسمو بنا، معرفة الله تسعدنا، معرفة الله تحقق الهدف من وجودنا، معرفة الله تُفْضي بنا إلى الجنة وهذا هو الأصل.

حينما تقرأ كلام خالق الأكوان تجد في قلبك سلامة الإيمان:

أنتم جميعاً ترون الشمس، وحجمها بالدقة يزيد عن حجم الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، فلو وضعنا في الشمس مليوناً وثلاثمئة ألف أرض من أراضينا لوسعت كل هذا العدد، والمسافة بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، هناك نجمٌ صغير أحمر اللون اسمه قلب العقرب في برج العقرب، قال ربنا:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1))

(سورة البروج)

تتم الأرض دورتها حول الشمس في اثني عشر شهراً، تمر في كل شهر ببرج، هذا البرج اسمه مثلاً برج الميزان، وهنا برج العقرب، تجد في برج العقرب نجماً أحمر اللون متألِّقاً اسمه قلب العقرب، هذا النجم يتسع للأرض والشمس معاً، لكن مع المسافة بينهما، كم حجمه ؟ علمه عند الله، ذلكم الله رب العالمين:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (28))

(سورة فاطر: آية " 28 ")

وبعد أيُعصى هذا الإله ؟!! يعرض عنه ؟! يُزْهَد في وعده ويغفل أحد عن وعيده ؟! ألا ترجى رحمته ؟! ألا يخشى عذابه ؟! بيده ملكوت كل شيء هو نفسه أنزل هذا القرآن، أنزله على النبي العدنان، إنه كلامه، أنت حينما تقرأ هذا الكلام الذي هو كلام خالق الكون، كلام الذي بيده ملكوت كلّ شيء، كلام الذي إليه يرجع الأمر كله، كلام الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، كلام الذي بيده الخلق والأمر، كلام الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، كلام الذي إليه المصير، تجد في قلبك برد اليقين وصحة الدين كما تجد سلامة الإيمان، لذلك:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ (22))

المطر وحده آية من آيات الله الدالة على عظمته:

كيف جعل الله أربعة أخماس الأرض بحاراً وخمسها يابسة، وجعل مناطق ساحلية من اليابسة خضراء، ومناطق داخلية صفراء، يا رب لمَ من اليابسة هذه الأراضي الصحراوية ؟ لا ماء ولا نبات، حر شديد؟ إنها معمل، هذه الصحراء معمل، الهواء فيها ساخن جداً بينما هو بارد جداً بالأماكن الباردة، الهواء البارد ثقيل، كثيف، ضغطه مرتفع، الهواء الحار مخلخل ضغطه منخفض، حينما توجد منطقتان إحداهما ذات ضغطٍ منخفض، والثانية ذات ضغطٍ مرتفع يتحرّك الهواء بينهما، إذا تحرّك ساق بخار الماء الذي في الهواء، ساقه من البحر إلى الداخل، لما ساقه إلى الداخل واجه جبهاتٍ باردة فانعقد المطر، فكانت هذه الخيرات، وهذه الأشجار، وهذه النباتات، وهذه الينابيع، وهذه الأنهار مثلاً بكثافة مياه الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية ، غزارته في الثانية ثلاثمئة ألف متر مكعب، أين ينابيع هذا النهر ؟ أين مستودعاته ؟ تصوّر نهراً يقدم ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية، أين مستودعاته؟ فكل

دمشق بما فيها من سكان يشربون من نبعٍ غزارته أثناء التفجُّر ستة وثلاثون متراً مكعباً في الثانية، وفي أيام نضوب الينابيع تكون متراً مكعباً واحداً في الثانية، وتشرب كل دمشق من هذا النبع، فثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية هذه من أين ؟ أين المستودعات ؟ ذلكم الله رب العالمين. المطر وحده آية من آيات الله الدالة على عظمته، من قال: إن الهواء يحمل بخار ماء بكل درجة، كل درجة يستوعب بها الهواء كمية بخار ماء خاصة، لولا هذه الخاصة لم تكن الأمطار، فالهواء الحار يحمل كمية بخار كبيرة، وعندما يواجه جبهة باردة ينكمش، يعصر، قال الله عزّ وجل :

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً (14))

(سورة النبأ)

تنزل غزيرةً، والله عزّ وجل إذا أعطى أدهش، قرأت مرّة خبراً أنه قد نزَلت أمطار في رأس الخيمة في ليلة واحدة تقارب مئتين وخمسين ميليمتراً، أي تساوي أمطار دمشق في كل موسم الشتاء، إذا أعطى أدهش، كل شيء عند الله عزّ وجل قد يكون رحمة وقد يكون عذاباً، الرياح نعمة، أما الريح ـ ريح صرصرٍ تأخذ كل شيء ـ لا تبقي شيئاً، الأعاصير، فالماء قد تغرق في الماء كما هي الحال في الصين، وقد تنتعش بالماء، وهكذا كل شيء.

كل شيء خلقه الله عزّ وجل خصيصاً للإنسان:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ (22))

هذا موسم فواكه، يأكل الإنسان كل يوم منها صنفاً أو أصنافاً، فهل خطر في بالك من صنع هذه البطيخة؟ من صممها بهذا الحجم ؟ أساسها بذرة واحدة، من أين جاء هذا الطُعْم الحلو ؟ وهذا اللون الأحمر ؟ وهذه المواد المُدِرّة ؟ وهذه المواد المفيدة ؟ ومن جعل هذه القشرة سميكة جداً وذات شكل بيضوي ؟ وتجد السيارة تحمل عشرة أطنان من البطيخ، البطيخ في الأسفل كما هو في الأعلى، لأن الشكل البيضوي أكبر شكل يقاوم الضغط، لأن الضغط على أي مكان فيه يوزّع على كل سطح هذا الشكل، كالبيض تماماً تضع مئة بيضة في سلة، فالبيضة التي في الأسفل لا تتأثر أبداً، تأكل التفاح والدراق والإجاص، هذه الفاكهة لها طعم، لها شكل، لها قشرة خاصة، لها لون، لها مكوّنات، لها قِوام، من جعل قِوامها، ومكوّناتها، وطعمها، وشكلها، ولونها يشتهيه الإنسان ؟

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ (22))

(لكم)

لكم خصيصاً لكم، قد تُدعى إلى وليمة وأنت ضيف الشرف كل هذا الطعام صُنِع من أجلك أيّها الإنسان، قد يطرق الباب طارق، ضيف زائر تفضّل وكُلْ، لكن هذا الطعام لم يصنع لهذا الضيف

الطارق صنع لضيف الشرف، يجب أن تعلم علم اليقين أن كل شيء خلقه الله عزّ وجل خصيصاً لك، هذا يُستفاد من قوله تعالى

(لكم)

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ (5))

(سورة النحل: آية " 5 ")

كل ما في الكون مسخر للإنسان من أجل أن يعرف الله وأن يسعد بقربه:

قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (72))

(سورة يس: آية " 72 ")

هذه الحيوانات الأليفة ـ سبحان الله ـ جمل وزنه ثلاثة أطنان يقوده طفل صغير لا يخاف منه، لكن والد هذا الطفل يخرج من جلده إذا رأى عقرباً صغيراً، عَقرب صغير هذا غير أليف، ترى طائراً وديعاً تشتهي أن تَضُمَّه، الجُرذ بنفس الشكل والانسياب لا تتحمل أن ترى منظره، فمن صَمَمَ هذا الحيوان المُحَبَب وذاك غير مُحَبَب، هذا أليف وذاك غير أليف ؟ الغنمة يقول لك: فلان مثل الغنمة، لو رَكَّب الله فيها طباع الضبع من يجرؤ أن يشتري غنماً ليذبحها في العيد ؟ يقول لك: انضبعنا فيها، فلان مضبوع أي خائف، مأخوذة من الضبع:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (72))

(سورة يس: آية " 72 ")

وقال:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ (5))

(سورة النحل: آية " 5 ")

تتبع كلمة

(لكم)

في القرآن كلّه مسخَّرٌ لك من أجل أن تعرفه، من أجل أن تعبده، من أجل أن تسعَد بقربه.

حينما تخضع لإنسان فقد جعلته نداً لله:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ (22))

الفواكه تكريم للإنسان ؛ كرز، مشمش، تفاح، دُراق، إجاص، بطيخ، البطيخ أنواع منوّعة، العنب أنواع منوّعة، أنواعٌ لا يعلم عددها إلا الله، كلّها مصممة من أجل أن تأكلها، وأن تعرف الله من خلالها:

(رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

(سورة البقرة: آية " 22 ")

لا أحد يقول طبعاً: إن هناك إلهاً آخر خلق، أما أنت حينما تخضع لإنسان فقد جعلته نداً لله، ذكرت مرةً: أنه ـ دققوا في هذا الكلام ـ من أطاع مخلوقاً وعصى خالقه، فهو لم يقل: الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه في الأساس أطاع الأقوى في نظره، جعله نداً لله، هناك أشخاص يجعلون فتنة الناس كعذاب الله، مثلاً إذا هدده إنسان قوي فإنه يعصي الله، يشرب خمر لكي يتخلّص من شره، أنت جعلت عذابه كعذاب الله، فحينما تطيع مخلوقاً وتعصي خالقاً فأنت لم تقل: الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، هذا كلام دقيق، لأنك أطعت الأقوى في تصوّرك، أطعت الأكثر فعَالية في تصورك، من لم يُقِم الإسلام في بيته إرضاءً لأهله ولأولاده فهو ما قال: الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى أن إرضاء أهله وأولاده أغلى عنده من إرضاء الله عزّ وجل، مَن غَشّ المسلمين ما قال: الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى أن هذا المال الحرام الذي يكسبه من غِشّ المسلمين أغلى عنده من طاعة الله.

أحياناً يقول الإنسان كلمة واحدة تكشف أنه جاهل، لو قال لك أحدهم: أنا درست الطب وقال لك: كلما كثر الملح في الطعام يتحسن ضغطك وينخفض، هذا لم يدرس الطب، ولا هو طالب طب، وليست عنده ثقافة طبية، ولا معه بكالوريا، وهو خاو من أية ثقافة، مستحيل لأن الملح يرفع الضغط، وهو قال لك: كلما كثر الملح ينزل الضغط، هذا جهل مطبق، إنه تكلم كلمة لكن هذه الكلمة تُنبئك أنه جاهل.

لا أحد يستطيع أن يدعي خلق الكون إلا الله :

لو رسم أحدهم خارطة لسوريا، ووضع دمشق على الساحل هل يكون هذا عالماً ؟ هذا مُنْتَهى الخطأ، وهي غلطة كبيرة، فالإنسان عندما يطيع مخلوقاً ويعصي الخالق هذه غلطة كبيرة جداً، لذلك الكلمة التي أقولها دائماً: عندما يأكل الإنسان مالاً حراماً فإنه لا يعرف الله، لو عرف أن الله لا بدّ من أن يُحاسبه، ولا بدّ من أن يدفع الثمن باهظاً إن عصى الله، فإنه لن يعصي الله عزّ وجل، والذي يعتدي على أموال الآخرين، الذي يعتدي على أعراضهم، الذي يقيم الشِقاق بينهم، النَمّام، المُغْتاب، هؤلاء جميعاً لم يعرفوا الله لو عرفوا الله لوقفوا عند حدودهم:

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

لا أحد يقول: إن هناك جهة خلقت الكون، لا أحد يستطيع أن يدعي خلق الكون إلا الله، الله يقول:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (4))

(سورة السجدة: آية " 4 ")

ما معنى نِداً لله ؟ النِّد هنا معناه أنك تطيعه كما لو كان إلهاً، تحبُّه كما لو كان إلهاً، تعبده كما لو كان إلهاً، تعلِّق الأمل عليه كما لو كان إلهاً، تخضَع له كما لو كان إلهاً، هذا:

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

المشكلة الكبيرة في العالم الإسلامي أن الناس يعبدُ بعضهم بعضاً :

أيها الأخوة الكرام، بمناسبة قوله تعالى:

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

هؤلاء لم يخلقوكم، ولم يرزقوكم، ولا يملكون نفعكم ولا ضرَّكم، ومع ذلك تتخذونهم أنداداً ؟! وهذه مشكلة كبيرة في العالم الإسلامي، الناس يعبدُ بعضهم بعضاً، يقول الله عزّ وجل:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ (165))

(سورة البقرة: آية " 165 ")

أن تتخذ نِداً لله أي أن تُحِبَّه كحب الله، وأن تخافه كما تخاف الله، وأن ترجوه كما ترجو الله، وأن تُعَلِّق عليه الأمل كما تُعلق الأمل على الله عزّ وجل.

(يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (165))

(سورة البقرة: آية " 165 ")

أي ظلموا أنفسهم حينما أحبوا أندادهم كحب الله.

الذي ينبغي أن يُحَب هو الله وحده لأنه أصل الكمال:

الذي ينبغي أن يُحَب هو الله وحده لأنه أصل الكمال، وأصل النوال والعطاء، وأصل الجمال، الذي ينبغي أن تحبَّه وحده هو الله.

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165))

وقال:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً (8))

(سورة الزمر: آية " 8 ")

أي قد يمرض ابن الرجل مرضاً شديداً، فيأخذه إلى طبيب، يلهم هذا الطبيب بتوفيق الله أن يشخص المرض ويحدده، ويُلهم وصف الدواء المناسب فيشفى هذا الابن، ونسي الأب الله وعزا الشفاء إلى الطبيب، تُوكِّل محامياً فأكرمك الله عزّ وجل بأن ألهمه المذكرة الدقيقة وألهم القاضي أن ينصفك فأنصفك، تعزو نجاح الدعوى إلى هذا المحامي وذاك القاضي، لذلك قال تعالى:

(ثُمّ إذَا خَوّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلّهِ أنْدَاداً لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إنّكَ مِنْ أصْحَابِ النّارِ (8))

(سورة الزمر)

الشرك الخفي هو أن ترى مع الله أحداً:

وقال:

(وَإذَا مَسّ الْإنْسَانَ الضُرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أوْ قَاعِداً أوْ قَائِماً فَلَمّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرّهُ مَرّ كَأنْ لَمْ يَدْعُنَا إلَى ضُرٍّ مَسّهُ كَذَلِكَ زُيّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12))

(سورة يونس)

لتكن هذه الآية مناراً يهديك، فلا تنزلق في مهاوي الشرك ويحبط ـ لا سمح الله ـ عملك، إنها:

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلّهِ أنْدَاداً وَأنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

وبعد ؛ فإن الإنسان إذا عَزَا الأمور إلى قوّته، أو إلى حكمته، أو إلى علمه، أو إلى قوة الآخرين وعلم الآخرين فقد أشرك، إذاً الحذر الحَذر ولا ينبغي أن ترى مع الله أحداً، هذه الآية أيها الأخوة من الآيات الدقيقة التي تبيّن أن الشرك الخفي هو أن ترى مع الله أحداً، أن تتخذ من دون الله أنداداً تحبُّهم كما ينبغي أن تحبَّ الله عزّ وجل.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (12- 95):تفسير الآية 23 ، الإعجاز في القرآن لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-09-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الكون خَلْقُ الله والقرآن كلامه:

مع الآية الثالثة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتّقُوا النّارَ الّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدّتْ لِلْكَافِرِينَ (24))

أيها الأخوة الكرام، هاتان الآيتان متعلِّقتان بالقرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، والسماوات والأرض تعبيرٌ قُرْآني يعني الكون، والكون ما سوى الله، خلق الله جلَّ جلاله السماوات والأرض وأنزل على عبده الكتاب، فالكون خلقه والقرآن كلامه، بل إن القرآن في آيةٍ أخرى وضع في كفةٍ والكون في الكفة الثانية:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (1))

(سورة الأنعام: آية " 1 ")

وقال:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف: آية " 1 ")

أهم شيءٍ بعد خلق الكون هذا المَنهج الذي أنزله الله على سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

أهم شيءٍ بعد خلق الكون هذا المَنهج الذي أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عزَّ وجل:

(الرّحْمَنُ (1) عَلّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

يواجهنا سؤال عن الترتيب في نظم هذه الآيات الأربع التي تشكل مطلع سورة الرحمن، أيعقل أن يعلم الإنسان القرآن قبل أن يخلق ؟

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

قال علماء التفسير: هذا ترتيبٌ رُتَبِي، وليس ترتيباً زمنياً، أي لا معنى لوجود الإنسان من دون منهجٍ يسير عليه، لو أنَّك اشتريت حاسوباً بثلاثين مليون ليرة من النوع المُعَقَّد جداً، هناك حواسيب تضع عليها نقطةً من دم تعطيك سبعة وعشرين تحليلاً في كبسة زر واحدة، فإذا كان لدى صاحب الحاسوب مئة تحليل، وأجرة كل تحليل ألف ليرة، كان دخله اليومي مئة ألف، فهذا الحاسوب لو أن الشركة الصانعة لم ترسل لك تعليمات التشغيل، إنك إن استعملته من دون تعليمات عَطَبْته، وإن خفت عليه ولم تستعمله جَمَّدَت ثمنه، أليست هذه التعليمات في أهمية الجهاز نفسه ؟ هل تقل هذه التعليمات من حيث الأهمية عن الجهاز نفسه ؟ فالإنسان أعقد آلة في الكون، هو المخلوق الأول.

الشر مخلوق أودعت فيه الشهوات وتحرّك من دون منهج الله عزّ وجل:

طبيعة الإنسان فيه شهوات، أودع الله فيه الشهوات، هذه الشهوات قوى دافعة، حب الطعام، حب النساء، حب العلو في الأرض، حب الخلود، هذه كلها شهوات، هذه الشهوات من دون منهج مدمِّرة، وهي مع المنهج قوى خَيِّرة، كيف أن السيارة حينما يقودها إنسان متمرّس تنقله إلى أهدافه بيسرٍ وراحة، أما حينما يقودها إنسان مُغْمَى عليه، أو سكران تودي به إلى الهاوية، والمركبة نفسها لم تتغير، الإنسان أعقد آلة في الكون أودع الله فيه الشهوات..

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ (14))

(سورة آل عمران: آية " 14 ")

تحتاج هذه الشهوات إلى مِقْوَد، تحتاج إلى قناةٍ نظيفة تسري خلالها، فما هو الشر ؟ مخلوق أودعت فيه الشهوات لم يعبأ بمنهج الله، يريد المال أخذه عدواناً، يريد المُتعة فعلها اغتصاباً، يريد العلو في

الأرض بَنى مجده على أنقاض الآخرين، هذا هو الشر، مخلوق أودعت فيه الشهوات وتحرّك من دون منهج الله عزّ وجل.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللّهِ (50))

(سورة القصص: آية " 50 ")

مهمة العقل البشري أن يكشف المُغَيّبات من خلال الآثار:

أيها الأخوة، هذا الكتاب هو المنهج ولا معنى لوجود الإنسان من دون منهجٍ يسير عليه، لأنه في خطر من دون منهج، مركبة تنطلق بسرعة عالية في طريقٍ كلُه منعطفات، وعن يمينه وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق أيضاً، فإذا أطفئت المصابيح فالحادث حتمي، وأنت كذلك مركبة، الطريق كله منعطفات وعن يمينك وادٍ وعن يسارك آخر، فهذا المنهج هو النور الذي به تبقى على الطريق، ومن دون منهجٍ لا بدّ من أن يقع الإنسان في الوادي، فلذلك:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

القضية في هذه الآية: ما الذي يؤكِّد لك أن هذا الكلام كلامُ الله ؟ أتمنّى على كل مؤمن مع أنه مؤمن إيماناً قطعياً بأن هذا القرآن كلام الله، لكن أتمنّى أن تدقق وأن تبحث وأن تتأمل وحتى تمتلئ قناعةً بالدليل والتعليل أن هذا القرآن كلام الله، بادئ ذي بدء أودع الله جلّ جلاله في الإنسان عقلاً، مهمة هذا العقل أن يعرف ما غاب عنه من خلال آثاره، هذا ملخص الملخص، مهمة العقل البشري أن يكشف المُغَيَّبات من خلال الآثار، فكل هذا الكون يدلُّ على الله، كل هذا الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى، كل هذا الكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى، إذاً طريق معرفة الله من خلال التفكر في خلق السماوات والأرض، وفي القرآن ألفٌ وثلاثمئة آيةٍ تتحدث عن مظاهر الكون، إذاً من خلال الكون تعرف الله عزّ وجل.

عرفت ربك، وعرفت أن لهذا الكون خالقاً، وأن لهذا الكون مربياً، وأن لهذا الكون مسيراً، لكن هناك أشياء لا تراها بهذا الكون، لماذا خلقني ؟ مهما تفكّرت في الجبال، في الأمطار، في البحار، لا

تعرف لماذا خلقك ؟ لا بدّ من اتصالٍ مباشر بين هذا المخلوق الأول وبين خالقِه العظيم، فالصلة بين الخالق العظيم وهذا المخلوق هو هذا القرآن.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (119))

(سورة هود: آية " 119 ")

لا بدّ من كتابٍ يسير عليه الإنسان مع التفكّر في خلق السماوات والأرض :

أوضح لك سبب خلقك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (4))

(سورة السجدة: آية " 4 ")

بيّن لك أصل المخلوقات من آدم، بيّن لك ما بعد الموت، بيّن لك مصائر الشعوب، بيّن لك الجنة والنار، فأنت لا بدّ من كتابٍ تفهم فيه التفاصيل، لو دخلت إلى بناء جامعي تستنبط من خلال التأمّل بالبناء حقائق كثيرة، تقول: كان المهندسون على أعلى مستوى، كان المهندسون على اتصالٍ وثيق بإدارة الجامعة، حتى هيئوا القاعات، والمدرّجات، والحدائق، وأبنية الطلاب، وهذه المخابر، وفيه وسائل التهوية من الدرجة الأولى، والقاعات بشكل مدرجات، وهي واسعة تتناسب مع عدد الطلاب في السنة الواحدة، فأنت من خلال التأمّل في بناء الجامعة تستنبط أشياء كثيرة، لكن مهما تأمّلت لن تستطيع أن تستنبط النظام الداخلي للجامعة مهما تأمّلت في الأقواس، وفي القاعات، وفي المدرجات، وفي الأبنية، وفي الساحات، وفي الحدائق، وفي الملاعب، لن تستطيع أن تستنبط كم كُلية في هذه الجامعة ؟ ولن تستطيع أن تستنبط من هم عمداء الكليات، وما نظام الترفيع، وكيف يقبل الطلاب في هذه الجامعة ؟ لا بدّ من كُتَيّب يشرح لك ذلك، هناك شيء خاضع للتأمّل، وهناك شيء خاضع للإعلام، فأنت أولاً تستنتج أن أموالاً طائلة أنفقت على أبنية هذه الجامعة، هذا بالتأمل، وتستنبط أن هؤلاء المهندسين على أعلى مستوى، كما تستنبط أن هؤلاء المهندسين على اتصال شديد بإدارة الجامعة حتى جاءت خططهم متوافقةً مع حاجات الجامعة، هذا كله تستنبطه بالتأمّل والتفكّر، أما أن تعرف كم كلية في الجامعة ؟ من هم عمداء الكليّات ؟ ما النظام الداخلي ؟ ما شروط القبول ؟ هذا لا بدّ له من كتيب، لا بدّ له من نظام، إذا تأمل الإنسان في الكون عرف أن لهذا الكون خالقاً فقط، عرف أن لهذا الكون مربياً يمدُّ مخلوقاته بما يحتاجون، عرف أن لهذا الكون خالقاً عليماً، وخالقاً حكيماً، وخالقاً غنياً، وخالقاً قديراً، وخالقاً رحيماً، هذا كله تستنبطه بالتأمل، أما لماذا

خلقت ؟ لا بدّ من أن تعرف هذا بشرح يأتيك من قبل الله عزّ وجل، لماذا جاء بك إلى الدنيا ؟ ما الطريق الأمثل للسعادة في الدنيا والآخرة ؟ هل هناك آخرة ؟ من يقول لك هذا ؟ الله جلّ جلاله، ولذلك لا بدّ من كتابٍ تسير عليه مع التفكّر في خلق السماوات والأرض، لا بدّ من منهجٍ يُعَرّفُك بحقيقة الكون، بحقيقة الحياة الدنيا، بحقيقة الإنسان، بالطريق الموصل إلى السلامة والسعادة، بالطريق الذي يحقق الهدف من وجودك، هذا كله في الكتاب الكريم.

مهمات العقل ثلاث: مهمات العقل ثلاث:

لقد بعث الله رسولاً ، ولكن بإمكان كل إنسان أن يدّعي أنه رسول الله، كيف يعرف الناس أن هذا الإنسان بالذات هو رسول الله ؟ لا بدّ من معجزة، لا بدّ من أن يأتي هذا الرسول بعمل لا يستطيعه أي فرد من أبناء البشر لأنه من عند خالق البشر وحده، فالذي يجعل من العصا ثعباناً مبيناً هذا فوق طاقة البشر، والذي يجعل البحر طريقاً يبساً هذا فوق طاقة البشر، والذي يُلْقى في النار فلا يحترق بها هذا إذاً رسول، فربنا عزّ وجل من أجل أن يعطي هذا الرسول دليلاً على أنّه رسول أجرى على يديه المُعجزات، أولاً الكون كله يدل على الله، الله عزّ وجل الحقيقة الكبرى في الكون، الكون كله يدلُّ على الله، وأنبيائه ورسله و معجزاتهم تدل على أنهم رسل وأنبياء، أما القرآن فما الذي يؤكد لك أنه كلام الله ؟

لو جاءك وارد أن هذا القرآن من صنع محمد، كان عبقرياً، وكان ذكياً، وفصيحاً، وأديباً فنظم هذا الكتاب وأوهمنا أنه كلام الله، ما الدليل القطعي الذي لا يدعُ مجالاً للشك ؟ ما الدليل القطعي أي أن درجته مئة في المئة تؤكد أن هذا القرآن كلام الله ؟ الجواب: إعجازه ، الإعجاز، الدليل على وجود الله الكون، والدليل على صدق الأنبياء والرسل المعجزات، والدليل على أن هذا القرآن كلام الله إعجازه، فمهمات العقل الثلاث: أن يعرف الله من خلال الكون، وأن يعرف النبي من خلال المعجزة، وأن يعرف كلام الله من خلال الإعجاز، الآية الكريمة:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23))

المُعجزات شهادة الله للناس جميعاً أن هؤلاء الرُسُل هم رسله :

إعجاز القرآن دليل على أنه كلام الله عزّ وجل، طبعاً هذه بعض الأدلة، وهناك أدلة كثيرة، قبل أن آتي بالدليل أطرح السؤال التالي: هل شهد الله لرسله أنهم رسله ؟ هل شهد الله لهم بذلك ؟ أنت كإنسان تلتقي بشاهد يقول لك: أنا أشهد أن لفلان مع فلان مئة ألف ليرة، لأنه أداها له أمامي، فإن يشهد لك إنسان على أمر ما قضية سهلة جداً، تلتقي أمامي معه وينطق تسمع بأذنك شهادته، أما

كيف يشهد الله لك أن هذا الإنسان رسوله ؟ ما تعريف شهادة الله لرسله أنّهم رُسُله ؟ جواب ذلك أن: شهادة الله لرسله تكون عن طريق المعجزات، فالمعجزة بحدِّ ذاتها شهادة الله لرسله أنهم رسله، يقول إنسان: أنا رسول الله، ما الدليل ؟ يقول: هذه العصا، الآن هي عصا، يلقيها أرضاً فإذا هي ثعبانٌ مبين، نَزَعَ يده فإذا هي بيضاءٌ للناظرين، يتكلم في مهده وهو صغير ! عمره ساعات، فهذه معجزة:

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً (30))

(سورة مريم)

وقال:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69))

(سورة الأنبياء)

انشق الجبل فخرجت منه النّاقة تلك معجزة صالح لثمود، فالمُعجزات شهادة الله للناس جميعاً أن هؤلاء الرُسُل هم رسله.

شهادات من الله جلّ جلاله أن هذا القرآن كلامه:

هنا سؤال يطرح نفسه علينا: هل شهد الله لنا أن هذا القرآن كلامه ؟ طبعاً هناك مئات الشهادات، إحدى هذه الشهادات: أن في القرآن أمراً ونهياً ووعداً ووعيداً، فإذا طبّقت الأمر قطفت ثماراً يانعة، وإن وقعت في النهي دفعت ثمناً قد يكون غالباً باهظاً، فحينما يقول الله عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً (97))

(سورة النحل: آية " 97 ")

الحياة الطيّبة التي يحياها المؤمن شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً (124))

(سورة طه: آية " 124 ")

المعيشة الضَنْك التي يحياها المعرض عن ربه شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، حينما يأتي المرابي فيخسر ماله كله دفعةً واحدة، دمار ماله كله شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه لأن الله يقول:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا (276))

(سورة البقرة)

حينما يأتي المُتَصَدِّق فيدفع الصدقة فيضاعف الله له أمواله أضعافاً كثيرة، مضاعفة المال له شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، هذا أكبر دليل على أن هذا القرآن كلامه.

يحالفك التيسير حينما تبني حياتك على العطاء وتؤمن بالله:

إذا طبّقت الأمر وانتهيت عما نهى الله عنه، ترى أن الأحداث كلّها تجري وفق منهج الله، وتحيا حياةً طيبة:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل)

متى تجد التيسير ؟ ترى التيسير عجيباً فكل شيء مُيَسَّر، الإشارات كلها خضراء، أي الطريق سالك، لا تقف أبداً، يحالفك التيسير حينما تبني حياتك على العطاء، وتؤمن بالله، وتتقي الله فلا تعصيه.

(أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6))

صار التيسير لنا قريناً في كل شؤون حياتنا، وحينما نقطف ثمرة أي أمر تَعَبَّدْنا به الله فهذه الثمرة هي في الحقيقة شهادة الله للمؤمن أن هذا القرآن كلامه، وحينما يرتكب الإنسان معصيةً فالثمن الذي يدفعه شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، هذا نوع من أنواع الإعجاز.

في هذا القرآن آيات ولو كانت من كلمتين إلا أن دلالتها مؤكدة ومعناها محقق:

لو كنت في غرفة تطل على ميناء بحري، وقال شخص لك: أنا مدير الميناء، وكل هذه البواخر بإمرتي حتى المُغادِرة، فرأيت باخرة ضخمة جداً بدأت تُغادر الميناء، فمن أجل أن تتأكد أنه فعلاً مدير الميناء، تقول له: هل بإمكانك أن توقف هذه الباخرة ؟ يقول لك: نعم، يتصل بها فإذا هي تقف، قلت له: أعدها إلى الميناء، قال لك: سأعيدها، اتصل بها: أعادها إلى الميناء، فلما وقفت هذه الباخرة العملاقة التي حمولتها مليون طن، وقفت ثم عادت، معنى ذلك أن كلامه صحيح، والدليل إيقاف هذه الباخرة الضخمة وعودتها إلى الميناء، إنسان واقف في الميناء وقال لك: أنا مدير الميناء العام ! فقلت له: أحقاً ما تقول ؟ فقال: أنا معي الدليل، قلت له: هذه الباخرة الضخمة التي أقلعت الآن وسارت باتجاه الغرب، هل بإمكانك أن تعطيها أمراً فتقف ؟ يقول لك: نعم، أعطاها أمراً فوقفت،

هل بإمكانك أن تعيدها إلى الميناء؟ قال لك: نعم، أعطاها أمراً آخر فرجعت، معنى هذا أن كلامه صحيح، ماذا أردت من هذا المثل ؟ أردت أن ترى أن في هذا القرآن آيات ولو كانت مثل هذه الآية من كلمتين أو أكثر:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا (276))

(سورة البقرة)

إلا أن دلالتها مؤكدة، ومعناها محقق، وهي دليل قاطع، فأنت مثلاً قد تجد شخصاً معه مئة مليون، غُرِّمَ بمبلغ من المال يقدر بمئة وثمانين مليوناً، بسبب ارتكابه غلطة بسيطة، فهل من المعقول أن يفقد إنسان ماله كله دفعة واحدة ولا يبقى لديه شيء ؟ نعم ! قال الله تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا (276))

(سورة البقرة)

ثلاث كلمات في الآية، مطبوعة بحرف صغير:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا (276))

(سورة البقرة)

معنى ذلك أن الذي أنزل هذا الكتاب وأمر فيه ما أمر ونهى فيه عما نهى هو الذي دمَّر ماله.

كل وعد في القرآن وكل وعيدٍ وكل أمرٍ وكل نهيٍ حينما تُطبّقه تقطف ثماره :

اصطلح أحدهم مع الله عزّ وجل، فتغيرت أموره بعد أن اصطلح مع ربه، شعر بسعادة، شعر بطمأنينة، شعر بتوفيق، أموره ميَسّرة، الطرق كلها سالكة، صار بيته جنة، يقرأ الآية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً (97))

(سورة النحل: آية " 97 ")

هذه الآية الصغيرة هي من عند الذي جعل حياته طيبة، جعل بيته سعيداً، جعل أولاده أبراراً، جعل عمله موفقاً، شيء دقيق جداً، فكل وعد في القرآن، وكل وعيدٍ، وكل أمرٍ، وكل نهيٍ، حينما تُطبّقه تقطف ثماره، قطف ثماره دليل أنه كلام الله.

أحد الناس أشرك بالله فامتلأ قلبه خوفاً:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللّهِ (151))

(سورة آل عمران: آية " 151 ")

هذا الخوف الذي أكل قلب هذا الخائف دليل على أن هذا القرآن كلام الله، هذا أحد الأدلة، هذه شهادة الله لنا أن هذا القرآن كلامه.

إذا قرأت كلام الله آيةً آية تجد أن الأحداث كلها تتحرك وفق منهج الله :

المسلمون في البدايات، عشرات الألوف في الجزيرة، بدو رُحّل متخلّفون بالمقياس الحضاري، ليس عندهم علم، ولا جامعات، ولا أجهزة، ولا تطوّرات، ولا تكنولوجية، كيف استطاعوا أن يفتحوا المشرقين وأن يصلوا إلى أطراف الدنيا، وأن يصلوا إلى مسافة قريبة من باريس، وإلى مشارف الصين، وأن تدين لهم الدنيا من أطرافها ؟ سرّ ذلك أنهم أقاموا الدين في قلوبهم وترجموه عملاً وسلوكاً! قال الله تعالى:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ فِي الْأَرْضِ (55))

(سورة النور: آية " 55 ")

معنى ذلك أن هذا القرآن كلامه:

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنّ لَهُمْ دِينَهُمُ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي (55))

(سورة النور: آية " 55 ")

أيها الأخوة، إذا قرأت كلام الله آيةً آية تجد أن الأحداث كلها بدءاً من المجرّات إلى السماوات، إلى الأمطار، إلى البحار، كُلّها تتحرك وفق هذا المنهج، لذلك فإن وقوع الوعد والوعيد شهادة الله لنا أن هذا القرآن كلامه، قال تعالى:

(بَلْ كَذّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ (39))

(سورة يونس: آية " 39 ")

قال علماء التفسير: التأويل وقوع الوَعْد والوعيد.

الإيمان و الإخلاص سببان رئيسان للنصر :

أيها الأخوة أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون الواحد منا صادقاً، فإذا تعامل مع الله بصدق فو الله يرى العجب العُجاب، والله يرى الشيء الذي لا يُصَدّق، لأن هذا القرآن كلامه سبحانه، الله عزّ وجل قال:

(وَإِنّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173))

(سورة الصافات)

لا يمكن ومن رابع المستحيلات أن تكون جندياً لله وأن تُهْزَم، ذلك مستحيل، فإذا لم تنتصر فاعلم أن جُنْدِيّتك لله قد اختلت، إن لم تنتصر فاعلم علم اليقين أن جنديتك لله قد اختلت، دعا إنسان إلى الله فلم تنجح الدعوة ومُنعت، فيقول: الأمر ليس بيدي ؟ نقول له: لا، اقرأ قوله تعالى:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51))

(سورة غافر)

هل تجد أدق من هذا الكلام ؟

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (51))

(سورة غافر)

معنى ذلك حينما تكون مؤمناً حقاً وحينما تكون مخلصاً حقاً لا بدَّ من أن تنتصر، ما من إلهٍ إلا الله، ليس في الوجود إلا الله عزّ وجل.

الله وحده فعالٌ لما يريد:

الله تعالى هو الفعال وحده:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16))

(سورة البروج)

الله وحده فعالٌ لما يريد، أما الإنسان قد يُريد آلاف الأشياء، وقد يحال بينه وبين ما يُريد، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82))

(سورة يس)

إذاً:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ (23))

إخواننا الكرام، أحياناً يكون للإنسان قضية في القضاء ومضى عليها ثماني سنوات مثلاً، ودفع مئات الألوف للمحامي، يقول له المحامي: نجحت الدعوى، كيف ؟ يقول له: وجدت اجتهاد بمحكمة النقض لصالحك، هل من المعقول أن أربع كلمات مطبوعة بمجلة تملأ قلب المحامي ثقة أن الدعوى نجحت.

القرآن أمامك، كلام رب العالمين، كلام خالق السماوات والأرض، الذي خلق مجرةً تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية هو الذي أنزل هذا الكتاب، هذا الكتاب من عند خالق الكون، فأيهما أشدُ مصداقيةً عندك ؟!! اجتهاد محكمة النقض قد ملأ قلبك سروراً، يقول لك: ربحنا الدعوى، كيف ربحتها؟

هل ظهر الحكم ؟ لا، ولكن المحامي طمأنني، المحامي قال لي: هناك اجتهاد في محكمة النقص لمصلحتك.

إذاً: إن إنساناً اجتهد اجتهاداً صادراً عن محكمة النقص، وطبع في المجلة، واطلع عليه المحامي، وبلّغ الموكل به، وقال له: ربحنا الدعوى، فأفرحَ الموكل، فكيف إذا صدر الوعد من الله تبارك وتعالى لك أيها المؤمن ؟ فأيهما يبعث الأمل والرجاء والطمأنينة في قلب صاحبه ؟ إقرار محكمة ؟ أم وعد خالق السماوات والأرض ومن بيده الأمر كله ؟

آيات من القرآن الكريم تؤكِّد أن الأمر بيد الله :

قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

بيده ملكوت السماوات والأرض:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54))

(سورة الأعراف)

وقال:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف)

وقال:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (10))

(سورة الفتح: آية " 10 ")

وقال:

(اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

وقال:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54))

آياتٌ كثيرة تؤكِّد أن الأمر بيد الله.

قضية القرآن الكريم قضية مصيرية فهو منهج الله سبحانه :

إذا كان خالق الكون طمْأنك وقال لك: أنت ما دمت مؤمناً ولك عملٌ طيب فلك عندي حياة طيبة، بكل الأحوال، في كل الظروف، في كل المناسبات، في كل الأقاليم، بأي بلد، بأي نظام، ما دُمْتَ مع الله، فالله معك.

كن مع الله تَرَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه؟ ثم من يعطي إذا ما منعك ؟

* * *

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولُذ بحمانا واحتمِ بجنابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

أيها الأخوة الكرام: قضية هذا القرآن الكريم قضيةٌ مصيرية، هذا منهج الله، هذه تعليمات الصانع، لو كان عندك حاسوب وتعطّل ولك جار تحبه حباً لا حدود له يعمل في بيع الخضر مثلاً هل تكلفه بأن يصلحه لك مع حبك الشديد له ؟ هذه ليست مهنته، تبحث عن الخبير، تبحث عن الوكالة، فلماذا في شؤون سعادتك الأبدية لا تبحث عن الخبير ؟

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

كلّما تقدّم العلِم تطابق مع القرآن :

أيها الأخوة الكرام:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

" لم، ولن "، لم لنفي الماضي، ولن للنفي على التأبيد أي المستقبل:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

لم تستطيعوا أن تفعلوا في الماضي، ولن تستطيعوا أن تفعلوا بالمستقبل، والدليل: أنه مضى على إنزال هذا القرآن أكثر من ألفٍ وأربعمئة عام، هل استطاع العِلم كله في الأرض أن يأتي بشيءٍ يُناقض هذا القرآن ؟

بالعكس كلّما تقدّم العلِم تطابق مع القرآن، يعني:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(سورة الرحمن)

أين هذا البرزخ ؟ يلتقي البحران البحرُ الأحمر والبحر الأبيض في قناة السويس، وجد عُلماء البحار أن للبحر الأحمر كثافةً وله مقومات، وله مكونات، وله درجة ملوحة تختلف عن البحر الأبيض، ويلتقي البحر الأبيض بالمحيط الأطلسي في مضيق جبل طارق، ومكونات المحيط الأطلسي وكثافته وملوحته تختلف اختلافاً بيّناً عن كثافة وملوحة ومكونات البحر الأبيض، ويلتقي البحر الأحمر بالبحر العربي في مضيق باب المَنْدَب.

بعض الأدلة عن إعجاز القرآن الكريم:

قال تعالى:

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

هذه الآية لم تُفَسَّر إلا بعد اختراع السُفُن الفضائية، فقد وجِدَ عن طريق التصوير الفضائي العالي خط بين كل بحرين ـ خط وهمي ـ هو فرق كثافة، فرق لون، فلما بحثوا وجدوه، لذلك أسلم أحد علماء البحار على ضوء فهمه دلالات هذه الآية، هذا من إعجاز القرآن الكريم، الأرض ؛ كانت قناعة الناس أن الأرض مُنْبَسِطة لكن الله عزّ وجل قال:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

(سورة الحج)

لماذا لم يقل بعيد ؟ مع أن بعيد أقرب للذهن ؟ إنك كلما ابتعدت عن إحدى نقاط الكرة صار هناك عُمْق:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

(سورة الحج)

بالنسبة للكرة العمق هو البعد عندما تكون المسافة بعيدة جداً، أما المسافة القصيرة فإن الخط مستقيم، أنت إذا ذهبت إلى دوما مثلاً تجد أن الخط مستقيم، أما إذا ذهبت إلى أمريكا سوف تدور نصف دائرة بالضبط، فصار البعد في الكرة هو العمق، هذا كلام خالق الكون.

أدلة أخرى عن إعجاز القرآن الكريم:

يركب أحدهم الآن سيارة فخمة جداً أو يركب طائرة من أحدث الطائرات ثُقِل ستمئة وستين راكباً أو يركب باخرة ثُقِل مليون طن، يقرأ قوله تعالى:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً (8))

(سورة النحل: آية " 8 ")

أين الخيل والبغال والحمير ؟ أنا أركب سيارة فخمة جداً ثمنها أربعة وعشرون مليوناً قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

إذاً هو كلام خالق الكون:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

وأنت في الطائرة:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

وأنت في سيارة فخمة:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

وأنت في يختٍ ضخمٍ:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

من إعجاز القرآن العلمي:

لو أنّه من كلام النبي عليه الصلاة والسلام لاكتفى بالقول: والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، انتهى، هذا الذي كان في عهد النبي، أما لأنه كلام خالق الكون:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

حينما يصعد الإنسان إلى أعالي الطبقات، طبعاً يقلّ هناك الأوكسجين، لذلك تضخ الطائرات ثمانية أمثال حجمها من الهواء ليكون الضغط فيها كالضغط في الأرض، تلاشى هذا الضغط لسبب أو لآخر لا بد من هبوط الطائرة في أي مكان في الأرض وإلا يموت الركاب جميعاً، فهذا هو الضيق الذي يَحْصَل للإنسان إذا ركب طائرةً مُخَلْخَلة، قال تعالى:

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ (125))

(سورة الأنعام: آية " 125 ")

هل صعد إنسان واحد في عهد النبي إلى السماء ؟ الآن صعدنا إلى السماء، هذا من إعجاز القرآن العلمي.

ما كانوا يستطيعون قياس المسافات البعيدة، الآن تُقاس المسافة بين الأرض والقمر بالمليمتر عن طريق أشعة الليزر، وتجد الآن أجهزة مع المهندسين يضعُها أمام الحائط فتكشف له على الشاشة المسافة بالمليمترات، تُرسل هذه الأشعة إلى الجدار وترجع فتقيس المسافة، بعد اختراع هذه الأشعة ـ أشعة الليزر ـ أمكن قياس الأبعاد بدقةٍ متناهية، فاكتُشف أن أعمق نقطةٍ في الأرض اليابسة غور فلسطين، وقد جاءت الروايات التاريخية تشير إلى أن المعركة الشهيرة التي جرت بين الروم والفُرس كانت في غَوْر فلسطين، وقد قال الله عزّ وجل:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

(سورة الروم)

في الآية إعجازان: إعجاز علمي، وإعجاز إخباري، كيف يشهد الله لنا أن هذا القران كلامُه ؟ عن طريق الإعجاز.

أدلة أخرى عن الإعجاز العلمي للقرآن:

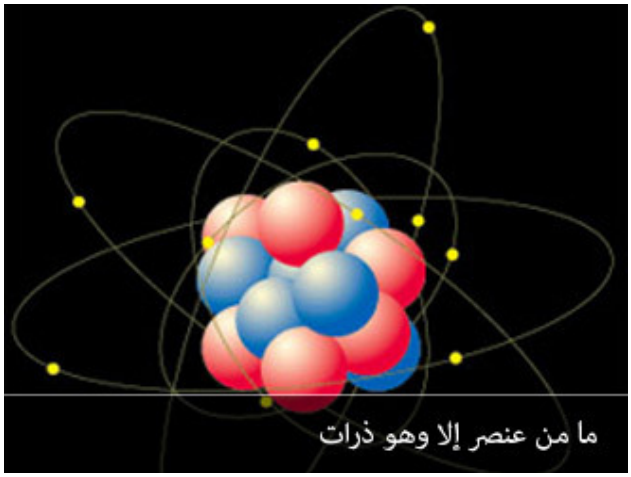

اكتشف الآن أنه ما من شيءٍ في الكون إلا وهو ذرات، والذرات كهارب تدور في مدارات متعددة حول نويّات، أن ترى هذا الخشب جامداً وكذلك هذا الحجر ولكن كل شيءٍ يدور هذا نظام الذرة، نظام الذرة كالمجرة، قال تعالى:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

(كُلٌّ)

هذه تفيد الشمول المُطْلَق:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

بعد أن اكتشفت الذرة وجِد أنه ما من عنصر ؛ الحجر البازلتي، الحجر، الخشب، الصخر، الماء، الهواء إلا وهو ذرات وكهارب على مدارات حول نويّات، هذا العنصر الصُلب مثلاً يحوي على مداره الخارجي ثلاثة كهارب، هذا عنصر غازي عليه أربعة كهارب، بين عنصرٍ غازي وعنصر

صلب الفرق كهروب واحد فقط، هذا شيء يعرفه مَن درس فيزياء في الكتاب المقرر لطلاب الشهادة الثانوية، يعرف هذا الشيء، شيء طبيعي، قال:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

المرأة لا علاقة لها إطلاقاً بنوع الجنين ونوع الجنين يتحدد من الذكر:

اكتُشف الآن أن جنس الجنين يتحدَدُ من الحوين لا من البويضة، والمرأة لا علاقة لها إطلاقاً بنوع الجنين، فهذا الذي يُطلِّق امرأته لأنها أنجبت له بنتاً أحمق وجاهل، لأن امرأته لا علاقة لها إطلاقاً بنوع الجنين، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

من نطفة فقط، كون الجنين ذكر من الزوج، كونه أنثى من الزوج، يوجد بالمورثِات كروموزونات و Y وX ، الـ X ذكر و الـ Y أنثى.

على كلٍ:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

وقال:

(فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5))

(سورة السجدة: آية " 5 ")

الآية التالية هي النظرية النسبية التي جاء بها أينشتاين وملأت الدنيا صياحاً وضجيجاً:

قال تعالى:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج: آية " 47")

اكتشف العلماء الآن مدلولات بعض الآيات الحسابية، وبيان ذلك في الفقرة التالية: نحن نعدُّ السنوات عن طريق القمر، يدور القمر حول الأرض دورةً كل شهر، لو أخذنا مركز الأرض ومركز القمر وقسنا المسافة بينهما لعرفنا نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، عن طريق القانون الرياضي نعرف المحيط من نصف القطر، كشفنا محيط الدائرة، (يدور القمر حول الأرض دورةً كلَّ شهر) × 12 (يعطينا ما يقطعه القمر حول الأرض في سنة)× 1000 يعطينا ما يقطعه القمر حول الأرض في ألف عام هذه هي المسافة، لو قسّمناها على الزمن، (وَإِنَّ يَوْماً) اليوم أربع وعشرون ساعة، والساعة ستون دقيقة، والدقيقة ستون ثانية، لو ضربنا أربعاً

وعشرين × ستين × ستين وقسّمنا المسافات الكيلو مترية التي يقطعها القمر في دورته حول الأرض في ألف عام على عدد ثواني اليوم لوصلنا إلى سرعة الضوء في الدقيقة: مئتين وتسعة وتسعين ألفاً وثمانمئة واثني عشر كيلو متر في الثانية، هذه النظرية التي ملئوا بها الدنيا صياحاً وضجيجاً ـ النظرية النسبية التي جاء بها أينشتاين ـ في هذه الآية:

(وَإِنّ يَوْماً عِنْدَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج)

الإحكام الحسابي من الإعجاز في القرآن :

قال تعالى:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الرّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

السماء كل ما علاك فهو سماء، كيف وصف الله السماء كلّها بكلمةٍ واحدة ؟

(ذَاتِ الرّجْعِ (11))

ثبت الآن أن كل كواكب الكون تدور حول بعضها في مساراتٍ مغلقة، ومعنى مسار مغلق: أي أن هذا الكوكب يرجع إلى النقطة الأولية التي انطلق منها، قال تعالى:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الرّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

طبعاً آيات إعجاز القرآن الكريم لا تعدُّ ولا تحصى، هذه نماذج، من منكم يصدِّق أننا إذا نسبنا عدد كلمات البر في القرآن إلى عدد كلمات البحر في القرآن لكانت تساوي نسبة البرّ إلى البحر بالتمام والكمال ؟ من يصدق أن عدد كلمات الملائكة بعدد كلمات الشياطين ؟ وأن كلمات الدنيا بعدد كلمات الآخرة ؟ هذا الإحكام الحسابي شيء لا ينتهي، موضوع ثانٍ.

والله أيُّها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو لو تأمّلت هذا القرآن من خلال إعجازه لآمنَت كلُّ خليّةٍ في جسمك، كل خليّة، ولآمنت كل قطرةٍ في دمك أن هذا القرآن كلام الله، قد يقرأ الإنسان في الجريدة خبراً أو تصريحاً لمدير مؤسسة مؤلفاً من خمس كلمات، أن هناك احتمالاً بالسماح باستيراد السيارات، ينخفض سعر كل سيارة مئتي ألف ليرة بسبب خمس كلمات في جريدة وتصريح غير مؤكد، هل من المعقول أن ينخفض السعر مئتي ألف ليرة لكل سيارة لورود تصريح مقداره خمس كلمات في جريدة.

يهجر القرآن حينما تُهْجَر أحكامه وحينما يبقى تراتيل:

يوجد في القرآن الكريم العدد الكبير من الأوامر والنواهي أو الوعود، والناس في واد وهذا القرآن في واد:

(يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30))

(سورة الفرقان)

قرؤوه في المناسبات، قرؤوه في التعازي، قرؤوه وتلوه في الإذاعة ولكنهم هجروا أحكامه. المُصْحَف في مقدّمة المحل التجاري، وتوضع آيات كثيرة:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1))

(سورة الفتح)

فَهم الفتح المبين أن يربح فقط، وبخط عريض واضح كتب على واجهة المحل:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

وترى سلوك صاحب المحل في وادٍ والقرآن في واد، يوضع المصحف أمام السائق في السيارة وهي تنطلق من مكان إلى مكان لا يُرضي الله أبداً، يهجر القرآن حينما تُهْجَر أحكامه، حينما يبقى تراتيل، و قرئ القرآن الكريم في باريس على أنه فلكلور شرقي، قُرئ في باريس في حفل كبير لا على أنه كلام الله، لا على أنه منهج الله، بل على أنه فلكلور شرقي، هكذا:

(يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30))

(سورة الفرقان)

لتعلم يا أخي أن حياتنا وسعادتنا بهذا الكتاب، حياتنا وفلاحنا في تطبيق هذا الكتاب، القرآن الكريم منهج كامل، اختصر الناس الدين لخمس عبادات شعائرية، ولكن في الدين غض بصر، وصدق، و أمانة، ووفاء بالوعد، وإخلاص، اقرأ القرآن، ستمئة صفحة من عند خالق الأكوان ألا ينبغي أن نقرأه وأن نستمع إلى تفسيره وذاك هو الحد الأدنى.

النار ودرجات غليانها:

قال تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا (24))

هذه في الماضي:

(وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

بالمستقبل:

(فَاتّقُوا النّارَ الّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدّتْ لِلْكَافِرِينَ (24))

النار أيها الأخوة، وما أدراك ما النار ! الشموس، أبدأ الكلام الآن عن شموس حمراء اللون، والنجوم البعيدة بيضاء، انظروا إليها في الليل تجدوها بيضاء، ويوجد الآن ثقوب سوداء، يمر الكوكب المُلتهب بمرحلة الاحمرار إلى الابيضاض إلى السواد، وكل مرحلة تتضاعف فيها الحرارة ملايين المرّات، شمسنا حمراء حيث أنها في البدايات، ولكن هناك شموساً بيضاء تنكمش وتصبح بيضاء اللون، وبعد ألف عام تصبح هذه الشمس سوداء، وهناك ثقوب فيها ضغطٍ عالٍ جداً، لو دخلت الأرض أحد هذه الثقوب لأصبحت بحجم البيضة مع وزنها نفسه، ورد في صحيح:

((أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليه ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة))

[للبزار من حديث أنس وهو ضعيف]

الإنسان يعيش في زمن سينقضي بالموت وبعدها سيُحاسب على كل حركةٍ وسكنةٍ:

إذا وضعت الحجر البازلتي وهو آخر العناصر انصهاراً فإنه يذوب في النار:

(وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجَارَةُ (24))

هل تعلم يا أخي أن أهل الخبرة يصنعون أرض الأفران الآن من الحجر الأسود أي البازلتي، قلّما ينصهر هذا الحجر، أما في نار جهنم فهو يصبح سائلاً، لو أن الأرض أُلقيت في الشمس لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة، حرارة الشمس في ظاهرها ستة آلاف درجة، وفي أعماقها عشرون مليون درجة، هذه شمس الأرض الحمراء وليست السوداء، الحمراء عشرون مليون درجة، قال:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتّقُوا النّارَ الّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدّتْ لِلْكَافِرِينَ (24))

قال الله عزّ وجل :

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّارِ (175))

(سورة البقرة)

هذا كلام خطير يا أخوان، كلام خطير جداً، الكلام الخطير تسمعه فتبدأ متاعبك، أنت مسؤول، أنت تعيش في زمن سينقضي بالموت، وبعدها تُحاسب على كل حركةٍ وسكنةٍ، وعطاءٍ ومنعٍ، وزواجٍ وطلاقٍ، وغضبٍ وتربيةٍ، كله مُحَاسب عليه، فإذا كان معك دليل أن هذا القرآن ليس كلام الله فأتني به ؟ أما إذا كانت الأدلة كلُّها تقول على أنه كلام الله فماذا تفعل ؟!

لن يستطيع أعداؤنا أن ينتصروا علينا إلا إذا تركنا هذا القرآن :

لو قرأ أحدهم بلاغاً بمنع التجوّل وتحت طائلة إطلاق الرصاص ، قرأه ثم لم يتحرك ولم يدخل إلى بيته فإنه يكون مجنوناً ، فإذا خالف هذا البلاغ فإنه يُقتل ، فإذا قرأه وقال : والله الخط جميل ، والله التوقيع جيد ، انظروا إلى الحبر لونه جيد جداً ، الورق ثمين جداً ، وغير متوفر ، من أين أتوا به ؟ إذا انصرف عن مضمون البلاغ ، وتوجَّه إلى جزئياتٍ ليس لها علاقة بمضمون البلاغ إطلاقاً فإنه يكون أحمق ، هذا القرآن منهج لكنا نقرؤه على الأموات ، نقرؤه في المناسبات ، نقتنيه تحفة من المتحف ، علماً أنَّه منهج للتطبيق ، للعمل به .

رأى سيدنا عمر رجلاً يقرأ القرآن ويبدو أنه لا يعمل به ، فقال : " قتلهم الله إنما أنزل هذا القرآن ليُعْمَل به أفتخذت قراءته عملاً ؟ أفتخذت قراءته عملاً ؟ " يجب أن تعمل به لا أن ترتزق منه ، هذا منهجنا وهذا كلام ربنا .

لن يستطيع أعداؤنا أن ينتصروا علينا إلا إذا تركنا هذا القرآن ، هذا ما قاله أحد كبار الوزراء في بريطانيا قال : " مادام هذا الكتاب بين أيديهم لن تستطيعوا أن تنتصروا عليهم " ، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))

[البخاري عن عثمان]

خيركم ، وقال الله عزّ وجل :

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

(سورة الفرقان)

الجهاد الدعوي من أعظم أنواع الجهاد :

سمَّى ربنا تعلم القرآن وتعليمه جهاداً كبيراً ، هذا الجهاد الدعوي من أعظم أنواع الجهاد ؛ أن تُرَسِّخ معاني هذا الكتاب ، أن تُقنع الناس بأحقية هذا القرآن ، أن تحملهم على تطبيق أحكامه ، أن تحملهم على اتباع أمره ونهيه ، هذا هو الذي نريده ، أرجو الله سبحانه وتعالى أن نوَفَّق في درسٍ قادم إلى متابعة هذه الآية :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (13- 95):تفسير الآيات 23-25، العلم والعمل طريقا الجنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-09-18

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن) تفيد احتمال الوقوع، أما (إذا) تفيد تحقق الوقوع:

مع الآية الثالثة والعشرين والتي تليها، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ (23))

(إن) أيها الأخوة تفيد احتمال الوقوع، أما (إذا) تفيد تحقق الوقوع:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1))

(سورة النصر)

لا بدَّ من أن يأتي نصر الله:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ (6))

(سورة الحجرات: آية " 6 ")

قد يأتي وقد لا يأتي، فـ (إن): تفيد احتمال الوقوع، و(إذا) تفيد تحقق الوقوع:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ (23))

الريب: هو الشك، لماذا يرتاب كفار مكة برسالة النبي ؟ مع أن أعداء النبي عليه الصلاة والسلام وصفوه بالصادق والأمين ما جربوا عليه كذباً قط، أيعقل ألا يكذب على الناس ويكذب على الله ؟ كان المشركون يضعون عنده مالهم، يثقون به إلى درجةٍ أنه لمَّا هاجر أبقى ابن عمه علي ابن أبي طالب ليردَّ الأموال إلى أصحابها، فهو عندهم أمين، وهو عندهم صادق، وكان اسمه في قريش: الأمين، فلماذا يتهمونه بهذه الرسالة ؟ ويقولون عنه إنه كاذب ؟ وهو لم يتلقَّ علماً قط:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48))

(سورة العنكبوت)

أتى بكلامٍ معجز لا يستطيع أن يأتي بمثله فصحاء العرب، فمن أين جاءهم الريب ؟ قال بعض العلماء: هذا ريبٌ نفسي وليس ريباً عِلمياً، كانوا يتمَنَّوْن أن ينزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم، هم لهم مقاييس، مقاييسهم المال والجاه، ولكن مقاييس الله عزَّ وجل غير مقاييس البشر، وهذا معنى دقيق نحتاجه اليوم.

المراتب عند الله تنالها بالعلم والعمل فقط:

في كل مجتمع يوجد أشخاص أغنياء، أشخاص أقوياء، أشخاص وجهاء، هؤلاء قمم بموازين المجتمع، ولكنهم قد لا يكونون كذلك عند الله:

((رب أشعث أغبر ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة]

أنت قد تكون عبداً ذا دخلٍ محدود، ليس لك شأنٌ كبير، لا أحد يفتقدك إذا غبت، ولا أحد ينتبه إليك إذا حضرت، هؤلاء سمَّاهم النبي الأتقياء الأخفياء: إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا:

((إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يدعوا))

[ابن ماجة عن معاذ]

ومع ذلك قد تكون عند الله بمنزلةٍ عاليةٍ جداً، هم أرادوا هذه النبوَّة لرجلٍ من القريتين عظيم، له مالٌ وفير، وشأنٌ كبير، ونسبٌ عريق، ولكن الله سبحانه وتعالى يرفع من عباده من يشاء ويخفض من يشاء، فالبطولة أيها الأخوة أن تكون عند الله ذا مرتبةٍ عالية، المراتب عند الله تنالها بالعلم والعمل فقط:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر: آية " 9 ")

وقال:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11))

(سورة المجادلة)

وقال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا (132))

(سورة الأنعام: آية " 132 ")

معنى الحكمة:

عند الله مقياسان فقط ؛ مقياس العلم ومقياس العمل، دقق النظر والفكر:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

(سورة البقرة)

الحكمة خير كثير، يصف الله العظيم جلَّ جلاله هذا الخير بأنه كثير، ما الحكمة ؟ الحكمة بالتعريف الجامع المانع أن تعرف الحقيقة وأن تعمل وفقها، إن عرفتها ولم تعمل وفقها فلست حكيماً، أنت عالم، متعلِّم، مثقف، ولكنك لا تكون حكيماً إلا إذا تطابق السلوك مع ما تعرف من العلم، إذا تعلَّمت وانتفعت بما تعلَّمت، إذا عرفت وجاء السلوك اليومي موافقاً لهذه المعرفة، إذا عرفت الحقيقة الكبرى وجاءت الحركة اليومية موافقةً لهذه الحقيقة فأنت حكيم.

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ (269))

(سورة البقرة)

بنص القرآن الكريم:

(فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً (269))

(سورة البقرة)

الإنسان ينتفع بالحكمة إلى أبد الآبدين ولكنه لا ينتفع من المال الكثير إلا بالقليل:

ما هو خير الدنيا ؟ شخص معه ألف مليون، عنده خمسمئة دونم، عنده بيوت لا يعلمها إلا الله، عنده أموال منقولة وغير منقولة، عنده أرصدة بالبنوك الأجنبية بالمليارات. قال الله تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (77))

(سورة النساء: آية " 77 ")

وازن بين الآيتين:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (77))

(سورة النساء: آية " 77 ")

متاع قليل لأنه منقطع بالموت، يأتي الموت فلا يَدَعُ لك شيئاً إلا أمتاراً من أرخص أنواع الأقمشة، خام، غير مقصور، أسمر ـ هذا هو الكفن ـ لا تأخذ معك شيئاً، لذلك فالشيء المنقطع غير كثيرٍ، ولو ضاقت عنه الدنيا، لأنه منقطع، الآيتين:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (77))

(سورة النساء: آية " 77 ")

وقال:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً (269))

(سورة البقرة)

إنك تنتفع بالحكمة إلى أبد الآبدين، ولكنك لا تنتفع من المال الكثير إلا بالقليل، ما تأكل، وما تشرب، وما ترتدي من ثياب، سرير تنام عليه، بيتٌ يؤويك.

العبرة أن تكون عند الله كبيراً:

سأل ملك جبار وزيره ذات مرة: من الملك ؟ فانخلع قلب الوزير وقال له: أنت الملك، هل في الأرض ملكٌ غيرك ؟ قال له: لا، الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيتٌ يؤويه، وزوجة ترضيه، ورزقٌ يكفيه، إنَّه إن عرفنا جَهدَ في استرضائنا، وإن عرفناه جَهدْنا في إحراجه، فالملك بالمفهوم الدقيق هو الذي عرف الله وكان مستقيماً على أمره فوعده الله بالجنة.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

هم يتمَنَّوْن أن تكون هذه النبوة لرجلٍ من القريتين عظيم بمقياس الأرض، ولكن الله سبحانه وتعالى أعطاها لإنسانٍ صادقٍ، أمينٍ، محبٍ، مخلصٍ، مطيع، فكل بطولتك أن تكون وفق مقاييس الله عزَّ وجل إنساناً مقبولاً عند الله، فهذا الشاب الذي نشأ في طاعة الله، وهذا الموظَّف البسيط الذي يخدم الناس ولا يبتزُّ أموالهم، ولا يوقعهم في حرجٍ شديد، ولا يعقّد عليهم الأمور، قد يكون في أدنى مرتبة في الدنيا، ولكنه عند الله كبير، هذا التاجر الصدوق الذي يعلّم الناس درساً في الورع والاستقامة والصدق والأمانة إنه عند الله كبير، إنسان له دخلٌ محدود يسعى لنشر الحق هو عند الله كبير، العبرة أن تكون عند الله كبيراً، كان من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام: **" اللهم أرني بعين نفسي صغيراً، وبأعين الناس كبيراً ".**

هناك أشخاصٌ كثيرون هم عند الناس صغاراً لكنهم عند أنفسهم كُبَاراً، هذا مرض العُجب والكِبر.

أعلى مرتبة في الدين مرتبة العبودية لله وهي التي وصل إليها النبي الكريم:

أيها الأخوة:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا (23))

أعلى مرتبة في الطب أن تحمل بورد، أو (إف آر إس) من بريطانيا، أو (أكريجيه) من فرنسا، هذه أعلى شهادة بالطب، أعلى شهادة في الآداب أن تحمل دكتوراه دولة وتأخذ عليها جائزة نوبل مثلاً، هذه مراتب الدنيا، رجل ألّف إنتاجاً أدبياً فقُدِّر عالياً إلى درجة أنه منح عليه جائزة نوبل، لكن يا ترى ما هي أعلى مرتبة عند الله عزَّ وجل ؟ أعلى مرتبة في المال أن يكون معك آلاف الملايين بالعملات الصعبة الغالية جداً ـ آلاف الملايين ـ الذي اخترع الكمبيوتر ويقود الآن صناعة متفوقة فيه، حجمه المالي الآن ثلاثين مليار دولار، هذه مرتبة مالية عالية، وهناك مرتبة علمية كأينشتاين الذي جاء بالنظرية النسبية، وهناك مرتبة إدارية كالذي يتربَّع على عرش أقوى دولة في العالم هو في قمة هذا المجتمع، لكن ما هي أعلى مرتبة في عالم الدين ؟ أعلى مرتبة هي التي وصل إليها النبي، مرتبة العبودية لله، أن تكون حقاً عبداً لله:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا (23))

أنت في أعلى درجة عند الله حينما تكون عبداً له، معنى عبد: انصياعٌ كامل، حبٌ كامل، إخلاصٌ كامل، رضى بقضاء الله وقدره، طُمأنينة إلى وعد الله:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

الله عزَّ وجل وليّ دينِهِ وهو ينصره دائماً بطريقةٍ أو بأخرى:

كان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام في أثناء الهجرة ملاحَقاً وقد هُدِرَ دمه، ووضعت قريش مئة ناقة مكافأة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، لحقه سُراقة ليقتله، وليأخذ المئة ناقة، فقال له النبي ـ وإذا كان هناك للدعوة الإسلامية في عهد النبي خطٌ بياني، كان هذا الخط في نهايته الدنيا، أي في أصعب مرحلةٍ مرَّت بها الدعوة، النبي بين مكة والمدينة مهدورٌ دَمُهُ، مُلاحُق، مئة ناقةٌ لمن يأتي به حياً أو ميتاً ـ قال له: كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى ؟ معنى ذلك أن النبي واثق أنه سيصل إلى المدينة سالماً، وسيُؤسس دولةً هناك، وسيحارب الفرس، وستأتيه كنوز كِسْرَى، ووعد سراقة أن يلبسه سواري كسرى.

انظر إلى الثقة بوعد الله عزَّ وجل، وعدك الله بالنصر، وكلما كان إيمانك قوياً فإنه لا يتزعزع ولو سمعت ألف خبر ضد الإسلام، هذا الدين دين الله ولن يتخلى عنه أبداً، ولكن أرجو الله أن يكسبني الشرف فأكون جندياً له، القلق دربي من باب واحد هو خوفي ألا يسمح الله لي ألا أكون جندياً للحق، ألا يقبلني جندياً من جنده، أما هذا الدين فهو دينُه، وهو ناصره، وربنا عزَّ وجل قد ينصر دينه بالرجل الفاجر، وأحياناً يُسَخِّر أعداء الدين لخدمة الدين، ولربما تَنْبُع الدعوة من بلدٍ يحارب الدين، وهذا الذي يحدث الآن في أوروبا وأمريكا، إذ يزداد الوعي فيهما، ويدخل الناس في الإسلام أفواجاً، يصلون إلى مراتب عُليا وهم مسلمون، وهذا الذي يُقْلِقُ الغرب، يقولون: في عقر دارنا أناسٌ من جنسنا مثقَّفون أعلى ثقافة، يحتلون أعلى المناصب يسلمون !! الله عزَّ وجل وليّ دينِهِ وهو ينصره دائماً بطريقةٍ أو بأخرى، ولكن اِقلق إن لم يسمح الله لك أن تنصره، أو أن تكون في عداد جنده، لأن الله عزَّ وجل عزيز:

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38))

(سورة محمد)

معرفة الله و طاعته تثمر إيماناً وتقوى:

هذه الأمة العربية التي شرَّفها الله بالرسالة، وجعلها أمةً وسطاً، إذا قَصَّرت في مهمتها سخَّر الله أمةً أخرى، نحن شرّفنا ربنا بأن جعلنا في أشرف المواقع بين الأمم، وجعل النبي محمداً صلى الله عليه وسلم سيد الخلق وحبيب الحق من جنسنا، تجد إنساناً غير عربي اللسان يقف في الصلاة ويبكي خاشعاً ولعله لا يفهم شيئاً من التلاوة ـ لأن لغته ليست عربية ـ يُسأل: لماذا تُصَلّي أو تحضر

هذه الصلاة الجهرية في المسجد وأنت لا تفهم شيئاً ؟ يقول: ماذا يفهم الطفل الرضيع وهو على صدر أمِّه ؟ يمصُّ ثدييها، وتضمُّه بيديها إلى صدرها وتغمره بحنانها، ماذا يفهم من كلامها ؟ لا يفهم شيئاً، لكنَّه في قمة السعادة، مثله مثل الطفل ذاك، فهذا يصلي ولا يفهم ماذا يُتلى في الصلاة ولكنه سعيد بقربه من الله سعادة الطفل بقربه من أمه، ونحن لغتنا عربية نستمع إلى القرآن صباح مساء، نصلّي خلف الإمام فنفهم قراءته، أيكون هذا الذي لا يتقن العربية أقرب إلى الله منا ؟!!

يا أيها الأخوة، القضية مصيرية والأمور واضحة جداً، هناك في هذا الكَون حقيقة واضحة جداً، حقيقة واحدة هي الله، كل من اقترب من هذه الحقيقة شعر بالأمن، شعر بالطُمأنينة، شعر بالرضا، شعر أن المستقبل له، شعر أن الدنيا صغيرةٌ جداً لا تستأهل أن نهتم لها:

((إنما الدنيا عرض حاضر يصيب منها البر والفاجر وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر))

[الحسن بن سفيان والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس]

((لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

قال لي شخص: مساحة بيتي سبعمئة متر، تجد في هذا البيت كلُّ ما تتمنى ؛ حدائق، شرفات، أبهاء، أثاث فخم جداً، كل وسائل العصر في هذا البيت، أجبته: هذا النبي الكريم الذي هو سيِّد ولد آدم، سيد الخلق وحبيب الحق، كان إذا أراد أن يصلّي قيام الليل، لا تتسع غرفته لصلاته ونوم زوجته، فكانت تنزاح جانباً كي يصلي، معنى ذلك أن مساحة البيت ليست مقياساً لسعادة الإنسان، والدخل ليس مقياساً، كذلك أحد الصحابة وهو سيدنا مصعب بن عمير كان والده غنياً، فلمَّا أعلن إسلامه قاطعه أبوه وطرده ولم يعطه من مال الدنيا شيئاً، كان من أكثر شباب قريش أناقة، كان من أكثرهم غنىً، كان شاباً عطراً، فلما أسلم ذاق ألوان الجوع وألوان العُري، ولما مات رآه النبي وقد كُفِّن بثوب إذا وضع على رأسه انكشفت قدماه، إذا جرَّ إلى قدميه انكشف رأسه، فبكى النبي عليه الصلاة والسلام، هذه الدنيا ليست لها قيمة، قد تكون أمين مستودع، قد تكون ضارب آلة كاتبة، قد تكون بمنصب صغير جداً وأنت عند الله كبير، عند الله مقياس واحد ؛ الذي عَرَفَه وأطاعه معرفة وطاعة أثمرتا إيماناً وتقوى.

النبي الكريم عرف الله واستقام على أمره فتبوأ أعلى مرتبة ينالُها إنسان على الإطلاق:

اقرأ:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

(سورة يونس)

عرف الله واستقام على أمره فتبوأ أعلى مرتبة ينالُها الإنسان على الإطلاق، فكان عبداً لله، واقرأ قوله تعالى:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10))

(سورة النجم)

أين هذا الكلام ؟ عند سدرة المنتهى، في المرتبة التي لم يصل إليها إلا محمدٌ صلى الله عليه وسلم:

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(سورة النجم)

وقال:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10))

(سورة النجم)

وقال:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ (1))

(سورة الإسراء)

الفرق بين العبيد والعباد:

قال تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا (23))

إذاً حينما تتعبد لله حقاً ترتقي إلى أرقى مرتبةٍ في الكون وهي أن تكون عبداً لله، لكن الناس كلهم عبيدٌ لله قولاً واحداً، عبيدٌ لله جميعاً كافرهم ومؤمنهم، معنى العبودية: أن تكون مفتقراً إلى إمداد الله، من منا يقول: أنا لست عبداً ؟ إذا لم تكن عبداً أغلق أنفك، فهل تستطيع ؟ أنت مفتقر إلى هذا النَفَس، فإذا مُنع عنك الهواء ثلاث دقائق تموت، لست عبداً ؟ دع الماء أياماً معدودة يوماً أو يومين يموت الإنسان، لست عبداً ؟ دع الطعام، وجودك مفتقر إلى ما حولك، إلى هواء، إلى ماء، إلى طعام، إلى زوجة، إلى مأوى، إلى رزق، إلى مال تشتري به الطعام، إذاً أنت عبد، هذا العبد المقهور ليس هو المقصود، هذا عبد القَهْر، جمعه عَبيد:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46))

(سورة فصلت: آية " 46 ")

لكن المقصود عَبْدَ الشكر، جمعه عِباد:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً (63))

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

وقال:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ (53))

(سورة الزمر: آية " 53 ")

دليل هذا الكتاب إعجازُه:

العباد هم الذين عرفوا الله، واختاروا طاعته، وآثروا قربه، وعملوا لبلوغ جنَّته، ففرِّق بين العبيد والعباد، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام عبدٌ، عبدٌ لله، لكنه عبدٌ أتاه بمحض إرادته، هو عبد الشُكْر، لا عبد القهر، الملحد عبد لله، بدليل أن وجوده مفتقرٌ للهواء والشراب والطعام، هو عبد ولكنَّه عبدٌ مقهور، العبد المؤمن تعَرَّف إلى الله باختياره، وأطاعه باختياره، فهو عبد الشكر، إذاً:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23))

دليل هذا الكتاب إعجازُه ؛ أي نظم القرآن، صياغة القرآن، لغة القرآن، حروف القرآن، أخبار القرآن، الحقائق العلمية في القرآن، المنهج التربوي في القرآن، أصول العلوم في القرآن، هذه يَعْجَزُ عنها كلُّ البشر، لذلك إعجاز القرآن دليل على أنه كلام الله، وقد كان الدرس الماضي حول إعجاز القرآن الكريم، هناك إعجاز علمي، وإعجاز أدبي بلاغي، وإعجاز إخباري، إعجاز وصفي، وإعجاز أدبي، قال سبحانه:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

الله عزَّ وجل تحدى البشرية كلها بهذا القرآن:

هذا التحدي قائمٌ أبداً، ومَن يستطيع من بني البشر أن يحكم على المستقبل ؟ هذا مستحيل، قد يقول أحدهم: أنا أعلم العلماء الآن، هل يقول أحدٌ في الأرض: أنا أعلم العلماء في هذا الموضوع في المستقبل؟ هذا كلام غير علمي، مثل هذا الإنسان يُضْحَكُ عليه ويسخر منه، قد يتحدَّى الإنسان من حوله ولكنه لا يستطيع أن يتحدَّى من سيأتي بعده، إلا الله وحده فهو يتحدى لأنه عليمٌ بكل شيء، لأنه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن، لأن الله وحده يعلم السِرَّ وأخْفى يقول:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

لن تستطيعوا:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

في المستقبل، معنى ذلك أنه مضى على نزول هذا القرآن أكثر من ألفٍ وأربعمئة عام، وتقدّم العلم تقَدُّمَاً يفوق حَدَّ الخيال، هل في كل علوم الأرض حقيقةٌ مقطوعٌ بها تُصادم آيةً قرآنية ؟ أبداً، لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكن يقع المسلمون أحياناً في منزلقٍ مضحك، يقول لك أحدهم: الحمد لله، القرآن يوافق العلم، هذا كلام مضحك، بل قل: الحمد لله العلم

يكسب وسام شرف حينما يوافق القرآن، القرآن هو الأصل، لا تمدح القرآن بأنه وافق العلم، يجب أن تمدح العلم بأنَّه وافق القرآن، هذا كلام خالق الأكوان، هذا الكلام الذي لا ريب فيه.

هناك عبارة أقولها لكم كثيراً: فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، كم هي المسافة بين خالق الأكوان وبين هذا الإنسان الضعيف ؟ فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، لذلك تحدى الله عزَّ وجل البشرية كلها بهذا القرآن، ومع ذلك فإنني لم أدخل في موضوع الإعجاز الآخر الرياضي، هناك بحوث ودراسات والله مذْهِلة، ملخَّصها أنَّك إذا بدَّلت حرفاً واحداً في كتاب الله يَخْتَلّ ميزان القرآن الكريم، حروفه حرفاً حَرفاً بحسابات دقيقة جداً محسوبة لو بَدَّلت حرفاً واحداً، أو حذفت حرفاً واحداً، أو أضفت حرفاً واحداً بحيث لا يختل ميزان القرآن كله، ولكن لا مجال للخوض في موضوع الإعجاز الحسابي والرياضي علماً أن هناك علماء دخلوا في هذا الموضوع، ولم يكونوا مخلصين فيه فَزَلَّت أقدامهم زلاّتٍ لا تعَدُّ ولا تحصى.

أي كتاب يضم حقائق علمية مكتشفة بعد القرآن لا يمكن أن تتعارض مع آيات في كتاب الله:

قال:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (24))

مثلاً هل يعقل أن عالماً من كبار علماء البحار، بعد جهدٍ جهيد، وبعد عمرٍ مديد يكتشف حقيقةً يظنُّ أنه ما سبقه إليها أحد، وهي أن بين البحرين حاجزاً، فإذا هي آيةٌ كريمة في القرآن الكريم قبل ألفٍ وأربعمئة عام:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20))

(سورة الرحمن)

هناك أخ طبيب أخصائي بالعظام درس في بريطانيا، درس على أستاذ في علم الأجنة، يُعَدّ من أكابر علماء عصره، وله كتاب من كثرة تداوله وشهرته يُسَمِّيه الطلاب: إنجيل علم الأجنة، لأنه صار كتاباً مقدَّساً عندهم، كتاب دقيق جداً يدَرَّس في كل الجامعات تقريباً، وهو أستاذ هذه المادة ومتفوق إلى أعلى درجة، قال: دخل ذات مرة على طلابه ليقول: ذكرت لكم سابقاً في كتابي مؤكداً أن العظام تتكون بعد اللحم، ثم تبين لي بشكلٍ لا يدع للشك مجالاً أن القضية بالعكس، العظم أولاً واللحم ثانياً، دخل إلى القاعة وهو في أعلى مرتبة في الجامعة وكأنَّه أحدث شيئاً وكأنَّه سَيُلْقي قُنْبُلةً علمية، فقال: اكتشفت مؤخراً أن العظام تتكون أولاً واللحم ثانياً، مع أنه خلال عشرين سنة أو ثلاثين سنة كان يؤكّد أن اللحم أولاً ثم العظام ثانياً، قام طالب باكستاني وقال له: يا أستاذ هذه الحقيقة جاءت في كتابنا قبل ألفٍ وأربعمئة عام، قال لي محدثي: كاد الأستاذ يُصْعَق، وأخذ يردد: هذا اختراعي، هذا كشفي، جاء الطالب بالقرآن الكريم مع ترجمته إلى اللغة الإنكليزية في اليوم التالي:

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً (14))

(سورة المؤمنون: آية " 14 ")

ويقال إنه أسلم، واستعلنت الحقيقة خفّاقة أن أي كتاب يضم حقائق علمية مكتشفة بعد القرآن لا يمكن أن تتعارض مع آيات في كتاب الله التي تتحدث في النقطة ذاتها، أو الموضوع ذاته.

هناك إشارات في القرآن الكريم فيها أصول العلوم :

قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

بل إن هناك إشارات في القرآن الكريم فيها أصول العلوم، الذرة:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

تَشَكُّل الجنين:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

حركة الجبال:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

(سورة النمل)

قلب المؤمن الكامل فيه تعظيمٌ لله وخوفٌ منه وحبٌ له سبحانه :

شيء لا يصدَّق، قال:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24))

أيّها الأخوة الكرام القرآن متوازن، يتحدث الخطيب أحياناً عن جهنَّم فيملأ الناس رُعْباً منها، أو يتحدَّث عن الجنة فقط فيدغدغ أحاسيسهم ويسترخون لكن الأكمل أن تتحدث عنهما معاً، لماذا ؟ لأن الإنسان يخاف ومع الخوف ينبغي أن يتفاءل، قال:

((قال داود فيما يخاطب ربه: يا رب أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك ؟ قال: يا داود أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءً، ولا يمشي بالنميمة، أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي، قال: يا رب إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك ؟ فقال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي..))

[رواه البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس]

ذكرهم بآلائي كي يعظّموني، ذكرهم بنعمائي كي يحبوني، ذكرهم ببلائي كي يخافوني، أي يجب أن تخافه وأن تحبه وأن تعظمه في وقتٍ واحد، قلب المؤمن الكامل فيه تعظيمٌ لله وفيه خوفٌ منه وفيه حبٌ له، نِعَمُه تدعو إلى محبته، ونِقَمُه تدعو إلى الخوف منه، وآلاؤه تدعو إلى تعظيمه، فالقرآن متوازن.

تبشير خالق الكون للمؤمن بالجنة:

بعد أن حذَّرنا سبحانه من التكذيب بهذا القرآن جاءت البشرى منه تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (25))

خالق الكون يُبَشِّرك، والله أيُّها الأخوة لو عقلنا هذه الآية، لو كنت تعاني ما تعاني ؛ ضيق دخل، مشكلة أسرية، مشكلة صحية، مشكلة في عملك:

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (25))

خالق الكون يبشرهم:

(أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (25))

هذا الوصف بليغ، أي أنَّه مكان جميل جداً، أحياناً يذهب الإنسان إلى بستان جميل ؛ ورود، أشجار، مياه، حدائق، مروج خضراء، بيت فخم، مسبح، يقول لك مندهشاً: مثل الجنة، إن الجنة دائمة خالدة، أما هذه النزهة ربع ساعة، ساعة، ساعتين، نهار ثم يكون ذكرى، ولكن الجنة إلى الأبد.

من معاني الآية التالية أن كل نعيم تناله في الجنة بسبب استقامتك في الدنيا :

قال تعالى:

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ (25))

ليست جنة واحدة بل جنات:

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ (25))

هذه الآية لها عدة معانٍ ؛ من أوجه معانيها أن كل نعيم تناله في الجنة بسبب استقامتك في الدنيا، مثلاً إذا درس إنسان دراسة طويلة جداً ومتعبة جداً ونال أعلى شهادة، الآن يبدأ القطاف، الآن له دخل كبير، مكانة اجتماعية، راحة كبيرة جداً، ماذا يقول زميله الكسول ؟ يقول: متى صار فلان في هذه المرتبة العالية ؟ أين كان هو عندما كنت تلعب أنت في الأزقة ؟ عندما درس ثلاثاً وثلاثين سنة ولم يرفع رأسه يوماً وآثر الدراسة على كل حظوظه من الدنيا، الآن صار في مرتبة عالية، فهذا الذي تُرزَقه في الآخرة بسبب استقامتك في الدنيا، أهل الدنيا كلهم يدعونه إلى درس علم يقول لك:

مشغول وليس عندي فراغ، لأي شيء لديك فراغ إذاً ؟ عندي ازدحام أعمال ومواعيد، يتنصَّل من كل مجلس علم يتعرف فيه إلى الله عزّ وجل، أما الذي يجلس على ركبتيه ليطلب العلم، وليعمل بالعلم فإن له عند الله مقاماً كبيراً، والله عزّ وجل جعل ثواباً لمجالسِهِ حوافز ومكافآت، قال: "هم في مساجدهم والله في حوائجهم " أما ترضى أيها المؤمن أنَّ يتولَّى الله أمرك ؟

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257))

(سورة البقرة)

المؤمن يرعاه الله ويربيه بينما الكافر كالدابة المنفلتة:

والله أيها الأخوة، هناك آية كريمة في سورة محمد صلى الله عليه وسلم:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11))

(سورة محمد)

تصوَّروا ابن في كنف أبٍ كبير، عالِم، غني، مُرَبٍّ، أحسن تنشئته، اعتنى بأخلاقه، اعتنى بدينه، اعتنى بصحته، اعتنى بطعامه، اعتنى بهندامه، اعتنى بشهاداته، اعتنى بمكانته، راقب تصرُّفاته، ضبط حركاته وسكناته حتى صار إنساناً ألمعياً، وهناك شاب بلا تربية، يمضي وقته بأماكن اللهو، بأماكن القِمار، متَّهم بالسرقة، متهم بالزنى، مودع بالسجن، هذا إنسان من دون مربٍّ، المؤمن يرعاه الله ويربيه، عنده قرآن يربِّيه، عنده جامع يربيه، تجد المؤمن متميِّزاً، عنده حياء، عنده خجل، في ملابسه حياء، بحركاته وسكناته، مزحه لطيف جداً، نظراته أدبية، كلامه مضبوط، عنده خوف من الله، عنده وفاء بالوعد، عنده رحمة في قلبه، عنده إنصاف، تجد كماله صارخاً:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11))

(سورة محمد)

الكافر إنسان كالدابة المنفلتة، يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام، أما المؤمن فهو إنسان راقٍ مُعلّق قلبه وبصره بربه:

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ (25))

معانٍ مستفادة من الآية التالية :

لولا أن الله منَّ علينا في الدنيا فعرفناه، وطلبنا العلم، واستقمنا على أمره، وغضّضنا من أبصارنا، وأقمنا الصلوات، وحججنا، وزكينا، وربينا أولادنا، وحجَّبنا بناتنا، وجعلنا بيتنا إسلامياً، وعملنا إسلامياً، ودخلنا حلالاً، وإنفاقنا صحيحاً، وتوخِّينا العمل الصالح لما وجدنا هنا، الآن انظر إلى

شخص يحمل شهادة عُليا، بعدما تعب ثلاثاً وثلاثين سنة، إذا جلست معه يقول لك: والله تعبنا كثيراً، والله جاءت أيام لم ننم الليل، كان عندنا أساتذة شديدو القبضة علينا، تجده يفتخر ويشعر بنشوة أنه تجاوز عقبات كبيرة جداً، فأهل الجنة في الجنة، قال تعالى:

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ (25))

المعنى الأول: لولا أنَّ الله منَّ علينا في الدنيا، وتعرَّفنا إليه، وكلفنا بعض الشدائد مما حَمَلنا على التوبة، فجمعنا مع أهل الحق، وأخذ بنواصينا إلى أن نعمل أعمالاً صالحة، قرَّبنا، تجلَّى علينا، ملأ قلوبنا نوراً، ملأ قلوبنا حبوراً، ملأ قلوبنا محبةً له، حبب إلينا الإيمان وزيَّنه في قلوبنا، كرَّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، لولا فضل الله علينا ما كنا في هذه الجنة.

المعنى الثاني: إذا أمسكت تفاحة في الجنة، هذه تفاحة، لكن عندما أكلتها فليس هناك نسبة، وليس لها علاقة بتفاح الدنيا إطلاقاً، طعم آخر أطيب بكثير، العلاقة بينهما الشكل والاسم فقط، ليس من فواكه الجنة في الدنيا إلا الاسم والشكل:

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً (25))

أي أن التشابه بالشكل والاسم، أما الطعم فلا نسبة بينهما بل المقارنة مرفوضة، أنت تشرب أحياناً كأساً من الشراب المصنع والمصنوع، ونشرب شراباً طبيعياً طازجاً مئة بالمئة، فلا تجد بينهما أي نسبة، أين الثرى من الثُّريا ؟ الاسم واحد ولكنك تجد أن الشراب الكيماوي كيماوي، والشراب الطبيعي لا يُقَدَّر بثمن وهذا في الدنيا، فكيف في الجنة ؟ هذا المعنى الثاني.

الذي يزهد في الجنة ويعيش للدنيا فقط إنما هو إنسان أحمق :

قال تعالى:

(قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ (25))

لا يوجد نَكَد، ولا يوجد تَرَهُّل، ولا يوجد مرض، هناك متاعب عديدة عند النساء في الدنيا، أما في الجنة فلا، هن طاهرات ومطهرات، لا حيض، ولا نفاس، ولا نشوز، ولا زوجة حاقدة، ولا زوجة لئيمة، انتفى كل ذلك أبداً، والزوجة يزينها كمال وجمال منّة من الله تعالى:

(وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25))

هذه هي الجنة، وطريقها واضح، وهي بعد الموت، فالذي يزهد في الجنة ويعيش للدنيا فقط إنما هو إنسان أحمق:

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25))

الذين أحبَّهم الله عزّ وجل جعل دنياهم كفافاً:

قد ينتقي الواحد زوجته وتكون من الدرجة الأولى، ولكنها كبرت بعد الخمسينات، اختلفت، تجد أن أكثر النساء مصابات بعلل مرضية كثيرة، وتنوعت مشكلات الحياة لدى الزوجين، شاءت حكمة الله عزّ وجل أن تكون الحياة متعبةً لأننا خُلِقنا للجنة، فإذا كانت الحياة مريحةً جداً كرهنا لقاء الله عزّ وجل، إذا كانت الحياة مريحة جداً وكل شيء كاملٌ فيها زهد الناس عندئذٍ عن الآخرة، وكانوا ممن يشملهم قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7))

(سورة يونس)

لذلك الدنيا العريضة خطر كبير جداً، هؤلاء الذين أحبَّهم الله عزّ وجل جعل دنياهم كفافاً، قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه قوتاً ـ كفافاً))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

الإنسان ينبغي أن لا يطلب الكمال في الدنيا، ولكنه يجب أن يطلب الستر والكفاف في الدنيا والكمال في الآخرة، كل شيء في الآخرة كامل، الآخرة مبنية على أن لك ما تشاء، أيُّ خاطرٍ يخطر على بالك تراه واقعاً أمامك، إنه نعيم الجنة الذي لا يُداني قال تعالى:

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23))

(سورة الحاقة)

أي أُكُلها دائمٌ وظلها، فواكهها:

(لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33))

(سورة الواقعة)

الجنة كما وصفها الله عزّ وجل في القرآن الكريم :

في الجنة أنهار من عسل، من لبن، من عسل مُصَفَّى، من لبن لم يتغيَّر طعمه:

(مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ(15))

(سورة محمد: آية " 15 ")

وقال:

(مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (15))

(سورة محمد: آية " 15 ")

الماء غير آسن، واللبن لم يتغير طعمه، والعسل مصفَّى، والخمر لذةٍ للشاربين:

(وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23))

(سورة الواقعة)

هذه هي الجنة كما وصفها الله عزّ وجل في القرآن الكريم، هي للمؤمنين، والطريق لها سالك غير صعب، شروطها غير تعجيزية، أحياناً يكون هناك شيءٌ عظيم لكن شرطه تعجيزي فوق طاقتك تزهد به، لكن الجنة ليست كذلك، بل يكفي أن تعرف الله حقاً، وأن تطيعه صدقاً، وأن تؤدِّي واجباتك تِجَاهه كاملة، فأنت إذاً من أهل الجنة، في الدرس القادم إن شاء الله:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (26))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (14- 95):تفسير الآية 26، آية الله في خلقه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-09-25

بسم الله الرحمن الرحيم

كلّما صغر الشيء احتاج إلى صنعةٍ بارعة :

مع الآية السادسة والعشرين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

أيها الأخوة الكرام، تعارف الناس على أن البعوضة لا قيمة لها، حشرةٌ حقيرة، يضربها الإنسان ويقتلها ولا شيء عليه، كما يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

يبدو أن هذه الحشرة هيَّنةٌ على الناس، لكن الشيء الذي يلفت النظر هو أن الشيء كلما صَغُر كلما احتاج إلى صنعةٍ بارعة، فقد تجد مذياعاً كبيراً فلا يثير دهشتك، أما إن رأيته صغيراً فإنه يستأثر باهتمامك، وأما إن رأيت ساعةً فيها مِذياع فإنك تزداد اهتماماً وانتباهاً، وتدرك أن فيها دقة صُنع.

أطلعني أخٌ كريم على جهاز كمبيوتر بحجم كف اليد فيه كل البرامج التي توضع في الكبير، وفيه اتصال دولي، وفيه إنترنت ـ شيء لا يُصدق ـ بحجمٍ صغير، فكلّما صغرت الآلة كان وراءها صنعةٌ بارعة، هناك أحياناً آلات تصوير تُثَبَّت في قدَّاحة وتستخدم لأغراضٍ خاصَّة ؛ كآلة تصوير فقط، وأحياناً آلة تصوير متحركة، وقد تكون قطعة كحبة العدس تُلتَقط بها الأصوات وتُسَجَّل، فكلّما صغر الشيء احتاج إلى صنعةٍ بارعة وأثار الاهتمام.

الإعجاز في خلق البعوضة:

توصل أحد العلماء قبل أشهر عديدة إلى جهاز يقيس عشرة مرفوعة إلى قوة خمسة عشر من أجزاء الثانية، أي رقم واحد أمامه خمسة عشر صفراً، أي ألف مليون مليون جزء من الثانية، هذه هي الثانية ضربة واحدة، هل بإمكان إنسان أن يَصل إلى تقسيم ثانية إلى ألف مليون مليون جزء ؟ أُعطي هذا الإنسان في جامعة في أمريكا الجائزة الأولى، يمكن أن يقاس الآن بهذا الجهاز زمن تفكك الذرة، وهناك تطبيقات كثيرة جداً، كلّما دَق الأمر كلّما ظهر من خلاله عظمة الصانع، طبعاً

الفيل كبير، والحوت الأزرق كبير يبلغ وزنه مئة وخمسين طناً، يحوي خمسين طناً لحماً، وخمسين طناً دهناً، ويستخرج من الحوت ما يقدر بتسعين برميلاً زيت سمك، وجبة غذائِهِ أربعة أطنان، وإرضاع صغيره ثلاثمئة كيلو في كل رضعة، هذا شيءٌ ضخم، أما حينما ترى نملة ؛ فيها دماغ، وفيها ذاكرة، وفيها جهاز هَضم، وفيها جهاز إفراز، وفيها جهاز مَعرفة، وفيها جهاز شمّ، لها نشاطات مخيفة، حينما ترى نحلة صغيرة، حينما ترى بعوضة، فما عليك إلا أن تلوذ بقوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً (26))

البعوضة أيها الأخوة لها ثلاثة قلوب، قلبٌ مركزي وقلبٌ لكل جناح، هذا القلب يُمِدُّ الجناح بطاقةٍ تجعله يرفُّ أربعة آلاف رفةٍ في الثانية، هذه البعوضة عندها جهاز رادار، ففي ظُلمة الليل ينام طفلان على سريرهما تتجه البعوضة إلى الطفل مباشرةً دون أن تتجه إلى وسادة أو إلى ركن في الغرفة، الآن لديها جهاز رادار يكشف لها الكائن الحي فإذا وصلت إليه حلَّلت دمه، هناك دمٌ لا يُناسبها، قد ينام أخوان على سرير واحد، يفيق أحدهما، وقد أُصيب بمئات لدغات البعوض، والثاني سليم، إذاً عندها جهاز تحليل دم، تأخذ الدم الذي يناسبها، وتدع الذي لا يناسبها، والبعوضة من أجل أن تأخذ هذا الدم لا بد أن تميِّعه لأن الكرية الحمراء أوسع من خرطوم البعوضة، فلا بد من أن تميع الدم حتى يجري في خرطومها، فإذا لدغت البعوضة هذا الطفل استيقظ وقتلها فلا بدّ أن تخدره، متى يشعر الإنسان بلدغ البعوضة ؟ بعد أن تطير، يضربها من دون فائدة لأنها تكون قد طارت، فهذه البعوضة الصغيرة فيها جهاز رادار، وجهاز تحليل، وجهاز تمييع، وجهاز تخدير، ولها جناحان يرفّان أربعة آلاف رفّة في الثانية، ولها ثلاثة قلوب ؛ قلبٌ مركَزي، وقلبٌ لكل جناح، وبإمكان البعوضة أن تقف على سطحٍ أملس عن طريق محاجم كالمِشْجَب الذي يثبت على البلور بتفريغ الهواء، تضغط البعوضة المحجم فيتفرغ الهواء فيثبت، وللبعوضة مخالب أيضاً.

طيران الطائر واتجاهه نحو هدفه عُزيَ إلى الله مباشرةً:

أجرى بعض علماء الطيران مقارنة بين أعظم طائرة صنعها الإنسان وبين البعوضة في المناورة، فكانت قدرات البعوضة والذبابة أعلى من أي طائرة صنعت، لاحظ الذبابة في أثناء طيرانها بسرعة عالية تأخذ زاوية قائمة فجأةً، وقد ترجع فجأةً، وقد تصعد إلى عَلٍ فجأةً، وبإمكان الذبابة أن تَحُطَّ على السقف، تضع أرجلها على السقف فتثبُت، وعندها قدرة على المناورة تفوق أعظم طائرة صنعها الإنسان.

قرأت ذات مرة في موسوعة علميَّة عن الطيران، موسوعة مترجمة من دار علوم مُحترمة جداً في أمريكا، كُتِبَ على أول صفحة في هذه الموسوعة: إنَّ أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترتقي إلى مستوى الطائر، يطير الطائر أحياناً مسافة تقدر بست وثمانين ساعة بلا توقُّف، يقطع الطائر من شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها تقريباً سبعة عشر ألف كيلو متر، يُهاجر صيفاً وشتاءً، يهتدي

الطائر إلى هدفه بشكلٍ غير معروف حتى الآن، وضِعَت عشرات النظريات لتفسير اتجاه الطائر نحو هدفه ؛ تفسير الجاذبية، تفسير الشمس، تفسير التضاريس ،وكل هذه التفاسير حارت ولم تقف على قدمين، لذلك قال تعالى:

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ (19))

(سورة الملك)

عُزِيَ طيران الطائر واتجاهه نحو هدفه إلى الله مباشرةً، فلا توجد نظرية صمدت، قد يؤخذ الطائر قبل أن يرى النور من لندن أو من بريطانيا ويُرْسَل إلى الصين، واتجاه الطيور في الرحلات كلّها شمال جنوب، جنوب شمال، فهذا الطائر الذي لم ير النور يطير من الصين إلى بريطانيا، الطائر الذي غادر عُشَّه مثلاً في دمشق وانتقل إلى جنوب إفريقيا، لو تغيَّرت الزاوية في طريق العودة درجة واحدة لجاء في بغداد، درجة نحو اليسار لجاء في القاهرة، يصل إلى دمشق وإلى حي الصالحية، وإلى بيتٍ في أحد أحياء حي الصالحية إلى عشه، ما هذه القدرة ؟

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ (19))

(سورة الملك)

البعوضة هينة على الناس ولكن فيها من الأجهزة ومن دقّة الصُنع ما لا يُوصَف:

أيها الأخوة، كلّما صغر الجسم عظمت دقة الصنعة فيه، الآن فيروس الإيدز يتحدى العالم كلّه، لم يستطع الإنسان بكبريائه، بجبروته، بتقدُّمه العلمي، بإنفاقه المذهل على البحوث العلمية أن يصل إلى مصل مضاد للإيدز، مع أن هذا الفيروس أضعف فيروس على الإطلاق، يموت إذا خرج من الإنسان على بعد عشرة سنتيمترات، لكنه إذا دخل الجسم يدخلـه بثيابٍ مموَّهة، يدخله بشكل الكرية البيضاء فلا أحد يُعاكسه، فإذا تمكَّن التهم كل الكريات البيضاء، قد يُبذل ألف مليون دولار لتطوير أبحاث للوصول إلى مصل مضاد لهذا الفيروس، ولكنه يُغَيِّر شكله فتذهب كل هذه الأموال أدراج الرياح، وله سُلالات، وقد شاءت حكمة الله أن يكون هذا المرض عقاباً لا ابتلاءً، بقدر ما هو خطير ومميت بقدر ما تكون الوقاية منه سهلة، يكفي أن تستقيم وانتهى الأمر، انتهى المرض.

هذه الآية أيها الأخوة التي تتحدث عن البعوضة، على صغرها وضآلة شأنها وهوانها على الناس، فلو قتل الإنسان خطأً هرَّةً في الطريق بسيَّارته فإنه يضطرب ويتألَّم، يقول: لعلّي أخطأت، لعلّي تساهلت، لعلّي لم أكن منتبهاً، يا ترى هل الله سيُحاسبني ؟ هل أدفع مبلغاً من المال صدقة ؟ أما إذا قتل بعوضة فهو لا يشعر بشيء أبداً، وكأنه لم يفعل شيئاً أبداً لهوانها على الناس، ومع أن هذه البعوضة هينةٌ على الناس، فإن فيها من الأجهزة، وفيها من دقّة الصُنع والإبداع ما لا يُوصَف، تذكرنا هذه البعوضة بقوله تعالى:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ (3))

(سورة الملك)

ليس التفاوت هنا في الصنعة، فهناك مثلاً شركة تصنع مُعِدَّات منزلية والشركة نفسها تصنع معدات صناعية، المُعدات المنزلية استعمالها قليل جداً، لذلك معدنها رخيص وأجهزتها بسيطة، أما المُعدات الصناعية فهي غالية جداً لأنها مصمَّمة أن تعمل ليلاً ونهاراً.

صنعة الله متقنة لا تفاوت فيها :

المعمل يصنع مادَّة مُعتنى بها كثيراً، ومادَّة مُعتنى بها قليلاً، أما لو دققت في صنعة الله عزّ وجل فإنك لا تجد صنعةً متقنةً وصنعةً أقلّ إتقاناً:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ (3))

(سورة الملك)

التفاوت في الحجم قائم، هناك بعوضة، وهناك فيل، ولكن ليس هناك من تفاوتٍ إطلاقاً في إتقان الصنعة.

أيها الأخوة الكرام، المؤمن كل شيءٍ يدلُّه على الله، نحن أمام موضوع دقيق جداً، إنَّك إن أردت أن تعرف الله فكل شيءٍ يدلُّك عليه، وإن لم ترد أن تعرفه فإنك لو التقيت مع سيد الأنبياء ورأيته رأي العين، وجلست إليه، وحادثته، لما قنعت، ولما آمنت، لو رأيت منجزات العلم كلَّها الآن، لو ذهبت إلى أكبر مرصد الآن في العالَم لحار عقلك.

زارنا أخ اليوم مختص بالفلك في أمريكا، حَدَّثنا شيئاً لا يُصدَّق ؛ يبلغ طول ألسنة اللهب لبعض الشموس مئة وخمسين ألف سنة ضوئية، توجد شموس تزيد عن حجم شمسنا اثنين فاصلة اثنين بليون (2.2بليون) مرَّة عن حجم شمسِنا، ذكر أرقاماً لا تُصدق، فقلت: سبحان الله أهذا الإله العظيم يُعصى ؟

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (28))

(سورة فاطر: آية " 28 ")

إن نجم قلب العقرب يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، وهناك أكثر من مليون مليون مجرة، ومعنى مجرَّة أي فيها قريب من مليون كوكب، ومجرتنا درب التبّانة صغيرة جداً جداً بالنسبة لغيرها من المجرات، ومع ذلك حين نقرأ عنها تهولنا المعلومات التي تطالعنا.

صنع الله متقن في أكبر شيءٍ صنعه وفي أصغر شيءٍ صنعه :

أيها الأخوة الكرام، صنع الله متقن في أكبر شيءٍ صنعه، وفي أصغر شيءٍ صنعه، بل إنَّ قوله تعالى:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

هذه تشمل الذرَّة والمجرَّة، هناك كهارب في الذرة تسبح حول النواة، وفي المجرَّات هناك كُتَل كبيرة جداً تسبح حول مركزها بسرعة قريبة من سرعة الضوء.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (26))

قال العلماء:

(فَمَا فَوْقَهَا)

أي فما أصغر منها، فوقها في الصِغَر، البعوضة تراها بالعين، ولكن هناك كائنات كالجراثيم لا تراها، والفيروسات أصغر، الحشرات تراها، أما الجراثيم فلا تراها، الجرثومة هي أصل كل الأمراض، إنك لا ترى الجراثيم التي هي أصل المرض، ولكنك ترى فعلها، الفيروس أصغر من الجرثوم، الآن بعد اختراع المجاهر الإلكترونية، فإن المجهر يكبر أحياناً مئتي مرَّة، وهناك مجهر يكبّر أربعين ألف مرَّة، حينما يُكَبَّر الجلد تجد أنه كالغابة فيها تلال ووديان، وسهول وهضاب ، وأشجار هي الشعر، إذا كبَّرنا نقطة من الجلد، إذا كبَّرنا نقطة من غِشاء المعدة، من جدار المعدة، إذا كبَّرنا نقطة من الدماغ، فإن الشيء الذي تراه شيءٌ لا يُصدق أبداً، الآن توجد صور لهذا المِجهر الإلكتروني، إنك تشاهد بواسطته فتبدو لك الخلية.

الخلية بناء قائم بذاته، عالَم قائم بذاته، والخلية لا تُرى بالعين، لذلك كلَّما صغر الشيء احتاج إلى صنعةٍ عاليةٍ جداً، لهذا قال الله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة)

الذي لا تبصره أضعاف الذي تبصره، فأنت إذا أمسكت بكأس ماء ماذا تبصر ؟ تبصر ماء صافياً، ماء عذباً، فراتاً، نقياً، شفَّافاً، لو صوَّرت هذا الماء تحت المجهر لرأيت فيه من الكائنات الحيَّة ما لا يُحصى، هذا الذي لا تُبصره.

عظمة الله في خلقه :

أيها الأخوة، أراد الله سبحانه وتعالى من هذا المثل أن يلفت نظرنا إلى أن هذه الحشرات التي لا شأن لها عندكم، وهي مخلوقاتٌ عظيمةٌ جداً، فليس هناك من حرج أن يضربها الله مثلاً، لكن أريد أن أُثبِّت هذه الحقيقة إن لم يرد الإنسان أن يعرف الحقيقة فهو لا يصل إليها، ولو كان إنساناً ذكياً

جداً، ويحمل أعلى شهادة في الأرض، يعمل في الكيمياء، يعمل في الطبيعيات، يعمل في أبحاث الفَلك ويرى بالمراصد الشيء الذي لا يُعقل، ثم يتعامى عما يرى أحياناً، قد يرى الإنسان في ليلة مظلمة شيئاً كالغبار في السماء، هذا الغبار هو المجرَّة، ملايين الملايين من الكواكب يرى على شكل غبار، فليس كل شيء لا تراه غير موجود، أي إنَّ عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، أنت ماذا ترى ؟ ترى الشمس تدور بينما هي ثابتة بالنسبة إليك، أنت الذي تدور، الشمس تدور حول نقطة، الله قال:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

كم تحتاج الشمس من زمن لتُتِمَّ دورتها ؟ تحتاج الشمس لمئتي مليون سنة من أجل أن تدور دورة حول كوكبٍ ما، فالحقيقة نحن في كونٍ لا تتناهى أبعاده، ذكرت قبل قليل ما هذا الرقم ؟ شيء مذهل حقاً ! مجرَّة تبعد عنّا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، هذه عظمة الله، ولو وصلت إلى كُنهِ هذه البعوضة وأقل من البعوضة أي إلى الجرثوم، وأقل من الجرثوم إلى الفيروس لوجدت العجب العُجاب.

كل ما في الكون يدل الإنسان على الحقيقة :

على كلٍ كلَّما تناهت الأشياء في الصغر تحتاج إلى صانعٍ متقن، فيها صنعةٌ دقيقة، والأشياء الصغيرة غالّية جداً، توجد أجهزة تسجيل صغيرة، أجهزة راديو صغيرة أسعارها مرتفعة جداً، حتى أنت قد تجد كمبيوتراً كبيراً، شاشة كبيرة، وجسماً للكمبيوتر، وأحياناً تجد كمبيوتراً يوضع كله في محفظة، وأحياناً بحجم كفِّ اليد، كلَّما صغر الجهاز رأيت صنعةً غاية في الإتقان، هذا هو مغزى هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (26))

(فَمَا فَوْقَهَا)

أي فما أصغر منها، بل فما فوقها في الصغر حسبما قال العلماء، قال تعالى :

(فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ (26))

هنا إذا أراد الإنسان معرفةَ الحقيقة دلَّه عليها كل شيء، وإذا أعرض عن الحقيقة فإنه لو مكث في أعظم مرصد في أمريكا عمره كله، ولو دخل إلى أدق مخبر في العلوم الطبيعية ؛ رأى الخليّة، رأى النُسُج الحّية، رأى تفاعل المواد، لو أُتيحت كل المعلومات بين يديه فإنه لا يؤمن، وأدق مثل لذلك: آلة تصوير بسيطة جداً ورخيصة جداً، إذا أراد صاحبها أن يستخدمها ووضع فيها الفيلم فإنه يلتقط المناظر التي أمامها، والذي يرفض الحقيقة كإنسان معه آلة ثمنها مليون ليرة ولكنها دون فيلم، هو إنسان مثقف ثقافة عالية جداً، ولكنه لم يرد الحقيقة، بين يديه معلومات مذهلة، بين يديه آيات يقشعر

منها الجلد ومع ذلك لا يستفيد منها شيئاً، فالعبرة: أنك أنت إذا أردت الحقيقة وصلت إليها، وإن لم تردها فعليك إثم نفسك!!

خلق الله الإنسان مخيراً ولأنه مخير فإن كل شيءٍ في الكون مصممٌ ليكون حيادياً:

بعوضة ؛ يسمع هذه الكلمة إنسان فاسق فيقول:

(مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

يقول ساخراً أهذا قرآن !!! ؟ هكذا قال الكفّار: الإله العظيم يذكر بعوضة ؟ يذكر ذبابة ؟ يذكر العنكبوت، هل من المعقول أن يذكر إنسان عظيم هذا في كلامه ؟

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

قيل: كل شيء في الكون حيادي:

(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً (26))

آية واحدة يرفضها إنسان ويهتدي بها إنسان، آيةٌ واحدة يذوب إنسان خشوعاً لله من خلالها وإنسان آخر يستهزئ بها، خلقك الله مخيراً ولأنك مخير فإن كل شيءٍ في الكون مصممٌ ليكون حيادياً، يُستخدم سُلماً ترقى به، أو دركاتٍ تهوي بها:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ (26))

ما هو الحق ؟ الحق خلاف الباطل، ما هو الباطل ؟ الباطل زهوق زائل، والباطل عابث.

تناقض الحق مع الباطل و العبث:

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38))

(سورة الدخان)

وقال:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (3))

(سورة الأحقاف: آية " 3 ")

ربنا عزّ وجل نفى أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، الباطل الشيء الزائل، ونفى أن يكون خلق السماوات والأرض عبثاً، فالعبث الشيء غير الهادف، ولكن الله جلَّ جلاله خلقهما بالحق، فالحق يتناقض مع الباطل ويتناقض مع العبث، فالحق لا عبَث فيه ولا بطلان، الشيء الثابت الهادف، إذا قلنا:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (3))

(سورة الأحقاف: آية " 3 ")

أي لابس الحق خلق السماوات والأرض، أحياناً إذا أنشأنا جناحاً في المعرض لمدة أسبوعين فإننا نضعه من القماش، أما حينما ننشئ جامعة فإننا ننشئها من حجر، هذه الجامعة أُنشئت لتبقى، أما هذا الجناح في المعرض أنشئ ليُهدم بعد أسبوعين، فكلمة بالحق أي أن الله عزّ وجل خلق الكون ليبقى، قال:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (3))

(سورة العنكبوت)

النفس تذوق الموت ولا تموت، وفرقٌ كبير بين أن تذوق النفس الموت وبين أن تموت، النفس تَخْلُدُ إما في جنةٍ يدوم نعيمها أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

النمل والنحل من آيات الله الدالة على عظمته:

صارت القضية: هل تريد الحقيقة ؟ إذاً كل شيءٍ يدلُّك على الله حتى البعوضة، حتى الذبابة، حتى النملة، النمل مثلاً يعمل دائماً أعمالاً عدة متنوعة، وهو في أدبه أعجوبة تكاد لا تُصدق، النمل يزرع، النمل يربِّي المواشي، النمل يُنشئ صوامع الحبوب، يقيم الجسور، يَشُقُّ الطُرُقات، النمل يُعَلِّم، عنده قِطاع تعليم، النمل يخزِّن، النمل يعالج المرضى، وعند النمل مكتب لدفن الموتى، تُسحب النملة الميتة وتُدفَن، وعند النمل كذلك جيش يحرس الملكة، ويرُدُّ العدوان، هناك نمل رُحَّل يتنقل من مكانٍ إلى مكان، ونمل يعيش في بيوت ثابتة، وهناك نمل يعيش على العمل، ونمل يعيش على الغزو، وهناك شيء في النمل لا يُصدق، النملة عندها جهاز ضخ وجهاز مص فإذا لقيت نملةً جائعة وضعت فمها في فمِها وضخت لها من خلاصة غذائها، يوجد عند الإنسان مص فقط وليس عنده ضخ أما النمل فعنده جهاز مص وجهاز ضخ، والله هناك شيءٌ عن النمل يكاد لا يُصدَّق، إذا رأت النملة أنها في خطر فإنها ترسل إشارة كيماوية إلى من حولها، إذا كان موتها محقَّقاً ترسل إشارة تحذير ؛ ابتعدوا عن المجزرة، وإذا كانت نجاتها محققة ترسل إشارة استغاثة ؛ تعالوا إلي أنقذوني، والله عزّ وجل أثبت لها الكلام، وأثبت لها المعرفة:

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

(سورة النمل)

النملة اجتماعية، إذا وضعت النملة في بيت فيه طعام وشراب بشكل كامل لوحدها، فإنها تموت بعد عشرين يوماً وحشةً، هناك نظام دقيق جداً للنمل، قال تعالى:

(أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ (38))

(سورة الأنعام: آية " 38 ")

النحلة ترقص رقصة لتُحدد مكان الأزهار والمسافة والجهة، وهناك رقصة ثانية للكثافة والجهة، والمسافة برقصة، والكثافة برقصة.

من يتخذ قراراً بالإيمان فكل ما في الكون يدله على الله :

أيها الأخوة، يوجد في هذه الآية موضوع خطير جداً، يقول الله عزّ وجل:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

قف معي أمام مثلٍ واحد، آية كونية، حشرة، حيوان، نبات، هذه الآية يؤمن أُناس بالله من خلالها وأناس غيرهم يستهزئون بها، بين أن تؤمن وبين أن تستهزئ مسافة كبيرة جداً، جداً كبيرة، فما السر في ذلك ؟ لماذا قرأ فلان عن البعوضة فبكى خشوعاً لله، وسمع إنسان هذه الآية فاستهزأ ؟

(مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

أحياناً تتكلَّم بكلام أمام جمع يؤيدك إنسان ويعترض إنسان عليك، إنسان يقبل وإنسان يرفض، ما سرُّ ذلك ؟ الجواب هنا:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ (26))

ما معنى آمنوا ؟ أي اتخذوا قراراً بالإيمان، أرادوا الحقيقة، فإن أردت الحقيقة فكل شيءٍ يدلّك على الله.

من لم يرد الحقيقة فإنه يستهزئ بها:

قال تعالى:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا (26))

أي أعرضوا عن طلب الحقيقة، لا يريدون الحقيقة بل يريدون الشهوة:

(فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

اجلس مع إنسان طالب للحقيقة وحدّثه عن المجرَّات فإنه يبكي، بينما يقول لك إنسان آخر: كم ثمن الدولار اليوم ؟ هذا الموضوع كلّه ليس له علاقة به، ما يهمه هو سعر العملات، البيوت والسيارات، التجارة والربح، الشهوات والمقاصف، فكل إنسان له وجهة هو موليها، الذي أراد الحقيقة فإن كل شيء يدلُّه على الله، والذي لم يردها فإنه يستهزئ بها:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

والحقيقة واضحة مشرقة.

قبولك للحق أو رفضك له متعلق باستقامتك :

الشيء الواحد قد يؤدي إلى ضلال من يضل وهداية من يهتدي، قال تعالى :

(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً (26))

هل التغيُّر حاصل من الشيء أم من الإنسان ؟ ليس من الشيء لأن الشيء واحد ؛ بعوضة، إنسان ازدادت معرفته بالله من خلالها وإنسان استهزأ بها، والبعوضة هي هِي، معنى هذا أن التبدُّل ليس من البعوضة، ولكن مِنَ الذي ينظر إليها:

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

حينما يَفْسُق الإنسان لا يحب الحقيقة، حينما يفسق يرُدُّ الحق، حينما يفسق يستهزئ بالآيات، حينما يفسق يشمئزُّ إذا ذُكِر الله وحده، حينما يفسق تأخذه العزة بالإثم، فعندنا معنى خطير جداً، قبولك للحق أو رفضك له متعلق باستقامتك، لأن غير المستقيم يدافع عن انحرافه، وغير المستقيم اختل توازنه، فكيف يستعيده ؟ يقول: هؤلاء الديِّنون على خطأٍ عظيم ظناً من أن ذلك يجعله يتوازن، دائماً وأبداً يطعن المُنحرف بالمستقيم حتى يرتاح، لا يرتاح إلا إذا طعن بالمستقيم، الكافر يطعن بالمؤمن حتى يتوازن، فلذلك الشيء واحد آية واحدة ؛ الشمس، القمر، الليل، النهار، الفيل، الحوت، البعوضة، النملة، الذبابة، العَنكبوت، هل تُصَدِّق أن العنكبوت تنسُج خيطاً لو سُحِب الفولاذ بقطر هذا الخَيط لكان خيط العنكبوت أمتن من الفولاذ ؟ وأوهن بيتٍ لبيت العنكبوت، فالضعف التي أشارت إليه الآية اجتماعي لوجود خلاف عميق جداً بين الزوجين فبيت العنكبوت ضعيف لأن فيه انهياراً داخلياً، وأما خيط العنكبوت فهو متين جداً.

الذي يريد ألا يسمع هو أشد الناس صمَماً :

أيها الأخوة، آيةٌ واحدة يطير المؤمن إلى الله بها، يذوب خشوعاً بها، وإنسان آخر يستهزئ، التفسير: إن أردت الحقيقة كل شيءٍ يدلُّك عليها، وإن رفضتها فإنك لو رأيت الآيات كلّها وجهاً لوجه فإنك لن تستفيد، أليس هناك أناس عاشوا مع النبي ؟ هل هناك في البشرية كلّها إنسانٌ أعظم من النبي ؛ من خلقه، فصاحته، علمه، أدبه، أخلاقه، نورانيته، ومع ذلك هناك من عاداه، وهناك من كرهه، وهناك من قاتله، فصار هناك معركة أزليه أبدية بين الحق والباطل، اذكر للكافر آية كونية يقول لك: الآن لا تُضيع وقتك، شيء واضح تماماً إذا كنت متحمِّساً لآية كونية، متحمِّساً لقضية دينية، متحمِّساً لعمل إسلامي كبير فإنه لا يلقى عند الكافر إلا السُخرية والاستهزاء، ولكنه يلقى عند المؤمن التعظيم والإكبار والعمل واحد، فصار التحوُّل وتناقض المواقف ليس من الشيء بل من الإنسان، إن أردت الحقيقة عرفتها، وأعانك عليها كل شيء، وإن رفضتها ما من حقيقةٍ يمكن أن تقنعك عندئذٍ.

يقول أحد الحكماء: **" لم أجد أشد صمماً من الذي يريد ألا يسمع "**، الذي يريد ألا يسمع أشد الناس صمَماً، فالكافر رفض الحقيقة، فإذا عرضت عليه آية كونية، مجرَّة، بحر، تيَّار الخليج، البرزخ بين البحرين فإنه يزداد سخريةً واستهزاءً:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً (26))

عند المؤمن المستقيم استعداد لقبول الحق وعند الفاسق استعداد لقبول الباطل:

أما الشيء الخطير، والله أيها الأخوة افتتاح الآية بهذه الكلمة:

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

انظر، إن فَسَق الإنسان ردَّ الحق، وإن آمن قبل الحق، وجرِّب الجلوسَ مع إنسان أخلاقي مستقيم، وحدثه بحديث كتاب الله، تجد أنه قبل هذا الكلام، وأثنى عليك، وانهمرت دموعه، اجلس وكلِّم إنساناً فاسقاً، وشارباً الخمر، وزانٍ، فإنه يردُّ عليك رداً قاسياً، يسخر من هذا الكلام، معنى ذلك أن عند المؤمن المستقيم استعداد لقبول الحق، وعند الفاسق استعداد لقبول الباطل، فلو عرضت عليه الحق لرفَضَه، هذا الذي أقوله لكم تؤكِّده الآية الكريمة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون)

وتؤكده الآية الثانية:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ (50))

(سورة القصص: آية " 50 ")

وتؤكده الآية الثالثة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

أين التتمة ؟ انتهت الآية، أي أرأيت إلى دناءته ؟ أرأيت إلى نقض عهده ؟ أرأيت إلى حبِّه لذاته ؟ إلى عجرفته ؟ إلى كبره ؟ سلوكه يكفي، لذلك الفاسق يرُدُّ الحق والمؤمن يقبله، الفاسق تتأبى نفسه أن يقبل الحقيقة.

من المهم أن تكون ذا هيئة حسنة دون أن تكون راداً للحق ولا مضطهداً للناس:

كان لأحد الصحابة مظهر حسن، فخاف على نفسه أن يكون مخطئاً، فقال لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

((إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَناً وَنَعْلِي حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ وغمس النَّاسَ))

[الترمذي عن عبد الله]

الكبر أن ترد الحق ، أن تكون أكبر من أن تُصَلِّي، أكبر من أن تصوم، أن تكون أكبر من أن تكون عبداً لله، أن تستنكِف عن عبادة الله وتستكبر، هذا هو الكِبر، وأن تحتقر الناس، أما إنسان تعجبه الهيئة الحسنة يعجبه الثوب الأنيق فإنَّ هذا مطلوب، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((إِنَّكُمْ قادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَلِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا فِي النَّاسِ كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ))

[أحمد عن أبي الدرداء]

مطلوب إذاً أن تكون ذا هيئةٍ حسنة في مظهرك، لكن ليس مطلوباً أن تكون راداً للحق ولا مضطهداً للناس.

أيها الأخوة الكرام، هذه آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته، وأنا أرى أن في القرآن الكريم ألفاً وثلاثمئة آية كونية، ولا يليق بالله عزّ وجل أن يقول كلاماً لا معنى له، لماذا ذكر هذه الآيات ؟ تكاد تكون هذه الآيات سُدُسَ القرآن، كأن الله أرادنا أن نعرفه من خلال خلقه، فهذه البعوضة التي لا تُعجبك فيها هذه الأجهزة، وهذه الأعضاء، وهذه الخصائص، وهذه النملة التي تكاد ألا تراها لصغر حجمها، النملة فيها دماغ، فيها قلب، فيها جهاز هضم، كل شيء في هذه النملة على صِغَرِها، وكلَّما صغر الشيء كان وراءه صنعةٌ أدق، وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (15- 95):تفسير الآية 27، صفات الفاسقين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-10-02

بسم الله الرحمن الرحيم

كلَّما دقَّ الشيء في حجمه كلما عَظُمَت دقة صنعه:

مع الآية السابعة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27))

أيها الأخوة الكرام، هؤلاء الذين سَخِروا من آيات الله، سخروا من هذه البعوضة كيف يضربها الله مثلاً مع أنها مخلوقٌ حقير، يقتلها الإنسان ولا يشعر بشيء لأنها صغيرةٌ، لكن الحقيقة أن الشيء كلما كان صغيراً كانت به صنعةٌ بارعة، كلَّما دقَّ الشيء في حجمه كلما عَظُمَت دقة صنعه، وذكرت في الدرس الماضي كيف أن لهذه البعوضة خرطوماً يمكن أن تغرسه في جلد الإنسان، ويمكن أن تغرسه في جدار الأوعية، والبعوضة تهتدي إلى ضحيتها عن طريق الرادار، ويمكن أن تفحص دم ضحيتها لأن هناك دمٌ يناسبها ودمٌ لا يناسبها، معنى ذلك أن للبعوضة خرطوماً يخترق جلد الإنسان ويدخل جدار الأوعية، وهي تهتدي إلى ضحيتها بالرادار، وعندها جهاز فحصٍ للدم، لتختار الدم الذي يناسبها، وعندها جهاز تخدير لئلا تُقْتَل أثناء مَصّ الدم، فالإنسان حينما تلدغه بعوضة يضربها، ولكنها تكون قد طارت في الجو، يعني أنه يشعر بها بعد أن يذهب فعل التخدير، وشيءٌ آخر نضيفه هو أن عندها جهازاً لتمييع الدم من أجل أن يسري الدم في خرطومها الدقيق جداً، ولها ثلاثة قلوب ؛ قلبٌ مركزي وقلبٌ لكل جناح، ويرفُّ جناحاها أربعة آلاف رقة في الثانية الواحدة، ولها أرجل على طريقتين إن وقفت على سطحٍ أملس فلها محاجم تثبت بها نفسها عن طريق الضغط وتفريغ الهواء، وإن وقفت على سطحٍ صُلب فلها مخالب تغرزها فيه فتثبت عليه.

لو علمنا دقة صنع البعوضة لسجدنا لله عزَّ وجل تعظيماً له:

هذه البعوضة التي ضرب النبي عليه الصلاة والسلام مثلاً بضَعف شأنها:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

لهذه البعوضة جهاز هضم، ولها جهاز دوران، ولها رأس، وفي الرأس بعض الحواس، كل هذه الحواس، وهذه الأجهزة، وهذه الأرجل، وهذا القلب والأوعية، وجهاز المَصْ، وجهاز الرادار،

وجهاز التمييع، وجهاز التخدير، وجهاز التحليل، وهذا الخرطوم الذي ينفذ في جدران الأوعية ويخترق الجلد، هذه البعوضة لو علمنا دقة صنعها لسجدنا لله عزَّ وجل تعظيماً له.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

الآية واحدة، وموضوعها البعوضة، لكن رد فعل المؤمن تعظيم الله، ورد فعل الكافر الاستخفاف والاستهزاء، إذاً حينما أراد المؤمن الحقيقة وأراد معرفة الله دلَّه على الله كل شيء، الأقدام تدل على المسير، والبعر يدل على البعير، والماء يدل على الغدير، أفسماءٌ ذات أبراج وأرضٌ ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟!!

العلاقة الرائعة بين السلوك وبين الاعتقاد:

قال تعالى:

(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ (26))

من هو الذي يستخف بهذه البعوضة التي هي من آيات الله الدالة على عظمته ؟ إنه الفاسق:

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

هناك علاقة رائعة بين السلوك وبين الاعتقاد، الفاسق لا يعتقد والمؤمن يعتقد، الفاسق يسخر والمؤمن يُعَظِّم، معنى ذلك أن الإنسان حينما يفسُق يصبح منطقه تبريرياً تسويغياً، منطقه مقيداً بشهواته، لذلك إياك أن تناقش منتفعاً لأنه لا يقنع معك، فهو يدافع عن المكاسب التي حَصَّلها، هذا الذي ينتفع من الكفر لا يمكن أن يتخلَّى عن الكفر لأنه ينتفع منه، منتفع، المنتفع لا يُناقَش، والغبي لا يُناقَش، والقوي المغتر بقوته لا يُناقَش، لذلك هم:

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

يريد أن يُغَطِّي فسقه لأنه فاسق، يريد أن يعتقد اعتقاداً يتناسب مع فسقه، وأنسب اعتقاد للفاسق أنه ينفي وجود الآخرة، وأن هذه الحياة ليس بعدها حياة:

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37))

(سورة المؤمنون)

الاعتقاد الذي يغطي الانحراف هو الإلحاد، فكلَّما كان هناك انحرافٌ لا بدَّ من عقيدة فاسدة تغطِّي هذا الانحراف.

الإنسان العاصي دائماً مختل توازنه فيستعيده بعقيدةٍ تسوِّغ له عمله:

المسلم الذي يتوسَّع ولا يستقيم على أمر الله أنسب عقيدة له أن يؤمن بالشفاعة إيماناً ساذجاً يردد: نحن أمة محمد، نحن أمةٌ مرحومة، يوم القيامة يشفع لنا النبي عليه الصلاة والسلام ويقول: أمتي أُمتي، ولا يقبل إلا أن يدخلنا الجنة جميعاً، هذه العقيدة الساذجة عند الفاسقين، مع أن الشفاعة حق وفيها نصوص صحيحة، لكن لها معنى فوق هذا المعنى، أما غير المسلمين فهم يعتقدون:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

(سورة البقرة)

يؤمن الفسقة والمنحرفون والمُقَصِّرون والمتفلتون دائماً بعقائد تسوغ أعمالهم حتى يستعيدوا توازنهم، حينما يعصي الإنسان الله يختل توازنه، حينما يعصي الله تحاسبه فطرته، ينزعج، يضيق ذرعاً، توازن الإنسان العاصي دائماً مختل، كيف يستعيده ؟ يستعيده بعقيدةٍ تسوِّغ له عمله، لذلك حينما تأتي بعض الكتب مثلاً كتاب سُمي **" قراءة معاصرة للقرآن الكريم"**، هذا الكتاب الذي يسوِّغ السلوك الإباحي تحت غطاء من الدين، هذا الكتاب يروج جداً فيطبع طبعات كثيرة، عشر طبعات حتى الآن، لأنه مريح، يغطي فسق الإنسان وانحرافه بنصوص دينية، ولكن هذا لا ينطلي أمره على الإنسان المسلم الواعي.

حينما يختل توازن الإنسان فلديه طريقان لاسترجاع التوازن:

إخواننا الكرام، فكرة دقيقة جداً، فطرتك سليمة، حينما تعصي الله ـ لا سمح الله ولا قدَّر ـ يختل التوازن، حينما يختل هذا التوازن لديك طريقان لاسترجاع التوازن:

1- الطريق الأول الصحيح هو التوبة:

الطريق الأول الصحيح هو التوبة، تتوب إلى الله، تصطلح معه، تطبِّق منهجه، تستعيد توازنك وترتاح نفسك، هذا الطريق الطبيعي لاسترداد التوازن.

2- إن كان مصراً على هذه الشهوة فيحتاج إلى عقيدة زائغة تغطي انحرافه:

أما حينما يعصي الإنسان ربه فيتفلَّت، يطلق بصره، يتوسَّع في المعصية، يقبل السلوك اليومي المعاصر، يقبل السلوك الإباحي ويستسيغه، فهو يحتاج الآن إما إلى توبةٍ نصوح يستعيد بها توازنه، أما إن كان مصراً على هذه الشهوة فيحتاج إلى عقيدة زائغة تغطي انحرافه، هو يتوهَّم أنه يفعل الشيء الصحيح، لذلك تجد الإنسان المبتلى بشرب الخمر مُصِراً على أن الله لم يحرِّم الخمر،

يقولون: نصحنا أن نجتنبه، ولكن اذكر لي آية تنص على شرب الخمر، هذا كلام مريح له جداً، لأنه مدمن خمر، فإذا اعتقد أن الخمرة حرام اختل توازنه، انكشف، أما حينما يعتقد أن الخمر رجس فاجتنبوه، وهذا أسلوب صريح بالتحريم، فيقلع عنها راضياً عندئذٍ، ويصغي بقلبه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90))

(سورة المائدة)

على الإنسان أن يترك بينه و بين المعصية هامش أمان:

مع أن كلمة اجتناب فيها أشد نوع من أنواع التحريم، فمثلاً تيار ثمانية آلاف فولت، أردنا أن ننصح الناس بالابتعاد عنه، هذا التيار له مساحة جذب تقدر بثمانية أمتار، إذا دخل الإنسان هذا الحرم يجذبه هذا التيار ويجعله فحماً أسوداً، فلو أن وزير الكهرباء أراد أن يضع إعلاناً تحذيرياً فهل يقول: " ممنوع مس التيار "، أم يقول: " ممنوع الاقتراب منه " ؟ يقول: "يمنع الاقتراب منه "، إذا كان ضمن مسافة ثمانية أمتار أصبح فحماً، فهذا الإعلان التحذيري لا يأمر بعدم المس ولكنه يأمر بعدم الاقتراب، وكذلك لا بدَّ من أن تدع بينك وبين هذا التيار هامش أمان، لو أن الله تعالى قال في الخمر: حُرِّمت الخمر عليكم، فيجوز بذلك أن تبيعها وأن تشتريها وأن تتاجر بها وأن تعصرها وأن تُعْلِن عنها، كل هذا يجوز لكن المنع أن تشربها فقط، أما حينما قال:

(فَاجْتَنِبُوهُ (90))

(سورة المائدة)

ثم أوضح رسول الله المزيد، فقال:

((لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الخمر وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها وشاربها وآكل ثمنها.))

[ابن مردويه والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عمر]

من يزرع عنباً من أجل أن يبيع هذه المعصرة أو هذه الخمَّارة هذا كله ملعون إذاً:

(فَاجْتَنِبُوهُ (90))

(سورة المائدة)

اجتنبوه تعني أشد أنواع التحريم، اجتنبوه، أي أن هذه المعصية لها قوة جذب، فلا بدَّ من أن تدع بينك وبينها هامش أمان، كيف أن النهر العميق المخيف الذي ينذر من وقع فيه بالموت، لهذا النهر شاطئ مائل عليه حشيش مُبْتَل، وله شاطئ جاف مستوٍ، المشي على الشاطئ المائل المبتل الزَلِق فيه مخاطرة كبيرة جداً، ممنوع أن تمشي على هذا الشاطئ المائل الزلق لئلا تقع في النهر، ينبغي أن تمشي على الشاطئ الجاف المستوي، هذه قاعدة.

الشهوات التي نضعف أمامها في بعض الظروف أمرنا الشرع الحكيم أن نبتعد عن أسبابها:

قال الله عزَّ وجل :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

(سورة الإسراء)

لم يقل: لا تزنوا، بل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا (32))

هذه شهوة تثور بوجود الخلوة، وإطلاق البصر يثير هذه الشهوة، متابعة مشاهد مثيرة على الشاشة أيضاً يثير الشهوة، فكل ما يُقَرِّبُكَ من هذه الشهوة مُحَرَّم، هذا معنى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا (32))

اجعل بينك وبين الزنى هامش أمان، اجعل بينك وبين مال اليتيم هامش أمان، لا تخلط مالك بماله، لا تجعل الحساب هو الحكم، اجعل خلط المال هو الحكم فلا تفعله، هناك موضوع دقيق جداً، هناك شهوات لها قوة جذب أو فيها وهج، هذه الشهوات التي يضعف الإنسان أمامها في بعض الظروف أمرك الشرع الحكيم أن تبتعد عن أسبابها، الشهوات التي فيها قوة جذب، والتي يَضْعُف الإنسان أمامها في بعض الظروف نهاك من الاقتراب منها **" ولا تقربوا الزنا ".**

الآية العظيمة الدَّالة على عظمة الله لا يسخر منها إلا الفاسق:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90))

(سورة المائدة)

اجعلوا بينكم وبينها هامش أمان، لا تجلس مع شارب خمر، لا تتعامل مع كل من يتعامل بالخمر، إذاً لِمَ أصرّ الأخ على أنه ليس في القرآن الكريم آيةٌ تحرم الخمر ؟ حتى يُغَطِّي انحرافه، فالقضية الدقيقة الآن هي حينما ينحرف الإنسان أمامه سبيلان لاستعادة توازنه ؛ سبيل الاستقامة والتوبة النصوح والصلح مع الله، وسبيل أن يعتقد عقيدةً زائغةً فاسدةً منحرفةً يتوهَّم بها أنها تغطِّي انحرافه، ولذلك لا يناقش المتلبِّس بشهوة، لا يناقش لأن منطقه منطق تسويغي تبريري وليس منطقاً حراً أبداً:

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

الآية العظيمة الدَّالة على عظمة الله لا يسخر منها إلا الفاسق، دقق في هذه الآيات:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون)

هو نفسه:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50))

(سورة القصص)

الذي يتبع هواه من دون هدىً من الله عزَّ وجل هذا من أشد الناس ضلالاً يوم القيامة، هؤلاء الفاسقون ما صفاتهم ؟ هذا هو موضوع درسنا اليوم.

للآية التالية عدة معانٍ:

هؤلاء الفاسقون:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ (27))

لهذه الآية معانٍ كثيرة، بعض معانيها أن الله سبحانه وتعالى أخذ من بني آدم في عالم الذّرْ عهداً على أن يطيعوه حينما قال لهم:

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (172))

(سورة الأعراف: آية " 172 ")

هذا عهد، فالذي يأتي إلى الدنيا، ويتعرَّف إلى الله، ويستقيم على أمره هذا أوفى بما عاهد عليه الله، والذي يأتي إلى الدنيا، وتستهويه الشهوات، ويضع منهج الله وراء ظهره هذا نقض عهده مع الله، يقول سيدنا علي كلمة : **" والله إني لأذكر ذلك العهد "** هذا معنى من معانٍ كثيرة.

المعنى الثاني: أن عهد الله هو أمره ونهيه الذي جاء في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ونَقْضُ هذا العهد عدم العمل به، فالذي لا يعمل بالقرآن والسنة يَنْقُضُ عهد الله، هؤلاء الفاسقون لماذا سموا فاسقين لأنهم:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ (27))

نقض العهد هو عدم العمل بالكتاب والسنة:

عهد الله إلينا أن نأكل المال الحلال، عهد الله إلينا أن نَقْصُرُ طرفنا على زوجاتنا وعلى محارمنا، عَهْدَ الله إلينا أن نكون صادقين، عهد الله إلينا أن نكون أمناء، عهد الله إلينا أن نؤدِّي الأمانات إلى أهلها، عهد الله إلينا ألا نظلم بني البشر، ألا نكذب، ألا نأخذ ما ليس لنا، أن نكون أمناء، لذلك بعث الله عزَّ وجل النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمة ليقوِّم أخلاقها، وعَبَّر سيدنا جعفر للنجاشي عن الواقع الذي بين الجاهلية والإسلام حين قال: **" أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحِّده، ونخلع ما كان يعبد**

آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ".

إذاً نقض العهد عدم العمل بالكتاب والسنة، كل أمرٍ في القرآن هو عهدٌ عَهِدَ الله به إليك، كل أمرٍ في القرآن، وكل أمرٍ في سنة النبي العدنان هو عهدٌ عهد الله به إليك أن تُطبِّقَهُ، فإن طبَّقته فقد وفَّيت بهذا العهد، وإن لم تطبقه فقد نقضت عهدك مع الله، أي أن كل إنسان يعصي الله نقض عهده مع الله، هذا المعنى الواضح والشائع والواسع والمقبول، نقض العهد مع الله عدم تطبيق أمره والوقوع في نهيه، هذا نقض العهد، فالفاسقون لماذا هم فاسقون ؟ لأنهم نقضوا عهدهم مع الله، وحينما يتوب الإنسان يعاهد الله على الطاعة، من السُّنة أن يقول الإنسان في بيت الله الحرام عند الحجر الأسعد: **" بسم الله، الله أكبر، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، واتِّباعاً لسنة نبيِّك، وعهداً على طاعتك "**، فالذي عاهد الله عند الحجر الأسود أن يطيعه ثم عاد إلى بلده فعاد إلى ما كان عليه نقض عهد الله.

المنافق الفاسق ينقض عهده مع الله :

يقول الله عزَّ وجل :

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102))

(سورة الأعراف)

ويقول الله عزَّ وجل:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

لاحظ نفسك، إذا تبت إلى الله توبةً نصوحاً، وعاهدته على الطاعة، وعاهدته على الإنصاف، وعاهدته على خدمة المسلمين، وعاهدته على الإنفاق في سبيله، لاحظ نفسك: هل تبدل هذا العهد مع مرور الأيام؟ المنافق الفاسق ينقض عهده مع الله.

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

لهذه الآية معانٍ كثيرة، الأنبياء جميعاً دعوتهم واحدة، فالذي لا يفرِّق بين الأنبياء، يجعل كل الأنبياء مبعوثين من عند الله عزَّ وجل معهم كتاب الله، يعتقد بالأنبياء جميعاً اعتقاداً صحيحاً، هذا لم يقطع ما أمر الله به أن يوصل، هذا معنى، وهناك معنى آخر: كل إنسان يدعو إلى معصية يقطع الناس عن الله عزَّ وجل وقد أمروا أن يتصلوا بالله، أية بدعة، بدعة فيها اختلاط ـ عرس مختلط ـ هذا العرس المختلط بدعةٌ فيه دعوةٌ إلى القطيعة مع الله، حينما يُمَتِّعُ الإنسان بصره بمن لا تَحِلُّ له

كانت هذه المتعة المحرَّمة حجاباً بينه وبين الله، ماذا فعل من دعاه إلى هذا الحفل ؟ قَطَّعَ علاقات الناس بالله عزَّ وجل.

أنواع المعاصي كلها تقطع عن الله:

من دَلَّ على كسبٍ حرام قطع هذا المكتسب عن الله، أي إنسان دعا إلى معصية، رَوَّج لمعصية، دعا إلى دنيا مُغرية، رَغَّب الناس بشيءٍ لا يرضي الله، دعا الناس إلى شراء جهاز حتى يكون على مستوى العصر، وحتى يَطَّلع على ما في العالم من أحداث، كما يتوهم كل إنسان يدعو إلى شيء يقطع عن الله هو قاطع، وأكبر كلمة وأكبر جريمة يرتكبها الإنسان أن يكون قاطعاً عن الله، أنواع المعاصي كلها تقطع عن الله، إذا كانت حرفة إنسان مبنية على معصية، كأن يملك ملهى مثلاً، ماذا يفعل صاحب الملهى ؟ هو يقطع الناس عن الله عزَّ وجل، فالقضية طويلة وواسعة جداً، أي حرفة مبنية على معصية هي في حقيقتها قطع الناس عن رَبِّهم، تزيين الدُنيا، إغراء الناس بها، تحبيبهم بالمعصية، أن يكسبوا المال من أي طريق، أن يتخذوا أية حرفة تُدِرُّ عليهم مالاً وفيراً دون أن يهتموا بطاعة الله فيها، هذا الذي يتخذ حرفةً فيها شبهة، فيها إيذاءٌ للناس، فيها إيذاءٌ للناس بدينهم، هذا الذي يروِّج الشهوات ويحببها للناس إنما يقطعهم عن الله بشكل أو بآخر.

لو أخذ صديق صديقه إلى حفلة مختلطة، وهذا الصديق مثلاً له مسجده، له طاعته لله، له استقامته، أغراه صديقه بالسهرة المختلطة، فأدخله بعالم آخر، عالم الفتيات، وعالم الاختلاط، وعالم الاستمتاع بمباهج هذه السهرات، فنسي دينه، ونسي صلاته، ونسي حفظه لكتاب الله، سمعت أن أحد الأشخاص يسجل أفلاماً إباحية، ويعرضها على الشباب بأجر في غرفة في بعض أحياء دمشق، أقسم لي أحدهم أن أحد الشباب كان من حُفَّاظ كتاب الله ترك الصلاة طبعاً، ترويج أي معصية، ترويج أي عمل فني، ترويج أي حرفة، هذه الفتاة التي تخرج متبذِّلةً في ثيابها، تظهر مفاتنها، والله تقطع الشباب عن الله، تصرفهم عن دين الله، عشرون عاماً بينه وبين الزواج، ينتظر عشرين عاماً إلى أن يتزوج، تظهر له كل مفاتنها في الطريق، وليس كل شاب لديه المناعة القوية، فكثيرٌ من الشباب يسقط في حمأة المعصية، فهذه الفتاة تَقْطَعُ الشباب عن الله، أي شيء مغرٍ، أي شيء فيه معصية، أي شيء فيه تحبيب للدنيا هذا كله يبعد الناس عن الله عزَّ وجل، فهؤلاء الفاسقون مُهمَّتُهم أن يقطعوا ما أمر الله به أن يوصل.

من يقطع ما أمر الله به أن يوصل إنسان لا علاقة له بالإسلام و له اسم مسلم فقط :

يقول الله عزَّ وجل:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ (15))

(سورة لقمان: آية " 15 ")

هناك شخص كلما وجد شاباً متعلّقاً بمسجد أو بعالم يقطعه عنه، يقول له: كن حراً، لا حاجة بك إلى الشيخ، ولا حاجة بك للجامع، إذا كان حراً فهو وحيد غير منضبط، بالمسجد تاب إلى الله، عاش بمجتمع مؤمن، أصبح في منافسة شريفة مع إخوانه، صار عنده انضباط ووعي، صار ذا عقيدة صحيحة، هناك أب لا يروق له أن يكون ابنه في مسجد، يقطعه عن الله وعن المسجد، قد يأتيه ابنه الساعة الثانية ليلاً، ولا يعلم الأب أين كان ؟ لا يتكلّم ولا كلمة، أما إذا علم أنه في مسجد، في حضور درس علم يقيم عليه النكير، ماذا يفعل هذا الأب ؟ يقطع ما أمر الله به أن يوصل، وهناك أب إذا رأى ابنته محجَّبة يقيم عليها النكير، يريدها متبذّلة حتى يتباهى بها، هناك رجل إن أصرت زوجته على الحجاب يطلّقها، يريدها متبذّلة، يريد أن يعرض مفاتنها على أصدقائه كي يتباهى بها، هؤلاء لهم أسماء المسلمين فقط، هؤلاء بين أظهرنا، هؤلاء يعيشون معنا، يقطعون ما أمر الله به أن يوصل:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

هناك حقيقة واحدة في الكون هي الله:

قال تعالى:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ (15))

(سورة لقمان: آية " 15 ")

هذا الذي يقطعك عن مجلس علم، ويقطعك عن مسجد يعلمك ويدعوك إلى الله عزَّ وجل، هذا يقطع ما أمر الله به أن يوصل، هذا الذي يغريك أن تكسب المال الحرام من طريقٍ غير مشروع، من أجل أن تصبح غنياً في وقت قصير، هذا يقطعك عن الله عزَّ وجل.

والله أخ من أخواننا أعجبني فيه صدقه، قال لي: اشترى والدي صحناً فضائياً، تابعت بعض البرامج زمناً: فقطعت عن الله عزَّ وجل، وقال لي: أصبحت صلاتي لا معنى لها إطلاقاً، بعد حين شعر بالخطر على دينه، فعاهد الله على أن يمتنع عن مشاهدة برامج هذا الصحن:

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

هناك حقيقة واحدة في الكون هي الله، أي عمل يقرِّبُك من الله هذا عمل عظيم، وأي عمل يبعدك عن الله عزَّ وجل فهو عمل خسيس، فشراء مجلة غير منضبطة مشكلة، شاب يطّلع على صور

الفنانات في أوضاع مغرية في مجلة مشكلة، وهذه المجلة ومثيلاتها ينبغي ألا تدخل هذا البيت، هناك من يشتري هذه المجلاّت ويضعها في عيادته من أجل أن يستمتع المرضى قبل الدخول إلى غرفة المعاينة، هذا يقطع ما أمر الله به أن يوصل.

أيها الأخوة، هؤلاء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، وبالمناسبة إذا وجدت إنساناً له شيخ في مسجد، ملتزم، متألّق، دَعْهُ لا تدخل بتفاصيل، لا تقطعه عن هذا المسجد، هذا مصدر سعادته، مصدر انضباطه، إلا بحالات نادرة جداً، إذا كانت هناك عقيدة منحرفة خطيرة جداً في هذا المسجد، هذا موضوع ثانٍ، أما بشكل عام فلا يكن همُّك قطع إنسان موصول بالله عن طريق جماعة، عن طريق مسجد، عن طريق شيخ، هذا عمل تخريبي، أنت قطعته ولكنك لست متمكناً لتحل مكان هذا الشيخ، قطعته عن هذا الشيخ، وجعلته ضائعاً فماذا فعلت ؟ هذا عمل تخريبي لأنك قطعته عن إنسان له صلة بالله، له عمل صالح، له وجهة مع الله عزَّ وجل.

لا يأتمر المؤمن الصادق إلا بما أمر الله به ولا ينتهي إلا عما نهى الله عنه :

أحياناً تجد إنساناً معتقداً بإنسان، كأخوين في المسجد، الأخ السابق تائب من عشر سنوات، له ماضٍ قبل عشر سنوات كان غير مرضٍ، ولكنه تاب توبة نصوحاً من هذا العمل، يصطحب معه أخاً فيسأله أحدهم: مَن الذي دلك على هذا المسجد ؟ فيقول له: فلان، يقول له: فلان ؟ يتكلم بلهجة استنكار ؟! هذا كان كذا، كان كذا، ماذا فعلت أنت ؟ لقد تاب من هذا الذنب وسلك طريقه إلى الله، وصار متألّقاً، ودعا إلى الله، لماذا تُذكّر هذا الشاب الناشئ الذي اهتدى على يد هذا الشاب الأكبر منه بعمل فعله قبل عشر سنوات ؟ هذا التصرف عمل شيطاني ، كل إنسان له صلة بالله فقطع هذه الصلة عمله تخريبي، وعمله يغضب الله عزَّ وجل، هؤلاء الفسقة همُّهم الأول أن يقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، يقطع التلميذ عن أستاذه، يقطع الأخ عن أخيه، يقطع الجار عن جاره، يقطع الأم عن ابنتها، هناك زوج يحرِّم أن تزور البنت أهلها، لماذا ؟ أمها وأبوها من حقها أن تزورهما، والله عزَّ وجل أمر بصلة الرحم، وهو يقطع هذه الصلة.

قد يأمر أحدهم إنساناً أن يقاطع أهله، هذا الأمر مخالف للسنة، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، فلتحقيق نزوة معيَّنة، لتحقيق هدف كيدي يأمر هذا الإنسان أن يقاطع أهله جميعاً، أن يقاطع أخواته، هذا عمل كَيْدي هذا مخالف للسنة، لا يأتمر المؤمن الصادق إلا بما أمر الله به، ولا ينتهي إلا عما نهى الله عنه، ولا يطيع مخلوقاً في معصية أبداً، وكل إنسان يعتقد أن هناك إنساناً أكمل من رسول الله فهو كافر برسالة رسول الله عليه الصلاة والسلام، أي أنك إذا سمعت كلام إنسان وعصيت النبي عليه الصلاة والسلام فأنت لست مؤمناً برسالة النبي، ولا بعصمة النبي، ولا بأحقية اتباع النبي، هذه آية دقيقة المعنى، خطيرة نتائجها:

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

إيَّاك أن تكون أداة قطعٍ، بل كن أداة وصلٍ، لذلك: ليس منا من فَرَّق.

حتى بعض المؤسسات مثلاً تعلق أنها تريد موظفاً يعمل لديها غير متزوج، أو غير مصحوب بزوجته، في دول الخليج أحياناً يطلبون موظفاً من دون زوجة، زوجته أقرب الناس إليه، ليس في الإمكان أن يعيش بعيداً عنها، وليس في إمكانها أن تعيش بعيدةً عنه، لا نقبلك بزوجة، يبقى سنةً بأكملها في مكان، وزوجته في بلد آخر، هؤلاء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، هؤلاء الذين يفرِّقون شمل الأسرة هؤلاء ليسوا على حق، يأمرك القرآن والسنَّة أن تجمع شمل الأسرة، هذه الآية واسعة جداً لا تنتهي، ومعانيها وشموليتها في العلاقات الأسرية، في العلاقات الزوجية، في علاقة الأباء بأبنائهم، هذا الذي يثير الابن على أبيه هذا يقطع ما أمر الله به أن يوصل، هذا الذي يثير الجار على جاره، والأخ على أخيه، هذا الذي يدعو إلى معصية، يرَغِّب في معصية، هذا الذي يغريك بمالٍ حرام يقطعك عن الله عزَّ وجل، طبعاً آية واسعة جداً، ليس منا من فرَّق كما قال عليه الصلاة والسلام.

البيت مصون مقدَّس في الإسلام:

قال تعالى:

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (27))

يفسدون العلاقات، يفسدون الأخلاق، يفسدون براءة الصِغار، هناك أعمال فنية مستوردة تُعْرَض على الصغار فيها كل شيء من الفسق والفجور والعلاقات الغرامية، طفل عمره ثلاث سنوات أو أربع سنوات يشرب مع دمه هذه العلاقات الشائنة عن طريق أفلام نستوردها، هذه لا تجوز، لا بدَّ من أعمال تناسب الصغار المؤمنين، كل عمل يُبعدك عن الله عزَّ وجل هذا قطعٌ لما أمر الله به أن يوصل.

هناك جهات بعيدة تكيد للمسلمين، لقد غُزينا ثقافياً عن طريق هذه الصحون، صار البيت ملهى، صار البيت نادياً ليلياً، بينما البيت مصون مقدَّس في الإسلام، الأب مقدَّس، الأم مقَدَّسة، حالاتٌ كثيرةٌ من زنا المحارم تقع عن طريق هذه الصحون.

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

آية واسعة جداً، أي أن كل شيء أمر الله به أن يوصل قطعه عملٌ تخريبي يحمل كل ما يغضب الله عزَّ وجل ولا يرضيه.

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (27))

هذا الفساد كما قال الله عزَّ وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(41))

(سورة الروم)

أي أن الله عزَّ وجل يذيق الناس وبالأجزاء بعض الذي عملوا:

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41))

علينا أن نطيع الله وإلا لا بدَّ من تأديبٍ قد لا نحتمله:

سمعت عن إعصار أمريكا الأخير اسمه **" إعصار جورج "**، هذا الإعصار الذي بلغت سرعته مئتين وخمسة وعشرين كيلو متراً في الساعة، وهذه من السرعات العالية جداً والمدمرة، مرَّ هذا الإعصار على بيوت الشاذين في فلوريدا فَدَمَّرها عن آخرها:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117))

(سورة هود)

أخواننا الكرام، علينا أن نطيع الله وإلا لا بدَّ من تأديبٍ قد لا نحتمله:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة)

يأتي التأديب أحياناً فوق طاقة الاحتمال، إنسان يرى نفسه بلا مأوى يسكن في الطريق، مئتان وأربعون مليون إنسان في الصين بلا مأوى، أنت عندك بيت، لك مأوى، لك فراش، لك سرير، لك غرفة طعام، خزانة ملابس، فكيف بك ـ لا سمح الله ـ إن وجدت نفسك وأهلك في العراء بلا مأوى، هذا يراه الناس كل يوم في مكان الفيضانات، فيضانات تغرق الناس في مكان ما، رياح عاتية في مكان آخر تقتلع بيوتهم، وحروب أهلية في مكان ثالث تصحن البشر طحناً.

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة)

ملخص الملخص أننا إذا هان أمر الله علينا هُنَّا على الله ولا يعبأ الله بنا:

مُلَخَّص المُلَخَّص: إذا هان أمر الله علينا هُنَّا على الله، لا يعبأ الله بنا..

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (27))

الفساد كذلك واسع جداً شرّه وأثره، سأل أحدهم أخته عندما جاءها مولود: ماذا قدَّم لكِ زوجكِ بمناسبة الولادة ؟ قالت له: لم يقدِّم لي شيئاً، فأجابها متسائلاً: أمعقول هذا ؟ أليس لكِ قيمة عنده ؟ والله يليق بكِ شخص غيره أرقى منه، ألقى بذلك قنبلة ومشى، جاء زوجها ظهراً إلى البيت فوجدها غاضبة فتشاجرا، وتلاسنا، واصطدما، فطلقها، من أين بدأت المشكلة ؟ من كلمة قالها الأخ، مثلاً قد يسأل أحدهم: هذا البيت كيف يتسع لكم ؟ إنه يتسع لنا، ليس لك أنت علاقة، إنه يحب أن يُعَكِّر صفو

الأسرة، هو شيطان، داخل فيه شيطان، وهذا هو الفساد، التقى بشاب راقٍ: أين تشتغل ؟ فقال له: بالمحل الفلاني، كم يعطيك بالشهر ؟ قال له: خمسة آلاف، فيرد عليه مستنكراً: خمسة آلاف فقط، كيف تعيش بها ؟ إن صاحب العمل لا يستحق جهدك ولا يستأهله، جعله كارهاً عمله، فطلب رفع الراتب، رفض صاحب العمل، فأصبح بلا شغل، كان يعمل أما الله فهو بلا عمل، هو شيطان.

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

كل إنسان يصَغِّر دنيا الناس عندهم، يكَرِّهه ببيته، يكرهه بزوجته، يكرهه بأولاده، يكرهه بمهنته، بحرفته، يستعلي عليه، هذا يفسد في الأرض، أفسد العلاقات، أفسد القرابات، أفسد الأعمال، فالفساد أيضاً واسع شره ونتائجه.

الفساد واسع جداً وهو إخراج الشيء عن طبيعته:

دققوا أيها الأخوة، كلمة تنطق بها من سخط الله تهوي بها في جهنم سبعين خريفاً، كلمة استعلاء أحياناً تجرح الإنسان:

جراح السنان له التئام وليس لجراح اللسان التئام

***

يتكلم بعضهم أحياناً كلاماً جارحاً، يحفر عميقاً في نفس سامعه، حمله على الكلام مكرٌ أو خبثٌ أو جهل، فلماذا ؟ أما كان الأجدر به أن يراقب الله فيما يقول ؟!! فاحذر يا أخي أن ينزلق لسانك وتقطع عندئذٍ ما أمر الله به أن يوصل.

أيها الأخوة الكرام، قطع ما أمر الله به أن يوصل والفساد في الأرض هذا من خصائص هذا العصر، مصدره أحياناً التباهي، النساء دائماً يحببن أن يستكثرن أمام صديقاتهن، هذا أيضاً فساد في الأرض، أكرمك الله بزوج حالته المادية جيدة، هل من المفروض أن تحدِّثي جيرانك عن طعامكم، وعن نزهاتكم، وعن فرشكم، وعن بيتكم ؟ داخل فيها شيطان، عملية تحطيم، أنا كذا، زوجي كذا، دخله كذا، قمنا بنزهة بالمكان الفلاني، بالفندق الفلاني، حفل عُرسنا كان بالمكان الفلان، هذا الحديث الفارغ الذي يملأ القلب حسرةً، ويملأ الناس ضغينةً وحقداً، ما مبرراته ؟ أليس يحمل في طياته خلافاً بين الأزواج قد ينتهي إلى الطلاق وتشريد الأولاد، إنه يقطع ما أمر الله به أن يوصل.

المؤمن يذكر الله عزَّ وجل فيشكره، إذا أكرمك الله عزَّ وجل فاشكره دون أن تكسر قلب الآخرين، لئلا تقع في الفساد، هناك فساد بالكلمة، فساد بالأجواء، فساد بالمياه، فساد بالبيئة، فساد بالثمرات، فساد بالنباتات، الفساد واسع جداً، وهو إخراج الشيء عن طبيعته، والمؤمن لا يفسد إطلاقاً، إنما يصلح بين خلق الله عزَّ وجل.

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27))

بعض خصائص الذين لا يعبؤون بآيات الله ولا يراقبون الله في تصرفاتهم:

أيها الأخوة، هؤلاء الذين لا يعبئون بآيات الله ولا يراقبون الله في تصرفاتهم، من خصائصهم أنَّهم:

(يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ (25))

المعنى الواسع: لا يطيعون الله، لا يأتمرون بأمر الله لا في كتابه ولا في سنَّه نبيِّه، ويفعلون المنهيَّات وينتهون إلى الضلال:

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

يقطعون الناس عن ربِّهم:

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (27))

يغيِّرون طبيعة كل شيء:

(أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (16- 95):تفسير الآيتان 28-29، الموت والحياة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-10-09

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يوجد الكون شيءٌ إلا ويشير إلى الله موجوداً وواحداً وكاملاً:

مع الآية الثامنة والعشرين وهي قوله تعالى:

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28))

يقول علماء اللغة: إن

(كَيْفَ)

اسم استفهام، يستفهم به عن الحال، تقول لأخيك: كيف حالك ؟ اسم استفهام يستفهم به عن الحال، ولكن الاستفهام أحياناً يخرج عن أصله إلى معانٍ أخرى، فإذا أردت أن توبِّخ إنساناً تقول له: كيف تفعل هذا ؟ أردت أن توبِّخه، أو إن أردت أن تُنْكِر عليه، أو إن أردت أن تردعه، فالاستفهام هنا هو استفهام إنكاري، كيف يكفر هذا الإنسان وقد خلقه الله عزَّ وجل من ماءٍ مهين ؟ كيف يكفر وقد خلق له ما في الأرض جميعاً ؟ كيف يكفر وقد منحه نعمة العقل ؟ كيف يكفر وقد خلق له من نفسه زوجةً ؟ كيف يكفر وقد خلق له من نفسه أولاداً يتحركون أمامه ؟ وهو يعلم علم اليقين كيف تم خلق هؤلاء الأولاد من نطفةٍ من ماء مهين ؟ كيف يكفر وكل ما حوله يدل على الله عزَّ وجل ؟ كيف يكفر وما في الكون شيءٌ إلا ويشير إلى الله موجوداً وواحداً وكاملاً ؟ فهذا الاستفهام استفهام توبيخي، واستفهام إنكاري:

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ (28))

قال علماء التفسير:

(وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً (28))

أي كنتم في حالة العدم، الموت الأول موت العدم:

(فَأَحْيَاكُمْ (28))

جاء بكم إلى الدنيا، ثم أماتكم بعد انتهاء الحياة، ثم يحييكم يوم القيامة لتلقوا نتائج أعمالكم، إذاً أولاً موت العدم، ثم إحياء الدخول في الدنيا، ثم موت الخروج من الدنيا، ثم إحياء يوم القيامة للحساب والعقاب والجزاء.

هذه الحياة التي تنعُم بها إنما هي من الله عزَّ وجل:

أيها الأخوة الكرام، حياة الإنسان بيد الله، الله عزَّ وجل مُتَحَكِّمٌ بإيجاده، متحكمٌ بحياته، الله عزَّ وجل هو الذي منحه نعمة الحياة، أنت كائن حي تتحرك، ترى، تسمع، تتحسس، تأكل، تشرب، تذهب إلى بيتك، هذه الحياة التي تنعُم بها إنما هي من الله عزَّ وجل، هو الذي منحك الحياة.

(فَأَحْيَاكُمْ (28))

منحك نعمة الإيجاد، ومنحك نعمة الإمداد، ومنحك نعمة الهدى والرشاد، وهذه هي النعم الكبرى.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

(سورة الإنسان)

منحك نعمة الحياة، منحك نعمة الإمداد، منحك نعمة الهُدى والرشاد.

(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ (28))

أنت بين قَوْسين قوس الحياة وقوس الممات، الله عزَّ وجل هو المتحَكِّم بالحياة، واهب الحياة، الله عزَّ وجل هو المميت، هو الذي ينهي حياة الإنسان، فإذا كانت البداية من خلق الله والنهاية من خلق الله لم لا تكون الحياة لله ؟ **" الدنيا ساعة اجعلها طاعة ".**

عظمة الله في خلقه:

الدنيا ساعة، الزمن يمضي سريعاً، الإنسان زمن، الإنسان بضعة أيام كلَّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، والإنسان العاقل يَعُدُّ عمره عداً تنازلياً يقول: كم بقي لي من عمري ؟ كيف مضى الذي مضى ؟ مضى الذي مضى كلمح البصر، فإذا مضى ثُلثا العمر فالثلث الباقي يمضي كلمح البصر أيضاً، الإنسان فجأةً أمام حسابٍ دقيق، وجزاءٍ دقيق، وعقابٍ دقيق.

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً (28))

كنتم في طور العدم.

(فَأَحْيَاكُمْ (28))

أصل الإنسان من ماء مهين، هناك خمسمئة مليون حوَين في اللقاء الزوجي، وتحتاج البويضة إلى حوين واحد، و البويضة لا ترى بالعين لأنها صغيرةٌ جداً، ثم تنقسم البويضة إلى عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم، تنشأ لها في الرحم استطالات كالأرجل من أجل أن تعلق في جدار الرحم، إذا علقت بدأت تأخذ الغذاء من جدار الرحم في تسعة أشهر وعشرة أيام، هذه البويضة التي لا ترى بالعين، وهذا الحوين الذي لا يرى بالعين يشكلان كائناً بداخل دماغه ما يقرب من مئة وأربعين مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد، هناك في قشرة الدماغ أربعة عشر مليار خلية، يحوي العصب البصري تسعمئة ألف، الشبكية مئة وثلاثين مليون عُصية ومخروط، الشم عشرين

مليون نهاية عصبية شمِّية، لكل نهاية سبعة أهداب، الأهداب مغمَّسة بمادة معينة تتفاعل مع الرائحة، تصبح الرائحة شكلاً هندسياً تشحن إلى الدماغ، في الدماغ تعرض على ملف فيه عشرة آلاف رائحة من أجل أن تعرف الروائح، العين ترى الأشخاص بالحجم الحقيقي واللون الدقيق، وتفرق العين البشرية بين لونين، بين درجتين من ثمانمئة ألف درجةٍ من اللون الواحد، لو درجنا لوناً واحداً ثمانمئة ألف درجة تدرك العين البشرية السليمة الفرق بين درجتين.

خلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته:

في رأس الإنسان ثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرة وريد، وشريان، وعصب، وعضلة، وغدة دهنية، وغدة صبغية، شعر الإنسان، دماغ الإنسان، السمع، البصر، الشم، السمع قضية معقدة جداً، جهاز التوازن، الغدة النخامية وزنها نصف غرام تفرز اثني عشر هرموناً، وهي ملكة الغدد تسيطر على كل الغدد الصمَّاء في الجسم، ملكة وزنها نصف غرام تفرز اثني عشر هرموناً، لو تعطَّل إفراز أي منها لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، هرمون النمو، هرمون الجنس، هرمون توازن السوائل، شيء لا يصدَّق، الغدة الدرقية مسؤولة عن الاستقلاب فهي تحول الغذاء إلى طاقة، الكظر مسؤول عن مواجهة الأخطار، الخطر الداهم، يعطي أمراً للقلب لرفع نبضه، وأمراً للرئتين لزيادة وجيبهما، وأمراً للكبد لطرح كمية سكر إضافية، وأمراً للأوعية فتضيق لمعتها، وأمراً للكبد لإفراز هرمون التجلُّط، شيء لا يصدَّق هذا الكظر فتضيق، والمعدة فيها خمسة وثلاثون مليون عصارة تفرز في وجبة الطعام، ونصف لتر من حمض كلور الماء من أجل هضم الطعام، والبنكرياس، والطُحال، والكبد فيه خمسة آلاف وظيفة، وتقوم كل خليةٍ من خلايا الكبد بكل هذه الوظائف، والعظام، والعضلات، والأعصاب، والقلب، والشرايين، هذا كلُّه يُصنَّع في أكمل صناعة في تسعة أشهر، الله منحنا الحياة وبيده كل شيء، إنسان ملء السمع والبصر، غني، قوي، يصبح خبراً بثانية، نعوة، ينتهي.

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (44))

(سورة المؤمنون)

واهب الحياة هو الله، المميت هو الله، وحياتك بين هذين القوسين، فلمَ لا تكون لله عزَّ وجل ؟ **" الدنيا ساعة اجعلها طاعة "**. في أول ليلةٍ يوضع الإنسان في قبره ـ هكذا ورد في الأثر ـ يُنادى أن: رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت.

مثال عن استحالة إيجاد مخرج في معصية الخالق :

الآية الكريمة:

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ (28))

طلب إنسان من عالم أن يجد له مخرجاً في معصية الله، فقال له: خمسة أشياء إن فعلتها لا تضرُّك معصية ـ شيء رائع جداً ـ ما هي هذه الأشياء ؟ قال له: إن أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، قال له: وأين أسكن إذاً ؟ قال له: أتسكن أرضه وتعصيه ؟!! أمعقول هذا ؟! إذا أدخلك إنسان إلى بيته وأنت ضيفه، أمعقول أن تضرب له ابنه وأنت في بيته ؟ معقول أن تضع السم في الطعام وأنت في بيته ؟ تسكن أرضه وتعصيه ؟ قال له: هات الثانية، قال: إن أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه ؟ قال له: وماذا آكل إذاً ؟ قال له: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه ؟! أمعقول ؟! قال له: هات الثالثة، قال له: إن أردت أن تعصيه فاعصه في مكانٍ لا يراك فيه، قال:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4))

(سورة الحديد)

قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ؟

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنـــا

* * *

قال له: هات الرابعة، قال: إن أردت أن تعصيه وجاءك ملك الموت فلا تذهب معه، قال له: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تدفع عنك ملك الموت ؟ قال له: هات الخامسة، قال له: إن أردت أن تعصيه وجاء الملكان بك إلى النار فلا تذهب معهما، قال له: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تدفع عنك ملك الموت ولا ملائكة العذاب ؟ قال له:كُفيت؟

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ (28))

الله يمهل ولا يهمل :

وجودك من الله، سمعك، بصرك، نُطقك، ذكاؤك، عضلاتك، أمعاؤك، جهاز الهضم، جهاز الدوران، جهاز التصفية، العظام، الأعصاب، كل هذه بيد الله، أيعقل أن تعصيه بِنِعَمِهِ ؟ أيعقل أن تعصيه بالأعضاء التي منحك الله إياها ؟ كيف ؟ هذا استفهام إنكاري، واستفهام توبيخي، واستفهام تعجُّبي في آن واحد.

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ (28))

لم أر أشد غباءً من الذي يتجاهل وجود الله ويفعل ما يشاء، والله عزَّ وجلٍ يمكن أن ينهيه في أي ثانية، هذا الذي يتجاهل القوة الوحيدة في الكون، الحقيقة الوحيدة في الكون إنسان أحمق وهناك آلاف القصص، إنسان مشى في طريق العدوان فدمَّره الله عزَّ وجل، مشى في طريق المعصية فدمره الله عزَّ وجل، ولكن الله يمهل ولا يهمل، بعد ذلك:

(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28))

يجب أن يغلب على يقينك أن كل حركةٍ، وكل سكنةٍ، وكل كلمةٍ، وكل ابتسامةٍ وكل عبوسٍ، وكل وصلٍ وكل قطعٍ، وكل عطاءٍ وكل منعٍ، مسجلٌ عليك وسوف تسأل لماذا فعلت هذا ؟ قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

ما دام في العمر بقية فالصلح مع الله سهلٌ جداً لأنه ينتظرك :

ما دام في العمر بقية فالصلحة بلمحة، ما دام في العمر بقية فالصلح مع الله سهلٌ جداً لأنه ينتظرك:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد)).

[ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

مرةً ثانية أقول لكم: قصة الأعرابي الذي ركب ناقته وعليها زاده وشرابه:

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)).

[مسلم عن أنس بن مالك]

أصاب قلبه، وأخطأ لسانه، فقال عليه الصلاة والسلام: **" لله أفرح بعبده التائب من هذا البدوي بناقته"**، فهل الصورة واضحة ؟ هذا كلام النبي في الصحاح: **"لله أفرح بعبده التائب من هذا البدوي بناقته"** ، ماذا تنتظر ؟!!

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

الغنى والفقر بعد العرض على الله:

إذا قال العبد: يا رب وهو راكع، قال الله: لبَّيك يا عبدي، فإذا قال العبد: يا رب وهو ساجد، قال الله له: لبَّيك لبيّك عبدي، فإذا قال العبد: يا رب وهو عاصٍ، قال الله له: لبيك ثم لبيك ثم لبيك.

فيا خجلي منه إذا هو قال لـي أيـا عبدنا ما قرأت كتابنــا ؟

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنـــا

* * *

إلى متى أنت باللذات مشغول ؟ وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شـنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحـــب لمن يحب يطيع

* * *

كيف ؟ خالق الكون يعجب ؟ خالق الكون يعجب ؟!

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ (28))

أنت حي، هذه الحياة منحةٌ من الله عزَّ وجل، وبعد الحياة موت، وبعد الموت حسابٌ دقيق، فكيف ؟ من هنا قال سيدنا علي كرَّم الله وجهه: " الغنى والفقر بعد العرض على الله"، يكون الغني غنياً والفقير فقيراً بعد العرض على الله، والغنى غنى العمل الصالح.

خالق الكون يعجب كيف ؟ منحتُ نعمة الهدى، نعمة الإيجاد، نعمة الهدى والرشاد، نعمة الإمداد، التقيت رجلاً فقلت له: ألا ترى أن الله خالق السماوات والأرض إلهٌ عظيم ؟ قال: لا، قلت له: هل في جسمك شيءٌ غير مُتقن ؟ قال لي: نعم الزائدة الدودية، قلت له: ما رأيت من جسمك إلا الزائدة الدودية ؟ اسمها الزائدة المدافعة هي خط دفاعٍ كاللوزتين، قال لي: اللوزتان متعبتان أيضاً.

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28))

القلب السليم فيه تعظيم وخوف وحب معاً:

كيف يعرف الإنسان الله ؟ من صنعته، من نعمته، من عقابه، ورد في الأثر القدسي:

((يا رب أيّ عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي)).

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني. القلب السليم فيه تعظيم وخوف وحب معاً، التعظيم من خلال الآيات الكونية، مجرة تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، وتحتاج أربع سنوات ضوئية إلى خمسين مليون عام كي نصل إليها بمركبة أرضية، الأربع سنوات الضوئية تحتاج إلى خمسين مليون عام فثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية كم نحتاج كي نصل إليها ؟ وأين هي ؟

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

هذا الإله العظيم أيُعصَى ؟ لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت.

كل ما في الأرض خُلِق خصيصاً للإنسان:

إذاً الموت الأول موت العدم، الإحياء الأول إحياء الدخول في الحياة الدنيا، الموت الثاني الموت عقب انتهاء العمر في الحياة الدنيا، والإحياء الثاني هو إحياء يوم القيامة للحساب والجزاء، ثم يقول الله عزَّ وجل:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

دقق

(خلق لكم)

فأنت أحياناً تقيم مأدبة أو وليمة، هناك ضيف شرف هو الأساس، تدعو معه صديقه، جاره، ابنه، الأساس هذا الضيف الأول، صُنِع هذا الطعام خصيصاً لهذا الضيف، وهو يأكل الطعام يُطرق الباب، يأتي طارق، تقول له: أدخل وكل معنا، هذا دخل وأكل، لكن هذا الطعام صنع خصيصاً للضيف الأول وليس للطارق، هذا المعنى المستفاد من كلمة

(لكم) .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

كم معدن موجود في الأرض ؟ معادن تصدأ تصبح أملاحاً، معادن لا تصدأ، معادن ثمينة تصلح لأن تكون قِيَماً كالذهب والفضة، معادن مُشِعَّة، معادن خفيفة، الفلذات والمعادن لا يعلم خصائصها ودقائقها وأنواعها وعددها إلا الله، وأشباه المعادن، والمواد العضوية، وأنواع النباتات، يوجد في البحر مليون نوع من السمك، من حوتٍ يزيد وزنه عن مئة وخمسين طناً إلى سمكة زينة في أحواض السمك لا يزد طولها عن سنتيمتر واحد، فسفورية، سوداء، تكون شفافة أحياناً، تُرى أحشاؤها، شيء لا يصدق، هناك أسماك للزينة، حيتان كبيرة جداً، مليون نوع من السمك، كم نوع من الطيور ؟ كم نوع من النباتات ؟ أذكر أنني اطلعت على كتاب مؤلف من ثمانية عشر جزءاً، كل صفحة فيها نوع من الأبصال، هذا الكتاب كله أبصال فقط غير الورود، والكتاب تحت يدي، والورود، والنباتات، وأزهار الزينة، شيء لا يصدق، هذه كلها ليست للأكل وإنما لمتعة العين فقط.

(خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

أنواع النباتات، والحيوانات، والأطيار، والأسماك، والخضراوات، والفواكه، وأشجار الزينة لا تعَدُّ ولا تحصى.

النبات أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته:

النبات ؛ هناك نباتٌ صنع خصيصاً من أجل أثاث بيتك كخشب الخيزران، هناك خشب للأغراض الصناعية، تزيد أنواع الأخشاب عن مئة نوع، هناك آلات للأغراض الصناعية لا تعمل إلا على قاعدة من خشب التوت لأن ألياف هذا الخشب مرنة ومتينة، فحركة المكوك تمتصها القاعدة، هناك أخشاب تصلح أساساً للأبنية الضخمة، هناك بناء في ساحة المرجة أساسه من الخشب، يزداد حجمه مع الماء، هناك خشب لا يتأثر بالماء، والهواء، والحر، والبرد إطلاقاً، وهو خشب النوافذ، وكأنه مصمم للنوافذ، لا يتغير مع الأمطار، والرياح، والبرد، والحر، والتبدلات، ولا ميليمتر، ولا يصلح الخشب الأغلى منه لو وضعته للنوافذ، الخشب الزان لأثاث البيوت، هناك خشب طري كخشب الكبريت، للأعمال الصناعية التعامل معه سهل جداً، هذه الأشجار التي صممت لتكون خشباً لك، هذه باب قائم بذاته، وهناك أشجار زينة هدفها أن تمتع عينك بها، أشجار مظلاّت، وأشجار حدودية، هناك أشجار تعطيك الكاوتشوك، أشجار تعطيك الفلّين، نباتات تعطيك الأدوية، نباتات تعطيك الأصبغة، نباتات تأكل منها، نباتات تعطيك أواني، نباتات تعطيك حبات المسبحة ؛ كرة مثقوبة، جاهزة، نباتات لتنظّف أسنانك بها، نباتات لتنظف ما بين الأسنان ؛ الخُلّة، نباتات لتكون ورقاً كورق البُردي، قال الله عزَّ وجل:

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ (99))

(سورة الأنعام: آية " 99 ")

هناك نبات ورق، نبات سواك، نبات نكّاشة أسنان، نبات ليفة، وجه ناعم ووجه خشن ؛ الخشن على الخشن، والناعم على الناعم، أنواع النباتات لا تعد ولا تحصى، كلها مخلوقةٌ من أجلك، تكريماً لك.

كل شيء خلقه الله جعله مذللاً للإنسان:

قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

الجبال، الوديان، الصحارى، السهول، البحار، الأنهار، البحيرات، الينابيع، الجبال العالية، أنواع الحيوانات، كم خروفاً يستهلك البشر في اليوم الواحد ؟ أعداد فلكية، من خلقها ؟ كم دابة تستخدم لطعام الإنسان في اليوم الواحد ؟ أرقام فلكية.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

تقول القاعدة: إن الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، من الممكن أن تنتفع بمكيِّف دون أن تفقه شيئاً عن تركيبه، ولا عن آلية عمله، وهذه من نعم الله العظمى، تنتفع بكل ما في الأرض دون

أن يكون هذا الانتفاع مبنياً على معرفةٍ به، إذاً هو مُذلل لك، هناك أجهزة معقَّدة جداً لا تستفيد منها، إن لم تعلم طريقة تشغيلها وكأن الجهاز ليس له قيمة، أما كل شيء خلقه الله جعله مذللاً لك، ولكن أحياناً تصبح الرياح المذللة أعاصيرَ مدمرة، والأمطار المنعشة تصبح فيضانات مدمرة، والأرض المستقرة تصبح زلازلَ مدمرة، ما حكمة الزلازل والفيضانات والعواصف ؟ قال: إذا توهَّم الإنسان أنها تعمل بأمره أو تعمل بإرادته، أو أنه هو الذي استغلها و سيَّرها فهو واهم، هو لا يملكها، تأتيه أحياناً فتنفعه وأحياناً تدمِّره، إذاً الله عزَّ وجل هو الذي ذللها، راقب إنساناً يقترب من البقرة، منظرها مؤنس، أحد إخواننا قال لي: جنَّت بقرة في الغوطة فقتلت رجلين وجرحت الثالث، ما كان من صاحبها إلا أن أطلق عليها النار فقتلها، لأنها جنَّت، علماً أن ثمنها سبعون ألف ليرة ! من جعلها مذلَّلة ؟ الجمل لا تخاف منه أما العقرب فإنك تخاف منه لأنه غير مذلَّل، الأفعى غير مذلَّلة، الضبع غير مذلَّل، أما الجمل فمذلَّل، الحصان مذلَّل، الدواب مذلَّلة قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72))

(سورة يس)

الأصل في الأشياء الإباحة :

أيها الأخوة الكرام، استنبط العلماء من هذه الآية:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

أن الأصل في الأشياء الإباحة، لمن خلقت ؟ خلقت للإنسان فهي مباحة، إلا ما ورد فيه نص تحريمي، الأصل في الأشياء والأفعال الإباحة، ولا يُحرَّم شيءٌ منها إلا بنصٍّ صحيحٍ قطعي الدلالة، ديننا منهجي، الأصل في الأشياء الإباحة، والتحريم يحتاج إلى نص صحيح قطعي الدلالة، أما في العبادات فالعكس، الأصل فيها الحظر ولا تُشرع عبادةٌ إلا بنصٍ صحيح قطعي الدلالة، فالأشياء أصلها مُباحة، والعبادات أصلها محظورة، لذلك الذي يُحرِّم ما خلق الله للإنسان هو إنسان جانب الصواب:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ (29))

قد تقول: الله عزَّ وجل يعلم، والإنسان يعلم، تقول: الله عزَّ وجل قدير، والإنسان تقول: رجل قدير، فهل يُعقل أن تكون قدرة الإنسان كقدرة الله ؟ وأن يكون علم الإنسان كعلم الله ؟ واستواء الإنسان كاستواء الله؟ الله عزَّ وجل ليس كمثله شيء، كل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك، لذلك أكمل شيء أن نوكل إلى الله المعنى الدقيق للآيات القليلة جداً المتعلقة بذات الله، كيف استوى الله إلى السماء ؟ الله أعلم بهذا الاستواء، الاستواء معلوم والكيفُ مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب، الاستواء معلوم لكن الكيفَ مجهول، استواء الله غير استواء الإنسان، استوى زيدٌ على بلاد الشام أي ملكها، إذا قلنا: ملكها، فبيد من كانت قبله ؟ هذا المعنى لا يليق بحضرة الله عزَّ وجل،

فالاستواء إذا نسب إلى الله فهناك معنى لا يمكن أن يكون كالمعنى البشري، لأن الله ليس كمثله شيء، لذلك قال الإمام مالك: **" الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب "**، هذا متعلقٌ بذات الله، الأكمل أن نَكِلَ إلى الله المعنى الدقيق للأشياء المتعلقة بذات الله، أو أن نُؤوِّلها تأويلاً وفق ما يليق بكمال الله:

(وَجَاءَ رَبُّكَ (22))

(سورة الفجر: آية " 22 ")

أي جاء أمره:

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17))

(سورة الأنفال)

أي علمه، وهكذا

الآية التالية تشير إلى المجموعة الشمسية:

قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ (29))

هناك تفسير دقيق، وجيد، ومقنع، وراجح، هو أن هذه السماوات السبع سبعٌ بشكلٌ دقيق، أحصى علماء التفسير خلال ألف ومئتي عام الكواكب فوجدوا أنها خمسة وهي: عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل، والآية سبعة، أضافوا الشمس والقمر فصار العدد سبعة، لكن الله عزَّ وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (16))

(سورة نوح)

في هذه الآية لا علاقة للشمس والقمر بالسماوات السبع، اكتُشف بعد ألف ومئتي عام أنه يوجد نجم سادس وهو أورانوس، ونجم سابع وهو نبتون، فكأن هذه الآية تشير إلى المجموعة الشمسية، والشمس مركز هذه المجموعة، والقمر تابع للأرض، فكواكب المجموعة الشمسية كما اتضح بعد ألف ومئتي عام هي سبعة نجوم: عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأورانوس، ونبتون.

كل شيء يزهو الإنسان به موجود في الأرض ومسخَّر ومذلل:

أيها الأخوة الكرام، ثمة تفسير آخر ؛ كلمة سبعة تفيد التكثير في اللغة العربية، والقرآن حمَّال أوجه، لك أن تَعُد أن هناك سماوات كثيرة، ولك أن تقول: هناك سبع سماوات، هي سبعة نجوم سيّارة حول الشمس:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29))

على كلٍ هذه الأشياء مسخَّرةٌ لنا، ونحن لم نفعل شيئاً إلا أننا انتفعنا بها، كل شيء ظن الإنسان أنه قدَّمه هو موجود في الأرض، هو كشفه فقط، هل هناك إنسان صنع معدناً ؟ إنه اكتشف المعدن، ولكن عندنا وهم كبير أن الإنسان حقق معجزات، لم يفعل الإنسان شيئاً إلا أنه اكتشف واستفاد، أما الأشياء فهي موجودة، المعادن موجودة، البترول موجود، كل شيء يزهو الإنسان به موجود في الأرض، ومسخَّر، ومذلل.

ما بين الحياة والموت ينبغي أن يكون لله عزَّ وجل:

الشيء نفسه أحياناً يستعصي، الأرض مذللة فإذا اهتزت انتهى كل شيء، والرياح مذللة فإذا هاجت دمَّرت كل شيء، والماء مذلل فإذا زاد عن حدِّه المعقول دمَّر كل شيء، معنى هذا أن فيضان الأنهار، وانتشار العواصف المدمِّرة، وزلزال الأرض هذا يؤكِّد أن الإنسان ضعيف، وأنَ هذه الأشياء المذللة له أرادها الله مذللة، فماذا إذا أخرجها عن طبيعتها ؟ تملك بريطانيا أكبر قطيع بقر في العالم، وهي الدولة الأولى المصدّرة للحوم البقر وتوابع هذه اللحوم، أطعمت البقر طحين لحم الجِيَف، علماً أن البقر مصمم ليكون غذاؤه نباتياً، فأطعموه طحين اللحم، فجنَّ البقر، هذا الجنون اسمه الاعتلال الإسفنجي الدماغي، اضطرهم هذا الجنون إلى حرق ثلاثة عشر مليون بقرة، ثمنها ثلاثة وثلاثون مليار جنيه إسترليني، حينما جنَّت لم تعد مذللة، ومرضها قد ينتقل إلى الإنسان، هذا شيء خطير جداً، توقفت كل هذه التجارة، فالأشياء مذللة وإذا ظنّ الإنسان أنه سخَّر الطبيعة، وسيطر عليها، واستغلَّها، وهي تعمل بإمرته، فإن هذا كلام فيه جهل كبير جداً، الشيء المذلل يستعصي بلحظة من اللحظات على أن يكون مذللاً لك، وهذا الشيء نراه كل يوم، إنسان يمشي، ولكنه يصبح مشلولاً بلحظة، يرى بلحظة يفقد بصره، يسمع بلحظة يفقد سمعه، يفكر بلحظة يفقد عقله، بلحظة يموت .

كنَّا في تعزية البارحة، شابٌ في الثانية والثلاثين من العمر، في ريعان الشباب، حافظٌ لكتاب الله، متقنٌ للقراءات العشر، توفَّاه الله عزَّ وجل بسبب صغيرٍ جداً، أصابه سعال شديد، وارتفع ضغطه،

فسبب له سكتة دماغية، وعمره اثنان وثلاثون سنة، من منَّا يضمن أن يعيش ثانيةً واحدة ؟ الله عزَّ وجل هو الذي خلق حياة الإنسان، وهو يخلق الموت، فهو:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2))

(سورة الملك)

ما بين الحياة والموت ينبغي أن يكون لله عزَّ وجل، القوس الأول للحياة، والقوس الثاني هو الموت، وأنت بين قوسين، وخالق الحياة هو الله، وخالق الموت هو الله، وهو معك دائماً فكيف تعصيه ؟ هذا شيء مستحيل.

مهما اعتنيت ببيتك القبر هو المثوى الأخير:

اليوم درسنا أيها الأخوة:

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ (28))

استفهام تعجُّبي، استفهام إنكاري، استفهام توبيخي:

(وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28))

والله أيها الأخوة الموت وحده أكبر درس، كل شيء تملكه تفقده بثانية، يكون للميت درج خاصّ فيه، بعض التحف، يُفتح هذا الدرج وتؤخذ مقتنياته يؤخذ مفتاح سيّارته، لا يوجد شيء في حياته حريص عليه إلا ويفقده بعد موته، يُصبح جثةً هامدةً، يكون معه مئات الملايين، الخام أسمر وليس مقصوراً لأنه يحرم استعمال المقصور، الكفن خام أسمر، والقبر ؛ لا يوجد قبر خمس نجوم، ولا نجمة، توجد نجوم الظهر، هذا هو القبر، فالقبر هو المثوى الأخير، مهما اعتنيت ببيتك القبر هو المثوى الأخير، وقد كان نقش خاتم عمر " كفى بالموت واعظاً يا عمر"، هذا الحدث الذي لا بدَّ منه، العاقل، والذكي، والموفَّق الذي يُعِد لهذه الساعة التي لا بدَّ منها، هذا الحدث ـ حدث الموت ـ ينبغي أن لا تفاجأ به، ينبغي أن تسعى ليلاً نهاراً إعداداً له، لأن القبر سيكون روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران ؛ فآل فرعون:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً (46))

(سورة غافر: آية " 46 ")

منذ ستة آلاف سنة:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

(سورة غافر: آية " 46 ")

من نعم الله علينا نعمة التنفس الآلي:

هذا القبر، والقبر مصير كل حيّ، فنحن في هذا المسجد كم أخ كان معنا ثم فقدناه ؟ والله مئات، كان ملء السمع والبصر توفاه الله عزَّ وجل وأصبح رهين عمله، وكلنا على هذا الطريق سائرون، والموت مصير كل حيّ:

(وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ (28))

كنا في طور العدم أحيانا الله، ثم أماتنا، ثم يحينا للحساب والجزاء، وكل ما في الكون خُلِق لنا، خُلِق لنا تكريماً، وخلق لنا تعريفاً، خلق لنا تكريماً وتعريفاً، ويمكن أن تنتفع بهذه الأشياء دون أن تعلم عنها شيئاً.

نعمة واحدة، إنسان ينام ويتنفَّس طوال الليل، يوجد مركز في البصلة السيسائية مسؤول عن تنبيه الرئة النومي، لو تعطَّل هذا المركز تصبح حياة الإنسان جحيماً، ينام فيموت، إنه يحتاج إلى التنفُّس الإرادي، يُقَلِّص ويضغط، هذا المرض يصيب بعض الأشخاص، طبعاً من يصابون به يموتون على الفور، لأن الذي ينام يموت، حيث أن مركز التنفس المركز معطَّل، يتوقف التنفس فيموت الإنسان، وجد له دواء الآن، ولكنه غالٍ جداً، ويجب أن تأخذه كل ساعة بالليل، يضع المريض عدة منبهات، فهل تعرفون نعمة التنفُّس الآلي ؟ نعمة الهضم الآلي، يحتاج الطعام خمس ساعات ليُهضم، وبآلية معقدة جداً ؛ حمض كلور الماء، والبنكرياس، والصفراء، والكبد، أنت كل وامش فقط، كل واذهب إلى النوم.

فضل الله علينا ونعمه لا تعد ولا تحصى:

لو كان الهضم بأيدينا ؛ عندي هضم لا أقدر !! لا أقدر أن أذهب عندي هضم، الهضم كل وارتح، يعمل القلب آلياً، لو كان القلب بيدك، فالانتحار وشيك، فكلْ وارتح، ليس القلب بيدك، والرئتان كذلك، ملايين النعم نعيشها ولا نعرف عنها شيئاً، أنت تمشي متوازناً على قدمين، لو اختل جهاز التوازن.

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29))

هذا من فضل الله علينا، ما علينا إلا أن نطيعه، وأن نحبَّه، وأن نعظِّمه، وأن نخافه، وأن نُخلص إليه، وأن نشتاق إليه، وأن نقول: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (17- 95):تفسير الآية 30 ، الإنسان خليفة الله في الأرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-10-16

بسم الله الرحمن الرحيم

المعرفة الحسية والمعرفة العقلية:

مع الآية الثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء هناك معرفة حسية تتم عن طريق الحواس، الأشياء المادية تعرفها عن طريق الحواس، وهناك معرفةٌ عقلية تحتاج إلى آثارٍ مادية يستنبط العقل منها حقائق هذه الأشياء، هذه هي المعرفةُ العقلية، فالشيء إذا ظهرت عينه، وظهرت آثاره سبيل معرفته الحواسُّ الخمس هذا هو اليقين الحسي، أما إذا غابت عينه، ذاته، وبقيت آثاره سبيل معرفته العقل، وهذا هو البصير العقلي، أما إذا كان الشيء مغيَّباً عنا أصلاً، ولا آثار له فالحواسُّ لا يمكن أن تعرفه ؛ لعدم وجود آثار له، ولا يمكن أن يعرفه العقل، لأنه ليس له آثار، هذا هو اليقين الإخباري، هذا التمييز دقيق، الأشياء التي تجسَّدت لها جُرْم، لها وزن، لها شكل، لها لون، لها رائحة، لها مَلْمَس، لها حَيِّز، لها طول، لها عرض، لها ارتفاع، هذه أشياء حسية، سبيل معرفتها الحواسُّ الخمس، أما جدار وراءه دخان، والعقل يقول: لا دخان بلا نار، فالعقل رأى آثار النار وهو الدُخان فحكم بوجود النار من آثار النار فقال: لا دخان بلا نار.

إذاً وراء هذا الجدار نار، الكهرباء لا تُرى بالعين لكن تألُّق المصابيح، تكبير الصوت، حركة المراوح تبيِّن أن هناك قوة كهربائية موجودة، فهذه المعرفة معرفة عقلية، والمعرفة العقلية لا بدَّ من أن تعتمد على حِسِّيات، على آثار حِسِّية، أما إذا لم تكن هناك آثار حسية فلا توجد معرفة عقلية، لأن العقل يعتمد على الأثر ويحكم منه على المؤثِّر، أي أنه يرى النظام فيكتشف المنظِّم، يرى التسيير فيعرف المسَيِّر، يرى الحكمة فيعرف الحكيم، يرى آثار العلم فيعرف العليم، يرى آثار القُدرة فيعرف القدير، هذا هو العقل.

المعرفة الإخبارية هي النوع الثالث من أنواع المعارف:

لو تخيَّلت شيئاً غابت عنا ذاته وغابت عنا آثاره، لا يستطيع العقل أن يعرفه إطلاقاً، نقول: هذه الأشياء التي غابت عنا ذاتاً وآثاراً لا سبيل إلى معرفتها إلا بالخبر الصادق، الآن ما الموضوعات التي يمكن أن تكون من المرتبة الثالثة ؟ الماضي السحيق، قصة خلق الإنسان، قصة خلق العالم، المستقبل البعيد، ماذا بعد الموت ؟ الجنة، النار، الحوض، الصراط كلها خبر صادق، المستقبل، الماضي السحيق خبر صادق، كائنات ليس لها آثار ؛ الجن خبر صادق، الملائكة خبر صادق، هذا هو المنهج الإسلامي، المعرفة حسية أو عقلية أو إخبارية، قصة خلق الإنسان من النوع الثالث، لا تستطيع الحواس أن تعرفها، ولا يستطيع العقل أن يثبتها، الحواس معطلة والعقل معطَّل، ليس عندنا إلا الخبر الصادق، وقيمة هذا الخبر من قيمة قائله، فالصادق خبره صادق.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (87))

(سورة النساء)

دقق في هذه الآية:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ (13))

(سورة الكهف)

هناك معنى مخالف يستنبط من الآية من يكشفه ؟

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ (13))

(سورة الكهف)

معنى ذلك أن كل قصة وردت مخالفة لبيان القرآن وردَت بالباطل.

الموضوع الإخباري سبيل معرفته الخبر الصادق:

الذين يقولون: " إن الإنسان أصله قِرْد "، هم يقصّون نبأ الإنسان الأول بالباطل لماذا ؟ لشيءٍ بديهي لأن الله عزَّ وجل يقول:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51))

(سورة الكهف)

أي إذا جلس إنسان عمره ثمانون سنة في مجلس مع مجموعة من التُجَّار وقال: أنا أخذت محلاً من زمن بعيد بسوق الحميدية وكلَّفني خمسة آلاف ليرة، فقال له ابنه الذي كان عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة: يا أبي هذا الكلام غلط، فنظر إليه ـ القصة من أربعين سنة ـ قال له: هل كنت وقتها ؟ هل كان لك وجود وقتها عندما أخذت المحل بخمسة آلاف ؟

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51))

من منا شهد بداية العالم ؟ من منا شهد خلق آدم ؟ هذا موضوع إخباري، لا سبيل إلى معرفته إلا بالخبر الصادق فقط، وإذا كان الخبر من عند الله عزَّ وجل، من عند خالق السماوات والأرض، فأنت تَرْكلُ بقدمك مليون قصة وتؤمن بما قاله الله عزَّ وجل، هناك نظريات لا تُعَدُّ ولا تحصى عن بداية العالم وعن أصل الإنسان، بعضهم يقول: كان مخلوقاً وحيد الخلية، ثم تعقَّدت حياته إلى أن صار إنساناً سوياً، بعضهم يقول: أصله قرد، و ارتفع القرد درجة فدرجة فصار إنساناً، العبرة أن هذا الموضوع إخباري، سبيل معرفته الخبر الصادق.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (87))

(سورة النساء)

قصص الله عزَّ وجل لها أهداف كبيرة جداً:

إذاً دقق:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ (13))

(سورة الكهف)

إذاً هناك من يَقُصُّ عليك نبأهم بالباطل، هناك من يقدِّم لك رواية عن بداية العالم بالباطل، تكهُّنات ما أنزل الله بها من سلطان، ليس لها دليل، تكهُّن، تخيُّل، توهُّم، لكن لا يوجد دليل حسي لأن الشيء غائبٌ عن حواسنا، ولا يوجد دليل عقلي لأنه ليس له آثار، ليس له ذات نكشفها بحواسنا، وليس له آثار نكشفها بعقولنا، إذاً قصة بداية العالم، قصة خلق الإنسان لا نأخُذها إلا من الواحد الديان، وأية روايةٍ، وأي عرضٍ، وأي تحليلٍ، وأي تصورٍ لخلق الإنسان إن خالف القرآن اركله بالأقدام، وانتهى الأمر، هذه النقطة الأولى.

الآن لماذا يقص الله علينا القَصَص ؟ الإنسان من عادته أن يقرأ القصة ليمضي الوقت بها، ليستمتع بها، يقول لك: لأقتل الوقت بها، إذا كان مسافراً، جالساً بمفرده في فندق يأخذ معه قصة ليقرأها، كل قصص بني آدم لعلها من هذا القبيل، إلا أن قصص الله عزَّ وجل لها أهداف كبيرة جداً،

قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة يوسف: آية " 111 ")

القصة لها دور تربوي خطير، يقول الله عزَّ وجل في آية ثانية:

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120))

(سورة هود)

معنى ذلك أن الله عزَّ وجل حينما يَقُصُّ على النبي صلى الله عليه وسلم قصةً ليُثَبِّتَ فؤاده، لكن من هو أولى بالتثبيت النبي أم نحن ؟ نحن أولى، لأن يكون التثبيت على قدر الإيمان، وأعلى إيمان هو إيمان النبي عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك:

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ (120))

(سورة هود)

نحن من باب أولى، معنى ذلك أن القصة لها هدف تربوي كبير.

قصة سيدنا يونس قصة وقعت والله تعالى جعلها قانوناً حينما عَقَّب عليها:

إذا قرأ الإنسان قوله تعالى عن سيدنا يونس:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87))

(سورة الأنبياء)

هل هناك واحد بالمليار أمل لنجاة إنسان وجد نفسه في بطن الحوت، وفي أعماق البحر ؟ وفي الليل ؟ كم نسبة الأمل في النجاة ؟ صفر، إنسان وجد نفسه في بطن حوت في الليل في أعماق البحر، سيدنا يونس نادى:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

نجيناه هو:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ (88))

قصة وقعت، أما حينما عَقَّب الله عليها جعلها قانوناً، قال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

أي أنت أيها المؤمن في أي زمان، في أي مكان، في أي ظرف صعب، مهما بدا لك الظرف حرجاً، مستحيلاً، ضيِّقاً، لا تخف لأن الله عزَّ وجل يتدخل وينقذك، مهما كان المرض عضالاً، مهما كان الفقر مدقعاً، مهما كان العدو شرساً.

القصص في القرآن الكريم هادفة لتثبيت المؤمنين ولإحداث أثر عميق جداً في نفس المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، هناك في القرآن الكريم تطمينات من قبل الله لكن الناس لا ينتبهون إليها.

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18))

(سورة الأنفال)

أي أن كيدهم يضعِفُهُ الله عزَّ وجل إن كنتم أنتم مؤمنين، إن كنتم مؤمنين فالله سبحانه وتعالى موهن كيد الكافرين.

الشيء الثاني: هذه القصص، قصة تبيِّن لك أهل الكهف مثلاً، هؤلاء الفتية الذي فَرّوا بدينهم إلى الكهف، هذا نموذج متكرر، ذو القرنين الذي مَكَّنَهُ الله في الأرض فأقام العدل، هذا نموذج متكرر يجب أن يحتذى، السيدة مريم حينما أُشيع عنها أنها زانية لكن الله برَّأها هذه قصة، سيدنا نوح حينما دعا قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، هذا النفس الطويل في الدعوة، كل نبي يمثّل نموذجاً بشرياً، سيدنا إبراهيم عانى من أبيه، والسيدة آسيا عانت من زوجها، وسيدنا لوط عانى من زوجته، وسيدنا نوح عانى من ابنه، وسيدنا يوسف دخل السجن ظلماً، فكل نبي له قصة يحتاجها كل مسلم، إذاً القصص في القرآن الكريم هادفة، هادفة لتثبيت النبي، وتثبيت المؤمنين، وهادفة إلى إحداث أثر عميق جداً في نفس المؤمن.

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى (111))

(سورة يوسف: آية " 111 ")

رؤية لقصة سيدنا موسى من عدة زوايا:

أضع بين أيديكم قصة سيدنا موسى، وهذه القصة وردت في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، هذه القصة من بعض عُروضها:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (7))

(سورة القصص: آية " 7 ")

أمران:

(أَرْضِعِيهِ)

وإذا خفت علي

(فَأَلْقِيهِ)

في اليم، ونهيان:

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي (7))

(سورة القصص: آية " 7 ")

وبشارتان:

(إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7))

(سورة القصص: آية " 7 ")

يتوهم الإنسان أن القصة مكررة، ففي آية ثانية:

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ (39))

(سورة طه)

اليم مأمور من قبل الله عزَّ وجل أن يأخذه إلى الساحل، وعدو الله، وعدو موسى مجبور على أن يلتقط هذا الغلام:

(يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ (39))

(سورة طه: آية " 39 ")

وألقى الله عزَّ وجل على سيدنا موسى محبَّةً:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39))

رأته امرأة فرعون فأحبَّته حباً كثيراً:

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(9))

(سورة القصص)

الآية الثانية ليست تكراراً، لكنها إغناء لتفصيلات لم ترد في الآية الأولى، الآية الثالثة:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً (8))

(سورة القصص: آية " 8 ")

النتيجة: آية أعطت البدايات، آية أعطت التفصيلات، آية أعطت النتائج، فلا يوجد تكرار، لكن من عدة زوايا ! يمكن أن تأتي إلى دمشق من طريق درعا، جبل قاسيون له منظر فأخذنا له صورة، يمكن أن تأتي دمشق من طريق بيروت جبل قاسيون له منظر أخذنا صورة أخرى له، يمكن أن تأتي إلى دمشق من طريق حلب جبل قاسيون له زاوية منظر التقطنا صورة، لو جمعنا هذه الصور الثلاث من الزوايا الثلاث لظهر معنا مجسَّم لقاسيون، هذه الزوايا إذا تعاونت وتكاملت تعطي شكلاً كاملاً ومجسماً بأبعاده الثلاث.

معنى الأمانة:

أيها الأخوة، الله عزَّ وجل يقول:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ (30))

الملائكة مخلوقاتٌ كُلِّفوا أن يكونوا رسلاً بين الله وخلقه، هناك فعل باللغة اسمه لأكَ، أي أرسل، لأك يألكُ، أرسل يرسل، ومنه المَلَك، فالملائكة مخلوقات ليست مكلَّفة لأنها اختارت القرب من الله عزَّ وجل، يسبِّحون الله لا يفترون، هؤلاء لهم مهمَّات كثيرة من أول مهمَّاتهم أنهم رسلٌ بين الله وخلقه.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

أي أن الله عزَّ وجل خلق الخلق في عالم الذّر، وعالم الذّر قبل عالم الصوَر، لم يكن هناك صور للمخلوقات، مجرَّد مخلوق، هذا المخلوق صار جبلاً، هذا المخلوق صار زهرةً، هذا المخلوق صار

حصاناً، هذا المخلوق صار أفعى، هذا المخلوق صار إنساناً، خلق الخلق في عالم الذّرْ، وعرض عليهم الأمانة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ (72))

(سورة الأحزاب: آية " 72 ")

الأمانة أن يَمْلِكوا أنفسهم ويزَكُّوها، فإن زكوها استحقوا نعيماً أبدياً لا حدود له.

قبلَ الإنسان حمل الأمانة فصار المخلوق الأول:

قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72))

أي عرضنا على إنسان أن يقود قطاراً براتب محدود جداً، وعرضنا عليه أن يقود سيارة كبيرة لنقل الركاب براتب أعلى، لأن القطار ليس عنده أخطار، ولا حوادث، فهناك سكةٌ يمشي عليها، وعرضنا على إنسان أن يكون طياراً، هو يحتاج إلى علم عالٍ جداً ويحتاج إلى خبرة عالية جداً، وإلى صفات نفسية عالية جداً، وليس له راتب، معه شيك مفتوح مثلاً، هناك وظيفة محدودة المسؤولية سهلة العمل لكن دخلها محدود، ووظيفة أعلى، ووظيفة أعلى، فربنا عزَّ وجل عرض عرضاً مغرياً جداً، عرض على المخلوقات أن يحملوا أمانة أنفسهم فيزَكّوها، ومعنى يزكوها أي أن هناك نوازع، وشهواتٍ، وأهواءً، وحرية اختيار، وعقلاً، وفطرة، وكَوْناً، ومنهجاً، ورُسُلاً، القضية معقدة.

قال أب لولده: تعال إلى المحل واعمل بطعامك وبمصروفك، وعرض على ابن آخر: أتحب أن تحمل أعلى شهادة في العالم ؟ أعطيك نصف أملاكي، هناك بالطبع سفر، وهناك لغة، وهناك أخطار، وهناك جامعات صعبة جداً، وهناك جهد ثلاثين سنة، ولكنه إذا قبل هذا العرض، ونجح فيه فله مكانة عليّة في المجتمع، هذه الأمثلة تقرِّب معنى الآية:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72))

قَبلَ الإنسان حمل الأمانة فصار المخلوق الأول:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

الإنسان حينما قبل حمل الأمانة سخَّرَ الله له الكون كله ومنحه قوةً إدراكية وهي العقل :

هذا الإنسان الذي قبل حمل الأمانة، لأنه قبل حملها:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13))

(سورة الجاثية)

هذا قرآن:

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ (13))

(سورة الجاثية)

اطلعت اليوم على موسوعة علمية مترجمة تحوي العدد التقريبي للمجرات، يحوي العالم اليوم مئة ألف مليون مجرة، مجرتنا درب التبانة مجرة متوسِّطة فيها مئة ألف مليون كوكب ونجم، طول هذه المجرة المتوسطة المتواضعة مئة ألف سنة ضوئية، ما المسافة التي يقطعها الضوء في الثانية ؟ عرض هذه المجرة خمسة وعشرون ألف سنة ضوئية، إذا مثَّلناها على شكل عضلة أو مغزل، وجئت بقلم ناشف ووضعت نقطة على هذا المغزل، هذه النقطة هي المجوعة الشمسية، طول المجموعة الشمسية ثلاث عشرة ساعة، ولكن طول المجرة مئة ألف سنة ضوئية، المسافة بين الشمس والأرض ثمانية دقائق، وبين الأرض والقمر ثانية واحدة، لكي تعرف، أرض قمر ثانية، أرض شمس ثمانية دقائق، المجموعة الشمسية كلها ثلاث عشرة ساعة، طول مجرتنا مئة ألف سنة ضوئية وهي مجرة معتدلة صغيرة وهناك مئة ألف مليون مجرة، يقول تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ (13))

(سورة الجاثية)

لأنك أيها الإنسان قَبِلْتَ حمل الأمانة سخَّرَ الله لك الكون كله، هذه واحدة، حينما قبل الإنسان حمل الأمانة كرَّمه الله، وسخَّر له الكون، منحه قوةً إدراكية وهي العقل الذي يعد أعقد شيءٍ في الكون.

العقل خُلق لتعرف الله به لكن البعض أساء استخدامه:

مرة قرأت كلمة أنه لو أردنا أن نصنع حاسوباً أو كمبيوتراً يؤدّي وظائف العقل البشري لاحتجنا إلى أضخم شارع في نيويورك، وكل الأبنية على طرفي الشارع ناطحات سحاب، تحوي جميع هذه الأبنية مكثّفات من الداخل ومن الخارج، حتى يؤدِّي هذا الشارع الضخم بكل أبنيته الشاهقة مهام العقل البشري، الذي هو أعقد آلة في الكون، وهذا العقل البشري خُلِقَ لتعرف الله به فاستخدمه الناس لجني المال الحرام، للسرقة، لارتكاب الجرائم، للسيطرة على العالم، لإيقاع الفتن بين الشعوب، لجمع الثروات بالباطل، الكفار أذكياء جداً، يضعون الخطط المدهشة من أجل استعباد الشعوب، من أجل نهب ثرواتهم، يقومون بتمثيليات مذهلة، كل شيء يفعلونه تمثيلاً من أجل جر الثروات إليهم، مستخدمين العقل البشري، مع أن العقل خلق لتعرف الله به.

يمكن أن تستعمل آلة تصوير ملونة لتزوِّر بها العملة ويكون المصير إلى السجن، ولك أن تستخدمها استخداماً إيجابياً فتصبح غنياً جداً من خلالها، الآلة واحدة، إن استخدمتها لغير ما صنعت له بالتزوير فالمصير إلى السجن، وإن استخدمتها في تصميم الأغلفة، والتقاويم، والبطاقات تعش من ورائها حياة كريمة جداً، والآلة واحدة.

معان متعددة لكلمة (خليفة):

أيها الأخوة، جعل الله عزَّ وجل هذا الإنسان المخلوق الأول، جعله خليفةً له، معانٍ كثيرة جداً.

1- المعنى الأول لكلمة (خليفة) أي يأتي بعضهم وراء بعض ليتعظوا:

أول معنى من معاني خليفة:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

أي أن سيدنا آدم حينما كان في الجنة لم يخرج منها بسبب أنه أكل التفاحة، لا، فسيدنا آدم مخلوق في الأصل للأرض، والدليل هذه الآية، لكن الله جعل هذا الدرس البليغ له ولذريته من بعده، فليس التصميم أنه مخلوق للجنة، فلما أخطأ نقل للأرض، لا فالإنسان في الأصل مخلوق للأرض.

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

لكن الله شاءت حكمته أن يعطي سيدنا آدم درساً بليغاً في عداوة الشيطان، أما مصير الإنسان فهو إلى الأرض، هذه النقطة الأولى.

النقطة الثانية، جعله خليفة أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، جيلاً بعد جيل، كما قال الله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ (165))

(سورة الأنعام: آية " 165 ")

وقال:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60))

(سورة الزخرف)

وقال:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ (59))

(سورة الأعراف: آية " 169 ")

توضح هذه الآيات معنى كلمة الخليفة، وهو الله عزَّ وجل شاءت حكمته أن يأتي الناس إلى الدنيا تِباعاً، وأن يغادروها تباعاً ليتَّعظ بعضهم ببعض، هذا معنى من معاني:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

2- المعنى الثاني لكلمة (خليفة) أي لكرامة الإنسان عند الله أعطاه بعض صفاته:

المعنى الثاني: أن الله لكرامة الإنسان عنده أعطاه بعض صفاته، الله عزَّ وجل فرد، وجعل الإنسان فرداً، ليس في الأرض كلها إنسان يشبهُك، أنت فرد نسيج وحدك، بلازما الدم تنفرد بها، رائحة الجلد تنفرد بها، قزحية العين تنفرد بها، الزمرة النسيجية تنفرد بها، نبرة الصوت تنفرد بها، بصمة اليد تنفرد بها، لكرامتك عنده جعلك فرداً لا مثيل لك، ولا مشابه لك، هكذا شاءت حكمة الله، لكرامتك عنده سمح لك أن تُشَرِّع، أعطاك نصوصاً ظنية الدلالة، ولك أن تجتهد، لكرامتك عنده سمح لك أن تُبْدِع عن طريق المورِّثات والتهجين، فالإنسان الآن يبدع في النباتات، وفي الحيوانات، وفي الزراعة، لكرامتك عنده سمح لك أن تحكم، جعلك خليفةً في الأرض لتقيم العدل، وتردع الظالم، وتكافئ المحسن، مَكَّنَك في الأرض، في الشخص القوي بيده مصير الأشخاص الآخرين، هذا خليفة الله في الأرض.

(يَا داود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (26))

(سورة ص)

الأنبياء والأولياء والعُلماء والدعاة هؤلاء خلفاء الله في أرضه ليقيموا أمر الدين، والملوك والأقوياء خلفاء الله في أرضه ليقيموا أمر الدنيا، فالله عزَّ وجل أعطى الإنسان قوة، الإنسان لديه قدرة أن يحرك جيشاً، يعلن حرباً، يفجِّر قنبلة مثلاً، سمح الله للإنسان أن يكون قوياً، فكلمة جعله خليفته في الأرض، المعنى الأول: يأتي بعضهم وراء بعض، والمعنى الثاني: لكرامة الإنسان عند الله أعطاه بعض صفاته، وهناك حديث يحتاج إلى شرح طويل:

((خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ على صُورَتِهِ))

[رواه حيى بن جعفر عن أبي هريرة]

لكرامة الإنسان عند الله عزَّ وجل.

3- المعنى الثالث لكلمة (خليفة) أي أن الإنسان مُمَكَّن أمره نافذ ومعه سلطة:

إذا كان لك أولاد، أنت تزوّجت أمهم وأنجبت هؤلاء، جعل أمرهم بيدك، طعامهم وشرابهم بيدك، تربيتهم بيدك، مستقبلهم بيدك، توجيهَهُم بيدك، أنت خليفة الله في أسرتك، أنت معلّم أنت خليفة الله في صَفِّك، مدير مدرسة أنت خليفة الله في هذه المدرسة، أنت مدير تربية فأنت خليفة الله في هذه المحافظة، وزير تربية في القطر، كل إنسان ممكَّن؛ هذا بالتربية، هذا بالصحة، هذا بالاقتصاد، هذا بالأوقاف، فالإنسان مُمَكَّن معه صلاحية، أمره نافذ، معه سلطة، هذا معنى ثالث.

المعنى الأول: الخليفة أي نأتي إلى الدنيا تباعاً ونغادرها تباعاً.

المعنى الثاني: لكرامتك عند الله منحك شيئاً من صفاته، أنت فرد، فرد في أشياء كثيرة، صُنِعت أقفال الآن لا تُفتح إلا على قزحية العين لأنه لا يوجد إنسان في الأرض يشبهك في قزحية العين

فهذا القفل لن يُفتَح إلا من قِبَل صاحبه، رائحة الجلد، نبرة الصوت، بلازما الدم، الزُمرة النسيجية، بصمة اليد، جعلك فرداً، جعلك مُشَرِّعاً، جعلك مبدعاً، جعلك مريداً أعطاك حرِّية الاختيار، جعلك حاكماً تقيم العدل وتقمع الظلم.

الإنسان شيء كبير جداً يمكن أن يقوم بأعمال لا تفعلها الجبال:

قال تعالى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

من الممكن أن يجعل الله على يدك هداية مليون شخص أو مليار كالنبي عليه الصلاة والسلام، المسلمون مليار ومئتي مليون في صحيفة واحد، ويمكن والعياذ بالله أن يكون خمسون مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية بسبب شخص واحد كهتلر، الإنسان شيء كبير جداً يمكن أن يقوم بأعمال لا تفعلها الجبال، ويمكن أن يقوم بجرائم لا تفعلها أشرس الوحوش في الأرض ؛ هذا الذي ألقى قنبلة على هيروشيما أباد ثلاثمئة ألف إنسان في ثلاث ثوان، توجد الآن حروب ؛ حروب كيماوية، حروب غازية، حروب جرثومية، توجد أسلحة فتَّاكة، توجد قنابل حارقة على بعد دائرة قطرها مئتي متر يصبح فحماً، النابالم أعطى للإنسان قدرات سمح له أن يخترع البارود، القنابل، أن يطير في أعماق السحاب، أن يغوص في أعماق البحار، أن يصل إلى القمر، أعطاه إمكانات مذهلة، الإنسان معه إمكانات بشكل غير معقول.

قمَّة الكمال البشري النبوّة وحضيض السقوط البشري الإجرام:

يقول لك: الإنسان أصله قرد، ماذا فعل القرود ؟ اخترعوا طيارة ؟ أنت تركب طيارة ستمئة وستين راكباً كلَّها طعام وشراب، وقهوة وشاي، ومقاعد مريحة على ارتفاع أربعين ألف قدم، هل نقلوا الصورة والصوت ؟ ما هو موضوع الفاكس ؟ موضوع الأجهزة، الإنترنت، شيء لا يُصدق، هذا كلَّه من إنجاز الإنسان، جعله خليفته في الأرض، المشكلة أن هذه الإمكانات الضخمة التي أعطاها الله للإنسان استخدمها في الشر، هذه الأجهزة المعقَّدة جداً المذهلة جعلها لإفساد الأخلاق، ماذا في المحطَّات الفضائية ؟ إفساد، ماذا في هذه الأجهزة المعقَّدة جداً لنقل الصورة ؟ إفساد عقائد، وإفساد أخلاق، وإفساد بيئة، الإنسان لأنه مخيَّر كل شيء فيه حيادي، قمَّة الكمال البشري النبوّة، وحضيض السقوط البشري الإجرام، هناك أشخاص يتلذَّذون بشقاء الآخرين، يمكن لشعب متقدم عند الناس مزدهر حسب مقاييس البشر وفي عصر العلم أن يقيم رفاهيته على أنقاض شعوب، ماذا يفعل أعداء الإنسانية ؟ يخلقون مشكلات في العالَم ويبيعون أسلحة، ويعيشون على أنقاض الشعوب، هذا الذي يحدث بؤر متوترة في العالم ؛ في آسيا بؤرة، في الصين بؤرة، في السودان بؤرة، في إفريقيا بؤرة،

بؤر متوترة تحتاج إلى أسلحة، يبيعون أسلحة بعقود إذعان وبأسعار خيالية ويعيشون على أنقاضنا جميعاً، لغير ما صُنِع له، أما العقل فهو يجعلك أكبر مؤمن، يجعلك أكبر مُصْلِح، يجعلك أكبر إنسان، استُخدِم العقل البشري لغير ما صُنِع له، فلذلك:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

خليفة يخلفني، أي إنسان رحيم والله رحيم، إنسان عليم، إنسان عادل، إنسان لطيف، إنسان قوي.

أسماء الله عزَّ وجل كلّها حسنى وصفاته فُضلى:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39))

(سورة الشورى)

إنسان عَفو ـ اذهبوا فأنتم الطلقاء ـ كأن الله عزَّ وجل أراد أن نتخلَّق بكماليات الله عزَّ وجل ؛ بالرحمة، بالشفقة، بالإنصاف، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[البخاري عن عائشة]

عدل، رحمة، عفو، حلم ـ اذهبوا فأنتم الطلقاء ـ لمن هذا الوادي ؟ هو لك. ما معنى خليفته في الأرض؟ أي إنه اقْتَبَس من كماليات الله، أسماء الله عزَّ وجل كلّها حسنى وصفاته فُضلى، خليفته في الأرض اقتبس منه الرحمة، والعدل، والقوة، والحرص، والإنصاف، هذا كلّه مُقتبس من الله، هذا معنى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

قالت الملائكة:

(قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

خلق الله تعالى الجن قبل الإنس وعليه قاست الملائكة أن الإنسان سيفسُد ويسفك الدماء:

طبعاً تردد هذا السؤال مرَّات عديدة، كيف عرفت الملائكة أن الإنسان سيفسُد وسيسفك الدماء ؟ تجيب الآية عن ذلك:

(وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ (27))

أي من قبل الإنسان:

(مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27))

(سورة الحجر: آية " 27 ")

عالم الجن ارتكبوا الموبقات، وسفكوا الدماء، وفسدوا في الأرض، فالملائكة قاسوا على الجن، لأن الله عزَّ وجل أعطى الأمانة للإنس والجن معاً:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ (33))

(سورة الأنعام: آية " 130 ")

وقال:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32))

(سورة الرحمن)

وقال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

الكمال في خلق الإنسان أن تأتي الآخرة متوافقة مع الدنيا فقط:

لصنفان اللذان قَبِلا حَملَ الأمانة هما صنف البشر وصنف الجن، وهما مكلَّفان، وكل جنس له طبيعة خاصَّة، فالبشر من طين والجان من نار، لذلك قالت الملائكة:

(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(30))

أي إذا أنشأنا جامعة ضخمة جداً، وقسم من طلابها وليكن ربع الجامعة لم يدرسوا، ولم يتعلموا، وأهملوا واجباتهم هل نلغي الجامعة ؟ لا، لأنه يوجد طلاب في المقابل نالوا شهادات عُليا، وقدَّموا لأمتهم خدمات كبيرة جداً، فلو فرضنا أنه يوجد قسم فاسد هل نلغي الجامعة ؟ إننا لا نلغيها:

(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

سيكون هناك أنبياء كبار، وأولياء، ومؤمنون، ومجاهدون، ومجتمعات راقية جداً:

(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

هل الكمال في الجامعة أساساً أن ينجح جميع الطلاَّب كلَّهم بتفوق ؟ لا، الكمال في الجامعة أن تأتي النتائج وَفق المقدِّمات، عندما ينجح المجتهد ويرسب الكسول هذا كمال في الجامعة، الكمال في خلق الإنسان أن تأتي الآخرة متوافقة مع الدنيا فقط.

آيات من الذكر الحكيم تبين أن الله لا يتدخَّل لأن الإنسان مخير :

قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (46))

(سورة فصلت: آية " 46 ")

الله لا يتدخَّل لأن الإنسان مخير:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف: آية " 29 ")

وقال:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

وقال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة: آية " 148 ")

ليس الكمال أن يكون الناس كلهم مؤمنين بل الكمال أن يُعطى كل ذي حق حقه:

الإنسان مخير، ولذلك ليس الكمال أن يكون الناس كلهم مؤمنين، لا، الكمال أن يُعطى كل ذي حقٍ حقه، الكمال:

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15))

(سورة طه)

هذا هو الكمال، افعل ما تشاء كما قال الله عزَّ وجل:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ (40))

(سورة فصلت: آية " 40 ")

افعل ما تشاء ولكن لكل شيء ثمن:

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف له ذلك من نيته إلا جعلت الأرض تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

الكمال أن تأتي النتائج مطابقةً للمقدِّمات فقط، قال الله عزَّ وجل:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ (40))

(سورة فصلت: آية " 40 ")

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن سهل بن سعد البيهقي عن جابر]

الإنسان وحده هو المسؤول ولن يحاسَب أحد عن أحد:

تصبح الآية:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

أنا سأخلق مخلوقات، أعطيها حرية الاختيار، أعطيها عقلاً، أسخِّر لها الكون تسخير تعريفٍ وتكريم، أعطيها شهوات، أعطيها منهجاً:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (46))

(سورة فصلت: آية " 46 ")

أنت مسؤول، هذا الدرس مصيري يحدد مصير الإنسان، افعل ما تشاء، الله عزَّ وجل ينبِّهك، يُسمِعُك الحق، يضيِّق عليك لكنك في النهاية مخير، وعملك بسبب اختيارك، وأنت وحدك المسؤول، ولن يُحاسب إنسان عن إنسان:

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ (84))

(سورة الإسراء)

وقال:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (164))

(سورة الأنعام: آية " 164 ")

هذه الآية تبين أنك المخلوق الأول، والمكرَّم، والمكلَّف، وأنت خليفة الله في الأرض، خليفته على مستوى أب، خليفته على مستوى معلِّم، خليفته على مستوى طبيب، خليفته على مستوى مهندس، خليفته على مستوى مدير دائرة ، أنت خليفته في الأرض.

العبرة أن تأتي النتائج وَفْقَ المقدمات فقط:

جاء في بعض التفاسير:

(إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

أي أن الله تعالى يقول:

((إنني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف ما لا تعلمون مع كل المفاسد التي ذكرتموها، سأجعل فيهم الأنبياء، أرسِل فيهم الرُسل سيكون فيهم الصدّيقون، والشهداء، والصالحون، والعبَّاد، والزهَّاد، والأولياء، والأبرار، والمقرَّبون، والعلماء العاملون، والخاشعون، والمحبَّون لي، والمتبعّون لرسلي، وقد ثبت في الصحيح: أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى

بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون آتيناهم وهم يصلّون.. فقد ورد عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: " يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ وَصَلاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

هؤلاء في المسجد هنا، لماذا أنتم هنا ؟ لا يوجد طعام ولا يوجد شراب، ولا تكريم ولا رواتب آخر الشهر، أنتم أتيتم لمعرفة الله، أتيتم لوجه الله، إذاً:

(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(30))

يوجد عباد مؤمنون، صادقون، مخلصون، محبِّون، ورعون، مقبلون، محسنون، متفوِّقون، العبرة أن تأتي النتائج وَفْقَ المقدمات فقط:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15))

(سورة الجاثية)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (18- 95):تفسير الآيات 31-33 ، كرَّم الله الإنسان بالعلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-10-23

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل علم النبي على علم أعلم علماء الأرض كفضل الله على خلقه:

مع الآية الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(33))

أيها الأخوة الكرام، محور هذه الآيات أن آدم عليه السلام ودُرِّيّته مخلوقاتٌ متميِّزة قبلت حمل الأمانة، وحينما قبلت حمل الأمانة فُتِحت لها أبواب المعارف، فسيدنا آدم علَّمه الله، وحينما يعلِّم الله الإنسان فإن هذا الشيء يصعب تصوره، الله عزَّ وجل علَّم النبي قال تعالى:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5))

(سورة النجم)

فضل علم النبي على علم أعلم علماء الأرض كفضل الله على خلقه، يتباهى الطالب أحياناً أنَّه تلميذ فلان، علَّمني فلان، علَّمني هذا الأستاذ الكبير، فكلَّما كان قدر المُعَلِّم كبيراً كان افتخار الطالب بمعلِّمه أكثر، فإذا كان المعلِّم هو الله، فهذا الشيء يكاد لا يُصدَّق، لأن الله يعلِّم الإنسان بطريقةٍ تعطيه كل شيء في أقلّ زمن، الطالب الآن يأتي ببعض الأحاديث الشريفة، يضبطها، ويشرحها، ويستنبط منها بعض الأحكام، ويقدِّم هذا البحث رسالة دكتوراه، تُناقش هذه الرسالة ويُعطى لقب دكتور، لماذا ؟ لأنه فهم بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين مقام النبي عليه الصلاة والسلام ؟

يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء

***

سبب جعل النبي عليه الصلاة والسلام أمياً:

أقف عند كلمة:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ (31))

كما أن الله علَّم آدم الأسماء علَّم النبي عليه الصلاة والسلام كل شيء، لماذا جعله أُمِّياً ؟ لأنه لو استقى من ثقافات عصره ثم جاءه وحيّ السماء لتداخلَ علم الأرض مع علم السماء، ولو كان الأمر كذلك لسأله أصحابه كل دقيقة، هل هذا الكلام من ثقافتك أم من وحي السماء ؟ فالله سبحانه وتعالى جعل وعاء النبي خالياً من كل ثقافةٍ أرضية، وجعله:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

علّم الله آدم عليه السلام، كما أن الله تعالى علَّم نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام.

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ (31))

اختلف العلماء في هذه الكلمة، أولاً اختلفوا في آدم، لمَ سمِّي آدمُ آدماً ؟ قال: لأنه أُخِذَ من أديم الأرض ـ من تراب الأرض ـ وصنعه الله بيده، ونَفَخَ فيه من روحه، فهو المخلوق الأول.

الإنسان مركّب من عقلٍ وشهوة:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

الإنسان كما تعلمون رُكِّب من عقلٍ وشهوة، فيه قبضةٌ من تراب الأرض، وفيه نفخةٌ من روح الله، فإذا سَمَتْ نفخة الروح على تراب الأرض كان فوق الملائكة، وإذا سَمَتْ قبضة التراب على نفخة الله عزَّ وجل كان دون الحيوان، هو وحده يتذبذب بين أن يكون فوق الملائكة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7))

(سورة البينة)

وبين أن يكون شَرَّ البرية:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6))

(سورة البينة)

الأنبياء يتعلَّمون بالوحيّ لكن المؤمنين يتعلَّمون بالقراءة والكتابة:

وضع الإنسان يتذبذب بين أن يكون فوق الملائكة المقرَّبين، وبين أن يكون في أسفل سافلين، فيه قبضةٌ من تراب الأرض ؛ يأكل ويشرب، ويشتهي النساء، ويشتهي أن يستريح، وأن يستمْتِع، هذا الخلود إلى الأرض، ويتمنى أن يعرف الله، وأن يكون مستقيماً على أمره، وأن يكون محبَّاً له، وأن ينشر الخير بين الخلائق، هذه نفخة الروح التي في كيانه، فيه نفخةٌ من روح الله، وفيه قبضةٌ من تراب الأرض، لذلك حينما قبل الإنسان حمل الأمانة كان المخلوق الأول.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (72))

(سورة الأحزاب: آية " 72 ")

هو المخلوق الأول لمجرد أنه قبل حمل الأمانة، لأنه المخلوق الأول سُخِّرت له السماوات والأرض جميعاً، في هذه الآيات إشاراتٌ لطيفة إلى أن مقام آدم هو المقام الأول، عرَّفه الله عزَّ وجل، إذاً آدم من أديم الأرض:

(وَعَلَّمَ آدَمَ (31))

تعليم الله عزَّ وجل متميّزٌ عن تعليم البشر، فحينما يعلّمك الله عزَّ وجل تغدو أعلم علماء الأرض، علَّم الله أنبياءه، علَّمهم بالوحيّ، أو كلَّمهم، أو قرَّبهم إليه، أما بنو البشر فيتعلَّمون من علم الأنبياء، نحن الأمية فينا صفة نقصٍ، لأنه لا سبيل لنا للتعلُّم إلا عن طريق علم الأنبياء، لا بدَّ أن نقرأ أحاديث رسول الله، لا بدَّ أن نقرأ القرآن الكريم، لا بدَّ أن نفهم تفسيره، فنحن نتعلَّم بالتعلُّم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إنما العلم بالتعلُّم))

[الطبراني عن أبي الدرداء]

الأنبياء يتعلَّمون بالوحيّ، لكن المؤمنين يتعلَّمون بالقراءة والكتابة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحِلم بالتحلّم))

[الطبراني عن أبي الدرداء]

بعض التأويلات المحتملة للآية التالية:

قال تعالى:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (31))

وقال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7))

أما الأسماء التي وردت في هذه الآية فهناك اختلافٌ كبير بين المفسرين، يوجد عندنا اسم ومسمًّى، هذا منديل، فإن هذا مسمًّى، ومنديل اسم، ولا اسم بلا مسمّى، قال بعض المفسرين: " حينما خلق الله عز وجل المسميات كلَّها علَّم آدم أسماءها "، وكأن الله أراد من هذه الآية أن يبين أن لآدم طريقاً إلى الله يعلِّمه كلّ شيء، والإنسان ـ وهو ابن آدم ـ حينما يصدق في طلب شيء فالله عزَّ وجل يعطيه إيَّاه:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (31))

وبعضهم قال: **" علَّمه أسماء ذرِّيته جميعاً لأن كل ذرِّيته في ظهره "** . وبعضهم قال: **" علَّمه أسماء الملائكة "**. وبعضهم قال: **" علَّمه أسماء الله الحُسنى "** ، فلك أن تختار من بين هذه التفسيرات ، إما أنه علَّمه أسماءه الحسنى وصفاته الفُضلى، أو علَّمه أسماء الملائكة، أو علَّمه أسماء ذرِّيته جميعاً، أو علَّمه حقائق الكون، علَّمه المُسَمَّيات وأسماءها، هذه التأويلات المحتملة لهذه الكلمة:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (31))

الله سبحانه وتعالى كرَّم الإنسان وجعله المخلوق الأول :

الملائكة مما أشفقوا ولم يحملوا الأمانة ؟

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (72))

(سورة الأحزاب: آية " 72 ")

الملائكة مخلوقاتٌ عابدةٌ، منيبةٌ، متَّصلةٌ بالله عزَّ وجل، تُسبِّح الله دائماً، ولكنّها ليست مُكَلَّفة ـ ليس عندها تكليف ـ ليس عندها نجاح أو رسوب، فلاح أو سقوط، جنَّةٌ أو نار، مستقبلها مضمون لأنها لم تخاطر، لكن الإنسان قال: أنا لها، وحملها الإنسان، فالذي قَبِلَ المغامرة يفوق الذي أَشْفَقَ من هذه المغامرة فيما لو نجح، لذلك يتّضح من خلال هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى كرَّم الإنسان وجعله المخلوق الأول، وفضَّله على كثيرٍ ممن خلق تفضيلاً، بل إن العلماء يقولون: **" المؤمن إذا عرف**

الله عزَّ وجل وأدَّى الأمانة التي أنيطت به، وحقق الهدف الذي من أجله خُلِق فهو فوق الملائكة المقرَّبين".

عند بعض العلماء بعض المقولات، الرسل من بني البشر أعظم من رسل الملائكة، والأولياء من بني البشر أعظم من أولياء الملائكة، ولكن إذا وازنَّا الملَك بمخلوقٍ شاردٍ عن الله عزَّ وجل فإن ذرَّةً من هذا المَلَك أفضل من مليار إنسان عاصٍ، أما حينما يرشد الإنسان، ويتَّصل بالله عزَّ وجل فهو فوق الملائكة المقرَّبين:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (31))

مقام الإنسان يتذبذب بين أن يسبق الملائكة وبين أن يكون من أحَط المخلوقات:

ماذا قالت الملائكة ؟

(قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

إنَّ هذا المخلوق البشري إذا عرف الله وصل إلى مرتبةٍ لا تصل الملائكة إليها، مقامه يتذبذب بين أن يسبق الملائكة، وبين أن يكون من أحَط المخلوقات، رجل خان جاره في زوجته أثناء سفره في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فبلغ النبي ذلك، وقد قتله كلبٌ، فقال عليه الصلاة والسلام: **" خان صاحبه، وقتله الكلب، والكلب خيرٌ منه ".**

شيء دقيق، أنت حينما تعرف الله، وتستقيم على أمره، وتسمو إليه فأنت في المرتبة الأولى من مخلوقات الأرض ؛ وحينما تخلد إلى الأرض وتتبع هواك وتُغلب فأنت دون كل المخلوقات، فهذه المرتبة تتلوّن وتتذبذب بين قمَّة المجد وبين حضيض السقوط، هكذا الإنسان إما أنه خير البرية، وإما أنه شَرُّ البرية، ومتاحٌ لك أن تكون من خير البرية، لأن هذه الشهوات التي غُلِبت بها رُسِمت لها قنواتٌ نظيفة تسري خلالها، فليس في الإسلام حِرْمان، ولكن في الإسلام انضباط، عملية ضبط، فأية شهوةٍ أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها، بل إنني أقول لكم: إن استمتاع المؤمن بالحلال فيه متعةٌ وطمأنينةٌ وسعادةٌ تفوق بكثير متعة المنحرف العاصي بالحرام، شَتَّان بين الزواج والزنا، وشتَّان بين كسب المال الحلال وبين كسب المال الحرام، وشتَّان بين أن تعلو في الأرض بعملٍ صالح، أو بجريمةٍ فظيعة.

الإنسان مخير ولأنه مخير فالنتائج متباينة:

أيها الأخوة الكرام، نحن أمام خيار مصيري، إما أن تكون المخلوق الأول، وإما أن يهبط الإنسان فيكون في أسفل سافلين، في الدرجة الدنيا:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ (31))

أنتم يا ملائكتي الذين قلتم في أنفسكم: لعل هذا المخلوق يُفسِد، ويسفِكُ الدماء، ونحن نسبح الله عزَّ وجل، فقال الله عزَّ وجل:

(إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الكمال في الجامعة لا أن ينجح كل الطُلاَّب، بل أن تأتي النتائج وفق المقدِّمات، حيث ينجح المتفوِّق، ويرسب الكسول، وهكذا الإنسان مخيّر، فإما أن تختار الحقيقة، وإما أن تختار الشهوة، إما أن تختار المصلحة، وإما أن تختار المبدأ، إما أن تختار الآخرة، وإما أن تختار الدنيا، أنت مخيّر، ولأنك مخيّر فالنتائج متباينة، إذا أعْطينا للطلاب حرية الاختيار في الدراسة أو عدمها ورسب مجموعة من الطلاب هذا لا يعني أن نغلق الجامعة، بل بالعكس نتابع افتتاح الجامعات ونقول: كلٌ يلقى نتائج عمله، فالطالب المجتهد يلقى نتائج عمله، والطالب الكسول يلقى نتائج عمله، أعطى الله عزَّ وجل الملائكة درساً لا يُنسَى، أنتم الذين قلتم:

(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

هذا آدم، وقد ورد عن الرسول الكريم قوله:

((آدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر.))

[ابن مردويه عن أنس]

آدم ومن دونه تحت لواء محمد عليه الصلاة والسلام يوم القيامة، استنبط بعض العلماء من هذا الحديث أن هذا النبي الكريم ـ أبو البشر ـ يأتي في مقامه بعد مقام محمدٍ عليه الصلاة والسلام ؛ آدم ومن دونه.

الإنسان لتميّزه بقبول حمل الأمانة استحق أن يُكشَف له الغطاء فيعلم من الله ما لم يعلم غيره من الله:

قال تعالى:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ (31))

ذكرت قبل قليل أنه لك أن تفهم الأسماء أنها أسماء ذريّته جميعاً، أو أسماء الملائكة كلّهم، أو أسماء المُسميات جميعاً، إما أنه علّمه حقائق الوجود، أو علّمه أسماء الملائكة، أو علّمه أسماء ذريّته، أو علّمه أسماءه الحسنى، على كلٍ هذا الإنسان لتميّزه بقبول حمل الأمانة استحق أن يُكشَف له الغطاء، فيعلم من الله ما لم يعلم غيره من الله:

(عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ (31))

هذا الذي خلقته وجعلته خليفتي في الأرض هل عندكم شيء من علمه ؟

(فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ (31))

ماذا تعرفون من هذه الأسماء ؟ وهذا ينقلنا إلى موضوعٍ دقيق، الله عزَّ وجل قد يعطي الأدنى ما يفوق الأعلى، سيدنا موسى نبيٌّ كريم سئِل: من أعلم من في الأرض ؟ فقال: أنا، فلفت ربنا عزَّ وجل نظره إلى شيءٍ لم يكن في الحُسبان، أعطى الله سيدنا الخضِر سرَّ الأمر التكليفي، فلمَّا ترافق سيدنا موسى مع سيدنا الخضر اعترض عليه، وإذا بالخضر عليه السلام يعطيه حقائق الأمور ويعطيه حِكَم أفعال الله عزَّ وجل، فإذا كان الله تعالى قد خصَّ موسى بالأمر التكليفي فقد خصَّ الخضر عليه السلام بالأمر التكويني، بسرِّ الأمر التكويني.

الله عزَّ وجل طليق الإرادة يعطي من هو أدنى منك شيئاً يفوقك به:

يعطي الله عزَّ وجل الأدنى ما يفوق به الأعلى، وكلفت نظرٍ قال هدهد سيدنا سليمان:

(أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ (22))

(سورة النمل: آية " 22 ")

سيدنا سليمان الذي آتاه الله مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، سيدنا سليمان الذي سخَّر الله له الريح، سيدنا سليمان الذي علَّمه الله لغة الطير:

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً (19))

(سورة النمل)

قال له الهدهد:

(أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22))

هذا درس، فلا تقل: أنا أعلم من في الأرض، لا تقل: أنا متفوق في كذا، الله يغيِّر في لحظة، الله عزَّ وجل طليق الإرادة، يعطي من هو أدنى منك شيئاً يفوقك به، قيل: إن الإمام أبا حنيفة رأى مرة طفلاً يمشي في الطريق وأمامه حفرة فقال له: احذر يا غلام أن تسقط، فقال له الغلام: بل احذر أنت يا إمام أن تسقط، إني إن سقطت سقطتُ وحدي، وإنك إن سقطت سقط معك العالم.

كان سيدنا عبد الله بن الزبير في المدينة مع بعض الغلمان فمرَّ سيدنا عمر، تفرَّق الأولاد إلا عبد الله بن الزبير بقي واقفاً في مكانه، فقال له سيدنا عمر: يا غلام لمَ لمْ تهرب مع من هرب ؟ فقال له: **" أيها الأمير لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولستُ مذنباً فأخشى عقابك والطريق يسعني ويسعك "** ، فدائماً لا تقل: أنا، هناك دروس بليغة جداً في الحياة.

حجم علم الإنسان بحجم صدقه في طلب الحقيقة:

أيها الأخوة:

(قالُوا سُبْحَانَكَ (32))

أي أنَّ هذا الذي اعترضتم عليه، ظننتم أنكم أفضل منه، هذا الذي توهَّمتم أنه سيسفك الدماء، ويُفسِد في الأرض علمه أعلى من علمكم، لكن هناك سؤال: إنك أنت الذي علَّمته، فأنت الذي ميزته علينا ؟ الجواب: أن علم الإنسان بحسب صدقه، فكلَّما كان أكثر صدقاً في طلب الحقيقة كان علمه من الله عزَّ وجل أعمق وأشمل، فحجم علم الإنسان بحجم صدقه في طلب الحقيقة، لذلك يُعَدُّ النبي عليه الصلاة والسلام أعلمنا بالله عزَّ وجل، قال عن نفسه صلى الله عليه وسلَّم:

((إني أعلَمكم بالله وأشَدُّكم له خشية))

[متفق عليه عن عائشة]

أي أن العلم متعلق بالصدق، فكلَّما كنت أكثر صدقاً في طلب الحقيقة، كلَّما كنت أكثر صدقاً في معرفة الله كلَّما كنت أكثر علماً، فيبدو أن هذا النبي الكريم أبو البشر ـ سيدنا آدم ـ كان طلبه للمعرفة عالياً جداً، فعلَّمه الله ما لم يعلِّم الملائكة.

كلمة (لا أدري) نصف العلم:

حينما نفهم الآية فهماً ساذجاً أن الله علَّمه، ثم قال:

(أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ (31))

لا تعلمون، إذاً هو أفضل منكم، هذا الشيء بهذا الشكل غير مقبول، أما علمه الذي فاق به الملائكة بسبب محبَّته لله، وصدقه في طلب الحقيقة، وإقباله على الله، فهناك شيء منه، تجد أخَوين، أحدهما تابع دراسته حتى الدكتوراه، والآخر قنع بابتدائية، أو بإعدادية، والأب واحد، والأم واحدة، هذا اختيار، فيبدو أن هذا النبي العظيم أبو الأنبياء أراد أن يكون في أعلى مرتبة منحه الله إياها، فلمَّا اعترضت الملائكة قال:

(أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا(32))

لنا هنا وقفة متأنِّية، إخواننا الكرام كما قال الإمام الشافعي: **" كلَّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي "**، والإنسان المتعلِّم أو طالب العلم الشرعي يجب أن يكون متواضعاً جداً وأن يُجْري على لسانه كلمة لا أدري، لا أدري نصف العلم، جاء وفد من المغرب إلى المشرق معهم أسئلة عديدة جداً، فالتقوا الإمام مالك ـ إمام دار الهجرة ـ عرضوا عليه مجموعة أسئلة فأجاب عن ثلثها، وأما الأسئلة الباقية فقال عنها: لا أدري، قالوا: يا الله الإمام مالك إمام دار الهجرة لا يدري ؟! قال لهم: قولوا لأهل المغرب الإمام مالك لا يدري.

عوّد نفسك أن تقول عن شيء لا تعلمه: واللهِ لا أعلم، إن قلت: لا أعلم فأنت عالم، أما هذا الذي يعلم كل شيء فهو لا يعلم شيئاً إنه كذَّاب، عَوِّد تلاميذك، عود إخوانك كلمة لا أعلم طبيعية جداً، وأنت في مكانك العلي لا تستحي أن تقول: لا أعلم، لأنك إذا قلت ما لا تعلم فقد اقترفت إثماً مبيناً، وردت المعاصي في كتاب الله بشكل تصاعدي ؛ الفحشاء، والمنكر، والإثم، والعدوان، والشرك، والكفر، وأعلى معصية هي:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169))

(سورة البقرة)

النبي عليه الصلاة والسلام على علوّ قدره وعِظَم شأنه لا يعلم إلا أن يُعلِّمه الله:

يقول الإمام الغزالي: **" العوام لأن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ".** وَطِّن نفسك إذا سئلت عن آية ما معناها أن تقول: والله لا أدري أراجعها إن شاء الله، ما معنى هذا الحديث ؟ والله لا أدري أراجعه إن شاء الله، فأنت عالم، هذه الموضوعية، وهذا التواضع العلمي، أما أن تجيب عن كل شيء بسرعة، وبلا تريّث، وبلا تَرَوّي فهذا من الجهل، ومن القول على الله ما لا تعلم !

(قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا (32))

نحن لا نعلم يا رب إلا أن تعلّمنا، توجد في السيرة النبوية أشياء مخيفة، فالنبي عليه الصلاة والسلام على علوّ قدره، وعِظَم شأنه، وقربه من الله، واستنارة قلبه، والوحيّ يتنزَّل عليه، جاءه أناسٌ من إحدى القبائل وطلبوا منه قُرَّاء للقرآن الكريم كي يعلّموا قومهم، أرسل معهم سبعين قارئاً فذبحوهم في الطريق، لِمَ لم يعلم ؟ معنى ذلك أن النبي لا يعلم إلا أن يُعلِّمَه الله، أي مخلوقٍ لا يعلم بذاته أبداً إلا أن يُعلِّمك الله عزَّ وجل، مع أن الوحي جاءه في موضوعاتٍ كثيرةٍ جداً وهي أقل شأناً من هذا، ولكن هذا درس، هو لا يعلم على علوّ قدره إلا أن يُعلِّمه الله، فقد يلقي الله في قلبك العلم وقد لا يُلقي فلا تعلم، فهذا الموقف الأديب:

(سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا (32))

كن طبيعياً، سؤال فقهي، والله سأراجعه، فتوى، دعني أفكِّر فيها، هل تعلم ما معنى هذه الآية ؟ لا والله لا أعلم، لا أعلم أنت عالم، أما كلّما سئِلت أجبت إجابة طائشة، فمعنى ذلك أنك لا تعلم، عوّد نفسك أن تقول:

(سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا (32))

((أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أي البلاد شر ؟ فقال: لا أدري، فلما أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا جبريل، أي البلاد شر ؟ قال: لا أدري حتى أسأل ربي تبارك وتعالى، فانطلق جبريل، فمكث ما شاء الله ثم جاء، فقال: يا محمد، إنك سألتني أي

البلاد شر، قلت: لا أدري، وإني سألت ربي تبارك وتعالى، فقلت: أي البلاد شر ؟ فقال: أسواقها.))

[الحارث بن أبي أسامة وأبو يعلى والإمام أحمد عن جبير بن مطعم]

خيرها مساجدها، ففيها علم، ومعرفة، ووجهة إلى الله عزَّ وجل، وشرُّها أسواقها.

الهامش الاجتهادي تُرك للنبي ليكون هناك فرقٌ بين مقام الألوهية ومقام النبوّة:

النبي سيد الخلق وُضِع في ظروف يقول: لا أعلم، تُرك له هامش اجتهادي طفيف جداً، فإذا أصاب فالوحي يؤيِّدُهُ، وإذا أخطأ يأتي الوحي ويصوِّب له، هذا الهامش الاجتهادي ليكون هناك فرقٌ بين مقام الألوهية ومقام النبوّة:

(قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33))

علم الله مطلق، وحكمته مطلقة، وعدلـه مطلق، ورحمته مطلقة، وإرادته مطلقة، فالاعتراض أو التساؤل في أفعال الله وفي علمه يحتاج إلى معالجة، وها قد عُولِج الملائكة بهذه القصَّة.

يمكن أن نستنبط من هذه الآيات الثلاث أن علم الإنسان بقدر صدقه في معرفة الحقيقة، ومن زادك في العلم زادك في القُرب، والعلم المقصود هو الذي أراده الله عزَّ وجل وليس العلم المُطْلَق.

ذكرت لكم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان في المسجد، فرأى رجلاً تحلَّق الناس حوله، فسأل سؤال العارف: من هذا ؟ قالوا: هذا نسَّابة.

اللهمَّ إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، العلم الذي أراده الله هو العلم بالله، والعلم بأسمائه الحسنى، والعلم بصفاته الفضلى، والعلم بأمره ونهيه، حجم الإنسان من العلم بالله بحجم صدقه في طلب الحقيقة، لذلك فاق سيدنا آدم الملائكة ؛

والدليل أن الله عزَّ وجل قال:

(قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33))

النقاط الأساسية في هذا الدرس:

أيها الأخوة، العلم هو الذي يرفعك عند الله، والدليل:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر: آية " 9 ")

1- النقطة الأولى أن الذي يرفعك عند الله هو العلم:

تطبيقاً لهذا الدرس الذي يرفعك عند الله هو العلم، الآية الأولى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر: آية " 9 ")

هذا استفهام إنكاري، أي لا يستوون، فالناس رجلان ؛ يعلم ولا يعلم، وشتَّان بين من يعلم وبين من لا يعلم:

((الناس رجلان عالمٌ ومتعلم ولا خير فيما سواهما.))

[الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود]

يقول سيدنا علي: **" الناس ثلاثة ؛ عالمٌ ربَّاني، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع، أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركنه الوثيق فاحذر يا كميل أن تكون منهم"** ، ويقول سيدنا علي: **" العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق ".**

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر: آية " 9 ")

2- إن كنت طموحاً فاطلب العلم لا تطلب المال ولا الجاه:

إذا كنت طموحاً فاقرأ هذه الآية:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114))

(سورة طه)

لم يقل: زدني مالاً، لم يقل: زدني جاهاً:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114))

(سورة طه)

3- النقطة الثالثة يتفاوت العلماء في علمهم:

الشيء الثالث: يتفاوت العلماء في علمهم:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11))

(سورة المجادلة)

4ـ النقطة الرابعة من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة:

الشيء الرابع:

((من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة.))

[الترمذي عن أبي هريرة]

حينما يأتي الإنسان من بيته ليتعلَّم كتاب الله، ليفهم تفسير آيات الله، هذا الطريق من بيتك إلى المسجد هو الطريق إلى الجنة، وطالب العلم يؤْثِر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً، **" والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً"**، و**" يظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل "**، وحينما تتعلم اقرأ قوله تعالى:

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76))

(سورة يوسف)

حينما تتوسَّع في معرفة اختصاصٍ ما فاقرأ قوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء: آية " 85 ")

العالم الحقيقي متواضع لأنه كلَّما ازداد علماً ازداد شعوراً بعظمة الله فتضاءل في نفسه:

أبيّن من حين لآخر عظمة الله عزَّ وجل من خلال خلقه، أقول: طول لسان لهيب الشمس ستمئة ألف كيلو متر إلى مليون، مليون كيلو متر لسان اللهب ؟ ثم اطلعت على بحثٍ في الفلك فإذا هناك شمسٌ تزيد بحجمها عن شمسنا اثنين واثنين بالعشرة بليون مرَّة، ولسان لهبها مئة وخمسون سنة ضوئية:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء: آية " 85 ")

اجتمع الناس حول عالم شاب مرة وانتفعوا بعلمه، فجاء رجل ليُصَغِّرَهُ، قال له: يا هذا هَذا الذي تقوله ما سمعناه، فقال له: وهل حصَّلت العلم كلَّه ؟ فأسقط في يده، قال له: لا، قال له: كم حصَّلت منه ؟ قال: بعض العلم، قال: هذا من الشطر الذي لا تعرفه.

" كلَّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي "، العالم الحقيقي متواضع، لأنه كلَّما ازداد علماً ازداد شعوراً بعظمة الله عزَّ وجل، فتضاءل في نفسه.

أيها الأخوة، هذا درس لنا:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(33))

وفي درسٍ قادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (19- 95):تفسير الآيات 34-36 ، تجربة آدم مع الشيطان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-10-30

بسم الله الرحمن الرحيم

تنفيذُ أمر الله سجودٌ لله:

مع الآية الرابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (34))

الحقيقة أن السجود لله وحده، ولكن تنفيذُ أمر الله سجودٌ لله، لو أن آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له لما أمكن أن ينفَّذ هذا الأمر، ولكن لأن الله عزَّ وجل أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، فَهُمْ حينما سجدوا فقد نَفَّذوا أمر الله عزَّ وجل، ألا ترى أن الله يأمرك في الحج أن تُقَبِّلَ الحجر الأسود، ويأمرك أن ترجُم حجراً آخر يمثِّل إبليس، فأنت حينما تُقَبِّل هذا الحجر وتعظمه إنما تنفذ أمر الله، وحينما أمرك أن ترجم هذا الحجر وتحقِّره إنما نفذت أمر الله عزَّ وجل، وكل أمرٍ لله عزَّ وجل يقتضي الوجوب، ولله حكمةٌ ما بعدها حكمة، وعدل ما بعده عدل، ورحمةٌ ما بعدها رحمة، وعندما تقول: إنك مؤمن، أي أنك مؤمن بحكمة الله المطلقة، مؤمنٌ بعلمه المُطلق، مؤمنٌ برحمته المطلقة، فالسجود لله عزَّ وجل، ولكن سجود الملائكة لآدم سجود اعتراف بالفضل، حينما سجد أخوة يوسف:

(إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4))

(سورة يوسف)

قال: هذا السجود سجود الخضوع، فهذا الطفل الذي ائتمر عليه إخوته سيكون عند الله في مكانٍ عَلِيّ، فرأى في المنام أن هؤلاء الذين حوله خاضعون له، وقال في نهاية القصة:

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً (100))

(سورة يوسف)

السجود سجود الخضوع.

سجود الملائكة لآدم هو سجود الاعتراف بالفضل:

حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا))

[أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

هو سجود الخضوع، والقبول، وتلقّي الأمر:

((إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

الزوجية نظام، مركبة لا بد لها من قائدٍ واحد، لا يصلح الأمر عندما يكون قائدان لمركبة واحدة عندئذٍ تفسد، قال تعالى:

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ (228))

(سورة البقرة: آية " 228 ")

درجة القيادة، فزوجته شريكته، لكن لهذه الأسرة قائدٌ واحد، مسؤولٌ واحد في الأمور الحاسمة، صاحب القرار واحد وهكذا، فالسجود سجود الخضوع، أما سجود الملائكة لآدم فهو سجود الاعتراف بالفضل، قالوا:

(قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

(سورة البقرة)

عَلَّمَهُ الأسماء، علمه تفسير الأسماء، علمه شيئاً ما عرفته الملائكة، وهذا العلم متعلقٌ بالصدق في طلب الحقيقة، فكان مقام آدم عليه السلام في معرفته بالله وطلبه للحقيقة أعلى من مقام الملائكة، فأمرهم أن يسجدوا له أي أن يخضعوا له.

المؤمن مُلْزَم بطاعة رسول الله دون النظر إلى مقياسٍ آخر :

أنت حينما يأمرك الله أمراً إنما تطيع أمر الله، قال لك: قَبِّل الحجر الأسود ـ حجر لا ينفع ولا يضر ـ تقبله تنفيذاً لأمر الله، قال لك: ارجم هذا الحجر، ترجمه تنفيذاً لأمر الله، ولكن لو قال لك أبوك: أطع الله، صلِّ يا بني وصليت، هل تنفذ أمر أبيك ؟ لا أبداً إنك تنفذ أمر الله عزَّ وجل، أي إنسان يدعو إلى الله لا يُنَفَّذُ أمره الشخصي، إنما يُنَفَّذ أمر الله الذي نقله لك عن كلام الله، وعن سنة رسول الله، وحينما قال الله عزَّ وجل:

(أطيعوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (59))

(سورة النساء)

أولو الأمر هم العلماء والأمراء، العلماء يعلّمون الأمر، والأمراء ينفّذون الأمر، واحد يعلّم وآخر لديه سلطة فينفّذ، لكن الله عزَّ وجل قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (59))

(سورة النساء)

أعاد كلمة أطيعوا:

(الرَّسُولَ (59))

(سورة النساء)

أي أنت مُلْزَم أن تطيع رسول الله من دون نظرٍ لمقياسٍ آخر، كأن يقول لك: يا أخي أنا أطيع الحديث بعد أن أتحقق وأجد له أصلاً في القرآن، لا، ليس لك هذا، أنت مكلفٌ أن تطيع رسول الله استقلالاً، بنص أمر الله عزَّ وجل:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (7))

(سورة الحشر: آية " 7 ")

لأنَّه معصوم ولأنه لا ينطق عن الهوى.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

لكن الله إذا أمرك أن تطيع أولي الأمر ـ العلماء والأمراء ـ فإن طاعة أولي الأمر بالقياس إلى أمر الله، قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (59))

(سورة النساء)

لا يوجد وأطيعوا أولي الأمر منكم، وأولو الأمر منكم مرتبطون بطاعة رسول الله، فلو أمرَكَ عالم بقطيعة رحم فلا ينفَّذ أمره لأنه يتناقض مع أمر النبي بصلة الرحم، ولو أمرك إنسان أقوى منك بشرب الخمر لا يُطاع أمره لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فيجب أن تدقق بين:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (59))

(سورة النساء)

أطيعوا فعل كُرِّر، أي عليك أن تطيعه استقلالاً، دون أن ترجع إلى أي شيءٍ آخر، لأنه معصوم، ولأنه لا ينطق عن الهوى، إلا أنه إذا أمرك عالمٌ أو أميرٌ بخلاف أمر الله عزَّ وجل فلا أمر ولا طاعة له إلا في طاعة الله.

إنك حينما تُنفذ أمر أبيك أو أمر داعيةٍ يقول لك: يا بني غض بصرك، يا بني أقم الصلاة، يا بني اتلُ القرآن، إنك لا تطيع هذا الداعية إنما تطيع الله، هو نقل لك هذا الأمر عن الله فقط، ناقل نقل لك هذا الأمر عن الله، نقل لك هذا الأمر عن رسول الله، هذا كله حول قوله تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (34))

عِلَّةَ أي أمرٍ أنه أمر:

قال العلماء: **" عِلَّةَ أي أمرٍ أنه أمر "** ، مثلاً عندك لا سمح الله آلام بالمعدة، ودخلت إلى أفضل طبيب في البلد، معه أعلى شهادة، ومعه أعلى خبرة، إذا قال لك: دع الحوامض، لا يخطر في بالك

لحظة أن تفكر بأمره، لأنك تثق بعلمه، تنفذ لأنه أمرك، أنا مرة قلت عن عالم من علماء هذه البلدة الطيبة كان بأمريكا ودخل بنقاش مع عالم كبير حديث العهد بالإسلام ـ عالم بالفيزياء أو الكيمياء ـ طُرِح موضوع لحم الخنزير، بدأ هذا العالم يتحدث عن مضار الخنزير، وعن الدودة الشريطية، وعن تأثر طباع الإنسان بلحم الخنزير وطباع الخنزير، وعن أن هذه الدودة لا تتأثر بالحرارة، وتكلم كلاماً طيباً جداً سبحان الله، فأجابه هذا المسلم الأمريكي قال له: يا أستاذ كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرمه، فهذا يكفي، يكفي إذا قال لك خالق الكون: لا تفعل هذا الشيء، لذلك قال العلماء: علة أي أمرٍ أنه أمر.

تكلم النبي بالإسلام، وجاء بآيات بينات، وحدث الناس، ثم فاجأهم عندما حدّثهم أنه في ليلةٍ واحدة ذهب إلى القدس، ورجع منها، وعرج إلى السماء، لم يكن أهل مكة يصدقون رسول الله أساساً ـ ومن دون هذا الخبر ـ فوجدوا شيئاً يتاجرون به، فجاؤوا إلى الصديق وقالوا: تعالَ اسمع ماذا يقول صاحبك ؟ إنه قال: إنه ذهب إلى بيت المقدس، وعاد منه، قال لهم: إن قال هذا فقد صدق، إذا قال فقد صدق، لأنه عندي صادق، إذا كانت ثقة سيدنا أبي بكر برسول الله دعته ألا يفكر فيما قال، لأنه قال فإنه صادق، فكيف ثقتك بالله عزَّ وجل ؟!! لذلك علة أي أمر أنه أمر.

كلما اختفت حكمة الأمر الإلهي ارتفع فيه عنصر العبودية لله عزَّ وجل والعكس صحيح :

بالمناسبة أيها الأخوة، تتضح أحياناً حكمة الأمر الإلهي بشكلٍ جلي، وأحياناً تختفي حكمته، كلما اتضحت حكمة الأمر الإلهي ضعف فيه عنصر العبودية لله عزَّ وجل، فإذا قال لك الله عزَّ وجل: تزوج:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ (32))

(سورة النور: آية " 32 ")

هذا أمر، وأنت تزوجت، لكنك إنسان تعيش في بيت أهلك، وأهلك متقدمون في السن، والبيت ضيِّق، والمعيشة خشنة، والظروف صعبة، وأكلك غير مؤمَّن، وثيابك غير منظَّفة، فإذا أقبلت على أمر الله هذا إقبالاً غير معقول، تريد بيتاً مستقلاً وزوجة، وطبخاً، وهيئة حسنة، وراحة، فأنت مقبل على هذا الأمر، فائدته لك واضحة جداً، وأنت بأمس الحاجة إلى هذا الشيء، ولذا يضعف عنصر العبودية في تطبيق هذا الأمر، لكن حكمة الأمر تختفي كلياً:

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (102))

(سورة الصافات: آية " 102 ")

هو لا يذبح مجرماً !! بل نبياً:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ (102))

(سورة الصافات: 102)

ابنه:

(قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102))

(سورة الصافات: 102)

هذا الأمر غير واضح على الإطلاق، صعب فهمه، تذبح ابنك النبي، فكلما اختفت حكمة الأمر ارتفع فيه عنصر العبودية لله عزَّ وجل، فلو قال أب لابنه: يا بني نظف أسنانك، أسنانك ثمينة جداً، لو أهملت تنظيفها تحدث معك متاعب لا تنتهي، قلع الأسنان، وتركيب أسنان صناعية، شيء صعب جداً، فالابن قال له: يا أبتِ كلامك طيب، وأنا سأفعل هذا، الحكمة واضحة، أما إذا وضع الأب طعاماً، والطعام نفيس، وابنه مستقيم، ومطيع له، وبار، قال له: يا بني لا تأكل، لِمَ يا أبتِ ؟ قال له: هكذا بلا سبب، الأمر غير واضح، فإذا قال الابن: سمعاً وطاعةً يا أبتِ، هنا نفذ الأمر عبوديةً، نفَّذه طاعةً لأبيه من دون أن يفهمه.

كل الكون يشهد بعظمة الله عزَّ وجل ولذا لا يُسأل عما يفعل:

الله عزَّ وجل يمتحننا، يعطينا أوامر واضحة جداً، وهناك أوامر غير واضحة، تجد شاباً مستقيماً دخله قليل، وله صديق متفلّت، غارق بالملذات، معه أموال لا تأكلها النيران، هل تثق بحكمة الله ؟ يأتي مرض وأنت في أعلى درجات القرب من الله، هذه امتحانات العبودية لله عزَّ وجل، ماذا تقول وأنت مستقيم، وأنت مطيع، وهناك شيء أزعجك ؟! من هنا قال الإمام علي كرم الله وجهه: " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين "، فالنقطة الدقيقة:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (34))

مادام الله أمر، انتهى الأمر، علة أي أمرٍ أنه أمر.

يحدث أحياناً أن إنساناً تغلق أمامه كل الطرق المشروعة، يفتح له باب واسع، لكن فيه شبهة، الكسب غير مشروع، هذا امتحان صعب، فحينما تقول: أنا لا أعص الله وليكن ما يكن، امتحنك الله ونجحت، يخضعك الآن لقانون العناية الإلهية المباشرة، فيكسبك شيئين ؛ يكسبك أجر العابدين، ثم يكشف لك عن الحكمة فتكون من العلماء، تجمع بين العبودية والعلم، إذا كشف لك حكمة الأمر قبل أن تفعله ضعف فيه عنصر العبودية لله، أما إذا أقبلت عليه دون أن تفهم حكمته طاعةً لله عزَّ وجل، فلما أقبلت عليه ونفذته، كافأك الله فكشف حكمة هذا الأمر، إذا كشف لك الحكمة بعد التنفيذ جمعت بين الشيئين ؛ بين العبودية لله، وبين علم العلماء، صرت عابداً عالماً بآن واحد، لكن ضعوا في أذهانكم هذه الحقيقة، علة أي أمرٍ أنه أمر، قال له: كان يكفيك يا أستاذ أن تقول لي إن الله حرمه.

لكن من هو الآمر ؟ أنت حينما ترى الكون، حينما ترى المجرَّات، حينما ترى الأرض، حينما ترى البحار، حينما ترى النبات، حينما ترى الأسماك، حينما ترى الأطيار، حينما ترى الخلية بالمجهر، حينما ترى الذرة، حينما ترى المجرة، حينما ترى العلم المطلق، والحكمة المطلقة، والرحمة المطلقة، والعدل المطلق، بعد أن يطوف فكرك في الكون وتعود من هذا الطواف معظماً لله عزَّ

وجل عندئذٍ تعظم قيمة أمر الله عندك، يكفي أن يقول الله لك: افعل فتفعل، يكفي أن يقول لك: لا تفعل فلا تفعل، كل الكون يشهد بعظمة الله عزَّ وجل ولذا لا يُسأل عما يفعل، أمرك أن تفعل تنفذ أمر الله، قال لك بالحج: قبِّل هذا الحجر، هو يميني في الأرض، سمعاً وطاعةً، تقبله وتبكي، قال لك: ارجم هذا الحجر هو إبليس ترجمه، وأنت مطيع لله عزَّ وجل، فأنت عبد، العبد عبدٌ والرب رب.

لا يوجد بين المخلوقات كلها إلا نوعان مخيَّران الإنس والجن+:

قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا (34))

ليس متاحاً للملائكة أن يعصوا، الملائكة غير مكلفين، المَلَك غير مكلف، المَلَك مسيَّر، اسجد يسجد، لا يوجد بين المخلوقات كلها إلا نوعان مخيَّران+ ؛ الإنس والجن، الإنس يتلقَّى الأمر، يطيع، أو يعصي، أو يرد، ثلاثة مواقف، إذا أطاع فهو طائع، إن لم يطع فهو عاصٍ، إن احتقر الأمر ورده فهو كافر، مطيع، عاصٍ، كافر، قال لك: صلِّ، الذي صلى مطيع، والذي لم يصلِّ تهاوناً وتكاسلاً ـ الله يتوب علينا، والله أنا مقصر، إن شاء الله سوف أصلي ـ هذا عاصٍ، أما لماذا الصلاة ؟ فهذا كافر، فرقٌ بين أن تطيع الله، وبين أن تعصيه، و بين أن ترد أمره، هذا متاحٌ فقط للإنس والجن، أن تطيع أو أن تعصي ـ لا سمح الله ـ أو أن تكفر، هذا متاحٌ للإنس والجن فقط بينما الملائكة وبقية المخلوقات:

(ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11))

(سورة فصلت)

بقية المخلوقات مسيَّرة ليس لها خيار إطلاقاً في عدم الطاعة.

إبليس لم يعص فقط بل جمع المعصية مع الكفر:

قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ (34))

ما الذي مَكَّنه أن لا يسجد ؟ لأنه مخير، لأنه من الجن قال تعالى:

(كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (50))

(سورة الكهف: آية " 50 ")

مكنه أن لا يطيع أنه كان من الجن، إبليس لم يعص فقط، بل جمع مع المعصية الكفر، قال:

(قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61))

(سورة الإسراء)

وقال:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ (76))

(سورة ص: آية " 76 ")

أضاف إبليس إلى المعصية الكفر.

(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ (34))

قد يقول قائل: الملائكة سجدوا، وإبليس مستثنى منهم، هل المعنى أنه مَلَك ؟ لا الاستثناء نوعان ؛ هناك استثناء متصل، واستثناء منقطع، إذا قلنا: دَخَلَ الطلاب إلا خالداً، هذا استثناء متصل، خالد طالب، أما إذا قلنا: دخل الطلاب إلا المدرس، هذا استثناء منقطع المدرس ليس من جنس الطُلاَّب، لكن دخول الصف يشمل الجميع، الطلاب والمدرس، فهذا الاستثناء لا يعني أن إبليس مَلَك، لا أبداً ! إبليس كان من الجن، ولو كان مَلَكاً لما عصى أبداً، لما عصى، لأنه مسيّر لا يستطيع أن يعصي.

(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ (34))

الاستكبار في الطاعة من أكبر المعاصي :

هناك ألف معصية سببها الغَلَبَة، يُغلب الإنسان، وفي معصية سببها الكبر، معصية الكبر عند الله كبيرةٌ جداً:

(وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (172))

(سورة النساء)

الاستكبار في الطاعة مشكلة، لذلك ما الكبر ؟ قال:

((الكبر بطر الحق وغمط الناس.))

[مسلم عن عبد الله بن مسعود]

الكبر أن ترفض الحق، ألا تقبله، ألا تعبأ بالصلاة، ألا تعبأ بالزكاة، ألا تعبأ بالحج، أن ترى نفسك فوق الشرع، مرة كان عندنا أستاذ في الجامعة متمكن من العلم تمكُّناً كبيراً جداً، لا يغيب ولا طالب عن محاضرة له، رأيته مرة في رمضان يفطر، وكأنه يشعر أن مرتبته، وعلمه، ومكانته، وسمعته في الشرق الأوسط، ومؤلَّفاته، أكبر من أن يصوم رمضان، معصية الاستكبار كبيرة جداً، إبليس استكبر.

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ (76))

(سورة ص: آية " 76 ")

لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل:

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

للإنسان حالتان ؛ حالة الافتقار وحالة الاعتداد :

أنت عبد وكلما ازددت تواضعاً لله زادك الله عزاً، كلما مرغت وجهك في أعتاب الله زادك الله رفعةً، كلما عزوت الأمر إلى الله زادك الله قوةً، كلما عزوت علمك إلى الله زادك الله علماً، كلما افتقرت إلى الله زادك الله غنىً، لذلك عندنا حالتان ؛ حالة الافتقار، وحالة الاعتداد، الافتقار أن تقول: الله، الاعتداد أن تقول: أنا، هناك تولّي مع الافتقار، هناك تخلّي مع الاعتداد، مع كل مؤمن، تقول: أنا خبرات متراكمة، أنا معي أعلى شهادة، أنا متكلّم، أنا مُتَعَمِّق، حينما تعزو ما عندك إلى ذاتك هذا كلام فيه جهل، يؤدبك الله عزَّ وجل بأن يتخلى عنك.

خطبة رائعة جداً، نزل لكي يصلي فقال: الله أكبر، وبدأ بالآية رأساً، ونسي الفاتحة كلّها، صار عنده إعجاب، دائماً تواضع لله، دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة مطأطئ الرأس، حتى كادت ذُؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزَّ وجل، إن أتيت الله من باب الانكسار رفعك، ببدر:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123))

(سورة آل عمران)

في حنين:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

ذنوب الغَلَبة يسهل التوبة منها أما ذنوب الكبر فيصعب التوبة منها:

اعتقد اعتقاداً جازماً أن عندك يومياً عشرات الدروس من بدر وحنين، في كل قضية تعزو هذا الفضل إليك هذه حنين ـ تخلي ـ تعزو هذا الفضل إلى الله هذه بدر ـ تولي ـ أنت بين التخلي والتولي، وإذا كان أصحاب النبي وهم على ما هم عليه من رفعة الشأن، تخلى الله عنهم في حنين ـ مؤقتاً طبعاً ـ تأديباً لهم، فمن نحن ؟ إذاً:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34))

ذنوب الغَلَبة يسهل التوبة منها، أما ذنوب الكبر يصعب التوبة منها، المعاصي بسبب الكبر يصعب التوبة منها، المعاصي بسبب الغَلَبَة والضعف يسهل التوبة منها، انتهت العملية، العملية أنه صار هناك اعتراض من الملائكة، فربنا عزَّ وجل بين لهم أن الله يعلم، والملائكة لا يعلمون:

(أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ (33))

بيَّن للملائكة أن علم آدم بسبب صدقه، بسبب رفعة قدره، والملائكة لا يعلمون، إذاً: اسجدوا لآدم، اخضعوا له، هو سيد المخلوقات وانتهى الأمر.

الآن: هذا علم نظري، أي أن آدم يقع في الدرجة الأولى، مخلوق أودعت فيه الشهوات، منح الاختيار، سُخِّرَ له الكون، الآن آدم وذريته بحاجة إلى تطبيق عملي، لأن آدم لم يتلقَ تربية من والديه، آدم أبو البشرية.

أدلة من القرآن الكريم تُظهر أن (الجنة) في الآية التالية ليست جنة الآخرة:

هناك الآن تجربة عملية:

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (35))

الأرجح، والأقوى، والأكثر رجحاً أن هذه الجنة ليست جنة الآخرة، لأن جنة الآخرة:

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48))

(سورة الحجر)

في آياتٍ كثيرة سَمَّى الله البساتين جنة:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (17))

(سورة القلم: آية " 17 ")

وقال:

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ (35))

(سورة الكهف: آية " 35 ")

آيات ثلاثة في القرآن وصفت جنات الأرض بالجنة، فالله هَيَّأ له مكاناً فيه كل حاجاته، فيه كل متطلباته.

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ (35))

قال الله عزَّ وجل: اسكن، وهذا فعل أمر، لم يقل: اسكني، علماً أن المقصود أنت وزوجك وذلك حسب التغليب لأن كل أمر موجهٌ إلى الذكور هو حكماً موجهٌ إلى الإناث.

آدم مخلوق في الأصل للأرض وهذا درس عملي:

قال تعالى:

(اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (35))

هذه جنةٌ في الأرض جُعلت لآدم عليه السلام ولزوجته، ليكون الدرس العملي فيها، قد يقول قائل: لولا أن آدم أكل من هذه التفاحة لما خرجنا من الجنة، كلا، والدليل قوله تعالى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

(سورة البقرة: آية " 30 ")

آدم مخلوق في الأصل للأرض هذا درس عملي، تَعْرِض على الإنسان أحياناً قضية نظرية يقبلها، فإذا جاء التطبيق العملي لم يتحملها، ولذا يجب أن يحاول الإنسان أن يجرب كل شيء قبل أن يوافق

عليه، قد تفتقر الموافقة النظرية إلى الخبرة العملية، فأروع شيء أن هناك موافقة نظرية وهناك خبرة عملية، الآن درس عملي من الله عزَّ وجل:

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (35))

كل حاجاته فيها ؛ الطعام، والشراب، والمأوى، كل شيء يتمنَّاه أمامه، هناك إشارات، هو الآن في الجنة في طور التكليف، ما هو التكليف ؟ قال:

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا (35))

مسموح أن يأكل مليار نوع.

من لوازم التكليف الأمر والنهي:

قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ (35))

لا يوجد تكليف من دون نهي، لم يعد تكليفاً، أي قرار لا يوجد فيه منع لم يعد هذا قراراً، قانون السير: ممنوع أن تقف في المكان الفلاني، ممنوع أن تقود مركبة من دون شهادة، لولا المنع لما كان تكليف، ولما كان هناك أمر، ولم يعد للأمر أي معنى، فمن لوازم التكليف الأمر والنهي، لكن من رحمة الله:

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا (35))

عُدَّ لي كم شراباً يمكنك شربه ؟ يمكن أن يبلغوا ألفاً، كم فاكهة تستطيع أن تأكلها؟ كم طعاماً مسموح لك أن تأكل ؟ الخمر والخنزير محرمان فقط، المباح والحلال يفوق المنهي عنه بآلاف، بل بمئات ألوف المرات:

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ (35))

من لوازم العبودية لله، من لوازم التكليف، من لوازم حَمْل الأمانة أن يكون هناك أمرٌ، وهناك نهيٌ، ولكن رحمة الله تقتضي أن الأشياء المباحة لا تعدُّ ولا تُحصى، وأن يكون الشيء المحرم قليلاً جداً.

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35))

من لوازم العبودية وجود أمر ونهي لديك، وأنت مخير، قال:

(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا (36))

الشيطان كذب طبعاً على آدم، قال له:

(هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى(120))

(سورة طه)

علّم الله عزَّ وجل آدم وذريته من بعده درساً لا ينسى.

بعض مهام الشيطان:

قال تعالى:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً (6))

(سورة فاطر: آية " 6 ")

هو يكذب، يخوِّف أولياءَه، يوقع بين المرء وزوجته، يعدكم الفقر، فالشيطان يخوفك بهذا الدين، إياك إيَّاك، ستنتهي إذا عملت هذا العمل، يخوفك، إيَّاك أن تنفق مالك وإلا ستصبح شحاذاً، أمسك يدك، يمنعك أن تنفق، يمنعك أن تحضر مجلس علم، يمنعك أن تلتزم في جامع، يمنعك أن تظهر بمظهر ديني، ويفرِّق بين المرء وأهله، هذه مهمته:

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا (36))

هو درس عملي، الشيطان لم يفعل شيئاً لم يرده الله، لكن ربنا عزَّ وجل علَّم آدم من بعده درساً لا ينسى.

تحليل بسيط للآية التالية :

قال تعالى:

(فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ (36))

هناك تحليل بسيط يبدو أن جنة آدم كانت مريحة جداً، له فيها ما يشاء، فلما أكل من هذه الشجرة انعكست الآية، كانت نفسه محيطة بجسمه، فالنفس طليقة، إذا نظر الشخص إلى شجرة تفَّاح يمكن أن يأكل مليون تفاحة، إذا كانت قضية اتصال فهو يأكل هذه التفاحات ويستمتع بطعمها الطيب دون أن تدخل جوفه، أما إذا كان دخول للجوف فتكفيك واحدة، لا تستطيع أن تكمل، الآن هناك أغنياء معهم ألوف الملايين، إذا أراد أحدهم أن يأكل هل يستطيع أن يأكل جملاً وحده ؟ مهما كان غنياً لا يستطيع أن يأكل أكثر من أوقية لحمة، أو أوقيتين، لأنها ستدخل للبطن، أما إذا كانت قضية نظر فكلما ألقى نظرة على تفاحة أخذ كل طعمها، وأساساً كيف يكون الإحساس بطعم الفاكهة ؟ يلامس اللسان سقف الحلق في أثناء البلع، يدفع هذا الطعام، أعصاب الحس، إذا أكل الواحد أفخر طعام والثاني أكل أخشن طعام فالأمر سواء بعد دخول الطعام إلى الجوف، الفرق في الطعام أثناء البلع والاتصال فقط، فإذا سمح الله عزَّ وجل لنا بالجنة أن نتصل بكل شيء، ونأخذ كل ما فيه من لذة دون أن يدخل جوفنا، لم يعد هناك أمراض ولا تعب، لم يعد هناك كبر بالسن، يوجد هناك استمتاع فقط، فيبدو أن جنة آدم كانت من هذا القبيل فلما أكل التفاحة انعكست هذه الآية، صار هناك جهاز

هضم، صار هناك تُخمة، وصار جهاز طرح للفضلات، صار هناك تعب ونوم، صار هناك سعي وعمل وكدح:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (6))

(سورة الانشقاق)

بداية فعل الشيطان بعد أن يلتزم الإنسان مع الله:

أيها الأخوة، هناك فكرة تأتي إتماماً للفائدة، قال الشيطان في آياتٍ أخرى:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

(سورة الأعراف)

ما دام المرء بالمعاصي والآثام ترك الصلاة، ما دام ماله حراماً، ما دام يرتاد الملاهي، تجده مرتاحاً ولا يوجد عنده مشكلة، عندما يلتزم بجامع يقول له الشيطان أول شيء: من خلق الله ؟ أو: قد يكون هذا القرآن ليس من عند الله، بل هو كلام محمد ؟ متى بدأ الشيطان يوسوس لهذا الإنسان ؟ بعد أن التزم، وطريق الفجور لا يوجد فيه شيطان، الطريق سالك ونازل، وبعد أن التزم المرء قعد الشيطان على طريق الصلاح:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

(سورة الأعراف)

شيء طبيعي جداً إذا تاب الإنسان إلى الله واصطلح معه، شيء طبيعي جداً أن تأتيه الوساوس من الشيطان، لأنه حسب الآية متى يبدأ الشيطان فعله ؟ بعد أن يلتزم هذا الإنسان مع الله.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ (17))

(سورة الأعراف)

ألا يوجد عندك صحن فضائي ؟ هذه حضارة ورُقي، يعيش مع العالم كله.

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ (17))

(سورة الأعراف)

تقدم، علم، أجهزة، المرأة نصف المجتمع، أحضر للعمل في مؤسستك الموظفات، أكثر راحة، وأمتع، ومعاشهن أقل، تقدُّم، جِدّة، حداثة.

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ (17))

(سورة الأعراف)

هذه تقاليد يا أخي، وعادات، وتراث، إذا كان الضلال يأتي من الماضي يحضر لك الماضي، يتجاوزون الإسلام إلى الجاهلية، فنعتز بالماضي المنحرف، أو نبحث عما في المستقبل من ضلالات. أما إذا كان المؤمن واعي.

سلوك الشيطان مع المؤمن:

أما إذا كان المؤمن واعي:

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ (17))

(سورة الأعراف)

لم تضبط صلاتك، تحوي الفاتحة أربع عشرة شدة، تركت منهم واحدة، الصلاة كلها باطلة، مثلاً، يدخله في الوسوسة، لا تتعب نفسك لأن الله كتب عليك من الأزل أنك شقي، يأتيه من القضاء والقدر، يأتيه من العقيدة، يأتيه من النبوة، يأتيه من الوسوسة، إذا كان صادقاً لم تصح، لماذا تصلي ؟ هذه ليست صلاة، معنى ذلك أنك لا تصلي، أتى وقت الدرس، فيقول له: أنت معكَّر، الدرس لشخص صافٍ، ليس لك، ابق جالساً في البيت.

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ (17))

(سورة الأعراف)

يهيئ له المعصية، والزنا، والخمر.

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

(سورة الأعراف)

تكون ساكناً في بيت وعندك طعامك وشرابك وكل شيء يقول لك سوق مسموم، لا يوجد شغل، الحياة متعذرة في هذا البلد، أنت ماذا ينقصك ؟ ما هذا الذي ينقصك قل لي ؟ دائماً يشكي، الشكوى والتذمُّر، ينسى كل الإيجابيات، ويبحث عن السلبيات، يكبرها، فهذا هو سلوك الشيطان.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

الله عزَّ وجل بدأ حياة سيدنا آدم بتجربة عملية غير التجربة النظرية :

عندما يلتزم الإنسان يأتي الشيطان ! فالأهل في بعض الأيام يأتي ابنهم الساعة الثانية ليلاً، له خمسون صديقة، مكالمات إلى البيت، ممتاز، عندما تاب والتزم بمسجد أكثروا له التأنيب والتوبيخ ! مرة قال لي أحد الشباب: كنت أحضر معي إلى البيت نساء فلا يتكلم والدي ووالدتي معي شيئاً، بعد أن تبت والتزمت بمسجد اختلف الأمر !! صرت محاسباً على الحركة وعلى السكنة، هل يعقل هذا ؟!! هذا سلوك شيطاني، عندما كان غير منضبط كنت أنت ساكتاً عنه، بعد أن التزم صرت تدقق عليه، ألا تريد أن ترحمه بواحدة ؟ إذا لم تعمل هكذا لا أعطيك ؟ إذا لم تفعل هذا العمل لن أزوجك، إذا لم تفعل هذا لن أسكنك بيتي، إذا لم تكشف زوجتك لكل أخواتك فلن أسمح لك، لماذا تفعل هذا ؟ كنت راضياً عنه عندما كان متفلتاً وعندمّا التزم لم تعد راضياً عنه ؟ هذا سلوك شيطاني.

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

هذا فعل الشيطان والله عزَّ وجل بدأ حياة سيدنا آدم بتجربة عملية غير النظرية، طبعاً مع الملائكة نظرية، أما مع إبليس عملية:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6))

(سورة فاطر)

مهمة الشيطان الأولى أنه يكرهك بزوجتك، ويكرهها بزوجها، المهمة الثانية يخوفك من الفقر، لا تنفق، الثالثة يخوفك من أي جهة قوية، إياك أن تصلي، إياك أن تدخل الجامع، كله كلام الشيطان، من فضل الله علينا المساجد عامرة بهذه البلدة، والأمور مستقرة والحمد لله فلا توجد مشكلة أبداً، كله مرخص، فهذا الشيطان يخوِّفك زيادة، يخوفك، ويعدك بالفقر، ويأمرك بالفحشاء، ويفرق بينك وبين أهلك هذه مهمته، بعد ذلك يكفرك:

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

هذا الدرس متعلّق بتجربة آدم مع الشيطان:

هذا الدرس أيها الأخوة، درس متعلّق بتجربة آدم مع الشيطان، قال تعالى عن سيدنا آدم:

(فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (115))

(سورة طه)

على المعصية:

(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ (36))

(سورة البقرة)

أي لا بد أن يخرجا:

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36))

هذه كلمة

(إلى حين)

إذا فهمها الإنسان ترتعد مفاصِلُه،

(إلى حين)

عدة سنوات، اعمل ما شئت لا بد من الموت، إذا شيَّع الواحد جنازة، ووقف على القبر، وضع هذا الميت في القبر، هذه الحادثة الرهيبة كلنا سوف نصل إليها، كلنا، مهما كان حجمك المالي، مهما كان بيتك فخماً، مهما كان لك هيمنة على الناس، مهما كان لك أذواق رفيعة جداً في الاستمتاع، مهما كنت أنيقاً عندك أذواق عالية، مهما كان رصيدك كبيراً، هذه اللحظة لا بد منها، لذلك العاقل هو الذي يعد لهذه اللحظة التي لا بد منها عدتها، اعملوا ما شئتم:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[رواه أبو داود الطيالسي عن جابر]

هذه الساعة من يضحك أخيراً يضحك كثيراً.

البطولة من يضحك في الآخرة هذا ملخص الملخص:

قال تعالى:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

(سورة المؤمنون)

إذاً ضحكوا أولاً وليس آخراً، في آية ثانية:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

من الذي ضحك أخيراً ؟ المؤمنون، ما داموا ضحكوا أخيراً فقد ضحكوا كثيراً إلى الأبد، والذي ضحك أولاً بكى كثيراً، والإنسان يولد كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، فإذا جاء الأجل كل من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً يضحك وحده، هذا ملخص الملخص.

الدنيا سعي و عمل و الآخرة أخذ و جزاء:

قال تعالى:

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا (36))

اهبطوا من هذه الحالة العالية، إذا كان الشخص مرتاحاً لا يوجد عنده ولا مشكلة اطلب تعطى:

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (31))

(سورة النحل: آية " 31 ")

هكذا الجنة، نزل إلى مستوى متعب، هناك كدح وسعي، الآن الواحد منا إذا أراد أن يعمل صحناً من السلطة يحتاج ساعة، يقول لك: بعد ثلاثين سنة سكنت في بيت مساحته مئة متر تحت الأرض في القبو، ما هذه الحياة ؟ تعمل عملاً يهد الجبال، لتشتري بيتاً صغيراً، إلى أن يتزوج ويكون له زوجة يقول لك: أصبح عمري أربعين سنة ولم أتمكن من الزواج بعد، هكذا الحياة، الحياة مبنية على الكدح.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ (6))

(سورة الانشقاق: آية " 6 ")

الجنة ليست هكذا لأنها على الطلب، اطلب تُعط، تقول: أعطوني وأنت ماكث ؟ كله جاهز.

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (31))

(سورة النحل: آية " 31 ")

في الدنيا سعي، في الدنيا عمل، وفي الآخرة أخذٌ.

الجنة بالعمل فاعملوا واشتغلوا:

قال تعالى:

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا (36))

انتهت الآن الحالة المريحة، انتهى الدرس، اهبطوا، مثل تقريبي: عندك طلاب أريتهم مزرعة جميلة، تجعلهم يسبحون، تطعمهم أكلاً لذيذاً، تجدهم يحبونها، الآن الذهاب إلى المزرعة للعمل والاجتهاد، أول مرة يهمك أن تجعلهم يطمعون، تريهم ما هي الجنة، فهذه يسمونها تربية عالية جداً، هذه الجنة، وأنتم مخلوقون لهذه الجنة، الآن اهبطوا منها، الآن الجنة بالعمل فاعملوا واشتغلوا، أعطاك نموذجاً عالياً جداً.

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا (35))

الآن:

(اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً (38))

الآن اشتغلوا.

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36))

الإنسان بضعة أيام وكلما انقضى يوم انقضى بضع منه:

إنها عدة أيام، كل إنسان له أيام معدودة، كل مجتمع له عشرة أيام، انتهت العشرة أيام، تجد أحياناً رفاهاً مذهلاً بعد ذلك تجد الأسعار غالية وانتهى الرفاه، أصبح هناك تعب شديد، فلك في الدنيا مستقر ومتاعٌ إلى حين، فقر، فقر إلى حين، امشِ في الطريق تجد خمسين نعوة تقريباً، يجب أن تعلم علم اليقين أن هناك يوماً سوف يقرأ الناس نعيَك، وأنا معكم، وكل واحد منا، لن تجد بعد مئة سنة ولا واحداً بالمسجد إما بمقابر الجبل وإما بمقابر الباب الصغير.

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36))

هذه جملة:

(إِلَى حِينٍ (36))

تخوف الإنسان، أي أنك بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، هذا الإنسان، ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد، فتزوَّد مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (20- 95):تفسير الآيات 37-39 ،آدم بين الجنة والدنيا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-11-12

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى أراد من الذي حصل لآدم أن يكون درساً بليغاً له ولذرِّيَتِه من بعده :

مع الآية السابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37))

أيها الأخوة، فرقٌ كبير بين معصية إبليس وبين معصية آدم، معصية إبليس ردٌ لأمر الله، معصية إبليس استكبارٌ عن طاعة الله، معصية إبليس تنطلق من الكِبر، وهذه في سُلَّمِ المعاصي تقع في أعلى درجة، فأشد المعاصي إثماً وعقاباً وبعداً أن يَسْتَنْكِفَ الإنسان أن يطيع الله كبراً، أما الذي يعصيه غَلَبَةً فهذا توبته سريعة، إلا أن العلماء يقولون: إن الأنبياء معصومون، ومعصية آدم ليست معصية بالمعنى الدقيق، لأن الله سبحانه وتعالى أراد من الذي حصل لآدم أن يكون درساً بليغاً له ولذرِّيَتِه من بعده، وآدم حينما أكل من الشجرة أغراه إبليس فقال:

(هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ (120))

(سورة طه: الآية " 120 ")

أي أن تبقى في الجنة إلى أبد الآبدين ؟ ولم يكن سيدنا آدم يعرف الكذب لأنه أول إنسان، ولذا ظن ما قيل له صدقاً، يؤكِّد هذا المعنى قول الله عزَّ وجل:

(فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (115))

(سورة طه)

عزماً على المعصية:

((تجاوز الله عن أمَّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.))

[ابن حبان والحاكم عن ابن عباس]

الأنبياء معصومون ولم يكن هناك تكليفٌ من قبل، هذا في الجنة، ليس في الجنة تكليف، هناك أمر إرشادي ونهي إرشادي.

أكبر مشكلة تتأتَّى للإنسان في الدنيا من الشيطان:

لم يكن الكذب معروفاً، وقد فسَّر بعضهم آية معصية آدم: كما لو أن أماً كلما دخلت إلى البيت هَرَعَ إليها ابنها من شدة شوقه إليها فنهته كثيراً عن أن يركض حينما تلقاه، خالف أمرها وأسرع

لاستقبالها من شدة محبته لها، هناك إذاً تفسيراتٌ كثيرة تبين أن هذه المعصية ليست معصيةً بالمعنى الدقيق، فالأنبياء معصومون عن أن يعصوا الله عزَّ وجل، ولكن جعل الله هذه القصة وهذا الحدث لسيدنا آدم في الجنة درساً بليغاً له ولذريته من بعده، أي:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً (6))

(سورة فاطر: الآية " 6 ")

أكبر مشكلة تتأتَّى للإنسان في الدنيا من الشيطان، لأن الشيطان كما قلت في درسٍ سابق قال:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

(سورة الأعراف)

لا تجد عند الإنسان قبل أن يصطلح مع الله أي خاطر سَيِّء، هو غارق في المعاصي، ولا يوجد عنده أي مشكلة، حينما يصطلح مع الله ويعزم على السير في طريق الإيمان تبدأ الخواطر، تبدأ الوساوس، تبدأ الأسئلة المُحَيِّرة، ما تفسير ذلك ؟ تفسير ذلك أن الشيطان يَقْعُدُ للإنسان سبيله المستقيم:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

(سورة الأعراف)

يزين الشيطان كل شيء جديد يتناقض مع الدين:

قال:

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ (17))

كل ما يقال عن العصر، وعن العلمانية، وعن التقدُّم، وعن الحضارة، وعن حقوق الإنسان من هذا الباب، أي أن:

قتل امرئٍ في غابةٍ جريمةٍ لا تغتفر

وقتل شعبٍ آمنٍ مسألة فيها نظر

***

تُرفع كلمات برَّاقة، شِعارات برَّاقة، دعوة إلى الاختلاط، دعوة إلى إزالة الفروق بين الجنسين، والدعوات الآن بالمؤتمرات التي تعقد للسكان، دعوة إلى اعتماد ثلاث هياكل أسرية، رجل وامرأة، ورجلٌ ورجل، وامرأةٌ وامرأة:

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ (17))

يزين الشيطان كل شيء جديد يتناقض مع الدين، يزين سفور المرأة، يزين الاختلاط، يزين أن تنهمك المرأة في عمل الرجال، يزين كل معصيةٍ نهى عنها الشرع، استثمار الأموال بالبنوك:

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ (17))

إقامة الملاهي، إقامة دور القمار، هذا الذي يجري في العالم، أنواع الفساد في كسب المال، وفي المُتَع الرخيصة.

غرق الناس في خلافاتٍ في الدين ما عرفها الصحابة ولا طرحوها ولا فكَّروا فيها:

قال تعالى:

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ (17))

يزين كل التقاليد والعادات الموروثة التي تتعارض مع الدين، هناك من يفتخر بعصر الجاهلية قبل الإسلام، يفتخر بما فعله العرب قبل أن يأتيهم الإسلام ويعدون ذلك مفخرةً، والله عزَّ وجل سمَّى حياتَهُم قبل الإسلام جاهلية، على كلٍ هناك من يزين، الشيطان يزين ما في الحداثة من معاصٍ، وما في التقاليد والعادات من معاصٍ.

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ (17))

قد يغرق الناس في خلافاتٍ في الدين، قد يغرقون في طرح مشكلاتٍ ما عرفها الصحابة ولا طرحوها ولا فكَّروا فيها، كانوا كما يقال اليوم: عمليين، أحبوا الله وأقبلوا عليه، وجعلوا همَّهم إرضاءه وخدمة عباده، وأقبلوا عليه، واستناروا بنوره، أما أن ينقسم الناس إلى فريقين حول ما إذا كان كلام الله قديماً أو مخلوقاً، هذا الشيء ما بحثه النبي، ولا ذكره في أحاديثه، ولا سأل عنه الصحابة الكرام، وهناك آلاف القضايا الجُزْئِيَّة التي تثار حول الإسلام، وينقسم الناس فريقين ويتناقشون، ويتراشقون التُهَم، ويقولون، ويُدْلون، وتفرَّغ القيم من مضمونها، ويستنفذون جهدهم في خلافاتٍ داخلية، ويَنْسَوْنَ المهمة الكبرى التي أنيطت بهم.

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (159))

(سورة الأنعام: الآية " 159 ")

مهمة الشيطان إضلال بني آدم:

الشيطان أساس كل قضية لا تخدم مجموع المؤمنين، الشيطان أساس كل قضية تفرِّقُنا، تجعلنا فريقين، توسِّع الهوة بين المسلمين، تجعلهم طوائف متعددة، يقتتلون على لا شيء، وهذا الذي يجري في بعض البلاد الإسلامية، استطاعوا أن ينتزعوا الاستقلال من أعلى دولة، ثم وقعوا بعدئذٍ في حروبٍ داخلية، كل طاقاتهم ضد بعضهم بعضاً، هذا من الشيطان، لأن التحريش بين المؤمنين والاقتتال بين المؤمنين دعوة شيطانية، فمهمة الشيطان إضلال بني آدم.

لكن قد يقول أحدكم: كيف سمح الله له أن يفعل ؟ لم يجعل الله عزَّ وجل للشيطان على الإنسان سلطاناً، سمح له أن يوسوس، وحينما يوسوس فقط فالذي يستجيب له يكون قد تطابق معه، تجد في الصف طالباً منحرفاً من يُفْسِد ؟ لا يفسد إلا من يرغب بالفساد، لأن معظم الطلاب يمتنعون عن أن

يستجيبوا له، من يستجيب له ؟ الراغب في الفساد، فالشيطان يوسوس والملك يُلْهم وأنت مخير، وليس لأحدٍ عليك من سلطان لا مَلَك ولا شيطان، على كلٍ هي عملية تحريك، الشيطان يحرِّك والملك يحرِّك، وهما متوازيان، وأنت مخير:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ (42))

(سورة الإسراء: الآية " 65 ")

وقال:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ (22))

(سورة إبراهيم: الآية " 22 ")

هذه حقيقة دقيقة جداً لا سلطان لأحدٍ عليك إنك مخير، ولكن الشيطان يوسوس، آدم عليه السلام هو أول الأنبياء:

((آدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر.))

[ابن مردويه عن أنس]

الشيطان هو الجهة الوحيدة التي يمكن أن تصرفك عن الهدف الذي خُلِقْتَ من أجله:

تلقى آدم درساً بليغاً جداً في الجنة، فالجنة شيء ممتع، مريح جداً، حكمة الله عزَّ وجل أنه بيَّن للإنسان لماذا خلقه ؟ خلقه للجنة، خلقه لهذه السعادة الأبدية، خلقه لهذا العطاء الذي لا ينتهي، خلقه لراحةٍ ما بعدها راحة، لسرورٍ ما بعده سرور، خلقه لينظر إلى وجه الله الكريم، خلقه ليقبل عليه، خلقه ليَنْعُمَ بقربه، ثم حذَّره: الذي يحول بينك يا آدم وبين هذه السعادة هو الشيطان، فهذا درسٌ لك ولذرِّيتك، فحكمة ما بعدها حكمة أن يبدأ الله خلق الإنسان بهذا الدرس البليغ، هناك جهة واحدة يمكن أن تصرفك عن الهدف الذي خُلِقْتَ من أجله ؛ إنه الشيطان، إنه عدوٌ مضلٌ مبين، إنه يسعى لشقِّ صفوف المؤمنين، يسعى للتفريق بين المرء وزوجه، فكل علاقة طيِّبة بين الزوجين هذه من الرحمن، والعلاقة السيِّئة من الشيطان، البغضاء من الشيطان، الكلام الذي يقوله الزوج أو تقوله الزوجة، والذي يُباعد بين الزوجين من وسوسة الشيطان، كل عملٍ سيِّء بوسوسةٍ من الشيطان، لذلك التفريق بين المؤمنين، بين الزوجين، التخويف من العمل الصالح:

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ (175))

(سورة آل عمران: الآية " 175 ")

وقال:

(يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ (268))

(سورة البقرة: الآية " 268 ")

الشيطان يأمرك بكل شيء يبعدك عن الله ويحذرك من كل شيء يقرِّبك من الله، مع أنه لا يملك شيئاً إلا أن يقول، وأقوى آية بهذا الموضوع قوله تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (22))

(سورة إبراهيم: الآية " 22 ")

نوايا الشيطان الخبيثة جداً توظَّف في صالح الإنسان لأنه لا يوجد عند الله عزَّ وجل شر مطلق :

لذلك أي إنسان يتذرَّع، يحتج بأن هذا من عمل الشيطان نقول له: أنت الملوم، لأن الشيطان ليس له عليك سلطان، هل يستطيع أحد أن يدَّعي أمام شرطي أو أمام مخفر شرطة أن فلاناً فعل به ما فعل ؟ يقال لك: دفعك إلى هذه الحفرة ؟ يقول له: لا، يقال لك: وضعك فيها بيده ؟ تقول له: لا، يقال لك: شهر عليك سلاحاً وقال: انزل فيها ؟ تقول له: لا، لماذا تشتكي عليه ؟ تقول: لأنه قال لي: انزل فنزلت، هذا كلام مضحك غير مقبول.

حتى لا يسترسل الإنسان ويعزو أخطاءه للشيطان ويستريح، الإنسان مسؤول ومحاسب، ولا يعفى من أية مسؤولية أن الشيطان يوسوس، الشيطان محرِّك، الشيطان كاشف، الشيطان مهمَّته الكشف، يكشف الضَعف، نحن أحياناً كثيرة بحاجة إلى كشف نقاط الضعف، هناك الآن أجهزة حديثة جداً تكشف ما في الحديد من ضعف، حتى لا يحدث خلل والطائرة في الجو صار هناك جهاز يكشف ضعف المعدن، فإذا كانت هناك نقطة ضعف يكشف قبل أن ينشطر المعدن، فالشيطان كاشف يكشف الإنسان، الإنسان لا يعرف نفسه لولا الشيطان، يتوهم نفسه مؤمناً، يكشف له الشيطان حقيقته تماماً، يُحَجِّمُهُ، يغريه فيستجيب فيقع، هذا أنت، هذا هو حجمك الحقيقي في الإيمان، هذه هي خشيتك، هذا هو ورعك، كل ما تقوله ادعاء، هذا هو الحق.

أقول لكم شيئاً آخر: نوايا الشيطان الخبيثة جداً توظَّف في صالح الإنسان، لأنه لا يوجد عند الله عزَّ وجل شر مطلق، عنده شر نسبي، الشر المطلق لا وجود له في الكون وهو يتناقض مع وجود الله، فلو كان هناك شر فإنه يوظف للخير، وأنا أعرف قصة ذكرتها لكم سابقاً، رغبت إنسانة متفلّتة أن تكون موظفة في مكان ما، طُلِب منها شهادة صحية، ذهبت إلى المستشفى، الموظَّف مقصر، مهمل، أعطى لأخيها تقريراً يخص غيرها، أنها مصابة بمرض السُل، حينما علمت بهذا المرض الخطير بكت أشد البكاء، تألَّمت أشد الألم، طبعاً قاطعها أهلها، ابتعدوا عنها، أعطوها أدوات خاصة لها، لم يأكلوا معها، تعقدت وبكت بكاءً مراً، ثم تابت إلى الله، وصلَّت واصطلحت معه، وكان أخوها في المستشفى بعد أسبوعين، فإذا بالنتيجة لم تكن لها بل لغيرها، وظّف الله هذا الخطأ الذي ارتكبه

الموظَّف وهذا الإهمال للخير المطلق، فهي حينما توهَّمَتْ أنها مريضة بهذا المرض تابت إلى الله عزَّ وجل، دائماً يوظّف الله عزَّ وجل الشر للخير المطلق.

الإنسان حينما تُكْشَفُ حقيقته هذه خطوة أولى نحو التوبة ونحو صلاح نفسه:

حتى الشيطان موظف أن يكشف للإنسان أبعاده، يكشف نقاط ضعفه، يكشفها ليتوب منها، لو كان هناك خطأ كامن في النفس ولم يظهر إلا عند الموت لاستحق صاحبه النار، أما إذا كان عنده ضعف جاء الشيطان كشف هذا الضعف، فهو في الظاهر أغواه، ولكنه في الحقيقة أخرج ما عنده من شر، وبعد ذلك جاء عقاب الله عزَّ وجل وانتهى بالتوبة، لذلك في النهاية عندما يتوب الإنسان من ذنبٍ ارتكبه بفعل وسوسة الشيطان، فما الذي يكون قد حصل ؟ الشيطان كشف وسارع من دون أن يشعر، من دون أن يريد بتقريب هذا الإنسان من الله عزَّ وجل، وإلا من سمح للشيطان أن يفعل فعله في الأرض ؟ الله جلَّ جلاله، والله عزَّ وجل كل فعله خير، حتى الذي يقوله الشيطان للإنسان موظفٌ للخير المطلق، إنها عملية كشف.

لو كان عندك مثلاً مجموعة أشخاص لا تعرف عنهم شيئاً، وأنت مضطر أن تُقَيِّمَهُم تقييماً جيداً، أو يجب أن تعلمهم بحقيقتهم، لا بد من طريقة كشف ؟ فالإنسان حينما تُكْشَفُ حقيقته، هذه خطوة أولى نحو التوبة، ونحو صلاح نفسه، هذا كلام يحتاج إلى دروس أطول، فالشيطان شرِّير هدفه إغواء الإنسان، هدفه حمله على المعصية، هدفه أن يبعده عن الله عزَّ وجل هذا الذي يريده الشيطان، ولكن الله يريد أن يتوب علينا، فأحياناً يزيِّن الشيطان للإنسان عمله ليخرج ما في نفسه من شهواتٍ مستحكمة، وبعدئذٍ يأتي عقاب الله عزَّ وجل ليطهر هذا الإنسان من كل شهوةٍ عَلَقَتْ به.

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ (37))

هناك ذنبٌ بينك وبين الله، وهناك ذنبٌ بينك وبين العباد، فالذنب الأول يغفر والثاني لا يترك، أما الذنب الذي لا يُغْفَر هو الشرك بالله عزَّ وجل، الشرك بالله ذنبٌ لا يغفر وما كان بينك وبين العباد ذنبٌ يغفر بشرط الأداء والمسامحة، وما كان بينك وبين الله يُغفر بطلب المغفرة، ذنبٌ يغفر، ذنبٌ لا يترك، ذنبٌ لا يغفر.

التوبة تكون من الذنب الكبير ومن الذنوب الكثيرة لأن الله توَّاب:

قال تعالى:

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37))

الله عزَّ وجل توَّاب، ومعنى توَّاب صيغة مبالغة، وصِيَغ المبالغة مع أسماء الله الحسنى تعني أنه يتوب على الإنسان من أكبر ذنبٍ اقترفه، ويتوب عليه من آلاف الذنوب، فهنا مبالغة كَماً ونوعاً، مهما كان الذنب في نظرك كبيراً يتوب الله عزَّ وجل عليك منه، أي ذنبٍ مهما بدا لك كبيراً:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ (53))

(سورة الزمر: الآية " 53 ")

وفي الحديث القدسي:

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[حديث قدسي]

وقال:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50))

(سورة الحجر)

التوبة تكون من الذنب الكبير ومن الذنوب الكثيرة لأن الله توَّاب.

ملخص الدين كله معرفة واستقامة وسعادة في الدنيا والآخرة:

بل إن الله عزَّ وجل:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (27))

(سورة النساء)

هذه إرادة الله عزَّ وجل، بل إن الله عزَّ وجل يحمل الإنسان على التوبة، قال الله تعالى:

(فَتَابَ عَلَيْكُمْ (187))

(سورة البقرة: الآية " 187")

أي قبل توبتهم، تابوا فتاب الله عليهم، أما:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (118))

(سورة التوبة: الآية " 118 ")

أي ساق لهم من الشدائد ما يحملهم بها على التوبة، علمنا الله عزَّ وجل من هذا الدرس أن الإنسان خلق للجنة، ولكن لهذه الجنة ثمنٌ، ثمنها طاعة الله في الدنيا، وطاعة الله عزَّ وجل لا تقع إلا إذا عرف الإنسان الله عزَّ وجل، وحينما يعرفه ويطيعه يسعده في الدنيا والآخرة هذا ملخص الدين كله، أي معرفةٌ واستقامةٌ وسعادة في الدنيا والآخرة.

في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة إنها القرب من الله عزَّ وجل:

ثم إن الله عزَّ وجل وقد خلقنا للجنة لا بد من نماذج، قال:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

(سورة محمد)

يذيقهم في الدنيا بعض القرب، في الدنيا جنةٌ من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها القرب من الله عزَّ وجل، حتى الأشياء الجليلة في الدنيا لها هدف تربوي، لأن كل كلمات الجنة لا معنى لها من دون مكان جميل في الدنيا، فلا بد من مرتكزات لهذه الكلمات، إذا قال الله عزَّ وجل:

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (8))

(سورة التحريم: الآية " 8")

لا بد من أمكنةٍ جميلةٍ، من غابات، من بساتين، من أنهار، من جبال خضراء، من سواحل جميلة، هذه مرتكزات لكلمات الجنة، من أجل أن تفهم على الله ماذا تعني الجنة، لذلك يذيق الله عزَّ وجل المؤمن نوعاً من أنواع القرب، هذا الذي قاله بعض العلماء: **" في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة "**، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

(سورة محمد)

الإنسان مخلوق للجنة:

الله عزَّ وجل عرفنا من خلال هذا الدرس أن الإنسان مخلوقٌ للجنة، وأن:

((في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.))

[مسلم عن أبي هريرة]

أن من في الجنة ما هم منها بمخرجين، وأن ثمن هذه الجنة طاعة الله في الدنيا، وأن العدو الأول الذي يحول بين الإنسان وبين الجنة هو إبليس، وأن إبليس مهمته أن يزين الدنيا للإنسان، يزين المعصية، يزين كسب المال الحرام، يزين الشهوة المحرمة، يزين كل شيء محرَّم، هذا من عمل الشيطان، وأن الله عزَّ وجل توَّابٌ رحيم، توابٌ شديد التوبة على عباده، توابٌ من أكبر ذنب، يتوب الله على المؤمن من أكبر ذنب، ويتوب عليه لعددٍ من الذنوب لا يعد ولا يحصى وما على الإنسان إلا أن يتوب، وإذا قال العبد: يا رب إني تبت إليك، قال: عبدي وأنا قد قبلت.

الكلمات التي تلقاها الله عزَّ وجل من آدم الاستغفار، أعلن آدم توبته، وقَبِل الله عزَّ وجل هذه التوبة، وهذه حقيقة أساسية، أضرب لكم مثلاً موضِّحاً: لو أن ابناً نال صفراً في الرياضيات، وكان أبوه يطمح أن يكون ابنه عالماً كبيراً، ويحمل أعلى الشهادات، فلما جاء بهذه العلامة المخزية غضب الأب غضباً شديداً وأزمع أن يؤدِّب ابنه تأديباً لا حدود له، لو رأى الأب ابنه قد اصفر لونه، وترك

الطعام والشراب، وركبه همٌّ لا يحتمل، وبحث عن طريقةٍ ليتلافى تقصيره، هذا السلوك من الابن ؛ الندم والاستغفار والبحث عن إصلاح الوضع هذا يؤخِّر عقاب الأب، وهذا شيء دقيق جداً.

الإنسان في مأمنين من عذاب الله حينما يستقيم على أمر الله وحينما يستغفر:

ما الذي يمنع عن الإنسان عقاب الله عزَّ وجل ؟ أن تكون مستقيماً على أمره، وما الذي يمنع عنك عقاب الله إذا خالفت الأمر ؟ أن تستغفر الله عزَّ وجل، فأنت بين بحبوحتين، بحبوحة الطاعة، وبحبوحة الاستغفار، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

هذه حقيقة مهمة جداً أيها الأخوة، أنت في مأمنين ؛ مأمنٍ من عذابِ الله حينما تستقيم على أمره، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (147))

(سورة النساء: الآية " 147 ")

وأنت في مأمنٍ آخر من عذاب الله، حينما تستغفر:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

(سورة نوح)

استغفره آدم:

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً (38))

الآن جاء الخروج من الجنة، تحوي الجنة فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، أما في الدنيا كل شيء محدود، هذا البيت، وهذه الزوجة، وهؤلاء الأولاد، وهذا الدخل.

نظام الجنة شيء ونظام الدنيا شيء آخر:

الجنة فيها نعيم مطلق، بينما سعادة الدنيا محدودة، الجنة مبنيةٌ على الإكرام:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35))

(سورة ق)

والدنيا مبنيةٌ على السعي والكَد:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39))

(سورة النجم)

كان بحالة مريحة جداً، كان يتلقى الإكرام فصار عليه أن يعمل وأن يكدح وأن يجتهد، اختلف النظام، نظام الجنة شيء ونظام الدنيا شيء آخر، نظام الجنة يأتي عقب استقامةٍ على أمر الله وعملٍ صالحٍ، بينما الجنة التي كان فيها آدم توضيحية، أن أيها المخلوق الأول أنت لهذا خلقت، خلقت للجنة، والذي يحول بينك وبينها هو إبليس، فتحصَّن منه وأطع ربك تصل إلى هذه الجنة مرة ثانية، هناك أسلوب تربوي، يجب أن تُعَرِّف الطفل بما ينتظره من جزاء حسن لو اجتهد، تذيقه بعضاً من هذا الجزاء، ثم تدعوه إلى السعي والكَد، فالإظهار الأولي هدفه تربوي، فربنا عزَّ وجل أراد من هذا الدرس أن يُطْلِعَ آدم على ما في الجنة من نعيمٍ مقيم، وأن الخطر الأول هو إبليس، وأن ثمن هذه الجنة هو العمل الصالح.

الفرق بين حالة آدم في الجنة وحالته في الدنيا :

قال تعالى:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً (38))

الهبوط نزول مستوى، كان الإنسان بحالة راقية صار بحالة متعبة، تجد الإنسان يصل إلى ثلاثين سنة حتى يتزوج، هذا يكون سبَّاقاً إلى الزواج، حتى يستقر إلى أن يجد له بيتاً، مأوى، زوجة، أولاداً، ثلاثين عاماً فما بعد، يحتاج إلى سنوات وسنوات حتى يستطيع أن يتحرك حركة معقولة، فهؤلاء الذين كسبوا المال حصَّلوه بجهدٍ جهيد، فلمَّا حصَّلوه ما بقي لهم كثير ولا قليل حتى يغادروا الدنيا، فالدنيا دار تعب، إن هذه الدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الدنيا دار التواء وليست بدار استواء، إنها منزل ترحٍ لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

صار هناك هبوط، يجب أن يسعى ويكد لتحصيل الطعام، بعد أن كان مبذولاً بأعداد لا تنتهي، بإمكانك أن تأكل مليون تفَّاحة، مليار، كلَّما توجَّهت أشعَّةٌ من نفسك إلى هذه التفَّاحة أخذت كل ما فيها من طعمٍ طيّب، دون أن تدخلها إلى جوفك فتتعبك، أما في الدنيا يوجد طريق ثاني، لا بد من أن تأكلها، فإذا أكلتها أصبحت عبئاً عليك، الذي يؤثر الطعام الطيّب يحتاج إلى جهود جبَّارة كي يُخَفِّض وزنه، فالدنيا متعبة، كل شيء يحتاج إلى سعي وإلى كد، فكسب المال صعب، إن كسبه حراماً سقط من عين الله، وإن أراد أن يكسبه حلالاً بذل جهداً كبيراً جداً، فهبط المستوى، كان للإكرام صار للعمل والسعي والكد، كان لهم ما يشاؤون صار ليس لهم إلا ما يفعلون، كان في إكرام صار في جهد، كان في مسامحة صار في محاسبة، أي أن الوضع في الدنيا اختلف اختلافاً كبيراً، لذلك

المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرَحِم إلى سعة الدنيا.

على كلٍ الحالة التي كان بها آدم حالة مريحة جداً ومثالية جداً، ليس فيها نصب، ولا تعب، ولا خوف، ولا قلق، ولا مرض، ولا هم، ولا حَزَن، ولا زوجة دون الوسط تزعج زوجها، لا يوجد قلق مخيف من مرض، من آلام، من أمراض وبيلة، عُضالة، لا يوجد فقر، ولا سجن، لا يوجد شيء مزعج إطلاقاً ؛ أما في الدنيا فهناك مسؤوليَّة، وهناك كسب للمال، وهناك جوع، والجوع وراء كل عمل الإنسان، إنه مفتقرٌ إلى الطعام كي يستمر وجوده، وتحصيل الطعام مفتقر إلى عملٍ يكسب به ثمن الطعام، لذلك الأنبياء قال الله عنهم:

(إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ (20))

(سورة الفرقان: الآية " 20 ")

أي أنهم مفتقرون مرَّتين ؛ مرَّةً إلى تناول الطعام لبقاء وجودهم، ومرَّةً إلى كسب المال لشراء الطعام، هذا معنى:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً (38))

الحياة متعبة وفيها ابتلاء وامتحان لكن المطيع لله عزَّ وجل في أمنٍ وراحة:

على كلٍ الإنسان حينما يأتيه هدىً من الله عزَّ وجل ويتَّبع هذا الهدى:

(فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

لا يحزنون أبداً، صحيح أن الحياة متعبة وفيها ابتلاء، وفيها امتحان، لكن المطيع لله عزَّ وجل في أمنٍ وراحة ؛ إن الله يعطي الصحَّة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنَّه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، صحيح أن الحياة متعبة، لكن طاعة الله مُسْعِدَة، الحياة شاقَّة، لكنها مع طاعة الله تبدو مريحة، الحياة مقلقة، ولكنها مع الالتجاء إلى الله تبدو آمنة، أي أن هناك وضعاً خطراً قائماً ومعك طريق النجاة منه، فالذي بحث عن طريق النجاة هو في أمنٍ وبحبوحة:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19))

هكذا خلقه الله:

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

المصلي المتصل نجا من الهَلَعْ ومن الجَزَعْ، نجا من شدَّة الجَزَع، ونجا من شدَّة الحِرْص لأنه اتصل بالله عزَّ وجل:

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

العبرة ليست في الشباب ولكن في الشيخوخة فالعبرة في خريف العمر :

لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفتنا جميعاً:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ (38))

في المستقبل:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

على الماضي، أحياناً إنسان لا يعرف الله، وليس له أمل في الجنَّة، عندما يجد نفسه قد تجاوز الستين، وتغيَّرت ملامح وجهه، وبدأت العلل تتسرَّب إلى جسمه، وصار على هامش الحياة الأسريَّة، أي أن أولاده انصرفوا إلى زوجاتهم، وبناته إلى أزواجهن، وزوجته منزعجة من وجوده، فهي تغادر البيت، وكل يوم في زيارات متعددة، فعندما يصل الرجل إلى هذا المستوى يشعر بالقلق وبالوحشة لأنه ما عرف الله في شبابه، من لم تكن له بدايةٌ محرقة لم تكن له نهايةٌ مشرقة:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

العبرة ليست في الشباب ولكن في الشيخوخة، العبرة في خريف العمر، هذه المرحلة من العمر متعلّقة بالشباب، أحد الصالحين هنا في الشام عَلَّم الطلاَّب ثمانين سنة، بدأ بالتعليم في الثمانية عشر وتوفي في الثمانية والتسعين وهو قائم على التعليم ؛ التعليم الديني، وكان يقول للطالب: يا بني أنت تلميذي، وكان أبوك تلميذي، وكان جدَّك تلميذي، أي أنه علَّم ثلاثة أجيال، وخرَّج آلافاً مؤلّفة من أعلام هذه البلدة، وكان في الثمانية والتسعين منتصب القامة، حاد البصر، مُرْهَف السمع، أسنانه في فمه، متَّعه الله بقوَّته، فكان إذا سُئل: يا سيدي ما هذه الصحَّة التي أكرمك الله بها ؟! يقول: " يا بني حفظناها في الصِغَرْ فحفظها الله علينا في الكِبَرْ، من عاش تقياً عاش قويَّاً "، لذلك خريف العمر متعلّق بالشباب، كيف تُمْضي الشباب يكون خريف العمر كذلك:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

مرَّة زرت والد صديق لي قال: أنا عمري ستة وتسعون عاماً، عملنا تحاليل من يومين فكانت التحاليل كلها طبيعية، قال لي: والله لم آكل قرشاً من الحرام في حياتي ولا أعرف الحرام، كلمتان، لم يأكل قرشاً حراماً ؛ شهوة المال، ولا يعرف الحرام ؛ شهوة النساء، بهذه العفَّة وبهذا الورع متَّعه الله بقوَّته إلى السادسة والتسعين من عمره، من عاش تقيّاً عاش قويَّاً.

الأمن من أهم حاجات الإنسان:

قال تعالى:

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

الحقيقة قضيَّة الأمن دقيقة جداً، الأمن أكبر حاجة للإنسان، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

أنت من خوف الفقر في فقر، أنت من خوف المرض في مرض، توقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها، بل إن نوعاً من أمراض القلب سببه الخَوْفُ من أمراض القلب، فالقلق يأكل كَبِدَ الإنسان، بالإيمان والتوحيد تنجو من هذا المرض:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (51))

(سورة التوبة: الآية " 51 ")

وقال:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

هذا الأمن الذي يتمتَّع به المؤمن لو وُزِّعَ على أهل بلدةٍ لكفاهم، هناك في قلب المؤمن من الأمن ما لا يوصف بسبب طاعته لله عزَّ وجل، قال له:

((يَا مُعَاذُ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن معاذ]

أنشأ الله عزَّ وجل لك حقّاً عليه ألاّ يعذِّبك ما دمت في عبادته وطاعته، ما دمت في ظل شرعه، ما دمت في أمره ونهيه، ما دمت تتلو كتابه، تقيم أمره، وتقيم حلاله، وتمتنع عن حرامه، ما دام هناك التزام أنت في بحبوحة.

خط بيان المؤمن خطٌّ صاعد وما الموت إلا نقطة على هذا الخط:

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ (33))

(سورة الأنفال: الآية " 33 ")

هذه النعمة التي يملكها الإنسان المؤمن ؛ نعمة الأمن، الطمأنينة، الشعور أن الله يحبُّه، وأن الله قد أعدَّ له جنَّةً، الشعور أنه قد تتصل نعم الدنيا بنعم الآخرة، قد تتصل اتصالاً مستمراً، هو يعيش في الدنيا في سلام مع نفسه، ومع الناس، ومع ربّه، في بحبوحة، في صحَّة، في سمعة طيّبة لأنه مقيم

على أمر الله، يموت فينتقل إلى الجنَّة، اتصلت نعم الدنيا بنِعَم الآخرة، وكأن خط بيان المؤمن خطٌّ صاعد، وما الموت إلا نقطة على هذا الخط، بينما حياة الكافرين مُفْعَمَةٌ بالقلق، بالخوف من المجهول، بالخوف من المستقبل، لأنهم حينما أشركوا بالله قذف الله في قلوبهم الرعب:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215))

(سورة الشعراء)

على كلِ هذه الآية:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

أضيفُ لها آيةً ثانية:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

اجمع الآيتين ؛ من يتبع هدى الله عزَّ وجل لا يضلُّ عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت، ماذا بقي من السعادة في الدنيا ؟ لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت.

إذا عَمَّر الإنسان الآخرة سهُل عليه أن ينتقل إليها:

قال تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

لا خوفٌ عليهم من المستقبل، يضمن الله لهم مستقبلاً مريحاً، ولا يحزنون على ما مضى لأنهم قادمون إلى الجنَّة، إنسان يسكن في حيّ فقير، في حي متواضع جداً، وفي بيت صغير تحت الأرض، مساحته ثمانون متراً، عنده ثمانية أولاد، فإذا انتقل إلى بيت مساحته أربعمئة متر له إطلالة جميلة جداً، هل هناك ألم في أثناء نقل الأثاث ؟ هل هناك انقباض ؟ هل هناك ضيق ؟ بالعكس هناك فرح، وسرور، واستبشار، الانتقال إلى الأحسن مسعد للنفس، إذا عَمَّر الإنسان الآخرة سهُل عليه أن ينتقل إليها، لماذا يخاف الناس الموت ؟ لأنهم عمَّروا الدنيا وخَرَّبوا الآخرة، وهذا الطريق ممر إجباري لا بد منه، فالموت قضيَّة كبيرة جداً، وكلَّما حسَّنت حياتك وأنت ـ لا سمح الله ـ على معصية صعُبَ عليك الموت، توجد بلاَّد فيها من الرفاه ما يفوق حد الخيال، شيء يحيّر العقول، الموت هناك صعب جداً، لأنه يترك جنَّةً في الدنيا إلى القبر، والانتقال من جنَّة في الدنيا إلى القبر شيء صعب جداً، على كلِ المؤمن في أمن، يشعر أنه لا خوفٌ عليه في الدنيا ولا هو يحزن على فراقها، **"وا كربتاه يا أبت "** ، قال: **" لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبَّة محمَّداً وصحبه ".**

تعجب الله عز وجل من صبر الكفار على النار وهم لا يحتملون عقابها:

قال تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39))

كفر أي: كذَّب، وأعرض، وانغمس في شهواته، هؤلاء:

(أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39))

يقول الله عزَّ وجل وهو أصدق القائلين:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

(سورة البقرة)

كأن الله عزَّ وجل يعجب من صبرهم على النار، كيف تقترف هذه المعصية وأنت لا تحتمل عقابها ؟

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (21- 95):تفسير الآية 40 ، المؤمن مع المنعم والكافر مع النعمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-12-18

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من إيراد قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم مرات عديدة:

مع الآية الأربعين وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ((40)

أيها الأخوة الكرام، بادئَ ذي بدء، ما الحكمة أن تَرِد قصَّة بني إسرائيل في القرآن الكريم مرَّاتٍ عديدة، مع أن القرآن للمسلمين ؟ هناك من تَلَمَّسَ الحكمة في ذلك فقال: **" الخطاب المُباشر أقلُّ تأثيراً من الخطاب غير المباشر "**، فأنت إذا أردت أن تنصح إنساناً، وأن تُلقِي عليه بعض الحقائق ربما دافع عن نفسه، أو ربما رأى ذلك انتقاصاً من قدره، فهناك خطوط دفاعٍ عند كل إنسان تمنع أن تدخل إلى أعماقه، أما إذا كان المُخَاطَبُ ليس معنياً في الموضوع، إنما المعنيٌّ جهةٌ ثالثة، فهذه الطريقة في الخطاب أكثر فاعليَّةً، وأكثر تأثيراً.

لو أن ابنك مثلاً مبتلى بشيءٍ لا يُرْضي الله، ربما لا يستجيب إذا ألقيت عليه نصائح ومواعظ وخطابات، أما إذا حدّثته عن شابٍ وقع في شيءٍ مشابهٍ لما وقع فيه الابن ودفع الثمن باهظاً فلعلَّ تأثير هذا الكلام يكون أكبر، لذلك دائماً وأبداً الطريقة المباشرة أقلُّ فاعليَّةً من الطريقة غير المباشرة، فمن الأمراض التي يمكن أن نقع بها، والنفاق الذي يمكن أن نقع فيه، والتقصير الذي يمكن أن نقع فيه، هذا كلُّه عُولِجَ في قصص بني إسرائيل، فصار الحديث عن بني إسرائيل حديثاً غير مباشر عن قضايانا، هذه بعض الحكم التي تلمَّسها بعض العلماء من كثرة إيراد قصَّة بني إسرائيل في القرآن الكريم لأن الأمراض التي يمكن أن نقع فيها وقعوا فيها، نقاط الضعف التي يمكن أن نعانيها وقعوا فيها، فمعالجتها معالجةٌ لنا.

قصص بني إسرائيل فيها أسلوبٌ تربويٌّ فعَّالٌ لنا:

مثلاً قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة: آية " 66 ")

قياساً على ذلك لو أننا أقمنا القرآن الكريم لأكلنا من فوقنا ومن تحتنا، و لجاءت الخيرات كثيرةً:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

وقال:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: آية " 96 ")

أول نقطة في هذا الموضوع أن قصص بني إسرائيل فيها أسلوبٌ تربويٌّ فعَّالٌ لنا لأن القرآن الكريم لا يخاطب المسلمين بشكلٍ مباشر بل يحدِّثهم عن أممٍ انحرفت فدفعت ثمن انحرافها باهظاً، يكون عند الواحد منا تقصير من جهة، فإذا رأى إنساناً قصَّر التقصير نفسه ودفع الثمن باهظاً يبادر إلى تلافي الأمر.

أصل تسمية بني إسرائيل بهذا الاسم:

الشيء الآخر: إذا أراد الله جلَّ جلاله أن يخاطب الناس جميعاً قال:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

(سورة الأعراف: آية " 31 ")

الخطاب هنا لبني إسرائيل، من هو إسرائيل ؟ هو سيدنا يعقوب عليه السلام، وما معنى هذا الاسم ؟ قال بعض العلماء: " في العبرية (إسِرا) تعني عبد و(إيل) تعني إله، هو عبد الله، أو صفي الله، هذا أصل التسمية في اللغة العبرية، فربنا عزَّ وجل يقول:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (40))

أي أنتم انحدرتم من إسرائيل وهو صفي الله عزَّ وجل، فَلِمَ أنتم كذلك ؟ تماماً كما لو تثير نخوةَ شاب، أنت ابن فلان، وأبوك إنسانٌ كبير، وإنسانٌ عالِم، وإنسانٌ كريم، وإنسانٌ محترم فَلِمَ أنت تفعل ذلك ؟ هذه هي العلَّة في قوله تعالى:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (40))

أي أنتم من نسل يعقوب، ويعقوب من نسل إبراهيم، وإبراهيم هو أبو الأنبياء عليهم السلام، إذاً :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (40))

يوجد شيءٌ ثالث: إذا كان الأنبياء الذين جاؤوا إلى بني إسرائيل كُثراً فهذا لا يعني أنَّهم أمةٌ مختارة، أي إذا كان الأساتذة الذين يعلِّمون طالباً كثيرين جداً فهذا دليل على كسله، وليس معنى ذلك أنه متفوِّق، أكثر الشعوب معصيةً وتمرُّداً على الله عزَّ وجل هم بنو إسرائيل.

لو تدبَّرت أصل الفساد في العالم لوجدته من صنع بني إسرائيل:

قال تعالى:

(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ)

(سورة البقرة: آية " 61 ")

منهجهم الآن إفساد شعوب الأرض، أصل الفساد في الأرض يتأتّى الآن من بني إسرائيل، أي هم إن ضبطوا أنفسهم هذا وصمةُ عارٍ بحقّهم، هم ينضبطون ولكنهم يُفْسدون الشعوب كلَّها، لو تدبَّرت أصل الفساد في العالم لوجدته من صنع بني إسرائيل، فلذلك ليست كثرة أنبيائهم دليل تفضيلهم، بل هو دليل انحرافهم الشديد، هذه بعض الحقائق المتعلّقة بقوله تعالى:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (40))

الآن الخطاب يعنينا:

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

هناك أيها الأخوة نعمةٌ وهناك مُنْعِم، الكافر مع النعمة، أما المؤمن مع المُنعم، وما لم تنتقل من النعمة إلى المنعم فلست مؤمناً، الكفَّار في كل مكان يستمتعون بنعم الله أيَّما استمتاع، بل إن الكفَّار أكثر من المؤمنين استمتاعاً بالنعم لأنها نصيبهم الوحيد من الله عزَّ وجل، بلادهم جميلة، وأموالهم طائلة، وقوَّتهم مسيطرة ومع ذلك هم غارقون في المعاصي والآثام:

((لو كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

آيات من الذكر الحكيم تبين أن عقاب الله آت ولو بعد حين والعاقبة للمتقين:

أيها الأخوة الكرام، القرآن شفاء لما في الصدور، ذلك لأن الإنسان أحياناً يختل توازنه، فإذا قرأ القرآن استعاد توازنه، فقد يجد الإنسان كافراً غنيَّاً، وقد يجده قويَّاً، ومسيطراً، ومستمتعاً، ومتغطرساً وهو غارقٌ في المعاصي والآثام، وهناك مدينةٌ في بعض بلاد الغرب ثلاثة أرباع سكَّانها شاذُّون، خمسة وسبعون بالمئة، وهي من أجمل المدن وكلهم شاذُّون، وهذا عند الله انحرافٌ خطير عاقبته القضاء المبرم قال تعالى :

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ(198))

(سورة آل عمران)

وقال تعالى:

(لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ(195))

(سورة آل عمران)

ويقول أيضاً:

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

ويقول أيضاً :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(12))

(سورة آل عمران)

ويقول أيضاً:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة الأعراف)

ويقول تعالى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

النصر يحتاج إلى شرطين اثنين ؛ الإيمان والعُدَّة:

دققوا في هذا الكلام أيها الأخوة: العبرة في من يضحك آخراً، لأنه من يضحك أخيراً يضحك كثيراً، ومن يضحك أولاً يبكي كثيراً، فالعبرة أن تكون على منهج الله، والعبرة أن تكون مطيعاً لله، والعبرة أن تأتمر بما أمر الله وأن تنتهي عما نهى الله عنه، هذه هي العبرة، وكفاك على عدوِّك نصراً أنه في معصية الله، فلو كان عدوُّك أقوى منك، ولو كان أغنى منك، ولو كان أذكى منك، ولو كان أكثر منك سيطرةً العبرة أن تكون مطيعاً لله، ولكن من طاعة الله أن تُعِدَّ لهم:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال: آية " 60 ")

ذكرت اليوم أن النصر يحتاج إلى شرطين اثنين كلٌ منهما شرطٌ لازمٌ غير كافٍ ؛ يحتاج إلى الإيمان، ويحتاج إلى العُدَّة، أن تُعِدَّ العُدَّة المتاحة، وليست العدة المكافئة، وهذا من رحمة الله بنا:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 60 ")

بقدر استطاعتكم، حينما أمرنا الله أن نُعِدَّ لعدوِّنا العُدَّة المُتاحة رحمنا بهذا وعلى الله الباقي، وعلى الله ترميم الفارق بين العُدَّة المتاحة والعُدَّة المكافئة ولكن لا بد من الإيمان، وخطر المعصية على

قوّتنا أكثر من خطر عدوِّنا على قوّتنا، لذلك المؤمن مع المنعم، والكافر مع النعمة، ولا خلاف حول النعمة.

الفرق بين أن تكون عبداً للنعمة وبين أن تكون عبداً للمنعم:

في الفاتحة

(الْحَمْدُ)

لا خلاف على النعم التي بين أيدينا ولكن من هو المنعم ؟

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2))

(سورة الفاتحة)

هم يرون الحمد لهم فهم الذين اكتشفوا هذه الثروات، الذين صنَّعوها واستغلُّوها، وهم يرون أنفسهم آلهة الأرض، ولكن المؤمن يرى الله عزَّ وجل، إذاً الخلاف بين أن تكون عبداً للنعمة، وبين أن تكون عبداً للمنعم، بين أن تشكر ما آتاك الله من قدراتٍ على استغلال النِعَمْ، وبين أن تشكر الله عزَّ وجل الذي منحك هذه النعم، الذي يمدحك يمدح الذي منحك ولا يمدحك أنت:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ (40))

قال بعض المفسِّرين، وهي لفتةٌ طريفة: " حينما خاطب الله عزَّ وجل المؤمنين قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ (40))

(سورة الأحزاب: آية " 41 ")

أما حينما خاطب بني إسرائيل قال :

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ (40))

لأنهم ماديُّون فمفتاحُهُم النعمة ".

المؤمن بالذَّات يحب الله على كماله:

نرجو من الله عزَّ وجل أن نكون نحن أرقى منهم، ونكون مع المُنْعِمْ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ (40))

أما هم :

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

قد يُحبّ الإنسان الله على نعمه، ولكن المؤمن بالذَّات يحب الله على كماله، فلو أعطاه أو منعه حبُّه هوَ هو:

والله وإن فتَّتوا في حبهم كبدي باقٍ على حبهم راضٍ بما فعلوا

***

أساساً لا يُمْتَحَنُ المؤمن إلا في الشدَّة، قد يُنعم الله عليه في الدنيا فإذا ربط محبَّته لله بهذه النِعَم فهو عبد النِعْمَة، أما إذا كانت محبَّته لله خالصةً ولا علاقة لها بالنعم فهذه مرتبةٌ أعلى، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام علَّمنا الأدب مع الله عزَّ وجل، قال في الطائف:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر، وفي سنده ضعف]

إن أردت أن تعد النعم فلن تحصيها:

أيها الأخوة، استنباطاً من هذه الآية الكريمة :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

قال تعالى:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (40))

(سورة إبراهيم: آية " 34 ")

توجد في الآية لفتة لطيفة: هل يمكن أن أعطيك ليرةً واحدة وأقول لك: عدَّها ؟ الواحد لا يُعَد، أما لو أعطيتك مجموعة من الليرات فيمكن أن أقول لك: عُدَّها، أما ليرة واحدة وأقول لك: عُدَّها، إنها لا تُعَدْ، فهذا معنى قوله تعالى :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (40))

(سورة إبراهيم: آية "34 ")

قال العلماء: " بركات النعمة الواحدة لا تُعَدُّ ولا تحصى "، نعمة البصر، ونعمة السمع، ونعمة الحركة، ونعمة النوم وغير ذلك من النعم.

أخٌ كريم شفاه الله عزَّ وجل، كان مصاباً بمرض عدم النوم، والله الذي لا إله إلا هو أنا أتصوَّر لو طالبته بمئة ألف ليرة يملكها لدفعها لك مقابل أن ينام ليلةً واحدة، نعمة النوم، نعمة الصحَّة، كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول:

((الحمد لله الذي عافاني في جسدي و رد على روحي و أذن لي بذكره))

[السيوطي عن أبي هريرة]

إن أردت أن تعد النعم فلن تحصى، بل إنك إن أردت أن تعد بركات نعمةٍ واحدة لن تحصيها.

بعض من نعم الله الدالة على عظمته :

نعمة الأمن :

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4))

(سورة قريش)

أحد أسباب الأمن ثبات خصائص المواد، أنت عمَّرت بيتاً الإسمنت يبقى إسمنتاً، والحديد يبقى حديداً، لو أن خصائص المواد تتبدَّل إنك لا تنام الليل، لعلَّ هذا الحديد أصبح ماءً فانهار البيت، ثبات خصائص الأشياء هذه من نعم الله العُظمَى، استقرار الأرض:

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: آية " 61 ")

لو أنها تهتزُّ دائماً، أرقى طائرة تهتز في أثناء طيرانها، لا توجد أرض، ولا يوجد احتكاك ومع ذلك تهتز دائماً، لو أن الأرض تهتز قليلاً لما رأيت بناءً قائماً على وجه الأرض، نعمة قرار الأرض، ونعمة الجاذبيَّة

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً)

من جعل هذه الأشياء مرتبطة بالأرض ؟ رائد الفضاء في منطقة انعدام الجاذبيَّة يفقد الوزن، يستيقظ فإذا هو في سقف المَرْكَبَة، ليس له وزن، يُمسك الحاجة بيده فإذا هي تتفلَّت منه، أصبحت في السقف، أما نحن فنضع هذا الكأس على الطاولة ويبقى على الطاولة لأن له وزناً، نعمة الجاذبيَّة قد لا ننتبه إليها، ونعمة الاستقرار قد لا ننتبه إليها، ونعمة ثبات خصائص الأشياء لا ننتبه إليها، هناك في الجسم نِعَمٌ لا تعدُّ ولا تُحصى، إذا حمل الإنسان ابنه يجد فيه صنعة متقنة، الأربطة التي تربط اليد بالجسم تتحمَّل وزن الطفل، وتتحمَّل ضعف وزنه، لو كان الأب غاضباً وأمسك ابنه بعُنف وحمله، لو كانت الأربطة متناسبة مع وزن الجسم فقط لَخُلِعَت يده، لكن هناك دقَّة بالغة.

نعمة أن هذا الشَعر بلا أعصاب حس، لو كان في كل شعرة عصب حسّي، يوجد في كل شعر عصب ولكنه عصب محرِّك، لكل شعرةٌ وريدٌ، وشريانٌ، وعضلةٌ، وعصبٌ، وغدَّةٌ دهنيَّةٌ، وغدَّةٌ صبغيَّة، ولكن العصب محرّك وليس عصباً حسيَّاً، لو كان هناك عصب حسي لاحتجت إلى عمليةٍ جراحيَّةٍ عند كل حلاقة، عملية تخدير لأن الآلام لا تُحتَمَل.

جسم الإنسان بما فيه من نعم الله الدالة على عظمته:

نعمة المثانة نعمة كبيرة جداً، لولا أن فيها عضلات لما كان هناك طريقة أخرى لإفراغ البول إلا بأنبوب من أجل الضغط، أنبوب تنفيس، نعمة الإفراغ السريع بالعضلات، نعمة وجود المثانة، لو أنه لا توجد مثانة، أي من الكليتين إلى الخروج مباشرةً لكان هناك في كل عشرين ثانية نقطة بول، من كل كلية نقطة، فصارت نقطتين، فما هو الحل ؟ فوط الرجل السعيد.

نعمة الهضم، الإنسان يأكل، ويتولّى الله عنه عمليَّة الهضم، وهي عمليَّة معقَّدة تتم في ثلاث ساعات، لو أن الله عزَّ وجل أوكل الهضم إلينا، يأكل، ومعه أربع ساعات هضم، والله مشغول، لأنني أهضم الطعام، أما كلْ وكلُّ شيء على الله، البنكرياس، والمرارة، وحركة الأمعاء، وامتصاص الطعام، وانتقال الطعام إلى مواد سكَّريَّة تخزَّن في الكبد وفي العضلات، وتحويل الطعام إلى مواد مختلفة وإلى مواد شحميَّة تُخَزَّن في مكانٍ آخر، هذا كلّه يتولاه الله عنك.

نعمة أن التنفّس يتمُّ آلياً في الليل، لولا هذه النعمة لما أمكنك أن تنام، لو كان التنفس إرادياً، لو أن الله عزَّ وجل جعل التنفس إراديًّا ينام فيموت، هناك مركز في البصلة السيسائية اسمه مركز التنبيه الآلي للرئتين، لو تعطَّل لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، بمجرَّد أن ينام يموت، اخترع قبل سنوات عدَّة دواء غالٍ جداً يجب أن تأخذه كل ساعةٍ في الليل من أجل أن تبقى حيًّا، الساعة التاسعة حبَّة، العاشرة، الحادية عشر، الثانية عشر، الواحدة، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة وهكذا، تصوَّر نفسك أنك مكلَّف أن تستيقظ كل ساعة لتأخذ الحبَّة وتنام، ما الذي يحدث ؟ هناك شخص أعرفه أُصيب بهذا المرض أصبحت حياته جحيماً لا يُطاق، كان يضع أربع منبِّهات لكي يستيقظ ويأخذ الحبَّة، له ابن مسافر عاد من سفره فسهر معه سهرة طويلة، الأربع منبِّهات نبِّهت ولم يستيقظ فوجدوه ميتاً في الصباح، فنعمة أن التنفُّس عمليّةٌ آليَّة هذه نعمةٌ لا تُقَدَّر بثمن.

نعمة أن الدماغ ضمن صندوق، والصندوق له مفاصل متحرِّكة، يمكن أن يسمع الواحد صوت رأس ابنه يرتطم على الأرض مرات عديدة جداً، تسمع صوتاً قوياً، لماذا لم ينكسر رأسه ؟ لأن الجمجمة فيها مفاصل متحركة، فهذه الضربة الشديدة تمتصُّها الفراغات بين المفاصل، ثم إن الدماغ محاط بسائل، هذا السائل يوزِّع، فأي ضربة على الرأس تتوزع على كل الدماغ فتغدو بسيطة جداً، فالدماغ في الجمجمة، والنخاع الشوكي في العمود الفقري، والعينان بالمحجرين، والرحِم بالحوض، وأخطر معمل في الإنسان معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام، الأجهزة النبيلة الخطيرة جداً ضمن صناديق، ضمن حصون، هذه من نعم الله الكُبرى، لو كانت عين الإنسان على جبينه، كم إنسان يسلم له بصره ؟! لا تجد سوى عشرة بالمئة فقط، لأنه أي وقوع على الأرض لفقئت عينه وانتهت، لو فكر الإنسان بجسمه، لو أنه لا يوجد مفصل في يده كيف يأكل ؟ مثل الهرَّة ينبطح، ويلحس الطعام بلسانه، لا توجد طريقة ثانية، لو أنه لا يوجد مفصل فإن اليد لا تصل إلى الفم، ولكن بهذا المفصل صار شيئاً آخر.

الأرض وما فيها من بحار ونباتات وصحارى من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

دورة الأرض وحجم الأرض جعل وزنك ستين كيلو غراماً، لو كان حجمها أقل لكان وزنك خمسة كيلو غرامات، وزن الإنسان على القمر ستة كيلو غرامات، الحياة لا تُطاق، حجم الأرض جعل لك وزناً مناسباً، الآن سرعة الأرض حول نفسها جعلت لك نهاراً مناسباً، اثنتي عشرة ساعة، ثماني ساعات للعمل، وساعة للأكل، وساعتين أو ثلاثاً مع أهلك صار وقت النوم، لو كان النهار مئة ساعة، هذا يعمل، وهذا نائم، لا أحداً يرتاح، أما النوم فموحَّد، والنهار موحَّد .

لولا أن محور الأرض مائل لما وجدت فصولاً أربعة أبداً، إمّا صيف أبدي، أو شتاء أبدي، ربيع أبدي، خريف أبدي، مع ميل المحور صار هناك تبدُّل فصول، لو أن الأرض تدور على محور موازٍ لمستوى دورانها حول الشمس لكانت درجة الحرارة هنا ثلاثمئة وخمسين فوق الصفر، وفي الطرف الآخر مئتين وسبعين تحت الصفر، و لانتهت الحياة، كم نعمة نحن محاطون بها ؟

الآن النباتات لو أنه لا توجد بذور، وجدنا مثلاً مليار طن من القمح، وبعد أن انتهت هذه الكمية فإننا نموت من الجوع، ولكن الله عزَّ وجل خلق لك نظام البذور، يوجد مع كل إنتاج نباتي وسائل استمراره بالبذور، نظام النبات وحده من الأنظمة الصارخة في الإشارة إلى عظمة الله عزَّ وجل.

لو كانت البحار بقدر اليابسة لما وجدنا أمطاراً، اسكب كأس الماء هذا على أرض الغرفة تجده قد جف بعد ساعتين، أما لو أبقيته في الكأس فلا يتبخَّر ولا بسنتين، إنه ينقص سانتي واحد فقط، فكلَّما كان السطح ضيقاً يكون التبخُّر قليلاً، وجعل الله أربع أخماس الأرض مسطَّحات مائيَّة من أجل أن يكون التبخُّر كافياً لأمطار اليابسة .

لو لم تكن هناك صحارى، ولم تكن هناك مناطق حارَّة لم يعد هناك رياح، هواء المنطقة الحارَّة مخلخل، هواء المنطقة الباردة مضغوط كثيف، ينشأ من تباين الضغطين حركة رياح، حركة الرياح تسوق السحاب، هذه رؤوس موضوعات.

بعضٌ من نعم الله علينا:

قال تعالى:

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

لك طفل، وهذا الطفل صفاته صفات محبَّبة، لو كانت صفات الطفل صفات غير محبَّبة من يربي ابنه ؟ الطفل بريء ذاتي لا يحقد أبداً، سريع الرضا، لو كان بطيء الرضا لاستحالت تربيته، تكلم الكبير مثلاً كلمة يخاصمك سنتين، إذا غلطت معه غلطة يخاصمك سنتين، لو كل واحد ربَّى ابنه فخاصمه سنتين فلن تستمر الحياة أساساً، لكن الله صمَّم الطفل بريئاً، فهذه نعمة الطفل، هناك أشياء دقيقة جداً في الحياة.

المواد ؛ جعل الله لك معادن وأشباه معادن، معادن ثمينة جداً ومعادن رخيصة، معادن قاسية ومعادن خفيفة، معادن تنصهر بسهولة، الرصاص ينصهر بالدرجة مئة، أما الحديد فبالألف

وخمسمئة، لو كان الحديد ينصهر بالمئة درجة لانتهى، و لانتهت كل فوائده، تحاول أن تطبخ بوعاء من حديد ينصهر مع الطعام، انتهى، أما الحديد فيصمد للألف وخمسمئة درجة، فالطعام ينضج داخل الوعاء، توجد أشياء دقيقة جداً، يتبخر الماء عند أربع عشرة درجة ، لو تبخَّر بدرجة مئة انتهى، لانتهت وظيفة الماء، الماء لا ينضغط، الماء يتمدَّد، لولا تمدُّد الماء مع التبريد فلا توجد حياة على وجه الأرض .ماذا أقول لكم ؟!!

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

نعمة الذكر والأنثى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

يوجد في مبيض المرأة عدد من البويضات ينتهي في سن اليأس، في الخامسة والأربعين، ثمانية وأربعين، اثنين وأربعين، لو كانت كالرجل مهيأة للولادة بشكل دائم، تصور واحدة تلد وهي في التسعين، شيء لا يُحتمل، فالبويضات تنتهي لدى المرأة في سن معيَّن، أما الرجل فيبقى قادراً على الإنجاب في التسعين، هناك تصميم إلهي رائع، الرجل قد يفقد شَعْرَه كلَّه لكن المرأة لا تفقد شعرها كله وهذه نعمةٌ كُبرى من نِعَمْ الله عليها.

ملخص الملخص المؤمن مع المنعم والكافر مع النعمة:

نِعَم الصحة، ونِعَم الأمن، أنت من خوف الفقر في فقر، وأنت من خوف المرض في مرض، وتوقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها، ونعمة الفراغ، فالإنسان الذي لا يملك وقت فراغ ليس إنساناً، هذا الذي يعمل ليلاً نهاراً هذا إنسان انتهى، انتهى عند الله وعند الناس، لأن وقته استهلكه، عمله استهلكه، أما هذا الذي يجد وقتاً لسماع درس علم، وللجلوس مع أخ وللقاء مثمر، هذا يحيا حياته الإنسانية، فالمؤمن على كلٍ مع المنعم دائماً.

كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقَّت، أي كأس ماء شربته معنى ذلك الطريق سالك، لو كان الطريق غير سالك ـ لا سمح الله ولا قدر ـ هؤلاء الذين يعانون الفشل الكلوي، قال لي أخ كريم: له قريب ذهب لغسيل الكليتين، قالت له الممرضة بقسوةٍ بالغة: هذه الجمعة لا تشرب ماء كثيراً لأن الجهاز معطل، أنت عندما تعطش تشرب بدون تقييد، فلا توجد لديك مشكلة إطلاقاً، تصور إذا شرب الإنسان ليس لديه جهاز يخرج هذا الماء ، ماذا يفعل ؟ **" يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنِعَ عنك ؟ "** قال: **" بنصف ملكي "** ، قال: **" فإذا منع إخراجه "** ؟ قال: **" بنصف ملكي الآخر "** ، بكم تشتري أن تنام الليل مطمئناً ؟ بكم تشتري إيواءك في بيت ؟ كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته يقول: **" الحمد لله الذي آواني وكم من لا مأوى له "**، وكان إذا خرج من الخلاء يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني.))

[ابن أبي شيبة والدار قطني عن طاوس مرسلاً]

نعمٌ لا تنتهي، نعمة الصحة، ونعمة الأمن، ونعمة الفراغ، ونعمة الكفاية، هذا الذي يملك قوت يومه من نعم الله الكبرى، قوت يومه فقط، هذه نعمةٌ كبيرة .

ملخص الملخص المؤمن مع المنعم والكافر مع النعمة، ومهما تفنن في النعمة يأتي الموت فينهي كل شيء، هذه النعمة التي تنعم بها هناك شيء لا بد منه، فإما أن تتركها وإما أن تتركك، نعمة البصر، يموت الإنسان انتهى البصر، أو يفقد بصره قبل أن يموت، ونعمة المال يموت انتهى كل ماله، أو يصبح فقيراً قبل أن يموت، فإما أن تتحول عنك وإما أن تتحول أنت عنها، لذلك وبالشكر تدوم النعم، قيدوا النعم بالشكر، " يا عائشة أكرمي مجاورة نعم الله، فإن النعمة إذا نفرت قلما تعود "، النعمة تقيَّد بالشكر، ومن شكر الله على نعمه زاده الله منها.

للشكر مستويات ثلاثة:

الآن كيف نشكر ؟ قال العلماء: للشكر مستوياتٌ ثلاثة.

1- أن تعزو النعمة إلى الله و هذا أحد أنواع شكره:

المستوى الأول لمجرد أن تعزو النعمة إلى الله فهذا أحد أنواع شكره، إذا قلت: الله وفّقني، الله أعطاني هذا البيت، والله هيَّأ لي هذه الزوجة، الله رزقني هؤلاء الأولاد، والله أعانني على نيل هذه الشهادة العليا، والله أعانني على طلب العلم، والله يَسَّر لي المجيء إلى المسجد، والله أعانني على تطبيق الإسلام في بيتي، والله أكرمني بزوجة مؤمنة، والله أكرمني بأولاد أطهار صالحين أبرار، حينما تقول هذا فهذا أحد أنواع الشكر، حينما تعزو النعمة إلى الله فهذا نوعٌ من شكرها.

2- أن يمتلئ قلبك امتناناً لله عزَّ وجل:

المستوى الثاني: حينما يمتلئ قلبك امتناناً لله عزَّ وجل فهذا مستوى أعلى.

3- أن تتحرك لخدمة الخلق معرفةً بهذه النعمة:

المستوى الثالث حينما تتحرك لخدمة الخلق معرفةً بهذه النعمة فهذا أعلى المستويات، قال تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ داو ود شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ(30))

(سورة سبأ)

يحبك الله عزَّ وجل أن تكون شاكراً.

علينا أن نسجد شكراً لله عند كل نعمة يمنحنا الله إياها:

عود نفسك إذا منحك الله عزَّ وجل نعمة أن تقابلها بالسجود لله عزَّ وجل، كان عليه الصلاة والسلام يسجد سجود الشكر لله عزَّ وجل، تلقيت نبأً ساراً، رزقك الله مولوداً كاملاً بدون أي مشكلة، فلو لم ينفلق ثقب بوتان لاحتجت إلى مئتين وخمسين ألف ليرة عملية قلب مفتوح لإغلاق ثقب بوتان، وهو كما قال الأطباء: ثقب مفتوح بين الأذينين، ولكن عند الولادة ـ هكذا قالوا ـ تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب، بيد من؟ أية يدٍ تصل لداخل قلب الطفل لإغلاق هذا الثقب بين الأذينين ؟ الله جلَّ جلاله، فأي غلطة بالجسم تحتاج إلى ملايين الملايين.

اجمع الأجهزة التي تنعم بها ثمنها ألف مليون، عملية زرع الكبد بفرنسا تكلف سبعة ملايين ـ لو تشمع الكبد ـ ونجاحها ثلاثون بالمئة، فالكبد سبعة ملايين، والكلية أصبح ثمنها الآن مليونين، وتبديل صمام، قال لي واحد: والله بدلت صماماً، لكن لا أنام الليل، لماذا ؟ قال لي: اسمع طول الليل طرقاً، أنت عندك صمام لا يوجد له صوت، أليست هذه نعمة ؟ صمام له صوت لا تنام الليل، قال لي: لا أحس بالنهار لوجود الضجيج، ولا أنام بالليل من صوت الصمَّام، توفي رحمه الله، هذه نعمة الصمام، صمام عدم رجوع، هل هذه نعمة قليلة ؟

نعمة الأوردة، لها وريقات، دسَّامات، نعمة أن الشريان داخلي والوريد خارجي لو الآية بالعكس، إذا جرح إنسان يموت على الفور، لأن القلب مع الشريان، قال لي طبيب جراح: إذا أطلقت شرياناً ـ فنبض القلب للدم بالشريان يحرِّك الدم اثني عشرة متراً ـ يصل الدم أحياناً إلى السقف من نبضة قلب واحدة، جعل الله الشرايين داخلية، والأوردة خارجية، الحركة بطيئة بالوريد وغير خطرة، أما الشرايين كلها داخلية، في حرز حريز، هذه نعمٌ كبرى، فلذلك إخواننا الكرام المؤمن مع المُنْعِم، والكافر مع النعمة.

للنعمة مهمتان كبيرتان ؛ أن تشكر الله عليها في الدنيا وأن تعرف الله من خلالها:

الآن آخر فكرة بالدرس، أية نعمةٍ لله عزَّ وجل في الإنسان لها وظيفتان كبيرتان لها وظيفة تعريفية إرشادية، ولها وظيفة نفعية في الدنيا، الغرب بأكمله انتبه للوظيفة النفعية أما الوظيفة الإرشادية فهي أخطر وظيفة للنعمة، أن تعرف الله من خلالها، هناك نعمة سوف أقولها لكم وقد لا تصدق أنه لولاها لما وجدت على وجه الأرض إنساناً واحداً، هذه النعمة اسمها آلية المَص، يولد الطفل الآن لتوه يضع فمه على ثدي أمه ويحكم الإغلاق ويسحب، هذه عملية معقدة، لو أن هذه الآلية غير موجودة، تفضل علمه إياها، هل يستطيع أب مهما كان ذكياً، لو كان معه دكتوراه بعلم التربية أن يعلم ابنه الذي وُلِد لتوه: يا بابا الله يرضى عليك، ضع فمك على ثدي أمك، وإيَّاك أن تنفس الهواء،

وإلا لن يخرج لك الحليب، لا يفهم عليك شيئاً، انتهى كل شيء، فلولا نعمة آلية المص لما كان على وجه الأرض إنسان، هذه نعمة أيضاً.

أيها الأخوة، النعمة لها مهمتان كبيرتان ؛ أن تشكر الله عليها في الدنيا، وأن تعرف الله من خلالها، فمن لم يحقق معرفة الله من خلال النعمة عَطَّل أكبر مهمةٍ للنعمة، وكنت أضرب مثلاً دقيقاً عند أحدهم كتاب عن النحل والعسل، قرأه فتأثر تأثراً بالغاً، وفاضت عيناه بالدموع تعظيماً لله عزَّ وجل على هذه الإبداع في الخلق، لكن دخله بسيط جداً لا يسمح له بشراء العسل أبداً، ما ذاقه، لكنه عرف الله من خلاله، فهذا الإنسان الذي لم يذق طعم العسل، لكنه عرف الله من خلاله هذا الإنسان حقق الأكبر من خلق النحل والعسل، أما الذي جعل العسل غذاءه وهدفه الأساسي، ولم يفكر في خالق العسل هذا عطل الهدف الأكبر من خلق العسل، لذلك النبي الكريم عليه الصلاة والسلام حينما رأى الهلال قال:

((هِلالٌ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[رواه أبو داود عن قتادة]

ينفعنا في الدنيا ويرشدنا إلى ربنا فالمؤمن مع المنعم ؛ والكافر مع النعمة:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

في الدرس القادم إن شاء الله :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (22- 95):تفسير الآية 40 ، الانسجام بين القول والفعل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-12-25

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الآيات تعطيك في مضمونها ومحورها ثمن الجنة إن وفَّيت بعهد الله تعالى:

مع الآية الأربعين وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ((40)

وقال:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

هذا جواب الطلب:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

وقال:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: الآية " 7 ")

مثل هذه الآيات تعطيك في مضمونها ومحورها ثمن الجنة إن وفَّيت بعهد الله عز وجل. أي إذا ضحيت ببعض حريتك ؛ سمح لك أن تأكل، وأن تشرب، وأن تتزوج، وأن تفعل كل شيء وفق منهج، وفق قنوات نظيفة.

إذا ضحى المؤمن ببعض حريته لزمن محدود ينعم بالجنة إلى الأبد فهي عملية تجارية :

الكافر متفلّت يفعل ما يشاء، المؤمن منضبط، الكافر يأكل ما يشاء، يشرب ما يشاء، يلتقي مع من يشاء، ويجلس مع من يشاء، المؤمن عنده حدود، إذاً بماذا يضحي الإنسان عندما يستقيم ؟ يضحي ببعض حريته، يضحي ببعض حريته لزمنٍ محدود لينعم بجنةٍ عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين، فهي عملية تجارية، رأسمالك صغير جداً والربح كبير جداً، الرأسمال أن تنضبط لبضعة سنوات والسعادة إلى الأبد، قال تعالى:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي (40))

في طاعتي:

(أوفِ بعَهْدِكُمْ (40))

بالجنة:

(إنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: الآية " 7 ")

في الدنيا والآخرة:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

لو حَكَّمَ الإنسان عقله يجد الثمن قليلاً جداً والمبيع كبيراً جداً:

كأن الله عزَّ وجل يريد أن نربح عليه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10))

(سورة الصف)

تجارة ؛ لك رأس مال، ولك ثمن مبيع، والفرق كبير جداً، رأسمالك:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(11)يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(12))

(سورة الصف)

أي لو حَكَّمَ الإنسان عقله يجد الثمن قليلاً جداً والمبيع كبيراً جداً، فالله عزَّ وجل يقول :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

أما ترضى أن تعيش في الدنيا منضبطاً بعض الشيء ؟ الحرام حرام، والحلال حلال، لا يوجد شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة، وفق منهج واضح، الكافر يفعل كل شيء، لأنه متفلت أساساً، أما المؤمن فهو إنسان منضبط، الإيمان قيده ؛ هذه حرام، هذه تجوز، وهذه لا تجوز، قال لك:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

في التعامل مع الله سبحانه لا يتناسب العطاء مع الثمن لأن الربح مع الله مضاعف:

ادفع ثمن الجنة وادخل إلى الجنة متنعماً إلى أبد الآبدين، طبعاً لو ذكرنا الآيات المشابهة:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

وقال:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

وقال:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: الآية " 7 ")

لا يتناسب العطاء مع الثمن إطلاقاً، بون كبير، الإنسان في العادة يربح بالمئة عشرة، عشرين، ثلاثين، أو أربعين، أما بالمئة مئة يقول لك: هذه هي التجارة، إذا بالمئة مليار، إذا بالمئة ألف مليار، إذا بالمئة مليار مِليار مليار إلى أن ينقطع النفس، هكذا الربح مع الله عزَّ وجل.

الله عزَّ وجل هيَّأ لك جنة يسعدك فيها لا بقدر طاقاتك بل بقدر قدرة الله عزَّ وجل:

أيها الأخوة، أرى أن أذكى الأذكياء وأعقل العقلاء هو الذي يتاجر مع الله، من هو أغبى الأغبياء بالمقابل ؟ الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، بالعكس باع الآخرة من أجل المال، مهما كان هذا المال سينتهي عند الموت، كسب مالاً حراماً وضيَّع آخرته، فمن أجل امرأة ضيَّع آخرته، ومن أجل مكانة مؤقتة لا تدوم ضيع آخرته، أحمق الحمقى، وأغبى الأغبياء، وأخسر الخاسرين، هؤلاء الذين يبيعون الأبد بدنيا محدودة، بدنيا قليلة، الله عزَّ وجل يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: آية " 77 ")

دقق في كلام الله

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

أي مهما كنت متنعماً فيها، يتنعم الإنسان في الدنيا بحسب قدراته، لو معك ألفْ ألف مليون، وأردت أن تأكل، ماذا تستطيع أن تأكل ؟ أوقية لحمة، أوقيتين، أكثر لا تستطيع، مهما كنت غنياً الاستمتاع بالحياة محدود بقدر طاقاتك، لكن الله عزَّ وجل هيَّأ لك جنة يسعدك فيها لا بقدر طاقاتك بل بقدر قدرة الله عزَّ وجل، فهذه فكرة دقيقة كثيراً، أنت بالدنيا وجدت تفاحاً جيداً، أكلت تفاحة كبيرة، أكمل والله لا أقدر، طيبين، والله لا أقدر، طعمتهم طيبة، والله اكتفيت، ولا أقدر أن أزيد، فعندك سقف بكل شيء، بكل شيء من دون استثناء ؛ الزواج، الأكل، الشرب، السفر، حتى بالثياب تلبس بذلة واحدة، وتستعمل سريراً واحداً، تأكل وجبة واحدة، هناك سقف، ولك حدود، تستمتع في الدنيا بقدر طاقاتك المحدودة، لكن ما قولك بالآخرة:

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى)

(سورة النحل: آية "60")

من باب التمثيل، تأكل مليار تفاحة، تأخذ طعمها، تستمتع بطعمها على طول دون أن تدخل إلى جوفك، فلكل الشهوات حد لا تستطيع أن تكمل بعده، ولكنك بالآخرة وفي الجنة تستمتع لا بقدر

قدراتك المحدودة في الدنيا بل بقدر قدرات الله في الآخرة، فالله عزَّ وجل خلقك لجنةٍ عرضها السماوات والأرض.

لا يزهد في الجنة إلا أحمق ولا يسعى إليها إلا عاقل:

والله أيها الأخوة، لا يزهد في الجنة إلا أحمق ولا يسعى إليها إلا عاقل، والإنسان طموح، من هو الزاهد ؟ الزاهد هو الذي زهد في الآخرة، المؤمن في الدنيا طموح جداً لأنه يسعى إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض فيها مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهذه الآيات:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

وقال:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

إذا ذكرك الله، فهل نال إنسان في الأرض عزاً كرسول الله ؟ ليس هناك على الإطلاق، اذهب إلى المدينة، قف أمام قبره في أيام الحج تجد ملايين كثيرة من شتى بقاع الأرض يقفون أمامه ويبكون، وقد مضى على وفاته ألفٌ وخمسمئة عام تقريباً، ماذا ترك ؟ الله تعالى قال:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

إذا الله رفع ذكرك:

((يا ابن آدم! إن ذكرتني في نفسك؛ ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ؛ ذكرتك في ملأ من الملائكة (أو قال: في ملأ خير منه)))

[البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

المؤمن محسوب على الله أما غير المؤمن محسوب على بشر:

بصراحة يا أخواننا الكرام، لا يليق بالمؤمن إلا أن يتعامل مع الله، ولا يليق بك أن تبيع نفسك لغير الله، ولا يليق بك أن تُجَيَّرَ لغير الله، ولا يليق بك أن تكون محسوباً على غير الله، هناك عالم توفي رحمه الله أجرى عملية جراحية بلندن، فلما سألوه بالإذاعة البريطانية: ما هذه المكانة الكبيرة التي حباك الله بها ؟ فلم يجب إجابة دقيقة، فلما ألحوا عليه بالسؤال، قال: " لأنني محسوبٌ على الله ". المؤمن محسوب على الله، أما غير المؤمن محسوب على بشر، فكل إنسان يكون لغير الله فقد احتقر نفسه، لم يعرف قدره، أنت لله، فالمؤمن لا ينافق، ولا يزوِّر، ولا يتكلم كلاماً لا يقتنع به، المؤمن رجل حق وصدق، إذاً:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

وقال:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

وقال:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: الآية " 7 ")

ينتظر الله منك هذه المبادرة، أن تقترب، وأن تتحرك، وأن تعمل شيئاً لكي يعطيك كل شيء، الثمن دائماً يتناسب مع المبيع إلا مع الله لا يتناسب، سنوات معدودة ؛ تأكل، وتشرب، وتتزوج، وتعمل، وتنام، وتستريح، لكنك تصلي خمس صلوات، تغض بصرك، وتنفق جزءاً من مالك، بالمئة اثنين ونصف للزكاة، وتعمل أعمالاً ضمن حركتك المحدودة جداً، هذه الأعمال المحدودة هي ثمن الجنة، ثمن جنة عرضها السماوات والأرض.

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

(سورة يس)

لذلك قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً))

[أحمد عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له:

سلطان العارفين إبراهيم بن الأدهم كان ملكاً، وترك المُلك زهداً به، وصار عارفاً بالله، قال كلمة ـ هو وحده يصدق لأنه كان ملكاً ـ قال: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف "**، لأنه كان ملكاً وصار عارفاً بالله وحده مصدق، لو قالها غيره لقيل له: هل صرت ملكاً لكي تتكلم بهذا الكلام ؟ أما هو كان ملكاً، قال: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف ".**

يا أيها الأخوة الكرام، الدنيا لا قيمة لها ؛ تغر وتضر وتمر، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، من يضحك أخيراً يضحك كثيراً.

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

الآن الكفار أقوياء، متغطرسون، عندهم عجب، عندهم كبر، وعندهم شعور بالتفوق، وأن العالم كله تحت سيطرتهم، وأنهم يحطمون ويضربون أي مكان:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

وقال:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40))

وقال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

المؤمن هو من يخاف بعقله:

أخواننا الكرام، لا يمكن لإنسان يخاف الله أن يخيفه الله من عبد أبداً، إذا كنت تخاف الله أَمَّنَكَ، أما إذا لم تخف الله أخافك من أضعف خلقه:

(وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40))

يملك الإنسان بالدنيا حرية اختياره، ما معنى مخيَّر ؟ أي لك أن تفعل كل شيء، لك أن ترتكب المعاصي كلها إلى أمد منظور دون أن يصيبك شيء، هذا الاختيار، فيمكنك أن لا تصلي، وألا تصوم، وأن تفعل كل الموبقات من غير أن يحدث لك شيء ؛ القلب منتظم، والضغط منتظم، وكل الأجهزة تامة، وأنت في كل المعاصي والآثام هذا الاختيار، اعملوا ما شئتم، كل شيء بحسابه، أما هذا الذي يخشى الله بالغيب فهو المؤمن، طبعاً كل إنسان يخاف بعينه، وإذا خاف الإنسان بعينه هبط إلى مستوى الحيوان، أما الإنسان الراقي فيخاف بعقله، الذي يخاف بعقله هو المؤمن، الدنيا ليس فيها أية فوارق، تجد الكافر هذه الأيام مثل المؤمن، مثل الفاسق، مثل الفاجر، كلهم في البيوت يأكلون ويشربون، لكن المؤمن خائف من يوم القيامة فتجده مستقيماً، الكافر يعيش لحظته، وهذا الأحمق يعيش لحظته فقط لا يفكر في المستقبل، قال لهم:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ (41))

كل شيء ثمين يجب أن تعرف قيمته كآيات الله سبحانه:

صار أحد اليهود صحابياً جليلاً اسمه عبد الله بن سلاَم يقول: والله حينما رأيت رسول الله عرفته كما أعرف ابني، بالمناسبة أوضح معرفة، وأقوى معرفة، وأسرع معرفة، أوضح، وأقوى، وأسرع هي معرفة ابنك، لا يوجد أب بالأرض إذا رأى ابنه يقول له: أنت ما اسمك ؟ هذا مستحيل، هذه ليست واردة على الإطلاق، ابنه، قال الله:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة: آية " 146 ")

لأن أوصاف النبي جاءت في التوراة والإنجيل دقيقة يقول: **" والله إني لأعرفه أنه رسول الله كما أعرف ابني "** ، هذا ابن سلام قد آمن برسول الله، قال الله تعالى:

(وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41))

هذه الآية في الحقيقة مخيفة، مرة اقتنيت كتاباً فوجدت فيه أربعة أدعية، لما قرأت هذه الأدعية والله اقشعر جلدي، أول دعاء: **" اللهم إنـي أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني منّي ".**

إنسان يتاجر بالدين ؟! يجعل الدين تجارة ؟ هو ليس ملتزماً، ولا مطبقاً، ولا منضبطاً، ولا طائعاً ؛ ويدعو الناس إلى الطاعة، والالتزام، والتطبيق، هذا أشقى إنسان، هذا اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً. حتى أوضِّح لكم الأمر تماماً: هل من الممكن أن يشتري أحد ما سبيكة ذهب وزنها كيلو غرام يعملها مجرفة بالبيت ؟ هل من المعقول أن تجعل هذه المادة الثمينة الغالية أداة رخيصة بالبيت ؟ هل من الممكن أن تشتري كمبيوتراً غالياً جداً فتعمله طاولة ؟ أنت اشتريت به ثمناً قليلاً، هل من الممكن أن تستخدم لإشعال المدفئة ورقة من فئة الألف ليرة مثلاً ؟ أهذا معقول ؟ فكل شيء ثمين يجب أن تعرف قيمته.

الدين هو منهج الإنسان للوصول إلى الجنة وعلى الإنسان ألا يتاجر به:

هذا الدين منهج الإنسان للوصول إلى الجنة، هل من الممكن أن أتاجر فيه ؟ قال الإمام الشافعي: **" والله لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين"** ، دع الدين بالعلياء، دعه صافياً، دعه بعيداً عن وحل الأرض، إذا أردت الدنيا فللدنيا أسبابها، أما الدين فلا تجعله في الوحل أبقه في السماء، هذه الآية دقيقة جداً:

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41))

يمكن للإنسان أن يتاجر بالدين، يمكن أن يستخدم القرآن لمصالحه، ويمكن أن يستخدم العلوم الدينية لمصالحه، ولكن هذا الإنسان هو أشقى الناس .

بالمناسبة: إذا لعب الإنسان بدين الله يفرمه الله فرماً، فهذا الدين دين الله عزَّ وجل لا تقربه بسوء، فإذا أراد الإنسان أن يتاجر به، أو أن يُضِل الناس، فالله كبير وعقابه أليم وشديد.

ادعى شخص من الباكستان النبوَّة، وقال: **" خاتم الأنبياء ليس معناه أنه آخر الأنبياء، أي أن كلامه يصدِّق من يأتي بعده "**، وادَّعى أنه نبي، وكانت هناك جائحة كبيرة جداً من مرض الكوليرا بالباكستان، وزعم أنه لن يُصَاب بالكوليرا لأنه نبي، فالذي حدث أنه أُصيب بالكوليرا ومات داخل المرحاض، أي أن الله عزَّ وجل فضحه:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(44)لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45)ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(46)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

(سورة الحاقة)

لمجرَّد أن يتاجر الإنسان بالدين يفضحه الله، ويذلّه، ويكشفه للناس، فإيَّاك أن تقترب من هذا الدين العظيم بسوء، هذا اتركه لله، هذا اخدمه ولا تحاول أن تعيش على أنقاضه، ولا تطعن بأهل الحق، سبحان الله الناس لا يحلو لهم شيء إلا الطعن بأهل الحق، لأنه نوع من عدم التوازن، معه عدم توازن، فأنت من الممكن إذا لم يكن لديك توازن أن تستعيد توازنك بطاعة الله، أن تستعيد توازنك بالإقبال على الله، أما أن تستعيد توازنك بتحطيم المؤمنين !! فهذا عمل قذر ولا يليق بالإنسان أن يفعله.

لا بدَّ من أن يمتحن الله عزَّ وجل الإنسان والمؤمن هو الذي ينجح في الامتحان:

قال تعالى:

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً (41))

أي أن أحدهم باع نفسه لله لسنوات محدودة فكان الثمن الجنة، الآن بالعكس، باع الجنَّة واشترى بها الدنيا.

بالمناسبة: لا بدَّ من أن يمتحن الله عزَّ وجل الإنسان، يضعه أحياناً أمام خيار صعب ؛ إما الآخرة أو الدنيا، إما أن ترضي الله، وإما أن تأتيك المصالح تماماً، فالإنسان قلَّما ينجو من امتحان صعب، قلَّما ينجو من ابتلاء، قلَّما ينجو من خيار صعب، إنه أمام مفترق طرق، فالمؤمن هو الذي ينجح في الامتحان، معاذ الله، سأضرب لكم أوضح مثل: طبيب ناشئ، أي عنده مشوار طويل، لا يوجد معه شيء؛ لا بيت، ولا عيادة، ولا شيء، يعمل طبيباً في قرية، قُتِل إنسان وكانت الجريمة مُحْكَمَة، وقالوا له: خذ عشرة ملايين واكتب وفاة طبيعيَّة، إنه يحِل كل مشاكله بهذه الملايين، هذا المقتول معه مئتا مليون ضحَّى القاتل بعشرة ملايين، فإذا كتب الطبيب وفاة طبيعيَّة ماذا فعل ؟ اشترى بدينه ثمناً قليلاً، هناك أشخاص لو وضعت له مال قارون لا يخالف قناعاته إطلاقاً، هذا هو المؤمن إنه رجل مبدأ.

سمعت قصَّة منذ يومين من أخ كريم و حكيتها بعد صلاة الفجر وهي: أن هناك أسرة على وشك الموت من الجوع، الأب مُقعَد، والأم تخدمه، والأولاد صغار، وليس لديهم أي دخل، والجوع شديد جداً، ذهب أحد الأولاد إلى الفرن ليشتري خبزاً فرأى شخصاً يحمل كميَّة كبيرة من اللحم، تقارب خمسة كيلو، فقال للفران: أريد صفيحة، ولما سأله: متى أحضر لأخذهم ؟ قال له: تعال الساعة الواحدة والنصف، خطر في بال هذا الولد أن يحضر الساعة الواحدة والربع ويأخذ الصفيحة لأهله، قال له: أعطنا الصفيحة، لم ينتبه الفرَّان إليه، وأعطاهم له، دخل إلى البيت فقالت له أمه: يا ماما هذا

لا يجوز، هذا الطعام ليس لنا، لبست وأخذت ابنها واعتذرت من الفرَّان، وقالت له: جاؤونا خطأً، وأرجعتهم، الله عزَّ وجل كافأهم، فصاحب الطعام عرف بالقصَّة وجاء إلى هذا البيت ولم يترك شيئاً ينقصه أبداً، أكمله تماماً، القضية قضية قِيَمْ، قضية أن تعرف الله، أن تخشى الله.

أخطر إنسان هو الذي يُفتي بخلاف ما يعلم:

هنا المؤمن يظهر في الدنيا:

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42))

هناك طُرْفَة، أحد سماسرة البيوت دخل وصلَّى العشاء باتجاه الشمال، ليوهمهم أن هذا البيت اتجاهه قبلي، فمن أجل أن يبيع البيت باع دينه، من أجل أن يبيع هذا البيت باع دينه كلَّه، وهذا يحدث كل يوم، طبعاً هذا مثل حاد، يمكن لإنسان أن يحلف يمين كذب، أو أن يشهد شهادة زور، ممكن لمصلحة مُعَيَّنة أن يستعصي في بيت قد استأجره، ويقول لك: أنا القانون معي، أي أنه باع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، هذا معنى:

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً (41))

بالمناسبة: أحياناً يفتي الإنسان فتوى فيأخذ ثمنها باهظاً، ولكنها فتوى باطلة، لذلك أخطر إنسان هو الذي يُفتي بخلاف ما يعلم، الذي يُفتي وهو لا يعلم مُحاسَب، أما الذي يُفتي بخلاف ما يعلم هذا اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، أنت تفاجأ أن لكل معصية فتوى، الآن في العالم الإسلامي أيّ معصية لها فتوى كاملة، فلا توجد مشكلة، ولكن لم يبق شيء في الدين، إذا كان الربا مسموحاً، فتوى رسميَّة ، إذا كان هذا مسموحاً، وهذا مسموح، فما الذي بقى محرَّماً ؟!

وجود كتب كثيرة همّها تشويه الدين:

قال تعالى:

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42))

العمليَّة عمليَّة تزوير، الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمورٌ مشتبهات، يأتي المنافق ويجمع شيئاً من الحق وشيئاً من الباطل كيف ؟ يقول لك: يا أخي الله عزَّ وجل قال:

(لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران: آية " 130")

معنى هذا ـ حسب مفهومه ـ إذا أخذ الإنسان أضعافاً قليلة فهو ليس مؤاخذاً، دخل من الباب:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99))

(سورة الحجر)

أنا تيقَّنت والحمد لله، إذاً انتهت العبادة، فيُحضر آيات، ويُحضر أحاديث، توجد كتب كثيرة همها تشويه الدين، الآن قراءة معاصرة للقرآن الكريم، السلوك الإباحي مغطًّى بكل آيات القرآن الكريم ، إذا قرأ الواحد الكتاب لا يوجد فيه شيء حرام أبداً، يمكن للفتاة أن يراها أبواها كما خلقها الله، بنص الكتاب، هذه قراءة معاصرة !! ألم ينتبه العلماء القُدامى إلى هذه النقطة ؟! فهناك من يستخدم القرآن، ومن يستخدم السُنَّة، ومن يستخدم الدين لأهداف معيَّنة:

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42))

الازدواجيَّة أخطر شيء يصيب أهل الدين:

هذا الذي يُفتي بخلاف ما يعلم، هذا الذي يسكت عن الحق إرضاءً لجهةٍ ما، لذلك قال الله عزَّ وجل :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: آية "39 ")

ذكر الله عزَّ وجل بهذه الآية صفة واحدة، وهذه الصفة جامعة مانعة، هذا الذي يدعو إلى الله إذا خشي غير الله فتكلَّم بالباطل إرضاءً له، وإذا خشي غير الله سكت عن الحق إرضاءً له، سكت عن الحق ونطق بالباطل ماذا بقي من دعوته ؟ انتهت دعوته، هذه أخطر صفة للداعية أن لا يخشى إلا الله:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ (44))

هذا أخطر شيء بالدعوة، وأخطر شيء يصيب أهل الدين الازدواجيَّة، أي هناك نصوص وهناك طقوس وعبادات، أما المعاملة فهي شيءٌ آخر، عندما تنفصل المعاملة عن العبادة انتهى الدين، يوجد في الدين عبادة تعامليَّة، وعبادة شعائريَّة، وهما متكاملتان، والعبادة الشعائريَّة لا قيمة لها إلا بالتعامليَّة، فإذا ألغينا التعامليَّة ألغينا الدين كلَّه، هنا:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

المُثُل العُليا تشدُّ الناس إلى الدين أما الكلام فلا يؤثِّر:

لو سألتني لماذا تألَّقت دعوة هؤلاء الأنبياء العِظام ؟ ولماذا سارت دعوتهم في الآفاق ؟ لأنهم طبَّقوا. كان هناك عهد لسيدنا رسول الله مع اليهود أن يأخذ نصف تمرهم في خيبر، فكلَّف سيدنا ابن رواحة ليقدِّر التمر، فذهب إليهم، خطر في بالهم أنهم إذا أعطوه هديَّة ثمينة قد يخفِّض التقييم، فجمعوا له من حلي نسائهم حلياً كثيراً وقدَّموها له، أن ارْأف بنا أي التمسنا، فقال: **" والله جئتكم من عند أحبِّ الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض خلق الله إليَّ "**، وهناك رواية: **" لأنتم كالقردة والخنازير**

عندي ومع ذلك ما كنت لأحيف عليكم، وهذا الذي تعطونني إياه هو سُحتٌ، ونحن لا نأكل السُحت "، فقال اليهود: **" بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا "**، أي إذا بقي الدين صلاة وصوماً فقط وكل شيء مُباح انتهى الدين، ولكن يجب أن تجد الدين في التعامل اليومي، عاهد أحد الصحابة الكفار في أثناء الهجرة ألا يقاتلهم، وعندما وصل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فرح به، بعد حين سار رسول الله في غزوة فنسي هذا الصحابي وأحب أن يخرج مع الصحابة للغزوة عليهم رضوان الله، فقال له صلى الله عليه وسلم: **" ارجع أنت ألم تعاهدهم ؟ ":**

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

لذلك يتعلم الناس بعيونهم لا بآذانهم، ولغة العمل أبلغ من لغة القول، والذي يشدُّ الناس إلى الدين المُثُل العُليا، أما الكلام فلا يؤثِّر، الكلام لا يُحرِّك ساكناً، جاء الأنبياء بالكلمة فقط، ولكن بالكلمة التي يؤكِّدها الواقع، فلو سألتني: ما سر نجاح دعوة الأنبياء، وإخفاق دعوة الدعاة في أيامنا ؟ لأنه لا توجد عند النبي ازدواجيَّة أبداً، فالذي قاله فعله، والذي فعله قاله، فالانسجام تام بين أقواله وأفعاله، ينبغي على المؤمن أن تكون سريرته كعلانيَّته، وظاهره كباطنه، وما في قلبه على لسانه، وخلوته كجلوته، لا توجد عند المؤمن ازدواجيَّة، هذا الانسجام يجعل الدعوة تنتشر في الآفاق، وهذا الدين الآن إن أردنا له النجاح لا بدَّ من أن نطبِّقه، وأن نعقلنه، وأن نُبَسِّطه، يجب أن يُبَسَّط، ويجب أن يُعَقلن أي يتوافق مع العقل، ويجب أن يُطبَّق، طبِّق وكن عاقلاً، عقلنه، وطبِّقه، وبَسِّطه ينتشر الدين.

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (23- 95):تفسير الآيات 43-46 ، الإيمان بالآخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-01-01

بسم الله الرحمن الرحيم

يمكن أن نجمع الدين كله بكلمتين ؛ اتصال بالخالق، وإحسان للمخلوق :

مع الآية الثالثة والأربعين :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

الإنسان له علاقتان ؛ علاقةٌ مع الخلق، وعلاقةٌ مع الحق، العلاقة مع الحق الاتصال به عن طريق الاستقامة على أمره، وعلاقته مع الخلق الإحسان إليهم، فإذا أردت أن تجمع الدين كلَّه ففي كلمتين: اتصالٌ بالخالق وإحسانٌ إلى المخلوق، وإن أردت أن تبحث عن علاقةٍ بينهما، فهناك علاقة ترابطيَّة بينهما، فكل اتصالٍ بالخالق يعينك على أن تُحْسِنْ إلى المخلوق، إنك بهذا الاتصال تشتقُّ من كمال الله، وكل إحسانٍ إلى المخلوق يعينك على الاتصال بالخالق، أي أن كلاً من الاتصال بالخالق والإحسان إلى المخلوق سبب ونتيجة، يُعَبَّر عن هذا بالعلاقة الترابطيَّة، كلٌ منهما سبب ونتيجة، فالإحسان يجعلك تثق برضاء الله عنك فتُقْبِلُ عليه، والاتصال يجعلك تصطبغ بصبغة الكمال فتُحسن إلى المخلوقات، فإذا أردنا أن نضغط الدين كلَّه في كلمتين نقول: اتصال بالخالق، وإحسان للمخلوق.

أما الكفر فهو إعراض عن الخالق، وإساءة إلى المخلوق، إن أردت أيضاً وصفين جامعين مانعين لأهل الكفر، إعراضٌ عن الله وإساءةٌ إلى الخلق، فالمؤمن يبني حياته على العطاء والكافر يبنيها على الأخذ، المؤمن بالإحسان والكافر بالإساءة، المؤمن بالاستقامة والكافر بالانحراف، المؤمن بالصدق والكافر بالكذب، المؤمن بالإنصاف والكافر بالجحود، هوية المؤمن مجموعة قيم أخلاقيَّة وهوية الكافر مجموعة نقائص أخلاقيَّة، والكافر على نوعين ؛ كافر ذكي وكافر غبي، الكافر الذكي يخفي نقائصه ويضع أقنعة مزيَّفة على وجهه، هو يغُشُّك، يغريك أنه على حق، وهو كافر منحرف، والكافر الغبي يُظْهِر نقائصه صراحةً، على كلِ كلمة.

المؤمن بين خيارين صَعبين إما الدنيا وإما الآخرة:

قال تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (43))

هي الدين كلُّه، أي أحسنوا إلى المخلوقات واتصلوا بي، أو اتصلوا بي كي تُحْسِنوا إلى المخلوقات، والإحسان إلى الخلق ثمن الجنَّة وهي السعادة الأبديَّة، نحن مخلوقون لدار إكرام ثمنها الإحسان للخلق، فلذلك حينما تؤمن بالآخرة لك ميزان آخر، ميزان آخر بخلاف موازين الدنيا، مثلاً إذا أُتيح لك مغنم كبير ولم تأخذه يتهمك أهل الدنيا بالجنون، أما أهل الإيمان فيضعون الدنيا تحت أقدامهم ابتغاء مرضاة ربِّهم، ولله حكمةٌ بالغة حينما يضع المؤمن بين خيارين صَعبين، إما الدنيا وإما الآخرة، إما مصالحه الماديَّة وإما طاعة ربِّه، أما أن تتوافق مصالحك الماديَّة توافقاً تامَّاً مع طاعة الله هذا شيء لا تحلم به أبداً، مستحيل، مستحيل أن تجد أن كل مصالحك وكل رغباتك موفَّرةٌ في طريق الجنَّة، لا بد أن تضحِّي، لا بد من أن توضع في خيارٍ صعب إما الدين وإما الدنيا، إما طاعة الله وإما مكاسب الدنيا، هذا معنى قوله تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (43))

أمَّا معنى:

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

أي أنك ينبغي أن تكون ضمن جماعة، لأن الجماعة رحمة والفرقة عذاب:

((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ إِنَّمَا يَأْكُلُ الذِئبُ القَاصِيَّة))

[النسائي عن أبي داود]

النبي معصومٌ بمفرده بينما أمَّته معصومةٌ بمجموعها :

هناك منافسة ضمن الجماعة، وهناك تصحيح مسار دائماً ضمن الجماعة، وهناك رغبة بالتفوُّق، هل سمعت بكل حياتك مسابقة بلا جماعة، هل يمكن لإنسان أن يركض وحده ويقول لك: أنا كنت الأول، على من فزت بالأول ؟ المسابقة فيها مجموع، هناك فريق، فلمَّا قال الله تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ)

(سورة الحديد: من آية " 21 ")

معنى هذا أنك ضمن جماعة، كلمة مسابقة تعني أنك ضمن جماعة:

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

الجماعة رحمة، والنبي عليه الصلاة والسلام طمأننا :

((إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ))

[ابن ماجة عن ابن مالك]

النبي معصومٌ بمفرده بينما أمَّته معصومةٌ بمجموعها:

((إنَّ أمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ))

[ابن ماجة عن ابن مالك]

إذا تكلَّم الإنسان وفق الحق والكل ساكتون هذا اسمه إجماع سكوتي ، الآن كتاب يُطْرَح في الأسواق صحيح، أدلَّته قويَّة، وفق منهج الله، وفيه روح الدين الإسلامي، تحقَّقت فيه مقاصد الشريعة، لا تجد أحداً يحكي عليه، ولكنهم يثنون عليه، الثناء على هذا الكتاب دليل أن الناس تلقَّوْه بالقبول، أما لو كان فيه انحراف عقائدي لهاجمه الناس، فسكوت الناس عن شيء صحيح هذا اسمه إجماع ولكنَّه سكوتي، إجماع سلبي، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنَّ أمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ))

[ابن ماجة عن ابن مالك]

على المؤمن أن يكون مع جمهور المؤمنين لا مع مطلق الجمهور:

قال تعالى:

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

أي أن صومكم يوم تصومون، لا يوجد انفراد، فطركم يوم تفطرون، كن مع المجموع، حتى إذا قرأت في الكتب كن مع الجمهور لا مع الآراء الشاذَّة النادرة القليلة، هناك آراء شاذة، لها أدلَّة ضعيفة، كن مع الجمهور ؛ مع جمهور العلماء، لأن الجمهور رحمة، طبعاً جمهور العلماء وليس الجمهور العادي:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 116 ")

كن مع جمهور المؤمنين لا مع مطلق الجمهور:

((لا تكونوا إمَّعة))

[الترمذي عن حذيفة]

من هو الإمَّعة، قال: " إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت "، هذا ليس صحيحاً، يجب أن تكون لك استقامتك، ويجب أن لا تعبأ بقول الناس إذا كانوا على انحرافٍ لا يرضي الله عزَّ وجل:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

يتوهم الإنسان بالعُزلة أوهاماً مضحكة، يبني قصوراً من الأوهام، ولكنه يتحجم عندما يقيم مع الآخرين، وهذا التحجيم صحِّي، قد تتوهَّم أنك أكبر مؤمن، فعندما تجلس مع مؤمن أكبر منك ترى أن عملك لا شيء أمام عمله، إخلاصك أقل من إخلاصه، طموحك أقل من طموحه، تتحجَّم، فهذا التحجيم ضروري جداً للإنسان، هذا التحجيم منطلق العطاء، منطلق التفوّق، أما لو أنك توهَّمت أنك في مستوى رفيع جداً، وأنت بعيد عن المجتمع هذا الوهم غير صحيح، هذا يُقْعِدُكَ عن طلب العُلا.

من فوائد الجماعة :

من فوائد الجماعة أنها رحمة ؛ أولاً تصحِّح لك المسار، ثانياً تحفزك على التفوُّق، ثالثاً تأخذ بيدك إذا تعثَّرت، إذا كان للإنسان أخوان كرام يأخذون بيده إن أخطأ، ويعيدونه إلى الصواب إن شرد، يجتهد اجتهاداً مغلوطاً فيصحِّحون له اجتهاده، ولذلك صلاة الجماعة تعدل صلاة الفرد بسبعٍ وعشرين ضعفاً، السبب ؟ الصلاة هي الصلاة، السبب هو الاجتماع، وكم من أخ يأتي إلى بيتٍ من بيوت الله فينزل على قلبه من السّكينة والراحة النفسية والطمأنينة، يلتقي بإخوانه، ينسى همومه، هذه ساعات النفحات الإلهيَّة؛ نفحات تعين على مصاعب الحياة:

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

كن مع المجموع، اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتَّسع، النقطة الدقيقة جداً:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

أي أن العلم في الإسلام وسيلة وليس هدفاً، سهل جداً أن تتكلَّم عن الأخلاق، وسهل جداً أن تتحدَّث عن العبادات، ومن السهل جداً أن تجلس والناس يتحلَّقون حولك وتحدِّثهم، لكن البطولة أن تكون إماماً لهم، فيجب أن يكون الإمام أمام المؤْتَمّين لا وراءهم، يجب أن يكون الإمام في الأمام قدوة:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ (44))

أن تأمر الناس بالبر قضيَّة لا تكلّف شيئاً، وسهلة جداً، لاحظ الناس إذا أصيب إنسان بمصيبة كل من حوله يقولون له: بسيطة، لا توجد مشكلة، طوِّل بالك، سهل عليك أن تُصَبِّره، ولكن لو وقعت معك هذه المصيبة قد تفعل أكثر مما فعل، فالتصبير سهل، والكلام سهل، أما أن تكون في مستوى كلامك هذا الشيء الذي يجعلك بطلاً.

الكلمة الطيّبة بضاعة الأنبياء والكلمة الخبيثة تنتشر لكنَّ ما لها من قرار :

عظمة الأنبياء أن الذي قالوه فعلوه، وأنهم ما أمروا بأمرٍ إلا كانوا سبَّاقين إليه، ولا نهوا عن شيءٍ إلا كانوا أبعد الناس عنه، لم يكن في حياتهم ازدواجيَّة أبداً، لا تجد في حياتهم تناقضاً بين أقوالهم وأفعالهم، حينما ينطلق الإنسان من مصداقيَّة يعيد للكلمة تألُّقها، وقد ذكرت في درسٍ سابق: بماذا جاء الأنبياء ؟ بالكلمة، جاؤوا بكلمة صادقة غيَّرت مفاهيم الحياة، نشروا الحق في العالم، الأنبياء بمصداقيّتهم أعطوا الكلمة قدسيَّتها، كلمة، أما الطُغاة فجاؤوا بأسلحة فتَّاكة، جاؤوا بأجهزة دقيقة جداً، بطائرات فتَّاكة، جاؤوا بمخترعات مذهلة، لكنَّهم مع كل هذه الإنجازات ما قدَّموا للإنسان السعادة، بل قدَّموا له الشقاء، فالأنبياء أعطوا كل شيء من خلال كلمةٍ صادقة، لذلك قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(25))

(سورة إبراهيم)

الكلمة الطيّبة هي بضاعة الأنبياء، والكلمة الخبيثة تنتشر لكنَّ ما لها من قرار، ما لها أساس علمي ، ما لها أساس واقعي:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ (44))

((أوحى الله إلى عيسى "عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني ".))

[أحمد عن مالك بن دينار]

حينما يُطبِّق الإنسان ما يقول يجعل الله لكلامه قوَّةً تأثيريَّةً عجيبة:

إنها وقاحةٌ بالإنسان أن ينصح بشيءٍ لا يفعله، فدعوة الغني المُترَف إلى التَقَشُّف دعوةٌ مضحكة، ودعوة المنحرف إلى الاستقامة دعوة مخجلة، ودعوة الإنسان اللاأخلاقي إلى الخُلق دعوة ساخرة، وهذا ما جعل الناس ينفرون من الدين، إن صحَّ التعبير :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً(3))

(سورة النصر)

حينما تنشأ مسافة كبيرة جداً بين أقوالهم وأفعالهم يخرج الناس من دين الله أفواجاً، وحينما لا يرون المصداقيَّة في الدعاة يخرج الناس من دين الله أفواجاً، وحينما لا يرون في الداعية المَثَل الأعلى يخرج الناس من دين الله أفواجاً:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

يا أيها الرجل المُعَلِّم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

***

يجب أن يكون الإنسان صادقاً مع نفسه، وحينما يُطبِّق ما يقول يجعل الله لكلامه قوَّةً تأثيريَّةً عجيبة حينما ينطلق من واقع يفعل فعل السحر في كلماته، تجد الدعاة إلى الله في التاريخ لهم أعمال كالجبال.

الصفة الجامعة المانعة في مَنْ يدعو إلى الله عزَّ وجل ألا تأخذه في الله لومة لائم :

يروى أن عالِماً جليلاً كان له تلميذ، وهذا التلميذ له عبد، هذا العبد عندما رأى سيِّده يحترم شيخه احتراماً لا حدود له رجاه أن يعطي إشارةً لتلميذه أن يُعْتِقه، فقال له الشيخ: **" إن شاء الله أفعل هذا**

"، مضى شهر، وشهران، وثلاثة أشهر ولا توجد هناك أي حركة، من شدَّة ما رأى محبّة هذا التلميذ لشيخه، اعتقد العبد أن الشيخ لو أعطاه إشارة أن أعتق هذا العبد يعتقه على الفور، والشيخ وعده لكن لم يحصل شيء، ثم زاره مرَّةً ثانية وذكَّره فقال له الشيخ: **" إن شاء الله أفعل هذا "** ، ولم يحدث شيء خلال أشهر، ثم زاره مرَّةً ثالثة، وقد مضى على طلبه سنة، فقال له: **" أفعل هذا إن شاء الله "** ، بعد أيَّام استدعاه سيده وأعتقه تنفيذاً لتوجيه شيخه، فلمَّا التقى العبد بالشيخ قال له: **" يا سيدي كلمةٌ منك تدعو سيدي إلى إعتاقي فلماذا تأخَّرت كل هذه المدَّة ؟ " قال له: " يا بني حمَّلتنا فوق ما نطيق، لقد وفَّرت من مصروف البيت مالاً أعتقت به عبداً، ثم أمرت سيدك أن يعتقك "**، أي أنا ما أمرته أن يعتقك إلا بعد أن كنت قدوةً له.

لو أن الدعاة لا يتكلَّمون كلمة واحدة إلا وطبَّقوها لكنَّا في حالٍ آخر غير هذا الحال. قلت لكم في الدرس الماضي قوله تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً(39))

(سورة الأحزاب)

أي أن هذا الذي يبلِّغُ رسالات الله ينبغي أن يخشى الله وحده، فإذا خشي غير الله فسكت عن الحق إرضاءً لمن خشيه ونطق بالباطل إرضاءً لمن خشيه، ماذا بقي من دعوته ؟ انتهت دعوته، لذلك الصفة الجامعة المانعة في مَنْ يدعو إلى الله عزَّ وجل ألا تأخذه في الله لومة لائم.

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

أكبر وسيلة فعَّالة في التربية أن تأمر ابنك بما تفعله لا بما لا تفعله:

ذكرت لكم من قبل: كيف أن الله عزَّ وجل استخدم الأسلوب التربوي الفَعَّال في الحديث عن أمراض بني إسرائيل، مع أن هذه الأمراض في مُجْمَلِها قد تلبَّسنا بها، فنحن مُعَرَّضون أن نصاب بأمراضهم تماماً، حدَّثني شخص كطرفة، قال لي: في أحد المعاهد الشرعية رجل له باع طويل في إلقاء الدروس، ألقى درساً عن التواضع ببيان رائع ووصف دقيق جداً، ولكنه بعد ما خرج من الدرس كان جالساً بغرفة المدرِّسين بدرجة من الاستعلاء لا تُحْتَمَل !!! هو أتقن درس التواضع لكنَّه لم يتواضع، الناس يتعلَّمون بعيونهم لا بآذانهم، ماذا يرى ؟ يجب أن ترى التواضع، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال:

((... وعليّ جمع الحطب ـ سيد الخلق ـ قالوا له: نكفيك ذلك، قال: أعلم أنكم تكفونني، ولكنَّ الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

هذا الكلام موجَّه للآباء في الدرجة الأولى، أكبر وسيلة فعَّالة في التربية أن تكون أنت قدوته، أكبر وسيلة فعَّالة في التربية أن تأمر ابنك بما تفعله لا بما لا تفعله، فبالتعليم إذا ضُبِطَ طالب يدخِّن يُعَاقب عقاباً شديداً، وأستاذه يدخِّن أمامه، وإذا دخَّن الطالب يعاقبه، وهو المثل الأعلى، أخطر شيء يفعله الآباء أنهم لا يطبِّقون توجيهاتهم، إذاً سقطت الكلمة كقيمة، الأنبياء جاءوا بالكلمة، فإن لم تُطبَّق سقطت هذه الكلمة، وعندئذٍ لا جدوى منها، والدليل يقولون لك: كلام بكلام، وإذا تلاسن اثنان يقول لك: بلا فلسفة، لأن الكلمة سقطت، ولم يعد لها قيمة، يمكن أن تتكلَّم كلاماً ليس له معنى، وتتكلَّم كلاماً كلَّه كذب، وتتكلَّم كلاماً غير واقعي، وتتكلَّم كلاماً لا تفعله أنت، وتتكلَّم كلاماً أنت بعيدٌ عنه بعد الأرض عن السماء، فالكلام حينما يبتعد عن الواقع وعن التطبيق لم يكن له قيمة، لذلك الآن أزمَّة المسلمين في العالم أن العالم لا يقنع بالكلام، أعطه مجتمعاً إسلامياً طُبِقَ فيه الإسلام وقُطِفَت ثماره كلها لكي يسلم، يأتي الذين أسلموا من الكتب إلى الشرق الأوسط فيرون العكس، يحمدون الله على أنهم أسلموا قبل أن يأتوا إلى هنا، الإسلام بالكتب سهل، كلام جميل ودقيق، يأتي إلى هنا يجد أن هناك كذباً، وانحرافاً، وتقصيراً، وازدواجيَّة، و نِفاقاً.

حينما يتصل الإنسان بالله تصطبغ نفسه بالكمال :

قال تعالى:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ (44))

المنهج بين أيديكم، الكتاب بين أيديكم، افعل ولا تفعل بين يديك في متناول كل إنسان، الأمر والنهي سهل جداً:

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ (45))

الآية دقيقة جداً، حينما يتصل الإنسان بالله تصطبغ نفسه بالكمال، يضعف الجهد في حمل النفس على طاعة الله، صارت الاستقامة سهلة، شخص نظيف جداً لا يحتاج إلى معاكسة لنفسه من أجل تنظيف جسمه، هو نظيف، يمارس النظافة مع راحةٍ نفسيَّة، أما إذا كان بعيداً عن النظافة، ويوجد عليه ضغط من أبيه أن غسِّل، واعتن بنفسك، صار عليه عبء شديد، فالإنسان قبل أن يصل إلى الله عزَّ وجل، أو قبل أن يصطبغ بصبغة الكمال يحتاج إلى صبر، يحتاج إلى مجاهدة، هناك مثل أوضح من ذلك:

إذا كان الإنسان قبل أن يتوب متعلِّقاً ببعض الأغنيات، ثم هو تاب إلى الله وامتنع عن سماع الغناء كلِّياً، لكن نفسه تتوق لهذه الأغنية، فلو سمعها في مركبةٍ عامَّة تجاوب معها تجاوباً عجيباً، هو لا يسمعها بقصد، ولكنه سمعها عَرَضَاً، لكن بعد حين، بعد سنوات، بعد أن تصطبغ نفسه بالكمال يحتقر هذه الأغنيات، ويشمئز منها، ويترفَّع عنها، هذا الإنسان مرَّ بمرحلة المجاهدة يوم كانت نفسه بعيدةً عن مثله الأعلى، ثم انتقل إلى مرحلة الانسجام يوم أصبح مصطبغاً بالكمال.

إذا كان بينك وبين الكمال مسافة استعن بالله والصبر إلى أن تصل إليها:

ربنا عزَّ وجل قال:

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ (45))

الاتصال بالله يكسبك الكمال وعندها لا تحتاج إلى مجاهدة كبيرة، فالصادق الحليم فعلاً لا يحتاج إلى بذل جهد في الحلم، أما الذي يتحلَّم، **" إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحلم بالتحلُّم "**، يقول لك الذي يتصنَّع الحلم: كنت أغلي من داخلي كالمرجل ولكني ضبطت أعصابي، هذا يتحلَّم، وليس حليماً، إذاً يوجد جهد كبير بالضبط، ومعنى هذا هناك مسافة بينك وبين الكمال، ولكنه أمر جيد على كل حال، جيد جداً أن تحمل نفسك على الكمال عن طريق التصنُّع، لكن بعد حين عندما تتصل بالله عزَّ وجل وتصطبغ النفس بالكمال صار الحلم عندك سهلاً جداً، صار جزءاً من طبيعتك، صار جزءاً من جبلَّتك، فأنت حليم بحكم سجيَّتك الطيّبة الطاهرة، الآية دقيقة، فإذا كان بينك وبين الكمال مسافة استعن بالله والصبر إلى أن تصل إليها، فإذا وصلت إليها يعينك اتصالك بالله عزَّ وجل المحكم على تطبيق هذا المنهج الكامل:

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ (45))

الصلاة كبيرة، كبيرة على المنافق :

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

(سورة التوبة: من آية " 54")

كبيرة عليه، يصعب عليه أن يصلي، قد يمضي ساعات طويلة في كلام فارغ أما أن يصلي التراويح فهي صعبة عليه، لا يحتمل، أنا والله أعرف أناساً في التراويح كأنهم في جنَّة، في جنَّة من جنَّات القُرب، واقف يستمع إلى القرآن الكريم وكأن الله يحدِّثنا، قال: **" إن أردت أن تحدِّث الله فادعه، وإن أردت أن يحدِّثك الله فاقرأ القرآن "**، أنت حينما تقرأ القرآن أو تستمع إليه تشعر وكأن الله يحَدِّثك، فالتراويح فيها راحة للنفس، والفرق بين صلاة المنافق وصلاة المؤمن أن صلاة المنافق أرحنا منها، والمؤمن أرحنا بها، هذا هو الفرق بين (من) وبين (الباء)، المنافق يقول: أرحنا منها، والمؤمن يقول: أرحنا بها.

الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين:

قال تعالى:

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45))

الإنسان المتفلِّت يُطلق بصره في الحرام، ماله حرام، عمله سيِّئ، فإذا وقف ليصلي تجد أنه محجوب عن الله عزَّ وجل، فصلاته حركات ليس لها معنى بالنسبة له، أحياناً تجد صلاة سريعة جداً

غير معقولة إطلاقاً، فالصلاة السريعة أو الصلاة التي لا يوجد فيها خشوع سببها الحجاب، فإذا صلى الإنسان ولم يشعر بشيء، قرأ القرآن ولم يشعر بشيء، ذكر الله ولم يشعر بشيء، فعنده مشكلة كبيرة جداً، إذا انقطع عند مريض خروج البول هذه ليست مشكلة عرضيَّة ولكنها علامة كبيرة جداً، هذا عنده مشكلة، عنده فشل كلوي وسيعاني معاناة كبيرة، يوجد في الجسم أعراض يمكن أن يقول الناس: ليس فيها شيء، مع أنها خطيرة جداً، وتوجد أعراض مؤلمة ولكنَّها غير خطيرة، فإذا صلى الإنسان ولم يشعر بقربه من الله عز وجل، وقرأ القرآن لم يشعر أيضاً، وذكر الله وما شعر بشيء، فمشكلته كبيرة جداً، أي أن الطريق مقطوع، وهو واقع بحجاب شديد.

هذه الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، إذا تحرّى الإنسان الحلال فوجهه أبيض، وخدم الخلق وأحسن إليهم وأنصفهم، وما أكل مالاً حراماً، وما ابتزَّ أموال الناس، وما استغلَّ جهلهم فوجهه يبقى دائماً أبيضاً، هناك نقطة لا ينتبه إليها أحد، قد تكون شاطراً، وقد تحقّق نجاحاً كبيراً جداً في الحياة بأساليب غير أخلاقيَّة، وعندما يسلك الإنسان طريقاً غير أخلاقي يحدث عنده انهيار داخلي، فتجد ردود فعله عنيفة جداً وغير متوازنة، لأنه عندما خالف فطرته عذَّبته فصار عنده انهيار داخلي، الذي يراعي راحة نفسه الأخلاقيَّة، يراعي أنه منسجم تماماً مع نفسه هذا مؤمن، فهذه الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، من هم هؤلاء الخاشعون ؟

المفتاح الدقيق للآيـة أن تؤمن بالآخرة :

قال:

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ (46))

كل عمل يعمله يتصوَّر أنه واقفٌ بين يدي الله عزَّ وجل، لماذا فعلت كذا ؟ لماذا أعطيت ظلماً ؟ لماذا منعت ؟ لماذا طلَّقت ؟ لماذا غدرت ؟ لماذا كذبت ؟ لماذا احتلت ؟ لماذا اغتصبت هذا البيت ؟ لماذا لم تنصح فلاناً ؟ أما إذا كان كل يومه أخطاء ومعاصي وآثاماً فأي صلاة هذه ؟! نقول له : صل، ولكن استقم من أجل أن تتصل بالله عزَّ وجل:

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

المفتاح الدقيق للآية أن تؤمن بالآخرة، أن تؤمن أنه لا بد أن تقف بين يدي الله عزَّ وجل ليسألك: لماذا فعلت هذا ؟ دخلت زوجة سيدنا عمر بن عبد العزيز عليه وهو يبكي في مصلاَّه، فقالت له: **" ما يبكيك؟ قال لها: " دعيني وشأني "، ألحَّت عليه ما يبكيك؟ فلمَّا ألحَّت عليه قال: " يا فلانة إني نظرت إلى الفقير البائس، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، وابن السبيل، والمرأة الأرملة، والشيخ الفاني ـ ذكَّر أصنافاً من المعذَّبين في الأرض ـ كل هؤلاء سيسألني الله عنهم جميعاً."**

إذا تعثرت بغلة في العراق قال: **" لو تعثَّرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها: " لمَ لمْ تُصْلِح لها الطريق يا عمر ؟ "** ، عمر حاسب نفسه على بغلة تعثَّرت في العراق، لِمَ لمْ يصلح لها الطريق.

عندما تدخل الآخرة بحساباتك اليوميَّة تنعكس كل موازينك:

عندما يؤمن الإنسان بالآخرة يتصوَّر أنه سوف يُسأل عن كل عمل، هذا الإنسان إذا صلَّى فصلاته مقبولة، وصلاته مجدية، وصلاته طيّبة، وصلاته مسعدة لأن وجهه أبيض، سأحضر مثالين واضحين: رجل في الحي محترم جداً، يحتل أعلى منصب في الجيش فرضاً، قائد فرقة، وله ابن، وعنده جندي غر التحق بالخدمة قبل يومين، هذا الجندي الغر لا يستطيع أن يقابل لواء ولا في المنام، توجد عنده مئة رتبة يقابلها قبله ؛ لو وجد هذا الجندي ابن هذا اللواء يغرق في مسبح وأنقذه، وفي اليوم الثاني يدخل ويقابله بكل جرأة بلا استئذان، يقول للحاجب: قل له فلان ويدخل على الفور لأنه عمل عملاً طيّباً، العمل الطيب يلغي الروتين كلَّه، يلغي طريق التسلسل المقابلات. أما لو كان ابنه معه باللعب وضربه ضرباً مبرِّحاً، وعطبه، وهو لا يعرف أنه ابن معلِّمه، وعرف في اليوم التالي أنه ابن معلِّمه وقال له: تعال عندي، كيف يدخل عنده في المكتب ؟ لا يستطيع أن يدخل عنده.

هذه القصَّة كلها، قصة كل الخلق وعباد الله عزَّ وجل، غشّهم ولكن الله حجبك عنه، قد تبتز مالهم بأسلوب ذكي، هناك ألف أسلوب ذكي لابتزاز الأموال، ولكن الله كاشفك وأنت كاشف نفسك:

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

قد تصبح غنياً كبيراً بالكذب والاحتيال، قد تبيع بيعة سيِّئة جداً بأعلى سعر، قد تستغل جهل إنسان، وقد تأكل مالاً بالحرام، أعطى أحدهم لإنسان عشرين مليوناً ومات بحادث على الفور، ولا أحد يعلم، ولا توجد ورقة، بعد حين سمع هذا الأخ الذي معه المبلغ درساً من الدروس في جامع العثمان عن الأمانة، أرسل لي ورقة كتب فيها: والله رددت عشرين مليوناً لورثة صديق لي، وهم لا يعلمون عنها شيئاً، خاف من الله، عندما تدخل الآخرة بحساباتك تنعكس كل موازينك، عندما تدخل الآخرة بحساباتك اليوميَّة تنعكس كل موازينك، أما إن لم تدخل الآخرة في حساباتك تعد نفسك ذكياً لو أكلت مالاً حراماً، توجد ألف قصَّة، مليون قصَّة، إنسان اغتصب شركة، واغتصب بيتاً، يرى نفسه أنه ذكي، وكلّ محامياً قوياً، قدَّم وثيقة مزوَّرة، ويعد نفسه بطلاً، لأنه استطاع أن يغتصب، ولكنه أمام الله عزَّ وجل محتقر، لماذا يتصل المؤمن بالله ؟ لأنه لم يعمل شيئاً أبداً، ينام على فراش وثير من استقامته، أما المنافق ينام على شوك من ذنوبه وأخطائه.

البطل الذي يحل مشكلته مع الله وليس مع عبد الله:

يوجد فندق في ألمانيا ذكرت عنه كثيراً مكتوب على السرير: **" إذا لم تستطع النوم فالعلَّة ليست في فراشنا بل في ذنوبك "** ، العلَّة بالذنوب، إذا عمل الإنسان عملاً سيِّئاً، كسب مالاً حراماً، أخطأ

مع فتاة ـ فرضاً ـ باع بيعة سيئة جداً بسعر عالٍ جداً، إنه حلَّ مشكلته الماديَّة ولكن مشكلته مع الله لم تُحَل، هو في انهيار.

قال له: **" بعني هذه الشاة وخذ ثمنها " ، قال: " ليست لي "، قال له: " خذ ثمنها " ، قال: " والله إني لفي أشدِّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟!! "**

توجد حالات كثيرة لاسيما عند أصحاب المصالح، قد يحفر عشرة أمتار ويقول لك: حفرت أربعين متراً، يضع القمصان أثناء غيابك ويعطيك حساباً عالياً، هو حلَّ مشكلته الماديَّة ولكنه لم يحلَّها مع الله ؟ البطل الذي يحل مشكلته مع الله وليس مع عبد الله، هنا:

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46))

إنك لن تستقيم إلا إذا آمنت باليوم الآخر، إن أردت كلاماً دقيقاً، واضحاً، جلياً، بسيطاً، علمياً، واقعيَّاً عن أسباب الاستقامة الحقيقية فهو إيمانك أن الله سيحاسبك تقول لي: ضمير، هذا كلام فارغ، وحينما تؤمن أن هناك حساباً لن تعصي الله أبداً، وحينما تؤمن أن هناك حساباً وأن الله لا تخفى عليه خافية، وأن الله سيسأل الناس جميعاً:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

انتهى الأمر، قضية إيمان بالآخرة، إيمان بأنك لا بد من أن تقف بين يدي الله عزَّ وجل، ولا يخفى على الله شيء، وسيعرض الله عليك كل أعمالك مصوَّرة، المخالفة مع صورتها، والصورة مسكتة، تجاوز شخص القوانين فبعثوا له المخالفة فقال: أنا لم أكن في المكان الفلاني، فعندما رأى الصورة ـ صورة سيَّارته ـ والتاريخ، والسرعة، الصورة مسكتة، لذلك في الآخرة توجد صور المخالفات، شريط:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(49))

(سورة الكهف)

لماذا اتصلوا بالله ؟

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (24- 95):تفسير الآية 47 ، إن لم نتناهَ عن منكرٍ فعلناه وقعنا في أمراض بني إسرائيل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-01-08

بسم الله الرحمن الرحيم

انطلاق الأسلوب الحكيم في هذا القرآن الكريم من التنبيه غير المباشر للمسلمين:

مع الآية السابعة والأربعين وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47))

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء ينطلق الأسلوب الحكيم في هذا القرآن الكريم من التنبيه غير المباشر للمسلمين، فالمسلمون وقد جاءهم كتابٌ من عند الله معرَّضون لأمراضٍ كأمراض بني إسرائيل، فالمقصود من الحديث عن بني إسرائيل في القرآن الكريم هو المسلمون لأنهم أهل كتابٍ مثل بني إسرائيل، ولأن الأمراض المُهلكة التي حلَّت ببني إسرائيل يمكن أن تَحُلَّ بهم تماماً، وهذا الشيء واضح جداً:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

يعتقد المسلمون بشفاعة النبي، افعل ما شئت، ما دمت من أمة محمدٍ فالنبي الكريم يشفع لك، يفهمون الشفاعة فهماً ساذجاً، ويقعدون عن العمل، وكأنَّ هذه الشفاعة حلَّت لهم كل مشكلة، لو تتبعت الأمراض الوبيلة المُهلكة التي ألمَّت ببني إسرائيل لوجدت المسلمون قد تلبسوا بمعظمها، إذاً هذا أسلوبٌ حكيم، أسلوبٌ أشدُّ تأثيراً، يمكن لأمراضهم أن تنتقل إليكم، هم انحرفوا فهلكوا، وأنتم إذا انحرفتم هلكتم مثلهم، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ))

[البخاري عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّه عَنْها]

إن لم نتناهَ عن منكرٍ فعلناه وقعنا في أمراض بني إسرائيل:

لكن ما الذي سبَّب هلاك بني إسرائيل ؟ قال: كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، بربكم أليس هذا المرض الذي كان سبب هلاكهم واقعاً بنا جميعاً ؟ كلٌ يجامل أخاه، لا أحد يأمر بالمعروف وينهى

عن المنكر، يجامله، يمدحه مع أنه يعلم أنه على باطل، يُثني عليه، ويثني على ذكائه وحكمته، يعلم أنه لا يصلي، مع أنه يعلم أنه لا يصلي أحياناً مجاملات بالاحتفالات، بعقود القِران، والمتكلّم يعلم علم اليقين أن هذه الأسرة متفلّتة، وغير منضبطة بمنهج الله عزَّ وجل، فإذا لم نتناه عن منكرٍ فعلناه وقعنا في مرض بني إسرائيل ؛ الأمل هذا مرضٌ مهلكٍ:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7))

(سورة الجمعة)

طول الأمل أيضاً وضعف اليقين مرضان مهلكان أهلكا المسلمين، متأمِّل في الدنيا فقط ولم يُدْخِل الآخرة في حساباته إطلاقاً، هذا مرَض أيضاً.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ (18))

(سورة المائدة: من آية " 18 ")

نحن كذلك ندَّعي أننا أمَّة مختارة، ندعي أننا خير أمةٍ أُخرجت للناس، والله يعذِّبنا كل يوم، ما مرَّ بتاريخ المسلمين وقت أشدُّ إيلاماً من هذه الفترة، إذاً المرض نفسه، الأمراض نفسها.

ذكر الله أمراض بني إسرائيل لتكون واعظاً لنا :

يا أيُّها الأخوة الكرام، ما ذكر الله أمراض بني إسرائيل في هذا القرآن الكريم إلا لتكون واعظاً لنا من أن تزل أقدامنا فنقع في أمراضٍ قد وقعوا هم بها أيضاً، وكما قال الله عزَّ وجل :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

قال بعض العلماء: " النعمة أن أوصاف نبينا عليه الصلاة والسلام جاءت في كتبهم ليؤمنوا به، وهذه نعمة "، أي أنه أعانهم على أنفسهم بأن جاءت في كتبهم أوصاف النبي التفصيليّة، والدليل ؛ الآن أنا أسألكم: ما هي المعرفة الفطريَّة، البديهيَّة، السريعة، التي لا تحتاج إلى برهان، ولا إلى دليل، ولا إلا تَذَكُّر ؟ إنها معرفة الأب بابنه، هل يوجد أب في الأرض يدخل إلى البيت ويقول لابنه: ما اسمك يا بني؟ لا تجد إنساناً يفعل ذلك، إنه يعرفه من صوته، من مشيته، من ظهره، قال الله عزَّ جل :

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ (146))

(سورة البقرة: من آية " 146 ")

مع ذلك كفروا به، لماذا كفروا به ؟ بغياً، وعلواً، واستعلاءً، لذلك أخطر شيء في الحياة أن تعصي الله كِبراً، كم من إنسان يعلم أن هذه الجهة على حق وتأبى نفسه أن يكون منها، يرى نفسه أكبر من ذلك، المؤمن يخضع للحق .

تولَّى المسلمون اليوم عن تطبيق منهج الله كما فعل بنو إسرائيل من قبل:

الشيء الثاني :

(وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47))

هذا التفضيل لا يعني أنهم متفوِّقون، أحياناً يفضِّل الأب ابنه المقصِّر بعشرة مدرِّسين خاصين، هو فضَّله على بقية أولاده المتفوِّقين، فهذا التفضيل تفضيل تقصير، هم قتلوا الأنبياء، ماذا فعلوا ؟ قال :

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ (83))

(سورة البقرة: من آية " 83 ")

لَمْ تفعلوا كل ذلك:

(إِلا قَلِيلا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ(83))

(سورة البقرة: من آية " 83 ")

تولوا عن تطبيق منهج الله كما تولَّى المسلمون عن تطبيق منهج الله الآن، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا الحديث من دلائل نبوَّة النبي:

((يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[سنن أبي داود عن ثوبان]

كأن النبي عليه الصلاة والسلام بيننا، هذا الذي حدث، جاءت ثلاثون دولة لتحارب بلاد المسلمين، وتنهب ثرواتهم وأموالهم، وتدمِّر أسلحتهم، وتضعفهم، وتكسر شوكتهم، وتحتلَّ أرضهم، وتستبيح المُحَرَّمات.

معنى كلمة (فضلتكم):

أيها الأخوة الكرام:

(فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47))

أي خصصتكم بأنبياء كثيرين ليعلِّموكم، شيءٌ آخر :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246))

(سورة البقرة)

هذه آية ثانية، تولَّوا لم يقاتلوا:

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (70))

(سورة المائدة)

قتلوا أنبياءهم، إذاً هم مفضَّلون لتقصيرهم، مفضَّلون لانحرافهم، مفضلون لمعاصيهم، فقد يقول الأب لابنه: يا بني أخوتك درسوا بلا أساتذة خاصين، إنني فضَّلتك على كل أخوتك بعشرة مدرِّسين ولم تنجح!! بالضبط هذا هو المعنى.

من أسباب هلاك بني إسرائيل :

قال تعالى:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78))

(سورة المائدة)

حينما تدخَّل أحد أصحاب النبي ـ وهو حِبُّ رسول الله سيدنا أسامة بن زيد وكان النبي يحبُّه حبَّاً شديداً ـ في شأن المخزوميَّة التي سرقت ليشفع لها كي لا تُقطَع يدها، غضب النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشدَّ الغضب، وقال:

((أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]

هذا أحد أسباب هلاك بني إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.

عشرات المعجزات رآها بنو إسرائيل بأعينهم ومع ذلك كفروا:

قال تعالى:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138))

(سورة الأعراف)

ما فكَّروا، ما عقلوا، ما وحَّدوا، كل هذه المعجزات ؛ شُقَّ البحر لهم، أراهم العصا وقد أصبحت ثعباناً مبيناً، أراهم يده وقد جعلها الله بيضاء للناظرين، عشرات المعجزات رأوها بأعينهم ومع ذلك كفروا:

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138))

(سورة الأعراف)

وقال:

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4))

(سورة الإسراء)

ترون بأعينكم كيف أنهم يتآمرون على أقوى قوَّة في العالم، ويمرّغون من يقبع على سدَّة الحكم فيها في الوحل، خلقوا له مشكلةً لا تزال آثارها حتى الآن لأنه أخذ موقفاً شبه منصف:

(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا(4))

(سورة الإسراء)

هذا في القرآن.

تجمُّع اليهود في فلسطين ورد في القرآن الكريم:

قال تعالى:

(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104))

(سورة الإسراء)

تجمُّع اليهود في فلسطين ورد في هذه الآية

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ)

أي وعد الآخرة ؟ قال تعالى :

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5))

(سورة الإسراء)

هذا غزو بختنصَّر لليهود واستباحة أموالهم ونسائهم، وكان هذا قد وقع:

(وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا(5)ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا(6))

يقال الآن أن الإعلام في العالم بيدهم، وأكثر الأموال بيدهم، والبنوك بأيديهم، والاقتصاد بأيديهم، والجامعات أكثرها بأيديهم.

بالنصوص القطعية الثبوت والدلالة في القرآن والسنَّة سوف ينتصر المسلمون على اليهود:

قال تعالى:

(وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا(5)ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا(6)إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ (7))

الوعد الثاني:

(لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ)

المسلمون:

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ (7))

المسجد الآن بأيديهم:

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا(7))

(سورة الإسراء)

بالنصوص القطعية الثبوت والدلالة في القرآن والسنَّة سوف ينتصر المسلمون عليهم إن شاء الله، ونرجو الله أن نرى ذلك قبل أن نموت، وسوف يُجمَّع اليهود في هذه البلاد المقدَّسة لتكون إن شاء الله نهايتهم، فهم قد تجاوزوا كل حدٍ معقول في عدوانهم وغطرستهم واستهتارهم بالقِيَم.

تسوى الحقوق يوم القيامة ويؤخذ للمظلوم من الظالم:

قال تعالى:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48))

يوم القيامة يُحل مليار مشكلة، ويجيب عن كل سؤال يظهر أمامك، هناك معلومات يصعب على العقل أن يصدِّقها، مثلاً هل من المعقول أن يموت خمسمئة ألف طفل كل سنة من شعب واحد وهو العراق وبالمقابل هناك في بلاد الغرب تجرى عمليَّات زرع دَسَّام وزرع شريان وقلوب للكلاب وزرع مفاصل؟!! وهناك طبيب نفسي لمعالجة الكآبة عند الكلاب، وطبيب أسنان لزرع الأسنان لديهم، ومقبرة للكلاب، ويأكلون من اللحم ما يأكله الشعب الهنديُّ بأكمله ـ الذي يعد تسعمئة مليون ـ هذا ظلم شديد، هم يعيشون كذلك وملايين مملينة يموتون من الجوع.

ذكرت لكم من قبل أنه أُطْلِقَ النار على عشرين مليون رأس من الغنم ودُفِنت تحت الأرض للحفاظ على أسعار اللحم في العالم مرتفعة، تتلف محاصيل الحمضيات في أمريكا للحفاظ على أسعارها المرتفعة، وعندما بدأ الزنوج يتسلَّلون إلى أماكن إتلافها ليأكلوها سمَّموا هذا المحصول في العام القادم لئلا يأكل منه أحد، حجم مشتقات الحليب التي تُتلف كحجم أهرامات مصر من أجل الحفاظ على الأسعار مرتفعة، وترون وتسمعون المجاعات في الصومال، وفي بنجلاديش، وفي السودان، وفي جنوب السودان، هم كالوحوش، فلذلك تسوى الحقوق يوم القيامة ويؤخذ للمظلوم من الظالم، يقول الله عزَّ وجل:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

أمثلة من الواقع عن استهزاء الغرب بالدول النامية:

معامل أدوية ضخمة جداً إذا فسدت طبخة دواء بيعت إلى الدول النامية، دواء فاقد الفعالية، يشتريه الناس الفقراء بأعلى سعر علماً أنه غير صالح لأن صانعيه لا يتلفونه، الدخَّان الذي يصدِّروه لنا أسوأ أنواع الدخان، يحوي أعلى نسبة نيكوتين ويباع بأعلى سعر، ونحن نُقْبِلُ على بضاعتهم، هذا شيء مخيف جداً .

مرَّة خُصص في بلدنا أسبوع لمكافحة التدخين، وذكر وزير الصحَّة في برنامج أذيع في ذلك الأسبوع فقال: اتصل بي صديق من أمريكا وأعلمني أن كل الدُخان المصدَّر إلى الشرق الأوسط هو من أسوأ أنواع الدخان في العالم، ونسب النيكوتين فيه عالية جداً، هكذا يبيعونك .

شيءٌ آخر أيضاً، هناك بعض الشركات الأجنبية تزور كل المنتجات الغذائيَّة التي انتهى مفعولها وتُبَاع تهريباً لدول المنطقة، فانتبهوا أيها الأخوة، لا تفرح بالتهريب، هذا كلام علمي ودقيق، البضاعة النظامية خاضعة للتحليل ـ تحليل دقيق جداً ـ هذا أعرفه معرفةً تامَّة، هناك تحليل دقيق جداً، البضاعة المهرَّبة قد تكون منتهية المفعول، هناك معامل في بعض البلاد التي لا تعرف الله عزَّ وجل تقلّد البطاقات النظاميَّة بشكل مذهل فكل بضاعة انتهى مفعولها ؛ من أجبان، ألبان، معلَّبات، وكل شيء انتهي مفعوله يزوِّر المعمل هذا المعمل ؛ تاريخ انتهاء المفعول، وتأتيك البضاعة بشكل غير نظامي وأنت فرح بها، وتقول: أخذناه أقل بمئة، ما هذا والله ؟ أنت هل تعرف أن هذه البضاعة منتهية المفعول، فلذلك يوم القيامة هذا تسوى فيه الحقوق .

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48))

العبرة أن تكون عند الله مقبولاً ومستقيماً ومحسناً يوم الحساب:

ذكرت مرَّة أنه وصل إلى مصر بعض الحلويات من إسرائيل تهريباً، فإذا فيها مادَّة تثير الجنس، تمت ثلاث عشرة حادثة زنا في جامعة واحدة، في ليلة واحدة، بسبب علكة تم توزيعها، وهذا الشيء ذُكِر في صحفنا، أنا أذكر شيئاً مذكوراً بالصحف، يصدِّرون موادَّ تصيب الرجال بالعُقم أحياناً، إذا كانت بضاعة مهرَّبة قد تأتي من محلات مشبوهة، قد يكون فيها مواد مؤذية جداً، مواد تجعل الإنسان عقيماً فيصبح بلا نسل، مواد تثير الجنس، أو مواد قد انتهى مفعولها، فالإنسان عليه أن يكون دقيقاً فيما يدخل إلى جوفه، المؤمن دقيق جداً فيما يُدخل إلى فمه وفيما يخرج من فمه، كلامي دقيق، فيما يدخل وفيما يخرج، فتظل صناعاتنا المحليَّة ـ ولو كانت أقل اتقاناً ـ ولكنها خالية من الغش، فالأمر معقول جداً قمح، وسكَّر، وزبدة من إنتاج بلدنا، أما شيء لا نعرف كيف وصل لعندنا، وبأي طريقة وصل، وغير خاضع للتحليل هذا شيء مخيف جداً.

على كلٍ هذا الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين، هذا الذي يبني غناه على إفقارهم، يبني صحَّته على مرضهم:

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48))

تُحَل بعض المشكلات في الدنيا بطريقةٍ أو بأخرى، أما في الآخرة عند قيّوم السماوات والأرض لا يمكن أن تُحَلَّ مشكلة إلا بشكلها الصحيح، هو يوم العدل، يوم الإنصاف، يوم الدينونة، يوم الجزاء، يوم الحساب الدقيق، يوم تنال فيه حقَّك الكامل، فالعبرة أن تكون عند الله مقبولاً، والعبرة أن تكون عند الله مستقيماً، والعبرة أن تكون عند الله محسناً:

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا (48))

الله عزَّ وجل كامل كمالاً مطلقاً لا يقرِّب إلا الإنسان الكامل:

((يا فاطمة بنت محمد ـ كلُّكم آباء أو أكثركم آباء، والبنت غالية جداً ـ أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

عم سيدنا رسول الله أبو لهب:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2))

(سورة المسد)

توجد نقطة في هذا الموضوع دقيقة جداً، الله عزَّ وجل كامل كمالاً مطلقاً، لا يقرِّب إلا الإنسان الكامل، بخلاف الأقوياء، الأقوياء يقرِّبون من يعلن ولاءه لهم فقط، وقد يكون أسوأ إنسان، قد يكون مسيئاً للمجتمع، يقربونه ما دام أعلن ولاءه، أما الله عزَّ وجل لا يقرِّب مخلوقاً إلا إذا كان كاملاً:

" يا رسول الله مثِّل بهم كما مثَّلوا بعمِّك حمزة "، قال عليه الصلاة والسلام: "لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبيَّاً ".

عظمة الدين أنه لا يمكن أن يقرِّبك الله، ولا أن يتجلَّى على قلبك، ولا أن ينظر لك بالعطف والرحمة إن لم تكن محسناً، لذلك عندما فتح الفرنجة القدس ذبحوا سبعين ألف إنسان مسلم في ليلة واحدة، أما عندما فتحها صلاح الدين رحمه الله تعالى فما سفك دماً حراماً أبداً، أمَّنهم وسمح لهم أن يبيعوا متاعهم وأن يقبضوا ثمنه، وأن يخرجوا بما تحمله دوابُّهم من متاع، ولم يؤذهم، وحتى الآن يأتي الفرنجة إلى دمشق، ويقفون أمام قبره محترمين، فقد كان إنساناً عظيماً، كان بإمكانه أن يكيل لهم الصاع بعشرة، سبعون ألف إنسان تمَّ ذبحهم في ليلة واحدة، حسبما تروي كتب التاريخ حينما فتح الفرنجة القدس، أما عندما فتحها صلاح الدين فقد كان رحيماً.

أدلة من القرآن والسُّنة أن الإنسان يوم القيامة يُحاسَب عن كل شيء:

تعرفون القصَّة الشهيرة أن أماً ضاع ابنها، فوقف سيدنا صلاح الدين وقال: **" لا أجلس حتى يعود ابنها إليها "**، وهي من أهل الكتاب، المسلم رحيم، المسلم يرجو رحمة الله عز وجل، المسلم مُقَيَّد بألف قيد :

((الإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ لا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[سنن أبي داود عن أبي هريرة]

المؤمن مقيَّد، الإنسان بنيان الله وملعونٌ من هدم بنيان الله، هذا الذي يخوِّف الإنسان ويبتز ماله يصيبه بمرض، هل تصدِّقون أن مساعدات غذائيَّة جاءت من أمريكا إلى الصومال، ونصف الباخرة نفايات ذريَّة أُلقيت في سواحل الصومال، هل تصدِّقون ذلك ؟ طريقة من طرق التخلُّص من النفايات الذريَّة، نرسل باخرة مساعدات غذائيَّة نصفها غذاء، ونصفها نفايات ذريَّة ذات إشعاع تُلْقَى في سواحل الدول المتخلِّفة، فلذلك يوم القيامة يُحاسب الإنسان عن كل شيء:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48))

لا تُحل مشكلة هناك:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

ورد في الحديث الصحيح أن النبي يقول يوم القيامة:

((ألا لَيُذَادَنَّ رجَالٌ مِنْكُمْ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ ألا هَلُمَّ فَيُقَالُ إِنَّهُمْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحقًا))

[أحمد عن أبي هريرة]

صلاتك يجب أن تتوج استقامتك وأخلاقك العالية:

يا أخواننا الكرام، صدِّقوني والله إني لكم ناصحٌ أمين، وأنا أنصح نفسي قبلكم، الدين ليس أن تصلي فقط، الصلاة أقل ما في الدين، الصيام أقل ما في الدين، الدين أن تكون صادقاً، أن تكون أميناً، أن تكون عفيفاً، أن تكون ورعاً، أن تؤدِّي الحقوق، أن تعطي كل ذي حقٍ حقَّه، الدين أن تبيع بيعاً شرعياً، الدين أن لا تبيع بضاعةً فاسدة، هل يمكن لإنسان أن يحك تاريخ انتهاء مفعول دواء ليبيعه لمريض ؟! والله أنا كل حياتي كنت أظن أن الدواء المنتهي مفعوله لا ينفع، ثم ثبت لي بشيء مخيف

أنه يؤذي، لأن هذه المواد الكيماوية إذا فكّكت قد تصبح مواد سامَّة، لو كان لا ينفع خسر ثمن الدواء فقط ولم يشف، أما حينما يؤذي !عندما يبيح الإنسان لنفسه أن يغيِّر تاريخ انتهاء مفعول دواء، أو يبيح لنفسه أن يبتز مال إنساناً، يوهم إنساناً، يخدع إنساناً، يغش إنساناً، هذا ولو صلَّى:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ (142))

(سورة النساء: من آية " 142 ")

يخادعون الله بالصلاة، اعتبر أن صلاتك يجب أن تتوج استقامتك، أن تتوِّج أخلاقك العالية، أن تتوِّج صدقك وأمانتك، إحسانك للخلق، لو فهم المسلمون الدين فهماً عميقاً والله لكنَّا في حال غير هذا الحال:

((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مئة وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبي داود عن ابن عبَّاس]

الصلاة وحدها لا تكفي بل يجب أن تكون رادعاً لك عن الفحشاء والمنكر:

انتبهوا أيُّها الأخوة، ليست القضية أن تصلي فقط، أكثر الناس يقول لك: فلان صاحب دين، فما الدليل ؟ إنه يصلي، لا، لا تكفي، طبعاً :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت: من آية " 45 ")

وقال:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49))

كان البلاء كبيراً جداً والله عزَّ وجل نجَّاهم من فرعون ودمَّر ما كان يصنع فرعون وجنوده، وكتب لهم السلامة والحياة بعد أن ساهم فرعون في إضلالهم، وتذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم.

ماذا نستفيد من الآيات التالية ؟

قال تعالى:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52))

ماذا نستفيد من هذه الآيات ؟ ليفتح الواحد منا دفتراً ويسجِّل، قال:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم: من آية " 5 ")

يوم نجَّاك الله عزَّ وجل من مرض عويص، يوم نجاك من حادث، يوم أنجحك في الجامعة، يوم سمح لك أن تسكن في بيت لوحدك، يوم زوَّجك، يوم أعطاك حرفة جيدة، هذه كلها من نعم الله العُظمى، علَّمنا الله من خلال هذه الآيات: واذكروا:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ (49))

وقال:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ (50))

وقال:

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى (51))

وقال:

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ (52))

الإنسان من حينٍ لآخر يجب أن يذكر نعم الله المتتالية عليه، هذه النعم تجعله يحبُّ الله عزَّ وجل:

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي.))

[الترمذي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما]

علو الإنسان في الأرض لا يعني أن الله راضٍ عنه:

أيها الأخوة، كما قلت قبل قليل لا زلنا في موضوع بني إسرائيل والأمراض التي أهلكتهم، وعلو الإنسان في الأرض لا يعني أن الله راضٍ عنه، نقطة مهمَّة، طبعاً:

(وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6))

(سورة الإسراء)

أصواتهم مرتفعة، والإعلام بيدهم، هذا معنى:

(أَكْثَرَ نَفِيرًا)

ومع ذلك علوِّك في الأرض لا يعني أن الله يحبُّك إطلاقاً، الله أعطى الملك لفرعون وهو لا يحبُّه، قال فرعون:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38))

(سورة القصص: من آية " 38 ")

أعطى المال لقارون، وهو لا يحبه، فالإنسان لا يفرح أو لا يعظِّم أصحاب الأموال وأصحاب القوَّة والسلطان، لأن هذا لا يعني أن الله يحبُّهم، فذلك قد يعني العكس، أعطى الله المُلك لمن يحب وأعطاه لمن لا يحب، أعطاه لسيدنا سليمان أيضاً، وأعطى المال لسيدنا ابن عوف وسيدنا عثمان، فلا المُلك مقياس ولا المال مقياس المقياس طاعة الرحمن، فإذا كنت في طاعة الله فأنت أسعد الناس، وانتظر من الله كل خير، وتفاءل، وكن مع الله عزَّ وجل بالشكر لهذه النِعَم الجزيلة، وإن شاء الله في درسٍ قادم نتابع هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (25- 95):تفسير الآيات 48-54، ساعة الموت هي ساعة الفصل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-01-29

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا انحرف المؤمن عن منهج الله تقتضي رحمة الله أن يسوق له بعض الشدائد كي يعيده إليه :

مع الآية الواحدة والخمسين وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51))

وقبل هذه الآية :

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50))

أيها الأخوة، بشكلٍ مختصرٍ مُرَكَّز خلق الله الإنسان ليسعده في الدنيا والآخرة، فإذا انحرف عن منهج الله تقتضي رحمة الله أن يسوق له بعض الشدائد كي يعيده إليه، هذا كل ما في الأمر:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

وقال:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30))

(سورة الشورى)

من أشد أنواع القهر أن تُساق المصيبة على يد إنسانٍ مثلك يقهرك:

لذلك العِلاجات التي يسوقها الله عزَّ وجل لعباده مُنَوَّعةٌ وكثيرةٌ، وعلى درجات، وعلى مستويات، لعلَّ من أشدِّها أن يبتليهم الله عزَّ وجل بظالمٍ يُذَبِّح أبناءهم ويستحي نساءهم يؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ (65))

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

الصواعق، والصواريخ:

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

الزلازل، والألغام:

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

لعلَّ من أشدِّ المصائب أن يَقْهَرَ إنسانٌ إنساناً، إذا أتت المصيبة من الله مباشرةً فهي تُقبَل بشكلٍ أو بآخر، أما أن تُساق المصيبة على يد إنسانٍ مثلك يقهرك، فذاك أشد أنواع القهر، ولذلك استعاذ النبي عليه الصلاة والسلام بالله من:

((أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.))

[أبو داود عن أبي سعيد]

وقد ورد عن سيدنا علي: **" واللهِ والله مرَّتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتَّى يصيرا أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين "، قيل: " ما الذُل ؟ "، قال: " أن يقف الكريم بباب اللئيم ثمَّ يردُّه ".**

تيمورلنك سُئل مرَّة: **" من أنت ؟ " فأجاب إجابة رائعة قال: " أنا غضب الرَّب".**

الأقوياء في الأرض عصيٌّ بيدِ الله ينتقم بهم ثم ينتقم منهم :

حينما يغضب الإنسان يصيح، ويشتم، ويضرب، وينفعل، ويرتجف، ولكن ماذا يفعل الله جلَّ جلاله حينما يغضب ؟ يسوق تيمورلنك، يسوق فرعون:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50))

((أنا مالك الملوك، وملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع أكفكم ملوككم)).

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

الأقوياء في الأرض عصيٌّ بيدِ الله ينتقم بهم ثم ينتقم منهم:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129))

(سورة الأنعام)

الظالم قهراً يُسلَّطُ على ظالم نفسه كي يقومه.

من أشدِ أنواع البلاء أن يُؤَمَّر المترفون ويُمَكَّن الطغاة والظالمون:

قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص)

إذا عصاني من يعرفني سَلَّطت عليه من لا يعرفني:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا (16))

(سورة الإسراء: من آية " 16 ")

وفي قراءة:

(مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا (16))

لعلَّ من أشدِ أنواع البلاء أن يُؤَمَّر المترفون، أن يُمَكَّن الطغاة والظالمون، هذا علاجٌ إلهي وهو من أقسى أنواع العلاج، الطبيب مثلاً يعطي المريض دواء عيار خمسة عشر، فيقول له: والله لم أستفد، يقول له: ارفع العيار، في خمسمئة، في ألف، في نصف مليون، في مليون، هذا العذاب الصُعُد، يعطى المستوى الأعلى والعيار الأشد إذا لم يؤثر المستوى الأقل.

استحق اليهود غضب الله وعقابه لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه :

أيُّها الأخوة الكرام، يقول الله عزَّ وجل وهو يخاطب بنو إسرائيل وقلت لكم كثيراً في مطلع هذه السورة: نحن مُرَشَّحون أن نقع بالأمراض التي وقع بها بنو إسرائيل، وقد يقال: وقعنا بها، استحق اليهود غضب الله وعقابه لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، ما قولكم ؟ لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر ؟ قالوا : يا رسول الله، وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر، ونهيُتم عن المعروف ؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال: نعم، وأشدُّ، كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً)).

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

هذا مَرَضٌ خطير يوجب الهلاك، وقد يقع به بعض المسلمين، يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف . والله الذي لا إله إلا هو من خلال هذه الدعوة المتواضعة لعشرين أو ثلاثين عام تقريباً، والله سمعت آلاف القصص، يأمر بنته أن تُسْفِر وأن تختلط، ينهاها عن أن تصلي، في بيوتات المسلمين

يرفض أن يحجِّب زوجة ابنه، لا بد من أن يسير الابن على سير أبيه في التفلُّت، وفي الاختلاط، وفي كسب المال الحرام.

من أمراض اليهود الذين استحقّوا عليها الهلاك أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.

امرأةٌ سرقت فجاء حِبُّ رسول الله يشفع لها عند رسول الله، فغضب النبي أشدَّ الغضب وقال: " يا أسامة أتشفع في حدٍّ من حدود الله ؟ " قال: " اغفر لي ذلك يا رسول الله"، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)).

[مسلم عن عائشة]

إذاً هذه الأمراض التي ذكرها الله في سورة البقرة والتي تلبَّس بها بنو إسرائيل، هذه الأمراض من المحتمل جداً أن نقع بها، وقد وقعنا بها، لذلك يبيِّن الله لنا أمراض من سبقونا في أسلوبٌ تربويٌ رائع، وأنتم أيها المؤمنون يمكن أن تقعوا في هذه الأمراض.

الناس رجلان قويٌّ ونبي فالقوي يملك الرقاب بقوّته والنبي يملك القلوب بكماله:

قال تعالى:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (49))

آل فرعون أي من كان على منهج فرعون، من كان على شاكلة فرعون، ليس معنى آل فرعون أقرباءه، فآل النبي من سار على منهجه، فهل يُعَدُّ أبو لهب من آل النبي ؟ لا، هل يعدُّ أبو جهل من آل النبي ؟ لا، ولكن يُعَدُّ سلمان الفارسي من آل بيت النبي، ويعدُّ صُهَيْبُ الرومي من آل بيت النبي، ويعد بلال الحبشي من آل بيت النبي، كل من آمن بالنبي وسار على نهجه واتبع سنَّته القوليَّة والعمليَّة فهو من آله، وكل من شاكل إنساناً وسار على نهجه فهو من آله .

كما قلت لكم من قبل: الناس رجلان قويٌّ ونبي، فالقوي يملك الرقاب بقوَّته، والنبي يملك القلوب بكماله، وكل الناس تبعٌ إما لقوي أو لنبي، فالموظَّف مثلاً مهما تكن وظيفته متواضعةً بإمكانه أن يفعل شيئاً يُزْعِجُكَ، إذاً هو استخدم قوَّته، فحينما تملك الرقاب بقوَّتك فأنت من أتباع القوي، وحينما تملك القلوب بكمالك فأنت من أتباع النبي.

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ (49))

لذلك:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8))

(سورة القصص)

أنت لن تنجو من عذاب الله إذا فعلت أمراً لا يُرضي الله وقلت: أنا عبد مأمور، من قال لك ذلك ؟ من قال لك إنك عبدٌ مأمور ؟ العبد هو عبد الله فقط، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، أن تقول: أنا عبد مأمور وتفعل في الناس ما تفعل هذا كلامٌ مردودٌ عليك، وله بحثٌ طويل في الفقه، لا مجال إلى تفصيلات جُزئياته في هذا الدرس، على كلٍ إن لم تكن قانعاً بهذا الذي تفعله اترك هذا العمل.

البطل هو الذي يهيِّئ جواباً لله عزَّ وجل لا لعبد الله:

قد يقول موظَّف: أنا أعمل بالتموين ويجب عليَّ أن أكتب في اليوم عشرة مخالفات، لعلَّ هذا الإنسان مظلوم، لا يوجد عبد مأمور، افعل قناعتك وانتظر أن يحاسبك الله عزَّ وجل، البطل الذي يهيِّئ جواباً لله عزَّ وجل لا لعبد الله، بل لله:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

يقول: أنا عبد مأمور، لا لست بعبد مأمور، وهذه كذبة تكذبها أنت، الذين هم فوقك لا يرضيهم أن تفعل ما تفعل، لكن أنت تفعل ما تفعل لتبتز أموال الناس وتقول: أنا عبد مأمور، كلام فارغ أنت وحدك المسؤول، إذا لم يعجبك العمل فدعه، أما أن تؤذي الناس وتقول: أنا عبد مأمور، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8))

(سورة القصص)

وقال:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ (49))

هناك إذلال، فليس هناك حالة ذل أشد من أن يُنْتَهَكَ عرض الإنسان أمامه، شيء فوق طاقة البشر.

إيَّاك أن تصل مع الله إلى طريق مسدود فيأتي العقاب الأليم :

قال تعالى:

(يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ (49))

ما قال الله تعالى: ويستحيون فتياتكم، بل إنه قال: نساءَكم، من أجل المُتْعَة:

(وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49))

لذلك الدعاء القرآني :

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

والله أيُّها الأخوة هناك مصائب لا يحتملها الإنسان، فوق طاقته، لا تعمل عملاً تصل مع الله إلى طريقٍ مسدود، تصوَّر إنساناً وُضِّع ليُشْنَقَ أمام مئة ألف إنسان، مجرم ارتكب جريمة قتل، أو ارتكب جريمة زنا وجريمة قتل فاستحقَّ أن يُعْدَم أمام الناس جميعاً، هو وصل لطريق مسدود قبل أن يُوضَع الحبل في رقبته ليُشْنَق، إذا أحب أن يصبر فليصبر أو لا يصبر، إذا أحب أن يتوسَّل فليتوسَّل، أحب أن يستعطف فليستعطف، أحب أن يبكي فليبكِ، أحب أن يضحك فليضحك، ولكن الطريق صار مسدوداً، إيَّاك أن تصل مع الله إلى طريق مسدود بأن ترتكب جرماً، أن تنتهك عرضاً، أن تأخذ مالاً حراماً فيأتي العقاب الأليم:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

العقاب أنواع ؛ هناك أمراض مستعصية، أنا أقسم لكم لو أن إنساناً وصل إلى أعلى درجة في الدنيا وأصابه مرضٌ عضال، وعُرِضَ عليه أن يكون في أقل درجة وأن يعافى من هذا المرض، هل يتردَّد لحظة في قبول ذلك ؟ لو كان ملكاً وأصابه مرض عُضال وعرض عليه أن يكون موظَّفاً بسيطاً ضارب آلة كاتبة، هل يتردَّد في قبول هذه الوظيفة المتواضعة جداً على أن يشفى من مرضه ؟ إنه لا يتردَّد، فالذي عافاه الله في نعمةٍ كبرى، المعافى هو في نعمةٍ لا تقدَّر بثمن، قد يصل الإنسان إلى أعلى مرتبة في الحياة ومعه مرض عضال، ماذا يفعل ؟ أطبَّاء العالم كلّهم تحت تصرُّفه وماذا يفعل ؟ هذا قهر الله عزَّ وجل.

الإنسان حينما يعرف الله في الوقت المناسب ويستقيم على أمره ويخافه يحفظه وينصره:

أيُّها الأخوة الكرام:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

هناك أشياء لا تُحتمل، والإنسان حينما يعرف الله في الوقت المناسب، ويستقيم على أمره، وحينما يخافه يرفع الله له ذكره، ويحفظه، وينصره، ويوفِّقه، ويقرِّبه، ويسلِّمه، ويسعده، ويعطيه عطاءً كبيراً:

(وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49))

هل تحتمل مرضاً عُضالاً ؟ هل تحتمل فقراً مُدقعاً يحملك على أن تُنَقِّب في الحاوية ؟ هل تحتمل أن تتخلَّى عنك زوجتك وأولادك وأن يلقوك في الطريق ؟ هل تحتمل ذلك ؟ هل تحتمل أن تكون في غيابة السجن سنوات وسنوات ؟ قل:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا (286))

(سورة البقرة: من آية " 286")

إذا كنت لا تحتمل فاستقم على أمر الله، المستقيم له معاملة خاصَّة، والمستقيم له حفظ من الله، والمستقيم له توفيق من الله، والمستقيم له هداية من الله عزَّ وجل، والله جلَّ جلاله يَسْلُكُ به سبل السلام، سبل الأمان، سبل السعادة، سبل الرفْعَة، سبل التوفيق.

إذا وجد الإيمان فإن المعركة بين الحق والباطل لا تطول لأن الله مع الحق:

شاهد بنو إسرائيل بأعينهم كيف أن البحر انشقَّ طريقاً يبساً:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50))

مُعجزات مُدهشة، صار البحر طريقاً:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50))

الله يتدخل أحياناً، وإذا تدخَّل الله تنتهي كل مشاكلنا، ولكن أنت اطلب منه موجبات رحمته، إذا فعلت موجبات رحمته أوجب ذلك أن يتدخَّل الله لصالحك، وتوجد بعض الشواهد في حياتنا، شيء لا يُحتمل صرفه الله عزَّ وجل من عنده، أنا كنت دعوت في خطبة قبل أسابيع: **" اللهمَّ انصرنا على أنفسنا حتى ننتصر لك فنستحقَّ أن تنصرنا على عدوِّنا ".**

لأن المعركة بين حقَّين لا تكون، الحق لا يتعدَّد، وبين حقٍ وباطل لا تكون لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي لأن الله تخلَّى عن الطرفين، الأقوى هو الذي ينتصر، الأذكى ينتصر، ينتصر الذي عنده سلاح أكثر فاعليَّة، ينتصر الذي عنده معلومات أكثر، ينتصر الذي عنده أقمار، ينتصر الذي عنده رصد، ينتصر الذي عنده ليزر، اختلف الوضع، إذا ابتعد الفريقان عن الله عزَّ وجل يكون هناك ترتيب آخر، يكون الفوز نصيب الأقوى والأذكى والذي عنده سلاح أكثر جدوى، أما إذا وجد الإيمان فإن المعركة بين حقٍ وباطل لا تطول لأن الله مع الحق.

أغرق الله فرعون ولكنه نَجَّاه ببدنه إلى الشَاطئ لكي يجعله عبرة:

قال تعالى:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)).

أغرق الله فرعون، ولكنه نَجَّاه ببدنه إلى الشَاطئ، لأنه إذا أغرقه واستقرَّ في أعماق البحر لما صدَّق أحدٌ أنه غرق، لأنه عندهم الإله، قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)).

(سورة النازعات)

وقال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38)).

(سورة القصص: من آية " 38 ")

ولكنَّ الله أراد أن يجعله عبرةً:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ (92)).

(سورة يونس: من آية " 92 ")

ما قال الله: لتكون آية أي لمن حولك، لكنه قال:

(لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً (92)).

(سورة يونس: من آية " 92 ")

المُعجزات الحِسِّية وحدها لا تكفي ما لم يبحث الإنسان عن الحقيقة:

هناك شخص يقرا القرآن في أمريكا، وهو حديث عهدٍ بالإسلام، يقرأ القرآن متفحِّصاً، فلمَّا وصل لهذه الآية قال: هنا خطأ، كيف يقول الله عزَّ وجل:

(لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

فاتصل بعالم من علماء المسلمين في فرنسا، فأجابه أن: فرعون موسى موجود في متحف مصر، نفسه موجود، فرعون الذي غرق في عهد موسى مُحَنَّط، وقد أُخِذَ إلى فرنسا لترميم جثَّته، وعاد، وفي فمه آثار فطور بحريَّة، وفي فمه آثار ملوحة، وكل علامات الغَرَقَ بادية على جسمه، وهذا معنى الآية الكريمة:

(لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً (92)).

(سورة يونس: من آية " 92 ")

وقال:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (51)).

وعد الله عزَّ وجل موسى مع النقباء وعلية القوم ليعطيهم المَنْهَج، ماذا فعل قومه في غيبته ؟ اتخذوا من الذهب الذي أخذوه من بيوت فرعون عِجْلاً جسداً، وعبدوه من دون الله، ماذا نستنتج ؟ هذا الذي رأى أن البحر أصبح طريقاً يبساً كيف يعبُدُ عجلاً من دون الله ؟ نستنبط من هذا أن المُعجزات الحِسِّية وحدها لا تكفي ما لم يبحث الإنسان عن الحقيقة، الكون بما هو عليه من دون خَرْقٍ للعادات يُعَدُّ معجزةً وأيَّة معجزة، أما هذا الذي يطلب خرقاً العادات، هذا الذي يطلب كرامة !!! هناك طُلاب عِلْم كثيرون يبحثون عن كرامة، عن منام، عن شيء فيه خرق للعادات !! هذا النظام المستقر، الشمس والقمر، والليل والنهار، المجرَّات، الجبال، السهول، البحار، النباتات، الأطيار، الأسماك، أنواع الخضراوات، المحاصيل، نظام النبات، هذا كلُّه لم يلفت نظرك، خَلق الإنسان ! تبحث عن معجزة ! تبحث عن خرقٍ للعادات !!

أشد أنواع الظلم أن تشرك بالله:

هؤلاء الذين رأوا البحر أصبح طريقاً يبساً، حينما نجَّاهم الله عزَّ وجل اتخذوا من الذهب عجلاً له خوارٌ وعبدوه من دون الله:

(ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51)).

إن أشدُّ أنواع الظُلْمِ أن تعبد غير الله، أشد أنواع الظلم أن تشرك بالله، أشد أنواع الظلم أن تعبد إلهاً صنعته بيدك، وهذا ما تجده في كثير من البلاد إلى الآن، تدخل إلى معبد في الهند تجد صنماً ارتفاعه ثلاثون متراً وأمامه أنواع منوَّعة من الفواكه، تسأل: لمن هذه الفواكه ؟ يجيبونك: هو يأكلها في الليل، والحقيقة أن الكُهَّان يأكلونها في الليل، هذا تراه الآن في عصر النور والحضارة كما يدَّعون.

حينما يؤمن الإنسان بالله يكون قد احترم نفسه، الإنسان حينما يكون عاقلاً يوحِّد، يكون قد عرف قيمته كإنسان، يكون قد كرَّم نفسه، أما حينما يتخذ صنماً ليعبده طبعاً هذا هو الشرك الجَلِيّ، لكنَّ المسلمين والمؤمنين قد يقعون في شركٍ خفي، حينما يتوهَّمون أن المال يحلَّ كل مشكلة، لا، المال لا يحل المشكلات، فإذا اختل نمو الخلايا اختلت في النمو، المال لا يحل المشكلات، وأن تكون في أعلى درجة في الحياة لا تحل مشكلة، الله عزَّ وجل هو الفعَّال، هو القهَّار، هو واهب الحياة، هو المُحيي، هو المُميت، هو الحافظ، هو الناصر، هو الموفِّق، هو الرافع، هو الخافض، هو المعطي، هو المانع، هو الرازق، هو المعز، هو المذل.

إن الشرك لظلمٌ عظيم، وحينما تتجه لغير الله أو تعتمد على غير الله فقد وقعت في ظلمٍ شديد.

من الشرك أن تعتمد على شيءٍ آخر غير الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51)).

تصوَّر إنساناً لديه قضيَّة خطيرة جداً، مثلاً لو أخذ الموافقة فهو يربح مئات الملايين، وهذه الدائرة فيها مدير عام الأمر مُناط به وحده، وفيها موظَّفون، وفيها حُجَّاب، وفيها حارس، فإذا وقف هذا الإنسان الذي معه المعاملة أمام الحارس أو الحاجب فترجَّاه، وتضعضع أمامه، وبذل ماء وجهه، وعلَّق عليه الآمال، ثم خاب ظنُّه به، هذا الشرك، هذا الذي تضعضعت أمامه عبدُ مثلك، هذا الذي بذلت ماء وجهك أمامه عبدٌ مثلك، هذا الذي توهَّمت أنه يحلُّ هذه المشكلة لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضراً ولا يجلب نفعاً، فإذا كان الله يأمر سيد الخلق أن يقول لقومه:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً (21))

(سورة الجن)

سيد الخلق، وفي آية أخرى :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً (188))

(سورة الأعراف: من آية " 188 ")

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه)).

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

إذاً أشدِّ أنواع الظلم أن تعبد إلهاً آخر غير الله عزَّ وجل، أو أن تعتمد على شيءٍ آخر غير الله عزَّ وجل، ثمَّ يقول الله عزَّ وجل :

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52))

أهمية التوبة:

أيها الأخوة الكرام، صعبٌ جداً أن تتصوَّروا ديناً من دون توبة، لأن أقل ذنب من دون توبة يقودك إلى أكبر ذنب ثم إلى النار، أما مع التوبة فأكبر ذنب يعفو الله عنك:

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[حديث قدسي]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)).

(سورة الزمر)

وقال:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49)).

(سورة الحجر)

هكذا:

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ (52)).

ماذا فعل هؤلاء ؟ فعلوا أشدَّ أنواع الذنوب، أشركوا بالله، عبدوا عجلاً من دون الله، صنعوه بأيديهم وعبدوه من دون الله ومع ذلك باب التوبة مفتوحٌ على مِصراعيه، تصوَّر لو لم يكن هناك توبة ليئس الإنسان من أقل ذنب، لو ارتكب الإنسان ذنباً بسيطاً ولا توجد توبة لسمح لنفسه أن يرتكب ذنباً أكبر، وهكذا إلى أن يفعل كل الذنوب والآثام، وينتهي إلى النار، لكنَّ رحمة الله كبيرة.

الله تعالى رَحِمَ أمَّة محمَّد فجعل توبة المؤمنين لا تقتضي أن يقتل بعضهم بعضاً إذا أذنبوا:

قال تعالى:

(وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)).

ثمة توبة، وعفو، وكتاب، وسُنَّة، وعلماء، ودعاة، ومعالجة نفسيَّة، ومعالجة سلوكيَّة، وكل شيء من أجل أن تعرف الله، ومن أجل أن تتصل به، ومن أجل أن تطيعه:

(وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)).

أيها الأخوة، هذا مما حُمله بنو إسرائيل لأنهم عبدوا العجل من دون الله، وهذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286)).

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

أي أن الله أمر الذين لم يعبدوا العجل أن يقتلوا من عبد العجل جزاء ارتكابهم أكبر ذنب في الدين، وهو أن تُشرك، لكن الله عزَّ وجل رَحِمَ أمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلَّم فجعل توبة المؤمنين لا تقتضي هذا القتل، يكفي أن تقول: يا رب لقد تبت إليك، يقول لك: عبدي وأنا قد قبلت، هذه رحمةٌ كبيرة، ولكن بني إسرائيل كُلِّفوا أن يقتلوا أنفسهم، أن يقتل بعضهم بعضاً، أن يقتل الذين لم يعبدوا العجل الذين عبدوا العجل.

إيَّاك أن تعتمد على جهةٍ غير الله فيخيبُ ظنُّك بها وهذا من رحمة الله بالإنسان:

قال تعالى:

(وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ (54))

ما الذي يحصل الآن ؟ إذا أشرك الإنسان ماذا يحصل له ؟ الله عزَّ وجل يخيِّب ظنَّه بهذا الذي عَبَدَهُ من دون الله، اعتمد على ماله، يسوق الله له مصيبةً لا يحلُّها المال، اعتمد على إنسان قريب قوي يلهم الله هذا القريب أن يتخلَّى عنه، يقف منه موقفاً لئيماً، هذه معالجة الله، اعتمد على زوجته وظنَّ أنها تسعده إلى أبد الآبدين، فإذا هي تعامله أسوأ معاملة، اعتمد على ابنه، يسافر ولا يرسل رسالة إلا مرَّة كل سنتين، وقد يتجنَّس ويتزوَّج وينسى أباه، إيَّاك أن تعتمد على جهةٍ غير الله فيخيبُ ظنُّك بها وهذا من رحمة الله بالإنسان، اعتمد على الله، لا على مال، ولا على جاه، ولا على أتباع، ولا

على أهل، ولا على زوجة، طبِّق منهج الله واعتمد على الله ولا تعتمد على مخلوقٍ سوى الله فهذا نوعٌ من أنواع الشرك.

كل إنسان خاف الله فيما بينه وبين الله أمَّنه الله فيما بينه وبين الناس :

قال تعالى:

(فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ((54)

يقودنا هذا المعنى إلى معنى آخر وهو أن الله جلَّ جلاله يسوق لك أحياناً شدَّةً شديدةً من أجل أن ترمِّم خللاً خطيراً.

أيُّها الأخوة، من نِعَم الله الكبرى أن شرعنا الإسلامي لا يقتضي من أجل أن تتوب إلى الله أن تقتُل نفسك ولا أن تُقتَل، وهذه رحمةٌ بأمة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، ولكن المؤمن العاقل يبتعد عن ذنبٍ خطير، ففي الحياة الآن أمراض غير القتل، فيها أمراض عُضالة، وفيها عاهات، وحوادث سير، فيها فقر مدقع، وفيها تشتيت أسرة، هناك أحياناً دُل، وأحياناً قَهر، أو فقد حُرِّية، فعند الله معالجات منوَّعة كثيرة جداً، فالمؤمن العاقل هو الذي يحتاط للأمور قبل وقوعها، ويخاف من الله فيما بينه وبين الله، وكل إنسان خاف الله فيما بينه وبين الله أمَّنه الله فيما بينه وبين الناس، هذه قاعدة ؛ مستحيل ثم مستحيل ثم مستحيل أن تخاف الله فيما بينك وبينه ثم يخيفك من أحد، ولكنه يطمئِنُك.

" أمنان وخوفان، لا يجتمع أمن الدنيا وأمن الآخرة، إن خِفت الله في الدنيا أمَّنك يوم القيامة، وإن أمِنتَ عذاب الله في الدنيا أخافك يوم القيامة ".

هذا كلام دقيق وخطير، كلام مصيري، وليس الأمر على مستوى أن تقول: والله الدرس ممتع، لا، لا، لا فالأمر أخطر من ذلك، الدرس خطير يتعلَّق بالمصير، المصير الأبدي، وساعة الموت هي ساعة الفصل، وهذه تنتظرنا جميعاً ولا أحد ينجو من هذه الساعة، فبقدر معرفته بالله، وبقدر طاعته، وبقدر إخلاصه، وبقدر عمله الصالح ينجيه الله عزَّ وجل من هذه الساعة العصيبة.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (26- 95):تفسير الآيات55-61، نِعم الله على بني إسرائيل ، المصائب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-02-05

بسم الله الرحمن الرحيم

لا تحتمل طبيعة الإنسان أن ترى الله عز وجل في الدنيا:

مع الآية الخامسة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55))

قال المفسِّرون: هؤلاء هم السبعون الذين اختارهم موسى معه في المناجاة، حينما رأوا بعض المعجزات طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرةً، والشيء الثابت هو أن الله سبحانه وتعالى هذه سُنَنَه لا تدركه الأبصار في الدنيا، في الدنيا لا يستطيع الإنسان أن يرى الله جهرةً، ما رآه لا رسولٌ، ولا نبي، ولا صدِّيقٌ، ولا ولي، لأن طاقة الإنسان لا تحتمل رؤية الله عزَّ وجل، عندما قال سيدنا موسى:

(رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً (143))

(سورة الأعراف: " 143 ")

إذا كان تجلِّي الله عزَّ وجل للجبل جعله دكّاً فهل يحتمل الإنسان ؟ لا تحتمل طبيعة الإنسان أن ترى الله، لكن في الآخرة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

((كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا))

[البخاري مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه]

هناك أحاديث كثيرة جداً عن أن الإنسان إذا رأى الله عزَّ وجل يوم القيامة وهو في الجنة يبقى في نشوة الرؤية خمسين ألف عام.

زيادة على الجنَّة يسمح الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة أن يروا وجهه الكريم:

رؤية وجه الله الكريم هي المعنيَّة بقوله تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: " 26 ")

زيادة على الجنَّة يسمح الله لهم أن يروا وجهه الكريم، فعند أهل السُنَّة والجماعة لا يُرى الله جل جلاله في الدنيا ؛ ولكن النصوص الثابتة، وعلى رأسها القرآن، ومن بعدها السُّنة تؤكِّد أن المؤمن يرى ربَّه جهاراً وعياناً يوم القيامة كما يرى الإنسان البدر في الدنيا، والجزاء الذي ينتظر المؤمن يفوق حدَّ الخيال:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17))

(سورة السجدة)

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55))

يروي بعض المفسِّرين: أنَّهم صعقوا، ولكن الله امتنَّ عليهم أنه أحياهم من جديد بعد أن صعقوا ليتابعوا مسيرتهم مع سيدنا موسى.

الإنسان يرى في الدنيا آثار اسم الجَميل في مخلوقاته :

قال تعالى:

(ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56))

لو أردنا أن نتوسَّع قليلاً، الاتصال بالله عزَّ وجل هو قمَّة السعادة في الدنيا، ولكنه اتصال على نحوٍ أراده الله، اتصال إقبال، اتصال توجُّه، اتصال مناجاة، اتصال استغفار، اتصال استعانة، اتصال إنابة، اتصال دعاء، هذا الاتصال المسموح في الدنيا، ولكن يوم القيامة هناك اتصال مباشر، هناك رؤية، فإذا كنت تستمتع أيها الأخ الكريم في الدنيا برؤية جبلٍ أخضر فيه مَسْحَةٌ من جمال الله، أو رؤية جنَّةٍ خضراء، أو رؤية بحرٍ ساكن بزرقةٍ تُحَيِّر الألباب، أو رؤية وجه طفلٍ صبوح فيه من الجاذبيَّة والتألُّق ما لا يوصَف، هذه كلُّها مخلوقاتٌ أخذت من جمال الله مسحات، فكيف لو أتيح للإنسان المؤمن يوم القيامة أن يرى أصل الجمال ؟ أنت ترى في الدنيا آثار اسم الجَميل في مخلوقاته، ألم تر في باقة وردٍ تناسب الألوان، الروائح الشذيَّة، الأزهار تمثِّل جانباً من جمال الله، المناظر الطبيعيَّة الخلاَّبة تمثِّل منظراً من جمال الله عزَّ وجل، الوجوه الصَبوحة تمثِّل مظهراً من جمال الله عزَّ وجل، هذا الجمال الذي أودعه الله في الدنيا لحكمةٍ تربويَّة، لأنه إذا حدَّثنا عن جمال

الآخرة وعن الجنَّات التي تجري من تحتها الأنهار، وعن الحور العين، والأولاد المُخَلَّدين، وعن الطعام الطيِّب، وعن الفواكه التي بين أيديهم، وعن هذا اللقاء الطيِّب بين المؤمنين على سررٍ متقابلين، وعن رؤية وجه الله الكريم، إذا حدَّثنا ربنا عن هذا الجمال، وعن هذا الكمال، وعن هذا النعيم المُقيم في الجنَّة، فلولا هذه المرتكزات الجماليَّة في الدنيا لما فهم الإنسان معنى الجمال، ما فهم الإنسان معنى جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ، فالجمال في الدنيا جمال ابتلاء، يعطي الله إنساناً جمالاً، وقد يعطيه جمالاً أقل، وقد يعطيه دمامة أحياناً، فالدنيا دار ابتلاء، قد تجد إنساناً في قمِّة الصلة بالله وليس له وجهٌ صَبوح، هذا شيء موجود، قد تجد إنساناً في أعلى درجة من الكمال وليس له شكلٌ يلفت النظر.

الجمال في الدنيا موزَّع توزيع ابتلاء :

تروي كتب التاريخ عن أحد التابعين الكبار وهو الأحنف بن قيس أنه كان قصير القامة، أسمر اللون، غائر العَيْنَين، ناتئ الوجنتين، أحنف الرجل، مائل الذقن، ليس شيءٌ من قبح المَنْظَر إلا هو آخذٌ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضبَ غضب لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب.

الجمال في الدنيا موزَّع توزيع ابتلاء، قد تجد امرأةً صالحةً مؤمنةً تقيَّةً طاهرةً عفيفةً بوضع جمالي دون الوَسَط، وقد يكون هذه المرأة في الجنَّة في أعلى عليين، هذه نقطة مهمَّة جداً أن الله سبحانه وتعالى وزَّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء ـ والدنيا مؤقَّتة ـ وسوف توزِّع هذه الحظوظ في الآخرة توزيع جزاء، دقِّق في قوله تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (21))

(سورة الإسراء: "21")

إنسان يعمل أستاذ في الجامعة وإنسان يعمل أستاذاً في التعليم الابتدائي في قرية، مسافةٌ كبيرةٌ جداً بين الوظيفتين، إنسان يعمل رئيس أركان الجيش وجندي في خدمةٍ إلزاميَّةٍ في مكانٍ صعبٍ باردٍ موحش، طبيب جرَّاح وممرِّض ناشئ مثلاً، مدير مؤسَّسة وحاجب، ورئيس غرفة تجارة وبائع متجوِّل:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (21))

(سورة الإسراء: "21")

لكن:

(وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21))

(سورة الإسراء: "21")

الحظوظ موزَّعة توزيع ابتلاء والعبرة أن تنجح في مادَّة امتحانك مع الله:

قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55))

(سورة الإسراء)

مرتبة الدنيا لا تعني شيئاً وقد تعني العكس، لأن المترفين في ثماني آيات كُفَّار:

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (33))

(سورة المؤمنون: " 33 ")

الدنيا لها وضع خاص، قد تجد:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

وقال:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ (55))

(سورة التوبة: " 55 ")

الدنيا دار ابتلاء وليست دار استقرار، ليست دار جزاء، الحظوظ موزَّعة توزيع ابتلاء، هناك غني وفقير، هناك جميل ودميم، وهناك ذكي وأقل ذكاء، هناك صحيح ومريض، هذه الحظوظ موزَّعة توزيع ابتلاء، العبرة أن تنجح في مادَّة امتحانك مع الله، هذه هي العبرة.

مادَّة امتحانك مع الله ما أنت فيه من إيجابيَّات ومن حظوظ مُنِحْتَ إيَّاها أو حُرِمْتَ منها:

الفتاة التي وهبها الله مسحةً من الجمال، نجاحها في أن تكون لزوجها فقط، وأن تكون متواضعةً لزوجها، وأن تكون ذات تَبَعُلٍ جيدٍ لزوجها وأولادها، أما إذا مُنَحْت المرأة بعض الجمال وتطلعت إلى عملٍ في الحقل الفني كي يستمتع بجمالها كل الناس، هذه رسبت وتلك نجحت، وقد تكون امرأةٌ ذات جمالٍ متوسِّط، أو أقلَّ من وسط ؛ لكنَّها صائمةٌ مصليَّةٌ، تائبةٌ عابدةٌ، راكعةٌ ساجدةٌ، تحسن تبعُّل زوجها وأولادها، هذه نجحت في امتحان الجمال المتوسِّط، هذا من حيث الجمال .

من حيث المال، الغني له امتحان مع الله والفقير له امتحان، القوي له امتحان والضعيف له امتحان، الصحيح له امتحان والمريض له امتحان، مادَّة امتحانك مع الله وما أنت فيه، مادَّة امتحانك مع الله ما أنت فيه من إيجابيَّات، من حظوظ مُنِحْتَ إيَّاها، وما حُرِمْتَ منه مادَّة امتحانك مع الله:

(إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5))

(سورة الدخان)

حقيقة الحياة الدنيا أن الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، الرخاء مؤقَّت والشقاء مؤقَّت، كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله

تعالى كلما دخل دار الخلافة يتلو دائماً آية من كتاب الله وكأنها [آية الشِعَار إن صحّ التعبير]، وهي قوله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207))

(سورة الشعراء)

الغفلة وطول الأمل من أشدِّ الأمراض خطورةً على المؤمن:

قد تملك، قد تصل إلى أعلى منصب في العالم وتستمتع به أشدَّ الاستمتاع، الدنيا كلُّها بين يديك، كل مالها، ونسائها، وطعامها، وشرابها، وقصورها، ومُتَعِها بين يديك، ولكن قد تأتي ساعةٌ تخفق جميع العمليَّات ولا بد من لقاء الله عزَّ وجل، فبمَ تلقى الله عزَّ وجل ؟

((يا بشير لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة ؟))

[أحمد عن بشير بن الخصاصية]

هذا الموت الذي قُهرَ الإنسان به ـ سبحان من قهر عباده بالموت ـ كل مخلوقٍ يموت ؛ صحيح ومريض، قوي وضعيف، ملك ونبي، مُجرم، فقير وغني، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت، و:

الليل مهما طال فلا بدَّ من طلوع الفجر
والعمر مهما طال فلا بدَّ من نزول القبر

***

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ
فإذا حملت إلى القبور جنازةً فاعلم بأنَّك بعدها محمولُ

***

أيها الأخوة كلام دقيق، الإنسان حينما يُدْهَش، أو حينما يندم يكون قد استعمل عقله استعمالاً غير صحيح، هل الموت مفاجأة ؟ أبداً، الموت مصير كل حي، ما الفرق بين المؤمن وغير المؤمن ؟ المؤمن يستعدُّ له طوال حياته، طوال حياته يستعد له فإذا جاء الموت لا يُفاجأ، ولا يندم على ما فعل، يقول سيدنا علي : " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي "، وصل إلى أعلى درجة، فأنت حينما تفاجأ بشيء، أو حينما تندم على شيء، معنى ذلك أن العقل لم يستعمل بشكل جيِّد، أهل الدنيا في غفلة، أكبر مرض يصيب الناس الغفلة عن الله، يعيش وقته، إذا مال الناس إلى الشهوات يميل معهم، مال الناس إلى متعٍ رخيصة يميل معهم، وضعوا الصحون يضعها، ألبسوا نساءهم هذه الأزياء يفعل كما يفعلون، هذا الإنسان الذي يعيش لحظته بلا تفكير ويغفل عن هذه الساعة التي لا بد منها ؛ ساعة المصير، هذا إنسانٌ أحمق، إنسان غافل:

(وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205))

(سورة الأعراف)

الغفلة وطول الأمل من أشدِّ الأمراض خطورةً على المؤمن.

النعمة الأولى التي أنعم الله بها على بني إسرائيل أنه بعثهم من بعد موتهم :

إذاً وصلنا في موضوع الحظوظ إلى أنها موزَّعةٌ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزَّع في الآخرة توزيع جزاء.

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56))

يعد الله عزَّ وجل لبني إسرائيل النِعَمَ التي أنعم بها عليهم ويذكرهم بها، من هذه النِعَم ؛ النعمة الأولى ـ في هذا الدرس طبعاً ـ أنه بعثهم من بعد موتهم، الله تعالى لا يدمِّر من أول خطأ ولا يُهلك من أول خطأ إنه يعفو.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ (53))

(سورة الزمر: " 53")

الإنسان قد لا يغفر، قد يُخطئ الإنسان مع ملك فيقطع رأسه، هذا شأن ملوك الأرض، ولكن شأن ملك الملوك ليس كذلك:

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ (52))

(سورة البقرة: " 52 ")

وقال:

(ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ (56))

يُروى أن رجلاً سيق إلى سيدنا عمر متلبّساً بسرقة فقال: **" والله يا أمير المؤمنين إنها أول مرَّةٍ أفعلها في حياتي "** ، قال له: **" كذبت إن الله لا يفضح من أول مرَّة "**، فكانت المرَّة الثامنة، فالله عزَّ وجل يعطي مهلة، هناك خطأ، هناك معصية، هناك تقصير يعطي مهلة إلى أن يُصِر على ذنبه

ربنا عزَّ وجل عفوٌ كريم يعفو ويسامح ولكن حينما يصرُّ العبد على خطئه يأتي الردُّ الإلهي:

حدَّثني رجل فقال لي: لي أبٌ باعه طويل في تجارة المواشي والأغنام، والسمن والصوف، فلمَّا أراد أن يتقاعد من عمله باختياره وكَّلني أن أكون مكانه في هذا العمل، وكنت شاباً جاهلاً، ركبت السيارة، وذهبت إلى البادية لأشتري الصوف، ومعي ميزان ضخم، أردت أن أحتال على هذا الإنسان البدوي الساذج، كان كلَّما وزن جَرَّة أقول له رقماً فيه كسور، ثلاثة وعشرين كيلو وثمانمئة غرام، طرب هذا البدوي لهذا الوزن الدقيق علماً أنه حذف عشرة كيلو، طرب هذا البدوي لهذا

الوزن الدقيق، لكنه شعر بحِسِّه العام عندما انتهى الوزن أن هذه الكميَّة ثمنها خمسة وعشرين ألفاً، فوجد أن ثمنها أربعون ألفاً، فقال له باللغة البدوية: " ترى برقبتك إذا لعبت عليَّ "، قال لي: بعدما غادرت هذا المكان شعرت بخوف، بخطأ، هل أرجع لأطلب السماح منه، أمضي، ماذا أفعل ؟ قال لي: بقيت في صراع مع نفسي من مكان شراء الصوف إلى مكان بعد الضمير تقريباً، قال لي: خطر في نفسي، خاطر داخلي، بالتعبير الدارج: " حط بالخرج "، قال لي: ما أتممت هذا الخاطر إلا رأيت نفسي وسط بركةٍ من الدماء، انقلبت السيارة، وتناثرت البضاعة، وسال السمن من أوعيته، وأنا وسط الدماء !! هذا معنى قوله تعالى:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

ما دام الإنسان بين الخوف والرجاء، والاستغفار والتردُّد، فهناك بحبوحة، أما إذا اتخذ قراراً قطعياً يأتي الرد الإلهي .

المعنى الذي نستنبطه من هذا أن ربنا عزَّ وجل عفوٌ كريم، يعفو ويسامح، ويعطي فرصة للاستغفار، ولكن حينما يصرُّ العبد على خطئه يأتي الردُّ الإلهي، هذا معنى قوله تعالى:

(ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56))

إذا قنّن الله لا عن عجز ولا عن تعذيب ولا عن بُخل ولكن عن تأديب فقط:

من النِعَم التي امتنَّ الله بها على بني إسرائيل:

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ (57))

شمس الصحراء لا تُحتمل، كانت تسير معهم غيمة أينما ساروا، يقال أحياناً: **"إذا أحبَّ الله قوماً أمطرهم ليلاً وأطلع عليهم الشمس نهاراً "** ، تأتي أحياناً نسمات لطيفة في الصيف تلغي مكيِّفات ثمنها ألف مليون يقول: كم متراً غرفتك ؟ أنت تحسبها، أربعة بثلاثة باثنين ونصف، يقول لك: إذاً تحتاج لاثنين طن ليتم التكييف الجيد، ثمن الطن مئة ألف وهذه الغرفة لا يتم تكيفها بطن واحد، تأتي نسمات لطيفة من عند الله عزَّ وجل تلغي عمل المُكَيِّفات كلها، أحياناً نستورد أعلافاً بألوف الملايين، موسم مطير واحد يغني عن كل هذا الاستيراد، قد نستورد بألوف الملايين قمحاً لنأكله، موسم مطير واحد يُغني عن كل هذا الاستيراد، فالله إذا أعطى أدهش، وهو على كل شيء قدير.

كلام دقيق جداً، إذا قنّن الله لا عن عجز، ولا عن تعذيب، ولا عن بُخل ؛ ولكن عن تأديب فقط، قرأت مرَّة بالأخبار أنه: في ليلة مطيرة واحدة نزل في رأس الخيمة مئتان وخمسة وعشرون ميليمتراً، أي تعادل أمطار دمشق طول العام، يوجد حتى الآن أربعون ميليمتراً من أصل مئة وعشرة في السنة الماضية، الموسم مئتان واثنا عشر، أربعون ميليمتراً، وإذا لم يكرمنا الله عزَّ وجل بأمطار قد تجد الينابيع كلُّها جافَّة ونضطر أن نشتري الماء شراء:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30))

(سورة الملك)

هو الله عزَّ وجل، هذا أول درس .

من نعم الله أن تجد الهواء تستنشقه والماء العذب الفرات تشربه :

الدرس الثاني:

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57))

من نعم الله أن تجد الهواء تستنشقه، أن تجد الهواء غير الملوَّث تستنشقه، وأن تجد الماء العَذْبَ الفُرات تشربه، استوردت دولة مجاورة ماءً من العدو، فباعها ماء المجاري ـ الماء المالح ـ وحدثت تسمُّمات، وامتلأت المستشفيات بالمصابين، وبيعت قارورة الماء الصالح للشرب بمئةٍ وخمسين ليرة، فأنت حينما تفتح الصنبور في البيت، وتشرب كأس ماء صافٍ، هذه نعمةٌ لا تُقدَّر بثمن، لكن الإنسان لا يعبأ بالشيء المتوافر، استعاذ النبي من هذه الحالة، كان عليه الصلاة والسلام يقول: **" يا رب أرني نعمك بكثرتها لا بزوالها ".**

تذكر نعمة الله حينما تفتح صنبور الماء، وتشرب ماءً عذباً فراتاً، سكنت في الحج في بيت في مكَّة المكرَّمة، وفي أثناء دخولي إلى البيت وجدت مستودعاً للمياه في مدخل البناء، لم يعجبني وضع الماء، قيل لي: هذا للاستعمال المنزلي فقط ولكن لا بد أن تشتري ماءً للشرب، ثمن القارورة ثلاثة ريالات، أي حوالي ثلاثين ليرة، يشربها العطشان مرَّة واحدة، إنك تفتح الصنبور، فتشرب أول كأس، وثاني كأس، وثالث كأس، ورابع كأس، يجب أن نعرف نعمة الله علينا، هذا الماء له ثمن باهظ وحينما تتعطَّل محطَّات التَحْلِيَة يُحْمَل الماء إلى البيوت حَمْلاً هذه من نعم الله العُظمى، هناك ماء وهواء وطعام ومعك قوت يومك.

نعمة الهدى والصحَّة والكفاية هذه نعمٌ إذا توافرت فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها :

أخواننا الكرام، كلمةٌ من القلب: حينما يمتنُّ الله على الإنسان بالهدى، حينما يعبد الإنسان الله ويعرف أن هناك جنَّةً، وأن هناك ناراً، وأن هناك حساباً، وأنه هو المخلوق الأول، حينما يعرف ربَّه، ويعرف نفسه، ويعرف سرَّ وجوده، وغاية وجوده، ويمتِّعه الله بالصحَّة، هو في نعمة لا تقدر بثمن ، فلو أن إنساناً يملك البلاد كلها، وأصابه مرض عُضال تراه يتمنَّى أن يعود مواطناً عادياً بأجر زهيد على أن يعافى من المرض، أليس كذلك ؟ فكل إنسان معافى هذه نعمةٌ لا تقدَّر بثمن، فنعمة الهدى، ونعمة الصحَّة، ونعمة الكفاية، هذه نعمٌ إذا توافرت فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها.

هناك قصَّة قلتها على المنبر اليوم وهي تروى عن سيدنا عمر بن عبد العزيز، وتروى لملكٍ آخر، ملك سأل وزيره: **" من الملك ؟ "، قال له: " أنت "، قال له: " لا، الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيتٌ يؤويه، وزوجة ترضيه، ورزقٌ يكفيه، لأنه إن عرفنا جَهدَ في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه "**، فكل إنسان عنده قوت يومه، وله مأوى، وله بيت، وله زوجة، وهو راضٍ عن الله هو ملكٌ من ملوك الدنيا، وأسعد أهل الأرض، والله عزَّ وجل إذا أعطى أدهش، قد يعطيك سكينةً يتمنَّاها الملوك.

هناك كلمة لا أنساها: ملك اسمه إبراهيم بن الأدهم، ترك الملك زُهداً به وصار عارفاً بالله، لأنه كان ملكاً وصار عارفاً بالله أنا أصدِّقه وَحْدَهُ، قال: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف"**، لأنه يعرف ما هم عليه الملوك، كان ملكاً وصار عارفاً بالله، فأي إنسان مؤمن يعرف الله يعرف منهجه، يعرف أن الله قد وعده الجنَّة، يعرف ما يجب وما لا يجب، ما ينبغي وما لا ينبغي، ما يجوز وما لا يجوز، مُنضبط، وَقَّافٌ عند حدود الله، له عملٌ طيِّب، أجرى الله عزَّ وجل على يده عملاً طيباً، هذا الإنسان أسعد أهل الدنيا ؛ ولو كان في التعتيم، ولو كان في الظلال، ولو لم يعرفه أحد، إذا دخل إلى مجلس هؤلاء الأتقياء الأخفياء:

((إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا.))

[ابن ماجه عن معاذ]

أتقياء أخفياء هم عند الله في أعلى مرتبة.

النعمة الثانية التي أنعم الله بها على بني إسرائيل أنه ظلّل عليهم الغمام:

امتن الله عزَّ وجل على بني إسرائيل بأن ظلل عليهم الغمام:

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57))

المعنى: هذه النِعَم التي أنعم الله بها عليهم، المَن والسلوى طعام نفيس جداً، لا مجال للحديث عنه لأنه لا يوجد منه الآن، طعام نفيس امتنَّ الله به على بني إسرائيل، وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى:

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ (57))

إذا استمتع الإنسان بهذه النعم دون أن يشكر الله عليها لا يُعدُّ ظالماً لله ولكنه يظلم نفسه، قس على ذلك، أي إنسان الله أعطاه، تمتَّع بهذا العطاء، تمتَّع بصحَّة، تمتَّع بمال، تمتَّع بزوجة، تمتَّع بأولاد، تمتَّع بكل شيء، وعدَّ نفسه شاطراً وذكياً أنه وصل إلى شيء نفيس في الحياة ونسي الله فهو أكبر ظالم لنفسه لأنه لم يشكر، النبي عليه الصلاة والسلام كانت تَعْظُم عنده النعمة مهما دقَّت، إذا شرب

كأس ماء، تعظم عنده النعمة مهما دقَّت، إذا أفرغ هذا الكأس، الطرق كلها سالكة، والأجهزة تعمل بانتظام، هذه نعمةٌ لا تقدَّر بثمن، إذا أكل هذه نعمةٌ لا تقدر بثمن، إذا خرج هذا الطعام نعمةٌ لا تقدَّر بثمن، إذا كانت الأجهزة تعمل بانتظام نعمة لا تقدر بثمن:

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57))

لا يوجد في الدنيا حرمان ولكن يوجد تنظيم:

لا زالت النِعَم تترا على بني إسرائيل:

(وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً (58))

متواضعين، باب بيت المَقْدِس:

(وَقُولُوا حِطَّةٌ (58))

أي يا رب اغفر لنا ذنوبنا، حُطَّ عنَّا خطايانا:

(نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ (58))

للمذنبين:

(وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58))

إحساناً، فكل واشرب، وتزوَّج، وأسِّس عملاً، ونَل شهادة عُليا، وأنجب أولاداً وربهم، افعل ما تشاء من المباحات على شرط أن تعبد الله، أن تقف عند حدوده، أن تأتمر بأمره، أن تنتهي عما عنه نهى، أن تحبَّ الله ورسوله، لا يوجد في الدنيا حرمان ولكن يوجد تنظيم، كل الشهوات التي أودعها الله بالإنسان لها قنوات نظيفة، أية شهوةٍ أودِعَت في الإنسان لها قناةٌ نظيفةٌ تسري خلالها، فأنت حينما تعرف الله تفعل كل شيء لكن وَفْقَ منهجه.

المؤمن يتبع هوى نفسه وفق منهج الله أما الكافر فيتبع هوى نفسه بغير هدى من الله :

ورد آية بهذا المعنى عن إتباع الهوى بغير هدىً من الله:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50))

(سورة القصص)

الكافر يتبع هوى نفسه من غير هدىً من الله، أما المؤمن فهو يتبع هوى نفسه وفق منهج الله، فالشهوات التي أودعها الله في الإنسان لها قنوات نظيفة:

(وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ (58))

القرية هي بيت المقدس في أرجح الأقوال:

(فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً (58))

خضوعاً لله، عندما فتح النبي الكريم مكَّة المكرَّمة دخلها خافض الرأس، حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزَّ وجل:

(وَقُولُوا حِطَّةٌ (58))

يا رب حُطَّ عنا ذنوبنا:

(نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ (58))

للمذنبين:

(وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58))

ما أكثر من يُبَدِّل في القرآن قولاً غير الذي قاله الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59))

عندما يصير الدين شكلاً، فُلكلوراً، تقليداً، ورقصاً، أو يصير الدين دوراناً ومع ارتداء ثوب كبير، أو غناء، أو طرباً، أو احتفالات، أو إلقاء كلمات، أو مؤتمرات دون أن يُطبَّق المنهج الإلهي، إذا أصبح الدين كذلك فهذه أمَّةٌ تودِّعَ منها:

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (59))

أهكذا ذَكَرَ أصحاب رسول الله ربَّهم وهم يرقصون ؟ أهكذا كانت ثيابهم ؟ قد يبلغ قطر ثوبه ثلاثة أمتار، أفَعَلوا هذا تطبيقاً لمنهج الله عزَّ وجل ؟

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (59))

تكاد تجد أكثر المعاصي مُغَطَّاة بفتاوى، لم يبق شيء من الدين، بقي فقط فلكلوراً، تُراثاً، يقول لك: التراث الإسلامي، الدين أقواس، تيجان، زخرفة إسلاميَّة، لوحات إسلاميَّة، قرآن مُزَخرف، مسجد مزخرف، شكل بدون مضمون، لا يوجد منهج مُطبَّق، المنهج غربي، التقاليد والعادات كلها غربيَّة ؛ في الطعام والشراب، والاختلاط، والفنون، والغناء، والأفلام، كله غربي، ولا يوجد شيء إسلامي إلا المسجد والزخارف وبعض الثياب، هذا لا يجوز:

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (59))

ما أكثر من يُبَدِّل في القرآن قولاً غير الذي قاله الله عزَّ وجل، علماً أن الدين توقيفي والشرائع منتهية.

الدين لا يقبل الزيادة لأن أية زيادةٍ فيه تُعدّ اتهاماً له بالنقص:

قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً (3))

(سورة المائدة: " 3 ")

الدين لا يقبل الزيادة لأن أية زيادةٍ فيه تُعدّ اتهاماً له بالنقص، والدين لا يقبل الحذف فأيُّ حذفٍ منه اتهامٌ له بالزيادة، هو دين الله عزَّ وجل، كمال مُطْلَق:

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا (60))

أقول لكم كلمة: والله الذي لا إله إلا هو لو خرج أهل بلدةٍ إلى مكانٍ فسيح متذلّلين خاضعين، يسألون الله السُقْيَا، والله الذي لا إله إلا هو من الثابت أن الله يُمْطِرُهم مطراً يملأ آبارهم، ليعرّفهم ربُّهم أن الذي تدعونه بيده المطر، هذا الشيء يحصل في العالم الإسلامي، الاستسقاء عبادة، صلاة الاستسقاء عبادة ولكنها لا تنجح بشكل فردي إلا أن تكون جماعيَّةً، يجب أن يخلع الناس كِبْرَهُم، يخلعوا عنجهيَّتهم، أن يخضعوا لله عزَّ وجل، أن يسألوه السقيا، فإذا سألوه السقيا بتواضعٍ وتذلُّل وتَخَشُّع أمدَّهم الله بالأمطار الغزيرة التي تملأ آبارهم، وتحيي أراضيهم، وتنقذ نباتاتهم من الجفاف.

عندما يستهدف الإنسان الدنيا وليس له رسالة في الحياة يملَّ كل شيء :

قال تعالى:

(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60))

كل واشرب من غير كِبْر، من غير غطرسة، من دون معاصي وآثام، تزوج من دون اختلاط، تزوج وحجِّب زوجتك، اجعل القرآن في بيتك، افعل الطاعات، الذي حصل:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ (61))

أفخر أنواع الطعام، توجد هنا لفتة دقيقة جداً، الإنسان إذا استهدف الدنيا يَمَلُّ منها، إذا استهدفها ونسي رسالته، لم يعد له هدف، يعيش ليأكل ويستمتع، يمل كل شيء، والدليل أن هؤلاء الشاردين في أوروبا وأمريكا ملّوا كل شيء، لذلك يوجد انحرافاتٌ خطيرة سببها المَلَل والسَأم، ملوا المرأة فتوجَّهوا إلى الجنس المثلي، مُدن بأكملها، أكبر مدينة أو من المدن الجميلة جداً خمسة وسبعين بالمئة من بيوتها شاذُون، ذكور ذُكور، إناث إناث، السبب هو الملل، أنت عندما تستهدف الدنيا وليس لك رسالة في الحياة تملُّ كل شيء، تبحث عن الجديد ولو كان قذراً، تبحث عن التجديد ولو كان انحطاطاً، تبحث عن التغيير ولو كان نحو الأسوأ، هذا شأن الإنسان.

صفات من ضُرِبَت عليهم الذِلَّة والمسكنة وباؤوا بغضبٍ من الله :

لمؤمن هدفه الله عزَّ وجل لا يمل النعم التي بين يديه لأنها وسائل وليست غاية، النعم التي بين يديك تملُّها إن أصبحت غايات، وترتاح لها، وتستعين بها، ولا تَمَلُّها إذا جعلتها وسائل، فلذلك المَن والسلوى قال:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ (61))

هؤلاء الذين ضُرِبَت عليهم الذِلَّة والمسكنة وباؤوا بغضبٍ من الله، كيف بهم إذا أصبحوا مستكبرين ؟ معنى ذلك أن هؤلاء الذين استكبروا عليهم أقل منهم، هؤلاء الذين ضُرِبَت عليهم الذلَّة والمسكنة وباؤوا بغضبٍ من الله يتجبَّرون على من هم أضعف منهم، هذا معنى مزعج جداً.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61))

هذه صفاتهم ؛ يعصون الله، يعتدون على حقوق الآخرين، يقتلون الأنبياء بغير حق، طبعاً لا يوجد قتل بالحق، هذا ليس قيداً احترازياً بل هذا قيد وصفي، أي دائماً وأبداً الذين يقتلون الأنبياء بغير حق، لأن الأنبياء دعاة إلى الله عزَّ وجل، هذه صفاتهم التي أنبأنا الله بها في القرآن الكريم.

في درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

مصائب الكفَّار ردعٌ وقصمٌ لكن مصائب المؤمنين دفعٌ ورفعٌ:

سؤال هام عن المصائب:

سائل يقول: تذكر في أحاديثك أن هناك مرضاً عُضالاً يُعَدُّ عقوبةً من الله ؟

الجواب:

أيها الأخوة إن كلامي دقيق جداً، المرض نفسه، مرض عضال يصيب إنساناً غير مؤمن فيكون عقاباً، ويصيب إنساناً مؤمناً فيكون ترقيةً إلى الله عزَّ وجل، هذا الشي ثابت، المؤمنون لهم مصائب، والكفَّار لهم مصائب، مصائب الكفَّار ردعٌ وقصمٌ، لكن مصائب المؤمنين دفعٌ ورفعٌ.

حدَّثنا أخ طبيب كان بمستشفى، جاء مريض مصاب بورم خبيث يُشهدُ الله أنه مؤمن، قال لي: شيء يحيِّر العقول، كلما دخل إنسان لعيادته الكلمة الأولى له: أشهد أنني راضٍ عن الله، يا ربِّ لك الحمد .

أقسم هذا الطبيب وهو من إخواننا الكرام وهو حيٌ يرزق: أنك إذا دخلت إلى غرفته وجدت وجهه كالنور، روائح طيِّبة، إذا قرع الجرس، يتهافت كل من الأطبَّاء والممرضين على خدمته، وبعد أربعة أو خمسة أيام توفّي بأجمل حالة، بطيب ورضى، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة أرادها الله، عَقب هذا المريض جاء مريضٌ آخر مصاب بنفس المرض، لم يترك نبياً إلا وسبَّه، طباع شرسة، روائح نتنة، ثم مات .

إذا قلت لكم: مرض، فإني أقصد إنساناً متفلّتاً، عاصياً، يبيح الزنا والخمر، أنا أقصد هذا المرض لهذا الإنسان عقاب، والله لا تجد ولا شخصاً منا وعنده ضمانة أن لا يصاب بهذا المرض، قد يصاب ويكون بأعلى درجة عند الله عزَّ وجل، لي صديق أصيب بنفس المرض، تقول زوجته عنه: سنتان ولم تسمع منه إلا كلمة **" الحمد لله "**، اشتهت أن تسمع كلمة أنين منه، فلعل هذا المرض يكون سبباً لدخول الجنة.

المصائب أنواع:

المصائب أيها الأخوة أنواع ؛ مصيبة ردع، مصيبة قصم، هذا لغير المؤمن أما المؤمن رفع ودفع، فبعض الصحابة فقدوا أبصارهم، وبعض الصحابة جُرحوا، النبي شُجَّت وجنته، كُسرت ثناياه، فإذا حكيت لكم عن مرض ـ والله هذا السؤال مهم جداً ـ فأنا ما قصدت أن المرض وحده مشكلة، لا، بل المشكلة أن يكون الإنسان شارداً عن الله، شارداً، غارقاً.

تحدَّثت مرة عن إنسان يملك محلاً ضخماً جداً، يمارس الفحشاء فيه، ويعلق لافتة على باب المحل كتب فيها: نحن في الصلاة، احترق المحل، جدده، وعاد إلى معصيته ووقاحته، احترق مرة ثانية ؛ إذا احترق محل المؤمن فليست هناك أي مشكلة أبداً، فهناك حكمة بالغة من ذلك، هناك صحابي سُرِقَ ماله، فقال: **" يا رب إن كان هذا الذي أخذه عن حاجة فبارك له فيه، وإن كان أخذه بطراً فاجعله آخر ذنوبه".**

هل من الممكن أن يسرق مال المؤمن ويحترق محلّه ؟ ممكن، فهناك حكمة نحن لا نعرفها، يمرض مرضاً شديداً، والله هناك أمراض تصيب المؤمنين يرقون بها إلى أعلى عليين، أعرف أُناساً والله لا تؤثِّر فيه ولا مليون خطبة، أصابه مرض عضال وكان سبباً لعودته إلى الله عزَّ وجل، فأنا عندما أقول: مرض عضال، فلا أقصد أن كل واحد أصيب بمرض عضال معاقب، لا والله، فلا أحد منا يخلو من مرض، لا يوجد ضمانة عند إنسان أن لا يصاب بمرض، والمرض صار مشكلة كبيرة هذه الأيام، فأتمنى عليكم أن تنتبهوا للطعام، فهناك مواد بلاستيكيَّة، ومواد مسرطنة، ومبيدات، وأشياء كثيرة، فانتبه للطعام، نسبة المرض مرتفعة عشرين ضعفاً عن السابق، لا تمر جمعة إلا وأسمع عن عدة أشخاص ممن حولي أصيبوا بالأمراض.

أنا لا أقصد أن كل إنسان أصيب بهذا المرض إذاً فهو معاقب، لا، فأنا أتحدَّث عن إنسان متفلّت، ليس له منهج، يفعل الزنا جهاراً، يشرب الخمر، يتحدِّى الإله، هذا الإنسان مرضه بالطبع عقاب، أما إنسان مؤمن ؛ اسمعوا هذه الآية وهي خاصة بالمؤمنين :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

أشد الناس بلاءً الأنبياء :

النبي سيد الخلق قال:

((لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال.))

[حماد بن سلمة عن أنس]

دائماً أيها الأخوة الكلام له سياق ولِحاق وسِباق، ذكرت مرة قصة عن امرأة اعتدت على أخيها، اشترى معها بيتاً بالتمام والكمال والتساوي، ودفع كامل المبلغ، وكانت قوية جداً، فأخرجته من البيت ظلماً وعدواناً، ولديه من الأولاد أربعة عشر ولداً، نصفهم يبيتون في بيت جدهم، والنصف الآخر عند بيت جدتهم، قال لي ابن أخيها: أصيبت عمتي بمرض خبيث، فقلت: والله هذا عقاب إلهي، وتوفيت بعد شهر، وورثها أخوها الوحيد، وعاد إلى البيت مع أولاده.

هناك حالات واضحة، فهذه الحالة عقاب إلهي مثل الشمس، فهل كل مؤمن صار معه مرض كان عقاباً ؟ أعوذ بالله أن أقول هذا الكلام، فلا يوجد إنسان خال من مشكلة في حياته، الحديث الشريف :

((إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[أحمد مسلم عن أبِي عُبَيْدَةَ بْن حُذَيْفَة عَنْ عَمَّتِهِ فاطِمَة]

أنا حينما أذكر إنساناً يعصي الله جهاراً، ينتهك حرمات الله، يتحدَّى الإله ويأتيه مرضٌ عضال هذا المرض في الأعم الأغلب هو عقاب من الله، أما المؤمن له حساب آخر، وهذان المريضان اللذان دخلا المستشفى بنفس المرض، واحد ارتقى بمرضه إلى أن أصبح في أعلى عليين ؛ والثاني هوى به إلى أسفل السافلين، فالعبرة حالتك مع الله عزَّ وجل.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (27- 95):تفسير الآية 62، الانتماء الشكلي لا قيمة له عند الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-02-12

بسم الله الرحمن الرحيم

في القرآن الكريم آيتان تقتربان من الآية التالية:

مع الآية الثانية والستين وهي قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

هناك في القرآن الكريم آيتان تقتربان من هذه الآية ؛ الآية الثانيـة في سورة المائدة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(69))

(سورة المائدة)

هناك الآية الثالثة من سورة الحج وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17))

(سورة الحج)

الإنسان يجمع بين المتناقضين فيه نفخة من روح الله وقبضة من تراب الأرض:

أيها الأخوة الكرام، كان الناس أمةً واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، سيدنا آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام تلا الحق على أولاده، وأولاده تلوا الحق على أحفادهم، وهكذا، لكن الذي حصل أن النفوس تنحرف، والشهوات تستعر، والمصالح تتضارب، فالإنسان مُركب من عقل ومن شهوة، لو كان مركباً من عقلٍ فقط لم تكن هناك أية مشكلة، لكنه ركب من عقلٍ وركب من شهوةٍ، في حين أن المَلَك ركب من عقلٍ فقط، هو يذكر الله دائماً، والحيوان ركب من شهوةٍ فقط وهو ليس مكلفاً، الإنسان نوعٌ عجيب، فيه نفخةٌ من روح الله، وفيه قبضةٌ من تراب الأرض، فيه حاجات عُليا، ونوازع عليا، وفيه شهوات سُفلى، هو المخلوق الأول، بطولته أنه يجمع بين المتناقضين، هناك شهوة تحرِّكه، وهناك قيمٌ يصبو إليها، فيه نفخةٌ من روح الله وقبضةٌ من تراب الأرض، تراب الأرض يشدُّه إلى الأرض:

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

(سورة الأعراف الآية: 176)

والنفخة من روح الله تشده إلى الله وإلى القيَم، الذي ترونه جميعاً أن الإنسان يقلق إذا انغمس في شهوته، يبحث عن شيءٍ مفقود لو أعطى نفسه هواها، لو انغمس في إمتاع نفسه بالشهوات المادية إلى قمَّةِ رأسه يشعر أن هناك شيئاً يخالفه، يختل توازنه، ولا يستعيد توازنه إلا إذا عرف الله، فلذلك ربنا عزَّ وجل خلق الإنسان من نسل آدم، وأسكن سيدنا آدم في الجنة، وأعطاه درساً له ولذريته من بعده، أعطاه درساً بليغاً، وبيَّن الله عزَّ وجل لسيدنا آدم ولذريته من بعده:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(6))

(سورة فاطر)

لكن الإنسان بعد أن تأتي رسالات الأنبياء قد ينسى وقد ينحرف، وقد يُفَرِّغ الرسالة من مضمونها.

حينما لا يطبق الدين تطبيقاً كاملاً لا تقطف ثماره:

حينما جاء الدين الإسلامي أيها الأخوة، كان فيه زخم روحي شديد، مضمون كبير، قيَم رائعة، سلوك منضبط، إخلاص شديد، ولكن مع مُضي الزمن أصبح الدين شكلاً وفُرِّغَ من مضمونه شيئاً فشيئاً، لذلك ربنا عزَّ وجل يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة دينها، يصبح الدين شكلاً، يصبح فلكلوراً، يصبح رقصاً، يصبح أناشيد، يصبح غناء، يصبح مظاهر فخمة، شهادات عُليا، ألقاباً علمية، مؤتمرات، مكتبة، ولا يوجد التزام، وحينما لا يطبق الدين تطبيقاً كاملاً لا تقطف ثماره، هذا شأن الإنسان حينما يميلُ إلى الشهوة على حساب القيم.

الشيء المفروض أن الإيمان فطري، والله عزَّ وجل بدأ البشرية بنبي عظيم هو سيدنا آدم، وينبغي أن يَسري الحق من جيلٍ إلى جيل، لكن الذي حصل أنه حدث انحراف، مع الانحراف يأتي الأنبياء والرُسُل العظام من قبل المولى جلَّ وعلا ليصححوا مسار البشرية فصار هناك يهود، سمي اليهود يهوداً لأنهم اتبعوا يهوذا أحد أولاد سيدنا يعقوب، أو لأنهم هادوا إلى الله أي تابوا إليه هذه أصل التسمية، علماً أن الواقع الحالي لا ينتمي لهذه التسمية، إما أنهم تابوا إلى الله أو أنهم اتبعوا يهوذا، والنصارى:

(قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 52)

سمي الذي اتبعوا المسيح نصارى، والذي اتبعوا سيدنا موسى سموا يهوداً.

الإنسان حينما ينسى منهج الله يتولّد في نفسه عداوةٌ وبغضاء:

يقول الله عزَّ وجل :

(إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ)

(سورة الأعراف الآية: 156)

الآية دقيقة جداً ونحن في أمس الحاجة إلى معناها، فهذا الذي يملك إيماناً فطرياً بسيطاً، أو الذي آمن وانتمى إلى الإيمان شكلاً لا مضموناً، وهذا الذي انتمى إلى الدين اليهودي شكلاً لا مضموناً، وهذا الذي انتمى إلى الدين النصراني شكلاً لا مضموناً، تصور أربع محلات تجارية لا يوجد فيها بضاعة إطلاقاً، لكن توجد لافتات، لافتة كتب عليها مطرزات، لافتة كتب عليها أجواخ، لافتة كتب عليها ألبسة جاهزة، لافتة كتب عليها مواد غذائية، ليس في هذا المحل مواد غذائية، ولا ألبسة جاهزة، ولا مُطرَّزات، ولا أجواخ، لا شيء فيها، ولكن توجد لافتات متباينة، وهناك صراع، وتعصُّب ديني، وحروب دينية، أما المضمون فارغ، النقطة الدقيقة جداً جِداً أن الإنسان حينما ينسى منهج الله يتولّد في نفسه عداوةٌ وبغضاء، قال تعالى:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية: 14)

الآية تتحدث عن الذي ينتمي إلى الإيمان انتماءً شكلياً، ما الانتماء الشكلي ؟ حياته غربية، لا يوجد قيد في كسب المال، لا يوجد عنده انضباط، لا يوجد عنده منهج، إنفاق ماله بلا منهج وبلا ضابط، علاقاته مع النساء بلا منهج وبلا ضابط، يمضي وقت فراغه في أعمال سخيفة، ومتابعة أشياء لا تسمن ولا تغني من جوع، نمط حياته نمط غير إسلامي، لكنك تراه في المسجد يوم الجمعة، وقد علّق في بيته آية الكرسي، وتراه يلبس الجديد في أيام العيد، ويهنِّئ ويبارك، البروتوكولات جيدة، الطقوس جيدة، الأعمال الاستعراضية جيِّدة، المظاهر جيدة، أما المضمون فهو غير إسلامي، فهذا الذي ينتمي إلى الدين انتماءً شكلياً، وهذا الذي ينتمي إلى اليهودية انتماءً شكلياً، وهذا الذي ينتمي إلى النصرانية انتماءً شكلياً.

الانتماء الشكلي إلى الدين مظاهر وطقوس وعبادات جوفاء لا معنى لها:

قال الله عزَّ وجل:

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

(سورة الحديد الآية: 27)

هكذا وُصِفَ أتباع سيدنا عيسى، كتبوا على عُملتهم ثقتنا بالله لكنهم ماذا يفعلون ؟ يرتكبون من الجرائم في العالم ما يندى له الجبين، يبنون ثروتهم على نهب ثروات الشعوب، يبنون قوتهم على

تدمير أسلحة الشعوب، يبنون رخاءهم على إفقار الشعوب، فالانتماء شكلي والدليل أن أعمالهم بخلاف ما وصفوا به:

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

(سورة الحديد الآية: 27)

إذاً الانتماء شكلي، مظاهر، طقوس، عبادات جوفاء لا معنى لها، وقد تكون العبادات غناء وموسيقى وما شاكل ذلك:

(وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(35))

(سورة الأنفال)

صار إحياء ليلة القدر برقص، أليس كذلك ؟ فهذا الدين قد فُرِّغَ من مضمونه.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ (62))

الصابئون حَكَّموا عقلهم فرفضوا بعض النصوص، أو انتقلوا من دينٍ إلى دين، أو أصبحوا بلا دين، إنسان لا يتبع سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام، ولا السيد المسيح، ولا سيدنا موسى، يقول لك: أنا عقلاني، أو أنا علماني، والأصح جَهْلاني، ليس له علاقة بالأديان، عقله هو دينه، وعقله الحَكَم .

العقل لا قيمة له من دون وحيٍ يرشده:

هناك نقطة مهمة جداً أيها الأخوة حتى أثبت لكم أن العقل وحده لا يكفي، يوجد عند طبيب العيون لوحة متدرجة في الدقة، فقبل آخر سطر إذا عرف اتجاه الـ (C) أو الـ (E) باللغة الإنكليزية، يكون نظره حاداً، يقول له الطبيب: يمين، يسار، فوق، تحت، إذا عرف قبل آخر سطر يأخذ عشرة على عشرة، إذا عرف آخر سطر يعطى اثنا عشر على عشرة، فأدق العيون هي التي تكشف اتجاه هذه الحروف في آخر سطر، لو أن إنساناً يملك عينين حادتين وهناك منظر جميل أمامه ولكن لا يوجد ضوء، ما قيمة العينين ؟ صفر، أجلس في غرفة إنساناً أعمى وإنساناً له عينان حادتان، أطفئ المصباح ألا يستويان ؟ يستويان تماماً، معناها لا قيمة للعين من دون ضوءٍ يكون وسيطاً بينها وبين المرئي.

قس على ذلك العقل، والعقل لا قيمة له من دون وحيٍ يرشده، من هو العالم الغربي ؟ عالم قائم على العقل فقط، العقل قدَّم إنجازات مادية مذهلة، ولكنه هبط هبوطاً اجتماعياً وأخلاقياً مُريعاً، وما يُعانون منه من مرض الإيدز، ومن الجريمة، ومن التفكك الأسري، وانحلال الأسرة، وشيوع المخدرات شيء لا يحتمل، إنسان يتحرَّك وفق عقله فقط لا وفق منهج الله عزَّ وجل، والعقل قد ينتهي بالإنسانية إلى الدمار، بسبب استخدام العقل وحده.

أخواننا الكرام، الخلق هو سياج العقل، العقل قوة كبيرة، ما الذي يمنع صاحب العقل الكبير أن يصنع مادةً تؤذي الناس ؟ الآن العلماء الكبارُ الكبار يصنعون القنابل الجُرثومية، والقنابل الكيماوية، يبنون تفوّقَهُم على تدمير البشرية، فما الذي يمنع العقل من أن يدمِّر العالم كله ؟ هو القيم الأخلاقية، ولا أخلاق بلا دين، معناها الدين أساس الأخلاق، والأخلاق أساس ضبط العقل، العقل يحتاج إلى وحي، والعقل مقياس غير صحيح من دون وحي، الآن الدليل، العقل مرتبط بواقع، لو أنهضنا إنساناً قبل مئة عام من قبره، وقلنا له: هذه الكتب ـ أربع جدران من الأرض إلى السقف كلها مجموعة بقرص ليزري واحد ـ لا يصدق كلامنا، أما الآن فهو شيء واقع، هناك الآن أقراص ليزرية فيها ألف كتاب بقرص ليزري واحد، العقل لا يصدق قبل مئة عام أنه من الممكن أن نبعث رسالة إلى أقصى قارة في العالم بثانية واحدة، الآن عن طريق الفاكس ترسل رسالة إلى أقصى مدينة في أمريكا، بغرب أمريكا على المحيط الهادي بثانية، لم يكن العقل يصدق أن يحدث شيء في مكان يراه العالم كله بالأقمار الصناعية، العقل لم يكن يصدق سابقاً، معناها العقل مرتبط بالواقع ولا يحق له أن يكون حكماً على النقل، النقل هو الحقيقة المطلقة التي من عند الله عزَّ وجل.

من هم الصابئون ؟

من هم الصابئون ؟ هم الذين حَكَّموا عقولهم في النصوص فرفضوا ما لا يروق لهم وقبلوا ما راق لهم، صابئ أي أنه انسلخ من الدين، احتكم للعقل، أي علماني بالتعبير الحديث، العلماني هو إنسان صابئ انسلخ من الدين وصار له مقاييس أخرى.

على كلٍ الآية مخيفة، هذا الذي ينتمي إلى الإسلام شكلاً، أو إلى الإيمان العامي الفطري شكلاً، وهذا الذي ينتمي إلى اليهودية شكلاً، وهذا الذي ينتمي إلى النصرانية شكلاً، وهذا الذي ينتمي إلى عقله ويحَكّم عقله في كل نقل، في المعنى الضمني لهذه الآية :

(فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)

(سورة النحل الآية: 71)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ (62))

من هؤلاء جميعاً المقبول منهم:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62))

حقيقة الإيمان أن تؤمن بأن الله موجود:

حقيقة الدين، جوهر الدين أن تؤمن بالله، يمكن لكل واحد أن يقول: أنا مؤمن بالله ؟ ولكن حقيقة الإيمان أن تؤمن بأن الله موجود، وأنه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وأن هذا الذي تستمع إليه من أحداث من تدبير الله، ويد الله فوق أيديهم، ويد الله تعمل في الخفاء، وما من إلهٍ إلا الله.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً(26))

(سورة الكهف)

وقال:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

وقال:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: 54)

وقال:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

وقال:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد الآية: 11)

حينما تؤمن بالله الواحد الأحد لا يمكن أن تُقْدِم على معصية ولو أعطوك ملء الأرض ذهباً :

حينما تؤمن أن الله هو الفَعَّال، يقول لك: هناك في كل بلد رجل قوي، قد يكون ظاهراً وقد يكون غير ظاهر، من هو الرجل القوي في كل بلد ؟ لا يوجد إلا الله هو القوي، هو الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الباقي على الدوام، بيده الأمر،

بيده مقاليد السماوات والأرض:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية: 123)

وقال:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)

(سورة الحديد الآية: 3)

وقال:

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الحديد)

لا يقع شيءٌ في الكون إلا بإذنه، هذا هو الإيمان، يبنى على هذا الإيمان أشياء كثيرة، حينما تؤمن أن الله وحده هو الفَعَّال لا تنافق لأحد، حينما تؤمن أن الله وحده هو الفعال لا تبتغي رزقاً بمعصية، مستحيل، حينما تؤمن بالله الواحد الأحد لا يمكن أن تُقْدِم على معصية ولو أعطوك ملء الأرض ذهباً لأنك تعلم أنك خاسر لا محالة، معنى تؤمن أي أن يتغلغل الإيمان إلى أعماق الإنسان فيغير كل صفاته، وكل مبادئه، وكل قيمه، وكل أهدافه، الإيمان يصنع إنساناً جديداً، يعد المؤمن الفوز بالعطاء لا بالأخذ، أكثر الناس يشعرون براحة حينما يأخذون، حينما يتملكون لا حينما يعملون عملاً صالحاً.

الإيمان الحق يعكس موازين الإنسان، الإنسان له موازين مادية، لكن حينما يؤمن بالله تختلف موازينه.

الإنسان له موازين مادية لكن حينما يؤمن بالله تختلف موازينه:

الإيمان الحق يعكس موازين الإنسان، الإنسان له موازين مادية، لكن حينما يؤمن بالله تختلف موازينه.

مثل بسيط أضربه دائماً ؛ قال مَلِك لأستاذ: عَلِّم ابني دروساً وأنا أكرمك، إذا عرف هذا الأستاذ ما معنى مَلِك، وأن كل شيء بيده، وأقل عطاء له بيت وسيارة، المستحيل أن يطلب من الابن أجرة الدرس، يقول لتلميذه ابن الملك: لا، والدك يحاسبني، أما إذا لم يعرف من هو الملك، فطالب الابن بأتعابه، أعطاه على الدرس ألف ليرة مثلاً ولكنه أضاع على نفسه عطاءً كبيراً .

أنت حينما تؤمن أن الأمر بيد الله وحده لا ترجو سواه، لا تتضعضع أمام غيره، ولا تعلق أملاً على إنسانٍ آخر، فالإيمان شيء يغيِّر نمط الإنسان، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((لن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفاً مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

أي اثنا عشر ألف مؤمن لن يغلبوا في الأرض، وإذا كان مليار ومئتا مليون مغلوبين، مغلوبين على أمرهم، ليس أمرهم بيدهم، ليست كلمتهم هي العُليا، أعداءهم يتحدَّونهم، لأنه:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

(سورة مريم)

هذا هو الكلام الدقيق.

إذا لم تؤمن أن هناك يوماً هو يوم الجزاء والحساب لن تستقيم في سلوكك :

قال تعالى :

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (62))

أركان الإيمان خمسة، لماذا في معظم الآيات الكريمة قرن ربنا الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر ؟ أي أنَّك إذا لم تؤمن بأن هناك يوماً تسوى فيه الحسابات، تسترد فيه الحقوق، يُنْصَف المظلوم من الظالم، يؤخذ الحق من القوي إلى الضعيف، إذا لم تؤمن أن هناك يوماً، هو يوم الجزاء، يوم الدينونة، يوم الحساب، لن تستقيم في سلوكك:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

هناك انتماءات شكلية للأديان، وهناك جوهر الدين الذي أراده الله عزَّ وجل، جوهر هذا الدين أن تؤمن بالله، وأن تثق به، وأن تعتمد عليه، وأن تتوكل عليه، وأن تعلّق عليه الآمال، وأن تطيعه، وأن تحبه، وأن تُقبل عليه، وأن تعمل لليوم الآخر، هذا هو الدين، تجد المؤمن أمره عجيب يركض بلا أجر، لا يريد شيئاً، يشتغل أربعاً وعشرين ساعة، يعمل ليل نهار، يقدِّم ولا يأخذ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، إنسان كل حياته عطاء، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يصلي الليل لا تتسع غرفته لصلاته ونوم زوجته، فكانت تنحرف يساراً كي يصلي، أنتم ترون هذه الأبهة الواسعة شيء يأخذ بالألباب، سيد هذه الأمة كان بيته صغيراً جداً لا يتسع لصلاته ونوم زوجته.

تخلّى الله عن المسلمين لأنهم عصوه:

الأنبياء العظام أعطوا ولم يأخذوا، وهناك من يأخذ ولا يعطي، والمؤمن بين بينَ يأخذ ويعطي، ولكن لا بد من أن تعطي، إذا آمنت بالآخرة لا بد من أن تعطي، ماذا قدمت؟

((يا بشير لا صدقة ولا جهاد فبم إذن تدخل الجنة ؟))

[أحمد عن بشير بن الخصاصية]

هذا السؤال الدقيق، ماذا قدمت للمسلمين ؟ أي عملٍ فعلته في سبيل الله ؟ أي عمل فعلته تقرُّباً إلى الله ؟ هذه نقطة دقيقة جداً، قد تلاحظ مسلماً غير منضبط، طعامه، شرابه، لقاءاته، سهراته، اختلاطه، كسب ماله، أين يمضي وقت الفراغ ؟ أجهزة اللهو في بيته، نساءه متبرجات كاسيات عاريات، وازن بين أسرة تنتمي للإسلام شكلاً، وأسرة تنتمي للنصرانية شكلاً، وأسرة تنتمي لليهودية شكلاً، وإنسان علماني تجدهم مثل بعضهم، هناك تشابه ولكن هناك تعصب، هناك تشابه،

أما لو تمسك هؤلاء بالدين الحقيقي لالتقوا و لاجتمعوا لأن المنهج واحد والأصل يوحِّد، فلذلك لا يريد الله عزَّ وجل الانتماء الشكلي، لا يريد التعَصُّب.

تجد أحياناً طالباً دفاتره أنيقة جداً ولكنه استحق بكل المواد أصفاراً، كل دفتر مغلف وفوقه نايلون، وبطاقة، ولوحة، ونشَّافة، وشريطة، ويأخذ صفراً بالمذاكرات، فهذه الأشياء الشكلية لا تقدِّم ولا تؤخر، لا تكفي العناية بالمساجد لوحدها فقط، دخلت مسجداً في الدار البيضاء في المغرب كلف تشييده ألف مليون دولار، شيء يفوق حد الخيال، بني فوق البحر، من يجلس في الحرم يرى البحر، استوحي هذا المسجد من قوله تعالى:

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

(سورة هود الآية: 7)

تجد البحر من تحته، نعتني بالمساجد لكن البيوت خَرِبَة، البيوت جحيم، العلاقات كلها علاقات ربوية، العلاقات بين الجنسين علاقات بغي وعدوان، يبدو في هذا الوضع كما لو أن الله تخلَّى عن المسلمين لأنهم عصوه:

((إذا عصاني من يعرفني سلَّطت عليه من لا يعرفني.))

[ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض]

الإيمان المنجِّي هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله وعلى التخلُّق بالخلق الإسلامي:

أيها الأخوة، هذه آية أساسية جداً :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (62))

الإيمان الشكلي:

(وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى (62))

والعلمانيون معهم:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ (62))

الإيمان المنجِّي، هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، هو الإيمان الذي يحملك على التخلُّق بالخلق الإسلامي:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (62))

المؤمن يهيئ جواباً لله عن كل حركة، كل سكنة، كل عطاء، كل مَنع، كل وَصل، كل قطع، كل رضا، كل غضب، ماذا سيقول لله عزَّ وجل يوم القيامة لو سأله: لم طلَّقت ؟ لم غضبت ؟ لم أعطيت ؟ لم منعت؟ لم فعلت ؟ لم تركت ؟

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً (62))

آمن بالله وباليوم الآخر فاستقام وعمل صالحاً، قال: هؤلاء هم الذين وضعوا أيديهم على جوهر الدين، تصور إنساناً بدوياً لا يقرأ ولا يكتب، راعياً، قال له سيدنا عمر: **" بعني هذه الشاة وخذ ثمنها "** ، قال له: **" ليست لي "** ، قال له: **" قل لصاحبها ماتت"** ، قال له: **" ليست لي "**، قال له: **" خذ ثمنها "**، قال له: **" والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟ "** .

الذين فرَّغوا الدين من مضمونه بقي لهم من الدين الانتماء الشكلي:

أيها الأخوة، صدقوني لو وصل المسلمون لمستوى هذا الراعي الأمي لكانوا في حالٍ غير هذه الحال، ليست القضية بالدراسات العُليا ولا بالألقاب العلمية القضية بالاستقامة، هذا الأعرابي وضع يده على جوهر الدين، والذين فرغوا الدين من مضمونه جعلوا الدين تقاليد، عادات، مظاهر، ألقاباً، افتخاراً، الذين فرَّغوا الدين من مضمونه بقي لهم من الدين الانتماء الشكلي، هذا الانتماء الشكلي لا قيمة له عند الله أبداً.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً ((62)

هؤلاء الذين يحبُّهم الله عزَّ وجل، إذاً هذه الآية دقيقة، أي إنسان ينتمي لهذه الأديان لو انسلخ من هذا الانتماء الشكلي و:

(آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ((62)

هذه الآية آية البقرة .

سبب رفع كلمة " الصابئون " في الآية التالية:

الآية الثانية قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ)

(سورة المائدة الآية: 69)

هنا مشكلة، " إنّ " حرف مشبَّه بالفعل تنصب الاسم وترفع الخبر.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

الذين اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم إنّ .

(وَالَّذِينَ هَادُوا)

معطوف، أما:

(وَالصَّابِئُونَ)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ)

للفت النظر ورد في الآية كلمة

(الصَّابِئُونَ)

مرفوعة، أي أن هذا الذي احتكم لعقله ـ مع أنه عقله مربوط بالواقع وعقله يحتاج إلى وحي ـ فهذا وقع في ضلالٍ كبير.

جميع الاتجاهات الدينية في العالم الله وحده هو الذي سيفصل بينهم يوم القيامة:

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(69))

(سورة المائدة)

هذا التطمين الثاني، الأولى :

(فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

هنا :

(فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(69))

(سورة المائدة)

الآن لو أخذنا مجموع الاتجاهات الدينية في العالم ؛ هناك وثنيون، هناك بوذيون، وهناك سيخ، وهندوس، وعُبَّاد النار، وعُبَّاد الشمس، وعُبَّاد البَقَر، وعُبَّاد المَوج، وعُبَّاد الفَرج، و عُبَّاد لا نهاية لهم، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا (17))

(سورة الحج)

من هو على الحق منهم ؟ قال:

(إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17))

(سورة الحج)

كلٌ يدَّعي أنه على حق، وكل مِلَّة، وكل اتجاه، وكل مذهب، وكل دين، وكل طائفة، وكل جماعة تدعي أنها على الحق، لكن من هو الذي سيفصل بينهم ؟ هو الله عزَّ وجل، الله عزَّ وجل يعلم السر وأخفى.

صفات الضالين في العالم أربع:

هناك اتجاهات كلها ضالة لكن بشكل أو بآخر صفات الضلال بالأرض أربع:

أول صفة: تأليه الأشخاص، كثيراً ما تجد أدياناً كل شيء هو الذي يقوله رئيس الدين، لا يوجد منهج، قد يكون مثلاً رئيس مجوعة دينية، قد يكون ديناً أرضياً، الذي يقوله هو التشريع، لا يوجد تشريع بل تأليه للأشخاص.

الثانية: اعتماد النصوص الموضوعة والضعيفة .

الثالثة: تخفيف التكاليف .

الرابعة: النزعة العدوانية.

هذه صفات الضالين في العالم، أما نحن المبادئ عندنا أقوى من الأشخاص:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17))

(سورة الحج)

إذا أراد الإنسان أن يتبع الدين اتباعاً حقيقياً يجد الكثير من المبادئ والتعليمات يجب أن تُطبق:

في الإسلام، النبي عليه الصلاة والسلام :

(إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي)

(سورة الأعراف الآية:203)

سيدنا الصديق قال: **" إنما أنا متبع ولست بمبتدع، إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم."**

حتى في الدعوات الدينية إذا قال الشيخ فرضاً: **" يا بني أنت ما دمت معنا فلا تخف "**، فمن أنت ؟ ذُكِرت قصة في أحد الكتب أن أحدهم توفي وعندما جاءه الملكان ليسألاه عن دينه وعن ربه وعن نبيه، تلقيا ضربة أخرجتهم من القبر، قيل لهما: **" هذا مريدي، أمِثل هذا يُسْأل !! "** ، فهذا كلام مضحك، قال تعالى مخاطباً نبيَّه:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(15))

(سورة الأنعام)

سيد الخلق حبيب الحق:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(15))

يا رسول الله: **" مَثِّل بهم "** قال: **" لا أمثل بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبياً "**، هناك خوف من الله، هناك انضباط، لذلك إذا أراد الإنسان أن يتبع الدين إتباعاً حقيقياً يجد عنده مئات الألوف من المبادئ والتعليمات، وافعل ولا تفعل، هذه كلها ينبغي أن تطبق.

الإيمان الذي لا يحمل صاحبه على طاعة الله لا قيمة له إطلاقاً:

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17))

(سورة الحج)

الملخص: الانتماء الشكلي لا قيمة له عند الله، جوهر الدين أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وأن تؤمن بالله إيماناً يحملك على طاعته، إذا قال إنسان لك: أنا مطلع على مقالات عن أضرار الدخان وتراه يدخن، فأنت لن تصدقه، هذا جاهل، ما دام مطلعاً على مقالات عن أضرار الدخان ويدخن فمعلوماته لم تحمله على ترك الدخان، إذاً هذه المعلومات لا قيمة لها إطلاقاً، أما عندما يطلع الإنسان على مضار الدخان ويقلع عن التدخين نقول: معلوماته التي قرأها عن الدخان حَمَلَتْهُ على ترك الدخان، هذه معلومات مجدية ـ طبعاً من باب التمثيل ـ وحينما تؤمن بالله إيماناً يحملك على طاعته، وعلى تحرِّي الحلال، وعلى ترك الحرام، وعلى خدمة الخَلق، هذا الإيمان هو المجدي، وإلا أي إيمان لم يحمل صاحبه على طاعة الله لا قيمة له، بعضهم يسميه تندراً [إيمان إبليسي]، لأن إبليس قال:

(فبعزتك (82))

(سورة ص)

آمن بالله رباً وآمن به عزيزاً، وقال له:

(فأنظرني إلى يوم يبعثون (79))

(سورة ص)

آمن بيوم البعث، وإبليس قال له:

(خلقتني من نارٍ (76))

(سورة ص)

آمن أنه خالق، فآمن بأنه خالق وعزيز ورب وآمن بيوم البعث، ومع ذلك هو إبليس، فالإيمان الذي لا يحمل صاحبه على طاعة الله لا قيمة له إطلاقاً، صفر.

العبرة أن تملك الحقيقة لأن الله يفصل بين الناس يوم القيامة:

ثلاث آيات أيها الأخوة ؛ في البقرة آية، في المائدة آية، في الحج آية:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

هذه آية البقرة. أما آية المائدة فهي:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(69))

(سورة المائدة)

آية الحج :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17))

(سورة الحج)

العبرة لا أن تقنع الناس بباطلك، العبرة أن تكون عند الله على حق ـ دققوا في هذه الكلمة ـ قد تقنعني أن معك كيلو من الذهب وهو من التنك، ما قيمة هذا الإقناع ؟ أنت الخاسر الأول لا سمح الله، وقد تملك كيلو ذهب وأنا متوهِّم أنه تنك معدن خسيس، لا قيمة لهذا الوهم فأنت الرابح الأول، العبرة أن تملك الحقيقة لأن الله يفصل بين الناس يوم القيامة.

المؤمن الصادق يحاول أن يوفِّق بين قناعاته وبين مقاييس القرآن الكريم:

أنا لم أر فئة إلا وتدعي أنها على حق، أي فرقة، أي نموذج في العالم كله، كل جماعة تدَّعي أنها على حق، وهي الصفوة المختارة ـ الصفوة النار ـ هكذا، أما المؤمن الصادق يحاول أن يوفِّق بين قناعاته وبين مقاييس القرآن الكريم، العبرة كما قال النبي الكريم:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر]

العبرة أن تكون عند الله على حق، وأن تكون عند الله مرضياً :

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (28- 95):تفسير الآيات 63 - 66، الشدائد هي النعم الباطنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-02-19

بسم الله الرحمن الرحيم

من الحكمة أن تُعْرَض علينا أمراض الذين من قبلنا كي نتعظ بغيرنا فلا نقع فيما وقعوا فيه:

مع الآية الثالثة والستين وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63))

يتابع الله جلَّ جلاله الحديث عن بني إسرائيل، وقد بيَّنت لكم من قبل أن كل الأمراض التي وقع فيها بنو إسرائيل قد تزل قدم المسلمين فيقعوا في مثلها، فلذلك من الأسلوب الحكيم أن تُعْرَض علينا أمراض الذين من قبلنا كي نتعظ بغيرنا فلا نقع فيما وقعوا فيه، كل امتنانٍ من الله على بني إسرائيل في عهد موسى هو امتنانٌ على ذريَّتهم في عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلَّم، لأن الكاف للخطاب:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ (63))

هذا الميثاق هو التكليف الذي كُلِّفتم به، هذا العهد بطاعة الله، هذا العهد بإقامة العدل في الأرض .

أيها الأخوة، أرسل النبي عليه الصلاة والسلام سيدنا عبد الله بن رواحة ليقدِّر تمر خَيْبَر، حيث كان هناك اتفاقٌ بين النبي عليه الصلاة والسلام ويهود خيبر أن يأخذ نصف غلَّتهم من التمر، فكلَّف النبي الكريم عبد الله بن رواحة ليُقَدِّر التمر، أرادوا أن يرشوه، أرادوا أن يعطوه حلياً من حليِّ نسائهم ليكون التقدير أقلَّ مما ينبغي فيربحون، فقال هذا الصحابي الجليل قولته الرائعة: **" والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الخلق إلي ـ أي من عند رسول الله ـ ولأنتم أبغضُ إليَّ من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم "** ، فقال اليهود: **" بمثل هذا قامت السماوات والأرض، وبمثل هذا غلبتمونا ".**

الإنسان مخيَّر ولكن الله عزَّ وجل يسوق له الشدائد ليحمله على التوبة:

دقِّقوا إذا أقمنا الحق نغلب أعداءنا ـ بمثل هذا قامت السماوات والأرض، وبمثل هذا غلبتمونا ـ قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى (8))

(سورة المائدة: الآية " 8 ")

وقال:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ (63))

لا يزال ربنا عزَّ وجل يمتنُّ على بني إسرائيل، يمتنُّ على آبائهم في عهد موسى وهو امتنانٌ حكميٌّ على ذرِّيتهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، لولا هذا الميثاق، ولولا هذا التكليف ما عرفتم سرَّ وجودكم، فهذا من فضل الله عزَّ وجل.

توجد نقطة دقيقة جداً: الإنسان مخيَّر قولاً واحداً، لكن لماذا يسوق الله عزَّ وجل له الشدائد ؟ ليحمله على التوبة، هل هذه الشدائد التي يسوقها الله للمُقَصِّرين تُلغي اختيارهم ؟ الجواب: لا، الإنسان مخيَّر، ولكن الله أحياناً يرسل مصيبةً، هذه المصيبة تقع فيما لو رفضنا منهج الله، فإذا قبلناه أُزيحَتْ عنا، هذا لا يتناقض مع التخيير في الدين، ولكن هذا من تربية الحكيم العليم، فهذا الأب الذي يشتدُّ على ابنه في سنين الدراسة ليكون علماً من أعلام الأمَّة، هذه القسوة وهذا الخيار الصعب الذي وضع الأب ابنه فيه إما أن تدرس وإما أن أحرمك من كذا وكذا، هذا لم يلغ اختيار الابن ولكن دفعه إلى أن يختار الأفضل.

ربنا عزَّ وجل يدفعنا إلى أن نختار الأفضل:

إذاً ربنا عزَّ وجل يدفعنا إلى أن نختار الأفضل، يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38)إِلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

(سورة التوبة)

فإن أصررتم:

(وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ (39))

(سورة التوبة)

وما ذلك على الله بعزيز:

(وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً (39))

(سورة التوبة)

وما ذلك على الله بعزيز، معنى ذلك أن الحكيم المربي لو أن هذا الذي أمامه اختار الأسوأ، واختار الهلاك، واختار الضلال، لا بد للمربي الحكيم أن يدفعه إلى أن يختار الصواب، حينما يسوق ربنا جلَّ جلاله الشدائد للمقصِّرين كي يدفعهم إلى الطاعة، وكي يدفعهم إلى الاستقامة، وكي يدفعهم إلى الصُلح مع الله، هذا أسلوب الحكيم، هذا أسلوب المربي الرحيم، هذا لا يُلغي الاختيار، الابن مخيَّر أن يدرس أو لا يدرس، ولكن الأب يقول له حرصاً عليه: إن لم تدرس فأمامك كذا وكذا، ليجعله في خيار صعب، لولا أن الله يسوق لعباده من الشدائد ما يسوقه لهم لما كان معظم الناس في طريق الإيمان سائرين.

الشدائد إذا حملت الإنسان على الطاعات انقلبت إلى نِعَمٍ باطنة:

ربنا عزَّ وجل نتق الجبل بمعنى زعزعه من مكانه وجعله فوقهم، فإما أن يطبِّقوا منهج الله وإما أن يقع عليهم، أي أنه ألجأهم إلى طاعة الله، من هنا قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

((عجِبَ ربُّنا من قومٍ يُقادون إلى الجنَّة بالسلاسل.))

[أحمد والبخاري من ابن مسعود]

أقْبِلْ على الله بسلاسل الإحسان لا بسلاسل الامتحان:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(21))

(سورة السجدة)

قال المفسِّرون: نتق الله جبل الطور الذي كلَّم به موسى عليه السلام، نتقه أي زعزعه من مكانه وجعله فوقهم كالظُلَّة، فإن لم يستقيموا على أمر الله أهلكهم بطريقةٍ أو بأخرى، والله أعلم، فمعنى هذه الآية، هذا الجبل ـ كما قال بعض المفسِّرين ـ جبل الطور نُتِقَ أي زُعْزِعَ من مكانه وهدَّدهم بالهلاك إن لم يستقيموا على أمر الله، كم من إنسان أصيب بمرض عضال فتاب توبةً نصوحاً، حمله هذا المرض أو حمله شبح هذا المرض على طاعة الله والصُلح معه، اسم هذا المرض يوم القيامة يبعث في نفس هذا المؤمن الذي اهتدى إلى الله عزَّ وجل كل سعادةٍ وسرور، إذا حملت الشدائد الإنسان على الطاعات انقلبت إلى نِعَمٍ باطنة وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (20))

(سورة لقمان)

يجب أن تفهم الشدائد التي يسوقها الله للمسلمين اليوم كهذا الفهم تماماً، الشدائد التي يسوقها الله للمسلمين اليوم في كل بقاع الأرض يجب أن تدفعنا إلى طاعته.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

(سورة القصص: الآية "4 ")

سُنَّة الله في خلقه:

هؤلاء الغربيون الذين يعيشون على أنقاض الشعوب، الذين يدمِّرون الشعوب، ينهبون ثرواتهم، يدمِّرون أسلحتهم، يجيعونهم كما ترون، هؤلاء ينطبق عليهم هذا المبدأ:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

(سورة القصص)

هذه سُنَّة الله في خلقه:

((إذا عصاني من يعرفني سلَّطت عليه من لا يعرفني.))

[ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض]

هذا أسلوب الحكيم، هذا أسلوب المُربي الرحيم، تُساق الشدَّة من أجل أن تعرف الله:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصحَابَ الْجَنةِ إِذْ أَقسَمُوا لَيصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(17)وَلا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(20))

(سورة القلم)

من قصَّر بالعمل ابتلاه الله بالهم:

القصَّة معروفة، حينما انطلقوا إلى بساتينهم ليجنوا الثمر ويحرموا حقَّ الفقير:

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(29))

(سورة القلم)

قال تعالى :

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم)

أي عذابٍ في الأرض يساق للإنسان هو لهذه العلَّة، لعلَّة أن يهتدي الإنسان، لعلَّة أن يعرف الله، لعلَّة أن يتوب إلى الله، لعلَّة أن يستقيم على أمر الله، لعلَّة أن يعرف سرَّ وجوده، أن يعرف غاية وجوده، لعلَّة أن يسعى إلى الآخرة، لعلَّة أن يسعى إلى جنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، والله الذي لا إله إلا هو أكاد أقول إن معظم المسلمين، الصالحين، التائبين، الذين يعرفون الله، الذين اهتدوا إلى الله كانت هدايتهم بسبب شدَّةٍ ساقها الله إليهم، وهذه الشدَّائد هي النِعَمُ الباطنة، إما أن تأتي ربك طائعاً، وإما أن يحملك على أن تأتيه مكروهاً، اختر أحد الحالين ؛ إما أن تأتيه طائعاً، وإما أن يحملك على أن تأتيه مكرهاً، وهذا لا يتناقض مع الاختيار، ولكن يجسِّد رحمة الله عزّ وجل، ويجسِّد حرصه على سعادة الإنسان.

الأب الذي يُسَيِّب أولاده، لا يتعلَّمون، لا يعملون، فإذا كبروا وكانوا في المؤخِّرة، وكانوا مع الحُثالة هؤلاء يلومون آباؤهم، والأب الذي يتشدَّد على أولاده ليحملهم على طاعة الله، ويحملهم على أن يكونوا شخصياتٍ فذَّةً في المستقل هؤلاء يشكرونه طوال حياتهم على شدَّته معهم، هذا معنى الآية:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ (63))

من أجل ماذا ؟ قال :

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ (63))

هذه الآية دقيقة جداً، أي أن هذا الطور الذي رُفِعَ عليكم، هل هناك طورٌ آخر في حياة المسلمين ؟ طبعاً، كل واحد له طور، شبح مرضٍ هو طور، شبح مشكلةٍ في الأسرة، شبح فقد مالٍ طور، شبح مرضٍ طور، شيء قوي، شيءٌ يُهَدِّدك، يهدِّد سلامتك، يهدِّد رزقك، يهدِّد سعادتك، يهدِّد أمنك طور، من قصَّر بالعمل ابتلاه الله بالهم.

مداخل الشيطان على الصالحين:

طبعاً هذه الآية بالمعنى الضيِّق، كان جبل الطور سبب حمل بني إسرائيل على أن يسيروا في منهج الله، هذا أسلوب الحكيم، أسلوب الرحمن الرحيم:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ (63))

طبِّق أمر الله بقوَّة، طبِّقه بحذافيره، ماذا يفعل الشيطان مع الإنسان ؟ الشيطان يُغري الإنسان بالكفر، فإن لم يكفر يغريه بالشرك، فإن لم يشرك يغريه بالابتداع، فإن لم يبتَدع يغريه بالكبائر، فإن لم يقترفها يغريه بالصغائر، فإن لم يفعلها يغريه بالمُباحات، فإن ابتعد عنها يغريه بالتحريش بين المؤمنين، وهذه مداخل الشيطان على الصالحين، وكل مصيبة مخيفة هي طور، وكل بلاء متوقَّع طور، ونقص الأمطار طور، آن أوان الزهر، والأمطار تسعة وخمسون ميليمتراً من مئتين واثني عشر، قد تجفُّ الآبار، قد لا نجد ماءً نشربه، قد يهلك الحرث والنسل هذا طور، شدَّة يسوقها الله للعباد ليحملهم على التوبة، كلَّما اتسعت رقعة الفسق والفجور قلَّ ماء السماء، كلَّما قلَّ ماء الحياء قلَّ ماء السماء، وكلَّما اتسعت الصحون على السطوح ضاقت صحون المائدة، وكلَّما رخُص لحم النساء غلا لحم الضأن، هكذا، هذا طور أيضاً بالمعنى الواسع، شدَّةٌ يسوقها الله للذين آمنوا وقصَّروا في طاعته.

آيات دالة على مكانة الكفار الذين ينعمون بثروةٍ فلكيَّةٍ:

قد يقول أحدكم: فما بال هؤلاء الغربيين الذين ينعمون بثروةٍ فلكيَّةٍ، قال: هؤلاء ينطبق عليهم قول الله عزَّ وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ((44)

(سورة الأنعام)

هؤلاء ينطبق عليهم :

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَواْ رَبَّهُمْ)

(سورة آل عمران)

هؤلاء ينطبق عليهم قول الله عزَّ وجل :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

الناس في القبر سواسية مهما علا شأن الإنسان في الدنيا وكبر اسمه:

هل توازن بين شابين ؛ أحد الشابين ليس له من يرعاه، يعيش في الطرقات، يسرق، ويرتكب الفواحش، ويُودَع في السجون، وليس له أبٌ يربيه، ولا رادعٌ أخلاقي، ولا علمٌ يمنعه ؛ وابن يتلقَّى شدَّة بالغة من أبيه ليكون متفوِّقاً، ليكون مستقيماً، هل تتوهَّم أن حالة هذا الشاب المتفلِّت أسعد من حالة هذا الشاب المُنضبط ؟ لا، هذا ينتظره مستقبلٌ باهر.. دقِّقوا في هذه الآية:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

أيستوي هذا مع هذا ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

وقال:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77)أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمْ الْمَوْتُ)

(سورة النساء)

مهما كبُر اسم الإنسان، ومهما علا شأنه، ومهما مَلَك يُقال له في القبر: يا عبد الله، أيضاف على هذا الاسم لفظ آخر ؟ يا عبد الله اعلم أن الجنَّة حق والنار حق، ويوم القيامة حق وما إلى ذلك، أيطلق عليه لقب كما كان يُطْلَق عليه في الدنيا ؟ هل يخاطب لميتٍ في القبر حين التلقين وإن كان التلقين لم يرد عن رسول الله، بألفاظ كبيرة، بألفاظ السيادة ؟ أبداً، يا عبد الله، وهذا هو الموت الذي هو مصير كل حي.

فضل العالِم على العابد:

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ (63))

لعلَّ بعض المفسِّرين يقول: إنك إن ذكرت ما فيه أخذته بقوَّة، لا تكن عابداً فحسب، كن عابداً عالماً:

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

[رواه الترمذي عن أبي أمامة]

((فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[ابن ماجة عن الوليد بن مسلم]

قد يفور الإنسان أحياناً ثم يهمد، قد يُقبل ثم يدبر، قد يأتي طائعاً ثمَّ يتراجع، أما إذا بنى سلوكه على العلم، وعلى الدليل، وعلى العقيدة الصحيحة لن ينتكس، ولن يتراجع، هناك مئات من طلاب العلم، مئات من روَّاد المساجد أقبلوا، وانخرطوا، وبذلوا، فتنتهم امرأةٌ عن دينهم، فتنتهم وظيفةٌ مغريةٌ عن دينهم، لأنه لا يوجد لديهم أساس متين، لا تصمد العواطف أمام المغريات، ولا أمام الضغوط، ولا أمام الإغراءات، المؤمن القوي لا يزحزحه عن إيمانه لا سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلاَّدين اللاذعة، سيدنا بلال وضِعَت صخرةٌ عليه، اكفر، وهو يقول: أحدٌ أحد.

إنعام الله على بني إسرائيل بنعم كثيرة :

إذاً:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63))

لعلَّكم تتقون العذاب في الآخرة، لعلَّكم تتقون عذاب الدنيا، لعلَّكم تتقون الهلاك، لعلَّكم تتقون سَخَط الله عزَّ وجل، لعلَّكم تتقون جهنَّم التي هي أكبر عقابٍ يناله الإنسان في الكون:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ (64))

أصبح البحر طريقاً يبساً أمامكم، عصا سيدنا موسى أصبحت ثعباناً مبيناً، نزع سيدنا موسى يده فإذا هي بيضاء للناظرين، كل هذه الآيات وقالوا :

(اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

(سورة الأعراف: الآية " 138 ")

ثمَّ عبدوا العجل من بعد ذلك ومع ذلك فالله أرحم الراحمين، وهو الغفور الرحيم، وهو التوَّاب الرحيم، وهو قابل التوبة عن عباده:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64))

كل عمل الإنسان في الدنيا هو سببٌ لدخول الجنَّة وليس ثمناً لها:

أيها الأخوة، الجنَّة هي العطاء الحقيقي:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

الفوز الحقيقي بلوغ الجنَّة، الفوز الحقيقي النجاة من النار هذا هو الفوز الحقيقي، والجنَّة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذه الجنة هي بفضل الله، فكيف نجمع بين قوله تعالى:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

وبين قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديث الصحيح:

((لا يَدْخُلُ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قالَ: وَلا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

التوفيق بين الآية والحديث هو أن للجنَّة ثمناً وأن لها سبباً، إيمانك بالله، واستقامتك على أمره، وعملك الصالح سببٌ لدخولك الجنَّة، وليس ثمناً لها، بيت قيمته مئة مليون، إذا دفعت ثمن مفتاحه عشرة ليرات، ودخلت البيت وسكنته بفضلٍ من الله عزَّ وجل فهل تقول: أنا اشتريت المفتاح يا أخي، أنا دخلته بهذا المفتاح ؟ هذا ثمن المفتاح ولكنك لم تدفع ثمن البيت ؛ بل دفعت ثمن المفتاح فقط، فكل عمل الإنسان في الدنيا هو سببٌ لدخول الجنَّة، وليس ثمناً لها، الجنَّة برحمة الله، الجنة محض فضلٍ، وكل عملك سبب لدخولك الجنَّة، والسبب شيء والثمن شيءٌ آخر.

الأقوياء في الأرض عصيٌ بيد الله يؤدِّب بهم من يشاء من عباده:

وعد والدٌ ابنه أن يشتري له درَّاجة غالية الثمن إذا نجح، فهذا الطفل لمَّا أخذ جلاءه ناجحاً توجَّه إلى بائع الدرَّاجات مباشرةً وقال له: أعطني دراجة وخذ هذا الجلاء، البائع لا يعطيه، لا بد من أن يدفع الأب ثمن هذه الدراجة، أنت قدَّمت السبب الذي اشترطه الأب عليك ولكنك لم تقدِّم الثمن، الثمن يدفعه الأب، أنت قدَّمت السبب، فلذلك لو أنك عرفت الله، لو استقمت على أمره، لو أطعته، لو أنفقت مالك هذه كلُّها أسباب، أما الثمن هو فضل الله عزَّ وجل:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64))

كل واحد منَّا لم يتوله الله بالعناية لو نشأ على معصية لاستمرَّ عليها حتَّى الموت، لكن ربنا عزَّ وجل رب العالمين رحيم بعباده، عندما يغلط الإنسان يأتي العقاب، يأتي الردع، يأتي الحزن، يأتي الخوف، يأتي القلق، يأتي المرض، هذه كلُّها أدواتٌ تأديبيَّة، حتى إن الأقوياء في الأرض عصيٌ بيد الله يؤدِّب بهم من يشاء من عباده:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(129))

(سورة الأنعام)

وقال:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ (64))

هناك آيات كثيرة:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً (21))

(سورة النور)

وقال:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً(113))

(سورة النساء)

إذا حملت المعرفة الإنسان على طاعة الله فهذا أكبر فضلٍ يناله الإنسان في الدنيا:

إذا نوَّر الله عزَّ وجل قلب الواحد ومنحه شيئاً من المعرفة، وهذه المعرفة حملته على طاعة الله فهذا أكبر فضلٍ يناله الإنسان في الدنيا، قال الله عزَّ وجل :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة: الآية " 269 ")

الذي معه ألف مليون دولار، قال الله عزَّ وجل :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: الآية " 77 ")

ألف مليون قليل:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60))

(سورة القصص)

وقال:

(آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ)

(سورة طه: الآية " 71 ")

سحرة فرعون:

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى(71)قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

الدنيا لا تستقيم لأحد أبداً:

كلامٌ دقيق:

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

إذا خيِّرت أن تركب سيَّارةً فخمةً لربع ساعةٍ فقط، أو أن تُمْنح دراجة غالية الثمن ماذا تختار ؟ أن تركب هذه السيارة ربع ساعة أو أن تمنح هذه الدراجة تملُّكاً ؟ إنَّك تختار الدراجة، إذا خيِّرت بين أن تركب هذه السيارة ربع ساعة، وبين أن تمتلك مثلها ملكيَّةً ثابتة، هل تتردَّد ثانية ؟ أما إذا خيِّرت أن تركب هذه الدراجة ربع ساعة، وبين أن تتملَّك أكبر وأغلى سيَّارة، إذا تردَّد الإنسان ربع ثانية يكون مجنوناً

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

المثال للتوضيح، الآخرة فيها نعيم مقيم وإلى الأبد، الدنيا مشحونة بالمتاعب، إنَّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، لا تستقيم لإنسان، يؤتى الصحَّة يخسر المال، يؤتى المال من دون صحَّة، صحَّة ومال الزوجة سيئة، زوجة جيدة لا يوجد مال، زوجة جيدة لا يوجد أولاد، يوجد أولاد ولكن الدخل قليل، دخل وأولاد وزوجة يوجد مرض، هذه الدنيا لا تستقيم لأحد أبداً.

لكل شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ فلا يغرَّ بطول العيش إنسانُ

***

قال تعالى:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64))

ما ورد في القرآن من أيام الأسبوع إلا الجمعة والسبت:

أيها الأخوة:

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65))

الأيام ؛ الأحد تعني واحد، الاثنين اثنين، ثلاثاء ثلاثة، أربعاء أربعة، خميس خمسة، جمعة ستَّة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ)

(سورة الجمعة: الآية " 9 ")

سُمِيَّ هذا اليوم يوم جمعة كي نجتمع، كي يأتي الإنسان إلى المسجد، كي يصغي إلى الحق، كي يعرف سرَّ وجوده:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة: الآية " 9 ")

ما ورد في القرآن من أيام الأسبوع إلا الجمعة والسبت، يوم السبت عند اليهود يوم انقطاعٍ عن العمل، يوم عبادة، وعندنا نحن المسلمين يوم الجمعة يوم عبادةٍ واجتماعٍ، يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلاثَ مِرَاتٍ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ))

[سنن أحمد عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه]

إذاً: من ترك الجمعة ثلاث مرات من دون عذر نكتت نكتة سوداء في قلبه.

الإنسان بين رحمة الله في المسجد وبين فضل الله خارج المسجد:

الله عزَّ وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا(9))

يخاطب المؤمنين:

(إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ(9))

حصراً:

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ(9))

(سورة الجمعة)

ما أرادك الله عزَّ وجل أن تبيع وتشتري في أوقات العبادة، ولا أمرك في أوقات الراحة أن لا تعمل، أرادك أن تعبدَه، وأن تعمل لدنياك، لذلك:

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة: الآية " 10 ")

كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل المسجد يدعو ويقول:

((إذا دخَل أحدُكم المسجد، فلْيَقُلْ: اللَّهمَّ افْتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللَّهمَّ إني أسألك من فضلك))

[مسلم عن أبي حميد]

أنت بين رحمة الله في المسجد، وبين فضل الله خارج المسجد.

أشكال القوة :

المؤمن أيها الأخوة يأتي إلى المسجد ليتلقَّى تعليمات خالقه، ويعود إلى المسجد ليقبض الجائزة، وجودك هنا لمهمَّتين، كيف أن الشركات الضخمة لها مندوبو مبيعات يأتي المندوب الساعة الثامنة ثم يأتي مساءً ليقدِّم كشف الحساب ويأخذ العمولة، فكل مسلم صادق إذا توهَّم أن مجرَّد مجيئه إلى المسجد هو العبادة فهذا خطأ كبير جداً، تأتي إلى المسجد لتتعرَّف إلى الله وإلى منهجه، وإلى افعل ولا تفعل، فإذا عُدَّت لتصلي في المسجد كي تقبض الجائزة، أما أن تتوهَّم أنه لمجرَّد حضورك في

المسجد فقد كنت عابداً، لا، لا بد أن تطبِّق الدين في الطريق، في المتجر، في البيت، معك التعليمات، التطبيق هناك، هنا أخذ التعليمات وقبض الجائزة، وفي البيت، والطريق، والعمل، والمتجر، والسفر، والإقامة هناك تنفّذ هذه التعليمات، فالإنسان ينبغي أن يعمل وأن يتعبَّد كما ورد في الأثر:

((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يتزوَّد منهما معاً، فإن الأولى مطيَّة للثانية))

[ورد في الأثر]

قال تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ(26))

(سورة القصص)

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

[مسلم عن أبي هريرة]

القوَّة قوة مال، والقوة قوة علم، والقوة قوة مركز، إذا كنت في مركزٍ قوي بإمكانك أن تنفع المسلمين:

(اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ(55))

(سورة يوسف)

إذا كنت ذو حجمٍ مالي كبير يمكن أن تحل مشكلات آلاف المسلمين ؛ تزوِّج الشباب، تطعم الفقراء، تبني المساجد، تبني المدارس الشرعيَّة، تبني المستشفيات، وإذا كنت عالماً وانتفع الناس بعلمك فهذه قوَّة:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(3))

(سورة البقرة)

حينما تجعل من يوم العبادة يوم عمل فقد عصيت الله عزَّ وجل لأن هذا يوم عيد:

العلم قوَّة، والمال المشروع قوة إذا اكتسبته من طريقٍ مشروع، والعلم الشرعي معرفة الله عزَّ وجل ومعرفة منهجه قوة، والمركز الذي لا يُبْنَى على معصية الله بل يُبْنَى على طاعة الله هو قوة أيضاً، لذلك أرادنا الله جلَّ جلاله أن نعمل وأن نتعبَّد في الوقت نفسه، أمسك النبي عليه الصلاة والسلام يد ابن مسعود، وكانت خشنة من العمل فقال:

((إنَّ هذه اليد يحبُّها الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

سيدنا عمر يقول: **" إذا رأيت الرجل ليس له عمل يسقط من عيني "**، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى))

[البخاري عن حكيم بن حزام]

كن منتجاً، كن منفقاً، لكن لا تجعل من يوم العبادة يوم عمل: **" إنَّ لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل."**

حينما تجعل من يوم العبادة يوم عمل فقد عصيت الله عزَّ وجل، يوم الجمعة، يوم صلاة الجمعة المسلم الصادق يهيِّئ البيت تهيئة خاصَّة، هذا اليوم ليس يوم تنظيف ولا حل مشكلات، ولا أن يقوم البيت ولا أن يقعد يوم الجمعة، هذا يوم عيد، يجب أن تهيِّئ الأهل والأولاد ليكونوا معك في صلاة الجمعة ليتلقَّوا وليؤدوا هذه العبادة التعليميَّة التي جعلها الله حدَّاً أدنى لطلب العلم، كما يقال: محواً للأميَّة، محواً لأميَّة الدين، قد يحمل الإنسان أعلى شهادة وهو في الدين أمي، والدليل: كما أن أكبر عالِمٍ في الدين إذا أعطي تخطيط قلب نقول: هذا أمي في هذا التخطيط، يجد خطوطاً هكذا، أما إذا قرأ الطبيب التخطيط يفهم الشيء الكثير، بينما أكبر عالِمٍ في الدين يُعدُّ أمياً في الطب، وبالمقابل قد يحمل إنسان أعلى شهادة وهو في الدين أميّ.

حجَّ مسؤول من بلد عربي، وكان يحتل منصباً رفيعاً في وزارة، ففي طريق العودة قال: والله الحج جيد، لكن ليت القائمين على هذه الشعيرة يجعلونه على مدار السنة دفعاً للازدحام، معنى هذا أنه جاهلٌ في الدين جهلاً مطبقاً، فقد يكون الإنسان مثقَّفاً أعلى ثقافة، وهو في الدين أمي، لذلك ينبغي أن تطلب العلم الديني وأن تعمل لكسب رزقك.

هناك من يجتهد ليحل كل شيء إلى أن أصبح الدين شكلاً بلا مضمون:

أما ماذا فعل اليهود يوم السبت يوم العبادة ؟ أنشؤوا أحواضاً وفتحوها يوم السبت حتى إذا أتت الحيتان يوم سبتهم أغلقوها مساءً، واصطادوها يوم الأحد !!! حيلة شرعيَّة، وهذا يشبه الحيل الشرعية التي يفعلها بعض المسلمين، لعلَّها الآن تقلَّصت لضعف الدين أساساً، كان يضع زكاة ماله برغيف خبز، يهبها لفقير، والفقير لا يدري أن الرغيف فيه خمسة آلاف ليرة، ثم يقول له: هل تهبني هذا الرغيف الذي هو بخمس ليرات ؟! يقول له: أتمنَّى، يقول لك: أنا دفعت زكاة مالي للفقير، هذا شيء مضحك، وعلى هذا تقاس أشياء كثيرة جداً، نغير الأسماء فتصير المحرَّمات مباحات، نقوم بتعليلات، اجتهادات، نقول: هذا القرض ليس القصد منه الاستغلال بل هو قرض استثماري وليس فيه تحريم، من قال لك ذلك؟!!

هناك من يجتهد ليحل كل شيء إلى أن أصبح الدين شكلاً بلا مضمون، شكلاً بلا منهج، كل شيء مباح، توجد الآن فتاوى لكل شيء، كل شيء مباح ؛ التمثيل، والغناء، والاختلاط، لم يبق في الدين شيء محرَّم، تحت إطار التطور، المرونة، أين الدين ؟ الدين توقيفي، الدين دين الله عزَّ وجل، الدين

ما جاء به الكتاب والسنة، أما أن نفلسف، وأن نكون مرنين، وأن نطوِّر إلى أن نبيح كل شيء، فهذا الشيء ليس من الدين في شيء .

قال العلماء عن هؤلاء الذين احتالوا حيلاً شرعيَّة: لو أنك لا سمح الله ولا قدَّر فعلت المعصية ولم تقولبها بحيلةٍ شرعيَّة لكان أفضل، إنك حينما قولبتها بحيلةٍ شرعيَّة لا تتوب منها، تظن أنك على حق، أما حينما تفعلها مجرَّدةً من حيلةٍ شرعيَّة تتوب من هذا الذنب، فأخطر شيء أن يكون عندك مجموعة فتاوى غير صحيحة لمعاصٍ كبيرة وأنت مرتاح على أن هناك فتاوى فيها، هذه الفتاوى لا تُقْبَل عند الله عزَّ وجل، لذلك أنا أقول لكم دائماً: لكل معصية فتوى، أنت ماذا تريد فتوى أم تقوى ؟ الفتوى موجودة إذا أردت، تجد فتوى لكل معصيةٍ مهما تكن كبيرة، هناك من يفتي بها، والذي يفتي بها جعل من نفسه جسراً إلى النار.

آراء بعض المفسرين في الآية التالية:

حدثني أحد علماء دمشق الأجلاَّء أنه كان في حضرة عالمٍ في بلدٍ عربيٍ مسلمٍ ـ في حضرة عالِمٍ وكان يُحتضَر، في وقت النَزع ـ قال لي: والله شاهدته بأمِّ عيني رفع يديه إلى السماء هكذا وقال: يا رب أنا بريء من كل فتوى أصدرتها في الموضوع الفُلاني ـ موضوع الفوائد والأموال ـ وهو في النزع الأخير، ولكن ما الفائدة من هذه التوبة وهو على فراش الموت ؟ هناك من يُفتي بأشياء حَرَّمها الله، ثلاثة وثمانون ملياراً أودِعَت في البنوك عقب فتوى، ثلاثة وثمانون ملياراً في بلد عربي عقب فتوى ليست كما يريد الله عزَّ وجل.

على كلٍ هذا الذي يعرف الأمر ولا يعرف الآمر يتفنَّن في التفلُّت من الأمر، أما الذي يعرف الآمر ويعرف الأمر يتفانى في طاعة الآمر:

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65))

تريد أن تبيع هذه السلعة بعقدين، بعقد مع الزيادة وعقد بلا زيادة، قرأت مقالة طريفة جداً، بكم هذه السلعة ؟ تقول له: مثلاً بألف، يسألك ماذا تطبخ اليوم ؟ تقول له: فاصولياء، انتهى أول مجلس، والثاني دخل، ما دام دخل فالموضوع غريب، عندما قال: ماذا تأكل اليوم ؟ صار المجلس جديداً، انتهى أول مجلس، وصار المجلس الثاني، وسعر هذه السلعة بألف وخمسمئة، فهو بطريقةٍ أو بأخرى دخل في موضوع آخر ليغير سعر السلعة عند تأجيل الدفع، الله عزَّ وجل ناظرٌ، سميعٌ، عليمٌ، بصير.

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65))

قال بعض المفسِّرين: جعلهم الله قردةً، وهذا المَسخ لا يتناسل وانقرضوا، فإذا قلت: هل مازال هناك يهود ؟ ليسوا جميعاً كانوا عصاةً فَمُسِخَ الذي عصى، هذا رأي.

الرأي الثاني مُسِخوا قردةً وخنازير وعبدة الطاغوت، ما معنى ذلك ؟ عورة القرد ظاهرة، ولها لون فاقع خاص، عورته ظاهرة وشكله قبيح، وهمُّه شهوته، إذا رأيت إنساناً عورته ظاهرة، ولا يبالي بسمعته، وهمُّه فرجه وبطنه فهو قرد بالمفهوم السلوكي والقيَمي، قال بعض العلماء: مسخوا قردة أي بأخلاق القردة، ووقاحة القردة، ودمامة القردة، وعدم حياء القردة، فإذا مشى إنسان مع زوجته بثيابٍ فاضحة لا تخفي منها شيئاً أليس قرداً ؟ بل إن الذين يرفضون نظرية دارون بعضهم آمن بها مجدَّداً لكنَّها معكوسة، كان إنساناً فصار قرداً لا يستحي، ولا يخجل، ولا ينصاع لأمر، ولا لقيمة، ولا لخُلُق، فالذين قالوا: مسخوا قردةً حقيقيين لهم أدلَّتهم، والذين قالوا: مسخوا بأخلاقهم وقيمهم قردةً لهم أدلَّتهم أيضاً، القرآن حمَّال أوجه لك أن تفهمه هكذا أو هكذا ضمن قواعد وأصول.

تعريف بسيط للقردة والخنازير وعبدة الطاغوت :

على كلٍ إذا كانت عورة الإنسان مكشوفة ولا يستحي بها وهمُّه بطنه وفرجه هذا قرد بالمعنى السلوكي، وهناك من مسخ خنزيراً لا يغار على عرضه، أو يرضى الفاحشة في أهله، والله قال لي إنسان رأى بأم عينه: دخل إلى بيت إنسان وقال له: هذه زوجتي، وهذه أختي، وهذه أخت زوجتي، وأعطى الأسعار، أسعار دقيقة، هذا خنزير، هذا الذي لا يغار على عرضه أو يرضى الفاحشة في أهله هذا خنزير.

عبدة الطاغوت هم الذين ما عبدوا ربهم، أي أنهم خافوا من دون مبرِّر، عصوا ربَّهم وأرضوا مخلوقاً، من أرضى الناس بسخط الله سخط عليه الله وأسخط عليه الناس، فالناس مُسِخوا إما قردة عورتهم ظاهرة وهمُّهم بطنهم وفرجهم، وإما خنازير لا يغارون على أعراضهم، وإما عبدة طاغوت يخضعون، قال له: **" يا بني الناس ثلاثة ؛ عالمٌ ربَّاني، ومتعلِّمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق فاحذر يا كميل أن تكون منهم ".**

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65))

خاسئين أي مهزومين، وأكبر هزيمة أن تُهْزَم أمام نفسك، هذه أكبر هزيمة، مهزوم عند نفسك.

لا عقوبة بلا تجريم ولا تجريم بلا تشريع :

قال تعالى:

(فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66))

النكال العقاب الشديد، لمَّا جعلهم قردة خاسئين كان هذا تنكيلاً بهم، أي أنه أوقع العقاب بهم ليكون لمن حولهم، ولمن بعدهم، ولكل مؤمنٍ ردعاً وموعظةً، لذلك قالوا: لا عقوبة بلا تجريم، ولا تجريم بلا تشريع، الله شرَّع فلمَّا خالفوا صار هناك جرم، وعندما صار الجرم وجب العقاب، كلام دقيق:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

لا عقوبة بلا تجريم ولا تجريم بلا تشريع، هناك نص، وهناك مخالفة، وهناك عقوبة، هكذا شأن العدل، هكذا شأن الحق جلَّ جلاله، فجعلنا هذا المسخ قردة وخنازير:

(فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا (66))

لمن حولها:

(وَمَا خَلْفَهَا (66))

لمن بعدهم:

(وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66))

أكثر الأحكام الشرعية تصون المال والعرض :

أجروا إحصاءً فيدرالياً في عام خمسة وستين وتسعمئة وألف، حيث قُسِّمت جرائم الاغتصاب والقتل والسرقة على الثواني، فوجدوا أنه في كل ثلاثين ثانية تُرْتَكَبُ جريمة قتلٍ، أو سرقةٍ، أو اغتصاب، أما حينما طُبِّق حكم قطع اليد في بعض البلاد الإسلاميَّة رأيت العجب العجاب، هل من الممكن لصرَّاف أن يدع كل أمواله على الطريق وأن يذهب ليصلي في المسجد ؟ ممكن ؟ هذا كان يحدث، لأنه طُبِّق حكم قطع اليد، سُئل الإمام الشافعي من قِبَل شاعر، قال: يدٌ بخمس مئينٍ ـ أي خمسمئة من الذهب ـ:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجد وديت ما بالها قُطِعَت في ربع دينارِ

***

إذا قُطِعَت في حادث سير فديَّتها خمسمئة دينار ذهبي، لو أن سائقاً أرعنَ أصاب إنساناً وقُطِعَت يده، ديَّتها خمسمئة دينار ذهبي، قال: ما بالها قُطِعَت في ربع دينارِ ؟

أجابه الإمام الشافعي :

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

فقال ابن الجوزي لما سئل عن ذلك:

لمَّا كانت أمينة كانت ثمينة فلمَّا خانت هانت.

***

لذلك أكثر الأحكام الشرعية تصون المال والعرض، ما الفساد ؟ الفساد هو حرية كسب المال بلا رادع، وحرية ارتكاب الموبقات والشهوات، لذلك هناك جلد، وهناك رجم، وهناك قطع يد، أخطر شيء في الحياة صون الأعراض وصون الأموال.

(فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (29- 95):تفسير الآيات 67 - 74، صفات البقرة كما وردت في القرآن الكريم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-02-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر الله تعالى بأشياء ونهى عن أشياء وسكت عن أشياء وذلك لحكمة بالغة:

مع الآية السابعة والستين وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

أولاً إن الله عزَّ وجل أمرنا في كتابه أو من خلال سنة نبيه بكل شيء يقربنا إليه ونهانا عنه كل شيءٍ يبعدنا عنه، إن في كتابه أو في سنة رسوله، وهناك أشياء سكت عنها الشرع لا أمراً ولا نهياً، إذاً هي حيادية لا تُقَرِّب ولا تُبَعِّد، كلون هذه الطاولة، لو أن هذا اللون أخضر، لو أنه أزرق، لو أنه أبيض، لو أنه بُنِّي، لون هذه الطاولة لا يقرِّب ولا يُبَعِّد حيادي، لذلك إن الله أمر بأشياء ونهى عن أشياء وسكت عن أشياء، فالذي أمر به يُقَرِّب، والذي نهى عنه يُبْعِد، والذي سكت عنه لا يُقَرِّب ولا يُبَعِّد.

حينما يسكت الشرع عن شيء ينبغي أن يحترم الإنسان سكوت الشرع عنه، لا أن يسأل عنه، سكت عن شيء لحكمة بالغة، كما أن هناك حكمةً بالغة من الأمر هناك حكمةً بالغة من النهي، هناك حكمةٌ بالغةٌ بالغة من الشيء الذي سكت الله عنه، لذلك ما أضَلَّ الله قوماً بعد إذ هداهُم إلا أوتوا الجَدَل في المسكوت عنه، فالمسلمون أو بعض المسلمين مقصرون تقصيراً شديداً، ومع ذلك يحشرون أنوفهم في جُزْئِيَّات، وفي خلافيَّات، وفي قضايا لا تقدم ولا تؤخر، ويجعلون من هذه الموضوعات الصغيرة موضوعات كبيرة، ويختصمون، ويختلفون، ويتناقشون، ويتباغضون، ويتعادون، ويتهم بعضهم بعضاً، والقضية صغيرة جداً هامشية لا تقدِّم ولا تؤخر.

لذلك أيها الأخوة القرآن الكريم دقيق، مثلاً ذكر القرآن قصة وأغفل بعض التفاصيل، أغفل مكانها وزمانها، أغفل أسماء أشخاصها، أغفل بعض التفاصيل السابقة واللاحقة، حيثُما سكت القرآن عن شيءٍ فاسكت أنت عنه لأنه لا فائدة منه، لا جدوى منه، حينما تحاول أن تبحث عن هذه التفاصيل تفسد على الله حكمته، لأن الله عزَّ وجل أراد نموذجاً متكرراً، لم يرد قصة وقعت ولن تقع مرة ثانية، هو أراد نموذجاً، أراد نموذجاً تقتدي به، فأنت حينما تبحث عن التفاصيل وعن الجزئيات، أنت تفسد على الله حكمته، أراده الله نموذجاً متكرراً فجعلته قصةً وقعت ولن تقع بعد اليوم.

الله عزَّ وجل يعطينا درساً بليغاً في تعنت بني إسرائيل:

الأكمل بالمؤمن والأولى أن يأتمر بما أمره الله به، وأن ينتهي عما نهاه عنه، والذي سكت عنه هو مباح، لا تُضَيِّق عليك الخناق، لا تضيق عليك الوثاق، استفد من بحبوحة الله، فالله عزَّ وجل يعطينا درساً بليغاً، درساً بليغاً في التعُنُّت، تعنت بني إسرائيل، درساً بليغاً في انغماسهم بالجزئيات والتفاصيل التي سكت عنها الشرع، قال الله عزَّ وجل:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

بقرة نكرة، أية بقرة، أيَّة بقرةٍ صالحةٍ لتنفيذ هذا الأمر:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

لكن لماذا ؟ أنت حينما تتلقى أمر من مساوٍ لك تسأله لماذا ؟ قال لك زميلك في الدائرة: افعل كذا، تقول له: لماذا ؟ دائماً وأبداً حينما تتلقى أمراً من مساوٍ لك، من ندٍ لك تسأله عن الحِكمة، وعن العِلَّة، وما السبب، ولماذا ؟ أما حينما تتلقى أمراً ممن فوقك ممنوعٌ أن تسأله لماذا ؟ أنت مريض لا تعلم في الطب شيئاً، دخلت إلى طبيب وأعطاك أمراً، يجب أن تأتمر بهذا الأمر، أنت جندي في معركة حاسمة والقائد العام أصدر أمراً عليك أن تأتمر، فكيف إذا كنت عبداً لله عزَّ وجل وخالق السماوات أعطى أمراً، قال علماء العقيدة: علَّةُ أي أمرٍ في الكتاب والسنة أنه أمر.

ذهب رجل من أهل العلم إلى أمريكا، والتقى بعالمٍ أسلم حديثاً، ودار الحديث حول لحم الخنزير، أفاض هذا العالم المَشْرِقِي في الحديث عن علة التحريم، وعن أضرار لحم الخنزير، وعن الدودة الشريطية، وعن الآثار النفسية التي يتركها هذا اللحم في نفس الآكل، ومضى يتحدَّث لساعاتٍ طويلة عن حكمة تحريم لحم الخنزير، فما كان من هذا العالم الغَرْبي المُسْلِم حديثاً إلا أن قال: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرمه.

الأمر يُقيَّم بالآمر:

ذات مرة في برنامج سألوا دكتورة في جامعة من جامعات البلاد العربية عن رأيها في التعَدُّد، فقالت: كيف يكون لي رأي في التعدد وقد أباحه الله عزَّ وجل ؟!!

الأمر الإلهي هو من خالق السماوات والأرض، الأمر يُقَيَّم بالآمر، من هو الآمر ؟ هو الله، الحكمة المُطلقة، والعلم المطلق، والخبرة المطلقة، والرحمة المطلقة، والعدل المطلق، فحينما يقول الله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة التحريم: الآية " 8 ")

أي يا من آمنتم بي خالقاً، يا من آمنتم بي إلهاً، يا من آمنتم بي مربياً، يا من آمنتم بعلمي، يا من آمنتم بحكمتي، يا من آمنتم بقدرتي، يا من آمنتم بلُطفي، يا من آمنتم برحمتي، يا من آمنتم بعدلي، أنا

آمركم بكذا وكذا، لذلك المؤمن الصادق لمجرَّد أن يتلقى أمراً من الله عزَّ وجل ينصاع إلى تنفيذه من دون أن يسأل عن الحكمة والعِلَّة، إذا سأل بعد التنفيذ ليعلِّم الناس فلا مانع، إذا سأل عن الحكمة والعلة ليكون داعيةً ليقنع الناس لا يوجد مانع، أما أن يعلِّق تنفيذ الأمر على معرفة الحكمة، الكلمة الخطيرة الآن إنه عندئذٍ لا يعبد الله يعبد نفسه.

إنسان يصوم لكي ينزل وزنه، يصوم ليصون أجهزته، هذا لم يصم عند الله، ولا يمكن أن يقبل صومه عند الله، هو يصوم في صحَّتِهِ، وأناسٌ كثيرون ملحدون يصومون لصحتهم، العبادة انصياع لله عزَّ وجل، أما أنا حينما أُصلي من أجل تليين عضلاتي، أصلي من أجل تليين مفاصلي، أنا أصلي من أجل أن أحافظ على رشاقتي هذه ليست صلاة، اذهب إلى نادٍ رياضي وليِّن عضلاتك، لا تدخل أمراً بأمر، اجعل الدين خالصاً لله عزَّ وجل، الصلاة صلاة، الحج حج، الصيام صيام.

الذي ينفذ أمر الله طاعة له وامتثالاً لأمره يصل لأعلى درجة وهي العبودية لله:

أية آيةٍ في القرآن الكريم تفتتح بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة التحريم: الآية " 8 ")

كأن الله عزَّ وجل يقول: يا عبادي الذين آمنتم بي، آمنتم بي خالقاً، آمنتم بي مربياً، آمنتم بي مسيراً، آمنتم بعلمي، بقدرتي، برحمتي، بعدلي، بقوتي، بإنصافي، بعدلي، فأنت بمجرد أن يأتيك أمرٌ من فوق يجب أن تنصاع له، أما إذا جاءك أمر من مساوٍ لك تسأله: لماذا ؟ لك أن تسأله، لكن ليس لك أن تسأل الله عزَّ وجل قبل أن تنفذ الأمر، هناك نقطة دقيقة جداً، أنت حينما تنطلق لتنفيذ أمر الله عزَّ وجل طاعةً له، وعبوديةً له، وامتثالاً له حققت أعلى درجة يبلُغها الإنسان وهي درجة العبودية لله عزَّ وجل، الآن يكافئك الله عزَّ وجل بعد أن أقبلت على أمره ونفَّذته بحذافيره، طاعةً له وانصياعاً وتقرُّباً، يكشف لك عن حكمة هذا الأمر، فتجمع بين العِلم والعبادة معاً، يعطيك مرتبة العُبَّاد الصادقين، ويعطيك مرتبة العُلماء المتفهمين، لذلك المقولة الأولى: عِلَّةُ أية أمرٍ أنه أمرٌ من الله عزَّ وجل، هذا الكلام سُقْتُهُ من أجل فكرةً واحدة، وهي أن الله عزَّ وجل يقول:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

أين التعليل ؟ لا يوجد تعليل، وليس هناك تعليل، ولا ينبغي أن تبحث عن التعليل، لأنه من عند الله، استعمل عقله حتى وصل إلى طبيب من أعلى مستوى علماً وفهماً وإخلاصاً وتديناً وصلاحاً وقدرةً وسمعةً وخبرةً، هداك عقلك إلى هذا الطبيب، دخلت العيادة لا يمكن أن تسأله، انتهى دور العقل، جاء دور النَقل، جاء دور التَلَقِّي، عقلك حصان ركبته إلى باب السلطان، فلما وصلت إلى باب السلطان دخلت وحدك، لأنه إله، إله يأمر، أنت أمام طبيب يحمل شهادة عُليا من بلد متقدم جداً تخجل أن تسأله: لماذا ؟ علم واختصاص وخبرة، أنت لا تسأل لماذا إلا لمن يساويك.

المؤمن الصادق أمام مرحلتين ؛ مرحلة معرفة الله عزَّ وجل ومرحلة معرفة أمره ونهيه:

هذا الذي لا يقبل على أمر الإله إلا إذا فهم حكمته هو لا يعبد الله أبداً بالتأكيد إنما يعبد نفسه، وأي إنسان حتى المُلحد لو اتضح له الخير في أمر ما فإنه يطبِّقه، هل يطبقه تعبداً ؟ أنا قرأت مرة مقالة عن أستاذ جامعي لا يؤمن بالله إطلاقاً، قال: هو ينام باكراً، ولا يشرب الخمر، ويربِّي أولاده على الصدق، هو يعبد الدنيا، يعبد مصالحه، يعبد ذاته، تقتضي عبادة ذاته أن يكون صادقاً فصدق، تقتضي عبادة ذاته أن يكون أميناً فكان أميناً، هذه ليست عبادة، العبادة أن تُقبل على تنفيذ أمر الله عزَّ وجل، وربنا عزَّ وجل جعل أمثلة كثيرة جداً، فمثلاً الله عزَّ وجل أعطى أمراً إلى نبيٍ كريم إلى أبي الأنبياء إبراهيم، أعطاه أمراً لا يمكن أن يُقْبَل بالعقل، قال له: اذبح ابنك، وابنه نبي:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

(سورة الصافات: الآية " 102 ")

هذه العبودية، أيعقل أن النبي الكريم وهو في الطائف يُتَّهم ويسخر منه ويكذَّب، ويناله أذى من أهل الطائف تراه يقول:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر، وفي سنده ضعف]

معاني العبودية لله، والاستسلام لله، والانصياع لله، وتنفيذ أمر الله، وطاعة الله هذه المعاني تملأ القلب سعادةً، أنا عبد علي أن أنفذ .

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

أما هذا الذي لا يُنَفِّذ كي يفهم، ولا يفهم إلا بعد التعنُّت، هذا لا يعبد الله عزَّ وجل إنما يعبد نفسه، فالمؤمن الصادق لمجرَّد أن يرى أمراً لله ينفذه، تعرَّف إلى الله، فكِّر في الكون، حقق معرفةً عاليةً بالله، إذا عرفت الله المعرفة الكافية الآن مهمَّتك التلقِّي، المؤمن الصادق أمام مرحلتين ؛ مرحلة معرفة الله عزَّ وجل، ومرحلة معرفة أمره ونهيه، المرحلة الأولى أن تتعرف إلى الله معرفةً تحملك على طاعته، والمعرفة الثانية أن تعرف أمره ونهيه من أجل التقرُّب منه، فالمؤمن الصادق الكامل لا يعنيه شيءٌ بعد معرفة الله إلا معرفة الأمر والنهي ليطبِّق.

إذا كان الآمر إلهاً والمأمور مخلوقاً ينبغي ألا تسأل بل تنفذ والله يكافئك على التنفيذ:

أيها الأخوة، هذا تمهيد لقصةٍ جرت مع بني إسرائيل، ومرةً ثانيةً، وثالثةً، ورابعةً أقول: كل أمراض بني إسرائيل يمكن أن نقع بها نحن المسلمين، وفي الأعمِّ الأغلب وقد وقعنا في معظمها، الآن يقول رجل في ندوة تلفزيونية: إنه لا ينبغي أن نقطع يد السارق يجب أن نبحث عن ردعٍ آخر

!! إله عظيم ذكر قطع اليد في القرآن الكريم، ألا يعلم هذا الإله أنه ستأتي ظروف على البشرية يستنكر فيها قطع اليد؟ يعلم، فلماذا أمر ؟ لو أن الله عزَّ وجل قال: فاردعوهما، السارق والسارقة فاردعوهما، إذاً لك أن تبدِّل وأن تغير ولكنه قال:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا)

(سورة المائدة: الآية " 38 ")

سُئل الإمام الشافعي من قبل أحد الشعراء قال له:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجد وديت ما بالُها قُطِعَت في ربع دينار

***

قال:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذُل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لما كانت أمينةً كانت ثمينةً فلما خانت هانت.

هناك في الحقيقة مراحل، المرحلة الأولى: مرحلة الإيمان بالله، إذا حدث اعتراض على أمر الله أو البحث عن الحكمة من هذا الأمر كي أطبق معنى ذلك أن المرحلة الأولى غير صحيحة، أما إذا كانت المرحلة الأولى صحيحة تنصاع إلى تنفيذ الأمر مباشرةً، فلا يُسأل عن السبب والعلة إلا مساوٍ، ما دام الآمر يساويك في المقام والعلم والقدرة والمكانة والمرتبة تسأله، أما إذا كان الآمر إلهاً والمأمور مخلوقاً عبداً ضعيفاً محدوداً ينبغي ألا يُسأل، ينبغي أن تبادر إلى التنفيذ، والله يكافئك على التنفيذ بأن يكشف لك عن حكمة هذا الأمر فتجمع بين ميزة العُبَّاد وميزة العلماء .

كلام الأنبياء بالمثاقيل وما من كلمة قالها نبي إلا لحكمة بالغةٍ بالغة:

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

السبب الذي جاء في آخر القصة هو أن رجلاً ثرياً من بني إسرائيل قتله ابن أخيه وحمل الجثة وألقاها في قريةٍ ثانية ليوهم أن أهل هذه القرية هم الذي قتلوا هذا الثري، والقصة طويلة جداً، نشبت اتهامات باطلة، ونشبت اختلافات، وحدثت صراعات، وكادت أن تقع فتنةٌ كبيرةٌ جداً، لأن هذه التهمة كُلَّما وجِّهت إلى جهةٍ تُرَدُّ إلى الجهة الثانية، فقالوا: أنقتتل وفينا نبي ؟ فلما سألوا سيدنا موسى عن هذا الأمر، جاء الأمر الإلهي:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

اذبحوها، وما أضل الله قوماً بعد إذ هداهم إلا أتاهم الجَدَل، قال: بقرة، تُجْزِئُكُم أية بقرة، أي بقرة على الإطلاق، مهما يكن سنها، أو لونها، أو عمرها، أو خصائصها، أو وزنها، أو حجمها، أو وظيفتها، بقرة:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً (67))

أيعقل من نبيٍ يأتيه الوحي من الله، من نبيٍ معه معجزات، من نبيٍ يُعَدُّ رسولاً لله عزَّ وجل، أيعقل أن يستهزئ ؟ أيعقل أن يلهو ؟ كلام الأنبياء بالمثاقيل، ما من كلمةٍ قالها النبي عليه الصلاة والسلام إلا لحكمةٍ بالغةٍ بَالغةٍ بالغة، الله عزَّ وجل قال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

((قَالَ كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا فَأَمْسَكْتُ عَنْ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ وَقَالَ: اكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلا حَقٌّ))

[الدارمي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عَمْرٍو]

" ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس ؛ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى، ولا صلَّيت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها ".

مواقف تدل على عدل سيدنا محمد وحكمته:

قال تعالى:

(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً (67))

قال أعرابي لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: " اعدل يا محمد "، فقال عليه الصلاة والسلام:

((وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ))

[مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

((قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْماً أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ))

[مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

تروي كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى في بداية معركة بدر توجيهاً لأصحابه، قال: لا تقتلوا عمي العباس، تأمل أحد الصحابة في هذا الكلام وقال: **" أحدنا يقتل أباه وأخاه وينهانا عن قتل عمه ؟! "** صار في نفسه شيء من كلام النبي عليه الصلاة والسلام، ثم اتضح أن

عم النبي عليه الصلاة والسلام كان مُسلماً، وكان العباس عينه في قريش، وكان يأتيه بكل أخبار قريش في الوقت المناسب، لو أن رسول الله عليه الصلاة والسلام صرَّح فقال: إن عمي مسلم، لأنهى مهمته، ولو أن العباس رفض أن يشارك في هذه الغزوة لكشف نفسه، ولو سكت النبي لقتلوه، فلا يوجد كلام أدق ولا أحكم من أن يقول النبي: لا تقتلوا عمي العباس، فقط من دون أي تعليل، لأن أي تعليل يفسد الأمر، فهذا الصحابي الذي قال: " أحدنا يقتل أباه وأخاه وينهانا عن قتل عمه "، فلما كشف له الأمر، قال: " والله بقيت أتصدق عشر سنين لعل الله يغفر سوء ظني برسول الله "، نبي، هؤلاء الأنبياء قمم، قمم البشر، قممٌ في الإحسان، في الورع، في المعرفة، في الاستقامة.

أمراض بني إسرائيل نفسها وقع فيها المسلمون اليوم:

قال تعالى:

(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً (67))

هل من المعقول أن يتحدث نبيٌ كريم هازئاً ؟

(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67))

لا يستهزئ إلا جاهل، الجاهل وحده يستهزئ .

(قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ (68))

أية بقرةٍ يريد ؟ الله عزَّ وجل أمره واضح، قال:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

لا تستغرب أحياناً نجد في بدء رمضان مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((صَوْمُكُمْ يَوْمَ تَصُومُونَ))

[أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

انتهى الأمر، أنا في بلد إسلامي وهناك قاضٍ شرعي، وهناك ولي أمر المسلم، والولي وكَّل وزير أوقاف، والوزير سأل القاضي، ومع ذلك بعضنا يجادل: صيامنا ليس صحيحاً، لا صحيح، لا ليس صحيحاً، لماذا عندما ركَّبت هذا الصحن لم تسأل ولا شيخاً عنه ؟ تمرر أكبر واحدة بدون سؤال، والآن توقف الأمر عند واحد رمضان، تجد أول يوم برمضان عندنا مليون سؤال، هل صيامنا صحيح ؟ هناك ناس لم يصوموا اليوم، وناس صاموا، هذه أمراض بني إسرائيل نفسها، النبي قال:

((صَوْمُكُمْ يَوْمَ تَصُومُونَ))

[أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

انتهى الأمر:

((وَفِطْرُكُمْ يَوْمَ تُفْطِرُونَ))

[أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

انتهى الأمر، أنت في بلد مسلم ويوجد قاضٍ شرعي وخبراء وعلماء، وبتّوا في الأمر، هذا اسمه حشر أنف، على كلٍ أنت لا تُسْأل عن ذلك، أنت عليك أن تصوم وانتهى الأمر.

الإنسان حينما يبتعد عن جوهر الدين يقع في الشكليَّات:

تجد الجهود الإسلامية كلها مستهلكة الآن في الخصومات، هناك خلاف كبير جداً في أميركا حول جهة القبلة، هناك طريقان للكعبة، طريق مباشر، طريق يدور الدورة الكاملة حول الأرض، أيهما أصح ؟ طاقات المسلمين مبذولة في الخلافيات فقط، يقول لك: هذا الجامع منحرف ثلاث درجات والصلاة لا تصح فيه، من قال لك: إن القبلة هي الكعبة ؟ لا، القبلة جهة الكعبة، القبلة ما بين المشرق والمغرب جهة الجنوب، هذه القبلة، الكعبة قبلة من في الحَرَم، والحرم قبلة أهل مكة، ومكة قبلة المسلمين، خط، ينسى كل مشكلات المسلمين ويتوقف عند خلاف حول ثلاث درجات في الجامع ويقول: الصلاة ليس مضبوطة، هذه تماماً كقصة البقرة، يوجد في الفاتحة أربع عشرة شدَّة إن لم تضبطهم صلاتك باطلة، أعوذ بالله، ألغيت صلاة الناس كلها، لا يملك إنسان القدرة على أن ينطق بالحروف تماماً، ليس كل إنسان أكمل، لو أسلم إنسان غير عربي وعنده لكنة معنى ذلك أن صلاته غير صحيحة، باطلة.

دخل إنسان مرة على هذا المسجد والقصة منذ عشرين سنة، قال: كل واحد لا يلبس طاقية على رأسه صلاته باطلة، تكلمها جهاراً، تكلمها وارتاح ـ أنا كنت ألبس طاقية والحمد لله ـ هذه تشبه قصة البقرة نفسها، المرض نفسه، تركنا الأشياء الكبيرة، تركنا معرفة الله، تركنا طاعته، تركنا كسب الحلال والإنفاق الحلال، تركنا تربية أولادنا، تركنا إتقان ديننا، وإعداد القوة لأعدائنا، تركنا أساسيات الحياة ونتابع أموراً شكلية ثانوية ثلاثة درجات انحراف القبلة، وصيامنا صح ولم يصح، وتدخل بمتاهات لا تنتهي، فالإنسان حينما يبتعد عن جوهر الدين يقع في هذه الشكليَّات.

الخطر المُداهم للإسلام لا من أعداء المسلمين بل من أدعيائه :

قال:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

أية بقرةٍ تصح، قال له: أين أمشي بالجنازة، أريد الرأي الدقيق، أمامها، أم خلفها، أم عن يمينها، أم عن شمالها، يا أخي أنا في حيرة ؟ قال: لا تكن في النعش وسر أينما شئت، فحينما تستنفذ جهود المسلمين في قضايا ثانوية جداً جداً لا تقدم ولا تؤخر هذا ما يرضي الشيطان، تركنا أن نُعِدَّ العدة لأعدائنا، تركنا أن نصلح أمورنا، تركنا أن نزوِّج شبابنا، تركنا أن نربِّي أولادنا، تركنا أن نتعرَّف

إلى ربنا، تركنا أن نطبق منهجه، تركنا أن يكون بيتنا إسلامياً، قبلنا أن نغذّي شبابنا تغذيةً غربية، قبلنا أن نغذي بناتنا تغذيةً غربية، وحصرنا المشكلة في زاوية القبلة فقط، هل المشكلة هنا.

أمراض المسلمين في المشرق منقولةٌ إلى المغرب نفسها، أينما ذهبت في بلاد الغرب مشكلات المسلمين والخصومات بين الجماعات الإسلامية والفرق والطوائف هي نفسها وهذا مما يرضي أعداءنا، وهذا لصالح أعداء المسلمين، والخطر المُداهم للإسلام لا من أعداء المسلمين بل من أدعيائه.

أيها الأخوة، قبل سنة أو سنتين تقريباً وقف خطيب في مسجد من مساجد بلدة من بلاد المسلمين، وقال: كل إنسان يصرف مئة ليرة صحيحة بأربع قطع نقدية ذات الخمسة والعشرين وقع في الربا، النبي قال:

((يداً بيد سواء بسواء))

[رواه مسلم من حديث عبادة]

هل من المعقول أن توقع الناس جميعاً ـ لو صرف مئة ليرة ـ بالربا، فاته أن الخمسة والعشرين ضرب أربعة تساوي مئة، سواء بسواء، أربع قطع خمسة وعشرون يساوي قطعة واحدة مئة، عد هذه قضية، وهذه مشكلة، وهذه الطامة الكبرى، هل من الممكن أن تدخل الناس كلهم في النار لأنه صرف مئة ليرة لأربعة من فئة الخمسة و العشرين؟ إذا وصلنا لهذا المستوى بالفهم معناها أنه أمامنا مراحل فسيحة جداً بيننا وبين أن نكون في المستوى الذي أراده الله عزَّ وجل، من منا يصدق أن الإنسان إذا صرف مئة ليرة بأربعة من فئة الخمسة و العشرين وقع بالربا ! أي ربا هذا ؟

((يداً بيد سواء بسواء))

[رواه مسلم من حديث عبادة]

مئة مع مئة، مئة أربع قطع ومئة قطعة واحدة ما المشكلة ؟ حينما تُبَدَّد جهود المسلمين في قضايا ثانوية جداً، هامشية جداً لا تقدم ولا تؤخر، ونسكت عن أخطر قضية في الدين ؛ نسكت عن الدخل الحرام، نسكت عن الأعمال التي لا ترضي الله عز وجل، عن علاقات حرام، عن دخل حرام، عن إنفاق حرام، عن بيت غير إسلامي، عن بيت يُغَذَّى بالثقافة الغربية، بالإباحية، ويدعي صاحبه أنه مسلم، هذه أخطاء كبيرة جداً، فلذلك كل مرض ذكره الله عن بني إسرائيل نحن مُرَشَّحون أن نقع به، لأن فهم أهل الكتاب للدين فهم غير صحيح، فهمهم للدين فهم فلكلوري، فهم استعراضي، فهم أسطوري، لم يفهموه فهماً عميقاً، لم يفهموه منهجاً لله عزَّ وجل.

صفات البقرة كما وردت في القرآن الكريم:

قال تعالى:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ (68))

ليست مسنة:

(وَلَا بِكْرٌ (68))

ولا صغيرةً:

(عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ (68))

أي عمرها معتدل:

(فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68))

أي اذبحوها وانتهوا:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا (69))

نريد اللون:

(قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69))

وقال:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ (70))

نريد أن تعيِّنها لنا بالذات:

(إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ (71))

أي لا تحرث، الذلول هي البقرة التي عوِّدت على الحراثة:

(لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ (71))

أي ليست للحراثة:

(وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ (71))

ليست لإخراج المياه:

(مُسَلَّمَةٌ (71))

خالية من كل عيب:

(لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71))

من يربي أولاده تربية صالحة ويترك أمرهم لله يتولَّى الله جلَّ جلاله بعليائه تربيتهم :

هذه البقرة لرجل صالح جداً من بني إسرائيل، ترك هذه البقرة واستودعها عند الله أمانةً لابنه، وتركها طليقةً في البراري، فلما كبر ابنه جاءته طواعية، فلما انطبقت صفات هذا الأمر الإلهي

عليها قيل: أنه طلب ملء جلدها ذهباً، هناك قصتان، قصة البقرة التي انطبقت عليها الصفات لرجل صالح تركها لابنه، لذلك ورد في الأثر القدسي:

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله له: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خير حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله له: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

كل إنسان صالح، دخله حلال، وربَّى أولاده تربية عالية لا يقلق عليهم من بعده لأن الله جلَّ جلاله بعليائه يتولَّى تربيتهم، هذا الدرس بليغ، رجل صالح دخله حلال، ترك بقرة، استودعها عند الله لابنه، فلما كبر ابنه جاءته البقرة، انطبقت عيها صفات الأمر الإلهي، فطلب ثمنها ملء جلدها ثمناً، وكان هذا الأمر، قال:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71))

أي فعلوا هذا متباطئين، متكاسلين.

قصة البقرة دليل على يوم البعث وأن الله عزَّ وجل يبعث من في القبور:

الآية الكريمة:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ)

(سورة البقرة: الآية " 63 ")

وقال:

(وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا (72))

كل واحد اتهم الآخر أنه قتل، وكادت تقع فتنة كبيرة:

(وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا (73))

خذوا قطعة من هذه البقرة المذبوحة، واضربوا بها الميت، يقف ويقول: قتلني فلان، هذه دليل على يوم البعث، وأن الله عزَّ وجل يبعث من في القبور، جعلها الله آية من آياته، إنهم حينما أنكروا البعث، وأنكروا يوم القيامة، أراهم الله آيةً ناطقة:

(فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73))

أراد الله عزَّ وجل أن تكون آيةً صارخةً، جامعةً، مانعةً على يوم البعث ويوم القيامة.

الرحمة في القلب بحسب اتصالك بالله:

قال تعالى:

(اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ (74))

هذا قلب النفس يا أخوان، يمتلئ رحمةً، وحناناً، ووفاءً، وإخلاصاً، وإشراقاً، وتألُّقاً، وقد يمتلئ قسوةً وجفاءً، الرحمة في القلب بحسب اتصالك بالله:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران: الآية " 159 ")

برحمةٍ اكتسبتها من الله عزَّ وجل كنت ليِّناً لهم يا محمد:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)

(سورة آل عمران: الآية " 159 ")

قصة رمزية، رمزية فقط، أن سيدنا موسى مر بامرأة تخبز على التنور، وقد وضعت ابنها على طرف التنور، وكلَّما وضعت رغيفاً تضم ابنها وتشمه وتقبله، قال: " يا رب ما هذه الرحمة ؟ قال: هذه رحمتي وضعتُها في الأمهات، وسأنزعها، فلما نزع الله الرحمة من قلب الأم بكى الطفل فألقته في التنور "، وانتهى الأمر، وفي حياة الحيوان هناك حالات ؛ الهرة تعتني بأولادها فإذا جاعت أكلتهم، فالرحمة التي في الخلائق من عند الخالق.

كل إنسان بعيد عن الله له قلبٌ كالصخر:

قال تعالى:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً (74))

كل إنسان بعيد عن الله له قلبٌ كالصخر، كالصخر وحده، فهذا إنسان عمر ابنته ست أو سبع سنوات، أجمل سن للبنات، هي كالوردة، أخذها وجاء إلى بئر فدفعها في البئر وأهال عليها التراب، آخر كلمة قالتها: يا أبتاه يا أبتاه، عندما سمع النبي القصة بكى بكاءً شديداً، قال له: أعدها علي، هكذا كان العرب بالجاهلية:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(9))

(سورة التكوير)

الذي يتحمل أن يضع بنتاً كالوردة في التراب، ويدفنها، هذا وحش، وهؤلاء الذين يدمِّرون الشعوب ؛ شعب يموت من الجوع، كل سنة خمسمئة ألف طفل يموت جوعاً ولا ذنب له، هؤلاء قلوبهم من ماذا ؟ هم وحوش، فهذا الوضع الجديد الذي جد في العالم كشف الأقنعة، لم يعد هناك قناع، الدول

الغربية البعيدة عن الله وحوش تبحث عن مصالحها فقط، ولو دمَّرَت عشرات الشعوب، ولو عاشت على أنقاض البشر، هذا شأن الكافر، كل إنسان بعيد عن الله وحش، وحش بكل ما في هذه الكلمة من معنى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(9))

(سورة التكوير)

أمثلة عن وحشية الإنسان البعيد عن الله تعالى:

تسمع عن المذابح بإفريقيا، خمسمئة ألف إنسان ذبحوا في يومين، كل يوم أخبار عن مذابح في العالم، البشر وحوش، ما يجري في البوسنة، كم مقبرة جماعية كشفوا ؟ ما الذنب ؟ لأنه مسلم فقط، يقول لك: تطهير عرقي، الوحشية قائمة مستمرة، ما دام هناك كفر هناك وحشية، هذا شأن الإنسان، عندما يتصل بالله يمتلئ قلبه رحمةً، قال له:

((إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن عائشة]

عندما فتحت القُدس في قبل الفرنجة، ذبح سبعون ألف إنسان في ليلة واحدة، لما فتحها سيدنا صلاح الدين شكت له امرأةٌ أن ابنها قد فقد، وقف ولم يجلس حتى أعادوا لها طفلها، هذا الإسلام، الإسلام رحمة، الآية دقيقة جداً:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران: الآية " 159 ")

الرحمة بسبب اتصالك بالله، كل إنسان قريب من الله رحيم، البعيد قاسٍ ولو كان ملمَّعاً، ومصافحته رقيقة، ابتسامته عريضة، هذه أشياء ظاهرية لا تقدِّم ولا تؤخِّر، أما عند الحاجة تجده وحشاً، فلذلك وصف الله عزَّ وجل هؤلاء قائلاً:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ (74))

ماذا يلقي اليهود على الطرقات في جنوب لبنان، إنهم يلقون لُعَباً كلها ألغام، طفل برئ يجد لعبة يأخذها يفقد بصره، ألهم ثأر مع الصغار ؟ الصغير ملك من أي ملة كان، من أي فئة، وهذا قرأته في الصحف، هذه الأيام يلقون اللعب المفخخة حتى يأخذها طفل صغير بريء فتنفجر أمامه، هذا الذي يفعلونه كل يوم.

الإسلام ليس قضية صلاة شكلية الإسلام اتصال بالله وانضباط:

قال تعالى:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74))

وقال:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر: الآية " 21 ")

وقال:

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74))

أيها الأخوة، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، البطولة أن تطيع الله، البطولة أن تتَّصل به، البطولة أن يمتلئ قلبك رحمةً تجاه الخلق عامةً، هذا المؤمن، قالوا: **" ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب "**، رحمة ما بعدها رحمة، إنصاف ما بعده إنصاف، هكذا، مئتين وخمسين مليون مسلم بإندونيسيا أسلموا بالمعاملة فقط.

أيها الأخوة، الإسلام ليس قضية صلاة شكلية، الإسلام اتصال بالله، الإسلام انضباط، الإسلام قلب رحيم، الإسلام تفوُّق، هذا هو الإسلام، تخلَّف المسلمون لأنهم فهموا الدين فهماً طقوسياً، فهموه عبـادات جوفاء، ما اتصلوا بالله الاتصال الصحيح لأنهم ما أطاعوه الطاعة التامة.

(وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (30- 95):تفسير الآيات 75 - 77 ، صفات المنافقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-03-05

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى يخفف عن نبيِّه ويسري عنه لئلا يتسرَّب إلى نفسه شيء من الضيق أو الإحباط:

مع الآية الخامسة والسبعين وهي قوله تعالى:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75))

أيها الأخوة الكرام، لأن الله عزَّ وجل يعلم أن هؤلاء اليهود سيكون لهم مواقف مع المسلمين متعبة ومزعجة في مستقبل الأيام، الله سبحانه وتعالى يعزِّي ويسلِّي ويسري عن رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول له: يا محمد لا تطمع بإيمانهم، لأنهم أنزل عليهم التوراة، وقرؤوه، وعقلوه، وحرَّفوه وهم يعلمون ما يترتب على من يحرف كلام الله، فهؤلاء شاردون، هؤلاء بعيدون، لأن الإنسان إذا دعا إلى الله وقابله المدعو بالتكذيب والسخرية والإعراض يتألَّمُ أشد الألم، فلئلا يتسرَّب إلى نفس النبي عليه الصلاة والسلام شيءٌ من الضيق أو من الإحباط الله عزَّ وجل يخفف عن نبيِّه، ويسري عنه، ويجعله يطمئن إلى أن المدعو إذا لم يؤمن، وإذا لم يستجب، وإذا لم يلتزم فهذا لا يعبِّر عن عدم صدق الداعية، لأن الله عزَّ وجل ما كلَّفه أن يحملهم على الإيمان.

الله تعالى ما كلَّف نبيه الكريم أن يحمل الناس على الإيمان بل أن يبلغهم فقط:

قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (272))

(سورة البقرة: من آية " 272 ")

لست عليهم بحفيظ:

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86))

(سورة هود)

لست عليهم بوكيل:

(قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66))

(سورة الأنعام)

وقال:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

وقال:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (56))

(سورة القصص: من آية " 56 ")

النبي عليه الصلاة والسلام عليه البلاغ أما هذا الإنسان يستجيب أو لا يستجيب، لا يستجيب لجهله، أو لا يستجيب لخبثه، أو لاحتياله هذا شيءٌ آخر.

الدقة العلمية في القرآن الكريم:

الله عزَّ وجل كأنه يطمئن المسلمين إلى آخر الزمان أن هؤلاء اليهود متعبون، وأنهم مُشاكسون، وأنهم يزوِّرون الكُتُبَ المقدسة، وأنهم يردون دعوة أنبيائهم، وأنهم قتلوا أنبياءهم بغير حق، وأنهم مجرمون فلا تبتئسوا أيها المؤمنون لمواقفهم، هم من نوعٍ خاص

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ)

فهل تنتظر من إنسان مجرم أن يكون رحيماً حينما يقتل وحينما يسفك الدم ؟ كيف تنتظر منه أن يكون رحيماً ؟ فالآن يلقون من الطائرات دمى، لُعَب مفخخة، من يلتقط هذه اللعب ؟ طفل صغير برئ، يلتقطها، فتنفجر أمامه وتقضي عليه، هذا تاريخهم الطويل، تاريخهم العنصري والإجرامي، تاريخهم في قتل أنبيائهم، وفي حمل العالم على الفساد، فهناك من يقول: إن أكثر ألوان الفساد في الأرض من صنع اليهود ؛ هذا الأدب الإباحي، وهذه الأفلام الخلاعية، وهذه المحطَّات الفضائية وراءها اليهود، إنهم مفسدون في الأرض.

أيها الأخوة، لأن الله عزَّ وجل يعلم ما سيكون، يعلم معاناة المسلمين من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا العنصرية منهجاً لهم وأرادوا أن يعيشوا على أنقاض شعوب العالم، وأرادوا أن يبنوا مجدَهم على سلامة هؤلاء الشعوب، لذلك ربنا عزَّ وجل يُبَيِّن ويقول: (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) فهل تطمع من إنسان قاطع طريق أن يرحم الناس ؟! تطمع من إنسان يحارب العلم أن يتعلم ؟! تطمع من إنسان يحارب العمل الصالح أن يكون صالحاً:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (75))

أيها الأخوة، في القرآن موضوعيةٌ مذهلة، أليس من اليهود من آمن برسول الله وكانت تفيض عينه خُشوعاً، عبد الله بن سلام آمن برسول الله، لولا كلمة منهم ما الذي يحصل ؟ إنسان من اليهود قرأ في التوراة أوصاف النبي وهو ينتظر مجيئه، فلما بعثه الله عزَّ وجل بادر إلى الإيمان به، وإلى نصرته، وكان من أقرب أصحابه إليه، لولا كلمة

(مِنْهُمْ)

هذا يحدث ارتباك عند هذا اليهودي

(وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ)

هذه الدقة العلمية في القرآن الكريم:

(وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا(36))

(سورة الإسراء)

النسبية في القرآن الكريم:

هناك من يتوهَّم أن هناك أبيضاً وأسوداً، ولكن في الحقيقة هناك آلاف الألوان الرمادية بين الأبيض والأسود، فهناك شيء نسبي، وهل النسبية في القرآن الكريم ؟ دقق :

(هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ)

(سورة آل عمران: من آية " 167 ")

الموقع نسبي، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ (5))

(سورة الروم)

لكن هؤلاء الروم أهل الكتاب ؛ ولكن عقيدتهم لا تلتقي مع عقيدة المسلمين، تلتقي معها في بعض الجوانب، إذاً هؤلاء المؤمنون يتمنَّون أن ينتصر أهل الكتاب على الوثنيين، إذاً لعل أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من الوثنيين، فالذي يؤمن أن لهذا الكون خالقاً ولكن له شريك هذا أفضل من الذي يقول: ليس لهذا الكون خالقٌ إطلاقاً، معنى ذلك الألوان متعددة وما بين الأبيض والأسود ملايين الألوان الرمادية، والإنسان كلما كان دقيقاً كلما جاء حُكْمُهُ موضوعياً، فكلمة

(مِنْهُمْ)

لو لم تكن هذه الكلمة وهي ثلاثة حروف، لو لم تكن هذه الكلمة في هذه الآية وقرأ الآية عبد الله بن سلام، بماذا يشعر ؟

(وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (75))

دائماً لا تُعَمِّم، التعميم من العمى.

على الإنسان ألا يعمم أو يطلق الأحكام القطعية بل يجب أن يكون موضوعياً في أحكامه:

كل إنسان يقول لك: هلك الناس ؟ لا، بعض الناس لم يهلكوا، أو يقول: الناس لا يوجد فيهم خير، لا:

((الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة]

((أمتي كالمطر لا يُدْرَى أوله خير أم آخره))

[الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه]

((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ ـ قَالَ أَبُو إِسْحَقَ: لا أَدْرِي أَهْلَكَهُمْ بِالنَّصْبِ أَوْ أَهْلَكُهُمْ بِالرَّفْعِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه]

الذي وصفهم بالهلاك وهم ليسوا كذلك، إيَّاكَ أن تعمم، إياك أن تطلق الأحكام القَطْعِيَّة، كن موضوعياً في أحكامك، الله عزَّ وجل قال عن فرعون:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى (25))

(سورة النازعات)

قد يقول قائل: لِمَ لَمْ يقل الله عزَّ وجل: فأخذه الله نكال الأولى والآخرة، فهذا هو الترتيب المنطقي ؟ لماذا قدم الآخرة على الأولى ؟ لأن فرعون قال في الآخرة:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

جازماً، وفي الأولى قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: من آية " 38 ").

في تَحَفُّظ، أي أنه بحسب علمي

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فالله عزَّ وجل بدأ بالآخرة لأنها أشد كفراً وأشد عتواً، فكلمة:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى)

غير

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فأنت دائماً وأبداً حينما تُطْلِق الأحكام، هناك من يقول: هؤلاء ليس فيهم خير، هؤلاء القوم مجرمون، هذه أحكامٌ مُضْحِكَة، التعميم من العمى، لا يطلق الأحكام المُطْلَقَة على الناس، وعلى البُلدان، وعلى الشعوب، وعلى الأمم، وعلى الأقاليم، وعلى الأمصار إلا جاهل.

الله عزَّ وجل يُسَلِّي نبيه ويخفف عنه من شدة تكذيب اليهود له:

بالمناسبة ؛ الدين كالهواء للإنسان، هل يستطيع أحد أن يحتكر الهواء ؟ لا أمة، ولا شعب، ولا عَصر، ولا مِصر، ولا إقليم، ولا جماعة، ولا طائفة، ولا فئة، ولا مذهب، أبداً، فهذا الدين دين الله، لا يستطيع أحد أن يحتكره، فإيَّاك والأحكام المُطلقة، إياك والأحكام العنيفة، إياك والأحكام الحادَّة، إياك أن تُطْلِقَ الحكم دون تحفظ، والآية الكريمة:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (75))

فريقٌ منهم (من) للتبعيض، أي بعضهم، وبعضهم الآخر آمن برسول الله، وكانوا من أقرب الناس إليه، وكانوا من أرقى أصحابه، وعلى رأسهم عبد الله بن سلام، وله قصة إن شاء الله إذا أمكنني في الدرس القادم أسمعكم إيَّاها، إذاً:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ (75))

دائماً الإنسان الخبيث حينما لا يستطيع رَدَّ النَص يحرفه، القرآن قطعي الثبوت، لا يستطيع أحدٌ أن يقول: هذه ليست آيةٌ في كتاب الله، أكيد، لأن الحديث الشريف ظني الثبوت، هناك من يرُدُّ الأحاديث الصحيحة، ومن رد الحديث المتواتر فقد كفر، ومن رد الحديث الصحيح فقد فسق، لذلك كأن الله عزَّ وجل يُسَلِّي نبيه ويخفف عنه من شدة تكذيب اليهود له قال: يا محمد لا تحزن عليهم، لا تبالي بتكذيبهم، عليك البلاغ وعلينا الحساب.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

هم أتعبوا نبيَّهم، وكذبوا أنبياءهم، وقتلوا أنبياءهم، وفعلوا كل شيء.

القرآن قطعي الثبوت والحديث ظني الثبوت:

الآن كما قلت لكم في درسٍ في هذه السورة: إن الأمراض التي وقع فيها اليهود نحن مرشَّحون أن نقع بها، هم بدَّلوا وغيروا، ونحن معنا كتاب قطعي الثبوت، الحديث ظني الثبوت، فهناك من يردُّ حديثاً لا ينسجم مع هوى نفسه ؛ لكن هذا المنحرف، هذا المبتدع لا يستطيع أن يرد آيةً، فماذا يفعل ؟ يأتي إلى تأويلها، ما دامت آيات القرآن الكريم كلها قطعية الثبوت فلا سبيل إلى تكذيب آيةٍ منها، والقرآن كله قطعي الثبوت، إذاً هناك من يلجأ إلى اللعب بالتأويل، فيؤول، فمن أراد أن يبيح لنفسه الربا قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً (130))

(سورة آل عمران)

يقول: إن الله نهانا عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، ولم ينهنا عن أكله بنسبٍ ضئيلة، أليس هذا تحريفٌ لكلام الله، لو سألت عالم الأصول لقال لك: إن هذا قيداً وصفياً وليس قيداً احترازياً، هذه قضية دقيقة بالتفسير، هناك أوضح من ذلك:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً (33))

(سورة النور).

لو أن الفتاة لم ترد التحصن هل يباح للأب أن يكرهها على الزنا ؟ مستحيل وألف مستحيل، ما معنى هذه الآية ؟ أي

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

اللاتي يردن التحصُّن والزواج، العلماء قالوا: هذا قيد وصفي وليس قيداً احترازياً.

مشكلة لَيِّ أعناق النصوص وقع به المسلمون إلى درجة أنك لا تجد شيئاً حراماً:

إذاً كلمة

(أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

هذا قيد وصفي، أي أن من شأن الربا أنه أضعاف مضاعفة، مثلاً يقول لك: لا توجد آية تحرم الخمر، أعوذ بالله، لا يوجد أن الخمر حرام، أو محرمةٌ عليكم، ولكن يوجد كلمة

(فاجتنبوه)،

فالاجتناب أشد أنواع التحريم، لو أن الله عزَّ وجل حرم علينا الخمر لكان من الممكن أن نتاجر به، حرم علينا شربها، أما حينما أمرنا أن نجتنبها، لذلك أمرنا أن نبتعد عن بيعها، وعن شرائها، وعن حملها، وعن نقلها، وعن عصرها، وعن كل شيءٍ يتصل بها، فآية الاجتناب أبلغ من آية التحريم، إذاً يلوون أعناق النصوص، فيقول لك: الخمر ليست محرمة.

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

(سورة النساء)

فُهِمَت هذه الآية على غير ما أراد الله عزَّ وجل، هذا من لَيّ أعناق النصوص، ومن تحريف الكَلِم عن مواضعه.

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

(سورة الحج).

لا يصلون، لأن الله لم يمكنهم في الأرض، كلامٌ مضحك، هذه مشكلة لَيِّ أعناق النصوص، هذه مشكلة التبديل والتغيير، والتزوير والتحوير، وهذا وقع به المسلمون إلى درجة أنك لا تجد شيئاً حراماً في النهاية، يقول لك: الفائدة ليست حراماً، فهذه عائدة وليست فائدة، تضع المال في مصرف

ربوي، وتتلقى فائدة ربوية، والوصف أنها عائدة وليست فائدة، أليس هذا تزويراً لكلام الله عزَّ وجل ؟ ألم يقل الله عزَّ وجل:

(فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: من آية " 279 ")

لأن كل معصيةٍ لها مستوى، الذي يشرب الخمر يضر نفسه، والذي يزني يؤذي معه فتاةً، والذي يأكل الربا يُسْهِمُ في انهيار مجتمعٍ بأكمله، لأن هذه الكتلة النقدية في الأصل ينبغي أن تكون بين أيدي الناس جميعاً، موزعةً بين أيدي الناس، فبأيَّة طريقةٍ إذا اجتمعت في أيدٍ قليلة وحُرِمَت منها الكثرة الكثيرة كانت الكوارث، والحروب، والمنازعات، والشقاء البشري، فقد قرأت البارحة إحصاءً: أن ثلاثة أرباع موارد الأرض، الخمس قارَّات، الثروات الباطنية، كل ما في الأرض من ثروات يملكها عشرون بالمئة من سكان العالم، ثلاثة أرباع ما في الأرض يملكها عشرون بالمئة من سكان العالم، لذلك تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً حتى يأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً .

تحريم ربنا الربا ليضمن أن يعيش الناس جميعاً في سعةٍ وأمنٍ وبحبوحة :

أيها الأخوة، من أجل أن تبقى هذه الكتلة النقدية بين أيدي الناس جميعاً حرَّم الشرع أن يَلِدَ المالُ المال، المال يَلِد بالأعمال، فإذا حصرنا كسب المال بالأعمال توازنت الأمور، ووزعت هذه الكتلة النقدية بين أيدي الجميع، بين أيدي كل من يعمل، أما إذا استطاع أحدنا بماله فقط أن ينمِّيه نماءً فاحشاً من دون عمل عن طريق الربا ما الذي يحصل ؟ تتجمع الأموال كلها في أيدٍ قليلة وتحرم منها الكثرة الكثيرة، لذلك أكثر الثورات والحروب العالمية وراء سوء توزيع الثروات، طبعاً هذا شيء ثابت، فلما حَرَّمَ ربنا الربا حرمه ليضمن أن يعيش الناس جميعاً في سعةٍ وفي أمنٍ وفي بحبوحة، فهذا الذي يُبَدِّلَ ويغيِّر:

(وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ (75))

إلى أن تصل إلى درجة أن لكل معصيةٍ فتوى ؛ الغناء، والرقص، والتمثيل، كل معصية لها فتوى، ما هذا الدين المرن ؟ صار كالغاز، الدين غاز، في أي مكان يدخل، ينبغي أن تقول: أنا مسلم فقط، افعل ما تشاء، لك أن تكسب المال الحرام، ولك أن تضع المال في المصارف الربوية، ولك أن تلتقي مع من تشاء، فإذا وصل الدين إلى هذا المستوى انتهى الدين، الدين منهج، الدين صُلب لا يسيخ ولا يتبخَّر، فلذلك النقطة الدقيقة أنه حينما يريد أناسٌ من أعداء الدين أن يضعضعوا قيمة الدين، والذين معهم كتاب قطعي الثبوت ماذا يفعلون ؟ يبدلون في التأويلات، أي أنهم يأتون بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان، فحينما يواجهون نصاً قطعي الثبوت، قرآناً قطعي الثبوت، ماذا يفعلون ؟ يلوون أعناق النصوص، يحرِّفون، يبدِّلون، يزورون.

الإنسان مُخير بدليل أن أقرب أقرباء النبي لم يؤمن به:

الحقيقة هناك من يُفتي بجهل، هذا إنسان جاهل، ولكن الذي يفتي بخلاف ما يعلم هذا إنسان يرتكب في الدين جريمةً كبيرة، يفتي بخلاف ما يعلم، يعلم الحكم الشرعي ولكنه يغير ويبدل ويلوي أعناق النصوص كي يصل إلى فتوى ما أنزل الله بها من سلطان، لذلك الفتوى جِسْرٌ إلى النار، والإنسان إذا كان جباناً في الفتوى فهو بسبب ورعه وخوفه من الله عزَّ وجل.

النبي عليه الصلاة والسلام يطمع بهداية الناس جميعاً، لأنه حمل هذه الدعوة، وكل داعية صادق يطمع بهداية الناس جميعاً، ويبذل كل ما في وسعه، ولكن حينما يَصُدُّ الناس عن النبي، وحينما لا يستجيب الناس لهذه الدعوة، هذا لا يقدح في نزاهة الداعية، ولا يقدح في إخلاصه ولا في صدقه، لأن الإنسان مُخير، بدليل أن أقرب أقرباء النبي لم يؤمن به، عمه أبو طالب لم يؤمن به، أبو جهل، أبو لهب، أعمامه لم يؤمنوا به:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2))

(سورة المسد)

من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لا يسرع به نسبه))

[شعب الإيمان عن ابن عباس]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

إنك لا تستطيع هداية من أحببت كما أنك لا تُسأل عن ذلك:

لو وقفنا وقفةً متأنيةً عند كلمة:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ (75))

الإنسان متى يطمع ؟ حينما تتطلع إلى ما لا تملك، حينما تتطلع إلى ما لم تُكلَّف، حينما تتطلع إلى ما ليس في مقدورك، فأنت بهذا تطمع، أحياناً الإنسان الذي تقدمت به السن يطمع أن يكون شاباً، لكن هذا مستحيل، عقارب الزمن لا ترجع إلى الوراء، الفقير يطمع أن يكون غنياً، إلا أن الإنسان إذا أراد أن يوسِّع حركته في الدنيا، فبذل جهداً كبيراً كي يوسِّع هذه الحركة هذا لا يطمع، أما حينما يبني رفاهية ورَغَدَ عيشه على حركة الآخرين ؛ على جهدهم، على كسبهم، على كد يمينهم، وعرق جبينهم هذا ظالمٌ لنفسه، فأنت إذا بذلت جهداً كبيراً وحصَّلت دخلاً واستمتعت به لك حساب آخر من

نوع ثان، أنك ضيَّعْتَ الوقت فيما لم تخلق له، أما حينما تريد أن تعيش حياةً ناعمةً راغدةً على حساب الآخرين هذا ليس من حقك، هذا أصل الطمع، أن تتطلع إلى ما ليس لك، أن تَتطلع إلى ما لم تكلف به، أن تتطلع إلى ما يفوق قدراتك، هذا أصل الطمع، لو وقفنا عند أصله بشكل موضوعي، فأنت حينما تتطلع إلى ما لا تملك، أو إلى ما ليس لك، أو إلى ما لا تقدر عليه، فأنت وقعت في الطمع والطمع ليس خلقاً محموداً، أما في الهداية فهذا موضوع ثان، المؤمن يطمع بهداية الناس جميعاً مع أنه لم يُكَلَّف بذلك، ليس عليك هداهم:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (56))

(سورة القصص).

إنك لا تستطيع هداية من أحببت كما أنك لا تُسأل عن ذلك، لا تستطيع ولا تُسأل، فحينما طمع النبي بهداية كل الخلق ؛ بهداية المشركين، وهداية أهل الكتاب هذا من كماله، ومن رحمته، ومن قربه من الله عزَّ وجل، ولكن حينما أعرض عنه اليهود ولم يستجيبوا، وبدلوا، وزوروا، وكذبوا، هنا ليس عليه مسؤولية ولم يكلف بما لا يطيق

الكافر واضح والمؤمن واضح أما المنافق فمخيف:

أيها الأخوة، ثم يقول الله عزَّ وجل بعد أن قال:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76))

إخواننا الكرام، المؤمن انسجم مع فطرته وانسجم مع الكون، في الكون حقيقة كُبرى هي الله، فالمؤمن انسجم مع نفسه، مع فطرته، ومع حقيقة الكون الأولى، الكافر انسجم مع نفسه، ولم ينسجم مع حقيقة الكون الأولى، أما المنافق لم ينسجم لا مع نفسه ولا مع حقيقة الكون الأولى، المؤمن انسجم مع نفسه وفطرته ومع حقيقة الكون الأولى، مع الله، والكافر انسجم مع نفسه، ولم ينسجم مع حقيقة الكون، أما المنافق يقول بما لا يؤمن، ويؤمن بما لا يقول، لا مع نفسه كان صادقاً، ولا مع الحقيقة العظمى في الكون كان صادقاً، لذلك:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ (145))

(سورة النساء)

الدليل: الكافر واضح، والمؤمن واضح، أما المنافق مخيف، له ظاهر وله باطن، له كلام يعلنه وله معانٍ يُبَطِّنُهَا، له موقف مع المؤمنين، يقول لك: أعطيه جمله، يسايره، وله موقف مع الكفار والمُلحدين، فلذلك:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا (76))

معرفة اليهود للنبي كمعرفة الإنسان لابنه ومع ذلك كابروا وأنكروا رسالته :

اليهود عندهم في توراتهم أوصاف النبي كاملةً، وكانوا يتحدَّوْنَ العرب بهذه الأوصاف، سيأتي نبيٌ منكم ونحن سنكون أول من يؤمن به، فلما حَدَّثَ هؤلاء اليهود بعضهم بعضاً:

(قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76))

كأن الله عزَّ وجل لا يعلم، بالمناسبة لا يوجد معرفة بالأرض أقوى ولا أرسخ ولا أثبت ولا أوضح ولا أسهل من معرفة الأب لابنه، فهل سمعتم في كل حياتكم أن أباً قال لابنه: ما اسمك أنت يا بني ؟ مستحيل، مستحيل، قال:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 146 ")

معرفة اليهود للنبي كمعرفة الإنسان لابنه، ومع ذلك ركبوا رؤوسهم وكابروا وأنكروا رسالته، فلذلك:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76))

وصف الله عز وجل المنافقين في عدة آيات:

أيها الأخوة، هؤلاء اليهود منافقون، وشأن المنافق أنه ليس مع المؤمنين وليس مع الكافرين، حالة نادرة، لا ينسجم لا مع نفسه ولا مع الحقيقة، لذلك وصفهم الله عزَّ وجل في آيات أخرى، قال:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(14))

(سورة البقرة)

وقال:

(وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ)

(سورة آل عمران: من آية " 119 ")

وقال:

(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ(61))

(سورة المائدة)

المناظرة الرائعة التي عرضها الله عزَّ وجل لنا في القرآن الكريم:

طبعاً هنا:

(لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ (76))

الحُجَّة ؛ المناظرة، والله عزَّ وجل عرض لنا بالقرآن الكريم مناظرة رائعة، قال:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

(سورة البقرة: من آية " 258 ")

عنده جنود، أمر جندياً أن يقتل رجلاً، ثم أمره أن يَكُفَّ عن قتله، قال: إن شئت قتلته ـ أمته ـ، وإن شئت عفوت عنه ـ أحييته ـ أنا أحيي وأميت، إذا كنت تَدَّعي أن الله يحيي ويميت، فأنا أحيي ويميت ـ هذا النمرود ـ الله علمنا فن الحوار، وفن المناظرة، فقد صار تأويلات، هو أوَّل الحياة بأنها عفو، وأوَّلَ الموت بأنه إعدام، مع أن الموت ليس إعداماً:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169))

(سورة آل عمران).

قيل: المتأوّلان لا يتفقان إلى يوم القيامة.

تتمة المناظرة كما عرضها القرآن:

إذا أردت أن تناظر إنساناً وكل إنسان يفهم النص كما يحلو له فالطريق مسدود، فسيدنا إبراهيم وجد أن هذا الطريق مسدود:

(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)

(سورة البقرة: من آية " 258 ")

لأن هذا الطريق صار فيه تأويل، القصد بالحياة منح الحياة، والموت إنهاء الحياة، النمرود فهم الحياة العفو والموت القتل فتركه في هذا الطريق المسدود وسلك طريقاً آخر:

(قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)

قال:

(فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)

(سورة البقرة: من آية " 258 ")

لا يمكن لإنسان أن يقلب الحق إلى باطل بكلمة:

هؤلاء اليهود قالوا:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ (76))

أي أنكم تعطون للعرب حجج:

(لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ (76))

يوم القيامة:

(عِنْدَ رَبِّكُمْ (76))

أنتم تقدمون أوصاف النبي كما جاءت في توراتكم، صار معهم حجة، وكأن الله لا علاقة له بهذا الموضوع إطلاقاً، أرأيتم إلى إيمانهم ؟ فالقضية إذا كان ذكر الشيء وهذا ما يقع به المسلمين أحياناً، فهل من الممكن لإنسان بكلمة أن يقلب الحق إلى باطل ؟ مستحيل، لو قلنا عوائد فوائد، بَدَّلنا كلمة فوائد بكلمة عوائد فهل ألغي الربا ؟ إذا تكلمنا كلمة ألغي الزنا أي إذا قلنا لمرة واحدة: أجرة، مُتْعَة، فهل صار بذلك الزنا مباحاً ؟ فهل من الممكن أن تنقلب الأمور بكلمة أو بحرف ؟ مستحيل، فلذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76))

الآن اسمع الآية الكريمة:

(أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77))

أرأيت إلى ضعف الإيمان، كأن الله في السماء ولا يرى شيئاً في الأرض، شيء مضحك، فكثيراً ما تجد في الفتاوى أشياء مضحكة جداً، كأن يقول لك: بكم سعر هذا الشيء ؟ يقول لك: بألف نقداً، وبألف وخمسمئة تقسيطاً، صارت هناك مشكلة، فيقول: بألف نقداً، ماذا طبخت اليوم ؟ يقول لك: فاصولياء، وألف وخمسمئة تقسيطاً، وما دام في فاصولياء بين السعرين لم يبق في أي مشكلة، شيء مضحك، هذا نفسه وقع عندنا، دخلت كلمة غريبة، فصار هناك مجلسان، فأُلغيت الحُرْمَة.

أغلب ما فعله اليهود نفعله نحن اليوم:

قال تعالى:

(أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ (77))

قديماً كان يضع زكاة ماله برغيف خبز ويهبها للفقير، ثم يقول للفقير: بعني هذا الرغيف بخمس ليرات، ويكون في داخل رغيف الخبز خمسة آلاف ليرة، أعطى رغيف الخبز للفقير، فبذلك يكون قد دفع زكاة ماله، ثم استرده بخمس ليرات، وكأن الله لا يعلم، اليهود فعلوا هذا أيضاً:

(تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ)

(سورة الأعراف: من آية " 163")

فَجَمَّعوا الحيتان يوم السبت وصادوها يوم الأحد، وبذلك لم نخالف في شيء، والمسلمون وقعوا في حِيَلٍ شرعيةٍ لا تقل عن هذا، يجب أن يجلس مع زوجة أخيه، القضية سهلة، يحضر طفلة صغيرة عمرها سنة وترضعها زوجة أخيه، أصبحت أمها، يعقد عقده على هذه الطفلة، أصبحت زوجة أخيه حماته على التأبيد، يطلقها فيستطيع بذلك أن يجلس مع زوجة أخيه، وانتهت العملية، هذا الذي فعله اليهود نفعله نحن اليوم، فلذلك أكثر أنواع هذه الفتاوى سببها:

(أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77))

من ضعف الإيمان أن يظن الإنسان أن الحيل الشرعية مقبولة عند الله تعالى:

من ضعف إيمانهم يظنون أنهم يأتون بحيلٍ شرعيةٍ مقبولةٍ عند الله عزَّ وجل ؛ قبل أن يحول الحول على المليون يدفعه عربوناً لأيّ بيت، بعد ذلك يلغي العقد، وألغي الحول، فاسترد المليون، أو يريد ألا يورِّط أحداً يكتب سندَ دينٍ وهمي بخمسة ملايين، فصار الميت مديناً، وكل شيء نقدي انتهى، أو يطلّق زوجته على فراش الموت حتى ينتهي، ويتخلص من ميراثها، وهناك آلاف آلاف الفتاوى كلها باطلة، كلها أساسها أن الذي يفعل هذا لا يعلم أن الله يعلم، يظنه لا يعلم:

(أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77))

أيها الأخوة في درسٍ آخر نتابع هذه الآيات، وهي قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ(79))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (31- 95):تفسير الآيات 78 - 81 ، مفهوم الأمي وأهمية الفتوى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-03-12

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عزَّ وجل جعل وعاء النبي نظيفاً فارغاً لئلا يختلط وحي السماء بثقافات الأرض:

مع الآية الثامنة والسبعين، والحديث عن بني إسرائيل يجعلنا نأخذ الموعظة لأنهم أهل كتاب، وجميع المنزلقات التي وقعوا فيها يمكن أن نقع فيها نحن المسلمين، وبيَّنت لكم في دروسٍ سابقة كيف أن معظم الأمراض التي وقعوا فيها وقع فيها المسلمون، وهذا من أسلوب الحكيم، يقول الله عزَّ وجل :

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (78))

الأميُّون جمع أُمِّيّ، والأمي المنسوب إلى الأم، أي هكذا ولدته أمه من دون أن يكتسب أي علم، إنسان ولدته أمه هكذا، لم يكتسب علماً، ولا ثقافةً، ولا خبرةً، بقي على فطرته التي ولِدَ عليها، لم يتلقَّ العلم، لكن في هذه الآية إشكال بسيط هو: أننا نفتخر أن نبيِّنا عليه الصلاة والسلام أمّي، وهذه حقيقةٌ لا بد من توضيحها، الأميَّة في رسول الله صلى الله عليه وسلَّم كمالٌ مُطْلَق، لأن الله سيوحي إليه، كل إنسان طالب علم يفتخر بأستاذه، هذا يقول لك: أنا خريج الجامعة الفُلانيَّة، هذا يقول لك: أنا أستاذي فلان، فإذا تباهى أكبر علماء الأرض بأساتذتهم الكبار، فالذي علَّم النبيَّ عليه الصلاة والسلام هو الله:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(5)ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(6))

(سورة النجم)

إذاً لو أن النبي عليه الصلاة والسلام تَلَقَّى من ثقافة عصره ما تلقَّى، لو أنه اطلع على ثقافة الهند، وثقافة فارس، وثقافة الروم، وحَصَّلَ علوماً جَمَّة ثمَّ جاءه الوحي، كلَّما نطق بكلمةٍ يسأله أصحابه: يا رسول الله هذه من ثقافتك الشخصيَّة أم من وحي السماء ؟ جعل الله عزَّ وجل وعاء النبي نظيفاً فارغاً لئلا يختلط وحي السماء بثقافات الأرض.

الأميَّة في حقِّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كمال لأن الله هو الذي تولَّى تعليمه:

قال:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(48))

(سورة العنكبوت)

إذاً الأمية كمال عند النبيُّ وحده، لأن الله هو الذي تولّى تعليمه، هو الذي أوحى إليه، هو الذي ألقى عليه القرآن الكريم عن طريق جِبْريل، لأن الله عزَّ وجل أراد من هذا النبي أن يكون مشرِّعاً، وأن يكون قلبه مهبطاً لتجليَّات الله، وأن يكون قلبه وعاءً لعلم الله الذي جاءه عن طريق القرآن الكريم، فاقتضت حكمة الله جلَّ جلاله أن يكون نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم أُمِّياً، الأميَّة في حقِّه كمال، لأن الله هو الذي تولّى تعليمه، هو الذي علَّمه، لئلا يختلط وحي السماء بثقافات الأرض، لئلا يُسأل كل مرَّةٍ: يا رسول الله أهذا من عندك أم من عند الله ؟ أهذا من ثقافتك ؟ أهذا من دراستك ؟ أهذا من تحصيلك ؟ أهذا من اطلاعك على ثقافات الأرض أم من وحي السماء ؟ لئلا يكون هذا جعل الله نبيَّه أميَّاً.

أما نحن فليس هناك وحيٌ يعلِّمنا، فإذا كنَّا أميين أي جاهلين فالأميَّة فينا نقصٌ، والأميَّة في حقِّ النبي كمال، فلنستثنِ النبي عليه الصلاة والسلام لأن أميَّته تعني أن كل الذي ينطق به إن هو إلا وحيٌ يوحى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

((يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ أَشْيَاءَ أَفَأَكْتُبُهَا ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟ قَالَ: نَعَمْ فَإِنِّي لا أَقُولُ فِيهِمَا إِلا حَقّاً))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاص رضي الله عنه]

أما الأمي المنسوب إلى أمِّه، هكذا ولدته أمه من دون علم، لم يتعلَّم، لم يطلب العلم، لم يطَّلع على ثقافات العصر، لم يطلب العلم الشرعي، أمي أي غير متعلِّم.

الأمية بحق الإنسان العادي صفة نقص أما بحق النبي عليه الصلاة والسلام فهي كمال :

إذاً الأمية بحق الإنسان العادي صفة نقص، أما بحق النبي عليه الصلاة والسلام هي كمال لأن الله علَّمه.

يأتي إنسان الآن يحمل ليسانس في الشريعة، يتناول عدداً من أحاديث رسول الله يضبطها، ويشرحها، ويستنبط الأحكام منها، ويقدِّمها أطروحةً، فينال لقب دكتور، هذا الدكتور نال هذا اللقب لأنه فهم بعض أحاديث رسول الله:

يا أيها الأميُّ حسبك رتبةً في العلمِ أن دانت لك العلماء

***

فالنبي عليه الصلاة والسلام موضوعٌ آخر، أما الأميَّة بحقِّ الناس صفة نقصٍ فيهم، أي أنه لم يتعلَّم، ما طلب العلم فهو جاهل لذلك قالوا: **" العوام لأن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ".** و:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[ابن ماجة عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

على كل شخصٍ مسلم ذكراً كان أو أنثى:

((النَّاسُ عَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ وَلا خَيْرَ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ))

[الدارمي عن أبي الدرداء رضي الله عنه]

((اغدُ عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك))

[الجامع الصغير عن أبي بكرة رضي الله عنه]

" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم " و **" العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلَّك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً "** و **" يظلُّ المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظنَّ أنه قد عَلِمْ فقد جَهِل ".**

فضل العالِم على العابد:

أيها الأخوة، حينما يطلب الإنسان العلم تُلبِّى الحاجة العُليا فيه، الإنسان له حاجات دُنيا ؛ يأكل ويتزوج ويثبت ذاته، هذه حاجاته الدنيا ؛ لكنَّ حاجته العُليا أن يطلب العلم ولا تؤكّد أنك إنسان إلا بطلبك العلم.

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي عن ابن عبَّاس]

العابد مقاومته هشَّة، امرأةٌ تفتنه، دِرْهَمٌ يفتنه، تهديدٌ يفتنه، أما العالِم فهو لا يتأثَّر لا بسبائك الذهب اللامعة، ولا بسياط الجلاَّدين اللاذعة: **" أحدٌ أحد "**، فالعلم أساس.

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (78))

أي أنهم غير متعلمين، يخلطون الحق بالباطل، والخير بالشر، والسُنَّة بالبدعة، ويتَّبعون الأهواء يقول لك: سحروني، يصحب السحرة، يصحب الدجَّالين، يصحب المخرِّفين، يدخل في ضلالات، في تُرّهات، هذا شأن الجاهل يعزو الأمور إلى غير الله عزَّ وجل، يقيم للناس مقاماً كبيراً وهم ليسوا كذلك لأنه جاهل.

قال لي أحد الأخوة الدعاة: كنت أُلقي درساً أتحدَّث عن فساد الزمان، وعن الفتيات اللواتي يخرجن وحدهن بلا ضابط ولا رادع، وقد يأتين في ساعةٍ متأخِّرة، أين كانت هذه الفتاة ؟ قال: كانت مع الحبيب، قال لي: نصف الحاضرين ما فهموا ماذا قلت، فصلوا على الحبيب !! إمام يقرأ آية فيها كلمة (ولا الضالين)، قال الجميع: آمين، هذه آية، ولم ينتهِ، ليست هي نهاية الفاتحة بل هي آية أخرى فيها (ولا الضالين) فقالوا: آمين.

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (78))

أحياناً يسمع الإنسان القرآن:

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً (78))

(سورة الزمر: الآية "71 ")

فيقول وهو غير منتبه: اللهم اجعلنا منهم.

لا نستحق أن نكون من بني البشر إلا إذا طلبنا العلم:

قال تعالى:

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ (78))

أي يقول لك: نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، لا يسعنا إلا عفوه وكرمه، وكلما شاهد معاصيَ كبيرة يقول لك: كله ترتيب سيدك، كأن الله يأمر بهذه المعاصي، كلام ليس له معنى، وإذا رأى إنساناً وسع الله عليه يقول لك: الله يعطي الحلاوة لمن لا أسنان له، معنى هذا أن الله ليس بحكيم، كل كلامه فيه تجاوز، أحياناً كلامه فيه كفر وهو لا يشعر، فمشكلة الجاهل مشكلة كبيرة جداً.

والله أيها الأخوة لا نستحق أن نكون من بني البشر إلا إذا طلبنا العلم، و طالب العلم إنسان كبير جداً عند الله، أنت حينما تأتي إلى بيتٍ من بيوت الله تطلب العلم، تسلك طريقاً ينتهي بك إلى الجنَّة:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ بِهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ الْعِلْمِ))

[الدارمي عن أبي الدرداء رضي الله عنه]

قصَّتان ذكرتهما كثيراً ؛ أذكر قبل ثلاثين عاماً تقريباً أو خمسة وعشرين عاماً ؛ رأيت إنساناً يبكي في هذا المسجد، قلت له: خيراً إن شاء الله ؟ فقال لي: زوجتي تخونني، قلت له: مع من ؟ قال لي: مع رجل من جيراني. كيف تعرَّفت عليه ؟ قال لي: زارنا مرَّة فقلت في نفسي: إنها تجلس وحيده في البيت فقلت لها: يا أم فلان تعالي واجلسي معنا إنه كأخيكِ. جاهل، هذا هو الجهل، دفع الثمن باهظاً.

إنسان ركبت معه امرأة فسألها: إلى أين تريدين الذهاب يا أختي ؟ فقالت له: خذني أينما تشاء، ظنَّ أنها مغنمٌ كبير، أُصيب بمرض الإيدز، وأخذ منها مبلغاً من الدولارات المزيَّفة ودخل به السجن. فالإنسان عندما يطلب العلم يصبح عنده حارس.

يا بني العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق.

هناك قيم مرجِّحة بين الناس ولكن الله في القرآن الكريم جعل قيمة العِلم وحدها المرجِّحة:

والله أيها الأخوة ـ بالمناسبة ـ هناك قيم مرجِّحة بين الناس، المال له قيمة كبيرة جداً عند الناس، والغني محترم، والقوي محترم، والوسيم محترم، والفصيح محترم، من له قدرة على إقناع الناس محترم، هذه كلها قيم مرجَّحة بين الناس، ولكن الله في القرآن الكريم جعل قيمة العِلم وحدها المرجِّحة، قال :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر)

أين الثرى من الثُّرَيَّا ؟ وجعل قيمة العمل قيمةً مرجِّحة، قال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: الآية " 132 ")

وقال:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة)

هؤلاء الأنبياء العِظام الذين هم قِمَمُ البشريَّة، بمَ نالوا هذا المقام ؟ بالعلم:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً (14))

(سورة القصص)

قد يعطي الله عزَّ وجل المُلك لمن لا يحب ويعطيه لمن يحب، أعطاه لسليمان الحكيم وأعطاه لفرعون، ولكن العلم والحكمة لا يعطيهما إلا لمن يحب:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً (14))

(سورة القصص)

يعطي المال لمن يحب أعطاه لسيدنا عثمان بن عفَّان، ولسيدنا عبد الرحمن بن عوف، ويعطي المال لمن لا يحب أعطاه لقارون، ولكن العلم والحكمة لا يعطيهما إلا لمن يحب.

العلم بالله والعلم بأمر الله علمٌ ممتعٌ نافعٌ مسعد في الدنيا والآخرة:

أيها الأخوة، أدعوكم إلى طلب العلم، أدعوكم إلى الحِرْص عليه، أدعوكم إلى تلبية الحاجة العُليا في الإنسان، أدعوكم إلى تلبية ما يؤكِّد إنسانيَّتكم ألا وهو العلم، والعلم الذي أقصده أن تعرف الله وأن تعرف منهجه، لأنَّكَ إذا عرفت الله وعرفت منهجه وصلت إلى السلامة والسعادة.

بالمناسبة: كل علمٍ ممتع، ولكن ما كل علمٍ ممتع نافع، الآن العلم الممتع النافع قد لا يُسعد، قد تنال درجة عليا في اختصاص نادر ويأتيك من هذا الاختصاص ملايين، هذا علمٌ ممتعٌ نافع نفعك في الدنيا، وقد لا يكون مسعداً لك في الدنيا والآخرة، لكن العلم بالله، والعلم بمنهج الله، العلم بالله والعلم بأمر الله علمٌ ممتعٌ نافعٌ مسعد في الدنيا والآخرة. أنت حينما تأتي إلى بيتٍ من بيوت الله لطلب العلم،

أنت بهذا تسلك طريقاً إلى الجنَّة، وحينما تطلب العلم تكون أثيراً عند الله عزَّ وجل، وحينما تطلب العلم تضع لك الملائكة أجنحتها.

للإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى قصَّةٌ مثيرة، هي أن الذي جعله يطلب العلم أنه قرأ نصَّاً في الأحاديث، أنه:

((من طلب العلم تكفل الله له برزقه))

[الجامع الصغير عن زياد بن الحرث الصدائي]

أي يسَّر الله له سُبُلَ الدنيا، إنسان يطلب العلم، يطلب أن يعرف الله، يطلب أن يسعد في الدنيا والآخرة، ييسِّر الله جلَّ جلاله له سبل العلم في الدنيا وسبل السلامة والسعادة، أما الآية الكريمة :

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (78))

أي أن بعضهم الآخر ليسوا أميُّين، بعضهم الآخر يعلمون الحقيقة ويعرفون النبيَّ كما يعرفون أبناءهم، الآن دخلنا في موضوع ثانٍ، أنت حينما تعلم قد يكون هذا العلم حُجَّةً عليك، العلم حُجَةٌ لك أو عليك، حينما تعلم ولا تعمل أصبح العلم حجَّةً عليك، وحينما تعلم وتعمل أصبح العلم حجَّةً لك:

وعالمٌ بعلمه لم يعملن معذَّبٌ من قبل عبَّاد الوثن

***

" تعلَّموا ما شئتم فو الله لن تؤجروا حتَّى تعملوا بما علمتم " و **" كل علمٍ وبالٌ على صاحبه ما لم يعمل به "** و **" العلم ما عُمِل به فإن لم يُعْمَل به كان الجهل أولى "**

العلم ما عُمِلَ به فإن لم يُعْمَل به كان الجهل أولى:

أضع بين أيديكم هذه الحقيقة، لو أنك علمت علم اليقين أنك لو تعرَّضت لأشعَّة الشمس لشُفِيَ جسمك من مرضٍ جلدي، وأن هذا المرض لا يُعَالَج إلا بالتعرُّض لأشعَّة الشمس، لو أنك قبعت في غرفةٍ مظلمةٍ وأشعَّة الشمس ساطعةٌ خارج الغرفة، وقلت: أنا مؤمنٌ بأن الشمس ساطعة، أنت تكلَّمت الحقيقة ؛ ولكنك لم تنتفع بهذه الحقيقة لأنك لم تخرج لأشعَّة الشمس، ولا قيمة لإيمانك بهذه الحقيقة ولو أنك قلت الحقيقة، فأنت إذا أقررت أن الله خلق الكون ولم تأتمر بما أمر، ولم تنتهِ عما عنه نهى وزجر، ما قيمة هذا الإيمان ؟ أنت حينما تعتقد بما جاء في القرآن ولا تعمل به، ما قيمة هذا الاعتقاد ؟ سمَّاه بعض العلماء إيماناً إبليسياً، لأن إبليس قال:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

(سورة ص)

وقال له:

(خَلَقْتَنِي)

(سورة ص: الآية " 76 ")

وقال له:

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

آمن بالله خالقاً، وآمن به عزيزاً، وآمن باليوم الآخر، ولكنه لم يطع الله عزَّ وجل، فالعلم ما عُمِلَ به فإن لم يُعْمَل به كان الجهل أولى، وأخطر شيء ينزلق إليه المسلمون أن يعدّوا العلم هدفاً بذاته لأن العلم وسيلة وليس هدفاً، الهدف أن تعمل به، الهدف أن ترتقي به إلى الله عزَّ وجل .

إنكار بعض اليهود على النبي رسالته حفاظاً على مكاسبهم الدنيوية:

بعض هؤلاء اليهود يعلمون أن النبيَّ رسول الله، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكن حفاظهم على مكاسبهم، وحفاظهم على رئاستهم لأتباعهم، وحفاظهم على شهواتهم، وعلى هذه المكاسب الكثيرة التي حَصَّلوها بمكانتهم الدينيَّة جعلتهم يركبون رؤوسهم، وينكرون على النبي رسالته.

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (78))

بعضهم الآخر ليسوا أميُّين، البعض الآخر إن عملوا بما علموا نجوا كعبد الله بن سلام، جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأعلن إسلامه وكان يبكي خُشوعاً من خشية الله، فالذين يعلمون الحقيقة إن استجابوا لها نجوا، وسلموا، وسعدوا، وإن لم يستجيبوا لها كان علمهم حجَّةً عليهم، أما الخط العريض في المجتمع أميُّون، قال سيدنا علي: **" يا كُميل الناس ثلاثة ؛ عالمٌ ربَّاني، ومُتَعَلِّمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم ".**

فاليهود منهم أميون، ومنهم غير أميّين، وهؤلاء غير الأميين منهم من استجاب لعلمه فسلم وسعد، ومنهم من حافظ على مكاسب الدنيا فشقي في الدنيا والآخرة. لذلك قالوا: هناك من يُفْتِي بعلمٍ، وهناك من يفتي بغير علمٍ، وهناك من يفتي بخلاف ما يعلم، فالذي يفتي بعلمٍ نجا، والذي يفتي بغير علمٍ هَلَكَ، ولكن الذي يفتي بخلاف ما يعلم أجرم، يعرف الحقيقة ويفتي بخلافها، فهؤلاء الذين ليسوا أميين حافظوا على مكاسبهم، فركبوا رأسهم، وأنكروا نبوَّة النبي عليه الصلاة والسلام.

الاختلاف بين الناس له ثلاثة أنواع:

بالمناسبة أيها الأخوة الاختلاف بين الناس له ثلاثة أنواع:

1- الاختلاف الأول بسبب نقص المعلومات وهو اختلافٌ طبيعي لا يُمْدَح ولا يُذَم:

هناك نوعٌ طبيعيٌ جداً لا يُمْدَح ولا يُذَم، طبيعي، هو الاختلاف بسبب نقص المعلومات:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)

(سورة يونس: الآية " 19 ")

هذا اختلافٌ طبيعي لا يُمْدَح ولا يُذَم.

2- الاختلاف الثاني هو خلافٌ دنيويٌ قذر يُذَم لأن أساسه المكاسب والمنازعات:

لكن هناك اختلافاً قذراً، وهو بعد أن أتى العلم، وبعد أن جاء اليقين، وبعد أن توضَّحت الأمور نختلف لنحافظ على مكاسبنا:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)

(سورة يونس: الآية " 19 ")

لكن هناك اختلافاً آخر :

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

(سورة البقرة: الآية " 213 ")

حينما نختلف على مكاسب، حينما نختلف على الدنيا، حينما نختلف على مناصب، حينما نختلف على زعامات بعد أن توضَّحت الأمور هذا خلافٌ دنيويٌّ قذر، وهناك خلاف محمود، الأول لا يُمْدَح ولا يُذَم، طبيعي، والثاني يُذَم لأن أساسه المكاسب، والمنازعات، والمال، والجاه.

3- الاختلاف الثالث هو اختلافٌ في التنافس وهو خلاف يُمدَح:

أما الخلاف الذي يُمْدَح هو اختلافٌ في التنافس، أي أن هذا رأى أن الذي يرضي الله أن تدعو إلى الله، وهذا رأى أن تؤلِّف الكتب، وهذا رأى أن تبني المساجد، وهذا رأى أن تُتقِنَ العلوم، وهذا رأى أن تترك آثاراً دعويَّةً وما إلى ذلك:

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة: الآية " 213 ")

إذاً هناك اختلاف ثالث وهو اختلاف تنافس، قال الله عزَّ وجل :

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

وقال:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

الذي يفتي بخلاف ما يعلم يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل:

الآن هؤلاء الذين يلعبون بدين الله، هؤلاء الذين يُحِلُّون الحرام ويحرِّمون الحلال، هؤلاء الذين يتكلَّمون بما لا يعلمون، يفتون بما لا يعلمون، هؤلاء يقول الله عنهم :

(فَوَيْلٌ (79))

الهلاك والشقاء:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79))

أحياناً تقوم مصلحة الإنسان على أن يبتدع في الدين ابتداعاً ما أنزل الله به من سلطان، يبتدع في الدين ليُحصّل المكاسب الدنيويَّة، هؤلاء الذين يبتدعون مذاهب ليس لها أصل في الدين، يبتدعون فتاوى ليس لها أصل في الدين، يُحِلُّون بعض ما حرَّمه الله عزَّ وجل، مثلاً هذه ليست فوائد إنها عوائد، فتوى تصدرها جهة معتمدة في الفتوى تبيِّن أن أكل مال الربا حلال، هؤلاء الذين يعلمون الحقيقة ويفتون بخلاف ما يعلمون، طبعاً موجودون عند اليهود، وموجودون عند كل دينٍ:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً (79))

أي نحاول أن نُسَهِّل للناس أمور حياتهم لمكاسب دنيوية فنصدر فتوى، هذه مسموح بها، وهذه مسموح بها، وهذه مسموح بها، لم يبق شيء من الدين. هذا الكيان المتماسك، هذه القلعة الصامدة أصبحت رملاً، تلاً من الرمل، فانتهى الدين، فأخطر شيء هذا الذي يفتي بغير علم، أو الذي يفتي بخلاف ما يعلم من أجل الدنيا، من أجل مكاسب دنيويَّة، هذا الإنسان الذي يبيعُ دينه بدُنياه، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، بعرضٍ لا يقدِّم ولا يؤخَّر.

العلماء الصادقون أمناءٌ على الفتوى ولا يفتون إلا بما يُرضي الله ورسوله:

كلمة ينبغي أن نعلمها جميعاً وهي: أن الإنسان لا يليق به أن يكون لغير الله، لا يليق به ولا يُفْلِحُ إذا كان لغير الله، أي أن وقتك، وعلمك، ولسانك، وعضلاتك، وإمكاناتك، وحبَّك، وولاءك لله وحده، أما

لغير الله ؟! هذا الذي تعبده من دون الله لا يملك لك نفعاً ولا ضراً ؛ بل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضَرّاً، لا يملك، أخطر شيء في الحياة الدينيَّة الشرك، طبعاً:

((إنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلا قَمَراً وَلا وَثَناً وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[ابن ماجة عن شداد بن أوس رضي الله عنه]

قال تعالى:

(فَوَيْلٌ (79))

الله عزَّ وجل يتوعَّد، من هو المؤمن ؟ هو الأمين على فتوى النبي عليه الصلاة والسلام.

الإمام أبو حنيفة أفتى فتوى فدخل السجن من أجلها ومات في السجن كما يروى، العلماء الصادقون هؤلاء أمناءٌ على الفتوى، لا يفتون إلا بما يُرضي الله عزَّ وجل ورسوله، فالآية تشير إلى إنسان استخدم الدين مَطِيَّةً للدنيا، جعل الدين في الوَحْل، جعله مطيَّةً لدنياه. فأنت اطلب الدنيا من مظانها، تريد الدنيا ابحث عن مظانها ؛ في التجارة وفي الكسب المشروع وفي أي شيء آخر، أما أن تبحث عن الدنيا من خلال الدين فهذا والله عملٌ شنيع:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً (79))

الابتعاد عن المتاجرة بالدين:

الشيء المُلاحظ هو أنه كلَّما اشتدَّ ضغط الناس على بعض العلماء، هؤلاء العلماء بدل أن يرفعوا الناس إلى مستوى الشرع يهبطون بالدين إلى مستوى الناس، لدرجة أن إنساناً كان يدير مسبحاً مختلطاً أقام ذات مرة فيه مولداً، ودعا أناساً تكلَّموا، وأثنَوا، ومدحوا، هذا ماذا يفعل ؟ هذا يرتكب أكبر معصية، يدير مسبحاً مختلطاً نساءً ورجالاً شبه عرايا يسبحون مع بعضهم بعضاً، ومع ذلك يقيم احتفالاً بعيد المولد في المسبح نفسه، ويدعو من يتكلَّم ويثني عليه، هؤلاء الذين يمتهنون الدين، فالمشكلة أنه بدل أن نرتفع بالناس إلى مستوى الشريعة أصبحنا نهبط بالدين إلى مستوى الناس، فهذه مشروعة، وهذه فيها فتوى، وهذه فيها رأي ضعيف يُجيزها، وهذه بلوى عامَّة فماذا نفعل ؟ بعد حين صار الغناء، والموسيقى، والتمثيل، كل هذا مسموح، والاختلاط، وأكل المال الحرام، والربا، والفوائد، لم يبق شيء، حتى الصحون صارت مسموحة، مشكلة كبيرة جداً، ليست صحون المائدة ولكن صحون الأسطح، قال:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً (79))

أيها الأخوة الكرام، كل إنسانٍ يلعب بدين الله يتوَعَّده الله عزَّ وجل بالهلاك، فإيَّاك أن تقترب من دين الله، دعه في السماء، دعه في عليائه، دعه في صفائه، دعه في نقائه، لا تستخدمه وسيلة

لمكاسب دنيويَّة، لا تشترِ به ثمناً قليلاً، لا تتاجر بالدين، لا تتخذ الدين مَطِيَّةً للدنيا، هذا فساد كبير جداً عند الله عزَّ وجل، فيجب أن تعلم من هو الطرف الآخر ؟!!

ذكر الله عزَّ وجل المعاصي بتسلسل تصاعدي:

قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم)

أنت حينما تلعب بدين الله، أنت حينما تؤوِّل النصوص، تلوي عنق النصوص لمصلحتك، لمغانمك، لمكاسبك، أنت تشوِّه الحقيقة، بالمناسبة ذكر الله عزَّ وجل المعاصي بتسلسل تصاعدي، فذكر الفحشاء والمنكر، والإثم والعدوان، وذكر الشرك، وذكر الكفر، وجعل في قمَّة هذه المعاصي:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ(33)

(سورة الأعراف)

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى له كلمة مُخيفة، قال: **" لأن أرتزق بالرقص أفضل من أن أرتزق بالدين ".**

لا ترتزق بالدين، دع الدين في عليائه، لا تشتر بالدين ثمناً قليلاً، لا تحقِّق مكاسب الدنيا من خلال الدين، عندئذٍ تُلوي عنق النصوص وتعطي فتاوى غير صحيحة، وتعطي للناس تسهيلات هم في ذِمَّتك وفي رقبتك يوم القيامة، والفتوى جسرٌ إلى النار.

حدَّثني عالِم جليل في دمشق فقال لي: من غرائب الصُدَف أنني كنت في بلدٍ عربي، وفي حضرة عالِمٍ جليل احتلَّ منصباً رفيعاً جداً، وكان على فراش الموت، ولفظ أنفاسه أمامي، قُبَيْلَ أن يوَدِّعَ الحياة رفع يديه الاثنتين إلى السماء وقال: **" يا رب إني بريء من كل فتوى أفتيتها في حياتي عن المصارف "** ، عرف الحقيقة عند فراش الموت.

الذي يتاجر بالدين يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل:

أيها الأخوة الكرام، استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك. فأنت حينما تخرج من بيتك تريد أن تبيع بيتك لو رأيت أمامك دلالاً وقال لك: ثمنه ثلاثة ملايين، هل تبيعه على الفور ؟ تسأل دلالاً ثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً، أما إذا كانت فتوى وراقت لك لا تسأل أحداً آخر، يوجد معي فتوى قرأتها في مجلَّة !! لماذا في أمور الدين تكتفي بفتوى واحدة، بعالِم واحد، بمقالة في مجلة وانتهى الأمر ؟ معك فتوى ومرتاح ولكنك لا تنجو من عذاب الله، أنت في أمر دنياك تعدِّب الخبراء، تسأل فلاناً وفلاناً،

لماذا في أمر دينك لا تسأل ؟ لماذا تكتفي بفتوى واحدة ؟ إن كنت حريصاً على دينك ينبغي أن تسأل عِدَّة مصادر.

ثم إن الإنسان حينما يسأل ويأتيه الجواب إذا كان جاهلاً، إذا كان أمياً قال: مقبول منه، لأن الأمي مذهبه مذهب من يسأله، تروى كلمة عن الشيخ بدر الدين رحمه الله تعالى ـ وقد كان من أكبر علماء الشام، طبعاً من باب التواضع ـ سألوه: يا سيدي ما مذهبك ؟ قال: **" العوام ليس لهم مذهب "**، العامَّي مذهبه مذهب شيخه، أما طالب العلم فعليه أن يقرأ الأدلَّة، هذا دليل، وهذا دليل، حينما تطلب العلم لا تُعفى من البحث عن الدليل، وحينما تأتي بالدليل والتعليل تكون طالب علمٍ شرعي، فلماذا تسأل في أمور الدنيا، وتعدِّد، وتبحث، وتناقش كي تصل إلى الحقيقة ؟ ولماذا تكتفي في أمر الدين بفتوى واحدة ؟

لذلك هذه الآية مخيفة بمعنى أن الذي يَتَّجِرُ بالدين، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، أو الذي يُقَرِّب الدين من الأقوياء والأغنياء، يقربهم منه عن طريق فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان، هذا ماذا يفعل ؟ يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، الباخرة أحياناً تبتلع من ماء البحر قليلاً فيبلعها كلَّها، إن اتَّجَرْتَ بالدين أهلكت نفسك كلَّها، إن ابتلعت شيئاً من ماء البحر أخذك البحر كلَّك، الآية دقيقة :

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79))

الافتراء، لَيّ عُنُق النصوص، المعاصي الشائعة، تجعلها من الدين ؟! تجعل الدين يغطي كل الانحرافات، هناك كتب أُلِفَت فيها افتراءٌ على الله عزَّ وجل، تجعل السلوك الإباحي مُغَطَّىً بالقرآن، قال: هذه قراءة معاصرة ، يكتبون الكتاب بأيديهم:

(فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79))

عندما ينحرف الإنسان يحتاج إلى تنقيته من عقائد زائغة وهذا الذي فعله اليهود:

ليست الأرباح التي يجنيها من يزوِّر الدين، من يشوِّه معالم الدين، من يُمَيِّع الدين، من يُسَيِّحَ الدين، من يجعله غازاً ليكون صالحاً في كل مكان، احتفال مختلط، غير مختلط، مع الغناء والرقص والتمثيل، والربا، وأكل المال الحرام، والصحون، يقول لك: كل هذا من الدين، كل هذه الصحون لكي يرى الناس الكعبة، لا أعرف إذا كان هذا الشيء صحيحاً وليس ذلك ربحاً ؟! قال:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79))

الويل أي الهلاك لهم، عندما ينحرف الإنسان الآن يختلَّ توازنه و لذا يحاول أن يستعيد توازنه بعقيدة فاسدة، فلو كان إنسان يأكل المال الحرام تجده متمسِّكاً بشفاعة النبي تجده يقول لك: النبي قال:

((شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي))

[الترمذي عن أنس رضي الله عنه]

هو مرتاح تماماً، فهذه الكبائر التي يفعلها في النهاية سيشفع له النبي، طبعاً هذا الفهم ساذج، الشفاعة حق وموجودة ؛ ولكن النبي يشفع لمن مات مخلصاً غير مشرك، فإذا مات الإنسان وهو غير مشرك يكون مات وقد حصَّل أعلى شهادة، على كلٍ هذا الذي ينحرف، سلوكه يتعلَّق بعقيدة زائغة، ما دام انحرف يحتاج إلى مفهوم الشفاعة، ومفهوم ـ لا تدقّق الله لا يدقّق ـ عندما ينحرف الإنسان يحتاج إلى تنقيته من عقائد زائغة وهذا الذي فعله اليهود بعدما انحرفوا، وأكلوا المال الحرام، وأفسدوا أهل الأرض، وتاجروا بالدين، وغيَّروا، وبدَّلوا، وحرفوا، وزوَّروا، قالوا إنهم شعب الله المختار:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً (80))

إن لم نأمر بالمعروف وننهَ عن المُنكر ونؤمن بالله الإيمان المُنَجِّي نصبح أمَّة كبقيَّة الأمم:

الآن بعض المسلمين يرتكب الكبائر ويقول لك: أمِّة محمَّد مرحومة، من قال لك ذلك ؟ الله عزَّ وجل حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

علَّة هذه الخيريَّة:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران: آية " 110 ")

فإن لم نأمر بالمعروف، ولم ننهَ عن المُنكر، ولم نؤمن بالله الإيمان المُنَجِّي، أين خيريَّتنا ؟ انتهت خيريَّتنا، نحن أمَّةٌ كبقيَّة الأمم:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ (18))

(سورة المائدة)

دقّقوا:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ (18))

(سورة المائدة)

إذا كنَّا جنوداً لله فلن نُغلَب أما إذا غُلِبْنَا فيجب أن نراجع أنفسنا وندقّق في جنديَّتنا لله:

عندما يقول المسلمون: نحن مسلمون، نحن أتباع النبي، نحن أتباع سيِّد الخَلق، الجواب: قل فلمَ يعذِّبنا الله بذنوبنا ؟

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

لذلك قال العلماء: أمَّة محمَّد أمَّتان ؛ أمَّة التبليغ، وأمَّة التشريف، حينما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله الإيمان المُنَجِّي أصبحت أمَّة التشريف، الأمَّة الخَيِّرَة

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ)

حينما تفعلون كذا وكذا، أما إن لم نفعل فنحن كبقيَّة الأمم، لا شأن لنا عند الله عزَّ وجل، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((لن تُغْلَب أمَّتي من اثني عشرَ ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

لن يُغْلبوا في الأرض، وقال تعالى:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

إن زوال الكون أهون على الله من أن نُغْلَب إذا كنَّا جنوداً لله، أما إذا غُلِبْنَا فيجب أن نراجع أنفسنا وندقِّق في جنديَّتنا لله.

أدلة من القرآن الكريم عن نصر الله تعالى لجنوده:

قال تعالى :

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر: آية " 51 ")

في الدنيا:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (141))

(سورة النساء)

مستحيل:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

(سورة محمد)

وقال:

(وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(126))

(سورة آل عمران)

الأمر بيدِ الله، فلمَّا انحرفوا اختلَّ توازنهم، يحاولون الآن أن يستعيدوا هذا التوازن بعقيدة زائغة، كما هي الحال عند المسلمين، عندما انحرفوا قالوا لك: نحن أمة محمد مرحومة، نحن لنا الشفاعة عند رسول الله، هو مرتاح، تصوَّر طالباً كسولاً لم يدرس أبداً، طبعاً عندما لم يدرس أصبحت عنده مشكلة، فجاء طالب آخر وقال له: هذا الأستاذ يعطي أسئلة قبل الامتحان بأسبوع، فارتاح ارتياحاً

تاماً وقضى العام الدراسي كله في اللعب، ذهب للأستاذ وطلب الأسئلة، فعاقبه الأستاذ و قال له: لا يوجد أسئلة، اذهب وادرس.

إنسان له دعوى عند قاضٍ والحكم خطير جداً، قال له شخص: القاضي يقبل الرشوة، فهكذا ظن وتوهَّم وهماً فارتاح، فلمَّا جاء ليدفع للقاضي زجره وطرده وحكم عليه، فهذه مفاجأة كبيرة.

أدلة أخرى من القرآن الكريم عن رحمة الله تعالى ومغفرته لمن تاب واستغفر:

دقّق في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

يقول لك الشيطان: الله غفور رحيم، اسمع هذه الآية :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ(50))

(سورة الحجر)

وقال:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر: الآية " 53 ")

يقول :

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(54))

(سورة الزمر)

دائماً هناك تخويف مع الرجاء فعلى الإنسان أن يكون راجياً لله خائفاً منه في وقتٍ واحد:

فدائماً هناك تخويف مع الرجاء، المفروض أن يكون الإنسان راجياً لله خائفاً منه في وقتٍ واحد:

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

قال تعالى:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ)

(سورة الزمر)

أي يا محمَّد:

(تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

يقول:

((أَصْحَابِي، أَصْحَابِي، فَقِيلَ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، قَالَ: فَأَقُولُ: بُعْداً، بُعْداً، أَوْ قَالَ: سُحْقاً، سُحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[مسند أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

الحقيقةُ المُرَّة أفضل ألف مرَّة من الوهم المريح:

مرَّة ثانية أيها الأخوة ـ وهذه نصيحة لوجه الله ـ الحقيقةُ المُرَّة أفضل ألف مرَّة من الوهم المريح، لا تعش بوهم مريح، لو معك شيك بمئة ألف دولار مزوَّر، إذا كنت لا تعرف أنه مزوَّر فأنت مرتاح تماماً لأنك تملك مبلغاً ضخماً، ثروة ضخمة، أما لو اكتشفت أنه مزوَّر، ومزَّقته، وعملت عملاً شريفاً، لكنت في حال غير هذا الحال، الحقيقة المرَّة ولو أنها مرَّة أفضل ألف مرَّة من الوهم المُريح، مسلمون كُثُر يعيشون في أوهام، في وهم أنه ليس لنا علاقة، هكذا كتب الله علينا:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام: الآية " 148 ")

هذا قضاء وقدر يا أخي هذا الإنسان لا يريد الله له الهداية، أعوذ بالله من هذا الكلام، الله لا يريد له أن يهتدي ، الله ما هداه، خلقه كافراً ماذا يفعل بنفسه ؟ مرتاح، ما وجدت واحداً متألِّقاً بالدين يقول: الله كتب عليه أن يكون مؤمناً، فقط إذا عصاه، بالمعاصي والفجور والآثام يقول لك: الله كتب عليَّ هذا، فلماذا عندما تكون مستقيماً ولك عمل طيِّب لا تقول: كتب الله عليَّ هذا ؟ ولكن تقول: والله انتبهت لحالي، تبت وصحوت ؟ لماذا تعزو الإيجابيات لنفسك والسلبيات تعزوها إلى الله عزَّ وجل ؟ هذا عمل غير منطقي.

المرض الذي وقع فيه اليهود وقعنا به:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

لكن:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه(7))

(سورة الزلزلة)

ماذا نفعل بهذه الآية ؟ ماذا نفعل بها ؟ الجواب الإلهي :

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81))

هذا هو الجواب الإلهي.

الله عزَّ وجل لا يغفر إلا من بعد التوبة والإيمان والعمل الصالح:

قال:

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً (81))

باختياره فعل سيئةً، لم يندم، ولم يَتُب، ولم يستغفر، ولم يصحِّح، بالمناسبة: أعتقد أن خمس أو أربع آيات في القرآن فيما أذكر:

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(153))

(سورة الأعراف)

افتحوا في القرآن على كلمة

(مِنْ بَعْدِهَا)

تجد أن الله عزَّ وجل لا يغفر إلا من بعد التوبة والإيمان والعمل الصالح:

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153))

(سورة الأعراف)

الله عزَّ وجل عَدْلٌ واسم العدل سيتحقَّق مطلقاً بإطلاقٍ تام يوم القيامة :

قال تعالى:

(قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ (81))

أي لم يتب منها

(أحاطت به)

(فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82))

هذا كلام خالق الكون، الله عزَّ وجل عَدْلٌ، واسم العدل سيتحقَّق مطلقاً بإطلاقٍ تام يوم القيامة:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (32- 95):تفسير الآيات80 - 85، طرق استعادة التوازن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-03-19

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان له جبلة وله تشكيل نفسي متوافق مع المنهج الإلهي:

مع الآية الثمانين وهي قوله تعالى، الآية السابقة :

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

أيها الأخوة الكرام، الإنسان له جِبِلَّة، له فطرة، له تشكيل نفسي، هذه الجبلَّة، أو الفطرة، أو الخصائص، أو التشكيل النفسي متوافقٌ مع منهج الله، بمعنى أن الله فطرك على حبِّ العدل وأمرك أن تعدل، النفس البشريَّة مفطورة على أن ترحم وأمرك أن ترحم، مفطورة على التواضع وأمرك أن تتواضع، فالإنسان حينما يطبِّق منهج الله عزَّ وجل يصطلح مع نفسه، ترتاح نفسه، هناك سعادةٌ يقطفها الإنسان من طاعة الله لا توصف بسبب أن بنيتك النفسيَّة متوافقةٌ مع المنهج الإلهي، والدليل على ذلك:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

أنت من دون معلِّم، من دون موَجِّه، من دون مرشد، حينما تخرج عن منهج الله تعذِّبك نفسك، تحاسبك فطرتك، هذه المحاسبة، وهذا التعذيب سَمِّهِ عقدة نفسيَّة، سمه شعور بالذنب، سمه كآبة، على كلٍ أنت مؤلَّف، مُبرمج، مفطور، مجبول، مُشَكَّل وفق منهج الله.

الإنسان بعقله يتعرَّف إلى الله وبفطرته يكتشف خطأه:

ضربت اليوم مثلاً، لو جئنا بخريطة لسوريَّة، الخريطة نافرة ـ مجسَّمة ـ وجعلنا حولها إطاراً، وصببنا جبس سائل، بعد أن يجف هذا الجبس صار عندنا خريطة وقالب، توافق القالب مع الخريطة توافق مئة بالمئة، يمكن أن تقول: الخريطة هي النفس، والقالب هو المنهج الإلهي، توافق المنهج الإلهي مع فطرة النفس توافق عجيب، لمجرَّد أن تصطلح مع الله، وأن ترجع إليه، وأن تقف عند الحق، وأن تعطي، وأن ترحم، وأن تنصف، وأن تتواضع تشعر براحة غريبة، ما هذه الراحة ؟

كما لو أن سيارة مصمَّمة للطريق المُعَبَّد، سرت بها في طريق وعر فسمعت صوتاً، وسمعت اضطراباً، تعطيل، فلمَّا سارت على الطريق المعبَّد شعرت براحة لأنها مصمَّمة على هذا الطريق، الفكرة الدقيقة أنه أنت بعقلك تتعرَّف إلى الله، وبفطرتك تكتشف خطأك، الخطأ تكتشفه ذاتياً، الآية الأوضح:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً (30))

(سورة الروم الآية: " 30 ")

أن تقيم وجهك للدين أن تعطيه كل اهتمامه، كما لو أن إنساناً معه ضغط مرتفع وفحص ضغطه، تجد عيناه على المؤشِّر، متى يسمع الصوت ؟ متى يختفي الصوت ؟ تكاد عيناه تخرجان من محجريهما ليرى مكان المؤشِّر، كذلك الإنسان

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

أن تقيم وجهك للدين، أن تعطيه كلَّك، أن تتجه إليه بكل كيانك هذا يتوافق مع فطرتك

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

أنت هكذا مبرمج، هكذا مؤلَّف، هكذا مجبول، هكذا مشكَّل، أسماء المُسَمَّى واحد، في بنية جسميَّة؛ لك طول، لك ارتفاع، أعضاء، لون، حركات، مفاصل، قلب، رئتين، معدة، أمعاء، كبد، بنكرياس، أمعاء دقيقة، أمعاء غليظة، جلد، شعر، دماغ، هذا التشكيل المادي لك، أما أنت تنطوي على نفس، هذه النفس لها خصائص؛ تحب من أحسن إليها، تبغض من أساء إليها، تستحي بخطئها، تذوب إذا فُضِحَت:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

بنية النفس إذا خَرَجْتَ عنها تكشف لك خطأك .

الإنسان حينما يعصي الله يختلُّ توازنه:

أيها الأخوة الكرام، الإنسان حينما يعصي الله ـ دقِّق الآن هذا تمهيد ـ يختل توازنه، حدَّثني أخ فقال لي: رجل في بيروت ينطلق بمركبته بسرعة عالية جداً في الساعة الواحدة في الليل، فدهس طفلاً، الطفل أرسله أبوه ليأتيه بشيء من البقالية، طبعاً ما عرف أحد الفاعل، كُتِبَت ضد مجهول، يقول هذا الإنسان: أنه بقي أربعين يوماً لا ينام الليل، ذهب إلى طبيب نفسي، فقال له: لا بد من أن تدفع الديَّة لأهل الطفل دون أن يعلموا من الدافع كي تنام، معنى ذلك أن عند الإنسان فطرة عالية، وربنا عزَّ وجل أقسم بهذه النفس فقال:

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(1)وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(2))

(سورة القيامة)

لولا أن الله فطرك فطرةً عالية ما كنت تشعر بشيء حينما تعصيه، قد تقول لي: هناك من يعصيه ليلاً نهاراً، هذه حالة مرضيَّة نادرة، حينما تُطْمَسُ فطرة الإنسان، أما في الأصل الفطرة السليمة تحاسب ذاتها حساباً دقيقاً.

هذا التقديم لفكرةٍ خطيرة هي: أن الإنسان حينما يعصي الله يختلُّ توازنه، يشعر بانهيار داخلي، يشعر أنه مكشوف، أنه خرج عن فطرته عن وعي أو عن غير وعي، قد يكون عن غير وعي، يقول لك: متضايق، لماذا أنت متضايق ؟ منقبض الدنيا لا تسعني، معي كآبة، حينما تخرج عن منهج الله لأن فطرتك متوافقةٌ مع منهج الله تشعر باضطراب، تقريباً إلى حدٍ كبير هذه السيارة مصمَّمة أن تمشي على الزفت، فإذا سرت بها في الطريق الوعر آلمتك الأصوات، وآلمتك العقبات، وقد تقف، وقد ينكسر شيء فيها، لأنها لم تُصمَّم لهذا الطريق. الإنسان حينما يعصي الله، حينما يرتكب إثماً، حينما يعتدي، حينما يخرج عن منهج الله لأن فطرته متوافقة مع منهج الله يختل توازنه.

لاستعادة التوازن هناك ثلاث وسائل:

الإنسان حينما يعصي الله، حينما يرتكب إثماً، حينما يعتدي، حينما يخرج عن منهج الله لأن فطرته متوافقة مع منهج الله يختل توازنه.

الآن كيف نستعيد هذا التوازن ؟ هناك ثلاث وسائل كي تستعيد هذا التوازن؛ وسيلتان غير مشروعتين ووسيلة صحيحة.

1- الوسيلة الصحيحة كي تستعيد التوازن أن تصطلح مع الله:

الوسيلة الصحيحة كي تستعيد هذا التوازن أن تصطلح مع الله، وأن تتوب إليه، وأن تأتيه تائباً مطيعاً، مباشرةً تشعر براحة، لذلك التائب يشعر براحة لو وزِّعَت على أهل بلدٍ لكفتهم، حينما يشعر الإنسان أن الله يحبُّه، أن الله راضٍ عنه، أنه وفق منهج الله، أنه مطيعٌ لله، أنه عبدٌ لله، هذا الطريق السليم الصحيح كي تستعيد توازنك مع نفسك.

2- الطريق الآخر أن تتعلَّق بعقيدةٍ فاسدة تُغَطِّي انحرافك:

الطريق الآخر تتعلَّق بعقيدةٍ فاسدة تُغَطِّي انحرافك، فاليهود ـ بنو إسرائيل ـ حينما كذَّبوا أنبياءهم، وحرصوا على دنياهم، وأكلوا أموالهم بالباطل، ونقضوا عهد الله الذي عاهدوه عليه، اختلَّ توازنهم، فبحثوا عن عقيدةٍ فاسدةٍ تُغَطِّي انحرافهم وقالوا:

(لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً (80))

نحن شعب الله المختار:

(لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً (80))

الله عزَّ وجل ردَّ عليهم :

(قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81))

إذا سُرِقْ قلم في صف وصاحب القلم اشتكى إلى الأستاذ، والأستاذ أغلق الباب، وفتَّش الطلاَّب طالباً طالباً، ثمَّ أخرج هذا القلم من جيب أحد الطلاب، قبل أن يعاقبه، قبل أن يضربه، قبل أن يطرده، قبل أن يوَبِّخه لماذا يمتقع لونه ؟ يقول لك الإنسان أحياناً: تمنيت أن تُشَقَّ الأرض وتبتلعني، ذبت من الخجل، لماذا ؟ لأن هذه الفطرة، فيه بقية فطرة، بقية حياء، فالإنسان هكذا فُطِر، فعندما يعصي الله، يرتكب إثماً، معصية، شهوة، أو حينما يعتدي على الآخرين يختل توازنه الداخلي، يجب أن يستعيده بالصلح مع الله، بالتوبة إليه، بطاعته، هناك من يستعيده بأن يتعلَّق بعقيدةٍ زائغة.

الأمراض التي وقع بها بنو إسرائيل وقع بها المسلمين:

كما أن بني إسرائيل توهَّموا أنه لن تمسَّهم النار إلا أياماً معدودة، والمسلمون قالوا: نحن أمَّة محمّد تنالنا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلَّم، يفهمون الشفاعة فهماً مغلوطاً، فهماً ساذجاً، افعل ما شئت والنبي يشفع لك، هذه عقيدةٌ مشابهةٌ لعقيدة بني إسرائيل، والأمراض التي وقع بها بنو إسرائيل وقع بها المسلمين، والردُّ على ذلك:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

الطريق الثاني هو أن تتعلَّق بعقيدةٍ زائغة، وذكرت في الدرس الماضي فيما أذكر طالب مقصِّر لا يدرس، وأبوه يسأله: كيف دراستك يا بني ؟ يقول له: إنني أدرس جيداً، وهو لا يدرس، يؤثر اللعب، والنُزهات، والسهر مع أصدقائه على دراسته، فلمَّا قصَّر في واجبه اختل توازنه، تضايق، قال له أحد الطلاب الكُسالى: الأستاذ يمكن أن يعطيك الأسئلة مقابل هديَّة، هذه الفكرة رائعة، هذه الفكرة

أراحته، استعاد توازنه، القضيَّة سهلة، يبقى كما هو عليه وقبل أيام يأخذ الأسئلة وينجح، فهذا الوهم المريح استعاد به توازنه.

كنت أقول لكم أيها الأخوة: الحقيقة المرَّة أفضل ألف مرَّة من الوهم المريح، لا تتعلَّق بالأوهام ولكن تعلَّق بالحقائق، ولو أن الحقيقة مرَّة واجهها بشجاعة، هناك إنسان يهرب من واقعه، يكون مريضاً فيكذِّب هذا المرض، فلا يذهب للفحص، يتفاقم المرض، أما لو أنه قَبِلَ الحقيقة المُرَّة وعالجه في البدايات كان خيراً له ألف مرة من أن ينكر وقوع هذا المرض ثمَّ يفاجأ بحالة مستعصية.

3- الأسلوب الثالث في أن تستعيد التوازن أن تطعن بالمؤمنين:

الأسلوب الثالث في أن تستعيد التوازن أن تطعن بالمؤمنين، انتبه، المنحرف إما أن يطعن في المؤمنين، وإما أن يتعلَّق بعقيدة زائغة فاسدة كي يستعيد توازنه المنهار، وكل إنسان يعتدي أو يقع بالإثم يختل توازنه الداخلي، لأنه مفطور على الكمال.

الفرق بين الفطرة والصِبغة:

النقطة الدقيقة أن تكون رحيماً هذه صبغة، وأن تحبَّ الرحيم هذه فطرة، أنت مبرمج، مفطور على أن تحبَّ الرحمة، وأن تحبَّ العدل، وأن تحبَّ اللطف، وأن تحبَّ التواضع، هكذا فطرتك، فإن كنت رحيماً، حليماً، عادلاً هذه صبغتك، الصبغة خُلُقٌ حقيقي أصيل جاءك من خلال اتصالك بالله:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: " 159 ")

الفطرة شيءٌ فطري ليس كسبياً، هكذا فُطِرْت، فلو أن اللصوص سرقوا سرقةً كبيرة وأرادوا أن يقتسموها يقول له: اعدل، هو أساساً عمله كلّه غير مشروع، أما حينما يقتسم مع زملائه أفراد العصابة يتمنون العدل بينهم، هذه فطرة الإنسان، مرَّة سألوا امرأة تعمل بالفن بأوروبا: ما شعوركِ وأنتِ على خشبة المسرح ؟ قالت: شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الجمهور، إن الحب يجب أن يكون بين الزوجين، وفي غرفٍ مغلَّقة، هذه الفطرة، الكمال يعرفه الإنسان بالفطرة؛ ولكن إما أن يتخلَّق بهذه الصفات من خلال اتصاله بالله، وإما أن تبقى رغبةً وشعوراً وإعجاباً.

الله عزَّ وجل ما كلّفنا إلا بما نطيق:

إذاً أول طريق كي تستعيد توازنك أن تصطلح مع الله، الطريق الثاني أن تتعلّق بعقيدةٍ زائغة، والطريق الثالث أن تطعن بالمؤمنين، كأن تقول: لا أحد جيِّد، الناس هكذا جميعاً، فكل إنسان مقصِّر يقول لك: كل الناس فاسدين:

((إذا قال الرجل هلك الناس، فهو أهلكهم))

[الإمام مالك عن أبي هريرة]

يقول لك: الناس هالكين لكي يرتاح، كما لو سُئل طالب مقصِّر في الوظيفة: أين وظيفتك يا بني ؟ يقول له: أستاذ لم نكتب الوظيفة، أنت كم واحد ؟ لمَ قلت لم نكتب ؟ الطالب الكسول يحب أن يوسِّع دائرة التقصير كي يرتاح، فكل إنسان يعصي الله يوسِّع الدائرة، أخي الناس كلها فسدت، هذا عصر غير طبيعي، فسق وفجور ماذا نفعل هكذا الله خلقنا، نحن حظنا في هذا العصر، كلّما وسَّع التقصير، وسَّع الفسق والفجور يرتاح، مع أن الله عزَّ وجل يقول:

(لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية: " 233 ")

الله عزَّ وجل ما كلّفنا إلا بما نطيق، وكل إنسان يقول: لا أستطيع أن أستقيم، هذا يردُّ القرآن الكريم، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا)

فالشرع كلُّه في وسع الإنسان، إذاً:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ (79))

يزوِّرون، يغيِّرون، يبدِّلون، يلوَّون أعناق النصوص لمصلحتهم، يرتكبون جريمة أحياناً، التضليل، التزوير، التغيير، يجرّون الآية لمصلحتهم، إذا كان مرابياً يقول لك: الله ما حرَّم الربا لكنَّه حرَّم النِسَبَ العالية، والدليل:

(لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية: " 130 ")

يجر الآية لمصلحته.

كل مقصر يلوي عنق النصوص ليغطي تقصيره ويبرره:

من لا يصلي يقول لك:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ)

(سورة الحج الآية: " 41 ")

يلوي عُنَقَ النصوص، فإما أن تصطلح مع الله كي تستعيد توازنك، وإما أن يعتقد الإنسان عقيدة زائغة فاسدة، حتى الكتب التي تدَّعي أنها تقرأ القرآن قراءة معاصرة، وأنها تحل للمسلم كل شيء، أي أن السلوك الإباحي مغطًى في هذه القراءات، هذا الكتاب طُبع أربع طبعات، عليه إقبال شديد لأنه مريح، تبقى على ما أنتَ عليه من تقصير وفسق وفجور، وأنت مغطًى بتفسيرات مضحكة للقرآن الكريم، فإما أن تصطلح مع الله، وإما أن يتعلَّق الإنسان بعقيدة فاسدة أو تأويل باطل ما أنزل الله به من سلطان، وإما أن يطعن بالمؤمنين، لو تتبعت سلوك أهل الدنيا، كلَّما ذُكر إنسان بخير لا يصدِّق، له مأرب، له أهداف بعيدة لا تعرفها أنت، يطعن دون أن يعلم، يقول بما لا يعلم، يطعن كي يرتاح، كالطالب الكسول يتمنَّى أن يقصِّر كل الطلاب كي يستأنس، الكل مقصِّرين، الكل غير متفوِّقين، أو أن يصطلح مع الله، عندئذٍ يستعيد توازنه، فهؤلاء:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً (80))

كل إنسان في عالَم الذّر أخذ الله منه عهداً موثَّقاً:

هذه العقيدة الزائغة التي تعلَّقوا بها كي يستعيدوا توازنهم النفسي:

(قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) وَإِذْ)

أينما وردت كلمة

(إِذْ)

في القرآن الكريم تعني اذكروا

(إِذْ)

أخذنا ميثاقكم، اذكروا

(إِذْ)

حين:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (83))

الميثاق هو العهد الموثَّق، وكل إنسان في عالَم الذّر أخذ الله منه عهداً موثَّقاً:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(172))

(سورة الأعراف)

الإنسان عاهد الله حينما خلقه ذرَّةً قبل أن يخلقه إنساناً أن يكون مع الله:

نحن عندنا في عالَم الذّر وعالَم الصور، عالَم الصور في الدنيا وعالَم الذر في الآخرة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا(72))

(سورة الأحزاب)

الإنسان عاهد الله حينما خلقه ذرَّةً قبل أن يخلقه إنساناً أن يكون مع الله، وألا ينسى الله عزَّ وجل، طبعاً هذا عهد لكل البشر، ما دمت أنت من بني البشر عُرِضَت عليك الأمانة وقَبِلْت حملها، والآية كما قلتها قبل قليل :

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا(72))

(سورة الأحزاب)

وقال:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

هذه فحوى دعوة الأنبياء جميعاً:

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنين الآية: " 32 ")

وقال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

وقال:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

الله عزَّ وجل هو الخالق، والأب والأم كانا سبب الوجود فالعبادة لله والإحسان للوالدين :

الله عزَّ وجل هو الخالق، والأب والأم كانا سبب الوجود، الله هو الموجد، والسبب أمُّك وأبوك، إذاً:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً (83))

هناك من يخطئ، فيعبد والديه لو أمراه بمعصية، العبادة لله والإحسان للوالدين:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

(سورة لقمان الآية: " 15 ")

وقال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

(سورة الإسراء الآية: " 23 ")

مهما بالغت بالإحسان للوالدين فأنت تحت مظلّة الله، أما إذا عبدتهما من دون الله، أمراك بمعصية، فهذا تجاوزٌ للحدود، الإله يُعْبَد والأب والأم يُحْسَنُ إليهما:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى (83))

على المؤمن إما أن يحسن وإما أن ينطق بالكلمة الطيِّبة:

أقرب الناس؛ الأم، الأب، الأخ، الأخت، العمَّة، الخالة وهكذا:

(وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى (83))

الذي لا أبَ له ولا أم:

(وَالْمَسَاكِينِ (83))

المسكين هو الفقير:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83))

أي إن لم تحسن قل لهم كلاماً طيِّباً، لا تنهرهما، إما أن تحسن وإما أن تنطق بالكلمة الطيِّبة:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83))

منهج الله عزَّ وجل فيه كلمتان: افعل ولا تفعل:

منهج الله عزَّ وجل فيه كلمتان: افعل ولا تفعل، هنا افعل، اعبد الله، أحسن إلى والديك، أحسن إلى ذوي القُربى، أحسن إلى اليتامى، إلى المساكين، وإن لم تحسن ليكن كلامك طيِّباً:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83))

ولن تستطيع هذا إلا إذا أقمت الصلاة، لأنك بهذا الاتصال بالله تكتسب الكمال:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (83))

يمكن أن يُجْمَعَ الدين بكلمتين؛ حركةٍ نحو الله عزَّ وجل اتصالاً، وحركةٍ نحو الخلق إحساناً، وقد قال الله عزَّ وجل على لسان سيدنا عيسى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

(سورة مريم)

الدين كلّه بمجموعه لا يزيد عن كلمتين: اتصال بالخالق، وإحسان إلى المخلوق، كلَّما أحسنت إلى المخلوق صار الطريق إلى الله سالكاً، وكلَّما تَعَمَّقَ الاتصال بالله عزَّ وجل صار الدافع للإحسان بالخلق قوياً، اتصال بالخالق وإحسان للمخلوق.

الآية التالية حول ما ينبغي أن نفعل وما أمرنا الله به:

هذه الآية حول ما ينبغي أن نفعل، واذكروا:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83))

أما:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83))

الكلمة الطيِّبة صدقة، الكلمة الرحيمة، الكلمة المؤنسة، الكلمة التي فيها اعتذار، من عدَّ كلامه من عمله نجا، الكلمة الطيِّبة صدقة، أنت بالكلمة الطيبة تؤلِّف القلوب، بالكلمة الطيبة تُلقي فيها الطمأنينة، بالكلمة الطيبة يجتمع الناس حولك، لأنه:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: " 159 ")

بما استقرَّ في قلبك من الرحمة كنت ليناً لهم، فلمَّا كنت ليناً لهم التفوا حولك وأحبوك، واستفادوا منك، وارتقيت بهم وارتقوا بك؛ لو كنت منقطعاً عن الله عزَّ وجل لكان قلبك قاسياً، والقسوة في القلب تنعكس غلظة وفظاظة، والغلظة والفظاظة تجعل الناس ينفضّون من حولك، معادلة رائعة جداً، اتصال، رحمة، لين، التفات، يقابلها انقطاع، قسوة، غلظة، انفضاض، معادلة متوازنة، فلذلك الكلمة الطيِّبة صدقة، الكلمة الطيبة وراءها رحمة، وراءها تواضع، وراءها عدل، وراءها خوف، وراءها لطف.

أيها الأخوة الكرام، منهج الله عزَّ وجل افعل ولا تفعل، وهذه الآية افعل، اعبد الله، أحسن إلى والديك، إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين، ليكن كلامك طيِّباً فيه تأليفٌ للقلوب وتطييبٌ لها، لن تستطيع هذا إلا إذا اتصلت بالله عزَّ وجل، منعكس الصلاة الإحسان للخلق:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ (83))

عن هذا المنهج:

(إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83))

الآيات التالية حول ما ينبغي ألا نفعل وما نهانا الله عنه:

الآن منهج الله عزَّ وجل لا تفعل:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ

وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ (85))

وقال:

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

أيها الأخوة، هذا مرضٌ خطير أن نؤمن ببعض الكتاب وأن نكفر ببعض، أن نفعل شيئاً وأن ندع أشياء، أن نعتقد بشيء وأن ننكر أشياء، أن نأخذ من الدين ما يروق لنا، ما هو هينٌ ليِّن، ما يعجبنا، وأن نردَّ ما لا يعجبنا، أو ما لا نرتاح إليه، أو ما يعيقُ شهواتنا، عملية الأخذ والترك، أن تصطفي وألا تصطفي، هذا مرضٌ خطير وقع به بنو إسرائيل فاستحقوا الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة

منهج الله عزَّ وجل كامل ينبغي أن نأخذه كلّه لا أن نأخذ ما يعجبنا ونترك ما لا يعجبنا :

الآن انظر إلى المشكلة، يصلون، فالصلاة لا تكلفهم شيئاً لكنهم لا يغضون أبصارهم، يتاجرون لكنهم لا يتورَّعون عن أكل المال الحرام، يأخذون من الدين ما يعجبهم قضية احتفال، عيد مولد، أداء صلوات، صيام، أحياناً يعمل عمرة، فيركب الطائرة، وينزل في فندق فخم، يأكل ويشرب، ويطوف حول الكعبة عدة مرَّات وانتهت العمليَّة، ويحضر معه الهدايا، فالشيء الخفيف اللطيف يفعله المسلمين، أما أن تعطي حقوق الآخرين، أن تضبط شهواتك، فهذا وضع ثاني.

لذلك حينما نأخذ ما يعجبنا وندع ما لا يعجبنا، حينما نأخذ ما هو هينٌ علينا وندع ما ليس بهينٍ علينا، أخذنا بعض الكتاب وكفرنا ببعض، عملية انتقاء، هذه مهلكة، منهج الله عزَّ وجل كامل ينبغي أن نأخذه كلّه، أما هناك أشياء لطيفة لا تقدِّم، يقول لك: الزواج سُنَّة يا أخي، طبعاً الزواج سنَّة، الزواج مريح، فالشيء الذي يتوافق مع رغبته يتمثَّل فيه، موضوع احتفال لو أننا مدحنا النبي عليه الصلاة والسلام، والله هو أعظم إنسان في الكون، لكن لو مدحناه ليلاً ونهاراً ونحن نخالف سُنَّته هل نستفيد شيئاً ؟ مستحيل.

تطبّيق منهج الله بكامله في كسب المال وإنفاقه وضبط الشهوات قضيَّة تحتاج إلى إرادة قويَّة :

أب من أعلى درجة في العلم، وله ابن معجب به إلى درجة مذهلة، لو أمضى هذا الابن كل حياته في مدح والده، ولم يطلب العلم، يبقى الابن جاهلاً والأب عالماً، فالمديح لا يُقَدِّم ولا يؤخِّر، أن نفتخر بالماضي، فأساساً الإنسان حينما يفلّس في الحاضر يفتخر بالماضي، العبرة أن تجعل الحاضر كالماضي، العبرة أن تجعل الحاضر استمرار للماضي، نحن نفتخر أننا أمَّة عظيمة، نحن كنَّا أمَّة عظيمة:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ)

(سورة آل عمران الآية: " 110 ")

لكن الآن يوجد تخلُّف، تخلُّف عن ديننا وتخلُّف عن حضارة العصر، فلذلك القضيَّة أن نأخذ ما يعجبنا، الأشياء الهيِّنة اللطيفة، الفلكلوريَّة، العادات، التقاليد، إنشاد، ولائم، نزهات، موالد، هذا أمر سهل، أما أن نطبِّق منهج الله بكامله في كسب المال، وفي إنفاق المال، وفي ضبط الشهوات، هذه قضيَّة تحتاج إلى إرادة قويَّة، فهنا الآية الكريمة:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

أخطر شيء في الدين أهل الرأي، رأيهم مقدَّمٌ على عقيدتهم، يأخذون من الدين ما يوافق رأيهم، ويرفضون ما لا يوافق رأيهم، لهم دين خاص، يأخذ من النصوص ما يعجبه، ويرد ما لا يعجبه، أو يؤول ما لا يعجبه، يريد أن يوفِّق بين الدين وبين الدنيا، أن يجعل الدين مطيَّة لمصالحه، عملية الاختيار وأخذ ما يروق وترك ما لا يروق، أخذ السهل وترك الصعب، هذا انحراف خطير في الدين وقع فيه بنو إسرائيل فاستحقوا الهلاك.

من أجل أن تصل إلى الله لابدّ من أن تستكمل منهج الله عزَّ وجل:

المسلمون الآن دينهم أصبح فلكلورياً، مساجد، يرتدي الثوب الأبيض في الصيف، يتعطَّر، مسبحة في يده، يأتي إلى المسجد، لكن أين يسهر ؟ علاقاته كيف ؟ كسب ماله كيف ؟ فالدين عندما اختصرناه إلى صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، ونسينا أنه مئة ألف أمر ونهي، منهج كامل، تركناه منهجاً وأخذناه عبادةً جوفاء، آمنا ببعض الكتاب، وكفرنا ببعض:

(فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

هذا الدين منهج كامل، فهذه المركبة من أجل أن تمشي، أن تسير، تحتاج إلى محرِّك، وإلى عجلات، وإلى وقود، وإلى مُقْلِع، وإلى مقود، وإلى بوق، وإلى كهرباء، وإلى فرش، وإلى إضاءة، قد يتطلب عملها أربعين شرطاً، أما إذا الإنسان اشترى رفراف فقط، هذا الرفراف ليس سيارةً، هذا جزء من السيارة، اشترى مصباح فقط، مقعد فقط، عجلة، هذه أشياء لا تفيد، لا تُسَمَّى المركبة سيارة إلا إذا استوفت كل الشروط، فمن أجل أن تطير إلى الله لا بد من أن تستكمل منهج الله عزَّ وجل.

الله عزَّ وجل ذكر أمراضاً نحن مرشَّحون أن نقع فيها وفي الأعم الأغلب وقعنا فيها:

سلسلة هذه الدروس لها محور، أن الله عزَّ وجل حينما ركَّز على بني إسرائيل، وذكر أمراضهم وانحرافاتهم، وذكر تعنُّتهم وتكذيبهم أنبياءهم، هذا أسلوب الحكيم، لأن الله عزَّ وجل ذكر أمراضاً نحن مرشَّحون أن نقع فيها، وفي الأعم الأغلب وقعنا فيها، وكل درس أضعُ بين أيديكم حقيقة من واقع المسلمين تتوافق مع ما يعتقده بنو إسرائيل ومع ما يفعلونه، لكن الآية تحتاج إلى شرح طويل في درسٍ قادمٍ إن شاء الله لأن الله عزَّ وجل يقول:

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ (85))

هم يقتلون غيرهم، أما الآية :

(تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ (85))

في آية ثانية :

(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ)

(سورة النور الآية: " 61 ")

في آية ثالثة:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

آيات عديدة جداً: لا تأكل مالك، ما معنى هذه الآية ؟ لا تقتل نفسك ؟ هذه تحتاج إلى بحث لطيف محوره أن جماعة المؤمنين بمثابة الجسد الواحد، فأي عدوانٍ على أفرادها عدوان على الذات بشكل أو بآخر.

المؤمنون بمثابة الجسد الواحد:

على كلٍ المرض الخطير هو أن نأخذ من الدين ما يعجبنا وأن ندع ما لا يعجبنا، أن نأخذ ما هو هينٌ ليِّن وأن ندع ما هو صعبٌ شاق، أن نأخذ ما يتوافق مع رغباتنا وأن ندع ما يعاكس رغباتنا، أن نأخذ ما يكلِّفنا شيئاً وأن ندع ما يكلفنا كل شيء، هذه النظرة؛ أن تختار ما تشاء، أن تأخذ ما تشاء، هذه نظرةٌ خطيرةٌ في الدين، خطيرةٌ جداً، فلن يصبح الدين منهجاً كاملاً، من يسمي الرفراف سيارة ؟ مستحيل، من يسمي المحرِّك فقط سيارة ؟ من يسمي العجلات سيارة ؟ هذه قطع غيار، أما السيارة فيها كل شيء، وكذلك ـ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ـ المنهج كامل إما أن نأخذه كلَّه؛ في كسب أموالنا، في تجارتنا، في أفراحنا، في أتراحنا، في بيوتنا، في علاقاتنا، في تربية أولادنا، في عباداتنا، في علاقاتنا بأخوتنا، أو أن نأخذ ما يعجبنا وندع ما لا يعجبنا، عندئذٍ لا نقطف ثمار الدين

إطلاقاً، لذلك قيل: **" العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً ".**

في درسٍ قادمٍ إن شاء الله نزيد في شرح هذه الآية الكريمة التي تعلّمنا الشيء الكثير عن أن المسلمين وأن المؤمنين بمثابة الجسد الواحد:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

وقال:

(وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)

(سورة النساء الآية: " 29 ")

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (33- 95):تفسيرالآيات83 - 86، معرفة المنهج الدقيق لله افعل و لا تفعل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-04-02

بسم الله الرحمن الرحيم

العهد والميثاق الذي أخذه الله تعالى على عباده في عالِم الذر:

مع الآية الثالثة والثمانين وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83))

ذكرت في درسٍ سابقٍ أيها الأخوة أن كلمة

(إذْ)

تعني اذكروا حين:

(وَإِذْ أَخَذْنَا (83))

أي اذكروا حين أخذنا منكم الميثاق الغليظ:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (83))

الميثاق هو العهد، والبشريَّة جمعاء حينما خُلِقوا في عالَم الذّر قال لهم الله تعالى:

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

(سورة الأعراف الآية: " 172 ")

أخذ الله على خلقه العهد أن يأتوا إلى الدنيا ليطيعوه، وليتعرَّفوا إليه، وليتعرَّفوا إلى منهجه، وليعملوا الصالحات لتكون الصالحات ثمناً لجنَّةٍ أبديَّة، هذا هو العهد، نحن في الدنيا من أجل أن نعرفه، ومن أجل أن نطيعه فنسلم، ومن أجل أن نعمل الصالحات فنسعد، ومن أجل أن تكون هذه المعرفة وتلك الطاعة وهذا العمل الصالح ثمن الجنَّة، خُلِقْنا لجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة رضي الله عنه]

سبب مجيئنا إلى الدنيا:

العهد أن نأتي إلى الدنيا فنتعرف إلى الله من خلال الكون، والكون كلُّه ينطق بأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، أن نأتي إلى الدنيا وأن نستخدم العقل الذي أودعه الله فينا، وأن نصغي إلى صوت

الفطرة التي فُطرنا عليها، وأن نستخدم حريَّة الاختيار في اختيار الخير، وأن نستخدم الشهوات كقوًى محرِّكة لا قوى مدمِّرة، وأن نجعل من الشرع منهجاً لنا، من أجل هذا جئنا إلى الدنيا، وهذا هو العهد الذي عاهدنا ربنا عليه، وهذا مضمون قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: " 72 ")

وقال:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

كلمةٌ جامعةٌ مانعةٌ هي الدين كلُّه: لا تعبدوا إلا الله، يجب أن نؤمن به إلهاً واحداً موجوداً كاملاً وأن نعبده، وأن نعبده وفق ما أمر لا وفق أمزجتنا، تسألك إحداهن: هل من الممكن أن نعمل عقد زواج صوري ليكون هذا الزوج الصوري محرم لي في الحج ؟ عجيب، تريدين أن تعبدي الله وفق مزاجك، ليس هناك محرم فأنتِ لستِ مستطيعةً، استطاعت المرأة أن يكون لها محرم تحجُّ معه، طبعاً ضربت هذا المثل عَرَضَاً، يريد أُناسٌ كثيرون أن يعبدوا الله وفق أمزجتهم، لا يُعبد الله عزَّ وجل إلا بما شَرَّع:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

تعريف بالعبادة:

الطاعة لله وحده، والعبادة ـ كما أقول دائماً وأعيد هذا كثيراً ـ طاعةٌ طوعيَّةٌ ممزوجةٌ بمحبَّةٍ قلبيَّةٍ أساسها معرفةٌ يقينيَّةٌ تفضي إلى سعادة أبديَّة، معرفة، طاعة، سعادة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً :

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون الآية: " 32 ")

وردت هذه الآية عشرات المرَّات

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

قَرَنَ الله الإحسان إلى الوالدين بعبادته تعظيماً لقدر الوالدين:

لا يُعْبَد إلا الله، وحينما تعبد الله تعبده وفق ما شرَّع:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

الوالدان هما سبب وجودك:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً (83))

قَرَنَ الله الإحسان إلى الوالدين بعبادته تعظيماً لقدر الوالدين، ولو أن في اللغة كلمةً أقلَّ من (أفّ) لقالها الله عزَّ وجل:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً (83))

طبعاً هذه الآية افعل، والآية التي بعدها لا تفعل:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ (83))

مضمون منهج الله عزَّ وجل:

لقد تضمّنت هذه الآية العديد من العبادات بالإضافة إلى العبادة الاعتقادية في مطلبها، عبادات شعائريَّة:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (83))

عبادات قوليَّة:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83))

عبادات تعامليَّة:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ (83))

عبادة اعتقاديَّة:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

هذا مضمون منهج الله عزَّ وجل: عبادة اعتقاديَّة، وعبادة شعائريَّة، وعبادة تعامليَّة، وعبادة قوليَّة.

الفرق بين الأمر التكليفي والأمر التكويني :

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ (83))

الذي حصل أن هناك تولّي، هناك تقصير، هناك إعراض، أنت مخيَّر، كل الخَلق عدا الإنس والجن مسيَّرون، الشر لا وجود له إلا في عالم الإنس والجن لأنه مخيَّر، الأمر التكليفي غير التكويني، هناك أمرٌ تكليفيٌّ وهناك أمرٌ تكويني، الأمر التكليفي طريق سالك ؛ لكن في أوله لوحةٌ كُتِبَ عليها ممنوع المرور، فأنت إما أن تسير وتخالف وتدفع الثمن الباهظ، وإما أن تأتمر فتسلم وتسعد، فالأمر تكليفي لك أن تطيع، ولك ألا تطيع، أما الأمر التكويني ليس لك خيار، الله عزَّ وجل له أمر تكليفي وله أمر تكويني، خلقك من فلان وفلانة هذا تكويني، خلقك بشكل معيَّن تكويني، خلقك بعصر معيَّن تكويني، بزمنٍ معيَّن، بمكان معيَّن، بقدراتٍ معيَّنة كلّه تكويني، قال لك: صلِّ، هذا تكليفي، اصدق تكليفي، كن أميناً تكليفي، اعدل تكليفي، غضَّ البصر تكليفي، هناك أمر تكويني هو فعل الله، وهناك أمر تكليفي هو أمر الله، فهذا أمرٌ تكليفي:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

أيمكن أن تعبد غير الله ؟ ممكن لأن الأمر تكليفي:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً (83))

أيمكن أن يكون الإنسان ابناً عاقاً ؟ ممكن:

(وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ (83))

أيمكن أن يبني مجده على نهب أموال هؤلاء..؟ ممكن:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83))

أيمكن أن تقول سوءاً للناس ؟ أمر تكليفي تفعل أو لا تفعل:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (83))

يمكن أن لا تصلي، أنت مخيَّر، فالتخيير يثمِّن العمل، لولا الاختيار ما كانت هناك جنّة في الأساس.

مقوِّمات التكليف:

الجنة لأنَّك مخير، يقدم الإنسان فحصاً فينجح، يقام له احتفال تكريمي، لماذا التكريم ؟ لأنه درس وطالب آخر ما درس، الأول لأنه اجتهد والطالب الآخر ما اجتهد، الأول لأنه نجح والآخر ما نجح، هو مخيَّر يدرس أو لا يدرس، فالذي درس واجتهد ونجح يُقام له حفل تكريمي، والذي رسب يوبَّخ، فأنت مخيَّر، لا تنس أن مقوِّمات التكليف هي الكون، والعقل، والفطرة، والشهوة، والاختيار، والشرع:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83))

هذه الآية افعل، أما لا تفعل فإليك الآية :

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84))

الله عز وجل يحبنا أن نكون منتظمين ومتعاونين كالجسد الواحد:

مما يلفت النظر في هذه الآية :

(لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ (84))

مجتمع المؤمنين مجتمع واحد، وحدة، مجتمع المؤمنين في الأصل كما أراد الله عزَّ وجل كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى، أنت حينما تأخذ مال أخيك ضَعَّفته، وإذا ضعَّفته ضعَّفت المؤمنين، وإذا صُنْتَ مال أخيك قوَّيته، وإذا قويته قويت المؤمنين، وأنت من المؤمنين، فأنت حينما تأكل مال أخيك ضعَّفت نفسك.

هذا مثلٌ أوضح: الآن لو أن أسرة مؤلَّفة من خمسة شباب، أعانوا أخاهم حتى صار طبيباً، وصار دخله كبيراً، هذا الدخل عاد على أخوته، أما لو جعلوا العصي في العجلات، منعوه من الدراسة، لبقي فقيراً، وصار عبئاً عليهم ـ الفكرة واضحة ـ هذا الأخ له خمسة إخوة، إذا دعموه وساعدوه وصار ذا مهنة دخلها كبير، دخلها الكبير عاد إليهم، أما إن أخذوا ماله، ومنعوه من الدراسة، بقي فقيراً، وصار عبئاً عليهم ، فعلى مستوى خمسة إخوة أنت إن أخذت مال أخيك فقد أخذت من مالك وأنت لا تدري، إن أضعفتَه أضعفت نفسك، وإن قويَّته قوَّيت نفسك، إذا دللته على القواعد الصحيَّة وعاش صحيح البدن فأنت ارتحت، إذا كان أخوك بخير فأنت بخير، أما إذا أهملت توجيهه الصحي فارتكب أخطاء صحيَّة كبيرة وأصابه مرض عضال فأنت المسؤول، أنت مكلَّف بمعالجته، هذا شيء واضح جداً في الأسرة.

إذا أهمل الإنسان صحة أولاده سيتكلَّف أموالاً طائلة في معالجتهم، لأنه مسؤول عنهم، لو انتبه لصحة أولاده لارتاح، فكأن الله عزَّ وجل يقول لنا: أنتم بمثابة الجسد الواحد فإن أكلتم أموالكم ضعَّفتم أنفسكم، إن سفكتم دماءكم ضَعَّفتم أنفسكم، إن أخرجتم إخوانكم من بيوتهم ضعَّفتم أنفسكم، أي أن الله عزَّ وجل أرادنا أن نكون جماعة، وأرادنا أن نكون متعاونين، متباذلين، متناصرين، متضامنين، متناصحين، ولا يحبُّنا الله عزَّ وجل إلا بهذا النظام والتعاون، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة الآية: " 2")

التناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنَّة:

أخواننا الكرام، الإنسان له طبعٌ وله تكليف، طبعه فردي، والتكليف تعاوني، أمرك الله أن تتعاون مع أخيك، فأنت بقدر إيمانك بالله وبقدر طاعتك له تتعاون، وبقدر ضعف إيمانك وبقدر تفلُّتك

تتنافس، فالمتعاون مؤمن والمتنافس عاصٍ، لأن التعاون تكليف والفرديَّة طبع، والتناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنَّة، مثل هذه الآيات في القرآن :

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

طبعاً ليس معنى الآية أن تأخذ من جيبك الأيمن مبلغاً من المال تضعه في جيبك الأيسر، لا ليس هذا هو المعنى، هذا المال مال أخيك هو مالك من زاويةٍ واحدة، من زاوية ضرورة الحفاظ عليه، فلأن تمتنع من أكله من باب أولى، إذا أعارك أخوك سيَّارته فهي سيارتك بمعنى أنه يجب أن تقودها بعنايةٍ فائقة، وكأنها سيارتك، هي ليست لك بل هي له، ولكن سنقول مؤقتاً هي سيارتك، أي عامِلْها كأنها سيارتك، اعتنِ بها، قُدها بلطف، بعناية فائقة، فإذا قلنا: هذه السيارة سيارتك ليس المعنى أنها سيارتك، المعنى أنه ينبغي أن تقودها وكأنَّها سيارتك، من زاوية العناية بها، فإذا قال الله عزَّ وجل:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

أي لا تأكلوا مال إخوانكم، ولكن سُمِّيَ مال أخيك مالك من زاوية وجوب العناية به والحفاظ عليه وكأنَّه مالك، هذه نقطة دقيقة جداً، إذا كان الشيء ليس لك فقد تكسِّره، تهمله، تتلفه، تحطِّمه، هذا سلوك الكفَّار ؛ أما المؤمن مال أخيه هو ماله، من زاوية الحفاظ عليه، يعتني بحاجات أخوانه، يعتني بآلاتهم، ببيوتهم، لو أسكَنوك في بيت وكأنه بيتك، ولو أعاروك مركبة وكأنَّها مركبتك، أعطاك مالاً كي تستثمره وكأنَّه مالك، لا تجعل مالك دون ماله ـ الفكرة دقيقة ـ فلو أن تاجراً أتاه مال للاستثمار، وكان صنف البضاعة غير معروف، فوضعه في هذا الصنف المجهول، فهل يربح ؟ أم لا يربح ؟ يقول لك: إذا ربح أُدْخِل رأس مالي الشخصي، أما إذا لم يربح فيمسك ماله لنفسه، ويقول: ما في نصيب، يقول لك: لم أشارك بمالي لأنه ما في نصيب، وهذا ترتيب الله سبحانه، أشار النبي إلى هذه الناحية فقال: **" ولا تجعل مالك دون ماله ".**

يجب أن تتعامل مع مال إخوانك وكأنه مالك وذلك من زاوية وجوب الحِفاظ عليه وصونه:

لا تجعل مال الإنسان اليتيم وسيلةً تجسُّ بها نبض السوق، لا، بل يجب أن تتعامل مع مال أخوانك وكأنه مالك، وذلك من زاوية وجوب الحِفاظ عليه وصونه، طبعاً فلأن تمتنع عن أكله من باب أولى، من باب أولى ألف مرَّة، فاحذر:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

وقال:

(وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: " 11")

لن تجد إنساناً يحتقر نفسه لكنه يحتقر أخاه، يطعن بأخيه، فإن طعنت بأخيك طعنت بنفسك، أنا أضرب أمثلة للتوضيح ـ لو أن إنساناً يجلس في لقاء يحوي خمسين أو ستين شخصاً، وقال: أبي فعل كذا أمراً قبيحاً، وأبي خالٍ من الأخلاق، وأبي قليل الدين مثلاً، فقد طعن بنفسه من دون أن يشعر، إذا كان هذا حال أبيك فأنت على هذه الشاكلة، فإذا ذمَّ الإنسان أقرب الناس له كأنه ذمَّ نفسه وهو لا يشعر.

بعض مما يحبه الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: " 11")

لم يقل: ولا تلمزوا إخوانكم، ولكنه قال: هذا أخوك سمعته من سمعتك لذلك :

((من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه))

[كنز العمال عن عائشة]

و:

((من أكرم أخاه المؤمن فإنما أكرم الله))

[رواه الأصبهاني عن جابر والعقيلي عن أبي بكرة]

الله عزَّ وجل يحب السَتر، يحب التعاون، يحب التضامن، التكاتف، التناصر، التسامح، يحب التزاور، هذا الذي يحبُّه الله عزَّ وجل، أنا آتيكم بأمثلة:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

وقال:

(وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: " 11")

وقال:

(لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ (84))

أربع آيات أو خمس آيات في القرآن الكريم فيها استفهام كبير، بالظاهر لأنه لا يوجد إنسان يقتل نفسه، أما إذا قتلت أخاك تُساق إلى المحكمة فيُحْكَم عليك بالإعدام، معنى هذا أنت قتلت نفسك وأنت لا تدري، وقد قيل: **" القتل أنفى للقتل ".**

ينطلق المؤمن من حقيقة كبرى أنّ كلّ الخلق عيال الله:

عندما نقتل القاتل فقد ردعنا ألف إنسان مجرم كان كل منهم ينوي أن يقتل، فالمعاني دقيقة جداً، أول آية افعلوا، الآية الثانية لا تفعلوا:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ (84))

اذكروا أيضاً:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ (84))

إذاً يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً، أي إذا عاش الإنسان حياة مديدة ولم يصدر عنه أذى لإنسان هذا وسام شرف كبير، طبعاً القتل فما دون، تجريح، أو غيبة، أو نميمة، أو ابتزاز أموال، أو طعن بالأعراض، أو بالأنساب، أي أن تكون بعيداً عن إيذاء الخلق، وقد ورد في الحديث:

((اثنان لا تقربهما ؛ الشرك بالله والإضرار بالناس))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة]

تصوَّر أباً له أولاد، فالذي يعتدي على أحد أولاده كأنه اعتدى على الأب، أن تعتدي على ابن هو عدوان على الأب، لذلك ينطلق المؤمن من حقيقة كُبرى كل هؤلاء الخلق عيال الله، فبقدر محبَّتك لله تنفع عياله، بقدر محبَّتك لله تُحسن إليهم، بقدر محبَّتك لله تلقي في قلوبهم الأمن والسكينة، بقدر محبَّتك لله تسعدهم، بقدر محبَّتك لله تعطيهم.

الإنسان الآخر ـ الطرف الآخر ـ بقدر بعده عن الله يبتزُّ أموالهم، بقدر بعده عن الله يُرْعِبُهم، بقدر بعده عن الله يخوِّفهم، بقدر بعده عن الله يطعن بهم.

الإنسان يحجب عن رب العباد عندما يؤذي العباد وذلك أكبر عقاب من الله للإنسان:

خدمة الخلق قربى إلى الرب وإيذاء الخلق بعدٌ عن الله عزَّ وجل، إنني أعتقد أن إنساناً يرى طفلاً في الطريق فيصفعه صفعاً شديداً ثمَّ يلتقي بأبيه في البيت التالي فإنه سينتابه خجلٌ شديدٌ، وخاصة إذا كان الطفل لم يفعل شيئاً، إنك لا تستطيع أن تتصل بالله إذا آذيت خلق الله عزَّ وجل، والحقيقة الإنسان يحجب عن رب العباد عندما يؤذي العباد وذلك أكبر عقاب من الله يعاقب به الإنسان، أكبر عقاب على الإطلاق:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين)

أنت حينما تؤذي عباد الله، حينما تبتزُّ أموالهم، حينما تحتال عليهم، حينما تنتهك أعراضهم، حينما تلقي في قلوبهم الخوف، حينما تحمِّر وجوههم، حينما تسحقهم، حينما تبني ثروتك على إفقارهم، حينما تبني مجدك على أنقاضهم، حينما تبني عزَّك على إذلالهم، أنت عندئذٍ أخذت أكبر عقاب من الله وهو أن الله عزَّ وجل حجبك عنه وطردك من رحمته، فكن عبد الله المظلوم إذا كان الطريق إلى

الله سالكاً ولا تكن عبد الله الظالم إذا كان الطريق إلى الله مقطوعاً، أيهما أفضل أن يكون الطريق إلى الله سالكاً ولك حقٌ عند أخيك ؛ أم أن تأخذ ما ليس لك والطريق إلى الله مسدود ؟ الإيمان يحل هذه المشكلة، المؤمن يعد للمليون قبل أن يأخذ ما ليس له، قبل أن يحتال على إنسان آخر، قبل أن يخيف إنساناً ما، قبل أن يسبِّب الأذى لإنسان، قبل أن يُحرج إنساناً، قبل أن يفضح إنساناً، قبل أن يكون سبباً في هلاك إنسان.

هنيئاً لمن كان مفتاحاً للخير والبر والويل لمن كان مفتاحاً للشر:

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84))

أخذ ربنا عزَّ وجل العهد على بني إسرائيل أن يعبدوه، وأن يحسنوا إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا للناس حسناً، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأخذ عليهم العهد أيضاً ألا يسفك بعضهم دماء بعض، ورد في بعض الأحاديث أنه من علامات قيام الساعة موتٌ كعقاص الغنم لا يدري القاتل لمَ يقتل ولا يدري المقتول فيما قُتِل

ما معنى أن يخرج ربع مليون إنسان من بلدهم خوفاً على دمائهم ؟ هذا الذي يجري في العالم الآن:

((تُمْلَأُ الْأَرْضُ جَوْراً وَظُلْماً، فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

تقوم القيامة ولا تقعد من أجل جندي أو جنديين، ومن أجل مئات بل ألوف بل بضعة ملايين يُقتلون، يموتون جوعاً، يُطردون من ديارهم لا يحرِّك أحد ساكناً أبداً:

قتل امرئٍ في غابةٍ جريمة لا تغتفر وقتل شعبٍ آمنٍ مسألة فيها نظر

***

هكذا تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، هنيئاً أيها الأخوة، هنيئاً لمن كان مفتاحاً للخير، هنيئاً لمن كان مفتاحاً للبر، والويل لمن كان مفتاحاً للشر، هذا الذي ينام وفي رقبته جرائم القتل والتشريد والجوع كما يفعل أعداؤنا، ينامون والشعوب تئنُّ من الجوع، والشعوب تئنُّ من الظلم، والشعوب تئنُّ من ضيق ذات اليد وهم ينفقون على كلابهم ألوف الملايين، يطعمون كلابهم من اللحم ما لا تأكله شعوب بأكملها، لذلك:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42)))

(سورة إبراهيم)

سلاح من الله تعالى لمواجهة كيد الكافرين :

يجب أن أقول هذه الآية شفاءً للصدور:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46))

(سورة إبراهيم)

الله يُبَيِّنُ عِظَم مكرهم، أعطاك سلاحاً في مواجهة كيدهم، فقال:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية: " 120 ")

هذا قرآن، كلام الواحد الديَّان، كلام خالق الأكوان:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية: " 120 ")

متى وصل إلينا مكرهم ؟ وصل عندما لم نتقِ ولم نصبر، لم نتقِ الله ولم نطعه ولم نصبر على ترك منتجاتهم أبداً، نحن متعلّقون بمنتجاتهم، لو امتنعنا عن شراء حاجاتهم، لو صبرنا واتقينا الله عزَّ وجل لكفَّ الله عنا كيدهم

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

آية قرآنيَّة.

كفاك على عدوِّك نصراً أنه في معصية الله:

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84))

إخواننا الكرام، هناك مقولة أتمنَّى أن تكون واضحة عندكم: كفاك على عدوِّك نصراً أنه في معصية الله، فالحياة تنتهي بالموت، هنيئاً لمن مات طائعاً لله، والويل ثمَّ الويل لمن مات عاصياً لله.

ذكرت لكم من قبل أن رجلاً من الناس كان يطوف حول الكعبة وهو يقول: ربي اغفر لي ذنبي ولا أظنُّك تفعل، وكان وراءه رجل فقال له: يا هذا ما أشدَّ يأسك من رحمة الله، قال له: ذنبي كبير، لو أنك تعرف ذنبي، قال له: ما ذنبك ؟ قال له: كنت في حملة قمع فتنة ـ هذه القصَّة قديمة وقعت في العصور العبَّاسيَّة ـ فلمَّا قُمِعَت أبيحت لنا المدينة، قال: فدخلت أحد البيوت، فرأيت فيه رجلاً وامرأةً وولدين، فقتلت الرجل، وقلت لامرأته: اعطني كل ما عندكِ، فأعطته كل ما عندها، فقتل غلامها الأول، قال: فلما رأتني جاداً في قتل الثاني أعطتني درعاً مذهبة ؛ من الذهب، أعجبتني، ودهشت بها، فإذا عليها بيتان من الشعر قرأتهما، فوقعت مغشياً عليّ، مكتوب على هذه الدرع المذهبة:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرضِ أسرف في القضاءِ

فويلٌ ثـمَّ ويلٌ ثـم ويلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

***

يقول لك: تطهير عرقي، تقتل إنساناً بلا سبب فقط لأنه مسلم !! هذا الإنسان ميِّت، ضميره ميت، قال

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

روى رجل في الجاهليَّة للنبي الكريم قصَّة عندما كان جاهلياً، وصف له ابنته الجميلة جداً في ريعان الصِبا، أخذها بيده إلى مكان بعيد ثم دفنها وهي حية:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

أدلة من القرآن الكريم عن انتقام الله تعالى:

إذا كان الإنسان قادراً على إيذاء الناس، هؤلاء الذين يُقَتِّلون المسلمين والله لا تجد مسلماً إلا وهو يتألَّم ألماً شديداً، مستحيل أن تجد مسلماً ولا يتألَّم، بل يتألَّم ألماً لا يحتمل وهو يسمع الأخبار، هؤلاء الذين يهجِّرونهم، يشرِّدونهم، يجيعونهم، يقتلونهم غدراً، لذلك:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

وقال:

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

(سورة إبراهيم)

وقال:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

وقال:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً(15)وَأَكِيدُ كَيْداً(16)فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً(17))

(سورة الطارق)

هنيئاً لمن كان مفتاحاً للخير، أيها الأخوة طيبوا نفساً، إذا نمت مساءً وما من إنسان متعلِّق بك، لست متسبِّباً بإيذاء إنسان، ولا بقتل إنسان، ولا بإفقار إنسان، ولا بإذلال إنسان، ولا بفقد حريَّة إنسان، لست متسبِّباً بالأذى لأحد، فإنك لو أكلت أخشن الطعام فأنت أسعد الناس، لو سكنت في أضيق بيت فأنت أسعد الناس، لو عانيت لا سمح الله كل الأمراض أنت أسعد الناس بشرط ألا تكون متسبِّباً بإيذاء مخلوق، ولا بإفقار مخلوق، ولا بإخافة مخلوق، ولا بالإساءة لمخلوق.

واقع اليهود:

واقع اليهود قاتلهم الله:

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

اليهود في عهد النبي عليه الصلاة والسلام وهم بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، فريقٌ منهم عاهدوا الأوس، وفريق كانوا مع الخزرج، لخطَّةٍ رسموها من أجل أن تكون العداوة دائمة بين الفريقين، ومن أجل أن يعيشوا على عداوة الفريقين، انحاز بعضهم إلى الأوس وبعضهم إلى الخزرج، وكانوا في الوقت نفسه يثيرون الأوس على الخزرج، والخزرج على الأوس، يعيشون على أنقاض الأوس والخزرج، مكر شديد جداً، فريق من اليهود مع الأوس، وفريق مع الخزرج، وكل فريق يُحَمِّس الطرف الآخر لقتال صاحبه، فإذا نشبت حربٌ بين الأوس والخزرج مع حلفائهم من اليهود، ووقع بعض اليهود أسرى، يعمدون إلى فدائهم، حيلة ماكرة جداً في محاولة إفناء الفريقين الأوس والخزرج وبسط سيطرتهم على محيطهم.

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ (85))

إنهم متفقون اتفاقاً، نصفهم مع الأوس ونصفهم مع الخزرج، ويبثون الحراس بين هؤلاء لقتال هؤلاء وبين هؤلاء لقتال هؤلاء، فإن نشب القتال، طبعاً الأوس قاتلوا مع أنصارهم اليهود والخزرج قاتلوا مع حلفائهم اليهود، فإذا نشب قتال بين اليهود قتلوا أنفسهم، قتلوا أبناء جلدتهم، فمن لم يُقْتَل أخذوه أسيراً ثمَّ افتدوه بعد أن يكونوا قد وصلوا إلى مآربهم في الوقيعة بين الفريقين العربيين.

من أخطر أمراض اليهود أنه يعجبهم من الدين ما هو يسير:

قال تعالى:

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ (85))

بالمعركة القذرة التي أججتموها أنتم بين الأوس والخزرج:

(وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ (85))

يقول لك: تكتيك، خطَّة ذكيَّة، الخطَّة الذكيَّة تسمَّى ذكيَّة إذا كانت وفق منهج الله فإن لم تكن وفق منهج الله فهي خطَّة قذرة:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ (85))

هذا من أخطر أمراض اليهود وأنا أؤكّد لكم أن المسلمين وقعوا في هذا المرض، يعجبهم من الدين ما هو يسير، الشيء الجميل، مثلاً السفر، الحفلات، الاحتفال بذكرى المولد، الشيء السهل، أما الانضباط ؛ ضبط الشهوات فلا يعجبهم، كسب المال الحلال فلا يعجبهم، يريد كسب مال كثير ولو من طريق مشبوه، فالذي يعجبه يأخذ منه، أحياناً يصوم في يوم عاشوراء، أو الخامس عشر من شعبان، وهو تارك لأشياء مهمَّة جداً في الدين، ومرتكب مخالفات كبيرة جداً في الدين، فقضية صيام يوم في السنة سهل جداً، قضية سفر إلى العمرة سهل أيضاً، مع أن العمرة واجبة مرة في العمر، لكن إذا لم يكن منضبطاً إطلاقاً لا قبل ولا بعد فلا جدوى من العمرة، أما ركوب طائرة، وطواف سبع أشواط فقضية سهلة جداً، فإذا أخذ الإنسان من الدين ما يعجبه، وأخذ الشيء اللطيف المريح، ذكرى مولد يا أخي، يقول لك: كم كان هناك من التجلي في المولد يا أخي، لكن البيت عنده ليس منضبطاً إسلامياً، ولا الدخل منضبط، ولا العلاقات منضبطة، ولا يوجد التزام إطلاقاً يقول لك: صار هناك تجلٍّ كثير، أي تجلٍّ هذا ؟

الذي يأخذ من الدين ما يعجبه ويدع ما لا يعجبه هذا وقع في مرض من أمراض اليهود:

قال تعالى:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ (85))

تأخذ من الدين ما يعجبك وتدع ما لا يعجبك، يقول لك: الزواج سُنَّة يا أخي، أعجبه الزواج من الدين كله، أنا أقبلت على الزواج لأنه سُنَّة يا أخي، الشيء المريح الذي يعجبه أخذه، وبالغ به، وأثنى عليه ؛ أما إذا قلت له: غض بصرك، فإنه يقول لك: أين أذهب بعيوني ؟ وإن قلت له: هذا الدخل فيه شبهة اتركه، فإنه يقول لك: هذا الدخل كبير ويصعب تركه، أحد الأشخاص عنده مطعم يبيع فيه الخمر قال لي: إن شاء الله الإثم والوزر برقبة شريكي وليس ذنبي أنا ؟ أنا لا أقعد في المحل ولكن شريكي هو الذي يبقى فيه ويديره، يعجبه دخل كبير من مطعم يبيع خمراً مع أنه يصلي في المسجد، وأنا أضرب أمثلة وهي ليست على سبيل الحصر وقد يكون هناك آلاف من الأمثلة الأخرى، هذا الذي يأخذ من الدين ما يعجبه ويدع ما لا يعجبه، هذا وقع في مرض من أمراض اليهود:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

وقع المسلمون في هذا المرض.

سبب خسارة المسلمين و خذلانهم:

مليار ومئتا مليون مسلم ليست كلمتهم هي العُليا، وليس أمرهم بيدهم، وأعداؤهم لهم عليهم ألف سبيلٍ وسبيل، هذا هو السبب:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

إذا لم يُقِم المسلم الإسلام في بيته، ولم يضبط بناته، ولم يضبط أولاده، وإذا لم يحرَّر دخله، وإذا لم يكن عمله صحيحاً مشروعاً، ومهنته شريفة منطبقة على الشرع والمنهج، فكيف يسمي نفسه مسلماً ؟! أعجبه من الدين الصلاة، الصلاة سهلة جداً، أعجبه من الدين الصيام، طبق الأمور الشعائريَّة بحذافيرها، صلَّى وصام وحجَّ وزكَّى لكن حياته غير إسلاميَّة، بيته غير إسلامي، عمله غير إسلامي، دخله غير إسلامي، إنفاقه غير إسلامي، بيته غير منضبط، بناته غير منضبطات، فما قيمة هذا الذي أخذه مما هو هينٌ عليه، والذي تركه مما هو شاقٌ عليه ؟!!

الخاسر في النهاية هو من كسب الدنيا الفانية وضيَّع الآخرة الباقية:

قال تعالى:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

وقال:

(أُولَئِكَ (86))

هؤلاء الذين كُلِّفوا ولكنهم لم يفعلوا ما كلِّفوا به، ونُهوا لكنهم فعلوا ما نهوا عنه:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ (86))

الآخرة تعني الأبد، والحياة الدنيا تعني سنوات معدودة، اشترى الحياة الدنيا بملاذِّها وشهواتها بالآخرة الأبديَّة:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86))

أفضل كلمة تقال لمن كسب الدنيا فقط: كسب الدنيا الفانية وضيَّع الآخرة الباقية، الآن أعداء المسلمين في العالَم كله كسبوا الدنيا، أقوياء جداً، أغنياء جداً، الأمور كلها بأيديهم، كسبوا الدنيا تماماً ؛ لكنَّهم ضيَّعوا الآخرة، فما دامت الآخرة حقاً فالمؤمن على ما يعاني أفضل عند الله ألف مرَّة من هؤلاء الذين كسبوا الدنيا وخسروا الآخرة :

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية: " 15 ")

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (34- 95):تفسير الآية 87، الأخذ بالأسباب والتوكل على الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-04-09

بسم الله الرحمن الرحيم

كثرة الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل لا تعني أنهم مفضَّلون بل مشاكسون:

مع الآية السابعة والثمانين وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء حينما يسأل سائل: لماذا أرسل الله أنبياءً كُثُرَاً لبني إسرائيل ؟ هذه الظاهرة عليهم لا لهم، من باب التمثيل والتقريب، الطالب الكسول قد يأتيه أبوه بعشرات الأساتذة، والذي معه مرضٌ عُضال قد يأتي له أقرباؤه بعشرات الأطبَّاء، فكثرة الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل لا تعني أنهم مفضَّلون ؛ بل تعني أنهم مشاكسون، هذه حقيقة أولى، هذه ليست لهم بل هي عليهم، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ (87))

الكتاب هو التوراة، وهو كتاب بني إسرائيل الأول.

الفرق بين النبي والرسول:

قال تعالى:

(وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ (87))

النبوَّة شيء والرسالة شيءٌ آخر، الرسول معه كتابٌ من عند الله، معه رسالة، معه رسالةٌ جديدة تنسخ الرسالة السابقة، أما النبي يرسله الله عزَّ وجل كما يرسل الرسول ؛ ولكن النبي يُرْسَل ليشرح رسالة سابقة، فسيدنا لوط، وسيدنا زكريَّا، وسيدنا يحيى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (78))

(سورة غافر: من آية " 78 ")

هؤلاء جاؤوا ليشرحوا لأقوامهم كتاب الله عزَّ وجل، ليشرحوا التوراة، فسيدنا موسى نبيُّهم الأول، أنزل الله عليه التوراة، والأنبياء الذين جاؤوا من بعده شرحوا لأقوامهم مضمون هذا الكتاب،

فالرسول معه كتابٌ من السماء، أما النبي فقد أرسله الله للمؤمنين ليشرح لهم كتاباً سابقاً، كل رسولٍ نبي وليس كل نبي رسول.

لكن الشيء الذي ينبغي أن نقف عنده وقفةً متأنيَّة هو: أن كمال الله عزَّ وجل يقتضي إرسال الرسل، حينما يخلق الله خلقه دون أن يعلمهم بسرِّ خلقهم، دون أن يعلمهم بمنهجه الذي يؤدي إلى سلامتهم وسعادتهم فهذا يتناقض مع كماله، فحينما تُعَطِّلُ مفهوم الرسالة فقد وصفت الله بما لا يليق به، وأوضح مثل ؛ أب جالس في بيته وابنه الصغير اقترب من المدفأة، هل يبقى ساكتاً ؟ هل يبقى جالساً ؟ أم ينطلق لينصحه ويبعده ؟ وقد يقوم من مكانه ليأخذه، فمن مستلزمات كمال الله عزَّ وجل ألا يترك عباده معطَّلين عن الأمر والنهي.

إرسال الأنبياء والرُسُل من لوازم كمال الله:

النقطة الدقيقة أن هذا الكون المادي الذي هو تحت سمعنا وبصرنا ينطق بعظمة الله، ينطق بوجوده، وينطق بوحدانيَّته، وينطق بكماله، هذا الكون ينطق بكمال الله، ومن مستلزمات كمال الله ألا يدع عباده معطَّلين عن الأمر والنهي والمعرفة، لا بد من أن يبلِّغهم، خلقهم في الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً هو ثمن سعادتهم الأبديَّة في الآخرة، خلقهم في الدنيا ليتعرَّفوا إلى الله، ليتعرَّفوا إلى منهجه، ليتعرَّفوا إلى سرِّ وجودهم وغاية وجودهم، ما من قومٍ إلا وأرسل الله لهم نبياً لقوله تعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

إرسال الأنبياء والرُسُل من لوازم كمال الله، كما أن من بديهيَّات الأبوَّة أن ينصح الأب ابنه، وأن يأمره، وأن ينهاه، فإذا بقي ساكتاً والأخطار محدقة بالابن هذا ليس أباً، المثل مُبَسَّط وواضح، فالله عزَّ وجل ما كان ليخلق الخلق ثمَّ يدعهم هكذا في جهالةٍ جهلاء:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(سورة البقرة: من آية " 213 ")

فاختلفوا:

(فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

(سورة البقرة: من آية " 213 ")

على كلٍ فالله عزَّ وجل قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

حيثما جاءت (على) مقترنةً بلفظ الجلالة تعني أن الله جلَّ جلاله ألزم ذاته إلزاماً، فالله عزَّ وجل عليه أن يهدي خلقه.

الكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى ومظهرٌ لصفاته الفُضلى:

كيف يهدي الله تعالى خلقه ؟ أول شيء هداهم بالكون :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

(سورة آل عمران)

وقال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

هداهم بالكون، والكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى ومظهرٌ لصفاته الفُضلى، فإذا أردت أن تعرف الله فتفكَّر في خلق السماوات والأرض، كل شيءٍ خلقه الله له وظيفتان ؛ وظيفةٌ كبيرةٌ جداً أن تعرف الله من خلاله، ووظيفةٌ صغيرة أن تنتفع به في الدنيا، الوظيفة الصغيرة تنتهي عند الموت ؛ لكن الوظيفة الكبيرة ـ وظيفة الإرشاد ـ هذه تستمرُّ معك إلى أبد الآبدين، هذا الكلام ينطلق من قول النبي عليه الصلاة والسلام لمَّا رأى هلالاً قال:

((هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[أبو داود عن قتادةٍ]

هلال خيرٍ أنتفع به في الدنيا، ورَشَدٍ يُرشدني إلى الله عزَّ وجل، هذا الذي يأكل، ويشرب، ويتزوَّج، ويتنعَّم، ويرى الربيع، والخريف، والشتاء، والصيف، ويأكل من الفواكه أنواعاً كثيرة، ولا يفكّر في هذا الخلق، عطَّل أكبر وظيفةٍ لهذا الخلق، وكان انتفاعه بما خلق الله له انتفاعاً محدوداً جُزئياً ينتهي عند الموت.

الإنسان دائماً تحت التوجيه وتحت التبيين والتبليغ:

أيها الأخوة الكرام عرَّفنا الله عزَّ وجل بذاته من خلال خَلْقِهِ، ثمَّ عرَّفنا بذاته من خلال كلامه، أرسل الكُتُب، كل رسولٍ جاء بكتاب، وكل نبيٍّ شرح هذا الكتاب، إذاً كلامه يدلُّنا عليه، وخلقه يدلُّنا عليه، ثمَّ عرَّفنا بفعله، قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11))

(سورة الأنعام)

ثمَّ عرَّفنا من خلال الفطرة، فطرك فطرةً خاصَّة بحيث لو انحرفت عن منهج الله تضيقُ نفسك، الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس، والبر ما اطمأنَّت إليه النفس، إذاً عرَّفك بذاته من خلال خلقه، وعرَّفك بذاته من خلال أفعاله، وعرَّفك بذاته من خلال كلامه، وعرَّفك بذاته

من خلال الفطرة التي فُطِرْت عليها، وعرَّفك بذاته من خلال الملائكة الذين يُلْهمونك الصواب دائماً، وعرَّفك بذاته من خلال الأنبياء والرسل والدُعاة الصادقين، فالإنسان دائماً تحت التوجيه وتحت التبيين والتبليغ:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

هناك رسل، ونبيُّنا سيِّد الرسل، وهناك رسل من أولي العَزم، وهناك رسل آخرون، وهناك أنبياء، وهناك صِدِّيقون، وهناك علماء عاملون، وهناك دعاةٌ طيِّبون، هؤلاء كلُّهم مسخَّرون لتعريف الناس بالحق، أما أن تُخْلَق وأن تُتْرَك من دون تعليم، من دون توجيه، من دون تبليغ، من دون بيان، فهذا يتناقض مع وجود الله ؛ بل إن الله عزَّ وجل يقول :

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(15))

(سورة الإسراء)

ما دام الله قد أسمعك الحق فهذه بشارةٌ لك أن الله عَلِمَ فيك الخير:

قال بعض العلماء وليس كلُّ العلماء: الرسول هو العقل ـ من بعض التفسيرات ـ على كلٍ هناك آيةٌ حاسمة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 23 ")

إذا وجِد إنسان بأقصى الدنيا وفيه ذرَّةٌ من خير لا بد من أن يسمعه الله الحق بطريقةٍ أو بأخرى، فأنت حينما ساقك الله إلى مكانٍ تستمع فيه إلى الحق هذه نعمةٌ كبيرة

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ)

فما دام الله قد أسمعك الحق فهذه بشارةٌ لك أن الله عَلِمَ فيك الخير، لأن هناك ضلالاتٌ في الأرض لا تُحْتَمَل.

هناك من يعبد النار، هناك من يعبد الأصنام، هناك من يعبد الحيوانات القميئة، هناك من يعبد موج البحر، إلى ما هُنالك، هناك من يعبد الشمس، هناك من يعبد البقر، هناك من يعبد الحَجَرَ، وإذا شرَّفنا الله بعبادته فهذه نعمةٌ كُبرى لا توصف:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ (87))

هناك شيء ثان مهمٌ جداً في هذا الموضوع وهو أن المتكلِّم يحاسب على كلامه، والمستمع يحاسب على سماعه، ماذا فعلت فيما سمعت ؟ المتكلِّم يحاسب: هل طبَّقت الذي تكلَّمت به ؟ أما المستمع يحاسب من نوع آخر: ماذا فعلت بالذي استمعت إليه ؟ وكأن الله عزَّ وجل لا يعدُّ السماع سماعاً إلا إذا تبعه تطبيق.

الإدراك الصحيح يقتضي انفعالاً صحيحاً والانفعال الصحيح يقتضي سلوكاً معيَّناً:

قال تعالى:

(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ(21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ(22))

(سورة الأنفال)

يقول: سمعت وهو لا يسمع، لأن السماع الحقيقي يقتضي الاستجابة، ودائماً وأبداً هناك قانون يربط علاقتك بالمُحيط، أنت حينما يصحُّ إدراكك تنفعل، وحينما تنفعل تتحرَّك، إدراك، انفعال، حركة، أبداً.

أنت في بستان رأيت أفعى كبيرة، وبحسب مفاهيمك العلميَّة والحياتيَّة الأفعى قد تقتل ـ لدغتها قاتلة ـ فأنت حينما أدركت أنها أفعى حقيقيَّة لا بد من أن تضطرب، واضطرابك لا بد من أن يدفعك إلى عملٍ ما ؛ إما أن تقتلها، وإما أن تولي هارباً منها، فعلامة صحَّة الإدراك عمق الانفعال، وعلامة عمق الانفعال الحركة السريعة، فهذا الذي يرى أفعى كبيرة مخيفة ولا يضطرب، إما أنها ليست بأفعى، أو أن إدراكه غير صحيح.

الذي لا يتأثَّر بالحقائق المخيفة هذا إنسان عنده خلل في إدراكه، فأنت حاسب نفسك، الإدراك الصحيح يقتضي انفعالاً صحيحاً، والانفعال الصحيح يقتضي سلوكاً معيَّناً، طبعاً نحن حياتنا بضعة أيام، الإنسان بضعة أيام كلَّما انقضى يومٌ انقضى بعضٌ منه، وأيامنا معدودة، والأسابيع معدودة، والأشهر، والسنوات، فإذا جاء يوم القيامة مُفْلِسَاً يقال له: ماذا كنت تعمل ؟

(أَمَّادُا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(84))

(سورة النمل)

طبعاً الجواب:

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(45)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(46)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(47)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(48))

(سورة المدثر)

لا يوجد عمل يسمو في الحياة عن أن تعرف منهج الله:

أيها الأخوة، هذا كلامٌ مصيري، هذا كلامٌ له أبعاده، هذا كلامٌ متعلِّقٌ بالحياة الأبديَّة، هذا كلامٌ متعلِّقٌ بما بعد الموت، والموت حق، ولا يستطيع أحدٌ أن ينكر حدث الموت، وأنت في لحظةٍ واحدة تصبح خبراً بعد أن كنت شيئاً:

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً(1))

(سورة الإنسان)

ثمَّ يأتي العدم فيجعله منسياً، هذه الأيام المعدودة، والأسابيع المعدودة، والشهور المعدودة، والسنوات المعدودة، أساس سعادتك الأبديَّة أو الشقاء الأبدي لا سمح الله ولا قدَّر، فهل من الممكن لإنسان أن تأتيه رسالة ولا يفتحها ؟ هل من الممكن لإنسان أن يمزِّق الرسالة قبل أن يفتحها ؟ قد تسأل إنساناً: هل اطلعت على القرآن ؟ يقول لك: والله لا يوجد عندي وقت، القرآن وحي السماء إلى الأرض هل اطلعت عليه ؟ هل فهمت معانيه ؟ هل وقفت على مضمونه ؟ وعرفت أحكامه ؟ هل عرفت حلاله وحرامه ؟ هل عرفت وعده ووعيده ؟ هل عرفت سرَّ خلق الإنسان في الأرض ؟ هل عرفت غاية وجود الإنسان في الأرض ؟

(أَمَّادًا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(84))

(سورة النمل)

كنَّا نخوض ونلعب، ليس هناك من عمل يعلو في الحياة على أن تعرف الله، لا يوجد عمل يسمو في الحياة عن أن تعرف منهج الله، عن أن تعرف المنهج الدقيق افعل ولا تفعل، لأن كل واحد منا يحرص على سلامته وعلى سعادته حرصاً لا حدود له.

الله عزَّ وجل يمتحن المؤمنين امتحاناتٍ عديدة:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ (87))

أنت عندما يأتيك كتاب هذا الكتاب لكل المسلمين، فيه أمر، فما هو موقفك من الأمر ؟ فيه نهي، فيه وعد، فيه وعيد، فيه تشريع، فيه حلال، فيه حرام، فيه مواعظ، فيه قصص الأقوام السابقة، فيه المستقبل البعيد، ما موقفك من هذا القرآن ؟ الموقف العامِّي يقول لك: تباركنا ويقبِّله، وهذا غير كافٍ بل إن هذا القرآن منهج، هل أحللت حلاله ؟ هل حرَّمت حرامه ؟ هل صدَّقت وعده ووعيده ؟ والله الذي لا إله إلا هو إن صدَّقت إنساناً قوياً من بني جلدتك يفعل ما يقول فإنك لا يمكن أن تخالفه أبداً، فهل تصدِّق أن الله عزَّ وجل بيده كل شيء ؟

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

الله عزَّ وجل يمتحن المؤمنين، يمتحنهم امتحاناتٍ عديدة، قد يمتحنهم بأنه يقوي الكفَّار عليهم، هل ينسون ربَّهم ؟ هل يؤلِّهون غيره ؟

هناك أسلوب في البلاغة يذكر الكل ويقصد البعض ورد في الآيات التالية:

ذكرت مرة قوله تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ)

وصفٌ دقيق:

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

توهَّم بعض أهلها، قد تقول لي: الله قال في الآية: أهلها، وأنت تقول بعض أهلها، والجواب: هذا أسلوب في البلاغة يذكر الكل ويقصد البعض، أوضح دليلٍ عليه:

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)

(سورة البقرة: من آية " 19 ")

هل يمكن ذلك ؟ بل يضع واحدة فقط، فذكر الكل وأراد البعض:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

كل بقعةٍ في الأرض تحت استطلاع أقمارهم، وكل بقعةٍ في الأرض في القارَّات الخمس تحت مرمى طائراتهم:

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

آيات من الذكر الحكيم تطمئننا أن الأمر كله بيد الله وحده:

نحن في هذه الأيَّام في أشدِّ الحاجة إلى القرآن ليطمئننا أن الأمر بيد الله وحده:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

ليطمئننا أن:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل)

(سورة الزمر)

ليطمئننا أن:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من آية " 54 ")

ليطمئننا أنه:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

ليطمئننا أنه:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من آية " 84 ")

ليطمئننا أن:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

ليطمئننا أن يدَ الله تعمل وحدها، وكل ما تقع العين عليه من قِوى الشر إنما هي عصيٌ بيد الله عزَّ وجل، يؤكّد هذا المعنى قول الله عزَّ وجل:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

آيات أخرى من الذكر الحكيم نحن في أمس الحاجة إليها لتطمئننا:

نحن في أمسِّ الحاجة إلى هذه الآيات:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَواْ رَبَّهُمْ)

(سورة آل عمران)

وقال:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

هذه حقائق مريحة، قد ترى قِوى الشر متمكّنة، قِوى الشر تفعل ما تريد، قِوى الشر تُنْزل أشدَّ العقاب في إنسانٍ يبدو لك بريئاً، لئلا يختلَّ التوازن ينبغي أن تعرف الحقيقة: وهي أن الأمر بيد الله.

الحق عند الشاردين عن الله هو القوة:

قال تعالى:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام)

إذا وقع صاروخ !! أيهما أقرب إلى الفهم ورقة من أوراق الخريف أم صاروخ ؟ كم ورقة تسقط في الخريف ؟ الأشجار كلُّها تتساقط أوراقها في الخريف وهو سبحانه يعلمها جميعها، فالصاروخ أولى وأقرب للفهم:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام)

إذا وقعت شَظِيَّةٌ أو وقعت قنبلةٌ يعلمها، والأمر بيده، لكن الله عزَّ وجل قال:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ (4))

(سورة محمد: من آية " 4 ")

قلت اليوم: الحق عند الشاردين عن الله هو القوة فقط فأنت على حقٍ لأنك قويّ، هذا الحق عند الشاردين عن الله، والحقُّ عند المؤمنين هو ما جاء به القرآن الكريم وما جاءت به السُنَّة الصحيحة، هذا هو الحق، ماذا فعل سيدنا صلاح الدين رحمه الله تعالى بأهل القدس حينما فتحها ؟ هل ذبحهم ؟ إنه لا يستطيع لأن لديه منهجاً، بل بالعكس شكت امرأةٌ له فقد ولدها فوقف ولم يجلس حتى أُعيد لها ولدُها، أما حينما فتح الفرنجة القدس ذبحوا سبعين ألفاً في ليلةٍ واحدة، المؤمن مقيَّد بالحق، والحق ما جاء به الكتاب.

الحق في الإسلام هو ما جاء به القرآن والسُنَّة:

إخواننا الكرام، بعدما فتحت بلاد سَمرقَنْد وصل إلى أهلها أن فتحها لم يكن شرعيًّا، لأن فتح البلاد وفق المنهج الإلهي يجب أن تعرض عليهم الإسلام، فإن أسلموا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فإن لم يسلموا تَعْرِضُ عليهم الجزيَّة ؛ إن دفعوها فهم في أمان، فإن أبوا دفع الجزية يقاتَلون، فيبدو أن الجيش الإسلامي الذي فتح سمرقند بدأ بالقتال، لم يعرض الإسلام على أهلها ولم يعرض عليهم الجزية، فبعض أهل سمرقند عرفوا هذه الحقيقة، فأرسلوا خلسةً وفداً إلى عمر بن عبد العزيز يشكون إليه أن فتح بلادهم لم يكن وفق الشرع، الشيء الذي لا يصدَّق أن هذا الخليفة الراشد أرسل قصاصة صغيرة، ورد فيها هكذا: إلى قائد جيش المسلمين في سمرقند، اخرج من سمرقند، انتهى الأمر، بلد فُتِحَت بالحديد والنار، هكذا، هذا الوفد ما صدَّق، فهل يعقل أن تنسحب دولة محتلَّة لأرض بمجرد كتاب يصل للقائد، وتخرج منها ؟ فأخذوا هذا الكتاب وهم بين مصدِّقٍ ومكذِّب، ثمَّ تجرَّؤوا وأعطوا هذا الكتاب لأمير المسلمين في سمرقند، فقبَّل الكتاب، وأمر بإخراج الجند من سمرقند، فلمَّا رأوا هذا، قالوا: نحن قبلنا بكم وأسلمنا.

الحق في الإسلام هو ما جاء به القرآن والسُنَّة، قوي أو ضعيف هذا موضوع آخر، أما الحق عند الشاردين: إذا كنت قوياً فأنت على حق، فهل من الممكن أن تطرد إنساناً ليس له ذنب، وتأخذ هويَّته، وتجعله بلا هويَّة، تأخذ مركبته، وتجعله في العراء وهو يبلغ من العمر ثمانين أو تسعين سنة، وأطفال صغار ما ذنبهم ؟

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

الحق يحتاج إلى قوة كي تدعمه وأن نكون أقوياء هذا أمرٌ تكليفيّ وليس أمراً تكوينياً:

الحق ما جاء به الكتاب والسُنَّة، أما الحق يحتاج إلى قوة كي تدعمه، وأن نكون أقوياء هذا أمرٌ تكليفيّ وليس أمراً تكوينياً، من قال: كل هذا ترتيبه، هذا كلام ساذج:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 60 ")

الآن العلم قوَّة، الآن المعركة معركة علم فقط، فأمام قائد الطائرة شاشة يظهر عليها إشارة ضرب، تظهر المنشأة الضخمة، أو المعمل الضخم على الشاشة، ومهمة قائد الطائرة أن يضع هذه الإشارة فوق المنشأة فقط، ثم يضغط زراً فتدمر، أين الشجاعة ؟ أين الإقدام ؟ أُلغي كله، الأسلحة الحديثة ألغت كل قيم الفروسيَّة والبطولة، قد يكون إنسان من أجبن الناس، وينتصر بأزرار، فلذلك الأرض:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 23 ")

أيها الأخوة الكرام، لا بد من أن يُظهر الله آياته في العالمين، الله هو القوي، هو المتصرِّف، هو الفعَّال، لا يقع شيءٌ في كونه إلا بإذنه وأمره دقِّقوا:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام)

قصة أم سيدنا موسى وقصة سيدنا يوسف دلائل من القرآن على أنه ما من إلهٍ إلا الله:

قال تعالى يتحدث عن أم سيدنا موسى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص: من آية " 7 ")

هذا أول أمر:

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص: من آية " 7 ")

هل قال: إذا خفت عليه ضميه إلى صدركِ، ضعيه في سريركِ، لا، لم يقل هذا، بل قال:

(فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ(7))

أمران، ونهيان، وبشارتان، لأن الصندوق بيد الله عزَّ وجل.

إخوة سيدنا يوسف عندما وضعوه في الجُب:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(15))

(سورة يوسف)

وقال:

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(90))

(سورة يوسف)

الشرق والغرب وقعا في الخطأ لأنهم توهموا أن الأسباب تخلق النتائج:

كل هذه القصَّة من أجل آيةٍ واحدة:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

هذا هو الإيمان، التوحيد، ليس إلا الله، ما من إلهٍ إلا الله، مهما رأيت قِوى الشر تتغطرس، مهما رأيت قِوى الشر تتعالى، مهما رأيت قِوى الشر تبطش:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

هذا الإيمان، ومن دون هذا الإيمان يُسْحَق الإنسان، من دون هذا الإيمان يختل توازنه:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (87))

ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعل لكل شيءٍ سبباً، فكل شيء له سبب، لكن أيها الأخوة الحقيقة الدقيقة هي: أن هذا السبب لا يخلق النتيجة، النتيجة من خلق الله تعالى ولكنها اقترنت بهذا السبب، وكل إنسان يتوهَّم أن الأسباب تخلق النتائج فقد أشرك، لذلك الشرق والغرب وقعا في الخطأ، الشرق عصى، والغرب أشرك، كيف ؟ الغرب أخذ بالأسباب واعتمد عليها وألَّهها وعبدها من دون الله فأشرك، والشرق لم يأخذ بها فعصى، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أبو داود وأحمد عن عوف بن مالك]

أمثلة من الواقع عن أناس أخذوا بالأسباب واعتمدوا عليها فأشركوا وخسروا :

يجب علي أن أتحرَّك وآخذ بالأسباب وبعدها أتوكَّل على الله عزَّ وجل، فالطريق المثالي طريق ضيِّق، هناك وادٍ على اليمين وهناك وادٍ على اليسار ؛ وادٍ آخر، عن اليمين وادي الشرك، وعن اليسار وادي المعصية، أنت إن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فقد أشركت، هناك قصص كثيرة جداً:

الباخرة تيتانيك، وهي أضخم باخرة صُنِعَت في القرن التاسع عشر، بُنِيت هذه الباخرة في عام 1912، وقالوا في نشرتها أو كتيبها: هذه الباخرة لا يستطيع القَدَر أن يغرقها، لأنها صُنِعَت من

جدارين، وبين الجدارين أبوابٌ كثيرة، فأي مكان خُرِقَت فيه أُغْلِقَت الأبواب الجانبيَّة، فمنعت تسرُّب الماء إليها، لذلك لم يعتنِ صانعوها بقوارب النجاة فيها، وفي أول رحلة لها من أوروبا إلى أمريكا، وعليها أثرياء العالَم، وحِلِيِّ النساء ببضعة عشرات الملايين ارتطمت بجبلٍ ثلجي فشطرها شطرين، ولم يستطع أحدٌ أن يُنجدها لأنهم ظنوا أن إشارات الاستغاثة هي أصوات الاحتفالات، فما أنجدها أحد، ومات معظم ركَّابها، قال بعض القساوسة: إنَّ غرق هذه الباخرة درسٌ من السماء إلى الأرض.

أُرْسِلت مركبة فضائيَّة سميت المتحدي ـ challenger ـ وطبعاً كل شيء على الكمبيوتر، وجرى عدٌّ تنازلي، وضبط إلى أقصى الحدود، فيها سبعة رواد فضائيين مع امرأة، وبعد إطلاقها بسبعين ثانية كانت كتلةً من اللَّهب، وانتهى الأمر.

أرسل اليهود قبل عامين طائرتين لاعتقال بعض المسلمين ليلة القدر في لبنان، كان على الطائرتين ـ فيما علمت من الأخبار الموثوقة ـ مئةٌ وخمسةٌ وعشرون ضابطاً من نُخبة ضبَّاطهم ؛ كلهم من الكوماندوس، حيث كلف تدريب كل ضابط مئات الألوف بل الملايين، يتقنون اللغات، والمصارعة اليابانية، والقتال بالسلاح الأبيض وما إلى ذلك، الطائرة العلويَّة وقعت فوق السفليَّة، والطائرتان وقعتا فوق مستعمرة، وما مُنِيَ اليهود منذ أن أنشؤوا دولتهم حتَّى الآن بخسارةٍ أبلغ من هذه الخسارة، مئة وخمسة وعشرون ضابطاً من نخبة ضبَّاطهم، استمعوا إلى الصندوق الأسود فإذا فيه آخر ما قاله الطيار في الطائرة العلويَّة قال: **" أنا أسقط ولا أدري لِمَ أسقط "**، أما أهل الإيمان فبعضهم قال: ألم يقل الله عزَّ وجل:

(سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ(5))

(سورة القدر)

أنت في بيت الله أنت في سلام، فلمَّا أرادوا أن يأخذوا الناس من المساجد، وأن يستغلوا ليلة القدر، بطش الله عزَّ وجل بهم، قصص كثيرة، طبعاً هذه بعض القصص، وأحياناً يُمكّن الله عزَّ وجل الكافر من خططه، يمكّنه لحكمةٍ يُريدها، وقد لا يمكنه.

كل شيءٍ وقع أراده الله وكل شيءٍ أراده الله لابدّ واقع:

الشيء الدقيق جداً في هذا الدرس: أن كل شيءٍ وقع أراده الله، ما دام وقع فإن الله أراد وقوعه، لو دخل لص إلى بيتك، لا تقل: هكذا يريد الله، لا، يجب أن تقاومه، ليس معنى إذا سمح الله له بالدخول أن تبقى ساكتاً، وأن ترحِّب به، وأن تعطيه ما يريد، لا يجب أن تقاومه، أن تقبض عليه، أن تبلغ عنه الجهات المسؤولة، لكن اطمئن أن كل شيءٍ وقع فقد أراده الله وكل شيءٍ أراده الله لا بد واقع، وإرادة الله متعلّقةٌ بالحكمة المطلقة، والحكمة المُطلقة متعلّقة بالخير المُطلق، إن أخذت بالأسباب لا تعتمد عليها بل اعتمد على الله، لو كان عندك مركبة وأردت أن تسافر فهل ستقول: أنا فحصت كل

أجزاء المركبة، والجاهزيَّة عالية، ولن يحدث معي شيء ؟ هذا شِرك، لو كنت تركب أحدث مركبة قد يُصيبها الخلل، أما إذا قلت: أنا أخذت بالأسباب وتوكَّلت على الله، هذا هو الموقف المِثالي.

دقّقوا أيها الأخوة، يجب أن تأخذ بالأسباب وكأنَّها كل شيء، ويجب أن تعتمد على الله وحده وكأنها ليست بشيء، هكذا فعل النبيُّ في الهجرة، سيدنا عيسى جاء من دون أب فقد ألغى الله السبب، وكذلك العقيم فقد عطَّل الله السبب، زوجةٌ شابَّة وزوجٌ شاب لا يُنجبان، وامرأةٌ تنجب بلا زوج، فالسبب ملغي في حالة سيدنا عيسى، أما في حالة المرأة العقيم السبب معطَّل، هناك سبب ولكن ليس هناك إنجاب، وقد لا يكون هناك سبب لكن هناك إنجاباً، وهذا من أجل أن لا نؤلِّه الأسباب، فالله عزَّ وجل يخرق العادات، لماذا يخرقها ؟ ليلفتنا إليه، فالأمر بيده، إرادة الله طليقة لا يحدُّها شيء.

ما أخَّر المسلمين إلا موقف التواكل :

أيها الأخوة الكرام، أريد أن أنهي الدرس بهذه الحقيقة المهمَّة جداً قضية الأسباب والنتائج، مرَّةً ثانية: الغرب أله الأسباب واعتمد عليها، والشرقيون لم يأخذوا بالأسباب فعصوا الله، هؤلاء اعتمدوا عليها فأشركوا ونحن لم نأخذ بها فعصينا، الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثمَّ تتوكَّل على الله وكأنّها ليست بشيء هذا الموقف الصحيح، لذلك ما الذي جعل المسلمين متخلّفين ؟ لأنهم ما أخذوا بالأسباب، أوضح مثل: تفَّاحة غير مغسولة يقول لك: كل وسمِّ الله، لا يضر مع اسمه شيء، سمِّ الله ولا تخف، هذا كلام غير شرعي، خذ بالأسباب، اغسلها وتوكَّل على الله، قد تغسلها بالصابون ويكون فيها دواء جهازي مسرطن ضمن التفَّاحة، أنت اغسلها وتوكَّل على الله:

((قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ قَالَ: اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ))

[الترمذي عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ]

اجمع بينهما، ففي دراستك، في عملك، في تجارتك، في سفرك اضبط المركبة وقل: توكَّلت على الله، أما أنك لم تراجعها ولم تفحصها منذ اثنتي عشرة سنة وتسير بسرعة مئة وعشرين، فيمكن أن يفلت الميزان، ويقضى على كل من فيها !! يقول لك: ترتيب الله وقضاؤه وقدره، لا، هذا جزاء التقصير، سمح الله بهذا ؛ ولكن هذا جزاء التقصير.

الابن مريض ويقول لك: سلَّمته لله، هذا موقف غير إسلامي أبداً، هذا موقف فيه جهل، خذه إلى أحسن طبيب وأعطه العلاج، وبعدها قل: يا ربي سلَّمته لك، وادفع صدقة، ما أخَّر المسلمين إلا هذا الموقف موقف التواكل:

" من أنتم ؟ "، قالوا: **" نحن المتوكِّلون "** كان سيدنا عمر صريحاً فقال لهم: **"كذبتم، المتوكِّل من ألقى حبَّةً في الأرض ثمَّ توكَّل على الله ".**

لم يدرس طيلة العام أما نجحت ؟ لا والله ما في نصيب أنجح هذه السنة، هذا الكلام لا معنى له، لا، أنت مقصِّر، بالتجارة، بالدراسة، بكل حركاتك، بصحَّتك، بعلاقاتك، خذ كل الأسباب وكأنَّها كل شيء، وتوكَّل على الله وكأنَّها ليست بشيء، هذا الموقف الكامل.

يحتاج النصر بالمعركة إلى إيمان وإلى إعداد:

العرب في ماضيهم المتألِّق أخذوا بالأسباب، أنشؤوا أسطولاً بحرياً فحاربوا، وفتحوا جزراً ضخمة، معنى هذا أنه كان عندهم علم، الآن خصومنا وأعداؤنا اعتمدوا العلم وألَّهوه، نحن رفضناه، اعتمدنا على إيماننا، ولكن ما نجح إيماننا من دون إعداد، يحتاج النصر بالمعركة إلى إيمان وإلى إعداد، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 60 ")

وسّع كلمة معركة كثيراً، صار الاقتصاد الآن معركة، العالَم يسير بطريق البقاء للأقوى ؛ الأقوى علماً، والأقوى تطبيقاً، فأنت الآن كمسلم يجب أن تكون متألِّقاً، والتألُّق يحتاج إلى علم، الإمام الشافعي يقول: **" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم"، " العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلَّك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً "** .

إنني أتمنَّى أن يكون المسلم متألِّقاً، الأول في الدراسة، والأول في التجارة، لأن لك في الحياة رسالة، أنت سفير المسلمين، تمثِّل المسلمين بدءاً من مظهرك، بدءاً من اختصاصك، من دراستك، من عملك، أنت قدوة ومثل:

((أنت على ثغرةٍ من ثُغَر الإسلام فلا يؤتينَّ من قِبَلِك))

[ورد في الأثر]

الإسلام منهج أخلاقي:

والله أنا أفتخر كثيراً بمسلم صناعي، مسلم متفوِّق، ولكن أحترم الكل والله، لأن النبي قال:

((وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

[مسلم عن أبي هريرة]

أحترم أي مؤمن:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

والله لقلامة ظفر مؤمن فقير ضعيف أفضل عند الله من ملء الأرض من الكفَّار، قلامة ظفره، قد يكون ضعيفاً، قد يكون مستخدماً، حاجباً، ولكنني أتمنى أن يكون المؤمن متألِّقاً، ادرس، خذ شهادة، كن الأول بتجارتك، بعملك، بعلاقاتك، لأنك تمثِّل الدين، لو أرسلت الدولة سفيراً فمن تبعث ؟ هل

تبعث إنساناً جاهلاً باللغة ؟ لا يحمل شهادة، أمياً ؟ هل من الممكن هذا ؟ مستحيل، بعض الدول ترسل سفيراً يحمل ثلاث شهادات ليسانس، هناك مدرسة خاصَّة للسفراء ليدرسوا العلوم، والآداب، والحقوق، وينتقون من أذكى الناس، لأنه يمثِّل أمَّة، فأنت تمثِّل الإسلام، كل مسلم يمثِّل الإسلام، أنت سفير المسلمين، فإذا كانت مواعيدك غير دقيقة، هندامك غير حسن، علاقاتك غير منضبطة، حساباتك غير صحيحة، أهذا هو المسلم ؟ ألا يستحي أحدنا أن يكون الإنسان البعيد عن الدين منضبطاً وذو الدِّين غير منضبط ؟ حاسبته: أين دفاتر وسجلات الحساب ؟ لا يوجد سجلات فالحساب تمام، لا ليس كذلك، بيِّن، ما دمت أنت نظيفاً فبيِّن الوثائق والفواتير والأسعار، تجد غير ذي الدين منضبطاً وهذا شيء مؤلم جداً والمؤمن فيه تسيُّب، أنا أريد مؤمناً منضبطاً، مؤمناً واضحاً.

أدق شيء أقوله في هذا الدرس: الإسلام منهج أخلاقي، هكذا قال سيدنا جعفر للنجاشي: **" كنَّا قوماً أهل جاهليَّة ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجِوار، ونقطع الرحم، حتَّى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته ـ انظر إلى نعرف أمانته ـ وصدقه وعفافه ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحِّده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء "**. هذا هو الإسلام.

أجمل ساعة هي سَاعة الصُلح مع الله:

الإسلام أن تكون صادقاً، الإسلام أن تكون أميناً، الإسلام أن تكون عفيفاً، الإسلام أن تربي أولادك، الإسلام ألا تستخدم معيارين بل معيار واحد، هذا هو الإسلام، أما الصلاة فهي عبادة شعائريَّة، وقد تكون فارغة، فالصلاة فرض ولكنك إذا أديتها ولم تنهك هذه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم تقطف ثمارها، إذا صُمت رمضان ولم يقرِّبك إلى الله عزَّ وجل فأنت خائب خاسر:

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

إذا أنفقت مالك ولم تبغ به وجه الله فلا خير منه، والله قال:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (53))

(سورة التوبة)

إذا أديت العبادات التعامليَّة كما أرادها الله في الأصل انعكست في العبادات الشعائريَّة، فالصلاة صلة، وقد أعجبتني عبارة إنسان حين قال لي: صار لديّ خط ساخن مع الله، الإنسان أحياناً يفتح الهاتف فلا يجد خطاً بل الخط مقطوع، أما إذا سمعت صوت طنين معنى هذا الخط ساخن، فقال لي: صار لي خط ساخن مع الله، صرت أناجيه لأنني تبت له، واستقمت على أمره، أجمل ساعة هي

سَاعة الصُلح مع الله، والإنابة إليه، والتوبة إليه، والإقبال عليه، وأنت حينما تتعرَّف إلى الله تجده، قال عليه الصلاة والسلام:

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحبّ إليك من كل شيء))

[مختصر تفسير ابن كثير]

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (35- 95):تفسير الآيتان 87 - 88، نظام السببية لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-04-16

بسم الله الرحمن الرحيم

كثرة الأنبياء التي أرسلها الله إلى بني إسرائيل ليست شهادةً لهم بل شهادة عليهم:

مع الآية السابعة والثمانين والتي بعدها، يقول الله عزَّ وجل في القرآن الكريم:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

أيها الأخوة الكرام، كثرة أنبياء بني إسرائيل ليست شهادةً لهم ؛ بل هي شهادة عليهم، لأن الطالب المقصِّر يحتاج إلى عددٍ كبيرٍ من المدرِّسين، ولأن صاحب المرض المستعصي يحتاج إلى عددٍ كبيرٍ من الأطبَّاء، فكثرة الأنبياء التي أرسلها الله إلى بني إسرائيل ليست شهادةً لهم بل هي شهادةٌ عليهم.

الشيء الآخر هو: أنه من لوازم كمال الله عزَّ وجل ألا يدع عباده من دون توجيه، من دون تكليف، من دون تبيين، قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

(على) إذا جاءت مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام الذاتي، فكأن الله عزَّ وجل قال: يا عبادي عليّ أن أهديكم.

لا يمكن أن تتناقض إرادة الله عزَّ وجل:

ما دام الله عزَّ وجل يقول:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

لا يمكن أن تتناقض إرادة الله عزَّ وجل، هذه حقيقة مهمَّة جداً، ما دام الله عزَّ وجل قال:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (27))

(سورة النساء: الآية "27")

وقال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

إذاً لا يمكن أن يكون من إرادته الأخرى ما يمنع الهُدى، إنسان بسيط، طموحه أن يكون ابنه متعلّماً، هذا طموح الأبِ، هل يعقل أن يمنع ابنه من تأدية الامتحان ليرسُب ؟ مستحيل، ما دام طموح هذا الأب وأمله أن يكون ابنه متعلّماً، والابن يدرس، هل يعقل أن يمنع الأب ابنه أن يؤدِّيَ الامتحان ؟ تناقضت إرادة الأب، أراد له أن يكون متعلّماً، ثمَّ أراد أن يمنعه من دخول الامتحان، تناقضت الإرادات، فهذا لا يُقْبَل بحقِّ الإنسان فهل يُقْبَل بحق الواحد الديَّان ؟ مستحيل، لا تتناقض إرادة الله عزَّ وجل

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

نظام الكون أساسه السببيَّة:

قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: الآية "119")

خلقنا ليرحمنا، يستحيل أن يريد بنا العذاب، أراد لنا السعادة، والسلامة، والجنَّة، فأن يريد غير ذلك معناه أنه تناقضت إرادة الله عزَّ وجل، وهذا مستحيلٌ في حقِّ الله عزَّ وجل، إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (87))

بيَّنت لكم في الدرس الماضي ـ وهو مركز ثِقَلٍ في هذا الدرس ـ أن مشيئة الله شاءت أن يكون لكل شيءٍ سبب، نظام الكون أساسه السببيَّة، بل إن عقل الإنسان بُنِيَ على نظام السببيَّة، أنت لا تفهم شيئاً بلا سبب، كما أنك لا تفهم شيئاً بلا هدف، كما أنك لا تقبل التناقض هذا هو العقل، العقل جهاز مَعرفي، جهاز إدراكي، لا يفهم إلا وفق هذه المبادئ، وقعت في دمشق مثلاً جريمة، واتُّهِمْ بها إنسان، لو أثبت هذا الإنسان بالدليل اليقيني أنه كان في حلب فهو برئ، لأنه لا يُعْقَل أن يكون الإنسان في دمشق وحلب في وقتٍ واحد، هذا هو العقل، هو يرفض التناقض.

العقل يرفض أن يحدث شيء بلا سبب، إنسان يغادر منزله ويغلق أبواب البيت ويطفئ الكهرباء، فإذا رجع بعد أيَّام ووجد أن الكهرباء متألّقة لماذا يضَّطرب ؟ لماذا ينفعل ؟ لماذا يقلق ؟ لو أنه عندما عبَّر عن قلقه قالت له زوجته: أطفئ المصابيح وأطفأها، لما انتهى مصدر قلقه لأن القضيَّة أخطر من ذلك، القضية من دخل إلى البيت في غيابنا ؟ لا يقبل أن تتألّق المصابيح من دون فاعل، هذا هو العقل، العقل لا يقبل شيئاً من دون سبب، لا يقبل شيئاً من دون هدف.

أساس نظام عقل الإنسان السببيَّة:

يرى الإنسان أحياناً ظواهر لا تعنيه، ولا تتصل بحياته إطلاقاً، ولا تتعلَّق بكل مصالحه ؛ فقد تجد شاحنة تحمل وقوداً سائلاً، وتجر سلسلة من الحديد وراءها، لماذا ؟ أنت موظَّف ليس لك علاقة بالنفط إطلاقاً، ولا بالشاحنات، ولا بالميكانيك، لماذا تبحث عن العلَّة وعن الهدف ؟ فإذا قيل لك: هذه من أجل أن تفرِّغ الصواعق، قد تأتي صاعقة فتحرق هذه المركبة، فإذا كان لها اتصال مع الأرض تُفَرَّغ هذه الصاعقة دون أن تتأذَّى المركبة، فالآن فُهم الشيء، الإنسان أحياناً تحل مشكلته الماديَّة، لكن لا تحل مشكلته العقليَّة.

كنت مرَّة أضرب هذا المثل: إذا وضعت قُرْصاً من البلور المقاوم للحرارة في إناءٍ فالحليب لا يفور، المشكلة حُلَّت، ضع هذا القرص في قعر الوعاء، وأوقد النار تحته، واذهب، فالحليب لا يفور أبداً، المشكلة حُلَّت، ولكن كيف ؟ حلت عن طريق العقل ؟ فقد عرفت أن هذا القرص يجمِّع الفُقَّاعات ويخرجها من مكانٍ ضيِّق باندفاعٍ شديد، فتثقب هذه الطبقة التي هي السبب في فوران الحليب، توضَّح الأمر.

هذا العقل أعظم منحة إلهيَّة للإنسان، هو أداة معرفة الله، خُلِقَ هذا الإنسان، وأعطي هذه القوَّة الإدراكيَّة ليتعرَّف إلى الله بها، فأساس نظام عقل الإنسان السببيَّة.

مرَّة ثانية: أنت لا تفهم شيئاً بلا سبب، ولا تفهم شيئاً بلا هدف، أحد العلماء الغربيين آمن وكان أحد أسباب إيمانه بالله البقرة، قال: هذا الحليب الذي تعطيه البقرة، تعطي كمية حليب أضعافاً مضاعفة عما يحتاجه وليدها، يحتاج وليدها إلى كيلوين من الحليب في اليوم، وهي تعطينا أربعين كيلواً، معنى ذلك أن هذا الحليب خُلِق من أجل الإنسان، إن الذي خلق البقرة هو الذي خلق الإنسان، وهذا هو الغذاء الكامل، ولا بد أن يتوفر للإنسان مما يفيض عن حاجة وليدها.

لو فكَّر الإنسان عن طريق نظام التغذية، أو عن طريق مبدأ الغاية، أو عن طريق مبدأ عدم التناقض لوصل إلى الله عزَّ وجل، فعندما تقتني سيارة، وتكون في أقصى مكان في العالم، وتحتاج سيارتك قطعة من الشركة الصانعة، هذه القطع تأتي إلى بلدك بعد حين، تضعها في المكان المناسب، فما دام المصنع واحداً فالقياسات كلها واحدة.

طبيب يدرس الطب في أمريكا، والدواء مصنَّع في كندا، والمريض في اليابان يأخذ هذا الدواء فيسكن ألمه، لولا أن بنية الأشخاص في العالم واحدة، مكان الأجهزة واحد، مكان الشرايين واحد، مكان الأعصاب واحد، ليس هناك معنى لتدريس الطب في العالم هناك وحَدَة وهناك تباين، من حيث البُنية هناك تطابق تام بين كل البشر، لو أن شركة صنعت مليون سيارة، فكل الأجهزة وقطع الغيار واحدة في أي مكان فإذا اشتريت منه تأتي في المكان الصحيح لأن الصانع واحد، فالقياسات كلها واحدة، إذاً قضية مبدأ السببيَّة، ومبدأ الغائيَّة وعدم التناقض، هذه بُنية العقل البشري.

ربنا جلَّ جلاله من حينٍ إلى آخر عن طريق المعجزات يعطِّل الأسباب أو يُلغيها:

لماذا خلق الله في هذا العقل البشري نظام السببيَّة ؟ من أجل أن تصل إليه، لو أن عقلك يقبل شيء من دون سبب لقبل الكون من دون إله، لو أن نظام العقل يقبل أن يوجد شيء بلا سبب من باب أولى أن تقبل هذا الكون من دون إله، لكن لأن عقلك لا يقبل شيئاً من دون سبب إذاً أنت لا تقبل الكون من دون مكوِّن، ولا خَلْقاً من دون خالق، ولا نظاماً من دون منظِّم، ولا حكمةً من دون مُحْكِم، ولا علماً من دون عالِم، هذا الذي أراده الله عزَّ وجل، إذاً كل شيء له سبب.

لكن هناك منزلق خطير وهو: أن تظن أن السبب هو خالق النتيجة، استغنيت عن الله عزَّ وجل، فهذا المبدأ من أجل أن تصل إلى الله، لكن يمكن أن ينحرف الإنسان فيؤلِّه السبب، إذا ألَّه السبب استغنى عن المسبِّب، لذلك فإن ربنا جلَّ جلاله من حينٍ إلى آخر عن طريق المعجزات يعطِّل الأسباب، أو يُلغي الأسباب، السبب موجود ولا توجد نتيجة، أو هناك نتيجة بلا سبب، سيدنا عيسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام كانت ولادته معجزة، من أمٍ بلا أب، معنى ذلك أن السبب يرافق النتيجة ولا يخلقها، مشكلة العالَم في كلمتين ؛ فريقٌ في الغرب ألَّه الأسباب فأشرك، وفريقٌ في الشرق لم يأخُذ بالأسباب فعصى، الغربيِّون أخذوا بالأسباب وألَّهوها فعبدوها من دون الله، ظنوا أنهم إذا كانوا أقوياء إذاً فالمستقبل لهم ولم يعبؤوا بالدين، عصوا، وفجروا، وظلموا، وطغوا، وبغوا، لأن معهم قوَّة، القوَّة سبب، والسبب له نتيجة السيطرة، فلماذا طاعة الله عزَّ وجل ؟ وفي الشرق من توكَّل تواكلاً غير شرعي، لم يأخذ بالأسباب، فوقع في معصية عدم الأخذ بالأسباب:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً(83)إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً(84)فَأَتْبَعَ سَبَباً(85))

(سورة الكهف)

الموقف الكامل الذي ذكرته في الدرس الماضي والمسلمون اليوم في أمسِّ الحاجة إليه: أن يأخذوا بالأسباب وكأنَّها كل شيء، وأن يتوكَّلوا على الله عزَّ وجل وكأنَّها ليست بشيء، لئلا يقعوا في وادي الشرك حينما تؤلَّه الأسباب، ولئلا يقعوا في وادي المعصية حينما لا يؤخذُ بالأسباب، القضيَّة الكبرى في وجود سيدنا عيسى هي خلقه من دون أب، ليعلمنا الله عزَّ وجل أن السبب ليس هو الخالق، الخالق هو الله.

معاكسة شهوتك ثمن جنَّة ربِّك:

العقيدة الصحيحة هي أن السبب يترافق مع النتيجة فقط، من أجل تنظيم الحياة، ومن أجل الوصول إلى الله، لكن السبب لا يخلق النتيجة إطلاقاً، فسيدنا عيسى ولِد من دون أب، وحوَّاء ولِدَت من دون

أم، وأحياناً أب وأم يُنجبان، وأحياناً أخرى زوج شاب وزوجته شابَّة ولا ينجبان، جعلهما الله عقيمَين، إذاً لدينا ثلاث حالات: سبب بلا نتيجة، نتيجة بلا سبب، سبب بنتيجة:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (87))

قال علماء التفسير: كان جبريل عليه السلام معه دائماً، مؤيده:

(أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

هناك مشكلة، المشكلة هي أن ثمن الجنَّة هو التناقض بين التكليف والطَبع، الإنسان يشتهي أن ينام، والتكليف يأمره أن يستيقظ، فإذا عاكس رغبته في النوم وصلَّى الفجر يرقى عند الله، طبع الإنسان يقتضي أن يملأ عينيه من محاسن النساء، والتكليف يأمره بغض البصر، فإذا عاكس شهوته وغضَّ بصره يرقى عند الله، يقتضي طَبع الإنسان أن يأخذ المال، والتكليف يأمره أن ينفق المال، فإذا عاكس شهوته وأنفق المال يرقى عند الله، أن تعاكس شهوتك هو ثمن جنَّة ربِّك، بدليل قول الله عزَّ وجل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(41))

(سورة النازعات)

أنواع المعاصي:

قال تعالى:

(أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

طبعاً التكذيب جريمة، إنسان معه دليل، إنسان أرسله الله ليسعدك، لينقذك من الشقاء، ليجعلك معافىً سليماً سعيداً في الدنيا والآخرة فكذَّبته، وأشد من التكذيب القتل:

(فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

المعاصي نوعان: معاصي استكبار، ومعاصي غَلَبَة:

((الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار))

[الجامع الصغير عن ابن عبَّاس رضي الله عنه]

العبد عبدٌ والرب رب، ليس من شأن العبد أن يستكبر، ليس من شأن العبد أن يُعَظَّم، فمن رأى نفسه عظيماً واستكبر أن يطيع الله عزَّ وجل فقد وقع في ضلال كبير، إنسان مثقَّف ثقافة عالية جداً، يحتل مركزاً علمياً مرموقاً، لا يصوم رمضان، هو أرقى من أن يصوم مثلاً، لا يصلي هذا منعه الكبر أن يصلي، كنَّا مرَّة في تشييع جنازة، وطبيب من ألمع أطبَّاء دمشق، وهو شخص يحتل منصباً رفيعاً في الجامعة لم يدخل ليصلي، هو أكبر من أن يصلي لله عزَّ وجل ؟! هكذا يرى نفسه !!!

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

هل يذكر يوم كان طفلاً صغيراً في بطن أمِّه، يوم خرج لا يفقه شيئاً:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً)

(سورة النحل: الآية " 87 ")

بعد أن ارتقى، وحمل شهادة عالية أهو أكبر من أن يصلي في مسجد ؟!

قد يخطئ الإنسان أما حينما يستكبر فهو قد قطع ما بينه وبين الله :

قال تعالى:

(فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

وقال:

(أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ (87))

لذلك أيها الأخوة أضرب لكم هذا المثل الذي ضربته لكم كثيراً: إنسان جاءه ضيوف وعنده كيلو لبن، والضيوف كُثُر، يمكن أن يضيف لهذا الكيلو من اللبن خمسة كيلو من الماء، ويجعله شراباً طيباً مستساغاً بارداً في الصيف، لكن هذا الكيلو من اللبن لو أضفت له قطرة من زيت الكاز يفسد، يتحمَّل خمسة أضعافه ماء ولا يتحمَّل قطرة نفط أبداً، تلقيه في المُهملات، لذلك قد يخطئ الإنسان أما حينما يستكبر فهو قد قطع ما بينه وبين الله، حينما يستكبر سار في طريقٍ مسدود.

حينما يفتقر الإنسان إلى الله يأتيه من الله المَدَد:

أخواننا الكرام، لدينا درس بليغ جداً، درس بدر ودرس حنين، والذين وقع عليهم الدَرسان أصحاب رسول الله، في بدر قال:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: الآية " 123 ")

إذا قلت مستغيثاً: يا الله، يقول لك الله: لبَّيك يا عبدي، فأنت حينما تفتقر إلى الله يأتيك من الله المَدَد، وحينما تفتقر إلى الله يمنحك الله قوَّته وهو القوي، وحينما تفتقر إلى الله يمنحك الله غناه وهو الغني، وحينما تفتقر إلى الله يمنحك الله حكمته وهو الحكيم، وحينما تفتقر إلى الله يمنحك الله رحمته وهو الرحيم، أما حينما تقول: أنا، أنا ابن فلان، أنا أحمل الشهادة الفُلانيَّة، نقطة دم لا تزيد عن حجم رأس دبوس لو تجمَّدت في مكان ما من دماغك لنسيت كل معلوماتك، وأصبح مكانه في مشفى الأمراض العقلية، حينما تقول: أنا، تخلَّى الله عنك، مَنْ الذين تخلَّى الله عنهم إلى حين ؟ أصحاب رسول الله:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

أصحاب النبي وهم الذين بذلوا أرواحهم رخيصةً في سبيل الله، تخلَّى الله عنهم لأنهم قالوا: نحن.

كلمات مهلكات وردت في القرآن الكريم:

قال العلماء: أربع كلمات مهلكات، أنا، ونحن، ولي، وعندي، قال إبليس:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف: الآية "12")

وقال قوم سبأ:

(نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل: الآية " 33 ")

فأهلكهم الله، وقال فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: الآية " 51 ")

فأهلكه الله، وقال قارون:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: الآية " 78 ")

فأهلكه الله عزَّ وجل ؛ فكلمة أنا، ونحن، ولي، وعندي، كلماتٌ مُهْلِكَات، إذا قلت: الله، تولاَّك، وإذا قلت: أنا، تخلَّى الله عنك، لذلك أكبر معصية الكبر، أن تستكبر، أن تنسى أنك من حوينٍ منويٍ، تستحي به لو أنه على ثوبك، نسيت أنك خرجت من عورة، ودخلت في عورة، وخرجت من عورة، نسيت أنك خُلِقْت من ماءٍ مهين.

((بئس العبدُ عبد عَتَا وطغَى، ونسَيَ المبتدأ والمنتهى))

[الترمذي عن أسماء بنت عميس]

حجمك عند الله بحجم عملك:

نسي الإنسان أنه سوف يوضَع في حفرةٍ كائناً من كان، يدخل إلى هذه الحفرة أغنى أغنياء الأرض، وأقوى ملوك الأرض، وأحكم حكماء الأرض، وأذكى أذكياء الأرض في النهاية، وسيُشَيَّع إلى مثواه الأخير، يوضَع في القبر لا يقال له: يا صاحب الجلالة، يقال له: يا عبد الله، سمعتم هذا بآذانكم، هكذا مصير الإنسان: عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحيُّ الذي لا يموت.

أعقل إنسان فينا من يعمل لهذه الساعة التي لا بد منها، آتيةٌ لا ريب فيها، آتيةٌ وكأنَّك وصلت إليها، يقول الله عزَّ وجل ـ دقِّقوا في هذه الآية ـ:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: الآية " 1 ")

معنى هذا أنه لم يأتِ بعد، ما معنى هذه الآية:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

أي نحن محكومون جميعاً بالموت مع وقف التنفيذ، كنت قبل يومين أمشي في أحد أسواق دمشق المزدحمة، قلت لصاحبي: أرأيت إلى كل هؤلاء الناس، بعد مئة عام لن تجد واحداً منهم فوق سطح الأرض، بل في مقبرة باب الصغير، أو في الجبل، تقرأ على الشاهدة المرحوم توفَّاه الله يوم كذا، الفاتحة، كلُّنا هكذا، هذا الجَمع في هذا المسجد بعد مئة عام، والله أعلم لن نجد واحداً منهم على سطح الأرض، سنصير كلُّنا أخباراً.

قرأت مرَّة كتاباً عن قَصَص العرب، مؤلَّف من أربع أجزاء، كتاب ممتع جداً، بعد أن انتهيت من قراءته كانت لي منه موعظةٌ كبيرة، أن هؤلاء الذين عاشوا قبل مئات السنين، الأقوياء ماتوا، والملوك ماتوا، والضعفاء ماتوا، والكفار ماتوا، والأغنياء ماتوا، والفقراء ماتوا، والحكماء ماتوا، والحمقى ماتوا، كل هؤلاء الذين قرأت عنهم في أربعة أجزاء الكتاب هم تحت أطباق الثرى، لا ينفعهم إلا عملهم فقط، فحجمك عند الله بحجم عملك لذلك:

(أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

كل إنسانٍ خلقه الله عنده استعدادٌ كامل أن يهتدي إلى الله وأن يسعد في الدنيا والآخرة:

آية اليوم:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

أيها الأخُ الكريم، حينما تعتقد أو تتوهَّم أن الله خلق إنساناً وجعله لا يهتدي فهذا خطأٌ شنيعٌ في العقيدة، كل إنسانٍ خلقه الله، خلقه وعنده استعدادٌ كامل أن يهتدي إلى الله وأن يعرفه، وأن يسعد في الدنيا والآخرة، أما أن الله قد خلق الإنسان كافراً فهذا مستحيل، إذا خلق الله عزَّ وجل الإنسان كافراً فلمَ يعذِّبه؟ ما ذنبه ؟

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له: إياك إياك أن تبتل بالماء

***

إذا قدَّر عليه المعصية فلمَ يعذِّبه ؟ إذا خلقه مؤمناً فلمَ يدخله الجنَّة ؟ نحن في أنظمة حياتنا الدنيا هل من الممكن أن نعطي طالباً الأسئلة، قبل يومين، أو نعطيه أوراق الإجابة مكتوباً عليها الجواب الكامل بخط الأستاذ، ونقول له: اكتب اسمك ورقمك، فأخذ الدرجة الأولى على كل طلاَّب البلد، ثم

أقمنا له حفلاً تكريميَّاً عظيماً لأنه نال الدرجة الأولى على كل الطُلاَّب، ليس لهذه الحفلة معنى إطلاقاً، هو لم يدرس إطلاقاً، قدَّم الأوراق مكتوبةً بخط الأستاذ، فنال الدرجة الأولى، فأُقيم له حفلٌ تكريمي، هذا الحفل لا معنى له إطلاقاً، شيء مضحك.

طالب آخر مُنِع من أداء الامتحان فوبَّخناه أشدَّ التوبيخ، هذا التوبيخ لا معنى له، إنسان من بني البشر يترقَّع أن يفعل ذلك، مدير مدرسة جمع الطلاَّب في أول يوم من أيام العام الدراسي، وقرأ عليهم أسماء الناجحين في آخر العام سلفاً، وأسماء الراسبين، وقال: انطلقوا وادرسوا، فلن يدرس أحد، ولم يعد للدراسة معنىً عندئذٍ.

حينما تؤمن أن الله خلق فيك الهدى من دون سببٍ منك، فأنت إذاً لا تعرف الله أبداً، أنت وصفت الله عزَّ وجل بما لا يليق به .

خلل كبير أن تعتقد أن الله أجبرك على الطاعة أو على المعصية:

إذاً:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

غُلف، نحن لم نهتد، أخواننا الكرام هذا ما يقوله معظم المسلمين: الله سبحانه لم يكتب لي الهدى، فلماذا؟ يقول لك: سبحان الله، الله خلقنا ليعذبنا، وأيضاً يسبح الله عليها.

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

من قال لك كذلك ؟ لماذا شربت الخمر ؟ قال: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدَّر عليَّ ذلك، ليس بيدي ـ طاسات معدودة بأماكن محدودة، ترتيب سيدنا ـ هكذا يقول لك. فقال سيدنا عمر: **" أقيموا عليه الحد مرتين، قال له: مرةً لأنك شربت الخمر، ومرةً لأنك افتريت على الله، ويحك إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار ".**

الله لم يجبرك، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القُدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً ولم يطع مكرهاً.

الخلل الكبير لمجرد أن تعتقد أن الله أجبرك على الطاعة أو على المعصية، عفواً لا يقول الناس إن الله أجبرنا على الطاعة، بل يقول أحدهم: أنا أطعت الله، أما متى يعتقدون بالجبر ؟ حينما يعصون الله عزَّ وجل، فيقول: الله ما أراد لي الهدى، كلام شيطان، كلام يتناقض مع القرآن.

آيات من القرآن الكريم تبين أن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً:

قال تعالى:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

وقال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة)

وقال:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

(سورة الأنعام)

الخَرَصُ أشد أنواع الكذب، هذا الذي يقول: إن الله لم يشأ لي الهداية، يكذب على الله:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: الآية " 27 ")

وقال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

وقال:

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل: الآية " 9 ")

أي على الله بيان سبيل القَصد.

إذا عزي الإضلال إلى الله عزَّ وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري:

الإنسان حينما يعزو ضلاله إلى الله عزَّ وجل فقد ضل سواء السبيل، فإذا وجدت في القرآن آيةً يُستَدلُ منها أن الله أضل الإنسان فهذا هو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري، لا بد من توضيح المثل:

طالب في الجامعة لم يداوم إطلاقاً، ولم يؤدِّ امتحاناً، ولم يلتق بالأستاذ، والجامعة قدَّمت له عشرات الكتب التي تدعوه فيها إلى أن يعود إلى الجامعة، لم يداوم، ولم يؤدِّ امتحاناً، ولم يشترِ كتاباً، ولم

يستجب للإنذارات، فَرُقِّن قَيده، وبعد أن رُقِّنَ قيده قال: إن هذه الجامعة أرادت لي ألا أدرس، ترقين قيدك في الجامعة تجسيدٌ لرغبتك تنفيذٌ لإرادتك، هذا هو المعنى فقط.

لذلك إذا عزي الإضلال إلى الله عزَّ وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري .

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

أي نحن لا نهتدي، فرد عليهم: لا، ولكن قال تعالى:

(بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ (88))

هناك ثلاث آيات مهمات جداً، أساس هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(51))

(سورة المائدة)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(6))

(سورة المنافقون)

من تلبَّسَ بالفسق لا يهديه الله عزَّ وجل، لأن فسقه حجابٌ بينه وبين الله، ومن تلبَّس بالظلم فالله عزَّ وجل لا يهديه لأن ظلمه حجابٌ بينه وبين الله، ومن تلبَّس بالكفر فالله عزَّ وجل لا يهديه لأن كفره حجابٌ بينه وبين الله.

الله عزَّ وجل يسيِّر كل المخلوقات عدا الإنس والجن :

قال تعالى:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ (88))

أي أبعدهم بكفرهم، وهذه الباء باء السببية، بسبب كفرهم، أي أن الإنسان إذا ابتعد عن الكفر، وابتعد عن الظلم، وابتعد عن الفسق، فهو معرضٌ لهداية الله عز وجل .

أيها الأخوة الكرام حقيقةٌ مهمة جداً في هذه الآية وهي: أن الإنسان مخيَّر، هذه هويَّته عند الله، هو مخلوق مخيَّر، فلو أن الإنسان اختار الكفر لا يجبره الله عزَّ وجل على الإيمان، ولكن يدعوه إلى الإيمان، دون أن يجبره لأنه مخير، تصور أن صيدلياً أتى بطالب وظيفة ليعمل في صيدليَّته، أراد أن يمتحنه، هل هو أهل ليبيع أدوية ؟ وضع له بعض الأدوية على الطاولة، وقال له: وزِّع هذه الأدوية حسب الخزانات، هنا مثلاً أدوية معيَّنة للسُعال، هنا أدوية مضادة للإنتان، هنا أدوية سُمِّية، هنا أدوية معينة، فالآن يمتحنه، الآن الطور طور امتحان، فلو أمسك طالب الوظيفة هذا دواء سُمِّياً

ووضعه مع دواء مثلاً من نوع آخر، إذا منعه من الحركة فهو لم يمتحنه، هو الآن في طور الامتحان، الممتحن حُر، هل من الممكن أن يقف مراقب فوق كل طالب ويقول له: غلط، اكتب هكذا ؟ هذا لم يعد امتحاناً معنى امتحان أن معه ورقة وقلم ويكتب ما يشاء، فإما أن ينجح أو أن يرسب.

كثيرون لا يستوعبون قضية الاختيار، لو أن الإنسان اختار الكفر فإن الله عزَّ وجل لا يجبره على الإيمان، ولو أجبره لم يعد إنساناً، صار خشبة، لأن الله عزَّ وجل يسيِّر كل المخلوقات ما عدا الإنسان، والمَلَك يسيره، أما الإنسان مخيّر وحده مع الجن، إذا اختار الفسق لا يجبره على الاستقامة، لكن الله يدعوه إلى الاستقامة، يزينها له، يرَغِّبه فيها، يبين له ثمارها الطيبة، ولكن لا يجبره عليها، إذا اختار الإنسان الظلم لا يجبره الله عزَّ وجل على العدل، يقول الله عز وجل:

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20))

(سورة الإسراء)

لو أراد الله تعالى أن يجبرنا على شيءٍ لأجبرنا على الهدى:

خلقنا الله عزَّ وجل مخيَّرين، لو أراد أن يجبرنا على شيءٍ ما لما أجبرنا إلا على الهدى، ولو شئنا أن نجبركم، وأن نلغي اختياركم لآتينا كل نفسٍ هداها، فعندما تريد الجامعة أن تنجِّح كل الطلاب فالقضية سهلة جداً، تعطيهم أوراقاً مطبوعاً عليها الجواب الكامل، فقط اكتب اسمك ورقمك، فالنتيجة: نجح كل الطلاب، الكل امتياز، هذا النجاح ليس له قيمة إطلاقاً، لا عند رئاسة الجامعة ولا عند الناس ولا عند الطلاب أنفسهم، هذا نجاح مضحك.

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ (13))

(سورة السجدة)

أنت مخيَّر، ولأنك مخير لك أن تفعل أو ألا تفعل، لك أن تصلي أو ألا تصلي، لك أن تكون صادقاً أو كاذباً، لك أن تؤمن أو تكفر، لك أن تستقيم أو تفسق، لك أن تُنفق أو أن تظلم، افعل ما تشاء، كل شيء بثمنه، العظمة في الجامعة لا أن ينجح كل الطلاّب، لا أبداً، العظمة في الجامعة أن تأتي النتائج وفق المُقدمات، أن ينجح المتفوق وأن يحتل منصباً رفيعاً في الجامعة، وأن يطرد الكسول من الجامعة، روعة الجامعة تناسب النتائج مع المقدمات فقط، فالله عز وجل خلق الخلق ودعاهم إليه، وأمرهم أن يؤمنوا به، ورغَّبهم في الإيمان، وحذرهم من الكفر، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، هم مخيَّرون.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (46))

(سورة فصلت)

وقال:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

الهدى بيد الله لا يمنحه لظالم ولا لفاسق ولا لكافر:

الإنسان مخيَّر ولو ألغي اختياره ما عاد إنساناً، فالله عزَّ وجل يقول الهدى موجود، ولكن شاءت حكمة الله عزَّ وجل أن يقول لك: الهدى بيدي، لكن لا أمنحه لا لظالمٍ ولا لفاسقٍ ولا لكافر.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(51))

(سورة المائدة)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(6))

(سورة المنافقون)

يهدي من يشاء، يشاء من ؟ من لم يكن ظالماً يهديه الله عزَّ وجل، من لم يكن كافراً يهديه الله عز وجل، من لم يكن ظالماً يهديه الله عزَّ وجل.

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

يقول بعضهم: نحن لسنا مُهيَّئين للهدى، ما خلقنا الله مهتدين، هذا كلام الشيطان الرجيم، كلام الجهل، كلام الحُمق، كلام الغباء.

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ (88))

كفرهم سبب لعنهم، واللعن هو الإبعاد:

(فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ (88))

في درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (36- 95):تفسير الآيتان 89 - 96، مخالفة بني إسرائيل لتعاليم دينهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-04-23

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة بني إسرائيل بالقرآن الكريم من خلال التوراة:

مع الآية التاسعة والثمانين وهي قوله تعالى :

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ (89))

الكتاب الذي جاءهم من عند الله والذي يصدق ما عندهم في التوراة هو القرآن الكريم.

(وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا (89))

كانوا يغيظون أهل يثرب بأنه سيأتي نبيٌ، وسيؤمنون به.

(وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (89))

قال تعالى: إنهم يعرفون النبي:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة الآية: 146)

فهل من معرفةٍ سريعةٍ، بديهيةٍ، عَفويةٍ، فطريةٍ، صادقةٍ، أكيدةٍ، ثابتةٍ، كأن يعرف الإنسان ابنه ؟!

قال تعالى:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة الآية: 146)

أقذر أنواع الخلافات بين الناس هو الاختلاف على المصالح والأهواء والمكاسب:

أيها الأخوة الكرام، لا بد من أضع بين أيديكم هذه الحقيقة: الاختلاف عند نقص المعلومات شيءٌ طبيعي، كان الناس أمةً واحدةً فاختلفوا، أما الاختلاف عند توافر الحقائق قد يعزى إلى الحسد، أو البغي، أو المصالح، والأهواء، والنزعات وما إلى ذلك، قد نختلف لا لأن الحق معي أو معك، الحق واضح، ولكن قد نختلف لمصالح، لأهواء، لمطالب، لغرائز، لحظوظ، لمكاسب قد نختلف، هذا أقذر أنواع الخلافات بين الناس.

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 19)

العلم بين أيديهم، فإذا أردنا أن نلتفت إلى المسلمين اليوم ؛ الإله واحد، والنبي واحد، والقرآن واحد، والتشريع واحد، فلمَ هذا الاختلاف ؟! إنه اختلاف البغي، والحسد، اختلاف تضارب المصالح، اختلاف الأهواء، اختلاف المكاسب، اختلاف الزعامات، هذا سبب خلاف المسلمين فيما بينهم، لذلك:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ (89))

التوراة، والإنجيل، والقرآن، من مصدرٍ علويٍ واحد، إذاً :

(لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة)

الدعوة واحدة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

فحوى دعوة الأنبياء واحدة، أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله وأن تعبده.

الدين كله كلمتان ؛ توحيد الألوهية وعبادة الإله الواحد:

العقيدة توحيد، والعمل عبادة:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود الآية: 9)

هذه الآية:

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

تكررت عشرات المرات، الدين كله كلمتان ؛ توحيد الألوهية، وعبادة الإله الواحد، لذلك الخلاف خلاف المصالح، دققوا الآن:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ (89))

أي أن الحقائق التي في توراتهم هي نفسها في القرآن الكريم:

(وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ (89))

من أجل أن يكيدوا للعرب من أهل يثرب الأوس والخزرج، كانوا يتباهون بأنه سيأتي نبيٌ وسيكونون أول من يؤمن به، قال:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89))

يمكن أن يقبل الله عزَّ وجل منك عذراً إن كنت لا تعلم، لكن إذا علمت ليس لك عذر أبداً، العلم خطير، حجةٌ لك إن طَبَّقْتَهُ، وحجةٌ عليك إن لم تطبقه، هذا الذي يعلم ولا يعمل، هذا الذي يعرف وينحرف هذا غضب الله عليه، ومعنى قول الله عزَّ وجل :

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ(7))

(سورة الفاتحة)

المغضوب عليهم هم الذين عرفوا وانحرفوا، هل من مسلمٍ على وجه الأرض لا يعلم أن الصلاة حق، وأن الصيام حق، وأن الحج حق، وأن الزكاة حق، وأن الصدق حق، وأن الأمانة حق، وأن الوفاء بالوعد حق، وأن الحفاظ على العهد حق، وأن الإنصاف حق ؟ هذه أشياء بديهية، فلماذا يأكل المسلمون أموال بعضهم بعضاً ؟ لماذا يرفعون أمرهم إلى القضاء وفي القضاء عشرات بل مئات الألوف من القضايا ؟ لماذا يأكل بعضهم مال بعض ؟ لماذا يعتدي بعضهم على أعراض بعض ؟ هذا الذي عرف وانحرف له عند الله جزاءٌ كبير.

على الإنسان أن يكون معه حجة لله عز وجل يوم القيامة عن كل عمل يقوم به في الدنيا:

تجري الآن مناقشة دقيقة جداً، خالق الكون الذي منحنا المنطق يقول لهؤلاء: أنتم تدَّعون أنه إذا جاء نبيٌ سوف تسبقون الناس إلى الإيمان به، فقد جاءكم هذا النبي وجاء بكتابٍ مصدقٍ لما في كتابكم التوراة، لمَ كفرتم به ؟ مصالح.

لذلك أيها الأخوة الإنسان إما أن يستجيب للحق، وإما أن يستجيب للهوى، حقٌ أو هوى، خيرٌ أو شر، آخرةٌ أو دنيا، إحسانٌ أو إساءة، إن لم تكن على أحد الخَطّين فأنت على الثاني حتماً، إن لم تكن مع أهل الآخرة فأنت من أهل الدنيا، إن لم تكن مصدقاً بالحق فأنت قد قبلت الباطل، إن لم تكن مُنصفاً فأنت ظالم، إن لم تكن رحيماً فأنت قاسي.

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89))

إن الذي يلفت نظري هو كيف يتوازن المسلم المعاصر ؟ كيف يعلم أن هذا حرام، وهذا حرام، وهذا حرام، وهذا حرام، وكيف يقترف هذه الحُرُمات ؟ كيف ينام متوازناً ؟ كيف يغمض له جفن ؟ كيف يبيت والله ليس راضياً عنه ؟ يقول سيدنا عمر رضي الله عنه:**" عجبت لثلاث، عجبت لمؤملٍ والموت يطلبه، وعجبت لغافلٍ وليس بمغفول عنه، وعجبت لضاحك ملء فيه ولا يدري أساخطٌ عنه الله أو راضٍ ؟!! ".**

طبعاً هذا درسٌ لنا أيها الأخوة، فهل معك حجة لله عزَّ وجل ؟ أحياناً يسألني أخ: ماذا أفعل ؟ دائماً جوابي إليه: هل معك حجة لله عزَّ وجل يوم القيامة ؟ أي أنك إذا منحت ابناً بيتاً استثناءً من دون إخوته، أمعك حجة ؟ يقول: هذا ابني عاجز، هذا كلام مقنع، هذه حجةٌ لك يوم القيامة، حينما تخص ابناً عاجزاً مشلولاً، عنده عاهة، ببيت يؤجره ليأكل من أجرته استثناءً، وفي حياتك، وهبةً، معك إلى الله حجة، أما لأنه ابن زوجتك الجديدة وقد ضغطت عليك، أما ابن القديمة لا تعبأ به، سوف تحاسب يوم القيامة حساباً شديداً . يقول لي موظف: أأكتب هذا الضبط ؟ أقول له: هل معك جواب إلى الله

يوم القيامة ؟ دعك من رؤسائك، أمعك جواب إلى الله ؟ إن كنت ظالماً لهذا الإنسان سوق يقتص الله منك، واتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب.

حساب الأغنياء يوم القيامة:

إخواننا الكرام، أتمنى على كل أخٍ مؤمن دائماً وأبداً أن يهيِّئ لله جواباً، لو أنه سألك: لماذا طلَّقتها ؟ لماذا سلبتها مالها ؟ لماذا أخرجت هذا الشريك من الشركة ؟ لماذا لم تعطِ هذا الابن ما أعطيت أخوته ؟ لو أن الله سألك ماذا تجيب ؟ هل معك حُجَّة ؟

يروى أن سيدنا عمر بن عبد العزَّيز، كان يصلي في مصلاه ويبكي، دخلت عليه زوجته فاطمة، قالت له: **" يا أمير المؤمنين ما الذي يبكيك ؟ قال: " دعيني وشأني "**، قالت: **" قل لي وربك ما الذي يبكيك؟ "** ، قال: **"دعيني وشأني "**، فلما ألحَّت عليه، قال: **" بعد ما ولّيت هذا الأمر فكرت في الفقير الجائع، والبائس الضائع، وذي العيال الكثير والدخل القليل، وفي ابن السبيل، وفي الشيخ الكبير، وفي المرأة الأرملة، وفي الطفل الصغير، وفي، وفي ـ عدد لها عشرات الحالات المؤلمة في مجتمعه ـ قال: فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وخفت ألا تثبت لي حجة عند الله فلهذا أبكي ".**

أهم شيء أن يكون معك حجة لله عزَّ وجل، لمَ أهملت هذا الولد حتى خرج عن منهج الإسلام ؟ لمَ امتنعت عن تزويجه وأنت قادر أن تزوِّجه ؟ زنا، لعل هذا الزنا في صحيفتك، إذا كنت قادراً لمَ لم تزوجه ؟ لمَ لم تختر لابنتك إنساناً مؤمناً ؟ آثرت المال على الإيمان فضيَّع دينها وأخرجها عن استقامتها، أرضيت أن يأخذ ابنتك إنسان غني فيخرجها عن دينها ؟ إذا سألك الله بماذا تجيب ؟ لمَ لم ترب ابنتك ؟ هذه البنت التي تظهر كل مفاتنها في الطريق، سوف يسأل أبوها يوم القيامة: كيف سمحت لها أن تخرج هكذا ؟ هل نظرت إلى ثياب خروجها ؟ فأمامنا مليون سؤال.

((يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة ؛ فريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام حسابه في ثانية واحدة يقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام عنده ملهى وأنفقه في حلال اشترى بيت وتزوج فيقال: خذوه إلى النار ـ الزواج وشراء البيت إنفاق مشروع، أما الملهى دخله غير مشروع ـ وفريق جمع المال من حلال تجارة مشروعة وأنفقه على الموائد الخضراء والليالي الحمراء فيقال: خذوه إلى النار ـ حسابه سريع، شديد لكنه سريع، فلو قتل إنسان قتيلاً فرضاً واعترف بالجريمة وعن عمد وإصرار يحكم بالإعدام بجلسة واحدة، الحكم قاسي ولكنه سريع، لأنه لا توجد حاجة للمناقشة، اعترف، وعن سابق إصرار وتصميم، فيقال: خذوه إلى النار ـ ثلاث فرق حسابهم سريع جداً، أما الفريق الرابع فريق جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، قال: هذا قفوه واسألوه.))

[ورد في الأثر]

قفوه فسألوه هذا السؤال ؛ هل ضيع فرض صلاةٍ ؟ هل قال من حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقنا ؟ النبي الكريم ببلاغةٍ معجزة قال: تركته ومازال يسأل ويسأل. الغني عنده مليون سؤال، هذا الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال.

على المؤمن أن يهيِّئ لله جواباً عن كل شيءٍ يفعله:

هناك سؤال أيها الأخوة: فأنت في كل عمل، كل حركة، كل سكنة، كل نظرة، كل ابتسامة، كل عبوس، كل عطاء، لو قَبَّلت طفلاً وتركت الطفل الثاني، لو خصصت ابناً ولم تَخُصَّ الثاني، لو مِلت مع زوجةٍ وأغدقت عليها كلها شيء وأهملت الثانية، أخشن طعام للثانية، أسوأ بيت للثانية، أقسى معاملة للثانية، هل هيأت لله جواباً ؟ أمعك جوابٌ إلى الله عزَّ وجل ؟

أخواننا الكرام، هذا أهم شيء بالدرس، هيِّئ لله جواباً عن كل شيءٍ تفعله ؛ عن كل حركةٍ وسكنةٍ، ونظرة وابتسامةٍ، وإنفاقٍ وإقتارٍ، ومنعٍ وعطاءٍ، ووصلٍ وقطع، وودٍ وجفاءٍ، يجب أن تهيِّئ لله جواباً، قال لي أخ يعمل في التموين: هل يسمح لي أن أكتب ضبطاً ؟ قلت له: أكتب ما شئت، وأرسل إلى السجن ما شئت ومن شئت، لكنك إذا كنت بطلاً يجب أن تهيِّئ لله جواباً عن كل ضبط، لماذا كتبت هذا الضبط ؟ أكنت ظالماً له ؟ الله سيقتص منك.

أنا الذي أراه أيها الأخوة، أن كل ذكائك، وكل عبقريتك، وكل تفوّقك في أن تكون أديباً مع الله، وقافاً عند كلامه، مؤدياً لحقوق العباد، ومطبقاً لمنهجه العظيم، فالله عزَّ وجل يقول:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89))

فأنا أقول: يمكن أن يقبلك الله إذا كان معك عذر، أما الشيء واضح، الحلال بيِّن، الحرام بيِّن، وتجد معظم الناس يأخذون ما ليس لهم ظلماً، وعتواً، واستكباراً، ومكابرةً، يركبون رؤوسهم، لكن الله عزَّ وجل كبير، وسوف ينتقم منهم.

أشد الناس حسرةٍ وندماً يوم القيامة من باع آخرته بدنياه:

قال تعالى:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً (90))

بغياً أي حسداً:

(أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (90))

أي أنه اشترى الكفر، دفع ثمن الكفر الجنة، أسوأ صفقة في التاريخ، ما من إنسانٍ أشد حسرةٍ وندماً يوم القيامة كالذي باع آخرته بدنياه، فمصالحه مع الكفر، أحياناً مصالحه مع المعصية، مصالحه أن يكون مع إنسان كأن يكون شريك صاحب مطعم يبيع خمر مصلحته أن يبقى شريكاً في هذا المطعم، يقول لك: دخل كبير يدره علينا، والآخرة ؟ هذا مثل بسيط، واحد شريك بمطعم خمسة نجوم يبيع خمراً، والدخل كبير جداً والمكاسب بشكل عام صارت ضعيفة، فإذا كان له شركة بمطعم يبيع الخمر، فإذاً آثر هذا الدخل الكبير على الآخرة !!!

يجب أن تؤثر طاعة الله على طاعة الأقرباء وعلى مصالحك الشخصية:

أخواننا الكرام، هناك آية والله أنا أسميها قاصمة الظهر:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة الآية: 24)

أي إذا كان الأب أو الابن أو الزوجة أو العشيرة أغلى عليك من طاعة الله، كأن يضغط أبوك عليك أن تعصي الله فاستجبت لضغطه وعصيت الله، إذا الزوجة ضغطت عليك لتؤمن لها شيئاً لا تملك ثمنه فأكلت مالاً حراماً وأرضيتها، إذا آثرت الأب، أو الزوجة، أو الأخ، أو الابن، أو العشيرة على طاعة الله:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ)

(سورة التوبة الآية: 24)

أي عند التعارض، إذا كان الإنسان يسكن بيتاً مريحاً جداً، اغتصبه اغتصاباً، إذا كان هذا البيت الجميل، المريح، والذي أجرته رمزية، أغلى عليك من الجنة، هنا المشكلة

(وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

تجارة محرمة، طريقة بالتعامل غير صحيحة، بضاعة محرَّمة، شراكة محرّمة، أسلوب محرّم.

ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه:

قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة الآية: 24)

هذه أهم الأقرباء:

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

أحب إليكم من أمر الله في قرآنه، ومن سُنَّة النبي في سنته، هذا معنى

(مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24))

(سورة التوبة)

ما دام أي شيء من هذه الأشياء ؛ زوجة، أب، ابن، أخ، قريب، عشيرة، أو مال وفير من شُبُهَة، أو بيت مريح مُغْتَصَب، أو تجارة رابحة ولكنَّها محرَّمة، إذا كانت هذه الأشياء أحب إليك من طاعة الله، وطاعة رسوله، وجهاد في سبيله، فالطريق إلى الله غير سالك، مسدود:

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24))

(سورة التوبة)

بالمقابل أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو، أعيد هذا القسم ثانيةً: والله الذي لا إله إلا هو، أعيد القسم ثالثة: والله الذي لا إله إلا هو، ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه. الآمر ضامن، والله زوال الكون أهون على الله من أن يضيِّع شاباً آثر طاعة الله على دُنياه، من أرضى الناس بسخط الله أسخط الله عليه الناس وسخط عنه الله، ومن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه ورضي عنه الناس، إذا آثرت آخرتك على دنياك ربحتهما معاً، والله، وإذا آثرت دنياك على آخرتك خسرتهما معاً.

لن يصل الإنسان إلى الله إلا إذا استوى عنده التبر والتراب:

قال تعالى:

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ (90))

هذه النفس الثمينة التي جعلها الله أمانةً بين يديك، حيث قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

أنت تضيع قيمة نفسك بالدنيا، إنسان يحجبُ نفسه عن الله بعرضٍ من الدنيا قليل والله لو عرفت ما عند الله، والله لا تبيع هذه الصلة بملء الأرض ذهباً، والله لن تصل إلى الله إلا إذا استوى عندك التِبر والتراب، التِبر في المعصية كالتراب، اركله بقدمك، ولكن إذا علم الله منك هذا الصدق، والله الذي لا إلا هو لن يخَيِّبك، تأتيك الدنيا وهي راغمة.

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ (90))

أحياناً الإنسان من أجل دنياه، إرضاءً الناس، من أجل أن يظهر، من أجل أن يفتخر، يعصي الله عزَّ وجل، من أجل أن يعيش حياة فيما يبدو ناعمة يأكل المال الحرام، يطعم أولاده المال الحرام.

قد ينصر الله الكافر العادل على المُسلم الظالم لأن الله عَدْل:

قال تعالى:

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً (90))

(بغياً)

مفعول لأجله، أي كفروا بما أنزل الله على النبي الكريم من قرآن كريم بدافع الحسد فقط، ذات مرة أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة إلى يهود خيبر ليقَيِّمَ تمرهم ـ حسب الاتفاقية ـ فأرادوا أن يغروه ببعض المال فلعله يخفض التقدير، أرادوا أن يرشوه بحلي نسائهم، فقال عبد الله بن رواحة: **" والله قد جئتكم من عند أحب الخلق إلي ـ من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ولأنتم عندي أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم "**، هذا هو العدل، فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

قد ينصر الله الكافر العادل على المُسلم الظالم، لأن الله عَدْل، مثل أضعه بين أيديكم: إنسان نظيف جداً إلى درجة عالية جداً، وله عدوٌ لدود نظيف مثله، وله صديقٌ بهلول، يكيل له المديحَ جزافاً ولكنه قذر، قلبك مع من ؟ أنت نظيف جداً، لك عدو نظيف مثلك، لك صديق بهلول منافق يمدحك بلا حدود، ولكنه قذر، أنت مع مَن ؟ مع الذي بينك وبينه قاسم مشترك، أليس كذلك ؟ لذلك قد ينصر الله الكافر العادل على المُسلم الظالم .

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90))

لدينا عذاب أليم، ولدينا عذاب عظيم، ولدينا عذاب مهين.

تناقض بني إسرائيل مع أنفسهم:

قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا (91))

دقق الآن كيف أن الله عزَّ وجل يخاطبهم: أنتم ترفضون أن تؤمنوا بما جاء من عند الله عزَّ وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، بمن تؤمنون ؟ بما أنزل عليكم، فدقق الآن:

(نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ (91))

وهو القرآن الكريم:

(وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91))

هل في توراتكم أن النبي يُقتَل ؟ إن كنتم تزعمون أنكم متبعون لكتابكم ولن تتبعوا إلا كتابكم، فهل في كتابكم ما ينُصَّ على أن النبي يقتل ؟ أرأيت إلى هذا التناقُض ؟ لو مشى الإنسان عارياً ـ وما

أبشعه ـ كان أهون من أن يتناقض مع نفسه، يقول لك أحدهم: والله أنا سألت إمام جامع و قال لي: ليس فيها شيء، وانتهت عنده المسألة، هكذا بهذه البساطة ؟ أمتأكد من علمه ؟ أمتأكد من اختصاصه ؟ لماذا إذا أردت أن تبيع بيتك تسأل خمسين دلالاً، ولماذا تكتفي في شؤون الدين بإنسان عابر، إنسان التقيت به صدفةً وسألته فأفتى لك وانتهى الأمر، ولا تعيد هذا السؤال على أحد، بينما من أجل بيع بيتٍ تسأل مئة دلال، ولا تبيع البيت إلا بعد بحثٍ ودرسٍ وتمحيص ودراسة واستقراء، وما إلى ذلك ؟ فهذا تناقض.

أمثلة عن كلام يفتريه المقصِّرون على الله :

يقول لك أحدهم: أخي هناك فتوى بمصر تجيز الربا، وهذه فتوى رسمية !! بيتك سعره الرسمي ثلاثمئة ألف وهو ثمنه اثني عشر مليوناً، أتبيعه بسعره الرسمي ؟ لماذا تقبل فتوى رسمية ولا تبيع بيتك بالسعر الرسمي ؟ هذا تناقض، فالإنسان دائماً يتناقض، يقول: نشأت ببيئة هكذا، لماذا يرفض ابن التاجر أن يكون تاجراً، قد يكون عالماً، فيقول لك مَللت من المال، ولماذا يرفض ابن العالم أن يكون عالماً ؟ يقول لك: مللت من العلم أريد تجارة، أريد أموالاً، لماذا غيَّرت بيئتك ؟ لمَ لم تقل أنا نشأت هكذا وسأبقى هكذا؟

هذا كلام يفتريه على الله المقصِّرون، بإمكانك أن تفهم كل شيء، وأن تبدل كل شيء، وأن تعتقد بأي عقيدة، وأن تلتزم بأي شيء مقتنعاً به، مرة دعيت إنساناً لحضور درس، فأجاب والله لا أقدر للأسف، أنا أحضر مع والدي بالجامع الفلاني، ولم يسم لي اسم هذا الجامع، وهو يشتغل بتهريب الأقمشة، أنت تقدر على تهريب الأقمشة، ولا تقدر أن تحضر درس تهريب ؟!!

يقول الله عزَّ وجل: أنتم كما تقولون لا تؤمنون إلا بما أنزل عليكم، هل أنزل عليكم أن تقتلوا أنبياءكم ؟

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا (91))

نحن لا نعترف بالقرآن، بل بالتوراة، الله عزَّ وجل سار معهم، قال:

(وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91))

توجد في الآية كلمة رائعة وهي كلمة

(من قبل)

أي لن تستطيعوا أن تقتلوا هذا النبي، اطمئنّوا لن تستطيعوا.

أمثلة عن حفظ الله تعالى لسيدنا محمد من القتل:

أراد أحدهم قتل النبي عليه الصلاة والسلام، جيء به مخفوراً إليه، وهو يرتجف خوفاً، ظن أنه سيقطع رأسه كما هي العادة، قال له: " لن تراع، لن تراع، لن نخيفك، ولو أردت ذلك لما سُلِّطت علي.

قال أحدهم في إحدى المعارك: أين محمدٌ، لا نجوت إن نجا، خرج النبي له بنفسه هكذا، وأمسك رمحاً ووكزه به وكزةً فكاد يموت منها وولى هارباً، بعدما كان يظهر شجاعة كبيرة، فقيل له: مالك تراجعت ووليت هارباً قال: والله لو بصق علي لقتلني.

كان عمير بن وهب جالساً مع صفوان بن أمية، قال لصفوان: والله لولا أطفالٌ أخاف عليهم العنت من بعدي، ولولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، صفوان رآها فرصةً ذهبيةً لا تقدر بثمن، فقال: أما أولادك فهم أولادي ما امتدَّ بهم العمر، وأما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت فامضِ لما أردت.

سقى سيفه سماً ومضى إلى المدينة ليقتل محمداً، رآه سيدنا عمر في الطريق ، فقال: **" هذا عدو الله عُمَير جاء يريد شراً "**. قيَّدَهُ بحمَّالة سيفه وساقه إلى النبي وقال: **" يا رسول الله هذا عدو الله عمير بن وهب جاء يريد شراً "**. فسيدنا النبي قال له: **" يا عمر أطلقه "**، فأطلقه، **" ابتعد عنه "** ، ابتعد، قال: **" ادن مني يا عمير "**، فاقترب، قال له: **" سَلِّم علينا "** ، قال: عمت صباحاً، قال له: **" قل السلام عليكم "** ، قال: لست بعيدَ عهدٍ بسلامنا، هذا سلامي، بغلظة، قال له: **" ما الذي جاء بك إلينا ؟ "**، قال: جئت أفك ابني من الأسر، قال له: **" وهذه السيف التي على عاتقك ؟ "**، قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر، قال: **" يا عمير ألم تقل لصفوان: لولا ديون ركبتني، وأطفال أخشى عليهم العنت، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه ؟ "** ، وقف، وقال: واللهِ، إنك لرسول الله، والله هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لم يسمعه أحدٌ إلا الله وأنت رسوله، وأسلم.

بقي صفوان ينتظر الخبر السار قتل محمد، كان يخرج إلى ظاهر مكة كل يوم ليتلقى أخبار القتل من الرُكْبَان ففوجئ بعد أيام طويلة أن عميراً قد أسلم، فالله عزَّ وجل قال:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

فهذا حفظ الله عزَّ وجل، لن يستطيع أحد أن يغتال النبي، لأنه إذا اغتاله تحدَّى الله عزَّ وجل، وأُنهيت الدعوة.

النبي الكريم لمصداقية الوحي عنده لما أخبره الله أنه يعصمه من الناس صرف حراسه :

قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

معنى هذه الآية: لن يستطيع أحد أن يغتاله، لكن ماذا نفعل بقوله تعالى :

(أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 144)

قال العلماء: النبي لا يقتل إلا إذا أدَّى مهمته كاملةً بعد انتهاء التبليغ. قال تعالى:

(فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ (91))

كان سبب إسلام إحدى النساء في ألمانيا أن النبي عليه الصلاة والسلام لما جاءه الوحي:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

صرف حَرَسَهُ، معنى ذلك هو يصدِّق الوحي تصديقاً لا حدود له، لو كانت القضية قضية رؤيا أو أحلام أو شيء مفتعل، لما جاء قوله تعالى :

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

يبقى معتمداً على حُرَّاسِهِ، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لمصداقية الوحي عنده، لما أخبره الله أنه يعصمه من الناس صرف حراسه.

خالف بنو إسرائيل تعاليم دينهم فأصبحوا كالوحوش:

قال تعالى:

(قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91))

طبعاً هذه حجة عليهم، فذات مرة دخل على النبي صلى الله عليه وسلم رجل يبدو أن له شأناً، قال له: " من الرجل ؟ "، قال: عدي بن حاتم، رحب النبي به وانطلق به إلى البيت. في الطريق استوقفته امرأةٌ مسنة ضعيفة وقف معها طويلاً يكلمها في حاجتها، قال: والله ما هذا بأمر ملك، علم أنه نبي، في البيت ألقى إليه وسادةً من أدمٍ محشوة ليفاً، قال: **" اجلس عليها "**. قلت: بل أنت. قال: **" بل أنت "** ، قال: فجلست عليها وجلس هو على الأرض، قال: **" إيه يا عدي بن حاتم ألم تكُ ركوسياً ؟ قال: بلى ـ الركوسي دين بين النصرانية واليهودية ـ قال: "** أو لم تكن تسير في قومك بالمِرباع تأخذ ربع أموالهم؟ " قال: بلى. قال: " فإن ذلك لم يكن يحل في دينك " أي كيف تخالف دينك ؟ هؤلاء الذين يقتلون الشعوب، قال الله:

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

(سورة الحديد الآية: 27)

أين هي الرأفة والرحمة ؟! والله قلوبهم كالوحوش، بل الوحوش أرحم.

الكون بوضعه الراهن أعظم معجزة فمن لم يؤمن به لن يؤمن بخرق قوانينه:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ (92))

أي هل من المعقول أن تمشي مع نبي عظيم ووراءك فرعون بقوته وجبروته، وجيشه وأسلحته، وقسوته وظلمه، وأمامك البحر، الأمل بالنجاة صفر :

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِي(62))

(سورة الشعراء)

هؤلاء اليهود رأوا بأم أعينهم كيف أن البحر أصبح طريقاً يبساً، وساروا مع موسى في البحر، وتبعهم فرعون، فلما خرجوا من البحر عاد البحر بحراً، عاد الطريق اليبس بحراً، فغرق فرعون، هل من آيةٍ أعظم من هذه الآية ؟ هل من آيةٍ أعظم في الدلالة على صدق هذا النبي العظيم من هذه الآية ؟ وبعد أن خرجوا من البحر قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، نريد إلهاً نعبده من دون الله.

إذاً المعجزات الحسِّية لا تقدِّم ولا تؤخِّر، هذا الكون بوضعه الراهن أعظم معجزة فمن لم يؤمن به ؛ بقوانينه، وسننه، وعظمته، لن يؤمن بخرق قوانينه، فأكبر شاهد: أيعقل أن ترى البحر أصبح طريقاً يبساً وأنت تمشي مع نبيّك ؟ فلما خرجوا من البحر عاد الطريق اليبس بحراً، هل من آيةٍ أعظم من ذلك ؟ فلما خرجوا يقول هؤلاء: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ؟!!

السماع عند الله عزَّ وجل هو الاستجابة:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ (92))

أصبحت العصا ثعباناً مبيناً، نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، ضرب البحر بعصاه فإذا هو طريقٌ عظيم، ومع هذا كله تمنوا أن يكون لهم عجلاً يعبدونه من دون الله:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92))

ظالمون لأنفسكم:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ (93))

العهد على الطاعة:

(وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ (93))

هذه من آيات الدالة على عظمته، أي هددناكم بأن يقع الجبل عليكم إن لم تؤمنوا فآمنتم:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا (93))

السماع عند الله عزَّ وجل هو الاستجابة، السماع الذي يريده الله منك أن يعقبه استجابةٌ، لا أن يعقبه تجاهلٌ، يا أيها الذين آمنوا:

(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ(21))

(سورة الأنفال)

أنت إذا قلت لأحد: انتبه توجد عقرب على كتفك، يلتفت إليك بهدوء شديد وبراحة نفسية، ويقول لك: أنا شاكر جداً لهذه الملاحظة، وأرجو الله عزَّ وجل أن يكافئك عليها، وضعه الهادئ وعدم اكتراثه بكلمة عقرب معنى ذلك أنه ما سمع ما قلت له أبداً، لو سمع ما قلت له لخرج من جلده خوفاً ولقفز من على الأرض، فالاستماع هو الاستجابة.

عندما أعرض بنو إسرائيل عن الله عزَّ وجل تشربت نفوسهم حُبَّ الدنيا:

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا (93))

(عَصَيْنَا)

معطوفة على

(قَالُوا)

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا (93))

وقال:

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا)

(سورة المؤمنون الآية: 106)

غلبنا على أمرنا، لذلك إنسان يعصي الله أحياناً لا لجهلٍ بالأمر والنهي ولكن لضعفٍ في نفسه، ولغلبة شهوته على قناعته.

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ (93))

لما أعرضوا عن الله عزَّ وجل تشربت نفوسهم حُبَّ الدنيا، والعجل من ذهب يمثّل الدنيا، وعندما يكون الإنسان بعيداً عن الله عزَّ وجل تكون الدنيا كل همه ومبلغ علمه، وحب الدنيا يدخل إلى

خلاياه، قال لي أحدهم مرة: والله إذا سمعت صوت امرأة تمشي ما من قوة تمنعني عن النظر إليها، انظر فالمؤمن يغض بصره وهو مطمئن.

يتوهم أناسٌ ساذجون ضيِّقو الأفق أن الجنة لهم وحدهم وهذا الوهم قالته اليهود:

أيها الأخوة الكرام هناك الآن ثلاث آيات :

(قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً (94))

أي لكم وحدكم، توهم اليهود أن الجنة لهم وحدهم، كمثل أعرابي جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال: **" اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لقد حجرت واسعاً))

[البخاري عن أبي هريرة]

يتوهم أناسٌ ساذجون ضيِّقو الأفق أن الجنة لهم وحدهم، وهناك جماعات إسلامية تتوهم أن الجنة لها وحدها وأن ما سواهم على غير الحق، هذا وهم مضحك، هذا الوهم قالته اليهود:

(قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً (94))

أي لكم وحدكم:

(مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94))

ما وقع بين اليهود والنصارى وقع بين المسلمين كل فرقةٍ تكفِّر الأخرى وهم يتلون كتاباً واحداً :

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(111))

(سورة البقرة)

وقال:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ)

(سورة البقرة الآية: 113)

كتاب واحد، وهذا الذي وقع بين المسلمين كل فرقةٍ تكفِّر الأخرى وهم يتلون كتاباً واحداً، ومعهم سُنَّةٌ واحدة، هذا مرض ؛ مرض العداوات، مرض البغضاء، مرض المشاحنات، مرض أن تقيم مجدك على أنقاض الآخرين، مرض أن تسفِّه كل رأيٍ إلا رأيك هذا مرض خطير، هذا فتَّ في عضد المسلمين، هذا الذي مزَّق المسلمين، هذا الذي أضعفهم، هذا الذي جعلهم شذر مَزَر.

ادّعاء اليهود بأنهم أبناء الله وأحباؤه غير صحيح وإلا لما عذبهم الله بذنوبهم:

قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46))

(سورة الأنفال)

وقال:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18)

وقال:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(سورة المائدة الآية: 18)

معناها ادعاؤكم غير صحيح، لو أن الله قبل دعواكم لما عذَّبكم:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18)

أمة محمد المفضلة على أمم العالمين هي أمة الاستجابة لا أمة التبليغ:

هناك من يقول الآن: نحن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وهي أمة مرحومة، أمة محمد المفضلة على أمم العالمين هي أمة الاستجابة لا أمة التبليغ، لقد حل العلماء هذا الإشكال، هناك أمة الاستجابة وأمة التبليغ، فالذين استجابوا لله وللرسول لما دعاهم، هؤلاء قال الله عنهم:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

هذه الأمة علة خيريَّتها:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

إن لم نؤمن بالله حق الإيمان، ولم نأمر بالمعروف، ولم ننه عن المنكر، فنحن لسنا من أمة الاستجابة، إننا من أمة التبليغ، نحن كأية أمة من الأمم، ليس لنا أي شأنٍ عند الله عزَّ وجل.

الفرق بين المحسن والمسيء:

قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94))

والحقيقة :

(وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (95))

المستقيم يرجو لقاء الله، المحسن يتمنَّى لقاء الله، المحسن يشتاق إلى الله ؛ لكن الظالم، الفاسق، الفاجر، الذي بنى مجده على أنقاض الناس، بنى ماله على إفقار الناس، هذا لن يتمنى لقاء الله لأن الله سيعذبه وقتها.

(وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95))

بالعكس :

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ (96))

قرأت موضوعاً عن شخص يعمل بالفن، بالغناء، اعتنى بصحته عناية فائقة، صدقوا أنه لم يركب طائرةً في حياته خوفاً من أن تسقط هذه الطائرة، ولا تناول طعاماً ثقيلاً قبل النوم، ما أكل إلا الفاكهة، ولا تناول اللحم الأحمر بل اللحم الأبيض، واعتنى بنفسه عناية من الصعب أن توصف لكم، فإذا هو يموت.

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ (96))

إنسان محكوم بالإعدام مهما طالت مدة التوقيت الإعدام ينتظره، مهما طالت هذه المدة.

(وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96))

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (37- 95):تفسير الآيات 97 - 101، الحق لا يتجزأ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-04-30

بسم الله الرحمن الرحيم

الحق لا يتجزَّأ والباطل لا يتجزَّأ :

مع الآية السابعة والتسعين وهي قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97))

أيها الأخوة الكرام، أراد الله في هذه الآية الكريمة أن يبيِّن لنا حقيقةً خطيرة في العقيدة وهي : أن العداوة لا تتجزَّأ، وأن الولاء لا يتجزَّأ .

أنت مع من ؟ إن كنت مع الله فينبغي أن تكون مع رسوله، وإن كنت مع رسوله فينبغي أن تكون مع أصحابه الكرام الذين أثنى عليهم النبي عليه الصلاة والسلام، إن كنت مع أصحابه الكرام فأنت مع أهل الحق، هناك معركةٌ أزليَّةٌ أبديَّة بين الحق والباطل، فلا بد من أن تكون موالياً للحق متبرِّئاً من الباطل، أما أن تقول : أنا أحب النبي ولا أحب أصحابه، أو أنا أؤمن بالله وأكره جبريل، هذه التفرقة لا وجود لها، الحق لا يتجزَّأ والباطل لا يتجزَّأ .

أنت مع من ؟ إن كنت مع الحق فأنت مع الكل، وإن كان هذا الإنسان الشارد مع الباطل، فهو مع أعداء الدين جميعاً، إما في خندق أهل الإيمان وإما في خندق أهل الكُفْران، إما مع الحق وإما مع الباطل، والدليل أن في الحياة اتجاهين، إن لم تكن على أحدهما فأنت على الآخر قطعاً، والدليل على ذلك قول الله عزَّ وجل :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعركة بين الحق و الباطل أزليَّة أبديَّة ولا بدّ من الولاء والبراء :

قال تعالى :

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ)

(سورة يونس الآية : 32)

بعد الحق هناك ضلال، لأنه بين نقطتين لا يُرْسَم إلا مستقيمٌ واحد، فمهما وصلت بين النقطتين تأتي كل هذه المستقيمات فوق بعضها البعض، الحق لا يتجزَّأ أما الباطل فيتعدَّد، لأن الخطوط المُنحرفة والمنحنية والمنكسرة كثيرةٌ جداً، وقد أشار ربنا عزَّ وجل إلى هذه الحقيقة حين قال :

(يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ (257))

(سورة البقرة)

الظلمات جمع :

(إِلَى النُّور (257))

(سورة البقرة)

النور واحد :

(وَأَنَّ هَذَا صرا طي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

الحق لا يتعدَّد، الباطل كثير جداً ؛ هناك باطل اعتقادي، وباطل سلوكي، هناك باطل انحرافه خمس درجات، عشر درجات، مئة درجة، وهناك إلحاد، الباطل يتعدَّد، وهناك معركةٌ أزليَّةٌ أبديَّةٌ بين الحق والباطل، ولا بد من الولاء والبراء، إن واليت الله يجب أن توالي رسول الله، أعداء الدين ينفذون إلى التفرقة، فهو يقول : أنا أريد القرآن ولا أريد السُنَّة . من قال لك ذلك ؟ إذا كان القرآن الكريم يقول :

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

أنت إن رفضت سُنَّة النبي رفضت القرآن، القرآن، وسنة النبي العدنان، وسيرة صحابته الكرام، وسيرة السلف الصالح من المؤمنين والعلماء العاملين، هذا هو الحق ؛ والباطل هو كل انحرافٍ عن منهج الله ورفضٍ لأوامره وهو كفرٌ، فهذه التفرقة تفرقةٌ لا وجود لها، مفتعلة .

الناس رجلان ؛ رجلٌ عرف الله فسعد ورجلٌ غفل عن الله فشقي :

ذكرت اليوم : أن الناس رجلان فقط، إنسانٌ عرف الله، فانضبط بمنهجه ـ سار على منهجه ـ وأحسن إلى خلقه، فاتصل به وسعد في الدنيا والآخرة ؛ ورجلٌ غفل عن الله، فتفلَّت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة . ولن تجد رجلاً ثالثاً، يؤكِّد هذا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلَّم:

((فَالنَّاسُ رَجُلانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه]

هذه حقيقة .

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ (97))

الذي يؤمن برسول الله يجب أن يؤمن بالسيِّد المسيح عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام، الذي يؤمن بالإسلام يجب أن يؤمن أن الله عزَّ وجل أنزل كتبه على أنبيائه السابقين، وأن هذه الرسالات فحواها واحدة، ومضمونها واحد .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

المؤمن الصادق ليس عنده انتقاء الانتقاء من ضلالات أهل الرأي :

كل الأنبياء جاءوا بهذه الحقيقة :

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (32))

(سورة المؤمنون)

الدين كلُّه معرفة أنه لا إله إلا الله وعبادة الله عزَّ وجل وفق ما أمر، هذا الدين، الأمور واضحة كلها عند المؤمن، الأمور كلها منسجمة متناسقة، فهذه التفرقة هي من صنع الشيطان :

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (159))

(سورة الأنعام)

قال الله عزَّ وجل في مُحْكَمِ كتابه :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح الآية : 18)

خالق الكون في عليائه رضي عنهم ؛ الذين كانوا مع النبي عليه الصلاة والسلام في الحديبية، وقد وضعوا أيديهم بيد النبي عليه الصلاة والسلام، وبايعوه على بذل أرواحهم في سبيل الله رضي الله عنهم، وفيهم أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، فمن هذا الذي لا يرضى عنهم إذا كان خالق الأكوان في عليائه قد رضي عنهم ؟!

فالمؤمن الصادق لا يفرِّق بين أحدٍ من رسله، ولا يفرِّق بين أحدٍ من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وليس عنده انتقاء، الانتقاء من ضلالات أهل الرأي، النَصُّ أولاً، وفهمك للنص الصحيح يبنى عليه عقيدة ثانياً، أما أن أبدأ بالرأي وأبحث له عن نصٍ يؤيِّده وأُدخل نصاً لا يؤيِّده هذا ليس هو الدين، هذه ضلالات أهل الرأي ؛ الرأي أولاً والنص ثانياً والنص في خدمة الرأي، فالنصُّ الذي يخدم هذا الرأي أقبله، وأعظِّمه، وأرفع مكانته، والنص قطعي الدلالة والثبوت، والذي لا يؤيِّد هذا الرأي أهمله أو أكذِّبه، صار هناك ألف دين، إذا بدأنا بالرأي يوجد ألف دين، أما إذا بدأنا بالنص فهناك دين واحد .

إن أردت جوهر الدين فعُد إلى أصوله كتاب الله وسُنَّة رسوله :

الشيء الذي ينبغي أن يكون هو أن هذا الإسلام الذي جاء به القرآن والذي جاء به النبي العدنان يجب أن يستمر كما بدأ إلى يوم القيامة، كيف يستمر ؟ يستمر بأن نمنع أن نزيد عليه أو أن نحذف منه، فإذا سمعتم كلمة تجديد، فالتجديد يعني أن نزيل عن الدين ما علق به مما هو ليس منه، هذا هو التجديد، وأوضح مثل هو : حينما نأتي ببناءٍ حجريٍ قديم، تراكمت عليه الأتربة والغبار حتى أصبح أسود اللون، فإذا أزلنا هذه الطبقة المسودَّة من على الحجر الأبيض الناصع، أرجعناه إلى نصاعته وبياضه وجماله، فهذا هو التجديد في الدين، إذا أردنا أن نجدِّد البناء ليس معنى ذلك أن نضيف عليه غرفةً، ولا أن نحذف منه طابقاً، التجديد أن نعيد له لونه الصافي، أن نزيل عن هذا البناء كل ما أضيف عليه، وأوضح مثل : اذهب إلى نبعٍ صافٍ عذبٍ زلال، واذهب إلى مصبِّ هذا النبع تجده أسوداً كالليل، من كثرة ما أضيف على هذا النهر من مياهٍ مالحةٍ سوداء . فإن أردت جوهر الدين فعُد إلى أصوله ؛ إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله :

((تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

فهذه التفرقة في العداوة هذه ليست من الدين في شيء، فاليهود لا يحبون سيدنا جبريل، يعادونه، يقول الله عزَّ وجل :

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ (97))

سيدنا جبريل مَلَك عظيم، بل هو رئيس الملائكة، وأنزل هذا القرآن على قلب النبي بإذن الله، هو عبدٌ مأمور، مخلوقٌ مأمور، فكيف تعاديه أنت ؟ وما ذنبه ؟

خصائص الفرق الضّالة :

أيها الأخوة حقيقةٌ ناصعة أضعها بين أيديكم : ما من فرقةٍ ضالَّةٍ في الإسلام على مدى الحِقَب، خلال التاريخ الإسلامي كله، ما من فرقةٍ ضالةٍ إلا وفيها أربع خصائص : أولاً تأليه الأشخاص، ثانياً اعتماد النصوص الموضوعة والضعيفة، ثالثاً تخفيف التكاليف، رابعاً النزعة العدوانيَّة، فإن وجدت فئةٌ تؤلِّه شخصاً، أو تعتمد نصَّاً ضعيفاً أو موضوعاً، أو تخفِّف التكاليف لدرجة أنها تجعل من الدين نمطاً يشبه النمط العصري الإباحي، أو ذات نزعةٍ عدوانيَّة فهي فرقة ضالَّة، والإسلام شامخٌ كالطود، وكل الانحرافات في الإسلام أصبحت في مزبلة التاريخ، وتلاشت كبيت العنكبوت، وبقي الإسلام بأصوله الصحيحة، ونصوصه الصحيحة، وقيمه الخالدة شامخاً كالجبل .

نحن أيها الأخوة مأمورون أن نرجع إلى أصل الدين، فأنا أعادي جبريل ولا أعادي النبي !! جبريل ليس له علاقة، هو أنزل هذا الكتاب على قلب النبي بإذن الله، هو مخلوقٌ مأمور، فافتعال العداوات

من شيَم أهل الضلالة، نحن عندنا طرفان الحق والباطل ؛ الله عزَّ وجل، ونبيُّه الكريم، وصحابته الكرام، والعلماء العاملون الصادقون، وأولياء الله الصالحون هؤلاء طرفٌ واحد، ومن أنكر شيئاً من كلام الله، أو من نبوَّة رسول الله، أو من حديث رسول الله، هذا الإنكار ينقله إلى الخندق الآخر .

أيها الأخوة الكرام :

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97))

حلاوة الإيمان :

المؤمن عنده ما يسمَّى بالولاء والبراء، هذا المعنى مستقى من أحاديث كثيرة، من أبرزها قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

هذا الحديث ينقلنا إلى موضوعٍ لا بد من أن نعالجه ـ دقيق جداً ـ هناك حقائق الإيمان، وهناك حلاوة الإيمان، الذي يشدُّك إلى الدين ليست حقائق الإيمان فحسب بل حلاوة الإيمان، والذي يبعدك عن الدين أن تفتقر إلى حلاوة الإيمان، حلاوة الإيمان شيءٌ يذوقه المؤمن وقد لا يستطيع أن يصفه، إن أردت أن تُسَمِّيَهُ سكينةً فهو السكينة التي تتنزَّل على قلب المؤمن، قال تعالى :

(ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة التوبة الآية : 26)

إن أردت أن تسميه نوراً يقذفه الله في قلب المؤمن فهو كذلك، إن أردت أن تسمي حلاوة الإيمان هذا التجلّي الذي يتجلَّى الله به على قلوب عباده المؤمنين هو كذلك، إن أردت أن تسمي حلاوة الإيمان هذا الذوق الرفيع الذي يعيش فيه المسلم، هذا الذوق الرفيع الذي يذهله عن كل شيء، فمن عرف الله زهد فيما سواه هذه حلاوة الإيمان، هذه التي تشدُّه إلى الدين، هذه التي تجعله يدفع الغالي والرخيص والنفس والنفيس، هذه التي تجعله كالمِرْجَل لا يهدأ، هذه التي تجعله يقدِّم كل شيءٍ لله عزَّ وجل، هذا الذي يرفعه إلى أعلى عليين، هذا الذي يجعله في مراتب الصِدِّيقين، حلاوة الإيمان .

ثمن حلاوة الإيمان ثلاثة أشياء :

1 - أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما :

أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، طبعاً قد يقول أحدكم والكلام سهل جداً : أنا أحب الله ورسوله أكثر من كل شيء، كلامٌ بسيطٌ سهلٌ يدَّعيه كل إنسان، ولكن علماء الحديث قالوا : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما عند التعارض ؛ فمثلاً أنت في أمسِّ الحاجة إلى المال، وعُرِضَ عليك مبلغٌ كبير تُحَلُّ به كل مشكلاتك، ولكن هذا المبلغ فيه شبهةٌ للدين إن أخذته لا يرضى الله عنك، فإذا وضعته تحت قدمِك وقلت : الله هو الغني، حينما تعارض هذا المبلغ من المال مع النَص، آثرت طاعة الله على قبض هذا المبلغ، الآن أثبتَّ لنفسك وللناس أن الله ورسوله أحبُّ إليك مما سواهما، عندئذٍ تذوق حلاوة الإيمان، قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ (24))

(سورة التوبة)

كل من حولك :

(أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (24))

(سورة التوبة)

كأن فعلت عملاً لا يرضي الله بل هو يرضي زوجتك، فعلت شيئاً لا يرضي الله بل يرضي أباك، فعلت شيئاً لا يرضي الله بل يرضي ابنك، فعلت شيئاً لا يرضي الله بل يرضي أخاك، أي أنك آثرت إرضاء هؤلاء المخلوقين على إرضاء خالق الأنبياء والمرسلين عندئذٍ أنت لا تُحِبُّ الله ولا ترجو رحمته، هنا المشكلة .

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا (24))

(سورة التوبة)

تسكن بيتاً، وبإمكانك أن تبقى فيه إلى نهاية حياتك بالقوانين، لأنك محمي بالقانون، لكن لك بيتاً آخر وبإمكانك أن تحلَّ مشكلة صاحب البيت ليزوِّج به ابنه، وأنت لك بيت قد يكون أقل مستوى، لكن ألا تفعل هذا إرضاءً لله عزَّ وجل ؟ فإذا كانت المساكن التي ترضونها، والتجارة التي تخشون كسادها مشبوهة، الاقتصاد في المعيشة خيرٌ من بعض التجارة، فإذا كانت تجارة المواد محرَّمة، أو طريقة التعامل محرَّمة، أو فيها شبهات، الاقتصاد في المعيشة خيرٌ من بعض التجارة .

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه بعد أن تثبت طاعته :

قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24))

(سورة التوبة)

أي إذا كان شيء من هذه الأشياء أغلى عليك من الله فالطريق إلى الله ليست سالكة، الطريق مُغْلَق .

أيها الأخوة، هذه حقيقة :

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ...))

[مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما عند التعارض، لكن صدِّقوا أيها الأخوة أنه :

((ما ترك عبد شيئاً لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[رواه أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنه]

لكن متى ؟ بعد أن تستقر، بعد أن يبدو صدقك، بعد أن يبدو إصرارك على طاعة الله، بعد أن تضحي بالغالي والرخيص والنفس والنفيس .

أتمنَّى أن أضع بين أيديكم حقيقةً مهمَّةً جداً تتضح من هذا المثل : إنسان يبيع الخمر في مطعم، تاب إلى الله توبةً نصوحاً، أليس الله قادراً على أن يجعل دخله اليومي عشر أضعاف حينما كان في المعصية ؟ ممكن، فلماذا يقلُّ دخله إلى الثُّلث ؟ ليدفع ثمن طاعته، ليشعره الله عزَّ وجل أنه ضحَّى في سبيل مرضاة الله، لو أعطاه الغلَّة مضاعفة لأصبحت الاستقامة تجارةً رابحةً أقبل عليها الكفَّار، الإنسان يريد ربحاً كثيراً، لو ألغى أحدهم الخمر فتضاعفت الغلَّة، فيأتي كافر فاسق ويلغي الخمر كذلك وهذا شيء يلفت النظر .

أحد المطاعم في مدينة من مدن سوريا، كتب صاحب المطعم : **" شرب الخمر ممنوعٌ بأمر الرب والرزق على الله "** ، على هذا المطعم إقبال منقطع النظير، فجيران هذا المطعم ـ المطاعم الأخرى ـ أصحابها ليسوا مسلمين كتبوا نفس العبارة ليستقدموا الزبائن .

بعد أن يدفع المؤمن ثمن الطاعة يرقى عند الله عز وجل :

لو أن الله عزَّ وجل حينما يضحي الإنسان، حينما يلتزم، فجأةً يعطيه عشرة أضعاف، لأصبحت الاستقامة تجارةٌ في الدنيا أقبل عليها الكفَّار، لذلك حينما ترفض بيع الخمر يقلُّ الدخل، فأنت إذا

صبرت على قلة الدخل، وعلى دخل قليل جداً لكنَّك أرضيت خالق الأكوان، بعد حين، بعد أن تثبت على هذا يعوِّض الله عليك أضعافاً مضاعفة، هذه نقطة مهمَّة جداً .

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة الآية : 28)

عندما منعتموهم من دخول المسجد الله الحرام ضعفت تجارة السياحة، لم يعد هناك سياح، فنادق فارغة، دور اللهو فارغة، المطاعم فارغة، فهذه السياحة دخل كبير جداً، قال :

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة الآية : 28)

كلمة

(فَسَوْفَ)

وليس الآن، بعد أن تدفعوا ثمن هذه الطاعة، تدفعوها جليَّةً واضحة، ترقون بها عند الله عزَّ وجل .

أريد من هذا الكلام أيها الأخوة أنه : ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه . فلذلك أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما عند التعارض .

2 ـ أن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله :

أن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله، هذا هو الولاء والبراء، يجب أن تحبَّ المؤمنين ولو كانوا ضعافاً، ولو كانوا فقراء، ولو كانوا في الدرجة الدنيا في المجتمع، ويجب أن تكره الكفَّار أعداء الله ولو كانوا أقوياء، ولو كانوا متألِّقين في الدنيا، لا تعجبك أموالهم، ولا أجسامهم، ولا أولادهم، هذا هو المؤمن .

يجب على المؤمن أن يكون من أولياء الحق :

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المائدة الآية : 54)

لا أن تكون بالعكس، قاسٍ جداً على المؤمن أما أمام الكافر القوي فأنت ضعيف جداً، مسالم جداً، هذا الذي يقسو على المؤمنين قسوة لا مبرِّر لها، ويستخذل أمام الأقوياء ويضعف، فهذا إنسان بعيد عن أن يكون مؤمناً .

أيها الأخوة الكرام، ساقني إلى هذا الكلام أن هذه الآية الكريمة تبيِّن أن الحق لا يتجزَّأ، يجب أن توالي الحق، أن تكون من أولياء الحق، مثلاً ـ وهذا المثل خطير ـ إن الذين يحبون فقط، ما فعلوا شيئاً، ما تكلَّموا ولا كلمة، ولا غمزوا، ولا لمزوا، ولا أشاروا، ولا نطقوا ببنت شفة، لكن :

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا (19))

(سورة النور)

أي ظهرت فاحشة، ارتاح، فإذا ارتحت لفاحشة شاعت بين المؤمنين، فاعلم علم اليقين أنك لست مؤمناً، وأنك في خندق المنافقين، لأن الله عزَّ وجل يقول :

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا(120))

(سورة آل عمران)

هل في الأرض كلّها أمٌ تتمنَّى فضيحة ابنتها ؟ لا، لا تجد، إلا أماً واحدة وهي ليست أم هذه البنت، تدَّعي أنها ابنتها وهي ليست كذلك، فأنت حينما تفرح لفاحشةِ شاعت بين المؤمنين فأنت في خندق المنافقين قطعاً، وسأعطيك مقياساً دقيقاً، حينما تفرح من أعماق أعماقك بقوَّة أخيك، وصحَّة أخيك، وغنى أخيك، ونجح أخوك بشهادة عالية، تزوَّج، اشترى بيتاً، وفّق في دعوة، وأنت أعنته، هذه والله علامة إخلاصك وإيمانك، أما إذا نافسته، وحسدته، وطعنت به حسداً من عند نفسك وبغياً وعدواناً، فهذه علامة أهل النِفاق .

أهل الإيمان وحدةٌ لا تتجزّأ والخصومات بين المؤمنين دليل سقوطهم من عين الله :

أنا أُرَكِّز في هذا الدرس على أن أهل الإيمان وحدةٌ لا تتجزَّأ، والخصومات بين المؤمنين، والعداوات بين المؤمنين دليل سقوطهم من عين الله، لا تجد قوماً الإله عندهم واحد، النبي واحد، الكتاب واحد، السُنَّة واحدة، الهدف واحد، ثم يختلفون لماذا العداوة ؟ ما الذي يضعف المسلمين اليوم ؟ تشتُّتهم، تفرُّقهم، عداواتهم، طعنهم، يطعن بعضهم ببعض، هذا والله دليل عدم إخلاصهم، ولو كنت مخلصاً لله لعاونت أخاك ولم تنافسه، وأقول لكم هذه الحقيقة وأعيدها كثيراً : هناك دعوةٌ خالصةٌ إلى الله، وهناك دعوةٌ إلى الذات مغلَّفةٌ بدعوةٍ إلى الله، دعوة إلى الذات لكنها مغلَّفةٌ بدعوةٍ إلى الله، الدعوة إلى الله من خصائصها الاتباع لا الابتداع، **" إنما أن متَّبع ولست بمبتدع "** ، من خصائصها التعاون لا التنافس .

لفت نظري أخ كريم، كان مسافر في بلد وعاد، وهو أهل أن يكون داعيةً، قلت له : أتحبُّ أن أُهَيِّئ لك منبراً ؟ قال : لا أنا أعاونكم، نحن واحد . هذا الذي ينكر ذاته ويعاون أهل الحق له أجرٌ كأجرهم، القضيَّة قضية تحقيق رسالة وليست قضية منافسة، ولا قضية مكاسب، ولا قضية مناصب، قضية أن تكون في خدمة الحق .

بالمناسبة أُؤكِّد لكم أيها الأخوة، لا تقلق على دين الله أبداً، إنه دين الله، والله عزَّ وجل متكفِّلٌ بنصرة دينه ـ إن للكعبة ربَّاً يحميها ـ ولكن اقلق ما إذا سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون جندياً للحق، اقلق على هذه، واسأل نفسك أيها الأخ : ماذا قدَّمت لله غداً ؟ قد تكون كل أعمال المؤمن ونشاطاته لخدمة نفسه ؛ عمله، بيته، مكانته، تأسيس بيته وراحته . ولكن ماذا فعلت في سبيل الله ؟

ما الذي فعلته من أجل أن يرضى الله ؟ لو أن الله أوقفك بين يديه يوم القيامة يقول لك : يا عبدي ماذا صنعت من أجلي ؟ يا رب اشتريت بيتاً، وسكنت في البيت، يا رب اشتغلت وحصَّلت دخلاً كبيراً أتاح لي أن آكل أطيب الطعام، وأن أرتدي أجمل الثياب، وأن أسافر . ولكن هذا من أجلك فماذا فعلت من أجلي ؟ لا بد من ساعة تأمُّل ذاتيَّة، يسأل الواحد نفسه : ماذا فعلت من أجل الله ؟

الله عزَّ وجل لن يقبل دعوى محبَّته من دون دليل :

والله أيها الأخوة في أعماق أعماقي أشكر أخوة كثيرين، هذا أخ طبيب يقول لك: أعالج أي إنسان يأتي من طرفك مجاناً وهذه بطاقتي وهذا توقيعي، هذا قدَّم الذي عليه، اختصاصه طب، أراد أن يقدِّم اختصاصه لكل فقير، تجد صاحب مخبر يقول : أي إنسان يأتي من طرفكم وتعرفه فقيراً أنا أُحلِّل له من دون مقابل، فبذلك أدَّى الذي عليه، صاحب مصلحة يقول : أنا أقدِّم خبرتي لبيت الله إذا توجد خدمة فأنا جاهز، وهذا رقم هاتفي، فأنت اسأل نفسك : أنا ماذا قدَّمت في سبيل الله ؟ أنا ألاحظ أحياناً أخاً منذ خمسة وعشرين سنة ما غاب درساً واحداً، وقد كنت أتمنَّى أن يقدِّم شيئاً، أبداً إنه مستمع من الطراز الأول فقط ولا يقدِّم شيئاً، قدِّم لله عزَّ وجل دون أن أعلم .

قدم لله شيئاً من أجل أن يرضى، يا رب عاملت زوجتي معاملةً طيِّبةً لعلَّك ترضى عني، ربَّيت أولادي كما تريد، يا رب تحرَّيت الحلال وكان قليلاً، ورفضت الحرام وكان كثيراً، يا رب آثرت طاعتك على الدنيا وما فيها . قدِّم شيئاً لله عزَّ وجل، فالاستماع جيِّد لكن لا يكفي .

كنت قبل ساعةٍ في عقد قِران، والمنشدون أنشدوا إنشاداً طيِّباً في مدح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فكان تعليقي على إنشادهم بأن قلت : الإنشاد طيِّب، وأن تمدح النبي شيءٌ عظيم، وشيء يثلج الصدر، ولكن لو أن ابناً جاهلاً لا يقرأ ولا يكتب، وله أبٌ عالِمٌ كبير، أمضى هذا الابن كل حياته في مدح أبيه أمام الناس، هل يرتقي ؟ أبداً، المديح طيِّب يثني على أبيه ولكن هو لا يدرس .

مرَّةً في العمرة صليت في مصلَّى النبي عليه الصلاة والسلام وبكيت كثيراً والله، ثمَّ جاءني خاطر فقلت: لو أن إنساناً يحمل أعلى الشهادات في العالَم، وله مئة مؤلَّف، وعنده مستخدَم ـ حاجب ـ ففي غيبة هذا العالِم الكبير جاء هذا الحاجب وقفز وجلس على كرسيِّ سيده . هل يرقى ؟ لا والله لا يرقى، أما إذا نال أقل شهادة سار في طريق سَيِّدِهِ، أخذ كفاءة، أخذ الثانوية، دخل جامعة، إذا بدأ يدرس سلك في طريق سيده، أما في غيبة سيده قعد مكانه، أمسك الهاتف كما يمسكه، ارتدى ثوباً أبيضاً كما يرتدي، هذا شيء لا يقدِم ولا يؤخِّر، أنا لست ممن يحارب التبرُّك، لا، ولكنني أريد أن لا نكتفي بمدح الرسول، نكتفي أن نمدحه فقط ولا نطبِّق سُنَّته، والله عزَّ وجل لن يقبل دعوى محبَّته من دون دليل، قال :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 31)

الوحي نوعان ؛ وحيٌ متلو هو القرآن ووحيٌ غير متلو هو سُنَّة النبي العدنان :

أيها الأخوة، محور هذا الدرس أن الحقَّ لا يتجزَّأ، الحق وحدة كاملة، فإن كنت محبَّاً لله ينبغي أن تكون محباً لرسول الله، هناك دعوة واضحة جداً : نكتفي بالقرآن ولا نريد السنَّة، إنها تعبّر عن مرحلةٍ مضت، إنها فهمٌ مرحلي لحُقْبَةٍ معيَّنة، هذه دعوة رائجة الآن : نكتفي بالقرآن ولا نريد السُنَّة، مع أن الله عزَّ وجل يقول :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

هناك وحيٌ متلو هو القرآن، ووحيٌ غير متلو هو سُنَّة النبي العدنان .

3 ـ يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُلقى في النار :

يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُلقى في النار، أي ما دامت الأمور جيِّدة فأنا مع الحق، الأمور صعبة ترك الجامع، ترك الالتزام، ترك الصلاة، هذا على حرف، هذا الذي :

(يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ)

(سورة الحج الآية : 11)

هذا ليس من الذين يحبهم الله عزَّ وجل :

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (97))

الكتب السماويَّة يؤيِّد بعضها بعضاً، فالإنجيل يؤيِّد التوراة، والقرآن يؤيِّد التوراة والإنجيل، وما في التوراة والإنجيل والقرآن موضوعٌ واحد .

الحب في الله عين التوحيد والحب مع الله عين الشِرك :

قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

هذا يقودنا إلى موضوعٍ آخر هو أن هناك حباً في الله وحباً مع الله، فإذا نقلتك محبة أهل الإيمان إلى محبة النبي فهذا حبٌ في الله، وإذا نقلتك محبة النبي إلى محبة الله فهذا حبٌ في الله، إذا نقلتك محبَّتك للقرآن إلى محبتك لله هذا حبٌ في الله، إذا نقلتك محبتك لبيت الله الحرام إلى محبة الله فهذا حبٌ في الله محبة، كل شيءٍ ينقلك إلى الله حبٌ في الله، أما إذا نقلك الشيء إلى البعد عن الله فهذا حبٌ مع الله، الحب في الله عين التوحيد، والحب مع الله عين الشِرك، ونعوذ بالله أن نحبَّ مع الله أحداً .

زاد العلماء على ذلك : الحبُّ مع الله، لو أن إنساناً بعيداً عن الله أعطاك عطاءً كبيراً فأحببته لعطائه فهذا شرك، لو أن الذي يحب الله تضايقت منه وكان على حق فكرهته فهذا شرك، ينبغي أن تحبَّ المؤمنين ولو أزعجوك، وينبغي أن تكره الكفَّار والمنافقين ولو أكرموك، هذا هو الولاء والبراء .

(فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98))

إذا عادى الإنسان الملائكة فهو يعادي الله عزَّ وجل، عادى الرُسُل فهو يعادي الله عزَّ وجل، عادى جبريل فهو يعادي الله عزَّ وجل، عادى ميكال :

(فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98))

ذم العرب باستمرار وبغضهم مفارقة للدين :

خاطب رسول الله أحد الصحابة باسمه، وهو سلمان الفارسي، فقال له :

((يَا سَلْمَانُ لا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَبْغَضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ ؟ قَالَ : تَبْغَضُ الْعَرَبَ فَتَبْغَضُنِي))

[الترمذي عن سَلْمَانَ رضي الله عنه]

مشكلة كبيرة جداً أن تذم العرب باستمرار، يجب أن تذم الأناس الشاردين عن الله، الأمم التي تبدو في عينك متحضِّرَة وهم وحوش، ألا تراهم ماذا يفعلون في العالَم ؟ وحوش من أعتى أنواع الوحوش، الميِّزة لما يجري في العالَم الآن هي أن هذه الأقنعة المزيَّفة سقطت، وهذا العالَم الراقي المتقدِّم الذي فيه حقوق الإنسان وقيم وحضارة وعلم أصبح الآن بالوحل، الذي يفعله بنو البشر الشاردون عن الله عزَّ وجل، يفعلون شيئاً تندى له البشريَّة، تستحي والله أن تنتمي إلى الجنس البشري مما يجري في بلاد أخرى، هذا الإنسان البعيد عن الله وحش، والله حينما نقول : وحش، يجب أن تعترض علينا الوحوش لأننا نسبُّهم بهذا، والله أشرس من الوحوش، الدين يسمو بالإنسان، يجعله في أعلى مرتبة، إذاً :

(مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98))

عداوة فقرة من فقرات الحق تنقلك إلى عداوة الله عزَّ وجل، هناك شيء مؤلم جداً أتمنَّى أن لا يكون إطلاقاً، يدخل إنسان إلى مسجد، قد يؤذيه أخ كريم عن قصد أو عن غير قصد، فمن ضعف إيمان الثاني يفارق الدين كُله، يقول لك : أهل الدين غلط، فهذا غلط كبير، المفروض إذا كان الإنسان في مسجد أن يكون سفير المسلمين، يجب أن يعلم علم اليقين أنه ربَّما إذا أساء لإنسان أن تسبِّب هذه الإساءة للطرف الثاني أن يفارق الدين كله، أنت مهمَّتك أن تحبِّب، مهمتك أن تقرِّب، مهمتك أن تَدْعَم، مهمتك أن تكون مثلاً أعلى، فانتبه، أنت على ثغرةٍ من ثغر الإسلام فلا يؤتينَّ من قِبَلِك .

عداوة الملائكة والأنبياء وأهل الإيمان نوعٌ من أنواع الكفر :

بالمناسبة : ألف تصرُّف ذكي مخلص يشدُّ إنساناً إلى جهة أو إلى شيء، تصرُّف أحمق واحد يبعدك عن هذا الشيء، فقبل أن تسئ لمؤمن عد للمليون، انتبه قبل أن تقسو عليه فأنت تمثّل الإسلام، كل واحد منكم في محيطه يمثّل الدين، أنت محسوب على أسرتك وعلى من حولك أنك شيخ، يقول لك : (فلان تشيّخ)، طلب العلم، صار في الجامع الفلاني . فأنت كل حركاتك وسكناتك مرصودة تحت الأضواء الكاشفة، إذا أخطأت تسبِّب السمعة السيئة لمن حولك ولجامعك، فالآيتان اليوم :

(مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98))

هذا كفر، عداوة الملائكة، عداوة الأنبياء، عداوة أهل الإيمان نوعٌ من أنواع الكفر، وقد قال عنه العلماء: كفرٌ دون كفر .

أيها الأخوة الكرام، محور هذا الدرس أن الحق لا يتجزَّأ، وأن الاتباع والولاء هو الذي ينبغي أن نفعله كمؤمنين، ثم إن عداوة جزءٌ من الدين تجرُّك إلى عداوة الدين كله ـ هذه حقيقة خطيرة ـ ثم يقول الله عزَّ وجل :

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99))

هناك علاقة بين التكذيب والفسق وبين الإيمان والاستقامة، سأدلُّك على الطريق، لمجرَّد أن تستقيم على أمر الله تتقبَّل الحق، تتقبَّل الحق بشغفٍ شديد، ويسعدك الحق لأنك مستقيم، ولا تقبل الحق بقدر الفسق .

المؤمن الصادق يتوب توبة واحدة أما ضعاف المؤمنين كلّما عقد توبةً نقضها :

قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ (99))

آيات بيِّنات، واضحات، نيِّرات، مُقنعات، باهرات :

(وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99))

مثلاً يقول لك إنسان دخله ربوي : هذا الدين لا يتناسب مع العصر، يقول لك : هناك آيات غير معقولة، أمعقول أن يجمد الإنسان ماله ؟ لماذا بدأ يشكُّ في مصداقية كلام الله؟ لأنه انطلق من الربا، إنسان يعيش الاختلاط بكل بشاعته لا يقبل آيات الحجاب أبداً، يرفضها، يقول لك : هذا الحجاب بدعة جاءتنا في العهد العثماني، استمع إلى حجج الفَسَقَة كلهم يتناغمون، كلهم يرفضون الحق، لأنهم إذا رفضوا الحق دافعوا عن أنفسهم، توازنوا، لو قبل معك الحق وهو غير مستقيم انكشف واختل توازنه، صار عنده مشكلة، فلا بد أن يرفض الحق كي يعيد التوازن، فلذلك :

(وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (100))

المؤمن الصادق يتوب توبة واحدة، أما ضعاف المؤمنين كلَّما عقد توبةً نقضها، تغلبه نفسه :

(رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا)

(سورة المؤمنون الآية : 106)

إذا كان الإيمان قوياً تضعف الشهوة لكن ما دام الإيمان ضعيفاً فالشهوة قويَّة :

قال تعالى :

(أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100))

لأن إيمانه ضعيف وشهوته قويَّة، أما إذا كان الإيمان قوياً تضعف الشهوة، ما دام الإيمان ضعيفاً فالشهوة قويَّة، الإنسان مندفع ومع اندفاعه يحتاج إلى مقود، هو الشرع، إذا لم يكن هناك مقود فالحادث حتمي، اندفاع بلا مقود فالحادث حتمي، فكل إنسان عنده شهوات يندفع إلى تحقيقها، ووقوعه في حادث مروِّع أمر حتمي إذ لم يوجد عنده منهج يسير عليه :

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101))

كانوا يستفتحون على الذين آمنوا، سيأتي نبيٌّ، وسنؤمن به، ونتفوَّق عليكم :

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (89))

(سورة البقرة)

وقال :

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا (102))

وهذه الآيات إلى الدرس القادم إن شاء الله .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (38- 95):تفسير الآيات 101 - 102، السحر والدّجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-05-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الحق صِرف والباطل متنوِّعٌ:

مع الآية الثانية بعد المئة، وقد سبق هذه الآية قوله تعالى:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101))

نبذوا واتبعوا، وأي إنسان لا بد من أن يدرك وأن يتَّبع، فالمؤمن ترك الباطل واتبع الحق، والكافر ترك الحق واتبع الباطل، والويل ثمَّ الويل ثم الويل لمن أعرض عن الحق واتجه إلى الباطل، لمن نبذ كتاب الله المُنَزَّلَ من عند الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ حبل الله المتين، صراطه المستقيم، طريق سعادة الإنسان، منهجه القويم ـ واتبع أهواء الناس .

أنت أيها الأخ الكريم لا بد من أن تدع شيئاً وأن تأخذ بشيء، فالمؤمن ـ كما قلت قبل قليل ـ نبذ أقوال البشر، وأهواء البشر، وخرافات البشر، وتخرُّصات البشر واتبع ما أنزل إلى النبي عليه الصلاة والسلام من عند الله، هناك حقٌ صِرف، وباطلٌ متنوِّعٌ .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية: 153)

الحق لا يتعدَّد:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ)

(سورة يونس الآية: 32)

لا يرسم بين نقطتين إلا مستقيمٌ واحد، وأي خطٍ مستقيم يأتي فوق الخط المستقيم، الحق لا يتعدَّد، وحينما تستقيم على أمر الله تلتقي مع أخيك حتماً، لقاء حتمي ما دمت أنت على صراطٍ مستقيم وأخوك على صراط مستقيم فالخطان المستقيمان يتطابقان، أية تفرقةٍ بين مؤمنين هذا يعني أن أحدهما على حق والثاني على باطل .

مثل بسيط: لو أن هناك طريقاً مستقيماً ينتهي بهدف وله بداية، وانطلق اثنان على هذا الطريق بسرعةٍ واحدة، وباتجاه هدفٍ واحد، لقاؤهما حتمي، إلا في حالةٍ واحدة هي أن يسلك الأول هذا الطريق باتجاه هذا الهدف، وأن يدَّعي الثاني أنه على هذا الطريق وهو ليس كذلك، إذاً لا يلتقيان .

الحق لا يتعدد:

المعركة بين حقين لا تكون، مستحيل، لأن الحق لا يتعدَّد، وبين حقٍ وباطل لا تطول لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي لأن الله تخلَّى عنهما معاً، فالأقوى ينتصر، والأكثر حيلةً ينتصر، والأذكى ينتصر.

لذلك: هم نبذوا واتبعوا، تركت ملَّة آبائي واتبعت الحق، فأنت لا بد من أن تسأل هذا السؤال: ما الذي تركته في سبيل الله ؟ وما الذي أقبلت عليه في سبيل الله ؟ الإنسان قد يدع حرفةً فيها معصيةٌ لله، هل تركت شيئاً في سبيل الله ؟ هل أعرضت عن نظريَّةٍ باطلة؟ عن تفسيرٍ سخيف ؟ عن اتجاهٍ استحوذ على الناس، هل أعرضت عن بلوى عامَّة عمَّت الناس جميعاً ولم تعبأ بها ؟ هل أنت مع المجموع ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تكونوا إمَّعة))

[الترمذي عن حذيفة]

من هو الإمعَة ؟ أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت . سؤال وجيه وخطير: ما الذي تركته في سبيل الله وما الذي اتبعت ؟

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

وقال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان الآية: 15)

الولاء والبراء من خصائص المؤمن:

هل عندك ما يسمَّى بالبراء والولاء ؟ هل توالي المؤمنين ولو كانوا ضعافاً، ولو كانوا فقراء ؟ وهل تتبرَّأ من الكفار والمنحرفين ولو كانوا أقوياء وأغنياء ؟ الولاء والبراء من خصائص المؤمن، لا بد من أن تتبرَّأ وأن تتولَّى، ولا تكن كالذي يتولَّى أهل الكفر لما عندهم من دنيا، لما عندهم من مكاسب، لما عندهم من عطاء، ويعرض عن أهل الإيمان لضعفهم، النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال لعدي بن حاتم وكان ملكاً، قال له: **" لعلَّه إنما يمنعك من دخولِ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم "** . كان الصحابة فقراء جداً، أما الصناديد والأقوياء، وأصحاب الوجاهة، والبأس، والقوة، والأمر، والنهي، كانوا كفاراً:

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِي الرَّأْيِ (27))

(سورة هود)

إنك حينما تدع أهل الكفر ولو كانوا أقوياء، وتؤوي إلى أهل الإيمان ولو كانوا ضعفاء فقد واليت وتبرَّأت .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (13))

(سورة الممتحنة)

وقال:

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ (51))

(سورة المائدة)

لكن ضعاف الإيمان يوالون من حادَّ الله ورسوله، لما عندهم من دنيا، لما عندهم من مكاسب، يقول لك: شركة رابحة جداً تبيع الخمر، فيقول: أنا مضطر ماذا أفعل ؟ قد يوظِّف ماله في شركة ترتكب المعاصي، وقد يعمل في مهنة تقوم على معصية الله ابتغاء دُنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

المؤمن يعتزُّ بدينه وبإسلامه وبسنة نبيِّه عليه الصلاة والسلام:

أول شيء بالدرس أنه لا بد من تركٍ ولا بد من تمسُّك، لا بد من إعراضٍ ولا بد من إقبال، ما الذي تركته في سبيل الله ؟ وما الذي أقبلت عليه في سبيل الله ؟ هل انتقلت من خندقٍ إلى خندق ؟ هل انتقلت من موقعٍ إلى موقع ؟ هل انتقلت من نمط معيشةٍ إلى نمطٍ آخر؟ هل انتقلت من طريقةٍ يألفها الناس وفيها بلوى عامَّة إلى طريقةٍ يحبها النبي عليه الصلاة والسلام وهي نادرةٌ .

((إن الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء))

[الترمذي عن أبي ملحة رضي الله عنه]

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طوبى للغرباء" . قيل: ومَن الغرباء؟ قال: "قوم صالحون قليل في قوم سوء كثير مَن يعصيهم أكثر مِمَّن يطيعهم))

[رواه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر]

قال تعالى:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101))

نبذوا واتبعوا، المؤمن ينبذ طريقة أهل الكفر، قيَمَ أهل الكفر، مبادئ أهل الكفر، الأنماط المعيشيَّة لأهل الكفر، المؤمن لا يرضى أن يقلِّد أهل الكفر في بيته، هناك بيوتات المسلمين ـ مع الأسف الشديد ـ يقلِّدون أهل الكفر في أكثر احتفالاتهم، ونشاطاتهم، وسفرهم، وإقامتهم، بل إن نصف كلماتهم ليست عربيَّة، المؤمن يعتزُّ بدينه ويعتزُّ بإسلامه، ويعتزُّ بسنة نبيِّه عليه الصلاة والسلام .

قُدِّم شيطان الإنس على شيطان الجن لأن خطره أشد:

أيها الأخوة:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ (102))

الشياطين هم عصاة الجن، والجنُّ فيهم المؤمنون وفيهم الكافرون:

(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً(11))/p>

(سورة الجن)

الشياطين هم العصاة من الجن الذين عصوا الله عزَّ وجل، فالجن منهم كفار ومؤمنون، والمؤمنون منهم طائعون وعصاة، وكل من عصى الله عزَّ وجل وخرج عن منهجه فهو شيطان ولو كان إنساناً، والدليل:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ)

(سورة الأنعام)

قُدِّم شيطان الإنس على شيطان الجن لأن خطره أشد، إنسان يسكن إلى جوارك، زميلك في عملك، رفيقك في دراستك، جارك في بيتك، يحمل شهادة كما تحمل، يعيش كما تعيش لكنَّه شيطان يدعوك إلى المعصية، يدعوك إلى العَصْرَنَة، يدعوك إلى التحلُّل من كل منهجٍ سماوي، يدعوك إلى كسب المال الحرام، يتَّهمك بالجنون إن لم تكسب مالاً حراماً، إن قنعت بالحلال ولو كان قليلاً ولم تطمع بالحرام ولو كان كثيراً يتَّهمك بالجنون، هذا شيطان الإنس، وقُدِّم شيطان الإنس على شيطان الجن لأن شياطين الجن يحتاجون إلى دروسٍ من شياطين الإنس .

المعركة بين الحق والباطل مستمرَّة:

قال تعالى:

(وَاتَّبَعُوا (102))

قد يقول قائل: لقد كان سياق الآية أن يقول الله عزَّ وجل: واتبعوا ما تلت الشياطين على مُلك سليمان ـ ما تلت الشياطين، لكن الله عزَّ وجل يقول:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو (102))

معنى هذا أن المعركة بين الحق والباطل مستمرَّة إلى يوم القيامة، ليست هذه قصَّةٌ وقعت وانتهت، شياطين الإنس والجن يتلون الباطل، يلقون الباطل:

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26))

(سورة إبراهيم)

الكلمة الباطلة تطير في الآفاق، وقد يدين مئاتُ الملايين بدينٍ باطل، وقد يعبدُ خمسمئة مليون البقرة، يعبدونها من دون الله، وقد يعتقد مئات الملايين أن إلهَهُم هو المال:

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية الآية: 23)

المعركة بين الحق والباطل مستمرَّة:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ (102))

بعد أن بُعث النبي الكريم أي شيطانٍ أراد أن يسترقَ السمع أتبعه شهابٌ ثاقبٌ فأحرقه:

أيها الأخوة، فيما مضى كان للشياطين مقاعد للسَمع، يستمعون إلى الأوامر التي تحملها الملائكة إلى الأرض، وكانوا يلقون إلى أوليائهم الكفار بعض هذه الأوامر، هذا ورد في القرآن الكريم:

(وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ)

(سورة الجن الآية: 9)

لكن بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(8))

(سورة الجن)

أي شيطانٍ أراد أن يسترقَ السمع أتبعه شهابٌ ثاقبٌ فأحرقه، فلذلك لجأ الشياطين إلى السِحر، ومن سحر فقد كفر، السحر مأخوذ من السَحَر، والسَحَر قُبَيْلَ الفجر، أي بين الظُلمة والضوء الصور تختلط، الساحر مهمَّته أن يُخَيِّل للمسحور شيئاً لا علاقة له بالواقع، أن يرى شيئاً لا وجود له:

(يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(66))

(سورة طه)

إنها لا تسعى ولكنهم سُحروا:

(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(116))

(سورة الأعراف)

من خلال هذه الآيات يتضح أن السحر هو أن تسيطر على المسحور فتجعله يرى شيئاً لا وجود له

السحر أن تسيطر على المسحور بحيث تجعله يرى ما لم يُرَ:

حدَّثني صديق ذهب إلى الهند، رواها لي مباشرةً: أنه رأى ساحراً أمسك بحبلٍ وقذفه إلى الأعلى، فعلِقَ في الأعلى، أمر غلامه أن يصعد على هذا الحبل، فصعد على هذا الحبل حتى غاب عن الأنظار، أمره أن يرجع فلم يرجع فتبعه، فإذا برأسه يقع مقطوعاً وبيديه، لقد غضب الساحر من غلامه الذي لم يرجع، كان هناك سائح يصوِّر، صوَّر هذا المشهد بكل تفاصيله، فلمَّا أراد أن يظهر هذا الفيلم لم يجد شيئاً

(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(116))

السحر أن تسيطر على المسحور بحيث تجعله يرى ما لم يُرَ، إذا مشى الإنسان في الظلام وكان خائفاً يرى أشباحاً تتحرَّك، ليس في البيت شيء، لكن الظلام الدامس، والخوف الشديد، وضعف النفس جعلا الإنسان يرى أشخاصاً يتحرَّكون، علماء النفس يضعون بقعة حبر فيراها كل إنسان بشكل، القضيَّة نفسيَّة، يُعبَّر عنه في علم النفس بالتنويم المغناطيسي، أي يستطيع المنوِّم أن يُري المنَوَّمين أشياء لا وجود لها إطلاقاً والآية واضحة:

(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(116))

(سورة الأعراف)

وقال:

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(66))

(سورة طه)

هي لا تسعى، الساحر يستطيع أن يسحر عيون المسحورين ولكن أحداً لا يستطيع أن يسحر عينيه

الدعاء والاستعاذة بالله هما ما يبطل السحر وليس الدجل:

سحرة فرعون حينما رأوا العصا أصبحت ثعباناً مبيناً هم سحروا لكنهم لم يُسْحَروا:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ(46)قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(47)رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ(48)قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ(49))

(سورة الشعراء)

إلى آخر الآيات حتى قالوا:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

أخواننا الكرام، شائعٌ جداً في العالم الإسلامي أن هناك شيوخاً، لهم عمائم خضراء، يتعاونون مع الجن ليفكوا السحر، ليحبِّبوا الزوجة إلى زوجها، هذا كلُّه دجلٌ ما بعده دجل، ليس إلا الله، وليس إلا الدعاء، وليس إلا أن تستعيذ بالله عزَّ وجل، هؤلاء السحرة يُدَجِّلون وقد يكون لهم مظهر ديني، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من سحر فقد كفر))

[مجمع الزوائد عن عمران بن حصين]

أدلة من القرآن الكريم عن أهمية الاستعاذة بالله:

قال تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنْ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنْ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(6))

(سورة الجن)

الساحر يعيش فقيراً ويموت فقيراً، ويقنع الناس أنه يفعل ما يريد، قرأت كتاباً فيه بعض الجرائم المُعَلَّلة، رجل يعمل في حقل مكافحة الجريمة، من خلال خبراته ألَّف كتاباً فيه بعض القصص عن بعض الجرائم الواقعيَّة ؛ إحدى المسجونات امرأةٌ تعمل في السحر، اعترفت أنها ترشد المرأة إلى أن تطيع زوجها، طبعاً تدخلها أولاً إلى غرفة مظلمة، والبخور، وترتدي هذه المرأة السواد، وشعرها مُضَّطرب، تحيطها بجو كهنوتي، ثم تأمرها أن تطيع زوجها، وأن تتزيَّن له، وأن تخدمه، الذي أمرتها به هو سببٌ علمي لمحبَّة زوجها لها، لكن هذه المرأة الغبيَّة تتوهَّم أن الساحرة استطاعت أن توفِّق بينها وبين زوجها، علماً أن الأوامر الجزئية التي أعطتها إيَّاها هي كافيةٌ كي تحبِّب المرأة بزوجها والعكس، فيجب أن نتحرَّر من هذه الأوهام أيها الأخوة، ليس القضاء على الشيطان إلا:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ(36))

(سورة فصلت)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ(201))

(سورة الأعراف)

وقال:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(1)مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(2))

(سورة الفلق)

وقال:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ(1)مَلِكِ النَّاسِ(2)إِلَهِ النَّاسِ(3)مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ(4))

(سورة الناس)

الذي يخنُس، يرتدُّ سريعاً، معك سلاح خطير، يكفي أن تستعيذ بالله بقلبٍ حاضر فينتهي عمل الشياطين جميعاً .

قدرة الشيطان على الحركة السريعة و التشكّل:

قال العلماء: الشيطان له قدرة على الحركة السريعة، وعلى التشكُّل، فقد يتشكَّل بشكل إنسان، أو بشكل حيوان، أو جماد، أو نبات، على كلِ حينما يتشكَّل بهذه الصورة تحكمه قوانين الصورة . ورد في بعض الأحاديث أن النبي رأى شيطاناً فأراد أن يربطه بسارية المسجد ليطلع عليه الصحابة،

لكنه اختفى سريعاً . أي إذا تشكَّل الشيطان بشكل تحكمه قوانين هذا الشكل، قال العلماء: لو تشكَّل الشيطان إنساناً وأطلقت عليه النار لمات فوراً، تحكمه قوانين هذه الصورة، فلذلك بصورة سريعاً ما يظهر ويختفي، أما هو حقيقته:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف الآية: 27)

على كلٍ معك سلاح فتَّاك:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(1)مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(2))

(سورة الفلق)

الآن قلَّما تجد من يشكو من الشياطين، لأن شياطين الجن تتعلَّم من شياطين الإنس، الآية معكوسة الآن، لعلَّ شياطين الجن يستعيذون من شياطين الإنس .

كل علاقةٍ بين الإنس والجن هي علاقة إضلال وتزوير :

قال تعالى:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ (102))

كان ذلك على عهد المَلِكِ سليمان النبي، قالوا في كتب بني إسرائيل: أن سليمان أنشأ ملكه على السحرة والشياطين، سليمان ارتدَّ عابد وثن، وسمح للوثنين أن ينشئوا معابدهم، كلامٌ ترويه كتب بني إسرائيل لا أساس له من الصحَّة خرافاتٌ وأضاليل وأكاذيب:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ (102))

قالوا: أن سليمان مُلكه في خاتم، استطاع إنسان أن يأخذ هذا الخاتم ففقد ملكه، قصص لا يحسن بنا أن نعيدها وأن نذكرها لأنها لا وجود لها، أنبياء يرتدون إلى عُبَّاد صنم، أنبياء ينشؤون معابد للأوثان، أنبياء يزنون ببناتهم، هكذا في التلمود، إن ما جاء في التلمود وما جاء في كتب بني إسرائيل عن الأنبياء شيء لا يقبل إطلاقاً .

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ (102))

سليمان ما كفر:

(وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (102))

الشياطين يعلِّمون الناس السحر، يتعاونون مع الإنس لإبطال الحق وإظهار الباطل، يتعاونون مع الإنس لشيوع المعصية، فكل علاقةٍ بين الإنس والجن هي علاقة إضلال، كل علاقةٍ بين الإنس والجن هي علاقة تزوير، هي علاقة صرف الناس عن الله عزَّ وجل، وعن دين الله، وعن كتاب الله

كل شيء لم يرد في السنَّة ينبغي ألا نفعله لأنه لا نفع منه:

بالمناسبة: حقيقة دقيقة جداً، ما من شيءٍ يقرِّبنا إلى الله عزَّ وجل إلا أمرنا النبي به، وما من شيءٍ يبعدنا عن الله عزَّ وجل إلا نهانا النبي عنه، فإذا كان التعاون مع الجن نافعاً، وينفعنا، ويفيدنا، ويقرِّبنا لكان الأولى أن يأمرنا النبي به، والنبي عليه الصلاة والسلام في قول العلماء: لا يؤخِّر بيان الشيء عن وقته ". لأنه معصوم، نبيٌ مرسل، فهل من الممكن أن يكون هناك نفع مع الجن بالتعاون معهم، والنبي عليه الصلاة والسلام لم يأمرنا بذلك ؟! هو أمين على وحي السماء، أمين على هذه الرسالة، إذاً كل شيء لم يرد في السنَّة ينبغي أن لا نفعله لأنه لا نفع منه:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (102))

أنا أقول لكم: السحر منتشر في بلاد المسلمين، وقد ذكر لي أخ ـ جزاه الله خيراً ـ أنه شاهد مناظرة في بعض بلاد الخليج، بين علماء مسلمين وبين سحرة، فظهر دجلهم، وكذبهم، وجهلهم بشكلٍ فاضح .

الساحر ليس على شيء أما المؤمن معه كتاب الله، معه منهج الله، معه سُنة رسول الله .

وأنا أحذِّر أيها الأخوة، بيوت فيها ساحرة، فيها امرأة آخَتِ الجنَّ، ترغِّب الناس في أشياء مقابل أجور باهظة، مقابل دجل . سمعت أنه إذا فتاة فاتها قطار الزواج تلجأ إلى بعض المُنَجِّمات، تأخذ منها مبلغاً ضخماً، عندها بعض الشباب، تأمر شاب أن يخطبها، فتتقوَّى عقيدة هذه المرأة بهذه الساحرة المدجِّلة، ثم لسببٍ يفتعله الشاب يبتعد عنها ويطلِّقها .

الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، هؤلاء الذين يتعاونون مع الجن لا يصلون، ولا يصومون، ومعظمهم يرتكب الزنا، فتجد إنسان يسمح لزوجته تذهب إلى منجِّمة أو منجِّم، أو إلى كاهن ليختليا، هناك فضائح وقصص يندى لها الجبين . ليس إلا هذا القرآن، وليس إلا هذه الآيات، وكل إنسان معه سلاح فتَّاك ضد الشيطان ؛ استعذ بالله .

للآية التالية تفسير وجيه ودقيق:

قال تعالى:

(وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ((102))

هذه الآية لها تفسيرٌ وجيه دقيق لا بد من أن أقرأه لكم دقيقاً .

أيها الأخوة، الذي ذهب إليه المحقِّقون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بابل، وهي مدينةٌ بالعراق على نهر الفرات، وكانا يعلِّمان الناس السحر، وبلغ حُسن

اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء، حتى المُبطل له وجه إيجابي، والتمثيل سهل جداً، فهذان الرجلان كانا يبدوان للناس على أنهما رجلان صالحان، حتى أن الناس اعتقدوا أنهما ملكان من السماء، وما يعلّمانه للناس هو بوحيٍ من الله، هكذا يوهمون الناس، أن ما يعلّمانه للناس هو بوحي من الله، وبلغ مكر هذين الرجلين ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلّم منهما السحر:

(إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ (102))

إيَّاك أن تكفُر، هذا فتنة، أي إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك أتكفر أم تشكر، وننصح لك أن لا تكفر. فكل إنسان دجَّال يجب أن يظهر بمظهر المنطق والصلاح، وهذا فرعون نفسه قال :

(مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ(29))

(سورة غافر)

كل إنسان لا بد أن يكون الكلام الذي يقوله مقبولاً، يقولان هاروت وماروت ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلهية، وصناعتهما روحانيَّة، وأنهما لا يقصدان إلا الخير، وقد سمعت آلاف المرَّات: يا أخي هذا إنسان آخى الجن المؤمنين، هدفه طيِّب، هدفه خير ؛ هدفه التوفيق بين الأزواج، هدفه اتساع الرزق، دائماً يغطي الساحر والرجل المتعامل مع الجن نفسه بقرآن، بحديث، بصلاح، بلفَّة خضراء مثلاً، بيته فيه مظاهر كهنوتيَّة، أوراد معيَّنة، تمتمات معيَّنة ـ قال: وأنهما يوهمان الناس أن علومهما إلهية وصناعتهما روحانية، وأنهما لا يقصدان إلا الخير كما يفعل ذلك الدجالون كل زمان ـ هذا شيء متكرِّر ـ والله هذه القصَّة التي وردت في القرآن الكريم قبل ألف وخمسمئة عام تتكرَّر كل يوم، إنسان اتخذ مهنة الدجل، ومهنة ابتزاز أموال الآخرين، ويستغل عقول البُسطاء والجهلة، ويوهمهم أوهاماً كثيرة، وأن معه جن، والجن يفك السحر .

هاروت وماروت يوهمان الناس أن السحر نزل عليهما من الله فجاء القرآن مكذِّباً لهما:

امرأة قُتِل زوجها فجاء من يقول لها: ادفعي مئة ألف ونجمعكِ مع زوجكِ ليقول لكِ من قتله . يستغلون حاجة الناس أحياناً، إذاً كما يفعل ذلك دجاجلة كل زمان قائلين لمن يعلمهم الكتابة للمحبَّة والبغض على زعمهم: نوصيك أن لا تكتب لجلب امرأةٍ متزوجة إلى رجل غير زوجها، نحن نستطيع أن نجعل كل امرأة تميل إلى أي رجل ولكن ننصحك لا تكفر، لا تجعل امرأةً متزوِّجة تميل إلى غير زوجها، إلى غير ذلك من الأوهام والافتراءات ولليهود في ذلك خرافاتٌ كثيرة، حتى أنهم يعتقدون أن السحر نزل عليهما من الله، هاروت وماروت يوهمان الناس أن السحر نزل عليهما من الله وأنهما ملكان جاءا لتعليمه للناس، فجاء القرآن مكذِّباً لهم في دعواهم نزوله من السماء، وفي ذم السحر ومن يتعلَّمه أو يُعلّمه، فكل الآية مفتاحها حرفين:

(وَمَا أُنْزِلَ (102))

نافية:

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (102))

اللذان يدَّعيان أنهما ملكان .

لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن ينالك بسوء إلا أن يأذن الله وهذا اطمئنان إلهي:

قال تعالى:

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ (102))

وكانا يقولان للناس:

(وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ (102))

تعقيبٌ إلهي:

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (102))

هذا الاطمئنان الإلهي، لا يستطيع كائنٌ من كان على وجه الأرض أن ينالك بسوء إلا أن يأذن الله عزَّ وجل، فكلمة

(ما)

هنا نافية، طبعاً هذا تفسير محترم جداً:

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (102))

على أصح الأقوال، ولفظ الملكين واردٌ حسب العُرف الجاري . الآن مثلاً قد يأتي أستاذ للأدب في الجامعة يقول: آلهة اليونان، فهل هناك آلهة في اليونان ؟ هذا اسمه تعبير العُرف، أحياناً ينتحل إنسان صفة فيحاكم، يأتي في التقرير الصفة التي انتحلها، ادَّعى أنه طبيب، فهل هو طبيب ؟!!

كل نشاطات شياطين الجن التفريق بين الزوجين وكل أعمال الخير التوفيق بين الزوجين :

كلمة :

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (102))

هذا في رأي المفسِّر أنه جرى على مجرى استخدام التسمية العرفيَّة . ولفظ (الْمَلَكَيْنِ) واردٌ بحسب العرف الجاري بين الناس في ذلك الوقت، كما يردُ ذكر آلهة الخير والشر في كتابات المؤلِّفين عن تاريخ اليونان والمصريين وغيرهم، وكما يرد في كلام المسلم في الرَّد على الفرق الضالَّة:

(فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ (102))

من قبيل التمثيل وإظهار الأمر في أقبح صورة، أي بلغ من أمر ما يتعلَّمون من ضروب الحيل وطرق الإفساد أن يتمكَّنوا به من التفريق بين أعظم مجتمعٌ في الأرض مجتمع الزوجين .

بالمناسبة: كل نشاطات شياطين الجن التفريق بين الزوجين، وكل أعمال الخير التوفيق بين الزوجين . وأنا أقول دائماً في عقود القران: إذا بني الزواج على طاعة الله تولَّى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين، وإذا بني على معصية الله تولَّى الشيطان التفريق بينهما.

ما ورد في كتب بني إسرائيل عن هاروت وماروت نفاها الله عز وجل في القرآن من أصلها:

أما ما ورد في كتب بني إسرائيل عن هاروت وماروت، هناك أحاديث عجيبة، زعموا أنهما كانا ملكين من الملائكة، الآن القصَّة الكاذبة، القصَّة المزوَّرة، ما ورد في كتب بني إسرائيل، ما أشاع بنو إسرائيل، الأولى هي الصحيحة، فهذه القصَّة نفاها الله عزَّ وجل من أصلها:

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (102))

هذان الرجلان هاروت وماروت اللذان زعما أنهما ملكين يعلمون الناس السحر بوحيٍ من السماء، ويفرِّقون بين المرء وزوجه، ويقولون للناس: لا تكفروا إنما نحن فتنةٌ، هذه القصَّة بقضِّها وقضيضها لا أصل لها، أما كيف وردت في كتب بني إسرائيل، قال:

زعم اليهود أن هاروت وماروت كانا ملكين من الملائكة، وأنهما لمَّا نظرا إلى ما يصنع أهل الأرض من المعاصي أنكرا ذلك، وأكبراه ودعوا على أهل الأرض، فأوحى الله إليهما: إني لو ابتليتكما كما ابتليت به بني آدم من الشهوات لعصيتموني ـ معنى هذا أنه عندما ابتلى الله تعالى الإنسان بالشهوات الإنسان معه حق أن يعصيه . انظر إلى هذا الكلام المخيف !! ـ فقالا: يا رب لو ابتليتنا لم نفعل، هل يمكن لمخلوق أن يردَّ على الخالق بعكس ما يريد ؟ الإله يقول: لو ابتليتكما كما ابتليت بني آدم لعصيتماني . فيردان على الله: لا يا رب لا نعصيك، فأهبطهما إلى الأرض، وابتلاهم الله بشهوات بني آدم فمكثا في بلدةٍ كانت فيها فاجرة تسمَّى الزُهرة ـ امرأة فاجرة ـ فدعواها إلى الفاحشة وواقعاها بعد أن شربا الخمر، وقتلا النفس، وسجدا للصنم ـ هكذا وردت القصَّة في كتب بني إسرائيل ـ وعلَّماها اسم الله الأعظم ـ لهذه الفاجرة، الزانية، المومس ـ الذي كانا به يعرُجان إلى السماء، فتكلَّمت المرأة بهذا الاسم وعرجت إلى السماء، فمسخها الله تعالى وصيرها نجم الزُهرة . هذه القصَّة التي نفاها الله عزَّ وجل:

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (102))

(ما)

نافية . ثم إن الله تعالى عرَّف هاروت وماروت ـ سنتابع القصة حسب ما وردت في رواية بني إسرائيل ـ قبيح ما فيه وقعا، ثم خيَّرهما بين عذاب الآخرة آجلاً، وبين عذاب الدنيا عاجلاً، فاختارا عذاب الدنيا، فجعلهما في بابل منكوسين في بئرٍ إلى يوم القيامة، وهما يعلِّمان الناس السحر وهما

في البئر، ويدعوان إليه، ولا يراهما أحدٌ إلا من ذهب إلى ذلك الموضع لتعلُّم السحر خاصَّةً . وهذه القصَّة من اختلاق اليهود وتقوُّلاتهم، ولم يقل بها القرآن قط وإنما ذكرها التلمود، في الإصحاح الثالث والثلاثين، وجاراه جهلة القُصَّاص من المسلمين فأخذوها عنهم، وقد وردت هذه القصَّة الباطلة في بعض كتب التفسير، في بعض الكتب طبعاً .

بنود تفنيد قصة هاروت وماروت عند الإمام الرازي:

الإمام الرازي رحمه الله تعالى فنَّد هذه القصَّة الباطلة، التي لا تستقيم من وجوهٍ كثيرة فقال: ذكروا في القصَّة أن الله جلَّ جلاله قال لهما ـ لهاروت وماروت ـ: لو ابتليتكما بما ابتليت به بنو آدم لعصيتماني . فقالا: لو فعلت ذلك بنا يا رب لما عصيناك، وهذا منهم تكذيبٌ لله تعالى وتجهيلٌ له، وهذا من صريح الكفر، هذا أول بند .

ثانياً: أنهما خُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وذلك فاسد، بل كان الأولى أن يُخيَّرا بين التوبة وبين العذاب .

ثالثاً: إنهما يعلّمان الناس السحر في حال كونهما معذَّبين في بئر في بابل، ويدعوان إليه، وهما يعاقبان، هذا شيء غير مقبول عقلياً .

رابعاً: أن السحر لو كان نازلٌ عليهما لكان مُنَزِّله هو الله، وهذا غير جائز في حق الله عزَّ وجل لأن السحر كفر وعبث ولا يليق بالله تعالى إنزال ذلك:

(وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (102))

يدلُّ على أن تعليم السحر كفر، فهل يعقل أن الله يعلمهما السحر كي يعلّمانه للناس ؟ فلو ثبت في الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر وهذا باطل، ثم إنه لا يجوز في الأنبياء أن يُبعثوا لتعليم السحر، فكذلك في الملائكة من باب أولى . مستحيل لملك أن يعلّم السحر، من سحر فقد كفر، ثم إن السحر لا يضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة فكيف يضاف إلى الله تعالى وينهى عنه، ويتوعَّد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المموَّه، وقد جرت عادة الله إبطاله كما قال في قصة موسى عليه السلام:

(مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ)

(سورة يونس الآية: 81)

إذاً عندنا قصَّة مكتوبة في التلمود باطلة لا أصل لها، افتراء من اليهود على الله عزَّ وجل، فجاء القرآن الكريم ونفى هذه القصَّة من أصلها، نفاها بحرفٍ واحد فقال :

(وَمَا أُنْزِلَ (102))

على ما توهَّمهم الناس أنهما ملكين، نفى الله عزَّ وجل هذه القصَّة من أصلها .

أمثلة عن بعض ما يتلوه القصَّاصون من حكاياتٍ باطلة ودَجَل وكرامات وقصص سخيفة:

نعيد الآيات :

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101))

نبذوا كتاب الله واتبعوا هذه الخرافات:

(مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا (102))

كم مسلم الآن ينبذ كلام الله وسُنَّة رسوله ويتَّبع ما يتلوه القصَّاصون من حكاياتٍ باطلة، وخرافاتٍ سخيفة، ودَجَل، وكرامات، ومنامات، شيء غير معقول . واحد تفقَّد أخاه وكان في مجلس عند شيخ، وجد ماء مسفوحاً على الأرض فقال له: هذا أخوك صار كالماء من شدة حبه لنا، ذاب . فهذه كلمات غير مقبولة، غير معقولة .

واحد دُفِن فلمَّا جاء الملكان رُفِسا رفسةً أطاحت بهما خارج القبر، لأن شيخه عندما جاء الملكان قال لهما: أمثل هذا يُسأل ؟ هذا من إخواننا .

تجده يترك كلام الله وكلام النبي المعصوم، وكل حياته قصص، وخرافات، وأوهام، ومنامات، وكرامات، هذا وقع فيه مسلمون كثيرون .

ملخص سريع لما ورد في الدرس :

قال تعالى:

(وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (102))

الشياطين هم الذين كفروا، هم الذين يعلّمون الناس السحر:

(وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (102))

هذا تعقيبٌ إلهي، أي اطمئنوا لا يستطيع السحرة أن يفعلوا شيئاً، لا يستطيع مخلوقٌ كائناً من كان أن يَمَسَّك بأذىً إلا بإذن الله:

(وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ (102))

من سحر فقد كفر:

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(6))

(سورة الجن)

وقال:

(وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (39- 95):تفسير الآيتان 103 - 104، السعي للدار الآخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-05-14

بسم الله الرحمن الرحيم

اتباع بني إسرائيل سبيل السحر أودى بهم إلى الكفر:

مع الآية الثالثة بعد المئة، وهي الآية بعد قوله عزَّ وجل:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101))

نبذوا كتاب الله، نبذوا منهج الله، نبذوا وحي السماء، نبذوا الصراط المستقيم، نبذوا حبل الله المتين

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103))

استنبط العلماء أنهم حينما اتبعوا ما تتلو الشيطان على ملك سليمان اعتقاداً، وحينما سلكوا سبيل السحر سلوكاً فقد كفروا .

من علم عن طريق السحر أن الجن لهم إرادةٌ مستقلةٌ عن إرادة الله فقد كفر:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

إذاً هم كفروا، النبيُّ عليه الصلاة والسلام وهو أول مخلوقٍ فهم كلام الله عزَّ وجل أعلى فهم قال:

((من سحر فقد كفر))

[مجمع الزوائد عن عمران بن حصين]

قال تعالى:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ (102))

من اعتقد أنه يمكن أن ينتفع عن طريق السحر فقد كفر، من علم عن طريق السحر أن الجن لهم إرادةٌ مستقلةٌ عن إرادة الله فقد كفر، ولو أن الإنسان آمن بهذا فقد كفر:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

ما من كلمةٍ تفعل فعلها في نفس المؤمن كهذه الكلمة، خالق الكون يقول لك: لو أنك فعلت كذا وكذا لكان خيراً لك . هذه نصيحة من ؟ نصيحة خالق السماوات والأرض، نصيحة العليم، نصيحة الخبير، نصيحة الفعَّال، نصيحة من إليه الأمر كله، نصيحة من إليه يرجع الأمر كله، نصيحة من إليه مصيرنا .

الكفر بمعناه الضيق:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

أيها الأخوة الكرام، أي مؤمن آمن بالله حق الإيمان وانصاع إلى أمره وقرأ هذه الآية يقشعر جلده، خالق الكون ينصح هذا المخلوق الضعيف، الذي هو لا شيء أمام الله عزَّ وجل، هذا الخالق العظيم ينصح هذا المخلوق الصغير:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

هم بهذا قد كفروا، كفروا حينما اتبعوا ما تتلو الشيطان على ملك سليمان، لعل كلمة الكفر هنا أخذت معنى واسعاً جداً، فأنت حينما لا تعبأ بكلام الله، لو سُئِلت وقلت: هذا كلام الله على العين والرأس، هذا القرآن الكريم . أما حينما لا تطبق أحكامه، ولا تأخذ بأوامره ونواهيه، ولا تقيم له وزناً في حياتك اليومية، في العلاقات اليومية ؛ في البيع والشراء، في الزواج، في كل شؤون الحياة، حينما لا تعبأ بكلام الله عزَّ وجل فهذا نوع من الكفر به، هذا الكفر الذي سمَّاه النبي **" كفرٌ دون كفرٍ ".**

الكفر بمعناه الضيِّق أن تنكر وجود الله عزَّ وجل، أو أن تنكر أسماءه الحسنى، أو أن تنكر فرائضه التي افترضها الله على البشر، ولكنك حينما لا تعبأ بمنهج الله، ولا تقيم له وزناً في حياتك اليومية، ولا تأخذ به في شؤونك إنما تقرأ القرآن كما يقول عامة الناس: للتبرك . يقرؤون قرآن وفي بيوتهم المُنكرات، وفي تجارتهم المخالفات، فأنت حينما لا تعبأ بكلام الله عزَّ وجل، ولا تُحَكِّمُهُ في حياتك، ولا تأخذ به في كل شؤون حياتك اليومية فهذا نوعٌ من الكفر، طبعاً هذا كفر صريح، بواح .

((من سحر فقد كفر))

[مجمع الزوائد عن عمران بن حصين]

((من أتى كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر))

[مجمع الزوائد عن عمران بن حصين]

و من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، ولا دعاء أربعين ليلةً، نطبق هذا الحكم على كل ما من شأنه أن يخبرك بالمستقبل، المنجمون والمنجِّمات، وقارؤوا الفنجان، وحظك هذا الأسبوع، والأبراج، والفلكي الذي يتنبأ، هذا كله ما أنزل الله به من سلطان، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، سيِّد الخلق وحبيب الحق لا يعلم الغيب .

الولي هو من آمن بالله إيماناً يحمله على طاعته:

قال تعالى:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف الآية: 188)

أيها الأخوة الكرام، هذه آياتٌ حاسمات، والله الذي لا إله إلا هو أعداد كثيرة من المسلمين يعتقدون بالمنجمين، وبالسحر، وبالجن، يقول لك: " هذا شيخ مؤاخٍ للجن، ويخرج لك السحر "، وكله دجل في دجلٍ، وكذب بكذب، وخرافةٌ بخرافةٍ، وابتزاز مالٌ بابتزاز مالٍ، أبداً، ليس عندنا إلا هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسُنَّة النبي عليه الصلاة والسلام التي هي بيانٌ لما في القرآن .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

وقال:

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

لمجرد أن تؤمن بالله إيماناً يحملك على طاعته فأنت من أولياء الله، وينطبق عليك تعريف الولي:

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

الإيمان الإبليسي:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ (103))

دقق الآن، لا قيمة للإيمان بالله إن لم يثمر العمل الصالح والاستقامة على أمر الله وقد نسمِّيه إيماناً إبليسياً، لأن إبليس قال:

(رَبِّ)

(سورة الحجر الآية: 36)

آمن به رباً:

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية: 82)

آمن به عزَّيزاً:

(خَلَقْتَنِي)

(سورة ص الآية: 76)

آمن به خالقاً:

(فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الحجر الآية: 36)

آمن بالآخرة ولكنه رفض أن ينفّذ أمر الله عزَّ وجل، فالإيمان النظري لا قيمة له ولكن الإيمان هو الذي يحملك على طاعة الله ويقودك إلى العمل الصالح . الإيمان منه نظري ومنه عملي، منطلقات نظرية، تطبيقات عملية، فكر، تطبيق، اعتقاد، عبادة، شيء عَقَدِي، وشيء سلوكي .

تعريف الثواب:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

إيمانهم وتقواهم يصعد إلى الله عزَّ وجل:

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (10))

(سورة فاطر)

حينما يصعد عملٌ طيبٌ خالصٌ إلى الله عزَّ وجل يعود عليك منه، هذه المثوبة، ثاب أي رجع، العمل الصالح المبني على إيمان صحيح، الخالص لله عزَّ وجل له عند الله ثواب، ثواب حدِّث ولا حرج، يلقي الله على قلبك السكينة، وهي أثمن شيءٍ يملكه الإنسان على الإطلاق .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه) .

إذا ألقى الله في قلبك السكينة، وألقى في قلبك الطمأنينة، وألقى في قلبك السعادة، وألقى في قلبك اليقين، وتعلّقت بما عنده، وزهدت بما فيما أيدي الناس، ورجوت رحمته، وخفت من عذابه هذا هو الثواب .

الثواب عمل صالح، صالحٌ في إجراءاته، صالحٌ في نيَّته، أساسه إيمانٌ صحيح هذا يصعد إلى الله عزَّ وجل ويعود سكينةً، وطمأنينةً، وسعادةً، ورضىً، وتوفيقاً، ونجاحاً، وفلاحاً، وسعادةً في الدنيا والآخرة، هذا الثواب . ثواب: مِن ثاب، أي رجع، رفع إلى الله عملٌ طيبٌ وفق منهج الله عزَّ وجل، طيبٌ أي خالص لوجه الله، أساسه إيمانٌ صحيح، امتلأ قلبك غنى وطمأنينةً وأمناً وسعادةً .

تعريف الإخلاص وعلاماته:

إخواننا الكرام، لعل أحدكم يسأل: هل هناك من علامة واضحةٍ، من ضابطٍ واضح للمخلص ؟

الإخلاص هو عبادة القلب، العبادات الشعائرية والتعاملية والآداب الإسلامية محلها الجوارح، أما القلب عبادته الإخلاص لله عزَّ وجل، من علامة الإخلاص أنك إذا عملت عملاً صالحاً شعرت بهذه السكينة، وتلك الطمأنينة، وهذه السعادة، وذاك الرضا، وهذا الأمن، أي وصلك ثواب هذا العمل، هذا العمل صعد إلى السماء، عرجتْ به الملائكة إلى السماء فعاد إليك منه هذه السعادة التي قال عنها بعض العارفين بالله: **" والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف ".**

هذه علامة الإخلاص، أنت مرتاح، أنت مرتاحٌ جداً وقد تكون في أخشن حياة، مرتاحٌ وأنت في بيت صغير، مرتاحٌ ولك دخلٌ محدود، مرتاحٌ ولا شأن لك بين الناس، مغمور، في التعتيم، مرتاح ولك زوجةٌ من الدرجة الخامسة، مرتاح، مرتاحٌ ومن حولك يزعجونك ولكنك مرتاح، أي جاءك ثواب عملك الصالح، عرجت الملائكة بعملك الصالح في شكله وفي نواياه والمبني على إيمانٍ صحيح، هذا العمل عرجت به الملائكة إلى السماء فعاد لك منه هذه السكينة، هذا معنى الثواب .

يقال: لك ثواب . فما معنى الثواب ؟ لك ثواب أي يعود عليك نتائج هذا العمل، ثوابٌ أو عقاب، فهذه أحد علامات الإخلاص أنك عقب عملٍ صالحٍ خالصٍ لله عزَّ وجل تشعر بسعادة، وكأنك لست مع الناس، قد يأتي على الناس كابوس، هموم، همومٌ كالجبال، مَلَل، سأم، ضَجَر، ضيق، شيء لا يحتمل، أما أنت فإنك متميز وكأنك في جنة، وقد قالوا: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة . ويؤكد هذا:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد)

ذاقوا طعمها في الدنيا . قال أحد العلماء: **" ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ " .**

إن عرفت الله تعلم وإن لم تعرفه فأنت لا تعلم:

أيها الأخ الكريم، إن لم تقل ـ ولا أبالغ ـ: أنا أسعد الناس بهذه المعرفة، وأسعد الناس بهذا الاتصال، فهناك مشكلة في إيمانك وفي عملك .

أحد الأخوة الكرام حج بيت الله الحرام، فلما ذهبنا لتهنئته بالعودة قال كلمةٍ لا أنساها ـ والقصة منذ عشرين سنة ـ قال: يا أستاذ ليس في الأرض من هو أسعد مني، إلا أن يكون أتقى مني .

أن تقول: أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحدهم أتقى مني هذا هو الدين، الدين اتصال بالله، الدين أن تشعر أنك متصل مع خالق الكون، مع المُطْلَق ؛ في علمه، في قدرته، في جماله، في رعايته، أنت مع المطلق، والخلق كلهم مع المحدود، الإنسان محدود ماذا يفعل بك ؟ أما الله عزَّ وجل فهو على كل شيء قدير، الأورام الخبيثة تتراجع أحياناً بلا سبب، الأمراض المستعصية التي ليس لها في الطب علاج تتراجع أحياناً عند بعض المؤمنين حينما يصدقون في دعائهم، أنت مع المطلق، مع القدرة المطلقة، مع العلم المطلق، مع الرحمة المطلقة، مع اللُّطف المطلق، مع العطف المطلق، أنت مع المطلق، دققوا في هذه الآية :

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

إله يقول لك: يا عبدي لو فعلت كذا لكان خيراً لك .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103))

إذاً هم لا يعلمون، وفي آيات أخرى أثبت الله لهم العلم، قال :

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

(سورة الروم الآية: 7)

بجمع الآيات نستنتج أنك إن عرفت الله تعلم، فإن لم تعرفه أنت لا تعلم .

العلم والجهل هما العاملان الحاسمان في السعادة والشقاء:

يمكن أن نفرِّق بين العقل والذكاء . قد تنال أعلى شهادة في الأرض، وقد تكون ألمع عالمٍ في الأرض، قد تكون عالم رياضيات، عالم فيزياء، عالم كيمياء، قد تكون مثل أينشتاين الذي عرف النسبية، أنت ذكيٌ فقط، لا يسمى الإنسان عاقلاً إلا إذا عرف الله، العقل شمولي، الذكاء جزئي، قد تتفوق في اختصاصٍ محدود، ولكنك إن عصيت الله فأنت لا تعرفه، لذلك مرَّ النبي عليه الصلاة والسلام بمجنون فسألهم سؤال العارف: من هذا ؟ قالوا: هذا مجنون، قال: لا هذا مبتلى، المجنون من عصى الله .

هذا هو المجنون، فبأية حال كنت، في أي بيتٍ تسكن، بأي دخلٍ يأتيك، بأية أسرةٍ تعيش إذا كنت مع الله فأنت أسعد الناس، وإن لم تكن مع الله لو سكنت أفخر بيتٍ في الأرض، ولو ملكت مال قارون، ولو عشت عمر نوح، ولو أوتيت كل شيء فهذا الإنسان شقي لأنه ابتعد عن مصدر السعادة ألا وهو الله عزَّ وجل:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103))

إذاً هم لا يعلمون . العلم والجهل هما العاملان الحاسمان في السعادة والشقاء، والدليل ماذا يقول أهل النار وهم في النار ؟

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

لأن فطرة البشر واحدة، كل واحدٍ منكم وأنا معكم يحب وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحب كمال وجوده، ويحب استمرار وجوده، هذه القاعدة تنطبق على خمسة مليارات إنسان في الأرض . ما من إنسان على وجه الأرض إلا وهو يحب سلامته وسعادته، لماذا يشقى الناس ؟ أخطؤوا طريق سعادتهم، أخطؤوا الطريق، أخطؤوا الهدف . أنت آلة معقدة جداً، أنت أعقد آلة في الكون، والتعقيد تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، ولهذه الآلة صانع حكيم، ولهذا الصانع تعليمات، فانطلاقاً من حرصك على سلامة هذه الآلة، وعلى حسن مردودها، وعلى الانتفاع بها تتبع تعليمات الصانع .

إذا كنت مع الله كان الله معك:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103))

هذا التاريخ أمامكم، هؤلاء الذين وقفوا مع النبي، ناصروه، وأيَّدوه، وعززوه، ووقروه هم في أعلى عليين . تلهج الألسن من ألفٍ وخمسمئة عام بالثناء عليهم، وهؤلاء الذين ناصبوا الحق العداء، ووقفوا في خندقٍ آخر أين هم ؟ هم في مزابل التاريخ، التاريخ المعاصر، التاريخ قبل المعاصر، والتاريخ القديم هناك حقائق ثابتة، إذا كنت مع الله كان الله معك، إذا اتبعت منهج الله سعدت في الدنيا والآخرة، إن خالفت كلام الله عزَّ وجل شقيت في الدنيا والآخرة .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ (103))

(خَيْرٌ)

اسم تفضيل، الخير كل الخير، الذكاء كل الذكاء، الفلاح كل الفلاح، النجاح كل النجاح، التفوق كل التفوق، العقل كل العقل في طاعة الله، مستحيل وألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، مستحيل وألف مستحيل أن تعصيه وتربح، ولكنك لا ترى الربح والخسارة بعد ساعة، لا، فبعد ساعة انتهى الاختيار، تراها بعد حين، حينما يعلم الله صدقك، وثباتك، وإخلاصك يفتح لك التوفيق، ويعطيك ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا (104))

الآية تحتاج إلى دقة فهم فهي دقيقة جداً،

(راعنا)

أي ارعنا ولنرعك، من العناية، الراعي هو الذي يعتني بغنمه، يحوطهم برعايته، يهتمُّ بطعامهم وشرابهم، وصحتهم، ونومهم، ودفئهم، وسلامتهم، وسعادتهم .

الكلمة التي تحتمل معنيين الأول جيد والثاني غير جيد الأولى أن نبتعد عنها:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا (104))

كان المؤمنون يخاطبون النبي عليه الصلاة والسلام ويقولون: يا رسول الله راعنا أي ارعنا نحن أتباعك، انصحنا، دُلَّنا على الخير . كان الصحابة الكرام في أعلى درجات الأدب حينما قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام: راعنا . أي ارعنا، أي أحطنا برعايتك، دلَّنا على الخير يا رسول الله .

لكن لكلمة (راعنا) في لغة اليهود معنىً قبيح، لغة سباب، أي اسمع لا أسمعك الله، بلغة اليهودي، فاليهود كانوا يسبون النبي بقلوبهم، فلما سمعوا أصحاب رسول الله يقولون: راعنا . قالوا: جاءتنا فرصة كي نسبه علانيةً فكانوا يقولون: يا رسول الله راعنا، علم سيدنا سعد ذلك فقال: **" والله ما سمعت واحداً يقول للنبي راعنا إلا ضربت عنقه "**، اختلف الوضع .

(وَقُولُوا انْظُرْنَا (104))

استنبط العلماء أنه إذا احتملت كلمة معنيين، المعنى الأول جيد والثاني غير جيد الأولى أن تبتعد عنها، مر سيدنا عمر بقومٍ فقال: " السلام عليكم يا أهل الضوء "، وكره أن يقول: **" السلام عليكم يا أصحاب النار "** ، لأن كلمة أصحاب النار تعني أنهم من أهل جهنم، فكل كلمةٍ تحتمل معنيين، الأول جيد، والثاني سيئ، فالأولى أن نبتعد عنها، جاء النهي لأن اليهود استغلوا كلمة راعنا وهي لفظٌ لا يليق بالنبي عليه الصلاة والسلام، كانوا يسبونه في قلوبهم، فلما قال أصحاب النبي: يا رسول الله راعنا، أي ارعنا، خذ بيدنا إلى الله، دلنا على الله، أكرمنا بصحبتك . هذا هو المعنى، لذلك استغل اليهود هذا، فجاء النهي، نهي المؤمنين على أن يقولوا هذا الكلام .

طلب موجبات الرحمة أولى من طلب الإعفاء من الحساب:

قال تعالى:

(وَقُولُوا انْظُرْنَا (104))

هذا معنى يستنبط منه أن كل كلمةٍ تحتمل معنيين، وأنت تريد المعنى السليم ابتعد عنها، هذا سمَّاه العلماء سد الذرائع، فقد تفعل شيئاً لا غبار عليه، ولكنه قد يقود إلى ما هو محرم، فقد تزرع العنب في مكان لا يباع إلا للخمَّارات، فبذلك تكون زراعة العنب محرمة سداً للذريعة، قد تسب إنساناً فيسب الله، سُباب هذا الإنسان محرَّم، من هو الذي يسب أباه؟ يسب أبا الرجل فيسب أباه، فالتحريم تحريم سد ذريعة، هذا حكم شرعي، أنه إذا احتملت كلمة معنيان، فالأولى أن تبتعد عن استخدامها، وأن تستخدم كلمة تحتمل معنى واحداً، وهذا من بلاغة الإنسان وفصاحته .

هناك معنى آخر ـ سأحاول أن أوضحه لكم ـ لو أن شاباً له أب أستاذ رياضيَّات وهو أستاذه في الصف، هو في الصف الحادي عشر ووالده أستاذه، وعنده مذاكرة في اليوم الثاني، هذا الابن أمامه خياران ؛ إما أن يسأل أباه أن يوضح له بعض المسائل، وإما أن يقول له: أعطني أسئلة الامتحان . أيهما أولى ؟ أن يسأله، لا تقل: راعني قل: انظرنِ . هذا معنى آخر، أي أنَّك إن أردت رحمة الله قدم موجباتها، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لعلو أدبه مع الله عزَّ وجل كان يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ))

[الترمذي عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه]

قال لأحد أصحابه الكرام:

((أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

[مسلم عن ربيعة بن كعب رضي الله عنه]

اطلب موجبات رحمة الله، لا تطلب أن يعفيك الله من الحساب، اطلب موجبات الرحمة لا تطلب الأمور من طريق غير صحيح، هذا معنى آخر، على كلٍ القرآن حمَّال أوجه

فالمعنى الأول: لا تتكلم كلمة تحتمل معنيين، أسلوب غش الكلام محرم . تسعة أعشار الناس مزاحهم فيما بينهم كلمة مغشوشة، ظاهرها ليس فيه شيء، ولكنه يقصد معنى آخر قذراً، ويبتسم ويغمز، ويلمز، هذا محرَّم . فاختر كلمةً واضحةً نقية جليَّة، وهذا من الفصاحة، فالكلام الذي يحتمل معنيين فيه متاهات كثيرة جداً .

والمعنى الثاني: أنك بدلاً من أن تطلب العفو دون الموجبات، اطلب من الله ورسوله أن ينظرا إليك نظرة شكرٍ لاستقامتك، هذا أولى من أن تطالب بالعفو، وأوضح مثل الطالب . لئن سأل والده أن يوضِّح له المنهج أولى ألف مرة من أن يسأله أن يعطيه سؤال الامتحان، هذا سلوك لا يليق .

لكلمة (راعنا) في الآية التالية ثلاثة معانٍ:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا (104))

معنى

(رَاعِنَا)

صيغة مشاركة، وهناك معنى ثانٍ قال عنه العلماء أنه: سوء أدب، أي ارعني وأرعاك انصحني وأنصحك . هذا بين الناس لا بين الناس ورسول الله، النبيُّ يؤخذ منه فقط ولا يُملى عليه شيء . المعنى الآخر إذاً: راعنا فيها مشاركة، أي:

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(9))

(سورة القلم)

بالتعبير العامي: **" حك لي لأحك لك، أي حلها برمة لنحلها نحن برمة " .**

هذا لا يليق بخطاب النبي عليه الصلاة والسلام، النبي مشرع، والنبي معصوم يؤخذ منه فقط، تُتَّبع سنَّته فقط:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (1))

(سورة الحجرات)

هذا هو المعنى، إذاً صار عندنا ثلاثة معانٍ، فإذا كنا قد فهمنا راعنا، ارعنا ولنرعك، دلنا ولندُلَّك، أعطنا ولنعطك، إذاً المعنى جعلتم دعاء النبي كدعاء بعضكم بعضاً، اعتقدت أنه يخطئ ويصيب، عملت مساومة، هذا المعنى ذكره القرطبي .

المعنى الثاني ارعنا على سبيل التعظيم، وسبيل طلب المغفرة، قد يكون الصحابي في أعلى درجة من الأدب، ولكن هذه الكلمة لها لغة أخرى يستغلها اليهود ليقلدوا الصحابة بها، وهم يقصدون سَبَّ النبي عليه الصلاة والسلام فجاء النهي عنها .

إذاً أول معنى: خطاب الناس شيء وخطاب رسول الله شيءٌ آخر، المعنى الثاني: ابتعد عن كل كلمة تحتمل معنيين، إذاً كل المزاح المغشوش هذا محرَّم، عوِّد نفسك أن تقول كلمة الحق واضحةً جليةً نقية، أما مجتمعات التسيب والتقصير والمعصية، هناك آلاف الألغام في حديثهم، المعنى الثالث: اطلب موجبات رحمة الله عزَّ وجل ولا تطلب أن يستثنيك من الحساب .

مقياس الناس شيء ومقياس القرآن شيءٌ آخر:

قال تعالى:

(وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105))

أي أن إرادة الله عزَّ وجل طليقة لا يمكن أن تخضع هذه المشيئة العليَّة لمخلوق، هم لا يّقسِمون رحمة الله عزَّ وجل:

(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)

(سورة الأنعام الآية: 124)

هو يعلم وحده من هو الأهل ؟ مقياس الناس شيء، ومقياس القرآن شيءٌ آخر:

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(31))

(سورة الزخرف)

العظمة عند الناس، هي عظمة المال وعظمة الشأن والقوة، أما الرفيع عند الله عزَّ وجل هو المخلص، المنيب، المحب، التائب، المقبل .

كلمة (مثوبة) لها معنيان:

أيها الأخوة، قبل أن أتابع هذه الآية هناك معنى في الآية السابقة لا بد من أن نقف عندها وقفة، كلمة

(مثوبة)

معنى آخر ؛ من الثَّوْب:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً (26))

(سورة الأعراف)

هذه الثياب تواري سوءات الإنسان، قال :

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

إذاً كلمة الثياب لها معنى آخر، المعنى الأول: ثيابٌ ماديةٌ من قطنٍ وحرير أو من قطنٍ وصوف يرتديها الإنسان فيستر بها عورته، بينما ثوب التقوى يستر به جسمه من النار:

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

أي أن أجمل ثوب أن تكون مطيعاً لله، أجمل ثوب ترتديه أن تكون صادقاً، أجمل ثوبٍ ترتديه أن تكون أميناً، أجمل ثوب ترتديه أن تكون عفيفاً . قد يرتدي الإنسان أجمل الثياب، ثياباً جميلة جداً وهو منحرف الأخلاق بذيء اللسان، قلت مرة لأخواننا: كان أحدهم يرتدي ثياباً أنيقة جداً وكلامه بذيء جداً . فقال له أحدهم: **" إما أن تتكلم مثل لبسك أو أن تلبس مثل كلامك "**، هناك تناقض .

ثوب التقوى ثوبٌ عظيم، قد ترتدي ثوباً متواضعاً، لكن استقامتك، وعفتك، وأمانتك، ترفع بهما رأسك، تجد المستقيم ملكاً، وقد تكتشف فضيحة لإنسان في أعلى مرتبة فيسقط في الوحل، هذا وحيد القرن الذي يقصف العالم ـ رئيس أكبر دولة حالياً ـ دخل بفضيحة لا تنتهي، فضيحة قذرة جداً، فأي ثوبٍ جميل لا يغنيك، قد يرتدي أجمل الثياب، أغلى ثياب في العالم قد يرتديها، ولكنه مفضوح، وقد وضع له موقع على الإنترنت وكان التقرير ألفي صفحة، صار في الوحل .

على المؤمن أن يرتدي ثياب التقوى ويبتغي الرفعة عند الله تعالى:

قال تعالى:

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

فأنت لو كنت أي إنسان، بأي وظيفة، معلم ابتدائي، ضارب آلة كاتبة، حاجباً حسب مراتب المجتمع، الحاجب المستقيم مَلِك، والله مرة كنت في مؤتمر، وقد سمعت بالفندق قرآناً يتلى مع

الفجر، أطللت من الشرفة، فإذا عامل الحديقة يصلي الفجر بصوتٍ جميل، فخطر في بالي خاطر، لعل هذا العامل في الحديقة عند الله خير من كل نزلاء الفندق وهذا ممكن . ابتغوا الرفعة عند الله عزَّ وجل .

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

إذاً يجب أن ترتدي ثياب التقوى، " كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه " . شخص أمين، صادق، عفيف، لا يوجد إنسان يهدده بصورة فيقوله له: انتبه سنبرز الصورة . لا توجد عنده مشكلة أبداً، لا يوجد إنسان يهدده بكشف الأمر: أنت مختلس . لا بل كل ماله حلال، لا يوجد علاقة غير نظيفة، بيته نظيف من الداخل والخارج، سره كعلانيته، جلوته كخلوته، لا يوجد عنده ازدواجية بالحياة، هذا ينام مرتاح البال .

ذكر لي أخ كان بألمانيا أن كُتب على السرير في الفندق، وهو فندق فخم من فنادق النجوم الخمس: إن لم تستغرق في النوم فالعلَّة ليست في فُرُشِنا بل في ذنوبك . إذا لم ترتح بالنوم فهذا ليس من الفرش، فرشنا وثيرة، لكن العلة في ذنوبك .

فكن ابن من شئت، بأي مكانة، بأي مرتبة، بأي دخل، بأي شكل أنت ملك إذا كنت مستقيماً، يروى أن الأحنف بن قيس كان قصير القامة، أسمر اللون، مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، غائر العينين، ضيِّق المنكبين، أحنف الرجل، ليس شيءٌ من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيَّدَ قومه، إذا غضب غَضب لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

المُلك الحقيقي أن تصل إلى مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر:

أقول: كن أي إنسان في أي درجة علمية، في أي حرفة، وفي أي بيت، وفي أي حي، بأفقر أحياء دمشق، إذا كنت مستقيماً وأميناً وصادقاً فأنت ملك .

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

قلت لكم مرة: أراد أحد أغنياء هذه البلدة الطيبة أن ينشئ مسجداً، فكلَّف أحد إخواننا أن يبحث عن أرض مناسبة، فوجد أرضاً مناسبة بأحد أحياء دمشق، وهي مناسبة جداً لمسجد، فقال لصاحب المشروع أن الأرض جاهزة تعال انظر إليها، فالأرض مناسبة وسعرها مناسب، كم ثمنها ؟ ثلاثة ملايين ونصف، فكتب صاحب المشروع شيكاً بمليونين لصاحب الأرض وصاحب الأرض آذن مدرسة، وقد ورثها قبل شهر، دخله أربعة آلاف ليرة وعنده ثمانية أولاد وهو فقير فقراً مدقعاً، فقال

له: لماذا مليونين فقط ؟ قال له: مليونين دفعة أولى، والمليون ونصف عند التنازل بالأوقاف، فقال له مستغرباً: لماذا التنازل ؟ قال له: لأنها ستكون مسجداً . قال له منتفِضاً: مسجد !! انتفض، فأخذ الشيك ومزَّقه، قال له: أنا أولى منك أن أقدمها لله .

يقول هذا الإنسان الغني عافاه الله: والله ما صغرت في حياتي أمام إنسان كما صغُرت أمام هذا الإنسان. فالثلاثة ملايين ونصف لا يشكلون واحداً بالألف من حجمه المالي أما هذا الآذن قدَّم كل ما يملك وهو في أمس الحاجة لهذه الأرض، كَبُرَ عليه أن يشتريها منه إنسان ويجعلها مسجداً، قال له: أنا أولى منك أن أقدمها لله .

هذا ثوب الإيمان، ثوب العفة، ثوب التقوى، ثوب الصلاح، ثوب الصدق، ثوب الأمانة، هذا الثوب الجميل هذا الذي لا يفنى، يموت الإنسان ويبقى ذكره العطر مئات السنين، يبلغ العالم الإسلامي الآن ملياراً ومئتي مليون، والصحابة الكرام، العلماء الأعلام، القادة الكبار، يُذكرون كل يوم ملايين المرَّات بالثناء الطيِّب، هذا هو المُلك .

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً(20))

(سورة الإنسان)

هذا المُلك الحقيقي أن تصل إلى مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر .

لا تعبأ بمراتب الدنيا اعبأ بمرتبةٍ عند الله تعالى :

دققوا في هذه الآية:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

وقال:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ (103))

المعنى الثاني: أنك إن آمنت واتقيت لبست ثوباً جميلاً هو أجمل ثياب الأرض، المؤمن شريف، عفيف، ذِكره حسن، لو أنه مات تبكي عليه السماء والأرض والدليل قول الله عن الكفار:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ (29))

(سورة الدخان)

المعنى المخالف: المؤمن تبكي عليه السماء والأرض . فأنت لا تعبأ بمراتب الدنيا، اعبأ بمرتبةٍ عند الله، دخل رجل على النبي فقال عليه الصلاة والسلام:

((أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي ؟! قال: نعم يا أخي خاملٌ في الأرض علمٌ في السماء))

[ورد في الأثر]

فلا تعبأ بمراكز الدنيا، ليس لها معنى إطلاقاً .

العبرة أن يسعى الإنسان للدار الآخرة :

قال تعالى:

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (21))

(سورة الإسراء)

مراتب الدنيا لا معنى لها وقد تعني العكس، وهي مؤقتة .

(وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً(21))

(سورة الإسراء)

درجاتها أكبر، وتفضيلها أشد، ودائمة إلى أبد الآبدين، فلذلك العبرة أن يسعى الإنسان للدار الآخرة، أن يسعى لمقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر .

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (40- 95):تفسير الآيتان 105 - 106، لا نسخ في العقائد بل في الأحكام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-05-21

بسم الله الرحمن الرحيم

الشارد عن الله عزَّ وجل لا يتمنَّى الخير للمؤمن بينما المؤمن يتمنَّى الخير لغيره:

مع الآية الخامسة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105))

أيها الأخوة الكرام، يتضح في هذه الآية أن الشارد عن الله عزَّ وجل لا يتمنَّى الخير للمؤمن، بينما المؤمن يتمنَّى الخير لغيره، وذلك لأن المؤمن منضبطٌ بمنهج الله، وقد سَمَت نفسه باتصالها بالله فصار يحب الخير لكل الخلق، المؤمن يتمنَّى الخير لكل الخلق حقيقةً .

في قصة سيدنا عمر مع عمير بن وهب شاهد على ذلك: " كان عمير من ألدِّ أعداء النبي أراد قتل النبي، فلمَّا وصل إلى المدينة وقد توشَّح سيفه، أخذه عمر وقيَّده بحمَّالة سيفه وساقه إلى النبي، فقال: **" يا رسول الله هذا عمير جاء يريد شرّاً "** ـ والقصَّة معروفة عندكم ـ قال: **" دعه يا عمر ـ أطلقه ـ اقترب مني يا عمير، ما الذي جاء بك إلينا يا عمير ؟ "** ، قال له: **" جئت لأفدي ابني "** ، فقال له: **" وما هذه السيف التي على عاتقك ؟ " قال: " قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر ؟ "، قال له: " ألم تقل لصفوان: لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمداً، وأرحتكم منه ؟ " فوقف عمير وقال: " أشهد أنَّك رسول الله، لأن هذا الذي قلتُه لصفوان لا يعلمه أحدٌ إلا الله وأنت رسوله "** . وآمن .

تعليقي على القصة أن سيدنا عمر قال: **" دخل عميرٌ على النبي الكريم والخنزير أحبَّ إليَّ منه، وخرج من عنده وهو أحبُّ إليَّ من بعض أولادي "**، المؤمن يتمنى الخير لكل الخلق، وإذا كره الكافر يكره عمله، لا يكره ذاته بل يكره عمله، بينما الكافر ـ كما ترون وكما تسمعون ـ لا يتمنَّى الخير للمؤمن.

لك أن تفعل الخير مع كل الناس ولكنك لا تود إلا من تحب لأن الود متعلق بالحب:

قال تعالى:

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ (105))

(من)

في اللغة تفيد استغراق أفراد النوع، جُزئيات النوع، أي لو قلت لي: ألك رغبةٌ أن تشاركني في تجارةٍ عريضة ؟ أقول لك: لا مال عندي، ما عندي هذا المال، تطلب مني ملايين لا مال عندي، أما إذا قلت لك: ما عندي من مالٍ أي ولا ليرةٍ واحدة،

(من)

تفيد استغراق أفراد النوع:

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

الحقيقة لك أن تصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، وقد ورد في الأثر:

((اصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله))

[رواه ابن النجار عن علي] .

لك أن تفعل الخير مع كل الناس، ولكنك لا تود إلا من تحب، الود متعلّق بمن تحب، فـالمؤمن يتمنَّى الخير لكل الخلق، بينما غير المؤمن لا يتمنى ولا يحب الخير للمؤمن مهما قَلَّ .

المؤمن يتمنى الخير لغير المؤمن وبغضه له بغضٌ لعمله لا لذاته:

قال تعالى:

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (22))

(سورة المجادلة)

كلامي دقيق، قلت: المؤمن يتمنى الخير لكل الخلق، ولكن المؤمن ما يكون له أن يتودَّد لغير المؤمن . التودُّد أساسه الحب، فإذا كان الله لا يحب الكافرين، ولا يحب الفاسقين، ولا يحب الظالمين فكيف تحبُّ من لا يحبُّه الله ؟ يقول الله عزَّ وجل:

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (22))

(سورة المجادلة)

النقطة الثانية :

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ (105))

لا يتمنَّون الخير لكم، ولا يحبونكم . بل إنهم لا يحبونكم في الأصل، مع أن المؤمن يتمنى الخير لغير المؤمن، وبغضه له بغضٌ لعمله لا لذاته، وبمجرَّد أن يعود الشارد عن الله إلى الله يحبه المؤمن، لمجرَّد أن يؤمن غير المؤمن يصبح له ما للمؤمنين وعليه ما على المؤمنين .

الخير لا يخضع لرغبة الخلق بل هو بيد الله يعطيه لمن يشاء باستحقاقٍ وبطلب:

هناك لفتةٌ في الآية دقيقةٌ :

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ (105))

الخير من الله، لا من الغرب ولا من الشرق، وحينما توقَّعنا الخير من الشرق خاب ظنُّنا، وإذا توقَّعنا الخير من الغرب سيخيب ظنُّنا، الخير من الله وحده، هذه حقيقة .

أيها الأخوة، الخير الذي من عند الله وحده لا يخضع لرغبة أحد، فأنت إذا تمنيت الخير لفلان أو لم تتمن له الخير لا تمنِّيك يعطيه الخير ولا عدم تمنيك يمنع عنه الخير.

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر)

أي إذا أراد الله أن يكرمك وأراد أهل الأرض مجتمعين عكس ذلك ما استطاعوا، وإذا أراد الله بقومٍ سوءً فلا مردَّ له لو أن معك أهل الأرض جميعاً ما انتفعت بهم، الله وحده هو الذي يعطي وهو الذي يمنع، هو الذي يرفع وهو الذي يخفض، وهذا هو التوحيد، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، الخير لا يخضع لرغبة الخلق، الخير بيد الله يعطيه لمن يشاء باستحقاقٍ وبطلب .

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ)

(سورة الزخرف)

وقال:

(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

آيات من الذكر الحكيم دالة على أن الخير بيد الله يختص به من يشاء:

كلامٌ دقيقٌ أيها الأخوة، رحمة الله من الله وحده، والخير وهو رحمة الله يختص به من يشاء . قال تعالى في آياتٍ كثيرة :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(6))

(سورة المنافقون)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

وقال:

(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

الشيء الثاني: رحمة الله لمن طلبها:

(أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ (218))

(سورة البقرة)

رحمة الله لمن طلبها وقدّم موجباتها وهي محجوبة عن الكافرين والظالمين والفاسقين:

رحمة الله لمن قدَّم موجباتها، رحمة الله محجوبةٌ عن الكافرين، ومحجوبةٌ عن الظالمين، ومحجوبةٌ عن الفاسقين، ورحمة الله لمن طلبها:

(أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ (218))

(سورة البقرة)

رحمة الله للمحسنين:

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56))

(سورة الأعراف)

رحمة الله للطائعين، رحمة الله للمُصَلِّين، رحمة الله للعابدين، رحمة الله للمُخلصين، رحمة الله للتائبين، فربنا عزَّ وجل قال :

(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

هذه آيةٌ محكمة جاءت تفصيلاتها في آياتٍ كثيرة، إنه لا يهدي القوم الفاسقين ولا الكافرين ولا الظالمين، بل يُعطي رحمته لمن يطلبها، ويعطيها لمن دفع موجباتها، كان عليه الصلاة والسلام في أعلى درجات الأدب وهو يقول:

((اللَّهُمَّ إني أسألُكَ مُوجِباتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ))

[من الأذكار النوويَّة عن أم سلمة]

وقال:

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105))

تقنين الله تقنين تأديبٍ وتربيةٍ لا تقنين عجزٍ وبخل:

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه]

أي لو أن البشر جميعاً من لدن آدم إلى يوم القيامة، كل هؤلاء البشر وقفوا على صعيدٍ واحد، وسألني كل واحدٍ منكم مسألته ؛ واحد يريد خمسة أطنان من الذهب، خذ، ألف قصر خذ، مليون سيارة خذ .

((مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه]

إذا كان يبدو لكم أن في الأرض تقنيناً ؛ الأمطار قليلة، المكاسب قليلة، المطالب كثيرة، هناك فقر، نقص مياه، ونقص مواد غذائيَّة، لا يمكن أن يكون تقنين من الله عزَّ وجل إلا تقنين تأديب، أما أن يكون تقنين الله عزَّ وجل تقنين عجزٍ، أو تقنين بُخْلٍ هذا لا يليق بحضرة الله عزَّ وجل:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ)

(سورة الشورى الآية: 27)

هذه حقيقة في التوحيد، قرأت في مجلَّةٍ علميَّة أنه تمَّ اكتشاف سحابةٍ عن طريق مراصد تعمل بالأشعَّة تحت الحمراء، هذه السحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض كلَّها ستين مرَّةً في الأربع والعشرين ساعة، أي أن كل أربعة وعشرين ساعة هذه السحابة فيها مخزون من الماء ما يملأ محيطات الأرض مجتمعة ستين مرَّة في اليوم:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21))

(سورة الحجر)

اعتقد هذا، تقنين الله تقنين تأديبٍ وتربيةٍ لا تقنين عجزٍ وبخلٍ، إذاً:

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105))

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه]

لهذا الحديث روايات عدَّة: ذلك لأن عطائي كلام ـ كن فيكون ـ وأخذي كلام، أخطر ما في الحديث:

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَزّ وَجَلّ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

الله عزَّ وجل أجلّ وأعظم من أن يكلك إلى مخلوق مثلك فالأمر كله بيده وحده سبحانه:

أيها الأخوة الكرام الآية أصبحت :

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ (105))

المؤمن يتمنى الخير لكل الخلق، وإيمانه يقيِّده عن أن يفتك بأحد:

((إنَّ الْإِيمَانَ قَيْدُ الْفَتْكِ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[مسند أحمد عن ابن الزبير]

لا يحب غير المؤمن الخير مهما كان قليلاً للمؤمنين، وهم يفتكون بهم ـ كما ترون ـ هذه حقيقة، لكن رحمة الله لا يمكن أن تكون بمشيئة أحد من خلقه، أي أن الله عزَّ وجل أجل وأعظم من أن يكلك إلى مخلوقٍ مثلك، ولو أنه وكلك إلى مخلوقٍ مثلك كيف يأمرك أن تعبده ؟ قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود الآية: 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلَّه بيده .

من الشرك أن تعقد الآمال على غير الله أو أن تتوجه إلى غيره :

قال تعالى:

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

رحمته تابعةٌ لمشيئته، والخير من الله وحده، لا يوجد خير في الأرض إلا من الله، وكل مسلم يعقد الآمال على غير الله سيخيب ظنُّه، وكل مسلم يتوجَّه إلى غير الله لينال منه الخير سيخيب ظنه، وهذا نوعٌ من الشرك:

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

هذه المشيئة مفصَّلة في آيات أخرى، رحمة الله عزَّ وجل محجوبةٌ عن الفاسقين، محجوبةٌ عن الكافرين، محجوبةٌ عن الظالمين، محجوبةٌ عن المتكبِّرين، محجوبةٌ عن المشركين، لمن هي مبذولة ؟ لمن يطلبها، لمن يقدِّم موجباتها، لمن يكون صادقاً، لمن يكون مخلصاً، لمن يكون تائباً، لمن يكون متطهِّراً .

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105))

النسخ في اللغة أن تنقل النص لنسخةٍ ثانية وهذا المعنى ليس مطلوباً في هذه الآية :

أيها الأخوة، الآية التي بعدها :

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106))

النسخ في اللغة أن تنقل النص لنسخةٍ ثانية، استنسخت هذا الكتاب أي كتبت نسخةً ثانيةً عنه، هذا المعنى الأول، هذا المعنى هنا غير وارد:

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(29))

(سورة الجاثية)

نستنسخ أي كل أعمالكم مسطَّرة عندنا:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

(سورة إبراهيم)

الاستنساخ بمعنى أن كل أعمال الإنسان محفوظةٌ عند الله عزَّ وجل، سوف تُعرض عليه يوم القيامة عرضاً تفصيلياً:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(14))

(سورة الإسراء)

سمعت أن أحدث وسائل التحقيق مع المتهم توفيراً للوقت وإقامةً للحُجَّة أن تعرض عليه فيلماً يصوِّر انحرافه وجريمته، يسكت، هل كنت في هذا الطريق مخالفاً لنظام السير ؟ لا لم أكن، خذ هذه الصورة، الصورة مسكتة، هذه صورة مركبتك، وهذا رقمها، وهذا التاريخ، فربنا عزَّ وجل يعرض على الإنسان كتاب أعماله .

آيات من القرآن عن كل صغيرة وكبيرة تعرض على الإنسان في كتاب أعماله يوم القيامة:

قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(14))

(سورة الإسراء)

وقال:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ (49))

(سورة الكهف)

كتاب الأعمال:

(لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً (49))

(سورة الكهف)

يوجد في بعض البلاد المتقدِّمة صفحة بالكمبيوتر لكل مواطن، تسجَّل عليه مخالفة السير، ويسجل عليه تخلفه عن دفع دين، شيء محيِّر، فكل حركاته، وسكناته، وأعماله، ومخالفاته مسجَّلة عليه، إذا أراد أن يسافر لا يسافر حتى يسدد، إن أراد أن يبحث عن وظيفة عليه أن يسدِّد، صار عند الإنسان بحكم التقدُّم التكنولوجي ـ إن صحَّ التعبير ـ تسجيل لكل شيء . فكيف بالواحد الديَّان ؟!!

لا تكن وعاءً للعلم بل كن واعياً له فهناك فرق كبير بينهما:

قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(14))

(سورة الإسراء)

وقال:

(لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً (49))

(سورة الكهف)

الاستنساخ أي أخذ صورة عن كتاب، كتابة نسخة ثانية . هذا المعنى ليس مطلوباً في هذه الآية .

قيل للإمام الغزالي رحمه الله تعالى: إن فلاناً حفظ كتاب الأم ـ كتاب دقيق جداً بالفقه ـ تبسَّم الإمام الغزالي وقال: **" زادت نسخة "** ، كونوا للعلم وعاةً، لا تكن وعاءً للعلم بل كن واعياً له، فرقٌ كبير بين أن تكون واعياً وبين أن تكون وعاءً، إذا كنت وعاءً زادت نسخة، والنسخة الأصلية أدق منك بكثير، إذا حفظت الكتاب بصماً فالكتاب الأصلي أدق منك ولكن المطلوب أن تكون واعياً أحكامه، وعلى كلٍ هذه المعاني ليست مطلوبةً في هذه الآية .

النسخ بالمعنى الثاني إلغاء الحكم، ضوء الشمس ينسخ الظلام، ألغى الظلام، الظلام ينسخ ضوء الشمس، الإلغاء، آيةٌ منسوخة أي توقَّف حُكمها .

بادئ ذي بدء اعترض اليهود على المسلمين كيف أن القبلة تحوَّلت من مكَّة إلى بيت المقدس، ثم رجعت إلى مكَّة، ما هذا التبديل ؟!!

الاختلاف بين الناس على أنواع ثلاثة :

بالمناسبة هناك موضوع دقيق جداً هو أن الاختلاف بين الناس على أنواعٍ ثلاثة:

1ـ اختلافٌ طبيعي وهو لا محمود ولا مبغوض:

اختلافٌ طبيعي سببه نقص المعلومات:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (19))

(سورة يونس)

وقال:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ (213))

(سورة البقرة)

هذا الخلاف طبيعي لا يُمدح ولا يُذَم، خلاف نقص المعلومات حلُّه المعلومات، فنحن بيوم وقفة سمعنا صوت مدفع، نتساءل: هل هو صوت مدفع أم هو تدمير بالجبل ؟ طريق فيه صخرة ففجَّروها أم مدفع العيد ؟ وقعنا في اختلاف، اختلفنا، سمعنا في الأخبار أن غداً العيد، هذا الخبر الصادق حسم الخلاف:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (19))

(سورة يونس)

وقال:

(فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ (213))

(سورة البقرة)

بهذه البعثة ـ ببعثة النبيين ـ حُسِمَ الخلاف .

2ـ اختلاف الحسد والبغي وهو اختلاف مبغوض:

الآن بعد أن جاء النبيون وأُنزلت عليهم الكتب اختلف الناس، هذا اختلاف قذر، اختلاف الحسد والبغي:

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (19))

(سورة آل عمران)

دقّق . قد نختلف لنقص المعلومات ونحن صادقون، ونحن مخلصون، ونحن أحباب، لكننا اختلفنا في هذا الموضوع لنقصٍ في معلوماتنا، ولكن قد نختلف ونحن آثمون، ونحن بعيدون عن الله عزَّ وجل، قد نختلف بسبب الحسد، والبغي، وجلب المكاسب، وتحطيم الخصوم، هذا اختلافٌ قذر لا يحبه الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (159))

(سورة الأنعام)

هذا دليل عدم الإخلاص، حينما تختلف مع أخيك والكتاب واحد، والسُنَّة واحدة، والمنهج واحد، والإله واحد فهذا اختلاف بغيٍ وعدوانٍ وحسد، وهذا خلافٌ يبغضه الله عزَّ وجل، قال تعالى :

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ (213))

(سورة البقرة)

3ـ اختلاف التنافس وهو خلاف محمود:

الخلاف الثالث خلاف محمود، خلاف التنافُس، هذا يعتقد أن أفضل شيء تعليم العلم، هذا يعتقد أن أفضل شيء تأليف الكتب، هذا يعتقد أن أفضل شيء الدعوة إلى الله، هذا يعتقد أن أفضل شيء بناء المساجد، هذا اختلاف محمود، قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

وقال:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

هذا اختصَّ في التفسير، وهذا في الفقه، وهذا في الحديث، وهذا في العقائد، وهذا في خدمة الخلق، وهذا في إطعام الجائعين، وهذا في تأسيس الجمعيات الخيريَّة، هذا كلّه مقبول، اختلاف التنافس محمود، اختلاف الحسد مبغوض، الاختلاف الطبيعي اختلاف لا محمود ولا مبغوض .

النسخ بالمعنى الثاني إلغاء الحكم وهو المقصود في الآية التالية:

يبدو أن أهل الكتاب اختلفوا مع المسلمين، السبب أنهم رأوا أن الذي جاء للمسلمين من خيرٍ عن طريق رسول الله عليه الصلاة والسلام ليس عندهم مثله، هم تمسَّكوا بما عندهم وحسدوا المؤمنين فاختلفوا معهم، بدؤوا يترصَّدون لهم، ويطعنون بدينهم، ويشكّكون في مصداقية نبيِّهم عليه الصلاة والسلام، قال ربنا عزَّ وجل:

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا (106))

هناك موضوع دقيق، قال بعضهم: لا نسخ في القرآن، انطلاقاً من أنه ينفي البداءة عن الله عزَّ وجل، ما البداء ؟ طبيب وصف دواء لمريض، بعد أن وصف له الدواء واشترى المريض هذا الدواء، وبدأ يأخذ منه بعض الحَبَّات بدا للطبيب أن هذا الدواء لا يصلح له، ولا بد من دواءٍ آخر، فأمره أن يلغي الدواء الأول وأن يأخذ الدواء الثاني . إذا كان النسخ بهذا المعنى فلا وجود له في القرآن، لأنه لا يمكن أن يبدو لله شيءٌ لم يكن بادياً له من قبل، هذه صفات البشر وليست صفات خالق البشر .

أما أن يأمر الطبيب المريض أن يأخذ حبَّات أسبرين لتمييع الدم، بعد هذا قرَّر الطبيب إجراء عملية قلب مفتوح لهذا المريض فأعطاه أمراً بإلغاء تناول الأسبرين . حدَّثني طبيب قلب جرَّاح فقال لي: حدث خطأ من مريض أنه أخذ الأسبرين ولم يبلّغ . نجحت العمليَّة نجاحاً باهراً، ولكن أثناء الخياطة ـ خياطة القلب ـ كان الدم يخرج من الجُرح بشكلٍ غير معقول أثناء النبض، مما أدى لموت المريض، لأن الدم مائع . فالطبيب الذي يأمرك بأن تأخذ حبَّات الأسبرين من أجل تمييع الدم، ثم يقرِّر أن يجري عملية قلبٍ مفتوح، يعطي أمراً معاكساً، يجب أن توقف الأسبرين . في مرحلةٍ من المرض لا بد من تمييع الدم، فلمَّا أردنا إجراء عمليَّة لا بد من إلغاء التمييع وإلا يموت المريض، فهذا الطبيب أمر ثم نسخ الأمر أي ألغاه، وقد يعود إليه مرَّة ثانية بعد العمليَّة . هذا المعنى هو نفسه المقصود في القرآن .

الحكمة من نسخ التوجُّه إلى بيت الله الحرام وأن يحل محله التوجُّه إلى بيت المقدس:

يقول الله عزَّ وجل :

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (106))

هناك ثلاث حالات، آيةٌ يلغى حكمها، وآية يأتي مكانها حكم آخر من مثلها، وآيةٌ يلغى حكمها ويأتي حكمٌ آخر خيرٌ من الأول، ما تفصيل ذلك ؟

لماذا أمر الله عزَّ وجل المسلمين بالتوجُّه لبيت المقدس ونُسِخَ التوجُّه إلى الكعبة، طبعاً إذا توجَّه المصلي إلى بيت المقدس ليس هناك جُهد إضافي، وبالمقابل لا يخفَّف عنه بجهدٍ آخر، العمليَّة هكذا أو هكذا، نحو مكَّة أو نحو بيت المقدس، ولكن الله أراد من هذا النسخ ـ نسخ التوجُّه إلى بيت الله الحرام، وأن يحل محله التوجُّه إلى بيت المقدس ـ هذا الأمر من أجل أن يعلم الخلق جميعاً أن الدين الإسلامي هو دين أهل الأرض، وهو خاتم الأديان، لذلك الأديان السماويَّة مركزها في بيت المقدس . والمسلمون توجَّهوا لبيت المقدس ؛ أولاً هذا الدين يستوعب كل الأديان، وثانياً بعدئذٍ ينبغي أن تتبعه الأديان كلها .

هذا النسخ لعلَّةٍ إيمانيَّةٍ محضة، ليس هناك مكان مقدَّس ولكن هناك أمرٌ إلهيٌ مقدَّس، القدسيَّة لا في المكان ولكن في الأمر الإلهي، وأراد الله أن يمتحن المؤمنين، هناك من يتعلَّق بالمكان وهناك من يتعلَّق بخالق المكان، فهذا امتحان، أنت مع المكان أم مع خالق الأكوان ؟ فالمؤمنون الصادقون أُمروا بالتوجُّه إلى بيت المقدس فتوجَّهوا له، ثم أُمروا أن يعودوا إلى الكعبة المشرَّفة فعادوا إليها، انتهى الأمر، أنا مع خالق الأكوان ولست مع المكان لعلَّةٍ إيمانية ولحقيقة قرآنية وهي أن القدسية في الأمر وليست في المكان، وهم لم يتكلَّفوا شيئاً إضافياً، ولا وضع عنهم تكليفٌ معيَّن .

المعنى الأول لكلمة (خير منها):

قال تعالى:

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا (106))

نغفل نسخها:

(نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (106)).

كيف تكون خيراً منها ؟ فالصحابة في أول إقبالهم على هذا الدين الجديد:

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ (65))

(سورة الأنفال)

أي واحد لعشرة، إذا كان الصحابي تولَّى من ساحة المعركة والعدد كان تسعة يحاسب بأكبر معصية وهي التولي في الزحف . ثم قال الله عزَّ وجل :

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ (66))

(سورة الأنفال)

كان الواحد لعشرة صار واحد لاثنين، فعندما دخل الناس في دين الله أفواجاً، هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام ليسوا في مستوى الصحابة الأوَل، فالصحابة الأوَل كان قياسهم واحد لعشرة، أما الداخلين في الدين بعد حين واحد لاثنين، فالخير المُطلق للصحابة واحد لعشرة، والخير المطلق لمن جاء بعدهم واحد لاثنين، صار هناك نسخ، الأول خير والثاني خير، الأول خير لهؤلاء النخبة المتفوّقين السابقين، والحكم الثاني خير للاحقين .

المعنى الثاني لكلمة (خير منها) :

هناك معنى ثانٍ: قال الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: 102)

وفي آية أخرى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (16))

(سورة التغابن)

حقَّ تقاته أي أن تبذل كل ما في وسعك، **" يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ؟ " قال: " الله ورسوله "** بعد هذا:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (16))

(سورة التغابن)

البذل والعطاء بقدر ما تستطيع، ما كلّفك الله عزَّ وجل ما لا تطيق، فالحالة الأولى للأوائل خير

(اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

أي ابذل كل شيءٍ في سبيل الله . الحالة الثانية بقدر ما تستطيع .

هناك نقطة دقيقة: مسيلمة الكذَّاب الذي ادَّعى النبوَّة كانت دعوته في وقتٍ مبكّر، قبض على صحابيين وقال للأول: **" أتشهد أني رسول الله ؟ " قال: " ما أسمع شيئاً ". فقتله . وقال للثاني: " أتشهد أني رسول الله ؟ " قال: " أشهد أنك رسول الله " .**

ماذا كان تعليق النبي عليه الصلاة والسلام ؟ تعليقٌ رائع، قال:

أما الأول فقد أعزَّ دين الله فأعزَّه الله، وأما الثاني فقد قبل رخصة الله " .

الأول أعزَّ دين الله والثاني مقبول، الثاني قَبِلَ هذه الرخصة ـ لكن واحد قبض بالدولار والثاني بالتركي ـ الاثنان لهم أجر، أما الأول فقد أعزَّ دين الله فأعزَّه الله، وأما الثاني فقد قبل رخصة الله عزَّ وجل .

علَّة أي أمرٍ أنه أمر من الله عزَّ وجل:

أيها الأخوة، الشيء الدقيق علَّة الأمر أنه أمرٌ صادرٌ عن الله، علَّة أي أمرٍ أنه أمر . سمعت أن أحد علماء هذه البلدة الطيِّبة كان في أمريكا، وجرى نقاشٌ وحوارٌ بينه وبين عالمٍ قد أسلم حديثاً، وطُرح موضوع لحم الخنزير، فهذا العالِم أجاد وأطال وأحسن في شرح حكمة تحريم لحم الخنزير، وبعد أن انتهى قال له ـ لهذا العالِم الذي أسلم حديثاً كلمة رائعة ـ قال له: **" يا أستاذ كان يكفيك أن تقول لي إن الله حرَّمه "** . يكفي هذا، إذا كان خالق السماوات والأرض قد حرَّم شيئاً كل الشر فيه، من دون تفاصيل.

امرأة تعمل في الجامعة في مصر ـ اختصاصها أعتقد علم نفس ـ سألوها: ما قولك في تعدُّد الزوجات ؟ فقالت: **" كيف أدلي برأيٍ وقد سمح الله به ؟ "** هذا هو المؤمن .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: 36)

علَّة أي أمرٍ أنه أمر من الله عزَّ وجل .

السجود لآدم، التعظيم، لأن الله أمر أن يسجد الملائكة له، التعظيم لورود الأمر بالسجود، وأنت حينما تعظِّم الحجر الأسود لأن الله أمرنا أن نعظِّمه عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام، فدائماً التقديس لأمر الله في السجود لا لآدم بالذات، لا يوجد مكان مقدَّس، ولا زمان مقدس، ولا شخص مقدَّس لكن أمر الله هو المقدَّس، وأنت تنصاع لأمر الله فقط .

هناك حكمة ثانية: أن البيوت ـ بيوت الله عزَّ وجل في بقاع الأرض ـ قد أُنشئت باختيار الخلق، مثلاً، الذين بنوا هذا المسجد ـ جزاهم الله خيراً ـ اختاروا هذا المكان، والذين بنوا المسجد الأول اختاروا هذا المكان، فكل المساجد في الأرض باختيار الخلق، لكن البيت الحرام باختيار الرب .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

الله عزَّ وجل أمر كل هؤلاء المساجد التي أنشئت باختيار الخلق أن تتجه إلى المسجد الذي اختاره الله عزَّ وجل، هذا للتعبير عن وحدة المسلمين، وعن وحدة المَصدر، المصدر هو الله عزَّ وجل .

الآيات المنسوخة تعليمٌ لنا أنك إذا دعوت إلى الله فخُذ الأمر بالتدريج لا تأخذه بالشدَّة والعُنف :

قال تعالى:

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106))

إذا نُسخَت آية أُلغي حكمها كلياً فلحكمةٍ بالغة، ونُسخت وحلَّ محلَّها آيةٌ مساويةٌ لها فلحكمةٍ بالغة، أو نُسخت وحلَّ محلها آيةٌ فيها خيرٌ أكثر، فيها خيرٌ أكثر للذين جاءوا من بعدهم .

الآن أنت قد تعطي سؤالاً يُعَد مثالاً لشعبة عاديَّة، يمكن أن تلغي السؤال الأول وتعطي سؤالاً آخر أصعب بكثير لشعبة متفوِّقة، السؤال الأول للشعبة المتفوِّقة يُحتقر، الطالب سيحتقر كل الامتحان، إذا قلت لك: ما مجموع اثنين وثلاثة ؟ خمسة، صفِّقوا له، ما هذه صفقوا له ؟ إذا كانت شعبة رياضيات متفوِّقة اثنين وثلاثة خمسة صفقوا له !! لا بد من سؤال دقيق فيه تحدي، أحيان تقتضي المرحلة هذا الحكم، والمرحلة الثانية تقتضي حكماً آخر، هذا تعليم لنا .

كيف حرم الله الخمرة التي هي كلُّها شر ؟ جُمع الشر كله في بيت وأُرتج عليه فكان مفتاحه السُكر، يروى ـ قصَّة رمزيَّة ـ أن إنساناً خُيِّر بين أن يزني، وبين أن يقتل، وبين أن يشرب الخمر، توهَّم أن أهون شيء شرب الخمر فاختارها، فزنى، وقتل بعدها، هذه الخمرة التي هي أم الخبائث كيف حرَّمها الله ؟ بالتدريج، قال تعالى:

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً (67))

(سورة النحل)

أي مادَّة مسكرة:

(وَرِزْقاً حَسَناً (67))

(سورة النحل)

معنى هذا أن السَكَر رزق غير حسن، هذه أول إشارة، ثم يقول الله عزَّ وجل :

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ (43))

(سورة النساء)

كان مسموحاً للإنسان أن يشرب بين الصلوات، ثم قال الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(90))

(سورة المائدة)

هذا نسخ تدريجي، كذلك طبعاً لا يجوز أن يعود الحُكم الذي نُسِخ الآن، ولكن بقاء هذه الآيات المنسوخة تعليمٌ لنا أنك إذا دعوت إلى الله فخُذ الأمر بالتدريج لا تأخذه بالشدَّة والعُنف . دعا أحدهم عدداً من غير المسلمين إلى الإسلام فأسلموا، كلهم رجال، أمرهم أول شيء بالطهور، فرفضوا الدخول في هذا الدين !!! خذ الأمر بالتدريج .

القرآن نزل بالتدريج والتحريم بدأ بالتدريج وهذه حكمة الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106))

أي أن الله قادر أن يعطي الأحكام الشديدة دفعة واحدة، القرآن نزل بالتدريج، نزل منجَّماً، والتحريم بدأ بالتدريج، وهذه حكمة الله عزَّ وجل، أي خذ الأمر بالتدريج ، لذلك تحتاج الدعوة إلى الله ـ كما

يقولون ـ إلى التدرُّج لا إلى الطَّفرة، إلى التربية لا إلى التَعْرِيَة، الإحسان قبل البيان، القدوة قبل الدعوة، الأصول قبل الفروع:

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107))

ألم تعلم يا محمَّد ؟ ألم تعلم أيها المؤمن ؟ الأمر كلَّه بيد الله، فأنت تتلقَّى هذا المنهج من رسول الله وهو قمة في الكمال، قمة في الآية التي لم تُنسخ، وقمة الكمال في الآية التي نُسِخَت ولم يأتِ مكانها بديل، وقمَّةٌ في الآية التي نُسخت وجاء البديل مساوياً لها، وقمةٌ في الآية التي نُسخت وجاء البديل أفضل منها نسبياً، كما ذكرت، أصحاب النبي المتفوِّقون، السابقون واحد مقابل عشرة، هذه الآية نُسخت، دخل الناس بعدئذٍ في دين الله أفواجاً، علم أن فيكم ضعفاً صار واحد مقابل اثنين .

الاستقامة حَدِيَّة أما العمل الصالح نِسبي:

أصحاب النبي:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: 102)

دخل الناس في دين الله أفواجاً:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (16))

(سورة التغابن)

أي بالإنفاق، أما بالترك فالحد واحد:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود الآية: 112)

الاستقامة حَدِيَّة، والعمل الصالح نِسبي، لو جاء مسلم في آخر الزمان يجب أن يستقيم على أمر الله كما استقام النبي العدنان، أما في البذل والعطاء الصحابة الكرام

(حَقَّ تُقَاتِهِ)

نحن

(مَا اسْتَطَعْتُمْ)

بالبذل والعطاء، بقدر طاقة الإنسان . أوضح مثل: مستودع إحكامه حَدِّي، أما إملاؤه نسبي، لا بد من أن يكون محكماً، لا يوجد بالإحكام حل وسط، محكم يعني محكم، أما إملاؤه بقدر ما معك، تملأ فيه مئة لتر، مئتي لتر، ألف لتر، فالعمل الصالح نسبي بقدر ما تستطيع، أما الاستقامة حديَّة .

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً واحدة ولكن التشريعات متفاوتة:

أهم شيء في هذا الدرس أنه لا نسخ في العقائد، مستحيل، النسخ في الأحكام فقط، العقائد لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، حتى الأديان في جوهرها واحد:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

تبيِّن هذه الآية أن فحوى دعوة الأنبياء جميعاً واحدة، ولكن التشريعات متفاوتة، كل ديانةٍ تنسخ التي قبلها، لكن هل يعقل أن تكون التي قبلها غير جيِّدة ؟ لا هي لأهلها ولأصحابها قمَّةٌ في الكمال . فدائماً تعطي ابنك سؤالاً وهو في الصف الثالث الابتدائي غير الصف السادس، غير الصف السابع، غير الصف العاشر، غير دكتوراه بالرياضيات، كل مستوى له منهج، فالأديان السماويَّة متساوية في العقائد والتوحيد، والدليل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

أما المناهج فمختلفة . سيدنا موسى نزل عليه تشريع، وجاء السيد المسيح، ثم جاء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فالتشريع الإسلامي خاتم الشرائع السماويَّة، وإن الدين عند الله الإسلام .

الشيء الثاني: لا نسخ في العقائد ولا نسخ في الأخبار عن الله عزَّ وجل، فإذا أخبرنا الله عزَّ وجل عن شيء مستحيل أن ينسخ هذا الخبر، فالنسخ ممنوع في العقائد والأخبار، مسموح توقيفاً عن الله عزَّ وجل في التشريعات .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (41- 95):تفسير الآيات 107 - 111، مرض الإعراض وأعراضه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-05-28

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم يعلّمنا الوصف الدقيق:

مع الآية الثامنة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109))

أيها الأخوة الكرام:

(وَدَّ كَثِيرٌ (109))

تفيد كلمة (كثيراً) أنهم ليسوا جميعاً كذلك، هذه دقّة، وهذا وصفٌ موضوعي، والقرآن الكريم يعلّمنا هذا الوصف الدقيق . لا تقل: أهل هذه المدينة كلُّهم كاذبون . هذا كلام الجُهال، لا تقل: أهل هذه الصنعة كلهم منافقون، دقّق في أحكامك . لو قلت: إن أهل هذه الصنعة كلُّهم منافقون، كلُّهم يكذبون . وقعت في خطأٍ كبير، إن قلت: أكثرهم كذا . هذا كلام دقيق، فدقق في هذه الكلمة:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (109))

أي أن أكثرهم هكذا، لكن هناك استثناءاتٌ قليلة .

الطرف الآخر وهو الكافر يبحث عن التناقض عند المؤمن ليكبِّره وليشكِّك المؤمن في أصل دينه :

قال تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً (109))

أي أن الطرف الآخر يبحث عن نقاط الضعف عند المؤمنين، يكتشف تناقضاً وهمياً في أفكاره أو ليكتشف بعض الأخطاء غير المقصودة في سلوكهم، فيكبِّرها ويقيم النكير عليها، وهو يودُّ أن يشكِّك المؤمنين في أصل دينهم، ذكرنا فيما مضى من الدروس: أنه حينما توجَّه المسلمون إلى بيت المقدس، ثم عادوا بقبلتهم إلى بيت الله الحرام، قال اليهود: إذا كانت القبلة إلى بيت المقدس هي الحق، فلماذا عُدتم إلى بيت الله الحرام ؟ وإن كانت القبلة إلى بيت الله الحرام، فحينما توجَّهتم إلى بيت المقدس فصلاتكم باطلة .

دائماً وأبداً الطرف الآخر يبحث عن التناقض، ليكبِّر هذا التناقض، ليشكِّك المؤمن في أصل دينه، وقد ردَّ الله عليهم بأنه:

(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (106))

(سورة البقرة الآية: 106)

بيَّنت في درسٍ سابق أن النسخ هو حكمٌ مرحلي يأتي بعده حكمٌ يتناسب مع المرحلة الثانية . فالطرف الآخر ينتظر بالمرصاد، يبحث عن تناقض، يبحث عن خطأ، هذا المعنى يقودنا إلى آيةٍ مناسبةٍ جداً يجب أن تشرح الآن، الآية الكريمة:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة الآية: 5)

حينما يقصِّر المؤمن في عمله، حينما يتناقض في كلامه، حينما يكتب تصريحاً كاذباً للحج فرضاً، حينما يهمل عمله، حينما يعد ولا يفي، ماذا يفعل ؟ يفعل جريمةً . ما هي الجريمة ؟ الطرف الآخر يتمسَّك بكفره، يتشبَّث به، يقول: أنا على الصواب، وأنت الخطأ، أنا على حق وأنت الباطل لأنك قصَّرت معه، فأي مؤمن يُعدّ سفيراً للمسلمين:

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك))

[ورد في الأثر]

أنت مسلم وتمثِّل هذا الدين العظيم، فحينما تُدلي بتصريحٍ كاذب فقد كذبت والمؤمن لا يكذب:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إِلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عن أبي أمامة]

تمسُّك المؤمن بالقيم ووضوحه في الفكر والتزامه في السلوك يحدث عند الطرف الآخر خللاً:

أنت حينما تعد ولا تفي بوعدك أنت بهذا جعلت الطرف الآخر يتشبَّث بكفره، ويحتقر ما أنت عليه، وينتقل احتقاره إلى دينك، فقبل أن تدلي بتصريح، قبل أن تُخلف الوَعد، قبل أن تقدِّم صنعةً غير متقنة، قبل أن تقدِّم شيئاً تافهاً، قبل أن تسلُك سلوكاً غير صحيح عدَّ للمليون لأن الطرف الآخر يبحث عن خطأ، يضع أعمالك تحت إضاءةٍ شديدة، الأضواء كلُّها مسلَّطة على المؤمن، فإذا أخطأ كُبِّرَ هذا الخطأ وصار خطأً يمسُّ هذا الدين العظيم .

دقِّق أنك لو تعاملت مع غير المسلم وأخطأت، لا يقول: فلان أخطأ معي، بل يقول: هكذا الإسلام، يُغفل اسمك ويظهر الإسلام، لو أنك لا سمح الله ولا قدَّر أخطأت في حق مسلم يقول: فلان أخطأ معي . لا يذكر الدين .

ربنا عزَّ وجل يعرض علينا نموذجاً من تمنيِّات هؤلاء القوم، يتمنون أن يردوكم بعد إيمانكم كافرين، ماذا يفعلون ؟ يشكِّكونكم في أصل دينكم، يشكِّكونكم في الوحي، الوحي أصل الدين . فكيف تؤمرون أن تتجهوا إلى بيت المقدس ثم ترجعون إلى مكة المكرَّمة، أيهما هو الأصح ؟ إن كان الصواب أن تتجهوا إلى بيت المقدس، فلماذا تحوَّلتم عنه إلى بيت الله الحرام ؟ وإذا كان الصواب أن تتوجَّهوا إلى بيت الله الحرام، فلماذا تحوَّلتم عنه إلى بيت المقدس ؟ الجواب:

(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (106))

(سورة البقرة الآية: 106)

ماذا يفيدنا هذا الدرس ؟ لو وسَّعنا هذا الموضوع يفيدنا أن الطرف الآخر يُعادي الحق، ويبحث عن ثغرات ليكبِّرها ويجعل منها قضيَّة، فأنت كمؤمن ينبغي أن لا تعطي الطرف الآخر حُجَّةً عليك، ينبغي أن لا تعطي الطرف الآخر شيئاً يتمسَّك به . لذلك المؤمن الصادق يُحدث اختلال توازن عند الطرف الآخر، مؤمن، صادق، أمين، مُتقن، متفوِّق في عمله، يفي بوعده، يفي بعهده، لا يخون ولا يكذب، هذا التمسُّك بالقيم وهذا الوضوح في الفكر وهذا الالتزام في السلوك يحدث عند الطرف الآخر خللاً ولعلَّه يؤمن بهذه الطريقة .

إذا ابتعد الإنسان عن الحق وعصى الله يختل توازنه وهناك ثلاث حالات لاستعادة توازنه:

هناك معركةٌ أزليَّةٌ أبديَّةٌ بين الحق والباطل، فالمؤمن حينما يخطئ على مرأى من كافر، يدفع الكافر إلى التشبُّث بكفره، يُعين الشيطان على الكافر، المؤمن حينما يخطئ مع الكافر يعطي الدليل للكافر أن يبقى كافراً، أما حينما يرى الكافر من المؤمن صدقاً، وأمانةً، واستقامةً، ودقَّةً، وإتقاناً، وورعاً يختل توازنه فيُسلم .

متى يدخل الناس في دين الله أفواجاً ؟ حينما يرقى المؤمنون، ومتى يخرج الناس من دين الله أفواجاً ؟ حينما يقصِّر المؤمنون، بتقصيرنا يخرج الناس من دين الله أفواجاً، وبصدقنا واستقامتنا وقوة حجَّتنا يدخل الناس في دين الله أفواجاً . المؤمن مقرِّب وليس مبعِّداً، محبِّب وليس منفِّراً، هذه مهمة المؤمن، هناك من يدعو إلى الله، وهناك من ينفِّر الناس من الله عزَّ وجل، وهذه الكلمة التي يقولها معظم الناس دائماً: هؤلاء أصحاب الدين هكذا، هناك من يقول: إن كل إنسان له صلة بالدين يخطئ، حتى يشفي غليله .

الحقيقة هذا يقودنا إلى موضوع نفسي، الإنسان بفطرته ينبغي أن يكون مؤمناً، فالإنسان مبرمج، مولَّف ـ بتعبيرات حديثة ـ مجبول ـ بتعبير قرآني ـ مفطور على حب الحق، وعلى طاعة الله، فإذا ابتعد عن الحق وعصى الله عزَّ وجل يختل توازنه، هذا الاختلال مُزعج، كيف يستعيد هذا الاختلال ؟ هناك ثلاث حالات ؛ حالة واحدة صحيحة وحالتان مرضيَّتان .

1ـ الحالة الصحيحة أن يصطلح مع الله ويتوب إليه ويستسلم لأمره ويطيعه:

الحالة الصحيحة أن يصطلح مع الله، وأن يتوب إليه، وأن ينيب إليه، وأن يستسلم لأمره، وأن يطيعه، وكل إنسان حينما يتوب يشعر أن جبالاً قد أزيحت عن كاهله، يشعر أن استقراراً قد ملأ قلبه، يشعر بالأمن والطمأنينة، يشعر بالثقة والرجاء، هذه طريقة من طرق أن تستعيد التوازن .

2- أن تطعن بالمؤمنين لتوهم نفسك أن الناس جميعاً هكذا:

الطريقة الثانية: أن تطعن بالمؤمنين، من أجل أن توهم نفسك أن هؤلاء المؤمنين ليسوا كذلك، هذه طريقة مرضيَّة . إما أن تصطلح مع الله فتتوازن، وإما أن تطعن بالمؤمنين لتوهم نفسك أن الناس جميعاً هكذا ؛ لا يوجد واحد جيِّد . هذه طريقةٌ مرضيَّةٌ ولكنها ليست صحيحة .

3- أن تتعلَّق بفكرٍ ضال يُغطِّي انحرافك:

الشيء الثالث: أن تتعلَّق بفكرٍ ضال يُغَطِّي انحرافك، كمثل شخص منحرف يتشبَّث بمفهوم الشفاعة الساذجة، أن افعل ما شئت، فالنبي الكريم سيشفع لك، فكرة مريحة جداً، أنت تفعل ما تشاء ؛ تأكل المال الحرام، تعتدي على من تشاء وأنت متوهِّم أن النبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لك يوم القيامة ويدخلك الجنَّة، هذه الفكرة مريحة للمقصِّرين يتعلَّق بفكرٍ خاطئ، بعقيدةٍ ضالَّة، بفهمٍ مريض سقيم، التعلق بهذه المفاهيم يريح من اختل توازنه، أو الطعن بالمؤمنين يريح من اختل توازنه ؛ ولكن الصواب أن تعود إلى الله، وأن تصطلح معه، وأن تطبِّق منهج الله عزَّ وجل، عندئذٍ تستعيد توازنك وتسعد .

كلَّما توسَّع التقصير يرتاح المُقصِّر:

قال تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً (109))

ذلك ليستعيدوا توازنهم، هم حينما كفروا اختل توازنهم، لأنهم خالفوا فطرتهم، خالفوا جبلَّتهم، فلمَّا رأوا المؤمنين ملتزمين، منيبين، محبِّين، متعاونين، سعداء فهذا الشيء مقلق، فتمنوا أن يختل توازنهم وأن يعودوا كفَّاراً .

حدَّثني رجل يعمل في التجارة كان مُسرفاً في المعاصي، ذهب إلى بيت الله الحرام وحجَّ وتاب إلى الله، فلما عاد إلى بلده كان في جَلْسةٍ مع أصدقائه القُدامى ـ وهذا خطأٌ كبير ـ قال له أحدهم: اشرب . قال: أنا تبت إلى الله . قال له: كم كلَّفتك الحجَّة ؟ قال له: حوالي خمسين ألفاً، قال له: هذه خمسون ألفاً واشرب .

هذا سلوك يومي، يريد المنحرف أن يجعل كل الناس منحرفين، الكذَّاب يريد أن يجعل كل الناس كاذبين، الذي يخون الأمانة يريد أن يحمل الناس جميعاً على خيانة الأمانة، هذه حقيقة، فالمنحرف يودُّ أن ينحرف الناس معه كي يستأنس، كي يشعر أن كل الناس هكذا .

لذلك أحياناً تسأل طفلاً: أين الوظيفة ؟ يقول وهو لا يشعر: لم نكتبها يا أستاذ . أنت كم واحد ؟ يريد أن يوسِّع التقصير، فكلَّما توسَّع التقصير يرتاح المُقصِّر، كل الناس هكذا، والإنسان عندما يبحث عن تغطية لخلله يبحث عن القصص المنحرفة، زيد فعل كذا، لمَ لمْ تبحث عن القصص الأخرى ؟ يأتي بقصَّة أن فلاناً انحرف، وفلاناً انحرف، وفلاناً انحرف ليرتاح، كأنه بهذا يشعر أن الناس كلهم هكذا، مع أن هناك أدلَّةٌ قويَّةٌ جداً بالمقابل، فلان استقام، وفلان استقام، وفلان صدق .

الله جلّ جلاله يجعل من المؤمن داعية دون أن يشعر:

بالمناسبة هناك معنى دقيق جداً وهو: أن الله جل جلاله يجعل من المؤمن داعيةً دون أن يشعر . قد يضيِّق عليه دخله إلى درجة أنه قد لا يكفيه، يأتيه عرضٌ مُغرٍ ولكن هذا العرض فيه شبهة فيرفض، حينما يرفض المؤمن هذا العرض المغري وهو في أمس الحاجة إلى المال، صار هذا المؤمن داعيةً وهو لا يشعر، داعيةً بسلوكه، صار مضربَ المثل . فكل ما ساقه الله للمؤمن ووقف منه هذا الموقف الكامل دعوةٌ إلى الله دون أن يشعر .

تجد مؤمناً ينفق من ماله القليل الشيء الكثير، إنفاق ماله دعوة، مؤمن يصبر، صبره دعوة، مؤمن يُضحي، تضحيته دعوة، مؤمن يتعرَّض

لضغطٍ شديد، هذا الضغط الشديد مع ثباته على الحق دعوة، فأنت قد تدعو إلى الله بلسانك، ولكن الله أحياناً يجعل منك داعيةً دون أن تشعر .

أحياناً ينحاز أب وأم إلى ابنهما الضال ويقسوان على ابنهما البار بدافعٍ من الشيطان، يرحبون بابنهم الضال، يكرِّمونه، يعطونه، يتباهون به ؛ يضعون ابنهما البار الديِّن في التعتيم، لا يعبؤون به، يقسون عليه، فهذا البار مع أن والديه يقسوان عليه يبرَّهم، صار دعوة . فأنت لا تعجب، قد يجعل الله منك داعيةً وأنت لا تشعر .

أحياناً يدخل إنسان السجن وهو مظلوم لحكمةٍ أرادها الله، أدخل الله عزَّ وجل نبيَّاً كريماً للسجن، فإذا هو في هذا السجن يصلي، ويذكر الله، ويعرِّف بالله، تكون له مهمَّة هناك، فجعل الله منه دعوةً، دخل السجن وجعل منه دعوةً هناك . فلا بد من أن يجعل الله منك داعيةً بشكلٍ أو بآخر، صبرك دعوة، عفَّتك دعوة، أمانتك دعوة، والمؤمن لا بد من أن يكون نبراساً لبقيَّة الناس، ويجب أن يوطِّن نفسه على أنه تحت الأضواء، وأن كل من حوله ممن شرد عن الله عزَّ وجل يتربَّص به، وينتظره على موقف، فكلَّما كان إيمانك قوياً تحرَص على أن تكون مستقيماً .

النبي عليه الصلاة والسلام علَّمنا بأقواله وأفعاله الشيء الكثير:

علَّمنا النبي عليه الصلاة والسلام بأقواله وأفعاله الشيء الكثير، فقد كان عليه الصلاة والسلام مع زوجته صفيَّة ؛ فمرَّ صحابيَّان جليلان فقال لهما:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ))

[البخاري عن صفية]

كن واضحاً، وضِّح الأمور، فدائماً وضِّح الأمور لدرجة أن الناس لا يرتابون في سلوكك . قال لها ذلك مع أنهما صحابيان جليلان:

((قالا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قالَ: إنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ))

[البخاري عن صفية]

قال تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ (109)).

فهم حينما يحسدون المؤمنين، لا لأنهم ينفِّذون توراتهم وكتابهم المقدَّس، بل هذا الحسد من عند أنفسهم، هم يخالفون دينهم، دينهم يأمرهم أن يتبعوا النبي الكريم، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (19)).

(سورة آل عمران الآية: 19)

علامات النبي موجودة في كتبهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، توراتهم وإنجيلهم يأمرانهم أن يتبعوا النبي :

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (6)).

(سورة الصف الآية: 6)

إن تمنيت عمل الآخرة فهذه غِبطة وإن تمنيت ما عند أهل الدنيا فهذا حسد:

لكن هذا الحسد من عند أنفسهم، ما الحسد ؟ هذه جبلَّةٌ في الإنسان، هل هي مذمومةٌ دائماً ؟ لا، فهي جبلَّةٌ حياديَّة، خصيصةٌ حياديَّة، الإنسان مجبول على أن يتمنَّى ما عند الآخرين دون أن يزول عنهم، أي أنه يغار، يتمنَّى ما عند الآخرين هذه جبلَّة، هي في الأصل حياديَّة، إن وُظِّفت في الحق سميت الغِبْطَة .

أنت كإنسان ترى إنساناً أعلم منك في الدين تتمنَّى أن تكون مثله، ترى إنساناً حافظاً لكتاب الله تتمنَّى أن تكون مثله، ترى إنساناً أجرى الله على يديه الخيرات تتمنَّى أن تكون مثله، هذه جبلَّة جُبِلَ عليها الإنسان، حينما صرفها للخير ارتقى بها إلى أعلى عليين، فإذا تَمَنَّيت أن تكون من أهل الدنيا هذا حسد، إن صُبَّت هذه الخصيصة على الدنيا كانت الحسد، وإن صُبَّتْ على الآخرة كانت الغبطة . جبلَّةٌ حياديَّة لا تُمدح ولا تذم، تُوظَّف في الخير أو في الشر، أي أن تتمنى ما عند الآخرين، أما الحسد وهو الجانب السلبي، الجانب المنهي عنه حينما ترى إنساناً غنياً تتمنى أن يزول المال عنه:

(حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ (109))

تتمنَّى بعد ذلك أن يتحوَّل المال إليك، هذه أقل سوءاً، وقد تفعل بيدك ما تصرف ماله إليك، هذه صارت جريمة، حينما تتمنى أن تزول النعمة عن أخيك هذا حسد، بصرف النظر عن تحوِّلها إليك أو عدم تحوُّلها إليك، وحينما تفعل بنفسك ما يزيل النعمة عن أخيك فهذه جريمة، أما حينما تتمنى أن تكون عالماً كعلم أخيك، حافظاً كحفظ أخيك، لك عملٌ طيبٌ كعمل أخيك هذه غِبْطَة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

[الترمذي عن سالِم عن أبيه رضي الله عنه]

إن تمنيت عمل الآخرة فهذه غِبطة، وإن تمنيت ما عند أهل الدنيا فهذا حسد، والحسد والغبطة خصيصتان جُبِل عليهما الإنسان .

الاختلاف إما اختلاف طبيعي أو اختلاف مَرَدُّهُ الحسد أو اختلاف التنافس وهو محمود عند الله :

قال تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ (109))

معنى ذلك أن الاختلاف ـ كما ذكرت في درسٍ سابق ـ قد يكون بسبب نقص المعلومات، هذا اختلاف طبيعي، وقد يكون بسبب الحسد، اليهود يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم، وفي كتابهم المقدَّس علامات النبي، وإشارات النبي:

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (6))

(سورة الصف الآية: 6)

ومع ذلك كفروا به، وكذَّبوه، وحاربوه، وعادَوْهُ حسداً من عند أنفسهم، وهذا ينطبق على حياة المسلمين، هناك من الخصومات ومن العداوات ما يعود سببه إلى الحسد وحده فقط، وهذا مقياس دقيق أيها الأخوة، إذا أكرم الله أخاك المؤمن بشيء هل تعاديه ؟ حينما تعاديه فقد حسدته، وحينما تعاديه وضعت نفسك في صف المنافقين:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

(سورة التوبة الآية: 50)

أما إذا باركت له ذلك تكون قد وضعت نفسك في خندق المؤمنين، علامة المؤمن أنك تسعد بخيرٍ ساقه الله لأخيك، المؤمنون كالجسد الواحد، أي إذا اغتنى أخوك تسعد بهذا، وصل أخوك لمنصب رفيع تسعد بذلك، حينما تعاديه وضعت نفسك في صف المنافقين، وحينما تبارك له وتطمئن لما أصابه من خير وضعت نفسك في صف المؤمنين .

لذلك الاختلاف هو إما اختلاف طبيعي، أو اختلاف مَرَدُّهُ الحسد، أو اختلاف التنافس وهو اختلاف محمود عند الله .

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة الآية: 213)

أخطر مرض هو الإعراض عن الله وكل شيء يزعجك من الكافر هو أعراض الإعراض:

قال تعالى:

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ (109))

المؤمن فوق هذه الخصومات، اعفُ عنهم، موقف المؤمن دائماً كموقف طبيب الأمراض الجلديَّة من مريض مصاب بمرض جلدي، هل يحقد عليه أم يُشفق عليه ؟ بالضبط المؤمن أمام المنافقين أو الكافرين لا يحقد عليهم بل يشفق عليهم، كما لو كنت طبيباً اختصاصياً بالأمراض الجلديَّة وجاءك

مريض مصاب بمرض جلدي خطير ومزعج ومنفّر إنك لا تحقد عليه أبداً بل تشفق عليه، وهذا حال المؤمن الطيِّب، لذلك:

(فَاعْفُوا (109))

عن هؤلاء، لأنهم مرضى، الجاهل مريض، الجاهل منحرف، الجاهل حقود، حقده من إعراضه عن الله. بالمناسبة هناك مرضٌ ـ الكلام دقيق ـ مرض واحد له مئات الأعراض، فالأعراض ليست أمراضاً ولكنها أعراض مرض واحد، المرض الواحد الخطير هو الإعراض عن الله، وكل شيء يزعجك من الكافر هو أعراض الإعراض، الحسد من أعراض الإعراض، والكِبر من أعراض الإعراض، والبَغي من أعراض الإعراض، والعدوان من أعراض الإعراض، والكذب والاحتيال من أعراض الإعراض، الإعراض عن الله له آلاف الأعراض .

لذلك هذه الأعراض لا تعالج ينبغي أن يعالج الإعراض عن الله بالتوبة إليه والصلح معه . فالإعراض معه حسد، ومعه بغي، وعدوان، وكبر، وتسلُّط، واحتيال، ومكر، وخديعة، وغطرسة، واعتزاز، حينما تقبل على الله تزول عنك كل أعراض الإعراض فإذا أنت المسامح، العفو، الكريم، اللطيف، الرحيم، المؤمن، الطيب، البسيط.

يجب ألا تعالج أعراض الإعراض بل عالج مرض الإعراض وهذا هو الأصل:

الطبيب الماهر حينما يأتيه مريض ارتفعت حرارته، الطبيب غير الماهر يعطيه خافضاً للحرارة، ولكن الطبيب الماهر يبحث عن السبب الخفي لارتفاع الحرارة، فإذا كان التهاباً عالج الالتهاب فانخفضت الحرارة .

أنت كطبيب لا تعالج أعراض الإعراض بل عالج مرض الإعراض، عالج المرض تزول هذه الأعراض، أما إذا عالجت العرض فقط فإنه لا يشفى لأن الأصل موجود، أعطيته خافض حرارة، فإذا انتهى مفعول هذا الدواء، عاد العرض إلى ما كان عليه ـ أي عادت الحرارة إلى ما كانت عليه ـ أما إذا عالجت أصل المرض زالت الأعراض بشكلٍ طبيعي، فأنت يجب أن لا تعالج أعراض الإعراض بل عالج مرض الإعراض هذا هو الأصل .

لو أن إنساناً تطعمه فيشتكي، تطعمه فيتسوَّل، ما عرف الله، لو عرف الله عزَّ وجل واستقام على أمره لأغناه الله، ورفع رأسه، وأعطى بدل أن يأخذ، فمهما عالجت هذا المُقَصِّر مع الله عزَّ وجل، كلَّما أعطيته يسأل: هل من مزيد ؟ أما إذا دللته على الله، واصطلح معه، وأناب إليه رزقه الله رزقاً حسناً، فأعطى بدل أن يأخذ .

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا (109))

أي أزيلوا أثر هذا الشيء من نفوسكم، العفو أن لا تحاسبه على خطئه، ولا تعاقبه، أما الصفح أن تزيل هذا من نفسك .

أمر الله عزَّ وجل أن ينصر المؤمنين ولكن في وقتٍ لا يعلمه إلا الله:

قال تعالى:

(حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ (109))

أمر الله عزَّ وجل أن ينصر المؤمنين، لكن هناك وقتاً لا نعلمه:

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ (46))

(سورة يونس الآية: 46)

أمر الله نصر المؤمنين، إظهار الحق، إبطال الباطل، ولكن قد تكون الأمور مختلطة، فأنت مؤمن، وهناك إنسان آخر غير مؤمن يأكل، ويشرب، ويعيش، ويتكلَّم، ويقول ما يشتهي، متى يُفْصَلُ بين المؤمنين وغير المؤمنين ؟ في وقتٍ يعلمه الله:

(إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (17))

(سورة الحج الآية: 17)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109))

أي إنه قدير أن يظهر الحق، ولكنه يظهره في وقتٍ مناسب . ألم يكن الله عزَّ وجل قادراً على أن يرسل النبي عليه الصلاة والسلام في مكانٍ ليس فيه أي كافر ؟ ممكن، لو جعل الله كل هؤلاء الكفار في قارة ثانية، وجاء النبي إلى مكة، كلهم مؤمنون، كلهم آمنوا به، وليست هناك هجرة، ولا يوجد بدر، ولا أحد، ولا الخندق، لا يوجد شيء أبداً، كلهم ذائبون في محبته لم تعد هناك جنة . الطرف الثاني له فضل عليك، الطرف الثاني عندما يكيد لك وأنت تصبر ارتقيت، عندما يكيد لك وأنت تبحث عن الحقيقة ارتقيت، عندما

يكيد لك وأنت تقف أمامه بكل ما تملك ارتقيت، فشاءت حكمة الله أن يتصارع الحق والباطل في كل مكان وفي كل زمان وهذا مما يقوي الحق، أما لو غاب الطرف الثاني يضمُر الطرف الأول.

الذي يمدحك مدحاً ساذجاً يجعلك لا ترقى أما الذي ينتقدك يجعلك ترقى:

إذا لم تكن هناك حركة، كأن تصاب يد بكسر ويوضع لها الجبس، بعد حين تضمُر العضلات، فلو لم يكن طرف آخر يناوئ، ينتقد، يطعن، فأنت تهمد، هناك حكمة إلهيَّة لأن الحياة تتوقد بهذه المعركة . أحياناً يُطْبع كتاب فيه ضلالات كثيرة جداً، هذا الكتاب مثل اللقاح الذي يعطي للجسم جرثوماً مُضَعَّفاً، مما يجعل أجهزة الجسم تعمل ليلاً نهاراً لتصنع المصل المضاد لهذا الجرثوم، صار هناك مناعة، هذه المناعة ما كان لها أن تكون لولا هذا اللُقاح، فاللقاح مفيدٌ جداً في إحداث المَناعة، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(112)وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ(113))

(سورة الأنعام)

هذا الكتاب الضال يحدث حركة، عاد المؤمن إلى العلماء وسألهم، اجتهد العلماء وردّوا عليه، هذا الكتاب الضال ومع ما فيه من ضلالات عمل حركة مُنْعِشَة، لو لم يكن هناك طرف آخر فإنه يحدث ضمور، سكون، همود، تلاشي، هذه حكمة الله، لا تحزن إذا كان الإنسان يناوئك، هذا يرقى بك، بالمناسبة الذي يمدحك مدحاً ساذجاً يجعلك لا ترقى، أما الذي ينتقدك يجعلك ترقى، لذلك قال بعض الشعراء:

عداتي لهم فضلٌ عليَّ ومنَّة فلا أعدم الله لي الأعاديا

* * *

هذا العدو يراقبك، ينتقدك، يقف لك بالمرصاد أنت ماذا تفعل ؟ تضبط أمورك، تضبط كلامك، تضبط كل شيء، فهذا الضبط سببه الطرف الآخر . على كلٍ كما قال الإمام الغزالي: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان " .**

بطولتك أن تكون مع الله وعلى الحق وما دمت على الحق فلا بدّ من أن يظهر الحق:

قال تعالى:

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109))

الله عزَّ وجل هو الحق، والحق لا بد من أن يُحقّ، على الله جلَّ جلاله أن يُحق الحق، قل ما شئت، ادَّعُ ما شئت، اتهم من شئت، الله متكفّل أن يحق الحق وأن يبطل الباطل، هذا على الله عزَّ وجل، وكلَّما جاءت

(على)

مع لفظ الجلالة أي أن الله عزَّ وجل ألزم نفسه بذلك:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

وقال:

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية: 9)

وقال:

(حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109))

قدير أن يأتي بأمره في كل وقت، ولكن له حكمةٌ لا نعلمها، أي أن بطولتك أن تكون مع الله وأن تكون على الحق، ما دمت على الحق لا بد من أن يظهر الحق .

الباطل لا بدّ من أن يزهق مهما كان عظيماً وكبيراً ومتعدِّداً:

قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

الباطل لا بد من أن يزهق مهما كان عظيماً، ومهما كان كبيراً، ومهما كان متعدِّداً، مهما كان عظيماً وكبيراً ومتعدِّداً:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

الزهوق صيغة مُبالغة، أي لا بد من أن يزهق، لا بد من أن يكون في الوَحل، فرعون لمَّا غرق قال هو نفسه:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس الآية: 90)

قال تعالى:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس الآية: 91)

وقال:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110))

الفرض المتكرِّر الذي لا يسقط بحال هو الصلاة:

إخواننا الكرام، الشهادة ينطق بها مرَّةً في العمر، تقول: أشهد أنه لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله حينما تعلن إسلامك، والزكاة تسقط عن الفقير وتؤدَّى في العام مرَّةً، والصيام يسقط عن المريض والمسافر ويؤدَّى في العام مرَّةً، والحجُّ يسقط عن المريض وعن الفقير ويؤدَّى في العمر مرَّة، هذه أركان الإسلام ؛ شهادة أن لا إله إلا الله والصيام والحج والزكاة، أما الفرض المتكرِّر الذي لا يسقط بحال هو الصلاة، قال تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (110))

أي أقم الصلاة:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

الصلاة قرب:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

الصلاة ذكر:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية: 45)

أدلة من القرآن والسُّنة على أن الصلاة طهور ونور وعقل:

قال النبي الكريم: الصلاة طهور تطهِّرك من كل الأدران، و:

((الصَّلاةُ نُورٌ))

[رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري]

تلقي في قلبك نوراً ترى فيه الحق والباطل .

(أفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أهْدَى أمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك)

وقال:

(يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية: 28)

الصلاة نور، الصلاة حبور، سعادة:

((أرحنا بها يا بلال))

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

الصلاة عقل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ (43))

(سورة النساء)

معنى هذا أن الصلاة عقل، وقد قيل: **"ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها ".**

كيف تقيم الصلاة ؟

الصلاة عُروج .

((الصلاة معراج المؤمن))

[من شرح الجامع الصغير]

عروج إلى الله عزَّ وجل، الصلاة مناجاة:

((لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل))

[عبد الرزاق ومحمد بن نصر عن الحسن]

فالصلاة مناجاة، والصلاة عروج، والصلاة حبور، والصلاة نور، والصلاة طهور، والصلاة ذكر، والصلاة قُرب، والصلاة عقل:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (110))

لم يقل: وَصلّوا، بل قال:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (110))

عندما يقام بناء فهو يحتاج بشكل أو بآخر إلى رخصة، يحتاج إلى حفر أساسات، يحتاج إلى هيكل إسمنتي، إلى كسوة، إلى أثاث، فكيف تقيم الصلاة ؟ بطاعتك لله أولاً، بغض بصرك عن محارم الله، بالصدق، بالأمانة، حينما تكون كما أراد الله تقف فتصلي .

المؤمن موصول بالله باستقامته وطاعته وصدقه وأمانته وإخلاصه:

قال تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ (31))

(سورة الأعراف)

طبعاً الآية لها معنى ضيِّق ولها معنى واسع، حينما تأتي بطاعةٍ لله إلى المسجد، حينما تأتي بعملٍ صالح، حينما تأتي صادقاً، حينما تأتي أميناً، حينما تأتي متواضعاً، حينما تأتي محسناً وتصلي يصبح الخط ساخناً مع الله عزَّ وجل . لو كان عند أحدنا هاتف ولكنه بدون حرارة ماذا يفعل به ؟ ينزعج انزعاجاً شديداً لأنه لا يوجد خط، أنت أمام كتلة من البلاستيك، أما حينما ترفع السمَّاعة فتسمع ونَّةً (صوتاً) أي أن الخط ساخن، الخط مفتوح، المؤمن معه خطٌ ساخنٌ إلى الله باستقامته، وطاعته، وصدقه، وأمانته، وإخلاصه، خطُّه مع الله مفتوح وساخن، أي فيه حرارة، ولذلك العبرة أن تصلي الصلاة التي أرادها الله عزَّ وجل:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (110))

طبعاً هذه على الأغنياء، معنى هذا أنك مكلَّف أن تكسب المال لسدِّ حاجتك، وسد حاجة أهلك، ولعلَّك تكسب المال لسد حاجة الفُقراء، أنت حينما تؤدي زكاة مالك تسُد حاجة الفقراء، فكأنك مكلَّف أن تكسب المال لسد حاجتك الشخصيَّة وحاجة أهلك ومن تعول، فإذا فاض مالك عن حاجتك عليك أن تدفع زكاة مالك أي تسد حاجة الفقراء، فكل إنسان يكسب المال وينفق من هذا المال في سبيل الله يرقى عند الله عزَّ وجل:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (110))

صار لك عمل متعلِّق بالمجموع، تعاونت مع المؤمنين، كسبت مالاً يسد حاجتك وحاجة أهلك وحاجة فقراء المسلمين .

التجارة التي لا تبور هي أن تتاجر مع الله والله تعالى أرادنا أن نربح معه:

قال تعالى:

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110))

المؤمن يضع اللقمة في فم زوجته تكون له يوم القيامة كجبل أُحُد، أي أن الله عزَّ وجل أرادنا أن نربح معه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(11))

(سورة الصف)

التجارة التي لا تبور هي أن تتاجر مع الله . مثل بسيط: مَلِك قال لمعلّم: أعطِ ابني دروساً وأنا أحاسبك. فهذا المعلّم ضيِّق الأفق، بعد أن أعطى الابن درساً قال له: أعطني أجرته . أعطاه الابن خمسمئة ليرة، والسعر مئتان فأعطاه خمسمئة، لكن الأب كان سيعطي هذا المعلّم بيتاً ومركبةً وكل شيء أراده . فهو طمع بعطاء العباد، أما المؤمن الصادق يطمع بما عند الله . سأل النبي الكريم أحد الصحابة فقال له:

((" يا ربيعة سلني فأعطيك " فقلت: أنظرني حتى أنظر، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة فقلت: يا رسول الله أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ويدخلني الجنة . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "من أمرك بهذا؟" قال: قلت: ما أمرني به أحد ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه فأحببت أن تدعو الله. قال: "إني فاعل فأعني بكثرة السجود))

[رواه الطبراني عن ربيعة بن كعب]

مهما بدا لك الخير قليلاً فله عند الله أجرٌ كبير:

أنت حينما تخدم عباد الله لوجه الله لك عند الله أجرٌ لا يعلمه إلا الله، أما حينما لا تتحرَّك حركة إلا بالأجرة ليس لك عند الله من شيء .

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ (110))

(من)

تفيد استغراق الأجزاء الصغيرة، فهل هناك أقل من أن يجد إنسان قشَّة صغيرة على أرض المسجد فيضعها في جيبه ؟ أقل من أن تجد نملة تسير على المغسلة فانتظرت حتى خرجت، ولم تغرقها بالماء، هذا عمل صالح .

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ (110))

أطعمت هرَّةً، سقيت كلباً، غفر الله لامرأة لأنها رأت كلباً يلهث ويأكل الثرى من العطش، ملأت خفَّها ماءً وسقت الكلب فغفر الله لها . فالله عزَّ وجل يكافئك على أدق الأشياء، حتى في البيت كل عمل طيب تفعله ترقى به عند الله .

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ (110))

مهما بدا لك الخير قليلاً فله عند الله أجرٌ كبير، وهذا مصداق قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

الله عز وجل بصير بالنوايا التي وراء عملك:

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110))

دقِّق ؛ بصير بحجم عملك، بصير بالنوايا التي وراء عملك، بصير بحجم التضحية التي ضحيت بها من أجل هذا العمل، الوقت ثمين:

(وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(20))

(سورة المزمل الآية: 20)

أحياناً يكون الإنسان في أشد الحاجة الماديَّة إلى المال، يعطي أخاه مبلغاً من مصروفه الشخصي، الله يقدِّر كل ذلك:

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110))

هو العليم بسر هذا العمل، العليم بالنيَّة التي وراء هذا العمل:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب]

إنسان أحب امرأة، فاشترطت عليه أن يهاجر حتى يتزوجها، فهاجر من مكة إلى المدينة، فُسُمِّيَ عند الناس مهاجر أم قيس، هو هاجر من أجل أن يتزوَّج هذه المرأة لذلك ورد في الحديث:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب]

أعمال تُذهِب فضل الطاعة:

إنسان قال لك: إذا انضممت للمؤمنين فسيزيد ربحي لأنهم سيصبحون زبائني جميعاً، فمجيئه إلى المسجد هذا بنية أن يزداد ماله، اختلف الوضع، يقول لك: أنا أصوم لأحسِّن صحَّتي . اختلف وضع الصيام، أنا أصلي لكي تتقوَّى عضلاتي لأن الصلاة رياضة .

هذه كلها أعمال تذهب فضل الطاعة:

(إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى (111))

قال اليهود: لن يدخل الجنَّة إلا من كان يهودياً . توهموا أن الجنة لهم وحدهم، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنَّة إلا من كان نصرانياً . والمسلمون يقولون: لن يدخلها إلا من كان مسلماً . هذا ادعاء، قال:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ (111))

الأماني بضاعة الحَمْقَى، فكل طالب من القُطر يتمنَّى أن ينجح، التمني سهل لا يكلف شيئاً .

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

أين العمل الذي يؤهِّلكم لدخول الجنَّة ؟ أين التضحية التي ضحيتم بها ؟ أين الالتزام الذي التزمتم به ؟ يقول لك أكثر المسلمين الآن بسذاجةٍ مضحكة: الحمد لله نحن مسلمون، نحن من أمة محمَّد .

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

الأماني بضاعة الحمقى:

الله عزَّ وجل قال:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

أبو لهب عم النبي:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2))

(سورة المسد)

وقال:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

أين البرهان ؟ أكثر الناس يقول: أنا إيماني أقوى من إيمانك . لكن بيتك كله معاصي، عملك كله معاصي، مالك كله حرام، هذا الكلام فارغ إذاً:

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

الآية التي نشرحها إن شاء الله في الدرس القادم:

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (42- 95):تفسير الآيات 112 - 120، خُلُق المؤمن لا يتغير

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-06-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أن تحكم على نفسك أنك على حق وأن الجنة لك وحدك فهذا من باب التألّي على الله:

مع الآية الحادية عشرَة بعد المئة وهي قوله تعالى :

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

هذا هو ما قال عنه العلماء: التألّي على الله، كان النبي عليه الصلاة والسلام في بيت أحد أصحابه الذين توفَّاهم الله عزَّ وجل، فقالت امرأةٌ: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله فقال عليه الصلاة والسلام:

((وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم))

[أخرج أحمد والبخاري والنسائي وابن مردويه عن أم العلاء رضي الله عنها]

هذا هو موقف العبوديَّة مع الله عزَّ وجل، أما أن تحكم على نفسك أنك على حق وحدك، وأن الجنة لك وحدك، فهذا من باب التألّي على الله .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ (49))

(سورة النساء الآية: 49)

كأن الله ذمَّهم حينما وصف فِعْلَهُم بأنهم يزكُّون أنفسهم، هذا في النصوص الإسلاميَّة:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى (111))

أي إن اليهود قالت: لن يدخل الجنَّة إلا من كان يهودياً، وأن النصارى قالت: لن يدخل الجنَّة إلا من كان نصرانياً، والمقصِّرون من المسلمين يقولون مثل قولهم: الجنَّة للمسلمين وحدهم، هذا افتراءٌ على الله، أو تألٍّ على الله عزَّ وجل، ردَّ الله عزَّ وجل عليهم فقال :

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ (111))

الأماني بضاعة الحمقى، تمنَّ ما شئت .

رَبَطَ الله جلَّ جلاله الرجاء بالسعي أما التمني فلا يقدِّم ولا يؤخِّر:

قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا (19))

(سورة الإسراء)

رَبَطَ الله جلَّ جلاله الرجاء بالسعي، أما التمني فلا يقدِّم ولا يؤخِّر ولا يرقى بالإنسان عند الله أبداً، بل إن كل إنسانٍ كائناً من كان يتمنَّى أن يكون غنياً جداً، وكل طالبٍ كائناً من كان يتمنى أن يكون ناجحاً، إذا تمنى النجاح ولم يدرس، وإذا تمنى الغنى ولم يعمل، وإذا تمنى أن يكون عالماً ولم يطلب العلم، فهذه بضاعة الحمقى:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ (111))

الله جلَّ جلاله لا يتعامل مع التمنِّيات، بل إن الله عز وجل ذم الذي يتمنَّى فقط، المؤمن يطلب ويسعى وسعيُه علامة صدقه في طلبه، وعملُه الطيِّب علامة صدقه في طلبه، وإخلاصه علامة صدقه في عمله.

تقييم الناس من أقوالهم هو تقويمٌ باطل لأن الإنسان لا يقيَّم إلا من أعماله:

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى (111))

دمج ربنا عزَّ وجل القولين في قولٍ واحد، لأن أساسها وقالت اليهود: لن يدخل الجنَّة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنَّة إلا من كان نصرانياً، فدمج القولين في قولٍ واحد:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى (111))

كل إنسان يتوهَّم أنه على حق وحده وما سواه على باطل، وأن الجنَّة له وحده وأن ما سواه إلى جهنَّم، فهذا ضيقٌ في الأفق، وهذا تحجيرٌ لرحمة الله عزَّ وجل:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

إذا قال الإنسان: أنا مؤمن . عليه أن يقدِّم بُرهاناً، إذا قال: أنا ملتزم، أين التزامك ؟ أنا ورع، أين ورعك ؟ أنا مسلم، أين إسلامك ؟ أنا تقي، أين تقواك ؟ أنا محسن أين إحسانك ؟

بالمناسبة من السهل جداً أن يقيَّم الناس من أقوالهم، فهذا تقويمٌ باطل، الإنسان حقيقةً لا يقيَّم إلا من أعماله، فقد يكون له كلامٌ كالعسل وفعلٌ كالأثل وكالصبر، فهذه الازدواجيَّة تجدها عند معظم الناس، إذا حدَّثك تُعجب بكلامه فإذا عاملك يسقط كلامه عندك، وحينما يكون الناس ذوو كلام طيِّب وفعل قبيح يسقطون من عين الله، اجلس الآن في أي مجلس تجد فيه تبادل مديح، فإذا تفرَّق هؤلاء من

المجلس طعن بعضهم ببعض إنه نفاق، هذا الذي تمدحه في وجهه لماذا تذمُّه في غيبته ؟ ولماذا تمدحه وأنت تعلم أنه ليس على حق ؟ لماذا تمدحه وتعلم أنه فاسق ؟

((إن الله ليغضب إذا مدح))

[أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي وأبو يعلى والبيهقي من حديث أنس بسند ضعيف]

من وقَّر مبتدعاً فقد أعان على هدم الدين .

الازدواجية والنفاق من أمراض المسلمين اليوم:

إنسان مبتدع جاء بشيء ليس من الدين لماذا تبجِّله وتعظِّمه وتبدي أعلى درجات الاحترام له ؟ فأنت بهذا كنت مِعْوَلاً هدم الدين، فهذه الازدواجية وهذا النفاق من أمراض المسلمين اليوم:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

أنا أُصَدِّق طبيباً إذا نصحني أن أدع الملح مثلاً منعاً لارتفاع الضغط ، لمَ لا تنصاعُ لنصيحة خالق الأكوان ؟ قال الإمام الغزالي: **"يا نفسُ لو أن طبيباً منعكِ من أكلةٍ تحبينها لا شكَّ أنكِ تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أيكون وعيد الطبيب أشد عندكِ من وعيد الله ؟ إذاً ما أجهلكِ ".**

كأن الله عزَّ وجل يقول: هذه دعوى فأين البرهان ؟ تدَّعون أن الجنَّة لكم وحدكم ولكن ما برهانكم على ذلك ؟ وما العمل الذي إذا فعلتموه ارتقيتم عند الله عزَّ وجل ؟ وأنت لاحظ عندما يكون إنسان شارداً تائهاً غافلاً عن الله يناقش مؤمناً، يقول له: أنا إيماني أقوى من إيمانك، أنا إيماني بقلبي ! لكنه في سلوكه ليس منضبطاً أبداً، ثم يدعي أن إيمانه بقلبه، أخرج ديناً جديداً، يقول: العبرة بالقلب، والمرأة الساقطة تقول كذلك، فلا يوجد إنسان ساقط بسلوكه إلا ويدعي أن إيمانه بقلبه هذه دعوى، كأن لسان حال هؤلاء يقول: يا رب ألا يدخل الجنة أحد ؟ هؤلاء تمنوا دخولها ولا يدخلونها، ألا يدخل الجنَّة أحد ؟ قال الله عزَّ وجل:

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (112))

أي طبَّق أمر الله مخلصاً، الوجه يعبَّر به عن الذات، أنا أبتغي بهذا العمل وجه الله، أي أبتغي ذات الله عزَّ وجل، أشرف شيء بالإنسان وجهه، فأنت تقول: أبتغي وجه الله عزَّ وجل، أي أبتغي ذات الله عزَّ وجل .

خُلُقُ المؤمن:

قال تعالى:

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (112))

أي وجدته مطيعاً لله، وجدته وقَّافاً عند كلام الله، وجدته مؤتمراً بما أمر الله منتهياً عما نهى الله عنه، يرتاد بيوت الله، يبتعد عن أماكن اللهو، ويجعل دخله حلالاً، ويبتعد عن الدخل الحرام، ويُقيم الإسلام في بيته، أي أنه من فرقه إلى قدمه ينطق بإسلامه، إذا حدَّثك فبالقرآن والسنة، وإن نظر ضبط بصره وغَضَّه عن محارم الله، وإن استمع لا يستمع إلى منكر، إن نطق لا ينطق إلا بالحق، إن تكلَّم ذكر الله وإن سكت فكَّر في خلق الله، وإن رأى أدرك العبرة مما يرى .

أحياناً يقول لك إنسان: والله مؤمن ورب الكعبة ؛ بكلامه، وجلسته، ومشيته، ونظرته، وحديثه، ومواقفه، وعلاقاته، ومعاملاته، وبيته، وعمله هو مسلم إسلاماً خالصاً فقد سُئلت السيدة عائشة عن خلق رسول الله فقالت:

((كان خُلُقُه القرآن))

[مسلم عن عائشة رضي الله عنها]

قال بعضهم: " القرآن كونٌ ناطق، والكون قرآنٌ صامت والنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي " . المؤمن وقَّاف عند كتاب الله، يأتمر بما أمر، وينتهي عما عنه نهى وزجر، ولا يفعل إلا ما يرضي الله:

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ (112))

(وَهُوَ مُحْسِنٌ)

هذه الكلمة مطلقة، محسن في كل شيء ؛ محسن في عمله المهني، محسن في بيته، محسن في أفراحه، الفرح لا يستخفُّه، محسن في أحزانه، الحزن لا يسحقه، إنفاقه ولو كان غنياً ينفق الدرهم في مكانه الصحيح، محسن في كسب ماله لا يُخادع الناس، ولا يغشُّهم، ولا يحتال عليهم، ولا يأكل المال الحرام، ولا يأكل المال بالخِداع، فكلمة

(مُحْسِنٌ)

مطلقة . لذلك حينما يموت المؤمن تبكي عليه السماء والأرض، والكافر إذا مات لا تبكي عليه السماء ولا الأرض .

الاستسلام لأمر الله هو الاستقامة والإحسان هو العطاء:

قال تعالى:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ (29))

(سورة الدخان الآية: 29)

إنه محسن، متقن بعمله، صادق بكلامه، إذا وعد وفى، إذا حدَّث صدق، وإذا عامل أنصف، قال: هذا الذي أسلم وجهه لله وهو محسن هذا الذي يدخل الجنَّة، الجنَّة لمثل هؤلاء . وهذا درس لنا، أخلص لله عزَّ وجل، وطبِّق أمره، وأحسن .

يوجد في هذه الآية شيء تطبيقي وشيء إنشائي، أنت مستسلم لأمر الله، طبَّقت أمر الله وأنت محسن أي أن هناك عطاء، أنت قدَّمت شيئاً معنى محسن أي أنك قدَّمت شيئاً، فالاستسلام هو الاستقامة، والإحسان هو العطاء، وكل واحد منا لو سأل نفسه هذا السؤال: يا نفس ماذا قدَّمتِ ليوم القيامة ؟ ماذا قدَّمت للمسلمين ؟ ما العمل الذي يمكن أن تعرضيه على الله عزَّ وجل ؟ هذا سؤال دقيق . هناك إنسان يعيش لذاته، وهناك إنسان يعيش للآخرين، فقيمتك عند الله تساوي عملك الصادق، وأنت في الدنيا هنا من أجل العمل الصالح .

(أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (112))

استقام على أمر الله، نفَّذ الأمر وانتهى عما عنه نهى الله عزَّ وجل، هذه الاستقامة، وهو محسن أعطى؛ أعطى من ماله، أعطى من وقته، أعطى من علمه، أعطى من جهده، أعطى من خبرته، أعطى المسلمين، نصحهم ما غشَّهم، ما كذب عليهم .

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (112))

إسلام الطاعة وإسلام الإخلاص، أي أنه أطاع الله مخلصاً ثمَّ أعطى مما أعطاه الله، هل هناك إنسان ليست له ميِّزة ؟ هل هناك إنسان ليست له حرفة ؟ أو أنه لا يفهم شيئاً ؟ المؤمن الصادق يقدِّم جزءاً من اختصاصه، ومن حرفته، ومن خبرته، مما مكَّنه الله منه لوجه الله عزَّ وجل، فالطبيب يعالج المرضى الفقراء لوجه الله، والمحامِي المؤمن يتولَّى قضايا لأُناس فقراء لوجه الله، والتاجر المؤمن يؤدي زكاة ماله وينصح المسلمين، وما من حرفةٍ تستعصي عن أن تكون لوجه الله، ما من حرفةٍ تستعصي عن أن تعمل من خلالها العمل الصالح .

من فضل الله تعالى علينا أنه لا يغيِّر إن لم نغيِّر:

قال تعالى:

(فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ (112))

يا لطيف !!

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112))

دقِّق، لا خوفٌ عليهم في المستقبل إذ لا يوجد شيء مقلق، فالمستقبل لصالحك، وخطَّك البياني صاعد:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية: 51)

من فضل الله إن لم تغيِّر لا يغيِّر، فهذه الآية :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: 11)

أي أنك إذا كنت مرتاحاً ـ بالتعبير الدارج ـ لا تغيِّر حتى لا يغيِّر . وإذا كنت غير مرتاحٍ غيِّر كي يغيِّر.

والله هذه الآية تكفي أيها الأخوة، فإذا كنت مرتاحاً تعيش في بحبوحة، ليس لديك أي مشكلة، ولكنك قلق أن يزول عنك هذا الواقع المريح، لا تغيِّر كي لا يغيِّر، بل ستكون على أحسن، أما إذا كنت تعاني من مشكلة غيِّر حتى يغيِّر .

أي عملٍ صالح هو قرضٌ لله عزَّ وجل والذي سيردُّ لك هذا القرض هو خالق الأكوان:

هذا الذي:

(أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ (112))

له أجره عند ربه، فماذا تفهم منها ؟ إذا قال لك طفل صغير: أجرك عندي، ماذا يعطيك ؟ وما الذي معه حتى يعطيك ؟ أما إذا قال لك ملك: أنا سأكرمك . الملك لا يعطي مئة ليرة ولكنه يعطي أقل شيء بيتاً، يعطي مركبة فخمة جداً، ويعطي أقل شيء منصباً رفيعاً، إذا قال لك الله عزَّ وجل ملك الملوك:

(فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ (112))

ذكرت اليوم في الخطبة أن الله عزَّ وجل حينما يقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة البقرة الآية: 245)

أي عملٍ صالحٍ على الإطلاق ؛ لأي إنسان، ولأي حيوان، ولأي نبات، فلو سقيت نباتاً، ولو أطعمت عصفوراً، أو أطعمت هرَّةً، أو رحمت إنساناً أي إنسان، ولو تكلَّمت كلمةً طيِّبةً، أو ابتسمت في وجه أخيك، أي عملٍ صالحٍ على الإطلاق هو قرضٌ لله عزَّ وجل، والذي سيردُّ لك هذا القرض هو خالق الأكوان:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة الآية: 245)

أجمل ما في المؤمن أنه لا يندم على شيءٍ فاته قط:

هناك أخوان كرام تعاملوا مع الله بالإحسان إلى خلقه فرأوا من الله عزَّ وجل إكراماً لا يصدَّق، أنت تكرم عبادي والله عزَّ وجل يجزيك على إكرامك هذا أعظم الجزاء .

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ (112))

في المستقبل:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112))

على الماضي . أجمل ما في المؤمن أنه لا يندم على شيءٍ فاته قط، وسيدنا الصدِّيق فيما يوصف به أنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، لأنه يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وإذا وجد العبد الله عزَّ وجل وجد كل شيء، وإذا فقد الله فقد كل شيء، فإذا وصلت إلى الله يصبح كل شيء سهلاً .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ (113))

والكتاب واحد:

(وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ (113))

بربكم أليس هذا واقع المسلمين ؟ كتاب واحد، نبيٌ واحد، سُنَّةٌ واحدة، هدفٌ واحد، ومنهج واحد، وإله واحد والمسلمون فرق وطوائف، كلٌ يدعي أنه وحده على الحق، وكلٌ يطعن بالآخرين .

الاختلاف أنواع:

شيءٌ ذكرته قبل دروسٍ كثيرة: أن هدف ذكر قصة بني إسرائيل في القرآن لكي نأخذ حذرنا، فكل مرضٍ وقع فيه بنو إسرائيل نحن مرشَّحون أن نقع فيه، وهذا مرض من الأمراض ؛ الفرقة، والمنازعة، والطعن، والتكفير، والاتهام بالشرك:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ (113))

كتابٌ واحد، ونبيٌ واحد، ومنهجٌ واحد والناس متفرِّقون .

لذلك أيها الأخوة ذكرت هذا مرَّاتٍ كثيرة هناك اختلافٌ أساسه نقص المعلومات، وهذا الاختلاف سهل جداً يعالج بالمعلومات، الاختلاف الناجم عن نقص المعلومات ينتهي إذا توافرت هذه المعلومات . وهناك اختلافٌ أساسه الحَسَد، والبَغي، وتنازع المصالح والمراكز، وهذا الاختلاف أساسه الحَسد .

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (19))

(سورة آل عمران الآية: 19)

الاختلاف الثالث اختلاف محمود، اختلاف التنافُس:

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ (213))

(سورة البقرة)

إذا كانت القضيَّة أن نصل إلى أعلى درجة في الجنة، وأنا اعتقدت أن العمل الصالح وحده، وهذا اعتقد أن طلب العلم وحده، وهذا اعتقد أن تعليم العلم وحده، وهذا اعتقد أن حفظ السُنة وحدها، كلام طيِّب، هذا التنافس محمود، فهناك إذن تنافس طبيعي لا يحمد ولا يذم، وتنافسٌ مذموم وهو تنافس الحسد، والبغي، والعدوان، وتنازع المصالح والمراكز، وتنافس محمود هو التنافس على بلوغ أعلى درجات الجنَّة .

الله عز وجل هو الحكم يوم القيامة وكلمته هي الفاصلة:

قال تعالى:

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ (213))

(سورة البقرة)

اختلفوا وهم جميعاً ضمن الحق، أي جانبٍ في الدين أقوى، أي جانبٍ أقرب إلى الله عزَّ وجل يلزمه .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (113))

لم يكن عند كفَّار العرب في الجاهليَّة توراة، ولا إنجيل، ولا أنبياء، ولكنهم كانوا يعبدون الأوثان، ومع ذلك قالوا مثل قول هؤلاء، شيء محيِّر، وأحياناً إن أهل كتاب ومعهم كتاب وجاءهم رسول، يتهمون الآخرين كما يتهمون الذين لا يعلمون أنهم ليسوا على شيء:

(كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ (113))

من الذي سيحكم بينهم ؟ الله عزَّ وجل، ومن الذي كلمته هي الفاصلة ؟ ومن الذي يقول: أنتم على حق وأنتم على باطل وانتهى الأمر ؟ هو الله عزَّ وجل، فلذلك لنا وقفةٌ يوم القيامة، أنت ادّع ما شئت، وامدح نفسك بما شئت، وأسبغ على شخصك كل صفات القداسة، كلام بكلام، لكن الله متكفِّلٌ أن يفصل بينك وبين الآخرين يوم القيامة، جعل الله عزَّ وجل يوم القيامة يوم الفصل، ويوم الدينونة، ويوم الحق .

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113))

والله عزَّ وجل هو الحكم، وهو يعلم السرَّ وأخفى، يعلم حقيقة العمل، الإنسان أحياناً يأخذ مظهراً استعراضياً، يبدو أمام الناس أنه ولي وهو ليس كذلك، فمن يكشف الحقيقة ؟ الله جلَّ جلاله .

أظلم الناس من يمنع الناس عن أن يصلوا إلى الله ويعبدوا ربهم:

قال تعالى:

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) وَمَنْ أَظْلَمُ (114))

هذا اسمه استفهام إنكاري، أي ليس في الأرض إنسانٌ أشدّ ظلماً من هذا الذي يفعل كذا، فهو أشد ظلماً لنفسه وأشد ظلماً للخلق، يظلم نفسه ويظلم الآخرين، من هو ؟

(مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا (114))

أي أن أظلم الناس من يمنع الناس عن أن يصلوا إلى الله، ويمنع الناس أن يصلُّون، ويمنع الناس أن يعبدوا ربهم، ويمنع الناس أن يستقيموا، قال بعضهم: هذه متعلّقة ببيت الله الحرام حينما منعوا

المسلمين من أداء العمرة، وقال بعضهم: للذي خرَّب بيت المقدس ـ بختنصَّر ـ وبعضهم قال: أي مسجد .

وبعضهم قال: أي منعٍ لدعوةٍ إلى الله، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً))

[مسلم عن أبي هريرة]

أي مكان في الأرض مسجد، فالذي يمنع الناس أن يسجدوا لله عزَّ وجل، وأن يخضعوا لله، ويطبِّقوا أمر الله عزَّ وجل، إما أن تؤخذ بمعناها الواسع أي كل إنسان حال بين الناس وبين ربهم، منعهم أن يصلوا، ومنعهم أن ينطقوا بكلمة الحق، ومنع دعوةً إلى الله عزَّ وجل .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ (114))

المساجد مُفَتَّحة في هذه البلدة الطيِّبة والحمد لله، والدروس عامرة، وهذه نعمة والله الذي لا إله إلا هو لا تعدلها نعمة، بلاد عربيَّة كثيرة لا تستطيع أن تدخل المسجد لأن فيها شدَّة بالغة، انظر إلى المساجد هنا والحمد لله ممتلئة، والدعوات ناجحة والحمد لله، والبيوت عامرة، والأبواب مفتَّحة، وهذه نعمةٌ كبرى يجب أن نحافظ عليها، وأن نحافظ عليها بوعينا، وأن نجعل هذه المساجد لله وحده

حينما يحول الإنسان بين الناس وبين طاعتهم لله فهو بذلك يحارب الله ورسوله:

قال تعالى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً(18))

(سورة الجن)

هذا المكان لله وحده، لا ينبغي لمن في المسجد أن يطرح فيه موضوعاً آخر، موضوعاً متعلِّقاً بالدنيا، فهذا المسجد بيت الله عزَّ وجل، وما دام الإنسان جعله لله وحده لا شيء عليه أبداً، لا أحد يحاسبك إذا كنت تدخل هذا المسجد تبتغي به وجه الله، إذا كانت كل الموضوعات متعلِّقة بالدين فقط .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ (114))

هذا الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، إذا اعتبرنا أن الأرض كلها مسجد فمعنى هذا أن الذي يمنع أن يُذكر الله، يمنع أن يُقرأ القرآن، يمنع أن يصلي الإنسان، وأن يحجِّب الإنسان امرأته، فهذا الذي يمنع أن تطبَّق أحكام الشريعة، مَنْ يحارب هذا الإنسان ؟ إنه يحارب خالق الأكوان . هل يستطيع جندي غِر أن يحارب أكبر دولة في العالم الآن بمنطق العصر ؟ حينما يحول الإنسان بين الناس وبين طاعتهم لله يحارب من ؟ إنه يحارب الله ورسوله، فمن هو الطرف الآخر ؟ خالق الأكوان .

بالمناسبة إذا وقف إنسان أمامكم باتجاه الشمس ونفخ نفخةً متوِّهماً أنه سيطفئها ـ الشمس التي يزيد حجمها عن حجم الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، وحرارتها على السطح ستة آلاف درجة، وطول لسان لهبها مليون كيلو متر، وحرارة مركزها عشرون مليون درجة ـ توجَّه إنسان على الأرض نحو الشمس ونفخ عليها نفخةً ليطفئها، ألا يحتاج إلى مستشفى للأمراض العقليَّة ؟!!

الذي يحاول أن يلغي الدين هذا يريد أن يطفئ نور الله بفمه:

قال تعالى:

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ (8))

(سورة الصف)

آية بليغة جداً، أي أن هذا الذي يحاول أن يلغي الدين، وأن يحارب الدين، ويحارب الله ورسوله، وأن يمنع الناس من دخول مساجد الله عزَّ وجل، ويمنع الصلاة مثلاً، ويمنع أن تقام شعائر الله عزَّ وجل، هذا ماذا يفعل ؟ هذا يريد أن يطفئ نور الله بفمه، وقد أراد آلاف الأشخاص إلغاء الدين فماتوا والدين باقٍ لأنه دين الله، وأنا أقول لكم أيها الأخوة: لا تقلقوا على دين الله أبداً، إنه دين الله، والله عزَّ وجل قادر أن ينصره على يد أي إنسان، والله سبحانه قادر أن ينصر دينه على يد أعدائه وهم لا يشعرون، فما الذي ينبغي أن تقلق له؟ فيما إذا سمح الله لك أن تنصره أو لا، وإذا منحك الله شرف نصره أم لا، اقلق على هذا .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا (114))

سآتيكم بمثل بسيط: قد يكون عندك صانع في المحل طلب أن يصلي فلم تسمح له وقلت له: لا تصل عندنا . وهذه يفعلها معظم الناس، معظم المسلمين، لا يسمح له أن يصلي ـ لا صلاة عندنا لأن لدينا أعمالاً ونحن في موسم ـ فهذا تنطبق عليه الآية . وكذلك الأب الذي يمنع ابنه من حضور درس علم كذلك تنطبق عليه الآية:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا (114))

قالوا: خرابها إما هدمها أو تعطيل الصلاة فيها . الآن في تركيا جامع ضخم من أضخم جوامع تركيا حُوِّلَ إلى متحف، ممنوع الصلاة فيه، هو ليس جامعاً، مُنعت فيه الصلاة، مُنعت أن تقام شعائر الله عزَّ وجل فيه، يأتيه الزوار من كل حدبٍ وصوب، وهذا المسجد كان معبداً من وقت نبوَّة رسول الله عليه الصلاة والسلام، إنه قديم في مدينة اسطنبول، مُنِع أن تُقام الصلاة فيه، فإما أن تُمنع الصلاة فيه وإما أن يُهدم، والبلاد التي تؤمن بلا إله هدمت بيوت الله كلها .

قبلة المريض جهة راحته وقبلة الخائف جهة أمنه وقبلة المسافر جهة دابَّته:

قال تعالى:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114))

لأنهم حاربوا الله ورسوله، يعاقبهم الله عزَّ وجل بخزيٍ في الدنيا، وعذابٍ عظيمٍ في الآخرة . فمن هو الشقي ؟ الشقي الذي حارب الله ورسوله، ومن أنت حتى تحارب الله ورسوله ؟ بمنطق الأحداث هل من الممكن لإنسان أعزل أن يحارب أقوى جيش في العالم ؟ الله عزَّ وجل بثانية واحدة يجعله جثَّة هامدة، يقول لك: توقَّف قلبه فجأةً أو خثرة في الدماغ:

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115))

سواءٌ اتجه المسلمون إلى بيت الله الحرام فثمَّ وجه الله، أو حينما اتجهوا إلى بيت المقدس فثمَّ وجه الله، وإذا صليت في ليلةٍ غائمةٍ ولم تهتدِ إلى القبلة، فصليت باجتهادك، ثم تبيَّن لك أن هذا الاجتهاد غير صحيح فالصلاة مقبولة، فثم وجه الله، ولو كنت مسافراً فقبلتك جهة دابَّتك، ولو كنت خائفاً فقبلتك جهة أمْنِكَ، أو مريضاً لا سمح الله فقبلتك جهة راحتك، فقبلة المريض جهة راحته، وقبلة الخائف جهة أمنه، وقبلة المسافر جهة دابَّته، يمكن أن تركب طائرة من الجنوب إلى الشمال، وتصلي صلاة النفل وأنت على المقعد باتجاه الشمال، لأن قبلتك جهة الطائرة، فالدين يسر، قال تعالى:

(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ (115))

أي سيان اتجهتم إلى بيت الله الحرام أو إلى بيت المقدس، وما كان النجاشي يتجه إلى بيت الله الحرام حينما كان يصلي، فلما أراد النبي أن يصلي عليه صلاة الغائب، قالوا: " أتصلي على إنسان لا يتجه إلى القبلة ؟ " فجاءت الآية:

(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ (115))

الآية لها معانٍ كثيرة، أنت اجتهدت ولم يكن معك بوصلة، لا تعرف أين القبلة، فاجتهدت اجتهاد، ثم تبيَّن لك أن الاجتهاد غلط، فالصلاة مقبولة، فثم وجه الله، هناك إجابات كثيرة من خلال هذه الآية

مُلْكُ المشرق والمغرب لله عزَّ وجل:

اليهود أعجبهم أن يتجه المسلمون إلى بيت المقدس، فلما أُمروا أن يتوجَّهوا إلى بيت الله الحرام نعوا عليهم ذلك، فجاءت الآية الكريمة :

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ (115))

هذا اختصاص، أي أن مُلْكُ المشرق لله عزَّ وجل، فمن الذي خلق الشرق ؟ لولا أن هناك شمساً تشرق لما كان هناك شرق، فمن الذي خلق الشمس أساساً ؟ كلمة مشرق من أين جاءت ؟ من أرض تدور حول الشمس، فمن خلق الشمس ؟ الله جلَّ جلاله فله المشرق، ومن خلق الغروب ؟ الله جلَّ جلاله فله المغرب . وبعد ذلك هناك مشارق ومغارب، ففي كل ثانية هناك شروق في الأرض، وفي كل ثانية هناك غروب، فإذا ركب الإنسان طائرة وكانت سرعتها ألفاً وستمئة كيلو متر في الساعة يبقى مع الشمس دائماً، لا يبقى هناك غروب لأنه سار بسرعة الأرض حول الشمس والذين يسافرون إلى أمريكا يجدون أن الوقت طويل جداً على الساعات لأنه يسير مع الشمس، أحياناً تخرج من دمشق الساعة الثانية تطير خمسة وعشرين ساعة فتصل قبل المغرب لأميركا لأنك تسير مع الشمس، فمن الذي خلق المشرق ؟ هو الله عزَّ وجل، ومن الذي خلق المغرب ؟ هو الله عزَّ وجل .

من الذي خلق المشرقين ؟ فإذا كان بيت أحدنا مرتفعاً يلاحظ أن الشمس تشرق في الشتاء من مكان وفي الصيف من مكان آخر، فالنهاية القصوى في الشتاء والنهاية القصوى في الصيف هذان المشرقان، وإذا كان بيته على البحر يلاحظ كذلك أن غروب الشمس في الصيف من مكان وفي الشتاء من مكان آخر، فالمكان الأقصى في الصيف مغرب والمكان الأقصى في الشتاء مغرب، صار هناك مغربان ومشرقان، وكل مكان في الأرض فيه شروق وفيه غروب، فالمشرق جهة الشرق، والمغرب جهة الغرب، فهناك مشرقان الحد الأقصى والأدنى في الشرق، ومغربان الحد الأقصى والأدنى في الغرب، وفي كل يوم مشرق خاص، وفي كل مكان له شروق خاص .

شروق الشمس في دمشق غير بيروت فهناك الفرق خمس دقائق، وغير تدمر، وغير بغداد، وغير القاهرة، وغير تونس، هذا في الأساس هو فرق الساعة، فالخمس ساعات فرق شروق فمعنى هذا كل يوم له شروق وكل مكان له شروق، والله هو رب المشارق والمغارب .

القبلة ليست نقطة ولكنها خط:

هناك نهاية أي مكان أقصى للشروق، أي مكان أدنى للشروق فهذان مشرقان . وهناك جهة الشرق وجهة الغرب فهذا مشرق ومغرب:

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115))

رحمة الله واسعة، وعلمه واسع، وأحياناً يخلق الإنسان مشكلة بلا مبرِّر، يقول لك: الجامع مائل ثلاث درجات فالصلاة فيه باطلة، من قال لك ذلك ؟ لا يقول هذا إلا جاهل، الكعبة ليست نقطة ولكنَّها جهة، الكعبة جهة الجنوب بالنسبة إلى دمشق، أما عين الكعبة لمن كان في بيت الله الحرام، تلاحظون أن هناك خطوطاً زرقاً دائريَّة حول الكعبة، ما دمت في بيت الله الحرام فقبلتك عين الكعبة، فينبغي أن تكون الخطوط دائريَّة، أما في مكة بيت الله الحرام هو القبلة وليست الكعبة، أما

أنت في الشام فالقبلة في جهة الجنوب وانتهى الأمر، فالقبلة ليست نقطة ولكنها خط، هذه تلغي كل المشكلات، قد تحدث خصومات في بعض بلاد الغرب وفي أمريكا بالذات لوجود طريقين للكعبة، طريق من هنا ـ من الشرق ـ وطريق من هنا ـ من الغرب ـ وفرق درجات بسيطة، وخصومات، وجدال، وعداوات من أجل:

(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ (115))

العقل له مهمة قبل النقل أن يتأكَّد من صحة النقل ومهمَّة بعد النقل أن يفهم النقل:

هناك من يُعَقِّد الأمور والدين يحتاج إلى تبسيط . وقد ذكرت لكم مرَّة أن إنساناً أسلم ودرس على يد شيخ يعلِّمه أحكام الفقه، فأبقاه في أحكام المياه ستة أشهر حتى خرج من جلده وترك الدين، والتقى بعالم آخر فقال له: الماء الذي تشرب منه توضَّأ منه، لخَّص له ستة أشهر بكلمة واحدة، نحن بحاجة إلى تبسيط للدين، وإلى تطبيق، أي ألا تحتقر العقل، العقل أساس، وأن لا ينفرد العقل بالدين، العقل له مهمة قبل النقل ومهمَّة بعد النقل، فقبل النقل أن يتأكَّد من صحة النقل، وبعد النقل أن يفهم النقل .

(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ (116))

سبحانه أن يتخذ ولداً، هو غنيٌّ عن الصاحبة والولد، الإنسان يتخذ ولداً ليكون استمراراً له بعد الموت، ولكن الله عزَّ وجل حيٌّ باقٍ على الدوام، وينجب الإنسان ولداً ليعينه إذا كبر:

(إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ (4))

(سورة مريم)

وهن العظم أي ترقُّق العظام، وهذا يحتاج إلى مشي للوقاية منه ويحتاج إلى مواد كلسيَّة، فالإنسان في النهاية يترقَّق عظمه ويصبح هشاً، والإنسان يتخذ ولداً، أو ينجب ولداً كي يعينه إذا تقدَّمت به السن، والله عزَّ وجل منزَّه عن أن تكون له صاحبة، والإنسان مفتقر إلى زوجته، وهي مفتقرةٌ إليه، ومفتقر إلى ولد يعينه إذا كبر، ويكون استمراراً له إذا مات ولكن الله عزَّ وجل منزَّه عن كل هذه المعاني:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ (116))

هو منزَّه عن هذا، والتسبيح هو التنزيه والتمجيد والخضوع، وأنت متى تسبِّح الله عزَّ وجل ؟ إذا نزَّهته ومجَّدته وخضعت له:

(بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116))

هناك أقوامٌ كثيرون رأوا معجزاتٍ حسيَّة فلم يؤمنوا فالذي لا تهزَّه آيات الكون لا يهزَّه خرقها:

أيها الأخوة:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ (118))

لتكون علامة تثبت صدق رسالته، ولكن ألا يكفي هذا القرآن المعجز ؟ إنهم يطالبون بشيء لا يقبله العقل، نبيٌ كريم معه كتابٌ معجز، ومعه شرحٌ لهذا الكتاب، وهناك معجزات كثيرة جاء بها:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ (118))

هل يحتمل الإنسان أن يكلّمه الله ؟ قال سيدنا موسى لله عزّ وجل:

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

(سورة الأعراف الآية: 143)

وقال:

(كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ (118))

الأقوام السابقة رأوا البحر أصبح طريقاً يبساً، ومع ذلك قالوا :

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(138))

(سورة الأعراف)

هناك من رأى ناقةً خرجت من الجبل، ومن رأى نبياً كريماً وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام أُلقي في النار فلم يحترق، ومن رأى يد سيدنا موسى أصبحت مصباحاً منيراً:

(فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ(108))

(سورة الأعراف)

هناك أقوامٌ كثيرون رأوا معجزاتٍ حسيَّةً فلم يؤمنوا، فالذي لا تهزُّه آيات الكون لا يهزُّه خرقُها .

قلوب الشاردين عن الله ومواقفهم وأقوالهم متشابهة:

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118))

أي أن قلوب الشاردين عن الله متشابهة، وأقوالهم متشابهة، ومواقفهم هيَ هي، والكافر هو هوَ، والمنافق هو هوَ في كل زمان ومكان:

(تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً)

أي أن الحق لابس رسالته، الحق هو الشيء الثابت والهادف، والحق شيء ثابت إلى أبد الآبدين، وهادف نبيل، فأنت يا محمد أُرسلت بالحق، وهو الشيء المُستقر، الثابت، الهادف، النبيل، المقدَّس .

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً (119))

للمؤمنين:

(وَنَذِيراً (119))

للكافرين:

(وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119))

أنت مبلّغ فقط، أما المنحرف فلا تحاسب عنه، هو يحاسب عن نفسه فقط .

ليس في الإسلام مجاملات ولا أنصاف حلول فالحق حق والباطل باطل:

قال تعالى:

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى(120))

أي ليس في الإسلام مجاملات، ولا مداهنة، ولا أنصاف حلول، هذا ليس وارداً، ولا حلاً وسطاً، ولا تجميل مشكلة، فالحق حق والباطل باطل:

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى(120))

هدى الله الذي جاءني هو وحده الهدى:

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120))

أحياناً يجتهد الإنسان اجتهاداً خاطئاً أن يجامل الشاردين عن الله عزَّ وجل، فيقول في نفسه: آخذ شيئاً مما عندهم، واستفيد منهم . كلمة دقيقة ومثل بليغ: إذا بلعت السفينة من ماء البحر شيئاً فالبحر سوف يبتلعها كلَّها، فليحافظ المؤمن على استقامته، وعلى طهارته، وعلى صفاء قلبه، وعلى طاعته لله عزَّ وجل، والله هو الفعَّال، لا تقدِّم شيئاً من دينك أبداً إذا كان من الممكن أن تبذل دنياك لدينك فهذا الشيء جيد وهذه مداراة مقبولة ومرغوب بها، أما أن تبذل دينك لدنياك فأنت الخاسر الأكبر .

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (43- 95):تفسير الآيات121 - 124، العلم والعمل هما المقياس يوم الفصل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-06-11

بسم الله الرحمن الرحيم

تلاوة الكتاب حق تلاوته أي أن تحسن قراءته وفهمه وتدبُّره والعمل به:

مع الآية الواحدة والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121))

أي إن هؤلاء الذين آتيناهم الكتاب إذا تلوه حق تلاوته، إذا تلوه كما أُنزل عليهم من دون تحريفٍ أو تغيير، إذا تلوه حق تلاوته يؤمنون بمحمدٍ صلى الله عليه وسلَّم، لأن هذه الرسالات متتالية، وكل رسالةٍ تنسخ الرسالة السابقة، والذي آمن بالله عزَّ وجل ينصاع إلى أمره وإلى الإيمان بما جاءه مجدَّداً عن الله عزَّ وجل .

طبعاً قد تُفهم الآية وحدها بمعنىً آخر، تلاوة الكتاب حق تلاوته أي أن تحسن قراءته، وأن تحسن فهمه، وأن تحسن تدبُّره، وأن تحسن العمل به، فإن قرأته وفهمته وتدبَّرته فقد أحسنت تلاوته، ومعنى التدبر أي أين أنت من هذه الآية ؟ هل أنت مطبقٌ لها، قد تفهمها ولكن يجب أن تقول: ما علاقتي بها، هل أنا مطبقٌ لها ؟ هل أنا مقصرٌ في تطبيقها ؟ هل أنا مغطًّى بهذه الآية ؟ هل هذه الآية تعنيني ؟ التدبر أن تنظر ما علاقتك بهذه الآية من أجل أن تأخذ موقفاً . القرآن الكريم من دقة نظمه أن الآية إذا نُزعَت من سياقها لها معنى مستقل، فإذا وضعت في سياقها لها معنىً آخر، مثلاً حينما قال الله عزَّ وجل:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

جاءت هذه الآية في سورة الطلاق، أي من يتق الله في تطليق زوجته يجعل الله له مخرجاً في إرجاعها، طلَّقها طلاقاً سنياً، طلقها طلقةً واحدة، وطلقها في طهرٍ ما مسها فيه، ولم يطلّقها في حيض، ولم يطلقها في موضوعٍ لا علاقة لها به، وأبقاها عنده، هذه المشكلة بعد أيام تلاشت، فأرجعها وحُلَّت المشكلة، فمن اتقى الله في تطليق زوجته يجعل الله له مخرجاً إلى إرجاعها . وهذا هو المعنى السياقي .

لو نزعت الآية التالية من سياقها فهي قانون:

قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

لو نزعت هذه الآية من سياقها فهي قانون، من يتق الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من إتلافه، ومن يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من الشقاق الزوجي، ومن يتق الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوق الأولاد، ومن يتق الله في التوحيد يجعل الله له مخرجاً من الشرك، من يتق الله في الإيمان يجعل الله له مخرجاً من الكفر، فهذه الآية يمكن أن تُكتب عليها مجلَّدات، إذا نُزعت من سياقها قوانين، وإذا وضعت في سياقها لها معنى سياقي ـ هذا مثل طبعاً ـ فربنا عزَّ وجل قال:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ (121))

كيف نتلو هذا القرآن حق تلاوته ؟ حينما نحسن قراءته، وبعد أن نحسن قراءته نبحث عن معناه، ويمكن أن يكون حضور درس في تفسير كتاب الله نوعاً من أنواع تلاوته حق التلاوة، فهل هناك كتابٌ في حياتك يعلو على هذا الكتاب ؟ وهل هناك كتابٌ يحدِّد مصيرك الأبدي كهذا الكتاب ؟ هو كلام الله عزَّ وجل، ولا شيء يعلو على أن تفهمه كما أراده الله عزَّ وجل، فطلب العلم فريضةٌ على كل مسلم، فمن تلاوته حق التلاوة أن تعرف معانيه، ثم من تلاوته حق التلاوة أن تنظر أين أنت من هذه الآيات ؟ فهل تنطبق عليَّ آيات الذي يظلم نفسه، أم آيات المُقتصد، أم آيات السابق للخيرات ؟ قال الله عزَّ وجل:

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ)

(سورة فاطر الآية: 32)

إن الذي يفعل ما أُمر وقد يقصِّر، ويدع ما نُهي عنه وقد يقع هذا ظالم لنفسه، والذي يفعل ما أُمر ولا يقصر، والذي يدع ما نهي عنه ولا يقع فهذا مقتصد، والذي يدع المحرَّمات ثم ينتقل إلى ترك الشبهات، يدع المحرمات الكبيرة، ثم يدع المعاصي الصغيرة، ثم يدع الشُبهات استبراءً لدينه وعرضه، ثم يدع المكروهات التنزيهية، ثم يدع الحلال إذا أفضى به إلى الحرام، ثم يفعل النوافل هذا سابقٌ بالخيرات، فإذا قرأ الإنسان هذه الآية فلينظر أين هو من هذه الآية ؟ لا سمح الله ولا قدَّر هل أنت مع الذي ظلم نفسه، أم أنت مع المقتصد، أم أنت مع السابق بالخيرات ؟

معنى التدبر:

نقطةٌ دقيقةٌ أيها الأخوة، دائماً اسأل نفسك هذا السؤال: أين أنا من هذه الآية ؟ هل تنطبق عليَّ هذه الآية؟ اقرأ فواتح سورة البقرة ففيها وصفٌ للمؤمنين الصادقين، وفيها وصفٌ للكافرين، وفيها

وصفٌ للمنافقين، إن استبعدنا آيات الكافرين يا ترى هل تنطبق عليَّ بعض صفات المنافقين ؟ هذا هو التدبُّر، قرأت الآية ولكن ما الذي ينبغي أن تفعله حينما تنتهي من قراءتها ؟ أن ترى ما إذا كنت مطبقاً لها أو لست كذلك .

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ (121))

يقرؤونه قراءةً صحيحة، ويفهمون معانيه كما أراد الله عزَّ وجل وفق علم الأصول ـ المعنى الدقيق ـ ثم ينظرون ما علاقتهم بهذه الآية ؟ هذا هو التدبر، وبعدئذٍ يطبقون هذا القرآن، والذي لا يطبق هذا القرآن لعلَّ الحديث الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام ينطبقُ عليه:

((ورب تال للقرآن و القرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

[الترمذي عن صهيب]

أما هنا المعنى السياقي في هذه الآية أن فئةً من الذين أوتوا الكتاب يتلونه حق تلاوته، فحينما تلوه حق تلاوته آمنوا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلَّم:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ (121))

يؤمنون بمحمدٍ صلى الله عليه وسلَّم، وهناك نفرٌ من اليهود آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلَّم وكانوا من أصحابه الكبار كعبد الله بن سلام، وكانت أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق .

إذا عُرض عليك الحق ورفضت دعوة الله عزَّ وجل فأنت محتقرٌ لنفسك:

قال تعالى:

(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ (121))

أي من يكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلَّم، أي من يكفر برسالته التي جاءته من عند الله عزَّ وجل:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121))

أيها الأخوة الكرام: الإنسان مخيَّر، والإنسان حينما يرفض شيئاً من الدنيا يرفضه احتقاراً له، قد يُعرض عليك بيتٌ لا يعجبك فترفض شراءه، وقد تُعرض عليك شراكةٌ لا تغنيك فترفض قَبولها، طبعاً فأنت ترفض هذه التجارة لأنها لا تغنيك، وترفض شراء هذا البيت لأنه صغيرٌ في نظرك، حقير، لكن إذا عُرض عليك الحق ورفضت دعوة الله عزَّ وجل فأنت محتقرٌ لنفسك، تحتقر نفسك:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

(سورة البقرة)

الدين وحده إذا رفضته فأنت محتقرٌ لنفسك، ما عرفت قيمة نفسك، ولا عرفت حقها، ولا عرفت أنك المخلوق الأول الذي كرَّمه الله بهذا الدين .

المعنى السياقي للآيات التالية:

قال تعالى:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ (121))

طبعاً حق التلاوة هكذا:

(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ (121))

برسول الله صلى الله عليه وسلَّم:

(وَمَنْ يَكْفُرْ (121))

برسول الله:

(وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ (121))

هذا المعنى السياقي:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (122))

النعمة التي يقتضيها المعنى السياقي، هذه النعمة أن الله عزَّ وجل ذكر لهم في التوراة والإنجيل أنه سيأتي نبيٌّ من بعد سيدنا موسى وعيسى اسمه محمد:

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (6))

(سورة الصف)

هو أحمد الخلق كافةً، فهذه نعمة أن الله طمأنهم بكتبهم أنه سيأتي نبيٌّ عظيم من بعد أنبيائهم، إذا آمنوا به فسيرقون إلى أعلى عليين:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122))

إن آمنت برسول الله واتبعته ووقّرته ونصرته فأنت من المفلحين:

أيها الأخوة آيةٌ نستأنس بها في هذا الموضوع، يقول الله عزَّ وجل :

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا (156))

(سورة الأعراف)

وقال دقّق:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ(156)الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ (157))

(سورة الأعراف)

فالذين آمنوا بهذا النبي الأمي:

(فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(157))

(سورة الأعراف)

آياتٌ دقيقةٌ جداً، إن آمنت برسول الله ؛ برسالته، بهذا القرآن الذي جاء به، بسُنته المبينة لهذا الكتاب، واتبعته، ووقَّرته، ونصرته، وعزَّرته فأنت من المفلحين .

الله عزَّ وجل سيسألنا يوم الفصل عن كل أعمالنا صغيرها وكبيرها:

أيها الأخوة، ثم يقول الله عزَّ وجل :

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123))

أيها الأخوة، هذا هو اليوم الذي تسوَّى فيه الحسابات، هذا هو يوم الدين، هذا هو يوم الفصل، هذا يوم القارعة، هذا يوم الحاقَّة، هذا يوم الطامَّة الكبرى، هذا يوم النبأ العظيم، الناس في الدنيا مختلفون ؛ أقوياء وضعفاء، أغنياء وفقراء، طلبوا العلم وزهدوا في العلم، استقاموا وانحرفوا، صدقوا وكذبوا، أكلوا المال الحلال أو أكلوا المال الحرام، عفوا أو اعتدوا على أعراض بعضهم بعضاً، هؤلاء الناس بعجزهم وبجرهم، وبانحرافهم واستقامتهم لا بد من أن يقفوا يوماً بين يدي الله عزَّ وجل ليحاسبوا عن أعمالهم كلها، صغيرها وكبيرها .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

العاقل كل العاقل، والذكي كل الذكي، والفالح كل الفالح، والفائز كل الفائز، والمتفوِّق كل المتفوِّق هو الذي يُعد لهذا اليوم عدته، هو الذي يدخل هذا اليوم في حساباته اليوميَّة، ويجب عليه قبل أن ينطق بكلمة، وأن يعطي، وأن يمنع، وأن يعادي، وأن يقطع، وأن يصل، وأن يبتسم، وأن يعبس، وأن يغضب، وأن يرضى يجب أن يقول: ماذا سأجيب الله يوم القيامة ؟ ولذلك فالأبوَّة مسؤوليَّة، والعمل مسؤوليَّة، والحرفة مسؤوليَّة، والله عزَّ وجل سيسألنا عن كل أعمالنا صغيرها وكبيرها .

يوم القيامة يحاسب كل إنسان عن عمله:

قال تعالى:

(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (49))

(سورة الكهف)

كتاب أعمال الإنسان:

(وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(49))

(سورة الكهف)

نحن الآن في بحبوحة في الدنيا، لك أن تحسن ولك أن تسئ، لك أن تصدق ولك أن تكذب، لك أن تبالغ ولك أن تقلّل من أهمية الشيء، هذا لا ينفعك عند الله شيئاً، لا بد من أن تُسأل لماذا فعلت ؟ ولماذا قُلت ؟ ولماذا ضخَّمت ؟ ولماذا قلّلت ؟ ولماذا اتهمت ؟ ولماذا اغتبت ؟ ولماذا أعطيت ؟ ولماذا منعت ؟

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (123))

يوجد في الدنيا تكتُّلات، فهناك جماعات، وهناك إنسان له أتباع، وله مكانة، وسيطرة، وغني كبير، وقوي يحتل منصباً رفيعاً بإمكانه أن يفعل كل شيء، هذا في الدنيا ؛ ولكن في الآخرة:

(لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (123))

أدلة من القرآن الكريم والسّنّة الشريفة أنه لا تجزى نفس عن نفس شيئاً:

يقول الله عزَّ وجل :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ (19))

(سورة الزمر)

يا محمد يا سيد الخلق:

(أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّار (19))

(سورة الزمر)

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

لو أنك استطعت أن تستخلص، أو أن تأخذ من فم رسول الله وهو سيِّد الخلق وحبيب الحق فتوى لصالحك أو حكماً ولم تكن محقاً فإنك لا تنجو من عذاب الله:

((لعلَّ أحدكم ألحن بحجَّته من الآخر فإذا قضيت له بشيء فإنما أقضي له بقطعةٍ من النار))

[الجامع لأحكام القرآن عن أم سلمة]

أيها الأخوة، هذه الآية دقيقة :

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123))

هذه الآية رقمها ثلاثة وعشرون بعد المئة من سورة البقرة، واضحة، ولنا وقفة معها بعد قليل .

لا تُقبل يوم القيامة شفاعة الشفيع ولا حتى الجزاء النقدي:

هناك آية رقمها ثمانية وأربعون في سورة البقرة نفسها، يقول الله:

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (48))

(سورة البقرة)

تماماً كالآية السابقة:

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(48))

(سورة البقرة)

هناك فرقٌ بين الآيتين، الآية التي نحن بصددها:

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ (123))

الآية الأولى :

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(48))

(سورة البقرة) .

لو أن ملكاً غضب على رجل ـ ولله المثل الأعلى ـ غضباً شديداً، وجاء إنسان ليشفع له، هذا الإنسان الذي أراد أن يشفع له عند هذا الملك قال: لا يقبل منه شفاعة، شفاعته مرفوضة . فإذا أردنا أن نقدِّم الجزاء النقدي وهذا الجزاء لا يُقبل، ترفض في هذا اليوم شفاعة الشفيع، والبديل الذي هو الجزاء النقدي غير مقبول . أما في هذه الآية فهذه النفس الظالمة لا يقبل منها عدلٌ، أي لو أنها أيضاً عادت إلى الدنيا واستقامت:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

قال:

(كَلَّا)

(سورة المؤمنون الآية: 100)

هذا هو العدل، لو بحثت عن شفيع لا تجد، آية تشير إلى النفس الجازية، والآية الثانية تشير إلى النفس المجزية عنها، النفس الظالمة لو بحثت عن عدلٍ ينجيها من عذاب هذا اليوم فقالت:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون) .

قال:

(كَلَّا)

أمامها بديل آخر، لو بحثت عن شفيع ليس هناك من شفيع، أما النفس التي أرادت أن توسَّط وأن تشفع شفاعتها غير مقبولة، ولو طالبنا بالجزاء النقدي فالجزاء النقدي مرفوض، هذا هو اليوم الصعب، هذا:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

المقاييس ووسائل التقييم كلها تتبدل يوم القيامة :

قد تقف البنت أمام ربها يوم القيامة تقول: يا رب لا أدخل النار حتى أُدخل أبي قبلي . فالإنسان قبل أن يفعل شيئاً، وقبل أن يتجاوز، وقبل أن يطغى، وقبل أن يبغي على أخيه المؤمن، وأن يكذب، وأن يغتاب، قبل أن يطعن، وأن يتهم، قبل أن يقلّل من قيمة إنسان، وأن يضخِّم إنساناً آخر يجب أن يسأل نفسه: ماذا سأجيب الله يوم القيامة لو سُئلت لمَ فعلت هذا ؟

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ (123))

نكرة، أي أية نفسٍ كائنةً من كانت:

(لَا تَجْزِي نَفْسٌ (123))

أي نفسٍ كائنةً من كانت ولو كانت نفس رسول الله:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19)).

(سورة الزمر)

وقال:

(لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ (123))

هذه النفس التي استحقَّت العذاب مهما كانت مكانتها في الدنيا كبيرة:

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

كل المقاييس تُبدَّل، وسائل التقييم كلها تتبدَّل، الناس في الدنيا يعظمون الغني، ويعظِّمون القوي، أما في الآخرة فالذي استقام على أمر الله، والذي أحسن إلى خلق الله هو الذي يحتل مكانةً رفيعةً عند الله يوم القيامة .

الآية التالية من أدق آيات العدل :

هذه الآية أيها الأخوة من أدق آيات العَدل:

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (123))

مهما كنت، ومهما توسَّطت، لا تستطيع نفسٌ أن تفعل نفعاً مع نفسٍ أُخرى، أي كما قال الله عزَّ وجل :

(قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً(21))

(سورة الجن)

الأبلغ من ذلك:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية: 188)

لذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة:

((إنهم مني فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا سحقاً))

[الجامع لأحكام القرآن عن سهل بن سعد رضي الله عنه]

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ (123))

هناك مخالفات في الدنيا تسوَّى بمبلغ من المال، هذه المخالفة ثمنها فرضاً مئة ألف، أو مليون، ولكن لو أن إنساناً ارتكب خيانة عظمى لا بد من أن يُعدم ـ مثلاً ـ فهذه مخالفة لا ينفع فيها الجزاء النقدي، فالإنسان حينما يقف أمام ربنا عزَّ وجل، مهما كان شأنه كبيراً في الدنيا، ومهماً كان الشفيع كبيراً، لا الشفيع ينفعه ولا التعويض المالي ينفعه:

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (123))

الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يعكس كل الموازين التي أمامك:

أيها الأخوة، أحد أكبر أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، والله الذي لا إله إلا هو حينما تؤمن بهذا اليوم إيماناً حقيقياً تنعكس الموازين كلها أمامك، قبل الإيمان بهذا اليوم ترى ذكاءك في الأخذ، أما إذا آمنت بهذا اليوم ترى الذكاء في العطاء، قبل الإيمان بهذا اليوم ترى مكسباً كبيراً إذا استفدت من جهود الآخرين هذا، أما بعد أن تؤمن بهذا اليوم فترى الفوز عندما تبذل جهدك من أجل الآخرين، فالناس الآن يفرحون بمكسب حرام، وبمال حرام، يعد نفسه ذكياً وشاطراً حينما يأخذ ما ليس له، وحينما يوهم الناس أنه على شيء وهو ليس على شيء، هذا نوعٌ من ضعف التوحيد وضعف الإيمان بالله، اتقوا هذا اليوم، هذا اليوم:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ(18))

(سورة الحاقة)

يعرض كل شيء، وكل شيء له حساب :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

المؤمن دائماً عنده هاجس مستمر، هل هذا العمل شرعي ؟ وهل يرضى الله به عني ؟ وهل موقفي صحيح ؟ هل أنا مؤاخذ ؟ هل أُعد ظالماً ؟ هل أعد متجاوزاً لحدودي ؟ هذا الصراع اليومي، الساعي، بين المؤمن ونفسه دليل قوة إيمانه، ولذلك يتقلَّب المؤمن باليوم الواحد على أربعين حالاً، بينما المنافق يستقر أربعين سنة على حال واحد، المؤمن يتقلَّب باليوم الواحد أربعين حالاً من شدة خوفه من الله، والمنافق يستقر على حال واحد أربعين سنة .

لا يوجد شيء يكافئ دخول النار:

قال تعالى:

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ (123))

أي لا يوجد شيء يكافئ، لو أراد الإنسان أن ينقذ نفسه من النار بملء الأرض ذهباً، ولو أن الأرض كلها ذهب وكانت بيد إنسان استحق النار، لو أنفقها كلها لا ينجو من عذاب الله:

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ (123))

لا يوجد أي شيء يكافئ دخول النار:

(وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ (123))

لو أنه ابن نبي:

(فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ(46))

(سورة هود)

وقال:

(وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123))

عدل الله مطلق والخلق كلهم سواسية عنده سبحانه :

عمُّ سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام عمه أبو لهب:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

يجب أن تؤمن بعدل الله المُطلق، وأن الخلق كلهم عند الله سواسية، قال سيدنا عمر كلمات بليغات لسيدنا سعد، من هو سيدنا سعد ؟ هو من أقرب أصحاب رسول الله إلى قلبه، النبي عليه الصلاة والسلام ما فدَّى أحداً من أصحابه إلا سعداً، فقال له:

((ارم سعد فداك أبي وأمي))

[أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

أن يقول نبيٌ عظيم لصحابي جليل: فداك أبي وأمي:

((ارم سعد فداك أبي وأمي))

[أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

كان إذا دخل على النبي عليه الصلاة والسلام يداعبه من شدة محبَّته له، ويقول:

((هذا خالي فليرني امرؤ خاله))

[الجامع الصغير عن جابر رضي الله عنه]

ماذا قال له عمر بعد وفاة رسول الله ؟ قال له:" يا سعد ـ دقّقوا ـ لا يغرَّنك أنه قد قيل خال رسول الله فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له" . أي أنه لا يوجد بينك وبين الله إلا طاعتك له، فبطاعتك له ترقى إلى أعلى عليين مهما يكن نسبك، ومهما تكن مكانتك، ومهما تكن شهادتك، ومهما يكن حجمك الاجتماعي أما إن عصيت الله عزَّ وجل فإنك تهوي إلى أسفل سافلين .

مقياس ربنا عزَّ وجل يوم القيامة هو العلم والعمل :

قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

هذا مقياس ربنا عزَّ وجل:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

((لا منكم، ولا منكم، سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

أين النسب ؟ انتهى النسب، سلمان الفارسي منا آل البيت، عم النبي القرشي الهاشمي:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

هذا هو المقياس الدقيق، يوجد عندنا مقياس واحد العلم والعمل:

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ(11))

(سورة المجادلة)

وقال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا(132))

(سورة الأنعام) .

ليس في القرآن من قيمة معتمدة في الترجيح بين خلقه إلا العلم والعمل، ترقى بعلمك، فرتبة العلم أعلى الرُتب، وترقى بعملك، ما سوى ذلك ؛ من نسب، ومكانة، ووسامة، وذكاء هذه مقاييس الدنيا .

أدوات اللغة واستعمالاتها:

قال تعالى:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (124))

لدينا كلمة (إذا) وكلمة (إذ)، (إذ) ظرف فقط، أي واذكر حين فقط، وإذ ابتلى أي واذكر حين ابتلى إبراهيم ربه بكلمات، أما (إذا) ظرف متضمنٌ معنى الشرط:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1))

(سورة النصر)

(إذا) تعني إن، وتعني حين، وتعني سوف، إعرابها التفصيلي ظرفٌ لما يستقبل من الزمن، خافضٌ لشرطه، منصوبٌ بجوابه مبني على السكون، في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان . (إذا) فيها معنى الشرط، ومعنى الظرف، ومعنى الاستقبال، الفرق بين (إذا) وبين (إن)، (إن) لشيءٍ محتمل الوقوع، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا (6))

(سورة الحجرات)

هذا الفاسق قد يأتي وقد لا يأتي، أما (إذا) لتحقق الوقوع:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1))

(سورة النصر)

أي لا بد من أن يأتي نصر الله، وأدوات اللغة دقيقة جداً، (إذا) لتحقق الوقوع، (إن) لاحتمال الوقوع، (إذ) غير (إذا)، (إذ) حين، أي واذكر يا محمد حين ابتلى إبراهيم ربه بكلمات، طبعاً ابتلى من الابتلاء والابتلاء ليس شراً، الابتلاء امتحان، كمثل إنسان دارس دخل الامتحان، فنال الدرجة العُليا، وصار طبيباً كبيراً، أو مهندساً كبيراً، أو له مكانة اجتماعيَّة عالية، فكلمة ابتلاء لا تعني أنها مصيبة، ابتلاء امتحان، أي مطلق الامتحان قد تنجح وقد لا تنجح:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ (124))

وقال:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت) .

لا بد من أن تُبتلى، سُئل الإمام الشافعي: **" أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ " فقال رضي الله عنه: " لن تُمكَّن قبل أن تُبتلى " .**

امتحن النبي الكريم بامتحانات عدة فصبر وتواضع لله سبحانه:

وطِّن نفسك أيها المؤمن أنه لا يُسمح لك بدخول الجنة إلا إذا امتُحنت الامتحانات كلها، هناك امتحان الضعف، النبي امتحن بالضعف بالطائف فقال:

((ربي أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى))

[كنز العمال عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه]

هذا امتحان القهر، كذَّبوه، وسخروا منه، وأساءوا إليه وقال :

((اللهمَّ اهدي قومي إنهم لا يعلمون))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عبيد بن عمير مرسلا]

امتحن امتحان القهر فصبر، وامتحن امتحان النصر فتواضع، ودخل مكَّة فاتحاً دخلها مطأطئ الرأس حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزَّ وجل، بينما التاريخ يشهد أن كل الفاتحين يتغطرسون، ويسفكون الدماء، ويستبيحون الحُرمات، أما هو فقال:

((مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ))

[أبي داود عن العباس رضي الله عنه]

((ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: أقول كما قال أخي يوسف: اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[الجامع الصغير عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

هذه واحدة . الآن امتحن امتحان الفقر، دخل بيته صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: **" أعندكم شيء نأكله ؟ " قالوا: لا، قال: فإني صائم .**

هل هناك بيت من بيوتات المسلمين لا يوجد فيه شيء إطلاقاً تأكله ؟ مستحيل . امتحن امتحان الفقر فصبر، امتحن امتحان الغنى فشكر .

لمن هذا الوادي يا رسول الله ؟ قال: **" هو لك "** . قال: أتهزأ بي ؟ قال: **" لا والله هو لك "** . قال: **" أشهد أنك رسول الله تعطي عطاء من لا يخشى الفقر" .**

امتحن بموت الولد فقال :

((إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إلاَّ ما يُرْضِي رَبَّنا، وَإنَّا بِفِرَاقِكَ يا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[الأذكار النووية عن أنس رضي الله عنه]

امتحن امتحان فقد الولد، وامتحن امتحاناً قد لا يحتمله معظمكم ؛ أن يقال عن زوجته إنها زانية، هذا امتحان الإفك، وانقطع الوحي أربعين يوماً وهو صابر، هذا امتحان شديد .

امتحن امتحان الهجرة، وامتحن بمؤامرات حيكت ضدَّه، وبشعراء هَجَوْهُ، قال عليه الصلاة والسلام:

((لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال))

[الجامع الصغير عن أنس رضي الله عنه]

الثواب على قدر المشقة:

قال تعالى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

وقال:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

هل هناك جامعة في الأرض تقدِّم لها طلباً من سطرين تقول فيه: يرجى منحي درجة الدكتوراه بمرتبة امتياز وشكراً . توقيع، وطابع، وفي اليوم الثاني تأخذ دكتوراه، هل تستطيع أن تفعل هذا ؟ يقول لك: ثلاثة وثلاثين سنة دراسة لأحصل على الدكتوراه، سهرت حتى الساعة الثانية ليلاً ـ كم كتاباً قرأ ؟ وكم كتاباً ألَّف ؟ وكم موضوعاً أعدَّ ؟ وكم ساعة داوم ؟ هل هناك جهة بالأرض تعطي شهادة بلا امتحان ؟ هل هناك مدرسة في الأرض لا يوجد فيها امتحانات ؟ فهذه الجنة التي عرضها السموات والأرض تريدها بلا عمل ؟ بركيعاتٍ جوفاء، بدريهماتٍ تلقيها في يدي فقير وانتهى الأمر وأنت مقيم على كل الشهوات ؟!

الجنة تفرض علينا مراجعة حساباتنا لأننا الآن في دار امتحان:

أخواننا الكرام نحتاج إلى مراجعة حساباتنا، هذه الجنة:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ(59)وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ(60)وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ(61))

(سورة النجم)

كلام مُخيف، مصير أبدي، الآن الطائع والعاصي يعيشان، يأكلان، ويشربان، وينامان، يسكنان في بيوت، ولهما مراكز، وعندهما تجارة، فالآن الأوراق مختلطة لأننا في دار امتحان، أما يوم القيامة:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يس)

قفوا في مكان واحد، نحن في الدنيا أثناء العام الدراسي كل الطلاب يرتدون اللباس النظامي، ويدخلون الصفوف ويستريحون، ويلعبون، ويضحكون، أما عند النتائج فطالب يكاد يرقص من الفرح، وطالب يبكي من شدة الألم، في الدنيا توجد امتحانات لذلك:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ (124))

(ابتلى)

هو الامتحان ولا بد من أن نُمتحن، دقّق، قل ما شئت، أعطِ نفسك الحجم الذي تريد، لكن الله متكفّلٌ أن يُحَجِّمك، أن يضعك في ظرفٍ دقيق دَقيق يكشف لك حجمك الحقيقي .

يمتحن الإنسان في اليوم مئات المرات فإما أن ينجح وإما أن يرسب عند الله تعالى:

أنت مثلاً تقول: أنا لا آخذ درهماً حراماً . صح، ترفض الألف والألفين، والعشرة آلاف، جاءك مليونان تفكّر، وتقول: عندي أولاد . رسبت في الامتحان . فالإنسان يمتحن والدنيا كلها امتحان، وأنت ممتحن في اليوم مئات المرات، باليوم الواحد ممتحن بالغنى والفقر، وبالزوجة والولد .

قال لي أخ: عندي قطعة بمبلغ ضخم، ثمنها خمسة وعشرون ألفاً ما كانت تباع السنة الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، من جرد إلى جرد، وبعد ذلك جاء إنسان وطلبها . قال لي وأنا على السُلَّم أريد أن أعطيه إياها: أهي أصليَّة ؟ هي ليست أصليَّة أنا تزلزلت ولكنني قلت له: لا ليست أصليَّة . قال له: أنزلها . نجح، تكلَّم الحقيقة ونجح، مادام الشاري عرف أنها ليست أصليَّة وقبلها فالبيع شرعي، أما لو كذب عليه ـ قال لي: والله أعلم علم اليقين أنه لن يعلم حقيقتها ـ فلو قلت له: أصليَّة، لا يوجد عنده وسيلة تكشف أنها ليست كذلك، ولكنه خاف من الله، فأنت ممتحن في اليوم آلاف المرَّات .

قال لي أخ من إخواننا الكرام: عندي موظَّف مهندس دخله أقل من حاجته بكثير، عشرة آلاف، ثمانية آلاف، سبعة آلاف، وجد ثمانمئة ألف في كيس أسود في أحد أحياء دمشق، فقال لي: ما زال يبحث عن صاحبها حتى أعطاها له، وهو بأمس الحاجة لهذا المبلغ . هذا امتحان، دقّق أنت ممتحنٌ كل يوم، فإما أن تنجح وإما أن ترسب عند الله عزَّ وجل، أنت قل عن نفسك ما شئت، أعطِ نفسك أكبر هالة لكن الله متكفّل أن يعيدك إلى حجمك الحقيقي .

قد يضعك في ظرف فتغضب وأنت تحدّث الناس عن الحلم سنوات وسنوات، أنت لماذا غضبت ؟ قد تحدِّث الناس عن الورع، فلماذا ارتكبت ؟ وقد تحدث الناس عن السخاء، فلماذا بخلت ؟ وقد تحدث الناس عن التواضع، فلماذا استعليت ؟ الله عزَّ وجل يضع الإنسان في ظرف يحجِّمه فيه .

الكلمة في القرآن تعني الأمر أو تعني الجُملة أما الكلمة في اللغة فتعطي معنىً ناقصاً :

قال تعالى:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ (124))

ما هي هذه الكلمات ؟ المفسِّرون لهم في هذه الكلمات بعض التوجُّهات:

أولاً: في اللغة مفرد وفيها جملة، المفرد لا يفيد معنى تاماً، تقول مثلاً: تفاحة هذا معنى غير تام، أما تفاحة حلوة المذاق، فهذا معنى تام، تفاحة كبيرة، معنى تام، أي الصفة والموصوف، المبتدأ والخبر، الفعل والفاعل، هذه جملة . المفرد لا يفيد معنى تاماً، وإن كان هناك مفارقة كنت أضربها للطلاب كمثل: كان عندنا مؤسَّسة اسمها إعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي، لو قلت مثلاً: المدير العام لمؤسَّسة إعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي في القطر العربي السوري . كم كلمة ؟ ثلاث عشرة كلمة ولكنها في اللغة مفرد، لأنك ما أفادت معنىً، ثلاث عشرة كلمة جاءت متتابعةً وهي في اللغة مفرد، ماذا حلَّ به ؟ عُزل ؟ كُوفئ ؟ عُوقب ؟ أما حرف القاف لوحده جملة، ق، من وقى، يقي، ق، فـِ، الفاء فقط جملة من وفى، يفي، فـِ، هي فعل أمر والفاعل ضمير مستتر، فالجملة تعطي معنىً تاماً، أما المفرد فيعطي معنىً ناقصاً، إذن مبتدأ وخبر جملة، فعل وفاعل جملة، أما كلمة لو جئت بعشرات الأوصاف لها ولكن لا حلَّ لها ؟ المدير ؛ مدير رئيس مجلس إدارة مؤسَّسة إعادة الخط الحديدي الحجازي في القطر العربي السوري . كم كلمة ؟ باللغة مفرد لأنها لم تفد معنىً تاماً، أما كلمة (ق) تفيد معنىً تاماً .

هذا في اللغة، أما في القرآن الكلمة تعني الجملة، أو تعني الأمر، مثلاً :

(وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً(4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِباً(5))

(سورة البقرة)

وقال:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (116))

(سورة البقرة)

هذه عند الله كلمة واحدة، إذاً الكلمة في القرآن تعني الأمر أو تعني الجُملة قال تعالى:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ (124))

في كل سورة من السور الأربع التالية عشر صفات للمؤمنين:

الكلمات قالوا: هناك أربع سور:

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ(112))

(سورة التوبة)

هذه كلمات عَشر، وفي سورة المؤمنون:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ(7)وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(9)أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ(10)الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(11))

(سورة المؤمنون)

وقال:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(35))

(سورة الأحزاب)

وهذه عشر كلماتٍ أُخَر، هذه العشرة الثالثة، والعشرة الرابعة:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22)الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(23)وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ(24)لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(25)وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(26)وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ(27)إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ(28)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(29)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(30)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ(31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(32)وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ(33)وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(34)أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ(35))

(سورة المعارج)

يقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما: **" إن هذه الكلمات في هذه السور الأربع، وكل سورة فيها عشر صفات للمؤمنين " .**

الإمام يجب أن يكون قدوة لمن حوله ومثلاً أعلى يُحتذى:

قال تعالى:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ (124))

أو بأوامر، أو بامتحانات، أُلقي في النار فهذا ابتلاء، وأُمر أن يضع زوجته وابنه في وادٍ غير ذي زرع فهذا امتحان ثانٍ، أُمر أن يذبح ابنه هذا امتحان ثالث:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (124))

بعد أن أتمَّهن:

(قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً (124))

معنى الإمام أنه أمام، إذا كان في الأمام صار إماماً، وإذا كان أمام من حوله في الورع، والاستقامة، والإخلاص، والتقوى، والحب صار إماماً، فالإمام يجب أن يكون أمام كل من حوله، وأن يكون قدوةً لهم، ومثلاً أعلى يحتذى .

محبة الله عزَّ وجل دليلها اتباع الرسول الكريم:

إخواننا الكرام ما دام الموضوع طُرق:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

وقال:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً(9))

(سورة ا

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (44- 95):تفسير الآيات 125 - 128، مقام إبراهيم عليه السلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-06-18

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ أرادها اتخذ بيتاً له هو البيت الحرام:

مع الآية الخامسة والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

أيها الأخوة الكرام ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ أرادها اتخذ بيتاً له هو البيت الحرام، ومن قصد هذا البيت ابتغاء وجه الله يلقى فيه شعوراً لا يعرفه إلا من ذاقه، هذا الشعور المُسعد يجعله يتمنَّى أن يعود إليه، ما معنى ثاب ؟ أي رجع، ما من إنسانٍ زار بيت الله الحرام حاجاً أو معتمراً، لأنه قصد وجه الله، وزار بيت الله، وأراد أن يلبِّي دعوة الله، لأنه آثر أن يلبي دعوة الله على البقاء في بلده، وعلى مصالحه، وعلى بيته، وعلى زوجته، وعلى أولاده، لأنه آثر أن يلبي دعوة الله على دنياه فقصد البيت الحرام حاجاً أو معتمراً، لأنه تفرَّغ لهذه العبادة البدنية، المالية، الشعائرية التي لا تؤدَّى إلا في مكانٍ خاص، وفي زمانٍ خاص، وبمناسك خاصة، لذلك ربنا عزَّ وجل بشكلٍ استثنائي يلقي في قلب الحاج أو المعتمر سعادةً وسكينةً وأمناً ورضاً لا يعرفه إلا من ذاقه، وإلا من زار هذا البيت مخلصاً.

معنى قول الحاج لبيك اللهم لبيك:

وإذا أراد الإنسان أن يحج بيت الله الحرام ولم يكن مستقيماً، وكان ماله حراماً وقال: لبيك اللهم لبيك . يناديه منادٍ: أن لا لبيك ولا سعديك وحجك مردودٌ عليك . ولكن من يلبي هذه الدعوة مخلصاً لا يبتغي الرياء ولا السمعة، يبتغي وجه الله الكريم، يلقي الله في قلبه من السعادة ما يحمله على أن يعود إليه مرة ثانية .

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً (125))

إذا زار الإنسان مكاناً جميلاً جداً وسعد في هذا المكان أيَّما سعادة يقول: إن شاء الله نعيد الكرَّة في العام القادم . وهذه قاعدة، فكلمة مثابةً أي أن هذا البيت لما يلقي الله في قلب حاجِّه و معتمره من السعادة يتمنى أن يعود إليه دائماً، والإنسان دائماً يصلي في بلده ويصوم، وفي البلد متاعب وأعمال

ومشاغل ومشكلات، أما حينما يترك بيته، ومكتبه، وعمله، وتجارته، ويدفع الأموال، ويمشي في الطرقات، ويركب السيارات، ويتحمل المشاق، ووعثاء السفر، يبتغي وجه الله، فلا يعقل إلا أن يكرمه الله إكراماً لا يعرفه إلا من ذاقه:

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زوارها هم عمارها فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني وحق على المزور أن يكرم الزائر .))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود]

إذا زار الإنسان بيت الله في بلده يلقي الله في قلبه من الطمأنينة والسكينة والشعور بالأمن ما لا يعلمه إلا الله، ولذلك التجلي الإلهي في بيت الله الحرام تجلٍ مركَّز جداً، فعندما فرَّغ الإنسان نفسه لهذه العبادة يتولى الله تفريغ قلبه ـ نقطة دقيقة ـ هو فرَّغ قلبه مادياً ؛ ترك بيته، ووطنه، ومكتبه، وتجارته، وزوجته، وأولاده . أنت حينما تفرِّغ جسمك ونفسك من متاعب الدنيا يتولى الله تفريغ قلبك من سواه، واسأل أي حاجٍ أو معتمر كان مخلصاً في حجَّته أو عمرته يقول لك: والله وأنا هناك ما ذكرت شيئاً من هموم دنياي كلها لأنها نُزعت مني . أنت فرَّغت نفسك لطاعتنا ونحن نفرغ قلبك لمشاهدة كمالنا .

وهذا معنى قول الحاج: لبيك اللهم لبيك . كأن الله يقول له: تعال يا عبدي، تعال كي تذوق طعم القُرب، تعال كي تذوق طعم الأمن، تعال كي تذوق جمال المُناجاة . فالإنسان ذاق الدنيا، ذاق طعامها وشرابها، ونساءها، وعزَّها، وسلطانها، والمناظر الجميلة، والحدائق الغناء، والبيوت الفارهة، والمركبات الأنيقة، وكأنه يُقال له: تعالَ ذق شيئاً آخر، تعالَ اتصل بأصل الجمال، تعال اتصل بأصل الكمال، تعال اتصل بأصل النوال في بيت الله الحرام، وهذا الكلام الذي أقوله وأنا أعني ما أقول الذي سعد بحجةٍ مقبولةٍ أو عمرة مقبولةٍ يعرف معنى هذا الكلام، أنت هناك في عالم آخر.

الحج دعوة من الله وأنت تلبي هذه الدعوة والعمرة زيارة:

قال تعالى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا (125))

كيف أن الله عزَّ وجل جعل بين الزوجين المودة والرحمة ؟ وكيف أن الله عزَّ وجل جعل بين المؤمنين هذا الود:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ (63).)

(سورة الأنفال.)

هذا الود بين المؤمنين، وتلك المودة بين الزوجين من خلق الله عزَّ وجل، وهذه السعادة التي تعمر قلب الحاج والمعتمر من خلق الله عزَّ وجل، أما حينما يحج الناس للسمعة والرياء والتجارة

والمصالح والتباهي والتسوّق فقط، فهذا لا يذوق طعم الحج، لذلك الحج دعوة من الله وأنت تلبي هذه الدعوة، والعمرة زيارة، الله عزَّ وجل في الحج دعاك وأنت في العمرة زرته .

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً (125))

هذا الأمن أيها الأخوة قد يفقده أغنى الأغنياء، وقد يفقده أقوى الأقوياء، ولكنه عطاءٌ إلهي خاصٌ بالمؤمن .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

المشرك من شأنه الخوف والقلق والمؤمن من شأنه الأمن والاطمئنان :

بالمناسبة فالله عزَّ وجل قادر أن يخلق الأمن في أخطر الظروف ؛ وقادر أن يخلق الخوف في آمن الظروف، فالأمن من خلق الله يلقيه في قلب المؤمن،

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا)

وحدهم،

(وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

ضربت مرة مثلاً للتوضيح: قد تسافر إلى بلد مضطراً في وقت مبكر، والعجلة الاحتياطية معطوبة، تسير ساعتين وأنت في أشد حالات القلق، لأنه لو عطبت عجلة من إحدى العجلات الأربع لوقفت السيارة، فلو أن ابنك أصلح هذه العجلة المعطوبة ولم تدرِ أنت لا يوجد حينئذ عندك مبرر للقلق ولكنك تقلق، إذاً لا يوجد علاقة للقلق مع الوضع المادي، العجلة جيدة وجاهزة ولكنك لم تعلم أنها جاهزة، فكنت قلقاً جداً، والعكس صحيح لو أن العجلة معطوبة وأنت لا تدري فأنت في راحة كبيرة، فمن الممكن أن يخلق الله أمناً في ظرف يدعو للقلق، ويمكن أن يخلق القلق في ظرف يدعو للأمن، ومعنى هذا أن الأمن بيد الله عزَّ وجل، إنك عندما تكون معه، قد يكون هناك أخبار سيئة جداً، وقد تكون كل الطرق مغلقة، وأخطار تهدد الإنسان، وتجد أحياناً خمسين سيفاً مسلَّطاً على رقبة الإنسان، رغم هذه الظروف الصعبة جداً يخلق الله عزَّ وجل أمناً في قلبك تسعد به، وأحياناً تكون قوياً جداً ومعك ملايين مملينة، وقوياً جداً من نواحٍ أخرى وصحتك بأعلى درجة، والقلب فارغ من الأمن .

(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ(43))

(سورة إبراهيم.)

فالله يخلق الأمن:

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ (154))

(سورة آل عمران .)

أحياناً يلقي الله في قلب الإنسان الخوف، أما القانون: أنه لمجرد أن يشرك الإنسان بالله يلقي الله في قلبه الخوف، يقذف الله الرعب في كل قلبٍ أشرك به . فالمشرك من شأنه الخوف والقلق ؛ والمؤمن من شأنه الأمن والاطمئنان .

التوحيد هو الذي يحمل على الأمن والاستقرار والتوازن والسعادة:

في الجسم جهاز مناعة ـ أي جهاز المناعة المكتسب وهو أخطر جهاز في الجسم مع أنه ليس له مركز قيادي ـ فجهاز الدوران قائده القلب، وجهاز الأعصاب قائده الدماغ، وجهاز التصفية قائده الكلية، بينما جهاز المناعة المكتسب ليس له قيادةٌ داخل الجسم، له رعايا أي الكريات البيض، فهذه الكريات بعضها استطلاعي، وبعضها تصنيعي، وبعضها قتالي، وبعضها خدمي، مهمة بعض هذه الكريات البيض أن تستطلع بنية الجرثومة الداخلة، تأخذ شفرتها الكيماوية، وتعود بها إلى مركز العُقَد الليمفاوية كي يصنع المصل المضاد لهذه الجرثومة، وبعضها يحمل هذا السلاح ويقاتل، وبعضها ينظِّف أرض العركة من الجثث .

إذاً هناك عنصر استطلاعي، وعنصر تصنيعي ـ معامل الدفاع ـ وعنصر قتالي، وعنصر خدمات، وسلاح الهندسة، الهندسة خدمات، القيادة ليست في داخل الجسم، هذا كتاب أُلِّف عن هذا الجهاز الخطير، وذكر المؤلف هذه الحقيقة لكن ماذا يقول المؤمن ؟ قيادة هذا الجهاز بيد الله . أي إذا أراد الله أن يشفيك من مرضٍ ما، قوَّى هذا الجهاز، وإذا أراد أن يصاب الإنسان بمرض، ضعَّف هذا الجهاز، ما الذي يقوي هذا الجهاز ؟ الأمن، والطمأنينة، والاستقرار، والتوازن، والسعادة . وما الذي يحمل على الأمن والاستقرار والتوازن والسعادة ؟ التوحيد .

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء.)

أتحب أن تكون معذباً ؟ أتحب أن يكون قلبك منخلعاً من الخوف ؟ وأن تكون متشائماً سوداوي المزاج، تخاف من كل شيء ؟ سبيله الشرك، أتحب أن تكون آمناً مطمئناً واثقاً بالمستقبل، واثقاً من عطاء الله ؟ إذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك ؟

حقيقة العبادة:

أخواننا الكرام، كلمة لعلها خطيرة: هذا الذي تعبده إن لم تره قادراً على أن يحميك من كل شيء لا تعبده . يجب أن تعبد من يقدر أن يحميك من كل شيء، وهذه حقيقة العبادة، تعبد الله وتخاف غيره

؟! تعبد الله وينخلع قلبك لتهديد إنسانٍ لا يقوى على نصرة نفسه، ولا على نفع نفسه ولا ضرها ؟! هذا الذي تعبده ينبغي أن تثق أنه يحميك، الآمر ضامن .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

أنت حينما تؤمن أن الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، فما من شيء مخيف يتحرك إلا بأمر الله، ولا يوجد شيء يخيفك وهو طليق، ما معنى التوحيد ؟ ما معنى عندها لا بها ؟ كلمةٌ جامعةٌ مانعة قالها علماء التوحيد، أي لا يقع شيء إلا عند إرادة الله لا عند الشيء الفعَّال في الشيء . فالنار لا تحرق بذاتها، بل تحرق إذا أراد الله أن تحرق، والأفعى لا تلدغ بذاتها، تلدغ إذا أراد الله لها أن تلدغ، وكل شيءٍ ولو توهَّمت أن فيه قوةً فاعلة، فهذه القوة الفاعلة لا تفعل شيئاً إلا إذا أراد الله عزَّ وجل، أي لا يليق بالله عزَّ وجل أن يقع في ملكه ما لا يريد . والكافر يجب أن يعلم علم اليقين أنه لن يسبق الله، فما معنى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(4))

(سورة العنكبوت)

لا يمكن أن يفعل الكافر شيئاً ما أراده الله ولا أن يتفلَّت من عقاب الله:

وما معنى يسبقونا ؟ أي لا يمكن أن يفعل الكافر شيئاً ما أراده الله، ولا يمكن أن يتفلَّت الكافر من عقاب الله، ولا يستطيع الكافر أن يسبق الله، لا بفعل شيءٍ ما أراده، ولا بالتفلَّت من عقاب الله، فإذا وجدت كافراً يقصف ويدمِّر، فكيف تفسِّر ذلك ؟ يجب أن تقول: إن خطة الله عزَّ وجل استوعبت خطة هذا الكافر، أي أن الله عزَّ وجل سمح له أن يفعل شيئاً لحكمةٍ أرادها، فقط، إن رأيت كافراً يفعل كما يتوهَّم هو ما يريد، هو يفعل ما يريد الله، فالله عزَّ وجل وظف له جريمته، ووظف له شره، وقسوة قلبه في الخير المُطلق، لذلك الآية الكريمة:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام.)

((الظالم عدل الله في الأرض، ينتقم به ثم ينتقم منه))

[الطبراني في الأوسط عن جابر رضي الله عنه.]

والإنسان مخيَّر أن يفعل ما يشاء لكن لا على من يشاء هو بل على من يشاؤه الله، فالإنسان حينما يريد أن يأخذ مالاً بغير حق، يُسَلَّط على إنسانٍ يأخذ ماله لحكمةٍ أرادها الله .

مثل يوضح ذلك: أرادت امرأة غير ملتزمة أن تتوظف، فطُلِب منها شهادة صحية، فذهبت كي تصور صدرها، فإذا بالنتيجة أنها مصابةٌ بمرض السُل، بكت وأبكت، ويئست، إلى أن تابت إلى الله

وتحجَّبت وصلَّت، ثم ذهب أخوها إلى المستشفى كي يتأكد من هذه النتيجة فإذا هي قد أعطيت خطأً لها، فخطأ الموظف وظَّفه الله لتوبة هذه المرأة .

سمعت عن امرأة مختصة بالرياضيات، ألزمتها مديرة مدرسةٍ في إحدى دول الخليج أن تدرِّس مادة التربية الإسلامية لعدم وجود شواغر وهي لا تفقه من الدين شيئاً، وهذه المديرة ألزمتها إلزاماً فإن لم تستجب ألغت عقدها، فاستجابت، فتحت كتاب التربية الدينية أول صفحة آيات الحجاب، فلما قرأتها بكت، وكانت توبتها عن طريق هذه الآيات التي ألزمتها بها المديرة التي لا تعرف من أمر التربية شيئاً، أيعقل أن تكلّف مديرة امرأة تحمل ليسانس رياضيات لتدريس التربية الدينية ؟! هكذا كان.

آيات من القرآن تؤكد أن كل مخلوقٍ بيد الله:

أنت مخير أن تفعل ما تشاء لكن لا على من تشاء، بل على من يشاؤه الله عزَّ وجل، اطمئن فهذا أكبر باعث للطمأنينة والأمن، لا يوجد أحد متفلت بل كل مخلوقٍ بيد الله.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر.)

وقال:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: 54.)

وقال:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف.)

وقال:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِك فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر.)

حينما لا تملك علماً كعلم الله ينبغي أن تعلم أن الله عادل:

يجب أن ترى أن يد الله تعمل وحدها في الخفاء، فحينما ترى أن كل شيءٍ تسمعه هو من فعل الله عزَّ وجل:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(49))

(سورة الكهف)

من الصعب أن تصل إلى إثبات عدالة الله بعقلك إلا في حالة واحدةً مستحيلة: أن يكون لك علمٌ كعلم الله، وهذا مستحيل، أما حينما لا تملك علماً كعلم الله ينبغي أن تعلم أن الله عادل . ففي قصة سيدنا موسى مع الخضر شواهد على ذلك، فهذه السفينة التي خُرقت ظلماً، خرقت لتنجو من المُصادرة، وهذا الجدار الذي بُني مجاناً بما يبدو أنه حُمق، لكنه بني ليحفظ ثروة طفل يتيمٍ كان أبوه صالحاً، وهذا الطفل الذي قُتل مبكّراً قتل ليرحم الله أبويه لأنه سيكون شقياً، فالأب يشقى بشقاء ابنه، الله عزَّ وجل علمك أن هناك شيئاً ظاهراً وشيئاً باطناً، نعم الله عزَّ وجل طائفتان ؛ طائفةٌ من النعم الظاهرة وطائفةٌ من النعم الباطنة وهي المصائب.

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (125))

طبعاً هذه الآية تفهم فهماً بسيطاً أن سيدنا إبراهيم صلى في هذا المكان فصلوا أنتم في هذا المكان، تجد في الحج ازدحاماً غير معقول، أثناء الطواف المنسجم، لأن أُناساً يصرون على أن يصلوا في مقام سيدنا إبراهيم، مما يعرقل السير، ويؤذي المسلمين إيذاءً شديداً، مع أن كل مسلمٍ يحج بيت الله الحرام أو يعتمر في هذا البيت، بإمكانه أن يصلي هاتين الركعتين في أي مكانٍ من الحرم، ولكن عدم التفقُّه في الدين جعله يزعج هؤلاء المسلمين، المعنى الأبعد:

(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (125))

بماذا قام إبراهيم ؟ قام بالإخلاص، اجعل من الإخلاص سبباً لاتصالك بالله.

الإخلاص هو أحد خصائص النبي إبراهيم عليه السلام :

ماذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ بنى البيت، اجعل من عملك ..

(وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً (79))

(سورة الأنعام)

وقال:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام الآية: 162.)

فهذا الإخلاص هو أحد خصائص هذا النبي الكريم، تتخذ من الإخلاص سبب اتصالٍ لك بالله عزَّ وجل، بنى البيت، فبناؤه للبيت عمل شاق يبتغي به وجه الله، فاجعل من عملك الصالح سبباً لاتصالك بالله عزَّ وجل، سيدنا إبراهيم عبد الله عبادة مطلقة، فأكثر الأوامر معقولة، إذا قال لك الله عزَّ وجل: اصدق، فالصدق لمصلحتك، وكن أميناً وعفيفاً ومتقناً، فكل أمر إلهي يعود نفعه عليك بشكلٍ واضح، إلا أن يقول الله لإنسان: اذبح ابنك وابنه نبي . هذه غير واضحة، وغير مقبولة، ولا تنسجم لا مع الرحمة، ولا مع العدل، ولا مع المنطق، لكن هذا النبي الكريم تلقى هذا الأمر بالانقياد لثقته المطلقة بحكمة الله .

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (102))

(سورة الصافات.)

مما يدعو إلى الإعجاب بهذا الأب العظيم، النبي الكريم، أبو الأنبياء، المستسلم لأمر الله، والذي لا يقل عن هذا إعجاباً قول ابنه:

(فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102))

(سورة الصافات.)

الله عزَّ وجل يقول لك: اصدق، فلا تصدق، كن أميناً، لا تكون كذلك، صل . أمره بذبح ابنه وهذه أعلى درجة في العبودية .

لن يكون الإنسان عبداً لله عزَّ وجل إلا إذا رضي بقضاء الله وقدره:

بالمناسبة أيها الأخوة كلما اتضح الأمر ضعفت فيه قيمة العبودية، وكلما غمُض الأمر ارتقت فيه قيمة العبودية، فإذا قال أب لابنه: نظف أسنانك، إنها قوام وجهك وابتسامتك، وأسنانك الطبيعية لا يعدلها شيء . فهذا الأمر واضح جداً، يا بني لا تتأخر عن عملك يصغر حجمك، تُلام وتوبخ، أعطى الأب ابنه آلاف الأوامر كلها منطقية ومعقولة، لكن قال أب لابنه مرة: لا تأكل معنا، والابن جائع والطعام لذيذ، وطعام والده طعام طيب، والطعام لوالده والابن ابن، وهو جائع، فلثقة هذا الابن بأبيه المطلقة قال له: سمعاً وطاعةً يا أبي، حاضر . هذا دليل الثقة .

ألا يحق لله عزَّ وجل ـ في التعبير الدارج ـ أن يسوق لك شيئاً أو أن يعطيك أمراً وأنت لا تفهم حكمته ؟ أنت مستقيم وطاهر ولكن حصلت مشكلة، اقبلها من الله، فهذه المصيبة مصيبة العبودية لله عزَّ وجل، أيعقل أن يُعذب النبي في الطائف، وأن يُسخر منه، ويُكذَّب ؟ وقيل: إنه ضُرب، قال:

((أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك، أو ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى))

[رواه ابن هشام في السيرة النبوية عن ابن إسحاق]

أنت لن تكون عبداً لله عزَّ وجل إلا إذا رضيت بقضاء الله وقدره، وقد كان رجل يطوف حول الكعبة وهو يدعو: يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ كان وراءه الإمام الشافعي فقال له: يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ قال: يا سبحان الله كيف أرضى عن الله وأنا أتمنى رضاه ! قال: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله .

أي أن بطولتك أن ترضى عن الله وأنت بالفقر أو بالمرض لا سمح الله، وقد حدث مشكلة، فهذه المشكلة هي امتحان، فإنسان يحضر مجالس علم من عشرين سنة مات ابنه فترك الصلاة، لم يرض عن الله، لكن العظمة أن تكون في المصيبة وأنت راضٍ عن الله: يا رب لك الحمد.

مرتبة الصبر هي أعلى المراتب:

لي صديق توفي رحمه الله، أصيب بمرض عضال سنتين، تقول زوجته: والله ما سمعت منه إلا يا رب لك الحمد على ما ابتليت . وتوفي على هذا الحال، فمرتبة الصبر لا تعدِلها مرتبة .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر)

هنا :

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (125))

المعنى العميق اتخذ من هذا النبي قدوةً لك، واجعله قدوةً لك بإخلاصه وتوحيده:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً (81))

(سورة الأنعام)

هذا كلام سيدنا إبراهيم، كان موحداً، كان مخلصاً، كان له عمل طيب وشاق، بنى البيت الحرام وصبر على حكم الله:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (48))

(سورة الطور)

إن أردت أن تصل إلى الله فاجعل من خصائص النبي إبراهيم عليه السلام سبباً إلى الله :

توكل سيدنا إبراهيم توكلاً مطلقاً، عندما يسافر الإنسان يهيئ في البيت كل شيء، وكل ما لذ وطاب موجود، والهاتف موجود، والأعوان موجودون، ويقول: يا رب توكلت عليك . هذا جيِّد، ولكن سيدنا إبراهيم أُمر أن يضع زوجته وابنه في وادٍ غير ذي زرع . قالت: يا إبراهيم إلى من تدعنا ؟ ألله أمرك بهذا ؟ قال: نعم . قالت: إذاً فلن ينسانا . هل لديك إمكانية أن تضع زوجة وابناً في العراء لا ماء ولا طعام ولا شراب ولا نبات ولا ظل، وتمشي ؟ إلى أين أنت ذاهب، توكل إبراهيم عليه الصلاة والسلام التوكل المطلق، وعبد الله العبادة المطلقة، فإن أردت أن تصل إلى الله فاجعل من هذا النبي الكريم، ومن إخلاصه، وأعماله، وتوكله، وتعبُّده، وصدقه طريقاً إليه .

فكر سيدنا إبراهيم في الكون، فرأى النجم أولاً فلما أفل قال: لا أحب الآفلين . ورأى القمر بازغاً فقال: هذا ربي . ورأى الشمس، ثم قال :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ (79))

(سورة الأنعام)

مقام إبراهيم تعبُّده لله عزَّ وجل، ومقام إبراهيم توكُّله، وتفكُّره، وعمله الصالح، فإن أردت أن تصل إلى الله فاجعل من خصائص هذا النبي سبباً إلى الله عزَّ وجل .

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

الطائفين الإنسان يطوف، فعندما يصل إلى بغيته يعكف، فلما عرف عظمة الله عزَّ وجل ركع له وسجد، فالطواف ثم العكوف ثم الركوع والسجود هذه أحوال السالكين إلى الله عزَّ وجل، يطوف حول كماليات الله، ثم يستقر على تعظيم الله وعبادته، ثم يرى في النهاية أنه يجب أن يخضع وأن يستعين به، إياك نعبد وإياك نستعين، والقرآن كله جُمع في الفاتحة، والفاتحة جُمعت في إياك نعبد وإياك نستعين، بالنهاية يجب أن نعبده، ويجب أن نستعين به على عبادته.

فضل خدمة بيوت الله:

قصة جانبية عن أحد الأخوة الذين يخدمون بيوت الله ـ توفي رحمه الله من عشر سنوات ـ ما رأيت في الشام كلها مسجداً بنظافة المسجد الذي يقوم عليه، أتحدَّى أن يكون في بيوت الشام كلها بيت أنظف من هذا المسجد، شيء عجيب ؛ نظافة السجاد، المرافق، الرخام كأنه قد رُكِّبَ حديثاً، قال لي هذا الإنسان الذي يخدم هذا البيت بيت الله عزَّ وجل: أنا شعاري هذه الآية:

(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ (125))

هؤلاء الذين يقومون على خدمة بيوت الله هذا عمل عظيم، أنتم قد لا تنتبهون ترون السجاد نظيفاً، الأرض نظيفة، الجدران نظيفة، البلور ممسوحاً، المرافق العامة جميلة، هناك جنود مجهولون يخدمون هذا البيت، خدمة من أعلى مستوى لوجه الله تعالى، هؤلاء من قدوتهم ؟ هذا النبي الكريم:

(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

إنسان قدم للمسجد شيئاً، إنسان قدَّم مظلة، إنسان قدم مرفقاً عاماً، قدم برَّاد ماء، قدم تكبير صوت، قدم مصلى مثلاً، إذا جاء إنسان لبيت الله ورأى نفسه مرتاحاً، والأمور جيدة، والمسجد مريحاً، والصوت واضحاً، التدفئة جيِّدة، التكييف جيداً، وفيه تهوية أحياناً، هذه أشياء ـ وإن كنت قد دخلت في التفاصيل ـ لها عند الله أجر كبير جداً، والدليل هذه الآية:

(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

مراحل السلوك إلى الله عزَّ وجل :

هناك أُناسٌ لهم شأن عند الله كبير قد لا تعلمونهم أنتم، يعملون ساعاتٍ طويلة في خدمة بيوت الله، في تنظيفها، وفي ترتيبها، وفي العناية بها، فهؤلاء قدوتهم في هذا العمل هذا النبي الكريم .

أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه تميم الداري كان في الشام فرأى قناديل جميلة جداً، فاشتراها لمسجد رسول الله، لم يعلم النبي بذلك، ركب هذه القناديل في وقت بين الصلاتين، ثم

شدها بحبال وأشعلها، فدخل النبي عليه الصلاة والسلام فرأى المسجد متألقاً فقال: من فعل هذا ؟ قالوا: تميم الداري، قال: نور الله قلبك يا تميم كما نوَّرت الإسلام ـ عَدَّ النبي الكريم بيت الله هو الإسلام ـ لو أن لي بنتاً لزوجتكما، فقال أحد أصحابه: أنا عندي بنت . قال له: زوجها إياه، ماذا فعل هذا الإنسان ؟ قام بخدمة لهذا المسجد، فأنا أريد من هذا الكلام أن يتحمَّس كل الناس لخدمة بيوت الله، جعلها في أعلى درجة من الراحة كي تجذب الناس إليها .

كنت مرة عند طبيب فقال لي: والله أنا أحب سماع دروسك إلى أعلى درجة، ولكنني مرة سجدت وراء إنسان له جوارب رائحتها لا تحتمل، فتركت الدروس من أجل هذا. أنا تألمت أشد الألم، إذا لم يكن الإنسان نظيفاً، وكان معطراً، أنت تقطع إنساناً عن الله عزَّ وجل، فكل إنسان يأتي إلى بيتٍ من بيوت الله يجب أن يكون بأعلى درجة كي يجذب الناس إليه، حتى الأطفال يجب أن يكونوا مكرَّمين في بيوت الله حتى ينشأ عنده محبة للمسجد، هذا الكلام تعليق على قول الله عزَّ وجل:

(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ (125))

هذا البيت نُسب إلى الله عزَّ وجل، إلى ذات الله:

(بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

طاف، وعكف، وركع، وسجد، مراحل السلوك إلى الله عزَّ وجل .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً (126))

إذا نقضنا عهدنا مع الله ورسوله سلط علينا عدواً يأخذ ما في أيدينا :

هنا يوجد نقطة دقيقة قال تعالى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً (97))

(سورة آل عمران).

قال العلماء كلاماً رائعاً: هذه الآية ليست أمراً تكوينياً، بل هي أمرٌ تكليفي، أي أن الله عزَّ وجل أمرنا أن نجعله آمناً، قال: ينبغي أن يكون آمناً . اجعلوه آمناً يا عبادي، أوكل أمنه إلينا . فماذا يستنبط من هذا الحكم ؟ أي أن هذا بيتٌ من بيوت الله فإياك أن تفعل شيئاً تجر لهذا البيت شبهة، أو استفهام، أو مشكلة، لأن هذا البيت:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً(18))

(سورة الجن.)

لا تعمل عملاً تسبب إشكالاً لرواد المسجد، لا تثر شبهة، ولا تعمل فيه عملاً لا يرضي الله عزَّ وجل، ادخله وأنت مخلص لربك، لذلك :

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً (126))

أي مكة المكرَّمة:

(وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ (126))

هذه دعوة سيدنا إبراهيم . إذا ذهب أحدنا إلى مكة لزيارة بيت الله الحرام ورأى ما يعرض في المحلات من أنواع الفواكه يصدِّق هذه الآية:

(وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ (126))

هناك أنواع من الفواكه لا تعلم اسمها، فواكه العالم كله تساق إلى بيت الله، حتى أن هذه الثروات التي أوجدها الله في بلادهم هي من إكرام الله لحجاج بيت الله الحرام، جعلهم أغنياء ليعتنوا بالحجاج، هي مجيَّرة لصالح الحجاج، أما إذا نقض المؤمنون عهد الله وعهد رسوله عندئذٍ يسلط الله عليهم عدواً يأخذ ما في أيديهم، وهذا من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، إذا نقضنا عهدنا مع الله ورسوله سلط علينا عدواً يأخذ ما في أيدينا، أما هذه الثروات التي أكرمنا الله بها فهي من أجل أن نعتني بالحجاج.

وجود بلد آمن من نعم الله الكبرى:

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً (126))

أعظم دعاء أن يكون البلد آمناً، الحروب مدمرة، والحروب الأهلية مُهلكة، وجود بلد آمن من نعم الله الكبرى، ولا يجوز أن تقيم في بلدٍ لا أمن فيه، هذا حكم شرعي . وكلمة أقولها لكم والله لا أبتغي بها شيئاً: لي صديق جاء بطائرة إلى دمشق، قال لي: سمعت رسالة في الطائرة باللغة الإنكليزية موجهة للركاب، تقول: إنكم قدمتم إلى أأمن بلد في العالم ـ أي سوريا ـ بإمكانك أن تتجول أنت وزوجتك إلى ساعةٍ متأخرة من الليل دون أن تخشى شيئاً . هذه النعمة نعرفها جميعاً، بلدنا آمن والحمد لله، ونرجو الله أن يديم علينا هذا الأمن .

(اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ (126))

لكن سيدنا إبراهيم: يا رب هؤلاء عبادك المؤمنون، هم يستحقون هذا الإكرام:

(وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (126))

المؤمنون فقط .

ليس الملك مقياساً ولا المال مقياساً المقياس أن تكون طائعاً لله:

قال الله عزَّ وجل :

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

أي أنك إذا وجدت كافراً غنياً جداً، قوياً جداً، ويتمتع بصحة من أعلى درجة وهو يعصي الله، وينتهك حرمات الله ويؤذي الناس فلا يختل توازنك، هذا هو الجواب:

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

أمتعه قليلاً ؛ ساعات، سنوات، بضع سنوات، أمتّعه بها ثم أقصمه، فالله عزَّ وجل يعطي كل إنسان، لكنه لا يُقبل على قلب كل إنسان، يعطي كل إنسان ولكن الله يحب المؤمنين، ويرزق كل إنسان لكنه يتجلى على الصادقين، ويعطي المال لكل إنسان ولكنه يقرِّب الطائعين، فالعطاء ليس مقياساً، وأعطى الله المُلك لمن لا يحب أعطاه لفرعون، أعطى المال لمن لا يحب أعطاه لقارون، وحتى أكون دقيقاً: أعطاه لمن لا يحب ولمن يحب، سيدنا عثمان وسيدنا عبد الرحمن من أغنياء الصحابة، يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، ويعطي الملك لمن يحب سيدنا سليمان، ولمن لا يحب فرعون، إذاً ليس الملك مقياساً ولا المال مقياساً، المقياس أن تكون طائعاً لله، وإن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

متاع الدنيا قليل :

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً (126))

أمتّعه أيضاً، خالق الكون يقول: قليلاً:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (77))

(سورة النساء.)

ألا يوجد ملوك مثل ملوك الحديد والصلب بأمريكا، ملوك البترول، ملوك ماتوا وتركوا كل شيء، هذا المتاع القليل:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً(77))

(سورة النساء.)

خالق الكون يقول لك: يا عبدي متاع الدنيا قليل .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ (38))

(سورة التوبة)

الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له :

دقق الآن:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

أتقبل ؟ أترضى أن تأخذ من ملك الملوك درهماً واحداً ؟

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (77))

(سورة النساء.)

لا تعبأ بالدنيا، والله إن أسعد الناس بها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها، والله الذي لا إله إلا هو، الدنيا تغر، وتضر، وتمر، هي دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له . وقفت دابة ـ حمار ـ في أيام الحر الشديد في مكان فجلس إنسان لم يحتمل الحر ولا أشعة الشمس المحرقة في ظل هذا الحمار يستمتع بظله، قام ليشرب فجاء رجل فجلس مكانه، فتنازع معه قال له: هذا محلي، فأجابه الآخر: لا ليس محلك، تلاسنا، وبعد ذلك تشادّا، ثم تضاربا، ثم سار الحمار، يختصمان على ظل الحمار!

اسأل إخواننا القضاة كم دعوى شطبت بموت أحد الطرفين ؟ استمرت الدعوى ثماني عشرة سنة، ثم مات أحد الطرفين فانتهت الدعوى، إذ لا أحد ينتبه للموت، الموت ينهي كل شيء ؛ ينهي غنى الغني، وقوة القوي، ووسامة الوسيم، وفقر الفقير، وضعف الضعيف، وقهر المقهور، كله ينتهي بالموت، ولذلك الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له، قال:

(وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

آيات من القرآن الكريم تظهر أن متاع الدنيا قليل:

انتبه أيها الأخ:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَواْ رَبَّهُمْ.)

(سورة آل عمران)

وقال:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم.)

وقال:

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47))

(سورة إبراهيم.)

وقال:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55).)

(سورة التوبة)

هذا كلام ربنا، فلا يختل توازنك إذا وجدت شخصاً قوياً وكافراً، فهؤلاء الذين يقصفون العالم وهم يأخذون بنواصي الشعوب، يدمرون الشعوب، ويسلبون ثروات الشعوب، ويفقرون العالم، وهؤلاء لا يمكن أن تنجح خططهم إلى ما لا نهاية، فنجاح خططهم إلى ما لا نهاية يتناقض مع وجود الله، وما رفع الناس شيئاً إلا وضعه الله عزَّ وجل.

خط المؤمن البياني صاعد صعوداً مستمراً إلى الأبد عكس خط الكافر البياني :

هناك تجارب سابقة ؛ هناك قلاع للكفر تهاوت كبيت العنكبوت، أليس كذلك ؟ فأنت كن مع الله:

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

* * *

أنا أريد من أخواننا الكرام معنويات عالية:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146))

(سورة آل عمران)

أنت مع خالق الكون فلا تخشَ أحداً، ولا تخضع، ولا تيئس، ولا تخنع، فاليأس كفر، والقنوط من رحمة الله كفر، قال:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

خط المؤمن البياني صاعد صعوداً مستمراً إلى الأبد، والموت نقطة على هذا الخط ولا يزال صاعداً ؛ أما خط الكافر البياني فصعود حاد ثم سقوط مريع، صعود وسقوط.

العبرة لا بعظم العمل بل بقبوله عند الله:

قال تعالى:

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127))

العبرة لا بعظم العمل بل بقبوله عند الله:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23).)

(سورة الفرقان)

هناك إنجازات حضارية يشيب لهولها الولدان، ومع ذلك لا قيمة لها عند الله، لأنه ما ابتغي بها وجه الله عزَّ وجل . والله أيها الأخوة هناك حديثٌ شريف يقصم الظهور :

((لأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ أَخوانكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا)).

[ابن ماجة عن ثوبان رضي الله عنه.)

لا يوجد إخلاص، إذ له موقف معلن وموقف خاص، وله خلوة وله جلوة، وله سريرة وعلانية، وله باطن وظاهر .

فيا أيها الأخوة: ربنا تقبل منا . العبرة بعملٍ يقبله الله، والله عزَّ وجل يقبل من الأعمال ما كان خالصاً له، أحد كبار العلماء يقول: " العمل لا يقبل إلا بشرطين ؛ إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة " . فإذا كان خالصاً ومخالفاً للسنة لا يقبل، وإذا كان موافقاً للسنة وليس خالصاً لا يقبل، ولا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، ربنا تقبل منا والعبرة بالقبول، ورب درهمٍ سبق ألف درهم، ودرهمٌ تنفقه في حياتك خيرٌ من مئة ألف درهم ينفق بعد مماتك، والعبرة بالإخلاص، و يا معاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل.

إنما الأعمال بالنيات:

زيد الخيل رجل من أجمل رجال الجاهلية، كان إذا ركب الحصان اقتربت رجلاه من الأرض، طويل، صبوح الوجه، مشرق، جاء النبي عليه الصلاة والسلام مسلماً، عندما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ما اسمك ؟ فقال: أنا زيد الخيل، قال: بل أنت زيد الخير))

[المعجم الكبير عن عبد الله بن مسعود.)

غيَّر له اسمه، ثم دعاه إلى البيت، وأعطاه متكأً فقال: " والله لا أتكئ في حضرتك يا رسول الله " . متى تعلم الأدب ؟ إنسان أحياناً يمد رجله يجلس مرتاحاً، ويجلس جلسة فيها كبر، ويباعد بين رجليه، وله جلسات غير مقبولة إطلاقاً، وليس فيها أدب . فهذا الإنسان متى تعلم الأدب ؟ قال له: **" والله لا أتكئ في حضرتك "، قال له النبي: " يا زيد ما وصف لي رجلٌ فرأيته إلا رأيته دون ما وصف إلا أنت يا زيد "، قال له: " أعطني ثلاثمئة فارس لأغزو بها الروم " . فقال عليه الصلاة والسلام: " لله درُّك أي رجل أنت ؟ "** كان النبي لا يضُنَّ بالمديح على أصحابه، ثم ودع النبي، وسافر إلى بلده، وتوفي في الطريق، قضية يومين ثلاثة فقط، ما فعل شيئاً وأصبح من الصحابة الكبار، نوى أن يغزو الروم:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))

[البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.)

وهناك رجل له مال ببلد بعيد، والمال موضوع بطريقة غير شرعية، فتناقش مع صهره مناقشة حادة استمرَّت حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً، إلى أن قنع هذا الإنسان أن هذه الطريقة في كسب المال حرام، فقال له: إن شاء الله غداً أتصل بأخي أطلب منه أن يسحب هذه الأموال من هذه الجهة ـ مؤسسة في بلاد الخليج ـ اتصل صباحاً فلم يُتح له والقصة قديمة، اتصل مساءً فلم يتح له، اتصل صباحاً لم يتح، ست مرات ثم يئس، فقال: أنا أعود إلى بلدي بعد شهر وأسحب الأموال . فسافر إلى بلده بعد شهر، فاستقبله أخوه في المطار، وقال له: هذه الشركة العملاقة قد فلَّست فوقع مغشياً عليه . كل أمواله فيها، ملايين مملينة

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (45- 95):تفسير الآيات 128 - 130، المؤمن والعمل الصالح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-06-25

بسم الله الرحمن الرحيم

العبرة في العمل قبوله لا حدوثه :

مع الآية الثامنة والعشرين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128))

وقبلها يقول تعالى :

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127))

العبرة في العمل قبوله لا حدوثه، لأن العمل قد لا يُقبل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23))

(سورة الفرقان)

ثلاث علامات تؤكد الإخلاص:

أصل الإخلاص قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) .

[البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه]

فالعمل عند بعض العلماء لا يُقبل إلا بشرطين ـ وهذا كلام دقيق وخطير ـ لا يقبل إلا إذا كان صواباً، أي ما وافق السنة، وخالصاً أي ما ابتغي به وجه الله . وهناك تخليطٌ كثير بين عملٍ وافق السنة ولم يبتغَ به وجه الله، أو عملٍ ابتغي به وجه الله ولم يوافق السنة، العبرة أن يأتي عملك موافقاً للسنة مبتغياً به وجه الله حتى يُقبل:

(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا (127))

العمل حينما يُقبل يمتلئ قلب صاحبه ثقةً بالله عزَّ وجل، وسكينةً، وسعادةً، وإن العمل إذا قُبل ألقى الله في روع المؤمن أنه قد قُبل عملك يا عبدي:

(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127))

عملٌ قليلٌ مع الإخلاص خيرٌ من عملٍ كثيرٍ من دون إخلاص، وذكرت مرَّةً ـ وهنا موضع الإشارة أو موضعٌ مناسبٌ لشرح هذه القضيَّة ـ ثلاث علامات تؤكّد لك إخلاصك:

1- أنْ يستوي عندك الجهر والسر:

العلامة الأولى: أنْ يستوي عندك الجهر والسر، أيْ الجلوة والخلوة، والباطن والظاهر، والسريرة والعلانية، فإذا استوى الداخل والخارج، أو المعلن والمخبَّأ، والسريرة والعلانية، أيْ إذا استوى ظاهرك مع باطنك، وخلوتك مع جلوتك فهذه إشارة من إشارات الإخلاص لله عزَّ وجل .

2- استواء استحسان العمل أو عدم استحسانه:

الشيء الثاني: ألا يتأثر الإنسان المؤمن المخلص أبداً لرد فعلٍ سيئ لعمله الصالح، وهو لا يبتغي مديح الناس، ولا ثناءهم، ولا استحسانهم، ولا يستجدي عطفهم، بل هو يبتغي بعمله وجه الله عزَّ وجل، والإنسان حينما يبتغي بعمله وجه الله ينبغي له أن لا يعبأ بأحد، الحديث الصحيح:

((إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ))

[البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه]

أيْ إذا لم تستح من الله، وإذا كان الله عزَّ وجل قصدك، وأنت تُرضي الله عزَّ وجل، وأنت واثقٌ من أن هذا العمل مطابقٌ للسنة، وأنك تبتغي به وجه الله فلا تعبأ بأحد .

3- السكينة في القلب:

الحالة الثالثة من علامات الإخلاص: أن العمل الصالح إذا كان خالصاً ارتفع إلى السماء وعادت منه سكينةٌ على قلبك . فالسكينة في القلب، واستواء السر والعلانية، واستواء استحسان العمل أو عدم استحسانه، ثلاث علاماتٍ تؤكّد أن العبد مخلصٌ لله عزَّ وجل .

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127))

علة وجودك على وجه الأرض بعد أن تؤمن بالله هو العمل الصالح:

الناحية الثانية أيها الأخوة، منهج الله عزَّ وجل فيه ترك وفيه بذل، فإنسان ترك الغيبة، وترك النميمة، وابتعد عن الكذب والاحتيال فسلم، لقد بذل من ماله، وبذل من وقته وجهده وإمكاناته وخبرته فسعد، وأنت بالاستقامة على أمر الله تسلم، وبالعمل الصالح تسعد، وأوضح دليل:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

بل إن علة وجودك على وجه الأرض بعد أن تؤمن بالله هو العمل الصالح، لأنه حينما يأتي ملك الموت لا يندم الإنسان إلا على عمل صالحٍ فاته:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

العمل الذي ينتهي عند الموت من أعمال الدنيا، والذي يستمر بعد الموت من أعمال الآخرة، فلو حسَّن الإنسان بيته هذا عمل مباح، لكن هذا العمل ينتهي عند الموت عندما يغادر الإنسان البيت إلى القبر، فهذه الزينة لا يمكن أن تنتقل معه أبداً، بل تبقى في البيت، أما حينما يدعو إلى الله، ويعمل عملاً صالحاً، ويدعْ ولداً صالحاً من بعده هذا العمل يستمر بعد الموت، فهذا مقياس دقيق دائماً وأبداً، عند كل عمل اسأل نفسك: هل ينتقل معي هذا العمل إلى القبر أم يبقى في البيت ؟ فالذي يبقى لا تحفل به كثيراً، والذي ينتقل معك إلى القبر احرص عليه . **" يا قيس إن لك قريناً يُدفن معك وأنت ميت وتدفن معه وهو حي، إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك "** .

المسلم الحق ينطلق إلى تطبيق الأمر لعلةٍ واحدة هي أنه أمر إلهي:

يُؤتى بأناسٍ يوم القيامة لهم أعمالٌ كجبال تهامة، ولكن الله يجعل هذه الأعمال هباءً منثوراً، فقلق الصحابة الكرام قلقاً كبيراً، وقالوا: **" يا رسول الله جلّهم لنا، أي صفهم لنا "** . قال:

((إنهم يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها))

[سنن ابن ماجه عن ثوبان]

كل شيء معلن موافق للشرع أما في السر فليس هناك خوفٌ من الله عزَّ وجل .

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128))

بشكل مختصر المسلم إنسان مستسلم لله عزَّ وجل، مستسلم في طاعته لله عزَّ وجل، وفي عباداته، والإنسان الذي يفعل ما يراه لصالحه، ويعلّق تطبيق أي أمرٍ على ما إذا كان هذا الأمر نافعاً له أو ضاراً هذا لا يعبد الله إنما يعبد ذاته، فالمسلم الحق ينطلق إلى تطبيق الأمر لعلةٍ واحدة هي أنه أمر إلهي، وما دام الله قد أمر ينبغي له أن يُطاع، والآمر جلَّ جلاله هو خالق الكون .

عندما يكون الإنسان مع طبيب يثق بشهاداته العالية، وخبراته المتراكمة، وورعه إذا قال له توجيهاً، لا يفكر أن يسأله لأنه إنسان متفوق، فكيف مع الواحد الديان ؟! فنحن نبحث عن علّة الأمر، ونبحث عن حكمة الأمر وهذا الشيء يقوي الدعوة، فإن أردت أن تكون داعية ينبغي لك أن تعلم حِكَمَ الأمور، ولكن المسلم الصادق حينما يثبت له أن هذا أمر الله عزَّ وجل لا يتردَّد ثانيةً في تطبيقه، ولا يعلّق تطبيق هذا الأمر على معرفة حكمته .

الحكم الإلهي المقطوع به مجرَّد التفكير في فعله أو عدم فعله ضعفٌ في الإيمان:

شاع الآن منهج جديد بين المسلمين، منهجٌ ليس من صُلب هذا الدين، وهو أنه لماذا أمرنا الله بكذا ؟ أقنعني !! أليس هذا الأمر في آيةٍ قرآنيةٍ ؟ ألا تؤمن أنت أن هذا القرآن كلام الله عزَّ وجل ؟ وأن هذا القرآن قطعي الثبوت ؟ وهذه الآية قطعيَّة الدلالة ؟ فأنت عليك أن تطبِّق، لكن الله جلَّ جلاله إكراماً لمن كان عبداً له، طائعاً، منصاعاً، مستسلماً، يكشف له حكمة هذا الأمر، فيجمع العبد عندئذٍ بين فضل العابد الذي استسلم لأمر الله، وعلم العالم الذي فقه حكم الله عزَّ وجل:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ (128))

وقال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: 36)

إن خيارك في المباحات، أسافر أو لا أسافر، أشتري هذا البيت أو لا أشتري هذا البيت، أعمل في التجارة أو في الوظيفة، أوافق على هذه الفتاة أن أتزوجها أو لا أوافق، أما إذا كان هناك حكم إلهي مقطوعٌ به مجرَّد التفكير في فعله أو عدم فعله ضعفٌ في الإيمان.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: 36)

هذا المؤمن الصادق:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ (128))

حينما ينحرف الإنسان عن منهج الله يدفع الثمن باهظاً:

الله جلَّ جلاله هو الحكيم، وهو العليم، وهو الرحيم، وأسماؤه كلُّها مُطلقة ؛ فالحكمة مطلقة، والعلم مطلق، والرحمة مطلقة، فأوامره لا بد من أن تنطوي على حكمةٍ، وعلى رحمةٍ، وعلى عدلٍ . وحينما ينحرف الإنسان عن منهج الله يدفع الثمن باهظاً .

بلد من بلاد آسيا فيه كثافة سكانيَّة عالية جداً، فاتخذوا قراراً بعيداً عن منهج الله أنه ينبغي أن يكون لكل أسرة طفلٌ واحد، فما الذي حدث ؟ إن جاءت البنت قتلوها خِفيةً، إن جاء الذكر سجَّلوه، ففي السجلات ولد واحد . تواجه الصين الآن مشكلةً وهي أن هناك خمسين مليون شاباً لا فتاة لهم، فصار هناك أزمة فتيات، فنشأت عصابات لخطف الفتيات في سن الزواج، لأن هذا القانون خلاف منهج الله عزَّ وجل .

اقترح في بلد آخر أنه إذا طلَّق الإنسان زوجته تتملَّك نصف ثروته فوراً، كاد الزواج أن يُلغى في هذا البلد، فصار الأب يقدِّم لخاطب ابنته سند أمانة بمبلغ فلكي يقول له: إن طالبناك بنصف ثروتك تطالبنا بهذا الثمن، تعال تزوَّج .

أُلغي الزواج الآن في بلاد الغرب كليّاً، فألغي الزواج الكنسي والمدني، وصار هناك مساكنة . حينما نشرِّع بخلاف منهج الله تنشأ مشكلات لا تنتهي، ملأ هذا الاكتشاف العالم صياحاً وضجيجاً لهذه النعجة، التي كانت عن طريق الاستنساخ، وكأن هؤلاء العلماء تحدوا قدرة الله عزَّ وجل، مع أن بُنية الخليَّة لا تزال سراً، والذي حدث الآن أن أعراض الشيخوخة ظهرت في وقت مبكر جداً جداً على هذه النعجة، قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً(2))

(سورة الإنسان)

خلقُ الله هو الكامل، ومنهجه هو الكامل، وأنا انتقلت من أشياء تشريعيَّة إلى أشياء خلقيَّة .

الآن بعد أن تفنَّن العالم في هذه المبيدات الكيماويَّة، وجد أن المشكلات لا تنتهي فمن هذه المُبيدات ؛ ملوحة التربة، وأكثر المواد مُسَرطن . عادوا الآن إلى السماد الطبيعي الذي صمَّمه الله عزَّ وجل للنبات، السماد الطبيعي هو الأول الآن، ولكن بعدما دُفع الثمن باهظاً . المكافحة الحيويَّة هي الأولى الآن، وبعد أن ارتفعت نِسَب السرطان إلى عشرين ضعفاً تقريباً، وجدوا أن التصميم الإلهي هو المكافحة الحيويَّة والسماد الطبيعي، والإنسان كلَّما غيَّر خلق الله عزَّ وجل وقع في سوء عمله .

أخطر شيء ينبغي للمسلمين أن يعالجوه تربية أولادهم :

قال تعالى:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (128))

الله هو الصانع، والصانع هو الجهة الوحيدة التي ينبغي لها أن تتبع تعليماتها، فأنت أعقد آلة في الكون، والله عزَّ وجل هو الصانع الحكيم، وهذا المنهج تعليمات الصانع، وينبغي أن يتبع الإنسان تعليمات الصانع حرصاً على سلامته وعلى سعادته:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (128))

هل من الممكن أن يسعد إنسان وابنه شقي ؟ مستحيل . كنت أقول مرَّةً في بلدٍ غربي: لو وصلت إلى أعلى منصبٍ في العالم، وإلى أكبر ثروةٍ وأعلى شهادةٍ في العالم، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس .

فأخطر شيء ينبغي للمسلمين أن يعالجوه تربية أولادهم، فأنت تجد أحياناً امرأة محجَّبة وابنتها متفلّتة في الطريق، وتجد الأب يصلي والابن لا يعتقد بهذا الدين إطلاقاً، فحينما يرى الأب ابنه منحرفاً شارداً يشقى بانحرافه، وحينما ترى الأم ابنتها تائهة ضالَّة تشقى بشقائها، الأب يشقى بشقاء ابنه، والأم تشقى بشقاء ابنتها، فلذلك دائماً:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا (128))

تربية الأولاد من أولويات الحياة:

قال تعالى :

(وَمِنْ ذُرِّيَّتِي (124))

(سورة البقرة)

تربية الأولاد من أولويات الحياة وينبغي لنا أن يكون هذا العمل في المرتبة الأولى في حياة المسلمين اليوم والسبب أن هناك صوارف لا تنتهي ؛ تصرف ابنك عن دينه، وعن قيَمه، وعن ماضي أُمَّته، وعن سبيل سلامته، وعن سبيل سعادته . صوارف كثيرة جداً، وعقبات كثيرة، عقبات وصوارف، ونحن في آخر الزمان ؛ والفتن مستعرة، والضلالات منتشرة، والشُبهات تملأ الجوانح، والمُغريات قد لا يحتملها ضعيف الإيمان:

((الْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه]

شمَّة واحدة الآن تجعل هذا الفتى مدمن مخدرات، فيلم واحد يصرفه من الدين إلى الزنا، فهناك صوارف كثيرة، وعقبات كثيرة، وضغوط هائلة، فنحن الآن في أمس الحاجة إلى تربية أولادنا، إلى أن يأتوا إلى المساجد، فرحِّبوا بالصغار في المساجد واعتنوا بهم، فإن الصغير سبب سعادة الكبير، ولا يمكن أن يسعد الإنسان وابنه شقي، هذا تعليق:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (128))

أنا أرى أن أي أب يرى ابنه صالحاً مستقيماً، يعرف الله ويخاف الله يدخل إلى قلبه سعادة واللهِ لا يعرفها إلا من ذاقها .

الولد الصالح ثروة لا تقدر بثمن:

أب قد لا يملك من حطام الدنيا شيئاً لكنه يملك ولداً صالحاً، وهذا الولد الصالح لا يقدَّر بثروة الدنيا كلها، والإنسان حينما يموت ينقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، وعلمٍ ينتفع به، وولدٍ صالحٍ يدعو له .

قرأت مرَّة تفسير آية فوجدت فيها دقَّة بالغة، فجعلتها محور لخطبة، خطبت هذه الخُطبة وفق تفسير هذه الآية، فوجدت لهذه الخطبة صدى طيِّباً جداً، وتأثَّر الأخوة الكرام بها تأثراً بالغاً، وأنا انتبهت أن هذا الذي ألَّف هذا التفسير قبل ألف عام أين هو الآن ؟ لعلَّه عظام في قبره، ولكن إلى متى يستمر تأثير هذا العمل الذي فعله ؟ إلى يوم القيامة . فهؤلاء الذين تركوا مؤلَّفات راقية جداً، إذ هذه الكتب العملاقة التي أُلِّفت وتنتقل الآن من جيل إلى جيل إلى جيل، وهذه صدقة جارية، فهذا علم ينتفع به . أو ولد صالح يدعو له، فهناك ولد لا يقدَّر بثمن وهذا معنى قوله تعالى:

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)

(سورة الفرقان)

وقال:

(وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (128))

ما شعور إنسان ذهب إلى بلاد الغرب فوجد حياة ناعمة جداً، حياة كل شيء فيها ميسَّر، لكن أمامه خطر أنه قد يخسر ابنه . وقد يجد ابنه ليس مسلماً، ولا ينتمي إلى أمته، وهذا أكبر ثمن يدفعه من أراد أن يعيش مع هؤلاء:

(وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (128))

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

الآن:

(وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا (128))

الله عزَّ وجل جعل إليه ألف سبيلٍ وسبيل من رحمته بنا، فقد تجد إنساناً قوياً جداً بيده مقاليد الأمور ولكن لا سبيل إليه، ولا تستطيع أن تتصل به، ولا أن تقابله، ولا أن تعرض له، ولا أن تسأله، لكن الله عزَّ وجل جعل إليه ألف سبيلٍ وسبيل ؛ فالصلاة سبيل، والصيام سبيل، وغض البصر سبيل، وأنت في البيت لك إليه عشرات السُبل، فالزواج الصالح سبيل إلى الله، والأبوَّة الكاملة سبيل إلى الله، والأمومة الكاملة كذلك سبيل إلى الله، والبنوَّة الطيبة أيضاً، وهناك ضمن الأسرة آلاف الطُرق إلى الله عزَّ وجل، وهناك ضمن العمل آلاف الطرق، فأن تنصح المسلمين، وأن تكون صادقاً معهم، وأن ترحمهم، وأن تقدِّم لهم خدمةً سبل إلى الله، والآن أن تكف شهواتك عما لا يرضي الله سبيل إلى الله .

فهذه سبل الطاعة العامَّة، وهناك مناسك مكثَّفة ؛ فالصلاة، والزكاة، والحج، كلها مناسك، تذهب إلى بيت الله الحرام، وتطوف حول البيت، وتسعى بين الصفا والمروة، وتذهب إلى جبل عرفات فتشعر بسعادة لا توصف، فهذا سبيل إلى الله .

الله عزَّ وجل جعل لك مناسك، فقال لك: صَلِّ خمس مرات، أيْ أن عندك خمس شحنات في اليوم، وصلِّ يوم الجمعة في المسجد واستمع إلى الخطبة، فهذه شحنة أسبوعيَّة ووجبة دسمة، تعالَ في العام صم ثلاثين يوماً فهي دورة مكثَّفة، وفي العمر حجَّ إلى بيت الله الحرام، فهذه المناسك طرق إلى الله سالكة، جعل الله عزَّ وجل الطرائق إليه بعدد أنفاس الخلائق، قال بعضهم: **" الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق "** .

إذا أنقذ الإنسان نملة وهو يتوضَّأ فهذا سبيل إلى الله، وإذا أطعم هرَّة جائعة فهذا سبيل إلى الله، وإذا وضع على السطح طعاماً للطيور فهو سبيل إلى الله، وإذا نصح مسلماً فأيضاً سبيل إلى الله، وإذا

كفَّ أذاه عن إنسان فإنه سبيل إلى الله، ففي كل لحظة هناك آلاف السبل إلى الله عزَّ وجل، وإذا رحم زوجته أو أمه وأباه وإذا أخلص في عمله وإذا نصح المسلمين فكلها سبيل إلى الله .

أجمل ما في القرآن أنك حينما تصطلح مع الله يطوى الماضي بكلمة " تب علينا ":

المناسك بمعناها العام هو أي عمل يرضي الله، بمعناها الخاص الضيق العبادات المكثَّفة التي أُمرنا بها، والمنسك هو الطريق، أيْ يا رب أرني الطريق إليك، فهناك طريق قد يكون إلى جهنَّم ؛ أو إلى النار، وإلى الدمار والعقاب، ونحن في الحياة المدنية إذا هرَّب الإنسان مُخَدِّرات فهذا طريق إلى السجن ثلاثين سنة، وإذا قتل فطريق إلى الإعدام، وإذا نال شهادة عُليا ونفع بها أمته تحتفل به أحياناً، فصار طريقاً للسمو بالحياة المدنية، والله عزَّ وجل قال:

(وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا (128))

يا رب دلَّنا على الطريق الذي نصل به إليك، وبعضهم يقول: يا رب دلني على ما يدلني إليك، والآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ (35))

(سورة المائدة)

هذه مُطلقة، فالعمل الصالح وسيلة، والاستقامة وسيلة، وأن تلتقي بأهل الحق وسيلة، وأن تؤاخي أخاً صالحاً في الله يعينك على أمر دينك وسيلة . **" لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ولا يدلُّك على الله مقاله "**، يجب أن يكون لك أخ مؤمن تثق بعلمه، وورعه، واستقامته وذلك وسيلة:

(وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا (128))

أجمل ما في القرآن أنك حينما تصطلح مع الله يطوى الماضي بكلمة: تب علينا، وانتهى الأمر .

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[حديث قدسي] .

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

(سورة الزمر الآية: 53)

التوبة شيء لا يقدَّر بثمن:

تصوَّر لو لم يكن هناك توبةٌ في هذا الدين، فما الذي يحصل ؟ قد يتضاعف الفجَّار والفسَّاق والعصاة إلى مليار ضعف، غلط غلطة فلم يجد توبة، فلا يوجد أمل، بل يستمر في غلطه، وأساء فلا توجد توبة فيستمر في الإساءة، عَق أمه وأباه فلا توجد توبة فيستمر في العقوق، وأكل مالاً حراماً فليس هناك توبة فيستمر، فلو ألغينا التوبة من هذا الدين لرأيت الفجَّار والعصاة والهلكى ومن يستحق النار ملايين مملينة، بل أرقاماً فلكيَّة:

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[حديث قدسي]

وانتهى الأمر، والصلحة بلمحة، والذي أكرمه الله عزَّ وجل بتوبة يعلم ما سأقول، التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فالتائب يشعر أن جبالاً قد أُزيحت عن كاهله . الآن بالحياة المدنية إذا كان بيت الإنسان مصادراً، أو محجوزاً، ومحلُّه التجاري محجوز، وسيَّارته محجوزة، وعنده أراضٍ محجوزة، وعنده مستودعات كلها محجوزة، وعليه ثمانون مليوناً مثلاً، وكل شيء يملكه محجوز، فلو أتيح له أن يلغي هذا الحجز وأن يعود إلى تملُّك كل أمواله بكلمة، فهل يتردَّد ثانية واحدة فيها ؟ كل ما عليك ينزاح من عن كاهلك بكلمةٍ واحدة: يا رب لقد تبت إليك . فيقول الله: عبدي وأنا قد قَبلت . التوبة شيء لا يقدَّر بثمن:

(وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ (128))

توَّاب صيغة مبالغة، أي يتوب عليك مهما كبرت ذنوبك، ومهما كثرت، فلو كان عليك مليار ذنب، أو أكبر ذنب نوعاً، وأكبر كَمٍ من الذنوب فإذا قلت: يا رب أنا تبت . يقول لك: يا عبدِ وأنا قد قبلت .

التوبة علم وحال وعمل:

لكن التوبة علم وحال وعمل ؛ علم، لا يمكن أن تتوب إلا إذا علمت أنك مذنب، ولا تعلم أنك مذنب إلا إذا طلبت العلم، وأوضح مثل: لو أن إنساناً لا يقرأ ولا يكتب، وقرأ إنسان أمامه نصف صفحة، لم يقرأ كلمة واحدة بشكل صحيح، وهذا لا يعرف، فيقول: ما شاء الله ما هذه القراءة ! أما لو كان لديه علم باللغة العربية لعد له ثمانين غلطة بالصفحة، فأنت لا تعلم الذنب إلا إذا طلبت العلم، أساس الصحَّة العلم، فأنت لا يمكن أن تعالج ضغطك العالي إلا بحالة واحدة هي أن تعرف أنك مصاب بضغط عالٍ، فإن لم تقس ضغطك فكيف تعالج هذا الضغط المرتفع ؟ إنك لا تعرف . فلا بد من طلب العلم كي تعلم أنك مذنب، وإن علمت أنك مذنب وعرفت ما ينتظر هذا المذنب من عقاب فالآن تتوب، والتوبة إقلاع فوري وعزم أن لا تعود وإصلاح للماضي، فهذه التوبة، عمل متعلّق بإصلاح الماضي:

(تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا (160))

(سورة البقرة)

هناك عمل متعلّق بالسابق إنه إصلاح، عمل متعلّق بالحاضر إنه إقلاع، وعمل متعلّق بالمستقبل هو عزيمة، أنا أعزم أن لا أعود، وأقلع من تَوِّي، وأصلح ما مضى فهذا السلوك . والحال شعور بالندم على ما اقترف من ذنب، وهذا الحال . وحينما يطلب الإنسان العلم يعلم موقعه من هذا الدين:

(وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128))

لذلك قال تعالى :

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

(سورة النساء)

طموح سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يبقى الحق مستمراً:

قال:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ (129))

هو أبو الأنبياء عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، طموح هذا النبي أن يبقى الحق مستمراً:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129))

قال عليه الصلاة والسلام: **" أنا بشارة أخي عيسى ودعوة أبي إبراهيم "** . فسيدنا إبراهيم دعا أن يبعث الله في هذه الأمة التي من نسله ـ نحن من نسل إسماعيل ـ رسولاً:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ (129))

الآية العلامة، يتلو عليهم ما يدلُّ عليك، والكون كله يدل على الله عزَّ وجل . لذلك الآيات أنواع ثلاثة: آيات كونيَّة، وآيات قرآنيَّة، وآيات تكوينيَّة . فيُعرف الله عزَّ وجل من آياته الكونيَّة أي من خلقه، ومن آياته التكوينيَّة أي من أفعاله، ومن آياته القرآنيَّة أي من كلامه، فكلامه يدل عليه، وأفعاله تدل عليه، وخلقه يدل عليه .

قرية في بلد في شمال إفريقيا على الساحل الأطلسي يأتيها السُياح من كل حدبٍ وصوب، فيها من الفسق والفجور ما لا يوصف، ففيها نوادي العُراة، وفنادق فسق وفجور، وخمور، ونساء، وزنا، وكل شيء فيها، أصبحت بثلاث ثوانٍ أثراً بعدَ عين، وعندي صورة لفندق ارتفاعه ثلاثون طابقاً، غاص في الأرض وبقي منه الطابق الأخير، وعلى الطابق الأخير اسم الفندق، فكأن هذا الطابق الأخير هو الشاهدة على هذا القبر، وهذه من أفعال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

خلق الله يدل عليه وأفعاله تدل عليه وكلامه يدل عليه :

أفعال الله تدل عليه، وأنت أحياناً تستمع إلى مجموعة قصص ترى أن الله كبير، وأن الله يحاسب حساباً دقيقاً جداً، وأن الله مُطَّلع على النيَّات، فهذه أفعاله، وهذا كلامه، وهذا الكون خلقه .

قال لي أخ طبيب البارحة: نحن في بلد ـ في أمريكا ـ قريب من شيكاغو، تصل الحرارة إلى سبعين تحت الصفر . إنه رقم دقيق، فقلت له: في هذا المكان برد لا يحتمل، يرتدي الإنسان ثياباً صوفيَّة

داخليَّة مضاعفة، ومعاطف فرو، ويرتدي قفَّازات، ويرتدي جوارب صوف، وحذاء مبطَّناً بالفرو، وقبعة، كل شيء بإمكانه أن يغطيه، ولكن كيف يمشي في الطريق ؟ لا بد من أن يكشف عينيه، وحرارة الهواء سبعون تحت الصفر، فيوجد ماء في العين، والماء يتجمَّد بالدرجة صفر، ونحن نعلم أن درجة حرارة الفريزر تكون عشرين تحت الصفر، أما سبعون ؟!! فالمفروض أن يتجمَّد ماء العين فجأةً، ومعنى هذا يجب أن يفقد كل سكان هذه البلاد أبصارهم !! فمن أودع في ماء العين مادةً مضادةً للتجمُّد ؟ الله عزَّ وجل، وهذه حكمة بالغة .

الماء شأنه كشأن أي عنصر ينكمش بالتبريد، إلا أن الماء له ميزة على كل عناصر الأرض، إذ يزداد حجمه في الدرجة زائد أربعة، ولولا هذه الخاصَّة في الماء لما كنا في هذا المجلس، ولما رأيت أحداً على سطح الأرض، وقد لا تصدقون ذلك، لا يمكن أن تقوم حياة في الأرض إذا استمر الماء في انكماشه عند التبريد، لأنه كلَّما تجمَّد الماء تزداد كثافته، ويقل حجمه، والوزن ثابت، تزداد كثافته فيغوص إلى الأعماق، وبعد حين تصبح جميع البحار متجمِّدة، وإذا تجمَّدت انعدم البحر، إذا انعدم البحر انقطعت الأمطار، وإذا انقطعت الأمطار مات النبات، وإذا مات النبات مات الحيوان، وإذا مات النبات والحيوان مات الإنسان، فبهذا القانون البسيط تستمر الحياة على وجه الأرض . فخلقه يدل عليه، وأفعاله تدل عليه، وكلامه يدل عليه .

لولا أن الرسول بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيِّد البشر :

قال تعالى:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ (129))

معنى

(مِنْهُمْ)

لو جاء الرسول مَلَكاً وقال: يا أيها الناس غضوا أبصاركم . فيجيبوه: أنت تقدر عليها لأنك مَلَك، ونحن لسنا بمَلائكة بل نحن بشر . أما النبي فبشر مثلنا، ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيِّد البشر، فالرسول بشر يجوع كما نجوع، ويخاف كما نخاف، ويشتهي كما نشتهي، ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيِّد البشر قال:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان عَنْ أَنَس]

حجَّة قائمة:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ (128))

(سورة البروج) .

وقال:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ (129))

حدَّثني أخ فقال لي: يوجد في كل مصلحة، وفي كل حرفة أناس مستقيمون وهؤلاء حجَّة على غيرهم، تجد حرفة أغلب أهلها منحرفون إلا عدداً قليلاً متمسِّكون بالأمر والنهي، فهؤلاء حجَّة:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ (129))

الدالَّة عليك .

حينما نقصِّر في معرفة الله من خلال آياته ينعكس هذا التقصير على الطاعة:

أيها الأخوة، حينما نقصِّر في معرفة الله من خلال آياته ينعكس هذا التقصير على الطاعة، أي أنك إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر ـ دقق ـ تفنَّنت في مخالفة الأمر، وإذا عرفت الأمر وعرفت الآمر ذبت في طاعة الآمر، فلا بد من أن تعرف الله قبل أن تعرف أمره:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ (129))

كي يعرفوك:

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ (129))

الأمر والنهي كي يعبدوك:

(وَالْحِكْمَةَ (129))

منه التفسير، الإمام الشافعي قال: الحكمة هي السُّنة . لأن النبي فسَّر القرآن وبيَّنه:

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (44))

(سورة النحل)

فالكتاب هو القرآن، والحكمة السُنَّة المبيِّنة .

صفات المؤمن:

مثلاً قال الله تعالى:

(وَآتُوا الزَّكَاةَ (13)).

(سورة المجادلة) .

لكن الله لم يفصل زكاة الإبل، وزكاة البقر، وزكاة الركاز، وزكاة الأموال، وزكاة العروض والتجارة، ونصاب الزكاة، وعلى من تجب الزكاة، ومصارف الزكاة، فهذه فسَّرها النبي كلها . فالسنة مفسِّرة للقرآن الكريم، فأنت بالكون تعرفه، وبالقرآن والسنة تعبده، والدين كله أن تعرفه وأن تعبده، أن تعرفه موجوداً واحداً كاملاً، وأن تعبده:

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (129))

تلا عليهم آياته فعرفوه، وعلَّمهم الكتاب والحكمة فعبدوه، فلما عبدوه اتصلوا به، ولما اتصلوا به زكت نفوسهم وصار لديهم طهر، وصار عندهم عفاف، وحصل هناك تواضع، وتحول هناك رحمة، وعاد إنصافاً، وغدا تجَمُّلاً، وأصبح حكمة، فتجد المؤمن يُشتهى، وتجده لطيفاً، دقيق الشعور، دقيق الكلام، حاد النَّظر، حكيماً في تصرُّفاته، صادقاً في أقواله، شديداً في أفعاله وهذا من تأديب الله له .

((أدَّبني ربي فأحسن تأديبي))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود رضي الله عنه]

مثل للتوضيح: أنا شاهدت جوهرة بمتحف في استنبول ـ ماسةً ـ مكتوباً بجانبها ثمنها مئة وخمسون مليون دولار، فلو ضرب هذا الرقم بخمسين فالناتج مبلغ فلكي، فلو أتينا بقطعةً من الفحم بالحجم نفسه من سوق الفحامة من بائع للفحم، فكم ثمنها ؟ أساس الماس فحم، فالمؤمن ماسة وغير المؤمن فحم، وهو إنسان ؛ رأس، وجسم، ويدان، ورجلان، وسمع، وبصر ولكنه فحمة، لا شيء منه إطلاقاً، لأنه ليس على شيء ؛ ولا على خُلُق، ولا قيَم، ولا ورع، ولا إحسان، ولا منطق أبداً، فبين المؤمن والكافر مسافة كبيرة جداً، وقد قال النبي:

((مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))

[صحيح عن أبي موسى]

الإنسان الحي يتقد حيويَّة وشباباً، ولكن الذي يجثم على الأرض بدون حراك فموضوع آخر، هل العينان اللتان تبرقان مثل عين الميت الجامدة ؟ هل قطعة لحم مشوية ولها رائحة عَبقة وأنت جائع كقطعة لحم متفسِّخ ؟ الاثنتان لحم ولكن هناك مسافة كبيرة جداً، ذُكر للنبي الكريم شخص وشخص فقال: هذا يعدل ملء الأرض من هذا .

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن:

إنه كلام دقيق، فلو حسبنا حجم الأرض وحسبنا حجم إنسان معتدل، وقسَّمنا حجم الأرض على حجم هذا الإنسان، الأرض بأكملها، الكرة الأرضيَّة بمحيطاتها الخمس، لو أنها مجوفة كم عدد الناس الذين تتسع لهم ؟ كلام النبي لا ينطق عن الهوى، وهناك إنسان واحد يساوي عند الله ما يعادل الأرض ممتلئة بالأشخاص، المؤمن عند الله كبير، حينما يموت الكافر، قال عنه تعالى:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)

(سورة الدخان)

المعنى المخالف أن المؤمن حينما يموت تبكي عليه السماء والأرض وكله خير، وكله إنصاف، وأدب، وانضباط، ورحمة، وذوق، ولطف، هذا هو المؤمن . وغير المؤمن بالتعبير الذي يحلو لي أن أصفه به **" دابَّة متفلتة "**، جنَّ البقر في أوروبا، فاضطروا أن يحرقوا خمسة عشر مليون بقرة، ثمن البقرة مئات الألوف، فكيف تُحرق ؟ لأنها جُنَّت . وحينما أطعموها طحين اللحم اختل نسيجها،

وصار لها سلوك طائش ومخيف، وهناك حدَّثني أخ من إخواننا فقال لي: إن صديقاً له عنده بقرة جنَّت ـ في ريف دمشق ـ فقتلت رجلين وكادت تقضي على الثالث، فأطلق عليها النار وقتلها. إذا جُنَّت البقرة تقتلها، وإذا انحرف الإنسان تجده وحشاً . تسمع أحياناً عن أعمال وحشيَّة فيما نسمع من أخبار لا يصدقها العقل ؛ قتل، واغتصاب، وتعذيب، وإذلال، ونهب، وسلب، وليس له ذنب ولكن لأنه مسلم فقط، هم وحوش، إذا عرف الإنسان الله عزَّ وجل تجده مَلَكاً، وإذا لم يعرفه فهو وحش، واللهِ قد يعترض الوحوش علينا والله لأن الوحش يأكل ليشبع فقط، وحشيَّته ليشبع فقط، أما الإنسان فقد يدمِّر بلا سبب .

معنى التزكية:

قال تعالى:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

هذه التزكية، بالقرآن الكريم:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

إله خالق الكون يقول :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

أن تكون زكي النفس، النبي الكريم وصفه ربه فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

كان فصيحاً، وكان متكلِّماً، ومجتهداً، وقائداً، وخطيباً، وعالماً، فما أثنى الله عليه إلا بخُلقه العظيم ـ وتقريب للتوضيح ـ أب اشترى لابنه سيارة، ثم عمل حفلة ضخمة تكريماً لابنه لأنه صار يملك سيارة، فهذا كلام مضحك، وهذه ليست منه ولكنها منك، أما إذا نجح وكان الأول، فعمل له حفل تكريم، فهذا كلام طيب لأن النجاح بتفوُّق هو من جهده، فأي ميِّزة تأخذها من الله فهذه منه وليست منك، جعلك وسيم الصورة، وقوي البُنية، وابن رجل غني فصرت تملك أموالاً طائلة فهذا ليس منك، أما الخُلُق العظيم فهو منك فقط:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

هذه ويزكيهم:

(إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129))

إذا رفض الإنسان الدين فهو يحتقر نفسه:

أيها الأخوة، هناك نقطة مهمَّة جداً، يرفض الإنسان في الأعم الأغلب شيئاً احتقاراً له، عرضوا عليك بيتاً سعره غالٍ ومساحته صغيرة ترفضه، إنك احتقرت هذه المساحة الصغيرة على السعر المُرتفع، وعرضوا عليك تجارة ربحها ضئيل جداً ترفضها، وعرضوا عليك وظيفة راتبها قليل جداً فلا ترضاها، والإنسان في الأعم الأغلب يعاف ما يحتقره إلا في حالة واحدة ؛ إذا رفض الدين فهو يحتقر نفسه .

إنسان لديه إمكانيات عالية جداً عرضوا عليه دراسة جامعيَّة عُليا تنتهي له بمنصب مرموق عجيب، ولكنه فضل أن يشتغل مثلاً كانس قمامة في الطرقات، عندما رفض دخول الجامعة، والوصول إلى مرتبة علمية عالية جداً، واختار أن يكنس القمامة مع أنه يملك إمكانات عالية جداً، علماً أن أي عمل شريف لو كانت عنده إمكانات عالية وهناك عرض مغرٍ، وتعويضات، وضمانة لكل مصروفه في الدراسة الجامعيَّة، وعنده إمكانيات ورفض، وقبل أن يشتغل كانس قمامة، فمعنى هذا احتقر نفسه، واحتقر إمكاناته، وانصرف عن مؤهَّلاته، وهناك أشياء إذا رفضها الإنسان يكون قد احتقر ذاته، قال:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

أنت مخلوق لله فرفضت هذا العرض وقبلت أن تكون محسوباً على إنسان عادي، مُجَيَّراً لإنسان أو لجهة وأداة قذرة بيد جهة وليست أداة عاديَّة، ارتضيت لنفسك لتكون أداة لإيقاع الأذى بالناس، وأنت خلقك الله عزَّ وجل لتكون له نقياً، طاهراً، قوياً، عزيزاً، كريماً:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

خلقك الله عزَّ وجل لتكون له، ففي الأثر القدسي:

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيى بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟ لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزَّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِّطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

خلقنا الله عز وجل لنكون في جنة عرضها السماوات والأرض:

كلام دقيق يا أخوان، خلقك الله عزَّ وجل لتكون له، لتكون عزيزاً، وكريماً، وطاهراً، وفي جنةٍ عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر،

وأنت أردت أن تكون أداةً قذرةً طيِّعَةً بيد جهةٍ منحرفةٍ، قد توقع الأذى بالناس وليس لك مصلحة إلا تنفيذ رغبة إنسان، فهل هذا ممكن ؟ قد يكون في عملك إيقاع الأذى بالآخرين، ولكن المؤمن محسوبٌ على الله . يقول لك البعض: نعيش لنأكل، وفي كلام أرقى: نأكل لنعيش، وفي أرقى: نعيش لنعرف الله، ونحيا لنعرفه، ونسمو إليه، ونسعد بقربه، لندخل جنَّته، فالإنسان حينما يرضى أن يكون لغير الله فقد احتقر نفسه .

ضربت مثلاً سابقاً: لدينا قطرميز بلور كبير، ثمنه عشرون ليرة، وكأس كريستال، ثمنها ألف ليرة، وجوهرة ثمينة، ثمنها مئة وخمسون مليون دولار وقلنا لإنسان: اختر واحدة . فاختار أكبر شيء وأخذه، فهو جاهل ومحتقر لذاته، فالذي اختار القطرميز وترك التي ثمنها مئة وخمسون مليون دولار محتقر لنفسه:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

إذا قبلت العرض أن تكون بالجنة، وتكون مع الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

(سورة مريم)

فليس وداً مع شخص عادي جداً، لا، مع خالق الكون، هو أكبر بكثير، وأنت في الجنة، فإذا رفض الإنسان عرض الإله أن يكون في الجنة، وأن تكون له، واختار أن تكون لغيره، وأن يكون أداة قذرة بيد إنسان منحرف فهذا منتهى الحقارة في الإنسان:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130))

لعطائنا، في الدنيا اصطفيناه، وفي الآخرين من الصالحين لعطائنا .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (46- 95):تفسير الآيات131 - 137، الدين استسلام لله وخضوع له

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-07-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين في أصله استسلامٌ وخضوع لله عزَّ وجل:

مع الآية الواحدة والثلاثين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

التي قبلها :

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130))

اصطفاه لأنه :

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

أيها الأخوة، الدين في أصله وفي جوهره استسلامٌ لله عزَّ وجل وخضوع، ولكن هذا الخضوع لمن ؟ للخالق، الخضوع للقوي، الخضوع للعليم، للرحيم، للعدل، للخبير، للطيف، وهذا الذي يخضع لغير الله إنسانٌ أحمق، لأنه يخضع لضعيف، وخسيس، ولئيم، وعاجز، وجاهل، وأصل الدين أن تخضع لله، بل إن العبادة في أصلها غاية الإذعان مع غاية الحب، ولا يليق بالإنسان أن يخضع لغير الله، ولا أن يُحسَب على غير الله، ولا أن يستسلم لغير الله، لأن الإنسان خُلِق لله، فأنت في الأصل مخلوق لله عزَّ وجل، وإذا صحَّ أن نقول: إن الماء للتراب، والتراب للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن ؟ هو لله عزَّ وجل .

((خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))

[من شرح الجامع الصغير عن ابن مسعود]

من جهل حقيقة إنسانيّته ورسالته وسرّ وجوده فقد احتقر نفسه:

حينما يكون الإنسان لغير الله يحتقر إنسانيَّته، ويحتقر هويَّته، والمقام الرفيع الذي أحلَّه الله به:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

(سورة الإسراء) .

يخاطب الله عباده بنسبة تشريفٍ له:

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الزمر)

وقال:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49))

(سورة الحجر)

رفع الله جلَّ جلاله من قدر الإنسان إلى أعلى مكان، فحينما يجهل الإنسان حقيقة إنسانيّته، وحقيقة رسالته، وحقيقة سرّ وجوده فإنما يحتقر نفسه:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

(سورة البقرة)

الإسلام أن تستسلم للمطلق:

أيها الأخوة الكرام:

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ (131))

(سورة البقرة)

دقّق، أحياناً تأخذ فكرةً عن طبيبٍ متفوِّقٍ جداً ؛ عالمٍ، ورعٍ، مسلمٍ، مخلصٍ، يعطيك تعليمات، راقب نفسك، فقلَّما تحاول أن تفكَّر في حكمة هذه التعليمات لأنك مؤمنٌ أنه متفوِّق في علمه، وفي ورعه، وفي اختصاصه، وفي نصحه، فأنت مع إنسان تستسلم، فكيف مع الواحد الديَّان ؟ الاستسلام لله شيء مسعد، وكل هذا الكون يشهد لله عزَّ وجل بالعظمة، ويشهد له بالحكمة، والرحمة، والعلم، والعدل، فإذا استسلمت لله حقَّقت كل مصالحك . فالإنسان له مصالح، وأكبر هذه المصالح السلامة والسعادة، فإذا استسلمت إلى خالقك وطبَّقت منهجه فهو الصانع الحكيم، وتعليماته هي تعليمات الصانع، والجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها . أما أن يستسلم الإنسان لإنسان، أيْ لمخلوق ضعيف، إذ يستسلم لما يبدو له أنه قوي وهو في الحقيقة ضعيف !!

يقال: إن أحد الوزراء سأل أمير المؤمنين وقد طلب كأس ماءٍ منه، فقال: يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس لو مُنِع منك ؟ قال: **" بنصف ملكي "** ، قال: ولو منع إخراجه ؟ قال: **" بنصف ملكي الآخر".**

الإنسان ضعيف إذ كل ملك هذا الخليفة لا يساوي كأس ماءٍ يشربه ويخرجه . وكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيت الخلاء، يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني الخبث، أذهب عني ما يؤذيني، الحمد لله الذي أذاقني لذَّته ـ الطعام ـ وأبقى فيَّ قوَّته، وأذهب عني أذاه))

[من شرح الجامع الصغير عن أنس بن مالك]

الإنسان ضعيف، فأنت حينما تكون لإنسان فأنت ضعيف لضعيف، وفقير لفقير، وجاهل لجاهل، أما إذا استسلمت للمُطلق ـ دقق ـ فضعفك يقوى بقوَّته، وجهلك يزول بعلمه، وحيرتُك تتلاشى بهداه، والإسلام أن تستسلم للمطلق، قد يقول أحدكم: كيف أستسلم؟ فهذا القرآن، وهذه تعليمات المُطلق، وتعليمات الخالق، وتعليمات الإله، لتفعل ولا تفعل، لمجرَّد أن تطبِّق هذا الأمر والنهي فأنت استسلمت لله عزَّ وجل.

الكون وحده يعتبر دليلاً قاطعاً على عظمة الله عزَّ وجل:

قال تعالى:

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

دقِّق:

(أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

الأب طبيب، وباعه طويل في الطب، ومتفوِّق، وعانى ابنه من قضيَّة في صحَّته، فالأب يقول له: لا تأكل هذا الطعام، ودع شُرب الماء، واترك الملح ـ مثلاً ـ كل ثقة الطفل بأبيه، وكل ثقته بعلم أبيه، أفلا يكفي هذا الكون دليلاً قاطعاً على عظمة الله عزَّ وجل ؟ وأمر من هذا ؟ أمر الخالق .

ذكرت هذه القصَّة كثيراً ولكنها مناسبة الآن ؛ عالم ذهب إلى أمريكا، وأجرى حواراً مع عالم مسلم أمريكي حول لحم الخنزير، فالعالِم الذي من بلدنا أفاض، وشرح، وبيَّن الحكم، والعلل، والجراثيم، والدودة الشريطيَّة . فابتسم هذا المسلم الأمريكي وقال له: كان يكفيك أن تقول لي إن الله حرَّمه . لأن كل علم الله في هذا التحريم، ولأن كل رحمة الله في هذا التحريم، وحكمته وخبرته أيضاً، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

أنا لا أريد أن أُكثر من الأمثلة، ولكن لو كان لديك جهاز كمبيوتر وأصابه خلل، فأنت تذهب به إلى الخبير، فيقول لك: يجب أن تُغَيَّر هذه القطعة ـ فإذا كنت واثقاً طبعاً ـ تقول له: افعل ما تريد . فأنت مع الخبراء مستسلم، ومع الأقوياء مستسلم، ومع العلماء أيضاً، فالله يأمرك أن تكون مستسلماً له، فالعلم كلُّه، والحكمة كلها، والرحمة كلها، والقدرة كلها، واللطف كله، والخبرة كلها إن استسلمت لله استسلمت للمُطلق .

حينما تخضع لأمر إلهي تخضع لأنه أمر الله عز وجل:

قال تعالى:

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

هذا هو الدين، إنّه خضوع ؛ إنك حينما تخضع لأمر إلهي، تخضع لأنه أمر الله عز وجل، قال علماء الأصول: **" علَّة كل أمرٍ أنه أمر "** . ويكفي أنه أمر وانتهى الأمر، وهذا يقودنا إلى قول سيدنا الصديق حينما أنبأه أهل قريش أن صاحبك يقول: إنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد في ليلته . كلام غير مقبول، لا توجد مواصلات، ولا طائرات، ولا حوَّامات، ولا مركبات سريعة، ولا قطار سريع، ولا يوجد إلا الجمال، فشهر ذهاب وشهر إياب، أما أن يذهب إنسان ويصلي في بيت المقدس ويعود !! أرادوا أن يؤكّدوا له أن صاحبك يقول كلاماً غير معقول: إن صاحبك يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد في ليلته !! فماذا كان جواب سيدنا الصديق ؟ قال: **" إن قال هذا فقد صدق "**، أرأيت الاستسلام ! أنت حينما تؤمن بالله وأنا أدعوك إلى الاستسلام بعد أن تؤمن بالله، وبعد أن تؤمن بما عنده، وبما ينتظر الإنسان من إكرامٍ لو استقام على أمره، وبما ينتظر العاصي من عقاب إذا خرج عن منهجه:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس)

على الإنسان أن يستسلم لعلم الله وقدرته:

إذا كان بُعد بعض المجرَّات أربعةً وعشرين ألف مليون، هناك مجرَّات تبتعد ثلاثمئة ألف مليون سنة ضوئيَّة، والضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، فكم تبعد هذه المجرَّات ؟ إذا كانت درب التبانة ـ هذه مجرَّتنا ـ وهي مجرَّة معتدلة ليست كبيرة ولا صغيرة، من بين مئة ألف مليون مجرَّة ـ هذا الرقم الأخير ـ ومجرَّتنا إحدى هذه المجرَّات، تحوي مجرّتنا ما يقترب من مئة ألف مليون نجم، والمجموعة الشمسيَّة بأكملها ما هي إلا نقطةٌ على خريطة هذه المجرَّة، ويقال لك: إن الإنسان غزا الفضاء، أي قطع بالفضاء الخارجي ثانية ضوئية واحدة، فوصول الإنسان للقمر قطع ثانية ضوئية فقط، والشمس ثماني دقائق، والمجموعة الشمسيَّة ثلاث عشرة ساعة، والمرأة المُسلسلة مليونا سنة ضوئيَّة، وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئيَّة، ونجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئيَّة، ثم هناك خمس ملايين، ثم هناك أربعمئة مليون، ثم هناك ثلاثمئة ألف مليون سنة ضوئيَّة:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة غافر)

ينبغي لك أن تستسلم لعلمه، وأن تستسلم لقدرته، ونحن عندنا قِوى ضغط من صنع الإنسان، إذا دخلت الأرض النقطة السوداء ـ أو الثقوب السود ـ أصبحت بحجم البيضة، تصوَّر إذا ذهبت إلى

حلب تحتاج خمس ساعات، ويزداد سَأَمُكَ من طول الطريق، وسوريا لا تتسع لكتابة اسمها على خارطة صغيرة، سوريا خمسة حروف لا تتسع كل بلاد سوريا على خارطة صغيرة ليكتب عليها اسمها بين الدول الكبيرة، وهذه الدول العملاقة، القارات الخمس التي هي خُمس البحر، وهذه الأرض إذا دخلت إلى ثقبٍ أسودٍ في الفضاء أصبحت بحجم البيضة، فهذه قدرة، وما قولك بهذه القدرة ؟ قدرة تضغط الأرض إلى حجم بيضة بالوزن نفسه ؟! قوة، ورحمة، وعلم، وخبرة، يدعوك الله إلى أن تستسلم له ؛ للقوي، والغني، واللطيف، والخبير، والعليم، والعدل هذا هو الموضوع:

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

الإنسان يحب أن ينقل خبراته إلى أولاده وأن يكونوا استمراراً له:

رب العوالم، العوالم جمع عالَم، والعالَم ؛ عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الأسماك، وعالم الأطيار، ففي الحيوانات وحيدة الخليَّة أنواع منوَّعة، وفي البحار مليون نوع من الأسماك، ومئات الألوف من الأطيار، وملايين من أنواع النباتات، فكل هذه العوالم ربُّها الله هو الذي أوجدها، وهو الذي أمدَّها، وهو الذي يسيِّرها .

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

نشكر أختاً كريمة تحضر معنا الدروس من أكثر من ربع قرن، لها ابنةٌ وزوج ابنةٍ ليسا مؤمنين، يؤمنون بأنه لا إله، فكانت هذه المرأة تدعو ابنتها وزوج ابنتها إلى حضور هذه الدروس، سنوات وسنوات، فاستجابا لها في النهاية وحضرا بضعة دروس، ثم وافت المنيَّة زوج ابنتها، فقال لأولاده وهو على فراش الموت: **" كل شيءٍ سمعتموه مني كان باطلاً، الدين هو الحق "** . ففي حياة الإنسان شخص واحد يتمنَّى أن يفوقه، هو ابنه، وعواطف الأب تجاه ابنه شيء ثابت، فالإنسان يحب أن ينقل خبراته إلى أولاده، وأن يكون ابنه استمراراً له، يحب أن يكون ابنه أحسن الناس، فهذه من جبلَّة البشر، ولذلك قال سيدنا إبراهيم:

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ (132))

يعقوب وصَّى أيضاً بنيه:

(يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ (132))

لا يعقل أن يخلق الله عزَّ وجل كوناً بإعجازٍ مذهل، ثم يدع خلقه من التوجيه والتعليمات، فلا بد من أن يرسل الله لنا رسله، ولا بد من أن يكون هؤلاء الرسل موزَّعين في بقاع الأرض كلها، وفي الأزمان كلها .

الإنسان حينما يصدق في طلب الحقيقة يسوقه الله إلى منابعها:

الأنبياء، والرُسل، والدعاة، والعلماء موزَّعون توزيعاً جغرافياً، وتوزيعاً زمنياً مُحْكَماً، وإن الله يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة دينها، فالله عزَّ وجل يهيِّئ طبعاً في البدايات أنبياء ومرسلين، ثم قد هيَّأ دعاةً مخلصين ينطقون بالحق لئلا يكون الناس معطَّلين عن الأمر والنهي، والإنسان حينما يصدق في طلب الحقيقة يسوقه الله إلى منابعها، والدليل قوله تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 23)

أنت حينما تسمع الحق فهذه بشارةٌ لك أن الله قد علم فيك خيراً، فهناك شعوب تعبد البقر، وشعوب تعبُد الحجر، وأخرى تعبد النار، وثالثة تعبد الشهوة، ورابعة تعبد المال، فإذا شرَّفك الله بأن تعبده وأن تُصْغِي إلى الحق فهذا من نعم الله الكبرى .

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

لذلك أنا أُلِحُّ على أخواني الكرام أن يعتنوا بتربية أولادهم، لأن الابن استمرار لأبيه، ولأن شعور الأب حينما يرى ابنه طائعاً لله، عارفاً بالله، وقَّافاً عند حدود الله شعورٌ لا يوصف، ولا يعرفه إلا كل أبٍ حريصٍ على هداية أولاده، فالله جلَّ جلاله يعلّمنا:

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

الإنسان معه منهج دقيق إذا طبَّقه يسَلِمْ ويسعد في الدنيا والآخرة:

حينما يسقط الإنسان في الدنيا تصبح وصيَّته دنيويَّة، فكم من إنسان على فراش الموت وصَّى أولاده بمتابعة البناء، وبيع الصفقات، وجمع الأرباح، وتوزيع الثروات، وكلها متعلّقة بالدنيا، أما أب يجعل وصيَّته الأولى تقوى الله عزَّ وجل:

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

أنت إنسان معك منهج دقيق لو طبَّقته لسَلِمْتَ وسعدت في الدنيا والآخرة، فمنهج الله بين يديك، هذا الكتاب وهذه السُنَّة طريق قويم وصراطٌ مستقيم وحبلٌ متين ونورٌ مبين .

(فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

بالمناسبة هل يمكن أن تأمر إنساناً بما لا يستطيعه ؟ مستحيل، لكن هنا نهي:

(فَلَا تَمُوتُنَّ (132))

هل الموت بيدي يا رب ؟! أأنا الذي أقرَّر الموت حتى أنك تنهاني عن ألا أموت إلا وأنا مسلم ؟ هناك معنى لطيف جداً هو إذا كان الموت ليس بيدك فلا بد من أن تكون مسلماً دائماً، حتى إذا فاجأك الموت أخذك وأنت مسلم وهذا هو المعنى . وبما أن الموت ليس بيدك ولا تقدر على ردِّه، وقد أخفى الله عنك ساعة الموت، فيجب أن تكون دائم الاستعداد له فتصوَّر إنساناً يعرف وقت موته، فهو لا يتوب إلا قبل موته بساعة، أو بخمسة أيام، ولكن لا أحد يعرف متى الموت .

إذا كنت لا تملك ردَّ الموت فينبغي لك ألا يأتيك الموت إلا وأنت مُسلم:

أذكر أن شخصاً ذكر لي همومه المعاشيَّة، وذكر لي أنه سيسافر إلى بلد إعارة في التدريس، وسيقيم هناك خمس سنوات، ولن يأتي إلى هذا البلد، وسيتَّجه كل صيف إلى مكان ؛ صيف إلى بريطانيا، وصيف إلى إيطاليا، وصيف إلى فرنسا، وصيف إلى اسبانيا وسيعود، ثم يتقاعد من عمله الوظيفي، ثم يفتح محلاً تجارياً يبيع فيه التُحَف، وبعد أن يكبر أولاده سيجعل من هذا المكان مكاناً للندوات واللقاءات بينه وبين أصدقائه، ومازال يتكلَّم عن مشاريعه المستقبليَّة ساعةً بأكملها . وكأنني أذكر الذي تكلَّمه يزيد عن عشرين عاماً .

خرجت من عنده وعدت إلى بيتي، وفي المساء نزلت إلى السوق لأشتري بعض الحاجات، وأنا في طريق العودة إلى البيت رأيت نعوته على الجدران في اليوم نفسه، فلا أحد يعلم متى يموت .

شابٌ مثقَّفٌ يحمل شهادة عُليا، يسهر مع أصدقائه كل سبت، فقال لهم مداعباً: أنا سأعيش طويلاً .

فسألوه: لماذا ؟ قال: أنا وزني خفيف، ولا أدخِّن، وأمشي، وأكلي معتدل، ولا أحمَّل نفسي الهموم . وهذا كله كلام صحيح وعلمي، فهذه أسباب طول العمر، والاجتماع كل سبت، فما جاء السبت القادم إلا وهو تحت الثرى، لا أحد يعرف متى الموت فقد يكون بعد ساعة .

دعيت مرَّة لاحتفال عيد المولد في جامع الحنابلة، وفي دخولي للمسجد رحَّب إنسان بي ترحيباً غير معقول، وجلست، بعد ربع ساعة لاحظت ارتباكاً في الحفل، فسألت عن السبب ؟ فقيل لي: إن هذا الذي استقبلك توفي . ولم يكن به أي شيء، فقبل خمس دقائق يرتدي أجمل حلة، وأبهى ثياب، وهو أحد أعضاء الجمعيَّة التي أقامت هذا الاحتفال، فذهبنا إلى المستشفى فوجدناه قد انتهى، فمن يعلم متى سيموت ؟ الموت يأخذ الشباب، ويأخذ الصغار، والكبار، والأصحَّاء، والمرضى، والأقوياء، والأغنياء، وبالدوحة أمير البحرين مات بعد مقابلة بدقيقتين، فحالات الموت مرعبة ومفاجئة، فإذا كنت لا تملك ردَّ الموت فينبغي لك ألا يأتيك الموت إلا وأنت مُسلم .

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ((132)

الموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل :

كنت أشرح هذه الآية بمثل طريف، لو فرضنا أن بطاقة طائرة ثمنها خمسمئة ألف فرضاً، ونظام هذه الشركة أنك إن تخلَّفت عن ركوب الطائرة لا تردُّ لك قيمة البطاقة بشكل مؤكد، والبطاقة بنصف مليون، والشركة هي التي تأخذك من البيت، ولا تنتظر إلا دقيقة واحدة، متى تأتي ؟ من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الثامنة مساءً، فضمن هذين الوقتين تأتي سيارة الشركة، فماذا تفعل أنت ؟ سعر البطاقة خمسمئة ألف، ولن تسترد ثمنها، ولن تنتظر إلا دقيقة، والوقت من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساءً، لا شك أن الحريص على ثمن هذه البطاقة يقف بجانب الباب من الساعة الثامنة صباحاً، هذا معنى الآية:

(فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

الموت يأتي فجأةً ؛ فقد يأتي وأنت في السفر، وقد يأتي وأنت في الحضر، أو في الليل، أو في النهار، أو قبل العُرس، مهندس يشرف على بناء، وكان عرسه مساءً، مدَّ رأسه من النافذة أثناء عمله، فسقطت قطعة حجر على رأسه فقتلته فوراً، وقد وزِّعت الحلويات التي اشتريت بأرقام فلكيّة على المعزِّين مساءً، وصُمدت زوجته بثياب العرس في تعزية النساء، فمن يصدِّق قبل العرس أنه سيموت ؟ إنسان بعد أن نال الدكتوراه بأيام جاءه ملك الموت، فالموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل، وهناك قصص كثيرة جداً .

كان أحد أخواننا يشيد بناء، وبعد أن انتهى كل شيء في البناء لم يبق إلا جهاز كهربائي، فرُكِّب الجهاز وجاء الأثاث، وفي صبيحة اليوم التالي كان من المفترض أن يأتي صاحب البيت، فوافته المنيَّة مساءً ولم يسكن البيت . فقد لا تسكن البيت، وقد لا تستفيد من الشهادة، أو نسافر ولا نعود، أو نعود ولا نسافر مرة ثانية، فالموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل، هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

من السُنَّة أن يكتب الإنسان وصيَّة يُصَدِّرها بنصح أولاده من بعده:

في آية أخرى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(102))

(سورة آل عمران الآية: 102)

وقال:

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133))

ذكر العلماء: أن من السُنَّة أن يكتب الإنسان وصيَّة يُصَدِّرها بنصح أولاده من بعده .

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133))

هذا هو التوحيد، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد .

كل عمل ابنك في صحيفتك:

إنها كلمة قالها الأبناء، ولكن هذه الكلمة مُحَصِّلة توجيهات مديدة وطويلة ومتعدِّدة، فالأب الذي يكون وراء أولاده ومعهم دائماً ينصحهم ويعلِّمهم، هذا والله شهدته مرَّةً إذ هناك أولاد متميزون في تديُّنهم، وسبب هذا التميز في التديُّن أن آباءهم كانوا حريصين حرصاً لا حدود له على تربيتهم وعلى توجيههم، فالله عزَّ وجل يلحق عمل الأبناء بالآباء:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور الآية: 21)

أي أن كل عمل ابنك في صحيفتك، ولذلك :

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

الأعمال الصالحة أولاً منوَّعة، ولكن أجلَّ هذه الأعمال على الإطلاق هي التي تستمر بعد موت الإنسان . فإنسان ترك أثراً علمياً كبيراً جداً، وإنسان ترك علماً، وآخر ترك كتاباً، وثان ترك دعوة، وثالث ترك معهداً، فهذه الدعوات الجليلة التي تستمر بعد موت الإنسان هي من أجَلّ الأعمال، إنها صدقةٌ جارية لا نهاية لها، فتصور أنه يمضى مئة سنة، وألف سنة، وألفا سنة، وآلاف مؤلَّفة، وكل من استفاد من هذا الكتاب في صحيفتك، وكل من استفاد من هذا العلم في صحيفتك .

كنت في مؤتمر في القاهرة قبل أيام في الأسبوع الماضي، فألقى مندوب نيجيريا كلمة باللغة العربيَّة الفُصحى، وبعمقٍ شديد، ثم علمت أن هذا المندوب درس في دمشق، ثم صار مُفتي نيجيريا، فتأثَّرت تأثراً بالغاً، إنسان طالب علم درس في دمشق، قد لا يؤبه له، وقد صار مصيره مفتياً لبلد إسلامي كبير، ألقى كلمة كانت رائعة، وقد تأثَّرت تأثراً بالغاً . فهذا الذي يعلِّم طلاب العلم، هذا الذي يرعى طلاب العلم، وهذه نقطة مهمة، فالأعمال العظيمة هي التي تستمر بعد موت صاحبها ؛ وبالمقابل شر الأعمال هي التي تستمر بعد موت صاحبها، فإنسان أسَّس ملهى ومات ـ والأصح قد فطس ـ كل من ارتاد هذا الملهى، وكل من شارف على الزنا في هذا الملهى، أو من شرب الخمر في هذا الملهى في صحيفة الذي أنشأ هذا الملهى . فهذه نقطة مهمة ؛ فالأعمال العظيمة هي التي تستمر بعد موت صاحبها .

خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط لا خيار قبول أو رفض :

حدَّثنا أحد الدعاة إلى الله فقال: إن طالب علم من بلد إسلامي، تعلَّم في معهده، وحصَّل الشهادة وسافر، وطُرق باب هذا العالم بعد عشرين سنة، فإذا سيارة ضخمة جداً فيها مئة طالب علم كلهم طلاب لهذا التلميذ، زار أستاذه وهو في طريقه إلى الحج، فلما رأى الشيخ هذا الطالب الذي علَّمه، وكان من حصيلة هذا الطالب هذا الجَمع الغفير من طُلاب العلم بكى . فالإنسان عليه أن يترك عملاً لا ينتهي عند موته بل يستمر، إنها صدقة جارية، فإنسان أنشأ مسجداً، وإنسان أنشأ معهداً شرعياً، فهذه الأشياء صروح باقية، فالمعاهد قلاع صامدة للعلم، وهناك أعمال والعياذ بالله تستمر بعد موت صاحبها كدور اللهو، ودور الموبقات فهذه كلها تستمر، وإنسان ترك مؤلَّفاً يدعو إلى الإلحاد وأثناء موته يؤمن، والدليل أكفر كفَّار الأرض فرعون حينما جاءه الموت قال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ (90))

(سورة يونس)

إذاً نحن خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط لا خيار قبول أو رفض، لأنه مهما كان الإنسان بعيداً عن الدين فحين الموت يُكشف عنه الغطاء :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

عرفت الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان:

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133))

الآية التالية هي آية التاريخ :

هذه ثمرة، فهل عند الإنسان إمكان أن يكون أولاده كذلك، فلو سألهم أجابوا، لو طلب منهم أن يعبِّروا عن إيمانهم لقالوا ؟ هذا من نعم الله الكبرى، قال :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

هذه الآية أيها الأخوة مهمَّة جداً، فهذه آية التاريخ:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ (134))

أي مضت وانسلخت عن وقتها:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

هذا الذي يستقدم قضايا من التاريخ، ويجعلها سبب خلاف معاصر، هذا إنسان بعيد عن الحقيقة، فكل أمةٍ لها عملها ولنا أعمالنا، فهؤلاء الذين مضوا إن كانوا في أعلى عليين، فهذه مكانةٌ احتلوها بعملهم وإخلاصهم، لا ينفعهم أن نمدحهم، ولا يؤثِّر عليهم أن نذمَّهم، وكل إنسان مضى له عند الله

مكانة ثابتة هي مُحَصِّلة عمله، واستقامته، والتزامه، وإخلاصه، فله مكانة لا يرفعها مدح المادحين ولا يخفضها ذم الذامِّين، إذاً كن مطمئناً، فتقييم الأشخاص من شأن الله عزَّ وجل، فما بال بعض المسلمين يستنبئون التاريخ، فلان على حق أم فلان ؟ فلان أعظم عند الله أم فلان ؟ هذا ليس من شأنك بل هذا من شأن الله عزَّ وجل، وقِّر وقتك .

نُخبة البشر هم الذين يعيشون المستقبل :

قال تعالى:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ (134))

أي لها كَسْبُهُا وعملها الذي مكَّنها الله منه باختيارها:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ (134))

ولن تُسَأل أمة عن أمة:

(وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

هل من الممكن أن نوقِّر وقتنا ونتجه نحو المستقبل ؟ قال العلماء: " هناك من يعيش الماضي، وهناك من يعيش الحاضر، لكن نُخبة البشر هم الذين يعيشون المستقبل " . أخطر حدث في المستقبل هو الوفاة، وأخطر حدث بعد الولادة هو الموت، فالإنسان أمامه حدث خطير هو مغادرة الدنيا، بحسب الظاهر من كل شيء إلى لا شيء، إلى قبر، من بيتٍ فاخر إلى قبرٍ مظلم، ليس معك في القبر إلا عملك إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، فهذا الشيء المُجدي، أما الماضي فما لي وللماضي ؟ ما مضى فات والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، الأولى أن يفكِّر الإنسان في مستقبله، والأولى أن يعُد عمره عداً تنازلياً لا عداً تصاعدياً، اركب مركبة واذهب إلى حمص تصلها بمئة وخمسين كيلو متر، وبعدها بمئة وأربعين، مئة وثلاثين، مئة وعشرين، مئة وعشرة، مئة، تسعين، ثمانين، سبعين، ستين، خمسين، أربعين، ثلاثين، عشرين، عشرة، خمسة، حمص ترحِّب بكم، نازلين . فلو أحصينا عمرنا بهذه الطريقة اختلف الأمر .

البطولة لا أن تبحث في عمل الآخرين بل أن تبحث في عملك أنت :

الآن قضينا أربعين، فكم بقي يا ترى ؟ على المستوى المتوسِّط بالستين، فمعترك المنايا بين الستين والسبعين، فإنسان يموت وعمره خمس وخمسون، أو أربع وأربعون، أو تسع وثلاثون، أما الأغلبيَّة فبين الستين والسبعين، فإذا مضى من عمر أحدنا أربعون سنة، كم بقي له على المتوسط ؟ نصف ما مضى، وصل إلى الخمسين فبقي عشر، ووصل إلى الخامسة والخمسين بقي خمس، وبعد هذا

ينتظر الصباح والمساء، فإذا نام لا يستيقظ، وإذا استيقظ لا ينام، يخرج من بيته كل يوم قائماً، ومرَّة واحدة أفقياً، وكلَّما خرج عاد إلا مرَّة واحدة يخرج ولا يعود، والموت مصير كل حيّ، فلذلك:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ (134))

مضت ونحن سنمضي، وبعد مئة عام في الأعم الأغلب لن يكون واحد منا في هذا المجلس على قيد الحياة، بل كلنا تحت الأرض بلا استثناء، وهؤلاء الذين في القبور كانوا أشخاصاً، ولهم هموم، ولهم مشكلات، وعندهم أعمال، وعندهم إنجازات، وسكنوا في بيوت جميلة، وأكلوا طعاماً طيباً، وتزوَّجوا النساء أين هم الآن ؟ أحياناً تجد جمجمة مثلاً بمتحف، أو بمخبر علمي طبيعي، فمن صاحب هذه الجمجمة ؟ ماذا كان يعمل ؟ لا نعرف، يوجد في أمريكا حفرة مثل الجب فيها كتلة تساوي خمسة طن كلها جماجم، وكان هناك اعتقاد واهم أن فيها كنوزاً فمئات وآلاف الأشخاص ألقوا بأنفسهم ليخرجوا الكنز، فماتوا ولم يجدوه وجماجمهم تشهد عليهم، وهذا هو الإنسان .

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

هذه المقابر حول دمشق، هذا مات بالثمانين، وبالتسعين، وبالسادسة والثمانين، وبالخامسة والثمانين، وبالخامسة والتسعين، هذا عميد أسرته، وهذا الشاب، وهذا الطبيب، وهذا المهندس، فهذه المقبرة فيها كل الناس، وكل إنسان له عمله، فالبطولة لا أن تبحث في عمل الآخرين ـ دقّق في هذا الكلام ـ البطولة أن تبحث في عملك أنت، لأن عملك أنت هو الذي تُسأل عنه بالضبط .

الحنيف هو المائل لله عزَّ وجل عما سوى الله:

قال تعالى:

(وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135))

سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء، والعرب من نسل إسماعيل، واليهود من نسل إسحاق، وهو أبو الأنبياء، وقد آمن ببعض الآيات رأى كوكباً قال: هذا ربي، ثم رأى القمر بازغاً قال: هذا أكبر، ثم رأى الشمس، ثم وجَّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ولم يك من المشركين .

(وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا (135))

أي أن اليهود قالوا: كونوا هوداً تهتدوا . والنصارى قالوا: كونوا نصارى تهتدوا , قال :

(قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135))

الحنيف هو المائل لله عزَّ وجل عما سوى الله بالضبط، وهذا معنى:

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)

(سورة آل عمران)

الإنسان الحنيف قلبه معلَّقٌ بالله وعمله خالصٌ له وسلوكه منضبطٌ بشرعه تعالى .

مضمون دعوة الأنبياء واحدة:

قال تعالى:

(قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136))

أيْ أنَّ فحوى دعوة الأنبياء واحدة، أي مضمون دعوة الأنبياء واحدة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

توحيدٌ وعبادة:

(قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا (137))

توحيدٌ وطاعة، توحيد الإله عقيدةً، والطاعة سلوكاً .

هناك اثنينية إما أن تكون على الحق وإلا فأنت على الباطل حتماً:

قال تعالى:

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ (137))

أي بالتوحيد والطاعة والاستسلام لمنهج رسول الله عليه الصلاة والسلام:

(فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا (137))

عن هذا المنهج:

(فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ (137))

(سورة)

هناك اثنينية إما أن تكون على الحق، وإلا لا سمح الله ولا قدَّر فأنت على الباطل حتماً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ (50))

(سورة القصص)

وقال:

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ (137))

شقاقٍ عن الحق، ومعاداة للحق، ومُجافاة له، وبُعد عنه:

(فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ (137))

حينما يبتعد الإنسان عن الله عزَّ وجل يختل توازنه:

عندما يبتعد الإنسان عن الحق أو يودُّ أن يؤذي الحق، ويكيد له، ويسفِّه أهله، ويبتعد عنه ويحيك المؤامرات لأهله ويطعن بهم، هذه معركةٌ أزليَّةٌ أبديَّة بين الحق والباطل .

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ (137))

إنه بُعْد، ومعاداة، وبُغض، فمن كان هذا حاله لا بد من أن يقف موقفاً معادياً للحق، فكل إنسان كافر، أو بعيد، أو معرض، لا بد من أن يعادي أهل الحق ولو بالطعن، أو بتقليل الشأن، أو بالغَمز، أو باللمز، أو بالاتهام الباطل، أو بترويج قصَّة لا أصل لها وليست ثابتة، ولكن ليشفي غليله كي يستعيد توازنه .

ذكرت هذا من قبل: وحينما يبتعد الإنسان أيها الأخوة عن الله عزَّ وجل يختل توازنه، لأن هذا المنهج منهج ربَّاني والإنسان مجبول على هذا المنهج، وهناك توافق عجيب بين هذا المنهج وبين فطرة النفس البشريَّة، فإذا ابتعد الإنسان عن هذا المنهج يختل توازنه، فكيف يستعيده ؟ يستعيده بحالةٍ صحيحة وحالتين مرضيَّتين، الحالة الصحيحة أن يصطلح مع الله فيستعيد توازنه، الحالة المرضيَّة الثانية والثالثة يستعيده حينما يطعن بأهل الحق حتى يرتاح، ويطعن بأهل الحق ليستعيد توازنه، أو يتعلَّق بنظرية فاسدة وبعقيدة زائغة يستعيد بها توازنه، فإذاً ينتج من اختلال توازن الكافر معركة بين الحق والكفر، وهذه المعركة ثابتة أزليَّة أبديَّة، فلذلك:

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ (137))

الله هو الفَعَّال، وهو القدير، فلا تخافوا، يا أخوان إنها كلمة أقولها من أعماقي: لا تقلقوا على هذا الدين ولو رأيتم أهل الأرض كلهم يأتمرون عليه، فلا تقلقوا ولو أن القوى القويَّة في العالم تناهض هذا الدين، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يسفِّهوا هذا الدين ما استطاعوا لأنه دين الله عزَّ وجل، فالله كن فيكون، ولكن اقلقوا إذا سمح الله لكم أن تكونوا من أنصاره أم لم يسمح ؟ أمنحكم الله شرف نصرته أم لم يمنح ؟ وهنا القلق:

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (47- 95):تفسير الآيات 138 – 141 ، الفطرة والصبغة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-07-09

بسم الله الرحمن الرحيم

انسجام الفطرة مع معرفة الله والإيمان به وطاعته:

مع الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

كلمة الصبغة بالحديث عن الفطرة، فالفطرة طبيعة النفس البشرية وخصائصها، والجِبِلَّة التي جُبِلَت عليها، فالنفس لها خصائص، وتقريبٌ لهذه الخصائص .

((يا داود ذكر عبادي بإحساني، فإن القلوب جبلت على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

الإنسان يحب الأكمل، ويحب الأجمل، ويحب النوال، فهناك خصائص للنفس البشرية، والذي يعنينا من هذه الخصائص أن هذه النفس مجبولةٌ ومفطورةٌ، وبالتعبير الحديث مبرمجةٌ وفق الشرع تماماً، والذي خلق النفس الإنسانية هو الذي أنزل الكتاب وكلَّف النبي بشرحه وتبيين ما فيه، وتطابق النفس البشرية مع منهج الله تطابقٌ تام .

إن من فطرة النفس البشرية أنها تحب الكمال، والرحمة، والعدل، والجمال، والنوال، فالإنسان حينما يصطلح مع الله، ويطبق منهج الله، يهتدي إلى فطرته، وينسجم في سلوكه مع فطرته، فالله عزَّ وجل أودع فيك حب العدل وأمرك أن تعدل، فإن عدلت توافق سلوكك مع فطرتك، وأودع فيك حب الرحمة وأمرك أن ترحم، وحب الكمال وأمرك أن تكون كاملاً، وحب الإحسان بأن تكون محسناً، أي أنه أمرك وحبب إليك هذا في أصل فطرتك، هذا هو الانسجام بين الفطرة وبين التكليف، فالفطرة منسجمة مع معرفة الله والإيمان به وطاعته .

إقامة وجهك للدين حنيفاً هو جبلتك وفطرتك عينها:

إذا ابتعد الإنسان عن الله ابتعد عن فطرته، فشعر بالغُرْبَة، وباختلال التوازن، وبالوَحْشَة، وبالعُزلة، وبالضيق، وكأن الدنيا مقفولةٌ عليه، وكأن الأبواب كلها موصدةٌ في وجهه، ولذلك الشعور الذي ينتاب المؤمن حينما يتعرف إلى الله ويصطلح معه شعورٌ لا يعرفه إلا من ذاقه، لأنك مفطور

على أشياء والشرع أمرك بهذه الأشياء تماماً، وتطابقت الفطرة مع الأمر الإلهي فارتاحت النفس، وهذا أدق معنى، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

(سورة الروم الآية: 30)

أي أقم وجهك بكل ما أوتيت من قوة، وفهم، وطاقات، واجعل وجهك نحو الدين، وتوجه إلى الله، توجه إلى منهجه، أطعه، وتقرَّب إليه،

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً، هو نفسه ما أنت مفطورٌ عليه:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم) .

إقامة وجهك للدين حنيفاً هو جبلتك وفطرتك عينها، هذه المركبة مثلاً مصممة لتمشي على طريقٍ مُعَبَّد، أما المدرعة فهي مصممة لتمشي على طريقٍ وعر، والمركبة المصممة لتمشي على طريقٍ معبَّد، حينما تمشي بها على طريقٍ وعر تكسِّرها، أما إذا سرت بها على طريقٍ معبدة تختفي الأصوات وترتاح النفس، فأنت ماذا فعلت ؟ أنت استعملتها وفق أصل تصميمها .

الآن، أنت مفطور على حب الكمال، وحب العدل، وحب الإحسان، وحب الرحمة، فإذا عدلت وأحسنت ورحمت، فماذا فعلت ؟ اهتديت إلى فطرتك، وصار هناك انسجام، وحصل راحة، لذلك من أسباب السعادة التي يشعر بها الإنسان أنه اهتدى إلى فطرته، فانسجم معها، ولذلك فالمؤمن يشعر بشيء لا يوصف، ما هذا الشيء ؟ أنه مرتاحٌ من داخله، وأنه متوازن، وأن خط بيانه صاعد صعوداً مستمراً .

الفرق بين الفطرة والصبغة:

إلا أن الفطرة شيء، والصبغة شيءٌ آخر، فالفطرة أنت مفطورٌ على حب الكمال، والجمال، والنوال، والإحسان، والعدل، والعطاء، فأنت مفطور هكذا، ولذلك فالإنسان مهما كان انتماؤه، ومهما تكن هويته أو تقصيره فإنه يحب العدل، بل إن اللصوص بعد أن يسرقوا يصرِّحون بأنه لا بد من اقتسام هذا المال المسروق بالعدل، لأن هذه فطرة، وأي إنسان حتى لو كان كافراً، أو مُلحداً، مفطور على حب العدل، والإحسان، والرحمة، والعطاء، والكمال، والجمال، والنوال، ولكن الفرق الدقيق بين الفطرة والصبغة، فالإنسان في أصل فطرته صفحةٌ بيضاء مبرمجةٌ على حب الإحسان والعدل والرحمة والإنصاف والكرم، لكن أن تحب العدل شيء، وأن تكون عادلاً شيءٌ آخر، وأن تحب الرحمة شيء، وأن تكون رحيماً شيءٌ آخر، أن تحب الإحسان شيء، وأن تكون محسناً شيءٌ آخر، وأن تحب أن تعطي شيء، وأن تعطي حقيقةً شيءٌ آخر، فما الفرق بين الفطرة والصبغة ؟

أي إنسان كائناً من كان، وبالمناسبة حينما تأتي كلمة إنسان معرفةً بأل فهو أصل الإنسان، والإنسان قبل أن يعرف الله وقبل أن يتصل به وقبل أن يُصَنَّع هو مفطورٌ على حب الكمال، أما إذا عرف الله عزَّ وجل، واتصل به، واشتق من كمالاته، انتقل من الفطرة إلى الصبغة، إذ كان يحب العدل فأصبح عادلاً، كان يحب الحلم فأمسى حليماً، وكان يحب الرحمة فغدا رحيماً، وكان يحب العطاء فصار معطياً، ولذلك أي إنسان قد خلق وفق فطرة الله، وكل مولودٍ يولد عل الفطرة، حتى ولو كان مجوسياً، هذا من خلق الله عزَّ وجل .

لذلك اذهب إلى أي مكان في العالم، إلى عُبَّاد الأوثان، والنار، والأصنام، وأحسن إليهم يحبوك، فهذه فطرة الإنسان، ولا أدل على ذلك من الطفل الصغير، والأطفال في العالم كله يتشابهون، لأنهم فطرة الله التي فطر الناس عليها .

إلا أن هذه الفطرة أيها الأخوة قد تنطمس بالشك، وبالشرك، وبطاعة الكُبراء، وباتباع الشهوات، فيعلو على هذه الفطرة ما يسمَّى بالران، لكن الفطرة تذبل ولا تموت، وتكمن ولا تزول، والشدائد أحياناً تزيل عنها هذه الطبقة الغريبة وتعود إلى أصل كمالها .

على كلٍ فموضوع الفطرة موضوع مهم جداً، لأن أصل ديننا دين الفطرة:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

أكبر ثمرة من ثمار الإيمان حينما تتوافق حركتك في الحياة مع أصل فطرتك:

النفس البشرية مجبولة ومصممة على أنها تعلم أنها فاجرة إذا فجرت، وتعلم أنها متقيةٌ إذا اتَّقت:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

ويقول الله عزَّ وجل :

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(11))

(سورة عبس)

ما معنى تذكرة ؟ أنت إذا ذهبت إلى بيروت ورأيت صخرة الروشة، فلما اطلعت على صورتها تذكرت المشاهدة السابقة، والقرآن كله تذكرة يذكرك بأصل فطرتك، ولذلك أيها الأخوة يعيش المؤمن بحالة من السعادة لا توصف، وأساسها هذا الانسجام مع فطرته، فالإنسان يحب العفَّة، فإذا كان عفيفاً فعلاً شعر بالراحة، ويحب الإنصاف، فإذا كان منصفاً يشعر براحة، وكل السعادة التي تأتي للإنسان أساسها أنه تحرَّك وفق فطرته وانسجم معها واهتدى إليها .

مثل للتوضيح: إذا أعطي الإنسان وردة ذات رائحة فوَّاحة يطرب لها، بينما تجد بعض الحيوانات تأكل النجاسات، والإنسان يكره رائحةً ويحب رائحة، هناك حيوان على عكس الإنسان يحب رائحة لا يحتملها الإنسان، معنى ذلك هناك تصميم لمخلوقات تعيش في المجاري، تطرب لما فيها من

روائح كريهة، إذاً هي مبرمجة برمجة أُخرى، والإنسان مبرمج برمجة ثانية، أنت حينما تشم وردةً ذات رائحةً فواحة، وتطرب لها، لا لأنها فوَّاحة بل لأن أصل فطرتك مبرمج على هذه الرائحة، فصار هناك انسجام، وحينما تشم رائحةً كريهة، لماذا هي كريهة ؟ لأنك مبرمجٌ على عكسها . فمن أين تأتي الراحة ويأتي النفور ؟ من أصل الفطرة، ولو أن الإنسان مبرمج على الظلم وظلم يرتاح، ولو أنه مبرمج على أن يكون قاسياً، فكلما قسا يرتاح، ولكنه مبرمجٌ ومفطورٌ على العدل، والإحسان، والعفة، والعطاء، فأكبر سعادة يشعر بها المؤمن حينما يهتدي إلى أصل فطرته، وحينما ينسجم مع فطرته، وحينما تتوافق حركته في الحياة مع أصل تركيبه، فهذه أكبر ثمرة من ثمار الإيمان، المؤمن متوازن، مرتاح .

أكبر جائزة لك في الدنيا قبل الآخرة أن تهتدي إلى فطرتك:

حينما خرج الكافر عن منهج الله خرج عن أصل فطرته، فصار عنده عذاب داخلي لا يحتمل، وعنده ما يسمى باختلال التوازن، وبالانهيار الداخلي، لأنه يأخذ ما ليس له، وعنده تأنيب داخلي . هو يعتدي على أعراض الناس، ويكذب عليهم ويحتال، ويتوهَّم أنه يجمع المال الكثير لكنه في الحقيقة من أشقى الأشقياء، إذاً أن تهتدي إلى فطرتك هذه أكبر جائزة لك في الدنيا قبل الآخرة . ما هي جنة الدنيا ؟ إذاً: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة . جنة الدنيا هي جنة السكينة، والاصطلاح مع الفطرة، والعودة إليها، والتناغُم مع بنية النفس، وهذه هي الفطرة .

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً (30))

(سورة الروم)

إقامة وجهك للدين حنيفاً ينطبق على فطرتك انطباقاً تاماً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

لذلك ما يعانيه المؤمن وما يشعر به من راحة، هي بسبب أنه انسجم مع أصل خلقه، فكل مولودٍ يولد على الفطرة:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

وقال:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (12))

(سورة عبس)

الآن بعد أن تتعرف إلى الله، وبعد أن تصطلح معه، وتستقيم على أمره، وتتصل به، يحدث ما يسمَّى باشتقاق الكمال من الله، ومن خلال اتصالك به، كنت تحب العدل فلما اتصلت به أصبحت عادلاً عدلاً داخلياً . ونحتاج إلى توضيح آخر:

لو طبيباً صادف أثناء سيره في الطريق حادث سير، ووجد إنساناً جريحاً يحتاج إلى إسعاف، وكان يعرف بعض الناس، فاضطر أن يقف موقفاً إنسانياً، وهو مقطوع عن الله فرضاً، وليس له اتصال بالله، ويحب الرحمة ولكنه ليس رحيماً، لكن هذا الموقف اضطره أن يقف موقفاً إنساناً، فهذا فعله فعل الصبغة، ونفسه ليست كذلك، نفسه على الفطرة أما فعله ففعل الصبغة .

الفطرة والصبغة والسلوك الذكي:

قد يكون عملك رحيماً ولست رحيماً، وقد تضطر أن تحكم بالعدل، لأن هذا القرار سوف يُراقب من مستويات عليا، فمن أجل الحفاظ على منصبك تحكم بالعدل حباً بالبقاء في هذا المنصب، فهذا الذي يحكم بالعدل، يحكم بالعدل لا وفق الصبغة، ولكن وفق المَصلحة، فأن تحب العدل شيء، وأن تكون عادلاً شيء في أصل بنيتك، وأن يكون عملك عدلاً شيءٌ ثالث، تحب العدل، وتصطبغ بالعدل، وعملك عدل، وكل شيء له باب، أن تحب العدل فطرة، وأن تتمثل العدل في نفسك صبغة، وأن تقف موقفاً عادلاً لمصلحةٍ معينة هذه مصلحة، فإن وجدت في العالم الغربي علاقةً طيبة، صدقاً في المعاملة، وإتقاناً في الصنعة، هذه مصلحة، والفطرة في أصل الخلق، أما الصبغة للمتصل بالله حصراً، وأما السلوك الذكي هذا يفعله كل ذكي في العالم .

قد تجد في بلاد الغرب معاملة طيِّبة، وقد تجد صدقاً وأمانة، لأن هناك ضبطاً شديداً بلغ درجة تفوق حد الخيال، فأي غلطٍ مهما كان صغيراً مضبوط . تدخل إلى سوق فيه بضائع بألوف الملايين وهناك خمسة أشخاص على مدخل هذا السوق، كل شيء تحمله من البضائع عليه لصاقة مبرمجة، إن لم تدفع ثمنه أصدر صوتاً مزعجاً، فاتهمت من خلال الصوت بالسرقة، فملايين في هذا السوق يدفعون ما عليهم لا لأنهم ينطوون على كمال، بل لأنهم يعلمون أنهم لو لم يدفعوا لفضحوا، هذا السلوك مدني ذكي وليس له علاقة بالفطرة ولا بالصبغة إطلاقاً، صار هناك ضبط إلكتروني عالياً جداً في بلاد الغرب، إنه ضبط شديد، هذا الضبط ألغى الفطرة والصبغة، فلم تعرف من الأمين . ولا يمكن أن تحمل سلعة وتخرج بها إلا ويصدر صوت من القوس يتهمك بالسرقة، إذاً الكل يدفعون، من هو الأمين منهم ؟ لا نعلم، صار هنا ضبط إلكتروني، وهذا صار سلوكاً ذكياً، أما حينما انقطعت الكهرباء في مدينة نيويورك فتمت مئتا ألف سرقة في ليلة واحدة، وحينما اضطرب حبل الأمن في لوس أنجلوس تكاليف التخريب ثلاثون مليار دولار ؛ سرقة محلات، وحرق محلات، وتكسير واجهات، فالفطرة شيء، والصبغة شيءٌ آخر، والسلوك الذكي الذي يعيشه الغرب شيءٌ ثالث إذ علاقة له لا بالفطرة ولا بالصبغة، فهذا موضوع ثالث، أما نحن المؤمنين فنتعامل مع شيئين مع فطرةٍ فطرنا عليها ومع صبغةٍ تمت من خلال اتصالنا بالله عزَّ وجل .

المؤمن خريج مدرسة الحق:

الآية الكريمة:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

لو أنك تجولت في أطراف الدنيا فهل تجد كالمؤمن تواضعاً، ورحمةً، وإنصافاً، وورعاً، وإحساناً، وصدقاً، ووفاءً، صبغة الله، أحياناً قد تعجب، مثلاً إذا وجدت شاباً أخلاقه عالية جداً وكان هناك مدرسة من أعلى مستوى يعيش الطالب فيها ليلاً ونهاراً، ويتلقَّى أعلى درجة من العلوم والآداب والتوجيهات، والتوجيه الديني، والنصح، والنظافة، والعادات والتقاليد، فإذا رأيت هذا الطالب وأعجبك أدبه، وذكاؤه، وعلمه، وتحصيله، وأخلاقه، وهِندامه الحسن، تقول: هذا خريج هذه المدرسة . والمؤمن خريج مدرسة الحق، فمن المستحيل أن ترى مؤمناً يكذب، أو أن ترى مؤمناً يحتال، أو يقسو، أو يظلم، أو يأخذ ما ليس له، الورع مع الأدب، ومع الإحسان، والتواضع، والعفو، وكل هذه الكماليات هي من أثر اتصال هذا المؤمن بالله عزَّ وجل هذه هي الصبغة، فالصبغة شيء موجود، والفطرة صفحة بيضاء لكنها مبرمجة على حب الكمال، فأن تحب الكمال فهذا فطرة وأن تكون كاملاً صبغة، وأن تسلك سلوكاً كاملاً من أجل مصلحتك ذكاء لا فطرة ولا صبغة، وأن تسلك سلوكاً كاملاً لمصلحةٍ ماديةٍ ذكاء .

ليس في الأرض كلها جهة يمكن أن تمنح الإنسان كمالاً كما يمنحه الله عزَّ وجل:

الإسلام منهج موضوعي، بمعنى لو طبَّقه إنسان ملحد لقطف ثماره، فإن رأيت في بلاد الغرب تفوُّقاً فلأن كل إيجابيات هذه البلاد إسلامية، لا عن طاعةٍ لله ولا عن حبٍ له ولا عن تعبدٍ له، ولكن من أجل المصلحة، فإذا كانت مصلحتهم في الصدق يصدقون، وإن كانت مصلحتهم في الكذب فهم أكبر كذَّابين في الأرض، وإن كانت مصلحتهم في الرفق في الإنسان يرفقون، وإن كانت مصلحتهم في قتل شعبٍ بأكمله يقتلون، إنه سلوك مصلحي فقط، فهذا شيء صارخ في الغرب، مصلحة فقط، القيَم كلها تحت أقدامه، فمن أجل أن يطعموا كلابهم اللحم يقتلون الشعوب بأكملها، فإذا تحدثوا عن حقوق الإنسان يجب أن نضحك فقط لأنهم ينتهكون كل حقوق الإنسان .

مرة ثانية: أن تحب الكمال فطرة، وأن تكون كاملاً صبغة، أما أن تسلك سلوكاً كاملاً لمصلحة تريدها فهذا نوع ثالث، هذا ما تراه في عالم الغرب، فهم في بعض المواقف إنسانيين، وفي بعض المواقف وحوش كاسرة يبحثون عن حقوق الإنسان وهم أكبر من ينتهك هذه الحقوق، ويتحدَّثون عن الحُرِّية وهم الذين يصادرونها في العالم كله، فدرسنا اليوم:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

هذا استفهام إنكاري، ليس في الأرض كلها جهةٌ يمكن أن تمنح الإنسان كمالاً كما يمنحه الله عزَّ وجل :

(وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

مواقف تظهر رحمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام:

وجد بعض الأنصار على سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام في أنفسهم، فجاء زعيمهم سعد بن عبادة وقال: يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم، لأنك لم تعطهم من الغنائم في حنين . قال: يا سعد أين أنت منهم ؟ قال: ما أنا إلا من قومي، قال: اجمع لي قومك فجمعهم، فقال: **يا معشر الأنصار جدةٌ وجدتموها علي في أنفسكم، من أجل لعاعةٍ تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، يا معشر الأنصار أما إنكم ـ سيدنا رسول الله في أعلى درجات قوته، دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وكلمته نافذة، وتحت إمرته عشرة آلاف سيف، فئةٌ من أصحابه وجدوا عليه في أنفسهم، وكان بإمكانه كما يفعل البعض أن يلغي وجودهم، أو أن يهدر كرامتهم، أو يهملهم، أو يعاتبهم بصالحهم، ماذا فعل ؟ جمعهم وقال ـ أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، وطريداً فآويناك، ومخذولاً فنصرناك، يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ـ لم يقل فهديتكم قال فهداكم الله بي ـ وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم، يا معشر الأنصار أوجدتم علي في لعاعةٍ من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ "** . فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم . وقال: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، ولو سلك الأنصار شعباً وسلك الناس شعباً لسلكت شعب الأنصار .

هذا الموقف فيه رحمة، وفيه عفو، ومسامحة، وذكاء، وسياسة، وامتصاص نقمة . وكنت أقول دائماً: كان الله في عون كُتَّاب السيرة، هذه القصة أين مكانها ؟ مع رحمته، أم مع عدله، أم مع وفائه، أم مع تسامحه، أم مع حسن سياسته ؟! هذه صبغة الله .

أرسل سيدنا حاطب بن بلتعة كتاباً إلى قريش، قال: " إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم " . هذا الكتاب يُسمى في أنظمة العالم كله خيانةً عظمى، جزاؤه الإعدام، فجاء الوحي النبي عليه الصلاة والسلام أن فلاناً قد أرسل كتاباً إلى قريش . فأرسل صحابيين أو ثلاثة ليأتوا بالكتاب من إمرة+ في الطريق إلى مكة، فتح النبي الكتاب " من حاطب بن بلتعة إلى أهل قريش إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم " . جئ بحاطب رآه عمر قال: **" يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق "** . قال: لا يا عمر إنه شهد بدراً، تعالَ يا حاطب، ما حملك على ما فعلت ؟ قال: والله يا رسول ما كفرت ولا ارتددت، ولكنني لصيقٌ في قريش، وأنا موقنٌ من نصرك، وأردت بهذا الكتاب أن أحمي

أهلي ومالي عندهم، فاغفر لي ذلك يا رسول الله "، فقال عليه الصلاة والسلام: إني صدقته فصدقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً .

هذا صبغة، هذا موقف كامل، قال المُعَلّقون على هذه القصة: عمر رآها خيانةً عظمى، فأراد أن يقتله، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام رآها لحظة ضعفٍ طارئة ألمَّت بهذا الإنسان فأنهضه وأخذ بيده . فأنت حينما تعيش مع إنسان موصول بالله، تجد من العطف والرحمة والعدل والود والتواضع والإحسان وإنكار الذات الشيء الذي لا يصدق، ولذلك :

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً (138))

مواقف وأعمال لمؤمنين تفوق حدّ الخيال:

الحياة مع المؤمنين جنة الدنيا، وإذا عشت مع مؤمن فكأنك في الجنة:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِناً، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

أخوان كُثُر يجلسون مع بعضهم بعضاً ويقولون وهم صادقون: كأننا في جنة . فهناك ود، وحب، وتواضع، ومؤاثرة، وعطاء، وبذل، أما إذا جلست مع أهل الدنيا فتجدهم كالذئاب، ينام أحدهم بعين ويفتح العين الثانية خوفاً من غدر صاحبه، والحياة معهم متعبة، ومقلقة، وكل واحد لغم قد ينفجر، فهناك مشكلة في كل تعامل، تحتاج إلى يقظة غير طبيعية، وتخاف من كل شيء، تخاف من الكذب في السِعر، وفي النوع، ومن الاحتيال، ومن تصريح كاذب، ومن توقيع كاذب، كله في غدر، وهؤلاء هم أهل الدنيا؛ فعش مع المؤمنين، قال لي أخ: والله أرجعت لأسرةٍ عشرين مليون ليرة، لا تعلم عنها شيئاً يبدو أن الأب أعطاه إياها ليعمل بها في التجارة، ومات بحادث فجأةً، ولم يخبر بها أحداً، فما الذي دفع هذا الإنسان ليعطي هذا المبلغ للورثة لأصحاب هذا المبلغ دون أن يكون مداناً ؟

هناك مواقف عدة مشرفة، سمعت بواشنطن عن سائق سيارة مسلم، ركبت معه سيدة ونسيت محفظتها وفيها مبلغ كبير جداً وحلي، فسلم هذه المحفظة للشرطة، وسمعت من أخ كريم هناك أن حاكم واشنطن أقام احتفالاً لتكريم هذا السائق، فجمع طلاب المدارس وسألهم: ماذا تفعلون إذا وجدتم محفظةً فيها هذا المبلغ وهذه الحلي ؟ فقالوا بصوت واحد: نأخذها . قال: ولكن هذا المسلم لم يأخذها أرجعها إلى أصحابها .

وأخ من إخواننا له معمل، وعنده مهندس يشكو ضيق ذات اليد، وجد ثمانمئة ألف ليرة ملقاة في كيس أسود خطأً في حي القدم، فأرجعها لأصحابها . هذه الصبغة، ورع وعفة، والله تجد من المؤمنين صفات تفوق حد الخيال، وهم موجودون في كل زمان .

حكى لنا أخ عن رجل ثري أراد أن ينشئ مسجداً، فكلف أحد إخواننا أن يبحث له عن أرض مناسبة، وجد أرضاً بحي من أحياء دمشق مناسبة جداً، قال له: هذه مساحتها مناسبة . والسعر

مناسب واتفقوا على ثلاثة ملايين ونصف، فجاء صاحب المشروع المحسن الكبير حتى يرى الأرض ويعطي بعض ثمنها لصاحبها، فحرر شيكاً بمليونين وأعطاه لصاحبها، فقال له: صاحبها أين الباقي ؟ قال: عند التنازل. قال له: التنازل لماذا ؟ قال: لأن هذه الأرض سوف تكون مسجداً، فالتنازل في الأوقاف . فقال له: مسجد !! أمسك الشيك ومزقه، وقال: أنا أولى منك أن أقدمها لله عزَّ وجل . وهذا الذي ملَّك الأرض من شهر، يعمل مستخدماً في مدرسة ابتدائية، ودخله أربعة آلاف في الشهر وعنده ثمانية أولاد، ولا يملك من الدنيا إلا هذه الأرض، ورثها مؤخراً فقدمها لله مسجداً . فمن يفعل مثل ذلك ؟ هذه الصبغة .

ترى أعمالاً من المؤمنين تفوق حدّ الخيال، بذل، وتضحية، وتواضع، وإكرام، وإنكار للذات، والإنسان يسعد بكماله أضعاف ما يسعد بلذَّاته . أمسك سيدنا عمر تفاحة قال: أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت ". إن أكلتها استمتعت بطعمها لثوانٍ معدودات، أما إن أطعمتها سعدت بهذا العمل على طول الزمن، الآن المحسنون، من حوله يصفونه بالتعب، وهو في قمة السعادة، وعمله الطيب يسعده، فالإنسان عندما يتعرف على الله عزَّ وجل يصطبغ بالكمال، إن اصطبغ بالكمال صار في خدمة الخلق وصار مع الحق، واشتق من الله كمالاً، فهو الذي يرقى به إلى الله .

أنواع الاختلاف:

قال تعالى:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139))

أي أن ربنا عزَّ وجل رب الجميع، والشيء المؤلم هذه الخصومات بين أهل الأرض ؛ فإلهنا واحد، وربنا واحد، والأنبياء الذين أرسلهم الله عزَّ وجل على أعلى درجة من الكمال، وأتباعهم يتقاتلون، وأكثر الحروب الأهلية بين الأديان، وأصحاب هذه الرسالات في أعلى درجة من الكمال والحب، وأتباعهم يتقاتلون فلماذا ؟ هذا موضوع ثان .

1- اختلاف طبيعي أساسه نقص المعلومات:

نحن عندنا اختلاف أساسه نقص المعلومات وهذا اختلافٌ طبيعي :

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً (213))

(سورة البقرة)

اختلفوا، خلاف نقص المعلومات علاجه بسيط، أن تأتي المعلومات الصحيحة، فلو فرضنا أن اليوم هو التاسع والعشرون+من رمضان، وسمعنا صوت مدفع العصر نقول: أثبتوا أن غداً العيد أم هناك انفجار في الجبل لأنهم يحفرون طريقاً ؟ صار هناك خلاف ناجم عن نقص معلومات، فتحنا المِذياع

فإذا بالقاضي الشرعي يثبت أن غداً العيد، صوت مدفع ثان، فمعنى ذلك أن الخلاف كان موجوداً بسبب نقص المعلومات، فلما جاءت المعلومات الدقيقة والصحيحة زال هذا الاختلاف .

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ (213))

(سورة البقرة)

معنى ذلك هناك خلاف طبيعي لا يمدح ولا يذم، علاجه المعلومات الدقيقة، ولكن أحياناً تكون المعلومات واضحةً جداً ؛ إلهٌ واحد، وكتابٌ واحد، ورسولٌ واحد، ومنهجٌ واحد والمسلمون فرقٌ وجماعات، وطوائف، ومذاهب، واتجاهات، وكلهم يطعن بالآخر وهذا اختلاف من نوع قذر .

2- خلافٌ قذر أساسه الحسد والبغي والعدوان:

قال تعالى:

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 19)

هذا اختلاف بغي، وحسد، ومنافسة، ولذلك هناك دعوةٌ إلى الله خالصة، ودعوةٌ إلى الذات ساقطة، والدعوة إلى الذات من خصائصها الابتداع، ومن خصائصها التنافُس، وجحود ما عند الآخرين، والنزعة العدوانية، وأية فرقةٍ ضالةٍ إلى يوم القيامة تؤله الأشخاص، وتخفف التكاليف، وتعتمد نصوصاً موضوعة، وذات نزعة عدوانية، وأية فرقةٍ ضالةٍ تنطبق عليها هذه الخصائص .

فالخلاف فيما بين المسلمين أنواع ثلاثة، الخلاف الأول خلاف طبيعي، حيادي لا يمدح ولا يذم، والخلاف الثاني خلافٌ قذر أساسه الحسد والبغي والعدوان والتنافس والمصالح .

3- خلافٌ محمود أساسه التنافس:

هناك خلاف ثالث محمود، خلاف التنافس:

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ (213))

(سورة البقرة)

إنسان تصوَّر أن أعظم عمل في حقل الدين أن يكون مفسراً، وإنسان آخر أعظم عمل عنده أن يكون محدِّثاً، وثالث أن يكون مفكراً في عقيدة الدين، ورابع أن يكون محسناً، وخامس أن يكون داعيةً، وسادس أن يكون مؤلفاً، فيختلف العلماء فيما بينهم اختلاف تنافس، قال الله عزَّ وجل:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

وقال:

(قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة يونس)

معنى ذلك هناك اختلاف تنافس وهذا ممدوح، اختلاف تناحر وهذا اختلاف قذر، واختلاف نقص معلومات وهذا اختلاف طبيعي .

تقويم الأشخاص من شأن الله تعالى:

قال تعالى:

(قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ)

لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، أي أن كل إنسان احتَّل عند الله مكانة، بمعرفته، واستقامته، وعمله الصالح، ونيته . فهذه المكانة لا يرفعها مديح أحد ولا يخفضها ذم أحد، وتقويم الأشخاص من شأن الله تعالى، ولذلك لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، وكفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، وأكبر نصر تحرزه على عدوك أن تكون أنت في طاعة الله وهو في معصية الله، ولذلك لا تعاقب من عصى الله فيك بأكثر من أن تطيع الله فيه .

قال أحدهم لعالم: إنني أشفق عليك مما يقوله عنك الناس ظلماً وافتراءً . فقال: هل سمعت مني عليهم شيئاً ؟ قال: لا . قال: عليهم فأشفق، أنا أطعت الله فيهم فلم أتكلم ولا كلمة، وهم عصوا الله فيَّ فنهشوا لحمي واغتابوني .

سأل أحدهم عالماً: هل اغتبتني ؟ قال: ومن أنت حتى أغتابك، من أنت ؟ لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت أبي وأمي، لأنهم أولى بحسناتي منك . فيجب أن توقن أنك إن اغتبت أخذ الذي اغتبته من حسناتك يوم القيامة:

(وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (139))

الحمد لله على وجود الله ـ كلمة دقيقة جداً ـ الله موجود، ويعلم كل شيء، ومطلع على كل شيء، ويعلم السر وأخفى، يعلم ما تُسر ويعلم ما يخفى عنك، ويعلم حجم كل عمل، العمل ؛ حجمه، تضحيته، نياته، أهدافه، مؤدَّاه .

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2))

(سورة التغابن)

لذلك من عرف نفسه ما ضرَّته مقالة الناس به:

(وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى (140))

الانتماء الشكلي:

الانتماء الشكلي مشكلة، إذا كانت هوية الإنسان أنه مسلم، وأن أباه مسلم، وأمه مسلمة، ولم يكن مطيعاً لله عزَّ وجل، فما قيمة هذا الانتماء الشكلي ؟ إذا كان انتماؤك إلى المؤمنين المسلمين انتماء

شكلياً، وانتماء الشخص الآخر إلى دين ثان انتماء شكلي، وانتماء فلان إلى دينٍ ثالث انتماء شكلي، وإنسان لم ينتم إلى أي دين .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (62))

(سورة البقرة)

انتماء للإسلام شكلي:

(وَالَّذِينَ هَادُوا (62))

(سورة البقرة)

انتماء لليهودية شكلي:

(وَالنَّصَارَى (62))

(سورة البقرة)

انتماء للنصرانية شكلي:

(وَالصَّابِئِينَ (62))

(سورة البقرة)

من لم ينتم إلى أحد، هم عند الله سواء .

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ (62))

(سورة البقرة)

من آمن بالله من هؤلاء إيماناً حقيقياً، وإيماناً دقيقاً عميقاً أساسه البحث والتأميل والتصديق والعمل والإقبال:

(وَعَمِلَ صَالِحاً (62))

(سورة البقرة)

هذا هو الناجي:

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62))

(سورة البقرة)

مثلاً أربعة محلات تجارية لا يوجد فيها بضائع إطلاقاً، ولكن عليها لافتات مختلفة في كلماتها وإضاءاتها، اختلاف اللافتات لا يقدم ولا يؤخر، العبرة بالبضاعة، ولا توجد بضاعة، ولذلك الشيء المؤلم في معظم بلاد العالم حروب أهلية على أساس ديني، وهذا الذي يطهر عرقياً، سلوكه، وعقليته، ومخالفاته كالذي يُطَهِّرُهُ، انتماء شكلي، والعبرة أن يكون الإنسان مسلماً حقيقةً .

أكبر المعاصي أن تقول على الله بخلاف ما تعلم :

قال تعالى:

(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ (140))

هم على مِلة سيدنا إبراهيم:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

وقال:

(قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ (140))

ربنا عزَّ وجل في تسلسل تصاعدي للمعاصي بدأ بالفحشاء والمنكر، وثنى بالإثم والعدوان، ثم جاء الشرك، ثم جاء الكفر، في تسلسل تصاعدي، وجعل الله على رأس هذه المعاصي الكبيرة:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

لذلك الإمام الغزالي رحمه الله تعالى قال: **" لأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون "** . فهذا الذي يقول على الله ما لا يعلم، ما قولك إذا وازنته بمن يقول على الله بخلاف ما يعلم ؟ أن تقول على الله ما لا تعلم فوق الفحشاء والمنكر، وفوق الإثم والعدوان، وفوق الشرك والكفر، أما أن تقول على الله بخلاف ما تعلم فهذه جريمة .

الآثم و المجرم :

قال تعالى:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ (140))

كتم شهادة، اليهود يعرفون النبي عليه أتم الصلاة والتسليم كما يعرفون أبناءهم، هل في الأرض معرفةٌ سريعةٌ، فطريةٌ، يقينيةٌ، بديهيةٌ، لا تخطئ كمعرفة الأب لابنه ؟! وهل في الأرض أب يقول لابنه: ما اسمك يا بني ؟ وأين هويتك ؟ ومن أمك ؟ مستحيل .

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة الآية: 146)

ومع ذلك كتموا هذه الشهادة، لذلك :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ (140))

لذلك الذي يفتي وهو لا يعلم آثمٌ عند الله، أما الذي يفتي بخلاف ما يعلم مجرمٌ عند الله، تعرف حقيقة وتتكلم عكسها ؟! تعرف أن إنساناً على حق وتطعن فيه حتى تفك عنه إنساناً ولتغيظ إنساناً !! إنسان مستفيد من جهة، تقول له هذه السورة وتعلم أنت أنه على حق ومرشده على حق، فتنزل له هذه السورة كي تشفي غليلك !! هذه جريمة .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140))

الله عزَّ وجل مطلع لا تخفى عليه خافية :

الله عزَّ وجل مطلع، لا تخفى عليه خافية:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ(19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ(20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(26) يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ(28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ(29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ(32))

(سورة الحاقة)

وقال:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140))

أشقى الناس هم الذي يقفون في خندقٍ مناهضٍ للدين :

أخي الكريم، أنت حينما تتصدَّى للدين، أو تحارب المؤمنين، أو تطعن بهم وأنت موقنٌ أنك لست على حق وهم على حق، هل تعلم من هو الطرف الآخر ؟ قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم الآية: 4)

ما معنى هذه الآية ؟ هل من المعقول:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

كلهم ضد هاتين المرأتين، علماء التفسير قالوا: ليس هذا هو المعنى، المعنى أنك حينما تريد أن تطعن بالدين، أو أن تحارب أهل الحق، اعلم من هو خصمك ؟ اعلم من هو الطرف الآخر ؟ أشقى الناس هم الذي يقفون في خندقٍ مناهضٍ للدين، هذا أشقى إنسان، والمعركة خاسرة:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ (32))

(سورة التوبة)

هل تستطيع أن تنفخ في الشمس فتطفئها ؟ لسان لهبها يزيد طوله عن مليون كيلو متر، وبعد أيام سوف يشاهد من يسكنون في الشمال الشرقي من بلدنا الكسوف الكامل، تغيب الشمس كلياً لدقيقتين فقط، ويمكن أن يرى الإنسان خمسة كواكب ؛ زهرة، وعطارد، والمريخ، والمشتري، وزحل أثناء الكسوف، ويمكن أن يرى الناس الانفجارات على سطح الشمس، وألسنة اللهب التي تمتد إلى مليون كيلو متر في الكسوف، ومع ذلك الشمس آيةٌ من آيات الله عزَّ وجل . وبالمناسبة يحذر الأطباء من

التحديق في قرص الشمس في أثناء الكسوف، إلا بنظارةٍ خاصة مصنعةٍ لهذا الهدف، أعتقد أنها غير موجودة، فالأولى أن نعرض عن التأمل في قرص الشمس، وهنا في دمشق في الأعم الأغلب الكسوف جُزئي، أما في الشمال أي في الجزيرة على ما أعتقد أنه يمكن أن يرى الناس الكسوف الكلي، أي تغيب الشمس وتظلم الأرض هناك، ويمكن أن نرى النجوم ظهراً حقيقةً لا مجازاً في هذا الوقت .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140))

أنت حينما تعلم أن الله يعلم تستقيم أمورك .

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141))

وكل إناءٍ بالذي فيه ينضحُ .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (48- 95):تفسير الآيات 142 - 147 ، الدين الإسلامي هو دين الوسطية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-07-16

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى حينما كلَّف الإنسان حمل الأمانة جعله مخيراً:

مع الآية الثانية والأربعين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142))

أيها الأخوة الكرام، في هذه الآية نقاطٌ كثيرة، من أبرز هذه النقاط أن الله سبحانه وتعالى حينما كلَّف الإنسان حمل الأمانة جعله مخيراً:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية: 148)

وقال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف)

وقال:

(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

تؤكد هذه الآيات كلها أن الإنسان مخيَّر، وإذا سعد الإنسان بهذا الاختيار فلأن الله شاء له أن يختار، إذا اختار طاعة الله عز وجل والتقرب منه استحق دخول الجنة .

الإنسان مخير في حدود ما كُلِّف:

لولا أن الله سمح له أو أذن له أن يكون مختاراً لما اختار، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة التكوير)

لولا أن الله شاء الله لكم أن تكونوا أصحاب مشيئةٌ حرة لما شئتم، إذاً لأن الإنسان حمل الأمانة، وكلف طاعة الله عز وجل، كان مخيراً من أجل أن يثمن عمله، ولكن الله طليق الإرادة، أي شيءٍ يعطيك إيَّاه يأخذه منك في أية لحظةٍ، فالإنسان في الأساس مسير حينما يولد، مسير في أمه وأبيه،

وعصره وزمانه، ومكانه وقدراته، وما إلى ذلك مما ليس له اختيارٌ فيه، وهذه الأشياء التي سُيِّرت فيها هي أكمل شيءٍ إليك، ليس في إمكانك أبدعُ مما أعطاك، ثم أنت مخيَّر في حدود ما كُلِّفت .

أنت مخير في دائرة التكليف افعل ولا تفعل، أمرك أن تصلي، بإمكانك أن تصلي وأن لا تصلي، أمرك أن تكون صادقاً، بإمكانك أن تصدق أو أن تكذب، أمرك أن تغض البصر، بإمكانك أن تغض وأن تطلق، أنت مخير في حدود ما كلفت، ولكن ولأن الله رب العالمين، من أجل أن يربيك تربية تقيك دخول النار، لو أنك اخترت اختياراً غير صحيح لأدبك الله عز وجل .

مع التأديب يُسْلَب الإنسان اختياره ليؤدَّب أو ليكافأ :

كيف يؤدبك الله ؟ يأخذ من كل ذي لبٍ لبَّه، ثم يسوقه إلى مصيبة، أنت الآن مسيرٌ، مسيرٌ بدفع ثمن اختيارك، فكنت مسيراً حينما ولدت، من قبل أمك وأبيك، فكونك ابن فلانة وابن فلان، أنت فيهما مسيراً، وولدت في دمشق مثلاً، وفي عام كذا، أنت فيه مسير، وقدراتك كذا وكذا أنت فيه مسير، ثم حُمِّلْتَ الأمانة، وحملت أن تكون مخيراً فيما كلفت، حينما تستخدم هذا الاختيار بشكلٍ غير صحيح يأتي التأديب رحمةً بك، مع التأديب يُسْلَب الإنسان اختياره ليؤدَّب أو ليكافأ، وهذا هو معنى قول النبي الكريم:

((إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

لماذا حولت القبلة الآن من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ؟ لأن قريش قالت: هذه الكعبة ليست بيت الله إنها بيتنا وبيت آبائنا وأجدادنا . والأصنام من حول الكعبة، فلحكمةٍ أرادها الله عز وجل أمر بتحول القبلة من مكة المكرمة إلى بيت المقدس .

وقال اليهود: يعارض ديننا ويتَّجه إلى قبلتنا . أراد الله عز وجل أن يكون الإسلام شاملاً لكل الأديان، فتوجه إلى بيت الله الحرام:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

ثم أمر بالتوجه إلى بيت المقدس، المكان الذي جاءت فيه نبَّوات سيدنا موسى وعيسى، ثم حولت القبلة إلى مكة المكرمة ثانيةً، فهؤلاء الذين رأوا أن القبلة حولت من مكان إلى مكان، هم عند الله سُفَهاء، علم الله عز وجل أنهم سيقولون، قال:

(سَيَقُولُ (142))

حينما نزلت هذه الآية هل قالوا ؟ لم يقولوا، السين للاستقبال:

(سَيَقُولُ (142))

هؤلاء الذين سيقولون وصفهم الله عز وجل بأنهم سفهاء .

تعريف السفيه :

من هو السفيه ؟ السفيه هو الذي يبدد ماله أو قدراته بلا جدوى . أوضح مثل لو أن إنساناً أمسك ألف ليرة وأحرقها أمامك بلا سبب، وبلا هدف هو سفيه، وأنا مضطر أن أسوق الموضوع إلى فرع ثم أعود إلى أصل الموضوع، مُرَكَّب في الإنسان أن الوقت أثمن من المال، بدليل أن الذي ـ لا سمح الله ولا قدَّر ـ يصاب بمرضٍ عضال، وهناك عملية جراحيةٌ في بلدٍ بعيد، ربما أمدت في عمره بحسب قول الأطباء سنواتٍ معدودات، يبيع بيته وكل ما يملك ليجري هذه العملية التي يأمل أن يعيش من خلالها سنواتٍ معدودات، ما معنى ذلك ؟ أن الوقت أثمن من المال، فالذي يُبدد المال يُتَّهم بالسفه، والذي يبدد الوقت هو أشد سفاهةً .

هذا الذي يجلس يُمضي ساعاتٍ وساعات وراء المسلسلات التي لا طائل منها، هذا الذي يمضي ساعاتٍ وساعات في حديثٍ فارغٍ لا جدوى منه، هذا الذي يمضي ساعاتٍ وساعات في لعب النَرد، هذا يُعَدُّ أشد سفهاً من الذي يبدد المال لأنه يبدد الوقت الذي هو أثمن من المال، السفيه إنسان غير عاقل، إنسان يتلف الجوهر ويبحث عن الفحم، يُهمل اللؤلؤ ويأخذ الأصداف، السفيه لا يلتفت إلى النفيس ويتَّجه إلى الخسيس، هذا هو السفيه .

ثم إن الإنسان حينما يرفض شيئاً يعبِّر عن احتقاره له، إن رفض بيتاً فلأنه صغير، أو لأنه في منطقةٍ ليست مناسبة، أو لأن اتجاهه نحو الشمال، إن رفضت عملاً فلأن دخله قليل، إن رفضت فتاةً لأن أخلاقها لا تُعجبك، إنك حينما ترفض تحتقر هذا المرفوض، إلا في شيءٍ واحد حينما ترفض الدين فإنك تحتقر نفسك:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

(سورة البقرة)

السفيه هو الذي يردُّ النفيس ليأخذ الخسيس، هو الذي يرد الثمين ليأخذ الرخيص، هو الذي يزهد في الآخرة ليأخذ الدنيا الفانية هذا سفيه، وكل إنسانٍ ما عرف الله سفيه ولو كان أذكى الأذكياء ولو حمل أعلى الدرجات، السفاهةُ أن تعرض عن النفيس وتتبع الخسيس .

إذا كان الإنسان مع الشيطان فهمَّه الانتقاد:

هؤلاء الذي أشركوا، والذين ابتعدوا عن الله، والذين شردوا عنه، والذين غرقوا في المعاصي والآثام، هؤلاء عند الله سفهاء، والسفيه دائماً يعترض، وينتقد، ويطعن . اجلس في أي مجلس تجد أن همّ الناس الوحيد أن يطعنوا في الدعاة إلى الله، أن يطعنوا بالمؤمنين، ليس له هم إلا الطعن، لأنه حينما يطعن يتوهم أنه يستعيد توازنه، هو حينما خرج عن منهج الله، وحينما عصى الله عز وجل، وخالف قوانين فطرته اختل توازنه الداخلي، فحينما يتَّهم المؤمنين الصادقين باتهاماتٍ باطلةٍ لا

أصل لها هو يستعيد توازنه، فهؤلاء السفهاء رأوا أن القبلة تحوَّلت من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ثم إلى مكة المكرمة:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا (142))

لماذا رجعوا إلى مكة المكرَّمة ؟ بربكم لو أن هؤلاء الناس الذين وصفوا بأنهم سفهاء، وأنهم سيقولون كذا وكذا، لو أنهم سكتوا ماذا فعلوا ؟ لو سكتوا لأبطلوا القرآن، من أجل أن تعلم أن إرادة الله طليقة، يفعل ما يشاء، وصفهم الله مُسبقاً بأنهم سفهاء، وأنهم سوف يقولون كذا وكذا، وبالفعل هكذا قالوا:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا (142))

إذا كان الإنسان مع الشيطان يكون همُّه الانتقاد، لسانه لا يفتر، ينتقد دائماً، يجد متعةً في النقد، عمل تخريبي، عمل شيطاني، عمل فيه أذى، ليس له همٌّ ثان إلا أن ينتقد زيداً وعبيداً وفلاناً وعلاناً، هو لا يقدم شيئاً ولا يفعل شيئاً، هذا النموذج قذر، مُنحط، نموذج يكرهه الله عز وجل، ماذا قدَّمت ؟ لا يقدِّم شيئاً، ينتقد كل شيء، من هذا القبيل :

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ (142))

ليس هناك مكان مقدس لذاته إلا أن يقدِّسه الله عز وجل :

ليس هناك مكان مقدَّس لذاته ـ هذه نقطة مهمة جداً ـ ليس هناك مكان مقدس لذاته إلا أن يقدِّسه الله عز وجل، فالله عز وجل أمر الإنسان وهو سيِّد المخلوقات أن يقبِّل الحجر الأسود، والتسلسل كما تعلمون ؛ جماد، نبات، حيوان، إنسان . أمر الله أشرف مخلوق أن يقبل أقل مخلوقٍ رتبةً، وفي منسكٍ آخر أمره أن يرجم حجراً في الجمرات التي هي رمزٌ لإبليس، لا يوجد مكان مقدس، الله عز وجل يقدس الشيء أو يهدر كرامة الشيء، ولذلك سواء توجَّه المسلمون إلى بيت المقدس، أم إلى مكة المكرمة، هم يتوجَّهون إلى الله عز وجل، وليس هناك مكان مقدس في ذاته .

(قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142))

يهديه الله عز وجل إلى طريقٍ مختصر، المستقيم هو أقصر طريق بين نقطتين، يهدي من يشاء مرضاة الله عز وجل، من يشاء رحمة الله، من يشاء محبة الله، من يشاء الفوز بالجنة والنجاة من النار .

(مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142))

أيها الأخوة، لو أن الله عز وجل قال: تحوَّلوا عن مكة المكرمة للعلة الفلانية، وتوجهوا إلى بيت المقدس للعلة الفلانية، هذا الأمر فقد قيمته التعبُّدية، حينما أعطيك أمراً لمصلحتك الواضحة الصارخة أقول لك: افعل كذا من أجل كذا . أنت تقبل على تنفيذ هذا الأمر، لا حباً بالآمر، ولكن

حباً بذاتك، فقد الأمر قيمته المعنوية، وقيمته التعبُّدية . يقول لك أحدهم: أنا أصلي لأنني قرأت مقالة أن الصلاة فيها رياضة . ليس له أجر فيها، ولا قيمة لهذه الصلاة إطلاقاً، أو أن يقول: أنا أصوم لأنني شعرت أن الصيام أريح لجسمي، أحس براحة، أحس بخفة، وأجد أمعائي تحسنت، ونشاطي ازداد، فأنا أصوم والحمد لله . هذا ليس صيام تعبُّد، هذا صيام رجيم، هذا صيام مصلحة .

لو أن الأمر الإلهي جاء معللاً لفقد قيمته التعبُّدية، توجَّهوا إلى بيت المقدس للعلة الفلانية، توجهوا إلى مكة المكرمة للعلة الفلانية، إلهٌ عظيم يحب أن يرى انصياعنا لأمره، لذلك قال علماء الأصول: علة كل أمرٍ أنه أمر .

أمر الله هو المقدس :

لا أنسى هذا الموقف الذي وقفه إنسان غربي أسلم بعمق، حين التقى بعالمٍ من علماء دمشق، وطرح موضوع لحم الخنزير، وهذا العالم أفَاض وأفاضَ، وشرح وأطال وأطنب في مضار لحم الخنزير، فابتسم هذا الإنسان الغربي المسلم وقال: كان يكفيك يا أستاذ أن تقول لي إن الله حرمه . يكفي، كلام الله، إلهٌ عظيم هو العلم، والخبرة، والرحمة، والحكمة، هو الخالق، يقول لك: لا تفعل هذا . انتهى الأمر .

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142))

ليس للأمكنة قداسةٌ بذاتها، إلا أن يأمرك الله أن تشد الرحال إليها، أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام وهو لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، أن نشُدَّ الرحال إلى مكة المكرمة ، وإلى بيت المقدس، وإلى المدينة المنورة:

((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى))

[البخاري عن أبي هريرة]

نرجو الله سبحانه وتعالى أن يتاح لنا في القريب العاجل أن نزور المسجد الأقصى. لا يوجد مكان مقدس في ذاته أمرنا الله عز وجل أن نشُد الرحال إليه، فالتقديس هو لأمر الله، أمر الله هو المقدس، قال الله عز وجل: دعوا مكة لأن قريشاً يقولون إنها بيتنا وليست بيت الله، إنه بيتنا وبيت آبائنا وأجدادنا . وفيها ما لا يحصى من الأصنام، لذلك قال الله عزَّ وجل: دعوا مكة المكرمة واتجهوا إلى بيت المقدس، ولعل في هذا الاتجاه الجديد حكمةً بالغة ذلك أن الإسلام هو خاتم الأديان، أو خاتم الشرائع إن صح التعبير، وأن هذا الدين يستوعب كل الشرائع السابقة، فلذلك نحن نقدس بيت الله الحرام، ونقدس بيت المقدس الذي هو مهبط الرسالات السماوية، ومسرى نبينا عليه الصلاة والسلام .

لكن هذه الآية فيها إعجاز، أي أن الله عز وجل طليق الإرادة، وفي أية لحظةٍ يسلب ما أعطاك إياه، فلو فكر هؤلاء الناس السفهاء لحظةٍ، هم وصفوا بأنهم سفهاء، وسوف يقولون كذا وكذا، لو سكتوا لأبطلوا القرآن، ولكنهم لا يستطيعون .

مخاطبة الله عز وجل الأمة العربية :

قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

يخاطب الله الأمة العربية :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

هذا الموضوع يحتاج إلى بعض التفصيل، أمة وسطاً أي وسطاء بين الله وخلقه، وهذا تكريمٌ عظيم:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(104))

(سورة آل عمران: 104)

وقال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

من أدق معاني كلمة

(كُنْتُمْ)

في هذه الآية، أي أن كلمة " كنتم " في هذه الآية تعني أصبحتم، أي عندما جاءتكم هذه الرسالة على رسول منكم من هذه الأمة العربية .

علة الخيرية:

قال تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

عِلَّة الخيرية أنكم:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

لو أن هذه الأمة تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعادت بشراً ممن خلق الله عز وجل :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: من آية " 18 ")

أشرف مرتبة تنالها الأمة العربية أنها أمة وسط :

حينما نعصي، وحينما يهون أمر الله علينا، نهون على الله، وهذا ما ترونه وكأن الله تخلَّى عنا، لأن أمر الله هان علينا فهنا على الله:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

وقال:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

أي أنتم وسطاء بين الله وبين خلقه:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

فَاذْكُرُونِي أي أنتم وسطاء، أي كما هديتكم كونوا هداةً للخلق، وهذه أشرف مرتبة تنالها الأمة العربية، أن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه بلسانٍ عربيٍ مبين، وجعل هذه الأمة وسطاً، أو وسطاء بين الله وبين خلقه، لـذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا سلمان الفارسي:

((يَا سَلْمَانُ لا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَبْغَضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ ؟ قَالَ: تَبْغَضُ الْعَرَبَ فَتَبْغَضُنِي))

[الترمذي عن سلمان]

ديننا يأمرنا أن نعيش الواقع بقيَمٍ مثالية:

يجب أن لا يسترسل الإنسان في تعداد مثالب هذه الأمة، ليس هذا مقبولاً عند الله نرجو الله أن يصلح الناس جميعاً، وأن نكون وسطاء لله بين الله وبين خلقه، وأن نعيد لهذه الأمة مجدها، لأن النبي عليه الصلاة والسلام جاء في الجاهلية إلى أمة كانت تأكل الميتة، وتعبد الأصنام، وتسيء الجوار، وتقطع الرحم، وتكذب، وهي غارقة في الخمور والربا، وغارقة في الزنا، كانت عشر أنواع من الانحرافات في الزواج متفشية فيها، كما قال سيدنا جعفر: **" كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحِّده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء " .**

إذاً أمةً وسطاً، أي وسطاء بين الله وبين خلقه . تحدثت في خطبةٍ قديمة عن الوسطية في الإسلام، وهو موضوع دقيق جديد جدّاً، ومفصَّل، ومبوَّب، أرجو أن تعودوا إليه الوسطية في الإسلام .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

هناك أممٌ آمنت بآلهةٍ متعددة، وهناك أممٌ أنكرت وجود الله، ونحن المسلمون آمنا بلا إله إلا الله:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

هناك أممٌ غرقت في المادة إلى قمة رأسها، وهناك أممٌ عاشت مثاليةً خياليةً غير واقعية، هؤلاء تطرَّفوا، وهؤلاء تطرَّفوا، أما نحن والحمد لله فديننا دين الواقع، ودين الفطرة، بل إن ديننا يأمرنا أن نعيش الواقع بقيَمٍ مثالية، قال عليه الصلاة والسلام:

((أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عن أنس بن مالك]

ديننا دين الفطرة والوسطية:

نحن ديننا دين الفطرة، دين الوسطية، الإنسان مأمور أن يعبد الله وأن يسعى لرزق يومه، ما من شهوةٍ أودعها الله فينا إلا فتح لها قناةً نظيفة تسري خلالها، دين وسطي، الأمة التي تطرفت عادت الآن إلى وسطية الإسلام بضغط من الواقع، عادت شعوب الإسلام الآن مُكرهة . الأمةُ التي تطرفت عادت الآن إلى وسطية الإسلام بضغطٍ من الواقع السيئ الذي نتج عن هذا التطرُّف، لا عن تعبُّدٍ ولكن عن رجوعٍ إلى مصالحها .

مثلاً الاتحاد السوفيتي حرم الخمر قبل أن ينهار، كثير من القوانين الآن تصدر مطابقة لتعليمات الشرع، مثلاً منعت بعض الجامعات في أمريكا الاختلاط، لأنهم وجدوا أن عدد اللقطاء في الحدائق أصبح لا حدود له، فحرمت الاختلاط، سمعت أن بعض البلاد في أوروبا حرَّمت الخمر، الخمر مثلاً محرم في السويد، لا يستطيع الإنسان هناك أن يشرب الخمر إطلاقاً إلى أن يذهب إلى الدنمارك، فالآن الشعوب المتطرفة يميناً أو يساراً عادت إلى الإسلام لا عن تعبُّدٍ، ولا عن طاعةٍ لله، ولكن عن مصلحةٍ، فديننا دين وسطي بين تعدد الآلهة وبين إنكار الآلهة، بين إنكار النبوة أو بين أن يتهم الأنبياء كما في العهد القديم بالفسق والفجور والزنا وما إلى ذلك، أنبياؤنا عبادٌ مكرَّمون:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

بعض معاني الوسطية:

هناك من لا يعمل وهو زاهدٌ في الدنيا، وهناك من يعمل وينسى كل شيء، نحن أُمرنا أن نعمل وأن نعبد الله وأن نصلي خمس صلواتٍ كل يوم، في أي موضوع وصفه الإسلام كان وسطياً، إذا

ضربك إنسان على خدك الأيمن، في بعض الأديان يجب أن تدير له خدك الأيسر ليضربك عليه صفعةً ثانية، ولكن الله عز وجل قال:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40))

(سورة الشورى)

هناك وسطية، لو عدتم إلى هذه الخطبة الوسطية في الإسلام لوجدتم فيها كل شيء، بحث مطوَّل جداً:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

وسطاء من جهة، والوسط دائماً مركز الدائرة، المركز في الوسط والمحيط يساوي الأطراف، فالإسلام في الوسط، مكان تقاطع الأفكار، لا يوجد تقاطع في التطرف، أما الوسط فيه تقاطع، هذا المعنى رياضي أيضاً، الشمس لا تكون في أشد سطوعٍ إلا وهي في وسط النهار، فالوسط اعتدال، والوسط قوة، والوسط عَدْل، والوسط توسط بين شيئين متطرفين، هذه كلها من معاني الوسطية:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

ديننا دين متوازن:

ديننا متوازن، بين عدم الزواج كلياً، وبين الزنا من دون قيد أو شرط، لدينا زواج، وفي حالات خاصة مسموح بثانية وثالثة ورابعة:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

ترك العمل تطرُّف، والانغماس بالعمل تطرف:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

وقال:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ (37))

(سورة النور)

وقال:

(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (143))

تشهدون لهم الحق:

(وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (143))

أعظم داعية هو الذي يتكلم من خبرات يعيشها :

أرسل الله عز وجل هذا النبي الكريم الذي هو سيِّد الأنبياء والمرسلين لهذه الأمة المباركة، وكلَّف هذه الأمة كما أن النبي شهد لها بالحق أن تشهد للناس بالحق . الذي يرى ويتكلم عما رأته عينه يكون كلامه بليغاً جداً، أما إذا سمع فقط !! إذا شخص لم يذهب إلى بيروت إطلاقاً، وقلنا له: صف لنا بيروت، يقول: والله قرأت عنها أنها على الساحل، قرأت عنها أنها محاطة بجبال خضراء، ما أدري مبلغ هذا الكلام من الصحة . أما لو عاش إنسان في بيروت وقلت له: صف لنا بيروت . يتكلم بطلاقة وبوضوح، وبقوة تأثير عجيبة، ينقل لك خبراته، فلذلك إذا أراد الإنسان أن يدعو إلى الله، يجب أن لا تتكلم بشيءٍ لست قانعاً به، لا تتكلم بشيءٍ لست واثقاً منه، لا تتكلم بشيءٍ لا تراه رأي العين، حينما تشهد اشهد للناس، لذلك أعظم داعية هو الذي يتكلم من خبرات يعيشها، من حقائق يلمَسها، من أفكار هو قانع بها، هذه هي الدعوة .

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (143))

هذه الأمة العربية التي شرفها الله وكرَّمها، ونقلها من رعاة الغنم إلى قادة الأمم، وأمرها أن تكون وسطاً بين الله وبين خَلقه، ماذا حل بها ؟

مرة كنت في أمريكا، وسمعت خطبة لإنسانٍ باكستاني، قال في هذه الخطبة شيئاً لطيفاً، وهو يخاطب المصلين وأكثرهم من الأمة العربية ـ توجد جالية عربية كبيرة جداً في مدينة هناك ـ قال: أنتم سادتنا نحن بكم هدانا الله عز وجل، لولاكم لكنا عباداً للأصنام، عُباداً للنيران ـ ذكر من فضل هذه الأمة على بقية الشعوب ما يشعر الإنسان بأن هذه الأمة أعلى الأمم ـ قال: ما لكم نسيتم هذه المُهمة، ما لكم نسيتم هذا الشرف العظيم الذي منحكم الله إياه، أنتم في بلاد تبيعون الخمر، أهكذا كان آباؤكم وأجدادكم ؟! بعد أن أثنى على هذه الأمة الثناء العطر، ذكر مثالبهم في بلاد الغرب، فأنت يجب أن تفتخر أنك تنتمي إلى أعظم أمة، إلى أمةٍ أنزل الله القرآن الكريم بلسانها .

واقع الأمة المؤلم:

قال تعالى:

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(3))

(سورة الزخرف)

وقال:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(195))

(سورة الشعراء)

تنتمي إلى أمةٍ هي الوسيطة بين الله وبين خلقه، وسيطة، ومتوسطة، ومعتدلة، وقوية، ونيِّرة، وعادلة، هذه معاني الوسطية كلَّها .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (143))

إنك حين ترى واقع الأمة المؤلم، لماذا تتألم ؟ أين كنا وأين أصبحنا ؟ فبعض المسلمين أو أكثرهم فتنوا بالغرب، فعاشوا حياة الغرب، ونسوا دينهم، والأمانة التي حملهم الله إيَّاها، وعاشوا في انفصامٍ في شخصيتهم، يعتزون بدينهم وبماضيهم، ويضربون في هذه الحضارة المتوهِّجة التي نسوا فيها أوامر ربهم، هذه حالة صراع، وحالة انفصام شخصية، تصيب كل إنسان لم يقو إيمانه بحيث يتجاوز كل هذه العقبات والصوارف، بل جعله إيماناً وسطاً، إيماناً ضعيفاً جذبته هذه القوى من يمينٍ أو من شمال .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ (143))

التحول للقبلة امتحان عبودية:

التحول للقبلة امتحان عبودية، إذا كان الأب جالساً على المائدة، والطعام نفيس، وابنه جائع، ولهذا الأب يدٌ طويلة في تربية ابنه وفي إكرامه، قال له: يا بني لا تأكل . فإذا كان هذا الابن يعرف قدر أبيه، وحكمة أبيه، ومحبة أبيه، ورحمة أبيه ينصاع للأمر ولو لم يفهم الحكمة . بطولتك أن تنصاع للأمر ولو لم تفهم الحكمة، لماذا ؟ لأن الحكمة إذا توضَّحت تماماً فقد الأمر قيمته التعبُّدية، وأقبلت عليه طمعاً بمصلحتك الشخصية، لكن الله يُريدك عبداً له، لذلك من حين لآخر تأتي أوامر قد لا تفهمها أنت:

(إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ (143))

الإنسان غير المهتدي، المتعلق بالتقاليد والعادات لا يحتمل، فيقول لك مثلاً: هذه الكعبة بيت الله، لماذا انصرف عنها المسلمون إلى قبلة اليهود ؟!

(وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143))

زوال الكون أهون عند الله من أن تدع شيئاً لله دون أن تأخذ شيئاً أثمن منه:

الله عز وجل خلقنا ليسعدنا، وخلقنا لنصل إليه، وخلقنا كي نعرفه، فهل يعقل أن يكون من أفعال الله ما يبعدنا عنه ؟ مستحيل، أب همه الأول أن يكون ابنه متعلماً، فهل من المعقول أن يمنعه يوم الامتحان من تقديم الامتحان ؟ هذا يتناقض مع هدف الأب كلياً .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

والله أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو، هذه عبارة أستخدمها كثيراً: زوال الكون أهون على الله من أن تتودد إلى الله ثم يضيّعك، من أن تؤثر جانب الله على مصالحك ثم يضيعك، زوال الكون أهون عند الله من أن تدع شيئاً لله دون أن تأخذ شيئاً أثمن منه:

((ما ترك عبد لله أمراً لا يتركه إلا لله إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

هذا كلام مستحيل، مستحيل أن تخاف من الله وأن يخيفك من أحد، مستحيل وألف مستحيل أن تقلق على مصيرك في الآخرة وأن تضيّع الآخرة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

هذه

(وَمَا كَانَ اللَّهُ)

أيها الأخوة أشد أنواع النفي في القرآن، أنا مثلاً أسأل إنساناً: هل سرقت هذا المبلغ ؟ إذا قال لك: لا . هو قد يكون سارقاً، ولكنه لم يسرق هذا المبلغ، أما إذا قال لك: ما كان لي أن أسرق . إذ قلت له: هل أنت جائع ؟ يقول لك: لا . الجوع ليس عاراً، أما إذا قلت له: هل أنت سارق ؟ يقول لك: كلا . أداة ردع ونفي، أو ما كان لي أن أسرق، أي هذا ليس من شأني، ولا من طبيعتي، ولا من مكانتي، ولا من رغبتي، ولا أرضاه، ولا أفعله، ولا أفكر فيه، ولا أقر عليه، هناك تقريباً عشر أفعال منطوية في كلمة: وما كان الله .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

مستحيل أن تستوي حياة المؤمن مع حياة الشارد عن الله لأن هذا يتناقض مع وجود الله :

لا تخف، ما دمت تطلب الحقيقة، ما دمت تخطب ود الله عز وجل لن يضيعك الله عز وجل، وهناك آلاف القصص التي لا تنتهي عن إنسان آثر جانب الله فكسب الدنيا والآخرة، ولا تنسوا هذه العبارة أرددها كثيراً: من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

تقبل عليه، تخطب وده، تصطلح معه، تطيعه، تخدم له عباده، تخاف من سخطه، تخاف أن تعصيه، ويعاملك مثل الناس ؟!! والله هذا يتناقض مع وجود الله:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية الآية: 21)

أتكون حياتك كحياة الشارد عن الله ؟! مستحيل، حياتك، عملك، صحتك، زواجك، سمعتك، مستقبلك، مكانتك، مستحيل أن يستوي هؤلاء مع هؤلاء هذا يتناقض مع وجود الله:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية: 21)

مستحيل أن يعامَل المؤمن كالكافر :

قد يقول قائل: المعاملة بالآخرة فقط، لا، لا، بالدنيا أيضاً، والدليل :

(سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية الآية: 21)

هذه الآية وحدها أيها الأخوة والله تملأ قلبكم أمناً وطمأنينة، تملأ قلبكم ثقةً بالله عز وجل، من سابع المستحيلات، مستحيل وألف مستحيل أن يعامَل المؤمن كالكافر، المستقيم كالمنحرف، الصادق كالكاذب، الأمين كالخائن، المحسن كالمسيء، مستحيل .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية الآية: 21)

أيها الأخوة الكرام:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

وقال:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم) .

وقال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

لا يستوي المحسن مع المسيء:

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

شخص يسكن بأطراف المدينة، ركب أول سيارة، وثاني سيارة، وأمضى ساعة على الطريق، وبقي ساعة جالساً على ركبتيه في المسجد، لا يوجد كأس من الشاي، ولا يوجد ضيافة، ولا أي

شيء، ثم يعود إلى البيت، استهلك من وقته ثلاث ساعات، هل يستوي مع إنسان يجلس وراء جهاز اللهو يتابع المسلسلات، أهذا كهذا ؟! هل يستوي من يأتي مجلس علم مع لاعب النرد حتى الساعة الثانية مساءً معقول ؟ إنسان يجلس في بيت الله يستوي مع إنسان في جلسة مختلطة ؛ نساء كاسيات عاريات وغمز ولمز هذا مع هذا ؟ إنسان يخشى المال الحرام، يركل بقدمه مئات الألوف لشبهة فيها، وهناك إنسان يأخذ المال من أي طريق وبأي طريقة ! هذا كهذا مستحيل، والله لو استويا لكان الدين كله باطلاً، مستحيل وألف مستحيل أن يستوي المحسن مع المسيء، الورع مع المتساهل، كل شيء بحساب دقيق.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

أإنسان يغض بصره عن محارم الله كالذي يملأ عينيه من الحرام ؟ أهذا كهذا عند الله عز وجل ؟ إن توهَّمت أنهما متساويان أنت بهذا تشكك في عدل الله، وفي رحمة الله، وفي حكمة الله، مستحيل، كن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

النبي عليه الصلاة والسلام منصاع لأمر الله لكنه يتمنى أن تكون القبلة في مكة المكرمة:

امرأة تخشى الله، تحجبت محبةً لله، يقول الغافلون عنها: لا أحد يخطبها ؛ أما المتفلّتة والفاسقة والفاجرة والتي تعرض مفاتنها على الناس هذه التي تخطب . هل هذا كلام ؟ هذا كلام إبليس، امرأةٌ طائعةٌ لله ترجو الله واليوم الآخر لها عند الله مكانة كبيرة جداً، هذه يهيِّئ الله لها من يكرمها، ومن يحفظها، ومن يقودها إلى الجنة . هناك كلام شيطاني، إذا لم نعمل معصية نخسر، هذا كلام الشيطان بعينه، إذا لم يكن هناك اختلاط لا تُخْطَبُ البنت، هكذا عند الناس، مثلاً إذا لم تظهر مفاتنها لا أحد يعرفها .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

إذا لم نكذب لا نعيش وعندنا أولاد، هكذا كلام الناس، إذا لم نغش لا نعيش، يجب أن نكون مثل الناس ماذا نفعل ؟ الناس كلها تغش ونحن مع الناس، هذا كلام الشيطان:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

وقال:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143))

النبي عليه الصلاة والسلام منصاع لأمر الله، لكن عواطفه كانت أن تكون القبلة في مكة المكرمة:

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ (144))

النبي عليه الصلاة والسلام كان يقلّب وجهه في السماء منتظراً الوحي:

أي ينتظر الوحي من السماء، يا رب أنت حوَّلت القبلة إلى بيت المقدس هل من عودةٍ إلى بيت الله الحرام ؟ كان عليه الصلاة والسلام يقلّب وجهه في السماء منتظراً الوحي:

(قَدْ نَرَى (144))

نرى فعل مضارع، أي الآن:

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا (144))

تتفق مع عواطفك، لما خرج من مكة المكرمة، قال عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي مِنْ أَحَبَّ الْبِقَاعِ إِلَيَّ فَأَسْكِنِّي فِي أَحَبِّ الْبِلَادِ إِلَيْكَ))

[الجامع الصغير عن ابن عبد البر]

فسكن في المدينة المنورة، فمكة المكرمة من أحب البلاد إلى رسول الله .

(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (144))

هذه القبلة تجمع المسلمين في اتجاهٍ واحد، أينما ذهبت ؛ إلى بلاد أمريكا، إلى أوروبا، إلى آسيا، إلى اليابان، يجب أن تتوجه نحو بيت الله الحرام .

مكة المكرمة هي الوسط الهندسي لليابسة :

بالمناسبة مكة المكرمة وسط هندسي لليابسة، لو أخذنا العالم القديم ورسمناه على الخارطة وأخذنا أبعد مُدن هذا العالم وجعلناها نقاطاً على محيط العالم، ووصلنا بين هذه المدن فكانت أقطاراً، أقطار العالم القديم تتقاطع في مكة المكرمة، أي أن مكة تبعد عن أقصى مدينة في آسيا، وأستراليا، وأوروبا، وإفريقيا ثمانية آلاف كيلو متر، ولو ضمن العالم الجديد أمريكا الشمالية والجنوبية، فجعلنها خارطة مسطحة، وأخذنا أقطار العالم الجديد مع القديم، لتقاطعت هذه الأقطار في مكة المكرمة، فمكة تبعد عن أطراف العالم القديم مع الجديد ثلاثة عشر ألف كيلو متر بالضبط، هذا في بحث قُدِّم للجامعة حول أن مكة المكرمة هي الوسط الهندسي لليابسة .

(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (144))

لكن ليست القبلة هي الكعبة بالذات، وإنما هي جهة الكعبة، بالجهة تحل مليون مشكلة، أما لو أن القبلة هي الكعبة بالذات لاحتجنا في كل مسجد إلى قياس دقيق جداً، وقد تختل القبلة زاوية درجة أو درجتين، أما القبلة هي خط، خط مكة المكرمة، فهي نحو الجنوب .

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144))

ورد في التوراة أنه سيأتي نبيٌ للمسلمين هو محمدٌ بن عبد الله، وسوف تتحول القبلة عن مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وتعود إلى مكة المكرمة .

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144))

إن أراد الإنسان أن يؤمن فأي شيءٍ يدلّه على الله :

أيها الأخوة، هؤلاء الذين أوتوا الكتاب، والذين عرفوا من خلال كتابهم المقدَّس أن القبلة سوف تتحول إلى بيت المقدس، ومع ذلك أنكروا على النبي الكريم أن يتجه إلى قبلتهم، فقالوا: تُعارض ديننا وتتجه إلى قبلتنا . ومشركو مكة المكرمة أنكروا على النبي ذلك لأن هذه الكعبة بيت آبائهم وأجدادهم .

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144))

الإنسان الذي يعلم الحقيقة ويتكلم خلافها هذا مجرم، الذي تكلم بلا علم آثم، أما الذي يتكلم بخلاف ما يعلم فهذا مجرم .

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ)

لمن الآيات ؟ لمن يريد أن يؤمن، أما حينما لا يريد الإنسان أن يؤمن، لو التقى بالأنبياء جميعاً واحداً وَاحداً، وشاهد كل معجزاتهم واحداً وَاحداً لا يؤمن، الإنسان يؤمن إذا أراد أن يؤمن، إن أراد أن يؤمن أي شيءٍ يدلُّه على الله، وإن رفض أن يؤمن لو جلس في أكبر قاعدة في الفضاء الخارجي، ورأى المجرَّات المئة ألف مليون مجرة بشكل مدهش لا يؤمن، لو رأى الخلايا في جسم الإنسان تحت مجهر إلكتروني لا يؤمن، لو رأى الآيات التي لا تعد ولا تحصى لا يؤمن، لأنه كآلة بالغة التعقيد ـ آلة تصوير ـ ولكن لا يوجد فيها فيلم، فمهما لقطت هذه العدسة من مناظر رائعة، هو لم يرد الحقيقة وقلنا لا يوجد عنده فيلم، لا يصور شيئاً، وأصغر آلة تصوير، وأرخص آلة تصوير مع الفيلم تلتقط صورة، فالقضية قضية أن تريد الحقيقة أو لا تريدها، إن أردتها وجدتها في كل شيء، وإن عزفت عنها لن تجدها في أكبر شيء .

الكون بحدّ ذاته معجزة فإن لم تؤمن به في وضعه الراهن الطبيعي فلن تؤمن إذا خُرقت نواميسه:

قال تعالى:

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ (145))

أي أن الذين شاهدوا البحر صار طريقاً يبساً، هل هناك من آيةٍ أعظم من ذلك . فلما خرجوا من اليم قالوا:

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(138))

(سورة الأعراف)

الذين رأوا الناقة تخرج من الجبل، الذين رأوا إبراهيم في النار لم يحترق، رأوا المعجزات ومع ذلك لم يؤمنوا، فالكون بحد ذاته معجزة، فإن لم تؤمن به في وضعه الراهن الطبيعي لن تؤمن إذا خُرقت نواميسه .

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ (145))

هناك أشياء متناقضة كيف نجمعها ؟ يقول لك: وحدة الأديان . لا يمكن، أشياء كلها متناقضة:

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ (145))

الآيات التالية تخاطب أمة محمد عليه الصلاة والسلام:

هذا كلام الله عز وجل:

(وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145))

طبعاً مستحيلٌ أن يتبع النبي أهواءهم، ولكن هذه الآية لأمته من بعده، أي يا أمة محمد، ولئن اتبعت أهواءهم، هوى الكافر أن تكون على شاكلته، هوى الكافر أن تكسب المال الحرام، هوى الكافر أن تكون المرأة مُتعةً للجميع، هوى الكافر أن تعيش الدنيا فقط، هوى الكافر أن تتكتل تكتُّلات مصلحة، ليست على حق .

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145))

أي يا أمة محمد إياكم أن تتبعوا أهواء الكفار، لا يقودوكم إلا إلى الشر، إلا إلى الضياع، إلا إلى التفتُت، إلا إلى التشرذم، إلا إلى الفقر .

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ (146))

بعض علماء التفسير قال: يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم . وبعض علماء التفسير قالوا: يعرفون تحول القبلة كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك أنكروا .

(وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146))

كتم الحق جريمة:

(لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147))

الممترين أي المتشككين .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (49- 95):تفسير الآيات 148 - 153، حرية الاختيار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-07-23

بسم الله الرحمن الرحيم

منح الله الإنسان والجانُّ من بين كل المخلوقات حرية الاختيار:

مع الآية الثامنة والأربعين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام، منح الله الإنسان والجانُّ من بين كل المخلوقات حرية الاختيار، لأن الله سبحانه وتعالى عرض:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

كان الإنسان ظلوماً جهولاً إذا خان الأمانة ولم يحملها، سخَّر الله للإنسان ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه لأنه قَبِلَ حمل الأمانة، ولأنه قبل حمل الأمانة جعل الله الكون كله تجسيداً لأسماء الله الحسنى، ومظهراً لصفاته الفُضلى، ولأنه قبل حمل الأمانة منحه نعمة العقل أداة معرفة الله، ولأنه قبل حمل الأمانة أعطاه شهوةً من أجل أن تدفعه صابراً أو شاكراً إلى الله عزَّ وجل، فهي قوى محرِّكة، ولأنه قبل حمل الأمانة منحه حرية الاختيار كي يُثَمَّن عمله، ولأنه قبل حمل الأمانة فطره فطرة عالية تدلُّه على خطئِه، ولأنه قبل حمل الأمانة أنزل الله على رسوله كُتُبًا هي منهجٌ تفصيليٌ لحياته .

عندما قبِلَ الإنسان حمل الأمانة منحه الله الكون وسخَّره تسخيرين :

ما دام الإنسان قد قَبِلَ حمل الأمانة منحه الله الكون، وسخَّره تسخيرين ؛ تسخير تعريفٍ، وتسخير تكريم، ومنحه نعمة العقل، ومنحه نعمة الفطرة، ومنحه الشهوة التي تدفعه إلى الله عزَّ وجل، ومنحه حرية الاختيار ليثمن عمله، ومنحه أيضاً شرعاً حكيماً دقيقاً ومنهجاً تفصيلياً، لكن أبرز ما في حياة الإنسان أنه مخيَّر:

(وَلِكُلٍّ)

من بني البشر:

(وجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

لا ينبغي أن نفهم أبداً أنَّ هو تعود على الله عزَّ وجل، لأن سياق الآية ينفي هذا المعنى:

(هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

لو أن الوجهة هي لله، ليس هناك تناسب بين أول الآية وبين آخرها، الوجهة بيدكم:

(وَلِكُلٍّ وجْهَةٌ)

الإنسان مولِّيها، أي أنك تتمتَّع في الدنيا بحرية الاختيار، ولكن هذه الحرية تعد بشكلٍ أو بآخر سبب سعادتك الأبدية، أنت حُر، ما معنى حر ؟ أي أن بإمكانك أن تؤمن أو أن لا تؤمن، بإمكانك أن تكون صادقاً أو كاذباً، بإمكانك أن تكون مستقيماً أو منحرفاً، بإمكانك أن تكون محسناً أو مسيئاً، بإمكانك أن تكون مخلصاً أو خائناً، بإمكانك أن تكون منصفاً أو جاحداً، بإمكانك أن تصلي أو أن لا تصلي، أن تأتي إلى المسجد أو أن تذهب إلى المَلهى، أن تغضَّ بصرك أو أن تُطْلِقَ بصرك، أن تأخذ ما ليس لك أو أن تكتفي بما هو لك، أن تكون ولداً باراً أو أن تكون ولداً عاقاً، أن تكون شريكاً مخلصاً أميناً أو أن تكون شريكاً خائناً خبيثاً، أن تكون أباً منضبطاً مربياً لأولادك أو أن تكون أباً مسيِّباً لهم

معنى حرية الاختيار:

معنى حرية الاختيار أنه بإمكانك أن تفعل أو أن لا تفعل، أن تكون هكذا أو هكذا. متى يأمرك الله عزَّ وجل ؟ لا يأمرك إلا لأنه خيرك، فمثلاً هل من الممكن أن نبني جدارين على عرض إنسان تماماً، نأخذ عرضه تماماً ثمانية وستين سنتيمتراً، ثم نبني جدارين ونقول له: امشِ في هذا الطريق، ثم خذ اليمين . يقول لك: أيُّ يمينٍ هذا ؟ أنا في ممر إجباري، لا أستطيع أن أحيد لا يمنةً ولا يسرةً . أما ما دام هناك أمر إلهي افعل، ونهي إلهي لا تفعل، إذاً أنت مخيَّر .

أثمن شيء في مقوِّمات التكليف هو حرية الاختيار، بهذه الحريَّة يمكنك أن تختار طاعة الله، يمكنك أن تختار كتاب الله ؛ تقرأه وتعلِّمه، يمكنك أن تختار طريق الجنة، يمكنك أن تكون في الجنة إلى أبد الآبدين، كل هذا بسبب أنك مخيَّر .

إذا نال طالب الشهادة الثانوية وقلنا له: بإمكانك أن تذهب إلى أي مكان في العالم وتلتحق بأعلى جامعة، وتعود في أعلى منصب، وفي أبهج حياة، بإمكانك فأنت مخير . لأن الإنسان مخيَّر فسُبُل السعادة الأبديَّة مفتَّحةٌ أمامه:

(وَلِكُلٍّ وجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

دخلت إلى غرفة فيها مليون قطعة ذهبيَّة، ومليون قطعة ذهبية من عيار أقل، ومليون قطعة ذهبية من عيار أقل، ومليون قطعة نحاسيَّة مُغَمَّسة بالذهب، ومليون قطعة نحاسية بلا ذهب، ومليون قطعة من أخس المعادن، قلنا لك: اختر ما شئت . أنت مخير، فالذي أخذ قطعة الذهب ذات العيار العالي

يكون ذكياً . هو مخيَّر، كلمة مخير كلمة كبيرة جداً، لك أن تختار ما تشاء، لك أن تختار أطيب شيء، وأثمن شيء، وأدوم شيء:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

الدنيا كلها صفر مقارنة بالآخرة :

أنت مخير، بإمكانك أن تكون زوجاً كاملاً أو زوجاً ناقصاً، أماً كاملةً أو أماً مهملةً، معلماً مخلصاً أو معلماً مُسَيِّبَاً، أبداً:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

هل من الممكن أن تقول لراكب في السيارة في المقعد الخلفي: احرف المركبة إلى اليمين رجاءً ؟ يقول لك: أبيدي المقود ؟! قل للسائق . لمن توجِّه الكلام كي تنحرف المركبة لليمين ؟ لمن بيده المقود . يقول الله عزَّ وجل:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

على من تعود هو، على الله أم على الإنسان ؟ تتمة الآية :

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

لو أن الوجهة بيد الله لما كان من معنى لقوله تعالى :

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

يمكن أن تصل إلى الجنان عن طريق حرية الاختيار، إلى الأبد، ولا تنسوا ـ وإن كان الشيء ذكرته سابقاً ـ أن هذا المصحف لو وضعنا واحداً في طرفه، وكل ميليمتر صفر، عندنا تقريباً أربعين صفراً، أربعين ضرب عشرة أربعمئة صفر، كم هذا الرقم ؟ واحد أمامه أربعمئة، أول ثلاثة ألف، ثاني ثلاثة مليون، ثالث ثلاثة ألف مليون . فواحد هنا وكل ميليمتر صفر لآخر المسجد، واحد هنا وكل ميليمتر صفر إلى حمص، واحد هنا وكل ميليمتر صفر إلى حلب، إلى أنقرة، إلى موسكو، إلى القطب الشمالي، حول الأرض واحد وأمام كل ميليمتر صفر لأربعين ألف كيلو متر، واحد في الأرض وكل ميليمتر صفر إلى الشمس، مئة وستة وخمسين مليون كيلو متراً، لو نُسِب أكبر رقم تتصوَّره إلى اللانهاية فهو صفر، صفر، الدنيا كلها صفر:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي وابن ماجه عن سهل بن سعد]

أكبر خسارة يحققها الإنسان حينما يخسر الأبد :

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ).

(سورة البقرة الآية: 126)

أنت مخيَّر، ولأنك مخيَّر يمكن أن تكسب الأبد، وأكبر خسارة يحققها الإنسان حينما يخسر الأبد . هذه الدنيا **" عرضٌ زائل يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل "** . الغني يموت، والفقير يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والوسيم يموت، والدميم يموت، والمستَغِل يموت، والمستَغَل يموت، وكل إنسان سيموت، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر .

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامتـــه يوماً على آلةٍ حدباء محمـــولُ

فإذا حملـت إلى الـقـبـور جنـازةً فـاعلم بأنك بعدهـا محمـولُ

***

هنا الدقَّة .

الحرية الثمينة التي هي سبب السعادة الأبدية ليست مستمرَّة ولكنها منقطعة:

قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

أي يا عبادي استغلوا هذه الفرصة، أنتم مخيَّرون، وباختياركم يمكن أن تختاروا الأبد الجنة التي عرضها السماوات والأرض، يمكن أن تسلموا وأن تسعدوا إلى أبد الآبدين عن طريق حرية الاختيار ؛ ولكن هذه الحرية الثمينة التي هي سبب سعادتكم الأبدية ليست مستمرَّة، ولكنها منقطعة .

إذا أدخلناك لغرفة وقلنا لك: خذ ما تشاء من هذه القطع الذهبيَّة والألماسيَّة، ولكن لربع ساعة فقط، فإذا انشغلت بقراءة مقالة في مجلَّة، والذهب أمامك، والألماس أمامك، وكله بأسعار فكليَّة، والوقت محدد لمدة ربع ساعة فقط، فإذا انتهت هذه الدقائق الخمسة عشر تسحب من الغرفة إلى خارجها، انتهت الفرصة، الفرصة لسعادة أبديَّة، ما دمت مخيراً فأنت في بحبوحة، فإذا جاء ملك الموت انتهى الاختيار، وعدت مقهوراً، لأن ربنا عزَّ وجل يقول:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة)

أنت في الدنيا مخيَّر، وتملك أن تختار هذا أو هذا، أما حينما يأتي الموت ينتهي اختيارك:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

الاختيار مؤقَّت:

إذا لم يرد الإنسان الآخرة ولا أن يكون عابداً لله ؛ بل أراد الدنيا، ماذا ينتظره ؟ قال عليه الصلاة والسلام :

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْراً مُنْسِياً ـ قد يأتي فقرٌ غير متوقَّع ـ أوْ غِنًى مُطْغِياً أوْ مَرَضاً مُفْسِداً أوْ هَرَماً مُفَنِّداً أوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أو الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أو السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً، قد سمعت مرَّة بالعمرة طرفة وهي واقعيَّة، الذي رواها لي شهد وقائعها بنفسه، إنسان بدوي يسكن في شمال جدَّة عندما توسَّعت جدَّة وصلت إلى قرب أرضه، نزل وباعها إلى مكتب تجاري، خدعه واشتراها بربع قيمتها، وأنشأ بناءً ضخماً، الشريك الأول وقع من أعلى طابق فنزل ميِّتاً، والشريك الثاني دهسته سيارة، فانتبه الشريك الثالث وعرف سر هذه المصائب، لأنهم خدعوا صاحب الأرض، وأخذوها بربع ثمنها، فبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر إلى أن عثر عليه، أعطاه ثلاثة أمثال ما كان قد دفعه له، فقال له البدوي: **" ترى أنت لحقت حالك " .**

كل واحد منا يجب أن يتدارك ما فاته الآن هناك فرصة، القلب ينبض، كل شيء يمكن إصلاحه، يمكن أن ترد كل المظالم إلى أصحابها، يمكن أن تطلب السماح من كل من اغتبته، يمكن أن تفعل كل شيء ويعفو الله عنك، ما دمت مخيراً، ما دمت في الحياة الدنيا، ما لم تغرغر:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

الإنسان مخير، وهذا الاختيار مؤقَّت، فرصةٌ ذهبيةٌ لا تعوُّض، مثلاً إذا ظهر إعلان بالجريدة: أنه من يحب أن يشتري سيارة بمئة ألف ـ مر سيدس مثلاً ـ ومعكم أربعة أيام للاكتتاب . ستجد تقريباً مليون شخص ينتظرون فوق بعضهم، لأنها فرصة لا تعوض، بمئة ألف لا توجد مرسيدس ؛ فرضاً:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

حينما يأتي الموت ينتهي الاختيار:

الآن حينما يأتي الموت ينتهي الاختيار:

(أيْنَ مَا تَكُونُوا)

في قلعة، في بيت فخم، في أعلى منصب، في صحة، في مَنَعَة، في قوة، في أتْباع:

(أيْنَ مَا تَكُونُوا)

لا تأمن الموتَ في طرفٍ ولا نفـس وإن تمنَّعت بالحجَّاب والـــحرس

فما تزال ســهام الموت نافذةً فـي جنب مـدرع منـها ومـترس

أراك لست بوقَّافٍ ولا حـذرٍ كالحا طب الخابط الأعواد في الغلـــس

ترجو النجاة ولم تسلك مسـالكهـا إن السـفينة لا تجري على اليبس

***

(أيْنَ مَا تَكُونُوا)

قبل العرس بيوم:

(يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

بعد نيل الدكتوراه، قبل أن تعلنها للناس، ولو بأصعب وضع:

(يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

انعدام الحاجز الذي يمنع الموت من الدخول علينا:

الآن في أي مكانٍ تكون، وفي أية مكانةٍ تكون، كل مخلوقٍ يموت ؛ ملك يموت، خفير يموت، غني يموت، فقير يموت، صحيح يموت، حاكم يموت، محكوم يموت، نبي يموت، كافر يموت، لا يستثنى من هذا الموت أحد:

(أيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

ليس هناك حاجزٌ يمنع لك الموت من الدخول، يروى أنه في عهد سيدنا سليمان كان يجلس عنده شخص، فرأى أحدهم يحدِّق فيه تحديقاً غير طبيعي، قال: يا سليمان من هذا الذي يحدق بيَّ ؟ قال: هو ملك الموت . فانخلع قلبه، وقال له: خذني إلى طرف الدنيا الآخر . من شدة الخوف ـ هكذا تروي القصة الرمزية ـ أرسله إلى الهند على بساط الريح فقبضه ملك الموت بعد يوم هناك، فلما التقى سليمان بملك الموت قال له: يا ملك الموت لماذا كنت تحدِّق فيه ؟ قال: لأنه معي أمر بقبض روحه في الهند، ما الذي جاء به إلى هنا ؟

الإنسان يذهب أحياناً وفي المطار يتوفى، فرصة العمر ذهب إلى أمريكا ـ بنظر الناس طبعاً، قد تكون جهنم وبئس المصير ـ ذهب إلى هناك جاءه ملك الموت في المطار، قبل أن يدخل المدينة:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

في الطائرة ؛ كان ذاهباً ليحضر احتفال هو وزوجته وأخت زوجته وقعوا في البحر وماتوا:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

بطائرة، بسيارة، بباخرة، بالبحر، بالبر، في مكتبه، في غرفة نومه، في الحرب، في السير، في احتفال، في المسجد . قبل عدة أشهر بعدما انتهت الخطبة، قال بعض الأخوة: رجل جالس في القاعة مات أثناء الخطبة . وهو في الجامع:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

الإنسان هو المخلوق الأول خُلِق لجنةٍ عرضها السماوات والأرض:

في أية مكانةٍ كنت، وفي أي مكانٍ كنت، لا يوجد مكان يستعصي على الله عزَّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

نحن الآن نتمتَّع بحرية الاختيار، وهذه الحرية قد تكون سبباً لسعادة أبديَّة، يجب أن نستغلَّها، يجب أن نعرف من نحن، فالإنسان هو المخلوق الأول، خُلِق لجنةٍ عرضها السماوات والأرض:

((ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كل شيء لك فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك))

[من شرح الجامع الصغير]

((عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

حينما تؤمن بقدرة الله عزَّ وجل تقف عند حدوده:

قال الله عزَّ وجل :

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

المتانة صفة تقاوم قِوى الشَد، والقساوة صفة في العناصر تقاوم قِوى الضغط، فالألماس قاسي، أما الفولاذ متين، حبل من الفولاذ قطره ميليمتر يحمل مئتي كيلو، لذلك كل المصاعد الكهربائية والتليفريكات كلها بحبال الفولاذ، قال الله:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

أي مهما ظننت أنك قوي، وطليق، وذكي، تصبح بثانية واحدة في قبضة الله، فالإنسان لو تجمَّدت قطرة صغيرة، كمية من الدم لا تزيد عن رأس دبوس في بعض شرايين المخ لشلَّت قِواه، أو لفقد بصره، أو فقد النُطق، أو فقد الحركة .

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

حينما تؤمن بقدرة الله عزَّ وجل تقف عند حدوده:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

المكان لا يقدس بذاته بل يقدسه الله عزَّ وجل :

قضية تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام تركت هَزَّةً في أوساط مكة، ذلك لأن المكان لا يقدس بذاته، بل يقدسه الله عزَّ وجل، وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله أمرنا أن نقبِّل الحجر الأسود، لا لأنه عظيمٌ في ذاته، بل لأن الله أمرنا أن نقبِّله فصار عظيماً، وأمرنا أن نرجم حجراً آخر رمزاً لإبليس، فالشيء لا يكون مقدساً في ذاته، ولكن يقدس لأمر الله فيه، نحن عندنا دائماً قواعد: في عندنا أمر مصلحي وأمر إيماني، أحياناً تتحقَّق مصلحتك في هذا العمل فتفعله، فأنت نفَّذت أمراً مَصلحياً، أُمرت أن تشتري هذه العملة لأنها سوف ترتفع مثلاً هذا أمر مصلحي .

الأمر الإيماني لا علاقة له بمصلحتك إطلاقاً، الله عزَّ وجل أمرك، وكل أمر إلهي علَّته أنه أمر إلهي، أمر خالق الكون، فكل ما تعرف عن الله عزَّ وجل من عظمةٍ، وحكمةٍ، وعدلٍ، ورحمةٍ، ورأفةٍ في هذا الأمر . فقريش كانت تقول: هذه الكعبة ليست بيت الله بل هي بيت آبائنا وأجدادنا . وكانت مزروعةً بالأصنام التي تُعبد من دون الله، فربنا عزَّ وجل أراد أن يُهمل هذا البيت مؤقَّتاً، وأن يصرف الناس عنه إلى بيت المقدس، فلمَّا آن الأوان أن يعودوا إلى بيت الله الحرام، جاء الأمر بتحويل القِبلة، فهذا أمر إيماني، أي يجب أن نطبِّقه بصرف النظر عن فهمنا له .

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

الحق ما يأمره الله عزَّ وجل . هذا أمر إلهي، إلهي إذاً حق، فمثلاً أحب مريض أن يأكل أكلاً معيناً فقال له والده، أو قريبه: الطبيب قال لك هكذا ؟ يقول: نعم . انتهى، شيء بديهي، أقال الطبيب لك هذا ؟ إذا كان الطبيب قال، والطبيب موثوق، وعلمه بدرجة عالية، وهو الخبير بجسم الإنسان فالأمر انتهى، هذا الشيء نفعله نحن مع بعضنا دون أن نشعر، أسألت الخبير وقال هكذا ؟ نعم . أين

أخذت الآلة ؟ للوكالة. أهكذا نصحوك أن تعمل؟ نعم، انتهى الموضوع، فبتصليح الآلات، بمعالجة الأجسام، إذا كنت واثقاً من الخبير وأعطاك أمراً تنفذه طواعيةً وأنت مرتاح، لأنه خبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرَّمة أمر إيماني لحكمةٍ يراها الله عزَّ وجل:

قال تعالى:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

أمر إيماني، فما معنى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (70))

(سورة الأحزاب)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً (6))

(سورة التحريم الآية: 6)

أي يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بعلمي، يا من آمنتم بخبرتي، يا من آمنتم بحكمتي، يا من آمنتم برحمتي، يا من آمنتم بعدلي، يا من آمنتم بحبي لكم افعلوا كذا . هذا أمر إيماني، أي كلَّ ما تعرف عن الله عزَّ وجل في هذا الأمر، إذا الخبير قال انتهى الأمر، إذا الرحيم قال انتهى الأمر، إذا العليم قال انتهى الأمر :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هذا الأمر الإيماني، فتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرَّمة أمر إيماني لحكمةٍ يراها الله عزَّ وجل:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

الحق هو الشيء المستقر الذي لا يتزعزع :

الله هو الحق، وأمره حق، وكتابه حق، ورسوله حق، ووعده حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق . الحق الشيء المستقر الذي لا يتزعزع، الشيء الهادف، الشيء النبيل:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

(سورة التغابن الآية: 3)

أي أن الحق لابس خلق السماوات والأرض، فالحق الشيء الذي لا يزول . حق الشيء استقر، والأمور لا تستقر إلا على الصحيح . الآن خذ كرة وضع بداخلها قطعة رصاص ودحرجها، لا

تستقر إلا وقطعة الرصاص في أسفلها ـ بحسب قانون الجاذبيَّة ـ قد تدور، وقد تنطلق من مكان إلى مكان، ولكنها حينما تستقر لا تستقر إلا وقطعة الرصاص نحو الأرض:

(وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

هذه البلبلة، وهذا الانتقاد، وهذا الإرجاف في المدينة، هذا كله بعلم الله عزَّ وجل . الكافر دائماً عدوٌ للحق، يخلق الفِتن، ويثير الضلالات، ويثير الشهوات والشُبهات، ويعترض، وينتقد، ويطعن، ويتساءل، ويحرج .

توجُّه المسلمين في العالم كلِّه إلى القبلة:

قال تعالى:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)

توجُّه المسلمين في العالم كلِّه إلى القبلة هذا الشيء يدل على أن المسلمين لهم إلهٌ واحد، وبيتٌ واحد يعبدون الله فيه، ونبيٌ واحد، وكتابٌ واحد، وهم على قلبٍ واحد، هذا هو الأصل أو هذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في العالم كله، أما حينما يختلفون، ويضعُفون، وحينما يتنازعون فيفشلون، هذا وضعٌ غير طبيعي .

(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ)

أي إنكم حينما تنساقون لأمر الله، وتذكرون أن الله يأمر وينهى، وما المؤمن إلا خاضع لهذا الأمر، ومحكوم به، أسقطتم حُجة المعترضين بهذا .

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)

أي أن هذا الذي يقحم نفسه في أن يكون في خندقٍ معادٍ للحق، هذا ظالم كبير، فأكبر ظلم أن تناوئ أهل الحق، أو أن تعترض على حكم الله، أو أن تشكك الناس بكمال الله، أو أن تشكك الناس بأحقِّية الدين، أو أن تطعن برسول الله عليه الصلاة والسلام .

سمعت أن هناك الآن أسئلة في الإنترنت: ما دام النبي كاملاً لمَ يقول الله له: فاستغفر لذنبك . إذاً هو مذنب، استنباطات شيطانية، مع أن الذنب الذي قال عنه العلماء في هذه الآية: أنه كلما أقبل على الله انكشفت له حقيقةٌ إلهيةٌ لم تكن معروفةٌ عنده، فيستحي من رؤيته السابقة، وهذا هو ذنبه، هو في رقيٍ مستمر، فكلما كشف له حقيقةٌ عن الله عز وجل استحيا برؤيته السابقة، هذا معنى ذنب رسول الله عليه الصلاة والسلام .

الأمر بيد الله عز وجل :

أشقى الناس هو الذي يضع نفسه مناوئاً للحق، معادياً لأهل الحق، طاعناً في دين الله، مفنِّداً لبعض ما في كتاب الله، هذا إنسان شيطان .

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)

حينما نصبوا أنفسهم أعداء للحق هؤلاء ظلموا أنفسهم . جندي بسيط، أو نفر بسيط يهاجم أقوى دولة، وهي تنهيه بثانية، تنهي وجوده كله، عندما يطمح الإنسان أن يناوئ دولة قوية وهو لا يملك أيّ سلاح، معنى ذلك أنه ينتحر، فهذا إنسان ظالم، ظلم نفسه أشد الظلم، هذا فيما يتعلق بالبشر، فكيف يكون الإنسان عدواً لله، عدو خالق السماوات والأرض، عدو أنبياء الله، عدو كتب الله ؟ فهذا ظالم فقال :

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي)

مهما بدوا لكم أقوياء هم ضعفاء، هم: كن فيكون زل فيزول .

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)

(سورة يس الآية: 29)

إذا أراد أحدنا قتل حشرة صغيرة، فهل يحتاج إلى استنفار ؟ كلها ضربة واحدة، حشرة صغيرة لو أردت أن تقتلها فلا تحتاج منك إلا ضربة واحدة، هذا هو المعنى بالضبط:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)

(سورة يس الآية: 29)

تصور لعبة السيارات الكهربائية، كل واحد يركب سيارة ويسوقها بقوة، ويضرب رفيقه، وأنت معك قاطع الكهرباء، لو أنزلته لقطعت الكهرباء ولجمد كل السائقين بمكانهم، حركة صغيرة أوقفت كل حركة، هكذا الأمر بيد الله عز وجل .

في بعض معامل الحديد، رافعات مغناطيسية كهربائية، فمثلاً قطعة مسطحة فرضاً خمسة بخمسة، محاطة بوشيعة كهربائية، فحينما يسري تيار الكهرباء في الأسلاك، يتشكل مغناطيس كهربائي يحمل مئة طن، فينقل الحديد من مكان إلى مكان، أما هذه المئة طن لو ضغط عامل الرافعة على الزر أقل من ربع مليمتر وقطع الكهرباء، كله يقع . فتصور هذا المثل، قول الله عز وجل كن فيكون زل فيزول .

الهدى من تمام النعمة التي أنعم الله بها على الإنسان:

الذي يعادي الله عز وجل، يعادي الدين، يقف له موقف المشكّك، يطعن بأهل الحق، يصور الدين شيئاً قديماً متخلّفاً، يحاول أن يغري الناس بالدنيا، أن يزهدهم بالآخرة، هذا يتصدى للحق، قال :

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ)

مهما بدوا أقوياء هم ضعفاء، هم بكلمة ينتهون:

(فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

قال العلماء: تمام النعمة الهدى ؛ فالصحة نعمة، والكفاية نعمة، والزوجة نعمة، والبيت نعمة، والسمعة الطيبة نعمة، ولكن هذه النعم كلها زائلة بالموت، تمامها أن تهتدي إلى الله، لأنك إن اهتديت إليه سعدت في الدنيا والآخرة .

(وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

إلى الجنة، إن أتممت نعمتي عليكم وصلتم إلى الجنة، ثم يقول الله عز وجل :

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ)

منكم، أولاً من بني البشر، ثانياً من قبيلتكم، تعرفون صِغَرَهُ، يوم كان طفلاً صغيراً، ثم شبابه، ثم كهولته، كيف كان أميناً وصادقاً، وكيف كان عفيفاً، كل هذه المكارم الأخلاقية التي كان بها دليل أنه كان صادقاً مع الله .

في الآية التالية اتصال بالله وتزكية وهناك منهج تفصيلي أي كتاب وسنة:

قال تعالى:

(رَسُولاً مِنْكُمْ)

أولاً من بني البشر، ثانياً من أمتكم عربي، من بلدتكم، تعرفون نسبه وحسبه .

(يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا)

الدالة على الله عز وجل :

(وَيُزَكِّيكُمْ)

يطهركم من الشرك، من الشك، من الشهوة، من الكذب، من الفجور، من إساءة الجوار، من انتهاك الأعراض، من الحقد، من الشُح، يزكيكم أساس الدين التزكية .

(يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

الكتاب هو القرآن، والحكمة هي الحديث، صار هناك في الدعوة آيات كونية، أو تكوينية، هذه دالة على الله عز وجل، وهناك اتصال بالله وتزكية، وهناك منهج تفصيلي؛ كتاب وسنة، هذا من أدق الآيات:

(يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

النبي الكريم جاء وهدانا إلى الله فعلينا أن نشكر الله عز وجل وندل الناس عليه:

أنتم ماذا ينبغي أن تفعلوا بعد هذا الفضل العظيم ؟ قال :

(فَاذْكُرُونِي)

أي كما جاء النبي وهداكم إلى الله، ينبغي أن تشكروا الله عز وجل، وأن تدلوا الناس على الله:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

لذلك :

((إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في مَلأٍ ذكرتُه في مَلأٍ خيرٍ منه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

قال:

(فَاذْكُرُونِي)

أي :

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: 102)

قال: **" أن تذكره فلا تنساه، وأن تطيعه فلا تعصيه، وأن تشكره فلا تكفره "**، هذا معنى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: 102)

أهم شيء في الدين التزكية:

قال تعالى:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً)

وقال:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة آل عمران)

طبعاً هناك آيتان، هذه الآية :

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

إخواننا الكرام، أهم شيء في الدين التزكية، لأنه عندما أثنى ربنا عز وجل على النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

الخلق الحسن ذهب بخيري الدنيا والآخرة .

لن نستطيع التقرب إلى الله إلا بكمالٍ مشتقٍ منه من خلال اتصالنا به:

العبرة أن تكون عفيفاً، صادقاً، أميناً، مُنصفاً، حليماً، عفواً، رحيماً، متواضعاً، بهذا تتقرَّب من الله، وما معنى قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية: 180)

أي أنكم لن تستطيعوا أن تتقرَّبوا إلى الله إلا بكمالٍ مشتقٍ منه من خلال اتصالكم به:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152))

لذلك يقول الله عز وجل :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية: 147)

أي أنك حينما تؤمن، وحينما تشكر، حققت الهدف من وجودك .

إذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك:

هذه الآية دقيقة جداً :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء الآية: 147)

منحك الله عز وجل الوجود، منحك الكون، منحك الزمن، منحك الحرية، منحك العقل، منحك الفطرة، منحك الشرع، منحك الشهوة، منحك الاختيار، هذا ينبغي أن تشكره عليه .أو بمثل آخر، قدم لك إنسان هدية آلة ثمينة، فأنت بين الإعجاب بصنعته ـ هي من صنعه ـ وبين أن تشكره على أنها هدية، ينبغي أن ينتابك شعورين ؛ شعور الامتنان وشعور التعظيم، أنت حينما تؤمن وتشكر حققت الغاية من وجودك، بل إن الله قد سخَّر لك الكون تسخيرين ؛ تسخير تعريف، وتسخير تكريم، رد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك .

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153))

هذه معيةٌ خاصة ؛ معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق، هذا الذي يصبر يعرف الله، الصبر معرفة، تماماً كما لو جلس إنسانٌ على كرسي طبيب الأسنان، وكان إنساناً بالغاً عاقلاً راشداً، وعنده مشكلة بقلبه لا تسمح للطبيب أن تعطيه مخدراً، أبلغه ذلك، سوف يقلع هذا السن، وهناك ألمٌ شديد، ولكن التخدير يؤذي قلبه، فلأن هذا المريض عاقل، وراشد، ويعرف مصلحته، يثق بالطبيب، تحمَّل هذا الألم، فالتحمُّل دليل معرفة، فمعنى الصبر أنك تعرف الله، تعرف حكمته، وتعرف رحمته، وتعرف عدله، وتعرف أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، لهذا تصبر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)

الصبر صبر، أما الصلاة إقبال، فإذا حرمت الدنيا ووصلت إلى الله، هذا الوصول ينسيك كل الدنيا، استعن بالصبر، الصبر سلبي، ولكن أداء الصلاة إيجابي، أنت حرمت نفسك من هذا الكأس، لكن هناك شراباً أطيب، تركت شيئاً لله فجاءك خيرٌ منه .

(اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

معهم معية خاصة، معهم بالحفظ، والتوفيق، والتأييد، والنصر .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (50- 95):تفسير الآيات 154-155 ، امتحان الله للمؤمن ولوازمه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-07-30

بسم الله الرحمن الرحيم

الأموات أحياء بكل معاني هذه الكلمة :

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

هم أحياءٌ بكل معاني هذه الكلمة، بكل خصائص الحياة، بكل أبعاد الحياة، بكل أسباب الحياة، بكل ثمار الحياة، أحياء، لذلك الخطأ الشنيع أن تقول: فلان فقيد، هو لم يُفقد هو بكيانه، بخبراته، بمعنوياته، بذاكرته، لكن الذي يختفي وعاؤه الذي كان فيه، هذا الجسد، تماماً لو خلع أحدكم ثيابه وارتدى ثياباً جديدة، هل يفتقد ؟ هو بجسمه، وشحمه، ولحمه، وعظمه، ودمه، وحواسه، وعقله، وفكره..

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

أنتم ماذا ترون ؟ ترون الجسم قد فني، ترون اللحم قد تفسَّخ، ترون القوام قد وضع في القبر، ولكن هل ترون نفسه ؟!!

حالة الإنسان بعد الوفاة :

النبي عليه الصلاة والسلام عقب معركة بدر، نادى كبار المشركين الذين قتلوا: **يا أمية ابن خلف، يا عتبة، يا فلان، يا شيبة ـ بأسمائهم واحداً وَاحداً ـ هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس "، قالوا: " يا رسول الله أتخاطب قوماً جيفوا؟!" قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ". هم يسمعونني.**

درس بعض العلماء حالة الإنسان بعد وفاته ـ هناك في العالم حالات نادرة جداً ـ كإنسان توقف قلبه لدقائق ثم عادت له الحياة، التقوا به، هذا الذي مات مؤقتاً قال شيئاً لا يصدق: **" رأينا نفوسنا فوق أجسامنا محلقة في الهواء، وتذكرنا كل أعمالنا، وقيَّمناها كلها بمقدار خدمة الناس."**

أي أن مئات من الناس الذين ماتوا موتاً مؤقتاً، على اختلاف مللهم ونحلهم ودياناتهم وأعراقهم وأجناسهم أمروا بالحقائق التي جاء بها الأنبياء.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق الآية: 22]

الخيار مع الإيمان خيار وقت :

والأدق من ذلك أن الذي يعد أكفر كُفَّار الأرض الذي قال:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات الآية: 24]

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص الآية: 38]

هذا نفسه قال عندما جاءه الموت:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس الآية: 90]

الخيار مع الإيمان خيار وقت، إما أن تؤمن قبل فوات الأوان فتنتفع بإيمانك، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان فلا تنتفع بإيمانك، ولكنك بالنهاية لا بد من أن تؤمن، ولكن متى ؟ البطولة أن تؤمن وأنت حيٌ ترزق، والغباء والحمق أن تؤمن بعد فوات الأوان.

البطولة أن تضحك أخيراً :

ما قولكم بطالب أدى امتحاناً فنال صفراً في المواد كلها، ورسب، وبعدها رجع إلى البيت، وقرأ أجوبة كل الأسئلة، تقدم بطلب إلى وزير التربية: أنه يرجى إدراجي مع الناجحين، لأنني عرفت كل الأسئلة وأجوبتها بالتمام والكمال. متى عرفتها ؟ بعد الامتحان، مستحيل. فالخيار مع الإيمان خيار وقت:

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

دقق في كلام سيدنا علي: يا بني مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

ذكرت اليوم في كلمة ألقيتها، أن الإنسان حينما يولد، كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، مفارقة، هو يبكي، وكل من حوله يضحك فرحاً بقدومه، أما حينما يموت كل من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً يضحك وحده، ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً، ومن يضحك أولاً يبكي كثيراً.

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين الآية: 34]

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ*إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

[سورة المؤمنون]

لا تستقيم على أمر الله إلا بالإيمان :

الآية الأخرى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين الآية: 34]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران الآية: 169]

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

أيها الأخوة، المشكلة أنك إن لم تؤمن باليوم الآخر، وإن لم تؤمن بهذه الحياة الأبدية التي لا نهاية لها، إن لم تؤمن بهذه الحياة، وإن لم تؤمن بيومٍ يدفع الإنسان ثمن كل أعماله، إن لم تؤمن بيوم الحساب، إن لم تؤمن بيوم الجزاء، إن لم تؤمن بيوم الدينونة، إن لم تؤمن بيوم القيامة، إن لم تؤمن بيوم الفَصل، إن لم تؤمن بالحاقَة، إن لم تؤمن بالقارعة، إن لم تؤمن بيوم الطامَّة الكبرى، لا تستقيم على أمر الله.

إذا آمن المواطن أنه لا بد أن يحاسب في موضوعٍ ما ينضبط، إذا أيقن أنه لا تخفى على واضع القانون خافية، ولا بد من أن يضبطه، وأن ينزل به أشد العقاب، يستقيم، فكيف مع الله عز وجل ؟!

الابتلاء امتحان وليس شراً :

أيها الأخوة، الآية الثانية :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

لا بد من كلماتٍ بين يدي هذه الآية، الابتلاء ليس شراً، كيف أن الناس يفهمونه شراً لا أدري، الابتلاء امتحان، ما هو الشر ؟ أن تسقط في هذا الامتحان. فإذا نال شخص أعلى شهادة، تربَّع على أعلى منصب بسبب شهادته، وله دخلٌ خيالي بسبب شهادته، هذه الأيام العصيبة التي دخل فيها الامتحان هل يراها شراً ؟ لولا هذا الامتحان لما نال هذه الشهادة، ولما كان في هذا المنصب، ولما كان له هذا الدخل الكبير، هل يعد هذا الإنسان الامتحانات التي خاضها شراً ؟ أعوذ بالله، بل هي خيرٌ محض.

الابتلاء هو الامتحان، لماذا الامتحان ؟ من لوازم الإعداد الابتلاء، إنك عندما تعد طالباً ليكون طبيباً لا بد من أن تمتحنه، إنك حينما تعد إنساناً ليكون قائداً عسكرياً لا بد من أن تمتحنه، إنك حينما تعد إنساناً ليكون محامياً لا بد من أن تمتحنه، كلمة إعداد من لوازمها الامتحان.

الامتحان من لوازم الإعداد:

نحن في حياةٍ دنيا، أهم ما في هذه الحياة أنها إعداد لحياة عليا، هذه الحياة الدنيا المحدودة القصيرة المفعمة بالمتاعب، هي إعداد لحياة عُليا أبدية لا نغص فيها ولا نصب، إذاً لا بد من الامتحان. فأول نقطة بالدرس أن الامتحان من لوازم الإعداد، وما دمنا نُعَدُّ في هذه الحياة لليوم الآخر ؛ لجنة عرضها السماوات والأرض إذاً لا بد من أن نمتحن، والدليل قوله تعالى:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية:30]

هذا من سنن الله في خلقه، إيَّاكم أن تتوهموا أنه يمكن أن تعيشوا حياةً مديدة من دون ابتلاء، وكل إنسانٍ له مادة امتحان مع الله، قد تمتحن بالخير:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

[سورة الأنبياء الآية: 35]

وقد تمتحن بالشر، قد تمتحن بالعطاء وقد تمتحن بالأخذ، قد تمتحن بالغنى وقد تمتحن بالفقر، قد تمتحن بالصحة وقد تمتحن بالمرض، قد تمتحن بالوسامة وقد تمتحن بالدمامة، قد تمتحن بالقوة وقد تمتحن بالضعف، لا بد للمؤمن من مادة امتحانٍ مع الله، إما أن تمتحن فيما أعطاك، وإما أن تمتحن فيما سلبك، على كلٍ امتحان.

آيات من الذكر الحكيم تبين أن الإنسان ممتحن في كل أطوار حياته :

قال تعالى:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية:30]

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت الآية: 2]

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران الآية: 142]

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران الآية: 92]

إذاً يجب أن توطّن نفسك على أنك ممتحن في كل أطوار حياتك ؛ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ـ رسب في الامتحان ـ قال: ألم تعلم أني الرزاق القوي المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم. سأل عبد آخر: أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خيرٌ حافظ وأنت أرحم الراحمين. قال: يا عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك.

الامتحان من خصائص الحياة الدنيا :

أيها الأخوة... يجب أن نؤمن جميعاً أن الامتحان من خصائص الحياة الدنيا، كما يجب أن يؤمن أي طالب في العالم أن الامتحان من خصائص المدرسة، هل رأيتم أو سمعتم في العالم كله جامعة بلا امتحان ؟ مستحيل، هل هناك جامعة تنتسب إليها وبعد مضي زمن محدد تمنح الدكتوراه من دون امتحان ؟ أنت تقدم طلباً فتُمنح الدكتوراه، مستحيل، من لوازم التعليم في العالم كله الامتحان، والإعداد في العالم كله من لوازمه الامتحان، فإذا كانت الدنيا دار ابتلاء، دار إعداد للآخرة فمن لوازمها الامتحان:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية:30]

الامتحان ليس شراً ولا خيراً، خير إذا نجحت فيه وشر إذا رسبت فيه، حيادي، أنت مخير، لا خير ولا شر، كما قلت قبل قليل: إنسان ينعم بدخل فلكي، لأن معه شهادة نادرة، لأنه دخل امتحانات صعبة ونجح فيها، هل يعد الامتحان شراً له ؟ بالعكس، كل هذه المكانة مع كل هذا الدخل لأنه نجح في الامتحان، وإنسان رسب في الامتحان، الامتحان شر له، فالامتحان صفة مطلقة لا خير ولا شر، ليس خيراً ولا شراً، الامتحان شر إذا رسبت فيه، وخير إذا نجحت فيه.

المؤمن رابح في جميع الأحوال :

قد تبتلى بالخير:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

[سورة الأنبياء الآية: 35]

وقد تبتلى بالشر. قد تبتلى فيما أعطاك وقد تبتلى فيما منعك، لذلك ورد في بعض الأدعية: **" أن يا رب ما رزقتني مما أحب فاجعله عوناً لي فيما تحب، وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب".** في الحالتين المؤمن رابح:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللَّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْر.))

[أحمد عن صهيب].

((إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[أحمد عن صهيب].

قال بعض العلماء: **بستاني في صدري، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ "** أي أن سعادتي من داخلي، أما أهل الدنيا سعادتهم من مركباتهم، من بيوتهم، من دخلهم، من صحتهم. سعادة أهل الإيمان تنبع من داخلهم، والسعادة مستقرة ومستمرة ومتنامية، ولكن اللذات مؤقتة، ومتدنية، ومتلاشية، لذلك جعل الله عز وجل من خصائص الحياة الدنيا الابتلاء، قد تعطى المال وتسلب منك بعض الصحة، ماذا تقول ؟ تعطى الصحة ويؤخذ منك المال، تعطى الصحة والمال ولك زوجةٌ لا ترضيك، تعطى زوجةٌ ترضيك وأولاداً ليسوا كما تريد، أولادٌ كما تريد الدخل لا يعجبك، الدخل يعجبك هناك مشكلات بالصحة، الصحة طيبة ولكن هناك مشكلات بالعمل:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية:30]

حياة المؤمن فيها تأديب وابتلاءٌ وإكرام :

حينما توطِّن نفسك على أن هذه الدنيا دار ابتلاء تسعد بها، فإذا وطَّنت نفسك على أن هذه الدنيا دار نعيم تشقى بها، إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وإن أشقاهم فيها أرغبهم فيها:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية:30]

سئل الإمام الشافعي: يا إمام أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال: لن تُمَكَّن قبل أن تبتلى.

حياة المؤمن لا تخلو من تأديب إذا أخطأ، ولا تخلو حياته من ابتلاء إذا هو استقام، مستقيم ويبتلى، ماذا يقول ؟ ولا تخلو حياته من إكرام إذا هو صبر في الابتلاء، أي أن الله أدبه فتاب، تاب واستقام، ابتلاه وصبر الآن إكرام، كأن حياة المؤمن فيها تأديب وابتلاءٌ وإكرام، بمراحل ثلاث متداخلة أو متمايزة.

لماذا الابتلاء ؟ هنا السؤال دقيق، هذه الآية دقيقة جداً، هذه الآية خاصةٌ بالمؤمنين، هذه الآية خاصةٌ بمصائب المؤمنين. مصائب الكفار مصائب ردعٍ، أو مصائب قصمٍ، لكن مصائب المؤمنين مصائب دفعٍ إلى الله، ورفعٍ في الدرجات، دفع ورفع، فهناك فرق.

مثال يبين أن مصائب المؤمن مصائب دفع ورفع ومصائب الكافر مصائب قصم وردع :

ذكر لي أحد إخواننا الأطباء الذين يعملون في مستشفى، أنه جاء مريض مصاب بورم خبيث في الأمعاء، يقول لي الطبيب: ما رأيت في حياتي مريضاً راضياً عن ربه متفائلاً صابراً شاكراً كهذا المريض، كلما دخل عليه زائر يقول له: اشهد أنني راضٍ عن الله، يا رب لك الحمد على هذا المرض. قال لي: إذا قرع الجرس يتنافس الأطباء على الدخول عليه والممرضين في خدمته، ما سمعوه يتأوه ولا يتألم علماً أن آلام هذا المرض لا تحتمل، بل رأوه صابراً مستبشراً ورائحته طيبةٌ عطرة. قال لي: والله عشنا عدة أيام ونحن في جنة مع هذا المريض ـ المصاب بورم خبيث في الأمعاء ـ ثم توفاه الله عز وجل. قال لي: لحكمةٍ بالغةٍ بالغة، ولدرسٍ بليغ أراد الله أن يلقنه لمن في المستشفى، جاء مريض آخر بالمرض نفسه ـ ورم خبيث بالأمعاء ـ قال لي: لم يبقَ هناك نبي لم يسبه، كلمات الكفر لا تخلو من شفتيه، رائحته نتنة، عصبي المزاج، هرب الممرضون من خدمته، تحاشى الأطباء أن يدخلوا عليه، ثم مات ـ المرض واحد ـ المرض نفسه ؛ شخص كان مبعث جذب للناس، مريض مبعث راحة لهم، وكان متفائلاً ومستبشراً، والآخر بالعكس.

قرأت بحثاً علمياً فيه شيء لا يصدق عنوانه (بوابَّات الألم) يذكر أن الآلام التي نحس بها تبدأ من الأعصاب الخارجية ـ أعصاب الحس ـ أعصاب حسية بالدرجة الأولى، تنقل هذه الأعصاب الإحساس إلى النخاع الشوكي، ثم إلى قشرة الدماغ، هناك بوابات على هذا الطريق الطويل ـ طريق الآلام ـ من يتحكم بهذه البوابات ؟ لو أن هذه البوابات أغلقت لانقطع الألم. قال العلماء: يتحكم بهذه البوابات الحالة النفسية للمريض. فإذا كان مؤمناً قد لا يتألم أبداً.

العطاء أحد أكبر أعمال المؤمن في الحياة :

السؤال الآن: لماذا الابتلاء ؟ نحن كما تكلمنا قبل قليل يحتاج التعلم للامتحان، ويحتاج الإعداد إلى امتحان، الدنيا إعداد للآخرة إذاً لا بد له من الامتحان.

هناك معنى آخر نحن بحاجة إليه: المؤمن جاء إلى الدنيا ليعمل عملاً صالحاً ـ كلام دقيق ـ طبعاً حينما يؤمن بالله، ويستقيم على أمره، ليس هناك في حياته شيءٌ يعلو على عملٍ صالحٍ يفعله ليكون ثمن الجنة. ماذا فعلت يا عبدي ؟ ما الثمن الذي دفعته لدخول الجنة ؟ الثمن هو عمل صالح، هو الإنفاق. قال تعالى:

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *)

[سورة البقرة]

إن أحد أكبر أعمال المؤمن في الحياة العطاء، الكافر عمله الأخذ، لدى النملة جهاز ضخ وجهاز مص، فإذا التقت بأختها النملة الجائعة، عندها جهاز ضخ ؛ يضخ لأختها النملة الجائعة خلاصة الغذاء، لدى النملة الجائعة جهاز مص، النملة تأخذ وتعطي، تمص وتضخ، الكافر يمص فقط، لا يضخ على الإطلاق، فلماذا الابتلاء ؟ أي أنك مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض، ثمنها العمل الصالح.

هناك معركة أزلية أبدية بين الكفر والإيمان :

هناك في الأرض مؤمن وكافر، ما معنى مؤمن وكافر ؟ أي أن هناك معركة بين الكفر والإيمان، بين الحق والباطل، بين الخير والشر، معركة أزلية أبدية من آدم إلى يوم القيامة، قد يقوى الكفار أحياناً، قد يجوع المؤمن، أحياناً تكون المقدَّرات بيد الكفار لحكمةٍ أرادها الله، المال بيدهم، الأعمال بيدهم، ولكن المؤمن لا يعصي الله عز وجل، لأن طاعة الله عنده فوق كل شيء، المؤمن في حياته الدنيا، بحسب معركة الحق والباطل الأزلية الأبدية، قد يحتاج إلى أن يجوع، فإذا ابتلاه الله عز وجل بالجوع، كيف يواجه هذه المعركة الشرسة ؟ مثلاً: إنسان دخله كبير، فجأةً يتلاشى دخله، فإذا عوَّد أهله على الحياة الخشنة من حين لآخر، والدخل قل، فهو يستطيع أن يعيش حياة خشنة إذا قلَّ الدخل، أما إذا لم يعود نفسه ولا أهله على الحياة الخشنة، ماذا يفعل ؟ إما أن يأكل الحرام، وإما أن يمالئ السُلطان، النبي قال:

((اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم))

[كشف الخفاء عن عمر]

أي وطن نفسك على الجوع، فإذا كنت بموقف صعب خُيِّرت بين أن تبيع دينك وبين أن تعيش حياة راقية، لا، لا أبيع ديني، أعيش حياة خشنة وأحافظ على ديني، فالله عز وجل أثنى على الأقوياء، والأقوياء هم الأغنياء، بالمعنى الدقيق والعلماء، لكن إذا كان طريق القوة المالية أن ترتكب الحرام، كلا فالفقر وسام شرف، وإذا كان طريق الغنى أن تفعل الحرام، الفقر وسام شرف، الضعف وسام شرف، والفقر وسام شرف.

الحكمة من وجود معركة بين الحق والباطل :

المشكلة أن المؤمن مخلوق لعملٍ صالحٍ جليل يجعله في جنة ربه إلى أبد الآبدين، هذا العمل الصالح يقتضي أن تخوض معركة الحق والباطل. لماذا هيأ الله أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم سيد الخلق وحبيب الحق ؟ لو خلق الله أعداء النبي بأمريكا مثلاً لكان أريح، كلهم هناك في قارة بعيدة، لا يوجد إلا أصحابه، دعا إلى الله فآمنوا به، وذابوا محبةً به، وانتهى الأمر، ليس هناك هجرة، ولا بدر، ولا أحد، ولا خندق، ولا يوجد منافقون، ولا يوجد شيء أبداً، لكن دون معركة لا

توجد جنة، دون خصومات لا توجد جنة، ما الذي يرقى بالمؤمن ؟ الطرف الثاني يعاكسه فيرقى المؤمن.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

[سورة الأنعام الآية: 112]

حكمةٌ بالغة، فأولاً: المؤمن في حياة إعدادية لحياة أخرى، وهو في مدرسة، ولا بد من أن يخوض معركة الحق والباطل، مستحيل، لا بد من أن تخوض معركة الحق والباطل، إذاً أراد الله عز وجل أن يهيِّئك لهذه المعركة فابتلاك بشيءٍ من الخوف، أحياناً يهددك إنسان، يلوح لك شبح مصيبة فتخاف، قد تخاف على صحتك، قد تخاف على دخلك، قد تخاف على سلامتك، قد تخاف على زوجتك وأولادك، فالخوف جزء من حياة المؤمن.

الخوف بيد الله ويمكن إزالة أسبابه بالتوحيد والإيمان :

قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

قد يأتي عدوٌ لك فيتهددك، هو بيد الله، فربنا عز وجل أراد أن تقوى معنوياتك، وأن تتدرب على تحدي الخوف، وأن تزيل أسبابه بالتوحيد والإيمان، فربنا عز وجل قال :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

هذا الخوف ينتهي من حياتك:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج]

المتصل لا يخاف، المتصل أقوى إنسان لأنه مع الواحد الديَّان، المتصل بالله أقوى إنسان لأن الله عز وجل قال:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

[سورة غافر الآية: 60]

معركة بين سيارات كهربائية ـ ألعاب الأطفال بالأعياد ـ يوجد مع المشرف حركة، فإذا قطع الكهرباء وقف كل شيء، فإذا كانت علاقتك مع هذا المشرف، واقترب خصم قطع الكهرباء فجمد كصنم بأرضه.

علاقة المؤمن طيبة مع ربه، هو ربَّاني، مستجاب الدعوة، وأكبر خصم له في قبضة الله، **" فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ "**

علاج الخوف الصبر حتى يحكم الله :

يجب أن نؤمن أن الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات إعدادات وتدريبات على خوض معركة الحق والباطل، الصحابة الكرام أكلوا ورق الشجر في أثناء القطيعة التي فرضها عليهم المشركون، والآن ترون دولاً قوية جبارة طاغية تجعل شعباً محروماً من كل شيء، خمسمئة ألف طفل يموتون كل عام جوعاً في العراق، فالمعركة شرسة، يجب أن توطّن نفسك على أن الحق والباطل يتصارعان دائماً، فأنت داعية، وأنت مؤمن، وأنت لك باع طويل في خدمة الخلق، قد تحتاج إلى أن تكون صابراً، قد تخاف، علاج الخوف أن تصبر حتى يحكم الله:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران الآية: 146]

الخوف والجزع نقاط ضعف لصالح إيمان المؤمن :

يدربك الله على أن تخوض معركة الحق والباطل، وأن تنجح في هذه المعركة، فهو يعطيك شيئاً من خوف، مثل للتوضيح: قد يهجم جرثوم على جسم فيفتك به، وينهي حياته، لكن كي نهيئ الجسم إلى مقاومة هذا الجرثوم نعطيه جرثوماً مضعفاً، خفيفاً، فالأجهزة المناعية تهيئ مصلاً مضاداً لهذا الجرثوم، فإذا حدثت هجمة شرسة قوية ، فالسلاح جاهز، ماذا فعلنا حينما حقننا تحت الجلد جراثيم مضعَّفة ؟ دربنا الجسم على صنع مصل مضاد لهذا الجرثوم.

كذلك الله عز وجل يخوفك، حتى إذا جاء الخوف الحقيقي تكون صامداً، لا تنهار، وأساس الإنسان أنه يخاف، يخاف لمصلحته، لأن أمنه عند الله، فإذا خاف يلجأ إلى الله، الإنسان سريع العطب، شديد الخوف، هكذا قال الله عز وجل:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

[سورة المعارج]

قلبه مقطوع، كثير الجزع:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

[سورة المعارج]

هذه نقاط ضعف لصالحه، لصالح إيمانه.

التخويف من الله عز وجل علاج :

الإنسان يخاف فإذا لاح له شبح مصيبة أكبَّ على أعتاب الله، أقبل على الله، لاح له شبح مصيبة فالتجأ إلى الله، لو كان لا يخاف لم يلتجئ، فالخوف سبب لجوئه إلى الله وكل السعادة عند الله، ولكي يجلبك الله لعنده خوفك.

قال لي إنسان: كان الموسم جيداً جداً، وضعت خمسمئة ألف لكي أقضي شهراً بأمريكا لأتمتع على مزاجي، ولا يوجد عندي شيء حرام ـ هكذا قال لي بالضبط ـ وصل إلى هناك، شعر بآلام في الظهر فراجع طبيباً، قال له: سرطان بالنخاع الشوكي. فانهار، قطع رحلته، وعاد إلى بلده، يتردد من جامع إلى جامع، وتاب توبة نصوحاً، ثم تبين بعد ذلك أن التشخيص خطأ وأنه ليس مصاباً بشيء، الله عز وجل خوَّفه، لو أن الإنسان لا يخاف، هذا التخويف من الله عز وجل علاج.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

هذا خوف لمصلحتك، فهو جعلك تماماً كآلة غالية جداً، ثمنها ثلاثين مليوناً، والكهرباء مضطربة، يقول لك: عندنا الكهرباء مئتين وعشرين، تأتي أحياناً مئة وخمسين، أحياناً تأتي مئة وعشرة، أحياناً قد تأتي مئتين وسبعين، فتحرق جميع الآلات، لذلك تجدهم يضعون في الآلات مصهراً ـ يسموه الفيوز ـ عبارة عن وصلة ضعيفة جداً، إذا كان التيار شديداً تنصهر وتقطع الكهرباء، فتحمي الآلة، فثلاثين مليوناً حفظتهم بهذا الفيوز، الإنسان هكذا بالضبط، يوجد عنده فيوز هو الخوف، متى جاءه شبح مصيبة ينهار رأساً فينقطع، فيدعو الله عز وجل، يتوب لله، لو لم يخف لا يتوب.

الخوف يرقى بالمؤمن :

صدقوني أيها الأخوة ولا أبالغ، إذا دخلت جامعاً ورأيت فيه خمسة آلاف شخص أربعة آلاف منهم أتوا إلى الله بعد مشكلة، بعدما خوفهم الله عز وجل، خوفهم فركضوا إليه، أحب أحدهم أن يداعبني ذات يوم فقال لي: ما ملخص دعوتك ؟ قلت له: كلها كلمتين إما إن تأتيه ركضاً لوحدك، أو أن يأتي بك ركضاً، بمصيبة:

((عجب ربنا من قومٍ يقادون إلى الجنة بالسلاسل))

[رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة]

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

يكون الإنسان خائفاً على صحته فيأخذ احتياطات، فحص تام، نبض، ضغط، فجأة يأتيه شيء من حادث سير، ما كان يخطر بباله، كلما أخذت أمناً، أخذت احتياطات ونسيت الله، فتفاجأ من باب لم تكن تحسبه، كلما أخذت احتياطاً من جهة تجد أن عند الله خيارات كثيرة، تأتي مشكلة لم تحسبها أبداً من جهة ثانية، يمكن أن يدمر الإنسان لأتفه الأسباب.

هل تصدق أن الإسلام كله وعظمته مبني على خيط عنكبوت ؟ خيط العنكبوت هذا على غار ثور منع المشركين أن يقتحموا الغار والنبي داخله، لو انتهت حياة النبي لانتهى الإسلام وقتها. فسلامة وعظمة هذا الدين وهو كالطود الشامخ ألفاً وخمسمئة عام سببه خيط عنكبوت.

أيها الأخوة، هذه مصائب المؤمنين، الخوف هذا يرقى بهم، وهناك كذلك خوف أرقى من هذا، فقد ورد: رأس الحكمة مخافة الله، حينما تخاف أن تنقطع صلتك بالله، فتتمسك بأهداب الشرع هذا خوف راقٍ جداً، ليس خوفاً من مصيبة، بل خوفاً من أن تنقطع عن الله، حريص على هذه الصلة مع الله، هذا الخوف الذي يرقى بك إلى الله عز وجل.

الله يعرف مأخذ كل إنسان وما يزعجه :

على كلِ الخوف طبيعي، سيدنا موسى:

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

[سورة القصص]

كان جالساً مرتاحاً في قصر فرعون ولا يوجد عنده أية مشكلة، ولكنه محتاج إلى أن يرقى، فتورط مع القبطي، وكزه فقضى عليه، قال:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ)

[سورة القصص]

خوفه الله عز وجل، فركض إلى سيدنا شعيب، استقبله، زوجه ابنته، وعاد إلى فرعون رسولاً معه آيات، هذا الرُقي والقفزة العالية جداً سببها الخوف، لو لم يخف لما خرج من قصر فرعون.

ارتقى سيدنا يوسف بالسجن، لماذا ارتقى ؟ لأنه مكث بالسجن، قال لي أحدهم: خلوة مع الله. ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن حبسوني فحبسي خلوة، وإن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة.

هناك شخص يهزه الخوف، أخبرني أحدهم عن شخص عنده سيارة ركبها أخوه فحطمها في حادث، وثمنها عدة ملايين ـ والقصة قديمة ـ لغبائه الشديد لم يتنازل ليراها، بل قال لهم: بيعوها. إذاً هذا محصن ضد المال، لا يهمه، لكن الله عز وجل خوفه من موضوع ثانٍ، قابل شخصاً، قسا عليه بالكلام، شعر بوخزة في قلبه، ركض لعند الطبيب، فقال له الطبيب: الوضع غير طبيعي !! من أين أخافه الله ؟ من قلبه، الله يعرف من أين مأخذك، يعرف مفتاح كل واحد منا ؛ إنسان مفتاحه المال، إذا أضاع راتبه يجن، وإنسان مفتاحه معنوياته، إذا أهين ينهار، وآخر معنوياته مزرعته، إذا أتتها موجة صقيع فخسر كل الموسم ينهار، فربنا عز وجل قال:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ)

الله يعرف مأخذ كل إنسان وما يزعجه، هذه اسمها مصيبة لأنها تصيب الهدف.

الجوع يؤدب الإنسان :

قال تعالى:

(وَالْجُوعِ)

أنا أقول الآن: الذي يسرف في الطعام والشراب أو يشتري طعاماً لا حاجة له به وهناك أناس يموتون من الجوع هذا يتركب جريمة، الذي يلقي الطعام في القمامة هذا مجرم، هذه النعمة ثمينة جداً هناك من يشتهيها، عندما يجوع الإنسان يعرف ما معنى الجوع.

رجل أسلم في أمريكا، وصام أول رمضان، وكان الصيام صعباً جداً عليه لأنه كان ملحداً ثم أسلم وحسن إسلامه، فجلس أول يوم في رمضان في بعض البلاد شمال أمريكا والنهار يقرب من ستة عشر ساعة، وكان الحر شديداً في أيام الصيف، حوالي الساعة الثانية عشرة لم يستطع إكمال يوم عمله، فترك الجامعة وعاد إلى البيت، استلقى على الفراش حتى المغرب، يقول بكتابه ـ وقد كان يتفرج على الرائي، وفيه أخبار عن شعوب بنجلاديش والفقر هناك ـ فقال هذه الملاحظة: أنا جعت ولكنني سآكل الآن، أما هذا الذي يجوع ولا طعام عنده ؟! ألا ترون هؤلاء الجياع في السودان، في الصومال، يموتون من الجوع، قال: أنا أجوع وهالني الجوع ولكن سوف آكل بعد قليل، أما هذا الذي يجوع وليس عنده ما يأكل!!

الجوع يؤدب الإنسان، فقد تجد شخصاً في رمضان، شخصية مهمة جداً ؛ عالم جليل مثلاً، تاجر كبير، بمنصب رفيع، صام أول يوم والدنيا صيف، الساعة الثانية عشر ظهراً كل خواطره كأس من الماء، كأس شراب عرق سوس، أين عظمة الإنسان ؟ كل خواطره على كأس ماء، إذا رأى شراباً بارداً تذوب نفسه له لأنه صائم، الصيام يعرفك بحجمك، عبد ضعيف، أنت تتوقف كل مشاعرك على كأس ماء تشربه، إذا جاع الإنسان أيضاً كذلك يحس بألم الجوع.

الامتحان يفرز الناس إلى مؤمن و غير مؤمن :

إخواننا الكرام، هدف الامتحان أحياناً الفرز، عند إخواننا المهندسين قاعدة اسمها التحميل، مثلاً شرفة فيها خطوط تشعر أن الصبة غير صحيحة، فماذا يفعل المهندس ؟ يحملها، فيأتي بعشرين برميلاً يملأهم بالماء، فإذا وقعت يبني مكانها، فإذا صمدت معناها أنها جيدة، عملية فرز. فأحياناً ربنا عز وجل يعمل امتحاناً، فالإنسان إما أن يسقط وإما أن يرقى، وكل فترة فيها امتحانات، وحتى الصحابة امتحنوا ؛ بالخندق:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا *)

[سورة الأحزاب الآية: 10]

قال أحدهم:"أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ". كأنه كفر.

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب الآية: 11]

أما الذين آمنوا، قال بعضهم: **" ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ".** لكن:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا)

[سورة الأحزاب الآية: 23]

نحن ممتحنون، والامتحان يفرزنا جميعاً، مرة قال لي أخ كان بمصر: حدث زلزال في القاهرة، فالأطباء امتحنوا ؛ بعضهم ركب سيارته إلى الإسكندرية وكان لا علاقة له بالزلزال إطلاقاً، وبعضهم عمل الوقت كله في المستشفى لخدمة المصابين. فانظر لهذا الزلزال كيف فرز الأطباء فرزاً كاملاً، واحد أظهر أنانيته وطلبه للسلامة، ابتعد عن مكان الزلزال ؛ والثاني بقي في المستشفى ليلاً نهاراً بشكل مستمر يعالج المصابين من الزلزال. يرسل الله مصيبة فيفرز الناس.

الله عز وجل يدربنا على أن نواجه الباطل بقوة و صبر :

لذلك أيها الأخوة البطولة بالامتحان، المركبة من أي نوع، من أي جنس، تمشي بطلاقة في المنحدر حتى من دون محرك، أما في الصعود لا تصمد إلا المركبة القوية، كيف تمتحن المركبات ؟ بالصعود، هل سمعت إنساناً امتحن مركبة بالنزول ؟ يكون مجنوناً، لا بد من الصعود لكي يمتحن المحرك تماماً، قد يمتحن الله عز وجل ناساً بالرخاء، فتجدهم كلهم شاكرين، يقول لك التاجر: الله ذو فضل عظيم. ما دامت الغلة جيدة، أما إذا وقف السوق وعليه دفع، فماذا يتكلم ؟ هل يرى هذا من الله ؟ هل يقول: يا رب لك الحمد ؟ سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: **" الحمد لله ثلاثاً ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها ".**

أرجو الله سبحانه وتعالى في درسٍ قادم أن نتابع هذه الآية، هذه آية المصائب، مصائب المؤمنين بالذات، فالله عز وجل يدربنا على أن نواجه الباطل بقوة وبصبر، لو جعنا في جوع، لو خوفونا في خوف وفي جوع، نقص بالأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، أحياناً إنسان يملك بستاناً يقول لك: لا أقبل ضمانه أقل من مليونين. تأتيه موجة صقيع خلال أربع ثوان يصبح كله أسوداً.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

[سورة القلم الآية: 19]

يا ترى أيهما أغلى عندك هذه الغلة أم الله عز وجل ؟ إذا كان البستان أغلى من الله كفر الإنسان، إذا كان الله غالياً عليك تقول: يا رب لك الحمد، أنا راضٍ بما فعلت..

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدلٌ وإن عدلوا

والله وإن فتنوا في حبهم كبدي باقٍ على حبهم راضٍ بما فعلوا

***

الخوف والجوع والنقص في الأموال والأنفس والثمرات تدريب على العمل الصالح :

يقول سيدنا علي: **الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين "**. وكل إنسان يصبر، والله هناك آية قرآنية يقرأها الإنسان فيقشعر جلده:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)

[سورة ص الآية: 44]

قد تكون مؤمناً مستقيماً ودخلك لا يكفيك عشرة أيام، وأنت صابر تضغط المصروف، فهذه بطولة، أن ترى أحدهم كتلة كفر ومعه ملايين ولا تتأثر إطلاقاً، هذه دنيا تغر وتضر وتمر، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

[سورة آل عمران]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم الآية: 42]

أنت راضٍ، فهذا الخوف، والجوع، والنقص في الأموال والأنفس والثمرات، تدريب على العمل الصالح، تدريب على النجاح في الحياة الدنيا، تدريب للفوز بالآخرة، وفي درسٍ آخر نتابع هذا الموضوع.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (51- 95):تفسير الآية 155، حكمة المصائب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-08-06

بسم الله الرحمن الرحيم

فلسفة المصائب :

أيها الأخوة المؤمنون ... مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الخامسة والخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

أول نقطة: مطلق الألم، أيُّ شيءٍ يؤلمك ؛ نقصٌ في المال، نقصٌ في الصحة، ذريةٌ ليست كما ترضى، زوجةٌ ليست كما ترضى، دخلٌ قليل، وضعٌ مهين، أي شيءٍ يؤلمك، أي شيءٍ يتعبك، أي شيءٍ تتحسَّر من أجله ؟ لمَ هذه الآلام ؟ لمَ لا تكون الحياة كلها أموالاً، وكلها جمالاً، وكلها راحة، وكلها أمناً ؟ لمَ الخوف ؟ لمَ الفقر ؟ لمَ المرض ؟ لمَ الموت ؟ لمَ الهم ؟ لمَ الحزن ؟ سؤال كبير في العقيدة سأوضحه قليلاً:

السيارة لمَ صُنِعَتْ ؟ من أجل أن تسير، أليس فيها مكابح ؟ مكابحها تتناقض مع سبب صنعها ، صُنعت لتسير وفيها مكابح تمنع سيرها، هل المكابح شرٌ أم خير ؟ هي خير، المكابح من أجل سلامتها، وسلامة أصحابها، واستمرار عملها .

فإذا فهمنا أنّ الألم، مطلق الألم، أي شيءٍ يؤلمك، أية مصيبةٍ تزعجك، أي همٍ يسيطر على قلبك، أي خوفٍ، أي فقرٍ، أي فقد حريةٍ، أي بيتٍ مُتْعِب، أية زوجةٍ متعبة، أي ولدٍ متعب، أي خوفٍ ممن هو أعلى منك، مُجمل الآلام التي يعاني منها الإنسان هي بمثابة مكابح في مركبة، لولا هذه المكابح ما سَلمت لا هي ولا صاحبها، هذا معنى قوله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان الآية: 20]

مكابح السيارة من أجل سلامتها . مثل آخر، طفلٌ صغير، كل سعادته مع أمه، كل شبعه مع أمه، كل ريِّه مع أمه، كل أمنه مع أمه، كل نظافته مع أمه، كل ثيابه النظيفة مع أمه، كل شعوره بالسعادة إذا كان مع أمه، فإذا ترك يد أمه وشرد عنها، لا بد من كلبٍ ينبح عليه حتى يعيده إلى أمه، هذه حالة ثانية، هذه فلسفة المصائب .

المصيبة جزء أساسي من العقيدة :

قضية المصيبة جزء أساسي من العقيدة، إن لم تفهمها كما أرادها الله، أسأت الظن بالله عزَّ وجل، وسوء الظن بالله من الكبائر، وقد تحدثت في الخطبة اليوم أن الكبائر نوعان ؛ كبائر ظاهرة، وكبائر باطنة، الكبائر الظاهرة مثلاً كشرب الخمر، السرقة، التولي من الزحف، الغيبة، النميمة، هذه كبائر ظاهرة، لكن كونها ظاهرة يمكن أن تتخلَّص منها، فهي واضحة . أما الكبائر الباطنة كسوء الظن بالله، الأمن من مكر الله، اليأس من روح الله، هذه كبائر باطنة، خطيرة جداً، فسوء الظن بالله سببه أن لا تفهم المصيبة على ما أرادها الله..

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة الآية: 21]

العذاب الأكبر في جهنم، والعذاب الأدنى في الدنيا، السجن عذاب أدنى، الضرب عذاب أدنى، الذل عذاب أدنى .

صحابي سأل النبي عليه الصلاة والسلام أن يدعو له أن يذهب عنه النوم، قال: **" إني نؤوم "**، فسيدنا عمر قال: **" ويحك يا رجل فضحت نفسك ". قال له: " دعه يا عمر فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة "**. فالعذاب الأكبر في جهنم، والعذاب الأدنى في الدنيا، العذاب الأدنى ملطَّف، مخفَّف، قال الله عزَّ وجل:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ)

[سورة يونس الآية: 107]

العذاب الأدنى في الدنيا أما العذاب الأكبر فهو في الآخرة :

ماذا تفعل حينما تريد أن تمتحن حرارة المكواة ؟ تضع لعاباً على أصبعك، وتضع أصبعك على المكواة لأقل وقت، أقل من ثانية وبأقل مساحة، أقل مساحة، وأقل وقت، ومع لعاب، هذا المَس:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ)

[سورة يونس الآية: 107]

تأتي آلام، يقول لك: الآلام ليست مستمرة ولكنها متقطِّعة، فالعذاب الأدنى هو في الدنيا، أما العذاب الأكبر فهو في الآخرة:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة الآية: 21]

العذاب الأدنى من أجل أن يرجعوا، من أجل أن يسعدوا، من أجل أن يَسْلموا، من أجل أن يدخلوا جنةً عرضها السماوات والأرض ..

((و عزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

مثل ثالث، طفل في الصف الرابع، قال لأبيه مرةً واحدة: لا أحب المدرسة، قال: دعها يا بني، لأول كلمة ترك المدرسة، نام إلى الظهر، وارتاح، لا وظائف، ولا دوام، ولا أي شيء، لعب مع رفاقه، كل يوم من محل إلى محل، من مسبح إلى مسبح، من سينما إلى سينما، كبر، فوجد نفسه متخلف عن أصدقائه ؛ لا عمل، ولا حرفة، ولا مهنة، ولا زواج، ولا بيت، شريد في الطرقات، فقير، جائع، قليل الشأن . نقم على والده وقال له: يا أبت لمَ وافقتني حينما طلبت منك أن أدع الدراسة ؟ لمَ لمْ تضربني ؟ لمَ لم تشدِّد علي ؟ لمَ لم تزجرني ؟

المصائب تهدي الناس إلى طريق الصواب :

لو ترك الله عزَّ وجل الناس على هواهم بلا مصائب !! يقول لك: لا توجد مياه، صحيح، المكاسب قليلة والمطالب كثيرة، صحيح، هناك في حياة المؤمن أحياناً مليون مشكلة، لو لم تحدث ولا مشكلة، واسترسل في الدنيا، ونسي الله، وغفل عنه، إلى أن قادته غفلته إلى جهنم، هذا أفضل أم أن يسوق الله للإنسان بعض المصائب ؟

أنا أضرب بعض الأمثلة، وعندي قصص كثيرة جداً وكلها واقعيَّة، من هذه القصص ؛ رجل له وظيفة، وآتاه الله عزَّ وجل شكلاً جميلاً، وله زوجة تروق له، ودخل كافٍ، وهو في ريعان الشباب، ولكنه بعيد عن الدين بُعد الأرض عن السماء، له ابنةٌ يكاد عقله يذهبا من شدة تعلُّقه بها، كان بعيداً عن الدين بعداً غير معقول، كان يسخر أحياناً من أحاديث رسول الله، أصيبت ابنته بمرضٍ خبيث في دمها، ما ترك طبيباً إلا وقابله، وعرض عليه ابنته، قال لي: فحصها ستة وثلاثون طبيباً، ثم باع بيته، وسافر بها إلى بريطانيا، لا يوجد أمل، بذل من أجلها كل ما يملك ـ ورم خبيث في الدم ـ ثم قال لي: خطر في بالي خاطر لعلَّه ملائكي، لو أنك تبت إلى الله أنت وزوجتك، وحجَّبت زوجتك وصليتما معاً، لعل الله يشفيها ـ خاطر ملائكي ـ قال لي: استجبت لهذا الخاطر، وتبت إلى الله، واصطلحت معه، وحجَّبت زوجتي، وسرت في طريقٍ آخر ـ طريق الرحمن ـ تراجع هذا المرض شيئاً فشيئاً. بعد حين زارني في المكتب وقال لي: أدعوك لعقد قِران ابنتي، لم أنتبه أية ابنة له، لبَّيت هذه الدعوة وألقيت كلمة، وأنا أخرج من مكان الحفل سألته: هل هذه هي ؟ قال لي: هي هي، شفاها الله وزوَّجها، ماذا فعل هذا المرض ؟ ضيف جاء، حمل الأب والأم على الطاعة، والتوبة، والصلح مع الله ثم غادر ..

(أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ*وَلا يَسْتَثْنُونَ*فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ*فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

[سورة القلم]

لولا المصائب لاستحق الغافلون النار :

عنده بساتين، يقول لك: أنا لا أضمّنها بثلاثة ملايين . ثمار يانعة، وحان قِطافها، أسعارها غالية جداً، لكن:

(أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ*وَلا يَسْتَثْنُونَ)

لا يعطون أحداً من الفقراء شيئاً، لو تركهم ربنا على ما هم عليه لاستحقوا النار

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُون).

صقيع، أحياناً يكون الصقيع لمدة دقيقة، أعرف صقيعاً استمر أقل من دقيقة، نصف دقيقة فقط، أتلف كل المحاصيل:

(فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ*أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ)

[سورة القلم]

فلما رأوها صعقوا:

(قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ)

[سورة القلم الآية: 26]

هذا ليس بستاننا، فلما تأكدوا أنه بستانهم قالوا:

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ* قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ* قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[سورة القلم]

المصائب رحمة مبطنة من الله :

الآن دقّق، دقّق في هاتين الكلمتين:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

[سورة القلم الآية: 33]

أي أن أي عذابٍ أسوقه لعبادي من أي نوع ؛ عذاب مادي، عذاب معنوي، فقر، قهر، مرض، حرب أهليَّة، اجتياح، أي عذابٍ أسوقه لعبادي ؛ من أي نوع، من أي جنس، في أي مكان، في أي زمان كهذا العذاب، قال:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة القلم الآية: 33]

أيها الأخوة ... المصيبة رحمةٌ من الله، لكنها رحمةٌ مبطَّنة، أما النعم الظاهرة فهي الصحة، والمال، والجمال، والزوجة، والأولاد، والمسكن الواسع، والمركب الوطيء، والرزق في بلدك، هكذا قال النبي: **" من سعادة المرء في الدنيا أن تكون زوجته صالحةً، وأولاده أبراراً، ومسكنه واسعاً، ومركبه وطيئاً، ورزقه في بلده "**.هذه هي النعم الظاهرة، أما النعم الباطنة ؛ مرض قد يقودك إلى باب الله، فقر قد يقودك إلى باب الله، حجز حرية قد تقودك إلى باب الله، مرض ابن قد يقودك إلى باب الله، هكذا، يجب أن نفهم حكمة المصائب .

مثل خامس: أنت مدير مؤسسة، وأردت أن تضع ابنك في المؤسَّسة، لو عيَّنت إنساناً غريباً تقول له: عندك انتداب لمدة ستة أشهر، فإما أن أقول لك: استمر، أو ليس لنا مصلحة أن تكون بيننا . فهذا الغريب كلما أخطأ سجل الخطأ خطأ، كلَّما أخطأ سجَّل، إلى أن تراكمت هذه الأخطاء فصرفه، لا يناسبنا، لو أن لهذا المدير ابناً، وكان معه في العمل، كلَّما أخطأ خطأ يسجله عليه أم يحاسبه عليه ؟ يحاسبه، هذا غلط افعل كذا، السبب وجود رحمة، رحمة الأب تقتضي ألا يدع ابنه بلا توجيه، كلما أخطأ يوجِّهه إلى الصواب .

الله عزَّ وجل نصب الكون ليدل عليه، وأرسل النبي ليبلغنا الرسالة، وأنزل كتاباً منهجاً لنا، وانتهى الأمر، فافعل ما تشاء، لو أن الناس شردوا عن الله واستحقوا النار، أهذا أفضل، أم أن يعاقبهم الله عزَّ وجل كلَّما أخطؤوا ؟ كلَّما أخطؤوا ساق لهم بعض المصائب كي يتوبوا، أيهما أفضل ؟!

في المصائب معانٍ كثيرة :

أيها الأخوة ... هناك معانٍ كثيرة في المصائب، على كلٍ الله عزَّ وجل رب، والرب هو الذي يحيط المربَّى بالعناية والتربية، فالله عزَّ وجل كما أنه يربي أجسامنا ؛ يسوق لنا الأمطار، يسوق لنا الخيرات، يُنبت الزرع، يمدَّنا بالهواء، بالماء، بالطعام، بالشراب، هذه تربية أجسام، وهو أيضاً يربي نفوسنا .

أحد أخواننا يملك معملاً بسيطاً متواضعاً، زاره شخص من المسجد قال له: أريد أربع قطع ألبسة داخلية، وهو يبيع بالجملة، قال لي: أنا أبيع أربعمئة قطعة، فهل أبيع أربع قطع ؟! فقال له: أنا لا أبيع مفرَّقاً، قال له: لا تؤاخذني، أقسم لي أنه في خلال ثلاثة وثلاثين يوماً ما دخل محله مشتر، أدَّبه الله، الآن يبيع قطعة واحدة، هذا تأديب نفسي، عن طريق تأمين الطعام والشراب، أو تقليل الطعام والشراب، الآن الناس يشكون قلة المطر، شح المياه، الآبار نشفت، قال لي أخ: حفرت بئراً منذ عشر سنوات على طريق المطار، ستة أمتار وجدت الماء، قال لي: حفرت ستين متراً احتياطاً، وأنزلت المضخة خمسين متراً، قال لي: بعد حين جفت كلياً، حفرت مئة وثلاثين متراً، حفر من ستة أمتار إلى مئة وثلاثين متراً، أي أن منسوب المياه الجوفية غار، وإذا ما أنزل الله عزَّ وجل أمطاراً

فإن هذه البلاد ستجف، الله عزَّ وجل حرَّك الأمطار، وحرَّك الأرزاق كي يؤدبنا، وإذا قنَّن فهو تقنين تأديب لا تقنين عجز، تقنين تربية لا تقنين بُخل:

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[سورة الحجر الآية: 21]

قرأت مقالة علميَّة: اكتشف علماء في أوروبا من خلال مراصد عملاقة تعمل بالأشعَّة تحت الحمراء، اكتشفوا سُحُب في الفضاء الخارجي، إحدى هذه السحب ـ دقِّقوا ـ تملأ محيطات الأرض كلَّها ستين مرَّة بالمياه العذبة، يقول لك: حرب مياه، أزمة مياه في العالَم، هو تقنين تأديب لا تقنين عجز، سحابةٌ واحدة يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرَّة في اليوم الواحد:

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[سورة الحجر الآية: 21]

ليس في الكون فساد إلا من قِبَل الإنس والجن :

قال العلماء: لا يجوز أن تقول: الله ضار، مع أن الضار من أسمائه الحسنى، فماذا أقول ؟ تقول: ضارٌ نافع، إنه يضر لينفع، لا يجوز أن تقول: الله قابض، مع أنه قابض، والقابض من أسماء الله الحسنى، يجب أن تقول: قابضٌ وباسط، يقبض ليبسط، لا ينبغي أن تقول: الله خافض، مع أن خافض من أسماء الله الحسنى، يجب أن تقول: خافضٌ رافع . يخفض ليرفع، يضر لينفع، يذل ليعز، يضعك في موقف صعب فتبكي من شدة القهر، حينما تبكي ترجع إلى الله وتصطلح معه، فيعزَّك، أذلَّك ليعزَّك، منعك ليعطيك، خفضك ليرفعك، ضرَّك لينفعك، هكذا فعل الله عزَّ وجل.

شيءٌ آخر: هناك الآن فساد في البر والبحر وفي الجو أيضاً يوجد فساد، تدار الخمور في الطائرات، وتُعرض أفلامٌ لا ترضي الله في الطائرات، فظهر الفساد في البر والبحر، فساد في البواخر، فساد في البر، اصعد على جبل قاسيون، وانظر ما على السطوح، تعلم حجم الفساد في بلدنا:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

هناك من يقول: لكي يشاهد الصلاة بمكَّة فقط . الله أعلم، لكن قد يظهر الفساد في البر والبحر، ولا يحدث شيء، ممكن:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

ليس في الكون فساد إلا من قِبَل الإنس والجن .

تعريف الفساد :

ما هو الفساد ؟ الفساد كائن مخيَّر فيه شهوات، هناك منهج، تحرَّك بدافع من شهواته بلا منهج لأنه حر، هذه كل القصة، السكر مثلاً مادة مهمة جداً، والملح مادة مهمة جداً، والمساحيق البيضاء ـ المنظِّفات ـ مهمَّة جداً، اطبخ طبخةً غالية جداً وضع لها مسحوق غسيل، هل تؤكل ؟ انتهت، علماً أن المواد كلها مفيدة، هذا سوء استخدام، ضع السكر مع الطبخ لا تأكله، ضع الملح في الحلويات لا تأكلها، ضع كيلو سكر في محرّك يكلّف إصلاحه ثلاثين ألفاً، ما هو الشر ؟ الشر سوء استخدام، ما هو المنهج؟ ضع السكر في الشاي، والملح في الطبخ، ومسحوق الغسيل لتنظيف الصحون، هذا التوجيه، كل شيء له استعمال، فالإنسان إذا كان أعمى يضع شيئاً مكان شيء، يضع السكر في الطبخ، والملح في الحلويات، فيفسد الطعام والحلويات معاً:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

هذه الباء باء السبب، أي بسبب الناس ظهر الفساد، ما هو الفساد ؟ أن تخرج الشيء عن طبيعته ؛ هذا الماء لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة ، هذا الماء إفساده أن يكون ملوثاً، أو أن يكون كريه الرائحة، أو أن يكون عكراً، هذا هو الفساد، إخراج الشيء عن طبيعته:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم الآية: 41]

كان من الممكن أن يذيقهم ومن الممكن أن لا يذيقهم:

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

السبب أن يرجعوا إلى الله عزَّ وجل .

مطلق المصائب سببها أن نعود إلى منهج الله سبحانه :

إذاً الإنسان أودعت فيه الشهوات، أعطي حرية الاختيار، أعطي منهجاً، فتحرَّك وفق شهوته بلا منهج، قال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية: 50]

فالفساد هو اتباع الهوى بغير هدىً من الله:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم الآية: 41]

كل المصائب، مُطلق المصائب، مطلق الألم، كل شيء سلبي في الحياة

:(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

أحدهم أحبَّ أن يداعبني فقال لي: ما ملخَّص دعوتك في هذا المسجد ـ عمرها ثلاثون سنة ـ ؟ قلت له كلمتين سأذكرها باللغة الدارجة: إما أن تأتي لله عز وجل ركضاً، أو أن يأتي بك ركضاً، هو يعرف كيف يأتي بك، فانتبه، يمكن أن يقبل الإنسان على الله باختياره، فإن لم يفعل فهناك مصائب تسوقه إلى باب الله عزَّ وجل .

موسم طيِّب، أرباح طائلة، أخذ خمسمئة ألف، وسافر إلى بلد غربي لكي يتمتع ـ هكذا قال لي ـ ذهب، شعر بآلام في ظهره، زار الطبيب فقال له: سرطان في النخاع الشوكي، أصيب بانهيار، ورجع، لم يكمل، كان لديه خطة طويلة، رجع، وصار يتردد من جامع إلى جامع حتى تاب، تاب بسبب خطأ، ثم ظهر أن التشخيص خطأ . يمكن أن يبعث الله عزَّ وجل مصيبة وهميَّة أو حقيقيَّة، كل شيء بيده .

يسوق الله لك من الشدائد ما يردعك عن موقف غير جيد لأن الله يحبك :

هذا الدرس عن حكمة المصيبة، يجب ألا تنزعج من المصيبة، المصيبة باب إلى الله، ساقه الله عزَّ وجل إليك، هناك آية واضحة جداً:

(إلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ)

[سورة التوبة الآية: 39]

أي إذا أخذت موقفاً غير جيد، ولم تكن مع رسول الله، الله عزَّ وجل يحبك، فسوف يسوق الله لك من الشدائد ما يردعك عن هذا الموقف لأن الله يحبك:

(إلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ)

أول الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ*إِلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

[سورة التوبة]

وإذا أصررتم:

(وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ)

[سورة التوبة الآية: 39]

هذه سنة الله في خلقه، إذا ارتكب الإنسان موقفاً غلطاً، ساق الله الشدائد، وهو إما أن يرتدع؛ وإما أن يتمادى في غيِّه، عندئذٍ:

(وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً)

[سورة التوبة الآية: 39]

أنواع المصائب :

شيء آخر عن المصيبة والله أعلم، هناك مصائب الكفار، ومصائب المؤمنين، ومصائب الأنبياء.

1 ـ مصائب الأنبياء مصائب كشف :

مصائب المعصومين كشف، يوجد من نفسه كمال لا يبدو إلا بحالات نادرة جداً، إذا شخص مثلاً ـ لا سمح الله ولا قدَّر ـ قال لزوجته: أحبك حباً لا حدود له، فمرضت، ثم تغيرت أخلاقه، تبرَّم، تكلَّم كلاماً قاسٍ، غاب عن البيت، معنى هذا أنه لا يحبها، هو كان يحب نفسه، فلما كانت في خدمته عبَّر لها عن محبته، فلما أصبحت عبئاً عليه تبرَّم منها . لو أنها مرضت مرضاً شديداً، وقام بخدمتها أياماً طويلة دون أن يتكلَّم كلمةً قاسية، هذا المرض الذي أصاب زوجته كشف عن كماله، معنى هذا أنه كان صادقاً في كلامه .

سيارة قوة محركها سبعون حصاناً، لا تظهر لك حقيقتها في طريق سوي، لا بد من طريق صاعد وهي محمَّلة بالركاب والمتاع، وتنطلق بسرعة مئة وثمانين ـ لأن قوة محركها سبعون حصاناً ـ فالأنبياء مصائبهم مصائب كشف، هذا سيد الخلق وحبيب الحق يذهب إلى الطائف مشياً على قدميه ـ ثمانين كيلو متراً ـ إلى أن وصل إليهم، دعاهم إلى الله بالحسنى فكذَّبوه، وسخروا منه، وأغروا صبيانهم أن يؤذوه، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إلا أن قال:

((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم، الذي أضاءت له السماوات، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تحل علي غضبك أو تنزل علي سخطك، ولك العتبى حتى ترضى))

[من كنز العمال: عن عبد الله بن جعفر]

مصائب كشف، عندك إمكانيات عالية جداً لا تظهر إلا بظرف استثنائي، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))

[الجامع الصغير عن سعد]

2 ـ مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع :

أما مصائب المؤمنين، هي مصائب دفع، كانت سرعته بطيئة، لاح له شبح مصيبة فركض، فهي تسريع، ودفع له، وإذا كان مسرعاً رفعته، فمثلاً: سيارة تسير على الخمسين، وبإمكانها أن تسير على المئة، وبذلك توفر الوقت، ويمكن استثمارها لطلب ثان، فأول نوع من المصائب رفع سرعة،

هي الآن تحمل طناً واحداً، وبإمكانها حمل خمسة أطنان، وأجرة حمل كل طن أجرة كبيرة جداً، فحملناها بدلاً من الطن خمسة أطنان، هذه مصائب رفع، دفع ورفع، تسريع ورفع الأجرة، وصلت بوقت مبكر وكسبت أجر أكبر، مصائب دفع ورفع .

3 ـ مصائب العصاة والمذنبين مصائب قصم وردع :

مصائب الأنبياء مصائب كشفٍ، مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، ومصائب العصاة والمذنبين قصم وردع، إذا كان فيه بقية خير يردع بها، إذا لم يكن فيه خير يقصم:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة هود الآية: 36]

أرجو أن يكون واضحاً لديكم أن حياة المؤمن لا تخلو من تأديبٍ وابتلاءٍ وتكريم، هناك مرحلة تؤدَّب فيها إذا حدث تقصير، وفي مرحلة تمتحن الاستقامة التامة، وفي مرحلة تكرَّم، ويغلب على الظن أن حياة المؤمن تستقر على التكريم، يعتورها تأديب، ويعتورها ابتلاء، ولكنها تستقر على التكريم .

الابتلاء حيادي :

قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

ذكرت في الدرس الماضي أن الابتلاء هو الامتحان، والامتحان حيادي ؛ لا خير ولا شر، الشر الرسوب في الامتحان، والخير النجاح في الامتحان، وبيَّنت لكم لو أن إنساناً حقَّق شهادة عُليا وأغدقت عليه أموالاً طائلة فساعات الامتحان الصعبة ذكريات طيبة أم سيئة ؟ طيبة، بعد الدخل الكبير بسبب الشهادة، والشهادة بسبب الامتحان، والامتحان كان صعباً، لكنه نجح به، فلما نجح انقلب هذا الامتحان الصعب إلى خبرة مسعدة لأنه نجح، فلو رسب انقلب إلى خبرةٍ مؤلمة، فالابتلاء لا هو خير ولا هو شر، هو حيادي، النجاح بالابتلاء خير، والرسوب شر ..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ)

سمَّاها الله عزَّ وجل مصيبة . إذا كانت كلية الإنسان متوقفة عن العمل، والطبيب فتح البطن، واستأصل الكلية الواقفة، يكون قد أصاب، أما إذا استأصل التي تعمل وترك الواقفة، يكون قد أخطأ الهدف، فالله عزَّ وجل سمَّى هذه الشدة التي يسوقها لنا مصيبةً، لأنها تصيب الهدف .

المصائب في أي مكان :

المتكبر يحتاج إلى عذاب مهين، والمسرف يحتاج إلى نقص مال، هذا يحتاج إلى مرض، هذا يحتاج إلى ولد عاق، هذا يحتاج إلى زوجة لا ترحم، هذا يحتاج إلى إنسان أعلى منه يسومه سوء العذاب، كل إنسان له مفتاح، هناك إنسان يُقبل على الله بالفقر، وإنسان يقبل بالإهانة، فكل واحد له مفتاح، وأينما ذهبت في العالم، قد يتوهم إنسان أن المشاكل سببها أنه يعيش في دولة من دول العالم الثالث فقط . لا، فمن الممكن أن تكون بأرقى دولة من حيث الحياة العامة، ومع ذلك فإن الله عنده أدوية من نوع ثان، حوادث سير، ينقطع عموده الفقري فيصير مشلولاً، له عند الدولة كرامة عالية جداً، وله حقوق، ولكن ماذا فعل فيه الحادث ؟ يعطونه تأميناً ولكنه عطب، يوجد عند الله صيدلية في أي مكان في العالم، بكل مكان لدى الله أدوية فعَّالة، أينما ذهبت .

قال لي شخص: كنت أركب مع صديق ببلد غربي، نزلت السيارة في حفرة منخفضة تحوي سنتيمترين فقط من الماء، أصاب رذاذُ هذا الماء إنساناً، فنظر نظرة باشمئزاز، قدَّم السائق شكوى للبلدية، فحواها أن هناك حفرة عمقها سنتيمترين، فيها ماء، والماء أصاب ماراً، فهذا الراكب قال لصديقه: ماذا تستفيد من هذه الشكوى ؟ فقال: غداً ترى، جاء اعتذار من البلدية، وصيانة للسيارة كاملة على حساب البلديَّة، ورمَّموا الحفرة. فإذا كنت في بلد تحترم فيها حقوق الإنسان إلى هذه الدرجة، والإنسان استحق التأديب، يوجد عند الله دواء هناك، أدوية مخيفة، مثل هذه الأمراض الوبيلة التي ليس لها حل، الذين يموتون في العالم بأمراض الأورام الخبيثة وأمراض القلب عدد فلكي، فالإنسان مهما كان في مَنَعَة لا بد من أن يغادر الدنيا، الله عنده أدوية ؛ أدوية بالصحَّة، أدوية بالمال، أدوية بالزوجة، أدوية بالأولاد، أحياناً مرض عضال بطفل يجعلك تنفق كل ما تملك من أجله ولا تستفيد .

إذاً المصائب في أي مكان .

على الإنسان أن يؤمن بقضاء الله وقدره :

قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

انظر كلمة (شيء) فيها لطف إلهي ، هناك مع المصيبة لطف ..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ)

أي نقص الأموال:

(وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ)

الإنسان من الممكن أن يفقد ابنه، ولكن إذا كان مؤمناً بالله فهو يعلم علم اليقين أن له أجلاً لا يزيد ولا ينقص، يرى أن هذا قضاء وقدر، وهو راضٍ عن الله عزَّ وجل ..

(وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ)

أحياناً تأتي جوائح على الثمرات، ذبابة بيضاء، يذهب المحصول كله، ذلك لحكمةٍ يريدها الله عزَّ وجل..

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

إذا قنط الناس من رحمة الله تأتي أمطار غزيرة جداً، تغلب على الناس تفسيرات سوداوية أن خطوط المطر انتقلت، ونحن منطقة جافة، ولن تعود الأيام إلى ما كانت عليه، والجفاف مستمر، ومتنامٍ . فالناس بعد أن يئسوا تأتي أمطارٌ لا يعلمها إلا الله .

الله عزَّ وجل يحرِّك الأمطار والأرزاق تأديباً للعباد :

والله ذكر لي مرَّة أحد أصدقائي، وهو عضو بلجنة حوض دمشق، معلومات عن انخفاض المياه في حوض دمشق، شيء مخيف، والله لم أستطع أن أقف من شدة المعلومات المزعجة، أي أن الشام انتهت، لا بد أن نغادرها جميعاً، لا يوجد أمل، في العام الثاني ـ أذكر هذا ولا أنساه والله ـ نسبة الأمطار كانت ثلاثمئة وخمسين ميليمتراً في دمشق، زيادة عن المعدل السنوي تقريباً بمئة وأربعين ميليمتراً، مياه عين منين وصلت إلى الشام، مياه عين الصاحب تفجَّرت، وثلاثون نبعاً في الغوطة تفجَّرت بعد أن غابت عنا ثلاثين سنة، الله عزَّ وجل قادر بكل لحظة أن يرسل أمطاراً غزيرة .

مرَّة قرأت خبراً أن في إمارة رأس الخيمة هطلت أمطار في ليلة واحدة تساوي أمطار دمشق في العام كله ـ في ليلة واحدة ـ الله إذا أعطى أدهش، لا توجد قاعدة، القاعدة أن الله عزَّ وجل حرَّك الأمطار وحرَّك الأرزاق تأديباً للعباد:

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن]

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ و الْأَرْضِ)

[سورة الأعراف الآية: 96]

الله تعالى إذا أعطى أدهش :

يوجد في منطقة من مناطق دمشق تقريباً ثلاثين مزرعة، كل مزرعة فيها بئر، هناك رجل صالح عنده مزرعة وفيها ماء، كلما دخل أصحاب الأغنام ـ الرعاة ـ إلى مزرعة ليسقوا الغنم طُردوا منها، هذا الرجل الصالح بنى للغنم مشرباً ليشربوا منه براحة تامة، بنى مشرباً طويلاً، صار الرعاة

يدخلون مع أغنامهم ويشربون، يقسم لي بالله العظيم: أن ثلاثاً وثلاثين مزرعةً حوله جفَّت آبارها إلا بئره، ما نضب أبداً . أي أن الله عزَّ وجل إذا أعطى أدهش، وهذا كله بمقياس:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ و الْأَرْضِ)

[سورة الأعراف الآية: 96]

فـ ..

(الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

إن الصابر إنسان يعرف الله، الصابر إنسان يشبه مريضاً عند طبيب أسنان، قال له: والله لا أستطيع أن أعطيك مخدراً لأن قلبك لا يتحمل، يجب أن تتحمَّل الألم، فطبيب محترم، وشهادته عالية، وهو خبير ونصح المريض، فلما أراد أن يقلع السن، تمسَّك المريض بالكرسي تماماً، وتحمَّل الألم وشكر الطبيب، أما لو كان طفلاً لشتم الطبيب، أما كون هذا الإنسان راشد فصبر، فكل إنسان يعرف الله تجده صابراً، يعرف أنه توجد حكمة بالغة، والله عزَّ وجل ساقها له برحمته، فالصابر يعرف الله، والذي لا يصبر لا يعرف الله، أنت بين يدي طبيبٍ ماهرٍ رحيم يجب أن تتحمَّل بعض الألم، إن كنت تعرفه طبيباً ناجحاً .

الإنسان ملك الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ)

نحن مِلْكُ الله عزَّ وجل، يعطينا أو يمنعنا، يرفعنا أو يخفضنا، يعزُّنا أو يذلُّنا، أنا عليَّ أن أطيعه وهو عليه الباقي، أنا كعبد علي أن أطيعه ..

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر الآية: 66]

ليس عليَّ أيُّ شيءٍ آخر، هو بحكمته يعطيني أو يمنعني، يرفعني أو يخفضني، يقرِّبني أو يبعدني، هو يفعل ما يشاء، أنا عليَّ أن أطيعه وكفى..

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

إذا باع الإنسان بيته ـ كلام دقيق ـ بالسعر المُقابل تماماً، وقبض ثمنه عداً ونقداً، ورغب الذي اشتراه أن يزيل حائطاً بين غرفتين، هل يحق للبائع أن يتدخَّل ؟ ألم تبعه أنت ؟ هل لك علاقة ؟ إذا أراد أن يُنشِئ غرفة إضافية هل للبائع علاقة ؟ هل يستطيع أن يتدخَّل ؟ لا، يقول له: هذا صار مالي، بيتي، ألم تقبض ثمنه كاملاً ؟ فاسمع هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 111]

ألم تبع ؟ بعد ما بعت الله عزَّ وجل نفسك ومالك هو حر، يقربك، يبعدك، يغنيك، يجعل دخلك محدوداً لا يكفيك أربعة أيام، فأنت تتلوى من الضائقة المالية، أو يجعلك ذا دخل غير محدود هو يعرف ..

((إن من عبادي لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو بسطت له لأفسده ذلك))

[كنز العمال عن أنس]

مستقيم على دخل محدود، إذا كثر دخله يغير، الله عزَّ وجل يعرفه، هناك إنسان على الفقر يلج ويعصي، هناك حكمة إلهيَّة .

من لم تُحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر :

قال تعالى:

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ)

المصيبة بمكانها الصحيح، بحجمها المُناسب، بالوقت المناسب، بالقدر المناسب، بالعيار المناسب، عيارات دقيقة جداً عند الله عزَّ وجل..

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

نحن لله، ما دمتَ بعت وفوَّضت، فلك الجنة، دعني أفعل بنفسك ما أشاء، فأنت عليك أن تستسلم لله عزَّ وجلّ، قالوا:

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

راجعون إلى الله بهذه المصيبة، لذلك قالوا: **" من لم ُتحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر "** .

الإنسان حينما لا يتَّعظ بالمصيبة صار هو المصيبة، هو نفسه مصيبة، المصيبة من أجل أن يرتدع، وأن يتَّعظ، فإن لم يتعظ، ولم يرتدع فقد صار هو مصيبة ..

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ)

الرضا بالمصيبة والصبر عليها:

نحن مِلْكٌ لله، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام سنَّ لنا في التعزية أن نقول: **" إن لله ما أعطى وله ما أخذ "، أنت ليس لك شيء، مرَّة سألوا أعرابياً معه قطيع إبل: لمن هذه الإبل ؟ قال: " لله في يدي "** هي لله بيدي، الله وكلني بها أما هي لله . الله عزَّ وجل رزقه قبل، مرض فَقَبل صابراً، هذا فعل الله عزَّ وجل، هو الحكيم، هو الخبير، أنا ليس لي شيء ..

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

بهذه المصيبة ..

(أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ)

هؤلاء الذين يصابون بمصيبةٍ ويرونها من الله عزَّ وجل، ويرضون عن الله بها، هؤلاء:

(أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ)

من كان سروره بالنقمة كسروره بالنعمة فقد رضي عن الله :

كان أحدهم يطوف حول الكعبة ويقول: **" يا رب هل أنت راضٍ عني؟ " وكان وراءه الإمام الشافعي فقال: " يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ " قال: " يا سبحان الله! من أنت يرحمك الله ؟ " قال له: " أنا محمد بن إدريس "، قال له: " كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ " قال: " إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله " .**

البطولة بالصعود وليست بالنزول، كل إنسان على الرخاء يقول لك: الله مفوضها، نحن شاكرون لله . لكن إذا ضيّق الله عليك فماذا ستفعل ؟ يا رب لك الحمد، لذلك آية قرآنية إذا قرأتها يقشعر جلدك:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

[سورة ص الآية: 44]

الله ناظر إليك، إذا ساق لك مصيبة وصبرت فقلت: يا رب لك الحمد، يا رب أنا راضٍ عن فعلك .. أيها الأخوة ... هذه الآية تتحدَّث عن مصائب المؤمنين، مصائب الدفع والرفع، والمصيبة لها حكمةٌ بالغة، ولها هدفٌ نبيل، وتنتهي بالمؤمن إلى الله عزَّ وجل، فنرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون عند حسن ظن ربنا بنا وإذا ساق لنا مصيبةً فنسأله أن نتقبَّلها بالرضا، والقبول، والتسليم، والتفويض .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (52- 95):تفسير الآيات 158-162 ، الاتصال بالله أساس الأمن والسعادة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-08-13

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة المكرمة هي الوسط الهندسي للعالمين القديم والجديد معاً :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثامنة والخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران الآية: 96]

قال علماء الجغرافيا: مكة المكرَّمة هي الوسط الهندسي للعالم القديم والجديد معاً، العالم القديم ؛ آسيا، إفريقيا، أوقيانوسيا، وأوروبا، أطراف العالم القديم، أيّ طرف من هذه الأطراف يبعد عن مكَّة ثمانية آلاف كيلو متر، إذا أضفنا العالم الجديد، وهو أمريكا الشمالية والجنوبية، أيّ طرف من أطراف العالم الجديد يبعد عن مكة المكرَّمة ثلاثة عشر ألف كيلو متر، فمكة المكرمة هي الوسط الهندسي للعالمين القديم والجديد معاً.

هي أول بيتٍ وضع للناس، لأن الله عزَّ وجل خلق الإنسان بطبيعةٍ ماديَّة، فالإنسان إذا أراد أن يتقرَّب إلى الله يذهب إلى بيت الله، صار هناك هدف، الله عزَّ وجل قدَّس هذا المكان، المكان ليس مقدساً بذاته إلا أن يقدسه الله عزَّ وجل. فأمرنا أن نقبِّل الحجر الأسود، وأمرنا أن نضرب رمز الشيطان بالحجر، فرمز الشيطان محتقر نرجُمه، والحجر الأسود مقدسٌ نقبِّله، لا لعلةٍ فيه بل لأن الله أمرنا أن نفعل ذلك.

ربنا عزَّ وجل اتخذ هذا البيت الحرام ليكون وسيلةً لإقبال العباد على الله عزَّ وجل :

إذاً الله عزَّ وجل اتخذ هذا البيت بيتاً له وقال: تعالوا إلي، أقبلوا علي، تقول أنت: لبيك اللهمَّ لبيك، هذا الشيء يقودنا إلى الحج، الإنسان يصلي في بلده، وزوجته أمامه وأولاده، وعمله قريب من بيته، أما حينما يحج بيت الله الحرام لا بد من ترك بيته، وترك زوجته، وترك أولاده، وترك منصبه،

وترك مكانته، وترك عمله، وأن يتوجَّه إلى بيت الله الحرام متفرِّغاً لله عزَّ وجل، فإذا فرَّغ نفسه لله عزَّ وجل، فإن الله جل جلاله يفرغه مما سواه مكافأةً له على هذا التفرُّغ، فسأل أي حاجٍ ذهب إلى بيت الله مخلصاً، أي مشكلةٍ يعاني منها، أي همٍ في بلده يمحوه الله عنه ما دام في الحج.

إذاً الله عزَّ وجل من أجل أن تدفع ثمن لقائه اتخذ بيتاً، وقال: تعال إلي، من أجل أن تدفع ثمن لقائه.

مثل بسيط: لو أن طالباً والده أستاذ رياضيات متفوِّق، والأب أعطى ابنه درساً طبعاً بلا ثمن، لأن الدرس مجاناً، قد ينتبه وقد لا ينتبه، قد يستفيد وربما لا يستفيد، أما حينما يدفع الطالب مما قد جمَّعه في صيفٍ بكامله ثمن دروس أستاذ رياضيات، كله آذانٌ صاغية، لأنه دفع ثمن هذا الدرس من ماله الشخصي.

الإنسان حينما يترك بيته، ويترك أهله، وأولاده، وعمله ويؤثر تلبية دعوة الله على كل حظوظه من الدنيا، دفع ثمن هذا اللقاء، لذلك الله اتخذ بيتاً وقال: تعالوا إلي، أي تعال يا عبدي لأريحك من همومٍ كالجبال، تعال يا عبدي لتذوق طعم القرب مني، تقول له: لبيك اللهمَّ لبيك، فربنا عزَّ وجل اتخذ هذا البيت الحرام ليكون وسيلةً لإقبال العباد على الله عزَّ وجل.

إبراهيم عليه السلام له موقفان انفرد وتفوق بهما :

طبعاً هذه مقدمة، أما الذي أريد أن أقوله لكم: سيدنا إبراهيم أبوا الأنبياء، وقد قال الله عزَّ وجل:

(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)

[سورة البقرة الآية: 125]

أي اتخذوا من أعمال إبراهيم طريقاً إلى الله، اتخِذوا من الأعمال الجليلة التي قام بها إبراهيم طريقاً إلى الله عزَّ وجل، ماذا فعل إبراهيم؟ إبراهيم عليه السلام له موقفان انفرد بهما، أو تفوق بهما.

1- التوكُّل المُطلق على الله :

الموقف الأول: التوكُّل المُطلق على الله. طبعاً نحن نتوكَّل على الله، ولكن نأخذ بكل الأسباب، أنت حينما تسافر يكون البيت ممتلئاً بالطعام والشراب، وكل الأشخاص يلبّون طلباتك في غيبتك، ووضعت عندهم المال الكافي، وهناك هاتف، وكل شيء ميسَّر، وصيت أُناساً كثيرين لتلبية طلبات عائلتك في غيبتك، أما أن يأتي هذا النبي الكريم بزوجته هاجر وابنه، ويضعهما في وادٍ غير ذي زرع ويذهب، تقول: **" آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا الله عزَّ وجل".**

هناك ثقة بالله ليس لها حدود، أنت حينما تثق بالله لا بد من أن يكون الله معك، هذه المرأة والأم، تعرفون من الأم، أية أم، إذا أم زوجة نبي كريم ليس هناك شراب تشربه، ماء لا يوجد، آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لن يضيعنا الله أبداً. وضعها بين الصفا والمروة، هما مكانان مرتفعان في موقع مكة، في أول بيتٍ وضع للناس، فمن شدة حرصها على ابنها، وعلى سلامته، أين الماء؟

راحت تسعى بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء، ولكن مسعاها لم يجدِ شيئاً، طفلها الصغير ضرب بقدمه الأرض ـ أحياناً تحفر خمسمئة متر لا تجد ماء ـ فانفجر من تحت قدمه نبع زمزم.

ربنا عزَّ وجل علَّمنا بهذا الدرس أنك إذا توكلت على الله حقَّ التوكُّل كان الله معك، ولن يضيعك، طبعاً هذا توكُّل مطلق، لكن بالطبع نحن لسنا أنبياء، نحن مأمورون أن نأخذ بكل الأسباب وأن نتوكل على الله رحمةً بنا، أما إنسان يضع زوجته وابنه في وادٍ غير ذي زرع، حيث لا ماء، والإنسان بلا ماء يموت في أيام معدودة، أعتقد في ثلاثة أيام ينتهي، وبلا هواء أربع دقائق، أو ثلاث دقائق، فلذلك علَّمنا الله عزَّ وجل من هذا الدرس أنك إذا وثقت به عزَّ وجل كان معك.

لكن عندنا حكم شرعي، وعندنا موقف شخصي، فالذي فعله هذا النبي الكريم موقف شخصي، ولكن علَّمنا مُطلق التوكل، لأن الله عزَّ وجل خلق الكون على نظام السببية، فلما أراد أن يكون البحر طريقاً يبساً لم يجعله طريقاً يبساً إلا بسبب:

(أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ)

[سورة الشعراء الآية: 63]

ضرب البحر بالعصا فصار طريقاً يبساً، فوُجد الطود، فربنا عزَّ وجل حينما يريد أن نصنع شيئاً بفعله مباشرةً يجعله بسببٍ أرضي، فنظام السببية نظام أساسي، إنك تؤمن بالله عن طريق نظام السببية، كل شيء له سبب، من هو المسبب الأول؟ إنه الله، فحتى هذا النبع الذي هو الآن نبع ماء زمزم، كان بسبب أن هذا الطفل الصغير من شدة عطشه، ضرب برجله الأرض فانبجس هذا النبع العظيم، وهذا النبع يحيِّر العقول، فمجموع الأمطار التي تهطل في مكة وما حولها لا تكفي لهذا النبع، وكلكم يعلم كيف أن هذا النبع يلبي أربعة ملايين حاج، وينتقل هذا الماء إلى المدينة المنوَّرة ـ شيء عجيب ـ أرض قاحلة، أرض جافَّة، لا نبات فيها ولا ماء، هذا النبع مستمر، وهو آيةٌ من آيات الله الدالَّة على عظمته.

2ـ العبوديَّة الكاملة لله عزَّ وجل :

الدرس الثاني هو أن هذا النبي علَّمنا العبوديَّة الكاملة لله عزَّ وجل؛ حينما أمره أن يذبح ابنه، إنه شيء ليس في طاقة البشر، أنْ يؤمر إنسان بذبح ابنه الذي بلغ معه السعي، الطفل الصغير حينما يصبح فتًى، وعلَّمه، وربَّاه، وهذَّبه، وصار يساعده، الآن اذبحه، أيضاً هذا درس في الانقياد لله عزَّ وجل ليس له حدود، الله عزَّ وجل قال:

(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)

[سورة البقرة الآية: 125]

أي إن أردت أن تصل إلى الله فبادر إلى طاعته، وأعلن عبوديتك له، ثم توكَّل عليه:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[سورة النمل الآية: 79]

قضية التوكل غائبة عن الناس، تجد كل إنسان عنده هموم تسحقه، فأين الله؟ كل شيء بيد الله عزَّ وجل، توكل على الله، كن معه وتوكل عليه، أطعه وتوكل عليه، بادر إلى العبودية له وتوكل عليه.

قدسية الصفا والمروة :

أيها الأخوة... فهذه المرأة الكريمة ـ زوجة سيدنا إبراهيم ـ التي سعت بين الصفا والمروة، وكان من سعيها أن تفجَّر نبع زمزم، هذا درس علَّمنا ربنا إياه من خلال هذه القصة، وعلَّمنا أيضاً كيف أن الله سبحانه وتعالى حينما امتحن إبراهيم عليه السلام بأن أمره بذبح ابنه، كيف أن هذا النبي العظيم بادر إلى هذا الأمر دون تردُّد:

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ)

[سورة الصافات الآية: 102]

ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ الذي حدث أن العرب في الجاهليَّة جعلوا على الصفا صنماً، وعلى المروة صنماً، وصاروا يسعون بين الصفا والمروة تعظيماً لهذين الصنمين، فحينما جاء الإسلام عزف المسلمون عن السعي بين الصفا والمروة لأنه سعيٌ بين وثنين، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعيد لهذا المكان قدسيَّته فقال:

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)

ما معنى (من شعائر الله)؟ الشعائر جمع، مفرد شعيرة، هي مكان ولكن هذا المكان له خصوصية، في هذا المكان ينبغي أن تنتابك مشاعر خاصَّة، فإن أتيت بيت الله الحرام صادقاً، منيباً، مخلصاً، أنت في هذا المكان بين الصفا والمروة لا بد من أن تشعر بشيء، بحالٍ من القرب، بل إن الإنسان حينما يحج بيت الله الحرام يبدأ بالطواف، كطواف المُحب حول محبوبه، ويسعى بين الصفا والمروة كسعي المُشتاق إلى حبيبه، حالات نفسيَّة، هذا معنى الشعائر، أي أنت يجب أن تشعر بشعورٍ مقدسٍ وأنت فيها، وكل إنسان حجَّ بيت الله الحرام وما شعر بشيء ؛ بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض ما روي عنه أنه من وقف في عرفات ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حجَّ له.

أهمية التوكل :

الذي يعجب أن الإنسانَ يذهب إلى الحج، ويعود، ويحدثك عن كل شيء إلا الحج، يحدثك عن المبيت، وعن الطرق، وعن المشاريع العمرانيَّة، وعن تأمين الماء البارد، وعن تأمين الطعام، والمواصلات، وكيف وصل إلى الديار المقدسة، وكيف غادر هذه الديار، وأي رحلة ركب، وكم

انتظر، شيء عجيب يحدثك عن كل شيءٍ إلا الحج، لكن وأنت في الطواف ماذا شعرت؟ وأنت بين الصفا والمروة ماذا شعرت؟ وأنت على عرفات ماذا شعرت؟ أيعقل أن يقول لك الله عزَّ وجل: تعال واترك أهلك، وبيتك، ومالك، وعملك واجلس هنا هكذا بلا شعور، بلا إحساس، بلا إقبال، بلا شيء ثمين تملكه وأنت في الحج؟

فلذلك الله عزَّ وجل أراد أن يزيل وثنية هذا المكان المقدس وقال:

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)

دعوكم من الأصنام التي كانت في الصفا وفي المروة، وهذان المكانان قدَّسهما الله عزَّ وجل لأنهما يشيرا إلى التوكُّل الذي علَّمنا إياه سيدنا إبراهيم.

هل هناك إنسان الآن لا توجد عنده قائمة هموم؟ ليس من إنسان إلا وعنده قائمة من الهموم، لماذا لا تتوكل على الله؟ لماذا لا تضع هذه الهموم عند الله عزَّ وجل؟ لماذا لا تكتفي أن تطيعه وعلى الله الباقي؟ هذا حال مريح جداً، الله عزَّ وجل خلقنا، وبيده كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وكل شيء يغيره، وكل شيء يبدله، فأنا علي أن أطيعه، وعلى الله الباقي، أي أنك دبِّر ألاَّ تدبِّر، لا أقول: تتواكل، لا، ولكن لا تجعل الهم يسحق الإنسان، فحياة الإنسان معقدة جداً، ولا سيما في هذه الأيام، الحياة صعبة، الحاجات كثيرة، المكاسب قليلة، ثمة منافسة، وخوف، وقلق، وحرمان أحياناً، وشعور بالضياع، هذا علاجه التوكُّل..

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ)

الشعور بالأمن هو أثمن شعورٍ يسعد الإنسان :

درس التوكل علمنا إيَّاه ربنا من خلال قصة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم..

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)

فالله عزَّ وجل قال:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً)

[سورة آل عمران الآية: 97]

أي أن الله عزَّ وجل يُلقي في قلب الحاج من الأمن ما لا يوصف، الشعور بالأمن شعور لا قدَّر بثمن، بل إن الشعور بالأمن يعد أثمن شعورٍ يسعد الإنسان، الله عزَّ وجل قال:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

[سورة محمد الآية: 5]

رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً)

[سورة آل عمران الآية: 97]

هناك آيات كثيرة جداً:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)

[سورة البقرة الآية: 125]

السعادة في الحج تكون من خلال الاتصال بالله عزّ وجل :

فأنت حينما تحج بيت الله الحرام تتمنى أن تعود إليه كل عام، من السعادة التي ألقاها الله في قلبك، الحقيقة في نقطة دقيقة جداً هي: إن اللذَّة الماديَّة لها شرائط، والسعادة الروحيَّة لها شرائط، الله عزَّ وجل جمَّد كل أسباب اللذَّة الجسميَّة، فهي بلاد حارة، جعل الحج في وقت محدد، إذاً كل هؤلاء الناس سيأتون إلى هذا المكان في وقتٍ واحد، أربعة ملايين إنسان لا بد من أن ينتقلوا من عرفات إلى مِنى في وقتٍ واحد، أصعب عقدة في الحج النفرة، أربعة ملايين لا بد من أن يطوفوا حول الكعبة.

جاء وفد لتنظيم الحج، فقدَّم تقرير مطول للقائمين على الحج هناك، فكان من بنود هذا التقرير أن يكون الحج على خمس دورات في السنة، بعيد عن جو الحج، على خمس دورات في السنة، فالله عزَّ وجل جعل كل أسباب الراحة الجسمية معطَّلة في الحج، ومع هذه الأسباب المعطلة هناك سعادة تفوق حدّ التصور لمن كان صادقاً في حجه، هذا الشيء دقيق.

لو أن المكان جميل، والهواء عليل، والطعام طيب، والمناظر خلاَّبة، والحج على مدار العام، صار الحج فيه راحة، والأوراق اختلطت، يا ترى أنت كنت سعيداً بهذه المناظر، وهذا الطعام، والهواء العليل، أم بإقبالك على الله؟ أراد الله أن تكون السعادة في الحج من بابٍ واحد إنها الاتصال بالله.

فكل أسباب السعادة الأرضيَّة معطلة، في وادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرَّم، الحر لا يُحْتَمَل، الازدحام لا يُحْتَمَل، فالله عزَّ وجل أراد أن تعرف أنك إذا اتصلت به وأنت في أصعب الظروف تكون أسعد الناس، وحينما تنقطع عنه وأنت في أجمل الظروف تكون أشقى الناس، هذه السكينة التي يلقيها الله في قلب المؤمن يسعد بها ولو فقد كل شيء، ويشقى بفقدها ولو مَلَكَ كل شيء، فكأن الحج وسيلة فعَّالة من أجل أن تتصل بالله عزَّ وجل، فرَّغك، قال: تعالَ إليَّ، دع بيتك، دع مكانك المريح، لك غرفة خاصة، لك مقعد وثير بين زوجة وأولاد وبنات وأصهار، بعملك ومكتبك، دعك من الدنيا وتعالَ إليَّ، تعالَ وارتدِ هذين الثوبين الخشنين، عاري الرأس، حافي القدمين، أو شبه حافي القدمين، تعالَ طُف حول الكعبة، اسعَ بين الصفا والمروة، انتقل إلى عرفات، ابتهل، ادعُني، توجَّه إلي، هذه السعادة.

السعادة التي يمتلكها الحاج في اتصاله بالله هي دليل أن الإنسان لا يطمئن إلا بذكر الله :

لذلك إذا جلست مع حاج حجَّ حجاً مبروراً، وقبل الله حجَّه، تشعر أنك في جنة، فما هذه الجنة؟ السفر صعب، ترك الأهل أصعب، والإنفاق شديد، والحر شديد، لكن السعادة التي يمتلكها الحاج في اتصاله بالله، مع كل الظروف الصعبة التي تحيط به، هي دليل أن الإنسان لا يطمئن إلا بذكر الله..

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ)

حجَّ البيت أي قصد البيت، اعتمر زار:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

[سورة البقرة الآية: 196]

هذا الموضوع لا بد من أن يقودنا إلى الحج، الحقيقة الصلاة شحنة تعينك على أن تصل إلى الصلاةِ الثانية، شحنة قصيرة ؛ الصبح، الظهر، العصر، المغرب، العِشاء، خمس أوقات، كل وقت يضمن لك السلامة والسعادة إلى وقتٍ آخر، ولكن شحنة يوم الجمعة هذه شحنة أطول تكفيك أسبوعاً بأكمله، لكن شحنة الصيام هذه تكفيك مدى العام، أما شحنة الحج هذه مدى العمر، فالحاج إذا ذهب إلى بيت الله الحرام، وعاد منه، فيجب أن يعود إنساناً آخر، يجب أن يعود متقد الفؤاد، لأن صار له هذا القرب من الله عزّ وجل، إلا أن الناس حينما يتأخرون في دينهم، يحجون رياءً وسمعةً أو للتجارة، أما الذي يحج بيت الله الحرام مخلصاً فيرى ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الله اتخذ هذا البيت ـ للذي ببكة ـ بيتاً له، أمر عباده المؤمنين أن يأتوه زائرين وحاجين، والله يتولَّى بذاته مكافأتهم وإكرامهم، قد يقول الحاج: ماذا حصل لي؟ أنت حينما حججت بيت الله الحرام حصل لك القُرب، ومع القرب الأمن، ومع الأمن السلامة، ومع السلامة السعادة، أنت حينما زرت بيت الله الحرام ذقت طعم القرب من الله، عندئذٍ تزهد في الدنيا كلها.

أراد الله أن يجعل الصفا والمروة مكانين لعبادته وطاعته وشعيرتين من شعائر المسلمين:

قال تعالى :

(فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا)

لأن المسلمين في أول عهدهم كانوا يتحرَّجون أن يطَّوفوا بين الصفا والمروة، لأنه كان على الصفا صنم، وعلى المروة صنم، فربنا عزَّ وجل أراد أن يجعل من هذين المكانين اللذين دُنِّسا بالصنمين، أن يجعلهما مكانين لعبادته وطاعته، وشعيرتين من شعائر المسلمين..

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً)

يطَّوَّف: أي سبعة أشواط، لأن هناك فرق بين كَسَرَ وكسَّر، كسر القطعة إلى قطعتين، أما كسَّرها أي إلى قطع كثيرة، فأن يطوَّف أي أن يكون طوافه كثيراً، والنبي اختار سبعة أشواط تجسيداً لكلمة يطوَّف بهما..

(وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)

ثم يقول الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

الكبائر وأنواعها :

ذكرت قبل أسبوعين أن هناك كبائر، والكبائر مهلكة، وكلكم يعلم أن الكبائر هي التي توعَّد الله على مرتكبها وعيداً مخيفاً، أو لعنه، أو هي الأعمال التي توجب إقامة الحَد، على كلٍ هناك خلاف بين العلماء في تعريف الكبيرة، لكن من أدق أنواع التعاريف للكبيرة: أنه العمل الذي يستحق فاعله وعيداً من الله عزَّ وجل، أو لعناً، أو غضباً، أو توجب حداً.

فهناك كبائر ظاهرة وهناك كبائر باطنة، الظاهرة كشرب الخمر، وتعلُّم السحر مثلاً، والعلماء عدَّدوها إلى سبعين كبيرة، ولكن الكبائر الباطنة أخطر من الظاهرة بكثير، من هذه الكبائر الباطنة ذكرتها قبل أسبوعين، وهي الأمن من مكر الله، هذه كبيرة، إذا كان الإنسان مقيماً على معصيةٍ، ولا يبالي بها، والله يمدَّه بالمال والقوة، فإذا كنت على معصية، وكان ثمة عطاء من الله لك، ولم تخف، فأنت قد أمنت من مكر الله، الله عزَّ وجل لا يجعل من هذه النعمة نعمة إنما هي نقمة، إنما هي استدراج، فهذه كبيرة من الكبائر الباطنة، الأمن من مكر الله، هناك كبيرة أخرى من هذه الكبائر الباطنة هي اليأس من روح الله، وثمة كبيرة ثالثة هي سوء الظن بالله، وتحدثت عن هذا في الدرس الماضي.

واليوم تحدثت عن كبائر أربعة أو خمسة، من هذه الكبائر كتمان العلم، أي أنت معك معلومات حقيقيَّة، صحيحة من الكتاب والسنة، كنت في موقف، الحاضرون في أمسّ الحاجة لهذه المعلومات، ولكنك إن ألقيتها ضعضعت مركزك، فكتمتها، فكتمان العلم كبيرةٌ من الكبائر التي توجب لعنة الله والناس والملائكة أجمعين..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ)

بعضهم قال: هم اليهود الذين كتموا صفة النبي في التوراة الله عزَّ وجل وصف رسول الله في التوراة وصفاً دقيقاً، لدرجة أن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك كتموا هذه الأوصاف من أجل عداوةٍ، أو حسدٍ، أو بغضاء مع المسلمين، فكتمان العلم من أكبر الكبائر، فالله عزَّ وجل توعَّد هؤلاء الذين يكتمون..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

لا سبيل إلى الشعور بالأمن إلا بطاعة الله عز وجل :

مرَّة حضرت مؤتمراً عن الأسرة مدة يومين ـ أول يوم فيه خمس جلسات، وثاني يوم فيه خمس جلسات ـ وقد تمنيت على المحاضرين أن يتكلَّموا كلمة عن الدين، وعن الإسلام، أو عن الله عزَّ وجل، وهذا موضوع خطير متعلّق بالدين، وبمنهجنا الاجتماعي، فهناك الآن رغبة بعزل الدين عن الحياة، حقائق الدين مشرقة، حقائق الدين صارخة، حقائق الدين مُسعدة، حقائق الدين غذاء لنا، ومع ذلك الآن تطرح أي موضوع بمعزل عن الدين، ولا كلمة، الكلام كله مادي، كله بعيد عن هذا الدين القويم، يقول لك: قيم روحية، الحس الأخلاقي. أي حس أخلاقي هذا؟

الشيء الحقيقي أن تؤمن بالله أن الله سيحاسب، وتؤمن وباليوم الآخر وتنضبط، أما بحس أخلاقي، يقول لك: قيم روحيَّة ـ شيء جميل! ـ ومشروبات روحية، مثل بعضها، في عزل للدين، حتى المثقف ثقافة عالية حر التفكير، علماني يعتّم على الدين تعتيماً كاملاً، مع أنه بفطرته يعلم أنه لا سبيل إلى سعادة الإنسان إلا بالدين، ولا سبيل إلى الشعور بالأمن إلا بطاعة الله عزَ وجل، فتجد موضوعات إنسانيَّة، موضوعات فلسفيَّة، موضوعات اجتماعية، موضوعات اقتصادية تعالَج بطريقةٍ أو بأخرى بعيداً عن الدين، فهذا ينطبق على هؤلاء، هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

فهذه الآية في هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البيِّنات، أي يعرف الحق لكن المناسب أن يكتمه، فكتمه، ما الذي يحصل؟ طريق السعادة الوحيد هو الله، فإذا أنت قطعتَ الطريق إلى الله منعت الناس من السعادة والسلامة.

طريق السلامة أن تطيع الله وأن تعرفه :

الناس رجلان مقرِّب ومُبْعِد، مُحبِّب ومنفِّر، موصل وقاطع، ليس ثمة ثالث، إما أن توصل الناس بالله، وإما أن تقطعهم عنه، إما أن تحببهم به، وإما أن تنفّرهم منه، إما أن تقنعهم بأحقيّة الدين، أو أن تقنعهم بأحقية الحياة الماديَّة، فالذي يكتم علماً مقدّساً يعرفه ويكتمه حفاظاً على مكانته، أو طلباً لسلامته، ماذا فعل؟ قطع الناس عن الله عزَّ وجل.

((يا رب ، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني ، وأحب من أحبني ، وحببني إلى خلقي))

[ورد في الأثر]

فإذا كان طريق السلامة هو أن تعرف الله، طريق السلامة أن تطيع الله، توجد نقطة بالحياة؛ في عندنا مشكلات كثيرة، كل مشكلة تعد عن الجهلة بحد نفسها مشكلة، أما الحقيقة فكل هذه المشكلات أعراض لمشكلةٍ واحدة هي الإعراض عن الله، هذه اسمها أعراض الإعراض؛ ما يعاني الناس من ضيق، من خوف، من قلق، من جفاف، من كساد، هذه كلها تأديبات من الله، فأهل الدنيا يبعدون الدين عن حل هذه المشكلات، يريدون أن يحلوها بطريقةٍ مادية، والطريق هذا قد يكون مسدوداً، أما حينما تقول للناس:

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً)

[سورة الجن الآية: 16]

حينما تربط الناس بالله عزَّ وجل، حينما تطمئنهم أن الأمر بيد الله، لا بيد زيد ولا عُبيد، الشرك يقطع الناس عن الله:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

[سورة النساء الآية: 116]

أكبر عقاب يعاقب الله به أعداءه أن يحجبهم عنه:

أنت عندما تبيِّن أن الأمر بيد الله عزَّ وجل، ولا توجد أي جهة أرضيَّة بيدها الأمر:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر الآية: 62]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف الآية: 54]

الأمر له، فهذا كلام مريح للنفس، هذا كلام مطمئن، فأنت حينما تعتَّم على حقائق الدين، تعتم على التوحيد، تعتم على أن الدين هو ملاذ الإنسان بالله، حينما تعتم على أن الدين هو المُسعد الحقيقي، حينما تعتم عن أن منهج الله هو المنهج الوحيد الموصل إلى السعادة، أنت حينما تعتم على هذه الحقائق تقطع الناس عن الله، توقعهم في الشقاء الدنيوي و الأخروي، لذلك هؤلاء المعتّمون يلعنهم الله، أي يبعدهم عنه، وأكبر عقاب يعاقب الله به أعداءه أن يحجبهم عنه..

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين الآية: 15]

(وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

اللاعنون هم الخلق كافةً، حتى البهائم، فالإنسان حينما يبتعد عن الله يقسو قلبه، فإذا عالج بهيمةً قسا عليها، النبي عليه الصلاة والسلام رأى بعض أصحابه يذبح شاةً أمام أختها فوبخَّه وقال: هلا حجبتها عن أختها :

((أو تريد أن تميتها مرتين.))

[الطبراني عن عبد الله بن عباس]

الناس رجلان :

المؤمن في قلبه رحمة، فكل من في الأرض، وكل ما في الأرض يلعن الذي يُبعد الناس عن الله عزَّ وجل، ليس هناك شخص ثالث، مقرِّب ومبَعِّد، محبب ومنفِّر، واصل وقاطع، الناس رجلان؛ رجل يدعو إلى الله، ورجل يبعد الناس عن الله، الأول يدعوهم إلى طاعته، يدعوهم إلى معرفته، يدعوهم إلى اتباع سُنَّة نبيه، يقدم لهم نموذجاً حياً صادقاً مخلصاً؛ والثاني يحببهم في الدنيا، يرغبهم في متاعها، وفي مالها، يبعد عنهم شبح الآخرة، فإذاً لماذا هؤلاء:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

يلعنهم الخلق كافةً، حتى غير الإنسان، فمرَّة وجدت إنساناً يبيع السمك الطازج، يصطاد السمك، والسمك يتحرَّك حركة عشوائيَّة، يذبحه ويخرج أحشاءه، قبل أن يسكن، والله يقول:

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا)

[سورة الحج الآية: 36]

أي سكنتْ، رأيت إنساناً يأخذ دجاجة، يذبحها ويضعها في ماءٍ يغلي فوراً، حتى يسهل عليه نتف ريشها، هذا وحش، فهي مخلوق له روح، ذبحتَها، اِنتَظر حتى تهدأ، ثم ضعها في ماءٍ ساخن، وهي لا تزال تشعر وتحس فهذا في قلبه قسوة.

الذي يكتم ما أنزل الله يبعد الناس عن الله :

اللاعنون الخلق كافة، فالبعيد عن الله كيفما تحرَّك يؤذي، لذلك المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض، أمّا الكافر:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)

[سورة الدخان الآية: 29]

لأنه مؤذٍ، فالذي يكتم ما أنزل الله يبعد الناس عن الله، عن طريق السعادة قطعهم عنه، عن طريق الأمن قطعهم عنه، عن طريق التوفيق قطعهم عن الله، عن طريق الطمأنينة قطعهم عنه، عيَّشهم بالدنيا، وبهموم الدنيا، قال: هؤلاء..

(يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ)

يبعدهم الله عن رحمته، ويلعنهم الخلق كافةً..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا)

هذه رحمة الله، دائماً في استثناء..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

إذا كان ثمة كتمان وجب أن يكون عند التوبة تبيين، تابوا عن كتمان العلم، وأصلحوا ما أفسدوا سابقاً، وبينوا..

(فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

الدين أساس الأمن و الطمأنينة عند الإنسان :

أحد أخواننا له صديق يعاني من أزمة نفسيَّة، فأخذه إلى طبيب نفسي، فالطبيب سأله عن أحواله، قال له: هل له درس علم؟ فقيل له: نعم، فقال له: هذا السبب ـ هو درس بأوروبا، وتعلّم أن الدين يخدر الإنسان، ويعقّده، فبحسب دراسته يجب أن يكون لهذا الشاب صديقة لكي يكون سويّاً، ويجب أن يكون منفتحاً على الحياة، ويفعل كل شيء بلا قيد ليؤكد شخصيَّته ـ فهذا الأخ فهيم، قدَّم لهذا الطبيب عشرة أشرطة وكتاباً، هذا الطبيب يبدو أنه صادق، ولكن غابت عنه الحقائق، عكف على قراءة الكتاب، وسماع هذه الأشرطة، وبدَّل كلامه مئة وثمانين درجة، صار يقول: الدين يخلق صحَّة نفسيَّة عند الإنسان، الدين أساس الأمن عند الإنسان، أساس الطمأنينة، أساس التألُّق، فهذه الحقائق غابت عنه، فلما عرف الحقيقة بيَّن عكسها، هذا وأمثاله يكرمهم الله عزَّ وجل..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا)

الطبيب النفسي يعد السلوك المنحرف هو السوي، والسلوك المنحرف والتفلت من منهج الله هو الصحَّة النفسيَّة، أما الانضباط يعده عقدة، هكذا الأمر في الأطباء الذين درسوا علم نفس في جامعات أوروبا، والجامعات الغربيَّة أساسها الشخص الغربي، ليس له منهج يسير عليه إطلاقاً..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

الدين سبب الصحة النفسية للإنسان :

لفت نظري هذا الطبيب أنه خلال تفُّهمه لحقائق الدين ـ وإن كانت سريعة ـ صار يتكلم كلاماً عكس الكلام الأول ؛ إن الدين سبب الصحة النفسية للإنسان، الدين يُحدث توازناً، يُحدث طمأنينة، يُحدث شعوراً بالأمن..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

طبعاً إذا مات الإنسان المؤمن فليس له أيّة مشكلة، أما إذا مات الكافر فله جهنم خالداً مخلَّداً فيها..

(عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

وهذا إن شاء الله نبيِّنه في الدرس القادم نبدأ به.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (53- 95):تفسير الآيات 163-164 ، الآيات الكونية موضوعات للتفكر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-08-20

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة العظمى التي ينبغي أن يُعلن عنها دائماً أن هناك إله واحد :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثالثة والستين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

الله جل جلاله بعد أن قال:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ)

[سورة البقرة الآية : 159]

ما الحقيقة الكبرى التي ينبغي أن تُبيَّن، وما الحقيقة العظمى التي ينبغي أن يُعلن عنها دائماً:

(وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ)

كلمة

(وإلهكم)

أيُّ إنسان بفطرته يعتقد أن هناك إله عظيم، خلق الكون، هذا الاعتقاد بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً يستوي فيه البشرُ جميعاً، حتى الوثنيين، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

[سورة الزمر الآية: 3]

الله عز وجل ليس خالقاً فقط بل مسيِّراً:

الموضوع اليوم في هذه الآية أن هذا الإله العظيم الذي خلق السماوات والأرض، هو بيده كل شيء، ليس خالقاً فقط بل مسيِّراً، الله ليس خلاّقاً بل فعَّالاً، بيده أدقُّ التفاصيل، قال تعالى:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

[سورة الأنعام الآية: 50]

كل قصص القرآن الكريم مؤدّاها أن الله عز وجل إله قيّوم فعَّال مُهيمن، لذلك قال: إلهكم أيها الناس إله واحد، في أزمان البُعد عن الله توهَّم الناسُ آلهة غير الله، الجهة التي تخافون منها والجهة التي

تعظّمونها هي جهة واحدة، هي الله، أناس عبدوا الشمس وأناس عبدوا البقر، وأناس عبدوا مظاهر الطبيعة، الذي تخافه، وترجوه، وتعتقد أن الأمر كله بيده هو الله، ولا إله آخر معه أبداً، قال تعالى:

(وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ)

هذا كلام خطير أيها الأخوة؛ إنسان مسلم عادي قد يتوهَّم أن زيداً بإمكانه أن يرفعه، وعُبيداً بإمكانه أن يناله بأذى، وفلاناً يعطيه وفلاناً يمنعه، هناك شِرك خفي، الجهة الوحيدة المتصرِّفة، الجهة الوحيدة الفعالة، الجهة الوحيدة التي بيدها كل شيء هي الله وحده، قال تعالى:

(وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ)

طبعا كلمة " واحد " أي لا ثاني له، و كلمة أحد أي لا مثيل له، ليس له شريك وليس في خلقه من يشبهه، إذا قلنا واحد، لا ثاني له لأن " واحد " وصف كمِّي، أما إذا قلنا: "أحد " فهو وصف نوعي، قد نقول: هذا الطالب هو الرابع على صفه، هو واحد لكنه الرابع، هذا وصف نوعي، أما إذا قال: جاء أربعة طلاب هذا وصف كمي، فكلمة " واحد " أي لا ثاني له، و كلمة " أحد ": أي لا مثيل له، لا يشبهه شيء.

أجمل ما في حياة المؤمن هذا التَّوجُّه إلى الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ)

أجمل ما في حياة المؤمن هذا التَّوجُّه إلى الله عز وجل، حياة المنافق، قال تعالى:

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ)

[سورة النساء الآية: 143]

الإنسان حينما يشرك يتوزَّع، يتمزَّق، و إرضاء الناس جميعاً غاية لا تُدرك، إرضاء الناس جميعاً مستحيل، فالذي يتعامل مع الله وحده يستريح، هذا الإله العظيم يراه، ويسمع نداءه، ويستجيب لدعائه، وهو عليم بسريرته، عليم بمخبره، وعليم ببواعثه، عليم بنواياه، لا تخفى عليه خافية، لا يحتاج إلى إيصال، ولا إلى شهادة، علاقتك مع الله عز وجل، إن أخلصت النية لله عز وجل أنت في راحة نفسية مع الخلق، قال تعالى:

(وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ)

الذي خلق الكون هو الفعال، هو المسيِّر، هو المتصرِّف، هو المالك، هو المعطي، وهو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعزُّ، هو المذل، هو القابض، هو الباسط، هو المُسْعِد، هو المشقي، هو المُسَلِّم، هو الحافظ، هو الذي يسوق للإنسان الشدائد، بيده كل شيء، هذا هو التوحيد، وهذا هو الدين كله.

الإنسان المؤمن يعيش في التوحيد أما غير المؤمن فيعيش في الشرك الخفي :

قال تعالى:

(وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ)

أي الجهة التي ينبغي أن تُعبد، والجهة التي ينبغي أن يُخاف منها، الجهة التي ينبغي أن تُرجى هي الله، و لا إله إلا الله. لذلك الإنسان المؤمن يعيش في التوحيد، والتوحيد مريح، أما غير المؤمن فيعيش في الشرك الخفي، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ:

((ألا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ))

[ابن ماجه عن أبي سعيد]

أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، أن يُعبد صنمٌ في بلاد المسلمين فهذا شيء انتهى، مستحيل، ما الذي نخافه؟ أن يؤلّه بعضُنا بعضاً، أن يتّكل بعضنا على بعض، أن نعلّق الآمال على مخلوقين.

أخواننا الكرام... أصحاب النبي الكرام قالوا كلمة فتخلّى الله عنهم، قالوا: لن نغلب من قلة، نحن الآن كثيرون، هذا شرك، اعتمدوا على كثرتهم لا على الله، قال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة الآية: 25]

إذاً أنت أيها المؤمن بين حالين؛ بين أن تقول: أنا؛ أنا بتحصيل العلم، أنا بذكائي الفطري، أنا ابن فلان، أنا أحمل شهادة نادرة جداً، أنا عملت عملاً عظيماً جبَّاراً، إذا قلت: أنا، تخلى الله عنك، أوكلك إلى نفسك، و إذا قلت: الله، تولاّك، فأنت بين التولّي والتخلّي، بين أن تنسب ما أنت فيه من الخير إلى ذاتك فهذا شرك خفي، يتخلى الله عنك، أي لو أن إنساناً مدحك، لماذا مدحك؟ قال بعض العلماء (ولعله صاحب الحكم العطائية) ابن عطاء الله السكندري: **"ما مدَحَك من مدحك و إنما مدح من مَنَحك".**

رؤية المؤمن رؤية توحيدية :

إذا أعطاك الله فهماً دقيقاً، أو لساناً طليقاً، أو حكمة، أو أعطاك قدرة على كسب المال، أو أعطاك قدرة على الفهم، فإذا مدحك إنسان و كنت أنت موحِّداً، يجب أن تذوب خجلاً من الله عز وجل، لأن هذا الذي مدحك لولا أن الله منحك لما مدحك، فهو في الحقيقة يمدح من منحك، لا يمدحك أنت،

" ما مدحك من مدحك و إنما مدح من منحك "، فالمؤمن كلما سمع ثناء الناس عليه ذاب تواضعاً لله عز وجل، ذاب شكراً له.

أنا لا أنسى أخاً كريما تبرَّع ببيت غالٍ جدا، تبرَّع به لعمل طيِّب، أُقيم له حفل تكريم، وكل من ألقى كلمات أشادوا بإحسانه وفضله، إلا أحد أخوتنا الكرام، لفت نظره فقال له: أيها المحسن الكريم كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين بجمعيتنا، ولكن الله كرَّمك فجعلك معطياً لا آخذاً تأخذ.

أنت حينما تمشي في الطريق، وترى من ينقِّب في الحاوية، ليأكل شيئا فاسداً من شدَّة الجوع، كان من الممكن أن تكون مكانه، اشكُر اللهَ عز وجل على أن كفاك، على أنه لم يجعلك تقف هذا الموقف الصعب، فالإنسان الموحِّد لا يرى إلا فضل الله عليه، أي إذا دخل الخلاء وأراد أن يفرغ مثانته، هذه نعمة كبيرة جداً، لو أن هذا الماء حُبِس في المثانة لاحتاج إلى عملية وإسعاف وتخدير وتنويم، لو أن هذا الكأس مُنِع عنك تشتريه بنصف ما تملك.

أحد المرضى مصاب بفشل كلوي، ذهب إلى غسيل كليته في المستشفى، قالت له الممرِّضة بعنف وبقسوة: لا تشرب ماء، الآلة معطَّلة، فأنت حينما تشرب الماء كما تشتهي، كأساً واثنين وثلاثاً وأربعاً، هذه نعمة لا نعرفها إلا إذا فقدناها، مسموح لك أن تشرب ماء بقدر ما تريد، ومسموح لك أن تأكل، مسموح لك أن تمشي، مسموح لك أن تخدم نفسك بنفسك، فلذلك المؤمن حينما يرى فضل الله عليه و يستمع إلى ثناء الناس عليه، ينبغي أن يذوب خجلاً، ويجد الذين يمدحونه إنما يمدحون من منحه ولا يمدحونه هو.

هذا التوحيد أن ترى أن الله وراء كل شيء، و فوق كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، هذه رؤية المؤمن رؤية توحيدية، فنعمة السمع ونعمة البصر ونعمة العقل الذي في رأسك.

ليس بعد نعمة الإيمان من نعمة إلا نعمة الصحة :

مرة كنا في حفل في أطراف المدينة، ضَمَّ الحفل أكثر من ألف شخص، و دُعِي لهذا الحفل أكثر علماء دمشق، إنسان مجنون تكلَّم بكلام لا يُحتمل، سبَّ سباباً لا يُحتمل، قلت: يا ربّ ما الحكمة من وجود هذا الإنسان الذي أفسد هذا المجلس كله، كأن الله عز وجل يريد أن يبيِّن لنا نعمة العقل، إنسان عقله سليم، يتكلَّم عند الضرورة، أحياناً يصمت وأحياناً يتكلم، يجلس، يقف، يمشي، هذه نعمة كبيرة جداً، لأن عندك تمييز، فنعمة العقل و نعمة البصر و نعمة السمع و نعمة الحركة، لو أن الإنسان فَقَدَ حركته نرى أن خدمته أول أسبوع خدمة ممتازة، ثاني أسبوع أقل، بعد ذلك أقرب الناس إليه يتمنى موته، وقد يسمع ذلك بأذنه: **" خفف الله عنك "**، صار الإنسان بلا حركة، أصبح عبئاً ثقيلاً جداً.

إذا تحرك الإنسان، أي سمعه و بصره و أجهزته و أعضاؤه سليمة فهذه نعمة كبرى، لذلك ليس بعد نعمة الإيمان من نعمة إلا نعمة الصحة، و ليس بعد نعمة الصحة من نعمة إلا نعمة الكفاية، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ]

قال تعالى:

(وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ)

هذا هو التوحيد، ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، علاقتك مع جهة واحدة، حسابك مع جهة واحدة، اعتمادك على جهة واحدة، أملك بجهة واحدة، و رجاؤك بجهة واحدة، هذه الجهة واحدة، كل شيء متعلّق بها، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود الآية: 123]

كله توكيد؛ فَاعْبُدْهُ.. وما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله راجع إليه.. وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ.

ما سوى الله عز وجل إما منعَم عليه وهو الإنسان وإما نعمة وهو الكون :

قال تعالى:

(وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ)

لأنه كان هناك أصنام وشركاء لله عز وجل من باب التأكيد..

(لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ)

إلهكم الذي ينبغي أن تعبدوه هو الله وهو إله واحد، ومزيداً من التوكيد..

(لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ)

ما سوى الله هو الكون، إما أنه نعمة، وإما منعَم عليه، والإنسان منعَم عليه، والكون كله نعمة، عطاء، مصدره الرحمة، والإنسان يأخذ فمتى يعطي؟ إذا كان في قلبه رحمة، الإنسان يأخذ المال فمتى ينفق المال؟ إذا هناك رحمة، و الإنسان يأكل فمتى يطعِم؟ والإنسان يعالج نفسه فمتى يعالج غيره؟ إذا هناك رحمة، فما سوى الله عز وجل إما منعَم عليه وهو الإنسان، وإما نعمة وهو الكون، والله عز وجل سخَّر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وكما يقول بعض العلماء: أساس خلق السماوات والأرض رحمةُ الله، لذلك قالوا: هو اسم الله الأعظم، أي أراد اللهُ أن يخلق خلقاً ليسعدهم، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود الآية: 119]

خلقهم ليرحمهم.

من تفلت من منهج الله سقط في وحل الشهوات :

ما يجري في الأرض الآن من مصائب فهذه محض رحمة أيضاً، قال تعالى:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام الآية: 147]

إذا تفلَّت قوم من منهج الله سقطوا في وحل الشهوات، وعاشوا حياة الإباحية، أداروا ظهورهم لمنهج الله، سمعت تعليقاً لفت نظري: لو أن مئة طائرة من أحدث طائرات العالم قصفت منطقة ثلاثين يوماً بشكل مستمر ليلاً و نهاراً، ما استطاعت أن تخرِّب ما خرَّبه الزلزال في خمس وأربعين ثانية، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: 12]

مئة طائرة تقصف هذه المنطقة ثلاثين يوماً ليلاً ونهاراً لا تستطيع أن تخرب ما فعله هذا الزلزال في خمس وأربعين ثانية فقط؟! هذا الذي ينسى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

[سورة الإسراء الآية: 58]

أي بلد جميل، أخضر، تجارة عريضة، أموال متدفّقة، ونساء كاسيات عاريات ومحطات فضائية و تفلُّت و ملاهي و قمار و زنا وفجور، من دون معالجة إلهية!! مستحيل، لا بدَّ من تدخُّل الإله فعال.

الله عز وجل موجود ومن حين لآخر يظهر آياته للناس :

قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل الآية: 61]

الأرض مستقرة، تنشئ بناء من عشرين طابقاً مستقراً، زلزال بثمان درجات من مقياس ريختر لا يُبقي شيئاً، ست درجات يكون مدمِّراً، خمس مخيف، هزَّة أرضية خفيفة، أما ثمان درجات فلا تبقي ولا تذر، قال تعالى:

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)

[سورة الحجر الآية: 74]

فالله عز وجل موجود، ومن حين لآخر يظهر آياته للناس. هناك أعاصير في أمريكا أضرارها ثلاثون ملياراً، إعصار واحد، رياح سرعتها ثمانمئة كيلو متر في الساعة، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: 12]

خلقنا ليسعدنا فلماذا الزلازل؟ ولماذا الفيضانات؟ ولماذا الأعاصير؟ ولماذا الصواعق؟ ولماذا الحروب الأهلية؟ ولماذا القهر؟ ولماذا المجاعة؟ ولماذا المرض؟ كل هذا تلخِّصه أيةٌ واحدة، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة الآية: 21]

معنى الفساد :

قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

التفاصيل مخزية، ما يجري في العالم في موضوع الرقيق الأبيض، ودور البغاء في العالم، والانحرافات الإباحية، زنا المحارم، وتبادل الزوجات، في العالم كله، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

الفساد أيها الأخوة؛ أن تخرج الشيء عن طبيعته التي خلقها الله عز وجل، هذا الماء الله خلقه لا طعم له و لا رائحة وهو صافٍ، هذه طبيعته، لو كان له رائحة كريهة معنى ذلك أنه ماء فاسد، لو كان فيه عكر لكان ماء فاسداً، الفساد أن تُخرج الشيء عن طبيعته، فتاة طاهرة نقية عفيفة، هذه الله عز وجل خلقها على فطرة سليمة، من أجل أن تكون زوجة ثم أمّاً ثم جدة، تسعِد و تسعَد، فالذي أفسدها وجعلها مومساً ماذا فعل بها؟ أفسدها وأخرجها عن طبيعتها، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

الإنسان أساسه مخلوق مخيَّر، أودعت فيه الشهوات لترقى به إلى الله وفق منهج حكيم، فتحرَّك بدافع من هواه بلا منهج، سيارة من أحدث الصناعات مصمَّمة كي تسعدك، لكن هناك مقود وتحتاج إلى سائق ماهر، فالسائق إذا شرب الخمر وغاب عن الوعي، ونزل في الوادي، وتحطَّمت السيارة، وأهلكت صاحبها، هل الخطأ في الصنعة؟ لا، في الذي يستخدم هذه الآلة، المستخدِم هو الخطأ، فالفساد أساسه الإنسان.

سبب المصائب ابتعاد الناس عن منهج الله عز وجل :

قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

كان من الممكن أن لا يذيقهم الذي عملوا، لكن شاءت حكمة الله أن يذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون.

تصوَّر إباحية العالم بشيء مخيف مع وجود الإيدز، فكيف تكون هذه الإباحية من دون هذا المرض؟ في الجامعة عندنا رسموا لوحة رمزية شاب وفتاة: **" احذر الإيدز"**، في الخمسينات: **" احذر غضب الله"**، كان الناس يخافون أن يعصوا ربهم، الآن يخافون الإيدز، يبتعدون عن الزنا مخافة هذا المرض، مُسِخوا قردة و خنازير، طبعاً، المسخ قد يكون مسخاً معنوياً، بدل أن تخاف الله وأن تكون عفيفاً كسيدنا يوسف، الآن تخاف الإيدز، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم الآية: 41]

قال تعالى:

(وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

هذا الكلام كله سبب ذكره أن الله عز وجل خلق هذا الخلق كله من أجل أن يسعدنا، لكن لماذا هذه المصائب؟ لأن الإنسان ابتعد عن الله عز وجل، فلا بدَّ من شيء يُعيده إلى الله عز وجل، ثم إن هذه الألوهية والوحدانية يؤكِّدها الكونُ.

إعجاز الله في الكون :

قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هل هناك في الأرض جهة غير الله تدَّعي أنها خلقت الكون؟ أبداً، لو هناك إله آخر لسمعنا رسالته، هل هناك جهة غير الله تدَّعي أنها خلقت السماوات والأرض؟ قال تعالى:

(وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

والدليل قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

نقف عند السماوات والأرض، أحدث رقم مئة ألف مليون مجرة، في كل مجرة تقريباً مئة ألف مليون نجم، والشمس نجم، أما الأرض كوكب، والشمس نجم ملتهب، وهي تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، المجموعة الشمسية كلها قطرها الزمني ثلاث عشرة ساعة، درب التبانة بمجرتنا،

قطرها الزمني، طولها الزمني مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، والثلاث عشرة ساعة نقطة في هذه المجرة، ومجرتنا مجرة معتدلة، والحديث عن الكون لا ينتهي، فالسماوات والأرض كون كله يتحرك، لو لم يتحرك لأصبح كتلة واحدة بفعل الجاذبية، أما هذا الكون كله متحرك، حركة ينشأ عنها قوة نبذ، هذه القوة النابذة تكافئ القوة الجاذبة، إذاً الكون يتحرك بشكل متوازن.

التوازن الحركي :

مرة ضربت مثلاً: لو وضعنا لإنسان اختصاصه الفيزياء قطعتين مغناطيسيتين متساويتين متكافئتين في مكانين على سطح صقيل، وجئنا بكرة حديدية بينهما، وقلنا له: أنت مكلف أن تضعها في مكان متوسط بحيث تتكافأ قوةُ جذب كل جهة مع الثانية، تستقر، هذا فوق طاقته، لو تحركت عشر الميليمتر تنجذب إلى جهة، أما أن تضعها في مكان تستقر بحيث تتكافأ قوى التجاذب هذا فوق طاقة الإنسان، ولو أن الكتلتين غير متساويتين أصعب بكثير، ولا بد لها من حسابات دقيقة جداً، لو كانت ثلاث كتل، ولو أن هذه الكتل في فراغ، لو أنها متحركة، تصوَّر كتل متفاوتة الحجم متحركة متجاذبة، المحصلة: نظام دقيق جداً، المحصلة أن ساعة " بيغ بن " هذه أدق ساعة في العالم تُضبط على أحد النجوم، قد تقصِّر أو تقدم في العام ثانية واحدة، والنجم لا يتغيَّر، معنى ذلك أن الدقة في الحركة مذهلة، ومع التفاوت في الحجم والسرعة والمسافات والحركة الدائمة الكون مستقر، يُسمى هذا بالتوازن الحركي، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هل هناك جهة غير الله تدَّعي أنها خلقت السماوات؟

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

نحن في المدن لا نرى السماء، قلَّما نراها، لو ذهبت إلى الريف، واستلقيت على الأرض، ونظرت إلى السماء في أيام غياب القمر، المنظر مدهش، هذا النجم الأبيض مرَّ بمرحلة ثانية، والنجم الأحمر يكون نجما فتيّاً، بعد ملايين مَلايين ملايين السنين ينقلب إلى نجم أبيض، ثم إلى نجم أسود، ينتقل من نجم أحمر، إلى نجم أبيض، إلى نجم أسود، والأسود صار مقبرة، لو دخلته الأرض، لو دخلت الأرضُ ثقباً أسودَ لأصبح حجمها بحجم البيضة، مع الوزن نفسه، هذه قوى الضغط.

الأرض والشمس من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أيْ إذا كان بيننا وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، لو أردنا أن نصل إليها بسيارة نحتاج إلى خمسين مليون سنة، انظر سيدنا عيسى جاء قبل ألفي سنة تقريباً، من أجل أن نصل إلى أقرب نجم ملتهب نحتاج إلى خمسين مليون سنة ضوئية بالسيارة، نجم القطب أربعة آلاف سنة، في المجرة المسلسلة، المرأة المسلسلة مليوني سنة، هناك أربعة وعشرون ألف مليون، ما هذه المسافات؟ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة الآيات: 75-76]

الشمس نبع ضوئي حراري والأرض هنا، ولو أن الأرض لا تدور حول نفسها لانتهت الحياة، الوجه المقابل للشمس ثلاثمئة وخمسون درجة والوجه الآخر مئتان وسبعون تحت الصفر، لا حياة، تدور، إذاً من أين جاء تعاقبُ الليل والنهار؟ من دورانها حول نفسها، لو أنها تدور هكذا لا هكذا، الشمس هنا و الأرض هنا و تدور هكذا، أي باللغة الرياضية تدور على محور موازي لمستوى دورانها حول الشمس، أيضاً كأنها واقفة، قسم يدور هكذا مقابلاً للشمس ثلاثمئة وخمسون، وقسم مئتان وسبعون تحت الصفر، انتهت الحياة، بقي أن تدور هكذا الشمس هنا، لو دارت هكذا على محور متعامد مع مستوى دورانها هكذا صيف أبدي، وشتاء أبدي، وربيع أبدي، وخريف أبدي، لا يوجد فصول، لكن جلَّت حكمة الله عز وجل فجعل الأرض تدور على محور مائل، ولما كان مائلاً صار للأرض وضعان؛ الشمس هنا، وهنا شمال الكرة الأرضية صيف، الأشعة عمودية، جنوباً شتاء، الأشعة مائلة، في الفصل المقابل انعكست الآية صار هناك فصول، إذاً لولا دورة الأرض حول نفسها على محور ليس موازٍ لمستوى دورانها لما كان ليل ولا نهار، لو دارت على محور عمودي لألغيت الفصول، إنها تدور على محور مائل، فصار هناك ليل ونهار.

اختلاف الليل و النهار لها معان كثيرة :

الآن.. اختلاف الليل و النهار لها معان كثيرة.

1 ـ تعاقب الليل و النهار:

أول معنى: تعاقب الليل و النهار.

2 ـ اختلاف طول الليل و النهار من فصل إلى فصل:

المعنى الثاني: اختلاف طول الليل و النهار من فصل إلى فصل من سبع عشرة ساعة إلى اثنتي عشرة ساعة، بين الشتاء وبين الصيف، الليل في الصيف قصير، والشتاء طويل، والنهار في

الصيف طويل وفي الشتاء قصير، فاختلاف الليل والنهار، تعاقب الليل والنهار، أو تبدُّل أطوال الليل و النهار، هذا من آيات الله، لو افترضنا أن إنساناً تصوَّر حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس ومستوى دورانها ومحورها المائل لرأى شيئاً مذهلاً. من هذه الآيات، قال تعالى:

(وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ)

لماذا جعل الله البحر أربع أخماس اليابسة؟ لأن الأرض تحتاج إلى أمطار، والأمطار تحتاج إلى تبخُّر، فلا بدَّ من مسطَّحات مائية واسعة جداً، البحر همزة اتِّصال بين القارات، ولكن كيف ننتقل عبره؟ لا بدَّ من مراكب، ما الذي يمنع المراكب أن تغرق في البحر؟ الله خلق قوة في البحر اسمها قوة دفع أرخميدس، كشفها العالم أرخميدس، إذا أنت حملت وعاء فيه ماء له وزن و تشعر بوزنه، قد يكون عشرين كيلو، ضعه في بركة ماء، تجد أن نصف وزنه ذهب، لأن في الماء قوة دافعة نحو الأعلى، لولا هذه القوة لما كان هناك شيء اسمه بواخر في البحر، البواخر أداة اتِّصال بين القارات، كل الخيرات التي ترونها بسبب التبادل التجاري في العالم، لماذا المقاطعة مخيفة جداً، قد تمنع التبادل التجاري، الله جعل الأرض كلها متكاملة، فأي بلد يُقاطَع اقتصادياً يموت أهله، فالله جعل هذا البحر أداة اتصال بين القارات، وجعل فيه القوة الدافعة نحو الأعلى، وتماسك الذرَّات المائية، ينشأ عن هذا التماسك قوة دفع نحو الأعلى، الذرات المائية ترفض أن تتباعد ، ورفضها أن تتباعد بالمقابل قوة نحو الأعلى، تجد باخرة حمولتها مليون طن، الآن هناك بواخر حمولتها مليون طن، مدينة في البحر تسير، ما الذي يمنعها أن تقع في القاع؟ هذا الخلق الإلهي، قال تعالى:

(وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ)

الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله :

نتابع الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله؛ الله عز وجل ذمَّ وتوعد أولئك الذين يكتمون العلم، وقال: ينبغي أن تبيِّنوا أن إلهكم إله واحد، وأنه الرحمن الرحيم، وهذا الدليل، وهذا هو الطريق إلى الإيمان بإله واحد، قال تعالى:

(وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

[سورة الأنبياء الآيات: 30]

أي قضية الماء قضية الحياة في الدنيا، فأينما وجُد الماء وجدت الحياة، الماء فُقِد تُفقد معه الحياة، وربُّنا عز وجل ـ أقولها مرات كثيرة ـ: إذا قنَّن فإن تقنين الله تقنين تأديب لا تقنين عجز ولا تقنين بخل، الإنسان يقنَّن تقنين عجز، أو تقنين بخل، إلا أن الله إذا قنَّن يقنن تقنين تأديب، قال تعالى:

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن الآيات: 16-17]

قال تعالى:

(وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)

الرياح من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى :

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ)

أي الماء يُنبت الزرع، والزرع يأكله الحيوانُ، والإنسان ينتفع بالنبات والحيوان معاً، لذلك لو انعدم المطر لهلك الزرع والضرع، وهلك الإنسان، قال تعالى:

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ)

هذه الرياح من آيات الله الدالة على عظمته، أي الهواء، تحرُّك الهواء نعمة كبرى، كيف يتحرك؟ الله جعل الهواء كأيِّ عنصر يتمدَّد بالحرارة وينكمش بالبرودة، وجعل مناطق حارة في خطِّ الاستواء، ومناطق باردة في القطب، فالهواء في القُطب منكمش، ضغطه عالٍ، والهواء في الاستواء ضغطه منخفض، من فروق الضغط بين القطب وخط الاستواء تنشأ حركة رياح، والهواء الثقيل يهرب إلى المكان المُخَلْخَل، فهذه من نعمة الله، ومع دوران الأرض تنشأ تيارات من الهواء من الشمال إلى الجنوب الشرقي هكذا، الرياح الغربية، تأتي شمالية غربية تقريباً، هذه الرياح تسوق السحاب، والسحاب فيه أمطار:

(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

[سورة الأعراف الآية: 57]

قال تعالى:

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

ما الذي يحمل السحاب؟ وكيف أن الله عز وجل صمَّم الهواءَ أن يحمل السحاب، والهواء مصمَّم أن يحمل السحاب، المتر المكعب من الهواء يتحمَّل كمية بخار ماء معيَّنة، بحرارة معينة، فلو أن الحرارة انخفضت لعُصِر بخارُ الماء، وانقلب إلى قطرات ماء، هو السحاب بخار ماء، هناك بخار ماء شفَّاف، الآن هناك بخار ماء، ولو عندنا مقياس رطوبة؛ دمشق خمس وثلاثون رطوبتها تقريباً، وفي الساحل تسعون، وفي الأماكن الجافة عشرة، كلما كان هناك جهاز يقيس الرطوبة الشفافة، السحاب رطوبة كثيفة، هذا السحاب محمول بالهواء ، والهواء من خصائصه أنه يحمل بخار الماء،

كل درجة حرارة تقابلها كمية بخار ماء محمولة، فالحرارة إذا انخفضت فجأةً، الماء يعصر بخار الماء ويقلبه إلى ذرات.

السحاب رحمة الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

[سورة النبأ الآية: 14]

هذا النظام مَن خلقه ومَن نظَّمه ومَن قنَّنه؟ قال تعالى:

(وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

وقال :

(خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

مسخَّر حملاً، ومسخر تنقُّلاً، من ينقل السحاب من مكان إلى مكان؟ الإنسان إذا ركب طائرة يرى السُحُب من أعلى كأنها جبال بكل معاني هذه الكلمة، وديان، وجبال، وتلال، وقمم مؤنَّفة، وقمم منبسطة، هذا السحاب رحمة الله عز وجل.

الآيات الكونية هي طريق معرفتنا بالله عز وجل :

قال تعالى :

(خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

تصريف الرياح؛ رياح شرقية ورياح غربية، رياح معتطلة، نسيم عليل، عواصف هوجاء، أعاصير مدمِّرة من حيث سرعتها ومن حيث حرارتها، هناك رياح باردة جداً تسبب الزمهرير، وهناك رياح حارة، وهناك رياح دافئة، هناك رياح منعشة، تصريف الرياح سرعةً وبرودةً وحرارةً واتِّجاهً، هناك اتجاه وسرعة وبرودة وحرارة:

(وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

أيها الأخوة... في القرآن ألف وثلاثمئة آية كونية، هذه طريق معرفتنا بالله عز وجل، ما بثَّ الله هذه الآيات ولا تحدَّث عنها في قرآنه إلا كي تكون موضوعات للتفكر، وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذا الموضوع.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (54- 95):تفسير الآيات 165 -167 ، التوحيد والشرك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-08-27

بسم الله الرحمن الرحيم

النقطة التي يلتقي بها العلم بالأخلاق هي الموضوعيَّة :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الخامسة والستين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

أولاً كلمة: (ومن الناس) هذه (مِن) للتبعيض، عوِّد نفسك أن تتخلَّق بآداب القرآن؛ لا تُعَمِّم، لا تُطْلِق، لا تقل: كل أهل هذه البلدة شاردون، قل: بعضهم، بعضٌ منهم، كن موضوعياً في أي حكم تدلي به، النقطة التي يلتقي بها العلم بالأخلاق هي الموضوعيَّة، الموضوعية قيمةٌ علمية، وهي في الوقت نفسه قيمةٌ أخلاقيَّة، العلم يلتقي مع الأخلاق بهذه القيمة، إن سُئلت عن إنسان اذكر ما له وما عليه، لا تذكر ما عليه فقط إن كنت خصماً له، ولا تذكر ما له إن كنت محباً له، اذكر ما له وما عليه.

رأى النبي عليه الصلاة والسلام صهره مع الأسرى، حين أُسِرَ يوم بدر، لماذا جاء؟ جاء ليحارب النبي، ولو تمكَّن لقتل النبي، قُبض عليه أسيراً، فلما نظر النبي عليه الصلاة والسلام إليه قال كلمة منصفةً، قال: **" واللهِ ما ذممناه صهراً ".** هو صهر ممتاز. أرأيت إلى هذه الموضوعية.

التعميم من العمى :

تعلَّم من القرآن الكريم كيف تكون أحكامك دقيقة، لا تنظر بمنظارٍ واحد، لا تنظر من زاويةٍ واحدة، ورد في الأثر: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

دائماً لا تعمم؛ التعميم من العمى، والفرق بين المثقف وغير المثقف هذه الناحية، أحكامه دقيقة، موضوعية، ليس فيها مبالغات، كل إنسان يبالغ بعيد عن الإنصاف، أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً، أمرت أن أصل من قطعني، وأعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني. قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ)

من الذين هادوا يفعلون كذا وكذا، من للتبعيض، لو اهتدى واحد منهم إلى الإسلام، ورأى هذه الدقة في القرآن، ترتاح نفسه، تأدَّب بآداب القرآن، لا تعمم ولا تطلق، ولا تبالغ ولا تقلل؛ بل إن الحق أكبر من أن يحتاج إلى مبالغة، هو أكبر من ذلك، الحق أكبر من أن تكذب له، الحق أكبر من أن تستحي به، الحق أكبر من أن يخشى البحث، الحق لا يخشى البحث، ولا يُستحيا به، والحق لا يحتاج إلى أن تكذب له، ولا أن تصغِّر من خصومه، ولا أن تُبالغ، الحق هو الله، وهو قويٌّ بذاته. لذلك أنت كمسلم ادعُ إلى الله فقط، الحق قوة من دون أي شيء آخر، كن منضبطاً بكل القوانين والأنظمة تكن كلمتك هي القوية، الحق غذاء للنفوس.

مخاطبة الله الناس بأصول الدين ومخاطبة المؤمنين بفروع الدين :

قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ)

أما كلمة (الناس):

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ)

[سورة البقرة الآية: 21]

خاطب الله عزَّ وجل الناس تارةً، وخاطب المؤمنين تارةً أخرى، حتى إن بعض العلماء قال: إن الله خاطب الناس بأصول الدين، وخاطب المؤمنين بفروع الدين، كيف؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: 119]

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور الآية: 30]

أي يا من آمنت بالله؛ خالقاً ورباً ومسيراً، يا من آمنت به موجوداً وواحداً وكاملاً، يا من آمنت أن الأمر كله بيده، يا من آمنت أن منهجه هو المنهج الصحيح، يا من آمنت أن طاعته هي المُسعدة، إذا قال لك الله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي أن كل حجم إيمانك، وكل تفاصيل إيمانك، وكل مرتكزات إيمانك يجب أن تذكرها حينما تؤمر بكذا، أي يا من آمنت بحكمتي، يا من آمنت بعلمي، يا من آمنت بقدرتي، يا من آمنت بأن المصير إلي، يا من آمنت بجنةٍ عرضها السماوات والأرض، افعل كذا ولا تفعل كذا.

مخاطبة الله عزَّ وجل المؤمنين بتفاصيل الشريعة :

إذا خاطب الله عزَّ وجل المؤمنين يخاطبهم بتفاصيل الشريعة، لأن الإنسان بعد أن يؤمن الإيمان الذي يحمله على طاعة الله يجب أن يبحث عن شيءٍ واحد فقط وهو أوامر الله ونواهيه، أما الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله فهو إيمانٌ لا قيمة له، لأنه إيمان لا ينجِّي، الإيمان الذي له قيمة والذي ينجيك هو الذي يحملك على طاعة الله.

مثلاً: معرفتك بأضرار الدخان لا قيمة لها إن لم تحملك على ترك الدخان، أما معرفتك بأضرار الدخان إن حملتك على ترك التدخين هذه معلومات جيدة ومنجية، وهكذا.

كل إيمانٍ لا يؤدي بك إلى طاعة الله لا قيمة له، إيمانٌ إبليسي، فهو آمن بالله عزيزاً، وآمن بالله خالقاً:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة الأعراف الآية: 12]

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

آمن به عزيزاً:

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف الآية: 14]

آمن باليوم الآخر، ولكن مجمل هذا الإيمان ما حمله على طاعة الله، أبى واستكبر، إذاً لا قيمة لهذا الإيمان.

الإيمان الإبليسي :

كل إنسان يقول لك: أنا مؤمن والحمد لله، والله مؤمن يا أخي، تبحث في تفاصيل حياته لا ترى فيها انضباطاً، ولا ورعاً، ولا التزاماً، أنا يخطر في بالي أن هذا الإيمان إيمان إبليسي، فهو عرف وانحرف:

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ(7))

[سورة الفاتحة الآية: 7]

من هم المغضوب عليهم؟ هم الذين عرفوا وانحرفوا، من هم الضالون؟ هم الذين ما عرفوا وانحرفوا.

أرسل النبي عليه الصلاة والسلام فيما تروي كتب الحديث، سيدنا معاذ إلى قبيلة ليعلِّمهم، فلما عاد إلى النبي قال: **" يا رسول الله إنهم كالإبل المتوحِّشة ـ بهائم ـ همهم شاةٌ وبعير... "**. وأنت قد تجد

إنساناً لا يفقه شيئاً، همه الدرهم والدينار. جلس عالِم من علماء مصر الأفاضل في حديقة بأمريكا إلى جانب أمريكي، فسأله عن بلده؟ قال له: أنا من مصر، سأله عن دينه؟ قال له : أنا مسلم، فقال له: حدثني عن دينك ـ وهو عالِم كبير، وله تفسير شهير ـ فحدثه ساعة عن الإسلام بكلام دقيق مختصر، مفيد، مع أدلة، فما كان من هذا الذي سأله أن يحدثه عن الدين إلا أن أخرج من جيبه دولاراً، وقال: أنا هذا إلهي أعبده من دون الله، قد تجد إنساناً همه الدرهم والدينار، همه بطنه، همه شهوته:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْقَطِيفَةِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ))

[ابن ماجة عن أبي هريرة]

فهذا الصحابي قال: **" هؤلاء يا رسول الله كالإبل المستوحشة همهم شاةٌ وبعير "، لا يوجد أمل، قال له: " يا معاذ هناك أعجب منهم ـ أعجبت منهم؟ ـ " قال: " من هو يا رسول الله؟ " ـ هل هناك إنسان أوحش من ذلك؟ ـ قال له: " هذا الذي عرف ما عرفتم ثم انحرف ".**

أي إذا كان المسلم يعرف الجنة حق والنار حق، وهذا أمر إلهي، وهذه حرام، وهذه حلال، وهناك موت، وجنة، ونار، وهو غارق بالمعاصي، هذا كيف حاله؟ هذا حاله أشد من جاهل.

حينما يتجه الإنسان إلى غير الله فقد أشرك :

إذا قال الله:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)

[سورة البقرة الآية:21]

يخاطب الناس بأصول الدين، إذا قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: 119]

أي يا من آمنتم بعلمي، وقدرتي، ووحدانيتي، يا من آمنتم بخبرتي، آمنتم برحمتي، افعلوا ولا تفعلوا. فالآية الكريمة:

(وَمِنَ النَّاسِ)

أي بعض الناس..

(مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً)

يتخذ نِدّاً لله، قديماً أصنام، حديثاً أشخاص، أيَّة جهةٍ تعبدها من دون الله هي ليست إلهاً ـ بالتأكيد ـ لكنك جعلتها بمرتبة الإله؛ فخضعت لها، ورجوتها، وخفت من شرها، خضوع، رجاء، خوف، طاعة، هي ليست إلهاً، ولكنك عاملتها كإله، فاتخذتها من دون الله نداً، والند هو المثيل والمُشابه، وكل إنسان يطيع مخلوقاً ويعصي خالقه، يطيع زوجته ويعصي ربه، يأكل المال الحرام لتكثر ثروته

ولا يعبأ بحكم الله عزَّ وجل، ماذا فعل هذا؟ هذا اتخذ المال نداً لله، هذا اتخذ شهوته نداً لله، هذا اتخذ سمعته نداً لله، حينما يتجه الإنسان إلى غير الله فقد أشرك، لماذا..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء الآية: 84]

الشرك خطأ لا يغتفر :

ضربت مرَّة مثلاً بسيطاً أنك قد تركب قطاراً إلى حلب، حيث يمكنك أن تحصل مبلغاً ضخماً جداً، والوقت مناسب، قد ترتكب في القطار عشرات الأخطاء، لكن القطار في طريقه إلى حلب، وسيصل في الوقت المناسب، قد تأخذ مثلاً بطاقة درجة أولى، وتجلس في الدرجة الثالثة خطأً، هذا خطأ، قد تجلس مع شُبَّان ليسوا مهذبين فتنزعج منهم، هذا خطأ ثانٍ، قد تتلوى جوعاً ولا تعلم أن في القطار عربة مطعم، هذا خطأ ثالث، قد تجلس عكس اتجاه القطار فتصاب بالدوار، هذا خطأ رابع، لكن القطار في طريقه إلى حلب، وسيصل في الوقت المناسب، وستأخذ هذا المبلغ؛ أما الخطأ الذي لا يغتفر هو أن تركب قطار درعا، هنا لا يوجد هدف أبداً، الطريق مغلق هنا، لا يوجد قبض مثلاً.

لذلك الشرك خطأ لا يغتفر، لأن الطريق مسدود ولا يوجد شيء، اتجهت إلى غير الله لا يوجد شيء، غير الله عزَّ وجل ضعيف، فقير، قد يكون أحياناً لئيماً، لا يستجيب لك، وقد لا يسمعك، ولو سمعك قد لا يستجيب..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء الآية: 84]

الدين توحيد :

يا أيها الأخوة الجاهل من يتخذ من دون الله آلهة، قديماً؛ اللات والعُزى، حديثاً؛ شخص زيد وعُبيد، وفلان وعلان، هو شخص قوي يقول لك: أنا أنتفع منه، أمره بمعصية فعصى، أمره بفعل شيء منكر ففَعَله، يراه إلهاً، هو جعله كإله، هو ليس إلهاً هو إنسان ضعيف جداً، ولكن الجهل أوهمك أن هذا الإنسان بيده نفعك أو ضرك، بيده أن يرفعك، بيده أن يخفضك، بيده أن يعزَّك، بيده أن يذلَّك، بيده أن يعطيك، بيده أن يمنعك، توهَّمت أنه يأخذ دور الإله فعاملته كإله، فخضعت له، ورجوته، وخفت منه، وعصيت الله من أجله، هذه مشكلة المشاكل.

أحياناً ابن له أب غني جداً، لكنه بعيد عن الدين كلياً، الأب يعطيه توجيهات؛ إذا لم تفعل كذا أحرمك من الإرث، إذا لم تفعل كذا لا أشتري لك سيارة، إذا لم تفعل كذا... هذا الابن لضعفه وجهله يجعل أباه إلهاً له، فحفاظاً على بيتٍ فخمٍ، وعلى مركبةٍ، وعلى زواجٍ، وعلى دخلٍ كبير يعصي الإله ويطيع أباه، هذه مشكلة المشاكل، حينما تضعف رؤيتك، أو تنحرف رؤيتك فتتوهم أن بعض

الأشخاص يستطيعون أن يعطوك أو أن يمنعوك، أنت اتخذتهم آلهة دون أن تشعر، اتخذتهم أنداداً لله، عاملتهم كآلهة، رجوت خيرهم، وخفت من شرِّهم، وأطعتهم وعصيت الله عزَّ وجل..

((مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ))

[الترمذي عن عائشة رضي الله عنها]

الدين كله كلمة واحدة: الدين توحيد؛ لا إله إلا الله، لا مسيِّر، لا معطي، لا مانع، لا معز، لا مذل، لا مسعد، لا مشقي، لا خافض، لا رافع إلا الله، هذا هم الدين، هذه المقولة سهلة كفكرة وليست صعبة، أما أن تعيشها فأنت تحتاج إلى جهد كبير. أحياناً تقرأ قوله تعالى:

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية: 71]

هذه آية واضحة جداً، لا تحتاج لا إلى تفسير، ولا إلى شيخ، لأنها واضحة، أما حينما تكون في بلدة، لك شاب صديق لك، كنت وإياه على مقعد واحد، فأنت تعاني من ضيق العَيش، ومن الدخل القليل، وصديقك معه الملايين، وهو غارق في الزنا، والفجور، والخمر، والنساء، والسفر؛ وأنت خائف من الله، من جامع إلى جامع، وترجو الله أن يسامحك، حينما ترى نفسك محروماً، وأن الله قد أعطاه، أنت لم تفهم هذه الآية أبداً، ولم تعشها، قراءتها سهلة، وسهل أن تشرحها لنا، أما أن تعيشها فهذا يحتاج إلى إيمان كبير، يحتاج إلى أن تشعر أنك بطاعة الله أغنى منه، وأنك بطاعة الله أقوى منه، وأنك بطاعة الله أسعد منه، ولو كنت فقيراً، هذه السكينة، أن تسعد بها ولو فقدت كل شيء. السكينة، إذا أنزل الله على قلبك السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء؛ وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

المؤمن لا يخشى في الله لومة لائم :

يا أيها الأخوة الكرام:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً)

أحياناً يعمل زوجته نداً، تحمله على معصية يرضخ، يرى سلامتها أغلى عنده من علاقته بالله، أحياناً يدفعه لمعصية، أحياناً يأكل المال الحرام ليرضي أسرته من شدة الطلب والإلحاح، ماذا رأى هذا؟ هذا رأى أن سلامته في بيته مع زوجته، وأولاده أغلى عنده من طاعة الله عزَّ وجل، صحابي جليل طلبت منه زوجته طلباً. فقال: **اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلَّت إحداهنَّ على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن، أهون من أن أضحي بهن من أجلك "**، هذا مقياس.

قالت له أمه: **" يا سعد إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت "، فقال: " يا أمي لو أن لكِ مئة نفسٍ فخرجت واحدةً وَاحدةً ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي "**. فأكلت بعد ذلك.

هذا هو المؤمن، المؤمن مواقف، مبادئ، يقول: لا بملء فمه، ولا يخشى في الله لومة لائم، يقول: لا، وألف لا. إذا شيء مخالف للشرع، وكان فيه معصية، أو فيه أكل مال حرام، أو فيه شهادة زور، لا، هذا المؤمن، فلو قطعته إرباً إرباً لا يعصي الله، هنا قوة المؤمن، أما..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

من دونه، لا يوجد بينهما نسبة، الله كل شيء، وهذا لا شيء، (أنداداً)، يتوهمه قوياً، يتوهم سعادته بإرضائه، سبحان الله! الإنسان يرتكب أحياناً حماقة كبيرة، ويخسر الدنيا والآخرة معاً، هذا الذي آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، وهذا الذي آثر رضا الله على دنياه ربحهما معاً.

حينما يكون الإنسان لغير الله يحتقر نفسه :

قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ)

ماذا يحب الإنسان بشكل علمي؟ الإنسان يحب الجمال، ويحب الكمال، ويحب النوال. إذا أعطاك إنسان مبلغاً ضخماً جداً حللت فيه كل مشاكلك، وكان هو قميءَ المنظر، ألا تحبه على دمامته؟ لا تنام الليل إلا وأنت تذكره، مع كونه دميماً، أعطاك مالاً، الإنسان يحب الكمال، ولو أن الكمال ما أصابه، يحب الكرم، يحب الشجاعة، يحب الحلم، يحب العدل، يحب الجمال، ويحب النوال.

هؤلاء يحبونهم كحب الله، أي أنهم يحبونهم حباً يشبه حب المؤمنين لله، المؤمن بصراحة لا يليق به أن يكون لغير الله، لا ينبغي للمؤمن أن يكون لغير الله، هو لله وحده..

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة الآية: 130]

حينما يكون الإنسان لغير الله يحتقر نفسه، لا يعرف قدرها، هانت عليه نفسه فكان لغير الله. أنت خلقك الله عزَّ وجل إنساناً أولاً، مخلوقاً مكرَّماً، أنت لله، لا تكن تابعاً لإنسان بل كن تابعاً لله عزَّ وجل.

حال المسلمين الآن :

هؤلاء يحبون الأنداد حباً يشبه حب المؤمنين لله؛ يعظّمونهم، يخافونهم، يرجون ما عندهم، يعصون الله من أجلهم، وهذه أكبر المصائب أن تكون خطأً لإنسان:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف الآية: 54]

هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، هذا ملخَّص الملخَّص، وهو حال المسلمين الآن؛ هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، احتفالاتهم، أعراسهم، كسب مالهم، تجارتهم، بيوتهم، صرعات العصر كلها في بيوتهم، لا يوجد عندهم شيء حرام، ولكن لديهم صلاة وصوم وحج وزكاة، هذا الإسلام العظيم الذي هو خمسمئة ألف بند، والذي هو منهج تفصيلي بقي خمسة فقط.

تجد حياته في واد، والإسلام في واد؛ بيته، أولاده، بناته، زوجته، دخله، تجارته، ولا يشعر أن هناك مشكلة، دار نشر تروِّج كتاباً كله كفر، يقول لك: هذه مصلحتي، ماذا أفعل؟ مطعم يبيع خمر، يقول لك: لا يمكن ألاَّ يكون الخمر، لأنه مطعم خمسة نجوم، يقيم دعاية أحياناً كلها نساء كاسيات عاريات، وهو يصلي في أول صف، كيف يكون متوازناً؟ كيف جمعت بين النقيضين؟ قال لي شخص يصلي في الصف الأول: أنا عندي مطعم يباع فيه الخمر، ولكن هذا العمل في رقبة شريكي، فأنا ليس لي ذنب!! توازن فكره بهذه الطريقة أنه وضعها (في رقبة شريكه)، وانتهى الأمر.

عداوة الحال وعداوة المآل :

الإنسان الجاهل الغافل هو الذي يطيع مخلوقاً، ويعصي خالقاً، يطيع زوجته، ويعصي ربه، يطيع شريكه، ويعصي خالقه، يطيع أولاده، ويغضب ربه، يكسب المال الحرام ليرضي أسرته، وهذه لا تنفعه عند الله شيئاً، من هنا قال الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ (14))

[سورة التغابن الآية: 14]

عدواً لكم يوم القيامة قال العلماء: **" هذه عداوة مآل وليست عداوة حال "، في الحال زوجته يحبها حباً جماً، وأولاده، أما يوم القيامة حينما يرى أنه استحق دخول النار بسببهم، عندئذٍ يعاديهم، حينما يوضع الرجل في النعش وتمشي الجنازة ـ هكذا ورد في الأثر ـ ترفرف روحه فوق النعش تقول: "يا أهلي يا ولدي جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حلّه وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي".**

سئل أحدهم إلى أين أنت ذاهب؟ والله بالحرف الواحد وإن كانت كلمة قبيحة، فأجاب: أنا ذاهب لأسكر على روح أبي، ترك له أموالاً طائلة، ولم يعرفه بالله عزَّ وجل، فهذا المال الذي بين يديه حمله على المعاصي والآثام، لذلك:**" أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنة ودخل هو بماله النار ".**

قد يورث أحدهم أولاده مالاً وفيراً، وأولاده صالحون، فدخلوا بهذا المال الجنة، هو جمعه من حرام فدخل بهذا المال النار، وقد تقف فتاةٌ يوم القيامة تقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه ما عرَّفها بالله، ما حملها على طاعة الله، القضية خطيرة جداً.

أنا أعيد هذه الفكرة مرَّات عديدة، هناك كلام تستمع إليه فتتثاءب، وتنام بعده، لأنه كلام تافه، وهناك كلام تستمع إليه فلا تنام بعده الليل، لأن هذا الكلام يضعك أمام مسؤوليَّاتك..

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ *وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ *وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

[سورة النجم الآيات:59-61]

هناك كلام يجب أن يبكي له الإنسان.

علاقة المؤمن مع الله علاقة حب :

هذه الآية أيها الأخوة مهمة جداً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)

المؤمن هو الذي يحب الله حباً حقيقياً.

إخواننا الكرام... علاقة المؤمن مع الله علاقة حب، لأن الحب أساسه العطاء، منحك نعمة الوجود، أنت موجود، من أوجدك؟ منحك نعمة الوجود. أمدَّك بكل ما تحتاج؛ أمدَّك بالهواء، أمدك بالماء، أمدك بزوجة، بأولاد، ببيت، بحرفة تكسب منها رزقك، أعطاك ذاكرة، أعطاك قوة، أعطاك قلباً، رئتين، دسَّامات، كليتين، أجهزة كلها كاملة، فالمؤمن يحب الله عزَّ وجل، منحه نعمة الوجود، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد،، ونعمة الهدى والرشاد.

إنهم يحبون هؤلاء الأنداد الصغار الحقيرين كما يحب المؤمن ربَّه، حب طاعة، حب انقياد، حب خوف، حب رجاء، لذلك إذا رأيت إنساناً يحب جهةً ما من دون الله كحبه لله ابكِ عليه، مسكين، قد ضيَّع عمره سُدى، جعل نفسه سيِّئةً من سيِّئات فلان، أنت لله.

الماء للتراب، والتراب للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لله.

الإنسان التافه يعيش ليأكل، والأقل تفاهة يأكل ليعيش، والمؤمن يعيش لمعرفة الله، يعيش لهدف كبير..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)

هنا... لماذا هم أشد حباً لله؟ المؤمن يحب الله في السراء والضرَّاء، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْراً وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْراً))

[أحمد عن صهيب]

حينما يحب الكافر أنداداً من دون الله حباً كحب الله، يفاجأ حينما تكشف له الحقيقة، في الدنيا أحياناً يطلبه فلا يلبِّيه، أحياناً يتنكَّر له، علماً أنه ساعات الشدَّة لا يلجأ إلا لله وحده.

مرَّة حدَّثني صديق عن طائرة تقل خبراء من بلدٍ منهار الآن، من بلد شعاره لا إله، نشأ هؤلاء الخبراء على الإلحاد، دخلت الطائرة في سحابةٍ مكهربة، ومنخفضاتٍ كثيرة فاضطربت اضطراباً كبيراً، لدرجة أنها كادت تسقط، فما كان من هؤلاء الخبراء الملحدين إلا أن قالوا: يا الله. عند الشدة لا تذكر إلا الله.

الشرك نوعان جليٌ وخفي :

أريد أن أوضِّح لكم أن الشرك نوعان؛ جليٌ وخفي، قلما نجد شركاً جلياً في العالم الإسلامي ـ والحمد لله ـ لكن ما أكثر ما نجد شركاً خفياً:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف الآية: 106]

هذا متكئ على إنسان غني، وهذا على إنسان قوي، وهذا يطيع مخلوقاً ويعصي خالقاً، وهذا يرى أن هذا المال خيرٌ له من طاعة الله، فيغش المسلمين، وهذا يكسب المال الحرام ليرضي زوجته وأولاده، هذا بشكلٍ قطعي اتخذ من دون الله أنداداً فحملوه على معصية الله، أحبهم كما ينبغي أن يحب المؤمن ربه فأطاعهم، وخاف من شرهم، ورجا ما عندهم، وهذه مشكلة العالم الإسلامي اليوم، مليار ومئتا مليون ليس أمرهم بيدهم، وليست كلمتهم هي العليا، ولأعدائهم عليهم ألف سبيلٍ وسبيل، لأنهم..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم الآية: 59]

وقد لقي المسلمون ذلك الغّي.

مصير الإنسان بين يدي الله وحده :

دققوا الآن:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

ظلموا أنفسهم، خيَّرناك مثلاً بين أن تأخذ جوهرة ثمنها مئة وخمسين مليون دولار، وبين أن تأخذ فحمة ثمنها قرشين، فاخترت الفحمة.

كنت أضرب مثلاً طريفاً: قطرميز ثمنه عشرون ليرة، بجانبه كأس كريستال ثمنها ألف ليرة، وإلى جانبه جوهرة ثمنها مئة وخمسون مليوناً، قلنا لك: انتق، فانتقيت القطرميز، لأنه الأكبر حجماً، معناها أن الوضع سيئ جداً، لا يوجد إنسان لا يحب، لكن من هو البطل؟ الذي ينتقي محبوباً لا

يموت، هو الذي ينتقي شيئاً أبدياً، أي بالتعبير العامي ـ فقط اعرف من تنتقي ـ كل إنسان يحب، وكل إنسان يبحث عن سلامته وسعادته، لكن أعلم علم اليقين أن سعادتك بطاعة الله، والشقاء بمعصيته. قال تعالى:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

هؤلاء الذين أحبوا زوجة، أو أحبوا ولداً، أو أحبوا قوياً، أو أحبوا غنياً، فأطاعوه وعصوا ربهم..

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ)

هنا توجد نقطة مهمة، لماذا أطعت هذا؟ لأنك توهَّمت أنه قوي، وأنك إن عصيته أوقع بك الأذى الشديد الذي لا يحتمل، وأنك إن أطعته أعطاك الدنيا، لأنك تراه قوياً، قوياً في ماله، أو قوياً في عقابه، فأطعته؛ لكنك يا أيها الذي فعلت هذا لو ترى مصيرك بين يدي الله، وكيف أن هذا القوي معك في العذاب.

آيات من القرآن الكريم تبين حال الكافر يوم القيامة :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

[سورة التحريم الآية: 6]

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

[سورة الأنبياء الآية: 98]

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

[سورة إبراهيم الآية: 22]

ماذا يفعل الإنسان؟

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ *وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة الآيات: 19-33]

فعلت من أجل الدنيا وقد زالت عنك الدنيا وبقي العذاب.

حال المؤمن وحال الكافر يوم القيامة :

قيل أن المؤمن حينما يأتيه ملك الموت، ويرى مقامه في الجنَّة يقول: **" لم أر شراً قط "، ينسى كل متاعب الحياة، والكافر حينما يرى مكانه في النار عند النزع الأخير يقول: " لم أر خيراً قط "،** فعن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم أنه قال:

((يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ))

[مسلم عن أنس بن ملك]

سيدنا علي يقول: **" يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية ".**

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ)

حينما يرى أنه..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ *)

[سورة الغاشية الآيات: 25-26]

فهذا الذي ركب طائرةً وفي ظنه أنها تقلُّه من نيروبي إلى أمستردام، فإذا بها تقلُّه إلى أنقرة ـ وهو مطلوب هناك ـ ماذا حصل له؟ بعيداً عن ملابسات الحادث، إنسان سيق إلى الحساب الشديد.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ *)

[سورة الغاشية الآيات: 25-26]

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

هذا الذي أطعته خوفاً من بطشه، لن يستطيع أن ينقذك من النار، هو معك في النار، هذا شيء لا يحتمل..

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه :

قال تعالى:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

إذا توسعنا قليلاً، أو فهمنا الآية فهماً إشارياً، قوة الجمال عند الله، وقوة الكمال عند الله، وقوة النوال عند الله، والله هو كل شيء، فإن أحببت هذه طمعاً في جمالها، لو علمت أن السكينة التي تتنزَّل على قلبك وأنت مع الله، تفوق أضعاف أضعاف لذَّة النظر إليها، حينما تغض بصرك عن محاسن امرأةٍ لا تحل لك، يورثك الله حلاوةً في قلبك هي أضعاف مضاعفة من لذة النظر لو نظرت إليها، تركت

شيئاً لله فعوضك الله خيراً منه في دينك ودنياك. حينما تدع مالا حراماً وتقول: معاذ الله، الله هو الغني.

((إن لم تكن ساخطاً علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تحل علي غضبك، أو تنزل علي سخطك، ولك العتبى حتى ترضى)).

[الجامع الصغير عن عبد الله بن جعفر]

إذا كان الطريق إلى القوة هو المعصية ترى الضعف وسام شرف لك، إذا كان الطريق للمال هو المعصية ترى الفقر وسام شرف، ترضى بفقرك. هل تغبط إنساناً ربى ثروة عن طريق المعصية؟ قال أحدهم: كنت أنا موظفاً بسيطاً لا يكفي راتبي يومين أو ثلاثة، فتح خمسة بيوت دعارة فصار عنده دخل فلكي مثلاً، فهل تحسده على هذا الشيء؟ مرحباً بالفقر إذا كان طريق الغنى هكذا.

المؤمن عنده نظرة ثاقبة جداً إذا كان طريق القوة أن أعيش على أنقاض الناس، أن أعيش على همومهم، أن أعيش على كوارثهم، مرحباً بالفقر إذا كان الطريق إلى الغنى معصية الله عزَّ وجلَّ، ومرحباً بالضعف إذا كان طريق القوة معصية الله عزَّ وجل.

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران الآيات: 196-197]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم الآية: 42]

كن مع الله ترَ الله معك :

أيها الأخوة..

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

هذا الذي خفت منه فأطعته وعصيت الله، الله وحده القوي، ولو كنت مع الله لكان الله معك، كن مع الله ترَ الله معك:

(وقَالَ أَصْحَابُ مُوسَى)

وقَالَ أَصْحَابُ مُوسَى بالمنطق، بالمعطيات الواقعية، فرعون بقوته، وبطشه، وجبروته، وجنده، وآلياته وراء سيدنا موسى وأصحابه، والبحر أمامهم، كن واقعياً هل يوجد أمان؟ الأمن صفر.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآيات: 61-62]

أمره الله عزَّ وجلَّ أن يضرب البحر فأصبح طريقاً يبساً.

سيدنا يونس في بطن الحوت، هل هناك أمل بالنجاة؟ إذا وقع أحدهم في بطن حوت، كان يركب سفينة، وغرقت، ووضعه الحوت ـ حوت أزرق ـ لقمة واحدة في بطنه، فهل هناك أمل؟

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء الآيات: 87-88]

اقرؤوا القرآن يا أخوان، هذا كلام الله، هل هناك مصيبة أشد من أن تجد نفسك فجأةً في بطن الحوت في الليل؟ في ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، نادِ ربك وقل: يا رب..

(لا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ)

الله تعالى خالق الأكوان وبيده كل شيء :

والله هناك أخ أصيب بمرض خبيث، ودعا الله من أعماق قلبه، وتصدَّق مما يملك، ذهب بعد أربعة أشهر إلى بلد غربي ليجري عملية ميؤوساً من نجاحها، ومعه التقارير، ومعه الصور، فحصوه، فكان كلام الطبيب أن هذه الصور ليست لهذا الإنسان ـ قصَّة واقعيَّة ـ قال لهم الطبيب في بريطانيا: هذه الصور وهذه التحاليل ليست لهذا الإنسان، مع أنها له.

فأنت تنادي خالق الكون، أنت تنادي الذي كل شيء بيده؛ نمو الخلية بيده، الدسَّام بيده، لمعة الشريان بيده، العَصب بيده، الخثرة بيده، كله بيده؛ زوجتك بيده، ابنك بيده، أقوى منك بيده، دونك بيده، كله بيده، عندما توحِّد ترتاح.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء الآية: 213]

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

قال تعالى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآيات: 61-62]

الآية التالية آية توحيد :

إذا ورَّط رجلٌ شخصاً بالتهريب، فقبض عليه، أخذوه إلى السجن، كم يحقد على هذا الذي ورطه؟ لا تكن ضحية أحد، لا تكن غلط إنسان، لا تكن سيئة إنسان، لا تكن مجيَّراً لإنسان، أنت لله عزَّ وجلَّ، كن لله وحده. هذه آية توحيد:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ* إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا)

وإذا عاتبه ألم تقل لي أنت؟ يجيبه: أين كان عقلك؟ يشمت فيه أيضاً، الحقيقة موضوع الندم شيء لا يحتمل، إنسان ورَّطك، أوقعك في شر عملك، وتبرأ منك..

(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ* وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ)

قال العلماء: **" الحسرة حينما تقع في مشكلةٍ لا حل لها "**، أما مادام هناك أمل فليس هناك حسرة.

(كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)

لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق :

أيها الأخوة... لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، لا تكن مجيَّراً لإنسان، لا تكن ذَنْبَ إنسان، لا تكن سيِّئة إنسان، لا تكن محسوباً على إنسان، كن لله الواحد القهَّار، أطع ربك ولا تعبأ بأحد، لا تأخذك في الله لومة لائم، ليس إلا الله بيده كل شيء..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية: 123]

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده، وهذا الموقف موقف فيه تخلّي، إنسان اتبعته، وعظَّمته، وعصيت الله من أجله؛ وفي النهاية ما دافع عنك، ولا نجَّاك من عذابٍ مقيم، هذا ألم لا يحتمل.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (55- 95):تفسير الآيات 168-170 ، قضية الحلال والحرام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-09-03

بسم الله الرحمن الرحيم

قضية الحلال والحرام من شأن الله عزَّ وجل لأنه هو الخالق :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الخامس والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثامنة والستين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

أيها الأخوة الكرام... من رحمة الله بخلقه كلِّهم أن خاطب الناس جميعاً، وقد ذكرت لكم في درسٍ سابق أن الله جل جلاله يخاطب المؤمنين تارةً، ويخاطب الناس تارةً أخرى، يخاطب المؤمنين بتفاصيل الشريعة، ويخاطب الناس بأصول الدين، ولكن قضية الحلال والحرام هذه قضيةٌ من شأن الله عزَّ وجل لأنه هو الخالق.

فالإنسان حينما يحكِّم عقله فيما يفعل، وفيما لا يفعل يضل ضلالاً مبيناً، ذلك أن الإنسان قد ينظر إلى الشيء من زاويةٍ واحدةٍ ضيِّقة، وتغيب عنه الزوايا الأخرى، لمَ لا يأكل لحم الخنزير؟ هناك ميزات كثيرة، ينمو سريعاً، يذكر الذين يأكلونه ميزاتٍ كثيرةٍ، وإذا قلت لهم: إن الله حرَّمه، ماذا يقولون؟ لماذا خلقه الله؟ هل كل شيءٍ خلقه الله لتأكله؟ هل كل شيءٍ تشتريه للبيت يُؤكل؟

أحياناً يكون عندك مبيد حشرات هل تشربه؟ مستحيل، فكل حيوانٍ له مهمةٌ أناطه الله بها، فمن هو الذي يعلم العلم اليقيني، ماذا ينفعنا وماذا يضرنا؟ إنه الله عزَّ وجل، والدليل أن كل انحرافٍ عن منهج الله عزَّ وجل يسبِّب أخطاراً جسيمةً.

سبب فساد العالم الآن الخروج عن منهج الله عزَّ وجل :

أضرب لكم بعض الأمثلة: ارتأى مربو الأبقار في بريطانيا أن يطعموها طحين لحم الجيف، طبعاً لحم الجيف يعالج، ويجفف، ويطحن، ويوضع هذا الطحين مع العلف، صمم الله جلَّ جلاله البقرة حيواناً نباتياً؛ يعيش على النبات فقط، ولم يصمِّمها على اللحم، فلما أُطعمتْ طحين اللحم جنَّتْ، لذلك اضطرَّت بريطانيا ـ وهي أكبر دولة تربي الأبقار ـ أن تحرق ثلاثة عشر مليون بقرة، ثمنها ثلاثون مليار جنيه إسترليني، لماذا؟ لأنهم أطعموا البقر وهو حيوان نباتي طحينَ اللحم.

فأي شيءٍ يفعله الإنسان يغير خلق الله عزَّ وجل يدفع ثمنه باهظاً، ولعل الله عزَّ وجل يسمح له أن يمشي خطواتٍ في هذا الطريق ليدفع الثمن باهظاً، الآن سبب فساد العالَم الخروج عن منهج الله عزَّ وجل.

مرَّة قال رئيس أمريكي: هناك خمسة أخطار تهدّد أمريكا ـ فإلى أن ذُكرت هذه الأخطار تصوَّرت الصين، تصورت ألمانيا، تصورت التكتُّل الأوروبي ـ ولكنه ذكر انهيار الأسرة، وشيوع الجريمة، وتفشي المخدرات، الجريمة، والمخدرات، وانهيار الأسرة، لماذا؟ لأنهم خرجوا عن منهج الله عزَّ وجل. شرَّع الله عزَّ وجل الزواج، الآن هناك مساكنة بلا عقد مدني، ولا كَنَسَي، ولا هم يحزنون، امرأةٌ تسكن مع رجل، فإذا ملَّ منها رَكَلَها بقدمه، هم يدفعون الثمن باهظاً.

مرَّةً صدر قانون في إحدى دول شمال إفريقيا يلزم المطلّق أن يدفع لامرأته نصف أملاكه، توقَّف الزواج كلياً، فصار الأب يوقّع سنداً لخاطب ابنته بمبلغ فلكي، ويقول له: إن طلَّقت ابنتنا أبرز هذا السند، كي تنجو من أخذ نصف المال، توقَّف الزواج.

ارتأوا في الصين أن يكون للأسرة ولدٌ واحد قسراً، ما الذي حصل؟ تأتي البنت فتُخْنَق، يأتي الذكر فيسجَّل، الآن يوجد في الصين خمسون مليون شاب بلا زوجة، الآن نشأت عصابات لخطف الفتيات في سن الزواج، عندما يشرِّع الإنسان يرتكب حماقة كبيرة، لأنه ينظر إلى الشيء من زاوية واحدة، أما خالق الكون فهو الخبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر الآية: 14]

صمَّم الخبير هذا الحيوان أن يأكل نباتاً، نحن كافحنا الأوبئة النباتية بمواد كيماوية، إلى أن أصبحت التربة مالحة، إلى أن أصبح النتاج ـ خضار أو فواكه ـ ذو صفات فيزيائيَّة عالية، وصفات كيماوية سيئة جداً؛ بلا طعم، الآن عادوا إلى السماد الطبيعي، وعادوا إلى المكافحة الحيويَّة، أنا الذي أراه أنه كلَّما تقدَّم العلم كشف خطأه، واقترب من الدين، فإلى أن يتطابق العلم مع الدين تطابقاً تاماً تحل مشكلاتنا، أما ما دام الإنسان يتوهَّم أنه مشرِّع؛ يحلِّل ويحرِّم، فالطريق لازال مسدوداً أمام حل مشكلاته.

من ضعف الإيمان أن نضع قضايا التشريع على بساط البحث :

هناك دراسة تؤكِّد أن الإنسان يتطبَّع ببعض طباع الحيوان الذي يأكله، والذين يأكلون لحم الخنزير لهم عادات غريبة جداً، كأن الغيرة نُزعت منهم انتزاعاً، فالله عزَّ وجل حرَّمه، لكن كلَّما ازداد إيمانك يزداد يقينك أن الذي حرَّمه الله ضارٌ بنا.

ذكرت لكم مرَّةً أن نقاشاً جرى بين عالمٍ من مصر وبين إنسان أمريكي أسلم حديثاً، طرح موضوع لحم الخنزير، وبدأ العالِم المصري يحدِّث زميله عن أخطار هذا اللحم، وعن الدودة الشريطيَّة، وعن

تطبُّع الإنسان بطباع الخنزير، وعن وعن، فما كان من هذا المسلم الأمريكي إلا أن قال: يا أستاذ، يا دكتور كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرَّمه، فقط تكفيني هذه، إذا الخبير قال لك: هذا حرام !!!

فالقضية قضية إيمان، كلَّما ازداد إيمانك بالله يزداد تعظيمك لأمره ونهيه، وكلَّما ازداد إجلالك لله يزداد إجلالك لأمره ونهيه، ولكن من ضعف الإيمان أن نضع قضايا التشريع على بساط البحث، مع أن المؤمن الصادق:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

أول إشارة في هذه الآية: الله عزَّ وجل رحيمٌ بخلقه جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم، مهتديهم وضالُّهم، رحيمٌ بخلقه جميعاً، فيا أيها الناس، يا أيها الإنسان من أجل مصلحتك، من أجل سلامتك، من أجل سعادتك افعل ما أحللت وانته عما عنه نهيت..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً)

الحلال الطيِّب، الطيِّب هو الذي تطيب به النفس، الله عزَّ وجل خلق كل شيءٍ على صفةٍ كاملة، فكل إنسان منحرف يفسد طبيعة هذا الشيء، خلق الله المرأة زوجةً، وأماً، وأختاً، وبنتاً، لا يوجد في القاموس عشيقة، لأنك تمتهنها، لأنك تقطف جمالها ثم تلقيها في قارعة الطريق، لأنها تعيش معك وهي ليست مطمئنةً، ليس منها ولد، ليس هناك ولد يرعاها حينما تكبر، فانظر إلى التصميم الإلهي؛ خلق الذكر والأنثى، وخلق نظام الزوجية، فأي علاقةٍ بين الرجل والمرأة خارج نطاق الزوجية فهي علاقة محرَّمة، وعلاقة مُشقية للزوج وللزوجة.

على الإنسان أن يطيع الرحمن لأن كل طاعته لمصلحة هذا الإنسان :

أريد من هذه الآية أن يتضح لكم أنه انطلاقاً من حبك لذاتك، أو بتعبيرٍ أكثر صراحةً انطلاقاً من أنانية الإنسان، يجب أن يطيع الرحمن، لأن كل طاعته لمصلحته..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)

يا من آمنتم بي ويا من لم تؤمنوا بي، خالق الكون يقول لكم:

(كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً)

فالخمرة حرمها الله، والآن العالم الشرقي والغربي مع بعده عن الدين، ومع إنكاره للأديان، ومع كفره بالواحد الديَّان يعود إلى أحكام الدين لا على أنها دين؛ ولكن على أنها نظامٌ ناجح. فالاتحاد السوفيتي قبل أن ينهار حرَّم الخمر، قبل انهياره بعدة سنوات ـ على ما أذكر ـ حُرِمَ الخمر في كل البلاد طولها وعرضها، لماذا؟ لأنهم حسبوا الخسارة التي يدفعها الاتحاد السوفيتي من جرَّاء الخمر أرقاماً فلكيَّة؛ ضعف في الإنتاج، تشتُّت في الأسرة، ضياع في الأموال، حُرِم الخمر، والذي يحصل أن كلا الجهتين ـ شرقاً وغرباً ـ يعودون إلى الدين لا على أنه دين بل على أنه نظامٌ دقيق.

هل تصدقون أن بعض جامعات أمريكا خاصة للطلاب الذكور فقط، وبعضها خاصة للطالبات؟ هناك بلاد تجبر الوالد على تطهير ولده ـ على الختان ـ مع أنها سنةٌ إسلاميةٌ نبويَّة، حينما يكتشف أن سرطان عنق الرحم يكاد يخلو من البلاد الإسلاميَّة بسبب الختان، وكما اكتشف أن هناك أمراضاً علاجها بحركات الصلاة، مرض انقلاب الرحم علاجه بحركاتٍ كالصلاة تماماً، خالق الكون أمرك أن تصلي، خالق الكون أمرك أن تصوم، خالق الكون أمرك أن تحج، أن تغضَّ البصر.

" ألكسي كرين "، هذا مؤلف ألَّف كتاباً شهيراً ـ الإنسان ذلك المجهول ـ اكتشف لا من خلال النص الشرعي بل من خلال التجربة والتأمُّل والتحقق، أن خير نظامٍ للبشرية أن يقصر الرجل طرفه على زوجةٍ واحدة، أي غض البصر، فحينما تكتشف ولكن بعد فوات الأوان أن غض البصر أحد أسباب السعادة الزوجية، وأن الأكل المعتدل أحد أسباب الصحة، وأن التقيُّد بما أحل الله وترك ما حرَّم الله أحد أسباب السلامة، الإنسان عندئذٍ يرى أن هذا الدين لصالحه.

أوامر الدين ضمانٌ لسلامتنا وليست حداً لحريتنا :

أيها الأخوة... لا بد من أن نفهم الأوامر والنواهي على أنها ضمانٌ لسلامتنا؛ وليست حداً لحريَّتنا، لا بد من أن نفهم أوامر الدين على أنها ضمانٌ لسلامتنا وليست حداً لحريتنا، إذا رأيت لوحة في الطريق كُتِبَ عليها **" حقل ألغام ممنوع الاقتراب "**، هل تحقد على من وضع هذه اللوحة؟ أبداً، بل يمتلئ قلبك امتناناً منه، لأنه أراد سلامتك، هنا حقل ألغام لا تقترب، فحينما تفهم أوامر الدين على أنها ضمان لسلامتك وليست حداً لحريتك، عندئذٍ أنت قد فقهت أوامر الله عزَّ وجل.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً)

ماذا يأكل الخنزير؟ يأكل الجرذان، يأكل الجيَف، أكلته المفضَّلة أن يأكل خنزيراً ميِّتاً. نحن لو عقَّمناه، لو وضعناه في مزارع، هناك أخطار كثيرة قد لا ننتبه إليها، ومن يقول: لمَ خلقه الله؟ هذا حيوان له مهمة، حينما تموت دابةٌ في الحقول، وتفوح رائحةٌ منها لا تحتمل، يأتي الخنزير فيأكلها، وكأنه نظَّف هذا الحقل من هذه الجيفة، مهمته أكل الجيَف، فأصبح هذا الحيوان الذي مهمَّته أكل الجيف يُؤكل في بلادٍ طويلةٍ وعريضة..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً)

لا يوجد حرمان في الإسلام.

نسب الحرام للحلال نسبٌ ضئيلة جداً ولابد منها من أجل أن تصل إلى الجنة:

دقّق في قوله تعالى:

(وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

[سورة البقرة الآية: 35]

الشيء المحرَّم نسبته إلى المحلَّل واحد بالمليار، كم نوع لحم مسموح أن تأكله؟ مئات، بل ألوف، حُرِم لحم الخنزير فقط والميتة والدم، كم نوع شراب محللٌ لك أن تشربه؟ مئات، بل عشرات المئات، محرمٌ عليك شرب الخمرة فقط، فنسب الحرام للحلال نسبٌ ضئيلةٌ جداً، ولا بد منها من أجل أن تصل إلى الجنة، لو لم يكن هناك شيء محرَّم لما كانت هناك جنة، كان الله عزَّ وجل قادراً أن لا يخلق خنزيراً ولا خمراً، فبم تدخل الجنة؟ كله مباح، كله حلال، فمن هو المطيع؟ ومن هو العاصي؟ لا جزاء، ولا عقاب من دون منهج، ومن دون تكليف، فلا بد من التكليف، ربنا عزَّ وجل أباح لنا كل الطيبات، وحرَّم علينا الخبائث..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً)

لكن..

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

الشيطان أحياناً يغري بالمعصية، تارةً لأسباب علميَّة ـ هكذا يوهم وليَّه ـ أنه مفيد، إنتاجه غزير، لحمه طري ـ فرضاً ـ دهنه جيد، فهذا من اتباع خطوات الشيطان.

أنا مرَّة ـ القصة لها فائدة ـ كنت عند قريب لي يعمل في إصلاح السيارات، فنزع قطعةً من مكبح المركبة وألقاه، قال: هذه القطعة لا لزوم لها. قلت له: ليس في الإمكان أن أناقشك في هذا الأمر، لأنني لست مختصاً بالميكانيك، ولكنني لا أصدق أن هناك خمسة آلاف مهندس في شركة عريقة جداً عمرها مئة سنة، وأن تكون أنت أفهم من هؤلاء، فأرجعها. استنباط عام، أنا لا أصدق أن مخلوقاً يصيب والتشريع يخطئ، مستحيل وألف مستحيل، الله هو الخبير، هو الخالق.

كلَّما ازداد إيمانك بالله ازداد إيمانك بأحقية تشريعه :

كلَّما ازداد إيمانك بالله ازداد إيمانك بأحقية تشريعه، إذا قال الله لك: غض بصرك، ولو أتى مليون إنسان ليقنعوك أن إطلاق البصر يعمل توازناً، يعمل راحة، يخفِّف الضغط، هذا كلام فارغ، إذا كان خالق الكون يقول لك: غض البصر، لا يوجد مخلوق يمكن أن تصغي إليه، مستحيل، إذا أمرك خالق الكون أن تؤدي الصلوات الخمس، لا يمكن لمخلوق أن يقول لك: الصلوات تضيع الجهد، كلَّما أردنا أن ننتج يأتي فرض الصلاة، قف، أذن، توضأ، ثم صلِّ، هذا كلام فارغ، بهذه الصلوات الخمس تُشحن شحنة روحيةً تعينك على أن تكون على منهج الله قائماً.

عوِّد نفسك أنك إذا آمنت بالله الإيمان الصحيح، لا يمكن أن تقبل من مخلوقٍ كائناً من كان كلاماً يصادم التشريع، مستحيل، هذا التشريع من عند الخالق.

عندك جهاز كمبيوتر أصابه خلل، وبجانب بيتك محلان؛ محل وكالة كمبيوتر وخضري، بائع الخضار صالح جداً، وتحبه كثيراً، هل يمكن أن تدفع هذا الجهاز لصاحب البقالية؟ مستحيل وألف مستحيل، لأن هذا ليس اختصاصه، هذا إنسان بائع جيد، صاحب دين، مستقيم، طليق اللسان، بشوش لكنه ليس مختصاً بهذا الجهاز، أعطِ الجهاز للخبير. وأنت أليس لك خبير؟ أليس لك خالقٌ حكيم؟ لماذا أمرك ونهاك هذا الخالق؟ أليس ليسعدك، ليسلّمك، فالعبرة أنه كلما ازداد إيمان الإنسان بالله ازداد تعظيمه لشرع الله، وذلك حينما تؤمن بأن الله ذو الجلال والإكرام، فكيف تجلُّ الله؟ بإجلال أمره ونهيه..

(وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

[سورة الحج الآية: 30]

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوب)

[سورة الحج الآية: 30]

تعظيم الشعيرة، وتعظيم الحرمات هذا دليل تعظيم الله عزَّ وجل..

ضبط اللسان جزء من الدين :

قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)

كأن الله يريد أن يقول لنا: أنا أطلب كل الناس للهدى، أريد أن أسعد كل الناس، أريد أن أهدي كل الناس..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً)

بالمناسبة أخطر شيء في حياة الإنسان ماذا يدخل إلى هذا الفم وماذا يخرج؟ ماذا يدخل من طعام وماذا يخرج من كلام؟ عدَّ الإمام الغزالي أربعة عشر آفةً من آفات اللسان..

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لا يَرَى بِهَا بَأْساً يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً فِي النَّارِ))

[سنن الترمذي عن أبي هُرَيْرَةَ]

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[مسند أحمد عن أنس بن مالك]

ضبط اللسان جزء من الدين؛ هناك غيبة، ونميمة، وبهتان، وسخرية، ومحاكاة، وتدليس، وكذب، واستهزاء هذه كلها من آفات اللسان، أخطر شيء بالجسم هذا الفم، ماذا يدخل إليه وماذا يخرج منه. قد تطعم نفسك طعاماً حلالاً طيِّباً، لحم ضأنٍ مذبوح وفق الشريعة الإسلاميَّة، تكبيرٌ مع التزكية، ولكنك اشتريت هذا الطعام بمالٍ حرام، فهو حرام..

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

الحرام نوعان؛ حرامٌ لذاته وحرامٌ لغيره :

أخواننا الكرام... هناك نقطة مهمة جداً، هناك حرامٌ لذاته وهناك حرامٌ لغيره. لو أكل الإنسان لحم الخنزير فهذا حرامٌ لذاته، لأن لحم الخنزير محرَّم، أما لو أكل لحم ضأنٍ بمالٍ حرام، فهو حرامٌ لغيره، فأطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة.

أهم شيء أن يكون مالك حلالاً، اكتُسب لا عن طريق الكذب، ولا عن طريق الاحتيال، ولا عن طريق التدليس، ولا عن طريق الاحتكار، ولا عن طريق الإيهام، ولا عن طريق الغش، ولا عن طريق المُخادعة، ولا عن طريق القوة والاغتصاب، ولا عن طريق عملٍ لا يرضي الله عزَّ وجل، لذلك ورد أنه يوم القيامة يحشر الناس أربعة فرقٍ؛ فريق جمع المال من حلال ـ تجارة مشروعة ـ أنفقه في حرام ـ على الموائد الخضراء والليالي الحمراء ـ فيقال: خذوه إلى النار ـ الموضوع سهل جداً، حساب سريع جداً ـ وفريق جمع المال من حرام ـ عنده ملهى ـ أنفقه في حلال ـ تزوج واشترى بيتاً ـ فيقال: خذوه إلى النار ـ طبعاً ومن باب أولى فريقٌ جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، أما الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال ـ هذا يحاسب ـ قفوه فاسألوه؟ هل تاه بماله على عباد الله؟ هل ضيَّع فرض صلاةٍ وهو منشغلٌ بماله؟ هل قال من حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا؟ يقول عليه الصلاة والسلام: **" وما زال يسأل ويُسأل "**، فقضية أن تأكل طعاماً بمالٍ حلال قضية خطيرة جداً..

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

فالعبد يكون:

((وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هل من الممكن أن يكون عملك إصلاح أجهزة بنيت على إفساد الأخلاق؟ ويقول لك: العمل عبادة. من قال هذا؟ أي عمل عبادة!! ولو بعت أجهزةً تفسد الأسر؟! ولو بعت دخاناً؟! ولو بعت شيئاً محرماً؟! من قال لك ذلك؟ أخطر شيء بحياة المؤمن زوجته وعمله، لأنهما ألصق شيءٍ به، فالمؤمن الموفَّق يختار زوجةً صالحة، وعملاً طيباً مشروعاً، وإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك.

الحلال ما كان حلالاً لذاته وحلالاً لغيره أما الحرام ما كان حراماً لذاته وحراماً لغيره :

هنا..

(كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً)

لها معنيان، أن تأكل شيئاً أباحه الله لك فهو حلال لذاته، وأن تأكل شيئاً حلالاً دفعت ثمنه من مالك الحلال، أي لا يكفي أن تأكل تفاحاً، التفاح ليس هناك من يحرِّمه إطلاقاً، أما إذا اشتريت التفاح بمالٍ حرام فمحرمٌ أن تأكله، فالحلال ما كان حلالاً لذاته وحلالاً لغيره، والحرام ما كان حراماً لذاته وحراماً لغيره. ولعل كلمة حرام أنها تحرم الإنسان من السعادة في الدنيا والآخرة، ولعل كلمة حلالاً طيباً أن النفس تحلو به وتطيب..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

كلامٌ دقيق، يقول لك مثلاً: العمل حلال، الشغل عبادة، فإذا كان عمله في دار تطبع كتباً فيها الإلحاد، فيها تزوير الحقائق، يقول لك: هذه دار نشر أنا ليس لي علاقة، هذا الكتاب طبعته أنت، وروَّجته أنت، وبعته أنت، وأفسدت عقائد الناس فكيف ليس لك علاقة؟

أنا أؤجر بيتاً، أنت تؤجره بالليلة بعشرة آلاف علماً أن أجرة أضخم فندق خمسة آلاف بالليلة الواحدة، معنى ذلك أن هناك مشكلة، ليست قضية أناس نائمين فقط، ولكن هناك قضية ثانية، هذا البيت صار بيت دعارة، وتقول: أنا ليس لي علاقة، كلا أنت لك علاقة، فقضية الإنسان أن يتحرى الحلال في دخله، وفي طعامه، وفي شرابه والله لا أبالغ لعل ذلك أربعة أخماس الدين أن يكون مالك حلالاً وطعامك حلالاً.

زرت رجلاً ـ والد صديقي ـ قال لي: أنا عمري ستة وتسعون سنة، أجريت فحصاً كاملاً شاملاً للدم والبول، قال لي: الحمد لله كله طبيعي، ستة وتسعون سنة وكل فحوص الدم صحيحة، طبيعيَّة، كل فحوص البول طبيعية، قال لي: والله لم آكل قرشاً حراماً في حياتي.

الحكمة من جعل الله الحلال صعباً والحرام سهلاً :

دخل رجل إلى بيتي زائراً قال لي: كم تقدِّر عمري؟ قلت له: ستين، قال لي: هو ستة وسبعون، قال لي: والله قوتي كالحصان، بإمكاني أن أهد هذا الحائط ولا أشكو شيئاً ـ مع أنه لا يعتني بصحته إطلاقاً ـ قال لي: أنا عملت في سلك معين، والسلك دقيق جداً، وفيه مزالق دقيقة جداً، عملت في هذا السلك أربعين عاماً، ولم آكل ليرةً واحدةً حراماً، قال لي: أصبت بإصابة كبيرة جداً كادت تودي بحياتي، قلت لربي وأنا مضجع على طاولة العمليات: يا رب إن كنت آذيت لك عبداً من عبيدك واحداً فأمتني وإلا فعالجني يا رب، قال لي: أنقذني الله.

قضية أساسية أن يكون دخلك حلالاً، شيء مهم جداً أن يكون مالك حلالاً، وأن تشتري به طعاماً حلالاً، المال حلال، والطعام حلال..

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

رجل كان يعلّم، فتح مدرسة شرعية، كان يعلم الطلاب، بدأ التعليم بالثامنة عشرة من عمره، واستمر حتى الثامنة والتسعين، علّم ثمانين عاماً، وكان من عادته أنه إذا رأى أحد طلابه في الطريق يقول له: يا بني أنت طالب عندي، يقول له: نعم يا سيدي، وكان أبوك طالباً عندي، يقول له: نعم، وكان جدك طالباً عندي، الأب والابن والجد طلاب هذا الإنسان، علم ثمانين سنة، والذي وصفه تماماً أنه كان منتصب القامة، بصره حاد، سمعه مرهف، أسنانه في فمه. يا سيدي ما هذه الصحة؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

أيها الأخوة كل شيء بثمنه، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، أطب مطعمك تعش حياةً هادئةً طيبةً مباركةً، الحلال قليل، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعل الله الحلال صعباً والحرام سهلاً، وطبعاً كمثل حاد جداً:

الآن هناك صرعة بأمريكا، أن يضع الإنسان آلة تصوير في غرفة نومه، ويعرض نفسه على الإنترنت، دخله في السنة مليونَا دولار، وكذلك تهريب الحشيش غالٍ جداً، إذا أردت أن تلغي القيَم فهناك دخول كبيرة جداً، والحرام سهل، وفير، افتح ملهى، تجد الزبائن ليلاً ونهاراً، والله قال لي شخص: أرباحه رقم فلكي، الشيء المشروع صعب، هذه حكمة أرادها الله، أراد أن يكون الحلال صعباً والحرام سهلاً.

للحلال سعادة وللحرام لذّة آنية تنتهي بكآبة :

ما الذي يحصل لو أن الأمر معكوس؟ لو كان الحرام صعباً والحلال سهلاً، لأقبل الناس جميعاً على الحلال، لا حباً بالحلال، ولا طاعةً للرحمن، ولا خوفاً من النيران، أبداً بل لأنه سهل، لكن ربنا عز وجل فرز الناس، جعل امرأة تخدم في البيوت ثماني ساعات بثلاثمئة ليرة، أما المومس فتأخذها في خمس دقائق، تأخذ خمس آلاف في خمس دقائق، فهناك فرق كبير جداً، لذلك الحلال صعب، والحرام سهل.

قد تشتغل سنة، تشتري بضاعة، وتبيع البضاعة، تجمع ثمن البضاعة، وديون، تربح ما يغطي نفقاتك، وهناك طرائق أخرى غير مشروعة للكسب، تجد ملايين مملينة تأخذها بأشهر، فلحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعل الله الحلال صعباً، وهو وسام شرف، والحرام سهلاً، فإذا اختار الإنسان الطريق الصعب هذا وسام شرف له ليفتخر، لا يقول: رفيقي صار مليونيراً بسنتين!! إذا كان سقط بالمعصية فما قيمة هذه الثروة، أما أنت فمقيم على أمر الله عز وجل.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً)

سبحان الله الحلال معه سعادة، أما الحرام فمعه لذَّة آنية تنتهي بكآبة، لذة متناقصة تنتهي بكآبة، يكون دخل الإنسان كله حلال، بيته متواضع لكن الله عز وجل يضفي على هذا البيت تجلي، سعادة، فيصبح البيت قطعة من الجنة، هو صغير، فرشه متواضع، الأكل درجة خامسة، الثياب قد تكون درجة عاشرة؛ لكن هناك استقامة، والأمر الإلهي مطبق في هذا البيت، الزوجة مؤمنة، الزوج مؤمن، تقام فيه الصلوات، يذكر الله فيه، بربك ألا تعلم أنك قد تكون في مكان متواضع جداً وأنت في قمة السعادة، وقد تكون في مكان فخم جداً وأنت في عذابٍ شديد، هذه قاعدة.. أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً)

زوال الكون أهون على الله من أن تخاف منه ويضيِّعك :

الآن دققوا:

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

أضرب أمثلة: أنت عندك عيال، أيْ: غشَّ الناس، ارتش، اسرقْ، عندك عيال، هل إذا استقمت لا يرزقك الله؟ الله يرزق فقط المنحرف؟ لأنك خفت منه تعيش متسولاً؟ هكذا ظنك بالله عز وجل؟! واللهِ والله لزوال الكون أهون على الله من أن تخاف منه ويضيِّعك، أنت خائف منه، هذه حرام لا أريدها، هذه فيها شبهة لا أريدها، هذه لا ترضي الله، أتصبح وراء الناس!! والذي لم يسأل، ولم يرد، ولم يتَّعظ هو الغني، أهكذا ظنك بالله؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية الآية: 21]

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

[سورة القصص الآية: 57]

هكذا؟ هذا شيء يُطرح كل يوم، إذا لم أعمل هكذا أموت من جوعي، لا إذاً اكذب؛ غش، واكذب، ودلس، أخي إذا أنا لم أكذب لا أعيش كمحام، من قال لك ذلك؟ محام مؤمن لا يتسلم إلا القضية التي فيها ظلم، ويدافع عن المظلوم أيخذله الله عز وجل؟ مستحيل، صار هناك منطق للأحداث غريب جداً، يجب أن تعصي الله.

هناك آلاف الوساوس التي يلقيها الشيطان على الإنسان كي يعصي الله :

يقول لك: أنت عندك أولاد، أو يقول: ضع رأسك بين الرؤوس وقل: يا قطاع الرؤوس، مثلك مثل هؤلاء الناس، فإذا كان كل الناس منحرفين أتنجو أنت؟! إذا انحرف الناس كلهم أخلصتَ أنت؟ لا تخلص، هذه خطوات شيطانية، فلان معه مبلغ، غني، ليس له حاجة. من قال لك هذا؟ الغنى والفقر ليس له علاقة بالحقوق، أدِّ الذي عليك ولو كان غنياً.

أقصد من هذه الكلمة أن هناك آلاف الوساوس التي يلقيها الشيطان على الإنسان كي يعصي الله..

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

كي لا تكسب مالاً حراماً..

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

بعت واحداً بيعة، جاءك بعد دقائق وقال لك: والله ندمت، هل من الممكن أن أرجعها؟ لكنك تجيبه: لا أستطيع، فهذه البيعة تخسر ألف ليرة، لمَ تأكل هذا المال؟ لم يفكر بعد، وهي مازالت بغلافها، لك أن تنفذ البيع، لأن البيع فيه إيجاب وقبول، لعدم وجود الجهالة، ولك أن تقيل عثرته، فمن أقال نادماً بيعته أقال الله عثرته يوم القيامة، أما أن تأخذ ألفاً مقابل إعادتها، ليس لك حق أن تأخذها، وهذه ليس لها وجه شرعي.

يا إخواننا الكرام... رجاءً دققوا آلاف المرات في الكسب، إذا كان الكسب حلالاً يبارك الله عز وجل بهذا الكسب، يبارك به، مبلغ ضئيل تفعل به الشيء الكثير، ولكن والله لا أعلم كيف يتم لا أعلم ذلك؟ تسميها العناية الإلهية المباشرة، قد تجد إنساناً دخله غير معقول، قليل، ولا توجد عنده مشكلة، أموره كلها ميسَّرة؛ آكل، شارب، لابس، نائم، والله ليس معقولاً، هذا اسمه البركة، أتت من القرآن، يقول لك: بارك الله بك، أي أن الله عز وجل يعطيك الكثير من القليل، إذا كان الإنسان حراماً يذهب الله عز وجل ماله بأسبابٍ تافهة، تجد مصادرات، ومخالفات، وأخطاء بسيطة يدفع مبالغ طائلة.

المؤمن الصادق دائماً عنده حساسية للشيطان :

قال تعالى :

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

(عدوٌ مبين)

أي: انتبه لأي وسوسة، حدثني أحد إخواننا الدعاة، كان له والد صالح جداً قال له: يا بني إذا حدثتك نفسك بعمل صالح، أو بإنفاق، ثم جاء الشيطان وقال لك: لا تنفق. عاقبه، قال له: كيف أعاقبه؟ قال له: ادفع الضعف، عاقبه. المؤمن الصادق دائماً عنده حساسية للشيطان، هذا الخاطر شيطاني، هذا

التبرير شيطاني، هذا التعليل شيطاني، هذا التزيين شيطاني، فكثير من الأشخاص يستجيب للشيطان..

(إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ)

يأمركم بشيءٍ يسوؤكم، ويأمركم بشيءٍ يفضحكم..

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

عندنا أخ لديه محل، عين موظفاً حديث عهد بالزواج، له زوجة دنيوية مادية، ضغطت عليه، والراتب لا يكفي، فصار يبيع ويضع المال في جيبه، الأمر سهل، يأتي المعلم الساعة الحادية عشر، يكون قد باع بخمسمئة أو بستمئة وضعها في جيبه، وجد صاحب المحل هناك نقصاً في البضاعة، هناك خلل في المحل، فهذا الأخ كلَّف صديقاً له أن يأتي إلى المحل الساعة العاشرة ويشتري حاجة بألف ليرة، ثم أتى صاحبُ المحل الساعة الحادية عشر، وقال له: يا فلان هل أتى أحد؟ يقول له: أبداً، هل بعت؟ لا، لم أبع، وكان قد اتفق مع صديقه أن يرجع الساعة الثانية عشر ليرجع الحاجة، فجاء: أريد أن أرجعها، قال له: متى أخذتها؟ قال له: اليوم الساعة التاسعة، ما هذا الكلام؟ ألم تقل لم أبع شيئاً؟ انتهى، طرده من العمل، لم يترك واسطة للتوسط له، وأصبح بلا عمل، ماذا قال له الشيطان؟ الآن صاحب المحل لا يدري، ولا يوجد عنده جرد دقيق، وأنت بحاجة، هو حالته المادية جيدة، لكن الله فضحه.

الشيطان دائماً يأمر الإنسان بعملٍ يسوؤه أو يفضحه :

دقق في القصص: تجد إنساناً يمد يده للحرام، يدمره الله، يظن نفسه ذكياً إلى حين، يزوِّر، يزيد صفراً، أو يمحو صفراً، ليدبر حاله، يجمع ثروات طائلة، بعد ذلك، يبطش به، يلقى في السجن، يعذب، فأين المال؟ الشيطان دائماً يأمر الإنسان بعملٍ يسوؤه، أو يفضحه.

(إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ)

مثلاً: هؤلاء الذين أخذوا الصائغ وقتلوه، وأخذوا منه ثلاثة عشر كيلو من الذهب في القلمون، بعد أيام عدة أعدموا جميعاً، فأين المال؟ استرد المال، أعطيكم حالات حادة، هناك حالات أخف، فكل إنسان يستجيب للشيطان يدفعه الله عز وجل الثمن باهظ..

(إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ)

ما يسوؤكم..

(وَالْفَحْشَاءِ)

ما يفضحكم..

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

يقول لك: لا تدقق، لن يحاسبك الله، النبي سيشفع لك، الذين اخترعوا هذه الشفاعة، الشفاعة حق يا أخواننا لكن لها شروط، ولها تعاريف دقيقة، ولها خصائص، أما يفهمها الناس فهماً ساذجاً، فهما سخيفاً جداً: **" ادخل أنت وهو الجنة وخلصونا "**، مهما فعل من كبائر يدخل إلى الجنة بشفاعة النبي، مع أن الله عز وجل يقول:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

[سورة الزمر الآية: 19]

مستحيل..

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

هذه:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

معظم مصائب الناس من اتباع خطوات الشيطان :

إذاً:

(إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ)

ما يسوؤكم..

(وَالْفَحْشَاءِ)

ما يفضحكم..

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

إخواننا الكرام... أريد أن أؤكد لكم أن الشيطان يدخل على بني آدم أو على المؤمن من باب كسب رزقه، فخطواته أن هذه حلال، هذه فيها فتوى، هذه قضية خلافية، هذه بلوى عامة، هذه أنت مضطر، أنت عندك أولاد، هذا غني وليس له حاجة بالمبلغ، لم يدر به فخذه، هذه كلها خطوات الشيطان، فكلما جاء للمؤمن خاطر من هذه الخطرات، ينبغي أن يصدَّه، وأن يقيم الدليل الشرعي على خطأ الشيطان..

(إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

تكاد تكون كل مصائب الناس من اتباع خطوات الشيطان، ادخل إلى السجن، كل هؤلاء المساجين من دون استثناء، أو ما خلا قلة قليلة دخلوا إلى السجن بسبب اتباع خطوات الشيطان، طبعاً الجرائم المدنية، الجرائم العادية، معنى هذا أن الإنسان معرض لوسوسة الشيطان، فإذا اتبعه هلك في الدنيا

والآخرة، فالإنسان يجب أن يكون يقظاً، ينبغي أن يرفض أي خاطر يتناقض مع الكتاب والسنة، ويتناقض مع منهج الله، وأن يكون دقيقاً يقظاً، والمؤمن كيسٌ، فطنٌ، حذر.

التقليد لصالح الإنسان لكن بعد مرحلة معينة ينتهي التقليد ولابدّ من التحقيق :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)

الإنسان مبرمج أن يقلد، لكنه مبرمج أن يقلد لفترة محدودة من حياته، الطفل الصغير يقلّد آباه في مأكله، ومشربه، ومطعمه، حتى أكثر أولاد المؤمنين إذا قام الأب ليصلي يصلي بجانبه، هكذا فُطر الإنسان، والتقليد لصالح الإنسان، لكن بعد مرحلة معينة ينتهي التقليد لا بد من التحقيق.

لذلك: العقيدة الصحيحة لا تقبل إن كانت تقليداً، لا تقبل إلا إن كانت تحقيقاً، فالتقليد مرحلة من مراحل تربية الإنسان، لكن بعد حين الذي يحصل أن هؤلاء الأتباع يقلدون المتبوعين فيما يحلوا لهم، يقول لك: هكذا نشأت أنا. لكن كم من إنسان نشأ في بيئة غير متعلمة وأخذ دكتوراه؟ لماذا لم يقبل بوضع أهله؟ كم من إنسان نشأ في بيئة فقيرة وأصبح مليونيراً؟ لماذا رفض هذا الشاب واقع أهله؟ إذاً هو لا يقلّد، هو في الحقيقة يخط لنفسه منهجاً يراه صحيحاً، أما حينما يدَّعي أنه يقلد أعجبه سلوك آبائه المنحرفين فقلدهم..

(قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

هذا الكلام فيه كذب، أنت في أمور دنياك لا تقلّد، كم إنسان خرج عن نمط أسرته، وعن بيئته، وخطط لنفسه خطاً آخر لأنه يحقق مصالحه، أما حينما يدَّعي أنه يتبع آبائه هو لأنه أَلِفَ هذه المعاصي وراقت له، فادعى أنه يتبع آباءه..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

لأن ما أنزله الله يحوي قيوداً، قيوداً لشهواتهم، هم يحبون التحرر من هذه القيود فيدعون أنهم يتَّبعون..

(مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (56- 95):تفسير الآيات 171-173 ، الاتصال بالله أساس الأمن والسعادة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-09-10

بسم الله الرحمن الرحيم

ضرب المثل طريقة بيانية رائعة :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس السادس والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الواحدة والسبعين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

الله جلَّ جلاله في كتابه الحكيم يضرب المثل، وضرب المثل طريقةٌ بيانيةٌ رائعة، حقيقةٌ مجردة، توضح بمثلٍ حسِّي، حقيقةٌ غائبة تجسَّد بواقع، فالراعي أيها الأخوة الذي يرعى الغنم كيف يحركهم؟ يرفع صوتاً له، لا يتكلم، ثم يتحرك أمامهم باتجاهٍ معين فيتبعونه، فهؤلاء الذين كفروا ما عقلوا، ولا فهموا، ولا أدركوا، ولا بحثوا، ولا حللوا، ولا تأمَّلوا، إنما قلَّدوا، كيف أن الغنم حينما يسمعون صوت راعيهم، صوتاً مبهماً بلا معنى، لا توجد حروف إطلاقاً، حينما يسمعون صوت الراعي ينظرون إليه فيتحرك إلى جهةٍ ما، هو ينبِّههم بصوته ويدعوهم بحركته فيتحركوا، والكافر هذا شأنه؛ شأن البهيمة، يلفت نظره شيء فيتبعه، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا...))

[سنن الترمذي عن حذيفة]

الخط العريض في المجتمع يتَّبع صرعات الموضة تقريباً، فإذا كشف الناس عن عوراتهم تكشف نساؤهم عن عوراتهم، إذا أكل الرجال الربا يأكلون الربا. يقلد أي شيء مستحدث دون أن يعرضه على الشرع، دون أن يعرضه على منظومة القيَم، دون أن يسْأل: هل هذا موافقٌ للدين أو غير موافق؟ هل هذا ينفعني في بيتي، أو يؤذي أولادي في بيتي؟ ما دام الشيء قد شاع إذاً فلا بدَّ أن نقلِّده.

الإنسان غير المؤمن تحركه شهواته :

قال تعالى:

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

أي حركتهم في الحياة حركة تقليدية، حركة بهيمية، حركة غير واعية، حركة جامدة:

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي)

كهذا الذي:

(يَنْعِقُ)

صوت الراعي ينبِّه غنمه، ينعق بمخلوقاتٍ لا تسمع إلا دعاءً ونداءً، تتحرك بنداء تُنادى به، ودعاء إلى جهةٍ تتحرك إليها، لذلك قال تعالى:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

الإنسان غير المؤمن سهل جداً أن تقوده، المحرك له شهواته، كيف أن الثور تلوِّح له بقماشٍ أحمر فيتحرَّك، كذلك الإنسان الشهواني حيثما دغدغت مشاعره، أو دغدغت شهواته يتبعك، وهذا ما يفعله الغرب في العالم الإسلامي، يحارب قيَم المسلمين، يحارب مبادئهم عن طريق الشهوات، يحاربهم عن طريق المرأة؛ إنْ في ثيابها الفاضحة، أو على برامج تبُثُّها هذه المحطات التي تبث السم فيما تبث.

حركة الكافر حركة بهيمية :

قال تعالى:

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

أي في حركتهم في الحياة، أما قضية مبدأ، قضية عقيدة، قضية قيم، قضية منهج إله، قضية هذا يصح أو لا يصح، يجوز أو لا يجوز، ممكن أو غير ممكن، هذه خارج اهتمامه، يهمه فقط ما الذي استجد في الحياة؟ ماذا فعل الناس؟ ما الذي اشتروه من الأجهزة؟ كيف يقيمون حفلاتهم؟ كيف يحتفلون؟ كيف يتحرَّكون؟ كيف يتاجرون؟ بأي طريقٍ يكسبون الأموال؟ قضية حركة ليست مبدئية، حركة مصلحية، حركة شهوانية، حركة عابثة، حركة تقليدية.

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ)

يصدر صوتاً ليَلفت نظر الغنم، أو البهائم، فإذا انتبهوا إليه، تحرك إلى جهةٍ فدعاهم بحركته إلى مكانٍ ما، لا يوجد وعي، ولا إدراك، ولا سؤال، ولا اعتراض، ولا جواب، إنما هي حركة بهيمية.

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

عطَّل أذنه التي خلقها الله له من أجل أن يصغي إلى الحق، فحينما لم يستمع إلى الحق بالتالي لم ينطق بالحق، في الأصل الأصم أبكم، لو أن إنساناً فقد سمعه فقد نطقه، فكل أصمٍ أبكم حكماً، صمٌ أعرضوا عن سماع الحق.

المؤمن له شخصيته وعقيدته ومبادئه وقيمه :

إذا لم يسمع الإنسان الحق، وقلنا له: تكلم. عن أي شيءٍ يتكلم؟ من بعض الأمثلة الموضحة: الإنسان وعاء كوعاء الماء، له فتحة يوضع منها الماء، وله صنبور في الأسفل، ماذا يعطيك هذا الصنبور؟ يعطيك المادة التي وضعت في أعلاه، أنت لا تتكلم إلا بما تتغذى، ما نوع التغذية؟ من نوع التغذية تعرف نوع الكلام.

الإنسان حينما لا يسمع الحق، لم يقرأ كتاب الله، لم يحضر مجلس علم، لم يقرأ سُنَّة رسول الله، لم يقرأ سيرة رسول الله، لم يدرس العلم، إذا تحدث يتحدث عن الاهتمامات التي يهتم لها الناس، والتي تأتيهم عبر الوسائل التي يرونها ويسمعونها، عنده معلومات عن اللاعبين أكثر بكثير عن أصحاب رسول الله، يوجد عنده معلومات عن من يعمل في حقل الفن أضعافاً مضاعفة عن معلوماته عن أبطال المسلمين.

هذا المثل واضحٌ جداً، كتلة بشرية كبيرة بمثابة قطيع الغنم تتحرك بصوتٍ، تنتبه بصوت، وتتبع حركة فقط من دون وعي، هذا طبعاً سلوك قديم وحديث، أحد الشعراء الجاهليون قال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشُد

* * *

أنا مع الناس، هناك من يقول: أنا مع الخط العريض في المجتمع، وهناك أمثلة كثيرة، وهناك توجيهات كثيرة، يجب على المؤمن أن يرفض أن يكون ذائباً في البيئة، المؤمن له شخصيته، له عقيدته، له مبادئه، له قيَمه.

هناك رجل ملحد، يعمل أستاذاً في جامعة سان فرانسيسكو، وهو متفوقٌ في اختصاصه تفوقاً مذهلاً، أسلم، ولقصة إسلامه قصةٌ عجيبة، أن طالبةً مسلمةً دخلت إلى مكتبه في أيام الصيف الحارة، ترتدي حجاباً كاملاً ـ طبعاً هي تحمل دكتوراه في الرياضيات ـ فلما رأى هذا الحجاب المُتعب في الصيف، والنساء في أمريكا شبه عرايا، قال: هذه امرأة عندها قناعات، فلا بدَّ أنها امرأة مقدسة.

قال: انتابتني ثلاثة مشاعر حينما رأيتها، انتابني شعور بقدسية هذه المرأة، وبأنها ذات عقيدة وذات مبدأ، وتمنَّيت أن أقدِّم لها أية خدمة، ويقول: ولم أجرؤ على أنْ أنظر إلى وجهها، ثم عكف من توِّه على قراءة كتب المسلمين، إلى أن أعلن إسلامه، وحينما كنت في أمريكا علمت أنه من أكبر الدعاة هناك، ما الذي لفت نظره؟ هذه المرأة المحجبة.

المؤمن طاقة كبيرة جداً مسخرة في الحق عكس الكافر :

مرةً ـ والشيء بالشيء يذكر ـ كنت مسافراً في رحلة العودة إلى دمشق، رأيت في شارع العدوي في أيام الشتاء الماطرة والباردة، رجلاً يجري في هذا الشارع، مع أن معظم سكان هذه المدينة يتجمعون في هذه الساعة الباردة حول المدافئ، يجلسون على أرائك مريحة، أمام المدافئ يأكلون، لولا أن في عقل هذا الإنسان قناعات بأن الرياضة مهمة جداً لما رأيته يجري في هذا الجو الماطر البارد .

فالإنسان حينما يكون مع المجموع هذه قضية سهلة جداً كقطيع الغنم، أما حينما تكون له قناعة، وله مبدأ، وعنده منظومة قيَم؛ يفعل هذا لأنه حلال، لا يفعل هذا لأنه حرام، لو قطَّعته إرباً إرباً لا يعصي الله عز وجل، يضع أكبر مبلغ تحت قدمه إذا كان فيه شبهة، يعمل عملاً جباراً بلا ثمن، بلا أجرة، ابتغاء مرضاة الله، حالة المؤمن عجيبة، هو طاقة كبيرة جداً مسخرة في الحق، أما الكافر..

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ)

أي هم مخلوقاتٍ لا تتحرك، لا تنتبه إلا لصوت، وليس لكلام، لصوت، تتحرك بالتقليد..

(بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ)

عطلوا آذانهم عن سماع الحق، فلما تعطلت آذانهم عن سماع الحق أصبحوا بكماً في الحق، لا يقدر أن يتكلم، يحدثك عشرة ساعات بأمور التجارة، والبيع، والشراء، وأنواع السيارات وميزاتها، وعن النساء، وعن الأفلام، وعن كل ما يحيط به، أما إذا سألته عن قضيةٍ إيمانية فهو أبكم، عن قضيةٍ في الدين فهو أبكم، عن قضيةٍ في العقيدة فهو أبكم، يتكلم كلاماً في الدين مضحكاً لجهله، هو أصمُّ عن سماع الحق، فلما كان أصمَّ أصبح أبكمَ، ولماذا كان أصمَّ أبكمَ؟ لأنه بالأصل ما عقل شيئاً، لم يستخدم عقله في معرفة الله عز وجل:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران: 190-191]

الإنسان العاقل دائماً يتجاوز السبب الظاهر إلى مسبب الأسباب :

أضرب لكم مثلاً: الزلزال الذي حدث في تركيا، تتحدث الدراسات كلها عن وجود حركة اهتزازية في الطبقة الأرضية، مركزها في المكان الفلاني، خطوط إشعاعها إلى المكان الفلاني، تواتر الهزة ـ فرضاً ـ سبع درجات وأربعة بالعشرة، هذا العدد أو هذا الرقم من شأنه أن يجعل الأبنية كلها قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا.

الآن حدث زلزال في اليونان أيضاً وخلَّف ألفاً وستمئة جريح، وسبعمئة قتيل، وستة عشر ألف مشرد بلا مأوى، والدرجة ست، هذا قبل يومين.

هل تجد إنساناً يدرس هذه الظاهرة من خلال القرآن والسنة؟ الناس دائماً عند السبب العلمي الأرضي فقط؛ أن هذه الزلزلة عبارة عن اضطراب في الطبقات السطحية للأرض، لها مركز، ولها تواتر، ولها إشعاع، أما أن نفهم لماذا؟ ومن هو مسبب هذه الأسباب؟ الله جلَّ جلاله، الإنسان العاقل دائماً يتجاوز الحدث إلى المُحدث، الفعل إلى الفاعل، السبب الظاهر إلى السبب الحقيقي، إلى مسبب الأسباب، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

[سورة هود: 117].

هذا كلام خالق الكون، قد يقول أحدكم: لماذا لم يجعل هذا الزلزال في فرنسا؟ الجواب أننا في دار ابتلاء، لا دار جزاء، فربنا عز وجل يعاقب بعض المنحرفين ردعاً للباقين، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين، أما الحساب الكامل يوم القيامة. قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

[سورة الإسراء: 58]

إذاً عندما نسمع عن زلزال، عن فيضان، عن إعصار، عن جفاف ـ نحن في جفافٍ شديد الآن ـ عن اضطراب، عن اجتياح، يجب أن تتخطى الحدث الظاهر وما يقال عنه، وما يقال عن أسبابه المباشرة إلى أبعاده الحقيقة، إلى أن الله عز وجل هو الذي قدَّره، وهو الذي سمح به، وهو الذي أجراه، لحكمةٍ بالغةٍ بالغة.

على الإنسان أن يفسر كل شيء تفسيراً توحيدياً :

يا أيها الأخوة الكرام... يجب أن نفسر كل شيء تفسيراً توحيدياً، هناك من يشمئز إذا عزيت الأمر إلى الله، لا ترتاح نفسه إلا إذا فسَّرت الأمر تفسيراً قريباً، تفسيراً مادياً، تفسيراً مباشراً، أما إذا تعمَّقت في التفسير ينزعج..

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ)

[سورة الزمر: 45]

يشمئزون، أما العبرة..

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

[سورة الأنعام: 65]

تشبيه الله عز وجل الذين كفروا بالبهائم :

لا تقنع بتفسيراتٍ ساذجة، ولا تقنع بتفسيراتٍ مباشرة، ولا تقنع بتفسيراتٍ قريبة، ابحث عن تفسيرٍ بعيد، ابحث عن مسبب الأسباب، ابحث لماذا سمح الله للأرض أن تتزلزل؟ لماذا سمح للمطر أن ينقطع؟ أن تجف الآبار؟ لماذا سمح لهذه الحشرة أن تأكل كل المحصول؟ لماذا سمح لهذه الرياح أن تدمِّر ولايةً بأكملها، وأن تكون الخسائر رقماً فلكياً؟ لماذا؟

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

[سورة هود: 117]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30].

إذاً هؤلاء الذين كفروا، الذين يتحركون بصوتٍ ويسرعون في حركة بلا فهم، ولا عقل، ولا عقيدة، ولا مبادئ، ولا قيَم، ولا أهداف واضحة هم كالبهائم، والله عز وجل يقول:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً).

[سورة الفرقان: 44]

لأنهم مكلفون، والأنعام غير مكلفة:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

[سورة الجمعة: 5].

هناك أمثلة كثيرة شبّه الله عز وجل الكافرين بالأنعام، شبَّههم بالحمير، شبههم بالكلب:

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث)

[سورة الأعراف: 176].

وشبههم بأنهم خشبٌ مسنَّدة وهذا أبلغ تشبيه، جماد.

المؤمن يتبع تعليمات الصانع :

(صمٌ) عطلوا آذانهم عن سماع الحق، وبالتالي أصبح لسانهم لا ينطق إلا بالباطل، وبالأصل هم لا يعقلون، ما استخدموا هذا العقل الذي أكرم الله به الإنسان، والذي جعله أداة معرفة الله، ما استخدمه لمعرفة الله؛ استخدمه للإيقاع بين الناس، استخدمه لجمع المال الحرام، استخدمه للإفساد في الأرض، الإنسان معه عقل، والعقل قوة كبيرة جداً، بل إن العقل أعقد شيءٍ خلقه الله عز وجل، وأثمن هديةٍ منحها الله للإنسان.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

أي أن المؤمن يتبع تعليمات الصانع، يأكل مما سمح الله به، ولولا هذه المحرمات لما كان هناك جنَّات أساساً، لا بد من شيءٍ محرم حتى يمتحن الله عباده الذين وقفوا عند الحدود من الذين تجاوزوا الحدود، فـ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بالله، أنتم بعقدٍ إيماني مع الله، أنتم تعلمون أن الله هو الخبير، هو الكبير، هو العليم، هو القدير، هو الحكيم، هو الغني، هو الرحيم وإليه المصير.

الكافر مع النعمة والمؤمن مع المُنعم:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ)

كلوا شيئاً تطيب به نفوسكم، تطيب به نفوسكم بمعنيين، الجسم يتقوَّى بهذا الطعام على طاعة الله، والنفس تطمئن إلى أنه طعامٌ حلال، حينما يفعل الإنسان الحلال يرتاح، لو تكلَّم الإنسان مع فتاةٍ في الطريق لا تحل له، يسقط من عين الله، أما لو تزوج فلا شيء عليه، شيء طبيعي، الزواج سنة وفق منهج الله، فلذلك:

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ)

اشكروا الله: الكافر مع النعمة، والمؤمن مع المُنعم، الكافر مع النعمة يتفنن في التمتُّع بها، يستغلها أدق استغلال، ولكنه كافرٌ بالمُنعم، أما المؤمن مع المنعم. لو أجريت موازنة حادة: إنسان يتمتع بأعلى درجات الصحة، لكنه مقطوع عن الله، وإنسان يعاني من أشد الأمراض لكنه متصلٌ بالله، أيهما أسعد؟ هذا الذي يتمتع بالصحة مع النعمة، أما هذا الذي ابتلاه الله بهذا المرض فهو رقيق القلب متصلٌ بالله منيبٌ إليه، مع المنعم، وشتان بين أن تكون مع مخلوقٍ، وبين أن تكون مع خالق.

الذي يتمتَّع بأعلى درجة من الغنى وهو مقطوعٌ عن الله، هذا مع النعمة، مع المال، والذي يعاني مع ضيق ذات اليد ولكنه متصل بالله هذا مع المُنعم، وفرقٌ كبير بين أن تكون مع مخلوقٍ محدود، وبين أن تكون مع الخالق، فمثلاً: إنسان معه ألف ليرة، وطفل صغير ليس معه ولا درهم، لكنه ابن أكبر غني بالعالم، ولو طلب هذا الابن من أبيه ملايين مُملينة لأعطاه إيَّاها، ولكن بالمقياس المادي هذا في جيبه ألف ليرة، وهذا ليس في جيبه شيء، من هو الغني؟ الطفل هو الغني، غنيٌ بغنى أبيه. فالإنسان المؤمن قد لا يملك شيئاً يلفت النظر، ولكنه مع الله، هو مع الغني، هو مع القوي، هو مع المُهيمن، هو مع من إليه المصير، هو موعود بجنة، فبين أن تكون مع النعمة، وبين أن تكون مع المُنعم فرق كبير، ولا أقول مستحيل أن تجتمعا، لكن لحكمةٍ أرادها الله، المُترف دائماً بعيد عن الله. هناك ثماني آيات في كتاب الله تؤكِّد أن المترف كافر، المترف، ليس هو الذي يأخذ هذه النعمة،

ويشكر الله عليها، ولكن هو الذي يأخذها ليعلو بها على الناس، ليتباهى بها، ليكسِر قلوب الآخرين، زهواً، وإعجاباً، وغطرسةً، نقول: هذا مع النعمة الفانية، وذاك مع المُنعم الباقي، فكن مع المنعم وإن كانت بين يديك نعمة فهذا خير، لكن الشيء الدقيق والثابت أن تكون مع المُنعم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

إن كنت تعبده فاشكره، فإن لم تشكره فكأنك لا تعبده، من لوازم العبادة الشكر، لذلك تعريف العبادة: غاية الخضوع مع غاية الحب.

الحكمة من تحريم الميتة :

قال تعالى:

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة... الشيء الذي تعرفونه هو أن هذه الأنعام التي نأكل منها، تشبه الإنسان في أجهزتها وفي أعضائها؛ فيها دم، والدم سائل يحمل فضلات الاحتراق ويحمل الغذاء، فالدم الأحمر القاني الذي يأتي من الشريان الأبهر، هذا يغذِّي كل الخلايا في الجسم، تتم بالخلية عملية احتراق ينشأ عنها الطاقة، هذه العملية لها فضلات هي حمض اللبن، فضلات احتراق المواد السُكرية ضمن الخلية هي لتشكيل طاقة تصب في الدم، فيكون دم الأوردة أزرقاً، دم الوريد أرزق، يحوي مخلَّفات احتراق المواد السكرية ضمن الخلية، وفضلات أخرى. هذا الدم يصفى عبر عدة أجهزة، يصفى عبر الرئتين، فغاز الفحم الذي في الدم والذي هو من نواتج الاحتراق، يطرح عن طريق التنفس، عن طريق الزفير في الرئتين، والفضلات السائلة كحمض اللبن تطرح عن طريق الكليتين، وأجهزة التعرُّق أيضاً تطرح عن طريق التعرق بعض الفضلات.

فالدم يصفى عبر الرئتين، وعبر الكليتين، وعبر غدد التعرق التي هي منتشرة على سطح الجلد، لذلك الدم وهو يجري في الأوردة والشرايين طاهر، وحينما يحرَّم يوصف بأنه (دماً مسفوحاً)، الدم حينما يسفح يكون محرَّماً لأنه فيه جراثيم، يعد الدم الآن أكبر وسط لنمو الجراثيم، بل إن مزارع الجراثيم في المخابر تستخدم الدم، فالدم فيه مجمعٌ لفضلات الجسم، فيه نواتج احتراق الجسم، فيه عوامل المرض في الجسم، فيه الجراثيم، كل شيء مؤذٍ في الدم ـ طبعاً قبل أن يصفَّى ـ فالحيوان إما أن يموت إزهاقاً، نذبحه فيخرج الدم منه، أو أن يموت حتف أنفه، إذا مات حتفاً بقي دمه فيه، فأكله محرم، لأن الدم فيه كل فضلات الحيوان، فيه كل عوامل المرض، فيه كل الجراثيم، فيه كل الأوساط التي تنمو بها الجراثيم.

يصعقون في بعض البلاد الدابة ولا يذبحونها، قد يزيد وزنها اثنين كيلو أو أكثر، أو خمسة كيلو إذا كانت دابة كبيرة، ولكن لحمها يكون أزرقاً لا يمكن أن تقبل عليه آكلاً، فربنا عز وجل حرَّم الميتة.

الحكمة من ذبح الدابة مع إبقاء الرأس في الذبيحة موصولاً بالجسم :

عندنا الآن قضية لغوية، قال تعالى:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

[سورة الزمر: 30]

الميت هو الذي سيموت، يخاطب الله النبي صلى الله عليه وسلم فيقول:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

فالميت ليس الذي مات، هو الذي سيموت، محكومٌ عليه بالموت، ونحن كلنا ميِّتون، بمعنى لا بد أن نموت: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ). ما هو الذبح؟ الذبح إخراج الدم كله من الحيوان، ولحكمةٍ أرادها الله هذا القلب الذي ينبض وينقل الدم إلى كل أنحاء الجسم، تصبح له بعد الذبح مهمة معاكسة، فتكون مهمته إخراج الدم خارج الدابة، القلب ينبض ثمانين نبضة، بالمناسبة القلب مضخة تتلقى تنبيهاً كهربائياً، وهذه لحكمةٍ بالغة، من مركز كهربائيٍ ذاتي، كيف أن مستشفى فيها عمليات جراحة قلب، مستحيل أن يكون كهرباؤها من الشبكة، مريض، مفتوح قلبه، انقطعت الكهرباء، فمعنى ذلك موت المريض، فلا بد من أن تكون كهرباء المستشفى من مولّد ذاتي، وهذا في كل المستشفيات، كذلك القلب لأنه أخطر عضو، مستحيل أن يتلقى تنبيه من شبكة الكهرباء العامة في الجسم، لا بد له من مولّد ذاتي يعطيه الإشارة.

للقلب ثلاثة مولدات، مولد كبير أساسي، لو تعطل يعمل الاحتياط، لو تعطل الاحتياط يعمل الاحتياط الثاني، ثلاثة مولدات، إلا أن هذه المراكز الكهربائية الذاتية تعطي الضربات النظامية فقط ـ ثمانين ضربة فقط ـ أما إذا واجه إنسان عدواً مخيفاً، أو واجه وحشاً مفترساً، أو صعد جبلاً، يجب على القلب أن يعمل جهداً إضافياً، فترتفع ضربات القلب إلى مئة وثلاثين ضربة، لا عن طريق المركز الذاتي، ولكن عن طريق أمر يأتي عن طريق الدماغ.

نهانا النبي عليه الصلاة والسلام عن قطع رأس الدابة، علماً أنه لا في عصره، ولا في كل مراكز العلم في عصره، ولا بعد ألفٍ وثلاثمئةٍ عامٍ في العالم كله كان بإمكان أي جهة علمية أن تكتشف حكمة النبي من أمره بعدم قطع الرأس، أما الآن كُشِفت، حينما لا تقطع رأس الدابة يبقى الأمر الاستثنائي موجوداً، فإذا ذبحت الدابة، نبض قلبها مئة وثمانين نبضة، هذه المئة والثمانون كافية لإخراج الدم خارج الجسم، تجد لون الغنم المذبوح وفق الشريعة الإسلامية وردياً، كالورد تماماً، لأن الدم خرج.

حرم الله تعالى الميتة لأن دمها فيها :

إذاً أيها الأخوة الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام ليس من عنده قطعاً، ولا من ثقافته، ولا من اجتهاده، إنما هو وحيٌ يوحى، قضية إبقاء الرأس في الذبيحة موصولاً بالجسم، هذه قضية لم يكشف أحد حكمتها إلا الآن، ما دام هناك اتصال بين الرأس وبين الجسم، معناها أن الأمر الاستثنائي يأتي إلى القلب برفع نبضاته من ثمانين إلى مئة وثمانين، عندئذٍ يمكن أن يضخ القلب كل دم الدابة إلى خارج الدابة، هذه هي التزكية التي أمر بها النبي عليه الصلاة والسلام، الدم إذن سائل إذا خرج من أوعيته أصبح سائلاً فاسداً، صار دماً مسفوحاً..

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ)

حرم الميتة لأن دمها فيها، أجهزتها بعد الموت معطلة، لماذا دم الإنسان طاهر؟ ما دام حياً هناك تصفية، في الرئتين، والكليتين، والتعرُّق، لكن بعد الموت تتوقف التصفية، صار الدم فاسداً، فالذبيحة حرام أن تؤكل، هذه التي ماتت حتف أنفها، أما التي ماتت إزهاقاً، هذه يجوز أكلها، لأننا ذبحناها، وأخرجنا الدم منها. ولكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ))

[ابن ماجة عن عبد الله بن عمر]

الحقيقة أن هذا تخصيص نبوي لحكم قرآني عام، التقيت مع طبيب قال لي هذه الحقيقة، وهي شيء مدهش، حينما يصطاد الصياد السمك ينتقل كل دمه إلى الغلاصم، وكأنك ذبحته، لذلك الخبراء بشراء السمك يفتحون غلاصم السمكة، فإذا كان متورداً، معناها أنها صيدت حديثاً، أما إذا كان لونه متغيراً، معناها مضى وقت طويل على اصطيادها.

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ)

هذه حكمة التحريم، والدم من باب أولى، الميتة محرمة لوجود دم فيها، فالدم من باب أولى أنه محرم، لذلك الآن يقول لك: عندنا علف حيواني مستورد، دم مجفف تأكله الدواجن، أطعموا البقر طحين اللحم فجن، لأنها تأكل أكلاً غير شرعي، يطعمونها دماً مجففاً، والدم محرم أكله، والنقطة الدقيقة أن طعام طحين اللحم هو طحين لحم جيَف، طبعاً الإنسان محرم أن يأكل الميتة، لكن يبدو من خلال جنون البقر، أنه حتى الحيوان يتأذَّى من أكل طحين لحم الجيف، لذلك جن، وقالوا: جنون البقر أساسه جنون البشر.

الإنسان يتأثَّر بطباع الحيوان المأكول :

قال تعالى:

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ)

لا يوجد إنسان لديه مكنسة بالبيت يكنس بها فرضاً دورات المياه، ويأكل هذه المكنسة، مستحيل، هذا الحيوان مهمته أكل الجيف في الفلوات، الجيفة لها رائحة لا تقابل، مهمة هذا الحيوان أكل الجيف.

قرأت بحثاً عن هذا الخنزير، أطيب طعام له أن يأكل الجرذان، إذا كان في مزرعة خنازير جرذان، لا يبقى ولا جرذ حي، تأكله الخنازير، وأطيب طعام يأكله الخنزير لحم خنزير متفسِّخ، الخنزير مغرم بالجيف وبالفطايس، وسبحان الله لحم الخنزير أول لحم يؤكل في العالم الغربي، إضافةً إلى أن الإنسان يتأثَّر بطباع الحيوان المأكول، على كلٍ:

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ)

إذا قلنا: فلان هلل، أي قال: الله أكبر، رفع صوته بالتكبير، أهل الغلام إذا صاح حينما خرج من بطن أمه، فلما صاح كسب الميراث، لو صاح ومات، وكان الأب معه ألف مليون يأخذهم كلهم، يموت يأخذهم ورثته، الصيحة علامة حياته، أهل الغلام أي صاح، الآن إذا ذبحنا خروفاً ولم نعظم المُنعم، عظَّمنا جهة غير المنعم، قال: هذا الطعام يجب أن لا يؤكل، أي أنك يجب أن لا تعظم إلا الله عز وجل.

الأولويات في حياة الإنسان الحياة ثم الصحة :

قال تعالى:

(أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ)

فالإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِناً وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ))

[الترمذي عن أبي سعيد]

أي ينبغي ألا تحضر وليمة لم يرد بها وجه الله، هذا طعامٌ أُهل به لغير الله، تعظيم الأشخاص والشرك بالله هذا لا يجوز، قال:

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ)

هناك مناقشة دقيقة الآن ـ هذا كلام خالق الكون ـ لو أنا لم أجد طعاماً، وأنا على وشك الموت، الأولى أن أموت أم آكل طعاماً محرَّماً بكمية قليلة تبقي لي الحياة؟ الأصح أنه يمكن للإنسان عند

الضرورة أن يأكل لحم الخنزير، لأن الأولويات في حياته حياته أولاً، ثم صحته ثانياً، فليس من المعقول أن نضحي بالحياة من أجل الصحة، لذلك قال تعالى وهو المشرع:

(فَمَنِ اضْطُرَّ)

أي على وشك الموت، بقي بينه وبين الموت دقائق، يمكن أن يأكل لحم الخنزير.

الضرورة تقدَّر بقدرها :

قال تعالى:

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ)

معنى بغى أي تجاوز الحد، فإذا كان يكفيه لقمتين كي لا يموت يجب أن لا يأكل ثلاثة، الضرورة تقدَّر بقدرها، الحد الأدنى، لو أن إنساناً كاد يموت اختناقاً، يحتاج إلى شيءٍ يشربه، ولم يجد إلا كأس خمر، بإمكانه أن يجرع جرعةً لئلا يموت، هذا معنى:

(فَمَنِ اضْطُرَّ)

الضرورة المفضية إلى الموت، حينما تكون على وشك الموت لك أن تأكل لحم الخنزير، ولك أن تشرب الخمر، لكن بكميةٍ تبقي على حياتك، قال:

(وَلَا عَادٍ)

عادٍ هنا أي معتدٍ، لو فرضنا وجود كأس ماء مِلك إنسان، وأصاب اثنين حالة تقتضي أن يجرع جرعة واحدة، وفي الكأس جرعة واحدة، أنا لا أقدر أن أموت إنساناً لكي أعيش، فإذا كنت أخذت منه جرعة، وأنا استخدمتها، أنا الحقيقة حافظت على حياتي، لكن بنيت حياتي على موت آخر، ولا معتدٍ.

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ)

عادٍ بمعنى معتدٍ.

(فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)

الله تعالى غفور لمن يرتكب ذنباً بلا عذر فمن باب أولى أن يغفر لمن ارتكب ذنباً بعذر :

قال تعالى:

(فَمَنِ اضْطُرَّ)

الضرورة القصوى التي تفضي إلى الهلاك..

(غَيْرَ بَاغٍ)

غير متجاوز الحد القليل..

(وَلَا عَادٍ)

ولا بنى شيء على اعتداء، أي إذا كان هناك جرعة ماء تكفي لإنقاذ إنسان، وإنسان يملك هذه الجرعة، وهناك إنسان آخر بحاجة لها، لا يجوز أن يأخذها منه، يميته حتى يحيا هو، هذه ليست واردة إطلاقاً.

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

طبعاً، الله عز وجل غفور لمن يذنب، لمن يرتكب الذنب بلا ضرورة غفور رحيم، فكيف بإنسان أكل شيئاً محرَّماً ليحفظ حياته؟ فالله غفور من باب أولى، غفور بمن يرتكب ذنباً بلا عذر، ومع ذلك فهو غفور رحيم، فكيف بربنا جل جلاله إذا شرب إنسان لضرورةٍ قصوى جرعةً من الخمر كي يحافظ على حياته؟ فإن الله عز وجل لهذا أيضاً غفور رحيم من باب أولى.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (57- 95):تفسير 57 الآيات 174-176، الأحكام الشرعية ضمان لسلامتنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-09-17

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جل جلاله أنزل تشريعاً ومنهجاً على رُسُله ليضبط حركة الناس في الحياة :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الرابعة والسبعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام.. الله جل جلاله أنزل تشريعاً ومنهجاً على رُسُله ليضبط حركة الناس في الحياة، لأن الناس كائناتٌ أودعت فيهم الشهوات، بمقتضى هذه الشهوات يتحركون، الدافع إلى الطعام والشراب يدفع الإنسان إلى العمل، ليشتري بأجرته طعاماً يأكله هو وأولاده، وهذا من أجل الحفاظ على بقاء الفرد، والدافع إلى الجنس يقتضي أن يحافظ الإنسان به على النوع، وهذا يقتضي شراء بيت، وتأثيث البيت، وخطبة فتاة، والاقتران بها، وإنجاب الأولاد، هذه الدوافع الأصيلة في الإنسان تدفع الإنسان إلى الحركة، حركة الناس في الحياة.

انظر إلى طريقٍ مزدحمٍ بالمارَّة والسيارات، كل إنسانٍ يسعى إلى هدف، هذه حركة، لولا هذه الدوافع التي أودعها الله في الإنسان لما رأيت حركةً في الحياة، حركة الناس في الحياة، هذه الحركة جاء منهج الله ليضبطها، ليجعلها في صالح الإنسان في دنياه وفي أخراه.

الأحكام الشرعية ضمان لسلامة الناس :

أيها الأخوة... الإنسان محكوم في هذه الدنيا بأحكام شرعية، كل شيء له حكم شرعي؛ هذا حلال، هذا مباح، هذا حرام، هذا مكروه، هذا مكروه تنزيهاً، هذا مكروه تحريماً، هذه سنة، هذه سنة مؤكدة، هذا واجب، هذا فرض، أي شيءٍ يمكن أن تتحرك من خلاله، له حكمٌ شرعي، لماذا جاء الشرع؟ جاء ليضبط حركة الإنسان في الحياة، ليأمره أن يفعل وألا يفعل، إن أمره ألا يفعل ينبغي ألا يتوهم الإنسان أن هذا النهي قيدٌ لحريته، إنما هو ضمانٌ لسلامته.

فإذا حرم الله على الإنسان أن يسرق، قد يتصور أن هذا قيد، أنت محرمٌ عليك أن تسرق، ومحرمٌ على ألف مليون أن يسرقوا منك، لصالح من؟ محرمٌ عليك أن تفعل الفاحشة، ومحرمٌ على ألف

مليون أن يفعلوا مع من يلوذوا بك الفاحشة، هذا الشرع لكل المؤمنين، بالأصل لكل الناس كافةً لضبط حركتهم في الحياة، حينما تتوهم أن هذا الشرع قيدٌ لحريتك فأنت لا تعرف شيئاً، إنما هو ضمانٌ لسلامتك، وإذا منعك من شيء منع كل الناس من هذا الشيء ضماناً لمصالحك، وضماناً لحريتك، وضماناً لكرامتك.

إذاً هذا المنهج هو الذي يسعد الناس في الدنيا ويسعدهم في الآخرة، منهج الله، الأمر والنهي، ويسبقه معرفة الله، هذا الذي يكتم هذا المنهج عن الناس، أو يشوِّهه، أو يزوِّره، أو يختلق منهجاً ويعزوه إلى منهج السماء، ماذا فعل؟ هذا أفسد على الناس طريق سلامتهم وسعادتهم، فأن تكتم الحق هذه جريمة كبيرة، لأنك إن كتمت الحق أشقيت الناس، الإنسان لا يسعد إلا إذا طبق منهج الله. لا يسعد، والأدق من ذلك لا يسلم ولا يسعد إلا إذا طبق منهج الله، فإذا أغفلت هذا المنهج، أو كتمته، أو عتَّمت عليه، أو شوَّهته، أو زوَّرته، أو أدخلت فيه ما ليس منه، أو حذفت منه، ماذا فعلت؟ هذه جريمة.

لذلك هذا المنهج من يقيِّم ثمنه الحقيقي؟ واضعه، الذي أنزل هذا المنهج هو الذي يقيِّم ثمنه، ثمنه الجنة، هذا الثمن أبدي، هذا الثمن مستمر، هذا الثمن تصاعدي، أما هذا الذي يكتم المنهج ليأخذ بهذا الكتمان ثمناً قليلاً، بخساً، آنياً، منقطعاً، هو أكبر خاسر.

تطبيق منهج الله ثمنه الجنة وهذا هو الثمن الذي وضعه الله لمن يطبِّقه :

لو فرضنا أن معملاً فيه ألف عامل، وفيه تعليمات دقيقة، قد يكون معملاً كيميائياً، أو معملاً إلكترونياً فيه طاقة عالية جداً، وفيه تعليمات دقيقة جداً لسلامة العمال، ولنجاحهم في عملهم، فلو أن أحد الموظفين كتم هذه التعليمات، فحصل انفجار أودى بثلثي عمال هذا المعمل، هذه أكبر جريمة. هذا المثل يمكن أن يوسَّع:

هذا الذي يكتم ما أنزل الله، يعتِّم، يزوِّر، يدخل ما ليس فيه، يحذف منه ما هو أساسي، شوَّه هذا المنهج، لم يعُد صالحاً لسلامة الناس ولا لسعادتهم، كفر الناس به، ابتعدوا عنه، أجرم بحق هؤلاء جميعاً. فلذلك تطبيق هذا المنهج ثمنه الجنة، وهذا هو الثمن الذي وضعه الله لمن يطبِّقه.

الآن قد يخطر في بال إنسان أن يفتي فتوى يرضي بها بعض الأغنياء، سيعطونه مبلغاً كبيراً، أو مكانةً عاليةً، أو يهدونه شيئاً ثميناً، هو بقصور عقله توهَّم أن هذه المرتبة تساوي هذه الفتوى بثمن، ماذا فعل هذا الإنسان؟ اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، لذلك قال الله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)

لماذا هم يكتمون؟ من أجل عرضٍ من الدنيا قليل:

((الدنيا تغر وتضر وتمر))

[الجامع الصغير عن عمرو بن مُرَّة]

الدنيا زائلة، الدنيا منقطعة، الدنيا فانية، فهذا الذي أخذ ثمناً بخساً؛ مالاً، أو مكانةً، أو هديةً، وكتم ما أنزل الله، أي أفتى بخلاف ما يعلم، لا أقول أفتى بلا علم، هذا الآخر له حساب آخر، ولكنه أفتى بخلاف ما يعلم، هو يعلم الحقيقة، ويعلم الحكم الشرعي، ويعلم المنهج الصحيح، لكنه كتم هذا المنهج مقابل ثمنٍ بخسٍ في الدنيا، وهذا المنهج ثمنه الجنة، ثمنه جنةٌ عرضها السماوات والأرض خالدين فيها أبداً، ثمنه سعادةٌ أبديةٌ مستمرةٌ متناهية، فهو قبض ثمناً بخساً مقابل كتمان هذا المنهج.

الآية التالية تنطبق على من سكت عن الحق حفاظاً على مكاسبه الدنيوية :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ)

اليهود كتموا صفات النبي التي في توراتهم عن مشركي مكة وعن مشركي العرب:

(حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ)

[سورة البقرة الآية : 109]

بغياً وحسداً، من أجل أن تبقى لهم زعامتهم، ومكانتهم، ورئاستهم فكتموا هذا المنهج، وأي إنسان حفاظاً على مكاسبه الدنيوية سكت عن الحق، هذا تنطبق عليه هذه الآية، حفاظاً على مكانته، حفاظاً على مكاسبه، حفاظاً على ميزاتٍ حصَّلها بجهدٍ جهيد، فكتم الحق ونطق بالباطل إرضاءً لقويّ، هذا تنطبق عليه هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ)

بهذا الكتمان..

(وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

خالق السماوات والأرض قال: هذا ثمن قليل، فمثلاً لو كان عندك قطعة ألماس، أنا شاهدت قطعة في متحف باسطنبول قطعة ألماس ثمنها مئة وخمسون مليون دولار، هي أضخم قطعة ألماس في العالم فيما كُتِبَ عنها، لكن لو أن إنسانًا باعها بمئة ليرة، ألم يبعها بثمنٍ بخس؟! والأمر أبلغ من ذلك، سعادة أبدية باعها ببيت، باعها بمنصب، باعها بسيارة.

المكسب الذي يربحه الإنسان من كتمان العلم مآله النار :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ)

الإنسان حاجته للثمن في الدرجة الأولى ليشتري به الطعام والشراب، الحاجة الأولى هي الطعام والشراب ـ الجنس تأتي بعدها ـ ليشتري به طعاماً، هذا الطعام الذي اشتراه به، الذي دفع ثمنه، هذا

المكسب الذي جاءه من كتمان العلم، قال: هذا الطعام كأنه نارٌ تحرقه، فهو في الحال طعام أما في المآل نار.

لو أن إنساناً غشَّ المسلمين ببضاعةٍ، عنده معمل أغذية وغشَّهم في هذه الأغذية، وغشَّهم بشكلٍ مؤذٍ، وحقق أرباحاً طائلة، واشترى مثلاً مزرعة، ومسبحاً، وبيتاً جميلاً، هذا الذي اشتراه هو في الحال مزرعة، أما في المآل فجهنم ـ كلام دقيق ـ في الحال طعام أكله، إذا كان لشخص دخل حرام قد يشتري أطيب الطعام، وقد يسكن أجمل بيت، وقد يركب أجمل مركبة، لكن هذا الشيء حالياً طعام، وبيت، ومركبة، أما مآلاً فنارٌ تحرقه..

(أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ)

هذا والله كلامٌ مخيف، فقبل أن تقف موقفاً، قبل أن توافق، قبل أن ترفض، قبل أن تداهن، قبل أن تبتسم، قبل أن تنافق، قبل أن تقول كلاماً لست مقتنعًا به إطلاقاً، عد للمليون، لأن هذا الموقف سُجِّل عليك، وأنت محسوبٌ على المؤمنين.

الآية التالية وإن نزلت في اليهود لا يمنع أن تكون عامة شاملة :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

طبعاً أنزلت هذه الآية في اليهود، الذين كتموا صفات النبي عليه الصلاة والسلام، حفاظاً على زعامتهم ومكانتهم ومكاسبهم، أو بغياً وحسداً منهم للنبي عليه الصلاة والسلام.

لكن هذه الآية وإن نزلت في هؤلاء الذين كتموا صفات النبي، لا يمنع أن تكون عامةً شاملةً تشمل كل إنسانٍ سكت عن الحق إرضاءً لجهة ما، وقد حقق من هذا السكوت مكاسب كبيرة، هذه المكاسب بكل أنواعها إنما هي نارٌ سوف تحرقه.

أحياناً إنسان يكون كالمنديل، تُمسَح به أقذر عملية ثم يلقى في المهملات، أنت لله، أنت أخطر من ذلك، فهؤلاء الذين..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ)

أيها الأخوة... ربُنا عز وجل يقول :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية : 39]

إن لهؤلاء الدعاة آلاف الصفات، الله عز وجل أغفلها كلها إلا صفةً واحدة، هذه الصفة أنهم لا يخافون في الله لومة لائم، ينطقون بالحق ولا يخافون في الله لومة لائم، لو أنهم نطقوا بالباطل خوفاً

من جهةٍ ما، أو نطقوا أو سكتوا عن الحق خوفاً من جهةٍ ما، لسقطت دعوتهم، ماذا بقي من دعوتهم؟

كل إنسان يبتز أموال الناس على حساب قِيَمه ومبادئه يأكل النار :

يا أيها الأخوة الكرام...

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ)

أي أن كل المكاسب التي حصَّلوها إنما هي نارٌ سوف تحرقهم، والله قال لي مرة أحدهم: إنسان له مهنة أساسها فيها ثقة، كطبيب يقول لك: حلل، تُحلل، اشترِ هذا الدواء، تشتريه، لا بد من إجراء عملية، فالمهنة أصحابها موثوقون، وفي الأعم الأغلب هؤلاء كذلك، أما إذا كان في حالات شاذة، كإنسان مثلاً من أجل تجميع أكبر ثروة ممكنة، غش الناس في صحتهم، اقترح عليهم إجراء عمليات ليسوا بحاجة إليها، وحقق أرباحاً كبيرة منها، واشترى بيتاً فخماً، واشترى مزرعة فخمة، الإنسان البصير الذي أوتي فراسةً يرى أن هذا البيت كأنه يشتعل بهم، وأن هذه المزرعة كأنها تشتعل بهم، حينما تحصِّل مالاً حراماً على حساب صحة الناس، أو على حساب سلامتهم، أو على حساب أمنهم، أو على حساب استقرارهم، أو على حساب عواطفهم النبيلة.

في أوروبا هناك من يخطف الأطفال، يطلب مليون دولار، والأب يدفع، لكن هذا استغل العواطف المقدسة التي بين الآباء والأبناء، وابتز بها أموال الناس، فكل إنسان يبتز أموال الناس وعلى حساب قِيَمه ومبادئه هذا يأكل النار..

(أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ)

طبعاً العلماء قالوا: لا يكلمهم كلاماً مؤنساً، الله عز وجل يلعنهم، رب العالمين قد يرسل الملائكة لتلقي السلام على المؤمنين:

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ)

[سورة الأحزاب الآية : 44]

رب العالمين آنس سيدنا موسى :

رب العالمين آنس سيدنا موسى، إنسان يجلس في بيت، جاء طفل ابن صاحب البيت ومعه لعبة، إذا أحب هذا الضيف أن يؤنس هذا الطفل الصغير، ماذا يقول له؟ ما هذه التي بيدك؟ الضيف بالغ، عاقل راشد، ألا يعلم ما هي؟ لعبة، يقول لهذا الطفل الصغير: ما هذه التي بيدك؟ هذا كلام إيناس، كلام تحبب، كلام فيه مودة، فربُنا عز وجل قال:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

[سورة طه الآية : 17]

هذا كلام إيناس، سيدنا موسى كان يُجزئه أن يقول: عصا، لكنها فرصة لا تعوّض أن رب العالمين يكلمه، قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية : 18]

مفهوم:

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

[سورة طه الآية : 18]

أيضاً مفهوم، يريد أن يطيل الحديث، أن يطيل الكلام مع الله عز وجل قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

[سورة طه الآية : 18]

وأراد أن يسمح الله له أن يطيل أكثر وأكثر فقال:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

[سورة طه الآية : 18]

أي كأنه يتمنى أن يقول الله له: وما هذه المآرب يا موسى؟ يريده حديثاً طويلاً جداً، هذا كلام إيناس أيها الأخوة، كلام تحبب، كلام ود.

وصف الجنة :

في الجنة كما تعلمون أنهار من عسلٍ مصفًى، فيها أنهارٌ من خمرٍ:

(وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ)

[سورة محمد الآية : 15]

وفيها:

(وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ)

[سورة محمد الآية : 15]

وقال:

(فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ)

[سورة محمد الآية : 15]

فيها جنَّات، بساتين تجري من تحتها الأنهار، فيها حور عين، فيها ولدان مخلدون، فيها فواكه مما يشتهون:

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[سورة الحاقة الآية: 23]

(لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَة)

[سورة الواقعة الآية : 33]

هذه كلها أشياء حسية، لكن فيها أعظم من ذلك، فيها النظر إلى وجه الله الكريم.

((إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر))

[من رياض الصالحين عن جرير بن عبد الله]

أكبر عقاب يعاقب به الإنسان يوم القيامة أن لا يكلمه الله :

قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة الآيات : 22-23]

أنت لو دخلت بيتاً، ودعيت إلى طعام نفيس جداً، الطعام، والشراب، والمُقبلات، والفواكه، والحلويات، وبعدها تمتَّعت بمنظر صاحب هذا البيت له وجهٌ كالبدر، أهذا أعلى شيء؟ لا هناك أعلى، الأعلى من ذلك أن يقول لك صاحب البيت: أهلاً وسهلاً، أكرمتنا بهذه الزيارة، أنِسنا بك يا أخي، نوَّرت هذا السكن، ترحيب صاحب البيت فوق التمتُّع برؤية وجهه، وفوق التمتع بطعامه وشرابه، لذلك قال تعالى:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة التوبة الآية : 72]

هناك جنةٌ فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وفيها نظرٌ إلى وجه الله الكريم، وفيها إيناسٌ من الله، وترحيبٌ منه لعباده المؤمنين، لعل هذا كما قال الله عز وجل أعظم ما في الجنة

(وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ)

فلذلك أكبر عقاب يعاقب به الإنسان يوم القيامة أن لا يكلمه الله، هو الآن ميِّت، الآن غائب عن الوعي، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، أعظم عقاب..

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

العقاب الثاني يوم القيامة عقاب الحجاب:

هناك عقاب ثانٍ:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين الآية : 15]

عقاب الحجاب وعقاب عدم التكليم، الإنسان الآن مخدَّر بالشهوات، أما إذا مات انقطعت عنه هذه الشهوات وعاد إلى فطرته. لذلك ورد في الجامع الصغير:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى))

[من الجامع الصغير عن جابر]

وذلك من عذاب الخزي والندم، الله منحه نعمة الوجود، منحه نعمة الإمداد، منحه زوجة، منحه أولاداً، منحه عقلاً، منحه شكلاً وسيماً، منحه بيتاً، منحه كل شيء، فكان همه إيذاء الخلق، كان همه الاحتيال عليهم، ابتزاز أموالهم، الإيقاع بينهم، كان همه أن يبني مجده على أنقاضهم، أن يبني غناه على فقرهم، أن يبني أمنهم على خوفهم، أن يبني حياته على موتهم، ماذا يفعل؟

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء الآية : 14]

السعادة العظمى يوم القيامة أن يكلمنا الله وأن ننظر إلى وجهه الكريم :

والله أيها الأخوة لعل الله جل جلاله يعجب من هؤلاء الذين يقعون في الكبائر، يقول الله عز وجل:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة]

شيء عجيب، أن يفعل إنسان شيئاً سيدمِّره إلى أبد الآبدين من أجل لقمةٍ من حرام، من أجل دراهم معدودات يبيع دينه وآخرته، يحلف البائع مئة يمين أنها ليست رابحة، ولا يوجد منها، وأوقفوا استيرادها، وهي أحسن نوع، ولم يربح منها شيئاً، وكل هذه الأيْمان كاذبة، ليبيع سلعةٍ فقط، باع دينه، وأشهد ربه كذباً على شيءٍ خسيس، لذلك هذا الذي يبيع النفيس بالخسيس إنسانٌ أحمق.

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

والله أيها الأخوة إذا سمح الله لنا أن ننظر إلى وجهه الكريم، وأن يكلمنا يوم القيامة، لهي السعادة العظمى، لأنه هو أصل الجمال، أصل الكمال، أصل النوال، هو أصل كل شيء. ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، ونضرب مثلاً للتوضيح: ابن رُبِّيَ تربية عالية، وله أبٌ حنون، عطوف، وقور، كريم، حليم، هذا الابن المربى تربية عالية إذا أعرض عنه أبوه يكاد يحترق، إعراضاً فقط، لم يضربه، إعراض، ما نظر إليه..

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ)

إذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً :

الإنسان حينما يؤمن، وحينما يستقيم على أمر الله، وحينما يتَّصل بالله يزكيه الله، مستحيل أن ترى مؤمناً حاقداً، مؤمناً جباناً، مؤمناً بخيلاً، مؤمناً حقوداً، مستحيل أن ترى مؤمناً مخادعاً، مؤمناً ذا

وجهين، هذا ليس مؤمناً، فالله يزكي المؤمن، يزكيه في الصلاة، إن مكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً، ما هذا الأدب يا رسول الله؟ قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

يقولون: الماس أغلى شيء في الأرض، بالقراريط، وثمنها آلاف مؤلفة، أساسه فحم فقط، جاءه ضغط شديد وحرارة شديدة، فالمؤمن أحياناً يُضغط ضغوطاً متواصلة، لكن كل ضغط ينمي فيه صفة راقية، تجده حليماً، أديباً، حيياً، عفواً، صفوحاً، ودوداً، كريماً، شجاعاً، وفياً، هذه الصفات كلها نتائج تربية إلهية، ما هذا الأدب يا رسول الله؟ قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

أيها الأخوة... المؤمن له أدب عالٍ جداً، تجده يغض نظره دائماً عن عورات الناس، لسانه منضبط بالحق، يذكر الله كثيراً، حركته للإصلاح دائماً، لا ينطلق بفاحشة، ولا لإيذاء الناس، يتحرك للإصلاح فيما بينهم.

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ)

ليت العذاب ينتهي عند قوله: أن الله لا يكلمهم، ولم يزكهم في الدنيا، قال:

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

بربكم هل كان هؤلاء عقلاء حينما كتموا الحق؟ والله هناك من يكتم الحق دائماً، بكل عصر هناك من يكتم الحق.

من أشد أنواع المعاصي تلك التي توعَّد الله بها مرتكبيها بأن يحاربهم :

حدثني أحد علماء دمشق الأجلاء كان في مصر، قال لي: من غرائب الصُدف أنني حضرت موتَ أحد كبار علماء مصر، وهو على فراش الموت، رفع يديه هكذا إلى السماء ومد إصبعيه، وقال: " يا رب، أنا بريء من كل فتوى أفتيتها في المصارف "، فيبدو أنه حينما كان في منصبٍ ديني رفيع أفتى إرضاءٍ لزيد أو عبيد، وأصدر فتوى، وعقب هذه الفتوى أُودع في بنوك مصر ثلاثة وثمانين مليار جنيه، فهذه فتوى خطيرة جداً، فهذا يعلم علم اليقين أن هذا حرام، وهذا رباً، ومن أشد أنواع المعاصي تلك التي توعَّد الله بها مرتكبيها بأن يحاربهم:

(فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة البقرة الآية : 279]

مع ذلك هناك فتاوى بأكثر المعاصي، لمَ تصدر هذه الفتاوى؟ من أجل ثمنٍ من الدنيا بخسٍ، فلثمن بخس قليل باع دينه وآخرته. قال:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ)

حينما أفتى هذه الفتوى، أو حينما كتم هذا العلم استبدل الضلالة بالهدى.

الله عز وجل بيّن للناس كل شيء :

بالمناسبة هناك قاعدة لغوية بعكس اللغة العامية، لو قلت لكم مثلاً: فلان استبدل التجارة بالوظيفة، ماذا نفهم منها الآن؟ استبدل التجارة بالوظيفة، الآن تاجر أم موظف؟ يحدث التباس، الباء تأتي مع الشيء المتروك، باللغة الفصحى الباء تأتي متأخرةً مع الشيء المتروك:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى)

أي باعوا الهدى وأخذوا الضلالة..

(وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

ما الذي يصبِّرهم؟ يقول الله عز وجل:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

الحجة قائمة، فعندما تنصح إنساناً مرة، ومرتين، وثلاثاً، تبين له، تعطيه الدليل، ويركب رأسه، يتحامق، ويدفع الثمن باهظاً، فلا يستطيع أن يتكلم ولا كلمة، ولا حرفًا، أما إذا لم تنصحه يضع اللوم عليك، (ذلك)، الله عز وجل بيّن كل شيء، لأنه يقول:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل الآية : 12]

الهدى على الله، وحيثما جاءت (على) مع لفظ الجلالة معنى ذلك أن الله ألزم بها نفسه..

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة الآية : 5]

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل الآية : 12]

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

الكتاب الذي جاء الله به يُسكت الكفار يوم القيامة عن العذاب الذي لا يُحتمل :

الأب حينما ينصح ابنه مراتٍ ومرات، ويوضِّح، ويبين، ويفصِّل، ويأتي بالأدلة والشواهد، ومع ذلك يركب الابن رأسه، ويمشي في طريقٍ غير صحيح، حينما يدفع الثمن باهظاً؛ يسجن، أو يعاقب، أو يبقى في مؤخرة الصف، ويلتقي بأبيه، لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة، ولا كلمة أبداً، لو أن شريكين أصر أحدهما على عمل غير شرعي، الثاني رفض وفكَّ الشركة، الأول سُجِن، ذهب

إليه شريكه ليزوره، لا يستطيع أن ينظر إليه، ما الذي يسكت هؤلاء؟ هذا العذاب الذي لا يحتمله أحد..

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

ما الذي يسكتهم؟

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

الكتاب فيه كل شيء..

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

[سورة الإسراء الآية : 15]

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[سورة القصص الآية : 51]

وصَّل الله القول إليهم، والآن لا توجد حجة أبداً.

بُعث النبي إلى الأمم قاطبة لأن الحق واضح :

أي مكان في العالم، في أقاصي الدنيا، علماء المسلمين جميعاً تأتي محاضراتهم إلى أقاصي الدنيا، هذا التواصل الإعلامي شيء مخيف، أي دعوةٍ في الأرض يمكن أن تنتشر في القارات الخمس، القول يصل، والوسائل منوعة جداً، ولعل من حِكمةِ أنّ النبي عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء، ذلك أن الله علم أنه سيكون هناك هذا التواصل، فيما مضى كان لكل قومٍ هاد، أما الآن بعثة النبي لكل الأمم قاطبةً إلى نهاية العالم، فالحق واضح، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((قد تركتكم على البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[الجامع الصغير عن العرباض]

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام، ما من شيءٍ ولو كان صغيراً يقربنا إلى الله إلا أمرنا به، وما من شيءٍ يبعدنا عنه إلا نهانا عنه، من أراد الهدى فالهدى بين يديه:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل الآية : 12]

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

الذي يجعلهم يصبرون، ويسكتون:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

الله يعلمنا بخلقه و بأفعاله :

أي أن الله عز وجل يعلّمنا بخلقه، هذا الكون، ويعلمنا بأفعاله، كل أمة طغت وبغت يقصمها الله، هناك أمم قوية جداً؛ بل أقوى أمةٍ في العالم لا يوجد رأي فوق رأيها ولا إرادة تقهرها، لكن الله فوق

الجميع، مليون إنسان أُخرج من بيته خوفاً من إعصارٍ لم يُرَ له مثيل من أربعين عاماً، هذا الإعصار سرعته مئتان وثمانون كيلو متر، لا يُبقي ولا يذر، لا يدع بيتاً، ولا بناءً، ولا معملاً، ولا مركبةً إلا حطَّمها، الله عنده أدوية كثيرة.

الزلازل.. الزلزال في أربعين ثانية لم يبق شيئاً، خمسون ألفًا مدفونون تحت الأنقاض، ويحتاجون من أجل أن يعاد كل شيء إلى ميزانية كاملة، أي ما تنفقه هذه البلاد التي أصابها الزلزال في عام، هذا المبلغ يمكن أن يغطي إعادة إعمار هذه المنطقة التي تهدمت:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية : 12]

الله يعلمنا بخلقه:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس الآية : 101]

ويعلمنا بأفعاله:

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام الآية : 11)

الله تعالى يربينا بالتربية النفسية التي يفعلها في قلوبنا :

قال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل الآية : 112]

أحد أخواننا كان في رحلة إلى تركيا قبل الزلزال بأيام، قال لي: بلاد جميلة، خضراء، فنادق، محلاَّت تجارية، محطَّات وقود، وسائل رفاه، وسائل تسلية، سواحل للسباحة، فنادق من ذوات النجوم الخمس، جمال ساحر، قال لي: العين لا تصدق أن هذا الجمال أصبح أنقاضاً، في أربعين ثانية!! هكذا فعل الله عز وجل.

يوجد عند الله زلازل، ويوجد عنده أعاصير، وعنده فيضانات، وعنده مثل ما عندنا جفاف لا يوجد ماء، فعنده أدوية كثيرة، الله يعلمنا بخلقه، ويعلمنا بأفعاله، ويعلمنا بكلامه، ويربينا تربية نفسية، أحياناً ينقبض الإنسان، أحياناً ينشرح، يأخذ موقفاً جيِّداً، يلقي الله في قلبه الانشراح والسرور والسعادة، أحياناً يغلط فيلقي في قلبه الضيق والانقباض والخوف والقلق، يربينا بأفعاله، ويربينا بأقواله، ويربينا بخلقه، ويربينا بالتربية النفسية التي يفعلها في قلوبنا، فالله عز وجل..

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

لاحظ إنساناً أخطأ مع الله، الله حليم، يرخي له الحبل، أول مرة لم يعرف، ثاني مرة نادم، إذا استمر يأتي البطش الإلهي، فالواحد يعرف بالضبط أنه استنفذ كل الفرص، هناك تربية لكل إنسان، لكل واحد، والبطل الذي يفهم على الله عز وجل، كل شيء بحساب:

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[الجامع الصغير عن البراء]

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (58- 95):تفسير الآية 177، فقه الأولويات
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-09-24

بسم الله الرحمن الرحيم

سياق هذه الآية جاء بعد تحوّل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرَّمة :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية السابعة والسبعين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

أيها الأخوة الكرام... سياق هذه الآية جاء بعد تحوّل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرَّمة، وهذا التحويل عند ضعاف الإيمان، وعند المنافقين أحدث بلبلةً، لأن أهل الدنيا متعلّقون بالأشكال، متعلّقون بالقشور، وتحويل القبلة لم يكلفهم شيئاً، كانوا يصلون إلى هذه الجهة فصاروا إلى هذه الجهة؛ ومع ذلك أحدثوا فتنةً، وبلبلةً، واضطراباً، فالله عزَّ وجل ردَّ عليهم فقال:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ)

كذا وكذا.

همّ الشيطان الأوحد أن يشغل المسلمين بقضايا جانبيَّة فرعيَّة :

قبل أن أشرح هذه الآية لا بد من وقفةٍ متأنية، في كل شيءٍ جوهر وعَرَض، مثل أضعه بين أيديكم: المركبة فيها شيء أساسي جداً هو المحرك، العجلات، الوقود، المِقود، فيها أشياء حاجيَّة، فيها أشياء تحسينيَّة، فيها أشياء كماليَّة، وفيها أشياء تزيينية، فلو اهتممنا بالتزيين، وتركنا الأساسيات لحدث هناك خلل كبير، لا بد من أن تقوم هذه المركبة على كل ذلك، الأكمل أن يكون فيها أشياء أساسيَّة، وأشياء حاجية، وأشياء تحسينيَّة، وأشياء كمالية، وأشياء تزيينية، أما أن نضحي بالأساسيات من أجل التزيين هذا ضعفٌ في العقل، وسوء فهم لمهمة هذه المركبة. وهذا مثل.

الدين أساسه الإيمان بالله، أساسه صحة العقيدة، أساسه الاستقامة على أمر الله، أساسه العمل الصالح، أساسه التخلُّق بالأخلاق الإسلاميّة، أساسه أن تحمل همَّ المسلمين، أساسه أن تنهض بالمجتمع الإسلامي إلى ما يحب الله ويرضى، وفيه شكليات كثيرة جداً، كأن يختلف المسلمون على

درجة القبلة، في أمريكا انشق المسلمون صفَّين، صفٌ يصلي باتجاه الكعبة مباشرةً، وصفٌ يصلي باتجاهٍ معاكسٍ للكعبة ليصل بعدها إلى الكعبة عن طريقٍ طويل، وهذه قضية كبرى هي مسار خلافٍ، وخصومةٍ، ونزاعٍ بين الجماعات الإسلامية.

أرأيتم أيها الأخوة إلى مهمة الشيطان؟ مهمته أن يفرِّق كلمة المؤمنين، أن يحرِّش بينهم، أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء، أن يشغلهم بقضايا جانبيَّة، وهذه مشكلة المشاكل اليوم، همّ الشيطان الأوحد أن يشغل المسلمين بقضايا جانبيَّة فرعيَّة، فرعيَّة جداً، هذه مشكلة كبيرة أن ننسى ما يعانيه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها من قضايا خطيرة جداً تمسُّ وجودهم، وتمس سلامتهم، وتمس مستقبل أبنائهم، وأن نعادي بعضنا بعضاً لقضايا جانبيَّة جداً.

كنت أقول إن أعداء المسلمين يتعاونون وبينهم خمسةٌ بالمئة من القواسم المشتركة، والمسلمون ـ وللأسف الشديد ـ يتقاتلون وبينهم خمسة وتسعين بالمئة من القواسم المشتركة.

الله عزَّ وجل يريد من الإنسان جوهر الدين وأصوله ودعائمه وأركانه :

الإنسان أُمر أن يصلي باتجاه المشرق، ثم أُمِرَ أن يصلي باتجاه المغرب، ما الذي حصل؟ العبرة أن تكون مع الله، العبرة أن تتصل بالله، العبرة أن تكون سعيداً بقربك من الله، الجهات لا قيمة لها..

(لَيْسَ الْبِرَّ)

من بلاغة القرآن الكريم أن البر وهو شيء معنوي، صار مجسَّداً في هذه الآية، له كيان، البر الذي تبحثون عنه، البر الذي يسعدكم، البر الذي يرفع من شأنكم، ليس أن تختلفوا في جهة القبلة.

فقد يأتي أُناس ويقولون: هذا المسجد، أو أي مسجد آخر لا تصح الصلاة فيه لأنه ينحرف عن القبلة ثلاث درجات، المذاهب الفقهيَّة واسعة جداً، ومن أوجه المذاهب الفقهية في هذا الموضوع أن القبلة جهةٌ، وليست نقطةٌ، فما دامت جهة فإن كل المساجد المتجهة نحو الجنوب تصحُّ الصلاة فيها، أما إذا كانت نقطة فنحتاج إلى علماء رياضيات لقياس الزوايا، وندخل في متاهاتٍ لا تنتهي، فكأن الله عزَّ وجل لا يريدنا أن ندخل في التفاصيل المُملة، والتفاصيل المُخلَّة، والتفاصيل التي تبعدنا عن بعضنا، يريد الله عزَّ وجل منا جوهر الدين، أصوله، يريد دعائمه وأركانه، وإذا اتبعنا هذه الدعائم والأركان بالتفاصيل الدقيقة المتفق عليها فهذا أمر جيد جداً.

فالله عزَّ وجل يرد على هؤلاء الذين أحدثوا بلبلةً واضطراباً في شأن تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة فيقول:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

دائماً هناك أُناس يتمسَّكون بالتفاصيل، والقشور، وتفاصيل التفاصيل، وينسون الأصل، فربما أقاموا النكير لعدد درجات المنبر، أربع درجات لا يجوز، السنة ثلاثة، ندخل بمتاهات لا تنتهي.

البر الذي يريده الله عز وجل هو الذي يقربنا إليه :

فيما قرأت أن رجلاً أسلم حديثاً في مصر، وأراد أن يتعلَّم على يد شيخ من شيوخ الأزهر، بدأ بكتب الفقه بالتسلسل، بدأ بأحكام المياه، أبقاه ستة أشهر في أحكام المياه، وفي أشياء ربما في وقتها كان لها مهمة كبيرة جداً، المياه؛ حكم الوضوء بمياه الآبار، وبمياه المجاري السطحية، والبركة الراكدة، والبركة كم قُلَّة، وحكم الوضوء بماء الحمّص، وماء العدس، فهذا بعد ستة أشهر خرج من جلده، وترك هذا الشيخ وترك الإسلام كلَّه، ثم التقى مع أحد علماء مصر الكبار قال له: الماء الذي تشربه توضَّأ منه! فألغى له ستة أشهر من التفاصيل قد لا يحتاجها، قد يحتاجها الاختصاصيون، قد يحتاجها المتعمِّقون بالفقه، أما طالب علم يريد أن يعرف الله ينبغي أن لا تغرقه في تفاصيل ليس الآن بحاجة إليها، هناك موضوعات كثيرة لسنا بحاجةٍ إليها.

إنسان وقف على المنبر ـ هنا في الشام ـ وقال: إذا أعطيت إنساناً مئة ليرة ليصرفها لك أربع قطع ذات الخمس والعشرين ليرة، فقد أكلت الربا، الحضور ضَجّوا، أهذا هو الربا؟ إذا صرف إنسان المئة ليرة إلى أربع خمسة وعشرينات!! قال له: سواءً بسواء، ويداً بيد. فأنت أعطيته قطعة واحدة وأعطاك أربعة، صار هناك ربى الفضل، فقام رجل من المصلين وقال له: اسكت يا جاهل. وهو بين المصلين، أربع خمسة وعشرينات يساووا مئة هذه سواءٌ بسواء . فأحياناً الإنسان يدخل في تفاصيل، يدخل في إشكالات، يدخل في قضايا فرعية جداً، وينسى الأصل، وينسى جوهر الدين، وينسى أصل الدين. على كلٍّ..

(لَيْسَ الْبِرَّ)

البر الذي يريده الله عز وجل هو الذي يقربنا إليه، لا أن ندخل في خصومات، وفي مشاحنات حول قضايا فرعيَّة جداً من الدين.

فقه الأولويات :

قال تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

إنسان يقول لك أحياناً: توجد في الفاتحة أربع عشرة شدَّة، إن لم تأتِ بها كلها فالصلاة باطلة. أنت حمَّلت الإنسان ما لا يطيق، حملته على أن يزهد في صلاته، حملته على أن يترك الصلاة إذا قلت له: لا بد من أربع عشرة شدة يجب أن تأتي بها، إن أتيت بها هذا أكمل شيء طبعاً، لكن لا تكفِّر الناس.

مرة دخل أخ إلى الجامع، وقال: كل إنسان لا توجد على رأسه "طاقيَّة" فصلاته باطلة. أنا كان على رأسي طاقيَّة والحمد لله، هكذا بهذه البساطة؟!

هذا الذي يجعل من الفرع أصلاً، ومن الشيء الهامشي جوهراً، ومن قضيةٍ فرعيةٍ جداً جذعاً، هذا إنسان يحتاج إلى مزيد من الفقه، بل إنه ظهر ما يسمى بفقه الأولويات، فإن هم أطاعوك بذلك، أقنعتهم أنه لا إله إلا الله ـ يا معاذ لأهل اليمن ـ وأن محمداً رسول الله، فإن هم أجابوك لذلك فأبلغهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات، فإن أجابوك إلى ذلك فقل لهم أمر الصيام، ثم أمر الزكاة، ثم أمر الحج، هكذا.

إنني أريد ما يعانيه المسلمون اليوم من مشكلاتٍ خطيرة أساسها التمسك حتى القتال، أو حتى الخصومة الفاجرة، أو حتى الصدام لأجل قضايا هامشية جداً وفرعية لا تقدم ولا تؤخر، ثم إهمال جوهر الدين.

مثلاً: هذا الذي يحرص كي يقبل الحجر على أن يدفع رجلاً، ويركل رجلاً، ويدفع صدر رجلٍ، ويزيح رجلاً، آذى سبعة أشخاص إيذاء شديداً ليقبِّل الحجر الأسود، هل هذا فقيه؟ لا والله، والله هناك من يأتيه أذى لا يوصف من إنسانٍ في أثناء الحج، وفي مكان تقبيل الحجر الأسود، هذا الذي يضحي بفرائض من أجل سنن لا يملك فقه الأولويات، نحن بحاجةٍ إلى أن نعرف أصل الدين، وجوهر الدين، وأركان الدين، والقصد العام من الدين، وأن نعرف الأساسيات، والحاجيَّات، والتحسينات، والكماليات، والتزيينات، هكذا.

يجب ألاّ نقيم وزناً للتفاصيل على حساب أصول الدين :

قال تعالى :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ)

الذي يجعلك باراً، الذي يجعلك إنساناً كاملاً، الذي يجعلك إنساناً يحقق مرضاة الله، الذي يجعلك إنساناً يحقق الهدف من وجودك أن تفعل كذا وكذا.

إذا عطرت إنساناً بعطر غير زيتي يكاد يخرج من جلده من غضبه، علماً أنه قد يسهر ليتابع بعض المسلسلات حتى الساعة الواحدة ليلاً، إذا عطرته بعطر غير زيتي يقول لك: هذا نجس، حسناً، الأوْلى أن تتعطر بعطر زيتي، أما هذه الجلسة حتى الساعة الواحدة، وأنت تتابع مشاهد فاضحة، هذه ألا يوجد شيء عليها؟! تجده يحاسبك على سمْسم بين أسنانه في رمضان، ويأكل مئات الألوف؛ اغتصاباً، واحتيالاً، وعدواناً. فالشخصية السخيفة، هذه التي تتمسَّك بتفاصيل دقيقة جداً، وتنسى أصول الدين هذه شخصيةٌ مرفوضة، وهذه شخصيةٌ لا يحبها الله عزَّ وجل. سدّدوا، وقاربوا، هذا الكلام إياكم أن تفهموا منه أن تتساهلوا في تفاصيل الدين، أبداً أنا ما قصدت هذا، ولكن قصدت ألاَّ تنسى أصل الدين، أن لا تنسى جوهر الدين، أن لا تنسى المنطلقات الكبرى للدين، مقاصد الدين، وأن لا تتابع التفاصيل على حساب الأصول.

لو فرضنا أن المحرِّك جيد، والعجلات ممتازة، والمقود حساس، والوقود ممتلئ، وكل شيء جيد، ثم حسَّنت منظر المركبة لا يوجد مانع، بل هذا أفضل، إذا كانت نظيفة ومزينة ومرتبة، أما أن تعتني بزينتها والمحرك محروق!؟ تعتني بزينتها وفيها خطر قد يقضي على ركابها؟! هذا الذي أريده، أنا لا أدعوكم إلى التساهل بالتفاصيل، هذا الدين منهج تفصيلي كامل، ولكن أدعوكم إلى ألاّ تقيموا وزناً للتفاصيل على حساب أصول الدين..

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

أي أن أصل هذا الدين أن تؤمن بالله، أصل هذا الدين معرفة الله، أصل هذا الدين أن يمتلئ قلبك تعظيماً لله، أن تؤمن به موجوداً، وأن تؤمن به واحداً، وأن تؤمن به كاملاً، أن تؤمن به فعَّالاً، إلهاً في الأرض وفي السماء، أن تؤمن أن الأمر كلَّه بيده، أن تؤمن أن النفع والضر بيده وحده، أن تؤمن أنه مصدر الكمال والجمال والنوال، أن تؤمن أن المصير إليه، أن تعرفه معرفةً دقيقةً، تفصيليةً، كاملةً، مستوفيةً، حتى تكون هذه المعرفة دافعاً لك لطاعته.

معرفتك بالله إن لم تحملك على طاعته فلا قيمة لها :

أيها الأخوة... معرفتك بالله إن لم تحملك على طاعته فلا قيمة لها، كما عرف إبليس أن الله خالقٌ:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة ص الآية : 76]

وأن الله عزيزٌ:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية : 82]

وأن الله ربٌ :

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف الآية : 14]

آمَن بالله خالقاً، ورباً، وعزيزاً، وآمن باليوم الآخر، وكل هذا الإيمان جعله يستنكف أن يسجد لسيدنا آدم:

(أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ*قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة ص الآيات : 75-76]

إذاً هذه المعرفة التي لا توصل إلى طاعة هي معرفةٌ إبليسيَّة لا قيمة لها، مقياس معرفتك التي تحملك على طاعة الله، هذا مقياس المعرفة، فليس البر أن تتعلَّق بشكليات الدين، وأصول الدين تهملها، ليس البر أن تتعلَّق بالتفاصيل وجذوع الدين تقطعها، ليس البر أن تقيم خصومةً، وشحناء، وبغضاء في قضايا جانبيَّة، وأنت لست مطيعاً لله عزَّ وجل.

أخطاء وقع بها المسلمون اليوم :

مرة حدثني أخ على الهاتف، دخلنا في مناقشة عقيمة، وبقينا حتى ساعة متأخرة كدنا نختصم حول تعريف صلاة التهجُّد، وصلاة قيام الليل، أي صلاةٍ هي قيام الليل، وأي صلاةٍ هي تهجُّد؟ أنا ما أجبته بل قلت له: قم صل ركعتين لله وقل: يا رب هاتان الركعتان صليتهما في سبيلك، وتقرباً إليك، وأنا لا أعرف ماذا تسمِّيهما، يا رب سمها ما شئت، قم فصلِّ فقط.

إذا سأل ابن والده: أنا إن أردت أن أدرس يا والدي كم تحب أن يكون بُعْدُ الكتاب عن طرف الطاولة، كم سنتيمتراً؟ قال له: خمسة سنتمترات، وكم تحب أن تكون زاوية الكتاب؟ قال له: ثلاثين درجة، أحضر منقلة، وكم تحب أن يكون حرف الكتاب الأيمن بعيداً عن حرف الطاولة الأيمن؟ وحرف الكتاب الأيسر عن حرف الطاولة الأيسر؟ قال له: ادُرس وخلِّصني. اقرأ، يريد أن يدرس فأذْهَبَ كل وقته بالمسافات، والقياسات، افتح هذا الكتاب واقرأ وأنت مضطجع، افتح الكتاب واقرأ وأنت تمشي، افتح الكتاب واقرأ وأنت جالس في غرفة الانتظار، العبرة أن تقرأ. آتيكم بأمثلة..

بلاغ منع تجول: " يمنع التجول تحت طائلة إطلاق الرصاص "، انتَبَهَ للحروف، والخط، والحبر، والوقت، والتوقيع، والختم، ولكن لم ينتبه لمضمون الكتاب، أهم شيء بهذا البلاغ مضمونه، أهم شيءٍ في الكتاب ـ هذا الكتاب المعلَّق ـ أن تقرأه وأن تدخل البيت، أما أن تقف وتنسى مضمونه، وتتابع تفاصيل مملة حول نوع الخط، وحول الحبر، وحول التوقيع، وحول الختم!! هذا الذي وقع فيه المسلمون اليوم، تركوا أصول الدين، تركوا جوهر الدين وانغمسوا في التفاصيل التي لا تقدِّم ولا تؤخر.

مرة ثانية أتمنى أن يكون كلامي واضحاً: أنا لا أدعوكم لإهمال التفاصيل، لا أدعوكم لترك بعض دقائق هذا الشرع الحكيم، هذا منهج كامل، ولكن أنا أرفض أن يعتني الإنسان بالتفاصيل، ويقيم خصومةً وعداوةً بينه وبين جماعاتٍ أخرى، وينسى أصول الدين، ممكن نقيم معركة بين ماذا ينبغي أن نفعل في القعود الأخير، أن نفعل هكذا أشهد أن لا إله إلا الله، أم نفعل هكذا، أم نعمل هكذا؟ اختر واحدة لا يوجد مانع، أما أن نقيم مشكلة، نُحدِث خصومة، نكفّر الناس هذا شيء غير معقول.

أنا لا أتكلَّم من هواء بل من واقع، هذا هو واقع المسلمين في شتى بقاع الأرض، فكم من مسجد في أوروبا وأمريكا دخله رجال الأمن بأحذيتهم ليفضّوا نزاعاً بين جماعتين إسلاميتين حول قضايا تافهة في الدين، قضايا تفصيلية، وهذا الجامع للجماعة الفلانية، وهذا الجامع للجماعة الفلانية، هؤلاء يكفرون هؤلاء، هذه مشكلة الآية.

أصل الإيمان كلّه أن تؤمن أن كل شيءٍ يجري بأمر الله وعلمه :

قال تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ)

أي إنك لا تكونُ باراً، ولا مقبولاً عند الله عزَّ وجل إذا دخلت في هذه المتاهات، وتلك التفصيلات، وهذه الخصومات ونسيت جوهر الدين..

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

أي أن أصل الإيمان كلّه أن تؤمن بالله، لا أن تؤمن به خالقاً فحسب، لأنها قضية سهلة جداً، ما من إنسان إلا قلّة شاذَّة منحرفة جاءت في آخر الزمان أنكرت وجود الله، أما البشرية جمعاء من آدم إلى يوم القيامة تؤمن أن الله خلق الكون، حتى عُبَّاد الوثن:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّه)

[سورة لقمان الآية : 25]

ليس هذا هو الإيمان المطلوب. الإيمان المطلوب أن تؤمن به فعَّالاً، أن تؤمن به متصرِّفاً؛ رافعاً وخافضاً، معطياً ومانعاً، معزاً ومذلاً، قابضاً وباسطاً، أن تؤمن أن كل شيءٍ يجري بأمره وعلمه.

كل شيء بيده سبحانه حتى التفاصيل الدقيقة جداً :

قال تعالى:

(أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

[سورة القصص الآية : 7]

هذا الصندوق الذي فيه سيدنا موسى من يسيره؟ الله جلَّ جلاله:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

[سورة الأنعام الآية : 59]

الله عزَّ وجل كل شيء بيده حتى التفاصيل الدقيقة جداً، فهل هناك أقل من سقوط ورقة في الخريف إنه يعلمها؟ فصِحَّتُك، وأجهزتك، وأعضاؤك، وقلبك، ورئتاك، وكل الأجهزة والأنسجة، والخلايا تعمل بأمر الله، وزوجتك، وأولادك، وعملك، ورزقك، ومن فوقك، ومن تحتك، ومن حولك كلهم بيد الله عزَّ وجل.

البر أن تؤمن به خالقاً، ومسيّراً، ومربياً، أن تؤمن به واحداً، وكاملاً، وموجوداً، أن تؤمن بأسمائه الحسنى كلها اسماً اسماً؛ هو السميع، والبصير، والعليم، والخبير، والغني، والودود، واللطيف، والقابض، والباسط، والخافض، والرافع، والمعز، والمذل، والرحمن، والرحيم، والقيوم، والحي،

مالك الملك ذو الجلال والإكرام، هكذا، ولكن هل يوجد إنسان يأخذ شهادة عُليا ولم يدخل مدرسة؟ في إنسان يأخذ شهادة عُليا في خمس دقائق بكلمة قالها؟

من لوازم الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر :

إخواننا الكرام... لماذا أمر الدنيا فقط واضح جداً؟ هل هناك إنسان يقول لك: أنا دكتور، وهو أُمّي؟ مستحيل، هل مِن إنسان أخذ دكتوراه في يومين؛ أم في ثلاث وثلاثين سنة؟ هل من إنسان يصبح عالماً، وما دخل مدرسة إطلاقاً؟ فكيف تريد أن تقول: أنا مؤمن ومحصل ولم تحضر أي مجلس علم، وليس لك أستاذ تتعلَّم منه؟ هذا الكلام مستحيل.

البر أن تؤمن بالله، العبرة أن تتحدَّث عن الله ساعات طويلة مما عقلت عنه، هل يمكنك أن تحدثنا عن الله عزَّ وجل؛ عن أسمائه الحسنى، وعن صفاته الفضلى، وعن أفعاله، وعن قرآنه، وعن كلامه حديثاً طويلاً واضحاً؟ معنى هذا أنت مؤمن، تجد الإنسان في أمور الدنيا طليقاً جداً، فإذا سألته عن أمر من أمور الآخرة لا يعلم شيئاً، من قلة معرفته بالصحابة ترَضَّى على عنترة، فهو لا يعرف، حسب أن عنترة صحابي فترَضَّى عليه، يتقن أشياء كثيرة جداً، أما الأشياء الأساسية في الدين لا يعلمها أبداً..

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

الإيمان بالله يحتاج إلى وقت، متى جلست وفكرت بهذا الكون؟ متى جلست وقرأت شيئاً عن عظمة الله؟ متى فرَّغت جزءاً من وقتك لحضور درس علم لتتعلَّم؟

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

بعد ذلك الإيمان بالله من لوازمه أن تؤمن باليوم الآخر. أنقل لكم هذه الحقيقة: مستحيل، وألف مستحيل أن تستقيم إن لم تؤمن بأن هناك يوماً سوف تقف فيه بين يدي الله عزَّ وجل، وسوف تحاسَب عن كل كلمةٍ، وعن كل حركةٍ، وكل سكنةٍ، وكل درهمٍ كيف اكتسبته وكيف أنفقته؟ الإيمان باليوم الآخر يردع الناس، لا يمكن أن تستقيم حياتنا إن لم نؤمن باليوم الآخر، هناك أكثر من خمسة وعشرين ألف دعوى كلها كيدية؛ اغتصاب أموال، اغتصاب أراضي، اغتصاب بيوت، أشياء مزوَّرة، أشياء غير صحيحة، كل هؤلاء الذين يفعلون هذا ما ذاقوا طعم الإيمان، مستحيل أن تؤمن بالله وأن تأخذ ما ليس لك.

أنواع الإيمان:

أيها الأخوة... موضوعٌ مهمٌ جداً جاء مكانه في هذه الآيات، الإيمان أربعة أنواع؛ نوع حسي، ونوع عقلي، ونوع إخباري، ونوع إشراقي.

1 ـ الإيمان الحسي :

الإيمان الحسي أن تدرك الشيء بحواسك الخمس، أن تدرك وزنه بأن تحمله، لونه بأن تنظر إليه، سطحه أملس أم خشن بأن تلمسه، رائحته إن كانت له رائحة، هذه معرفة حسيَّة، الأشياء نعرفها بحواسنا الخمس؛ نعرف أشكالها، وألوانها، وأوزانها، ورائحتها، هذه ليس فيها خلاف، ونحن وغيرنا من بقية الحيوانات سواء، بل إن بعض الحيوانات متفوقة عنا جداً في بعض الحواس؛ فالصقر يرى ثمانية أضعاف الإنسان، والحمار الذي يحتقره الناس هو المخلوق الأول الذي يعرف الزلزال قبل وقوعه بربع ساعة، لذلك وضعوا حماراً في تركيا في السجن بتهمة كتم معلومات. الكلب يشم مليون ضعف عن الإنسان، هناك طيور تطير مئة وخمسة وعشرين كيلو متراً في الساعة، موضوع طويل، ما من حيوان إلا وهو متفوقٌ على الإنسان في بعض الخصائص، دعونا من هذا.

2 ـ الإيمان العقلي:

المعرفة الأساسية هي المعرفة العقليَّة، المعرفة العقلية شيءٌ غابت عينه وبقيت آثاره، طريق المعرفة به عن طريق العقل، فالإيمان بالله، ذات الله عزَّ وجل لا تدركها الأبصار، ولكن الكون كله يدل عليه، الكون كله يدل على الله، أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى متجسِّدة في هذا الكون، فالإيمان بالله أولاً من خلال خلقه، ومن خلال أفعاله، ومن خلال زلزال بتركيا، وزلزال باليونان، وزلزال بتايوان، وإعصار شرَّد اثنين ونصف مليون بأمريكا، سرعته مئتان وخمسة وعشرون كيلو متر، لا يبقي ولا يذر، وفيضانات بالسودان، كل يومين هناك خبر، معنى ذلك أن هذه أفعال الله عزَّ وجل:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

[سورة الإسراء الآية : 58]

قالوا: حرب البلقان رسالة إلى أوروبا، وقالوا: زلزال تركيا رسالة من السماء إلى الأرض. لأن مسجداً في مركز الزلزال المسجد لم يمس بأذى، وبالمركز في أزمير، وحوله أنقاض، وبالبرلمان التركي لأول مرة يقف رئيس المحكمة الدستورية ـ لأول مرة بتاريخ تركيا الحديث ـ ليقول: نحن حاربنا الله ورسوله، وحاربنا الحجاب، واتفقنا مع اليهود ضد المسلمين فعاقبنا الله عزَّ وجل، لم يسبق في تاريخ تركيا الحديث أن يقال هذا الكلام في مجلس رسمي. فالله عزَّ وجل يعرّفنا بذاته من خلال الكون، ويعرّفنا بذاته من خلال أفعاله التي نراها، مسجد في مركز الزلزال لم يُمس بأذى

وكل ما حوله أنقاض، هذه رسالة من الله إلى عباده. فالإيمان بالله يمكن أن تؤمن به من خلال خلقه، ومن خلال أفعاله، ومن خلال كلامه..

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

الإيمان بالله هو الأصل، ولكن يجب أن تؤمن بالله إيماناً يقينياً، وعلامة ذلك أن يحملك على طاعته، فإن لم يحملك على طاعته فلا قيمة له، صار إيماناً إبليسياً؛ وهذا حال معظم الناس، تجده يحضر الصلاة ويقول لك: والله يا أخي الإسلام عظيم، دين يا أخي، دين الله هذا. لا في إسلام ببيته، ولا بعمله، ولا بتجارته، ولا بحركاته، ولا باحتفالاته، ولا بمآسيه، كله بدع، وكله انحرافات، وهو يقول لك: أنا مسلم.

تعصي الإله وأنت تظهرُ حبه ذاك لعمري في القياس شنـيعُ

لو كان حبك صادقـاً لأطعته إن المحب لمـن يحب يطـيعُ

* * *

فأول شيء الإيمان بالله. الآن بعد أن آمنت بالله، الله عزَّ وجل له كتاب هو القرآن، من خلال إعجاز القرآن تؤمن بكتابه، من جاء بهذا الكتاب المعجز؟ إنسان اسمه محمد عليه الصلاة والسلام، إذاً هو رسوله، عن طريق العقل فقط، عن طريق العقل الذي هو مناط التكليف تؤمن بالله، وبكتابه، وبرسوله، انتهى دور العقل.

3 - الإيمان الإخباري :

الآن جاء دور النقل، جاء دور الإيمان الإخباري، الله أخبرك بوجود يوم آخر وصراط، وجنة، ونار، وحساب، وعذاب، وحوض، وبرزخ، هذه كلها إخبار من الله، أخبرك بوجود ملائكة، أخبرك بوجود جن، أخبرك أن يوم القيامة لا نهاية له إلى أبد الآبدين، هذه كلها أشياء إخبارية العقل لا يستطيع أن يعرفها بذاته..

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

عن طريق عقله:

(أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

[سورة يس الآية : 68]

(لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

[سورة الأعراف الآية : 26]

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)

[سورة محمد الآية : 24]

والعقل مناط التكليف..

(بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

إيمان إخباري..

(وَالْمَلَائِكَةِ)

إيمان إخباري..

(وَالْكِتَابِ)

إيمان تحقيقي عقلي..

(وَالنَّبِيِّينَ)

إيمان تحقيقي عقلي، انتهى الإيمان.

العقل والنقل :

يجب أن تؤمن بالله ـ بشكل مختصر ـ خالقاً مربياً مسيراً، موجوداً واحداً كاملاً، أسماؤه حسنى مع التفاصيل، وصفاته فُضلى، وهو إلهٌ في الأرض وفي السماء، وإليه يرجع الأمر كله، آمنت بالله، من كمال الله أن لا يدع عباده من دون أمر ونهي، إذاً أرسل كتباً، ومن كمال الله عزَّ وجل ألاّ يظلم العباد، الدنيا تفاوت كبير؛ هناك غني وفقير، هناك قوي وضعيف، وسيم ودميم، صحيح ومريض، متى تسوّى الحسابات؟ في اليوم الآخر.

فاليوم الآخر يمكن أن تؤمن به عن طريق العقل، أو عن طريق النقل معاً، الله أخبرنا به، أما العقل لا يقبل، حياة العمر قصير، قوى كبيرة، قوى مستضعفة، عناصر قوية، عناصر مستضعفة، أغنياء فقراء، أقوياء ضعفاء، أصحاء مرضى، تفاوت كبير جداً، ثم موت ينهي كل شيء، فإذا ما في يوم آخر فالوضع غير مقبول أبداً، وغير معقول.

فيجب أن تؤمن بالله بعقلك، وباليوم الآخر بعقلك، وبالكتاب بعقلك، وبالنبيين بعقلك، أما الملائكة بالنقل، بالإخبار..

(وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

الإيمان يجب أن يؤكده الفعل :

لكن إذا آمنت ولم تتحرَّك فما قيمة إيمانك؟ هذا بالدرس القادم إن شاء الله.

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

أيها الأخوة الكرام... إنسان في معه مرض جلدي وهو بحاجة ماسَّة إلى أن يتعرَّض لأشعة الشمس، جالس في غرفة قميئة رطبة لا ترى الشمس أبداً، وهو فصيح يقول: يا لها من شمسٍ

ساطعة، ما أجمل أشعة الشمس! إنها أشعةٌ كالذهب. لكنك أين تجلس؟ إن كان المرض يحتاج إلى أشعة الشمس لمَ لمْ تخرج إليها؟ فما قيمة إيمانك بأشعة الشمس الساطعة، والمطهِّرة، والمبهرة، وأنت بعيدٌ عنها؟ لا بد من حركة، إذا لكم يكن هناك حركة كلام فارغ مهما قلت: أنا إيماني قوي.

إنسان قال: الشمس ساطعة وهي ساطعة، ماذا فعل؟ ما فعل شيئاً، ما أضاف شيئاً، إذا قال: ساطعة. فهذه حقيقة بديهيَّة معروفة، وإذا قال: غير ساطعة، يحتاج إلى مشفى المجانين. إذا أنت أقريت بالحقيقة ما فعلت شيء، وإذا أنكرتها لم يكن عندك عقل، لكن متى تنتفع بالحقيقة؟ إذا استفدت منها، أنا بحاجة ماسة لأشعة الشمس، أؤمن بالشمس وأخرج كي أتعرَّض لأشعتها المطهرة، اجعل في بالك إذا لم يكن هناك حركة ليس هناك شيء:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال الآية : 72]

على المؤمن أن يتحرك نحو خدمة الخلق :

الآيات الكريمة أكثر من مئتي آية:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة البروج الآية : 11]

أي أنه إيمان بلا عمل مستحيل، ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى تعبِّر عن ذاتها بحركةٍ نحو الخلق، أما مؤمن سكوني، مؤمن من بيته إلى دكانه، وليس له علاقة بأحد، هذا مستحيل، لا يعاون أحد أبداً، لا يتمنى أن يقول الحق لإنسان، لا يبلغ عن النبي ولا حديثاً ولا آية، فقط همه شخصه!! هذا ليس مؤمناً..

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ)

في حركة، لا بد من حركة، أن تتحرك إلى بيتٍ من بيوت الله، أن تتحرَّك لخدمة الخلق، لنشر الحق، أن تحمل همّ المسلمين هذا موضوع الدرس القادم، ما في حركة ما في شيء أبداً، هكذا إنسان قناعاته ممتازة، وعواطفه جيدة، الآن في نمط جديد؛ قناعاته إسلامية، وعواطفه إسلامية، وعنده خلفية إسلامية، وأرضية إسلامية، ونزعة إسلامية، ولكن لا يوجد عمل إطلاقاً، يضع في بيته آية الكرسي، ويضع مصحفاً في جيبه لكنه لا يعمل إطلاقاً، ولا عمل صالح له، فقط له مظاهر، صار إسلامه إسلاماً فلكلورياً، إسلاماً استعراضياً ولكن لا يوجد إسلام عملي، فيجب أن نؤمن أنه لا بد من عمل، لا بد من حركة نحو خدمة الخلق:

((بلِّغوا عني ولو آية))

[الجامع الصغير عن ابن عمرو]

إنسان يحضر الدروس منذ عشرين سنة، وليس بإمكانه أن يتكلم كلمتين في مجلس!! يشرح آية، يشرح حديثاً، ينصح، يعطي حكماً شرعياً، طلب العلم فريضة، وتعليم العلم فريضة.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (59- 95):تفسير الآية 177 ، الإسلام منطلق نظري وتطبيق عملي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-10-01

بسم الله الرحمن الرحيم

للآية التالية جانبان عقدي وحركي :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية السابعة والسبعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

هذه الآية أيها الأخوة تمَّ شرح نِصفها الأول في الدرس الماضي، بل شُرِح نصفها العَقَدِيّ وبقي نصفها الحَرَكِي، الدين اعتقاد وعمل، اعتقاد وسلوك، منطلق نظري وسلوك عملي، هذان الجانبان الكبيران..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

الجانب العَقَدِي،

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

والجانب العملي:

(فَاعْبُدُونِ)

الإسلام إيمانٌ وعمل :

الإيمان اعتقاد وسلوك، وأيُّ إنسانٍ، أو أية جهةٍ، أو أية جماعةٍ اكتفت بأحد الشطرين فقد ضلَّت سواء السبيل؛ هناك من يقول: أنا عملي طيِّب، والله لن يحاسبني لا على عقيدتي، ولا على عباداتي. وهناك من يقول: أنا إيماني بالله قوي، ولا أحتاج بعده إلى شيء. كلاهما ضلَّ سواء السبيل، الإسلام إيمانٌ وعمل:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 7]

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ)

[سورة المؤمنون: 32]

العمل:

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

[سورة المؤمنون: 32]

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

كلٌ منهما؛ الاعتقاد والعمل شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، فالذي يُرَكِّز على الاعتقاد فقط ويضعف عمله لم يُصِب الهدف، والذي اعتنى بعمله ولم يصحَّ اعتقاده، أو لم تصحَّ نيَّته لم يُصِب الهدف، فالله عزَّ وجل يقول:

(لَيْسَ الْبِرَّ)

هذه الشكليَّات، وتلك الجُزْئيات، وهذه التفاصيل إنها مطلوبة، ولكن أن تكتفي بها ليس براً، لا بد من أن تضع يدك على جوهر الدين.

هذا الأعرابي الراعي الذي امتحنه ابن عمر.. قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها. قال له: ليست لي. قال: قل لصاحبها ماتت، ليست لي. خذ ثمنها. ليست لي. ثم قال له: إنني في أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله؟! هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين.

هذه الآية من الآيات التي جمعت أركان العقيدة وأركان السلوك :

أيها الأخوة... هذه الآية من الآيات الجامعة المانعة؛ جمعت أركان العقيدة، وأركان السلوك. أركان العقيدة..

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

ذكرت في الدرس الماضي أن هناك حقائق حسيَّة أداتُها الحواسُّ الخمس، وأن هناك حقائق عقليَّة أداتها العقل، وأن هناك حقائق إخباريَّة أداتها الخبر الصادق، والمؤمن الصادق يضع كل قضيةٍ في مكانها الصحيح، فإن كان مكانها العقل أعمل عقله وآمن، وإن كان مكانها الخبر أصغى إلى الخبر وآمن، وإن كان مكانها الحِس استعمل حواسَّه وآمن، فهذا الدرس الماضي.

الإسلام حركة :

أما اليوم..

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

ما قيمة الإيمان إن لم تتحرَّك؟ أنت في أمسَّ الحاجة إلى أشعة الشمس وأنت قابعٌ في غرفةٍ مظلمةٍ قميئة، وجلدك بحاجةٍ ماسة لأشعة الشمس، وقلت متفاصحاً: إنَّ الشمس ساطعة. بل أقسمت إن الشمس ساطعة، بل قلت: إن كل خليةٍ في جسمي، وكل قطرةٍ في دمي تؤمن أن الشمس ساطعة، ماذا فعلت؟

أنت لم تفعل شيئاً لأنها في الأصل ساطعة، لم تَزِد شيئاً إلا أنك اعترفت بحقيقةٍ صارخةٍ أمامك، ولكن الشيء الذي يُجدي أن يشفى مرضك الجلدي من خلال أشعة الشمس، فإن لم تتحرَّك لعرض جلدك على أشعة الشمس لا قيمة لإيمانك بها إطلاقاً، هذه أهم نقطة في الدرس أيها الأخوة.

الإسلام حركة، الإسلام صدق، الإسلام أمانة، الإسلام دعوة، الإسلام وفاء، الإسلام أداء للحقوق، الإسلام إتقان للعمل، الإسلام رأبُ الصَدع، الإسلام إنفاق المال، الإسلام حركة. لا يوجد إسلام سكوني، إنسان هكذا قابع في بيته؛ لا يعمل، ولا يقدِّم، ولا يؤخِّر، ولا يُعطي، ولا يمنع، ولا يغضب، ولا يرضى ويقول إنه مسلم، هذا إسلام سكوني، هذا إسلام لا جدوى منه إطلاقاً.

الإسلام عقيدة وسلوك، الإسلام جانب عَقَدِي، وجاني حَركي، الإسلام مُنطلق نظري وتطبيق عملي، الإسلام توحيد وعبادة، هذان جناحا الإسلام، والطائر لا يطير إلا بجناحين، بجناحٍ واحدٍ لا يطير، وأيُّ اعتمادٍ على جانبٍ دون الآخر، وأي تركيزٍ على جانبٍ دون الآخر إنما هو خللٌ في الفهم، وخللٌ في السلوك.

حياة المؤمن مبنية على العطاء :

أيها الأخوة الكرام:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى)

أولاً: لو رجعنا إلى أول آيةٍ في سورة البقرة:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ*الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

[سورة البقرة: 2-3]

حياة المؤمن مَبنيةٌ على العمل الصالح، حياةُ المؤمن مبنيةٌ على الإنفاق، حياة المؤمن مبنيةٌ على العطاء. إن صحَّ التعبير له سياسة أساسيَّة، لها مصطلح عصري ـ الاستراتيجية ـ استراتيجية المؤمن أنه يعيش ليُعطي، يكسب المال لينفِقه، يتعلَّم ليعلِّم، يتزوَّج لينجب أولاداً صالحين، يعمل عملاً حِرفياً لينفع المسلمين، بُنيت حياته على العطاء، لذلك أحد كُتَّاب السيرة ـ يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام ـ قال: **" يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ ".**

المنحرفون يأخذون ولا يعطون، المؤمن يعطي ولا يأخذ لأنه يأخذ من الله عزَّ وجل جنَّةً عرضها السماوات والأرض، فإن أراد أن يأخذ على عطائه فكأنما اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً.

مَلِك عظيم كلَّف معلّماً أن يعطي ابنه دروساً، وقال له: أنا سأكافئك، والملك بماذا يُكافئ؟ أقلُّ شيء يعطي عطاءً كبيراً جداً، فهذا المُعَلّم سأل هذا الطالب أن يُعطيه الأجر، فأعطاهُ مبلغاً محدوداً جداً، هل في رأس هذا المعلم ذرَّة عقل؟ لا. لو أخذ الأجر من المَلك لكان أجراً كبيراً جداً، فهذا الذي يطلُب على عمله الصالح عطاءً، يطلب على عمله الصالح أجراً، يطلب على تعليم الحَق للناس أجراً، يطلب على خيرٍ أجراً، هذا زهد بما عند الله، وطمع بما عند المخلوقين فهذا خاسر خسراناً كبيراً.

حبّ المال أودعه الله في قلوب البشر ليكون إنفاقه قربةً إلى الله :

أيها الأخوة الكرام... ولكن

(البر من آتى)

آتى بمعنى أعطى، لكن يُقال: آتى لمن كان المال من كسبه، أو أتاه بطريقٍ مشروع، آتيتُه مالاً من مالي، المال ما يُنتفع به، ما يتموَّل، وقد أودع الله في قلوب البشر حبَّ المال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

لولا أن الله حبَّب المال إلينا لما كان هناك جدوى من إنفاقه، ولما كان إنفاقه قربةً إلى الله عزَّ وجل، لأن الله حبَّب المال إلينا كان إنفاقه قربةً إلى الله؛ لأنك تنفق شيئاً تحبه، لأنك تنفق شيئاً أنت حريصٌ عليه:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً *إِلاَّ الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج]

يحبُّ المال، يحب جمعه، يحب ادّخاره، يحب كَنْزَهُ، يحب أن يتباهى به، لأن الله ركَّب في الإنسان حُب المال، وأمرنا بإنفاق المال كي نصل إلى الله تعالى، وكي نرتقي إليه، ونصل به إلى الجنة.

الحركة المعاكسة لميل النفس هي ثمن الجنة :

أيها الأخوة الكرام...

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

هذا الجانب العقَدي، الاعتقادي، العقيدة، الجانب الحركي، السلوكي الذي يجسِّد الجانب الاعتقادي، الذي يؤكِّد..

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

أيها الأخوة الكرام... دقّقوا في كلمة " على حُبِّه "، آتى المال، وهو يحب المال، الشيء إن أحببته وأردت أن يكون لك، أردت أن تقتنيه، أردت أن تضمَّه إليك، أردت أن تدَّخره لأنك تحبه. العمل حركة مُعاكسة لمَيل النفس، وهذه الحركة المعاكسة لميل النفس هي ثمن الجنة، حركة معاكسة لمَيل النفس؛ امرأةٌ جميلة، إن نظرت إليها، مشيت مع رغبة النفس، مع هوى النفس، فإن غضضت البصر عنها قُمت بحركةٍ معاكسةٍ لميل النفس، هذا هو ثمن الجنَّة:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

المال قيمة مطلقة لكل الجهد البشري :

الله عزَّ وجل أودع في الإنسان حُبَّ المال بنص قوله تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

[سورة آل عمران : 14]

ذلك أن المال كما قال بعضهم: مادة الشهوات. أنت بالمال تشتري أي شيء؛ تشتري البيت، والسيارة، والأثاث، وتجلس في المَطعم وتأكل، وتلبس أجمل الثياب، وبالمال تسافر، فالمال قيمة مُطلقة، المال هو قيمة الجهد البشري، إنسان صنع شيئاً بجهد عضلي، أو جهد فني، أو جهد علمي، واستغرق مالاً ووقتاً، أنت تشتري هذا الجهد بألف ليرة، هذه القطعة اشتريتها بألف ليرة، أنت ماذا فعلت؟ اشتريت جهداً علمياً أو فنياً أو عضلياً بهذا المبلغ، إذاً المال قيمةٌ مطلقة لكل الجهد البشري.

الهاتف يُشترى بالمال، والثلاَّجة تشترى بالمال، وأن تجلس في فندق وأنت مسافر هذا مقابل مال تدفعه، فالمال قيمة مُطلقة، ما يتموَّله الإنسان، ما يدَّخره، ما كان محبَّباً إليه، ما جعله الله قيمةً مطلقةً لكل شيء لحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل.

بتعريف الفقهاء: المال ما يُنتفع به، له معنى واسع جداً؛ البيت مال، الكُرسي مال ينتفع به، كأس الماء مال، هذه المسجِّلة مال ينتفع به مباشرةً، على كلٍ إذا أُطلق المال انصرف إلى النَقْد، كهذه الورقة التي كُتِبَ عليها ألف ليرة، أو إلى الليرة الذهبيَّة، أو الفضيَّة، أو الأوراق الأخرى ـ العملات الأخرى ـ فهذا اختزال للشيء الذي ينتفع به، أو قيمةٌ مطلقةٌ لما ينتفع به، هو هذا الورق، أو هذا النقد، أو هذا الذهب، أو تلك الفضة.

للآية التالية عدة معانٍ:

قال تعالى:

(وَآتَى الْمَالَ)

آتى المال وهو يحبُّ المال، إذاً هذا الإيتاء فيه قرب إلى الله عزَّ وجل، ما دام هناك حركة معاكسة لرغبة النفس فأنت بها ترقى إلى الله عزَّ وجل، ولولا أن هناك شيئاً ممنوعاً يجب أن تمتنع عنه وأنت تحبُّه، أو أن شيئاً ينبغي أن تفعله على كرهٍ منك، لما ارتقيت إلى الله عزَّ وجل.

1 ـ يحب الإنسان المال فينفقه فيرتقي بإنفاقه :

المعنى الأول:

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

أي يحب المال، فأنفقه، فارتقى بإنفاقه.

2 ـ آتى المال أي آتى من المال ما يحب :

المعنى الثاني: آتى المال؛ آتى من المال ما يحبه، لم يطعم طعاماً فاسداً، أو يقدِّم شيئاً بالياً، أو يقدم شيئاً سقط من عينيه، لا، آتى المال أي آتى من المال ما يحب. النبي عليه الصلاة والسلام لقي السيدة فاطمة وهي تنظّف ديناراً، قال: **" لِمَ تفعلين هذا يا بنيتي؟ قالت: لأنني أريد أن أتصدَّق به ."**

يعطي أفضل شيءٍ من ماله؛ أطيب طعامٍ، أجود ثيابٍ، حتى الصدقة فإنه يعطي العملة الجديدة. لدينا قاعدة اقتصادية أن العملة الجديدة تطرُد العملة الرديئة، فالإنسان أحياناً يدفع العملة المهترئة، أما المؤمن فعلى عكس ذلك، إن أراد أن يدفع صدقةً ينتقي الشيء الجديد منها، هذا المعنى الثاني.

3 ـ آتى المال وهو يحب الإيتاء :

المعنى الثالث: آتى المال على حبه أي؛ على حب الإيتاء، هو لماذا يؤتي المال؟ لكسب مرضاة الله عزَّ وجل. إذاً آتى المال وهو يحبه، وآتى من المال ما يحب، وآتى المال وهو يحب الإيتاء، أحد الكرماء سألته امرأةٌ عطاءً، فأعطاها فوق ما تتمنَّى، فعاتبه بعضهم، وقال: إنه كان يرضيها القليل، وهي لا تعرف أنك كريم، فقال: إن كان يرضيها القليل فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

على حب المال، وعلى أحب شيءٍ من المال، أو على حب الإيتاء تقرُّباً إلى الله عزَّ وجل. والمال الشيء الذي يُنتفع به، وبين قوسين **[العلماء فرَّقوا بين الكسب، وبين الرزق، الرزق ما انتفعت به فقط، والكسب ما كسبته، ولم تنتفع به]** أي أن القميص الذي ترتديه هو رزق، والسرير الذي تنام عليه هو رزق، وهذه الزوجة هي رزق، وهذه الصحَّة هي رزق، أما المُدَّخرات التي في اسمك، أو في حسابك، أو في صندوقك، ولم تنتفع بها، هذا كسبٌ وليس برزقٍ، لأن الكسب تحاسبُ عليه ولم تنتفع به، بينما الرزق تحاسب عليه، وقد انتفعت به.

الله عزَّ وجل جعل أولى الناس بعطائك من هم حولك من الأقارب :

أيها الأخوة...

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

مَنْ أحق الناس بالعطاء؟ ذوو القُربى. حتى أن بعض الفقهاء يقول: لا تقبل زكاة مالٍ من مزكٍّ، وله أقارب محاويج، والإنسان أعلم بأهل بيته، أعلم بأقربائه، يعلمهم حقيقةً، أوراقهم مكشوفة، لا توجد مشكلة، لا يوجد احتيال، لا يوجد كذب، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام شجَّع المؤمنين على أن يتكافل بعضهم بعضاً عن طريق إعطاء الأقارب، لأن العطاء للقريب هو صدقةٌ وصلةٌ في وقتٍ واحد، وليس من الضروري أن تقول لقريبك، لأخيك، لأختك، لابنة أخيك: هذه صدقات، أو هذا من زكاة مالي.. هذا شيءٌ لا يرضي الله عزَّ وجل، فلك أن تقدم هذا المبلغ الذي هم في أمس الحاجة إليه بطريقةٍ أو بأخرى، بطريقة هديةٍ في مناسبة ولادةٍ، في مناسبة نجاح ابنٍ، في مناسبة شراء بيتٍ، في مناسبة عَقْدِ قرانٍ، من قال لك ينبغي أن تقول لهذا القريب وهو قريبك أقرب الناس إليك: هذا من زكاة مالي، الله عزَّ وجل جعل أولى الناس بعطائك من هم حولك، تعرفهم حقَّ اليقين، تعرف حاجتَهم، تعرف خفاياهم، أوراقهم مكشوفة، كل شيء تعرفه، فإن أعطيت هذا القريب جعلت المال في موقعه.

لكن هناك انحرافان في إعطاء المال: أناسٌ لا يحبون أن يعطوا أقرباءهم إطلاقاً، كل أموالهم للآخرين، هذا ابن أخيك على مشارف الزواج، هذه بنت أخيك تحتاج إلى عمليَّة جراحيَّة، ووالدها موظَّف، ودخله محدود، هي أولى الناس بهذا، يحب أن يعطي الآخرين، وهذه الحالات والله موجودة بعدد كبير، تجده شديد البخل على من يلوذ به، كثير السخاء على من لا يعرفه.

بالمقابل لا يمكن أن يعطي شيئاً من ماله لغير أقربائه، من أجل تأمين الأشياء الثانويَّة غير الأساسيَّة، من أجل أن يحُل مشكلاتهم الفرعيَّة والتحسينيَّة لا الضرورية، في رمضان أُسأل مئات الأسئلة: أنه هل أعطي لابنتي لأنه ينقصها براد ـ مثلاً ـ؟ أأعطي ابنتي لأنه ينقصها تجديد غرفة ضيوفها؟ يريد أن يضع هذا المال في أقربائه، ولو كانوا غير مستحقين، هذا انحراف ثانٍ، فلا بد من الموازنة.

في الإسلام ضمان اجتماعي أساسه القرابة أو الموقع :

أيها الأخوة... أكادُ أقول: إن في الإسلام ضماناً اجتماعياً أساسه القرابة أو الموقع، الله أمرنا أن نتكفَّل جيراننا.

((ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم به.))

[البزار والطبراني عن أنس]

هناك علاقة موقع جغرافيَّة، وهناك علاقة قرابة، فإذا تكفَّل كل واحد منا بأقربائه، إذا أكرم الله عزَّ وجل أحدنا بمالٍ وفير، وتعهَّد الشباب في أقربائه فزوجهم، هيَّأ لهم أعمالاً، هذا من أعظم الأعمال عند الله عزَّ وجل، لأنه يحقق التكافل الاجتماعي، إذاً:

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ)

المساكين والفقراء كما قال علماء التفسير: الفقراء والمساكين هاتان الكلمتان، أو هذان المصطلحان إن اجتمعا تفرَّقا، وإن تفرَّقا اجتمعا، أي إذا قال الله: المساكين فقط فيعني بهذا الفقراء والمساكين، وإذا قال: الفقراء فقط فيعني الفقراء والمساكين، وإذا قال: الفقراء والمساكين، على اختلافٍ بين العلماء، بعضهم يقول: الفقير هو الذي لا يملك شيئاً، والمسكين هو الذي لا يكفيه دخله.

هناك رأي معكوس المسكين هو الذي لا يملك شيئاً، والفقير هو الذي لا يجد حاجته، على كلٍ هناك إنسان دخله أقل بكثير من حاجاته الأساسيَّة، سَمِّهِ مسكيناً أو فقيراً فلا فرق، وهناك إنسان لا يملك شيئاً، عاجز، يحتاج إلى إنفاق كامل، على كلٍ مصارف الصدقة..

(ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ)

المنقطع في الطريق، والذي يسألك:

((لَوْ صَدَقَ السَّائِلُ مَا أَفْلَحَ مَنْ رَدَّهُ))

[الجامع الصغير عن السيدة عائشة]

(وَفِي الرِّقَابِ)

كان زمن الفتوحات الإسلاميَّة، وإنسان أُخِذَ أسيراً، ودخل مدرسة الإسلام العملية، فأصبح مؤمناً، ينبغي أن يُعتق نفسه بمالٍ يدفعه لسيده أحياناً، قد يعتقه سيده بلا مال، بلا مقابل، على كلٍ إنفاق المال على نقل الإنسان من العبوديَّة إلى الحريَّة هذا أيضاً مما أُمرنا به.

إيتاء المال عبادة ماليَّة أما الصلاة فعبادة شعائريَّة :

لكن هناك إشارة لطيفة جداً، فحينما كُلِّفنا بعض الكفَّارات لإعتاق رقبة فقال:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

[سورة النساء: 92]

أي سيأتي يوم وينتهي هذا النظام في الأرض، كان هناك نظام عبودية الأفراد، الآن يوجد نظام عبودية الشعوب بأكملها..

(وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ)

الآن:

(وَأَقَامَ الصَّلَاةَ)

الصلاة حركة، الإنسان أحياناً يقول لك: أنا أتأمل بالله، ولكن التأمُّل ليس بحركة، أما الصلاة: توضَّأ وصلَّى، وقد يصلي وهو متعب، وقد يصلي وهو مسافر، فالصلاة حركة. وإيتاء المال عبادة ماليَّة، أما الصلاة عبادة شعائريَّة، في عبادة بدنية ومالية كالحج، وهناك عبادة مالية كالزكاة والصدقة، هناك عبادة شعائريَّة كالصيام والصلاة، وهناك عبادة تعامُلية كالصدق، والأمانة، والإحسان إلى الجار، والوفاء بالعهد. صار عندنا عبادة تعامليَّة، وعبادة بدنيَّة، وعبادة ماليَّة، وعبادة شعائريَّة..

(وَأَقَامَ الصَّلَاةَ)

الفرق بين الزكاة والإنفاق أي الصدقة :

الآن دقّقوا، فهذا..

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ)

إيتاء الزكاة شيءٌ لا علاقة له بالآية السابقة، هذه فرضٌ على كل غني، وللتوضيح: أنت عليك ضريبة لا بد من دفعها، وإلا توجد غرامات، يوجد جزاء، توجد مساءلة قانونية، فإذا أديت زكاة مالك أنت نجوت من العقاب فقط، هذه فرض، فرضٌ في مال الأغنياء للفقراء، الزكاة تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدُّ إلى فقرائهم، الزكاة أيها الأخوة تؤخذ ولا تعطى، بدليل قوله تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

[سورة التوبة: 103]

تطهرهم؛ تطهر الغني من الشُح والفقير من الحِقد، تطهر المال من تعلُّق حق الغير به، تزكّي الفقير، يشعر بقيمته في المجتمع، تنمو نفسه، هناك من يهتمُّ به، هناك من يرعى حاله، هناك من يساعده، هناك من يقلق له، وتزكّي نفس الغني فيرى أثر عمله؛ ابتسامة الأطفال حينما تعطي أباهم مالاً وفيراً في أيام العيد ـ مثلاً ـ عند الحاجة، في أوقات المِحَن فالزكاة فرضٌ واجبٌ على كل غني، بينما إنفاق المال إما على حب الله عزَّ وجل، أو حباً للمال، أو إنفاق أحب المال إليك، أو الإنفاق حباً بالإنفاق.

أربعة معانٍ: إما لأنك تحب الله أنفقت هذا المال، أو لأنك تحب المال أنفقته وأنت تحبه، وبهذا ترقى، أو لأنك أنفقت أحب المال إليك، أو لأنك أنفقت المال حباً بالإنفاق وهذا تصعيدٌ رائعٌ جداً للإنفاق، على كلٍ هذا الإنفاق لا علاقة له بالزكاة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إنَّ فِي الْمَالِ حَقّاً سِوَى الزَّكَاةِ))

[الترمذي عن فاطمة بنت قيس]

الزكاة قسرية أما الصدقة فهي طوعيَّة :

هناك سؤال الآن: أنت أديت زكاة مالك بالتمام والكمال، ولك جار مسلم بحاجة ماسَّة إلى عمليَّة جراحيَّة، ماذا تقول له؟ أنا أديت زكاة مالي. لا.. "إنَّ فِي الْمَالِ حَقّاً سِوَى الزَّكَاة ". وقد استنبط العلماء من قوله تعالى :

(فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

[سورة المعارج: 24]

هي الزكاة:

(فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ)

(لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة المعارج: 25]

من غير كلمة معلوم، هي الصدقة، إنسان دفع الضريبة هل تقام له حفلة تكريم؟ لا أبداً عليك ضريبة للماليَّة أديتها، وأخذت إيصالاً بالوقت المناسب، فلا يقدم لك كتاب شُكر، ولا حفل تكريم، أما إذا أنشأت مستوصفاً وقدَّمته لوزارة الصحَّة، هناك إنسان قدَّم بناء ضخماً ليكون جامعة في بعض المحافظات، واللهِ هذا يقام له حفل تكريم ويُشْكَر بكتاب شُكر، فالزكاة فرض إن أديتها نجوت من العقاب لكن الصدقة تطوُّع، الزكاة قسرية أما الصدقة فهي طوعيَّة، فلذلك جاءت كلمة " الحب " في إنفاق المال الذي تتجاوز به الزكاة المفروضة هذا دليل حبك لله عزَّ وجل، ودليل تعلُّقك بما عند الله عزَّ وجل، ومن قدَّم ماله أمامه سرَّه اللحاق به.

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ)

المسلم يوفي بعهده :

الآن أيضاً توجد حركة؛ الحركة الأولى ماليَّة، الحركة الثانية شعائريَّة ـ أقام الصلاة ـ الحركة الثالثة ماليَّة ولكنها مفروضة ـ وآتى الزكاة ـ الحركة الرابعة وَعَدَّت أن تنفق يجب أن تنفق..

((لا إيمَانَ لِمَنْ لا أمَانَةَ لَهُ ـ دقّقوا الآن ـ وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

(وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)

المسلمون عند شروطهم، والمسلم يوفي بعهده ولو كلَّفه ما كلَّفه، والمُنافق لا يفي بعهده ولو جُعلت سمعته في الوحل.

الآن هناك حركة سلبيَّة، جاءك ضغط، ضغط صحي، مرض لا سمح الله، استسلمت لله، صبرت، أو جاءتك فاقة ماليَّة، حاجة للمال شديدة ونفسك عزيزة، فصبرت، أو جاءك تهديد لتعصي الله فصبرت، أو جاءك إغراء كي تخرُج عن منهج الله فصبرت..

(وَالصَّابِرِينَ)

متى؟ قال:

(فِي الْبَأْسَاءِ)

في الفقر الشديد، وفي..

(وَالضَّرَّاءِ)

في الألم الشديد..

(وَحِينَ الْبَأْسِ)

في ساحة المعركة.

الآية التالية آية جامعة مانعة :

يصبر وهو مفتقر، يقول لك: والله لا أملك ثمن أجرة طريق، هذا صبر، والآخرون ينفقون الأموال جُزافاً، هذا صبر ولصاحبه أجر كبير..

(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ)

والله أيها الأخوة هذه آيةٌ جامعةٌ مانعة، فيها جانب عَقَدِي وجانب حركي، والحركي جانب مالي أساسه الحب، وجانب شعائري، وجانب مالي أساسه الفَرض، وفيها جانب أخلاقي أساسه الوفاء بالعهد، وفيها جانب سلبي أساسه الصبر في ثلاث حالاتٍ كبيرة؛ في حالة الفقر الشديد، وفي حالة الألم الشديد، وحين البأس أي حين لقاء العدو.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

هؤلاء الذين صدقوا في إيمانهم، هذا مِصداق إيمانهم، هذا يؤكِّد صدقهم لله عزَّ وجل..

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

الذين اتقوا أن يعصوا ربَّهم، أو اتقوا سَخَطَ ربِّهم، أو اتقوا عذاب ربهم.

على المؤمن أن يجمع بين صحة العقيدة وانضباط السلوك:

أيها الأخوة... جميلٌ بالمؤمن أن يكون وقَّافاً عند حدود الله، وعند كلام الله. فهذه الآية منهج؛ يجب أن تؤمن بكذا وكذا، وأن تفعل كذا وكذا، فإن جمعت بين الإيمان والعمل، لا كما قلتُ في مطلع الدرس: الناس يركِّزون على الاعتقاد فقط، يقول لك: ـ وهذه أشياء كلها جديدة ـ فلان له أرضية إسلامية، أو خلفيَّة إسلامية، أو نزعة إسلامية، أو شعور إسلامي، أو انتماء إسلامي، لم يفعل شيئاً، سلوكه صفر؛ لا يوجد التزام، ولا يوجد عمل صالح، ولكن أفكاره، ومشاعره، وعواطفه، وأرضيته، وخلفيته، واتجاهه، ونزعته إسلاميَّة، ماذا يجدي؟! إنسان آخر يقول لك: أنا لا أؤذي أحداً، أنا عملي طيِّب، ولن أحاسب على أي شيء آخر. أيضاً هذا انحراف. يجب أن يجمع بين صحة العقيدة وانضباط السلوك، أن تجمع بين الاعتقاد الصحيح والإحسان للخلق، بل إن السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ)

[سورة مريم: 31]

الدين حركتان؛ حركة نحو الله اتصالاً، وتعبُّداً، ودُعاءً، واستسلاماً، وحركة نحو الخلق إحساناً:

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

[سورة لقمان: 22]

أيها الأخوة... بالجانب الأخير في الآية:

(وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)

هذه صفات المتقين، فكم من إنسان يعطي عهداً موثقاً ولا يَفي، يُعطي وعداً دقيقاً ولا يفي بوعده، أين هو من الإيمان؟ الخطأ الكبير أن الناس توهَّموا أن كل إنسان صلَّى فهو ديِّن، أو كل إنسان دخل المسجد فهو ديِّن، لا، هذه صفات المؤمنين حقاً.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (60- 95):تفسير الآيات 178-179 ، القصاص
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-10-08

بسم الله الرحمن الرحيم

مخاطبة الله عامَّة الناس بأصول الدين والمؤمنين بفروع الدين :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الستين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثامنة والسبعين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام... ذكرت لكم سابقاً أن الله جلَّ جلاله يُخاطب عامَّة الناس بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

ويخاطب المؤمنين بفروع الدين، ذلك أن بين المؤمن وربِّه عقداً إيمانياً، أي يا أيها الذي عرفتني، ويا أيها الذي آمنت بعدلي، وبقدرتي، وبمنهجي، وبأن الطريق التي رسمتها لك تُفضي إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وكل المعاني الكبرى التي جاء بها الدين منطوية في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بالله وحده، يا من آمنتم به موجوداً، كاملاً واحداً، وآمنتم به خالقاً رباً مسيِّراً، آمنتم بحكمته، وعدله، وآمنتم أنه لن يدع خَلقه من دون منهجٍ يسيرون عليه، وآمنتم بأن الدنيا دارٌ فانية، وأن الآخرةَ لهي الحيوان.

المؤمن على يقين أن آيات القرآن هي منهج الله سبحانه :

كلُّ المعاني الكبرى التي جاء بها الدين مختزلة في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أيْ أنت مؤمن، وما دُمت مؤمناً فهذا منهج الله عز وجل، أنت في الصلاة تقول:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ*صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة: 6-7]

ويقول الله عز وجل لك في الصلاة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى)

أنت حينما تقرأ السورة في الصلاة ينبغي أن تفهمها على أنها منهج الله، وعلى أنك سألت الله قبلها، وقلت له: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، اهدنا المَنهج القويم، اهدنا الطريق الذي يؤدِّي إليك، والذي يؤدي إلى سلامتنا وسعادتنا، فأيَّة آيةٍ مصدرةٌ بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ينبغي أن تفهم هكذا، والذي لا يتأثر حينما يقرأ، ولا يرى نفسه معنياً بها، ففي إيمانه خللٌ خطير، فالمؤمن الصادق الحق هو الذي إذا قرأ مثل هذه الآية رأى نفسه مخاطباً بالقرآن الكريم.

الكتابة ومشتقَّاتها في القرآن الكريم دليل الثبات :

أنت مؤمن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أما كلمة:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ)

الكتابة ومشتقَّاتها في القرآن الكريم دليل الثبات، كيف أنَّك إن اشتريت شراءً شفهياً قد تخشى أن ينكر البائع، وإن اشتريت بيتاً شراءً شكلياً، شفهياً، تخشى أن يأتي على البائع ساعةٌ فيندم على بَيْعَتِهِ فينسحب من هذه البيعة، فأنت ماذا تفعل؟ تريد عقداً مكتوباً، يقول لك: وقَّعت عقداً، ولا يوجد عند ربنا عزَّ وجل كتابة، كن فيكون، لكن الكتابة أو مشتقاتها إذا وردت في القرآن الكريم فهي تطمينٌ لهذا الإنسان:

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

[سورة الأنعام: 54]

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

[سورة الأنبياء: 105]

الكتابة أو مشتقاتها إذا وردت في القرآن الكريم فهي تطمينٌ للإنسان :

كل مشتقات الكتابة في القرآن الكريم دليل أن هذا الإنسان بحسب معطياته المادية، وعلاقاته الاجتماعية، وبحسب حركته في الحياة، عنده قناعة أن الشيء المكتوب ثابت، والشيء غير المكتوب غير ثابت، فربنا عز وجل تمشياً مع فِطرة الإنسان ومع جبلَّته يُطَمْئِنُهُ بألفاظ:

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

[سورة الأنعام: 54]

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

[سورة الأنبياء: 105]

لكم أن تراجعوا في البيت الكلمات التي جاءت في القرآن الكريم التي فيها معنى الكتابة، لتروا أن الكتابة تطمينٌ لهذا الإنسان.

الله عز وجل هو الحق لذلك شرع القصاص :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ)

القصاص من قَصَّ الشيء تتبعه، وهناك اشتقاقات كثيرة من معنى قَصَّ، مثلاً:

(وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ)

[سورة القصص: 11]

تتبعي أخباره، المُجرم حينما يقتل لا بد ممن يتتبع مكانه، فيقبض عليه، ثم لا بد من محاكمته، وإيقاع العقوبة به، فتتبُّع الأخبار والمحاكمة وإيقاع العقوبة، مجمل هذا النشاط اسمه قِصاص، في محكمة جنايات في قصر العدل، ذكر لي بعضهم: أن آيةً قُرآنيةً كبيرةً جداً وضِعت فوق رأس القاضي، من يقرؤها؟ المذنبون في قفص الاتهام، كتب في هذه اللوحة:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

ووضعت آيةٌ فوق رؤوس المذنبين يقرؤها القاضي :

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

[سورة النساء: 58]

وقد ورد في الأثر **" أن عدل ساعةٍ يعدل أن تعبد الله ثمانين عاماً"**. وقد ورد أيضاً أن حجراً ضَجَّ بالشكوى إلى الله عز وجل، قال: يا رب؛ عبدتك خمسين عاماً، ثم تضعني في أُسِّ كنيف ـ أي في دورة مياه، في الحمام، لقضاء الحاجة ـ ورد هكذا أن الله عز وجل قال له: " تأدَّب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم "، أي أن مكانك في الكنيف أشرف لك ألف مرة من أن تكون في مجلس قاضٍ ظالم، والله عز وجل هو الحق، لذلك شرع القصاص.

حقيقة القِصاص هي التأديب والإصلاح :

قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

لا بد من نظرةٍ متأنية لحقيقة القِصاص، حقيقة القِصاص هي التأديب والإصلاح، التأديبُ من أجل الإصلاح، وهذان المعنيان ينطلقان من مفهوم التربية؛ أي أنك أب، أو معلم، أو مدير مدرسة، أو حاكم، أو وزير، أو بأي منصب، وأساء عندك إنسان، فهل يعقل أن تتخلى عنه لأنه أساء؟! وهل يعقل أن يُؤخذ الإنسان بذنبٍ واحد؟ هل يعقل أن يسحق الإنسان إذا أخطأ مرةً واحدة؟! أما إذا أخطأ

فعوقب، فماذا فعل العقاب فيه؟ ترك عنده خبرةً مؤلمةً، وهذه الخبرة المؤلمة قد تردعُه عن أن يفعل هذا مرةً ثانية، وهذه هي حقيقة القِصاص.

مستحيل أن يكون القصاص انتقاماً، ولا يليق بالله عز وجل أن يوقع القِصاص بعباده انتقاماً، لأن عباده؛ إنسهم وجنهم لو وقفوا على صعيدٍ واحد، وسأله كل واحدٍ منهم مسألته ما نقص في ملكه إلا كما ينقص المخيط إذا غُمس في مياه البحر، ولو أن عباده جميعاً إنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحد منهم ما نقص في ملكه شيئاً، ولو أنهم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منهم ما زاد في ملكه شيئاً.

إذاً مستحيل أن يوقع الله عز وجل القِصاص انتقاماً، لكنه يوقع القِصاص تأديباً ورحمةً، فمبدأ القصاص مبدأ تربوي، ينطلق من رحمة.

لاحظ لو أنك مدير مؤسسة، وطلبت موظفاً، واشترطت عليه أن هناك ستة أشهر تجريب، فكلما أخطأ سَجَّلت عليه خطأه، فلما انتهت هذه المدة، ورأيت أخطاءه كثيرة، طردته من العمل بحسب العقد، أنت محل تجريب، لو كان هذا الموظف ابنك فماذا تفعل؟ كلما أخطأ تنبِّهه، فإن أصرَّ تعاقبه، من أجل أن تصلحه، من أجل أن يبقى عندك، ويرقى، فالرحيم يعاقب، أما غير الرحيم فلا يعاقِب، ويتخلى مباشرةً.

الآن الفرق بين مدير مؤسسة، مدير مستشفى، مدير مدرسة، وأب معلم رحيم، فالرحيم يؤدب ويعاقب حتى يصلح، حتى يسعد هذا الذي يصلحه، أما غير الرحيم يأخذه بذنبه ولا يلتفت إليه، ولذلك فالأقوياء لا يُسْتَرْضَون، لكن الله يسترضى.

إذاً أصل القصاص أن الله يحب عباده، ولأنه يحب عباده إن انحرفوا أو أخطؤوا ويعاقبهم من أجل أن يدع عندهم خبرةً مؤلمةً كي لا يعيدوا هذا السلوك، واسأل معظم المؤمنين، أخطأ مرة فعاقبه الله، هذا العقاب ردعه عن أن يعيد هذا الخطأ.

إنسان عنده معمل ألبسة، فإنسان رقيق الحال دخل إلى هذا المعمل، وطلب عدة قِطَع لأولاده، صاحب المعمل رأى في هذا البيع الإفرادي إهانةً له، فهو يبيع بالجملة، فامتنع عن بيعه استكباراً، فأدَّبه الله بأن صرف عنه الناس أكثر من ثلاثين يوماً، فقال لي صاحب المعمل: كاد الدَمُ أن يجف في عروقي، وعرفت ذنبي أنني ترفعت عن بيع هذا المسكين، فأدبني الله عز وجل. فدائماً وأبداً الله عز وجل لا يتخلى عن المؤمن، يؤدبه، ويصلحه، وقد يسوق له خبرات وعقابات مؤلمة، وشدة الألم تتناسب مع حجم الذنب، وكلما ازداد الذنب فداحةً كلما ازداد الألم إيقاعاً.

العقوبات من نِعَم الله الكبرى لأنها روادع ومعالجات :

يا أيها الأخوة الكرام.. الآية تقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي: يا من آمنتم بي خالقاً ورباً وإلهاً وموجوداً وواحداً وكاملاً، و يا من آمنتم بمنهجي افعلوا كذا أو لا تفعلوا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ)

هل تتصور قانوناً في الأرض لا يوجد له مؤيِّدات؟! تصور قانون سير بلا مؤيِّدات؛ أن الأصل أن تمشي على اليمين، وأن لا تقف وقوفاً مفاجئاً، أليس من المفروض أن يطبق ذلك؟ أما لو كل مادة خالفتها فهناك غرامة، وهناك سحب إجازة، أو حجز مركبة، وهذه اسمها بالقانون: المؤيدات القانونية، ولولا العقوبات التي ترتبط بمخالفة القوانين لما طبق أحدٌ قانوناً.

إذاً ربنا عز وجل أنزل منهجاً، قال لك: افعل ولا تفعل، والإنسان مخيَّر، إن أراد أن يفعل ما حرَّمه الله، أو أراد أن يمتنع أن يفعل ما أمره الله به، لولا أن هناك عقوبات، ومتابعات، لما طبق أحدٌ منهج الله عز وجل، فالقاتل يُقتل، والزاني يُجلد، إن كان محصناً يُرجم، والذي يرمي المُحصنات يُجلد ثمانين جلدة، والذي يشرب الخمر يفعل به كذا وكذا، إذاً هذه العقوبات من نِعَم الله الكبرى أنها روادع ومعالجات، هذا إنسان إن لم يفعل فقد ردعته العقوبة، وإن فعل وجاءه العقاب، تأدَّب مع الله عز وجل، وترك هذا الفعل الشنيع كلياً، إما أنه تطهير أو ردع، العقوبات تطهير لمَن وقع في الآثام، وردع لمن لم يقع فيها، وهذه من نِعَم الله الكبرى، ثم إنك إن دخلت إلى مسجد وكان لك ـ وهذا شيء مستحيل ـ علمٌ بأحوال الحاضرين، لوجدت أن معظمهم قد اصطلح مع الله على أثر عِقاب أو تأديب، فإنسان أخطأ فأدبه الله فتاب إلى الله، لذلك:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

أسباب نزول هذه الآية :

الجاهليون قالوا: القتل أنفى للقتل، أو القتل أوفى بالقتل، لكن ربنا عز وجل يقول:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

أيْ حياة القلب، إنسان تزل قدمه، فلو فرضنا أنه زنا يتأدب أمام الناس، تساق إليه بعض الشدائد، فيتوب إلى الله توبةً نصوحاً، ويقبل عليه، ويذوق طعم القرب منه، فهو أسعد الناس لهذا القرب من الله بسبب هذا التأديب الذي ساقه الله إليه. ولعلكم تسألون: ما أسباب نزول هذه الآية؟

روى الإمام البخاري والنسائي عن ابن عباسٍ قال: كان في بني إسرائيل القِصاص ولم تكن فيه الدِيَّة. فقال الله لهذه الأمة:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ)

أي: وقع في جريمة قتل، فعفا عنه وَلِيّ المقتول..

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ)

أي قَبِلَ وليُّ المقتول أن يأخذ الدِيَّة دون أن يوقع القِصاص..

(فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ)

أي يؤدِّي هذا القاتل الديَّة بإحسان..

(ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ)

مما كُتِبَ على من كان قبلكم، أيْ: يبدو أن شرع من كان قبلنا القاتل يجب أن يقتل، ولا يوجد حل ثانٍ، أما في شرع النبي عليه الصلاة والسلام الأخير، القاتل إما أن يُقتل أو أن يُعفى عنه فيؤدِّي الدية فينجو من القتل، قال:

(فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

الحكمة من الآية التالية :

ثم إن الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى)

أي إذا قتل الحُر الحر، فيُقتَل القاتل، وإذا قتل العبد عبداً فالقاتل يُقتل، وإن قتلت المرأة امرأةً، فالقاتلة تُقتل، والقتل كما يقول الجاهليون: أنفى للقتل. لكن يقول الله عز وجل:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

معنى حياة؟! استنبط بعض علماء البلاغة من هذه الآية أكثر من عشرين استنباطاً، حينما يوقن القاتل أنه إذا قتل لا بد من أن يُقتل، فإنه يحجم عن أن يقتل، فماذا حصل؟ ضمنا حياتان؛ حياة المقتول سلِمت وحياة القاتل سلمت، حينما يوقن، إذا في قوانين رادعة، في متابعة، فأنت حينما تَسُنُّ قانوناً رادعاً، وتتابع تطبيقه إلى أقصى الحدود، تزول هذه المخالفة كلياً، وحينما يوقن القاتل أو من شرع بالقتل، أو من أراد أن يقتل أنه لا بد من أن يُقتل، فإنه يكفُّ عن القتل، فنكن بذلك كم روح أنقذنا؟ أنقذنا روحين، إنسانيين؛ المقتول بقي حياً والقاتل بقي حياً، هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

أما:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ)

أي ثَبَتَ وفُرض، وهذا أمر تشريعي، لذلك العلماء فرقوا بين أمرٍ تشريعي وبين أمرٍ تنظيمي، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام للرماة: اقبعوا في هذا المكان، وانتظروا الأوامر، فهذا أمر تنظيمي؛ أما الأمر التشريعي هو الذي جاء في القرآن الكريم، وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

المسلمون في مرتبةٍ واحدة في قضية الدم تتكافأ دماؤهم وهذا صونٌ للحياة :

أيها الأخوة.. القصاص بشكل مُجْمَل العقاب، وحينما نتتبَّع المجرم فنقبض عليه ونحاكمه، ونصدر حكماً عليه، ونعدمه إذا كان قاتلاً، فهذه العملية بأكملها تسمى قِصاصاً..

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

لكن حينما قال الله عز وجل:

(الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى)

أيْ إذا قتل حُر حُراً مثله يُقتَلُ القاتل، وإذا قتل العبد عبداً مثله يُقتَل القاتل، وإذا قتلت المرأة امرأةٌ مثلها فالقاتِلة تُقتَل، لكن العلماء قالوا: لكن الحُرَّ يُقتَل بالعبد، والمسلم يُقتَل بغير المسلم. فإذا قتل المسلم غير مسلم قتل دُمِّياً.

القاتل يقتل ولو كان مسلماً، وهذه الآية أصل في هذا العقاب، بيَّنت إذا كان في قتل تم بين فئة واحدة فالقاتل يقتل، أما لو تم بين فئتين متفاوتتين؛ لو أن سيداً قتل عبداً، أو أن عبداً قتل سيداً، أو أن رجلاً قتل امرأةً، أو أن المرأة قتلت رجلاً فالقاتل يقتل، ولو كان بين القاتل والمقتول تفاوت، وهذا لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((المسلمون تتكافأ دماؤهم))

[الجامع الصغير عن ابن عمرو]

حتى ولو قتل أعلى إنسان بالعلم إنساناً جاهلاً فالعالم يقتل به، فإنسان معه دكتوراه بالرياضيات قتل آذناً أُمِّياً، فيقتل به، وإنسان يحمل أعلى شهادة يقتل بمن قتله ولو كان أُمياً، لو قتل رجل امرأةً يُقتل بها.

((المسلمون تتكافأ دماؤهم))

[الجامع الصغير عن ابن عمرو]

المسلمون في مرتبةٍ واحدة في قضية الدم، تتكافأ دماؤهم، وهذا صونٌ للحياة، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه: **" يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً ".**

الله عز وجل يعطي عطاءً مدهشاً :

أيها الأخوة الكرام... لكن الله عز وجل أراد أن يحملنا على العفو، مبدئياً كلكم يعلم قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى: 39]

لكن:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى: 40]

هذا الذي يقوله الناس: سأكيل له الصاع عشرة أصْوُع، هذا كلام غير إسلامي، وغير شرعي، الشيء الشرعي:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى: 40]

فقط. لكن حينما يغلب على ذهنك، أو على ظنّك أنك إذا عفوت عنه أصلحته، وكم ممن استوجَب العقاب، فلما عُفِيَ عنه صار بطلاً، دائماً وأبداً في حقائق نفسية غريبة، إذا أخطأ إنسان، وندم أشد الندم، واعتذر، وطلب أن تسامحه، وعفوت عنه، ملكته، فإن أنزلت به العقاب خسرته، ففي الآية الكريمة قال تعالى:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

وإذا غلب على ظنّك أن عفوك عنه يصلحه، فعندئذٍ انتظر الجزاء من الله، وكلمة

(فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

أي أن الإله كريم يعطي عطاءً مدهشاً.

النظرة الإسلامية إلى الأخوة في الإنسانية :

مثلاً سائق يمشي بتؤدة وبدقة بالغة، فقفز طفل أمامه فقتله، وهذا السائق فقير الحال لا يوجد خطأ منه، فالقانون مع أهل الطفل فيمكنك أن تضعه في السجن وتجعله يدفع دية كبيرة، وقد لا يستطيعها، أنت لما علمت أنه لا يوجد خطأ من السائق، في اهتمام بالقيادة، والسرعة معتدلة، والخطأ من الابن، لكن القانون مع المقتول دائماً أي مع الضحية، فأنت عفوت عنه، فلعل هذا العفو يجعلك في أعلى عليين.

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ)

أي من غلب على ظنه أن العفو يصلح هذا الجاني قال: فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ. ولذلك انتظر الله عز وجل منا أن نعفو فقال:

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ)

انظر إلى كلمة (من أخيه)، أي أن هذا الذي اقترف الجرم أخوك في الإنسانية، والمؤمن دائماً يرعى هذه النظرة، والدول الغربية ـ والعياذ بالله ـ بقدر ما هم إنسانيون، أو بقدر ما هم عنصريون مع مجتمعاتهم بقدر ما هم وحوش مع غيرهم، أما النظرة الإسلامية الصادقة هذه فيفتقر لها أناسٌ كثيرون، وشعوبٌ كثيرة، أي أنت تعامل الإنسان كإنسان، فهذا أخوك بالإنسانية..

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ)

قاتل معتدٍ، سفك دماً، بالقرآن جاء:

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ)

والذي أراه أن المؤمن لا يرقى عند الله عز وجل إلا إذا رأى أن كل إنسانٍ أصلاً أخوه في الإنسانية..

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ)

ولذلك فالمؤمن لا يحقِد، أما إذا عاقب، وهو هادئ، وهو يرى أن العقاب لا بد منه. كسائق أرعن، مسرع سرعة غير معقولة دهس طفل، فيمكن ننزل به أشد العقاب لكي نردعه، كلما عمل عملاً سيئاً، فكلما قتل طفلاً نسامحه، فهذه قضية سهلة جداً، ما أورثناه خبرة مؤلمة، فلا بد من أن نوقع به عقاباً أليماً كي يرتدع، فالمؤمن لا يحقد لكنه يفعل ما هو مُناسب، وقد يعفو، والعفو أنسب وأحكم، وقد يوقِع العقاب أنسب وأحكم.

يجب أن تؤدَّى الدِّية إلى وليّ المقتول بالإحسان وبدون مماطلة :

قال تعالى:

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ)

أي أن الدية تؤدَّى إلى وليّ المقتول بالإحسان بدون مماطلة، فأحياناً يعفو إنسان عن القاتل أو عن القتل خطأ ـ أكثر شيء بحوادث السير تقريباً ـ فلا يعطون الدية، فلما عفا عنه أسقط حقه، صار في مماطلة، أما هنا الآية:

(وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ)

وعلى كلٍ تشير هذه الآية إلى شرع من كان قبلنا.

(ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ)

فمن كان قبلنا القاتل يُقتل، ولا يوجد العفو، أما عندنا في هذا الشرع العظيم فالقاتل يُقتل إلا أن يعفو وليّ المقتول، فعندئذٍ تنقلِب عقوبة القتل إلى أداء ديةٍ بإحسان، قال:

(فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

هناك عادة سيئة جداً منتشرة في أرياف العالم العربي والإسلامي هي الأخذ بالثأر، والأخذ بالثأر لا من القاتل بل من أيّ شخصٍ من قبيلة القاتل، وهذا شيء لا يقبلُه عقل، ولا يقبلُه منطق.

القِصاص فيه الحياة :

الآية الكريمة:

(وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً)

[سورة الإسراء: 33]

وليّ المقتول معه سُلطان، تقتل إنسان من قبيلة القاتل فهذا ليس له ذنب، وهذا اسمه إسراف في القتل، وألا تقتل اثنين بواحد، وألا تقتُل واحداً لا علاقة له بهذه الجريمة، وهذا الشيء وصمة عار بحق أي مجتمع يأخذ بالثأر بشكل عشوائي، لأن الله عز وجل قال:

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

[سورة الأنعام: 164]

(فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً)

[سورة الإسراء: 33]

هناك نقطة في هذه الآية.. سيدنا عمر رضي الله عنه قال:" لو أن أهل بلدةٍ اتفقوا جميعاً أو تمالؤوا جميعاً على قتل واحد، لقتلتهم جميعاً به "، وهذا من ورع سيدنا عمر رضي الله عنه، فنعمة الأمن لا تقدَّر بثمن، بل إنه بالحكم الشرعي لا يجوز أن تسكن في بلد ليس فيها أمن، وفي بعض البلاد المجاورة الإنسان ثمنه رصاصة، يموت بأتفه سبب ولا توجد محاكمة، في أثناء الحرب الأهلية هناك حكم شرعي: " لا يجوز أن تقطن في بلدٍ ليس فيه أمن "، والأمن كيف يكون؟ بالقصاص. إنسان يقتُل، فيعدم في مكان الجريمة، وبعد فترة وجيزة جداً، هذا مما يدعو إلى ردع الآخرين، ولذلك القِصاص فيه الحياة، ولولا القِصاص الذي ينفَّذ كل يوم، لما استطاع إنسان أن يمشي في الطريق، ونعمة الأمن في بلدٍ لا تعدلها نعمة، فالإنسان آمن على بيته، على ماله، على أولاده.

السلطان ظِلُّ الله في الأرض لأنه يقيم الحدود :

أيها الأخوة الكرام سيدنا عمر قال: " لو أن أهل بلدةٍ تمالؤوا جميعاً على قتل رجل، لقتلتهم به جميعاً ". ثم يقول الله عز وجل:

(فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيْ أخذ الدية وعفا، ثم قتل، ثم أخذ بالثأر، أو قتل إنساناً ـ غير القاتل ـ أو قتل اثنين بواحد وهذا اسمه عدوان. قال:

(فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

والآية الأخيرة:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

فالعوام يقولون: العصا من الجنة، فإذا كان البيت فيه شدة تجده منضبطاً، الأولاد يأتون في الوقت المناسب، ويجلسون على مائدة واحدة، ويأوون إلى فراشِهم في وقت مبكّر، ويحصِّلون دراساتهم بشكل جيِّد، إنها أسرة منضبطة سببها قيادة حكيمة وأب شديد يوقع العقاب بأولاده إذا أخطؤوا، فالإنسان حينما يُحِسُّ أن هناك عقاب، فهذا سبب انضباط الناس؟ فانضباط الناس بسبب العِقاب، أما لو تفلَّت الناسُ من العقاب، لرأيتهم يقتُلُ بعضهم بعضاً، مثلما قال سيدنا عثمان فيما أذكر: " إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرعه بالقرآن "، أي أن السلطان ظِلُّ الله في الأرض، لأنه يقيم الحدود، ويقطع يد السارق، ويحاسب الناس إذا أخطؤوا، فالأمور تنضبط.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

ثم في الدرس القادم ننتقل إلى قوله تعالى:

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (61- 95):تفسير الآيات 180- 184، الوصية والعبادات الشعائرية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-10-15

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذه الآية الكريمة مركز ثقل ألا وهو الموت :

أيها الأخوة الكرام مع الدرس الواحد والستين من دروس سورة البقرة ومع الآية الثمانين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ)

أيها الأخوة الكرام... في هذه الآية الكريمة مركز ثقل، ألا وهو الموت فالله عز وجل يقول:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

ولأنه قدم الموت على الحياة فهناك حكمة بالغة بالغة، ذلك أن الموت أخطر من حدث الحياة، حدث الموت أخطر من حدث الحياة، لأن الإنسان حينما يولد أمامه خيارات كثيرة، وفوق هذه الخيارات كل أغلاطه أو ذنوبه يمكن أن يتوب منها، البدايات، أما الموت حينما يأتيه الموت:

(لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

[سورة الأنعام: 158]

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

[سورة الأحزاب: 18]

خطورة الموت أنه يحدد مصير الإنسان الأبدي إلى ما شاء الله :

خطورة الموت أنه يحدد مصير الإنسان الأبدي إلى ما شاء الله، ومعنى كلمة أبدي أي ألف مليار سنة، أعمارنا نحن بين الستين والسبعين كما ورد في بعض الأحاديث، ألف مليار، مليار، مليار، مليار مليار، مِليار، إلى أن ينقطع النفس، أكبر رقم تتصوره واحد في الأرض وأصفار إلى الشمس، مئة وستة وخمسون مليون كيلومتر أصفاراً بين كل صفرين ميليمتر، هذا الرقم إذا نسب إلى لانهاية، إلى الأبد فهو صفر، أي رقم مهما كبر إذا نسب إلى لا نهاية فهو صفر، فما معنى؟

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

[سورة التغابن: 9]

وما معنى؟

(نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

[سورة التوبة: 21]

وما معنى؟

(وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ)

[سورة البقرة: 167]

هذا هو النعيم المقيم، وهذا هو النعيم الذي خلق الإنسان من أجله، أما هذه السنوات المعدودات، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه.

أكبر خسارة أن تخسر الآخرة وأكبر ربح أن تربح الآخرة :

يا أيها الأخوة الكرام: حدث الموت إن لم يدخل في صميم حياتنا، وفي صميم عقيدتنا، وبرامجنا، وسلوكنا، فقد يكون حدثاً مؤلماً جداً.

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

[سورة المدثر: 8 - 10]

والله قد تأتي على من شارف الموت تأتي عليه ساعة يقول لم أر خيراً قط، من شدة الآلام التي تنتابه، ألم الخسارة الكبرى.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: 15]

أكبر خسارة أن تخسر الآخرة، وأكبر ربح أن تربح الآخرة ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أكثروا ذكر هادم اللذات إنه مفرق الأحباب، مشتت الجماعات .))

[رواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

قال:

((عش ما شئت فأنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارق واعمل ما شئت فإنك مجزي به .))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن سهل بن سعد البيهقي عن جابر]

البطولة أن تعد لما بعد الموت :

يا أيها الأخوة... كما قال عليه الصلاة والسلام:

"إن أكيسكم أكثركم للموت ذكرا، وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن العاقل من يتجافى عن دار الغرور، ومن ينيب إلى دار الخلود، ومن يغير نفسه لسكنى القبور، وليوم النشور "

يا أيها الأخوة الكرام... هل من حدث في حياتنا جميعاً أشد واقعيةً من الموت، حدث الغنى، فقد يصيبنا وقد لا يصيبنا، وحدث الفقر، فقد يصيبنا وقد لا يصيبنا، وحدث المرض كذلك، أما حدث الموت فلا يمكن أن ينجو منه أحد، ومادام الموت انتقال من دار إلى دار، من دار الفناء إلى دار الخلود، فماذا أعد الإنسان لهذه الدار الطويلة؟!

أيها الأخوة الكرام:

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

لذلك فقد أدخل المؤمن حدث الموت في برامجه اليومية، لأنه كلما وقف موقفاً، وكلما دعي إلى عمل، وإلى قول، ولقاء، وسفر، يسأل نفسه هذا السؤال، ماذا أجيب الله يوم القيامة، لِمَ فعلت؟ ولِمَ لَمْ تفعل؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92 - 93]

النقطة الدقيقة هي أن كل واحد منا له عمر، كيف مضى؟ مضى كلمح البصر، وإن سأل نفسه هذا السؤال الحرج، كم بقي؟ وفي الأعم الأغلب عند معظم الكهول قد يكون الذي بقي أقل من الذي مضى، مادام الذي مضى قد مضى كلمح البصر، فالذي بقي يمضي أيضاً كلمح البصر، وما هي إلا ساعة وتعلن وفاة الإنسان، ونحن كل يوم نستمع إلى عالم جليل، إنسان له شأن خطير، وافته المنية فجأةً، وقد يكون ملكاً، وقد يكون عالماً كبيراً، وقد يكون بمنصب رفيع، الموت يأتي بغتةً والقبر صندوق العمل.

البطولة أن تعد لما بعد الموت، الموت أهون مما بعده للمؤمن، وللكافر الموت أقل مما سيكون من عذاب أليم ما بعد الموت.

الفرق بين الوصية وبين الهبة :

قال تعالى:

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ)

قال علماء الفقه وعلماء التفسير معاً: هذه الآية نسخت بآيات المواريث، على كلٍ ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا وصية لوارث، الوارث بآيات المواريث لا وصية له، الوصية مالٌ يستحق بعد الموت، أما الهبة فمالٌ يعطى في الحياة، فالأب له أن يهب أولاده بالعدل في حياته ما يشاء والأولى أن يعدل، لأن النعمان بن البشير أتى النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: يا رسول الله اشهد أني نحلت ابني حديقة، قال: ألك ولد غيره؟ قال: نعم، قال: أنحلت كلاً منهم ما نحلت ابنك، قال: لا، قال: فأشهد غيري فإني لا أشهد على زور. فالعدل في توزيع الهبات من صفات المؤمن،

وقد يرجح الفقهاء أن تجعل الهبة لأولادك بحياتك مساوية لبعضهم بعضاً للذكور والإناث لأنها هبة، الأولى أن تكون مساوية، بالتساوي، أما بالإرث:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ)

[سورة النساء: 11]

إذاً أول نقطة في هذه الآية، يجب أن نفرق بين الوصية وبين الهبة، الوصية تستحق بعد الموت، ولا وصية لوارث، أما الهبة فتستحق بالحياة، والله عز وجل سيسأل هذا الإنسان لمَ أعطيت زيداً ولم تعطِ عبيداً، ولمَ أعطيت ابنك هذا ولم تعطِ ابنك ذاك، فإذا كان معك جواب لله عز وجل واضح جلي فربما تثبت حجتك أمام الله، قد يكون ابنك عاجزاً، مصاباً بعاهة دائمة، لا يستطيع كسب قوت يومه، فلو وهبت له في حياتك دكاناً يعيش من أجرتها فلا مانع، معك عند الله جواب، أما قد يكون لك ابن من زوجة تحبها، وابن من زوجة لا تحبها، فتعطي ابن الأولى وتحرم ابن الثانية، فهذا ظلم شديد، وسوف تحاسب عنه يوم القيامة، حقاً على المتقين، الذي يتقي الله عز وجل، يتقي غضبه وسخطه، يجب أن يوظف ماله للآخرين، ولكن حينما يخصص الإنسان قبل موته مبلغاً لأعمال البر، فهذا المبلغ يجب أن لا يزيد عن الثلث، والأولى يجب أن لا يزيد عن الربع.

الوصية يجب أن تُوَثَّق :

الإنسان حينما يوصي ببعض ماله لطلاب العلم، أو لبناء المساجد، أو لأعمال البر، ينبغي له ألاَّ يزيد هذا المال المخصص عن الثلث، أو عن الربع، والثلث كثير، إذاً عن الربع. أما لو ترك بيتاً صغيراً، وترك أولاداً عدة، وزوجة، ليس لهم إلا هذا البيت، فلا يمكن أن يوصي ببعض هذا البيت لطلاب العلم، أو لأعمال البر، لأنه إن فعل هذا فسيضطرون لبيع البيت، وإلى أن يتشردوا، فإن تركت شيئاً قليلاً فلعله يكفي أهلك الأقربين، وأنت معفى من الوصية، أما إن تركت مالاً وفيراً، وخصصت من هذا المال للفقراء، والمساكين، والمساجد، ودور العلم، وطلابه، فهذا يمكن أن يكون مقبولاً، على ألاّ تزيد الوصية عن الثلث، والأولى ألاّ تزيد عن الربع، الوصية تؤدى بعد الوفاة، أما هذا الذي يوصي لابنه ببيت، والابن وارث، هذه وصية باطلة، لك أن تهبه في حياتك، لعلة ولسبب وجيه يقبله الله منك، أما أن تخصص له بعد الموت شيئاً يزيد عن بقية الورثة فهذا باطلٌ شرعاً.

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ *فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

هذا المتوفى إن كتب وصية واضحة جلية أشهد عليها رجالاً عدولاً، وسجلها بالمحكمة الشرعية، أو عند كاتب العدل، ثم جاء من بعده من يبدل هذه الوصية، ومن يزورها، ومن ينكرها، فالإثم على من بدل لا على الموصي، يعني هذا أدى ما عليه، أما الآن ـ وهذه نصيحة أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون واضحة عند الناس ـ درهم تنفقه في حياتك خير من مئة ألف درهم ينفق بعد مماتك، يعني

والعياذ بالله أكثر الأهل الآن لا تسخوا أنفسهم لتنفيذ وصية والدهم، أكثر من عشر وصايا في حوزتي، يعني أودعت عندي أمانة ولم تنفذ، ورجل ترك لأولاده عدة أبنية، أوصى بمئة ألف لم تنفذ، لذلك درهم تنفقه في حياتك خير من مئة ألف درهم لا ينفق بعد مماتك، لذلك الوصية يجب أن توثق، الآن لا يكفي أن تكتب، إذ لا بد أن توثق عند كاتب العدل، أو في المحكمة الشرعية، كي تنفذ، إن أردت أن تنفذ فعلاً، أما إن كتبتها، ولا تعلم ما سيكون فالأغلب أنها لا تنفذ.

الوصية الواجبة :

قال تعالى:

(فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

في حالات يكون الأب جاهلاً، يحب أحد أولاده محبة أساسها التملق لإحدى زوجاته، فيكتب له، أو يخصه في حياته بأكثر أمواله، فلو أن هذا الابن عرف أن أباه سوف يدخل النار بهذه الوصية، أو بهذا العطاء، أو بهذه الهبة، وتنازل عن وصيته إلى أخوته، أو صحح هذه الوصية وجعلها وفق التشريع الإسلامي، فلا إثم عليه، بل بالعكس أنقذ والده من إثم كبير، فإذا ظلم الأب، وأعاد أحد أولاده الحق إلى نصابه، معنى ذلك أن هذا الابن البار أنقذ أباه من حساب عسير يوم القيامة،

(فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً)

أي انحرافاً عن الحق، أو

(إِثْماً)

وانغماساً في الباطل،

(فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

فالله عز وجل ينظر إلى القلب، إن كان في القلب رغبة بإنقاذ هذا المتوفى من عذاب الله، ولاسيما وقد ورد في بعض الأحاديث أن الرجل يعبد الله ستين عاماً فيظلم في الوصية فتجب له النار،

(فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

بالمناسبة ثمة وصية واجبة، إنسان له بيت باسمه، ليس عنده مبلغ من المال، أودع عنده أمانة، يجب أن يكتب وصية هذا المبلغ ليس لي، لأن الإنسان إذا مات فالمال الذي بحوزته يكون حكماً له، ولو أن الورثة أصغوا إلى كل اعتراض، ولكل طلب، لجاء من يكذب، لذلك لا يطالب الإنسان ورثة إلا بالدليل والبيان، فإذا كان في مال معك ليس لك وقد أودع عندك أمانة، فيجب أن تضعه في حرز حريز، وأن تكتب عليه ويجب أن تكتب وصية تشير فيها إلى أن هذا البيت ليس لي، وهذا المبلغ ليس لي، وهو لفلان بن فلان، يؤدى له عند الطلب، وكم من مأساة وقعت، وأناس ماتوا فجأةً، وفي حوزتهم أموال ليست لهم، لذلك إذا كان في حوزتك أموال ليست لك، أو تسجيل صوري بالعقارات،

ينبغي أن تكتب وصية وأنت في الثامنة عشر من عمرك، مهما يكن سن من أودعت عنده هذه الأموال قليلة فيجب أن يكتب الوصية.

الفرق بين الأمر التشريعي والأمر التنظيمي :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

كلمة :

(كُتِبَ)

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ)

[سورة البقرة: 178]

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

أوامر تشريعية ثابتة، عندنا أمر تشريعي من عند الله عز وجل، وببيان رسول الله، وثمة أمر تنظيمي، وفرق كبير بين الأمر التشريعي وبين الأمر التنظيمي، يروي كتاب السيرة أن هؤلاء الذين أوصاهم النبي أن يقفوا على رأس جبل أحد، وأن يكونوا مع الرماة، وخالفوا وصيته، ونزلوا إلى أرض المعركة، طمعاً بالغنائم، هؤلاء صلى عليهم النبي عليه الصلاة والسلام، ذلك أنهم خالفوا أمراً تنظيمياً، ولم يخالفوا أمراً تشريعياً، أما الأمر التشريعي الذي ورد في القرآن الكريم، والذي ورد في السنة الصحيحة المطهرة، فهذا أمر له حساب خاص، " كتب عليكم "، " كتب عليكم "، " كتب عليكم "، " يا أيها الذين آمنوا ".

ذكرت لكم في درس سابق أن الله يخاطب عامة الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروع الدين، فالمؤمن آمن بالله رباً، وخالقاً، ومسيراً، وواحداً، وموجوداً، وكاملاً، فما دمت قد آمنت بالله عليماً، حكيماً، قديراً، غنياً، خبيراً، هذا أمره، تأتي التفاصيل للمؤمنين، أما هذا الذي شرد عن الله، وغفل عنه، فينبغي له أن يؤمن به أولاً حتى يستجيب لأمره ثانياً.

العبادات في الإسلام نوعان عبادات تعاملية وعبادات شعائرية :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 183]

في هذه الآية إشارة إلى أن الشرائع السماوية متقاربة، لأن الإنسان هو الإنسان، عنده ثوابت، عنده متغيرات، وله نفس، وعنده طباع، في ميول، في رغبات، والخالق واحد ففي الأعم الأغلب ينبغي أن تأتي التشريعات الإلهية متشابهة، إلا إذا كان هناك ظروف خاصة جداً في مكان، أو في زمان،

أو في أمة، فقد تأتي تشريعات خاصة بها، أما شريعة النبي عليه الصلاة والسلام فهي الشريعة الخاتمة لكل البشرية جمعاء، ولذلك جاءت متوافقة مع كل حاجات المجتمعات، ذلك أنها خاتمة الشرائع، فهذه الإشارة إلى أن الصيام كتب على الذين آمنوا، وكتب على الذين من قبلهم، قال: لعلكم تتقون.

أيها الأخوة... بادئ ذي بدء العبادات في الإسلام نوعان؛ عبادات تعاملية، صدق وأمانة، وإخلاص، وتواضع، وأداء حقوق، ووفاء بالوعد، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، والإنصاف، وأن تعطي كل ذي حق حقه، هذه عبادات تعاملية، وعندنا عبادات شعائرية، الكلام الدقيق جداً هو أن العبادة التعاملية هي الأصل، فإن صحت صحتْ معها العبادة الشعائرية، فالشعائرية أن تقف وتصلي، ويأتي رمضان فتصوم، وتذهب إلى الحج فتحج، عبادات بعضها بدني، وبعضها مالي، بعضها بدني مالي، وبعضها شعائري، لها أوقات معينة، في أماكن معينة كالحج، في مناسك معينة، في جزئيات معينة، فهذه عبادات شعائرية، يعني هي مناسبة كي تتصل بالله ومنوعة.

إن صحت العبادة التعاملية صحت العبادة الشعائرية:

الصلاة التي فرضها الله علينا خمس مرات في اليوم من أجل أن تتصل به، والصيام الذي فرضه الله علينا ثلاثون يوماً في كل عام من أجل أن نتصل به، والزكاة التي فرضها الله علينا على الأغنياء من أجل أن نتصل به، والحج الذي فرضه الله علينا في العمر مرة من أجل أن نتصل به، ولكن هذه العبادة الشعائرية شحنة طاقة، والتعاملية حركة، وكلكم يعلم أنّ في الفيزياء طاقة ومادة، العبادة التعاملية، تخرج من البيت عينك لها عبادة، فعبادتها غض البصر، وأذنك لها عبادة، وعبادتها ألا تصغي للباطل، وأن تستمع للحق، ولسانك له عبادة؛ أن يكون رطباً بذكر الله، ورجلك لها عبادة أن تقودك إلى بيوت الله، وإلى الأعمال الصالحة، يدك لها عبادة أن تفعل فيها الخيرات، لا أن تضرب بها، فالعبادات تعاملية وشعائرية، التعاملية هي الأصل، إن صحت صَحت العبادة الشعائرية، والشعائرية تقف أمام ربك كي تخاطبه تقريباً، وأرجو أن تكون الأمثلة واضحة، بعض الشركات يأتي موظفوها الذين هم في الحقيقة مندوبو مبيعات يأتون إليها في الساعة الثامنة، فيأخذون التعليمات، ويذهبون طوال النهار يبيعون ويروجون بضائع هذه الشركة، وفي المساء يأتون لأخذ عمولتهم ففي تعليمات، وعمولة، وحركة، ثماني ساعات في الأسواق، وساعة قبض عمولة، وساعة أخذ تعليمات، هذا مثل دقيق جداً، تأتي إلى المسجد كي تتلقى تعليمات الخالق، وتنطلق إلى البيت، وإلى عملك، وفي البيت في تعليمات وأنت في البيت، في تعليمات وأنت تأكل، وأيضاً وأنت مع أهلك، في تعليمات وأنت مع أولادك، وكذلك إذا قمت إلى النوم، وإذا استيقظت، وإذا دخلت الحمام، وإذا جلست إلى الطعام، ضمن البيت هناك مئات التعليمات، والآن لبست ثيابك وخرجت، ثمة تعليمات في الطريق، وصلت إلى محلك التجاري ثمة تعليمات في البيع والشراء،

وأصول عرض البضاعة، فليس هناك يمين كاذبة، ولا تدليس، ولا غش، ولا احتكار، ولا إلى آخره، فأنت مع تعليمات دقيقة جداً، تكاد تبلغ مئات الألوف، منهج الله كامل، فأنت أخذت التعليمات من المسجد في خطبة الجمعة، أو في درس التفسير، أو في أي درس آخر وانطلقت إلى البيت وإلى العمل، وعدت في المرة الثانية كي تتصل بالله لتأخذ العمولة، والأجر هو التجلي، ما لم نفهم الدين هكذا، من يفهم الدين أنه صلوات في المسجد ليس غير وهو حر في عمله يفعل ما يشاء فهذا إنسان فهمه خاطئ وبعيد جداً عن الواقع.

بعضٌ من حِكَم الصيام :

أيها الأخوة الكرام... الصيام عبادة شعائرية، وكذلك الصلاة في اليوم خمس مرات، فهي خمس شحنات، وكل شحنة من الصلاة تكفيك للصلاة الثانية، ولدينا شحنات أسبوعية وهي خطبة الجمعة، هذه تكفيك أسبوعاً كاملاً، عندنا شحنة سنوية؛ رمضان الكريم، ولدينا شحنة العمر وهو الحج، فمن شحنة يومية، إلى أسبوعية، إلى سنوية، إلى شحنة العمر، ولذلك من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر ما تقدم من ذنبه.

أيها الأخوة الكرام... هذه الفريضة، فريضة الصيام فرضها الله على الإنسان الذي آمن به وعرفه لحكم بالغة جداً، فمن هذه الحكم أن الصيام يقوي الإرادة، أي في الدين مباحات، ومحظورات، وفي رمضان تغدو المباحات محظورات، الطعام والشراب، وكأس الماء، ولقاء الأهل، هذا كله محرم في رمضان، أو في نهار رمضان، إذاً هذا الشهر يقوي في الإنسان إرادته، فإذا مضى الشهر يرى أن الشيء الذي كان محظوراً أصبح مباحاً لذلك يتمسك بالطاعات، وهو في رمضان ترك المباحات، فلأن يترك المحظورات من باب أولى، إذاً أحد حكم هذا الصيام أنه يقوي الإرادة، وأحد حكم الصيام أنه يعرف الإنسان بافتقاره إلى الله عز وجل، يعني ما دمنا في الإفطار كلما شعرنا بحاجة إلى الماء شربنا، وكلما شعرنا بحاجة إلى الطعام أكلنا، وننسى أننا عبيد لله عز وجل، وننسى أن وجودنا متوقف على ماء وطعام، ففي رمضان يشعر الإنسان بشكل واضح وجلي بقيمة الطعام والشراب، وبافتقاره إلى ما عند الله عز وجل، فكأن الصيام درس من دروس العبودية لله، وتقوية للإرادة، وكأن الصيام عبادة الإخلاص، فقد تكون وحدك، وليس أحد مطلع عليك، لا يمكن أن تضع في فمك قطرة ماء، وقد تكون في بيتك وحدك والثلاجة فيها ماء بارد عذب كالزلال، وأنت في عطش شديد ومع ذلك لا تشرب، فالصيام عبادة الإخلاص يقوي إخلاص الإنسان لله عز وجل، ويقوي شعوره بعبوديته لله، وافتقاره إليه، ويقوي إرادته، والإنسان حينما يصوم ثم يقف في التراويح ليصلي يشعر أنه فعل شيئاً في سبيل الله، أنه ترك شهوته ابتغاء مرضاة الله، فكأن هذا العمل الطيب يعينه على أن يقبل على الله عز وجل فصار في رمضان صيام، وقيام، فالصيام هو

الثمن، والقيام قبض الثمن، ثمن القيام الصيام، لذلك من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه.

علة الإفطار في رمضان السفر أو المرض :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ)

وهناك حكم بالغة لهذه الأيام الثلاثين فلو زادت عن الثلاثين لكان الصيام عبئاً على معظم الناس، ولو قل عن الثلاثين لعله لم يحقق الفائدة المرجوة منه.

(فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)

علة الإفطار في رمضان السفر أو المرض، فالمريض أو المسافر له أن يفطر في رمضان، لكن عليه أن يصوم هذه الأيام التي أفطر فيها أياماً بعد رمضان، إن صمت رمضان في وقته فهو أداء، وإن صمت أياماً من رمضان بعد مضيه فهي قضاء.

(وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ)

الذي يطيق الصيام وهو مسافر، أو مريض يطيق الصيام ويفطر فالأولى أن يضيف إلى قضاء رمضان فدية طعام مسكين، وبعضهم قال: وعلى الذين لا يطيقونه، على كلٍ القرآن حمال أوجه.

(فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أي حينما تصومون تشعرون بالقرب من الله عز وجل وهذا **" خير لكم إن كنتم تعلمون ".**

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (62- 95):تفسير الآيات 183-186 ، الصيام وفوائده

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-10-22

بسم الله الرحمن الرحيم

العبادات معلّلة بمصالح الخلق :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني والستين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثالثة والثمانين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى له مقولةٌ رائعة، يقول: "العبادات معلّلةٌ بمصالح الخلق"، ففرقٌ بين العبادة والطقس، الطقس حركات، وسكنات، وتمتمات، وإيماءات لا معنى لها، وضعها رجال الأديان الوضعيَّة كي يجذبوا عقول الناس وقلوبهم، إلا أن العبادات من عند خالق الأرض والسماوات معللةٌ بمصالح الخلق.

فلأن الإنسان خُلق ليعرف الله، وليحْمل نفسه على طاعة الله، وليتقرّب إلى الله، فالله سبحانه وتعالى جعل من هذه العبادات وسائل للتقرب إلى الله عزَّ وجل، فلا خيرَ في دينٍ لا صلاة فيه، ولا خيرَ في دينٍ لا صيام فيه، أو في دينٍ لا حجَّ فيه، أو لا زكاة فيه. حينما يقول الله عزَّ وجل:

(كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)

معنى ذلك أن الإنسان هو الإنسان، وأن الله واحدٌ لا شريك له مهما تعددت الاتجاهات، أو اختلف أهل الأديان، ومهما تقاتلوا فالإنسان واحدٌ، هو الإنسان، والله واحد، أيْ أنَّ خصائص الإنسان واحدة، وقوانينه واحدة، بُنَى نفسه واحدة، وسِماته واحدة، لذلك: ما كان حلالاً عندنا ينبغي أن يكون حلالاً عند غيرنا في الشرائع السابقة لأن الدين واحد.

الدين واحد أما الشرائع فمختلفة :

بالمناسبة: قد تستغربون أن الله سبحانه وتعالى وصف أنبياءه واحداً وَاحداً بأنه مُسْلِم، فالدين هو أن تستسلم لله، وأن تخضع له، والدين هو غاية الخضوع وغاية الحب، والدين معرفة وطاعة وسعادة ـ هذا هو الدين ـ فالدين واحد، والشرائع مختلفة، وكل أمَّة لها ظروفها، أما أنه على مستوى الأصول فالأصول واحدة، والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

إلا أن الله سبحانه وتعالى شرَّفنا وكرَّمنا بنبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم، فهو آخر الأنبياء وخاتَمهم، وشريعته آخر الشرائع، لذلك تولَّى الله بذاته حفظَ دينه..

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر: 9]

من لوازم حفظ دينه حفظ قُرآنه، ومن لوازم حفظ قرآنه حفظ سُنَّة نبيِّه، والصيام عندنا كما أنزله الله هو إلى الآن كذلك، أما هناك أديان أخرى، أو شرائع أخرى أصابه تعديلٌ، وتبديلٌ، وإطالةٌ، وحسمٌ، وقصرٌ إلى أن أصبح صياماً غير الذي كلَّف الله به هؤلاء الأقوام السابقة.

على كلٍ ما دام الإنسان هو الإنسان، وما دام خالق الأكوان واحد لا بد أن تتحد الشرائِع، ووحدة المصدر دليل وحدة الفروع، فإذا كانت هذه الأديان، أو هذه الشرائع من عند الله عزَّ وجل فينبغي أن يكون فيها توافقٌ وانسجام، وهذه الآية تؤكّد هذه الناحية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

من فوائد رمضان أنَّه يقوي الإرادة :

لعلَّ موضوع الصيام موضوعٌ طويل، لكنه ـ بشكلٍ مختصر ـ قد يعرفُ الإنسان الحقيقة وقد تضعف نفسه عن تطبيقِها، وقد يعرفُ الخير، وربما لا يتَّجه إليه، وقد يعرف الشر، وينجذب إليه، قد يعرف ما ينفعه فلا يُقبل عليه، وقد يعرف ما يضره فينسحبُ إليه، فماذا نسمي هذه الحالة؟ حالة ضعف إرادة، بالضبط كما لو رأيت طبيباً يدخِّن، يمكن أعلم إنسان بمضار التدخين هو الطبيب، ومع ذلك قد يدخن لأنه ضعفت إرادته عن التعامل مع معقولاته، ومع مسلَّماته، فلعلَّ الصيام جعله الله تقويةً لإرادتنا.

الله عزَّ وجل أحلَّ لنا الطيبات وحرَّم علينا الخبائث، أحلَّ لك أن تأكل، وأن تشرب، وأن تنام، وأن تقترن بزوجتك، لكنه في نهار رمضان حرَّم عليك ما أباحه لك في غير رمضان؛ حرَّم عليك الطعام والشراب، وسائر المُفطرات، من أجل ماذا؟ قال بعض العلماء: من أجل أن تقوى إرادتك، فأنت في رمضان تركت المُباحات، فلأن تدع المحرمات من باب أولى.

هل تصدقون أن إنساناً في رمضان يطلق عينيه في الحرام؟ وإنْ فعل هذا فلا معنى لصيامه، وترى الناس في رمضان يغضّون أبصارهم، ويضبطون ألسنتهم، ويرتادون المساجد، وتراهم في رمضان يصلّون الفجر في مَسجد، فلعلَّ الله عزَّ وجل حينما فرض علينا الصيام فلكي نألف ترك المُباحات، فلأن نقوى في رمضان على ترك المحرَّمات من باب أوْلى، وحملك على ترك المباحات في رمضان، فقد حرَّم عليك أن تشرب كأس الماء في رمضان، وليس في الأرض شريعةٌ تحرِّمه، فأنت ممنوع أن تشرب، وأن تأكل، وأن تقترن بمن سمح الله لك بالاقتراب منها في رمضان، وأنت في هذا الوقت تركت المباحات، وتركت الذي أحلَّه الله لك، فتجد نفسك قوياً على ترك ما حرَّمه الله عليك، فهذه واحدة من فوائد رمضان، إنَّه يقوي الإرادة.

شهر رمضان يحجِّم الإنسان ويقوي به معاني العبوديَّة لله عزَّ وجل :

الإنسان أيها الأخوة قد يعيش في وَهْم، وقد يكون قوي البُنية، كثير المال، فهو واهمٌ أنه إنسان قوي يفعل ما يريد، ويأتي رمضان ـ فهذا الإنسان الكبير الذي له شأنٌ خطير، والذي يهابه الناس، وينصاعون لأمره ـ تجده هو نفسه مفتقراً لكأس ماء، وإذا صام الإنسان في أشهر الصيف الحارة والطويلة، بدءاً من الظهر كل خواطره كأس ماء، أو كأس عصير، وقد تكون شخصاً مهماً جداً، ولك مكانة كبيرة أشعرك بعبوديَّتك لله عزَّ وجل، وأشعرك أنك مفتقرٌ إليه، وأن وجودك متوقفٌ على إمداده، فلولا هذه اللقيمات التي تأكلها، وهذا الماء الذي تشربه لانعدمت الحياة.

إذاً تعريفٌ آخر لهذا الشهر الكريم: إنه يُحَجِّم الإنسان، يضعه في حجمه الحقيقي، ويقوي به معاني العبوديَّة لله عزَّ وجل، ويعرِّفه بضعفه، فأنت ضعيف، ومفتقر لكأس ماء، وللقيمات. والقصة التي نرويها كثيراً أن بعض الخلفاء سأله وزيره فقال: يا سيدي بِكَمْ تشتري هذا الكأس من الماء إذا مُنِعَ منك؟ قال: بنصف مُلْكِي. قال: فإذا مُنِعَ إخراجه؟ قال: بنصف مُلكي الآخر. إنه إنسان مفتقر لشربة ماء، فأنت في رمضان تقوى إرادتك على طاعة الله، لأن الله حَمَلَك على تركِ المُباحات، المألوفات التي لا تحرِّمها شريعة، فلأن تَدَعَ المحرَّمات فهذا من باب أولى.

النقطة الثانية: أنك في رمضان تشعر بقيمة إمداد الله لك وأنت عبدٌ، فالإنسان توجد في جسمه أجهزة دقيقة جداً، وأدق قناةٍ في الجسم قناة الدمع، وهذه لوسُدَّت ـ مع أنها ليست خطيرة ـ فالدمع

يفيض دائماً على وجنتيك، وأنت مضطر إلى منديل لتمسح الدمع دائماً، هذا الدمع قلوي ربما أثَّر على خديك فأصاب الجلد بالالتهاب، لو أن قناة الدمع سُدَّت لأصبحت حياة الإنسان لا تطاق، وأحياناً الإنسان يجور في قصّ ظفره قليلاً، فإذا وضع يده في شيءٍ حامض شعر بحُرقة، لأن الأعصاب معيَّرة تعييراً دقيقاً جداً، أعصابك معيَّرة. وأجهزة الهضم، والإفراز، والدوران، والأعصاب، والجهاز الحركي، فالإنسان يدقق في أجهزته، في عظامه، وعضلاته، وفي جهازه الهضمي، وعمل الكبد، وعمل البنكرياس، شيء لا يصدَّق، فهذا كله يعمل بانتظام وأنت في غفلةٍ عن هذا النظام الدقيق.

الإنسان حينما يفتقرُ إلى الله يتولاَّه الله وحينما يستغني عن الله يتخلَّى الله عنه:

إذاً أنت في رمضان تشعر أن الله سبحانه وتعالى امتنَّ على عباده بهذا الطعام والشراب، ولذلك قال تعالى واصفاً الأنبياء أنهم:

(لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ)

[سورة الفرقان: 20]

كلامٌ دقيق، أيْ هم مفتقرون في وجودهم إلى شيءٍ يُضاف إليهم، أما ربنا عزَّ وجل:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ)

[سورة الإخلاص: 1-2]

وجوده لا يستمدُّ من شيءٍ آخر، وجوده صمديّ، وذاتيّ، أما أنت فمفتقر إلى الطعام، والهواء، والماء، واللباس، والمأوَى، وإلى زوجة، وولَد، وإذا أردنا أن نعدِّد ما أنت مفتقرٌ إليه سنجد ملايين مملينة، مفتقر إلى من يقصُّ لك شعرك، وإلى أداةٍ تقصُّ أظافرك، وإلى من يخيط لك ثيابك، وهكذا. إذاً كأنك في رمضان تعرف حجمك الحقيقي، وتعرف ضعفك.

لا تنسوا أيها الأخوة أن الإنسان حينما يفتقرُ إلى الله يتولاَّه الله، وحينما يستغني عن الله يتخلَّى الله عنه..، **"ومن اتكل على نفسه أوكله الله إليها "**. والدرسان الشهيران درس بدر، ودرس حُنين، ففي بدر أعلن المؤمنون افتقارهم إلى الله فنصرهم. وفي حنين قال أحدهم: " لن نُغْلَبَ من قِلَّة "، فتخلَّى الله عنهم:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة: 25]

عندما قبل الإنسان حمل الأمانة أصبح في خطر :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

أيْ: تتقون غضبَ الله، ومعصيته، وشقاء الدُنيا، وعذاب الآخرة، وأنك أمام خطر، فكلمة اتقى أي يوجد خطر، اتقى من وقى، والوقاية من الخطر، ولأنك قبلت حمل الأمانة فأنت في خطر:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب: 72]

لأنَّك قبلت حمل الأمانة فأنت في خطر، وعندما يركب الإنسان طائرة وهناك احتمال أن تسقط، الأصل في خطر، هو بين السماء والأرض، وهذا الإنسان الذي قَبِلَ حمل الأمانة إنه إن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمَت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، لأنك إنسان ومعنى ذلك أنك قبلت حَمل الأمانة، ولأنك قبلت حمل الأمانة إما أن ترقى إلى أن تكون فوق الملائكة، وإما أن يسقط الإنسان ـ لا سمح الله ولا قدَّر ـ فيكون دون الحيوان، هذه هي، فنحن في خطر.

الشهوة قوة دافعة :

الإنسان بالأساس فيه شهوات:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

[سورة آل عمران: 14]

فيه شهوات، ومعنى شهوة أي قوة دافعة؛ إنسان بلا طعام ولا شراب يصبر يوماً أو يومين، وبعد ذلك إن رأى طعاماً اندفع إليه ليأكله، ليحافظ على وجوده، فالشهوة قوة دافعة، وهذه القوة الدافعة يمكن أن تُلبَّى بزاوية مفتوحة جداً، فهناك منهج إلهي أعطاك زاوية محدودة، أنت تلبِّي حاجة الجوع بطعامٍ تشتريه من مالٍ اكتسبته بطريقٍ مشروع.

وأنت فيك شهوات، وهذه الشهوات لولا العلم لأصبحت قوى مدمِّرة، ولصارت قوى عدوانيَّة، وهذا الكأس ربما لا تشتهيه لو أبقيتَه سنواتٍ وسنواتٍ على المنضدة، فهو لا يتحرَّك، أما أنت فحركي، كائن من لحم ودم فيك شهوات، لا بد أن تتحرك كي تأكل، وهذه الحركة من يضبطها؟ إنه منهج الله عزَّ وجل، ولذلك جاء في الشرائع افعل ولا تفعل، الآن العالم كله يتحرَّك ليأكل، ولكن كيف يتحرَّك؟ قد يعتدي، وقد يسرق، قد يحتكِر، قد يُقيم تجمُّعات اقتصادية فيعيش هؤلاء في ترفٍ ما بعده ترف، وتعيش الشعوب في فقرٍ ما بعده فقر، حركة لأخذ كل شيء.

النقطة الدقيقة هي: أن الإنسان أودِعَت فيه الشهوات، صار إنساناً متحركاً، وهذه الحركة من يضبطها؟ تصوَّر لو أن مركبة تنطلق بسرعة عالية، لو لم يوجد فيها سائق، أو لا يوجد فيها مقود فالحادث حتمي، بل الحادث محقَّق وحتمي..

يا أيها الأخوة... كلمة " لعلَّكم تتقون " أيْ أنك في خطر، وكلكم يرى ويسمع عن إنسان قد يسرق، أو يزني، أو يقتل، أو يغتصب، أو إنسان يحتال، أو يدلّس، في حركة واسعة جداً كلها على أساس المعاصي والآثام لأن الإنسان يريد أن يأكل أطيب الطعام، وأن يسكن أجمل بيت، وأن يركب أجمل مركبة، وأن يقترن بأجمل زوجة، إذا لا يوجد منهج، أو لا توجد قناة نظيفة لهذه الحركة صار هناك عدوان.

طرق الوقاية من السقوط :

يا أيها الأخوة... إنه شهر رمضان من أجل أن تُرَشَّد هذه الحركة بمنهجٍ قوي. وكيف تُرشَّد هذه الحركة؟

1 ـ أول وقاية من السقوط عن طريق البيان :

إما بمنهجٍ بياني افعل ولا تفعل، أو بذوقٍ رفيع، أو بمشاهدةٍ لحقائق الأشياء، فالإنسان أحياناً يملك قدرة رؤية صحيحة، وهذه الرؤية تمنعه من أن يسقط، تماماً كما لو أنك تركب مركبة والطريق وعر جداً، فيه حُفر كبيرة، ووديان سحيقة، وأكمات، والليل مظلم، والآن منهج الله هو المصباح الذي يُريك الأكمة، والعقبة، والحفرة، وكل الأخطار، فما دمت حريصاً على سلامتك ـ بحسب فطرتك ـ ومعك مصباحٌ كشَّاف كشف لك أبعاد الطريق، فأنت في سلام، ولذلك أول وقاية من السقوط عن طريق البيان.

2 ـ الوقاية الثانية عن طريق الذوق :

هناك وقاية ثانية عن طريق الذوق، وكلَّما اتصلت بالله عزَّ وجل نَمَت أحاسيسك الأخلاقيَّة، فتأبى الموقف اللاأخلاقي؛ وتأبى العدوان، أما حينما تنمو مشاعرك الإيمانية إلى درجة أعلى فتشاهد الحقيقة، ولذلك الأنبياء الكرام:

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

[سورة يوسف: 24]

المؤمن في عنده رؤية صحيحة، المؤمن يرى الحقيقة؛ ويرى ما وراء الكسب الحرام، وما وراء الزنى، وما وراء العدوان، ويرى أن هناك إلهاً عظيماً، سوف يحاسب، وسوف يُعاقب. وهذه الرؤية تجعله ينضبط بمنهج الله عزَّ وجل.

لذلك لعلَّكم تتقون، أيْ تتقون الخَطَر؛ خطر الشقاء في الدنيا، وخطر الشقاء في الآخرة، وأن يكون الإنسان معرَّضاً لسخط الله، ومعرَّضاً لعدل الله.. **" لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربَّه "..**

ولأنك من بني البشر فأنت في خطر، ولأنك قبلت حمل الأمانة، والأمانة نفسك التي بين جَنْبَيْك:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

فإذا انتبهت إلى هذه الناحية، جعلت من الشرع موجِّهاً لك، وشعرت من اتصالك بالله عزَّ وجل نوراً يهديك سواء السبيل.

التقوى تكون بالنور أو بالبيان :

يا أيها الأخوة الكرام... لأنك إنسان أنت في خطر؛ خطر هذه الشهوات التي أودعت فيك، والخطر أن تدفع الإنسان إلى السقوط، فصار الصيام من أجل أن تتصل بالله، ومن أجل أن تقوى على طاعته، وأن تستنير بنوره..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد: 28]

إذاً التقوى تكون بالنور، أو بالبيان، فإما أن يقال لك: هنا يوجد منعطف خطر، بياناً، أو أن ترى هذا المُنعطف، لا بد من أن تتقي الوقوع في هذا المنعطف..

(أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ)

لحكمةٍ إلهيةٍ بالغة جُعِلَ هذا الصيام أياماً معدودات في شهر رمضان..

(فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)

والله عزَّ وجل جلَّ في علاه قال:

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا)

[سورة البقرة: 286]

هو وحده يعرف وسْع النفس، فلذلك ربنا عزَ وجل هو وحده يعطي الرُخَص، أما أن تعتقد أنك وحدك تعرف وسعة نفسك فهذا خطأٌ خطير جداً.

علّة الإفطار في رمضان السفرُ أو المرض :

الله عزَّ وجل هو وحده يعلم وسْعَ النفس، لذلك هنا:

(فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

أيْ أنَّ علّة الإفطار في رمضان السفرُ أو المرض، مُطلق السفر ومطلق المرض، أما لو قلنا: العلة هي المشقة. فكل إنسان له طاقة، وهناك من يسافر ثماني ساعات دون أن يَشُقَّ عليه ذلك، وهناك من يسافر ساعة فيحرَج، فلكي لا يكون هناك فوضى في الشرع؛ فمطلق السفر ومطلق المرض يجيز الإفطار في رمضان..

(وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ)

هذه النقطة الدقيقة: وهذا الذي يُطيق الصيام مع السفر وأفطر، أو يُطيق الصيام مع المرض وأفطر، هذا يجب عليه أن يدفعَ فديةً عن إفطاره، أو هذا الذي بلغ سناً متقدمةً جداً وشَقَّ عليه الصيام، إنه يصوم ولكن مع مشقةٍ بالغة.

هناك نقطة دقيقة: الإنسان أحياناً يفعل الشيء وعنده احتياط، وأحياناً يمشي الإنسان ساعة، وهذه الساعة تستنفذ كل قُواه، نقول: هذا أطاق المشي، لكن هذا المشي استنفذ كل طاقته، أحياناً يمشي الإنسان ساعة، وفي قدرته أن يمشي عشر ساعات، النقطة الدقيقة: أنك إما أن تصوم والصيام يستنفذ كل طاقتك، وإما أن تصوم والصيام يستنفذ بعض طاقتك، فإن كان الصيام قد استنفذ كلّ طاقتك فهذا مما ينطبق عليه قوله تعالى:

(وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ)

كأن يعمل إنسان بفرن في أيام الصيف، وجهاً لوجهٍ مع النار، في حالات كثيرة جداً يشقّ على الإنسان الصيام، قال: هذا يدفع فديةً عن إفطاره، أو الذي سافر وأفطر، وكان يطيق الصيام في

السفر. أو مرض فأفطر وكان يطيق الصيام مع المرض، هاتان الحالتان إما من يجهَد في الصيام، أو الذي يطيق الصيام مع السفر فأفطر، على هذين النموذجين..

(فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ)

لا بأس إذا أطعمت أكثر من مسكين، فأقله إطعام مسكين، ولا حدَّ لأكثره.

حينما يودي بك الصيام إلى الخطر فالإفطار واجب :

قال تعالى:

(فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ)

لكن..

(وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أيْ إذا أفطر الإنسان بعذر ضعيف، أو من غير عذر فلا يجزئه صيام الدهر، فربنا عزَّ وجل مع أنه أعطانا بعض الرُخَص، لكنه ينصحنا أنك إذا أطقت الصيام عليك أن تصوم..

(وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

لكنَّ الفقهاء قالوا: حينما يودي بك الصيام إلى الخطر فالإفطار واجب.

قد يقول أحد المؤمنين الأتقياء: أنا أُفَضِّل الصيام، لكنه مصاب بقرحة، أو مصاب بأمراض تحتاج إلى أدوية أساسية في حياته، فإذا صام، وتفاقم مرضه، أو تأخَّر شفاؤه، أو شعر بمشقةٍ لا تحتمل فهذا الأولى أن يُفطر، وأحياناً في سفر يستمر اثنين وعشرين ساعة، يسير مع الشمس، فقد تخرج من دمشق فجراً، والنهار يستمر أكثر من أربعة وعشرين ساعة، لأنك تسير مع الشمس، فقد يشق عليك أن تبقى بلا طعامٍ، وأنت في سفر هذه المدة الطويلة..

الله عزَّ وجل خلق الكون ونوَّره بمنهجه وهو القرآن :

على كلٍ الذي يُطيق الصيام مع السفر وأفطر فعليه فدية، ويطيق الصيام مع المرض وأفطر فعليه فدية، أو أنَّ الذي يستنفدُ الصيام كل طاقته.. بعض العلماء قالوا: " وعلى الذين لا يطيقونه "، لو أنك قلت: يطيقونه أي: أخذ كل طاقتك، أو أنت قد تصوم ومعك بقية طاقة، فقد تجد إنساناً بعمر معين يشتغل ساعة فيتعب، إذ مع التقدم بالسِن الطاقة تقل فقد تستنفذها في ساعة، أما الشاب فقد يعمل أربع ساعات، ولديه إمكانية أن يعمل عشر ساعات أُخَر، فهذا الموضوع متعلّق بوضع كل إنسان، يقول الله عزَّ وجل:

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)

قال بعض العلماء: في هذا الشهر أُنْزِلَ القرآن، أي بدأ نزوله في رمضان، أو في هذا الشهر نزل هذا القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، لأن القرآن نزل على ثلاثةٍ وعشرين عاماً، فكيف نوفّق بين هذه الآية وبين أن القرآن نزل منجَّماً؟ قال العلماء: القرآن الكريم بدأ نزوله في رمضان، أو أنه نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في رمضان..

(هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)

والله عزَّ وجل خلق الكون ونوَّره بمنهجه، نوَّره بهذا القرآن.

الله عزَّ وجل خَلَق الإنسان وأعطاه شهوات وأقام له منهجاً :

قد تصلك آلة معقدة، ومعها نشرة، وهي مهمة جداً، وبهذه النشرة بإمكانك أن تستعمل الآلة، فكما أن الله عزَّ وجل خلق، نَوَّر. ولذلك هناك آية ثانية:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: 1]

هذه واضحة:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

[سورة الكهف: 1]

ومعنى ذلك أن الكون كلُّه في كفَّة، والقرآن في كفَّة، مثل تركيبي: آلة معقدة جداً ـ كمبيوتر للتحليل ـ ثمنه ثلاثون مليوناً، كل تحليل بألفي ليرة، تضع نقطة دم على هذا الجهاز تأخذ سبعة وعشرين تحليلاً بضغطة واحدة على الزر، وكل تحليل بألفي ليرة، وهناك من يحتاجه بالمئات، ومن الممكن أن تحصل في اليوم على مئة ألف ليرة من هذا الجهاز، لكن الشركة التي أرسلت لك هذا الجهاز نسيت أن ترسل لك كُتيِّب الاستعمال. الآن دقِّق: إن استعملته بلا توجيهات الصانع أتلفته، وإن خفت عليه جمَّدت ثمنه، أليس هذا الكُتيِّب الصغير بأخطر من الجهاز؟

هناك من يركب الطائرة، ويذهب ليأتي بهذا الكتيِّب، فهناك حالات دقيقة جداً، قد يكون هذا الكتيب الذي فيه تعليمات الصانع، تعليمات التجريب والقيادة أخطر من الجهاز، جهاز إلكتروني من الممكن أن يصاب بالعطب لأتفه خطأ، فحرصك على سلامة هذا الجهاز، وعلى حسن مردوده تستعمله وَفق التعليمات. فلذلك الله عزَّ وجل خَلَق الإنسان، وأعطاه شهوات، وأقام له منهجاً: افعل، ولا تفعل. ذكرت في الخطبة الآن كيف أن المسلمين ـ والله شيء مؤلم جداً ـ أن هذا الدين العظيم أصبح عندهم خمس عبادات شعائريِّة؛ صوماً، وصلاة، وحجاً، وزكاة، وإعلان الشهادة، وانتهى الأمر، أما الدين فيه أكثر من مئة ألف بند، والله عزَّ وجل ذكر عن الموازين فقال:

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

[سورة المؤمنون: 102]

هناك ميزان لحرفتك، وميزان لزواجك، ولعملك، ولأفراحك، ولأتراحك، وهناك ميزان لإقامتك، وميزان لكسب مالك، فهذه كلها موازين، فهل عرفت هذه الموازين؟!

الله عز وجل أمر الناس بالعبادات الشعائرية وبيَّن لهم التعليل :

أيها الأخوة الكرام... هذا الشهر الكريم الذي:

(أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى)

الهدى افعل، وهناك تعليل، الله عزَّ وجل علَّل، فمثلاً قال لك:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

[سورة التوبة: 103]

أمرك بالزكاة، وأعطاك التعليل فقال لك:

(تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

تطهِّر الغني من البُخل، والفقير من الحقد، وتزكّي نفس الغني فيشعر بعمله العظيم في تلبية حاجات الفقراء والمساكين، وتزكي نفس الفقير فيشعر بقيمته في المجتمع، فهناك تشريعٌ إلهي وجَّه الناس إلى معاونته..

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

أمرك بالصلاة التي هي هُدى وبيَّن لك التعليل..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

بيَّن لك التعليل. فأكثر العبادات، كالحج:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

[سورة المائدة: 97]

يجب أن تعلم أن الله يعلم، هذا في الحج، وفي الصيام كي تتقي، وفي الزكاة كي تطهر وتنمو، وفي الصلاة كي تبتعد عن الفحشاء والمنكر، هذا الذي وقع.

الشهر هو الهلال وهو ثلاثون يوماً :

إذاً..

(وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)

طبعاً الشهر هو القمر، وهذا في اللغة اسمه استخدام، أيْ أنني حينما أرى القمر ينبغي أن أصوم، ولكن هناك تفصيلات دقيقة جداً في كُتب الفقه عن أنك يجب أن تصوم مع المجموع، وأن تفطر مع المجموع، فقد ورد أن:

((الصوم يوم تصومون، والفطر يوم تفطرون، والأضحى يوم تضحون))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

عندنا مشكلة تصادفنا كل سنة في أول يوم في رمضان، وهي: يا أخي صيامنا صحيح، لا ليس صحيحاً، نحن صمنا على القمر، أم على الدول المجاورة؟ أنت مهمتك أن تصوم مع المجموع، وانتهى الأمر، حتى إن العلماء أجازوا لك لو أنك رأيت القمر وأنت في مجتمع، ولم تثبت هذه الرؤية، فعليك أن تبقى مع المجموع..

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)

هذا الشهر هو القمر، فكيف يصام القمر؟ هذا باللغة، قال: هذا أسلوب اسمه الاستخدام، تأتي بكلمة، وتعيد عليها ضميراً على معنىً آخر من معانيها، فطبعاً الشهر هو الهلال، وهو ثلاثون يوماً، فأول معنى:

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ)

رأى الهلال..

(فَلْيَصُمْهُ)

أي الشهر، ثلاثين يوماً.

رمضان من أجل الهدى والتكبيرات في العيد هي تكبيرات الهداية :

قال تعالى:

(وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)

الله عزَّ وجل رفع الحرج عن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلَّم. الدين يسر:

((لن يغلب عسر يسرين فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً))

[عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي عن الحسن]

والأمر إذا ضاق اتسع، فأحياناً تجد إنساناً يصلي قاعداً، أو يصلي مستلقياً، وقد يصلي بحركة أجفانه، أو بهزِّ رأسه، ولكن بالطبع كل صلاة يوجد لها مبرِّر، فالضرورة تقدَّر بقَدَرها..

(وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ)

في رمضان..

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ)

الآن هنا موضع الشاهد: معنى هذا أن رمضان من أجل الهدى، أن تهتدي إلى الله عزَّ وجل، وأن تقوى إرادتك، وأن تعرف عبوديتك لله عزَّ وجل، أيْ أن تعرِّف نفسك بضعفك أمام الله عزَّ وجل، وأن تقوى إرادتك، معنى ذلك أنك اهتديت إلى الله عزَّ وجل، وما هذه التكبيرات في العيد إلا تكبيرات الهداية..

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أعيادنا تأتي عقِب عبادات كُبرى :

أخواننا الكرام... من قال: الله أكبر في أول أيام العيد، وأطاع مخلوقاً، وعصى خالقاً ما قالها ولا مرة ولو ردَّدها بلسانه ألف مرَّة، ففي الواقع أنك أطعت القوي في نظرك، فلو أنك تعرف أن الله عزَّ وجل بيده كل شيء ما عصيته، لذلك:

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ)

دائماً الأعياد عندنا ـ نحن المسلمين ـ تأتي عقِب عبادات كُبرى، عقِب عبادة الصيام يأتي عيد الفطر السعيد، وعقِب الحَج، وهو العبادة التي فُرضَت في العمر مرة واحدة يأتي عيد الأضحى المُبارك، العيد أي عدت إلى الله، واصطلحت معه..

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

إن رمضان كله من أجل القُرب، ولذلك ملخَّص هذا الشهر..

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

أي أنك تصوم من أجل أن تقترب إلى الله، وأنت تصلي كي تقترب، وتحج كي تقترب، وتدفع زكاة مالك كي تقترب.

ليس بين الله وبين عباده حجاب في الدعاء :

قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

أكثر من عشر آيات:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

[سورة البقرة: 222]

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

[سورة البقرة: 219]

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة البقرة: 219]

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)

[سورة البقرة: 217]

أكثر من عشر آيات فيها: يسألونك.. قل ثم الجواب إلا هذه الآية الوحيدة..

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

لا توجد **" قل "**،قال بعض علماء التفسير: استنبط العلماء من هذا أنه ليس بين الله وبين عباده حجاب في الدعاء، فهناك أناس يقولون: قم باستخارة، هذه لم ترد في السنة أبداً، اعمل لنفسك استخارة، فليس بينك وبين الله حجاب.

الله تعالى يعلم سرنا و علانيتنا :

قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

[سورة الأنفال: 24]

وهو:

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

[سورة ق: 16]

ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، لا تخفى عليه خافية، فهو:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

يعلم سرّك ويعلم ما خفيَ عنك.

الآية التالية تبين شروط الدعاء المستجاب :

قال تعالى:

(فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

استنبط علماء التفسير من هذه الآية شروط الدعاء المُستجاب وهي: أن تؤمن بالله، وأن تستجيب له طائعاً، وأن تدعوه مخلصاً. إيمان استجابة، ودُعاء بإخلاص، إلا أن العلماء استثنوا رجلين من هذه الشروط، من هما؟ المُضَّطر والمظلوم، فقالوا: المضطر لا يستجيب الله له بحال الداعي، وقد يكون غير مستجيب لله، بل يستجيبُ الله بحال المَدعو، وهو الرحمة، والمظلوم يستجيب الله له لا بحال

الداعي، وقد يكون غير ملتزمٍ، بل يستجيب الله له باسم العَدْل، الله عزَّ وجل يستجيب للمضطر والمظلوم..

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)

[سورة النمل: 62]

هذه حالة:

(وَيَكْشِفُ السُّوءَ)

[سورة النمل: 62]

والحالة الثانية:

((اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب))

[أخرجه البخاري عن ابن عباس]

وهناك رواية أخرى:

((اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً))

[رواه أحمد في مسنده وأبو يعلى في مسنده والضياء عن أنس]

عبد الشكر وعبد القهر :

إخواننا الكرام... الدعاء هو العبادة..

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

هذه الياء ياء النَسَب، ياء النسب أي نُسِبَ العباد إلى الله نِسبة تشريف، كأن تقول: هذا ابني، هذا المحل لي، توجد ياء النسب، الله عزَّ وجل نسب عباده إلى ذاته العليّة نسبة تشريف..

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

بالمناسبة: العِباد جمع عبد الشكر، بينما العبيد جمع عبد القَهر، وكل واحد منا عبد لله مقهور بوجوده، واستمرار وجوده، وعمل أجهزته إلى الله، أما إذا عرف الإنسان الله طواعيةً، وأقبل عليه، واستجاب لأمره، وأحبَّه، وعاش في كنفه فهذا عبد الشكر، فلذلك عبد الشكر يجمع على عباد..

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ)

[سورة الفرقان: 63]

أما عبد القهر يُجمع على عبيد:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

[سورة فصلت: 64]

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي)

هؤلاء الذين عرفوني، وأحبوني، وأطاعوني..

(فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

أي الدعاء الصحيح .

شهر رمضان فرصة للتعرف إلى الله سبحانه والتقرب منه :

أيها الأخوة... قضية الصيام ونحن على مشارف رمضان، فقد اقترب رمضان، وهي فرصةٌ سنويةٌ كي ينتقل الإنسان نقلةً نوعيةً إلى الله عزَّ وجل، فإذا حرص على صيام هذا الشهر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

أي ما كان بينك وبين الله يُغْفَر في رمضان، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وهذه فرصة، وينبغي لنا أن نستعِدَّ لها قبل رمضان، والسبب إن أردت أن تكون في هذه النقطة بسرعة مئة، فليس بإمكانك أن تقف عندها على الصفر وفجأةً ترفعها للمئة، إذاً ينبغي أن تنطلق قبل مسافة بحيث يؤدي التسارع إلى سرعة مئة في هذه النقطة، فإذا أراد إنسان الاصطلاح مع الله في أول يوم برمضان فيمكن أن يمضي أياماً وأسابيع قبل أن تصح صلاته مع الله عزَّ وجل، فالأولى أن يبدأ استعداده لرمضان في وقتٍ مُبَكِّر حتى يأتي هذا الشهر عبادة كاملة يقفز فيها الإنسان قفزتين، قفزةً في معرفته بالله عزَّ وجل، وقفزةً في القرب منه:

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (63- 95):تفسير الآية 187، تحصين الشباب بالزواج وابتغاء الولد الصالح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-10-29

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم يعلّمنا الأدب :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث والستين من دروس سورة البقرة، ومع الآية السابعة والثمانين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)

ظنّ الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ظنوا أنهم إذا قاربوا نساءهم في ليل رمضان فقد عصوا، أو على الأقل اتهموا أنفسهم بخيانة الشرع، فجاء التحليلُ كَيّ يخفّف عنهم، وكي ينجّيهم من ظنهم أنهم عاصون، فقال تعالى:

(أُحِلَّ لَكُمْ)

طبعاً دون أن يُفهم من هذا أنه كان مُحَرَّماً عليهم، ظن بعضهم أن مقاربة زوجته في ليل رمضان هو معصية، فإذا غلبته نفسه شعر أنه قد خان منهج الله عزَّ وجل، هذه الحالة المرضية ينبغي ألا تكون، لأن الله عزَّ وجل حرَّم علينا الطعام والشراب ومقاربة النساء في نهار رمضان، وأما في الليل فلك أن تشرب، وأن تأكل، وأن تقتَرِب من زوجتك.

القرآن الكريم ـ كما تعلمون ـ يعلّمنا الأدب، فكل العبارات التي يفهم منها مقاربة الزوجة، جاءت بكنايةٍ رائعة، فمرةً يقول:

(أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

[سورة النساء: 43]

ومرةً يقول:

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً)

[سورة الأعراف: 189]

ومرةً يقول:

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)

الشرع الحَكيم علَّمنا الحياء :

هذا الذي يقول: لا حياء في الدين، لا ينبغي أن نفهم هذه المَقولة على أن تلفِظ الأشياء بأسمائها التي تنفر منها النفس، النفس البشرية تحب الكمال، وربنا عزَّ وجل يعلِّمنا كيف نتحدَّث عن هذه العلاقة، بل إن هناك آيةً دقيقةً جداً حينما قال الله تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المؤمنون: 5-7]

كل أنواع الانحرافات الجنسيَّة دخلت في هذه الكلمة:

(فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المؤمنون: 7]

ثم إنّ الشرع الحَكيم علَّمنا الحياء، فالشيء الذي يؤذي في العلاقة الزوجية حرَّمه النبي عليه الصلاة والسلام، أما أن تقام الندوات في الفضائيّات، في تفاصيل هذه العلاقة، التفاصيل التي لا تُصَدَّق هذا شيء ما فعله النبي عليه الصلاة والسلام، حرَّم إتيان المرأة في الحيض، وإتيانها من دبرها وانتهى الأمر، وما سوى ذلك الأصل فيه الحِل، أما الدخول في تفاصيل وتفاصيل وتَفاصيل فهذه قد تُحْرِج الصغار قبل الكبار، دائماً أنت حينما تتحدَّث ينبغي أن تعلم من هو الذي تُحَدِّثه، فإن كان طفلاً لا علاقة له بهذا الموضوع، هذا قد يدفعه إلى تساؤلاتٍ كثيرة، وإلى بحثٍ، وإلى اهتمامٍ قبل وقته المناسب.

أصل الشهوة من أجل أن نرقى إلى الله :

هذه الكلمة:

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)

قال بعضهم: معنى (الرفث)؛ ما يبتغيه الرجل من امرأته من كل الدرجات والمستويات، والشيء الذي يلفِت النظر في هذه الآية أن الله عزَّ وجل يقول:

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)

أيْ أنَّ الله عزَّ وجل أودع في الإنسان شهوةً نحو المرأة، هذه الشهوة أودعها فيه ليرقى إليه، أودعها فيه ليرقى مرتين: مرةً إذا غضَّ بصره عن محارم الله، ومرةً إذا متَّعه الله بما يحل له، يرقى إلى الله أولاً صابراً، ويرقى إليه ثانياً شاكراً، فأصل الشهوة من أجل أن ترقى إلى الله، وأصل الشهوة من أجل أن تدخُل الجنَّة إذا ضبطتها، فالشهوة واسعة جداً، يمكن أن تُرْوَى بزاويةٍ واسعةٍ جداً، لكن الله عزَّ وجل حدَّد زاويةً معينةً هي الزواج، فالمؤمن يضبط هواه وَفْقَ منهج الله، والآية الكريمة:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: 50]

والمعنى المُخالف: أن الإنسان لو اتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه. معنى:

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ)

أيْ أنَّ الزوجة سترٌ لزوجها من المعصية، بدلَ أن يعصي، بدل أن يُطلق بصره في عورات المسلمين، بدل أن يتلصَّص، بدل أن يقيم علاقةً محرَّمة، بدل أن يَعْتَدي على أعراض الآخرين، بدل أن يقع في فُحْشٍ وحرام قال:

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ)

أول عبادةٍ للمرأة حُسْن رعاية زوجها وأولادها :

زوجاتكم أُبيحت لكم، لِيَسْتُرْنَكم من المعصية، لذلك يفهم من هذا أن أية امرأةٍ تُهمل زوجها، ولا تتزيَّن له، وتدفعه بقصدٍ أو بغير قصدٍ إلى الحرام فهذه آثمةٌ أشدَّ الإثم عند الله عزَّ وجل، وهذا مرضٌ تقع فيه زوجاتٌ كثيرات، بل إن جُل الزوجات يقعن في هذا المرض، يهملن أنفسهن، ويهملن تلبية مطالب أزواجهن، فينصرف أزواجهن ينصرفوا عنهن إلى الحرام، وهذه المرأة التي تكون سبباً في صرف زوجها إلى غيرها تحاسب عند الله حساباً شديداً، لأنها لم تعبُد الله فيما أقامها؛ أقامها زوجةً، وأول عبادةٍ لها حُسْن رعاية زوجها وأولادها، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ أي الجهاد في سبيل الله ُ))

[من كنز العمال عن أسماء بن يزيد الأنصاري]

هناك بعض النسوة يعتنينَ بأولادهن كثيراً ويهملن أزواجهن، وهذه أيضاً مشكلة تجدها في معظم بيوت المسلمين، فلذلك انصراف الزوج عن زوجته إلى غير زوجته، أو إطْلاق بصره في الحرام، أو تفضيله اللقاءات المُختلطة، هذا كلُّه تعبير عن إهمال زوجته، وعن تقصيرها في حقه، طبعاً هذا الكلام لا يعطي للزوج عذراً ـ هو واقعٌ في الإثم لا محالة ـ ولكنّ زوجته تعدُّ عند الله آثمةً لأنها السبب في ارتكاب زوجها بعض المعاصي، فالذي يريد أن يربي بناتِه فليوجِّه زوجته كي تعلِّم بناتها أن رعاية الزوج هي أفضل العبادة.

كما كنت أقول لكم دائماً: هناك عبادةٌ مطلقةٌ، وهناك عبادةٌ رتيبة، فالعبادة المُطلقة أن تعبد الله فيما أقامك. كل إنسان له عند الله مقام، الغني عبادته الأولى إنفاق المال، والعالِم عبادته الأولى تعليم العِلم، والقوي عبادته الأولى إنصاف الضعيف، والمرأة عبادتها الأولى حُسن رعاية زوجها وأولادها، وكانت الصحابية الجليلة تقف أمام زوجها قبل أن تنصَرف إلى مُصَلاَّها وتقول له: " ألك بي حاجة؟ " أي إذا كان له بها حاجة لا يقبل الله صلاتها، ولا عبادتها، لأنها خالفت مقامَها الأوَّل

في تحصين زوجها، المرأة المؤمنة مسؤولةٌ عن تحصين زوجها، بأن تعتني بنفسها، وبهندامها، وبتلبية طلبات زوجها.

السكنى بين الزوجين من آيات الله الدالة على عظمته :

بالمقابل الزوج عليه واجبات كبيرة جداً، إن كان سياق الحديث عن المرأة فليس معنى ذلك أن الزوج مُعْفَى من واجباتٍ كبيرةٍ وكبيرة عليه أن يؤدّيها إلى زوجته، كي تتم هذه السُكنى بين الزوجين، والسكنى بين الزوجين من آيات الله الدالة على عظمته:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

إذاً المرأة لباسٌ للرجل، كيف أن اللباس يلتصِقُ به، ويمنع رؤية أعضائه، كذلك المرأة تَلْتَصِقُ بزوجها فتحصِّنه عن أن يشتهي غيرها..

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)

والزوجة أيضاً عندها هذه الشهوة، فإذا كان لها زوجٌ صالح يلبي رغبتها بشكلٍ طبيعي، فهو حصَّنها أيضاً من أن تنظر إلى غيره، والكلام الآن إلى الرجال، لو أنه أهمل زوجته، وغاب عن البيت طويلاً، ولم يُسْمعها كلمةً طيبةً لطيفةً، ولم يثنِ على ما حباها الله به من خصالٍ ومن جمال، ربما أصْغَت السمع إلى من يثني على جمالها، أو من يثني على أخلاقها عندئذٍ تميل إلى غيره، فالزوجة مسؤولة عن انصراف زوجها إلى غيرها، والزوج مسؤول عن انصراف زوجته إلى غيره.

الشيء الذي وصلني من خلال حل مشكلات اجتماعيَّة، أن الزوج الذي يغيب عن بيته طويلاً، والزوج الذي يعامل زوجته بقسوةٍ بالغة، وإهمالٍ شديد، مسؤولٌ عن انحراف زوجته ـ إذا وقع ـ وهو المسؤول الأول، فكما أنها حِصْن له هو كذلك حصنٌ لها، والسُكنى أن الزوج يكمِّل ضعفه العاطفي بزوجته فيسْكُن إليها، والزوجة تكمِّل ضعفها القيادي بزوجها فتسكُن إليه، والزوجة والزوج متكاملان لا مُتشابهان، وسر سكونهما لبعضهما، وسر السُكنى بينهما هو تكاملهما لا تشابههما.

الجنس حاجة من حاجات الإنسان وليس هو كل شيء في حياة الإنسان :

الإسلام أيها الأخوة يعني الحياة، ليس الإسلام صلاة وصوماً فقط، فمن الإسلام أيضاً علاقة زوجية متينة، ومن الإسلام بيت مسلم سعيد، الإسلام حرارة في البيت الإسلامي، أما عبادات تؤدَّى وبيوت خربة، بيوت فيها الشقاق، وفيها البُعد، وفيها الكراهية والبغضاء والعدوان، هذا حال المسلمين، لذلك دائماً حينما تفسُد العلاقة بين الزوجين ينصرف كلٌ عن صاحبه إلى غيره، هذا هو الفساد،

الآن سَمِّه بالاختلاط، الاختلاط محبَّب الآن لأن العلاقات الزوجية غير جيِّدة، فكل طرفٍ يبتغي المُتعة بطرفٍ آخر غير الذي هو زوجُه، والإقبال على مشاهدة ما على الشاشة أيضاً من هذا القَبيل، وهذا كلُّه يسهم في إفساد العلاقة، ويكون أحياناً نتيجة لفساد العلاقة، فأن تمتِّع عينيك بمن لا تحل لك ولو على الشاشة هذا يفسد هذه العلاقة، أو يكون سبباً لفساد هذه العلاقة، أما المؤمن لا يسمح لنفسه إلا أن يملأ عينيه ممن أحل الله له.

شيءٌ آخر هو: أن المؤمن حينما يسعى لعملٍ صالحٍ عظيم تصبح هذه الشهوة جانباً من حياته فقط، أما حينما ينصرف عن الآخرة تصبح هذه الشهوة كلَّ حياته، هذه مشكلة كبيرة عندما يكون الجِنس هو الحياة كلها، فهذا الشيء غير طبيعي ولم تخلق له عليه، الجنس حاجة من حاجات الإنسان، وليس هو كل شيء في حياة الإنسان!! هذا عند الغربيين، هذا ما وصلت إليه الحضارة الغربيَّة ـ الجنس هو كل شيء ـ بينما عند المؤمن هو شيء نظيف، شيء مضبوط، شيء مثمر، انظر إلى بيتٍ إسلامي، انظر إلى أولاد نشؤوا في طاعة الله، انظر إلى زوجةٍ وزوجٍ مسلمين بينهما ودٌ كبير، ووئام شديد، وحبٌ شديد، ووفاءٌ عجيب، هذا البيت قطعة من الجنة ولو كان دخلُه محدوداً جداً، تجد البيت الإسلامي قطعة من الجنة بسبب العِفَّة، بسبب غض البصر، بسبب البُعد عن كل شيء يبغضه الله عزَّ وجل، إذاً:

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)

حينما نهمل علاقات الزوجين فقد حطَّمنا الأسرة :

هناك توجيهات نبَّوية كبيرة جداً، فمثلاً كان عليه الصلاة والسلام إذا قَدِمَ من سفرٍ ـ لم يكن يوجد هواتف، ولا توجد اتصالات ـ كان إذا قدم من سفرٍ توجَّه إلى المسجد فصلَّى فيه، ومكث وقتاً كي يصل الخبر إلى النساء، كي تستعد المرأة لاستقبال زوجها، فالنبي عليه الصلاة والسلام وَجَّهنا إلى أن هذه العلاقة مقدَّسةٌ، ومن لوازم قُدسيتها أن تكون حارةً بشكل مستمر بين الزوجين، مبعث حرارتها الود، وأن كل طرفٍ من الزوجين يُلبّي حاجة الطرف الآخر باهتمامٍ شديد، أما حينما ينصرف الزوج عن زوجته، والزوجة عن زوجها ينشأ بينهما الخصومات والشقاق، هذا ما يحصل الآن، قد تزور الأم ابنتها شهرين، وتُهمل زوجها، وقد تسافر إلى بلدٍ آخر أشهراً مديدةً حيث ابنتها هناك، وتنسى زوجها، فهذا الزوج له حاجة، فحينما نهمل علاقات الزوجين فقد حطَّمنا الأسرة، دقّق في هذه الآية:

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)

هي سترٌ لك من معصيةٍ كبيرة، وأنت سترٌ لها من معصيةٍ كبيرة، ولكنّ علماء النفس ـ وقد سمعت أخيراً أن هناك علم نفسٍ جنسي ـ علماء النفس يقولون: الذي يثيرُ شهوة الرجل شَكْلُ المرأة، لذلك كان العلاج غضّ البصر:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

لكنَّ الذي يثير المرأة ـ ميل الأنثى ميل اجتماعي في أوله وليس ميلاً حسياً ـ فالمرأة أحياناً تخضَعُ بالقَول، القول الذي يُثني على جمالها، وتلين وتخضع للقول المعسول تلينُ له وتخضع.

مبعث شهوة الرجل حِسِّي أما المرأة فمبعث شهوتها اجتماعي :

من بعض تفسيرات هذه الآية:

(فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ)

[سورة الأحزاب: 32]

الرجل مأمور أن يغضَّ بصره لأن مبعث شهوته حِسِّي، والمرأة مأمورة ألا تخضع بالقول لأن مبعث شهوتها اجتماعي، ثم إن الله عزَّ وجل يقول:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

[سورة النور: 2]

بدأ بالزانية لأنها هي السبب في عرض مفاتِنها على الآخرين، أما السارق، قال:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ)

[سورة المائدة: 38]

لأن السارق أقدر على السرقة من المرأة، فبدأ بالسارق وثنَّى بالسارقة، لكنه بدأ بالزانية لأنها أقدر على جذب الرجل حينما تُهمل حجابها..

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)

من الطرائف أن القرآن الكريم حينما تُرْجِم إلى بعض اللغات، لم يفقه المترجم المراد الإلهي من هذه الآية، فقال: النساء بنطال للرجال، والرجال بنطال للنساء..

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)

الذي شرعه الله عزَّ وجل هو الذي يناسب النفوس البشريَّة :

لأن الله جلَّ جلاله هو الذي يعلم وحده طاقة النَفْس، فقال:

(عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ)

وهنا نقطة مهمة جداً، الذي شرعه الله عزَّ وجل هو الذي يناسب النفوس البشريَّة، فمن زاد أو نَقَصَ فقد خالف منهج الله عزَّ وجل، فالذي أراد أن يواصل الصيام يومين أو ثلاثة، هذا فوق طاقة البشر، ومن فعله فهو يخرج عن منهج الله عزَّ وجل، لذلك النبي الكريم نهى عن الوصال في

الصيام، العبرة أن تمتنع عن الطعام والشراب والنساء في نهار رمضان، أما في الليل فلكَ أن تأكل وأن تشرب وأن تقارب زوجتك إن شئت..

(عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ)

هنا التوبة ليست من ذنبٍ ولكن التوبة هنا بمعنى الإباحة، تاب عليكم أيْ سمح لكم أن تفعلوا هذا لأنه من حقكم، ولا شيء عليكم لو فعلتموه..

(عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ)

تتهمونها بالخيانة..

(عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ)

طبعاً هنا إشارة لطيفة إلى أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله كانوا من الوَرَع بمكان، حتى إنه لو لم يأتهم تشريعٌ إلهي كانوا حينما يتوهَّمون أنهم وقعوا في مخالفة يتهمون أنفسهم أشدَّ الاتهام، وهذا ينقلنا إلى حقيقة وهي: أن الورع أصلٌ كبيرٌ في الدين.

المؤمن الصادق يتهم نفسه دائماً بينما المُنافق يزكي نفسه دائماً :

المؤمن الصادق دائماً يتهم نفسه بالتقصير، وهذا عين الصواب، بينما الذي يُزَكّي نفسه مذمومٌ عند الله عزَّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء: 49]

المؤمن الصادق يتهم نفسه دائماً، بينما المُنافق يزكي نفسه دائماً، والذي يُزكي نفسه متهمٌ عند الله عزَّ وجل بل مذمومٌ عند الله عزَّ وجل.

وبالمناسبة: الموقف الكامل أن تتهم نفسك، وأن تحسن الظنَّ بأخيك، بينما مُعظم الناس يحسنون الظن بأنفسهم ويزكونها، ويتهمون أخوانهم بالتقصير، الموقف الكامل أن تتهم نفسك، لا تحابي نفسك، لا تجعلها فوق مقامها، والله عزَّ وجل متكفّلٌ أن يحجِّم الإنسان، قل عن نفسك ما شئت، زكّها ما استطعت، لكن الله متكفلٌ أن يعيدَها إلى حجمها الحقيقي، يضعها في ظرفٍ فتسقط، فالأولى ألا تزكي نفسك بل أن تسأل الله السلامة..

(عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ)

والتوبة التي شرعها الله عزَّ وجل رحمةٌ كبرى للإنسان، حتى لو أخطأ فباب التوبة مفتوح. وبالمناسبة ما أمرنا الله أن نتوب إليه إلا أن يتوب علينا، وما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا، وما أمرنا أن نستعين به إلا ليُعيننا، وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا، وإلا كلام ليس له معنى، لو أن الله أمرنا أن نتوب ولا يتوب علينا ـ فهذا كلام ـ والله عزَّ وجل منزَّه عن أن يقول كلاماً لا معنى له.

الولد الصالح صدقة جارية واستمرارٌ لوالديه :

قال تعالى:

(فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)

لهذه الآية معانٍ كثيرة جداً، لكن أوجه التفسيرات لهذه الآية: ابتغوا ما كتب الله لكم من الزواج لإنجاب الولد، فهذا الولد الذي يُنْجِبُه الزوجان، والذي يُربَّى تربيةً صالحةً هو امتدادٌ لحياة الأبوين، وتعلمون أن الحديث الصحيح:

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقطعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثلاثَةٍ؛ إلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

الولد الصالح صدقةٌ جارية، واستمرارٌ لوالديه، لذلك:

(فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)

من الولد. لأن الولد ذخر.

حدثني مهندس عمله في شركة سيارات ضخمة جداً في أمريكا، عمله أن يصمِّم سيارة لعام ألفين وعشرة لأن هناك تطوراً في بنية الأسرة، هناك تطور في دخل الفرد، هناك تطور في نوع الطاقة التي سوف تُستخدم في تحريك هذه المركبة. فأنا داعبته وقلت له: هل الخطَّة أن تكون هذه المركبة لرجلٍ وزوجته وكلبٍ يجلس في الوراء؟ وهذا شيء واضح جداً في العالم الغربي، حيث أن الأزواج انصرفوا عن إنجاب الأولاد إلى تربية الكلاب، أمرك الله عزَّ وجل أن تبتغي ما كتب الله لك من إنجاب الذُرِّيَّة، ليكون الولد عملاً مستمراً من بعدك.

الأب الذي يربي ابناً صالحاً هذا الابن وذريَّته وذرية ذريته إلى يوم القيامة في صحيفته، هذا الحديث لو عقله المسلمون لاندفعوا إلى تربية أولادهم التربية الصالحة، كي يكون الابن استمراراً لأبيه من بعده، هم يربّون الكلاب والمسلمون يربون أبناءً صالحين.

بإمكاننا أن ندخل الجنة من أوسع أبوابها بتربية أولادنا :

بالمناسبة: الحديث الذي يتداوله المسلمون اليوم، أنه:

((تناكحوا تكثروا، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة))

[الجامع الصغير عن أبي سعيد بن أبي هلال]

أنا والله لا أصدق أبداً أن يكون التباهي من قِبَل النبي عددياً إطلاقاً، وهذا المعنى ليس وارداً في حديث رسول الله، ولكنه يتباهى بنا نوعياً، يتباهى بذريته الطائعة لله، المستقيمة على أمر الله، التي ترفَعُ راية الإسلام عاليةً في الآفاق، يتباهى النبي بأمَّةٍ تنشر هذا الدين، بأمةٍ مطبَّقٌ فيها العدل، بأمَّةٍ مطبَّقٌ فيها الدين، أما أن يتباهى النبي بكثرتنا فقط فهذا مستحيل بحق النبي.

الآن في مجتمعاتنا أب أنجب عشرة أولاد وألقاهم في الطُرُقات، أهذا الأب محمودٌ أم مذموم؟ هو مذموم، أما الأبُ الذي ربَّى ولدين تربيةً صالحةً عاليةً فهو محمودٌ عند الناس جميعاً، فهل يُعقل أن يتباهى النبي بكثرة أمته فقط؟!! فهناك أمم تعدُّ ألف مليون، ألف ومئتي مليون وقد لا يقيم الله لها وزناً يوم القيامة، أممٌ، تسعمئة مليون يعبدون البقر في شرق آسيا، أممٌ لا تعد ولا تحصى شردت عن الله شرود البعير، لا يوجد منهج. الآن لا توجد في العالم الغربي أسرة أبداً، هناك مساكنة، أيْ أنَّه يسكن مع امرأة، ويعاشرها كزوجة، وليس لها أيَّة صفةٍ إطلاقاً، فإذا ملَّ منها ركلها بقدمه، إنّه مجتمع مُنْحَط، مجتمع متحلّل، مجتمع متفكّك، فيه تقدُّم علمي هائل، فيه تقدم تكنولوجي هائل، ولكن هناك انهياراً اجتماعياً شديداً، بل إن بعض رؤساء أمريكا قال أن هناك خمسة أخطار تهدِّد أمريكا، قال: تفكُّك الأسرة، وانحلال الأخلاق، وشيوع المخدرات، والجريمة، هذه أكبر أخطار العالم الغربي الآن.

أما أن يتباهى النبي عليه الصلاة والسلام بكثرة ذريته كماً!! فهذا مستحيل بحق النبي، إنه يتباهى بها نوعاً، يتباهى بأمَّةٍ قوية، يتباهى بأمةٍ متعلِّمة، يتباهى بأمةٍ منتجة، يتباهى بأمةٍ متماسكة، يتباهى بأمةٍ أخلاقيّة، يتباهى بأمةٍ راقية، والآن نحن الآباء من منَّا يتباهى أن لديه ثلاثة عشر ولداً وكلهم جهلة مثلاً؟ يقول لك: ابني دكتور، ابني مهندس، ابني بمنصب رفيع، ابني مثلاً داعية، فالإنسان يتباهى بابن متفوِّق ولا يتباهى بابن متخلِّف، لذلك:

(وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)

أيْ ابتغوا الوَلَد، فأنت لو لم تكن داعية، ما أتيح لك أن تكون خطيباً، ولا داعية، ولا عالِماً كبيراً، ولا شخصاً مرموقاً، أنت إنسان عادي أليس لديك أولاد في البيت؟ بإمكانك أن تدخل الجنة من أوسع أبوابها بتربية أولادك. والله قد نجد طفلاً تقول: كأنه مَلَك، من الحِرص، والمُتابعة، والضَبْط، والتوجيه، والتعليم.

تربية الآباء للأبناء رسالةٌ كبيرةٌ جداً :

لمَّا قال ربنا عزَّ وجل:

(فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)

من الذريَّة. حتى أنه ورد عن سيدنا عمر أنه يقول: "والله أقوم إلى زوجتي وما بي من شهوة إلا ابتغاء ولدٍ صالحٍ ينفع الناس من بعدي "، أرأيت إلى هذا التَصْعيد؟ فأنت مُتاح لك أن تُرَبِّي ابنك لا أن تدع الشاشة هي التي تربيه، بل أنت ربِّهِ على حب نبيِّه، أيْ علِّمه سيرة النبي، وربِّه على حب أصحابه الكرام، أيْ علِّمه سيرة أصحاب رسول الله، أما لو سألت الشباب اليوم: ماذا يعرفون عن أصحاب النبي؟ لا يعرفون شيئاً، لكنهم يعرفون كل لاعبي الكرة، وكل المغنيين، ثقافتهم ثقافة شاشة، فلذلك تربية الآباء رسالةٌ كبيرةٌ جداً..

(فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)

من الوَلَد الصالح. وقد تنجب بنتاً، وهذه البنت إذا ربَّيتها تربيةً صالحة ربَّت أسرةً؛ " من علَّم فتىً علَّم فتىً، ومن علَّم فتاةً علَّم أسرةً "، إذا ربيت بنتاً تربية صالحة، وكانت زوجةً صالحة، وأنجبت خمسة أولاد دفعت بهم إلى المجتمع، كانوا أُناساً صالحين فكل هذه الذرية في صَحيفتك، أنت رابح على الحالتين، بل إنه.. "من جاءه بنتان فأحسن تربيتهما فأنا كفيله في الجنة، قالوا: وواحدة؟ قال: وواحدة " كما ورد في الأثر.

كل من كان في بيته ابنتان، ورباهم تربية إسلامية عالية؛ ربَّاهم على معرفة الله، وعلى طاعة الله، وعلى التَستُّر، وعلى الأدب، وعلى العِفَّة، وعلى أن يُكُنَّ زوجاتٍ صالحات، هذا وضع قدميه في الجنة وهو في الدنيا، ما قولكم؟ إذاً وقفتنا المتأنيَّة عند قوله تعالى:

(فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)

من الولد الصالح. اهتم أحدهم بجمع الأموال وجمع أموالاً طائلة، وجمع أموالاً في عام السبعين تقارب مئة مليون، أيْ الآن كألف مليون، ونسي أن يربي أولاده، فأحد أصدقاء والده شاهد ابنه في الطريق، قال له: إلى أين؟ اسمعوا ماذا قال هذا الابن، وهو بعد وفاة الأب يستمتع بمال أبيه، قال له: (ذاهب أسكر على روح أبي) هكذا بالعبارة الصريحة، فهذا الذي لا يربي أولاده يدفع الثمن باهظاً، والإنسان في حياته إذا رأى ابنه شارداً والله تأتيه آلامٌ لا يعلمها إلا الله، والله يعتصِر الألم قلبه، والله يذوب من شدة الألم إذا رأى ابنه قد دخل البيت في الساعة الثانية، وهو ولا يعلم أين كان؟ مع من يسهر؟ وهو محطَّم، والإنسان له فراسة، إذا كان لأولاده رفقاء صالحون تجد الابن متألِّق معهم، أما إذا كان له رفقاء سوء والعياذ بالله، فالانحراف واضح بيِّن.

الفجر الصادق هو ظهور خط أبيض وخط أسود في الأفق :

قال تعالى:

(فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

فبمجيء الفجر، ترسم تباشير الضياء خطاً أبيض في أفق الشَرق، هذا هو الخط الأبيض، يليه السواد ـ سواد الليل ـ هو الخط الأسود، فإذا ظهر خطٌ أبيض وخطٌ أسود فقد دخلنا في الفجر الصادق، قال:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا)

هذا طبعاً أمر إباحة..

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ)

نهي النبي عليه الصلاة والسلام عن الوصال أيْ الصوم المستمر :

أيها الأخوة... نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن الوصال أيْ الصوم المستمر، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلَّم أنه قال:

((إذا أقبل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم))

[البخاري عن عمر بن الخطاب عن أبيه]

أيْ لمجرد أن تغيب الشمس فأنت مفطرٌ حُكماً، ولو لم تأكل شيئاً، ولو لم تشرب انتهى الأجر، الإسلام وسطي، متوازٍ، متناسب مع فطرة الإنسان، سمح لك أن تصوم من الفجر وحتى غروب الشمس..

(ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ)

لأنه "إلى الليل"، " إلى " تفيد انتهاء الغاية، أيْ أنَّ الصيام ينتهي عند مجيء الليل، ومجيء الليل غياب الشمس، فلمجرَّد أن تغيب الشمس فقد أفطر الصائم ولو لم يأكل شيئاً، انتهى الأجر، فلذلك ليس من السُنة ولا من الورع أن يواصل الإنسان الصيام، ولا السنة، بالعكس أن تبكِّر بالإفطار، أيْ أن تأكل لمجرَّد أن تسمع صوت المدفع، أو لمجرَّد أن تعلم أن الشمس قد غابت بطريقةٍ أو بأخرى.

معنى الاعتكاف :

قال تعالى:

(وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

هناك في الإسلام ما يسمَّى بالاعتكاف، والاعتكاف لزوم الشيء، أي أن تدخل بيت الله وأن تنوي أن تعتكف فيه تقرُّباً إلى الله عزَّ وجل، كان من عادة النبي عليه الصلاة والسلام أنه يعتكِف العشر الأواخر من رمضان، أيْ أنه ينقطع عن الدنيا، فهي شحنة روحيَّة عالية جداً؛ يبتعد عن الزوجة، والأولاد، والأهل، وعن الأعمال، والعلاقات، وعن كل ما يشغله عن الله عزَّ وجل يعتكف في المسجد، وإذا لم يتح للناس الاعتكاف الآن فلا بد من جلسةٍ مع الله من حينٍ إلى آخر، على كلٍ أنت حينما تأتي إلى المسجد فأنت معتكف، ولو مكثت فيه من المغرب حتى العشاء، فأنت دخلت بيت الله تقرُّباً إلى الله، الاعتكاف لزوم المسجد تقرباً إلى الله عزَّ وجل. لذلك..

(وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ)

مباشرة المرأة يفسِد الاعتكاف، طبعاً إذا كان الإنسان معتكفاً في مسجد بإمكانه أن يخرج منه لأمرٍ قاهر؛ ليقضي حاجةً، أو ليأكل، أو ليشرب، هذا لا يمنع اعتكافه، أما لو خرج وباشر امرأته في البيت فقد فسد اعتكافُه، لأن الاعتكاف البُعد عن ما يقرِّبك من الدنيا ولو كانت مُباحة.

الاعتكاف المتقطع :

قال تعالى:

(وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

ليحرص الإنسان في رمضان إذا كان بإمكانه تخفيف علاقاته، فإذا كانت هناك مشكلة فليحلها قبل رمضان، أو فك شركة يفكها بعد رمضان، يجعل رمضان فيه تفرُّغاً لله عزَّ وجل، فهذا نوعٌ من الاعتكاف، إنّ طبيعة العصر لا تسمح بالاعتكاف المستمر، أخ موظف، أو مدرس لا يستطيع الغياب عن عمله، لكن طبيعة هذا العصر تسمح لنا باعتكاف مُتَقَطِّع، هو حضور مجالس العلم، هذا اعتكاف من أرقى العبادات، أي أنك دخلت إلى بيتٍ من بيوت الله تصلي وتقرأ القرآن، أو تستمع إلى القرآن أو إلى درس علم هذا اعتكاف، دخول المسجد، والمكوث فيه تقرُّباً إلى الله عزَّ وجل هذا اعتكاف.

لكن بالمناسبة يروى أن ابن عباس رضي الله عنهما كان معتكفاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، رأى رجلاً مهموماً قال له: ما لي أراك كئيباً؟ قال: والله ديون لزمتني لا أطيق سدادها. قال له: لمن؟ قال: لزيدٍ أو لفلان. قال: أتحب أن أكلمه لك؟ قال: إذا شئت. فخرج ابن عباس من معتكفه. قال له أحدهم: يا ابن عباس أنسيت أنك معتكف؟ قال: لا ولكني سمعت صاحب هذا القبر ـ وأشار إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام ـ والعهد به قريب وبكى، سمعته يقول: **"لأن أمشي مع أخ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافه في مسجدي هذا "** وذلك كما ورد في الأثر.

لأن أمشي مع أخ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ ـ من صيام النبي لا من صيامنا ـ واعتكافه في مسجدي هذا ". فإذا أقام أحدنا في خدمة الخلق فهذه نعمةٌ كبرى لا تعدلها نعمة.

هناك معاصٍ فيها قوة جذب منها المرأة :

قال تعالى:

(وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

هذه الآية يُفْهَم منها أنه يجب أن تدع بينك وبين حدود الله هامش أمان، لم يقل: فلا تعتدوها، بل قال:

(فَلَا تَقْرَبُوهَا)

كيف ترى أن وزير الكهرباء أحياناً يأمر بوضع لافتات أمام خطوط التوتر العالي: " ممنوع الاقتراب من الأسلاك " لم يقل: ممنوع مس الأسلاك، لأن هذا السلك توجد حوله ساحة مغناطيسية عالية جداً تجذب إليه من يقترب منه، فالأمر لا يأتي: ممنوع مس التيار، بل ممنوع الاقتراب لوجود قوة جذب، وهناك معاص أيها الأخوة فيها قوة جذب، منها المرأة. الله قال:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

ما قال: ولا تزنوا، بل "لا تَقْرَبُوا " يجب أن تبقي بينك وبين المرأة هامش أمان، فلا خلوة، ولا أن تصحب الأراذل، ولا أن تتنزَّه في الطُرُقات، ولا أن تملأ عينيك من محارم الله، هذه كلها دخلتَ منطقة الخطر، وهي الساحة التي تشَكِّلها المرأة حولها، فلذلك:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

على الإنسان أن يحصِّن نفسه بالزواج :

أيها الأخوة، وقفت وقفتين متأنيتين عند كلماتٍ في هذه الآية التي وردت في آيات الصيام. وقفت عند:

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)

ووقفت عند قوله تعالى:

(فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)

من الوَلَد الصالح، فالإنسان عليه أن يحصِّن نفسه بالزواج، ولاسيما في هذه الأيام، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلَّم أنه قال:

((من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا))

[كنز العمال عن أبي سعيد]

لأنه حقٌ على الله أن يُعين الشاب إذا طلب العفاف، هذا شيء ثابت، شاب مؤمن يخشى أن يعصي الله، إذا طلب العفاف فحقٌ على الله أن يعينه، فالزواج حِصن، والزواج سَبَب لإنجاب الأولاد الصالحين من بعدك، لذلك: **" لا رهبانية في الإسلام ".**

الزواج سُنةٌ من سُنَن النبي عليه الصلاة والسلام، وكل إنسان يسهم بشكلٍ أو بآخر، كل إنسان يُذلل العقبات أمام من يرغبون بالزواج له أجر عند الله كبير، الذي قدَّم بيتاً، الذي قدَّم مبلغاً من المال مساعدة، الذي قدَّم أثاثاً، الذي قدَّم مهراً، الذي زوَّج ابنته ولم يشدِّد على الصهر، تساهل معه، فهؤلاء لهم أجر، إذا تعاونا يُشيع النكاح، وإن لم نتعاون يشيع السِفاح مكان النكاح، لأن الزواج حاجة أساسية في الإنسان، فإذا وضعنا عقبات عالية أمامها طبعاً سلك الإنسان طريقاً منحرفاً:

((إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه، فزوجوه. إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفسادٌ عريض))

[الترمذي عن أبي هريرة]

إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه ولم تزوجوه، لأنه ليس لديه بيت، أو لسكن خارج دمشق، أو ليس لديه سيارة، أو ليس له دخل كبير يحقّق طموحات ابنتنا، فإذا كان هذا هو المقياس فابشروا بفسادٍ عَريض، وابشروا أن تتحول كل بيوت المسلمين إلى بيوت دعارة.

الآيات تؤكد على تحصين الشباب بالزواج وابتغاء الولد الصالح منه :

أنا ركَّزت على كلمة:

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)

ولاسيما في هذه الأيام العصيبة التي تبدو فيها المرأة في الطريق كما خلقها الله، لم يبقَ للزوج شيءٌ منها.. هؤلاء

((نساءهم كاسيات عاريات ـ مائلات مميلات ـ على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهن فإنهن ملعونات))

[كنز العمال عن ابن عمر]

هكذا قال عليه الصلاة والسلام، لأنها تثير الشهوة قبل أوانها، شابٌ بينه وبين الزواج عشر سنوات، أو عشرين عاماً أحياناً، فهذه تثير فيه أعمق شهواته، وهي لا تدري ماذا تفعل، لذلك هذه المرأة المُتَستِّرة هذه لها عند الله مقامٌ كبير، هذه التي لا تؤذي شباب المسلمين، لا تثير فيهم الشهوات قبل أوانها، هذه المرأة التي تحفظ مفاتِنها عن أنظار الرجال والشباب هذه امرأةٌ ترضي الله عزَّ وجل، أما التي تبرز مفاتنها أمام الرجال هذه امرأةٌ تلقي القنابل في دروب الشباب دون أن تشعر.

لذلك كان التركيز في هذه الآيات على تحصين الشباب بالزواج، وعلى أن يبتغوا من الزواج الوَلد الصالح، أو البنت الصالحة التي تنفع الناس من بعده.

أنا كلَّما ذكرت موضوع الزواج حضرتني آيةٌ لا علاقة لها بالزواج، لا أدري لمَ؟ لكني أراها منطبقة على الموضوع انطباق كلي. قال تعالى:

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

[سورة النساء: 104]

أيْ أنَّ الشاب المؤمن حينما يسعى للزواج قد يتعب كثيراً لكي يؤمِّن مأوى صغيراً، قد يتعب كثيراً ليؤسِّس هذا المأوى، قد يتعَب ليقدِّم المهر لزوجته، لكنه يرجو من زواجه ما لا يرجوه الشاب الشارد، ذاك يرجو المُتعة، وهذا يرجو ولداً صالحاً ينفع الناس من بعده، هذا يرجو بيتاً إسلامياً ويرجو لبِنَةً محكمةً في بناءٍ شامخ، وذاك يرجو المتعة والابتهاج.

التطبيق العملي لهذا الدرس أن نسهم في تسهيل الأمور أمام المتزوّجين :

أيها الأخوة التطبيق العملي لهذا الدرس، أن نسهم جميعاً بأية طريقة في مساعدة طالِبي الزواج، الذي قدَّم بيتاً، الذي قدم هدية ثمينة. والله سمعت عن شيء في بعض البلاد الإسلامية أعجبني جداً، إنسان تزوج، يتولَّى إنسان آخر إحصاء كل حاجاته، كل إنسان يريد أن يقدم هدية لهذا الشاب المتزوج يسأل هذا الشخص: ما يحتاج؟ فعنده قائمة، بدل أن تأتي الهدايا عشوائيَّة، وغير مفيدة،

وليست ذات قيمة، فلا تقدَّم له هدية إلا ضمن برنامج دقيق هي كل حاجاته، فقد يسهم أربعة في شراء براد مثلاً، وقد يسهم خمس أشخاص في شراء حاجة أساسيَّة، الحياة كلها تعاون، والحياة:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة البقرة: 245]

التطبيق العملي لهذا الدرس أن نسهم بشكلٍ أو بآخر في تسهيل الأمور أمام المتزوّجين، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

[سورة النور: 32]

أمر إلهي، معنى "أنكِحُوا" أيْ يسِّروا سُبُل الزواج لكل إنسانٍ، " أنكِحُوا الأيَامَى "، من هو الأيِّم؟ الإنسان الذي لا زوجة له، أو المرأة التي لا زوج لها ثيباً كانت أو بكراً، وهذا أمر إلهي، أيْ معنى ذلك سهلوا سُبُلَ الزواج ليحلَّ النكاح مكان السفاح، لتحل الأسر محلَّ بيوت الدعارة:

((إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه، فزوجوه. إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض))

[الترمذي عن أبي هريرة]

سيدنا شُعَيْب عندما عرض ابنته على سيدنا موسى قال له:

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ)

[سورة القصص: 27]

هذا منهج، أيْ أن أي أب عنده بنت ينبغي عليه ألا يشقَّ على خاطب ابنته، إذا كان دينه جَيِّداً، أخلاقه عالية، لكن قليل ذات اليد، الفقير قد يغنيه الله عزَّ وجل، أما الغني الفاسق قد يزداد فِسْقاً.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (64- 95):تفسير الآية 188، المال قوام الحياة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-11-05

بسم الله الرحمن الرحيم

المال قيمة مُطْلقة لكل الأعمال البشريَّة :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الرابع والستين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثامنة والثمانين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أيها الأخوة... الإنسان في الحياة الدنيا أودِعَت فيه الشهوات، ولما أودعت فيه الشهوات تحرَّك بها؛ تحرك ليأكل، تحرك ليقتَرن بأنثى، تحرك ليعلو في الأرض، هذه الحركة أساسها الشهوات التي أودعت فيه، هذه الحركة هي تداخل بين الناس، هذا يعطي وهذا يأخذ، هذا يأخذ ولا يعطي، هذا يعطي ولا يأخذ، هذا يأخذ ويعطي، هذا التداخل يحتاج إلى قيمة تقيِّم هذه الحركة، القيمة التي تقيِّم هذه الحركة هي المال.

أوضح مثل: الإنسان ينقل كمية من الرمال من مكان إلى مكان فيأخذ خمسمئة ليرة، فهذه الخمسمئة ليرة تقابل جهد بشري، إنسان يدرس ثلاثين سنة ليتعلَّم الطب فيعالج مريضاً، يتقاضى ألف ليرة، هذه الألف مقابل هذا الجهد العلمي والعملي الذي بذله.

فالمال قيمة مُطْلقة لكل الأعمال البشريَّة، أعمال في الزراعة، فالفلاح يبيع محصوله بمال، والتاجر يقدِّم خدماتٍ، يشتري بضاعة ويبيعها ويأخذ جزءاً من المال كأجرٍ لهذا الجهد المتواصل، والصانع يصنع بضاعةً ويبيعها، يـأخذ مقابل ماله وجهده وخبرته، فالمال قيمةٌ تقيَّم بها الأعمال البشريَّة، هذا المال قِوامُ الحياة، فأنت تتقن شيئاً ومحتاج إلى مليون شيء، هذا الذي أتقنته تأخذ عليه أجراً هو المال، وحينما تحتاج إلى أشياء كثيرة تنفق من هذا المال الذي أخذته مقابل جهدك، فتشتري طعاماً، وشراباً، ولباساً، وتُعالج ابنك عند طبيب، وتضع ابنك في مدرسة...

المال جعله الله قِوام الحياة وأودع فينا محبَّته :

فالمال جعله الله قِوام الحياة، وأودع فينا محبَّته، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

من جملة الشهوات التي أودِعت في الإنسان حبُّ للمال، الإنسان في الأصل خُلق لجنة عرضها السماوات والأرض، ولا بد من دفع ثمنٍ لهذه الجنة، الثمن هو عملٌ في الدنيا، من أجل أن يعمل الإنسان أُودِعَتْ فيه الشهوات، ليتحرَّك، من خلال هذه الحركة يقيَّم عمله، من أجل أن يصح التعامل بين البشر قُيِّم العمل في الدنيا بمال، هذا المال جزء كبير من قِوام الحياة، فإذا أُخْذَ بالباطل أو أُنفق في الباطل فسدت الأرض بأكملها، وإذا أُخذ بحقٍ وأُنفق بحقٍ أُعْمِرَت الأرض، وأكاد أقول أن كل ما تعاني منه البشرية؛ من حروب، من اجتياحات، من اختلاسات للثروات، من هيمنة، من سيطرة كل ذلك أساسه المال، أساسه أن يأخذ الإنسان مالاً وفيراً يستمتع عن طريقه بالشهوات التي أُودِعَتْ فيه، فالمال مادة الشهوات.

لأن كسب المال يحتاج إلى نظامٍ يضبطه، ولأن إنفاق المال يحتاج إلى نظامٍ يضبطه، كانت التشريعات الماليَّة في الإسلام تأتي في الدرجة الأولى، تسعة أعشار المعاصي متعلقة بكسب المال وإنفاقه، لذلك ضبط حركة الإنسان من زاوية ماله شيءٌ مهمٌ جداً:

((يا سعدُ أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[مجمع الزوائد عن سعد بن أبي وقاص]

أي اجعل كسبك حلالاً، أيْ أخلص وأتقن واصدق، وكن أميناً ومتقناً حتى تأخذ المال ـ الذي يعبِّر عن جهدك في الأرض ـ حلالاً، فإذا اشتريت به طعاماً وأطعمته لأولادك كان هذا الطعام طيِّباً:

((يا سعدُ أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[مجمع الزوائد عن سعد بن أبي وقاص]

فقه المعاوضات :

الآن يوجد في هذه الآية نهيٌ رائع جداً عن أكل أموال الناس بالباطل، وهذا الكلام يقودنا إلى مفهومٍ عكسي، أيْ أن أكل المال بالحق جائز، كيف تأكل المال بالحق؟ أنت تاجر، اشتريت بضاعةً وبعتها بثمنٍ يزيد عن ثمن شرائها ـ وفق سعر السوق ـ ولم تكذب، ولم تدلِّس، ولم تغُش، ولم تحتكِر، ولم تستغل، ولم تكن البضاعة محرَّمةً، ولا طريقة التعامل محرمةً، إذاً أنت أكلت مال الناس بالحق، هو الربح.

أو أنّك بذلت جهداً كبيراً بتقديم صناعة، أخذت مقابلها ثمناً، لا شك أنك أخذت ثمناً يفوق تكاليفها،

هذا الهامش الذي يفوق التكاليف، أو يفوق رأس المال هو أكلٌ لمال الناس بالحق، سمح الشرع به، فلك أن تزرع الأرض، وأن تبيع محصولك، ولك أن تربي المواشي وأن تبيعها، ولك أن تتاجر، ولك أن تُصنِّع، ولك أن تأخذ ثمن خبرتك؛ كالحرف اليدوية والمهنية، والراقية كالطب والهندسة، فكل شيءٍ تأخذه مقابل شيء هذا كسبٌ حلال، سمَّاه العلماء **" فقه المعاوضات ".**

أي أنك تقدم جهداً وتأخذ مالاً، تعاون مريضاً تأخذ مالاً، تلقي درساً تأخذ مالاً، تشيّد بناءً تأخذ مالاً، تحل مشكلةً تأخذ مالاً، تقضي بين اثنين تأخذ مالاً، فهذا المال مُقابل الجُهد البشري، تأخذه بالحق عن طريق الزراعة، والتجارة، والصناعة، وعن طريق الخدمات ـ بذل خدمات ـ وعن طريق الهبة، وعن طريق الإرث، هذه مصادر كسب المال الحلال، هذه مصادر كسب المال بالحق.

وأما كسب المال بالباطل فطرقه لا تعد ولا تحصى، قد يكون كسب المال أساسه الكذب، وقد يكون كسب المال أساسه الاحتكار، وقد يكون كسب المال أساسه الاحتيال، وقد يكون كسب المال أساسه العدوان، أو السيطرة، أو إحراج الآخرين، وقد يكون كسب المال أساسه الكذب، كأن يدعي الفقر فيأخذ أموال الناس بالباطل، وقد يكون أساس المال أن تملك قوة قاهرة فتخلّص الشعوب من ثرواتها.

هذا الدرس متعلّق بما تشاهدونه وتسمعونه في العالَم، هناك حروب، هناك عدوان على الثروات الباطنيَّة، هناك هيْمنة وسيطرة، إن دَقَّقت في كل هذه الحركة البشرية تجد أن هدفها أخذ قدرٍ أكبر من المال كي يكون أداةً للاستمتاع بالحياة، والاستمتاع بالحياة فيه تروية للشهوات التي أودعت في الإنسان.

أنواع الفساد :

هذا الموضوع خطير جداً، إن لم ينظّم خالق البشر طريقة كسب المال وإنفاقه فالأرض يعمها الفساد، الأرض يعمّها فسادان: فساد اقتصادي، وفساد أخلاقي.

الفساد الاقتصادي أن تُجَمَّع الأموال في أيدٍ قليلة، قالوا: إن عشرة بالمئة من سكان العالم يملكون تسعين بالمئة من ثروات العالم. هذا وضع فيه اختلال، ولكن الوضع الطبيعي الذي أراده الله عزَّ وجل أن يكون المال دُولةً بين الناس جميعاً، فإذا كان دولةً بين الأغنياء منكم وقع الفساد في البر والبحر، الفساد أساسه أن تُجَمَّع الأموال في أيدٍ قليلة وأن تحرم منها الكثرة الكثيرة، فإذا كان ذلك كذلك نشأت الثورات، والاختلاسات، والاحتيال، والقهر، والنَصب، أكثر ما تُعاني منه البشرية اليوم بسبب اختلال هذا التوازن، بل إن بعض الحروب الأهلية التي نشبت في بعض الأقطار الإسلامية هناك من يعزوها إلى الفرق الكبير بين فئةٍ وفئة، بين فئةٍ تملك كل شيء، وهي قلةٌ قليلة، وفئةٌ لا تملك شيئاً، وهي كثرةٌ كثيرة. هذا الموضوع من أدق موضوعات الدين..

أيها الأخوة الكرام... الإنسان حينما ينضبط في كسب ماله، وفي إنفاق ماله يكون قد حقَّق الشطر الأكبر من منهج الله عزَّ وجل، الإنسان في الأصل خُلِقَ لجنةٍ فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، خُلِقت لجنةٍ لك فيها ما تشاء، في الجنة ليس هناك كسب، ولا يوجد جهد:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

[سورة ق: 35]

أيُّ شيءٍ يخطر على بالك تراهُ أمامك، الأشجار قطوفها دانية:

(فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ* فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ* وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ* وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ* وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)

[سورة الغاشية: 12-16]

ثمن الجنة العمل الصالح :

كل شيءٍ في الجنة مبذولٌ لأهلها بلا مقابل، هذه الجنَّة لها ثمن، والثمن هو العمل الصالح، من أجل أن تعمل أودع الله فيك الشهوات، وضع لك نظاماً لحركة هذه الشهوات، هناك شهوة وهناك منهج، ما هو الفساد؟ هو حركة بدافع الشهوات بلا منهج، فالحركة نحو المرأة بالمنهج الزواج، وبلا منهج زنا، وبيوت دعارة، الحركة نحو المال بالمنهج كسب مال مشروع، من دون منهج سرقة، واحتيال، واغتصاب.. وما إلى ذلك، الحركة نحو العلو في الأرض بمنهج أن تكون خيِّراً معطاءً فيرفعك الناس، بلا منهج أن تكون شريراً مغتصباً فيهابُك الناس، يحبونك إذا أعطيتهم ويخشوْنَك إذا آذيتهم، فهناك شهوات أساس الحركة، فالحركة لا تضبط إلا بمنهج الله عزَّ وجل، إحدى فقرات هذا المنهج في كسب المال وإنفاقه هذه الآية الكريمة، قال تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

أيْ أنَّ الأموال ينبغي أن تكون بينكم متداولة، الكُتْلة النَقْدية التي بين أيدي الناس يجب أن تكون موزَّعة بين كل الناس، هذا هو الوضع المثالي، وقد لفت الله عزَّ وجل نظرنا إلى أن كل التشريعات الإلهيَّة من أجل ألا يكون المال دُولة بين الأغنياء منكم، ينبغي أن يكون المالُ دُولة بين كل الناس، فحينما نكسب الكسب المشروع نرى من دون أن نشع أن المال أصبح متداولاً بين جميع الناس، كيف؟ أنت حينما تسمح للمال أن يَلِدَ المال سوف تنتهي الأمور إلى أن فئة قليلة تملك كل شيء، المال يلِد المال عن طريق الربا، وإيداع المال في البنوك، ولكن ينبغي أن يَلِدَ العمل المال، حينما تلِد الأعمال المال، أنت حينما تريد تأسيس مشروع، شئت أم أبيت، أعجبك أم لم يعجبك لا بد من أن تستخدم ألوف الناس، الألوف، بعض الناس بشكل مباشر، وعدد كثيرٌ جداً بشكل غير مباشر، فأنت حينما تريد كسب المال من الأعمال توزِّع هذا الربح على شكل مصاريف ـ وقد تكون عالية جداً ـ على فئاتٍ لا تعد ولا تحصى.

إذا فتحت محلاً تجارياً فأنت بحاجة إلى دفتر للفواتير، دفتر الفواتير بحاجة إلى مطبعة، والمطبعة بحاجة إلى موظَّفين، وبحاجة إلى أن تشتري الحبر، وإلى الطابعة، والمطبعة بحاجة إلى حاسب، والمطبعة بحاجة إلى من ينقُل البضائع إلى الزبائن، والمطبعة بحاجة إلى ترخيص، من أجل دفتر فواتير هناك مؤسَّسة اسمها مطبعة، فيها عشرة عمال، أو عشرة موظفين، بالمطبعة تتعامل مع مئات الأشخاص من أجل دفتر فواتير، إحدى شركات السيارات في فرنسا تتعامل مع مئتي ألف مؤسَّسة ـ تقريباً ـ كلها تعملُ لها، لأن أقل قطعة بالمركبة تحتاج إلى معمل.

حينما ترتدي قميصاً فالزر له معمل، وفتح العروة لها آلات خاصة، والخياطة لها آلات، وهذا النسيج له معامل، القميص تُسْهم به مؤسَّسات ضخمة وكبيرة جداً ـ دقق في هذه الكلمة ـ فحينما تلد الأعمال المال يكون المال متداولاً بين كل الناس، أما حينما يلد المالُ المالَ يصبح المال محصوراً في أيدٍ قليلة، وتحرَم منه الكثرة الكثيرة، والمصائب، والمِحَن، والانفجارات، والثورات التي تحدث بسبب هذا الفارق الكبير بين تراكُم المال عند بعضهم، وافتقاده عن بعضِهم الآخر، هذا وراء كل مشكلات المُجتمع، واسأل في كل بلدٍ: متى تكثر السرقات، والنهب، والسلب، والاحتيال؟ حينما تقلُّ الأموال بين أيدي الناس.

لكلمة (أموالكم) في الآية التالية معنيان :

إذاً هذه القضية قضية كبيرة جداً، حينما يشرب الإنسان الخمر يؤذي شخصه، وحينما يزني يؤذي معه فتاةً كانت طاهرةً عفيفة فجعلها ساقِطة، أما حينما يأكل الربا فهو يُسهم في انهيار مجتمعٍ وهو لا يدري، حينما يأكله أو يوكله، فقضية المال قضيةٌ خطيرةٌ جداً، لأن المال قوام الحياة. وربنا عزَّ وجل في هذه الآية يقول:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

هنا توجد دِقَّة، حينما أضع في جيبي خمسمئة ليرة، وآخذها من جيبي الأيسر وأضعها في جيبي الأيمن، ماذا فعلت؟ أنا أكلت مالي، ماذا فعلت؟ فما معنى هذه الآية؟

1 ـ وجوب الحفاظ عليه وكأنَّه مالك:

المقصود أن هذا المال الذي هو مال أخيك، عند خالق الكون هو مالُك من زاويةٍ واحدة، هو مالك من زاوية أنه يجب أن تحافِظ عليه وكأنَّه مالُك، سمَّى الله مال أخيك مالَكَ، فمثلاً إذا أعار إنسان مركبته لإنسان آخر يقول له: اعتبرها سيارتك، أي اعتنِ بها، راعِها، دارها، لا تُحمّلها ما لا تطيق، اعتبرها مركبتك، أي استعملها كما لو أنها مركبتُك، فكلمة:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

أيْ أنَّ هذا المالَ الذي هو مال أخيك هو مالك من زاوية أنك يجب أن تحافظ عليه وكأنَّه مالُك.

2 ـ وجوب إنفاقه في مصالح المسلمين :

هناك زاوية ثانية: هذا المال الذي هو مال أخيك هو لكل الناس من زاويةٍ واحدة، إنسان معه مبلغ ضخم، يجب أن يعتقد أن هذا المال مِلْك المسلمين، بمعنى أنه يجب أن يُستثمر ـ فَرَضاً ـ في شيء ينفع المسلمين، في معمل غذائي، صناعة راقية، مشروع سكني، أما حينما يُستثمر المال في إيذاء المسلمين؛ في فتح الملاهي، والنوادي الليلية، فأنت بمالك الذي هو ملكٌ لك أفسدت أخلاق الناس، إذاً يجب أن يعتقد المؤمن أن المال الذي بين يديه فيه حقٌ لكل المسلمين، عليه أن ينفقه لمصلحتهم لا لمصلحته هو فقط، فلو أخذه من بلادهم ونقله إلى بلادٍ بعيدة، حَرَمَ المسلمين الانتفاع منه، أو لو أنفقه في معصيةٍ كبيرة، أو في إفساد الأخلاق، أو في عملٍ لا يرضي الله، معنى ذلك أنه سبَّب إيذاءً للمسلمين بماله، فالله يخبره أن هذا المال ليس ماله بل إنه مالٌ لجميع المسلمين. المعنى الأول: وجوب الحفاظ عليه وكأنَّه مالُك. والمعنى الثاني: وجوب إنفاقه في مصالح المسلمين، لأن كل المسلمين لهم الحق أن ينتفعوا بمالك بشكلٍ مشروع وفق منهج الله عزَّ وجل.

فرضاً لو أن إنساناً معه أموال وأسَّس مزرعة ضخمة، وجعل يبيع من إنتاجها في السوق، هو يتاجر، يزرع ويبيع الفواكه، وحينما تطرح في السوق فاكهةٌ بكمياتٍ كبيرة تهبط الأسعار وينتفع المسلمون، فليس معنى قولنا لك: إن هذا المال هو للمسلمين معنى ذلك أن يأخذوه منك، لا، بل أنت استثمره في صالح المسلمين؛ في الزراعة، أو الصناعة، أو التجارة، أو في عملٍ يرضي الله، لا في أعمال تفسد أخلاق الناس.

يجب أن تلِد الأعمال المال لا أن يلد المالُ المال:

إذاً حينما سمَّى الله مال أخوتنا مالنا فمن أجل أن نحافظ عليه وكأنه مالُنا، وحينما سمَّى مالنا مال أخوتنا فمن أجل أن ننفقه في صالح المسلمين، هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

الأموال منوَّعة؛ هناك أموال منقولة، وغير منقولة، وبيوت، وحوانيت، وأموال سائلة، وهناك أموال على شكل معدات، هذه الأموال عُزِيَت إلى كل المسلمين من زاويةٍ واحدة هي أنه ينبغي أن ينتفع بها المسلمون جميعاً، ومن زاويةٍ ثانية أن كل مالٍ لأخيك هو مالُك من زاوية أن تحافظ عليه، ولا تأكلوا أموالكم..

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

قال بعض العلماء: ينبغي أن تكون هذه الأموال متداوَلَةً بينكم، لا أن تكون متداولةً في أيدٍ قليلة، وتداولها في الأيدي الكثيرة يعني أن تلِد الأعمال المال لا أن يلد المالُ المال..

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

يقابل الباطل هو الحق، الحقُّ هو الشيء الثابت، فعلى مر الحقب، والعصور، والأمْصار، والإعْصار، وكل المتغيرات، السرقة حرام، والغش حرام، والاحتكار حرام، وإيذاء المسلمين حرام، وإفساد أخلاقهم حرام، فعلى كل الإعصار إذا اكْتِسَب المال بالباطل، أو أُنفِق بالباطل عَمَّ الفساد الأرض، لذلك قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم: 41]

أعلى تجارة في العالم قبل تجارة الأسلحة، وقبل تجارة المواد الزراعية الكيماويَّة، هي تجارة المخدِّرات، تُدِرُّ أموالاً فلكيَّة، ثم توضع في البنوك لتأخذ صفة نظاميَّة ولتكون متداوَلَةً بين الناس.

هناك عدة طرق لأكل أموال الناس بالباطل :

أيها الأخوة الكرام... لا أبالِغ إذا قلت أن ما يعانيه العالم اليوم كله هو من مخالفة هذا المنهج الإلهي، فالمال يؤخذ من طرقٍ غير مشروعة، إما سرقةً، أو اغتصاباً، أو عن طريق الحروب، أو الهيْمنة، أو السيطرة، أو القوة، أو عن طريق عقود إذعان، أو عن طريق الفساد في الأرض؛ نشر المخدرات، أو نشر الفساد، هذا كله يسبِّب أرباحاً طائلة.

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

كل مسلم ينبغي أن يتعلَّم كيف يكسب ماله، هذا علمٌ ينبغي أن يُعلَم بالضرورة، كيف يكسب ماله؟ فإن لم يتعلم وقع في أكبر معصيةٍ إنها أكل المال بالباطل، فالغشَّاش يأكل أموال الناس بالباطل، والكذَّاب يأكل أموال الناس بالباطل، والمدلِّس يأكل أموال الناس بالباطل، والمحتكِر يأكل أموال الناس بالباطل، والمغتصِب يأكل أموال الناس بالباطل، والسارق يأكل أموال الناس بالباطل، والمحتال يأكل أموال الناس بالباطل، هذه كلها معاصي، فلمجرَّد أن تغشَّ المسلمين أكلت أموالهم بالباطل، لمجرد أن تغير صفة البضاعة كأن تقول لهم: مستوردة. وهي ليست مستوردة أكلت أموال الناس بالباطل، لمجرَّد أن تعرضها عرضاً مغرياً لا يعبِّر عن حقيقتها، أكلت أموال الناس بالباطل، لمجرَّد أنك أعطيتها صفةً ليست فيها، أكلت أموال الناس بالباطل، حينما تستخدم الإيهام، والكذب، والتدليس، والاحتكار، والغش، والاغتصاب، والهيمنة، والسيطرة، والعدوان، والسرقة هذه كلها أكلٌ لأموال الناس بالباطل، أو حينما تعتدي على كسب الآخرين هذا هو السُحْتُ أكل أموال الناس بالباطل، والباطل خلاف الحق.

من يعتمد على تشريع أرضي لأكل أموال الناس بالباطل لا ينجو من عذاب الله :

أيها الأخوة... الحلال ما أحلَّه الله، والحرام ما حرَّمه الله، والله وحده سيحاسبنا جميعاً، لو أن إنساناً ـ فرضاً ـ يسكن في بيت قد استأجره، وعنده بيوت تصلُح لسُكْناه، ولكنه اعتمد على قانون الإيجار مثلاً، فبقي مُغْتَصِباً لهذا البيت مع أنه ليس بحاجةٍ إليه، وبإمكانه أن يسكن في أحد بيوته، فهل يحميه قانون الإيجار يوم القيامة؟ لا يحميه.

لو سمح لك إنسان أن تأكل ماله بالباطل لأنك أقوى منه، فهل قوتك تحميك من حساب الله يوم القيامة؟ إذاً إذا اعتمد الإنسان على تشريع أرضي لأكل أموال الناس، لا ينجو من عذاب الله..

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)

أيْ أن تعطي القاضي شيئاً من هذا المال كي يحكُم لك كما تريد، أيْ يحكم لك حُكْمَاً يغطي عدوانك، فإذا فعلت هذا ارتكبت جُرْمَيْن: اغتصاب المال بالباطل، وفساد إنسانٍ معك في إقرارك على هذا الاغتصاب بالباطل..

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

ينبغي أن تكون متداوَلَةً بينكم..

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)

ولكن لو أنك احتكمت مع خصمك إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ـ في زمانه ـ وكنت طليق اللسان، قويَّ الحُجَّة، لَسِنَاً، وألحن بحجةٍ من أخيك، وانتزعت من فمِ النبي الشريف قراراً يُبَرِّئك ويغطي انحرافك، والقرار من النبي الكريم ـ فتوى من النبي ـ لا تنجو من عذاب الله..

((إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها))

[الجامع الصغير عن أم سلمة]

دقّق بقطعةٍ من النار.

الآية التالية تقصم الظهر :

أيها الأخوة هذه آية تقصم الظهر..

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

يجب أن تأكلها وَفْقَ منهج الله؛ بيعٌ مبرور، تجارةٌ مشروعة، زراعةٌ مشروعة، أما أن تزرع الحشيش، أو أن تزرع التبغ أنت بهذا تفسد أجسام المسلمين، زراعةٌ مشروعة، لا أن تستخدم المواد الهرمونية التي تعطي الثمرة شكلاً جميلاً، وحجماً كبيراً على حساب صحة الناس، هذه كلها مواد مسرطنة، إذاً كسب المال الحلال عن طريق زراعةٍ نظيفة، وتجارةٍ مشروعة، وصناعةٍ نافعة

للمسلمين، لا أن تصنع أجهزةً تجعل أخلاقهم في الوَحْل، لا أن تصنع أجهزةً تجعل الزنا يفشو بينهم، لا أن تستثمر المال في أعمالٍ تفسِد أخلاق المسلمين، بل يجب أن تأكل أموال الناس بالحق لا بالباطل، والحَكَمُ هو الشرع وحْدَه، أما التشريعات الأرضيَّة فهي لا تحميك من عذابِ الله.

أحد الأخوة الكرام قال لي: أنا دخلت في مناقصة عقار، واستطعت بطريقةٍ ذكيةٍ جداً أن أُدْخِلَ معي ستة أشخاصٍ بشكل وهمي، وأن يزيدوا السعر قليلاً قليلاً، فرسا المشروع عليّ بسعرٍ يساوي ثُلُثَي ثمنه الحقيقي، وهو بهذا عدَّ نفسه شاطراً ـ بالتعبير الشائع ـ وعدَّ نفسه متفوقاً، وهكذا اشترى الأرض من أصحابها الشرعيين الذين يزيدون عن أربعين شخصاً، وفيهم أيتام وأرامل، عن طريق مناقصةٍ وهمية أدخل أصحابه، وأصدقائه، ووكلُّهم برفع السعر قليلاً، وكان الإعلان غير صحيح، بعد أن كسب المناقصة ورست عليه، جاء يستشيرني، قال لي: والله فكَّرت بالقبر، وجدت أنه لا يوجد حل، لا بد من أن أُحاسَب، فقلت له: إما أن تعطي أصحاب الأرض حقهم الكامل وإما أن تنسحب من هذه المناقصة.

التشريعات الأرضية لا تحميك من عذاب الله، فمن الممكن أن تشتري الأرض بقرار أساسه مناقصة أصوليَّة ـ قانونيَّة ـ دخل ثمانية أشخاص فاستقر السعر على هذا الرقم، ولكن هؤلاء السبعة هم ليسوا أنداداً لك، هم ممثلون، قد مثَّلوا دوراً وهمياً، وأنت بهذه الطريقة جعلت السعر يهبط، فأكلت أموال أصحابها بالباطل، ومعك سند، دخلت مناقصة وحقَّقت سعراً منخفضاً، وأنت تعلم الحقيقة، لذلك:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)

جميع التشريعات الأرضية لا تحمي الإنسان الذي يأكل المال الحرام من عذاب الله :

أيْ أنَّ جميع التشريعات الأرضية في العالم كلّه لا تحمي الإنسان الذي يأكل المال الحرام من عذاب الله، اضطر إنسان إلى ثلاثمئة ألف ليرة، فرهن مزرعته عند شخصٍ مليء، وطلب منه هذا الشخص أن يكتب له هذه المزرعة كضمان، بعد سنواتٍ وسنوات أصبح المبلغ جاهزاً، فجاء الذي أخذ المبلغ إلى من أعطاه المبلغ إياه ليردّه، ولكنّه أجابه: كل منا حقه عنده فوجئ بقوله له: المزرعة ثمنها أربعة أمثال المبلغ، فهذا الذي ضيَّع مزرعته أصابه الهم، وتصاعد الألم حتى أصابته أزمةٌ قلبيَّةٌ، ومات من شدة القهر، كيف ضحى بهذه المزرعة بمبلغ بسيط؟ لكن قبل أن يموت كلَّف ابنه أن يمشي بجنازته إلى أمام دكان هذا المُغْتَصِب، قال له: امش بجنازتي إلى أمام دكانه، وعند دكانه لتقف الجنازة، واخرج أنت من بين صفوف المُشَيِّعين وادخل إلى دكان هذا المُغْتَصِب، وسلِّمه رسالة، كتب لها رسالة قبل أن يموت، في هذه الرسالة: " أنا ذاهبٌ إلى دار الحق، عند أحكم الحاكمين، فإن كنت بطلاً فلا تلحقني". سمعت أنه ردَّ المزرعة إلى ورثته. فهذه الآية دقيقة جداً:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

هذا هو التشريع، فلو كان معك ألف دليل ودليل، وألف حجَّة وحجَّة، وألف قانون، وألف اجتهاد محكمة نقض، ولو كان معك مئة ألف اجتهاد لصالحك، ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله. لو معك فتوى من رسول الله ـ هل هناك أبلغ من هذا؟ ـ معك فتوى من صاحب الرسالة، معك فتوى من سيِّد الخلق وحبيب الحَق، معك فتوى من المعصوم، ولم تكن محقاً، ولكنّك انتزعتها بذكائك واحتيالك وقوة حجَّتك وبيانك لا تنجو من عذاب الله، ما قولكم؟

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)

المال الحلال فيه بركةٌ وخيرٌ كثير :

أكثر من عشرين ألف قضيَّة بقصر العدل أساسها أكل أموال الناس بالباطل، هكذا، عن طريق الإيجار تُغْتَصب البيوت، عن طريق وكالة عامة تُغتصب الأموال، عن طريق موقف أخلاقي يضيعُ المال، وقد ورد عن بعض العلماء أنه: **" ترك دانقٍ من حرام أفضل عند الله من ثمانين حجَّة بعد الإسلام "**، ترك دانق، والدانق سُدْس الدِرْهَم..

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)

أنا أقول: أيِّ تشريع أرضي، لو كان معك كل التشريعات الأرضية لا تنجو من عذاب الله، من اغتصب قيد شبرٍ من أرضٍ طُوِّقه يوم القيامة في جهنَّم، فهؤلاء الذين يصلون ويصومون، ويعيشون على أموال الناس اغتصاباً واحتيالاً، وكسباً ونَهبَاً، وإحراجاً وإخجالاً هؤلاء سوف يحاسبون.**." أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة "**..

المال الحلال فيه بركةٌ وخيرٌ كثير، والمال الحرام يَذهب ويُذْهِبُ أهله معه..

(لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أيها الأخوة... هذه آيةٌ دقيقةٌ جداً، أريد أن ألخِّص الكلام: أن هذا المال الذي هو مال أخيك هو مالُك من زاوية وجوب الحفاظ عليه وكأنه مالك، وأن هذا المال الذي هو مالك هو مال المسلمين من زاوية أن تنفقه في مصالح المسلمين، في مصالحهم، في مشروعاتٍ تعود عليهم بالنفع؛ بيوت سكن، مشروعات زراعية، مشروعات تجارية، مشروعات ترفع مستوى معيشتهم، مشروعات تسهِّل لهم الحياة، أما أن تنفقه في شيءٍ محرَّم، فهذا ممنوع.

الآن: قد تكسب امرأةٌ مالاً عن طريق إفساد أخلاق الشباب، ترقص في ملهى، هي أكلت أموال الناس بالباطل لأن هذا عمل خلاف منهج الله عزَّ وجل، هناك ألف طريقة وطريقة لكسب أموال الناس بالباطل، والشرع هو الشرع، الحسن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع، ويجب على الإنسان أن يعد للمليون قبل أن يأكل أموال الناس بالباطل، قبل أن يأخذ شيئاً ليس له.

أيها الأخوة الكرام... آيةٌ يجب أن تكون شعاراً لكل مسلم، أنت في بحبوحةٍ مع الله حينما يكون دخلُك وإنفاقك حلالاً، أما إذا كان هناك شبهات فأنت في ضائقة وقلق لا تدري ما هذا السبب؟ ما مبعث هذا الضيق؟ الضيق هو الشعور أن هناك خروج عن منهج الله.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (65- 95):تفسير الآية 189، الآيات القرآنية الكونية فيها أصول العلوم كلها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-11-12

بسم الله الرحمن الرحيم

الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الخامس والستين من دروس سورة البقرة، ومع الآية التاسعة والثمانين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

أيها الأخوة، يسألونك عن الأهلَّة، جمع هلال، وسُمِّيَ الهلالُ هلالاً لأن الإنسان إذا رآه هلَّل، على كلٍ أراد الله الهلال ولعل الآية الكريمة تَعْنِي الكون كلَّه، ما موقع الكون في الدين؟

الكون أيها الأخوة مظهرٌ لأسماء الله الحسنى، أو تجسيدٌ لأسمائه الحسنى، والله عزَّ وجل لا تُدْرِكُهُ الأبصار، ولكن تدركه العقول من خلال آثار القُدْرَة، فالله عزَّ وجل أسماؤه كلها حسنى؛ هو الغني، والقوي، والسميع، والبصير، والحكيم، والرحيم، والمجيب، هذه الأسماء كلُّها يمكن أن تتبدَّى من خلال خلقه، فلو فكَّرنا في مخلوقاته لعرفناه.

هذا جانبٌ من جوانب زاوية فهمنا للكون، الكون يجسِّد حكمة الله، ويجسِّد عِلْمَ الله، ويجسد رحمة الله، ويجسد قوَّة الله، كل أسمائه الحسنى، وصفاته الفُضلى مجسَّدةً في الكون، فأنت إذا بحثت في الكون كما أمرك الله عزَّ وجل:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس: 101]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[سورة عبس: 24]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

[سورة الطارق: 5]

عرفته من خلال ذلك.

تحتَلّ آيات الكونيات سُدُسَ القرآن لأنها تعريفٌ بالله عزَّ وجل من خلال خَلْقِهِ :

لكن هناك شيء آخر، هو أن الله عزَّ وجل ذكر هذه الآيات التي تزيد عن ألفٍ وثلاثمئة آية في هذا القرآن الكريم الذي تقترب آياته من ستة آلاف آية، إذاً تحتَلّ آيات الكونيات سُدُسَ القرآن، لأن هذا السُدُس تعريفٌ بالله عزَّ وجل من خلال خَلْقِهِ، ولكن شاءت حكمة الله، أو أنه وجَّه نَبِيَّه ألاّ يتكلَّم عن هذه الآيات إطلاقاً، لأن النبي عليه الصلاة والسلام رأى من آيات ربِّه الكبرى، حينما كان في أعلى مقام، حينما كان في سدرة المنتهى رأى من آيات ربه الكُبرى، ولكن لو أن النبي عليه الصلاة والسلام شرح هذه الآيات الكونية شرحاً كما رأى، لأنكر عليه من حَوْلَهُ، ولو وصفها وصفاً مُبَسَّطاً لأنكرنا عليه نحن، وربما أنكر عليه من بعدنا، لأن علم الإنسان في تطوّر، ولأن الكشوفات العلميَّة في تطور، فالله جلَّ جلاله ترك الآيات الكونية ليكشِفَ أسرارها عُلماء كل عصرٍ بحسب تفوّقهم ووصولهم إلى بعض الحقائق. لكن الله عزَّ وجل أراد في هذه الآية أن يلفتنا إلى الجانب النَفْعِيَ من الآية.

بالمناسبة: الآية الكونيَّة لها جانب معرفي، وجانب نَفْعِي، فالنفعي في الدنيا، فالهلال مثلاً ننتفع به كمواقيت للناس والحج، والهلال يمكن أن يكون أداةً للتعرُّف على الله عزَّ وجل، هذه هي المهمة المَعْرفية، وكل شيءٍ خلقه الله عزَّ وجل من دون استثناء له مهمتان: مهمةٌ كبرى؛ وهي تعريف الناس بالله، ومهمةٌ صُغرى؛ وهي الانتفاع به.

أهل الدنيا ـ الكفار ـ استفادوا من الناحية الثانية إلى أعلى درجة، فكل ما في الطبيعة من ثروات، من أشياء جمالية، من نباتات، من أزهار استفادوا منها، ولكن المؤمنين وحدهم استفادوا من الوظيفة الأولى: أنها تعرِّفنا بالله عزَّ وجل، فأينما ذهبت، وأينما جلست، وحيثما نظرت أنت أمام آيات لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

الآيات الكونية أدوات معرفية لننتفع بها ونشكر الله :

أنت حينما تشرب كأس الحليب ربما لا تنتبه، كأس الحليب هذا مِن مخلوقٍ سخَّره الله لنا، وذلله لنا، وهذا المخلوق يأكل من حشيش الأرض، وهناك غُدَدٌ ثدييةٌ بالغة التعقيد، على شكل غدد كبيرة، وأسناخ صغيرة، وعلى شكل حويصلات، وعلى شكل قُبَّة، وتجري حولها أوعيةٌ دمويةٌ كثيفةٌ جداً، وهذه الخليَّة الثديية يجهل العلماء حتى الآن طبيعة عملها؛ تختار من الدم المواد المعدنية، والفيتامينات، والمواد السُكَّرية، والمواد الدسمة، وغازات مُنْحَلَّة وتصنع منها قطرة حليبٍ تسقط في جوفٍ ينتهي إلى ضِرْع البقرة، فالإنسان حينما يشرب كأس الحليب، أو يأكل قطعة جبن، ينبغي أن يتذكَّر أن هذه آيةٌ كبرى:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

[سورة النحل: 5]

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ* وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ* وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

[سورة يس: 71-73]

الذي أريد أن أبدأ به الدرس هو: أن هذه الآيات الكونية آياتٌ من أجل أن نعرف الله، وكلَّما فكَّرنا فيها ازدادت معرفتنا بالله، وهذه الآيات الكونية أدوات معرفية، والعقل مصمم على التعامل معها تعاملاً إيجابياً، فقد يكون طريق معرفة الله، أو أحد طرق معرفة الله، أو أحد أكبر طرق معرفة الله التفكُّر في خلق السماوات والأرض، الحد الأدنى من هذه الآيات الكونيَّة أن ننتفع بها، وإذا انتفعنا بها شكرنا الله عزَّ وجل.

نظرية أينشتاين التي يتباهى الغرب بها مودعةٍ في آيةٍ قرآنيَّة :

الإنسان قد لا يعرف ما هو تركيب الحليب ولا كيف يُصنع الحليب؟ أما عندما يشرب كأساً من الحليب يقول: الحمد لله، فلك أن تتحرَّك في المستوى الأدنى كأن تأخذ الانتفاع وتشكر الله عليه، ولك أن تصعد إلى المستوى الأعلى، أن تفهم سرَّ هذه الآية، بحسب ثقافة الإنسان، بحسب معطياته، بحسب علمه، بحسب البيئة التي يعيش فيها، إذا عاش في بيئة بسيطة، أو بيئة ذات تطوّر علمي كبير، قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

يمكن أن يفهمه كتقويمٍ موضوعٍ في السماء يراه كل الناس، تقويمٌ كبير تحت يدي كل إنسان، يقول لك: أول الشهر، نصف الشهر، القمر بدر، أما لو أردنا أن نفهم قضية القمر بشكلٍ علمي، أو بشكلٍ تفصيلي لدهشنا.

أيها الأخوة... هذا القمر يدور حول الأرض دورةً كل شهر، لو حسبنا كم يقطع من الكيلومترات في رحلته حول الأرض؟ فالقضية بسيطة جداً، إذا وصلنا مركز القمر ومركز الأرض بخط، هذا الخط هو نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، ومن نصف قطر الدائرة نعرف قطر الدائرة ضرب اثنين، ومن قطر الدائرة نضربه في [بي][3.14]نأخذ المحيط، فلو حسبنا البعد بين مركز الأرض ومركز القمر، أو بين سطح الأرض وسطح القمر مضافٌ إليهما المسافة بين السطح والمركز في كل من الأرض والقمر، لعرفنا نصف القطر، لو ضربنا هذا الرقم باثني عشر، كم يقطع القمر في رحلته في عام، لو ضربناه بألف، عرفنا كم يقطع القمر في رحلته في ألف عام، رقم كبير.

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

[سورة الحج: 47]

هذا الرقم لو قسَّمناه على ثوانِ اليوم لنتج معنا سرعة الضوء الدقيقة، فتكون مئتين وتسعة وتسعين ألفاً وسبعمئة واثنين وخمسون. هذه أحدث نظرية ـ نظرية أينشتاين ـ النسبيّة، القائمة على أن الأجسام إذا سارت بسرعة الضوء أصبحت ضوءاً، وتوقَّف الزمن، فالزمن هو البعد الرابع للأشياء، وأن هذه الأشياء لو سبقت الضوء لتراجع الزمن، وأن هذه الأشياء لو قصَّرت عن الضوء لتراخى الزمن، وأن الشيء إذا سار مع الضوء أصبحت كتلته صفراً وحجمه لا نهائياً، هذه النظرية الطويلة التي يتباهى الغرب أنه كشفها في القرن العشرين مودعةٍ في آيةٍ قرآنيَّة:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

[سورة الحج: 47]

أيْ ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء في يومٍ واحد.

الحكمة من دوران الأرض حول محور مائل :

أيها الأخوة.. شيءٌ آخر، لو أن القمر يدور في دورته حول الأرض بسرعة الأرض تماماً لم يعد ميقاتاً للناس والحج، لأن دورته تنزَلِقُ في سرعتها عن دورة الأرض ظهر هلالاً، لأن الشمس والأرض، الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، والأرض أصغر منها ـ كما قلت قبل قليل ـ بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، والقمر بينهما، فحينما تحجب الشمس القمر يظهر هلالٌ منه، وهذا الهلال يكبر ويكبر حتى يصبح بدراً، إذا القمر بين الشمس والأرض صار بدراً، فإذا لم يكن القمر بين الشمس والأرض حجبته الشمس أو حجبته الأرض فصار هلالاً، والقضية ترجعون إليها في كُتب الفَلَك.

مَنْ جعل هذه الدورة بهذا النَمَط؟ هناك أشياء بالفلك أيها الأخوة الكرام ربما لا نعلّق عليها أهميَّة، الأرض لها محور مائل، لو كان المحور عمودياً على مستوي الدوران، لألغيت الفصول، الشمس هنا والأرض هكذا، فهذا الوسط صيف دائماً، وهذا الوسط شتاء دائماً، ولكن لأن محورها مائل فصار هناك مكان عمودي ومكان مائل، فلمَّا انتقلت الأرض إلى الجهة الثانية صار المكان المائل عمودياً، والمكان العمودي مائلاً، صار هناك صيف وشتاء، وربيع وخريف.

لو أنّ الأرض تدور في محورٍ يوازي مستوي دورانها لألغيت الحياة من على الأرض، لو دارت هكذا، الشمس من جهة واحدة، الوجه المقابل للشمس مع دورانه حرارته ثلاثمئة وخمسون درجة فوق الصفر، والوجه المقابل مئتان وسبعون تحت الصفر، انتهت الحياة، أي تعديل على وضع الأرض؛ في حجمها، في شكلها، في دورانها، في ميل محورها يُعَطِّل هذا النظام المبدع الذي نحن نعاينه.

الكون سخره الله لنا تسخير تعريف كي نؤمن وتسخير تكريم كي نشكر :

أيها الأخوة الكرام:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

إذاً الكون الذي بين أيدينا، والذي سخَّره الله لنا، مسخَّرٌ لنا مرَّتين: تسخير تعريف، وتسخير تكريم، فَرَدُّ فعل التعريف أن تؤمن، ورَدُّ فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت، وشكرت فقد حقَّقت الهدف من وجودك، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

أيْ حينما تؤمنون، وحينما تشكرون حققتم الهدف من خلقكم، انتهت المعالجات كلها، معنى هذا حينما يسوق الله لعباده بعض المعالجات إما لضعفٍ في إيمانهم، أو لضعفٍ في عملهم، إما هناك خلل في إيمانهم فيسوقهم إلى إيمانٍ أعلى، أو أنّ هناك خللاً في استقامتهم فيدفعهم إلى استقامةٍ أتم.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

أهدافك في الدنيا لا يمكن أن تصل إليها إلا عن طريق استقامتك على أمر الله :

مركز الثِّقَل في الآية :

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

هذه الآية أيها الأخوة مهمةٌ جداً في حياة المسلمين، البر مُطْلَق الخَيْر، فالخير العميم الصحة، المال، الأهل، انتظام الحياة، فسمِ الخير المطلق براً، والبر له طريق، قد يسلك الناس إليه طريقاً غير صحيح، الطريق مسدود، فمن أراد أن يجمع المال بطريقةٍ ذكيةٍ غربيةٍ غير مشروعة ربما لا يجمعه، وقد يجمعه ثم يُتْلِفُهُ الله، أما لو أراد أن يجمعه عن طريق الاستقامة على أمر الله فإنه يُصِبْ هدفه، أريد أن أقول: أهدافك في الدنيا لا يمكن أن تصل إليها إلا عن طريق استقامتك على أمر الله..

(وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى)

من اتقى أن يعصي الله عزَّ وجل وصل إلى البر، طريق النجاح على إطلاقه، طريق الفلاح، طريق الراحة النفسيَّة، طريق الاستقرار الأسري، طريق النجاح في العمل، طريق الشعور بالصحة النفسيَّة، طريق النماء هو أن تكون مع الله، وأن تكون مطبِّقاً لمنهجه. مثل قريب: معمل كان يعتمد في ترويج بضاعته على الصدق، والأمانة، والإتقان، وخدمة الناس، وبذل الصدقات، تأتي إدارة جديدة لهذا المعمل؛ يوقف الصدقات، يوقف كل مساعداتٍ للعمال، ويبدأ بحملة إعلانيَّة عالية جداً، هذا الطريق طريق غربي لترويج البضاعة.

إن أردت أن تكون ذا مال فاسلك طريق حق، فهناك أساليب غربيَّة، أرضيَّة، نقتبسها من البلاد الشاردة عن الله عزَّ وجل، وهناك أساليب إسلامية، إنّ إتقان بضاعتك، والاستقامة على أمر الله، والإحسان للخلق سببٌ لترويج بضاعتك، وليس بأن تقوم بحملة إعلانيَّة عالية جداً، وهناك من يقول: لا بد مع هذه الحملة الإعلانية من امرأةٍ تروِّج هذه البضاعة. فالوصول إلى هدفك لا يكون عن طريق قوانين اخترعها الكفار، الوصول إلى هذا الهدف يكون عن طريق تقوى الله عزَّ وجل.

الإنسان حينما يقصِّر مع الله عزَّ وجل يدخل في حالة قلق :

قس على المال كل شيء، الوصول إلى النجاح في الزواج لا يكون عن طريق اختيار زوجة تملأ البيت حسناً وجمالاً، بل عن طريق اختيارها تملأ البيت تقوىً وصلاحاً، فالمرأة الصالحة هذه أحد أسباب السعادة الزوجية، فلذلك حينما يبحث الإنسان عن مصالحه، أو يبحث عن مطامحه بطريقةٍ غير منهجيةٍ، وغير صحيحة فهو يمشي في طريقٍ مسدود، فالآية دقيقة جداً..

(وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)

الإنسان حينما يقصِّر مع الله عزَّ وجل يدخل في حالة قلق، هذا القلق يدمِّر صحته النفسية، لأن الزمن ليس لصالحه، والإنسان معرَّض أن يقع في حادث، أن يقع في فقر مفاجئ، أن يقع في مرضٍ شديد، أن يقع في خلاف في عمله، أن يخسر بعض ما آتاه الله، فما دام يمشي وحده من دون مظلةٍ إلهيةٍ فهو في قلق، أما إذا أراد السعادة النفسية، فليجعل من طاعته لله سبباً لهذه السعادة، وعندها يكون قد حصَّل ما يريد..

(وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى)

هناك أشياء واضحة، إذا أنت أقرضت قرض ربوي، المئة ألف تعود لك مئة وعشرين ألفاً على الآلة الحاسبة، أما إذا أقرضت قرضاً حسناً لوجه الله، المئة ألف تعود مئة ألف، وإذا كنت اقتصادياً، وعندك معلومات دقيقة في الاقتصاد، تقول: هناك تضخم نقدي بالمئة سبعة عشر، معنى ذلك أن المبلغ رجع لي ثلاثة وثمانين فقط، يأتي القرآن فيقول لك:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 286]

أنت أمام حسابات بسيطة، وأمام آية قرآنية من عند خالق الكون، فأنا أريد من خلال هذه الآية أن أقول لكم: إن الطريق إلى البر، مطلق البر الذي هو السلامة والسعادة في الدنيا والآخرة هو طاعة الله، وهناك مناهج أرضيَّة، وهناك مسالك أرضيَّة، وهناك سُبُل، وهناك قوانين لا تُعَدُّ ولا تحصى، إنها كلها تنتهي إلى طريقٍ مسدود.

لن نحقّق أهدافنا الكبرى في الدنيا والآخرة إلا بطاعة الله عزَّ وجل :

في بلادٍ شردت عن الله عزَّ وجل، من أجل ترويج البيع البضاعة التي يقتنيها الرجال يضعون بائعات، وفي البضاعة التي يقتنيها النساء يضعون بائعين من أجل الجذب، وتارةً باليانصيب، وتارةً بالسحب، وتارةً بجوائز مُغْرية، وتارةً بإعلانات فاضحة، هذه كلها أساليب تستخدم لترويج البيع والشراء، أما البر: **" أن تأتوا البيوت من أبوابها ".**

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت]

قد يظن إنسان أن سعادته الزوجية باختيار زوجةٍ في أعلى مراتب الجمال، وبعد أن يقترن بها ينظر إلى غيرها بشكلٍ أو آخر، أما حينما يغُضُّ بصره عن محارم الله يصل إلى السعادة الزوجية دون أن يشعر، فالسعادة الزوجية لها طريق، والربح له طريق، كله ضمن منهج الله عزَّ وجل، فإذا أردت أن تبيع وتربح يجب أن تكون صادقاً، وأن تكون أميناً، وأن تكون بضاعتك شرعيَّةً. فأنا أضرب الأمثلة من أجل توضيح هذه الحقيقة: لن تحقّق أهدافك الكبرى في الدنيا والآخرة إن لخَّصناها بسلامتك وسعادتك، إلا بطاعة الله عزَّ وجل.

الإنسان بعقله يصل إلى الله ولكنه لا يحيط به :

قال تعالى:

(وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

أيْ أنْ تكشف القوانين، فهناك حقيقة، الله عزَّ وجل يقول:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

[سورة آل عمران: 103]

قال بعض علماء التفسير: أن الأمة إذا أمسكت بهذا الحبل جميعاً، والله يمسك بهذا الحبل، فهم مع الله دائماً، هم في نجاةٍ من عدوانٍ، نجاةٍ من قهرٍ، نجاةٍ من ظلمٍ، نجاةٍ من خوف، فكلما تمسَّكنا بحبل الله كنا في سلامةٍ وسعادة، فإذا تفلَّتنا من هذا الحبل، واتبعنا، وأصبحنا في مناهج شتى، طبعاً لن يكون الله معنا.

يا أيها الأخوة الكرام... دائماً وأبداً الخير كل الخير، والنجاح كل النجاح، والتفوُّق كل التفوُّق، والسعادة كل السعادة في طاعة الله، ومستحيلٌ وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، أو أن تعصيه وتربح.

أيها الأخوة... مرَّةً ثانية ينبغي أن نعلم أن الإنسان بعقله يصل إلى الله، ولكنه لا يحيط به، يصل

بعقله إلى الله من خلال خلقه، وهذا الكون الذي هو خلق الله عزَّ وجل في مستوى أعلى في فهمه، وفي مستوى أدنى، لو أدركت الناحية النفعية منه فقط. كأن ذكرت مثل الحليب، ممكن أن تقول: هذا الحليب من صنعه لنا؟ الله الذي صنعه، صمم هذه البقرة وهي تعطي الحليب، ويمكن أن تكتشف آلية هذا العمل الدقيق جداً عن طريق العلم والدراسة والبحث. فأنت حينما تعرف الله من خلال الكون يقفز إيمانك، وحينما تشكر الله من خلال هذه النعمة يزداد حبك..

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي، وأحبوا أهل بيتي لحبي))

[من الدر المنثور في التفسير بالمأثور عن ابن عباس]

العبرة أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، والكون مسخَّر تسخيرين: تسخير تعريفٍ وتكريم. أنت إن آمنت حقَّقت تسخير التعريف، وأنت إن شكرت حققت تسخير التكريم، والآيات الكونيَّة في القرآن الكريم لم يتحدَّث النبيُّ عنها شيئاً بل تركها لكل عصرٍ، تُفهم بحسب تطوره العلمي. وكل آيةٍ كونيةٍ تفهم على مستوياتٍ عديدة، ولكن النهاية أن الله يحاسبك عن منهجه هل طبَّقته أم لا؟

في القرآن آياتٌ لمَّا تُفسّر بعد وكلما تقدَّم العلم ظهرت بعض التفسيرات :

لو تصوَّر إنسان حقيقة كونيَّة على خلاف ما هي عليها، وكان مطيعاً لله فإنه ينجو، معه تكليف: افعل ولا تفعل، فالعبرة أن تطبق التكليف، فإذا أحببت أن تفهم أن هذا القمر مواقيت للناس والحج فقط، أو إذا أحببت أن تفهم أن هذا القمر في دورته حول الأرض يعبر عن النظرية النسبيَّة بتفصيل دقيق، عندها تحتاج علماء فلك لِيقيسوا بعد الأرض عن القمر، ويكشفوا مركز القمر ومركز الأرض، والخط بينهما، ثم يُضرب بضعف، ثم يضرب بالـ بي [3.14]وبعدها نجري حساباً كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام؟ وبعدها نقسمه على ثوانٍ اليوم نحصل على سرعة الضوء، معنى هذا أن هذه النظرية العظيمة هي واردة في القرآن، واردة كأصول.

أنت حينما تفهم الشيء بشكل نفعي مباشر، مقبول ومشكور، العبرة أن تطيع الله عزَّ وجل، وحينما تفهم هذه الآية بشكل علمي عميق جداً، وقد تظهر علومٌ جديدةٌ في المستقبل، توضح لنا خفايا بعض الآيات التي نقرؤها الآن، وربما لا نفهم منها شيئاً، هذا ما يعنيه الإمام عليّ كرَّم الله وجهه: " في القرآن آياتٌ لمَّا تُفسَّر بعد "، كلما تقدَّم العلم ظهرت بعض التفسيرات، فمثلاً اقرأ قوله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن]

افتح كل التفاسير، آيةٌ حيَّرت العلماء، أين هذا البرزخ بين البحرين؟ هذا البحر الأحمر والبحر العربي، والأبيض والأسود، والأبيض والأحمر، والأبيض والأطلسي، والأطلسي والهادي، عند المضائق والمعابر أين البرزخ؟ حينما صعدوا إلى الفضاء الخارجي رأوا خطاً بين كل بحرين، رسمت آلات التصوير خطاً بين كل بحرين، هذا الخط خط تباين ألوان، فلما نزلوا إلى الأرض

وجدوا أن كل بحرٍ له كثافته، وملوحته، ومكوِّناته، وخصائصه، وأن مياه أيّ بحرٍ لا يمكن أن تختلط بالبحر الآخر، ولو كان هناك اتصالٌ بينهما، هذا الشيء كشفه عالم البحار الشهير ولم يعلم أن في القرآن آيةً تشير إلى هذه الحقيقة، الآن عُرف أن هذه الآية تعني أن بين كل بحرين برزخاً:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن]

ثم اكتشفوا أن بين كل بحرٍ ملحٍ أجاجٍ وبحرٍ عذبٍ فرات أيضاً برزخ، لذلك مصبَّات الأنهار في البحار فيها أكبر تَجَمُّع سَمَكي، لأن أسماك المياه العذبة لا تنتقل إلى المياه المالحة، فأكبر مكان صَيْد هو مَصَبَّات الأنهار العذبة في البحار.

آيات من القرآن تؤكد الإعجاز العلمي في القرآن :

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً)

[سورة الفرقان]

الحجر المحجور هو حاجزٌ بين المياه العذبة والمالحة أيضاً، فلا ينتهي موضوع الآيات الكونية التي كشف العلماء أنها تنطبق على الحقيقة العلميَّة مئةً بالمئة، فهناك شيء متعلق بخلق الإنسان، وشيء متعلق بالأجرام السماوية، ما من شكل هندسي إذا دار حول نفسه أمام منبعٍ ضوئي أدى لتداخل الأبيض والأسود، أو النور والظلام إلا الكرة، والأرض كذلك، معنى قوله تعالى:

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ)

[سورة الزمر: 5]

أيْ يتداخل الليل والنهار في الكرة الأرضيَّة، لأنها كرة:

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ)

[سورة الرعد: 3]

لا يوجد شكل هندسي تمتد عليه الخطوط إلى ما لا نهاية إلا الكرة، وأي شكل آخر؛ مكعَّب، متوازي، موشور، فيه حروف، أما الشكل الهندسي الوحيد الذي ليس له حروف هو الكرة:

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ)

[سورة الرعد: 3]

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

[سورة النحل: 15]

أصول العلوم كلها موجودة في الآيات القرآنية الكونية :

تحتاج العجلات إلى أثقال خفيفة، كي تستقيم في دورتها، لولا هذه الأثقال لاضطربت.

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

[سورة النحل: 15]

هذه آية قرآنية، آيات كثيرة تشير إلى أن الجبال كالأوتاد، معنى كالأوتاد: أي أنها تربط طبقات الأرض بعضها ببعض.

(وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)

[سورة النبأ: 7]

لو قرأت الآيات القرآنية الكونية، لوجدت فيها أصول العلوم كلها، هذه موضوعاتٌ للتفكر ولمعرفة الله عزَّ وجل.

الآية التي درسناها:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (66- 95):تفسير الآيات 190-195، الإعداد والإيمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-11-19

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات التالية هي أول ما نَزَلَ في القتال :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس السادس والستين من دروس سورة البقرة، ومع الآية التسعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

ورد في بعض الروايات أن هذه الآيات هي أول ما نَزَلَ في القتال، أول الآيات التي نزلت في قتال الكفار والمشركين هي هذه الآيات، ولكن ماذا نزل قبلها ؟ نزل قوله تعالى:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ*الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ*الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

[سورة الحج: 39-41]

تدرج آيات القتال :

هذه الآيات:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

هي أول آياتٍ نزلت في القتال، وكان قد سبقها إشارةٌ من الله عز وجل إلى أن هؤلاء الذين آمنوا قد ظُلِموا حينما قوتلوا وأخرجوا من ديارهم ونُكِّلَ بهم بغير حق، وكان قد نزل قبل هاتين الآيتين:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

[سورة النساء: 77]

إذاً آيات القتال تدرَّجت، أول إشارة إلى القتال:

(كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

[سورة النساء: 77]

لا تقاتلوا، الإشارة الثانية: أنتم مظلومون، الإشارة الثالثة:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

أسباب نهي المؤمنين عن القتال وهم في مَكَّة المُكرمة :

أيها الأخوة الكرام... قد يسأل سائل: لماذا نُهيَ المؤمنون عن القتال وهم في مَكَّة المُكرمة؟ الجواب:

1 ـ حتى يُرَبَّى أصحاب رسول الله على الطاعة :

طبيعة الحياة في مكة أساسها عدم قبول الضَيْم، أساسها الثأر، أساسها الهجوم، فهؤلاء المؤمنون الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، هؤلاء يعدُّهم الله عز وجل ليكونوا قادةً في المستقبل، لقد نقلوا من رَعْي الغنم إلى قيادة الأمم، هؤلاء الذين عاشوا في مكة قبل نزول الإسلام، عاشوا حياةً أساسها الانفعال الشديد، أساسها الاضطراب، أساسها الأخذ بالثأر، فلا بد من أن يُرَبَّى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطاعة..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

[سورة النساء: 77]

أيْ أنتم مكلفون أن تصلوا وأن تصوموا وأن لا تفعلوا شيئاً، وقد تحمَّل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الضيم، والقهر، والتطاول، والشَتْم، والإيذاء المادي، والتعذيب، وكان الأمر الإلهي:

(كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

[سورة النساء: 77]

الحكمة الأولى من أمر الله ـ طبعاً إخواننا الكرام البحث تاريخي فقط، أي من أمانة البحث أن أوضح لكم تفاصيل هذه الآيات ـ فالصحابة الكرام يربيهم الله عز وجل ليكونوا قادةً للأمم ليحملوا رسالة، ولا بد لهذه القيادة وحمل الرسالة من نظام، من طاعة، فلا بد من أن يطيعوا مع أنهم تحملوا فوق ما يطيقون، كان بإمكان أحدهم أن يكيل الصاع صاعَيْن لخصمه، ولكن الأمر من الله عز وجل أن:

(كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

[سورة النساء: 77]

2 ـ وُجود بقية خلقٍ كان عند العرب قبل الإسلام :

هناك حكمةٌ أخرى من أن الله عز وجل منع المؤمنين وهم في مكة من القتال، السبب هو وُجود بقية خلقٍ كان عند العرب قبل الإسلام، حينما يأتي رجل في الجاهلية ويُسْلِم يقول له عليه الصلاة والسلام:

((أسلمت على ما أسلفت من خير))

[الجامع لأحكام القرآن عن حكيم بن حزام]

وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام))

[من تفسير ابن كثير عن أبي هريرة]

عندما قاطع كفار قريش بني هاشم لتضييق الخناق على النبي، بقية المروءة حتى في مجتمع الجاهلية دعتهم إلى تمزيق الصحيفة، إذاً كان هناك بقية من الناس لا يحتملون الظُلم، فمن أجل أن تَسْلُكَ الرسالة طريقها إلى الانتشار والتوسع، فكان من الحكمة والمسلمون في مكة أن لا يقاتلوا، جاءهم أمرٌ بعدم القتال، أولاً كي يدربوا على الطاعة، وتحمُّل الشدائد والمكاره، والقهر، والضغط، والضيم، والأمر بعدم القتال، ثم إن الحياة الجاهلية فيها بقيةٌ من خير برزت في مكَّة المكرمة حينما مُزِّقت الصحيفة، وتعامل كفار قريش مع المؤمنين بدافعٍ من بقية الخُلُق الذي أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَق))

[من الجامع الصغير عن جابر]

3 ـ القتال في مكة يعني أن تنشِب معركةٌ في كل بيت وهذا يتناقض مع الدعوة الإسلامية:

الشيء الثالث وهو الأهم هو: أن المؤمنين في مكة أفراد في بيوت، وأن الذين يعذبونهم وينكِّلون بهم هم أهلهم، فلو أُمِرَ المؤمنون في مكة بالقتال نشبت حربٌ في كل بيت، لتمزقت الأسرة، وهذه حكمةٌ بالغة، حيث لم يكن هناك كيان للمسلمين، ليس لهم أرض، ليس لهم كيان، هم أفراد في أُسر مشركة، فلو أمر المؤمنون في مكة بالقتال لكان يعني هذا أن تنشِب معركةٌ في كل بيت، ولأصبحت الحياة في مكة لا تطاق، حربٌ أهلية، والإسلام جاء للسلام، جاء لترسيخ معاني الود، معاني الخُلُق، فلأن المسلمين ليسوا على أرضٍ تجمعُهم، وليس لهم كيانٌ يقودُهم، هم فُرادى متفرقون في بيوتات مشركة، فلو أمروا بالقتال لكان معنى هذا أن تنشِب معركةٌ في كل بيت، وهذا يتناقض مع الدعوة الإسلامية، الدعوة التي هي من عند الله، والتي تسعى إلى إقرار السلام في المجتمع، هذه بعض الحِكَم التي يمكن أن تُستنبط.

4 ـ كان المسلمون في مكة قِلَّة ليس لهم أرض ولا قيادة تجمعهم:

الحكمة الرابعة: كان المسلمون قلةً في مكة المكرمة، فالمسلمون قلة، وحينما يؤمرون بالقتال صار هذا أمراً بالانتحار، لا بد من أن يأخذوا بالأسباب، لا بد من أن يكون هناك أملٌ بالنصر، أما أشخاص ضعفاء، شباب، متفرقون في بيوت مشركة، يؤمَرون بقتال أهلهم وآبائهم فهذا شيء مستحيل، أولاً: هم قِلَّة ليس لهم أرض، وليس لهم قيادة تجمعهم، ثانياً: ظهرت نخوةٌ في الجاهلية

أعادت لهم بعض حاجاتهم، رابعاً وهو: أن الحياة في الجاهلية فيها عنف، فيها عدم نظام، فيها اضطراب، فلو ترك الأمر على غاربه لنشبت معارك لا تنتهي.

الحكمة من نصر الله تعالى للمؤمنين :

إذاً الحكمة من أن الله أمر المؤمنين أن يكفوا أيديهم وأن يصلوا، وأن يصوموا، وأن يؤدّوا الزكاة، كانت حكمةً رائعة وقتها، فلما هاجر المؤمنون إلى المدينة، وأصبح لهم أرض تَجَمَّعوا عليها، أصبح لهم كيان، أصبحت لهم قيادة حكيمة، عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، الآن سبقت هذه الآيات إشارة إلى أن هؤلاء المؤمنين أُذِنَ لهم:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)

[سورة الحج: 39]

لكن الحكمة تقتضي ذلك..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ*الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

[سورة الحج: 39-41]

فالله عز وجل حينما ينصر المؤمنين من أجل ماذا ؟ من أجل أن يقيموا الصلاة في الأرض، وأن يكونوا رُسُلاً إلى البشرية جمعاء.

أساس مشروعية القتال في الإسلام :

أيها الأخوة... الآية التي هي موضوع درسنا اليوم:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

قبل أن أمضي في شرح هذه الآية لا بد من ضرب مثل، تصور بلدةً لها وليّ أمرٍ تسميه: رئيس بلدية، تسميه: حاكم البلدة. لها ولي أمرٍ، هذا الإنسان على درجة عالية جداً من العلم والأخلاق، أراد أن ينشئ في هذه البلدة معهداً من أعلى مستوى، يستقدم له أعلى الأساتذة، هذا المعهد مجهَّز بكل وسائل التعليم، والتربية، والتثقيف، والتأديب، أراد ولي أمر هذه البلدة أن ينشئ معهداً يربي شبابه تربيةً عالية، من أجل أن يسعد هؤلاء الشباب في حياتهم، وأن يحتلوا مناصب مرموقة، وأن يصلوا إلى أعلى درجات السعادة في الدنيا، أُنْشِأت هذه المدرسة، وبنيت بناءً راقياً، واستحدث فيها كل وسائل التعليم، وَعُيِّنَ فيها كبار المدرسين.

ثم فوجئ صاحب هذه البلدة أن فئةً من قُطَّاع الطرق ومن المنحرفين تصرف الطلاب عن المدرسة، إما أن تغريهم بارتياد أماكن منحطة، أو مشاهدة أفلام مُنْحَطَّة، أو إبعادهم عن هذه المدرسة، أو أن تمنعهم بالقوة من أن يدخلوا هذه المدرسة، هل يقف ولي أمر هذه البلدة مكتوف اليدين ؟ هل يسمح لفئةٍ أن تمنع نشر العِلم في البلدة ؟ هل يسمح لفئةٍ لِتحول بين الطُلاَّب وبين دخول معهدهم ؟ هل يسمح لفئةٍ أن تغري الطلاب بالانحراف الخلقي وتعويدهم على المخدرات والخمور والزنا وما إلى ذلك ؟ لا بد من التدخل، لا بد من التدخل من أجل أن تؤدي هذه المدرسة رسالتها، فهؤلاء الذين يقفون على مسالك الطرق إلى المدرسة، يمنعون الطلاب من الدخول إليها، أو يصرفونهم إلى أماكن اللهو والانحطاط، هؤلاء شاذون، هؤلاء خرجوا عن مبادئ هذه البلدة وعن قيمهم، فلا بد أن يُحال بينهم وبين ما يصنعون، هذا هو القتال في سبيل الله.

الجماعة المؤمنة من حقها أن تعرف ربها، من حقها أن تسعد به، من حقها أن تصل إلى غايتها في الدنيا، من حقها ألا تُفْتَنَ عن دينها، فأنت كأب لو كان لابنك صديق أفسده عليك، وجعله يهرب من المدرسة، وينغمس في الرذيلة والمخدرات، بماذا تشعر تجاه هذا الصديق؛ صديق ابنك ؟ تشعر أنه اعتدى عليك أعلى عدوان.

فأعلى عدوان على الإطلاق أن تعتدي على دين الإنسان، أن تفسده، هؤلاء الذين ينشرون الرذيلة بطريقةٍ أو بأخرى، عن طريق المجلات، أو عن طريق الفضائيّات، أو عن طريق الكُتُب، على ماذا يعتدون هؤلاء ؟ يعتدون على دين الإسلام، يفتنونه عن دينه، فإما أن تعتدي على الدين مباشرة، وإما أن تفتن الناس عن دينهم، لذلك هؤلاء الذين يعيشون على انهيار البيوت، ويعيشون على إفساد الشباب، يعيشون على إفساد الفتيات، هؤلاء الذي يعيشون ليمنعوا دخول الطُلاَّب إلى المدرسة، ليمنعوا نشر العِلم، مع أن ولي أمر هذه البلدة لم يجبر أحداً على دخول هذا المعهد، لكن طُلاَّب المعهد من حقهم أن يصلوا إلى معهدهم سالمين، وأن يستمعوا إلى الدروس هادئين، وأن يصلوا إلى أهدافهم مرتاحين.

لذلك مشروعية القتال في الإسلام، حينما جاء بها القرآن، وحينما طبَّقها النبي عليه أتمُّ الصلاة والسلام أساسها من أجل ضمان حُرية العمل، من أجل ضمان حرية العبادة، من أجل ضمان حرية الاستقامة على أمر الله، من أجل ضمان حرية طلب العلم، هذا هو.

شُرِّع القتال في الإسلام من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا:

الآية الأولى أيها الأخوة يقول الله عز وجل:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أول نقطة في هذه الآية: ينبغي أن يكون القتال في سبيل الله إعلاءً لكلمة الله، أما الحروب القذرة التي تشهدها البشرية اليوم، تارة يقولون تطهير عِرْقي، ذبح على الهوية، لأنه مُسْلم، وتارة يقولون:

من أجل اتخاذ البلاد مجال حيوي، أطماع اقتصادية، أينما كان البترول تجد المطامع تحوم حوله، فهذه الحروب الحديثة التي تقودها بعض البلاد القوية، حروبٌ لا علاقة لها إطلاقاً بنشر فكرةٍ، ولا بتحقيق مبدأٍ، ولا بترسيخ دينٍ، إنما المصالح فقط تحرف هؤلاء الذين يعتدون على حقوق الشعوب، الآية دقيقة جداً أول شيء:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

القتال المشروع في الإسلام من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، ومن أجل ألا تكون فتنة، ومن أجل أن يكون الدين لله، أنت لا تسمح لابنك أن يرتاد بيتاً إلى جوارَك تمارس فيه كل أنواع الرذيلة، يعتدون على طُهْر الأطفال، وعلى عفّتهم، وعلى أخلاقهم، وعلى انضباطهم بإغراءات، لا بد أن تقف بين هؤلاء وبين ما يفعلون، هذا هو الأصل.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

الهدف أن يكون الدين مُهَيْمِنَاً، والهدف أن يكون الدين لله، والهدف ألا تكون فتنةٌ، والهدف أن تنصُر مظلوماً.

الآداب التي جاء بها الإسلام في القتال :

قال تعالى:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

1 ـ لا تقاتل إلا من يُقاتل فالنساء والأطفال والشيوخ لا يقتَلون :

المرأة لا تُقتل، والصبي لا يُقتل، والشيخ الفاني لا يقتل، وهذا الذي التجأ إلى صومعةٍ يعبد الله فيها لا يقتل، هكذا النصوص تأتي، يقول عليه الصلاة والسلام:

((نهى عن قتل النساء والصبيان وإذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه))

[من شرح الجامع الصغير]

تأكيداً لكرامة الإنسان و " أعف الناس قتلةً أهل الإيمان ". عندهم أخلاق، حتى في حربهم أخلاقيون، وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن قتل الصَبْر أي أن تدعه بلا طعامٍ حتى يموت، فلذلك أول شيء:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

حسب تعليمات هذا القرآن العظيم لا يُقاتَل إلا المُقاتِل، أما هذه الحروب الحديثة تنزل هذه القنبلة فتقتل النساء والأطفال والشيوخ معاً، ولا تفرِّق بين وليدٍ رضيعٍ بريءٍ طاهرٍ وبين مقاتلٍ شرسٍ خبيث، هذه الأسلحة التي اخترعتها أوروبا وأمريكا، هذه لا تفرِّق بين طفلٍ ومُقاتل، ولا بين امرأةٍ ومقاتل، ولا بين شيخٍ ومقاتل، والآية تقول:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

هذا من حيث النوعية، لا تقاتل إلا من يُقاتل، فالنساء والأطفال والشيوخ لا يقتَلون.

2 ـ ينبغي أن تكون متأدِّباً بآداب القتال :

الشيء الثاني ينبغي أن تكون متأدِّباً بآداب القتال، فلا تجعل خصمك يموت صبراً، جوعاً، أو عطشاً، أو تعذيباً، ولا تضرب الوجه حفاظاً على كرامة الإنسان، ولا تقتل امرأةٍ، ولا طفلاً، ولا شيخاً، ولا تعقروا ناقةً إلا لمأكلةٍ، ولا تقطعوا شجراً، هذه هي الآداب التي جاء بها الإسلام حتى في القتال.

الفتنة أشد بكثيرٍ من القتل :

قال تعالى:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

لمجرَّد أن تعتدي على إنسان فالله عز وجل لا ينصُرك ولا يأخذ بيدك بل يهزمك.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

هذا الإنسان الذي تقاتله هو إنسان شارد عن الله، ينبغي أن تُريه عدلاً، وإنصافاً، وقوةً، وبأساً من دون أن تظلمه، ثم يقول الله عز وجل:

(وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

الإنسان حينما يُقْتَل مظلوماً يدخل الجنة، أما حينما يُفْتَنَ عن دينه يدخل النار، فلا شك أن الفتنة أشد بكثيرٍ من القَتل.

العدوان على الدين والعدوان على الجسم :

كان الجاهلي يأتي بابنته الصغيرة التي هي كالقمر، يأخذها إلى خارج المدينة، ويحفر لها حفرة، ويضعها في الحفرة، ويهيل عليها التراب، تقول له: يا أبت يا أبت، تتوسل إليه إلى أن تموت، قلبٌ كالصَخْر، مع أن هذا العمل وَحْشِي، مع أن هذا العمل ينفر منه كل طبعٍ سليم. قد يكون من الأمانة أن نذكر أنّ السبب في وأد البنات كان بسبب الشرف:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير: 8-9]

ومع ذلك هذا الذي يُرَبِّي ابنته حتى تَكْبُر؛ يطلق لها العنان، يسمح لها أن تمشي بأية طريقة، وأن ترتدي أي ثياب، ولو كانت فاضحةً مكشوفةً، هذا الأب الذي يفتن ابنته عن دينها، ويسمح لها أن

تُظْهر مفاتنها، ويسمح لها أن تلعب بالنار، هذا الأب جُرْمُهُ عند الله أشدُّ من قتلها، هذا الأب جرمه عند الله أشد من قتل ابنته صغيرةً، لأنها لو قُتِلت صغيرةً لدخلت الجنة، أما حينما تفتن عن دينها، فقد اعتدي عليها بأبلغ من الاعتداء على جسمها، فهناك عدوان على الدين، وعدوان على الجسم، العدوان على الجسم بالقتل، أحياناً إنسان يقتل إنساناً بحادث سير دون قصد، هذا اعتدى على جسمه، أما هذا الذي يفتن الناس، يشيع بينهم الأفكار الهدَّامة أحياناً، يؤلِّف الكُتب التي تطعن في الدين، يغري الشباب بأن يفعلوا الفاحشة، ينقُل ما في النوادي الليلية إلى البيوت، هذه الصحون الفضائية ألا ترونها أمامكم ؟ تنقل كل شيء للبيوت.

هؤلاء الذين يعتدون على الدين، الإنسان دينه استقامته، دينه عفته، دينه صلاته، دينه طاعته لله، دينه تعلقه بالآخرة، فأية طريقةٍ؛ عن طريق مجلةٍ أو كتابٍ، أو فيلمٍ أو مسلسلٍ يأتينا من الخارج ليهدم أخلاق أبنائنا ويفسد شابَّاتنا، هذا عدوان على الدين، فصار هناك عدوان على الدين، وعدوان على الجسم.

الأشهر الحرم ضمان لعدم استمرار القتال :

يقول الله عز وجل:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ)

شاءت حِكمة الله عز وجل أن يجعل الأمْنَ في مكانٍ وزمان، فالأشهر الحُرُم فيها أمن، السبب، الآن تدور معركة:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

[سورة الحجرات: 9]

قد تستمر المعركة ثماني سنوات، لو طَبَّقَ الفريقان هذه الآية حيث لا يوجد قتال في أشهر الحرم، فحينما يهدأ الناس، ويرتاحون من القتال، ويتذوَّقون طعم السلم، يحافظون عليه، فكأن الله جعل هذه الأشهر الحرم ضماناً لعدم استمرار القتال، لأن الله هو الذي خلق هذه الأنفس، هو الخبير بطبيعتها، قد تستمر المعركة ثماني سنوات، وقد يذهب ضحيتها مليون إنسان، بسبب أنهم تابعوا القتال في الأشهُر الحُرُم، حينما يلتزم الناس جميعاً بهذا المبدأ؛ أن الاقتتال في الشهر الحرام لا يوجد، يرتاح الناس، ذاقوا طعم السلم، فمالوا إلى حل المشكلة، من دون أن تتفاقم، وجعل الله مكاناً آمناً هو بيت الله الحرام، قال:

(وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

هذا مكان آمن..

(حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ)

إذا هم بدؤوا القتال في هذا المكان الطاهر المقدَّس، أنتم تابعوا القتال، ولا تبدؤوهم أنتم حتى يبدؤوا..

(وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

أيْ إذا بدؤوا القتال في بيت الله الحرام، أو في الشهر الحرام فقاتلوهم.

الله تعالى يلوح للمقاتلين الحاقدين في الآية التالية بالعفو :

قال تعالى:

(فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

يا أيها الأخوة.. هذه الآية رائعة جداً، فهذا الذي يقاتل المؤمنين، هذا الذي يريد أن يطفئ نور الله عز وجل، هذا الذي يريد أن يحول بين الناس وبين طاعة الله عز وجل، هذا الذي يُشيع الفساد في الأرض، هو نفسه لو توقَّف عن إفساده، وتاب إلى الله، لقبله الله وعفا عنه، لأن الله رب الجميع، كأن الله لوَّح لهؤلاء المقاتلين، المشركين، الكُفَّار، الحاقدين، المجرمين لوَّح لهم بالعفو..

(فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الله عز وجل لا يُبْغِضُ الكفار، ولكنه يبغض أعمالهم، لا يغضب منهم، ولكن يغضب عليهم، هذه نقطة دقيقة جداً.

(فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

عبدي لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي، طبعاً هذا كلام تاريخي كما أقول مرة ثانية، أستعرض لكم تركيب هذه الآيات التي نقلت المؤمنين من طور قبول الضيم في مكة المكرمة إلى طور أن يقفوا وقفةً قويةً في المدينة المنورة بعد الهجرة.

مشروعية القتال في الإسلام لئلا تكون فتنة :

قال تعالى:

(فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

كأن الله عز وجل أشار في هذه الآية إلى أن مشروعية القتال في الإسلام لئلا تكون فتنة، وكلُّكم يعلم أنه في بعض البلاد البعيدة عن منهج الله، التي لا تُقيم للدين وزناً، ولا تسمح للإنسان أن يقيم شعائر الله، في هذه البلاد يُفْتَن الإنسان عن دينه، يمنع أن يؤدِّي شعائر الله، يمنع أن يدخل المسجد، يمنع أن يُحَجِّبَ زوجته.

(فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)

وقال :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر: 53]

كل تجاوزٍ للحُرُمات لا بدّ له من قصاصٍ رادع :

ثم يقول الله عز وجل:

(الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ)

أيْ أنك حينما تجترئ على حُرْمَةِ هذا الشهر أيضاً المسلمون يجترئون عليك، دائماً هناك معاملة بالمثل، هذا الشهر حرام، حرامٌ أن تقاتل فيه، أما إذا بدأت القتال فيه لا ينبغي أن تكون آمناً فيه، أنت اعتديت على حُرْمَة هذا الشهر فينبغي أن يُعتدى عليك في هذا الشهر، ولو كان حراماً.

(الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ)

كل تجاوزٍ للحُرُمات لابدّ له من قصاصٍ رادع، لأنه لا يوجد نظام بالأرض إلا وله مؤيّد قانوني.

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ*وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى: 39-40]

على الإنسان أن يعد لعدوه أعلى درجات القوة وهذا أمر إلهي :

أخواننا الكرام.. نحن مع أعدائنا الشَرسِين الذين شَرَّدوا الشعوب، واقتلعوا الإنسان من جذوره، هؤلاء ينبغي أن يؤدبوا، لذلك يقول الله عز وجل:

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)

كلكم يرى ويسمع: أعداؤنا يخرقون كل الأنظمة الدولية، ولا يطبّقون أي قرارٍ على الإطلاق ومع ذلك لا أحد يُحاسبهم، بينما نحن أي خطأ يصدر عن بلد يُعتدى عليه اعتداء إلى أن يجوع أهله، ويموتون من الجوع. هناك الآن إحصاءات دقيقة أن خمسمئة ألف طفلٍ يموتون كل عامٍ جوعاً ومرضاً في بعض البلاد التي خضعت لمقاطعةٍ اقتصادية.

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

فالله عز وجل قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

هذا أمر إلهي، أي يجب أن تعد لعدوك أعلى درجات القوة، (مَا اسْتَطَعْتُمْ) باستنفاذ كل وسائل القوة.
الشيء الثاني: أية قوةٍ هذه ؟ كلمة عامة، هذه جاءت أولاً عامة، وجاءت نَكِرَة، جاءت عامة كي تغطي كل أنواع القوة التي تأتي على خواطرنا، وجاءت مضافةً إلى بعضها.

الآية التالية هي آية الإعداد :

قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

في عهد النبي الإعداد يشمل رباط الخيل، في عهودٍ لاحقة يشمل المنجنيق وصنع السفن الحربية، في عهود بعدها يشمل المُدَرَّعات والطائرات، والآن كما ترون يبدأ القصف ويستمر إلى أن تُدَمَّر البُنْيَة التحتية للبلد كلياً، من دون أن ينزل جنديٌ واحد، وذلك عن طريق الطيران، وعن طريق إحكام الأهداف، لذلك:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

القوة تعني أن تستخدم كل وسائلها بأدق تفاصيلها، (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) من أجل ماذا ؟

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

أحد أكبر أدوار القوة أنك لا تستخدمها لكنها تفعل فعلها، فالذي يملك سلاحاً قوياً مَرْهوب الجانب، والدليل:

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

ينبغي أن يكون عدوكم عدواً لله عز وجل.

الإعداد والإيمان شرطان ضروريان لتحقيق النصر :

قال تعالى:

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

هذه معيةٌ خاصة، الآية التي ذكرتها قبل قليل:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

هذه آية الإعداد، لكن النصر يحتاج إلى شيئين: إلى إعدادٍ وإلى إيمان. والإيمان والإعداد كلاهما شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، فمن آمن ولم يعد لعدوه أعلى درجات القوة لا يستحق النصر، ومن أعد

لعدوه أعلى درجات القوة ولم يؤمن لا يستحق النصر، فلا بد من الإيمان والإعداد، إلا أن الذي يُثْلِجُ القلوب أن الله عز وجل ما كلَّفنا أن نعد القوة المكافئة ولكن كلفنا أن نعد القوة المُتاحة، فنحن إن أردنا أن يرفعنا الله عز وجل، وأن ينصُرنا على شُذَّاذ الآفاق المفسدين في الأرض، ينبغي أن نعد لهم ما استطعنا من قوةٍ، وينبغي أن نعد إيماناً قوياً في مستوى إعدادنا، فإذا جمعنا الإيمان والإعداد استحققنا النصر.

دعوتُ مرةً في خطبة إذاعيةٍ وقلت: اللهم انصرنا على أنفسنا حتى نستحق أن تنصرنا على أعدائنا. بشارةٌ لكم:

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر: 51]

لا يمكن للمؤمن إلا أن ينتصر، قال تعالى:

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

ولكن ينبغي ألا نقصر؛ لا في الإعداد ولا في الإيمان، إن قصَّرنا في الإيمان خسرنا المعركة بسبب ضعف إيماننا، وإن قصرنا في الإعداد خسرنا المعركة بسبب تقصيرنا في الإعداد، الإيمان والإعداد كلاهما شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، والحقيقة أن المعركة بين حَقَّين لا تكون لأن الحق لا يتعدَّد، وأن المعركة بين حقٍ وباطلٍ لا تطول لأن الله مع الحق، أما إن كانت بين باطِلَين فقد تطول.

على المؤمن أن يعدَّ للكفار الإيمان والقوة التي يفهمونها :

أيها الأخوة:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)

(الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

هذه المعية الخاصة، معهم بالنصر، والتأييد، والحِفظ، والتوفيق.

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

ما علاقة هذه الآية بالقتال ؟ القتال يحتاج إلى رجال، ويحتاج إلى أموال، فلا بد من أن تبذلوا مُهَجَكم وأموالكم معاً، فالأمة التي تريد أن تنتصر على شُذَّاذ الآفاق، هي الآن في معركة مصير،

معركة نكون أو لا نكون، فلا بد أن نعد الإيمان لشذاذ الآفاق، ولا بد أن نعد لهم القوة التي يفهمونها هم.

من رحمة الله بنا أنه كلفنا أن نعد القوة المُتاحة وليست القوة المكافئة :

لكن رحمة الله بنا أنه كلفنا أن نعد القوة المُتاحة، وعلى الله الباقي، وليست القوة المكافئة، قد لا نستطيع إعداد القوة المكافئة، ولكن بالإمكان أن نُعِدَّ القوة المُتاحة، وأن نقوي إيماننا بالله عز وجل كي نستحق أن تنطبق علينا الآية الكريمة:

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحج: 40]

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)

[سورة النور: 55]

أما حينما تنطبق الآية الثانية على المسلمين:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

لقد لقي بعض المسلمين هذا الغي الذي توَعَّدَهُم الله به، ورد عن رسول لله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قيل يا رسول الله: فمن قلة يومئذ ؟ قال: لا ـ مليار ومئتا مليون ـ ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت))

[أبو داود عن ثوبان]

ملخص لما ورد في درس اليوم :

من أجل أن تنطبق علينا آيات النَصر والتأييد على هؤلاء الذين يتحدَّوْنَ أمم الأرض، شُذاذ الآفاق، ينبغي أن نعد الإيمان، وينبغي أن نعد لهم القوة المتاحة التي بين أيدينا، والقتال يحتاج إلى رجال وإلى أموال:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

أيْ يجب أن تنفقوا، وأن تُحَصِّنوا بلادكم، هناك الآن تحصينات كثيرة ينبغي أن نتحصّن بها باستثمار الثروات الطبيعية، وبالصناعة الوطنية، وبالوحدة الوطنية أيضاً، وبالعلم أيضاً تتفوق به، هذا كله ينبغي أن يكون مُلاحظاً.

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

إن بَخِلَ الناس في الإنفاق، وإن تقاعسوا عن نصرة دين الله عز وجل، تجاوز الكفار الحدود.

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

إخواننا الكرام.. وردت هذه الآيات المُتَعَلّقة بالقتال على التدريج التالي أولاً: أمر المؤمنين حينما كانوا في مكة المكرمة بالكف عن القتال لحكمٍ كثيرةٍ جداً ذكرتها لكم من قبل. ثم نُوِّهَ بأنهم ظُلِموا، بأنهم قوتلوا وأخرجوا ونُكِّلَ بهم، وهذه الإشارة إلى أن من حقهم أن يأخذوا ما فقدوه من عدوهم. ثم جاءت الآيات تأمرهم بعد أن صار لهم كيان في المدينة، وقيادة حكيمة أنهم يجب أن يأخذوا بأسباب القوة، وأن يقفوا أمام أعدائهم وجهاً لوجه، وهذا الذي حصل في التاريخ.

نرجو الله سبحانه وتعالى أن يعيد لهؤلاء المسلمين مجدهم التَليد، وأن يجعلهم يحملون هذه الرسالة التي أنيطت بهم، وأن ينشروها في الآفاق عن طريق تعميق إيمانهم، وإعداد القوة المتاحة لعدوهم. ثم تأتي آيات الحج فهذه إن شاء الله في دروسٍ أخرى.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (67- 95):تفسير الآيات 196-203 ، الحج عبادة مالية وبدنية وشعائرية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-12-10

بسم الله الرحمن الرحيم

الحج من العبادات الكبرى في الإسلام :

أيها الأخوة المؤمنون.. مع الدرس السابع والستين من دروس سورة البقرة، ومع الآية السادسة والتسعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

أيها الأخوة المؤمنون.. بعد الحديث عن الصيام، جاء الحديث عن الحج، وهذا يؤكِّد أن في القرآن الكريم تناسُقاً بين الآيات، بل إن كل سورةٍ تعدُّ وحدةً معنويةً فيما بين آياتها، فبعد الحديث عن آيات الصيام، ومن لوازم الصيام الدعاء:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي)

[سورة البقرة: 186]

جاء الحديث عن آيات الحج، أولاً: يستنبط أن الحج من العبادات الكبرى في الإسلام، لذلك إذا بدأت هذه العبادة ينبغي لك أن تتمها، مما يدل على أن هذه العبادة كُبرى في الإسلام، لقوله تعالى:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

حينما ذكر الله الحجَّ وذكر العمرة، العطف كما يقول علماء اللغة يقتضي شيئين، يقتضى المشاركة والمغايرة، فإذا لم يتحقق الشرطان معاً فالعطف ليس له معنى، فأنت حينما تقول: جاء سعيدٌ وأحمد، اشتركا في المجيء، ولكن سعيداً غير أحمد، أما إذا قلت: جاء سعيد وسعيد، سعيد الثاني نفس الأول، فليس لهذا العطف معنى.

يجب أن يؤدّى الحج فريضة وأن تؤدى العمرة واجباً :

إذاً الحج شيء والعمرة شيءٍ آخر، كلاهما يؤدّى في بيت الله الحرام، لكن الحج في وقتٍ مخصوص، وفي مكانٍ مخصوص، وفيه وقوفٌ بعرفة، بينما العمرة تؤدّى في أي يومٍ من أيام العام، وليس فيها وقوف في عرفات، إذاً ربنا عزّ وجل يقول:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

أما في قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا)

[سورة آل عمران: 97]

الحج في هذه الآية فرضٌ على كل مسلم مستطيع، والاستطاعة: القدرة البدنية والمالية معاً. إذاً أصبح الحج فرضاً عَيْنِيّاً على المستطيع، والعمرة واجبٌ على كل مسلم، ففرقٌ بين العمرة والحج، العمرة زيارة، الحج يؤدّى في وقت واحد، وفي مكانٍ واحد، وفيه وقوفٌ بعرفة، وسمّاه الله " يوم الحج الأكبر"، إذاً العمرة حج أصغر، فحينما وصف الله الوقوف بعرفة بيوم الحج الأكبر، إذاً هناك حجٌ أصغر، إنها العمرة، وعلى كلٍ يجب أن تؤدّي الحج فريضة، وأن تؤدي العمرة واجباً، وإذا بدأت بالحج، وإذا بدأت بالعمرة يجب أن تتمهما، لعظم هاتين العبادتين.

وبالمناسبة فالعمرة والحج عبادة شعائرية، وذكرت في الخُطبة اليوم أن: هناك عبادات تعاملية، وهناك عبادات شعائرية، والفرق بينهما أنك تقطف ثمار العبادات التعاملية في الدنيا فثمارها ملموسة، المنهج الإلهي لو طبقه كافر لقطف ثماره في الدنيا، وحينما تذهب إلى بلادٍ بعيدة ترى شيئاً يجذب النظر؛ فهناك من يصدُق، والأكثرون يصدقون، أعمال متقنة، ونظام دقيق، إذ تحترم حرية الإنسان ووقته، فهذا منهج إسلامي، وأي مجتمع طبق المنهج الإسلامي التعامُلِيّ، قطف ثماره في الدنيا ولو كان كافراً به، أي بمرسله.

لا تصح العبادة الشعائرية إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

إذاً هناك منهج تعاملي، وهناك منهج شعائري، فالمنهج التعاملي أن تكون صادقاً، وأميناً، ومنصفاً، ووقافاً عند كتاب الله، وألا تؤذي جارك، وألا تغتاب مؤمناً، وألا تقع في فاحشةٍ، وهذا منهج تعاملي، فإن صَحَّ المنهج التعاملي صح المنهج التَعَبُّدِيّ الشعائري، فيجب أن نفقه هذه الحقيقة، إذ لا معنى إطلاقاً لمنهج شعائري دون منهج تعبدي، وهناك إنسان يأكل الحرام، ويكذب على الناس، ويسخرهم لمصلحته، ويغشّهم في بضاعتهم، ولا يقيم قيمة لوعده، ولا لعهده، إنه إنسان خرق المنهج التعامُلي، فهذا لو وقف ليصلي، فالطرق ليست سالكة أمامه، والخط ليس حاراً، إنه منقطع بينه وبين الله، إذاً لا تصح العبادة الشعائرية إلا إذا صحت العبادة التعاملية، فلذلك الحج عبادة شعائرية، يقول الله تعالى:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

أيْ القَصْدُ طلب مرضاة الله، القصد الإخلاص لله، فإن لم يكن هناك إخلاص فهذه العبادة لا معنى لها إطلاقاً، فإذا صدق أحدهم لينتزع إعجاب الناس، وليحقق مصالحه بالصدق، كما يفعل الأجانب؛ صدقهم، وأمانتهم، وإتقانهم، واحترامهم للآخرين، هذه مصلحة، مصلحتهم في أن يفعلوا هذا. إذاً هذه عبادة تعاملية تقطف ثمارها في الدنيا ولو كنت كافراً بمن أرسلها، أما العبادة الشعائرية

ليس لها أي مصلحة في الدنيا، الذهاب للحج إنفاق أموال، وتحمُّل مشاق، ومكابدة الحر والقَرّ، ومكابدة الازدحام، وتضييع الوقت، والحرمان من الأهل، والبيت، والعمل، والأقارب. فإن لم يكن الإنسان الذي يحج بيت الله الحرام مستقيماً على أمر الله، إن لم يكن دخله حلالاً، إن لم يكن تائباً ما معنى هذا الحج؟ لا معنى له، لذلك من حج بمالٍ حرام، ووضع رجله في الركاب وقال: لبيك اللهم لبيك. يناديه منادٍ ويقول له: لا لبيك، ولا سعديك، وحجك مردودٌ عليك.

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

من لوازم قَبول الحج أن يكون بمالٍ حلال، وتسعة أعشار الاستقامة في كسب المال، فمن كان ماله حلالاً كان حَجُّه مقبولاً، لا يُقبل حج الحاج قبل أن يؤدي ما عليه من حقوقٍ للناس، وقبل أن يستسمح من الناس، و أن يعطيهم حقوقَهم، وأن يؤدي ما عليه من ديون وواجبات.

إذاً هذا هو الفصل الدقيق بين العبادة التعاملية والشعائرية، فالعبادة التعاملية إن لم تصح لا تصح معها العبادة الشعائرية، فالحج يحتاج إلى استقامة، وإلى توبة، وإلى أداء حقوق حتى يصبح الحج مقبولاً عند الله عز وجل.

الحج عبادة مالية وبدنية وشعائرية :

قال تعالى:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ)

قد يقول قائل: الحج شحنة العمر، بينما الصيام شحنة العام، وخطبة الجمعة شحنة الأسبوع، والصلوات الخمس؛ كل صلاةٍ شحنةٌ إلى صلاة، فأنت بحاجة إلى غذاء لجسمك، وإلى غذاء لقلبك، فأغذية القلب هي العبادات، فبالصلاة تُشحَن، وبصلاة الجمعة تُشحَن، وبصيام رمضان تشحن، وبالحج تشحن، لكن الحج أكبر عبادة وهو يؤدّى في العمر مرةً واحدة، وما دام يؤدّى في العمر مرةً واحدة إذاً ينبغي أن يكون في المستوى المطلوب.

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

الحج يحتاج إلى تفرُّغ، فأنت تصلي في بلدك، وتصوم في بلدك، وبيتك، وغرفتك، ومكان إقامتك، وحيث تكون زوجتك وأولادك، وحيث يكون عملك، ولكن الحج هذا العبادة الشعائرية ينفرد بخصيصة؛ لا بد من التفرُّغ، ولا بد من أن تدع بيتك، وأن تدع زوجتك، وأولادك، وبناتك، ومكتبك، وتجارتك، وبلدتك وأن تذهب إلى مكان بعيد متجشماً مشاق السفر، ونفقاته، والحج عبادة مالية وبدنية وشعائرية، فهو مالية إذ يحتاج إلى نفقة، بدنية يحتاج إلى صحة قوية، وأنا أتمنّى على كل إنسان أن يحج في أقرب وقت ممكن لأنه بحاجةٍ ماسةٍ إلى جُهد، فالطواف والسعي والوقوف في عرفات ومزدلفة ومنى، هذا الحج عبادة بدنية مالية شعائرية يحتاج إلى تفرغ، وأنت حينما تفرّغ نفسك لله فهناك شيء مع الحج اسمه "التفريغ"، فأنت فرغت نفسك لله؛ وتركت بلدك، وأهلك،

ومالك، ومكتبك، وتركت الثياب، إذ لا بد من أن تخلع هذه الثياب، والناس يتفاوتون في ثيابهم، والثياب تدلُّ على غنى الإنسان، فقد يلبس الإنسان ثياباً غاليةً جداً، فهذا الذي يمكن أن يكون موضع فخرك يجب أن تنزعه، وأن ترتدي ثوبين، رداءً وإزاراً أبيضين، بلا شيء مخيط ولا محيط، وبلا نعل ساتر للكعبين، فلا بد من خُفٍ لا يستر ظاهر القدم ولا الكعبين، ولا بد من إزارٍ ورداء، وهذه هي الثياب، إذاً هناك تقشف حتى في الثياب، ويمنع عليك أن تتعطر، وأن تحلق، وأن تقلم أظافرك، إذاً يريد الله عز وجل أن يذكِّرنا بالرحلة الأخيرة، إن صح التعبير الحج رحلةٌ قبل الأخيرة، عندما يقوم الناس جميعاً لرب العالمين.

وحدة المسلمين تبدو واضحة جداً في مناسك الحج :

هناك ترى الناس في عرفات؛ أغنياؤهم وفقراؤهم، أقوياؤهم وضعفاؤهم، وقد وقفوا على صعيدٍ واحد بثيابٍ موحدة، بتضرعٍ واحدٍ إلى الله عز وجل، وحدة الإنسان مع أخيه الإنسان تبدو واضحة في الحج، فلو جاء مَلكٌ ليحج بيت الله الحرام لا بد أن يخلع ثياب المُلك، ولا بد من أن يقوم بمناسك الحج مع دَهْمَاء الناس، إذ لا يوجد أماكن خاصة لأصحاب الألقاب، ولا طواف خاص للملوك، ولا سعي خاص لأصحاب الشأن، فوحدة المسلمين تبدو واضحة جداً في مناسك الحج.

إذاً الحج عبادةٌ ماليةٌ شعائرية بدنية، تحتاج إلى تفرُّغ، وإلى ترك البلد، والأوطان، والأهل، والخُلاّن، ثم تحتاج إلى أداء مناسك، وكل مَنْسَك له حكمةٌ بالغةٌ لا يعرفها إلا من ذاقها، يقول الله عز وجل:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

طبعاً كل أمرٍ يقتضي الوجوب، ولكن هناك آية أخرى جعلت الوجوب فرضاً وهي قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)

[سورة آل عمران: 97]

" مَنْ كَفَرَ " قال: من لم يحج البيت وهو مستطيع، أو من أنكر حج البيت، أو من استغنى عن أن يحج لله في بيته الحرام، فقد وقع في نوعٍ من الكفر.

(وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 97]

الإحصار نوعان قدَري وبشري :

قال تعالى:

(فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ)

ما دام الأمر " وأتموا ".

(فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ)

فالإحصار نوعان، إحصار قدري، وإحصار بشري، فأحياناً ـ لا سمح الله ولا قدر ـ يقع ابن أحد الناس من شرفةٍ فيقع ميتاً، هذا قدر، أما إذا ساق الإنسان مركبته بشكلٍ أرعن ودهس طفلاً، فهذا مُقَدَّر، القدر من الله مباشرةً، والشيء المُقَدَّر قد يأتي على يد إنسان، أنت في القدر ليس لك غريم؛ هو فعل الله مباشرةً، أما بالمقدر فأمامك غريم، إذ أمامك إنسان يمكن أن تقاضيه، ولذلك قال تعالى:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

[سورة لقمان: 17]

وقال أيضاً:

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

[سورة الشورى: 43]

تقديم هدي إلى الله عز وجل إذا مُنِعت أن تتم مناسك الحج :

قد يأتيك المُقَدَّر على يد إنسان، فأنت حينما تصبر على قضاء الله، وتصبر على غريمك الذي جعل الله هذه المصيبة على يديه فإن هذا من عزم الأمور، فقد يمنع الحُجاج مانعٌ إلهي؛ كزلزال، أو فيضان، أو أمر قاهر، أو طاعون، أو مرض شديد، هذا مُقَدَّر، أمر إلهي.

(فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ)

من قِبَلِ القدر، أو قد يكون إحصاركم من قبل البشر، أي أُناسٌ منعوكم من الحج؛ كما منع النبي عليه الصلاة والسلام من أن يؤدّي العمرة في وقت الحُديبية، فهناك إحصار قدر، وهناك إحصار بشر إذا منعت أن تتم مناسك الحج، يقول الله عز وجل:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

إذا مُنِعْتَ إما من قبل القَدر أو من قبل البشر أن تؤدي مناسك الحج قال:

(فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ)

" الهَدْي " الدابة التي تذبحها، وتطعمها الفقراء، وتهديها إلى الله عز وجل، هديةٌ إلى الله، فإذا أحصرت بفعل القَدر أو البشر، فعليك أن تقدِّم هدياً إلى الله عز وجل، وتفك إحرامك، وتعود إلى بيتك.

(فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ)

قال:

(فَمَا اسْتَيْسَرَ)

أي أن مال الهدي مُيَسَّر لك، أو ميسَر لك شراؤه، قد تجد المال ولا تجد المُثَمِّن، وقد تجد المثمن ولا تجد الثمن، فالتيسير هنا أن تجد الثمن والمُثمن؛ وأحياناً إنسان معه مال وهو بحاجة إلى دواء ولكن الدواء غير موجود، الثمن موجود أما المثمن فغير موجود، وأحياناً يكون الإنسان فقيراً فالدواء موجود، ولكن لا يملك ثمنه، معنى:

(فَمَا اسْتَيْسَرَ)

أي ما تيسَّر لكم من الهَدْيّ امتلاكاً لثمنه أو توفراً لعينه.

(فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ)

الحلق من مناسك التحلّل :

كلكم يعلم أن من مناسك التحلّل الحلق، قال:

(وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ)

أيْ يجب أن تتأكد أن هذا الهَدْي وصل إلى بطونٍ جائعة، فما الذي كان يحصل قبل سنوات عديدة؟ هناك مليونَا حاج تقريباً، وما يقرب من خمسمئة ألف دابّة تذبح في منى، وتلقى في العراء في حرٍ لا يحتمل، وقد حدّثني صديقٌ لي، قال لي: تبقى روائح اللحم المتفسّخ في منى أشهراً طويلة. فهل يعقل أن يكون هذا منهج الله؛ أي أن نذبح هذه الأنعام، ونلقيها في العراء، ليصبح الجو فاسداً بتفسُّخها، وهل هذا هو الدين؟ الآن والحمد لله هذه الذبائح تذبح، وتوضع في البرّادات، وتنقل هديةً إلى فقراء المسلمين، وهذا أمر معقول، الآن هنا:

(وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ)

فهذه الشاة، إن العبادات هادفة تُذبَح كي يأكلها الفقراء، أما أن تذبحها وأن تلقيها في الطريق، ليس هذا نُسْكًا، ولا منهجاً إلهياً بل هو إتلافٌ للمال.

(وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ)

أيْ هذا الذي لا يستطيع أن يحلق رأسه وهو محرم، ماذا عليه أن يفعل؟ يجب أن يصوم، أو أن يتصدق ويطعم ستة مساكين، أو أن يذبح هدياً. والتسلسل تصاعدي؛ تصوم وحدك، أو تطعم ستة أشخاص بالصدقة، أما بالهدي تطعم عشرات الأشخاص.

الفرق بين الحج المفرد والحج القارن والحج المتمتع :

أيها الأخوة... صار معنى قول الله عز وجل:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

وإن حال بينك وبين إتمامها قدرٌ أو بشر، فلا بد من أن تسوق الهدي، وأن تُبَلِّغَهُ إلى أهله، أي أن يصل إلى بطونٍ جائعة، فهذا هو الشرع، وهذا هو الدين فأنت تتقرب إلى الله بإطعام الجائعين لا بإفساد الجو.

(فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ)

طبعاً اختلف العلماء في أيهما أفضل أن تحج مفرداً وأن تأتي بعمرةٍ في سفرةٍ أخرى، أي أن تجعل لكل منسكٍ من الحج والعمرة سفراً خاصاً، أو أن تجمع العمرة إلى الحج؟ هناك كما تعلمون بالفقه لدينا حج مفرد، وحج قارن، وحج متمتع.

المفرد لا هدي عليه، أما المتمتع فعليه هدي، والقارن عليه هدي، وهو الذي يحرم بعمرةٍ، ويبقى محرماً إلى الحج فيتابع حجه، أيْ يجمع بين العمرة والحج بإحرامٍ واحد ونُسُكٍ واحد، وهذا يحتاج إلى جهد كبير، فقد تأتي قبل عشرة أيام، ويجب أن تبقى محرماً فيها.

أما المُتَمَعّ فهو الذي يحرم بعمرة فيؤديها ويتحلل، ويبقى متحللاً إلى اليوم الثامن من ذي الحجة، وبعدها يحرم بحجٍ ويتابع حجه، فماذا فعل؟ اعتمر، وتحلل، وحج، فهذا متمتع، وعليه هدي أيضاً، لكن العلماء قالوا: هدي المتمع هدي جَبر، أما هدي القارن فهدي شكر، لأن الله أمدَّه بقوة، وجعل بدنه صحيحاً، وتمكن أن يعتمر ويحج بشكل مستمر.

فهناك حجٌ مفرد، أن تحج فقط، وهناك حجٌ قارن أن تجمع بين العمرة والحج معاً، وهناك حجٌ متمتع؛ أن تحرم بعمرة، وأن تتحلل منها، وفي اليوم الثامن من ذي الحجة تحرم بحج، فعلى المتمتع هديٌ وعلى القارن هديٌ، لكن هدي القارن هدي شكرٍ، بينما هدي المتمتع هَدْيُ جبرٍ لنقصٍ حصل في حجّه، ولك أن تحج مفرداً من دون عمرة فلا هدي عليك، وهناك من يحج مفرداً، وبعد أن ينتهي من الحج، وفي خامس أيام العيد يأتي بعمرة منفصلة عن الحج، هذه هي الخيارات التي أمامنا في موضوع الحج والعمرة.

الإنسان المكي الذي يعيش ضمن حرم مكة هذا لا عمرة عليه :

قال تعالى:

(فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ)

لو أحرم إنسان بعمرةٍ وأداها وتحلل منها، وبقي إلى اليوم الثامن من ذي الحجة متحللاً، وفي اليوم الثامن من ذي الحجة أحرم بحج، فهذا متمتع، وعليه هدي، ولكنه فقير، قال:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ)

في الإسلام هناك بدائل دائماً، والإسلام لكل الناس، هو تشريع لكل الناس، إنسان حاج فقير ولا يوجد معه ثمن هدي، نقول له: صم ثلاثة أيامٍ في الحج، وسبعةٍ إذا رجعت..

(تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

هذا اسمه الإنسان الآفاقي، الذي بلده خارج المواقيت، أما إذا كان من ضمن البيت الحرام، أي من ضمن حرم مكة لا عمرة عليه، فهناك خريطة للمواقيت، وهناك خريطة للحرم، وعندنا بيت الله الحرام، المسجد الحرام شيء، وحوله منطقة هي الحَرم، وهناك التنعيم بالجنوب، الجعرانة في اتجاه آخر، فهناك منطقة تحيط بالحرم، إنها منطقة الحرم، وهي في حكم الحرم، وعندنا مواقيت للحج، وعندنا خارج مواقيت، من كان سكنه ضمن الحرم فلا عمرة عليه، لماذا؟ لأنه في الأعم الأغلب يطوف دائماً، فبيت الله الحرام تحيته الطواف، فأنت إن دخلت إلى مسجد تؤدي ركعتين تحية المسجد، أما إن دخلت إلى بيت الله الحرام تحية هذا المسجد الطواف، فإذاً الإنسان المكي الذي يعيش ضمن حرم مكة هذا لا عمرة عليه، فهذا الحكم عنده مُعَطّل.

الفرق الكبير بين حج الفريضة وحج النَفل :

قال تعالى:

(ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

يمكن أن نلخص هذه الآية الدقيقة: أن الحج عبادةٌ كبرى في الإسلام، وهي فريضة، فرضٌ عينيٌ على المستطيع بدنياً ومالياً، معنى الفرض العيني أي لا بد من أن يؤدّى.

لذلك من يقول: أنا أريد أن أزوج ابني؟ أقول له: أن تحج حج نفل وابنك بحاجة إلى زواج، أما الحج الفريضة فلا يقدّم عليه شيء، وفرقٌ كبير بين حج الفريضة وحج النَفل، وهناك من يحج عشرات المرّات، وأهله في أمسّ الحاجة إلى المال، وبإمكان ولي أمر المسلمين أن يمنع نافلةً أدت إلى ترك واجب.

والحج والعمرة ما دام هناك عطف فهما يشتركان ويختلفان، يشتركان في أنهما يؤديان في بيت الله الحرام، ويختلفان في أن للحج وقتاً مخصوصاً، ومكاناً مخصوصاً، وأفعال مخصوصة، بينما العمرة تؤدى في أي وقت بأفعالٍ مخصوصة، وليس فيها وقوف في عرفة.

(فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ)

إذا تيسر لك ثمنه أو المثمن.

(وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ)

أيْ يجب أن يصل الهدي إلى بطون الجياع.

أي حديث يثير الشهوة ممنوع في الحج :

قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ)

شوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

(فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ)

الحديث عن النساء ممنوع في الحج، ومقدِّمات الجماع ممنوعة، وأي حديث يثير الشهوة فهذا ضمن الرفث.

ما يجب أن تكون عليه أخلاق الحاج :

قال تعالى:

(فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ)

ولا معصية أيضاً..

(وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ)

حتى المجادلة والمشاحنة فهي ممنوعة في الحج، إنك أَتَيْتَ إلى بيت الله الحرام من مكانٍ بعيد لا من أجل أن تحرق أعصابك بالمُشاحنات والجَدَل.

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

أيْ يجب أن تفعل الخير في الحج، فأنت تؤدي أرقى أنواع العبادات، فهذا الحاج الذي يضرب إخوانه من أجل أن يُقَبِّل الحجر، وهذا الذي لا يعمل هناك عملاً صالحاً، لا يفقه حقيقة الحج.

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ)

أنت بالحج في أرقى عبادة، يجب أن تؤدي أرقى معاملة، أن تكون في أعلى درجات الصبر، والتسامح، والعطاء، والإكرام.

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

على الحاج أن يملك نفقة الحج لأنها عبادة مالية على المستطيع :

لا يجوز لإنسان أن يذهب إلى الحج متكففاً عطاء الناس فلا بد من أن تكون مستطيعاً، بل إن بعض الأحكام الشرعية تعتبر أنّ الإنسان لا يُعَدّ مستطيعاً إذا كان لا يملك أجرةَ نومٍ في مكة والمدينة، ليس مستطيعاً، أما أن يذهب إلى بيت الله الحرام وينام في الطرقات، وزوجته إلى جانبه وقد تتكشف في الليل!! فليس هذا هو الحج، إنْ لم تملك أجرة سكنٍ في مكة والمدينة لا تعد مستطيعاً، الحج عبادة مالية فرضها الله على المستطيع، فإن كنت غير مستطيع فلا تقترض من أجل أن تحج، إذ ليس عليك حج، لا تتسول وأنت في الحج، لا تكن عبئاً على أحدٍ وأنت في الحج، أما أن تملك مالاً كافياً كي تذهب وتعود، وأن تقيم في بيت في مكة وفي المدينة، وإلا فلا حج عليك.

(وَتَزَوَّدُوا)

للحج، ولكن:

(فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)

أحد الناس يحج على باب الله كما يدّعي، هذا ليس فقيهاً ولا يوجد معه مال، وعينه على ما يأكل الناس، يحشر نفسه معهم، ويكون عبئاً عليهم، فليس هذا هو الحج، بل ينبغي لك أن تحج وأنت عزيز، ينبغي أن تحج ومعك نفقة هذا الحج، لأنها عبادة مالية تجب على المستطيع فقط.

من ذهب إلى الحج وبعد الحج قام بعمل تجاري فهذا لا يمنع الحج :

قال تعالى:

(وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ* لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ)

أيْ إذا كان للإنسان ـ فرضاً ـ عمل أثناء الحج ليس له علاقة بالحج، هذا لا يلغي الحج، كمن ذهب إلى الحج وبعد الحج قام بعمل تجاري، هذا لا يمنع الحج.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ)

المشعر الحرام: مكانٌ ينبغي أن نذكر الله فيه.

(وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ)

معنى ذلك أن الإنسان حقق هدفاً كبيراً جداً من الحج.

(ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

كان لشُرَفاء مكة قبل الإسلام مكان إفاضة خاص، وقد ألغي هذا في الحَج من خلال هذه الآية:

(ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ)

اصطفى الله مكاناً وزماناً وشخصاً ليكونوا قدوة لنا دائماً :

الحج عبودية لله عز وجل في أعلى درجاتها، فإذا ذهب الإنسان إلى هناك ونفسه أنه يحتل مكانة اجتماعية معينة، إذ له رتبة خاصة، فهذا مما يفسد الحج، ويجب أن تذهب إلى هناك وقد خلعت مع ثيابك كل الأقنعة المزيّفة، وكل مراتب الدنيا.

(ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً)

النقطة الدقيقة في الصيام والحج هي أنّه بعد انتهاء رمضان يجب عليك أن تستمر فيما أنت عليه في رمضان، وبعد انقضاء الحج يجب عليك أن تستمر فيما أنت عليه في الحج من كثرة ذكر الله عز وجل، والله عز وجل اصطفى رمضان من بين أشهر العام لينسحب ما يحصل للصائم في رمضان على كل أشهر العام، وحينما اصطفى مكان كبيت الله الحرام؛ حيث فيه الصفاء، والإقبال، والدعاء، والعبادة، لينسحب هذا الصفاء، والإقبال، والدعاء، والعبادة على كل الأماكن، وحينما اصطفى سيد الخلق ليكون مثلاً أعلى ينبغي أن ينسحب هذا المثل على كل الخلق، اصطفى الله مكاناً، وزماناً، وشخصاً؛ فقد اصطفى رمضان، لتكون كل أشهر العام كرمضان، واصطفى بيت الله الحرام ليكون كل مكانٍ كبيت الله الحرام، واصطفى محمداً سيد الأنام ليكون كل البشر على شاكلة محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

الآية التالية تبين أن للأب مكانة كبيرة :

قال تعالى:

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً)

يتضّح من خلال هذه الآية أن للأب مكانةً كبيرة، بل إن الله جل جلاله ينتظر من العِباد أن يذكروه كما يذكرون آباءهم، كلما قويّ إيمان إنسان فالأب معزز مكرم في المجتمع، وإذا ما ضعف إيمانه فالأب لا يعزز ولا يكرم.

(فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

هذا موجود في معظم بلاد العالم، دنياهم في أعلى مستوى وما لهم في الآخرة من خلاق.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

من الممكن أن تحصِّل الدنيا بذكاء، لكن الآخرة لا تحصل إلا بعبادة، منهج الله كما قلت قبل قليل هو منهج موضوعي، إذ لو طبقه كافر لقطف ثماره، فأنت إن أردت الدنيا فقد تعرف أبوابها ومداخلها ومخارجها، ولكنك إن أردت الآخرة فلا بد من أن تعبد الله العبادة الصحيحة.

(أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

الحج لقاء مع الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام... آيات الحج هذه مهما قرأناها، ومهما تأمّلنا في معانيها، ومهما وقفنا عند تفاصيلها ودقائقها، تبقى معلومات نظريّة ولا بد من أن تحج بيت الله الحرام، واسألوا الله من أن يمكنكم من حج بيت الله الحرام، لأن الحقيقة أن هذه العبادة كبيرة، وأنها مديدة، وأنها متنوعة، وأنها مالية، وشعائرية، ومناسك، فإذا أدّيَتها كما أراد الله عز وجل عشت في سعادةٍ لا توصف وكانت شحنةً كبيرةً جداً.

والله أيها الأخوة... تستمع إلى بعض الحجاج بعد أن يعودوا من بيت الله الحرام فتصعق، يحدثك عن كل شيء إلا الحج، يحدثك عن كل شيء أين سكن؟ ماذا أكل؟ والتكييف، والماء البارد، والطرقات، والأقواس، وبيت الله الحرام، والإضاءة، وتكبير الصوت، يحدثك عن كل شيء، لكن بماذا شعرت وأنت تطوف؟ ماذا فعلت وأنت بين الصفا والمروة؟ ماذا دعوت وأنت في عرفات؟ معظم الناس إن جهلوا حقيقة الحج يحدثونك عن كل شيءٍ إلا الحج.

وهناك بعضٌ من هؤلاء يحدّثك عمّا شعر وهو في هذه المناسك، تشتهي أن تذهب إلى الحج فوراً، وتشتهي أن تحج كل عام، وتشعر أن الله قد استضافك، وأنت ضيف الرحمن، وأكرمك إكراماً لا حدود له، فهل من المعقول أن تترك بيتك، وولدك، وزوجك، ومالك، ومتجرك، ومحلك، ومكانتك، ووظيفتك، ورتبتك، ولباسك، ومركبتك، وأن تذهب إلى بيت الله الحرام! يتابع الكلام دون انقطاع.

تكون إنساناً عادياً جداً لا أحد يعرفك، وتؤدي مناسك الحج في وقتٍ حارٍ جداً، تنفق نفقة باهظة، الأسعار هناك غالية جداً، هكذا دون أن تكافأ!! قال: من وقف في عرفات ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له. فهل من المعقول أن تأتي من بلادٍ بعيدة، قد تأتي من الصين، وقد تأتي من أمريكا، وقد تأتي من استراليا، تركب الطائرة عشرين أو ثلاثين ساعة، تدفع مئتين أو ثلاثمئة ألف ليرة، وأن تقف في عرفات هكذا؟!

والله سمعت من يتحدّث عن الدنيا في عرفات، فهل من المعقول أنّ إلهاً عظيماً قال لك: تعالَ إليّ يا عبدي. قلت: لبيك اللهم لبيك، وتأتي إلى عرفات وتنشغل بحديث دنيوي، أو تنام، يقول لك: أنا أخذت معي فرشة للنوم، أهذا هو الحج الذي أمرنا الله به؟ فهل من الممكن أن تدخل على ملك وتدير له ظهرك؟ أممكن أن تدخل على ملك في مقابلة تجد مقعداً مريحاً فتنام، وتغط في النوم! ما هذا اللقاء؟ الحج لقاء مع الله عز وجل، الحج عرفة، فتجد في الحج أشياء لا يقبلها الدِّين ولا العقل، أيُمكن أن تؤذي المسلمين من أجل أن تُقَبّل الحجر؟! تدفع هذا بيدك، وتدفع الآخر بقدمك من أجل أن تقَبّل الحجر وأن تؤذي جميع المسلمين، هناك جهلٌ كبير في الحج.

أيام ما بعد الوقوف في عرفة :

أيها الأخوة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ)

هذه أيام ما بعد الوقوف في عرفة، والنزول إلى مزدلفة، ورمي جمرة العقبة، هناك أيام ثلاثة أو يومان ترمي فيها الجمرات الثلاث وتؤدّي بعض المناسك.

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)

ينبغي لك أن تبيت بمنى وأن ترجم الجمرات الثلاث؛ الكبرى والصغرى والوسطى.

(وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (68- 95):تفسير الآيتان 204-205، الظاهر والباطن والفساد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-12-17

بسم الله الرحمن الرحيم

لحكمةٍ ولكرمٍ كثير جعل الله للإنسان ظاهراً وباطناً :

أيها الأخوة المؤمنون.. مع الدرس الثامن والستين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الرابعة بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)

هناك حقيقةٌ أيها الأخوة هي أنه لحكمةٍ ولكرمٍ كثير جعل الله للإنسان ظاهراً وباطناً، فباطنه محجوبٌ عن الناس، الناس لهم الظاهر، ولولا ذلك لو تكاشفتم لما تدافنتم، لك ظاهر، والناس لهم الظاهر، ولك باطن، لو أن كل واحدٍ منا كشف باطن أخيه، وكان في باطن أخيه غِل أو حقد أو حسد لتدابر الناس، ولكن جلّت حِكمة الله إذ جعل الباطن محجوباً.

النقطة الدقيقة أنه بإمكان الإنسان أن يتكلم كلاماً طيباً، ويعمل عملاً طيباً، وينتزع إعجاب الناس، وهو ألدّ الخصام، وهو عدوٌ لدود، ربنا عز وجل حجب باطنه عن الناس، ولكن إذا كان باطن الإنسان سيّئ، وأصر عليه، واستمر، يتولى الله في عليائه فَضْحَهُ.

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران: 179]

من رحمة الله أنه حجب باطننا عن الخَلق :

الحقيقة أن للإنسان باطناً لا يعرفه إلا هو، ويعرفه ربُّه، وله ظاهر يعرفه به الناس، وقد ورد في بعض الأقوال: أن الإنسان قد يستطيع أن يضلل بعض الناس كل الوقت، أو أن يضلل كلَّ الناس بعض الوقت، أما أن يضلل كل الناس لكل الوقت، فهذا مستحيل، وهذا يأباه الله عز وجل. فالباطن مخفي، وهذا رحمة من الله، حينما أُثنِيَ على سيدنا الصديق قال: **" اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم حقق فيَّ ما يقولون، واجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون ".**

كلام دقيق: "اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، واجعلني خيراً مما يقولون، بل وحقق في ما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون"، فالله عز وجل ستر الإنسان، والله اسمه الستّير،

داخلك محجوب عن الناس، فقد يزور الإنسان شخصاً وفي باطنه حقدٌ عليه، أو حسدٌ، أو غلٌ وهو محجوب، لو أن الإنسان بعد حينٍ تاب إلى الله، وشفي صدره من هذا المرض، فالطرف الثاني ما رأى شيئاً.

فالله أعطانا فرصة، إذا كان هناك في الباطن شيء سيّئ فيمكن أن تصحح، وإذا كان في الباطن غل، أو حسد، أو تقصير، أو عُجب، فأنت مدعو إلى إصلاح الباطن، ففي فترة إصلاح الباطن أنت في بحبوحة، لأن الإنسان لا يغفر، ولو بلغك عن شخص أنه قال في حقك كلمة سوء لا تنساها له حتى المَوْت، ولو أن الناس تكاشفوا لتدابروا ولتخاصموا، ولما تدافنوا أساساً، ولكن رحمة الله أنه حجب باطنك عن الخَلق، وأبقاه بينك وبينه، فأنت بالإمكان أن تستغفر، وبالإمكان أن تُقْلع، وبالإمكان أن تتوب، وبالإمكان أن تصحح، قال تعالى عن نموذج من هؤلاء:

(وَمِنَ النَّاسِ)

أي بعض الناس..

(مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

رحمة الله رحمتان :

قد يكون الإنسان ذكياً، والذكي يمثّل، والتمثيل يحتاج إلى قدرات عالية جداً، فالذكي يمثّل، قد يقول كلاماً يُرضيك، لأنه يعرف اتجاهَك، ولدى بعض الناس قدرة عجيبة على التلون؛ فإذا جلس مع أهل الدنيا فهو في قمة أهل الدنيا، وإذا جلس مع أهل الدين يتلبس، ويقول: لا إله إلا الله، الله يغفر لنا، له كلمات رائعة مع أهل الدين، فيها توكُّل، وفيها إنابة، وفيها شوق إلى الله، وهو يحفظ عدّة أبيات من الشّعر، وإذا جلس مع أهل دينٍ آخر قرَّب ديننا من دينهم، فأصبح ديننا مثل دينهم تماماً، أينما جلس يتلوَّن، هذه قدرة عالية بالإنسان.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

قوله يعجبك، يرضيك، يعرف الوَتَرَ الحساس، يعزف عليه، يتلاعب بعواطفك، إنه ذكي، لكن المشكلة أن هذا لا يُمَرَّر على الله، وعلاقتك مع الله، هناك نقطة دقيقة: باطنك محجوب عن الخَلق رحمةٍ من الله، والله كاشف باطنك رحمةٍ من الله أيضاً، والمؤمن يعلم، ولذلك ينضبط وهذا لصالحه، فحينما توقن أن الله يعلم تنضبط، أيّ إنسان يوقن أن الله يعلم فسينضبط، فصار الحساب داخلياً، المؤمن الصادق لا يجرؤ أن يحمل حقداً أو غِلاً لأحد، ولا أن ينافق.

فرحمة الله رحمتان، الرحمة الأولى أنه مُطَّلعٌ على بواطننا، وهذا الاطلاع على بواطننا أكبر رادع لنا، أيْ يا عبدي لا تخفى علي خافية، تكلَّم ما شئت فأنا أعرف الحقيقة، أعرف ماذا تنطوي عليه؟ وهناك أمثلة كثيرة جداً، فالطبيب عندما يفحص امرأةً، إذا اختلس النظر إلى مكانٍ لا تشكو منه، ليس في الأرض كلها إنسان بإمكانه أن يكشف الحقيقة إلا الله.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

علم الله عز وجل كامل يعلم ظاهرك ويعلم باطنك :

لو أن صديقة زوجتك جاءت زائرةً، والوقت شتاءً، وقلت لزوجتك: تعالوا إلى هنا، الغرفة هنا دافئة، أنت ماذا أعلنت؟ أعلنت حرصك أن يكونوا في غرفة دافئة، ولكن ماذا تُبطن؟ الله وحده يعلم ماذا تبطن بهذه الكلمة؟ هذا مثل طبعاً، فلو أردت أن ترى شكل صديقة زوجتك، ودعوتهما إلى غرفة الجلوس، حيث المدفأة مشتعلة، مَنْ يعرف النيَّة؟ الله، فباطنك مكشوفٌ عند الله، وهذه من رحمة الله بنا، من أجل أن ننضبط، لذلك يعلم السر ما أخفيته على الناس، ويعلم ما خفي عنك أنت، أيْ أنَّ علم الله عز وجل كامل؛ علم ظاهرك، هو سميعٌ بصير، ويعلم باطنك، ويعلم ما خفي عنك. وهذا معنى قول الإمام علي: **" علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون "**، فأن يعلم الله باطنك فهذه من نعم الله الكبرى، وأن يحجب عن الناس باطنك، فهذه من نعم الله الكبرى، فالناس يتراحمون بالظاهر:

((إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر)).

[ورد في الأثر]

إنسان مقيم في بلد أجنبي ذهب إلى مركز إسلامي مع فتاةٍ أعجبته في هذا البلد، وعقد عليها عقداً شرعياً فيه إيجابٌ، وقبولٌ، ومهرٌ، وشاهدان، وليس في الأرض كلها من يكشف حقيقة نيته من هذا الزواج، هو ينوي أن تبقى معه طوال مُدَّة دراسته فإذا أنهى دراسته طلَّقها. وعند الإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى: كل زواجٍ ليس فيه نية التأبيد فهو زنا، فأنت عقدت عقداً في مركز إسلامي فيه إيجاب، وفيه قبول، وفيه شاهدان، ومهر، فهذا عقد شرعي مئة في المئة، أما إذا كنت تنوي أن تطلّقها بعد انقضاء مُدَّة الدراسة فهذا لا يعلمه إلا الله.

فالله عز وجل حجب باطنك عن الخلق، وأبقى لهم الظاهر، وأنا أحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، إخلاصك لا يعرفه إلا الله، ونياتك الطيبة لا يعرفها إلا الله، وهناك أمثلة دقيقة جداً: يوجد عندك ألف دنم أرض بمنطقة غير منظَّمة، وجئت وتبرَّعت بألف متر من هذه الأرض لبناء مسجد، وفي نيَّتك أنه حينما تتبرع بهذه المساحة تنظَّم الأرض، فإذا نُظّمت ارتفع سعرها أربعة أضعاف، يقال لك: ما شاء الله، جزاه الله خيراً؛ عمَّر جامعاً، أنت لك الظاهر، وقد ينوي هو أن يرفع ثمن أرضه فقط، ولا علاقة له بالدين إطلاقاً، فمَنْ يكشف هذه الحقيقة؟ ربنا عز وجل:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

[سورة الحاقة: 18]

باطننا مستور وظاهرنا مكشوف عند الخلق أما عند الله فمكشوفون ظاهراً وباطناً :

أنت حينما تعلم أن الله يعلم كل شيء هذا أكبر دافع للإخلاص، وأكبر دافع لتطهير الباطن، وأكبر دافع لسلامة النيَّة، فالله عز وجل رحمنا حين أعلمنا أنه يعلم، ورحمنا حين حجب باطنَنا عن الخلق ستراً لنا، فباطننا مستور، وظاهرنا مكشوف، ولكننا مكشوفون عند الله ظاهراً وباطناً..

(وَمِنَ النَّاسِ)

أيْ بَعْضُ الناس..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

يعجبك قوله في الحياة الدنيا فقط، أما لو قال في الآخرة كلاماً طيباً، هو في الحقيقة إنسان طيب، لأن الله عز وجل قال:

(وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

[سورة الكهف: 51]

ففي الدنيا تكلَّم ما شئت، أما في الآخرة لن توفَّق في كلامك إلا إذا كنت مخلصاً، لأن الله لو سمح لك أن تقنع الناس بالآخرة، وأنت لست كذلك، فهذا غشٌ لهم، ففي الآخرة لن يسمح لك أن تقول قولاً يُعجبهم، أما في الدنيا فلك أن تقول قولاً يعجبهم، وهذا مقيَّد.

من أرضى الناس جميعاً فهو منافق :

قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ)

هذا منتهى الفجور، كان عند أحدهم مخالفة، لزمه شاهد فذهب إلى شاهد زور، فطلب منه خمسة آلاف، وقال له: إني شاهد زور، فلم أكن موجوداً، دخل الشاهد إلى المحكمة فرأى أن هناك قرآناً، فقال: أريد عشرة لأنه يوجد يمين، وهناك شخص مستعد أن يفعل كل شيء.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ)

هذا النموذج شائع جداً، يواجهك إنسان فيُثني عليك ثناءً، يمدَحك مديحاً يجعلك تخجل، وبعد أن تدير ظهرك يتكلم بعكس ما مدحك به، ذو الوجهين لا يكون عند لله وجيهاً، كن بطلاً، وكن موحَّداً، وكن واضحاً. قال له: يا أمير المؤمنين أتحبني؟ قال: والله لا أحبك. قال: وهل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي؟ قال: لا والله. قال: إذاً إنما يأسف على الحُبّ النساء.

كن صريحاً، فهذا الشيء يؤلم كثيراً، إذ تلتقي مع إنسان يثني ثناءً عطراً على كل شيء، تصدقه أنت، تعدّه من طرفك، فإذا به في غيبتك يطعن في كل شيء، وهذا النموذج ممقوت عند الله عز

وجل، كن واضحاً، فكلمة الحق لا تقرِّب أجلاً ولا تقطع رزقاً، فالذي تمدحه امدحه صادق، والذي لا تحبه لا تمدحه، اسكت عن مدحه، وإلا فأنت منافق، ومن أرضى الناس جميعاً فهو منافق.

اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة :

قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ)

الباعة أكثرهم: بذمتي، بديني، بأولادي، بصحتي، بالكعبة، أبيعك دون رأس ماله. وهو رابح مئة بالمئة، هذا حلف كاذب، اليمين الكاذبة منفقةٌ للسلعة ممحقةٌ للبركة، قد يخجل الزبون فيشتري، لكن ممحقةٌ للبركة، لا توجد بركة، تأتي مخالفة يضع لها مبلغاً من المال قد تبلغ ثلاثمئة ألف، الذي جمعته فرادى دفعته دفعةً واحدة..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى)

واجهك، مدحك، وأشهد الله على ما في قلبه، وهذا الشيء واضح جداً، إن جلس مع أهل الإيمان، تجده شيخ، بل شيخ ونصف، ويعلمهم، وإن جلس مع أهل الكفر يقول لك: كل هذا الدين أفيون الشعوب، الدين حالة ضعف بشري، حكى كلاماً آخر، يتلوَّن، مع كل فئة له موقف.

كلمة (تولى) لها معنيان :

قال تعالى:

(وَإِذَا تَوَلَّى)

عنك..

(سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)

"تولى " لها معنيان هنا:

1 ـ تولى عنك أي ترك المجلس :

تولى عنك أي: ترك المجلس، تولى؛ كان عمله سيِّئاً، هو أشهد الله على ما في قلبه، أنه مؤمن، وصادق، ومحسن، ومستقيم، فإذا تركك وانصرف إلى جماعةٍ آخرين أفسد الأرض ومن عليها، فهذا معنى.

2 ـ إذا تولى أي انصرف أو استلم عملاً فجعل الفساد همَّه :

المعنى الثاني: إذا تولى شيئاً، أو مهمة، أو استلم عملاً، فإنه يريد الاختلاط، والفسق، والفجور، والمال الحرام، أنت كنت تدّعي أنّك شيخ الإسلام، فما الذي حدث؟

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا)

فالفساد أيها الأخوة لا يمكن أن يكون إلا بتدَخُّل بشري، لأن كمال الله عز وجل مُطْلَق، وكل شيء خلقه الله عز وجل كامل إطلاقاً، فنحن نفسد، خلق الله الطفل الصغير مثل المَلَك، ولو كان ابن مجوسي، أو ابن أفسق إنسان فهو مَلَك، فالأسرة تفسد الابن أو تصلحه، كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، إذاً هذا الإنسان الذي يقسم لك أنه مخلص، ومحب لله، ومستقيم، وطاهر، ويحب الله ورسوله، وهو ألد الخصام، فما الذي يكشفه؟ إذا انتقل إلى حقل آخر، إلى مكان آخر، إلى جماعة آخرين، هذا ورد في سورة البقرة أيضاً:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون)

[سورة البقرة: 14]

إنّه ملوَّن، " فتولى " أي انصرف أو استلم عملاً فجعل الفساد همَّه.

(سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا)

فالفساد تدخُّل بشري، وأصل الفساد كائن مخيَّر ومعه شهوة، وترك المنهج، ولو أمسك بالمنهج ما صار فساداً، فعلاقة إنسان بامرأة وفق المنهج زواجٌ، وبلا منهج زنىً ودعارة، وأعمال لا ترضي الله عز وجل، علاقته بالمال وبالمنهج كسب مشروع إذ لا توجد مشكلة، بلا منهج سرقة، واحتيال، وخداع، وربا، وما شاكل ذلك.

الحرث له معنيان:

قال تعالى:

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ)

الحرث له معنيان:

1 ـ النبات بالمعنى النباتي الأرضي :

المعنى الأول: النبات، أيْ:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ*أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

[سورة الواقعة: 63-64]

هناك فساد حتى بالنبات، الله عز وجل صمم الخلق أكمل تصميم، فجاء الإنسان وأفسد النبات، وضع للنبات هرمون نمو، هذا يعطيه حجماً كبيراً، وألواناً زاهية، لكنه مسرطن، فاستخدم هرمونات للنمو، مثلاً هناك كثير من الأشياء تزيد من ملوحة التربة، فكل المبيدات الكيماوية مؤذية جداً، صمم ربنا مبيدات حيوية، فنحن استخدمنا المبيدات الكيماوية فصار هناك فساد، الأدوية الراقية أدوية نباتية، نحن استخدمنا أدوية كيماوية لأجسامنا، صار في مضاعفات، أمراض كثيرة جداً من أدوية نستعملها بشكل مثير، الشراب الطبيعي استبدلناه بشراب كيماوي، فأكثر أنماط السلوك أنماط مُبْتَدَعَة، ليست في أصل التصميم، فنشأت أمراض وبيلة، نشأ ارتفاع نِسَب السرطان، فهذا من باب إهلاك الحرث وإفساده.

2 ـ المرأة بالمعنى الإنساني :

والمعنى الثاني:

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)

[سورة البقرة: 223]

فالإنبات يأتي عن طريق الأرض، وعن طريق المرأة، فالأرض فسدت، والمرأة أُفْسِدَت، فصار هناك إفساد للحرث، بالمعنى النباتي الأرضي، وبالمعنى الإنساني أي المرأة، والمرأة إذا فسدت حدث شيء مخيف، وهناك قصص عن فساد المرأة؛ ممكن أن تقيم مشكلات لا تنتهي إذا فسدت، فشيئان إذا فسدا فسد المجتمع، المرأة أحد هذين الشيئين، وقد يحارب المسلمون بالمرأة، فأكبر حرب تُشَن على المسلمين إفساد أخلاقهم عن طريق ما تأتي به الفضائيّات، فهذا إفساد، المرأة فسدت، فالزواج فسد، حدثني أخ كريم قاض شرعي، قال لي: نسب الطلاق في سوريا كانت اثنين بالألف، الآن خمسة عشر بالمئة، وأغلب هذا الطلاق أساسه هذه المحطات الفضائية.

الإنسان حينما تولى أفسد الأرض :

إذاً:

(وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ)

حتى النسل، أيْ الأولاد، فالابن كل شيء يدعوه إلى الشهوة، وكل شيء يدعوه إلى معرفة الله مُغَيَّب عنه، بعيد عنه، فالجيل فسد، طبعاً الفساد عندنا أقل بكثير جداً من بلاد أخرى، في أيّ مكان في العالم قد يمارس الجِنس في المدارس، في الحمامات، يضعون واقياً في الحمام، شيء طبيعي جداً، فالفساد عَمَّ العالم، فالإنسان حينما تولى أفسد الأرض، أفسد نباتها، وأفسد المرأة، وأفسد الولد..

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)

والله صمم المرأة زوجة، وصممها أختاً، وبنتاً، وأماً، ولكنه لم يصممها مومساً، لم يصممها مخلوقاً يبيع جسده بالمال، ولم يصممها مُتْعةً في الطرقات، أو سلعةً رخيصةً، بل صممها كائناً راقياً، وأماً قدِّيسة، وزوجةً وفية، وأختاً رحيمةً، وأماً رؤوماً، ولم يصممها سكرتيرة مثلاً، مهمتها أن تلبي حاجة مديرها، هذه علاقة غير مشروعة، الإنسان أفسد إذ جعل المرأة متعةً في أي مكان.

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ)

الجيل حينما يفسُد، حينما تفسد أخلاقه، ونحن والحمد لله الدعاية للتدخين ممنوعة في بلدنا، وهذه نعمة كبيرة، أما حينما يلقى في روع الشاب أنك تكون عظيماً إذا دخَّنت، وتكون بطلاً إذا دخنت**!!** كان في بعض أجهزة الإعلام رجل محترف الدعاية للدخان مات بسرطان الرئة، وهو على فراش الموت قال: كنت أكذب عليكم الدخان قتلني، أنت حينما تغري الشاب أن يدخن، وأن يتلف صحَّته، وأن يُتلف ماله، أنت ماذا تفعل؟ حينما تفتح نادياً ليلياً أو ملهى ماذا تفعل أنت؟ حينما تعرض الجنس في هذه النوادي الليلية ماذا تفعل؟ تفسد الشباب.

كل شيء خلقه الله سمح لك به في علاقةٍ شريفة وواضحة:

قال تعالى:

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)

الله يحب الطُهْر، يحب العفاف، ولم يحرمك شيئاً، كل شيء خلقه الله سمح لك به في قناةٍ نظيفة، في علاقةٍ شريفة وواضحة، فهذا الفساد يرفضه الله عز وجل، عندك شهوة، هذه الشهوة لها قناة نظيفة، تحرَّك من خلالها.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: 50]

المعنى المخالف من يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه، لا يوجد حرمان في الإسلام ولكن يوجد تنظيم، يوجد طهر، المؤمن كيسٌ فطنٌ حذر، فلا جهل، ولا حمق، يفتِّح الله له بصيرته، يعطيه إدراكاً عميقاً، والمؤمن يكشف المنافق الذي يتخذ شخصية ازدواجية والدليل:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ)

معنى ذلك أنه انكشف، المؤمن يكشف، قال أحدهم لسيدنا علي: لمَ انصاع الناس لأبي بكر وعمر ولمْ ينصاعوا لك؟ فهو بهذا يريد أن يستهزئ به، قال له: **" لأن أصحابهم أمثالي، وأصحابي أمثالك "**. فهناك مواقف ذكيّة؛ مدح أحدهم سيدنا عمر، فقال له: " أنا دون ما تقول، وأعلى مما في نفسك ". فقصدي أن المؤمن لا يمرر عليه شيء حيث وهبه الله الكياسة، والمؤمن:

((كيسٌ فطنٌ حذر)).

[ورد في الأثر]

ودليل كشفه قوله تعالى:

(وَإِذَا تَوَلَّى)

هذا الإنسان المنافق؛ ذو الوجهين، المتلوِّن، الذي يعجبك قوله في الحياة الدنيا..

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا)

الإنسان إما أن يعتزّ بالله وإما أن يعتز بالإثم :

هذا الإنسان..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ)

ينتصر لباطنه، ولمعاصيه، ولانحرافه، ولما يفعله من موبقات، يفلسفها فلسفة.

(أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ)

الإنسان إما أن يعتزّ بالله وإما أن يعتز بالإثم، كلٌ يعتز بما يعتقد، قال الشاعر:

اجعل لربك كل عزك يستقرُّ و يثبتُ

فإذا اعتززت بمن يموتُ فإن عزك ميِّتُ

* * *

يمكن أن تعتز بقوي، لكن القوي سيفنى وسيهلك، ممكن أن تعتز بالمال، وبالنَسَب، وبالوسامة، وبشهادة عُليا تحملها، فينبغي لك أن تعتز بالله، صار عندنا عز بالله، وعز بغير الله، قد تعتز أنَّك حققت دخلاً فلكياً من عمل فيه معصية كبيرة، قد ربحت من حِرْفَةٍ لا ترضي الله، ربحت ملايين مُمَلْيَنَة من عملٍ فيه شقاء للناس، فأنت اعتززت بهذا الدخل، واعتززت بهذا القوي، فهذه عزةٌ ليست لله، سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت".

قد تعتز إلى حين، إذ للباطل جولة ثم يضمحل، هذا أخذته العزة بالإثم، فالعبرة بالنهاية وبالخاتمة، العبرة بمن يضحك أخيراً، وينبغي أن تعتز بالله، أن تعتز أنك عبدٌ لله، وأنك مستقيمٌ على أمر الله.. فحسبه جهنّم: أيْ تكفيه جهنَّم، ولبئس المهاد.

(فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ)

ملخص سريع لما ورد في الدرس :

أيها الأخوة.. مرةً ثانية بشكل مختصر: لحكمةٍ بالغةٍ، ولفضلٍ عميم، ورحمةٍ عظيمة، الله حجب الباطل عن الخلق، فأنت مستور، مهما فكَّرت، مهما أتتك خواطر لا تُرضي الله، الناس لا يعرفونها، نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، ومن رحمة الله بنا أنه أعلمنا أنه يعرف بواطننا، معرفة باطننا رحمةٌ بنا، هذا أكبر ردع لنا، ردع وباعث إلى الطاعة، وتطهير الباطن، فأنه يعلم

رحمة، وأنه أخفى عن الخلق الباطن رحمة أيضاً، رحمتان، إلا أنّه عندما يبطن الإنسان الشر ويتمادى فيتولّى الله كشفه، وعندما يرقى المؤمن عند الله يعطيه بصيرة، **" اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر من نور الله ".**

عندنا باطن محجوب، وظاهر مُعْلَن، فرحمة الله بنا أن هذا الباطن محجوب، ورحمة الله بنا أنه يعلم باطننا، والله بعد حين يفضح، والمؤمن الموفَّق يكشِف، هناك إذاً رادعان، الله يعلم وسيفضح، والمؤمن بفطنته وفِراسته يكشف، إذاً رحمةٌ من كل الأنواع تقريباً، والفساد محصور بالإنسان، لأنه مخيَّر أودعت فيه الشهوات، ولم يتبع منهج الله حينما يتحرَّك، والعزة ينبغي أن تعتز بالله لا أن تعتز بسواه، من اعتز بغير الله ذَل، فمن اعتز بماله ضَل، ومن اعتز بالقوي اضمحل، فينبغي أن تعتز بالله.

اجـعل لربك كل عزك يستقرُّ و يثبتُ

فإذا اعتززت بمن يموتُ فإن عزك ميِّتُ

* * *

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (69- 95):تفسير الآية 207، معرفة الهدف واختيار الوسائل المناسبة للوصول إليه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-12-24

بسم الله الرحمن الرحيم

ثمن الجنة أن تأتي إلى الدنيا وتقدِّم شيئاً يرضي الله :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس التاسع والستين من دروس سورة البقرة، ومع الآية السابعة بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)

(يشري) بمعنى يبيعُ ويشتري، وسياق الآية يُحَدِّد معنى يشري بمعنى يبيع، أيْ ومن الناس من يبيع نفسه ابتغاء مرضاة الله، يقول الله عزَّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة التوبة: 111]

أيها الأخ... خُلقت لِجَنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، ثمنها أن تأتي إلى الدنيا وتقدِّم شيئاً يرضي الله؛ فقد تُقَدِّم مالك، وقد تقدم وقتك، وقد تقدم علمك، وقد تقدم حياتك، والجود بالنفس أقصى غاية الجودِ، وكلِ إنسان لم يقدم شيئاً فهذا أشقى الأشقياء، لأنه جاء إلى الدنيا ليقدِّم فلما نسي أن يقدم خسر الآخرة وخسر الحياة الأبدية في جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

الإيمان درجات :

ملخَّص الملخص أنت مخلوقٌ لجنة لك فيها ما تشاء، فيها من كل الثمرات، فيها حورٌ عين، وأنهارٌ من كل الأنواع؛ من لبنٍ لم يتغير طعمه، ومن عسلٍ مصفًّى، ومن خمرٍ لذةٍ للشاربين، ومن ماءٍ غير آسن، وفيها ولدانٌ مخلَّدون، وفيها نظرةٌ إلى وجه الله الكريم، وفيها رضوانٌ من الله أكبر، هذه الجنة إلى أبد الآبدين؛ لا مرض، ولا قلق، ولا حزن، ولا جوع، ولا انتكاسة شيخوخة، ولا شيء مُزْعِج، خُلقت لهذه الجنة.

إلا أن هذا العطاء الكبير يحتاج إلى ثمن تدفعه في الدنيا، الثمن أن تقرض الله قرضاً حسناً، أيْ أن تعمل عملاً صالحاً مع عباده، الإيمان درجات، فهناك إنسان طبَّق منهج الله وفعل بعض الصالحات

وهذا ناجي، وهناك إنسان تفلَّت من منهج الله وأساء للخلق فهذا هالك في الدنيا والآخرة، لكن هناك طبقة أولى؛ هؤلاء السابقون السابقون، هؤلاء الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله، وقتهم كله لله، ومالُهم كله لله، وعلمهم كله لله، وذكرهم كله لله، وكل أفعالهم وأحوالهم، وإقامتهم وسفرهم، وعطائهم وأخذهم، وصلتهم وقطعهم، وغضبهم ورضاهم في سبيل الله، هؤلاء لهم الطبقة الأولى، فهناك سابقٌ في الخيرات، وهناك مقتصد، وهناك ظالمٌ لنفسه..

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ*فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ*وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ*فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ*وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ*فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ*وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ*إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ*فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

[سورة الواقعة: 88-96]

إن صحَّت عقيدة الإنسان تحرَّك في الدنيا حركةً صحيحة :

هذه الحقيقة كليَّة أيها الأخوة، حقيقة أساسية جداً في حياة الإنسان، لأنك من بني البشر فأنت مخلوقٌ لجنة الآخرة، جئت إلى الدنيا من أجل أن تعمل لها، أن تدفع ثمنها، فأكبر خسارة هو أن تخسر جنة الله، وهي ليست خسارة مقتصرة على خسران الجنة فقط، ولكن لا بد من عذاب النار، "فو الذي نفس محمدٍ بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار "، لا يوجد حالة ثالثة، من هنا قدَّم الله الموت على الحياة:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

أيها الأخوة... إن صحَّت عقيدة الإنسان تحرَّك في الدنيا حركةً صحيحة، نقلته إلى الجنة، كأنْ يذهب أحدهم إلى بلد ليأتي بالدكتوراه، ولتكن باريس، ولتكن مدينة لندن، فهذه المدينة مغرية جداً؛ فيها مسارح وملاهٍ، ودور سينما، وحدائق، ومتاحف، وأماكن طبيعية جميلة جداً، وفيها جامعة، فأنت حينما تأتي إلى هذا البلد من أجل أن تنال الدكتوراه، لك هدف واحد هو نيل هذه الشهادة، الآن كل شيء في هذا البلد يقربك من هذا الهدف، تأخذ به، وقفت أمام مكتبة، فوجدت قاموساً، أنت بحاجةٍ إليه، فاشتريته، ووجدت شخصاً سبقك إلى هذا البلد قبل سنتين ولغته قوية جداً، فتمنيت أن ترافقه كي تتعلَّم من لغته، هذه تقربك من الهدف، هذا مثل، الآن توجد دار لهو، هذه تبعدك عن الهدف، ولذلك تركتها، فأنت أمام مليون خيار، أي إن عرفت لماذا أنت هنا في الدنيا؟ إن عرفت الهدف من وجودك، أي شيء تعرضه على الهدف، فإن كان في خدمته أخذت به، وإن كان يبعدك عن هدفك تركته، وهذه هي فلسفة الحياة.

الحياة الآن مغرية جداً، فمن الممكن أن يشتري الإنسان جهازاً مستقبلاً حديثاً جداً، فيه ثلاثمئة وخمسون محطَّة، لا يوجد عنده ملل أبداً، إذا أراد أن يمر على عُشر هذه القنوات الفضائية في

المساء أخذه الوقت إلى الساعة الواحدة أو الثانية ليلاً ـ مثلاً ـ وهناك محطات، وأخبار، ومجلات، ومَعارض، ونُزهات، وفنادق، وملاعب، ومباريات، وسهرات حارة، وملاعب كُرَة، الحياة ممتلئة، وأنت كإنسان عاقل لماذا أنت في الدنيا؟ كما سألنا طالب في فرنسا: لماذا أنت في باريس؟ من أجل الدكتوراه، عندك مليون خيار، كل خيار جزئي تعرضه على الهدف الكبير، إن كان يخدمه آخذ به، وإن كان يتناقض معه أدعه، هناك خطة واضحة في ذهن المؤمن، أنا هنا من أجل أن أصل إلى الآخرة، إلى الجنة..

ما كلّ ذكيٍ بعاقل :

لو فرضنا دخلت إلى مسجد فيه درس تفسير، فهذا يقربني من معرفة الله عزَّ وجل، هناك درس حديث، ودرس سيرة، ودرس فقه، وجدت كتاب آيات كونية عن عظمة الله، كذلك هذا يقرِّبني، وجدت صديقاً لك إيمانه عالٍ، وأخلاقه عالية جداً، ومنضبط، وملتزم، مصاحبة هذا الإنسان تفيدني، فكل شيء، كل خيار يوضع أمامك ـ وما أكثر الخيارات الآن ـ تعرضها على هدفك الكبير، فإن كانت في خدمته أخذت بها، وإن تناقضت معه ركلتها بقدمك والمؤمن ـ بالتعبير الدارج في برأسه موَّال ـ وفي ذهنه هدف كبير؛ هو أن يصل إلى الجنة، الجنة التي تحتاج إلى علم، واستقامة، وعمل صالح، وتريد صحبة، وجماعة مؤمنة تعيش معها، ويعطونك حماساً، ويقوونك، ويرفعون معنويَّاتك، وتأنس بهم، تحتاج مجتمعاً مسلماً، تختار أصدقاء مؤمنين، فمادام هدفك واضح تنتقي من الوسائل ما يخدم هذا الهدف، وتركل بقدمك من الخيارات ما يتناقض مع هذا الهدف، هذا هو العقل..

ما كل ذكيٍ بعاقل "، قد يصل الإنسان إلى أعلى درجة في الاختصاص، وهو ذكي جداً باختصاصه، وماهر جداً في تجارته وصناعته، ولكنه ما عرف هدفه في الدنيا، فهو ليس عند الله بعاقل، هو ذكيٌ، وليس بعاقل:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[سورة القلم : 2]

فالإنسان الذي يعيش في بلاد إسلامية هناك هدف أمامه، وهناك وسائل، أما الإنسان الذي يعيش في بلاد الغرب فهو إنسان بلا هدف، الدنيا كل همه، ومبلغ علمه، وشهوتُه إلهه:

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان: 43]

شهوته إلهه، ومعبوده الدِرْهَم والدينار، وأمله الدنيا.

المؤمن هدفه رضوان الله والجنة :

التقيت ذات مرة مع شخص أجنبي، بعدما انتهى العمل بيننا أردت أن ألفت نظره إلى الدين؛ فما إن ذكرت الكون، وخالق الكون، ومنهج الله، حتى قال لي: هذه الموضوعات لا ألتفت إليها إطلاقاً، ولا أعنى بها، ولا أصغي لها، ولا أعبأ بها ـ ذكر مجموعة مُرادفات ـ أشياء ثلاثة تعنيني في الدنيا؛ امرأةٌ جميلة، وبيتٌ واسع، ومركبةٌ فارهة، فقطع عليّ الطريق:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة الأنفال: 23]

هذه النقطة الدقيقة في الدرس، أنت لماذا وجدت في الدنيا؟ كأن نسأل طالباً في باريس: لماذا أنت في هذه المدينة؟ تركت أهلك، تركت أباك وأمك، وتنام وحدك، وتعمل وتدرس، فلماذا أنت هنا؟ هنا من أجل نيل الدكتوراه، ففي باريس، أو لندن، أو بأي مدينة أخرى مليار خيار، بإمكانه أن يمضي الليل بملهى، أو بنادي، أو بمسرح، أو بمتحف، أو ببيته وراء التلفاز، بإمكانه يمضي الليل في ألف خيار، ولكنه جاء إلى هذه البلدة من أجل الدكتوراه، لا يوجد عنده غير خيار واحد، هو أن يدرس، يشتري قاموساً، يصاحب طالباً لُغته قوية جداً، يشتري مجلة علمية من اختصاصه، يحضر ندوة، يحضر محاضرة، يجلس مع الأستاذ الجامعي، قد يزوره في بيته، أنا آتي لك بمئة نشاط، ولكن كل هذه الأنشطة في خدمة هدف واحد هو نيل الدكتوراه.

كذلك المؤمن في الدنيا؛ يتاجر، يتزوج، يؤسس مثلاً معهداً، يؤسس عملاً، أو مصنعاً، فهدفه أن يجمع مالاً ينفقه في سبيل الله، وهدفه أن يجمع مالاً يوظّفه في الحق إذا كان تاجراً، وإذا اختار العلم هدفه أن يتعلم علماً متيناً يقوي المسلمين، فالمؤمن هدفه الجنة، هدفه رضوان الله والجنة، فلذلك أمام مليار خيار، ويختار من هذه الخيارات ما يوظف لهدفه الكبير، ويركل بقدمه من هذه الخيارات ما يتناقض مع هدفه. فالمؤمن أشياء يقبلها، وأشياء أخرى يرفضها بإصرارٍ عجيب، وقد تكون أشياء مغرية جداً، لكنه يضعها تحت قدمه، لأنها تتناقض مع هدفه، وقد تُعْرَض عليه الدنيا من أوسع أبوابها، وقد يعرض عليه مالٌ كبير، أو مكانةٌ عالية، يركلها بقدمه لأنها تتناقض مع الجنة ومع رضوان الله، وقد يبذل جهد جهيداً، وقد يعمل بالتعتيم، وقد يعمل جندياً مجهولاً لأنه يرضي الله عزَّ وجل.

المؤمن يقيِّم كل شيء تقييماً في ضوء الآخرة :

النقطة الدقيقة التي أحرص على توضيحها: إنك إن عرفت سر وجودك، وغاية وجودك، فالآن تقيّم أي شيء في الدنيا تقييماً في ضوء الهدف، فإن كان في خدمته أخذت به، وإن تناقض مع الهدف ركلته بقدمك، فلديك سياسة واضحة تسير عليها، وهناك منظومة قيَم، فكل شيء يقيَّم تقييماً في

ضوء الآخرة، وكل شيء قرَّبك إلى الله أخذت به، وكل شيء أبعدك عن الله أعرضت عنه، أيْ قد تُعْرِض عن قراءة كتاب، كتاب فارغ مثلاً (الإلياذة والأوديسَّا) لهمُرس، قصيدة قالها شاعر إغريقي، وكلها آلهة، ليس لك علاقة بها، هناك إنسان يشتري مجلة فيقرأها كلها، وقتك ثمين، اقرأ المقالة التي تعنيك، أما قصة تافهة ثمانمئة صفحة.

جذب نظري هؤلاء الأجانب، في الطائرات يقرؤون، في المطارات يقرؤون، كل واحد معه كتاب ثمانمئة صفحة، شيء عجيب؛ رحلة تستغرق عشر ساعات وهو يقرأ، أنا لم أدرِ ماذا يقرؤون؟ ثم تبيَّن لي أنهم يقرؤون قصصاً، هم مغرمون بقراءة القصص! فإذا كان فيها مغزى ثمين، فهو كملعقة سكر محلولة بوعاء فيه عشرين متراً مكعباً، فمن أجل أن تدخل هذه الملعقة إلى جوفك يجب أن تشرب عشرين متراً مكعباً، هذه القصة مُمَيَّعة بحوادث، وتفصيلات، وشخصيات، وحوارات، وبداية وعقدة، ونهاية وحل، الوقت ثمين جداً.

فالمؤمن إذا عرف هدفه، وعرف سرَّ وجوده، وغاية وجوده اختار من الدنيا، واختار من الأصدقاء ما يقرِّبه إلى الله، لا تصاحب إلا مؤمناً، رفيق تافه، حديثه عن الدنيا، شهواني، وَقِح، مزاحه جنسي، لا أصاحبه أبداً، ولا أسمعه، ولا أضيع وقتي معه ولا دقيقة، أنا أجلس مع إنسان أزداد منه علماً وقرباً من الله عزَّ وجل، أختار الأصدقاء المؤمنين في ضوء الهدف، وفي ضوء الهدف اختار حرفة فيها نفع للمسلمين، لا أختار حرفة تهدم البيوت، ولكنها رائجة جداً، فثمة حرف تهدم البيوت؛ إشاعة الفساد في البيوت، وتأجير أفلام رابحة كثيراً، وإنشاء مقصف وملهى، والناس يأتون زُرافات ووحداناً يدفعون بغير حساب، ولكن هذا على حساب القيَم، رقص، وغناء، وخمر، فعندما تعرف هدفك تركل بقدمك مئة مليار ولا تندم عليها، وتسعى إلى مئة ليرة من حلال، هذه تخدُم هدفك، فأنت تختار حرفة مناسبة، وأصدقاء مُناسبين، وتختار زوجة مؤمنة ذات دين، وتؤثرها على ذات الجمال لأنه إن لم تفعل تربت يداك:

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

الصحابة فعلوا أفعالاً مُذْهلة في سبيل الله :

إذا آمنت بالآخرة وأنك مخلوق للجنة يكون زواجك إسلامياً، عملك إسلامياً، أصدقاؤك مؤمنين، حتى لهْوَك لا يوجد عندك لهو منحرف، ولا عندك حفلة مختلطة مثلاً، يمكن أن تجلس مع إخوانك يكون هناك مزاح بريء، وقد يكون هناك طعام، وود، وسرور، حتى وقت اللهو الذي أباحه النبي لك هو وقت لهو مشروع، فأنت تمشي على منظومة قيَم، وهذه النقطة الدقيقة التي إذا عُرِف الهدف قيَّمت الوسائل كلها لخدمة الهدف، فكل وسيلةٍ في خدمة الهدف آخذ بها، وأية وسيلةٍ تتناقض مع الهدف أركلها بقدمي. إذاً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)

وقته رخيص في سبيل الله، وماله رخيص. **" يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله."** فالصحابة فعلوا أفعال مُذْهلة، عندما قال ربنا عزَّ وجل:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران : 92]

أحد الصحابة انتقى أجمل بستان ووهبه لله عزَّ وجل، كان النبي يحب هذا البُستان، فيه نبع ماء، وفيه أشجار وارفة، انتقى أجمل شيء، هو ماذا فعل؟ اشترى الآخرة، أو اشترى جنة الله عزَّ وجل.

هناك قصة أرويها كثيراً، ولكن من المناسب الآن أن أرويها مرة ثانية: آذن ورث أرضاً، فجاء من يشتريها ليجعلها مسجداً، الذي اشتراها مليونير، فلما عَلِمَ هذا الآذن المستخدم الذي معاشه أربعة آلاف ليرة، وهو قد تملَّك من الإرث أرضاً ثمنها أربعة ملايين، أو ثلاثة ملايين ونصف، فلما علِم أنها ستكون مسجداً مزَّق الصك، وقال للمشتري: أنا أحقُّ منك أن أقدِّمها لله، صار له قصر في الجنة، الأعمال الصالحة دقيقة جداً ومحفوظة.

إن صحَّت عقيدتنا صحّ سلوكنا :

نحن إن صحَّت عقيدتنا صحّ سلوكنا، وصرنا نتحرك على منظومة قيَم، فهذا معنى بيع النفس، أي باع وقته لله، لا يوجد عنده كلمة أنا مشغول، لا يوجد لدي وقت، تجد الشخص يسترخي ساعات طويلة، يجلس جلسة فيها كلام فارغ، وقد يلتقي لقاء فيه معاص كثيرة، قد يغتاب المسلمين، أما إذا دُعي إلى حضور درس علم يقول: والله إنّني مشغول فاعذرني، درس علم ساعة لا يقبل، أما أربع أو خمس ساعات في مجلس غيبة، ونميمة، واختلاط يقبله، لأن هدفه واضح، فهدفه الدنيا والمُتعة، أما درس علم لا يوجد فيه شيء، فهو ناشف بالنسبة له، بل يريد جلسة أخرى فيها شيء من المتعة الرخيصة.

نحن نريد أن نؤكّد في هذه الآية أنك إذا عرفت سر وجودك وغاية وجودك قيَّمت كل ما حولك، وكل من حولك؛ قيمت الأموال، والأصدقاء، والبيوت، قد ترفض بيتاً لا يناسب مكانتك الدينية، قد ترفض عملاً لا يناسب اتجاهك الديني، أو امرأةً تتزوجها إلا أن تكون طائعةً لله عزَّ وجل، فأنت عندما تؤمن بالله، وتعمل للآخرة، صار عندك منهج واضح، وخطة واضحة، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)

بالمناسبة: هناك أعمال جيّدة ولكنها ليست ابتغاء مرضاة الله، فأهم شيء في العمل أن يكون وفق سنة رسول الله، وأن يكون خالصاً لله.

لخَّص هذا الإمام الفُضَيْل بن عياض فقال: **" العمل لا يُقْبَل إلا إذا كان خالصاً وصواباً ".** خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، وأن أعمل صالحاً ترضاه".

إذاً من أجل ماذا يتعلم الإنسان الفقه؟ من أجل أن يعبد الله بما تعلَّم، بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، فأنت تتعلم الفقه كي تقف عند حدود الله، وألا تتعدَّى عليها.

طبعاً هذه (مِن) للتبعيض، ما كل الناس كذلك، لكن بعضهم، هؤلاء السابقون السابقون، هؤلاء المتفوقون، هؤلاء الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله..

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأنعام: 162]

كل أعمال المؤمن خالصة لوجه الله :

كل أعمال المؤمن خالصة لوجه الله، حتى أعماله الدنيوية المَحْضَة هي عند الله عبادات، لأنه نوى بها التقوي على طاعة الله، والتقرب بها إلى الله عزَّ وجل، أما المنافقون فحتى عباداتهم هي عاداتٌ لا ترقى بهم عند الله عزَّ وجل.

المعنى الثاني: سيدنا خُبَيْب بن عدي وقع أسيراً في مكة، واشتراه من أراد أن يقتله ثأراً، فلما وُضِعَ ليصلب، سأله أبو سفيان فقال: أتحب أن تكون في أهلك معافىً، ويكون النبي مكانك؟ عليه الصلاة والسلام. فقال قولاً يقشعر منه الجلد، قال: " والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي ـ أي مع زوجته وأولاده قاعداً في بيته ـ وعندي عافية الدنيا ونعيمها ـ بيت مُدَقَّأ، الخزان ممتلئ بالوقود، المؤونة كاملة، البراد مملوء، وباقة أزهار، وتكييف بالصيف، وتدفئة بالشتاء، ولا يوجد أيّ نقصٍ في البيت ـ وأن يصاب رسول الله بشوكة ". فقال أبو سفيان: " ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً "، هذا باع نفسه.

امرأة أنصاريةٌ بلغها أن النبي قد قُتِل في أحد، فانطلقت إلى ساحة المعركة، فإذا أبوها مقتول، لم تعبأ بذلك، فإذا ابنها مقتول، لم تعبأ بذلك، تقول: ما فعل رسول الله؟ فإذا أخوها مقتول، فإذا زوجها مقتول، أبوها، وزوجها، وابنها، وأخوها في ساحة المعركة قد استشهدوا، وتقول: ما فعل رسول الله؟ فلما رأته بعينها، واطمأنت على حياته قالت: **" يا رسول الله كل مصيبة بعدك جَلَل ".**

رجل أسلم مع رسول الله، وشارك في غزوة من غزوات النبي، فانتصر النبي، ووزِّعت الغنائم على الجنود، أصابته الغنيمة. قال: ما هذه؟ قالوا: هي غنيمةٌ لك. قال: أنا ما على هذا أسلمت، أنا أسلمت على الذبح، أنا أسلمت من أجل أن أقتل في سبيل الله، واستشهد في معركةٍ أخرى، فبلغ النبي ذلك فبكى عليه الصلاة والسلام، فلما عرف قصَّته قال: " هو هو؟ " فقالوا: هو هو، باع نفسه في سبيل الله..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)

لكن..

(وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

إن عرفت الهدف اخترت الوسيلة وأعرضت عن كل وسيلةٍ مضادَّة :

تصور بدلة اشتريتها بأعلى ثمن بعد أول مرة لبستها، هل تخلعها؟ مستحيل، أما إذا دفعوا لك ثمنها مئة مليون وكان ثمنها خمسين ألفاً هل تخلعها؟ تخلعها، فهذا الجسم بدلة، فالذي مات في ساحة المعركة شهيداً، تخلَّى عن البدلة فقط، الله عزَّ وجل قال:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: 169]

في أحاديث عن الشهيد كثيرة جداً، لأن الشهادة شيء لا يصدق، أيْ أنك ضحيت بحياتك..

(وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

يعطيك عطاءً مذهلاً، **"من شغله ذكري عن مسألتي ـ ليس الاستشهاد، إذا الإنسان انشغل بذكر الله عن سؤاله ـ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ".**

أيها الأخوة الكرام... هذه الآية مهمة جداً في حياتنا، إن عرفت الهدف، اخترت الوسيلة، وأعرضت عن كل وسيلةٍ مضادَّة، كل شيءٍ يبعدك عن هدفك إن عرفت سرّ وُجودك أعرضت عن كل شيء، فأنت مخلوقٌ لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، وفي الكون حقيقةٌ واحدة هي الله، أيُّ شيءٍ قرَّبك إليه خذ به، وأيّ شيءٍ أبعدك عنه فتخلّ عنه..

(وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

أي إذا كنت كريماً هو أكرم:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

حدثني أخ مقيم في الجبل قال: فررت بديني في أيام المِحَن التي أصابت تركيا في أيام أتاتورك، فررت بديني وأولادي، فقال لي: أكرمني الله إكراماً منقطع النظير، لا يوجد إنسان يدع شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، والله هو الفعَّال، فإذا اختار الإنسان مرضاة الله تأتيه الدنيا وهي راغمة.

" من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".

نكتفي بفكرة واحدة في هذا الدرس هي: أن تعرف الهدف، وأن تختار الوسائل الفعَّالة التي توصلك إليه، وصار عندك رؤية صحيحة، واختيار صحيح، تختار الزوجة، تختار العمل، والأصدقاء، والحركة، وكل حركتك في رضوان الله عزَّ وجل.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى ننتقل للآيات التالية.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (70- 95):تفسير الآية 208، السلم هو الإسلام
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-12-31

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى أراد من الإسلام أن يكون سلماً لأنه من أسلم فهو في سلام :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس السبعين من دروس سورة البقرة ومع الآية الثامنة بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

أيها الأخوة الكرام: يخاطب الله الذين آمنوا به، آمنوا بكماله ووحدانيته، وآمنوا بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، وبعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته " ادخلوا في السلم كافة"، فالأصل أن تؤمن بالله، فإن أمنت به الآن اتبع أمره، ما هو أمره؟ ادخلوا في السلم "، السلم هو الإسلام، لمَ سمي هنا السلم؟ لأنك إن أطعت الله عز وجل كنت في سلام مع الله، لا تنتظر من الله إلا كل إكرام، فيجعل الله لك نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة، وإذا كنت مطيعاً لله فأنت معه في سلام، لأن المعاصي والآثام هي سبب كل المصائب والآلام، فإذا كنت مع الله في سلام، فأنت في حصنٍ حصين، وأنت في سلام، إن أطعته فأنت في سلام، وإن أطعت الله عز وجل كنت في سلام مع نفسك، والسلم هنا هو السلام أي أنت في سلام مع نفسك، لأن النفس جبلت على طاعة الله والقرب منه، إن أطعت الله عز وجل ارتاحت نفسك وأراحتك، وإن عصيت الله أتعبتها وأتعبتك، أكثر الأمراض النفسية والعقد هي بسبب خروج الإنسان عن فطرته، إذاً أراد الله من الإسلام أن يكون سلماً، لأنك إن أسلمت حقيقة أنت في سلام مع الله، وفي سلام مع نفسك، ومع من حولك، فالمطيع يحبه كل من حوله، لأنه وقاف عند حقوقه، لا يأخذ ما ليس له، ووقاف عند حقوق الآخرين، فالإنسان المسلم يحبه كل من حوله ويتمنى القرب منه، ويثني عليه كل من حوله ويحاول أن يخدمه، لأنه أخذ ما له وترك ما ليس له، هذا هو الحد الأدنى: العدل والإحسان، المؤمن محسن، والإحسان يجلب القلب، "يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها"، فالنقطة الدقيقة هي أن الإنسان حينما يستقيم على أمر الله يعيش حالة السلم أي حالة السلام مع كل المخلوقات.

إذا كنت مع الله كنت في وئام وانسجام مع بقية المخلوقات :

الشجرة مثلا تسبح الله عز وجل، لقول الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)

[سورة الإسراء: 44].

هي مسبحة لله، إذا كنت أنت مع الله كنت في سلام معها، كان عليه الصلاة والسلام يخطب من على المنبر، ويضع يده على جذع النخلة إكراماً لها، في سلام مع المخلوقات، أعرف حجراً في مكة كان يسلم علي وأسلم عليه، حتى الجمادات نفوس، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

[سورة الإسراء: 44].

قال النبي عليه الصلاة والسلام: يا حنظلة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم، أي عندما يكون الإنسان مع الله عز وجل ينشأ عنده حالة شفافية، كأنه يحس بمشاعر الحيوانات، يحس بشعور النبات، في سلام مع النبات، مع الحيوان، والجماد، وفي سلام مع نفسه، وجيرانه، وأقربائه حتى مع عدوه، فهناك منهج يحكمه، لا يوجد تطاول، ولا عدوان، هناك حرب شريفة، ليس فيها تنكيل، ولا تمثيل، ليس فيها كيل الصاع عشرة، يعني الله عز وجل لحكمة أرادها سمى الإسلام سلماً، بمطلق معاني هذه الكلمة، سلم مع الله، والنفس، والأهل، والأولاد، والجيران، والمؤمنين، والناس كافة، والمخلوقات، والجماد، والنبات، والحيوان، المخلوقات غير المكلفة مسبحة لله عز وجل، فإذا كنت مع الله أنت كنت صديقاً لها، أما المؤمن حينما يموت تبكي عليه السماء والأرض، بينما الكافر فما بكت عليهم السماء والأرض، معنى السماء نفوس لها مشاعر، والأرض نفوس لها مشاعر، فإذا كنت مع الله كنت في وئام وانسجام مع بقية المخلوقات، هذه الوحدة، لأنك متناغم مع كل المخلوقات، فلا يوجد لك عدو، كلها مخلوقات مسبحة لله عز وجل، وأنت مع الله، إذاً هناك انسجام، فالمؤمن صديق النبات، وصديق الحيوان، فإذا قتله ليأكله لا يعذبه، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، ويرح ذبيحته، ما قيل النبي عليه الصلاة والسلام أن تذبح شاة أمام أختها، قال له هلاّ حجبتها عن أختها! أتريد أن تميتها مرتين؟ القضية دقيقة جداً.

الكافر متفلّت كالدابة أما المؤمن فمنضبط :

سمى الله عز وجل الإسلام سلماً، أنت حينما تنصاع لله عز وجل ترتاح نفسك وتريحك، يرتاح من حولك ويريحونك، اسأل زوجة كان زوجها شارداً، ثم تاب إلى الله، تجده قد انقلب 180 درجة، وصارت أخلاقه أرضية، عنده رحمة، وصار منطقياً، وواقعياً، وأصبح يحترمني، ويريحني، وقد كان وحشاً، كان في خصومات مع زوجته، فصار في سلم معها، عندما يصطلح التاجر مع الله عز

وجل يحبه كل من حوله، كان أنانياً، ووصولياً، ومادياً، وكان يكذب، ويحتال ليربح، وقد أصبح الآن يأخذ ما له ويدع ما ليس له، لا توجد كلمة أروع لتعبر عن الإسلام من كلمة السلم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً)

كن مسلماً، هل يمكن أنْ تعذب سمكة، لا يمكن، الآن اصطدتها لا بد أن تجب جنوبُها ترتاح، بعدئذٍ تنزع أحشاءها، شاهدت مرة إنساناً يذبح دجاجة، وبعد أن ذبحها مباشرة غمسها في ماء يغلي لينزع ريشها بسهولة، وهي لا تزال حية! هذا عدو للدجاج، وللحيوان، وللطبيعة، وما يجري من تلويث للطبيعة فالكفر سبب هذه البيئة الملوثة، هناك رغبة جامحة لتجميع أموال الأرض كلها، إذاً قضية النمو والصناعة هذه كلها على حساب نقاء الجو، وعندما صار غاز الفحم بكميات أكبر مما ينبغي ارتفعت الحرارة، وتبدلت خطوط المطر، وحدَثَ تبدل جذري في المناخ الآن، ويمكن أن تلاحظوا شيئاً غير طبيعي؛ رياح عاتية اجتاحت أوربا، سرعتها عالية جداً، ناقلة نفط شطرتها شطرين في استنبول في البوسفور، أشجار عملاقة اقتلعت من جذورها صور الدمار الذي أصاب أوربا بسبب هذه الرياح العاتية يفوق حد الخيال، أمطار في فنزويلا قتلت مئة ألف إنسان، وشردت مئتي ألف، ومدن بأكبرها غمرت بالأوحال في فنزويلا، هنا جفاف منقطع النظير، فقد بلغتْ درجة الحرارة عشرين درجة في أيام الشتاء القارس! في أيام الثلوج، والأمطار، البرد، المدافئ، والمعاطف، جو ربيع، وجو صيف، وهناك تخريب للبيئة، لأن الإنسان لوث البيئة بصناعته، حتى الفضاء الخارجي ملوث بهذه الإرساليات التي تملأ الفضاء الخارجي، الجو ملوث، هناك من يقول: إن الجو العام بسبب هذه الشحنات الكهرطيسية صار الجو غير سليم، فقضية ادخلوا في السلم أي الإسلام، أنت إن أسلمت فأنت في سلم، مع كل الأطراف،

وجمال الحياة أن تكون على وئام وود مع كل من حولك، شجرة تقطعها بلا سبب فتلعنك، وإنسان يبول في أصل شجرة تلعنه الشجرة، لأن أصلها ليس مكاناً للبول مثلاً، فالكافر متفلّت كالدابة، يلعنه كل شيء، ويحتقره كل شيء، لأنه يؤذي كل شيء، أما المؤمن إذا مشى مَشى متواضعاً، لا يدوس على نملة، ولا على مخلوق يسبح الله عز وجل، ولا يشوه نباتاً، ولا يقطع نباتاً من دون سبب وجيه.

الكون متناغم ومسير وكله مسبح لله عز وجل :

الذي أريد أن أقوله عندما قال ربنا عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً)

أي ادخلوا في الإسلام الذي هو سلم مطلق، سلم مع كل الجهات، فالكون متناغم، الكون مسير، وكله مسبح لله عز وجل، فأنت حينما تسلم أنت تتناغم مع الكون، وكأنك صرت لبنة في بناء شامخ، وليس لغماً مهدماً، فمن يضع لبنة في بناء ليُتمِّمْهُ ليس كمن يضع قنبلة تفجر من حوله، الكافر قنبلة مدمرة، حتى في صناعته، حتى في قضية إنتاج الكهرباء من الذرة صار هناك تلوث إشعاعي، إنه شي مخيف، كل شيء يأتينا من بلاد حدث فيها انفجار ببعض المحطات النووية ملوث، فالحليب ملوث، والخضار، والفواكه، ولحم الدجاج، والخرفان، تلوثاً إشعاعياً يسبب السرطان، فالكافر أفسد الحياة الدنيا إذ أفسد الأجواء، وشوه طبيعية الإنسان، وأفسد نقاء الإنسان والأطفال، السلم يعني سلاماً، وكما قلت قبل قليل بدءاً من الله سلام مع الله، وسلام مع الذات، ومع الأهل، والأولاد، والجيران، والمؤمنين، والخلق، والناس كلهم، والحيوانات، والأطيار، والأسماك، والنبات، والجماد، له في كل موقف حكم شرعي مثلاً: ما حكم صياد يمارس هواية الصيد؟ قتل مئات الطيور، ثم ألقاها في الطريق؟ أناس كثيرون يذهبون إلى البادية في أيام الصيد يصطادون هواية، وهذا الذي اصطادوه لا يأكلونه، بل يلقونه في الطريق، ماذا يقول؟ يأتي هذا الطائر يوم القيامة وله دوي تحت العرش، يقول: يا رب سله لم قتلني؟ المؤمن قد يصطاد طائراً ليأكله في سفر، وهو مضطر أن يأكله، فحينما يصطاد الطائر ويؤكل، صار الطائر له عمل، قدم لك خدمة، أنقذك من الموت، أما قتلته وألقيته في الطريق، هذا الذي أريد أن يكون واضحاً لديكم "ادخلوا في السلم" ادخلوا في الإسلام، أي إنّك إن طبقت كلامه فأنت في سلام مع الله، تشعر أن الله معك، لا توجد مفاجأة، ولا مرض عضال، ولا دمار، ولا قهر، ولا فقر مدقع، ولا فضائح، الله معك، يحفظك، لأنك أنت معه فهو معك، كن مع الله تر الله معك، عندما تكون أباً مسلماً، تكون محسناً لأولادك، ينعكس إحسانك لهم محبة منهم لك، تجد أولاد الأب المسلم يحبونه حباً جماً، والزوج المسلم تحبه زوجته، لأنه وقاف عند كتاب الله، إن أحبها أكرمها، وإن لم يحبها لم يظلمها، وموظف مسلم يحبه كل من حوله، لا يستكبر عليهم بل يعاملهم بالود والرحمة والإحسان أينما ذهب، وتاجر مسلم يبيع بضاعة جيدة بسعر معقول، لا يغش الناس، لا يحتال عليهم، فأينما حل المسلم هناك من يحبه، ويلتف حوله،

ويقدره، ويمحضه الود والإخلاص، دخل في السلم معناها انظر إلى المؤمن ليس له عدو تقريباً، ما دام مطبقاً للشرع فكل الناس يحبونه.

ينبغي أن تكون كلك ضمن الإسلام :

(ادخلوا في السلم)

هناك نقطة في كلمة

(في)

(في)

تعني الظرفية، نقول: الماء في الكوب، أي أنّ الماء كله في الكوب، والكوب ظرف، استوعب المظروف، إذا قال الله عز وجل:

(ادخلوا في)

أي يجب أن تدخل كلك في الإسلام، ليس أن تؤدي عبادات شعائرية بالمسجد، بل أن تدخل أنت وتجارتك، وزواجك، وتطليق زوجتك، وأفراحك، وأتراحك، وسفرك، وإقامتك، أنت ككيان بكل حركاتك، وسكناتك، ونشاطاتك، وجوانب شخصيتك ضمن الإسلام، لا يوجد لك نزاعات نافرة، ولا أشياء خارجة عن الإسلام، ولا أفكار غير صحيحة وشاذة، ليس لك سلوك شاذ، ولا تصرفات شاذة:

(ادخلوا في)

يعني أدخلنا هذا الماء بالكأس، فاستوعب الكأسُ الماءَ كله، ولا ماء خارج الكأس، فكلمة "في " تعني شيئا في شيء. الطلاب في الصف، يعني جميع الطلاب في قاعة الصف. الأخوة الكرام في المسجد، كلهم في المسجد، أي استوعبهم المسجد.

إذا أنت دخلت في الإسلام يعني طبقت فيه العبادات الشعائرية، والعبادات التعاملية، وطبقت عملك وفق الإسلام، وتجارتك، هذه

(ادخلوا في)

أما إنسان ربعه ضمن الإسلام، وثلاثة أرباعه خارج الإسلام، وسفره غير إسلامي، وبيته، وعمله، ودخله، وإنفاقه، واستثماره للمال غير إسلامي، يقول لك: والله يا أخي هذا الفندق يعطي أرباحاً طائلة، فندق خمسة نجوم، كله معاص وآثام، طبعاً هناك أرباح طائلة، أنت جزء من مالك مستثمر بطريق غير مشروع مثلاً، فأنت لست بكلك في الإسلام، ما أدخلت الإسلام كلك، ثمة قسم لم يدخل في الإسلام، فجزء من دخلك غير إسلامي، جزء من لهوك غير إسلامي، جزء من علاقاتك الاجتماعية غير إسلامي، أي أنت ما دخلت كلك في الإسلام، بل بقي بعضك خارج الإسلام، أما الآية:

(ادخلوا في السلم)

كلك ضمن الإسلام، بتفكيرك، وبعقيدتك، وبلهوك، ومرحك، بجدك، وحزنك، وفرحك، وتجارتك، وإقامتك، وسفرك، وعلاقاتك، وعطاءك، ومنعك، وصلتك، وقطيعتك، وغضبك، ورضاك، كلك للإسلام، تطبق منهج الله عز وجل، هذا معنى

(ادخلوا في السلم)

السلم الظرف وأنت مظروف، الظرف يجب أن يستوعب المظروف، فأنت ينبغي أن تكون كلك ضمن الإسلام.

النقطة الدقيقة أيها الأخوة، أن الله عز وجل سمى الإسلام سلماً، وليس هناك أجمل من حالة السلم فأنت مرتاح، إذا كان شركة فيها مشاكسة فالحياة فيها جحيم، أما مثلاً إذا كان فيها ود، وتفاهم، وتسامح، وتكافئ، تجد منها راحة نفسية، أجمل بيتٍ بيتُ المسلم، الشرع مطبق فيه، الزوجة لها حقوق وعليها واجبات، والزوج كذلك، والابن له منهج، هذا معنى قول الله عز وجل:

(ادخلوا في السلم)

أي إنّك ضمن المنهج في بيتك، وعملك، ولهوك، وفرحك.

كلمة (كافة) لها معنيان :

أما النقطة الدقيقة جداً هنا كلمة

(كافة)

ولتوضيح المعنى أورد هذا المثل: لو كان عندك هاتف، ولك خمسون صديقاً لا يملك أيٌّ منهم هاتفاً، فما قيمة هاتفك؟ لم يعد له قيمة إطلاقاً، أما قيمة هاتفك إذا كان عند كل أصدقائك هواتف، أنت صادق، والكل يكذبون، هم انتفعوا بصدقك، وأنت لحقك ضرر بكذبهم، هذا يحدث دائماً، المؤمن صادق، وسبيله الصدق، وعنده حسن ظن، كل من حولك يكذب عليك، أما هو فيصدق معهم جميعاً، الثمرة المرجوة لم تتحقق، لأنهم ما دخلوا في السلم كافة، بل دخل واحد واثنان، والبقية كذابون، أنت لا تغش، أنت مخلص، والبقية يغشون، فأنت ضاعت ميزتك مع فيضان الغش في المجتمع، ما ظهر الدين، الآن مشكلة الدين أنه ما ظهر، والأكثرية يكذبون ويغشون ويحتالون وينافقون، فالصادق المخلص الجريء الواضح لا يظهر، أما لو طبق الكل الإسلام، تجد له روعة ما بعدها روعة، الكل صادقون، والكل أمناء.

قدم أحد الأخوة إلى بيتي ليدهن البيت، تركت البيت كما هو، وذهب الأهل إلى بيت أهلهم، استغرب الجيران، ذلك لأنّهم ما عرفوا أنّ المؤمن مؤتمن على الروح، الإنسان المؤمن ترتاح معه، لا تخشى منه أنه يغدر بك، أو يسرق منك، أو يغشك، التعامل مع المؤمن مريح جداً.

1 ـ تعود (كافة) على المؤمنين :

النقطة الدقيقة أنه إذا توسع الإسلام وانتشر فإنّ ثماره تظهر الآن على مستوى مسجد، كل الأخوة صادقون، لا يكذبون، ولا يغشون، أعفة مثلاً، تجد أنّ لقاءاتهم ممتعة، فهناك سعادة وثقة مريحة جداً، حتى في التعامل التجاري الأمر مريح، لا يوجد كذب، ولا احتيال، ولا غش، ولا غدر، ولا قنص، أما الآن فالناس كل واحد لغم لا تدري متى ينفجر فيحطم من حولـه، أما المؤمن فهو مسالم، يعيش ثلاثين سنة لا يشكو منه أحد، وليس له قضية في مخفر إطلاقاً، يعرف حدوده، وقاف عند كتاب الله، يعلم ما له، وما عليه.

هذه أول نقطة

(ادخلوا في السلم كافة)

تعود كافة على المؤمنين.

2 ـ تعود (كافة) على الإسلام :

هناك معنى ثان

(ادخلوا في السلم كافة)

تعود على الإسلام، أي خذوه بأكمله، لا تأخذوا بعضه، إذا أخذتم بعضه وتركتم بعضه الآخر لم تقطفوا ثماره، فالإسلام منهج كامل، فيه عبادات شعائرية، صوم وصلاة وحج وزكاة، وفيه عبادات تعاملية، وآداب، وعقائد، فأنت يجب أن تدخل في الإسلام كله، بعقائده، فلا يوجد عندك بالعقائد خلل، تصورات غير صحيحة، أفكار غير صحيحة عن الآخرة، تتهم الله في عدله وأنت لا تشعر، تتهم النبي في كماله وأنت لا تشعر، أما إذا دخلت في الإسلام عقيدة، وعبادة، وتعاملاً، وأخلاقاً، وتفوقاً، أي دخلت في الإسلام كله

(ادخلوا في السلم كافة)

يعني جميعاً ادخلوا وطبقوا أحكامه جميعاً.

سبب انتظام المجتمع الإسلامي أن الله عز وجل هو المشرِّع :

النقطة الدقيقة هي أن الإنسان حينما يشرع يُشرِّع لمصلحته، فكل مشرع منتفع بتشريعه، أردنا أن نعيّن تعويضات، فمن يضع لنفسه التشريع رقمها فلكي، أما تعويضات الطبقة الدنيا فرقمها رمزي، أي مبلغ بسيط جداً، لأن المشرع وضع لنفسه أكبر مبلغ، لا يجوز أن يشرع من ينتفع بتشريعه، فتنشأ منازعة، يقول لك فلان شرع وأنا مثله، يجب ألا أنفذ كلامه، أو أن احتال عليه، فأكثر مشكلات البشر أن المشرِّع بشر، والمشرَّع له بشر، وقد يكون أذكى من المشرع، تنشأ منازعات،

لأن المشرع منتفع بتشريعه، أما إذا كان التشريع من عند الخالق انتهى الأمر، الكل ينصاع، سبب انتظام المجتمع الإسلامي لأن الله عز وجل هو المشرع، والله وحده فوق الخلق في التشريع، نحن مشرَّع عليه، يعطي الله البنت نصف الذكر، لا أحد يعترض، أما لو كان قانوناً لاعترض الناس. ما دام خالق الكون قال:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

[سورة النساء: 11].

الذكر يقبل والأنثى تقبل، المشرع خالق الكون أعطى توجيها معيناً، منع شيئاً وسمح بشيء، لا وصية لوارث، انتهى الأمر، فليس هناك وصية لوارث، هذا التشريع ليس أرضياً، وليس من بني البشر، المشرع هو الله عز وجل، إذاً أسباب المنازعات بين البشر سبب العناد بين الأشخاص اختلاف الأهواء، لأنّ الأهواء متناقضة، والأشخاص أقوياء وضعفاء، فصاحب الهوى الأقوى ينتصر ويذل الآخرين، تكاد تكون أكثر مشكلات الأرض تقريباً من تنازع الأهواء، أما المجتمع الإسلامي المشرع هو الله، فكل الخلق يخضعون لهذا التشريع، ويحدث انسجام، أي عندما يكون المبدأ كبيراً من عند خالق الكون يكون المتبعون لهذا المبدأ على رضى، وعلى سرور، وعلى طاعة تامة، لأن طاعتهم لهذا المبدأ ليس قهراً لهم.

أما أن يقهرك إنسان مثلك بأمر، يمنعك من شيء وأنت مثلك مثله لا تحتمل، تنشأ منازعة، أما أن يمنع الخالق هذا الشيء فإنّ تقبله برضى تام، أوضح مثل الصيام، يعني لو أن إنساناً شرع الصيام، أو دولة شرعت الصيام، كم إنساناً يصوم صياماً حقيقياً؟ ولا واحد، يدخل البيت يشرب، طبعاً بالطريق لا يشرب، ولا بمكان العمل، لأنه مراقب، يشرب بالبيت، أما عندما يشرع الله الصيام يكاد الواحد يموت عطشاً، وهو بالبيت وحده، والماء بارد كالزلال، ولا يشرب نقطة ماء، فعندما يشرع الله فالكل يخضع، يطبق التشريع بحذافيره، وبتفاصيله، وبدقائقه، إذاً النقطة الحساسة أنّه يجب أن يكون المشرع غير منتفع بتشريعه، من الذي لا ينتفع بالتشريع؟ هو الله وحده، فالمشرع هو الله، نحن يشرع لنا، وإذا علمنا أن المشرع هو الله عز وجل نخضع له جميعاً دون أن نتنازع، مشكلات الأرض في التنازع، والتنازع تضاد للأهواء، تنازع الأهواء أنّ الإنسان لن يخضع لإنسان آخر إلا إذا رآه أقوى منه، إذ يخضع له مقهوراً، أما الإنسان حينما يؤمن بالله عز وجل يخضع له طائعاً، فالحياة لا تصلح إلا بتشريع سماوي، وهذا التشريع تنتفي عنه الأهواء والمصالح، وهو عدل، لأن الله هو العادل.

من أطاع الله عز وجل فهو في سلام مع نفسه :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

وقفنا وقفة عند

(يا أيها الذين آمنوا)

وقفنا وقفة عند

(ادخلوا في)

معنى

(في)

أي يجب أن تدخل كلك في هذا الإسلام، بكل كيانك، وكل نشاطاتك، وحركاتك، وسكناتك، وأوقاتك، وأمكنتك

(ادخلوا في السلم كافة)

هذه بمعنى في، أما

(السلم)

فتعني الإسلام، الإنسان حينما يسلم فهو في سلام مع الله، لأنه في طاعته.

(مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ)

[سورة النساء: 174]

هو في سلام مع أهله لأنه عرف ما له وما عليه، وقف عند حدود الله عز وجل فأحبه أهله، وهو في سلام مع من حوله، فمع أقربائه، وأمه، وأبيه، وأولاده، وجيرانه، وكل الخلق هو في سلام، حتى الملائكة تحبه، حتى مع الجماد يبكي عليه.

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)

[سورة الدخان: 29].

حتى السماء تبكي عليه حينما يموت، والجماد يتبارك بمشي الإنسان فوقه، إذاً السلم هنا هو الإسلام، أنت حينما تطيع الله في سلام مع نفسك أول شيء، أهم شيء نفسك التي جبلت على طاعة الله، وهي مصممة أن تطيع الله، فإن أطعت الله عز وجل كنت في سلام معها، والآية اليوم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (71- 95):تفسير الآيات 208-212، أهمية العبادات التعاملية في الدعوة إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-01-14

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام منهج كامل في كلّ مناحي الحياة :

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الواحد والسبعين من دروس سورة البقرة، ومع الآية التاسعة بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

والتي قبلها

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الدخول

(في السلم)

يعني الدخول في الإسلام، لأن الإسلام وحي الله إلى الأرض، وهو منهج الله عز وجل، فلو طبقناه لكنا في سلام، في سلام مع أنفسنا، ومع أهلنا، وأولادنا، ومن حولنا، ومن فوقنا، ومن دوننا، وفي دنيانا وآخرتنا، فتطبيق منهج الله يعني السلامة، وقد سمى الله الإسلام سلاماً لأن الإنسان فطر على معرفة الله وطاعته، فإذا عرف طاعته استقرت نفسه، واطمأن قلبه، وارتاحت جوارحه، وسعد في الدنيا والآخرة، أما كلمة

(كافة)

الإسلام منهج كامل، لا تقطف ثماره إلا إذا أخذته كله، أما أن تنتقي منه ما يعجبك، وتدع ما لا تقدر عليه، فهذا ليس من الإسلام في شيء، فأنت لا تأخذ ثماره إطلاقاً. الإسلام منهج كامل، كامل في كل مناحي الحياة، والذين فهموا الإسلام عبادات شعائرية فقط انحرفوا انحرافاً خطيراً في فهم الدين، والإسلام هو الحياة، والفطرة، والعقل، والواقع، والحاضر، والمستقبل، وهو النفس، والجسد، والروح، إنه منهج كامل ينظم علاقتك بمن حولك، وينظمها بربك جل جلاله، فأنت في سلم وسلام، ولذلك في قلب المؤمن من السعادة والطمأنينة ما لو وزعت على أهل بلدٍ لكفتهم

وهذا الملك الذي كان ملكاً ثم ترك الملك وصار عارفاً بالله واسمه إبراهيم بن الأدهم، قال: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف.

ثمار الإسلام لا تقطف إلا في مجتمع مسلم :

إذاً: ادخلوا جميعاً في السلم من أجل أن تقطفوا ثمار هذا الدين، تصور مسجداً متواضعاً فيه أناس طيبون، صادقون، أمناء، مخلصون، متقنون، فإذا عشتَ مع هؤلاء فكأنك في جنة، لا يوجد مشكلة، تنام مطمئناً، مرتاح البال، لا أحد يكذب عليك، ولا أحد يطعنك من الظهر، لا يحتال عليك، لا ينافق لك، إذا عشت في مجتمع مؤمن فأنت في جنة، ولا نقطف ثمار هذا الدين إلا إذا دخلنا جميعاً في هذا الإسلام، أما إنسان صادق بين الكاذبين، ينتفعون بصدقه، ويؤذيه كذبهم، أو إنسان أمين بين الخونة، ينتفعون بأمانته، ويؤذيه خيانتهم، وإنسان عفيف بين المنحرفين، ولا يمكن قطف ثمار الإسلام إلا في مجتمع مسلم، وهذا معنى قوله تعالى

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة النور: 31]

غض البصر: إذا كنت في مجتمع ملتزم، كامل، ونساؤه كلهن محجبات، تعيش مرتاحاً، فالطالب في دراسته، والعامل في معمله، والتاجر في متجره، أما حينما تعرض المرأة كل مفاتنها في الطريق على من يعرفها، ومن لا يعرفها، ومن تحل له، ومن لا تحل له، فإنّ الحياة تفسد. فإذاً المعنى الدقيق في هذه الآية، وأنا أود أن أركز عليه، نحن مكلفون أن نطبق الإسلام شئنا أم أبينا، فهذا تكليف الله عز وجل، ولكننا لا نستطيع أن نقطف ثماره اليانعة إلا إذا طبقناه جميعاً، وكلنا صادقون، وأمناء، وأعفاء، ومتقنون، وجادون، وأصحاب همة عالية، وعندئذٍ يكون هذا الإسلام المطبق أبلغ من كل قول يقوله الدعاة، وأذكركم بمقالة مهمة؛ هي أن العالم الغربي الذي نحرص على هدايته، لا يمكن أن يهتدي بالكلام، ولا بالمؤلفات، ولا بالأشرطة، ولا بالمحاضرات، ولا بالمؤتمرات، هذا العالم لا يقيم الإسلام تقييماً صحيحاً إلا إذا رأى مجتمعاً مسلماً حقاً، فيه كل ثمار هذا الدين، أما إذا رأى فكراً، أو كلاماً، أو خطابةً، أو كتاباً، أو شيئاً لا يتصل بالواقع، يبقى الإسلام محاصراً، ويبقى ضعيفاً، والذي أتمنى أن يكون واضحاً لديكم، العبرة ألاّ ينفرد الباطل بالساحة، وأن يكون هناك حيز للمؤمنين في ساحة الحياة الدنيا، ولو كان صغيراً، تدخل إلى المسجد فكلهم يصدقون، ولا يخونون، ولا يحتالون، ولا ينافقون، إنّ مسجداً صغيراً طبق فيه الدين خيرٌ من ألف محاضرة تلقى على الناس، لأن الناس يتعلمون بعيونهم، ولا يتعلمون بآذانهم، ولغة العمل أبلغ من لغة القول، فأنت حينما تطبق الدين تكون أكبر داعية وأنت صامت، وهذا معنى قول النبي الكريم استقيموا يستقم بكم.

على كلّ واحد منا أن يكون داعية إلى الله وهذا فرض عين :

الذي أقرأه من حين إلى آخر عن أناس عظماء دخلوا في الدين لا لأنهم قرؤوا كتاباً فأقنعهم، ولا لأنهم استمعوا إلى محاضرة فتأثروا بها، بل دخلوا في الدين لأنهم رأوا مسلماً أمامهم يتمثل كل قيم الإسلام، فرأوا مسلماً صادقاً، ومسلماً أميناً، ومسلماً واضحاً صريحاً، فأنت حينما تطبق تعاليم الدين تصبح أكبر داعية وأنت ساكت، غض البصر مثلاً دعوة إلى الله

كنا في الحج فرأينا رجلاً من ألمانيا يطوف حول الكعبة، سألنا عنه، فكان الجواب أن سبب إسلامه طالب من سورية، سكن عنده في البيت، وكان عنده فتاة جميلة، فتمنى صاحب البيت أن يضبط هذا الشاب وهو ينظر إلى ابنته، إنّ غض بصر الشاب الحازم جعل هذا الإنسان صاحب البيت يتساءل: ما هذا الدين الذي يعتنقه؟ وما هذه الإرادة القوية الحديدية التي يملكها؟ كيف انتصر على نفسه؟ وعلى شهوته

أيها الأخوة: أقول لكم مرات ومرات، استقيموا يستقم بكم، ينبغي أن يكون كل واحد منكم داعية إلى الله، وهذا فرض عين.

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

فإن لم تكن داعية إلى الله فلست متبعاً لرسول الله

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1 - 3]

التواصي بالحق، والدعوة إلى الله على بصيرة هو الحد الأدنى من صفات المؤمن، وهو فرض عيني في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، وصدق أن أعظم شيء تفعله أن تكون مطبقاً للدين، ووقافاً عند كتاب الله، ومتبعاً لسنة رسول الله، إنك حينها تدعو إلى الله عز وجل دون أن تشعر.

العبادات التعاملية هي التي ترسخ معالم هذا الدين :

الذي ينجذب الناس إليه ليست العبادات الشعائرية ولكن الناس ينجذبون إلى العبادات التعاملية، فلذلك:

(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة)

فالتأكيد على كلمة كافة، ثمار هذا الدين عظيمة جداً، فأناس ضعاف فقراء بعيدون عن الثقافة، جاءهم هذا الوحي من السماء، فكانوا يأكلون التمر، ويركبون ظهور الخيل، فحياتهم خشنة جداً، صحراء قاحلة، وعادات جاهلية، وانحراف خطير في الأخلاق، وانغماس في الخمور والربا، هؤلاء حينما اتبعوا النبي الأمي دانت لهم الأرض من شرقها إلى غربها، لقد كانوا رعاة للغنم فصاروا قادة

للأمم، لا لأنهم فهموا الدين فهماً مثالياً، بل لأنهم طبقوا الدين، والله الذي لا إله إلا هو لو فَهِمَ أصحاب النبي عليهم رضوان الله الإسلام كما نفهمه نحن، والله ما خرج من مكة المكرمة، ولكن لأنهم فهموا الدين عدلاً، وفهموه رحمةً، وحكمةً، وإنصافاً، وصدقاً، وأمانةً، ولذلك انتشر الإسلام في الخافقين

لمّا أرسل النبي عليه الصلاة والسلام أحد أصحابه وهو عبد الله بن رواحة ليقيِّم تمر خيبر، أراد اليهود إغراءه ببعض حلي نساءهم، فلعله يقلل قيمة تقدير تمورهم، فقال هذا الصحابي الجليل: واللهِ لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم عندي أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا، فإذا أردنا أن نكون قادةً للأمم يجب أن نكون مع الحق، والعدل، والصدق، وإنّ الذي نفعله من عبادات شعائرية لا يجذب الناس إلينا، أما العبادات التعاملية فهي التي ترسخ معالم هذا الدين:

(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة)

كلمة كافة تعني: أنه يجب أن ندخل جميعاً في الدين، من أجل أن نقطف ثماره، وعلينا أن نأخذ بفقرات الدين كلها واحدةً واحدة، كافةً تعني: مجموع الداخلين في الدين، وتعني مجوع بنود الدين:

(ادخلوا في السلم)

(في) تعني شيئاً ضمن شيء، أي إنك دخلت كلك في الدين، لم تدخل أعضاؤك وبقي قلبك، وما دخلت أعضاؤك وبقيت عيونك تخالف فيها منهج الله، ودخلت تجارتك في الدين وبقي بيتك، ودخل بيتك وبقيت تجارتك، فيجب أن تدخل جميعاً، بقضِّك وقضيضك، جسماً، وروحاً، ونفساً، وفكراً، وعقلاً، ووقتاً، وحرفةً، ولهواً، وفرحاً، وحزناً، أن تدخل في الدين جميعاً:

(ادخلوا في)

وسُمّي هذا الدين سلماً، لأنك إن دخلت فيه فأنت في السلم أبداً.

ربنا عز وجل بدأ الخلق بتجربة وضعها بين أيدينا :

قال تعالى

(مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

يا معاذ ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه، قال: ألاّ يعذبهم،

(ادخلوا في السلم)

لا يوجد أحد من بني البشر على الإطلاق إلا ويتمنى السلامة والسعادة، والسلامة والسعادة لا تكونان إلا في تطبيق تعاليم هذا الدين، وتطبيق تعليمات الصانع

(ادخلوا في السلم كافة)

ادخلوا جميعاً، وطبقوا جميع بنود الدين، هذا إن كنتم مؤمنين

(يا أيها الذين آمنوا)

يا من آمنتم بالله خالقاً، ورباً، ومسيراً، يا من آمنتم بأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، يا من آمنتم به موجوداً، وواحداً، وكاملاً، هو الكامل، وهو الواحد، وهو الأحد، وهو الفرد، وهو الصمد، وهو العليم، وهو القدير، وهو الحكيم، وهو الغني، وهو الودود، إن آمنت بأسمائه الحسنى فهذا منهجه

(ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين)

بدأ ربنا عز وجل الخلق بتجربة وضعها بين أيدينا، أن إبليس لعنه الله أراد أن يُخرج آدم وزوجته من الجنة:

(إنه لكم عدو مبين)

(ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان)

[سورة يس: 60]

حينما يتحرك الإنسان وفق وسوسة الشيطان فهو مع الشيطان، والشيطان بريء منه يوم القيامة

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ)

[سورة إبراهيم: 22]

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

[سورة البقرة: 208]

حينما يطيع الإنسان الشيطان لا يرضى إلا أن يضعه في الحضيض :

قال العلماء: الشيطان ذكي جدّاً فلا يأمرك بالكفر، ولكنه يأمرك بمخالفة بسيطة، فإن أطعته فيها أمرك بأكبر منها من وقت إلى آخر، حتى تجد نفسك أخيراً في الكبائر، ذكر لي أحدهم في سفرتي الأخيرة أن شاباً مسلماً يساكن فتاة دون عقد زواج مدني ولا ديني، أبداً، سئل ما تفعل؟ قال: إنّ الإسلام لم يحلّ لي مشكلتي هنا، وأنا بحاجة، إذاً تزوجها!! أجاب: هي لا تصلح لي زوجة، لقد نامت مع عشرات الرجال قبلي، وصل به الشيطان إلى أن يرتكب الزنى كل ليلة، دون أن يحسب حسباناً للحرام، فحينما يطيع الإنسان الشيطان لا يرضى إلا أن يضعه في الحضيض، فالشهوات كأنها صخرة مستقرة على رأس جبل، إن زحزحتها من مكانها لن تستقر إلى في قعر الوادي

(ولا تتبعوا خطوات الشيطان)

الزناة بدؤوا بنظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء، والذين شربوا الخمر بدؤوا بشربه بالمناسبات، ثم أصبحوا مدمنين على الخمر، فقضية الإنسان قضية ديناميكية بالتعبير الحديث، أي

أنّ كل طاعة تنقلك إلى طاعة أكبر، وكل معصية تنقلك إلى معصية أكبر، فالشيطان لو فرضنا بدأ بأكبر شيء، فدعا الإنسان إلى الكفر فوجد إيمانه قوياً، ثم دعاه إلى الشرك فوجده موحِّداً، ثم دعاه إلى البدع فوجده مطبقاً للسنة، فدعاه إلى الكبائر فوجده ورعاً، فإلى الصغائر فوجده متمسكاً، فدعاه إلى المباحات حتى يغرق فيها، فوجده زاهداً، فإلى التحريش بين المؤمنين، فهناك نقطة مهمة جداً، هناك معاصٍ لها وهج، ولها جذب، فمثل هذه المعاصي لستَ مكلَّفاً بالامتناع عنها فحسب، بل أن تمتنع عن أسبابها أيضاً، وهذا معنى قوله تعالى

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

اجعل بينك وبين الحد هامش أمان، غض البصر هامش الأمان فيه عدمُ صحبة الأراذل، وعدمُ الاختلاط، والانغماسُ في متع رخيصة، أما إذا تجاوزت هذا الحد فقد وقعت في المعصية، كمثل نهر عميق له شاطئ مائل زلق، وله شاطئ مستوٍ جاف، أنت إن وقفت على الشاطئ المائل الزلق وقعت في النهر، وإن وقفت على الشاطئ المستوي الجاف فأنت في أمنٍ وبحبوحة.

الشيطان يعدنا الفقر وخالق الكون يعدنا بمضاعفة الأجر :

(ولا تتبعوا خطوات الشيطان)

ولو سألت العصاة والمذنبين والذين انغمسوا إلى قمة رؤوسهم في المعاصي والآثام: كيف وصلتم إلى هنا؟ لقالوا: واللهِ بدأنا بكلمة، ونظرة، وفيلم، وصحبة، ورحلة، ولقاء، وانتهى اللقاء إلى زنى، وإلى شرب خمر، وإلى أكل المال الحرام، فحينما يراك الشيطان قد تهاونت في السنة طمع أن تترك الفرض، إن رآك تهاونت في غض البصر طمع أن تفعل بعد غض البصر شيئاً، كلما أطعته في معصية أمرك بأكبر منها، وهذا توجيه رب العالمين:

(ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكل عدو مبين)

خالق الكون ينصحنا، الشيطان عدو مبين فانظر إلى الخواطر، الشيطان مثلاً يخوفك مما سوى الله، مع أن الذي تعبده يحميك، ولو أن الذي تعبده لا يحميك لمَ تعبده، لا تستمع إلى تخويف الشيطان، فإنّ الشيطان يعدك الفقر، وخالق الكون يعدك بمضاعفة الأجر

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

((أنفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))

[السيوطي في الجامع الصغير]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

((يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ. وَقَالَ: يَمِينُ اللَّهِ مَلْأَى. وَقَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ: مَلْآنُ سَحَّاءُ لَا يَغِيضُهَا شَيْءٌ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

إنَّ الشيطان يعدك الفقر، ويزين لك المعصية، ويزهدك في الحلال، كم من إنسان منحرف يكره زوجته ويحب امرأة بالحرام، هذا من فعل الشيطان، الشيء الحلال المباح يكرهه، وهو زاهد فيه، والتي دون مستوى زوجته بكثير يطرب لها، ولكلامها، ولحركتها، ويزيِّن الشيطان له المعصية، ويزهده في الطاعة، احذر الشيطان في كسب المال، وفي العلاقة بالنساء، وفي كل شيء، وكلما رأيت إنساناً مثلاً مدمراً فقل: هذا من عمل الشيطان، وإنساناً غارقاً في المعاصي والآثام، وإنساناً دمر حياته الزوجية، وآخر أدمن القمار، والشرب، وكسب الحرام، فقل: هذا من عمل الشيطان

(إنه لكم عدو مبين)

الورع ملاك الدين :

قال تعالى:

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ*فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ)

قال العلماء: زل بمعنى زال، فهناك منهج، وهناك خط مستقيم أنت عليه فإذا خرجت عن هذا الخط بدأت المتاعب، ومادمت في طاعة الله فأنت في أمن، وبحبوحة، ورعاية الله، وحفظه، أما إذا انحرف الإنسان

(فإن زللتم)

يعني الآن الكواكب تدور بمسارات حول بعضها بعضاً

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

لو أن الأرض زالت عن مسارها لزالت وانتهت، لأن الأرض حينما تزول عن مسارها تصل إلى درجة الصفر المطلق، وفي هذه الدرجة تنعدم الحركة الذرية في الكواكب، ويموت كل ما عليها، فإذا زالت زال كل ما عليها، وهذا المثل الكوني مطبق على الإنسان، أنت إن انحرفت ذهب عنك كل الخير، ولذلك الورع ملاك الدين

((ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط))

[أبو نعيم عن أنس]

الورع ملاك الدين،

(فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات)

لا يوجد عذر

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنعام: 54]

(ثم تاب من بعده وأصلح)

أما إذا كان الإنسان يعلم كل شيء، فإنّ توبته تكون عسيرة جداً.

معنى كلمة (عزيز) :

قال تعالى

(فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم)

بعد البينات وبعد التوضيح وبعد البيان لا يوجد عذر، فالجاهل معذور، أما الذي طلب العلم، وعرف الحلال والحرام، فكيف يعذر عند الله عز وجل؟ ومع ذلك فالإنسان حينما يخطئ من له غير الله، وحينما تزل قدمه من له غير الله، أي يجب ألاّ تفكر إلا في التوبة، ومهما تكن الشروط والظروف فإنّ الله عز وجل عزيز حكيم، عزيز لا ينال جانبه، وليس من السهل أن تصل إليه، وقال العلماء: عزيز أي تشتد الحاجة إليه، ويندر مثله، ومن الصعب أن تصل إليه، فالله عزيز، عزيز أي ليس مثله شيء، إذا قلنا: شيء عزيز أي قليل، بضاعة نادرة، وإذا قلنا: هذه البضاعة عزيزة أي هي نادرة، وقليلة جداً، قد تبحث عنها طويلاً حتى تجدها، فإذا قلنا: الله عزيز أي ليس كمثله شيء، وتشتد الحاجة إليه، إذْ يحتاجه كل شيء في كل شيء

الشيء الثالث: ليس من السهل الوصول إليه، فالله عز وجل عزيز، وسلعته غالية، حتى يقبل عليك، وحتى يتجلى عليك، وحتى يملأ قلبك نوراً وإيماناً، وحتى يدافع عنك، وحتى يؤيدك بنصره، فأنت تحتاج إلى طاعته، وإلى أن تجاهد نفسك وهواك في سبيله، كلمة دكتوراه عزيزة، ويمكن لأيِّ إنسان مثلاً أنْ يشرب كأساً من الشراب في الطريق ثمنه خمس ليرات، أو عشر ليرات، أو خمسون ليرة، فهو مبذول لكل الناس، أما شهادة الدكتوراه فهي ليست مبذولة لكل الناس، تحتاج إلى ابتدائي، وإعدادي، وثانوي، وفرع بالجامعة، وتقدير جيد جداً، ودبلوم عامة، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه، وتأليف كتاب، وأخيراً مناقشة الأطروحة، يقول لك: أربعون سنة حتى نلت هذه الشهادة، هي شيء عزيز:

(فاعلموا أن الله عزيز حكيم)

عزيز ليس كمثله شيء، واحد، إذا كان الشيء عزيزاً أي قليلاً، لكنه متعدد، أما الله فعزيز واحد، تشتد الحاجة إليه، يحتاجه كل شيء في كل شيء، يصعب الوصول إليه إلا بالصدق.

من عاهد الله عز وجل يجب أن يكون عند حدود هذا العهد :

قال تعالى

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

[سورة العنكبوت: 69]

عندما تزل قدمك وتقول: غداً أتوب، وتزل، وتتوب بهذه البساطة!!! لا، الله عز وجل عزيز، أول توبة سهلة جداً، لمجرد أن تقول: يا رب، تبت إليك، يقول لك: عبدي، وأنا قد قبلت، ويزيح عنك هموماً كالجبال، أما كلما تبت إليه نقضت التوبة!! فالله عز وجل عزيز، فقد تجد الطريق مغلقاً، والباب مسدوداً، والإقبال عسيراً،

(فاعلموا أن الله عزيز حكيم)

يعني إن زللتم قبل أن تأتيكم البينات فالقضية سهلة جداً، وأما إن زللتم بعد أن جاءتكم البينات، فتوبة الذي يعلم أصعب من الذي لا يعلم، قال العلماء: لو أن الإنسان دخل في الدين في رمضان، ولم يعلم أن مقاربة الزوجة تنقض الصيام، فلا شيء عليه، ما دام هناك جهل فالقضية سهلة جداً، ولكن ترتكب المعصية بعد العلم، عندئذٍ صار الطريق إلى الله صعباً فالتوبة مع الجهل سهلة جداً، أما العائد إلى ذنبه كالمستهزئ بربه باستمرار، عندئذٍ فالله عزيز، وقد لا تجد إليه الطريق سالكاً، قد تجد عقبات وعقبات، هذا معنى كلمة:

(فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم)

وإذا تعامل الإنسان مع الله ينبغي له أن يعامله بإخلاص، وبصدق، وافتقار، ووفاء، قال تعالى

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 102]

أنت حينما تعاهد الله عز وجل فالشيء الرائع أن تكون عند حدود هذا العهد، أما حينما تعاهد وتنقض، وتعاهد وتنقض،

(فاعلموا أن الله عزيز حكيم)

ربما لا يسمح لك أن تقبل عليه، وقد يصرفك عن أهل الحق.

التوبة الثانية تحتاج لعمل صالح حتى يقبلها الله :

مثلاً: إنسان يحضر ويغيب، ويحضر ويغيب، ويؤثر أتفه سبب على درس العلم، إذا زاره إنسان ترك الدرس، وإذا كان جالساً مع زوجته ترك الدرس، يأتيه وقت ما لا يحضر الدرس، ويكون الله قد طرده،

(فاعلموا أن الله عزيز حكيم)

أتاك ضيف فاحضر وإياه، ما معنى قوله تعالى

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً)

[سورة السجدة: 16]

لا يركن للدنيا، وقاف عند كلام الله، مطبق للسنة، يلتزم دروس العلم، ويضبط شهوته، ويعرف أنه بعد المعرفة لو زلَّت قدمه لكانت المشكلة كبيرة، فعد للمليون قبل أن تقترف معصية وأنت تعلم، إن كنت لا تعلم فالقضية سهلة جداً، أما حينما تعلم فقد وقعت في مشكلة كبيرة، ومع ذلك لو زلت القدم ـ مع العلم أنْ ليس لنا غير الله عز وجل ـ فإني أقترح على الإنسان إذا كان يعلم وزلَّت قدمه أنه يحتاج إلى عمل صالح ليمحو السيئة،

لقول الله عز وجل

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

[سورة هود: 114]

إذاً إذا تاب الإنسان ثم عاد إلى ذنبه فإنّ التوبة الثانية أصبحت صعبة، فيحتاج أن يدعمها بعمل صالح، بإنفاق المال، وبصيام طويل، حتى تُرَمَّم نفسه، والإنسان حكيم نفسه، أجمل حالة يعيشها المؤمن أن يكون مع الله، وأن تكون العلاقة بالله عامرة.

الإنسان يمر في حياته بأربع مراحل :

يقول الله عز وجل

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

يقول الله عز وجل: يريدون أن يروا آيات صارخة بأم أعينهم، مع أن الكون كله آيات دالة على الله عز وجل، فهذا الذي لا يهتدي إلى الله بوضع الكون الراهن وما فيه من آيات عظيمة دالة على وجوده، وكماله، ووحدانيته، لن يستفيد بخرق قوانين الكون، والإنسان حينما يطلب معجزة، وتأتيه معجزة ولا ينتفع بها فقد قضي الأمر، أهلكه الله عز وجل لأنه آخر شيء، ذكرت مرة في خطبة أن الإنسان يمر في حياته بأربع مراحل:

1 ـ الدعوة البيانية :

أول مرحلة الدعوة البيانية، عن طريق الأنبياء، والمرسلين، والدعاة الصادقين، فأنت أمام كلام لطيف، كلام عميق وواضح ومعه أدلة، وهذا الكلام بيَّن لك سر وجودك، وغاية وجودك، فإذا لم يستجب الإنسان، قال تعالى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

2 ـ التأديب التربوي :

إذا لم يستجب، فقد دخل في مرحلة ثانية، دخل في التأديب التربوي، قال تعالى

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

3 ـ الإكرام الاستدراجي :

إن لم يرجع، فقد دخل في تربية ثالثة، دخل في الإكرام الاستدراجي، أي دعاك فلم تستجب، وشدَّد عليك فلم تتب، أكرمك فلم تشكر.

4 ـ القصم :

ماذا بقي؟ هذا الإنسان الذي لم يستفد لا بالدعوة البيانية، ولا بالتأديب التربوي، ولا بالإكرام الاستدراجي، يحسم أمره، فيُقصَم ظهرُه قصماً، القرآن واضح، وكل إنسان يسأل نفسه: أين أنا من هذه المراحل، إذا كنت في الدعوة البيانية فأنت رائع، والدعوة البيانية سهلة، كلام بكلام، تأديب ما فيه شيء مقنع استجيب، كلام الله واضح وضوح الشمس فطبِّقه، وسنة النبي واضحة وضوح الشمس فطبِّقها، لم تكن هناك استجابة إذ ضيق الله عليك الآن تب من هذا الذنب، لم تتب فبدلك الله مكان السيئة حسنة فاشكره، لا يستجيب بدعوة بيانية، ولا يتوب بتأديب تربوي، ولا يستحي من الله بإكرام استدراجي، بقي القصم، هذا معنى قوله تعالى

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)

[سورة الأنعام: 44]

لا تنتظر أن يأتيك الله عز وجل بالمعجزات لأنّ الكون كله معجزة، وإذا جاءت هذه المعجزات كما جاءت لعاد وثمود وقوم موسى فقد جاءت المعجزات كما أرادوا فلم يؤمنوا فقصمهم الله عز وجل، عندئذ قضي الأمر

(وإلى الله ترجع الأمور)

معنى تبديل النعمة :

أيها الأخوة، يقول الله عز وجل

(سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

الآيات من رحمة الله بنا، هناك آيات كونية، وآيات قرآنية وتكوينية، وهذه الآيات سبب معرفة الله عز وجل، ومعرفته سبب السعادة في الدنيا والآخرة، فإذا لم يعبأ الإنسان بهذه الآيات، ولم يفكر فيها، ولم يأخذ بها، فقد شقي في الدنيا والآخرة

(ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته)

لقد كانت نعمة كي يعرف الله بها فيطيعه، فيسعد في الدنيا والآخرة، ولكنه لم يعبأ بها، بل جعلها معطلة فشقي في الدنيا والآخرة، والآن أي نعمة، أعطاك الله نعمة البصر، فإن لم تستخدم هذه النعمة فيما أراد الله عز وجل فقد كفرتها، وأعطاك نعمة العقل، فإن لم تعمل العقل فيما أراد الله عز وجل فقد كفرت بنعمة العقل، ونعمة السمع فإن لم تصغ إلى الحق فقد كفرت بهذه النعمة، ونعمة الصحة فإن لم تستغلها في طاعة الله فقد كفرت بهذه النعمة، ونعمة الفراغ فإن لم تملأ الفراغ بما يرضي الله عز وجل فقد كفرت بهذه النعمة، ونعمة الأمن فإن لم تستخدم هذه النعمة في طاعة الله عز وجل فقد كفرت بهذه النعمة، وهذا معنى تبديل النعمة، أي أن تستخدمها لغير ما أراد الله عز وجل، وأعطاك طلاقة اللسان فهذه النعمة إن لم تستخدمها في ذكر الله فقد كفرت هذه النعمة

كل نعمة من نعم الله إن لم تستخدمها وفق ما أراد الله فقد كفرت به :

أيمكن لإنسان أنْ يشتري جهازاً معقداً جداً، كمبيوتر مثلاً ثمنه ثلاثون مليوناً، ثم يستخدمه منضدة؟ يكون حينئذ قد كفر به، فمثل هذا الجهاز لا يستخدم كمنضدة ثمنها ألفا ليرة أمام خمسة وثلاثين مليون ليرة!! أنت كفرت بهذه النعمة، أيستخدم إنسان أداة منزلية للتنظيف مصنوعة من الذهب الخالص؟ كفرت بنعمة الذهب الخالص، وكل نعمة من نعم الله عز وجل إن لم تستخدمها وفق ما أراد الله فقد كفرت بها، بل كفرت بالمنعم الذي أنعم الله عليك بهذه النعمة، والله عز وجل هدانا بالكون فلم نعبأ به، هدانا بالقرآن فلم نعبأ ولم نتدبر آياته، هدانا بأفعاله فلم نعتبر بها، بل أردناها أرضية، وهذا من الكفر بالنعمة

مثلاً النبي الكريم قال: "أصبح مؤمن بي وكافر"، ينقل عن ربه هذا الحديث، ذكرته في خطبة، فحينما أصابهم المطر من قال: أمطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن، ومن قال: أمطرنا بنوء كذا ونوء كذا فهو كافر، وإذا نسي رحمة الله عز وجل وعَدَّ المطر قضية أرضية تتحرك بقوانين عادية من دون مشيئة الله عز وجل، فهذا الذي يعزو هذه الأمطار التي أكرمنا الله بها إلى أشياء أرضية لا صلة لها بالخالق فقد كفر، وهذا معنى تبديل النعمة، أعطاك نعماً يجب أن تتحرك من خلالها وفق منهج الله عز وجل، ويجب أن تشكر الله عليها، إن استخدمت العقل لدحض الحق فقد كفرت بالله، وكفرت بنعمة العقل، وأعطاك طلاقة لسان، فإن استخدمت هذه الطلاقة لترويج الباطل والرد على أهل الحق فقد كفرت بهذه النعمة، وأعطاك فكراً دقيقاً، فإن استخدمته بالإيقاع بين الناس، وفي جمع الدرهم والدينار في طريق غير مشروع فقد كفرت بهذه النعمة، وأعطاك نعمة البصر، فإن تأملت

بها عورات المسلمين كفرت بهذه النعمة، وأعطاك نعمة السمع، فإن لم تستمع إلى الحق واستمعت إلى الباطل فقد كفرت بهذه النعمة، وهذا معنى تبديل النعمة:

(سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة)

وقد أعطاك نعمة الآيات الكونية الدالة على عظمته، ونعمة الآيات القرآنية الدالة على كلامه، ونعمة النظر في أفعاله، فلم تفعل ذلك، بل بدلت هذه النعم إلى نقم فإن الله شديد العقاب. ثم يقول الله عز وجل:

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

الدنيا تملأ أعينهم وهي منتهى آمالهم، ومحط رحالهم، وهي كل شيء في حياتهم

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

[سورة الروم: 7]

لذلك فالكفار زينت لهم الحياة الدنيا.

كن مع من يجانسك لا مع من يجالسك :

قال تعالى:

(وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

ولذلك قال الله تعالى

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[سورة القلم: 2]

أنت من أعقل العقلاء والمجنون من عصى الله عز وجل، فدَعْك مع الكتاب، ومع سنة رسول الله، ولا تعبأ بقول الآخرين، والأصح من ذلك ألّا تصاحب إلا مؤمناً، صاحب مؤمناً فقط، لأنك تحبه ويحبك، وتقدره ويقدرك، وتكبره ويكبرك، أما إن صاحبت شارداً عن الله عز وجل فأنت تحتفل به وهو يحتقرك

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان: 15]

كن مع من يجانسك لا مع من يجالسك، جالس من تجانس ولا تجالس من لا تجانس، لا تصاحب رجلاً لا يرى لك من الفضل مثلما ترى له، وكلما كنت مع المؤمنين كنت في سعادة وفي طيب

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

[سورة الإنسان: 27]

وفي درس آخر نتابع هذه الآيات

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (72- 95):تفسير الآيات 213-214، الاختلاف بين البشر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-01-21

بسم الله الرحمن الرحيم

محور الآية التالية موضوع الاختلاف بين البشر :

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثاني والسبعين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثالثة عشرة بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

أيها الأخوة الكرام: محور هذه الآية موضوع الاختلاف بين البشر، الواقع أن هناك اختلافات بين البشر لا تعد ولا تحصى، والناس اليوم مذاهب، واتجاهات وشيع، وملل، ونحل، وأعراق، وأقوام، وقبائل، وعشائر، فما سبب هذا الاختلاف بين الناس؟ ومتى يكون الاختلاف طبيعياً؟ ومتى يكون عدوانياً؟ ومتى يكون محموداً؟ الإجابة عن هذه الأسئلة في هذه الآية، وتمهيداً لهذه الآية لا بد من التنويه بأن الله جل جلاله جبل الناس جبلةً واحدة، وهذه الجبلة تعني أن طبعهم وهو أقرب إلى الجسد متناقض مع التكليف، وكلمة تكليف تعني أنه ذو كلفة، أيْ يحتاج إلى جهد، طبعاً الدراسة أصعب من عدم الدراسة، وأن تؤسس عملاً أصعب بكثير من أن تبقى بلا عمل، وكلمة تكليف تعني شيئاً يحتاج إلى جهد، ولحكمة بالغة بالغةٍ أرادها الله عز وجل كان التكليف متناقضاً مع الطبع، والطبع أقرب إلى الجسم، والتكليف متوافق مع الفطرة، والفطرة أقرب إلى النفس، فلك جسم، ولك نفس، ومعك تكليف، وهذا التكليف يتناقض مع خصائص الجسم.

التكليف يتناقض مع الطبع ولذلك كان ثمنه الجنة :

مثلا التكليف يأمرك أن تصلي الفجر في وقته، والإنسان في الشتاء غارق في نوم عميق، وعلى فراش وثير، وتحت لحاف دافئ، فهذا التكليف أن تصلي الفجر في وقته يتناقض مع حاجة الجسم إلى الاستمرار في النوم، والتكليف يأمرك أن تغض البصر عن امرأة حسناء، والطبع يقتضي أن تملأ عينيك من محاسنها، والتكليف يأمرك أن تنفق المال، وقد حبب المال إليك، والطبع يقتضي أن تأخذ المال لا أن تنفقه، بل أن تجمعه، والتكليف يأمرك أن تكف عن الخوض في قصص الآخرين، وفي فضائحهم، وفي سقطاتهم، أما الطبع فيقتضي أن تستمع، وأن تتابع قصص الآخرين، وأن

تكشف أسرار ما في البيوت، فالتكليف إذاً يتناقض مع الطبع، ولأنه يتناقض مع الطبع كان ثمنه الجنة.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 41]

لكن التكليف يتوافق مع الفطرة، فأنت حينما تصلي الفجر في وقته ثم تنام، وتستيقظ مرتاحاً إلى أقصى حدود الراحة، لأنك كنت عبداً طائعاً لله عز وجل، تنام بعد صلاة الفجر نوماً هنيئاً، وحينما تغض بصرك عن محارم الله وقد منعت نفسك من أن تملأ عينيك من محاسن امرأة لا تحل لك، وتشعر أن الله يحبك، وأنك في ظل الله، وحينما تنفق المال الذي أنت في أمس الحاجة إليه تشعر أنك آثرت رضاء الله على حظوظ نفسك فترقى، وحينما تضبط لسانك، وتسكت، مع أنك تتمنى أن تتكلم، وتشعر أن الله يحبك، فشتان بين أن تأخذ لذةً عابرةً منقطعةً تعقبها كآبة، وبين أن تسعد بقرب الله عز وجل، لأنك كنت عبداً مطيعاً، إذاً معنا تكليف، ولنا جسم، وفي ثنايا هذا الجسم نفس، والنفس متوافقة مع التكليف، والدليل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم: 30]

طبيعة النفس متوافقة تماماً مع خصائص ديننا :

كل خصائص النفس متوافقة مع التكليف حينما تصدق، وحينما تكون أميناً، وتعتز بالله، وتوحده، وتنصف وتقف موقفاً عادلاً، وترحم الآخرين، وتكون أباً كاملاً تشعر بسعادة لا توصف، لأن طبيعة النفس متوافقة تماماً مع خصائص هذا الدين، والذي أنزل هذا الكتاب هو الذي جبل هذه النفس، ولذلك يضيع الإنسان، ويشقى، ويتمزق، وتنشأ عنده صراعات إلى أن يصل إلى الله، فإذا وصل إليه كان أسعد الناس، وإذا وصل إليه سكنت نفسه، واطمأن قلبه، وصحت رؤيته، وسدد الله كلامه، ووفقه في الدنيا وفي الآخرة.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجد: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 36]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

[سورة الجاثية: 21]

معنى التكليف :

أيها الأخوة، كل هذا تمهيد لفكرة خطيرة، التكليف أن تتعاون، وأن تعمل ضمن فريق، وأن يكون المؤمنون يداً واحدة، وصفاً واحداً، كجسم إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، هذا هو التكليف.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة: 2]

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

[سورة آل عمران: 103]

التكليف أن نتعاون، وأن يتواضع بعضنا لبعض.

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء: 215]

((المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم..))

[رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو]

اقرأ الآيات والأحاديث تجد العجب العجاب، فالتكليف في الكتاب والسنة يأمرك أن تتعاون مع أخوانك، وأن تنكر ذاتك أمام مصلحة المسلمين، أيعقل أن يأتي كتاب لقائد جيش وهو في ساحة المعركة: ارجع جندياً، وكلف فلاناً بالقيادة، فيقبل الكتاب، ويبلغ هذا القائد الجديد ويرجع جندياً، من يفعل هذا؟ هذه لن تكون إلا في عالم المسلمين، أما في عالم آخر يستعصي هذا القائد وينشق، ويشكل خطراً على من عزله، أما المسلمون!

أذكر قصة من الصعب أن تصدق. بعد أن فتحت بلاد سمرقند نمي إلى أهلها أن فتحها لم يكن شرعياً، فذهب وفد خلسةً إلى مركز الخلافة في دمشق، والتقوا بسيدنا عمر بن عبد العزيز، وقد نعته المؤرخون بأنه خامس الخلفاء الراشدين، وذكروا له أن بلادهم فتحت على غير ما شرع الله عز وجل، الذي شرعه الله عز وجل أن يعرض على هؤلاء الإسلام، فإن أسلموا لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وانتهى الأمر، فإن لم يسلموا يعرض عليهم دفع الجزية، وهي بمثابة البدل النقدي، فإن أبوا قوتلوا، أما هم فقوتلوا مباشرةً، وفتحت بلادهم، واستولى المسلمون على أرضهم، وعندما علموا فيما بعد أن فتح بلادهم لم يكن شرعياً أرسلوا وفداً إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، فلما علم الأمر كتب قصاصة صغيرة إلى قائد المسلمين في سمرقند أن يخرج من سمرقند، وأن يعيد فتحها وفق ما شرعه الله عز وجل، وهذا الوفد ما صدَّق أن جيشاً بأكمله سينسحب لقصاصة، والذي حدث أنه حينما عرض على قائد الجيش هذه القصاصة قبلها، وأمر بالانسحاب، وعندئذٍ أسلموا، ولم يرضوا أن ينسحب جيش المسلمين .

الطبع فردي والتكليف جماعي :

أيها الأخوة، موضوع الدرس اليوم دقيق جداً، فأنت كمؤمن مكلف أن تتعاون وأن تعمل ضمن فريق، وأن تكون لبنة في بناء، وأن تكون حجراً في هرم، لا أن تكون شيئاً نافذاً شاذاً منحرفاً، وما يجري بين المسلمين اليوم من خلافات، وقتال، وخصومات، وحروب بقيت عشرين عاماً بين فصائل في أقصى بلاد الشرق، الحرب فيما بينهم وكلهم يرفعون شعارات واحدة، عشرون عاماً!! هذا الاختلاف بين المسلمين، وهذا القتال، لأنهم بعيدون جداً عن منهج الله عز وجل، فالتكليف يأمرهم أن يتعاونوا، وأن ينكروا ذاتهم، وأن يضع أحدهم خده لأخيه كي يدوس عليه، هذا هو التكليف، ولأنهم تفلتوا من طاعة الله فالطبع يقتضي الفردية، هنا الشاهد، الطبع فردي والتكليف جماعي، فأنت تتعاون مع إخوانك المؤمنين بقدر طاعتك لله، وتشاكسهم وتشذ عنهم وتكون عبئاً عليهم وتورث بينهم العداوة والبغضاء بقدر بعدك عن الله.

إذاً الحقيقة الأولى: التكليف يأمرك أن تكون اجتماعياً، متعاوناً، منكراً لذاتك، والطبع يقتضي أن تكون فردياً، إنه إنسان عدواني، شرير، يريد أن يحطم الناس ويبقى وحده، هذا نموذج ما يعانيه المسلمون اليوم، كلما ابتعدوا عن الله عز وجل كانوا فرديين، وآثروا مصالحهم الخاصة على مصلحة المسلمين، وكلما اقتربوا من الله عز وجل وأخلصوا له تعاونوا، والنبي عليه الصلاة والسلام وصف المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، والله عز وجل وصف المؤمنين أنهم كالبنيان المرصوص:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

[سورة الصف: 4]

هذا هو وصف الله عز وجل ووصف النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمؤمنين، هذا تمهيد لأنواع الاختلاف بين الناس، والآن الطبع فردي والتكليف جماعي، والطبع متعلق بمصالح الإنسان المادية والتكليف متعلق بمصالحه النفسية، فالتكليف متوافق مع الفطرة ومتناقض مع الطبع.

الأهواء تحطم والحق يجمع ويوحد :

قال تعالى:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)

أي سيدنا آدم والسيدة حواء وأولاده وهو نبي كريم، والتوجيه واحد، والتغذية واحدة، والمنبع واحد وهو الوحي، ولكن حينما نشأت المصالح والأهواء اختلفوا، فما الذي يجمعنا؟ الحق. ما الذي يفرقنا؟ الهوى، هذه قاعدة، الأهواء تفرق والحق يجمع، وعظمة الحق أنه من الله، أما حينما يأتيك التشريع من إنسان، وهو مرتب لمصلحته قد ترفضه، لأنه إنسان مثلك، شرع ومنعك، أما حينما يأتيك

التشريع من خالق الأكوان فإنك ترضى به، فالناس لا ينصاعون إلا لتشريع سماوي، أما التشريع الأرضي فهو في الأعم الأغلب لمصلحة من وضع هذا التشريع دائماً وأبداً، والذي يشرع تأتي المواد كلها لمصلحته، وقد تغفل مصالح الآخرين، ولذلك ما دام التشريع أرضياً فهناك حروب، وخصومات، ومذابح لا تنتهي إلى يوم القيامة، أما إذا كان التشريع علوياً من عند الله عز وجل فقد انتهى الأمر، فهذا كلام ربنا، حينما ينتفع المشرع بما شرع تنشأ خصومات لا تنتهي، إذا كان المشرِّع من بني البشر، وهو منتفع بما شرع، وحصل هناك خصام لوجود طرف آخر يرفض هذا التشريع، أما حينما يأتي التشريع من عند خالق الأرض والسماء ينصاع الناس:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)

وسيدنا آدم وزوجته وأولاده كانوا على منهج واحد، وعلى وحي وتوجيه واحد، فاتفقوا وتعاونوا، ولكنهم تفرَّقوا عندما دخل الهوى، والآن يجتمع أناس على عمل طيب، وعندما يدرُّ هذا العمل عليهم أرباحاً طائلة يختلفون، إذْ صار هناك مال، ومكاسب مادية، ويريد كلّ إنسان أن يأخذ أكبر حصة له ويتجاهل حق أخيه، فتنشأ الخلافات، وكم من شركة انهارت، وكم من مشروع رائع تحطم بسبب الأهواء، فالأهواء تحطم، والحق يجمع ويوحد، وهذه قاعدة أساسية.

المبادئ متكاملة أما المصالح فمتناقضة :

الحق يجمع والأهواء تفرق، والمبادئ تجمع والمصالح تفرق، والمبادئ متكاملة أما المصالح فمتناقضة:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ)

عندما اختلفوا، ودخلت الأهواء، أخذ الأنبياء يأتون تباعاً، وكلما جاء نبي وضح منهج الله عز وجل، وأمر الناس بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وحكم الشرع الذي هو من عند الله محل الأهواء التي هي من عند البشر:

(فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ)

لمن أطاعهم:

(وَمُنذِرِينَ)

لمن عصاهم:

(وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ)

فأنت آية بالغة التعقيد، ولك صانع حكيم، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة، فهذه الآلة لا تسلم ولا تؤتي مردوداً عالياً إلا بإتباع تعليمات الصانع، فربنا عز وجل كلما رأى عباده مزقتهم الأهواء، وانحازوا إلى مصالحهم، وأثمر هذا عداءً، وقتالاً، وخصومات، وعداوات، أرسل نبيّاً آخر مع منهج قويم، أمرهم ونهاهم، وبّشرهم وحذّرهم، وأعطاهم كتاباً افعل ولا تفعل،

(وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ)

إذا جاءت كلمة الكتاب في القرآن معرفة بأل دلَّت على مطلق منهج الله عز وجل، مطلق المنهج،

(بالحق)

هذا الكتاب بالحق، من عند الحق، ومن عند العدل الرحيم الحكيم، كتاب بالحق، أي لابَسَ نزوله الحق، هو من عند الحق، والحق في كل دقائقه وجزئياته.

ربنا عز وجل غني على أن ينتفع بالتشريع :

(ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)

اختلف الناس باختلاف أهوائهم ومصالحهم، فإذا جاء التشريع من عند خالق البشر ممن لا ينتفع بتشريعه رضي به الناس، عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

ربنا عز وجل غني على أن ينتفع بالتشريع، لكن الإنسان إذا شرع مفتقر إلى أن ينتفع بالتشريع، فإذا انتفع بالتشريع كان له خصوم يرفضون هذا التشريع، وإذا دققت وعمقت تجد أن كلَّ خلافات البشر في الأرض اختلاف مصالح، وأهواء، وتنازع، وثروات مما يشعل الحروب بينهم، فالحروب عند المسلمين حروب دعوة، وحروب نشر حق، وريادة أمم، أما الحروب الآن فهي مرة حروب نفط، ثم حروب ماء، ثم حروب قمح، أو حروب مناطق نفوذ، الحروب كلها من أجل المصالح والثروات والمكتسبات، وحروب أحياناً من أجل الإذلال والتدمير والإهلاك، فاختلفوا،

(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)

العدل يسع الجميع.

العدل يسع الجميع :

قاضٍ في العهد العباسي فيما أذكر طُرِق بابه، فسأل خادمه: مَن لدى الباب؟ فإذا بطبق من التمر، أو من الرطب في بواكيره، وكان هذا القاضي معروفاً بحبه هذا الرطب في بواكيره، فهو أكلٌ نفيس جداً، وفاكهة غالية، وبمستوى عالٍ جداً، في أوله، فسأل خادمه من قدم هذا الطبق يا بني؟ قال: رجل لدى الباب، قال: صفه لي، قال: صفته كيت وكيت، فعلم أنه أحد الخصوم، أو أحد المتداعيين، فرد الطبق، وبعد أيام طلب مقابلة الخليفة، وطلب منه أن يعفيه من منصب القضاء، قال: ولمَ؟ قال: والله جاءني غلامي قبل أيام بطبق من الرطب في بواكيره، وعلمت أنه من أحد المتخاصمين، وفي اليوم التالي تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم هذا الطبق، مع أني لم أقبله، فكيف لو قبلته؟ هذا العدل، فالعدل يسع الجميع:

(ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)

إذا كان التشريع إلهياً انصاع كل الناس له، وبالمناسبة لو أن واحداً يدّعي أنه مسلم وجئته بحكم شرعي قرآني، وتلكأت نفسه في قبوله فليس بمؤمن، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

أنت عبد والذي جاء بهذا الكتاب نبي كريم، وهذا الكتاب من عند خالق عظيم، فإذا وضعت أحكام الكتاب على بساط البحث والمناقشة فلست مؤمناً:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

[سورة النساء: 65]

أنواع الاختلاف :

لماذا يجتمع المسلمون؟ لأن إلههم واحد، وكتابهم واحد، ونبيهم واحد، ولأن التشريع الذي ينصاعون له ليس من عند أنفسهم بل من عند خالقهم، وهذا أحد أسباب وحدتهم، وحينما يدعون هذا التشريع فتركهم له أحد أسباب فرقتهم.

أحد الأصدقاء كلما ذهب إلى بلد غربي يسمعهم يطعنون في واقع المسلمين، وتخلفهم، وفقرهم، وخصوماتهم، وحروبهم الداخلية، قال لي: ضقت ذرعاً أينما أذهب، هؤلاء لا يرون الإسلام من

خلال الكتاب والسنة، بل من خلال واقع المسلمين، فقال لي: لقد صار عندي قناعة أن أقول لهم انظروا إلى واقعنا المتخلف، انظروا إلى فقرنا، وإلى الخصومات فيما بيننا، هذا كله بسبب تركنا لمنهج ربنا، فصار حجة معاكسة، والدليل على أن منهجنا صحيح أننا حين تركناه انظروا ماذا حل بنا؟!

1 ـ خلاف نقص المعلومات وهو طبيعي لا يُمدح ولا يذم :

الخلاف الأول خلاف اختلاف نقص المعلومات وهو طبيعي، في آية أخرى:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)

[سورة يونس: 19]

خلاف نقص المعلومات طبيعي، فلو فرضنا أنَّنا في يوم التاسع والعشرين من رمضان وسمعنا صوت مدفع، يا ترى أهو مدفع الإثبات أم هناك في الجبل صخرة تفجر من أجل شق طريق؟ صرنا في اختلاف، لماذا اختلفنا؟ لنقص المعلومات، فإذا استمعنا إلى أنه قد ثبت أن غداً أول أيام عيد الفطر انتهى الاختلاف إذْ توضحت المعلومات، فهناك اختلاف طبيعي جداً لا يمدح ولا يذم، هذا اختلاف نقص معلومات.

2 ـ اختلاف عدوان وبغي وأهواء ومصالح :

أما إذا جاء الحق هنا تكون المشكلة:

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران : 19]

البينات جاءت. المسلمون الآن لا تبتعدوا كثيراً؛ فالمسلمون معهم كتاب واحد من المشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، ومعهم سنة واحدة، ونبي واحد، مع ذلك فهم مختلفون، ملل ونحل، وطوائف ومذاهب، ونزعات واتجاهات، إلى درجة أنك تحار ما هذه الفرقة مع أن عوامل الوحدة بين أيدينا، لماذا يتعاون أعدائنا وبينهم قواسم مشتركة لا تزيد عن خمسة بالمئة، ولماذا نحن نتقاتل وبيننا قواسم مشتركة تزيد عن خمسة وتسعين بالمئة؟ إنه اختلاف أهواء، واختلاف مصالح:

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران : 19]

البغي هو العدوان، وحينما أريد أن آخذ ما ليس لي أعتدي، وحينما أريد العدوان أبحث في النصوص عن شيء يغطي عدواني، وحينما أريد أن آخذ ما ليس لي أنا معتدٍ، لأن الإنسان مثقف مفلسف بالأساس، فهو يبحث عن تبرير لعدوانه، ويختلق أنواع التبريرات، فالاختلاف الأول اختلاف حيادي، لا يمدح ولا يذم، اختلاف نقص المعلومات، أما الاختلاف الثاني فهو اختلاف

عدوان وبغي وأهواء ومصالح، ولذلك تجد أكثر الأديان مع أنها ذات نصوص واحدة اختلفت، وتشعبت، وتمزقت، ونشأت بينها العداوة والبغضاء، ثم الخصومات، ثم القتال، ثم سالت الدماء بينهم:

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران: 19]

بغياً أي عدواناً، بغى عليه أي اعتدى عليه:

(بغياً بينهم)

ولذلك استعيذوا بالله من اختلاف العدوان، واشكروا الله على اختلاف التنافس. وسيأتي بعد قليل اختلاف راقٍ جداً،

أنا قد أختلف معك، وكلانا يحبه الله عز وجل، قد أختلف معك لضعف المعلومات، وهذا اختلاف طبيعي، وقد أختلف معك بسبب عدواني، وهذا اختلاف قذر، واختلاف يبغضه الله عز وجل، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 2]

احملوا هموم المسلمين، وتعاونوا.

3 ـ اختلاف التنافس :

القسم الثالث:

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ)

إنسان وجد أن الدعوة إلى الله عز وجل هي أعظم الأعمال، وإنسان آخر وجد أن تأليف الكتب أطول أمداً، والدعوة الشفهية أعمق أثراً لكنها قصيرة تنتهي بموت الداعي، أما تأليف الكتاب فقد يكون الكتاب أضعف تأثيراً لكنه أطول أمداً، وإنسان آخر يتجه إلى بناء المساجد، وإنسان رابع أسّس المياتم، وإنسان خامس أسّس جمعية خيرية، وإنسان سادس أصدر كتباً إسلامية، فكل إنسان اجتهد أن يرضي الله بطريق التنافس، هذا شيء مقبول، مقبول منهم جميعاً، فما قيمة الدعاة من دون مسجد، فهذا الذي بنى المسجد، وهيّأ راحة المصلين فيه، إذْ هو دافئ في الشتاء بارد في الصيف، مفروش فرشاً نظيفاً، فيه مرافق عامة جيدة، هذا الذي عمل بيديه وبجهده وخبرته، واستخدم علمه بالهندسة ليوفر للمصلين مكاناً مريحاً، فهذا وصل إلى الله من خلال هندسته، والذي طلب العلم من وقت مبكر، وتعلم، ودرس في هذا المسجد هذا وصل إلى الله عن طريق التعليم، وهذا أمَّ الناس في الصلاة، وهذا ألّف كتاباً صار مرجعاً، أنا لا أنسى مرة عدت إلى آية في بعض التفاسير، وجعلتها محور خطبة، ولاقت عند الناس قبولاً طيباً جداً، وقد أثنى الناس جميعاً على هذه الخطبة، وأنا

اعتمدت في خطبتي على تفسير قديم، انتبهت إلى أن هذا المفسر مات قبل ألف عام، ولكن خيره مستمر، هو ماذا فعل؟ ترك تفسيراً رائعاً، ثم توفاه الله عز وجل، كل من قرأ هذا التفسير، واستفاد منه ونقل ما فيه للناس، في صفيحة المفسر الذي ألف هذا الكتاب، وقد تجد كتاباً في الحديث الشريف متداولاً بين المسلمين تداولاً عجيباً، ما من مسجد، وما من بيت، وما من معهد إلا وفيه هذا الكتاب، فالذي ألفه له نيات عالية جداً، فالله عز وجل جعل هذا الكتاب متداولاً بين كل المسلمين، إنسان يرى التأليف، وإنسان يرى الدعوة، وإنسان يرى الرد على الخصوم، وآخر يرى خدمة الآخرين، وإطعام الطعام، والعناية بالأيتام والأرامل، فهذا كله مقبول. الآن بالعلم هذا يرى أن علم العقيدة هو كل شيء، وعلم التوحيد أصل الدين، ويأتي إنسان يرى التفسير أهم شيء، أن تفسر هذا القرآن، ويأتي إنسان آخر في علم الحديث، يتعمق إما بالمتن أو بالمصطلح، يقول لك: السنة فيها تبيان كتاب الله عز وجل، وإنسان يؤرخ لهذا التاريخ المجيد، وينقي هذا التاريخ مما دخل فيه وليس منه، إنه إنسان عظيم، إنسان يجدد هذا الدين، قد نختلف اختلاف تنافس، وقد نختلف اختلاف نقص معلومات، ونحن معذورون، وقد نختلف اختلافاً - لا سمح الله - عدواناً وبغياً، اختلاف مصالح وأهواء، فنحن ساقطون من عين الله عز وجل، وقد نختلف اختلاف تنافس، فاختلاف التنافس يحبه الله، في النهاية كلنا متكاملون، وكل واحد منا يكمل أخاه، ولذلك قال علماء التوحيد: أمة النبي عليه الصلاة والسلام معصومة بمجموعها، بينما شخص النبي معصوم بمفرده.

في اختلاف التنافس نتكامل جميعاً وهذا هو المنطق :

قال تعالى:

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ)

أي وأنت في دائرة الحق هناك خلافات، وهذا خلاف تنافس مقبول. فهناك فقيه نحن بحاجة ماسة إليه فقيه متشدد ومتعمق، ويأتي بكل الوسائل، ويمحصها، فهو على العين والرأس، ويأتي مفسر ونحن في أمس الحاجة إليه، ويأتي المحدث والموحد صاحب علم التوحيد، والمؤرخ، ونحن في أمس الحاجة إليهم جميعاً، ويأتي اللغوي، فلولا فهمنا لهذه اللغة، ومعرفة دقائقها وقواعدها ما فهمنا كتاب الله عز وجل، فهذا اشتغل باللغة، وهذا اشتغل بالتاريخ، وهذا اشتغل بعلم التوحيد، والآخر بالتجويد، وإنسان اشتغل بالمواريث نحن في أمس الحاجة إليهم جميعاً، نختلف اختلاف تنافس، أما في النهاية فكلنا يكمل بعضنا بعضاً، نتكامل جميعاً، وهذا هو المنطق، وهذا هو الشيء الذي ينبغي لنا أن يكون؛ أن نتعاون وأن نتكامل:

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

والآية التي تليها:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)

الامتحان الصعب الذي يفرز فيه المؤمنون هو امتحان الشدة :

هناك حقيقة أخرى أيها الأخوة، هناك عبادتان؛ عبادة أن تعبده في الرخاء، وهذه عبادة مقبولة، وترقى بها، ولكن لا بد من عبادة أخرى؛ أن تعبده وأنت في الشدة، إن لم تنجح بهذه العبادة فهناك مشكلة كبيرة، فالإنسان بالرخاء يشكر، وهذا شيء طبيعي، وأضعف الناس إيماناً يشكر في الرخاء، أما المكان الذي يتفاوت فيه المؤمنون في الامتحان الصعب الذي يفرز فيه المؤمنون وهو امتحان الشدة، ولا ينجو من هذا الامتحان أحد، والدليل هذه الآية:

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا)

مثلاً الصحابة الكرام ومعهم سيد الأنام عليه الصلاة والسلام في الخندق:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)

[سورة الأحزاب: 10]

أيعدنا صاحبكم ـ و لم يقل: رسول الله ـ أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، كأنه لم يؤمن برسالة رسول الله " إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ".

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب: 11]

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

[سورة الأحزاب: 12]

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا)

[سورة الأحزاب: 23]

مصائب التأديب مهمتها نقل الإنسان من المعصية إلى الطاعة :

هذه سنة الله في خلقه، أنا لست متشائماً ولكن الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، وطن نفسك إذا كنت في الرخاء فلا بد من امتحان في الشدة، الشدة لا تدوم، وتنقضي سريعاً، والمحنة إن صبرت عليها، وقبلتها من الله، ورضيت عن الله بها، انقلبت إلى منحة، والشِّدَّة إن

صبرت عليها، وقبِلتَها من الله، ورضيتَ عن الله بها انقلبت إلى شَدَّة إليه، كانت شِدَّة، فأصبحت شَدَّة، وكانت مِحْنَة، فأصبحت مِنْحَة، ولم ينجُ النبي عليه الصلاة والسلام من الابتلاء:

((سئل النبي صلى الله عليه و آله و سلم : أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))

[الترمذي من حديث سعد بن أبي و قاص]

أيعقل أن يخرج إلى الطائف مشياً على قدميه ثمانين كيلو متراً؟ حاول أن تمشي إلى النبك مشياً مع الخوف، والملاحقة، والتكذيب، والإخراج، وبعد أن تصل إلى هذه المدينة، فإذا بأهلها يكذبونك، ويستهزؤون بك، ويغرون سفهاءهم أن يؤذوك، فتلجأ إلى حائط تقول: يا رب إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي، سيد الخلق، هو سيد الخلق، وحبيب الحق، أما حينما جاءه جبريل، وقال له: أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، فلو أنه من الأشخاص العاديين!! لو أُتيح لأحدهم أن ينتقم من خصمه، يقول لك: والله أتمنى أن أقطعه إرْباً إرْباً، فلو قال: بلى أطبق عليهم الجبلين لم يكن رسول الله، لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده، لم يتخلَّ عن قومه، ودعا لهم، واعتذر عنهم، ورجا أن تكون ذريتهم صالحة، هذه هي النبوة، فلذلك:

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم)

أهكذا الجنة؟ صحة، ودخل كبير، وبيت جميل، وأولاد أبرار، وزوجة جميلة، وبنات أطهار، ومركبة فخمة، وكل يوم نزهة، وكل يوم دعوة، ثم على الجنة رأساً، لا تصدقوا هذا الكلام، هذا كلام مضحك، لا بد من شدة، قد يبتلى الإنسان بماله، وأحياناً بفقد ماله، ويبتلى بصحته، وبأهله، وبأولاده، يبتلى بخصمه، وعمله، سئل الشافعي رحمه الله تعالى: " أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين، قال: لن تمكن قبل أن تبتلى "، أنا متفائل جداً، حياة المؤمن لا بد لها من مرحلة تأديب، فإذا كان هناك معاصٍ، فمرحلة ابتلاء، وإذا كان هناك استقامة، ثم مرحلة التكريم، وفي الأعم الأغلب تستقر حياة المؤمن المستقيم على التكريم، لكن لا بد من مرحلة الابتلاء، تأديب إذا كان هناك معصية، الآن هناك استقامة، هو أين هو؟ دقق؛ وقف إنسان على شاطئ بحر، قد تأتيه موجة عاتية فتأخذه إلى البحر، هناك إنسان يقف بعد مئة متر، وهذا بعد مئتين، وهذا بعد خمسمئة متر، وهذا في قمة الجبل، كيف يمتحن هؤلاء؟ بموجة عاتية، فالذي في قمة الجبل لا يتأثر، هو في الأعماق، فمصائب التأديب من أجل أن ينقلك ربُّنا عز وجل من المعصية إلى الطاعة.

الله عز وجل عزيز لا يعطيك ما عنده إلا بجهد جاهد :

دخلنا الآن في الطاعة، مصائب الابتلاء من أجل أن ينقلك من الحد الأدنى إلى الحد الأقصى، من الساحل إلى قمة الجبل، فهذا الابتلاء لا بد منه، الأنبياء ابتلوا، والصحابة والصديقون والمؤمنون ابتلوا، لا يمكن أن ينجو أحد، فأنت وطِّنْ نفسَك أنه ليس كل شيء في الحياة سهلاً فهناك ساعة شدة،

وأحياناً هناك خوف، وهمّ، وحزن، وقلق، وشبح مرض، وابن له مشكلة، وابن مريض، وزوجة متعبة، فهذا كله ابتلاء، ولذلك قال: يا بنيتي ما بك؟ قالت: حمى لعنها الله، قال: لا تلعنيها، فو الذي نفس محمد بيده لا تدع المؤمن وعليه من ذنب.

((ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

" أم حسبتم "، أيمكن لطالب أنْ يقدِّم استدعاءً لرئاسة الجامعة: (يُرجى منحي دكتوراه في أسرع وقت ممكن، وشكراً لكم، التوقيع فلان) هذا يحتاج إلى مشفى المجانين، الدكتوراه تحتاج لسانس، ودبلوم عام، أو دبلوم خاص، أو ماجستير، دراسة، ودوام، وتلخيص، وأطروحات، واجتياز امتحان شفوي، وامتحان خطي، وامتحان عملي، ثم دبلوم، وماجستير، وتأليف كتاب، ومناقشة كتاب، ثم دكتوراه، ثم يضع بجانب اسمه دال فقط، كان من دون دال فصار بدال فقط، شهادة تحتاج كل هذا الجهد، وجنة عرضها السماوات والأرض هكذا بكلمة!

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

أتطلب جنة عرضها السماوات والأرض بهذه السهولة، تطلب الأبد، سعادة الأبد بلا ثمن، ولا إنفاق، ولا جهد، ولا غض بصر، ولا ضبط لسان، ولا إنفاق، ولا شيء، طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب هو استهزاء بالجنة، ادخل محل سجاد درجة أولى، تجد عندهم خمسين سجادة بعضها فوق بعض، لا، أريد نوعاً أرقى، قام وأحضر نوعاً أجود، هذه أجود، لا، أريد أفضل، شغله ثلاث ساعات، وأخيراً أحضر له واحدة من الدرجة الأولى ثمنها ثمانمئة ألف، تأخذها بخمس ليرات؟ أيخرج من المحل سالماً، سجادة ثمنها خمس ليرات! جنة بليرتين لفقير، وركعتين بلا وضوء، ودخلنا الجنة بهذه البساطة، جنة الله تأتي بهذه البساطة!! هؤلاء الذين سهروا الليالي وأنفقوا أموالهم، وقدموا خدمات للحق، ووظفوا كل ما آتاهم الله في سبيل الله، هؤلاء يستحقون الجنة، الله عزيز، ليت القضية سهلة، الله عز وجل عزيز، لا يعطيك ما عنده إلا بجهد جاهد، وبصدق حديد:

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم)

سيد الخلق ماذا قال؟ قال:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان]

نحن ماذا قدمنا؟ والله ما قدمنا شيئاً، واللهِ أمام ما فعله الصحابة الكرام واللهِ ما فعلنا شيئاً، نحن حَمَلنا الإسلام، أما هم حمَلُوا الإسلام، فإذا صار المسلمُ ملتزماً بالدين فالناس كلهم يعظِّمونه، يبجِّلونه، ماذا قدَّم؟ ما قدمت شيئاً أمام الذين هاجروا، أنفق أحدهم كل ماله وهو سيدنا الصديق، الثاني خسر كل ماله، ربحت التجارة أبا يحيى، نحن ما فعلنا شيئاً، تروي الروايات أن سيدنا عبد الله بن رواحة عينه النبي قائداً ثالثاً في بعض الغزوات، أول قائد سيدنا زيد، أمسك اللواء بيده وقاتل حتى قتل، وأخذ الراية أخوه سيدنا جعفر قاتل بها حتى قتل، فجاء دور الثالث، وكان الموت سريعاً فيهم، فقام وتردد، هكذا تروى الروايات، وكان شاعراً، فقال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليتِ

إن تفعلي فعلهما رضيتِ وإن توليتِ فقد شـقيتِ

* * *

وأخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، فبلغ ذلك النبيَّ عليه الصلاة والسلام فقال: أما زيد فأخذ الراية وقاتل بها حتى قتل وإني لأرى مقامه في الجنة ـ مباشرة ـ ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل وإني لأرى مقامه في الجنة، يطير بجناحين، لأنه أمسك الراية باليد اليمنى فضربت اليمنى، فأمسكها باليسرى فضربت اليسرى، فأمسكها بعضديه فسماه النبي جعفر الطيار، إني أراه يطير في الجنة بجناحين، أنشؤوا الآن فيما أعتقد في المطار مسجداً سموه مسجد جعفر الطيار، وهو أنسب اسم طبعاً، لأنه في المطار سمِّي جعفر الطيار، وسكت النبي عليه الصلاة والسلام، فقلِق الصحابة على الثالث فقالوا: ما فعل عبد الله؟ قال: ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه، لأنه تردد ثلاثين ثانية في بذل دمه، وهناك ناس يترددون في الطاعة، وفي أداء الصلاة، ويترددون في صيام رمضان، و تحجيب زوجتهم، يترددون في الأشياء الواضحة، فهذا الذي تردد في بذل دمه ثلاثين ثانية كان مقامه أقل من صاحبيه.

أيها الأخوة الكرام: أنتم تطلبون الجنة، تطلبون جنة عرضها السماوات والأرض تطلبون سعادة الأبد، ولا بد من جهد جاهد:

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا)

وكان سيدنا عمر إذا أصابته مصيبة قال: الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذا لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها، حتى يقول الرسول والذين أمنوا معه من شدة الابتلاء: متى نصر الله؟ يا رب رحمتك بنا، هنا حرب على المسلمين من ثلاثمئة إلى أربعمئة ألف في العراء، والبرد الشديد، هنا أيضاً حرب على المسلمين يا رب:

(متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب)

نرجو الله سبحانه وتعالى أن يرينا أياماً بيضاً.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (73- 95):تفسير الآية 215، أهمية السؤال وقيمة الإنفاق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-01-28

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال علامة المؤمن الصادق :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث والسبعين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الخامسة عشرة بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة... حينما تهتم بموضوع ما تسأل عن تفاصيله، هذه قاعدة، وحينما تقتني آلةً غاليةً، معقَّدةً، عظيمة النفع، تعكف على كُتيِّبها فتقرؤه كلمةً كلمة، أو تترجمه كلمةً كَلمة، وقد تُرسل إلى الشركة رسالة: ماذا تعنون بهذه العبارة؟ لم أفهمها، وكيف ينبغي لي أن أصون هذه الآلة؟ وكيف أعتني بها؟ وكيف أرفع من مردودها؟ هذا شيء طبيعي في الإنسان، حينما يهتمُّ بشيء يسأل عنه، علامة المؤمن الصادق يسأل؛ هل هذا العمل حرام أم حلال؟ هل يرضي الله أم لا يرضي الله؟ هل أكون عند الله مسؤولاً؟ وهل يقبلني الله بهذا العمل أم يرفضني؟ علامة الصدق السؤال، وعلامة السَيْر في طريق الحق أن تستوْضح، وأن تسأل، والله عزَّ وجل يقول:

(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

في شؤون الدنيا اسألوا أهل الذكر، وفي الشؤون المتعلقة بالله عزَّ وجل فاسأل به خبيراً، لا بد لك من جهتين هما مرجعان لك، جهةٌ ترجع إليها في أمور الدنيا ـ وهذا الذي علَّمنا إياه النبي عليه الصلاة والسلام ـ علَّمنا الاستخارة، وعلَّمنا الاستشارة، وينبغي لك أن تسأل أهل الخبرة من المؤمنين في شؤون الدنيا، وأن تسأل العلماء الصادقين، المخلصين، العاملين في شؤون الآخرة.

السؤال دليل الصدق :

إنك بمجرَّد أن تهتم بشيء تسأل عن دقائقه، وتفاصيله، ومَداخله، ومخارجه، وأخطاره، وأبعاده، وملابساته، ولذلك فعلامة صدق أصحاب رسول الله أنهم سألوا النبي عليه الصلاة والسلام .

(يَسْأَلُونَكَ)

فالسؤال دليل الصدق، وحينما لا يسأل الإنسان هناك احتمال جيِّد لصالحه، قد يكون الأمر واضحاً جداً له فلا يسأل، وقد يلقي أستاذٌ درساً، ويسأل الطلاب: هل هناك من سؤال؟ فإذا كان الدرس واضحاً جداً، والطلاب استوعبوا دقائقه فلا أحد يسأل، فهذه حالة، أما الطالب البعيد عن موضوع الدرس، والشارد، الذي يعيش بجسمه في قاعة الدرس، وقلبه خارج الدرس، فهذا إذا قيل له: أتسأل؟ يقول: لا يوجد سؤال، لا يسأل، فالذي لا يسأل إما لوضوحٍ شديدٍ عنده، أو لعدم اهتمامٍ بأصل الموضوع.

فعلى كلِ العلم مِفتاحُه السؤال، ولئن تسأل فتكون في نظر الآخرين جاهلاً أفضل ألف مرة من أن تخطئ ولا تسأل، وليس العارُ أن تكون جاهلاً، ولكن العار أن تبقى جاهلاً، وليس العار أن تخطئ، ولكن العار أن تبقى مُخطئاً، والمؤمن الصادق يسأل، ولا يعبأ كثيراً بمكانته، لأن هناك رجلين لا يسألان؛ المُستحيي والمُتَكَبِّر، والحياء في العلم جهل، والكبر في العلم جهل.

لكن بقي موضوع دقيق في موضوع السؤال، هذا الإنسان الذي يُسأل، إذا علّق تعليقاً قاسياً على سائلٍ منع السؤال، فينبغي له أن يتقبَّل السؤال بصدرٍ رحبٍ واسعٍ، وأن يحترم السائل، وأن يُثني عليه، حتى يشجِّع غيره أن يسأل.

مفتاح العلم السؤال :

أحياناً يسأل الابن أباه سؤالاً، قد يكون سخيفاً، فيصب الأب جام غضبه على ابنه، ولم يدر الأب أنه أجرم في حق ابنه، لن يسأله بعد ذلك سؤالاً، لا، مهما بدا لك السؤال سخيفاً تافهاً يجب أن تحتفل بالسائل، وأن تثني عليه، وأن تقول له: بارك الله بك، هذا دليل اهتمامك، وهذه النقطة التي أثرتها جوابها: كذا وكذا وكذا، فموقف المسؤول سوف يُسأل عند الله يوم القيامة، مفتاح العلم السؤال، كم من إنسان كره مادةً في التعليم من أستاذٍ قاسٍ في ملاحظته! فاسأل ما بدا لك، ورد في الأثر أن: تواضعوا لمن تعلّمون، وتواضعوا لمن تعلَّمون منه.

يجب أن تتواضع لمن تُعَلِّم، طبعاً هناك قصص تُروى، وهي للتَنَدُّر ولا يؤخذ منها حكمٌ شرعي؛ تروي الكُتب مثلاً أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى كان يعاني من ألمٍ في مفاصله، وكان يلقي درساً أمام تلامذته المقرَّبين، وكان ماداً رجله، فدخل رجلٌ قويم الهيئة، طويل الجثّة، عريض المَنكبين، يرتدي عمامةً، يبدو أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى استحيا منه فرفع رجله، فجلس في مجلسه، وبعد أن انتهى المجلس سأل ـ الموضوع كان حول صلاة الصبح ـ قال له: يا إمام كيف نصلي الصبح إذا طلعت الشمس قبل الفجر؟ قال له: عندئذٍ يمدُّ أبو حنيفة رجله.

طبعاً هذه قصة للتنَدُّر، أما أن يؤخذ منها حكمٌ شرعي! الحكم الشرعي نأخذه من موقف رسول الله عليه الصلاة والسلام، الحكم الشرعي نأخذه من الكِتاب والسُنَّة، هذا هو الحق، فالنبي مشرِّعٌ في

أقواله، وأفعاله، وإقراره، كان يُسأل بغلظة ـ أعطني من هذا المال يا محمد، فهو ليس مالك ولا مال أبيك ـ وكان بإمكان النبي أن يلغي وجود هذا السائل الفظ، ولكنه قال: "صدق إنه مال الله.

المؤمن متواضع لمن يسأله، مهما بدا لك السؤال سخيفاً، تواضع لمن تتعلَّم منه، وتواضع لمن تعلِّم، فهذا التعليق على كلمة:

(يَسْأَلُونَكَ)

أنت حينما تسأل تستعير خبرة المسؤول، وقد تزيد عن خمسين سنة، خبرات متراكمة خلال عمر طويل، تأخذها مجَّاناً بسؤال مؤدَّب، اسأل ما بدا لك..

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ)

الذين سخَّرهم الله لنشر دينه يعملون لحساب الله ويرجون رحمته :

أيها الأخوة الكرام... حينما يصحُّ الإيمان ويتحرَّك الإنسان، إذ لا يوجد إنسان مؤمن سكوني، وحينما ينعقد الإيمان في قلب المؤمن، أو حينما تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن، تعبِّر عن ذاتها بحركة نحو الخَلْق، ماذا أفعل؟ وماذا أُنْفق؟ وماذا أقول؟ ومع مَن أجلس؟ ومَن أصاحب؟ وكيف أمضي وقتي في البيت؟ الصادق يسأل، أنت إنسان محدود الإقامة في الدنيا، وخُلقت لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، وحُمِّلتَ أمانة التَكْليف، فوقتك ثمين جداً، إنه وعاء عملك، فكل شيء تفعله محاسبٌ عليه، وكل شيءٍ مسجلٌ عليك، وإنك تحت المُراقبة..

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء: 1]

فحينما تستقرُّ حقيقة الإيمان، وهي أن الله خلق الكون وخلق الإنسان ليجعله في أعلى مقامٍ في الجنة، وإن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، وإنها دار تكليف لا دار تشريف، ودار عمل لا دار جزاء، فحينما توقن؛ تؤمن بالله، وتؤمن بسرِّ وجودك، وغاية وجودك، وتؤمن بمنهج ربك، وتسأل إذاً.

هناك بعد ذلك نقطة دقيقة، إنك لن تستطيع أن تدخل إلى أيّ مكتبٍ في البلد إلا وفي جيبك مال، ولن تستطيع أن تدخل إلى عيادة طبيبٍ إلا ومعك أجرة المُعاينة، ولن تستطيع أن تُقابل محامياً إلا وأجور الأتعاب في جيبك، سأل أحدهم محامياً: أأدخل بهذه القضية في القضاء؟ أهي رابحة أم خاسرة؟ قال له: خاسرة. قال له: شكراً لك. فقال له: أين الأجرة؟ قال له: خاسرة. قال له: هذه نصيحة قدَّمتها لك، فضجر وذهب إلى محامٍ آخر، قال له: هكذا فعل معي. قال له: معه حق، فانصرف فقال له: أين الأجرة؟

لن تستطيع أن تدخل إلى مكانٍ إلا وفي جيبك أتعاب هذه الاستشارة إلا في المسجد، فاسأل ما بدا لك، هؤلاء الذين سخَّرهم الله لنشر دينه يعملون لحساب الله عزَّ وجل، ويرجون رحمة الله..

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)

[سورة الإنسان: 9]

لن تجد هذا إلا في الحقل الديني.

الحق ميسَّر ليكون واضحاً بين الناس :

لن تجد إنساناً يخطب، ويصلي، ويؤم الناس حِسبةً لوجه الله تعالى إلا في المسجد، هو لا يريد شيئاً، فهذا الشيء ميسَّر..

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ)

[سورة القمر: 17]

يسَّرنا هذا الدين للنشر، ويسرنا الحق ليكون واضحاً بين الناس..

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان: 59]

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ)

بالأعمال السلبية تسلم ولكنك بالإيجابيَّة ترقى :

الحقيقة في الإسلام حركة سلبيَّة، وحركة إيجابيَّة، الامتناع هو الاستقامة، امتنع عن الكذب أمر جيد، صادق، امتنع عن الغيبة، وعن أكل المال الحرام، وعن الإيقاع بين الناس، وعن محاكاة الآخرين ـ تقليدهم ـ فالذي يقول: أنا لم أغتب، ولم أزن، ولم أسرق، ولم أقتل، ولم ولم، هناك مئة ألف بند تسبقها لَم، ومعنى هذا أنت مستقيم، الاستقامة تؤدي إلى السلامة، ولكن الأعمال الأخرى أعمال إيجابيَّة؛ إنفاق، وطلب علم وتعليمه، والإصلاح بين الناس، ورعاية الأيتام والأرامل، وطُلاَّب العلم، فهذه أعمال إيجابيَّة، فبالأعمال السلبية تسلم، ولكنك بالإيجابيَّة ترقى، وتحتل عند الله مقعد صدقٍ عظيم، بالأعمال السلبية تسلم، وبالإيجابيَّة تسعد، والسلامة والسعادة مَطْلَبَان أساسيان عند كل إنسانٍ كائناً من كان. لدينا الإنفاق..

(مَاذَا يُنْفِقُونَ)

الإنفاق عندنا ـ هنا في الآية ـ بديهي، سألوا النبي: ننفق أو لا ننفق؟ قال: ماذا نُنْفِق؟ كم ننفق؟ ولمَن ننفق؟ وما نوع الذي ننفق؟ أما الإنفاق كإنفاق أمرٌ فمقطوعٌ به، هذا المعنى أحياناً يستشف من آية أخرى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

لا ليبلوكم أتنجحون أم تسقطون؟ لا ليبلوكم أتحسنون أم تسيئون؟ لا، ينبغي لك أن تكون محسناً، وهذا مفروغٌ منه، أما الامتحان:

(أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

الجامعات الراقية جداً، والتي اختارت طُلاَّبها بعنايةٍ فائقة، وبمجموعٍ عالٍ جداً، هذه الجامعات تعطي امتحاناً لا ليفرز الناجحون مِن الراسبين، لا، لأنهم ناجحون كلهم، ولكن ليصنَّف الناجحون في مراتب، امتحانات الجامعات الراقية يكون لتصنيف الناجحين في مراتب، لا لفرزهم إلى ناجحين وراسبين، الرسوب ليس وارد إطلاقاً.

في هذه الآية عدم الإنفاق ليس وارداً إطلاقاً، أما الذي يجب أن يكون فهو الإنفاق، لم يُسأل النبي عن الإنفاق، ولكن سئل: ماذا ننفق؟ ولمَن ننفق؟

معنى الإنفاق :

الحقيقة للإنفاق معنىً موسَّع جداً؛ أن تنفق مما رزقك الله، لا يوجد إنسان على وجه الأرض لا يوجد عنده شيء، إنسان عنده عِلْم، وإنسان عنده خِبْرَة، وثالث عنده قُدْرَة، ورابع عنده مهارة، وخامس عنده مال، وسادس عنده مكانة وجاه، وسابع عنده قدرة على الإقناع، فماذا تنفق؟ أنفق مبدئياً مما رزقك الله:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة: 3]

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة: 3]

أيْ إنَّ شطر الدين الأكبر وهو الإنفاق شطره أن تعرف الله، وأن تستقيم على أمره، وأن تُنْفِق، فإنسان لا ينفق هذا إنسان لا يؤكِّد صِدْقَهُ، لماذا سمَّى الله الصدقة صدقةً؟ لأنها تؤكد صدق المؤمن، فهناك أشياء لا تكلِّفك شيئاً، فأن تأتي إلى بيت من بيوت الله شيء لطيف، فالإنسان قد يستمع إلى درس، وقد يلتقي مع أخوانه، وأن تتوضأ، وتصلي في الصيف، الصلاة نشاط، وأن تذهب إلى العمرة شيء لطيف، وسفر مريح، وتسكن في فندق، تأكل وتشرب، وتطلع، وتطوف حول البيت وتأتي، وعملنا عمرة، أما حينما تؤمر أن تنفق من مالك ـ المال محبَّب ـ وطبعك يقتضي أن تأخذه لا أن تنفقه، فحينما تنفق المال هذا يؤكِّد صدق المؤمن، فالحقيقة الصدق يظهر في الأعمال المُتْعِبَة، ولذلك سمىَّ الله عزَّ وجل التكليف تكليفاً لأنه ذو كُلْفَة.

إن أردت أن تنفق من مالك فيجب أن يكون هذا المال مالاً حلالاً:

إذاً الإنفاق مفروعٌ منه، لم يُسأل عنه النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن سُئل: ماذا ننفق؟ فجاء الجواب إجابةً للسؤال وزيادةً عليه، ما هي الزيادة؟ فقال الله عزَّ وجل:

(مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ)

[خير] يجب أن تنفق خيراً، أي تنفق مالاً حلالاً، وأن تعطي علماً نافعاً، لا أن تُعَلِّم السحر، وأن تنفق من مالٍ حلال، وأن تطعم طعاماً طيِّباً تأكله أنت وتقبل عليه، لا أنك إذا كرهت الطعام أنفقته، فهذه كلمة [خير] واسعة جداً، إن كانت بالجاه يجب أن تعين مظلوماً بجاهك، لا أن تعين ظالماً على أكل مال الناس بالباطل، تقول: إنني وضعت مركزي كله، لا، وضعت مركزك كله لنصرة الظالم لا المظلوم، [خير]، إن أردت أن تنفق من جاهك فيجب أن يكون هذا الإنفاق خيراً لنصرة المظلوم، وإن أردت أن تنفق من مالك فيجب أن يكون هذا المال مالاً حلالاً، جمَّعته مِن كَدِّ يمينك وعرق جبينك، إن أردت أن تنفق علماً فيجب أن تنفق علماً نافعاً ينتفع به المتعلم في الآخرة، لا أن تنفق علماً يفسد حياة المسلمين.

هناك مِهَنٌ كثيرة أساسها إفساد أخلاق المسلمين، وإفساد البيوت؛ أنا أعلِّمك تصليح هذه الأجهزة، أنت ما فعلت شيئاً، أنت ما أنفقت، هذا العلم الذي تعلَّمته والذي تعلِّمه للآخرين أساسه إفساد البيوت المُسلمة، الإنفاق يجب أن يكون إنفاقاً خيراً؛ إنْ في المال، أو في العلم، أو في الجاه، أو في أيّ شيء آخر. فهذه الزيادة، أجابهم الله عزَّ وجل عن سؤالهم، وزاد عن إجابتهم بشرطية أن يكون الإنفاق من خيرٍ..

(مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ)

أقرب الناس إليك.

ربنا عزَّ وجل رفع برَّ الوالدين إلى مستوى عبادته :

أقرب إنسانين في الدنيا هما والداك، اللذان هما سبب وجودك، فالله عزَّ وجل جعل وجودك في الدنيا بسببهما، لذلك ربنا عزَّ وجل رفع برَّ الوالدين إلى مستوى عبادته، قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء: 23]

أعظم مظهر صارخ في حياة المسلمين برُّ الوالدين، بينما في بلاد الغَرْب يقيمون يوم الأم، لأن الأم مهجورةٌ سنةً بأكملها، فينبغي لها أن يذكرها ابنها في السنة كلها يوماً واحداً، أما عندنا ـ والحمد لله ـ إذا لم يرَ الأب والأم ولدهما كل يوم تكون هذه مشكلة، فليس من المعقول، ولا المقبول، ولا اللائق

بإنسان كان أبوه وأمّه سبب وجوده أن يهملهما، " ليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يُغْفَر له "، ولا تشارك عاقاً لوالديه، لو كان فيه خيرٌ لكان لوالِديه..

(قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ)

الحقيقة في الحياة دروس بليغة، البارُّ بوالديه موفقٌ في الدنيا، فهو قدَّم شيئاً لوالديه اللذين كانا سبب وجوده، وكانا يتمنيان أن يجوعا ليشبع، وأن يعريا ليكتسي، كم من أب يُهْمِل شراء حاجاته الشخصيَّة من أجل أولاده، وكم من أب يخرج من دمشق ـ البلدة ـ إلى ريفها ليزوِّج أولاده، بفرق سعر البيوت بين الشام وبين ريفها، هؤلاء الآباء أبطال، فهذا الأب الذي عاش من أجل أولاده، ألا يقتضي أن يكون أولاده طَوْع بنانه، وفي خدمته؟

صلة الرَحِم مِن أعظم الأعمال في الإسلام :

قال تعالى:

(قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)

أيها الأخوة؛ يوجد شيء في الإسلام دقيق جداً، إذا اهتم كل إنسان بوالديه، واهتم بإخوته الذكور والإناث، واهتم بأعمامه وأخواله، وعمَّاته وخالاته وأولادهم جميعاً، صار هناك دائرة ضمان اجتماعي، وإذا اهتم كل واحد بوالديه، وإخوته الذكور والإناث، وأخواله وأعمامه، وخالاته وعماته وأولادهن، يكون المجتمع بأكمله دون أن نشعر في ضمانٍ اجتماعيٍ موحَّد، فهذه الدوائر تتصل وتشكّل المجتمع بأكمله، وهذا نظام الإسلام، الأقربون أولى بالمعروف، لا تُقبَل زكاة إنسانٍ وفي أقربائه محاويج، لأن الناس أنت لهم وغيرك لهم، أما أقرباؤك المُقَرَّبون إليك، لأنك تعلم سرَّهم ونجواهم، وتعلم أوضاعهم، ومعيشتهم، وحاجتهم، وكل ظروف حياتهم، مَن لهم غيرك؟ فهذا الذي يُهْمِل أهله، يهمل والديه، ويهمل أقرباءه، وذَوي قرابته ويهتم بالغرباء، هذا إنسان توازنه مختل..

(قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)

لذلك صلة الرَحِم مِن أعظم الأعمال في الإسلام، إن صلة الرحم مغطَّاة بأربعين حديثاً صحيحاً، لعلَّها تزيد في الرزق ـ كما قال عليه الصلاة والسلام ـ وتنسأ في الأجل، أي يمتلئ عمرك بالأعمال الصالحة فكأنه زاد، بهذا المعنى تقريباً.

هناك دعوةٌ إلى الله خاصةٌ لأقربائك :

صلة الرحم أيها الأخوة تبدأ بزيارة، وتتابع هذه الصلة بتفقُّد أحوال من حولك، ثم بالمُساعدة، ثم بالدعوة إلى الله. فهناك دعوةٌ إلى الله خاصةٌ لأقربائك، قال تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء: 214-215]

إذا اهتم كل واحد بأخواته، وأصهاره، وأولاد عمِّه وعماته، وأولاد خاله وخالاته، وزارهم، ودعاهم إلى الله، قدَّم لهم شريطاً، وقدَّم لهم هدية، وأعانهم، وعمل لقاء أسبوعياً شرح لهم فيه آية أو حديثاً، وإذا اهتم كل واحد بأقربائه، بدعوة إلى الله، فهذه أعلى درجة من الدعوة. ولا تنسَ أيها الأخ الكريم أن الدعوة إلى الله فرض عين، لا تُعفى من الدعوة إلى الله إطلاقاً لأن الله عزَّ وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

كلام الله عزَّ وجل، علامة اتباعك لرسول الله أنك تدعو إلى الله، إما أن تتكلَّم، وإما أن تقدِّم للناس شريطاً، أو تدعوهم إلى مسجد، لا بد من أن تقدِّم شيئاً لهؤلاء، فهذه دعوة إلى الله في حدود ما تعلم، ومع من تعرف هذه فرض العين، وأساساً الدعوة إلى الله رُبْع النجاة:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

(فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)

أما اليتيم، وهو الذي فَقَد والده، أو فَقَد أمه، أو فَقَدهما معاً، فحينما يهمله المجتمع، ويرى رفاقه في بحبوحة، وفي بِشْر، وفي سعادة، آباؤهم معهم، يغدق آباؤهم عليهم كل خير، تجده يحقد على المجتمع، وقد يحقد على القدر الذي أفقده والده، وقد يكفر بالله، أما إذا وجد اليتيم رعاية كافية مِن عمِّه، ومِن خاله، ومِن جده، ومِن صديق والده، ووجد رعاية كاملة، وصلة، وإكراماً، حُلَّت المشكلة، فاليتيم أي يتيمٍ يحتاج إلى أن تنفق عليه؛ إما من وقتك، وإما مِن اهتمامك، وإما من مالِك، من أجل أن تنسيه فقده لوالده.

المسكين وابن السبيل من أولى الناس الذين ينبغوا أن يأخذوا من مالك :

قال تعالى:

(قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)

المسكين هو الذي لا يستطيع أن يكسب رزقه، هذا أولى الناس بأن يأخذ من مالك الذي تنفقه في سبيل الله.

(وَابْنِ السَّبِيلِ)

المنقطع، فعظمة هذا الدين إذا كنت مسافراً وسُرقت محفظتك، فأنت الآن فقير فقراً طارئاً، لك بلد، ولك محل تجاري، ولك شركة، وتملك ما تملك، أما هنا فأنت لا تملك شيئاً، جعل الله لهذا نصيباً من

الزكاة، أرأيت إلى هذا التضامن؟ لو كنت مسافراً في أيّ بلدٍ إسلاميّ، وفقدت مالك فجأةً بعملٍ عدواني، فأنت مَعْنِيٌّ بهذه الآية الكريمة:

(قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

حينما يُنْفِق الإنسان، دققوا؛ حينما تنفقون فيما بينكم، وحينما يشتري أحدٌ منَّا هديةً ليقدِّمها لصديق، فأهم شيءٍ يحرص عليه أن يعلم هذا الصديق أن هذه الهدية منه، خطأ كبير جداً أنني إذا قررت أن أهدي فلاناً هذه الهدية، ألقيها في البيت أو أرسلها مع ابني، يدفعها وينتهي، فهذا الذي قُدِّمت له الهدية ينبغي له أن يشكرك عليها، ولكنه لا يعرف مَن أنت، فيسأل: من جاء بهذه اللوحة؟ والله لا نعرف، طفل دفعها وراء الباب وذهب، ولم يقل لنا أية كلمة، هذا خطأ كبير. لأن النبي علَّمنا أن نرُد على الهدية بهديةٍ مثلها فقال:

((تهادوا تحابوا))

[مالك في الموطأ عن مالك بن عطاء الخراساني]

وعلَّمنا إن لم نرد عليها بمثلها أن نشكره عليها، هكذا الأصول:

((من صنع إليكم معروفاً ، فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه ، فادعوا له))

[رواه أبو داود والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما]

يا أخي، جزاك الله خيراً على هذه الهدية، أما لا تعرف من أين جاءت؟! والله هذه مشكلة، فدائماً المُنْفِق يحب أن يُعلِم الذي أنفق له أن هذه منه، وهذه المشكلة عند الله محلولة.

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح فقط :

قال تعالى:

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

حجم عملك بالضبط، مقدار التضحية، وثمن الشيء، الوقت الذي بُذِلَ من أجله، والعقبات التي زُلِّلت، والصوارف التي تجاهلتها، كله عند الله معلوم..

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

لذلك سبب سعادة المؤمن أن علاقته مع الله، والله يعلم، الله عزَّ وجل لا يحتاج إلى بطاقة، ولا إيصال، ولا قَسَم، ولا شهود، بل يعلم السر وأخفى..

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ)

(من) لاستغراق أفراد النَوْع، أيْ أنك إذا قدَّمت كأس ماء لإنسان عطشان فهذا خير، وأجلست امرأة متقدِّمةً في السن مكانك في السيّارة العامَّة، فهذا العمل عند الله محفوظ، أو سقيت قطةً، وأصغيت الإناء لهرَّة، وأطعمت كلباً، وتلافيت أن تقتل نملةً..

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

كل أعمالك سوف تُعْرَض عليك يوم القيامة عملاً عملاً، هذا العمل هو الذي يرقى بك عند الله عزَّ وجل، والعمل الصالح يرفعه، بل إن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح فقط:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: 132]

الإنفاق هو السِمَة البارزة للمؤمن :

أيها الأخوة... السِمَة البارزة للمؤمن الإنفاق، هو مخلوقٌ لينفق لأن الإنفاق ثمن الجنَّة، وحجمك عند الله عزَّ وجل بحجم عملك الصالح، لكل إنسان مكانة عند الله بحسب عمله الصالح، والعمل يُقبل بشرطين: إذا كان صواباً وخالصاً؛ صواباً ما وافق السُنَّة، وخالصاً ما ابتغي به وجه الله عزَّ وجل. ونحن في الدنيا من أجل العمل الصالح لأن الإنسان عند الموت يقول:

(رَبِّ ارْجِعُون *لَعَلِّي أعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون: 99-100]

العمل الصالح إيجابي، والإسلام إيجابي، ولا يوجد إسلام سَلْبي، وليس هناك مؤمن متقَوْقِع، ولا مؤمن مُنْسَحِب مِن الحياة، ولا مؤمن يعيش وحده، فالإسلام إيجابي ومتحرِّك، والإيمان حركة نحو الله عزَّ وجل ونحو الخلق، نحو الله عبادة ونحو الخلق إحسان:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم: 31]

أيها الأخوة آيات الدرس القادم متعلقةٌ بالقتال:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

الدليل على أن الإسلام دين الله :

توجد بعض الأسئلة وردتني:

ـ س1: مـا الدليل على أن الإسلام دين الله؟

الشيء الثابت في الكون هو الكون، هذا الكون أكبر دليل على وجود الله، سنبدأ بالتسلسل، الشيء الثابت عند أهل الأرض كلهم؛ وعند الكافر، والمؤمن، والمسلم، وغير المسلم أن الشمس والقمر، والليل والنهار، والنبات والحيوان، والبحار والجبال، والأطيار والأسماك هذا كلُّه دليل على وجود الله، وجود الله الخالق، المُرَبِّي، المسيِّر، العليم، الرحيم، الحكيم، هذا أكبر دليل يقرؤه كل إنسان، فالكون قرآنٌ صامت يقرؤه العربي، وغير العربي، والمسلم، وغير المسلم..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد: 8]

هذا الابن الذي هو بضعةٌ مِنْك، ألا تعلم كيف تخلَّق، نقطة ماء؛ صار له جهاز عظمي يتحمل وزن خمسمئة كيلو، عظم عنق الفخذ، هذا الابن الذي أصله ماء أكيد، وأنت تعلم هذا علم اليقين صار له أسنان، ثاني أقسى عنصر في الأرض بعد الماس، فأولاً الكون أكبر ثابت يدل على الله.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحدُ

* * *

هذا الإله العظيم من لوازم كماله ألا يهمل خلقه، أن ينبههم، تصور أباً قاعداً بالشتاء، اقترب ابنه من المدفأة وهو صغير، هل يظل الأب ساكتاً؟ ألا يتحرَّك؟ مستحيل لما في قلبه من الرحمة، قد يقوم من مقعده ليمنع ابنه من أن تمسَّ يده المدفأة، فلا بد مِن أن يرسل الله لعباده بياناً..

أنا ذكرت في مؤتمر قبل أيام أن الله خلق السماوات والأرض بالحق، وهو نور السماوات والأرض، خلقهما بالحق، ونورَّهما بالوحي، والوحي رحمةٌ كله، وعدلٌ كله، ومصلحةٌ كله، وحكمةٌ كله، وقلت: أية قضية خرجت من العَدل إلى الجَوْر، ومن الرحمة إلى القسوة، ومن المصلحة إلى المَفْسَدَة، ومن الحكمة إلى خلافها فليست من الوحي، ولو أُدخلت عليه بألف تأويلٍ وتأويل. فالله عزَّ وجل لا بد من أن يوحي لعباده، وينوِّر لهم السَبيل وأن يعرفهم بذاته، فهنا كتب سماوية، هذا الكتاب الذي لنا نحن، هذا دليل على أنه كلام الله وإعجازه، فمن جاء بهذا القرآن؟ الذي جاء به رسول الله لأنه معجز، الذي يستطيع مثلاً أن يجعل البحر طريقاً يبساً حتماً فهذا فوق طاقة البَشَر، ومعنى هذا رسول الله، فعندما يرسل ربنا إنسان يقول: أنا رسول الله. يقال له: أنت كاذب، ائتنا بشيء يدل على ذلك. فيكون معه معجزة، والمعجزة لا يستطيعها إلا خالق الكون، وهذا الكتاب معجزة مستمرة، والعلم تقدم تقدُّماً مذهلاً، ولم تظهر أية حقيقةٍ علميةٍ متناقضةٍ مع هذا الكتاب أبداً، هذا معجزة مستمرَّة.

القرآن كله آيات كونية دالَّة على عظمة الله :

ذكرت مرة: أن الله عزَّ وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

الآن عرفوا أبعد مجرَّة حتى الآن تبعد عشرين مليار سنة ضوئية، فهذه المجرة كانت في هذا الموقع قبل عشرين مليار سنة ضوئية، وانطلق ضوؤها إلينا، وبقي هذا الضوء الذي يمشي بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية، يمشي عشرين مليار سنة حتى وصل إلينا، لكن النجم الذي أطلق

هذا الضوء أين هو الآن؟ هو يسير بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر بالثانية، فإذا قال الله: مسافة بين النجوم، فهذا كلام غير مقبول، فقال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

كلمة (موقع) لا يعرفها إلا عالِم فلك، النجم سار، النجم أرسل الضوء وسار، ولا يعلم إلا الله موقعه الآن، من كلمة (موقع). القرآن كله آيات كونية دالَّة على عظمة الله.

فنحن التسلسل: هذا الكون يدل على خالق عظيم، ومن كمال الخالق أن ينوِّر الأرض والكون بوحي، والوحي دليل أنه كلام الله وإعجازه، والذي جاء بهذا الكلام هو رسوله، وانتهى دور العقل، والعقل أوصلك أن الكون له خالق، وهذا الخالق له كتاب، والكتاب دليل إعجازه، والذي جاء بهذا الكتاب رسول الله.

الآن جاء دور النقل؛ افعل ولا تفعل، فهذا القرآن كلام الله من إعجازه، وهذا القرآن متطابقٌ مع الكون لأن المصدر واحد، والذي خلق الكون هو أنزل هذا القرآن، والذي جاء بهذا الكتاب رسوله لأن معه معجزة، وهذا النبي بيَّن هذا الكتاب.

وهذا الجواب على قولك: ما الدليل على أن الإسلام دين الله عزَّ وجل.

* * *

قيمة الشباب في الإسلام :

ـ س 2: إنسان سمع حديثاً: " إن أحب الخلائق إلى الله عز وجل شاب حدث السن في صورة حسنة -

إذا لم تكن صورته حسنة، فماذا يفعل الشاب بنفسه؟ الكلام النبوي صعب أن يكون له مأخذ ـ جعل شبابه وجماله لله وفي طاعته، ذلك الذي يباهي به الرحمن ملائكته يقول: هذا عبدي ".

قال: سمعت هذا الحديث من أحد العلماء فهل هو وارد عن رسول الله؟

أنا والله لم أقرأه في الصحاح، ولعلَّه حديث ضعيف، وعلى كلٍ الشاب المؤمن الطائع لله عزَّ وجل، هذا بأحاديث كثيرة جداً صحيحة، فالنبي صلى الله عليه و سلم أثنى عليه.

((إن الله تعالى يباهي بالشاب العابد الملائكة، يقول: انظروا إلى عبدي ترك شهوته من أجلي))

[الديلمي عن طلحة]

بل ما من شيءٍ أكرم على الله من شابٍ تائب، إنسان بالثمانين التحق بالمساجد، والله على العين والرأس، أهلاً وسهلاً، ولكن هذا هرم خالص، تحتاج إلى شاب أول حياته، كله شهوات، منضبط، غض بصره، وضبط لسانه، وضبط دخله، والآخر مقبول وعلى العين والرأس، ولكن شتَّانَ بين شابٍ مُتَّقدٍ شهوةً، ومتقدٍ نشاطاً وقد ضبط نفسه في طاعة الله.

فهناك أحاديث كثيرة جداً تثني على الشاب المؤمن. النبي الكريم عيَّن شاباً قائد جيش هو سيدنا أسامة ومن جنود الجيش سيدنا عمر بن الخطَّاب، قال له سيدنا الصديق: أتأذن لي بعمر! لأنه قائد جيش، عمره سبعة عشر عاماً، مشى الصديق في ركابه، قال له: والله يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأمشين، قال له: " والله لا ركبت ولا نزلت، وما عليَّ أن تغبرَّ قدماي ساعةً في سبيل الله " لا يوجد دين بالأرض اعتنى بالشباب واعتنى بالصغار كعناية رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم.

ولدينا مئات الأحاديث التي تجعل من الشباب شُعْلة الأمة، وريح الجنة في الشباب، والآن بأي مشروع تريد أن ينجح عيِّن فيه شباب، الشاب طاقة هائلة جداً، والكبير يمل، فلذلك الشباب مُحترمون في النصوص أيما احترام، ونحن غير مضطرين لحديث ضعيف، شكله حسن، ولكن ماذا لو كان شكله غير حسن، سيدنا بلال ما كان أبيض اللون مثلاً، لكن سيدنا عمر خرج إلى ظاهر المدينة لاستقباله، خليفة المسلمين يخرج إلى ظاهر المدينة لاستقبال سيدنا بلال، وكان أصحاب النبي إذا ذكروا بلالاً قالوا: هو سيدنا ـ عن سيدنا الصديق ـ وأعتق سيدنا ـ يعنون بلالاً ـ هذا هو الإسلام:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

في الإسلام: الشيخ حدثٌ إذا كان جاهلاً، والعالم شيخٌ ولو كان حدثاً، ومراتب الدين مراتب دقيقة جداً، يتسنَّمها الطائعون، والعلماء، والمخلصون، علم وطاعة وإخلاص، أما مراتب السِن، ومراتب الجِنْس، واللون، والعرق فهذه لا قيمة لها إطلاقاً.

* * *

الحكم الشرعي لا يؤخذ إلا من الكتاب والسُّنة فقط :

ـ س 3: ذكرتم أن الحكم الشرعي يؤخذ فقط من الكتاب والسُنَّة، هل يمكن إلزام إنسان أن يأخذ أحكاماً من أفعال الصحابة الكرام؟

سيدنا عمر كيف هاجر؟ سيدنا عمر هاجر متحدياً، قال: " من أراد أن تثكله أمه فليتبعني إلى هذا الوادي "، والنبي كيف هاجر؟ هاجر خفيةً، وسار مُساحلاً، وهيَّأ كل الأسباب، وعيَّن من يمحو الآثار، ومن يأتيه بالأخبار، وعيَّن دليلاً مشركاً، غَلَّب الخبرة على الولاء، وفعل كل أسباب الهجرة، وسيدنا عمر ما هابه شيء، مشى في الطريق هكذا أمام الناس.

من هو الذي يؤخذ منه الحكم الشرعي؟ النبي الكريم، لو أخذنا حكماً شرعياً من عمر في الهجرة؛ لعُدَّ اقتحام الأخطار واجباً، ولعدَّ أخذ الحيطة حراماً، هلكت الأمة من بعد رسول الله. أما إذا أقرَّ النبي عمر على شيء فيجب أن نأخذ من عمر.

النبي له سنة، سنته أقواله وأفعاله وإقراره، فقد يفعل عمر شيئاً أمام النبي، فالنبي يقرُّه عليه، فأصبح سنةً، لأن النبي مستحيلٌ أن يقر على خطأ، أما إذا فعل صحابي شيئاً فهذا موقف شخصي، وهذا الموقف مسجَّل له عند الله ويرقى به، لكنه ليس حكماً شرعياً.

سيدنا الصديق شرب لبناً حراماً فاستقاءه، فإذا أكلت أكلة فتبين لك أن ثمنها مال حرام، فهل أنت مكلَّف أن تخرجها بعملية إفراغ معدة؟ لا لست مكلَّفاً، بل تتوب إلى الله وتستغفره.

فعندنا موقف شخصي، وهناك حكم شرعي، الحكم الشرعي يسع كل المسلمين، ويؤخذ من الكتاب والسُنَّة، والسنة فيها سنة تقريرية، وهي أفعال الصحابة، ولكن لست أنت الذي تستنبط من أفعال الصحابة، فالذي يستنبط العلماء والفقهاء من أفعالهم شيئاً.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (74- 95):تفسير الآية 216، الأشهر الحرم وإحباط العمل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-05-19

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال علامة الإيمان :

أيها الأخوة المؤمنون.. مع الدرس الرابع والسبعين من دروس سورة البقرة، ومع الآية السادسة عشر بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ)

لا بد من وقفةٍ قصيرة حول كلمة: " يسألونك "، إذا آمن المؤمن بالله إيماناً صحيحاً؛ آمن به موجوداً، وآمن به واحداً، وآمن به كاملاً، هَمُّه الأوَّل، وشغله الشاغل أن يتحرى أمره ونهيه كي يعبده، فإن عرفته بقي أن تعبده، وإن عرفته من خلال الكون بقي عليك أن تعبده من خلال الأمر والنهي، فَهَمُّ المؤمن الأوَّل وشغله الشاغل الذي لا يعلو عليه شيء هو أن يتحرى الأمر والنهي، وعلامة المؤمن الصادق أنه يسأل: هل هذا حرام؟ وهل هذا حلال؟ أفيه شبهة؟ وهل يرضي الله أم أنه لا يرضي الله؟ أيحجبني عن الله أم يُقَرِّبني من الله؟ وهل يُحْبط عملي أم يؤكِّد أمَلي؟ فلا بد من أن تسأل، والسؤال علامة الإيمان، أما هذا الذي لا يسأل فلأن موضوع الدين كله خارج اهتمامه.

نجد الإنسان الغارق في المعاصي والمخالفات لا يخطر في باله أن يسأل: هل دخلي صحيح؟ وهل هو مشروع؟ وهل تربية أولادي صحيحة؟ وهل خروج بناتي بشكلٍ يرضي الله؟ وهل أنا أبٌ ناجحٌ في أبوَّتي؟ وماذا أفعل؟ فهذا الذي يسأل سؤاله علامة إيمانه. وأصحاب النبي عليهم رضوان الله سألوا النبي عليه الصلاة والسلام في ثلاث عشرة مسألة كلها ورد فيها آياتٌ مصدرةٌ بقوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ)

الحكمة من تحريم القتال في الأشهر الحرم :

الحقيقة يقول الله جل جلاله في آيةٍ أخرى:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

[سورة التوبة: 36]

رجب، وذو القعدة، وذو الحجَّة، ومحرَّم، ما حكمة هذه الأشهر؟ لأن الله جل جلاله هو خالق البشر، وهو الخبير، فإن نَشِبَت حربٌ بين فئتين، أو بين جماعتين، أو بين أمَّتين، أو بين دولتين، فما الذي يحصل؟ الحرب تستعر وتستمر حتى تحرق الأخضر واليابس ولا تقف، وقد سمعت قبل أيام أن أفقر دولتين في العالم من دون استثناء نشبت بينهما حرب، وتكاليف هذه الحرب كل يوم مليون دولار، طبعاً لصالح الطرف الآخر الذي يبيعهما السلاح. على كلٍ جُعِلَت هذه الأشهر الحُرُم من أجل أن يحرَّم فيها القتال، فحينما تنشب حرب ويأتي شهر رجب تقف الحرب، وليس هناك غالب ولا مغلوب من أجل الكرامة الإنسانية.

والإنسان أحياناً يُضَحِّي بكل شيء، ويُحْرِق ويتلف كل شيء من أجل كرامته، فإذا نشبت الحرب تعلو قضية الكرامة الإنسانية، فكل خصمٍ مصرٌ على متابعة الحرب، فإذا جاء هذا الشهر الحرام، فهذا منهج الواحد الديَّان، تقف الحرب، وليس هناك منتصر ولا منهزم، ولا غالب ولا مغلوب، فإذا ذاق الناس طعم السِلم، وارتاحوا، وأمنوا، فلعلَّهم يُتابعون طريق السلام، وهذه حكمة الله عز وجل، فحروبٌ كما تعلمون نشبت بين أمتين، أو جماعتين، أو شعبين مسلمين، كانت الكلفة مليون قتيل والدولتان المتحاربتان تراجعتا مئتي عام، فلو أنهما طبَّقتا منهج الله عز وجل لما وصلتا إلى هذه النتائج المدمِّرة..

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

[سورة التوبة: 36]

هذه بعض الحِكَم، فالحرب والقتال في الأشهر الحُرُم محرَّم من أجل حفظ ماء الوجه، وحقن الدماء، وحفظ الأموال، وسلامة الحياة.

حكم القتال في الأشهر الحرم كبير :

أرسل النبي عليه الصلاة والسلام سَرِيَّةً من ثمانيةٍ من أصحابه الكرام، وأعطى قائد السريَّة " عبد الله " كتاباً أمره أن يفتحه بعد يومين، فتحه فإذا النبي عليه الصلاة والسلام يأمره أن يَرْقُبَ عيرَ قريش فيما بين مكة والمدينة، وأن يرقُب حركاتها وسكناتها، ويبدو أن هذا الصحابي الجليل وجد قافلةً، فأسر اثنين، وقتل واحداً، وفر ثالثٌ وجمع الغنائم، وجاء بالأسيرين والغنائم إلى النبي عليه الصلاة والسلام. والنبي عليه الصلاة والسلام لم يأمره بهذا، فلم يقبل الغنائم، ولا أن يبقى الأسيران، لأن هذه المناوشة وقعت في يومٍ هو عند قائد السريَّة مِن الأشهر غير الحُرُم من جمادى الآخرة، وبحسابٍ آخر هو أول رجب، ولذلك أقامت العرب النَكِير، أقامت الدنيا ولم تقعدها، وقالوا: إن محمداً ينتهك حرمة الأشهر الحرم، وإنه قتل في الأشهر الحرم، وأخذ الأموال وأسر الأسرى في الأشهر الحرم.

وكما تعلمون فإن أفراد الطرف الآخر دائماً يراقبون أهل الحق بمناظير مكبِّرة، يحسبون على المؤمن أنفاسه، فإذا حدث خطأٌ طفيف كبَّروه مئة ألف مرة، وهذا الذي حدث، أن العرب أقامت الدنيا ولم تقعدها وهي تقول: إن محمداً انتهك حرمة هذه الأشهر، وقتل في هذه الأشهر وأخذ الغنائم في هذه الأشهر، وأسر في هذه الأشهر، واهتم النبي عليه الصلاة والسلام كثيراً لأنه لم يكن يريد أن يقع الذي وقع، فجاءت الآية الكريمة تُبَرِّئُ قائد هذه السرية، وتبرِّئ الذي أمره بهذا. فقال الله عز وجل:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ)

أي أيجوز القتال فيه؟ وأن تنتهك حرمته؟ وأن يقتل فيه إنسان؟ وأن يُؤْسَر فيه إنسان؟ أيجوز أن تسلب فيه الأموال كغنائم؟

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ)

ما حكم القتال فيه؟ وكأنه تعريضٌ بما فعل قائد السرية، فقال الله عز وجل:

(قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)

كبير.. ولكن الإسلام ليس من السذاجة بحيث يجعل من هذه المُقَدَّسات مِتْراساً لأهل الكفر والضلال.

أمانة المجالس :

فكرة دقيقة جداً لا بد من التوضيح فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إنما المجالس بالأمانة))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

فما يقال في أي مجلس يجب أن يبقى سراً بين مَن حضر هذا المجلس، ولا يجوز لواحدٍ من الحضور أن ينقل ما جرى في هذا المجلس للناس، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنما المجالس بالأمانة))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

بل إن النبي ذكر أدق من هذا، إذا حدَّثك إنسانٌ حديثاً، وشعر أن إنساناً قد مر إلى جانبه فالتفت، التفاته الحذر دليل أن هذا الحديث يجب أن يبقى أمانةً بينك وبينه، الحديث المشهور:

((إنما المجالس بالأمانة))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

قال:

"إلا مجلساً سُفِك فيه دمٌ حرام، أو انتهك عرضٌ حرام، أو أخذ فيه مال حرام"

هذا المجلس ليس بالأمانة، كأن تكون جالساً بمجلس وهناك خطة لقتل إنسان فيجب أن تخبره، أو هناك خطة لانتهاك عرض امرأة، أو لسلب مال، فهذا المجلس الذي بُنِيَ على معصية ليس له

حُرْمَة، إنه بني على خرقٍ لحدود الله، وعدوانٍ على أشخاص، أو على أموالٍ، أو على أعراض، فقد حرمته، ويجب أن تُخْبِر أولي الأمر، هناك مثلاً خطة لانتهاك عرض فلانة، هذا مثل للتقريب، المقدسات مقدسات..

(قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)

وهذا صحيح إنه شيء مقدس، وحدود يجب ألا تُنْتَهَك، وقِيَم يجب أن لا تداس، ولكن الكفَّار حينما يصدُّون الناس عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وحينما يخرجون أهله منه، عدواناً، وظلماً، وتعنُّتاً، واستكباراً، وقهراً، أليس هذا أكبر؟

الحدود التي حدَّها الله إنما شُرِعِت لحماية المؤمنين لا لتكون متراساً للكفار:

لذلك فالفكرة الأولى: أنه لا يمكن أن تكون بعض المقدسات التي تعارف المجتمع عليها متاريس يَتَّرِسُ بها أهل الضلال، والأمثلة كثيرة جداً؛ فهناك فاسق فاجر، يفعل المنكرات والقاعدة الأساسية يجب ألا تغتابه، فهو مرتاح، إذاً يفعل وهو مطمئن أنه لن يتحدَّث مسلم عنه بسوء خوفاً من الله عز وجل، لا:

((لا غيبة لفاسق))

[الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه]

لا نسمح لفاسق فاجر أن يتَّرس بحرمة الغيبة، فالفاسق والفاجر لا غيبة له.

أراد مثلاً أن يبيع بيتاً، وهناك خلل في أساسه، فأنت ينبغي لك أن تخبر المشتري، ليس هناك مانع، أن تجعل هذا البيع فاسداً، وإنسان خَطَب من أسرة، وهو منحرف في سلوكه، وعباداته، وعقيدته، فيجب أن تبلِّغ عنه، أما أن تتخذ من تحريم الغيبة متراساً لك تَنْعُم به، وأنت على ضلال!! إذ دائماً القواعد، والمقدسات، والحدود تحمي المؤمنين ولا تحمي غير المؤمنين.

القضية دقيقة جداً: فالمقدسات والمحرمات والحدود التي حدَّها الله عز وجل هذه إنما شُرِعِت لحماية المؤمنين، لا لأن تكون متراساً للكفار والمنحرفين. فالفاسق ليس له غيبة، ومجلس ترتكب فيه الكبائر ليس له حرمة، وإنسان يريد أن يغش الناس ليس له حرمة إطلاقاً، فالمؤمن لا تظلمه، ولا تؤذه، ولا تسخر منه، أما حينما يخرج من مظلة الإسلام ويفعل ما يريد، فعندئذٍ يجب أن يلقى جزاء عمله، فهذا معنى قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ)

أيجوز أن يقاتل فيه؟ أيجوز أن تسفك فيه الدماء؟ أيجوز أن تسلب فيه الأموال؟ أيجوز أن يؤسر الأسير في الشهر الحرام ؟

لن تكون حرمة هذا الشهر سبباً لطغيان أهل الباطل :

قال تعالى:

(قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)

من حيث المبدأ، ولكن هناك عمل أكبر منه..

(وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

فالإنسان دون أن يشعر، تجد الشاب في أسرة ـ أنا أعالج قضايا جزئية صغيرة ـ لا يصلي، يأتي بعد منتصف الليل كل يوم، له أصدقاء سوء، متفلّت، غير منضبط، لا توجد عليه مشكلة بالأسرة أبداً. أما حينما يلتزم مسجداً، ويغضُّ بصره، ويرفض أن يختلط بمَن لا تحل له، ويرفض أن يخرج على ما أَلِفَه مَن حوله، يقام عليه النكير، أليس هذا صداً عن سبيل الله؟ ما دام الإنسان في فسقٍ وفجور لا أحد يحاسبه، بل إنهم يثنون عليه، أما حينما يلتزم شرع الله، ويرفض الاختلاط، ويرفض أن يغش الناس، ويرفض أن يتجاوز حدوده بل يلتزم ويخشى الله عز وجل، تقام عليه الدنيا ولا تقعد، أليس هذا صَدَّاً عن سبيل الله؟ فمن أكبر الجرائم أن تصد الناس عن سبيل الله.

هناك أسلوبٌ آخر: الشاب إذا التزم يُصَدُّ عن التزامه. الآن إذا التزم هذا الشاب مع إنسان فلا بد أن يطعنوا في هذا الإنسان، وذلك لوجه الشيطان، ولا بد من أن يسفّهوا مثله الأعلى، وأن يسفهوا عمله، فلا بد من أن يُتَّهم هذا الذي التزم معه، كصدٍ عن سبيل الله، والإنسان أحياناً يصد عن سبيل الله وهو يشعر، وأحياناً كثيرة يصد عن سبيل الله وهو لا يشعر، فكأن شيطاناً ينطقه، وكأن شيطاناً يدفعه، وكأن جهةً خبيثة تُغْريه، فإذا تحدَّث لا يتحدث إلا حديثاً لا يرضي الله عز وجل، فلا يتثبَّت، ولا يتأكَّد، ولا يتحقق، لذلك:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ)

أكبر من أن تُنْتَهَك حرمة هذا الشهر، فلن تكون حرمة هذا الشهر سبباً لطغيان أهل الباطل.

الصد عن سبيل الله له وسائل كثيرة جداً :

أيها الأخوة... لنحذر جميعاً دون أن نشعر فنصد عن سبيل الله؛ فإنسان سلك طريقاً صحيحاً، وآخر عاهد الله على أن يضبط لسانه، وثالث عاهد الله على أن يغض بصره، ورابع له جلسة مع أصدقاء، وهذه الجلسة ليس فيها ما يرضي الله، فانسحب منها، دَعْهُ يصطلح مع الله، فهناك شياطين الإنس يصدُّون عن سبيل الله وهم لا يشعرون، وكم من إنسانٍ يصدُّ مَن حوله عن سبيل الله وهو يحسب أنه يحسن صنعاً.

فأنت حينما لا تتأكد مما تقول، فبدون دليل أو تحقق أو تريث تتهم إنساناً جمع الناس على الحق، فأنت ماذا فعلت؟ صددت الناس عن سبيل الله. لمجرد أن ترى إحدى قريباتك المحارم قد تحجَّبت، إن ازدريت حجابها ولو عن طريق المزاح، فأنت بذلك صددت عن سبيل الله وأنت لا تشعر، فيجب أن تشجعها، وأن تثني عليها، وعلى قرارها.

أحياناً يأتي إنسان من بلادٍ بعيدة فيها كل شيء مريح، ولكنه خاف على مستقبله، ومستقبل أولاده، فعاد إلى وطنه ليخدم أبناء وطنه، فهناك مَن يتَّهمه بالجنون، هذا الذي يتهمه بالجنون يصد عن سبيل الله. طبعاً حينما يأتي الإنسان من بلدٍ متطور، غني، متفوق في الدنيا، إلى بلدٍ نامٍ سيواجه صعوبات كثيرة، فيجب أن تشجعه، والله أنا أقول لإنسان أراد أن يعود إلى وطنه ليخدم أمَّته: واللهِ ما اتَّخذت في حياتك كلِّها قراراً أصوب من هذا القرار، ولا أحكم من هذا القرار، والله عز وجل سوف يوَفِّقَكَ ويأخذ بيدك، ويحمي لك أولادك، فشَجِّع لأن الصد عن سبيل الله له وسائل كثيرة جداً، فإنسان ترك بلاد الكفر، بلاداً ترتكب فيها الفواحش على قارعة الطريق، بلاداً لا يمكن أن يضمن لأولاده بقاءهم فيها مسلمين؛ وجاء إلى بلده الأم ليخدم أبناء أمَّته، وقد يتحَمَّل بعض الصعوبات، لمجرد أن تخَطِّئه بهذا القرار فأنت ممن يصد عن سبيل الله.

فتاة مؤمنة تعرفت إلى الله، فلبست الحجاب، لمجرد أن تقول لها مثلاً: هذا الحجاب أذهب بعضاً من جمالكِ. فأنت صددتها عن سبيل الله دون أن تشعر، ولمجرَّد أن ترى إنساناً أراد الحلال وترك الحرام، ورضي بالحلال القليل، وترك الحرام الكثير، إن قلت له: لَمْ تكن عاقلاً في هذا السلوك، يجب أن تعلم علم اليقين أنك صددت عن سبيل الله.

صد الناس عن سبيل الله جريمة أكبر مِن أن تنتهك حرمة الشهر الحرام :

والله أيها الأخوة أكاد أقول لكم: هناك مليون أسلوب، دون أن تشعر، كله صد عن سبيل الله، قال: هذا أكبر من أن تنتهك حرمة الأشهر الحرم، أن تصد الناس عن سبيل الله، أن تمنع شاباً يصلي، وأراد طاعة الله، ورضي بالقليل الحلال وزهد بالكثير الحرام فتقول له: أنت مجنون بهذا العمل، فهذا صد عن سبيل الله، وعلى الإنسان قبل أن يقول كلمةً لا ترضي الله أن يحاسب نفسه حساباً كثيراً:

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

أحياناً بالمِهَن اليومية هناك أساليب مربحة وتربي ثروة طائلة ولكن فيها مخالفة، فأنت حينما تلزم جانب الشرع، ولا تقبل الاختلاط في معهدك فرضاً، أو تلزم جانب الشرع ولا ترضى أن تنتهك حُرُمات الله عز وجل في عملك الرسمي، أو في عملك التجاري فيقل دخلك، فأنت حينما تقول لهذا

الإنسان: أخطأت، وليس هذا هو الطريق الصحيح. فقد صددت الناس عن سبيل الله. فربنا عز وجل جعل صد الناس عن سبيل الله أكبر جريمة، بل أكبر مِن أن تنتهك حرمة الشهر الحرام..

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لعلي ألممت بجانبٍ من معاني هذه الآية، الصد عن سبيل الله في كل عصر، وفي كل مصر، وفي كل بيئة، إنك حينما تثبِّط عزيمة مؤمن فأنت قد صددته عن سبيل الله، وحينما تُسَفِّه عملاً مشروعاً فقد صددت عن سبيل الله، وإذا رأيت إنساناً يتصدَّق بماله، وقلت له: احفظ قرشك، أمسك يدك. هو ماذا يفعل؟ هل ينفق ماله على الملاهي؟ بل ينفق ماله في سبيل الله، ولمجرد أن تخوفه من الفقر إذا أنفق ماله في سبيل الله فقد صددت عن سبيل الله.

الموضوع يحتمل شواهد كثيرة جداً، وكل واحد منا محاسب على كل كلمة يقولها، فقد يتكلم بكلمة لا يلقي لها بالاً، فيهوي بها في جهنم سبعين خريفاً، لا تكن عوناً للشيطان على أخيك، كن عوناً له على الشيطان.

لقد حدثني مرة أخ متألم جداً من أخ زوجته فقال لي: شكوت له أخته، فقال لي: طلقها وبأول كلمة، يقول طلقها! فإذا دفعت الناس إلى تطليق زوجاتهم فقد صددت عن سبيل الله، وإذا دفعت الناس إلى أكل المال الحرام فقد صددت سبيل الله، وإذا دفعتهم إلى الحرام فكذلك صددت عن سبيل الله.

حينما ترفض حُكْماً من أحكام الشرع الثابتة بالكتاب والسُّنة فهذا نوعٌ من الكُفْر:

جريمة ثانية ارتكبها الكفار:

(وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ)

أيضاً هذا المفهوم يجب أن يوَسَّع قليلاً، طبعاً كلمة " كفر " كلمة كبيرة جداً، لكن لهذه الكلمة معنى ضيّقاً ولها معنى مُتَّسِع، فالمعنى الضيِّق: أن تنكر وجود الله، أو أن تنكر هذه الأديان السماوية، أما المعنى الموسَّع: فحينما ترفض حكماً لله، فهذا كفر.

فإذا قلت مثلاً: إن قطع اليد، هذا الحد لا يتناسب مع هذا العصر، فهذا عصر حقوق الإنسان، وكرامة الإنسان، والإنسان هو الهدف، فأنت إن قلت هذا الكلام المعسول كفرت دون أن تشعر، لأنك رددت حكماً ورد في القرآن الكريم، والله عز وجل يعلم السر وأخفى ويعلم ما سيكون، فحينما ترفض حكماً لله، وحينما ترفض مثلاً (الاستثمار الرِبَويّ) يقول: هكذا العالم كله يثمِّر أمواله عن طريق البنوك والربا، فماذا نفعل؟ لا بد من هذا، تقول له: يا أخي هناك آية:

(فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة البقرة: 279]

يقول: هذا القرآن ليس لهذا العصر، فأنت حينما ترفض حُكْماً من أحكام الشرع الثابتة بالكتاب والسُّنة، فهذا نوعٌ من الكُفْر.

الكفر المبطَّن :

قال تعالى:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

[سورة النساء: 65]

لو فرضنا احتكم شخصان إلى عالم، والعالم أدلى برأيٍ مُدَلَّلٍ بالكتاب والسُّنة، وحكم وفق كتاب الله، فإذا رفض الطرف الذي حكم عليه هذا الحكم فقد انخلع منه الإيمان، لأن الله عز وجل قال:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

[سورة النساء: 65]

طبعاً في حياة النبي يُحَكَّم هو بالذات، أما بعد موته فتحكم سُنَّته..

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

[سورة النساء: 65]

فأنت حينما ترفض حكم النبي، وترفض سنة النبي، فهذا نوعٌ من الكفر ولذلك قالوا: هناك كفرٌ يُخْرِجُ من المِلَّة، وهناك كفر دون كفر، وهناك إنسان ليس مقتنعاً ببعض الأوامر، وليس مقتنعاً ببعض السُنَن، فعدم قناعته ببعض الأوامر، وعدم قناعته ببعض السنن هذا نوعٌ من الكفر المُبَطَّن، وهذا كفر دون كفر، والآية الكريمة:

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ)

[سورة التوبة: 54]

كفروا:

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

[سورة التوبة: 54]

معنى ذلك أنهم يصلون:

(وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

هَمّ الكفار أن يأتوا بتشريع أو بأسلوب غير أسلوب الدين وشريعته :

أنا حينما لا أعبأ بأمر الله ولا بنهيه، ولا أقيم وزناً لسُنَّة النبي، ولا أُعَظِّم شعائر الله، فهذا نوعٌ من الكفر المُبَطَّن، إنه كفرٌ دون كفرٍ، وما أكثر مَن يتحدث ويقول: هذا لا يصلح لهذا الزمان، وهذا لا يمكن أن يكون، ويقول: هذا لا بد من تعديله، وهذا لا بد من إلغائه. فهذا الذي يريد أن يقدِّم بين يدي الله ورسوله تشريعاً أو منهجاً غير منهج النبي، فقد وقع في كفرٍ من النوع الثاني. ولذلك الآية الكريمة دقيقة جداً، وهي قوله تعالى:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 73]

أي أن جُهْد الكافرين من عهد النبي وإلى قيام الساعة أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، ليحل محل دينهم منهجٌ آخر، وطريقةٌ أخرى، وأسلوبٌ آخر، وتشريعٌ آخر:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً*وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً*إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ)

[سورة الإسراء: 73-75]

فهَمُّ الكفار أن يأتوا بتشريعٍ، أو بطريقةٍ، أو بأسلوب غير أسلوب الدين وشريعته وطريقته.

الصد عن بيت الله الحرام هذا أيضاً من الجرائم الكبرى :

قال تعالى:

(وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

هذا البيت، بيت الله المعمور، هو أول بيت وضع للناس اتخذه الله بيتاً له، ومن دخل هذا البيت فهو آمن، جعله الله مثابةً للناس وأمناً..

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً)

[سورة البقرة: 125]

حينما تُسَفِّه عظمة هذا البيت، فهذا أيضاً من الجرائم الكبرى، فإذا قال لك إنسان: والله أنا متشوق أن أذهب إلى بيت الله الحرام. إن سَفَّهْتَ هذه الرغبة عنده، فهذا نوع من الصد عن بيت الله الحرام، وإن صددت الناس عن الحج أو عن العمرة، وكانوا مشتاقين إليها، فهذا نوعٌ من الصد عن بيت الله الحرام، الذي جعله الله مثابة للناس، وجعله أمناً لهم، وجعل العطاء فيه جزيلاً، " فمن وقف في عرفات ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له "، فأنت في الحج كأنك تفتح مع الله صفحةً جديدة تعود كيوم ولدتك أمك، فالصد عن سبيل الله والكفر به، والصد عن المسجد الحرام، من الكبائر التي دونها انتهاك حرمة الشهر الحرام.

(وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ)

إنسان عُذِّب لأنه قال: ربي الله!! فكل إنسان مستقر في بلده، وفي عمله، وبيته، لأنه قال: ربي الله، يجب أن تخرجه من بيته؟! أيضاً هذا عدوانٌ كبير جداً.

الفتنة أكبر من القتل :

أيها الأخوة... هذه الآية دقيقة جداً:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ)

أما الحقيقة الدقيقة:

(وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ)

أوضح شيء: لو أن جاهلياً وَأَدَ ابنته الصغيرة التي هي كالمَلَك فتاة بريئة طاهرة، لأن أباها كان جاهلياً دفنها في الرمال وهي حيّة، طبعاً ارتكب جريمة ما بعدها جريمة، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير: 8-9]

أما هذا الأب الذي يتساهل مع ابنته فتخرج بثياب فاضحة، تبرز كل مفاتنها، ويسمح لها أن تلتقي مع مَن تشاء، وأن تجلس في أي مكان تشاء، وأن تأتي إلى البيت في ساعةٍ متأخِّرة، مثل هذا الأب لم يئِد ابنته بل أطلقها، وأطلق لها حريتها، وجعلها تفعل ما تريد، فقد فتنها عن دينها فانحرفت، وفسقت، وسقطت، أي البنتين أسلم مصيراً في يوم القيامة؟ الأولى إلى الجنة لأنها ماتت قبل التكليف، أما الثانية فتقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي.

الفتنة أكبر من القتل، فإذا قتلت إنساناً وكان مظلوماً، وكان مؤمناً فقد مات على الإيمان قتلاً، وذهب إلى الجنة، أما إنسان ما قتلته، بل فتنته عن دينه، وأغريته بالمعاصي، ودللته على الزنا، وعلى شرب الخمر، وجعلته يرتاد نوادي القمار، فصار مخموراً مقامراً، زانياً عربيداً فأنت لم تقتله، ولكنك فتنته عن دينه.

حدثوني: أن إنساناً صار يُسَجِّل ما تبثُّه الفضائيات المنحرفة ـ الأفلام الإباحية ـ يسجلها، وجاء بأجهزة عرض في دكان صغيرة، وسمح للشباب أن يروا هذه الأفلام بأجر بسيط، أقسم لي أحدهم أن شباباً كثيرين كانوا قد سلكوا طريق حفظ كتاب الله، وارتادوا المساجد، فلما دخلوا وشاهدوا هذه الأفلام، خرجوا من دينهم كله؛ فقد ترك القرآن، وترك الحفظ، وترك الجامع، لأنه شاهد شيئاً لا يعرفه. فالفتنة أكبر من القتل، فإنسان قتلته، إذا كان مؤمناً مظلوماً، فإلى الجنة، أما إنسان فتنته، وأغريته بالمعصية، وبكل منكر فأنت رفيقه في النار!! وإنني أعرف إنساناً ترك الصلاة بسن الخامسة والخمسين، واشترى هذا الصحن، والفتنة أكبر من القتل، فيجب أن نعلم علم اليقين؛ أن الإنسان حينما ينحرف، ويفسق، ويفجر يهلك نفسه، فالهلاك الخطير أن يفسق الإنسان، وأن يجحد شرع الله عز وجل.

الارتداد عن الدين أنواع :

الآن حقيقة جديدة: فالله عز وجل خالق الكون، وخالق البشر، وهو العليم الخبير:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

قال:

(وَلَا يَزَالُونَ)

لا زال غير (لا يزال) التي تفيد الاستمرار..

(وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا)

جهد الكفار أن يردوا المؤمنين عن دينهم من خلال المعاصي والآثام، فقد يَئِسَ الكافر أن يواجه هذا الدين مواجهةً، فماذا يفعل؟ يفجِّره من داخله، فيصطنع اتجاهات في الدين ليست صحيحة، وتعطى فتاوى غير معقولة إطلاقاً، فيصير الدين غازاً، لقد كان شيئاً صُلْبَاً له حجم، ووزن، وطول، وعرض، وارتفاع، ثم صار ليِّناً، ثم غدا لزجاً، ثم انقلب سائلاً، ثم أصبح غازاً لا شيء فيه. فهناك أساليب لمحاربة الدين وأحد هذه الأساليب محاربة السُّنة، وأحد هذه الأساليب الفتاوى غير المعقولة إطلاقاً، فكل شيء مباح، ولكل معصيةٍ فتوى، وهذا أحد الأساليب من أجل أن يرتد المؤمن عن إيمانه؛ فهذه سمح بها، والربا سمح به، والاختلاط، والغناء، والرقص، والتمثيل سمح بها كلها، والربا بنسب سمح بها، فماذا بقي من الدين؟

الارتداد عن الدين أنواع: إما الإغراء بالمعاصي والآثام، وإما إصدار الفتاوى غير المعقولة التي تلغي هذا المنهج القَويم، وإما محاربة أصل الدين. وعلى كلٍ فمحاربة مبادئ الدين طريقٌ مسدود، فأي كاتب يتكلَّم كلمة فيها إساءة للدين، تقام عليه الدنيا ولا تقعد، والطريق الآخر وهو إغراء الناس بالمعاصي والآثام، وهذا نوع من الارتداد عن الدين.

المنافق عمله يهلكه ويفسد عليه آخرته :

قال تعالى:

(وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

الناقة أحياناً تأكل أكلاً غير معقول، فينتفخ بطنها وتموت، نقول: حبطت الناقة، أي ماتت وهلكت، والمنافق حينما يأخذ من الدنيا فوق ما يكفيه من طريقٍ غير مشروع، وحينما ينغمس بالمعاصي إلى قمة رأسه، فهذا الإنسان يحبط عمله، أي إن عمله أهلكه وأفسد عليه آخرته، قال:

(وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ)

أحياناً يرتد الإنسان عن الدين دون أن يُعْلِن ذلك، فالدين لا يعجبه، ولا أهل الدين، ولا منهج الدين، ولا سُنَّة النبي الكريم، ولا العبادات، كلها تتناقض مع هذا العصر، ولا يعجبه أن يصلي خمس صلوات في اليوم أو أن يصوم، فالإنسان له طاقة، وبالصيام تضعف طاقته، فلم يعد منتجاً بالصيام، فالذي لا تعجبه العبادات، ولا العقائد، ولا التوحيد، ولا منهج النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا مرتد عن دينه دون أن يشعر.

أعمال يحبطها الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

حبطت أعمالهم أي أهلكتهم، وهناك بالطبع معانٍ أخرى لإحباط العمل، فالله قال:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

أعمال كالجبال، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها، إذاً أعمال تمثيليّة:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ أَخوانكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه عَنْ ثَوْبَانَ]

أحياناً يكون الإنسان ذكياً جداً، فيعمل عملاً طيباً مقبولاً عند الناس، والناس يثنون عليه، أما هو فليس كذلك، فربنا عز وجل يحبط عمله، فالإحباط قد يكون العمل طيباً ولكن وراءه نفاق أو نية خبيثة، فهذه النية الخبيثة وهذا النفاق يحبطه.

شيء ثانٍ: أحياناً قد يكون العمل خلاف الشرع، قرأت خبراً أن بأمريكا يانصيباً، الجائزة الأولى ثلاثمئة وخمسون مليون دولار، ما هذه الثروة الطائلة؟ لكن العمل خلاف الشرع مثلاً، إما أن يكون العمل مخالفاً للشرع بالأساس، أو أن يكون وفق الشرع ولكن نيته ليست سليمة، كلا العملين يحبطه الله عز وجل، لذلك:

(وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

إحباط العمل :

سأل النبي الكريم :

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟ قالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ الله من لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ، قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: المُفْلِسُ مِنْ أمّتِي مَنْ يَأتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأتِي قد شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فيقعُدُ فَيَقْتَصّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْتَصّ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمّ طُرِحَ في النّار))

[مسلم عن أبي هريرة]

هذا هو إحباط العمل..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

بالمقابل:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

الإيمان الصحيح..

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا)

بالمعنيين المعنى التاريخي: ترك مكة إلى المدينة، والمعنى الآخر: هجر المنكر..

(وَجَاهَدُوا)

بذلوا الجهد في سبيل الله..

(أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (75- 95):تفسير الآيتان 218-219، الحكمة من تحريم الخمر والميسر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-05-26

بسم الله الرحمن الرحيم

تحديد المصطلحات جزء من العلم :

أيها الأخوة الكرام.. مع الدرس الخامس والسبعين من دروس سورة البقرة، ومع الآية التاسعة عشر بعد المئتين والتي قبلها، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الحقيقة تحديد المصطلحات جزء من العلم فالله عز وجل حينما يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

آمنوا أي الإيمان الذي يريده الله عز وجل، وآمنوا الإيمان الذي ينجيهم، وآمنوا الإيمان الذي يحملهم على طاعة الله عز وجل، فليس كل إيمان عند الله إيماناً، وليس كل إسلام عند الله إسلاماً.

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الحجرات: 14]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)

[سورة النساء: 136]

معنى ذلك أن إيمانهم ليس مقبولاً عند الله عز وجل، فالله جلّ جلاله إذا قال: "آمنوا" القصد من هذا الكلام الإيمان الذي بني على بحث ودرس وتأمل، والإيمان الذي تستكمل فيه أركان الإيمان من إيمان بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وإيمان بأنبيائه ورسله، وإيمان بكتبه، وإيمان بالملائكة، وإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى، بمجمل هذا الإيمان ينبغي أن تطيع الله عز وجل.

الجهاد ثلاث مراتب :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا)

هاجروا بالمعنى الواسع والمعنى الضيق، فبالمعنى الواسع هجر المنكر، وهجر كل معصية، وهجر كل شبهة، وبالمعنى الضيق ترك بلداً منع فيه من إقامة شعائر الدين وهاجر إلى بلد أتيح له أن يعبد الله فيه.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي بذلوا الجهد، فنحن في دار عمل، وفي دار ابتلاء، فالتكليف طبيعته ذو كلفة، وهناك شهوات أودعت في الإنسان وهناك منهج الله عز وجل يقنن لك هذه الشهوات، يقننها بقنوات نظيفة، فأن تحمل نفسك على طاعة الله وعلى أن تقنن هذه الشهوات في أقنية نظيفة طاهرة تفضي بك إلى الآخرة، وإلى دار السلام فهذا هو الجهاد، ولذلك فالجهاد ثلاث مراتب؛ أولاها: أن تجاهد نفسك وهواك لأن المهزوم أمام نفسه لا يمكن أن يفعل شيئاً مع غيره، والجهاد الثاني: الجهاد الدعوي، أن تتعلم القرآن وأن تعلمه، وقد يتاح للإنسان الجهاد القتالي. والأصل أن تحمل نفسك على طاعة الله عز وجل وأن تجاهد نفسك وهواك.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ)

الجنة التي هي فضل الله لا يكفيها العمل بل لا بدّ من رحمة الله :

الإنسان المؤمن يرجو ويخاف، فلو بنيت علاقته مع الله على الرجاء دون الخوف اختلت هذه العلاقة، ولو بنيت علاقته مع الله على الخوف دون الرجاء لاختلت هذه العلاقة، فالأنبياء والمرسلون والمؤمنون الصادقون يعبدون الله خوفاً وطمعاً ورغبة ورهبة، فهذا الوضع المتوازن يعني ترجو رحمته وتخاف عذابه، ترجو رحمته بحيث لا تطمع فيها فتقع في معصية، وتخشى عذابه بحيث تحملك هذه الخشية على طاعته دون أن تيأس من رحمته. فهي قضية فيها توازن دقيق، ترجوه دون أن تطمع في رحمته طمعاً يحملك على معصية الله، وتخافه خوفاً دون أن يحملك على اليأس من رحمة الله، فالخوف طبيعي ما لم يحملك على اليأس، والرحمة طبيعية ما لم تحملك على معصية، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إنهم يعبدون الله رغباً ورهباً، فهؤلاء الذين آمنوا الإيمان الحقيقي وهاجروا تركوا المنكر، وجاهدوا في سبيل الله، وبذلوا الجهد ليصلوا إلى مرضاة الله عز وجل وهؤلاء في الأساس يرجون رحمة الله، ولذلك دعا النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا))

[مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ]

أنت لو عملت عملاً صالحاً يجب أن تبقى قلقاً لعل في هذا العمل نية لا ترضي الله، ولعل في هذا العمل حظاً من حظوظ الدنيا، استعذ بالله من عمل لا يرفع، ولذلك فقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أن الجنة التي هي فضل الله عز وجل لا يكفيها العمل بل لا بد من رحمة الله، هذا الكلام يحتاج إلى تفصيل.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ)

إلا أن يتغمدني الله برحمته. فالجنة محض فضل تحتاج إلى رحمة الله، إن كل عملك في الدنيا لا يكفي ثمناً للجنة، ولكنه قد يكون سبباً لدخول الجنة، وفرق كبير بين أن يكون العمل سبباً، وبين أن يكون العمل ثمناً، كل عملك الصالح لا يكفي ليكون ثمن الجنة. إلا أن يتغمدني الله برحمته. والجنة محض فضل، والنار محض عدل.

كل ما عند الله من خير متمثل في رحمته :

أيها الأخوة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ)

ما هي رحمة الله؟ الله عز وجل يقول:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف: 32]

أي شخص يملك أعمالاً تجارية تدر عليه ألوف الملايين

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

وإنسان يملك شارعاً بأكمله بكل أبنيته في أروج عواصم العالم،

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

وإنسان يملك شركة متعددة الجهات والفروع ولها حجم مالي خيالي،

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

إن رحمة الله عز وجل مطلق عطائه من معانيها السلامة سلامة الصحة، وسلامة القلب، وسلامة النفس، ومن معانيها أن يحبك الناس، وأن تكون آمناً مطمئناً، وأن تصل نعم الدنيا بنعم الآخرة، وأن تنتهي بك دنياك إلى جنة عرضها السماوات والأرض، ورحمة الله أثمن شيء يملكه الإنسان.

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الأعراف: 56]

إن كل عطاء الله، وكل علم الله، وكل رحمة الله، وكل عدل الله، وكل قوة الله، وكل ما عند الله من خير متمثل في رحمته.

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

رحمة الله مطلق عطاء الله عز وجل :

إذا حجبت عنك رحمة الله وجاءتك الدنيا بحذافيرها فأنت أشقى الأشقياء، ولو حجبت عنك الدنيا كلها ومنحت رحمة الله فأنت أسعد السعداء، ورحمة الله أنك مع الله. إنك تستفيد من علم الله، ومن قدرة الله، ومن فضل الله، ومن غنى الله، وكل ما عند الله بين يديك إذا كنت موصولاً به، وكل ما عند الله محجوب عنك إذا كنت مقطوعاً عنه، إذاً رحمة الله مطلق عطاء الله عز وجل.

الصحابة الكرام عاشوا حياة خشنة لكنهم كانوا مغموسين برحمة الله، بينما أناس كثر في أعلى درجات الغنى والقوة حجبت عنهم رحمة الله فهم في أشقى حال.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

النبي عليه الصلاة والسلام من شدة أدبه مع الله قال في دعائه الشريف: " نسألك موجبات رحمتك ". فالرحمة لها موجبات ومن موجبات الرحمة أن تكون مستقيماً على أمر الله حتى تستحق رحمة الله، ومن موجبات الرحمة أن تكون مخلصاً لله حتى تستحق رحمة الله، وأن يكون لك عمل صالح يرضي الله حتى تستحق رحمة الله عز وجل.

السبيل إلى التقرب إلى الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام... الآية التي تليها:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ)

تحدثت بادئ ذي بدء في درس سابق على ما أذكر أن كلمة "يسألونك" تعني الشيء الكثير، فأنت حينما تعرف الله تسأل عن أمره ونهيه، وحينما تعرف الله فلا بد من أن تتوجه إليه أو لا بد من أن تتقرب إليه، فكيف السبيل إلى التقرب إلى الله عز وجل؟

إنسان من بني جلدتك تحب أن تتقرب منه تزوره، وتقدم له هدية، وترعى ابنه، وتعين من حوله، فهذه وسائل التقرب إلى البشر أما إذا أردت التقرب إلى الله عز وجل فما السبيل؟ أن تطيعه، وأن تنتهي عما عنه نهاك، وأن تأتمر بما أمرك به، فأكبر وسيلة للتقرب إلى الله عز وجل أن تأتمر بما أمرك وأن تنتهي عما نهاك.

والتسلسل المنطقي حينما تتعرف إلى الله، وحينما ترى أن الله هو كل شيء، وأن الأمر كله بيد الله، وأن العطاء كله من عند الله، وأن الله هو المعطي، وهو المانع، وهو الرافع، وهو الخافض، وهو المعز، وهو المذل، فكيف السبيل إلى التقرب إليه؟

نحن في حياتنا الدنيا إذا التقيت بإنسان على شيء من العلم أو شيء من الخلق تتمنى أن تلتقي به، وأن تزوره، كيف السبيل إلى أن نلتقي؟ إلى أن نجلس معاً؟ إلى أن نزورك؟ إلى أن تزورنا؟ أنت حينما ترى إنساناً متفوقاً قليلاً تتمنى أن تلتقي به.

إنك إن عرفت الله عز وجل فالشيء الأول بعد هذه المعرفة كيف أتقرب منه؟ وكيف أتصل به؟ وكيف أنتفع برحمته؟ وأنال من عطائه؟ وأسعد بقربه؟ فلذلك "يسألونك"، ومعنى ذلك الذي لا يعرف الله لا يسأل أبداً، لم السؤال؟ كله عنده سواء، أما الذي يسأل فهو الذي يعرف الله، وهل هذا يرضي الله؟ وهل هذا العمل يحجبني عن الله؟ وهل هذا العمل يسخط الله علي؟ "يسألونك"، مادام هناك سؤال فهناك اهتمام وهناك معرفة.

القرآن الكريم فيه تشدد يفوق حدّ الخيال في شؤون العقيدة :

قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ)

أولاً هناك حقيقة لا بد من أن تكون واضحة لكم وهي أمور العقيدة التي لا مهادنة فيها، ولا تدرج فيها، ولا مداراة فيها، الحق هو الحق.

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[سورة القلم: 9]

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

تجد القرآن الكريم فيه تشدد يفوق حد الخيال في شؤون العقيدة.

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ*لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ* فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

[سورة الحاقة: 44-47]

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً*وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً*إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً)

[سورة الإسراء: 73 - 75]

هناك تشدد مذهل في شؤون العقيدة أما في شؤون التشريع فهناك تدرج :

هناك تشدد مذهل في شؤون العقيدة والتوحيد والرسالة، أما في شؤون التشريع فهناك تدرج، وليس معنى التدرج أنه نقيض التشدد لا ولكن مادام الناس قد ألفوا شيئاً فلا بد أن نأخذ بيدهم برفق إلى الصواب، وهذا ماذا يعلمنا؟ لو أنك التقيت مع إنسان يجهل كل شيء عن الدين ورأيت في بيته مئات المعاصي فينبغي لك أن تبدأ بعقيدته، وأن تتعامى عن هذه المعاصي إلى حين، ثم تأخذ بيده مرحلةً مرحلة، ودرجة درجة، وخطوة خطوة، كي تخلصه من كل هذه المعاصي والآثام، أما لو قلت له في بيتك مئة شيء محرم فيجب أن تقلع عنها فوراً، فهناك على سبيل الطرفة أناس في بعض البلاد الإسلامية أسلم على أيديهم عدد كبير من وثنيي آسيا، أول خطوة أمروهم بها أن يختتنوا، فلم يقبلوا، فجعلوا الختان شرطاً لازماً لقبول إسلامهم، والاختتان لا بد منه، لكن تمهل قليلاً، بدؤوا بالختان فرفض الإسلام.

لا مهادنة في أمور العقيدة، ولا يوجد حل وسط، ولا تساهل، ولا مساومة، ولا قبول، أما في أمور التشريع فهناك تدرج، والتدرج لا يتناقض مع التشدد، فالتشدد يقابله التساهل أما التدرج فشيء آخر، وهذه نقطة مهمة جداً.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ)

في الآية التالية أول إشارة في القرآن الكريم إلى أن الخمر مادة ضارة :

قال الله عز وجل:

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل:67]

أي التمر والعنب تصنعون منه مادة مسكرةً من دون تعليق، ورزقاً حسناً، فهم أن هذه المادة المسكرة ليست رزقاً حسناً، هذه أول إشارة في القرآن الكريم إلى أن الخمر مادة ضارة.

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل:67]

قد أقول هذه مادة غذائية أمامك، وهذه مادة غذائية نافعة، فعندما وصفت المادة الثانية بأنها نافعة فهم أن المادة الأولى ليست نافعة، يعني هذه المادة الغذائية فيها فساد.

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل:67]

هذه أول إشارة في كتاب الله إلى الخمر، ولكن سمح لهم، ثم كان بعض أصحاب رسول الله يصلي فقرأ قوله تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

[سورة الكافرون: 1-2]

وكان في سكر، فنزل قوله تعالى:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

المرحلة الثانية، ولكن متى يشرب؟ ينبغي له أن يصلي الفجر بوقته ويذهب إلى عمله، وينبغي له أن يصلي الظهر وبعدها العصر وبعدها المغرب وبعدها العشاء فما بقي إلا أن يشرب كأساً في منتصف الليل ضاق الوقت.

تدرج القرآن الكريم في تحريم الخمر :

أول آية:

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل:67]

الآية الثانية:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

الآن:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ)

الخمر هو الستر، والخمار هو الحجاب، وخامره خالطه، فالخمر مأخوذة من الستر، والعقل يغيب بالخمر، دققوا: العقل أشرف شيء في الإنسان، وحينما يشرب الإنسان الخمر يغيب عقله عنه، وقد سمعت مرة عن رجل مرموق جداً اجتماعياً، وله مكانة كبيرة جداً، كان في جلسة وتناول الخمر فتكلم كلاماً فصار في الوحل لأنه غاب عقله فانحرف قوله.

فالله عز وجل منح الإنسان أعظم نعمة على الإطلاق نعمة العقل، وقد جعل الله العقل مناط التكليف، وسبب التكليف هو العقل، وهل يعقل أن يأتي الإنسان مختاراً بفعل يغيب عقله عنه وهو أشرف شيء في حياته؟ وهل يخفى عليكم أن مقاصد الدين الكبرى حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العرض، وحفظ المال، وحفظ العقل، وأن العقل سبب في حفظ هؤلاء جميعاً، فمتى تبحث عن طريقة تحفظ بها دينك؟ إذا كان عقلك يقظاً، ومتى تبحث عن وسيلة تحفظ بها حياتك؟ إذا كان عقلك سليماً، ومتى تبحث عن أساس تحفظ به عرضك؟ إذا كان عقلك سليماً. والشواهد لا تعد ولا تحصى أن الإنسان وهو في حالة سكر ـ وقد ورد هذا في بعض الأحاديث ـ قد يقع على أمه أو على عمته أو خالته أو على ابنته، تعطل العقل، فيمكن أن يأتي عملاً يجعله في الوحل، يمكن أن يقدم على قتل أولاده والشواهد كثيرة جداً.

الخمر يحجب عنك عقلك والميسر يفقدك مالك :

لماذا حرمت الخمر؟ لأن أشرف شيء منحك الله إياه هو العقل، وهذا الخمر يغيب عنك عقلك، فإذا أنت تتحرك حركة عشوائية ضالة منحرفة.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ)

الخمر تحجب عقل الإنسان عنه.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ)

الميسر من اليسر، إنسان يعمل سنة بأكملها ليجمع مبلغاً من المال ينفق منه طوال العام، قد يكسب في جلسة واحدة أضعاف هذا المبلغ بالقمار. وإنسان سافر واشترى بضائع وباع البضائع وجمع ثمن البضائع وهناك بضائع رجعت له، مشكلات لا تنتهي، يأتي المقامر في جلسة واحدة فيكسب أضعاف أضعَاف هذه التجارة المشروعة الرابحة في ليلة واحدة.

فسمي الميسر ميسراً من هذا القبيل، لكن لماذا هو حرام؟ لأنك حينما تجلس إلى أخيك هدفك أن تأخذ كل ما في جيبه، أية أخوة هذه أن تجلس إلى أخيك لتأخذ كل ما في جيبه، أو أن يأخذ كل ما في جيبك، فالذي يلعب القمار يألف الكسب السهل بلا جهد، وقد يدفع كل ما يملكه بهذه الجلسة، قال بعض الشعراء:

هو الداء الذي لا برء منه وليس لذنب صاحبه اغتفار

تشاد له المنازل شاهقات وفي تشييد ساحتها الدمار

نصيب النازلين بها سهاد وإفـلاس فيأس فانتحار

* * * *

الآن إن لم يجد المقامر من يقامر معه، وهو قد تعود على الكسب السهل لجأ إلى السرقة أو إلى الاحتيال، وحينما يفور دم المقامر فمن أجل أن يكيد لصاحبه قد يبيع أساس بيته، وقد يضحي بعرضه، وقد يفعل شيئاً لا يفعله عاقل في الأرض، فهذا هو الخمر الذي يحجب عنك عقلك وهذا هو الميسر الذي يفقدك مالك.

أساس الميسر كسب غير مشروع :

أساس الميسر كسب غير مشروع، إن كسب مال بلا عمل ونحن عندنا قاعدة: الأموال تأتي في الإسلام من الأعمال، وإذا أتت الأموال من الأعمال توزعت بين الناس جميعاً، فالكتلة النقدية التي بين أيدي الناس توزعت بين الناس جميعاً، أما إذا ولد المالُ المالَ، أو لم تأتِ الأموال عن طريق الأعمال فهذه مشكلة كبيرة جداً، فأنت حينما تسمح في مجتمع ما أن تكتسب الأموال من دون أعمال تجمعت الأموال في أيد قليلة وحرمت منها الكثرة الكثيرة، فالآية الكريمة:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

هذه الآية ليست هي الآية الفاصلة في الخمر لازلنا في التدريج.

(قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

إنسان يضيع عقله باختياره، أو إنسان باختياره يأخذ ما في جيب أخيه، أو يسمح له أن يأخذ ما في جيبه، أي كسب للمال أو فقد للمال بلا سبب مقنع خطأ.

(قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

المنفعة هنا هي تصور أصحابها أن هناك تجارة رابحة بالخمر، أو أن الإنسان ينسى همومه بالخمر هكذا يدعي بعضهم، وهذه نقطة عليها جواب دقيق، يا ترى إذا غاب الإنسان عن همومه هل ألغيت همومه؟ أم إذا غاب عن همومه فهل توقف مصدر الهم؟ لا الهم قائم، فماذا ينبغي له أن يفعل؟ بدل أن يأخذ المنوم ليغيب عن همه يجب أن يكون يقظاً ليعالج مشكلته. هذا الجواب الدقيق. فأنا حينما أكون غارقاً بالديون أيهما أفضل؛ أن يشرب الإنسان الخمر لينسى هذه الديون أم أن يبحث عن عمل يسد هذه الديون؟ فالجواب الدقيق أنه من يدعي أن شرب الخمر ينسيه الهموم فهذه دعوى باطلة كما تفعل النعامة حينما يتبعها عدو مخيف فتغمس رأسها بالرمل لئلا ترى، هل عدم رؤية العدو يلغي وجوده؟ أو يلغي بطشه؟ أبداً العكس، فشارب الخمر حينما يشرب الخمر لينسى همومه كالنعامة تماماً تغمس رأسها بالرمل لئلا ترى العدو والعدو وراءها وسينهشها.

الأشياء المحرمة إثمها أكبر من نفعها :

إذاً هذه المنافع للناس، شاربو الخمر يتوهمون أن شرب الخمر ينسيهم همومهم، قال تعالى:

(قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)

فالإثم أكبر بكثير ونحن في حياتنا اليومية، لو فرضنا أن إنساناً عمل عملاً ربح منه مئة وخسر مليوناً فهل يفعله؟ مستحيل، فربح مئة وخسارة مليون لا يفعله. والخير المطلق والشر المطلق لا وجود له، والأشياء المحرمة إثمها أكبر من نفعها، وسهرة مختلطة فيها شيء من السرور ولكن فيها عواقب وخيمة جداً، تخرب البيوت، وتنفر الأزواج من زوجاتهم، أما في أثناء السهرة فقد تبدو ممتعة للحاضرين ولكن كل واحد ينظر إلى زوجة الآخر ويتمناها له، فتقع مشكلة.

لذلك أيها الأخوة... الشر قد ينطوي على بعض الخير، والخمرة التي حرمها الله بنص القرآن الكريم أثبت الله لها بعض النفع:

(فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)

هذا اسمه أمر إرشادي، ونحن في عندنا أمران أمر تكليفي وأمر إرشادي، وأنا أقول لإنسان: إن شئت فعلت هذا، وإن شئت لا تفعل، فهذا اسمه أمر إرشادي، ونحن لازلنا في الأمر الإرشادي.

(وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)

التدرج يبدأ بإشارة ثم تحريم زمني ثم توجيه إرشادي ثم أمر تشريعي :

انتبهوا... أما حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة المائدة: 90]

صار هناك أمر تحريم، فهنا أمر إرشاد.

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة المائدة: 90]

هذا إشارة ثم تحريم زمني.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

[سورة النساء: 43]

فمن إشارة إلى أن الخمرة ليست رزقاً حسناً إلى تحريم زمني إلى توجيه إرشادي إلى حكم شرعي. فإشارة، تحريم زمني، وتوجيه إرشادي، ثم توجت هذه المراحل بالأمر التشريعي.

المعاصي الخطيرة يجب أن تبقي بينك وبينها هامش أمان :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة المائدة: 90]

أما كلمة فاجتنبوه فهي أشد أنواع التحريم على الإطلاق، ولو أن الله عز وجل قال: حرمت عليكم الخمرة مثلاً يجوز أن تبيعها وحرم عليك شربها، فيجوز أن تبيعها، وأن تتاجر بها، وأن تنشئ معصرةً لعصرها، وأن تروج لها، وأن تعلن عنها، أما حينما قال الله عز وجل:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

أي يجب أن تبقي بينك وبينها هامش أمان كبير، فكلمة "فاجتنبوه" دقيقة، فوزير الكهرباء إن نصب أعمدةً لتيار عالي التوتر يضع لوحات فيقول: توتر عالٍ ولا يقول: ممنوع اللمس، بل يقول: ممنوع الاقتراب لأن التوتر العالي له مساحة، والإنسان إذا دخل هذه الساحة يجذبه التيار وسيحرقه فوراً. فالبلاغ الحكيم لا أن تقول ممنوع مس التيار ولكن ممنوع الاقتراب من التيار لشدة خطره، فإذاً المعاصي الخطيرة يجب أن تبقي بينك وبينها هامش أمان، قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

والزنا معصية خطيرة، لها مقدمات ولها منطقة محرمة فإذا اقتربت من هذه المنطقة المحرمة وقعت بالزنا دون أن تدري. فالشريف هو الذي يهرب من أسباب المعصية لا من المعصية بذاتها. إذاً هناك آية كريمة:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

فيجب أن تبقي بينك وبين حدود الله هامش أمان.

الدعاة يحتاجون إلى حكمة في نقل هذا الدين :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة المائدة: 90]

انتهى الأمر، وفي آخر الآية:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ)

[سورة المائدة: 91]

الصحابة الكرام قالوا: لقد انتهينا يا رب. ففي ليلة واحدة أغرقت كل دنان الخمر وانتهى الأمر، ولكن أرأيت إلى هذه الحكمة التشريعية، إشارة لطيفة ثم تحريم زمني ثم أمر إرشادي ثم حكم شرعي هكذا التدرج وهذا درس للدعاة، فيمكن أن تتساهل، وأن تغض البصر عن إنسان تأخذ بيده إلى الله عن بعض المخالفات، وليس معنى هذا أن تقول له: إنها مباحة، لا، بل اسكت عنها وغض البصر إلى أن يقوى عوده.

طبعاً ممنوع الآن بعد آية الخمر التحريمية أن تقول: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى، فالآيات السابقة كلها نسخت، ولكن يجوز أن تستضيء بهذا التدرج التشريعي في معاملتك لمن كان بعيداً عن الدين، وأن تأخذ بيده خطوة خطْوة دون أن تقول له هذا مباح، فإن الحرام حرام، ولكن بين أن تجعل له كل حياته معصية فيبتعد عنك، وبين أن تتغافل عن بعض مخالفاته لتأخذ بيده إلى الله عز وجل.

فالآيات التي سبقت آية التحريم كلها الآن منسوخة، ولا يجوز أن نقول لشارب خمر صلِّ ولكن اشرب بين الصلوات، فهذا كلام مرفوض الآن، ولك أن تغض البصر عن بعض المخالفات تطبيقاً لمنهج هذه الآية في التدرج التشريعي فهذا ممكن، مثلاً هناك شخص يدخل إلى بيت فيجد فيه عصفوراً معلقاً فتقول: هذا حرام، نعم إنه حرام ولكن عنده ألف مخالفة أهم من هذه، هو لا يصلي بالأساس، فقبل أن تعطيه قائمة المحرمات التي رأيتها في بيته دله على الله أولاً. فالدعاة يحتاجون

إلى حكمة في نقل هذا الدين، والإنسان متعلق بأشياء كثيرة جداً غض البصر عنها مؤقتاً، وعرفه بالله عز وجل، فإذا عرف الله عز وجل باع روحه في سبيله.

هذه الآية جاءت قبل آيات الزكاة الدقيقة :

قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

قال العلماء: العفو هو الزيادة، أي أن الشيء الذي يزيد عن حاجتك يجب أن تنفق منه. هذه الآية جاءت قبل آية الزكاة المقننة.

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة المعارج: 24-25]

هذه الآية: قل العفو، أي أنت آكل، شارب، مرتاح، ساكن في بيت، وعندك شيء زائد عن حاجتك، فهذا ينبغي أن تنفقه تقرباً إلى الله عز وجل، وفي آية أخرى:

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ)

[سورة البقرة: 178]

أي من ترك له، فالشيء المتروك أو الشيء الزائد هذا الذي يمكن أن تنفقه وذلك في أصل الإنفاق قبل أن تأتي آيات الزكاة الدقيقة.

في أمور العلم هناك وسيط أما في أمور القرب فليس بينك وبين الله حجاب :

قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

بالمناسبة مثل هذه الآيات "يسألونك" وردت في القرآن الكريم في أكثر من ثلاث عشرة آية، وفي آية واحدة لم تأتِ كلمة (قل) بين السؤال والجواب:

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

[سورة البقرة: 222]

وغيرها من الآيات، إلا في آية واحدة:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

[سورة البقرة: 186]

استنبط العلماء أنه ليس بين العبد وربه حجاب، ففي أمور العلم هناك وسيط أما في أمور القرب فليس بينك وبين الله حجاب.

الخمر أم الخبائث :

أيها الأخوة... قبل أن ينهار الاتحاد السوفييتي بسنوات حرم الخمر كلياً، وفي حيثيات هذا القرار شيء لا يصدق، يعني تقريباً خُمْسُ ساعات العمل التي يبذلها الناس في العمل تذهب سدى لأنهم مخمورون، والإنفاق على الخمر أرقام فلكية، والخمر أعاق تقدم الأمة ولذلك حرم الخمر لا لأمر تعبدي بل لأمر مصلحي. فيجب أن نعلم دائماً أن الشيء الذي حرمه الله ضار في كل زمان ومكان، وفي كل عصر ومصر، فالخمر حرمتها أمريكا في عام 1933 وبذلت جهداً في تحريمها. في مقال قرأته لا أذكر تفاصيله: مئات الأشخاص أعدموا، ومليارات المبالغ أصبحت غرامات، ومئات المطبوعات، ثم أطلق الأمر لاستحالة التحريم، هذا حينما يحرم بشر أما حينما يحرم خالق البشر "فاجتنبوه" فقد انتهى الأمر.

قد تجد المسلم في بحبوحة كبيرة، قضية الخمر خارج أي نشاط له، أما غير المسلم أَلِفَ الخمر واعتاد عليها ودخلت في دمه فالمشكلة كبيرة جداً.

أيها الأخوة... أردت أن أقول إن هذا الدين عظيم، وأحد وجوه عظمته أن الشيء الضار محرم قطعياً، فالمسلمون في عافية كبيرة لأنهم بعيدون عن هذا الشراب الذي يغيب عقولهم، وتروي بعض الكتب أن إنساناً خُيِّرَ بين أن يَقتُل وبين أن يزني وبين أن يشرب الخمر، هو بوهمه رأى أهون شيء أن يشرب الخمر، فلما شربها زنى وقتل، ولقد سماها النبي أم الكبائر، جُمِعَ الشر كله في بيت ثم أرتج عليه فكان مفتاحه السكر، فالخمر أم الخبائث، فالله عز وجل عافانا جميعاً من هذا الشراب الذي يضيع عقل الإنسان.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (76- 95):تفسير الآيتان 220-221، قضية الزواج

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-06-02

بسم الله الرحمن الرحيم

ثمار طاعة الله نقطفها في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس والسبعين من دروس سورة البقرة، ومع الآية العشرين بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة... حينما قال الله عز وجل:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

هذه الآيات يبينها لكم في الدنيا والآخرة، أي أن ثمار طاعته تقطفونها في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

حياتهم، وصحَّتهم، وزواجهم، وعملهم، وكَسْبُهم، وأولادهم، وسمعتهم، ومكانَتهم، وراحة بالهم، وتألقهم، وطمأنينتهم، وسلامتهم في الدنيا والآخرة، أي أن ثمار الإيمان تقطف في الدنيا قبل الآخرة.

كل مؤمنٍ في جنة هي جنة القُرْب :

يتوهَّم الناس أن ثمار الإيمان تُقْطفُ في الآخرة فقط، لا.. نحن في جنَّة وكل مؤمنٍ في جنة؛ إنها جنة القُرْب قال تعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

[سورة محمد: 6]

إنهم في الدنيا ذاقوا طعمها، إذ ذاقوا نموذجاً منها، فإنها جنَّة القرب، ففي الدنيا جنةٌ مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، فهذه الطمأنينة التي يحياها المؤمن، وهذا الأمن الذي يعيشه المؤمن:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

من لوازم الكفر الفسق ومن لوازم الإيمان الطاعة :

المؤمن مرتبط بالله عز وجل، والله بيده كل شيء، والشعور الذي يُخالط المؤمن من أنه مع الله، وأن الله معه، فهذا شعور لا يقدَّر بثمن، فأن تشعر أن الله معك، وأنك مع الله، وأن الله يحفظك، وأن الله يصونك، وأن الله يدافع عنك، وأن الله يوفّقك، وأن أمرك بيد الله لا بيد سواه، فهذا الشعور وحده لا يقدَّر بثمن في الدنيا والآخرة. وآيات الله ظاهرةٌ في الدنيا قبل الآخرة. وكلمة في الدنيا والآخرة أول آية، في الدنيا والآخرة، أي ثمار الإيمان، وثمار طاعة الله، وثمار معرفة الله تقطفونها في الدنيا والآخرة، والدليل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

محياك أي حياتك، وقوامك، وحواسك الخمس، وأعضاؤك، وصحتك، وسمعتك، وبيتك، وأولادك، ودخلك، وإنفاقك، فأنت مع قيَم ثابتة، وهذه القيم الثابتة يدعمها الله عز وجل، أنت مع الله، وإذا كنت مع الله فمَن الذي يجرؤ أن يكون ضدك؟ وإذا كان الله معك فمَن عليك، وإذا كان عليك فمَن معك؟ يقول الله عز وجل:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

يقابل كلمة المؤمن الكافر، لمَ لمْ يقل الله عز وجل: أفمن كان مؤمناً كمن كان كافراً؟ لا، ولكنه قال:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

أي من لوازم الكفر الفسق، ومن لوازم الإيمان الطاعة، فهل يوازى مستقيمٌ مع منحرف، أم صادقٌ مع كاذب، أم مخلصٌ مع خائن، أم نظيفٌ مع قذر، أم منصفٌ مع جاحد، أم محسنٌ مع مسيء؟!

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

الفرق بين السعادة واللذة :

سمعة المؤمن في الدنيا متألّقة، فالمؤمن مَلِك، ومعنى مَلِك أنه لن يستطيع أحد أن يتحدَّث عن سمعته ولا بكلمة واحدة، فقد مَتَّعَهُ الله بعزِّ الطاعة، ومتعه الله بطيب الذِكْر، أينما تحرَّك يثني عليه الناس:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ*مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35-36]

لِمَ لم يقل: أفنجعل المسلمين كالكافرين؟ ولكنه قال: كالمجرمين، ومعنى ذلك أنه من لوازم الكفر أن يكون مجرماً، ومن لوازم الإيمان أن يكون مصلحاً، وشتانَ بين المصلح والمفسد، والمؤمن والكافر، فهذه بعض الموازنات، فالمؤمن يبحث عن سعادةٍ تنبُع من داخله، بينما الكافر يبحث عن لذةٍ تأتيه من خارجه، والمؤمن يملك أسباب السعادة التي تنبُع من داخله، بينما الكافر لا يملك ذلك، فاللذة تحتاج إلى أموال، وإلى نساء، وإلى بيوت، وإلى مَرْكَبات، فاللذة تنبع من الخارج، بينما السعادة تنبع من الداخل، والسعادة تملك كل أسبابها، بينما اللذة لا تملك كل أسبابها، والسعادة متعاظمة في تأثيرها، بينما اللذة متناقصة في تأثيرها، السعادة تتصل بجنةٍ عرضها السماوات والأرض، ولكن اللذة تنتهي إلى قبرٍ موحش، ثم إلى جهنَّم وبئس المصير..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

الله تعالى يبين لنا الآيات في الدنيا وفي الآخرة :

يقول الله عز وجل:

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

يبين لكم الآيات في الدنيا وفي الآخرة، وهذه الحياة بين يديك فانظر إلى شابٍ مستقيم طائعٍ لله عز وجل كيف أن الله يحفظه، وكيف يوفّقه، وكيف أنه معه، وأنه مغموسٌ في سعادةٍ لو وزِّعت على أهل بلدٍ لكفتهم، ثم انظر إلى حياة الكفَّار:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

هذا معنى قوله تعالى:

(فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

قلب الأم أحد الآيات الدالة على عظمة الله :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى)

اليتيم مَن فَقَدَ والده، أو والدته، أو فقد أبويه معاً، وقد يكون غنياً، ولكن ما الذي فقده هذا اليتيم؟ فقد الأب ففقد الرعاية، وفقد الحُب، ففي قلب الأب والأم من الرعاية والرحمة والحب لأولادهما ما لا يوجد في إنسانٍ ما كائنٍ مَن كان، فأت بأم، وأت بألف مربيةٍ، فألف مربيةٍ لا ترقى إلى مستوى أمٍ ولدت هذا الطفل، والشواهد كثيرة، فقد تتمنى البنت أن تكون مع أمها في كوخٍ ولا أن تكون مع سيدتها في قصر، لأن في قلب الأم من الحُب ومن الرحمة ما لا يوصف، بل إن قلب الأم أحد الآيات الدالة على عظمة الله، إن أردت أن تعرف رحمة الله فانظر إلى قلب الأم، فهذه الأم تتمنى أن يعيش ابنها على أنقاضها، وتتمنى أن ينام وتسهر، وأن يشبع وتجوع، وأن ينعم بالصحة وتمرض، فقلب الأم من آيات الله الدالة على عظمته.

هذا اليتيم فقد أثمن شيءٍ في حياته، لأنه فقد قلب الأم أو قلب الأب وفقد الرعاية، وفقد الحب، والحنان، والاهتمام، أتيح لي أن ألتقي بأيتام فشعرت أننا لو أغرقناهم بسعادةٍ أو بنعيمٍ لا يوصف، ولو أطعمناهم أطيب الطعام، وأسكناهم في أجمل البيوت، ولو فرزنا لهم أعظم المدرسين، فكل هذا لا يعوِّضهم عن آبائهم مهما فعلوا، ولا شيء يعوِّض عن الأب والأم، فاليتيم فقد أمه وأباه، أو فقد أحدهما، فهذا اليتيم لئلا يحقد على المجتمع، ولئلا يرى طفلاً في سنه له أبٌ يكرمه، وله أمه تحنو عليه، فقد أُمِرنا برعاية الأيتام، وتكريماً لأيتام المسلمين كان النبي عليه الصلاة والسلام سيِّد الأيتام، نشأ يتيماً لا يعرف أمه ولا أباه.

قضية اليتيم قضية خطيرة جداً :

لذلك أيها الأخوة، فقضية اليتيم قضيةٌ خطيرة جداً، إما أن نرعاه أشد الرعاية، وإما أن يكون خارجاً على أنظمة المجتمع وقيَمِهِ، لأنه عندئذٍ يحقد، فلا شيء يعدِل الأب، ولا شيء يعدل الأم مهما فعلنا، نحن نخفف، فلذلك ربنا عز وجل خص اليتامى بآيةٍ دقيقةٍ جداً:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ)

والمُطْلَق في القرآن يجري على إطلاقه " إصلاحٌ لهم "، إصلاحٌ لهم في حاجاتهم، أمِّنوا لليتيم حاجاته، أمِّن له طعامه وشرابه، ومسكنه ومأواه، ووسائل صحته، ووسائل تعليمه، ومالاً يعيش من رَيْعِهِ..

(إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ)

فعلاقتك مع اليتيم ليست علاقة تجارةٍ، وليست علاقة ابتزاز، ولا علاقة أخذٍ، ولا نفعٍ، بل هي علاقة إصلاحٍ له فقط..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ)

أحد الصحابة سأل النبي صلى الله عليه وسلم: عندي يتيمٌ أفأضربه؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((مما تضرب منه ولدك))

[أخرجه أبو يعلى عن بلال]

اضربه إذا كنت في مثل هذا الذنب تضرب ولدك، فيجب أن تربيه وأن تقوِّم اعوجاجه، وأن تصلح أخلاقه، وأن تهتم بصحته، وبطعامه، وشرابه، وبأخلاقه، وبجسمه، ومستقبله، ودخله..

(إِصْلَاحٌ لَهُمْ)

القرآن الكريم إعجازه في إطلاقه..

(إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ)

علاقتك مع اليتيم أن تصلحه.

الفرق بين الخلط والمزج :

لكن أيها الأخوة، لو أن الله منعنا أن نُخالطهم لكان في هذا عنتٌ كبير، قال:

(وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)

أي لك أن تخلط ماله بمالك، ولكن الخلط شيء والمزجَ شيءٌ آخر، ولأضرب على ذلك مثلاً: إذ يمكن أن تخلط الحمّص مع العَدَس، وفي أي وقتٍ تشاء تفصلهما عن بعضهما، أما إذا خلطت الماء المُحَلَّى بالسكر مع الماء الذي يشوبه الحَمْض فمستحيل أن تفرق بينهما بعد حين فالعلماء فرقوا بين الخلط وبين المزج، المزج للسوائل والخلط للأجسام الصلبة.

(وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ)

فيمكن أن تستثمر مال اليتيم عندك، وأن تدخل ماله في تجارتك، وأن تجعله شريكاً في الجرد، معه مئة ألف أدخلتها في رأس المال، ولكن العلماء قالوا: لك أن تخلط ماله بمالك، ولكن يجب أن تعامله بالإحسان، إن كنت غنياً ينبغي أن تستعف، أي إن أردت أن تستثمر له مئة ألفٍ يجب أن تعطيه ربحها كاملاً إن كنت غنياً، فينبغي لك أن تستعف عن أكل ماله، وإن كنت فقيراً فيجب أن تأكل بالمعروف، ما هو المعروف؟

قال: المعروف أجر المثل أو حاجتك أيهما أقل، فهذه المئة ألف ريعها مثلاً عشرون ألفاً، إن تفرَّغت لها مثلاً، وأنت بحاجة إلى أربعين ألفاً، فنصيبك من ريعها عشرون، ويجب أن تكتفي بالعشرين، أجر المثل أو حاجتك أيهما أقل، وريع المليون مئة ألف، وأنت حاجتك خمسون ألفاً، فينبغي لك أن تكتفي بالخمسين، لو أنك استثمرت لليتيم مالاً، نصيبك من الربح إذا كان يساوي أجر

المثل، وهو أقل من حاجتك، فينبغي لك أن تكتفي بأجر المثل، ولو كان أقل من حاجتك، وإن كانت حاجتك أقل من أجر المثل، فيجب أن تكتفي بحاجتك دون أن تأخذ أجر المثل، وهذا معنى..

(وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخوانكُمْ)

الله مطلع على قلبك وعملك فيعلم ما إذا كنت مصلحاً لمال اليتيم أو مفسداً له :

ومعنى قوله تعالى:

(وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء: 6]

هناك ضوابط، فلو أن له مالاً وأردت أن تستثمره له بصفقةٍ من بضاعةٍ أنت تديرها، فهل لك أن تشتري له من نفسك؟ العلماء قالوا: يجوز، ولكن بأفضل سعر في السوق لصالحه.

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)

فالعلاقة مع الله سهلة جداً، والله مطلع إلى قلبك، وعملك، وحركتك في الحياة، فيعلم ما إذا كنت مصلحاً لماله أو مفسداً له، وهناك مَن يتَّجر بمال اليتيم فيجعل ماله في صفقةٍ ليست واضحةً، فيمتحن بماله السوق، ويجعل ماله دريئةً لماله، قال عليه الصلاة والسلام: "ولا تجعل ماله دون مالك "، هناك صفقة لها ربحٌ ثابت، صفقة إن صح التعبير مضمونة النتائج، وهناك صفقة فيها مغامرة، قد لا تربح، هذا مَن يكشفه؟ لا يكشفه إلا الله، فقد يأتي هذا الذي يدير مال يتيم فيجعل ماله في صفقةٍ لا يعلم خيرها من شرها، فإن نجحت أدخل ماله في مثل هذه الصفقات، وإن لم تنجح جعل مال اليتيم تجربةً للسوق، ودريئة لماله، فجعل مال اليتيم دون ماله، هذا شيءٌ لا يعلمه إلا الله..

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)

يعلم ما إذا كنت قد جعلت من مال اليتيم تجربةً واختباراً للسوق، أو أنك وضعت مال اليتيم في أفضل صفقةٍ مضمونة النتائج.

الأصل في التعامل مع اليتيم :

إذاً الله عز وجل قال: الأصل في التعامل مع اليتيم..

(إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ)

ولكن لئلا يرهقنا، ويحمِّلنا ما لا نطيق، ونكون في عنتٍ ومشقة، قال:

(وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخوانكُمْ)

لك أن تسكنه معك، ولك أن تقتطع من ماله جزءاً لمصروف البيت، صار هناك اختلاط، ولكن دائماً للحد الأدنى، ودائماً لصالح اليتيم، فقد يأكل في الشهر بألفي ليرة، فتقتطع من ماله ألف ليرة

فقط، أي الحد الأدنى، والحد الأسلم والأحوط، فلك أن يسكن معك في البيت، وأن يأكل من طعامك، وأن تقتطع من ماله جزءاً للمصروف، ولك أن تتاجر بماله قال عليه الصلاة والسلام:

((اتَّجِرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى لا تَأْكُلُهَا الزَّكَاةُ))

[موطَّأ مالك عَنْ مَالِك]

وقد قال الله عز وجل:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

[سورة النساء:5]

أي ارزقوهم لا من أصل المال بل من ريع المال.

الإنسان مخيَّر ولكن مع أنه مخير مراقب مراقبة شديدة جداً :

إذاً:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)

الله يعلم فافعل ما تشاء، ولكن الله يعلم خبايا الأمر، ماذا تنوي وتريد؟ وماذا تفعل؟ ولماذا لم تفعل؟ ولو شاء الله لمنعكم من أن تخلطوا أموالهم بأموالكم، لمنعكم من أن تستثمروا أموال اليتيم..

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

معنى ذلك أن الإنسان مخيَّر ولكن مع أنه مخير مراقَب مراقبة شديدة جداً، وإن أفضل شيء بالإدارة أن تثق بمَن حولك، وأن تعطي الصلاحيات، وأن تراقب مراقبةً شديدة، فلو لم تثق بمَن حولك لتعطل الأمر، وأصبحت الإدارة مركزية، والمركزية فيها أخطاء كثيرة جداً، ثق بمَن حولك، وامنحهم صلاحيات، وراقبهم مراقبةً شديدة، وهكذا سنة الله في خلقه. أنت موثوق يا أيها الوصي فاخلط ماله بمالك، واقتطع من ماله جزءاً لمصروفه، واتجر بماله، ولكن الله يعلم ما إذا كنت تفعل في حركتك لصالحه أو لغير صالحه..

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ)

لحمَّلكم ما لا تطيقون..

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

موضوع الزواج :

ثم تنتقل الآيات إلى موضوعٍ من أخطر موضوعات الحياة؛ موضوع الزواج..

(وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ)

هذه المرأة التي تخطبها، قد يدعوك إلى خطبتها شكلها وجمالها، ولكن هناك مهمةٌ خطيرةٌ جداً، فهذه المهمة منوطة بهذه المرأة، هذه المرأة فضلاً عن أنها زوجتك، سوف تغدو مربِّية أولادك، وهي التي ستربِّيهم، لأنك مشغولٌ في كسب المعاش.

"يا رسول الله إن زوجي تزوجني وأنا شابة، ذات أهل، ومال، وجمال، فلما كبرت سني، ونثر بطني، وتفرَّق أهلي وذهب مالي، قال: أنت علي كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا".. أي أنه ينفق عليهم وأنا أربيهم، فمهمة المرأة تربية الأولاد، لأن الرجل في الحقيقة مشغولٌ في كسب المعاش، وهذا شيء واقع، يخرج الإنسان من بيته صباحاً ويعود مساءً، مَن هذه التي ترعى أولادها، وتهتم بسلوكهم، وتدقق في أخطائهم، وتنظر في أخلاقهم؟ إنها أمهم، ولذلك فللأم مهمة خطيرة جداً وهي تربية أولادك.

لذلك قد تعجب بشكل امرأة مشركة، فيجب ألا تؤخذ بجمالها وينبغي لك أن تبحث عن أخلاقها، وعن دينها، وعن أصالتها، وعن تربيتها، وعن عفافها، وعن صدقها، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ)

أخطر شيء في الأم أن تكون مؤمنةً، وأن تُلَقِّن أولادها مع حليب ثديها الصدق والأمانة. حدثني أخ عن امرأةٌ كانت تمشي مع ابنها أعطته سكرةً، بعد ثلاثمئة متر سألته: أين قشر السكرة؟ قال: رميتها في الأرض. فرجعت معه ثلاثمئة متر وقالت له: خذها وضعها في السلَّة. هذا السلوك دخل في دمه، وهو المحافظة على النظافة، فالأم المربية بأعلى مستويات التربية تعوِّد أبناءها الصدق، والأمانة، والعفة، والاستقامة، والصلاح، والنشاط، والعادات الطيبة..

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

* * *

من يختار امرأةً صالحةً فهو الرابح الأكبر :

مَن علَّم رجلاً علَّم واحداً، ومَن علَّمَ امرأةً علم أسرة، فَصدِّقْ أنك لو بحثت عن أحد أسباب الشباب المنضبط، أو عن أحد أهم الأسباب لوجدت وراءهم أمّاً واعية مثقفة ثقافة إسلامية، ووراءهم أم طلبت العلم الشرعي وعرفت ما لها وما عليها، فأنا أتمنَّى أن ينتبه المؤمنون إلى اختيار زوجاتهم من المؤمنات الصالحات، لأنهن عماد هذا المجتمع..

(وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ)

دقق..

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

فلو أعجبكم شكلها، وقوامها، ولونها، وصفات جمالها..

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

لأن هذا الجمال يزوي بعد حين، وتبقى علاقتها في التربية والانحراف، بينما المؤمنة تقطف ثمار إيمانها في أولادك، وسوف ترى أن أولادك قد رُبوا تربية رائعة، بسبب أمهم المؤمنة..

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

كأن الله عز وجل أرادنا أن نضحي أحياناً، وأن نبحث عن المؤمنة ولو كان مستوى جمالها أقل من غيرها المتفلّتة، أما الذي يبحث عن الجمال فقط فيدفع الثمن باهظاً، ورد في الأثر: " أنه من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةً، فعليك بذات الدين تربت يداك "، فالذي يختار امرأةً صالحةً فهو الرابح الأكبر، والذي يختار امرأةً بارعة في شكلها ضعيفةً في خُلُقها فهو الخاسر الأكبر، لا مانع إذا اجتمعا.

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

* * *

عدم توجيه الخطاب للمؤمنات لأن أمر المرأة بيد وليها فاختلف الخطاب :

قال تعالى:

(وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ)

المشركة غير موحدة، إنها تحب المظاهر والبذخ، وتحب أن تمشي في الطريق مُظْهِرَةً كل مفاتنها، هذه أليست مشركة بالمعنى الواسع؟ طبعاً، لأنها أشركت ذاتها مع الله عز وجل، فتريد أن تعرض مفاتنها ولا تعبأ بمنهج ربّها، وتريد أن تكيد لأخواتها، وأن تفتخر عليهن في بيتها، وفي أثاث بيتها، وفي الحليّ التي قُدِّمَت لها، فالمرأة التي تبحث عن المظاهر، وعن سمعتها في المجتمع، وعن استعلائها على زميلاتها أو على بنات جنسها هي امرأةٌ بالمعنى الواسع مشركة، وبالمعنى الضيِّق قد تكون مسلمة ولكنها مقصرة.

(وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا)

طبعاً الآن اختلف الخطاب، لم يوجَّه الخطاب للمؤمنات كأن يقول: أيتها المؤمنات لا تقبلن الزواج من المشركين. لا، لأن أمر المرأة بيد وليها، فاختلف الخطاب، ففي أول قسم بالآية توجه الخطاب إلى الرجال:

(وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ)

أما بالمقابل فلم يوجَّه الخطاب للمؤمنات ألا ينكحن المشركين قال:

(وَلَا تَنْكِحُوا)

أي لا تتزوجوا..

(الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا)

أي لا تُزوجوا..

(الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

أكبر مهمة للأب أن يهتم بتزويج بناته من شابٍ مؤمنٍ :

ذات مرة كنت أمشي في أحد أسواق دمشق، فاستوقفني أخٌ له محلٌ في هذا السوق، عرض علي هذه المشكلة، قال لي: خطب ابنتي شابٌ ثري جداً، له معمل، وبيت في أوجه أحياء دمشق، ومركبة فارهة، وكل شيء على أفضل ما يكون، إلا أن في دينه رِقَّة، فماذا أفعل؟ قلت له: ألا تقرأ القرآن الكريم؟ قال: بلى، قلت: إذا قرأت القرآن الكريم وانتهيت من قراءته، ماذا تقول بعد أن تقرأه؟ قال لي: أقول صدق الله العظيم، قلت له يقول الله عز وجل:

(وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

أعجبتك وسامته، وأعجبك ماله وبيته ومركبته، ولكن في دينه رِقَّة قد لا يصلي، وقد يشرب، وقد يسافر فيقع في الفاحشة، فقال لي: شكراً، ويبدو أن ضغطاً داخلياً ضغط عليه فزوج ابنته من هذا الشاب المتفلّت، ولم يدم الزواج أشهراً حتى طلقها، فأنت يجب أن تختار مؤمناً لابنتك، إن أحبها أكرمها، وإن لم يحبها لم يظلمها، فالمؤمن مقيَّد، لأن الإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، ولذلك أكبر مهمة منوطة بالأب أن يهتم بتزويج بناته من شابٍ مؤمنٍ يحفظ لها دينها، ويحفظ لها أخلاقها، ويضمن لها آخرتها..

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

كم من أسرٍ مسلمةٍ طمعت بمال خاطبٍ فذهب المال وبقيت أخلاقه الشرسة، وللعوام أمثلة في هذا المجال كثيرة جداً، قال:

(أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ)

إن بحثت عن مؤمنٍ ضمنت لابنتك سعادة الدنيا والآخرة :

تروى قصة عن سعيد بن المسيب، رحمه الله تعالى، وكان من كبار التابعين، وكانت عنده فتاة يندر مثيلها؛ علماً، وفقهاً، وجمالاً، خطبها الوليد بن عبد الملك لابنه، فامتنع، وعنده تلميذٌ في المسجد فقير جداً، توفيت زوجته، فتفقَّده، فعلم أنه قد فقد زوجته، قال له: ألا أزوجك ابنتي؟ قال له: أتمنى، قال له: ماذا عندك؟ قال: درهمان، والقصة ممتعة وطريفة ونادرة، ويبدو أنه زوجه إياها، وصار هناك إيجاب وقبول ومهر على درهمين، وفي المساء طُرق باب هذا الفقير، فقال: مَن؟ قال: سعيد، فقال هذا التلميذ: تصورت كل مَن أعرفه اسمه سعيد لعله جاءني في هذا الوقت، إلا واحداً استبعد أن يكون هو الطارق، إنه سعيد بن المسيب، لأنه كان قاضياً، أمضى بين بيته ومجلس قضائه أربعين عاماً ما خرج عن هذا الخط، مِن بيته إلى مجلس القضاء، فلما فتح الباب رأى سعيد بن المسيِّب، دفع له ابنته، وكان العقد قد تم صباحاً، قال له: كرهت أن تنام الليلة وحدك، خذها، هذه التي خطبها الوليد بن عبد الملك لابنه فأبى، فلما سئل قال: ضمنت لها الجنة بهذا الزوج.

قد يزوج إنسان ابنته لشخص غني، فاسق، فيقول لها: انزعي الحجاب، واسهري معي، ويأتي أصدقاؤه والسهرة مختلطة، وقد يشربون، وقد يرقصون، ومعنى ذلك أنه أدخلها النار، أما إن زوجت ابنتك للمؤمن ففي الأعم الأغلب ضمنت لها الجنة، وأنا لا أقول لك هكذا أن زوج ابنتك لإنسان مُعْدَم، ما قصدي هذا من هذه القصة، ولكن حينما تبحث عن مؤمن فإنك تبحث عن الموقف الصحيح، وإنك إن بحثت عن مؤمنٍ ضمنت لابنتك سعادة الدنيا والآخرة، وإن بحثت عن المال فربما شَقِيَت بهذا المال.

(أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّار)

فالأثرياء من المشركين يدعون إلى النار، وهناك تفلُّت، ونمط حياتهم نمط غير شرعي، وهناك اختلاط، وكم من أسرةٍ اختلطت بأسرةٍ أخرى فانتهت إلى الطلاق، وهناك كسب مال حرام، وانحرافات خطيرة جداً، وهذه كلها تعود بالشقاء على الزوجين ولو بقيا مع بعضهما طوال الحياة، ولكن قد تنتهي بهما الدنيا إلى النار، يدعون إلى النار..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ)

فالعبد المؤمن هو عبدٌ آمن بالله، ومصيره الجنة، ومَن معه من زوجته وأولاده في الأعم الأغلب مصيرهم إلى الجنة، لأنه حملهم على طاعة الله، فإن أردت لابنتك مصيراً ينتهي بها إلى الجنة فابحث عن المؤمن، إن أحبها أكرمها، وإن لم يحبها لم يظلمها.

الآيات التالية تبين أن أخطر حدث بحياة الإنسان زواجه :

قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ)

أجمل شيء في الإيمان إذا كان هناك ماض سيِّئ فهناك مغفرة، وبعده الجنة، والله يدعو إلى الجنة، وإذا كانت هناك جاهلية فالمغفرة بإذنه..

(وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

أيها الأخوة... تبيِّن هذه الآيات أن أخطر حدث بحياة الإنسان زواجه، فالبيت قد يغيره، وقد يغير حرفته، أما زواجه فمن الصعب جداً أن يغيره لأنه قرار مصيري، فإذا كانت هذه الزوجة مؤمنةً، سعدت بها وسعد أولادك بها، ولذلك فأول واجبات الأب تجاه أولاده قبل أن يتزوَّج أن يحسن اختيار أمِّهم، وأول واجب على الأب تجاه أولاده قبل أن ينجبهم أن يحسن اختيار أمهم، فإن اختارها من بيت علمٍ، وبيت أدبٍ، وبيتٍ عريق، واختارها مؤمنةً، صالحةً، مستقيمة، عفيفة، سعد بها في الدنيا وكانت سبب سعادته في الآخرة، وإن اختارها بارعةً دون أن تكون فاضلةً قد يتمتَّع بجمالها إلى حين، ثم يشقى بها وينتهي إلى أسفل سافلين، أعيد عليكم ما جاء في الأثر:

((من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقرا، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة))

[الطبراني عن أنس]

(وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

إذا بني الزواج على طاعة الله تولى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين :

سمعت خبراً طريفاً: أن بعض الفنادق الكبرى في دمشق أرادت أن تشجع على عقد القران فيها، وبالطبع أرباحها من عقود القران عاليةً جداً، فالعرس يكلف عشرين أو ثلاثين مليوناً.. فاستعرضت عقود القران التي تمت في هذا الفندق من ستة أشهر، ودعت أصحاب هذه العقود إلى حفل تكريمي كي يشجعوا غيرهم على عقودٍ في هذا الفندق، فقال لي الرجل صاحب الخبر، وهو يعمل بهذا الفندق: الإدارة المالية بحثت عن هؤلاء الذين عقدوا عقدهم في هذا الفندق فكانوا ستة عشر عقداً، فدعوهم لحفل تكريمي، فكان الإحصاء ثلاثة عشر عقداً آلت إلى الطلاق قبل مضي ستة أشهر، إنه إحصاء دقيق جداً، ثلاثة عشر عقداً آلت إلى الطلاق قبل مضي ستة أشهر، فإذا بني الزواج على طاعة الله تولى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين، أما إذا بني على معصية الله فإن الشيطان يتولى التفريق بينهما، هذا معنى قول الله عز وجل:

(أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

سمعت قصة: أن عقداً جرى في أحد فنادق دمشق، ونفقاته عالية جداً، ببضع الملايين، المرأة في مكان جلوسها على المنصة وزوجها إلى جانبها، جاء المصوِّر يصورهما، ويبدو أنها أشارت إلى زوجها أن يكون أقل منها، بأن ينخفض قليلاً، فقال لها: طالقٌ طالقٌ طالق!!! وهي على منصة العرس طلقها، زواج أساسه شيطاني، أو أساسه عنف، فيه انحراف وتفلُّت، والمؤمن له ترتيبٌ آخر، وله بركة في زواجه.

لي صديقٌ توفيت أمه، وكان أبوه قد جاوز التسعين، وأمه أقل من هذا بقليل، فذهبنا لتعزيته، فكان الأب يبكي بكاءً مراً، عمرها ثمانون سنة، فسألته بعد أن انتهت التعزية: ما هذا البكاء، اصبر يا رجل؟ قال لي: والله اقترنت بها خمسين عاماً، ما نمت ليلة وأنا غاضبٌ عليها، ولا ليلة واحدة، والآن يقول لك ثلاثين سنة ما أراحتني يوماً.

(أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

هذه الآيات أيها الأخوة، قضية الزواج قضية خطيرة ومصيرية، فقبل أن تختار زوجة عُد للمليون، وابحث عن دينها، وعن علمها، وأدبها، وأهلها، وتربيتها، وخصائصها، لأنها أم أولادك، وسوف تقطف ثماراً يانعةً إن كانت صالحة، وسوف تدفع ثمناً باهظاً إن كانت سيئة.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (77- 95):تفسير الآيات 222-225 ، الزواج متعة ورسالة والأيمان تمحق البركة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-06-09

بسم الله الرحمن الرحيم

علامة المؤمن السؤال :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والسبعين من دروس تفسير سورة البقرة، ومع الآيات الثانية والعشرين بعد المئتين وما بعدها، وهي قوله تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

سأقف عند كلمة " ويسألونك ".. لمجرد أن تتعرَّف إلى الله عز وجل، وتريد أن تتقرَّب إليه، ما مِن شيءٍ يقربك إليه إلا أن تطيعه، وطاعته تحتاج إلى علمٍ بأمره ونهيه، فلا تكون الطاعةُ طاعةً إلا إذا بُنِيَت على أمرٍ ونهي، إذاً " يسألونك " والمؤمن الصادق يسأل، والمؤمن الصادق يُثْقِلُ مرجعه الديني بالسؤال، المؤمن الصادق لا يقرّ له قرارٌ إلا إذا عرف الحكمَ الشرعيَّ في كل شيء، في كسبه للمال، وفي إنفاقه، وفي أفراحه وأتراحه، وفي علاقاته ولهوه البريءِ المسموحِ به، وفي حزنه، وسفره وإقامته، وفي زواجه وتطليقه، في كل شيء ولذلك فعلامةُ المؤمن أنّه يسأل: ما حكم الشيء؟ قال تعالى:

(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

من هم أهل الذِكْر؟ هم أهل الوحي، لدينا ثقافة أرضية مِنْ صنع البشر، وعندنا حقائق من عند خالق البشر، قال تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

فأنت هل تريد كلام الخبير أم كلام غير الخبير؟ الوحي هو كلام الخبير، وكلام الناس كلام غير الخبير، والإنسان أمام ملايين المقولات في شتىَّ الموضوعات والتي ليس لها أساس من الصحَّة، ولا أساس من الواقع، ولا أساس من منهج الله عز وجل، فأنت تريد وسط ركام المقولات أن تبحث عن أمر الله ونهيه، وعن الحُكْم الشرعي، عن منطوق الوحي في هذا الموضوع، لذلك:

(وَيَسْأَلُونَكَ)

إن عرفت الله تسأل ما الذي يرضيه وما الذي يغضبه؟ ما الذي يقربك إليه وما الذي يبعدك عنه؟ ما الذي تسعد به أو تشقى به؟ وهناك في الكون حقيقة واحدة هي الله.

مفتاح العلم السؤال :

الخير كل الخير في التقرُّب إلى الله، والشر كل الشر في البُعد عنه، أي شيءٍ يقربك إلى الله عز وجل فهو حق، وأي شيءٍ يبعدك عن الله عز وجل فهو باطل، فالذي يقربك هو الحق، والذي يبعدك هو الباطل.

كنت مرة في جلسة، وطَرَحْتُ أسئلة، فلم يجب أحد، فقلت لهم: هل لكم من سؤال؟ هذا السكوت له تفسيران: إما أنه سكوت القانع، أو سكوت عدم المبالي، فإذا كنت قانعاً تسكت، وإن كان هذا الموضوع لا يعنيك تسكت، فالإنسان المؤمن حينما يؤمن، وحينما يعظِّم الله عز وجل، ويرجو رحمته، ويخشى عذابه، يتحرَّى أمره ونهيه، وأنا أنطلق من كلمة:

(وَيَسْأَلُونَكَ)

ليكون سِمَة المؤمن، السؤالُ:

(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

مفتاح العلم السؤال، ومن استشار الرجال استعار عقولهم، وأنت بالسؤال المؤدَّب يمكن أن تأخذ خبرة خمسين عاماً في أي موضوع، فاسأل، لا تستحِ أن تسأل، وهناك إنسانان لا يتعلَّمان المتكبِّر والمستحيي، فالمستحيي لا يتعلم، والمتكبر لا يتعلم، والله عز وجل يأمرك أن تسأل أهل الذكر، وضرب لك مثلاً نبياً كريماً من أولي العزم، التقى بسيدنا الخضر قال له: هل تعلمني مما علمت رشداً؟ هل تسمح لي أن أصاحبك كي أتعلم من علمك؟

بعض الأحكام الشرعية في موضوع الحيض :

أيها الأخوة.. الموضوعات التي يمكن أن تسأل عنها كثيرةٌ جداً، فبعضها شديد الخصوصية وبعضها كبيرٌ جداً، وهناك موضوعات على مستوى دولي، في العلاقات الدولية؛ السلم والحرب، وما إلى ذلك، وهناك موضوعات في منتهى الخصوصية، كل هذه الموضوعات لها قيمة، لأن مخالفتها تحجب عن الله عز وجل، فالآن موضوع دقيق جداً..

لحكمةٍ بالغةٍ جُعِلت المرأة مكاناً للحرث أي مكاناً لاستنبات الوَلَد، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

قال بعض علماء التفسير: المودة والرحمة التي بين الزوجين هي الوَلَد، وقد جعل الله للمرأة مبيضاً، فيه عدَدٌ محدود من البويضات، ودققوا في كلمة " عدد محدود " لو لم يكن عدد البويضات محدوداً لكان هناك حملٌ في التسعين، وحملٌ في المئة، وهذا شيءٌ لا يمكن أن نتصوَّره، فلحكمة بالغةٍ بالغة كان بإمكان الرجل أن ينجب وهو في التسعين، بينما في مِبْيَض المرأة عددٌ محدودٌ من

البويضات، فإذا جاءها حوينٌ لقَحها، وكان الوَلد، وإن لم يأتها الحوين كان الحيض، وفي وقت خروج البويضة من المبيض إلى الرحم يستعد استعداداً عجيباً لاستقبال البويضة الملقحة، ويستعد بغشاء من الدم الكثيف في الرحم، فإذا جاءت البويضة ولم تكن ملقحةً خاب أمله، وانقشعت هذه الطبقة في الرحم فكان الحيض، فالحيض من لوازم النساء، أي حينما لا تلقح البويضة التي تخرج كل شهرٍ من مبيض المرأة يكون الحيض، وإذا كان هناك حملٌ فليس هناك حيض.

إذاً لا بد من خروج دمٍ من جهاز المرأة التناسلي، وهذا الدم هو دم الحيض، ويبدو من خلال الأحكام الشرعية أن هذا الدم حينما يخرج يصيب المرأة بالضعف والوهن، ولذلك أكثر النساء في أيام الحيض يعانين من وهنٍ وضعفٍ في الجسم، لذلك كان الشرع حكيماً حين أعفى المرأة من الصلاة والصيام في أيام الحيض، أعفاها من الصلاة دون أن تقضيها، وأعفاها من الصوم على أن تقضيه، وهذه بعض الأحكام الشرعية في موضوع الحيض.

المسلم يطبق أحكام دينه فهو طاهرٌ من الداخل والخارج :

بقيت قضيةٌ ثانية مهمة جداً عن اللقاء الزوجي، فهو في أثناء الحيض مُؤذٍ جداً، ذلك لوجود هذه الكمية من الدماء، والدم كما تعلمون بيئةٌ صالحةٌ إلى درجة غير محدودة لاستنبات الجراثيم، فلو أننا أردنا أن نستنبت جرثوماً نضعه في دم، فالدم طاهر ما دام يجري في الجسم أما إذا سُفِح، وإذا خرج من الجسم، فهو بيئةٌ صالحة لنمو الجراثيم بكثرةٍ كثيرة، ولذلك فإنّ هذا الجهاز التناسلي في أيام الحيض بؤرةٌ مملوءة بالجراثيم، فإذا تم اللقاء الزوجي في هذا الوقت تأذّى الرجل والمرأةُ، فقد يكون الرحم في حالة هيجانٍ شديد، وفي حالة تبدُّلٍ، وعندها قد يصاب الرجل ببعض الإنتانات، والله عز وجل هو الخبير، والخالق، والحكيم، ولا ينبئك مثل خبير، قال:

(هُوَ أَذىً)

للرجل والمرأة، لطرفي اللقاء.. " أذىً " مُنَكَّرة تنكير شمول، وتنكير تعميم..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى)

لكم..

(فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

أخواننا الكرام.. حدَّثني أحد الأطباء: أن هناك ثلاثمئة مليون مريض في العالم بأمراض القذارة، ولكن العالم الإسلامي معافىً مِن هذه الأمراض، لسببٍ بسيطٍ جداً هو أن دينه دين نظافة، فنحن نتوضأ في اليوم خمس مرات، ونحن بعد قضاء الحاجة نتطهر تطهراً عالي المستوى، وفق أحكام ديننا، ونحن لا نقرب نساءنا في المحيض، ونحن نختتن، فالختان صحة، وعدم قرب المرأة في المحيض صحة، والتنظيف الشديد عقب الخروج صحة، فثلاثمئة مليون إنسان في العالم يعانون من أمراض القذارة، وهذا إحصاء منظمة الصحة العالمية، بينما العالم الإسلامي يعدُّ نظيفاً من هذه

الأمراض، لسببٍ بسيطٍ جداً هو أن المسلم يطبق أحكام دينه، فهو طاهرٌ من الداخل والخارج، ومن أعلى ومن أسفل.

أمراضٌ كثيرة نحن في منجاةٍ منها بحكم ديننا وشريعتنا وطاعتنا لربنا :

قال تعالى:

(فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

إلا أن اليهود تطرَّفوا، فإذا حاضت المرأة لا يؤاكلونها، ولا يقتربون منها، ويعزلونها عن حياتهم وكأنها شيءٌ قذر، ولكن الإسلام دينٌ وسطيّ، بين أهل الغرب الذين يفعلون كل ما يريدون في أثناء الحيض، وكأنها ليست حائضاً، وبين اليهود الذين نبذوها، وأبعدوها، ولم يؤاكلوها، ولم يعاشروها، فالإسلام وسطٌ بين هؤلاء وأولئك، والمسلم يعيش مع زوجته، ويأكل من طبخها، ويعاملها أطيب معاملة، ولكنه لا يقربها في مدَّة الحيض. أما المحيض فتعني دم الحيض، وتعني أيام الحيض، وتعني مكان الحيض..

(فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

هذا كلام خالق الكون، أمراضٌ كثيرة أيها الأخوة يعاني منها العالم الغربي، فسرطان عُنُق الرحم قليلٌ جداً في العالم الإسلامي، إلى درجة أنه منعدم، وأحد أسبابه أن يقرب الإنسان امرأته في أيام الحيض، مرض انقلاب الرحم، وهو مرضٌ لا تعاني منه المرأة المسلمة، لأن علاج هذا المرض حركاتٌ كحركات الصلاة، أمراضٌ كثيرة نحن في منجاةٍ منها بحكم ديننا وشريعتنا وطاعتنا لربنا..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ)

الرجل له ما فوق السرة، كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث:

((زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا يَحِلُّ لِي مِنْ امْرَأَتِي وَهِيَ حَائِضٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِتَشُدَّ عَلَيْهَا إِزَارَهَا ثُمَّ شَأْنَكَ بِأَعْلَاهَا))

[مالك عن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ]

فالمرأة وهي حائض تنام مع زوجها، وشأنه بأعلاها، ويؤاكلها، ويعاشرها دون أن يقترب من مكان الحيض.

الدماء ثلاثة دم الحيض ودم النفاس ودم الاستحاضة :

قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ)

طبعاً الفقهاء على اختلافٍ فيما بينهم حول أقل مدة الحيض، وحول أكثر مدة الحيض، ولكنهم بين أقل مدة الحيض ثلاثة أيام، وأكثر مدة الحيض خمسة عشر يوماً.

يقول العلماء: هناك دماء ثلاثة، هناك دم الحيض، وهو داكن، وهناك دم النفاس، وهناك دم الاستحاضة، فدم الحيض هو الذي يخرج من المرأة في أيام الحيض، وقد يتفلَّت عرقٌ في رحمها فيخرج منه دمٌ فاتح، فهذه استحاضة، فتتوضأ لكل صلاة، ودم النفاس معروف، هو الدم الذي يخرج من المرأة عقب الولادة، أقصاه أربعون يوماً على مذهب، وستون يوماً على مذهب، ولا حد لأقله..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ)

يطهرن أي حتى ينقطع الدم.

الجماع لا يكون إلا في صمام واحد :

قال تعالى:

(فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ)

إذا تطهرن أي اغتسلن، ويطهرن ينقطع الدم.

(فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ)

فأتوهن كنايةٌ لطيفة عن الجماع..

(مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّه)

أي في صمام واحد في القُبُل..

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

حينما نهى سيدنا لوط قومَه عن مقاربة الفاحشة الشاذة، قالوا: إنهم أناسٌ يتطهرون، فقال بعض العلماء:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

الذين يفعلون ما أراد الله جل جلاله..

(وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

الذين لا يفعلون فعل قوم لوط في زوجاتهم..

نهى الإسلام نهياً قطعياً عن الصمّام الآخر :

أيها الأخوة الكرام، لا بد من حديثٍ دقيقٍ حول بعض معاني هذه الآيات، فهناك مَن يتَّهم الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ بأنه أجاز الصمام الآخر، وقد أنْكَرَ ذلك في حياته أشدَّ الإنكار.

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)

ما معنى كلمة " حرث " الحرث: مكان الزراعة، ومكان النبات، وهل في المرأة إلا مكانٌ واحد يخرج منه الولد؟ فكلمة:

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)

مع وجود أحاديث كثيرة جداً تنهى نهياً قطعياً عن الصمّام الآخر..

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)

(أَنَّى)

تفيد المكان والزمان والكيفية، فبأية كيفيةٍ، وبأي مكانٍ، وبأي زمانٍ، شريطة أن يكون في مكان الحرث، وانتهى الأمر، وهذا كلام دقيق وواضح..

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)

هذه أحكامٌ فقهية يجدها الإنسان في كُتُب الفقه، ولا يحتاج إلى تفاصيل أكثر إلا عند الضرورة.

الآية التالية تعني أن نجعل من الزواج وسيلة للعمل الصالح :

الشيء الذي أتمنى على الله عز وجل أن يوفقني لشرحه مطولاً هو قوله تعالى:

(وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ)

فهذا الذي يبتغي من الزواج المتعة الحسية، ولم يعبأ بإنجاب ولدٍ صالح يدعو له من بعده، أو بإنجاب ولدٍ صالحٍ يكون ذُخراً له، أو يكون استمراراً لعمله الصالح قال تعالى:

(وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ)

أي لا يكن همك من الزواج هماً حسياً، ولا استمتاعياً، فالمؤمن يقوم إلى زوجته وفي نيَته أن يرزقه الله ولداً صالحاً يدعو له من بعده، فهذه الآية لها معانٍ كثيرة، قدِّموا لأنفسكم الخير من هذا الزواج، فالإنسان حينما يتزوج يجب أن يبحث عن المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرَّته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته، فهذه المرأة الصالحة سوف تكون أم أولادك، والولد الصالح أعظم كسب الرجل على الإطلاق، فإذا قدَّم لهذا الولد المُستَقْبَلِيّ أماً صالحةً ترعاه فقد قدَّم الخير لنفسه، قال تعالى:

(وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ)

في بعض التفاسير أن التقديم للنفس في هذه الآية معناه: أن الإنسان إذا أراد أن يلتقي مع امرأته ينبغي له أن يدعوَ " اللهم جنبني الشيطان وجنب ذريتي الشيطان "، فهذا الطفل، وهذا المولود جاء مع دعاء شريف، ومع نفسٍ طاهرةٍ مقبلة، فالله جل جلاله يجنِّب هذا الولد الشيطان. فأنا أكاد أوقن يقيناً قطعياً أنه ما من لقاءٍ سبقه دعاء كهذا الدعاء إلا كان الولد صالحاً، أما الإنسانُ فقد يُرزَق أحياناً ولداً ينسيه كل شيء مِن شدة انحرافه وعقوقه، ولعله جاء في غفلة عن هذا الدعاء..

(وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ)

أي اجعلوا من الزواج وسيلة للعمل الصالح، فالله عز وجل له طرق كثيرة، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، ومن هذه الطُرُق أن تنجب ولداً صالحاً ينفع الناس من بعدك.

زواج المؤمن متعة ورسالة :

أيها الأخوة الكرام، ليس هناك بيت لا يوجَد فيه أولاد، لكن لو علم الأب أنه إذا اعتنى بهذا الابن عناية فائقة، فربّاه تربية صالحة، أيْ اعتنى بعقله وجسمه وإيمانه وخلقه، ونشّأه على طاعة الله، وعلى محبة رسول الله، ومحبة آل بيت رسول الله، وتلاوة القرآن، فهذا الطفل الذي جاء عن طريق الزواج هو أثمن ثمرةٍ في الزواج، وأكثر الناس يتزوجون للمتعة، يقول لك: هناك دافع جنسي، ورغبة جنسية، فهذه الرغبة محققة وأنت في أعلى مستويات القرب مع الله عز وجل، ولكن البطولة أن تنوي من هذا الزواج العمل الطيب. وهناك آيةٌ متعلقة بالجهاد يمكن أن نستفيد منها في الزواج..

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

[سورة النساء: 104]

أي شاب سعى إلى الزواج فلا بد من مشقةٍ بالغةٍ في العثور على بيتٍ وتأثيثه، وتأمين نفقات الزواج، ونفقات العرس، ونفقات الحلي، وفرش البيت بالأثاث، وقد يكون الدخل محدوداً، وهناك أزمة سكن مستحكمة، والمكاسب قليلة، والمطالب كثيرة، والحياة صعبة ومعقدة، فهو يتألّم، لكن ألم المؤمن يرافقه أنه يرجو من الله في زواجه ما لا يرجوه غير المؤمن، فزواج غير المؤمن متعةٌ فقط، بينما زواج المؤمن متعة ورسالة، فالبيت المؤمن المسلم متميز، إنّه بيت مبدأ ورسالة ومنهج وتربية، فالابن المربى في بيتٍ إسلامي ابن متفوِّق، كأن الله عز وجل يقول:

(وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ)

أي قدِّم عملاً صالحاً من خلال هذا الزواج، وقدِّم عملاً طيباً، وابحث عن زوجة صالحة تعينك على تربية أولادك، وابحث من خلال لقاءك الزوجي عن هدفٍ نبيل تسمو به في الآخرة.

قال بعضهم: إن الرجل والمرأة لا ينبغي لهما أن يقعا على بعضهما كما يقع البعير بلا مقدمات، هذا فهمٌ إشاري لهذه الآية، فلا بد من مقدمات تليق بالإنسان، أما بلا مقدمات فقد صار عمله كعمل البهائم، إذاً هناك معنى مستنبط من قوله تعالى:

(وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ)

أنت إنسان فلا بد من كلمة طيبة، ولا بد من مؤانسة وابتسامة، فهذا التقديم يليق بالإنسان في اللقاء الزوجي، أو أن هذا اللقاء الزوجي ينبغي له أن يكون مناسبة لعملٍ صالح مستمر بعد موت الإنسان، وهو إنجاب ولدٍ صالح يدعو إلى الله من بعده.

العبرة أن يقف الإنسان عند حدود الأمر والنهي :

أيها الأخوة، هنا قضية وهي هذا السؤال:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

أي أن الإنسان حينما يطبق أمر الله عز وجل، ولو لم يقف على دقائق حكمته، يقطف كل ثماره، ذلك أن الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، وكنت أضرب على هذا مثلاً دقيقاً: إنسان لا يقرأ ولا يكتب وعنده جهاز تكييف، يكفي أن يضغط على مفتاح التشغيل حتى يأتيه الهواء البارد، لقد انتفع بهذا الجهاز دون أن يعلم دقائقه، ويأتي آخر يحمل دكتوراه في التكييف فيضغط على مفتاح التشغيل، فيأتيه الهواء البارد، فالإنسان الثاني انتفع بهذا المكيِّف مع العلم بدقائق عمله، والأول انتفع بالهواء البارد مع الجهل بدقائق عمله.

فكان العمل الصالح لمجرد أنهم عرفوا أن هذا حرام وانتهى الأمر، فلما كفوا عنه سعدوا في دنياهم وأخراهم، فلو جاء إنسان مفلسف وفهم دقائق الأمر التشريعي، ولم يعمل به، يدفع ثمنه باهظاً، فالعبرة أن يقف الإنسان عند حدود الأمر والنهي.

ذكرت اليوم موضوعاً لطيفاً: أنه ما من مشكلة على وجه الأرض حصراً إلا وراءها مخالفة لمنهج الله، وذكرت أيضاً أن من قواعد اكتشاف الجريمة، واكتشاف أسبابها، أن ضباط الأمن الجنائي إذا رأوا جريمة يقولون: ابحثوا عن المرأة، وراء كل جريمة امرأة، وهذه القاعدة مع التعديل، في أيّة مشكلة يعاني منها المجتمع اليوم أنا أقول :ابحث عن المعصية، لأن المعصية وراء كل مشكلةٍ يعاني منها الإنسان اليوم، وكأن هذا الإنسان مصممٌ على أن يعيش عمراً مديداً صحيحاً معافىً، جسماً ونفساً وقلباً، أما الأمراض التي تأتيه من كل حدبٍ وصوب، والمشكلات التي يعاني منها في كل شؤون حياته، كلها بسبب خروجه عن منهج الله.

أساس كل مشكلة خروج الإنسان عن منهج الله عز وجل :

إذاً يمكن أن تكون هناك قاعدة: ما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا وراءها معصية، وما من معصيةٍ إلا بسبب الجهل، فالجهل هو أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، وهذا الشرع أمامكم، فحاول أن تحلّل أيَّة مشكلةٍ، زوجية، أو تجارية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو نفسية، أو علمية، حاول أن تحلل أيَّ مشكلة يعاني منها الإنسان، تجد هذه المشكلة لها سبب واحد هو: خروج الإنسان عن منهج الله عز وجل، وهذا القرآن الذي بين أيدينا هو منهج عظيم، وصراطٌ مستقيم، وحبل الله المتين.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

ماذا نفهم من هذه الآيات؟ نحن فهمنا الدين عباداتٍ شعائرية وكفى، فهمناه صوماً وصياماً وحجاً وزكاة، ولكن بنودَ الدين كثيرة جداً، هو منهج شمولي، ومنهج تفصيلي، ففي أدق علاقتك بزوجتك الشرع له حكم، فلذلك حينما يطلب الإنسانُ العلمَ ماذا يفعل؟ يصون نفسه، " يا بني العلم خيرٌ من المال، لأن المال يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يسمو على الإنفاق، يا بني مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".

أنت حينما تأتي إلى مجلس علمٍ تتعلم أحكام الشريعة الغراء، وبهذا توظِّف الوقت لصالحك لأنّ أيَّ خطأٍ يقع في الشأن الخاص له مضاعفات خطيرة. فالإنسانُ تقريباً أعْقدُ آلةٍ في الكون، ولهذه الآلة صانعٌ حكيم، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة، فإذا كان هذا القرآن بآياته التشريعية، فهي سُنَّة النبي عليه الصلاة والسلام بتفصيلاتها البيانية، كانت تعليمات الصانع في التشغيل والصيانة، فالإنسان انطلاقاً من حبِّه المفرط لذاته كان عليه أن يتّبع تعليمات الصانع فيسعد ويرقى.

أيها الأخوة، تفاصيل الحديث عن هذا الموضوع يمكن أن نتابعها في أي كتاب فقه، لأن الإنسان يحتاجها عند الزواج. ثم يقول الله عز وجل:

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ)

اتقوا معصية الله، واتقوا سخطه وعقابه وناره..

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

هناك رادع، وهناك مشجِّع، فالمشجِّع هي الجنة، والرادع هو النار، ولنعلم علم اليقين أن الله بكل شيءٍ عليم.

الأيمان التي يحلفها البائع ليروِّج سلعته هي أيمان تمحق البركة :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

أي حينما يحلف الإنسانُ يميناً في ساعة غضب، كأنْ يُقسِم ألاَّ يزور أخته أو شقيقته، ثم يجد الخير كله في زيارتها، وفي التواصل معها، وفي العناية بها، وفي إرشادها، وفي نُصْحها، فهو بهذه اليمين منع الخير عن نفسه، فالله عز وجل يقول لنا: إن كانت هذه اليمين الذي أقسمت به سيكون مانعاً لك عن فعل الخير، فينبغي ألاَّ تكون هذه اليمين سبباً لامتناعك عن الخير، فلا بأس عليك، كَفِّر عن يمينك واصنع الخير. وهذه حقيقة، لأن القصد أنك في هذه الحياة الدنيا مخلوقٌ للعمل الصالح، فإذا أقسمت في ساعة غضب ألاَّ تعمل صالحاً، وألا تقرض إنساناً، وألا تزور أخاً، وألا تساعد صديقاً، ثم وجدت أنك بهذا اليمين حرمت من الخير كله، ماذا نفعل؟ فنقول لك: افعل الخير وكَفِّر عن يمينك، ولا تتخذ من هذه اليمين وسيلةً للكف عن هذا الخير..

(وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

فينبغي للإنسان بشكلٍ أو بآخرَ ألاَّ يحلف، لقوله تعالى:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

[سورة المائدة: 89]

وكان بعض الأئمة الكرام، وهو الإمام أبو حنيفة النعمان، رحمه الله تعالى يدفع ديناراً ذهبياً عن كل يمين أقسم بها صادقاً، ويعاقب بهذا الدينار نفسه، فكيف إذا كان غير صادق؟ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((الْحَلِفُ مُنْفِقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الآن أكثر البائعين يحلف كل كلمتين يميناً: بربه، بدينه، بالكعبة، بالقرآن، برأس مالها، بأقل من رأس مالها، هذه الأيمان التي يحلفها البائع ليروِّج سلعته هي أيمان تمحق البركة، ولعلها تنفق السلعة، ولكنها تمحق البركة، لذلك فعلى الإنسان أن يحفظ لسانه عن حلف اليمين، ودائماً حينما يحلف الإنسانُ كأنه يتَّهم نفسه بالكذب، عوِّد نفسك أن تقول كلاماً بلا أيمان، فهذا السامع يجب أن يحترم كلامك من دون يمين، فإن كان لا يصدقك إلا باليمين فيجب ألا تحدثه.

لا ينبغي للإنسان أن يحلف بغير الله فإذا حلف فليحلف بالله مع حفظ أيْمانه :

أمْرٌ غريب، وصفةٌ شائعة بين المسلمين مع كل كلمة يمين، وأيمان منوعة، وبعض الأيمان محرِّم أن تحلفها: بأولادي!! من كان حالفاً فليحلف بالله العظيم، ولا ينبغي لك أن تحلف بغير الله أولاً، فإذا حلفت فاحلف بالله، ويجب أن تحفظ أيْمانك من أن تكون في موضوعاتٍ يومية مبتذلة، أما حينما تحلف ـ لا سمح الله ولا قدر ـ يميناً غموساً لتقتطع به حق امرئ مسلم فقد خرجت من الإسلام، وهذه اليمين الغموس لا كفَّارة له، لأنه يخرجك من الدين، وتحتاج بعد اليمين الغموس إلى تجديد إسلامك، وإلى توبة نصوح، وإلى أن تشهد أنه لا إله إلاّ الله وأنَ محمداً رسول الله، لأنك بهذه اليمين الغموس خرجت من الإسلام، فهذا الذي يحلف يميناً أمام القاضي ليقتطع به مبلغاً أو مالاً من حق أخيه المسلم، إنه بهذا يخرج من دينه، فهذه اليمين الغموس موضوع آخر، أما هنا فلو حلفت يميناً في ساعة غضب، ومضمون اليمين ألاّ تنصح إنساناً، أو ألا تعين إنساناً، أو ألا تزور أخاً، أو ألا تعالج مريضاً، أو ألا تقرض مسكيناً، فلو حلفت مثل هذا اليمين ثم وجدت أن الخير في الحِنْث بها، فيجب أن تكفِّر عنه وأن تفعل الخير، هذا هو المعنى الأول..

(وَلَا تَجْعَلُواْ اللّهَ)

أي هذا اليمين بينكم وبين الخير، وأنت مخلوقٌ للخير وللعمل الصالح، فلا تجعل هذه اليمين بينك وبين الخير.

من صفات المؤمن الأساسية الإصلاح بين الناس :

قال تعالى:

(أَنْ تَبَرُّوا)

أن تفعلوا الخير..

(وَتَتَّقُوا)

وأن تقفوا عند حدود الله..

(وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

من صفات المؤمن الأساسية أيها الأخوة أنه يصلح بين الناس لقول الله عز وجل:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال: 1]

ولقول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُم))

[رواه الترمذي عن الزُّبَيْر بْن العَوَّام]

فالإصلاح بين الناس دَيْدَنُ المؤمن، وطاعته لله دَيْدَنُهُ أيضاً، ودَيْدَنُهُ أيضاً العمل الصالح، والطاعة، والإصلاح بين الناس، ولذلك قال تعالى:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة النساء: 114]

ومن صفات المؤمن أنه يُقَرِّب، ويوفِّق، ولا يفرِّق، ولا يُباعد، ولا ينفِّر، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ليس منا من فرق بين اثنين ".

اليمين المنعقدة يحاسب عليها الإنسان حساباً شديداً :

إذا حلفت يميناً في ساعة غضب، ومنعت بها خيراً عن نفسك، يقول الله لك: لا تجعل هذه اليمين مانعاً لك من فعل الخير، بل كَفِّر عنه، وافعل الخير، ثم يقول الله عز وجل:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

اللغو أناس كثيرون: (تفضَّلْ كُلْ، واللهِ لا أقدر، قال: والله، تفضل كُل، والله لا أشتهي)، وهو في أشد حالات الجوع، ولكنه أَلِفَ أن يقول: إي والله، لا والله، فهذه يمين اللغو، هذه اليمين نرجو الله أن يعفو عنّا به، ولكن الأولى ألا نحلف إطلاقاً.

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ)

حينما يحلف الإنسان يميناً مُنْعَقِدةً، وينوي وراءه شيئاً، فهذا اليمين محاسبٌ عليه أشد المحاسبة، ولهذا اليمين تبعات كثيرة.

الإنسان مخلوقٌ للعمل الصالح فيجب أن يفعله في كل الأحوال :

قال تعالى:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

هذا القلب ينظر اللهُ إليه، هو منظر الرَّب، ورد في بعض الآثار القدسية: أن عبدي حَسَّنت منظر الخلق سنين، أفلا حسنت منظري ساعة؟ قلبك ينظر الله إليك..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 88-89]

(وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ)

أنت مخلوقٌ للعمل الصالح، فيجب أن تفعله في كل الأحوال، ولو حلفت يميناً منعقدةً ألاّ تفعل خيراً، كفِّر عنه، وافعل الخير، افعل الخير واتَّقِ أن تعصي الله، وأصلح بين الناس، والله يعلم متقلَّبكم ومثواكم.

أما هذه الأيمان التي نلقيها في أثناء الحديث اليومي، فنرجو الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنا بها، ولكن يؤاخذنا بالنيَّات المنعقدة في القلوب، والتي قد لا ترضي الله عز وجل، والآية الكريمة:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 88-89]

إذا تبتَ إليه فهو غفور، وإن لم تتب فهو حليم، يعطيك فرصةً تَتْلُو فرصةً، حتى إذا آن الأوان شُدَّ الحبلُ، فكنتَ في قبضةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (78- 95):تفسير الآيات 226-229، الطلاق وضوابط العلاقة بين الزوجين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-06-16

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيلاء في اللغة :

أيها الأخوة الكرام.. مع الدرس الثامن والسبعين من تفسير دروس سورة البقرة، ومع الآيات السادسة والعشرين بعد المئتين والتي بعدها، يقول الله عز وجل:

(لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام هذا حكمٌ أساسي فيما بين الزوجين، لأن الله هو العليم الخبير بهذا الإنسان..

(لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الإيلاء في اللغة الامتناع باليمين، أن تمتنع عن شيءٍ وقد حلفت عليه اليمين، فهذا معنى الإيلاء في اللغة، وأما في عُرف الشرع فالامتناع باليمين عن وطء الزوجة أو عن اللقاء الزوجي، وهذا يحدث بين الأزواج كثيراً، فالعليم الخبير أعطانا حُكْماً في هذه الحالة؛ أولاً:

(لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ)

هذه " مِن " ألحقت بالفعل "يؤلون"، ليتضمّن الفعل معنى يمتنعون، أي على الذين يمتنعون من نسائهم تربُّص أربعة أشهر، فلقد جعل الله للأزواج مدةَ أربعة أشهر يمتنعون فيها مِنْ نسائِهم بالإيلاء، فإن مضت فلا بد مِن حسم، هذه لا حرب ولا سلم، قطيعة مديدة لا تنتهي!! وهذا يتناقض مع حكمة الزواج، فلا بد من حسمٍ بعدَ هذا الوقت، إما أن تبقى كزوجة، وتعامل كزوجة، وتعاشر كزوجة، ويحسن إليها كزوجة، وإما الفراق، أما هذا الذي يدع زوجته أشهراً طويلة بلا حساب، ولا اهتمام، ولا مسؤولية، فهذا له حكمٌ في الشرع سوف نراه بعد قليل..

الحكمة من جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر :

جعل الله سبحانه وتعالى مدة أربعة أشهرٍ للأزواج يمتنعون فيها من نسائهم بالإيلاء، فإن مضت المدَّةُ حَسَمَ الأمرَ، فإما أن يفيء الزوج، وإما أن يطلّق، أيْ إما أن يصحوَ، ويعاشر زوجته، ويعاملها كزوجة، ويحسن إليها، أو أن يطلقها، أمّا أنْ تبقى المرأة معلّقة؛ لا هي زوجةٌ يعطيها زوجها حقها، ولا هي مطلقة تبحث عن زوج، فهذا وضعٌ خطيرٌ ومَرَضِيّ قد يفضي إلى الخيانات والانحرافات.

قبل أن أتابع الحديث عن هذا الموضوع، لا ينبغي للإنسان أن يقبل عملاً يبتعد فيه عن زوجته سنةً

فأكثر، فهذا يدمِّر حياته الزوجية، يدمره أو يدمر زوجته، لأن الخالق الكريم، الحكيم، الخبير، جعل مدة أربعة أشهر، أطول مدةٍ يمتنع فيها الزوج عن زوجته، وأطول مدةٍ تتحمَّل الزوجة البُعْدَ عن زوجها، وبعد هذا التاريخ لا بد من عودةٍ أو فصلٍ.

أيها الأخوة؛ اتفق الأئمة على أن المُولي ـ المولي اسم فاعل من الفعل آلى ـ على أن المولي إذا فاء إلى المواصَلة مع زوجته لزمته كفارة اليمين، وهذا شيءٌ بديهي؛ حلف يمين إيلاء ألا يقربها، فإن مضت أربعة أشهرٍ ثم صالحها، وقرَّبها، وعاشرها زوجة، فعليه كفارة يمين تفهم من آياتٍ كثيرة.

أيها الأخوة؛ جعل الله مدة الإيلاء أربعة أشهر، لأن هذه المدة هي المدة التي يمكن كما قلت قبل قليل للزوجة أن تتحمَّل بُعْدَهَا عن زوجها، فإن رجع هؤلاء الأزواج إلى بقاء الزوجية واستدامة النكاح فإن الله غفورٌ رحيم لا يؤاخذهم بتلك اليمين بل عليهم أن يكفروا عنها، فكل إنسان يحلف على امرأته يميناً ألا يقربها، فهناك أربعة أشهر، إن مضت وقاربها، فعليه كفارة اليمين، ولا شيء عليه بعد ذلك، وتعود الأمور إلى مجاريها، أما إذا امتنع عن ذلك، فلا بد أن يطلّقها..

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

فقول الله عز وجل: "فإن الله غفورٌ رحيم"، أي لا يؤاخذكم بتلك اليمين، بل يغفر لكم ويرحمكم.

الطلاق قرار مصيري :

قال تعالى:

(وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ)

الآن دقق، عزم الطلاق، الطلاق قرار مصيري، لقد فكَّر، وفكَّر، ودقَّق، وتريَّث، وراجع نفسه، ووازن، ووضع الإيجابيات على اليمين، والسلبيات على اليسار، ثم اتخذ قراراً بتطليق زوجته، فهكذا الطلاق، أما ساعة غضب، بلا مبرر، يطيح بزوجته، ويشرد أولاده، ويهدم أسرته، فهذا ليس من حقيقة الشرع في شيء، وليس من قصد الشريعة في شيء، قال:

(وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ)

أي وقع العزم منهم عليه..

(فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

فالله عز وجل يعلم نيَّتك، ويعلم مَن هو الظالم، وكلمة:

(فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

فيها تهديد، أنت قل ما شئت، ولكن الله يعلم الخفايا، والبواعث، و المبررات، والأهداف التي عقد من أجلها الطلاق.

تأديب الزوجة يجب أن يكون من أيام إلى أربعة أشهر :

أيها الأخوة؛ مَن حلف ألا يطأ امرأته ولم يقيِّد ذلك بمدة، أو كانت المدة أكثر مِن أربعة أشهر، إنسان حلف يميناً مُطْلَقاً ألاَّ يقارب زوجته، أو حلف يميناً ألا يقارب زوجته سنةً، فما حكمه؟

هذا يمهل أربعة أشهر، فإن مضت فهو بالخيار إما أن يرجع إلى زوجته، وتعود زوجته كما كانت مع كفَّارة اليمين، وإما أن يطلّقها، وعندئذٍ له حكم المُطلّق ابتداءً، أما إذا وقَّت يمين الإيلاء دون أربعة أشهر، قال: لشهر، أو لشهرين، أو لثلاثة أشهر فعليه أن يبرَّ في يمينه، ويعتزل امرأته التي حلف أن يبتعد عنها، حتى تنقضي المدة. فمسموح أن يحلف الإنسان يمين إيلاء يبتعد فيها عن زوجته مدةً تقل عن أربعة أشهر، هذا كلام الخبير، أما أربعة أشهر، فلا بد من حسم؛ إما أن تكون زوجة، تعامل كزوجة، تعاشر كزوجة، وإما أن يُطْلَقَ سراحها، فتبحث عن زوجٍ آخر، أما وضع المعلَّقة فلا هي زوجة ولا هي مطلَّقة، هذا وضعٌ شاذٌ قد يسيء إساءةً بالغة جداً، وفي بعض البلاد التي تحرِّم الطلاق أصلاً قد ينشأ خلافٌ بين الزوجين فيتباعدان، فما الذي يحصل؟ لكل طرفٍ خُلاَّن، فالزواجُ شكل صوري، والزوج عن يمين، والزوجة عن يسار، وهذا وضع في الإسلام ليس له وجود إطلاقاً.

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

أي إن أردت تأديب الزوجة فيجب أن تؤدِّبها دون أربعة أشهر، من أيام إلى أربعة أشهر، وبعد هذه المدة سواءً حلفت أن تبتعد عنها سنةً أو سنتين، فهذا الوقت لا قيمة له إلا بأربعة أشهر وما دون هذه المدة، ولك أن تؤدِّبها بمدة دون أربعة أشهر، وهذا ممكن، إذاً يجب أن تبرَّ بيمينك، وأن تبتعد عنها المدة التي حلفت عليها يمين الإيلاء.

وقد أراد النبيُّ عليه الصلاة والسلام أن يؤدِّب بعض زوجاته، فحلف أن يبتعد عنهن شهراً، وإنَّ الإنسان إن لم يكن على علمٍ وعلى حكمةٍ فإنه يهدمُ بيتَه لسببٍ تافهٍ، ولسببٍ تافهٍ يشرِّد أولاده، ويخسر زوجته، أما إذا كان عاقلاً فلا بد من التأديب، والخلافات الزوجية حقيقةٌ واقعة، والزوجة لها هدف، والزوج له هدف، قد يتناقضان، أو يتحاوران، أو يتشادَّان، فلا بد من حسم، الزوج له أن يؤدِّب زوجته بأن يمتنع عنها، فيعظها أولاً، ويأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر، وقد يبتعد عنها تأديباً.

على الإنسان ألا يجعل اليمين حاجزاً بينه وبين العمل الصالح :

النبي عليه الصلاة والسلام آلى من نسائه شهراً، أما إن أراد أن يلغي هذا اليمين، إن أراد أن يقارب زوجته قبل مضي تلك المدة التي هي دون أربعة أشهر، حنث في يمينه، ولزمته الكفارة،

فعلى كلِ يمين الإيلاء إذا مضى عليه أربعة أشهر فلا بد من كفارة، أولاً تقديراً للزوجة، وثانياً تأديباً للزوج، أما إذا حلف أن يبتعد عنها شهراً، ثم رأى أن هذا الأمر لا يستدعي هذه العقوبة، فأراد أن يحنث بيمينه، لزمته كفارةٌ إذا قاربها قبل هذا الشهر، لقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديثِ:

((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

هذه قاعدة أساسية، فأكثر الناس في ساعات الغضب يحلف يميناً ألاّ يزور أخته، أو ألا يقرض إنساناً مبلغاً، أو ألا يفعل معروفاً، أو ألا يفعل كذا، إنها ساعة غضب، فلأنك مخلوق للعمل الصالح، فالله جل جلاله من خلال النبي عليه الصلاة السلام سمح لك أن تحنث بيمينك، وأن تفعل الذي هو خير، فلا تجعل هذا اليمين حاجزاً بينك وبين العمل الصالح وأنت مخلوقٌ للعمل الصالح.

معنا مثل قريب؛ قرأ إنسانٌ كتاباً في كلية الطب مثلاً، رآه معقداً جداً، فضاقت نفسُه، ولم يفهم منه شيئاً، فحلف يميناً ألا يقرأ كتاباً في هذه الكلية!!! ومستقبله، ومصيره، ومرتبته العلميّة، وزواجه مبنيٌ على التخرُّج، فهل يُعْقَل أن يبر بيمينه، نقول له: احنث بيمينك، وكفِّر عنه، وافعل الذي هو خير. قال:

(فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

وهذا أيضاً تهديد..

(فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

عليم بما يقع في الأنفس والبواطن من المُضارة والمضاجرة بين الأزواج.

الطلاق أمانة في أيدي الرجال :

أخواننا الكرام؛ هناك أشياء تزعج الزوج، وهناك أشياء تزعج الزوجة، ولكن القضاء لا يمكن أن يثبتها، قد تظهر أمام الناس أنك تحبها، وأنك تكرمها، وأنك تقدِّم لها كل شيء، وأنت في الحقيقة تبالغ في الإساءة إليها، دون أن يطالك القانون أو الأحكام القضائية، فإنسان يهين زوجته فيما بينه وبينها ولا يوجد شاهد، يمتنع منها إضراراً بها فلا يعاملها كزوجة، بل أقل من زوجة، وهناك أساليب كثيرة يفعلها الأزواج ولا يحاسبون عليها لا بالقضاء ولا بالقانون، بل هناك أشياء قد يفعلها الزوج لا تستطيع الزوجة أن تبوح به أمام أهلها، وتخاف أن تبوح به، وهناك زوجاتٌ يَفعلن شيئاً مع أزواجهن ولا يطالُهنَّ القضاء، فالله عز وجل يقول:

(فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

أي هو عليمٌ بهذه الأعمال التي تسيء إلى الطرف الآخر. إنّه تهديد بما يقع في الأنفس والبواطن من المضارة والمضاجرة بين الأزواج في أمورٍ لا تأخذها الأحكام، ولا يمكن أن يصل علمها للحُكَّام، فجعل هذه الأشياء مكشوفةً عند الله عز وجل والله يحاسب عليها فقال:

(فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

لذلك رأى العلماء أن الطلاق أمانةٌ في أيدي الرجال، فقدْ يدّعي إنسانٌ أنه رأى في بيته رجلاً ويطلق امرأته، وهو مُصَدَّق، فمَن يحاسبه إذا كان مخطئاً؟ وأحياناً يريد إنسانٌ أن يخرج من مهر زوجته فيتهمها بالزنا، وهذا شيء يقع، فمَن الذي سيحاسبه؟ ومَن الذي سيبطش به؟ إنه الله عز وجل..

(فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

الدين يقوم على المسؤولية أمام الله عز وجل :

قد يصطلح الزوج مع زوجته، وتهبه بيتها إكراماً لهذا الصلح، فيأخذ البيت ثم يطلّقها، وهناك من يفعل ذلك، فهذه المرأة التي تكيد للزوج، وهذا الزوج الذي يكيد للمرأة، مَن سيحاسبهما؟ هناك أشياء ظاهرة بين الزوجين يمكن أن تصل إلى علم الحُكَّام، ولكن هناك أشياء لا يعلمها إلا الله، فإذا قال الله عز وجل:

(فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

هذا تهديدٌ من الله عز وجل، ولذلك فإنَّ الطلاق أمانةٌ في أيدي الرجال، كما أن العِدَدَ والاستبراء أمانة في أيدي النساء، وقضايا الرحم، ودم الحيض، والاستبراء، فهذه مَن يعلمها؟ إنّها متروكة أمانة بيد الزوجة، والطلاق أمانة بيد الزوج، فالدين يقوم على المسؤولية أمام الله عز وجل.

سآتيكم بمثل آخر: لو أن إنساناً ذهب إلى بلدٍ غربي، وتزوج امرأةً في مركز إسلامي، فهناك شيخ، وإيجاب، وقبول، ومهر، وشاهدان، وكل شروط العقد الصحيح متوافرة، فلو نوى التوقيت، مَن يعلم هذه النية؟ الله وحده، الله جل جلاله يعلم هذه النية التي تتناقض مع حِكمة الزواج، ولذلك فعندنا أحكام ظاهرية، وعندنا خبايا داخلية، والخبايا الداخلية الله جل جلاله مطلعٌ عليها.

هناك شيء آخر: أمَر اللهُ عز وجل الأزواجَ أنْ يتربَّصن أربعة أشهر، وأمر النساء أن تتربَّصن مدة الإقراء الذي ذكره الله في آيةٍ أخرى.

يروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه سمع امرأةً تنشد شعراً وهي وحيدةٌ في البيت، فسأل ابنته حفصة رضي الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: أربعة أشهر، فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك.

أحياناً تجد بلداً يحتاج إلى مهندس بلا زوجة، والإجازة بعد سنة، وهذا مخالف للشرع، ويرفضون أن يأتي مع زوجته، ويريدونه وحده بلا زوجة، وله زوجة، وهي بحاجة إليه، وهو بحاجة إليها،

فهذا الذي يفعله بعض مَن يطالبون بموظفين بلا زوجاتهم، فإنّ ذلك يوقِع فساداً كبيراً، ولذلك أي شيءٍ يخالف منهج الله عز وجل ينشأ عنه فسادٌ وأي فساد.

من طُلّقت طلاقاً رجعياً تتربص بنفسها ثلاثة قروء :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

طبعاً آيات الفقه تحتاج إلى دقّة، وتحتاج إلى صبر، لأنها أحكام دقيقة جداً يُبْنَى عليها الشرع، وهذا أمر للمطلقات بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، وقد ينشأ خلاف بين الزوجين، والخلاف شيء طبيعي، الزوج في ساعة غضب، غضب طبيعي أيضاً، طلق امرأته، ولعل هذا الطلاق ظهر في وقت غضب، وفي حالة غضب، ولعله يندم بعد حين، ولعله يتمنَّى بعد حين لو لم يكن هذا الطلاق منه، واللهُ عز وجل خبيرٌ بهذا الإنسان، والمطلقة التي طُلّقت طلاقاً رجعياً تتربص بنفسها ثلاثة قروء، والقرء هو الحيض أو الطهر على خلاف بين العلماء، فالمرأة تنتظر الحيضة الأولى فيمرُّ شهر، فإن كلّمها ووضع يده على يدها، فقد أرجعها، وانتهى الأمر، ولكن حسبت طلقة.

تصور إنساناً في ساعة غضب حلف يميناً، وبعد يوم ضعف هذا الموضوع أو برد، وبعد يومين لم يبقَ شيء، فقد ندم على هذا اليمين، فبكل سهولة ويُسرٍ بإمكانه أن يسترجع زوجته، ويكفي أن يقول لها: راجعتك، أو أن يضع يده على يدها، وانتهى الأمر، فقد راجعها، ولكن حسبت طلقة، فالله عز وجل لما سمح لك بالطلاق، سمح لك بالطلاق الذي جاء به النبي وفق سنته عليه الصلاة والسلام، مثل أنْ يحلف المرءُ يمينَ طلاقٍ في ساعة غضب، ثم وجدَ بعد حين أن هذا الأمر لا يستدعي هذا اليمين، فالقضية محلولة، تراجعها لفظاً أو عملاً، وانتهى الأمر، ولكن حسبت طلقة.

عقد الزواج هو أقدس عقد وهذا هو الميثاق الغليظ :

لو تصورنا أنه مضى شهرٌ لم يراجع فيه الزوجُ زوجتها المطلقة، فالقضية أكبر، فجاءها الدورة، القرء، ثم جاءها الطهر، فدخلت في مرحلة ثانية، أيْ شهر ثانٍ، وهي في بيته تتزين له، وتُعِدُّ له الطعام، وهي في البيت عنده، وتحت سمعه وبصره، وفي متناول يده، فلعل هذا اليمين كان ظالماً، ولعله كان في ساعة غضب، أو كان في ساعة طَيْش، أو كان مضغوطاً خارج المنزل، فالشرع حكيم، فمحافظة على هذه العلاقة المقدَّسة التي هي أقدس علاقة على الإطلاق، إذْ عقد الزواج هو أقدس عقد، وهذا هو الميثاق الغليظ، فمن أجل المحافظة عليه، وذلك أن الزواج وجد ليبقى ولم

يوجد لينهار، فلها أن تتربَّص بنفسها شهراً آخر، لمجرد أن يراجعها قولاً أو عملاً، فأصبحت زوجته ولكن حُسِبَت طلقة، أعطاه أول فرصة أو أول قرء، أيْ شهراً، ثم حاضت وطهرت وبدأ القرء الثاني، أيْ شهر ثانٍ، ثم حاضت وطهرت وبدأ القرء الثالث، أيْ شهر ثالث، فعندما ينتهي القرء الثالث أو الطهر الثالث، وتأتي الدورة، وتمضي، وتتطهر هذه المرأة، ملكت نفسها، فقد أعطينا الزوج ثلاثة قروء، أو ثلاثة أطهار مع ثلاثِ حيضات، أي تسعين يوماً، فإذا كان الأمر لا يحتمل ولا يُقْبَل ولا يستساغ ولا يستمر في البعد عن زوجته هذه المدة!! أرأيت إلى حكمة الشرع، طلق تطليقة، وهذه التطليقة مع تسعين يوماً فرصة كي يراجعها ويستعديها، وتعود زوجته كما كانت، ولذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق: 2]

مَن يتق الله في تطليق زوجته يطلقها طلاقاً سنياً، يجعل الله له مخرجاً إلى استعادتها، وأغلب الظن أنّ الإنسان يحب زوجته، وأغلب الظن أنّه يطلّق في ساعة غضب، وأغلب الظن أنّ الأمر الذي رآه كبيراً يتضاءل.

بالمناسبة، إذا كانت الزوجةُ في بيت الزوجية، فأكبر مشكلة بين الزوجين تتضاءل مع مرور الأيام، أما إذا خرجت من بيت زوجها، أو طردها زوجها، فأصغر مشكلة بين الزوجين تتفاقم، وقد تنتهي بالطلاق، وهذا معنى قوله تعالى:

(تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

[سورة الطلاق: 1]

بعد مرور ثلاثة قروء لا يمكن للزوج أن يسترجع زوجته إلا بعقد ومهرٍ جديدين :

ما دامت الزوجة في البيت، فأكبر مشكلةٍ بينك وبينها تتضاءل حتى تنتهي، وأحياناً يمين طلاق ينتهي بعد يومين، أو بعد أسبوع، أو عشرة أيام، أو عشرين يوماً، أو شهرٍ، أو شهرين، هناك مهلةٌ تسعين يوماً للزوج، ولعله أخطأ، لعله كان غاضباً، أو مبالغاً، أو أنّ هذا الأمر لا يستدعي هذا الطلاق، أعطاه الشرع تسعين يوماً، أما حينما تتطهَّر من الحيض الثالث فقد ملكت نفسها.

والآن كيف يرجعها؟ عملية بسيطة بمهرٍ وعقدٍ جديد، عقد بسيط جداً، لأنها ملكت نفسها، انتظرت تسعين يوماً، وكانت مع زوجها كل يوم معه، تحت سمعه وبصره، وفي متناول يده، وهي تتزيَّن له كل يوم، وهو بحاجة إليها، وهي بحاجة إليه، ومع ذلك لم يقاربها، ولم يراجعها، ملكت نفسها، فالآن، كي تسترجعها لا بد من عقدٍ ومهر جديدين، وبما أنّه لم يسترجعها، فقد ملكت الآن نفسها، وهي مخيرة.

بالمناسبة، في أثناء تسعين يوماً هي ليست مخيَّرة، ويكفي أن يقول لها: راجعتك، فقد رجعت إليه زوجةً، ويكفي أن يراجعها عملياً فقد رجعت إليه زوجة، أما حينما تمضي القروء الثلاثة، أو الأطهار الثلاثة، أو الحيضات الثلاث، وتغتسل، فقد ملكت نفسها، والآن لا يمكن أن يسترجعها إلا بعقد ومهرٍ جديدين.

ثم نشأ خلاف ثانٍ، فهذه طلقة أولى، استرجعها بعقد، حُسِبَت عليه طلقة، وفي الحالين سواء استرجعها أو لم يسترجعها، أما إذا استرجعها ضمن تسعين يوماً، استرجعها بلا مهر ولا عقد، وإذا استرجعها بعد تسعين يوماً استرجعها بمهر وعقد، فرجعت إليه، وطلقها مرة ثانية، ومضى ثلاثون يوماً، ثم ثلاثون يوماً، ثم ثلاثون يوماً، أي تسعون يوماً مرة ثانية، فما هذه القضية الكبيرة؟ إذا لم تكن القضية محتملة، ولا تقبل، ولا تستساغ أخرجته من جلده فلا يستمر الزواج، فانظر الضمانات بالشرع، إنها ضمانات مذهلة. فالطلاق حلٌّ لا يُلْجَأ إليه إلا في حالات نادرة جداً، لأن الله يرضى عن الزوجين إذا تعاونا، ويغضب عليهما إذا تفرَّقا، وهو أبغض الحلال إلى الله، فله صمَّام أمان هو الطلاق، وهو كالوعاء البخاري وكل وعاء بخاري لئلا ينفجر له صمام من مادة بلاستيكية، فإذا ارتفع الضغط إلى درجة غير محتملة، بدل أن ينفجر هذا الوعاء، فهذه المادة البلاستيكية تسيخ ويخرج البخار من هذا الوعاء دون أن ينفجر، وهذا هو الطلاق.

أنواع العِدَد :

قال تعالى:

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

إذاً بيدها أمانة، فلعل هناك حملاً تحرك في بطنها، فلها عدة خاصة..

(وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

الآن أنواع العِدَد: المدخول بهن من ذوات الأقراء، أي امرأة تحيض وقد دخل بها فعدّتُها ثلاثة قروء، أما غير المدخول بها فلا عدة عليها، لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمْ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا)

[سورة الأحزاب: 49]

فالمرأة التي لم يدخل بها ليس لها عِدَّة، والمرأة التي دخل بها، ومن ذوات الأقراء؛ تحيض وتطهر،

فعدتها ثلاثة قروء، وأما التي لم تحض بعد فعدّتُها ثلاثة أشهر، وإن كانت تحيض فعدّتها ثلاثة قروء، وإن لم يدخل بها فليس لها عدة.

الطلاق أمانة بيد الزوج وقضية ما خلق الله في أرحام النساء أمانة بيد النساء :

قال تعالى:

(وَاللائِي يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ)

[سورة الطلاق: 4]

التي لم تحض بعد، عدتها ثلاثة أشهر..

(وَاللائِي يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ)

[سورة الطلاق: 4]

أما الحامل فعدتها وضع الحمل..

(وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)

[سورة الطلاق: 4]

فهذه الآية عامةٌ، امرأة حامل عدتها أن تضع حملها، امرأة لم تحض بعد، أو يئست من المحيض، فعدتها ثلاثة أشهر، وامرأة دخل بها وهي تحيض، فعدتها ثلاثة قروء، وامرأة لم يدخل بها، فليس لها عدة.

أيها الأخوة؛ القُرء من ألفاظ الأضداد يطلق على الحيض والطهر معاً، فأية امرأةٍ لها أن تحسب على أساس الحيض أو على أساس الطهر معاً، قال:

(وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ)

لقد خلق اللهُ في الرحم ولداً، فقطع الحيض، وصار هناك حمل، فينبغي لها أن تصرِّح بذلك وإلا فهي عند الله آثمة، فأحياناً تدَّعي أنها حامل لشيءٍ تريده، أو تدّعي أنها لا تزال في الحيض لعلّةٍ تريدها، فهذه مسؤوليتها، وهي وحدها محاسبةٌ عن ذلك، وقد ردَّ اللهُ عز وجل الأمرَ إليهنّ، وتوعَّدهنّ فيه ألاّ يخبرنَ إلا بالحق، فالطلاق أمانة بيد الزوج، وقضية ما خلق الله في أرحام النساء أمانة بيد النساء..

السُنة بينت متى تُضرَب الزوجة :

قال تعالى:

(وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ)

أي بإرجاعهن، فهناك زوج يحب زوجته، وقد نشأ خلاف، فطلقها طلاقاً رجعياً، وهناك مَن يعترض، وهناك من يسهم في إحداث شرخ في هذه الأسرة، فالله عز وجل يقول:

(وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ)

أحق بردهن أي بإرجاعهن، يقول تعالى:

(وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً)

الإنسان أحياناً يسترجع زوجته ليؤذيها، ويطلقها، فهي تحيض وتطهر، ويتركها تسعين يوماً، وقبل يوم يسترجعها، ثم يطلقها ثانية، ويمهلها تسعين يوماً، ثم يراجعها، فهي عملية مئة وثمانين يوماً، والقصد هو الإيذاء، فالزوج يسترجع زوجته إن أراد الخير، أما أن يجعل هذا من أجل إيذائها، فهذا محاسب عليه حساباً شديداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ))

[أبو داود عن جابر في حديث حجة الوداع]

يقول بعضُهم: الله أمر بضرب النساء، مَن قال لك ذلك؟ قال تعالى:

(وَاضْرِبُوهُنَّ)

[سورة النساء: 34]

جاءت السُنة فبينت متى تضربها؟ أي إن أدخلت على بيتك رجلاً تكرهه، رجلاً أجنبياً، هذا عمل كبير جداً، فأنت بين أن تضربها وتؤدبها وأن تبقيها زوجة، وبين أن تطلقها، وقد تنحرف، فأيهما أفضل لها أن تؤدبها وأن تبقيها زوجة، أو أن تسرحها فتنحرف؟ جاءت السنة فبينت متى تُضْرَب المرأة.

((... وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ))

[أبو داود عن جابر في حديث حجة الوداع]

حق الزوجة على زوجها :

في آية أخرى يقول الله عز وجل:

(وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا)

[سورة البقرة: 231]

وأحياناً يراجع الإنسانُ زوجتَه لا حبّاً بها، ولا تنفيذاً لأمر الله، ولكن ليؤذيها، فقد بلغه أن هناك إنساناً لو أنه طلقها لتزوجها، فصار يراجعها ويغيظها ويؤذيها، وهذا الذي لا يريده الله عز وجل.

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ:

((أنْ تُطْعِمَهَا إذَا طَعِمْتَ وَتَكْسُوَهَا إذَا اكْتَسَيْتَ أوْ اكْتَسَبْتَ وَلَا تَضْرِبْ الْوَجْهَ وَلَا تُقَبِّحْ وَلَا تَهْجُرْ إلَّا فِي الْبَيْتِ، قَالَ أَبُو دَاوُد: وَلَا تُقَبِّحْ أنْ تَقُولَ قَبَّحَكِ اللَّهُ))

[أبو داود عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ]

هذا حق الزوجة على زوجها.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إلَّا بِإِذْنِهِ وَمَا أَنْفَقَتْ مِنْ نَفَقَةٍ عَنْ غَيْرِ أَمْرِهِ فَإِنَّهُ يُؤَدَّى إلَيْهِ شَطْرُهُ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فهذه قواعد عامة في تنظيم العلاقة بين الزوجين.

أمثلة من الكتاب والسّنة تبين ضوابط العلاقة بين الزوجين :

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

ثم يقول عليه الصلاة و السلام:

((إذَا الرَّجُلُ دَعَا زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّورِ))

[الترمذي عن طلق بن عليّ]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال:

((إني أحب أن أتزيَّن لامرأتي كما تحب أن تتزين لي))

[الجامع لأحكام القرآن عن ابن عباس رضي الله عنه]

لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

وهذه ضوابط العلاقة بين الزوجين وردت في هذه الآية.

المعروف هو ما قبله العقل ووافق كرم النفس وأقرَّه الشرع :

الآن ما هو المعروف؟ الآية الكريمة وهي دقيقة جداً:

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

ما هو المعروف؟ المعروف ما عرفته الطباع السليمة ولم تنكره، أو ما قبله العقل ووافق كرم النفس وأقرَّه الشرع.

لكن كيف تنسَّق العلاقة بين الزوجين؟ هناك مَن يدعي أن الزوجة ليست مطالبة بخدمة زوجها، فهذا كلام لا أصل له، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قضى على ابنته فاطمة بخدمة البيت، ولو لم يكن هذا صحيحاً لما فعل ذلك، فالزوج يعمل خارج البيت، وعليها أن تطبخ، وأن تنظف، وأن تربي الأولاد، وأن ترضع، ولهذا بحث طويل قد عالجته مرة في خطبة، لأن هناك مَن يدعي أن للرجل أن يستمتع بزوجته فقط، فهذا الذي عليها، وما سوى ذلك ليست مكلفةً به، بل إن بعضهم بالغ في ذلك وقال: ليس عليها إرضاع أولادها، عليه أن يأتي بمرضع!! هذا طفل يموت من الجوع، وأمه ليست مكلفةً أن ترضعه، فهذا كلام غير مقبول إطلاقاً، إلا إذا أنت خطبت ابنة ملك، وهي مخدومة في قصر أبيها، فيجب أن تأتي لها بمن يخدمها، وهذه حالة نادرة جداً، فمن دخل مثل هذا المدخل فليهيِّئ نفسه لذلك، وما سوى ذلك فأنت غير مكلف إلا أن تعاملها بالمعروف كما هو معروف بين الناس، فكل الزوجات يطبخن، وينظفن، ويغسلن، ويربين أولادهن، ويرضعن، وهذا هو المعروف، لأنّ الطباع تقبله، والعقول تقبله، والشرع يؤكده.

أنا أستغرب كيف أن هناك مَن يخطب، ويقول العكس، ليس لها لا أن تخدم، ولا أن تطبخ، ولا أن تنظف، ولا أن ترضع، لأن عقد الزواج قضية استمتاع فقط، فهذا كلام لا يقبله العقل السليم، ولا الفِطَر السليمة، ولا الشرع، ولا فعل النبي عليه الصلاة والسلام، إذ قضى على ابنته فاطمة، وهي فلذة كبده، أن تخدم سيدنا علياً في البيت، قال العلماء: على أن المرأة عليها أن تخدم زوجها، أما إذا كانت مِمَّن تُخدَم، فينبغي لها أن تأتي لها بمن يخدمها، وهذه قاعدة.

الرجل قوام على المرأة بدرجة واحدة وهي درجة القيادة :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

درجة واحدة..

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

وهذه درجة القيادة، فلا بد لهذه المؤسسة من قائد، ولا بد لهذه الأسرة من رجل صاحب قرار، إذ يوجد في كل مكان بالعالم، وبكل مجتمع، وبكل مؤسسة، وبكل مستشفى، وبكل مدرسة، وبكل معمل، إنسانٌ صاحب قرار يقول: نعم أو لا، وهذا البيت لا ينجح إلا بقائد، وهذا القائد صاحب قرار، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

أي زيادة، فأحياناً يكون ضابطان كبيران في ثكنة، فلا بد أن يكون أحدهما قائداً آمراً للثاني، ولو كان الفرق أياماً بالتخرج، يقول لك: إنه متقدم، وهكذا في البيت لا بد من صاحب قرار إنه الزوج، طبعاً قال الله عز وجل:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

[سورة النساء: 34]

متى تملكُ القوامة على زوجتك؟ إن كنت أعلم منها، وإن كنت أفضل منها، وأكثر منها تديناً، وأكرم منها أخلاقاً، وتنفق عليها طبعاً، أما إذا كنت تعيش على معاشها، وأخلاقك شرسة جداً أمام أخلاقها، فلها القوامة، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

[سورة النساء: 34]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا))

[حديثٌ صحيحٌ حسن رواه الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وفي رواية :

((لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، وَلَوْ صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ مِنْ قَدَمِهِ إِلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ قُرْحَةٌ تَنْبَجِسُ بِالْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْهُ فَلَحَسَتْهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ))

[رواه أحمد عَنْ عَمِّهِ أَنَس بْن مَالِكٍ]

الحكمة من تحريم استعادة الزوجة إلا بعد أن تتزوَّج زواجاً حقيقياً طبيعياً على التأبيد :

أيها الأخوة؛ قال الله عز وجل بعد ذلك:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)

أي ليس لك أن تعيدها كل مرة، إذ المسموح لك مرة تسعين يوماً، ولك أن تراجعها في هذه الأيام التسعين، وإن مضت فلك أن تعقد عليها عقداً جديداً، الطلاق مرتان؛ أما الثالثة فطلاق بائنٌ بينونة كبرى، وانتهت، وملكت نفسها، ولن تستطيع أن تستعيدها إلا أن تتزوَّج زواجاً حقيقياً طبيعياً على التأبيد، ثم يطلقها زوجها، فما حكمة ذلك؟

إنسان أساء إلى زوجته، فطلقها التطليقة الأولى، ولم يراجعها، ومضت الأيام التسعون، ثم طلقها ثانية، وأساء إليها ولم يراجعها، ومضت التسعون الثانية، فالآن انتبه إن كنت تحبها، وإن كانت مصلحتك تنعقد معها، إن طلّقتها مرة ثالثة، فلن تستطيع أن تراها ثانية إلا في حالة تعجيزية، أيْ أن يأتيها خاطب فيخطبها على أنها زوجة على التأبيد، إنه زواج طبيعي على التأبيد، ثم يطلقها، فإن طلقها فلزوجها الأول أن يستعيدها، فما الذي يحصل؟

إن كانت هي المسيئة، فأغلب الظن أنّ الزوج الثاني سوف يطلّقها، لأن العلة نفسها، وعندئذٍ تدرك أنها هي السبب، لعلها إن رجعت إلى زوجها الأول أنْ تغيِّر من خطتها، وإن كان الزوج الأول هو المسيء، وتزوجها الثاني فلا يمكن أن يطلقها، وهذا فعلاً حلٌّ حاسم، فتستقرّ عنده، وإذا كانت العلّة منها، وهي المسيئة، فالزوج الثاني سوف يطلقها، وعندئذٍ تراجع نفسها وتعلم أنها هي الآثمة وقد تعود إلى زوجها الأول، أمَّا ما يجري فهو مخالف للشرع، قلت لكم: زواج حقيقي، مع الدخول، ومع نية التأبيد، وهذا هو الشرع، وما سوى ذلك انحرافٌ بالدين.

لعن الله الزوج الذي يدخل بالمرأة ليلةً واحدة كي يحللها لزوجها :

الزوج الذي يدخل بالمرأة ليلةً واحدة كي يحللها لزوجها، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ))

[أبو داود عن عليّ]

فدخولٌ ليومٍ واحدٍ منْ أجل تحليلها هذا عمل من أعظم الآثام والدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام لعنه، إنه زواجُ إغلاق باب دون دخول، لا يصح، بل يجب أن يدخل بها، وهذا الزوج الشرس يجب أن يعلم أنه لن يستعيدها إلا إذا التقى بها رجل، أفلا يغار؟!! لقد جاءها زوجٌ آخر، فلذلك هذا الذي أتمنى أن يكون واضحاً ما يسميه الناس (التيس المستعار) لليلةٍ واحدة، فهذا تزويرٌ في الدين والدين منه بريء، والمطلوب زواجٌ آخر عادي، طبيعي، مبني على رغبة أبدية، نِية التأبيد منعقدة، لو أنه طلقها يستعيدها الزوج الأول، أي:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)

وبعدها:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ)

زوجة، يطعمها مما يأكل، ويلبسها مما يلبس، ولا يحتقرها، ولا يضربها، ولا يهينها، ولا يحرمها ما تشتهي، إنها زوجة عادية.

الطلاق يجب أن يكون من دون فضائح ومن دون كشف للعيوب :

قال تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

بربكم هل وجدتم طلاقاً بين المسلمين إلا ومعه فضائح؟! والله عز وجل يقول:

(أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

طلّقها، فما السبب؟ والله لا يوجد تفاهم بل تنافر طباع، والله هي ممتازة، ولكني أريد شيئاً آخر، أما ألا يبقي عليها ستراً مغطًّى، بعيوبها الجسدية، نفَّر الناس منها، وفضحها، فهذا مجرم. ما معنى قول الله عز وجل:

(أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

تطلّقها فقط، من دون فضائح، ومن دون أن تكشف كل عيوبها للناس، فما قولك بإنسان يختلق عيوباً ليست موجودة؟!! والله هناك من يفعل ذلك، يتَّهمها بأشياء لم تقع إطلاقاً، يشوِّه سمعتها بين الناس، هذا سوف ينتقم ربُّنا عز وجل منه أشدَّ الانتقام.

وقد سمعت قصة رجلٍ تزوج امرأة على جانب من الجمال، وهي ملتزمة التزاماً شديداً بالدين والأخلاق، ولها أب ربَّاها تربية عالية، ولكنه أرادها نموذجاً آخر؛ يريدها أنْ تختلط مع أصدقائه، وأنْ تذهب إلى الملاهي، وإلى الفنادق، وإلى البحر، وهذا نمطه، فرفضت، ثم رفضت، ثم رفضت، ومهرها غالٍ جداً، فدبَّرت أمُّه مكيدةً كي تجعلها تطلب الخُلع من دون شيء، فأمرته أن يسيء معاملتها، وأن يأتي بعد منتصف الليل كل يوم، وأن يضربها، ويشتمها، ويُجيعها، ويهين أهلها، ومارس معها هذا العمل أشهراً عديدة، ولها مهر كبير جداً، حتى طلبت هي الخلع، دون أن تأخذ شيئاً، وهذا الذي كان. بعد حين تزوج فتاة أخرى تروق له وتقبل نمطه في الحياة، وأصبح يتندَّر بخلاصه مِن مهر الأولى، فكلما وقع في أزمة ونجاه الله منها يقول: نجونا كما نجونا من مهر فلانة، ومرة من المرات وهو يقود سيارته، وزوجته الجديدة على اليمين، وأمه خلفه، وأبوه خلف زوجته الجديدة، أربع ركاب في السيارة وقع حادث مروّع، مات فوراً وماتت أمه معه، ونجا أبوه الذي كان ينكر على زوجته ما تفعله مع زوجة ابنها، فالله عز وجل حينما يبطش يكون بطشُه شديداً، فالشيء الذي يهتز له عرش الرحمن أن تظلم امرأة ضعيفة، وأن تتهمها بشيء هي بريئة منه، أو أن تحمِّلها ما لا تطيق، أو أن تسيء معاملتها، أو تبتزَّ مالها، وهذا شيء له ثمن باهظ عند الله عز وجل..

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

الآية التالية أصلٌ في الخلع :

الآن قدَّمت لها حليّاً ومهراً وتطلقها، فهي تستحق المهر المعجل والمقدم والحلي..

(وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ)

إنها لا تحبه، ويمكن أن تنحرف إذا بقيت عنده، فافتدت نفسها منه بمهرها، وقالت له: أسامحك بالمهر على أن تطلقني، وهذا هو الخلع، وهذه الآية أصلٌ في الخلع..

(وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

((عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ ـ أي أخلاقه عالية، ودينه جيد ـ وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْبَلْ الْحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً))

[رواه البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

الزواج لا ينعقد إلا إذا وافقت الزوجة وهذا من تقدير الدين للمرأة، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما خطَّب ابنته استأذنها: ألكِ اعتراض؟ وأي أبٍ يجبر ابنته على الزواج من إنسان لا تحبه يخالف الشرع بهذا.

هذا هو الخلع، أي إذا رفضت الزوجةُ زوجَها لعلّة فيه، وقد تَكلَّف، ودفع مهراً، فله أن يسترد كل شيء، فالمخالعة أنْ تفتدي المرأة نفسها من زوجها بمهرها كله أو بعضه..

لا ينعقد الزواج إلا بموافقة الأب والبنت معاً وهذا هو شرع الله عز وجل :

إذاً يقول الله عز وجل:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

أيها الأخوة، الفتاة لها طموح، كما لو كان هناك صندوق وله مفتاحان، ولا يفتح إلا بالمفتاحين معاً، وعقد الزواج يحتاج إلى موافقتين؛ موافقة الأب لأنه خبير بالرجال؛ إذ يعلم أخلاقهم, ويعلم انحرافهم، والأب هو الضمانة، وقد أعجبه الخاطب، ولكن شكله لا يرضي الفتاة، فيجب أن توافق هي، ولا ينعقد الزواج الا بموافقة الاب والبنت معا

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (79- 95):تفسير الآيات 231-237 ، أحكام الطلاق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-06-23

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يجوز أن يكون هناك قطيعة بين الزوج وزوجته أكثر من أربعة أشهر :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والسبعين من دروس تفسير سورة البقرة، ومع الآية الواحدة والثلاثين بعد المئتين، وقبل أن نبدأ بشرح هذه الآيات لا بد من استعراض آيات الدرس السابق لأنها على اتصالٍ شديدٍ بدرس اليوم، ولذلك سأقرؤها وأقف وقفاتٍ سريعة عند بعض أحكامها:

(لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لا يجوز أن تكون قطيعةٌ بين الزوج وزوجته أكثر من أربعة أشهر، فإن فاء إلى رشده، وعاملها كزوجة، وعاشرها كزوجة، فعليه كفَّارة اليمين، وإلا فيجب أن يطلقها، أما أن يبقيها كالمعلقة، لا هي زوجة ولا هي مطلقة، فهذا مما يرفضه الشرع الإسلامي الحنيف..

(وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

سميعٌ لما تقولون، عليمٌ بواقعكم، فقد يأتي إنسان لحل مشكلةٍ زوجية، كلٌّ يقول على مزاجه، ويلصق بالطرف الآخر التهم التي يريد، ويبرِّئُ نفسه من تهم كثيرة، فالله سميع لما يقول هؤلاء وهؤلاء، ولكن فوق أنه سميع هو عليمٌ بالحقيقة، وعليم بالواقع، وعليم بكذب بعض الأطراف..

(وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ)

الطلاق يحتاج إلى عزم، وإلى مراجعة، وإلى نية، جمع، وطرح، وقسَم، وضرب، ووازن، وحقَّق، ومحَّص، ودقَّق ثم اتخذ قراراً، فالطلاق مبنيٌّ على دراسة، أمّا لأتفه سببٍ، لصحنٍ كسر، أو لتأخرٍ في إعداد الطعام، أو لمشكلة طارئةٍ، يحلف يمين الطلاق، " أيرتكب أحدكم أحموقته، ويقول: يا ابن عباس يا ابن عباس "، وهذا ما يحصل في معظم بلاد المسلمين.

الزوج ينبغي أن يتَّقي الله في تطليقه والمرأة ينبغي أن تتقي الله في عدتها :

قال تعالى:

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ)

فالمرأة حينما تُطلَّق تقتضي السنَّة أن تطلَّق طلاقاً رجعياً، أي طلقةً واحدةً في طهرٍ لم يمسَسْها فيه، وهذه الطلقة تتيح لها أن تبقى في بيت الزوجية، وأن تأكل معه، وأن تطبخ له، وأن تتزيَّن له، وهي في متناول يده، وتحت سمعه وبصره، وما من مشكلةٍ بين زوجين إلا وتتلاشى بعد أيامٍ معدودة، والشرع الحنيف قال: ثلاثة قروء، أي تسعين يوماً، ولو طبِّق الشرع الحنيف، لو طلَّق الرجال الطلاق السُّني، ما وقع طلاق من مئة ألف طلاق، ولكن مباشرةً طلقات ثلاث دفعة واحدة، ولأتفه سبب، ويطردها إلى بيت أهلها.

ذكرت لكم، وفي الإعادة إفادة، أن أي مشكلة وقد خرجت الزوجة إلى بيت أهلها تتفاقم إلى أن تنتهي بالطلاق، وإن أصغر مشكلةٍ وقد خرجت المرأة من بيتها، أو أخرجها زوجها، هذه المشكلة الصغيرة في الأعم الأغلب تتفاقم حتى تنتهي إلى الطلاق، وإن أكبر مشكلةٍ، والزوجة في بيت الزوجية، لا هي خرجت، ولا زوجها أخرجها، فهذه المشكلة الكبيرة تتلاشى بعد أيام.

إذاً ينبغي لك أن تطلّق طلقةً واحدة في طهرٍ ما مسستْها فيه، وأن تبقَى عندك في البيت تحت سمعك وبصرك وفي متناول يدك، وتتزين لك..

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

ففي العالم الإسلامي، وفي عالم الإيمان، لا بد من مراقبة الواحد الديان، ولا بد من أن يخشى الإنسانُ ربَّه فيما بينه وبينه، فهناك في الحياة الزوجية أسرار لا يمكن أن نضبطها إلا باعتراف الزوجة، وفي الطلاق أسرارٌ لا يمكن أن نضبطها إلا باعتراف الزوج، فالزوج ينبغي أن يتّقي الله في تطليقه، والمرأة ينبغي أن تتقي الله في عدتها.

إذا مضت ثلاثة قروء ولم يرجع الزوج زوجته فقد ملكت نفسها :

مضت ثلاثة قروء، تسعون يوماً وهي في بيته، تتزين له، وهي في متناول يده، تحت سمعه وبصره، ولم يراجعها لا بالقول ولا بالفعل، ولو راجعها بالقول أو بالفعل ليس لها خيارٌ في ذلك، ويجب أن ترجع إليه، لأنها زوجته، أما إذا مضت تسعون يوماً، ثلاثة قروء، ثلاث حيضات، أو ثلاثة أطهار، فقد ملكت نفسها، وهذه أول مشكلة، فهذه الزوجة الآن بإمكانها أن ترفض العودة إليه، وهذا من حقها، ولكن إذا وافقت فبإمكانه أن يعيدها إليه بعقدٍ ومهرٍ جديدين، ولا شيء عليه، ولو كان المهر رمزياً.

ثم لك أن تطلقها طلقةً ثانية، وأن تتربص في بيتك، وأن تبقى في بيتك، تحت سمعك وبصرك، وفي متناول يدك، تتزين لك، وتصنع لك الطعام، تسعون يوماً ثانية، ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار، فإن لم تراجعها لا بالقول ولا بالفعل ففي هذه المدة ملكت نفسها.

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)

(وَبُعُولَتُهُنَّ)

أزواجهن..

(أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً)

فهو يرجعها لا ليضرها، ولا ليغيظها، ولا لتبقى تحت سيطرته، فهذا إرجاعٌ فيه ضرر..

(وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً)

القانون الذي يضبط العلاقة الزوجية :

الآن، القانون الذي يضبط العلاقة الزوجية:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

كما تحب أن تتزين لك، يجب أن تتزين لها، وكما تحب أن تحترم أمك لأنها أمك، فينبغي أن تحترم أمها، إن تكلّمت كلمة على أمك تقيم عليها الدنيا ولا تقعدها، أما أنت فتمضي سهرةً طويلة في السخرية من أمها، لا، هذا خلاف الشرع..

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

كما تحب إذا أتى أهلك إلى البيت أن تنهض وتصنع العشاء لأهلك، فينبغي لها إن أتى أهلها أن تحتفل بهم كما تأمرها أن تحتفل بأهلك، انظر إلى هذا القانون..

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

كما أنه إذا مرضت أمك، تغيب عن البيت أياماً طويلة لخدمة أمك وأبيك، وكذلك إذا مرض أبوها أو أمها ينبغي أن تسمح لها بالذهاب إليهما، فالإنسان المؤمن المستقيم، بالتعبير المعاصر الحضاري يتمثّل قوله تعالى:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

كل إنسان يعرف ما ينبغي له أن يفعله.

الرجل يزيد عن المرأة بدرجة واحدة هي درجة القيادة :

لكن لا بد في هذه المؤسسة من مدير، أو قائد، أو صاحب قرار. قال تعالى:

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

درجة واحدة، هي درجة القرار، فلا بد من إنسان واحد يقول: لا أو نعم. فلو أراد الابن أن يسافر وحده إلى بلد غربي، وهو مراهق، وأغلب الظن أنه سيسقط في الفاحشة، فالأم بدافع

من عاطفتها العمياء تحبه أن يسافر، والأب صاحب قرار، فإن قال: لا، فقد انتهى الأمر، لأن بعد نظره كبير، وقراره حاسم، وإدراكه أعمق، ومعرفته بالحياة أدق، وخبرته بالمشكلات أعمق، فلا بد من صاحب قرار، والقرار هو هذه الدرجة، درجة القيادة..

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)

تسعون يوماً، ثم تسعون يوماً، بعد هاتين المرتين:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

أي أن تعاشرها كزوجة، تحترمها كزوجة وشريكة حياتك، لها مثل ما لك، وعليها مثل ما عليك..

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ)

فلا تهجر، ولا تضرب، ولا تقبِّح، ولا توبِّخ.

معنى التسريح بالإحسان :

قال تعالى:

(أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

ما هو التسريح بالإحسان؟ إذا سرَّحتها وطلقتها يجب أن تكف عنها، أما أن تفضحها، وأما ألا تدع عليها ستراً، وأما أن تبالغ في أخطائها، فهذا خلاف الآية الكريمة..

(أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

لماذا طلقتها؟ لم يكن لي منها نصيب، ولم يكن ثَمَّة انسجام، هل تشكو من أخلاقها؟ أنت لا تشكو من أخلاقها؟ لا والله، فهي امرأة عفيفة، وهل تشكو من رقَّة دينها؟ لا والله، هذا الزوج المؤمن..

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ)

فإما أن تعاملها كزوجة معاملة طيبة..

(أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً)

قدَّمت لها مهراً وهو من حقها، والطلاق يوجب المهر، المُعَجَّل والمؤجَّل، وقدمت لها هدايا وهي من حقها، إلا أن هذه المرأة إذا كرهت زوجها كراهيةً ربما أوقعتها في الحرام يمكن أن تفتدي نفسها، أهل جهلة يزوجون بنتاً في السابعة عشرة إلى رجلاً في الستين، أو في الخامسة والستين طمعاً في ماله، فهذه البنت إن لم تطق هذا الزوج لهذا الفارق الكبير في السن، ولم تطق مرضه، ولا متاعبه، ولا شيخوخته وهي في ريعان الصبا، فربما زلَّت قدمها..

(وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ)

((امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْبَلْ الْحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً))

[رواه البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

معنى الخلع ومعنى الإيلاء :

المرأة إذا كرهت زوجها كراهية لا تحتمل، فيمكن أن تفتدي نفسها بحدود المهر، وأن تسامحه بالمهر، وربما ردَّت إليه الهدايا، وهذا هو الخُلع..

(إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

(الإيلاء) أن يحلف الزوجُ ألاَّ يقرب امرأتَه دون أربعة أشهر، وجاز له إذا حلف ألا يقربها ثلاثة أشهر، ثم وجد الأمر لا يستدعي ذلك، وهي مظلومة، فإذا حنث بيمينه فعليه كفارة، ومسموح لك أن تقاطعها، أو تهجرها دون أربعة أشهر، أما أربعة أشهر فإما أن تمسكها زوجة، أو أن تسرحها سراحاً جميلاً.

الزواج من زوج ثان يجب أن يكون زواجاً طبيعياً مع الدخول على التأبيد :

الآن، الطلاق السني أن تطلق في طهر لم تمسسها فيه تطليقة واحدة، ثلاث حيضات بثلاث حيضات..

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)

قال:

(فَإِنْ طَلَّقَهَا)

المرة الثالثة، الآن اشتدّ الأمر..

(فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ)

زواجٌ طبيعي مع الدخول على التأبيد، فإن كانت العلَّة من الزوجة، في الأعم الأغلب فسيطلّقها الثاني، فإن طلَّقها الثاني اقتنعت الزوجة أنها هي السبب، ويمكن أن ترجع إلى الأول، وتغيِّر سياستها معه، وإن كان الزوج هو السبب، فالثاني لا يتخلى عنها، وقد فقدها الزوج نهائياً، أما هذا الذي يتزوج المرأة ليلةً واحدة ليحللها إلى زوجها!! فَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ))

[أبو داود عن علي رضي الله عنه]

سمي هذا في الفقه (التيس المستعار)، وحينما أراد الله عز وجل أن يقول:

(فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ)

أراد بهذا أن يردع الأزواج عن أن يجعلوا الطلاق ديدنهم، طلق وأرجع، طلق وأرجع، مرتين، ليس هناك أكثر، فهذه امرأة لها كرامتها..

(فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ)

فإذا طلقها الزوج الذي تزوجها زواجاً طبيعياً، ودخل بها، وعلى نية التأبيد، فإن طلقها لعلةٍ فيها ظهرت له، قال:

(فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

هذا ملخص الدرس الماضي.

* * *

الطلاق البدعي:

صدقوني أيها الأخوة، لو طبَّق المسلمون أحكام الطلاق كما أراد الله عز وجل، لا يثبت طلاقٌ في المئة ألف طلاق، ولكن مشكلة المسلم أنه يطلق تطليقات ثلاثاً في وقت واحد، فعطَّل بذلك القرآن، ماذا قال الله عز وجل؟ قال الله عز وجل:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)

جعله مرة واحدة، قال:

(وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ)

فإنْ لم يعزم الطلاق، كان ارتجاليّاً، هذه اثنتين، قال:

(لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً)

[سورة الطلاق: 1]

عطَّل هذه الآية، هذا الذي يطلق طلاقاً ارتجالياً، أيْ تطليقاتٍ ثلاثاً في مجلس واحد، وفي قضيةٍ واحدة، فقد عطَّل ثلاث آيات، وهذا هو الطلاق البدعي، مثلاً:

* أن تطلقها في طهر مسستها فيه، فهذا طلاق بدعي.

* أو أن تطلقها في حيضة، فهو طلاق بدعي.

* أو أن تطلقها وأنت في أشد حالات الغضب، فهذا الطلاق له شروط كثيرة، قد لا يقع عند الذي يغضب غضباً شديداً، فلا يعرف السماء من الأرض، ولا الطول من العرض.

* أو إذا طلقها لقضيةٍ لا علاقة لها بها، مثلاً اختلف مع شريكه في العمل، فحلف يمين طلاق، والشريك حنث باليمين، طلّقت زوجته.

إذاً، الطلاق البدعي ألا تكون الزوجةُ طرفاً في الموضوع، و أن تطلق تطليقات ثلاثاً في جلسة واحدة، وأن تطلق في طهر مسّها فيه، أو في حيضة.

* * *

يجب أن تراجع الزوجة لا إضراراً بها بل رحمةً بها :

إلى درس اليوم، يقول الله عز وجل:

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

طلّق المرأة، فمضت أول حيضة، وثاني حيضةٍ، وثالث حيضةٍ، وكادت المرأة أن تطهر من حيضها، أي اقترب الأجل..

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

تسعون يوماً إلا ثلاثة أيام..

(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

يجب أن تراجعها لا إضراراً بها بل رحمةً بها، أمسكها بمعروف، أي ادخُل إلى البيت هاشّاً وباشّاً، وأطعمها مما تأكل، وألبسها مما تلبس، ولا توبِّخ، ولا تضرب، ولا تسفِّه، وعاشرها كزوجة، وأعطها حقها، وهذا هو الحكم الشرعي..

(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

لكن هناك من يريد أن يضر بزوجته، واللهِ أيها الأخوة كل أسبوع تأتيني قضايا من هذا النوع، لا يطلقها قبل أسبوع، بل يراجعها لئلا يدفع مهرها، وكلما اقترب انقضاءُ العدة راجعها، لا بقصد أن يعيدها زوجةً، لا، بل بقصد أن يضرها، قال:

(وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

إياك أن تظلم من لا ناصر له إلا الله :

الآن، إذا اقترب انقضاءُ العدة، إما أن تمسكها، أيْ أن تراجعها، وإما أن تسرحها، الإمساك بقصد إصلاح العلاقة الزوجية، والتسريح بقصد الطلاق الذي أمر الله به، سراحاً جميلاً من دون فضائح تفتريها عليها، فإن الله كبير.

والله سمعت عن رجل مهرُ زوجته عالٍ جداً، ضايقها لينجو من هذا المهر، وأهانها، وضربها، وأجاعها، وجعلها خادمة في بيت أهله، إلى أن افتدت نفسها بكل شيء، فلما طلقها صار يتندر بطلاقها، وقد أعانته أمه على ذلك، في لحظة واحدة ارتكب حادث سير هو وأمه وأصبحا قطعاً قطعاً، فالله كبير، وإياك أن تظلم من لا ناصر له إلا الله، وإياك ودعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب.

يقولون إن يحيى البرمكي كان من أقرب الناس إلى هارون الرشيد، كان الرجل الثاني، عزّاً، وجاهاً، ومالاً، وقصوراً، فهو الشخص الثاني في البلد، والدولة العباسية كانت تحكم ثلث العالم تقريباً، كأمريكا الآن؟ وهكذا كانت، فجأة غضب عليه هارون الرشيد وأودعه في السجن، فمرة قال له أحدهم: انظر إلى ما كنت فيه، وما أنت فيه!! فقال هذا الإنسان: لعلها دعوة مظلوم غفلنا عنها، وربنا عز وجل يقول:

(وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً)

كمن يقول: نعم نراجعها، وهذا استهزاء بالآية، نراجعها حتى نغيظها، راجعتكِ، ويبعدها عن نفسه..

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

نعمة الزواج :

وربما لا يتاح لشخص أن يتزوَّج، لا يملك بيتاً، ولا دخلاً، ويتمنى الزواج!! أما هذا المتزوج الذي عنده زوجة، فهذه نعمةٌ كبرى، فالذي يؤذي زوجته، ويبعدها عنه، ويبالغ في إهانتها، فهذا يكفر نعمة الزواج، ماذا فعل الزوج المسيء لزوجته؟ لقد كفر نعمة الزواج، والزوجة المسيئة لزوجها كفرت نعمة الزوج، فعَنْ ثَوْبَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقاً مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

[الترمذي عن ثوبان]

من غير بأس، تسكن في بيت، وتأكل، وتشرب، ولها مكانة، ثم تقول: طلقني، فهناك زوجات حمْق، تطلب الطلاق لأتفه سبب، فهذه امرأة تكفر نعمة الزوج، والزوج الذي عنده زوجة فاضلة، ويعاملها بإساءةٍ بالغة، فأيضاً هذا الزوج يكفر نعمة الزوجة، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ)

أنت معك منهج وهو افعل ولا تفعل، وعندك تفاصيل دقيقة جداً في العلاقة الزوجية، و " الحكمة " قال بعض العلماء: الحكمة هي السنة، الكتاب هو القرآن..

(يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

على المؤمن أن يمسك بمعروف أو يسرِّح بإحسان :

الآن، أول شيء:

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ)

اقترب ميعاد انتهاء العدة، أما الآن:

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

هنا الآية الأولى:

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

أي اقترب أجلهن قبل أن تنتهي العدة بأيام، إما أن تمسك، وإما أن تسرِّح، أمسك بمعروف، أو سرِّح بإحسان.

بعد طلاق الخلع إذا أراد الزوج إرجاع زوجته فعلى الأهل ألا يمانعوا :

أما الآية الثانية:

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

أي انتهى الأجل، هناك اقتراب الأجل، وهنا انتهاء الأجل، هكذا قال المفسرون، قال:

(فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ)

إذا طلقت امرأة خُلْعاً، أي طلقتها تطليقة واحدة، ردت لك الحديقة أو ما أعطيتها إياه، ثم ندمت أشد الندم على فعلتك، وأردت أن تستعيدها، فأهلها أحياناً لا يوافقون، بل يصرون، ويتعنَّتون، ويحاربون ابنتهم إذا قبِلتْ أن تعود إليه إذا كان الطلاق خلعاً، فهي تطليقة واحدة، تبين منه بتطليقة واحدة، لو أنه ندم وهي ندمت، قال:

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

هناك آباء لا يرضون..

(ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

أرأيتم أيها الأخوة إلى دقَّة الشرع، فما من إنسان متزوج أو مُقدم على الزوج إلا وبحاجة لهذه الأحكام، صار الخلع، ثم هناك ندم، وتعنّت الأهل، وبما أنها ندمت، وراجع الزوجُ نفسَه ورغب في زوجته، فيا أيها الأب، ويا أيها العم، ويا أيها الأخ لا تكن حجر عثرة في عودة هذا الزواج إلى ما كان عليه، طبعاً:

(فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ)

لا تمنعوهن..

(أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

والإنسان يحب أحياناً أن يروي غليله، ويحب أن يوقع الأذى بالآخرين، أما المؤمن فليس عنده هذا الموقف.

الحكمة من إرضاع الطفل حولين :

والآن حدث طلاق:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ)

العرب تقول "حولين" لحولٍ وكسر الحول، لسنة وكسر السنة يقال حولين، لكن العلماء اكتشفوا أن الطفل في طور الرضاع لا يمكن أن يستقبل الحليب الطبيعي إلا بعد عامين، وقبل هذا التاريخ لا يهضم إلا حليب أمه، وأجهزته لا تستطيع أن تعمل بانتظام إلا بعد عامين، ولذلك جاء قوله تعالى:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ)

تأكيداً على تمام الحولين، لأن الذي شرع هذا التشريع هو الذي خلق الإنسان، ولقد حضرت مؤتمراً علمياً عن إعجاز القرآن الكريم في الكتاب والسنة، وقد ألقيت محاضرة استغرقت ساعتين حول هذه الآية، بأدلة بالغة الدقة، وكيف أن الأجهزة في جسم الطفل لا يمكن أن تهضم حليب البقر إلا بعد عامين، أما قبل العامين فكل ما عند الطفل مهيَّأ لهضم حليب أمه، ولذلك جاءت الآية الكريمة:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ)

تأكيداً على تمام الحولين..

(لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ)

يفرض للولد الرضيع رزقاً يتناسب مع دخل والده :

الآن، هذا الطفل الذي طُلِّقت أمه، ما مصيره؟ الجواب:

(وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ)

على أبيه الذي ولد له، ومن كلمة ولد له، ينسب الابن إلى الأب، ويتحمَّل الأب نفقة ابنه..

(رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

بالمعروف أي حسب دخله، فكل إنسان له دخل، وله مستوى في الإنفاق، فكسوة هذا الطفل وطعامه وشرابه بمستوى دخل أبيه، والقاضي يقرر كم دخل الأب، ويفرض لولده الرضيع رزقاً يتناسب مع دخله..

(لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا)

ولدت، وجاءها خاطب، وعدتها أن تضع حملها، فإذا جاءها خاطب، لا ينبغي للأب أن يلزم الأم المطلقة بإرضاع ابنه، إنه إن فعل هذا ألغى زواجها، وجعلها بائرة، إذاً:

(لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ)

فالأم موجودة، وهي أمه، والأب طلق، ويجب أن ترضع الأم ابنها، فهل لاحظتم أيّة إشارة إلى حليب القوارير هنا؟! فهل الله عز وجل غفل ـ والعياذ بالله ـ عن طريقة أخرى للإرضاع، هي حليب بالقوارير؟ لا نحتاج لمرضع، ولا نحتاج لأم، القضية الآن محلولة، نغذي هذا الطفل من حليب القوارير، ولكن هنا لا نجد ذلك، إما أن ترضع الأم، وإما أن تأتي بمرضع، ولذلك فهذا الذي سأقوله

لكم: لا شيء يعدل حليب الأم، أجهزة المولود لا يمكن أن تهضم إلا حليب الأم، فإن سقيته حليب البقر، أو حليب الغنم، أو حليب الماعز، فما الذي يحصل؟ أربعة أخماس الأحماض الأمينية تبقى في الدم، وهذه تصيب المولود حينما يكبر بآفاتٍ قلبيةٍ ووعائية، بل إن هناك تجربةً أو دراسة رصينة عميقة حول علاقة الذكاء بالإرضاع الطبيعي، جاءت النتيجة أنّ ذكاء أولاد سكان (جزر الباسيفيك) في الدرجة الأولى، بسبب أن أهل هذه الجزيرة لا يعرفون الإرضاع الصناعي إطلاقاً.

الآية التالية من آيات الإعجاز القرآني :

الشيء الذي لا يصدق: أن حليب الأم تتبدل نسبه في أثناء الرضعة الواحدة، فيبدأ في أول الرضعة بأربعين من المئة دسماً وستين من المئة ماء، وينتهي بأربعين من المئة ماء، وستين بالمئة دسماً، فتتبدَّل نِسَب الحليب كل يوم بقدرة قادر، وهو حليب معقَّم، يهضم في ساعة ونصف، وفيه مواد مضادة للجراثيم، وفيه مواد تحوي مناعة الأم بأكملها، بارد صيفاً، دافئ شتاءً، ومعقم تعقيماً تاماً، يهضم في أقل وقت، ولا يبقى منه أثر في الأوعية، ولذلك فهذه آية من آيات الإعجاز القرآني، ولا تجد في كل هذه الآيات ما يسمَّى بالإرضاع الصناعي، فالحليب للطفل، إما أن ترضعه أمه، أو أن ترضعه مرضع..

(لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ)

مات الأب، أو طلَّق ومات، فعلى الوارث أن يؤمن نفقة إرضاع ولد وريثه، ومن هذه الآية استنبط باب النفقة في الفقه: أن الغُرم بالغُنم، الذي يرث بعد الموت ينفق في الحياة..

(فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا)

أرادا أن يفطما هذا الولد..

(عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا)

اختلاف العدة باختلاف حالة الزوجة :

قال تعالى:

(وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ)

إن أردتم لسببٍ قاهر، طلق زوجته، وجاء من يخطبها، ولم يجد مرضعاً، ومضى على إرضاعه سنة وثمانية أشهر، فاتخذ الأب والزوجة المطلقة قراراً بإنهاء الإرضاع، قال:

(فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

تعطيها الأجرة الكافية، مالاً يكفي أن تأكل كي يصنع الحليب من طعامها، وتعطيها مالاً مقابل ضياع وقتها..

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

فالله عز وجل سميعٌ إذا قلتم، بصير إذا تحركتم، عليمٌ بنواياكم، سميعٌ بصير عليم، بالكلام يسمع كلامكم، وبالحركة يرى تحرككم، ويعلم سرائركم.

أما هذه المرأة التي يتوفى عنها زوجها، فهذه ليست مطلَّقة، وهناك ود بين الزوجين، توفي عنها زوجها، فعدتها ليست عدة براءة للرحم كالمخلوعة، ولا عدة احتمال صلح كالمطلقة، فبراءة الرحم تكفيه حيضةٌ واحدة، فالتي تطلب الطلاق خلعاً، هذه لا تحتاج إلى ثلاث حيضات، بل حيضة واحدة، إذ يبرأ بهذه الحيضة رحمُها، وأما التي تطلق طلاقاً رجعياً، فلعل الأمر يصلح فيما بعد، جاءت السنة فجعلت عدتها ثلاث حيضات، أما هذه التي توفي عنها زوجها، وانفصم عقدٌ من أقدس العقود، إنه عقد الزوجية، وهذه عدتها أربعة أشهرٍ وعشراً، وليست قضية براءة رحم، ولا احتمال صلح، لقد توفى الزوج، إنها قضية حداد على الزوج، ولو أن امرأة بلغت الثمانين، ويئستْ من الحيض، ومات زوجها، فعدتها أربعة أشهرٍ وعشراً.

من رحمة الله أن من توفي عنها زوجها فلا مانع من أن تتزوج ثانية :

قال تعالى:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

أيُّما امرأة توفي عنها زوجها، وأتمت العدة، عدة الوفاة، ثم تشوَّفت إلى زواجٍ آخر، فلا مانع، ومن حقها كامرأة، أما في الهند فإذا توفي الزوج فيجب عليها أن تحرق معه، إلى سنوات وحتى في

الريف الآن يموت الزوج فيحرق، وتستلقي زوجته إلى جنبه، فيحرقان معاً، هذا تشريع أهل الأرض، أما تشريع خالق الكون:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

دقق في رحمة الله عز وجل، توفي عنها زوجها، لم تنجب، ولم يكن لها أحد، وهي في سن مقبول بالثلاثين أو الأربعين، تشوفت إلى زوج، وجاء زوج، فلا مانع، ما فعلت شيئاً، أما هذا الحزن المديد فغير شرعي، ولكن في كتاب (الأدب المفرد) للإمام البخاري حديث واحد، وهذا الحديث ليس إلزاماً بل إحساناً: " أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأة تنازعني، تريد أن تدخل الجنة قبلي قلت: مَن هذه يا جبريل؟ قال: هي امرأةٌ مات زوجها وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلهن". هذه امرأة يمكن أن تنازع رسول الله دخول الجنة، لأنها ضحت بحظها من الزواج من أجل تربية أولادها، ففي الأعمِّ الأغلبِ إنْ تزوجت زوجاً قد لا يرضى زوجها أن يبقى أولادُها معها، إذًا عاشوا عند بيت جدَّتهم أو جدِّهم، ولا يوجد هناك انضباط، فالجد والجدة ليسا في مستوى ضبط هؤلاء الأولاد، فقد ينحرف بعضهم .

أعرف امرأة مات عنها زوجها في الثانية والعشرين، وهي على جانب كبير من الجمال، وخطبها رجالٌ قِمَم من علية القوم، وعندها ولدٌ واحد، فعكفت على تربيته التربية المُثلى، وتربية علمية وأخلاقية، تربية جسمية، حتى صار علماً من أعلام البلد، فهذه امرأةٌ ضحَّت بحظها من الزواج في سبيل تربية ولدها، ولها عند الله أجر كبير، لكننا لا نُلزم أية امرأة توفي عنها زوجها وهي في ريعان الشباب أن تمتنع عن الزواج، فهذا من حقها، أما في الهند فيجب أن تحرق معه، وقد يكون حارقاً قلبها بحياته، وعندما مات حرقتْ معه..

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

لا يمكن أن ينعقد زواجٌ في عدَّة المتوفى عنها زوجها أبداً :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ)

امرأة مات عنها زوجها، فقلت كلمة لإنسان قريب لها، أو لامرأة من محارمك قريبة لها: واللهِ أنا معجب بأخلاقها، وهناك احتمال أن أتزوجها عندما تنتهي عدتها..

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً)

لا لقاء، ولا خلوة إلا أن تنتهي عدة وفاة الزوج، بعدئذٍ تخطبها خطبة رسمية كأية امرأة..

(وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ)

لا يمكن أن ينعقد زواجٌ في عدَّة المتوفى عنها زوجها أبداً..

(حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ)

أي حتى تنقضي عدة الوفاة، أربعة أشهر وعشراً..

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

أي لا تخفى على الله خافية، إن أسررت أو أعلنت، أو أخفيت أو أظهرت، أو نطقت أو سكت، فأنت عند الله سواء.

العقد الباطل والعقد الفاسد :

ثم يقول الله عز وجل:

(لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ)

صار هناك عقد زواج شرعي بإيجابٍ وقبولٍ وشاهدين ومهر ولم يتمّ الدخول:

(مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ)

قال:

(لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ* وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ)

عندنا قاعدة في الشرع : إذا تزوَّجت ولم تسمِّ المهر فالعقد ناقص، والعقد فاسد، لكن العقد الناقص أو الفاسد يصحح بمهر المثل، أما إذا كانت هناك رضاعة بين الزوجين فالعقد باطل، والعقد الباطل لا ينعقد أصلاً، وأما العقد الفاسد فيصحح، فإنسان تزوَّج امرأة ولم يسمِّ المهر، فلا بد إنْ طلَّقها أن يعطيها شيئاً تتمتع به من المال لأنها خدشت، فصار هناك عقد، وعند الناس جميعاً هذه المرأة تزوَّجت، وبارك الناس لها زواجها.

حكم الطلاق إن لم يكن هناك دخول :

بالمناسبة يقول بعضهم: زواج الرجل أحد فصول حياته، ولكن زواج المرأة هو كل فصول حياتها، فإذا تزوجت، وبارك الناس لها، فهذا هو الزواج، وفرحوا بزواجها، وفرحت هي بزواجها، ثم فوجئت أن الزوج لا يريدها، إن هذه مشكلة، شيء انثلم، بناء انكسر، مشكلة ظهرت، فلا بد من أن تكرمها إكراماً ينسيها هذا الإخفاق..

(لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ)

لم يكن هناك دخول، ولكن الفقهاء احتاطوا: فأيّة خلوةٍ تعد كالدخول..

(مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ)

كل زوج له دخل معيَّن، فالموسع يجب أن يكون المبلغ كبيراً، والمقتر مبلغه بحسب دخله الشهري..

(مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ)

لأنه لا يوجد مهر، قدم لها مبلغاً من المال، قطعة ذهبية ثمينة، شيئاً يرمم هذا الثُّلم الذي جرحها، أو هذا الكسر الذي أصابها.

يترتب على الزوج قبل الدخول نصف المهر إلا أن يعفو ولي الفتاة :

أما:

(وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ)

عقَدَ عقداً، وبعد يومين أراد أن يطلق، فالمهر الكامل خمسمئة ألف، ترتَّب عليه مئتان وخمسون ألف ليرة، هل هذا معقول؟ نعم معقول، لأنك جرحت هذه المرأة، فأقدس عقد بحياتها أخفق وتحطَّمت، فلذلك:

(وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ)

سهر عندهم سهرة، وتعشى، فكلفه هذا العشاء ربع مليون ليرة، هذا ليس معقولاً والله، فإذا كان هؤلاء الأهل وجدوا أن هذا الخاطب الذي عقد عقده على ابنتهم جدَّت معه معلومات، فأراد أن يسافر إلى بلد بعيد، وتمنى أنه ما تزوج، فقد حدثت مشكلة. قال:

(إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ)

إما أنّ الأهل يعفون عن هذا الزوج، أو أن يعفو ولي الفتاة..

(وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

حرام أن يدفع ربع مليون على عشاء واحد، انظر لتوجيه ربنا عز وجل، فالأهل عفو، أخي أنت مسامَح لا نريد شيئاً، أنت لطِّف..

(وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)

قدم هدية، انظر دقة التشريع؛ إن تعفو أفضل، وأنت أيها الزوج إن عفوا عنك يجب أن تقدِّم هدية ثمينة..

(وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

تذكير بآيات درس اليوم :

أيها الأخوة، إذاً هذه الآية:

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ* لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ* وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *)

وفي الدرس القادم ننتقل إلى قوله تعالى:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (80- 95):تفسير الآيتان 238-239 ، الصلاة الوسطى وحقيقة الصلاة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-07-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من إقحام آية الصلاة بين آيات الطلاق وآيات الجهاد :

أيها الأخوة الكرام؛ مع الدرس الثمانين من دروس تفسير سورة البقرة، ومع الآية الثانية والثلاثين بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

العجيب أيها الأخوة أن هذه الآية جاءت يتيمةً بين آيات الطلاق وآيات القتال، وقد يسأل سائل: ما العلاقة بين أمرٍ تكليفي تعبُّدي شعائري، وبين شأنٍ تكليفي تشريعي كقضية الطلاق، وبين أمرٍ جهادي كالقتال؟

جاءت آية الصلاة مُقحمةً بين سلسلة آياتٍ تتحدث عن أحكام الطلاق، وبين سلسلة آياتٍ تتحدث عن أحكام الجهاد. لعل الحكمة من أن تكون هذه الآية بين آيات الطلاق وآيات الجهاد؛ أن الإنسان لا يستطيع أن يقيم أمر الله، وأنْ ينفّذه، ولا أن يضحي بنفسه في سبيل الله إلا أن يكون متَّصلاً بالله، وتطبيق آيات الله؛ الالتزام بالأمر والنهي، وبذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس يحتاج إلى طاقةٍ عاليةٍ جداً، هذه الطاقة تأتينا من الصلاة، ليس هناك طاقةٌ من دون اتصالٍ بالله، ومن دونها ليس هناك إمكانٌ أن تلتزم بما أمر الله، وأن تنتهي عما نهى الله، والمنافق تضعف همَّته أن ينفذ أمر الله، وأنْ ينتهيَ عما نهى الله عنه، وأن يفعل شيئاً أراده الله، فهو ضعيف..

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء: 142]

إذا كانت همّةُ المنافق تضعف عن أن ينفّذ أمر الله التشريعي، وأن ينتهي عما نهى عنه أيضاً، فلأَنْ يَعْجَزَ عن أن يبذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس في سبيل الله من باب أولى، لا يستطيع، فكأن الله عزَّ وجل يرشدنا إلى: أنكم يا عبادي؛ إن لم تتصلوا بي، وإن لم تقتبسوا هذه الطاقة من خلال إقبالكم عليّ فلن تستطيعوا لا أن تنفذوا أمراً، ولا أن تبذلوا نفساً، تنفيذُ الأمر غير بذل النفس، فإنسانٌ ضبط لسانه، نفذ الأمر، وضبط عينه، وغض بصره، وضبط سمعه، فما استمع إلى الغناء، بل ضبط يده فما بطش بها، وضبط رجله، فما سار بها إلى معصية، فالضبط يحتاج إلى اتصال بالله.

الصلاة هي الفرض المتكرر الوحيد الذي لا يسقط بحال :

والآن، فالبذل هو أن تبذل المال والوقت والجهد والصحة والنفس، وهذا يحتاج إلى طاقةٍ كبيرةٍ جداً، وهذه الطاقة تأتيك من الاتصال بالله عزَّ وجل، فالإنسان المتصل بالله يفعل المعجزات، والإنسان المقطوع عن الله لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وهمَّته ضعيفة، ويميل إلى الراحة والاسترخاء واختصار الأمور، فبيْن أن تملك هذه الطاقة العالية كي تقيم أمر الله، وبين أن تكون مقطوعاً عن الله عزَّ وجل، والمقطوع عن الله لا يستطيع لا أن يقيم أمر الله، ولا أن يبذل في سبيل الله شيئاً. ولذلك جاءت آيات الصلاة مقحمة بين آيات الطلاق وآيات الجهاد، أي في الطلاق التزام، وامتناع، وانضباط، وسيطرة على الذات، وفي الجهاد بذل؛ بذل ماذا؟ بذل أثمن شيء يملكه الإنسان؛ إنه حياته، فلا تستطيع لا أن تلتزم ولا أن تضحي إذا لم تكن موصولاً بالله عزَّ وجل، وهذا معنى إقحام آية الصلاة بين آيات الطلاق وآيات الجهاد.

أيها الأخوة؛ كما تعلمون الدين أركانه خمسة؛ شهادة أن لا إله إلا الله، أي شهادة التوحيد، وشهادة أن محمداً رسول الله، أي شهادة الرسالة، هذه تلفظ مرةً واحدة في العمر وانتهى الأمر، إلا إذا ارتدّ الإنسان، أو حلف يميناً غموساً، فهذه اليمين الغموس الذي يقتطع بها حق امرئٍ مسلم تخرجه من الدين، فلا بد أن يدخل في الدين ثانيةً، فيعلن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، فإيتاء الزكاة تسقط عن الفقير، والصوم يسقط عن المريض والمسافر، ويؤدَّى بعد ذلك أداءً، والحج يسقط كليةً عن الفقير، ويسقط أداؤه البدني عن الغني المريض، فلا بد من أن يوصي بحجة بدل، إذاً الشهادة مرة واحدة، شهادة التوحيد وشهادة الرسالة، والزكاة قد تسقط عن الفقير، والصوم يسقط عن المريض والمسافر، والحج يسقط عن الفقير والضعيف، فما هو الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال؟ إنه الصلاة، ولذلك ورد أنه:" لا خير في دينٍ لا صلاة فيه "، إنها الاتصال بالله.

العبادات في الإسلام عباداتٌ معللةٌ بمصالح الخلق :

أيها الأخوة الكرام؛ العبادات في الديانات الوضعية الوثنية طقوسٌ لا معنى لها إطلاقاً، حركاتٌ، وإيماءاتٌ، وتمتماتٌ لا تعني شيئاً، ولكن العبادات في الإسلام عباداتٌ معللةٌ بمصالح الخلق، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ)

[سورة العنكبوت: 45]

تنهى نهياً ذاتياً، وأروع ما في الدين هذا النهي الذاتي ـ الوازع الداخلي ـ مثل بسيط: أعرابيٌ راعي غنم، أراد ابن عمر ـ كما تروي الروايات ـ أن يمتحنه فقال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها. قال:

ليست لي. قال: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب. قال: ليست لي. قال: خذ ثمنَها. قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله؟

فعظمة هذا الدين كله متركّزة في الوازع الداخلي، رجل أعطاني ورقةً، أو وضع على طاولتي ورقة قبل سنوات، وأنا محتفظٌ بها، قال: والله أديت لورثةٍ عشرين مليوناً لا يعلمون عنها شيئاً، ولست مُداناً في الأرض بها، ولا محاسباً عليها، ولا مطالباً بها، ها هو الوازع الداخلي. أعظم شيءٍ في الدين، الوازع الداخلي، فقد تجد إنساناً في رمضان، وفي الحمام، والماء بارد كالزلال، وهو صائم، هل يستطيع أن يدخل في فمه قطرةً واحدة؟ فمن يراقبه؟ الله جل جلاله، فلا تجد إنساناً يمكن أن ينضبط كالمؤمن، لأن الله معه، أما اجعل الضبط ضبطاً خارجيّاً، فمستحيل.

الدين مبني على الوازع الداخلي :

لو تخيلنا أنه ليس في الإسلام قيَم، وأراد أولو الأمر أن يفرضوا الصيام من أجل صحة الناس، ونقاء أجسامهم، فهل يستطيع ولي أمر المسلمين في أي زمانٍ أو مكان أن يحقق هذا الأمر؟ طبعاً الإنسان لا يشرب أمام الناس، أما إذا دخل بيته فيشرب، ويأكل، ويفعل كل شيء، فما هذا الدين الذي يجعل الإنسان مراقباً وهو في فراشه، أو بيته، أو في أداء حاجاته؟ إنّه الدين، الدين مبني على الوازع الداخلي، أساس هذا الوازع:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)

[سورة العنكبوت: 45]

أما في بلاد الغرب، بلاد الرُّقي، فكل هذا الرقي ضبطٌ خارجي ـ ضبط إلكتروني ـ سوق فيه ألوف الملايين من البضائع، وخمس موظفين على أبواب هذا السوق، فأيةٍ سلعةٍ لم يدفع ثمنها تصدر صوتاً، فيلقى القبض على هذا الإنسان المحتال، فما دام أية سلعة في هذا السوق الكبير إن لم تدفع ثمنها، وتلغي تأثير هذه المادة، وأنت خارج تصدر صوتاً كبيراً، إذاً استقامة الناس هناك أساسها الرادع الخارجي، فهنا الفرق الكبير بين المسلم وبين الإنسان المدني المنضبط بالقوانين، إنسان ينضبط بالقوانين لأن هناك أدوات مراقبة عالية جداً، لكن عندما انقطعت الكهرباء في نيويورك، تمت مئتا ألف سرقة بقيمة اثنين بليون دولار، انقطعت الكهرباء فانقطع الرادع، وانقطعت المراقبة، وانتهى الأمر، أمّا نظام الإسلام فمبني على الوازع، ونظام العلمنة مبنيٌ على الرادع الخارجي، وشتان بين الوازع والرادع، السرعة مثلاً محددة في أمريكا، ما هو الرادع الذي يكشفها؟ أجهزة رادار موضوعة على أطراف الطرق، لكن الإنسان أذكى من واضع القانون، فاخترع جهازاً يطلق لمركبته العنان إلى سرعة مئتي كيلو متر في الساعة، وهو يحمل في السيارة جهازاً يصدر أصواتاً قبل جهاز الرادار، فيخفف السائق السرعة إلى السرعة المطلوبة، فجهاز الضبط الذي صنعه أولو

الأمر ألغي بجهازٍ مقابل، فلا بدّ لأولي الأمر من أن يصنعوا جهازاً يكشفون ما في المركبات من أجهزة، وهذه معركةٌ لا تنتهي، فواضع القانون ذكي، والمواطن أذكى، وهي معركة بين واضع القانون، وبين الذي يُطبَّق عليه، والقضية لا تنتهي، أما في الإسلام فالمشرِّع هو الله..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

انتهى الأمر.

كل الفضائل الإنسانية أساسها اتصالٌ بالله عزَّ وجل :

المؤمن يخاف، لأنّ المشرع هو الله:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

شخص يجلس في غرفته، فينظر من النافذة، فإذا في بيت الجيران امرأةٌ خرجت إلى الشرفة، مَن يستطيع أن يضبطه إذا نظر إليها إلا الله؟ امرأةٌ أمام طبيبٍ مسلم، مَن الذي يكشف انتقال طرْفه إلى مكانٍ ينبغي ألا ينظر إليه؟ الله عزَّ وجل:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

.. فأعظم ما في هذا الدين أن الإنسان مراقب من قِبَل الله عزَّ وجل، والذي يشعر بهذه المراقبة لا بد من أن يستقيم على أمر الله، والصلاة هي التي تمنح الإنسان هذه المراقبة، وهذا الانضباط الذاتي، وهذا الفعل الرائع في الوازع الداخلي، ولذلك لا خير في دينٍ لا صلاة فيه:

((الصلاة عماد الدين، مَن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[السيوطي في الجامع الصغير عن عمر]

أيها الأخوة؛ طبعاً هذا التمهيد لأن الآية دقيقة جداً..

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ)

أيها الأخوة؛ الصلاة اتصالٌ بالله عزَّ وجل، وأنت إذا اتصلت بالرحيم، اشتققت منه الرحمة، وإذا اتصلت بالقوي، اشتققت منه الشجاعة، وإذا اتصلت بالحكيم، اشتققت منه الحكمة، فكل الفضائل الإنسانية أساسها اتصالٌ بالله عزَّ وجل.. "، وإن مكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً ".. وكل الفضائل التي يتمتع بها المؤمن من أين تأتيه؟ من اتصاله بالله عزَّ وجل، فالصلاة عماد الدين.

من خلال اتصالك بالله عزَّ وجل تكتسب الحكمة :

الصلاة أيها الأخوة قُربٌ من الله تعالى، قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق: 19]

الصلاة ذكر لله عزَّ وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

الصلاة طهارةٌ من كل دنس، الصلاة طهور، والصلاة نور، معك مصباحٌ وضَّاء يكشف لك الحق حقاً فتتبعه، ويكشف لك الباطل باطلاً فتجتنبه، ما هذا النور؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

[سورة الأنفال: 29]

من خلال اتصالك بالله يقذف في قلبك النور، فترى به الحق حقاً، والباطل باطلاً، والخير خيراً والشر شراً.

أيها الأخوة؛ ومن خلال اتصالك بالله عزَّ وجل تكتسب الحكمة، قال تعالى:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة: 269]

هي طهور، وهي نور.

الصلاة طهور ونور وحبور وقُرب من الله :

بالمناسبة فما من عملٍ أحمق أو مدمِّر إلا وينطلق من عمىً:

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور)

[سورة الحج: 46]

وما من عملٍ نافع، أو عملٍ يرقى بالإنسان إلا وينطلق من رؤيةٍ صحيحة، فكل إنسان يتقي الله يجعل له نوراً يمشي به في الناس..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد: 28]

فالصلاة طهور، والصلاة نور، وهي حبور وسعادة:

((أرحنا بها يا بلال))

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

وفرقٌ كبير بين أرحنا بها، وأرحنا منها، فالصلاة يرتاح بها المؤمن، وهي عبءٌ على المنافق، وفرقٌ بين أن تكون راحةً وبين أن تكون عبئاً، إذاً فالصلاة طهور، ونور، وحبور، وقُرب من الله.

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق: 19]

الصلاة ذِكر وعقل ومناجاة :

الصلاة ذِكر:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

والصلاة عقل، لَيْسَ لِلْمرْءِ مِنْ صَلَاتِهِ إلاَّ مَا عَقَلَ مِنْهَا، والدليل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

فالذي يصلي ولا يعلم ماذا قرأ في الصلاة، هذا في حكم السكران، فالصلاة عقلٌ، وقربٌ، وذِكرٌ، وسعادةٌ، وطهارةٌ، ونورٌ، وعروجٌ إلى الله عزَّ وجل، الصلاة معراج المؤمن.

والصلاة مناجاةٌ لله عزَّ وجل:

((لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل))

[عبد الرزاق ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن الحسن مرسلاً]

إنها مناجاة، وعروج، ونور، وحبور، وطهور، وذِكر، وعقل، وقُرب، وما إلى ذلك، ولذلك يتفاوت المؤمنون فيما بينهم بإحكام اتصالهم بالله عزَّ وجل.

الشرط الأساسي للصلاة أن تلتزم منهج الله عزَّ وجل :

أخواننا الكرام؛ من البديهيّات في الدين التي لا بد أن تكون واضحةً في أذهانكم أن كل ذنبٍ يحجبك عن الله، إن أردت أن يكون الطريقُ سالكاً، والبابُ مفتوحاً، والاتصالُ مُحْكماً فلا بد أن تستقيم على أمر الله، فالشرط الأساسي للصلاة أن تلتزم منهج الله عزَّ وجل.

ونحن يوجد عندنا أحكام الفقهاء وهي رائعةٌ جداً، ولكنها تتناول شكليات الصلاة، فلا بد أن تتوضأ، والوضوء له أحكام، وله فرائض، وواجبات، وله سنن، وله مستحبات، ولا بد من أن تتوَجَّه نحو القبلة، ولا بد من أن يكون المكان طاهراً، والثوب طاهراً، والبدَن طاهراً، ولا بد من أن يدخل وقت الصلاة، ولا بد أن تقف، وأن تقرأ، وأن تركع، وأن تسجد، وأن تقعد القعود بين الركعات، والقعود الأخير، هذه أحكام الصلاة، ولكن هذا عند الفقهاء، أما عند علماء القلوب فلا بد من أن تستقيم على أمر الله حتى يكون الاتصال ناجحاً بينك وبين الله، لأنّ أي ذنبٍ يحجبك عن الله، وإذا تكاثرت الذنوب كان الران على القلب..

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة المطففين: 14]

وحينما يستمر الإنسانُ في الخطأ، وفي المخالفات، وفي بعض المعاصي، فهذه كلها تجعل قلبه في غلافٍ..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ)

[سورة البقرة: 88]

مغلَّفة بالمعاصي، فكل معصيةٍ حجابٌ عن الله عزَّ وجل، الآن الحُجُب أنواع؛ فهناك حجاب رقيق يزول سريعاً، وهناك حجاب كثيف، أحياناً هناك ورقة، وأحياناً هناك ورقة ذات سمك أعلى، وأحياناً هناك جدار إسمنتي، فكلما كبرت المعصية ازداد الحجاب، وكل إنسان يهمل التوبة يكثف حجابُه شيئاً فشيئاً، حتى يألف القطيعة عن الله عزَّ وجل، ويألف الجفوة بينه وبين الله، وعندئذٍ لا يعي على خير، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))

[رواه ابن ماجه عن أبي هريرة]

المؤمن بالصلاة يفعل المعجزات :

هذه الصلاة هي السِّمَةُ الصارخةُ لأصحاب رسول الله الذين افتدوه بأرواحهم، وبذلوا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، فما هذا الحبُّ؟! صحابي يقع في الأسر، فيقول له أبو سفيان: أتحب أن يكون محمدٌ مكانك وأنت في أهلك؟ فانتفض وقال: والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة. حتى قال أبو سفيان ـ وكان مشركاً ـ: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً.

هذا الحب المتأجج، من أين يأتي؟ من الاتصال بالله، هذه امرأةٌ ـ وكلكم يعلم مَن هي المرأة ـ امرأة ترى زوجها مقتولاً، في معركة أحد ثم ترى ابنها مقتولاً، ثم ترى أخاها مقتولاً، ثم ترى أباها مقتولاً، من أندر القصص، أبوها، وأخوها، وزوجها، وابنها، هل هناك من رجال ألصق من هؤلاء بالمرأة؟ ما تقول شيئاً بل تقول: ما فعل رسول الله؟ فما زالت مضطربةً حتى رأته سليماً معافىً، وقالت: يا رسول الله كل مصيبةٍ بعدك تهون، هذا هو الحب.

هذا الحب من أين جاء؟ من الاتصال بالله، تجد المؤمن يفعل المعجزات، والله عزَّ وجل يمكّنه، يمدُّ، والحبُّ هو المحرك، فقد تجد مركبة فخمة جداً، مطلية بطلاء رائع زاهٍ، ومقاعد وثيرة، ومرايا نظيفة، وأبواب فارهة، ولكن ليس فيها محرك، فهذه ليست مركبة، وليست سيارة، بل هذه وقَّافة، هذه الطائرة المطعم الموجودة عندنا في الشام، هل تعد هذه طائرة؟ ليس فيها محرك، فالإنسان من دون صلاة بلا محرك، أما بالصلاة فيفعل المعجزات، وقد يعمل عشرين ساعة دون تعب، والذي لا

يصلي يتعب بعد ربع ساعة، ويميل للراحة، وإلى الاسترخاء، واستهلاك جهد الآخرين، ويميل إلى كل شيء مريح، أما المصلي فيفعل كل شيء.

أحب شيءٍ إلى الله الصلاة على وقتها :

هناك فرق بين الصحابة الكرام، وبين مسلمي آخر الزمان في الصلاة، لقد اعتنوا بها عنايةً فائقة، فاتصلوا بالله، وكانوا كالمراجل، ولما لم يحافظ المسلمون على الصلاة، صلوها، ولكن لم يحافظوا عليها، فإنسانٌ دخله حرام، ثم يقف ويقول: الله أكبر، يقف، ويُكَبِّر، ويقرأ، ويركع، ويسجد، ولكنه مقطوع عن الله عزَّ وجل، وليس موصولاً معه، بل متلبس بالمعاصي، وظالم للناس مثلاً، أو ظالم لزوجته، أو لشريكه، فالدخل حرام، والعلاقات مع النساء كلها غير منضبطة، والبيت غير إسلامي، والأولاد لم يتلقوا تربيةً من أبيهم، وإذا صليت الآن!!

إياكم ثم إياكم أن تفهموا مني أن هذه الصلاة يجب أن تُترك، أعوذ بالله، أعوذ بالله أن أقول هذا الكلام، ولكن إن لم ينضم إليها الاستقامة والعمل الصالح فلا تقطف ثمارها، وكنت أقول لكم دائماً: السلامة تحتاج إلى استقامة، والسعادة تحتاج إلى بذل، فما لم تستقم على أمر الله وتبذل من مالك ووقتك وجهدك شيئاً لإرضاء الله عزَّ وجل، فلن تستطيع أن تتصل بالله، ولا أن تقطف الثمار من الصلاة..

ولهذه المقدمة أقول: يقول الله عزَّ وجل:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ)

حافظوا على أدائها في وقتها، وأحب شيءٍ إلى الله الصلاة على وقتها، ومَن أخَّر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره، حافظوا على الصلوات في أوقاتها، حافظوا عليها بإتمامها على النحو الذي أراده الله عزَّ وجل، مِنَ الوقوف، والركوع، والسجود، والقراءة، حافظوا على الصلاة؛ بمعنى أن تُسْبَقَ باستقامة على أمر الله، فإذا حافظ الطالبُ على الدوام في الجامعة، ولكنه لم يدرس ولا كلمة، فما قيمة هذا الدوام؟ ما درس، فالمحافظة على الجامعة لا يعني أن تداوم فقط، ولكن أن تدرس في البيت، فلذلك يقول الله عزَّ وجل:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

لا بدّ أن تستقيم على أمر الله حتى يتاح لك أن تتصل بالله :

داوموا على أدائها لأوقاتها مع رعاية فرائضها، وسننها من غير إخلالٍ بشيءٍ منها، وقد كان عليه الصلاة والسلام أخف الناس صلاةً في تمام، المحافظة على الصلاة بالمعنى الفقهي سهل جداً، أن تصليها في وقتها، وأن يكون وضوؤك سابغاً، وأن يدخل الوقت، وأن تتجه نحو القبلة، أن يكون

البدن طاهراً، والثوب طاهراً، والمكان طاهراً، وأن تقف، وتركع، وتسجد، وتقرأ كما أراد النبي عليه الصلاة والسلام:

((صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي))

[البخاري عن مالك بن الحُويرث]

هذا عند الفقهاء، أما عند علماء القلوب فلا بد أن تسبق الصلاة طاعةٌ لله، ولا بد أن تدخل إلى الصلاة وأنت مستقيمٌ على أمر الله، وضابطٌ لسانك، وعينك، ويدك، وأذنك، ورجلك، وهذا كلام دقيق، فضلاً عن شروط الفقهاء: من أن تقف، وأن تتوضَّأ، وأن تقف تجاه القبلة، فضلاً عن ذلك لا بد من شرط علماء القلوب، لا بد أن تستقيم على أمر الله حتى يتاح لك أن تتصل بالله.

إن أردت أسرع من ذلك، فلا بد أن تبذل شيئاً قبل الصلاة، شيئاً من وقتك، ومن مالك، أن تعمل عملاً صالحاً، نصيحة مسلم، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وأن ترشد الإنسانَ الضالَّ، وأن تعين الضعيف، وأن تعطيَ الفقيرَ، وأن تعتني بطالب العلم، ولا بد من عملٍ يكون هديةً بينك وبين الله.

لا تستطيع أن تتصل بالله إلا بعملٍ طيب :

كنت أضرب مثلاً للتقريب؛ جندي غر التحق بثكنة، وعلى رأسها ضابط يحمل رتبة لواء، وبين هذا الجندي الغر وبين هذا اللواء مراتب كثيرة جداً، فلا يتاح لهذا الجندي الغر أن يدخل على اللواء، بل مستحيل، بل من سابع المستحيلات أن يسمح له بمقابلته، لأنّ هناك مراتب كثيرة جداً وتسلسل، إلا في حالةٍ واحدة هي أن يرى هذا الجندي ابن هذا اللواء يسبح، وكاد يغرق، فيلقي بنفسه وينقذه من الغرق، في اليوم التالي يستطيع أن يلغي كل هذا التسلسل، وأن يقتحم عليه غرفته ويقول له: أنا فلان، فإذا باللواء يقف له، ويقول: أنت فعلت معي شيئاً لا أنساه حتى الموت، فما الذي جعل هذا الجندي الغر يقتحم مكتب اللواء ويدخله بوجهٍ أبيض؟ إنّه عمله الطيب، فأنت بشكلٍ أو بآخر لا تستطيع أن تتصل بالله إلا بعملٍ طيب، والدليل:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

وأبواب الله مفتَّحة، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، اعمل عملاً طيباً، في البيت هناك عمل طيب، كن أباً كاملاً فهذا عمل طيب، وكن ابناً باراً، وكوني زوجةً وفيةً، وكن أخاً رحيماً، والآن كن تاجراً صدوقاً، أو كن موظفاً أميناً على مصالح المواطنين، واخدم الناس؛ وكن عفيفاً، وابذل وانصح الناس، وتعالَ إلى الصلاة، تقف بوجهٍ أبيضَ كهذا الجندي الذي اقتحم على اللواء مكتبه لأنه عمل معه عملاً طيباً.

أنا أقول لبعض الأخوة: كل هؤلاء الناس عباد الله، فإذا أكرمتهم، ونصحتهم، وطمأنتهم، وأخلصت لهم، وقدَّمت لهم خدمة، وأعنت ضعيفَهم، وأطعمت جائعهم، وكسوت عاريهم، فالله عزَّ وجل يتجلَّى عليك بالصلاة، كلام دقيق وواضح كالشمس أيها الأخوة، هذه أدق نقطةٍ في الصلاة: كيف تقف بين يدي الله عزَّ وجل كي تتصل به وقد ضربت فلاناً، وشتمت فلاناً، واعتديت على فلان، وقتلت فلاناً، وابتززت مال فلان، واحتلت على فلان، وتقول: يا رب الحمد لله رب العالمين، سوف تجد الطريق مسدوداً، ملعون هذا الإنسان، لعنه الله، وأبعده عن جلاله، فكيف تستطيع أن تصلي ومالُك حرام؟ وأنت تبني مجدك على أنقاض الآخرين؟ تبني حياتك على موتهم، وغناك على فقرهم، وأمنك على خوفهم، وكيف تستطيع أن تصلي وقد أسأت لمن حولك؟ هذا زوج ظالم، وذاك تاجر غشاش، ورجلٌ ماكر، وشريك محتال، وموظف يبتز أموال الناس، ويعقّد الأمر عليهم، كيف يستطيع أن يصلي؟ بإمكانك أن تقف، وأن تقرأ، وتركع، وتسجد، أما أن تتصل بالله وقد أسأت إلى خلقه، وابتززت أموالهم، وأخفتهم، وأتعبتهم، والإنسان بُنيان الله وملعون مَن هدم بنيان الله، فلا تستطيع أن تصلي.

إن أردت أن تكون موصولاً بالله فعليك بطاعة الله والإحسان إلى خَلْقه :

أكاد أقول أيها الأخوة: هذه أخطر نقطة في الدين كله، الدين كله أنْ تستقيم، وأنْ تكون صادقاً.. قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أبي طَالِبٍ:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ))

[أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمة أم المؤمنين]

هذا هو الإسلام، الإسلام أخلاق، والإسلام صدق، وأمانة، ونصيحة، وعفة، وحكمة، ورحمة، هذا هو الإسلام، إنْ كنتَ هكذا فالطريق إلى الله سالك، والآن إنسان عنده هاتف ولكن لا يوجد خط، رفع السماعة فلم يسمع صوتاً، ليس للخطِّ قيمة إطلاقاً إلا بهذا الصوت، يقال: الخط لا توجد حرارة، والاستقامة تحدث حرارة، ومن دون استقامة لن توجد الحرارة، الخط مقطوع، إن أردت أن تكون موصولاً بالله فعليك بطاعة الله، وعليك بالإحسان إلى خَلْقه، والإنسان بنيان الله وملعونٌ من هدم بنيان الله.

جاء إنسانٌ فقيرٌ ليشتري منك حاجة، فشعرت أنه مغفّلٌ، فبعته حاجةً سيِّئةً بسعرٍ باهظ، ثم تقول: أخي حان وقت الصلاة، وقد أذَّن، نذهب إلى المسجد، أي مسجد هذا؟ هذه اسمها احتيال، فأنت تغش

الناس، وتكذب عليهم، وتبتزُّ أموالهم، تخوِّفهم أحياناً، وتحتال عليهم، وتطلب شيئاً ليس من حقك أن تأخذه، ولادة طبيعية، تقول: قيصرية، ستة عشرَ ألفاً، فصدقك وقال لك: مثلما تريد، علماً بأنّ الولادة عادية جداً، طبعاً بين ثلاثة آلاف وبين ستة عشرَ ألفاً فرق كبير، وهكذا الطبيب، والمدرس، والمحامي، وكل إنسان هكذا، قضية خاسرة، يقول: لا، سأكسبها لك، ثماني سنوات ذهبت معه، هات عشرة، وهات عشرة حتى ابتزَّ منه مئتي ألف، وبعد ذلك قال له: خصمك دبَّر القاضي، فماذا أفعل لك؟! ويصلي ويقف في أول صف..

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ)

بمعنى حافظ على التزامٍ قبل الصلاة، وعلى طاعةٍ الله قبل الصلاة، حافظ على إحسانٍ للخلق، كي تجد الطريق سالكاً، وكي تجد صوتاً في هذا التليفون.

معنى الصلاة الوسطى:

أيها الأخوة:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى)

1 ـ إحدى الصلوات الخمس:

قال: الوسطى؛ هي الوسطى بين الصلوات، بمعنى المتوسطة، فهناك مَن قال: الصبح هي الصلاة الوسطى، وبعضهم قال: الظهر، وآخرون قالوا: العصر، والبعض قال: المغرب، وآخرون قالوا: العشاء، ولكل هذه الأوقات الخمس أقوالٌ معتمدة، وهذه قضية خلافية.

2 ـ الصلاة المعتدلة بين الطول والقصر والجهر والإسرار والتكلف والتساهل:

وبعضهم قال: الصلاة الوسطى هي الصلاة المتوسطة:

(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا)

[سورة الإسراء: 110]

لا تكون صلاة لأربع ساعات، ولا صلاة لدقيقة واحدة، ولكنها صلاة وسطى، هي معتدلة في الطول والقصر، وفي الجهر والسر، وهناك صلاة فيها تكلُّف غير مقبول، وهناك صلاة فيها تساهل، والصلاة الوسطى بين الصلاتين، هي بين التكلف الممقوت والتساهل الذي يؤدي إلى عدم قبولها، وبين إطالتها إطالةً غير معقولة وبين أن تكون مختصرة، وبين أن ترفع صوتك فتشوِّش على الناس كلهم، و قد يكون هناك درس علم ويأتي أخ فيصلي، ويقتدي به اثنان أو ثلاثة، فيُسمع الحرم والصحن بصوته!! شوشت على الدنيا كلها، أسمع مَن حولك، لا، هو متقن التجويد، يجب أنْ

يُسمعك، لي درس في بعض الجوامع، يبدأ درسنا، فيأتي اثنان ويصليان بأعلى ما يمكن، فصار التدريس صعباً، فالصلاة الوسطى: المعتدلة بين الطول والقصر، وبين الجهر والإسرار، وبين التكلف المقيت وبين التساهل المتفلّت، هذا هو المعنى الثاني.

3 ـ إحدى الصلوات غير الصلوات الخمس:

وقال بعضهم: هي بعض الصلوات الخاصة غير الخمس، كصلاة الفطر، وصلاة الأضحى، وصلاة الجماعة، وصلاة الخوف، أو صلاة الجمعة، أيْ الصلوات غير الخمس..

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى)

أو على طريقة للصلاة معتدلة متوسطة، أو على أوقات بعينها، وبعضهم قال: حافظوا على الصلاة بين الصلاتين، كن مع الله عزَّ وجل بالدعاء وبالإقبال.

4 ـ الصلاة الوسطى هي صلاة العصر:

أما علماء الأثر فقد ذهبوا إلى معنى الصلاة الوسطى أنها صلاة العصر، لما في الصحيحين عن عليٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب، وفي رواية يوم الخندق عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَلَأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَاراً شَغَلُونَا عَنْ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ))

[متفق عليه عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وفي روايةٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَوْمَ الْأَحْزَابِ شَغَلُونَا عَنْ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ مَلَأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَاراً ثُمَّ صَلَّاهَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ))

[رواه مسلم عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

إذاً يمكن أن تكون إحدى الصلوات الخمس، أو إحدى الصلوات غير الصلوات الخمس؛ الفطر، والأضحى، والجمعة، والخوف، والجنازة، ويمكن أن تكون الصلاة الوسطى الصلاة المعتدلة بين الطول والقصر، والجهر والإسرار، والتكلف والتساهل، ويمكن أن تكون بحسب هذا الأثر الصحيح أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.

أيها الأخوة؛ بيَّن بعض العلماء ما في هذا العصر من فضائل فقال: ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الَّذِي تَفُوتُهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

أي خسر أهله وماله، فشخص يخسر أولاده وزوجته بحريق بيت مثلاً، أو يفلس، هكذا قال عليه الصلاة والسلام في الصحيحين.

وفي حديثٍ آخر أخرجه الإمام البخاري عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ قَالَ:

((كُنَّا مَعَ بُرَيْدَةَ فِي غَزْوَةٍ فِي يَوْمٍ ذِي غَيْمٍ فَقَالَ: بَكِّرُوا بِصَلَاةِ الْعَصْرِ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ))

[البخاري عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ]

أي قدموها في أول وقتها. وفي حديثٍ ثالث:

((مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ))

[البخاري عن بريدة]

و "بكِّروا بصلاة العصر"، أيْ قدموها في أول وقتها.

أدلَّة كثيرة من القرآن والسُّنَّة تؤكد على أن هذه الصلاة هي صلاة العصر :

هناك أدلَّة كثيرة على أن هذه الصلاة هي صلاة العصر، وقال بعض العلماء: الساعة التي في يوم الجمعة، ساعة الدعاء المستجاب، تكون بعد العصر، هذا أحد أسباب ترجيح صلاة العصر، والشيء الأساسي أن النبي صلى الله عليه وسلَّم غلَّظ المصيبة في فواتها بذهاب الأهل والمال في الحديث المتقدِّم، فأول شيء يدعونا إلى أن نعظم هذه الصلاة أن النبي صلى الله عليه وسلم غلظ المصيبة في فواتها بذهاب الأهل والمال في الحديث المتقدم.

شيءٌ آخر هو: أنّ تاركها المضيع لها حبط عملُه كما ورد في الحديث الثالث أيضاً، العمل يحبط لمن ترك صلاة العصر، ومنها أنها كانت أحب إليهم من أنفسهم وآبائهم، وأبنائهم، وأهليهم، وأموالهم، صلاة العصر. ومنها حديثٌ عَنْ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْعَصْرَ بِالْمُخَمَّصِ فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ وَلَا صَلَاةَ بَعْدَهَا حَتَّى يَطْلُعَ الشَّاهِدُ وَالشَّاهِدُ النَّجْمُ))

[رواه مسلم عَنْ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ]

ومنها: أن انتظارها بعد الجمعة كعمرة، كما روى بعضهم في الحديث الشريف.

ومنها؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ؛ رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ فَمَنَعَهُ مِنْ ابْنِ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَاماً لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ، وَرَجُلٌ أَقَامَ سِلْعَتَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ فَقَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَقَدْ أَعْطَيْتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ رَجُلٌ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً))

[متفقٌ عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وسيدنا سُليمان كما يذكر أتلف مالاً عظيماً لأنه شغله عن صلاة العصر، ومن هذا أيضاً أن الساعة التي في يوم الجمعة، ساعة الاستجابة، هي بعد العصر من يوم الجمعة كما يرجِّح بعض العلماء، ومنها أن وقت صلاة العصر وقت ارتفاع الأعمال إلى الله عزَّ وجل، ومنها الحديث المرفوع:" إن الله تعالى يوحي إلى الملكين: لا تكتبا على عبدي الصائم بعد العصر سيئةً ". ومنها ما جاء في قوله تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر:1-2]

قال بعض العلماء: هي الصلاة الوسطى أي صلاة العصر. ومنها ما روي في الحديث: أن الملائكة تصف كل يوم بعد العصر بكتبها في السماء الدنيا، فينادي المَلَك: ألق تلك الصحيفة، فيقول: وعزتك ما كتبت إلا ما عمل. والشيء الذي يلفت النظر أن هذا الوقت وقت نوم، أو وقت اشتغال بالتجارة، فوقتها وقت اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم في الغالب.

الصلاة هي غاية الغايات وسيدة القربات :

إذاً وضعت بين أيديكم كل الاحتمالات، وجميع الأقوال المتعلقة بالصلاة الوسطى، فيمكن أن نلخصها:

الصلاة الوسطى هي الصلوات الخمس على الأقوال المختلفة، فبعضهم قال الفجر، وبعضهم قال الظهر، وبعضهم قال العصر، أو المغرب، أو العشاء، ومنها الصلاة الفضلى المتوازنة المعتدلة بين الطول والقصر، والجهر والإسرار، وبين التكلف والتساهل، وبعضهم قال: هي الصلوات غير الصلوات الخمس كصلاة الفطر، والأضحى، والجمعة، والجنازة، وصلاة الخوف وما شاكل ذلك، وبعضهم قال كما ورد في الأثر صلاة العصر، وقد بينت لكم أقوال بعض العلماء، ولماذا أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن هذه الصلاة هي صلاة العصر..

(وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

ورد في بعض الآثار أن الصحابة كانوا في أول فريضة الصلاة يتكلَّمون في أثناء الصلاة، فجاءت هذه الآية:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

أي خاشعين صامتين، وبالمناسبة قال بعضهم: الصلاة فيها من كل أركان الإسلام جانب؛ فيها من الصيام، والصيام امتناع عن الطعام والشراب، والصلاة فيها امتناع عن الطعام والشراب والكلام، وفيها من الحج، التوجه إلى بيت الله الحرام، وفيها من الزكاة، أن الوقت أصلٌ في كسب المال، وأنت تقتطع من وقتك وقتاً للصلاة، وفيها من الشهادتين أنك تتشهد فيها في القعود فتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، بل إن الصيام من أجل الصلاة، والقيام من أجل الصلاة،

والحج من أجل الصلاة، والزكاة من أجل الصلاة، والصلاة من أجل الصلاة، فهي غاية الغايات، وهي سيدة القربات، وهي معراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، وهي عماد الدين وعصام اليقين، فالصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.

يمكن للخائف أن يصلي راجلاً أو راكباً :

إذاً..

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

أي قف في الصلاة خاشعاً وساكتاً، إذ لا يقال كلام آخر في الصلاة، فمثلاً ـ وإن كانت هذه طرفة ـ لو رأيت أخاً لك يأخذ كتاباً لك، أو لو جئت بكتابٍ لتعطيه لأخيك وأنت في الصلاة، فقلت: يا يحيى خذ الكتاب، تصبح الصلاة باطلة، لأنك استخدمت آيةً في القرآن الكريم لغير ما قصد الله منها، أردت أن تنبه أخاك إلى أن الكتاب جاهز فخذه، فأنت خارج الصلاة، قال:

(فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً)

يمكن أن يصلي الخائف من عدوٍ آدمي أو غير آدمي وهو راجل، رجالاً أي راجلين، أي وهو يمشي، وجهة الخائف جهة أمنه، وجهة المريض جهة راحته، وجهة المسافر جهة دابَّته، أو طائرته.

(فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً)

أي أن تصلي وأنت راكب على دابة، أو سفينة، أو في الطائرة، أو وأنت تمشي:

(فَإِنْ خِفْتُمْ)

فإذا انتهى الخوف:

(فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (81- 95):تفسير الآيات 240-252 ، الأعمال الصالحة وتوازن القوى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-07-14

بسم الله الرحمن الرحيم

الاتصال بالله عز وجل هو الطاقة التي تمدنا بقوةٍ لا حدود لها :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الواحد والثمانين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الأربعين بعد المئتين، وهي قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

ذكرت أيها الأخوة في الدرس الماضي أن آية حافظوا على الصلوات جاءت مقحمةً بين آيات الطلاق وبين آيات الجهاد، وبيَّنت أن الالتزام بأحكام الشريعة وهو أدنى تصرف إسلامي، وبين بذل النفس وما يتبعها من غالٍ ورخيص، يحتاج إلى اتصال بالله عز وجل، لأن الاتصال بالله عز وجل هو الطاقة التي تمدك بقوةٍ لا حدود لها، تمدك بحماس لا نهاية له، تمدك بسعادة لا توصف، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((أرحنا بها يا بلال))

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

الآية التي جاءت بعد آية الصلاة:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ)

أي رجل توفي وله زوجة..

(وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ)

أي إذا اقترب أجلهم، إذا حضرتهم الوفاة، إذا شعروا بدنو أجلهم، عليهم أن يوصوا أن تبقى أزواجهم في بيوتهن حولاً كاملاً مع الإنفاق والسكنى.

الإحسان أن يوصي الزوج المتوفى أن تبقى زوجته في بيته إلى نهاية العام :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ)

إلى نهاية العام..

(غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قبل أن نمضي في شرح هذه الآية هناك آية أخرى:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً)

[سورة البقرة: 234]

الجمع بين الآيتين على النحو التالي: المرأة عليها أن تعتدَّ ببيت زوجها، وأن يُنْفَقَ عليها هي وأولادها أربعة أشهر وعشراً على وجه الإلزام، لعله لم يأت خاطب، لعل أهلها مسافرون، يجب أن تبقى في بيت زوجها إلى نهاية العام، تسكن وينفق عليها، فعندنا عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر، هذه عدةٌ إلزامية، أما الإحسان أن يوصي الزوج أن تبقى زوجته في بيته، وأن يُنْفَق عليها إلى العام، إلى نهاية العام.

بعد وفاة الزوج ينبغي أن تُمَتَّع زوجته بأن تسكن في بيته وتأكل وتشرب :

قال:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً)

ينبغي أن تُمَتَّع؛ أن تسكن في هذا البيت، وأن تأكل وتشرب، أن تبقى فيه إلزاماً أربعة أشهر وعشر، وأن تبقى فيه اختياراً إلى نهاية العام، مع الإنفاق عليها..

(مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ)

دون أن تُخْرَج من بيت زوجها بعد موته..

(فَإِنْ خَرَجْنَ)

إذا خرجت من تلقاء نفسها مختارةً، وقد خطبها خاطب، قال:

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ)

المرأة إذا توفي عنها زوجها وكانت شابةً، هي بحاجة إلى زوجٍ يحميها ويعتني بها، فإذا تزيَّنت للخُطَّاب وإذا طمحت إلى زواج وفق الشريعة الإسلامية، وفق الأصول والآداب الإسلامية..

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

المعروف ما عرفته النفوس السليمة والفِطر السليمة :

كلمة(معروف) من أروع ما تفسر به هذه الكلمة أن هذا الدين دين الفطرة، فالنفوس السليمة والعقول الصريحة تقبله وتأبى غيره، فالمعروف ما عرفته النفوس السليمة والفِطر السليمة، والمُنكر ما أنكرته الفِطر السليمة، طبعاً استطراداً، هناك بعض المحاكم في بلاد الغرب يعتمدون على الفطرة السليمة، فيأخذون من عَرْض الطريق مجموعة من الأشخاص يعرضون عليهم وقائع

جريمة، هؤلاء غير منحازين، ليس لهم مصلحة لا في إدانة المذنب ولا في تبرئته، ينطقون بشكل عفوي أن يُبْقى الذي ينبغي أن يكون، فلذلك المعروف ما عرفته الفِطَر السليمة، والمنكر ما أنكرته الفِطَر السليمة، فالفتاة حينما تعتني بهندامها وتعتني بمظهرها لمن يخطبها، هذا شيء طبيعي، هذا مركب في أصل فطرتها، فالمرأة إذا كانت امرأة صالحة وفيّة وتوفي زوجها، وهي في مقتبل العمر، وأمضت العدة الشرعية في بيت زوجها، ثم أرادت أن تنتقل إلى بيت أهلها، لتستقبل الخطاب مثلاً..

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

قال :

(وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ)

أي المرأة التي طُلِّقت هذه فقدت أعظم شيء في حياتها، زوجها، فهذا الزوج فضلاً عن إعطائها المهر، وعن تسريحها بإحسان، ينبغي أن يُمَتِّعَها، قال بعض الفقهاء: أن يمتعها بنصف مهرها إكراماً لها، تعويضاً عن فقد الزوج، هذا شيء الآن يبدو خيالي، حينما يزمع الرجل أن يطلق زوجته تنشأ الخصومات، وتتراشق التُهَم، وكل طرف يجعل الطرف الآخر في الوحل، ويتكلم في عِرض المرأة، ويتكلم في بخل الزوج، وتجري هذه القصص بشكل غير معقول.

معنى التسريح بإحسان :

أما لو كان هناك طلاق إسلامي، وانقطعت المصلحة بين الزوجين، فقال تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

التسريح بإحسان هو أن تعطيها مهرها كاملاً، وأن تعطيها نصف مهرها متاعاً من باب الإحسان، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ)

الذي يتّقي الله عز وجل، والذي يخشى اليوم الآخر، والذي أودع الله في قلبه رحمةً تجاه المرأة، انقطعت المصلحة بينهما، وكان الطلاق أولى، لا ينبغي أن يُنْشَر عِرضها على الملأ، لا ينبغي أن يذكر ما ليس فيها من عيوب من أجل أن يبرر عمله، التسريح بالإحسان ينبغي أن تسرحها سراحاً جميلاً، وأن تصمت عن عيوبها، وهذه طرفة، قيل لإنسان عنده زوجة سيئة جداً: ألا تطلقها؟! قال: والله لا أطلقها فأغش بها المسلمين، على كلٍ:

(وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ)

يروى أن امرأةً فرَّق شريح بينها وبين زوجها، فلما طالبه بأن يمتعها، قالت: ليس عليه متاع، لأن هذا المتاع حقٌ على المحسنين وحق على المتقين، وهو ليس كذلك.

العدة الإلزامية والعدة الاختيارية :

ثم يقول الله عز وجل:

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

أحكام الشريعة تحتاج إلى إيمان، تحتاج إلى إنسان يعرف الواحد الديَّان، تحتاج إلى إنسان يخشى اليوم الآخر، فلذلك الإنسان قد يتخلّى عن بعض حقوقه خوفاً من الله عز وجل، أما المنافق إذا خاصم فجر، والذي نراه رأي العين أنه إذا نَشِبَت مشكلةٌ بين زوجين واقترب الأمر من الطلاق، كل طرف يبالغ في الحديث عن الطرف الآخر إلى درجة أنك تتوهَّم أن الطرف الآخر سيِّئ إلى أبعد الحدود، والأمر ليس كذلك.

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ)

بعد الأربعة أشهر والعشر، وهي عدة إلزامية، بعد هذا الوقت عدة اختيارية، فإذا رأت الزوجة التي توفي عنها زوجها أنها بحاجة إلى مَن يخطبها، وانتقلت إلى بيت أهلها..

(فَإِنْ خَرَجْنَ)

من تلقاء أنفسهن..

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ)

عامةً، وللمطلقات إجمالاً..

(وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ)

كفى بها نعمة ـ كما ورد في الأثر ـ أن يتصاحب المتصاحبان ثم يفترقا، ويقول كل منهما للآخر: " جزاك الله خيراً "، هل عندك إمكان أن تفك شركةً وأن يقول لك شريكك: جزاك الله خيراً على هذه المدة التي أمضيتها معك، هل عندك استعداد أن تطلق امرأة وأن تقول لك: جزاك الله خيراً على إحسانك غير المتناهي؟ الواقع غير ذلك، أما هذا هو الموقف الإسلامي السليم، حتى لو افترقت، حتى لو طلَّقت، حتى لو فصمت شركةً، حتى ولو أنهيت علاقةً، ينبغي أن تنتهي هذه العلاقة على قلب طيبٍ ونفسٍ هنيئة..

(وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ* كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

موضوع الجهاد :

ثم يقول الله عز وجل، وقد انتقل الموضوع إلى موضوع الجهاد يقول:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ)

مَن هم؟ لم تأتِ هذه الآيات على ذكر أسمائهم، ولا على ذكر أماكنهم، ولا على ذكر أزمانهم، لا أسمائهم، ولا أماكنهم، ولا أزمانهم.

(أَلَمْ تَرَ)

وقد يقول قائل: كيف يقول الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام: " ألم تر "، مع أن النبي لم ير ذلك، قال علماء التفسير: حينما يخبرك الله عز وجل، ينبغي أن تتلقى هذا الإخبار وكأنه شيء تشاهده، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

[سورة النساء: 87]

مَن أصدق من الله حديثاً؟! فإذا أخبرك الله عن شيء، يجب أن تتلقاه وكأنك تراه:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

[سورة الفيل: 1-2]

يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ)

بعضهم يقول: لعل عدواً يتهددهم، فنزحوا عن بلادهم خوفاً منه، وهذا ما يجري الآن حينما تنشب حرب طائفية أو حرب أهلية في مجتمع ما، مئات الألوف تنزح عن أرضها وترجوا السلامة في بلدٍ آخر.

الله عز وجل قطع سلطان البشر عن الأجل والرزق :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ)

أو أن مرضاً يتهددهم، إلا أن الله عز وجل لم يذكر السبب، ولكن ذكر النتيجة، خرجوا من ديارهم وهم ألوف مؤلَفَةٌ حذر الموت، وبعضهم قال: هم ألوف متآلفة قلوبهم وليسوا أعداء، ولكن خطراً تهددهم، إما خطر عدوٍ داهم، أو خطر مرضٍ عُضال، على كلٍ:

(فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا)

أماتهم بكلمةٍ واحدة..

(ثُمَّ أَحْيَاهُمْ)

بكلمةٍ ثانية..

(لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

لعل من أوجه التفاسير: أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت خرجوا خوفاً من عدو متربِّصٍ بهم، وكأنَهم توهَّموا أن هذا العدو هو الذي سيقضي عليهم، هو الذي سينهي حياتهم، فخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ولكن الله أكَّد لهم أن الموت بيد الله، هم

خرجوا طلباً للسلامة، فأماتهم الله، ثم أراد الله أن يحييهم فأحياهم، فالموت والحياة بيد الله وحده، الله عز وجل قطع سلطان البشر عن شيئين: عن الأجل، وعن الرزق، فرزقك عند الله، وأجلك بيد الله..

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب ـ وهناك زيادة ببعض الروايات ـ واستجملوا مهنكم))

[حديث صحيح بشواهده، ابن ماجه وأبو نعيم في الحلية والحاكم وابن حبان..]

هكذا ورد في الأثر، لذلك هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، خرجوا خوفاً من الموت فأماتهم الله بكلمةٍ واحدة ثم أحياهم، لذلك ورد في القرآن الكريم:

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة الجمعة : 8]

الله عز وجل ما أمرك أن تعبده إلا وقد طمأنك أن أمرك كله إليه :

أحياناً الإنسان يتوهَّم الموت عن طريق القلب، فإذا هو يموت بحادث، أحياناً يتوهَّم الموت في مكان خَطِر، في خط مواجهة، فيذهب إلى مكانٍ عميقٍ في الداخل، يأتيه الموت هناك..

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

قد تفاجئون بموتٍ لم يخطر على بالكم، فلذلك هم خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، خوف الموت..

(فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

مِن أعظم فضل الله علينا أن حياتنا بيد الله، وأن رزقنا بيد الله، وأن يد البشر مقطوعةٌ عن أن تتحكم بأرزاق العباد، وعن أن تتحكم بآجالهم، ولو بدا ذلك للسُذَّج من الناس، أو لضعاف العقول، أو لضعاف الإيمان، أن زيداً أو عُبيداً بيده الرزق الوفير أو القليل، وبيده الحياة أو الموت..

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ)

أي أنه ما أمرك أن تعبده إلا وقد طمأنك أن أمرك كله إليه:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

لا يعقل أن يأمرك أن تعبده وأمرك ليس بيد الله، بيد زيد أو عُبيد، إذا كان أمرك بيد زيدٍ أو عُبيد كيف يقول الله لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

من أجل النِعَم أن أمر الحياة والموت بيد الله عز وجل (يحيي ويميت)، وأن أمر الرزق بيد الله عز وجل، وقد قيل: " كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً "، لكن ضعف الإيمان، وضعف الإدراك، والبُعد عن جوهر هذا الدين، يلقيان في القلب الخوف والهلع.

الجهاد الدعوي والجهاد القتالي :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

كنت أقول لكم دائماً: هناك جهاد النفس والهوى، وهذا الجهاد جهاد النفس والهوى هو الجهاد الأوّل، لأن المهزوم أمام نفسه لا يمكن أن يبذل لا من ماله ولا من حياته، لا بد أن تعرف الله، لا بد من أن تجاهد نفسك كي تعرف الله وكي تطيعه، إذا جاهدت نفسك وهواك، عندك جهادٌ دعوي، وهذا الجهاد الدعوي متاح والحمد لله في معظم البلاد الإسلامية، الجهاد الدعوي:

(وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان: 52]

وقد سماه (جهاداً كبيراً)، أما حينما تكون قوياً، وتستطيع عن طريق الجهاد القتالي أن تنشر هذا الدين في الآفاق، وأن تكون في أعلى مستوى من القدوة الحسنة، عندئذٍ يتوجب الجهاد القتالي:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

ويجب أن تقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فمَن قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله..

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قل ما شئت يسمعك، لكن لو قلت كلاماً طيِّباً ولم تكن أنت كذلك فإن الله عليم بما في الصدور، لا تخفى عليه خافية..

(أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

الأعمال الصالحة ومثيلاتها هي بمثابة قرضٍ حسنٍ لله عز وجل :

ثم ـ ودققوا في هذه الآية ـ يقول الله عز وجل:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

ذاتُ الله العليَّة جعلها ربنا جل جلاله في موطن أن تقرضه، إنك إن فعلت خيراً مع عباده فكأنما أقرضته قرضاً حسناً، إن أعنت الناس، إن يسَّرت على مُعسرهم، إن كشفت عن كُربتهم، إن نفست عن كربهم، إن أفرجت عن أسيرهم، إن أعطيت فقيرهم، إن عالجت مريضهم، إن فعلت خيراً تجاه عبدٍ من عباد الله، فإن هذا العمل الطيب هو فرضٌ إلى الله عز وجل، وسوف تأخذه أضعافاً مُضاعفة، هذا المعنى يؤكّده الحديث القدسي الصحيح:

((يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ))

[صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

يا داود، استطعمتك فلم تطعمني. قال: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي... " إلى آخر الحديث.

هذا المعنى أيها الأخوة لو تأمَّلناه تأمُّلاً دقيقاً لذابت نفوسنا، خالق السماوات والأرض، الذات الكاملة يقول لك: إذا أحسنت إلى عبدٍ من عبادي كائناً مَن كان، أو إذا أحسنت إلى مخلوقٍ من مخلوقاتي كائناً مَن كان فهذا قرضٌ لي، وسأؤديه لك أضعافاً مضاعفة، هذا المعنى أيها الأخوة، لو تمثلناه لانطلقنا في خدمة الخلق، أي إنسان إياك أن تسأله من أين أنت؟ هذا عبدٌ لله عنده كُربة يجب أن تنفث عنه، هذا محتاج يجب أن تساعده، هذا مريض ينبغي أن تمرِّضه، هذا أخرق ينبغي أن ترشده، هذا جاهل ينبغي أن تعلمه، هذا منكسر ينبغي أن تجبره، هذه الأعمال الطيِّبة، ابتسامةٌ تلقى بها أخاً كريماً، مبلغ من المال تقرضه لأخ محتاج، زيارةٌ لمريض ترفع بها معنويَّاته، هذه الأعمال الصالحة وَمثيلاتها ومثيلاتها هي بمثابة قرضٍ حسنٍ لله عز وجل، وسوف يضاعفه الله لك أضعافاً كثيرة، هذا معنى قوله تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

إقراض العبد له سبب لإكرامه يوم القيامة :

بشكل مبسَّط أيها الأخوة، قد تجد صديقاً لك عزيزاً عليك، ابنه معه، وفي جيبك قطعة حلوى، إنَّك تقدِّم هذه القطعة لابنه الصغير إكراماً لأبيه، قد لا تنتبه إلى الابن بقدر ما تنتبه إلى الأب، فهذه القطعة التي قُدِّمت لهذا الصغير، هي في حقيقتها قُدِّمت للأب، إنك إن أكرمت ابنه فكأنما أكرمته، هذا المعنى لو تمثَّلناه جميعاً، إنك حينما تُحسن إلى عبدٍ من عباد الله كائناً مَن كان، أو إلى مخلوقٍ من مخلوقات الله كائناً ما كان، فهذا قرضٌ لله عز وجل.

وهذه المرأة التي وجدت كلباً يأكل الثرى من العطش، نزلت بئراً، ملأت خُفَّها ماءً، ثم صعدت فسقت الكلب، فشكر الله لها، فغفر لها، هكذا المسلم، جميع المخلوقات أمامه سيَّان، بشر وغير بشر، مخلوقات لله عز وجل، فإذا طمأنهم، وتلطَّف بهم، وأحسن إليهم وأكرمهم، ودلَّهم على الله، وأعانهم على أمر دينهم ودنياهم، فهذه الأعمال الطيِّبة هي بمثابة قرضٍ حسنٍ لله عز وجل..

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

من باب التقريب، تصور مَلِكاً وهو يملك كل شيء، قال لإنسان فقير: أقرضني درهماً وخذ مكانه قصراً، أقرضني درهماً وخذ مكانه منصباً، أقرضني درهماً وخذ مكانه ثروةً، إذا أحجم هذا الإنسان

الفقير عن أن يقرض المَلِك درهماً واحداً ليأخذ مكانه قصراً منيفاً، أو ثروة طائلة، أو منصباً رفيعاً، فهو أحمق، هذا الذي أحجم عن أن يقرض ملكاً، الملك غنيٌّ، ولكن أراد أن يكون هذا القرض سبباً لإكرام هذا الفقير، وكأن الله عز وجل أراد من هذه الآية، أن يكون إقراض العبد له سبباً لإكرامه يوم القيامة..

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله عز وجل فانظر فيما استعملك :

بالمقابل، هذا الذي يؤذي عباد الله، هذا الذي يغُشُّهم، هذا الذي يأكل أموالهم بالباطل، هذا الذي يملأ قلوبهم رعباً، هذا الذي يفسد علاقاتهم، هذا الذي يشتت أُسَرَهم، هذا الذي يفسد طبيعتهم السليمة، إنسان يعيش من ترويج الفساد في الأرض، يروِّج فيلماً، أو يروِّج قصة داعرةً، أو يروج عقيدة زائغة، لإفساد عقائد الناس، أو لإفساد أخلاقهم، هذا ماذا فعل؟ هذا فعل عكس ما أراده الله عز وجل، أراد الله منك أن تقرضه قرضاً حسناً ليضاعفه لك أضعافاً كثيراً، هذا بدَل أن يقرض الله قرضاً حسنا، أساء لخلق لله عز وجل، لذلك الخير بيدي ـ كما ورد في بعض الأحاديث القدسية ـ والشر بيدي، ولكن طوبى لمن قدَّرت على يديه الخير، والويل لمَن قدَّرت على يديه الشر.

إما أن تكون أداة خير، وإما أن تكون أداة شر، وإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك..

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

هناك قصة، امرأة صالحة مسنة، تسكن في أحد بيوت الشام القديمة، وفي هذا البيت شجرة ليمون، تحمل ما يزيد عن خمسمئة حبة كل عام، وقد أَلِف أبناءُ الحي أنهم كلما احتاجوا إلى حبَّة ليمون، يطرقون هذا الباب: أعطونا ليمونة، وهذه المرأة الكريمة الوقورة المتقدِّمة في السن لا ترد سائلاً، وهذه الليمونة تحمل أعداداً مخيفةً كل عام، وكأنها رزق أهل هذا الحي، ماتت سيدة هذا البيت، وكانت زوجة ابنها شابةً جاهلة رَعْناء، فلما طُرق الباب أول مرَّة لطلب ليمونة، ردتهم وطردتهم، وانتهى الأمر، الليمونة يبست وماتت، انتهى الأمر.

تعطي يعطي، تبخل لا يعطيك، فأنت حينما تتعرَّض لسؤال واحد يسألك، يجب أن تفرح لأن الله إذا أحب عبداً جعل حوائج الناس عنده، أنت حينما تتصوَّر أن أي عمل صالحٍ مع أي مخلوق؛ لو أنقذت نملة من الغرق وأنت تتوضأ، هذا قرضٌ حسن لله عز وجل، لو أنقذت فراشةً، لو أزحت من أرض المسجد قشةً، وضعتها في جيبك، أي عمل مهما تتصوره صغيراً، هو قرض لله عز وجل، وسيضاعفه لك أضعافاً كثيرة.

عند المِحَك تفتقد الرجال وعند الغنائم يجتمع الرجال :

ثم يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

الكلام سهل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الصف: 2]

كلام سهل، يبدو أن هذا النبي الكريم كان خبيراً بهم، فـ..

(قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا)

الآن أنتم تتمنون أن تقاتلوا في سبيل الله، لو أن الله فرض عليكم القتال، هل ممكن ألا تقاتلوا، قالوا:

(قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا)

نحن مطرودون من بلادنا، ونحن خسرنا أبناءنا، فلمَ لا نقاتل في سبيل الله؟!

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ)

عند المِحَك تفتقد الرجال، عند الغنائم يجتمع الرجال، أما عند الشدائد لا ترى معك أحداً..

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

مَن هم الظالمون؟ الذين ظلموا أنفسهم بعدم استجابتهم لأمر ربهم.

الله عز وجل له مقاييس والبشر لهم مقاييس أخرى :

قال تعالى:

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً)

طالوت هذا اسمه، بعثه الله لهم ملكاً يقود جهادهم لاسترداد أرضهم، ولاسترداد كرامتهم، فقالوا، ولهم مقاييس دنيوية..

(قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ)

يعني المَلك عندهم الذي يقودهم إلى الخير ينبغي أن يكون وجيهاً، غنياً، مُتْرَفاً، مشهوراً، أما أن الله اختار لهم إنساناً فقيراً لكنه شجاع ومؤمن وقوي، هذا بمقاييسهم قد رُفِض..

(قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ)

هنا المشكلة، المشكلة أن هذا المجتمع وأي مجتمع، له مقاييس، وأن الله جل جلاله عنده مقاييس، قد تتعارض مقاييس الإله العظيم مع مقاييس البشر، الناس مَن يعظّمون؟ يعظّمون الغني، ويعظّمون

القوي، ويتجاوزون عن أخطائهم، أما الفقير يضعونه تحت المجهر، حتى لو قال: لا إله إلا الله يحاسبونه عليها، أما الغني قد يرتكب الموبقات، وقد يأتي بالسفاهات، وقد يأتي بالأشياء غير المقبولة، ومع ذلك يغضّون الطَرْف عنه، هذه مقاييس بني البشر.

الذي يقود أمةً إلى معركةٍ مصيرية ينبغي أن يكون عالماً :

لما:

(قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)

هذا الذي يقود أمةً إلى معركةٍ مصيرية ينبغي أن يكون عالماً، قال:

(قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)

أي أمدَّه بعلمٍ عميق، وبقوة جسميّة قوية..

(وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ)

أنت لا تعترض، فالله عز وجل يؤتي ملكه مَن يشاء، لحكمةٍ بالغة بَالغة..

(وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

اختلاف العلماء حول المقصود بـ(التابوت) :

ثم قال هذا النبي الكريم:

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ)

اختلف العلماء حول هذا التابوت، التابوت ورد في قصة سيدنا موسى:

(أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ)

[سورة طه: 39]

قالوا: هذا التابوت الذي نجَّى الله به موسى، كان محبوبٌ عند بني إسرائيل ثم ضاع منهم، بحثوا عنه فلم يجدوه، فكان من علامة أن هذا المَلك اختاره الله عز وجل أن يأتيهم التابوت، وبعضهم قال: إن التابوت صندوق فيه التوراة، وفيه الآيات التي أنزلها الله على نبيه موسى عليه السلام، لكن المعنى الثاني أوجه:

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ)

هذا التوراة كما أنزله الله عز وجل، ليس المحرَّف، هذا التوراة إذا قرأه الإنسان وهو كلام الله عز وجل امتلأ قلبه سكينة واطمئناناً، فيه سكينة من ربكم..

(وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ)

أقوال هذا النبي، كيف أنه في ديننا هناك كتابٌ كريم هو القرآن الكريم، وهناك أحاديث شريفة، تبيان النبي عليه الصلاة والسلام لما في القرآن الكريم، كذلك هذا التابوت؛ الصندوق الذي كانت فيه ألواح سيدنا موسى وما فيها من آيات مُحْكَمات..

(فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

علامة أن طالوت اختاره الله لكم ليقودكم في جهادٍ تستردون فيه أرضكم وكرامتكم.

الآية التالية جزءٌ من القصة وفيها أيضاً إشارة إلى حقيقة علمية :

قال تعالى:

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ)

بنهر فيه ماءٌ عذب..

(فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ)

طبعاً، إضافة إلى أن هذه الآية جزءٌ من القصة، فيها إشارة إلى حقيقة علمية، وهي: أن الإنسان إذا بذل جهداً عالياً جداً جداً في وقت حر شديد، ثم وصل إلى ماء بارد عذب كالفرات، وشرب حتى ارتوى، ربما يموت من لحظته، لأن حرارة الجسم في أعلى مستوى، فإذا أدخلت إلى جوفك ماءً بارداً فجأة، هناك عصبٌ في المعدة اسمه العصب الحائر، هذا عصبٌ مربوطٌ بين المعدة والقلب، وهناك حالات كثيرة لوفاةٍ مفاجئة تمت بسبب شرب ماءٍ بارد جداً عقب جهدٍ كبير جداً، هذه حقيقة، فهناك مَن يموت فجأة، هؤلاء الذين ضلوا في الصحراء، إذا وصلوا إلى ماء بارد، وشربوا منه حتى ارتووا، ربما أصابتهم سكتة قلبية، هذه حقيقة، لكن هنا سياق الآيات..

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي)

امتحان آخر، مع أنه حقيقة طبيةٌ، امتحان..

(وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ)

معنى ذلك أن الإنسان إذا بذل جهداً كبيراً جداً، وكان في أعلى حالات العطش، له أن يشرب كميةً قليلةً جداً، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((مصوا الماء مصاً، ولا تعبوه عباً فإن الكباد من العب))

[البيهقي في الشعب عن عائشة]

فإذا شرب ما يملأ كفَّه، ومصه مصاً، لعل الخطر لا يقع.

الإنسان إذا عصى أو خالف يشعر بوهن في قواه :

قال تعالى:

(فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ)

الذي قاتلوا معه قليل مِن كثير، والذي امتنعوا عن شرب ماء النهر أيضاً قليل من كثير..

(فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)

هنا الحقيقة، الحقيقة أن الإنسان إذا عصى أو إذا خالف يشعر بوهن في قواه، الآن لو إنسان ملتزم تماماً يقوم إلى الصلاة نشيطاً، أما إذا سمح لنفسه أن يفعل شيئاً لا يرضي الله، وأذَّن العشاء، يقوم إلى الصلاة متكاسلاً، صار حجاب بينه وبين الله، فهؤلاء الذين عصوا أمر قائدهم وشربوا من ماء النهر لما واجهوا العدو القوي..

(قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

هذا ينقلنا إلى أن هناك نصرٌ استحقاقي.

أنواع النصر :

1 ـ النصر الاستحقاقي:

النصر الاستحقاقي ولو كنتم قلةً، لكنكم إن كنتم مؤمنين حقاً، متمسكين بأهداب الشرع، ملتزمين، مفتقرين إلى الله عز وجل ولو كنتم قلة، لقوله تعالى:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

هذا هو النصر الاستحقاقي.

2 ـ النصر التفضلي:

أما حينما يقول الله عز وجل:

(غُلِبَتْ الرُّومُ*فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ*فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

[سورة الروم: 2-4]

هذا نصر تَفَضُّلِيّ، قد لا يستحق الرومان أن ينتصروا على الفُرس، قد لا تتوافر فيهم شروط النصر، ولكن حكمة الله اقتضت أن ينصر الأقل سوءاً على الأكثر سوءاً، هذا نصر تفضُّلي، وقد

تستمعون إلى نصرٍ في العصور الحديثة يشبه النصر التفضُّلي، قد لا يستحق المنتصر أن ينتصر، إلا أن حكمة الله تقتضي أن ينتصر الأقل سوءاً على الأكثر سوءاً، هذا النصر الثاني، النصر التفضلي.

3 ـ النصر التكويني :

أما النصر التكويني فهذا لا علاقة به بالدين إطلاقاً، طرفان بعيدان عن الله، طرفان جاهلان، طرفان معرضان عن الله، طرفان لا يؤمنان بالله إطلاقاً، هذان الطرفان ينتصر الأكثر عُدَّة، والأكثر عدداً، والأمضى سلاحاً، والأكثر دقة في الرمي، والأغنى، والأقوى، والأعلم، فهذا عندئذٍ نصر تكويني، لا علاقة له بالدين، لذلك قالوا: المعركة بين حقين لا تكون لأن الحق لا يتعدَّد، وبين حقٍ وباطل لا تطول لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي وهذا هو النصر التكويني.

توازن القوى من نِعم الله الكبرى :

فأما قوله تعالى:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا)

هؤلاء القلة القليلة..

(قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

بهذا الدعاء المخلص، قال:

(فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ)

الذي كان في جيش طالوت..

(جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ)

هنا المغزى..

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

حينما تكون القوى متوازنة هذه من نِعم الله الكبرى، توازن القوى، أما حينما ينفرد قطب واحد في الأرض، نرى العجب العُجاب، نعمة التوازن لم نكن نعرف قيمتها، أما الآن عرفنا قيمة التوازن بين القوى في العالم، من صالح الضعفاء، من صالح الدول الكثيرة، أما حينما ينفرد قطبٌ واحدٌ بالقوة يفعل ما يشاء دون رحمة، أو دون خوفٍ أو وَجَل..

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

قصص داود وطالوت وجالوت تشهد للنبي محمد بالنبوة :

أيها الأخوة... مرة ثانية:

(فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ)

توازن القوى..

(لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

من دلائل فضله أنه جعل القوى متوازنة في الأصل، أما لاستثناءٍ أراده الله حينما تكون قوة واحدة تستقطب العالم كله، هذا يعود بالويلات على بقية الشعوب، على كلٍ اللهم أرنا نعمك بوفرتها لا بزوالها..

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

لكن من أين جاء النبي بهذه القصص؟ داود، وطالوت، وجالوت، وهؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت؟ هذه قصص لم يشهدها النبي عليه الصلاة والسلام، فلما جاء بها مفصلةً، واضحةً، جليةً معنى ذلك هذه القصص تشهد له بالنبوة، لقول الله عز وجل:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

[سورة آل عمران: 44]

فمَن علَّمك هذا؟ إنه الله عز وجل:

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ)

من خلالها..

(لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (82- 95):تفسير الآيتان 253-254، تفضيل الرسل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-07-21

بسم الله الرحمن الرحيم

من رحمة الله عز وجل أنه أرسل رُسلاً مبشرين ومنذرين :

أيها الأخوة المؤمنون.. مع الدرس الثاني والثمانين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثالثة والخمسين بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

أولاً: بسبب رحمة الله عز وجل، وأن الله خلق الإنسان لسعادة أبدية، وأن الله جعل الكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى، وأن الله أودع في الإنسان العقل كأداة لمعرفة الله عز وجل، وأنه فطره فطرةً سليمة تكشف خطأه، ومنحه حرية الاختيار، وأودع فيه الشهوات ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، فضلاً عن كل ذلك؛ فضلاً عن الكون، وعن العقل، والفطرة، والشهوة، والاختيار، أرسل رُسلاً مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، فهؤلاء الرسل قِمَم البشرية، هم في أعلى مستوى؛ من المعرفة، والحُب، والانضباط، والبذل، والعطاء، دعوة هؤلاء الرسل واحدة.

فحوى دعوة الأنبياء واحدة لكن مقاماتهم متفاوتة :

قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء:25]

دعوتهم واحدة، فحوى دعوتهم واحدة:

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

[سورة البقرة: 285]

لكن مقاماتهم متفاوتة، لذلك قال علماء البلاغة: (تلك) تعلمون أن اسم الإشارة الذي يستخدم لمخاطبة المفرد الذكر (ذا)، والذي يستخدم لمخاطبة الأنثى:(تي)، في هذان، وهذين، وهؤلاء،

وتي، وتان، وتيْن، وأولاء، إلا أن اللام تفيد البُعد، وقد تفيد العلو، فلماذا أشير إلى هؤلاء الرسل بضمير المُفرد؟ قال علماء البلاغة: لأن دعوتهم واحدة، ما قال الله عز وجل: هؤلاء الرسل، قال:

(تِلْكَ الرُّسُلُ)

وقد فُضِّل التأنيث مراعاةً للجمع، كل جمعٍ مؤنث، فكأن الله أراد أن يقول: هؤلاء الرسل يصدرون من مشكاةٍ واحدة، ويبلِّغون رسالةً واحدة، إذاً هم على كثرتهم كواحد..

(تِلْكَ الرُّسُلُ)

واللام بدل البُعد هي للعلو..

(فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

هنا محل الإشارة إلى أن هناك تفضيلاً.

الفرق بين التفضيل والمحاباة :

هناك تفضيلٌ وهناك مُحاباةٌ، والفرق بين التفضيل والمحاباة، فمثلاً: إنسان عنده قارب أو يخت، ولهذا اليخت قائدٌ ماهر، لو أن ابنه الصغير والبحر هادئ، قال له: يا أبتِ دعني أقود هذا اليخت، أعطاه إياه، أعطاه إيّاه محاباةً، لأنه ابنه، ولأنه يحبه، ولكن لو هبَّت عاصفةٌ هوجاء، لمَن يعطي القيادة؟ للربان الخبير، حينما تعطى قيادة اليخت لربان خبير فهذا تفضيل بسبب حكمة بالغة، أما حينما يطلب منه ابنه أن يقود اليخت، هذه محاباة لحب الأب تجاه ابنه، فأنت حينما تؤثر شيئاً تعطيه ميزةً بدافع الحب والهوى فهذه محاباة، أما حينما تفضل إنساناً بميزة بدافع الحكمة فهذا تفضيل، إذاً: قد يفضَّل رسولٌ على رسول بسبب الحكمة، حكمة الله عز وجل، فـ..

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

لكن التفضيل كما يقول علماء العقيدة لا يقتضي الأفضلية، سيدنا موسى كلمه الله تكليماً:

(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)

[سورة النساء: 164]

هل معنى أن الله كلم موسى تكليماً أنه أفضل من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ الجواب: لا، التفضيل لا يقتضي الأفضلية، فلو إنسان أرسل ابنه إلى بلد بعيد، أعطاه مبلغاً من المال كبيراً يعينه على نفقات السفر، وابنه الذي في البيت لم يعطه هذا المبلغ، هل معنى ذلك أن هذا الذي أعطاه مبلغاً كبيراً أفضل من ابنه المقيم معه؟ لا، التفضيل لا يقتضي الأفضلية، ولكن هناك حكمةٌ بالغة اقتضت أن يفضل هذا الرسول على هذا الرسول.

كل نبي يكون مفضولاً تارة ومفضَّلاً تارة أخرى والأفضلية لا تقتضي التفضيل :

قال تعالى:

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

أما كلمة: بعضهم على بعض، لها معنى دقيقٌ جداً، ذلك أن هؤلاء الذين فضَّل الله بعضهم على بعض، أي أن بعض هؤلاء الرسل فضّلوا، وبعض هؤلاء الرسل مفضولون، في موقع آخر الذي كان مفضولاً صار مفَضَّلاً، معنى ذلك أن هذه العبارة في القرآن الكريم تعني أن واحداً من هؤلاء الرسل يكون مفضولاً تارةً، ومفضَّلاً تارةً أخرى.

في حياتنا اليومية، أب عنده ابن في الشهادة الثانوية، هو بحاجة ماسة إلى أستاذ رياضيات، هذا الأب يأتي إلى بيت هذا الأستاذ ويطلب منه أن يعطي ابنه بعض الدروس، ويسأله: هل ينجح ابني؟ فالأب بحاجة إلى هذا الأستاذ، هذا الأستاذ لو أنه مرض، يأتي إلى الطبيب، والد هذا التلميذ، ويقف أمامه وقفة متأدِّبة، يا ترى الذي أشعر به بحاجة إلى عملية أم يعالج بالحبوب؟ كما أن الأب الطبيب وقف أمام أستاذ الرياضيات متأدباً وسأله: يا ترى ابني هل ينجح؟ فكل واحد منهما مفضَّل تارة ومفضول تارةً أخرى، إذاً سخَّر بعضهم لبعض، فضَّلنا بعضهم على بعض، هذه العبارة في القرآن، تعني أن الواحد يكون مفضلاً ومفضولاً في وقتٍ واحد، فـ..

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

بعض هؤلاء كان مَلِكاً:

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35))

[سورة ص: 35]

بعض هؤلاء أوتي فهم لغة الطير كسيدنا سليمان، النبي عليه الصلاة والسلام كان فقيراً، فكل نبي له ظروفه، نبي أحيا الموتى بإذن الله، نبي شق البحر بإذن الله، نبي جاء بالقرآن الكريم بإذن الله، فكل نبي يكون مفضولاً تارة ومفَضَّلاً تارة أخرى، والأفضلية لا تقتضي التفضيل.

سيدنا موسى كليم الله :

قال تعالى:

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ)

سيدنا موسى كليم الله:

(إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوىً *اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة النازعات: 16-17]

إلى آخر الآيات، في آية أخرى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي*إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَ*فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى*وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

[سورة طه: 14-17]

الأفضلية التي اختص بها سيدنا موسى عليه السلام :

خالق السماوات والأرض يكلّمه قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ)

[سورة طه: 18]

يريد أن يطيل الحديث:

(أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

[سورة طه: 18]

ثم استحيا فقال:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

[سورة طه: 18]

كان يتمنَّى أن يقول الله له: يا موسى ما هذه المآرب الأخرى ليطيل الحديث، على كلِ هذا النبي الكريم كلمه الله تكليماً، وهذه أفضلية اختص بها سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ذات مرة النبي عليه الصلاة والسلام أتى بيت أحد أصحابه وهو أُبَيِّ بن كعب، وقال له: إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة البيِّنة ـ نبي عظيم سيد الخلق وحبيب الحق، يطرق باب أحد أصحابه ويقول له: " إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة البينة "ـ فقال هذا الصحابي الجليل: أو سمَّاني الله عز وجل؟ قال: نعم.

[الدر المنثور في التفسير المأثور]

فبكى بكاءً شديداً، أن الله عز وجل يسمي أُبَيّ بن كعب، خالق السماوات والأرض، هذه أفضلية ما بعدها أفضلية.

الله تعالى لم يخاطب الكفار إطلاقاً إلا في آية واحدة لأنهم ليسوا أهلاً لذلك :

الله عز وجل خاطب النبي الكريم قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

[سورة الأحزاب: 59]

(يَا أَيُّهَا الرسول)

[سورة المائدة: 67]

ولم يقل له: يا محمد في كل القرآن الكريم، قال: يا يحيا، وقال: يا زكريا، وقال: يا عيسى، ولم يقل: يا محمد، قال:

(يَا أَيُّهَا الرسول)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

ثم إن الله عز وجل لم يخاطب الكفار إطلاقاً، لأنهم عطَّلوا عقولهم، واتبعوا شهواتهم، ليسوا أهلاً أن يخاطبهم الله عز وجل، لا تجد في القرآن الكريم كلّه آيةً واحدة يخاطب بها الكفار إلا واحدة يوم القيامة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ)

[سورة التحريم 7]

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ)

البيّنات أي الدلائل التي تؤكّد أنه رسول الله، أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيى الموتى بإذن الله.

الإسلام دين وسطيّ :

أما علماء التفسير قالوا:

(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)

هذه تعني رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه في أعلى الدرجات..

(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)

فرضاً أب عنده ثلاثة أولاد، قال لواحدٍ منهم: سأهديك قلماً، وقال لواحد منهم: سأهديك ساعةً، ثم قال: وبعضكم سأهديه هديةً ثمينةً جداً، فمَن هو هذا البعض؟ هو الثالث، فكأن الله عز وجل يقول:

(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)

أي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما لماذا جاء رسول الله بين سيدنا موسى وسيدنا عيسى؟ فهذا الترتيب ليس ترتيباً زمنياً، هو الحقيقة سيدنا موسى، فسيدنا عيسى، فسيدنا محمد، هنا الترتيب ترتيب رُتَبي، فدعوة النبي متوسطة، بين البُعد عن الدنيا كما عند المَسيحية، وبين المادية الساحقة كما عند اليهودية، الإسلام دين وسطيّ، دين يجمع بين الدنيا والآخرة، وبين المادة والروح، وبين القيم والحاجات، وبين المثل والشهوات، دين الفطرة، دين الواقع، فكأن الله عز وجل جعل من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم تلك الرسالة الخاتمة المتوازنة التي تجمع الأطراف كلها وهي في الوسط..

(مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)

أي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الاختلاف أنواع :

قال تعالى:

(وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ)

هنا، أتباع هؤلاء الأنبياء ألم يقتتلوا؟ ألم يذبح بعضهم بعضاً؟ ألم يعتدي بعضهم على بعض؟ الشيء العجيب أن هؤلاء الأنبياء العظام هم كلُّهم من عند الله عز وجل، الأصل واحد، رُسُل الله، والله خالق السماوات والأرض، هل يعقل أن يقتتل أتباعهم؟ هذا هو الجهل، فقد كنت أقول سابقاً: هناك اختلاف طبيعي اختلاف نقص المعلومات، كان الناس أمة واحدة فاختلفوا، أما حينما جاء الحق وزهق الباطل، وجاء وحي السماء، وأنزلت الكُتُب، وبعثت الرسل، الأمر واضح جداً، فلماذا يختلفون؟ قال: الاختلاف الأول اختلافٌ طبيعي، اختلاف نقص المعلومات، وعلاجه أن يأتي الحق صريحاً، أما الاختلاف الثاني: اختلاف قذر، هو اختلاف الأهواء، والشهوات، والرئاسات:

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران: 19]

فقد نختلف لنقص المعلومات، هذا اختلاف طبيعي، وقد نختلف والحق واضح، وكل شيء مُبَيَّن، هذا اختلاف قذر، هذا اختلاف التنازع، اختلاف الحظوظ، اختلاف الشهوات، اختلاف الأهواء، نعوذ بالله من هذا الاختلاف، ألا ترى إلى المسلمين؛ إلههم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد، وسنَّتهم واحدة، ألم يقتتلوا؟ أليس كلُّ فريقٍ يطعن بالفريق الآخر؟ الخلافات بين جماعات المسلمين خلافات عميقة جداً، وهم جميعاً يرجعون إلى إلهٍ واحدٍ، وكتاب واحد، ونبي واحد، إذاً هذا اختلاف الأهواء، الحق الواضح إذا كان معه اختلاف، اختلاف الأهواء، والحظوظ، اختلافٌ على الدنيا، ألم يقتتل هؤلاء الذين انتصروا في شرق آسيا على أعتى دولة في العالم؟ انتصروا عليها، فلما حققوا النصر اختلفوا على الدنيا، هم يقتتلون من عشرين عاماً، أليس اقتتالهم وصمة عارٍ بحق المسلمين؟ هؤلاء يقتتلون على الدنيا، كيف يكون في مكانةٍ عليةٍ عند الله وهم يقتتلون على الدنيا، ويسفكون دماءهم حراماً فيما بينهم؟ هناك اختلافٌ طبيعيٌّ، وهناك اختلافٌ قذرٌ، وهناك اختلاف تنافس، هذا الاختلاف ورد في القرآن الكريم، اختلاف التنافس:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُون)

[سورة المطففين: 26]

و

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

الدنيا دار ابتلاء وامتحان :

قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ)

جاءتهم البينات واقتتلوا، معناها تنازع مصالح، اختلافهم ليس اختلاف عقيدة، ولا اختلاف اجتهاد، بل اختلاف مصالح، اختلاف مكاسب، اختلاف شهوات..

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا)

اختلفوا على الدنيا فاقتتلوا، والدنيا امتحان:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

الدنيا دار ابتلاء، دار امتحان، تُمْتَحَن، إن كنت قوياً تمتحن، هل تسخر القوة في الحق أم في الباطل؟ وإن كنت ضعيفاً تمتحن، وإن كنت غنياً تمتحن، وإن كنت فقيراً تمتحن، وإن كنت صحيحاً تمتحن، فالدنيا دار ابتلاء.

لا بدّ من فرز للمؤمنين عن طريق ابتلاءٍ يسوقه الله لعباده :

قال تعالى:

(وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ)

ما معنى هذه الآية؟ إذا اقتتل المؤمنون فيما بينهم لا بد من أن يكون بعضهم على حق وبعضهم على غير الحق، لأن الحق لا يتعدد، المعركة بين حقَّين لا تكون لأن الحق لا يتعدد، وبين حق وباطل لا تطول لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي، هنا يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا)

ما داموا قد اقتتلوا وقد جاءتهم البينات..

(فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

أي:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران: 179]

لا بد من فرزٍ دقيق للمؤمنين، هناك مَن يدَّعي الإيمان وهو منافق، هناك مَن يدَّعي الإيمان وهو كافر، فلا بد من فرز للمؤمنين عن طريق ابتلاءٍ يسوقه الله لعباده..

(فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا)

لكن شاء أن يقتتلوا لأن الدنيا دار ابتلاء، ولأن الدنيا دار امتحان، ولأن المال يفتن، ولأن المكاسب تفتن، ولأن الرئاسة تفتن..

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

نحن أراد الله أن نكون في دار ابتلاء، أراد الله أن نمتحن.

الإسلام وسط بين انحراف دعوتين :

أيها الأخوة... هذه الآية تبيِّن أن الأنبياء دعوتهم واحدة، ومقاماتهم مختلفة، وكل نبيٍّ فضَّله الله لحكمةٍ بالغة، وبينت لكم الفرق بين التفضيل والمحاباة، ثم إن هؤلاء الأنبياء مقاماتهم مختلفة بما فضلوا، ولكن التفضيل أحياناً لا يقتضي الأفضلية، فقد يكون نبيٌّ مفضلاً في موقع ومفضولاً في موقع آخر، وجاءت دعوة النبي عليه الصلاة والسلام الدعوة الخاتمة، لذلك جاءت وسطيّة، بين المادية المَقيتة، وبين الروحانية الحالمة، بين دعوة السيد المسيح، وبين دعوة سيدنا موسى عليه السلام، طبعاً أتباع هذين النبيين حرَّفوا وبدَّلوا وغيروا، فكانت دعوة السيد المسيح دعوةً تميل إلى الصفاء والزهد في الدنيا، بينما جاء أتباع سيدنا موسى فجعلوا المادية دينهم، فجاء الإسلام كمنهج وسطيٍّ بين هذين التطرُّفين الذين نتجا لا من أصل دعوة النبيين الكريمين، بل من أتباع هذين النبيين الكريمين، يجب أن نفرِّق بين الإسلام والمسلمين، وبين دعوة السيد المسيح وبين واقع المسيحية اليوم، وبين دعوة سيدنا موسى وواقع اليهودية اليوم، جاء الإسلام ليكون وسطاً بين انحراف دعوتين، فقال تعالى:

(مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ)

المعجزات الدالة على رسالته ونبوّته..

(وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ)

بينت لكم أن هناك اختلاف طبيعي أساسه نقص المعلومات، وهناك اختلافٌ قذر أساسه الشهوات والمصالح والأهواء والمكاسب، وهناك اختلاف التنافس، هذا اختلاف محمود:

(وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا)

لأن طبيعة الحياة الدنيا طبيعة ابتلاء..

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

الإنسان مخلوق في الدنيا من أجل المعرفة والعمل :

ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا)

أي أنتم في الدنيا من أجل العمل الصالح، واحد ذهب إلى بلد غربي لينال دكتوراه، هناك مليون خيار أمامه؛ قد يمضي وقتاً في المسرح، وقد يمضي وقتاً في الحديقة، وقد يمضي وقتاً في دار

سينما، وقد يمضي وقتاً في التسلق على الجبال، وقد يمضي وقتاً في المطالعة، مطالعة القصص الهابطة، هو جاء لمهمة واحدة، أن ينال الدكتوراه بهذا البلد، فقط.

أنتم في الدنيا من أجل شيء واحد، من أجل عمل صالح يكون ثمناً لجنة عرضها السماوات والأرض، أدق كلامٍ وأوضحه وأوجزه؛ نحن في الدنيا من أجل أن نعرف الله، وأن نستقيم على أمره، وأن نعمل عملاً صالحاً يكون ثمناً لجنة عرضها السماوات والأرض، مهمتنا الأولى المعرفة والعمل، أي بيت سكنت؟ ما مساحة هذا البيت؟ ما نوع فرش هذا البيت؟ أي مركبة تركب؟ أي دخل لك؟ أين ذهبت؟ أين سافرت؟ أين أمضيت الإجازة؟ هذا كله لا وزن له في الآخرة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

خذ مِن الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً، مَن أخذ مِن الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر، الحقيقة لذلك لأنك مخلوق في الدنيا من أجل معرفة الله، ومن أجل العمل الصالح الذي هو ثمن الجنة، جاء قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا)

الناس جميعاً يأخذون والمؤمنون ينفقون، الطبع البشري أن تأخذ، أن تجمع الأموال، أن تكدِّسها بعضها فوق بعض، الطبع البشري أن تستخدم جهد الآخرين، الطبع البشري أن تعلو على الآخرين، التكليف أن تعطي لا أن تأخذ، أن تبذل جهداً للناس لا أن تعلو على جُهدهم، الطبع البشري أن يعيش الناس لك، بينما التكليف أن تعيش للناس، حينما تؤمن بالآخرة تنعكس الموازين مئة وثمانين درجة، ذكاؤك وعقلك يقتضيان أن تنفق المال، من دون إيمان باليوم الآخر ذكاؤك وعقلك يقتضي أن تجمع المال، أن تعيش فقيراً لتموت غنياً.

الآية التالية شاملة شمولاً عجيباً :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ)

هذه الآية شاملة شمولاً عجيباً، تشمل كل شيء، أوتيت خبرةً في شيء، أنفق خبرتك، أنفق علمك، أنفق جاهك، أنفق مالك، أنفق وقتك، أنفق عضلاتك..

(أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ)

لا أحد يشفع لك:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

[سورة الزمر: 19]

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ*)

[سورة عبس: 34-36]

(وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ*كَلَّا)

[سورة المعارج: 14-15]

العمل الصالح محصورٌ في الدنيا أما بعد الموت فقد بدأ الحساب الدقيق :

أيها الأخوة..

(أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ)

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، ما الشيء الذي تقدمه أمامك ليوم اللقاء مع الله عزَّ وجل؟ ماذا قدمت؟ هل قدمت جهداً؟ هل قدمت علماً؟ هل قدمت خبرةً؟ هل قدمت مالاً؟ هل قدمت دعوةً؟ هل قدمت تربيةً؟ ماذا قدمت؟ إن لم تقدِّم شيئاً فهذا هو الخاسر الأكبر، مَن لم يقدم شيئاً هو الخاسر الأكبر..

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ)

يوم القيامة ليس ثمة مال تنفقه، ولا مريض تعالجه، ولا فقير تطعمه، ولا جائع تطعمه، ولا فقير تعطيه من مالك، وليس هناك مجالٌ لعملٍ صالحٍ أبداً، العمل الصالح محصورٌ في الدنيا، في الدنيا وحدها هناك عملٌ صالح، أما بعد الموت فقد انتهت الأعمال الصالحة وبدأ الحساب الدقيق..

(لَا بَيْعٌ فِيهِ)

الإنسان في الدنيا يبيع بيتاً وينفق ماله في سبيل الله، وقد يبيع نفسه لله، أما بيع في الآخرة فليس هناك.

نحن في دار عمل وغداً دار الجزاء :

قال تعالى:

(وَلَا خُلَّةٌ)

أصحاب، علاقات، في الدنيا شبكة علاقات، يقول لك: فلان صاحبي، وفلان صاحبي، له دعائم، له مرتكزات، هذه العلاقات ليست موجودة في الآخرة:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

[سورة الأنعام: 94]

(وَلَا شَفَاعَةٌ)

لا أحد يشفع لك، بل إن شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام محدودةٌ لمَن مات غير مشرك، مثل إذا قلنا مثلاً: بلد فيها عشرون مليوناً، هناك ميزة يأخذها أصحاب مَن يحمل دكتوراه، هؤلاء قلائل جداً، من مات غير مشرك، مات على التوحيد، هذا مقام عالٍ جداً لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

إذا ضمنت لي أن تموت غير مشرك فأنت في أعلى درجة من الإيمان، فلو دخلت امتحان، عندك عشر مواد، نجحت في التسعة بامتياز وهناك مادة ينقصك فيها علامتان، النبي يشفع لك، أما كلها أصفار، امتحان ما قدم ولكنه يقول: اشفعوا لنا.

يا فاطمة بنت محمد، يا عباس عم رسول الله أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

نحن في دار عمل وغداً دار الجزاء، نحن في دار تكليف وغداً دار التشريف، نحن في دارٍ نفعل ما نشاء، ولكن هناك دارٌ بعد حين تحاسب عن كل شيءٍ فعلته، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

لا يكون عملك مرضياً عند الله إلا إذا كان خالصاً وصواباً :

أيها الأخوة الكرام.. قد يقول أحد الأخوة: وأنا أصلي لا أشعر بشيء، أقرأ القرآن لا أشعر بشيء، هذا خلل في الإيمان خطير، العلاج:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

أنت حينما تعمل عملاً صالحاً تتألّق وتقترب من الله عزَّ وجل، فطريق الاتصال بالله، طريق السعادة في الدنيا، طريق أن تذوق طعم القُرب، طريق جنَّة الدنيا العمل الصالح، أن تعمل عملاً صالحاً وفق الكتاب والسنة، وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله الكريم. سُئل الفضيل بن عياض عن قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل: 19]

متى يكون العمل مرضياً عند الله؟ فقال كلمتين اثنتين؛ قال: أن يكون صواباً وخالصاً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، فأي عملٍ وافق السنة، ولم يكن خالصاً فليس هذا العمل مرضياً عند الله، وأي عملٍ كان خالصاً لله ولم يوافق السنة فليس هذا العمل مرضياً عند الله، لا يكون عملك مرضياً عند الله إلا بحالتين، إذا كان هذا العمل خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

هذه الآية أتمنى على الله عزَّ وجل أن تقع منكم موقعاً عميقاً، هذه الآية وحدها تدعوكم إلى العمل الصالح، تدعوكم إلى بذل العلم، وبذل الجهد، وبذل المال، وبذل الخبرة، وبذل الوقت، الوقت الذي تستهلكه في العمل الصالح هو وقتٌ مستثمَر وليس وقتاً مستهلكاً، بل هو مستثمر، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

المؤمن يغتنم الأعمال الصالحة بينما المُقصِّر تفوته هذه الأعمال الصالحة :

الإنسان وهو يعيش حياته الدنيا، ينسى أنه قد يأتي يوم يندم أشد الندم على ساعةٍ مضت لم يذكر الله فيها. مرّ النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه معه بقبرٍ، فقال عليه الصلاة والسلام مما ورد في الأثر: "صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفُّلكم خيرٌ له من كل دنياكم ".

في الدنيا شركات لها ميزانيات تزيد عن ميزانيات الدول، لو أن كل هذه الشركات لك، لو أن كل أسواق المُدن الكبرى لك، لو أن كل شركات الطيران لك، لو أن كل شركات السيّارات لك، صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خيرٌ له من كل دنياكم.

يا أيها الأخوة الكرام... يجب أن تسأل نفسك كل يوم: ماذا قدمت للمسلمين؟ ما العمل الذي أرجوه عند الله؟ ما العمل الذي أدَّخره ليوم القيامة؟ لو أن الله سألني: يا عبدي، ماذا فعلت في الدنيا؟ بماذا تجيبه؟ يا ربي سكنت بيتاً فخماً، وأكلت أطيب الطعام، وذهبت إلى أجمل الأماكن، واستمتعت بالدنيا، هل هذا جوابٌ يليق بك؟! ماذا فعلت من أجل المسلمين؟ ليس هناك كذبٌ يوم القيامة:

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

[سورة الصافات: 24]

أي أن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وأبواب الخير واسعةٌ جداً، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، في بيتك عملٌ صالح، وفي عملك عملٌ صالح، وفي الطريق عملٌ صالح، ومع أقربائك عملٌ صالح، والأعمال الصالحة مبذولةٌ أمامكم بشكلٍ غير طبيعي، ولكن المؤمن يغتنمها، بينما المُقَصِّر تفوته هذه الأعمال الصالحة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ)

أي أن الموت قد يأتي فجأةً، والقبر صندوق العمل.

العمل الصالح سرّ وجودنا وغاية وجودنا :

قصة أرويها لكم كثيراً، فهي نموذجية، أن بدوياً في شمال جدة له أرض، فلما توسعت هذه المدينة اقتربت من أرضه، نزل ليبيعها، اشتراها منه مكتبٌ خبيث بثمنٍ بخس، بربع قيمتها، وأنشأ بناءً شامخاً يزيد عن عشرة طوابق، وهم شركاءٌ ثلاثة، أول شريك وقع من سطح هذا البناء فنزل ميتاً، فلقي جزاء عمله؛ عمله اغتصاب، واحتيال، وأكل مال الناس بالباطل، والثاني دهسته سيارة، فانتبه الثالث، وبحث عن صاحب هذه الأرض ستة أشهر، حتى عثر عليه، ونقده ثلاثة أضعاف ما دفعه له سابقاً، أي نقده الثمن الطبيعي للأرض، فقال له هذا الأعرابي: (ترى أنت لحقت حالك) تدارك خطأه، فهذا كلام دقيق، يجب أن نسعى، إذا فاتت الإنسان أياماً طويلة، سنوات طويلة لم يعمل بها عملاً صالحاً..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ)

لا يوجد شفيع يشفع لك، ولا صديق يتوسَّط لك، ولا في مجال أن تعمل عملاً صالحاً تُكَفِّر به عما فاتك من أعمال صالحة..

(وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

إذاً أيها الأخوة، هذه الآية تدعونا إلى العمل الصالح، فهو سر وجودنا، وغاية وجودنا، وثمن جنة ربنا، وكل إنسان بإمكانه أن ينفق مما رزقه الله، والإنفاق واسع جداً.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (83- 95):تفسير الآية 255، آية الكرسي
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-07-28

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جلّ جلاله إذا تحدَّث عن ذاته تحدث بضمير المُفْرَد :

أيها الأخوة المؤمنون؛ مع الدرس الثالث والثمانين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الخامسة والخمسين بعد المئتين، وهي آية الكرسي، وهي من أعظم آيات القرآن الكريم. يقول الله عزَّ وجل:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

"الله" عَلَمٌ على الذات، الذاتُ الإلهيةُ اسمها (الله) وهو علَمٌ على الذات، أو علمٌ على واجب الوجود، لأن هناك واجبَ الوجود، وممكن الوجود، ومستحيل الوجود، فالله جل جلاله واجب الوجود، والكون ممكن الوجود، ممكنٌ أن يكون، وممكنٌ ألا يكون، وإذا كان فهو ممكنٌ على ما هو كان، أو على غير ما هو كان، لكن الله جل جلاله واجب الوجود.

فكلمة (الله) علمٌ على الذات الإلهية، صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى، خالق السماوات والأرض، لا إله إلا هو؛ الرحيم، الكريم، البَرّ، الغفور، الفعَّال لما يريد، القاهر فوق عباده، القوي، المتين، ذو الجلال والإكرام، الحَكَمُ، العدل، فإذا قلت: الله، فكل أسمائه الحسنى منطويةٌ في هذه الكلمة. وجرت الآيات الكريمة أن الله جل جلاله إذا تحدَّث عن ذاته تحدث بضمير المُفْرَد:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

[سورة الكوثر: 1]

الله جلّ جلاله إذا تحدث عن أفعاله تحدث بضمير الجمع :

وإذا تحدث عن أفعاله، يأتي ضمير الجمع لأن كل أسمائه الحسنى في أفعاله، فكل أفعاله فيها علمٌ، وفيها حكمةٌ، وعدلٌ، ورحمةٌ، ولُطفٌ، إن تحدث عن ذاته..

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى)

[سورة يس: 12]

وإن تحدث عن ذاته العليّة:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

فـ"الله" صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى، والله علمٌ على الذات، والله واجب الوجود..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

فالإله هو المعبود، والإنسان مَن يجب أن يَعبد؟ أن يعبد الذي خلقه، فالله هو الخالق، ومَن يجب أن يعبد؟ أن يعبد الذي يعلم سرَّه ونجواه، فالله يعلم السر والنجوى، من هو الذي ينبغي له أن يُعبَد؟ يُعبَد مَن يستمع إليه إذا ناجاه، الله هو السميع العليم، ومن يجب أن يُعبَد؟ يُعبَد من هو على كل شيءٍ قدير، فالله على كل شيءٍ قدير، ومَن ينبغي له أن يُعبَد؟ يُعبَد الرحيم الذي يحبُّه ويرحمه، فإذا قلت: لا إله إلا الله، أي لا معبود بحقٍ إلا الله، أي لا يستحق العبادة إلا الله، ليس لك أن تَعبُد إلا الله، أما إذا توجهت إلى غير الله، فتوجَّهت إلى لا شيء:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

[سورة فاطر: 14]

الله أهلٌ أن تعبده لأنه حيٌ باقٍ على الدوام :

أنت مَن تعبد في الأصل؟ تعبد جهةً موجودة، فالله موجود، وتعبد جهةً تسمعك إذا دعوت، وتراك إذا تحرَّكت، وتعلم ما في سرك، فالإله يسمع، ويعلم، ويرى، سميعٌ بصيرٌ عليم، وأنت مَنْ تدعو؟ تدعو مَن هو موجود، وتدعو مَن يسمعك إذا تكلَّمت، ومَن يراك إذا تحرَّكت، ومَن يعلم ما أسررت إذا لم تتكلم، فمَنْ تدعو؟ تدعو مَن هو قديرٌ على كل شيء، قادرٌ على أن يلبِّي حاجتك مهما عَظُمَت، واللهُ كذلك، فمَنْ تدعو؟ تدعو مَن يحبك، فأنت في الدنيا لا تسأل إلا جهةً موجودةً تسمعك، وقادرةٌ على أن تلبيك، وتحب أن تلبيك، فإذا قلت:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أي لا معبود بحقٍ إلا الله، لا ينبغي لك أن تعبد إلا الله، ولا يستحق العبادة إلا الله، والله أهلٌ أن تعبده لأنه حيٌ باقٍ على الدوام، فلو عبدت إنساناً يموت لضاعت كل آمالك، وضاع كل عملك..

اجعل لربك كل عزّك يســـتقر ويثبـت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميـــتُ

* * *

مَن يجب عليك أن تعبد؟ أن تعبد الحيّ الباقي على الدوام، الذي هو مطلعٌ عليك، وعليمٌ بأحوالك، ومقدرٌ لتضحياتك، ومَن هو قادرٌ على تلبية حاجاتك، ورحيمٌ بك؛ وأنت في بطن أمك، وأنت في القبر، فهذا الذي يجب أن تعبده.

بالمناسبة أَلِهَ أي تحيَّر مِن شدة الوجد، أي إنك تعبد إلهاً لو عرفته على حقيقته لذابت نفسك شوقاً إليه، ولتحيَّرت لجماله، وتحيرت لِكماله، ولِقدرته، وعطائه، خلَقَك ليُسعِدك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ*تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الصف: 10-11]

يجب أن تعبد مَن إذا تاجرت معه ربحت منه ربحاً خيالياً، فاللهُ صاحبُ الأسماء الحسنى، وهو الذي خلق، وهو الذي ربَّى وأمد، وهو الذي سيَّر، وهو الذي يجب عليك أن تعبده، فهناك مَن يعبد حجراً، أو بشراً، أو شمساً، أو قمراً، وهذه العبادة لا تعود على صاحبها بالنفع، لأن هذا الحجر لا يتكلَّم، كانت بعض قبائل العرب تصنع صنماً من التمر، فإذا جاعت أكلته.

الإنسان مخلوقٌ للعبادة وعلة وجوده أن يعبد الله :

أنت مخلوقٌ للعبادة، وعلة وجودك أن تعبد الله، وأنت في الدنيا من أجل أن تعبده:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات:56]

هناك معنى دقيق أرجو الله أن أوضِّحه لكم، قد تسأل: هذه الدائرة، أو هذا المستشفى، أو هذه الجامعة مَن رئيسها اليوم؟ يقال لك: فلان، فعرفت مَن يديرها، تقول لهم: كيف أخلاقه، هل هو إنسان جيد؟ يقال لك: جيدٌ جداً، فأنت تهتم، مَن بيده الأمر؟ انظر إلى الجواب، الله صاحب الأسماء الحسنى، علمٌ على الذات، واجب الوجود، وهو المسير..

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

كما لو أنك زرت مستشفى وأنت طبيب، فتقول: مَن مدير المستشفى؟ فيقال لك: فلان، مخلص، واختصاصي، وعالم، وحازم، ونزيه، و نظيف، فيهمك شيئان؛ أن تعرف مَن؟ وكيف؟ فالله صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى..

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

الله عزَّ وجل له المُلك وله الحمد :

كيف نقول في بعض الأوراد: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد، فهناك مَن له المُلك وليس له الحمد، فرعون مَلَك ولا يُحْمَد على مُلكه، وهناك إنسان ضعيف يُحمَد ولا يملك، لكن الله عزَّ وجل له المُلك وله الحمد:

(يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة الحديد: 2]

فهذا المعنى، (الله) علمٌ على الذات، ولا يستطيع إنسانٌ على وجه الأرض أن يُسَمِّي نفسه بهذا الاسم، وقد تحدَّى الله البشر جميعاً..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

(لا إله إلا هو)، فلو أن في الكون آلهةً هل يسكتون؟ إنهم لا يسكتون، فإذا لم يستطيعوا أن يتكلَّموا فليسوا آلهة، وإذا تكلَّموا ولم يستطيعوا أن ينتزعوا الأمر من الإله الذي ادعى الألوهية وحده فليسوا آلهة، لأن الله عزَّ وجل قال: لا إله إلا أنا، فلو كان هناك إلهٌ لقال: لا، أنا، ليس أنت..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

مَن يستطيع أن يقول هذا الكلام إلا أن يكون إلهاً؟ وهناك دليل فطري؛ فأنت حينما تستمع إلى إنسان يقول مثلاً: عيَّنا وزيراً للمالية، فمَن الذي يقول هذا؟ رئيس وزارة، تعرفه مِن كلامه، ولو قال شخص: لقد راقبت نظافة الشارع، فمعنى هذا أنه مراقب بلديّة، وهناك فرق طبعاً، فمِن كلامه تعرف مَن هو، يقول الله لك:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

مَن يستطيع أن يقول هذا الكلام إلا أن يكون إلهاً عظيماً، موجوداً، وواحداً، وكاملاً.

أسماء الذات وأسماء الأفعال :

قال تعالى:

(الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

الحقيقة (الحي) مِن أسماء الذَّات، وأسماء الذات لا نقيض لها، والله عزَّ وجل يعطي ويمنع، وهذه من أسماء الأفعال، ويرفع ويخفض، فمن أسماء الأفعال، وكذلك يعز ويذل، لكن الحي ليس لها نقيض، فالله عزَّ وجل حي على الدوام، فأسماء الله عزَّ وجل التي لا نقيض لها أسماء الذات، والتي لها نقيض فأسماء الأفعال، والله عزَّ وجل حي، وتقول: فلان حيٌ يُرْزَق، ولا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يسمي نفسه (الله) ولكن هناك إنسانٌ يقال له: حيٌ يرزق، والله عليم، وهناك مَن يقول: أنا عالِم، والله رحيم، وهناك من عباده مَن يرحم، فإذا كانت حياةُ الله عزَّ وجل حياةً أزلية أبدية، لم يسبقها عدم وليس بعدها عدم، فحياةُ اللهِ غيرُ حياتنا، والإنسان إذا كان حياً فقد سبقه عدم:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان: 1]

فالإنسان سبقه عدم، وسوف ينتهي إلى عدم:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن: 26-27]

فإذا قلنا: فلان حي، فحياته ليست كحياة الله عزَّ وجل، وكلمة "حي" تسبق في الذهن أيَّ اسمٍ آخر، فهو حيّ عليم، وهو حيّ قدير، وأول اسمٍ يسبق إلى الذهن أنه حيّ، هو حيّ ومصدر حياة الخلق، وحياتنا منه، واستمرار حياتنا منه، فالوردة فيها حياة، فإذا صنع إنسانٌ وردةً من مواد صناعية لا

يوجد فيها حياة، ويضعون في بعض الواجهات شكلَ امرأة لبيع الثياب والألبسة، ولكن هذه بلا حياة، فهي من الشمع، والمرأة الحقيقية فيها حياة؛ تتكلم، وتفكّر، وتتألّم، وتفرح، وتعبّر عن ذاتها، فالإنسان فيه حياة، والوردة فيها حياة.

الله عزَّ وجل قديم وأبدي ولا تنتهي حياتُه بعدم :

هذه البقرة تأكل الكلأ فتعطيك الحليب، وليس ثَمَّة جهةٌ في الأرض بإمكانها أن تصنع من الكلأ حليباً، وهذه الدجاجة تأكل ما تحت بصرها، فأيّ شيء تأكله تعطِك منه بيضةً، وهذه فيها حياة، فالله عزَّ وجل هو حي، حياته لم يسبقها عدم، فهو قديم وأبدي، ولا تنتهي حياتُه بعدم، ثم إن الله عزَّ وجل مصدرُ حياةِ المخلوقاتِ، مَن منحك الحياة؟ اللهُ عزَّ وجل، فإذا دخل الإنسانُ البيتَ ملأه راحةً، وفرحاً، وبهجةً، وسروراً، والأولاد استقبلوه بالترحاب، وجلسوا في أحضانه، وقبَّلوه، ونادوه بأحب أسمائه إليهم، فإذا مات هذا الأب لا يجرؤ واحدٌ من أولاده أن يدخل إلى غرفته مدةَ شهرٍ أو شهرين أو ثلاثة، فما الذي حدث؟ هو هو، ولكن سُحبت منه الحياة.

والإنسان مصدر أُنْسٍ وسعادة لأولاده، فإذا مات أصبحتْ غرفته التي استلقى فيها على السرير ومات مخيفةً، وأنا متأكد أن بعض الأسر يبقى الأولاد شهراً أو شهرين يتحاشون دخول هذه الغرفة لأن أباهم مات فيها، فما الذي حدث؟ وما هي الحياة؟

هذا كبد يقوم بخمسة آلاف وظيفة، فإذا مات الإنسان أصبح قطعةً من اللحم لا معنى لها إطلاقاً.

وهذه عين ترى كل شيء بالألوان الدقيقة، والأحجام الحقيقية، فالعين آية من آيات الله الدالة على عظمته، فإذا مات الإنسان أصبحتْ العين لا قيمة لها، وتلقى في المهملات.

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ)

لقد مُنِحْنَا الحياةَ، ومُنِحَ النباتُ الحياةَ، فشجرة تجدها كالحطب، ففي الربيع تزهر وتورق وتثمر بصمت، فما هذه الحياة؟ وحتى هذا التاريخ لا تزال الحياةُ سرّاً، والله عزَّ وجل حي ومنح الحياة، فتجد وردة جميلة قد نمت على كوم قمامة، أي روث الحيوانات، وهي وردة حمراء جميلة، فمن منحها هذا الجمال وهذا الشكل وهذه الرائحة وهذه الحياة؟ حياة الحيوانات، وحياة النباتات، وحياة الأطيار.

الله عز وجل حيٌ وهو مصدر حياة المخلوقات ومصدر استمرار حياتهم :

هنا الطير، تجد طائراً ولد لتوِّه وقد عصبت عيناه ونقل إلى الهند، فإنه يطير ويعود إلى بريطانيا وقد وُلِد الآن، فكيف تمَّ هذا؟! طائر يقطع سبعة عشر ألف كيلو متر في رحلةٍ من شمال الأرض إلى جنوبها، فكيف يعود إلى عشه؟ طيور تجدها في الشام، تهاجر في الشتاء إلى جنوب إفريقيا، وفي

العودة لو انحرفت درجة واحدة لدخلتْ مصر، فكيف تعود إلى دمشق؟ وإلى حي الصالحية؟ وإلى حي الشيخ محي الدين؟ وإلى بيتٍ من بيوت عشها الذي تركته؟ من يسيِّرها؟ الله جل جلاله، هذه هي الحياة.

سمك السلمون يولد في أعالي الأنهار في أمريكا، ويهاجر إلى المحيط الأطلسي إلى شواطئ أوروبا، ويعود هذا السمك إلى مسقط رأسه ليموت هناك، فهذه الرحلة؛ من ساحل فرنسا إلى الغرب، لو انحرف درجة واحدة لكان في جنوب أمريكا بل صار في شمالها، إلى النهر الذي خرج منه، وهناك أسماك بمنابع النيل تسير برحلة طويلة جداً، وتسير في أطول نهرٍ من أنهار العالم نهر النيل، إلى البحر المتوسط، وتتجه غرباً إلى أن ينتهي البحر المتوسط، وتخرج من مضيق جبل طارق نحو الشمال إلى بحر المَانش، ثم إلى بحر الشمال، ثم تعود، فرُبَّانٌ يحمل شهادة الدكتوراه بالملاحة يضيع بدون بوصَلَة، فهذه الحياة.

مَن يهدي الأطيار؟ ومَن يهدي الأسماك؟ ومَن يُخرج من بذرة شجرةً؟ تأكل تينة، كم بذرة فيها؟ كل بذرة يمكن أن تكون شجرة، فهذا النبات، خمس غرامات من بذور البندورة تعطي عشرة أطنان، فكل بذرة تعطي مليوني ضعف، فهذه الحياة، بذور وجدت داخل أهرامات مصر، زرعت بعد ستة آلاف عامٍ فنبتت، إذ فيها رشيم حي، أما النمل فحينما يخزن البذار ليكون زاداً له في الشتاء يأكل الرشيم، فإذا أُكل الرشيم ماتت البذرة، فالرشيم يعيش ستة آلاف سنة ثم ينبت!!

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ)

الحياة لا تتسع لها مجلَّدات، ولا دروس في سنوات..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ)

هو حيٌّ، ومصدر حياة المخلوقات، ومصدر استمرار حياتهم، والموت يخلقه الله عزَّ وجل، الموت لا علاقة له بالمرض، فحينما ينتهي أجل الإنسان يموت، فهو:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

الله عز وجل حيٌّ قيوم يقوم على العناية بخلقه لأنه رب العالمين :

قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

حيٌّ قيوم، يقوم على العناية بخلقه، ومما يؤكد ذلك..

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)

أي إشراف دائم؛ متابعة، ومراقبة، ومحاسبة، ومُعالجة، واهتمام، وعطاء، وأخذ، وتأديب، وإكرام، ومتابعة، وكل مؤمن بحسب معاملة الله له، كأن الله عزَّ وجل ليس عنده مخلوق إلا هذا الإنسان، وهو مع كل الخلق، ومع كل المخلوقات، ومع كل البشر، ومع كل من تحت الشمس والقمر.

حيٌ قيوم، يقوم على العناية بخلقه، لأنه رب العالمين، والإنسان أحياناً يأتيه خاطر لا يعلمه أحدٌ إلا الله، ويدفع الثمن، ويعالجه الله عزَّ وجل على خاطر أحياناً، فقيوم السماوات والأرض يقوم على إدارتها، والعناية بها، وتربيتها، وإمدادها، و..

(لَا تَأْخُذُهُ)

مما يؤكد هذا أنه..

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)

هناك معيَّة عامة ومعية خاصة :

إنه حيٌّ باقٍ على الدوام، وحيٌّ قيّوم، وهو معكم أينما كنتم، فمعكم بعلمه:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال: 19]

ومعكم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق، وهناك معيَّة عامة ومعية خاصة، والمعية العامة أنه مع المخلوقات بعلمه، والمعية الخاصة بالإكرام، والتأييد، والحفظ..

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ)

كل هذا الكون له، ولا تستطيع جهةٌ على وجه الأرض أن تفعل شيئاً إلا بإذنه..

(لَهُ)

لام المُلك؛ فله المُلكُ خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً، أما أنت كإنسان فقد تملك بيتاً ولا تنتفع به، إنها مُلكِيَّة ناقصة، فالبيت لك ولكنه مؤجَّر قبل السبعين، فأجرته مئة ليرة في الشهر، تملكه ولا تنتفع به، وقد تنتفع به ولا تملكه، وقد تملكه، وتسكنه، وتنتفع به، فصدَر قرار تنظيم، فأخذتَ عشرَ قيمته، فذهبَ من يدك، إنها ملكية ناقصة، أما إذا قلنا:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

فإنه يملك الكون؛ إيجاداً، وتصرُّفاً، ومصيراً، فقد تبيع دولة طائرة، وبعد أن باعتها أصبحت هذه الطائرة بيد مَن اشتراها، غير أنَّ الله سبحانه وتعالى مُلكيته دائمة:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

فأمرُ هذه الطائرة بعد أن بيعَت ليس لصانعها بل للذي اشتراها، لكن الله عزَّ وجل له الخلق والأمر، وهو الخالق وهو الآمر،

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

السماوات والأرض تعبيرٌ قرآني عن الكون :

قال تعالى:

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

لا يمكن أن يقع شيءٌ في مُلكه إلا بإرادته، لذلك قالوا: كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المُطلقة، وحكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق، فالأمر بيده..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

السماوات والأرض تعبيرٌ قرآني عن الكون، فالكون كله له، والكون ما سوى اللهِ، أيْ أيّ مكانٍ في الأرض؛ ولذلك فالموَحِّد مرتاح، وهو سعيدٌ سعادة كُبرى، والموحد يرى أنه لا إله إلا الله، ولا يرى مع الله أحداً، ويرى أن يد الله وحدها التي تعمل، والموحِّد لا يحقد، ولا يتألم، وليس عنده إحباط، ولا سَأم، ولا ضَجَر، ولا يأس، ولا خُذلان، إنه موحِّد، والأمر بيد الله، وله مُلك السماوات والأرض.

فلو دققنا، ودخلنا في التفاصيل، فقُطرُ الشريان التاجي بيده، أحياناً يضيق، وأحياناً يبقى متّسعاً، فإذا كان متسع فأنت مرتاح، وعمل الكبد بيده، والدَسَّامات بيده، وعمل الكليتين بيده، والأعصاب بيده، ونمو الخلايا بيده، فأحياناً يفلتها فيكون السرطان، ويضيق الشريان، فلا بد من قسطرة، أو عملية القلب المفتوح، ويتعطل الكبد، فيُزرَع بستة ملايين، والنجاح ثلاثون في المئة، فالإنسان مُحاط باحتمالات مخيفة.

نحن جميعاً في مُلك الله وفي قبضته :

قال تعالى:

(لَهُ)

أنت في ملكه، وأنت في قبضته، وأجهزتك وأعضاؤك بيده..

(لَهُ)

زوجتك بيده، وعملك بيده، ورزقك، ومَن حولك، ومَن هم فوقك، ومَن هم دونك كلهم بيده، فهو الذي يعطي وهو الذي يمنع، سبحانه يرفع ويخفض، ويعز ويذل، فإذا أعطى أدهش، وهناك رجل يعد خامس رجل ثري في تركيا، ثروته بألوف الملايين، كل أمواله بيوت بأجمل منطقة بتركيا، أبنية فخمة، وهو يقول متبجِّحاً: سأسكن كل إنسانٍ في بيت، لقد جاء الزلزال بأمر الله فلم يُبق له من

أبنيته كلّها بيتاً واحداً، فسكن تحت الخيمة، وأمسك الصحن ليأكل الطعام الذي جاءت به الجمعيّات الخيرية، وقد صوِّر ونشر هذا، خامس غني سلبه الله عزَّ وجل كل شيء في ثوانٍ معدودات..

له شارع على البحر في (أزمير) بأكمله؛ بأبنيته الشاهقة، وبمركباته الأنيقة، فابتلعه البحر، وبعد حين نزلوا بغواصة وصوروا، فإذا هذا الشارع كما هو في قاع البحر، فالبناء مثلما هو، وكذا الطوابق، حتى بالتدقيق؛ الأنترفون، والاسم، والسيارة بجانب البيت في قاع البحر..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

طائرة تطير، وفي ثانية تسمع النبأ: لقد مات جميع ركَّابها، إذ وقعت فوق فندق..

(لَهُ)

فالطائرة تطير بيده، وفي أي لحظة تصبح كتلةً من اللهب، والمركبة بيده، والحَرُّ بيده، فدرجة أربعة وأربعين هذا جو مكة وليس جو دمشق، والبرد الأمطار بيده، فأماكن فيها مطر بكَمِّية ألف ومئتي ميليمتر، وهناك منطقة في أمريكا فيها تسعة عشرَ ألف بحيرة، وهو أكبر تجمع مائي في العالم، والنبي قال:

((ما من عامٍ بأمطرَ من عام))

[من كنز العمال عن ابن مسعود]

فكميات الأمطار في العالم واحدة، ولكن كل سنة لها ترتيب، يصرفها عن أُناس ويسوقها إلى أناس، فيؤدب هؤلاء ويمتحن هؤلاء.

معنى التوحيد :

قال:

(لَهُ)

الأمر والحروب بيده، الاجتياحات والحروب الأهلية بيده، الأمراض ومرض الإيدز بيده..

(لَهُ)

كل ما في الكون له، أمره له إحداثاً، وإعداماً، وتنمية، وتقليلاً، والأمر بيده، فهذا هو التوحيد، لا ينبغي لك أن ترى مع الله أحداً.

أرسلت أمريكا إلى الفضاء الخارجي مركبة سمَّوها (المتحدي) بعد سبعين ثانية كانت كتلةً من اللهب، ومات كل من فيها، صنعت باخرة اسمها (تيتانيك) أعظم باخرة صُنعت في أوروبا، مع نشرة صناعتها، لها كتيب كتب فيه: إن القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة. فيها شيء يصعب تصديقه، غرقت في أول رحلة، وارتطمت بجبلٍ ثلجي شَطَرَها شطرين، والآن يبحثون عن حلي النساء التي فيها، فهي بمبالغ فلكية، وفي هذه الأيام يغوصون ويدخلون إلى غرفها، وهي منذ عام 1912، فتصوَّروا الماس، والذهب، والفضة التي فيها، أول رحلة.

الزلازل، والبراكين، والقحط، والجفاف، والأعاصير، والأمطار، والسيول الجارفة، وازدهار الأراضي، وشُح المياه كلها بيده ..

(لَهُ)

كل ما تراه عينك بيده ولكن بحكمةٍ بالغة، أعيد المقولة: كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادته متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق.

آيات من الذكر الحكيم تؤكد أن الملكية التامة لله وحده :

قال تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ملكية تامة؛ إيجاداً، وتصرُّفاً، ومصيراً:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف: 54]

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 26]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

والحوادث لا تعد ولا تحصى.

الشفاعة بالمعنى الواسع :

قال تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

المعنى الواسع جداً: مَن يستطيع أن يجمع شيئين؟ الشفع هو الزوج، أي يجمع هذا العقرب مع هذا الإنسان ويلدغه، مَن؟ إلا بإذنه، أبسط مثال: شخص في أثناء السفر ينام في فلاة، فيها عقارب، لا يستطيع العقرب أن يلدغ نائماً إلا بإذن الله، ولا أن تدخل رصاصة إلى إنسان إلا بإذن الله، شظية طائشة لا تجد هذا عند الله عزَّ وجل، بل شظية مسوَّمة عليها اسم مَن تقتله، " لكل شيءٍ حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه "..

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ)

بالمعنى الواسع: إنّه لا يمكن أن يجتمع عنصران في الكون إلا بإذن الله، فإنسان ينالك بأذى وليس عند الله علم هذا مستحيل، ولكن بعلمه، وإرادته، وحكمته، وعدله، ورحمته، فلذلك " لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت":

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

الآية التالية هي آية التوحيد :

قال:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

(عنده) في ملكه..

(إِلَّا بِإِذْنِهِ)

إذا نجح الطبيبُ في علاج ابنك، يكون اللهُ قد سمح له، وألهمه، ومكّنه، وأطلعه على المرض، ووفقه في تشخيصه، ووفقه في الدواء، وسمح الله للدواء أن يفعل فعله..

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

هذا التوحيد، هذه آية التوحيد، فأول شيء؛ نحن في ملكه، فالحركة بأمره، نحن في ملك الله؛ الأرض، والسماء، والبحار، والأطيار، والأسماك، والأراضي، والنباتات، والرياح، والأعاصير، والأمطار، والسُحُب، والبراكين، كل شيء بيده، والآن الحركة، فلان ضرب فلاناً، حركة، لا يستطيع مخلوق أن يفعل شيئاً مع مخلوق إلا بإذن الله، لا خيراً ولا شرّاً، فحينما ترى إنساناً يُردي إنساناً فهذا بأمر الله، أو يكرمه فكذلك بأمر الله.

الشفاعة بمعناها المحدود بإذن الله عزَّ وجل :

الشفع هو الزوج، لا يلتقي عنصران في الكون إلا بإذن الله، والمعنى الضيق الشفاعة التي ذكرها الله عزَّ وجل:

(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ)

[سورة يونس: 3]

فهو الذي يشفع لمن ارتضى، والشفاعة بمعناها المحدود بإذن الله عزَّ وجل، أي إن النبي لا يشفع إلا من بعد إذن الله عزَّ وجل..

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

(ما بين أيديهم) أي أمامهم..

(وَمَا خَلْفَهُمْ)

أيْ وراءهم، أو (ما بين أيديهم) عالم الشهادة، و(ما خلفهم) عالم الغيب، فهذا الإنسان وُلِد، تُرى ماذا سيكون؟ تاجراً، أم عالماً، أم مصلحاً اجتماعيّاً، أم مجرماً، أيموت إعداماً، أم يموت بحادث، أم على فراشه؟ أينجب أولاداً..

(بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

هو عالم الشهادة أي المشهود، وعالم الغيب، فنحن عندنا غيب الحاضر، وغيب الماضي، وغيب المستقبل، وغيب المستقبل ما سيأتي، وغيب الحاضر ما كان بعيداً..

(مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

عالم الشهادة..

(وَمَا خَلْفَهُمْ)

عالم الغيب، فهو الذي يعلم، ولذلك قال الإمام علي: " علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ".

كلُّ شيءٍ يفعله الإنسان هو من إلهام الله له :

قال تعالى:

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

كل شيء تسمعونه عن اختراع، واكتشاف، وقفزة في عالم المجهول، هذا كله مما سمح الله به، قال الله عزَّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

[سورة النحل: 8]

ثم قال في آخر الآية:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 8]

عُزِيَ صنعُ الطائرة إلى الله، هو الذي ألهم الإنسان صنع الطائرة، وألهم الإنسان اكتشاف وقودها، فإذاً كلُّ شيءٍ يفعله الإنسان هو من إلهام الله له.

الآن يقال لك: عرفنا جنس المولود ذكراً كان أو أنثى..

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

فقد شاء لهم ذلك، أما الآية:

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)

[سورة لقمان: 34]

ما قال: يعلم مَن في الأرحام، قال: ما، (ما) تشمل كل المعلومات المبرمجة التي في النويَّة، لأن هناك خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، هذه يعلمها الله، سمح لهم أن يعرفوا ذكراً كان أو أنثى عن طريق الأجهزة، أي إن كل شيء سمعتموه عن كشف علمي، واختراع، وتفوّق، فهذا مما سمح الله به، نقلوا الصورة من قارة إلى قارة، وهذا مما سمح الله به، ونقلوا الصوت، واخترعوا طائرة، واخترعوا مركبة وأرسلوها إلى الفضاء، وغاصوا في البحار، واخترعوا أجهزة حديثة، كل شيءٍ علمه الإنسان هو مما سمح الله له به، وانتهى الأمر.

الكون بكامله لا يكفي أن يخلق حمضاً أمينيّاً واحداً مصادفةً :

قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

وفي آية ثانية:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا)

[سورة الإسراء: 85]

فلدينا حموض أمينية، ويحتاج حمض أميني واحد كي يأتي مصادفةً إلى حجم يزيد عن حجم الكون، فتركيب الحمض الأميني معقَّد، وهو الحمض الأساسي في الإنسان، هل من الممكن أن يكون هذا الحمض مخلوقاً مصادفةً؟ فأنت لو وضعت عشرة أرقام في كيس، ثم سحبتها، فاحتمالُ خروج هذه الأرقام بالتسلسل هو واحد من عشرة آلاف مليون، عشرة أصفار، واحد وبعده تخرج تسعة، ثم يأتي الواحد، واحد من عشرة، وبعد الواحد اثنان، واحد من مئة، بعد اثنين ثلاثة، واحد من ألف، فعندنا عشرة أصفار، الستة مليون، والأربعة عشر ألف مليون، أي أن تسحب عشر أرقام متسلسلة احتمالُها حالة واحدة من عشرة آلاف مليون حالة، وتركيب الحمض الأميني معقد، وقالوا: الكون بكامله لا يكفي أن يخلق حمضاً أمينيّاً واحداً مصادفةً. فلا تدهش إذا سمعت عن كشفٍ علمي، بل يجب أن توقن يقيناً قطعياً أن الله سمح لهم أن يعرفوه، لحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل.

الكرسي والعرش أسلم تفسير أن نفوض أمرهما إلى الله :

قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

وهذا الذي شاءه قليل جداً:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا)

[سورة الإسراء: 85]

وهناك مَن يؤلّه الإنسان مع أنّ الإنسان عبد فقير، قال بعض العلماء المخترعون: العبقرية تسعة وتسعون بالمئة منها عَرَق ـ أي تعب ، وواحد بالمئة إلهام، وهذا الإنسان حينما صدق في كشف هذه الحقيقة التي سمح الله بها، لأنّ الله لا يعطي الشيء بسهولة، ولكن بصبر شديد، وبإصرار عجيب، فأيّ مُخْتَرَع أو أي كشف علمي لا ينبغي أن يزلزل الإنسان، وهذه الآية تغطيه..

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

فالكرسي والعرش، أسلم تفسير: أن نفوض أمرهما إلى الله، لأن هناك آيات لا تزيد عن أصابع اليد تتعلق بذات الله.

آياتٌ لا تزيد عن أصابع اليد متعلقة بذات الله تعالى :

كيف أنه يأتي:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

[سورة الفجر: 22]

وكيف أن:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

وكيف أنه:

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)

[سورة المائدة: 116]

آياتٌ لا تزيد عن أصابع اليد متعلقةٌ بذات الله تعالى، أسلم تفسير أن نَكِلَ أمرها إلى الله، فالاستواء معلوم والكيف مجهول، وهناك من أوَّلها تأويلاً يليق بكمال الله، والأوْلى أن نفوِّض، فإن لم نفوض نؤوِّل بما يليق بكمال الله، أما أن نجسِّد، فهي عقيدة فاسدة، وأما أن نُعَطِّل، فالتعطيل عقيدة فاسدة، فإذا أنكرنا أن لله سمعاً، فهذا تعطيل، وإذا قلنا: إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا، فالخطيب نزل درجة، وقال: ينزل كما أنزل، فهذا تجسيد، والتجسيد عقيدة فاسدة، والتعطيل عقيدةٌ فاسدة، والآيات القليلة التي لا تزيد عن أصابع اليد المتعلقة بذات الله فالأوْلى أن نفوِّض أمرها إلى الله، أو أن نؤوِّلها تأويلاً يليق بكمال الله، والتفويض أولى. قال بعض العلماء: الكرسي علمه..

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ)

أي علمه..

(السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

أي لا يعجزه حفظهما، ولا يتعبه حفظهما، وما مسنا من لغوب، اللغوب التعب.

فضل آية الكرسي :

قال تعالى:

(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

هذه الآية أيها الأخوة هي آية الكرسي، هناك أحاديث كثيرة جداً في فضلها، والإنسان يقرؤها قبل أن يسافر، وقبل أن يستلقي إلى فراشه لأنها مُريحة..

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

أحياناً ينشأ خطأ في البيت فيحترق البيت كله وهو نائم، فإذا نِمتَ، فأنت في رعاية الله. وهذه الآية تقرأ قبل السفر، وعند الدخول إلى البيت، وعند الاستلقاء للنوم، وتعطيك التوحيد، والأمر بيد الله، وكان سيدنا رسول الله إذا سافر يقول كما روى عنه أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَافَرَ فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ قَالَ: بِإِصْبَعِهِ وَمَدَّ شُعْبَةُ إِصْبَعَهُ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا بِنُصْحِكَ وَاقْلِبْنَا بِذِمَّةٍ، اللَّهُمَّ ازْوِ لَنَا الْأَرْضَ وَهَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ))

[من كنز العمال عن جرير]

لا يوجد في الكون إلا جهة واحدة؛ هي معك في السفر، ومع أهلك وأولادك في بيتهم:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

ولعلك في الشام المباركة إذا دخلت إلى مئة بيت تجد تسعين بيتاً فيها آية الكرسي معلَّقة، طبعاً بخيوط من الذهب وإطار جميل، ولكن الأفضل من ذلك ـ علقها فلا مانع ـ ولكن أن تفقه معناها، وأن توحِّد الله عزَّ وجل، وأن تطمئن لله عزَّ وجل، ويجب أن تكون في قلبك وتزين بها جدار بيتك، واجعلها في البيت فهي مفيدة جداً، ولكن الأولى أن تعيش معانيها، وأن تكون في مستواها، وأن تقرأها وأنت فاهم لمضامينها.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (84- 95):تفسير الآية 255 ، العلم الإلهي
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-08-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أول معنى من معاني العلم أنك إذا دققت في خلق الإنسان وجدت شيئاً لا يصدق :

أيها الأخوة الكرام؛ في الدرس الماضي كانت آية الكرسي موضوع الدرس، وآية الكرسي أعظم آية في القرآن الكريم، وفي قوله تعالى:

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

وجدت أن شرح هذه الآية كان مقتضباً في الدرس الماضي، فلا بد من وقفةٍ متأنيةٍ عند علم الله تعالى، والإنسان إن صحَّت عقيدته، صح عمله ونجا من عذاب الدنيا ونار الآخرة، وإن فسدت عقيدته ساء عمله فهلك في الدنيا والآخرة، وإنَّ من أسباب سلامة الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة أن تصح عقيدته ليصح عمله.

أيها الأخوة الكرام؛ الله عز وجل عليم حكيم، كلمة (عليم) لها اتجاهاتٌ كثيرة، أحد هذه الاتجاهات أن هذا الكون يدلُّ على علم الله عز وجل، كما لو رأيت طائرةً تحمل ستمئة راكب، وتحلّق على ارتفاع خمسين ألف قدم، وتنطلق بسرعةٍ عالية تزيد عن ألف كيلو متر، وهؤلاء الرُّكاب يتمتعون بهواء نقي، وضغط مناسب، وحرارة معتدلة، ويأكلون ويشربون، ستمئة راكب ينطلقون عبر الأطلس بطائرةٍ، وهذه الطائرة لا يمكن أن يكون الذي اخترعها وصممها ونفَّذها وصنعها إنساناً جاهلاً.

حينما يصعد إنسان إلى القمر بمركبةٍ، فلا بد أن تعتقد أن علم البشرية كلها في هذه المركبة؛ كيف حققنا لإنسانين جواً وضغطاً وطعاماً وشراباً على كوكبٍ لا حياة فيه؟

فأول معنى من معاني العلم: أنك إذا دققت في خلق الإنسان وجدت شيئاً لا يصدق، ومن أجل أن تعرف رائحة هذا العطر لا بد من نهاياتٍ تزيد عن عشرين مليون نهاية عصبية شمِّية، وكل نهايةٍ فيها سبع أهداب، وكل هُدْبٍ مغطى بمادة لزجة، تتفاعل هذه المادة اللزجة مع الرائحة، فينشأ من التفاعل شكلٌ هندسي، هذا الشكل هو رمز هذه الرائحة، وينتقل هذا الشكل إلى الدماغ ليعرض على الذاكرة الشمِّية، وقد قدَّرها العلماء بعشرة آلاف بند، فأي شكل في هذه الذاكرة توافق مع شكل الرائحة عرفت أنت أنه الياسمين مثلاً، أو أنه الورد، أو أنه نعنع، وغير ذلك من الروائح، فهذا الجهاز جهاز الشم بالغ التعقيد.

بعض من مناحي العلم :

لو نظرت إلى العين لرأيت في الشبكية عشر طبقات، وفي الشبكية مئةٌ وثلاثون مليون عُصية ومخروط من أجل تحقيق الرؤية الدقيقة، وإنّ هذه العين على صغر حجمها ترى الجبل بحجمه الطبيعي، وبألوانه الدقيقة، وتفرِّق بين لونين من ثمانمئة ألف لون، وتفرِّق بين درجتين من درجات لون واحد تزيد عن ثمانمئة ألف درجة، وأن العصب البصري يزيد عن تسعمئة ألف عصب، ولكل عصب غِمْدٌ لئلا تنتقل الإشارة من عصب إلى عصب.

إنّ دماغ الإنسان يزيد عن مئة وأربعين مليار خلية، وقشرة الدماغ تزيد عن أربعة عشر مليار خلية، وأن لكلِّ شعرة مِن شعر الإنسان وريداً، وشرياناً، وعصباً، وعضلةً، وغدة دهنية، وغدة صبغية.

إنّك قد تمسك قرصاً للكمبيوتر فيه ألف ومئتان كتاب، وكل كتاب قد يكون فيه عشرين جزءاً، هذا الكتاب بأدق الحروف، والحروف مضبوطة بالشكل، وهناك ألف طريقة للبحث، بحث بكلمة، بحث بموضوع، وكلما بحثت شيئاً جاءك الجواب خلال ثوان، هذا الجهاز يقرأ هذه الكتب كلها حرفاً حَرفاً في ثوانٍ، ويأتيك الجواب، أيعقل أن يكون الذي صنع هذا القرص جاهلاً؟ لا، هذا منحىً من مناحي العلم.

قد يذهب إنسان إلى فنلندا حيث الحرارة تسع وستون تحت الصفر، هذه أخفض درجة حرارة سجلت على الأرض، بلد يعيش الناس فيه، وأنت في هذا البلد قد ترتدي المعاطف والألبسة الصوفية، والجوارب الصوفية، والأحذية المبطنة بالفرو، وقد ترتدي القبعات، وكل شيء، ولكنك لن تستطيع أن تحجب عينيك، لا بد من أن تكون العين على مساسٍ بالهواء الخارجي، درجة الحرارة تسع وستون تحت الصفر، والعين فيها ماء، إذاً لا بد لهذا الماء إذا مس الهواء الخارجي أن يتجمد، فمَن الذي أودع في ماء العين مادة مضادة للتجمد؟ إذاً هناك علم.

لماذا ترفع الأرض سرعتها إذا انطلقت حول الشمس واقتربت من القطر الأصغر؟ لينشأ من رفع السرعة قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة، ولماذا ترتفع السرعة ارتفاعاً بطيئاً، التسارع بطيء والتباطؤ بطيء؟ لو ذهبنا نسير في هذا الاتجاه وبحثنا في المجرات، وفي المذنَّبات، وفي الكازارات، وفي الثقوب السوداء، وفي المسافات بين النجوم وفي عدد المجرَّات، لخَرَّ الإنسانُ لله ساجداً.

كل ما في جسم الإنسان ينطق بعلم الله :

لو وصلنا إلى أجهزة الجسم، هذا القلب الذي يعمل ثمانين عاماً ولا يرتاح أبداً، أيّ عضلة أخرى تصاب بالإعياء، فلو حرِّكت يدك هكذا، بعد دقيقتين تصاب بحالة اسمها الإعياء لا تستطيع المتابعة، أجر بعض التمارين الرياضية، اضغط، خمسة، عشرة، خمسة عشرة، الرياضي يضغط عشرين

مرة، والمتمرِّس ثلاثين مرة، ثم بعد ذلك تتوقف، لكن هذا القلب ثمانين سنة لا يكل ولا يمل، ولا يقف إلا وقفة واحدة، عند نهاية الحياة، فمَن صمم هذا القلب؟ من صمم هذه العضلة التي لا تتعب؟

مَن صمم هذه الأوعية الدموية التي هي مرنة كالقلب تماماً؟ أنا سمعت أن الشريان التاجي يتحمل ضغط عشرين بار، البار الكيلو على السنتيمتر، أي إنه يتحمل في أثناء وضع بالون في الشريان كي تضغط حواقُه الكلسية يتحمل ضغط عشرين بار، فما هذه المرونة بالشريان؟ والشريان قلب، حينما ينبض القلب يتمدد الشريان، ولأنه مرن يعود كما كان، فصار قلباً ثانياً، صارت كل أوعية الجسم قلوب.

هل وراء هذا الجسم الإنساني علم؟ طبعاً، الحديث طويل ولا تنتهي الدروس، ودروس، وأشهر، وسنوات في الحديث عن خلق الإنسان، وعن خلق الأكوان، أنا لا أريد أن استقصي، بل أريد أن أضرب أمثلة فقط، أفيُعقَل أنّ غدة صغيرة لا تزيد عن سلامية الإصبع، تقع إلى جوار القلب، هذه الغدة أخطر غدة في الإنسان، أيعقل أن تكون كلية حربية، تدخلها الكريات البيضاء التي معها سلاح فتاك وهي جاهلة، كي تتلقى دروساً في معرفة العناصر الصديقة من العدوة، تتلقى خلال سنتين دروساً دقيقة، وبعدها تتخرَّج خلايا بيضاء تائية مثقفة تتولى تعليم الأجيال من بعدها.

الحديث عن الغدد، عن القلب، عن الأوعية، عن الرئتين، عن الكليتين، هناك طرق في الكليتين يبلغ مجموع طولها مئة كيلو متر، عن البنكرياس، عن الكبد، خمسة آلاف وظيفة في الكبد، عن الطحال الذي هو مقبرة للكريات البيضاء، ومعمل احتياطي للدم، ومكان تحليل، والغدة الدرقية مكان الاستقلاب، ولا يزيد وزن الغدة النخامية عن نصف غرام، نصف غرام فقط، وهي ملكة الغدد الصمَّاء، تفرز اثني عشر هرموناً، كل هرمون تبنى عليه حياة الإنسان، هرمون النمو، هرمون توازن السوائل، لو اختل هذا الهرمون لأمضى الإنسان كل وقته إلى جانب الصنبور ودورة المياه، لشرب أكثر من عشرين تنكة ماء، هناك هرمون ضبط السوائل بالجسم.

الله عز وجل عليم بحاجاتنا :

أنا أريد كلمة واحدة: هل الذي خلق الإنسان عليم؟ إنه العلم المُطْلَق، انظر إلى مركبة صنعت في عام ألف وتسعمئة، وهي موجودة الآن بالمتاحف، عجلاتها ليس فيها هواء، صماء، ليس فيها أجهزة امتصاص صدمات، ليس فيها علبة سرعة، الإضاءة فانوس يشعل ليلاً بالكبريت والزيت، سيارة بدائية، انظر إلى سيارة صنعت في عام ألفين، من أرقى الماركات، كم هو البون شاسعٌ بين مركبةٍ صنعت عام ألف وتسعمئة، وبين مركبة صنعت عام ألفين؟ إنها خبرة الإنسان التي تتنامى، فالإنسان خبرته حادثة، تنمو بالخطأ والصواب، هل طرأ على الإنسان تطوير، هل هناك إنسان موديل ألفين؟ هل طرأ على الإنسان منذ أن خلقه الله تعديل؟ معنى ذلك أن خبرة الله قديمة، فهذا جانب من جوانب علم الله عز وجل.

هذا الكون، بمجراته، بسماواته، بأرضه، بأسماكه، بأطياره، بحيواناته، بنباتاته، بخلق الإنسان، بأجهزته، بأعضائه، بحواسه، ينطق بعلم الله.

إنّك لو اقتنيت جهازاً بالغ التعقيد، ثم رأيت الذي اخترعه، فإنك تقف أمامه بإجلالٍ لا حدود له، لأنك تعلم أنه عالمٌ كبير، وعبقريٌ فذ، فكلما دققت في آيات الله، وفي خلقه، وفي مخلوقاته، لعرفت أن الله عليم، هذا جانب.

الجانب الآخر: الله عز وجل عليم بحاجاتنا، كل حاجات الإنسان وفّرها لنا على سطح الأرض، أولاً: خلق لنا حاجةً إلى الهواء، وخلق الهواء، وجعل الهواء متوازناً؛ أوكسجين وهيدروجين، والنسب متوازنة، ونحن بحاجةٍ إلى الماء، إذاً الأرض تحوي مسطَّحات مائية كبيرة جداً، وأشعة الشمس تبخِّر هذا الماء، والماء من خصائصه التبخُّر، ثم يكون هذا البخار سحاباً، وهذا السحاب ركاماً، ثم يساق إلى بلدٍ ميت فيحيي الله به الأرض بعد موتها، والآلية معقدة جداً، وهناك مَن يدرس سنوات وسنوات في الجامعات كي يتعلَّم كيف تنزل الأمطار.

خلق لنا حاجة إلى الماء وخلق الماء، خلقه في البحار ملحاً أُجاجاً، وخلقه في الأنهار عذباً فراتاً، وخلقه في الينابيع، هذا من خلق الله عز وجل.

الجانب الثاني أن الله خلق لنا حاجاتٍ عالية الدقة كلها تلبى في أعلى درجة :

الجانب الثاني في العلم: أنه خلق لنا حاجاتٍ عالية الدقة، وهذه الحاجات كلها لُبِّيَت في أعلى درجة، فهناك حاجة إلى لحم نأكله، وعلى الأرض ستّ مليارات إنسان، إذاً هناك المواشي والأنعام التي تتوالد، لو أن هذه الأنعام تأكل أكثر مما تعطي، فلا أحد يربيها، لا بد من أن تكون في تربيتها جدوى اقتصادية، تطعمها بعشرة تعطيك مئة، إذاً تربى وتقتنى، ويُعتنى بها، نحن بحاجة إلى الثياب، هناك القطن، وهناك الكتان، وهناك الصوف، نحن بحاجة إلى بيت نأوي إليه، هناك الصخور والأحجار وما شاكل ذلك، فأي شيء خطر على بالك تجده في الأرض، وهذا نوع من أنواع العلم، الله عليم بكل حاجات الإنسان، وقد وفّر له كل هذه الحاجات، ومن هذا نفهم معنى الربوبية..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الفاتحة: 2]

الذي أمد المخلوقات بكل ما تحتاج.

أما المنحى الثالث الذي أركز عليه في هذا الدرس في قوله تعالى:

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

هو أن الله يعلم، هو عالم الغيب والشهادة، أي أن كل شيء في الكون يعلم الله حركاته وسكناته، لماذا؟ لأن الله يحركه، حينما يأتي إنسان ويمسك هذا الكأس، وينقله من هذا المكان إلى هذا المكان،

وأنت تراه، أنت كيف تعلم أن هذا الكأس تحرك؟ لأنك رأيته قد تحرَّك، أما إذا أمسكته بيدك وحرَّكته، هذا علمٌ أبلغ، إنّ كل فعل لا يكون إلا من قبل الله تعالى، إذاً الله عز وجل هو الفعَّال، وهو العليم، يعلم ما يفعل، إذاً هو عالم الشهادة، وكل شيءٍ أمامك يعلمه الله علماً مطلقاً، وبأدق أدق التفاصيل.

أنت لك من الإنسان ظاهرُه، لكن الذي يعلم باطنه، وتاريخه، وصراعاته، ومنبته، ومشربه، ومطعمه، وأخلاقه، وعلاقاته، هو الله عز وجل، فهو يعلم ما تعلن ويعلم ما تُسر، ويعلم ما خفي عنك، يعلم ما تعلن، فإذا لم تعلن يعلم ما تسر.

المنحى الثالث في علم الله أنه لا تخفى عليه خافية فهو سميع بصير عليم :

هناك علمٌ لا تعلمه أنت واللهُ يعلمه، "وعلم ما لم يكن، لو كان كيف كان يكون " هذا منحىً ثالثٌ في علم الله عز وجل، لا تخفى عليه خافية، فإن تكلمتَ فهو سميع، وإن تحركت فهو بصير، وإن سكت وجمدت في مكانك فهو عليم بما يجري في داخلك، سميع بصير عليم.

وهو معكم أينما كنتم بعلمه، أينما ذهبتم، يعلم كل حركاتك، وسكناتك، يعلم خواطرك، يعلم خائنة الأعين، فإنسان مثلاً جالس في بيته، أمامه شرفة، خرجت امرأة الجيران، إن نظر أو غض بصره ليس في الأرض كلها إنسان يضبطه، هو جالسٌ في غرفته، والنافذة مفتوحة، وهو في الظلام، والنافذة تحت أشعة الشمس، إن نظر أو لم ينظر، مَن الذي يعلم خائنة عينه؟ الله جل جلاله، هذا منحى ثالث في علم الله، أي هو مع كل الخلق بالعلم، يسمع دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

قد يكون على سطح القمر تضاريس، هو يعلمها، في المجرات، حركة المجرات، في رؤوس الجبال، في أعماق الأرض، هذه البراكين والزلازل مَن يعلم حركة الأرض وما فيها من ضغوط؟ الله جل جلاله، مَن مع كل سمكة في أعماق البحار؟ كم سمكة توجد في البحار؟ هناك مليون، لكن إياك أن تتوهم أني أقول مليون سمكة، بل هناك مليون نوع من الأسماك، أما الأعداد فهي أعداد بأرقام فلكية، بدءاً من سمكة الزينة التي لا تزيد عن سلامية اليد، وانتهاءً بالحوت الأزرق الذي يزن مئة وخمسين طناً، هذا الحوت الأزرق، وزنه مئة وخمسون طناً، يستخرج منه تسعين برميلاً من الزيت، وخمسون طناً من الدهن، وزن قلبه نصف طن، وليده يحتاج إلى ثلاثمئة كيلو حليب كل وجبة، يحتاج إلى ثلاث رضعات في اليوم، أي ما تساوي طناً من الحليب، بدءاً من سمكةٍ لا تزيد عن سلامية اليد، قد تكون شفافة كأسماك الزينة، وانتهاءً بالحوت الأزرق، كائنات البحر شيء لا يصدق.

علم الله عز وجل من هذا القبيل، هو مع كل سمكة، ومع كل طائر، ومع كل نملة، بل مع كل

جرثومة، مع كل فيروس، الفيروسات لا ترى بالعين، الإيدز فيروس لا يرى، مَن يسوقه من إنسان إلى إنسان؟ إنه الله عز وجل، هذا منحى ثالث في علم الله عز وجل.

المنحى الرابع هو علم الغيب :

أما المنحى الرابع هو: علم الغيب، الله جل جلاله يعلم ما سيكون علم كشفٍ لا علم جبر، الآن دخلنا إلى موضوع دقيق في الدين هو: هل الإنسان مخيَّر أم مسيَّر؟ الإنسان مخيَّر، وفي أية لحظة توهم الإنسان أنه مسيَّر انتهى الدين، وانتهى التكليف، وألغيت الأمانة، وألغي الثواب، وألغي العقاب، وألغيت الجنة، وألغيت النار.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

الله عز وجل فيما يتعلق بالغيب يعلم علم كشف لا علم جبر، "لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة "، فالله عز وجل يعلم ما سيكون لا علم جبرٍ، ومَن يعتقد أن الله أجبر عباده على المعاصي والآثام فعقيدته زائغةٌ، يرفضها القرآن الكريم، قال تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة: 286]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: 148]

هذه أول نقطة في الدرس، الإنسان مخيَّر فيما كُلِّف، هو مخيّر؛ أمرك أن تصلي، فأنت في موضوع الصلاة مخيَّر تصلي أو لا تصلي، أمرك أن تكون صادقاً فأنت في موضوع الصدق مخيرٌ، أمرك أن تكون محسناً فأنت في موضوع الإحسان مخير تحسن أو تسيء، تصدق أو تكذب، تصلي أو لا تصلي، تحضر مجلس علم أو تحضر في ملهى، فأنت مخير، تتقن عملك أو تهمل، تربي أولادك أو لا تربيهم، تحسن إلى زوجتك أو لا تحسن، تغض بصرك أو لا تغض، تذكر الله أو لا تذكر.

الإنسان مخيّر فيما كلف به و مسيّر فيما سوى ذلك :

أنت مخيرٌ فيما كُلِّفت، هذه حقيقة صارخة، قاطعة، ثابتة، تؤيدها الآيات الكثيرة والأحاديث الصحيحة..

أُحْضِر رجل إلى سيدنا عمر وقد شرب الخمر، فقال رضي الله عنه: أقيموا عليه الحد، فقال هذا

الرجل: يا أمير المؤمنين إن الله قَدَّر علي ذلك، فقال رضي الله عنه: أقيموا عليه الحد مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.

أنت مخيَّرٌ فيما كُلِّفت، ومسيَّر فيما لم تكلف، أنت ولدت في الشام مسيَّر، من فلان الفلاني مسيّر، من فلانة الفلانية مسيّر، بقدرات معينة مسيّر، بقامة مديدة مسيّر، بقامة قصيرة مسيّر، بصحة جيدة مسيّر، بصحة معلولة مسيّر، لكن هذا التسيير لصالحك، لصالح آخرتك، ولصالح إيمانك، وليس في الإمكان أبدع مما كان، أي ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني.

أنت مخيّر فيما كلفت به، مسيّر فيما سوى ذلك، لكن هذا التسيير لصالحك، ولكن بعد أن سيَّرك الله وخلقك من أب وأم وبيئة وإمكانات وقدرات معينة، هي كمالٌ لك، ثم كلَّفك التكليف الإسلامي، أنت إما أن تستجيب أو لا تستجيب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

فإن استجبت سيَّرك نحو مصالحك الدنيوية والأخروية، كافأك بتسيير نحو مصالحك، يقدر لك زواجاً ناجحاً، عملاً جيداً، صحة طيبة، سمعة طيبة، أما إن لم يستجب، فالله عز وجل مُرَبٍّ، رب العالمين، يسوق له تسييراً بعض الشدائد كي ترجعه إلى الله، فصار مسيَّراً للتأديب، هو مسيَّر في أصل الخلق، ثم مخيّر في التكليف، ثم تُسيّر كي تؤدَّب، وتعود إلى ربك.

فيا أيها الأخوة الكرام؛ حينما تعتقد أنك مخير لا تقل حينما يقال لك: لِمَ لا تصلي؟ حتى يسمح الله لي، حتى يهديني الله، فهذا كلام غير صحيح، كلام لا أصل له، هو هداك بهذا الكون، وهداك بهذا العقل، وهداك بهذه الفطرة، وهداك بالأنبياء، وهداك بالرسل، وهداك بالكتب، وهداك بالدعاة، وهداك بأفعاله، وهداك بتربيته، هداك وانتهى الأمر، بقي عليك أن تستجيب.

الله عز وجل تكفل بهدايتنا وبقي أن نستجيب له :

إن اعتقدت اعتقاداً صحيحاً أن الله تكفل بهدايتنا:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

بقي أن نستجيب له..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

إن الله تكفل بهدايتنا، وبقي أن نستجيب له، لذلك إذا صحَّت عقيدة الإنسان فلا يمكن أن يعزوَ تقصيره إلى القَدَر، القدر لا تفسره العيوب، ألا تصلي؟ لم يلهمني اللهُ أن أصلي، هذا كلام باطل، لمَ

لا تصدق؟ الله ما هداني، تسعون بالمئة من كلام الناس هكذا، يحلو لهم أن يعزو تقصيرهم ومعاصيهم إلى الله عز وجل، ويتوهَّمون أن الإنسان مسيّر، لا، أنت مخير فيما كُلِّفت.

أيها الأخوة الكرام؛ هذا علم من النوع الرابع، علم الغيب، الله عز وجل يعلم ما يكون، ولكنه علمُ كشفٍ لا علم جبر، علم كشف، أي لو أن مدرساً له باع طويلٌ في التدريس، وله خدمات تزيد عن خمسين عاماً، ومتمرس بهذه الحرفة، وعلَّم صفاً، وقال قبل الامتحان بشهر: هذا الطالب لا ينجح، وهذا الطالب ربما كان الأول على الصف، وهذا الطالب يأخذ علامةً تامةً في الرياضيات، وهذا الطالب يأخذ علامة تامة في التاريخ ـ مثلاً ـ وكان هذا امتحان شهادة، ليس للأستاذ علاقة بالامتحان، لا وضع أسئلة، ولا تصحيح، ولا شيء، فإذا جاءت النتائج وفق ما توقع هذا المدرس فهل كثير على هذا المدرس الخبير المتمرِّس أن يعرف النتائج مسبقاً لا عن طريق الإجبار بل عن طريق الكشف؟!

أصحاب الصنعات، إذا وضعت جسراً لا يحمل هذا البناء، وقال لك الخبير: هذا البناء سوف يقع. فإذا وقع البناء فهو شيء طبيعي، لأنه علم بالقوانين. لذلك، حينما يعلم الإنسانُ أن الله يعلم علم كشف لا علم جبر، فإنّه يبرِّئ الله من الظلم، أما إذا علم علماً إبليسياً أن الله خلق الكفر في الكافر، وأجبر الكافر على شرب الخمر والزنا، ثم جعله في النار إلى أبد الآبدين، فهذه عقيدة إبليس، عقيدة الجَبْر.

إذا عزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري :

أناس كثيرون والله ـ وهذا مما يؤسف له ـ هكذا يعتقدون: ما هداني الله، الله يهدي مَن يشاء، ويضل من يشاء، وما دامت هذه الكلمة وردت الآن فإنّي أقول: إنّ الله عز وجل يهدي مَن يشاء الهداية، هذا هو المعنى، يهدي من يشاء الهداية، هو خلقَ كل شيء يدعوك إليه، وأمرك أن تستجيب، فإما أن تستجيب أو لا تستجيب، لذلك قال العلماء: إذا عزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، قياساً على قوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف: 5]

لعلي أضرب هذا المثل لتوضيح الحقيقة: طالب في الجامعة لم يداوم ولا ساعة، ولم يحضر ولا ساعة، ولم يقتنِ الكتب، ولم يؤدِّ الامتحانات، أرسلت له الجامعة عشرات الإنذارات، فلم يستجب، فصدر قرار بترقين قيده، وفصله من الجامعة، أيُعدُّ هذا ظلماً؟ إن هذا القرار هو تجسيدٌ لرغبة الطالب، أراد الضلال فنفَّذ الله رغبته، هذا معنى: إذا عزي الإضلال إلى الله، فمعنى ذلك أنه الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف: 5]

رفض الدين، رفض الصلاة، إذاً كل ما سوف يأتيه من الدين من خيرات حُرِمَ منها، لأنه رفض أصل الدين، فلو فرضنا إنساناً يتّجه إلى مدينة حمص مثلاً، وقبيل هذه المدينة رأى طريقين متشابهين متباعدين، ورأى إنساناً يقف على مفترق الطريقين، فقال له: بالله عليك من أين حمص؟ فأجابه: من هنا، قال له: جزاك الله خيراً، قال له: انتظر يا أخي، بعد خمسين متراً هناك تحويلة، وبعد كذا هناك منحدر خطر، وبعد ذلك هناك جسر، بعد ذلك هناك دورية. عندما قال له: جزاك الله خيراً، فقد أعطاه هذا الدليل مئات المعلومات.

لو جاء إنسان آخر، وصل إلى مفترق الطريقين، وسأل هذا الإنسان: من أين حمص؟ فقال له: من هنا، قال له: أنت كذاب، هل بإمكان هذا الإنسان أن يعطيه المعلومات بعد ذلك؟ لقد رفضه كلياً.

من معاني الإضلال أنك حينما رفضت أصل الدين حرمت من هذا الخير :

فإذا رفض الإنسانُ الدينَ هل ينوَّر قلبه؟ لا، هل يوفَّق في عمله؟ لا، كل ما عند الله من خير، أنت حينما رفضت أصل الدين حرمت من هذا الخير، هذا معنى الإضلال.

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة النحل: 93]

يضلُّ مَن شاء الضلالة، ومَن شاء البُعدَ عن الدين، لأنّ الله عز وجل خلقك مخيَّراً، إذاً ينفِّذ اختيارك، كما أنّ بعضهم يقول: في قوله تعالى:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

(أغفلنا)، لو فتحتم كتب اللغة، ومعاجم اللغة، لوجدتم أن معنى كلمة (أغفلنا) وجدناه غافلاً، فقط هذا المعنى، عاشرت القوم فما أبخلتهم، أي ما وجدتهم بخلاء، عاشرت القوم فما أجبنتهم، أي ما وجدتهم جبناء، فوزن أفعل في اللغة لا تعني أنه خلق الجُبْن فيهم، أو خلق الغفلة فيهم، بل تعني أنه وجدهم هكذا.

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

يا أيها الأخوة الكرام؛ في اللحظة التي تتوهَّم أن الإنسان مجبورٌ على كل أعماله، وليس له اختيار، انحرفت العقيدة انحرافاً خطيراً، ومع هذا الانحراف انحرافٌ سلوكي، لمَ الاستقامة، لم العمل الصالح؟ القضية منتهية..

ألقاه في اليَمِّ مكتوفاً وقال له إيّاكَ إيّاكَ أن تَبْتَلَّ بالماء

* * *

من معاني الإضلال أن الله يضل عن شركائه لا عن ذاته :

أيها الأخوة؛ ثم إن من معاني الإضلال أن الله يضل عن شركائه لا عن ذاته، فيوم القيامة يقول الله عز وجل:

(أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ*مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة غافر: 73-74]

لم يجدوهم..

(قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)

[سورة غافر: 74]

قال الله عز وجل:

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

[سورة غافر: 74]

يضلهم لا عن ذاته العلية، يضلهم عن أصنامهم، وعن شركائهم التي ليس لها سلطانٌ في الأرض. إذاً كلمة:

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

أي يعلم حاضرهم ومستقبلهم، يعلم علم الشهادة وعلم الغيب. لكن حينما يقرأ المسلم القرآن يمر على آيات كثيرة:

(وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران: 142]

كلمة: (ليعلم) هل تعني أنه لم يعلم من قبل؟ لا، فالآيات كثيرة..

(لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ)

[سورة المائدة: 94]

(فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت: 3]

قال علماء العقيدة: حيثما وردت كلمة "ليعلم" في القرآن الكريم تعني العلم الحُصولي، تماماً كقول المدرس: هذا الطالب سيكون الأول في صفه، هذا علمُ كشفٍ، فإذا أدى امتحاناً وكان الأول في صفه، هذا علم حصولي، أي إنّ هذا علم كشف قد حصل، فالعلم الأول علم كشف قبل أن يحصل، والعلم الثاني علم حصولٍ بعد أن حصل، هكذا.

الشاب المؤمن يعطي كل ذي حقٍ حقه :

أيها الأخوة الكرام؛ أوراق كثيرة وصلتني في هذا اليوم، لعل من أهمها أن شاباً متديناً يحضر مجالس العلم، وهو متزوج ـ وبحسب ما قرأت، وهذا الكلام متعلّق بما قرأت ـ له زوجة تسيء إلى

أمه إساءةً بالغة، وأمه بدأت تغضب عليه، وبدأت تتألم منه أشد الألم.

أيها الأخوة؛ الشاب المؤمن يعطي كل ذي حق حقه، لا يسمح لزوجته أن تتجاوز حدها مع أمه، كما لا يسمح أنْ تُظلَمَ زوجتُه، "سئل النبي عليه الصلاة والسلام: أيُّ النساء أعظم حقاً على الرجل؟ أي في عالم المرأة أية امرأة أعظم حقاً على الرجل، قال: أمه، فلما سئل: أي الرجال أعظم حقاً على المرأة؟ قال: زوجها "، ففي عالم الرجال أعظم رجل في حياة المرأة زوجُها، وفي عالم النساء أعظم امرأة في عالم النساء الأم، والمؤمن يعطي كل ذي حقٍ حقه، أما لو أن أمَّه أمرته بمعصية، أمرته أن يفعل منكراً، أمرته بالاختلاط في البيت الواحد مع نساء إخوته، أمرته أن يعصي الله، فلا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

هذه الأم التي قالت لابنها: إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت، وهو سيدنا سعد بن أبي وقاص، فقال: يا أمي لو أن لك مئة نفس، فخرجت واحدة واحدة، ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي.

للوالدين حقوقٌ على الأولاد غير محدودة إلا أن يؤمر الأولاد بمعصية الله :

أما إذا أمرته أمه أن يعينها، أن يطعمها، أن يكسوها، أن يدفع لها فواتير الكهرباء مثلاً، هذه أوامر يجب أن تنفَّذ، إذا كنت مؤمناً باراً بوالدتك، فأنا أريد من كل أخٍ مؤمنٍ يرتاد المساجد، وهو محسوبٌ على المؤمنين، أن يعطي كل ذي حق حقه، للزوجة حق، وللأم حق، فإذا لبَّى حق زوجته ونسي حق أمه فإنّه يحاسب، وإذا لبّى حقّ أمَّه ونسي زوجته فإنه يحاسب، أنا أدعو إلى التوازن، وإذا كان الزوج موفَّقاً يعطي كل ذي حقٍ حقه، فلا يسمح لواحدةٍ أن تظلم الطرف الآخر، وإنْ سمح لزوجته أن تتطاول على أمِّه، وأن تسمِعها الكلام القاسي، فالله يغضب عليه، لأن غضب الأم المحق يوجب غضبَ الله عز وجل، لمّا جاء رجلٌ إلى النبي وشكا ابنه، والقصيدة مشهورة جداً.

غذيتك مولوداً وعلتك يافعاً حتى إذا ما

بلغت السن والغاية التي كنت فيها أؤمل

جعلت جزائي منك وغلظة وفظاظـة

كأنك أنت المنعم المتفضِّـــــل

فليتك إذ لم ترع حقَّ أبوتـــــي

فعلت كما الجار المجاور يفعـــل

* * *

بكى النبي. فالأب والأم لهما حقوقٌ على الأولاد غير محدودة، إلا أن يؤمر الأولاد بمعصية الله.

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

[سورة لقمان: 15]

أما إنْ طلبت الأمُّ أن تخدمها وأن تلبِّيَ حاجتها فهذا واجب عليك، أما لا سمح ولا قدر ـ وهذه حالات نادرة ـ إن أمرتك أن تعصي الله..

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

[سورة لقمان: 15]

فالشاب المؤمن الذي يرتاد المساجد، والذي يُحْسَن الظن به، وهو مظنَّة صلاح، ينبغي أن يعطي أمه حقها وزوجته حقها.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (85- 95):تفسير الآيات 256-258، الدين أساسه الاختيار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-08-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الحق هو الشيء الثابت والهادف أما الباطل فهو الشيء الزائل :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والثمانين من دروس سورة البقرة، ومع الآية السادسة والخمسين بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

أولاً: كلمة (دين) دان بمعنى خَضَعَ، والإنسان بحسب جِبِلّته وفطرته، وبحسب ما أودعه الله فيه من عقلٍ لا يخضعُ إلا للكمال، ولا يخضعُ إلا للمَنطق، ولا يخضع إلا للحق، والحق هو الشيء الثابت والهادف، الشيء المتبدِّل ليس حقاً بل هو الباطل، أما الشيء الثابت هو الحق، ونقيضُ الحق الباطلُ، ونقيضُ الحق اللعبُ..

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الدخان: 38-39]

الحقُ نقيض اللعب، والحق نقيض الباطل، الباطل هو الشيء الزائل، أمّا الحق فهو الشيء الثابت، واللعب هو العَبث، والحق هو الشيء الهادف.

فقد نبني جناحاً في معرض من القماش من ورق مقوّى، لأنه سيبقى أسبوعين، أما حينما نبني وزارةً عتيدةً، أساسيةً في الحياة، نبنيها من الحَجَر، فهذه الوزارة بُنيت لتبقى، أما هذا الجناح في المعرض فقد أنشئَ ليزول، فالحق الشيء هو الثابت، لا يتأثر لا بمكان، ولا بزمان، ولا بتطورات، ولا يخضع لتقلّبات، ولا يقبل الحذف ولا الإضافة، لأن الله هو الحق، وحقّ الشيءُ أيْ استقر، فأنت مع الحق، أنت مع الشيء الثابت الذي لا يتأثر، وهذا الدين العظيم دين حق، كم من العلوم والفنون جاءت فهل استطاعت أن تقوّض دعائمه؟ إطلاقاً، مهما تقدّم العلم، مهما وصل إلى

أعلى مستوياته فلا يستطيع أن يهز حقيقةً من حقائق الدين، ولن تجد في كتاب الله كلّه آيةً أصبحت مثار جدل، وكلما تقدم العلمُ أكّدَ حقائقَ القرآن.

سمي الدين ديناً لأن النفوس ذوات الفطر السليمة والعقول النيّرة تخضع له :

كلمة (حق) شيء ثابت لا يتغير، لا بمكان، ولا بزمان، ولا بنزعات، ولا بأهواء، لا يضاف عليه، ولا يحذف منه، لا يُستحيا به، لا يخشى البحث، لا يحتاج أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، هذا هو الحق:

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

[سورة الدخان: 39]

أما الباطل فهو شيء زائل، حائط بُنِيَ بلا شاقول، فلا بد أنْ يقع، أما حائط بُنِيَ على أصولٍ علمية فسيبقى، لذلك كم من المذاهب الوضعية انهارت، كم من المذاهب الوضعية أصبحت في الوَحْل، كم من المذاهب الوضعية رفضها الناس واحتقروها لأنها باطل، فإذا قلت كلمة (حق) أي الشيء الثابت والهادف، ليس باطلاً يزول، وليس لعباً هو العبث:

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

[سورة الدخان: 39]

فالإنسان بعقله الذي أودعه الله فيه، وبفطرته التي فطره الله عليها لا يخضع إلا للحق، أي لا يدين إلا للحق، فَسُمِّيَ الدين ديناً لأنه يُدان له، قل: الإله شمس، لا، فإذا أفلت مَن يرعاني عند أفولها، قل: الإله نار، لا، هذا غير منطقي، قل هذا الصنم إله، هو جماد، هو حجر..

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ*وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة الصافات: 95-96]

قل: الإله هو بقرة كما يزعمون في الهند، البقرة مخلوقة، انسب الآن صفة عظيمة لإنسان، هذا الإنسان يموت، وكل مخلوقٍ يموت، فأي ألوهيةٍ لغير الله فإنّ النفس لا تخضع لها، ولا تقبلها، وتعافها وتَمُجُّهُا النفوس، فسمي الدين ديناً لأن النفوس ذوات الفطر السليمة والعقول النيّرة تخضع له.

تعريف الدِّين :

حينما أسلم سيدنا خالد، وقد أسلم متأخراً، وعاش في الإسلام سبع سنوات فقط، خاض خلالها زهاء مئة معركة، مئة معركة خاضها في سبع سنوات، حينما أسلم قال له النبي عليه الصلاة والسلام: " عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً ".

فلماذا يكون الإكراه في الدين؛ الدين واضح، الدين جليٌّ، كل شيءٍ في الكون يدل على الله، وكل شيءٍ في الكون يدل على أن هذا الدين حق، لذلك كلما حاولت أن تحارب هذا الدينَ ازداد قوةً، وكلما حاولت أنْ تقمعه ازداد ثبوتاً، كهذا الذي يريد أن يطفئ النار بالزيت، فكلما صبَّ على النار الزيت ازدادت تألّقاً ولمعاناً، هذا هو الدين، أيْ الشيء الذي تخضع له، أما المذهب الوضعيّ فأنتَ لا تخضع له، لأنه يعتمد على التمييز.

جاء الألمان بنظرية العِرْق المتفوّق، حيث اعتبروا أنّ ما سوى الألمان شعوب من سقط المتاع، وهذه نظرية غير معقولة، وما من نظريةٍ جاءت إلا وسقطت في الوحل لأنها ليست حقاً، والناس لم يدينوا لها، وكم من نظرياتٍ لا تعد ولا تحصى كلها سوف تنتهي إلى الزوال لأنها باطلة، أما حينما تقول: لهذا الكون إلهٌ عظيم، ولهذا الإله منهجٌ قويم، وهذا المنهج مبنيٌّ على مصالح الخلق، وأن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لا فضل لعربيٍ على أعجمي إلا بالتقوى، وأنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، هذا منطق وعدل ورحمة، وهذا شيء مقنع.

ماذا قال بعض العلماء؟ الشريعة رحمةٌ كلها، عدلٌ كلها، مصلحةٌ كلها، حكمةٌ كلها، فأيّةُ قضيةٍ خرجت من العدل إلى الجَور، ومن المَصلحة إلى المَفسدة، ومن الحكمة إلى خلافها، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل.

الدين الذي تخضع له، هو ما يخضع له عقلك، وتخضع له فطرتك، الدين هو المنهج الذي ترتاح نفسك له، ويطمئن قلبك له، تشعر أنك وجدت نفسك، تشعر أنك تعرّفت إلى ذاتك، تشعر بأنك اصطلحت مع الكون كله ومع خالق الكون، هذا هو الدين.

الإكراه في الدين يتنافى مع سعادة الإنسان :

أولاً: إنّ الإنسان قَبِلَ حمل الأمانة، وقد أعطى اللهُ الإنسانَ مقوّماتِ الأمانة، ومن أهم هذه المقومات حريّة الاختيار، فما دام الإنسان حراً في اختياره فلا يمكن أن يكون ثمّة إكراهٌ في الدين، لا يمكن أن يكون إكراهٌ في الدين، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، مستحيل أن يُجبر الله عباده على الدين، لو أجبرهم لما سعدوا به، لأن الله عزّ وجل بنى هذا الدين على المَحْبوبيّة، الله عزّ وجل لا يريدك أن تؤمن قسراً، ولا إكراهاً، ولا إرغاماً، يريدك أن تؤمن طوْعاً، حُباً، شَوقاً، بمبادرةٍ منك، بإقبالٍ منك على الله، لذلك الإكراه في الدين يتنافى مع سعادة الإنسان، خلقك ليسعدك، وإنّك لن تَسعد إذا كنت ديّناً مكرهاً، لن تسعد بدينٍ قسري، إنك لا تسعد إلا بعملٍ طوعي.

لو أمسك شخصٌ حاجة ثمينة بيده، وجاء إنسان معه مسدس، وقال له: أعطني هذه الحاجة وإلا قتلتك، فأعطاه إياها، هذا الذي أعطى هذه الحاجة هل يشعر أنه قدّم هديةً؟ على أنه عمِلَ صالحاً؟! إنّه مقهور يمتلئ غيظاً، أما لو جئت إلى إنسان وقدّمت له هديةً، فكلما التقيت به تألق وجهك، لأنك فعلتَ معه معروفاً، فحينما تجبَر على العمل سقطت قيمة العمل، وحينما تفعل هذا العمل اختياراً، وطواعيةً، عظمت قيمة العمل، فالاختيار يثمّن للعمل، فالإكراه في الدين يُنهي الدين، الإكراه في الدين يلغي ثمار الدين، الإكراه في الدين يلغي السعادة النابعة من الدين. لذلك شاءت حكمة الله أن يكون هذا الدين في بداياته ضعيفاً، فماذا يفعل النبي؟ ليس عنده دنيا يُغري بها، وليس عنده قوة يُخيف بها، ومع ذلك يؤمن به أصحاب النبي إيماناً طوعياً عن رغبةٍ وحُبٍّ، هذا الإيمان صحيح ورائع، لأنه جاء بمبادرة شخصية، وجاء باختيارٍ طيب..

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

هذه (لا) نافية للجنس، إذا سألك شخص: هل عندك رغيف خبزٍ؟ إذا قلت: ليس عندي رغيف خبز، لو أردت أن تناقشه، قد يكون عنده رغيفان، لكنه ماذا نفى؟ ليس عندي رغيف خبز، نفى الرغيف الواحد، أما إذا قال لك: لا رغيف عندي، فهذه نافية للجنس، لا تنفي الرغيف الواحد، بل تنفي جنس الخبز، تنفي القمح، وتنفي مشتقات القمح، ونفي الجِنْس مِن أبلغ النفي.

الدين هو الرشد وخلاف الدين هو الغي :

مثلاً، عندنا (لا) التي تعمل عمل (ليس)، فتقول: لا طالبٌ في الصفِ، هذه "لا" تعمل عمل ليس، فتقول: بل طالبان، ماذا نفيت بها؟ نفيتَ المفرد، أما إذا قلت: لا طالب في الصف بل طالبةٌ، فقد نفيتَ جنس الذكور، وكلمة لا طالبٌ في الصف نفيت بها المنفرد، أما لا طالبَ في الصف فنفيتَ جنس الذكور، ولا تنس أن كلمة التوحيد لا إله إلا الله، فأبلغ أنواع النفي نفي الجنس..

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

أي كل أنواع الإكراه، هناك إكراه حاد، إن لم تؤمن بهذا تُقتَل، هذا إكراه حاد، وهناك إكراه أقلّ منه، أي إنْ لم تؤمن فليس لك ولا ميّزة، مثلاً، هناك أنواع منوّعة من الإكراهات، كل أنواع الإكراهات القاسية، والحادة، والمخففة، والمباشرة، وغير المباشرة، والصريحة، وغير الصريحة، والمعلنة، والمبطنة غير موجودة في دين الله.

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

والله جل جلاله يريدك أن تأتي إليه طائعاً، يريدك أن تأتيه مُحِبّاً، يريدك أن تأتيه مختاراً، يريد أن تأتيه مشتاقاً، فلو أجبرك على الطاعة لبطل الثواب ولو أجبرك على المعصية لبطل العقاب..

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

ولكن ما هو الدين؟ قال تعالى:

(قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)

إنّ الدين هو الرشد، وخلاف الدين هو الغي، وهذه حقيقة أيها الأخوة، هناك طريق الحق وطريق الباطل، ولا ثالث بينهما:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

حياة المسلم منضبطة وفق منظومة قيَم وسلسلة مبادئ :

إن لم تكن على الحق ـ لا سمح الله ولا قدّر ـ فأنت على الباطل قطعاً، وإن لم تستجب لله فأنت مستجيبٌ لغير الله ـ قطعاً ـ وعندنا شيء في الدين اسمه الاثنيْنيَّة، أي هناك حق وباطل، خير وشر، صدق وكذب، إخلاص وخيانة، إنصاف وظلم، إقبال وإدبار، تألّق وانكماش، فإن لم تكن على أحد الخطين فأنت على الثاني..

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

الدين هو الرُشْد، الدين كما قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء: 9]

في صحتك، في زواجك، في حرفتك، في علاقاتك، في جدّك، في لهوك، في إقامتك، في سفرك، حياة المسلم رائعة، منضبطة وفق منظومة قيَم، وفق سلسلة مبادئ..

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)

قدِّم لمئة ألف إنسان نموذجَ المسلم يرمقونه بأبصارهم، قدِّم لهم نموذج المنحرف يزورّون عنه، الناس يكرهون الكذاب، يكرهون المنافق، يكرهون الدجال، يكرهون المؤذي، يكرهون المغتاب، يكرهون النمّام، يكرهون المتغطرس المتعالي، يحبون المتواضع، الرحيم، المنصف، الصادق، الأمين، العفيف.

في كل حقل هناك رشد وهناك غَيّ :

قال تعالى:

(قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)

الدين هو الرشد، هناك معنى آخر: إذا قُدِّم لإنسان ـ فرضاً ـ وهو جائع طعامٌ طيبٌ ونفيسٌ، وقُدِّم له صحنٌ آخر فيه لحمٌ متفسخ، تفوح رائحته النتنة، فهل هناك حاجة أن تكره هذا الإنسان على أكل الطعام الطيب؟ يتّجِه إليه بفطرته، ضع صحن طعامٍ طيب وطعام خبيث، وقل له: أنا لن أكرهك على أن تأكل الطعام الطيب، طبعاً سيأكله، وسيشكرك عليه، وسيذوب محبةً لك.

هناك معنى آخر، فضلاً عن أن الله لا يقبل مؤمناً مقهوراً، ولا مؤمناً مكرهاً، ولا صلاةً فيها ضغطٌ وإكراهٌ، بالمقابل دين الله بتألّقه، ومنطقيته، وكماله، وكيف أنه قدّم تفسيراً رائعاً للكون، وكيف أن فيه قيَماً، واللهِ من أحد ألد أعداء المسلمين في بلد غربي بعيد قال في احتفال: إن القيم التي نؤمن بها هي نفس القيم التي جاء بها الإسلام، هكذا قال. الإسلام عظيم.

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)

(الغي) الانحراف، الغي الطغيان، الغي الظلم، الرشد أن تنسجم مع فطرتك، وأن تنسجم مع الحق، وأن تنسجم مع علّة وجودك وغاية وجودك، هذا هو الرشد.

طالب في المدرسة، ما هو الرشد؟ أن يدرس، وما هو الغي؟ ألاّ يدرس، أن يذهب إلى دور اللهو هذا هو الغي، وأن يقبع وراء كتابه هذا هو الرشد، والتاجر ما هو الرشد له؟ أن يربح، الغي أن يكذب على الناس، وأن يظلمهم، في كل حقل هناك رشد وهناك غَيّ..

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ)

طاغٍ، والمؤمن يكفر بهؤلاء الذين يطغون، فالطاغي قوي، لكنّ المؤمن كفَر بالطاغوت وآمن بالله.

لن تقطف ثمار الدين إلا إذا آمنت بالله وكفرت بالطاغوت :

قال تعالى:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ)

أي يكفر بالكفر، يكفر بالذي يستخدم قوته لإمتاع شهواته، بالذي يقهر الناس..

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

أي إنك حينما تؤمن بالله تكفر بالطاغوت، المشكلة أيها الأخوة هي التداخل، فهو مؤمن ولكنّه مع أهل الدنيا، ومع الأقوياء، ومع الأغنياء، في فسقهم وفجورهم، لا تسخو نفسه أن يدعهم، لن تقطف ثمار الدين إلا إذا آمنت بالله وكفرت بالطاغوت، لا بدّ أن تكفر بالكفر حتى تُفَتَّح لك أبواب السماء..

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

أنتَ بعيدٌ عن اللهِ ما دمت تعقد الأمل على طواغيت الأرض؛ الفسّاق والفجار، والذين جاؤوا بالمذاهب الوضعية، والذين أرادوا الدنيا وغفلوا عن الآخرة، الذين أرادوا الشهوة وغفلوا عن القيَم، الذين أرادوا المال وغفلوا عن الأخلاق، هؤلاء كلهم طواغيت، قد يكون الإنسان محاطاً بطواغيت، يقول لك: لي جار مادي، لي عم لا يحلل ولا يحرّم، كل إنسان طغى وبغى ونسي المبتدى والمنتهى فهو طاغوت، فما دمت متعلِّقاً بأهل الكفر، علماً أنهم قد يكونون أقوياء، وقد يكونون أغنياء، تعقد الأمل عليهم، ترجو عطاءهم، ترجو ودّهم، تحذر من غضبهم، تحسب لهم ألف حساب، ما دمت مؤمناً بهم، متعلقاً بهم، تعلِّق عليهم الآمال، ترجو الخير منهم، فالطريق إلى الله غير سالك..

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ)

على الإنسان أن يؤمن بالله إلهاً في السماء وإلهاً في الأرض :

حتى في تاريخنا القديم والحديث تجدنا متعلقين بالأقوياء، ونظن أن اتصالنا بهم رحمة لنا، وأن تقليدهم رُقي، وأن إرضاءهم ذكاء، وأن التعلق بوعودهم أمل، هؤلاء لا يعطوننا شيئاً، إلا أنهم يستغلوننا، وتجربتنا مع العالم الغربي منذ خمسين سنة ماضية، فماذا أخذنا منهم؟ لم نأخذ شيئاً، أخذوا منا كل شيء، ولم يعطونا شيئاً أبداً..

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ)

كل جهة طغت، وبغت، واستكبرت، واستغلّت، وقهرت، وأرادت الدنيا، وكفرت بالآخرة، أرادت العِلمانية وكفرت بالدين، كل قوةٍ جبارة عاتيةٍ طاغيةٍ ينبغي أن تَنْفِضَ يديك منها، أما إذا كنت متعلقاً بها، راغباً بما عندها، ترجو رضاها، تخشى غضبها، تعلق الآمال على رضاها، فالطريق إلى الله ليس سالكاً..

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

يجب أن تؤمن به خلاّقاً، وأن تؤمن به فعّالاً، وأن تؤمن به متصرّفاً، وأن تؤمن به إلهاً في السماء وإلهاً في الأرض، وأن تؤمن أن الأمر كله بيده، وأنه إذا شاء شيئاً فعل، ووقع:

(وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

[سورة الرعد: 11]

من تمسّك بالقرآن والسُّنة وعضّ عليهما النواجذ فهو متمسك بعروةٍ وثقى :

كل شيءٍ بيده، بيده مقاليد السماوات والأرض، هذا هو الإيمان، فيجب أن تكفر بالطاغوت، وأن تؤمن بالله، كم مسلم في العالم يرتكب المعاصي والآثام تقرباً إلى أهل الدنيا، تقرباً إلى أهل الباطل، تقرباً إلى الطواغيت..

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

(العروة) هذه التي تمسكها، تتعلّق بها، ترجو أن تبقى متّصلة، فأنت حينما تتمسك بالشريعة، وتتصل بالله عزّ وجل، ليس في الكون كله جهة تستطيع أن تقطعك عن الله:

(مَا يَفْتَحِ اللّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

أي إذا تمسّكت بالقرآن والسُّنة وعضضت عليهما النواجذ فأنت متمسك بعروةٍ وثقى.

سمعت أن لبعض الشاحنات عروة في نهايتها من أجل أن تجرّ مقطورة، قال: هذه العروة لها اختصاص نادر، وهي مصنّعة من أدقّ أنواع الفولاذ المطرّق، لأن المقطورة تزن عشرين طناً، ولو أن هذه العروة تفلّتت لوقع حادث مخيف، فهذه العروة التي توضع في نهاية الشاحنات لها صناعة متميّزة، ومن أمتن أنواع الفولاذ المُطرّق، أي معالج بالطرق لا بالصب ولا بالسحب، فهذه عروة وثقى.

الطاغوت هي كل جهة تنكر وجود الله عزّ وجل وتؤثر الدنيا :

ربنا عزّ وجل قال: أنت إذا كفرت بالطاغوت، أيُّ طاغوت؟ كل جهة تنكر وجود الله عزّ وجل وتؤثر الدنيا، تطغى وتبغي..

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

إن آمنت بالله آمنت بكتابه، إن آمنت بالله صدقته، إن آمنت بالله صدقت نبيّك، إن آمنت بالله تقرأ الحديث الشريف وكأنه من عند الله عزّ وجل، قال الله لك:

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات: 58]

لا تيأس، لا تذل، لا تستخذِ، لا تتضعضع أمام غني:

((من دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[رواه البيهقي عن ابن مسعود]

لا تمدح فاسقاً، لا تجيِّر لإنسان أنت مجيِّر للواحد الديّان.

(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا)

كأن هذا الدين حبل نجاة، أحياناً يلقى لإنسان حبل لكنه متين، يمسك به فينجو، أحياناً إنسان في حالة صعبة تأتيه طائرة هليكوبتر فتمدّ له حبلاً، يمسك به نجا، ترفعه شيئاً فشيئاً فينجو.

(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

مهما كنت في خطر، مهما كنت في خطرٍ شديد، إذا تمسّكت بالأمر الإلهي في القرآن، والأمر النبوي في السنة، كأنك تمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها، نجوت.

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

يسمع قولك، وعليمٌ بحالك.

أشد الناس شقاءً من خرج من ولاية الله :

أيها الأخوة الكرام، ثم يقول الله عزّ وجل:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

لا بدّ من أمثلة؛ تصور أباً متفرغاً لابنه، عالمٌ، غنيٌ، قويٌ، مربٍّ، مثقف ثقافة تربوية عالية، إيمانه قوي، قوي مادياً، عالِم، له ابن متفرّغ له، يسأله عن صحته، عن طعامه، عن شرابه، عن هندامه، عن وظائفه، عن بيته، عن مدرسته، عن أصدقائه، يجلس معه، ينبّهه، يذكره، يقوم اعوجاجه، يسأله، يصحح خطأه، أبٌ متفرّغٌ لابنه..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

انظر إلى هذا المثل، الله عزّ وجل وليُّ الذين آمنوا، يرعاهم، يؤدبّهم، يبشّرهم، يخيفهم، يصحح مسارهم، قد يشعرهم بالخوف ليأتوا بابه طائعين، قد يشعرهم بالأمن ليشكرهم على طاعتهم له، ولي، وليٌ كامل، لذلك أشد الناس شقاءً من خرج من ولاية الله..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(الظلمات) جاءت جمعاً، لأن الباطل يتعدد، بينما (النور) جاء مفرداً، لأن الحق لا يتعدد، ما قال: من الظلمات إلى الأنوار، وما قال: من الظلام إلى النور، بل قال:

(مِنَ الظُّلُمَاتِ)

وهي جمع..

(إِلَى النُّورِ)

الفرق بين الظلمات والنور :

قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

كان في ظلام المعصية فصار في نور الطاعة، كان في ظلام البُعد فصار في نور القُرب، كان في وحول الشهوات فصار في جنات القربات، كان مخطئاً فأصاب، كان ضائعاً فوجد نفسه، كان منحرفاً فاستقام، كان ضالاً فهداه الله عزّ وجل، كان قاسياً فصار ليّناً، كان غضوباً فصار حليماً، كان جاهلاً فصار عليماً، كان حقوداً فصار متسامحاً، كان منحازاً فصار منصفاً..

(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

كان في الظلمات، في الأفكار غير الصحيحة، والقيم غير الصحيحة، فصار في النور، في نور الحق، ونور الكمال..

(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

واللهِ ذات مرّة استمعت إلى آية قرآنية ـ صدقوا أيها الأخوة ـ أنها دخلت إلى أعماق أعماقي:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[سورة محمد: 11]

ليست المصيبة أن تصاب بمصيبة بل المصيبة أن تكون منحرفاً ولا تصاب بمصيبة:

تصور ابناً في الطرقات يتيم الأب والأم، ملقى؛ يوم في المخفر، ويوم في الأحداث، ويوم في المستشفى، ينام على الطرقات، يسرق، ينحرف أخلاقياً، ليس له ولي، ولا مَن يحاسبه، ولا مَن يسأله أين كنت؟ ليس هناك مَن يرعاه، ولا من يقدّم له طعاماً، ولا يوجَد مَن يغسل ثيابه، أو يضمُّه إلى صدره، وازن بين ابنٍ بين أبوين عالمين، مؤمنين، رحيمين، وبين طفل بلا أب ولا أم (لقيط) في الطرقات، ينام في مدخل بناية، يوم في مخفر، ويوم في المستشفى، ويوم بالسجن، ويوم يفعل به الفاحشة، ويوم يفعل الفاحشة، قذر، ووسخ، هذا هو، والله لا أبالغ الفرق بين الطفل المربّى تربية

عالية، وله أم وأب، وبيت وعناية، ومتابعة ودقّة، وبين طفل مشرّد، أخلاقه سيئة، كلامه بذيء، جائع، قذر، وسخ، يسرق، يفعل الفاحشة، تُفعل به الفاحشة، هذا الفرق بين مؤمنٍ وكافر..

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[سورة محمد: 11]

أخواننا الكرام؛ إذا أدَّبَ اللّه عزّ وجل المؤمنَ، وتابعه، ضيّق عليه، وأخافه، ساق له مرضاً، ساق له شدّة، يجب أن يشكر الله عزّ وجل شكراً لا حدود له، لماذا؟ لأنه ضِمْن العناية المشددة، أنا أقول: هذا جبر خاطر: إذا استفقدك الله بمعالجة، ولفت نظرك، وخوّفك، وساق لك مصيبة، فهذا لأنه يحبك، ولأنك خاضعٌ للتربية، ولأنك ضمن العناية المشددة.

أما إذا تفلّت الإنسان كالدابة، لا يحاسبه الله، تجده يأكل ما يشتهي، ويلتقي مع مَن يشتهي، ينهب الأموال، يقترف الموبقات، يزني، يشرب الخمر، وجسمه مثل البغل، هذا ما مشكلته؟ هذا خارج العناية المشددة، هذا خارج التربية، هذه هي المصيبة، ليست المصيبة أن تصاب بمصيبة، لا والله، المصيبة أن تكون منحرفاً، وألا تصاب بمصيبة، فأشدُّ الناس مَقْتاً عند الله عزّ وجل هم الذين ينحرفون ولا يصابون بمصيبة، هذا سمّاه بعض العلماء (العفريت النفريت) منحرف، أخلاقه سيئة، لكنه صحته طيّبة، دائماً متمكِّن، أما الإنسان المؤمن فيُعالج، ويؤدّب.. " أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي، وتمرري، وتكدري، وتضيقي على أوليائي حتى يحبوا لقائي".

الشيطان دائماً ينقلنا من الحق إلى الباطل :

قال تعالى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ)

كانوا في بيئة محافظة فتفلّتوا، كان صادقاً فكذب، كان مستقيماً فانحرف، كان لا يقبل دخلاً غير مشروع فقَبِل، كان يحفظ زوجته فأطلق سراحها وجعلها تتفلّت، الشيطان دائماً ينقلك من الحق إلى الباطل، من الخوف من الله إلى عدم الخوف منه، من الانضباط إلى التفلت، وأخيراً يصبح المرءُ دابةً متفلِّتة.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

احرص حرصاً لا حدود له أن يكون اللهُ وليّك، احرص أن تنتفع بالدين، أن تنتقل من تقصير إلى تفوُّق، من انحراف إلى استقامة، من ضعف إلى قوة، من لين إلى شدة أحياناً..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ)

أحياناً يؤتى الإنسان المُلك فيكفر، يرى نفسه قوياً:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي)

[سورة الزخرف: 51]

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

[سورة القصص: 78]

المحاورة بين متأولين لا تنتهي إلى يوم القيامة :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ)

هذا الذي آتاه الله المُلك بدل أن يشكر، وأن يتواضع لله عزّ وجل، ويسخر ملكه في خدمة الخلق، نسي الله عزّ وجل، وطغى وبغى ونسي المبتدى والمنتهى..

(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

قال له: مَن ربك يا إبراهيم؟ قال له:

(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)

ظنّ هذا الملك النمرود أنه يحكم على إنسان بالإعدام فيميته، يعفو عن إنسان حُكم عليه بالإعدام فيحييه، هكذا ظن، الآن متابعة هذا النقاش تحدِث إشكالاً، قضية مركّبة، هو توهّم الإحياء أن يعفو عن مقتول، والإماتة أن يحكم على حي بالقتل، هذه طريقة للمناقشة، فهذا النبي الكريم ترك هذا الموضوع، لو تابعه لصار هناك إشكالية، صار يحتاج إلى حُجَج مركّبة، معقدة، فتركه..

(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)

كأن القرآن يعلِّمنا أن تكون حجّتك قوية، ناصعة لا ردّ عليها، الأولى تركها، صار هناك إشكال، صار هناك توهُّم، صار هناك تأويل، أوّل الإحياء بالعفو، وأوّل الموت بالقتل، إبراهيم عليه السلام يقصد شيئاً آخر، اللهُ يخلق الحياة، ويميت، أي يخلق الموت مِن دون قتل..

(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

توهّم النمرود أنه هو يحي ويميت، توهم الإحياء والموت تأولاً، لذلك المحاورة بين متأولين لا تنتهي إلى يوم القيامة، كل واحد يتصوّر شيئاً، وهذا درس بليغ في الحوار، إذا وُجِدَ تأويل فدَعْك من الحوار.

الدين أساسه الاختيار :

قال له:

(فَإِنّ اللّهَ يَأْتِي بِالشّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ)

أيها الأخوة؛ أدق آيتين في هذا الدرس هي:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

و..

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

لأن الدين أساسه الاختيار، أساسه المحبوبية، ثم إن الدين ناصعٌ جليٌّ كالشمس المشرقة، فلا يحتاج إلى إكراه، أنت جائع والطعام طيب نفيس، فلا داعي أنْ ترفع السلاح وتقول: كُل، هو سيأكل، هذا المعنى الثاني لأن الدين هو الحق، ولأن الدين هو الصدق، ولأن الدين هو الرحمة، والعدل، والمصلحة، والفوز..

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

أو لا يمكن أن تسعد بدينٍ فيه إكراه.

نتابع هذه الآيات في درسٍ قادمٍ إن شاء الله.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (86- 95):تفسير الآيات 258-260 ، الحجج والمعجزات والإعجاز العلمي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-08-18

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا حاورت إنساناً فابْدَأ بحجةٍ قويةٍ لا ردَّ عليها :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والثمانين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثامنة والخمسين بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

يعلمنا ربنا عز وجل أنك إذا حاورت إنساناً فابْدَأ بحجةٍ قويةٍ لا ردَّ عليها، وسيدنا إبراهيم بدأ بهذه الحجة..

(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)

جاء الملك برجلين، كما تروي الروايات، فقتل أحدهما وعفا عن الآخر، فالذي قتله أماته، والذي عفا عنه أحياه، هذا الملك المتألّه، تأوّل الحياة والموت على طريقة شرحها لمَن حاجَّه، لإبراهيم عليه السلام، فما دام متأولاً فالحوار لا ينتهي معه إلى يوم القيامة، والحوار بين متأولين لا ينتهي إلى يوم القيامة، أنا أقصد كذا وكذا، فأجابه الثاني: أنا أقصد كذا وكذا، نقاش مستحيل، الطريق مسدود، فلما تأوّل هذا الملك المتألّه أنَّ الإحياء هو العفو، والموت هو القتل، سيدنا إبراهيم لم يقصد ذلك، قَصَدَ أنّ واهبَ الحياة هو الله، وأنّ الذي ينهي الحياة هو الله، فالموت يحتاج إلى خلق، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

فالحياة تحتاج إلى خَلق، والموت يحتاج إلى خَلق، والله جل جلاله الحيُّ القيوم هو حيٌ باقٍ على الدوام، يَهَبُ الحياة لكل مخلوق، (ربي الذي يحي ويميت).

النبي إبراهيم عندما رأى الملك متأولاً جاءه بموضوع غير قابل للتأويل :

هذه الشجرة مَن أوْدع فيها الحياة؟ تكون في الشتاء يابسةً، فإذا جاء فصل الربيع وسقاها الله بالمطر العميم اهتزت وربت، أزهرت فأورقت فأثمرت، هذه الحياة، هذه البقرة مَن وهَبهَا الحياة؟ تأكل هذا الكلأ فتعطيك حليباً هو الغذاء الأول للإنسان، لكن حينما تموت البقرة تصبح جيفةً، ماذا فقدت؟ فقدت الحياة.

إذاً، واهب الحياة هو الله، وخالق الموت هو الله، هذا الملِك المتألّه تأوّل الحياة على أنها عفوٌ عن مقتول، والموت إيقاع القتل بالإنسان، ماذا فعل هذا النبي الكريم؟ لما رآه متأوِّلاً ترك الموضوع، وجاءه بموضوعٍ غير قابل للتأويل..

(قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)

قال:

(فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)

أيَّ مؤمنٍ لا يكون إيمانه قوياً إلا إذا كانت معه حجة :

أيها الأخوة؛ حينما يقول الله عز وجل:

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

[سورة الأنعام: 83]

إبراهيم ذو حجة، قياساً على هذه الآية، وأيُّ مؤمنٍ لا يكون إيمانه قوياً إلا إذا كانت معه حجة، وإذا لم يستطِع المؤمن أنْ يحاور كافراً، أو مدعياً بنظرية ما، معنى ذلك أنّ إيمانه ضعيف، فالمؤمن

الذي لا يصمد أمام كافر إيمانه ضعيف، لا بد من أن تمتلك حجةً قوية، لا بد أن ترى الحقائق ناصعة، لا بد من أن تمتلك إجابة عن كل سؤال تقريباً حتى تكون مؤمناً، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتَّخذه لعلَّمه.

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنعام: 83]

رجل كان من علماء الرياضيات المُلحدين في أمريكا، له قصة عجيبة، عكف على القرآن الكريم فقرأه، وبعد حوارٍ طويل مع نفسه أعلن إسلامه، وهو الآن داعية، وصار يصلي في المسجد بعد أن أسلم، رآه صديقٌ له غير مسلمٍ، فقال: ما هذه الصلاة التي تصليها، إنك تستمع إلى قراءة باللغة العربية، وأنت لا تفقه هذه اللغة، فما معنى صلاتك؟ فأجابه: إنّ هذا الطفل الذي ولد لتوِّه، يشعر بنشوةٍ حينما تضمُّه أمُّه إلى صدرها، فماذا يفهم من لغة أمِّه؟ إنّه لا يفهم شيئاً، والمؤمن إذا أوى إلى المسجد، وإذا أوى إلى الله عز وجل، فكما يأوي هذا الطفل الصغير إلى صدر أمه، فأسكته بهذه الحجة، رآه بعض أصدقائه يصلي في الصيف، والكتف إلى الكتف، فقال له زميل له معترضاً: الجوُّ حارٌّ لِمَ هذا الالتصاق ببعضكم بعضاً، تباعدوا؟ قال: إن الله عز وجل يحب أن نكون متصلين به، وفي الوقت نفسه نشعر بمَن حولنا، واللهُ يحبُّ أنْ يعيش الإسلامُ مع المجتمع.

أنا ما قصدت من هذين المثلين أن يكونا مثلين صارخين، ولكن مِن المستحيل أن يؤمن الإنسان إيماناً حقيقياً إلا ويهبه الله عز وجل الحجة، يهبه الحجة القوية، فإنسان مؤمن لا يصمد أمام مبتدع، أمام مُنكر، أمام إنسان شارد، إنسانٌ ليس معه حجة، ما هذا الإيمان؟!! أنت مع الله، أنت مع العليم، أنت مع الحكيم، لا بد من أن تكون لك حجة تدلي بها.

الله عز وجل علّم الإنسان كيف يجري الحوارَ بالبحث عن حجةٍ لا تُؤَوَّل :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)

التقيت مرة بإنسان من اليابان، حدثته عن هذا الدين، قال: إن الله ظلمنا، لأن هذا الدين باللغة العربية، ونحن ولدنا في اليابان ولا نفقه من هذه اللغة شيئاً، إذاً نحن قد ظُلِمنا، قلت له: لماذا تعلمت اللغة الإنجليزية؟ قال: من أجل التجارة، قلت: إذا أردت الحقيقة، وأن تصل إلى الجنة فتعلَّمْ اللغة العربية كذلك، فأنتَ من أجل كسب المال تعلَّمتَ لغة أخرى.

إنسان يقول لك: هناك مفتٍ أفتى لي في هذا الموضوع، أقول له: لو أن عندك بيتاً هل تبيعه لأول مشتري، أم تسأل أناساً كثيرين؟ لماذا اكتفيت بهذه الفتوى؟ فما مِنْ حجة يأتي بها أهل الدنيا إلا وهناك حجة تدحضها وتردُّها.

أيها الأخوة... على كلٍّ فقد علّمنا الله عز وجل كيف نجري الحوارَ، ابحث عن حجةٍ لا تُؤَوَّل، عن حجة لا تُرَدُّ..

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ*)

قصة نبي الله عزير :

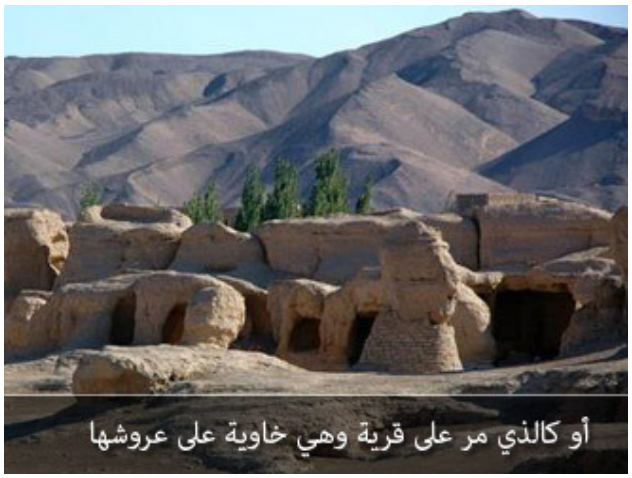

قال الله عز وجل:

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)

قال المفسرون: إنه سيدنا عزير أحد أنبياء بني إسرائيل، مرّ على قرية، وقالوا: هي القدس، وهي خاوية على عروشها، دمرت هذه المدينة وهجرها أهلها، ولم يبق منها إلا الهياكل، أنقاض، فقال سيدنا عزير:

(قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا)

قرية مهدمة، أنقاض، بيوت متداعية، كيف يُعاد بناءُ هذه القرية؟ فقال الله عز وجل:

(فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ)

قالوا: إنه مات بعد شروق الشمس، وبُعِثَ قُبيل غروبها..

(فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ)

تصور أنه نام بعد الشمس، واستيقظ قبل غروب الشمس..

(قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

قال: لبثت يوماً، فلما رأى الشمس لم تغب بعدُ، قال: أو بعض يوم، وقد لبث مئة عام.

الآية التالية من آيات الدالة على عظمته :

قال الله له:

(قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ)

طعامك الذي كان في حوزتك، وشرابك الذي كان في حوزتك هو هو؛ طازجٌ بخضرته، وزهوته، وطراوته، وكل صفاته التي تركته عليها.

(وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ)

حمارهُ كومةٌ من العظام..

(وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ)

عظام الحمار..

(كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً)

هذه العظام تجمَّعتْ، وتشكَّلتْ، وتراكبت فكانت هيكلاً كاملاً، ثم جاء اللحم فكساها، وجاء الجلد فكسا هذه العضلات، وهذه آية من آيات الدالة على عظمته.

أخواننا الكرام؛ في تفسير هذه الآية لا بد من توضيح، هذا الكون كون مُعْجِز بوضعه الراهن، وفق قوانينه، وفق سننه، وفق معطياته، كون معجز، وهو يدل على الله عز وجل دلالة ما بعدها دلالة، ولكن لحكمة أرادها الله عز وجل جَعلَ بعض آياته في خرق هذه القوانين، هذا الكون من دون أن تخرق قوانينه معجزة، هذا الكون في وضعه الراهن معجزة، وإذا خرقت قوانينه معجزة، وخرق العادات لا يقبل عادةً، لأنّ الإنسانَ لم يألفه، لكنه يقبل عقلاً، لأن الذي خلق هذه القوانين هو الله، والذي قنَّنها هو الله، والله عز وجل في أيّة لحظةٍ يعدِّلها أو يبدِّلها أو يغيِّرها..

المعجزة غير مألوفة عادةً لكنها مقبولة عقلاً :

هذا ماء، قوامه سائل، هذه الطاولة صلبة، قوامها صلب، هذا الهواء الذي نتنفسه غاز قوامه مرن، أي أنه يتشكل في أي مكان، حجمه متغير، كتلته متغيرة، لكن لو شاء الله أن يجعل هذه الطاولة هواءً لكان، لأنه على كل شيء قدير، ولو شاء الله أن يجعل هذا الماء بخاراً لكان، نحن بالتبريد نستطيع أنْ نجعله صلباً، وبالغليان نجعله بخاراً،

هذا أكبر مثَل، فتحوُّلُ المواد من طبيعة إلى طبيعة قضيةٌ عند الله، (كن فيكون).

بل إن من أغرب ما قرأته في الفيزياء أنّ بعض العناصر يكون قوامه صلباً، والعنصر الذي يليه في الترتيب البنائي يكون قوامه غازاً، كل عنصر له نوية وكهروب يدور حولها، كهروبان عنصر ثانٍ، ثلاث كهارب عنصر ثالث، رتبت العناصر في الأرض أكثر من مئة عنصر، بالتسلسل؛ كهروب، اثنين، ثلاثة، بين عنصرين متناقضين أحدهما غاز والثاني صلب، كهروب واحد، إلكترون واحد (+ أو -) يقلبه من غازٍ إلى صلب، كلمة كن فيكون، فعندما ضرب سيدنا موسى عليه السلام البحر أصبح طريقاً يبساً، كن فيكون، سائل، أعطاه الله أمراً: كن صلباً فكان.

المعجزة مقبولة عقلاً، لأن الذي غيّر القانون هو خالقه، الذي غيّر هذا القانون هو الذي قننه، الذي غير هذه السنة هو الذي سنها، ولكنّ المعجزة غير مألوفة عادةً، البحر بحر، والطريق طريق، وبعض الناس حينما ينكرون بعض المعجزات ينكرونها بفعل العادة، فما ألِف الناس أن النار لا تحرق، ولكن الله عز وجل حينما ألقي إبراهيم في النار:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

[سورة الأنبياء: 69]

وقد وقف العلماء عند هذه الآية:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً)

لو قال الله عز وجل: يا نار كوني برداً فقط، لمات إبراهيم من البرد، لكنه قال:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً)

لو اكتفى الله عز وجل بأنه قال: كوني برداً وسلاماً، ولم يقل على إبراهيم، لبطل مفعول النار إلى يوم القيامة، لكن:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

[سورة الأنبياء: 69]

فقط.

المعجزة أجراها الله على يد بعض أنبيائه لتكون أداة تأييدٍ لهؤلاء الأنبياء :

قال تعالى:

(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ)

[سورة الأنبياء: 70]

إذاً الله عز وجل قادر أن يجمع هذه العظام، وأن يجعلها متراكبة، وأن يجعلها هيكلاً، ثم يكسوها لحماً، ويكسوها جلداً، ويعود الحمار حياً كما كان، لكنْ هذا ممّا لم يألفه الناسُ، إذاً هو معجزة أجراها الله على يد بعض أنبيائه لتكون أداة تأييدٍ لهؤلاء الأنبياء..

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ)

طبعاً هذا يذكّرنا أن الإنسان يوم القيامة حينما يستحق النار يُسأل: كم لبثت في الأرض عدد سنين؟ ماذا يقول؟ لبثت يوماً أو بعض يوم، من أجل يوم أو بعض يوم يستحق الإنسانُ النارَ إلى أبد الآبدين؟! من أجل أيام تمضي! الإنسانُ زمن، إنسان عاش كذا سنة، ثم توفاه الله عز وجل، وصار خبراً، كان رجلاً فصار خبراً، كان شخصاً فصار رقماً، كان ملء السمع والبصر فصار تحت التراب، كان فوق التراب يهابه الناس فأصبح تحت أطباق الثرى، كان إذا نظر نظرةً خاف الناس، إذا هو الآن مسجىً في النعش، هكذا.

الكون وحده معجزةً بكل ما في هذه الكلمة من معنى :

قال تعالى:

(فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ)

أي لم يفسد، على ما هو عليه، طعام مضى عليه مئة عام هو هو، طازج، بلونٍ زاهٍ، طريٌ..

(وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ)

من آيات الله الدالة على عظمته، طبعاً حماره رآه كومة من العظام..

(وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا)

أي نركبها بعضها فوق بعضٍ..

(كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

لكن الإنسان إذا ضعف إدراكه احتاج إلى خرقٍ للعادات، أما إذا كان مفكراً يقظاً، كفاه الكون معجزة، وقد ورد في الأثر: " أنْ حسبكم الكون معجزة "، الكون وحده معجزةً بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

اليقين الاستدلالي واليقين الشهودي :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى)

الحقيقة سيدنا إبراهيم عليه السلام مؤمن، ومؤمن إلى درجة اليقين، ولكن اليقين أنواع؛ نوع استدلالي، ونوع شهودي، أنت إنْ رأيتَ دخاناً وراء جدار، تقول: لا دخان بلا نار، أنت متأكّدٌ من وجود النار خلف الجدار، هذا يقين استدلالي، فإذا وقفت في الطرف الآخر من الجدار، ورأيت النار بعينك، هذا يقين شهودي، فسيدنا إبراهيم متيقنٌ يقيناً استدلالياً، لكنه الآن يريد اليقين الشهودي..

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)

بعضهم تأوَّل هذه الآية: بأن هذا النبي الكريم من شدة محبّته لله، أراد أن يرى أثر فعل الله عز وجل، وكأنه تمنَّى أن يرى عظمة الله من خلال هذه الآية، وليس شاكّاً في قدرة الله، ولا في علم الله، ولا في حكمة الله، ولكنه تطلَّع إلى أن يرى أثر قدرة الله عز وجل..

(رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)

أي كي أنتقل من يقين الاستدلال إلى يقين المعاينة، من يقين الاستدلال إلى يقين الشهود.

معجزة النبي عليه الصلاة والسلام معجزةٌ مستمرةٌ إلى يوم القيامة :

قال تعالى:

(قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ)

أي قطعهن قطعاً قِطعاً..

(ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً)

طاووس، ودجاجة، وما إلى ذلك، أربعة أنواع من الطيور، قطعها قطعاً قطعاً، وجعل على كل قمة جبل بعض هذه القطع، قال:

(ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

فلما دعاهن، تراكبت هذه الأعضاء، والتحم بعضها ببعض، وسرن إليه خاضعين لأمر الله عز وجل. مرة ثانية هذه المعجزات وقعت مرة واحدة، ولن تقع مرة ثانية، شبَّهها بعض علماء التوحيد كعود الثقاب تألق مرة واحدة ثم انطفأ، فأصبح خبراً يصدقه مَن يصدقه، ويكذّبه مَن يكذّبه، ولكن أي مؤمن يقرأ كلام الله عز وجل يؤمنُ إيماناً راسخاً أن هذا الخرق قد وقع، وهناك مَن يكذِّب بهذا لأنه ما عرف الله عز وجل، وأنّ أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، رأى أن هذا غير مألوف عادةً فأنكره، ولكن الشيء الذي كرمنا الله به هو: أن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام معجزةٌ مستمرةٌ إلى يوم القيامة، فهذا الكتاب بين أيدينا، فيه آيات كثيرة لا يمكن أن تفسَّر إلا بحالةٍ واحدة؛ أنها آيات من عند الله.

في الآيات التالية إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم :

مَن هذا الذي صعد إلى الفضاء الخارجي، وضاق نفسه؟ الله جلّ جلاله أخبرنا:

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

[سورة الأنعام: 125]

بعد أن ركب الإنسان الطائرة، لو أن طائرة تركبها، وجهاز ضخ الهواء فيها تعطل، هبط الضغط إلى الثمن، عندئذٍ يخرج الدم من أنف الإنسان ويختل ضغطه، ويشعر بضيقٍ لا يحتمل، الطائرات التي نركبها الآن مضغوطة ثماني أضعاف، ليكون الضغط على ارتفاع أربعين ألف قدم مساوياً للضغط على الأرض، لو أن جهاز الضغط تعطل، لأحسَّ الركاب بضيقٍ في نَفَسهم لا يحتمل، هذا عرفناه الآن بعد اختراع الطائرة، لكن كيف جاء ذكره في القرآن الكريم؟ قال العليم الخبير:

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

[سورة الأنعام: 125]

بعد أن اخترعنا أشعة الليزر، وقسنا غور فلسطين رأيناه أعمق نقطة في الأرض، وذلك منذ عشرين سنة أو عشر سنوات، لكن حينما يقول الله عز وجل:

(غُلِبَتْ الرُّومُ*فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ*فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

[سورة الروم: 2-4]

المعركة تمت في غور فلسطين:

(غُلِبَتْ الرُّومُ*فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

هذا أيضاً إشارة إلى إعجاز هذا القرآن الكريم.

من إعجاز القرآن العلمي :

حينما يقول الله عز وجل:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى*مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

[سورة النجم: 45-46]

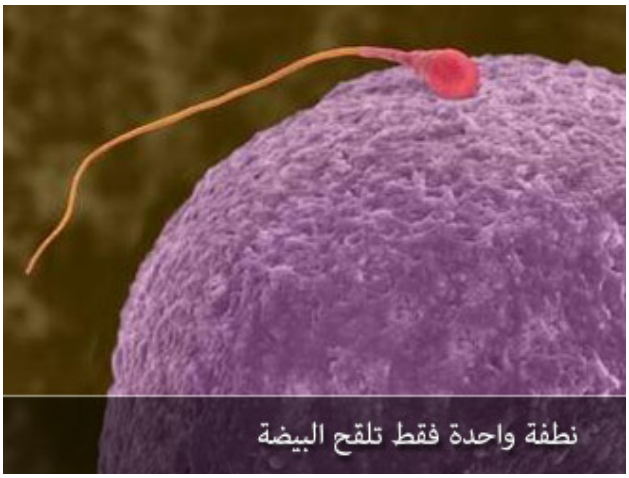

الآن عرف العلماء أنه في اللقاء الزوجي يخرج من الرجل خمسمئة مليون حوين، وحوينٌ واحدٌ فقط يدخل إلى البويضة فيلقّحها، فاقرأ الآية:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى*مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

[سورة النجم: 45-46]

نطفة واحدة، والمعنى الثاني: أن الذي يحدِّد الذكر والأنثى ليست البويضة ولكنها النطفة، وهذا من إعجاز القرآن العلمي.

حينما يقول الله عز وجل:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

قال علماء اللغة: إن كلمة (كل) تفيد الإبهام الشمولي، أي كل شيء في الكون داخل في كلمة (كل)، والآن ثبت أن كل شيء في الكون يتحرك، حتى هذه الطاولة، حتى الحديد، حتى الحجر، أي شيء تقع عينك عليه في الكون مؤلف من ذرات ونواة ومسارات وكهارب، تدور كما تدور الكواكب حول مجراتها، فنظام الذرة كنظام المجرة، وهذه أيضاً آية من آيات الله الإعجازية.

قبل بضعة أشهر، موقع معلوماتي يمثل أعظم محطة فضاءٍ في العالم، وفيها مرصد عملاق اسمه (هبل)، التقط صورةً لنجمٍ يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، بينما أقرب نجم ملتهب إلى الأرض يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، ونحتاج إلى أن نصل إلى هذا الكوكب إلى خمسين مليون سنة، أما هذا النجم اسمه (عين القِط) يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، انفجر هذا النجم، والتقطت صورة انفجاره، لو نظرت إلى الصورة لرأيت وردة جورية حمراء داكنة، ذات أوراق خضراء زاهية، في

الوسط كأسٌ أزرق اللون، لا تتردد ثانية واحدة في أن هذه الصورة صورة وردة، لو قرأت القرآن الكريم:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن: 37-38]

لو قرأت كل التفاسير لا تجد تفسيراً يشفي غليلك، أما هذه الصورة فهي تفسير هذه الآية.

القرآن الكريم فيه إعجازٌ مستمر :

حينما اخترعت مركبات الفضاء، والتقطت منها صور للأرض، وجدوا في بعض الصور خطاً بين كل بحرين، هو خط تمايز ألوان، فعجبوا، ما معنى هذا التمايز؟!! البحر الأحمر بلون والعربي بلون، البحر الأسود بلون ومرمرة بلون، الأبيض المتوسط بلون والأطلسي بلون، علماء البحار أرادوا أن يتأكدوا من صحة هذه النظرية، فنزلوا إلى أعماق البحار، وجاؤوا بقصاصات من الورق كثيرة، ووضعوها في منطقة التماس، فلم تنتقل وريقةٌ واحدة إلى البحر الآخر، ولكنها ترجع، أما نذكر حينها قوله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن: 19-21]

نحن أردنا أن نخزِّن ماء الفيجة لهذه المدينة الطيبة، عندنا خزان يكفي دمشق خمسة أيام فقط، أما حجمه ففلكي، وقد بني تحت الأرض بعمق أربعمئة متر، بعد الخزان عن سطح الأرض أربعمئة متر نحو العمق، من أجل أن يقلدوا تخزين الله للماء، قال تعالى:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[سورة الحجر: 22]

حتى نقلّد تخزين ربنا للماء؛ ماء يظل في الجبل سنوات وسنوات لا يتأثر، لا تنمو فيه الطحالب، لا يتغير طعمه، ضع ماء في وعاء أياماً عديدة يتغيّر طعمه، من أجل أن يبقى هذا الماء بطعمٍ طيب، وفيه معادن، خزنه الله تخزيناً عظيماً، فنحن إذا قلّدنا تخزين ربنا احتجنا إلى أن نبني مستودعاً للماء يبعد عن سطح الأرض أربعمئة متر تقريباً. فيا أيها الأخوة؛ هذا الكتاب فيه إعجازٌ مستمر.

كل التقدم العلمي لم يستطع أن يهز آية واحدة لأنها من عند خالق الأكوان :

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

هذه معجزةٌ حسية، وحمار سيدنا عزير معجزةٌ حسية، ولكن هذا القرآن كله معجزة عقلية بيانية، وبإمكانك أن تكتشف كل حين أن هذا كلام الله عز وجل لأن البشر لا يستطيع أن يأتي بهذا الكلام، تقرأ أنت:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

[سورة النحل: 8]

إنسان عاش قبل ألفٍ وأربعمئة عام؛ هناك الخيل، والبغال، والحمير، لو أن هذا القرآن كلام بشر، لكانت الآية:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

[سورة النحل: 8]

فقط، أما إنسان يعيش في هذا العصر؛ هناك طائرات، وهناك طائرات عملاقة، وبواخر، وحوَّامات، وقطارات، ومراكب فضائية، قال تعالى:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 8]

إذاً هو كلام الله عز وجل، كل التقدم العلمي لم يستطع أن يهز آية واحدة، لأن هذه الآيات من عند خالق الأكوان، الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن.

كلما تقدَّم العلم كشف جانباً من إعجاز القرآن الكريم :

أيها الأخوة الكرام؛ حينما نبحث في إعجاز القرآن العلمي، كأننا نضع أيدينا على معجزاتٍ رائعة.. ذات مرة قرأت هذه الآية:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ*نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

[سورة العلق: 15-16]

يوجَد في رأس الإنسان دماغ، ونسبةُ هذا الدماغ إلى الجسم أعلى نسبة في المخلوقات

قاطبةً، لو أخذنا دماغ الحوت الأزرق، نسبة وزن الدماغ إلى وزن الحوت قليلة، لو أخذنا دماغ الفيل، دماغ وحيد القَرن، دماغ الكركدن، نسبة وزن دماغ أي حيوان إلى جسمه نسبة ضئيلة، أما أعلى نسبة على الإطلاق هي نسبة وزن دماغ الإنسان إلى الإنسان، هذا الدماغ فيه فصٌ جبهي، وهو أضخم الفصوص، في هذا الفص الجبهي تتم المحاكمة، ويتم الحكم، ويتم الاستنباط، ويتم الاستنتاج، ويتم اليقين، والإنسان هنا يتحرك، تتم الإرادة هنا، إنسان أراد أن يسرق، تبدأ السرقة من فصه الجبهي، أراد أن يزني، يبدأ الزنا من فصِّه الجبهي، يقرر فيفعل، هذا الفص الجبهي اسمه الناصية، ناصية الرأس مقدمته، قال الله عز وجل:

(كَلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ*نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

[سورة العلق: 15-16]

فالكذب من الفص الجبهي، والخطأ من الفص الجبهي، والحديث عن معجزات القرآن الكريم العلمية حديث طويل، بل كلما تقدَّم العلم كشف جانباً من إعجاز القرآن الكريم.

العقل أودعه الله فينا كمقياس علمي والفطرة جبلنا عليها كمقياس انفعالي :

أيها الأخوة الكرام، ليس هناك من مانع أن نتأثر بالمعجزات الحسية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، كقوله تعالى:

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

ولا مانع من أن نتأثر بالغ التأثُّر بقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ

اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

وليس هناك من مانعٍ أيضاً أن تقرأ عن إعجاز القرآن العلمي، فتشعر أن هذا الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل القرآن، وأن هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومستحيلٌ وألف ألف مستحيل أن تأتي حقيقةٌ علمية تنقض آية في القرآن الكريم، لأن هذا القرآن كلامه والكون خلقه، والعقل أودعه فينا كمقياس علمي، والفطرة جبلنا عليها كمقياس انفعالي، وهكذا نجد أن القرآن الكريم كلام الله المعجز إلى أبد الآبدين.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (87- 95) : تفسير الآيات 261-269 ، الإنفاق
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-08-25

بسم الله الرحمن الرحيم

المال في فلسفته هو قيمة مطلقة للجهد البشري :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والثمانين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الواحدة والستين بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، بعد الإيمان لا شيء يعلو على الإنفاق، آمنت بالله فلا بد من التقرُّب إليه، ولا بد من دفع ثمن جنَّته، تتقرب إليه بالإنفاق، وتدفع ثمن جنةٍ عرضها السماوات والأرض بالإنفاق، والإنفاق بالمعنى الواسع إنفاق كل شيءٍ تملكه؛ إنفاق علمٍ، وإنفاقُ خبرةٍ، وإنفاق مالٍ، وإنفاق وقتٍ، وإنفاق جهدٍ، وإنفاق وجاهةٍ..

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

لكن الإنفاق إذا أُطلق انصرف في الأعم الأغلب إلى إنفاق المال، والمال قيمةٌ مطلقة، كيف؟ إنسان درس الطب ثلاثة وثلاثين عاماً، امتلك خبرةً في معالجة المرضى، يأتيه مريض يعالجه فيأخذ منه ألف ليرة، هذه الألف ليرة قيمة علمٍ دامت ثلاثة وثلاثين عاماً، إنسان نقل بضاعة من مكان إلى مكان، أخذ ألف ليرة، هذه الألف الثانية أجرة نقل بضاعة، إنسان أصلح آلة أخذ ألفا ليرة مثلاً، إنسان علَّم درس رياضيات أخذ ألف ليرة، فهذا الأخير قيمةٌ مطلقةٌ للجهد البشري، إذاً المال في فلسفته: قيمةٌ مطلقةٌ للجهد البشري.

الله سبحانه وتعالى خلقنا كي نربح عليه :

إنسان عنده بضاعة لها ثمن، إنسان عنده مواد زراعية لها ثمن، إنسان عنده خبرات لها ثمن، إنسان عنده خدمات لها ثمن، فأنت حينما تأخذ أجراً على عملك هذا الأجر يساوي جهدك، مثلاً: نقلُ سيارة رمل من مكان إلى مكان يكلّف ألف ليرة، فهذه الألف ليرة هي قيمة جهد بشري، فهي قيمةٌ مطلقةٌ لهذا الجهد، فالمعنى أنك حينما تنفق هذا الألف ماذا أنفقت؟ أنفقت جهداً، أنفقت جهداً يساوي أربع ساعات بعملٍ شاق، فأنت أنفقت جهداً مضنياً، حينما أنفقت الألف أنفقت جهداً، والطبيب إذا أنفق الألف أنفق علمه، والمدرس إذا أنفق ألفاً أنفق علمه أيضاً، والمحامي أنفق علمه، والمهندس

أنفق علمه، والبائع أنفق خبرته في الشراء والبيع، والصانع في صناعةٍ معيَّنة، والذي أدَّى الخدمات أنفق خدماته مقابل ألف، فالمال قيمةٌ مطلقةٌ للجهد البشري..

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ)

فكأن الله سبحانه وتعالى خلقنا كي نربح عليه، أنفِق حبةً يأتِك مئة ألف حبَّة، يأتِك سبعمئة ألف، يأتِك أعدادٌ لا تعد ولا تحصى..

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ)

الآية التالية تشجع المؤمنين على الإنفاق :

ذات مرَّة كنت في الغوطة الشرقية، فأطلعني أخٌ كريم صاحب بستان هناك على حبةٍ أنبتت خمساً وثلاثين سنبَلة، أخذت سنبلةً واحدةً، وفرطتها، وعددت حباتها فإذا هي خمسون قمحة، ضربت خمساً وثلاثين بخمسين، معنى هذا أن حبة واحدة أنبتت ألفاً وسبعمئة وخمسين حبة تقريباً، أي أن الله عزَّ وجل إذا أعطى أدهش، بعلم الزراعة في القديم الكيس يعطي عشرة أكياس، أو ثلاثين كيساً، أو أربعين كيساً، مرة أعطى سبعين كيساً، والآن يعطي الكيس كيساً، أو كيسين، أو ثلاثة أكياس، فالله عزَّ وجل يضاعف لمن يشاء..

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

أيْ أيها الإنسان: اعلم أنك إن أنفقت شيئاً ضاعفه الله لك أضعافاً كثيرة، هذه الحقيقة تحتاج إلى إيمان، أنت حينما تؤمن أن كل شيءٍ تنفقه يضاعفه الله لك أضعافاً كثيرة، وحينما تؤمن أن كل شيءٍ تنفقه يعلمه الله عزَّ وجل، فأنت بحاجة إلى حقيقتين: إلى حقيقة أن الله يعلم، والثانية إلى أن الله سيعوض، لذلك لا تجد إنساناً مؤمناً إيماناً قوياً إلا ويبادر إلى الإنفاق لأنه يعلم علم اليقين أن الله يعلم، وأن الله سيضاعف أضعافاً كثيرة.

أيها الأخوة، سمعت قصصاً حول هذه الآية واللهِ لا تعد ولا تحصى، والله: عشرة أضعاف الحد الأدنى، وأضعاف مضاعفة لا يحصيها إلا الله عزَّ وجل نظير الإنفاق، وكأن هذه الآية تشجع المؤمنين على الإنفاق..

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

قيمة العمل منحصرةٌ في النيَّة :

الإنفاق، هناك إنفاقٌ كثير ليس في سبيل الله، بل من أجل أن تنال إعجاب الآخرين، من أجل أن تلفت نظرهم، من أجل أن تعلو بينهم، من أجل أن تملك ولاءهم، من أجل أن تحقق مآربك معهم،

من أجل أن تستخذيهم، وهناك إنفاقٌ في سبيل الله، الإنفاق في سبيل الله يحتاج إلى إيمانٍ كبير كي يتولَّد عن هذا الإيمان الكبير نيَّةٌ خالصةٌ لله عزَّ وجل، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إنما الأعمال بالنيات))

[البخاري عن عمر بن الخطاب]

أي أن قيمة العمل منحصرةٌ في نيَّته فقط.

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى)

الإنسان لضعف إخلاصه يَمُنُّ على مَن أعطى، قد يقول لك: لحم كتفك من خيري، لولا عطائي لما كنت إنساناً محترماً، لولا عطائي لما نلت هذه الشهادة، لولا عطائي لما كنت تاجراً، كل ما عندك من خير بسببي، هذا هو المَن أن تذكّر الذي أعطيته بعطائك مرة وراء مرة وراء مرة حتى يتأذَّى، وحتى يخرج من جلده بسبب مَنّك..

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

الإخلاص لا يتأتَّى إلا من إيمان، والإيمان أساسه التوحيد، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، وحينما تعمل لوجه الله الكريم لا تحتاج إلى مَن يمدحك، ولا إلى مَن يثني عليك، ولا تحتاج لا إلى رخامةٍ تعلَّق على جدار المسجد، ولا إلى كتاب شكرٍ، ولا إلى تنويهٍ في جريدة، إنك تبتغي بهذا وجه الله عزَّ وجل، وتحتسبه عند الله..

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

كلما ضعف إخلاصك علا صوتك بالعمل الصالح :

المؤمن في الطريق الموصل إلى الله ينفق ماله ليقرِّب الناس إلى الله، ينفق ماله ليعرِّف الناس بالله، ينفق ماله ليطعم المحتاجين والفقراء في سبيل الله..

(ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى)

لا يتكلَّم، قاعدة ذهبية: " اصنع معروفاً مع إنسان، ثم ينبغي أن تنسى هذا المعروف وكأنك لم تفعله، أما إذا صُنع معك معروف، ينبغي ألا تنسى هذا المعروف ". حاول ألا تنسى الذي أخذت وأن تنسى الذي أعطيت، معظم الناس على العكس، مهما قدِّمت لهم من خدمات ومن أعمال طيبة هي في طيّ النسيان، أما إذا فعلوا فعلاً طيباً يملؤون الدنيا صراخاً وبياناً، ولفت نظرٍ، وإشارةً إلى هذه الأعمال، كلما ضعف إخلاصك علا صوتك بالعمل الصالح، كلما ضعف إخلاصك أردت أن تنتزع إعجاب الآخرين بعملك الصالح، لذلك هذا الذي يريد أن يُعْلِن عن أعماله ضعيفٌ في إخلاصه، بعيدٌ عن مرضاة ربه، لا يراقب الله في أعماله..

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

هذه فقط للتوضيح، إذا قلتُ لك: لك أجرك عند المَلِك، المَلِك ماذا يعطي؟ يعطي عطاءً كبيراً، فأقل عطاء له بيت أو مركبة، وهذا أقل عطاء، لك أجرك عند الملك، أي عند من يعطي بلا حساب، عند من يعطي عطاءً ثميناً، فكيف إذا كان أجرك عند ملك الملوك..

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

من أجَلّ القربات عند الله عزَّ وجل إنفاق الأموال :

أيها الأخوة الكرام... إن من أجَلّ القربات عند الله عزَّ وجل إنفاق الأموال، الأموال ـ كما قلت في بداية الدرس ـ تعبيرٌ عن جهدٍ بشري، فأحياناً مدرِّس يجلس مع الطالب ساعتين أو ثلاثاً، ويتقاضى خمسمئة ليرة، فإذا رأى فقيراً وأعطاه هذه الخمسمئة ليرة، فماذا أعطاه؟ أعطاه ثلاث ساعات من جهده، من التركيز، من محاولة تفهيم هذا الطالب الكسول، هذا جهدٌ كبير، هذا الجهد قبض ثمنه خمسمئة ليرة، فحينما أنفقها أنفق جهده، لذلك:

(لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

في المستقبل..

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

على الماضي. يعني ما من آيةٍ تملأ القلب طمأنينة كهذه الآية:

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

في المستقبل..

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

إذاً، المستقبل مغطى بعدم الخوف، والماضي مغطى بعدم الحُزن.

درءُ المفاسد مقدمٌ على جلب المنافع :

الإنسان يتحسَّر أحياناً على شبابه الضائع الفائت، ويخاف المستقبل المُظلم، هذه حالة أهل الإعراض عن الله عزَّ وجل، نادمٌ على كل شيء، خائفٌ من كل شيء، لكن المؤمن بالعكس، لا يخاف في المستقبل لأن الله ضمن له المستقبل..

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

ولا يندم على الماضي، لأن خَطَّه البياني صاعدٌ بانتظام، ولأن الزمن في مصلحته، إن الزمن يقرِّبه من جنَّة ربِّه.

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)

أي أنك إذا اعتذرت بأدبٍ جم، أو إذا نصحت، أو إذا ابتسمت، أو إذا وجَّهت للخير، فـ..

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ)

أيْ: تعرفه النفس أنه حق..

(خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى)

أي: أن درءُ المفاسد مقدمٌ على جلب المنافع، الصدقة فيها نفع للمتصدِّق، إذا درأت المفاسد فلم تمنَّ ولم تؤذ أفضل من أن تتصدق وأن تمن وتؤذي، لذلك قال الله تعالى:

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)

الصدقة تبطل بالمنِّ والأذى :

هذا الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فهذا الخلط أمره إلى الله عزَّ وجل، ليتها لم تزن ولم تتصدق، يعني مثلاً ليتك لم تنفق ولم تمنَّ على هذا الذي أنفقت، إذا أنفقت ينبغي أن تكتم، هناك قاعدة عامة: " إذا عملت عملاً صالحاً ينبغي أن تصمت، وأن تحتسب هذا العمل لله "، أما الحديث: أعطيته، منحته، وهبته، فضلت عليه، لولاي ما صار رجلاً يؤبه له، لا، سيصير رجلاً من دونك، كلام فارغ يقوله معظم الناس، لحم أكتافه من خيري ـ مثلاً ـ ما هذا الكلام؟!! كلامٌ فيه بعدٌ عن الله عزَّ وجل..

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ)

عن هذا المتصدق وصدقته..

(حَلِيمٌ)

على منِّه وأذاه، فالله عزَّ وجل حليم عن معاصي العباد، غنيٌ عن صدقة هذا المتصدق..

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

[سورة محمد: 38]

ثم يقول الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى)

فالصدقة كما قال بعض العلماء: تبطل بالمنِّ والأذى، تنعدم قيمتها، لا يقبلها الله عزَّ وجل، قال بعض العلماء: لا يكتبها مَلَكُ الحسنات إذا كان معها مَنّ وأذى.

المنُّ يُوصل إلى الأذى :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى)

أي أن المن يوصل إلى الأذى، مننت عليه مرة، وثانية، وثالثة، ورابعة فخرج من جلده وقال: لقد آذيتني بهذا المن، أو أن بعض العلماء يقول: المنُّ أن تذكره بعملك الطيب، ثم تقسو عليه في الكلام: ما شكرتني!! ما أعلنت ذلك أمام الناس، ما بيَّنت، ما نوَّهت، فتقسو عليه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

هذا الرياء، أي إذا كان جمهور من الناس يرونه وهو ينفق ماله، واللهِ سمعت عن رجل أمام الجمهور ينفق مئات الألوف، أما أقرباؤه الأدنون فهم في أمسِّ الحاجة إلى المال ولا ينفق عليهم شيئاً، فأقرباؤه إذا أنفق عليهم لا يعلم أحد بهذا الإنفاق، أما إذا كان بحفل كبير وصار تبرُّعات فهو ينفق مئة ألف، بل مليون، مرة سمعت باحتفال لجمع تبرعات أن أحدهم أسمع ووعد بملايين، ثم لم يدفع شيئاً، فهو قال هذا بلسانه ولم يصدق هذا بعمله..

(كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ)

لماذا راءى؟ قال:

(وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

لو آمن بالله واليوم الآخر لما احتاج إلى أن يرائي الناس، ولما احتاج إلى أن يظهر عمله الصالح أمامهم، ولما احتاج إلى أن ينتزع إعجابهم، ولما احتاج إلى أن يذكّرهم بعمله كي يثنوا عليه أكثر وأكثر.

إذا أنفقت من مالِك ولم تشعر بسعادةٍ معنى ذلك أن الإخلاص ضعيفٌ :

قال تعالى:

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ)

أي حجر أملس عليه تراب، هذا التراب هو العمل الصالح..

(فَأَصَابَهُ وَابِلٌ)

جاء مطرٌ غزير، فأزال التراب عن هذا الحجر، فرجع الحجر صلباً أملس لا تراب عليه..

(لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

هذه الآية تنقلنا إلى حقيقةٍ دقيقة: أنك إذا عملت الصالحات، ثم عملت الصالحات، وأنفقت من مالِك، وخدمت الناس، ولم تشعر بسعادةٍ إطلاقاً، فمعنى ذلك أن الإخلاص ضعيفٌ جداً، وأنك تبتغي بهذا إرضاء الناس، وكسب ثنائهم، أما إذا أردت الله عزَّ وجل، لا تحتاج إلى كل هذا.

من لم يحقق لنفسه شيئاً من مرضاة الله فهو بعيد عن الإيمان بالله :

قال تعالى:

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ)

حجر..

(عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ)

مطرٌ..

(فَتَرَكَهُ صَلْداً)

أملس..

(لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا)

أي لا يقدرون على شيءٍ من الإقبال على الله مما كسبوا من معاصٍ لأنهم منافقون، بمعنى آخر: لم يحققوا لأنفسهم شيئاً من مرضاة الله تعالى لأنهم بعيدون عن الإيمان بالله، الإيمان الذي يحملك على الإخلاص له..

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

والمنافقون في الأساس هم كافرون.

المال بيد المؤمن له دورٌ كبيرٌ وخطير :

ثم يقول الله عزَّ وجل:

(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

يا أخوان: المال بيد المؤمن له دورٌ كبيرٌ وخطير، أنت بإمكانك أن تعزز مكانتك عند الله بإنفاق المال، بإمكانك أن تصطلح مع الله بإنفاق المال، بإمكانك أن تكفِّر بعض السيئات بإنفاق المال، بإمكانك أن تعلو مكانةً عند الله بإنفاق المال..

(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً)

[سورة الإنسان]

لا يبتغون بإنفاق المال إلا وجه الله تعالى. إلهي أنت مقصدي ورضاك مطلبي، إذا كنت عنا راضياً فهو قصدنا..

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غضاب

* * *

الإخلاص معه سعادة لا توصف لأن الإخلاص يرقى بالعمل إلى الله سبحانه، أنت حينما تعمل عملاً مخلصاً به فهذا العمل يصعد إلى الله، فإذا صعد العمل إلى الله يعود عليك من الله أنوارٌ تقذف في قلبك، وراحةٌ تتلبَّسها نفسك، تشعر بسعادة كبيرة جداً، فالذي يعمل عملاً صالحاً مخلصاً لا يشعر بحاجة إلى ثناء الناس، ولا إلى شكرهم، ولا إلى مدحهم، هو في غنىً عن كل ذلك، لأن الله ملأ قلبه أمناً وطمأنينةً، وملأ قلبه سعادةً.

بإنفاق المال يثبِّت الإنسان لنفسه مكانة عند الله :

قال تعالى:

(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

أي أراد أن يثبِّت لنفسه مكانة عند الله بإنفاق المال، لذلك أنفق المال فيما بينه وبين الله، أنفق المال بيمينه ولم تدرِ شماله ماذا أنفقت يمينه، أنفق المال سرّاً، أنفق المال بلا ضجيج، أنفق المال فيما بينه وبين الله، ثبَّت مركزه عند الله بإنفاق ماله.

أحياناً يمرض مدير دائرة ما، فبعض الموظَّفين يذهب إلى المستشفى ومعه باقة ورد، لو سألته بعمق: لماذا فعلت هذا؟ يقول: أردت أن أعزز مكانتي عند المدير، ولسان حاله يقول: أنا موظَّف مخلص، يؤلمني ما يؤلمك، وقد تقرَّبت إليك بهذه الهدية..

(وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ)

(الطل) هو الندى..

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أي أن الطل يكفيها، والوابل يغنيها، كإنسان أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم. يا أخوان هذا الشيء بيد الناس جميعاً، وربَّ درهمٍ سبق ألف درهم، درهمٌ تنفقه في إخلاص خيرٌ من مئة ألف درهم ينفق في رياء، درهمٌ تنفقه في حياتك خيرٌ من مئة ألف درهم يُنفَق بعد مماتك، قد يُنفَق وقد لا ينفق بعد الموت، فأنت حينما تنفق المال تبغي تثبيتاً من نفسك عند الله عزَّ وجل.

بالمناسبة، يمكن أن تنفق القليل وهو عند الله كثير، فإذا كنت صغيراً، ولك دخلٌ محدود، أو ليس لك دخل، لكن معك مبلغٌ من أبيك فأنفقته هذا يعدل عند الله ملايين، فقيمة المال بمعناه لا بحجمه. أي إن جاء الوابل ـ المطر ـ آتت أكلها ضعفين، وإن لم يأتِ الوابل فالطل يكفيها.

إنفاق المال رئاء الناس يجعله الله يوم القيامة هباءً منثوراً :

يا أيها الأخوة، أما الشيء الخطير:

(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

ما قولك: إنسان بمجلس، بحفلة أنفق مليوناً، وشخص آخر أنفق مئة ألف، دفعها وهو في أمسِّ الحاجة إلى هذا الإنفاق، فيوم القيامة ينظر إليه وقد جعله الله هباءً منثورا، بطل عمله، ينظر إلى عمله الذي راءى فيه الناس، أنفق ماله رئاء الناس، فإذا الله عزَّ وجل قد جعله هباءً منثوراً لأنه ما أخلص، كما لو أن إنساناً..

(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ)

بستان رائع جداً من نخيل، والنخيل من الأشجار المعمرة، وقد تعيش ستة آلاف عام..

(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

أيْ: ينبوع ماء غزير، ماء رَقْراق، بستان جميل، أشجار مثمرة، بستان له رَيْع كبير، لو ضمَّن فاكهته لضمَّنها بأموال طائلة.

الإنسان المرائي المنافق لا قيمة لطاعته إطلاقاً :

قال تعالى:

(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ)

تقدَّم في السن، فعجز عن العمل..

(وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ)

أولاد صغار كثيرون..

(فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ)

أي بعدما أصابه الكِبَر، وبعد أن قبع في البيت، وبعدما عجز عن الكسب، كل أمله بهذا البستان ذي الثمار اليانعة والموارد الكبيرة، وهو في أمس الحاجة إلى هذا البستان، وإلى فاكهته ورَيْعِه، أصاب هذا البستان إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت أشجاره، وذهب كل ثمر هذا البستان.

(وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ)

تشبيه رائع جداً، فقد يخيب أملك إذا كنت ترجو عملاً صالحاً مقبولاً وأنت في أمس الحاجة إليه، ثم قد يُحْبَط عملك وأنت في أمس الحاجة إلى هذا العمل.

((ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار قالوا يا رسول الله مصلين قال نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه))

[أبو منصور الديلمي عن أنس رضي الله عنه]

فإذا كان الإنسان فيما بينه وبين الله يعصيه، وفيما بينه وبين الناس يطيعه، هذا إنسان مراءٍ منافق لا قيمة لطاعته إطلاقاً، هو يطيعه ليحفظ مكانته عند الناس، لا يطيعه محبةً له، ولا يجتنب المعاصي خوفاً منه بل خوفاً على سمعته، إذاً فهذا إنسان لا قيمة له عند الله.

الله طيبٌ ولا يقبل إلا طيباً ولا يقبل منك نفقةً إلا إذا كانت من مالٍ حلال :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

أي إن الله طيبٌ ولا يقبل إلا طيباً، لا يقبل الله منك نفقةً إلا إذا كانت من مالٍ حلال، ومن كَدٍ حلال، ومن سعي حلال، أما الذي ينفق ماله من أموال ليست حلالاً، وليس كسبها مشروعاً، لعله أنفق من مالٍ ربَويّ، أو من فائدة مالٍ ربوي، يقول الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ)

أنفق المال الحلال، أنفق الرزق الحلال الذي سعيت لجلبه بطريقٍ مشروع..

(وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ)

أي: زكاة الزروع..

(وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ)

أكثر الناس يقدم الشيء السيئ، صدقوا أنه في رمضان إنسان قدَّم لمسجد أحذية كي توزَّع على سبيل الزكاة، كل فردة نمرة، جمع من محله التجاري خلال عام النماذج غير الصحيحة، إحدى الزوجين أربعين والأخرى اثنين وأربعين، جمعها في كيس وأرسلها إلى مسجد، هذه أين مكانها؟ في الحاوية طبعاً، إنسان يقدِّم أحياناً ثياباً بالية، مستعملة استعمالاً كثيفاً عنيفاً، أين مكانها؟ في الحاوية، إنسان يقدم طعاماً تعافُه النفس، هذا شيء يتناقض مع كمال الإيمان.

الإنفاق في سبيل الله يجب أن يكون من شيء نفيس حتى يعوِّضكم الله أضعافاً مضاعفةً:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا)

أي تقصدوا..

(الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ)

أحياناً فاكهة في أول فسادها، أفأنت تشتريها بسعر عالٍ؟ لا. أبداً، لو كان كيلو التفاح ـ فرضاً ـ بخمسين ليرة، تشتري التفاح على وشك الفساد بخمسين؟ تقول له الكيلو بعشرة، هذا يستعمل لصناعة الخل، فالبضاعة السيئة لا يمكن أن تشتريها إلا بثمنٍ بخس..

(إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ)

أي أن تقلّلوا من قيمتها، أن تأخذوها بثمنٍ بخس..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

هذا في الطعام كثيراً ما يقع، فتجد من يقدم طعاماً شبه فاسد، أو في أول فساده، هذا الطعام لا قيمة له عند الله عزَّ وجل، أطعمْ الفقير طعاماً يشتهيه ويحبه، أعطه ثياباً يحبُّها، يلبسها مَزْهواً بها، لا تعطه ثياباً يلبسها مستحياً به.

(أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ)

عن هذا العمل الذي تشوبه النقيصة..

(حَمِيدٌ)

أيضاً لو أنكم أنفقتم نفقةً من كسبكم الحلال من شيءٍ نفيس، كان يحمدكم ويعوِّض عليكم أضعافاً مضاعفةً.

* * * *

خصائص الشيطان :

أخواننا الكرام، يجب أن تتعلم الكثير عن خصائص الشيطان لتتجنبها.

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ)

حدثنا أخ كان والده من علماء دمشق، قال له: يا بني أدِّب نفسك. فقال له: كيف؟ قال: إذا أردت أن تنفق مئة، ثم جاءك وسواسٌ من الشيطان فقال: دعك من هذا الإنفاق، أعدْ هذا المال إلى جيبك.

فعليك أن تعاقب نفسك، كيف تعاقبها؟ أنفق مئتين، كلما جاء الوسواس ليمنعك من أن تنفق أنفق الضعف بهذا تؤدب النفس وتعلمها ألا تتردد في الإنفاق في سبيل الله.

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً)

الشيطان كذلك يدعوك إلى الزنا، إلى اقتراف الحرام، إلى أن تملأ عينيك من حسناوات الطريق، إلى اقتراف المعاصي والآثام، يدعوك إلى الفحشاء، وإذا أنفقت مالك في سبيل الله أخافك من الإنفاق.

الله عز وجل أعطى الأنبياء العلم والحكمة لأنه يحبهم :

قال تعالى:

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

ففضل الله لا يُحَدّ..

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

الحكمة أن تعرف الحق، الحكمة أن تعرف المنهج، الحكمة أن تحسن التصرف، الحكمة أن تقول كلمةً مناسبةً في الوقت المناسب مع الإنسان المناسب في القدر المناسب، هذه هي الحكمة، الحكمة أثمن شيءٍ تملكه، إنك بالحكمة تجلب المال وبالحمق تبدده، بالحكمة تسعد بامرأةٍ من الدرجة الخامسة وبالحمق تشقى بامرأةٍ من الدرجة الأولى..

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ)

والحكمة تُؤتَى ولا تؤخذ، تؤتى مكافأةً للمؤمن..

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

أيْ..

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

[سورة القصص: 76]

أي أن الله أعطاه المال وهو لا يحبه، أعطى فرعون المُلك وهو لا يحبه، لكن أعطى الأنبياء العلم والحكمة لأنه يحبهم، فينبغي أن يكون عطاؤك من الله عزَّ وجل من نوع عطاء الأنبياء..

(وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (88- 95) : تفسير الآيات 270-274، الإنفاق 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-09-01

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنفاق بكل مستوياته ودرجاته وصفاته في علم الله عز وجل :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والثمانين من دروس سورة البقرة، ومع الآية السبعين بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

أيَّةُ نفقة تنفقها؛ صغيرة أو كبيرة، جليلة أو حقيرة، سراً أو علانية، وأنت في ضيقٍ مادي وأنت في بحبوحة مادية، في حياتك وبعد مماتك..

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ)

هذه (من) تفيد استغراق أفراد النوع، مهما قَلَّت..

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ)

لو أنفقت ليرة واحدة، أو لو أنفقت مليون ليرة، لو أنفقت نفقة سراً أو علانية، وأنت متضايق مادياً، وأنت في بحبوحة، كل أنواع النفقات، وقد يكون الإنفاق مادياً وقد يكون من نوعٍ آخر، كل أنواع الإنفاق بكل مستوياته وكمياته ودرجاته وصفاته وملابساته في علم الله عز وجل.

من أنفق نفقة في سبيل الله اطمأن إلى أن الله يعلم وهذا يبعده عن النفاق :

وبعد، أمعن الفكر والنظر: لو زرت مريضاً ومعك هدية، أنت ماذا تفعل؟ تضع بطاقة على الهدية، ليعلم هذا الذي زرته أن هذه الهدية منك، إذاً المُنفق حريص أن يعلم الذي أنفقت من أجله أن هذا الإنفاق منك، هذه القضية الأساسية في الإنفاق مغطاة بهذه الآية، معك إيصال، أو ليس معك إيصال، هناك شهود، أو ليس من شهود، نوَّهت، ما نوهت، سكتَّ، تكلمت، صرَّحت، فإن الله يعلمه، لذلك فالمؤمن إذا أنفق نفقة في سبيل الله مطمئنٌ أشد الطمأنينة إلى أن الله يعلم، وهذا الذي يبعدك عن النفاق، وهذا الذي يبعدك عن استجداء المديح، وهذا الذي يُزَهِّدك في أن يُكتب اسمك مع المحسنين، وأن يكون لك وجاهة عند الناس، كل هذا أنت مستغنٍ عنه لأن الله يعلم، وإذا كان الله يعلم فغيره إن علم أو لم يعلم سيَّان، علم أو لم يعلم فلا فرق أبداً.

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ)

شخص نذر إن شفى الله ابنه ليوزِّعن لحماً على الفقراء، هذا نوع من الإنفاق، لكنه إنفاق مشروط، الإنفاق الأول إنفاق من دون شرط، والإنفاق الثاني إنفاق مشروط، لكني أضع بين أيديكم هذه الحقيقة: الله عز وجل لا يُشارَط، ولا يُجَرب، والأولى أن تنفق من دون شرط؛ لأن الله يعلم، يعلم أن الابن مريض وأن هذا الأب حريص على شفاء ابنه، يا رب قد أنفقتُ هذه النفقة لعلك تنظر له بالشفاء، أما إن شفيته أدفع، هذا مقبول، ولكن الأكمل أن تنفق بلا شرط، مقبول أن تنذر نذراً، ولكن الأكمل والأقوى والأبلغ والأرقى أن تنفق النفقة من دون شرط..

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ)

لذلك قالوا: " الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير "، "بكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها"، الله جل جلاله على علو مكانه، وعلى علو قدره يُسترضَى، ويُسترضَى بالصدقة، فإذا وجدت أنك بعيدٌ عن الحق قليلاً، أو أن شبح مصيبة لاح أمامك، أو أن شيئاً تخافه يقترب منك، أو أن عدواً متربِّصاً يريد أن يوقع بك، وليس لك أحدٌ يعينك إلا الله، فاسترض الله بالصدقة فإن البلاء لا يتخطَّاها، وتقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وكم من بلاءٍ صرفه الله بالصدقة، وكم من مرضٍ شُفي الإنسان منه بالصدقة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((داووا مرضاكم بالصدقة))

[رواه الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

الصدقة سُمِّيَت صدقةً لأنها تؤكد صدق الإنسان في محبة الله :

سُمِّيَت الصدقة صدقةً لأنها تؤكد صدق الإنسان في محبة الله، فالمال رخيص عنده أمام رضوان الله، المال محبب، فإذا أنفقت المحبب من أجل مَن تحبه فهذه أكثر، الصدقة برهان على أنك مؤمن، فهناك أعمال تفعلها لنفسك، هذه لا ترقى بها، أما هناك أفعال تفعلها تعارض فيها رغبتك.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

ما قيمة الإنفاق لو أنك لا تحب المال؟! فلأنك تحب المال فللإنفاق قيمة..

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

يحب المال، يحب أن يكثر منه، يحب أن يكنزه، يحب أن يكون مطمئناً لرصيدٍ مرتفع له، فإذا أنفقت الشيء المحبب ترقى عند الله عز وجل، فلولا أنك لا تحب المال لما ارتقيت بإنفاقه، ولولا أن الله رَكَّبَ فينا حب المال لما ارتقى الإنسان بإنفاقه.

الإنفاق له ملابسات كثيرة :

أيها الأخوة... ما دمنا قد وصلنا إلى هذه النقطة، إذا كنت في فقرٍ فالإنفاق له أجرٌ أكبر، إذا كنت في حاجة إلى المال وقد أنفقته في سبيل الله فلك أجر أكبر، إذا كنت في شبابك صحيحاً شحيحاً، ترجو الغنى وتخشى الفقر وأنفقت المال فالأجر أكبر، إذا كان الذي أنفقته يساوي نصف ما تملك، فالأجر أكبر، من هنا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن: "رُبّ درهم سبق ألف درهم".

قد ينفق شاب ألف ليرة، وهو يملك ألفاً وخمسمئة، هذا الألف يزيد عن مليون يملك صاحبه مئتي مليون، رب درهم سبق ألف درهم، درهم تنفقه في إخلاص خير من مئة ألف درهم ينفق في رياء، درهم تنفقه في حياتك خير من مئة ألف درهم ينفقُ بعد مماتك، الإنسان على فراش الموت قد يتصدق: أعطوا فلاناً مئة ألف، أعطوا فلاناً مليون. ولكن في هذه اللحظات لا قيمة للمال عنده، لك أجر، ولكن ليس كما لو أنفقته وأنت صحيح، وأنت تحتاج هذا المال.

على كل أيها الأخوة، الآية عالجت نقطة بالإنفاق مهمة جداً: أنك إذا أنفقت نفقةً بلا قيد أو شرط، أو مشروطة وهي النذر، فإن الله يعلمه، إذاً فلا قيمة للإيصال، ولا قيمة لمديح الناس، ولا قيمة للشهود، يكفي أن الله يعلم أنك أنفقت هذا المال ابتغاء وجهه ورضوانه.

الإنفاق له ملابسات كثيرة؛ الإخلاص يرفع قيمة الإنفاق، أن يكون المال قليلاً يرفع قيمة الإنفاق، أن تنفق المال وأنت صحيح شحيح يرفع قيمة الإنفاق، هناك عوامل كثيرة ترفع قيمة الإنفاق، وهناك عوامل كثيرة أيضاً تقلل من قيمة الإنفاق، مَن أنفق رياءً لا قيمة لإنفاقه، ومَن أنفق وقد زهد بالمال، وقد صار المال لا يعني عنده شيئاً، فليس هناك كبير قيمة لإنفاقه..

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

لو أنفقت نفقة في غير محلها فأنت ظالمٌ لنفسك :

الآن، ما معنى الظالمين هنا؟ ما علاقة الظالمين بالإنفاق؟ أي أنك إذا أنفقت رياءً فأنت ظالمٌ لنفسك، إذا أنفقت وأتبعت ما أنفقت المَنَّ والأذى فأنت ظالم لنفسك، إذا أنفقت نفقةً قليلةً إلى جنب ما تملك فأنت ظالم لنفسك..

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ)

بالرياء والمن والأذى، أو لو أنفقت نفقة في غير محلها فأنت ظالمٌ لنفسك، لو أنفقت نفقة من أجل شهوتك وميولك فأنت ظالم لنفسك، هذا الذي يظلم نفسه سوف يعاقب، لم يجد أحداً يمنع عنه عقاب الله عز وجل، لو أن الله أراد أن يهلك مال إنسانٍ أنفق ماله رئاء الناس لم يجد مصيراً يحول بينه وبين عقاب الله عز وجل..

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ* إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ)

في أمكنة مناسبة، في مواقف مناسبة جداً يجب أن تُعلن: أنني أدفع هذا المبلغ، ذات مرة حضرت حفلاً في دار الأيتام وجرى التبرع علناً، جُمع مبلغ كبير جداً، يقول: أنا أدفع مئة ألف، يستحي أن يدفع أقل من ذلك، لأن حجمه المالي كبير جداً، فكل واحد يعطي رقماً يتناسب مع حجمه المالي، فكان المجموع كبيراً جداً، في بعض السنوات كان هناك توجيه آخر ألاّ يُعلن عن الأسماء والأرقام، فكان المبلغ أقل من العُشر، تجربة عاينتها بنفسي، هناك مواطن يجب أن تعلن: أنا أنفقت كذا..

(إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ)

الإنفاق عما تجود به النفس له عدة محاسن :

الإنفاق عما تجود به النفس له محاسن منها أولاً: تشجعون الآخرين، أنت شَجَّعت، وثانياً: ليست هذه النفقة متعلقة بالإنسان، متعلقة ببناء مسجد، متعلقة بدار أيتام، متعلقة بمعهد شرعي، متعلقة مثلاً بصندوق العافية، متعلقة بصندوق الزواج، لا تجرحُ أحداً بهذا الإنفاق، أما إذا كان هذا الإنفاق متعلقاً بإنسان، فلان الفلاني يحتاج إلى مساعدة فلا تقل: أنا دفعت له عشرة آلاف، إذا كان الإنفاق متعلقاً بإنسان ينبغي ألا تعلن هذا الإنفاق، أن يكون بينك وبين الله، هناك مواطن الإعلان فيها أولى إذا لم يتعلق بإنسان، مع نية المنفق التشجيع، وفي مواطن أخرى الكتمان أولى، إذا تعلّق بإنسان وليس هناك منافسة في الدفع.

(إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

الذي عنده احتمال أن يرائي ـ والإنسان بصورة عامة ضعيف المقاومة أمام الرياء ـ ينبغي أن ينفق من دون رياء، أن ينفق سراً، أن ينفق مع الكتمان، حينما تشعر أن نفسك تحدثك أنك محسن كبير، وأنك بهذا أصبحت فوق الناس، إن شعرت بهذا ينبغي أن تكتم إنفاقك، وإن كان إيمانك قوياً جداً، ولا تعبأ بهذه الوساوس، ولا تعلّق كبير أهمية على ما يقول الناس عن إحسانك، ولم يتعلق الإنفاق بإنسان، وأردت التشجيع، أعلن هذا الإنفاق لتكون قدوةً للآخرين.

(إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

فالله خبير إذا لم ترد بهذا الإعلان المُراءاة أو أنك أردت التشجيع، مَن يعرف ذلك؟ لا يعلم هذا إلا الله، أنا أعلنت عن الإنفاق، فيا ترى هل أريد سمعة، ثناءً، مديحاً، مكانة، تألقاً، وجاهةً، أو أريد أن أشجع المنفقين؟ هذا لا يعلمه إلا الله، وهو وحده يعلم ويكافئ.

الهدى بيد الله وحده ولا يملكه أحد سواه :

قال تعالى:

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ* لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

أي أنت يا محمد لا تستطيع أن تهدي أحداً قسراً، إنهم مخيَّرون، الهدى الذي يقودهم إلى الإنفاق لا تملكه أنت.

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

[سورة القصص: 56]

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

إنك لا تستطيع أن تهدي من تشاء لأنهم مخيَّرون. و..

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

لست محاسباً عن ضلالهم، ولكن الله حينما يقول:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

أي فحوى دعوتك حق، ولكنك لن تستطيع أن تهدي مَن تشاء، كل إنسان له اختيار، فليس عليك هداهم، ليس عليك أن تهديهم الهدى الذي يدفعهم إلى أن ينفقوا، ليس هذا عليك بل عليك أن تبيِّن لهم، عليك أن تبلغهم، عليك أن تذكرهم، عليك أن تحثهم، ليس عليك أن تجبرهم على ذلك، لأن الله عز وجل يقول:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدين)

[سورة البقرة: 256]

الإنسان مخير فيما يتعلق بالهداية :

قال تعالى:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

مَن يشاء أن يهتدي إليه يهديه الله عز وجل، والأولى أن يعود فاعل يشاء على الإنسان، ولكن الله:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

فيما يتعلق بالهداية، فأنت مخير، إن شئت الهداية يهديك الله عز وجل، وإن أردت خلاف الهداية فالله عز وجل يدفعك إلى ما تريد لأنك مخير، ولأن مشيئته متعلقة برغبتك أنت، مشيئته سماحٌ لك، المشيئة هنا إذا ارتبطت باختيار الإنسان مشيئة سماح، أنت أصررت على هذا الشيء فسمح الله لك أن تهتدي أو أن تبقى في ضلال.

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ)

لو فرضنا أن إنساناً عنده صندوق حديدي وله فتحة، فكلما زاد من مصروفه شيء وضعه في هذا الصندوق، فهل هذا الذي وضعه في الصندوق خَسِرَهُ؟ الصندوق كله له، فكيف إذا كان كل شيء يدفعه في هذا الصندوق سيتضاعف ملايين المرات..

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ)

تروي كتب السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يوزع لحم شاةٍ ومعه السيدة عائشة، وَزَّع أعضاءها، وأجزاءها، ولم يبق منها إلا كتفها، السيدة عائشة تريد أن تأكل من هذا اللحم، قالت: يا رسول الله لم يبق إلا كتفها دعه لنا. فقال عليه الصلاة والسلام:

((بل بقيت كلها إلا كتفها))

[الترمذي عن عائشة]

تروي القصص أن سيدنا عمر أمسك تفاحة قال: " أكلتها ذهبت أطعمتها بقيت "، بين يديك مال، المال الذي تنفقه يذهب، إن تنفقه على طعامك وشرابك ولباسك ولذائذك ومتعك يذهب، والمال الذي تعطيه للفقراء يبقى، ومن قدَّم ماله أمامه سَرَّهُ اللحاق به.

لا يسمَّى الإنفاق إنفاقاً إلا إذا كان ابتغاء وجه الله :

قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ)

من ألطف توجيهات هذه الآية أن هذه الآية خبرية ولكن جاءت بمعرض الإنشاء، أي أنفقوا ابتغاء وجه الله، كأن يقول الله عز وجل:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ)

[سورة البقرة: 233]

هذا شأن الوالدات، وكأن الله يقول: يا أيتها الوالدات أرضعن أولادكن حولين كاملين، هذا يشبه قوله تعالى:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً)

[سورة آل عمران: 97]

على بيت الله الحرام، أي يا أيها المؤمنون اجعلوه آمناً، ينبغي أن يكون آمناً، هذا على شاكلة قوله تعالى:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

أي يا أيها الذين آمنوا زوّجوا الطيبين للطيبات، هذه آيات جاءت على شكل خبر، ولكن قصدها الإنشاء والطلب، كذلك هنا:

(وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ)

أي أن الأصل في الإنفاق أن يكون ابتغاء وجه الله، لا يسمَّى الإنفاق إنفاقاً إلا إذا كان ابتغاء وجه الله، لا يكون الإنفاق عبادة إلاّ إذا كان ابتغاء وجه الله، هكذا.

(وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ)

هذا المعنى الثاني.

في الإنفاق معنيان أساسيان :

إخواننا الكرام... بالإنفاق هناك معنيان أساسيان؛ أن تعلم أن الله يعلم، وأنه قادر أن يعوض عليك الذي أنفقته. فأول آية:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ)

الآية الثانية:

(وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ)

لكن طبعاً وبالتأكيد ليس معنى هذه الآية أنك إذا أنفقت ألف ليرة الساعة السادسة صباحاً يأتيك الساعة السابعة عشرة آلاف، لا، لو أن الأمر كذلك لالتغى الاختيار، قل للناس: ادفع مئة، وخذ ألفاً، سوف تجد مليون إنسان واقفين بالدور للدفع، ولكن تدفع ابتغاء وجه الله، تدفع ولا تنتظر التعويض، تدفع ولا تنتظر المقابل، تدفع ولا تنتظر أن يوفَّى إليك، تدفع ابتغاء وجه الله، ولكن الله جل جلاله لا بد من أن يضاعف لك الذي أنفقته أضعافاً كثيرة، وقد يصل هذا إلى سبعمئة ضعف، فمستحيل وألف ألف مستحيل أن تنفق شيئاً دون أن يعوَّض عليك أضعافاً مضاعفة.

لا يمنعك من الإنفاق إلا ضعف إيمانك وجهلك بما عند الله من التعويض بعطاء كبير:

قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

والله يا أخوان لو أن الإنسان عرف كرم الله عز وجل، وعرف ما عند الله في الدنيا والآخرة، والله لأنفق إنفاقاً بغير حساب، فهؤلاء الذين ينفقون أموالهم أصبح عندهم رغبة في الإنفاق لدرجة أنهم كلما أنفقوا ازدادوا قوةً وثراءً.

سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، يقول: " ماذا أفعل إذا كنت أنفق مئة في الصباح فيعطيني الله ألفاً في المساء "، ماذا أفعل في نفسي، كل واحد منا حوله ناس أغنياء مع كونهم محسنين، تجده ينفق بغير حساب، والله يعطيه بغير حساب، التعامل مع الله مُدهش، أحد إخواننا الكرام ـ والله أنا أروي هذه القصة لأنها نادرة جداً ـ يعمل عملاً بسيطاً جداً بألفين وخمسمئة، القصة

قديمة من عشرين سنة، يتقاضى ألفين وخمسمئة بالشهر، له عمل تجاري محدود جداً، فجاءه أخ مؤمن، قال له: أنا فقدت عملي ولا دخل لي منذ اليوم، وما من أمل، قال له: تعال أتقاسم معك هذا الدخل. دخلي كان ألفين وخمسمئة وصار منذ الآن ألفاً ومئتين وخمسين لي، و تأخذ أنت ألفاً ومئتين وخمسين. فالله ألهمه شيئاً جديداً ببيع صنف معين، أول شهر بعد هذه المناصفة جاءه خمسة عشر ألف ليرة، مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تنفق ابتغاء وجه الله إلاّ و يعوض عليك الأضعاف المضاعفة، لأن الله كريم، ولكن إيَّاك أن تنفق وأنت تنتظر التعويض، أنفق ابتغاء وجه الله، أنفق ولا تنتظر أن يوفَّى إليك شيء، ولكن الله عز وجل لا ينساك من فضله.

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

هذه الآيات لها معنيان، الأول: أن الله يعلم ما تنفق، والمعنى الثاني: أن الله يوفي إليك ما تنفق أضعافاً مضاعفة، ما الذي يمنعك أن تنفق؟ ضعف الإيمان، والجهل بما عند الله عز وجل، أكرر: لا يمنعك من الإنفاق إلا ضعف إيمانك، وجهلك بما عند الله من التعويض بعطاء كبير.

الفقراء أولى الناس أن تنفق عليهم :

ثم يقول الله عز وجل:

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة... مَن أولى الناس أن تنفق عليهم؟ قال تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ)

يجب أن نفرق بين الفقير والمسكين على اختلافٍ في التعريف، على كلٍ أحدهما ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، والثاني لا يجد حاجته. الإنسان له دخل، له دخل خمسة آلاف ليرة، لكن مرض ابنه مرضاً شديداً، دخله يكاد يكفي طعامه وشرابه، مرض ابنه مرضاً شديداً هذا يحتاج إلى مساعدة ولو أن له دخل، فالفقير هو الذي لا يجد حاجته، دخله أقل من حاجته، أما المسكين ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ممكن أن تعطي إنساناً أنيقاً يسكن ببيت يملكه، عنده سيارة صغيرة جداً، أساسية جداً في حياته، وهو بحاجة إلى عمليه جراحية لابنه، هذا فقير لا يجد حاجته، والفقير يجب أن يؤمن له طعامه، وشرابه، وكسوته، ومركبه وقد يكون دراجة، وأن يؤمن له تطبيب أولاده، وحرفته وأدوات حرفته، هذه أساسيات، فهناك شخص لا يدفع إلا للمتسول، وقد يكون هذا المتسول أغنى من المتصدق بكثير، على كلٍ ما دام هذا الفقير يحتاج أن تساعده فساعده.

تعريف الفقير :

دقق في هذه الآية..

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً)

هذا الذي يجب أن تنفق عليه لا يسألك، ويتجَمَّل، ولا يلحُّ إطلاقاً، وتحسبه غنياً، يقتضي هذا الكلام الإلهي أن تبحث أنت عنه، هو لا يسألك، ولا يقتحم عليك مكانك، لا يطلب منك بقوة، لا يلح، هو متعفف، لا يسأل، في وجهه ماء الكرامة، عزيز النفس، متجمِّل، أنيق لا يرتدي ثياباً بالية كي تشفق عليه، يتأنق في ملبسه، يتجمل في حركاته وسكناته، لا يتضعضع لغني، لا يذل نفسه أمامه، يطلب حاجته بعِزَّة النفس، هذا الذي ينبغي أن تعطيه، هذا لا يسألك، فكيف أعرفه؟ هذا ينبغي أن تبحث عنه، ينبغي أن تبحث، وأن تسأل، وأن تدقق، كلما التقيت بإنسان مؤمن عزيز النفس متجمل اسأله عن أحواله: أعليه دين؟ ما شأن أولاده في المواسم الأساسية؛ موسم البرد، موسم المدارس هل بحاجة إلى شيء، فهو لا يسألك:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ*لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة المعارج: 24-25]

السائل يسأل، وقد يسأل بوقاحة، وقد يسأل بقوَّة، وقد يعيد عليك السؤال، وقد يقف أمامك لا يغادر، وقد يلح عليك، وقد يقسو عليك بالكلام، أما الذي يستحق أن تعطيه لا يسألك، لذلك ينبغي أن تبحث أنت، الذي يستحق لا تعرفه، يجب أن تتعرَّف عليه، مَن هم الفقراء؟ الفقراء هم..

(الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

لا أحب أن أفصِّل في هذا، لكن هناك إنسان يقوم بعمل؛ يعلم أولادنا القرآن الكريم، يعلِّم الطلاَّب بالمدارس، معاشه لا يكفي أياماً معدودة، عنده دوام كامل ثلاثة أيام بالأسبوع، هذا الذي يؤذن، هذا الذي يخدم، هذا الذي يعمل عملاً أساسياً وكل وقته من أجله مبذول ودخله لا يكفيه.

الضرب في الأرض يعني التجارة :

قال تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ)

ليس عنده وقت ليتاجر، وما عنده رأسمال يتَّجر به، وليس عنده خبرات التجارة، ولكن له عمل مهم جداً في الحياة، أحياناً ببعض البلاد الأجنبية يستقدمون طالب علم من البلاد المسلمة ليعلم أبناءهم، لا يعمل إلا بتعليم الأبناء، يجب أن يؤمن له مبلغ يعيش به، إن مدرسي الديانة فرضاً، أحدهم كل وقته في التعليم، ستة وثلاثين ساعة بالأسبوع يعلم أبناءنا التربية الإسلامية، يجب أن

يأخذ دخلاً يعيش به كريماً هو وأولاده، وفهمكم كفاية، هذا الذي حُصِر في عمل دَعَويّ، حصر في عمل ديني، حصر في عمل من أعمال البر والتقوى، كل وقته في هذا العمل، هذا يعد فقيراً..

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ)

الضرب في الأرض يعني التجارة، ففي بعض الجامعات هناك أستاذ باحث لا يدّرس، يؤلف كتب، هناك من يؤلف، هناك من يعلم، هناك من يدرس تربية دينية، هناك من يدرس لغة عربية، هناك مؤذن، هناك إمام، هناك أعمال كثيرة جداً في الدعوة والتعليم تحتاج إلى تفرُّغ، ويحتاج التفرغ إلى إنفاق، إذاً هؤلاء يستحقون أن يأخذوا من بيت مال المسلمين ما يسد حاجتهم وما يوفر لهم كرامتهم..

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

البطولة لا أن تنفق بل أن تضع النفقة في مكانها :

توجد نقطة أحب أن تكون واضحة عندكم: هناك أغنياء عندهم نظر بعيد جداً، يبحثون عن أناس إيمانهم كبير، وعِفَّتهم ظاهرة، وكرامتهم عالية جداً، يمدُّونهم بما يحتاجون، بلا ضجيج، بلا جلبة، بلا تباهي، بلا مَنّ، بلا أذى، البطولة لا أن تنفق، بل أن تضع النفقة في مكانها، البطولة ألا تعطي للمتسول، البطولة أن تعطي العفيف الذي لا يسألك شيئاً، هذه البطولة، لذلك أنا أتصور أنك إذا أنفقت مبلغاً بعد بحث دقيق ودرس عميق، وبعد سؤال وجواب، حتى عرفت هذا المؤمن الذي لا يسأل ولا يطلب ولا يبذل ماء وجهه، ووضعت هذا المبلغ عنده سراً بينك وبينه دون أن تُعلم أحداً، ودون أن تذكر اسمه، ودون أن تشهِّر به، هذا الإنفاق يتضاعف أضعافاً كثيرة، هناك أشخاص لمجرد أن ينفق المال يشعر بالارتياح، لا، بل هناك مهمة بعد أن تقرر إنفاق المال، عليك أن تعرف أين تضع هذا المال؟ يجب أن تضعه في مكانه الصحيح، قد تعطيه لإنسان يبدو لك غنياً..

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ)

لكنه صفر اليدين، لا يملك شيئاً إطلاقاً ولكنه كريم النفس، حتى إن بعض علماء الفقه قال: هذا الذي كان غنياً فافتقر يصح أن يأخذ من مال الزكاة وهو قوي مع أن النبي قال:

((الصدقة لا تحل لغني ولا لذي مرة قوي))

[عبد الله بن عمرو عن أبي داود]

الغني لا يُعطى صدقة، والقوي كذلك تمنع عنه الصدقة، لكن هل من المعقول: إنسان كان غنياً كبيراً وافتقر فجأة نقول له: اعمل حمَّالاً، أنت قوي!! الإسلام عظيم، الإسلام واقعي، هذا الغني الذي افتقر يعطى من بيت مال المسلمين ما يسد حاجته ولو كان قوياً حفظاً لماء وجهه، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ارحموا ثلاثةً: عزيزَ قومٍ ذلَّ، وغنىَ قومٍ افتقر، وعالمًا بين جُهَّالٍ.))

[ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس]

النبي جعل المنفق في مستوى الداعي تماماً لأن المال شقيق الروح :

طبعاً يجوز أن نعطي المؤذن راتباً، والإمام راتباً، والمدرس راتباً، والذي يعمل على جمع الزكاة راتباً، وكل مَن له عمل يستغرق كل وقته في سبيل الله، والذي يجاهد في سبيل الله يستحق راتباً، هذا جائز وممكن، إنسان يعمل في الخدمة يدافع عن بلاده، يدعو إلى الله عز وجل، يجاهد في سبيل الله، هذا من أين يأكل؟ إذاً هذا هو الذي يستحق أن نعطيه..

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ* الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً)

والله أيها الأخوة... الذي ينفق ماله ابتغاء وجه الله يتألَّق تألُّقاً لا يعلمه إلا الله؛ إنه قريب من الله، يشعر بقيمته، يشعر أنه ذو خير عميم، يشعر بعمله الطيب، هذا المال الذي وهبك الله إياه يمكن أن ترقى به إلى أعلى عليين إذا أُنفق في طاعة الله، ولقد حضرت مرة حفل تخريج طلاَّب من حفظة القرآن الكريم، أُلقيَت كلمة رائعة، قال المتكلم: أنا أشكر هؤلاء الطلاَّب الذين حفظوا كتاب الله، وأشكر الذين علموهم كتاب الله، وأشكر الشيوخ الأفاضل الذين امتحنوهم ـ كلام طيب ـ قال: وأشكر هؤلاء الأغنياء الذين تبرعوا لكل من حفظ كتاب الله بعمرة إلى بيت الله الحرام. المال شقيق الروح، هذا تعلم، وهذا علَّم، وهذا فحص، وهذا الغني ماذا فعل؟ شجع، كل من حفظ كتاب الله له عندي عمرة، شاب صغير ركب طائرة، ذهب إلى بيت الله الحرام، نزل بفندق، وجد نفسه مكرماً بالمجتمع تكريماً كبيراً، يبدو أن هذا الذي شجَّع الصغار على حفظ كتاب الله ليس أقل أجراً من الذي علَّمهم، المال شقيق الروح، هؤلاء الذين معهم أموال ويجودون بها قد يكونون في مرتبة العلماء والدعاة، لأن المال عنصر أساسي للحياة:

((لا حَسَدَ إلاّ في اثْنَتَيْن: رَجلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ منهُ آنَاءَ اللّيْلِ وآنَاءَ النّهَار، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَار))

[البخاري عن أبي هريرة]

هذا الحديث يبين لنا: كيف أن النبي جعل المنفق في مستوى الداعي تماماً، المال شقيق الروح، نحن بحاجة إلى دعاة، وبحاجة إلى أغنياء ينفقون.

على الإنسان أن ينفق ويعطي كي يرحمه الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

ألا تحب أن يطمئنك الله عز وجل؟ وأن يحفظ لك صحتك، وأهلك، وأولادك، ومالك، وأن يهبك سكينة تملأ قلبك سعادة، أنفق:

((أنفق بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً))

[الطبراني عن ابن مسعود]

((قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق أنفق عليك))

[أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

لهم أجرهم الذي يكافئ عملهم..

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

من المستقبل..

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

على الماضي.

أيها الأخوة... أنا لا أقول لكم: يجب أن تكونوا أغنياء حتى تنفقوا. لا، يمكن أن تنفق خمس ليرات بإخلاص شديد، كنت أقول حينما أدعو للتبرع: خمس ليرات على العين والرأس، قد يدفع طفل مصروفه، أعجبني مرة في مؤتمر الأوقاف وقد حضرته أن هناك وقف في بعض الدول الإسلامية للصغار، مثلاً تأسيس معهد شرعي، خصصوا أسهماً، كل سهم فرضاً مئة ليرة، حتى يَشَجَّع أطفال المدارس، ادفع مئة ليرة وأنت لك وقف، حجزت من مالك جزءاً لوقف مستمر إلى آلاف السنين، كل مَن تعلَّم في هذا المعهد في صحيفة مَن وقف هذا المال لبنائه، وقف خاص للصغار، نعوِّد أنفسنا أن ننفق ونعطي ونحل مشكلات الناس كي يرحمنا الله عز وجل، لأنه: ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء، هناك من ينفق على ملذاته الملايين المملينة، أفلا ننفق ونعلّم أطفالنا فضيلة الإنفاق في سبيل الله؟!!

الإنفاق برهان عملي حقيقي على شفاء النفس وسلامتها من داء البخل وأدرانه :

حدثنا أخ فقال: دخل بيتاً فوجد أن غرفة الاستقبال تزيد عن مئتي متر، حشيت زوايا هذه القاعة أو هذه الغرفة أو هذا الصالون بتحف أقل تحفة يبلغ ثمنها نصف مليون، قال: والله بتحفة واحدة يزوِّج شابين، ماذا تنفعه هذه التحف؟ لا تنفعه، فهذا الذي يحل مشكلات المسلمين يرقى عند الله؟ أمّا الذي

ينفق المال على متعه، وملذاته، وعلى مكانته، وعلى مظاهره فهذا بعيد عن الله بعد الأرض عن السماء، فهؤلاء..

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

والله أيها الأخوة.. نحن في بلدٍ طيب، وهناك مَن ينفق بغير حساب، والله ما من بلد فيمَن حولنا ينفق كهذه البلدة الطيبة، عجيب، تذهب إلى مساجد بمدن أخرى أكبر تبرع ثمانية آلاف، عندنا يصل التبرع في بعض المساجد ستمئة ألف، أربعمئة ألف، خمسمئة ألف، في ساعة واحدة بعد صلاة الجمعة، وفي حفل واحد يجود المتصدقون بمبلغٍ ضخمٍ من أجل صندوق الرعاية الاجتماعية، وصندوق المعالجة الصحية وصدق الله العظيم:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر: 9]

فيا أيها الأخوة، عليكم بالإنفاق، الإنفاق يجعلكم تتألَّقون عند الله عز وجل، الإنفاق دليل حبك لله عز وجل، الإنفاق برهان على أنك صادق الإيمان، برهان عملي حقيقي على شفاء النفس وسلامتها من داء البخل وأدرانه، ونتابع هذه الآيات في الدرس القادم.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (89- 95) : تفسير الآية 275 ، الربا وأضراره
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-09-08

بسم الله الرحمن الرحيم

المال هو القيمة الوسيطة بين حاجات الإنسان :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والثمانين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الخامسة والسبعين بعد المئتين، وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الإنسان في بدايته سَلَكَ إلى تأمين حاجاته مبدأ المُقايضة، يعطي قمحاً ويأخذ لحماً، ولكن مبدأ المُقايضة لا يصلح، ولا يمكن أن يستمر عليه الإنسان، فلا بد من قيمةٍ مطلقةٍ وسيطةٍ بين حاجات الإنسان، كان المال هذه القيمة الوسيطة بين حاجات الإنسان.

مثلاً أنا أعالج مريضاً فأتقاضى مالاً، أعلّم طالباً فأتقاضى أجراً، أريد أن أشتري ثوباً أدفع ثمناً، فهذا الشيء الذي يعبِّر عن جهدي وعن جهد الآخرين هذه القيمة المطلقة هي المال، سواءٌ أكان مالاً ذهبياً، أو فضياً، أم إيصالاً لتغطيةٍ مودعةٍ عند مُصْدِر هذا الإيصال؛ (العملة الورقية)، على كلٍ دون أن ندخل في تفاصيل فلسفة المال، وكيفية نشوء مفهوم المال، هذا المال الذي بين أيدينا تعبيرٌ عن جهدٍ بشري، فمَن بذل جهداً كبيراً ينبغي أن يتقاضى مالاً كثيراً، ومَن بذل جهداً قليلاً ينبغي أن يتقاضى مالاً قليلاً، ومَن أراد أن يشتري حاجةً ثمينةً ينبغي أن يدفع مالاً كثيراً يعبُّر عن جهدٍ كبير بذله.

المال هو قيمة الجُهد البشري :

على كلٍ هذا الورق الذي هو بين أيدينا هو المال، قيمة الجُهد البشري، رمز الجهد البشري، وهو مَرِن، حالياً يقدم أحدنا لإنسان حاجة عند زواجه، يقدِّم له ثُريا مثلاً، لو قدمت ثمنها قد يشتري بثمنها عشرات الحاجات، لأن هذه قيمة مطلقة، ومعلوم أنّ أخطر شيءٍ في الحياة المال والمرأة، لأن النفس متعلقةٌ بهما أشدَّ التعلُّق، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

رُكِّب حب هذا كله في أصل الإنسان، في أصل جبلَّة الإنسان حُبّ المرأة وحب المال، ومحور درسنا هذا: عن المال، المال كما قال بعضهم مادة الشهوات، لا تستطيع أن تفعل شيئاً من دون مال، لا تستطيع أن تشتري طعاماً تأكله من دون مال، لا تستطيع أن تسكن في بيتٍ مريح من دون مال، لا تستطيع أن تركب مركبةً تنقلك إلى أهدافك من دون مال، لا تستطيع أن تُهيمِن على الناس من دون مال، فالمال له دورٌ خطير في حياة الإنسان، بل إن الله جعله قِوام الحياة.

حالياً مثلاً: إنسان له دخل فيشتري منزلاً صغيراً، يخطب فتاة، يتزوج، يؤسس أسرة، يصير له كيان، من أين بدأ هذا الكيان؟ من دخلٍ ثابت، استطاع أن يخطب من خلاله امرأةً، وأن يشتري منزلاً، وأن ينفق على نفسه وعليها، لأن للمال دوراً خطيراً في حياة الإنسان فلا بد من تنظيم علاقته به.

هناك طريقتان لكسب المال إما أن تلد الأعمال المال وإما أن يلد المالُ المال :

أيها الأخوة الكرام، كلامٌ دقيق، هناك طريقتان لكسب المال؛ إما أن تلد الأعمال المال، وإما أن يلد المالُ المال، إذا وَلَدَت الأعمال المال فهذا الذي أراده الله عزَّ وجل، وهذا الذي شَرَّعه، وهذا الذي يجعل المال دولةً بين الناس جميعاً، ما الذي يجعل المال دُولةً بين الناس جميعاً، أي متداولاً بين الناس جميعاً؟ حينما تلد الأعمال المال، قد لا أقف عند دقائق هذه الآية في هذا الدرس، لكن لا بد من تمهيدٍ دقيقٍ جداً لِموضوع آيات الربا.

أنت إن فتحت محلاً تجارياً، تحتاج إلى موظف يعينك على فتح المحل صباحاً ويبقى فيه طول الوقت، هذا الموظف لا بد له من مرتَّب، هذا المُرَتَّب يتقاضاه من هذه الشركة، أنت بحاجة إلى محاسب، بحاجة إلى مستودع، بحاجة إلى دفاتر فواتير، بحاجة إلى صاحب مطبعة، دون أن تشعر توظف عشرات، بل مئات الجهات كوظيفة ليست ثابتة، حينما تستأجر مستودعاً تحتاج إلى مَن يقيم في المستودع، تحتاج إلى مَن يُنظِّم لك هذا المستودع، فالأعمال إذا ولدت المال، هذه الكتلة النقدية التي بأيدي صاحب هذا المشروع لا بد من أن تتوزَّع بين أُناسٍ كثيرين، وكل الشركات لها مصاريف، والمصاريف قد تصل إلى الثُلث أحياناً، أي ثلث رأس المال وزِّع بين الناس.

فالله عزَّ وجل حينما شرَّع لنا هذا الشرع العظيم أراد من هذا المال أن يكون متداولاً بين جميع الخَلْق، والوضع الاجتماعي الصحي، الوضع الطيِّب المريح، العدل، الوضع الرحيم الحكيم أن يكون المالُ متداولاً بين جميع الخلق، أما الوضع المَرَضيّ أن يكون المال متداولاً بين الأغنياء فقط، قال تعالى:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ)

[سورة الحشر: 7]

متى يكون المال متداولاً بين الأغنياء فقط؟ حينما يلدُ المال المال، أما إذا ولدت الأعمال المال يوزَّع بين أناسٍ كثيرين، لكن إذا ولد المال المال، أي أنك وأنت قابع في البيت مرتاحاً لا تستأجر محلاً، ولا تتحمل مسؤولية، ولا تدفع ضريبة، ولا تستخدم أناساً، ولا تُشَغِّل ـ إن صح التعبير ـ أصحاب مِهَن وحِرَف، أنت حينما تضع هذا المال في مؤسسة ربوية وتتقاضى عليه أرباحاً، وأنت قابع في البيت مرتاحاً لا تقدم للأمة شيئاً، بل تأخذ مالاً فائدة لمالِك، فهذه العملية من شأنها أن تُجَمِّع الأموال في أيدٍ قليلة، وأن تحرم منها الكثرة الكثيرة عندئذٍ يكون التفاوت الطبقي الذي هو وراء كل ثورات العالم، واحد يملك مليوناً، ومليون لا يملكون واحداً، إنسان يقيم عقد قِران في فندق يكلفه خمسة وثمانين مليون، وخمسة وثمانون ألف شاب لا يجدون ليرةً واحدة يتزوَّجون بها.

حينما تلد الأموال المال تتجمع الأموال في أيدٍ قليلة وتحرم منها الأيدي الكثيرة :

حينما تلد الأموال المال تتجمع الأموال في أيدٍ قليلة وتحرم منها الأيدي الكثيرة، وهذا التفاوت الكبير بين شخصٍ وشخص وراء كل الفسادٍ الأخلاقي والفساد الاجتماعي، بل وراء العُنف، بل وراء ما يسمى الآن بالإرهاب، إنسان يائس لا يستطيع أن يملك شيئاً، يريد أن يأكل فيسلك سبيل العنف والقتل.

لهذا، المعصية أيها الأخوة تتعاظم كلما اتسعت رقعة مضارِّها، فالذي يشرب الخمرة مثلاً يؤذي نفسه، أما الذي يزني يؤذي نفسه ويؤذي امرأةً معه، أما الذي يرابي يؤذي مجتمعاً بأكمله، لأن المال قِوام الحياة، فإذا ملكته أيدٍ قليلة وحُرمت منه الكثرة الكثيرة صار هناك اختلال، خلل خطير في الحياة.

لذلك الإنسان جاء في الحياة الدنيا من أجل عملٍ صالح، يأخذ ويعطي، ينفع وينتفع.. بالمناسبة الأنبياء أعطوا كل شيء ولم يأخذوا شيئاً... يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ.. يا من قدست الوجود كله ورعيت قضية الإنسان.. يا مَن زكيت سيادة العقل ونهنهت غريزة القطيع.. يا مَن هيَّأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع فعشت واحداً بين الجميع.. جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، هؤلاء هم الأنبياء.

المرابي أخذ ولم يعطِ، ما فعل شيئاً، لو كان يملك ألف مليون هو عالة على المجتمع، النجَّار قدَّم باباً، المدرس علَّم طالباً، الطبيب عالج مريضاً، المحامي أخذ حقاً ضائعاً، التاجر قدَّم سلعةً إلى مكانٍ مناسب وربح ربحاً مناسباً، المُزارع قدَّم محصولاً، ما من إنسان عمل عملاً إلا وقدم شيئاً، ولو أنه ربح. هنا نقطة دقيقة جداً، إنسان استصلح أرضاً وزرعها تفاحاً مثلاً، هو يقصد الربح، ولكن ماذا فعل؟ لقد قدم كمية تفاح كبيرة في موسم التفاح فساهم في خفض أسعاره، وساهم بإطعام

هؤلاء الجياع. التاجر استورد بضاعة وباعها، والقصد هو الربح، لكن ماذا فعل؟ جعل بضاعة أساسية بين أيدي الناس بسعرٍ معقول، إذاً كل إنسان يعمل عرف أو لم يعرف، شعر أو لم يشعر يقدم خدمة للمجتمع. لذلك سيدنا عمر كان يقول: " إني أرى الرجل ليس له عمل فيسقط من عيني ".

(وَقُلْ اعْمَلُوا)

[سورة التوبة: 105]

فنحن في الحياة الدنيا ينبغي أن نعمل، من جهة أننا بهذا العمل تكتشف خصائصنا والكمالات التي أودعها الله فينا، أو تكتشف نقائصنا والانحرافات التي كسبناها بأيدينا، فالإنسان من دون عمل لا يكتشف.

الله عزَّ وجل قهر الإنسان بالعمل :

الله عزَّ وجل قهرنا بالعمل، كيف؟ كل واحد منا يتقن حاجة واحدة وهو محتاجٌ لألف مليون حاجة، وهذه الحاجات تنالها بالمال، فلا بدَّ من أن تكسب المال أولاً من أجل أن تشتري بيتاً، وأن تؤثث البيت، وأن تتزوج امرأةً، وأن تنجب أطفالاً، وأن تربي الأطفال، وأن تعلمهم.. الخ، أنت بحاجة لألف مليون حاجة بينما تتقن حاجةً واحدة، فالله عزَّ وجل قهرنا على أن نكون في مجتمع، وقهرنا على أن نعمل، والدليل: من طبيعة الأنبياء البشرية أنهم كانوا يأكلون الطعام، أي لا يستطيعون أن تقوم أجسامهم بذواتهم، هم مفتقرون إلى وجودهم، وإلى استمرار وجودهم إلى الطعام، ثم إنهم مفتقرون إلى شيءٍ آخر من أجل تأمين ثمن الطعام فهم مفتقرون إلى العمل والكسب، إذاً:

(إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ)

[سورة الفرقان: 20]

الإنسان مقهورٌ باستمرار حياته إلى الطعام والشراب، ثم إنه مقهورٌ في تأمين ثمن الطعام والشراب إلى العمل، فربنا عزَّ وجل أراد لنا أن نكون في مجتمع، وقهرنا بحاجة إلى أن نعمل، ومن خلال هذا العمل نُكْتَشَف:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

الإنسان يُكتشف من خلال عمله؛ أنه يصدق أو يكذب، يستقيم أو ينحرف، يكون واضحاً أو غامضاً، يغش المسلمين أو ينصحهم من خلال عمله، فأنت لأنك مقهورٌ على أن تكون في مجتمع، ومقهورٌ على أن تعمل فتُكْتشَف، إذاً الحياة الدنيا ابتلاء، أي إظهار ما تنطوي عليه النفس.

فالنظام الذي أراده الله لهذا الإنسان هو أن يعمل، وبالتالي يكسب المال وينفقه في حاجاته الأساسية، فيرقى عند الله عزَّ وجل، وإذا كان حُب المال شهوةً عارمة من شهوات الإنسان، فما أودع الله هذه الشهوات في الإنسان إلا لنرقى بها صابرين وشاكرين.

بالمناسبة، أية شهوة أودعها الله فينا يمكن أن نرقى بها مرَّتين: مرةً شاكرين، ومرةً صابرين، فإذا تعففت عن مالٍ حرام ترقى إلى الله صابراً، وإذا أقبلت على مالٍ حلال ترقى إلى الله شاكراً، فكأن هذه الشهوات سُلَّمٌ نرقى به، أو دركاتٌ نهوي بها، فالعمل أساسي في حياة الإنسان؛ من خلاله نبتلى، تكتشف كمالنا، أو تكتشف نقائصنا.

نموذج من نماذج الربا :

وبعد، فإن العمل يملأ فراغ الإنسان، العمل يحقق وجوده، العمل يجعله مُتَألِّقاً، لأن له هدفاً بالحياة اسمه تأكيد الذات، أما حينما يقبع في بيته، ويضع أمواله في المصارف الربوية، ويتقاضى عليها أرباحاً طائلةً يعيش في بحبوحة دون أن يخشى كساداً، أو أن يخشى جفافاً، لكن المزارع يزرع ويقول: يا رب أغثنا، والتاجر يشتري البضاعة ويقول: يا رب اجبرها، أما المرابي فربحه ثابت، ليس له علاقة لا بالمطر ولا بالأسواق، فالمرابي لأنه رفض أن يعمل، وأراد للمال أن يلد المال فقد بَعُد عن الله عزَّ وجل، وحينما الإنسان يسلك طريق الربا ما الذي يحصل؟

الربا أولاً يرفع الأسعار، ونحن أمام شيء دقيق جداً، في علم في الهندسة شكل اسمه (الموشور)، فهو اسطوانة متناقصة إلى أن تصل إلى نقطة، هذا الموشور، وكأنه حلقات متناقصة، الآن، عمود هذا الموشور، الخط المتعامد مع قاعدته يمثّل الأسعار، فكلما ارتفع السعر ضاقت الشريحة، مثلاً، فاكهة بالسوق لو كان ثمن الكيلو مئة ليرة، كم إنساناً من مليون إنسان يشتري هذه الفاكهة؟ قد يشتريها عشرة آلاف من مليون، لو كان الكيلو بخمسين صار المشترون خمسين ألفاً، ولو كان بخمسة وعشرين صار المشترون مئتي ألف، فكلما ارتفع السعر صغرت الشريحة، فقد تجد في حالات التضخم النقدي الحاجات متوافرة في الأسواق، ولكن لا أحد يملك ثمنها، الحاجات كثيرة لكن أسعارها فوق طاقة المستهلك، وهذه حالة خطيرة جداً، لأن الإنسان لا يملك ثمن حاجاته.

يروي علماء الاقتصاد: أن عاملاً من عُمَّال المناجم، ترك عمله بعد أن أُغلق المنجم وسُرِّح العمال، فتلوَّى الأب جوعاً هو وأولاده، وفي ليلةٍ شديدة البرد شكا الأولاد البرد الشديد، فقالوا له بسذاجةٍ: يا أبت لماذا ليس عندنا فحم وأنت تعمل في منجم فحم؟ قال: لأن الفحم كثير، لأنه كثير فأنا بلا فحم. كلمة فيها مغالطة، فهو كثير لأنه ليس هناك من يشتري، لقد كثر الفحم إذاً المنجم أُغلقت أبوابه، وعندما أغلقت أبوابه سُرِّح عماله، وحينما سرح عماله أصابهم البرد الشديد، لماذا أصيبوا بالبرد الشديد؟ لوفرة الفحم وعدم وجود مَن يشتريه، هذا نموذج من نماذج الربا.

أضرار الربا :

كل شيء موجود والمال قليل، المال بأيدٍ قليلة جداً، الغني الكبير يمكن أن يشتري كل شيء، ولا يعنيه شيء، أما الفقير فمعه مبلغٌ قليل، هذا كيف يكفيه طوال الشهر؟ هنا المشكلة، إذاً المعصية التي تقع على شخصٍ واحد ضررها محصورٌ بواحد، أما التي تقع على شخصين ضررها محصورٌ باثنين، أما المعصية التي تسبب إرباك مجتمعٍ بأكمله، تضعف القوة الشرائية للمال، وحينما يكون دخل الإنسان أقل من حاجاته بكثير تنشأ أمراض، تنشأ دور بغاء، لأن طرق الزواج مغلقة، تنشأ جرائم؛ سرقات، ونهب، واحتيال، فهذه الجرائم كسرقة المال والزنا تتفاقم في المجتمعات الفقيرة، طبعاً وفي المجتمعات الكافرة لها تفسير آخر، أما في المجتمعات ذات البنية السليمة إذا افتقرت يظهر في هذه المجتمعات انحرافاتٍ خطرة.

1 ـ أول أضرار الربا أنه يرفع الأسعار :

أول أضرار الربا: أنه يرفع الأسعار، كيف؟ الفكرة أن إنساناً معه مئة مليون، أراد أن يضعها في عملٍ تجاريٍ، أو صناعيٍ، أو زراعي، لكنه رأى أنّ هناك مؤسسات ربوية يمكن أن تعطيه أرباحاً جيدةً دون أن يعمل فيكسل، فمتى يغامر ويوظّفها في مشروعٍ زراعيٍ، أو صناعيٍ، أو تجاري؟ إذا كان عائد الربح أربعين أو خمسين بالمئة فعندئذ يخوض غمار العمل في تلك المشاريع، لكن إذا كان هناك مؤسسات تعطي ربحاً من دون عمل فرأس المال لا يغامر بمنطق الحياة إلا إذا كان الربح كبيراً جداً، إذاً بوجود مؤسسة تعطي ربحاً بلا عمل فالأموال لا توظف في أعمال استراتيجية إلا بربح عالٍ، فتفشي الربا يرفع الأسعار، وهذه أول أضراره.

2 ـ إذا ارتفعت الأسعار ضاقت شريحة المستهلكين :

الأسعار إذا ارتفعت ضاقت شريحة المستهلكين، أما الضرر الثاني فهو إذا ارتفعت الأسعار ضاقت الشريحة، فإذا ضاقت الشريحة قلَّ الربح عند الباعة، فترتفع الأسعار ثانية، إنسان يحتاج في اليوم لألف ليرة فرضاً، إذا كان سيربح باليوم مئة ليرة لا تكفيه، فلا بد من رفع أسعاره، فإذا ارتفعت ضاقت الشريحة، فصرنا في حلقةٍ مفرغةٍ، فكل شيءٍ موجود وأسعار هذه الأشياء فوق طاقة المستهلكين، قضية خطيرة جداً، إذاً الربا يسهم في رفع الأسعار عن طريق أن رأس المال لا يغامر إلا بربحٍ كبير جداً، ولأن وجود مَن يدفع لك ربحاً دون أن تعمل، هذا يحد من المغامرة في مشاريع اقتصادية إلا إذا صار مقدار الأرباح عالياً جداً لدى المشاريع الاقتصادية.

3 ـ الربا يسهم في البطالة :

الضرر الثالث الربا يسهم في البطالة، لأن أي إنسان يريد أن يعمل مشروعاً يحتاج إلى طاقة بشرية، الآن المشكلة الأولى في العالم مشكلة البطالة، في بعض البلاد كل أربعة أشخاص واحد يعمل وثلاثة بلا عمل، عندنا بطالة مُقنَّعة وهذه أخطر، له عمل ولكن دخله قليل جداً جداً لا يكفيه لحياته ومصروفه، إذاً يلجأ إلى أساليب أخرى لا ترضي الله ولا ترضي عبيد الله، إذاً عندنا بطالة صارخة، بطالة مقنَّعة، فحينما يحلُّ كسب المال عن طريق المال نفسه محل كسب المال عن طريق الأعمال، ترتفع الأسعار وتفشو البطالة، والإنسان حينما لا يعمل، طبعاً هذه الأمة تحتاج إلى أن تستورد كل بضاعتها، فأمةٌ تأكل ما لا تزرع، وتلبس ما لا تنسج، وتستخدم آلةً لا تصنعها هذه أمةٌ عالةٌ على الأمم وانهيارها محقق.

4 ـ الربا يسهم في ضعف الأمة :

بالمناسبة، سيدنا عمر رضي الله عنه، كان يتفقَّد رعيَّته، فدخل بلدةً ـ هكذا تروي الكتب ـ فوجد أنّ كل الفعاليات في هذه البلدة من غير المسلمين، فعنَّفهم تعنيفاً شديداً وقال: ما هذا؟! قالوا: لقد سخَّرهم الله لنا. فقال رضي الله عنه: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟! أي أن المنتج قوي والمستهلك ضعيف، فنحن إذا قبلنا أن نضع الأموال في مؤسسات ربوية دون أن نعمل، نحتاج إلى أن نستورد كل شيء، والمستورد ضعيف والمنتج قوي.

حالياً هناك ما يسمى بحروب اقتصادية غير معلنة، منها حرب قطع الغيار، عندك مركبة شراء قطع التبديل التابعة لها ـ هذا اسمه عقد إذعان وليس عقد تراضٍ ـ مركبة ثمنها مليونان، احتجت إلى قطعة تبديلية لها وقال لك البائع: بخمسين ألفاً، فلو رفضت تتوقف هذه المركبة، فماذا يفعل معنا اقتصاديو العالم؟ يبيعونك شيئاً أساسياً، وأنت محتاجٌ لهم كل وقت لقطع الغيار، فحينما لا نكتفي بطعامنا، وشرابنا، وثيابنا، وحاجاتنا، وآلاتنا، نكون أفقر الشعوب، فكل إنسان يُثَمِّر ماله في البنوك ولا ينشئ بهذا المال المشاريع الاقتصادية، فهذا يسهم في إضعاف أمَّته ويسهم في تأخُّرها وتخلُّفها بل وانهيارها.

أحياناً تحتاج أمة إلى صناعة معينة، إلى أدوات معينة، قد تدفع ثمنها عشرة أضعاف ثمنها الحقيقي بعقد إذعان، ولو أن الأموال الموجودة في البلاد توجَّهت إلى التوظيف في أعمال أساسية لاستغنينا عن استيراد هذه البضائع، فأولاً يسهم الربا في رفع الأسعار، ورفع الأسعار يسهم في خلق مشكلات اجتماعية كبيرة جداً، والربا يسهم في البطالة، والبطالة لها مضاعفات خطيرة جداً، ثم إن الربا يسهم في ضعف الأمة، لأنه ليس في البلاد إنتاج، بل هناك استهلاك فقط من دون إنتاج.

ما من معصيةٍ على الإطلاق توعَّد الله مرتكبيها بحرب إلا الربا :

لذلك فإن الربا يمسُّ أخطر ما في حياة الإنسان وهو تعطيل حركة المال، وهو قوام الحياة، لذلك ما من معصيةٍ على الإطلاق توعَّد الله مرتكبيها بحرب إلا الربا:

(فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة البقرة: 279]

لذلك:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

الربا بالقوانين الحسابية هو الذي يُرْبِح، أنت أقرضت مئة ألف رجعت لك مئة وعشرين بالآلة الحاسبة المال نما، واسم الربا من النمو، ربا الشيء علا، فأنت في الأصل حينما توظِّف المال في مؤسسة ربوية فالمال يزداد، وحينما تُقْرض قرضاً حسناً المال ينْقص، عاد المال مع فرق التضخُّم، فإذا أقرضت مئة ألف سوف تعود لك بعد عام خمسةٌ وثمانين ألفاً بحسب قيمتها الشرائية، إذاً بحسب الحسابات والآلات الحاسبة الربا يزداد، الربا يزيد المال، والصدقة الخالصة تنفقه، لكن آيات القرآن الكريم تكذبه و تُعكسه، فهل نصدق الآلة الحاسبة أم القرآن الكريم؟ قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

فالله عزَّ وجل له قوانين واضحة، وله قوانين ليست واضحة، أنت ضع مئة فوق مئة صار المبلغ مئتين، مئة ثالثة صار المبلغ ثلاثمئة، مئة رابعة أربعمئة، قوانين واضحة، عملية جمع، أقرضت مئة ألف رجعت مئة وعشرين، أقرضت المئة و العشرين رجعت مئة وخمسين، أقرضت مئة وخمسين رجعت مئتين، خلال سنة صارت المئة مئتين، أما القوانين غير الواضحة؛ قوانين العناية الإلهية، أو قوانين التأديب الإلهي.

إذا اتقى الإنسان الله تعالى نما ماله بالعناية الإلهية المباشرة والعكس صحيح :

قد يتلف الله للإنسان محصولاً:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ*فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

[سورة القلم: 19-20]

أو يصيب المحصول صقيع يستمر عدة ثوان يتلف محصولاً بالملايين، موجة صقيع تتلف كل شيء. فربنا عزَّ وجل قادر أن يتلف مال الإنسان لأتفه الأسباب، فالإنسان إذا اتقى الله عزَّ وجل نما ماله بالعناية الإلهية المباشرة، وإذا لم يتقيَّد بهذا الأمر تلف ماله بالتأديب الإلهي، فكم من إنسان دمِّرت تجارته بخطأ بسيط، كم من إنسانٍ أعلن إفلاسه لسببٍ ضئيل، سببٍ تافه، (يمحق الله الربا)،

قد يبدو للإنسان أن الربا يزيد المال، وقد يتبدى للإنسان أن القرض الحَسَن ينقص المال، هذا بالقوانين الأرضية لكن الله عزَّ وجل له منظومة قوانين أخرى.

دائماً لدينا نقطة دقيقة، فهناك قوانين مستنبطة من حركة الحياة، أي إنسان فرضاً عرضت عليه تجارة ربحها بالمئة خمسمئة، ورأس المال موجود، والشاري موجود، فيساهم، فبالقوانين الأرضية أرباح طائلة، لكن هذا المال قد يُدمَّر، قد يُصادر، قد يحرق، هناك آلاف الطرق لإتلاف المال، وقد يتقيَّد بشرع الله فلا يربح مبدئياً، ثم يأتيه ربحٌ من طريق آخر أو نوع آخر ليس في الحسبان:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق: 2]

ولو أن القوانين الحسابية، ولو أن قوانين الرياضيات تجعل الربا يزيد المال إلا أن قوانين ربنا عزَّ وجل التي توعَّدنا بها تُتلِف هذا المال الحرام. و الله غالب على أمره.

أن تلد الأعمال المال بالبيع والشراء هذا أقرَّه الله تعالى :

على كلٍّ أيها الأخوة، هذه الآيات ـ آيات الربا ـ مهمةٌ جداً، وإن شاء الله تعالى هناك وقفةٌ متأنيةٌ عندها في درسٍ قادم، قال تعالى:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

أي أن تلد الأعمال المال بالبيع والشراء، هذا أقرَّه الله، أما أن يلد المال المَال فهو الربا..

(وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

يا أيها الأخوة الكرام، هذا كلام الرحمن، هذا كلام خالق الأكوان، ولو أنك بالمنطق السطحي، وبالقوانين المستنبطة من حركة الحياة توهَّمت أن الربا يرفع دخل الإنسان، لكنه في الحقيقة تدميرٌ لهذا المال، فالدول التي لا تتعامل بالربا ميزانها التجاري رابحٌ جداً، دولة من دول المسلمين في شرق آسيا كادت تصل إلى نمو مذهل، وصلت إلى ستين مليار فائض، طبعاً هناك مَن علَّق تعليقاً لطيفاً أن نموه بسبب بُعْد هذا الاقتصاد عن الأسلوب الربوي، وليس البعد بعداً كلياً لكنّه بعدٌ جيّد جداً، فكلما ابتعدنا عن نظام الربا نمت أموالنا، وصحت أجسامنا، ونمت العلاقات الاجتماعية بيننا سليمة.

وفي درسٍ آخر إن شاء الله نقف وقفةً متأنيةً عند هذه الآيات بحسب أحكامها الفقهية.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (90- 95) : تفسير الآيات 275-281 ، الربا
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-09-15

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخَّص الدرس الماضي :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس التسعين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الخامسة والسبعين بعد المئتين، وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ)

إلى آخر الآيات.

أيها الأخوة الكرام... ذكرت لكم في الدرس الماضي أن المال قوام الحياة، فإذا نما من طريق الأعمال كان دُولةً بين الناس جميعاً، وهذا الوضع الطبيعي الصحي الذي أراده الله عزَّ وجل، وعندئذٍ كل الناس في بحبوحة، كلهم يأكل ويشرب، وإذا وَلَدَ المال عن طريق المال كان دُولةً بين الأغنياء منكم، فصار التفاوت الطبقي، وصار مليون لا يملكون درهماً واحداً، وواحدٌ يملك مليوناً، عندئذٍ يفشو الانحراف، والسرقة، والاحتيال، والانحراف الأخلاقي، وما إلى ذلك.

وذكرت لكم أيضاً أن المعصية تُقَيَّم بحجم ضررها، فالذي يشرب الخمر يؤذي نفسه، أما الذي يزني يؤذي معه إنسانة أيضاً، لكن الذي يرابي يؤذي معه مجتمعاً، لذلك ما من معصيةٍ في القرآن الكريم توعَّد الله مرتكبها بالحرب إلا الربا، لأن مجتمعاً بأكمله يمكن أن يجوع، مجتمعاً بأكمله يمكن أن يشقى بسبب جشع أناسٍ نَمُّوا أموالهم عن طريق الربا.

وذكرت لكم أيضاً أنك حينما توظف مالك في العمل فلا بد من أن يعيش معك أناسٌ كثيرون، ولقد غدت حالياً البطالة مشكلة المشاكل في الأرض، فكلما أودِعَت الأموال في البنوك زاد حجم البطالة، وكلما وظفت الأموال في الأعمال تقلَّص حجم البطالة، وهذه قاعدة سليمة وصحيحة.

وذكرت لكم أيضاً أن السعر كلما ارتفع ـ والربا يسهم في رفع الأسعار ـ ضاقت شريحة المنتفعين بهذا الشيء، وإذا ضاقت فلا بد من أن يرتفع السعر مرةً ثانية كي يضمن التاجر لنفسه حياةً مستقرَّة، إذاً سلسلةٌ لا تنتهي، حلقةٌ مفرغةٌ. أما حينما يلد العمل المال توزَّع الأموال أو توزع الكتلة النقدية بين أيدي الناس جميعاً. هذا ملخَّص الدرس الماضي.

الذي يأكل الربا يبني مجده على أنقاض الناس :

الآن إلى تفاصيل هذه الآيات. يقول الله جلَّ جلاله:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا)

(يأكلون) أي يكسبون، وفي هذا إشارة إلى أن حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب حاجةٌ متميِّزة، بل هي حاجةٌ أولى، فإذا كسب المال الحرام فهذا من أجل أن يأكل، وقد ذكر الله جل جلاله أن الأنبياء:

(إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ)

[سورة الفرقان: 20]

في هذا إشارةٌ دقيقة إلى أن النبي بشر تقوم حياته على تناول الطعام، إذاً هو مفتقرٌ في وجوده وفي استمرار وجوده إلى تناول الطعام والشراب، ثم إنه مفتقرٌ مرةً ثانية إلى ثمن الطعام، ولا بد من أن يمشي في الأسواق كي يحصِّل ثمن الطعام، هذا هو البشر، مفتقرٌ مرتين مرةً إلى الطعام ثم إلى ثمنه، لا بد من أن يأكل ويشرب، ولا بد من أن يعمل، ونحن مقهورون بالعمل؛ نعمل من أجل أن نأكل، ثم نعمل من أجل أن نتزوج، ثم نعمل من أجل أن نؤكِّد ذاتنا. فهذا الذي يأكل الربا بنى مجده على أنقاض الناس، وبنى غناه على فقرهم، وبنى عِزَّه على ذلهم، ويوم القيامة يوم العدل، يوم الحق، يوم الدينونة، يوم توفى كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون، فحينئذٍ تكشف الحقائق:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

الذين يأكلون الربا يأكلون ما ليس لهم بحق أن يأكلوه :

الناس في الدنيا نيام إذا ماتوا انتبهوا، حينما تزاح عنه الشهوات، وقد قال الله عزَّ وجل:

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)

[سورة سبأ: 54]

لا شهوة طعامٍ، ولا شهوة جنسٍ، ولا شهوة علوٍ في الأرض، واجه الحقيقة، كُشِف عنه الغطاء فإذا هو قد أشقى الناس من أجل أن يغتني، هو أكل ولا عليه أن يجوعوا، ونمت أمواله واغتنى ولا يضره أن يكونوا بؤساء فقراء.

والإنسان كما ذكرت لكم سابقاً أيها الأخوة يمر بمرحلة همه أن يكسب المال، ثم تكون مرحلة أخرى يصبح همه فيها جمع المال وتكديسه، لذلك قال تعالى:

(وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة آل عمران: 157]

فهؤلاء الذين يأكلون الربا يأكلون ما ليس لهم بحقٍ أن يأكلوه، أي إذا أقرضوا اشترطوا عند إقراضهم أن يعود المبلغ زائداً، رابياً، فيه زيادة لعِلَّة الزمن، أو هناك ربـا التفاضل، أي يبيعُ جنساً واحداً بكميةٍ مضاعفة، يبيع مداً بمدَّين، من جنسٍ واحد هذا فيه ظلم شديد، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الذهب والفضَّة، والقمح والشعير، والتمر والزبيب يداً بيد وسواءً بسواء))

[من شرح مسند أبي حنيفة]

الفرق بين أن تضع مالك مع إنسانٍ يستثمره لك وبين أن تضعه في مصرف :

طبعاً بحث الربا وتفصيلاته، وأنواع المواد الربوية، وعلة الربا موضوع يحتاج إلى درس فقهي وهو معروفٌ لدى كل الأخوة، فهؤلاء...

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ)

يوم القيامة إلى ربهم..

(إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ)

يتخبَّطه، أي يضربه الشيطان، وهذا الذي يسميه الناس مسَّ الشيطان، الوقوع بالساعة، الصَرَع، فمن شدة اضطرابه، ومن شدة شعوره بالذنب، ومن شدة العار الذي تَلَبَّسَه، من شدة خوفه من الحساب يقوم يوم القيامة..

(كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ)

علَّة هذا الاضطراب الشديد، وهذا الهلع وهذا الخوف أنهم قالوا:

(ا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا)

هناك آلاف مؤلَّفة حالياً يقولون: ما الفرق بين أن تضع مالك مع إنسانٍ يستثمره لك ويعطيك في آخر العام ربحاً، وبين أن تضعه في مصرف يعطيك فائدةً؟ بونٌ شاسع، أنت حينما تضع المال في مصرف تأخذ ربحاً ثابتاً، أما حينما تضع المال مـع أخٍ يستثمره تأخذ ربحاً حقيقياً فإذا ربح أعطاك، وإن لم يربح لم يعطك شيئاً، وإذا خسر فعليك نصيب من الخسارة، فالبيع والشراء فيهما تعاون، أما في الربا فهناك إنسان مستغِل وإنسان مستغَل، لذلك قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا)

حينما يخصص للزمن ثمن دخلنا في موضوع الربا :

قال علماء البلاغة: هذا تشبيهٌ معكوس، الأصل أن يقال: إنما الربا مثل البيع، إذا قلت مثلاً: وجه الخليفة كالشمس، هذا تشبيه، أما إذا قلت: إن ضياء الشمس كوجه الخليفة، هذا تشبيه مقلوب وهو أبلغ، فالله عزَّ وجل قال:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا)

أي أن الربا الذي ترونه محرماً هو كالبيع تماماً، هكذا ادّعوا.

(وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

البيع فيه عوض، أي أن هذه الكأس بعشر ليرات، تعطيه الكأس ويعطيك الثمن، عقد معاوضة، أما الزيادة في الربا فليس لها عِوَض إلا الزمن، أنت تبيع كتاباً بمئة ليرة، فإذا كان مجلداً بمئة وخمسين، الخمسون في الكتاب، فإذا كان مُذهّباً بمئتين، الخمسون الثانية في الكتاب، فإذا كان قد كتب عليه اسمك زاد خمسين ثالثة، الثالثة في الكتاب، فإذا أعطيته لسنةٍ بمئة ليرة زائدة، المئة الأخيرة لا يقابلها شيءٌ في الكتاب، ليس لها عوَض، عوضها الزمن، أي صار للزمن ثمن، حينما يخصص للزمن ثمن دخلنا في موضوع الربا.

أصل الربا أنك تقرض قرضاً لإنسان، فإذا حلّ الموعد تقول: إما أن تؤدي وإما أن تُربي، هذا أصل الربا، ربا القروض، ثم جاء ربا البيوع، وعلى هذا الموضوع حديثٌ طويل كنت قد شرحته في درسٍ من دروس الأحد بإسهابٍ شديد هو درس التقسيط، هناك ربا القروض، وهناك ربا البيوع. ربا القروض تحريمه قرآني، وربا البيوع تحريمه نبوي، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام وحيٌ غير متلو، قال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبّحه الشرع :

قال:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

أصل حِلِّ البيع هو المعاوضة، وأصل زيادة الثمن في البيع مقابل الجُهد، أي أنت مقيم في بيتك وإلى جانبك بائع جاء بالبضاعة من مكانٍ بعيد، وحملها، واعتنى بها، ونظّفها، عرضها عليك، مقابل هذا الجهد أعطيته الزيادة في البيع، لأن الزيادة في البيع مشروعة مقابل جهد البائع، أما في القرض فغير مشروعة..

(وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

هناك نقطة دقيقة جداً: المال كلّ ما يُنْتَفع منه مباشرةً، فالبيت مالٌ لأنه يسكن، والمركبة مالٌ لأنها تُرْكب، والطعام مالٌ لأنه يُؤكَل، والشراب مالٌ لأنه يشرب، أما النقد لا ينتفع به مباشرةً، فحينما تتاجر بالنقد وقعت في الحرام، طبعاً إذا كان النقد من عملة إلى عملة فله موضوع آخر، وله شروط دقيقة جداً، أما أن تجعل المال يلد المال هذا كسبٌ غير مشروع.

ذكرت في الدرس الماضي أن الأسعار ترتفع، وأن البطالة تعم، ثم كان تعليقٌ في نهاية الدرس الماضي: كلما ازداد إيمانك تجعل التحريم وحده علَّةً، علة التحريم أن الله حرَّمه، لأنك مع طبيبٍ متفوِّق، أعطاك توجيهاً لا تجرؤ لثقتك بعلمه أن تسأله: لِمَ منعتني من هذا؟ فأنت أمام إنسان متفوق، فإذا كان إيمانك بالله كبيراً لا تحتاج إلى علةٍ، ولا إلى شرح، ولا إلى تفصيلٍ، ولا إلـى بيان حكمةٍ، علـة الأمر أنه أمر، وعلة النهي أنـه نهي، وعـلة التحريم أن الله حرمه، خالق الأكوان العظيم، الحكيم، العليم حرَّمه، أما الدعاة إذا اجتهدوا في علة التحريم فهذا من قبيل الاجتهاد والتحسين والإيضاح، أما الأصل في الدين أن الذي حرَّمه الله محرَّم، لذلك قال علماء العقيدة: الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع.

الفرق بين البيع والربا :

قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا)

أي قصدهم إنما الربا مثل البيع، هناك بونٌ شاسع، الزيادة في الربا لا يقابلها عوض، أما الزيادة في البيع يقابلها عوض وهو الجهد، إنسان اشترى بضاعة، وتحمَّل قرار المغامرة بالربح والخسارة، وحملها وصنفها وعرضها، هذا جهد كبير، وقدم لك هذه الخدمة حتى صارت إلى جانب بيتك، فالتفاضل في البيع تفاضل يقابله جهد، أما التفاضل في الربا فلا يقابله جهد، التفاضل في البيع توزَّع فيه الأموال على عددٍ كبيرٍ من الناس، أما التفاضل في الربا ليس كذلك. قال:

(فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

يقول الله عزَّ وجل: إن هؤلاء الذين آمنوا إذا عملوا شيئاً يجهلونه، ثم عرفوا الحقيقة تابوا:

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنعام: 54]

أي الإنسان قد لا يعلم، فإذا علم يجب أن ينتهي.

حق من يستغفر لذنبه إن كان صادقاً ونادماً أن يسترد رأسماله فقط :

يقول الله عزَّ وجل هنا:

(فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ)

له رأسماله..

(وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ)

فيما مضى؛ يغفر له إن كان صادقاً ونادماً، وقد لا يغفر له لحكمةٍ يريدها الله عزَّ وجل، أما حقه أن يسترد رأسماله فقط..

(فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ)

إلى أكل الربا..

(فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

أي أن هذه المعصية سبب خلودٍ في النار. ثم يقول الله عزَّ وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

من عظمة الله أنه يتلف مال الإنسان بأبسط الأسباب ويغنيه بأبسط الأسباب :

هذه الآية دقيقة جداً..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

العجيب أن المسألة في الرياضيات بالعكس، إذا أقرضت قرضاً ربوياً مئة ألفٍ مثلاً عاد مئة وعشرين، فالربا اسمه ربا من الزيادة، أما إذا أقرضت قرضاً حسناً عاد مئة، فبالآلات الحاسبة الربا ينمِّي المال، والصدقة لا تنميه بل تنقصه، فالآية تنص على عكس حساب الرياضيات.

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

ماذا نستنبط من هذا؟ نستنبط أن هناك قوانين مستنبطة من حركة الحياة، وهناك منظومةٌ من القوانين الأخرى لا يعلمها إلا قلةٌ قليلة ممن أوتوا العلم، مثلاً: الإنسان قد يرابي وقد يربح ملايين مملينة من الربا ثم تأتيه مصيبةٌ بقانونٍ آخر تمحق كل ماله، وهذا الشيء يقع، هناك من يحترق ماله، هناك من يدمَّر، هناك من يفقد أعز ما يملك، هناك من تصادر أمواله، فهناك قوانين مستنبطة من حركة الحياة، وهناك قوانين استثنائية بيد الله عزَّ وجل، فأنت حينما تخاف الله وتقرض قرضاً حسناً، ويقل مالك، تكافأ برزقٍ لا تدري من أين جاءك.. " أبى الله إلا أن يجعل رزق عبده المؤمن من حيث لا يحتسب ".

بينما الذي يرابي أيضاً بقانون استثنائي يدمِّره الله عزَّ وجل، ومن عظمة الله عزَّ وجل أنه يتلف مال الإنسان بأبسط الأسباب، ويغنيه أيضاً بأبسط الأسباب..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

أنت حينما تقرأ كلام الله، وتقول: صدق الله العظيم، يجب أن تؤمن إيماناً يقينياً أن الربا سيمحقه الله ولو بعد حين، وأن الصدقات سيربيها الله ولو بعد حين، لكن لا بد من أن تشعر أن العقاب لا يأتي عقب الذنب أبداً، وأن الجزاء الحسن لا يأتي عقب الصدقة بسبب أن الله لو فعل هذا لألغي الاختيار، فمثلاً مرابٍ تعامل بالربا فأتلفَ ماله بعد ساعة فلا أحد يفعل ذلك لا حباً بالله ولا طاعةً له ولكن خوفاً على المال، والمتصدق يدفع الصدقة فيأتيه عشرة أضعافها، فيبادر أهل الكفر والإلحاد

ويدفعون الصدقات، إذاً لو جاء العقاب والثواب عقب العمل لألغي الاختيار، ولكن حكمة الله أنك تفعل ما تشاء، وإلى أمدٍ طويل دون أن تصاب بشيء، وتأخذ أبعادك، فأنت مخيَّر، فالمَحْقُ هنا قد لا يكون سريعاً.

الفرق بين الربا والصدقة :

قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

من معاني (يمحق الله الربا) أن هذا المال الذي جمعته بالحرام يتلفه الله؛ بمصادرةٍ، بحريقٍ، بمشكلةٍ، بمرضٍ عُضال تنفقه، أعلم رجلاً له دخلٌ حرام، علةٌ في قلبه كلَّفته بضع مئات من الألوف، فالله عزَّ وجل يمحق المال الحرام بطرق كثيرة، إما أن يتلف المال نفسه، أو أن ينفق على صحة الإنسان، أو أن يدفَع جزاء خطأ غير مقصود، أو أن يشقى الإنسان به، أو أن يسرق منه، أو أن يكون هذا المال نكداً عليه، تألَّب عليه أولاده وتطاولوا عليه طمعاً بهذا المال، أي يصبح هذا المال الحرام مصدر شقاءٍ لهذا الإنسان، هذا معنى (يمحق الله الربا) وليس المحق سريعاً بل قد يأتي متأخراً..

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

أما الصدقة فيضاعفها الله أيضاً، وثوابها قد يأتي عاجلاً أو آجلاً حسب مشيئة الله.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

الصدقة تزيد المال، وتملأ نفس المتصدق بالسكينة، والإقبال، والطمأنينة، والقوة، والانشراح، ولها أثر نفسي، وأثر مادي، بعد حين يعوّض الله عزَّ وجل على المتصدق أضعافاً مضاعفة.

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

أي كفار بهذا المنهج العظيم أثيمٌ لمخالفته، منهجٌ عظيم كفر به، ومنهجٌ عظيم أثِم بمخالفته.

الضمانة الإلهية تكون في طاعة الله والاستقامة على أمره :

ثم تأتي آيةٌ لطيفةٌ جداً، يقول الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أي آمنوا بالله خالقاً، آمنوا به مسيراً، آمنوا به رباً، آمنوا به واحداً، آمنوا به كاملاً، آمنوا به موجوداً..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

ومقتضى إيمانهم..

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

استقاموا على أمره، وبذلوا الغالي والرخيص من أجله..

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ)

اتصلوا به، وأنفقوا من أموالهم في سبيله..

(لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

أي الضمانة الإلهية لا تكون في كثرة المال الذي يأتي من الربا، الضمانة الإلهية تكون في طاعته والاستقامة على أمره، والإنسان ضعيف:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

والضعيف يحتاج إلى دعم، يحتاج إلى ملجأ، يحتاج إلى قوة، فالضعيف الجاهل يتوهَّم أن المال وحده هو الذي يسعده في خريف عمره.

تطمين الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات :

ذات يوم طالبٌ ممن علمتهم قال لي عن أحد أقربائه: كان عنده دار سينما، وجمع المال الحرام الكثير، وأفسد أخلاق الشباب، واستورد الأفلام المنحطَّة، وأقبل الشباب على داره وجمع الأموال الطائلة ـ وأذكر هذا في السبعينات ـ أنه جمع عشرة ملايين، أي تعادل مئتي مليون حالياً، أصيب بمرض عضال، فدخل عليه ابن أخته، وهو على فراش الموت وصار يبكي، وقال: جمعت هذا المال كي أسعد به في خريف عمري، وها أنا ذا قد عاجلني المرض ولم يتح لي أن أنتفع بهذا المال، فهذا الحال من محق المال، إذاً قد لا تنتفع به، قد يؤخذ منك عنوةً، وقد يسرق، وقد يكون سبب شقائك، وقد يكون سبب جريمةٍ ترتكب، لأن هذا المال أُخِذَ حراماً، فالمال الحلال يذهب، أما الحرام يذهب مع أهله:

((من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله))

[البخاري عن أبي هريرة]

فهؤلاء الذين آمنوا..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

واللهِ أيها الأخوة لا أرتوي من هذا التطمين..

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

في المستقبل..

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

على ما مضى.

الحرص على طاعة الله في كسب أموالنا وفي إنفاقها :

هم في تطمين الله عزَّ وجل، هم في حفظه ورعايته، هم في أمان الله، هم في اطمئنان من عند الله، هم في توفيق الله، ألا يتمنى كل واحد منا أن تنطبق عليه هذه الآية؟!

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

ثم يقول الله عزَّ وجل وهو يوجِّه عباده المؤمنين، يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أي احرصوا على طاعة الله في كسب أموالكم، وفي إنفاقها، فالسياق سياق مالي..

(اتَّقُوا اللَّهَ)

أي اتقوا سخط الله بكسب أموالكم، فإذا كان هناك رباً سابق..

(وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أي لك أن تأخذ مالك فقط، وهناك مَن يقول: حينما تتوب توبةً نصوحاً لك أن تأخذ مالك ولك أن تأخذ هذا الذي زاد عليه وتدفعه إلى الفقراء دون أن يدخل عليك منه شيء.

الآية التالية تحمل إنذاراً قاسياً مرعباً :

قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا)

هنا الآية تحمل إنذاراً قاسياً مرعباً..

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

مَن نحن حتى نتعرَّض لحرب الله عزَّ وجل؟ أحياناً خطأ بسيط في الأجهزة تصبح حياة الإنسان جحيماً، فالخلايا في أي مكان بالجسم قد تنمو نمواً غير طبيعي، وانتهى الأمر . واللهِ مرة كنت في جلسة، فيها شخص لا أعرفه لكنه واجم وجوماً يلفت النظر، كأن هموم الدنيا تراكمت عليه، بعد أن انتهت الجلسة، أوصلته إلى البيت، وسألته في الطريق فلم يجب إطلاقاً، ثم علمت أنه يعاني مرضاً عُضالاً، نعم مرض عضال، مرض خبيث، هذا معنى يمحق الله الربا، نحن تحت ألطاف الله عزَّ وجل، فالذي يجرؤ ويأكل المال الحرام قد يمحق الله حياته، يمحق صحته، يمحق سعادته، يمحق أمنه، يمحق طمأنينته..

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ* وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ)

أي أن هذا الذي أقرضته المال بفائدة إذا كان ذو عسرة فانتظره حتى يتيسَّر أمره، لا تقل له: إما أن تقضي وإما أن تربي، فهذا سلوك أهل الجاهلية ولا يليق بالمؤمنين.

المؤمن الصادق لا يفعل شيئاً إلا وهو يراقب الله تعالى :

قال تعالى:

(وَأَنْ تَصَدَّقُوا)

بأن تنزلوا عن بعض هذا المال للمَدين المُعْسر..

(وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

أي يجب أن تعلم علم اليقين أنه لا بد من أن تقف يوم القيامة بين يدي الله لتحاسب على كل حركةٍ، وعلى كل سكنةٍ، وعلى كل نفقةٍ، وعلى كل كسبٍ فعلته في الدنيا، وهذا هو يوم الدين يوم الجزاء، فالإنسان الذي يؤمن أنه سيحاسب يستقيم في الدنيا، سيدنا عمر يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزَن عليكم.

(وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

نحن في دار عملٍ ولا جزاء، ونحن قادمون على دار جزاءٍ ولا عمل، نحن في دار هدنةٍ وانقطاع، العام الدراسي عام هُدْنَة، الطالب يدرس أو لا يدرس، يجتهد أو لا يجتهد، هو في بحبوحة، أما بالامتحان فيتميز الناس، الامتحان يفرز الطلاَّب، ونحن في زمن هدنةٍ وانقطاع، الموت يقطع هذه الهدنة، وخلال فترة الهدنة مسموح لنا أن نفعل، فالمرء مخير، وكل شيء بحسابه:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

[سورة فصلت: 40]

لكن المؤمن الصادق لا يفعل شيئاً إلا وهو يراقب الله تعالى، إن فعلت هذا هل يرضى الله عني، أم لا يرضى عني؟ ماذا أفعل؛ أقدِم أم أحْجِم؟ في حوار مع نفسه، وهذه الآية من أدق الآيات في كتاب الله، وقيل إنها آخر آية نزلت في القرآن الكريم..

(وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

من يطلب النجاة من الله عزَّ وجل ييسر الله له مخرجاً من حيث لا يحتسب :

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتحدث عن آية الدَيْن، وعلى كلٍ فموضوع الربا موضوع حسَّاس جداً، وهناك عشرات الأسئلة.

أولاً: الحقيقة أن هذا هو الشرع كما شرحناه، أما أين سأضع مالي؟ هذا موضوع ثانٍ، كل شيء له ميزان، هذا هو الحق، وهذا هو الشرع، وهذا هو المنهج، لكن قد ينشأ في زمن معين مشكلات لا تعد ولا تحصى، والمراباة لا تحل أية مشكلة، أنا أضرب مثلاً دائماً: لو أن إنساناً أصابته جراحٌ عميقة على خده الأيمن، فذهب إلى طبيب تجميل، فقال له: قضيةٌ سهلةٌ جداً أنزع لك قطعةً من خدك الأيسر وأضعها على خدّك الأيمن، فالمريض لم يستفد شيئاً، حلَّ مشكلةً بمشكلة، فهناك أشخاص كثيرون عندهم مشكلة مالية، فهذه المشكلة لا تحل بالربا، هذه مشكلة لها حل آخر، وما من إنسان يطلب النجاة من الله عزَّ وجل إلا والله جل جلاله ييسر له طريقاً مستقيماً ومخرجاً من حيث يحتسب أو لا يحتسب.

ذات مرة سمعت عن فلاح، يعيش حياته كلها في خدمة الأثرياء، وُزِّعت عليه أرض، ففرح بها فرحاً لا حدود له، وذهب إلى شيخه ليخبره، فقال له: يا بني هذه أرضٌ مغتصبة، ولا يجوز أن تتملكها، ولو أنها مُلِّكت لك، وهذا هو الشرع، فكل هذا الفرح عاد حزناً وانقباضاً، ذهب هذا الإنسان الطيِّب إلى الإنسان الثري الإقطاعي يحاول معه أن يبيعه هذه الأرض التي ملكها بحكم القانون، قال له: أتبيعني إيَّاها فهذه الأرض ليست لي وهي لك، وقد أُخذت منك عنوةً، وأعطيتُ إياها، قال له: والله لقد أُخذ من مالي أربعمئة دنم، ولم يأتِ واحد ليسألني أكان هذا المال الذي أخذه حلالاً أم حراماً؟ فهي لك هديةٌ يا بني، فبحرصه على الحلال، وورعه، وسؤال شيخه ألقى الله في قلب هذا الغني أن يقدِّمها له هديةً ليزرعها وهو مرتاحٌ وهو في طاعة الله عزَّ وجل.

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

والله مستحيلٌ وألف ألف مستحيل أن تدع المال الحرام خوفاً من الله ثم لا تأخذ شيئاً مقابله، بل يغنيك الله عزَّ وجل وهذه سنته مع عباده.

التفسير المطول - سورة البقرة 002- الدرس (91-95) : تفسير الآية 282 ، الدَّين1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-09-22

بسم الله الرحمن الرحيم

مخاطبة الله تعالى الناس عامةً بأصول الدين والمؤمنين بفروع الدين :

أيها الأخوة المؤمنون.. مع الدرس الواحد والتسعين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثانية والثمانين بعد المئتين، وهي آية الدَّيْن، وهي أطولُ آيةٍ في القرآن الكريم، وقد صدرت بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

بادئ ذي بدء الله عز وجل خاطب الناس عامةً بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

وخاطب المؤمنين بفروع الدين، فإذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بوجودي، ووحدانيّتي، وكمالي، يا من آمنتم بأني خالق هذا الكون، وربُّه، ومسيِّرُه، يا من آمنتَ بعلمي، وقدرتي، وحكمتي، وقوتي، افعل ولا تفعل، فالله عز وجل خاطب المؤمنين في ثمان وتسعين آية، ولم يخاطب الكفار ولا بآية، إلا في آيةٍ واحد في اليوم الآخر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ)

[سورة التحريم: 7]

القرض الحسن والقرض الربوي :

كل آية موجهةٍ إلى المؤمنين..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي يا مَن آمنتم بي؛ آمنتم بعلمي، وحكمتي، آمنتم بأنني أنا الخلاَّق، ذو القوة المتين افعلوا هذا الأمر، فالله عز وجل خاطب عامة الناس بأصول الدين، وخاطب المؤمنين خاصةً بفروع الدين، وهذه الآية من فروع الدين.

ولكن لماذا أتت هذه الآية بعد آيات الربا؟ ذكرت لكم أن الربا أساسه أن المال يلد المال، فإذا ولد المالُ المالَ، تجمَّع المال في أيدٍ قليلة، وحرمت منه الكثرة الكثيرة، هذا الفارق الطبقي بين الأغنياء والفقراء وراء كل الثورات، وراء كل الانحرافات، وراء كل المشكلات التي يعاني منها البشر،

الأصل أن يكون هذا المال متداوَلاً بين الناس، فإذا ولدَ المالُ المالَ تجمَّع المال في أيدٍ قليلة، وحرمت منه الكثرة الكثيرة. الربا؛ يشيع البطالة، ويرفع الأسعار، ويجعل الأموال في أيد قليلة، وراء كل الانحرافات، وراء كل المشكلات، وراء كل الثورات.

بديل الربا، البديل، الربا قرض ربويٌّ، قرض مأجور، أما البديل القرض الحسن، أما المشكلة إذا وازنت بين قرضٍ حسن وبين قرضٍ ربويٍّ، فالقرض الربوي على الآلات الحاسبة أربح، وإذا وازنتَ بين القرض الحسن وبين القرض الربوي، فالقرض الربوي أعلى وأكثرُ فائدةً على الآلات الحاسبة، يجب أن تكون الموازنة لا بين قرضٍ وقرض، ولكن بين سخط الله ورضوانه، بين دنيا محدودة منقطعة وبين آخرةٍ أبدية، بين نعيمٍ مقيم وبين مُتَعٍ سريعة الزوال، فربنا عز وجل جعل القرض الحسن عملاً صالحاً، تبتغي به وجه الله، وفضلاً عن ذلك:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

هناك ثوابٌ في الدنيا مُعَجَّل، وثواب في الآخرة مؤَجَّل، القرض الحسن يربو، وكأنه صدقة، والقرض الربوي يمحق ماله، وكأنه مال الشُّح.

الذي يرجو الدار الآخرة يؤثر القرض الحسن وبيع السَّلم :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

إذاً البديل القرض الحسن، الآن أقف وقفة متأنية: أحياناً يساعد البائعُ المشتري، ويحسن إليه، بجعل هذا المبيع تقسيطاً من دون زيادة، وأحياناً يساعد الشاري البائع ببيع السَلَم، إنسان عنده قطيع غنم، والموسم جفاف، وليس معه ثمن العلف، فجاء مَن يشتري صوف هذا الغنم بعد حين، بعد ستة أشهر، أو بعد سنة، ودفع له ثمن هذا الصوف مقدَّماً هذا بيع السَلَم، بيع السلم: معاونة الشاري للبائع، التقسيط غير الربوي معاونة البائع للشاري، كلاهما عملٌ صالح، ربحك فيه في الدار الآخرة، أما الذي يرجو الدار الآخرة يؤثر القرض الحسن وبيع السَّلم، والذي يؤثر الدنيا يؤثر القرض الربوي والبيع الربوي.

إذاً الله عز وجل حرَّم الربا، وجعل الربا أصل الفساد الاقتصادي، حيث تجمع الأموال في أيدٍ قليلة، وجعل الربا خطراً منتشراً، وهدَّد عليه بحرب من الله ورسوله، وما من معصيةٍ على الإطلاق هدَّد الله مرتكبيها بحربٍ منه إلا معصية الربا:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

ذلك أن المال قوام الحياة، ذلك أن التكليف أن يكون المال بين أيدي الناس جميعاً، كل الناس في بحبوحة، كلهم الناس يسكنون بيوتاً مريحةً، يأكلون طعاماً مغذياً، يربون أولادهم، يعالجون مرضاهم، أما حينما يستخدم الكسب الربوي مكان الكسب المشروع، حينما تجمَّع الأموال في أيدٍ قليلة تنشأ المشكلات التي لا تنتهي، والمشكلة أن الإسلام ليس مسؤولاً عن آلاف المشكلات التي تفجَّرت من عدم تطبيقه، أعداء الإسلام ماذا يفعلون؟ يعزون المشكلات التي تفجَّرت عن عدم تطبيق الإسلام إلى الإسلام، ويعدونها مآخذ عليه، تماماً لو أن إنساناً قال: أنا لا أعبأ بالمهندسين، بنى بيتاً من دون علم، وضع إسمنت قليل، وحديد قليل، فانهار البناء أو مالَ، تعالوا أيها المهندسون أصلِحوا لي هذا الخلل، لا، المهندس لا يرضى إلا أن يهدم البناء ليشيده على أسس علمية، فكلما وجدنا مشكلة ناتجة عن مخالفة الدين، نعزوها بمكرٍ وخبثٍ وحقدٍ إلى الدين، ثم نريد أن ننهي هذا الموضوع.

المال قوام الحياة :

أيها الأخوة الكرام.. المال قوام الحياة:

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً)

[سورة النساء: 5]

قياماً؛ تقوم الحياة بالمال، المال إذاً له ضوابط كثيرة في كسبه وفي إنفاقه، فإذا نما المال بالمال فهذه قضية ربوية، نما المال بالأعمال قضية مشروعة، لمجرَّد أن ينمو المال بالأعمال يوزَّع بين أيدي الناس جميعاً، ذكرت هذا كثيراً في درس سابق.

لمجرد أن تفتح مشروعاً؛ زراعياً، صناعياً، تجارياً، لا بد من أن تستخدم آلاف الأشخاص بشكل مباشر أو غير مباشر، دون أن تشعر صُرف هذا الرأسمال، ووُزِّع كمصاريف لأناسٍ كثيرون، هذا المال توزع، أما لمجرد أن تضع المال في المصرف، وأن تتقاضى عليه أرباحاً، ولم تستخدم أحداً وأرباحك مضمونة، فهذه طريقةٌ لا ترضي الله عز وجل، أما من يقول: هذا المصرف يقيم مشاريع صناعية!! فنقول: ماذا يمنع أن يأخذ المصرف أموال الناس بالحق، وأن يوظفها بمشاريع إنتاجية رائعة جداً، وأن يوزع أرباحها على الموزعين؟ صار مصرف شرعي، ما في مشكلة، إذا وزعت هذه الجهة المالية أرباح المشاريع على المودعين، فالقضية شرعية مئة بالمئة، ولكن هذا لم يحدث، وإذا وصفت بعض المصارف بأنها ذات صفة إسلامية، فهذا للاستهلاك، وليس الواقع كذلك.

إذاً البديل: البيع والشراء والقرض الحسن، كسب المال عن طريق البيع والشراء، أو عن طريق الأعمال، والإحسان ليس مأجوراً، الله جلّ جلاله يدَّخر لك أجره في الآخرة، فالمؤمن يرجو رحمة الله، بدل أن يخرج قرضاً ربوياً يخرج قرضاً حسناً، لا يوازن بين قرضٍ وقرض، بين قرض

ربوي، وقرض غير ربوي، يوازن بين دنيا وآخرة، بين سخط الله ورضوانه، بين مُتَعٍ رخيصة وشيكة الزوال وبين جنة عرضها السماوات والأرض.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الدَّين حاجة أساسية في العلاقات الاجتماعية :

أتمنى على كل واحد منا، إذا قرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أن يشعر أنه مخاطب من قِبَل الله عز وجل، أي يا من آمنتم بي، آمنتم بحكمتي، بعلمي، آمنتم برحمتي، بكمالي، هذا منهجكم في الحياة..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ)

لا يغيب عن أذهانكم أن (إذا) تفيد تحقق الوقوع، بينما (إنْ) تفيد احتمال الوقوع، قال تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر: 1]

أي لا بد أن يأتي، هذه سُنَّة الله في الكون، لا بد من أن يأتي ولو بعد حين، أما:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا)

[سورة الحجرات: 6]

قد يأتي، وربما لا يأتي، هنا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ)

معنى ذلك أنّ الدَّين حاجة أساسية في العلاقات الاجتماعية.

كل إنسان يستقرض ولا يرد فهو يمنع الماعون :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ)

أي تقرضه ويقرضك، تعينه ويعينك، تأخذ بيده ويأخذ بيدك، ذلك أن الله عز وجل قهرنا على أن نأكل ونشرب، قيام أجسادنا يحتاج إلى طعام وشراب، نحن مقهورون بالطعام والشراب، وهذا الطعام والشراب يحتاج إلى مال، نحن مقهورون بالعمل، وهذا العمل يحتاج إلى جماعة، تتقن حاجةً، وأنت محتاج إلى مئة ألف حاجة، لا بد أن تكون مع الناس؛ تشتري رغيفَ خبز، مئة ألف إنسان ساهم في هذا الرغيف، بدءً بزراعته، وتنميته، وسقيه، وتسميده، وحصاده، وتجفيفه، وطحنه، وخبزه، تشتري خبزاً، تشتري قميصاً، تستخدم مَن يعالجك، مَن يُعَلِّم ابنك، تتقن حاجة، وأنت محتاجٌ إلى مئة ألف حاجة، أنت مقهور بالطعام والشراب، مقهور بالعمل، مقهور أن تكون في

جماعة، وأنت في جماعة تمتحن؛ إما أن تصدق وإما أن تكذب، إما أن تُخْلِص وإما أن تخون، إما أن تستقيم وإما أن تنحرف، إما أن ترحم وإما أن تقسو، إما أن تعطي وإما أن تأخذ، هنا الامتحان، وهو جزء أساسي من علاقاتنا قضية الدَّين.

مَن هذا الذي يمنع الماعون؟ الذي يمنع الماعون هو الذي يستدين ولا يوفِّي، الآن الناس كفروا بالدَّين، تجده يطلب الدَّين برقَّة بالغة، بأدبٍ جَم، فإذا تملَّك المال لا يسأل، ولا يلقي لك سلاماً، ولا يعتذر، كل إنسان يستقرض ولا يرد فهو يمنع الماعون، تروي الكتب: أن رجلاً يركب فرساً في الصحراء في أيام الحر الشديد، وتحت أشعة الشمس الحارَّة رأى رجلاً ينتعل رمال الصحراء المحرقة، رقَّ له، فدعاه إلى ركوب الخيل، ولم يكن يدري أن هذا لصٌ من لصوص الخيل، فما إن اعتلى ظهر الخيل حتى دفع صاحبها، وألقاه، وعدا بالفرس لا يلوي على شيء، فناداه صاحب الفرس: يا هذا، لقد وهبت لك الفرس، ولن أسأل عنها بعد اليوم، ولكن إيَّاك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء، فتذهب منها المروءة، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها.

القرض الحسن هو مُطْلَق العمل الصالح :

لأن الناس أقرضوا وما استوفوا، كفروا بالدَّين، مثل آخر مشابه: هناك طريقة مشروعةٌ جداً لاستثمار المال، وحاجة استثمار المال حاجةٌ أساسيةٌ جداً، طفلٌ يتيم، امرأةٌ أرملة، شيخٌ كبير، موظَّف متقاعد، هناك نماذج كثيرة جداً بحاجةٍ ماسَّة إلى استثمار أموالها، هؤلاء الذين جمعوا أموال الناس ليستثمروها فأكلوها، ماذا فعلوا؟ منعوا الخير، وسَفَّهوا الدين، وقووا مركز البنك، ما الذي قوَّى مركز البنوك الربوية؟ جامعوا الأموال الذين جمعوها وأكلوها، فالإنسان حينما يخطئ في الشيء المشروع يكون مجرماً بحق هذا الدِّين، وحق هذه الأمَّة.

فالله عز وجل جعل الدَّين أساساً في العلاقات الاجتماعية، الإنسان بحاجة للمال، ربما لا يكون فقيراً، ولكن عنده ظرف طارئ، فالذي لا يرد الدين يمنع الماعون، فعَنْ جَابِرٍ قَال:

((تُوُفِّيَ رَجُلٌ فَغَسَّلْنَاهُ وَحَنَّطْنَاهُ وَكَفَّنَّاهُ ثُمَّ أَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَيْهِ، فَقُلْنَا: تُصَلِّي عَلَيْهِ؟ فَخَطَا خُطًى ثُمَّ قَالَ: أَعَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قُلْنَا: دِينَارَانِ، فَانْصَرَفَ فَتَحَمَّلَهُمَا أَبُو قَتَادَةَ فَأَتَيْنَاهُ، فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ: الدِّينَارَانِ عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَحَقَّ الْغَرِيمُ وَبَرِئَ مِنْهُمَا الْمَيِّتُ، قَالَ: نَعَمْ، فَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمٍ: مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا مَاتَ أَمْسِ، قَالَ فَعَادَ إِلَيْهِ مِنْ الْغَدِ فَقَالَ: لَقَدْ قَضَيْتُهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدُهُ))

[من مسند الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه]

متى ابترد؟ لا مع الضمان، ولكن بعد الوفاء. لكن ما قولك بإنسان قدم لله أثمن ما يملك على الإطلاق، قدَّم روحه، استشهد في ساحة المعركة لإعلاء كلمة الله، هل هناك من عملٍ على سطح

الأرض من آدم إلى يوم القيامة أعظم من أن تقدم أثمن ما تملك، ومع ذلك يغفر للشهيد كل شيءٍ إلا الدَّين، الدَّين لا يغفر، ذلك أن حقوق العباد مبنيةٌ على المشاححة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة.

هذا الدَّين الذي يحل مشكلات المجتمع لا القرض الربوي، القرض الحسن، بل إن الله عز وجل جعل كل عملٍ صالحٍ على الإطلاق قرضاً حسناً، قال:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

إن أطعمت هرَّة فهو قرضٌ حسن لله، إن أعنت مسكيناً، إن أعنت أرملةً، إن رعيت يتيماً، إن أطعمت جائعاً، إن أرشدت ضالاً، إن أعنت امرأةً في حمل أثقالها فهذا قرضٌ لله عز وجل، بل إن القرض الحسن هو مُطْلَق العمل الصالح، لذلك الدَّين يحل مشكلات المجتمع ولكن الناس كفروا بالدين، لأنه يأخذ بأعلى درجة من اللطف، أما إذا طالبته قلب لك ظهر المِجَن، والله مئات بل آلاف القصص دين من خمسة وعشرين سنة، من ثلاثين سنة، من عشرة سنوات، ما في أمل أبداً أن تستردها، قدَّمت هذا القرض بنية عالية صالحة، فصار هذا المقترض مستعلياً، مماطلاً إلى أن تيأس منه.

الموازنة لا بين قرضٍ ربويٍ رابح وقرضٍ حسنٍ خاسر ولكن بين الدنيا والآخرة :

القرض الحسن بديل القرض الربوي، على الآلة الحاسبة القرض الربوي أربح، أما في ميزان القرآن:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

الموازنة لا بين قرضٍ ربويٍ رابح وقرضٍ حسنٍ خاسر، ولكن بين الدنيا والآخرة، بين سخط الله ورضوان الله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ)

أي تداينتم فيها معنى المشاركة، لو أن إنسان استقرض منك مبلغاً، وشعر بضعفه أمامك، فقلت له: حباً وكرامة، والله حينما أكون بحاجةٍ سأستقرض منك، هذا يرفع من معنوياته، الحياة تعاون، أخذ وعطاء، تقرضني وأقرضك، (إذا تداينتم) فيها فعل مشاركة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ)

العلماء الفقهاء لهم تعريف دقيق للدَّين: كل معاملةٍ كان أحد العِوضين فيها نقداً، والآخر في الذمة نسيئة، عوضان؛ أحدهما نقداً، والثاني محققاً في الذمة.

العدالة والضبط صفتان أساسيتان في المسلم :

أيها الأخوة...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ)

قال: أُمِرْنا بالكتابة كي لا ننسى، وأمرنا بالإشهاد كي لا ننكر، في احتمال النسيان أو الإنكار، تكتب كي لا تنسى، وتُشْهد كي لا تنكر، فلذلك اكتبوه؛ أي اكتبوا الدَّين، مقدار الدَّين، وأجل الدَّين، وأشْهدوا على الدَّين، تكتب كي لا تنسى، وتشهد كي لا تنكر..

(فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ)

قال: هذه الـ (باء) متعلقة بكلمة فليكتب بالعدل، دون أن يزيد ودون أن ينقص، والـ (باء) متعلقة بالكاتب، يجب أن يكون الكاتب عدلاً.

وتعلمون أيها الأخوة أن في الإنسان صفتين أساسيتين؛ الضبط والعدالة، الضبط صفةٌ عقلية، والعدالة صفةٌ نفسية، ولا يتمتَّع المسلم بحقوقه إلا إذا كان ضابطاً عدلاً، فالعدالة ذكرتها اليوم في الخطبة:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو من كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته.))

[أخرجه العسكري في الأمثال والديلمي في مسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن الحسين بن علي]

هذه العدالة، لو عاملهم فظلمهم، وحدَّثهم فكذبهم، ووعدهم فأخلفهم سقطت عدالته، لكن هناك أشياء لا تسقط العدالة ولكنها تجرحها؛ فأكل لقمةٍ من حرام يجرح العدالة، تذوق لقيمة تبلغ ربع أوقية، وسأل البائع: بكم الكيلو؟ ولم يشتر، أكل لقمة من حرام تجرح العدالة، تطفيف بتمرة يجرح العدالة، مَن مشى حافياً جرحت عدالته، مَن بال في الطريق جرحت عدالته، مَن أطلق لفرسه العنان، السرعة العالية، تجرح العدالة، مَن قاد برذوناً مخيفاً تجرح عدالته، مَن تنزَّه في الطريق ليملأ عينيه من محاسن النساء، أو مقاهي الرصيف تجرح عدالته، مَن صحب الأراذل تجرح عدالته، مَن علا صياحه في البيت تجرح عدالته، مَن تحدَّث عن النساء، وعن أشكالهن، وعن ألوانهن، وأطوالهن، وطباعهن، وكان مغرماً بهذا الحديث تجرح عدالته، فلذلك العدالة والضبط صفتان أساسيتان في المسلم، الضبط صفة عقلية، والعدالة صفة نفسية.

على الكاتب أن يكون عدلاً وإذا كتب فينبغي أن يكتب بالعدل :

قال تعالى:

(وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ)

يجب أن يكون الكاتب عدلاً، وإذا كتب فينبغي أن يكتب بالعدل، فالباء باء بالعدل، متعلقة تارة ليكتب بالعدل، وتارة كاتب بالعدل..

(كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ)

الذي ينبغي أن يملي هو الذي عليه الحق.

(وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً)

الكاتب يكتب، هو عدلٌ، يكتب من دون زيادة، ومن دون نقصان.

(وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ)

إذا دُعِيَ الكاتب إلى الكتابة ينبغي أن يكتب، وإذا دعي الشاهد إلى الشهادة ينبغي أن يشهد، هذا واجب ديني.

الكاتب ممنوع أن يأبى والشاهد ممنوع أن يأبى الشهادة :

لكن يقول الله عز وجل بعد حين:

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

إنسان يرتزق يوماً بيوم، تدعوه لأداء شهادةٍ في مكانٍ بعيد لا بد أن تعطيه تعويضاً، فالكاتب ممنوع أن يأبى، والشاهد ممنوع أن يأبى الشهادة، الطرف الثاني عليه ألا يضر كاتباً ولا شاهداً..

(فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ)

السفيه الذي اختل عقله، أو الصغير، أو الذي لا يُحْسِن أن يتكلم، أو الأخرق، أي إذا كان هناك مانع صحي، أو مانع بنيوي من أن يملي، قال:

(فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ)

ولي هذا السفيه يملي مكانه..

(وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى)

هذا كلام خالق الكون، وهناك مَن يعترض على هذا الحكم، من باب السَفَه، ومن باب عدم الوعي.

الإنسان يطمئن بالكتابة لأن بنية الإنسان تحب التوثيق والتأكيد :

لكن نُقل إليَّ أن هناك بحث علمي دقيق حول شهادة المرأة، وشهادة الرجل، والآن لا يحضرني تفاصيل هذا البحث، ولكن إن شاء الله حينما يقع تحت يدي أعرضه عليكم، فهناك بنية خاصة في المرأة، هي في مجال متفوقة جداً، وفي مجال أقلُّ تفوقاً، والرجل في مجال متفوق جداً، وفي مجال

أقلّ تفوقاً، إنهما متكاملان، واحدٌ يقوم بمهمته خارج المنزل، يحتاج إلى قوة إدراك، إلى قوة إرادة، إلى شخصية قوية، إلى بصيرة ثاقبة، إلى حزم، إلى علم، هي تربي أولادها وترعى زوجها، تحتاج إلى عاطفة جيَّاشة، إلى انفعاليَّة عالية، تحتاج إلى وفاء، إلى ود، فهي لها دور لا تُنافس فيه الرجل، وهو له دور لا ينافسها فيه، على كلٍ إن شاء الله في القريب العاجل أضع بين أيديكم ملخص هذا الموضوع.

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ)

سبحان الله! إنّ الإنسان بالكتابة يطمئن، الدليل قال تعالى:

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

[سورة الأنعام: 54]

الله لا يكتب ولكن يطمئننا، القضية مكتوبة، إنسان يشتري بيتاً من دون عقد، يبقى قلقاً، متى يرتاح؟ حينما يكتب عقداً يوقعه ويوثقه، فبنية الإنسان تحب التوثيق، تحب التأكيد، والشيء المكتوب أكثر تأكيداً وأقوى وربنا عز وجل من أجل انتظام العلاقات الاجتماعية قال: هذا الدَّين من أعظم أبواب الخير، فإذا دفع الدَّين ولم يُكْتَب ولم يؤدَّ اضطرب هذا الحبل، ومع اضطرابه تفسد العلاقات الاجتماعية، عندئذٍ لا بد من التعامل بشكل آخر ربوي، فمن أجل ضمان هذا العمل الصالح، ضمان هذه الحاجة اليومية للمجموعة البشرية كانت آية الدَّين.

الكتابة للتوثيق :

قال تعالى:

(وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِه ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا)

أنا لا أبالغ، مئات ألوف الحوادث؛ اغتصاب الأموال، انفصال الشركات، الخلاف بين الشركاء أساسه عدم الكتابة، حدَّثني أخ فقال لي: اشتريت مشروع تجاري أنا وواحد مناصفةً، بمبلغ بسيط جداً، ثم نمت قيمة هذا المشروع إلى أن بلغت مئة ضعف تقريباً، هو أعطاني دفعات، وعدها من رأسمالي، وأخرجني من الشركة، صار المشروع قيمته بضع مئات من الملايين، وبدأ برقم رمزي جداً، قال لي: اتفقنا، ولكن لم نكتب، فرد لي أقساطاً ظننتها أرباحاً، فإذا هي من رأسمالي، رد لي رأس المال، وقال لي: لا علاقة لك بالمشروع.

فكل إنسان لا يكتب يدفع الثمن باهظاً، اكتب لئلا تنسى، وأشهد لئلا ينكر، يقول سيدنا معاوية رضي الله عنه وقد سأل عمرو بن العاص وكان من دهاة العرب: يا عمرو ما بلغ من دهائك؟ قال له: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه. قال له: لست بداهية، أما أنا والله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه.

أقول لكم هذه الحقيقة: أنت اتفقت مع شخص بعقد تجاري وما سجلته، كتبته وما وقعته، وقعته وما وثقته، وثقته وما ثبَّته بالمحكمة البدائية، أنت تعطي الطرف الثاني حرية الحركة، تغويه أن يأكل لك مالك، تغريه دون أن تشعر، فإذا أغريته، وأكل هذا المال حراماً، هل تصدِّق أنك أنت السبب، أنت السبب، أنت ما حصَّنته بعقد، لو أنك حصنته بعقد ما فعل هذا، تماماً لو واحد أحضر موظف وجعل المال بين يديه من دون حساب، شيء مغرٍ أن يأكل من هذا المال، مَن يصدق أن الذي يتيح لإنسان أن يسرق يعاقب هو كسارق، لأنه سبب فساد إنسان، فلماذا الكتابة؟ للتوثيق، أنا لا أبالغ هناك مئات ألوف الحالات المؤلمة جداً؛ من اغتصاب بيوت، على شركات، على علاقات، على قروض، وعلى ديون، على حقوق أزلية، كل هذا بسبب عدم الكتابة، إله يقول لك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا)

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع هذه الآية الطويلة..

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (92-95) :تفسير الآية 282 - الدّين2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-09-29

بسم الله الرحمن الرحيم

المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف والمسؤولية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والتسعين من دروس سورة البقرة، ومع الآيةِ الثانية والثمانين بعد المئتين، وهي أطول آية في القرآن الكريم إنها آية الدَّين، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، حقيقةٌ أساسيةٌ في الإسلام، هذه الحقيقة هي أن المرأةَ مساويةٌ للرجل تماماً؛ في التكليف، وفي التشريف، وفي المسؤولية، مكلَّفةٌ كما هو مُكلَّف، مكلفةٌ بأركان الإسلام وأركان الإيمان، مكلفةٌ بالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، مكلفةٌ بغضِّ البصر، مكلفةٌ بضبط اللسان، مكلفةٌ بالصدق والأمانة، مكلفةٌ بأن ترعى حق زوجها وأولادها، ومساويةٌ له تماماً في التكريم، مكلفةٌ كما هو مكلَّف، ومكرمةٌ كما هو مكرم.

مهمّتا المرأة والرجل مهمتان متكاملتان وليستا متشابهتين :

قال تعالى:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة آل عمران: 195]

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 35]

مسؤولةٌ كما هو مسؤول، المرأة مسؤولة عما استرعاها الله، استرعاها زوجها وأولادها مسؤولةٌ ومحاسبةٌ، ومكرمةٌ أو معذبةٌ يوم القيامة، هذه الحقيقة مقطوع بها، وأيُّ إنسانٍ يرى المرأة دون الرجل من حيث التكليف والتشريف والمسؤولية هو إنسانٌ جاهليّ، إلا أن الله عزَّ وجل يقول:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

أي أن المرأة خصائصها الجسمية، وخصائصها النفسية، وخصائصها الاجتماعية، وخصائصها العقلية كمالٌ لأداء مهمتها، والرجل خصائصه الجسمية، والعقلية، والنفسية، والاجتماعية كمالٌ لأداء مهمته، مهمَّتا المرأة والرجل مهمتان متكاملتان وليستا متشابهتين، هو لكسب الرزق ونشر الحق، وهي لرعاية الزوج والأولاد، وقد تكون مهمتها من أخطر المهمات.

مهمة المرأة في البيت تعدل أعظم عملٍ في الإسلام وهو الجهاد :

بل إن مهمة المرأة في البيت تعدل أعظم عملٍ في الإسلام، إنه الجهاد، فعَنْ مُعَاذِ بْن جَبَلٍ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[أحمد عَنْ مُعَاذِ بْن جَبَلٍ]

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((اعلمي أيتها المرأة وأعلمي مَن دونك من النساء أن حُسن تبعُّل إحداكن لزوجها يعدل ذلك كله))

أي الجهاد في سبيل الله.

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

خصائص كلٍ منهما مختلفة عن الآخر، وقد ذكرت لكم من قبل أننا درسنا كتاباً في الجامعة في علم نفس الطفل، أهم ما في الكتاب القدرات الخاصة في الإناث والذكور، شيء عجيب! المرأة مبرمجة برمجة كاملة على أن تكون زوجةً وأماً، والرجل مبرمج برمجة كاملة على أن يكون زوجاً ورجلاً، وكاسباً للرزق، في الذاكرة، والتخيل، والتصور، أشياء دقيقة جداً إن قرأت هذا الكتاب وهو من أدق كتب علم النفس التربوي، وجدت هذا الكتاب كله تفسيراً لآيةٍ واحدة،

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

أضرب لكم مثلاً ذكرته لكم كثيراً: المركبة المُخَصَّصة لنقل الركاب أكبر مساحة فيها للركاب، ومساحةٌ صغيرة لحاجاتهم، أكمل ما في هذه المركبة اتساع مساحة الركاب وضيق مساحة الحاجات، أما المركبة المخصصة أصلاً لنقل البضائع فأكبر مساحة فيها للبضائع، وأقل مساحةٍ فيها للسائق ومعاونه، أيهما أكمل؟ كلام غير صحيح، كل مركبةٍ كاملة لما صنعت له، كلام دقيق، أيهما أكمل؟ كل مركبةٍ كاملةٌ لما صُنعت له، ما دامت هذه المركبة صنعت لنقل الركاب، إذاً أكبر مساحة فيها مساحة الأشخاص، وأقل مساحةٌ فيها مساحة الحاجات، ومادامت هذه المركبة صنعت أصلاً لنقل البضائع فأكبر مساحة فيها للبضائع، وأقل مساحةٍ فيها للركاب.

عِلَّة السُّكْنى :

إذا قال لك أحدهم: هذه المركبة سيئة جداً لأنني لو أردت نقل عشرين طن بها لا تتحمل، (بولمان) تقول له: هذا كلام غير مقبول، لأن هذه المركبة لم تصمم للبضائع، وإذا قال لك واحدٌ آخر: هذه الشاحنة سيئة جداً، لا يوجد فيها إلا محل لشخصين، أنا أريد أن أنقل فيها خمسين شخصاً، نقول: هذه المركبة لم تصمم للأشخاص بل للبضائع، فاتساع مساحة الركاب ونقص مساحة البضائع كمالٌ في مركبة الرُّكاب، واتساع مساحة البضائع ونقص مساحة الأشخاص كمالٌ في مركبة البضاعة، فهذه حقيقة أساسية.

فالمرأة مصممةٌ كي تؤدي رسالةً، وكي تدخل جنة ربها من أوسع الأبواب، إذا كانت أماً، وزوجةً، وأختاً، وابنةً، والرجل مبرمجٌ ومصممٌ لأن يدخل الجنة من أوسع الأبواب، لذلك المرأة لها اهتمامات، والرجل له اهتمامات، وهذا الشيء بين أيديكم، قد يتابع أحدكم الأخبار فتضجر زوجته، فتقول له: كفاك أخباراً ـ مثلاً ـ لأنّ اهتماماتها غير اهتماماته، واهتماماته غير اهتماماتها، لذلك يسكن بعضهما إلى بعض، لماذا يسكن الرجل إلى زوجته؟ لأنه يُكَمِّل فيها نقصه، عنده نقص أساسي في العواطف، هي عندها عاطفة جَيَّاشة، إذا أحبت أحبت بلا سبب، تحب حباً لا حدود له، فعندها عواطف جيَّاشة يُكَمِّل نقصه بها فيحبها، هي عندها نقصٌ في الاقتحام، والاهتمام بالقضايا العامة، والجُرأة، فتكمِّل نقصها به، هي تكمل نقصها به فتحبه، وهو يكمل نقصه بها فيحبها، وهذه عِلَّة السُّكْنى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الروم: 22]

ومن آياته:

(اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

[سورة يونس: 6]

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

شهادة المرأة لا تعدل شهادة الرجل لسببين :

يا أيها الأخوة... أعداء الإسلام يأخذون على الإسلام أن شهادة المرأة لا تعدل شهادة الرجل:

1 ـ ليست المرأة طليقة كالرجل :

السبب الأول هو: أنها ليست طليقةً كما الرجل طليق، هي أسيرة بيتها، وأولادها، وحضانة أولادها، امرأةٌ مُرْضِع هل يمكن أن نطالبها أن تذهب من دمشق إلى حمص لأداء الشهادة؟ عندها طفل رضيع، اهتماماتها طفلها، اهتماماتها زوجها، فلذلك اهتماماتها غير اهتماماته، قلَّما تعنى المرأة بالقضايا المالية، فالمرأة تشتري بيت، أما العقد والشهود لا تعتني بهذا كثيراً، لذلك أُناسٌ كثيرون خبثاء يضحكون على بعض النساء في الأمور المالية، قد تبيع بيتها بكلماتٍ معسولاتٍ من إنسان قريبٍ لها، قد تعطي وكالة عامة، فتخسر كل أملاكها بكلماتٍ ليِّناتٍ من رجل، إذاً اهتماماتها غير اهتمامات الرجل. فلذلك حينما تكلّف امرأةً أن تشهد لك ربما لا تستطيع أن تأتي بها متى شئت لتؤدي هذه الشهادة أمام القاضي، محكومةٌ ببيتها، وزوجها، وأولادها، محكومةٌ بوضعها البيولوجي ـ إن صحَّ التعبير ـ لها دورة، محكومةٌ بحملها، محكومةٌ بإرضاعها، فقد تُكلّف امرأةً أن تشهد لك لا تستطيع أن تأتي بها متى تشاء كي تقول شهادتها أمام القاضي، هذه واحدة.

2 ـ اهتمامات المرأة بالقضايا المالية ضئيلٌ جداً :

الشيء الثاني هو: أن المرأة اهتماماتها بالقضايا المالية ضئيلٌ جداً، بينما اهتماماتها بالقضايا النسائية عالٍ جداً، أنت قد تدخل بيت ولا تعرف شيئاً عن أثاث البيت، لا تنتبه له إطلاقاً، ادخل إلى بيت أحد أصدقائك، واجلس معه ساعة، واخرج، تقول لك زوجتك: دخلت إلى غرفة الضيوف؟ تقول لها: نعم، ما نوع الطقم؟ تقول لها: واللهِ لا أذكر، ما نوع الستائر؟ والله لا أتذكر، هل توجد ثريات؟ والله لم أنتبه، هي تهتم بالأثاث، والستائر، والثُّريات، ماذا قُدِّم لك من طعام؟ أكلنا، ما نوع الأكل؟ اهتماماتها غير اهتمامات الرجل، ولأن اهتماماتها غير اهتمامات الرجل تحبها، لو تأتي إلى البيت فلا تجد فيه طبخاً، ولا نظافة، ولا غسيلاً، ولكنها تفهم قضايا الساعة تماماً، قضايا الحرب الباردة بين المعسكرين مثلاً، قد تخرج من جلدك منها، لا بد أن تهتم بأولادها، وزوجها، وطعامك، وشرابك، وثيابك، ونظافة ثيابك، ونظافة بيتك، لذلك لماذا تحبها؟ لأن اهتماماتها غير اهتماماتك،

ولماذا تحب المرأة زوجها؟ لأن اهتماماته يحميها، ويطعمها، ويأتي برزقٍ وفير، ويرفع من قيمتها، وهو مدافعٌ عنها، هذه حكمة الله عزَّ وجل. أما أن تكلف المرأة باهتمامات الرجل ربما لا تتصور.

دعك من هذه الأمثلة، الآن إنسان عمله في العلم، وآخر عمله في التجارة، لو كلفت إنساناً عمله في العلم أن يفعل شيئاً من أعمال التجارة لن ينجح، قد ينسى أن يوقع الإيصال، قد ينسى أن يعقد صفقة، أما لو كلفت إنساناً من أهل المال بعملٍ علمي فلا يفلح، دعك من النساء والرجال، الرجال أنفسهم كل إنسان له اختصاصات وله اهتمامات، فحينما يقول الله عزَّ وجل:

(فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ)

أي أن اهتمامات المرأة بالقضايا المالية ضعيف، قال لي أحدهم ـ وأنا أنقل كلامه ولا أعلّق عليه ـ: لو استمعت إلى امرأةٍ ليست متعلمةً، وامرأة تحمل ابتدائية، وامرأة تحمل ثانوية، وامرأة تحمل إجازة أو شهادة الليسانس، وامرأة تحمل الماجستير، وامرأة تحمل دكتوراه، لو تحدَّث هؤلاء في أمور نسائية لا تعرف مَن المثقَّفة منهم، لأن اهتمامها الأول في القضايا النسائية.

شيءٌ آخر: الرجل اهتماماته عامة، لا يعنى كثيراً بالقضايا التفصيلية، الجُزئية، المنزلية، هذه بعض الحُجَّج التي أدافع عنها عن قضية أن المرأة بنصف شهادة الرجل..

(أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا)

القضية لا تعنيها، بينما في القضايا النسائية الشرع يكتفي بشهادة امرأةٍ واحدة، لأن القضايا النسائية مِن اختصاص المرأة، ومن اهتماماتها، ومما تفوَّقت به.

الفرق بين الرجل والمرأة فرق خصائص :

كلما دققت في خصائص النساء وخصائص الرجال وجدت عظمة الله عزَّ وجل، هذه البنت الصغيرة التي ولدت قبل سنة أو سنتين اهتماماتها اهتمامات تربية، تمسك الوسادة تضعها في حضنها كأنها ترضعها وتربت على كتفها، يأتي الطفل الصغير يركب قضيباً وكأنه حصان، الطفل غير البنت، قد تجد بنية واحدة، أما هناك برمجة للنفس، هذا الطفل الصغير مبرمج برمجة خاصة، والبنت الصغيرة مبرمجة برمجة خاصة، فلذلك:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون: 14]

لولا أن المرأة لها اهتماماتٌ خاصة لما أحببتها، لولا أنها تعتني بهندامها؛ قضية الجمال عندها قضيةٌ كبيرةٌ جداً، ذات مرة سمعت أن حرباً أهلية في لبنان إلى جوارنا، هناك مَن أعطاها تفسيراً دولياً، أن مركز لبنان المالي أصبح كبيراً جداً، فأوروبا حطَّمته ـ مثلاً ـ هناك من أعطاها تفسيراً عربياً، فقد كانت ساحة صراع قديماً، هناك مَن أعطاها تفسيراً طائفياً، وهناك مَن أعطاها تفسيراً نسائياً، مثل: حكمتها عين، فهناك تفسير نسائي لأحداث لبنان، وهناك تفسير إلهي:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

وكل بلد هكذا فعل، مُعَرَّض لأن يصاب بما أصيب به أي بلد آخر، شيء واضح جداً أن هناك فرقاً كبيراً بين النساء الرجال، فرق خصائص، أما التكليف فواحد، والتشريف واحد، والمسؤولية واحدة، أما الفرق فهو فرق خصائص، وهذه الخصائص كمالٌ للمهمة التي أُنيطت بكلا الطرفين.

في الإنسان صفتان أساسيتان هما العدالة والضبط :

أول نقطة في هذا الموضوع هي: أن المرأة لا تملك كل وقتها، فقد تكون مرضعةً، أو قد تكون حاملةً في شهرها الأخير، وقد تكون أسيرة بيتها، وزوجها، وأولادها، وربما لا تُلَبِّيك عندما تطلبها لأداء الشهادة أمام القاضي.

الشيء الثاني هو: أن اهتماماتها غير اهتمامات الرجل، لذلك ربما لا تفلح في اختصاص الرجال، أما هي فتفلح فلاحاً لا حدود له في اختصاص النساء، لذلك قَبِلَ الشرع شهادة امرأة واحدة في أمور النساء..

(فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ)

وذكرت لكم أن في الإنسان صفتين أساسيتين؛ هما العدالة والضبط، العدالة صفة أخلاقية والضبط صفة عقلية، لا يزال هناك بحث علمي لم أعثر عليه، بنية قدرات المرأة في الشهادة تقتضي هذه الآية، بحثت عنه كثيراً ولم أجده حتى الآن، إن شاء الله حينما أعثر عليه أُقَدِّمه لكم،

هناك بحث علمي، لماذا شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل؟

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

فأيُّ شاهدٍ يمتنع عن أداء الشهادة فهذا إنسان عصى الله، أنت راكب في مركبة، وحدث حادث سير، وصار في ضحية، وصار في تلف مال، وأنت رأيت بعينك أن السائق لم يعتدِ على أحد، فهو يسير سيراً صحيحاً بسرعةٍ معقولة، ووَفق قواعد السير، وجاء تقرير من الطرف الآخر مزوَّر، أو فيه كذب، وأنت شاهد، فهذا الذي يقول: أنا ليس لي علاقة، هذا إنسان يعصي الله ورسوله، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

دعيت إلى شهادة فيجب أن تُلبِّي وهذا جزءٌ من دينك، لأنك بهذه الشهادة تُحِقّ الحق وتبطل الباطل، والله هو الحق، وعدل ساعةٍ يعدل أن تعبد الله ثمانين عاماً.

العبادات الشعائرية لا تُقْبَل عند الله عزَّ وجل إن لم تكن هناك عباداتٌ تعاملية :

أيها الأخوة، أنا أكاد أقول لكم: الإسلام مئة ألف بند، وهذا الذي يتصور أن الإسلام صلاة، وصوم، وحج، وزكاة، وانتهى الإسلام، لا يفقه في الدين شيئاً، أداء الشهادة جزءٌ من الدين، إتقان العمل جزءٌ من الدين، عدم غش المسلمين جزءٌ من الدين، أن تكون صادقاً جزءٌ من الدين، أن تكون أميناً جزءٌ من الدين، العبادات الشعائرية لا تُقْبَل عند الله عزَّ وجل إن لم تكن هناك عباداتٌ تعاملية، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ملخَّص هذا الكلام: أن العبادات الشعائرية من دون عباداتٍ تعاملية، من دون صدقٍ، وأمانةٍ، وورعٍ، وضبط لسانٍ، وضبط عينٍ، وضبط أذنٍ، هذه العبادات الشعائرية يجب أن تؤديها ولكنها لا ترفع إلى الله إلا باستقامتك في العبادات التعاملية..

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ)

هناك مآسٍ سببها عدم الكتابة، كم من شركةٍ أُخِذَت منك لأنك اكتفيت بعقدٍ شفهي، وكم من محلٍ تجاريٍ خسرته لأنك اكتفيت بعقدٍ شفهي، لا بد من أن توثّق، وهذه آية الدَّين تنطلق من الدَّين، وتتوسع كي تعمَّ كل شيء. فبصراحة إذا لم تقيد الطرف الآخر بشيء مكتوب أنت أغريته أن يأخذ منك المحل التجاري، أما إذا قيدته بعقد موثَّق في المحكمة، أو عند كاتب العدل، لا يستطيع الشيطان أن يقول للطرف الآخر: خذ المحل منه، لذلك فأيُّ إنسان يعين إنسان على أن يأخذ مالاً حراماً فهو الآثم، هو الذي سبب له أن يأكل المال الحرام، هذه قضية خطيرة جداً.

الإنسان مخلوقٌ كي يعبد الله وأي شيءٍ يفسد عليه العبادة يجب أن يبتعد عنه :

قال تعالى:

(ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا)

السبب هو أنك إذا أنت قصَّرت بالكتابة هذا المال مال أولادك، وضاع منك كل شيء، الله عز وجل أرادك أن تتفرغ لعبادته، فإذا طبقت شرعه فأنت متفرغ لعبادته، إذا طبقت شرعه لا يمكن أن تدخل قصر العدل، أما إذا لم تطبق شرعه فلا بد أن تُجرَّ إلى هناك، وقد تبدأ المحكمة ولا تعرف متى تنتهي، وآلاف الدعاوى تشطب لموت أحد الطرفين، معقول أن يعيش إنسان عمره بالدعاوى؟ نسي أن يوقع عقداً، لم يعمل مخالصة نظامية، ما كتب عقد، ما وقع سند وكلها شفهية، فجأةً يجد نفسه مدان بمبالغ كبيرة جداً، ولا سبيل لتحصيلها.

أيها الأخوة الكرام... نقطة دقيقة جداً هي: أنت مخلوقٌ كي تعبد الله وأي شيءٍ يفسد عليك العبادة يجب أن تبتعد عنه، فالخصومة مثلاً، تدخل مع خصم في المحاكم ثمان سنوات، ثمان سنوات حجبك عن العبادة، صار ثمة اضطراب، قدمت مذكرة، قدم محامي مذكرة، أنت قلق، هناك حالات نفسية تعيقك أن تعبد الله، فإن أردت أن تكون متفرِّغاً للعبادة صافيَ النفس فطبِّق منهج الله، فإن لم تكتب، إن لم توثق فقد تندم ندماً شديداً.

حدَّثني أخ أنه دفع لشخص ستمئة ألف ـ القصة من اثنتي عشرة سنة ـ أي بمقدار ستة ملايين، قال له: وصل، قال: بعد الظهر تعال وخذه، في هذا الوقت توفي الشخص، بعد ساعة توفي، ستمئة ألف من اثنتي عشرَة سنة بمقدار ستة ملايين، ماذا حدث له؟ قد تأتي أزمة فتقضي عليه، كل شيء يملكه، ما أخذ الورقة، الورثة هل بالإمكان أن يصدقوا كل مَن يدعي أن له عندهم حقاً؟ مستحيل، ففي قضايا خطيرة جداً، كن دقيقاً، أنت مخلوقٌ لعبادة الله، ويجب أن تكون صافياً لعبادته، خالي الذهن، هذا يحتاج إلى توثيق، كل شيء وثّقه بالكتابة، بالإيصالات، بالعقود، بكاتب العدل، بمحكمة البداية، كي تُقَيِّد الطرف الآخر، وإذا قيدته انتهى الأمر.

النقطة الثانية: أنك إن لم توثق أمورك فقد أغريت الطرف الآخر أن يأخذ مالك، فإذا فعل فقد كنت أنت السبب، فمثلاً لو أنّ إنساناً تساهل مع موظفٍ عنده، وأبقى صندوق المال مفتوحاً، شيء مغرٍ، شاب بحاجة إلى المال، روادعه قليلة، إيمانه ضعيف، فأغراه الشيطان أن يأخذ من هذا المال، مَن الذي سيحاسب كمتسبب في فساد هذا الإنسان؟ صاحب المحل لأنه أغراه.

فيا أيها الأخوة الكرام... قضية توثيق العقود، كتابة العقود، الديون، الاتفاقات كلها اجعلها على ورق، وكل شيء شفهي يفضي إلى المنازعة، القضايا الشفهية فَضْفَاضة، فهي تأخذ وتعطي، غير محددة، غير مضبوطة، وكما قيل: الجهالة تفضي إلى المنازعة.

وإن شاء الله في درس قادم نتابع تفسيرَ هذه الآية.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (93-95): تفسير الآيتان 282- 283 ، كتابة الدَّين والشهادة الصحيحة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-10-06

بسم الله الرحمن الرحيم

التجارة أساسها البيان والمُقابضة :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث والتسعين من دروس سورة البقرة، ولا زلنا مع الآية الثانية والثمانين بعد المئتين، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا)

وصلنا إلى هنا:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ)

التجارة أساسها البيان والمُقابضة، من أين يأتي النزاع؟ إذا كان في البيان خطأ، وكما قيل: الجهالة تفضي إلى المنازعة. التاجر الصادق المؤمن يبيِّن كل شيء، لا يخفي عيباً، ولا يخفي أجلاً، ولا يخفي سعراً، وما من مشكلةٍ نشأت بين التجارة إلا بسبب الجهالة، والبيان يطرد الشيطان..

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً)

التجارة إذا كان أساسها البيان الصحيح والتقابض يداً بيد فلا داعي للكتابة :

التجارة الحاضرة أساسها: التقابض؛ البائع يقبض الثمن، والمشتري يقبض البضاعة، تقابض فعل مشاركة، فلا بد من القبض، ولا بد من الإيجاب والقبول، يقول له: بعتك، فيقول له: قد اشتريت، صار ثمة إيجاب، وقبول، وبيان، والحديث عن التجارة حديثٌ طويل جداً.

هناك خيار الشرط، هناك خيار العيب، هناك خيار الزمن، على كلٍ في دروس أخرى إن شاء الله في دروس الفقه لا بد من حديث طويل عن التجارة، هنا بشكل مختصر التجارة الحاضرة أساسها البيان، وأساسها التقابض، فما دام في تقابض، التاجر قبض الثمن، والشاري قبض البضاعة، لا يوجد داعي للكتابة.

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ)

العلاقات التجارية علاقات كثيفة ويومية، وأساسها الثقة، ولكن ما دام ثمة تقابض انتهى كل شيء، أما لو أن هذه البضاعة قبضها المشتري، ولم يدفع الثمن، فلا بد من التسجيل، انقلب الأمر إلى دَين، فلا بد من تسجيل الدَّين، ولا بد من تسجيل القيمة، والزمن، والأداء، كما هي الحالة في آيات الدين.

(فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا)

كأن الآية توَجِّهنا إلى أن التجارة إذا كان أساسها البيان الصحيح، والتقابض يداً بيد، فلا داعي للكتابة، أما إذا حصل تأجيل في دفع الثمن، فقد صار الثمن ديناً في ذمَّة المشتري، إذاً فهو يخضع لآية الدين.

(وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ)

العلماء استثنوا الأشياء الخفيفة، هناك أشياء ثمينة؛ كبيع بيت، أو بيع أرضٍ، أو بيع متجرٍ، أو شيء خسيس كبيع كأس من العصير، هذه لا تحتاج لا إلى إيجاب، ولا إلى قبول، ولا إشهاد، هذه أشياء خسيسة يسمونها بيع التعاطي، أعطيته خمسة ليرات، أعطاني كأس شراب شربته..

(وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ)

في الأشياء الثمينة العلماء وجهوها.

للآية التالية عدة معانٍ :

أما الوقفة الدقيقة:

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

1 ـ الكاتب لا ينبغي أن يكتب أكثر مما أملي عليه ولا أقلَّ :

الكاتب لا ينبغي أن يكتب أكثر مما أملي عليه ولا أقلَّ، وهناك مَن يستغل أمية المُمْلي فيكتب زيادة أو أقل، والشاهد ينبغي ألا يشهد لا بزيادة ولا بنقصان، فإن كتب الكاتب أكثر أو أقلَّ، أو شهد الشاهد أكثر أو أقلَّ، فقد أضر بالحق، وضلل القاضي..

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

2 ـ لا ينبغي أن تضر الكاتب أو الشاهد في وقتٍ لا يناسبه :

المعنى الثاني من معاني:

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

أي أن هذا الشاهد ينبغي ألا تحرجه في وقتٍ هو عنده ثمين جداً، كإنسان في عنده عمل أساسي تقول له: الآن ينبغي أن تذهب معي إلى القاضي، ينبغي أن تكون واقعياً، فإذا كان هناك مجال لتأجيل الشهادة ليوم آخر لا تكن سبباً في إيذاء هذا الشاهد لأن الشاهد مكلف أن يشهد..

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

ما دام قد كلف أن يشهد فلا ينبغي أن تضره في وقتٍ لا يناسبه.

3 ـ لا ينبغي أن يكلف عملاً يخسر كسبه في اليوم دون أن تعوض عليه :

الشيء الثالث:

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

ينبغي لو أنه يعمل عملاً يدوياً، يوماً بيوم، ويأكل من عمل يده، فإذا أمرته أن يذهب معك إلى مكان بعيد، فقد يقتضي ضياع يوم بأكمله، فلا بد أن تعوض عليه مقدار كسبه في هذا اليوم، فالشاهد والكاتب لا ينبغي أن يشهد أكثر ولا أقلَّ مما هو عليه، ولا ينبغي أن يُحْرَج في وقتٍ لا يناسبه، ولا ينبغي أن يكلف عملاً يخسر كسبه في اليوم دون أن تعوض عليه..

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

العمل الصالح يجب أن تشجع صاحبه وتكافئه عليه حتى يترسَّخ الخير في المجتمع:

دائماً في نقطة: الذي يمنع الماعون، الذي يقدم خدمة دون أن يرى نتيجةً لها يزهد في خدمة الحق، هذا الذي ذكره الله عز وجل في القرآن الكريم حول الذين يراؤون ويمنعون الماعون، كل إنسان يعمل عمل طيب، وقد يكون إيمانه ضعيف، ولا يرى نتيجةً لهذا العمل الطيب، يزهد في المعروف.

فقد سمعت قصةً يغلب على ظني أنها صحيحة، إنسان يعمل على سيارة وجد فيها مبلغاً ضخماً جداً، رجل مسلم، بقي يحوم حول المكان الذي أخذ منه الراكب عشرين يوماً إلى أن عثر عليه، وقدَّم له هذه المحفظة التي فيها رقم فلكي، صاحب المال أخذ هذا السائق الذي يعمل على سيارة أجرة مباشرة إلى سوق السيارات، واشترى له سيارة جديدة، وقال له: هذه لك، هذا المعروف يشجع، إنسان آخر لا يعطيه شيئاً، ماذا فعل الأول؟ شَجَّع على المعروف، ماذا فعل الثاني؟ منع المعروف.

طبعاً المؤمن يجب أن يرد اللقيطة إلى صاحبها أخذ أو لم يأخذ، قدَّر أو لم يقدر، هذا هو الحق، أما أنت حينما تكرم هذا الذي جاءك بهذا المبلغ الكبير، وبحث عنك عشرين يوماً، وسلمك إياها عداً ونقداً، يقول هذا السائق: والله مباشرة أخذني إلى سوق السيارات، واشترى لي سيارة جديدة أصبحت ملكي نظير هذه الأمانة.

فأنت كلما وجدت عملاً صالحاً يجب أن تشجع صاحبه، أن تثني عليه، أن تكافئه عليه حتى يترسَّخ الخير في المجتمع، فلذلك الشاهد عطلتَ له وقته، وجعلته بلا عمل طوال اليوم، وبعد أن انتهى قلت له: شكراً، أنت أضررته، أو يقل له: جزاك الله خيراً، هذه لا تكفي يقول عليه الصلاة والسلام:

((من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه))

[ابن حبان عن ابن عمر]

هذه جزاك الله خيراً يمكن أن تكون إن كنت لا تستطيع أن تفعل شيئاً، إنسان أقوى منك، وأغنى منك خدمك خدمة، وأنت لا تستطيع أن ترد له هذه الخدمة، قلت له: جزاك الله خيراً، هذا يدخل تحت قوله تعالى:

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

الكاتب والشاهد ينبغي ألا يغيرا معالم الحق :

ينبغي للكاتب ألا يكتب زيادة عما أُملي عليه، إن فعل أضر بالحق، وينبغي للشاهد ألا يشهد زيادة عما رأى وإلا أضر بالحق، وينبغي لطالب الشهادة وطالب الكتابة ألا يغبن هذا الشاهد وهذا الكاتب، أن يعطيه حقه.

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

يجب له التعويض، وألا تحرجه في وقت هو في أمَسِّ الحاجة إليه، كما أن الكاتب والشهيد ينبغي ألا يغيرا معالم الحق، لأن عدل ساعة يعدل أن تعبد الله ثمانين عاماً، والله هو الحق، وقد أذكر دائماً هذه القصة الرمزية: أن حجراً عبد الله خمسين عاماً، ثم ضج بالشكوى إلى الله، قال: يا رب لقد عبدتك خمسين عاماً، وتضعني في أس كنيف!! فقال الله عز وجل: تأدب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم. فالظلم يهتز له عرش الرحمن، أنت قد تجد إنساناً بريئاً، وإنسان قويّ ألصَق به تهمة هو منها بريء، وأنت شاهد، وشهادتك مقبولة، واللهِ لأن تذهب مع هذا الإنسان المظلوم وتشهد أمام القاضي، وأن تقيم الحق أفضل من أن تعبد الله ثمانين عاماً.

لذلك مرة ذكرت لكم عقب الحرب العالمية الثانية، أحد زعماء بريطانيا سأل وزراءَه عن أحوالهم، فكانت أجوبتهم عجيبة!! وزير الصناعة قال له: المعامل كلها مهدمة محروقة، وزير الزراعة: الحقول محروقة، وزير المالية: الخزائن فارغة، سأل وزير العدل قال: كيف العدل عندك يا فلان؟ قال: بخير، قال: كلنا إذاً بخير.

فيجب أن نفهم أن القاضي قد يكون واحداً منكم، كلمة قاضي توهِم أن إنساناً يعمل في القضاء، أنت كتاجر قاض، قد تشهد شهادة صحيحة بمشكلة تجارية، تدلي برأيك الصحيح، قد تستشار بموضوع، في مجال الأسر، وفي مجال التجارة، في مجال الصناعة، وكم من حق هضم لأن الناس امتنعوا عن

أداء الشهادة، هذا السلوك سلوك إبليس، نحن ليس لنا علاقة أسْلَم، فكل إنسان ينسحب من أداء شهادة أو من تحكيم فيه إحقاق للحق هذا إنسان خرج عن منهج الله عز وجل.

(وَإِنْ تَفْعَلُوا)

أي إن أضررتم بالشاهد والكاتب، إن كلفتموه ما لا يطيق، إن عطلتموه عن عمله، إن أحرجتموه بوقت لا يناسبه، أو إن هذا الكاتب إن أزاد أو أنقص في شهادته أو كتابته، قال:

(وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ)

هذا من الفسق.

للآية التالية رأيان :

1 ـ الإنسان حينما يتقي الله ويستقيم على أمره يكون قريباً من الله :

قال تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

الإنسان حينما يتقي الله، أي حينما يستقيم على أمر الله يكون قريباً من الله، والله عز وجل نور السماوات والأرض، فإذا كنت قريباً منه نوَّر قلبك بالحقيقة، أي إنسان له اتصال بالله قلبه منوَّر، يرى الحق حقاً والباطل باطلاً، يرى الحقيقة الصارخة، لا يأخذ بالأشياء المزوَّرة، فمن صفات المؤمن أنه يرى ما لا يراه الآخرون، يشعر بما لا يشعرون، في عنده حاسة سادسة نامية جداً، وهذه يمكن أن تفسر بأن قلبه متصل بالله، ولأن الله نور السماوات والأرض فقلبه منوَّر بنور الله، عنده رؤية صحيحة، وعنده حكمة، وعنده موقف مقبول، وموقف نظيف.

2 ـ الله تعالى يعلِّمنا بأفعاله وبخَلْقه وبكتابه وكل ما في الكون يدل عليه :

ثمة رأي ثانٍ لهذه الآية:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)

أي أطيعوا الله، قفوا عند أمره ونهيه، التزموا كتابه وسنة نبيه، لأنه يعلمكم دائماً، علمكم بخلقه، كل ما في الكون يدل عليه، علَّمكم بأفعاله، كل أفعاله تدل عليه، فمنذ أيام ـ هكذا سمعت ـ هناك إنسان من أهل العلم صالح، في أثناء قيادة مركبته تأذى، مس مركبة أخرى، صاحب المركبة الثانية كان سفيهاً، وأقذع له بالكلام، وقسا عليه قسوة غير معقولة، هو يكتب ورقة ويسجِّل: أنْ أنا عنواني كذا، وأنا تسببت في إيذاء هذه المركبة، فصاحب المركبة سفيه جداً، وتكلم كلاماً قاسياً وبذيئاً جداً في حق

هذا الإنسان الطيب، بعد أيام انتقم الله منه انتقاماً شديداً، فالله يعلّم بأفعاله، يعلّم بخَلْقه، يعلّم بكتابه.. يعلّمك بخلقه، كل شيء في الكون يدل عليه، مثلاً: الفتاة زوَّدها الله بغشاءٍ، فما دامت طاهرة عفيفةً نقيةً هذا الغشاء يبقى إلى يوم الزواج، ليس له أية وظيفة فيزيولوجية إطلاقاً، فوظيفته اجتماعية، أن هذه الفتاة لم يقربها إنسان من قَبل، هذا من فعل الله عز وجل، يعلّمكم الله عز وجل، يعلّمنا في خلقه، يعلّمنا في أفعاله، يعلّمنا بكلامه، قد يريك مناماً مخيفاً، وأنت على وشك أن تفعل معصيةً كبيرة، ويعلّمك إذاً، يحذرك من هذا المنام، قد تلتقي بإنسان يعطيك موعظةً بليغةً، وكأنه يعرف مشكلتك، هذا من تعليم الله لك، فالأنواع التي يعلّم بها الله عباده لا تعد ولا تحصى.

صفة الأمية في النبي وسام شرفٍ له أما غير النبي فهي وصمة عار له :

ما دام الله يعلّمنا من خلال خلقه، ومن خلال كلامه، ومن خلال أفعاله، ومن خلاله رسله، ومن خلاله أنبيائه، ومن خلال العلماء الصادقين المخلصين العاملين، وكل شيء في الكون يدل عليه، أنتم لمَ لا تطيعون الله عز وجل؟ أنا لا أحب أن نفهم هذه الآية على أن الإنسان إذا اتقى الله يعلم كل شيء من دون دراسة، هذا كلام فيه مبالغة كبيرة، لأن النبي وحده يوحى إليه، فصفة الأمية في النبي وسام شرفٍ له، لأن الله يعلّمه، ولأن الله أراد أن يكون وعاء النبي طاهراً من ثقافات الأرض، فكل شيء ينطق به وحي يوحى.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

كلمة النبي الأمي أعلى صفة، وعاء النبي طاهرٌ من كل ثقافةٍ أرضية، الله جل جلاله في عليائه تولى تعليمه..

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

[سورة النجم: 5]

أما غير النبي اللهم صل عليه فإذا قال لك: أنا أمي، فهذه وصمة عار في حقه، الإله لا يُعلّم غير النبي، التعليم بالوحي، إنما العلم بالتعلُّم، أنا أريد ألا نفهم هذه الآية فهماً ما أراده الله عز وجل، لا اقرأ أبداً، لا أتعلم أبداً، أخي أنا يأتي لي إلهام، أنا موصول بالله، أعرف كل شيء من دون دراسة، ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام؟ قال:

((إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، وإنما الكرم بالتكرم))

[الطبراني في الأوسط عن أبي الدرداء]

(إنما) قصر، أداة قصر، أي أن طريق العلم الحصري هو التعلم، لكن بعد أن تعرف الأمر والنهي، وتلتزم الأمر والنهي، " مَن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم "، إذا كان في إشراق، فهذا متى يكون؟ بعد أن تطلب العلم وفق الطرق الصحيحة، وبعد أن تعمل بما عملت، لعل هناك إشراقاً

منضبطاً بالكتاب والسنة، يكون لك مكافأة على طاعتك لله عز وجل، طبعاً هذا ليس حديثاً صحيحاً ولكن حكمة، "من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم"، فهذه الآية يتخذها معظم الكسالى حُجَّة.

تقنين الله عز وجل تقنين تأديبٍ لا تقنين عجز :

قال تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)

بالمعنى الذي أرادوه وهو: أن يتقاعسوا عن طلب العلم، وألا يعبؤوا بهذا العلم الدقيق، وأن يعتمدوا على الإلهام، هذا المعنى ما أراده الله عز وجل، ولكن أنت حينما تتقي الله عز وجل تكون قريباً منه، فإذا كنت قريباً منه نور قلبك بالحقيقة، لأن الله هو نور السماوات والأرض، هذا معنى.

المعنى الثاني: أنت لمَ لا تطيع الله عز وجل فهو يعلمك دائماً، في تعليم من الله لا ينتهي، مثلاً: باخرة ادعى صانعوها أنها لا تغرق، أو أن القدر لا يستطيع إغراقها، فإغراق الباخرة درسٌ من السماء للأرض. مركبة فضائية سموها (المتحدية)، يتحدَّون من؟ فبعد سبعين ثانية من إطلاقها أصبحت كتلة من اللهب، هذا درس من الله عز وجل، زلزال، مركز الزلزال يجب ألا يبقى شيء على شيء، إلا جامعٌ له مئذنةٌ عملاقة مع معهد شرعي، وما حول المئذنة، والمسجد، والمعهد الشرعي لا تجد حجراً فوق حجر، دمار كامل، أليس هذا تعليماً من الله عز وجل، الله عز وجل يعلم البشر دائماً، يعلمهم عن طريق الزلازل والبراكين، وعن طريق القحط والجفاف، فالناس في ضجة كبيرة جداً من شُح الأمطار، يجب أن نؤمن إيماناً يقيناً أن الله إذا قنن فتقنينه تقنين تأديبٍ لا تقنين عجز:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

[سورة الحجر: 21]

الله جلّ جلاله يتولى تأديب الإنسان بصحته و رزقه :

الشيء الدقيق أيها الأخوة.. مرة قرأت أن مرصداً عملاقاً اكتشف سحابة في الفضاء الخارجي، سحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض مجتمعةً ستين مرة في الأربع وعشرين ساعة بمياهٍ عذبة، فالله قادر بأي مكان أن يجعل الأمطار تهطل ألفي ميليمتر، خمسة آلاف مليمتر، بل إن من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، أنه قال مرةً:

((ما عام بأكثرَ مطراً من عام))

[البيهقي في السنن الكبرى موقوفا عن ابن مسعود]

بعد تقدم العلم صار لكل بلد مقاييس للأمطار، بالقطر الواحد خمسمئة مقياس أو أكثر ثم وجد أن كمية التهاطل في العالم لا تزيد ولا تنقص، إلا أنها تتوزع كل عام توزيعاً معيَّناً منطقة فيها

فيضانات، منطقة فيها جفاف، لأن الله تولى تأديبنا بأرزاقنا وصحتنا، ثبَّت لنا ملايين الأشياء، خصائص المعادن ثابتة، اشترى إنسان سبيكة ذهب، تبقى سبيكة ذهب، هذه نعمة كبرى، لو وجدها بعد أيام نحاساً ويكون ثمنها خمسمئة ألف!! خصائص المعادن ثابتة، خصائص البذور ثابتة، دورة الأفلاك ثابتة، لو ذهبت تتتبع الأشياء الثابتة ترسيخاً للنظام وتطميناً للإنسان، وجدت الأشياء الثابتة لا تعد ولا تحصى، هذه كله رحمة بالإنسان، ولكن الله لحكمة بالغة بالغةٍ حرك شيئين؛ حرك الصحة، وحرك الرزق، فإذا جاءت الأمطار كان الرزق الوفير، وإذا خفَّت الأمطار كان الخطر الوبيل:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

[سورة الملك:30]

فالله جل جلاله يؤدبنا، لذلك:

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ و الْأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم)

[سورة المائدة: 66]

الأنبياء يأتيهم الوحي أما غير الأنبياء فالعلم عندهم بالتعلم :

وقياساً عليه إلى سنوات لا تزيد عن عشر تجد الماء في الغوطة بعمق عشرة أمتار، بل خمسة أمتار، الآن ثلاثمئة متر لا تجد الماء، حدثني أخ قال لي: حفرت أربعمئة متر بالمكان فلم أجد ماء:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

[سورة الملك:30]

ما قيمة الأبنية؟ والله ليس لها قيمة، ما قيمة المزارع؟ ما قيمة هذه البيوت الفخمة؟ فمنطقة بأكملها أسعارها هبطت إلى الثلث، لشح المياه فيها؟ المزرعة ليس لها قيمة من دون مياه؟ فالله عز وجل يقنن تقنين تأديب، والإنسان لا بد له أن يصطلح مع الله..

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)

فهذه الآية أساسية، يمكن أكثر الدعاة، أكثر المؤمنين، يذكرونها آلاف المرات..

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)

ولكن أريد ألا تفهم على الشكل التالي: ألا تدرس، لا تتعلم، لا تفهم القرآن، لا تحضر مجلس علم، فيتوهم الإنسان الجاهل باتصاله بالله يعرف كل شيء، هذه للأنبياء وليست لنا، الأنبياء يأتيهم الوحي:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

[سورة النجم: 5]

أما غير الأنبياء إنما العلم بالتعلم.

إن طلبت العلم وعملت به فهناك مكافأة إشراقية :

لا بد أن تطلب العلم، ولكن إن طلبت العلم وعملت به فهناك مكافأة إشراقية؛ قد يكون في قلبك نور ترى به الحق من الباطل، وهذا مؤيد بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد: 28]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

[سورة الأنفال: 29]

أي صفاء، الآن هناك تعبير حديث (شفافية):

((النبي عليه الصلاة والسلام دخل إلى بستان فرأى فيه جملاً، فلما رأى الجملُ النبيَّ حَنَّ، وذرفت عيناه، فجاء إليه النبيُّ، ومسح ذفريه وقال: من صاحب هذا الجمل؟ فجيء له بفتًى من الأنصار، قال له: يا أيها الفتى، ألا تتقي الله بهذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر كما في الكنز]

هذه شفافية.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ))

[مسلم، الترمذي، أحمد عنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ]

النخلة التي كان يخطب عليها حَنَّت إليه، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَّ الْجِذْعُ فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ))

[البخاري عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

هذه شفافية.

الله عز وجل يكرم المؤمن بفراسة صادقة وهذه لا تغني عن طلب العلم :

المؤمن الله عز وجل يكرمه بإشراق، بنور في قلبه، برؤيا صافية، بفراسة صادقة هذه لا تغني عن طلب العلم.

المعنى الأول: اتقوا الله، إن اتقيتم الله عز وجل كنتم قريبين منه، هو نور السماوات والأرض، يلقي في قلوبكم النور، إذا اتقيت الله عز وجل قذف في قلبك النور.

والمعنى الثاني: لم لا تتقون الله، وهو يعلمكم دائماً؛ بخلقه، وبأفعاله، وبكلامه وبأنبيائه، وبرسله، طرق التعليم التي نتعلمها من ربنا لا تنتهي، أحياناً الله عز وجل يرسل مصيبة من جنس الذنب تماماً، فهذا تعليم، إنسان بخل أن يدفع زكاة ماله، زكاة ماله فرضاً إحدى عشر ألفاً وخمسمئة وثلاثين، وقع له حادث، فصلح السيارة، تجليس، ودهان، وقطع، بلغ ما دفعه إحدى عشر ألفاً وخمسمئة وثمانين بالضبط، هذا تعليم؛ أن هذا المبلغ الذي أحجمت عن دفعه، وهو فرضٌ عليك، دفعته غرامةً.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ* وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ)

طبعاً الرهن يمكن أن يكون في السفر وفي الحضر، ربما لا يتيسَّر لك الكتابة، ممكن أن تأخذ رهناً، إلا أن العلماء قالوا: الرهن ينبغي ألا يُنتفع به، قد تنتفع به لصالح الشيء، فقد تستخدم بساطاً لو خزَّنته لأصابه التآكل، قد تستخدمه لصالح الشيء، والدابة تركبها بعلفها، وتأخذ حليب الشاة لإطعامها، أما الأصل ألا تنتفع من الشيء المرهون، فإذا انتفعت بهذا الشيء المرهون كان هذا الانتفاع نوعاً من الربا..

(فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ)

أما ما يفعله الناس، يستخدمون الرهن وينتفعون به، هذا شيءٌ مخالفٌ لمنهج الله عز وجل.

المؤمن يدلي بالشهادة الصحيحة ولا يخشى في الله لومة لائم :

قال تعالى:

(فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ)

فالرهن أحياناً يحل مشكلة، شخص لا تعرفه، وعنده قطعة ذهب ثمينة لا يحب أن يبيعها يريد قرض بمبلغ يساوي هذه القطعة، أعطاك هذه القطعة الذهبية، قال: هي رهنٌ، فيجب أن تضعها في مكان أمين، فإذا جاء بالمبلغ تؤدي له هذه القطعة الذهبية.

(فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)

يقول بعض العلماء: الساكت عن الحق شيطان أخرس، أحياناً من المصلحة أن تكتم الشهادة، إن شهدت الحق لعلك تتأذى، لكن المؤمن يدلي بالشهادة الصحيحة، ولا يخشى في الله لومة لائم.

(وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)

ما الذي يحدث في المجتمعات؟ شخصٌ قوي اعتدى على إنسان ضعيف، هذا الشخص القوي لو علم أنك شهدت لصالح الضعيف، لنالك من أذاه الشيء الكثير، كل الناس أحجموا عن أن يشهدوا مع

الضعيف، ضاع الحق، يجب أن تعتقد أن الله يحميك، وأن الله يحفظك، وأن كلمة الحق لا تقرِّب أجلاً، ولا تقطع رزقاً..

(وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

هناك قواعد مستنبطة من حركة الحياة؛ شخص قوي جداً وظالم، واعتدى على إنسان، وأنت تعلم الحقيقة، دعيت للشهادة، الإنسان غير المؤمن يقول لك: أنا ما لي علاقة، إما أنه لا يشهد، أو يشهد لصالح الظالم، ضاع الحق بهذه الطريقة، أما المؤمن يعتقد أن الله يحمي مَن يشهد الشهادة الصحيحة، قال:

(وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

أسئلة عامة :

أيها الأخوة... بعض الأسئلة:

ـ يقول السائل: بالنسبة إلى صلاة الظهر في يوم الجمعة ما حكمها؟ هل تسقط كلياً؟

ـ الجواب: صلاة الجمعة تجزئ عن صلاة الظهر قطعاً،

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ)

لا صلاة ظهر مع صلاة الجمعة، حتى إن المسافر لو دخل إلى مسجد وصلى الجمعة، تسقط عنه صلاة الظهر، حتى لو جاءت امرأةٌ إلى المسجد، فالمرأة ليست مكلفة أن تصلي الجمعة، لكن إذ جاءت مع زوجها من طرف المدينة، فنحن في عندنا مكان للنساء، لو أن امرأة استمعت إلى خطبة الجمعة، وصلت ركعتي الجمعة، سقط عنها فرض الظهر قولاً واحداً.

في حالات كثيرة، امرأة توفي عنها زوجها، تسكن إلى جوار المسجد، ماذا يمنع أن تستمع إلى خطبة الجمعة؟ وإذا صلت صلاة الجمعة سقطت عنها صلاة الظهر، حتى المسافر وحتى المرأة، بل إن كل امرأةٍ ليس عندها أولاد تعتني بهم، ليس وراءها مسؤولية، وتسكن في جوار مسجد، نحن أحدثنا مكاناً للنساء، مصلى النساء، هذا يوم الجمعة خاص للأخوات المؤمنات يأتين إلى هذا المكان، ويستمعن إلى خطبة الجمعة، ويصلين الجمعة، وهذه الصلاة تغني عن صلاة الظهر باتفاق الفقهاء.

فالمسافر إذا صلى الجمعة تسقط عنه صلاة الظهر، والمرأة كذلك، أما الأساس أن كل مسلم استمع إلى خطبةٍ، وصلى ركعتي صلاة الجمعة، سقطت عنه صلاة الظهر، بعضهم يصلي صلاة الظهر، على بعض المذاهب، هذا المذهب ينطلق من أنه لو أنه في قرية، فيها مسجدان، وكل مسجدٍ يتسع لكل سكان القرية، فيجب أن نصلي جميعاً في مكانٍ واحد، انطلاقاً من وحدة الكلمة، ومن وحدة المسلمين، فلو توزَّع المصلون أهل هذه القرية بين مسجدين، فالجمعة لمَن سبق، والذين صلوا في المسجد الآخر، وتأخروا عن الأولين فعليهم أن يصلوا الظهر، هذا الشيء الآن غير موجود، ليس هناك جامع في دمشق يتسع لكل سكانها.

في حال أن أبناء قرية واحدة فيها مسجدان، كل واحد من هذين المسجدين يتسع لأبناء القرية كلهم، هذه حالة نادرة جداً الآن، فما دامت كل مساجد دمشق لا تستوعب نصف مليون، وسكان دمشق خمسة ونصف مليون، فمعنى ذلك أن كل صلوات الجمعة في المساجد صحيحة، وتسقط بها صلاة الظهر، هذا ما هو عليه المسلمون.

* * *

ـ السؤال الثاني (غريب): المال المسروق هل يدفع صاحبه الزكاة؟

ـ الجواب: بعد ما يسرق يدفع زكاة؟!! زودتها يا أخي، المال تدفع زكاته إذا كان في حوزتك، وتنتفع به، لكن حتى لو أقرضت قرضاً، هناك بعض المذاهب أنت معفى من الزكاة، لأنه فاتك ربح هذا المبلغ، بعض المذاهب حينما يرد إليك تدفع زكاة عام، مذهب آخر تدفع زكاة الأعوام السابقة، أما إذا معك الملايين، وأقرضتَ مئة ألف لواحد، فثمة اتجاه رابع هو: أن صاحب الدين يدفع زكاة الدين، تدفع الزكاة، إذا أنت غني جداً، والمبلغ يسير، أو تدفع الزكاة حين قبض الدين، أو تدفع الزكاة حين قبض الدين عن الأعوام السابقة، أو أنت معفى، أما أن يكون المال مسروقاً وتدفع الزكاة، هذا شيء ما كلفك الله فوق ما تطيق.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس(94-95) : تفسير الآية 284 ، سنن الله في خلقه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-10-13

بسم الله الرحمن الرحيم

كلّ ما في السماوات والأرض مِلكٌ لله عزَّ وجل :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع والتسعين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الرابعة والثمانين بعد المئتين، ولعل هذا الدرس هو الدرس الأخير من دروس سورة البقرة. قال تعالى:

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

كلُّ ما في السماوات والأرض مِلكٌ لله عزَّ وجل، بل إن السماوات والأرض مصطلحٌ قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله، الله عزَّ وجل واجب الوجوب، وما سواه فممكن الوجود، أي كل ما في السماوات والأرض.

تقريبٌ لأذهان الأخوة، العلماء حتى الآن يقدِّرون أن في الكون مئة ألف مليون مجرَّة، وأن في المجرة الواحدة تقريباً مئة ألف مليون نجم، وأن مجرَّتنا ـ درب التبانة ـ مجرةٌ متوسطة، المجموعة الشمسية بأكملها لا تزيد عن نقطةٍ مضيئةٍ في جسمٍ مِغْزَلي، فهذه المجرات بعددٍ وحجمٍ كبيرين، أي بيننا وبين القمر ثانية ضوئية، أي أن الضوء يقطع المسافة إلى الأرض بثانيةٍ واحدة، وبيننا وبين الشمس ثمانِ دقائق، يقطعها الضوء في ثمان دقائق، وبيننا وبين أقرب نجمٍ ملتهبٍ أربع سنوات ضوئية، لو أن هناك طريقاً نسير فيه لاحتجنا إلى خمسين مليون سنة بمركبةٍ أرضية، هذه أقرب نجم ملتهب، وأن نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، وأن المرأة المُسَلْسَلَة وهي مجرةٌ يزيد حجمها عن حجم مجرتنا ثمانٍ وعشرين مرَّة، تُرى من الأرض نجماً واحداً، بعدها عنا مليونا سنة ضوئية، وأن بعض المجرات تبعد عنا عشرين ألف بليون سنة ضوئية.

آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم تدل على عظمة الله من خلال خَلْقه :

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

[سورة الزمر: 67]

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم تدل على عظمة الله من خلال خَلْقه:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس: 101]

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ*وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 105-106]

حقيقة الإيمان ألا ترى مع الله أحداً :

أيها الأخوة...

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

هذا الكون العظيم مِلْكٌ لله عزَّ وجل، ملكٌ لله خلقاً؛ هو الذي خلقه، وتصرُّفاً، ومصيراً، أما تصرُّفاً؛ فلا يقع شيءٌ في الكون إلا بمشيئة الله، والإنسان لضعف إيمانه، ولقصر نظره، ولشبهاتٍ تراكمت على قلبه يظن أن في الأرض أقوياء، وأن أمرهم نافذ، ولكن الحقيقة أنه ليس في الكون إلا الله:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

[سورة التغابن: 13]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ)

[سورة النحل: 51]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 26]

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

حقيقة الإيمان ألا ترى مع الله أحداً، أما المشرك يرى مع الله آلهةً لا تعدُّ ولا تحصى، كل إنسان قوي يظنه إلهاً يفعل ما يريد، لذلك حياة المشرك حياةٌ متعبة جداً.

الأمن للمؤمن وحده لأنه يرى يد الله تعمل في الخفاء :

قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

حياة المؤمن حياة مُسْعِدة، لأن علاقته مع جهةٍ واحدة، هذه الجهة هي الله عزَّ وجل، لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ما من شيءٍ يتحرَّك إلا بأمره، فالتوحيد يُريح الإنسان، يملأ القلب أمناً وطمأنينة، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام:81-82]

أي أن الأمن للمؤمن وحده، لأنه يرى يد الله تعمل في الخفاء، لأنه لا يرى مع الله أحداً، ولأن الله أسماؤه حسنى وصفاته فضلى؛ سميعٌ، قريبٌ، مجيبٌ، رحيمٌ، ودودٌ، غنيٌّ، قويٌّ، فإذا كان الله معك فمَن عليك، وإذا كان عليك فمَن معك، العِبرة أن تؤمن الإيمان الذي يملأك سعادة، يملأك طمأنينة، يملأك قوةً، يملأك اندفاعاً، حينما لا ترى مع الله أحداً لا تخشى أحداً إلا الله، ولا تطيع أحداً إلا الله، ولا ترجو أحداً إلا الله، ولا تخاف من أحد إلا الله، هذا هو الدين.

أكبر مرضٍ يصيب الناس هو مرض الشرك وهو ضعف التوحيد :

من أين يأتي النفاق؟ من ضعف التوحيد، أن تشتكي لإنسان، وأن تنهار أمامه، وأن تبذل ماء وجهك أمامه، فهذا من ضعف التوحيد، لأنك إن آمنت بالله عزَّ وجل، الذي أعطاه يعطيك، والذي أكرمه يكرمك، والذي رفعه يرفعك، لذلك قال العلماء: " ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد ".

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

كل هذا الكون مِلْكٌ لله خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية: 25-26]

هذا هو الدين، إن آمنت أنه لا يقع شيء، ولا يتحرَّك شيء، ولا يقف شيء إلا بإذن الله عزَّ وجل، هذا الإيمان ينعكس على سلوكك استقامةً على أمر الله، وجُرْأةً في الحق، وينعكس عليك عزةً وكرامةً ووضوحاً، فأكبر مرضٍ يصيب الناس هو مرض الشرك، وهو ضعف التوحيد، أي أنه يرى أن هناك أقوياء لا بد أن تنصاع لأمرهم وإلا دمَّروك، لا بد أن ترضيهم ولو على حساب دينك، هذا هو مرض المسلمين، ضعف توحيدهم أوقعهم في المعاصي والذنوب، وأوقعهم في الشرك والشُبُهة.

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

لماذا خَلَقَنا؟ خلقنا ليسعدنا في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، خلقنا لمهمةٍ، خلقنا لتأدية رسالة:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود: 119]

ضعف التوحيد وضعف الإيمان يملأ القلب شهوةً مُحَرَّمةً :

لذلك هو في الدنيا يربيِّنا، فإذا استقمنا على أمره أكرمنا، وإذا انحرفنا عن الصراط المستقيم أدَّبنا، فالإنسان حينما يبتعد عن الله يؤثر شهوته على طاعة ربه، وحينما يؤثر شهوته لا بد من أن يعتدي، لأنك لو تحرَّكت وفق منهج الله لا يمكن أن تعتدي على أحد، أما إذا اندفعت بدافع الشهوة من دون منهج الله عزَّ وجل فلا بد أن تعتدي على أموال الآخرين، وعلى نسائهم، وعلى أعراضهم، فلذلك ضعف التوحيد وضعف الإيمان يملأ القلب شهوةً مُحَرَّمةً، هذه إذا خرجت وانقلبت إلى واقع انتشر مرض لا بد من معالجة الإنسان منه.

من بعض تفسيرات هذه الآية: أن النفس إذا انطوت على مرض، المرض يعني شهوةً محرمة، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: 50]

المعنى المخالف أو المعنى العكسي أن الذي يتبع هوى نفسه وفق منهج الله عزَّ وجل لا شيء عليه، أعطى كل ذي حقٍ حقه، اشتهى المرأة فتزوَّج، اشتهى المال فكسب كسباً مشروعاً، إذاً الإنسان حينما يُعْرِض عن الله عزَّ وجل يتبع هواه، ومع إتباع الهوى ظلمٌ وعدوان، فلا بد أن يؤدِّبه الله، قال تعالى:

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ)

أخواننا الكرام... أمراض الجسم تنتهي عند الموت، ولو كانت عُضالة، لكن أمراض النفس تبدأ بعد الموت، فلذلك الإنسان أولى له ألف مرة أن يعالجه الله ليموت طاهراً نقياً من أن يَدَعَه الله وشأنه، حتى يستحق دخول النار، ورد في بعض الأحاديث أن الله عزَّ وجل يقول:

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها سُقماً في جسمه، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

الإنسان حينما ينحرف عن منهج الله تتولَّد عنده الشهوات المُحَرَّمة :

معنى ذلك أن الإنسان مخلوق للجنة، والجنة فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، معنى ذلك أن الحياة الكريمة التي خُلِقتَ من أجلها ليست في هذه الدنيا، هذه " الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا من عطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي".

إذاً نحن في مرحلةٍ إعدادية لحياةٍ أبدية، سمَّى الله الحياة هذه حياةً دنيا، وسمى الحياة التي أعدها لنا في الدار الآخرة حياةً عُليا، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثمن هذه الحياة العليا ـ الدار الآخرة، الجنة التي يبقى فيها الإنسان إلى أبد الآبدين ـ ثمنها أن تأتي إلى الدنيا، وأن تضبط شهواتك وفق منهج الله.

أيها الأخوة.. هذا الثمن بمقدور أي إنسان أن يدفعه، فما مِن شهوةٍ أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها، ليس في الإسلام حرمان، فالإنسان خُلِقَ في الدنيا من أجل جنة عرضها السماوات والأرض، ثمن هذه الجنة أن يستقيم على أمر الله، أي أن يضبط أهواءه، ونزواته، وشهوته وفق منهج الله، فإذا حاد عن منهج الله قليلاً تولَّد في نفسه أمراض، أمراضٌ نفسيَّة تحتاج إلى معالجة؛ البخل مرض، العُجب مرض، الكِبر مرض، حُب الذات مرض، الاستعلاء مرض، الحقد مرض، الرغبة في العلو في الأرض مرض، حينما نبتعد عن الله قليلاً تتولد الأمراض النفسية، الإنسان شهوةٌ مندفعة، فالإنسان حينما ينحرف عن منهج الله تتولَّد هذه الشهوات المُحَرَّمة. الآن..

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ)

من أمراض..

(أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

هناك طريقان للشفاء طريقٌ سليم وطريقٌ مُتْعِب :

الإنسان يعاني مرضاً نفسيّاً، عنده حب للدنيا ولو على حساب دينه، عنده رغبةٌ أن يأخذ ما ليس له، عنده رغبةٌ أن يغتصب بيتاً ليس له، عنده رغبةٌ أن يعتدي على حقوق الآخرين، هذه كلها أمراض، فإن أظهرها الإنسان أو أخفاها فلا بد أن يحاسب عليها، لأن الله رب العالمين..

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

أمام طبيب قد تخفي أعراض مرض خطير، والطبيب لا يعلم، أما لو أن الأب هو الطبيب فيرى أن هناك علامات مرض، فلا يسمح لابنه أن يكذب عليه، لا بد أن يعالجه، لأن الأب الطبيب يتمتَّع برحمةٍ وعلمٍ في آن واحد، رحمة الأب وعلم الطبيب..

وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

أيها الأخوة... هناك طريقان للشفاء: طريقٌ سليم، وطريقٌ مُتْعِب، إنسان اشتهى شيئاً حراماً؛ فأقبل على الله، واتصل بالله، واستغفر الله، حتى غفر الله له هذه الشهوة المحرَّمة شفاه منها، طهَّر قلبه منها عن طريق الصلاة، الصلاة تطهر القلب من أدرانه.. الصلاة طَهور، والصلاة نور، والصلاة حَبور، والصلاة ذكر، والصلاة مناجاة، والصلاة علم وعقل.. فإن انتبه إلى نفسه، وشعر أن في نفسه مرضاً خطيراً لا بد من أن يشفى، فأقبل على الدين، اتصل بالله عزَّ وجل، دفع الصدقات، تلا كتاب الله، التحق بمسجد يظن أن هذا المسجد على حق، وأقبل على الله، فالله عزَّ وجل شفاه من دون مصيبة.

أو يكابر بالمحسوس، يبقى على خطئه، يبقى مصراً على ذنبه، ما الذي يحصل؟ يحتاج إلى تأديب الآن.

سنن الله في خلقه :

كلكم يعلم أيها الأخوة أن الله جل جلاله له في خلقه سُنَن:

1 ـ الهدى البياني :

الله عزَّ وجل يبدأ بالهُدى البياني، يبيِّن؛ من خلال القُرآن، من خلال سنة النبي العدنان، من خلال الدُعاة، من خلال الحوادث يبين، الهدى البياني، الدعوة البيانية، أنت معافى، صحيح، سليم، موفور الكرامة، يسمعك الله الحق، أرقى إنسان هو الذي يستجيب لله بدعوته البيانية.

2 ـ التأديب التربوي :

إن لم يستجب لا بد من مرحلةٍ صعبةٍ وهي التأديب التربوي؛ يؤدِّبه بنقصٍ في ماله، أو نقصٍ في صحته، أو نقصٍ في أهله، أو عدوٍ مخيف، أو شبح مصيبة، الله عزَّ وجل عنده مصائب لا تُعَدُّ ولا تحصى؛ تبدأ من الهم، وتنتهي بأصعب الأمر، فالمرحلة الثانية التأديب التربوي.

3 ـ الإكرام الاستدراجي :

المرحلة الثالثة إن لم يتب، الإكرام الاستدراجي كما هو الحال عند أهل الدنيا الذين شردوا عن الله عزَّ وجل، دنيا عريضة، أموالٌ وفيرة، شهواتٌ مستعرة، يفعلون كل شيء وهم أقوياء، متغطرسون، متسلّطون، هذا اسمه الإكرام الاستدراجي، وبعدها القصم.

4 ـ القصم :

أنت بين الهدى البياني، والتأديب التربوي، والإكرام الاستدراجي، ثم القصم، هنيئاً لمن استجاب لله بدعوته البيانية، كلام ربنا واضح وضوح الشمس، كلام النبي عليه الصلاة والسلام واضح وضوح الشمس، هناك دعاةٌ إلى الله صادقون، أصغ إلى قولهم، استمع إلى دعوتهم، استجب، طبِّق..

(فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ)

لا تستجب..

(وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

المصائب أربعة أنواع :

قال تعالى:

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

يا رسول الله عظني ولا تطل. قال: قل آمنت بالله ثم استقم. فقال هذا الأعرابي: أريد أخف من ذلك. قال: إذاً فاستعد للبلاء.

إما أن تستقيم على أمر الله، إما أن تستجيب له فتسلم من مصائب الدنيا... طبعاً يبقى هناك مصائب رفع درجات، مصائب امتحان، أما مصائب العقاب نجوت منها، المصائب أربعة أنواع: مصيبة قصمٍ، أو مصيبة ردعٍ، وهاتان المصيبتان للكفار، مصيبة دفعٍ، ومصيبة رفعٍ، وهاتان المصيبتان للمؤمنين، ثم هناك مصائب الأنبياء وهي مصائب كشفٍ، أي ينطوي على كمال لا يظهر إلا بحالةٍ صعبة، فبين القصم والردع، وبين الدفع والرفع، وبين الكشف، هذه المصائب، فالإنسان إذا استجاب لله عزَّ وجل، وانتبه إلى أمراضه، واستغفر الله منها، وأقبل على الله، وطهر الله قلبه من هذه الأمراض، أي يجب أن نؤمن.

هناك مقولة عند العوام يقول لك: " فالج لا تعالج "، إذا لم يكن ثمة أمل الإنسان يتطور فلا جدوى من بعثة الأنبياء، هذا كلام غير صحيح، قد يكون الإنسان حاقداً، وقد يكون لئيماً، وقد يكون مستعلياً، ومتكبراً، ومحباً لذاته، فإذا اصطلح مع الله وأقبل عليه طهرت نفسه فصار كريماً، وصار

متواضعاً، وصار حليماً، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خُلقاً حسناً، فالصلاة شفاء، الصلاة طهور، كما قال عليه الصلاة والسلام تطهر النفس من أدرانها، لا يمكن أن يكون المصلي حَقوداً، ولا أن يكون المصلي لئيماً، ولا بخيلاً، ولا شحيحاً، ولا جباناً، ولا منافقاً، الصلاة تطهِّر الإنسان، تسمو به، إذاً العبرة أن نسمو إلى الله، أن تصفو نفوسنا من كل درن.

الله عزَّ وجل يهدينا طريقاً نسلم في نهايته ونصل إلى الجنة عن طريقه :

هناك طريقان، إنسان يقول له الطبيب: والله إذا اعتنيت بنفسك لا تحتاج إلى عملية، كلام واضح، فإذا أهملت تحتاج إلى عملية، إما أن تعالج بالأدوية من دون شَق، وإما أن تعالج بالعملية الجراحية، وقد تكون خطيرة.

(فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام.. هذه الآية مؤدَّاها أن ننتبه إلى أنفسنا، هناك طريق إلى الشفاء سليم، وهناك طريق مُتْعِب، والطريق المتعب ربما لا ننجح فيه، الطريق السليم أن نتوب، وأن نُقبل، وأن نصلي، وأن نذكر، حتى يشفي الله قلوبنا من أمراضها، الطريق الثاني ننتظر المصيبة فإذا جاءت التجأنا إلى الله عزَّ وجل، كلام واضح كالشمس، أي إما أن نتوب طائعين، أو أن يحملنا الله على التوبة مُكْرَهين، لأنه يحبنا، ولأنه يحب أن يسعدنا، يحب أن يتوب علينا، يحب أن نصل إلى الجنة سالمين وغانمين، فهذا كلامٌ دقيقٌ واضحٌ وضوح الشمس.

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

لأن الله يعلم السر وأخفى، أما قد تقول للطبيب: لا أشعر بألم إطلاقاً، وأنت على خلاف ذلك، فيسكت الطبيب، إذا أخفيت أعراض الأمراض عن الطبيب فالطبيب لا يعلم، أما إن أخفيت أعراض الأمراض القلبية عن الله عزَّ وجل فهو يعلم؛ سواءٌ عليك أظهرتها أو أخفيتها، فالله لا بد أن يحاسبك عليها تطهيراً، وترقية، ووصولاً إلى طريق السلامة، الله عزَّ وجل يقول:

(يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُلَ السَّلَامِ)

[سورة المائدة: 16]

أي أن الله عزَّ وجل يهدينا طريقاً نسلم في نهايته ونصل إلى الجنة عن طريقه.

إما أن تأتي الله طائعاً وإما أن يأتي بك مكرهاً :

آيةٌ مهمة جداً ودقيقة جداً..

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ)

من أراد الطريق السليم بالتوبة الذاتية، والإقبال والاتصال بالله، وذكر الله عزَّ وجل، وطاعة الله يشفى من مرضه، وأنت معافىً سليم موفور الكرامة، والإنسان حينما لا يقبل الطريق السليم، ويركب رأسه، ويصر على معصيته، لا بد أن ينتظر التأديب من الله عزَّ وجل. الطريق الثاني صعب ومتعب، وقد يكون فيه ذل وإهانة، وقد يكون فيه فقر مدقِع، وقد يكون فيه إراقة ماء وجه، وقد يكون فيه أسر حرية، قد يفقد حريته، أو يفقد أحد مقوِّمات سعادته، على كلٍ في النهاية لا بد من أن يؤدِّبنا الله بإحدى الطريقتين.

مرة سألني شخص: ما ملخَّص هذه الدعوة؟ قلت له كلمتان وبالتعبير الدارج: "إما أن تأتيه ركضاً، أو يأتي بك ركضاً "، انتقِ واحدة منهما، إما أن تأتيه طائعاً برغبةٍ منك، بمبادرةٍ منك، بإقبالٍ منك عليه، وإما أن يسوق لك من الشدائد ما يحملك على التوبة، هناك آيتان قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة البقرة: 160]

هناك تابوا فتاب عليهم. إذا جاءت توبة الله بعد توبتك فالمعنى قبول توبتك، أما إن جاءت توبة الله قبل توبتك:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة: 118]

أي ساق لهم من الشدة ما حملهم على التوبة، فإما أن تأتيه طائعاً، وإما أن يأتي بك مكرهاً، فعَن أبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ))

[البخاري، وأبو داود واللفظ له عَن أبِي هُرَيْرَةَ]

أنا مدعوٌ معكم إلى هذه الدعوة، ائتِ الله عزَّ وجل طائعاً بمحض اختيارك، وأنت صحيح معافى، وأنت موفور الصحة والكرامة، انتبه، وإلا رحمة الله تقتضي أن يأتي بك مقهوراً.

الله عزَّ وجل يدعونا إلى حياةٍ حقيقية تليق بنا أما الإنسان فيريد الحياة الدنيا :

قال تعالى:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام:147]

الإنسان المريض أي مكانٍ يناسبه؟ المستشفى، والعملية الجراحية، والسيروم، وفتح الصدر أو فتح البطن، والدماء تنزف، والآلام لا تحتمل، والتخدير، المريض هكذا، والصحيح يناسبه نزهةٌ جميلة، وطعام طيِّب، فإما أن نأتيه طائعين فيكرمنا، وإما أن يأتي بنا مكرهين ويؤدِّبنا وبعدها يكرمنا، لا بد أن يكرمنا، بعضهم قال ـ طبعاً الكلام متعلق بالمؤمنين ـ: أنت لك عند الله مكان، إما أن تبلغه بعباداتك، وخدمتك للخلق، وإقبالك على الله، وذكرك له، وإما أن تبلغه بصبرك على بعض المصائب، لا بد أن تصل إلى هنا إما بطريقٍ سليم، وإما بطريقٍ مُتعب..

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون ممن يستجيبوا لله عزَّ وجل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

الله عزَّ وجل يدعونا إلى حياةٍ حقيقية، حياةٍ تليق بنا، حياة تناسب مكانتنا عنده، حياةٍ أبديةٍ لا نَصَبَ فيها ولا تَعب، أما الإنسان يريد الحياة الدنيا، إن هؤلاء يحبون الحياة الدنيا، يؤثرون عليها كل شيء..

أيها الأخوة الكرام، الحياة الدنيا حياةٌ دنيا مؤقَّتة:

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً*لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً)

[سورة الإسراء: 21-22]

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس(95-95): تفسير الآيتان 285-286 ، ثمن النصر الإيمان والإعداد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-10-20

بسم الله الرحمن الرحيم

ما كُلِّفَ به النبي مكلفٌ به المؤمنون :

أيها الأخوة المؤمنون.. مع الدرس الخامس والتسعين والأخير من سورة البقرة، ومع الآية الخامسة والثمانين بعد المئتين وهي قوله تعالى:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ)

أو أن نقول:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)

كلاهما جائز.

أيها الأخوة النبي عليه الصلاة والسلام آمن بربه الإيمان الكامل، الذي حمله على طاعته وقرَّبه من الله عزَّ وجل، وكذلك المؤمنون، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فرقٌ كبير بين النبي الكريم وبين مؤمن، ولكن ما كُلِّفَ به النبي مكلفٌ به المؤمنون، بحديثٍ صحيح:

((وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

[مسلم والترمذي وأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وهناك دليلٌ قرآني هو أن الله عزَّ وجل حينما يقول:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود: 112]

وقد بيَّنت لكم من قبل أن إجراءً صحياً يجب أن يتقيَّد المُمَرِّض بشروطه، كما يجب أن يتقيد أعلى طبيب بشروطه، المقامات مختلفة أما الشروط فواحدة.

أي إنسان لا يُطبِّق منهج الله فمعنى ذلك أن في إيمانه ضعفاً :

قال تعالى:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ)

هناك ملمحٌ لطيف؛ أنت حينما يقول الله عزَّ وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

إن آمنت بهذا الكلام إيماناً حقيقياً فلا يمكن أن تأكل الربا، ولا أن توكله، حينما يأمرك الله عزَّ وجل أن تكون صادقاً، إن آمنت بهذا الكلام لا يمكن أن تكذب، حينما أمرك الله عزَّ وجل أن تكون مخلصاً، إن آمنت بهذا الكتاب فلا يمكن أن تخون. القضية ليست بالتبرك، هذا الذي يقرأ القرآن تبرُّكاً، ولا يعمل بما فيه هذا كأنه ما آمن به، وقد ورد عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

[الترمذي عَنْ صُهَيْبٍ]

فكلمة (آمن بالقرآن) أي آمن أنه من عند خالق الأكوان، وأن الله خالق الأكوان عليٌّ عظيم، عليمٌ خبير، قويٌّ غني، حكيمٌ عليم، فأي إنسان لا يُطبِّق منهج الله فمعنى ذلك أن في إيمانه ضعفاً، كلمة:

(آمَنَ الرَّسُولُ)

أي أن الحق هو ما جاء به الوحي، وأيُّ شيءٍ آخر باطل، السعادة في تطبيق شرع الله، وأيّ منهجٍ آخر لو طبَّقته تشقى، السعادة أن تذكر الله، وأيّ شيءٍ آخر إن ذكرته تشقى، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

علامة إيمانك بالقرآن تطبيق أحكامه :

يجب أن نفهم معنى كلمة:

(آمَنَ الرَّسُولُ)

أي أنك حينما تؤمن ـ على مستوى صحَّتك ـ أن الملح يرفع الضغط، وأن الضغط إذا ارتفع فجأةً قد يصاب الإنسان بالشلل، وقد يفقد بصره، فهذه الحقيقة مسلَّم بها، لا يمكن إلا أن تأخذ بها، تتعامل معها تعاملاً مُتَأدِّباً، فحينما يرقى إيماننا إلى أن الله أمر ونهى، وأحل وحرَّم، التقيُّد بالأمر والنهي، والأخذ بالتحليل وترك التحريم علامة الإيمان، وليس هناك من علامة أخرى إلا هذه العلامة، علامة إيمانك بالقرآن تطبيق أحكامه، فإن لم تطبِّق أحكامه دلّ ذلك على ضعفٍ في إيمانك.

مرةً استشارني أخ خرج من دكانه في أحد أسواق دمشق، استشارني في زواج ابنته، قال لي: شابٌ وسيم الطلعة، وغنيٌّ جداً، عنده معمل، وبيتٌ فخم، ومركبة، خطب ابنتي وفي دينه رقَّة، فماذا أفعل؟ قلت له: ألا تقرأ القرآن الكريم؟! يقول الله عزَّ وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة: 221]

قلت له: بعد أن تقرأ هذه الآية ماذا تقول إذا انتهيت من قراءة القرآن؟ تقول: صدق الله العظيم، الذي فعله أنه زوج ابنته لهذا الشاب، ثم لم يدم زواجه قليلاً حتى طلَّقها، حينما قبل هذا الشاب لم يؤمن بأعماقه أنه:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

أي أن الإنسان يراقب نفسه، حينما تفعل خلاف القرآن في كل علاقاتك؛ الاجتماعية، والاقتصادية، في كسب المال، وفي إنفاقه، في تزويج بناتك، وفي عدم تزويجهم، حينما تتحرك بغير هدىً من الله أنت لست مؤمناً بالقرآن، مع احترامي لك أنك مسلم، ولكنك لست مؤمناً، أنت لا تستطيع أن تناقش طبيباً تعتقد علمه وإخلاصه ورفعة مكانته في أمرٍ يعطيك إياه، ما دام الطبيب قال فانتهى الأمر، قد تبيع بيتك الذي جهدت في كسوته لكلمةٍ قالها لك طبيب القلب: هذا البيت لا يناسبك، يجب أن تبيعه، وأن تشتري بيتاً أرضياً، لماذا مع الخبراء لا تناقشْ؟!

علامة إيمانك انصياعك لمنهج ربك :

هذه حقيقةٌ أيها الأخوة، حينما لا تطبق هذا المنهج القويم فأنت لست مؤمناً بهذا الكتاب الإيمان الكامل ـ لكي أكون دقيقاً ـ الإيمان المنجي هو الذي يحملك على طاعة الله، الإيمان المنجي حينما ترى أن هذا أمر الله، وأمر الله شيءٌ عظيم، وحينما تؤمن أن عِلَّة أي أمر أنه أمر انتهى الأمر، حينما تؤمن أن علة أي أمر أنه أمر من الله عزَّ وجل.

ولا أنسى هذا الذي تحاور مع عالمٍ من علماء أمريكا حديثٌ عهدُه بالإسلام، فهذا العالم المسلم الشرقي حدَّثه عن لحم الخنزير، وبيَّن له في ساعات طويلة أخطار لحم الخنزير، فما كان من هذا العالم الذي آمن بالله إيماناً عميقاً إلا أن قال له: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرَّمه، أنت حينما تؤمن أن هذا الأمر من خالق الأكوان، من ربِّ الأرض والسماوات، من الواحد الديَّان، من الحكيم، من الخبير، هذا معنى..

(آمَنَ الرَّسُولُ)

وإلا فكل إنسان يدَّعي الإيمان، ما بال ألف مليون مسلم ليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللكفار عليهم ألف سبيلٍ وسبيل؟!! لأنهم آمنوا بالله الإيمان الشكلي الذي لا يقدِّم ولا يؤخِّر، أما هذا المنهج القويم هل طبَّقوه؟ ما طبَّقوا هذا المنهج.

فيا أيها الأخوة... معنى قوله تعالى:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ)

أي أن هذا هو الحق، وأن الجنة حق، والنار حق، وكسب المال الحلال هو الحق، وأن غضَّ البصر حق، وأن ضبط اللسان حق، وأن الإحسان إلى الوالدين حق، كل مفردات المنهج الإلهي هو الحق، فعلامة إيمانك انصياعك لمنهج ربك.

الأنبياء قمم البشر وهم قدوةٌ لنا :

والعياذ بالله علامة ضعف الإيمان عدم التقيُّد بمفردات المنهج، وهذا حال معظم المسلمين؛ لا تجد الإسلام في بيوتهم، ولا في أعمالهم، ولا في أفراحهم، ولا في أحزانهم، ولا في سفرهم، ولا في إقامتهم، ولا في بيعهم، ولا في شرائهم، ولا في كسب أموالهم، لكنهم ملتزمون بالمساجد، يرفعون شعائر الله، يصلون ويصومون، مع أن الله عزَّ وجل يريدنا أن نكون في مستوى العبادات لا أن تكون هذه العبادات شكليةً كما يفعل معظم الناس.

(كُلٌّ)

هؤلاء الأنبياء، والمؤمنون..

(كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ)

خالقاً، مربياً، مسيراً، آمن بالله موجوداً، وواحداً، وكاملاً، آمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، كلٌّ آمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، الكُتُب هي المناهج التي أنزلها الله على أنبيائه، والرسل هؤلاء قمم البشرية، أعلام البشرية، هم الذين أودع الله فيهم هذا الكمال الذي ينبغي أن يتصف به الإنسان، هم دعاةٌ إلى الله بلسانهم، وسلوكهم، وأحوالهم، وإقرارهم، فالأنبياء قمم البشر وهم قدوةٌ لنا، كما قال الله عزَّ وجل:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

[سورة الأحزاب: 21]

ليس من الصواب أن نوازن بين نبيٍ ونبي :

النقطة الدقيقة جداً..

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

ليس من الصواب أن توازن بين نبيٍ ونبي، مع أن الله عزَّ وجل قال:

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة البقرة: 253]

هم مفضَّلون بعضهم على بعض عند الله، لا عندنا، نحن عندنا لا نفرِّق بين أحدٍ من رسله، فليس من شأن طفلٍ صغير في الصف الثالث الابتدائي أن يوازن بين عالمي ذرَّة، ليس هذا من شأنه، ولا من صلاحيَّته، ولا من إمكانه، فالعلماء اتفقوا على أن الموازنة بين العلماء من عندنا لا تجوز، مع أن كل نبي له مقام عند الله، ومع أن الله عزَّ وجل قال:

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة البقرة: 253]

لكن هذا عند الله وليس عندنا، عندنا الأنبياء جميعاً دعوتهم واحدة ومنهجهم واحد، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

دعوتهم واحدة، لأن الأصل واحد، أما أتباع الأنبياء فيتقاتلون، ما يجري في فلسطين بين مَن ومَن؟ بين أتباع سيدنا موسى، وأتباع سيدنا محمد، إذاً حينما لا يتبع الناس أنبياءهم إتباعاً حقيقياً يصبح التمسُّك بالدين تعصُّباً.

كل الأنبياء دعوتهم واحدة ومنهجهم واحد :

أيها الأخوة...

(كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

أي ليس من شأن العباد، فأحياناً يخطر في بال بعضهم أن النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو سيد الخلق وحبيب الحق ـ لم يدعُ على قومه، بل قال:

((اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون))

[من زيادة الجامع الصغير عن عبد الله بن عمير]

لكن موسى عليه السلام دعا على قومه فقال:

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

[سورة يونس: 88]

والحقيقة أن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام حينما أبلغه ربه:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة هود: 36]

الله أبلغه، متى دعا عليهم؟ حينما أبلغه الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فليس من شأن لا المؤمنين العاديين ولا العلماء العالمين أن يوازنوا بين أنبياء الله ورسله، هذا فوق مقام البشر، نحن نؤمن أن كل هؤلاء الأنبياء دعوتهم واحدة، ومنهجهم واحد، وهم من عند الله عزَّ وجل، وإذا اتحد الأصلُ اتحد الفرعُ.

مصير الخلائق إلى الله عزَّ وجل هو سيحاسبهم وسيجازيهم :

قال تعالى:

(وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

أي نسألك الغفران يا رب، والمصير إليك، أي أن قضية المصير إلى الله هذه يجب أن ترتعد منها الفرائص، اعملوا ما شئتم فالمصير إلى الله، يقول الله عزَّ وجل:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية:25-26]

مصير الخلائق إلى الله عزَّ وجل هو سيحاسبهم وسيجازيهم؛ إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر..

(وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)

بعض أتباع الأنبياء قالوا: سمعنا وعصينا. لذلك يقول المؤمنون عَقِبَ صلاة الجمعة: سمعنا وأطعنا، والأولى أن نقول نحن دائماً:

(سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

نسألك المغفرة يا رب لأنا لسنا معصومين، وإليك المصير تعرف كل إنسانٍ عمله وإخلاصه وتضحيته وما فعل.

لا يمكن للإنسان أن يحدد الوسعَ فالوسع يحدده الله عزَّ وجل :

الآية الأخيرة في سورة البقرة دقيقةٌ جداً، أول فقرة فيها يقول الله عزَّ وجل:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

هذه الآية فوق المكان والزمان، يعني في أي مكانٍ وفي أي زمانٍ منهج الله القويم، الذي أنزله الله على نبيه الكريم، يمكن أن تطبِّقه مهما اختلفت الأحوال، وكل من يقول: لا أستطيع أن أستقيم على أمر الله فهو جاهل، لأن الله عزَّ وجل ما كان ليكلفنا ما لا نطيق، قال بعض العلماء:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وسْعَهَا)

أي أن منهج الله بـ: افعل ولا تفعل ضمن وسع الإنسان، ضمن إمكانيتك، أي أمرٍ أمرك به هو أمرٌ ضمن وسع الإنسان.

الحقيقة الأولى والخطيرة: لا يمكن أن يحدد الوسعَ الإنسان، الوسع يحدده الله عزَّ وجل، تقول: هذه الآية لا أطيقها، لا أستطيعها، أين أذهب ببصري؟ ماذا أفعل؟ لو كنت أكثر صدقاً وأكثر إخلاصاً لتغلبت على نفسك، لولا أن النبي عليه الصلاة والسلام بشر، تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، لماذا هو سيد البشر؟ لأنه بشر، لأنه يحب كما نحب ويكره كما نكره، ويشتهي كما نشتهي، ويخاف كما نخاف، ما من إنسان إلا ويحب الراحة ويحب المُتَع الحسيَّة، ويكره التعب والأشياء المؤلمة، لكن المؤمن الصادق يؤثر طاعة الله عزَّ وجل، فالإنسان حينما يطيع الله ضحَّى ودفع الثمن وجاهد نفسه وهواه وانتصر على نفسه، فبنية الإنسان واحدة:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

[سورة الأعراف: 189]

فأول مقولة: لا يمكن أن تقول كلاماً بمعنى أنك لا تستطيع أن تطيع الله، والله عزَّ وجل يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

وهذه حُجة المقصِّرين: لا نقدر، نحن في آخر الزمان، ماذا أفعل في هذا المال؟ أين أضعه؟ لا بد أن أضعه في المصرف، أيعقل أن أدعه لهم من دون ربح؟! لا، خذ ربحاً، أودَعَه في مكان ربوي، وأكَلَ مالاً حراماً.

ما من شيءٍ كلَّفنا الله به إلا في وسعنا أن نفعله :

طبيعة الحياة فيها اختلاط، إذاً سهر سهراتٍ مختلطة، فأكبر حجة يعطيها الشيطان للإنسان المقصِر إنه زمن صعب، ماذا تفعل؟ لعل الله يغفر لك، عندك أولاد، كل هؤلاء الناس يكسبون مالاً حراماً، وأنت مثلهم، هذه بلوى عامة، هكذا، فأكبر حجة يدلي بها الشيطان لأوليائه: أن هذا المنهج فوق طاقتنا، هذا للصحابة، لحياةٍ بسيطة في الصحراء، وليس في مدينةٍ عصرية، أين أذهب؟ يعيبون عليَّ، أين أذهب بلساني؟ هذا الجهاز لا بد من اقتنائه وإلا نصبح خارج العصر، فهذه حجتهم، وكأنهم يردون على الله هذه الآية، كأن لسان حالهم يقول: يا رب هذا المنهج فوق طاقتنا، كلفتنا ما لا نطيق، مع أن الله عزَّ وجل يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

ما من شيءٍ كلَّفنا الله به إلا في وسعنا أن نفعله، أبداً، هذه حقيقة ثابتة، ولكن أخطر شيء أن تقدِّر أنت الوسع، الوسع لا تقدره أنت بل يقدره الخبير، الخبير قال لك: إن كنت مسافراً فأفطر، وإن كنت مريضاً فأفطر، وإن كنت متعباً فصل قاعداً، الخبير هكذا قال، الخبير سمح للمرأة في دورتها ألا تصلي، لأنه خبير، الخبير سمح للمرأة النفساء ألا تصوم، الخبير سمح لك في بعض الحالات أن تأكل ما حرمه الله عليك لأنه:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

فتحديد الوسع ليس من قِبَلك، وهذه نقطةٌ ثانية، هو يفكر لكن هذه فوق طاقتنا، لعل الله لا يحاسبني بها، من قال لك كذلك؟ أصبحت أجد أحكام الدين تحلل المسلمين منها، إما لأن هذه فوق طاقتهم، أو لأنهم في وضعٍ حرج، يذهبون إلى بيئات، يقول لك: من الصعب جداً أن أستقيم في بلاد الغرب، فمن قال لك: إن الإقامة في بلاد الغرب مسموحٌ بها، إقامة دائمة؟ من أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله، بالطبع الإنسان حينما يكون في بيئة سيئة جداً، وكل ما حوله معاصٍ وآثام، لعله يتأثر بهذه المعاصي والآثام، ولعله يفعلها، وهو مرتاح بعد حين، فأين معصيته؟ إنه أقام مع المشركين فبرئت منه ذمة الله.

الله جلَّ جلاله لا يحاسب إلا على الفعل أما الخواطر فلا يحاسب عليها :

لو عدت إلى منهج الله تجده منهجاً متكاملاً، الشيء الخطر على إيمانك حرَّمه الله عليك، والشيء الذي يضعف إيمانك جعله الله مكروهاً، والشيء الذي يضعف اتصالك بالله جعله الله مكروهاً كراهة تنزيه، والشيء الذي لا يؤثر في إيمانك لا إيجاباً ولا سلباً جعله مُباحاً، والشيء الذي يقوي إيمانك جعله الله سنةً، ومندوباً، والشيء الذي لا يقوم إيمانك إلا به جعله فرضاً، معنى فرض كأن تقول: شرب الماء فرض، لأن حياة الإنسان لا تقوم إلا به، وتناول الطعام فرض، واستنشاق الهواء فرض، لكن ليس من الفرض أن تأكل كل ألوان الفواكه، إذا أكلت فلا مانع، ولكن هذه من تحسينات الحياة، ففي الإسلام فرض، واجب، سنة، شيء مستحسن، مُباح، مكروه تنزيهاً، مكروه تحريماً، حرام، أما الشيء الذي يدمِّر إيمانك ويوقعك في الهلاك في الدنيا والآخرة فهو حرام، هذا هو الشرع، في أحكام، في محرَّمات، في محللات.

أول حقيقة أيها الأخوة: أن منهج الله من وسع الإنسان أن يفعله، والوسع يحدده خالقنا وربنا، هذا واحدة، لذلك ما كلَّفك الله عزَّ وجل بما لا تطيق، وما حاسبك على خواطرك التي تأتيك، الخواطر غير محاسب عنها، ولكن يُنْصَح المؤمن ألا يسترسل في خواطر سيئة خشية أن تنقلب إلى فعل سيِّئ، أما مبدئياً مهما حدثت نفسك بشيءٍ داخلي لا تحاسب عليه، لأن الله جلَّ جلاله لا يحاسب إلا على الفعل، هذه واحدة، هذا من معنى قوله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

ما كلَّفك ما لا تطيق، جاءك خاطر سيئ لا تحاسب عليه، مهما حدَّثتك نفسك بشيءٍ لا يرضي الله لا تحاسب عليه، ولكن ينصح المؤمن ألا يسترسل في خواطره السيِّئة لئلا تنقلب إلى عملٍ، هذه واحدة. لن يُحاسَب إنسانٌ مكان إنسان:

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

[سورة الأنعام: 164]

قد يولد الابن من أبٍ شارب خمرٍ أو مقامر، لا يحاسب الابن عن خطأ أبيه أبداً:

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

[سورة الأنعام: 164]

هذه حقيقة، لا تحاسب عن شيءٍ ما فعلته، فمن بديهيات منهج الله عزَّ وجل أن الله لا يحاسبك عن شيءٍ لا تستطيعه، ولا عن شيءٍ ما فعلته، وأن الله جلَّ جلاله لا يأخذك بجريرة إنسانٍ آخر، كل نفسٍ تحاسب على حدة، هذا من قوله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

الفعل (اكتسب) في الآية السابقة له ثلاثة معانٍ :

هناك قاعدةٌ في اللغة: أن الزيادة في المبنى دليل الزيادة في المعنى، ففعل (كسب) ثلاثي، أما (اكتسب) خماسي، هناك ثلاثة معانٍ:

1 ـ الله تعالى يحاسب على الفعل بعد أن تفعله وتصرَّ عليه ولا تتوب منه :

المعنى الأول: هو أن الله عزَّ وجل يحاسب على الفعل بعد أن تفعله، وبعد أن تصرَّ عليه، وبعد ألاّ تتوب منه، ولا تندم عليه، فعل الفعل، ثم لم يندم، ولم يتب، بل افتخر به، عندئذٍ يسجَّل عليه، أما فعل الخير فلمجرد أن تفعله يسجل، كما أن الفعل الثلاثي بسيط، والخماسي مُعَقَّد كذلك الفعل الخير يسجَّل فوراً، أما الفعل السيئ فلا يسجل إلا بعد الفعل، وبعد عدم الندم، وبعد عدم التوبة، وبعد الإصرار عليه عندئذٍ يسجَّل هذا المعنى الأول من:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

2 ـ فعل الخير سهل وله سمعة طيبة بينما فعل الشر فعلٌ مستهجن :

هناك معنى آخر؛ هو أن فعل الخير سهل جداً، لا أحد ينتقدك، ولا أحد يحقد عليك، ولا أحد يقيم عليك الدعوى، عمل طيِّب، صليت، ابتسمت في وجه المؤمنين، أنفقت من مالك عليهم، أكرمتهم، أحسنت إلى فقير، أحسنت إلى ضعيف، عُدَّت مريضاً، كل أعمال البر سهلةٌ جداً ولا أحد يحاسبك عليها، لكن إذا أكلت مالاً حراماً، فهناك مَن يسألك، وهناك مَن يحاسبك، وأنت إن كنت صافياً حُجبت عن الله عزَّ وجل، عندما تأكل المال الحرام، عندما تخرج عن منهج الله تحجب عن الله، ففعل الخير سهل، وله سمعةٌ طيبة، وله رائحةٌ عطرة، وله أريجٌ طيب، بينما فعل الشر فعلٌ مستهجن، وقبيح، وتُلام عليه، وتنكره أنت، وينكره غيرك، هذا المعنى الثاني.

3 ـ الفعل من الله والإنسان له الكسب فقط :

المعنى الثالث هو أن الإنسان له الكسب فقط، بينما الفعل من الله عزَّ وجل، أنت حينما تريد أن تفعل خيراً يقوِّيك يقويك الله عزَّ وجل، لذلك كلنا فقراء إلى الله، كلنا ضعاف، ولكن نتمايز عند الله بأعمالنا التي مَكَّننا الله منها بحسب صدقنا مع الله، فأنت إنسان عاديٌّ، ولكن لو صدقت مع الله في خدمة الخلق لأعطاك إمكانيات عالية جداً لا تحلم بها من قبل، فأنت لك الكسب، سماه العلماء: الانبعاث، أنت أردت أن تصلي، فأعانك الله على الصلاة، أردت أن تربي أولادك، فأعانك الله على

تربيتهم، أردت أن تدعو إلى الله، فأعانك الله على الدعوة إلى الله، الفعل من الله ومنك الكسب فقط، لك ما كسبت.

إنسان أراد أن يسرق هنا اكتسب السرقة، أي أنه أراد فقط، الآن يسيَّر إلى إنسان تُعَدُّ السرقة بحقه حكمةً، أنت تختار أن تسرق، وليس مسموحاً لك أن تختار مِمَّن تسرق، ممَّن؟ الله عزَّ وجل مُسَيِّر؛ يسوق هذا السارق إلى مَن يؤدِّبه الله بفقد ماله، إذاً لك الكسب فقط، وعلى الله الفعل، فالفعل فعل الله والكسب كسب الإنسان.

لذلك، إذا عُزِيَ الفعل إليك في الحقيقة يعزى سببه، وهو الكسب، وإذا عزي الفعل إلى الله في الحقيقة يعزى فعله، والكسب منك، تماماً كما لو قال إنسان: المعلم الفلاني رسَّب الطالب، عزونا فعل الترسيب إلى المعلِّم، لأنه هو الذي وقَّع، أما سبب الترسيب فهو كسل الطالب، إذا قلنا: فلان رسب، صحَّ كذلك، ذكرنا سبب الرسوب، السبب من الطالب، وتنفيذ الفعل من المعلم، فالإنسان له الكسب فقط، وعلى الله الباقي، هذا الكلام دقيق جداً، معنى ذلك أن كل واحد منا بإمكانه إذا صدق مع الله أن يفعل فعلاً عظيماً، قد يكون فوق طاقته، وفوق إمكاناته الفكرية والعقلية لأنه طلب طلباً كبيراً، وكسبه كبير، لذلك مَن هو البخيل والجبان؟ هو الذي بخل على نفسه بعملٍ صالح، لأن الله يخلق العمل الصالح.

واللهِ أنا أعتقد أنه ما من إنسان أراد إنفاق المال إلا رزقه الله مالاً، ما من إنسان أراد أن يعفَّ نفسه عن الحرام إلا أعفَّه الله عن الحرام، الفعل فعل الله ولك الكسب فقط.

الخير كسبه سهل أما الشر فكسبه يحتاج إلى مراحل :

إذاً:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ)

لا تملك إلا الكسب، أما الفعل فلا تملكه أنت..

(لَهَا مَا كَسَبَتْ)

الخير كسبه سهل، والشر كسبه يحتاج إلى مراحل، ففعل شر، لعله يندم ما ندم، لعله يتوب ما تاب، لعله يستر نفسه فلم يستر نفسه، عندئذٍ يسجَّل، فعل الشر هناك من يحتقره إن فعلته، هناك من يؤاخذك، هناك قوانين تحاسبك، لو واحد سرق مثلاً، هناك قوانين أرضية تحاسبه، أما فعل الخير..

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

يقول الله عزَّ وجل:

(رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ]

(رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا)

إن نسينا أن نطيعك يا رب، أو فعلنا سوءً عن غير قصدٍ منا..

(إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)

اجتهدنا فأخطأنا..

(رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا)

أي حملاً لا نطيقه..

(كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا)

كل ذنب له عقاب قد يزيد عن طاقة الإنسان :

قال بعض العلماء: في شرع مَن قبلنا أن التوبة تقتضي أن يقتل الإنسان نفسه، حتى يقبله الله عزَّ وجل، (اقتلوا أنفسكم)، فإنّ الله أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم حينما أرادوا أن يتوبوا، هناك أحكام كثيرة في شرع مَن قبلنا، الله عزَّ وجل يعلمنا أن ندعوه ونقول:

(رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا)

أي أن شرعنا ـ والحمد لله ـ مقبول، صيام ثلاثين يوماً، خمس صلوات في اليوم، أول نظرة لك، وهذه ثوان، والثانية عليك مثلاً، وعند الضرورة أحكام. فـ..

(رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا)

حملاً لا نطيقه..

(كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

هناك نقطة مهمة جداً، هناك وسائل تأديب لا طاقة لنا بها، ولكن ما سببها؟ مثلاً: عندما يساق الإنسان إلى الإعدام، فما شعوره؟ حينما يسمع نطق حكم الإعدام، وحينما يودع في السجن أشهراً طويلةً، كلَّما تحرَّك مفتاح زنزانته ظنَّ أنهم جاؤوا ليعدموه، هذا حمل فوق طاقته لأنه فعل شيئاً لا يفعله الإنسان العادي، فكل ذنب له عقاب قد يزيد عن طاقة الإنسان، مثلاً إنسان نصحه الطبيب ألا يدخن، نصحه بهدوء، وأعطاه أدلة، فأصرَّ على أن يبقى مدخناً فصار بحاجة إلى عملية قلب مفتوح؛ أولاً: الثمن فوق طاقته، ثانياً: يا ترى أتخدَّر؟ أخرج منها سالماً أم أموت؟ القلب خدروه، بعدما انتهت العملية يعطوه صعقة كهربائية، فإما أن يعمل وإما ألاّ يعمل، إذا لم يعمل عظَّم الله أجركم، هو عندما أصرَّ على الدخان، واضطر إلى عملية قلب مفتوح يمكن أن يجد هذه العملية فوق طاقته.

المعاصي الكبيرة قد لا نستطيع تحمُّل نتائجها :

قال تعالى:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا)

طبعاً أنا أتيت بمثل طبي، إنسان يعتدي على أعراض الآخرين، ثم يفاجأ أن أحداً قد اعتدى على عرضه، هو لا يحتمل، ولكن واحدة بواحدة، حينما يكسب مالاً حراماً، ويغش به المسلمين، ثم يفاجئه الله أن ماله كله صودر، أو سُرق، أو نُهب، ربما لا يحتمل هذا الخبر لأنك حينما فعلت المعصية لم تعبأ بما تفعل، كل معصية لها عقاب، المعاصي الكبيرة ربما لا تستطيع تحمُّل نتائجها.

(رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

أحياناً مرض عُضال، مرضان متعاكسان، أدوية المرض الأول تؤذي المرض الثاني، وأدوية المرض الثاني تؤذي المرض الأول، أحياناً مرض ولا تملك ثمن الدواء، فهناك مصائب تدع الحليم حيران، لأن صاحبها فعل شيئاً مما لا يفعله عامَّة البشر، هناك مَن يُقَصِّر مع ربه قد يشرب الخمر، هناك من قتل أولاده جميعاً وهو سكران، فلما صحا من سكرته لم يتحمَّل فقتل نفسه.

كل معصية لها أثر سيِّئ سلبي :

يا أيها الأخوة... كل معصية لها أثر سيِّئ سلبي، فإذا تراكمت المعاصي، الإنسان شعر بضيق، بضيق لا يحتمل فيضجر..

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا)

ورد في صحيح مسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ، قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا، قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا، قَالَ، قَدْ فَعَلْتُ))

[مسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

(وَاعْفُ عَنَّا)

قال: قد فعلت..

(وَاغْفِرْ لَنَا)

قال: قد فعلت..

(وَارْحَمْنَا)

قال: قد فعلت، لذلك من السنة أن نقرأ هذه الكلمات الثلاثة متفرقات.

من السنة أن نقرأ هذه الكلمات الثلاثة متفرقات :

قال:

(وَاعْفُ عَنَّا)

صمت خفيف..

(وَاغْفِرْ لَنَا)

صمت خفيف..

(وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا)

ولا مولى لنا إلا أنت، في آية كريمة أيها الأخوة تأخذ بمجامع القلوب:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[سورة محمد: 11]

تصور ابناً عند أب كبير، عالم، غني، ديِّن، صالح، هيأ له أسباب التربية الصالحة، أسباب الغذاء الجيد، ربى له عقله، ربى له جسمه، ربى له أخلاقه، ربَّاه اجتماعياً ونفسياً وأخلاقياً وفكرياً، وهيأ له كل وسائل الراحة، وكبر، وأخذ شهادات عليا، وزوجه لأن وليه عظيم. تصور إنسان آخر بالطرقات؛ من ملهى إلى ملهى، من سجن إلى سجن، من حالة إلى حالة، بذيء اللسان، منحرف الأخلاق، شاذ، هذا ليس له مولى، مع أن المثلين حادان والله هكذا المؤمن،

(اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا)

يتولاك، يؤدبك، يخوفك، ينبهك، يتجلى عليك، يحجبك أحياناً، يرزقك، يضيق عليك لأنه يربيك، متوليك، أما الكافر ليس له مولى، هذا الكافر ينتظر ضربة ساطور واحدة وانتهى.

أكبر نعمةٍ أن يتولى الله تربيتنا وأكبر عقاب للإنسان أن يخرج من عناية الله عزَّ وجل:

قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)

[سورة الأنعام: 44]

نعمةٌ وأكبر نعمةٍ أن يتولى الله تربيتنا، وأكبر عقاب للإنسان أن يخرج من عناية الله عزَّ وجل، خذ الدنيا كما شئت، أكبر عقاب من الله أن يخرجك من تربيته، فتفعل ما تشاء، جسمه مثل البغل، دخله كبير، كل يوم بملهى، وهو مرتاح، هذا أشقى الناس، هذا ينتظر ساعة الموت ليرى أمامه جهنَّم إلى أبد الآبدين، أما إذا خاف الإنسان، ومرض، حتى إن بعض أصحاب رسول الله سلم لم يعاني من أي مصيبة، فزوجته شَكَّت بإيمانه فذهبت لتشتكي إلى النبي لأن هذا ليس بمؤمن، ولا مشكلة عنده، في

الطريق تعثرت رجله فوقع، فقالت: عد، انتهى الأمر ـ مشي الحال ـ من علامات قربك من الله أن الله يؤدبك، يعالجك، ينبِّهك، يضيق عليك. أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدري وتشددي وتضيقي على أوليائي حتى يحبوا لقائي.

((وعزتي وجلالي ـ كما ورد في الأثر القدسي ـ لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

فحالتك أفضل مليون مرة من حالة إنسان يعصي الله وهو قويٌ، عتيدٌ، غنيٌ، شحيح، فنحن في العناية المشددة إن شاء الله، ولأن نكون في عنايةٍ مشددة نعاني ما نعاني، أفضل ألف مرة من أن نكون خارج العناية الإلهية، وأوضح آية:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام:44]

النصر له ثمن والثمن هو الإيمان الذي يحملنا على طاعة الله وإعداد العدة :

قد تذهب إلى بلاد الغرب ففيها أمطار لا تحصى، كلها خضراء، أموال لا تحصى، كل المعاصي هناك، لكنك هل تظن أن الله راضٍ عنهم؟! والعياذ بالله، وقد تجد في بلاد الشرق بلاداً فقيرة ولكن فيها دين، فيها ورع، فيها خوف من الله، فيها بقية حياء، بقية وفاء، بقية مروءة، فهذا الذي أتمنى أن ننتبه إليه، لا توازن دنيا مع دنيا، بل وازن دنيا مع آخرة، اجمع الدنيا والآخرة، ووازن بينهما وبين دنيا وآخرة أخرى، فإذا أنت عندك مطعم فرضاً بسيط، لا تبيع الخمر، فهل توازن نفسك مع مطعم يبيع خمراً؟ هو يربح بالملايين، لكن انظر إلى مصير بيع الخمر بعد الموت، توازن مطعماً لا يبيع خمراً، يتقي الله في كل شيء وما ينتظره من سعادة، ومطعماً آخر يبيع خمراً، ويفعل كل المعاصي والآثام، وما ينتظره من شقاء، لا توازن بين دنيا ودنيا هذا خطأ، الموازنة خطأ، بل وازن بين دنيا مع آخرتها، ودنيا مع آخرتها، هذه الموازنة صحيحة..

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا)

ليس لنا مولى إلا أنت..

(فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

وهذا النصر له ثمن، وذكرت ذلك في الخطبة، الثمن هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، والثمن أيضاً هو أن نعد لأعدائنا ما هو متاحٌ لنا، وعلى الله الباقي.

الفهرس

سورة الفاتحة

الدرس(01- 02): الآيات : [1-2] 2

الدرس(02- 02): الآيات : [2-7] 25

سورة البقرة

الدرس (01- 95): مقدمة عن اسم السورة 43

الدرس (02- 95): الآيات [1 – 2] 60

الدرس (03- 95): الآية [2] 78

الدرس (04- 95): الآيات [3 – 5] 94

الدرس (05- 95): الآيات [6 – 7] 111

الدرس (06- 95): الآيات [8 – 12] 127

الدرس (07- 95): الآيات [11 – 16] 142

الدرس (08- 95): الآيات [17 – 20] 159

الدرس (09- 95): الآية [21] 173

الدرس (10- 95): الآيات [21 – 22] 189

الدرس (11- 95): الآية [22] 202

الدرس (12- 95): الآية [23] 216

الدرس (13- 95): الآيات [23 – 25].....237

الدرس (14- 95): الآية [26].....252

الدرس (15- 95): الآية [27].....264

الدرس (16- 95): الآيات [28 – 29].....278

الدرس (17- 95): الآية [30].....291

الدرس (18- 95): الآيات [31 – 33].....307

الدرس (19- 95): الآيات [34 – 36].....320

الدرس (20- 95): الآيات [37 – 39].....337

الدرس (21- 95): الآية [40]..... 352
الدرس (22- 95): الآية [40]..... 365
الدرس (23- 95): الآيات [33 – 36]..... 376
الدرس (24- 95): الآية [47]..... 387
الدرس (25- 95): الآيات [48 – 54]..... 399
الدرس (26- 95): الآيات [55 – 61]..... 411
الدرس (27- 95): الآية [62]..... 426
الدرس (28- 95): الآيات [63 – 66]..... 440
الدرس (29- 95): الآيات [67 – 74]..... 457
الدرس (30- 95): الآيات [75 – 77]..... 471
الدرس (31- 95): الآيات [78 – 81]..... 484
الدرس (32- 95): الآيات [80 – 85]..... 501
الدرس (33- 95): الآيات [83 – 86]..... 515
الدرس (34- 95): الآية [87]..... 529
الدرس (35- 95): الآيات [87 – 88]..... 545
الدرس (36- 95): الآيات [89 – 96]..... 558
الدرس (37- 95): الآيات [97 – 101]..... 574
الدرس (38- 95): الآيات [101 – 102]..... 588
الدرس (39- 95): الآيات [103 – 104]..... 603
الدرس (40- 95): الآيات [105 – 106]..... 617
الدرس (41- 95): الآيات [107 – 111]..... 633
الدرس (42- 95): الآيات [112 – 120]..... 653
الدرس (43- 95): الآيات [121 – 124]..... 668
الدرس (44- 95): الآيات [125 – 128]..... 686
الدرس (45- 95): الآيات [128 – 130]..... 703

الدرس (46- 95): الآيات [131 – 137]..... 719
الدرس (47- 95): الآيات [138 – 141]..... 733
الدرس (48- 95): الآيات [142 – 147]..... 748
الدرس (49- 95): الآيات [148 – 153]..... 765
الدرس (50- 95): الآيات [154 – 155]..... 780
الدرس (51- 95): الآية [155]..... 795
الدرس (52- 95): الآيات [158 – 162]..... 810
الدرس (53- 95): الآيات [163 – 164]..... 823
الدرس (54- 95): الآيات [165 – 167]..... 836
الدرس (55- 95): الآيات [168 – 170]..... 851
الدرس (56- 95): الآيات [171 – 173]..... 865
الدرس (57- 95): الآيات [174 – 176]..... 878
الدرس (58- 95): الآية [177]..... 891
الدرس (59- 95): الآية [177]..... 903
الدرس (60- 95): الآيات [178 – 179]..... 915
الدرس (61- 95): الآيات [180 – 184]..... 926
الدرس (62- 95): الآيات [183 – 186]..... 935
الدرس (63- 95): الآية [187]..... 951
الدرس (64- 95): الآية [188]..... 966
الدرس (65- 95): الآية [189]..... 977
الدرس (66- 95): الآيات [190 – 195]..... 987
الدرس (67- 95): الآيات [196 – 203]..... 1001
الدرس (68- 95): الآيات [204 – 205]..... 1014
الدرس (69- 95): الآية [207]..... 1024
الدرس (70- 95): الآية [208]..... 1033

الدرس (71- 95): الآيات [208 – 212]..... 1042
الدرس (72- 95): الآيات [213 – 214]..... 1055
الدرس (73- 95): الآية [215]..... 1070
الدرس (74- 95): الآية [216]..... 1084
الدرس (75- 95): الآيات [218 – 219]..... 1097
الدرس (76- 95): الآيات [220 – 221]..... 1110
الدرس (77- 95): الآيات [222 – 225]..... 1123
الدرس (78- 95): الآيات [226 – 229]..... 1135
الدرس (79- 95): الآيات [231 – 237]..... 1151
الدرس (80- 95): الآيات [238 – 239]..... 1169
الدرس (81- 95): الآيات [240 – 252]..... 1184
الدرس (82- 95): الآيات [253 – 254]..... 1199
الدرس (83- 95): الآية [255]..... 1212
الدرس (84- 95): الآية [255]..... 1227
الدرس (85- 95): الآيات [256 – 258]..... 1239
الدرس (86- 95): الآيات [258 – 260]..... 1252
الدرس (87- 95): الآيات [261 – 269]..... 1266
الدرس (88- 95): الآيات [270 – 274]..... 1278
الدرس (89- 95): الآية [275]..... 1291
الدرس (90- 95): الآيات [275 – 281]..... 1300
الدرس (91- 95): الآية [282]..... 1311
الدرس (92- 95): الآية [282]..... 1321
الدرس (93- 95): الآيات [282 – 283]..... 1330
الدرس (94- 95): الآية [284]..... 1342
الدرس (95- 95): الآيات [285 – 286]..... 1352

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

تفسير سورة آل عمران

www.nabulsi.com
info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس (01 - 60): تفسيرالآيتان 1 - 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-10-27

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل سورة آل عمران :

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الأول من سورة آل عمران ، وقد وَرد عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحدهم قال : **<< كان رجل يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد قرأ البقرة وآل عمران عدّ فينا ذا شأن >> .**

[ابن حبان من قول أنس (744) ، ومسند الطيالسي (2020)]

والبقرة وآل عمران الزهراوان ، فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((اقْرَءُوا الْقُرْآنَ ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ : الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا ، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ))

قَالَ مُعَاوِيَةُ : بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ .

[مسلم ، وأحمد]

معاني الحروف المقطّعة :

في هذه السورة مقدمةٌ دقيقةٌ جداً ، الآية الأولى :

(ألم)

1-المعنى الأول : الحروف المقطّعة من إعجاز القرآن :

سبق أن شرحت هذه الحروف مراتٍ عديدة ، ولكن للتذكير ، من هذه الحروف نُظِمَ القرآن الكريم ، والقرآن الكريم تحدَّى الله الأمة العربية به ..

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

من حروفٍ معروفةٍ عند كل مَن ينطق العربية ، ولكن هذا النَظم نظمٌ مُعْجز ؛ هناك إعجازٌ في نظمه ، هناك إعجازٌ في بلاغته ، هناك إعجازٌ في حقائقه العلميّة ، فقد ذكرت اليوم في خطبة الجمعة أن الله عزَّ وجل حينما قال :

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ(1)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ(2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ(3))

(سورة الطارق)

علماء التفسير فيما سبق فهموا هذه الآية أن هذا النجم ضوءُه شديد يثقب الفضاء الذي بعده ، نجمٌ ثاقب، أي ضوءٌ كَشَّاف ، ضوءٌ مديد ، وأحجموا جميعاً عن معنى ..

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ(1))

ما معنى كلمة (والطارق) ؟ وذكرت ـ من باب الإعجاز ـ أن القرآن الكريم ذكر حقائق ، والنبي عليه الصلاة والسلام أحجم عن تفسيرها لحكمةٍ بالغةٍ بالغة ، لو أنه فسَّرها تفسيراً بحسب البيئة التي عاشها لأنكرنا عليه ، ولو فسَّرها تفسيراً بحسب رؤيته ؛ لأن الله أراه ملكوت السماوات والأرض لأنكر عليه أصحابه ، ولكن الحكمة التي اتبعها أنه تركها بلا تفسير ، فكلما تقدَّم العلم كشف جانباً من عظمة هذه الآيات .

إذاً : كتابنا الكريم معجزةٌ مستمرَّة ، بينما معجزات الأنبياء السابقين كعود الثقاب تتألَّق مرةً واحدة ثم تنطفئ ، وتبقى خبراً يصدقها مَن يصدقها ، ويكذّبها مَن يكذبها ، بينما القرآن الكريم معجزةٌ مستمرَّة ، فكلَّما تقدَّم العلم كشف جانباً من إعجاز القرآن الكريم .

النجوم حينما تهرم ، وتنكمش ، وتصبح حركتها إلى الداخل ، وتتحد الإلكترونات مع النيترونات والبروتونات التي في نواة الذرة ، وتشكل وحدةً مندمجة تلغي الفراغات البينيَّة ، فيمكن أن تصبح الأرض بحجم البيضة بالوزن نفسه ، فلو وضعت كرةً من الحديد فوق سائلٍ هُلامي لثقبت ، فقال علماء الفلك : لو أن هذا النجم الثاقب ، أي النجم المُنكمش الذي أصبح حجمه قليلاً ووزنه كبيراً وضع على الأرض لخرج من طرفها الآخر من شدة كثافته ، إن هذا النجم فيه أعلى كثافة على الإطلاق ، يثقب كل شيء .

وأما (والطارق) فهناك محطات تلسكوبات لاسلكية تكتشف الموجات التي تصدرها هذه النجوم ، إنها وَمضَات تواتُرها يتوافق مع عمرها ، فهذه الحقائق كشفت حديثاً ، تأتي مطابقةً تماماً لما في القرآن الكريم ، هذا القرآن بنظمه المعجز ..

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ(1))

هذا النجم يرسل هذه الومضات بشكلٍ نوبي ومتواتر ، وكلَّما ارتفع التواتر كان العمر قليلاً ، وكلما ضعف التواتر كان العمر طويلاً ، ثم إن هذا النجم له كثافة تحيِّر العقول ، يمكن إذا دخلت الأرض في ثقبٍ أسود أن يغدو حجمها كحجم البيضة بالوزن نفسه ، تصور خمس قارات لا تساوي خمس الأرض، خمس سطحها ، والأربعة أخماس بحار ، وأعلى ارتفاع على سطح البحر ، وأخفض نقطة

في البحر لا تساوي إلا سنتيمترًا نحو الأعلى ، وسنتيمترًا نحو الأسفل في كرةٍ قطرها متر ، إذاً فما وزن الأرض في باطنها ؟ كل هذا الوزن يضغط في كرةٍ لا تزيد على حجم البيضة ، فهذا النجم الثاقب إذا وضع فوق أيَّة كتلةٍ ثقبها ، وانتقل إلى الطرف الآخر ، أي أعلى وزن نوعي في الكون ، وفضلاً عن ذلك فهو يصدر ومضاتٍ متواترة .

لعل هذه الحقائق الفلكية تبيِّن عظمة هذا القرآن الكريم ، الإعجاز العلمي لا ينتهي ، لو طرقنا هذا الباب لا ينتهي هذا الباب ولا في ساعاتٍ طويلة ، وأية كلمةٍ في القرآن تعني إعجازاً علمياً ، هناك إعجاز بلاغي ، هناك إعجاز في النظم ، هناك إعجاز تاريخي ، إخباري ، فربنا عزَّ وجل من حروفٍ نعرفها، من حروفٍ نألفها ، من حروفٍ ننطق بها ، من مثل هذه الحروف ، هذا مما فسَّره بعض المفسِّرين .

2-المعنى الثاني : هذه الحروف أوائل لأسماء الله الحسنى :

هناك معنىً آخر هو : أن هذه الحروف أوائل لأسماء الله الحسنى .

3-المعنى الثالث : هذه الحروف أوائل لأسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وهناك مَن فسرها أنها أوائل لأسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

4-المعنى الرابع : هذه الحروف الله أعلم بمرادها :

وهناك مَن قال : الله أعلم بمرادها ، والقرآن حمَّال أوجه ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

نعم للتوحيد ، لا لإيمان إبليس !!!

النقطة الدقيقة أيها الإخوة أن إيمان الإنسان بأن الله خالق الأكوان هذا الإيمان لا يقدِّم ولا يؤخِّر ، ألم يقل إبليس :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص : من الآية 82)

ألم يؤمن به رباً ؟ ألم يؤمن به عزيزاً ؟ ألم يقل : خلقتني ؟ ألم يؤمن به خالقاً ؟ ألم يقل :

(أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(14))

(سورة الأعراف)

ألم يؤمن بالآخرة ؟ ولكن ما هو الإيمان المُنجي ؟ هو الإيمان التوحيدي ، هو التوحيد ، و" ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد " ، التوحيد ألا ترى مع الله أحدا ، قد تقول : إن الله خلق الأكوان ، ثم ترى معه آلاف الشركاء ، ومعظم الناس اليوم يرون هذه القوى العظمى ، قوى صانعة القرار ، تفعل ما تريد، تقهر الشعوب ، تدمر المدن ، تستلب الأراضي ، تُعَسْكِر على منابع النفط ، قوى كبيرة جداً ، ولكن الإيمان التوحيدي ألا ترى مع الله أحداً ..

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : من آية 17)

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 17)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : من الآية 84)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : من الآية 2)

متى يستقيم الإنسان ؟ إذا آمن بأنه لا إله إلا الله ؛ ولا معطي ، ولا مانع ، ولا معزَّ ، ولا مذلَّ ، ولا رافع ، ولا خافض إلا الله ، متى تستقيم على أمره ؟ إن رأيته وحده فعَّالاً ، إن رأيته وحده ناصراً ، إن رأيته وحده مُنَجِّياً فقط ، لكن قد تؤمن أن الله خلق الأكوان ، وأنت تتوهم أن معه آلاف الشركاء ، هذا هو الشرك ..

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106))

(سورة يوسف)

((أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله ، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن شهوةٌ خفية وأعمالٌ لغير الله))

(من شرح الجامع الصغير)

فالذي ينجينا ليس أن نؤمن أن الله خلق الأكوان ، هذا إيمانٌ آمن به إبليس ، ولكن الذي ينجينا ويحملنا على طاعته ، ويجعلنا نتوجه إليه وحده ، ونرجوه وحده ، ونخافه وحده ، ونعقد عليه الآمال وحده ، ونستقيم على أمره وحده ، الذي يعيننا على ألا نخاف في الله لومة لائم ، الذي يعيننا على ألا ننافق ، أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله ، المؤمن ليس مقهوراً ، وأيّ إنسانٍ متلبسٍ بالشرك الخفي مقهورٌ ، ويكفيك أن ترى عدواً لك متمكناً منك ، وسوف يدمرك ، هذه تكفي ، هذه وحده

تسبب أعظمَ الأمراض ، والمؤمن ليس مقهوراً ، لأنه يرى أن الأمر كله بيد الله ، وأن الله لا يعقل أن يأمرك أن تعبده وقد أوكل أمرك إلى غيره ..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من الآية 123)

لذلك قالوا : نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل التقوى ، بل إن دعوة الأنبياء جميعاً من دون استثناء حول التوحيد ..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

لا إله إلا أنا ، ما من معصيةٍ تقترف إلا بسبب ضعف التوحيد ، وما من تقصيرٍ يكون إلا بسبب ضعف التوحيد ، وما من دخلٍ مشبوه يأخذه الإنسان إلا بسبب ضعف التوحيد ، وما من نفاقٍ يكون من الإنسان إلا بسب ضعف التوحيد ، وضعف التوحيد وراء كل مشكلاتنا ، بل إن كل مشكلاتنا ما هي إلا أعراضٌ لمرضٍ واحد إنما هو ضعف التوحيد ، لذلك :

(اللهُ)

اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُو

1 - (اللهُ) علمٌ على الذات العلية :

علمٌ على الذات ، أسماء الله كلها حُسنى ، وصفاته كلها فضلى جُمِعَت في كلمة (الله) فإذا قلت : الله فهو علمٌ على الذات ، إذا قلت : الله ، فهو واجب الوجود ، وما سواه ممكن الوجود ، إذا قلت : الله ، أي هو الإله الذي لا إله إلا هو ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

2 - اللهُ هو المتصرف :

الآن دقق ؛ المتصرِّف هو الله ، والله عزَّ وجل كامل ، القابض ، الباسط ، المعطي ، المانع ، المعز ، المذل ، المانح ، كل أفعاله صادرةٌ عن كماله ، لو أن الإنسان عَقَلَ معنى ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

دقق عندما تكون في عمل ، ولك مدير عام ، مدير مؤسسة ، مدير مستشفى ، مدير ثانوية .. إلخ ، وينتقل ، تسأل سؤالين دقيقين : من الذي سيأتي بعده ؟ يقال لك : فلان ، تقول : كيف هو ؟ يهمُّك مَن هو أولاً ؟ وكيف هو ثانياً ؟ نحن ماذا نقول في أوراد الفجر ؟ " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له المُلك ، وله الحمد ، يحيي ، ويميت ، وهو على كل شيءٍ قدير " ، لو أن المسلم عقل هذه الكلمات عقلاً، واستوعبها استيعاباً ، وأدركها إدراكاً ، لكان في سعادةٍ ما بعدها سعادة ، أساساً تِسعون في المئة من الأمراض الوبيلة التي يعاني منها الإنسان ـ ولاسيما في هذا العصر ـ مردُّها إلى الشدة النفسية ، والشدة النفسية وراءها الشرك ، والدليل أن الله عزَّ وجل يقول :

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213)وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

أحد أكبر مصادر العذاب النفسي ، والشقاء النفسي الضَجَر ، القلق ، الخوف المدمِّر ، اليأس القاتل ، الانهيار ، الخنوع ، أحد أكبر أسباب العذاب النفسي هو الشرك ، وقد ورد عن الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه : **<< الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على جور ، أو أن تبغض على عدل >> .**

أي شخص تنتفع منه ، له انحرافٌ طفيف ، تغض البصر عن انحرافه لأنك منتفعٌ منه ، هذا نوعٌ من أنواع الشرك ، وإنسان وجَّه لك النصيحة ، وهو محق ، وأنت مخطئ ، لكن أخذتك العزة بالإثم فحطَّمته ، هذا نوعٌ من أنواع الشرك الخفي ، وكما قال عليه الصلاة والسلام :

((أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله ، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ، ولكن شهوةٌ خفية وأعمالٌ لغير الله))

(من شرح الجامع الصغير)

أن يعبد المسلمون صنماً هذا أمرٌ انتهى ، هذه مرحلةٌ ولَّت ، الشيء المُعْلن في العالم الإسلامي أنه لا إله إلا الله ، أما الشيء الواقع أن هناك شركا خفيًّا ، وأحد أنواع هذا الشرك أن تتخذ هواك إلهاً تعبده من دون الله ، فكل شيءٍ يَدْعَم هواك ترضى به ولو كان باطلاً ، وكل شيءٍ يحول بينك وبين هواك ترفضه ولو كان حقاً ، فهذا شرك ، وهناك من يعبد هواه ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ))

[البخاري ، الترمذي]

هناك مَن يبيع دينه بدريهمات ، هناك مَن يعبد المال ، هناك مَن يعبد بطنه .. تعس عبد البطن .

هناك مَن يعبد فرجه ... زير النساء .. تعس عبد الفرج .

هناك مَن يعبد مظهره ، لا يصلي العصر ، لأنه يرتدي بذلة جديدة لا يحب أن تتأثر بالصلاة ـ مثلاً ... تعس عبد الخميصة .

مَن الذي سَعِد ؟ هو عبد الله ، وأنت حينما تعبد الله تكون في أعلى درجة وصلها إنسان ..

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(8)فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(9)فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(10)مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(11))

(سورة النجم)

كلَّما خضعت لله رفعك الله ، كلما خضعت له أعزَّك الله ، كلما التزمت بأمره وفَّقك الله ، كلما أحببت أولياءه أحبَّك الله .

إخواننا الكرام ... قضية أن تؤمن أن الله خالق الأكوان قضيةٌ مفروغٌ منها ، لئن سألت عُبَّاد الأصنام : مَن خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن الله ، ولكنهم يقولون :

(مَا نَعْبُدُهُمْ)

الأصنام .

(إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر : من الآية 3)

الإنسان ضعيف لابد له من جهة قوية يلجأ إليها :

إذاً : أن تؤمن أن الله خلق الأكوان هذا شيء لا يقدِّم ولا يؤخِّر ، بل إن إبليس آمن هذا الإيمان ، العبرة أن تؤمن أنه لا إله إلا الله ، ليس في الكون جهةٌ تستحق أن تعبدها إلا الله ، فإما أن تكون عبداً لله ، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم ، لابدَّ من أن تكون عبداً لجهة ، لماذا ؟ لأن الله جبلك على أن تكون ضعيفا ..

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (28))

(سورة النساء)

هؤلاء الذين يعبدون النار في شرق آسيا ، لماذا يعبدون النار ؟ لأنهم يرونها آلة تحميهم من المصائب، الذين عبدوا البقر ، والذين عبدوا الشجر ، والذين عبدوا الحجر ، والذين عبدوا النار ، والذين عبدوا الأقوياء ؛ دون أن يشعر الإنسان يعبد القوي ، يستسلم لأمره ، ولو كان في معصية ، يرجو ما عنده ولو كان على حساب دينه ، هذا أيضاً ضعيف ، لأنك ضعيف ..

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا(28))

هذا الضعف أيها الإخوة ، مركبٌ في جبِّلتك لا دخل لك به ، ليس نقيصةً فيك ، هكذا شاء الله أن تكون ضعيفاً ، لأن الله لو خلقك قوياً ـ دقق ـ لاستغنيت بقوتك عن الله عزَّ وجل فشقيت باستغنائك ،

خلقك ضعيفاً لتفتقر في ضعفك ، فتسعد بافتقارك ، خلقك ضعيفاً لتفتقر في ضعفك فتسعد بافتقارك ، لو أن الله خلقك قوياً لاستغنيت بقوتك ، فشقيت باستغنائك ، هذا الضعف يحتاج إلى جهة قوية تلجأ إليها ، والمسلم يلجأ إلى خالق الأكوان ، فالتجاؤه صحيح ، وغير المسلم يلجأ لبقرة ، يلجأ لحجرة ، يلجأ لشمس ، يلجأ لقمر ، يلجأ لمظاهر الطبيعة ، فحتى الذين عبدوا الأصنام ، وعبدوا مظاهر الطبيعة ، هم يعبرون بهذه العبادة عن ضعفهم ..

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا(28))

لابدَّ له من جهةٍ قويةٍ يركن إليها ، ويحتمي بها ، ويلجأ إليها ، ويعتقد أنها تحميه ، فالمسلم الذي عبد الله وحده ، التجاءه صحيح ، تمكنه صحيح ، أما غير المسلم الذي يعتقد بغير الله فهو كالذي يرى سراباً يظنه ماءً ..

(كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)

(سورة النور : من الآية 39)

أيها الإخوة ... وفي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

(متفق عليه)

وفرقٌ كبير بين الإحصاء والعد ، قال تعالى :

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا(94))

(سورة مريم)

أنا قد أقول : في صفي خمسون طالباً ، هذا عَد ، أما الإحصاء فأن تعلم حقيقة كل طالب ؛ مستواه العلمي ، والثقافي ، والأخلاقي ، والديني ، وضعه العائلي ، كل ما يتعلَّق في شؤون الطالب ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((... مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم

من أجل إن قرأت هذه الآية :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

واللهِ هذه الآية وحدها لو عقلناها لملأت قلوبنا أمناً وطمأنينة ، ملأت قلوبنا إشراقاً ، لجعلتنا نتحرَّك حركةً عجيبة ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

1 ـ الله هو المتصرف الرحيم الكامل الحكيم :

الفاعل ، المتصرف ، المعطي ، المانع ، الشافي ، المُمْرض ، الموفق ، الذي لا يوفق ، المُحسن ، المنعم ، المعز ، المذل هو الله وحده .

(الله) ما أسماؤه ؟ أن تتعرف إلى أسمائه الحسنى جزءٌ من عقيدتك ، جزءٌ من إيمانك ، أن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى وقال تعالى :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(43))

(سورة النحل)

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59))

(سورة الفرقان)

لابدَّ أن تتعرف إلى الله ، حتى إذا قرأت هذه الآية :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

مثلاً : لو قلنا لك : هذه الأم ؛ الكاملة ، الرحيمة ، العطوفة بيدها أمر البيت ، ما معناها فيها استبداد ، ليس المعنى أن هناك خرقًا أو حُمقًا ، ما دامت كاملة ، ورحيمة ، ومتعلمة ، وتتحلى بصفات عالية جداً، لو قلت بعدها : إن أمر البيت بكل تفاصيله بيدها ، هذا لا يزعجك ، لأنها كاملة ، فأنت حينما تعلم من هو الله ؟ مَن هو صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ؟ ما معنى الله رحيم ؟

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْيٍ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا ، وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةَ وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا : لَا وَاللَّهِ ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا))

[البخاري ومسلم]

2 ـ النبيُ عليه الصلاة والسلام أرحمُ الخَلق بالخَلق :

لعل أرحم مخلوقٍ على الإطلاق بالخَلق هو رسول الله ، والدليل أن في الطائف حينما بالغ أهل الطائف في الإساءة إليه ، وبالغوا في تكذيبه ، والسخرية منه ، وبالغوا في الإساءة المادية إليه ، مكّنه الله منهم ، أرسل له مَلَك الجبال قال : يا محمد ، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين ، أنا لا أشك أن واحداً من المؤمنين لو أن عدواً له كاد له كيداً شديداً ، وتمكن منه ، لقضى عليه، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقال :

((لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده))

(من زيادة الجامع الصغير)

لم يتخلَّ عن قومه ، واعتذر عنهم ، ودعا لهم ، وتفاءل أن تأتيهم ذرية طيبة ، إذاً : أرحم الخلق بالخلق هو رسول الله ، ومع ذلك قال تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

يعني بسبب رحمة استقرت في قلبك ، رحمة تنكير ، تصغير ، ماذا قال أيضاً ؟

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف : من الآية 58)

الرحمة كلها عند الله عزَّ وجل ، فمن أجل أن تعلم مَن هو الله ؟ أتلقي هذه بولدها إلى النار ؟ قالوا : لا. قال :

((للَّهُ أرْحَمُ بعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بوَلَدِهَا))

تروي الكتب أن سيدنا موسى مرَّ بامرأةٍ تخبز خبزاً ، ووضعت على التنور ابنها الصغير ، فكلما وضعت رغيفاً في التنور ضَمَّت ابنها ، وشمَّته ، وقبَّلته ، تعجَّب هذا النبي الكريم من هذه الرحمة ، وقال : يا رب ما هذه الرحمة ؟! قال : يا موسى هذه رحمتي أودعتها في قلب هذه الأم ، وسأنزعها ، فلما نزع الله الرحمة من قلبها بكى فألقته في التنور ، هذه قصة رمزيَّة معبِّرة .

إذا وجدت أبًا يقبِّل ابنه ، إن وجدت أماً تجوع ليشبع ابنها ، تعرى لتكسو ابنها ، تُقَتِّر على نفسها ليتعلم ابنها ، هذه رحمة الله في قلب الأم ، لذلك إذا أحبك الله ألقى محبته في قلوب العباد إليك ، ومن أجمل ما قرأت : **" أنك إذا أطعت الله فيما بينك وبينه ألقى حبك في قلوب الخلق ، وإذا عصيته فيما بينك وبينه ـ دون أن تشعر وبلا سبب ـ ألقى بغضك في قلوب الخلق "** ، و لذلك قالوا : **" ما أخلص عبدٌ لله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة ".**

3 ـ هل عرفتَ اللهَ ؟

فأنا وقفتي (الله) هل عرفته ؟ هل جلست الساعات الطويلة من أجل أن تعرفه ؟ هل طلبت العلم الشرعي ؟ هل فكَّرت في خلقه ؟ هل فكرت في آياته التكوينية ؟ هل فكرت في آياته القرآنية ؟ هل فكرت في آياته الكونية من أجل أن تعرفه ، الله ، أنت إذا عرفت مَن هو الله ، ثم قلت : لا إله إلا هو ، لا ترى الأقوياء ، انتهوا الأقوياء عندك ، الأقوياء تراهم ضعفاء ، الأقوياء تراهم عِصِيًّا بيد الله يؤدِّب بهم عباده .

سُئل تيمورلنك : مَن أنت ؟ قال : " أنا غضب الرب " ، أي إذا غضب الله يُسَلِّط على الناس شخصاً قوياً يخيفهم ، إذاً لا ترى مع الله أحداً ، العبرة ألا تقهر من الداخل ، المؤمن ليس مقهوراً لأنه يرى أنه لا إله إلا الله ، الله صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ، الكامل ، والذات

الكاملة ، وعلم على الذات واجب الوجود ، والرحمن الرحيم ، والحنَّان المنان ، وغفار الذنوب ، وساتر العيوب ، وفوق ذلك الأمر بيده .

4 ـ أمر الكون بيد الله وحده :

حينما توقن أن أمر الكون بيده ..

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام : من الآية 59)

دقق ، هل هناك حدث في مستوى الأرض أقل من سقوط ورقة ؟! أنت تجلس في بستان ، في أيام الخريف سقطت ورقة ، هل هناك حدث أقلّ من هذا الحدث ؟

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا)

فالأمر بيد الله ..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46)فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ(47))

(سورة إبراهيم)

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

أيها الإخوة ... هذه المعاني تريح الإنسان ، الأمر بيد الله ..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من الآية 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده ، هذا هو الإيمان .

لذلك ، عودٌ على بدء ، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، التوحيد نهاية العِلم ، التوحيد ألا ترى مع الله أحدا أبداً ، لا إله إلا الله ، هذه الصحة النفسية ، و الله الذي لا إله إلا هو لو أنك وحَّدت الله حق التوحيد لاستراح جسمك من الأمراض ، الأمراض كل أسبابها الشدة النفسية (الضغط) ، وهو شيء فوق طاقة الإنسان ، خوف ، على قلق ، على همٍّ ، على حزن ، على قلة أمطار ، على غلاء أسعار ، أما إذا رأيت أن الله يؤدِّبنا وأنت معه اختلف الوضع ، الذي أتمناه عليكم وعلى نفسي أن نُعَمِّق توحيدنا، ألا نتوهم بأن الإيمان بالذي خلق الأكوان هو الإيمان المنجي ، هذا إيمان لا ينجي ، الإيمان أن الله بيده كل شيء ..

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : من الآية 84)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : من الآية 2)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد : من الآية 11)

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد]

الأمر بيد الله عزَّ وجل ، والله هذا الشعور ، وهذا اليقين يملأ القلب طمأنينةً ، ولعل هذا من معنى قوله تعالى :

(أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(28))

(سورة الرعد)

احذروا مرض العصر (القلق) :

فهناك قلق من المستقبل ، يكاد يكون المرض الأول في العالم القلق ، وديلكارنجي ألّف كتاباً عنوانه (دع القلق ، وابدأ الحياة) ، بيعت منه خمسة ملايين نسخة ، لأن الذين يقرؤونه قلقون جداً ، بل إن مرض الكآبة هو مرض العصر ، وقد سمعت عن الإحصاء أن مئة وخمسة وخمسون بالمئة من الشعب الغربي يعالجون عند أطباء نفسيين ، مئة وخمسة وخمسون بالمئة ؟! أي مئة بالمئة وخمسة وخمسون مرتين يعالجون في السنة عند أطباء نفسيين بسبب القلق ، أما المؤمن فخلاف ذلك .

أحد الأساتذة في الجامعة حدثنا أنه ذهب إلى مؤتمر الأمراض النفسية في ألمانيا فقال : بكل بساطة أخبركم أن في بلادنا هذه الأمراض لا تشكّل وباءً ، ولا خطورةً لأننا مؤمنون بالله .

لو دخلت إلى بيت إنسانٍ ما فيه شيء ، لا رصيد عنده ، ولا عنده عملات صعبة ، ولا عنده شيء ، ويقول لك : الحمد لله ، الله عمّنا بفضله ، ما هذا الشعور ؟ قد تجد شخصا معه ملايين مملَيَنة ترتعد فرائصه بنزول سعر الدولار مثلاً ، وكم من جلطةٍ أصابت إنسانا معه ملايين مملينة فقط لفرق السعر ، وتُجَّار السكر غير المؤمنين بالله كلما انخفضت أسعار السكر ارتفع عندهم السكر ، وتجد الشخص يذهب ضحية شيءٍ أرضي ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوا الْعِلْمَ ، وَوَضَعُوهُ عِنْدَ أَهْلِهِ لَسَادُوا بِهِ أَهْلَ زَمَانِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ بَذَلُوهُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِيَنَالُوا بِهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ فَهَانُوا عَلَيْهِمْ ، سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه]

يذهب رخيصا ، أي لسبب تافه قد انتهت حياته .

فيا أيها الإخوة ... أتمنى على كل واحد منكم أن يعكف على معرفة أسماء الله الحسنى ، حتى إذا قرأ هذه الآية :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

الشرك طريق مسدود:

مصدر حياة الكون وقيامه ، ترتاح نفسك ، هذا القرآن شفاء ، لا أبالغ أن معظم الأمراض النفسية ، ومعظم الإحباط ، والتشاؤم ، واليأس ، والقهر ، والذل ، والخنوع ، والانحراف بسبب الشرك ، والشرك ذنبٌ لا يغفر ، أي أنه يمشي في طريق مغلق مسدود .

مرة ذكرت مثلاً : أنك يمكن أن تركب قطارا باتجاه حلب ، ولك دفعة بمليون ، والوقت مناسب ، ترتكب أخطاء كثيرة ، تركب في مكان مع شباب صغار مزعجين ، تركب بعكس اتجاه القطار ، تركب في الدرجة الثانية ، وأنت تذكرتك في الدرجة الأولى ـ ممكن ـ تتلوى من الجوع ، وفي القطار مطعم لم تدرِ به ، هذه كلها أغلاط ، لكن الطريق يمشي باتجاه حلب ، وسوف تأخذ هذا المبلغ الكبير ، أما هناك غلط لا يغتفر ؛ هو أن تركب قطار عمَّان ، وقد يكون القطار فخما جداً ، ولكن هذا خطأ لا يغفر ، لا شيء هناك ، لن تقبض شيئاً ، المشكلة أن الله ..

(لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة النساء : من آية 48)

المشرك يمشي بطريق مسدود ، يتجه لإنسان أضعف منه ..

ـ قال له : يا أمير المؤمنين ، بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنع عنك ؟

ـ قال : بنصف ملكي .

ـ قال له : فإذا منع إخراجه ؟

ـ قال : بنصف ملكي الآخر .

فكل هذا المُلك لا يعدل كأس ماء ، فأنت إذا اتجهت للفقير رأيت من ألوان الفقر ما لا يوصف ، أما إذا اتجهت إلى الغني ..

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

وفي رواية الترمذي :

((وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ ، اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ ، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ ، أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ ، عَطَائِي كَلَامٌ ، وَعَذَابِي كَلَامٌ ، إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))

مشكلتك مع الله .

من أوجز الأحاديث الشريفة :

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه))

[البيهقي في شعب الإيمان من قول علي]

لا تخف من قوي ، القوي بيد الله ، أنت أمام وحوش مخيفة ، ولكن كلها مربوطة بأزمَّة من جهة قوية تملكها ، وهي مسيطرة عليها ، أنت ممَّن يجب أن تخاف من الوحوش أم ممَّن يملكها ؟ من يملكها ، لو أرخى الحبل لوصلت إليك ، لو شدَّ الحبل لأبعدها عنك ، فالآية الكريمة :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

فكل هؤلاء الأقوياء هم بيد الله ، أمرهم بيد الله إذا سمح لهم يصلوا إليك ..

(وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا)

(سورة الأنعام : من الآية 80)

فلا تخف إلا من ذنبك ، لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه ، كلامٌ جامعٌ مانع .

فيا أيها الإخوة ...

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(22))

(سورة الحديد)

حينما تؤمن أن الأمر بيد الله ، وهو يعلم كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، استقم على أمره وانظر ، في أي مكان ، ففي أي مكان في العالم ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من آية 97)

وفي أي مكان في العالم ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

فيا أيها الإخوة ... هذه الآية :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

خاتمة :

الأمر بيد هذه الذات الكاملة ، تعرف إليها من أجل أن تطمئن ، الحالة النفسية مهمة جداً ، شعورك أنك مقهور ومظلوم مشكلة ، أما شعورك أنك بيد الرحمن الرحيم ، العليم الحكيم ، أقوى الأقوياء ، أغنى الأغنياء ، ما سلَّمك لأحد أبداً ..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

قال العلماء : هذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن المؤمن له منها نصيب ، بحسب إيمانه وإخلاصه .

فلابدَّ أن تعكفوا على أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، هذه الأسماء درَّستها بجامع العثمان في مئة شريط ، تعرفوا على الأسماء الحسنى ، أقسم لي أناسٌ كثيرون أنهم بعد سماعهم هذه الأشرطة تعرفوا إلى الله برؤية جديدة ، ودون أن يشعروا صَحَّ سلوكهم ، واستقام أمرهم ، فيجب أن تعرفوا مَن هو الله ، لأن الأمر كله بيده ، ويجب ألا ترى مع الله أحداً ، وأن ترى مع الله أحدا هذا عين الشرك .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(02-60): تفسير الآيات 3-6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-11-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني من سورة آل عمران ، ومع قوله تعالى :

(نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(3)مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ

1- ما هو الحقّ ؟

أيها الإخوة ، هذا الكتاب ـ القرآن الكريم ـ نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالحق ، والحق هو الشيء المستقر ، ونقيضه الباطل ، والحق الشيء الهادف ، نقيضه العابث ، والقرآن الكريم يفسِّر بعضه بعضاً ، فالحق الشيء الثابت ، المستقر ، المستمر ، والباطل الشيء الزائل ، فالباطل نقيض الحق ، والحق الشيء الهادف ، فقد نؤسس جامعة ، وأهداف الجامعة كبيرة جداً ؛ تخرّج قادة للأمة ، علماء ، وقد نفتتح ملهى ، والملهى مهمته ابتزاز أموال الناس ، وجعلهم في أحطّ ما يكون ، فالشيء الثابت والذي له هدفٌ نبيل هو الحق ، فإذا قال الله عزَّ وجل :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ)

(سورة التغابن : من الآية 3)

أي أن الحق لابَسَ خلق السماوات والأرض ، وأن هذا الكون أوجده الله عزَّ وجل ليبقى ، لكن :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26))

(سورة الرحمن)

و ..

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : من آية " 88 ")

لكن بعد الحياة الدنيا هناك جنةٍ إلى أبد الآبدين ، وجهنَّم إلى أبد الآبدين ، فإذا قلت : إن الله خلقني بالحق أي أنك خلقت لتبقى ، وما الموت إلا حالةٌ طارئة ..

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران : من آية 185)

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(77))

(سورة الزخرف)

فالحق الشيء الثابت ، والحق الشيء الهادف ، له هدفٌ نبيل .

أما العَبَث فهو حركة بلا هدف ، الذي يلعب بالنرد هذا عبث ، ما فيه فائدة ، بل هو تمضية وقتٍ ، وشدّ أعصاب ، فكل شيء لا هدف له ، ولا جدوى منه ، ولا يحقق شيئاً أساسياً في الحياة يقال له : عبث ، واللعب عبث ، فإذا قلنا : هذا الكتاب نزل بالحق ، أي لابس الحقُّ نزوله ، فكتابٌ ..

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت : من الآية 43)

من عند خالق الأكوان ، أي قطعي الثبوت ، وهدفه هداية الخلق إلى الحق ، هداية الخلق إلى سبل سلامتهم ، وسبل سعادتهم ..

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : من الآية 9)

2 - القرآن نزل بالحق :

شيء لا يصدق ، كتابٌ بين يديك فيه منهجٌ كامل ، والنبي شرحه بعشرات ألوف الأحاديث ، فأنت معك كتابٌ هو وحي السماء من عند خالق الأكوان ، ومعك شرحٌ لهذا الكتاب من قِبَل سيِّد وَلد آدم ، فهذا الكتاب نزل بالحق ، صحيح مئة بالمئة ، حقائقه قطعية مئة بالمئة ، أهدافه نبيلة جداً ، وهناك كُتُب أخرى ، وكلها من عند الله ، إذاً لابد أن يصدِّق هذا الكتاب الكتب السابقة ..

(نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)

الآن ، الباطل زائل ولو كان أكبر قوة في العالم ..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

وهناك قوى كبيرة جداً في العالم تهاوت كبيت العنكبوت ، لأنها باطل ، الباطل عقيدةً وقوةً إلى زوال ، لأن الله عزَّ وجل يقول :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

كل شيء باطل زائل ، كل شيء غير صحيح لا يستمر ، والعوام تعبِّر عن هذه الحقيقة بطريقةٍ خاصة، يقول لك : لا يصح إلا الصحيح ، أي لا يستمر إلا ما كان صحيحاً ، وكل شيء وفق الكتاب والسنة مستمر ، فالإسلام حق إذاً فهو مستمر ، شامخٌ كالطود ، أما الضلالات الأخرى فأصبحت في الوحل ، ولو كان أصحابها أقوياء ؛ فقد كانت قريش قوية جداً ، وقد عارضت الحق ،

لأن الله مع الحق ، ولأن النبي على حق ، هو الذي انتصر ، وهم أصبحوا في مزبلة التاريخ ، وهم الذين عارضوا النبي ؛ منهم أبو جهل ، وأبو لهب ، وصفوان بن أمية ... إلخ .

البطولة أن تكون مع الحق لأنه دائم ، وأن تكون مع الحق لأنه هادف ، والحق يسمو بك ، الحق ثابت يطمئنك .

3 ـ لا تعلّق مصيرَك بجهة زائلة :

أحياناً الإنسان يكون مع شخص ، ربط مصيره مع هذا الشخص ، فإن أزيح من مكانه فَقَدَ كلَّ شيء ، فالشخص زائل إذاً هو باطل ، أما الإسلام فباقٍ ، إذاً هو الحق ، فالبطولة هي ألا تربط نفسك ومستقبلك ومصيرك بشيء زائل ، ومن ميزات المؤمن أنه ربط نفسه ومصيره بالله عزَّ وجل ، والله حيٌّ على الدوام ، باقٍ حيٌّ على الدوام ، فكل إنسان ربط مصيره ، ربط نفسه ، أو حياته ، أو مصيره بجهةٍ أرضيةٍ هو يغامر ، ويقامر ، فلو أن هذه الجهة الأرضية تزعزعت من مكانها ، أو أزيحت من مكانها لَفَقَدَ كل شيء .

المؤمن يشعر بشعور لا يعلمه إلا من فَقَدَه ، ومهما تقدَّمت بك السن ، وكلما تطور العلمُ أكّدَ حقائق الدين ، وأنت ما عندك مشكلة اهتزاز مبادئ ، فإذا وجدت فرقاً بين حقائق العلم وحقائق الدين فهذا من تقصير العلم ، وإذا وجدت خللا بين ما تقرأ في الكتب العلمية وآيات القرآن الكريم فلضعفِ العلم ، أما إذا تقدَّم العلم جاء مطابقاً لما في الكتاب والسنة ، فالمسلم ما في عنده حالة اسمها أن يكتشف فجأةً أنه كان على باطل ، أو أن هذا الذي اعتقد به غير صحيح ، أو أن هذا الذي تعلّق به زائل ، المؤمن مع الله عزَّ وجل ، وإذا كنت مع الله كان الله معك ، وإذا كان الله معك حفظك ، وأيَّدك ، ونصرك ..

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ

1 ـ التوراة والإنجيل قبل التحريف موافقتان للقرآن :

في هذين الكتابين اختلاف ، لأن التوراة والإنجيل أصابها التحريف ، أما في أصولها فمتوافقةٌ مع كتاب الله ، لكن حينما بُدِّلت وحُوِّرت كان هناك تناقضٌ بينها وبين كتاب الله ..

(وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(3)مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ)

2 ـ لا يترك الله عباده من غير دعوة وإرشاد :

ربنا عزَّ وجل لا يدع عباده من دون دعاوات ، من دون إرشادات ، من دون بيِّنات ، كأن الله عزَّ وجل تكفَّل بهداية الخلق ، قال :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

كأن الله عزَّ وجل وصَّل القول لكل الناس ..

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ)

(سورة القصص : من الآية 51)

مستحيل تكون أبا وابنك الصغير يتحرَّك حركة عشوائية في غرفة فيها مِدفأة دون أن تحذِّره ، دون أن تبيِّن له ، هذا مستحيل !! رحمة الأب ليست بشيء أمام رحمة الله عزَّ وجل ، الأب يرشد ، يوجه ، يحذر ، ينذر ، أحياناً يمسك بيد ابنه ، ويبعده عن المدفأة ، يتحرَّك ، فربنا عزَّ وجل تولَّى هداية الخلق ، وحيثما جاءت كلمة (على) مع لفظ الجلالة ، معنى ذلك أن الله ألزم نفسه إلزاماً ذاتياً بهداية الخلق ، قال :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

وترجمة هذه الهداية : أنه أنزل هذه الكتب على أنبيائه ، أنزل الزبور، والتوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، القرآن وحده تولى حفظه ..

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9))

(سورة الحجر)

لأن هو المعجزة ، نحن كتابنا هو المعجزة فلابد من حفظ هذه المعجزة ، أما سيدنا عيسى فمعجزته إحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص ، سيدنا موسى معجزته العصا ، وشق البحر ، وما إلى ذلك ، فالله عزَّ وجل ما تولى حفظ الكتابين السابقين ، فأصابهما التحوير والتبديل لحكمةٍ أرادها .

(وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(3)مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ)

3 ـ القرآن منهج الخالق الخبير فلابد من اتباعه :

الفرقان إذا قرأته ، واستوعبته ، وفهمته ، وتدبَّرته ، بعد قراءته ، واستيعابه ، وفهمه ، وتدبره ، تفرِّق بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام ، وما ينبغي وما لا ينبغي ، وما يجوز وما لا يجوز ، وما يُسعد وما يشقي ، كيف أن شرب الماء فرضٌ على الجسم كي يبقى حياً ، وكيف أن استنشاق الهواء فرضٌ على الجسم كي يبقى حياً ، وكيف أن تناول الطعام فرضٌ على الجسم كي

يبقى حياً ، كذلك فرضٌ على النفس أن تستوعب هذا الكتاب لأنه منهجها ، ولأنه سبيل سلامتها وسعادتها ، ولأنه دستورها ، ولأن فيه تِبْيان كل شيء .

عندما تجد آلة بالغة التعقيد وغالية جداً ، وتجد معها كتاب تعليمات باللغة العربية ، يصيبك سرور ما بعده سرور ، تقرأه بشغفٍ عجيب ، لو اشتريت آلةً بالغة التعقيد ، غالية الثمن ، عظيمة النفع ، مثلاً : هناك الآن كومبيوترات ، حواسب يمكن أن تحلل الدم ، تأخذ قطرة دمٍ ، وتضغط على المفتاح ، فيأتي سبعة وعشرون تحليلاً ، فإذا أمرت بطبعها يطبعها ، فإذا كان كل تحليل بثلاثة آلاف ليرة ، وعندك مئة زبون واقفين ، والعمل كله بكبسة زر ، فهذا شيء مفيد جداً ، هذا الحاسوب جاء بلا كتاب تعليمات ، كتاب التعليمات أهم منه ، لأنك لو استعملته بلا تعليمات الصانع أعطبته ، وإن خفت على سلامته فلن تستعمله ، وجمدت ثمنه ، ألا ترى معي أن كتاب التعليمات أهم منه ؟ لذلك قال تعالى :

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَان)

(سورة الرحمن)

4 ـ لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج :

علم القرآن ، خلق الإنسان ، أيعقل أن يُعَلَّم القرآن قبل أن يخلق ؟ هكذا الترتيب ، قال علماء التفسير : هذا ترتيبٌ رُتَبِيّ لا ترتيبٌ زمني ، أي لا معنى لوجود الإنسان من دون القرآن ، لا معنى لوجودك من دون منهج تسير عليه ، فهذا الكتاب فيه الحلال وفيه الحرام ، وفيه الخير وفيه الشر ، فيه تعريف بالشر، وتعريف بالخير ، والأمر والنهي ، طريق السلامة ، وطريق السعادة ، آيات كونية ، وآيات إخبارية ، الأقوام السابقون ، والمستقبل البعيد ، والماضي السحيق ، كله في القرآن الكريم ، وجاء النبي وفسَّره تفسيراً رائعاً في أحاديثه الشريفة ، فهذا شفاء ، وهذا فرضٌ على كل إنسان أن يقرأه ، وأن يفهمه ..

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

طبعاً ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

1 ـ الكفر بآيات الله القرآنية والكونية والتكوينية :

الكونية ، أو كفروا بآياته القرآنية ، أي القرآن لم يعبأ به ، اتخذه مهجوراً ، لم يقرأه أبداً ، ولم يسأل عمَّا به ، أنتم لماذا هنا ؟ من أجل أن تتعلموا شيئاً من كتاب الله ، هذا عمل عظيم ، وهذا عمل جليل ، وهذا عمل يرقى بكم ، فما من عملٍ أعظم في حياتنا من أن نفهم منهج ربنا ، أنت اشتريت هذا الحاسوب من أجل أن ترتزق به ، فأعظم عمل أن تقرأ تعليمات الصانع ، كيف تستخدمه من أجل أن تربح ، وأنت حينما تحضر درس علمٍ في تفسير كتاب الله ، تقوم بأخطر عمل ، لأنك تأتي إلى بيت الله كي تتعرَّف إلى أمر الله ، ونهي الله ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، وما ينبغي وما لا ينبغي ، فـ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

2 ـ الكفر بآيات الله يتبعه عقاب من الله :

إن المخلوق عنده شهوات ، تحرك بدافع من شهواته من دون منهج ، فأكل المال الحرام ، فاستحق عقاب الله ، أو اعتدى على عرض الناس ، فاستحق عقاب الله ، أو أساء إليهم ، فاستحق عقاب الله ، أي لهم عذاب شديد لأنهم تحركوا بلا منهج ، فلو أن سيارة ثمنها خمسة وعشرون مليونًا من أرقى الأنواع، هذه مصممة لتقدِّم لك كل الخدمات ، فيها وسائل راحة مذهلة ، فيها وسائل أمان ، لكن إنساناً قادها وهو مخمور ، وخالف تعليمات الصانع ، فنزل بالوادي ، لأنه قادها مخموراً ، وخالف تعليمات الصانع كانت هذه المركبة وبالاً عليه ، فـ ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

شيء طبيعي جداً أنهم سوف يتحرَّكون بلا منهج ، بلا أمر ونهي ، لكن ما مشكلة الناس ؟ يلتقي مع مَن يريد ، ويحملق فيمَن يريد ، ويأكل ما يريد ، ويأخذ من المال ما يريد ، لا ضوابط عنده ، أي مالٍ سنح له أن يأخذه أخذه ، أي منفعةٍ ، أي لقاءٍ ، أي جلسةٍ ، أي حفلةٍ ، فما عنده قيود إطلاقاً ، فهذا الذي يتحرَّك بلا قيود ، وبلا حدود ، وبلا قيَم ، وبلا هدف سوف يأكل ما ليس له ، سوف يعتدي قولاً واحداً على أموال الناس ، أو على أعراضهم ، إذاً لابدَّ من أن يعاقبه الله عزَّ وجل ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

3 ـ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ

معنى العزيز والمنتقم :

قال علماء التفسير : المنتقم هو الذي يردع عبده العاصي ، عبد قوي مسترسل في معاصيه ، يفعل ما يريد ، ما معنى ينتقم الله منه ؟ يوقفه عند حده رحمةً به ، الله عزَّ وجل لا يُغلب ، ولا ينال جانبه ، فهو عزيز .

من أجمل ما قرأت عن العزيز : أنه الواحد الذي لا شريك له ، ويستحيل أن تصل إليه ، ويحتاجه كل شيءٍ في كل شيء ، بأدق عبارة : يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء ، ومستحيلٌ أن تصل إليه وصول إحاطة ، فمن الممكن أن تصل إلى البحر ، وتقف إلى الشاطئ ، هذا وصول ، أما أن تحيط بالبحر فهذا مستحيل ، فتصل إلى بابه ، تسأله ، تدعوه ، تتعرف إليه ، أما أن تحيط به فهذا مستحيل ، الله عزَّ وجل عزيزٌ ذو انتقام .

إذاً :

(نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ)

هذا القرآن ..

(بِالْحَقِّ)

الحق هو الشيء الهادف والثابت ، فلماذا هو ثابت ؟ لأنه حق ، لماذا هو حق ؟ لأنه ثابت ، ما معنى ثابت ؟ كتابٌ ليس فيه إلا الحقائق ، والحقيقة ثابتة ، المعادن تتمدد بالحرارة ـ هذا قانون ـ أينما ذهبت ، إلى الشرق أو إلى الغرب ، أو إلى شمال أو إلى جنوب ، إلى دولة متطورة جداً ، أو إلى دولة متخلفة جداً هذا قانون ثابت ، فإذا استوعبت يسعدك ، هذا هادف إذاً ، فالكتاب بالحق يعني أنه ثابت وهادف ..

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(3)مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(4)إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

4 ـ الكافر لن يُترَك سدًى :

قبل أن أنتقل لهذه الآية ، فهذا الذي كفر بآيات الله لن يُترك سدى ، لن يتفلَّت من عقاب الله ، لا يظن أنه سبق ..

(وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ(59))

(سورة الأنفال)

ما معنى سبق ؟ أي تفلَّت من عقاب الله ، لا يمكن أن يتفلَّت عاصٍ من عقاب الله ، إن عاجلاً أو آجلاً ، فالكافر حينما يظن أنه سبق ، وأنه فعل شيئاً ما أراده الله ، وأنه تفلت من عقاب الله يكون أحمق ، لا يمكن أن يفعل مخلوقٌ شيئاً إلا إذا سمح الله له ، إذاً : ربنا عزَّ وجل سمح للكافر أن يفعل ما فعل ، وهذا الكافر لن يتفلَّت من عقاب الله ، إذاً : لن يسبق ، توهم أنه سبق فهو لن يسبق ، هنا تهديد مبطَّن ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

طبعاً لما كفروا ، تحركوا وفق شهواتهم ، والشهوات من دون حدود عدوان ، إنسان أعجبته امرأةٌ فأغواها ، اعتدى على مخلوق ، هو أراد أن يلبي شهواته الرَعْناء ، المنحرفة ، فاعتدى على عرض فتاةٍ فعاقبه الله عزَّ وجل ، وهذا تسلسل رائع ، ما دام قد كفر بآيات الله ، إذاً سوف يعتدي على خلق الله، ومع العدوان على خلق الله لابد من عقابٍ من الله عزَّ وجل ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

قويٌ لا يغلب ، منتقمٌ لا يعارض ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

1 ـ علمُ الله متعلقٌ بكل شيء ، ومحيط بكل شيء :

تعلَّق علمه بكل ممكن ، عَلِمَ ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، لا تخفى عليه خافية ..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(19))

(سورة غافر)

يعلم سرك ونجواك ، ويعلم ما خفي عنك ..

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى(7))

(سورة طه)

فـ :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

2 ـ من الحماقة التفكير في مخادعة الله :

إذاً من الحُمْق أن تحاول أن تخدع الله ..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء : من آية " 142 ")

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

(سورة إبراهيم : من آية " 46")

فالإنسان حينما يتوهم أنه يخدع الله عزَّ وجل ، فهو غبيٌ أحمق ، وحينما يتوهم أنه يخفي شيئاً لا يعلمه الله ، فهو غبيٌ أحمق ..

(لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ(5)هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء

1 ـ هذا هو خَلقُ الله للإنسان :

فهذا الحوين هو خلية لها غشاء ، ولها هيولى ، ولها نواة ، وعلى النواة مورِّثات ، وهناك من يقول هناك مليون مورث ، وهناك من يقول : خمسة ملايين ، وأنا قرأت أن هناك خمسة آلاف مليون ، فكل مورث أمر مبرمج لوقت معين ..

(يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

قدرات عقلية ، وانفعالية ، وشكلية ، وعضلية ، وعظمية ، وعيون ، وشعر ، ووجه ، فهناك خصائص كثيرة جداً للإنسان ..

(يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

2 ـ الخالقُ المصوِّر هو الحكيمُ المتصرف في الكون :

أي لا متصرف في الكون إلا الله ، بالتالي لا معبود بحقٍ إلا الله ، عزيزٌ حكيم ، أي عزيزٌ لا ينال جانبه ، حكيمٌ كل أفعاله وفق حكمةٍ ، لو لم تكن لكان الله ملوماً ، أدق شرح لكلمة حكيم أن كل شيءٍ وقع أراده الله ، وأن كل شيءٍ أراده الله وقع ، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وأن حكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق .

3 ـ لماذا لا يكون الإنسان حكيماً ؟

الإنسان لماذا لا يكون حكيماً ؟ لأنه قد يكون جاهلاً ، فعدم الحكمة من عدم العلم ، وأحياناً الإنسان لا يكون حكيماً ، عليه ضغط شديد ففعل شيئاً ليس مقتنعاً به ، ما كان حكيماً بهذه الكلمة ، ما كان حكيماً بهذا الموقف ، لأن عليه ضغطاً لا يقاوم ، إذاً لم يكن حكيماً ؛ إما لجهله ، أو لضغطٍ عليه ، وقد يفعل الإنسان شيئاً ، وليس حكيماً بفعله ، لأنه وقع تحت إغراء ، فأغلب الظن أن الإنسان حينما لا يكون حكيماً ؛ إما أنه بسبب جهله ، أو ضغطٍ لا يقاوم ، أو إغراءٍ لا يقاوم .

الله جل جلاله يستحيل في ذاته العلية إلا أن يكون عالما ، ويستحيل أن هناك جهة أخرى تطلب ، أو شيئاً يغري ، كل هذه المعاني التي يمكن للإنسان أن يتلبَّس بها مستحيلة على الله عزَّ وجل ، إذاً هو حكيم ، فكل شيء وقع لو لم يقع على النحو الذي يقع لكان الله ملوماً ، كل شيء وقع لو لم يقع على النحو الذي يقع لكان نقصاً في حكمة الله عزَّ وجل ، لذلك فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ)) .

[رواه الإمام أحمد]

4 ـ هذه الحقيقة يسعد بها المسلم :

أيها الإخوة الكرام ، المؤمن قد يسعد من حقيقةٍ قرآنية ، فأول شيء حينما تعتقد أن الله لا يخفى عليه شيء ، لا تحاول أبداً أن تخادعه ، تتعامل معه تعاملاً واضحاً ، وحينما توقن أنه هو القوي ، وهو المنتقم ، فأي معصيةٍ فعلتها ، وأصررت عليها ، لا يمكن أن تتفلَّت من عقاب الله ، هذه حقائق تضبط ، وكلما أيقنت بهذه الحقائق انضبطت على منهج الله .

أولاً : لا تخفى عليه خافية .

تروي بعض الكتب ، أن إنسان طلب من شيخ له أن يسمح له بمعصية ، قال له :

ـ خمسة أشياء إن فعلتها لا تضرك معصية .

ـ قال له : وما هي ؟

ـ قال له : اعصه في مكانٍ في غير بلاده .

ـ قال له : الأرض كلها له .

ـ قال له : أتعصيه وهو يراك ؟! أو أتعصيه في أرضه ، والملك ملكه .

ـ قال له : هات الثانية .

ـ قال له : إن أردت أن تعصيه فاعصه في مكانٍ لا يراك فيه .

ـ قال له : هو معكم أينما كنتم .

ـ قال له : تسكن أرضه وتعصيه وهو يراك !!

ـ قال له : هات الثالثة .

ـ قال له : إن أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه .

ـ قال له : وماذا آكل إذاً ؟!

ـ قال : تسكن أرضه ، وتأكل رزقه ، وتعصيه وهو يراك !!

ـ قال له : هات الرابعة .

ـ قال له : إن أردت أن تعصيه وجاءك ملك الموت لا تذهب معه ، ولا ترد عليه.

ـ قال له : لا أستطيع .

ـ قال : تسكن أرضه ، وتأكل رزقه ، وتعصيه وهو يراك ، ولا تستطيع أن ترد عنك ملك الموت ؟!!!.

ـ قال له : هات الخامسة .

ـ قال له : إذا أردت أن تعصيه ، وانتقلت إلى الدار الآخرة ، وجاء الزبانية ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم .

ـ قال : لا أستطيع .

ـ قال : تسكن أرضه ، وتأكل رزقه ، وتعصيه وهو يراك ، ولا تقوى على رد ملك الموت ولا زبانية جهنم ، فكيف يكون الأمر ذلك ؟!!!!

فأنت لما توقن أنه يعلم كل حركاتك وسكناتك ، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، وأن الأمر كله بيده ؛ رزقك بيده ، صحتك بيده ، زواجك بيده ، حواسك الخمس بيده ، قلبك بيده ، دسَّامات قلبك بيده ، شرايين قلبك بيده ، كليتاك بيده ، كل جهازٍ مهما دق بيده ، علاقاتك بيده ، مَن فوقك بيده ، مَن تحتك بيده ، إن أيقنت أن الأمر كله بيده ينبغي أن تطيعه ..

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أفعاله حكيمة ، وهو عزيز ، أي لا ينال جانبه ، وذو انتقام ، إذا أردات أن تفعل شيئاً لا يليق بك ، ردعك وانتقم منك ، انتقم منك ، أي ردعك .

هذه الآيات وحدها ينبغي أن تحملنا على طاعة الله عزَّ وجل ، وفي درسٍ قادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)

والحمد لله رب العالمين

سؤال :

يسأل أخ : في سورة يونس آية ، هي قوله تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(99)وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ)

جواب :

يقول هذا الأخ السائل : لو شاء الله لجعل الناس كلهم بدين الإسلام ، أي خمس قارات ، فيها مئتان وعشرون دولة في العالم ، ستة مليارات إنسان ، كلهم مسلمون ، مؤمنون ، صديقون مرة واحدة ، ولو شاء لزرع الإيمان بقلوبهم فما معنى ذلك ؟

ـ الجواب : هذا الهدى الذي فهمته أيها الأخ من هذه الآيات ، هذا الهدى القسري ، هذا لا يسعد أبداً ، لا تسعد إلا بهدىً اختياري ، لا تسعد إلا إذا طرقت باب الله ، إلا إذا بحثت عن الحقيقة ، إلا إذا أتيت الله طائعاً ، أتيته مبادراً ، أتيته بمحض اختيارٍ ..

(وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة : من آية " 13 ")

الهدى القسري ما له قيمة أبداً ، فتماماً لو رئيس جامعة أراد أن يوزع على الطلاب في السنة الرابعة أوراقًا مكتوب عليها جواب أسئلة الامتحان ، اكتب اسمك وتنجح ، ما قيمة هذا النجاح ؟ لو وزع عميد كلية على طلابه في سن التخرج أوراق مطبوعة بالمطبعة الإجابة ، ولكن فقط اكتب اسمك ورقمك ، مطبوعة مئة على مئة ، طبعاً كل الطلاب ناجحون ، ولكن ما قيمة هذا النجاح ؟ لا قيمة له إطلاقاً ، لا عند رئاسة الجامعة ، ولا عند المدرسين ، ولا عند الطلاب ، ولا عند الناس ، الهدى القسري ما له قيمة أبداً ..

(لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد : من آية " 31 ")

أما الهدى العظيم فهو الذي يأتي عن اختيار ، عن رغبة ، عن حب ، أرادك أن تحبه ، ما أرادك أن تكون مقهوراً معه ، لا إكراه في الدين .

فأيها الأخ الكريم ، أيها الأخ السائل ، أيَّة آية تتوهم أن الله قادرٌ على أن يهدي عباده هذا هو الهدى القسري الذي لا يسعد .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(03-60): تفسير الآيات 5-7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-11-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الخامسة .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

1 ـ الشعور بمراقبة الله يورث الخوف من المعصية :

حينما يعتقد الإنسان أن الله يعلم كل شيء ؛ يعلم سره ، ويعلم جهره ، ويعلم ما خفي عنه ، انتهى كل شيء ، لا يمكن لإنسانٍ فيه ذرة عقل بعد أن يوقن أن الله يعلم ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، خاطر دقيق ، خاطر مر سريعاً يعلمه الله ، يحول بين المرء وقلبه ، لا يمكن لهذا الإنسانِ أن يعصي الله .

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

(سورة البقرة : من الآية 284)

حينما تعلم أن الله يعلم ، وحينما تضيف إلى علمك أن الله يعلم ، وأنه سيحاسب ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

وحينما تضيف إلى علمك أن الله سيعاقب يوم القيامة ، أو في الدنيا ، يعلم ، وسيحاسب ، وسيعاقب ، لا يمكن أن تجترئ على معصيته أبداً ، لأنك في الدنيا حينما تركب مركبتك ، وترى الإشارة حمراء ، وترى مَن يقف على هذه الإشارة ليضبط المخالفين ، وأنت لا تقوى على رد عقوبة صارمةٍ ، لابد أن تتقيد بقواعد السير ، لأنك تعلم أن واضع القانون يطولك علمه ، وتطولك قدرته ، إذاً لابد من أن تستقيم على أمره ، فكلمة :

(لاَ تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

خير إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان ، فأعلى درجة من درجات الإيمان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك ، أن تعلم أن الله معك حيثما كنت ، أن تشعر أن الله مُطَّلع

عليك ، ناظرٌ إليك ، مطلع على قلبك ، يعلم كل الخفايا ، يعلم كل الخواطر ، هذا الإيمان وحده يدعوك إلى أن تستقيم على أمر الله ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

أما حينما تغش إنساناً ، وتحتال على آخر ، وتأكل مالَ غيره ، وتعتدي على عِرض فلان ، وكأن الله لا يعلم ، فهذا هو الجهل بعينه ، هل تصدقون أن في آيةٍ قرآنية ربنا عز وجل جعل حكمة الحج الذي هو من أرقى الفرائض فقال :

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة : من الآية 97)

حينما تعلموا أن الله يعلم فلابد أن تلتزموا أمره ونهيه ، وحينما لا تلتزم ، وحينما لا تطيع ، وحينما لا تخضع ، وحينما تخالف ، وحينما تعصي فاعتقد اعتقاداً جازماً أنه بسبب ضعف إيمانك بأن الله يعلم .

2 ـ هذا مع العبد الضعيف فكيف بك مع الله الذي لا يخفى عليه شيء :

أنت لست مع خالق الكون بل مع إنسانٍ مثلك ، مع إنسان من بني جلدتك ، مع إنسان لا يقوى عليك في كل شيء ، حينما توقن أن علمه يطولك ، وأن قدرته تطولك ، تستقيم على أمره ، فكيف يقول الله عز وجل :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق : من الآية 12)

الإيمان علم ..

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(10))

(سورة الملك)

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق : من الآية 12)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)) .

[متفق عليه]

هنا اسمان فقط :

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق : من الآية 12)

مَثَل السير واضح جداً ، تركب مركبة والإشارة حمراء ، الشرطي واقف ، والضابط واقف ، وثمة دراجة وسيارة ، وأنت مواطن عادي ، لا يمكن أن تتجاوز هذه الإشارة إلا في حالتين ؛ في وقت لا يطولك علم واضع القانون ، الساعة الثالثة ليلاً ، أو إذا كنت أقوى من واضع القانون ، في إحدى

هاتين الحالتين تتجاوز ، أما إن أيقنت أن علمه يطولك ، وأن قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه ، هذا مع إنسان ضعيف من بني جلدتك ، لكنه يقوى عليك في زاوية ضيقة فتستقيم على أمره ، فكيف بخالق الكون الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء ؟!!

الشبكية بيده ، ضغط العين بيده ، دسَّام القلب بيده ، شريان القلب بيده ، عمل الكليتين بيده ، الخلايا ، نمو الخلايا ، سيولة الدم كله بيده ، كل أجهزتك ، وأعضاؤك ، وأنسجتك ، وسمعك ، وبصرك بيده ، ومَن حولك ومَن فوقك ، ومَن دونك ، وزوجتك ، وأولادك ، ورزقك ، وراحتك النفسية، وانقباضك النفسي ، كل شيءٍ بيده ، يحتاجه كل شيء في كل شيء، فكيف تعصي الإله ؟!!

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في القياس شنيع

لـو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

* * *

إذاً :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

3 - لا يخفى على الله شيءٌ فاحذر أن تعصيه :

وأنت في غرفتك ، والنافذة مفتوحة ، خرجت الجارة في البيت المقابل إلى الشرفة ، وعليها ثيابٌ خفيفة، وأنت تراها ، ولا أحد يراك أنك تراها ، فإذا غضضت بصرك عن محارم الله معنى ذلك أنك تعلم أن الله يعلم .

مَثَل آخر : طبيب يعالج امرأةً ، ينظر إلى موضع المرض ، فإذا اختلس نظرةً إلى مكانٍ آخر ، ليس في الأرض كلها جهة تستطيع أن تضبط مخالفتك ، امرأة ممدّدة أمامه يعالجها ، شكت له من مكان ، فنظر إلى مكان ، مَن الذي يطلع عليه ؟ الله جل جلاله ..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(19))

(سورة غافر)

ما تقوله ، وما لا تقوله ، ما تعلنه ، وما لا تعلنه ، ما توهم الناس به ، وما لا توهم الناس به ، في علمه.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة : من آية " 97")

خلق الكون كله من أجل أن تعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمُه ، اختار من بين كل أسمائه كله اسمين ؛ اسم القدير واسم العليم ، هذا كلامٌ دقيق ، حينما توقن أن علمه يطولك ، وأن قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصي أمره .

4 ـ ابحث عن الإيمان الذي ينجيك :

سألني أخ : هؤلاء العصاة ما بالهم ، هم مؤمنون ؟ قلت له : تصور دائرة كبيرة جداً ، كل مَن قال ولو بلسانه : الله خلق السماوات والأرض فهو داخل الدائرة ، وقد يكون زانياً ، وقد يكون شارب خمر ، وقد يكون آكل مالٍ حرام ، وقد يكون معتدياً ، وكل إنسان أقرّ أن لهذا الكون إلهاً فهو ضمن الدائرة ، لكن هذا الإيمان لا ينجِّي صاحبه إطلاقاً ..

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(87))

(سورة الزخرف)

وضمن هذه الدائرة الكبيرة دائرةٌ أصغر منها ، مَن بداخلها مستقيمون على أمر الله ، مَن بداخلها ناجون ، هؤلاء حَمَلهم إيمانهم على طاعة الله ، الدائرة الكبرى ؛ كل من أقر بوجود الله فهو مؤمن ، خارج الدائرة ؛ كل مَن أنكر وجود الله ، هؤلاء الملحدون خارج هذه الدائرة ، لكن داخل هذه الدائرة مَن أقر بوجود الله هو مؤمن ، لكن إيمانه لا ينجيه لا من عذاب الدنيا ، ولا من عذاب الآخرة ، وهذا شأن عامَّة المسلمين ؛ لا يقيمون الإسلام في بيوتهم ، قد يكون دخلهم حرامًا ، وإنفاقهم حرامًا ، لا يتورعون، يختلطون ، يفعلون ما يحلو لهم ، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد]

أما مَن في الدائرة الثانية فهؤلاء الملتزمون ، هؤلاء الوَقَّافون عند حدود الله ، هؤلاء الذين طبّقوا منهج الله ، هؤلاء الذين التزموا ، هؤلاء نفعهم إيمانهم ، هؤلاء حملهم إيمانهم على أن يستقيموا ، أين يقع إبليس ؟ ضمن الدائرة الكبيرة ، ألم يقل ربك :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص : من الآية 82)

آمن به رباً ، وآمن به عزيزاً ، ألم يقل :

(خَلَقْتَنِي)

(سورة ص : من الآية 76)

آمن به خالقاً ، ألم يقل :

(فَأَنْظِرْنِي)

(سورة ص : من الآية 79)

آمن باليوم الآخر ، لكن إيمانه ما قدَّم ولا أخَّر ، فمن كان ضمن الدارة الثانية فهؤلاء الذين نفعهم إيمانهم ، وحملهم على طاعة الله ، ومركز هذه الدائرة هم الأنبياء المعصومون ، فثمة إنسان خارج

الدائرة الكبرى ، هذا ملحد ، ضمن الدائرة الكبرى ، هذا مؤمن ، وقد لا ينجو ، ضمن الدائرة الصغرى، فهذا مؤمن مستقيم ، أما في المركز فهم الأنبياء المعصومون .

إذاً :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

أناس كثيرون يتحدثون ، ويقولون شيئاً لا يؤمنون به ؛ لمصلحةٍ ، أو لخطة ، أو لخبث ، أو لخديعة ، الله عز وجل يعلم سركم وجهركم ، وقد ورد عند بعض علماء القلوب : " القلب منظر الرب " ، أي لا تجعل الله أهون الناظرين إليك ، إن الله ينظر إلى قلوبكم ، ورد في بعض الآثار القدسية : أن عبدي طهرت منظر الخلق سنين ، الإنسان يجدد بيته ، يجدد أثاث بيته ، يرتدي ثياب جميلة ، يغسل مركبته ، يحسِّن مدخل بيته ، طهَّرت منظر الخلق سنين ، أفلا طهرت منظري ساعة ؟ والقلب منظر الرب ، إن الله مطلع عليك ، أما يستحي الإنسان أن يتآمر على أخيه ، كفى بها خيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب .

القلب فيه غش أحياناً ، فيه مكر ، فيه خداع ، فيه مؤامرة ، في احتقار ، في كِبر ، في استعلاء ، من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر هذا هالك ، مثقال ذرة .

أنا كنت أضرب هذا المثل : عندك كيلو لبن ، وجاءك خمسة وعشرون ضيفًا ، يمكن أن تضيف على هذا الكيلو خمسة كيلوات من الماء ، وأن تقدمه شرابًا ، أما إذا وضعت قطرة نفط واحدة فهل بإمكانك أن تشربه ؟ قطرة نفط واحدة تفسد هذا اللبن ، بينما خمسة أمثاله ماء لا يفسد ، لذلك الكبر خطير جداً .

أساساً هناك معصيتان ؛ معصية الغلبة ، ومعصية الكبر ، معصية الغلبة يسهل أن تتوب منها ، ولكن معصية الكبر يصعب أن تتوب منها ، هذه معصية إبليس .

(قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

أما الإنسان أحياناً يغلب ، فيستغفر ، فيجد الله تواباً رحيماً .

إذاً :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ(5)هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

1 ـ هذا ما يحدث في اللقاء الزوجي :

في اللقاء الزوجي خمسمئة مليون حوين ، تحتاج البويضة إلى حوين واحد ، وهناك آلية دقيقة جداً ، الحوين في رأسه مادة نبيلة ، هذه المادة النبيلة مغلّفة بغشاء رقيق ، فإذا اصطدم بجدار البويضة ، تمزق الغشاء ، المادة النبيلة تستطيع أن تذيب جدار البويضة فيدخل ، فإذا دخل إلى البويضة أغلق الباب ، واكتفت البويضة بزوجٍ واحد ، الانقسام الآن من المبيض إلى الرحم ، تنقسم البويضة الملقحة إلى عشرة آلاف جزيء ، وفي الرحم تُغْرَس ، وتبدأ بالنمو .

لكن هذه النطفة فيها مورِّثات ، بعضهم قال : خمسة آلاف مليون ، سمعت أنها مليون ، على كلٍ ليس أقلّ من مليون ، هذا الذي أقوله لكم هو شُغل العالم اليوم ، الهندسة الوراثية ، فكل شيء أنت فيه مصمم من قبل ؛ الطول ، اللون ، خده الأسيل ، عينان زرقاوان ، شعر أسود ، شعر أشقر ، قامة طويلة مديدة، شامةٌ على الخد ، أي كل تفاصيل الخلق ، كلها تنفيذ لبرنامج ، هذه المورثات ، لو سلمنا أنها مليون مورث ، فحتى الآن عرفوا ثمانمئة مورِّث ، هذه تسهم في تفاصيل حياة الإنسان .

حدثني أخ كريم فقال لي : جاءني بنتان توأمان من بويضة واحدة ، وكل بنتٍ لها طبع ، الأولى حادَّة المزاج ، والثانية هادئة جداً ، ومن بويضة واحدة ..

(هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

2 ـ علم الأجِنَّة وحده أكبر دليل على عظمة الله :

والله يا أيها الإخوة الكرام ، علم الأجِنَّة وحده أكبر دليل على عظمة الله ، علم الأجنة ؛ تطور الخلق ، من مضغة ، إلى علقة ، إلى عظم ، ثم يكسى العظم لحماً .

دخل طبيب أستاذ علم الأجنة في جامعة أكسفورد ، له كتاب يعد عند الدارسين إنجيل الأجِنَّة ، كتاب قيم ، مترجم إلى معظم اللغات ، يدرس في كل الجامعات تقريباً ، فقال هذا الطبيب لتلاميذه : معي حقيقة ناصعة كشفتها اليوم ، تعد ثورةً في علم الأجنة ، ما هذه الحقيقة ؟ أنه اكتشف أن العظام تُشَكَّل أولاً ، ثم تُكسى لحماً ، وهو قبل عشرين عامًا سابقة كان يعتقد أن العظام تلي خلق العضلات ، فقام طالب مسلم في هذه الجامعة فقال : هذه حقيقة في كتاب المسلمين ، فالأستاذ صعق ، ولم يصدق ، في اليوم التالي جاءه بالقرآن الكريم مع تفسيره ، أطلعه على الآية :

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(14))

(سورة المؤمنون)

إن قضية تشكل الجنين في الرحم ، والأطوار التي يمر بها ؛ من مضغة إلى علقةٍ ، إلى نطفة مُخَلقة وغير مخلقة ، إلى عظمٍ ، إلى لحمٍ ، إلى أجهزةٍ ، إلى دماغ ، شيء لا يصدق ، قبل تسعة أشهر نقطة ماء ، بعد تسعة أشهر يكون طفلا يأكل ، ويشرب ، ويتحرك ، ويرى ، ويسمع ، وينام ، وفيه دماغ ، وفيه أعصاب ، ومعدة ، وأمعاء ، وقلب ، وكبد ، وأذنان ، ولسان ، هذا كله من خَلق الله عز وجل .

(هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

إنسان طويل ، وإنسان قصير ، إنسان لونه فاتح ، وإنسان لونه داكن ، إنسان عصبي المزاج ، وإنسان هادئ الطبع ، إنسان يتَّقد ذكاءً ، وإنسان محدود ..

(يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ

1 - العزيز :

العزيز : الذي لا ينال جانبه ، كما قلت في درس سابق : يندر وجوده إن كان العزيز شيئاً من خلق الله، وإن كان اسماً لله فهو واحدٌ لا شريك له ، إن كان صفةً لمخلوقات الله فهو يندر وجوده ؛ والشيء العزيز تشتد الحاجة إليه ، وإن كان اسماً لله فيحتاجه كل شيء في كل شيء ، والعزيز إذا كان صفةً لغير الله فيصعب الوصول إليه ، أما إذا كان اسماً لله فيستحيل أن تحيط به .

2 - الحكيم :

الحكيم : يضع كل شيء في مكانه الصحيح ، كل شيء وقع لو أنه وقع بخلاف ما وقع لكان نقصاً في حكمة الله ، ولكان الله ملوماً ، فليس في الإمكان أبدع مما كان .

ثم يقول الله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ)

1 ـ الآيات المُحكمات :

بعضهم قال : الآيات المُحكمات هي الآيات الواضحات ، وبالتعبير الأصولي : هي الآيات قطعية الدلالة ، لا تحتمل معنيين ، ومن رحمة الله بنا أن كل الآيات المتعلقة بسعادتنا أو شقائنا ، الآيات المتعلقة بالأساسيات ؛ شيء يعد فرضاً لسلامتنا وسعادتنا تغطيه آيات محكمة ، وشيء إن فعلناه كان دماراً لنا في الدنيا والآخرة تغطيه آية محكمة ، أي آية واضحة ، آيةٌ قطعية الدلالة ..

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا)

(سورة المائدة : من الآية 38)

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا(103))

(سورة النساء)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(183))

(سورة البقرة)

أيةٌ قضية أساسيةٍ في سلامتنا وسعادتنا ، وهي أساسية في دمارنا وشقائنا مغطاة بآية محكمة ، أي آيةٌ واضحة الدلالة قطعية المعنى ، لا شك فيها ، كأن نقول : أعطِ فلانا ألفاً وخمسمئة ليرة ، لا تحتاج لمفسر ، ولا موضح ، ولا لإنسان تستشيره في المعنى : أعطِ فلانا ألفاً وخمسمئة ليرة ، هذا نص واضح قطعي الدلالة ، أما لو قلت لك : أعطِ فلاناً ألف درهمٍ ونصفه ، هذه جملة متشابهة ، يا ترى الضمير يعود على الألف ، أي ألفا وخمسمئة درهم ، أم يعود على الدرهم ، ألف ونصف درهم ؟؟ هذه متشابهة ، فيمكن أن تؤول بألف وخمسمئة إذا أعدنا الضمير على الألف ، ويمكن أن تؤول بألف ونصف درهم إذا أعدنا الضمير على الدرهم ، هذه آية متشابهة أي ظنية الدلالة .

2 ـ الآيات المتشابهات :

الآيات الظنية الدلالة ، وكذلك الأحاديث ، تغطي المتغيِّرات في حياة الإنسان ، في حياتنا ثوابت وفي متغيرات ، فالثوابت ما تقوم عليه سعادتنا، وما يهددنا بالشقاء الدنيوي والأبدي ، هذه ثوابت ، فالإنسان أكل ، ولم يطعم أمه التي أنجبته ، من دون تعليم ، من دون توجيه ، من دون أن تستمع إلى خطبة عن بر الوالدين ، هذا شيء تعرفه بالفطرة ، ومغطى بنصٍ قطعي الدلالة ، فكل جريمة تهلك الإنسان محرمة بنصٍ قطعي الدلالة ، وهناك متغيرات ، فالله عز وجل قال :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

(سورة النور: من الآية 56)

يا رب ، نؤتيها مالاً ، أم نؤتيها طحيناً ، أم نؤتيها تمراً ، أم قمحاً ، كيف نؤتيها ؟ يحتمل أن تؤديها مالاً إذا كنت في المدينة ، ويحتمل أن تؤديها قمحاً إذا كنت في الريف ، القضايا المتغيِّرة ، والمتغيرات تغطيها الآيات ظنية الدلالة ، والثوابت في حياة الإنسان تغطيها الآيات المحكمات .

ولكنني أنا كإنسان حينما أصوغ نصاً ظني الدلالة ، أنا أقصد معنىً واحدًا ، ولكن عبارتي جاءت فضفاضة ، أما إذا جاء خالق الأكوان في قرآنه بعبارة ظنية الدلالة ، معنى ذلك أن الله أراد كل المعاني كي تغطي كل الظروف ، وكل البيئات ، وكل الحاجات ، فإذا كان في النص طابع ظني فالله عز وجل أراد كل المعاني رحمةً بالخلق ، وتغطية لكل المتغيرات في الحياة ، أما إذا أراد معنى واحداً هذا لا يحتمل تأويلاً آخر .

إذاً :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ)

آيات الوجود ، آيات الكمال ، آيات الوحدانية ، آيات المحرَّمات ، آيات الفرائض ، الآيات الأساسية التي تقوم عليها سعادتنا ، والآيات التي إن خالفناها نشقى في الدنيا والآخرة محكمات ، أما ندفع الزكاة مالاً ، أم ندفعها طعاماً ، هذه آية ظنية الدلالة ، هنا مجال اجتهاد المجتهدين .

3 ـ معنى آخر للآيات المحكمات :

معنى آخر : أن الآيات المحكمات هن الآيات التي تعدُّ أصول الكتاب ، وأن الآيات المتشابهات هي الآيات التي تعد فروعاً للكتاب ، في أصول وفي فروع ، وكل آية متشابهة ينبغي أن ترد إلى آية محكمة، أرجو الله عز وجل أن يمكنني من توضيح هذه الحقيقة ..

أنا أقول : الخبز مادة خطيرة ، كلمة خطيرة هل تعني قنبلة تنفجر ، أما أنها مادة أساسية ؟ الخبز مادة خطيرة ، القمح مادة خطيرة في حياة الإنسان ، ثم أقول بعد حين : القمح مادة أساسية ، أساسية محكمة، خطيرة متشابهة .

الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلَّت :

القاعدة الأصولية أن كل آيةٍ متشابهةٍ ، أو أن الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلَّت ، هذه قاعدة أساسية .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

هذه الآية أصل ، وواضحة ، ومحكمة في أن الإنسان مخير لا مسير ، تأتي آية ثانية :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل : من الآية 93)

فالآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلّت ، هذه قاعدة أصولية ، لذلك إذا قلت : الله عز وجل أضل فلاناً ، الله لا يضل ، هذا هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، قياساً على قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : من آية " 5 ")

إذاً : المحكمات ؛ الواضحات ، قطعية الدلالة ، اللواتي تغطي أساسيات الحياة ، والثوابت في الحياة الإنسانية ، والمتشابهات ؛ الآيات ظنية الدلالة ، تشبه الحق من جانب ، والباطل من جانب .

مثلاً :

(وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(13))

(سورة السجدة)

نعود للمثل السابق : كلفت إنساناً أن يعطي فقيراً ألف درهماً ونصفه ، كيف يؤوِّل النص ؟ ألف ونصف درهم ، هذه لأن الهاء تعود على الدرهم ، كأن ثمة امتحانا ؛ إذا كان كريما يعيدها على الألف ، فيعطيه ألفاً وخمسمئة ، وإن كان بخيلاً يعيدها على الدرهم ، فيعطيه ألفا ونصف درهم ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)

(لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : من الآية 130)

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

النهي على الأضعاف المضاعفة ، أما لو أكلناها بنسبٍ قليلة فلا شيء علينا ، " النظرة الأولى لك ـ ولكنه ظل ساعة في النظرة الأولى ـ والثانية عليك " فجعل الأولى ساعة .

فدائماً :

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ)

(سورة الحج : من الآية 41)

الله لم يمكّننا ، إذاً : لا نقيم الصلاة ، فهناك تأويلات مضحكة ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ)

فتنوا بالدنيا ، فأرادوا مخلّصاً لشهواتهم من بعض النصوص ، وكثيراً هي الكُتُب التي تؤلف حديثاً تحت اسم (قراءة معاصرة في القرآن الكريم) التي تخفف على الناس التكاليف ابتغاء الفتنة ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ يَقُولُ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسِيرٍ لَهُ فَنَزَلْنَا فِي مَكَانٍ كَثِيرِ الثُّومِ ، وَإِنَّ أُنَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَصَابُوا مِنْهُ ، ثُمَّ جَاءُوا إِلَى الْمُصَلَّى يُصَلُّونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَنَهَاهُمْ عَنْهَا ، ثُمَّ جَاءُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمُصَلَّى ، فَنَهَاهُمْ عَنْهَا ، ثُمَّ جَاءُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمُصَلَّى ، فَنَهَاهُمْ عَنْهَا ، ثُمَّ جَاءُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمُصَلَّى فَوَجَدَ رِيحَهَا مِنْهُمْ فَقَالَ :

((مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلَا يَقْرَبْنَا فِي مَسْجِدِنَا)) .

[رواه أحمد]

يعني من البصل والثوم ، هل تصدقون أنه في بعض البلاد حتى يتخفف من صلاة الجمعة يأكل سناً من الثوم ؟ ما دام قد أكل من هذه الشجرة فينبغي ألا يقرب مصلانا ، ما خطر في بال النبي أن واحدا من أمته بعد حين سيفهم هذا الحديث : أي أن يعفى من صلاة الجمعة ، فالإنسان المنحرف يعمل في التأويل، يغيِّر ، ويبدل ، ويؤول كي يجر التغطية الشرعية الموهومة إلى انحرافاته ، هذه قاعدة ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)

معنى التأويل :

ما معنى التأويل ؟ العلماء فرقوا بين التفسير والتأويل ، الإنسان حينما يخطر في باله فكرة يعبِّر عنها ، فأن تعيد النص إلى أصله الفكري هذا تأويل ، فالله عز وجل قال :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة)

إن الله عز وجل خلقك مخيراً ، حَمَّلَكَ الأمانة ، هيَّأ لك سعادة أبدية ، خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض ، لو شاء أن يجبرك على الهدى لأجبرك ، لكن عندئذٍ لا تسعد ، لو أنني مجبر أحدا على شيء لما أجبرتكم إلا على الهدى ، ولكن الهدى القسري لا يسعد ..

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة)

تعني هذه الآية : أن الله لو أراد أن يجعل كل العباد المؤمنين إيماناً قسرياً لفعل ، فلو أن بلدا يفرض استقامة قسرية عن طريق المراقبة ، تدخل إلى سوق كبير جداً فيه بضاعة ألوف الملايين ، خمسة موظفين على الباب ، أية سلعة إن لم تدفع ثمنها تعط صوتاً ، فمن هو المستقيم إذاً ؟ في بلاد كثيرة مع التطور التكنولوجي أجبر الإنسان على الاستقامة ، لكن هذه الاستقامة التي أجبر عليها لا قيمة لها إطلاقاً ، ولا ترقى بالإنسان ، كما أنها لا تسعده ، فالآيات المحكمات تغطي الثوابت في الإنسان ، والمتشابهات تغطي المتغيرات .

الذين في قلوبهم مرضٌ يتبعون المتشابه :

لكن المنافقين ومَن كان في قلبه مرضٌ ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)

يقول لك أحدهم :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل: من آية " 93 ")

الله لم يكتب لي الهداية ، الله عز وجل هداك ، ينتظر أن تستجيب له ، أما : كلمة : (من يشاء) فلها معنى آخر في آيات أخرى :

(وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(264))

(سورة البقرة)

(وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(258))

(سورة البقرة)

لا يهدي الكاذبين ، فالله أوجز بمكان ، وفسر بمكان ..

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ)

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّه

هنا شيء ثان لابد من ذكره ، من معاني المحكمات والمتشابهات : القرآن كله آيات محكمات إلا بعض الآيات التي لا تزيد على أصابع اليد ، هذه الآيات متعلقةٌ بذات الله .

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

(سورة الفجر : من الآية 22)

أين كان ؟

(اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

(سورة الأعراف : من الآية 54)

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)

(سورة المائدة : من الآية 116)

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : من الآية 88)

وجه ، نفس ، يد ، سمع ، بصر ، جاء ، بضع آيات لا تزيد على عدد أصابع اليد ، سماها العلماء آيات متشابهات ، هذه متعلقة بذات الله ، أكمل موقف أن نوكل أمر معناها إلى الله ، عشر آيات ليس أكثر ، وبعضهم أوَّلها تأويلاً يتناسب مع كمال الله ، فقالوا :

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

(سورة الفجر : من الآية 22)

أي جاء أمره .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

أي قدرته .

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(181))

(سورة البقرة)

أي علمه .

وجهه : ذاته ، نفسه : ذاته ، إلخ ... فالآيات المحدودة المتعلقة بذات الله يمكن أن تسمى آيات متشابهات، فإذا لم نأولها واكتفينا وفوضنا إلى الله تأويلها نكون قد سلمنا ، وإذا اجتهدنا بتأويلٍ يليق بكمال الله نكون قد وفقنا ، أما أن نشبِّه الله عز وجل ببعض خلقه ، فهذا كلامٌ غير مقبول ، إما الذين أنكروها ضلوا ، والذين جسَّدوها ضلوا ، ولكن الذين فوَّضوها كانوا أكمل الناس ، والذين أولوا كانوا قد وفقوا ، هذا معنى آخر للمحكمات والمتشابهات .

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ)

إذا : الآيات محكمات ..

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

نقف عند العلم ، أما إن كانت الآيات متشابهات متعلقة بذات الله ..

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ)

1 ـ الوقف عند لفظ الجلالة (الله) أو لفظ (العلم) كلاهما صحيح :

نقف هنا ، نقف عند كلمة الله إن كان الآيات متعلقة بذات الله ، ونقف عند كلمة والراسخون في العلم إذا كانت الآيات متعلقةً بالأحكام الشرعية ، وقصص الأنبياء السابقين وما إلى ذلك ، يقولون هؤلاء العلماء الراسخون :

(يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(7))

على كل ، أيها الإخوة القرآن الكريم يحتاج إلى تقوى ، لأن الله عز وجل يقول من بعض معاني هذه الآية :

(لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ(79))

(سورة الواقعة)

2 ـ الفِرق الضالة تعتمد على المتشابهات :

فإذا كنت طاهر القلب ، موَحداً ، مستقيماً ، أعانك الله على فهم كلامه ، وإلا فالمنحرف يقع في فتنة المتشابهات .

بالمناسبة ما من فرقةٍ ضالةٍ إلا اعتمدت على معنىً من معاني المتشابهات التي ما أرادها الله عز وجل، الآيات المتشابهات فيها نوع من الامتحان للإنسان ، أما المؤمنون الصادقون فإنهم :

(يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(7)رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(04-60): تفسير الآيتان 8 -9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-12-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع من دروس آل عمران ، ومع الآية الثامنة ، وهي قوله تعالى :

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ:

المعنى الأول :

أيها الإخوة ، قال علماء التفسير : ما دام الله جل جلاله يأمرنا أن ندعوه لئلا تزيغ قلوبنا ، معنى ذلك أن الأمر بيدنا ، يؤكّد هذا المعنى أن الله عزَّ وجل يقول :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : من الآية 5)

معنى (زاغ) أي انصرف إلى شيءٍ آخر غير الدين ؛ انصرف إلى الدنيا ، انصرف إلى معصية ، انصرف إلى متعةٍ رخيصة ، أو توجه إلى جهةٍ شريكة لله عزَّ وجل ، أي كان متجهاً إلى الله فزاغ قلبه، اتجه إلى غير الله ، كان مقبلاً على طاعة ، فزاغ قلبه ، فأقبل على معصية ، كان محسناً ، فزاغ قلبه ، فأساء ، كان طاهراً ، فزاغ قلبه ، فانحرف ، لأن الله عزَّ وجل يأمرنا أن ندعوه ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ : مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ))

[مسلم وأحمد]

ينبغي أن نفهم هذا الحديث فهماً دقيقاً جداً ، أي أن الله عزَّ وجل جعل قلوبنا بيده لسبب واحد ؛ من أجل أن يعيننا على إيماننا ، فلو أن أحدنا أراد شيئاً طيباً ، ملأ الله قلبه انشراحاً ، وإذا أراد أحد الناس سوءً ، ملأ قلبه انقباضاً ، فلأن القلب بيد الله عزَّ وجل ، يعطينا دفعة التشجيع ، أو دفعة ردع ، يجب أن نفهم هذا الحديث :

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

يملؤها ثقةً ، وطمأنينة ، وأمناً ، وراحةً ، أو يملؤها خوفاً ، وقلقاً ، وانقباضاً ، فإن كان القرار صائباً ملأها أمناً ، وراحةً ، وانشراحاً ، وإن كان القرار مخطئاً ملأها خوفاً وقلقاً ، فإذا أردت أن تجمع بين هذه الآية وبين الحديث الصحيح ..

((إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

لصالحنا ، في صالح إيماننا .

المعنى الثاني :

هناك معنى آخر : أنت حينما ترى من هو أقوى منك لا ينبغي أن تخاف ، لأن قلب هذا القوي بيد الله ؛ فإما أن يملأه عطفاً عليك ، وإما أن يملأه حقداً عليك ، فقلبه بيد الله لا تخف منه ، خف أن يسمح الله له أن يصل إليك ..

(وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا)

(سورة الأنعام : من الآية 80)

إذا شاء الله لقويٍ أن يتسلَّط عليك ، تسلط عليك ، إذاً لا تخف من القوي ، بل خف أن يسمح الله له لأن قلبه بيد الله ، هذا المعنى الثاني .

ذكرت لكم سابقاً أن الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى أدى أمانة التبيين ، والعلماء مكلَّفون من قِبَل الله عزَّ وجل أن يبينوا ، فبيَّن ، بلغت الحجاج مقالته ، فقال : والله يا جبناء لأروينكم من دمه ، وأمر بقتله ، بكلمة ، فجيء به ليُقتَل في حضرته ، فلما دخل هذا الإمام الجليل على الحجاج رأى السيَّاف واقفاً ، والنطع ممدوداً ، وكل شيءٍ جاهزٌ لقتله ، فحرَّك شفتيه ، ولم يفهم أحدٌ ماذا قال ، فإذا بالحجاج يقف له ، ويستقبله ، ويقرِّبه ، حتى أجلسه على سريره ، واستفتاه في موضوع ، وضيفه ، وعطَّره ، وشيَّعه إلى باب القصر ، صُعِق السياف ، وتبعه الحاجب ، فقال له : يا إمام لقد جيء بك ـ اسمه أبو سعيد ـ قال له الحجاج : أنت يا أبا سعيد سيد العلماء ، تبعه الحاجب ، قال له : يا إمام ، لما دخلت حرَّكت شفتيك ، فماذا قلت بالله عزَّ وجل ؟ قال له : قلت : يا ملاذي عند كربتي ، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليَّ برداً وسلاماً ، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم .

أقوى الأقوياء قلبه بيد الله ، والله عزَّ وجل قادر أن يلهم عدوَّك أن يخدمك ، وقادر أن يجعل أقرب الناس إليك يتطاول عليك ، لأن قلوب العباد بيد الله ، فأنت علاقتك مع الله ..

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

فعلاقتي ليست مع الدواب ، ولكن مع مَن بيده ناصية الدواب ، فإن أرخى الزمام وصلت إلي ، وإن شدَّ الزمام أبعدها عني ، هذه حقيقة في التوحيد مهمة جداً ، الأرض مليئة بالأقوياء ، مليئة بالأشرار ، مليئة بالحاقدين ، مليئة بالكفَّار ، مليئة بقُساة القلوب وهم لا يرحمون ، ولكن قلبهم بيد الله ، فإذا أرد الله لمؤمنٍ خيراً ألقى هيبته في قلوب الأقوياء ، فـ :

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

يقلبها لصالحك ، يملؤها رضىً ، وأمناً ، واستبشاراً ، وتفاؤلاً حينما تصطلح مع الله ، ويملؤها خوفاً ، وضيقاً ، وقلقاً حينما تبتعد عن الله ، فـ..

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

أما قلوب الآخرين أيضاً بيد الله ، فإما أن تمتلئ محبةً لك ، وعطفاً عليك ، ورغبةً في خدمتك ، وإما أن تمتلئ نقمةً ، وحقداً ، وقسوةً .

الإنسان مخيَّر :

إذاً : هذه الإزاغة التي ندعو الله ألا تكون هي إزاغة القلب الابتدائية ، أما الإزاغة الجوابية الجزائية فهذه من عند الله عزَّ وجل ، فحينما تختار المعصية ـ لا سمح الله ـ فالله عزَّ وجل بحسب هويتك أنت مخير ، جاء بك إلى الدنيا ، وأنت مخير ، لأن هويتك مخير ، لأن أصل تركيبك مخير ، إذاً : يسمح الله لك أن تنصرف إلى ما أردت ، فسماح الله لك أن تنصرف إلى ما أردت هو إزاغة الله .

ومثل ذلك كمثل طالبٍ في الجامعة لم يقدِّم امتحانًا ، ولا عرف داومًا ، ولا اشترى كتابًا ، ولا التقى المدرس ، أُرسِل له إنذار تلو الإنذار ، فأصر على موقفه ، بعد كل هذه المحاولات لإرجاعه للجامعة ، صدر قرار لترقين قيده ، فهذا القرار تجسيدٌ لرغبة هذا الطالب ..

(فَلَمَّا زَاغُوا)

(سورة الصف : من الآية 5)

انصرف إلى الدنيا ، إلى المعصية ، لم يعبأ بالتوحيد ، لم يطلب العلم ، أراد الشهوة ، الآن ، سمح الله له أن يحقق رغبته ، سماح الله له أن يحقق رغبته هو الزيغ الذي جاء في هذه الآية ، أقوى دليل :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

وقس على هذا كل شيء ، قس على هذا إذا وجدت في القرآن آيةً يُشَمُّ منها أن الله يضل العباد ، إذا قلت : إن الله يضلهم ، أي ذاك الضلال الجزائي ، المبني على ضلال اختياري ، أنت مخير ، وفي اللحظة التي تفقد فيها اختيارك تلغى هويتك ، وتلغى الأمانة ، ويلغى التكليف ، وتلغى المسؤولية ، ويلغى الثواب ، ويلغى العقاب ، وتلغى الجنَّة ، وتلغى النار ، لمجرَّد أن تفقد اختيارك ، لو أن الله

أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلَّف تسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يُعْصَ مغلوباً ، ولم يُطَعْ مُكرهاً .

إذاً :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

هذه الإزاغة الجزائية ، التي هي في حقيقتها سماح الله لك أن تفعل ما أردت ، فأنت مخير .

مثل أوضح ، أنت صيدلي ، وبحاجة إلى موظف يعينك في فتح الصيدلية ، هذا الموظف يجب أن يكون على علمٍ بالأدوية وخصائصها ، أعلنت عن مسابقةٍ ، وجاءك عدد من المرشحين لهذه الوظيفة ، الآن تمتحن أحدهم ؛ وضعت له مجموعة أدوية على الطاولة ، قلت له : وزِّع هذه الأدوية وفق أنواعها؛ السموم ، والفيتامينات ، والمسكنات .. إلخ ، أنت الآن تمتحنه ، فأمسك هذا المرشح للوظيفة علبة دواء سموم ، واتجه إلى خزانة الفيتامينات ، لو أنك منعته ما فحصته ، ينبغي أن تسمح له أن يذهب حيث يشاء ، هو في طور امتحان ، أنت الآن تمتحن علمه ، أمسك علبة دواء سموم ، واتجه بها إلى خزانة الفيتامينات ، سماحك له هو إزاغتك ..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

أي سمح لهم أن يتجهوا الوجهة التي أرادوها ، واختاروها من عند أنفسهم ، يقاس على ذلك كلمة الضلال ، فأينما عُزِيَت كلمة الضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري ، فـ ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

لماذا يقول الله عزَّ وجل :

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

(سورة الإسراء : من الآية 80)

لماذا ؟ لأنه قد تدخل مدخل صادقاً ، ولا تخرج صادقاً ، لمَ لمْ يقل الله عزَّ وجل : رب اجعلني صادقاً ؟ لا ، المعنى دقيق ، آلاف الحقول قد تدخلها صادقاً ، ولا تخرج منها صادقاً ، أنت قد تنشئ مستشفى خيريا ، ثم ينقلب هذه المستشفى إلى مستشفى ابتزازي يبتز أموال الناس بالباطل ، يمكن أن يبدأ المشروع خيرياً ، ولا ينتهي خيرياً ، يمكن أن تبدي دعوة بإخلاصٍ شديد ، ولا تنتهي هذه الدعوة بالإخلاص الذي دخلته فيها .

إذاً :

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

معنى ذلك أن الإنسان عليه أن يبقى مستعداً لأية معركةٍ مع الشيطان ، الشيطان لا ييأس ، ولكل طورٍ من أطوار الإيمان شيطانٌ يثبط عزيمة الإنسان ، حتى إذا بلغت قمة النجاح يغريك الشيطان بالغرور ، كل نجاح له مطب ، فيجب أن تكون يقظاً .

كنت أقول : بلوغ القمة صعبٌ جداً ، طريقٌ وعر ، صعب ، التواءات ، حُفَر ، أكمات ، حتى إذا بلغت القمة هناك مطبٌ خطير ـ مطب الغرور ـ والغرور طريقٌ إلى القاع ناعم الملمس ، تنزلق به سريعاً إلى القاع ، فقبل الزواج هناك مطبَّات ، وبعد الزواج ثمة مطبات ، عندك أولاد فثمة مطبات ، لا ولد لك فثمة مشكلة ، رزق وفير مشكلة ، قليل مشكلة ، فـ ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

الإنسان عليه أن يؤمن ، وعليه أن يصون إيمانه ، وعليه أن يجدد إيمانه ، والإيمان يخلق في جوف بني آدم ، ويهترئ ، فلابدَّ من تجديده ، والتجديد يكون بأن ترفع مستوى طلب العلم ، والتجديد يكون عن طريق المبالغة في الاستقامة ، والتجديد يكون عن طريق العمل الصالح ، أن تزداد علماً ، وأن تزداد انضباطاً ، وأن تزداد عطاءً ، بهذا يتجدد الإيمان ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

الرحمة :

فكلمة (رحمة) كلمةٌ جامعةٌ مانعة ، مطلق عطاء الله أن يرحمك ، يرحمك فيسبغ عليك صحة ، يرحمك فيملأ قلبك أمناً ، يرحمك فيسمح لك أن تتصل به ، يرحمك فيذيقك من حلاوة القُرْب ، يرحمك فيعطيك الحكمة ، لو تحدَّثت عن الرحمة ساعاتٍ وساعات لا تنتهي منها ، رحمة الله مطلق عطاء الله .

هنا يحضرني ..

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

في شركات عملاقة ، فائضها النقدي يفوق ميزانية مجموعة دول ، فائضها النقدي فقط ..

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

رحمة الله تعني الأبد ، تعني سعادة إلى أبد الآبدين ، رحمة الله تعني جنةً فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، رحمة الله في الدنيا هذا الأمن الذي يناله المؤمن ..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

أي إذا قلت : يا رب ارحمني ، فهو دعاء واسع جداً ، أي يا رب أصلح لي جسدي ، يا رب يسِّر لي رزقي ، يا رب اجعل أهلي على خير ما يرام ، اجعل زوجتي صالحة ، اجعل أولادي أبراراً ، يا رب صلني بك ، ارزقني عملاً صالحاً يقربني إليك ، يا رب تجلى على قلبي ، يا رب أذقني طعم القرب منك ، هذا معنى ارحمني يا رب .

ويقول الله عزَّ وجل :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

(سورة آل عمران)

إلى رحمته ، فأنت تقرأ النعي (إلى رحمته تعالى) ، كلمة فرِّغت من مضمونها ، أي مات فلان ، لا، لا ، لو أنه مؤمن انتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا لكان كذلك ، لأن الدنيا كلها متاعب ، فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ :

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ : مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ : الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

[متفق عليه]

كان عبدًا ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

والقلب قلب النفس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[مسلم]

فالقلب منظر الرب ، وقد ورد في بعض الآثار القدسية : **" أن عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة ؟ " .**

أما يستحيي الإنسان أن يحقد بقلبه على أحد ، والله مطلعٌ على قلبه ؟ يا إخوان الكبائر الباطنة أخطر ألف مرة من الكبائر الظاهرة ، الكِبر مرض قلبي خطير ، العُجب مرض قلبي خطير ، حب الذات مرض قلبي خطير ، أن تتوهَّم أنك أفضل الناس مرض قلبي خطير ..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

(سورة النساء : من الآية 49)

هذا مريض الذي يمدح نفسه باستمرار .

إذاً :

(رَبَّنَا)

دعاء ، وهذا من أدعية القرآن ، وحبَّذا لو جمعنا أدعية القرآن ، حبذا ، ودعونا الله بها ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

الإنسان معرَّض للفتنة في أية لحظة ، يجب أن يكون يقظاً دائماً ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(سورة النساء : من الآية 71)

من الشيطان ، فقد يأتي عن أيْمانهم ..

(ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

(سورة الأعراف : من الآية 71)

احذر مداخل الشيطان :

هذه موظفة مثلاً يجب أن تهديها إلى لله ، والله الظاهر أن فيها خيرًا ، اقعد معها جلسات طويلة على انفراد ، لعل الله عزَّ وجل يهديها على يدك ، أنت داع ، هذه خلوة ، دع خيراً عليه الشر يربو ، وإن درء المفاسد مقدمٌ على جلب المنافع ، لا مؤاثرة في الخير ، والخير كله في المؤاثرة ، أنا لا أضحي بديني من أجل امرأة ، فعن أيمانهم يوسوس له ، فعل خيرٍ فيه مطب ، فيه شُبهة ، يا نصيب خيري ، وريع هذا الينـاصيب للعجزة ، والله شيء جميل ! أدخله بالينـاصيب ، فدائماً الشيطان إذا رأى الإنسان على الإيمان فتجده أولاً يطمع بالإنسان أن يكفر ، فإن يئس من أن يكفر زين له الشرك ؛ يوهمه أن هناك جهة بيدها كل شيء ، لابد أن ترضيها ، لمستقبلك ولأولادك ، أوهمه أن هذه الجهة ندٌ لله عزَّ وجل ؛ ترفع وتخفض ، وتعطي وتمنع ، وتعاقب وتكرم ، فاتجه إليها ، أغراه بالكفر فلم يستطع ، أغراه بالشرك فأفلح ، لو أن هذا الذي أغري بالشرك كان على توحيد لرماه بمطب ثالث ، يجعله يبتدع ، إنه لابد أن نفعل هذا ، فما فعله النبي ، الدين تام مكتمل ، معنى هذا أن الدين وحي ، والذي أوحى هو خالق الكون ، والله عزَّ وجل لا يمكن أن ينسى شيئاً ، فأية إضافةٍ على الدين اتهامٌ له بالنقص ، وأية حذفٍ منه اتهامٌ له بالزيادة ، فلمجرد أن تفكر أن تضيف شيئاً في عقائد الدين أو في عباداته فأنت متهم له ، وأنت تقول : لقد نقص هذا الدين أن أتممه .

فيدعو أولاً إلى الكفر ، فإن وجده على إيمان دعاه إلى الشرك ، إن وجده على التوحيد دعاه إلى أن يبتدع ، إن وجده على سنة دعاه إلى أن يرتكب كبيرة ، إن وجده على طاعة دعاه إلى أن يرتكب صغيرة ، إن وجده على وَرَع ... فماذا ؟!! لا الكفر جاء عليه ، والشرك ، ولا البدعة ، ولا الكبيرة ، ولا الصغيرة ، الآن يدعوه إلى التحريش بين المؤمنين ، أنت كذا ، وأنا كذا ، والجماعة الفلانية ، يمزق الدين ، يمسك قضية صغيرة جداً يكبرها كثيرا ، ويقيم عليها النكير ، ويقاتل من أجلها ، وهي في الإسلام حجمها صغير جداً ، لأسبابٍ تافهةٍ جداً نتحارب ، نتقاتل ، يطعن بعضنا بعضاً ، يكفر بعضنا بعضاً ، لأنه ترك مصدر علم من جهة ، ومال إلى جهة ثانية ، كفَّره وانتهى ، هذا كله مبالغة ، كله غلوٌ في الدين ؛ أن تأخذ جزئية صغيرة ، وأن تكبرها ، وأن تجعلها هي الدين ، هذا من فعل الشيطان ، فلا الكفر ، ولا الشرك ، ولا البدعة ، ولا الكبيرة ، ولا الصغيرة ، ولا

التحريش بين المؤمنين ، كان واعياً هذا المؤمن ، يدخله في المباحات ، التوسُّع في المباحات حتى تمتص كل وقته ، وحتى يلقى الله صفر اليدين ، هذا ..

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

.. المعاصي والآثام ، و

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

التقدم والحداثة ، والعلمانية، والتطوير ، والمجتمع المنفتح ، والعولمة ، ونحن بعصر العلم مع الاختلاط ، مع الانحراف ، مع التفلُّت ، مع الانحلال ، أو يتمسَّك بتقاليد قديمة جداً بالية تخالف الشرع ، هكذا رباني أبي ، وهكذا علمني ، هكذا نشأت ، على الاختلاط ، من غير محاسبة ، وكل إنسان يأخذ ما راق له من المحل ، فهم إخوة ، حتى يتقاتلوا ، فإما أن تبتدع تقاليد تخالف الدين ، أو أن تبتدع قيما حديثة جداً تخالف الله ، أو

(عَنْ أَيْمَانِهِمْ)

.. من باب الدعوة إلى الله ، أو

(عَنْ شَمَائِلِهِمْ)

.. من باب المعصية ، ولكن لم يذكر القرآن جهةً علويةً ، ولا جهةً سفلية ، يعني أن الطريق إلى الله آمن من الشيطان ، وطريق الامتثال آمن أيضاً ، إن امتثلت إلى الله فأنت في أمان ، وإن أقبلت عليه فأنت في أمان ، واللهُ ذكر أربع جهات :

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

إذاً : الشيطان هو الذي يسعى لإزاغة القلب ، لابد من أن نكون يقظين ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

والله أيها الإخوة ، في قلب المؤمن رحمة ، كلمة رحمة واسعة جداً ، أي فيه طمأنينة ، وأمن ، وراحة، واستسلام لله ، وشعور بالخفَّة ، ليس عليه أثقال كالجبال ، ما ارتكب عملاً سيئًا ، شقي الناس ليسعد ، وافتقر الناس ليغتنى ، لا علاقة له بالمعصية ، ليس ثمة حقوق متعلقة برقبته ، فالقلب فيه راحة ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ

كلمة (وهاب) تعني بلا ثمن ، أي بلا ثمن مكافئ ، أما الثمن فبسيط ، أن تطلب ، أنت عبد فقير ، وضعيف ، ولا تعلم ، إذا أقبلت على الله عزَّ وجل منحك العلم ، منحك القوة ، منحك الحكمة ، فليس

معقولاً أن تقدم طلبًا بإخلاص ، ولجهة في الأرض ، وتقول : أريد أن تعطوني ألف مليون ، وقَّعت ، الألف مليون تأخذها بطلب فقط لا بجهد ، هذا معنى :

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

أنت في الدنيا تجد إنسانًا عنده ثروة طائلة ، هذه بمقابل ، يقول لك : جهد أربع وخمسين سنة عملا في التجارة ، مُتنا مليون موتة حتى حققنا هذه الثروة ، هذه الثروة مقابل جُهْد ، أما ربنا عزَّ وجل فيعطيك عطاء بغير حساب ، مقابل طلب فقط ..

(كلاً نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

ما أنت فيه يعبِّر عن صدقك ، وما لم تصل إليه يعبر عن تمنياتك ، فالله عزَّ وجل لا يتعامل بالتمنيات..

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ)

(سورة النساء : من الآية 123)

أنت تتمنى أن تكون أكبر تاجر ، تمنى أن تكون أكبر غني ، تمنى أن تكون أكبر عالِم ، التمنيات ما لها قيمة عند الله عزَّ وجل ، والدليل :

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء : من الآية 19)

ما قال : وسعى لها ، لا يكفي سعى لها ، بل سعى لها سعيها الخاص ، نجح طالب في الطب ، الطب له علاماته الخاصة ، أما إذا كنت طالبًا فهذه الكلية لها علاماتها الخاصة ..

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء : من الآية 19)

تحتاج إلى صدق ، إلى استثقامة .

ويحضرني الآن كلمة رائعة : أنه ممكن أن تتعلم أمر الله ، أي إنسان ذكي عنده فكر ، وثقافة ، ولغة ، عنده كتب ، ومراجع ، وأجهزة يتعلم الشريعة ، ولو كان غير مسلمٍ ، قد يكون زنديقًا ، قد يكون زانيًا ، قد يكون شارب خمر ، قد يكون مُلْحِدًا ، إذا قرأ الكتب ، وفهمها ، واستوعبها ، وحفظها ، وربطها بعضها ببعض يمكنه أن ينجح في الامتحان ، فالعلم بأمره يستدرك بالمدارسة ، والعلم بخلقه يستدرك بالمدارسة ، اختصاص فيزياء ، وكيمياء ، ورياضيات ، وفلك ، وطب ، وهندسة ، وعلم اجتماع ، وعلم نفس ، وتاريخ تربية ، كلها علوم أرضية تحتاج إلى فكر ، وكتاب ، ومدرس ، ووقت ، ودارسة ، ومطالعة ، ولكن العلم بذاته تحتاج إلى مجاهدة ، تحتاج إلى غض بصر ، ضبط لسان ، تحرير دخل ، إنفاق في سبيل الله ، ضبط الهوى ، ضبط العلاقات كله تحتاج لإرادة قوية ، فالإرادة القوية ، والطاعة، والمجاهدة ثمن معرفة الله عزَّ وجل ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

لو أن إنسانًا زاغ قلبه ، وانحرف سيره ، وغرق في الدنيا ، وجمع من الأموال المبالغ الطائلة ، ثم ماذا؟ جمع ألف مليون دولار ، (بيل غيتس) معه رقم فلكي قريب بالمليارات ، ثمانون أو تسعون مليار دولار ، ثم ماذا ؟ ثم الموت ، وصلت إلى أعلى منصب في الأرض ، ثم ماذا ؟ إلى الموت ..

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ

(رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

1- ثم ماذا إلا الموت ؟

فإذا شرد الإنسان ، وأراد الدنيا فقط ، وأعرض عن الآخرة ، فماذا ينتظره ؟ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا ، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي]

في المطارات بوابات ، يقول لك : البوابة رقم كذا ، وكل واحد منا له بوابة يخرج منها من الدنيا إلى الآخرة ؛ هناك بوابة حادث سير ، وبوابة مرض قلب ، وبوابة مرض خبيث ، ولابد من الخروج من إحدى هذه البوابات ، وهي مرض الموت ، فالموت مصير كل إنسان ، فـ ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ(8)رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ)

2 - الناس مجموعون ليوم عظيم :

حتمية هذا الجَمْع ..

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(6))

(سورة المطففين)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه (19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيه (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه (28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه (29)

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

هذا يوم القيامة ، يا إخواننا الكرام ، إذا آمنا به إيماناً حقيقياً ، والله أكاد أقول لكم : لا ننام الليل سعياً لهذا العطاء الإلهي الأبدي السرمدي .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا

فهؤلاء الذين زاغت قلوبهم ، وانصرفوا إلى الدنيا ، وجمعوا أموالاً طائلة ، وربَّوْا أولادهم تربيةً حديثة ، يحمل ابنه أعلى الشهادات ، يسكن في أجمل بيت ، يتزوج من أجمل امرأة ، ابن متفلّت ، لكن بمنصب رفيع جداً ، معه شهادات عليا ، قال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا)

أن يكونوا أعلاماً في الدنيا فقط ، فالأب لا ينتبه إذا صلى ابنه ، أو لم يصل ، ينتبه إذا نجح ، أو ما نجح ، يهمه نجاح ابنه ، دخل ابنه ، زواج ابنه ، تهمه الأشياء المادية فقط ، ليتباهى بها ، وأكثر النساء يهمهن أنهن اخترن زوجة جميلة لابنها ، من عائلة ، بنت عائلة ، وأهلها أغنياء فقط ، أما أنها محجَّبة أو سافرة ، فليس هناك مشكلة ، فهؤلاء الذين جمعوا أموالا طائلة ، وكان أولادهم في أعلى مراتب التفوّق في الدنيا ، فهؤلاء ..

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

سيدنا عمر بعد أن طُعِن ، وبعد أن صحا قال : هل صلى المسلمون الفجر ؟ أين هو وأين الناس ؟! طُعِن ، وعلى وشك الموت ، ما الذي أقلقه ؟ صلاة المسلمين ، أنت راقب ؛ دخلت البيت فتقول لزوجتك: أكل الأولاد ؟ كتبوا وظائفهم ، ما سألتها : هل صلوا ؟ ما أدخلت الصلاة في حساباتك ، كتبوا وظائفهم ، وأكلوا ، وناموا ، أما لو كنت تحرص على مستقبلهم الأخروي لسألتها : هل صلوا العشاء ؟

سيدنا عمر سأل : هل صلى المسلمون الفجر ؟

إذاً ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

هؤلاء الذين زاغت قلوبهم ..

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها همًّا :

خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هماً ، ومَن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه ، وهو لا يشعر ، تدخل محل بيع ضخمًا جداً ، ودخلت امرأة إلى المحل ، فقال : يا إلهي كم هي الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان !! نحن أُثقِلنا بما يسمى بمجتمع الاستهلاك ، نحن نقيس الفقر والغنى بالأشياء الثانوية، الحاجات الأساسية مؤمَّنة ، فتكفي الإنسان لقمة تملأ جوفه ، وبيتٌ يؤويه ، وقد سأل ذات مرة ملكٌ وزيرَه :

ـ من الملك ؟

ـ فقال له : أنت هل هناك غيرك ؟ .

ـ قال له : لا ، الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا ؛ له بيتٌ يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ورزقٌ يكفيه ، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا ، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه .

فإذا كان للإنسان بيت يؤويه ؛ صغير ، كبير ، مِلك ، أجرة ، المهم معه مفتاح بيت ، مساءً له غرفة ينام فيها ، وله رزقٌ يكفيه ، عنده وجبة طعام فهذا يكفي ، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ :

((يَا عَائِشَةُ ، هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ ، قَالَ : فَإِنِّي صَائِمٌ ، قَالَتْ : فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ ، أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ ، قَالَتْ : فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ ، أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ ، وَقَدْ خَبَأْتُ لَكَ شَيْئًا ، قَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْتُ : حَيْسٌ ، قَالَ هَاتِيهِ ، فَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَ ، ثُمَّ قَالَ : قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا))

[مسلم ، أبو داود ، النسائي ، أحمد]

له بيتٌ يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ورزقٌ يكفيه ، هذا ملك من ملوك الدنيا ، ليس ثمة حقوق متعلقة به ، ولا أشخاص شقوا من أجله ، فيمكن للإنسان أن يبني مجده على شقاء الآخرين ، ويبني حياته على موتهم ، ويبني غناه على فقرهم ، ويبني أمنه على خوفهم .

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

سنة الله في خلقه ؛ فأي إنسان أعرض ، وانحرف يعاقبه ، ويهلكه .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(05-60): تفسير الآيات 10 - 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-12-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الحادية عشرة ، والتي قبلها ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ(10)كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ)

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

1 ـ الدأب :

أي كعادة أهل فرعون ، الدأب هو العادة والشأن

2 ـ عادة فرعون تكذيب الأنبياء ، وعادة الأقوياء والأغنياء تكذيب الدعاة إلى الله :

عادة فرعون تكذيب الرسل ، وعادة الأقوياء والأغنياء الشاردين عن الله تكذيب أيَّة دعوةٍ صادقة ، لأن حياتهم مبنيةٌ على شهوات ، والدعوة الصادقة فيها منهج ، فيها افعل ، ولا تفعل ، فأية دعوة صادقة من عند الله عز وجل فيها حَدٌ لشهواته ، وحدٌ لعدوانهم ، وحدٌ لبغيهم ، وحد لتطاولهم ، فشيء طبيعيٌ جداً أن القوي أو الغني يعيش حياةً مترفةً ، وهذه الحياة المترفة ليست وفق منهج الله ، منهج الله فيه عدلٌ ، من أروع ما قيل في الشريعة : **" إنها عدل كلها ، مصلحة كلها ، رحمة كلها ، حكمة كلها ، وأية قضية خرجت من العدل إلى الجور ، ومن الرحمة إلى القسوة ، ومن الحكمة إلى خلافها ، ومن المصلحة إلى المفسدة ، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل " .**

منهج الله يحقق العدل للبشر ، يمنع الظلم ، يمنع التطاول ، يمنع الكبر ، فالأغنياء والأقوياء الشاردون عن الله عز وجل من شأنهم ، ومن طبيعتهم الفاسدة ، ومن عاداتهم المتوارثة أن يردوا الحق ، وأن يكذبوا ، ومن شأن الله معهم أن يدمِّرهم ، شأنهم التكذيب ، وشأنه معهم التدمير ، هذا معنى :

(كَدَأْبِ)

العادة والشأن ..

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

حينما جاء النبي عليه الصلاة والسلام ، مَن الذين آمنوا به ؟ الفقراء والضعاف ، أما أقوياء قريش فاستكبروا ، واستنكفوا ، واستَعْلوا .

عادة الله مع المكذبين القصم والهلاك :

وعادة الله مع هؤلاء :

(فَأَخَذَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

آيةٌ واضحةٌ كالشمس ، فشأن الأقوياء والأغنياء التكذيب ، وشأن الله معهم الإهلاك .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ

أما هذه الآية التي بعدها :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

1 ـ الكافر مهما بلغ من القوة فهو مغلوب :

مهما علوا ، مهما تغطرسوا ، مهما اشتدوا :

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت : من الآية 15)

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى(50))

(سورة النجم)

معنى ذلك أن ثمة عادًا ثانية ، ونحن نعيشها الآن ، تقول عاد الثانية :

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت : من الآية 15)

سياسة الخارجية كسياسة الداخلية ، أملي أوامر ، إن ذهب أحدٌ إلى هذه البلاد يقول : لم يخلق مثلها في البلاد ، أموال الدنيا كلها فيها ، بلاد بنيت بناءً تامًا ، مرافقها من أرقى المرافق ، صناعتها ، زراعتها ، جمال بلادها ، وفرة الأموال ..

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ(8))

(سورة الفجر)

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(128))

(سورة الشعراء)

عاد الثانية كعاد الأولى ، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون ، وإذا بطشوا بطشوا جبَّارين ، خمسمئة طفل يموتون من الجوع كل عام ، جوعاً ومرضاً ، ولا يرحمون ، وكيف هلاكهم ؟ بالأعاصير ..

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(7))

(سورة الحاقة)

كأن هذا شأن الأقوياء والأغنياء ، وشأن الله معهم أن يهلكهم ، وأن يدمرهم ، ولكن الأحمق يظن حينما يكون الحبل مرخًى ، يظن أنه طليق ، أما هو ففي قبضة الله ، في أية لحظة يدمره الله عز وجل ، والدليل :

(إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ)

(سورة يونس : من الآية 24)

والله الأرض الآن في زينة ما بعدها زينة :

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس : من الآية 24)

يقول لك : البلد الفلاني عنده قنابل تدمر الأرض خمسة مرات ، القارات الخمس ، قنابل نووية ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس : من الآية 24)

أي قادرون عليها استطلاعا ؛ فأيّ بقعة تصور ، أنا اطَّلعت على مجلةٍ مدهشة ، الأرض كلها في صوِّرت من القمر ، على هذه الصورة مربعٌ صغيرٌ جداً ، لما كُبِّر ظهرت أمريكا الشمالية ، وعلى هذه الصورة مربع صغير جداً ، لما كُبِّر ظهرت ولاية فلوريدا ، وعلى هذه الصورة مربع صغير جداً ، لما كبر ظهر ساحل من سواحل فلوريدا ، عليه نقطة سوداء ، لما كبرت ظهر مرج أخضر، وشخص مستلقٍ على قماش ، ويقرأ روايةً ، وإلى جانبه صحن فيه فواكه ، هذه الصورة من المركبات الفضائية..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس : من الآية 24)

استطلاعاً ، وتدميراً ، يقول لك : من مكان بعيد ، من قارة أخرى يأتي الصاروخ في غرفة النوم ، دقة إصابة مذهلة :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس : من الآية 24)

2 ـ الله تعالى يطمئن المؤمنين :

فربنا عز وجل يطمئن المؤمنين ؛ مهما رأيت الباطل مستعلياً ، مهما رأيته متمَكّناً ، مهما رأيته قوياً ، والله في بلاد فيها أسلحة لا يصدق العقل حجمها ، ومع ذلك تداعت من الداخل ، وانهارت من الداخل ، وانهيارها والله معجزة ، معجزة من معجزات الله عز وجل ، وقد قال بعضهم : **"عرفت الله من نقض العزائم "** ، وكل أمة استعلت لابد من أن تذل ، لكن ..

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

(سورة يونس : من الآية 46)

قد نشاهد ، وربما لا يتاح لنا أن نشاهد ، وقد نشاهد ، وربما لا يسمح عمرنا أن نشاهد ، ولكن الله يمهل ، ولا يهمل .. وقوله تعالى :

(وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ(59))

(سورة الأنفال)

معنى

(سَبَقُوا)

أنهم فعلوا شيئاً ما أراده الله ، أو تفلتوا من عقاب الله ، مستحيل ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن يفعل الكافر شيئاً ما أراده الله ، إن خطة الله تستوعب خطة الكافر ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن يتفلّت الكافر من عقاب الله ، لن يسبق الله عز وجل ، لذلك ربنا يطمئن المؤمنين :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

3 ـ الإسلام دين الله ، فكن من أنصاره :

أنت حينما تتصوَّر كفَّار قريش ، وهم أقوياء عتاة ، أما المؤمنون فضعاف مستضعفون فقراء ، ومع ذلك حينما فتح النبي عليه الصلاة والسلام مكة المكرمة ، وقد ناصبته قريش العداء عشرين عاماً ، ينكّلون بأصحابه ، وأرادوا استئصاله ، فكانت معركة الخندق معركة وجود ، بقي للإسلام ساعات وينتهي ، ولكن لا تقلق على هذا الدين ، إنه دين الله ، اقلق على شيءٍ واحد ؛ أن الله سمح لك أن تتشرف بنصرته ، أو لم يسمح لك ، فقط ذلك ، إنه دينه ؛ فإذا شاء نصره بالرجل الفاجر ، وإذا شاء سخَّر أعداءَه لنصرته دون أن يشعروا ، لأنه دينه ، فقلقك لا ينبغي أن يكون على سلامة هذا الدين ، إنه دين الله ، ولكن من حقك أن تقلق أن الله سمح لك أن تنصره ، سمح لك أن تدلي بدلوٍ في نصرته ، سمح أن تكون داعيةً له ، سمح أن تكون قوةً له ، هنا القلق ..

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

فأنت حينما ترى لعبة سيارات كهربائية ، كلكم تعرفونها ، وهؤلاء الصغار يتطاحنون ، ويضرب بعضهم بعضاً ، الذي بيده قطع التيار الكهربائي ، إذا فعل هكذا ، فكلّ السيارات تقف ، وكذا - ولله المثل الأعلى - في لحظة ينهي الله عز وجل كل شيء ، فيكون مصير هؤلاء العتاة ..

(إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29))

(سورة يس)

صيحة واحدة فينتهون ، إعصار واحد دمر ما مقداره ثلاثين مليارًا ، إعصار واحد بشرق أمريكا بنيوجيرسي كلفة دماره ثلاثون مليار دولار ، إعصار من عند الله مباشرة ، فالله عز وجل عنده وسائل لا تعد ولا تحصى ، أحياناً يلقي الرعب في قلب الكافر من الداخل ، أحيانا خطأ بسيط يدمِّر ما صنعه .

قصص قرآنية تبعث الأمل :

1 - موسى مع فرعون :

سيدنا موسى مع بني إسرائيل كانوا قلة قليلةً مستضعفة ، شرذمة قليلين ، وفرعون وما أدراك ما فرعون ؛ بقوته ، وطغيانه ، وجبروته وراءهم ، والبحر أمامهم ، بالحسابات الأرضية لا أمل أبداً ، مقتولون جميعاً ، و ..

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ(62))

(سورة الشعراء)

2 - يونس في بطن الحوت :

وهذه قصة سيدنا يونس لا لأخذ العلم ، بل من أجل أن تؤمن بها ، سيدنا يونس كان في بطن الحوت ، ما من مصيبةٍ على الإطلاق أشد من أن تجد نفسك فجأة في بطن حوت ، في ظلام بطن الحوت ، وفي ظلام الليل ، وفي ظلام أعماق البحر ، نبيٌ كريم يجد نفسه فجأة في بطن حوت في ظلماتٍ ثلاث ..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

في أي مكان ، وفي أي زمان ، وفي أي ظرف ..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

قصة من الواقع :

والله هناك قصة سمعتها قبل أن آتي إليكم ، يقشعر لها البدن : سائق تاكسي ، استوقفه شخص فقير ، وشبه عاجز ، قال له : إلى أين ؟ قال له : إلى أقصى جادة في الجبل ، وما معي درهم أعطيك إيَّاه ، قال له : حاضر ، أوصله إلى آخر جادة ، فلما نزل من مركبته ، أقبل عليه أولاده ، وسألوه : أجئتنا بالخبز يا أبت ؟ قال : والله ما جئت بالخبز ، استحييت من السائق أن أوقفه ، فالسائق أراد أن يكمل معروفه ، فنزل إلى جادة في الأسفل ، واشترى خمس ربطات وذهب إليه ، أعطاه الخبز ، يقسم بالله من شدة جوع أولاده التهموا نصف الخبز في دقائق ، من جوعهم ، ونزل ، استوقفه سائحان قالا له : خذنا إلى المطار ، فأخذهما إلى المطار ، ونقداه ألفين وخمسمئة ليرة ، والتسعيرة خمسمئة ليرة ، وهو في المطار جاءه سائحان آخران طلبا أن يوصلهما إلى فندق في دمشق ، أعطوه مئتي دولار ـ عشر آلاف ـ فرجع إلى هذا البيت ، واشترى لهم ما لذ وطاب من الفواكه ، والحلويات ، واللحوم ، مع مبلغ من المال ، قال له : كل هذا الرزق بسببك ، لأنني خدمتك .

لكن الناس تصحَّروا الآن ، لا يتحرك إلا بمال ، فكلما قل الخير تخلى الله عنا ، هذا تشجيع من الله ، أنت أوصلت عاجز إلى آخر جادة ، أردت أن ترحمه ، بعد ذلك أمَّنت له خبزًا ، هذا وقت، ومال ، وبنزين ، الله عز وجل أراد أن يكافئك مباشرةً ، أكثر من اثنتي عشر ألف ليرة في يوم واحد مقابل هذه الخدمة ..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

آيات الله :

الآن ، قال الله عز وجل :

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الروم : من الآية 22)

الآية العلامة الدالة على شيء ، فمن علامات خلق الله عز وجل ؟

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الروم : من الآية 22)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت : من الآية 37)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

(سورة الروم : من الآية 21)

وأضيف إلى هذه الآيات آية فريدة من نوعها ، قال تعالى :

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا)

الآن دقق كيف أن الشمس آية ، والقمر آية ، والليل آية ، والنهار آية ، ونحن المسلمين في أمسِّ الحاجة لهذه الآية ..

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ

1 ـ القرآن قوة في البلاغة :

في البلاغة لون رائع مطبَّق في هذه الآية ، فهو يذكر شيئاً ، ويحذف ما دل عليه في الثاني ، ويذكر شيئاً في الثاني ، ويحذف ما دل عليه في الأول ، فيقولون : البلاغة في الإيجاز ، فأصل الآية : قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وفئة كافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، أواضح ذلك؟ فقال :

(فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

لما قال :

(وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

معنى ذلك أن الأولى مؤمنة ، فالبلاغة في الإيجاز ، والثانية قال :

(كَافِرَةٌ)

ما قال : تقاتل في سبيل مَن ، ما دام الأولى في سبيل الله ، إذاً الثانية في سبيل الشيطان ، البلاغة في الإيجاز .

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

2 ـ بمقاييس الأرض النصر مستحيل في هذه المعركة :

بمقاييس الأرض النصر مستحيل ، بمقاييس العَدَد ، والعُدَد ، والتدريب ، والأسلحة ، والمدى المُجْدي ، والأقمار ، والإعلام ، والتوجيه المعنوي ، المعركة خاسرة بمقاييس الأرض المعركة ، لماذا كانت هذه آية ؟ لأن هذه الفئة القليلة ، الضعيفة ، المستضعفة غلبت فئةً كثيرةً قويةً عاتيةً

متمردة ، آية من آيات الله ، فبحسب قوانين الأرض لا يعقل لدراجة أن تسبق مركبة ، ولا يعقل لطفلٍ أن يقاوم جماعةً ، لكن إذا كان الله معك فمَن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ؟!

هناك مَثَل واقعي من حياتنا اليومية ، هذه الدولة الصغيرة بمليوني شخص ، لماذا تتحدى كل الشرق الأوسط ؟ لأن معها أكبر دولة ، تتحدى مَن حولها لا بقوتها الذاتية ، بل بدعم أكبر قوة في العالم ، إذاً أنت قوي بالله ، لو استعنت بالله أعانك ، وإذا استنصرت به نصرك .

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ)

النصر الاستحقاقي ، والنصر التفضّلي ، والنصرٌ التكويني :

لذلك قال العلماء : هناك نصرٌ استحقاقي ، ونصر تفَضُّلي ، ونصرٌ تكويني ...

الاستحقاقي :

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : من الآية 249)

كما انتصر المسلمون في بدر ، قلة قليلة ، ألف مقاتل على ثلاثمئة راحلة ، بلا عُدَد ، ولا خيول مسوَّمة ، ولاهم يحزنون ، واجهت أكبر قوة في قريش وانتصرت.

وأما النصر التفَضُّلي فربما لا تكون على الحق مئة بالمئة ، ولكن حكمة الله اقتضت أن تنتصر ، كما انتصر الروم على الفرس ، قال تعالى :

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3)فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

(سورة الروم)

أما النصر التكويني فكلا الطرفين لا إيمان له بالله ، ينتصر الأقوى ، فالهليكوبتر مدى مدفعها سبعة كيلو مترات ، وطائرة واحدة تدمر مئة دبابة ، لأن سلاحها يصل إلى المدرعة ، والمدرعة سلاحها لا يصل إلى الطائرة ، انتهت العملية ، فالقضية تكنولوجيا ، قضية حرب بين عقلين ؛ العقل الأرجح والأذكى والأقوى ينتصر ، ففي النصر الاستحقاقي يكون الله مع المؤمنين ، وفي النصر الثاني حكمة الله اقتضت أن ينتصر الأول ، على شيءٍ من الحق ، أما الثالث ؛ النصر التكويني فالنصر للأقوى ، لذلك قالوا : الحرب بين حقين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدد ، وبين حق وباطل لا تطول ، لأن الله مع الحق ، وبين باطلين لا تنتهي ؟

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الْأَبْصَارِ)

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الْأَبْصَارِ

إذاً : هذه الآية تملأ نفوس المؤمنين ثقةً ، أن الله يتدخل ، من هنا أمرنا أن نعد لهم ما استطعنا ، قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال : من الآية 60)

آيتان تحددان عوامل النصر :

هناك آيتان في القرآن الكريم كافيتان لتحديد عوامل النصر ، قال تعالى :

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(47))

(سورة الروم)

والآية الثانية :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال : من الآية 60)

وأروع ما في الآية الثانية أن الله ما كلّفنا أن نعد العُدَّة المكافئة ، لا ، لا ، فقد كلفنا أن نعد القوة المتاحة لنا فقط ، لو أننا عرفنا ربنا ، وعرفنا معاني كتابنا ، واصطلحنا مع الله ، والله الذي لا إله إلا هو فهذه العجرفة ، والغطرسة ، والإجرام من أعدائنا اليهود - قاتلهم الله - لا تكون ، فنحن ابتعدنا عن ديننا ، وابتعدنا عن شرعنا ، ولم نقرأ كتابنا ..

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال : من الآية 60)

غيِّر ما في نفسك يغير الله واقعك :

لو أننا آمنا بالله ورسوله الإيمان الذي يليق بنا ، وأعددنا القوة المتاحة ، واستعنا بالله ، لانتصرنا على أعدائنا ، فلا سبيل إلا أن نعود إلى الله ، ولا سبيل إلا أن نصطلح مع الله ، ولا سبيل إلا أن نُغَيِّر ، ولكن الذي يدهش أن المسلمين في آخر الزمان ليسوا مستعدين أبداً أن يغيروا ، ولكنهم ينتظرون من الله أن يغيِّر ، وهذا مستحيل ، هم ليسوا مستعدين أن يغيروا ؛ لا من دخلهم ، ولا من إنفاقهم ، ولا من استمتاعهم بالحياة ، ولا، ولا ، ولا ، ولكنهم ينتظرون من الله أن يغير قوانينه ، وهذا مستحيل ، فالناس امتنعوا في بعض البلاد عن شراء بعض البضائع التي تنتمي لبلاد تعادي المسلمين ، ترك هذا أثراً كبيراً ، أطمئنكم ترك هذا أثراً كبيراً ، حتى إن بعض المؤسسات الغذائية الضخمة التي لها فروع في كل أنحاء العالم ، خصصت لكل شطيرةٍ تباع مبلغاً لأبناء الأرض المحتلة ، شركة من بلد تعادي المسلمين ، حرصاً على مصلحتها ، فقد توقفت المبيعات ، هذا متاح

لكل مسلم ؛ أن يمتنع من شراء بضاعة تنتمي لدولة معادية فقط ، لست مسؤولاً ، وليس ثمة مشكلة ، ولا أحد يحاسبك ، فقط أريد بضاعة من بلاد أخرى .

أنا قرأت في موقع معلوماتي كيف أن هذه الشركة الضخمة التي لها مبيعات فلكية في دول الخليج هبطت مبيعاتها إلى رقم لا يذكر ، فاضطرت أن تعلن أن كل شطيرةٍ تباع كذا (سنت) إلى أبناء فلسطين ، تشجيعاً للناس على أن يعودوا لشراء هذه الشطائر ، المسلم يملك كل شيء ، لكنها تحتاج إلى إيمان ، وشيء يحتاج إلى وعي ، وشيء يحتاج إلى أن تؤثر الآخرة على الدنيا .

على كلٍ ..

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ)

معنى ذلك أن انتصار الضعفاء من آيات الله الدالة على عظمته ، والضعيف عنده أسباب القوة ، وقد تَكْمُن القوة في الضعف ، فنحن ولو افتقرنا إلى بعض مقومّات القوة إيماننا يهبنا قوة .

أيها الإخوة الأكارم ... الآية الثانية مهمة جداً ، وهي أصل في تركيب النفس ، وهي قوله تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

لأهمية هذه الآية سأرجئها إلى الدرس القادم .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(06-60): تفسير الآية 14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-12-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة عشرة ، وهي قوله تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

1 - زُيِّنَ لِلنَّاسِ

زُيِّنَ للناس ، الناس في القرآن تعني عامة البشر ، وإذا أراد الله أن يخاطب الناس عامة خاطبهم بأصول الدين ، أما إذا خاطب بفروع الدين فيخاطب بها المؤمنين ، لأن تطبيق فروع الدين يحتاج إلى الإيمان بأصول الدين ، فيخاطب الناس عامةً بأصول الدين ، ويخاطب المؤمنين خاصة بفروع الدين ، وإذا كان الشيء قاسمً مشتركًا بين جميع الخلق تأتي كلمة الناس ..

(زُيِّنَ)

فما من إنسانٍ على وجه الأرض إلا وقد أودِعَت فيه هذه الشهوات .

2 - مَن هو المُزَيِّن ؟

سؤال : من هو المزين ؟ قال بعض العلماء : إنه الله ، بدليل قوله تعالى :

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا)

(سورة الكهف : من الآية 7)

وبعضهم قال : المُزَيِّن هو الشيطان ، لأن الشيطان يزين للإنسان سوء عمله ، وبعض العلماء قال : هذه الشهوات التي أودعها الله فينا ، والتي هي في أصل جبلّتنا من تزيين الله لنا ، أما حينما يُزيِّن لنا أن نعصي الله بها فهذا من الشيطان .

الشهوات حيادية :

الآن ننتقل إلى موضوع آخر ، إذاً : الشهوات حيادية ؛ يمكن أن توظَّف في الخير أو في الشر ، في الطاعة أو في المعصية ، يمكن أن تكون سلَّماً نرقى به ، أو دركاتٍ نهوي بها ، يمكن أن تتزوج ، وقد لبَّيت نداء هذه الشهوة ، وأن تنجب أولاداً ، وأن تربي هؤلاء الأولاد ، وأن يكونوا أعلاماً في المجتمع ، وأن ترقى في الجنة بهم ، فكل هذا الخير جاءك من الزواج ، وأصل الزواج شهوةٌ نحو المرأة .

يمكن أن تكسب المال ، وأصل كسب المال شهوةٌ للمال ، لكنك كسبته من طريقٍ مشروع ، وأنفقته في وجهٍ مشروع ، فارتقيت به إلى أعلى عليين .

إذاً : أصل الجبلَّة ، أصل التزيين من الله عزَّ وجل ، لكن الله زيَّن ورسم منهجًا ، قال لك : أودعت فيك حب المرأة ، فتزوج ، الكافر أودع فيه حب المرأة ، فزنى ، المؤمن أودع فيه حب المال ، فكسبه من طريقٍ مشروع ، غير المؤمن أودع فيه حب المال ، فسرقه ، إذاً أصل التزيين من قِبَل الله عزَّ وجل .

هذا ينقلنا إلى أنه لولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات ، لولا أنك تشتهي لا ترتقي إلى الله ، لأنك تشتهي ترتقي إلى الله مرتين ، مرةً بامتناعك عن شهوةٍ حرام ، ومرةً بممارسة شهوةٍ حلال ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ ، قَالَ : أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا))

[مسلم ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد]

فالشهوة إذا مورست بالطريق المشروع ترتقي بها .

التناقض بين الطبع والتكليف ثمن الجنة :

التناقض بين الطبع والتكليف ثمن الجنة ، ركّب في طبعك حب المرأة ، فغضضت البصر عن امرأةٍ لا تحل لك ، ترتقي ، لولا أنك تحب هذه المرأة ، وأن تنظر إليها ، لما ارتقيت بغض البصر عليها ، لولا أنك تشتهي المال لا ترتقي بترك المال الحرام ، وقد تركل بقدمك مئات الألوف فيها

شبهة ، إذاً لولا هذه الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات ، إنها سُلَّمٌ إلى الله ، هي في الوقت نفسه دركاتٌ إلى النار ، إن انطلقت بدافعٍ منها ، فمارستها بطريقٍ غير صحيح ، كانت دركات إلى النار .

إذاً : هي كما أقول دائماً : كالوقود السائل في السيارة ؛ إذا أودع في المستودعات المحكمة ، وسال في الأنابيب المحكمة ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ولَّد حركةً نافعة ، فإن خرج عن مساره دمَّر المركبة ومَن فيها ، الوقود السائل خطر فيه قوة انفجار ، فإما أن توظِّف هذا الانفجار في تحريك هذه المركبة ، فتنتفع بحركتها ، وإما أن توظِّف هذا الانفجار في تدمير هذه المركبة ، وهكذا الإنسان ؛ إما أنه مدمَّر بالشهوات ، أو أنه ينتفع بها إلى أقصى درجة .

فحب المال دفع رجلاً من بلد عربي مقيمًا في أمريكا إلى المقامرة ، يملك مليوني دولار ، خسرها في جلسةٍ واحدة ، فذهب إلى بيته ، وأطلق النار على زوجته ، وخنق أولاده الثلاثة ، ثم انتحر ، هذه شهوة، ما الذي دفعه إلى القمار ؟ حب المال ، معه مليونان من الدولارات ، إذاً : الشهوات ليس لها حل وسط ، إن وظَّفتها في الحق ارتقيت بها ، وإن مارستها بلا منهج كانت دماراً عليك ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ)

(سورة القصص : من الآية 50)

المعنى المخالف : أنه من اتبع هواه وفق هدى الله عزَّ وجل فلا شيء عليه ..

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ)

كيف ترقى إلى الله ؟

كيف ترقى إلى الله ؟ لا تحب المرأة ، ولا المال ، ولا العلو ، ولا الجاه ، ولا شيء ، فكيف ترقى ، امسك الآن قبضةً من رمل ، وأعطها فقيرًا ، هل ترقى ؟ ما لها قيمة عندك ، أما إن أعطيته ألف ليرة ، وأنت في أمسِّ الحاجة إليها ، وهذه الألف ليرة تحل مشكلات كثيرة معك ، فأنفقتها في سبيل الله حينئذ ترقى ، وإن رأيت مثلاً شابةً صغيرة ، وغضضت البصر عنها ، هل ترقى إلى الله ؟ لأنها غير محببة لك ، أما حينما تغض بصرك عن امرأةٍ جميلة لا تحل لك ترقى إلى الله ، لولا أنك تحب المرأة ، وتحب المال ، وتحب العلو في الأرض لما ارتقيت بطاعة الله ، إذاً : هذا التناقض بين التكليف وبين الشهوات هو ثمن الجنة ..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6))

(سورة الليل)

اتقى أن يعصي الله ..

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(41))

(سورة النازعات)

أنت في الطريق متاحٌ لك أن تعبد الله آلاف المرات دون أن تشعر ، كلما وقعت عينك على امرأة لا تحل لك ، فغضضت عنها البصر ، ارتقيت ، الله أعطاك أدوات الاتصال به ، لو فرضنا أن الأمور كلها بيد شخص ، يملك كل الأمور ، وما سمح لك أن تصل إليه ، لا تنتفع به ، الله عزَّ وجل عنده كل الخير ، لكن جعل لك وسائل ترقى إليه ، أودع فيك الشهوات كي تضبطها وفق منهج الله فترقى إلى الله، فهذه المرأة مثلاً ، طبعاً أهون عليها ألف مرة أن ترتدي ثياباً خفيفة في الصيف ، ثياب شفافة خفيفة مريحة تظهر مفاتنها ، هي ترتدي ثيابًا فضفاضة ، وسميكة ، وتستر وجهها ، وتستر خطوط جسمها ، من أجل أن ترضي ربها ، إذاً : هي عاكست رغبتها في التخفيف ، والإنسان يحب التخفيف من الثياب في الصيف ، إذاً : هي تمارس عبادة اسمها الحجاب ، تسهم هذه العبادة في إعفاف الشباب ، والمرأة المؤمنة حينما تتحجب فهي تعبد الله ، بل إن كل مساحة من ثيابها تتعلّق بدينها ، كل مساحة ؛ سماكة الثوب ، حجم الثوب ، اتساع الثوب ، لون الثوب ، كل شيء بهذه الكلمات عبادة لله عزَّ وجل . فحينما تريد أن تصل إلى الله فقد رسم لك آلاف الطرق ؛ غض البصر وحده طريقٌ إلى الله سالك ، حجاب المرأة وحده طريقٌ إلى الله سالك ، امتناعك عن المال الحرام طريقٌ إلى الله سالك ، أخذك المال الحلال القليل ، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعل الله كسب المال الحرام سهلاً ، وجعل كسب المال الحلال صعباً ، لو أن المسألة كانت معكوسة لا نرقى إلى الله ، فلو كان الحرام صعبًا جداً ، والحلال سهلاً لعزف الناس عن الحرام ؛ لا خوفاً من الله ، ولكن لأن ذلك أكثر اطمئنانًا ، وطلباً للراحة ، ولأقبلوا على الحلال ، فتعمل المرأة طوال اليوم بأربعمئة ليرة ، تأتي امرأةٌ بغي تأخذها في دقائق ، عمل ثماني ساعات بأربعمئة ، تأخذها بغيٌ في دقائق ، فلحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعل الله المال الحلال صعب الكسب . ضع مالك في مصرف ربوي ، وأنت مرتاح ، إذا كان المبلغ كبيرًا فدخله وحده يكفيك طوال حياتك دون عمل ، لكنه حرام ، فلابد أن تفتح متجرًا ، وأن تشتري بضاعة ، وأن تبيع ، وأن تديّن ، وأن تجمع الديون ، وهذه أعمال صعبة ، فلأن المال الحرام سهلٌ كسبه ، ومحببٌ للنفس كسبه ، وأهون على النفس كسبه ، ولأن المال الحلال صعبٌ كسبه ، يأتي المؤمن فيختار الأصعب ، فيرقى إلى الله :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : من الآية 92)

حينما تمتنع عن دخلٍ حرامٍ سهلٍ ، وتعمل عملاً شاقاً من أجل كسب مالٍ حلال ، ترقى إلى الله ، إذاً حينما تفهم أن هذه الشهوات لولاها لما كانت جنة ، وليس هناك شيء اسمه جنة لولا هذه الشهوات ، هذا الإنسان رُكّب من شهوةٍ وعقل ، فإن غلبت شهوته عقله أصبح دون الحيوان ، وإن غلب عقله شهوته أصبح فوق الملائكة ، إذاً لا تقل كما يقول بعض الشعراء الجهلة :

يا رب خلقت الجمال فتنة وقلت : يا عبادي اتقون !

* * *

طبعاً خلقه فتنة كي تنجح في هذه الفتنة ، لا كي ترسب ، وما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تَدَع شيئاً لله ثم لا تعوَّض خيراً منه ، عوَّضه الله خيراً منه في دينه ، بقي الطريق إلى الله سالكاً ، وجاءته الدنيا وهي راغمة ، ثم إن هناك حقيقة ، وهي أنه ما كان الله ليعذب قلباً بشهوةٍ تركها صاحبها في سبيل الله ، لا يعذبك بها ، ينزعها من نفسك إكراماً لك ، فإذاً أصل التزيين من الله .

لأحد الأئمة رأيٌ رائع : إن أقبلت على هذه الشهوات من طريقها المشروع أحببتها لذاتها ، دون أن تخرج عن منهج الله ، ولا شيء عليك ، أما طبيعة النفس فتحب الطعام الطيّب ، والمسكن الواسع ، والمرأة الجميلة ، فأنت أحببت هذه وفق منهج الله ، لم تَحِد عن منهج الله ولا خطوة ، وهي مباحة ، ولا شيء عليك ، لكن لا أجر فيها ولا وزر ، أما حينما تستعين بها على طاعة الله ، وحينما تكسب المال من أجل أن تنفقه في سبيل الله ، وحينما تتزوج من أجل أن تنجب أولاداً صالحين يكونوا دعاةً إلى الله من بعدك ، وحينما تسعى إلى مرتبةٍ علمية كي تدل الناس على الله ، أصبحت هذه الشهوات عبادةً من العبادات وأجراً .

لذلك قالوا : عادات المؤمن عبادات ، وعبادات المنافق سيئات ، حينما تأكل وتسمِّي الله على الأكل ، تسمي الله على طعامك ، وحينما تقارب أهلك ، وهو شهوةٌ محضة ، وحينما تنجب أولاداً ، والأولاد من مُتَع الحياة الدنيا ، أما إن أردت من الزوجة أن تأخذ بيدها إلى الله ، وبالابن أن يكون ولداً صالحاً يدعو لك من بعدك ، وبالمال أن تنفقه في سبيل الله ، ارتيقت لا إلى المباح ، بل إلى الثواب والأجر ، فلك أجر ، **" وأن تضع اللقمة في فم زوجتك هي لك صدقة "** ، وكما قلت قبل قليل : وحينما تقترب من أهلك لك فيها أجر كما قال عليه الصلاة والسلام :

((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ))

[مسلم ، أحمد]

إذاً : الله هو المزَيِّن ، أما الشيطان فيزين لك الزنا ، وأكل لحم الخنزير ، وشرب الخمر ، والعلو في الأرض ، فالشهوات بطريقٍ غير مشروع من تزيين الشيطان ، ومن طريقٍ مشروع من تزيين الرحمن.

حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات :

الشيء الدقيق في هذا الدرس وهو محوره أن الجنة حفت بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ، وما من إنسان وصل لمرتبة في الدنيا عالية إلا بعد جهدٍ جهيد ، ومعاناةٍ كبيرة ، وما من إنسان آثر الراحة والاسترخاء ووصل إلى شيء ، هكذا قواعد الحياة ، وفي الحديث :

((... إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلَاثًا ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ...))

[أحمد عن ابن عباس]

يكفي أن تسترخي ، وأن تملأ عينيك من أية امرأة ، وأن تتكلم بأي كلام ، وأن تأخذ أي مال ؛ حلال ، حرام ، أن تبحث عن المال من أي مصدر ، وأن تملأ عينيك بالحرام من أية امرأة ، وأن تأكل ما تشتهي من دون ضبط ، هذه سهلٌ بسهوةٍ ، أما المؤمن فيتحرى ، هل هذا حرام أم حلال ؟ هل يحق لي أن أنظر أو لا أنظر ؟

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ)

3 - مِنْ النِّسَاء

لقد جعل الله في مقدمة هذه الشهوات المرأة ، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ))

[متفق عليه]

فالمرأة أحياناً تذل الكبير ، بل رجال عظام يسقطون بامرأة ، وليس بعيداً عنكم أن منصباً عالياً جداً في عالم الغرب مُرِّعَ في الوحل بسبب امرأة ، ونشرت فضائح هذا اللقاء ، وسقطات هذا اللقاء على الإنترنت في ألفين وثمانمئة صفحة ، ما الذي أذله ؟ امرأة ، أما المؤمن فمحصَّن من امرأةٍ لا تحل له ، ومن مالٍ حرامٍ لا يحل له ، ما دمت قد حصَّنت نفسك من المرأة الحرام والمال الحرام فأنت في حصنٍ حصين ، ولن يستطيع أحدٌ أن يصل إليك .

ولا يخفى عنكم أن الله عزَّ وجل ذكر الأقارب في آياتٍ عديدة بتسلسل عجيب ، قال :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 24)

جاء الأب في مقدمة الأقارب ، لأن الآية موطن اعتزاز اجتماعي ، فلان أبي ، أنا ابن فلان ، أما في موطن الشهوة ..

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

المرأة أولاً .

أما في موطن الفدية ..

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(11))

(سورة المعارج)

الابن غالٍ جداً .

أما في موطن المساعدة ..

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(34))

(سورة عبس)

الأخ ، وذلك لأن الأب كبير في السن والابن صغير ، أما الذي يمكن أن يساعدك هو أخوك ، ففي موضع المساعدة الأخ ، الفدية الابن ، الشهوة المرأة ، الاعتزاز الأب .

فتنة النساء نوعان :

العلماء قالوا : فتنة النساء فتنتان ، الفتنة الأولى : قد تستهوي الزوجة ـ امرأته ـ فيقطع رحمه إرضاءً لها ، وقد يستهوي الزوجَ ، فيكسب المال الحرام من أجلها ، وهاتان فتنتا النساء ضمن الزواج ، ضمن الشيء المشروع ، من أجل أن ترضي زوجتك قد تقطع رحمك كله إرضاءً لها ، ومن أجل أن ترضي زوجتك قد تكسب المال الحرام .

حدثني أخٌ قال لي : أرادت زوجتي أن تذهب إلى بيت أهلها في مصيفٍ رائع في أيام العيد ، أبوها له زوجتان ؛ زوجةٌ شابة يحبها ، وزوجةٌ قديمة لا يعبأ بها ، هي من القديمة ، دخلت على بيت أبيها ، انزعج من مجيئها ، لأن أخواتها من زوجته الجديدة هناك ، وزوجته الجديدة انزعجت ، وتبرَّمت ، فأعطاها مبلغاً ، وصرفها ، أما بناته من الثانية فلهم الطعام الطيّب ، ولهم الترحيب ، ولهم المبالغ المُضاعفة ، تقول هذه الفتاة : لن أسامحه حتى الموت ، ما الذي حمل هذا الأب على أن يُهين ابنته ؟ إرضاءً لزوجته .

فالذي يتزوج أحياناً يغضب الله إرضاءً لزوجته ، إما يكسب المال الحرام من أجل أن ترضى ، وإما أنه يقطع رحمه من أجلها ، وهو ضمن الزواج ، لذلك فتنة النساء فتنتان : فتنة قطع الأرحام ، وفتنة كسب المال الحرام ، أما الصحابي الجليل لما طلب منه شيءٌ من متاع الدنيا قال لزوجته : **" أيتها المرأة إن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك " .**

وهذا الذي يقول في العيد : الله أكبر ، حينما يرضي زوجته ويعصي ربه ، ما قالها ولا مرة ، ولو نطق بها ألف مرة ، الله أكبر ، أكبر من كل شيء .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه]

امرأة سيدنا عمر ـ هكذا ورد في السيرة ـ أنها تدخَّلت في شأنٍ من شؤونه ، توسَّطت بواحدٍ من رعيَّته، فقال لها : ما شأنكِ أنت بهذا ؟ كل إنسان له حدود وله مقام ، فأن تسيِّر المرأة زوجها فهذه مشكلة كبيرة جداً ، لذلك العلماء قالوا : فتنة النساء فتنتان ؛ قطع الرحم ، وأكل المال الحرام ، أما الأولاد فتنتهم واحدة ..

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

4 ـ وَالْبَنِينَ

عَنْ يَعْلَى العَامِرِيِّ أَنَّهُ قَالَ :

((جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ ، وَقَالَ : إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ))

[ابن ماجه ، أحمد]

الإنسان بعد أن ينجب يصبح أقرب إلى الاستسلام ، إلى المسالمة ، لا يقف مواقف جريئة ، عندي أولاد ، وحينما يبخل يقول لك : عندي أولاد ، وحينما يحزن ، ابنه معه التهاب سحايا ، لا ينام الليل ، قال عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ))

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة المنافقون : من الآية 9)

أحياناً ينساق الإنسان مع هوى نفسه ، يريد ابنه أن يكون شخصاً عَلَمَاً في الأرض فقط ، أما دينه فلا له قيمة ، يحمل شهادة عُليا ، طبيب ، بمنصب رفيع يفتخر به ، الأب المؤمن لا يفخر إلا بابنٍ صالح ، أو ولدٍ صالح ينفع الناس من بعده .

أيها الإخوة :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

5 ـ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

كلّ شيء إلى زوالٍ :

هذا حب المال ، ولحكمةٍ أرادها الله مالُكَ ليس لك ، والذهب من الذهاب ، والفضة من الانفضاض ، كل شيءٍ يزول ، والإنسان حينما يموت لا يستطيع أن يأخذ شيئاً .

بلغني أن رجلاً في بلدٍ عربي له تجارة واسعة جداً ، في الصيف ذهب إلى بلد جميل في الشمال ، في تركيا ، وفي الفندق جاءته أزمةٌ قلبية فأودت به ، هو في الخامسة والخمسين من عمره ، ترك أربعة آلاف مليون ، وما صلَّى فرض صلاة ، ولا حج ، ولا اعتمر ، فالمال تجمعه مجزَّءًا ، وتدعه مكدَّساً ، تعيش فقيراً لتموت غنياً ، وأندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنة ، ودخل هو بماله النار ، ليس لك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدَّقت فأبقيت ، الذي لك اثنان مستهلكان ؛ جزء مما لك تصدَّقت به ، وأما الرصيد الذي لم تأكله ، ولم تلبسه ، ولم تتصدق به ، في الأصل ليس لك ، ولكنك محاسب عليه ، إذاً : الرزق ما انتفعت به ، والكسب ما سئلت عنه ولم تنتفع به ، لذلك يقول الإنسان وروحه ترفرف فوق النعش : **" يا أهلي يا ولدي ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حل وحرم ، فأنفقته في حله ، وفي غير حله ، فالهناء لكم والتبعة علي" .**

وقد رد في بعض الآثار أن : **" الناس يحشرون يوم القيامة أربع فرق ، فريقٌ جمع المال من حرام وأنفقه في حرام ـ هذا حسابه سريعٌ جداً بثانية ـ خذوه إلى النار ، وفريقٌ جمع المال من حرام ـ عنده ملهى ـ وأنفقه في حلال ـ تزوج ، واشترى بيتًا ، ومركبة ـ فيقال : خذوه إلى النار ـ لأن في جمعه حرامًا ـ وفريقٌ جمع المال من حلال ـ تجارة مشروعة ـ وأنفقه في حرام ـ في ليالٍ حمراء ـ فيقال : خذوه إلى النار ـ بقي واحد ـ الذي جمع مالاً من حلال ، وأنفقه في حلال ، هذا قفوه فاسألوه "** ، هل تاه بماله على عباد الله ؟ هل شغله ماله عن فرضٍ أو عن واجب ؟ هل قال جيرانه : يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقنا ؟ ، والنبي عليه الصلاة والسلام فيما تروي الآثار أنه قال : **" فما زال يسأل ويسأل "** ، والحساب طويل فتركه ، ومشى .

المال قوةٌ للمؤمن :

لكنه في الوقت نفسه المال أكبر قوة للمؤمن ، به يرقى إلى الله ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

[متفق عليه]

يرتقي الغني المؤمن المحسن إلى مستوى أكبر عالِم بإنفاق المال ، فالعلم قوة ، والعلم قوة ، والمنصب الرفيع قوة ، به تحق الحق وتبطل الباطل ، وأبواب الخير مفتحةٌ أمام الأغنياء على مصاريعها ، كما أن المال فتنةٌ ، ووبالٌ ، وإثمٌ ، وحسابٌ ، وعذاب ، هو في الوقت نفسه حيادي ؛ إما أن يوظف في الحق أو في الباطل ، إما أنه سلم ترقى به أو دركات تهوي به .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ)

6 ـ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ

المركبة بحسب تسخيرها واستعمالها حسنا وسوءًا :

الآن المركب ، كل عصر له مراكب ، في عهد النبي الخيل أرقى شيء ، الآن يقول لك : سيارة شبح ، كل وقت له ترتيب ، هذه السيارات ، أو تلك الخيول ، فالجوهر واحد ، وسيلة نقل ، قال العلماء : هي لرجلٍ أجرٌ ، ولرجلٍ سترٌ ، ولرجلٍ وزرٌ ، عنده مركبة وأغوى فتاةً ، وأخذها إلى الجبل ، وأغلق النوافذ ، وتنحّى ناحيةً بعيدة ، هذه المركبة كلها وزرٌ عليه ، لأنها سبب الزنا ، أداة للزنا ، أما إذا ركبها، وأركب أهله معه ، وأولاده وبناته المحجبات كانت ستراً له ، أما إذا سخرها في طاعة الله ، ونقل بها المؤمنين فهي نعمة .

أحياناً أخ عنده سيارة ، لكن في أطراف المدينة لا يأتي وحده ، بل يأتي ومعه أربعة أشخاص ، سهَّل على الإخوان مجيئهم للدرس ، وأعرف أناسًا كثيرين لا يأتي إلا مع أربعة ، فأنت سخرتها في طاعة الله ، فالمركبة يمكن أن تكون أجراً ، ويمكن أن تكون ستراً ، ويمكن أن تكون وزراً ، إذاً هي كذلك حيادية ، تجد المؤمنين مركباتهم في خدمة الحق ، يوصل المؤمنين ، إذا وُجد شخص له زي علمي يحب أن يكرمه أمام الناس ، وأهله كذلك لهم حق .

إذاً :

(وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ)

الخيل المسومة أي رعت من مرعىً خصب ، صحتها جيدة ، لونها متألّق ..

(وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

7 ـ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ

النَعَم هو الإبل ، والأنعام الإبل ، والغنم ، والبقر وما إلى ذلك ، هذه ثروة حيوانية كبيرة جداً ..

(وَالْحَرْثِ)

وهي المزارع ، بستان جميل فيه نبع ماء ، فيه أشجار باسقة ، يقول لك : أنا عندي مزرعة وبيت ، فالمزرعة شيء جميل جداً ، فالمزارع ، والأنعام ، والمركبات ، والأموال الطائلة ، والنساء ، والبنون هذه الشهوات ، لكن ما أروع هذه الآية حينما يقول الله عزَّ وجل :

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

والمتاع شيءٌ لا أثر له في المستقبل أبداً ، مهما تنعَّمت فيأتي مَلَك الموت لينهي كل شيء ، الموت ينهي غنى الغنى ، وفقر الفقير ، هذا الميت أكل في ألف وليمة ، وكل وليمة فيها ما لذ وطاب ، أين أنت؟ ركب أجمل مركبة أين هي ؟ جاءه الموت فأنهى كل شيء ، كلمة متاع ، أي شيء آنيّ ، سريع الزوال ، حتى العلماء قالوا : اللذة أولاً حسية ، ولا تأتيك إلا من الخارج ، تحتاج إلى مال ، وهي متناقصة في تأثيرها ، وتزول ، وتنقطع ، وإذا كان فيها مخالفة تعقبها كآبة ، طابعها حسي ، وتأتيك من الخارج ، ومتناقصة ، ومنقطعة ، ووراءها كآبة ، أما السعادة فتنبع من الداخل ، ومتعاظمة ، وأبدية ، ومستمرَّة ..

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لكن الله ينصحنا ويقول :

(وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ

لو آمنت بالله ، واستقمت على أمره ، وعملت الصالحات ابتغاء مرضاته ، كل هذه الدنيا لا تعدل عندك جناح بعوضة ، النبي الكريم لا ينطق عن الهوى ذكر ذلك ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي وابن ماجه]

لو حطت على يد أحدِنا بعوضة فقتلها هل يشعر أنه مجرم ؟ أو قاتل ؟ أو ارتكب شيئًا ؟ لا شيء أهون على الناس من بعوضة ، يقول النبي الكريم :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

ما معنى الدنيا ؟ لو كنت مالك شركة (مرسيدس) كلها لك ، أو جنرال موتورز ، أو نيدو ، أو نسلة ، أو ميتسوبيشي ، هذه أسماء الشركات الضخمة التي عندها فائض نقدي يساوي ميزانيات عشر دول ، لو أنك تملك هذه الشركة ، هي عند الله جناح بعوضة ، لا قيمة لها إطلاقاً .

بالمناسبة ؛ لا يليق بالله ، وبكرمه أن يعطي عطاءً ينتهي عند الموت ، يليق بكرم الله أن يهبك الأبد ، أن يهبك الآخرة ، فالعطاء الحقيقي هو عطاء الآخرة ، أما عطاء الدنيا ..

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ)

(سورة القصص : من الآية 76)

الآن لو أن رجلا عنده صندوق حديد ، مفتاحه قدر الأصبع ، يوضع فيه عشرة ملايين ، إذا كان عنده مئة صندوق حديد ، أي مئة مفتاح ، تملهم أنت فقط ، فوزنهم كبير ، يقول لك :

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

سبعة رجالٍ أشداء لا يقوون على حمل مفاتح كنوزه ، ومع ذلك :

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ)

(سورة القصص : من الآية 81)

هذه شهوة ، فلا يليق بعطاء الله ، بعطاءٍ يتناسب مع كرم الله أن ينقطع عند الموت ، عطاء الله أبدي سرمدي ، أما الدنيا فتنقطع ، إذاً لا قيمة لها ، اللهم صل عليه آثر ما عند الله .

إذاً :

(وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

أي لو آمنتم ، واستقمتم ، واتقيتم ، وتقربتم بالأعمال الصالحة هذا أفضل من كل ما في الدنيا ، والأنبياء جاؤوا يدعوننا إلى الآخرة إلى ما عند الله .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(07-60): تفسير الآيات 15 - 18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-12-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السابع من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الخامسة عشرة ، وهي بعد أن قال الله عزَّ وجل :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

قال الله عزَّ وجل :

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ)

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ

1 ـ لا تساوي الدنيا شيئا أمام الآخرة :

لو أن الدنيا حازها الإنسان من كل أطرافها ؛ مالٌ وفير ، وامرأةٌ جميلة ، ومركبٌ رائع ، وبستانٌ جميل ، ومزرعةٌ فارهة ، لو أن الإنسان حاز الدنيا بحذافيرها ، ووضعها في كفة ، ثم وضع الآخرة في كفةٍ ثانية ، لا يمكن أن تقابل الدنيا مع الآخرة ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر)) .

[ورد في الأثر]

اذهب إلى البحر المتوسط ، واركب قارباً ، وأخرج إبرةً ، واغمسها في ماء البحر ، ثم انظر بم ترجع؟ هل نقص ماء البحر ؟ أثر الماء الذي علق على الإبرة كم يساوي بالنسبة إلى البحر ؟ هذا ما تساويه الدنيا بالنسبة للآخرة .

لو تصورنا أن إنساناً حاز الدنيا بحذافيرها ، كل شيء على أكمل وجه ، ووازنا هذا بالآخرة لم تكن بشيء ، لذلك : **" ما خيرٌ بعده النار بخير ، وما شرٌ بعده الجنة بشر " . و .. " كل نعيمٍ دون الجنة محقور ، وكل بلاءٍ دون النار عافية " .**

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ)

والحديث الذي تعرفونه جميعاً ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)) .

[الترمذي وابن ماجه]

جناح بعوضة ، وليس من مخلوقٍ أهون على البشر من بعوضة ، تقف على يدك فتقتلها ، هل تشعر بالذنب أنك قاتل مثلاً ؟ أو ارتكبت ذنبا ؟ لا ، وأنت في أعلى تألُّقك تقتل البعوضة ، ولا تشعر بشيء ، فكيف بجناحها ؟!

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)) .

[الترمذي وابن ماجه]

2 ـ الدنيا تنتهي بالموت :

المعنى أنه لا يليق بكرم الله أن يعطيك عطاءً محدوداً ينتهي بالموت ، والدنيا مهما كانت عريضة فإنها تنتهي بالموت ، لو أنك ملكت البلاد والعباد لمات الإنسان ، لو كنت أغنى إنسان تموت ، لو كنت أصح إنسان فالموت ينهي صحتك ، والموت ينهي كل شيء ، ينهي غنى الغنى ، وفقر الفقير، وقوة القوي ، وضعف الضعيف ، وصحة الصحيح ، ومرض المريض ، ووسامة الوسيم ، ودمامة الدميم ، فما دام هذا العطاء ينتهي بالموت فلا يليق بالله عزَّ وجل ، وليس عطاء ، من هنا أعطى الله عزَّ وجل الدنيا لمن لا يحب ؛ أعطاها لأعدائه ، ألم يعطِ قارون المال الوفير ؟

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص : من الآية 76)

ألم يعطِ فرعون المُلك ، وهو لا يحبه ؟ إذاً : إن الله يعطي الصحة ، والذكاء ، والمال ، والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين ..

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ)

3 ـ العاقل مَن عمل للآخرة :

خير من الدنيا ، مَن هم العقلاء ؟ الذين عملوا للآخرة ، مَن هم ضعاف العقول ؟ الذين اكتفوا بالدنيا ..

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ)

(سورة التوبة : من الآية 38)

أتعجبكم سنوات معدودة كلها مشكلات ؟ لا يوجد إنسان لم تصبه مشكلة ، أحياناً مرض ، أحياناً زوجة متعبة ، أحياناً ابن عاق ، أحياناً بنت لم يخطبها أحد ، وهذه مشكلة كبيرة ، أحياناً دخل قليل ، لو أن الأمور كلها جاءت كما يريد ، لكن مع التقدم في العمر تأتي متاعب في الصحة ، ضعف بصر ، انحناء ظهر ، ألم بالمفاصل ، خلل بالأجهزة ، فالحياة مفعمة بالمشكلات ، هكذا أرادها الله

عزَّ وجل .. **" أوحى ربك على الدنيا أن تشددي وتكدري وتضيقي على أوليائي حتى يحبوا لقائي " .**

طبيعة الدنيا متعبة ، ومهما راقت فلا تستقيم لإنسان ، وهذا الواقع أمامكم ، إن كان دخله كبيراً ، أولاده متعبون ، أولاده أتقياء ، دخله لا يكفيهم ، أولاده أتقياء ، ودخله جيد ، ولكن زوجته ليست طيبة ، زوجته جيدة ، وهو يعاني من مشكلة في عمله ، لا يعاني من مشكلة في عمله ، ويعاني من مشكلة في صحته ، كأن الدنيا دار التواء لا دار استواء ، منزل ترح لا منزل فرح ، والمهم أن الله عزَّ وجل يأمرنا أو ينصحنا أن نهتم بالآخرة ..

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ)

أنا حَبَّبت إليكم النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسَوَّمة ، والأنعام ، والحرث ..

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

4 ـ لذة الدنيا متناقصة منقطعة :

كلمة (متاع) يعني لذة عابرة ، أكل أحدهم طعامًا نفيسًا ، بعد دقائق انتهت الطعام ، وانتهى الأثر ، ما له أثر مستقبلي أبداً ، الدنيا كلها متاع ، أي لذة طارئة ، لذةٌ مؤقتة ، لذةٌ لا تستمر ، بل إن الحقيقة الصارخة أن شيئاً في الدنيا مهما عظم لا يمكن أن يقدم لك لذةً مستمرَّة ، إلا متناقصة ، كل شيء تقتنيه تعجب به أول الأمر ، وبعد حين تألفه ، وكأنك لم تقتنِه ، شاءت حكمة الله أن يجعل لذّات الدنيا متناقصة لا متعالية أبداً .

بين اللذة والسعادة :

إنه يمكن أن نفرق بين لذةٍ وسعادة ، اللذة حسية تأتيك من الخارج ؛ لذة مال ، طعام ، زوجة ، مسكن ، دفئ ، تبريد ، أجهزة ، لا تأتيك إلا من الخارج ، مركبة ، وهي ذات أثر حسي محض ، وليس أثر نفسي ، وهي متناقصة ، وقد تعقبها كآبة ، وقد تعقبها النار إلى أبد الآبدين ، هذه هي اللذة .

أما السعادة ؛ فأولاً تنبع من الداخل ، أنت ليس بحاجة ، " ماذا يفعل أعدائي بي بستاني في صدري ، إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة " ، تنبع من الداخل، لا تحتاج إلى مال ، هي معك دائماً ، بستانك في صدرك ..

(أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(28))

(سورة الرعد)

متعاظمة غير متدنية ، تعقبها جنةٌ إلى أبد الآبدين ، هذا فرقٌ كبير بين اللذة والسعادة ، اللذة طابعها حسي ، أما السعادة فطابعها نفسي ، فربنا عزَّ وجل زين ..

(حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

قال :

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الله عزَّ وجل في آية أخرى يقول :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ)

شددتم إليها ..

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

متاع الغرور ، الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر ..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : من الآية 61)

لذلك الأنبياء العظام سعادتهم بربِّهم ، أما التافهون فسعادتهم بالطعام والشراب ، والنساء ، والبيوت ، والنُزُهات ، وما إلى ذلك .

هذه الجنة ليست لكل الناس ، إن الله يعطي الدنيا لمَن يحب ولمَن لا يحب ، أما الجنة فمقيَّدة بالأتقياء ..

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(اتقى) يعني اتقى أن يعصيه ، اتقى أن يغضبه ، اتقى أن يسخطه ، طبَّق المنهج الإلهي ، انصاع لأمر الله ..

(لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ)

ليست جنة ، بل جنات ، لأنها كلها متنامية ومتنوعة ، حور عين ، ولدان مخلَّدون ، جنان تجري من تحتها الأنهار ، فيها لبن لم يتغيَّر طعمه ، وعسل مصفَّى ، فيها ماء نقي عذب كالزلال ، غير آسن ، في أنهار من خمر غير خمر الدنيا ..

(لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

(سورة محمد : من الآية 15)

هذا عطاؤه ، وفيها شيء آخر (وزيادة) نظرٌ إلى وجه الله الكريم ، وقد يغيب المؤمن خمسين ألف سنة من نشوة النظرة ، وهناك أكبر من النظر (رضوانٌ من الله أكبر) ، فهذه الجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها النظر إلى الله الكريم ، وفيها رضوانٌ من الله أكبر ..

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

لا يستطيع أن يدَّعي أحدٌ أن عمله يؤهله للجنة ، لكن الله عزَّ وجل بصير بعمل كل إنسان ، العمل الذي يؤهل للجنة لا يمكن أن يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وصواباً ما وافق السنة .

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

هؤلاء أهل الجنة ما صفاتهم ؟ قال :

(الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

صفات أهل الجنة :

1 - يدعون ربهم : يَقُولُونَ رَبَّنَا

أول شيء أنهم يدعون الله دائماً ، والدعاء هو العبادة ، في الحديث الصحيح عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ، ثُمَّ قَرَأَ : (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ))) .

[الترمذي وابن ماجه]

وإذا قال الله عزَّ وجل :

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(23))

(سورة المعارج)

دائماً يدعو الله ؛ إن دخل بيته يدعو ، وإن خرج يدعو ، وإن جلس إلى الطعام يدعو ، وإن انتهى من الطعام يدعو ، وإن دخل إلى الخلاء يدعو ، وإن خرج يدعو ، وإن واجه عدواً يدعو ، وإن خرج من البيت إلى عمله يدعو ، فدعاؤه مستمر ، وقد علَّمنا النبي عليه الصلاة والسلام من خلال أذكاره المأثورة كيف ندعو الله في كل أحوالنا .

(الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا)

2 - يؤمنون بالله وحده :

بك يا رب ، آمنا بك موجوداً ، آمنا بك واحداً ، آمنا بك كاملاً ، آمنا أنك الخالق ، آمنا أنك الرب، آمنا أنك المسيِّر ، آمنا بأسمائك الحسنى ، وصفاتك الفضلى ، آمنا بكل ما ذكرته لنا ..

(فَاغْفِرْ لَنَا)

3 - يستغفرون ربهم :

اغفر لنا ، طلب المغفرة ، المغفرة شيء دقيق جداً ، الله عزَّ وجل أمر النبي أن يستغفر لذنبه ، لكن ماذا فعل النبي ؟ وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)) .

[الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد]

وفي بعض أدعية النبي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا ، وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا)) .

[الترمذي]

فما من إنسان إلا ويأتيه خاطر يزعجه ، قد يقصر قليلاً ، فشأن العبد أن يخطئ ، وشأن الله أن يغفر ، لكنه يخطئ لا عن قصدٍ ، ولا في شيءٍ صارخ ، ولكن عن خطأ ، عن نسيانٍ ، عن تقصيرٍ ، عن غلبةٍ أحياناً ، فهذا الخطأ يغفر بالدعاء ..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10) يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12))

(سورة نوح)

إخواننا الكرام ، هي بشارة ، ما دمت مستقيماً على أمر الله فأنت في رعاية الله ، وأنت في حفظه ، وأنت في نصره ، وأنت في تأييده ، لكن لو زلَّت القدم ، لو أخطأت ، لو غلبتك نفسك في ساعة ضعف، ما دمت مستغفراً فأنت في بحبوحةٍ أخرى ، أنت في بحبوحتين ، أنت في أمنين ، أنت في مدتين ، بحبوحة الطاعة ، وبحبوحة الاستغفار ..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)) .

[البخاري]

وفي رواية الترمذي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)) .

ليس معنى هذا أنه يرتكب مئة ذنب ، مستحيل ، لكن قد يكون ذنب النبي من نوع فوق مستوى البشر جميعاً ، بعضهم قال : النبي يرى رؤيا ، يرى شيئاً من عظمة الله ، وفي رؤيا ثانية يرى الله أعظم مما كان يراه ، فيستحيي برؤيته السابقة ، أنت إنسان ، أمامك غني توقعت معه مليون ، وهو معه مئة مليون ، توقعك ، أو رؤيتك إلى حجمه المالي الذي هو أقلّ من واقعه بكثير ، تشعر أنك ما أعطيته حقه، فالله عزَّ وجل قال :

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

(سورة غافر : من الآية 55)

وقال النبي الكريم :

((إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)) .

فما دمت قد عودت نفسك أن تستغفر فأنت في بحبوحة ، وأيُّ عبدٍ لك لا ألمَّ ..

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)) .

(الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد)

أما هذا الذي يدعي العصمة ، وهو ليس نبياً ، هذا تجاوز للحدود ، وهذا خروجٌ عن عقيدة أهل السنة والجماعة ، فسيدنا يوسف ماذا قال ، وهو نبيٌّ كريم ؟ قال :

(وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ(33))

(سورة يوسف)

وفي حديث آخر عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)) .

[مسلم ، الترمذي ، أحمد]

الشعور بالذنب دليل على صحة القلب:

إياكم ، ثم إياكم ، ثم إياكم أن تفهموا هذا الحديث ، أن تسرع بالذنب ، هذا الحديث لا يمكن أن يكون هذا معناه ، لكن معناه لو لم تشعروا بذنوبكم فأنتم هالكون عند الله .

إنسان ارتكب خطأ ، ارتاب ، كذب ، سخر ، ابتسم ابتسامة ساخرة ، دون أن يشعر بشيء ؟ معنى هذا أنه ميت ، لو أنه مؤمن لتألم أشد الألم ، إحساسك بذنبك علامة حياة قلبك ، وعدم إحساسك بذنبك علامة موت قلبك ،

((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ـ أي لو لم تشعروا بذنوبكم ، معنى ذلك أنكم أمواتٌ غير أحياء ـ لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)) .

مثلاً : أنت في سهرة انسقت بالحديث ، وتكلمت في إنسان ، اغتبته وهو مسلم ، تأتي إلى البيت لا تنام الليل ، كيف اغتبته ؟ هذا مسلم ، هو أخطأ ، الغيبة : أن تذكر أخاك بما يكره ، ولو كان الذي ذكرته حقيقةً ، تتألم ، في اليوم الثاني تأخذ له هديةً وتستسمحه ، معنى هذا أن قلبك حي ، ما دمت شعرت بذنبك ، واستغفرت الله منه ، ما دمت قد آلمك ذنبك .

من هو المؤمن ؟ هو الذي تسره حسنته ، وتسوءه سيئته ، يفرح لحسنةٍ أصابها ، ويألم أشد الألم لذنبٍ ارتكبه ، فهؤلاء الذين يستحقون الجنَّات ، والنظر إلى وجه الله الكريم ، ويستحقون رضوان الله عزَّ وجل ، وهو أكبر ما في الجنة ، يقولون :

(الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

كلما علا مقامك عند الله تحاسب نفسك أشد الحساب :

للتوضيح فقط : وعاء له سطح ، أو له قعر مثقَّب ، لو كان قُطر الثقب فرضاً عشرة سنتيمترات ، تضع فيه برتقال فينزل ، أما البطيخ فلا ينزل ، لأن الثقب عشرة سنتيمترات ، لو كان قطره خمسة سنتيمترات ، تضع جوزًا ينزل ، أما البرتقال فلا ينزل ، فكل واحد له مستوى في الاستقامة ، الأنبياء يبدو أن القعر أصم مغلق ، أما كل واحد يمكن أن يتساهل بكلمة ، هذا يتساهل بنظرة ، هبط مستواه ، فكلما رفعت مستوى استقامتك كنت أقرب إلى الله عزَّ وجل ، وكلما علا مقامك عند الله تحاسب نفسك أشد الحساب ، سيدنا الصديق ماذا فعل مع إنسان اتهم ابنته بالزنا ـ السيدة عائشة ـ ؟ منع عنه المساعدات ، فعاتبه الله فقال :

(وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)

(سورة النور : من الآية 22)

عاتبه الله ، وبكى الصديق وقال : " بلى أحب أن يغفر الله لي " ماذا فعل ؟ منع مساعدةً عن إنسانٍ اتهم ابنته ظلماً بالزنا ، فكلما ارتقى مقامك عند الله تحاسب نفسك أدق الحساب ، وقد وصف الله عزَّ وجل المؤمنين فقال :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ(33)وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(34))

(سورة فصلت)

دقق : كلما ارتقى إيمانك حاسبت نفسك أشد الحساب ، حتى إنهم قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

سيدنا إبراهيم ماذا فعل ؟ قال لابنه :

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

(سورة الصافات : من الآية 102)

أُمر أن يذبح ابنه ، وقف الابن موقفًا لا يصدق ..

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ(102))

إن الله لم يكلف المؤمنين أن يذبحوا أبناءهم ، فعلى كلٍ ؛ قضية الاستقامة قضية دقيقة جداً ، هذه ترقى حينما ترقى ، وتسمو حينما تسمو ..

(وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

4 ـ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

هؤلاء الذين آمنوا ، والذين طلبوا المغفرة من الله عزَّ وجل ، وطلبوا الوقاية من النار ..

(الصَّابِرِينَ)

5 ـ الصَّابِرِينَ

شأنهم الصبر في الدنيا ، يصبرون على قضاء الله وقدره ، ويصبرون عن الشهوة ، ويصبرون على الطاعة ، يعني طاعة ، وشهوة ، وقضاء ..

(وَالْقَانِتِينَ)

6 ـ 7 ـ الصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ

المنقطعين لله عزَّ وجل ، متفرغين له ، نحن في رمضان فهناك صيامٌ عن الطعام ، والشراب ، والنساء ، هذا صيام العامَّة ، وهناك صيامٌ عن المعاصي والآثام ، وهذا صيام المؤمنين ، وهناك صيامٌ عما سوى الله ..

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

أي ما سوى الله ، هؤلاء ..

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ)

الصادق ؛ هناك صدق الأقوال ، وصدق الأفعال ، فصدق الأقوال أن تأتي أقوالك كما تعتقد ، أنت صادق ، أما صدق الأفعال فأن تأتي أفعالك كما تقول ، تقول شيئاً ، وتفعل شيئاً ، فهذا كذب ونفاق ، تعتقد شيئاً ، وتقول شيئاً فهذا نفاق اعتقادي ، أما الصدق القولي فأن تقول ما تعتقد ، والفعلي أن تفعل ما تقول ، هؤلاء صادقون ، أعمالهم تأتي مصدقةٌ لأقوالهم ..

(وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ)

8 ـ الْمُنْفِقِينَ

ينفقون مما آتاهم الله ، آتاهم مالاً ينفقون منه ، آتاهم علماً ينفقون منه ، آتاهم جاهاً ينفقون منه ، آتاهم خبرةً ينفقون منها ..

(وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)

9 ـ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ

قال العلماء : وقت السحر وقت الاستجابة ، واستدلوا من قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف :

(سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي)

(سورة يوسف : من الآية 98)

أيْ في الوقت المناسب ، وقت السحر وقت قبول المغفرة ، لذلك ورد في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ)) .

[البخاري ومسلم واللفظ له]

نحن في هذا الوقت ـ وقت السحر ـ لنا دعوةٌ مستجابة ، وأنا والله أنصح كل إخواني : لك عند الله حاجة، تخاف من عدو ، تخشى من مرضٍ عضال ، عندك مشكلة في البيت ، لك زوجة تنحرف عن سواء السبيل ، لك أولادٌ ليسوا على ما تتمنى ، صل صلاة قيام الليل ، واسأل الله عزَّ وجل في السجود أن يعطيك ما تسأله إيَّاه ، هذا مما يقوي عقيدتك بالله .

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)

ثم يقول الله عزَّ وجل :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

1 ـ الأسباب وحدها لا تخلق النتائج :

الله عزَّ وجل هو وحده الفعال ، كيف يشهد لنا أنه لا إله إلا هو ؟ الفعل كله بيده ، الله خلق أسبابا ، وخلق نتائج ، نحن لقصور فهمنا نظن أن الأسباب وحدها تخلق النتائج ، لا ، الأسباب تترافق مع النتائج ، لكن الأسباب وحدها لا تكفي لخلق النتائج ، العلماء قالوا : عندها لا بها .

2 ـ كيف يشهد الله أنه لا إله إلا هو ؟

كيف يشهد الله أنه لا إله إلا هو ؟ يأتي إنسان ، ويأخذ بكل الأسباب ، فيفشل ، ويخفق ، يأتي إنسان آخر من دون أسباب يحقق النتيجة ، وأوضح مثل لذلك أنه إذا تزوج شابٌ صحيح الجسم بفتاةٍ صحيحة الجسم ، لابد أن ينجبا ، الأسباب كلها مؤمنة ، شاب صحيح الجسم ، كل أجهزته سليمة ، وشابة كذلك ، تجد شابين صحيحين لا ينجبان ، لأن الله عطَّل الأسباب ، الأسباب موجودة ، لكن الله عطَّلها ، يشهد لنا أنه لا إله إلا هو ، وقد تنجب السيدة مريم من دون زوج ، ألغاها ، ومِن خلال إلغاء الأسباب أو تعطيلها يشهد أنه لا إله إلا الله ، لذلك قالوا : " عرفت الله من نقض العزائم " ، قد يأخذ الإنسان بكل الأسباب ولا ينجح ، وربما لا يأخذ بها وينجح ، فما شاء الله عزَّ وجل كان ، وما لم يشأ لم يكن .

تحطمت طائرة ، وأحد ركابها لم يقيد نفسه بحزام الأمان ، رأى نفسه طليقاً ، وانشق جسم الطائرة جنب مقعده ، فقفز على الأرض ، أما كل الركاب فكانوا مقيدين بأجهزة الأمان ، فيمكن لواحد أن ينزل من ارتفاع أربعين ألف قدم دون أن يصاب بأذى ، نزل فوق جبال الألب ، غابات كثيفة مغطاة بخمسة أمتار ثلج ، أغصان الأشجار كانت كالنوابض ، فنزل واقفاً .

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهنّ أمان

* * *

وطائرة أخرى في طريقها من جدة إلى باكستان ، أصاب إحدى النوافذ خلل فانخلعت ، الطائرة المضغوطة ثمانية أمثال ، امرأةٌ باكستانية في حجرها طفلان صغيران ، فخرجا من النافذة ، بحكم قوة الضغط ـ ضغط الهواء داخل الطائرة ـ فوقعا في البحر ، فنسبة المئة بالمليون أنهما ماتا ، طفلان رضيعان صغيران ، بعد خمسة أيام تأتيها رسالة من شركة الطيران أن تعالي إلى دبي ، فظنت أن تأتي لتأخذ التعويض ، فإذا بها أمام ابنيها ، ما الذي حدث ؟ سقطا أمام صياد ، فأنقذهما ، ووضعهما في القارب ، وأخذهما إلى أقرب مستشفى ، ما معنى : لا إله إلا الله ؟ وأنت بأعلى درجة

من الغنى تفلس ، وأنت فقير تغتني ، وأنت قوي تضعف ، أنت ضعيف تقوى ، من إلغاء السبب أو تعطيله ..

(شَهِدَ اللَّهُ)

الله عزَّ وجل يشهد أنه لا إله إلا الله ؛ عن طريق تعطيل الأسباب ، أو إلغائها ، أما المؤمن فيمشي في طريق ، عن يمينه وادٍ سحيق ، وعن شماله وادٍ سحيق ، الوادي اليميني واد الشرك ، هناك من يأخذ بالأسباب ، ويعتمد عليها ، وينسى الله ، وأحياناً يؤلّهها كالأجانب ، وهناك من لا يأخذ بها ، فيعصي الله كأهل الشرق ، الشرق كله : سم بالله وكل ، لكن التفاحة غير نظيفة ، ولم نغسلها ، النبي قال :

((من انهمك في أكل الطين فقد أعان على قتل نفسه)) .

[البيهقي في السنن الكبرى ، والطبراني في المعجم الكبير عن سلمان]

هناك توكل ساذج ، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ - خذ بالأسباب - فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)) .

[أبو داود وأحمد]

المؤمن الصادق يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله

المؤمن الصادق يأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، كما فعل النبي في الهجرة ؛ اختار خبيرًا مشركًا ، فغلَّب الخبرة على الولاء ، وكلف إنسانًا يأتيه بالأخبار ، وإنسانًا يمحو الآثار ، وإنسانًا يأتيه بالطعام ، وسار مساحلاً عكس الاتجاه المتوقع ، واختبأ في غار ثور ، أخذ بكل الأسباب ، وكأنها كل شيء ، فلما وصلوا إلى الغار توكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، هذا هو الإيمان ، أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، فالله يشهد لنا ..

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة : من الآية 249)

تكون أمة قوية جداً تأخذ بكل الأسباب فتنهزم ، والمؤمنون الصادقون وهم قلةٌ ضعاف ينتصرون ، معنى ذلك أن الله شهد لنا أنه لا إله إلا هو ، الأمر بيدي ، أما الكفار فيؤلّهون الأسباب ، والمؤمنون المقصرون يلغون الأسباب ، توكُّل ساذج ، أما الكمال فأن تأخذ بها وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

مثلاً : لو ترجمنا هذا الكلام إلى واقع ، عندك مركبة ، وعندك سفر ، تجري لها مراجعة تامة ، الزيت، والوقود ، والكهرباء ، والتوصيلات ، والأطر كلها كاملة ، ثم تقول : يا رب احفظني ، أنت الحافظ ، يا رب سلمني ، أنت المُسَلِّم ، أخذ بالأسباب ، وتوكل على الله ، طالب يجتهد ، ويقول : يا

رب اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، تاجر يجتهد ، ويقول : يا رب اجبر هذه البضاعة ، المزارع يزرع حبةً في الأرض ، ثم يتوكل على الله ، هذه الترجمة ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

3 ـ أهل العلم ينبغي أن تكون فحوى دعوتهم إظهار كلام الله :

وهذه إشارة إلى أن أهل العلم ينبغي أن تكون فحوى دعوتهم إظهار كلام الله ، أما أن يقول لك واحد : إن الله عزَّ وجل يفعل ما يشاء ، نحن في ملكه ، هذا كلام جيد ، لكنه يأتي بمثل غير مقبول ، أنه نجار، وعنده لوحان من الخشب ، جعل لوحًا بابًا لقصر ، والثاني بابًا لمرحاض ، ألك عنده شيء ؟ إن الله ما قال هذا ، بل قال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

الله عزَّ وجل عنده عدل مطلق ، وقد قال :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام : من الآية 132)

العشوائية لا تقبل في أفعال الله ، والعبثية لا تقبل في أفعال الله ، لذلك الإيمان الدقيق كما قال الله عزَّ وجل :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

قال الله عزَّ وجل :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا)

(سورة الشمس)

ليس معنى هذا أنه خلق فيها الفجور ، معنى هذا أنه برمجها برمجةً ، وجبلها جِبِلَّةً ، وفطرها فطرةً ، إذا فجرت تعلم أنها فجرت ..

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(08-60): تفسير الآيتان 18 - 19
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثامنة عشرَة ، مررت عليها مراً سريعاً في الدرس الماضي ، ونظراً لأهميتها الشديدة سأخصها ببعض التفصيلات

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

كلكم يعلم أيها الإخوة ، أنه حينما تدعى لأداء شهادة ، تنطق بلسانك أنني رأيت كذا وكذا ، وهذا شيء واضح وضوح الشمس ، ولكن كيف تفهم قوله تعالى :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

الإنسان تراه بعينك ، وتسمع صوته بأذنك ، وتسمع شهادته .

كيف يشهد الله أنه لا إله إلا هو ؟

ولكن كيف يشهد الله لك أنه لا إله إلا الله ؟ أو كيف يشهد لك أن هذا الكلام كلامه ، القرآن كلامه ؟ هذا سؤال دقيق ، وكيف يشهد لك أن الأمر كله بيده ، وأنه الفعال لما يريد ، وأن بيده ملكوت السماوات والأرض ، وأنه إليه يرجع الأمر كله ، وأنه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله ، وأنه ما من ورقة تسقط إلا هو يعلمها ، كيف يشهد لك أن كل الكون بدقائقه ، بجزئياته ، بتفصيلاته بيده ، هناك قصص قصَّها علينا في القرآن الكريم ..

امرأة تضع فلذة كبدها في صندوق ، وتلقيه في اليم ، في النهر ، ما الذي يسيِّر هذا الصندوق سيراً معيناً إلى أن يصل إلى شرفة ، أو إلى مدخل قصر على النيل ؟ وأي غصن اعترض هذا الصندوق ، فوقف عند شاطئ هذا القصر ، وأيَّة امرأة شعرت بدافع أن تقف على شاطئ النهر ؟ إنها امرأة فرعون، وكيف ألقي في قلبها حب هذا الغلام الصغير ؟ وكيف امتنعت المراضع أن ترضعه تحريم امتناع ..

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

(سورة القصص : من الآية 12)

إذاً : دقائق الحياة ؛ حركة المياه ، حركة الصندوق ، تحرك إنسان ، محبته في قلب إنسان ، هذا كله بيد الله ، ففي قصص القرآن إشارةٌ إلى أن الأمر بيد الله ، قصة سيدنا يوسف فيها تفاصيل ، ولكن الله يشهد فضلاً عن قرآنه ، وفضلاً عن كتابه أنه لا إله إلا هو ، كيف يشهد ؟

الأسباب الكونية بين الأخذ بها وتأليهها :

نحن أَلِفنا أنّ لكل نتيجة سبباً ، وأن لكل سبب نتيجة ، وتوهمنا لضعف إيماننا أن هذا السبب خارق النتيجة ، والذي آمن بالأسباب ، واعتمد عليها ، ونسي الله عز وجل فقد أشرك ، والذي لم يأخذ بها فقد عصى ، وأنا أقول دائماً : الإيمان الكامل أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، من السهل جداً أن تأخذ بالأسباب كما فعل الغربيون ، لكن مع الأخذ بالأسباب الدقيق منزلق خطير أن تؤلّهها ، وأن تعتمد عليها ، وأن تراها كل شيء ، وأن تستغني بأخذها عن الله . والفريق الآخر عندنا في الشرق لا يأخذون بالأسباب ، تواكلاً على الله ، وجهلاً بحقيقة الكون ، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)) .

[أبو داود ، وأحمد]

((عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ))

ـ أي عليك بالتعقل ، وأن تأخذ بالأسباب ـ

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ))

ـ فأن تستسلم ، ألا تتحرك ، أن تنسحب ، أن تندب حظك ، أن تقول انتهينا كمسلمين ، لا ، هذا ليس من الدين ، هذا تواكل ، ولكن الله يلوم على العجز ـ

((فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)) .

إذاً : الأخذ بالأسباب ، والاعتماد عليها شرك ، وعدم الأخذ بها معصية ، لكن الكمال أن تأخذ بها ، وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، أما إذا توهَّمها الإنسان أنها كل شيء ، فلابد أن يؤدبه الله عز وجل ، كيف يؤدبه ؟ يؤدبه ، ويشهد له أن الله هو وحده الفعَّال ، وأنه وحده المتصرف ، وأن الأخذ بالأسباب لا يقدم ولا يؤخر ، يعطل هذه الأسباب .

أوضح مثل : فتاةٌ شابة تتزوج بشاب ، ولا ينجبان ، الأسباب كلها موجودة ، الله عز وجل شاء أن يجعل هذا الزواج عقيماً ، مع أن الأسباب متوافرة ، أو أن يسمح لامرأةٍ لم تقترن بزوج وهي طاهرة عفيفة أن تنجب مولوداً ، كالسيدة مريم العذراء .

فإما أن يبطل الله هذه الأسباب ، أو أن يلغي وجودها ، بهذه الطريقة يشهد الله لعباده أنه لا إله إلا هو ، فأكبر قوة في العالم ، أو ثاني أكبر قوة في العالم تداعت من الداخل بلا حرب ، وبلا هجوم

نووي ، وبلا بأسلحة ذرية ، تداعت من الداخل ، وقد قال بعضهم : " عرفت الله من نقض العزائم " ، قد تأخذ بالأسباب كلها ، ولا تنجح ، وقد تضطر إلى ألا تأخذ بها لسبب قاهر ، فتأتي النتائج طيبة ، وكأنك أخذت بالأسباب ، فمن خلال تعطيل هذه الأسباب أو إلغائها يشهد الله لك أن الأمر بيده وحده .

لا ينفع مع الله شيء :

فقد يسعدك ، وأنت لا تملك من الدنيا وشيئاً ، وقد يشقى الإنسان ، ومعه كل أسباب الدنيا ؛ معه المال الوفير ، ومعه الصحة ، ومعه الزوجة ، ومعه البيت المريح ، والمركبة الفارهة ، وهو أشقى الناس ، وقد يسعدك ، وأنت في السجن .

أحياناً المؤمن إذا دخل السجن يقول لك : والله اقتربت من الله قرباً غير معقول ، والله ارتقى إيماني ، وارتقت صلواتي ، وارتقت تلاوتي إلى درجة لا تصدَّق ، قد يرحمك وأنت في أصعب وضع ، وقد يحجبك عنه ، وأنت في أقوى وضع.

إذاً : تعطيل الأسباب أو إلغائها شهادة الله لك أن الأمر بيده وحده ، في ظرف صعب جداً قد يرزقك الله رزقاً طيباً ، وفي ظروف مواتية جداً قد تحرم من الرزق ، وفي بالنهاية يجب أن تؤمن أن الأمر كله بيد الله ، ومن الممكن أن يسقط إنسان من ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم من طائرة وينزل سالماً ، الأمر بيد الله عز وجل ..

فإذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى

* * *

إذا كان الله معك فمَن عليك ؟ وإذا كان عليك فمَن معك ؟ إذا كان الله معك يسخر لك أعداءك ليخدمونك، وإذا كان الله عليك يسمح لأقرب الناس إليك أن يتطاول عليك .

يا أيها الإخوة الكرام ...

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

قد يرزق الله إنساناً ضعيف التفكير رزقاً وفيراً ، وقد يحرم إنساناً ذكياً جداً الرزق ، يتضعضع أمام غني ، وقد ورد في بعض الحكم من الشرق : أن يا رب ارزقني حظاً تخدمني به أصحاب العقول ، ولا ترزقني عقلاً أخدم به أصحاب الحظوظ .

الله عز وجل يرفع إنسانا ، فتصبح كل الخبرات بيده ، كل العقول بخدمته ، وأحياناً يكون بأعلى درجة من الفهم مسخر لخدمة إنسان ، كل طاقته وكل إمكاناته وكل ذكائه وكل شهاداته العليا ، وكل اختصاصه النادر لخدمة إنسان ليس في مستوى علمه ، **" اللهم ارزقني حظاً تخدمني به أصحاب العقول ، ولا ترزقني عقلاً أخدم به أصحاب الحظوظ "** ، هذه حكمة من شرق أسيا قالها أحد الفلاسفة .

فحينما يشهد الله لك أن الأمر بيده ، الأمر أمره ، النبي الكريم أخذ كل الأسباب من دون استثناء ، ووصلوا إلى الغار ، هو أخذها لئلا يصلوا ، ذهب مُشَرِّقاً ، واختبأ في غار ثور ، ومحا الآثار ، وجاء بالأخبار ، وجيء له بالزاد ، واختار خبيرًا بالطرقات مشركًا ، أخذ بكل الأسباب ، لكنه اعتمد على الله، فلما وصلوا إليه ، وقعت عين المطاردين على عين أبي بكر ، قال : لقد رأونا ، قال يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ(198))

(سورة الأعراف)

أي سبب صغير جداً ؛ خيوط عنكبوت أنقذت هذه الدعوة ، ومن عظمة الله عز وجل أنه يفعل الشيء العظيم بالسبب الصغير ، وقد يدمِّر إنساناً بسبب صغير جداً ، بكلمة ، بغفلة ، فمع الله لا توجد غفلة ، لا يوجد مع الله تاجر ذكي ، ولا يوجد قوي ، ولا يوجد حكيم ، إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لب لبه ، يا رب لا ينفع ذا الجد منك الجد ، صاحب الحظ ، والذكاء ، والتألُّق هذا إن لم يكن مستقيماً على أمر الله ، يجعل الله تدميره في تدبيره ، يفكر ، يفكر ، يجمع ، يطرح ، يقسِّم ، ثم يدمَّر بتدبيره ، يأتي إنسان سليم الطوية ، بريء ، طاهر ، الله عز وجل يحفظه مما يحفظ به عباده الصالحين ، فكلمة :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

كل أفعال الله عز وجل في الأرض تشهد لك أنه هو الفعَّال ، هو الفعال ، هو إله في الأرض ، كما هو إله في السماء :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس : من الآية 24)

لا سبيل للنجاة إلى برضا الله :

ترون أنتم ، أحياناً زلزالاً يكلف ثلاثين مليارًا ، وإعصارًا يكلف ما جمعه هذا البلد من دول متخلِّفة خلال عشر سنوات ، إنه إعصار واحد ، الأمر بيده ، لا سبيل إلا أن نرضيه ، وإلا أن نكون طائعين له.

أحياناً تاجر يظن نفسه أنه ذكي ، يغش ، الذي جمَّعه في سنوات يدفعه في ساعة واحدة ، الله يورطه في مخالفة كبيرة جداً ، والغرامة تفوق طاقة احتماله ، فيدفع مئات الملايين في ساعة واحدة ، مع الله لا يوجد ذكي ، مع الله لا يوجد حكيم ، مع الله لا يوجد قوي ، لا ينجيك منه إلا أن تطيعه ، في حالة واحدة: يا رب لا ملجأ منك إلا إليك ، إلا أن تكون في طاعته ، والمعصية مع الذكاء لا تجدي ، المعصية مع الخبرة لا تجدي ، المعصية مع القوة لا تجدي .

كان رجل يهودي يعد من أغنى أغنياء العالم ، كان يقرض الحكومة البريطانية قرضًا ، خزائنه ، أمواله في غرفة لها باب محكم ، دخل مرة غرفة خزائنه ، وأغلق عليه الباب خطأً ، ومن عادته أن يسافر من حين إلى آخر ، ويفاجئ أهله بأسفاره ، فلم يسألوا عنه ، وقد ظنوا أنه مسافر ، ومات في غرفة خزائنه ، جرح يده ، وكتب على الحائط : أغنى رجل في العالم يموت جوعاً وعطشاً ..

كالعيسُ في الصحراء يقتلها الظما والماء من فوق ظهورها محمول

* * *

أنا لا أذكر هذا منتقداً أبداً : طبيب في أمريكا ، روَّج قضية الجري لسلامة القلب ، فكان يجري في اليوم ساعتين ، وهو يؤكِّد بمقالات ، وبلقاءات ، وبندوات أن صحة القلب في الجري ، وهذا كلام صحيح ، وأنا لا أنقده أبداً ، إلا أنه نسي الله ، واعتمد على الجري وحده ، فمات وهو يجري في مقتبل العمر ، وهو طبيب قلب .

قد تجد أحياناً بعض المتخصصين في أعلى مستوى يؤخذون باختصاصهم ، لأنهم اعتمدوا عليه ، ونسوا الله عز وجل ، والذي يعتمد على ذكائه يخفق ، والذي يعتمد على ماله يفتقر ، والذي يعتمد على مَن حوله وينسى الله عز وجل يقلبون له ظهر المجن ، لا تعتمد إلا على الله ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي)) .

[البخاري]

لا تعتمد لا على زوجة ، ولا على ولد ، ولا على صديق ، ولا على صحة ، ولا على مال ، من أدعية النبي الرائعة الثابتة ما ثبت عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)) .

[مسلم]

فجأةً ، بثوان معدودة تنقلب من شخص متألق إلى شخص مهمل ، فخثرة من الدم لا يزيد حجمها على رأس دبوس ، لو تجمدت في إحدى شرايين الدماغ لفقدت الحس والحركة .

والله كنت في العيد أزور بعض الأشخاص ، أعرفه إنساناً متألقاً ، ذكياً ، حكيماً ، أنا لا أعلم أنه مريض ، استقبلنا ، وبدأ يتكلم كلامًا غير معقول أبداً ، سألت ابنه فقال لي : والله عنده خثرة بالدماغ ، أين ذكاؤه ؟ أين عقله ؟ أين حكمته ؟ أين استقباله ؟ وأين ترحيبه بالناس ؟؟! يتكلم كلامًا غير معقول إطلاقاً ، كلام ليس له معنى ، أحضر وثائق ، وأتى بصور ، وتكلم كلامًا غير معقول ، أنا استحييت والله من زيارته ، فكل شخصيتك ، وقوة شخصيتك منوطة بسيولة الدم في دماغك ، وكل شخصيتك منوطة بقطر الشريان التاجي ، هذا أخطر شريان بالإنسان ، وكل شخصيتك منوطة بنمو الخلايا ، فإذا تفلّتت انتهى كل شيء .

والله مرة كنت عند مريض ، جاءه اتصال هاتفي ، هاتف قديم صوته عالٍ جداً سمعت الطرف الآخر عن بعد ، قال له : أي مكان بالعالم نأخذه ، وأي مبلغ ؟ فقال الطبيب له : لا أمل ، والمرض بالدرجة الخامسة ، لا تغلب نفسك ، وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مرد له ، فالأمر بيد الله عز وجل ، الدين كله توحيد ، ألا ترى مع الله أحداً ، فالله عز وجل يشهد لك ، تأخذ بالأسباب كلها ، ولا تنجح ، وربما لا تأخذ بها اضطراراً ، ليس تهاوناً ، وربما لا تأخذ بها اضطراراً فتنجح ، عرفت الله من نقض العزائم ، وهذا الشيء يحتاج الأمر إلى من يتفهمه ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ

مَن هم أولو العلم ؟

عند بعض المفسرين آراء لطيفة حول أولي العلم ، مَن هم ؟ بعضهم قال : الأنبياء عليهم السلام ، لأن مقام النبوة مقام علم ، ومقام الرسالة مقام علم وتبليغ معاً ، وقال بعضهم : هم المؤمنون ، لأنه ما من مؤمن إلا وعنده الحقيقة ..

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 83)

يكفي العلم شرفا أن الله قرن أهله باسمه :

على كلٍ هناك ملمح لطيف ، هذا يسعدنا جميعاً ، قال : لو كان أحدٌ أشرفَ من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

لو كان في خلقه جميعاً أحدٌ أشرف ممَّن طلب العلم ، وممن تعلم العلم ، وممَّن علَّم العلم لقرنه الله مع اسمه ، من هؤلاء الذين قرنوا مع اسم الله ؟ هم الذين طلبوا العلم ، فطلبكم للعلم شرف كبير ، ومنحة عظيمة ، وهو عطاء الأنبياء ..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

(سورة يوسف : من الآية 22)

ولكن الله عز وجل أعطى المال لمن لا يحب ..

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص : من الآية 76)

أعطى الملك لمن لا يحب ، أعطاه لفرعون ، أعطى المال لمن لا يحب ، أعطاه لقارون ، أما العلم والحكمة فما أعطاهما الله إلا لمن يحب ، قال :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22))

(سورة يوسف: من الآية 22)

فإذا سمح الله لك أن تطلب العلم ، وإذا سمح الله لك أن تصغي إلى أهل العلم ، وإذا سمح الله لك أن تعلّم العلم ، وإذا سمح الله لك أن تخدم أهل العلم ، وإذا سمح الله لك أن تكون في خدمة العلم ، فهذا وسام شرف كبير ، وهذا أعظم عطاءٍ إلهي .

الآن الله عز وجل يأمر نبيه ، قال له :

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي)

(سورة طه : من الآية 114)

ما هو الشيء الثمين العظيم الذي أراده الله لعباده المؤمنين ؟ قال :

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه)

لم يقل : زدني مالاً ، يا رب زدني جاهاً ، يا رب زدني ذريةً ، لا ، لا ..

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه)

لمجرد أنك طلبت العلم ، وأنك تحضر مجالس العلم ، وأنه يسمح لك من حين لآخر كي تعلّم العلم فهذا وسام شرف كبير ، ويقول عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)) .

[الترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وأحمد عن أبي الدرداء]

والعلماء أمناء الله على خلقه ، والعلماء يحبهم أهل السماء ، ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة ، واسأل نفسك : ماذا أقامك ؟ الله قد يقيم إنسانًا بعمل لا يرضيه ، طبعاً باختياره ، قد يبنى عمله على ابتزاز أموال الناس ، أو على إدخال الخوف إلى قلوبه ، وقد يكون عملك تعليم العلم ، وقد يكون عملك إنفاق المال في سبيل الله ، وقد يكون عملك بناء المساجد .

ذات مرة افتتح مسجداً في ريف دمشق ، وقد حضرت افتتاحه ، وكان إلى جانبي مسؤول الأوقاف ، قلت له : اشكر الله عز وجل على أن الله أقامك في افتتاح المساجد ، وتعيين الخُطَباء ، فهناك من يفتتح الملاهي ، ويعلّم الراقصات ، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك .

ما مهمتك في الحياة ؟ هل مهمتك العطاء أم الأخذ ؟ إشاعة الأمن في الناس أم إشاعة الخوف ؟ إكرام الناس بالمال أم ابتزاز أموالهم ؟ أنت تابع لمَن ؟ تابع لخالق السماوات والأرض ، أم تابع لجهة أرضية تأتمر بأمرها ، وأنت أداة بيدها ؟ وكلما عرفت قيمة نفسك أبيت أن تكون لأحد إلا أن تكون لله الواحد القهار ، شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس .

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

اشهد يا طالب العلم للناس بعدالة الله :

ملمح ثان : إن كنت من أهل العلم حقيقةً ، إن كنت من طلاَّب العلم حقيقة فاشهد للخلق بعدالة الله ، وهناك دعوات إلى الله غير معقولة ، يقول لك : نحن ملك الله - فعلاً نحن ملكه - يفعل بنا ما يشاء ، يضعنا في النار ، أم في الجنة ، هكذا ، ولا يحق لنا أن نعترض ؟! هذه ليست دعوة لله عز وجل ، هذه دعوة منفرة ، يأتون بمثال : نجار عنده لوحان من خشب ، وضع أحد الألواح بابَ قصر ، والثاني باب مرحاض ، ألك عنده شيء ؟ لا ، أما لو كان اللوح الرديء وضعه باب مرحاض ، واللوح النظيف باب قصر فهذا عمل حكيم ، فهنا من أجل أن يؤكدوا أن الله يملك كل شيء ، قد لا ينتبهون ، فيصفون الله بالظلم ، الله عز وجل قال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ(17))

(سورة سبأ)

آيات كثيرة تؤكد عدالة الله عز وجل ..

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ)

(سورة لقمان : من الآية 16)

إذاً : حينما اقترن اسم العلماء مع اسم الله الأعظم ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

طالب العلم المتواضع شريف عند الله والناس :

ليس هناك على وجه الأرض أشرف من طلب العالم ، من طالب العلم ، والملائكة تضع أجنحتها لطلاَّب العلم رضاً بما يصنعون .

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

إذاً طالب العلم يبيِّن عدالة الله ، طالب العلم يبيِّن فضل الله ، أيها الإخوة ، والله أنا أستحيي أن أقول : أنا عالم ، أقول : طالب علم ، كن أديباً مع الله ، أكبر علماء الأرض طلاَّب علم ، لا تقل : عالم ، لأن الله عز وجل قال :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا(85))

(سورة الإسراء)

ذات مرة شاب داعٍ إلى الله عز وجل ، يبدو أنه ألقى دروساً في بغداد ، وتحلق الناس حوله ، وأقبلوا عليه إقبالاً شديداً ، بعض من يعلم في العلم من التقليديين امتلأ صدره غيظًا منه ، فجاء إلى مجلسه كي يسفهه ، فحضر الدرس ، وفي نهاية الدرس وقف ، وقال :

ـ يا هذا ، هذا الذي تقوله ما سمعناه ، من أين جئت به ؟ هذا ليس علمًا .

ـ قال له : يا سيدي ، وهل حصَّلت العلم كله ؟ سؤال محرج ، إذا قال له : نعم خالف الآية :

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا(85))

(سورة الإسراء)

ـ قال له : كلا والله .

ـ قال : كم حصلت منه ؟

ـ قال له : شطره .

ـ قال : هذا الذي قلته في هذا الدرس من الشطر الذي لا تعرفه .

فالإنسان ليكن متواضعًا ، لا تقل : أنا أعلم ، قل : أنا أعلم بفضل الله ، لذلك يظل المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل ، لمجرد أن تقول : أنا أطلب العلم فأنت عالم ، ولا ضير عليك أن تقول : لا أدري ، وهذا وسام شرف آخر ، النبي الكريم سئل أسئلة كثيرة قال : لا أدري ، حتى يأتي الوحي ، فجاء الوحي فأجاب ، وهو قمة العلم في الأرض كلها .

على كلٍ أكبر شرف تحوزه أن تطلب العلم ، أن تطلب العلم النافع ، هناك علم ممتع ، وهناك علم ممتع نافع ، وهناك علم ممتع نافع مسعد ، إنه معرفة الله ، ممتع نافع مسعد ، قد تقرأ في النعي : أن هذا من أعلم علماء الأرض في هذا الموضوع ، مات ، وانتهى ، أما إذا كان يعرف الله فعلمه ينفعه بعد الموت، أما إذا كان غافلاً عن الله ، وكان متفوقاً في العلم فعلمه ينفعه في الحياة الدنيا ، أما إذا عرف الله عز وجل فينفعه علمه في دنياه وفي أخراه ، فدقق في هذا .

هناك علم ممتع ، لو قرأت قصيدة في الأدب الجاهلي لوجدتها ممتعة ، هناك علم ممتعٌ نافع ، معك اختصاص نادر ، دخلك فلكي ، هذا علم ممتع نافع ، وهناك علم ممتع نافع مسعد في الدنيا والآخرة ، وهو أن تعرف الله ، لبعض علماء القلوب كلمة : **" إنه حيث ما وردت كلمة العلم في القرآن فإنما تعني العلم بالله " .**

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أيها الإخوة ... شيء آخر ، يقول الله عز وجل :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

1 ـ لابد من الدعوة إلى الإسلام أن تكون صحيحة :

ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، ولكن اسمعوا هذه الحقيقة : مَن دعي إلى الإسلام بدعوة هزيلة ، دعوة سطحية ، دعوة غير متماسكة ، دعوة متناقضة ، مَن دعي إلى الإسلام من خلال داعية لا يطبق ما يقول ، ولا تجد مصداقية فيما يقول ، من دعي إلى الإسلام بمضمون غير علمي ، وبأسلوب غير تربوي ، وبتناقض بين القول والعمل ، هذا المدعو إلى الإسلام بهذه الطريقة ليس مبلَّغاً عند الله ، لأنه رُكِّب في أعماقنا أن الله عظيم ، وينبغي أن يكونه دينه عظيمًا ، ينبغي أن يكون شرعه عظيماً ، حتى أدى الأمر ببعض العلماء إلى أن يقول : **" الشريعة عدل كلها ، رحمة كلها ، حكمة كلها، مصلحة كلها ، فأية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة ، من العدل إلى الجور ، من الحكمة إلى خلافها ، ليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل " .**

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

2 ـ الإسلام دين الأنبياء جميعا :

والذي يلفت النظر أنك إذا قرأت آيات القرآن تفاجأ أن كل الأنبياء على الإطلاق وصفوا بأنهم مسلمون، إذاً : هو دين واحد عند الله عز وجل ، وهو أن تعرفه ، وأن تستسلم له ، وهذا منطوق قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ)

(سورة البقرة : من الآية 62)

كلهم سواء ..

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62))

(سورة البقرة : من الآية 62)

3 ـ الإسلام استقامة :

اضغط كل المعلومات عن الأديان بكلمتين : أن تعرف الله ، وأن تطيعه ، أن توحِّده وأن تعبده ، إن وحَّدته وعبدته حققت الهدف من وجودك ، فالدين المقبول عند الله أن تستسلم له ، أن تنصاع له ، أن تطيعه ، أما هناك من يعجب بالإسلام ، يقول لك : مفكر إسلامي ، ليس مستقيماً ؛ لا في بيته ، ولا في عمله ، ولا في علاقاته ، ولكنه مفكر إسلامي ، هذا شيء يخالف منطوق هذه الآية :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

فأنت ممكن أن تعجب بطبيب ، أو بمهندس ، أو بعالم آثار ، أو بمؤرخ ، أو بفلكي ، ولا يعنيك أمر استقامته في سلوكه ، ولا تربط بين علمه ولا سلوكه إطلاقاً ، إلا رجل الدين لا يمكن أن تستمع إليه ، ولا أن تصغِي له إلا إذا كان مطبقاً لما يقول ، فإن الدين عند الله أن تكون مطيعاً له ، أما مفكر إسلامي لا يصلي ، مفكر إسلامي يلتقي مع الكاسيات العاريات ، ويملأ عينه من محاسنهن ، يقول لك : مفكر إسلامي ، له خلفية إسلامية ، نزعة إسلامية ، أرضية إسلامية ، منطلقاته إسلامية ، عواطفه إسلامية ، اهتماماته إسلامية ، ولكنه في النهاية ليس مسلما ، فإن الدين عند الله الإسلام ، العبرة أن تطيع الله ، أن يرى هذا في كلامك ، في حركاتك ، في سكناتك ، في بيتك ، في عملك ، في مشيك في الطريق ؛ أتغض البصر عن محارم الله ؟ أم تملأ عينيك من الحرام ؟ هذا الإسلامي .

بالمعنى اللغوي إن الدين عند الله أن تكون مطيعاً لله ، هذا التدين الحقيقي ، أما في آخر الزمان فيصير التدين تقاليد وعادات ، وفلكلورًا ، وثقافة ، وعلمًا ، مظاهر ، استعراضًا ، يقول لك مثلاً : الآثار الإسلامية شيء جميل ، مكتبة إسلامية ، الزخرفة الإسلامية ، الخط العربي الإسلامي ، الخط الزخرفي الإسلامي ، كله صحيح ، لكن نريد إسلاماً ، نريد كما كان الصحابة ، كانوا يعرفون الله ويطيعونه ، فهذه الأشياء مادية ، زخرفية ، نسميها حضارية ، سميها تراثية ، أما الإسلام فأن تطيع الله فقط .

والله ذات مرة التقيت مع شخص يحمل شهادات متنوعة ، وكلها دكتوراه ، وله مكانة عندي ، ثم قال لي : أنا لا أصلي ، سبحان الله كيف لا تصلي ؟!! هذا الذي خلق السماوات والأرض ألا يستحق أن تعبده ؟ أنت أكبر من ذلك ؟ حينما لا تعرف الله لست عند الله عاقلاً أساساً ، من هو المجنون ؟ النبي الكريم مشى في الطريق رأى مجنوناً ، فسأل أصحابه سؤال العارف قال :

ـ من هذا ؟

ـ قالوا : مجنون .

ـ قال : لا ، هذا مبتلى ، المجنون من عصى الله .

بين الذكاء والعقل :

حينما وجدت هذه المعاني وجدت أنه لابد من التفريق بين الذكاء والعقل ، فما كل ذكي بعاقل ، فقد تجد إنسانًا قمة في العلم ، فكره قوي ، ومعلوماته غزيرة ، ومنطقه قوي ، ودر عليه علمه أموالاً فلكية ، ولكنه يشرب الخمر ، ولا يصلي ، فما كل ذكيٍ بعاقل ، ولكن كل عاقل ذكي ، العقل أن تعرف الله ، وأن تعرف سر وجودك ، وغاية وجودك ، هذا هو العقل ، وأما الذكاء فأن تتقن اختصاصاً ، أن تتقن اختصاصاً عالي المستوى ، هذا ذكاء ، ولحكمة بالغة بالغ أرادها الله جعل أحقر حيوان نشمئز جميعاً منه ، والله من اسمه نشمئز ، أذكى الحيوانات ، فهذا الذكي إن لم يكن تقياً فينبغي ألا يفخر بذكائه ، ذكاء شيطاني ، هؤلاء الغربيون والله عندهم ذكاء مذهل ، فقد جمعوا أموال الدنيا عندهم ، يعيشون حياةً تفوق حد الخيال ، ولكنهم لأنهم ما عرفوا الله ، وما عملوا لآخرتهم فهم واللهِ أغبياء جداً ، لأنهم سوف يدفعون الثمن باهظاً عند الموت ، هؤلاء الذين يقتلون الصغار في فلسطين ، يتوهَّمون أنهم أذكياء معهم أسلحة فتَّاكة ، أنت قوي على طفل ؟! أسلحة فتاكة على طفل ؟! هذا ذكاؤك ؟ الله عز وجل قال :

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 190)

طفل مندفع ، ببندقية دقيقة الإصابة ترديه قتيلاً ، أنت مسيطر ، لابد أن تعرف الحقيقة : أنه لابد من يوم يدفع الإنسان ثمن أعماله كلها مهما كان كبيراً ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 94)

تأتي الله وحدك ، لا معك أحد ؛ لا نصير ، لا جماعة ، لا أتباع ، وحدك ، وتحاسب عن أعمالك كلها ، فهناك قصة أنا أرويها لكم ، طريفة للموعظة ، رجل من أغنياء مصر الكبار ، وافته المنية ، وأولاده من شدة محبتهم له خافوا عليه من أول ليلة يوضع في قبره ، القبر مخيف ، واحد ينتقل من بيت ثمنه خمسون مليونًا إلى قبر ، لا يوجد قبر بخمس نجوم أساساً ، ولا قبر فيه بلاط ، كله تراب مُمَدَّد ، أنت حينما تشيع ميتاً ينبغي أن تكون متعظاً ، هذا الذي يوضع في القبر البارحة كان بغرفة نوم ثمنها ثمانمئة ألف ، كان عطاءه من أرقى أنواع الصوف ، وغرفة نومه كانت ثمانية بخمسة ، كبيرة ، ومطبخ ، وعرفة استقبال ، وبيت فخم ، وسيارتان أو ثلاث ، أين هو الآن ؟ في قبر الصغير .

طلبوا من رجل فقير جداً أن ينام مع ميت أول ليلة ، أعطوه عشرة جنيهات فطار عقله ، فقبل ـ هي قصة رمزية ليست حقيقية ـ جاء الملكان فرأوا شخصين في القبر ، فقالوا : هذا شيء جديد علينا ، يبدو أن الحي خاف ، فتحرك ، قال له : الثاني حي ، وليس بميت ، تعال نبدأ به ، من شدة فقره كان يلبس كيس خيش ، فيه فتحة لرأسه ، وفتحتان ليديه ، وربطه بحبل ، لا يوجد أفقر من هذا

، أن تلبس كيساً من الخيش ، سألوه عن الحبل من أين جاء به ؟ قال لهم : الحبل أخذته من بستان ، كيف دخلت للبستان؟ فارتبك ، فضربوه ، كيف دخل البستان ؟ الحبل كيف أخذه ، ما زال موضوعا ثانيًا ، وهو كيس الخيش، فخرج من القبر مذعورًا ، قال لهم : نسأل الله أن يعين أباكم .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

اصطاد أحدهم عصفورًا لغير مأكلة ، والموسم صيد ، ذهب الصياد إلى صحراء معه سيارته ، رأى عصفورًا ، فقال : هذا العصفور يأتي يوم القيامة له دوي كدوي النحل ، يقول : يا رب سله لم قتلني ؟ والله ستحاسب عن عصفور ، وعن هرة حبستها ، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا ، فَلَمْ تُطْعِمْهَا ، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)) .

[متفق عليه]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

مَن هو الذكي ؟ قبل أن يفعل شيئاً يهيِّئ جواباً لله عز وجل ، كيف ينجو من حساب الله ؟ هذا المؤمن ، لذلك إن الدين عند الله الإسلام ، التدين الصحيح أن تخضع لله ؛ في كسب مالك ، في إنفاق مالك ، في إطلاق بصرك ، في استخدام أذنك ، في استخدام حركاتك وسكناتك .

اليوم ذكرت في الخطبة :

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ)

(سورة غافر : من الآية 19)

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور

أعجبني شرح بعض العلماء قال : إنسان في مجتمع ، مرت امرأة ، له مكانة ، غض بصره حفاظاً على مكانته عند هؤلاء ، ثم نظر إليهم ، فإذا هم غير منتبهين له ، فاسترق نظرةً إليها ، فلما رآهم انتبهوا غض بصره عنها ، هو يغض بصره حفاظاً على مكانته ، وإيهاماً لمن حوله أنه ورع ، فإذا شعر أنه غير مراقب ملأ عينيه من محاسنها ..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(19))

(سورة غافر : من الآية 19)

تحاسب إلى هذا المستوى ، هذا الحق ، هذه نصوص ، أما تقول الأستاذ زودها ، هذا موضوع ثان ، أنا أنقل لكم ما في الكتاب والسنة ، أنقل لكم كلام خالق الأكوان ..

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور : من الآية 30)

تقول لي : لا أقدر ، أقول لك : أنت ترد كلام الله ، لأن الله عز وجل يقول :

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة : من الآية 286)

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُم

فهناك اختلاف طبيعي ، أساسه نقص المعلومات ، وهناك اختلاف قذر أساسه الحسد ، والغيرة ، والتنازع على المصالح والرئاسات ، وهناك خلاف ممدوح ، خلاف التنافس ، خلاف التنافس محمود ، وخلاف البغي والعدوان مرذول ، والخلاف الطبيعي معذور ، فعندنا خلاف معذور صاحبه ، وخلاف قذر ، وخلاف محمود ، قال تعالى :

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(09-60): تفسير الآيات 20 - 25
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية العشرين ، وهي قوله تعالى :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ)

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ

1 - وجه الله :

(وجهي) أي ذاتي ، وقد استدل بعض العلماء بقوله تعالى :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26)وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

وجه ربك أي ذاته العَلِيَّة .

ومن أجمل ما قاله المفسرون في تفسير قوله تعالى :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26)وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

فكل عمل يعمله ابن آدم إلى زوال إلا عملٌ واحدٌ ابتغى به وجه الله ، هذا الذي يبقى إلى أبد الآبدين ، وهذا الذي يسعده إلى أبد الآبدين ، وهذا الذي يلقى جزاءه في يوم الدين .

إذاً :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ)

2 ـ فَإِنْ حَاجُّوكَ

الإنسان يستعمل عقله لتغطية انحرافاته :

الإنسان أوتي جدلاً ؛ لأنه أوتي فكراً ، هذا الفكر خلقه الله ليكون أداة معرفته ، قد يستغل لغير ما خُلق له ، قد يستغله الإنسان ليغطّي انحرافاته ، لذلك الجدل في القرآن مذموم ، وفي السنة أيضاً مذموم ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ : (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)))

[الترمذي ابن ماجه ، أحمد]

حينما يفكر الإنسان ليبرر ، يفكر ليغطي سلوكه المنحرف ، ليسبغ على سلوكه المنحرف مبررات ، ومسوِّغات معقولة ، إنه يستخدم فكره لغير ما خلق له .

لذلك مرةً جاءني شابٌ وقال لي : أنا ملحد ، قلت له : والله إن كان إلحادك عن منفعةٍ تنتفع بها فلست مستعداً أن أجلس معك ولا دقيقة ، أما إن كان إلحادك عن قناعةٍ بريئةٍ فأنا أجلس معك ، فأقسم لي بالله إنه عن قناعةٍ ، ولا عن انتفاعٍ ، والمنتفع بكفره لن يؤمن .

كنت أضرب مثلاً لعله طريفٌ ، أن إنساناً عنده دابة يعمل عليها ، فلما ماتت بنى عليها بناءً ، وأعطى اسماً لولي من عقله ، من اختراعه ، وجاءه الناس بالهدايا ، والإكرامات ، وعاش في بحبوحةٍ ما بعدها بحبوحة ، هل هناك قوة في الأرض يمكن أن تقنعه أن الذي دفن هنا حمار ؟ أو دابة ؟ لا ، مستحيل ، هو دفنه بيده ، قناعته بأن هذا المدفون دابة أشد من قناعة الذي يجادله ، ولكن هذا الدخل الكبير الذي جاءه بسبب هذه الخدعة ، هذه لن تجعله يقرُّ بالواقع ، هو منتفعٌ بهذا الافتراء ، فالإنسان حينما ينتفع بكذبٍ ، أو بنفاقٍ ، أو له مصلحة هذا لا يناقش ، والأولى ألا تناقشه ، وإلا فلست على علمٍ ، ولست على وعيٍ إطلاقاً ، المنتفع بكفره لا يناقش ، المنتفع بنفاقه لا يناقش ، المنتفع بفكرةٍ معينة ، بطرحٍ معين ، برأيٍ معين ، بمذهبٍ معين ، المنتفع لا يناقش ، لأنه استخدم عقله لغير ما خلق له .

لذلك كلمة الجدل أينما وردت في القرآن ليست ممدوحةً ، بل هي مذمومة :

((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ))

[الترمذي ابن ماجه ، أحمد]

والمسلمون حينما تخلفوا عن تطبيق منهج ربهم دخلوا في متاهاتٍ فيما بينهم ، وأوتوا الجدل ، وجُعل بأسهم بينهم ، ويأتون بجزئيَّات الدين ويكبِّرونها ، ويجعلونها أصلاً في الدين ، ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها إذا خالفهم أحدٌ في رأيهم ، هذا أيضاً من حب الدنيا .

فلذلك :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ)

3 ـ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّه

إنّ حقيقة هذا الدين أن تطيع الله ، حقيقة هذا الدين يغلب عليها الطابع العملي ، طابع التديُّن عملي ، وليس كما يقولون : نظري ، نظرياً هناك أناسٌ كثيرون لهم اهتمامات إسلامية ، لهم ثقافة إسلامية ، يجادلون ، يحاورون ، يناقشون ، ينحازون ، وأحياناً يفعلون المُنكرات من أجل إثبات رأيهم أو اتجاههم، والله عزَّ وجل يقول :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ)

أسلمت ذاتي له ، وخضعت لأمره ، وانصعت لأمره ، وأنا مطبقٌ لأمره .

(وَمَنْ اتَّبَعَنِ)

4 ـ وَمَنْ اتَّبَعَن

إذاً : على أي شيء كان النبي وأصحابه ؟ كما ورد في بعض الأحاديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً ، قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي))

[الترمذي]

لذلك أكبر تهمة توجه للمنحرفين عقدياً وسلوكياً أن تقول لهم : أنتم لستم على ما كان عليه النبي وأصحابه .

أول خطبةٍ خطبها الصديق رضي الله عنه قال فيها : << إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >> ، أنا متبع ، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو في أعلى درجة من الرقي يقول :

(إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ)

ثلاث نصائح تكتب على ظفر : اتبع لا تبتدع ، اتضع لا ترتفع ، الورع لا يتسع ، انفق باعتدال ، لا تسرف ، والمترفون في القرآن الكريم في ثماني مواضع هم كفار :

(وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة المؤمنون : من الآية 33)

فاتبع لا تتبع ، اتضع لا ترتفع ، الورع لا يتسع .

إذا عم النقاش غير الموضوعي فعليك بكتاب الله وسنة رسوله :

أيها الإخوة ، مرة ثانية : هناك عقل صريح ، هذا أداة معرفة الله ، وهناك عقلٌ تبريري ، هذا أداة لتغطية الانحراف ، وما كلُّ فكرٍ تقرأه فكرا صريحا ، قد يكون فكراً تبريرياً ، قد يكون فكراً لتغطية انحرافٍ شديد ، الإنسان منطقي في الأساس ، حتى لو ارتكب جرائم يفلسف هذه الجرائم ، ويجعلها مبررة ، حتى لو أكل أموال الناس بالباطل ، يفلسف هذا الانحراف ، حتى لو كان زير نساءٍ ، له كلامٌ مزينٌ يقوله ، فالعبرة ما جاء به الوحي ، فهناك مقولات لا تنتهي ، هناك طروحات لا تنتهي ، هناك آراء لا تنتهي ، العبرة أن تصطفي من كل هذه المقولات ما جاء به الوحي ، لأنه من عند الله ، ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، القاعدة الثابتة التي لا تتزحزح ، ولا تتزلزل الكتاب والسنة ، ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنة رسوله ، هذا منهج ، هذا صراط مستقيم ، هذا حبل الله المتين ، هذه سنة النبيين ، إذا انتشر الجدال ، وعمَّ النقاش السفسطائي ، إذا فشا الحوار غير موضوعي فقل :

(أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَن)

فعندنا نقل ، وهو الدين ، وعندنا عقل ، العقل له دورٌ في التأكُّد من صحة النقل قبل أن نقرأ النقل ، وله دورٌ في فهم النقل بعد أن نقرأ النقل ، له دورٌ قبل النقل في التأكد من صحته ، ودورٌ بعد النقل في فهمه، لكن لن يكون العقل حَكَمَاً على النقل ، لأن العقل قد يخطئ ، وقد يصيب ، وقد يبالغ ، وقد يرتبط بواقع معيِّن ، فكما أن أجدادنا لو قاموا من قبورهم ، ورأوا ما فعله الإنسان من إنجازات لم يصدقوها ، لأن عقولهم وقتها مرتبطة بواقعٍ معين ، لكن حينما يرَوْنَ أن هذه الأشياء المستحيلة أصبحت واقعاً ، إذا أنكروها ما كانوا على صواب ، إذاً : العقل مرتبط بالواقع ، أما النقل فمرتبط بخالق الأكوان بشكلٍ أو بآخر ..

(فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَن وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ)

وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ

الأميون هم مشركو العرب :

الأميين هنا أي مشركي العرب ؛ لا دين لهم ، هم على فطرةٍ فيها سذاجة ..

(مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر : من آية " 3 ")

ففي الجزيرة كان هناك مشركون ، وكان هناك أهل كتاب ..

(وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ)

معنى : أَأَسْلَمْتُمْ

المعنى الأول :

أيها الإخوة ... أأسلمتم ، أي أسلِموا ، يعني ألم تسلموا بعد ؟! أأسلمتم ، أي أسلموا ، وماذا تنتظرون ؟

هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

هو تهديد ، أأسلمتم أم لم تسلموا ؟

أول معنى تقرير ، وفيه معنى الإنشاء ـ الأمر ـ وفيه معنى الاستفهام التقريري ، ألم تسلموا بعد ؟ وفيه معنى الطلب ، أسلموا ، ومعنى التهديد أأسلمتم ، أم لم تسلموا ؟..

(وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ)

1 ـ مهمة الأنبياء التبليغُ والقدوةُ :

الإنسان مخيَّر ، ومهمة الأنبياء تنتهي بالتبليغ ليس غير ، هناك مهمَّتان كبيرتان للنبي الكريم ؛ إحداهما مهمة التبليغ ، وثانيتهما مهمة القدوة ، ولعل مهمة القدوة أخطر ، وأبلغ من مهمة التبليغ ، فأيّ إنسان أوتي فصاحةً ، وبياناً ، وذاكرةً ، وفهماً ، وحفظاً يُبَلِّغ ، لكن الذي يؤثر ، هناك مَن يقنعك ، وهناك من يحملك على اتخاذ موقفٍ معين ، الذي يقنعك فصيحٌ بليغٌ عالم ، أما الذي يحملك على أن تقف موقفاً إيجابياً من الدين فهو القدوة ، لذلك نحن في حاجةٍ ماسةٍ إلى قدوةٍ صالحة .

كيف قيل : إن النبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي ، نحن في حاجةٍ إلى مسلمٍ يتحرَّك أمامنا ، مسلم صادق ، أمين ، عفيف ، طاهر ، منصف ، متواضع ، رحيم ، هذا أبلغ كما كنت أقول لكم دائماً : حالُ واحدٍ في ألف أبلغُ من قول ألفٍ في واحد ، قول ألف رجلٍ فصيحٍ في واحد ربما لا يؤثرون ، وحال إنسانٍ مخلصٍ ، متصلٍ بالله ، وحال واحدٍ أبلغ من قول ألف .

إذاً:

(وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا)

لذلك ما كل ذكيٍ بعاقل ، قد تكون متفوِّقاً في اختصاصٍ نادر ، ويدرُّ لك هذا الاختصاص أرباحاً طائلة، وأنت عند الله لست بعالم ، ولست بعاقل ، مَن هو العاقل ؟ الذي عرف الحقائق الكُبرى ؛ الذي عرف الله عزَّ وجل ، وعرف حقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، وحقيقة الإنسان ، وعرف مهمة الإنسان في الأرض ، وسر وجوده وغاية وجوده ، فإذا عرف ذلك ، وطبق ما عرف ، صار حكيماً ، فالذي يؤتى الحكمة أن تعرف ، وأن تعمل وفق ما عرفت ، فقد أوتي خيراً كثيرا ..

(فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا)

2 ـ إما هدى وإما ضلال :

ليس هناك إثنينية ، الحق واحد ، فإن لم تكن على الحق ـ لا سمح الله ولا قدر ـ فأنت على الباطل ، إن لم تستجب لله فأنت تتبع الهوى ، أبداً ، لك عقلٌ صافٍ يأمرك أن تؤمن بالله وأن تطيعه ، ولك نزواتٌ ، وشهواتٌ ، وغرائز تأمرك أن تشبعها بأيَّة طريقة ، فإن لم تكن على الحق فأنت على الباطل حتماً ، وليس هناك خطٌ ثالث ، فهما خطَّان لا ثالث لهما ؛ أن تكون متبعاً للحق ، وأتباع الحق متوادُّون ، متحابون ، متناصحون ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون ، ولو ابتعدت منازلهم ، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ، ولو اقتربت منازلهم))

[البيهقي في شعب الإيمان]

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[أحمد عن ابن عمر]

لو كنا جميعاً على الحق لكان بيننا من الود والحب الشيء الذي لا يوصف ، وهكذا كان أصحاب النبي رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ، كانوا على مودةٍ فيما بينهم ، وكان بأسهم على غيرهم ، أما المسلمون حينما أصابوا ذنوباً كثيرة صار بأسهم بينهم ، وصار دينهم الجَدَل .

الإسلام والله بسيط أيها الإخوة ، الإسلام بسيط جداً ، وينبغي أن نبسِّطه ، هو هواء ينبغي أن نستنشقه دائماً ، حاجتنا إلى الدين كحاجتنا إلى الهواء ، استنشاق الهواء ليس فيه تعقيد ، ولا فاتورة ، ولا عداد ، أينما ذهبت فهناك هواء تستنشقه ، لذلك الدين حاجتنا إليه أساسية جداً ، الإنسان خُلِقَ ضعيفاً ، خلق هلوعاً ، خلق عجولاً ، ما الذي يلغي ضعفه ؟ اتصاله بالله ..

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

ما الذي يلغي ضعفه ؟ أن يستعين بالله ..

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

* * *

أنت قويٌ بالله ، أنت عالمٌ بالله ، أنت حكيمٌ بالله ، أنت غنيٌ بالله .

أيها الإخوة :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ)

3 ـ من الإسلام التسليم بأحكام الله كلها من غير نقاش :

جميل جداً أن تعلل ، وأن تبيِّن ، وأن توضح ، والأجمل من ذلك أن تتبع ، والمؤمن الصادق لا يعلِّق تطبيقه لأمرٍ من أوامر الله على فهمه ، أو على فهم حكمته ، هو عندئذٍ يعبد نفسه ، هو عندئذٍ لا يعبد ربه ، متى يعبد ربَّه ؟ حينما يثبت له أن هذا أمر الله ، فيطبقه ، فهمه أو لم يفهمه ، اقتنع به ، أو لم يقتنع به ، أحب ذلك ، أو لم يحب ، لأن في اعتقاده أن علة كل أمر أنه أمر .

مرة كنت في جلسة ، نشب جدلٌ طويل بين التعدد ، وعدم التعدد ، الذي يتحدَّث عن التعدد هو تعدد ، يعني تزوج عدة زوجات ، ويقول : هو الأصل ، والذي بقي على زوجة واحدة يقول : لا التوحُّد هو الأصل ، واختلفوا ، قلت كلمة ، قلت : أنا مرةً سمعت سؤالاً موجهاً إلى أستاذة في الجامعة في

مصر عن التعدد ، أجابت إجابةً لم أر إجابةً أكثر وضوحاً وأصوليةً منها ، قالت : كيف لي أن أدلي برأي في التعدد ، وقد سمح الله به ؟ ما دام قد سمح الله به فلا معنى أن أدلي برأيٍ في التعدد .

فالإنسان يجب أن يوطن نفسه على أن يرى أن هذا أمر الله ، انتهى الأمر ، لا يمكن أن يخضع أمراً إلهياً للمناقشة العقلية ، يفكر فيه بعقله ليكتشف إيجابيَّاته فقط ، ليكتشف حكمته ، أما أن يضعه على بساط البحث ليقبله أو ليرفضه ، معاذ الله ، عندئذٍ ليس مؤمنٍ ..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من الآية 36)

4 ـ تطبيق أحكام الله لابد أن تكو ابتغاء مرضاته :

بالمناسبة ، هناك معنى دقيق جداً ، أنت حينما تكتشف أن هذا الشيء لصالحك تفعله وتضعف درجة العبادة فيه ، وحينما ترى شيئاً يتضارب مع مصالحك ، وتضع قدمك فوق مصالحك ، وتطبق هذا الشيء ابتغاء مرضاة الله ، يرتفع هنا مستوى العبادة في هذا الشيء ، إذاً : دائماً مستوى التعبد يرتفع وينخفض بحسب ما إذا كان هذا الشيء واضحاً جداً أنه لصالحك ، والإنسان إذا قام ونظف أسنانه قبل أن ينام ، هل يشعر أنه يضحي في سبيل الله ؟ لا والله ، هو يصون أسنانه ، لأنه واضح جداً أن صيانة الأسنان لمصلحة الإنسان ، إذاً : إذا قام إلى هذا العمل لا يشعر أنه يعبد الله ، مع أن تنظيف الأسنان من السنة ، لكن درجة التعبد في هذا العمل ضعيفة ، والمصلحة تغلب عليها ، أما حينما يقال لنبيٍ كريم وهو أبو الأنبياء : اذبح ابنك ، وابنه نبيٌ مثله ، وبلغ معه السعي ، وهو فتىً في ريعان الشباب ، ولا يعلم من هو الابن إلا الأب ، فيقول :

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ(102))

(سورة الصافات)

هنا تنتفي المصلحة ، وينتفي المنطق ، فأنت حينما تقبل على تنفيذ أمرٍ تعارض مع مصلحتك ، فآثرت طاعة الله على مصلحتك ، أنت ارتقيت إلى أعلى مستوى في العبودية لله ، فإن فعلت هذا انصياعاً لله ، وامتثالاً لأمره دون أن تكشف حكمته ، الآن ، يكافئك الله على هذا الانصياع ، وعلى هذا التعبُّد أن يكشف لك حكمته ، فتجمع بين مرتبة العلم وبين مرتبة العبادة ، هذا شيءٌ دقيقٌ جداً ، المؤمن لا يعلق أبداً على تطبيق أمرٍ إلهي فهمه لهذا الأمر ، لا يجعل فهمه ، وفهم حكمته ، وتعليله عقبةً أمام التطبيق ، ينطلق من قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من الآية 36)

ولكن يكافئه الله أنه يكشف له ـ كما قيل ـ : " مَن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم " ، يكشف الله له حكمة هذا الأمر فيغدو عابداً عالماً في وقتٍ واحد .

لكن أنا لا أقبل أبداً أن تضع الأمر الإلهي على بساط البحث ، فإذا قبله عقلك طبقته ، وإلا تقول : ما قنعت بهذا الأمر، هذا ليس سلوك المؤمن إطلاقاً ..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

أنت مع إنسان من جنسك ، لكنه عالم في الطب ، يقول لك : دع الملح ، ربما لا تجد حاجة إلى أن تسأله : لماذا ؟ يقول لك : هكذا قال الطبيب ، أنت لاحظ نفسك مع الخبراء الذين تستأجر خبرتهم ، تنفذ تعليماتهم بدقةٍ بالغةٍ مثيرةٍ للدهشة ، لأنك تعتقد بأنهم خبراء ، لكن مَن هو أخبر الخبراء ؟ قال تعالى :

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

اليوم في خطبة الجمعة ذكرت أن قول النبي الكريم :

((النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس ، من غض بصره أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه))

[مستدرك الحاكم عن حذيفة ، والطبراني في الكبير]

لكن النبي قال : ((سهمٌ مسموم من سهام إبليس)) ، فقد يفهم الإنسان أنه تضطرب حياته الاجتماعية والنفسية ، ولكن ثبت أخيراً ببحثٍ علمي أجري في البلاد العربية والإسلامية الشقيقة ، ودام هذا البحث عشرين عاماً ، أن الإنسان حينما يُتْبِع النظرة النظرة تجري في دمه هرمونات جنسية ، هذه الهرمونات تبدل نبض القلب ، وتبدل ضغط الدم ، وتبدل وضع البروستات ـ هذه الغدة ـ وتقبض الشُرَيْنات المتوسطة والصغيرة ، وتوسِّع الأوردة المحيطية ، وتبدِّل في كيمياء الدم ، وهناك آثار لا تنتهي في الجهاز الهضمي ، وفي جهاز القلب والدوران ، وفي الجلد ، كيف أن الغدد الدهنية والعرقية تتسع فوهاتها ، فالنتيجة بحث طويل ، تبيَّن أن النظرة إلى المرأة الأجنبية التي لا تحل لك ، إذا أتبعتها نظرةً ونظرةً ، فكأن هناك سمومًا تجري في دمك دون أن تدري ، ولها أثرٌ في القلب والأوعية ، وفي الجلد ، وفي بعض الغدد ، وما إلى ذلك ، فهذا كلام النبي ليس من عنده ..

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

أنت بلِّغ ، وعلى الله الباقي ، أنت إن بلَّغت أديت الذي عليك ، وبقي الذي لك .

ثم يقول الله عزَّ وجل :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ

1 ـ معنى : وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ

سؤال جدلي : فلو أنهم قتلوا النبيين بحق أعليهم وزر ؟ هذا مرفوض ، هذا السؤال ، لأن هذا ليس قيداً احترازياً ـ كما يقول علما الأصول ـ هذا قيد وصفي ، يعني أنّ أيَّ قتلٍ للنبي هو بغير الحق ، ليس قيداً احترازياً ، إنما هو قيدٌ وصفي ، ومن شأن قتل الأنبياء أن يكون بغير الحق ..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)

2 ـ الكفر بآيات الله الكونية والتكوينية والقرآنية :

وآيات الله كما تعلمون ، آيات الله الكونية الدالة على عظمته ، وآيات الله القرآنية الدالة على علمه ، وآيات الله الفعلية الدالة على حكمته ، فحينما يكفر الإنسان بها أي لا يعبأ بها ، ولا يتخذها وسيلةً لمعرفة الله عزَّ وجل ، وبالمقابل هذا الذي أمره ونهاه ، وهذا الذي أعطاه منهجاً ، يتوهَّم أن هذا المنهج سيحدُّ من حركته ، ويلغي حريته في الحركة ، مثل هذا الإنسان ، كما قال الله عزَّ وجل ، يكفر بآيات الله ويقتل النبيين بغير بحق ، بل ..

(وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

لا أَحَدَ أشقى ممّن يقف ضد الحق :

فلا أرى أن في الأرض أشقى ممن يقف ضدَّ الحق ، ممن يقف معادياً لأهل الحق ، ممن يكون في خندقٍ مضادٍ لخندق المؤمنين ، هذا أشقى إنسان على الإطلاق أن تكون مناهضاً للحق وأهله ، أن تكون عدواً للمؤمنين ، أن تكون عدواً لوحي السماء ، هؤلاء أشقى الناس على الإطلاق ، وأذكّر بقوله تعالى :

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم)

هما امرأتان ؛ حفصة وعائشة ، لهما شأنٌ مع رسول الله ، فالردُّ كان :

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ)

في حياتنا المادية أيعقل أن امرأتين انتقدتا النظام يستنفر الجيش كله ، والقوى الجوية كلها ، والقوى البحرية كلها ، والقوى البرية كلها ، وكل أفراد الشرطة ؟ غير معقول ، فما معنى الآية ؟ قال الله عزَّ وجل : إن أردت أن تكون عدواً للحق ، مناهضاً له ، فاعلم مَن هو الطرف الآخر ، الطرف الآخر هو الله ، ورسوله ، وجبريل ، والملائكة ، وصالح المؤمنين .

إذاً : أشقى إنسان على الإطلاق هو الذي يناهض الحق وأهله ، هو الذي يعادي الله ورسوله ، هو الذي يؤذي المؤمنين ، هو الذي يبني مجده على أنقاضهم ، هذا إنسان من أشقى البشر ..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

يقول عليه الصلاة والسلام :

((بئس القوم قومٌ يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، بئس القوم قومٌ لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، بئس القوم قومٌ يمشي المؤمن بينهم بالتقيَّة))

[فيض القدير عن ابن مسعود]

بئس هؤلاء ، بئس القوم قومٌ خافهم المؤمن ، بئس القوم قومٌ مشى بهم المؤمن بالتقية ، يخاف أن يعلن إيمانه ، بئس القوم قومٌ يقتلون المؤمنين ، يقتلون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِين

1 ـ المسلم بعمله الصالح :

مَن أنت ؟ أنت عملك الصالح ، بعملك الصالح تسلم وتسعد وترقى ، فإن كان عملك سيِّئاً أنت أشقى الناس ، هكذا :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

2 ـ هكذا يحبط العمل :

أي أن عملهم صار شريراً ، طابعه الشَر ، أو عملهم مقبول ، لكن نواياهم ليست سليمة ، أنت قد تكون بعمل ظاهره مقبول ، لكن النوايا دنيوية ، النوايا شهوانية ، النوايا مكاسب ، فحينما تكون

النية سيئةً يُحْبَط العمل ، أو حينما يكون العمل سيئاً لا قيمة لنيته ، فشرطان كلٌ منهما لازمٌ غير كافٍ ؛ ينبغي أن يكون عملك صواباً ، وفق منهج رسول الله ، وينبغي أن يكون عملك خالصاً لوجه الله ، فإن فعلت هذا وذاك ، كان الله معيناً لك..

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا)

عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا ، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

3 ـ أخطر شيءٍ أن تكتشف أنك لست مفلحاً في الدنيا والآخرة :

أخطر شيءٍ أن تكتشف أنك لست مفلحاً في الدنيا والآخرة ، الدنيا تنتهي ، والموت ينهي كل شيء ، ينهي قوة القوي ، وينهي غنى الغني ، وينهي وسامة الوسيم ، وينهي صحة الصحيح ، وينهي مرض المريض ، والآخرة عُمْلتها الرائجة العمل الصالح الخالص لوجه الله ، فإن كان لك عمل صالح ليس لوجه الله ، حبط العمل ، وإن كان عملك ـ لا سمح الله ـ سيئاً ولو أن نيته صالحة لا قيمة له عند الله ، فلا تنسوا هذه الحقيقة : أن يكون خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وصواباً ما وافق السنة .

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله في الأرض ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه))

[من الجامع لأحكام القرآن عن الحسن]

وسأل النبي رجل من أصحابه قال : يا رسول الله مَن خير الناس ؟ قال :

((آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصلهم لرحمه))

[من تخريج أحاديث الإحياء عن درة بنت أبي لهب]

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ)

(سورة التوبة : من الآية 67)

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة التوبة : من الآية 67)

أيها الإخوة الكرام ... في قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(21)أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

4 ـ ينبغي تغيير المنكر بمراتبه وضوابطه الشرعية :

هناك حقيقةٌ ينبغي أن تكون واضحةً لديكم ؛ أنت حينما ترى منكراً ينبغي أن تقوِّمه ؛ بيدك إن كنت أميراً ، وبلسانك إن كنت عالماً ، وبقلبك إن كنت ضعيفاً ، فتقويم المنكر باليد من أولى خصائص الأمراء ، وتقويم المنكر باللسان من أولى خصائص العلماء ، وتقويم المنكر بالقلب من صفات الضعفاء، هذه ناحية .

الناحية الثانية : إذا كنت قادراً على أن تقوِّم المنكر بيدك ، ليس مقبولاً منك أن تقوِّمه بلسانك ، وإن كنت قادراً على أن تقوِّمه بلسانك ، ليس مقبولاً منك أن تقوِّمه بقلبك ، هذه مراتب أيضاً ، وحينما لا نأمر بالمعروف ولا ننهى عن المنكر يعمُّنا البلاء ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال : من الآية 25)

والله عزَّ وجل لم يكن ليهلك القرى بظلمٍ وأهلها ـ قال : مصلحون ، ولم يقل : صالحون ـ الصالح الذي لا يأمر ولا ينهى يهلك ، أما المصلح فهذا الذي ينجو من عذاب الله .

وقال عليه الصلاة والسلام :

((لا يحل لمؤمنٍ أن يذل نفسه ، قالوا : يا رسول الله ، وما إذلال نفسه ؟ قال : يتعرض من البلاء لما لا يقوم له))

[من الجامع لأحكام القرآن عن أبي هريرة]

أنت لست مكلفاً أن تأمر بمعروفٍ ، أو أن تنهى عن منكرٍ ، وتأتيك مصيبةٌ بعدها لا قِبَل لك بتحمُّلها ، هذا ما كلفك الشرع به ، إن نتج عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتنةٌ أشد من المنكر الذي تُنكره ففي هذه الحالة يقرر علماء الفقه أنه ليس عليك أن تنكر هذا المنكر ، لأنك لا تتحمل نتائج ما تنكر .

ورد حديث عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله ، متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال :

((إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم ، قلنا : يا رسول الله ، وما ظهر في الأمم قبلنا ؟ قال : المُلك في صغاركم ، والفاحشة في كباركم ، والعلم في أراذلكم))

[ورد في الأثر]

إذا كان العلم في الفُسَّاق ، كإنسان يحمل شهادات عليا ، لكنه فاسق ، فعندئذٍ كما قال عليه الصلاة والسلام :

((... بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعْ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ))

[الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني]

وإذا كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتنةٌ أشد من المنكر الذي تنكره ، عندئذٍ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وقد ورد في بعض الأحاديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ ، فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ، بَطْنِهَا وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

ومن علامات آخر الزمان أن ترتفع النخوة من رؤوس الرجال ، وأن يذهب الحياء من وجوه النساء ، وأن تنزع الرحمة من قلوب الأمراء ، فلا رحمة في قلوب الأمراء ، ولا حياء في وجوه النساء ، ولا نخوة في رؤوس الرجال .

ثم يقول الله عزَّ وجل :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

1 ـ سبب نزول هذه الآية :

ورد في أسباب نزول هذه الآية ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت المِدْراس على جماعةٍ من يهودٍ فدعاهم إلى الله ، فقال نعيم بن عمرو :

ـ على أي دينٍ أنت يا محمد ؟

ـ فقال النبي : إني على ملة إبراهيم .

ـ فقالا : إن إبراهيم كان يهودياً .

ـ فقال النبي عليه الصلاة والسلام : فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم .

فأبيا عليه ، فنزلت هذه الآية :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

هؤلاء اليهود الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، والذين يرفضون أن يحتكموا إلى الكتاب ، ما الذي حملهم على ذلك ؟ قال :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)

2 ـ مشابهة المسلمين لليهود في بعض أقوالهم وأفعالهم :

وهؤلاء الذين قالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم سيشفع لنا ، ولو فعلنا ما فعلنا ، هذا المرض نفسه ، أنت إما أن تتعلق بالحقائق ، وإما أن تتعلق بالأماني ، والله عزَّ وجل يقول :

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ)

(سورة النساء : من الآية 123)

فاليهود قالوا :

(لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)

والمسلمون قالوا : نحن أمة محمدٍ مرحومة ، إذاً افعلوا ما تشاؤون ، هذه فِرْيَةٌ ما أنزل الله بها من سلطان ، هذه مقولةٌ قلناها نحن ، لكن الله عزَّ وجل يقول :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ :

((يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي هَاشِمٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا فَاطِمَةُ ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّار ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

[مسلم]

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

1 ـ يخترعون عقائد زائغة ثم يصدقونها :

هم يفترون ما يشاؤون ، ثم يصدِّقون ما يفترون ، شيء مضحك ، إنسان اخترع شيئا ، ثم صدَّقه ، هو اخترع مجموعة عقائد زائغة زائفة فاسدة ، ثم تعلق بها واتخذها حجة ، واطمأن إلى مصيره المستقبلي.

هناك مثل سأضربه لكم : طالب أوهمه زميله الكسول أن المدرس يعطي السؤال قبل يومين من الامتحان مقابل هدية معينة ، فهذا الطالب استراح ، عامٌ بأكمله لم يدرس فيه كلمة ، على أمل أنه قبل الامتحان يذهب إلى المدرس ، ويقدم له هدية ، فيعطيه السؤال ، ما الذي غره في هذا المدرس ؟ كلام صديقه الكسول ، ثم اكتشف فجأةً أن المدرس نزيه جداً وطرده من البيت ، وخسر العام كله .

هذا المثل البسيط لو كبَّرناه ؛ أوهمك رجل أن الله غفور رحيم ، الله لا يدقق ، الله غفور رحيم ، كل أمة محمد مرحومة ، **" حط رأسك بين الرؤوس وقل : يا قطاع الرؤوس "** ، لا يصير شيء ، ضعها برقبتي ، هذا كلام العوام ، فكيف إذا فوجئت أنك سوف تحاسب عن كل شيء ؛ عن كل بسمة ، وعن كل قرش أكلته حراماً ، وعن كل كلمة لم تكن صواباً ، وعن كل حركة لم تبتغ به وجه الله ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

لكن ماذا تفعل بقوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

ماذا تفعل بقوله تعالى :

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

2 ـ ما الغرور ؟

ماذا تفعل ؟ فيا أيها الإخوة ما الغرور ؟ أن تتوهم عن الله أشياء ليست صحيحة ، هو منزهٌ عنها ، أما الجواب الصاعق :

(فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

أين الأماني ؟ أين الأحلام ؟ أين التوهُّمات ؟

(فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

إذاً : معنى قوله تعالى :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

3 ـ صحّح اعتقادك إن لم يكن صحيحا :

لذلك أيها الإخوة الكرام ، يا أيها المؤمنون امسحوا عقائدكم ، اعملوا جردًا ، فأية عقيدة لا توافق الكتاب والسنة انبذوها ، وإلا هي مدمرة ، لأن كل خطأ بالاعتقاد يقابله خطأ في السلوك ، لابد من أن تتفحَّص ما ترسَّب في نفسك خلال هذا العمر ، هل هناك عقيدة غير صحيحة ؟ هل هناك غرور معيَّن ؟ هل هناك اغترار بالله ؟ هل هناك حديث موضوع تظنُّه صحيحاً ؟ هل هناك وهم تظنه حقيقةً ؟ لأن هنا مشكلة ..

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

(سورة الطور)

هناك صعق ، فهم اعتقدوا أنه ..

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(24)فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

كيف يكون حالهم ؟ أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة ، واضمحلت عنهم تلك الزخارف التي ادَّعوها في الدنيا ؟ وجوزوا بما كسبوا من كفرهم واجترائهم على الله عزَّ وجل ليوم ..

(لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

اخرج من الدنيا وليس لأحدٍ عليك مظلمة في مال وعرض ودمٍ :

تلك الحقيقة المرة فابحث عنها ، وأعرض عن الوهم المريح ، والحساب دقيق ، والله عزَّ وجل عادل ، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ فَقَالُوا : صَلِّ عَلَيْهَا ، فَقَالَ : هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا ؟ قَالُوا : لَا فَصَلَّى عَلَيْهِ ، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلِّ عَلَيْهَا ، قَالَ : هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ ؟ قِيلَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا ؟ قَالُوا : ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ ، فَصَلَّى عَلَيْهَا ، ثُمَّ أُتِيَ بِالثَّالِثَةِ ، فَقَالُوا : صَلِّ عَلَيْهَا ، قَالَ : هَلْ تَرَكَ شَيْئًا

؟ قالُوا : لَا ، قالَ : فَهَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ ؟ قالُوا : ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ ، قالَ : صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ ، قالَ أَبُو قَتَادَةَ : صَلِّ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَعَلَيَّ دَيْنُهُ ، فَصَلَّى عَلَيْهِ))

[البخاري ، والنسائي ، وأحمد]

يغفر للشهيد كل ذنبٍ إلا الدين ، فتقول لي أنا : أحج وأعود كيوم ولدتني أمي ، أقول لك : لا ، هذا فهم ساذج ، في الحج لا يغفر إلا ما كان بينك وبين الله ، ما كان بينك وبين العباد لا يغفر إلا بالأداء أو المسامحة ، تقول لي : أنا صمت رمضان إيماناً واحتساباً ، أقول لك : صيامك لرمضان يغفر لك ما كان بينك وبين الله ، وما كان بينك وبين الناس لا يغفر إلا بالأداء والمسامحة.

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(10-60): تفسير الآيتان 26 - 27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس العاشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية السادسة والعشرين، وهي قوله تعالى :

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْك

1 ـ كلُّ شيء في الكون ملكٌ لله :

أي شيءٍ في الكون الله مالكه ، والكون ما سوى الله ، والله عز وجل الذات الكاملة ، واجب الوجود ، وما سوى الله ممكن الوجود ، ما سوى الله هو الكون ، وفي المصطلح القرآن هو السماوات والأرض ، كل شيءٍ في الكون ، أو كل شيء في السماوات والأرض يُمَلَّك ، الله مالكه ، كل شيء في الكون ، يمكن أن يُمَلَّك فالله مالكه ؟

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

لكن الله جل جلاله ملكه مُلْكٌ تام ؛ يملك الشيء خلقاً ، ويملكه تصرفاً ، ويملكه مصيراً ؟

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

أي شيء تتمتع به فهو ملك الله عز وجل ؛ لك بيت ، بزلزال شدته خمسة رختر ينتهي ، صار أنقاضاً بعضها فوق بعض ، حركة ، صحة ، القلب يقف ينتهي كل شيء ، سمع ، بصر ، قد يفقد الإنسان بصره فجأة ، ومن أدعية النبي عليه السلام الثابتة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ))

[مسلم]

2 ـ صحتك ملك لله :

أي شيء تتمتع به ، عقلك ؛ ملك الله عز وجل ، قد يحمل إنسان أعلى شهادة في العالم ، خثرة لا تزيد على رأس إبرة ، تتجمد في بعض أوعية المخ يفقد الإنسان عقله ، ويفقد ذاكرته ، ويفقد حركته ، ويفقد توازنه ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

أي عضو تتمتع به ملك الله ، أي جهاز تتمتع به ملك الله ، أيَّة خبرة تملكها هي ملك لله ، يؤتى الحذر من مأمنه ، حدثني ما شئت ؛ عن العلم ، عن الخبرة ، عن النسب ، عن الحسب ، عن الوسامة ، عن الذكاء ، عن الحكمة ، عن الصحة ، كلها ملك الله عز وجل .

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

لك في الورى إن شاء خفض اً ذقته ، وإذا شاء عليهم رفعك

* * *

يرفع ، ويخفض ، يعطي ويمنع ، يعز ويذل ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

وكلما تعمَّقت في هذه الآية وجدت في عين الحقيقة أنك لا تملك شيئاً ، فإذا عرفت أنك لا تملك شيئاً ، تستحي أن تقول : أنا ، تستحي أن تسلِّط الضوء على شخصيتك ، أنت لا شيء ، كنت لا شيئاً ، فأصبحت به خير شيءٍ في الورى قد صنعك ، ليس يقيك أذاه أحدٌ ، وإذا استنصرت فيه نصرك ، كلمة:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

3 ـ مكانتك بيد الله :

لها معانٍ عديدة جداً : ابدأ بالنواحي المادية ؛ مكانتك في المجتمع ملك الله عز وجل ، الله عز وجل قادر أن تشوَّه سمعة إنسانٍ بلا سبب ، فمن الذي حبس ألسنة الخلق عنك ؟ الله جل جلاله ، مَن الذي أسبغ عليك ستره ؟ الله جل جلاله ، من الذي جعلك مكرمًا ؟ الله جل جلاله ، فالإنسان ما دام بقوته فهو محترم ، فإذا أصبح طريح الفراش ، ومضى على شلله عشرون عاماً ، يسمعه أقرب الناس إليه كلمات لا تحتمل ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

إن كنت تملك مكانةً فهي ملك الله ، مَلَّكَكَ إيَّاها ، إن كنت تملك محبة الناس ، فمحبة الناس بإلهام الله عز وجل ..

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه : من آية " 39")

لا أجد في اللغة العربية كلمة أوسع من كلمة (مالك الملك) ، أي شيء يُمَلِّك فمالكه هو الله ، معك مفتاح بيت فالملك لله ، ملكك إياه ، تركب مركبة الله ملكك إياها ، عندك زوجة الله ملكك إياها ، عندك أولاد أبرار الله ملكك إياهم ، تتمتع بصحة طيبة الله ملّكك إياها ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

تشرب كأس الماء فيخرج بشكل لطيف هذه مُلك ، جهاز الإفراز ملك ، ولو كان مسدوداً لأصبحت الحياة جحيماً لا تطاق ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

الجهاز الهضمي يعمل بانتظام ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

ماذا أحدثكم عن هذه الآية !! أي شيء تتمتع به ، وتنعم به إنما هو ملك الله ملكَّك إياه ، بل إن هذا الأعرابي الذي بيده قطيع من الإبل ، فسُئِل لمن هذه الإبل ؟ قال : لله في يدي ، وما من كلمة أبلغ من هذه الكلمة (لله في يدي) ؛ بيتك ، واختصاصك ، وحرفتك ، ودكانك ، وزوجتك ، وأولادك ، وسمعتك، وكرامتك ، وراحة بالك ، وحريتك التي أنت تتمتع بها ، قد تُلصَق بالإنسان تهمة هو بريء منها فيفقد حريته لسنوات طويلة ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

هذا هو التوحيد ، المؤمن الصادق لا يرى إلا الله ، لا يرى نعمة إلا من عند الله ، يرى المُنعم من خلال النعمة ، بينما الكافر تحجبه النعمة عن المنعم ، وفرق كبير بين من يحجب بالنعمة عن المنعم ، وبين مَن لا يرى النعمة إلا من الله عز وجل .

أيها الإخوة الكرام ، لمجرد أن تعزو النعمة إلى الله فهذا نوعٌ من الشكر ، ولمجرد أن يمتلئ قلبك محبةً لله ، فهذا نوع أرقى من الشكر ، ولمجرد أن تجعل حركتك في الدنيا في خدمة الخلق ، فهذا أرقى أنواع الشكر ، لقوله تعالى :

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

(سورة سبأ : من الآية 13)

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

لابد من محبة الله وشكر نعمه :

فكلما ازداد إيمانك يزداد تعلُّقك بالله عز وجل ، كلما ازداد إيمانك ، تزداد محبَّتك لله عز وجل ، لأنك لا شيء ، وأصبحت به كل شيء ..

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

مَن أنت ؟ ذات مرة رأيت في المطار طفلاً صغيراً ، يبدو أن السفر طويل ، من شدة الاحتياطات أصبح وسطه كالكرة ، هكذا الإنسان يوم كان صغيراً ، فإذا كبر ، ونسي الله الذي جعله من أب أو أم ، وأكرمه بمحبتهما له ، وأكرمه بعناية بالغة ، هذا الإنسان حينما ينسى أصله ، وينسى ضعفه ، وينسى جهله ، صار يحمل شهادةً عليا ، أو صار ذا مكانة مرموقة ، أو صار ذا ثروة بالغة ، هذا الذي ينسى أصله ليس من الشاكرين.

كان عليه السلام تعظم عنه النعمة مهما دقَّت ، كان إذا شرب كأس ماء له دعاء خاص ، كان إذا أفرغ ما في بطنه له دعاءٌ خاص ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَرَجَ مِنْ الْخَلَاءِ قَالَ :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الْأَذَى وَعَافَانِي))

[ابن ماجه]

هذا هو المؤمن ، المؤمن يرى أن الله عز وجل مالك الملك ، لأنه يرى أن مالك الملك هو الله فهو لا يتجه لأحدٍ غير الله ، ولا يعلّق أملاً إلا على الله ، ولا يعقد الرجاء إلى على الله ، ولا يرجو غير الله ، ولا يخاف من غير الله ، ولا يسعى بغير الله ..

(قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(162))

(سورة الأنعام)

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ

1-سلب النعم من حكمة الله :

من تشاء بحكمتك يا رب ، الله عز وجل حكيم ، المقولة الشهيرة : كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق ..

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

بحكمتك يا رب ، برحمتك يا رب ، بعدلك يا رب ، تؤتي الملك : أي شيء يُمَلِّك ، فلان عنده مأوى ، ملك ، فلان عنده خبرة ، يعيش من ريعها ، فلان عنده معرفة بالله ، هذا ملك يُمَلِّك ، بدليل قوله تعالى :

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ(82))

(سورة الواقعة)

فالتصديق رزق ، والتكذيب نوع من الرزق السلبي ، فأنا لا أعمم بقدر ما أعمِّق ، هذه الآية تغطِّي كل شيء ، تغطي ؛ صحة ، تغطي علماً ، تغطي أمناً ، تغطي مكانة ، تغطي أسرة ، تغطي أجهزةً ، تغطي معرفةً ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

مرة ضربت مثلاً : أن في معامل الحديد رافعاتٍ ضخمةً أساسها المغناطيس الكهربائي ، فهذه الروافع تحمل عشرات الأطنان ، وليس من قوة تستطيع نزعها من هذه الرافعة ، ولكن العامل الذي على الرافعة ، إذا ضغط زراً في مكان ما مقدار عُشر المليمتر ، وقطع الكهرباء عن الرافعة ، كل شيء في الرافعة يقع ، والله عز وجل أي جهة تراها قوية ، مَن الذي قوَّاها هو الله ، وفي أية لحظة يحرمها من هذه القوة ، فإذا هي في الحضيض ، وليس عنكم ببعيد أنه من أقوى الدول قبل سنوات لا تزيد على عشر ، من أقوى الدول أصبحت من أضعف الدول ، تداعت كبيت العنكبوت ..

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

فهذا المعنى : إنك إن تمتَّعت بقوة ، أو إن تمتعت بصحة ، أو إن تمتعت بعقل ، أو إن تمتعت بذكاءٍ ، أو إن تمتعت بخبرة ، أو إن تمتعت بأهل ، أو إن تمتعت بأولاد ، أو إن تمتعت ببيت ، إن تمتعت بمركبة ، إن تمتعت بخبرة ، كله من الله ، فكلما تعمَّقت في الإيمان وجدت أن الله هو كل شيء ، وأن الله منحك كل شيء ، وأن الله قادر على أن يسلبك كل شيء .

2 ـ احذروا نقمة الله :

والله سمعت قصةً لغرابتها لا تصدق ، أنّ أحد خمسة أغنياء في تركيا ، كل ثروته في الأبنية ، يعد خامس غني في تركيا ، له رأي : أن أمواله كلها موزعةٌ في أجمل مناطق تركيا ؛ أبنية ، وفيلات ، ومنشآت ، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة ، جاء الزلزال الأخير في مدينة إزمير ، صور في الأخبار أنه يسكن في خيمة ، ويأكل مما يجود عليه أهل الخير ، وفقد ثروته كلها ، كل ثروته أصبحت أنقاضاً ، كل ثروته أصبحت أنقاضاً ، فالله عز وجل إذا أعطى أدهش ، وإذا سلب أدهش فجأة .

والله مرة قال لي رجل : بيتي مع حدائقه يزيد على ألف متر ، عندي ثلاث مركبات ؛ مركبة للسفر فخمة وغالية جداً ، ومركبة للمدينة ، ومركبة للمعمل ، وقال : والله ما دخل بيتي من الطعام إلا أغلاه ، ومن الفواكه إلا أطيبها ، ومن الحلويات إلا أغلاها ، والله وجدته في دكانٍ في أحد شوارع

دمشق المتخلّفة يأكل من علبة سمك ، من دون صحن ، وينام على طاولة التفصيل ، ويذهب إلى سوق الهال ، فينقب في نفايات القمامة لعله يجد شيئاً يأكله ، إذا أعطى أدهش ، وإذا أخذ أدهش ، لذلك ، قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((يا عائشة ، أكرمي مجاورة نعم الله ، فإن النعمة إذا نفرت قلما تعود))

[ورد في الأثر]

إنسان تكلم كلمة كبيرة جداً قبل شهر ، بين كلمته وانتقام الله منه أربعٌ وعشرون ساعة ، والآن عنده شلل رباعي ، وفقد النُطق ، تكلَّم كلمة كبيرة جداً ، وهو في ريعان قوته ، وشبابه ، وجبروته ، وغناه ، ووسامته ، بين الكلمة التي قالها وانتقام الله منه أربع وعشرون ساعة ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

أنت لا تملك شيئاً .

والله زرت أحد الأشخاص في العيد ، من أعلام المجتمع ، ولكن جاءت خثرة في بعض أوعية المخ فتكلم كلامًا غير معقول أبداً ، أين ذكاؤه ؟ أين حنكته ؟ أين حكمته ؟ أين شخصيَّته المتألقة ؟ كلام ليس له معنى ، كلام مضحك ، لا يقوله طفل ، حتى إذا تكلَّمت كلاماً واضحاً جلياً منطقياً ، مترابطاً متسلسلاً، فهذه من نعمة الله لك .

وهناك نعمة مَن يعرفها ؟ إذا خرجت من بيتك تعود إليه ، فقد حدثني ابن أحد الإخوة الكرام قال لي : اتصل بي والدي ، وقال لي : يا بني أين بيتي ؟ لا أعرف بيتي ، أصيب بفقد ذاكرة جزئي ، نسي بيته ، قد يدخل عليك ابنك فترحب به : أهلاً يا بني ، هناك من لا يعرف أولاده ، أنا عاصرت ، وشاهدت بعض الأقارب اختل توازنه العقلي ، كلامه مضحك ، يستحي به أهله ، يتمنَّون موته ، وانتهاء حياته ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

قد يمشي إنسان في الطريق بلا هدف ، قد ينسى أين بيته ، فذاكرتك ، سمعك ، بصرك ، محاكمتك ، عقلك ، قوتك بيد الله ، والله سمعت عن إنسان يدفع عشرة آلاف ليرة في الشهر لمن ينزع منه فضلات الطعام من مستقيمه ، لأن مستقيمه أصيب بالشلل ، أن تخرج هذه الفضلات براحة من دون جهد ، من دون مساعدة من أحد من نعمة الله ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

هناك مَن يحمل بوله إلى جنبه ، قال لي : كل كيس ثمنه ثلاثمئة ليرة ، مشكلة ، ولا أعلم متى أخرج ، ما دام المستقيم أصيب بورم خبيث حوّل المخرج إلى طرف الخاصرة ، معها كيس ، هذا الذي يقضي حاجته بانتظام ، ينام ملء جفونه ، يستيقظ في الوقت المناسب ، هذه نعم لا تعد ولا تحصى ، كان عليه الصلاة والسلام كما يقول :

((اللهم أرنا نعمك بوفرتها لا بزوالها))

[ورد في الأثر]

في الجسم أجهزة وأعضاء وأنسجة ، كل مكان في الجسم لو أصابه العطب لأصبحت الحياة لا تطاق ، لأصبحت الحياة جحيماً ، هناك آلام لا تحتمل .

ثلاث نِعَمٍ لا تعدلها نِعَمٌ :

إخواننا الكرام ، مع كل هذه الشرح ، ثلاث نعم لا تعدلها نعم :نعمة الهدى ، فأنت تعبد الله ، هذه نعمة كبيرة ، هناك من يعبد البقر ، هناك من يعبد الحجر ، هناك من يعبد الشمس والقمر ، هناك من يعبد المَدَر ، هناك من يعبد ذكر الرجل في اليابان ، هناك من يعبد الموج ، هناك من يعبد الجرذ في الهند ، الجرذان آلهة ، وأنت تعبد الله ، هذه نعمة لا تعدلها نعمة ، نعمة الهدى ، و نعمة الصحة ، ونعمة الكفاية، فمن هداه الله إليه ، ومَلّك صحَّته ، وعنده قوت يومه ، فكأنما ملك الدنيا بحذافيرها ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي ، وابن ماجه]

وعندما الملك سأل وزيره :

ـ من الملك ؟

ـ قال : أنت .

ـ قال : لا ، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا ، له بيت يؤيه ، وزوجة ترضيه ، ورزق يكفيه ، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا ، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه .

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ

إنها لحظة بين أن تكون مسيطراً ، مهيمناً ، أمرك نافذ في أي جهةٍ من الأمكنة ، وقد سمعت قبل يومين أن أحد الحراس الشخصيين أطلق طلقة على سيده فأرداه قتيلاً ..

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

فالقوي قواه الله ، وإذا نزعت هذه القوة فقد سمح الله أن تنزع ، فكل إنسان ينسب القوة إليه فهو أحمق ، وكل إنسان ينسب الضعف إلى ظروف صعبة ، فهو أحمق . .

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

ربما منعك فأعطاك ، وربما أعطاك فمنعك :

ولكن أيها الإخوة لا بد هنا من تعليق : ربما منعك فأعطاك ، وربما أعطاك فمنعك ، والله عز وجل حكيم ، إذا نزع منك المُلك ، ثم كُشِفَت لك حكمة نزع هذا الملك فينبغي أن تذوب محبة لله ، إن أعطاه الملك فلحكمة ، وإن نُزِعَ منك الملك فلحكمة ، قد تكون عقوبة ، والعقوبة نوع من التربية ، وقد تكون وقاية ، والوقاية نوع من التربية ، وقد تكون ابتلاء ، والابتلاء رفع درجات ، على كل يجب أن تعتقد أن كل شيءٍ فعله الله هو محض حكمةٍ ومحض فضل .

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

مرة أحد كبار ملوك الأندلس كان يمشي في حديقته ، وكان شاعراً ، فرأى بركة الماء ، وقد هبَّت عليها نسائم لطيفة ، فجعلت على سطح الماء كالزرد ، أيْ كالسلسلة ، موجات ناعمة ، فقال : نتج الريح على الماء زرد

ولم يستطع متابعة هذا البيت ، فسمع وراءه جارية تقول :

يا له درعاً منيعاً لو جمد

* * *

أعجب بها إعجاباً شديداً لأنه شاعر وهي شاعرة ، وتزوجها وأصبحت في القصر ، اشتاقت مرة إلى أيام الفقر ، كانت تدوس في الطين ، فجاء لها بالمسك والعنبر وجبلهما بماء الورد ، فقال : هذا هو الطين ، ثم نزع منه الملك فجأة ، وأودع في السجن ، وبعد حين خرج من السجن ، وعاش معها في كوخ حقير ، وساءت العلاقة بينهما ، فكانت تقول له أحياناً : لم أر منك خيراً قط ، يقول لها : ولا يوم الطين !!

ورد في بعض الأحاديث أن النساء ـ طبعاً غير المؤمنات ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أُرِيتُ النَّارَ ، فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ ، يَكْفُرْنَ ، قِيلَ : أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ ؟ قَالَ : يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ))

[من مسند الإمام الشافعي]

فكان يقول لها : ولا يوم الطين !! مِن إنسان يسكن في قصر إلى إنسان فقير ، فالإنسان عليه ألا يتكبر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ))

[أبو داود]

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

الله يرفع ويخفض ، يعطي ويمنع ، يبسط ويقبض ، يعز ويذل ، يكرم ويهين ، ومن يهن الله فما له من مكرم .

والله مرة رأيت في الطريق إنسانًا تلقى صفعة ، قلت : والله لو مات لا ينساها ، أمام جمع غفير من الناس ، وهو يرتدي أجمل ثيابه ، قد خالف بعض المخالفات ، فجاء إنسان أرعن فصفعه على وجهه ، وهو في الخمسين ، الله عز وجل يهين أحياناً ، وقد يتجرَّأ عليك ولدك فيضربك ، لكن إن أحبك الله ألقى محبتك في قلوب الخلق ، فخدمك أعداؤك ، وإن غضب الله ألهم لأقرب الناس إليك يتطاولون عليك ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ؟ ثم من يعطي إذا ما منعك ؟

***

هذه ملَّة طه خذ بها

* * *

(وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ

فهذه الدنيا كل حال يزول ، قد تصيب عزاً ، وقد يذل الإنسان ، هذا يحيى البرمكي كان الرجل الأول في الدولة العباسية ، إذا هو في السجن يعذب ، فقال لبعض مَن حوله : " لعل دعوة مظلوم أصابتنا ، ونحن عنه غافلون " ..

وهذا فرعون ، كان له ملك مصر ..

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

تورط ، وتبع سيدنا موسى في البحر ، ثم أدركه الغرق ، ولولا أن الموج لفظه إلى الشاطئ لتوهم أتباعه أنه صعد إلى السماء ، فإمعاناً في إذلاله قذفه الموج إلى الشاطئ ..

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس : من الآية 92)

أحد الذين أسلموا في أمريكا بدأ يقرأ القرآن قراءة تفحُّص لا قراءة تعبُّد وفهم ، وعثر على آية ، فقال : هذه أول غلطة بالقرآن ، وهي قوله تعالى :

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس: من الآية 92)

له صديق بفرنسا من كبار العلماء ، اتصل به ، وقال له : هذه أول غلطة في القرآن ، فقال له : هذا الذي تذكره في متحف في مصر ، وموجود حتى الآن ، فرعون موسى الذي أدركه الغرق موجود في مصر ، وقد جيء به إلى باريس لترميم جثته ، نجاه الله ليكون لمن خلفه آية .

وبعد ذلك أيها الإخوة ، هناك مواعظ معاصرة لا ينقضي عجبها ، كم من جبَّار قصمه الله ، كم من إنسان يزهو بماله أفقره الله ، كم من إنسان يزهو جماله ، فالله عز وجل ساق له مرضاً خبيثاً ، فعلى كل الإنسان تحت ألطاف الله عز وجل ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

أجمل ما في الآية ، بحسب السياق :

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

إيتاء الملك خير ..

(وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

نزع الملك شر ..

(وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ)

الإعزاز خير ..

(وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

الإذلال شر بمفهوم الأرض ، كان ينبغي بحسب السياق أن تكون الآية : بيدك الخير والشر ، لكن الله عز وجل قال :

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

بِيَدِكَ الْخَيْرُ

1 - إيتاء المُلك خير ، وأن نزع الملك خير :

فقط ، ماذا يستنبط ؟ يستنبط أن إيتاء المُلك خير ، وأن نزع الملك خير ، وأن الإعزاز خير ، وأن الإذلال خير ، فالإنسان شارد ، تائه ، غافل ، غارق في المعاصي ، جاءه ذلٌ شديد فتاب إلى الله .

والله هناك أخ من إخواننا الكرام قال بالحرف الواحد : أنا كنت شارداً عن الله ، منحرفًا انحرافًا شديدًا ، ما صليت في حياتي ، ولا صمت ، وأنا مع أهل الضلال والغَيّ ، والفسق والفجور ، فجأة أصيب بمرض عضال ، فدخل المشفى ، وناجى ربه وقال : يا رب ألقاك وأنا عاصٍ ؟! أي أعطني

مهلة يا رب كي أتوب إليك ، وتبت ، الله أعطاني فرصة ، وتبت إليه ، لزمت دروس العلم ، صلَّيت ، شعرت بسعادةٍ لا توصف ، فمرة ناجيت ربي فقلت له : يا رب إذا كانت كل هذه السعادة من الإنابة إليك ، لِمَ لمْ ترسل لي هذه المصيبة قبل عشر سنوات ؟! كأنه عتب على الله ، كل هذه السعادة في القرب منك ، لمَ لمْ ترسل لي هذه المشكلة قبل عشر سنوات ؟!

الله عز وجل يعطي وهذا خير ، و يمنع ، وهذا خير ، يرفع ، وهذا خير ، يخفض ـ وهذا خير، يعز ، وهذا خير ، وَعِنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ :

((أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أمِّ السَّائِبِ أوْ أمِّ الْمُسَيَّبِ ، فَقَالَ : مَا لَكِ يَا أمَّ السَّائِبِ أوْ يَا أمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ ؟ قَالَتْ : الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا ، فَقَالَ لَا تَسُبِّي الْحُمَّى فَإنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ))

[مسلم]

2 ـ المؤمن الصادق يستقبل قضاء الله وقدره بالصبر :

المؤمن الصادق يستقبل قضاء الله وقدره بالصبر ، وبالبشر ، وبالرضا ، ولعل النبي الكريم قمَّةٌ في هذا الموضوع ، حينما ذهب إلى الطائف ، واعتدى عليه أهلها اعتداءً ماديا ـ هكذا تروي الروايات ، فقال :

((يا رب ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

ماذا كان بعد الطائف ؟ كان الإسراء والمعراج ، جاء التكريم الإلهي عرف أنه سيد البشر قاطبة ، وأنه سيد ولد آدم ، وأنه سيد الأنبياء والمرسلين ، وأنه حبيب رب العالمين ، وأن الله أقسم بعمره الثمين .

كل محنةٍ أيها الإخوة وراءها منحة ، للمؤمن طبعاً ، وكل شِدَّة وراءها شَدَّة إليه ، فلا تيأس ، وإياك أن تتشائم ، أو أن تقنط من رحمة الله ، أو أن ترى أن المصيبة جفوة من الله لك ، لا ..

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15))

(سورة الفجر)

هو يقول :

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي(16) كَلاَّ)

(سورة الفجر)

ليس عطائي إكراماً ، ولا منعي حرماناً ، فهذا أب طبيب ، وجد أن ابنه يعاني من التهاب في المعدة ، وثمة أكلة يحبها الابن محبة شديدة ، والأب بقسوة بالغة منع ابنه من هذه الأكلة ، خوفاً من

أن تنشأ مضاعفات هو في غنى عنها ، هل يعد هذا الابن المريض الذي منع من هذه الأكلة أنه لذيذة عند أبيه مهانًا ؟ لا والله ، من هنا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا ، كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة))

(من الجامع الصغير عن حذيفة)

لذلك المؤمن راضٍ عن الله عز وجل ..

هم الأحبة وإن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدل و إن عدلوا

والله وإن فتتوا في حبهم كبدي باق على حبهم راض بما فعلوا

* * *

فأعلى كلمة يقولها المؤمن : يا رب أنا راض ، والله حدثني أخ ـ طبيب من إخواننا ـ فقال : جاءنا مريض مصاب بورم خبيث في أمعائه ، غرفته عجيبة ، فيها بِشر ، فيها سرور ، فإذا ضغط على الجرس يأتي بعض الأطباء ، بل جُلُّهم ، والممرضون يلبون طلبه ، وكلما دخل عليه شخص يقول : يا رب إنني راض عنك ، فاشهد يا أخي أنني راض عن الله ، هذا المؤمن ، يرى يد الله الرحيمة الحكيمة تعمل في الخفاء .

فيا أيها الإخوة الكرام ... بيدك الخير ..

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى و الأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر و بيني وبين العالمين خراب

* * *

فلو شاهدت من حسننا الـذي رأوه لما وليت عنا لغيــرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا

و لو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقربــنا

ولو لاح من أنوارنا لك لائـح تركت جميع الكائنات لأجلـنا

* * *

أن تصل إلى محبة الله هذه غاية الغايات ، وهذا هو العطاء الذي لا يُحَد ، أن يحبك الله ، وطريق محبة الله أمامك بين يديك .

(وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ

1 ـ التفسير الاجتماعي للآية :

فبعضهم فسر هذه الآية تفسيرًا اجتماعيًّا ، قد تجد إنسانًا شارب خمر فاسقًا ، فاجرًا ، كافرًا ، يأتي من صلبه ابن صالح ، وقد سمعت أن رجلاً من الصالحين وهب أرضاً لتكون مسجداً في أحد أحياء دمشق، والابن الذي أنجبه شارد ، بل كان يؤمن بأنه (لا إله) فقط ، ولم يرض أن تبنى هذه الأرض مسجداً ، وعطَّل وصية والده ، هذا الابن الملحد أنجب ابناً ولياً ، قال لأبيه مرة : إن لم تنفذ وصية جدي فلست ابنك ، ولن ترني بعد اليوم ، فاضطر الأب المنحرف أن يبني هذه الأرض مسجداً ، أساسه هكذا ، إنسان حي ، حيٌّ بمعرفة الله أنجب ملحداً ، وهذا الملحد أنجب ولياً ..

(وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

هذا المعنى الاجتماعي .

2 ـ التفسير المادي :

وهناك معنى مادي ؛ أن امرأة تموت ، فيُفتح بطنها ، وتلد طفلاً حيًّا ، قد تجد طفلاً حياً في بطن امرأةٍ ميتة ، وقد تجد ميتاً في بطن امرأةٍ ترزق ، وتعيش ، فإما أن تأخذ المعنى المادي ، أو أن تأخذ المعنى الصحي ، كلاهما وارد .

(وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ)

وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ

إذا أعطى الله أدهش بغير حساب ، فالله عز وجل خلقك ورزقك .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ)

(سورة الروم: من آية " 40")

فعل ماضٍ ، هو الرزاق .

1 ـ الرزق أداة لتأديب الإنسان :

أيها الإخوة ، الله عز وجل رزَّاق ، ورازق ، وحينما خلق الإنسان تكفَّل له برزقه ، ولكن ربنا جل جلاله قد يتخذ من الرزق أداةً لتأديب الإنسان ، فقد يحرم المرء بعض الرزق بالمعصية ، والدليل :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من آية " 96")

ففي آيات كثيرة تربط بين الرزق والإيمان .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة: من آية " 66")

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: من آية " 6")

(على) تفيد الإلزام ، يعني الله عز وجل ألزم ذاته العلية برزق العباد.

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ)

(سورة هود: من آية " 6")

طبعاً (ما) و (من) من تفيد استغراق أفراد النوع ، أية دابة ، ولو أنها نملة سمراء على صخرة صماء ، في ليلة ظلماء ، لها رزق عند الله ، وقد تجد وعلاً ، يعيش في قمم الجبال ، وفي قمم الجبال ماء نبع ، مستودعه في جبل أعلى منه ، من أجل هذا الوعل .

الحديث عن الرزق شيء لا يوصف ، ما دام الله قد خلقنا ، فهو متكفّلٌ لنا برزقنا ، أما وصول هذا الرزق إليه فباختيارك .

مرة قلت : تفاحة في مكان معين ، في بستان معين ، على الشجرة معين ، على غصن معين ، هذه لفلان ، قد يأكلها فلان سرقةً ، وقد يأكلها تسوُّلاً ، وقد يأكلها ضيافةً ، وقد يأكلها شراءً ، وقد يأكلها هديةً ، الطرق تعددت ، أما هي له..

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب ، واستجملوا مهنكم))

[من الدر المنثور عن سعد]

كما ورد في بعض الروايات ، فالله عز وجل يقول :

(وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

2 ـ رزق الله بغير حساب :

الأب يحاسب ، أعطيتك كذا وكذا ، الدولة تحاسب ، آخذ تعويضات ، وآخذ أجور سفر ، وآخذ رواتب ، وآخذ ، وآخذ ، أما الله فبغير حساب ، لذلك العطاء من الله مريح ، أما من العباد فصعب ثقيل ، كلما ألقى نظرةً عليك ذكَّرك بفضله عليك ، هذا إن لم يقل للناس : أنا أعطيته ، لحم كتفك من خيري ، هكذا يقول بعض المُمْتَنِّين ، ولكن الله إذا أعطاك عزيزاً كريماً ، أعطاك وسترك ، أعطاك

ورفعك ، أعطاك وكرَّمك ، فالمؤمن لا يسأل إلا الله ، اللهم لا تجعل حوائجنا إلا إليك ، ودلنا بك عليك ..

(وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

3 ـ من حكمة الله تحريكُ الرزق والصحة :

آخر فكرة : الله عز وجل ثبت أشياء كثيرة ، استقراراً للنظام ، وحرَّك الرزق والصحة ، هذه من أجل تربية الإنسان ، الله يربينا بصحتنا وأرزاقنا ، أما دورة الأرض حول الشمس ، حركة الشمس ، حركة القمر ، خصائص المعادن ، خصائص النباتات كلها ثابتة استقرارا للنظام ، أما الله عز وجل فقد حرَّك الرزق ، وحرك الصحة ، فسماءٌ لا تمطر ؛ تجف الينابيع ، تجف الأنهار ، يموت الزرع ، يجف الضرع ، يرحل الإنسان ، قد تأتي المياه كأفواه القرب ، فالرزق متبدِّل ، بيد الله عز وجل يسوق هذا المطر لمن يشاء من عباده ، ويصرفه عمن يشاء ، فنحن علينا أن نعتقد أن الله هو الرزاق ، وأن استقامتنا على أمره ، وطاعتنا له ، أحد أكبر أسباب رزقنا ، إيماننا به ، واستقامتنا على أمره ، من خلال آيتي القرآن ..

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من آية " 96")

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

إذاً الرزق متعلق بالإيمان ، والاستقامة من خلال هاتين الآيتين ، وقد يحرم المرء بعض الرزق بالمعصية .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتقل في الدرس القادم إلى قوله تعالى :

(لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(11-60): تفسير الآيات 28 - 32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثامنة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

1 - الولاء والبراء :

يا أيها الإخوة الكرام ، هناك أصلٌ كبير من أصول الدين ، وهو الولاء والبراء ، فما لم توال المؤمنين، وما لم تتبرَّأ من الكفار والمنحرفين ، فأنت لست من الله في شيء ، هذا الموضوع خطير جداً ، لأنه قد يقول لك المسلم : أنا لا أسرق ، ولا أزني ، ولا أشرب الخمر ، ولكن قلبه معلقٌ بالكفار ؛ يحبهم ، ويصِلهم ، ويعتز بهم وهو لا يدري ، وقد ضيَّع أصلاً كبيراً من أصول الدين .

هذه الآية الكريمة أصلٌ ـ فيما يسميه العلماء ـ الولاء والبراء ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)) .

[متفق عليه]

أنت لك أصحاب ، لك أصدقاء ، لك جيران ، لك معارف ، لك أقران ، لك أخدان ، هؤلاء إن لم يكونوا مؤمنين فالمودة معهم ، والصلة بهم ، والمحبة لهم خطيرةٌ على دينك دون أن تشعر ، ما الذي ضيَّع المسلمين ؟ أنهم ذابوا في مجتمعات الكفر ، إلى أن أصبحت حياتهم مشابهةً للكفار ؛ أعيادهم ، وأفراحهم ، وطريقة تفكيرهم ، وأنماط سلوكهم ، هذه كلها مطابقةٌ لما هو عند الكفار ، لذلك ورد في الحديث الشريف عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا ، وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)) .

[متفق عليه]

قد تجد إنساناً يسافر إلى بلد غربي ، ويعود ، فيثني عليهم ثناءً لا حدود له ، يتعامى عن كل نقائصهم ، وعن كل انحلالهم ، وعن كل انغماسهم بالملذَّات القذرة ، ويشيد بأبنيتهم ، وشوارعهم ، ونظمهم ، وحقوق الإنسان عندهم ، هذا الذي لا يرى من الصورة إلا وجهاً واحداً ، أو يتعمَّد إغفال الوجه السلبي، هذا معنى ذلك أنه موالٍ له ،

((من هوي الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً)) .

[من كنز العمال عن جابر]

على كلٍ ، نحن أمام قرآنٍ كريم ، نحن أمام كلام خالق البشر ، نحن أمام كلامٍ لا يعلو عليه كلام ، يقول الله عزوجل :

(لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ)

2 ـ مَن هو الولي ؟

مَن هو الولي ؟ إنسان تحبه ، إنسان تصله ، إنسان تستنصحه ، إنسان تهتدي برأيه ، تُصغي إلى كلامه، هذا هو الولي ؛ محب ، مُناصر ، قريب ، موصول ، فما قولك بمؤمنٍ بالله ورسوله يدع المؤمنين ويبتعد عنهم ، ويلتصق بالكفار ، ويصلهم ، بل ويحبهم ؟! ما قولك أن هذا العمل يسلخك من الإيمان ، وينزع عنك الإيمان ، ولو كنت صائماً مصلياً ؟ هكذا يقول الله عزَّ وجل :

(لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

قال بعض العلماء : من دون المؤمنين استقلالاً أو مشاركةً .

لك أصحابٌ من المؤمنين ، ولك أصحابٌ من الكفار والمشركين ، ومع كِلا الفريقين تمضي سهرةً ممتعةً ، ويبتسم وجهك ، وينطلق لسانك ، وتَمْحَضهم النصيحة ، وتستهديهم ، وتسترشدهم ، وتأخذ رأيهم ، وتقيم علاقاتٍ متينةٍ معهم ، وتهاديهم في أفراحهم ، وتعزيهم في مصائبهم ، وكأنك واحدٌ منهم ، بل وتحتفل بأعيادهم ، بل وتفعل في بيتك ما يفعلونه هم في أعيادهم ، قال :

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

1 ـ الولاء والبراء من علامات الإيمان :

علامة إيمانك أنك توالي المؤمنين ، ولو كانوا فقراء وضعفاء ، وتتبرَّأ من الكفار والمشركين ، ولو كانوا أقوياء وأغنياء ، من علامة إيمانك أنك تودُّ المؤمن ، ولو أساء إليك ، وتبغض الكافر ، ولو منحك عطاءً كبيراً ، هذا هو الإيمان ، القضية قضية ولاء وبراء .

أنت مع مَن ؟ أنت مع المؤمنين ، إذاً تتألَّم لآلامهم ، تشقى لشقائهم ، تفرح لسعادتهم ، تسرُّ بنصرهم ، تحزن بتأخرهم ، هذه علامة إيمانك ، فإذا كنت توالي أهل الكفر والشرك ، وتشيد بانتصاراتهم ، وأنت معجب بقوتهم ، وجبروتهم ، وأنت راضٍ عن انحرافهم وانحطاطهم ، ولا يضيرك أن تقلدهم فيما يفعلون ، فاعلم علم اليقين أنه لا ذرة إيمانٍ في قلبك ، والدليل قوله تعالى :

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

ورد في بعض الآثار أن الله عزَّ وجل يقول : **" يا عبدي ، ماذا فعلت من أجلي ؟ يقول : يا رب ، فعلت كذا وكذا ، يقول الله له : تعجلت بهذا الراحة لقلبك ، ولكن ماذا فعلت من أجلي ؟ قال : يا رب ، وما أفعل من أجلك ؟ قال : هل واليت فيَّ ولياً ؟ هل عاديت في عدواً ؟ ".**

فإذا دعاك غنيٌ أو قويٌ ولو كان متفلتاً من الدين لبيت دعوته ! أما إذا دعاك قريبٌ لك فقيرٌ من أطراف المدينة فإنك تعتذر ؛ الوقت ضيق ، ومشغول ، فتلبية دعوة المؤمنين الفقراء من عمل الآخرة ، وتلبية دعوة الأغنياء والأقوياء من عمل الدنيا ، من مُتَع الدنيا ، فانتبه لو أنك لم تشرب الخمر ، ولم تزن ، ولم تقتل ، ولم تسرق ، لمجرد أن توالي الكفار والمشركين ، وأن تحبهم ، وأن تعظّمهم ، وأن تشيد بتفوقهم ، وأن تتحدث عن حضارتهم .

1 ـ هذا شرك فاحذره :

أيها الإخوة ، هذا الموضوع خطيرٌ جداً ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى له امتحانات عديدة في أفعاله ، ففي حينٍ يقوِّي الكفار ، يقويهم إلى درجة مذهلة ، فيبدو للناظر أن كلمتهم هي العُليا ، يبدو للناظر أنهم يفعلون ما يريدون ، وأنهم أقوى قوةٍ في الأرض ، وأنه لابد من موالاتهم ، وإلا فلن ننال شيئاً ، هذا كلام يطرح ، لابد من موالاة هذه الدولة القوية ، وإلا لا نصل إلى شيء ، ومهما تنازلت ، ومهما خضعت ، ومهما صغرت لا تأخذ شيئاً إلا مزيداً من السلب والقهر.

هذه مشكلة كبيرة ، حينما ترى أن جهةً غير الله بيدها كل شيء فهذا شرك كبير ، والله هذا يكاد يكون شركًا أكبر ، حينما ترى أن جهةً قويةً جداً بيدها كل شيء ، ولابد من موالاتها ، ولابد أن تقيم معها علاقةً طيبة وإلا سحقتك ، هذا هو الشرك بعينه ، أين الله ؟

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 257)

هذه الآية أيها الإخوة من أخطر الآيات في حياة المؤمن ، أنا لا أقول لك : أن تناصبهم العِداء ، لا أقول لك : إن أية علاقة معهم محرَّمة ، علاقات العمل مشروعةٌ ولا شيء فيها ، أنا أبعدك عن علاقاتٍ حميمة ، عن شراكةٍ اندماجية ، عن صحبةٍ متينة ، عن نزهةٍ طويلة ، عن سهراتٍ مختلطة ، هؤلاء لهم قيَمهم ، ولهم طريقتهم في الحياة ، يعيشون للدنيا وحدها ، لا يعبأون بقيم الدين ، ولا قيم الآخرة ، كيف تنسجم معهم ؟! وكيف تصفو العلاقة بينك وبينهم ؟! هذا مستحيل إلا أن يكون هذا الذي يواليهم على شاكلتهم .

2 ـ شخصية المؤمن لها سمات غير سمات الكافر :

أيها الإخوة الكرام ، شخصية المؤمن لها سمات ، وشخصية الكافر والمشرك لها سمات ، فحينما يندمجان فلابد أن تعتقد يقيناً أن سمات المؤمن كاذبة ، وليست صحيحة ، لو أنها حقيقية لما انسجمت مع سمات الكافر ، إنها مزوَّرة ، إنها مُدَّعاة ، يدعي أنه كذا ، وهو ليس كذلك ، فشيءٌ خطير أن تركن إلى كافر ، أن تستسلم له ، أن تصغي إليه ، أن تمحضه الود ، أن تحبه ، أن تتعلق به ، أن تعظِّمه ، أن تكبره ، أن تراه قوياً ، أن تراه يعيش حياةً راقية ، أين هذا هو الرقي ؟ .

لا توازن بين شيئين إلا بميزان الآخرة

أيها الإخوة الكرام ، أتمنى عليكم شيئًا ، جرِّب ألا توازن بين جهتين ، ولا بين أمتين ، ولا بين شعبين، ولا بين دولتين ، ولا بين رجلين ، ولا بين حرفتين ، جرب ألا توازن بين جهتين إلا إذا أضفت الآخرة إلى كلٍ منهما ، قد تجد مطعمًا دخله فلكي ، لكنه يبيع الخمر ، وقد تجد مطعمًا في قرية غلته لا تزيد على مئتي ليرة في اليوم ، لكنه يبيع بإخلاص ، ويقيم شرع الله ، ففي الموازنة الظاهرة شتان بين المطعمَين ، أما في الموازنة الحقيقية إذا أضفت الآخرة إلى كلٍ منهما وجدت أن هذا المطعم المتواضع، الذي دخله لا يكفي مصروف صاحبه ، هو أرقى على المدى البعيد من صاحب هذا المطعم الأول ، وقس على هذا كل شيء .

دخل سيدنا عمر على النبي صلى الله عليه وسلم ، فرآه مضطجعًا على حصير ، وقد أثر الحصير على خده الشريف ، فبكى عمر ، قال :

ـ يا عمر ما يبكيك ؟

ـ قال : رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟!

ـ قال : يا عمر ، أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا ؟! هذه رواية .

الرواية الثانية : يا عمر ، إنما هي نبوةٌ وليست ملكاً .

الراوية الثالثة : أفي شكٍ أنت يا عمر ؟

قال : لا .

الدنيا لا قيمة لها ، وأساساً :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام : من الآية 44)

فأضف إلى أركان دينك الولاء والبراء ، ينبغي أن توالي المؤمنين ، وأن تتبرأ من الكفار والمشركين ، أنا لا أقول لك : أن تناصبهم العداء ، قد لا تقوى عليهم ، لا أقول لك : أن تشتمهم في وجههم ، لا ، لا ، ولكن تبرأ منهم ، ابتعد عنهم ، علاقات العمل مقبولة ، علاقات العمل أنت مضطرٌ أن تعاملهم ولا شيء عليك ، أما العلاقات الحميمة ، السهرات الطويلة ، الصلات المتينة ، السفر ، النزهات ، الشراكة الاندماجية بينك وبين كافرٍ أو مشرك ، كيف تنسجم معه ؟ كيف تقبل قيمه ؟ كيف ترضى عن تفلته ؟ كيف تستسيغ نفاقه ؟!! لابد من أنك على شاكلته ، فكلما اقتربت من أهل الكفر ابتعدت عن أهل الإيمان، وكلما واليتهم كان جفاءً لدينك ، ولقيمك ، ولمبادئك ..

(لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

3 ـ الموالاة على الكفر كفرٌ ، وعلى الفسق فسقٌ :

هناك بعض التفصيلات : لو أنك واليتهم على كفرٍ فموالاتك كفر ، لو أنك واليتهم على كفرٍ ، هم كفار، وأنت مدحتهم ، أو أثنيت عليهم ، أو أقررتهم على ما هم فيه ، إذا واليتهم على كفرهم فموالاتهم كفرٌ ، وإن واليتهم على فسقٍ فموالاتهم فسقٌ ، وإن واليتهم على حرب المؤمنين فموالاتهم كفرٌ ، بل هو أشد أنواع الكفر أن تستعين بكافرٍ على مؤمن ، العبرة أن تكون مع المؤمنين ، وفي خندق المؤمنين ، ومع أهل الحق ، ولكن قد تجد في هذا صعوبة لأن الكفار أقوياء ، وعندهم أشياء مغرية جداً لكنهم في النهاية لن يعطوك شيئاً .

أنا أقول كلمة واحفظوها : المسلم إذا والى كافراً ، وأعانه على كفره ، أو أعانه على ظلمه ، أو أعانه على فسقه ، بمثابة منديلٍ مُسِحَت به أقذر عمليةٍ ، ثم ألقي في سلة المهملات ، هذا هو المسلم إذا أعان كافراً على كفره ، أو على فسقه ، أو على انحرافه ، أو على فجوره ، وأشاد به ، وأثنى

عليه ، وعظَّمه، وقدَّره ، حاول أن تكون مع المؤمنين لأن الله معهم ، وإذا كان الله معك فمَن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمَن معك ؟ ..

(لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

من دونِهم ، لأن الكفار دونَهم ، الحقيقة حينما يكشف الغطاء تعرف الحقائق ، قد تجد مؤمناً بسيطاً ، مستقيماً ، فقيراً ، متواضعاً ، مهمَّشاً في الحياة ، لكنه يخاف الله ورسوله ، هذا المؤمن يوم القيامة تجده علماً من أعلام الآخرة ، وقد تجد كافراً متألّقاً ، مشهوراً ، معروفاً ، معزَّزاً ، مكرَّماً، مبجلاً ، لو رأيت مقامه في الآخرة لرأيته في أسفل سافلين ، فالعبرة أن هذه المراتب في الدنيا لا قيمة لها ، قال تعالى :

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا(21))

(سورة الإسراء)

من يعرفني ؟ إذا كنت مع الله فالله معك ، وإذا كان الناس لا يعرفون فضلك ، فالله يعرف مكانتك ، والله يعاملك معاملةً يشعرك أنه يحبك ، وأنك عنده بمكان .

فيا أيها الإخوة الكرام ، هذه آيةٌ من أخطر الآيات ، لأن عدم تطبيقها قد يكون سبباً لانسلاخك من دين الله ، والدليل :

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ

ليس له موالاةٌ مع الله إطلاقاً ..

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ)

لأنه في المنطق لا يقبل أن توالي رجلاً ، وأن توالي عدوه ، مستحيل ، لا يجتمع موالاة جهةٍ وجهةٍ معاديةٍ لها ، من هم أصدقاؤك ؟ قال : صديقك ، وصديق صديقك ، وعدو عدوك ، من هم أعداؤك ؟ عدوك ، وصديق عدوك ، وعدو صديقك ، فلا يجتمع أن توالي كافراً ، وأن توالي مؤمناً ، إنهما متناقضان ، إلا أن يكون منافقاً ..

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(14))

(سورة البقرة)

هذا المتلون منافق ، ولا شأن عنده عند الله ، و..

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ)

(سورة النساء : من الآية 145)

لا تستح بدينك ، فإنّ الله ناصرُه :

شيء رائع جداً أن يكون لك هوية ، أنت مسلم ، فلا تستح بدينك ، قدمت لك ضيافةٌ في رمضان فلا تقل : معي قرحة ، لا بل قل : أنا مسلم ، وصائم ، لا تخف ، الذي أنزل هذا الدين هو الذي يحميك ، فإذا كنت لا ترى أن الله لا يحميك فلماذا تعبده ؟ إن كنت ترى أن جهةً يمكن أن توقع بك سوءًا ، واللهُ لا يتدخل ، فلماذا تعبد الله ؟ هذا كلام منطقي ؛ أنت مع أقوى الأقوياء ، أنت مع خالق الأرض والسماء، أنت مع رب العالمين ، أنت مع من بيده ملكوت كل شيء ، أنت مع من أمره هو النافذ ..

(إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(82))

(سورة يس)

أنت مع مَن ؟ مع مَن يفعل ما يريد ، العالم كله ، المجرات كلها في قبضته ، الأقوياء جميعاً في قبضته، فأنت مع الله ، فلا تخشَ مع الله أحداً .

(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)

(سورة الأحزاب : من الآية 37)

فيا أيها الإخوة ، حينما توالي أهل الكفر والطغيان ، معنى ذلك أنك لا تعرف الله ، وأنك ليس لك ولاءٌ مع الله إطلاقاً ، لا يعقل أن تواليَ عدواً لله ، لا يعقل أن توالي مَن يرفض دين الله ، لا يعقل أن توالي من يستهزئ في عباداتك ، لا يعقل أن توالي من يريد أن يطفئ نور الله .

دقق في هذه الآية ، بربك لو رأيت إنساناً يتّجه نحو الشمس ، وينفخ في قرصها ليطفئها ، بمَ تحكم عليه؟ بالجنون ، ماذا يقول الله عزَّ وجل ؟

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ)

(سورة الصف : من الآية 8)

إذا كانت أشعة الشمس ، أو لهب الشمس لا يمكن أن يطفأ بنفخةٍ من فم إنسان ، فهل يعقل أن يستطيع الكفار ، ولو اجتمعوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ؟! كم من أمةٍ قام فيها من يريد إلغاء الدين ، بأماكن عديدة في العالم ، ما الذي حصل ؟ هؤلاء الذين أرادوا إطفاء نور الله هم انطفؤوا ، وبقي نور الله ساطعاً .

لذلك لا تقلق على هذا الدين ، إنه دين الله ، وإذا شاء الله عزَّ وجل نصر دينه بالرجلِ الفاجر ، وهذا من حكمة الله عزَّ وجل ، ولكن اقلق على شيءٍ واحد ، ما إذا سمح الله لك ، أو لم يسمح أن تنصر دينه، وإنه لشرفٌ عظيم أن تكون جندياً من جنود الحق ، فلابد أن تكون مع المؤمنين ؛ بقلبك ، وقالبك ، بمشاعرك ، وعواطفك ، وقد يكون المؤمنون ضعافاً ، عندهم فوضى ، وعندهم تقصير ، لكنهم طيبون، طيبون مقصرون ، هؤلاء الذين يعجبونك خبثاء ، خبثاء مجرمون .

يا أيها الإخوة ، لكن القوي مسموع الكلمة ، والضعيف لو تكلم لا يسمع صوته ، أنت مؤمن ، لابد أن تكون هذه الآية أحد أركان عقيدتك :

(لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

لا يتخذهم استقلالاً ، أي أنه ترك جميع المؤمنين ووالاهم ، أو مشاركةً ؛ والى بعض المؤمنين ، ووالى بعض المشركين ، والولاء لا يقال له ولاء ، لكن الحب ، والود ، والنصيحة ، والتقليد ، تقلدهم في حياتهم ، في أعيادهم ، في أفراحهم ، في أتراحهم .

استثناء مهمّ : فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ

لكن العلماء استثنوا ، قال تعالى :

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 7)

عاملك إنسان غير مسلم معاملة طيبة ، أنت من واجبك أن تعامله معاملةً طيبة ..

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 7)

ولم يقاتلك ، ولم يتآمر عليك ، ولم يطعن بك ، ولم يسئ إليك ، قال تعالى :

(لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة : من الآية 8)

فلا شيء ، إنسان ليس مسلماً ، أراد أن يزورك ، ويسمع منك ..

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ)

(سورة التوبة : من الآية 6)

استقبله ، ورحِّب به ، وضيفه ، وتكلم الحق أمامه ، فأي لقاء يتم بين مسلم وغير مسلم أنا أرحب به ، وأرحب به كثيراً ، بشرط أن يتاح للمسلم أن يعرض أفكاره ، ودينه أمامه فقط ، فإذا كان بإمكانك أن تعرض ما عندك فاجتمع مع أي إنسان ، وكُن بشوشاً ، لطيفاً ، الإسلام واقعي ، لكن شخصًا لا يعبأ بدينك ، ولا يقيم له وزناً ، ويحتقر منهجك ، وهو قوي ، أو غني ، فأنت تزوره ، وتتذلل إليه ، وتتضعضع أمامه ، فهذا لا ينبغي ، والنبي الكريم يقول :

((من جلس إلى غني فتضعضع ذهب ثلثا دينه)) .

[من زيادة الجامع الصغير عن ابن مسعود وأنس]

فكيف إذا كان غنياً غير مسلمٍ ، ولكنه مشرك ؟! لا ..

(لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

تهديد إلهيٌّ :

هل بعد هذا التهديد من تهديد ؟

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

أحياناً يقول الأب لابنه : إن صاحبت فلاناً فلست ابني ، فهل بعد هذا التهديد من تهديد ؟ إن صاحبت هذا الشاب الفاسق فلست ابني ، ولن أعترف بك ، هذا أعلى أنواع التهديد ..

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

لكن :

(إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً)

إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاة

هذه رخصة من الله :

فإذا كان هذا الكافر قوياً جداً ، لدرجة أنك إن لم تشعره أنك قريبٌ منه سحقك ، أو أنهى حياتك ، في مثل هذه الحالات هناك رخصةٌ اسمها التَقِيَّة ، لكن هذه تقدَّر بقدرها ، ولا يتوسع فيها كثيراً ، فإذا هددت حياتك ، يمكن أن تظهر له بعض المودة اتقاءً لشره ، وشر الناس من اتقاه الناس مخافة شره ، كإنسان له لقب معين ، فإن لم تناديه بهذا اللقب نشأت مشكلةٌ لا قِبَل لك بها ، تناديه بهذا اللقب ، النبي الكريم كتب : " من محمدٍ رسول الله إلى عظيم الروم " ، هل كان قيصر عنده عظيماً ؟ لا ، ولكن هذا لقبه ، ففي حالات يكون المؤمن حكيمًا ، والشرع دقيق جداً ، فلان له لقب معين أناديه بلقبه ، هذا لا يزيد ، ولا ينقص ، فحينما تخاف شر إنسانٍ ظلومٍ ، جبارٍ ، لا يخاف الله ، تناديه بلقبه ، أو حينما تظهر بعض المودة في حالاتٍ نادرةٍ جداً ، في حالاتٍ تهدد فيها كل مصالحك ، فهذا سمح الله به ، لأن الشرع يسع كل الأحوال ، وكل الظروف ، ففي ظروف نادرة جداً إن لم تظهر له مودةً فعل بك ما فعل ، وهذا الشيء واقع ، إذاً أنا أتقي شره بهذه الكلمة ، أو بهذه الابتسامة .

لكن لو وافقت غير مسلمٍ ، أي لو وافقت كافراً أو مشركاً على عملٍ مباح ، فلا مانع ، كأن نريد أن نلغي الظلم في هذه الجهة ، فتعاونا ، النبي استعان بمشركين لإزالة ظلم ، هذه المعاهدات التي جرت بينه وبين القبائل ، فقال العلماء : يجوز أن تستعين بكافر لرد ظلامةٍ ، أو لتحقيق مصلحةٍ للمسلمين ، طبعاً من دون أن نخسر شيئاً ، دقق ، من دون أن يكون هذا على حساب ديننا ، ولا

على حساب شرعنا، ولا على حساب مصالحنا ، مجرد جهة بعيدة تريد أن ترفع عنها الظلم ، فتعاونا كدولتين فلا في مانع ، هذا الشيء مشروع ، هذا من الاستثناءات المتعلقة ..

(إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً)

ويقول الله عزَّ وجل :

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ

ويحذركم الله ذاته العليَّة ، أي إياك أن تظهر شيئاً ، وأن تخفي شيئاً ..

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : من الآية 179)

ويحذركم الله ذاته العليا أن تجترئوا عليه ، وتوالوا أعداءه ، حينما قال الله عزَّ وجل :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ)

دققوا الآن ..

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 60)

فيجب أن يكون عدوكم هو نفسه عدو الله ، هذه الآية دقيقة جداً ، لا يمكن أن تحارب إلا من كان عدواً لله ، يجب أن يكون عدوكم ، وعدواً لله في وقتٍ واحد ، أما إذا كان عدوكم ، ولم يكن عدواً لله ، فيا لطيف !! هذا الذي يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم إلى أبد الآبدين ، يجب أن يكون هذا الذي تقاتله عدواً لك ، وعدواً لله في وقتٍ واحد ، وإلا فأنت مجرم في حق المؤمنين ..

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

هذا واقع المسلمين للأسف الشديد :

سوف تعودُ إلى الله ، وترجعُ إليه ، وسوف يحاسبك عن هذه الموالاة ، وهذا الانحياز .

صدقوني أيها الإخوة ، إنك لو دققت في حياة المسلمين بعمق ، وجدت ولاءهم لغير المسلمين ، فيتفنن المسلم أحياناً كيف يوقع بك الأذى ، ويعلم أنك مسلمٌ مثله ، فإذا جاء مع غير مسلم كان لطيفاً إلى درجةٍ لا تصدَّق ، أليس هذا ولاءً لهم ؟

هذا الأخ المؤمن ، وتعلم أنه مظلوم ، تتفنن في إيقاع الأذى به ؟ وهذا القوي غير المسلم تتفنن في ملاطفته ، وفي البحث عن حلٍ لمشكلته ، وفي بيان سبيلٍ لنجاته ؟! كيف تواجه الله يوم القيامة ؟ هذا الذي جاءك ضعيفاً ، توقع به أشد أنواع الأذى ، وأنت مرتاح ، وهذا الذي جاءك قوياً ، تفكر له

عن حلٍ لمشكلته دون أن تشعر ، هذا والله ولاءٌ ، وأيّ ولاء ، وبراءٌ من المؤمنين ، وأيّ براء ، لو دققت في حال المؤمنين ، فيكفي أن توالي هؤلاء ، وأن تحبهم ، وأن تدافع عنهم ، وأن تشيد بهم ، وأن تتحدث عن براعتهم ، وعن كفاءتهم ، وعن تفوّقهم وأنت لا تدري ، أنت واليتهم ، وأنت لا تدري .

هذا درسٌ مهم جداً ، أيها الإخوة ، حتى يرضى الله عنا ، وحتى ينصرنا ، وحتى ينظر إلينا بالعطف فلابد أن نكون مع المؤمنين ، وأن يكون ولاؤنا للمؤمنين ، ومحبتنا للمؤمنين ، وقد لا يعجبك المؤمن ، فيه تقصير ، فيه تخلف ، فيه جهل أحياناً ، فيه تجاوز ، واحد عنده أولاد ، فأولاده قدره ، شاء أم أبى ، أولادنا قدرنا ، والمؤمنون قدرنا ، لكن محبتنا لهم ، وعطفنا عليهم ، وقوتنا لهم ، وحرصنا عليهم ، وخبرتنا في خدمتهم .

نماذج حية من الولاء والبراء :

أيها الإخوة ، أضع بين أيديكم نموذجًا للولاء والبراء : طبيب مقيم بأمريكا ، وله دخلٌ فلكي ، ويعيش حياةً ماديةً تفوق التصوُّر ، لكنْ في أعماقه شعور بالذنب ؛ أن كل علمي ، وكل خبرتي ، وكل تفوقي لغير المسلمين ، فعاد إلى بلده ، وافتتح عيادةً ، لا شك أن الموازنة بين بلده ، وبين بلد غربي متقدم فيها بونٌ شاسع ، لكنه أسرّ لي ، وقال : شعرت براحةٍ لا توصف ، لأنني أعالج المسلمين ، وأضع علمي في خدمتهم ، هذا شاهد .

قبل أيام زارني أخ ولد في أمريكا ، طبيب ، ولكنه متخصص في الأطراف الصناعية ، وأراني بعض إنجازاته ، شيءٌ مذهل ، طفل صغير قطعت رجله من أعلى الفخذ في حادث ، بعد تركيب طرف صناعي صار يمشي ، قدَّم خدمات ، قال لي : أنا والله أتمنى أن آتي إلى الشام في العام ثلاث مرات كي أعالج هؤلاء المصابين بتكلفةٍ فقط من دون أي ربح ، والرقم رمزي جداً ، شعر أن كل خبرته لغير المسلمين ، شعر بضيق .

أنت مسلم ، إن تعلمت في هذا البلد الطيب فلحمك من خير هذا البلد ، فصرت لغير المسلمين بكل خبراتك ، وكل قدراتك ، كل إنسان يخدم غير المسلمين على المدى الطويل يشعر باختلال بتوازنه ، هؤلاء المسلمون هم الذين رفعوك وجعلوك طبيباً ، أيعقل أن يكون علمك لغيرهم ؟ فمن الوفاء لدينك ولأمتك أن تكون خبراتك العالية في خدمة أهل بلدك وأهل دينك ، هذا من الولاء والبراء ، أما قد يصفو العيش لبعض المسلمين في بلادٍ بعيدة ، فيستقرون إلى نهاية الحياة ، ويدفعون ثمناً لا يتحمَّله أحدٌ من المسلمين ، أولاده ، أولادهم هم الثمن ، يشعر أنه دفع ثمناً لا يستطيع تحمله ، وهذا الواقع ، وهذا من الولاء والبراء ..

(وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(28)قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ)

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّه

1 ـ هذه الآية تهديد لهؤلاء المتلوِّنين في الولاء والبراء :

أحياناً بذكاءٍ من المنافق يبدي ولاءً للمؤمنين ، ويخفي ولاءه للكفار إذا كان مع المؤمنين ، أما إذا كان مع الكفار ..

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(14))

(سورة البقرة)

هؤلاء المنافقون المتلوّنون ..

(قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

هذه الآية تهديد لهؤلاء المتلوِّنين ، الذين يظهرون ولاءً للمؤمنين في حضرتهم ، وولاءً للكفار في حضرتهم ، هؤلاء عند الله منافقين ، والعبرة لذلك اليوم الذي لا تخفى على الله خافية ..

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ)

بينها وبين عمل السوء ..

(أَمَدًا بَعِيدًا)

وأعاد الله التحذير مرةً ثانية ..

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

2 ـ تحذير ممزوج برحمة :

هذا التحذير رأفةً بكم ، محبةً لكم لأن المصير مخزٍ ، حينما يكون ولاؤك لغير المؤمنين فالمصير مخزٍ تماماً ، والله لا يرضى لك أن تكون مخزياً يوم القيامة ..

(وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

ما جاء التحذير مرةً ثانية إلا بسبب رأفة الله بالعباد ..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

دعوى المحبة لابد لها من دليل الاتباع :

إنّ الله جلَّ جلاله ما قبل دعوى محبَّته إلا بالدليل ، والدليل القاطع على محبَّة الله اتباع رسول الله ، وإلا فهي دعوى فارغة لا قيمة لها ، كلٌ يدَّعي أنه يحب الله ، الفيصل في هذه الدعوى أن تكون متبعاً لرسول الله .

أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ

ماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ ، فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ ، فَأَسْرَعَ فِيهِمْ الْقَتْلَ ، قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ ، وَقَالَ :

((أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : لِمَ ؟ قَالَ : لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا)) .

[الترمذي ، وأبو داود ، والنسائي]

من أقام معهم إقامةً دائمة ، هناك غير حياة ، وإذا جاء إلى بلده زائراً يتصيَّد العيوب ، أحياناً تضجر منه ، الطرقات سيئة ، والنظام سيئ ، فماذا تريد غير ذلك ؟ ارجع مكان ما كنت ، يشمئز ويُشمأز منه، لذلك قال تعالى :

(وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ(30)قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

آخر آية ..

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا)

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ

أنت لك منهج ، في حالات نادرة جداً يمكن أن تبدي المودة للكفار ، حينما تشعر يقيناً أنك مهددٌ في حياتك ، يمكن أن تتقي منه تقاة ، أن تتقي من هذا الكافر الشرير ما تقيم به أمر الله عزَّ وجل ، أن تبقى في بيتك مع أولادك ، حالات نادرة جداً حينما تهدد في حياتك ، أو في كل مصالحك دفعةً واحدة ، أما إذا أخذ فكرة ، فليأخذ خمسين فكرة ، هذه قضية سهلة ، ليس فيها شيء ، أنت معك استثناء لكن ـ كما قيل ـ الضرورة تقدر بقدرها ، كيف ؟

كاد شخص يموت جوعاً ، فله أن يأكل لحم الخنزير ، حالات نادرة ، لكنه يأكل لقمتين فقط ، لئلا يموت، فالضرورة تقدر بقدرها ، هذه قاعدة ، هذا الاستثناء نحن لا نوسعه لكل شيء ، كأن نقول : من لا تقيَّة له لا دين له ، وسع في درجة أنك لا تستطيع أن تحاورهم إطلاقاً ، كل شيء يقال خلاف ما يعتقدون ، انتهى الأمر ، وهذه حالات نادرة جداً ..

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

أنت مؤمن معك منهج ، ينبغي أن تطيع الله ورسوله فقط ، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق ، والأمور بخواتيمها ، والعبرة للآخرة ، والغنى والفقر بعد العرض على الله ، إذا والى المسلم الكفار ، وأقام معهم ، تفلت أولاده ، ولن يكونوا مسلمين إطلاقاً ، بل كانوا في أشد أنواع الانحراف ، فهذا حينما يرجع إلى الله يوم القيامة ماذا يجيب الله عزَّ وجل ؟ الرفاه الذي كان يعيشه انتهى ، وبقيت المسؤولية ، والذي والى المؤمنين ، وبقي في بلادهم ، المتاعب انتهت ، وبقي الثواب ، هذه قاعدة عامة ، المتاعب تنتهي ، ويبقى الثواب ، والميِّزات تنتهي ، ويبقى العقاب ، العقاب أبدي ، والثواب أبدي ، أما المتاعب والميزات فهي مؤقتة ، المتاعب من موالاة المؤمنين مؤقتة ، والميزات من موالاة الكفار كذلك مؤقتة ، ماذا يبقى بعد ذلك ؟ إما في جنةٍ يدوم نعيمها ، أو في نارٍ لا ينفد عذابها

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(12-60): تفسير الآيات 33 - 37
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-02-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثالثة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33)ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة آل عمران)

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ

1 - الله يصطفي محبيه :

أيها الإخوة ، هذا الذي يؤمن أن الله قدّر على كل مخلوق عمله ، ولا جريرة له به ، هذا إنسان خاطئ! لأن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان مخيرًا ، فإن أحسن فله من الله جزاء حسن ، وإن أساء فعليه من الله وزر ، فالله عز وجل يصطفي ، من يصطفي ؟ يصطفي الذي يحبه ، يصطفي الذي يعبده ، يصطفي الذي يخافه ، يصطفي الذي يرجو رحمته ، لا بد أن يكون من العبد سبب للاصطفاء ، وهذه الفكرة ، وهذا المعنى يملأ القلب تفائلاً ، في أي مكان ، في أي زمان ، في أي عصر ، في أي مصر ، في أية مرتبة ، في أي درجة من السلّم الاجتماعي ، في أي وضع ما دمت محباً لله ، مستقيماً على أمره ، تتقرب إليه بخدمة خلقه فلا بد أن تصطفى بطريقة أو بأخرى ، قد يرفع الله شأنك ، قد يعلي قدرك ، قد يجري الخير على يديك ، يلهمك أن تنطق بالحق ، قد يجعل هدى كثيراً من خلقه على يديك ، وهذا نوع من الاصطفاء ،

لأن الله عز وجل حينما خاطب النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

2 ـ لابد من سبب للاصطفاء :

قال علماء التفسير : هذه تنطبق على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى كل مؤمن بقدر إيمانه ، واستقامته ، وإخلاصه ، أنت مخلوق كريم ، أنت مخلوق مميّز ، أنت مخلوق سخر الله لك ما في السماوات ، وما في الأرض جميعاً منه ، فينبغي أن تعمل عملاً تستحق أن يصطفيك بطريقة أو بأخرى، لأن باب النبوّة مقفل ، وباب الصدّيقية مقفل ، ما طلعت شمسٌ على رجل بعد نبيٍ أفضل من أبي بكر ، ولكن باب البطولة مفتوح إلى يوم القيامة ، باب أن تكون مؤمناً كبيراً ، باب أن تكون محسناً عظيماً ، باب أن تكون عارفاً بالله ، باب أن تكون من أحباب الله ، هذا الباب مفتوح على مصراعيه لكل الخلق .

لكن ربنا عز وجل في هذه الآية يبيّن حالة أولئك النخبة ، أولئك القمم ، قمم البشرية ، الأنبياء فالله اصطفاهم على علم ، وحينما تقول : النبوّة هبة هذا كلام صحيح ! ولكن دعني أوضح لك الحقيقة .

حينما تضطر دولة - مثلاً للتقريب - أن تعين سفيراً في أقوى دولة في العالم ماذا ينبغي أن تكون مواصفات هذا السفير ؟ ينبغي أن يكون محصلاً لعلومٍ شتى ، علوم الحقوق ، والآداب ، والعلوم ، هكذا في بعض الدول ، لا بد من اختصاصات ثلاثة ، اختصاص علمي ، واختصاص أدبي ، واختصاص حقوقي ، لا بد أن يكون ملمّاً باللغة الأجنبية ، لابد أن يكون من أسرة راقية ، لابد أن يكون ذا هيئة مرضية ، لا بد من ذكاء فطري ، لا بد ، ولابد ... لأنه سيمثل أمة ، سينطق بلسان دولة ، سيعبر عن ثقافة ، فحينما يصطفى مثل هذا الإنسان ليكون سفيراً في دولة عظمة هناك مؤهلات حصّلها بجهده ، ودراساته ، واهتماماته ، وثقافته ، هذه كلها حصّلها بمفرده ، بجهده الشخصي ، بناءً على هذا التفوق ، وعلى هذه الاختصاصات عيّن ، بعد أن يعيّن معه صلاحيات واسعة ، معه حقيبة دبلوماسية ، معه شيكات مفتوحة ، معه ميزات كثيرة ، هذه تأتيه هبة ، هذا الذي اصطفي بسببه تفوقه في اختصاصاته الثلاثة .

إذاً : حينما نتوهم أي إنسان هكذا أراده الله نبياً فكان نبيًّا .

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى)

3 ـ الاصطفاء هو الانتقاء والاختيار :

يقول لك : اصطفى ، أي انتقى من بين خلقه ، انتقى من بين الملايين المميزة ، انتقى إنساناً محباً له ، يطيع يحسن إلى خلقه يتقرب إليه ، فهذا حال الأنبياء اصطفاهم على علم ، اختارهم من بين خلقه لأنهم قمم ، لأنهم ذروة الكمال البشري ، لأنهم على محبة لا توصف ، وعلى ورع لا يوصف ، وعلى خير لا يوصف ، وعلى إحسان لا يوصف ، وعلى حكمة لا توصف ، فلا بد من جانب اختياري ، ولا بد من جانب كسبي ، بُني عليه الاصطفاء ، ولقد اخترناهم على علم ، كلمة اصطفى

وحدها تعني هذا الذي قلته ، وإن الله اصطفى من بني آدم سيدنا آدم ، يقول عليه الصلاة والسلام في بعض أحاديثه :

((آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة))

[كشف الخفاء للإمام العجلوني]

معنى ذلك أن سيدنا آدم في مرتبة عالية جداً جداً :

((آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ، ولا فخر))

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ)

4 ـ آدم أول مخلوق بشري على وجه الأرض :

سيدنا آدم أول مخلوق بشري على وجه الأرض ، ليس له أب ، ولا أم ، فقد حرم تربية الأب والأم ، لذلك تولى الله تربيته بنفسه ، فأسكنه الجنة ، ونهاه عن هذه الشجرة ، وجاء إبليس اللعين فزيّن له الأكل من هذه الشجرة ، ولم يكن وقتها كذب ولا نفاق !

(هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى)

(سورة طه)

فصدقه سيدنا آدم .

(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ)

وفي آية أخرى :

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)

(سورة طه)

على المعصية ، واستغفر ربه ، وتاب عليه وأخرجه من الجنة لا عقاباً ، ولكن تعليماً لكل الخلق الذين سيأتون من بعده ، لأن الله عز وجل في الأصل قال :

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

إذاً خروج سيدنا آدم من الجنة لحكمة تربوية أرادها الله عز وجل ، كأن الله ربّى بني آدم بآدم ، وإن هذا الشيطان عدو لكم ، فكيف أبويكم من الجنة ؟.

فيا أيها الإخوة :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا)

بعد آدم عُبد غير الله في الأرض ! فكان سيدنا نوح أول نبي جاء إلى البشر بعد أن وقعوا في الشرك ، وآل إبراهيم ، وإبراهيم أبو الأنبياء ، ونبينا صلى الله عليه وسلم من ذريته ، فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قُلْتُ :

((يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ ؟ قَالَ : دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ))

[أحمد]

وفي وراية الحاكم في المستدرك :

((أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ...))

[المستدرك]

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة البقرة)

((أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ...))

[المستدرك]

فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء .

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ)

وقصة اليوم هي قصة آل عمران على العالمين .

أريد أن أكرر أن الاصطفاء يعني أن جانباً من سبب الاصطفاء يعود إلى المخلوق ، هذا الجانب الكسبي ، لا ينكر أن النبوّة وهبية ، ولكنها بنيت على اصطفاء ، والاصطفاء أساسه الكسب ! كما بينت في مثل السفير

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

لو أردت أن أوسع معنى الاصطفاء ، التوسيع يعني أنّ أي واحد من الإخوة المؤمنين إذا تفوق في معرفة الله ، وحرص على طاعته حرصاً كبيراً ، وبذل مما أعطاه الله من علم أو من مال ، أو من جاهٍ، أو من حكمة ، أو من خبرة ، أو ما شاكل ذلك ، وبذل هذا في سبيل الله فلابد أن يرى من الله قبولاً ، ونوعاً من الكرامة ! مستحيل وألف ألف مستحيل أن تخطب ودّه ، ثم لا يكافئك ، أن تخطب ودّه ثم لا يكرمك ، أن تخطب ودّه ثم لا تجد من الله معاملة استثنائية تشعر أنه يحبك ! سمِّ هذا إن شئت اصطفاءً ، كما قال بعض العلماء :

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

هذه للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكل مؤمنٍ مطيعٍ مخلصٍ محبٍ منيب له من هذه الآية نصيب !

علوّ الهمة من الإيمان :

فإن أردت أن تكون متميزاً ، إن أردت أن يخصّك الله بعلم ، أن يعلمك ما لم تكن تعلم ، ليكون فضل الله عليك عظيماً ، إن أردت أن يخصّك الله بلسان طليق في تعريف الناس بالله ، إن أردت أن يخصّك الله بمال تنفقه في سبيل الله ، إن أردت أن يخصّك الله بجاهٍ تحمي به الضعفاء المؤمنين ، إن أردت أن يخصّك الله بعمل طيب يمسح دموع البائسين ، إن أردت أن يخصّك الله بعمل عظيم

ينجي به على يديك من عباده المؤمنين فالباب مفتوح على مصراعيه ، هناك أبواب أغلقت بنص القرآن الكريم ، وهناك أبواب مفتحة ، وقد ورد في الأثر بأن علوّ الهمة من الإيمان .

نحن في التعليم لو أن طالباً أراد أن ينجح فقط ، يقول : أنا أريد المعدّلات فقط ، النهايات الصغرى ، في الأعم الأغلب أنه لا ينجح ، أما حينما يطلب الطالب التفوق لعله ينجح ، ولعله يتفوق ، فأنت إن أردت أن تكون وراء الباب في الجنة ربما لا تدخلها ، أما إن أردت أن تكون طموحاً مع المتفوقين فلعل الله يرحمنا جميعاً ولعل الله يقبلنا جميعاً .

أنا أريد أيها الإخوة أن تشعروا أن أبواب رحمة الله مفتوحة دائماً ، ولا علاقة لها لا ببلد ، ولا ببيئة ، ولا بمجتمع ، ولا بطبيعة ، أبواب رحمة الله مفتّحة لكل عباده المؤمنين ، وفي أي عصر ، إن صدقت رأيت شيئاً لا يصدَّق ، إن صدقت الله رأيت شيئاً لا يصدق ، وما من مسلم مؤمن يخطبّ ودّ الله عز وجل إلا أكرمه الله إكراماً يراه هو ، ويراه من حوله ، وإذا شئت أن تفسر هذا الإكرام ، أو هذه الكرامة، أو هذه المعاملة الخاصة ، أو هذا الخير الذي يجرى على يديك ، أو هذا المنطق السديد الذي تنطق به ، أو هذا العمل الطيب الذي قُدّر لك ، أو التفاف الناس حولك ، هذا كله بيديك ، بشرط أن تقدم لله ما يؤهلك أن تنال منه هذا العطاء .

ما رأيت أدباً أعظم من أدب النبي عليه الصلاة والسلام ، حينما سأل الله موجبات رحمته ، وعزائم مغفرته ، الله يرحم كل خلقه ، لكن إن أردت رحمته فقدّم ثمنها ، ثمنها أن تتوب ، ثمنها أن تؤدي العبادات بإتقان ، ثمنها أن تطيع الواحد الديّان ، ثمنها أن تحسن إلى خلقه جميعاً ، هذه كلها ثمن رحمة الله ، ولعلي وضحت معنى الاصطفاء في جانب من العبد ، جانب من العبد كسبي أساسه الاصطفاء ، وهناك جانب وهبي ! اخترنا هذا الإنسان من بين الأوائل ، من بين المتفوقين ، من بين الذين يتقنون اللغة الإنكليزية فرضاً من بين الأوائل ، ثم منحناه صلاحيات كثيرة ، الصلاحيات وهبية ، أما الاختيار فقد بني على أساس كسبي ، فالاصطفاء هذا معناه ، الله اصطفى ، والاصطفاء الضيّق اصطفاء الأنبياء، وبابه مغلق ، وأمره منتهٍ ! الاصطفاء الواسع أن تكون متميزاً ، ألا ترى إلى إنسان أمضى حياته في طاعة الله ، ألا ترى إلى شيخوخته !

والله أيها الإخوة ، زرت أحد علماء مدينة في الشمال ، والله ما رأيت ملِكاً في ملكه أكبر شأناً هكذا ! الإنسان إذا أمضى حياته في طاعة الله ، إذا مضى حياته في الدعوة إلى الله ، إذا أمضى حياته في التقرّب إلى الله ، فهذا له معاملة خاصة ، وله شأن كبير ، ففي السابعة والتسعين كان أحد علماء دمشق العِظام رحمه الله ، قامة منتصبة ، وبصر حاد ، وسمع مرهف ، وأسنان كاملة في فمه ، سُئل : ما هذا الصحة ، يا سيدي التي حباك الله بها ؟ قال : يا بني ، حفظناها في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقيّاً عاش قوياً .

لك استثناءات للصحة ، لك استثناءات في السمعة ، لك استثناءات في الرزق ، لك الاستثناءات في الحياة الاجتماعية ، محبوب ، لأن الله قال :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

لنت لهم فالتف الناس حولك .

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

تتصل بالله فيمتلئ قلبك رحمة ، فتكون ليّناً للناس ، فيلتفون حولك ، وينقطع المرء عن الله ، فيمتلئ قلبه قسوة ، فينعكس غلظاً ، فينفض الناس من حولك ، هذا قانون ! معادلة رياضية مائة بالمائة ، فأنا أريد كما يقال أحياناً التطبيق العملي ، أنا ما علاقتي بهذه الآية ؟

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

5 ـ آدم أول مخلوق بشري على وجه الأرض :

أنا ما علاقتي بهذه الآية ؟ لي علاقة متينة جداً ! أنا حينما أخالف المجموع العام .

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام)

الناس أين يسهرون ؟ في لقاءاتهم ماذا يتكلمون ؟ في ولائمهم كيف يأكلون ؟ نساء ورجال ، واختلاط ، ومزاح لا يرضي الله ، ونظرات خبيثة ، وتعليقات لاذعة ، ومال يكسبونه بالحرام ، وعلاقات كلها آثام، فإذا كنت مع المجموع فتحمل ما يتحمله المجموع ، أما إذا خفت ، واطمأن الناس ، إذا أطعت ، وعصى الناس ، إذا صليت بالليل ، والناس نيام ، إذا غضضت بصرك عن الحرام ، والناس يفتحون عيونهم هكذا ، إذا ضبطت لسانك ، والناس يتكلمون ، إذا ضبطت جوارحك ، والناس يسقطون ، مقابل ذلك لك معاملة متميزة ، لك كرامة عند الله ، لك استثناء لك تكريم ، لك عطاء ، لك اصطفاء ، إن شئت أن تسميه اصطفاء .

مرة التقيت بأخ كريم يعمل في القصّاب ، وأنا أحترم كل المهن ، لأن كل حرفة تقدم خدمة هي حرفة مقبولة عند الله ، ولكن هذا القصّاب من جيل أحد علماء القرآن الكريم الكبار ، وكان هذا العالم فيما مضى قصّاباً ! فقال لي مداعباً : إن هذا فلان ، الأستاذ الجليل ، العالم الجليل كنت معه في الحرفة ، لكن قلت له : أين الثرى من الثريا ؟ فرق كبير بين أن تكون من كبار علماء القرآن ، وقد أمضيت كل حياتك في قراءة القرآن ، وتعليم القرآن ، وحفظ القرآن ، وبيان أحكام القرآن ، وبين أن تكون محترفاً حرفة تعيش منها ، وانتهى الأمر، لابد من التفوق ، ولابد من التميز ، لما يريد الناس أجمل بيت ، وأجمل زوجة ، وأعلى دخل ، وأجمل مكتب تجاري ؟ انظر إلى الناس يتنافسون في بيوتهم ، في مركباتهم ، في إنفاقهم ، في حفلاتهم ، في أفراحهم ، حتى في أتراحهم يتفوقون ، يقول لك : سار خلفه خمسمائة سيارة ! يفتخر بها ، كلفنا القبر مبلغًا ضخمًا ، حتى إذا

مات ميّتهم يفتخرون ! لماذا لا نتنافس في الآخرة ؟ لماذا لا نحب التفوق في الآخرة ؟ وباب التفوق مفتوح إلى يوم القيامة ، هذا معنى :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33)ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ)

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ

1 ـ معنى الآية :

خصائص واحدة ! الجبلّة واحدة ، الفطرة واحدة ، الإمكانات واحدة ، ولو لم تكن واحدة لما كان هناك من معنى للتكليف ، لا تكليف إلا بالإمكانات كيف نكلّف مالا نطيق ؟ ماذا قال الله عز وجل؟

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة : من الآية 286)

كل التكاليف التي أمرنا الله بها من وسعنا وفي إمكاننا تطبيقها ، هذا معنى ذرية بعضها من بعض

2 ـ النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر :

لولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، لو لا أن النبي يجوع كما نجوع ، ويخاف كما نخاف ، ويشتهي كما نشتهي ، وانتصر على بشريته لما كان سيد البشر ! فعَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَمَا لِي وَلِبِلالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلالٍ))

[سنن الترمذي]

واضطُهد في الطائف ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((... إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : قُلْتُ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ : الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

[البخاري ، والترمذي ، واللفظ له]

هناك مضائق في الحياة لا بد أن تمر بها ، تضيق جداً على الأنبياء ، الإسلام في بعض اللحظات انتهى ! قضية ساعة ، وينتهي الدين في الخندق ! حتى قال بعض من كان مع النبي : أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ كأنه كفر بنبوة النبي ! هنالك ابتُلي المؤمنون ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، لابد من الابتلاء .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

(سورة العنكبوت)

" يا إمام ، أندعو الله بالابتلاء ، أم بالتمكين ؟ قال : لن تتمكن قبل أن تبتلى" ، فعلى المؤمن أن يوطّن نفسه على أن هناك ابتلاء ، وهناك مضائق لابد أن يعبرها ، وهناك شدة بعضها نفسي ، وبعضها مالي ، وبعضها صحي ، فيبتلى الإنسان بصحته ، ويبتلى بماله ، ويبتلى بأهله ، ويبتلى بمن حوله ! أتصبرون ؟ لا بد أن نصبر ، والصبر مرتبة عالية جداً ، والدليل بأن الصبر أجره غير محدود! .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : من الآية 10)

حينما تقرأ قوله تعالى ألا يقشعر جلدك ؟ حينما يتحدث ربنا عن نبي كريم ويقول :

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)

(سورة ص : من الآية 44)

هل منا رجل لا مشكلة له ؟ عنده مشكلة ؟ فإن كان صابراً فهو عند الله في مكانة عليّة ، إن وجدناه صابراً ، حينما تقرأ قوله تعالى :

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم)

إذا ذهبت إلى بيت الله الحرام ، وعاهدت ربك على الطاعة ، وعُدت من بيت الله الحرام ، وأنت عند عهدك ألا تشعر بسعادة لا توصف ؟ قد تخسر الدنيا ، وقد تخسر بعض ما في الدنيا ، ولكن تربح نفسك ، وتربح آخرتك ، وأنت من الفائزين .

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33)ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قصة امرأة عمران :

إليكم أيها الإخوة هذه القصة :

(إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ)

عمران زوجها ، وهو أبو السيدة مريم ، وجدُّ سيدنا عيسى ، إذ قالت امرأة عمران :

(رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي)

1 - رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي :

لابد من تسخير الولد لخدمة الدين :

ينبغي أن نقتدي جميعاً بهذه المرأة العظيمة ! أرادت أن تقدم ما في بطنها لله ، تصورته مولوداً ذكراً يكون في خدمة الخلق ، وفي الدعوة إلى الله ! كم من أبٍ مسلم همه الأول أن يكون ابنه عالماً من علماء المسلمين ، داعية من الدعاة الصادقين ، يهمه أن يكون طبيباً مهندساً ، معه بورد معه إف آر إس ، معه أكريجيه ، يهمه أن يكون وسيم الشكل ، دخله كبير ، يفتخر به ، يسير مع زوجته الكاسية العارية ! هذا ابني ، وهذه زوجته ! كم من المسلمين يتمنى أن يكون ابنه عالماً ، عالماً كبيراً ، داعية كبيراً ، مَن مِن المسلمين قال : يا رب : إني نذرت هذا الابن لك ؟

والله سمعت عن بعض الصالحين قصة أثارت مشاعري ، رجل من صالحي هذه البلدة اختار أحد أولاده النجباء ، وقال له : حصّتك من تجارة أبيك كحصّة إخوتك جميعاً ، لكنك مفروز أنت لخدمة هذا الدين ، ولك مثل حصصهم كاملة ، ولا يزال حي يرزق في خدمة المسلمين ، والعلماء الصالحين .

هل يوجد أب يقدم ابنه ؟ والله أنا أغبط كل أب عنده ولد ذكر أو أنثى ، وقد تكون الأنثى أفضل من الذكر ، هكذا في القرآن الكريم ! هذا الولد ممكن أن يكون عالمًا كبيرًا ، داعية كبيرًا ، مصلحًا اجتماعيًا كبيرًا ، إنسانًا كبيرَ القلب ، فاعتنِ به ، الجنة مفتحة أبوابها لك من خلال هذا الولد ! ليكن معك في المسجد ، اعتنِ بصحته ، اعتنِ بطعامه ، وشرابه ، اعتنِ بدينه ، اعتنِ بثقافته اعتنِ بتدريسه ، اعتنِ بمستقبله ، حينما تسعى ليكون ابنك في خدمة الحق وأهله فأنت من أعظم السعداء في الأرض هذه المرأة هكذا قالت :

(إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي)

أفلا يوجد عند إنسان ولد معه اختصاص ؟ يحمل ليسانس في اللغة الإنكليزية ؟ ألا تستطيع أن تترجم بعض الكتب الإسلامية إلى اللغة الأجنبية ؟ مئات الملايين ضالة وشاردة ، وهذه كلها تحتاج إلى داعية ، قد تجد في اللغة الإنكليزية فرضاً فقرًا شديدًا في الكتب الإسلامية ! المترجم مهمته أن يربح لا أن ينقل الحق للآخرين ، معك ليسانس لغة أجنبية فاجعلها في خدمة الحق ، معك مال ؟ اجعله في خدمة الخلق ! أنت في منصب رفيع ؟ اجعله لإنصاف الضعفاء والمساكين !

لا يوجد أحد ليس له ميّزة في الحياة ، وكل هذه الميزات طرق إلى الله ، وأنا أكرر وأقول : الجنة كل من وصل إليها نعم بها ، ولا يُعتد بالوسيلة التي دخل إليها !

قدِّم شيئا لله :

قد تجد إنسانًا همه الأول بناء المساجد ، كل اهتماماته بالرمل ، والإسمنت وما إلى ذلك ، هذا يدخل الجنة من أوسع بابها ، لولا من بنوا هذا المسجد ، وأنشأووا مرافقه كيف نجلس هنا ؟ إنسان التفت إلى بناء المساجد ، وإنسان التفت إلى إقامة الشعائر ، وآخر التفت إلى تأليف الكتب إنسان التفت إلى رعاية الفقراء والمساكين ، وغيره التفت إلى رعاية المرضى ، فأبواب الجنة مفتحة على كل مصاريعها ، بشرط أن يكون لك عمل شرعي بنيّة عالية ، فالجنة لك ! إياك أن تتوهم أن الجنة للدعاة فقط ، لا لطبيب يعالج المسلمين بإخلاص ، ولمهندس يبني بيوتاً للشباب المؤمنين ، ولمحامٍ يدافع عن الحق بإخلاص شديد ، ولتاجر يقدم سلعة بسعر معتدل جيدة لكل المسلمين ، ولمعلم يعلم أبنائنا ، ولمربٍ يربي بناتنا ، وإنسان بشرط أن يكون عملك مشروعاً ، وتسلك به الطرق المشروعة ، وأن تبتغي به كفاية نفسك ، ورعاية أهلك ، وأولادك ، وخدمة المسلمين ، وألاّ تشغلك عن واجب ، وعن فريضة ، فانقلب عملك إلى عبادة ، والدين واقعي ، وهذا الدين دين الحياة .

(إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قدِّم شيئًا لله عز وجل ، قدم خبرتك ، قدم حرفتك ، قدم اختصاصك ، أنت محام قدم شيئًا من خبراتك للفقراء المظلومين ، طبيب عالج مرضى فقراء ، غني قدم من مالك ، عالم قدم من علمك، خبير قدم خبرتك ، قدم شيئاً ، والله امرأة فيما أعلم أصيبت بمرض عضال في دماغها ، ورم خبيث ، فنذرت إن شفاها الله لتكونن في خدمة المسلمين ، فشفاها الله ! لا تملك من حطام الدنيا شيئاً فماذا تفعل ؟ بدأت تصنع طعاماً طيباً ، ومتقناً للأغنياء ، وتأخذ ثمنه فتوزعه على الفقراء ، لا تملك إلا فن الطهي فطهت ، هذا الفن صار لها باباً إلى الجنة !

مرة كنت في المطار فرأيت كل مسافر يتجه إلى بوابة ، يسمونها (كيت) ، استلهمت من هذا أن كل إنسان له بوابة خروج في هذه الدنيا ! هل يمكن أن تستيقظ كل يوم كما كنت البارحة ، إلى ما شاء الله ؟ مستحيل ، إذاً كيف يموت الناس ؟ استيقظ على تطور لم يكن من قبل في جسمه ، زار طبيبًا ، وطبيبين، وثلاثة ، كنّ الطبيب ، وصفن القضية ، أجري تحليل ، وأجري تصوير ، طبقي ، إيكو ... الأمر بدا متفاقمًا ، بعد حين جاءت النعي ! إذاً هذه بوابة ، فكل إنسان له بوابة ، فإذا كنا أبطالاً فلنجعل من بوابة الخروج بوابة إلى الجنة ، لابد من ذلك ، كل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر ، هذه امرأة عمران قالت :

(إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا)

النبي يباهي بأمته الصالحة:

كم من ولد يوجد في الطريق ؟ تجد أولاد الأزقة يسبّون الدين ، يتكلمون في العورات ، ينهالون ضرباً على أصدقائهم ، يتكلمون بعبارات لا تسمع ، هذه تربية المسلمين ! ؟ والله ما أصدق في حياتي للحظة واحدة أن النبي حينما قال :

((تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ إِنِّي مُكَاثِرٌ الْأَنْبِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) .

[أحمد عن أنس]

والله ما أصدق لحظة في حياتي أن النبي يباهي بمثل هذه الأمة ! يباهي بالمؤمنين ، يباهي بالشباب المؤمن ، يباهي بأطفال مؤمنين ، أطفال الصحابة كانوا على شيء لا يوصف من الأدب ، ومحبة الله ورسوله ، والذكاء المتّقن .

نريد مثل هؤلاء الشباب :

مرّ سيدنا عمر بالمدينة فوجد أطفالاً ، فلما رأوه بهيبته تفرقوا إلا غلامًا ظل واقفاً بأدب ، ولم يهرب ! فقال له : **<< يا غلام ، لمَ لمْ تهرب مع من هرب ؟ فقال له : أيها الأمير ، لست ظالماً فأخشى ظلمك ، ولست مذنباً فأخشى عقابك ، والطريق يسعني ويسعك ! >>** ، هكذا كانوا أطفال الصحابة .

دخل وفد على سيدنا عمر بن عبد العزيز للتهنئة بالخلافة ، يتقدمهم غلام صغير ، فغضب ، وقال له : اجلس ، وليقم من هو أكبر منك سنّاً ، فقال له : أصلح الله الأمير ! **" المرء بأصغريه ؛ قلبه ولسانه "**، فإذا وهب الله عبداً لسانا لافظاً ، وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام ، ولو أن الأمر كما تقول أيها الأمير بالحجم لكان في هذه الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس ، هذا كلام طفل في العاشرة من عمره . ودخل على عبد الملك بن مروان وفد آخر من البادية ، فغضب من حاجبه ، وقال : ما شاء أحد أن يدخل عليّ حتى دخل ! حتى الصبية ! وبّخ حاجبه ، فقال هذا الطفل الصغير : " أيها الأمير ، إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك ، ولكنه شرفني ! أصابتنا سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، بقوا جلدا وعظما ، وسنة دقت العظم ، ومعكم فضول أموال ، فإن كانت لله فنحن عباده ، فتصدقوا بها علينا، وإن كانت لنا فعلامَ تحبسوها عنا ؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا ؟ فقال هذا الخليفة : والله ما ترك هذا الغلام لواحدة لنا عذراً " ، اسمع أطفالنا ، اسمع كلامهم بعد الانصراف ، انظر كيف يفعلون ، شيء مؤلم جداً .

هل يوجد بيت ليس فيه أولاد ؟ هذا الأب المسلم لمَ لا يقول كامرأة عمران : رب إني نذرت لك هذا الغلام لمرضاتك ، لمَ لا تعتنِي به ؟ لمَ لا تأتي به إلى المسجد ؟ لمَ لا تصلي به إماماً في البيت ؟ لمَ لا تعلمه القرآن ؟ لمَ لا تعلمه محبة النبي العدنان ؟ لمَ لا تنشئه على طاعة الله ؟ لمَ تبعده عنك ؟ لمَ

تجعله في الطريق يتعلم كلاماً بذيئاً فاحشاً ؟ هذه قدوة ، أنا أريد أن يكون هذا القرآن مطبقاً في حياتنا ، فما قيمة هذه القصة لو أبعدناها عن حياتنا ؟

(إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

2 ـ مُحَرَّرًا

أي محرر من كل شائبة ! لا تبتغي إلا وجه الله ، لكن معظم الآباء يقولون لك : هذا لكبري ! هذا يعينني عندما أكبر ، والولد ضروري جداً في الحياة ، ويبتغي به الدنيا ، ولا يبتغي به الآخرة ! لو ابتغى به الآخرة لجاءته الدنيا ، وهي راغمة ! أما لأنه ابتغى به الدنيا ، وأخذ شهادة عليا ، فسافر ولم يعد ، تزوج هناك ، وبقي ، وضنّ على أهله بالهاتف مرة في السنة ! دخلت مع أب ابنه بمنصب رفيع جداً ، تكلم مع أبيه كلامًا غير معقول أبداً ، قال لوالده : اجلس هنا ! والده محترم جداً ، يوجد أبناء عاقون .

3 ـ فَتَقَبَّلْ مِنِّي

فيا أيها الإخوة :

(فَتَقَبَّلْ مِنِّي)

قدمت ما في بطنها لله عز وجل قالت :

(فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

تصور هذه السيدة ، امرأة عمران أنها ستنجب ولداً ذكراً يكون في خدمة الخلق في المعبد ، يعبد الله ، ويدعو إليه ، فلما وضعتها قالت :

(رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)

رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى

1 ـ المرأة لها عمل جبار :

اختلف الأمر ، طبعاً الرجل بإمكانه أن يخالط الناس دون أن يقال عنه كلمة ، لكن المرأة غير ذلك ، فهي مكرمة عند الله ، ومشرفة ، لكن لها اختصاص آخر .

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

(سورة الأحزاب : من الآية 33)

اعلمي أيتها المرأة ، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله ! والجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام . والمرأة لها دور خصها الله به شرفها ، وكرمها ، وكلفها، لكن أعطاها اختصاصاً ؛ أن ترعى زوجها وأولادها ، والرجل له دور آخر ، الرجل يعبد الله ، ويجاهد ، ويلتقي مع الناس ، لكن المرأة لها عبادة من نوع آخر ، فكلما سترت مفاتنها عن الشباب ارتقى دينها ، ماذا تفعل المرأة المسلمة ؟ تسهم في إعفاف الشباب عن طريق ثيابها الفضفاضة الساترة، المرأة الفاسقة ماذا تعمل ؟ تسهم في إثارة الغرائز ، كم من شاب نظر إليها فوقع في العادة السرية مثلاً؟ كم من شاب نظر إليها فزنى بغيرها ؟ مثلاً ، فالمرأة المسلمة لها عبادة تتميز بها عن غيرها ، وهي أن كل سنتيمتر من ثيابها متعلق بدينها ، فكلما كان ثوبها صفيقاً ، ثخيناً وفضفاضاً ، وحجبت مفاتنها عن الخلق كلما ارتقت عند الله عز وجل ، لها عبادة أخرى ! لكن السيدة امرأة عمران وجدت أن الغلام هو الذي يحقق أمنيتها في الحياة ، فجاءت أنثى ! فقالت :

(رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)

2 ـ معنى الآية :

قال بعض العلماء : إنّ الله عز وجل يعلم ماذا وضعت ، فكيف تقول : إني وضعتها أنثى ؟ والله أعلم بما وضعت ؟ هو الذي يخلقها في بطنها ، هذا معنى .

المعنى الأرقى : هو أن الله يطمئنها أنها وإن كانت أنثى ، لكنها سيكون من نسلها أنبياء كبار ، كالسيد المسيح عليه السلام ، فأنت قد تأتيك أنثى ، وأنت لا تعلم أنه قد تنجب ولداً ذكراً يملأ الأرض علماً .

اقترن رجل بعد عهد النبوة بقليل بزوجة ، فلما دخل بها خيّبت ظنه ، لم تعجبه إطلاقاً ، قصة هكذا قرأتها ! في اليوم التالي خرج هائماً على وجه في أطراف الدنيا ، ولم يرجع إلى المدينة إلا بعد عشرين عاماً ! لكن امرأته حينما رأته قد تألم منها قالت له : لعل الخير كامن في الشر ، إذا رأيتني شراً لعل الخير كامن فيّ .

فيروى أنه عاد إلى المدينة بعد عشرين عاماً فدخل ليصلي في المسجد فرأى أعداداً غفيرة تحلّقت حول عالم شاب ، فلما سأل عنه كان ابنه ! فقال : يا بني قل لأمك : إن بالباب رجلاً يقول لك : قد يكون الخير كامنا بالشر ، ذكرها بكلمتها ! قالت : يا بني هو أبوك ! فأنت لا تدري إذا أنجبت بنتاً طاهرة عفيفة نقية أن تنجب ولداً يملأ الأرض علماً ، أو يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، وحينما أسأل عن فتوى الإجهاض قبل أربعين يومًا أقول له : لعل هذا الذي تحاول إسقاطه يكون خيراً لك من كل أولادك ! هو هدية من الله عز وجل .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى

أنت عليك أن تنوي نية طيبة ، وانتهى الأمر ، وعلى الله الباقي .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)

ثم قالت :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

اختلف العلماء أيضاً في هذا ، فقال بعضهم : يا رب ، أنا أتمناه ذكراً كي يكون في المعبد ، فيعلم الناس دينهم ، وكي يكون في خدمة أهل الحق ، وها هو أنثى ، وهناك تفسير آخر : وقد تكون الأنثى خيراً من الذكر .

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

كل كائن له خصائصه .

(وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ)

يعني العابدة .

(وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

السُّنَّة ليلة الزفاف :

لذلك كل إنسان ليلة عرسه لو دعا بهذا الدعاء الثابت عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ وَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ ، وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ))

[متفق عليه]

هذا دعاء إذا تقبله الله سيأتيك ولد يسرك إن نظرت إليه ، وتطمئن على أحواله ، ويكون ذكراً طيباً لك، وقرة عين ، فلا تنسَ أن تدعو الله يوم العرس ، لأنه قد يأتي ولد فيه نزغة من الشيطان ، كل يوم هو معك في مشكلة ، كل يوم في مخفر ، كل يوم تأتيك الشكاوى عليه ، وهناك غلام كله ذكر طيب حسن .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا

1 ـ لا شيء في الأرض أغلى من فتاة مؤمنة طاهرة :

لا يوجد شيء في الأرض أغلى من فتاة مؤمنة .

(وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

طاهرة عفيفة ، صاحبة حياء ، صاحبة وفاء ، تنتظر زوجاً مؤمناً ، تقصر طرفها عليه .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ)

يمكن أن تبتغي بشيء وجه الله ، والله لا يقبله منك ، الذي يضع لقمة في فم زوجته يراها يوم القيامة كجبل أحد ! عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[الترمذي]

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

2 ـ أعظم شيء أن يكون لك بيت طاهر :

إن أعظم شيء أن يكون لك بيت طاهر ، بنات طاهرات ، شباب أطهار ، أسرة متماسكة ، أسرة محبة لله ، فلا تسمع كلمة خطأ عن هذه الأسرة ، ولا سمعة سيئة أبداً ، وهذا من نعم الله عز وجل ، يقول لك: أنا عشت ثمانين سنة لا أحد تكلم كلمة عن ابني ، ربّاه تربية عالية .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

نبي كريم تكفلها .

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع شرح هذه الآيات .

خاتمة فيها عبرة من الآية :

الذي أريده منكم أن تفهم كل آية بطريقة عملية ، أن تسأل نفسك دائماً : ما علاقتي بهذه الآية ؟ ما الفائدة من تلاوتها ؟ إن لم يكن لك علاقة بها فعلاقتك أن تهب لله شيئاً من أولادك ، ومن بناتك ، ومن اختصاصك ، ومن حرفتك ، ومن علمك ، ومن خبرتك ، أن تقدم شيئاً خالصاً لله عز وجل ! .

حدثني أخ طبيب أسنان فقال : جاءتني موظفة في التعليم فقيرة جداً تريد إصلاح أسنانها ، التكلفة

باهظة اعتذرت ، وخرجت ، قال لي : أصررت على أن أقوّم أسنانها ، قال لي : والله ما سعدت بخدمة إنسان كخدمة هذه المرأة الفقيرة ، ولم آخذ منها شيئًا ، والمبلغ كبير جداً ! قال : في كل حياتي المهنية لم أسعد بإنسان دخل إلى عيادتي ، لأنه قدم لها هذا الشيء لله عز وجل ، أسنانها تثير الضحك أمام أقربائها ، فلما أصلح لها أسنانها ، وابتغى بها وجه الله ، ملأ الله عز وجل قلبه سعادة ، هل يوجد أحد ليس له حرفة ؟ ألا يمكن أن تخصص جزءاً من حرفتك لوجه الله ، لخدمة عباد الله الصالحين ، طبيب ، مهندس ، محام ، تاجر ، مزارع ، لا يوجد إنسان لا يملك اختصاصًا ، ويمكن أن يهب منه جزءاً لله عز وجل اقتداءً بالسيدة امرأة عمران .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(13-60): تفسير الآيات 36 - 38
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-02-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة آل عمران ، و مع الآية السابعة و الثلاثين .الآية التي قبلها :

(إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(35)فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

(سورة آل عمران)

هذا ذكرناه في الدرس الماضي .

الدرس اليوم الآية مع السابعة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ)

(سورة آل عمران : الآية 37)

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

1 ـ ما علاقة المسلم بهذه الآية ؟

أي تقبلها بأعلى أنواع القبول ، وحينما تكون مخلصاً لله عز وجل يتقبل الله عملك ، و قد ذكرت في الدرس الماضي أن كل آية في القرآن الكريم ينبغي أن تسأل نفسك حينما تقرؤها : ما علاقتي بهذه الآية؟ وما موقفي من هذه الآية ؟ وأين أنا من هذه الآية ؟ لماذا تقبلها ربها بقبول حسن ؟ لأن التي نذرت ما في بطنها محرراً من كل شائبة ، من كل شرك ، من كل حظٍّ نفسي ، فكلما ارتقت نياتك الطيبة كان القبول حسناً ، هذه قاعدة ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير ، فحينما تنفق نفقة خالصة لله عز وجل ، وربما لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك ، ولا تبتغي إلا وجه الله عز وجل يتقبل الله منك هذه الصدقة بقبول حسن ، وحينما تصلي الليل ، لا ترجو سمعة ، ولا رياء ، لكنك تريد أن تؤدي واجب العبودية لله عز وجل ، وأن تناجيه بالليل يتقبل الله منك هذه الصلاة ، ويلقي في قلبك السكينة ، والأمن ، وتقول : صليت صلاة لا أنساها حتى الموت ، كلما كان إخلاصك أشد كان القبول حسناً :

(إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(35)فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(36)فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ)

(سورة آل عمران)

2 ـ أنت قويٌ بالله :

وأضخم شيء تملكه نيتك الطيبة ، أعظم رأسمال تملكه نيتك الطيبة ، أنت ضعيف ، و لكنك قوي بالله، أنت عاجز ، ولكنك تحسن بالله ، أنت فقير ، ولكنك غني بالله ، هذا الذي ناجى ربه قال : يا رب كيف نضام في سلطانك ؟ لا نضام في سلطانك ، و كيف نذل في عزك ؟ كيف نفتقر في غناك ؟ وكيف نضطهد ، والأمر لك ؟ سبحانك إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت .

يا رب ، لا نضطهد في سلطانك ، ولا نذل في عزك ، ولا نفتقر في غناك ، أنت ولينا .

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة : الآية 257)

وإذا كان الله معك فمن عليك ، و إذا كان الله عليك فمن معك .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

(سورة آل عمران : الآية 37)

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا

1 ـ حرص الوالدين على الولد من رعاية الله له :

حينما تجد أباً وأماً يحرصان حرصاً لا حدود له على راحة ابنهما فهذه محبة الله أودعها في قلب الأب والأم ، حينما تجد إنساناً يحرص على مصلحة إنسان حرصاً شديداً فهذه عناية الله .

2 ـ لو جاءتك نعم من الخلق فينبغي ألا تنسى الحق :

لو جاءتك نعم من الخلق فينبغي ألا تنسى الحق ، وجاءتك نعم من جهات عديدة فينبغي ألا تنسى المنعم، ينبغي أن تكون مع المنعم لا مع النعمة ، وليس من الأدب ألا تشكر الناس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ))

[الترمذي ، أبو داود ، وأحمد]

ومن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، كان عليه الصلاة و السلام تعظم عنده النعمة مهما دقت ، و كل واحد منا محاط بنعم لا تعد و لا تحصى ، لكن وجود الشيء قد ينسي قيمته ، ينبغي أن ترى النعم وهي موجودة عندك ، لا حين تفتقدها .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

3 ـ تنافسُ الناس على كفالة مريم :

تنافس كل من حولها على كفالتها ، بل تنازعوا ، بل كادوا يختصمون .

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 44)

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

من هذه الفتاة الصغيرة ؟ من هذه المولودة التي تنافس الناس على كفالتها ؟

إذا كان الله معك تنافس الناس في خدمتك ، وإذا لم يكن الله معك تخلى عنك أقرب الخلق إليك ، فالعبرة أن تكون مع الله حتى يكون الله معك ، وإذا كان الله معك سخر لك كل من حولك كي يعتنوا بك ، ثم جرت قرعة بين أقربائها ، ورست هذه القرعة على سيدنا زكريا .

(وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

(سورة آل عمران : الآية 37)

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا

لمعنى : وكفلها الله زكريا ، طفلة ولدت حديثاً من أم نذرتها لله بإخلاص شديد فتولى الله العناية بها .

موطن الثقل في هذه الآية :

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

(سورة آل عمران : الآية 37)

كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا

1 ـ معنى المحراب :

المحراب : المكان الطاهر ، بعضهم يسمي المحراب هذا محراباً ، لأنه يُحارب فيه الشيطان ، أو لأنه متقدم ، أو لأنه مكان للإمام ، لكن المحراب على إطلاقه هو البناء الشامخ ، القصر .

2 ـ الكرامة عند المؤمن :

فكلما دخل عليها زكريا مكان إقامتها ـ ويبدو أن المكان جيد ـ وجد عندها رزقاً ، بصرف النظر عن حقيقة هذا الرزق ، لكن هذه الآية تنقلنا إلى موضوع الكرامة ، ما من مؤمن يخطب ود الله عز وجل بأية طريقة إلا وله عند الله كرامة ، هذه الكرامة هي خرق للعادات ، أو استثناء من بعض القوانين ، أو شيء متميز ، ليس من الحكمة أن نروي الكرامات ، و لا من الحكمة أن ننكرها ، الكرامة لا تنكر ، كما أنه ينبغي ألا تروى ، لأن أصحابها ليسوا أنبياء ، أصحابها أولياء ، و الولي ليس معصوماً ، لكن النبي معصوم ، النبي حينما يخص بمعجزة ينبغي أن يتحدى الناس بها ، ينبغي أن يظهرها ، ينبغي أن يتحدث عنها لأنه معصوم ، لكن الولي إذا خص بكرامة ينبغي ألا يتحدث بها ، بل ينبغي ألا يتاجر بها، بل ينبغي أن يبقيها بينه وبين الله ، وقد قال بعض علماء القلوب : الولي الصادق يستحيي بكرامته كما تستحي المرأة بدم حيضها ، هي ليست للتحدي ، ليست للنشر ، هي بينك وبين الله ، لكن الله أراد بطريقة أو بأخرى أن يشعرك أنه يحبك ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، فَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرَوْلُ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، ابن ماجة]

لمجرد أن تعقد الصلح مع الله ، لمجرد أن تنيب إلى الله ، أن ترجع إليه ، أن تتوب من ذنوبك ، أن تريد رضاء الله عز وجل ، تجد الله عز وجل يقربك ، يوفقك ، يكرمك ، يملأ صدرك غنى ، يملأ صدرك أمناً ، يملأ صدرك تفاؤلاً ، يلهم من حولك يقدم لك كل الخدمات ، يرفع شأنك ، يعلي ذكرك ، هذا كله خرق للعادات ، أي لك معاملة خاصة ، أي لك معاملة استثنائية ، هذه كرامة من الله لك ، ما من مؤمن صادق يخطب ود الله عز و جل إلا وله كرامة ، والكرامة خرق للعادات ، أي معاملة خاصة، أمر ميسر ، زواج ميسر ، عمل ميسر ، سمعة طيبة ، أولاد أبرار ، زوجة صالحة ، حكمة ، قلب ممتلئ أمناً ، طمأنينة ، تفاؤل ، رضىً ، هذه كرامة الله لك ، وقد تخرق لك

بعض العادات ، فعليك ألا ترويها لأحد ، لأنها ليست للتحدي ، هذه بينك وبين الله ، لكن أعظم كرامة على الإطلاق ، ولا تحتاج إلى خرق للعادات هي كرامة العلم :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 113)

3 ـ إنما ترقى بالعلم :

أنت بالعلم ترقى ، بالعلم تستقيم ، بالعلم تعمل صالحاً ، بالعلم تتصل بالله ، بالعلم تقف الموقف الكامل ، أي أعظم كرامة على الإطلاق أن يعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ، انظر إلى هؤلاء الأقوياء ماذا آتاهم الله ، آتاهم الله القوة والملك ، وبعضهم لا يحبهم الله عز وجل ، آتى الملك لفرعون ، وهو لا يحبه ، وآتى سليمان الملك ، وهو يحبه ، وآتى قارون المال، وهو لا يحبه ، وآتى عثمان بن عفان المال ، وهو يحبه ، فما دام الشيء قد أوتي لمن يحب ، ولمن لا يحب فهو ليس دليلاً على أنه كرامة من الله عز و جل ، ولكن ماذا آتى الأنبياء والمرسلين ؟

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص : الآية 14)

الناس صنفان ؛ عالم ومتعلم ، ولا خير فيمن سواهم إطلاقاً ، يقول الإمام علي كرم الله وجهه :

<< الناس ثلاثة : عالم رباني ، و متعلم على سبيل النجاة ، و همج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيؤوا بنور العلم ، و لم يلجؤوا إلى ركن وثيق ، فاحذر أن تكون منهم >> .

[فيض القدير ، صفة الصفوة لابن الجوزي]

إذاً :

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

4 ـ ما هو هذا الرزق ؟

فسواء كما قال بعض المفسرين أنه وجد عندها فاكهة ليست في موسمها ، أو قال كما بعض علماء القلوب : وجد عندها علماً عن الله عز وجل ليس في مستوى سنها ، أيُّ الكرامتين كانت شيئًا متميزًا فريدًا من نوعه ؟ فينبغي أن تؤمن بالكرامة ، و ينبغي ألا تنكرها ، وينبغي ألا ترويها للناس ، فهي إشعار من الله لك أنه يحبك ، ينبغي أن تبقى بينك و بينه ، هذا معنى قوله تعالى :

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

أي ليس في الأرض كلها شيء أعظم من ولد صالح ، من شاب نشأ في طاعة الله ، من طفل يصلي ، من طفل ينقل لك كلام الله ، ينقل لك كلام رسول الله ، شيء يملأ قلب الأب طمأنينةً ، وفرحاً ، وراحةً، وسعادةً .

5 ـ علاقتنا بهذه الآية :

فيا أيها الإخوة الكرام ، علاقتنا بهذه الآية اجهد أن تعتني بأولادك ، اجهد أن يكونوا معك في المسجد ، اعتن بهم ، بالغ في تكريمهم ، بالغ في تقديم حاجاتهم ، بالغ في توجيههم ، في لفت نظرهم إلى الله عز وجل ، اجلس معهم ، خذهم معك ، الزمهم ، أدبهم ، عرفهم بكتاب الله ، عرفهم بسنة رسول الله ، عرفهم بأبطال المسلمين ، ليكونوا معك في حلك وترحالك ، علمهم أن ينفقوا .

واللهِ حدثني أب اليوم أن ابنه ، وهو في المسجد طلب منه مالاً بإلحاح شديد ، أعطاه مبلغاً من المال ، وهو صغير جداً ، فذهب إلى مكان التبرع لبناء مساجد ، وألقى هذا المبلغ عند هؤلاء ، قلت : والله هذه بادرة طيبة جداً ؛ أن طفلاً صغيراً أراد أن يفعل شيئاً يقلد به الكبار ، يجب أن يُشجع ، فهذه الآيات ذكرت أن سيدنا زكريا دخل على مريم وجد عندها رزقاً قال :

(قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 37)

6 ـ الأولى الاقتصار على النص في تعيين الفاكهة :

على اختلاف المفسرين : لعل هذا الرزق فاكهة في غير موسمها تكريماً لها ، أو لعلها نطقت بحق في غير سنها ، أي أنت لا تصدق أن طفلاً صغيراً يلقي كلمة مضبوطة فيها شرح دقيق لآية أو حديث يأخذ قلبك ، قد تستمع لهذه الخطبة من كبير فتقول : والله الخطبة جيدة ، لكن هو في سن بمستوى هذه الخطبة ، أما طفل صغير يتلو كلام الله ، يتلو حديث رسول الله ، يقول لك كلاماً طيباً فهذا شيء يلفت النظر ، لعل الرزق هذا أو ذاك ، على كل نحن مع النص .

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

الإخبار من الله عز وجل يجب أن نقف على حدود النص ، فلا نزيد شيئاً ، ولا ننقص شيئاً ، ويجب أن نسكت حيث سكتت الآية ، وجد عندها رزقاً أي شيئا متميزًا ، شيئًا يلفت النظر ، شيئًا ليس كغيره من الأشياء ، لذلك :

(قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

يؤيد المعنى الثاني قول الله عز وجل :

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

(سورة الواقعة : الآية 82)

أي العلم رزق ، والفهم رزق ، ماذا أوتي النبي الكريم يوسف ؟ أوتي تأويلاً لكتاب الله :

(وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)

(سورة يوسف : من الآية 6)

فالتأويل علم ، وهو من كرامة الله لهذا النبي الكريم ، إذاً على اختلاف أقوال المفسرين فالرزق هنا شيء متميز شيء يلفت النظر ، شيء ليس في مستوى هذه الطفلة الصغيرة ، قالت :

(قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة آل عمران : الآية 37)

قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

1 ـ الله يعطي بغير حساب :

بغير حساب ... قال العلماء : أنه كثير جداً ، لا يحصى ، أو ليس بثمن ، فالله يهب كل شيء لعبده المؤمن من غير جهد منه ، قال تعالى :

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)

(سورة الأنعام : الآية 84)

فالابن هبة ، وتحوُّل نقطة الماء إلى طفل يضحك ، ويبتسم ، ويسأل ، ويجيب هل هذه قضية سهلة ؟ تعلم علم اليقين أن هذا الطفل نقطة ماء وضعت في رحم أمه ، فكان طفلاً ، إذا دخلت إلى البيت هش لك وبش ، سألك ، وجلس في حجرك ، وداعبك ، هذا الذي يملأ البيت سروراً ، أليس هدية من الله عز وجل ؟

المعنى البسيط ، كل بيت فيه طفل ، والطفل هدية من الله عز وجل ، معنى من غير حساب ، أي من دون ثمن ، ماذا فعل هذا الزوج حتى استحق هذا الطفل ؟ تزوج فقط ، من خلقه في بطن أمه ؟ من أحسن تقويمه ؟ من صوره ؟ من جعله كائنًا سليمًا معافى ؟ متوازنًا ، يتكلم ، يمشي ، يسأل ، يجيب ، يحفظ كتاب الله ، من ؟

(إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

2 ـ معنى الآية :

لها معنيان : الأول بغير حساب ، أي لا يعد ولا يحصى ، أي النعم التي أسبغها الله عليك لا تعد ولا تحصى ، كبد أصابه تشمع ، والعملية تكلف كما سمعت من ثمانية إلى عشرة ملايين ليرة ، ونسبة نجاحها ثلاثون بالمئة ، زرع كبد في فرنسا ، الذي عنده كبد سليمة معنى هذا عملياً أن معه عشرة ملايين ليرة ، والكلية عمليتها تكلف مليونين ، هذا إذا كانت متقنة ، وتبديل الأسنان وزرعها يكلف مليون ليرة ، فأنت عندك أجهزة كاملة وتامة ، قال تعالى :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد)

هذا خَلق الله في الإنسان :

تتحرك ، تأكل ، تشرب ، عندك جهاز هضم ، وجهاز دوران ، جهاز عصب ، جهاز فرز ، عضلات، أعصاب ، ذاكرة ، من أجل أن تقول : الرائحة لطيفة فلا بد من عشرين مليون نهاية عصبية ، كل نهاية تنتهي بسبعة أهداب ، وكل هدب مغمس في مادة معينة ، تتفاعل مع الرائحة ، وينشأ من تفاعلها شكل هندسي ، هذا الشكل ينتقل إلى الدماغ ، وهذه الرائحة تعرض على ذاكرة شمية فيها عشرة آلاف بند ، إلى أن يأتي هذا الشكل مطابقاً لهذا البند ، تقول : هذه ياسمين ـ ما شاء الله ـ رائحة طيبة ، من أجل أن تتحرك عكس الصوت هناك جهاز في الدماغ يحسب تفاضل دخول الصوتين إلى الأذنين ، والتفاضل واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية ، تعرف بهذا الجهاز الدقيق جهة الصوت ، فإذا سمعت بوق مركبة تتحرك إلى عكس الاتجاه ، ولولا هذا الجهاز لتحركت إلى أمام المركبة دون أن تشعر .

إذاً : أنت محاط بنعم لا تعد ولا تحصى ، في الشبكية عشر طبقات ، وفيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط ، والعصب البصري فيه تسعمئة ألف عصب ، وفي رأسك ثلاثمئة ألف شعرة ، لكل شعرة وريد ، وشريان ، وعصب ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية ، هذا خلق الله ، عندك ذاكرة تتسع لسبعين مليار صورة ، الذي يعيش ستين عاماً تقريباً في ذاكرته سبعون مليار صورة ، حجمها بحجم حبة العدس ، عندك دماغ فيه مئة وأربعون مليار خلية سمراء استنادية ، لم تعرف وظيفتها بعد ، ويوجد عليها أربعة عشر بليار خلية قشرية ، فيها المحاكمة ، والتذكر ، والتصور ، والاستنتاج ، والاستقراء ، وما إلى ذلك ، الدماغ آية ، والشعر آية ، و العينان آية ، واللسان آية ، كل حرف تحركه سبع عشرة عضلة ، فكلمة فيها خمسة حروف ، تقريبًا مئة حركة ، إذاً : جملة فيها عشر كلمات ألف حركة ، إذاً : خطبة ساعة كم حركة تحركت عضلات الوجه حتى أصدرت هذه الأصوات :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد)

ما هذا الحليب ، حليب الأم في الصيف بارد ، وفي الشتاء حار ؟ فيه كل مناعة الأم ، فيه مادة تمنع التصاق الجراثيم بأمعاء الطفل ، والأغرب من هذا أن كثافته تتغير في الرضعة الواحدة ، فإذا فحصت حليب الأم في أول الرضعة يكون الدسم أربعين بالمئة ، والماء ستين بالمئة ، في آخر الرضعة يكون الدسم ستين ، والماء أربعين ، وتتبدل نسب المواد كل يوم تماشيًا مع نمو الطفل .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد)

(إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة آل عمران : الآية 37)

منحك الوجود بغير حساب ، منحك الإمداد بغير حساب ، منحك الهدى والرشاد بغير حساب ، منحك طفلاً بغير حساب ، منحك خبرة ، منحك قدرة على كسب المال ، أي لو أن إنساناً اختل ميزان عقله فأقرب الناس إليه يسعى ليلاً نهاراً لإدخاله مستشفى المجانين ، هو الذي اشترى البيت ، وهو الذي ربى الأولاد ، وهو اقتنى الأثاث ، يُسعى إليه ليكون نزيل المستشفى ، إذاً أعطاك عقلاً ، أعطاك محاكمة ، أعطاك جسماً ، أعطاك سمعاً ، أعطاك بصراً ، أعطاك لساناً لتنطق ، أعطاك أجهزة ، أعطاك قلباً ، أعطاك رئتين ، معدة ، أمعاء ، بنكرياساً ، غدداً ، أعطاك صماء ، أعطاك جهازاً عضلياً ، أعطاك جهازاً عظمياً ، ألا نشكر الله عز وجل ؟

(إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

كل واحد منا لديه حرفة يعيش منها ، من مكنك من هذه الحرفة ؟ هذا طبيب ، و هذا مهندس ، وهذا مدرس ، وهذا جراح ، وهذا تاجر ، وكل واحد له حرفة يتقنها ، و يكسب رزقه منها .

(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(36)فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ)

(سورة آل عمران)

ككلمة مختصرة : أي شيء تقدمه لله عز وجل بإخلاص شديد يتقبله الله منك بأعلى قبول ، و يثيبك عليه أضعاف مضاعفة .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

(سورة آل عمران : الآية 38)

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ

1 ـ الغبطة ممدوحة :

بماذا شعر ؟ شعر أنه يتمنى مثل هذا الغلام ، مثل هذه الفتاة ، هذه الغيرة ، هذه خاصة بالإنسان رائعة جداً ، إن استخدمتها لأمر الآخرة ترقى بك لأعلى عليين ، تكون الغبطة ، وإن استخدمتها لأمر الدنيا تهوي بها إلى أسفل سافلين ، تكون الحسد ، هي خاصة حيادية ، تتمنى ما عند الآخرين ، أي إنسان ، دخلت إلى بيت أربعمئة متر الله ، شيء جميل ، الله يبعث لنا بيتًا مثل هذا ، أركبك أحدهم مركبته الفخمة جداً ، والله شيء جميل ، هذه غير التي لدي ، هذه أجمل بكثير ، أتم الله عليه

، أنت دائماً تتمنى ما عند الآخرين ، فإن كان الذي عندهم من الدنيا فهو الحسد ، وإن كان ما عندهم من الآخرة فهو الغبطة ، لذلك النبي الكريم استخدم كلمة الحسد بمعنى الغبطة ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

[البخاري ومسلم واللفظ له ، الترمذي ، ابن ماجة ، أحمد]

2 ـ هُنَالِكَ دَعَا :

(هنالك) ، قال بعض العلماء : هي ظرف مكان ، في هذا المكان ، في المحراب عندما رأى مريم ، وهي تنطق بكلام رائع جداً ، أو رأى عندها فاكهة في غير موسمها ، حينئذ تمنى أن يكون له ولد له عند الله هذه المكانة ، هنالك دعا زكريا ، أي في هذا المكان بالذات ، أو في الوقت الذي سمع من هذه الفتاة كلاماً طيباً تمنى أن يكون له غلام في هذا المستوى ، والإنسان ينبغي أن يغار .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

هذه خاصة بالإنسان ، أنت إذا التقيت بحافظ لكتاب الله ألا تتمنى أن تكون مثله ؟ تتمنى والله ، إذا التقيت بإنسان يفهم كلام الله فهماً عميقاً ألا تحب أن تكون مثله ؟ إن التقيت بإنسان شجاع ، أبلى في سبيل الله كسيدنا خالد ألا تحب أن تكون مثله ؟ إذا التقيت بإنسان غني ، لكنه متواضع ، وينفق ماله في سبيل الله ، ويملأ بإنفاقه قلوب الناس فرحاً ، ويمسح الدموع عن كل البائسين بماله ، ألا تحب أن تكون غنياً مثله تنفق هذا المال في طاعة الله ؟

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

ينبغي أن تشتهي ما عند الناس من خير الآخرة .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً)

(سورة آل عمران : الآية 38)

قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً

1 ـ الذرية الطيبة من أعظم النعم :

تكاد الذرية الطيبة تكون أعظم عطاء إلهي بعد الإيمان به ، هذه تملأ القلب طمأنينة :

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ)

(سورة الفرقان : الآية 74)

مع شيء من التفصيل : الأب الذي يجهد في تربية أولاده ، والعناية بهم ، و إرشادهم إلى الحق ، وإكرامهم ، وتأمين حاجاتهم ، ويجهد في تنشئتهم تنشئة إسلامية طيبة ـ يتعب كثيرا ـ لكنه بعد أن يبلغوا أشدهم ، ويرى منهم طيبة ، وصلاحاً ، و تقوى ، وطاعة لله ، والله كلما نظر إليهم يشعر قلبه براحة لا توصف ، هذه قرة العين التي تحدث الله عنها ، قال تعالى في دعاء عباد الرحمن :

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ)

(سورة الفرقان : الآية 74)

والأب الذي لا يحب أن يوجه أولاده ، بل هو مشغول ، وعنده عمل ، فأهملهم ، وتركهم للشارع ، فلما كبروا فوجئ أنهم أولاد عاقون ، فوجئ أنهم بعيدون عن الله ، لا يصلون ، يقترفون المعاصي والآثام ، والله لو بلغ الإنسان في الدنيا أعلى مقام ، ولو جمع أعلى ثروة ، ولو حصّل أعلى شهادة ، و لم يكن ابنه كما يتمنى فهو أشقى الناس .

يا أيها الآباء ، يا أيها الشباب : اعتنوا بأولادكم ، أولادكم سبب سعادتكم في الدنيا والآخرة ، أما هذه الفتاة التي سيبها أبوها ، وأعطاها حريتها فانحرفت تقف يوم القيامة أمام ربها وتقول : يا رب ، لا أدخل النار حتى أُدخل أبي قبلي ، لأنه كان سبب جهالتي .

الأبوة مسؤولية أيها الإخوة ، تجد الأب مستقيمًا ، ومن رواد المسجد ، لكن أولاده أين هم ؟ أين يسهرون ؟ مع من يجلسون ؟ من يصاحبون ؟ كيف صلاتهم ؟ كيف أخلاقهم ؟ فلا بد أن تتمنى ، وأنت تجهد ، وأن تسعى لتربية أولادك.

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

تمنى أن يكون له غلام كهذه الفتاة ، وبهذا العلم ، أو هذه الكرامة .

(قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

(سورة آل عمران : الآية 38)

2 ـ أهمية الدعاء :

يا أيها الإخوة ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، ابن ماجة ، مالك ، الدارمي]

أنت صل قبل الفجر ركعتين ، وفي السجود : يا رب ، ارزقني ولداً صالحاً ينفع الناس من بعدي ، يا رب ، ارزقني زوجة صالحة ، يا رب ، ارزقني رزقاً حلالاً طيباً ، يا رب ، اهدني إليك ، واهدِ بي ، هناك أدعية لطيفة جداً ، أنت إذا استيقظت قبل الفجر ، ودعوت الله بدعاء من خيري الدنيا والآخرة ، فينبغي لله عز وجل أن يشعرك أنه يستجيب لك هكذا ، فلماذا ذكر لنا هذه القصص لماذا ؟ كي نقتدي بهؤلاء الأنبياء العظام .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

(سورة آل عمران : الآية 38)

3 ـ أهمية تربية الأولاد :

حدثني أخ قال لي : عندي ابن إذا دُهِس بالسيارة سأحتفل ، أقسم بالله أنه سيحتفل ، لأنه عاق ، وشارب خمر ، وزان ، وشرس ، ومجرم ، وله ابن كالملائكة ، تشتهي الأولاد منه ، فالفرق كبير جداً بين ابن عاق وابن بار ، بين ابن مؤمن عنده حياء ، وخجل ، وبار بوالديه ، وابن سيئ ، فإذا اعتنى الأب بأولاده فأغلب الظن ، وهو يقين ، أغلب الظن أن الله عز و جل يستجيب له .

حدثني أخ يخطب في بعض المساجد ، وقد وضع ابنه بمدرسة في الحضانة ، قال لي : مرة استيقظنا متأخرين ، صنعت أمه له شطيرة ، وقالت لابنها الصغير في الحضانة : كلها في الطريق يا بني ، الوقت ضيق جداً ، وقف هذا الابن ، وقال : يا أمي ، وخاطب أباه قائلا : يا أبت قال عليه الصلاة و السلام :

((الأكل في الطريق دناءة))

إذا علّمت طفلاً صغيراً شيئاً فهو أمر لا يصدق ، علّمته القرآن ، علّمته السنة ، علّمته الآداب ، علّمته الطاعة لله ورسوله ، هذا أكبر ثروة تملكها على الإطلاق ، ومعنى ذلك أنك لا تموت ، ولو مت لا تموت ، هذا صدقة جارية ينفع الناس من بعدك .

والله مرة حضرت تعزية أحد خطباء دمشق الأعلام ، وكان صالحاً ، ولا أزكي على الله أحداً ، وكان جريئاً ، ومستقيماً ، وصالحاً ، وفي أضخم مساجد دمشق ، أقيمت له تعزية في أضخم مسجد ، وجاء الناس زرافات ووحدانا ليعزوا أهله ، ففي اليوم الثالث ألقيت كلمات كثيرة ، وقام ابن هذا الخطيب العالم فألقى خطبة لا تقلّ عن خطبة أبيه ، وكان بين المعزين وزير الأوقاف ، فعينه خطيباً في هذا المسجد مكان أبيه لتوه ، معنى هذا أن الأب لم يمت ، إذا اعتنيت بابنك ، وجعلته داعية كبيراً ، جعلته عالماً ، جعلته إنساناً صالحاً ، ربيته تربية عالية ، معنى ذلك أنك لن تموت ، ولو مت فلن تموت ، إنه صدقة جارية إلى ما شاء الله ، فكل واحد في البيت عنده ثروة ابنه ، إنه ثروة ، لكنها تريد جهداً كبيراً ، تعتني بعقيدته ، و لغته ، وتعلمه القرآن ، والسنة ، وآداب الإسلام ، تهيئ له عملا ، تهيئ له زوجة ، وتبذل في ذلك جهداً كبيراً ، هذه رسالة الأب ، وقد جعل الله في هذا ترتيباً عجيباً ، الأبوة الصالحة طريق للجنة ، والبنوة الصالحة طريق للجنة ، والزوجة الصالحة طريق للجنة ، فأنت ضمن بيتك عندك طرق للجنة لا تعد ولا تحصى ، أما إذا أنشأته على الملهيات ، وعلى ما يعرض في هذه الشاشة من سقوط أحياناً ، ومن فضائح ، ومن خيانات ، ومن مواقف مثيرة ، إذا كانت تغذيته الوحيدة ما يعرض في هذه الصحون المنتشرة ، إذا غذي بهذه الفضائيات فقط ، ثم فوجئت أنه يزني ، أو يشرب الخمر ، أو أنه له أصحاب سيئون ، ماذا تفعل ؟ والله يدخل

على الأب عندئذ من الآلام ما ينسيه رضاعته من أمه . انتبهوا يا أيها الإخوة ، نحن في زمن صعب ، نحن نشأنا في الخمسينات والأمور منضبطة جداً ، الآن أيّ رفيق يمكن أن يجعل ابنك ساقطاً ، أيّ صديق يمكن أن يعلمه أشياء لا ترضي الله ، لأن الرذيلة منتشرة ، والمعصية واسعة جداً ، أينما ذهبت فهناك ما يدعوك إلى معصية الله ، فإذا كان الآباء قبل خمسين سنة يحتاجون إلى بعض العناية بأولادهم ، فاليوم هم بحاجة إلى مليون ضعف كي يصونوا أولادهم عن الحرام ، وهذا الابن قدرك ، شئت أم أبيت ، فلا بد أن تعتني به ، والآيات واضحة .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

القصص القرآني للعبرة :

أيها الإخوة ، كتعليق سريع : هذه القصص التي وردت في القرآن الكريم صدقوني ليست العبرة منها أن تستمتع إلى قصة وقعت في الماضي ـ لا والله ـ ما هذا مراد الله عز وجل ، مراد الله من هذه القصص أن يكون هؤلاء الأنبياء ، وهم قمم البشرية أن يكونوا قدوة لك ، كيف أن امرأة عمران نذرت ما في بطنها محرراً ؟ فقلّدها ، وقدم شيئًا لله عز وجل ، قدم اختصاصك ، قدم خبرتك ، قدم مهنتك ، قدم مالك ، قدم علمك ، لله ، ولنفع المسلمين ، هذه أولاً .

كيف تمنى زكريا عليه السلام ابنًا صالحًا ، تمنى ، والتمني من حقه ، كيف دعا الله بإخلاص ، والدعاء مستجاب ؟ أنت تمنَّ شيئاً طيباً ، وقم في الليل ، وقل : يا رب ، ارزقني ولداً صالحاً ، ارزقني زوجة صالحة تسرني إن نظرت إليها ، و تحفظني إن غبت عنها ، وتطيعني إن أمرتها ، فيستجيب ، الله لك ، يا رب ، ارزقني رزقاً حلالاً طيباً ، ارزقني علماً نافعاً ، ارزقني إخوة مؤمنين طيبين .

عندما أطلق النبي الكريم سراح سفانة بنت حاتم الطائي ، قالت : إني داعية لك ، قال : اسمعوا وعوا ، قالت سفانة بنت حاتم الطائي : يا رسول الله ، جعل الله درك في مواقعه ، أحياناً تعتني بإنسان عناية فائقة ، ثم تفاجأ أنه تنكر لك ، ونسي كل فضلك ، أحياناً تعمل عملاً طيباً مع إنسان لا ينساه لك مدى الحياة ، فمن أدعية هذه المرأة الحصيفة للنبي : جعل الله درك في مواقعه ، فأنت إذا دعوت الله ، يا الله اجعل دري في مواقعي، أي أنا أقدم خدمات لإنسان لا ينساها ، أي أنا أستفيد منه ، أستفيد منه في الآخرة يا رب ، أدعوه إلى الله فيلتزم ، وأنا أتمنى ألا تفهموا هذه قصة ، هذه مبادئ ، هذه منهج ، يجب أن تغار ، قال تعالى في حق سيدنا زكريا :

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

ادع الله دائما :

يجب أن تدعو الله عز وجل ، فإنّ الله رب زكريا ، وربنا أيضاً ، إلهه ، وإلهنا ، والله موجود دائماً ، مثلما فعل .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

أنت في عمل لا يرضي الله ـ لا سمح الله ـ يا رب غير لي هذا العمل ، يا ربي عمل فيه رضا ، لا يوجد فيه امرأة ، لا يوجد فيه معصية ، لا فسوق فيه ، لا فجور ، يا الله ، فإن كان عملك لا يعجبك فادعُ الله عز وجل ، إن كان في بيتك مشكلة فادعُ الله عز وجل ، عندك ابنة كبرت ، ولم يأت من يخطبها ، يا رب هيئ لي زوجاً صالحاً لهذه البنت ، كل يوم ادع الله عز وجل ، عندك ابن شارد عن الله ، يا رب رده إليك رداً جميلاً ، فأنت لك قائمة طلبات ، قم قبل صلاة الفجر ، وادع الله عز وجل ، فلعل الله يستجيب لك ، وهو سبحانه ينتظرك .

((يا داود ، لو يعلم المعرضون بانتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لتقطعت أوصالهم من حبي ، و لماتوا شوقاً إلي ، يا داود هذه إرادتي في المعرضين ، فكيف بالمقبلين ؟ أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنتهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، و إن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب و المعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

ناج الله عز وجل ، خاطبه ، اخطب وده ، اطلب منه ، يا رب أعطني ، ولا تقل : إن شئت ، أعطني ، أغنني ، وفقني ، يا رب اشفني ، يا رب نجحني ، يا رب ارزقني ذرية طيبة ، هذا هو المؤمن ، يسأل الله دائماً ، ومن لم يدع الله يغضب عليه ، فعَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ ، وَحَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ))

[الترمذي]

إن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع ، إن الله يحب من عبده أي يسأله ملح طعامه ، إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها ، ألا يوجد عندك حاجات لله عز وجل ؟ والله يوجد قوائم ، ضع كل يوم قوائم ، ولكن قبل كل شيء تريد نفساً طاهرة ، واستقامة .

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)

(سورة الأعراف : الآية 55)

خاتمة :

لكن :

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(سورة الأعراف : الآية 55)

إن اعتديت على أخيك المؤمن لم يحببك ، ولم يستجب لك ، تريد استقامة ، ورزقًا حلالاً ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال تليت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا)

فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

((يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[معجم الطبراني الأوسط]

أطب مطعمك ، أي اكسب مالاً حلالاً ، واشتر به طعاماً ، فهذا الطعام طيب ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، أي أنشئ علاقة لك مع الله .

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إلا أُخِرَةُ الرَّحْلِ ، فَقَالَ : يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجة ، أحمد]

فمن منا يحب ألا يعذب ؟ من منا يحب أن يبقى صحيحاً طوال حياته ؟ أن يمد الله في عمره ، أن يرزقه الله ذرية طيبة ، وزوجة صالحة ، ورزقاً حلالاً ، وسمعة طيبة ؟ هذا ما يتمناه كل الناس ، السبب بيدك ، السبب اسأل الله ، احفظ الله يحفظك ، يا سيدي ما هذه الصحة ؟ قال له : يا بني حفظناها في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر ، من عاش تقياً عاش قوياً.

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(14-60): تفسير الآيات 39 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-02-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة آل عمران ، و مع الآية التاسعة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 39)

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ

هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى :

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(37)هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

(سورة آل عمران)

1 ـ الدعاء بالخلف لاستمرار الدعوة :

قال بعض المفسرين : إنه سيدنا زكريا ، زوجته عاقر ، وهو بلغ من الكبر عتياً ، ليس معه ولا مع زوجته أسباب الإنجاب ، فلما رأى عند مريم شيئاً في غير أوانه ، ومن دون سبب أرضيٍّ دعا زكريا ربه أن يرزقه الله غلاماً يتابع الدعوة من بعده ، قال تعالى :

(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي)

(سورة مريم)

أي يرث هذه الدعوة إليك ، وتحدثت وقتها أن أهم شيء في الدعوة أن تستمر ، الأشخاص يأتون ، ويذهبون ، ولكن ينبغي أن تبقى الدعوة مستمرة ، هذا العمل يكتب له النجاح حينما يرجو كل من أقامه الله في دعوة أن تستمر من بعده ، والذين دعوا إلى الله ، وكانوا صادقين مخلصين في دعوتهم ، هيأ الله لهم رجالاً علماء يتابعون دعوتهم إلى يوم القيامة ، من هنا تمنى سيدنا زكريا الولد ، لا ليعينه في كبره، ولا ليكون حظًّا له في الدنيا ، تمنى الولد لتكون الدعوة من بعده مستمرة :

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

(سورة آل عمران : الآية 38)

جاء الجواب ، أي أن الله عز وجل ينتظرنا ، وكما قلت في درس سابق : ينبغي في أية آية ، و في أية كلمة أن نلاحظ ما علاقتنا بها ؟ ماذا فعل سيدنا زكريا ؟ قال كلمات صادقات .

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً)

هو نبي كريم ، دعاؤه مستجاب ، ولماذا يقول الله لعباده المؤمنين :

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(غافر : من الآية 60)

2 ـ أعجز الناس من عجز عن دعاء الله :

فما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا ، من هو أعجز الناس على الإطلاق ؟ هو إنسان عجز عن أن يدعو الله ، هل يكلفك الدعاء إلا أن تقول كلمات ، وقد تقولها في قلبك ؟

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)

(سورة مريم : الآية 4)

وما من مؤمن دعا ربه إلا أكرمه بطريقة أو بأخرى ، فمن هو العاجز ؟ هو الذي يعجز عن أن يدعو الله عز وجل ، قم في جوف الليل قبيل صلاة الفجر وادع الله ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ)) .

[البخاري ، ومسلم ، واللفظ له ، والترمذي ، أبو داود ، ابن ماجة ، أحمد ، مالك ، الدارمي]

أليست لك حاجة عند الله ؟ أليست هناك مشكلة ؟ لا يوجد أحد على الإطلاق إلا وله حاجة عند الله ، وما من أحد على الإطلاق إلا ويعاني من مشكلة ، هكذا طبيعة الحياة .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(المؤمنون : الآية 30)

3 ـ الابتلاء ملازم لكل إنسان :

أحد خصائص الحياة الدنيا أن الابتلاء ملازم لكل إنسان :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(المؤمنون : الآية 30)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت : الآية 2)

يا إمام أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال : لن تمكن قبل أن تبتلى .

المؤمن مبتلى ، أشد الناس ابتلاء الأنبياء ، وأنا أشدهم بلاء ، ثم الأمثل فالأمثل ، والبطولة ليس أن تنجو من الابتلاء ، لا ، البطولة أن تقف الموقف الكامل في الابتلاء .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(المؤمنون : الآية 30)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : الآية 2)

أنت مبتلى بمالك ، مبتلى بصحتك ، مبتلى بزوجتك ، مبتلى بأولادك ، مبتلى بجيرانك ، مبتلى بقرنائك، مبتلى بزملائك ، مبتلى بمن حولك ، مبتلى بمن فوقك ، مبتلى بمن تحتك ، مبتلى في الرخاء ، مبتلى في الشدة ، مبتلى في الصحة ، مبتلى في المرض ، مبتلى في الغنى ، مبتلى في الفقر ، أنت في امتحان فيه مادتان ؛ مادة إيجابية ، ومادة سلبية ، أنت مبتلى بالخير ، ومبتلى بالشر ، وبلوناهم بالشر والخير ، فالبلاء من صفات الحياة الدنيا ، قد تدخل البيت ، ولم يمض على دخولك وقت يسير ، فيطرقُ بابَك سائلٌ ، هل ترده أم تستمع إليه ؟ تكون في فقر مدقع ، ويأتيك مبلغ ضخم فيه شبهة ، هل تأخذه أم ترفضه ؟ فالإنسان يبتلى في اليوم عشرات المرات ، كل معالجة لموضوع ، وكل موقف تقفه ، وكل شيء مغر تتعرض له ، وكل ضغط تقع تحت وطأته إنما هو ابتلاء ، ماذا تفعل ؟ إن الله عز وجل ينظر ماذا نفعل ؟

4 ـ ما أمرنا الله أن ندعوه إلا ليستجيب لنا :

إذاً :

(فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى)

(سورة آل عمران : الآية 39)

دعا بصدق ، وأنا أقول لكم أيها الإخوة : والله لو أن أحدكم يطمح إلى شيء بعيد المنال ، و كأنه الحلم، وكان صادقاً في طلبه لحققه الله له ، لأن الله عز وجل ما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا .

سمعت قصة من عالم جليل من علماء دمشق ، أن فلاحاً فقيراً جاهلاً في صعيد مصر أرسل ابنه إلى الأزهر ، ودرس ابنه في الأزهر ، وعاد من أهل العلم ، الأب في الخامسة والخمسين ، اشتهى أن يكون مثل ابنه ، وهو جاهل جهلاً مطبقاً ، و القصة لغرابتها لا تصدق ، ركب دابته ، وتوجه نحو القاهرة ، فلما دخل أبواب القاهرة سأل أين الأزعر ؟ هكذا فهم الاسم بالخطأ ، فدلوه على الأزهر الشريف ، وبدأ يتعلم القراءة والكتابة في الخامسة والخمسين ، ثم تعلم القرآن ، ثم طلب العلم ، وما مات إلا وهو شيخ الأزهر ، والله أي واحد منا أيها الإخوة لو طلب طلباً بعيد المنال كأنه حلم ، كأنه في السحاب ، وكان صادقاً في هذا الطلب فلابد أن يصل إليه ، لأن الله ما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا، قل له في الليل : اللهم اهدني ، واهد بي ، واجعلني من الهداة المهديين .

قل له في الليل : اللهم ارزقني طيباً ، واستعملني صالحاً .

قل له في الليل : اللهم أجر الخير على يدي ، ارزقني عملاً صالحاً يرضيك ، وفقني لما تحب ، وترضى ، اطلب ، فهؤلاء طلبوا الدنيا جاءتهم ، فكيف إذا طلبت الآخرة ، هؤلاء الذين طلبوا الدنيا من وجهها الحلال جاءتهم بالدعاء الصادق ، ليس لك إلا الدعاء الصادق ، والأمر كله بيد الله ، أنت الضعيف ، والله القوي ، وأنت الفقير ، و الله الغني ، ليس بينك وبين أن تبلغ مرادك إلا أن تكون صادقاً في دعائك .

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر : الآية 60)

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة : الآية 186)

في القرآن أكثر من عشر آيات :

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)

(سورة البقرة : الآية 217)

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة : الآية 219)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

(سورة البقرة : الآية 222)

أكثر من عشر آيات ، إلا آية واحدة ليس فيها قل ، قال تعالى :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة : الآية 186)

أي ليس بينك و بين الله أحد ، لماذا تحسد الناس ؟

قل لمن بات لي حاسـداً أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعلـه إذ لم ترض لي ما وهـب

****

ملك الملوك إذا وهب قم لا تسألن عن السبب

أنا عدلته ، وقلت :

ملك الملوك إذا وهب قـم فاسـألن عن السبب

الله يعطي من يشـاء فقف علـى حـد الأدب

اسأل الله أن يغنيك ، أن يعطيك ، أن يرقى بك ، أن يؤدبك الأدب الحسن كلمة :

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

(سورة آل عمران : الآية 38)

أيعجز أحدنا أن يسأل الله ذرية طيبة ، زوجة صالحة ، رزقاً حلالاً ، مأوى يؤويه ، زوجاً لابنته يكرمها ، عملاً لابنه يستره ، أنعجز أن نفعل هذا ؟ لماذا ذكر الله لنا هذه القصص ؟ لأخذ العلم ؟ لا والله ، للمتعة الفنية ؟ لا و الله ، للإخبار المجرد ؟ لا و الله ، لا لإخبار مجرد ، ولا لمتعة فنية، ولا لأخذ العلم ، إنما ذكر الله لنا هذه الآيات ليكون هذا النبي الكريم قدوة لنا :

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر : الآية 60)

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة : الآية 186)

يمكن أن تدعوه بقلبك دون أن يسمع أحد كلمة .

والله حدثني أخ قال لي: أنا نَبَتُ من أسرة فقيرة جداً ، فلما أنهيت خدمتي العسكرية لم أكن أملك قرشاً واحداً ، أعطتني أختي قطعة ذهبية ، فبعتها ، وكان ثمن هذه القطعة ما يساوي ثمن بطاقة الطائرة إلى الخليج ، والأمر كان سابقاً ميسراً ، سافرت إلى الخليج ، أقسم لي بالله ، وهو في الطائرة في طريقه إلى الخليج ، قال في قلبه : إذا أكرمني الله في هذا السفر فلأبنينَّ لله مسجداً في بلدي ، قال لي : والله ما حركت شفتاي ، ولا نبست ببنت شفة ، إلا أنه خاطر داخلي خطر لي ، وذهب إلى الخليج ، وعاد بعد أعوام عدة ، وقد أكرمه الله ، وهو يسكن في بلدة على الساحل قبل بانياس ، فأنا كنت مرة في سفر إلى هناك ، فدخلت إلى هذا المسجد لأصلي ، أعجبني ، مسجد أنيق جداً ، وعلى البحر مباشرة ، في منطقة جميلة ، حولها مساحات خضراء كثيفة ، فبعد أن صليت خرج رجل من غرفة ، وقال : أتقبل أن نشرب شيئاً كضيافة ؟ قلت له : حباً وكرامة ، قال لي : أنا عمرت هذا المسجد ، وحدثني قصته ، ومكان عمارة المسجد مخالف لكل القوانين ، لأن المنطقة ليست منظمة بلدياً ، وهذا شيء طبيعي جداً ، المسجد يقام في المدن ، وفي أماكن التجمع السكني ، فمنع من إقامة المسجد بحسب القوانين النافذة ، قال لي : سافرت إلى مسؤول هناك في الساحل ، وذكرت له ما قلت ، وكيف حقق الله لي طلبي ، قال لي : رفع الهاتف ، وأعطى توجيهاً ؛ أن دعوه يبني هذا المسجد ، وبنى هذا المسجد .

مسجد جميل جداً سببه خاطر داخلي ، وعلى هذا الموضوع آلاف القصص ، قال لي : والله ما حركت شفتاي ، ولا نطقت ببنت شفة ، إلا أنني قلت في نفسي : إن أكرمني الله فلأبنين لله مسجداً ، وبحسب قوانين البلديات في كل أنحاء العالم المسجد يقام في مدن ، في أماكن تجمع سكني ، ومع ذلك ما الذي ألقي في قلب هذا المحافظ فأعطى توجيهاً أن دعوه يبني هذا المسجد ؟ والآن يؤمه المسافرون ، و المتنزهون ، ويصلون فيه ، فهل من الصعب أن تسأل الله شيئاً من خير الدنيا والآخرة بإخلاص وصدق؟ لا .

رجل كبير في السن ، امرأته عاقر ، نادى ربه نداء خفياً ، فاستجاب الله له ، ولمَ لا يستجيب لك ؟ إله زكريا إلهنا ، ورب زكريا ربنا ، ونحن في أي مكان ، وفي أي زمان نعبد الله عز و جل ، فكل شخص له طلب عند الله ، ليسأل الله حاجته كلها ، ليسأله صادقاً ، ليسأله مخلصاً :

(فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى)

5 ـ بشارة الله لزكريا بيحيى :

سيأتيك غلام ، هذا الغلام أول من يؤمن بعيسى عليه السلام ، مصدقاً بعيسى ، أي بكلمة من الله ، سيدنا عيسى كلمة ، السيدة مريم ليس لها زوج ، كن فيكون ، فقيل في تعريف هذا النبي الكريم : إنه كلمة الله ، ألقاها إلى مريم ، وروح منه .

(مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا)

(سورة آل عمران : الآية 39)

6 ـ معنى : سيدًا :

من أجمل التفسيرات لـ (سيداً) ، أي متفوقاً في كل شيء ، بعيدًا عن النقص ، ذا مروءة ، ذا حصافة، ذا فهم ، ذا غيرة ، تكلم عنه المفسرون كثيراً ، لكن مجمل أقوالهم : أنه متفوق في كل شيء ، سيد ، علم ، يشار له بالبنان ، كريم الأخلاق ، عفو ، شجاع ، سموح ، منصف ، (سيداً) .

7 ـ معنى : حصورًا :

ولكن أيها الإخوة ، لابد أن نقف وقفة متأنية (وَحَصُورًا) ، حصور بمعنى محصور ، أي وضع نفسه في مكان محدود ، ما معنى هذه الكلمة ؟ أي المؤمن الصادق يمشي في هذا الطريق ، والأنبياء بلغوا قمة هذا الطريق ، كل رغباتهم محصورة فيما شرع الله ، ومن أجمل ما قاله المفسرون في القلب السليم:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء : 88-89)

المؤمن محصور بشرع الله :

القلب السليم : هو القلب الذي لا يشتهي شيئاً حرمه الله ، كل رغباته ، وكل طموحاته ، وكل ميوله محصورة في منهج الله ، بقي له من النساء زوجته ، ومحارمه ، ولا يطمح أن يرى امرأة لا تحل له ، ولا أن يكلمها ، ولا أن يستمتع بجمالها ، بقي له من المال الكسب المشروع ، لا يتطلع أبداً

لكسب غير مشروع ، ولو كان كثيراً ، ولو كان مغرياً ، ولو كان في أشد الحاجة إلى المال ، لا يشتهي معصية ، لا يشتهي مالاً حراماً ، ولا امرأة حراماً ، ولا شهوة لا ترضي الله عز وجل ، القلب السليم هو القلب الذي لا يشتهي شيئاً حرمه الله ، والسيد الحصور هو الذي بقي في دائرة المسموحات ، في دائرة المباحات ، في الدائرة التي سمح لها للمؤمن أن يأخذ منها ما شاء .

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

(سورة الأعراف : الآية 31)

العلاقة بالنساء : تزوجوا ولا تزنوا ، العلاقة بالمال : اكسبوا طيباً ، واعملوا صالحاً ، فالحصور حصر نفسه فيما سمح الله به ، ولا يفكر ، ولا يخطر في باله ، ولا يتخيل أن يعصي الله ، حتى إن بعض علماء الفقه في كتبهم قالوا : هذا الذي يتخيل نفسه مع من لا تحل له ، هذا التخيل مؤاخذ ، المؤمن الصادق لا يتخيل شيئاً حراماً ، ولا يطمح لشيء حرام ، ولا يريد شيئاً ما أراده الله عز وجل ، حصور ، وأنا أركز على صفات هذا النبي الكريم لماذا ؟ ليكون لنا قدوة .

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان : الآية 43)

فإما أن تعبد الله ، وإما أن تعبد الهوى .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ)

(سورة القصص : الآية 50)

المعنى المعاكس : من يتبع هواه وفق هدى الله فلا شيء عليه ، اشتهى المرأة فتزوج ، واشتهى المال فكسبه من طريق مشروع ، واشتهى أن يكون سيداً فأطاع الله :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

أي هناك حاجة أساسية للطعام والشراب لبقاء الفرد ، وهناك حاجة أساسية للطرف الآخر لبقاء النوع ، وهناك حاجة أساسية عند كل إنسان للتفوق ، يسمى هذا تأكيد الذات ، هناك من يؤكد ذاته بإنفاق المال الكثير ، فيقول : أنفقت مالاً لبداً ، يقول لك متباهياً : نهبت ، وأكلت ، وأنفقت مبلغاً فلكياً في هذه الرحلة، هذا يتباهى بماله ليعلو ، هذا يتباهى بأهله ، هذا يتباهى بأولاده ، هذا يتباهى بتجارته ، هذا يتباهى بعشيرته ، ويبغي العلو في الأرض ، لكن المؤمن يطيع الله عز وجل فيرفع الله ذكره :

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح : الآية 4)

أي كل الحاجات الأساسية في الإنسان يمكن أن تبلى إلى أعلى درجة من خلال منهج الله ، فكما أن الله رفع ذكر النبي ، وقرنه مع اسمه الجليل ، كذلك كل مؤمن صادق منيب مخلص ورع تقي يرفع

الله له ذكره ، ويعلي قدره ، ويلقي محبته في قلوب الخلق ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)) .

[متفق عليه]

إن أردت المال يأتك من طريق مشروع ، وإن أردت العفاف يأتك من طريق مشروع ، إن أردت العلو في الأرض يأتك من طريق مشروع :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

إذاً :

(وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 39)

كن سيداً ، ولا تكن مسوداً ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ)) .

[البخاري ، والترمذي ، وابن ماجة]

احتج إلى الرجل تكن أسيره ، أصبحت عبداً عنده ، إن احتجت إلى مخلوق كنت عبداً له ، احتج إلى الرجل تكن أسيره ، واستغن عنه تكن نظيره ، وأحسن إليه تكن أميره ، لا تكن عبداً ، كن سيداً ، لو كنت فقيراً فالفقر ليس وصمة عار ، الفقر قد يكون وسام شرف ، فقد تكون فقيرًا لأنك مستقيم ، ليس كل غني يرضى الله عنه ، لذلك كن حراً ، ولا تكن تابعاً لأحد ، لا تكن مجيراً لأحد ، لا تكن خطيئة أحد ، لا تكن محسوباً على أحد .

سئل عالم جليل له مكانة كبرى في بعض البلاد العربية ، وقد توفاه الله عز وجل : ما هذه المكانة التي حباك الله بها ؟ قال: لأنني محسوب على الله ، أنت كن محسوباً على الله فقط ، لا تكن محسوباً على عبد من عباد الله ، علا أو صغر ، فلا يليق بك أن تكون أنت لغير الله ، أنت لله وحده ، كن سيداً .

(وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ)

8 ـ يحيى : اسمٌ على مسمًّى :

هذا سيدنا زكريا بشر بغلام اسمه يحيى ، ما علاقة اسمه به ؟ أي تحيا به القلوب ، هو كان حياً بمعرفة الله ، وأحيا قلوب الذين كانوا حوله ، أي كان هادياً مهدياً ، كان حياً ومحيياً ، المؤمن كلامه يحيي القلوب :

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون : الآية 3)

يذكر الله دائماً ، فإذا تكلم أحيا القلوب ، كما عليه الصلاة و السلام :

((أمرني ربي بتسع ، خشية الله في السر والعلانية ، كلمة العدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرة)) .

[ورد في الأثر]

لكنه سأل الكيفية ، كيف ؟ أنا متقدم في السن ، وامرأتي عاقر ، كيف ؟

(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة آل عمران : الآية 40)

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ

وأنا كبير في السن ، وامرأتي عاقر :

(قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

(سورة آل عمران : الآية 40)

هكذا :

(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً)

(سورة آل عمران : الآية 41)

قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا

1 ـ علامة مجيء الولد لزكريا هي فقدُ النطق :

أي علامة ، متى ؟

(قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا)

(سورة آل عمران : الآية 41)

تفقد القوة في النطق ، حينما لا تستطيع أن تتكلم معنى ذلك أن امرأتك حملت ، تبدأ هذه المعجزة من فقد النطق ، إذا وجد في الأرض كلها شخص معفى من ذكر الله ، فهو سيدنا زكريا ، لأنه فقد النطق ، قال له :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا)

(سورة آل عمران : الآية 41)

2 ـ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا

هذا الذي فقد القدرة على النطق أمره الله أن يذكر الله كثيراً .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

(سورة آل عمران : الآية 41)

مساء عند غروب الشمس ، وقبل طلوعها .

(وَإِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)

وَإِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ

قال الطبري في تفسيره : " ومعنى قوله : اصطفاك اختارك ، واجتباك لطاعته ، وما خصك به من كرامته ، وقوله : وطهرك يعني طهر دينك من الريب ، والأدناس التي في أديان نساء بني آدم ، واصطفاك على نساء العالمين ، يعني اختارك على نساء العالمين في زمانك بطاعتك إياه ففضلك عليهم" .

(يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 43)

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ

أهمية صلاة الجماعة :

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((صَلاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً)) .

[مسلم ، الترمذي ، النسائي أ ابن ماجه ، أحمد ، مالك]

ونحن نواجه العدو بالسلاح الأبيض وجهاً لوجه يجب أن نصلي جماعة ، فكيف بنا في السلم ؟ هناك آية واضحة جداً لصلاة الجماعة في أثناء القتال ، صلاة الخوف ، فإذا كنا مأمورين ، ونحن نواجه العدو وجهاً لوجه أن نصلي جماعة ، فكيف إذا كنا في السلم ؟

(يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 43)

يا مريم اقنتي ، أي أديمي الوجهة إلى الله.

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)

(سورة آل عمران : الآية 44)

1 ـ من الإعجاز الإخباري في القرآن الكريم :

هذا اسمه إعجاز إخباري ، هناك إعجازات كثيرة في القرآن الكريم ، إعجاز في النظم ، إعجاز علمي، إعجاز بلاغي .... أحد هذه الإعجازات الإعجاز الإخباري ، فالله يخبرنا عما وقع في أزمنة بعيدة جداً ، ويخبرنا عما سيقع ، والبعد في الإعجاز الإخباري الماضي ، والمستقبلي إعجاز زماني ، بينما الإعجاز الإخباري في الحاضر إعجاز مكاني ، ماذا يقع في مكان بعيد في الوقت نفسه ؟ الآن ماذا يجري فرضاً في مكة ؟ لا نعلم نحن ماذا يجري ، من صلى إمامًا ؟ لا نعلم نحن ، فإذا جاء الخبر ، والوسائل ممنوعة عنا فهذا إعجاز إخباري في الحاضر ، فالإعجاز الإخباري في المستقبل كقوله تعالى :

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3)فِي بِضْعِ سِنِينَ)

(سورة الروم)

إعجاز إخبار بالماضي :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 44)

2 ـ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ

أي اختصم من حول هذه البنت مريم في كفالتها ، فسيدنا زكريا زوج خالتها قال : أنا أولى بها ، وقال من حوله : هي بنت سيدنا ، و نحن أولى بها ، فاختصموا فاقترعوا ، من هنا شرعت القرعة ، ألقوا أقلامهم في نهر جار ، فالقلم الذي لم يجر ، وبقي واقفاً ، فهو الذي ترسو عليه ولاية مريم ، فلم يجر قلم سيدنا زكريا فكفلها هو .

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

كل هذا تأكيد لنبوة النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن هذا القرآن وحي الله إلى النبي ، وأن الوحي لا يملك له طلباً ، ولا نفعاً ، إنه شيء مستقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، و في درس آخر نتابع الآيات .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(15-60): تفسير الآيات 45 - 48
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-02-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الخامسة والأربعين ، وهي قوله تعالى :

(إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ(45)وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ)

(سورة آل عمران)

إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

1 - الأنبياء والرسل من الرجال :

أيها الإخوة ، بدأنا بقصة جديدة ، قصة السيدة مريم ، حيث جاءتها الملائكة ، وهذا عند بعض العلماء دليل أنها نبية ، والنبوة مقام إشراقي ، والرسالة مقام تبليغي ، فالرسل من الرجال حتماً ، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)

(سورة يوسف : الآية 109)

2 - يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ

وقال :

(إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ)

(سورة آل عمران : الآية 45)

لأنّ الله عز وجل يقول كن فيكون :

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس : الآية 82)

بعض العلماء يقول : إنه حتى في هذا تقريب لنا ، أمره أسرع من هذا فكلمة ، فـ (كن) حركتان ، وكلمة (فيكون) حركتان ، أي أربع حركات قال تعالى :

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

(سورة القمر : الآية 50)

لكل شيء سبب :

الزمن معدوم بين إرادة الله وخلقه ، ولكن شاءت حكمة الله أن يجعل لكل شيء سبباً في الدنيا ، ما وظيفة هذا السبب ؟ وظيفته أنّ العقل الذي أودعه الله فيك مبادئه ثلاث ؛ أحد هذه المبادئ هو السببية ، فعقلك البشري لا يستوعب شيئاً من دون سبب ، لا يمكن أن تقبل شيئاً من دون سبب ، لا يمكن أن تدخل بيتك فإذا المصابيح متألقة ، وقد أقفلت البيت بنفسك ، وليس أحد معه مفتاح البيت سواك ، تقول : حتماً دخل لص ، لِمَ قلت : حتماً دخل لص ؟ لأنك لا تستوعب أن تتألق مصابيح البيت من دون سبب ، من دون إنسان دخل البيت ، إذاً : عقلك لا يقبل شيئاً من دون سبب ، وقد صُمم الكون على مبدأ السببية، الفاكهة من الشجرة ، والشجرة من البذرة ، تضع البذرة في التراب ، فتصبح فسيلة ، ثم شجرة تثمر ، الماء من البئر ، البيضة من الدجاجة ، كل شيء له سبب ، قال تعالى :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا(83)إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا(85))

(سورة الكهف)

حتى إن الله جل جلاله حينما يريد أن يعطي فإنه يعطي بسبب ، وحينما يؤدب فإنه يؤدب بسبب ، وهو مسبِّب الأسباب ، لكن كل شيء يقع في الكون له سبب ونتيجة ، وعقلك لا يستوعب الأمر إلا بسبب ، لكنّ الله سبحانه وتعالى قُدرته كن فيكون .

نحن إن أردنا أن نبني بيتاً نحتاج إلى سنوات لشراء أرض ، واستصدار ترخيص ، وحفر الأرض ، وإنشاء الدعائم والهيكل ، فقد نحتاج إلى سنوات ، لكن للتقريب فقط ، الإله العظيم إذا قال : كن ، فلا يوجد هناك وقت أبداً ، الوقت معدوم بين كلمة كن وأن ترى بناءً شامخًا ، قال تعالى :

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس : الآية 82)

يؤكد هذا المعنى حديث صحيح من الأحاديث القدسية ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((... يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ)) .

[مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

ذلك لأن عطائي كلام ، كن فيكون .

سمعت في النشرة الجوية أن في بعض مناطق حماة نزل مئة وتسعة وسبعون ميليمترا في ليلة واحدة ، لو أراد الله لغرقت الأرض بالأمطار ، لأن هناك حكمة بالغة ، فتقنين الله تقنين تأديب ، وقد اطَّلعت على بحث علمي مفاده أن في الفضاء الخارجي سحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض كلها ستين مرة في اليوم بالمياه العذبة ، فمن الممكن أن يكون في دمشق ألف ميليمتر ، وألفان ، وترون بأعينكم أن أماكن في العالم تجتاحها الفيضانات ، وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا ، وهذه الإشارة من دلائل نبوَّته ، بعد أن وُضع في المقاييس في شتى بقاع الأرض ، وبعد أن أُخذت كميات الأمطار الهاطلة في كل أنحاء الدنيا ، اكتشف علماء الجغرافية أن كمية الأمطار الهاطلة في الأرض لا تتغير أبداً ، لا تزيد ، ولا تنقص ، ولكنها تتبدل في توزعها ، أحياناً يصيب الشرق الأوسط جفاف ، وأحياناً يصيبُ إفريقيا جفاف ، وأحياناً المغرب ، وأحياناً أوروبا ، وأحياناً شرق آسيا .

الجفاف ينتقل من مكان إلى مكان تأديباً من الله عز وجّل ، وأحياناً تنزل الأمطار الغزيرة تأديباً من الله، فتنتقل من مكان إلى آخر ، وتأتي هذه السيول على كل البيوت ، وتتلف المحاصيل ، وتنهي كل شيء.

فربنا عز وجل جعل كمية الأمطار واحدة ، فقال عليه الصلاة والسلام ـ بلا مقاييس ، بلا جامعات ، بلا مخابر ، بلا نشرات ، بلا تواصل إعلامي ، بلا أقمار صناعية ، بلا كل شيء ـ وهذا حديثٌ عن النبي قبل ألف وأربعمائة عام :

((مَا عَامٌ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ)) .

[الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي عن ابن مسعود]

فأمر اللهِ عز وجل كن فيكون ، فعَنْ أبي ذرٍّ عَنْ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي :

((... لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ ، وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَه)) .

[مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

ولكن شاءت حكمة الله أن يكون خلقه وفق مبدأ السببية في الدنيا ، لماذا ؟ أنت إذا رأيت شيئاً بلا سبب تقيس عليه الكون ، تقول : هذا الكون بلا سبب ، ولا يحتاج إلى خالق ، ما دمت رأيت شيئاً بلا سبب تجعله قانوناً ، لكن الله لحكمةٍ أرادها جعل لكل شيئاً سبباً ، هذا المبدأ الذي تشاهده ، والذي رسخ في عقلك يهديك إلى مسبب الأسباب ، مثلاً هذه الدجاجة من البيضة ، وهذه البيضة من

الدجاجة ، وهذه الدجاجة من البيضة ، لابد أن تنتهي هذه السلسلة ، أن تنتهي عند بيضة أو دجاجة ، فإذاً : مَن خلقها ؟ من مسبِّب الأسباب ؟ هو الله عز وجل ، فكأن الله يأخذ بيدنا بنعومةٍ ، وبلطفٍ إليه

السبب لا يخلق النتيجة :

أيها الإخوة ، انتبهوا الآن ، إنّ الإنسان أحياناً يظن أن السبب يخلق النتيجة ، الإنسان أحياناً يظن ، أو يتوهم أن السبب يخلق النتيجة ، فقد وقع في الشرك ، فكل من أخذ بالأسباب ، واعتمد عليها فقد أشرك، كل من أخذ بالأسباب ، واطمأنّ إليها فقد أشرك ، فالله عز وجل من حين إلى آخرَ يبين لنا من خلال أفعاله أنّ السبب لا يخلق النتيجة ، إنما يترافق مع النتيجة ، النتيجة من خلق الله عز وجل ، فنفاجأ أنّ امرأةً لم يمسسها بشر أنجبت طفلاً بلا أسباب ! نتيجة بلا سبب ، كن فيكون ، أو أنّ شاباً وشابةً فُحصا طبياً فهُما تامَّي الخلق ، ولا ينجبان ، قال تعالى :

(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا)

(سورة الشورى : الآية 50)

السبب إما أن يُلغى في الحالة الأولى ، وإما أن يعطل في الحالة الثانية ، يُلغى أو يُعطل ترسيخاً للتوحيد ، كي تعلم أن الله مسبب الأسباب ، وأن الله خالق النتائج ، وأن النتيجة ليست من السبب ، بل هي من خلق الله عز وجل ، لذلك يكاد العالم اليوم ينقسم قسمين ؛ قسمٍ في الغرب شاردٍ عن الله ، أخذ بالأسباب ، وألْهَهَا ، واستغنى بها عن الله ، والقسم المقصِّر في الشرق لم يأخذ بها جهلاً منه أن الله هو كل شيء .

هذا مثلٌ بسيط : هذا الذي يأكل الفاكهة من دون أن يغسلها توهماً منه أن الله هو الذي يحمي ، وأن الله لا يضرُّ مع اسمه شيء ، يقول لك قل : بسم الله ، وكُلْ ، هذا جهلٌ كبيرٌ ، ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأحاديث أنه :

((من أكل الطين فقد أعان على قتل نفسه)) .

[معجم الطبراني الكبير عن سلمان]

أيّ أكل شيء دون أن يغسله ، فالذي يتوهم أنه لا حاجة للأخذ بالأسباب ، توكّل على الله ، هذا جهل فاضح ، سيدنا عمر كان مع جيشه على مشارف الشام ، فسمع أن فيها طاعوناً ، فأحجب عن دخولها ، قال له بعض الصحابة : يا أمير المؤمنين ، أتَفِرُّ من قضاء الله ؟ نظر إليه ، وقال : << نعم أفر من قضاء الله إلى قضاء الله >> .

لو أنك تملك أرضين ؛ إحداهما مُعشبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعيت غنمك في المُعشبة رعيتها بقضاء الله ، وإن أرسلتها إلى المُجدبة أرسلتها بقضاء الله ، فنحن نَفِرُّ من قضاء الله إلى قضاء الله ، السلامة أيضاً قضاء من الله ، أرأيتم إلى هذا الفهم العميق ، أردت من كلمة كن فيكون أن الله قادر أن يخلق شيئاً بثانية ، كن فيكون ، حتى كن فيكون تقريب وتوضيح ، هو الزمن معدوم

بين مشيئة الله وبين فعله ، ولكن شاءت حكمته أن يجعل لكل شيء سبباً ، يمكن لأب أن يجد أمامه ابنًا عمره عشرون سنة ، كاملا ، مثقفًا ، يحمل شهادة عليا ، ابنه كن فيكون ، الطريق طويل جداً ، يجب البحث عن زوجة ، وعن بيت ، وتفرش البيت ، وتتفق مع أهل الزوجة ، وتقيم عرساً ، وتدخل بها ، وتحمل ، وكل يوم ألم، وكل يوم شيء متعب ، وبعد ذلك تنجب ، والطفل يحتاج إلى رعاية تامة ، يومًا يحبو ، ويومًا يمشي ، ويومًا ينظف ، ويومًا يقول : بابا ، بالتسلسل حتى يمضي عشرون عاماً ، فتجده فتى أمامك ، إن الله قادر ، كن فيكون ، في ثانية ، ولكن شاءت حكمة الله أن يجعل لكل شيء سبباً ، السبب من أجل أن يكون لك عمل ، لو كان كل شيء جاهزاً لما كان للحياة معنى ، من أجل أن يكون لك عملاً ، من أجل أن ترقى عند الله في تربية أولادك ، وأن ترقى عند الله بتعلم حرفة تكسب منها رزقاً ، لولا أن الله قد جعل لكل شيءٍ سبباً لما ارتقى إنسانٌ على وجه الأرض .

إنقاذاً للتوحيد من حين لآخر يُلغى السبب :

الله مسبِّب الأسباب ، لكن إنقاذاً للتوحيد من حين لآخر يُلغى السبب ، أو يُعطَّل ، يُلغى السبب في السيدة مريم ، أو يُعطل في الشاب والشابة اللذين لا ينجبان ، قال تعالى :

(إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ)

(سورة آل عمران : الآية 45)

أي كلمة ، سيدنا عمر عزل سيدنا خالدًا ، قال له : لم عزلتني ؟ قال له : والله إني أحبك ، قال : لمَ عزلتني ؟ قال : والله إني أحبك يا أبا سليمان ، قال: لم عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ قال : والله إني أحبك، في الرابعة ألحّ عليه ، فقال : والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يُفتتن الناس بك ، لكثرة ما أبليت في سبيل الله .

فقد توهم الناس أنّ أية معركة يدخلها خالد لا بد أن ينتصر ، فإنقاذًا للتوحيد ، ومن أجل أن يعرف الناس أن النصر من عند الله ، لا من عند خالد ، عزله ، واستمر النصر ، فأخطر شيء في التوحيد أن تُشرك ، أن تتجه إلى غير الله ، أن تُعلّق الأمل على غير الله ، أن ترجوَ غير الله ، أن تخاف من غير الله ، أن تُرضي غير الله ، أن تُغضب غير الله ، التوحيد ألاَّ ترى إلا الله ، وألاَّ تعبد إلا الله ، هو المعطي ، والمانع ، والخافض ، والرافع ، والمعز ، والمذل ، والرزاق يُعطي ويأخذ ، ويرفع ، ويخفض ، ويُعز ، ويُذل ، إذاً : هذه خرق لسنن الكون ، السيدة مريم معجزة ، واتفقنا فيما مضى على أنّ خرق القوانين والسنن والعادات الثابتة للأنبياء معجزة ، وللأولياء كرامة ، وللضُلال ضلالة ، قد يُؤتى الإنسان بمساعدة الجن بشيءٍ من خرق العادات ، هذا فيه ضلالة ، لأنها تُوَظَّف في الباطل ، وقد يؤتى المؤمن الكريم عند الله كرامة ، وقد يُؤتى النبي معجزة .

قال تعالى :

(إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)

3 - عيسى ابن مريم كلمة الله :

هو كلمة سيدنا عيسى ، كن فيكون ، وكما قال بعض العلماء : كلمة عيسى تعريب كلمة يسوع ، واليسوع هو المُخَلِّص ، والمسيح لقبه ، وكلكم يعلم أن للإنسان اسماً ، ولقباً ، وكنيةً ، ونسباً ، إذا قلنا : سيدنا عمر ، فهذا اسمه ، وإذا قلنا : أبو حفص ، فهذه كنيته ، وإذا قلنا : الفاروق فهذا لقبه ، وإذا قلنا : القرشي فهذا نسبه ، فللإنسان اسم ، وكنية ، ولقب ، ونسب ، فسيدنا عيسى اسمه عيسى ، وهو علمٌ على الذات ، لقبه المسيح ، لماذا نُسب إلى أمه مع أنه لم يَرِد في القرآن الكريم دون أن تستنبطوا شيئاً من هذا ، لم يَرِد في القرآن الكريم اسم امرأة على الإطلاق ، بعضهم اجتهد ، وقال نكتب مثلاً : ندعو حضرتكم لحضور عقد قران فلان على كريمة فلان ، ويخفي اسمها ، وقد فعل هذا بعضهم ، لكنّ النبي عليه الصلاة والسلام صرّح بأسماء بعض النساء ، فإذاً : الاستنباط ظن ، على كلٍ الواقع أنه لم يرد في القرآن الكريم كله اسم امرأة إلا السيدة مريم ، من أجل أن يكون هذا توكيداً أن المسيح ابن مريم ، وليس له أب ، هذا إعجاز .

استنباط لطيف : ليس في القرآن خطاب بلفظ محمد ، لكن بلفظ الرسالة أو النبوة :

ولكن هناك استنباطات لطيفة ، وهي أنه لم يرد في القرآن الكريم اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخطاب : يا محمد ، هناك قوله تعالى :

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ)

(سورة آل عمران : الآية 55)

وقوله :

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)

(سورة مريم : الآية 7)

وأيضاً قوله :

(يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم : الآية 12)

ليس في القرآن كله يا محمد ، هناك يا أيها الرسول ، يا أيها النبي ، هذا لعلو مقامه عند الله عز وجل ، ما خاطبه باسمه أبداً ، خاطبه بمرتبته ، لكن في أعلى مقام ، الإنسان له نشاطات كثيرة ، يأكل ، ينام، يستريح ، يذهب ، ويسافر ، ولكن قد يُقام له حفل تكريمي كبير لنيل شهادة عليا هذا

يوم من أيام العمر ، يوم يتزوج مثلاً بالتقريب ، يوم ينال شهادة كبرى ، يوم يؤسس شركة فرضاً ، يوم يتعين في منصب رفيع ، هذه أيام معدودة .

في المواقف العظمى التي وقفها النبي خُوطب بأنه عبد الله ، أعلى مقام أن تدعو إلى الله ، قال تعالى :

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(سورة الجن : الآية 19)

وقوله :

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(8)فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(9)فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(10))

(سورة النجم)

وفي الإسراء قوله تعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

(سورة الإسراء : الآية 1)

أي في أعلى مقام يُنادى بأنه عبد لله ، ونحن ديننا دين العبودية لله .

يروى أن رجلاً كان مشركاً بالمعاصي والآثام ، معاقرا الخمر والزنا ، وما شاكل ذلك ، وكان غنياً مُترفاً عنده الجواري ، طرق بابه رجل صالح ، ففتح غلامه الباب ، فقال له هذا الرجل : قل لسيدك إن كان حراً فليفعل ما يشاء ، وإن كان عبداً فما هكذا تصنع العبيد ، العبد يطيع سيده ، فهذا العبد دخل على سيده ، وقال له : إنّ في الباب رجلاً يقول لك : إن كنت حراً فافعل ما تشاء ، وإن كنت عبداً فما هكذا تصنع العبيد ، فقال : أدركه ، فهذا السيد فعلت هذه الكلمة فيه فعلاً عجيباً ، فتبعه حافياً من دون نعل إلى أن أدركه ، وتاب على يده ، فسُمي بشر الحافي ، هذا الولي الكبير العارف بالله سبب توبته هذا الرجل الصالح ، قال له : إن كنت حراً فافعل ما تشاء ، وإن كنت عبداً فما هكذا تصنع العبيد .

احفظ درسَيْ بدرٍ وحنينٍ :

نحن عبيد لله عز وجل ، من منّا يملك أن يعيش إلى ساعة قادمة ، من منّا يملك ألا يكون في جسمه شيء خطير ، والحقيقة أن أخطر الأمراض ليس لها أعراض ، فإذا كنت تملك المستقبل فقل : أنا ، أما إذا كنت لا تملك دقيقة واحدة فقل : الله ، والقاعدة السادسة إن قلت : الله ، تولاك الله ، وإن قلت أنا : تخلى الله عنك ، وهل أنت أكرم من أصحاب رسول الله ، في حُنين قالوا : لن نُغلب من قِلة ، نحن كُثر، قال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة : الآية 25)

أيها الإخوة الكرام ، وفي بدر قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

احفظ هذين الدرسين ، إذا وحّدت ، وقلت : الله ، تولاك بعنايته ، وإذا قلت : أنا ، ونسبت الأمر إلى ذاتك ، وعلمك ، وخبرتك ، ومكانتك ، ونسبك ، ومن حولك ، وجماعتك تخلى الله عنك ، لذلك دخل أحد كبار العارفين بالله إلى مسجده ، وحوله عشرات الألوف فقال : " اللهم لا تحجبني عنك بهم ، ولا تحجبهم عنك بي" .

ينبغي ألا ترى إلا الله ، هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، ينبغي أن تعبده وحده ، أما الذي ينطق بالعلم من بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام فهذا رفيق في الدرب :

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان : الآية 27)

هذا رفيق في درب الإيمان ، ولكن ليس هو الوجهة ، الوجهة لله عز وجل ، والدليل سيدنا الصديق ، أنا لا أعتقد أن في الأرض رجلين يحب بعضهما بعضاً كحب الصديق لسيدنا رسول الله ، ومع ذلك حينما توفي النبي قال أبو بكر البكّاء المخلص الذي ذاب في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماذا فعل ؟

((... جَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ ، قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا ، ثُمَّ خَرَجَ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الْحَالِفُ ، عَلَى رِسْلِكَ ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَقَالَ : أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، وَقَالَ :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ وَقَالَ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)) .

[متفق عليه]

هذا هو التوحيد ، ديننا دين التوحيد ، ديننا دين مبادئ لا دين أشخاص ، دين مضامين لا دين عناوين .

يا أيها الإخوة الكرام ، قال تعالى :

(إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

[سورة آل عمران : الآية 45]

4 ـ ألاَ تحب أن تكون وجيها في الدنيا والآخرة ؟

لو وقفنا عند هذه الكلمة ، ألا تحب أنت أيها المؤمن أن تكون وجيهاً :

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنـا فإنا منحنا بالرضى من أحبنـا

ولُذ بحمانا واحتمِ بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خلقـنا

وعن ذكرنا لا يشغُلَنَّك شاغـل و أخلص لنا تلقَ المسرة و الـهنا

وسلِّم لنا الأمر في كل ما يكـن فما القرب و الإبعاد إلا بأمرنـا

فيا خجلي منه إذا هو قـال لـي أيـا عبدنا ما قـرأت كتابنـــا

أما تستحي منّا ويكفيك ما جرى أما تخشى من عُتْبنا يوم جمعـنا

أما آن أن تُقلع عن الذنب راجعاً و تنظـر ما به جاء وعــدنا

***

إلى متى أنت باللـذات مشغـول وأنت عن كل ما قدَّمتَ مسؤول

هكذا ورد في بعض الأشعار .

أيها الإخوة ، دققوا في كلمة (وجيهاً) ، أنت حينما تطيع الله فلك من هذه الآية نصيب .

قلت لكم في دروس سابقة : إنّ قراءة القرآن الدقيقة ، المتأنية ، التي فيها تَدَبُر تعني أن تسأل نفسك السؤال الدائم : أين أنا من هذه الآية ؟

أنت حينما تُؤثر طاعة الله على حظوظ نفسك ، حينما تطيع الله عز وجل تكن لك من هذه الآية نصيب، يرفع الله لك ذكرك .

رأى رجل من أهل الكتاب في الطريق رجلاً من كبار علماء المسلمين ، وهو عبد الله ابن مبارك يركب فرساً ، وكان بهيَّ الطَّلعة ، جميل الصورة ، منير الوجه ، أنيق الملبس ، وحوله إخوانه الكرام يحُفُّون به ، هذا الرجل الذمي رآه كأنه ملِك ، وهو فقير جداً ، ويعمل في تنظيف المجارير ، ومقهور ، وجائع ، وبائس ، فقال له : يقول نبيكم : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فأيُّ سجن أنت فيه يا سيدي، وأيُّة جنة أنا فيها ، فأجابه ابن المبارك أن ما أنت فيه إلى ما ينتظر العاصي هو في جنة ، وما أنا فيه إلى ما ينتظر المؤمن من نعيم مقيم أنا في سجن ، وفي أحد الأحاديث القدسية ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)) .

[مسلم ، الترمذي ن ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

الإنسان حينما يتعرف إلى الله يُعلي الله قدره ، انظر إلى هذه الآية :

(وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

لك مكانة ، أي بالتعبير الدارج أنت غالٍ على الله ، لست هيِّناً على الله عز وجل ، يُدافع عنك ، ويُعلي قدرك ، ويحفظك ، ويؤيدك ، ويوفقك ، ويشفيك ، ويطمئنك ، ويُيَسر لك أمرك ، هذه بعض نتائج الإيمان ، تعيش حياة طيبة ، هنيئة ، فيها رضى عن الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

ولكل مؤمن من هذه الآية نصيب ، إن أطعت الله كنت وجيهاً في الدنيا ، يُعلي الله قدرك ، يرفع ذكرك، يحميك من عدوك ، يجعل عدوك في خدمتك شاء أم أبى ، إذا كان الله معك خدمك عدوك ، وإذا كان عليك تطاول عليك قريبك ، إذا كان الله معك خدمك عدوك اللدود دون أن يشعر ، وإذا كان الله عليك تطاول أقرب الناس إليك عليك ، قال تعالى :

(وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 45]

5 - وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ

الناس يبحثون عن مقام ، عن ثروة ، عن مركبة ، عن بيت فخم ، عن تجارة رابحة ، عن امرأة جميلة، يبحثون عن متاع الدنيا ، لو أنهم ذاقوا طعم القرب ، لو أنهم شعروا أنهم في عناية الله ، ورحمته ، وحفظه ، وتأييده ، لو أنهم قرؤوا القرآن فذابوا خشوعاً لله ، لو أنهم صلَّوا صلاة مودع لكانوا مع الله في مناجاته ، إن أردت أن تحدث الله فادْعُهُ ، وإن أردت أن يحدثك الله فاقرأ القرآن ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام :

((لي ساعة مع ربي لا يسعني فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب)) .

[ورد في الأثر]

مقام عال .

قال تعالى :

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 46]

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ

1 - الأنبياء يحتاجون إلى معجزات :

هذه المعجزات ، المعجزة قبل النبوة تسمى إرهاصًا ، أي إشارة من الله ، هذا الطفل الذي قال : إني عبد الله ، وقد وُلِد لتوه ، هذا شيء غير مألوف إطلاقاً ، قال تعالى :

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ)

السبب في أن الأنبياء يحتاجون إلى معجزات هو أنهم حينما يأتون بمنهج الله فهناك حدود وقيود . قد تجد في الهند مثلاً ثمانمئة ألف شخص يدينون بالبوذية ، دين وضعي من وضع البشر ، تجد في بلاد العالم مئات الملايين يدينون بديانات ما أنزل الله بها من سلطان ، قد يقول أحدكم : كيف انتشرت هذه الأديان الباطلة ؟ الجواب سهل جداً ؛ هذه الأديان لا منهج فيها ، ليس فيها افعل ولا تفعل ، ليس بها تكليف ، فيها ولاء فقط ، وإعلان الولاء سهل جداً ، تعال إلى هذا المكان ، وقم بحركات إيمائية ، وتمتم تمتمات ، ثم افعل ما تشاء خارجه ، قضية سهلة جداً ، لكنّ منهج الله عز وجل تجد فيها آلاف الأوامر والنواهي ، أنت محاسَب حتى في خلوتك في البيت ، مُحاسَب مع أقرب الناس إليك مع أولادك ، مع زبائنك ، في تجارتك ، في زراعتك ، في بيعك ، في شرائك ، مُحاسَب حساب دقيق ، أنا والله لا أبالغ ، منهج الله لو أردت أن أضع رقماً لبنوده أكثر من خمسمائة ألف بند ، لكنّ المسلمين مسخوا هذا المنهج إلى خمسة بنود ، صوم وصلاة وحج وزكاة ، أما بيوتهم فليست إسلامية ، وتجارتهم ليست إسلامية ، وبيعهم ليس إسلامياً ، واحتفالاتهم ليست إسلامية ، وأنماط حياتهم وسفرهم وإقامتهم كل نشاطاتهم ليست إسلامية ، بقي لهم من الدين اسمه ومن القرآن رسمه ، وهل من الممكن أن يتحكم مصمم أزياء يهودي في فرنسا في ثياب المسلمات في العالم كله ؟ أيُّ إسلام هذا ؟ أين قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

((... وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[الترمذي ، الدارمي عن ابن عباس]

أنت ترى هذه الأيام مليارا ومئتي شخص مغلوبين ، لأنّ مصمم الأزياء يتحكم في ثياب نسائهم ، يكشف عورات النساء فيقلدونه ، يُظهر مفاتن المرأة فيقلدونه ، هم يَتَّبعون ، لو دخلوا جُحر ضبٍ لدخلتموه ، تُحَلُّ عُرى الإسلام عروة عروة ، قال تعالى :

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ)

بماذا تشعر لو أدركت أن الله تعالى يحبك ، وأنك مقربٌ إليه ، بماذا تشعر ؟ كما قال بعضهم : كدت بأخمُصي أطأُ الثُّريَّا ، أي شعوره أنّ الله يحبه شعور لا يُصف ، شعورك بأن الله معك يجعلك تصبح أقوى إنسان ، إذا كان هناك دولة ضعيفة تعُدُّ تدعمها دولة كبيرة تجد بأنهم يتغطرسون غطرسة لا تُحتمل ، لهم تصريحات لا تُحتمل ، لأن دولة كبيرة تدعمهم ، فأيهما أقوى أن تكون مع الله أم مع أمريكا ؟ إذا كنت مع الله فمن يجرؤ على النيل منك ؟ لكنّ المسلمين تَخَلَّوا عن دينهم ، وقصَّروا في طاعة ربهم ، فجاءت شراذم الآفاق يتَحدَّونهم .

أيها الإخوة ، قال تعالى :

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ)

2 ـ معنى : الصالحين :

معنى الصالحين ، أي عملٌ صالح ، كلمة جامعة شاملة ، أي في حركاته ، وسَكَنَاتِه، وإقامته ، ونومه ، واستيقاظه ، وأكله ، وشربه ، وزواجه ، وتربية أولاده ، وبيعه ، وشرائه ، وكسبه للمال كله وفق المنهج لأنه صالح ، موقفه كامل ، سواء أمرض ابنه ، أم كان عليه دين ، أم أقرض إنساناً ، أم عمل دعوة في بيته ، أي كيفما تحرك يمثِّلُ كمال الشرع ، وهناك رأي آخر يقول : ومن الصالحين لعطائنا .

أنت تريد أن تضع رئيساً للجامعة ، هل من الممكن أن تعيِّن أميًّا لا يقرأ ولا يكتب حتى لو كان قريبك، وتحبه ، وتحب أن تنفعه ؟ هذا شيء مستحيل ، يجب أن يكون معه دكتوراه على الأقل ، إن كان لك قريب معه دكتوراه ، ومتميز ، وله مؤلفات هذا من الممكن التفكير فيه ، ووضعه رئيساً للجامعة ، وكان النبي شديد الأدب مع الله ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى الْأَسْلَمِيِّ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

((... اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ)) .

[الترمذي]

هناك ملِك له ولد ، وقال له : يا بني ، اطلب ، وتمنَّ عليّ ، لو طلب منه مركبة فرضاً لأعطاه عشرًا ، لو طلب قصراً لأعطاه قصوراً ، قال له : أحب أن أكون رئيساً للجامعة ، يقول له : لا ، هذا منصب يحتاج إلى دكتوراه ، لك أن تفعل كل شيء ، لكن أن تكون في منصب علمي ، فهذا يحتاج إلى مؤهل ، فإذاً : من الصالحين هذا يعني أنه مؤَهل لعطائنا ، أهَّل نفسه للجنة ، الدنيا مدرسة لو نفهم حقيقتها ، الدنيا كلها من أجل أن تؤهل نفسك لعطاء الله عز وجل ، أن تَصلُح لعطاء الله .

الآية الكريمة :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر : الآية 74)

لولا أننا جئنا إلى الأرض ، وتعرَّفنا إلى الله في الأرض ، وغضضنا بصرنا ، واستقمنا على أمر الله في الأرض ، وبذلنا الغالي والرخيص ، وأنفقنا مالنا في الأرض ، وتزوجنا وفق سُنَة رسول الله في الأرض ، وكسبنا المال الحلال وأنفقناه في الأرض ، لما كنا في الجنة ، وقالوا :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر : الآية 74)

لذلك في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، هي جنة القرب .

أيها الإخوة ، شأن هذه السيدة الكريمة كشأن سيدنا زكريا ، قال تعالى :

(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة آل عمران : الآية 47]

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ

: هذه معجزة ، أي الذي خلق الأسباب قادر على إلغائها أو تعطيلها

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ)

(سورة آل عمران : الآية 48)

الكتاب المُنَزَّل عليه ، الحكمة أي تصديقه ، حيثما وردت الحكمة مع الكتاب ، الكتاب مطلق كتب الوحي المنزل على أنبياء الله ورسله ، والحكمة سُنة رسول الله ، أي شريان ما في الكتاب ، أو الأسلوب العملي لتطبيقه ، والتوراة والإنجيل هنا عطف الخاص على العام ، قال تعالى:

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ(48)وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

وفي درس آخر إن شاء الله أتابع تفسير هذه القصة في آل عمران .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(16-60): تفسير الآيات 49 - 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-03-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ)

[سورة آل عمران : الآية 50]

وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ

وكانت الآية التي قبلها :

(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{47} وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ{48} وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

1 ـ الرسول معه منهج :

أولاً : أيها الإخوة ، حينما يأتي إنسان ، ويخاطب الناس يقول : إني رسول الله ، فشيء طبيعي جداً أن يقال له : أنت كاذب ، ذلك أنّ الرسول معه منهج ، والمنهج افعل ولا تفعل ، والناس متفلتون ، الكافر ليس عنده قيد ، طليق من كل قيد ، يأكل ما يشتهي ، ويلتقي مع من يشتهي ، ويذهب إلى أي مكان يشتهي ، أي حركته غير مرتبطة بمنهج تبعثها شهواته فقط ، فمثل هذا الإنسان إن جاءه إنسان مثله ، وقال : إني رسول الله ، سيقول له : أنت كاذب ، ذلك لأنه سيمنعه من أشياء يحبها .

2 ـ الرسول معه معجزة مناسبة لعصره :

إذاً أن يُكَذَّب الأنبياء شيء طبيعي جداً ، أن يُكَذَّب الدعاة إلى الله شيء طبيعي جداً ، كيف شهد الله بهؤلاء الرجال الذين هم قمم البشر ، شهد لهم أنهم رسله ، أيَّدهم بالمعجزات ، أيّدهم بشيء لا

يستطيعه مخلوق من بني البشر ، ولحكمة أرادها الله عز وجل أنّ المعجزة ينبغي أن تتناسب مع العصر ، وأن تكون في موضوع تفوق فيها أهل العصر ، الآن هناك تفوق بالكمبيوتر مثلاً ، يقول لك : أربعمائة وخمسين مليون حرف في الثانية ، فلو جاء نبي في هذه الأيام فسيأتي بشيء من طبيعة العصر . في زمن السيد المسيح كان الطب متفوقًا جداً ، وفي أيام سيدنا موسى كان السحر متفوقًا جداً ، في أيام رسول عليه الصلاة والسلام كانت الفصاحة ، والبلاغة ، والأدب ، والشعر في أعلى درجة ، فالمعجزة ينبغي أن تكون تحدياً لقوم النبي فيما برعوا فيه ، والإنسان متى يخضع لك ؟ سحرة فرعون لماذا حرقوا المراحل كلها ، وفي ثوانٍ معدودات خروا لله ساجدين ؟ لأنهم سحرة ، جاؤوا بأنابيب ، ورسموها على شكل أفعى وثعابين ، وضعوها في معدن الزئبق ، وجعلوها فوق مستوي ساخن ، والسخونة مدَّدت الزئبق ، وتحرّك هذا الأنبوب المطاطي ، وكأنه ثعبان مبين ، فلما رأوا ثعباناً حقيقياً كان قبل دقيقة عصاً فإذا هي ثعبان مبين ، لأنهم سحرة ، ولأنّ هذا الشيء الذي رأوه فوق طاقتهم ، خروا لله ساجدين .

الاكتشاف العلمي طريق هداية :

إذا قال طبيب : أنا ألّفت كتابًا في علم الأجنّة يصبح وكأنه إنجيلٌ لشدة هيمنته على باقي الكتب ، وانتشار هذا الكتاب في شتى جامعات العالم ، وهو يبين أنّ العظم يتخلّق بعد اللحم ، ثم يكتشف فجأة أنه كان مخطئاً في هذا ، وأنّ العظم يتشكل أولاً ، ثم يُكسى باللحم ، ودخل مرة على طلابه في جامعة أكسفورد ببريطانيا وقال : عندي فتح جديد ، وعندي كشف لم أُسبَق إليه ، وعندي ، وعندي.... أي هو قطب في اختصاصه ، وهو متوهم سابقاً أنّ العظام تُشكل بعد اللحم وألقى هذه القنبلة ، وقال : العظم يتشكل على خلاف ما في كتابي ، فقام طالب مسلم من تلاميذه ، وقال له : يا أستاذ هذه الحقيقة جاء بها القرآن قبل أربعة عشر قرناً، فلم يصدقه ، دُهش ، فلما جاءه هذا الطالب في اليوم الثاني بالقرآن الكريم مُترجَماً إلى اللغة الإنكليزية قرأ فيه :

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون : الآية 14]

يُروى أنّه أسلم ، لماذا ؟ لأن هذا هو اختصاصه ، سنوات وسنوات ، وعقود وعقود ، وهو متوهم أن اللحم يتخلق أولاً ، والعظام ثانياً ، فلما اكتشف العكس وظن أنه سبق كل علماء عصره صُعِق لما رأى في كتاب أُنزل قبل أربعة عشر قرناً يبين ذلك ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء)

[سورة فاطر : الآية 28]

ذكرت لكم مرة أنّ هناك آية قرآنية لو سمعها عالِم فلك لخر ساجداً ، وهي قوله تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة : الآية 75]

من كلمة واحدة ، وهي كلمة مواقع ، إنّ هذا النجم العملاق ، وهذه المجرة العملاقة التي تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ، مع أن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وفي الدقيقة، وفي الساعة ، وفي اليوم ، وفي الشهر ، وفي السنة ، وفي عشرين مليار سنة ، كم تبعد عنا هذه المجرة ؟

إن أقرب نجم ملتهب إلينا يبعد عنا أربع سنوات ضوئية ، لو أردنا أن نصل إليه بمركبة أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون عام ، بمركبة أرضية نحتاج إلى خمسين مليون عام كي نصل إلى أقرب نجم ملتهب على الإطلاق ، فإذا كانت هذه المجرة تبعد عنا عشرين مليار سنة ، أي بقي ضوؤها يسير في الفضاء عشرين مليار سنة حتى وصل إلينا ، وحتى رصدناه في مراصدنا ، هذه المجرة التي أرسلت إلينا هذا الضوء قبل عشرين مليار سنة سرعتها تقترب من الضوء ، سرعتها كما قُدِّرت مئتين وأربعين ألف كيلو متر بالثانية ، أين هي الآن ؟ لو قال الله تعالى : فلا أقسم بالمسافات بين النجوم لم يكن هذا قرآناً ، ولا كلاماً خالداً ، إنما قال :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

وكلمة موقع تعني أنّ صاحب الموقع ليس شرطاً أن يكون في الموقع ، فقد تركه ، هذا موقع فلان ، وأين فلان ؟ لا نعرف ، هذا موقعه ، فعلى كل أيها الإخوة قال تعالى :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

ولأنّ هذا العصر هو عصر علم ، وتفوق ، وفضاء ، وذرة ، وحواسيب ، لذلك سمح الله عز وجل لنفسه أن يوازن ذاته العليَّة مع بعض مخلوقاته ، قال :

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

[سورة الأنعام : الآية 62]

الآن الحواسيب المتطورة جداً - طبعاً هذه لا تأتينا نحن - الحاسب العادي يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف في الثانية الواحدة ، فحينما تعطي الأمر ، وتضغط على الزر فتأتي هذه النتيجة على الشاشة فوراً ، هذا من صنع الإنسان ، فكيف هو الواحد الديَّان ؟ قال :

(وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ)

حسابه أسرع .

أيها الإخوة ، وقال سبحانه :

(أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة الصافات : الآية 125]

الكُلية الصناعية كالطاولة ، لابد أن تستلقي ، يستلقي الإنسان على ظهره لا سمح الله ، ولا قدر ، لابد أن يستلقي الإنسان على ظهره ثماني ساعات لتصفية دمه ، مع تعطيل وقتٍ ، وجهدٍ ، وألمٍ ،

ونفقةٍ باهظةٍ ، أما هذه الكُلية الطبيعية بحجم البيضة فتعمل بصمت ، وأنت نائم ، وأنت تمشي ، وأنت تعمل ، وأنت راكب في مركبتك ، أي كل عصر له شيء في تفوق ، فحينما تفوق الناس بالسحر جاء موسى بسحر حطم ما يتوهمون أنه سحر ، جاء بمعجزة ، وحينما تفوق الناس في الطب السيد المسيح أحيا الموتى ، لم يكن هناك طب ، يوجد إحياء للميت ، يبذلون العناية :

إنّ الطبيب له علم يدلُّ بــه إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقيــر

والدليل أن الملوك يموتون ، ما معنى ملك ؟ أي أنّ أطباء العالم في خدمته ، قد يأتون به بأطباء من شتى بقاع الأرض ، الأدوية النادرة تأتيه ، له أعلى عناية على الإطلاق ، ومع ذلك يموتون ، الأقوياء يموتون ، والملوك يموتون ، وكل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، لا يوجد في الطب إحياء ميت ، هناك معالجة ، وتسكين آلام ، وبتر عضو ، وعملية جراحية ، وتخفيف ، ولكن لا يوجد إحياء ميت ، ففي عصر السيد المسيح كان الطب متفوقاً فكانت معجزته قوله تعالى :

(أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

إن وجدت في محل ألبسة للأولاد مجسَّمًا من الشمع لطفلة جميلة جداً ، وضعها أمام ابنتك التي تأخذ جزءاً من لبّك ، هل توازَن هذه مع هذه ؟ امرأة فيها حياة وحيوية ، وابتسامة ، وتفكير ، ومشاعر ، وعواطف ، وهناك أجهزة معقدة جداً ، تجد في عينها فقط مائة وثلاثين مليون عصيّة ومخروط ، في رأسها ثلاثمائة ألف شعرة ، لكل شعرة شريان ، ووريد ، وعصب ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية .

وفي المعدة خمسة وثلاثون مليار غدة هاضمة ، وفي الدماغ مئة وأربعين مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد ، هذه هي الطفلة ، فوازن بين مجسم لطفلة يوضع في محل ألبسة و طفلة حقيقية ، بين وردة صناعية مصنوعة من مادة كيميائية و وردة طبيعية ، قال تعالى :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون : الآية 14]

هذا النبي الكريم قال ، قال تعالى :

(أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً)

طائر من جبصين ، يطير ، وله رئتان ، وشرايين ، وأوردة ، وقلب ، وله عينان ، وأجهزة كاملة ، قال تعالى :

(أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

الأكمه أي من وُلِد أعمى ، والأبرص هذا اللون الغريب في جسم الإنسان ، والذي لا دواء له ، وأحيي الموتى ، لكن دقق في كلمة واحدة : (بإذن الله) ، النبي لا يستطيع بذاته أن يفعل شيئاً ، لأنه بشر مثلنا :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)

[سورة الكهف : الآية 110]

إلا أنه بقدرة الله عز وجل يفعل كل شيء سمح الله له به ، هي قاعدة حينما يأتي النبي بمعجزة فهي بإذن الله ، وحينما ينبئُنا بخبر صادق ، هذا من علم الله لا يَعلم إلا أن يُعلِم ، ولا يفعل شيئا إلا أن يمكنه الله منه ، قال تعالى :

(وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

هذا الشيء مستحيل :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

1 ـ لفتة رائعة في قوله : لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

هذه اللفتة الرائعة :

(لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

قد يقول قائل : نحن إن رأينا هذه الآية نؤمن ، هنا الإيمان يجب أن يسبق هذه الآية ، ما معنى الآية ؟ معناها أنه إذا أردت أن تؤمن فأيُّ شيء في الأرض يدلك على الله ، البعرة من البعير ، والماء من الغدير ، والأقدام تدل على المسير ، أفسماءٌ ذات أبراج ، وأرضٌ ذات فِجاج ، ألا تدلاّني على الحكيم الخبير ، فإن أردت أن تؤمن فأيُّ شيء في الأرض يدلك على الله ، وإن أردت ألا تؤمن فلن تؤمن ، ولو عاصرت الأنبياء مجتمعين ، ولو كنت في أكبر محطة فضائية ، ولو كنت على (ميكرو سكوب) مجهر يُكَبر أربعمائة ألف مرة ، ولو رأيت بعينيك المجرات ، ولو غصت في أعماق البحار ، وحلّقت في أعلى الأجواء لا تؤمن ، فهي قضية قرار تتخذه من داخلك ، إن أردت

أن تؤمن كل شيء يدلك على الله ، وإن أردت أن لا تؤمن ، وأردت الشهوة فلا ترى شيئاً ، قال تعالى :

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)

[سورة البقرة : الآية 171]

2 ـ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فلابد أن تتأثروا بهذه الآية :

كمثل بسيط : آلة تصوير متواضعة جداً ، أرخص آلة في البلد فيها فيلم ، وأغلى آلة على الإطلاق ثمنها خمسمائة ألف ليرة ، لا يوجد فيها فيلم ، فهذه الآلة المتواضعة إن كان بها فيلم فهي تلتقط الصورة، أما التي ليس فيها فيلم فلا تلتقط أية صورة ، ما معنى ذلك ؟ مهما كنت ذكياً إن لم تُرد الحق فلا ترى الحق ، صمٌ بكمٌ عميٌ ، وإن كنت متوسط الذكاء ، بل أقلّ من المتوسط ، وأردت أن تؤمن فكل شيء في الكون يدلك على الله :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

هذه الآية احفظوها ، لأن مثيلاتها كثيرة جداً ، قال تعالى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أي إن أردتم الإيمان ، إن كان الإيمان هدفاً لكم ، إن كان الإيمان مقصداً سامياً لكم هذه آية . أحياناً تكون في مكان يُتلى فيه القرآن فتجد شخصاً يبكي ، ويتأثر ، وآخر لا يتأثر أبداً ، الذي بكى ، وتأثر يعيش أجواء القرآن ، والذي لم يتأثر هو بعيد عن أجواء القرآن ، لذلك قالوا : إن الإنسان أحياناً يستمع إلى نص قرآني ، أو نص نبوي ، أو نص من الحِكَم فتتحرك مشاعره ويتأثر ، ماذا فعل هذا النص ؟ حرّك ما عندك من مشاعر فتأثرت ، أما من كان خاوياً ، وليس عنده شيء يتحرك لو تلوت عليه القرآن كله لم يتأثر ، هذا معنى قوله تعالى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

إن كنتم مؤمنين تتأثرون بهذه الآية ، شخص عنده مشكلة كبيرة في البيت ، مثلاً هناك خلل بالأنابيب ، وحدث طوفان بسبب الماء ، وأُتلف الأثاث ، وخرج من بيته كالسهم يبحث عن قطعة قد تعطلت في تمديداته الصحية ، هذا لا يرى شيئاً في الطريق ، لا شخصاً ، ولا صديقاً ، ولا محلاً لبيع الثريات ، ولا محلاً لبيع التحف ، ولا محلاً لبيع الطعام ، إنه يبحث عن طلبه ، فهو أعمى إلا عن طلبه ، لذلك قالوا : حُبَكَ الشيء يُعمي ويُصِم ، الذي أحب الدنيا أعمته عن كل حقيقة :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ)

[سورة آل عمران]

1 ـ وحدة الأصل تعني وحدة الفروع :

هنا عندنا قاعدة ثانية ؛ وهي أن وحدة الأصل تعني وحدة الفروع ، هناك فروع عديدة ، فإن كانت هذه الفروع منبثقة عن أصل واحد فهي متحدة فيما بينها .

الإنجيل من عند الله كما نزل طبعاً ، والتوراة من عند الله ، والقرآن من عند الله ، والأصل واحد ، إذاً هذه الكتب ينبغي أن يصدق بعضها بعضاً كما نزلت ، لأن اتحاد الأصل يعني اتحاد الفروع ، إن الإنسان عنده نقل ، وهو الوحي ، وعنده عقل ، من خلق العقل ؟ الله جل جلاله ، ومن أرسل النقل ؟ الله جل جلاله ، ومن جبل الإنسان جِبِلّة نفسية معينة ؟ الله جل جلاله ، ومن خلق الكون ؟ الله جل جلاله ، لا بد من توافق - هذه الكلمة مستعملة الآن توافقية - توافق بين النقل الذي هو وحي السماء والعقل الذي هو مقياس أودع في الإنسان ، والفطرة التي هي جِبِلّة جُبِلنا عليها ، والواقع الذي هو من خَلْقِه ، لابد من اتحاد هذه الأركان الأربعة ، لأن الكون خَلقُه ، والجِبِلّة فطرته ، والعقل مقياسه ، والوحي كلامه ، لا يمكن أن يتناقض كلامه مع مقياس العقل ، ومقياس الفِطرة والواقع ، هذا هو الحق ، إنه شيءٌ جاء به النقل ، وأقرَّ به العقل ، وارتاحت له الفِطرة ، وأيَّده الواقع ، هذا هو الحق ، لا زلنا في هذه القاعدة الأصولية ؛ اتحاد الأصل يعني اتحاد الأصول .

قال تعالى :

(وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ)

[سورة آل عمران : الآية 50]

2 ـ بنو إسرائيل حرّموا على أنفسهم أشياء لم يُحرِّمها الله عليهم :

إن بني إسرائيل حرّموا على أنفسهم أشياء لم يُحرِّمها الله عليهم ، وهناك معنى آخر ؛ أن الله حرَّم عليهم أشياء ، وتحريمها تأديب لا تشريع ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ، والسيد المسيح أحلّ لهم ما حُرِّم عليهم ، إما تأديباً ، أو توهماً من قِبَل أنفسهم ، لذلك أيها الإخوة ، قد نظن أنه من الخطر الشديد جداً أن نحلل الحرام ، هذا جريمة ، لكن لا تنسَوا أن هناك جريمة لا تقلّ عنها ، وهي تحريم الحلال ، تحريم الحلال لا يقلّ انحرافاً في العقيدة عن تحليل الحرام ، فأنت مكلف ألا تُحلَّ حراماً ، وألا تُحرِّم حلالاً ، أحياناً يشتهي الإنسان الاجتهاد من عنده ، فهذا حرام .

خطورة التحليل والتحريم :

حينما أرى رجلاً يستعجل ، ويقول : هذا حرام ، أعجب أشد العجب ، المُحَلِّل والمُحَرِّم هو الله ، ومن يجرؤ من بني البشر كائناً من كان أن يَحلَّ شيئاً حرَّمه الله ، أو أن يُحرِّم شيئاً أباحه الله ، حتى إن رماة أُحد الذين عصوا رسول الله صلى عليهم وإن عصوه ، قال علماء السيرة : إنهم عصوا أمراً تنظيمياً ، ولم يعصوا أمراً تشريعياً ، وشتان بين الأمر التشريعي الذي هو من عند الله ، وبين الأمر التنظيمي ، لو فرضنا أن لهذا الحَرَم باباً ، وأنا قلت : تيسيراً للنظام : يكون الدخول من هذا الباب ، والخروج من الباب الآخر ، هذا أمر تنظيمي ، فإن كان هناك شخص خالف هذا الأمر فهو خالف أمراً تنظيمياً ، أما الخمر فحرام ، فمن يشربها فقد خالف أمراً تشريعياً ، الزنا حرام ، فالذي يزني فقد خالف أمراً تشريعياً، فالمسافة كبيرة جداً جداً بين مخالفة الأمر التنظيمي ، وبين مخالفة الأمر التشريعي ، فرماة أُحد مع أنهم عصوا النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يبقوا في أماكنهم إلا أن الله سبحانه وتعالى سمح لنبيه الكريم أن يصلي عليهم ، لأنهم لم يعصوا أمراً تشريعياً ، بل عصوا أمراً تنظيمياً ، قال تعالى :

(وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ)

[سورة آل عمران : الآية 50]

الآية إحياء الموتى ، وشفاء الأكمه ، والأبرص ، وإنباء قومه بما في بيوتهم من طعام وشراب قال تعالى :

(إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

[سورة آل عمران : الآية 51]

إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ

الطريق إلى الله سالك :

النبي بشر مثلنا ، أي إن أردت أن تصل إلى الله فالطريق إليه سالك قال :

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

[سورة التكوير : الآية 28]

حينما تتعرف إلى الله تسأل كيف الوصول إليه ؟ كيف أنال رضاه؟ كيف السبيل أن يحبني الله عز وجل؟ فحينما تعرف الله تنشأ عندك رغبة أكيدة أن تطيعه ، وأن تصل إليه ، وأن تطلب وده .

قال تعالى :

(وَإِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

[سورة مريم : الآية 36]

قد تجد إنساناً قويا جداً ، وبيده كل شيء ، لكن لا طريق إليه ، ليس بالإمكان أن تقابله ، ولا أن تتصل به ، ولا أن ترفع إليه كتاباً ، مستحيل ، فما قيمة قوته ؟ وما قيمته أخلاقه ؟ وما قيمة عطائه ، وكرمه ، وفضله إن كان الطريق إليه ليس سالكاً ؟ أما ربنا جل جلاله فبيده كل شيء ، لكن الطرائق إليه بعدد أنفاس الخلائق ، وأنت في بيتك هناك مئة طريق وطريق إليه ، أن تكون زوجاً محسناً ، أن تكون ابناً باراً ، أن تكوني زوجة طائعة لله ولزوجك ، أن تكوني ابنة محجبة ، ومستقيمة عفيفة ، وأنت في البيت هناك مئة طريق وطريق إلى الله ، وأنت في متجرك هناك مئة طريق وطريق ، صدقك عمل صالح ، نصحك للمسلمين عملٌ صالح ، إتقانك لعملك عملٌ صالح ، رغبتك في خدمة المؤمنين عملٌ صالح ، لذلك الله بيده كل شيء ، لكن الطرائق إليه بعدد أنفاس الخلائق ، والآية واضحة جداً :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف : الآية 110]

إن أردت أن تلتقي مع الله لقاءً يليق بكماله وتتحمله ، أي قال له :

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً)

[سورة الأعراف : الآية 143]

استحالة رؤية الله في الدنيا ، وجواز رؤيته يوم القيامة :

أي جبلاً عملاقاً كجبل همالايا تجلى الله عليه فاختفى ، فأنت لا تتحمل أن ترى الله في الدنيا ، لكنّ النبي وعدنا أنّ المؤمنين يرون ربهم في الجنة كما نرى القمر ليلة البدر ، وهناك بعض التفاصيل أنّ الذي ينظر إلى وجه الله الكريم يغيب من نشوة النظرة خمسين ألف عام ، وأنّ أكبر عقاب يُعاقب به الإنسان يوم القيامة أنه محجوب عن الله ، قال تعالى :

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين : الآية 15]

أما في الدنيا فلا نحتمل ، قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ)

[سورة الكهف : الآية 110]

اللقاء الذي نألفه ، والذي نحتمله ، والذي يليق بكمال الله عز وجل ، قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

اعمل عملا صالحا للقاء الله :

لو أنّ جنديًا غرًّا التحق بالثكنة قبل يومين ، وهذه الفرقة كبيرة جداً على رأسها لواء ، لا يمكن أن يقابله لا عميد ، ولا عقيد ، ولا رائد ، ولا مقدم بسبب مكانته ، أيستطيع هذا الجندي الغر أن يدخل عليه بلا استئذان ؟ مستحيل ، أما هذا الجندي لو أنه رأى ابن هذا القائد يسبح في مسبح ، وأوشك على الغرق اختناقاً ، وألقى بنفسه ، وأنقذه ، وعلم الأب هذا ألا يستطيع هذا الجندي الغر الذي لم يمضِ على التحاقه بالثكنة أربعة أيام أن يدخل على باب هذا القائد من دون استئذان ، بلى ، يستطيع ، لأن وجهه أصبح أبيض ، معه عمل ، لذلك الأمر بسيط جداً ، قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

أكرم عباده ، وأصدقهم وأنصحهم ، لا تبتزّ أموالهم ، لا تؤذهم في حاجاتهم ، لا تؤذهم في مساكنهم ، لا تملأ قلبهم خوفاً منك ، قال الرسول الكريم :

((الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[ورد في الأثر]

لا تقل لإنسان : من أين أنت ؟ فهو عبد مأمور ، إن أكرمته فكأنك أكرمت ربك ، فإذا مرّ بك صديق ، ومعك ابنك الصغير ماذا يفعل هذا الصديق كي يتقرب إليك ؟ يخرج من جيبه قطعة حلوى ، ويقدمها إلى ابنك ، هي في الحقيقة لك ، توسل هذا الصديق إليك عن طريق ابنك ، هذا المثل دقيق جداً ، إن أردت أن تُكرم ربك فأحسن إلى عباده ، والأصح أحسن إلى خلقه ، إنك إن أحسنت إلى هرة ، أو إلى كلب مريض لو عالجت أحد مخلوقاته لكان الله شاكراً لك ، هذا هو الدين بكل بساطة أي هناك بعض الآيات التي قالها سيدنا عيسى

قال تعالى :

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم : الآية 31]

لو أردت أن تضغط الدين كله في كلمتين اتصال بالخالق ، وإحسان إلى المخلوق ، أي حركة نحو السماء وحركة نحو الأرض ، اتصال بالخالق وإحسان إلى المخلوق ، هذا هو الدين ، هذه حقيقة الدين ، قال تعالى :

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ)

[سورة آل عمران : الآية 52]

1 ـ الله يمحّص ويميّز الصالح من غيره :

أحياناً الله عز وجل يقوم بفرز ، الهجرة كانت فرز لمن دخل بالإسلام ، لكن هو معتز بقومه متعلق ببيته ، وماله ، وأقرانه ، وأقربائه ، فلما هاجر النبي رفض أن يهاجر ، فهذا فُرز من الهجرة ، الهجرة فرز ، حديث الإسراء والمعراج فرز آخر ، كل شيء منطقي ، أما هذا فغير معقول ، يذهب إلى بيت المقدس ، ويعود في زمن قصير ، فهذا شيء غير معقول ، فالذي سمع حديث الإسراء ، والمعراج ، ولم يكن إيمانه بالله قوياً اهتز ، وهناك من ترك النبي عقب الإسراء والمعراج ، فالله عز وجل يفرز ، قال تعالى :

(مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران : الآية 179]

2 ـ الفتنة ابتلاء :

الله يبتلي بفتنة أحياناً لحكمة أرادها فيُفرز الناس ، ففي معامل الإسمنت كل طبخة تُصب في مكعبات معينة ، وهناك جهاز يمتحن قوة تماسك هذه الطبخة ، فهناك مكعب إسمنتي يُمسك من أعلاه ، وهناك كفة ميزان في أسفله تُوضع عليها الأثقال تباعاً ، فعلى أي وزن انكسر تكون هذه قوة مقاومته ، الإسمنت يتحمل قوى ضغط ، وهي خمسمائة وخمسون كيلوغرامًا على السنتيمتر المربع ، لكن لا يتحمل شد أكثر من خمسة كيلوغرامات على السنتيمتر المربع ، لا بد من إسمنت مسلح ، لأنه لا يتحمل الشد يُكسر ، بينما الضغط خمسمائة وخمسون كيلوغرامًا يتحملها مكعب من الإسمنت ضلعه سنتمتر واحد ، أما على الشد فلا يحتمل قوة خمسة كيلوغرامات ، هذا مثل ، وكل مؤمن عنده قوة تماسك ، فهناك مؤمن يفقد تماسكه بضغط معين أما سيدنا بلال فقد وُضع على الرمضاء في أيام الصيف الحارة، ووُضعت على صدره صخرة ليكفر بمحمد ، وهو يقول : أحد أحدٌ ، فقوة تماسكه عجيبة ، سيدنا سعد بن أبي وقاص ضغطت عليه أمه ، إما أن تكفر بمحمد ، وإما أن أدع الطعام حتى أموت فقال لها : يا أمي لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة واحدةً ما كفرت بمحمد ، فكلي إن شئت أو لا تأكلي . فكل مؤمن له قوة تماسك ، هناك مؤمن قوة تماسكه عجيبة جداً لا تستطيع سياط الجلادين اللاذعة ضغطاً ، ولا سبائك الذهب اللامعة إغراءً أن تثنيه عن هدفه ، قال تعالى :

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ)

3 ـ حتمية أزلية المعركة بين الحق والباطل :

هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، لابد لهذه المعركة ، والناس لهم ولاءان ؛ ولاء للحق أو للباطل ، والمعركة مستمرة ، والله لابد من أن يفرز عباده المؤمنين ، قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

وقال :

(قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران : الآية 52]

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

هنيئًا لمن كان من أنصار الإسلام :

أنا أقول لكم : أيها المؤمنون هنيئاً ، وألف هنيئاً لمن كان من أنصار الله ، لمن كان جندياً للحق ، لمن كان في خدمة الحق ، لمن وظف طاقاته في خدمة الحق ، لمن أنفق ماله في سبيل الله ، لمن أنفق وقته في سبيل الله ، لمن أنفق علمه في سبيل الله ، لمن أنفق خبرته في سبيل الله ، لمن أنفق عضلاته في سبيل الله ، هنيئاً له هو الرابح الأول ، والويل لمن كان في خندق مضاد للحق ، قال تعالى :

({فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران : الآية 52]

هنيئاً لمن كان من أنصار الله ، ولمن وضع كل طاقاته في سبيل الحق ، ولا تقلق على هذا الدين ، لأنه دين الله ، لكن اقلق ما لم سمح الله لك أن تنصره أو لم يسمح ، فإن كنت في خندق آخر فالنتيجة معلومة، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

[سورة الأنفال : الآية 36]

(قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران : الآية 12]

إذا كان الله معك كان كل شيء معك ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(17-60): تفسير الآيات 54 - 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-03-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السابع عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 54]

وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ

1 - لا أحد يستطيع أن يطفئ نورَ الله :

الإنسان بضعف إيمانه يدبر تدبيراً ليُحبط الحق ، أو ليُطفئ نور الله عز وجل ، لضعف إيمانه يظن أنه مستطيع أن يفعل شيئاً ، وأن يُلغي حُجة ، وأن يُطفأ نوراً ، وأن يُضِل الناس ، غاب عن هذا الإنسان الساذج والجاهل أن الله سبحانه وتعالى مُتِمٌ نوره ، ولو كره الكافرون .

لو أن رجلا واحداً من بين البشر أيها الإخوة وقف ، وتوجه نحو أشعة الشمس ، ونفخ نفخة بكل ما أُوتي من قوة ليطفئ لهيبها ، أين مكانه ؟ في مشفى المجانين ، لأنه لا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن ينفخ نفخة فيطفئ بها نور الشمس ، قال تعالى :

(يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[سورة التوبة : الآية 32]

لذلك قالوا : ما ضر السحاب نبح الكلاب ، وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بحجر ، ولو تحول الناس إلى كنَّاسين ليثيروا الغبار على الإسلام ما أثاروه إلا على أنفسهم ، وكم من إنسان جبار قوي أراد أن ينهي الإسلام ففطس هو وأمثاله ، وبقي الإسلام شامخاً كالطود .

فالإنسان الجاهل يمكر بأهل الحق ، يمكر بأتباع الأديان ، يمكر ليطفئ نور الله ، لكنّ الله عز وجل يقول :

(وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ)

[سورة آل عمران : الآية 54]

2 ـ معنى مكْر الله :

ولكن شتان بين مكر الإنسان ومكر الله عز وجل ، لكن العلماء قالوا : هذه مشاكلة بلاغية ، الله عز وجل لا يمكر ، لأنه لا يمكر إلا الضعيف دولة قوية جداً تقول قبل أسبوع : أنا سأهاجم هذا البلد ، من الذي يُفاجِئ ؟ الضعيف ، فكل إنسان يعمل ، ويُدبر في الخفاء هذا دليل ضعفه ، لأنه لو اكتُشِف لمُحِق ، فالضعيف يمكر ، وليس من شأن الله الضعف ، لذلك الله في الحقيقة لا يمكر ، ولكن يُدبر ، ولكن ردَّ على مكرهم بمكر مشابه ، هذا اسمه في اللغة مُشاكلة ، يأتون بشاهد في كتب البلاغة : أنطبخ لك طعاماً ، قال : لا ، اطبخوا لي جُبَّة وقميصاً ، هو بحاجة إلى جُبَّة وقميص لا إلى طعام ، فقال : اطبخوا لي جُبَّة ، الجُبَّة لا تُطبَخ ، ولكن أورد هذا الكلام على سبيل المشاكلة ، لذلك لا يجوز أن تقول : الله ماكر ، لكنّ مكر الله هو رد على مكر هؤلاء ، تدبير ، رد ، قال تعالى :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّه)

إذا كنت مع الله فلا تخشَ أحداً ، لأن الله يمكر لك ، وإذا كان الإنسان مع شهوته ومع مصالحه المادية، فإن الله يمكر عليه ، وشتان بين أن يكون الله معك يمكر لك ، وبين أن يكون عليك فيمكر عليك .

أنت ضعيف لا تقوَ على فعل شيء ، لكنّ المؤمن بطاعته لله واستسلامه له وتوحيده إياه يمكر الله له :

كُن عن همومك مُعرضا و كِل الأمور إلى القضا
و ابشر بخير عاجــلٍ تنسى به ما قد مضــى
فرُبَّ أمر مسخط لــك فـــي عواقبه رضــا
و لربما ضاق المضيق ولربما اتَّسع الفضـــا
الله يفعل مـا يشـــاء فلا تكن معترضـــا
الله عوَّدك الجميــل فقِس على ما قد مضــى

3 ـ البطولة أن نكون أهلاً لأن يدافع الله عنا :

أيها الإخوة ، البطولة أن نكون أهلاً أن يدافع الله عنا ، هنا البطولة ، أن نستحق أن يدافع الله عنا ، أن نستحق أن يمكر الله لنا ، الأمر بيد الله وحده .

مثلٌ بسيط : لو أنّ حاجزاً ضخماً بين فريقين ، الأول يمكر ، ولكنّ الله يرى مكر الطرف الآخر فيُلهم الطرف الأول أن يُحبط مكره ، أنت إن كنت مع الله ، والله مع كل الخلق ، فكل مكر مكره هؤلاء يُنقل إليك .

لمّا أُسِر ابن عمير بن وهب في بدر ، ففي ساعة شجن وألمٍ قال لصفوان بن أمية : **" لولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي ، ولولا ديون لا أطيق سدادها لذهبت ، وقتلت محمداً ، وأرحتكم منه "** ، قال هذا الكلام لصفوان بن أمية ، ولا يعلم أحد بهذا الحديث إلا هذين الرجُلين ، فقال له صفوان : **" أما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر ، وأما ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت ، فامض إلى ما أردت "**، فسقى سيفه سماً ، وانتقل إلى المدينة مغطىً بحجة أنه جاء ليفدي ابنه الأسير ، في المدينة رآه عمر رضي الله عنه ، قال : هذا عدو الله جاء يريد شراً فقيّده بحمالة سيفه ، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له : هذا عدو الله جاء يريد شراً ، فقال له : " يا عمر ، أطلقه ، فأطلقه ، ابتعدْ عنه فابتعدَ عنه ، قال له : ادنُ مني يا عمير ، فدنا منه ، قال له : ما الذي جاء بك إليّ ؟ قال له : جئت أفدي ابني ، قال له : وهذه السيف التي على عاتقك ، قال له : قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال له : يا عمير ألم تقل لصفوان : لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها ، ألم تقل لصفوان : لولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت ، وقتلت محمداً ، وأرحتُكم منه " ، هذا ما حصل ، أي مؤامرة تمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، ما دام الله مكر فقد أطلعه عليها .

هذا حاطب بن بلتعة الذي أرسل كتاباً إلى قريش : إنّ محمداً سيغزوكم فخذوا حِذركم ، أطلع الله نبيه على هذا الكتاب ، فأرسل صحابيَين جليلَين أخذاه من امرأة في موقع اسمه الروضة بين مكة والمدينة ، وجيء بحاطب وسُئل .

مرة أراد اليهود أن يقتلوا النبي عليه الصلاة والسلام ، كان جالسًا في مكان فصعدوا إلى سطح الدار ليُلقوا عليه صخرة يموت فيها ، أطلعه الله ، هذه حالات حادة مع نبي كريم ، أما أنت قد تُلهم أن تذهب من طريق تُحبط به خطة أعدائك ، فإذا كنت مع الله كان الله معك ، وإذا كان الله معك فمن عليك ، من يستطيع أن يدنو منك إذا كان الله معك ، لكنّ كل بطولتك أن تستحق أن يمكر الله لك ، أن تستحق أن يدافع الله عنك ، وأنت من عباد الله شأن أي عبد ، تتمايز عند الله بالتقوى والطاعة ، قال تعالى :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات : الآية 13]

لا أنسى كلمة قالها سيدنا عمر لسيدنا سعد ، سيدنا سعد كان خال النبي عليه الصلاة والسلام ، كان إذا دخل عليه يداعبه ويقول : هذا خالي ، فأروني خالاً مثل خالي ، النبي الكريم هو سيد الخلق ، يداعب صحابيًّا ، ما قال لأحدٍ في حياته : ارمِ سعد ، فداك أبي وأمي ، إلا لسعد ، يا سعد ، فداك أبي وأمي ، هذه مقولة النبي ، فخاطب سعدًا فقال : ارمِ سعد فداك أبي وأمي ، قال : هذا خالي ، أروني خالاً مثل خالي ، فمرة قال سيدنا عمر لسيدنا سعد : يا سعد ، لا يغرَّنك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له .

4 ـ طاعتك واستقامتك ثمن دفاع الله عنك :

كل بطولتك أن تستحق أن يمكر الله لك ، ومهما كنت قوياً ، مهما كنت غنياً ، مهما كنت ذكياً ، مهما تكن لك علاقات متينة جداً ، شبكة علاقات مع أقوياء فهذه كلها لا تنفعك إذا أراد الله أن يمكر بك ، لا ينفع ذا الجَد منه الجَد ، يؤتى الحذِر من مأمنه ، لا يحميك من الله إلا أن تكون مطيعاً له فقط ، لا ملجأ منه إلا إليه ، فأن يستحق مؤمن أن يمكر الله له فهذا يعني أنه مطيع ، مخلص ، مستقيم ، وكل إنسان جاهل ساذج غبي يظن أنّ بإمكانه أن يكيد لأهل الحق ، إياك ثم إياك ثم إياك أن تكون في خندق مُعادٍ للمؤمنين ، لأن الله ولي الذين آمنوا .

أحياناً إنسان يخشى خصمه لأنّ وراءه قوة كبيرة ، قد تخشى شرطياً لأنّ وراءه دولة ، قد تخشى دولة صغيرة لأنّ وراءها دولة كبيرة ، فأنت لا تنظر إلى الخصم ، انظر إلى ما وراءه ، هذه نقطة مهمة جداً، قال تعالى :

({إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم : الآية 4]

ألا يكفيك قول الله عز وجل :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج : الآية 38]

ثمن أن يدافع الله عنك أن تكون مطيعاً له ، مخلصاً في طاعته ، أن تكون من أوليائه ، لأن الله قال :

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ)

[سورة البقرة : الآية 257]

إذاً :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ)

دائماً يقول الله عز وجل :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)

[سورة الحديد : الآية 4]

هذه معية عامة ، معكم بعلمه ، إلا في آيات قليلة يقول :

(وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال : الآية 19]

وقال :

(أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة : الآية 123]

وقوله أيضاً :

(إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة الأنفال : الآية 46]

وكذلك :

(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت : الآية 69]

أي معهم بالحفظ ، بالتأييد ، بالنصر ، بالتوفيق ، هذا الدعم الذي لا حدود له أن يكون خالق الكون معك ، ثمنه أن تطيعه ، قال تعالى :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

وقال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

[سورة الأنفال : الآية 36]

سأضرب بعض الأمثلة للتوضيح ، هناك لعبة السيارات الكهربائية ، فقد تجد معركة بين مجموعتين ، أما الذي بيده قطع التيار الكهربائي فبحركة يسيرة يوقف هذه المعركة كلها ، قد تجد آلة ضخمة تحمل عشرات الأطنان من الحديد على أساس مغناطيس كهربائي ، فالعامل بضغطة بسيطة لا تزيد على ربع ميليمتر إذا قطعت هذه الضغطة الكهرباء تسقط كل هذه الأحمال ، الله عز وجل بضربة واحدة ، أحياناً الكافر يؤتى من مأمنه ، من بعض الأدعية : **" اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم "** .

يدبر ، ويفكر ، ويتأمل ، ويبحث ، ويدرس ، ويجمع ، ويضرب ، ثم يأتي بخطة تكون سبب تدميره .

وهذا مثل سأرويه لكم من التاريخ الحديث ؛ أراد اليهود قبل أربع سنوات فيما أذكر أن يأخذوا رهائن من بيوت الله في ليلة القدر ، هيؤوا طائرتين ، وفي الطائرتين نخبة ضباطهم ، خمسة وسبعون ضابط كومندوُس ، وكل ضابط كلفهم ملايين ، وهو يتقنون الصراع الياباني ، يتقنون السلاح الأبيض ، يتقنون اللغة المحلية ، تدريبات عالية جداً ، فهم أثمن ما في الجيش اليهودي ، وقعت الطائرة العليا فوق السفلى، ووقعتا فوق مستعمرة إسرائيلية ، ومنذ أن أنشئت إسرائيل حتى الآن ما مُنيت بهزيمة من عند الله مباشرة ، لو نستحق أن يتدخل الله من أجلنا لرأينا العجب العُجاب ، لو كنا معه دائماً ، لو كنا على طاعته مقيمين ، لو كنا مخلصين لمكر الله لنا ، ليس هناك شيء اسمه قوي في الأرض ، الله هو القوي، الطرف الآخر قد يكون معه قنابل ذريّة ، قد يكون معه أشياء مذهلة ، مركبة فضائية تُعدُّ تحدياً ، واسمها المتحدي ، بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب ، مع الله لا يوجد دولة قوية ، لا يوجد أسلحة ذرية ، ولا طائرات شبح ، ولا أشعة ليزر ، لا

شيء مع الله ، أما أن تكون المعركة بين حقين فهذا لا يكون ، هذا شيء مستحيل ، لأن الحق لا يتعدد ، وبين حق وباطل لا تطول ، لأنّ الله مع الحق، لكن بين باطلين لا تنتهي ، هذا سماه بعض العلماء النصر التكويني ، بين فئتين بعيدتين عاصيتين لله عز وجل من كان عنده أسلحة أقوى فهو المنتصر، تصور طائرة معها مدفع مداه المُجدي سبعة كيلو مترات ، وهناك دبابة مدفعها مداه المُجدي ثلاثة كيلو مترات ، فهذا يعني أنّ طائرة واحدة مداها سبعة كيلو مترات تحطم مئتي دبابة ، فإن كان لم يكن الحق بالجهتين فالنصر للأقوى ، من كان معه سلاح متطور أكثر ، من كان عنده قدرة على تصوير أرض المعركة ، فإذا خلا الإيمان فالحديث عن الأسلحة والطائرات ، والمدى المُجدي ، وتطور السلاح ، والقنبلة العنقودية ، والقنبلة الذرية ، وأشعة الليزر ، هذا كله تتحدث عنه ، أما إن كان أحد الطرفين مؤمنا انقلبت كل موازين القوى رأساً على عقب ، وبآيات كثيرة جداً .

الذي أتمناه أن يستحق كل منا أن يمكر الله له ، أن نكون أهلاً كي يدافع الله عنا ، ومكروا ومكر الله ، أرادوا أن يقتلوا السيد المسيح ، بعضهم أراد أن يخبر الملك الذي كان ضد النصرانية ، كان يُعَبِّدُ النصارى ، الذي دل عليه ليُقتل ألقى الله عليه صورة السيد المسيح ، فهذا الذي صُلِب ، قال تعالى :

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ)

[سورة النساء : الآية 157]

الذي دل عليه هو الذي صُلِب ، لذلك قال تعالى :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

5 ـ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين

َأما خير الماكرين أي أن مكره هو المُجدي ، هو الفعَّال الذي لا يخطئ ، مكره المخيف ، ومكره الذي يعود بالخير على الطرفين ، ينصر المؤمن بمكره ، ويردع الكافر بمكره ، أول معنى مكره عظيم ، ومكره سريع ، وفعّال ، ولا يخطئ ، ومكره مخيف ، قال تعالى :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج : الآية 12]

ومع ذلك مكره يعود بالخير على الطرفين معاً ، قال تعالى :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

ومن أدعية النبي عليه الصلاة والسلام :

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ))

[ابن ماجة ، الترمذي]

واسألوا الله عز وجل موجبات أن يدافع الله عنا ، اسألوا الله موجبات أن نستحق أن يمكر الله لنا ، لا أن يمكر علينا ، لأنه إذا هان أمر الله علينا هُنَّا على الله ، إذا هان أمر الله علينا هُنَّا على الله ومُكِر بنا .

وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ

قال تعالى :

(وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم : الآية 46]

ومكروا مكرهم أي الكفار ، الآن يجربون الأدوية في العالم الثالث ، كانوا قبل هذا على بقية من خلق يجربون أدويتهم على الفئران ، الآن تُجرب على بني البشر في دول متخلفة ، الآن يقدمون مساعدات في ظاهرها هي إعانات ، وفي الحقيقة نفايات ذرية ، تُزرع في بلاد العالم الثالث ، ليتخلصوا منها ، قال تعالى :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

يخططون لإفقار المسلمين وإيقاع الفُرقة بينهم وتشتيتهم وتدميرهم ، قال تعالى :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

لتزول منه الجبال ، هو كلام الله ، قال تعالى :

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم : الآية 47]

وقال :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم : الآية 42]

وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً

لكنّ الآية التي ينبغي أن تملأ قلوبنا أمناً وراحة ، لكن لها ثمن ، هي قوله تعالى :

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

[سورة آل عمران : الآية 120]

خالق الكون يقول ذلك ، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعده للمؤمنين ، وإن تصبروا وتتقوا أفراداً وجماعات ، فرد لوحدك ، أطع الله ، واصبر على طاعته ، واصبر عن معصيته ، واصبر على قضائه وقَدَره ، واتق أن تعصيه ، لو كان خصمك أقوى إنسان في العالم يُحبط الله مكره ، هذه للأفراد وللجماعات ، قال تعالى :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

مثلاً : شخص ما معه أسلحة فتّاكة ومتطورة ، وآخر معه شفرة ، فقط وتوَعد ، والذي معه الأسلحة الفتّاكة قال لك : أنت في حمايتي فلا تخف ، قال الشاعر :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول السلامة يا مَرْبعُ

العِبرة أن لا يكون الله ضدك ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك ، والله عز وجل يُظهر آياته ، أما رأيتم إلى دول عظمى انهارت كبيت العنكبوت ، والذي يتوقع انهيارها يُوضع في مشفى المجانين ، قلعة من قلاع الكفر تلاشت ، قال تعالى :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

وهذا القطب الواحد المتحكم بالعالَم له عند الله تدبير ، لا تيأسوا ، له عند الله تدبير حكيم ، إنّ الله لا بد أن يُظهر آياته للخلق ، لا يسمح الله لجهة أن تدَّعي الألوهية إلى أمد طويل ، هم يدَّعون الألوهية ، هم أسياد العالَم ، القطب الوحيد الذي يملك ُمَقدَّرات الشعوب ، هذا كلام بكلام ، قال تعالى :

(حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

[سورة يونس : الآية 24]

هناك نماذج لبلاد متقدمة جداً وغنية جداً ، والطب متقدم جداً ، أطعموا الأبقار طحين اللحم المجفف ، اجتهاداً منهم ليغيروا خلق الله ، فجُنَّ البقر ، وما جنون البقر إلا من جنون البشر .

الآن هناك مشكلة عالمية ، ثلاثة وثلاثون مليار جنيه إسترليني خسارة بريطانية من لحوم الأبقار ، وهم مضطرون أن يحرقوا ثلاث عشرة مليون بقرة ، الأسواق كلها أصبحت مغلقة أمامهم ، من جاء بهذا المرض ، فمهما كان الإنسان متقدما فالله عنده جنود لا يعلمها إلا هو ، الإيدز هو جندي من جنود الله عز وجل ، هذا رد على الإباحية ، قال الله عز وجل :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم : الآية 41]

هذا الداء لا دواء له .

بعض معلوماتي الدقيقة أننا إذا أردنا أن نفحص دماءنا فحصاً شاملاً لنطمئن على سلامتنا من هذا المرض ، هذا الفحص سيكلفنا عشرين ألف ليرة سورية ، أما الفحوص العادية فهي فحوص غير مُجدية، والسبب أنّ هذا الفيروس له ستة أشهر يكون موجوداً في الدم ، ولا تظهر الأعراض ، ويسمونه صمتا مخبريا ، ممكن أن يفحص شخص دمه ، ويكون بريئًا من هذا المرض بفحص بسيط ، وهو مصاب بهذا المرض ، فالمشكلة كبيرة ، لأنه لا دواء لهذا المرض ، هذا هو مكر الله عز وجل ، هذا من جنود الله عز وجل ، والله عنده أوبئة وأمراض لم تكن في أسلافنا ، عنده أعاصير ، وكل إعصار يكلف ثلاثين مليارًا ، قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ{6} إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ{7} الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر]

أحياناً تذهب إلى بلدة تقول : لا مثيل لها في العالم ، هذه عادٌ الثانية ، لم يُخلق مثلها في البلاد ، من خصائصها أنهم يقولون : من أشد منّا قوة ، لا يوجد رحمة ، هناك قهر واستغلال ، هناك جلب لأموال العالم كلها إليهم مثلاً ، قال :

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر : الآية 8]

كيف أهلكوا ؟ قال تعالى :

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ{6} سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ{7} فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ)

[سورة الحاقة]

انظر إلى أهرامات مصر ، انظر إلى آثار الرومان ، أين هؤلاء ؟

مَن كان الله معه فهو أقوى إنسان :

أيها الإخوة ، هذا كلام يقوي معنويات المؤمنين ، حاول أنت أن تكون أهلاً كي يدافع الله عنك ، حاول أن تكون أهلاً كي يمكر الله لك لا عليك ، كن لنا ولا تكن علينا ، قال تعالى:

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

أقوى إنسان في الأرض من كان الله معه ، وأضعف إنسان لو أنه مَلَكَ الدنيا من أطرافها ، أضعف إنسان من تخلى الله عنه .

قيل لأحد الخلفاء ، وقد طلب كأس ماء : " يا أمير المؤمنين ، بكم تشتري هذا الكأس لو مُنع منك ؟ قال: بنصف مُلكي ، قال : فإذا مُنع إخراجه ، قال : بنصف ملكي الآخر " ، فملكه كله يساوي كأس ماء تشربه ويخرج ، فأنت قوي بالله ، غني بالله ، عالٍ بالله ، لو ابتعدت عن الله فأنت ضعيف مقهور ، وأضعف الناس يقوى عليك ، إن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، قال تعالى :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

كما قالوا : فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، إن كان في الكون مئة ألف مليون مجرَّة ، وفي كل مجرَّة تقريباً مئة ألف مليون نجم ، وأرضنا هي كوكب صغير في مجموعة اسمها المجموعة الشمسية تمثل نقطة في مجرة معتدلة متوسطة اسمها درب التبانة ، هذا الكون الفسيح ، وهذه المجرات ، وهذه الأرض والسموات وهذا الخلق العظيم ، قال تعالى :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً)

[سورة طه : الآية 105]

فهذا هو الله ، الأمر كله بيده ، وهو معكم أينما كنتم ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود : الآية 123]

وقوله تعالى :

(مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف : الآية 26]

وقال :

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

[سورة فاطر : الآية 2]

أيعقل أن نبتعد عنه ، وأن نتقوى بغيره ، وأن نلجأ لغيره ، وأن نضع ثقتنا بغيره ، وأن نخاف غيره ، وأن نرجو غيره ، وأن نطيع غيره ، هذا مستحيل ، قال تعالى :

(وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ* إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ)

[سورة آل عمران]

إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ

1 ـ معنى التوفي :

التوفي إما في الموت أو في النوم ، لكن جرت آيات القرآن على أنّ التوفي الحقيقي يكون عن طريق مَلَك الموت ، قال تعالى :

(قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

[سورة السجدة : الآية 11]

وفي آية أخرى :

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

[سورة الزمر : الآية 42]

فهنا : متوفيك ، أي أن الله سبحانه وتعالى رفع هذا النبي الكريم إليه ، قال تعالى :

[سورة آل عمران : الآية 55]

2 ـ نزول عيسى في آخر الزمان حقّ :

أي أنه سيرجع ، وسيتبعه أناس كثيرون ، وسوف يكونون فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، هذا معنى من معاني هذه الآية ، نعتقد نحن المسلمين اعتقاداً جازماً أنّ هذا النبي الكريم سوف يرجع ، وسوف يكون رجوعه من علامات قيام الساعة ، قال تعالى :

(وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا)

[سورة الزخرف : الآية 61]

وقال :

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

[سورة المؤمنون : الآية 50]

قال بعض المفسرين : إنها ربوة دمشق ، وقال بعضهم : إنه ينزل في دمشق ، هناك أحاديث وآيات كثيرة تؤكد هذه الحقيقة ، قال تعالى :

(إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

[سورة آل عمران : الآية 55]

هذا النبي الكريم أصبح موطن خلاف ، محط خلاف ، الحقيقة عند الله ، وسوف ينبئ الله بها كل خلقه يوم القيامة ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{56} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{57} ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

[سورة آل عمران]

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ

أي الذين كفروا بنبوَّته ، الذين كفروا فريقان ؛ فريق ادّعى أنه إله ، وفريق ادّعى أنّ أمه زانية ، هؤلاء الفريقان معاً كفروا بحقيقة نبوَّته ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{56} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{57} ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ{58} إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ{59})

[سورة آل عمران]

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُون

1 ـ الكون له سنن وقوانين يخرقها الله لحكمة :

نؤمن نحن أنّ هذه الأرض لها سُنن ، ولها قوانين ، هذه القوانين والسُنن يمكن أن تُخرق من الله سبحانه وتعالى ، نؤمن أنّ هناك سبباً ، وأن هناك نتيجة ، لكنّ السبب ليس هو خالق النتيجة ، وإنما هو مرافق لها ، حينما نتوهم أنّ الأسباب تخلق النتائج ، فإن ربنا عز وجل حرصاً على إيماننا وتوحيدنا يُعطل هذه الأسباب أو يُلغيها ، فأحياناً السبب موجود لكنه معطّل ، دواء لم يحقق شفاءً ، الله عطّل فاعليته ، وأحياناً شفاء من غير دواء ، أحياناً شابان قويان صحيحان لا يُنجبان جعلهما الله

عقيمين ، وأحياناً امرأة كالسيدة مريم تنجب من دون زواج ، الإنجاب من دون زواج الله ألغى السبب ، والشابان القويان الشديدان الصحيحان ، أي الشاب والفتاة ، وهما عقيمان الله لأن الله يعطّل السبب ، أو يُلغيه إنقاذاً للتوحيد لئلا تعتقد أن السبب خالق النتيجة ، لذلك العالَم اليوم عالَمان ؛ عالَم أخذ بالأسباب ، واعتمد عليها وألّهها ، وعبدها من دون الله ، وهو العالَم الغربي ، وعالَم لم يأخذ بها متواكلاً ، فالعالَم الأول وقع في الشِرك ، والعالَم الثاني وقع في المعصية ، أما الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، قال تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(57)ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ(58)إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ)

2 ـ خلق عيسى خرقٌ لسنن التناسل البشري :

أن تنجب امرأة من دون زواج هذا مستحيل عادة ، لكنّه ممكن عقلاً ، لأنّ الذي قنّن هذه القوانين يغيّرها بأية لحظة ، أضرب لكم مثلاً قريباً من الفيزياء عنصر حوله مجموعة كهارب في بنيته الذرية ، نواة حولها مجموعة كهارب ، هذا العنصر قوامه صُلب كالصخر ، العنصر الذي يليه بفارق كهروب واحد غازي ، معناه أنّ أي تعديل على بنية الذرة ، كنّا في ماء هو البحر ، سيدنا موسى ضرب هذا البحر بعصاه فأصبحت طريقاً يبَساً ، بأية لحظة الله عز وجل يغيّر خصائص المواد كلها ، على الله كل شيء سهل ، كن فيكون ، لذلك الإنسان ضعيف الإيمان يرى أنّ بعض المعجزات مستحيلة مع أنها ليست مستحيلة ، وأنتم تعلمون أنّ العلم متطور الآن ، لو اطّلع إنسان على ما في حياتنا من تطورات ما صدقها ، لأنها واقعة الآن ، فهناك أشياء لا يمكن أن تُصدَق من قبل ، لأن العقل مرتبط بالواقع ، فالواقع له حدود ، من يصدق أنه بإمكانك أن ترسل رسالة من آخر الدنيا إلى طرف الدنيا بثانية واحدة ، كان هناك الخيول والبريد ، الحمام الزاجل كان يُعدّ فتحاً كبيراً في إرسال الرسائل ، والبريد كانوا يركبون الخيول وشهور حتى يصل البريد إلى بلدة أخرى ، الآن ثانية يصل البريد ، فالعقل قد ينكر لأنه مرتبط بالواقع ، والواقع متطور ، أما المعجزة فهي خرق لقوانين الأرض وقوانين الكون ، قال تعالى :

(الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

[سورة البقرة : الآية 147]

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

هذا هو الحق ، هذا كلام خالق الكون ، عظمة هذا القرآن أنّه يعطيك فكرة عما سبق ، وعما سيكون ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، أنت أمام تصور كامل من عند خالق الأرض والسماء ، هذا الذي حصل بالضبط ، فلذلك القرآن الكريم كتاب خالق الكون وفيه حقائق واضحة وصارخة

ونيّرة ، فكل إنسان قرأه يحصل عنده شيء يدعى التوازن ، لأنه قدّم لك تفسيرًا دقيقًا للكون ، والحياة ، والإنسان ، قدّم لك تحليلا دقيقًا وتعليلاً لما يجري في الأرض ، وأننا مخلوقون لجنة عرضها السماوات والأرض ، وخُلقت في الدنيا كي تعمل للآخرة ، وهذا شيء منطقي ، أما لو ألغيت الآخرة لتفجر أمامك مليون سؤال ، هناك غنى وفقر ، قوة وضعف ، والحياة قصيرة ، والعمر قصير ، والمتاعب كبيرة ، فمن دون آخرة الإنسان يختل توازنه ، أما إن آمن بالآخرة استعاد توازنه ، فكل شيء واضح .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(18-60): تفسير الآيات 58 - 68
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-03-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثامنة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 56)

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

1 ـ المعادي للحق له عذاب شديد في الدنيا والآخرة :

في الدنيا والآخرة عذاباً شديداً ، مَن هذا الإنسان الذي يضع نفسه في موضع يعادي الحق فيه ، يتمنى أن يُطفئ نور الله عز وجل ، من هو الطرف الآخر ؟ هل من الممكن في عالمنا المادي لإنسان ضعيف أن يتصدى لأقوى قوة في الأرض ؟ هذا يعني أن هناك خللاً في عقله .

هناك موازين قوى ، فإنسان ضعيف جداً لا يمكن أن يتحدى ، ويتصدى لأقوى قوة في الأرض ، أما أن يتحدى الإنسان خالق الكون ، أن يضع نفسه في خندق معادٍ له ، فلذلك من هم أشقى الناس على الإطلاق ؟ هم الذين وقفوا في خندق معاد للحق ، ومن هم أسعد الناس على الإطلاق ؟ الذين كانوا جنوداً للحق ، فأعظم شرف يناله إنسان أن يكون جندياً للحق ، أن يكون علمه وماله وخبرته في خدمة الحق قال تعالى :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص : الآية 77)

وقال :

(وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 57)

2 ـ العاقل يختار السعادة الأبدية :

أحياناً الإنسان يقع في حيرة بين شيئين متقاربين ، لكن بين هلاك وسعادة ، بين شقاء وسعادة ، بين موت وحياة ، بين غنى وفقر ، بين عز وذل ، هذه أشياء متناقضة ، فالخيار بينها مستحيل ، هل يختار أحدنا الشقاء في الدنيا والآخرة على نعيم الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن : الآية 46)

أي قُلْ متاع الدنيا قليل ، وقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : الآية 38)

كلام خالق الكون ، وقال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ(56))

إذا شاء الله شيئاً فعله ، كل شيء شاءه الله كان ، وكل شيء كان شاءه الله .

3 ـ لا أحد ينصر من أذلّه الله وأهلكه :

وما لهم من ناصرين ، أي أن الله عز وجل حينما يبطش لا أحد يمكنه أن يتحرك أبداً ، قال تعالى :

(وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

(سورة الحج : الآية 18)

والقاعدة أن الله إذا بطش بإنسان فإن أقرب الناس إليه يتخلى عنه ، وأن الله إذا رحمك يُسَخِّر لك أعداءك يخدمونك ، هذا ما كنت أقوله دائماً ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك.

من هو أسعد الناس ؟ الذي يمشي برضاء الله ، القضية بسيطة ، كل هؤلاء عباد الله .

مرة ذكرت لإنسان بموقع حسّاس قلت له : الله عز وجل عنده سرطان في أي مكان في الجسم ، هناك في الدماغ ، في الدم ، في العظم ، في الجهاز الهضمي ، وعنده خثرة بالدماغ ، هناك مكان للشلل ، وآخر لفقد الذاكرة ، وآخر لفقد البصر ، هناك أيضاً التهاب كبد مميت ، وتشمع كبد ، وفشل كلوي ، وكل مرض يجعل حياة الإنسان جحيما لا يُطاق ، وكل هؤلاء الناس عباده ، وقبل أن تتخذ شيئاً بحق هؤلاء العباد هيئ جواباً لخالقهم ، لِمَ فعلت كذا ؟

أيها الإخوة ، أشقى الناس قاطبة هو الذي كان في خندق معادٍ للحق .

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ

قال تعالى :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ)

(سورة آل عمران)

1 ـ الحق شيء ثابت ، والباطل زائل :

الحق هو الشيء الثابت ، الشيء الذي لا يتبدل ولا يتغير ، حقَّ الشيء أي استقر ، قد تبني حائطاً وفق الأصول ، وفق الشاقول ، هذا الحائط بُني ليبقى ، أما إذا بنيت حائطاً على خلاف الأصول ، هذا الحائط لا بد من أن يقع ، عندنا قاعدة تقول الباطل زاهق ، قال تعالى :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء : الآية 81)

صيغة مبالغة ، وصيغ المبالغة تعني شيئين ، تعني الكم ، وتعني النوع ، أي مليار باطل في الأرض سوف ينتهي إلى زوال ، كم فرقة ضالَّة نشأت في الألف سنة الماضية ، أين هي الآن ؟ كم إنسان أراد إلغاء الدين ، أين هو الآن ؟ قال تعالى :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء : الآية 81)

أكبر قلعة من قلاع إنكار الإله تهاوت كبيت العنكبوت ، ذاتياً ، من دون حرب مُعلنة ، قال تعالى :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء : الآية 81)

مهما كان الباطل متعدد فهو زاهق ، وزهوق ، ومهما كان الباطل كبيراً فهو زاهق وزهوق ، من هم أشقى الناس ؟ الذين تصدوا للحق ، وكانوا من حزب الشيطان ، قال تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(57))

2 ـ أهل الباطل لا ينفعهم شيء من عملهم مهما عظُم :

هؤلاء الذين نصروا رسول الله أين هم الآن ؟ في أعلى عليين ، ألا تذهب أنت إلى العُمرة وتقف أمام سيدنا الصدِّيق متأدباً وتُسَلم عليه ، نصر الحق ، وهذا الذي حارب النبي أين هو الآن ؟ سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ اللَّيْلِ بِبِئْرِ بَدْرٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا يُنَادِي :

((يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ، وَيَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَيَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَيَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا))

[النسائي ، مسلم ، أبي داود ، أحمد]

وتابع قوله :

((لقد كذبتموني وصدَّقني الناس ، وآذيتموني ونصرني الناس))

[ورد في الأثر]

أيها الإخوة ، أسعد الناس على الإطلاق من كان في خدمة الحق ، من وظَّف طاقاته ، وإمكاناته ، وقدراته ، وعلمه ، وماله في سبيل الحق ، فهناك إنجازات حضارية مذهلة ، جسور عملاقة ، أبنية شامخة ، أهرامات ، آثار ، الأقوام السابقة مُكّنوا ما لم نُمَكَّن مثلهم ، ومع ذلك أهلكهم الله ، قد تجد إنجازات حضارية كبيرة جداً ، فقد يُقال لك : هذا أكبر مرصد في العالم ، هذا إنجاز حضاري ، هذا أطول جسر في العالم ، وتجد نفقًا تحت البحر بين بريطانيا وفرنسا ، قال تعالى :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان : الآية 23)

هناك إنجازات حضارية لا تُصدَّق ، أن تضع ألف ومئتي كتاب في قرص واحد ، وأحد الكتب خمسون جزءاً ، وبإمكانك أن تقرأها حرفاً حَرفاً في ثوانٍ معدودة ، هذا الشيء لو أنّ واحداً من الأجداد سمع بهذا الخبر لاتَّهمنا بالجنون ، ألف ومئتا مجلد في قرص واحد ، بأجمل خط ، والخط مضبوط بالشكل ، ولك أن تبحث بمئة طريقة ، وهذا البرنامج يقرؤها كلها لك ، وفي بضع ثوان تأتيك النتائج ، هذا الشيء إنجاز كبير جداً ، أيركب أربعمائة راكب في الجو بسرعة ألف كيلو متر ؟ يأكلون ، ويشربون ، وينامون ، ويسمرون ، هذا إنجاز كبير ، المراكب الفضائية إنجاز كبير ، قال تعالى :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان : الآية 23)

ما الذي يبقى ؟ يبقى عمل أُريد به وجه الله ، قال تعالى :

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : الآية 88)

أي ما ابْتُغِي به وجه الله .

أيها الإخوة : قال تعالى :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة آل عمران)

3 ـ حقائق القرآن لا تُنقض :

أي الحقيقة الثابتة المستقرة التي لا يمكن أن تُنْقض ، ولا أن تُخَطَّأ على الإطلاق ، هو ما جاء من عند الله ، أي أن الله عز وجل قال في هذا القرآن : إن البشر بدؤوا بآدم ، لو جاءت مليار نظرية

تثبت العكس فهي باطلة ، وتحت الأقدام ، أجمل شيء عند المؤمن أن له منهجا ، وله كتاب من عند الخالق ، فأيّ كلام ، أي سبق علمي ، أي تطاول على الحق محكوم عليه بالإخفاق .

كنت في بلد سُئِلت عن الاستنساخ فقلت : إن التصميم الإلهي هو الكمال المطلق ، وأيّ تعديل لهذا التصميم يكون نحو الأسوأ ، وقد ورد هذا في القرآن الكريم في قوله تعالى :

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)

(سورة النساء : الآية 119)

وإن هذا الاستنساخ لا يؤكد الحقيقة العلمية ، بل يؤكد غرور الإنسان ، هناك عملية حق وباطل ، فالباطل يريد أن يتحدى خالق الكون ، لكنّ الله يسمح له إلى حين ليَثْبُتَ لمن حوله أنّ حكمة الله لا تعدلها حكمة ، قال تعالى :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة آل عمران)

الحقيقة الصارخة ، الحق الصُّرَاح ما كان من الله عز وجل ، فالمؤمن مرتاح ، أي شيء يقرؤه أو يستمع إليه إذا كان موافقاً للكتاب والسُّنة فهو على العين والرأس ، أما إذا كان مخالفاً للكتاب والسُّنة فينبغي أن يُركل بالأقدام ، لأن الحق من الله .

مثلاً : الله عز وجل قال :

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة النمل : الآية 65)

الغيب لا يعلمه إلا الله :

أنا في هذه الآية أردُّ مليون قصة ، مليون خرافة ، الغيب لا يعلمه إلا الله ، هناك ادِّعاءات ، هناك تخرصات ، هناك ضلالات كلها مردودة ، كل إنسان يدَّعي أنه يعلم السر وأخفى ، قل له أنت كاذب ، الله وحده يعلم السر وأخفى ، الله عز وجل ستر العباد ، لا يستطيع أحد أن يطَّلع على خبيئة أحد أبداً ، فأنت عندك آيات ، كل شيء تقرؤه أو تستمع إليه مخالف لهذه الآيات اركله بقدمك ، ولن يقف على قدميه ، قال تعالى :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 60)

آية المباهلة :

الآن أيها الإخوة ، عندنا آية اسمها آية المباهلة ، قال تعالى :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران : الآية 61)

1 ـ دعوة لمن النبي من حاجّه في عيسى إلى المباهلة :

وهنا كلمة فيه تعود على السيد المسيح ، من بعد ما جاءك من العلم ، أي بعد أن أخبرك الله عن حقيقة هذا النبي الكريم ، وعن أنه لم يُقتَل ، وأن الله رفعه إليه ، قال تعالى :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 61)

2 ـ المُنْتَفِع والقوي والغبي لا يُناقشون أبداً :

أحياناً تُدلي بحجة قوية ، لكن الطرف الآخر يعاند ، ويكابر ، ويركب رأسه ، فإذا كان هناك مقاييس مشتركة ، ورغبة في التفاهم ، فالمناقشة والحوار يفيدان ، لكن إذا كان هناك مصالح تتعطل بهذا الحق، فتصير مكابرة هنا ، فأولاً المُنتَفِع لا يُنَاقَش ، لأنه منتفع ، وكل إنسان منتفع لا يناقش أبداً ، مستحيل أن يقتنع معك ، وكنت أضرب على هذا مثلاً ، إنسان فقير جداً يعمل عتالاً على دابة ، هذه الدابة ماتت ، دفنها ، ولمعت في ذهنه فكرة رائعة ، أن يبني فوق هذه الدابة التي دفنها غرفة ، يضع لها قبة خضراء، ويَصِفُها بأنها وَلِيَّة من أولياء الله ، ويأتي الناس السُذَّج المغفلون يتقربون بالذبائح والهدايا لصاحب هذا المقام ، هذا الرجل صار غنياً كبيراً ، هل من قوة في الأرض يمكن أن تُقنعه أنّ الذي دُفن هنا في الأرض هو دابة ، هو قناعته أشد من أن تناقشه ، لأنه دفنه بيده ، لكن لأنه منتَفِع ، فالمنتَفِع لا يُنَاقَش ، لا يقتنع معك ، المُنْتَفِع والقوي والغبي هؤلاء لا يُناقشون أبداً ، فحينما يكون الحوار مسدوداً ، أتيته بحجة فرفضها ، هناك دليل عقلي رفضه ، دليل نصي رفضه ، دليل فطري رفضه ، وواقعي ، ونفسي، رفض كل هذا ، يقول أحد العلماء : " ما ناقشني جاهل إلا غلبني ، ولا ناقشت عالماً إلا غلبته"، فالجاهل ليس لديه مقاييس مشتركة ، قال تعالى :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران : الآية 61)

هذا هو الحق الذي أخبر الله به قال تعالى :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 61)

3 ـ المباهلة بأغلى ما عند الإنسان :

الابن غال جداً على أبيه ، وأنفسنا وأنفسكم ، أي من يلوذ بنا ، فالإنسان أقرب الناس له أولاده ، وزوجته ، وإخوته ، وأخواته ، هؤلاء يلوذون به ، وهم أثيرون عنده ، قال تعالى :

(فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 61)

الله ينتقم من الظالم :

حدثني أخ طبيب عافاه الله فقال : جاءني مريض ، ومعه زوجته مصابة بمرض خبيث في صدرها ، وانتشر انتشاراً كبيراً ، فقال لي : من شدة ألمي وغَيرتي على مرضاي وبَّختُ الزوج ، وقلت له : لماذا تأخرت بالمجيء إلي ؟ هذا الورم في بدايته يُستأصل ، يُعالج بالأشعة ، بالأدوية الكيماوية ، أما بعد أن يتفاقم ، وينتشر في معظم الصدر فلا يوجد أي حل له ، قال لي : وبخته توبيخاً شديداً بيني وبينه ، فقال لي : أنا لم أُهمل ، أنا كنت عند فلان من سنتين ، ولم يقُل لي بأنه ورم خبيث ، قال لي : هو التهاب ، وأعطاني أدوية كورتيزون ، ومُسَكِّنات طوال هذه المدة ، فقال لي هذا الطبيب الجرَّاح : إن طالب طبٍّ يعرف أنّ هذا المرض هو ورم خبيث ، لكن لو قال له : مرض خبيث لانصرف عنه ، لكنه أبقاه عنده سنتين ليأخذ من ماله ، قال لي : عندما سمع الزوج هذا الكلام صُعِق ، وقع على الأرض ، وخاطب الله، قال له : يا رب إذا كنت موجوداً فانتقم منه ، فربط انتقام الله بوجوده ، والله حدّثني هذا الطبيب حديثاً يُبكي ، قال لي : بعد أحد عشر شهراً جاءني شاب ، لكنه متهالك ، جلس على الكرسي الذي جلس عليه زوج المريضة ، بالمناسبة لقد توفيت بعد ستة أيام ، قال له : أنا زميلك فلان ، ومعي مرض في صدري ، كان هو الطبيب نفسه الذي أبقاه عنده سنتين يغشّه ، ابتلاه الله بالمرض نفسه ، فعندما يكون الإنسان معه حُجة قوية يتفلسف على الناس ، وإن الله عز وجل له رد .

أحياناً يكون هناك زوجان ؛ أحدهما ظالم ، والآخر مظلوم ، فعندما يتدخل ربنا يَقْصِم الظالم ، أحياناً شريكان ، أحدهما مظلوم ، فيتدخل الله عز وجل ، ويقصِم الظالم ، فإذا كان الشخص الآخر متفلسفا ، متحذلقا ، منتفعا بكفره ، دجّالا ، نصّابًا ، وقويًّا أكثر منك ، ولا سبيل لإقناعه ، كل الطرق مسدودة ، قال تعالى :

(فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ(61))

4 ـ المباهلة لا تُستعمَل إلا في الأمور الكبيرة المهمة :

يا رب أنت الحق ، فأظهر الحق ، والعن المُبطل ، قال العلماء : لا يجوز استخدام هذه المباهلة في الأمور التافهة ، إلا في أمور كبيرة جداً ، عندما يكون طريق التفاهم مسدودًا ، ولم يبق إلا طريق الدعاء :

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)

(سورة القمر : الآية 10)

حينما ترى الطريق مسدوداً إلى إقناع الطرف الآخر برفع الظلم عن الآخرين فقل : يا رب ، اهده ، فإن لم تهدِه فخذه ، وغالباً ما يستجيب الله عز وجل ، فهذه آخر ورقة رابحة في يد المؤمن ، لأن المؤمن يثق بأنه على حق ، جاء بأولاده وأهله ومن يلوذ به ، وقال : يا رب ، دمِّر المُبطل منا هو وأهله .

وهناك قصص لا تُعدُّ ولا تُحصى حول هذا الموضوع ، يمكن للإنسان أن يتجاوز حدوده ، أن يعتدَّ بقوته وجبروته ، يقول : من أشد مني قوة ؟ ومع ذلك فالله عز وجل يمد له الحبل ، ويرخيه إلى أن يحين الحين ، فإذا هو في قبضة الله عز وجل ، فمن هو العاقل ؟ هو الذي يخاف الله قبل أن يأتي البطش ، من هو الجاهل ؟ هو الذي يعرف الله عند البطش .

كان هناك شخص تستخدمه شركات الإعلان للدعاية للدخان ، وكان شاباً وسيماً ، رشيقاً ، يرتدي ثياب الكاوبوي ، وكان يُدخن ، ويقول : تعالوا إلى حيث النكهة ، هذا مات بالسرطان بسبب الدخان ، قال وهو على فراش الموت : كنت أكذب عليكم ، الدخان قتلني ، قال الله عز وجل :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج : الآية 12)

لا أحدَ أشدَّ من الله قوة وبطشًا:

أحياناً إنسان يظلم زوجته ، ويظن أنه ما من أشد منه قوةً ، يبطش الله به بطشاً يجعله يعوي كالكلاب .

أحياناً إنسان يبطش بشريكه ، مرة توفي أب ، وترك خمسة أولاد ، وأكبر أولاده كان ظالماً ، أخذ الثروة كلها ، وجعل إخوته فقراء ، وما زال الله يدمره حتى عمِل عند أصغر إخوته محاسباً .

لله رد إلهي مخيف ، إكرام أو بطش ، فأنت تكلم ما شئت ، ائت بالحجج التي تريد ، وهي غير صحيحة ، لكنّ الله يتولى أن يُعَرِّفَك بالحقيقة ، فالعبرة أن ترضي الله عز وجل ، لأن الله عز وجل بطشه شديد ، وليس معه ذكي أبداً ، لا ينفع ذكاؤك عند الله ، ويؤتي الحَذِرَ من مأمنه ، وكم من إنسان ابتُلي باختصاصه ، متخصص بأمراض كذا ، يصاب بمرض عضال في اختصاصه ، وهو معتدٌّ بنفسه وبأنه قوي ، يقول : هذا اختصاصي ، مستحيل أن أخطئ فيما أنا مختص به ، يُبْتَلى باختصاصه قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج : الآية 12)

هذه هي المباهلة ، طريق الحوار مسدود ، الخصم متحذلق ، قوي ، لا يُناقَش ، مستعل ، متكبر ، متغطرس ، ليس هناك طريق آخر إلا الدعاء ، قال تعالى :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ(61))

أحد كبار العلماء أقام مناظرة مع خصوم ، وكانوا مبطلين ، فدعاهم إلى بيت الله الحرام ، لتكون المباهلة هناك ، لم يأت أحد من خصومه ، خافوا ، فإذا قلت لإنسان : شكوتك إلى الله ، فالطرف الآخر إن كان يعرف من هو الله فينبغي أن ترتعد فرائصه ، كم من إنسان حلف يميناً كاذباً ، شُلَّ فوراً ، دُمِّر فوراً .

5 ـ معنى آخر للمباهلة :

هناك معنىً آخر للمباهلة معنىً جانبي ، أي أنت تعمل عملاً تقول : أنا سألت فلانا فقال لي : ليس هناك أي شيء ، افعله ، وعلى مسؤوليتي ، أنت لست مقتنعاً بهذه الفتوى ، لكنّ هذه الفتوى غطّت هذا الانحراف ، وأخذت هذا المبلغ الحرام ، المقياس الدقيق لصحة عملك هو : هل تستطيع بعد هذا المال الحرام الذي أكلته أن تصلي صلاة صحيحة ؟ هذا مقياس حساس جداً ، هل تستطيع أن تبتهل إلى الله ، وأنت على هذا العمل السيئ ؟ قال تعالى :

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

وقال :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

إيّاك والظلم ولو كنت مغطّى بفتوى المفتين

حينما تأخذ ما ليس لك ، وأنت مغطى قانوناً وشرعاً ، هناك مادة تحميك ، وشرع ، معك فتوى ، وصفت صفة غير صحيحة لشيخ ، أفتى لك ، والفتوى على قَدَر الوصف ، فأنت أكلت المال الحرام مغطى بالنص القانوني ، ومعك فتوى من شيخ ، وتزهو كالطاووس ، فإن الله عز وجل يبطش ، إنك تعلم في قرارة نفسك أنك لست على حق ، هذا الإحساس الفطري ، قال تعالى :

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

وقال :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

فحينما تفْجُرْ تعرف أنها تَفْجُر .

مرة أُجريت مقابلة بين مفتي في الصرب ـ في البوسنة والهرسك ـ مع مندوب إذاعة ، فقال هذا المفتي كلاماً مدهشاً ، قال : إخوتُنا في المشرق لا ينبغي أن يعتبوا على الله من أجلنا ، نحن لسنا مسلمين ، نأكل لحم الخنزير ، ونشرب الخمر ـ يقصد المسلمين المحيطين به ـ الآن بعد هذه الشِّدة أصبحنا مسلمين، بعد هذه الشِّدة تُبنا إلى الله عز وجل ، فالله عز وجل عدل عدلاً مطلقاً ، فلا تتهم الله عز وجل، الله عز وجل ألزم نفسه بالاستقامة ، قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود : الآية 56)

الاستقامة تعني العدل ، لذلك في الحديث القدسي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ ذَلِك فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إلا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ ، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ ، أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ ، عَطَائِي كَلامٌ ، وَعَذَابِي كَلامٌ ، إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))

[الترمذي ، مسلم ، ابن ماجة ، أحمد ، الدارمي]

وقال سبحانه :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج : الآية 12)

حدثني أخ يركب مع صديق له في طريقهم إلى المطار ، يبدو أن صديقه كان جاهلاً وغافلاً ، وجد جروًا صغيرًا على طرف الطريق ، فأراد أن يمتحن براعته في القيادة ، فقصّ يدي الجرو الاثنتين ، ببراعة كبيرة جداً ، جرو صغير له يدان ممتدتان ، وبدقة بالغة يدوس على يديه فقط دون أن يقتله ، قال لي : وأطلق ضحكة هستيرية متباهياً بقدرته في القيادة على حساب جرو من مخلوقات الله ، أقسم لي بالله العظيم إنه في اليوم التالي من أيام الأسبوع ، أي أن الحادث كان يوم السبت ، السبت القادم في المكان نفسه إحدى العجلات أصابها خلل ، فوقف لرفع المركبة على جهاز ، الجهاز كان فيه خلل ، فوقعت المركبة فوق العَجَلة والعَجَلة فوق يديه عند رُسغيه ، وإلى أن وصل إلى المستشفى اسودَّت يداه، وكان لا بد من قطعهما ، وقُطِعت يداه من الرُسغين بعد أسبوع واحد من الذي فعله مع هذا الجرو ، قال تعالى :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج : الآية 12)

فالإنسان وإن كان مُفلسفاً ، متحذلقاً ، عنده قوة إقناع ، يقلب الحق إلى باطل ، الله عز وجل يتدخل ، وتَدَخُله إظهار للحق .

نعيد الآية مرة أخرى :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ(60)فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

(سورة آل عمران)

خلاصة معاني المباهلة :

إن كنت على حق ، وبذلت كل جهدك لإقناع الطرف الآخر ، استثرت همته ونخوته ومنطقه ، أتيته بالحجج والبراهين والأدلة ، ثم خوَّفته ، فركب رأسه ، وتطاول ، وازداد انحرافاً وظلماً ، عندها ادعُ عليه : اللهم اهده ، فإن لم تهدِه فخذه .

المعنى الآخر ؛ أنك حينما تفعل شيئاً لا يُرضي الله ، وإن كان معك نصوص تغطي هذا الشيء تشعر باضطراب داخلي ، ولا تستطيع أن تتصل بالله عَقِب هذا الشيء ، والإنسان قد يفعل شيئاً مخيفاً لكن مع الحق ، ففرضاً : إنسان يبيع للناس لحمَ حيوان ميتٍ ، هذا ممكن ، وأنت موظف تموين ، إن عاقبته فأنت مُغطى من الله عز وجل ، لأنه يطعم المسلمين لحمَ حيوان ميتٍ ، هنا لا يوجد رحمة ، قال تعالى :

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

(سورة النور : الآية 2)

أنت قد تُسَبب السجن لإنسان ، لكنك أدّيت واجبك الوظيفي ، ورحمت المسلمين ، وهناك حوادث عديدة أن إنساناً يبيع لحم حمير للناس ، وإنسان يبيع الدواب الميتة ، يبيعها طعاماً للناس ، هذا إذا ضُبط ألا ينبغي أن يُعاقَب أشد العقاب ؟ الذي أوقع فيه العقاب هل يخاف أن ينتقم الله منه ؟ أبداً ، لأنه أقام الحق ، ورحم المسلمين ، فحينما تكون مع الحق لا تخف ، أما حينما تبتلي إنساناً ظلماً فيجب أن لا تنام الليل خوفاً من الله ، قال تعالى :

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة آل عمران : الآية 62)

1 ـ قصص القرآن حقٌّ لا تشوبه شائبة :

ما في القرآن من قَصَص هو الحق الصِرف ، لأنّ القاصَّ هو خالق الأكوان ، قال تعالى :

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة آل عمران : الآية 62)

2 ـ الله وحده هو الفعّال المسيِّر المتصرف :

الفعَّال هو الله ، المُتصرِّف هو الله ، المُسَيِّر هو الله ، الذي يرفع ويخفض هو الله ، والذي يعطي ويمنع هو الله ، الذي يُعز ويُذِل هو الله .

وكما قلت فأنت مُخَيَّر ، إن اخترت أن تؤذي المسلمين يأتِ رد الله لك ، يأخذ منك اختيارك ، إذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لُبٍ لُبَّه ، ويوقِعُك في شر عملك ، هذا هو رد الله عز وجل ، قال تعالى :

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ(62))

هذا هو التوحيد ، الدين كله توحيد ، ألا ترى مع الله أحداً ، قال تعالى :

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة آل عمران : الآية 62)

3 ـ الله عزيز لا يُنال جانبه ، حكيمٌ حكمة مطلقة :

أي عزيز لا يُنال جانبه ، حكيم ، فكل أفعاله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

متى يكون الإنسان غير حكيم ؟ إن وقع تحت ضغط لا يقوَى على رفعه فيرتكب حماقة ، ويقول : أنا مُجبر على فعل هذا ، إذا وقع تحت إغراء يقول : والله غلبتني شهوتي ، إما أن يقع تحت ضغط لا يُحتمل فيرتكب حماقة ، أو تحت إغراء لا يُحتمل فيرتكب حماقة أخرى ، أو أن يكون جاهلاً فيرتكب حماقة أيضا ، إن كان جاهلاً ، أو واقعاً تحت ضغط أو إغراء يكون غير حكيم ، هل يمكن أن تكون هذه الحالات الثلاث متناسبة مع كمال الله ؟ مستحيل ، إذاً : حكمته مطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، كل شيء أراده الله وقع ، وكل شيء وقع أراده الله ، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة آل عمران : الآية 62)

وتابع قوله تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 63)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ

1 ـ التولّي ردٌّ للحقّ :

ما أروع هذه الآية ، إن تولّوا أي تولّوا عن الحق ، وأداروا ظهرهم له ، رفضوه ، ردُّوه ، لِمَ لَمْ يقل الله عز وجل : فإن تولوا فإن الله عليم بمن تولّوا ؟ بل قال :

(فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 63)

2 ـ التولّي عن الحقّ فسادٌ :

معنى ذلك أنّ أي إنسان يتولى عن الحق فهو إنسان فاسد ، لأن من لوازم التَوَلّي الفساد ، ومن لوازم القبول الاستقامة ، قال تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 63)

يشبه هذا قوله تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا)

(سورة السجدة : الآية 18)

إن الإنسان حينما لا يؤمن يفسُق .

ونتابع حديثنا بقوله :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

1 ـ ضوابط الحق :

عندنا ضوابط للحق ، ألاّ نعبد إلا الله وحده ، أن نعبد خالق السماوات والأرض ، ماذا قال الله عز وجل ؟ قال :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 31)

2 ـ هذه الآية تنطبق على المسلمين اليوم :

وقد ينطبق هذا على المسلمين أحياناً ، يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، وأنا أقول لكم كلمة حق: إنه ما من فِرقَةٍ ضالّة في العالم الإسلامي إلا وتعتمد على تأليه الأشخاص ، وتخفيف التكاليف ، واعتماد النصوص الضعيفة والموضوعة والنزعة العدوانية .

3 ـ النبي بشر كسائر البشر :

النبي عليه الصلاة والسلام قال الله له :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف : الآية 110)

وأيضاً ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ))

[أحمد ، البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبي داود ، ابن ماجة ، الدارمي]

له بشريَّته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة هود : الآية 31)

4 ـ كلّ من أراد الخروج عن بشريته فهو دجّال :

فأيّ إنسان يدَّعي علم الغيب فهو إنسان كذّاب ، ودجَّال ، وقال أيضاً :

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(سورة الجن : الآية 21)

إنّ أيَّ إنسان يدَّعي أنه يملك لك نفعاً أو ضراً فهو دجَّال ، وأيّ إنسان يقول : أنا رُفِع عني التكليف فهو دجّال ، قال تعالى :

إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

(سورة الأنعام : الآية 15)

هذا هو الدين ، فمن هذا الذي يدَّعي أنه مستغنٍ عن طاعة الله يملك لك نفعاً أو ضراً ، و يعلم الغيب ؟ قال تعالى :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 31)

وقال :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

هذا هو الإسلام ؛ خضوع لله ، واتّباع لمنهجه ، والافتقار إليه ، قال تعالى :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 65)

أهل الكتاب يحاجون النبي عليه الصلاة والسلام في إبراهيم :

أي أنّ النبي الكريم جاء في كتبهم فحوَّروا وبدَّلوا ، أما إبراهيم لم يأتِ في كتبهم وقد جاء قبلهم فلِمَ يدَّعون أنّ إبراهيم منهم . وقال :

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(66)مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(67)إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

قضية يتحاور عليها أهل الكتاب ، ما إذا كان إبراهيم عليه السلام يهودياً أم نصرانياً ، قال : التوراة والإنجيل جاءتا ، وأُنزلتا من بعده ، إذاً : هذا الحوار لا معنى له ، ولم يكن إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وأوْلى الناس بالانتماء إليه هو النبي الكريم ، قال تعالى :

(هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ)

(سورة الحج : الآية 78)

قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنِّي دَعْوَةِ أبي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةِ عِيسَى))

[أحمد]

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(19-60): تفسير الآيات 64 - 68
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-04-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والستين، وهي قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

1 ـ وحدة الأصل تعني وحدة الفروع :

هذه الأديان أو هذه الشرائع أليست هي من عند الله ؟ هناك قاعدة أصولية أن وحدة الأصل تعني وحدة الفروع ، فما دامت هذه الشرائع قد جاءت من عند الله عز وجل ، و الله واحد لا شريك له ، إذاً فلابد من وحدة في هذه الشرائع .

القرآن الكريم أشار إلى هذه الحقيقة فقال :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء : الآية 25)

2 ـ نهاية العلم التوحيد :

كل شيء جاءنا من عند الله من خلال الرسل يتلخص بكلمتين : التوحيد والعبادة ، فالدين عقيدة و طاعة ، تصور و سلوك ، فكر نظري و تطبيق عملي .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء : الآية 25)

قال العلماء : نهاية العلم التوحيد ، و نهاية العمل التقوى ، الحقيقة أنا مضطر أن أبين الفرق بين أن تُحَصل علماً أرضياً من جامعات العالم هذا العلم متعلق بخلق الله ، و بين أن تتعرف إلى الله ، فرق كبير بين أن تعرف الله ، وأن تتعرف إلى قوانين خلقه ، قوانين خلق الله عز وجل تعرفها في العلوم

العصرية في جامعات الأرض ، لكنك إذا أردت أن تعرف الله ينبغي أن تتفكر في خلقه ، و في كلامه، و في أفعاله ، إنها المصادر الثلاثة لمعرفة الله عز وجل .

3 ـ ما كل ذكي بعاقل :

النقطة الدقيقة أنه ما كل ذكي بعاقل ، قد يتفوق الإنسان في اختصاصه ، قد يبرع في حرفته ، قد يبلغ الدرجة العليا فيما هو فيه ، أما إن لم يعرف الله و لم يعرف سر وجوده و غاية وجوده فهو عند الله ليس بعاقل ، و الآيات التي تتحدث عن العقل و العلم تقترب من ألف آية :

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 65)

(لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الأعراف : الآية 176)

(لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

(سورة الأنفال : الآية 57)

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة الصافات : الآية 154)

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

(سورة يونس : الآية 32)

الآن ربنا عز وجل يبين أن هذه الشرائع من عند الله كلها :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

4 ـ لا طاعة إلا لله ورسوله :

القاسم المشترك ألا نعبد إلا الله ، العبادة لله وحده ، لا يوجد جهة في الأرض مخولة أن تطيعها أبداً ، النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق يقول الله له :

(قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي)

(سورة الأعراف : الآية 203)

أنا متبع ، سيدنا الصديق : إنما أنا مُتَبع ، ولست بمبتدع ، ولا جهة في الأرض مهما علا شأنها يمكنك أن تعبدها من دون الله ، أو أن تطيعها من دون دليل ، هذه النقطة في الإسلام مهمة جداً ، نحن جميعاً نؤمن أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده ـ وحده ـ بينما أمته معصومة بمجموعها ، الله عز وجل أمرنا أن نأخذ من نبيه قال :

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر : الآية 7)

لأنه عصم نبيه من أن يخطئ في أقواله ، وأفعاله ، وإقراره ، وأحواله ، هو المعصوم ، في حياة المسلمين إنسان واحد تطيعه من دون أن تطالبه بالدليل هو رسول الله ، أما غير رسول الله فما من إنسان يمكن أن تطيعه من دون دليل أبداً ، الصديق رضي الله عنه قال : **<< أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>** ، أي راقبوني .

هذه قاعدة أساسية : لا تقبل شيئاً من دون دليل ، ولا ترفض شيئاً من دون دليل ، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ جَيْشًا ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً ، فَأَوْقَدَ نَارًا ، وَقَالَ : ادْخُلُوهَا ، فَأَرَادُوا أنْ يَدْخُلُوهَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : إنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا ، فَذَكَرُوا لِلنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أنْ يَدْخُلُوهَا : لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ لِلآخَرِينَ : لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ إنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، أبو داود ، أحمد]

النبي ربى رجال ، علمهم كيف يفهمون الأمور ، و كيف يزينون الموضوعات :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

من ينبغي أن تعبده ؟ الذي خلقك :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة : الآية 21)

لأن الخالق هو الصانع ، و قال تعالى :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر : الآية 14)

5 ـ عبادة الله وحده هي السعادة الحقيقية :

لن تجد في الأرض كلها جهة تملك أسباب سعادتك إلا الله ، و هؤلاء البشر حينما تركوا الدين وقعوا في شر أعمالهم ، المجتمعات البشرية في بؤس شديد ، إما في ترف مع التفسخ ، وإما في قهر ، وفقر مع الحاجة ، لأنهم ما اتبعوا منهج الله عز وجل ، و أكاد أقول ما من مشكلة في الأرض على الإطلاق إلا بسبب خروج عن منهج الله ، و ما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل ، والجهل أعدى أعداء الإنسان ، و الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به :

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ(64))

لا ينبغي أن تكون أنت لغير الله ، لا يليق بك أن تكون لغير الله ، لا يليق بإنسانيتك أن تكون لغير الله ، لا يمكن أن تحسب على غير الله ، أنت إنسان خلقك الله ، وكرمك ، وجعلك المخلوق المكرم ،

أنت لله ، الماء للتراب ، والتراب للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان ، والإنسان لله ، وأنت لله :

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ(64))

لذلك قل :

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

(سورة العنكبوت : الآية 56)

أيّ مكان في الأرض حال بينك و بين طاعة الله ينبغي أن تغادره فوراً ، منعك من طاعة الله ، لأنك مخلوق لعبادة الله :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات : الآية 56)

ألا نعبد إلا الله لأنه الذي خلق ، و لأنه الرب الممد ، و لأنه المسير ، و لأنه الإله ، ولأنه الخبير ، ولأنه العليم ، ولأنه الغني ، ولأنه القوي ، ولأنه الرحيم ، فكل سعادتك ، وسلامتك بطاعة ربك ، وكل شقائك ، وهلاكك بمعصية ربك ، و هذا معنى قوله تعالى :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 64)

6 ـ الشرك أخطر شيء على وجه الأرض ولا سيما الخفي منه :

إخواننا الكرام ، أخطر شيئاً في حياة المسلمين الشرك ، الشرك نوعان : جلي و خفي ، الجلي فيما أعتقد لا وجود له في العالم الإسلامي في الأعم الأغلب ، ليس في عالم المسلمين إله يُنحت ، و يُعبد من دون الله ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ :

((أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ؟ قَالَ : قُلْنَا : بَلَى ، فَقَالَ : الشِّرْكُ الْخَفِيُّ))

[أحمد ، ابن ماجه]

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ : يَعْبُدُونَ شَمْسًا ، وَلا قَمَرًا ، وَلا وَثَنًا ، وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[أحمد ، ابن ماجه]

إذاً : الشيء الخطير هو الشرك الخفي :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف : الآية 106)

بسبب الشرك الخفي ينافق بعض المسلمين ، بسبب الشرك الخفي يخاف بعض المسلمين أن يطيع الله ، يخافون مما سواه ، بسبب الشرك الخفي يغش المسلم في البيع والشراء ، يرى أن هذا المال الذي سيحصله من خلال الغش أغلى عنده من الله ، من طاعته ، بسبب الشرك الخفي يطيع بعض المسلمين زوجاتهم ، ويعصون ربهم ، بسبب الشرك الخفي تطيع مخلوقاً ، و تعصي خالقاً .

لو أنك وحدت الله لا يمكن أن تعصيه ، لماذا تعصيه ؟ الأمر بيده ، و الرزق بيده ، والصحة بيده ، وأهلك بيده ، وأولادك بيده ، ومن حولك بيده ، ومن فوقك بيده ، ومن تحتك بيده ، فإذا أرضيت الله وحده رضي الله عنك ، وأرضى عنك الناس ، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها ، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها .

إذاً :

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا)

7 ـ كل هذا من مظاهر الشرك فاحذرها :

الشرك أيها الإخوة أخفى من دبيب النملة السمراء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، نملة سمراء ، تمشي على صخرة صماء ، في ليلة ظلماء ، ألا يُسمع دبيب أقدامها ؟ بالتأكيد لا يُسمع ، الشرك أخفى ، أدناه أن تحب على جور ، أي إنسان جاءك منه خير مادي فأحببته ، وهو ليس على ما ينبغي أن يكون ، هذا شرك ، أو إنسان نصحك بأدب جم فانزعجت منه لأنه خدش كبرياءك ، هذا شرك، أن تحب على جور أو أن تبغض على عدل ، حينما ترجو ما عند إنسان فهو شرك ، حينما تخاف من إنسان ، ولا تخاف من الله ، هذا شرك ، حينما تحرص على سمعتك أمام الناس ، ولا تحرص عليها أمام الله ، حين تتجمل أمام الناس ، ولا تُحسن منظر الله عز وجل في قلبك ، طهرت منظر الخلق سنين ، تطلي بيتك ، تنظف مركبتك ، تتأنق في ملبسك ، هذا منظر الخلق ، الخلق ينظرون إليك ، إلى بيتك ، إلى مدخل بيتك ، إلى غرفة الضيوف ، إلى نظافة البيت ، إلى نظافة الجدران ، إلى نوع الأثاث ، إلى تنسيق الألوان ، لكن الله ناظر إلى قلبك ، فيه غش ، فيه حسد ، فيه بغي ، فيه عدوان ، فيه لؤم ، فيه كبر ، فيه غطرسة ، كما ورد في بعض الآثار : **" عبدي طهرت منظر الخلق سنين ، أفلا طهرت منظري ساعة " .**

أن ترجو غير الله ، أن تخاف من غير الله ، أن تعطي لغير الله ، أن تمنع لغير الله ، ألا تغضب لله ، ألا ترضى لله ، فهذا شرك ، و هذا هو الشرك الخفي ، و هذا ما تعنيه الآية الكريمة :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف : الآية 106)

نعوذ بالله من الشرك الخفي :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

بالتأكيد لن تقول لإنسان : أنت ربي ، لكنك تعامله ، و كأنه رب ، تطيعه طاعة عمياء من دون دليل ، ترضيه و لو بسخط الله ، تخافه ، ولو عصيت الله ، اتخذته رباً ، أعطاك توجيها بلا دليل ، فنفذت هذا التوجيه ، نهاك عن شيء واجب فتركت هذا الشيء الواجب ، أمرك بمعصية فنفذتها إنك اتخذته إلهاً ، و اتخذته رباً ، و قد قال الله عز وجل :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 31)

لا تطع أيَّ إنسان مهما كان إنْ أمر بمعصية :

و قد تجد بعض المسلمين لضيق أفقهم ، ولجهلهم يعبدون بعضهم بعضاً ، يكفي أن شيخه قال له كذا ، و لو أمره بمعصية ، لو منعه من طاعة ، يقول لك بالتعبير الدارج لو قال : اللبن أسود ، أسود ، ما علمنا النبي هذا ، علمنا أن نستبصر ، علمنا أن نسأل ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :

((صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِحْدَى صَلاتَيْ الْعَشِيِّ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ..... وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ طَوِيلُ الْيَدَيْنِ يُسَمَّى ذُو الْيَدَيْنِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَسِيتَ الصَّلاةَ أَمْ قُصِرَتْ ؟ فَقَالَ : مَا نَسِيتُ ، وَلا قُصِرَتْ الصَّلاةُ ، فَقَالَ : أَوَ كَذَلِكَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَرَجَعَ فَأَتَمَّ مَا بَقِيَ ، ثُمَّ سَلَّمَ ، وَكَبَّرَ فَسَجَدَ طَوِيلاً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَكَبَّرَ ، وَسَجَدَ مِثْلَ مَا سَجَدَ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَانْصَرَفَ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، أحمد ، مالك ، الدارمي]

نُسِّي النبي لكي يسن لنا سجود السهو ، لو أن النبي لم يسهو في حياته ولا مرة ، هذا الحكم معطل ما كنا عرفناه ، نحن ننسى ، فالنبي ربى أصحابه أن يسألوا ، أن يستوضحوا ، صحابي جليل رأى موقع بدر غير مناسب ، من شدة غيرته و محبته و إخلاصه سأل النبي بأدب جم ، قال : يا رسول الله ، هذا الموقع وحي أوحاه الله إلي ؟ أي إذا كان وحياً و لا كلمة ، أم هو الرأي والمشورة ، فالنبي قال له : لا ، هو الرأي و المشورة ، قال : و الله يا رسول الله ليس بموقع ، يخاطب من ؟ يخاطب سيد الرسل ، يخاطب سيد الأنبياء ، يخاطب الذي يوحى إليه ، يخاطب المعصوم ، فالنبي عليه الصلاة و السلام بخلق رفيع قال: أين الموقع المناسب ؟ فدله عليه ، قال : جزاك الله خيراً ، و أعطى أمراً لأصحابه بالتوجه ، أي المؤمن الصادق يغار على سمعة المسلمين ، يسأل ، يستفهم ، يستوضح ، ينتقد نقداً بناءً ، يعترض أحياناً ، لأن الله هو قصده ، أما إذا كانت الدنيا قصده

ومصالحه مؤمنة بسكوته يسكت ، إذا كانت الدنيا قصده ، ومصالحه تتحقق بسكوته تراه يسكت ، أما إذا كان الله قصده ينبغي أن ينطق ، أن يسأل ، أن يستفهم، أن يستوضح ، أن ينتقد أحياناً ، فلا معصوم إلا النبي ، ما من أحد أصغر من أن ينقُد ، و ما من أحد أكبر من أن ينقَد ، كل إنسان يؤخذ منه ، و يرد عليه إلا صاحب هذه القبة الخضراء، ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى العين والرأس ، وما جاءنا عن أصحابه فعلى العين والرأس ، وما جاءنا عن التابعين فعلى العين والرأس ، لأن الله شهد لهذه العصور الثلاثة بالخيرية ، فعن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((خَيْرُكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، أحمد]

وما جاءنا عن سواهم ، فنحن رجال و هم رجال ، للإمام علي كرم الله وجهه كلمة رائعة قال :

<< نحن نعرف الرجال بالحق ، و لا نعرف الحق بالرجال >> .

فلان قال : أنت أفهم منه ، و لكن يوجد آية ، يوجد نص قطعي الدلالة ، فلان أفتى بالربا أنت مثل علمه ؟ أنا معي نص :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : الآية 279)

لا معصية في القرآن توعد الله على مرتكبها بالحرب إلا الربا ، من هذا الذي يحق له أن يقول لك : الربا مباح ؟ من هذا الذي يجرؤ أن يحل معصية توعد الله عليها مرتكبها بالحرب ؟ البطولة أنك تعرف الرجال بالحق ، الحق هو الأصل ، والخطأ الشنيع أن تعرف الحق بالرجال ، أناس كثيرون يقول لك : هكذا علمنا والدنا ، والدك ليس على حق ، أبي لم يرد أن نعمل تفرقة بالعائلة ، يجمع الأصهار و زوجاتهم على مائدة واحدة ، هكذا علمنا أبي ، ليس هناك دليل ، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَار : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ ؟ قَالَ : الْحَمْوُ الْمَوْتُ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أحمد ، الدارمي]

ليس من المعقول أن يرى الصهر أخت زوجته ، وقد تكون أجمل منها ، ثم لا يتمناها ، ثم لا يملأ عينيه من محاسنها ، والدي لو يرد أن يفرق العائلة ، هل هذه آية أم حديث ؟ هذا كلام والدك ، نحن معنا قرآن ، معنا سنة ، معنا كلام معصوم ، فأنت الأصل أن تعرف الحق و من خلال الحق يمكن أن تقيّم الرجال ، لذلك :

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

8 ـ يجب أن نحرص على التوحيد بأن لا يشوبه شرك مهما صغُر :

إله واحد ، أنا أعتقد أنه ما من رجُلين على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة أحبا بعضهما بعضاً كرسول الله و أبي بكر ، أبو بكر و عمر مني بمثل السمع و البصر ، فما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر .

ومع ذلك لما مات النبي عليه الصلاة و السلام ماذا فعل الصديق ؟ قال : **<< من كان يعبد محمداً ـ فقط محمداً لم يقل رسول الله ـ فإن محمداً قد مات ، و من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت >>** .

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، سيدنا عمر ، سيدنا خالد انتصر ، و انتصر ، فتوهم المسلمون أنه ما من معركة يقودها خالد إلا انتهت إلى النصر ، فخاف عليهم الشرك فعزل خالدا ، سيدنا خالد تألم ، قال له : **<< يا أمير المؤمنين لما عزلتني ؟ قال له : و الله إني أحبك ، قال : لما عزلتني ؟ قال : و الله إني أحبك ، فسأله مرة ثالثة لما عزلتني ؟ قال له : و الله ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك لكثرة ما أبليت في سبيل الله >>** .

و أنت راقب نفسك لمجرد أن تتكئ على إنسان ، لمجرد أن تعقد الأمل عليه ، لمجرد أن تتوقع منه الخير ، لمجرد أن تعتز به و أن تنسى ربك ، هذا الإنسان الذي أشركته مع الله لابد من أن يخيب ظنك بتوجيه الله إنقاذاً لك من الشرك ، الشرك هو الطامة الكبرى :

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

لو أن أتباع الأديان التي جاءتنا من عند الله عبدوا الله وحده ، ولم يشركوا به شيئاً ، وما اتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله لاجتمعوا ، وتعاونوا ، فإن أبوا إلا أن يتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فإن أبوا إلا أن يشركوا ، إن أبوا إلا أن يعبدوا غير الله ، فإن أبوا إلا أن يشركوا بالله ، إن أبوا إلا أن يتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله قال :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون

الأنبياء كلهم وُصِفوا في القرآن بالإسلام :

هذا هو الإسلام ، الإسلام هو الاستسلام لله ، و الذي يلفت النظر في القرآن الكريم أنه ما من نبي في القرآن إلا و قد وصف بأنه مسلم ، بل إن فرعون حينما أدركه الغرق قال :

(وَإِنِّي مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة الأحقاف : الآية 15)

الإسلام بالمعنى الواسع لا بالمعنى الذي يعني أن هذا الدين الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ، بالمعنى الواسع الاستسلام لله ، والآية الدقيقة :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

(سورة آل عمران : الآية 19)

أي أصل الدين عند الله الإسلام ، أن تستسلم لله ، وألا تعبأ بمن دونه ، قال :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ)

(سورة آل عمران : الآية 65)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ

1 ـ مزاعم اليهود في إبراهيم :

أي اليهود ، فقد قالوا ، كان إبراهيم يهودياً ، و النصارى قالوا ، كان إبراهيم نصرانياً ، فقال الله عز وجل :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 65)

الحجة قوية ، هذا النبي الكريم ، هذا أبو الأنبياء حينما أرسله الله للخلق ما كان هناك يهودية و لا نصرانية ، لذلك قال الله عز و جل :

2 ـ رد الله على مزاعم اليهود في إبراهيم :

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 66)

أي بسيدنا عيسى .

(فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 66)

أي الحق صارخ ، الحق واضح ، الحق جلي ، فحينما ترى كلاماً لا ترتاح له ، ولا يتفق مع الفطرة السليمة ، ولا مع العقل الصريح ، ولا مع النقل الصحيح ، ولا مع الواقع الموضوعي هذا باطل ، الحق ما جاء به النقل الصحيح ، وأيده العقل الصريح ، وارتاحت إليه الفطرة السليمة ، وأكده الواقع الموضوعي هذا هو الحق :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(65)هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)

(سورة آل عمران)

3 - لابد من تمحيص الكلام :

بعضهم قال : لي صديق كان من أعظم الناس في عيني ، و كان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه ..... إلى أن قال : و لا يدلي بحجة إلا إذا رأى قاضياً فهماً ، وشهوداً عدولاً ، و كان خارجاً عن سلطان الجهالة ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يماري فيما علم .

أي مسلم لا هو فهم كتاب الله ، ولا قرأ كتاب الله ، ولا اطلع على حديث رسول الله ، ولا فهم أحكام الفقه ، لكن يقول لك سمعت ندوة من فضائية ، أي يقبل على مزاجه ، ويرفض على مزاجه ، و يُقَيم على مزاجه ، و كأن الحديث في الدين كلأ مباح لكل الناس ، من يجرؤ أن يكتب على بيته الدكتور فلان ، اختصاصي في أمراض القلب ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ماذا يفعلون به ؟ يضعونه في السجن ، من يجرؤ أن يكتب المهندس فلان ، وهو جاهل ؟ من يجرؤ أن يكتب المحامي فلان ، وهو جاهل ؟ هناك محاسبة ، ومساءلة ، لكن كل شخص من دون أن يطلب العلم ، من دون أن يقرأ القرآن ، من دون أن يفهم القرآن، من دون أن يقرأ سنة النبي العدنان ، من دون أن يفهمها ، من دون أن يفهم أحكام الفقه ، من دون أن يعرف أصول العقائد يتكلم في الدين ، فيقبل ، ويرفض ، ويُقَيم ، ويطعن ، ويمدح ، هو مرتاح ، أي علم حصلته حتى تتكلم بهذا الكلام ؟ لابد من أدب مع الله ، اطلب العلم . الآن في البلد مجلات طبية كثيرة إذا اشترى شخص عدة مجلات ، و قرأ في كل مجلة مقالتين أو ثلاثًا، وهناك أسئلة وأجوبة ، هذا في الأمراض الباطنية ، والقلبية ، والرئوية ، والبولية ...هذا بعد مطالعة عشرين ، أو ثلاثين مجلة ، وقرأ مقالاتهم ، وقرأ السؤال والجواب ، هل يكون طبيباً ؟ هذا والله حال المسلمين اليوم ، سمع خطبة ، قرأ كتابًا ، قد يكون فيه دس لا يعلمه إلا الله ، سمع ندوة من إنسان باع دينه بدنياه ، ليس منضبطاً ، فيقبل ، و يرفض ، ويزكي ، ويقبح ، ويطعن ، يقبل على مزاجه ، ويرفض على مزاجه ، أهكذا ؟

مرة قلت للإخوة الكرام في إحدى الخطب : خذوا دينكم عن الأرضيات لا عن الفضائيات ، لأن الذين يتحدثون في بعض هذه الفضائيات ينسجمون مع مموليها ، وينسجمون مع أن تتسع رقعة شعبيتهم على حساب دينهم ، كل شيء أصبح حلالاً ، الرقص ، والغناء ، والتمثيل ، والموسيقى ، وسفر المرأة بلا محرم ، لم يبق شيئاً ، والربا ، لم يبق شيئاً بقي الإسلام شكلاً ، غلاف بلا مضمون

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 67]

4 ـ كان إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً :

كان إبراهيم حنيفاً مسلماً ، أي مائلاً إلى الله ، أكد علماء العقيدة أن العبادة طاعة طوعية ، وليست طاعة قسرية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، فلو أطعت الله ولم تحبه ما عبدته ، ولو أطعته ، ولو أحببته ، ولم تطعه فما عبدته ، لا تكون عابداً إلى إذا أطعته طاعةً طوعيةً ، ممزوجة بمحبة قلبية .

كان حنيفاً مائلاً إلى الله ، أي إنسان قوي شهر عليك سلاح ، وقال لك: أعطني ما في يديك من طعام ، فقد أطعته ، هل تكون قد عبدته ؟ أعوذ بالله ، أنت مقهور ، لذلك نعجب في القرآن مِن جمع العبد على عباد تارةً ، وجمع العبد على عبيد تارةً أخرى ، فقال تعالى :

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت : الآية46)

وقال :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان : الآية 63)

قال العلماء : العبيد جمع عبد القهر ، بينما العباد جمع عبد الشكر فالمقهور في وجوده وفي استمرار وجوده إلى الله هذا عبد قهر جمع عبيد ، وما ربك بظلام للعبيد ، أما الذي تعرف إلى الله طواعيةً مبادرةً منه عن اختيار ، عن محبة فهذا عبد الشكر يجمع على عباد ، قال تعالى :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر : الآية 42)

فرق دقيق بين العبيد والعباد ، قال تعالى :

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

التركيز على الشرك ، طامة المسلمين الكبرى الشرك :

(وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

5 ـ الدعوة إلى توحيد الله لا إلى الأشخاص والأفكار :

فكان رأسهم بينهم ، هناك من يدعو إلى ذاته بدعوة مغلفة إلى الله ، هذا لا يتبع بل يبتدع ، هذا لا يتعاون ، بل يتنافس ، هذا لا يقر بفضل الآخرين ، بل ينتقص منه ، هذا لا يسالم بل يعادي ، و ما من فرقة ضالة في تاريخ المسلمين إلا و هي تتصف بصفات أربع ، تأليه الأشخاص :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ(31))

(سورة التوبة : الآية 32)

و في أي دين إذا اتخذ رجال الدين أرباباً من دون الله انحرف هؤلاء ، تأليه الأشخاص، و تخفيف التكاليف ، واعتماد النصوص الموضوعة والضعيفة ، والنزعة العدوانية ، بينما أهل الحق يتبعون ولا يبتدعون ، يعتمدون النصوص الصحيحة ، عند الأمر و النهي يتعاونون ولا يتنافسون :

(وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : الآية 159)

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 68)

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

أولى الناس باتباع إبراهيم النبي والمؤمنون :

إن أولى الناس بإبراهيم ، نقول نحن في الصلاة : اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على سيدنا إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم :

(لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

أيها الإخوة الكرام .

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا)

الذين صدقوا دينه الحنيف ، و النبي عليه الصلاة و السلام هو دعوة أبينا إبراهيم ، كما قال عن نفسه : أنا بشارة أخي عيسى و دعوة أبي إبراهيم ، و إبراهيم أبو الأنبياء :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

و في درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات التي مطلعها :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(69)يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

(سورة آل عمران)

هناك بعض الأسئلة :

س ـ إلى متى يحل للمصلي أن يصلي صلاة العشاء ؟ هل للفجر ؟

ج ـ الحقيقة بعد منتصف الليل تكره صلاة العشاء ، دخلت في وقت الكراهة ، أفضل الصلاة في أول وقتها ، يوجد وقت الاستحباب ، و هناك وقت الإباحة مقبولة ، و هناك وقت كراهة ، إذا صليت العشاء بعد منتصف الليل فهذا وقت كراهة .

س ـ جاء خاطب يخطب فتاة فاستخارت الفتاة الله عز وجل عن طريق شيخ قدير فقال لها : الآن وأول الأمر تكون الخطبة فيها خير و لكن بعد كتابة العقد يظهر المخفي ، المهم أن الخطبة لا خير فيها مما جعل أهل العروس يحتارون ، ويترددون ، وقد مضى أشهر على موضوع الخطبة ، فكيف عرف هذا الشيخ مثلاً ؟

ج ـ الشيء الثابت أن النبي عليه الصلاة و السلام سن لنا صلاة الاستخارة ، ولم يرد عنه أبداً أن أحداً استخار عن أحد ، لا أحد يستخير عن أحد ، لك عند الله المكانة نفسها ، تصلي ركعتين و تقول : اللهم بعلمك و قدرتك إن كان في هذا الأمر خير لي في ديني و دنياي وعاقبة أمري فيسره لي ، يقول لك : أنا استخرت الله فتحت المصحف ، و لم أجد فيه آية مشجعة ، من قال لك : إن فتح المصحف هو جواب الله عز وجل ، من قال لك ذلك ؟ قضية فتح المصحف ، وقضية أن رأيت في منامي شيئا جميلا جداً ، رأيت نفسي أمام نور ، الرد الإلهي إذا استخرت الله في شيء ، وأراده الله لك ، وأنت صادق يسره لك ، الرد الإلهي هو التيسير فقط ، أما أن أكلف شيخاً أن يستخير لي لم يرد هذا عن رسول الله أبداً .

س ـ تكررت كلمة أثر في دروسك ، ما المقصود ؟

ج ـ أي ما ورد عن أصحاب رسول الله ، أو عن التابعين ، يقال ورد في الأثر ، لعله حديث ضعيف ، لكن ورد عن بعض الصحابة ، نقول : أثر حتى لا نتورط ، ونقول : قال رسول الله ولم يقله ، أي حكمة رائعة عن صحابي وردت ، عن تابعي ، لعلها حديث ضعيف نُقل عن رسول الله ، ثم عزي إلى الصحابي فرضاً ، فأقول أنا : ورد في الأثر ، هذا اسمه في علم الحديث صيغة تمريض ، كلام لطيف ، حكمة رائعة ، لكن لم ترد عن رسول الله يقيناً .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(20-60): تفسير الآيات 69 – 74
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-04-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس العشرين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية التاسعة والستين، وهي قوله تعالى :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 69)

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

1 ـ الإنصاف الرباني مع أهل الكتاب :

ودت يعني رغبت ، تمنت طائفة من أهل الكتاب ، دائماً وأبداً القرآن الكريم يعلمنا الحكم الموضوعي ، لم يقل الله عز وجل ود أهل الكتاب ، لو أن واحداً منهم لا يتمنى ذلك فرضاً ، ورأى نفسه مشمولاً بهذه التهمة لابتعد عن هذا الدين ، لكن الله عز وجل يعلمنا كيف ندلي بأحكام دقيقة صحيحة ، وجزء كبير من علمك أن تقيّم من حولك وفق أسس سليمة ، أما هذا الذي إذا أحب يجعل هذا المحبوب ملِكاً لا يخطئ ، وإذا أبغض يجعله مجرماً فهذا إنسان عامي ، ودائماً التعميم من العمى الأعمى يعمم ، أما البصير فلا يعمم ، علمك لا يعني أن يكون الدماغ محشواً بمعلومات لا تنتهي ، علمك ينبغي أن يكون في مظهره العملي إنصافاً ، وتقييما موضوعيا .

2 ـ التقييم الأخلاقي الصحيح دليل العلم :

وقد ذكرت لكم من قبل أن الموضوعية في الوقت نفسه قيمة علمية وقيمة أخلاقية ، والأخلاق والعلم يلتقيان في الموضوعية ، فإذا قيمت الإنسان تقييماً صحيحاً فأنت أخلاقي ، وأنت إذا قيمته تقييماً صحيحاً فأنت علمي ، فأنت تنتمي إلى العلم ، وتنتمي إلى الخلق إذا قيمت من حولك تقييماً دقيقاً أخلاقياً.

أما هذا الذي ينحاز انحيازاً أعمى ، الجهة التي انحاز إليها يراها فوق البشر ، والذي تركها يراها دون البشر ، فهذا إنسان غير متوازن ، فينبغي إن سئلت عن جهةٍ ، أو عن إنسانٍ أن تذكر ما له

وما عليه . النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى صهره زوج ابنته زينب مع الأسرى ، وكان مشركاً ، وجاء ليحارب ، ولو أتيح له لقتل ، ولو انتصر لقتل ، قَالَ الْمِسْوَرُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((ذَكَرَ صِهْرًا لَهُ فَأَثْنَى عَلَيْهِ فِي مُصَاهَرَتِهِ فَأَحْسَنَ ، قَالَ : حَدَّثَنِي وَصَدَقَنِي ، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي))

[البخاري ومسلم]

كصهر ممتاز ، لكن انظر إلى هذا الحكم الموضوعي ، الله عز وجل يقول :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 69)

يعني بعضهم ، وأنت في حديثك ابتعد عن التعميم ، قل : بعض هؤلاء ، بعض المسلمين ، قل : بعض المحامين ، بعض الأطباء ، بعض المدرسين ، بعض المهندسين ، بعض الأغنياء ، أما أن تقول :

الأغنياء كذا وكذا ... فهذا كلام غير موضوعي ، والله هناك غني تتمنى أن تكون غنياً مثله من شدة سخائه ، وتواضعه ، ومحبته للخير ، وقد وظف ماله كله في سبيل الحق .

لنوعد أنفسنا ألا نطلق أحكاماً جائرةً ، أن لا نطلق أحكاماً عامةً ، لنوعد أنفسنا ألا نعمم ، بل نخصص.

3 ـ قل : أحسب فلانا كذلك ، ولا أزكّي على الله أحداً :

هناك ملاحظة أخرى ، أنت مقتنعٌ أن فلانًا جيد جداً ، أو أن فلانًا سيئ جداً ، قل : فيما أعلم ، فيما يبدو لي ، قل : أنا لا أزكي على الله أحداً ، الله أعلم بما في النفوس ، ولكن أنا أرى كذا ، هذا الحكم الذي فيه تحفظ حكم رائع جداً ، فمن جهة لا تعمم ، ومن جهة جزء من علمك يعد إنصافاً في أحكامك ، إذا كنت منصفاً في أحكامك فأنت على شيء من العلم ، أما إذا كنت متطرفاً في أحكامك ، تغالي ، تبالغ . إنّ المؤمن لو جاءته إساءة من مؤمن يبقى على محبته ، ولو جاءه خير من منافق يبقى على بغضه ، هذا شيء دقيق جداً ، لو أن مؤمناً اجتهاداً ، أو خطأً ، أو سهواً أساء إليك ، وهناك أشخاص إذا أساء إليه إنسان يجعله كافراً ، يكيل له الصاع عشرة ، يخرجه من دينه ، وإذا أعطاه إنسان شيئاً من الدنيا يجعله فوق الملائكة ، وهو ليس كذلك ، هذا الحال التذبذبي يمدح بلا حدود ، ويذم بلا حدود ، هذا موقف لا يليق بالمؤمن ، المؤمن إذا سئل يجيب إجابةً فيها موضوعية ، وفيها إنصاف ، ما له وما عليه.

طبعاً هذا التعليق من قوله تعالى :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 69)

ما قال الله عز وجل : ود أهل الكتاب ، طائفة منهم ، حتى الجماعات الإسلامية في كل مجتمع إسلامي فيها الصادق ، المخلص ، المتفوق ، المستقيم ، المنافق ، إنسان يراوغ ، يخادع ، هذا المجتمع عينة عشوائية ، أيضاً الحكم على جماعة بأكملها حكم فيه تطرف .

الأطباء عندهم قاعدة رائعة يقولون : ليس عندنا مرض ، بل عندنا مريض ، كل إنسان له حالة معينة .

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 69)

4 ـ التقرب إلى الله راحة وطمأنينة ، والبعد عنه اختلال في التوازن :

السبب : الحقيقة هناك سبب وجيه جداً ؛ هو أن الإنسان له فطرة ، وهذه الفطرة جبلتها أن تعرف الله ، وأن تطيعه ، فلمجرد أن تعرف الله ، وأن تطيعه ، وأن تتقرب إليه ترتاح نفسك ، وتشعر كأن جبال أزيحت عن كاهلك ، هذه الفطرة ، لو أن الإنسان خرج عن قواعد فطرته فعصى الله ، أخذ ما ليس له ، كان قوياً فبنى قوته على أنقاض الناس ، كان غنياً فبنى غناه على فقر الناس ، ولو أن الناس يعظمون شخصاً ، أو لو أن الناس لا يعرفون الحقيقة ، لكن الإنسان كما قال الله عز وجل :

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

فالإنسان بمجرد أن يعصي الله ، أو أن يتبع هواه ، أو أن يأخذ ما ليس له ينشأ عنده حالة اسمها اختلال توازن ، أو كآبة ، أو شعور بالذنب ، سمها ما شئت ، شعور بالذنب ، عقدة نقص ، كآبة ، اختلال توازن ، هذا الإنسان الذي عصى الله يعني غلبته شهوته ، قال تعالى :

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ)

(سورة المؤمنون : الآية 106)

غلبه طمعه ، غلبته محبته للنساء ، فلم يلتزم شرع الله ، غلبته محبته للمال ، فأخذ ما ليس له ، غلبته شهوة العلو في الأرض ، فتحدث بما ليس واقعاً ، تحدث عن نفسه كلاماً غير صحيح .

إن الإنسان حينما يخطئ ، حينما يأكل مالاً حراماً ، أو حينما تضعف نفسه أمام طاعة الله عز وجل ينشأ عنده حالة مرضية اسمها اختلال توازن ، اسمها كآبة ، إحساس بالنقص ، هذه الحالة وصفها الله عز وجل قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه : الآية 124)

5 ـ الضالّ يتمنى أن يكون الناس كلّهم مثله :

هذا الإنسان الذي اختل توازنه فخرج عن قواعد فطرته ماذا يتمنى ؟ يتمنى أن يكون الناس جميعاً مثله، وإذا كان الناس جميعاً مثله ترتاح نفسه لا يوجد أحد جيد ، هكذا الإنسان ، الإنسان حسود ، طماع ، أكثر المنحرفون يعممون البشر ، كلهم يكذبون ، كلهم منافقون ، كلهم يأخذون ما ليس لهم ، هذا تعميم ساذج ، تعميم مضحك ، لأن الإنسان حينما ينحرف ، وحينما يختل توازنه ، وحينما يصاب بكآبة ، وحينما يشعر بالمعيشة الضنك يكون عنده شعور يخفف عنه هذا الشعور المنحرف ، عنده رغبة إذا تحققت خف عليه الشعور .

اليوم سألني رجل فقال : هناك كساد شديد ، قلت له : مما يخفف عنك أن الكساد عام في البلد كله ، أكثر المصالح فيها كساد ، ليس هناك مادة متداولة بين الناس ، كل شيء فيه كساد ، فلما رأى كل شيء فيه كساد خففت عنه ، أما لو توهم أن الكساد في حرفته فقط يتألم أشد الألم .

هؤلاء الذين خرجوا عن فطرتهم ، وعصوا ربهم ، وأخذوا ما ليس لهم يتمنون أن يضلوا المؤمنين ، فإذا ضلوا يقولون : لا أحد جيد ، أحياناً طالب لا يكتب وظيفته ، تسأله : أين وظيفتك ؟ يقول : لا أحد كتب وظيفته ، فكلما وسع دائرة التقصير يرتاح .

إن هؤلاء سبب رغبتهم أن يضلوا المؤمنين اختلال توازنهم .

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

لكن في الحقيقة :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

6 ـ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

إذا كنت مقصراً ، وأقنعت إنساناً أن يقصر هل تنجو من عذاب الله ؟ لا ، إذا كان الإنسان فاسدًا ، وأقنع إنساناً آخر أن يفسد معه لا يحاسب على ذلك ؟ هذا الكلام فيه سذاجة مطلقة ، المقصر يحاسب ، كما قال سيدنا عمر : **<< لو أن أهل بلد ائتمروا على قتل واحد لقتلتهم به جميعاً >> .**

ليس في الإسلام شيء كلما اتسع تخف عقوبته كما هو عند الغرب :

ليس عندنا في الإسلام شيء كلما اتسع تخف عقوبته ، مثلاً : في بريطانيا والعياذ بالله انتشر الشذوذ انتشاراً كبيراً جداً ، عندئذ أصدروا قوانين تبيحه ، وتغطيه ، القانون يعبر عن الشعب ، فليس عندنا شيء في الإسلام إذا اتسع وانتشر يصبح مشروعًا ، هذه في عالم أهل الدنيا ، في عالم المادة يقولون لك: هذا واقع في بعض البلاد في أوربا ، الدولة توزع المخدرات ، يقول لك : أمر

واقع ، نعطيهم مخدرات بحقن معقمة أفضل أن يأخذوها بحقن غير معقمة ، العالم الغربي نموذجه : كل شيء إذا اتسع وعم أصبح مشروعاً .

أيها الإخوة ، حتى إن أطباء النفس في العالم الغربي النموذج عندهم هو الإنسان المتفلت ، فمن يدرس عندهم ، ويأتي إلى بلاد المسلمين ، فإذا زاره مريض عنده كآبة ينصحه بصاحبة ، ينصحه بمعصية ، بانحراف ، لأن الشيء إذا عم هناك يصبح مقبولاً ، أما عندنا فالحق لا يتغير ، الحق حق ، والباطل باطل .

أكبر خطأ يقع فيه الدعاة حينما يريدون أن ينزلوا بالإسلام إلى مستوى الواقع المر ، فيبيحون هذا وهذا ... انتهى الإسلام ، أما الداعية الموفق فينبغي أن يأخذ بيد الناس إلى الإسلام ، لا أن يهبط بالإسلام إلى مستوى المدعوين .

هناك ظاهرة خطيرة جداً ، الداعية يكون حوله مجموع كبير ، والناس كلها تثني عليه ، يحلها أول برمة والثانية ... فلا شيء عنده حرام في النهاية ، ويبقى الأمر تجمعًا مصلحيًا فقط ، أما أمانة العلم فتقتضي أن هناك حدوداً لا يفرط بها أبداً .

سيدنا عمر ـ لعلّي ذكرت لكم هذا كثيراً ـ ضحّى بملك اسمه جبلة ، ولم يضح بمبدأ ، فنحن لا نستطيع أن نرقى إلا إذا حافظنا على مبادئنا .

فهذه الطائفة من أهل الكتاب ودت لو تضل المؤمنين بدافع أنها انهارت أمام نفسها ، فعلى مستوى أسرة واحدة إذا كان هناك شاب يغض بصره ، ويؤدي الصلوات الخمس ، شاب له مسجد ، شاب عرض عليه مبلغ ضخم ، وفيه شبهة فركله بقدمه ، أخوه المتفلت يحقد عليه ، ويسعى جهده كي ينتقص منه ، وإذا أخطأ خطيئة تكبّر مليون مرة ، ويُشهر به ليشفي قلبه .

السيئ راحته النفسية أنه لا يوجد أحد جيد ، كل الناس سيئون ، والذي يأكل المال الحرام راحته النفسية أن لا أحد نزيه ، والذي عنده نفس منحرفة اتجاه النساء يقول لك : لا أحد عفيف ، والبنت غير طاهرة تقول : لا يوجد بنت طاهرة ، وهذا شيء ثابت ، والحقيقة خلاف ذلك ، ففي كل مكان هناك أناس طيبون ، وشباب طاهرون ، وفتيات ورعات ، والتعميم من العمى .

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

7 ـ لا يقتنع بالفساد والضلال إلا فاسد ضالٌّ :

هم ضالون ، مضلون ، محاسبون ، معذبون ، سواء أضللتم أم لم تضلوا ، يعني أن تقنع إنساناً أن يفسد لا يعفيك هذا من الحساب ، وهناك حقيقة مهمة جداً ، تجد صفًّا فيه طالب فاسد ، له انحرافات أخلاقية ، انحرافات في كسب المال ، الصف فيه خمسون طالباً ، استطاع أن يفسد واحدًا فقط ، لماذا لم يستطع أن يفسد الآخرين ؟ فهذا الذي أفسده هو مثله ، عنده رغبةٌ بالفساد ، هو ما أضله ، لكن حرك ما فيه من الفساد. والدليل في أي مجتمع ترى إنساناً فاسداً يقنع إنساناً أن يفسد هذا الذي

اقتنع بالفساد هو في الأساس فاسد ، ولولا أنه راغب بالفساد ما فسد معه ، في أي مكان ، في أي مدرسة ، في أي معهد ، في أي جامعة ، ترى الفاسد يستقطب الفاسدين ، قال تعالى :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ)

(سورة الحجر : الآية 42)

لذلك :

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

يعني هم أضلوا أناساً على شاكلتهم ، هكذا المعنى ، لا يوجد إنسان منحرف الأخلاق يقنع إنساناً بالانحراف إلا الذي أقنعه منحرف مثله ، لكن صادف هوىً من نفسه حينما أقنعه ، ما أضل إلا من كان ضالاً على شاكلته ، ما أفسد إلا من كان فاسداً على شاكلته .

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(69)يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

1 ـ أهل الكتاب كفروا بالنبي مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم :

هذه الآيات الكريمة كفروا بها ، ولم يقبلوا أنها من عند الله ، ولم يقبلوا أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو رسول الله ، مع أنهم قرأوا في كتبهم أنه سيأتي نبي يستنصرون به ، وكانوا يتحدون خصومهم بهذا النبي ، فلما جاء النبي ، وتحقق ما في كتبهم ؛ في التوراة والإنجيل أنكروا نبوته ، وأنكروا رسالته ، لكنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، بربك أية معرفة دقيقة جداً ، صحيحة جداً ، واضحة جداً كمعرفة الأب بابنه ، هل سمعت أن أباً يقول لابنه : ما اسمك يا بني ؟ مستحيل ، وأيكم أكبر أنت أم أخوك ؟ مستحيل ، هذه أشياء بدهية ، قال تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة : الآية 146)

الإنسان أحياناً يكابر ، يتعامى لمصلحة ، لذلك المنتفع بكفره لا يمكن أن يؤمن ، أما المقتنع بكفره يمكن أن يؤمن ، وفرق كبير بين المقتنع والمنتفع ، المقتنع يؤمن كان واهماً فرأى الحقيقة ، كان مخطئاً فرأى الصواب ، أما المنتفع فهو يدافع عن منفعته ، لذلك :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 70)

2 ـ مَن آثر رضوان الله ربح الدنيا والآخرة :

بالمناسبة من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا ، وأقرب مما اتقى ، ومن كتم الحق لمصلحة دنيوية كتب عند الله كافراً ، وضاعت منه المنفعة الدنيوية ، هذه قاعدة رائعة جداً ، من آثر ما عند الله على الدنيا ربح رضوان الله والدنيا ، ومن آثر الدنيا على رضوان الله خسر رضوان الله والدنيا ، من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً .

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ(70)يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون

1 ـ إلباس الباطل ثوب الحق من عمل أهل الكتاب ومَن شابههم من المسلمين :

فلان مُصر على أكل الربا ، يريد أن يقنعك أن الربا بنسب قليلة معفو عنه ، ما الدليل ؟ يقول لك قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 130)

فالنهي عن الأضعاف لا عن النسب اليسيرة ، هو مصر على أكل الربا ، لكن يريد أن يأتيك بكلام من عند الله ، وبكلام لرسول الله يقنعك أن الربا يجوز ، قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

(سورة البقرة : الآية 279)

موضوع المغالطة ، موضوع لا يرغب أن يصلي الجمعة فيأكل حبة ثوم ، يقول لك : من أكل من هذا فلا يقربن مصلانا ، هناك نهي يا أخي ، أنا لا أستطيع الصلاة في المسجد ، يأتي بالآيات ، ويلوي أعناقها ، يأتي بالأحاديث ويلوي أعناقها ، يأتي بالنصوص الضعيفة ويعدّها صحيحة ، يريد أن يقنعك أنه على حق .

التقيت مع شخص قال لي : من قال لك : إن الخمر حرام ؟ قلت له : أعوذ بالله ، قال لي : هذا الخمر فيه إرشاد لعدم شربه ، ولكن لا يوجد تحريم له ، أعطني آية فيها الخمر حرام ، لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : الآية 90)

لكن الله ما قال : إنه محرم .

2 ـ طرق إلباس الباطل ثوب الحق عديدة مختلفة :

عملية إدخال الحق بالباطل ، والباطل بالحق عملية الآن واسعة جداً ، قد تقرأ كتاباً مطبوعاً في الأسواق ، هذا الكتاب افعل أي شيء إباحي ، وأنت مغطى بالقرآن الكريم ، يقول لك : هذا فهم للقرآن معاصر ، تحت هذا الباب يوجد جهود لا يعلمها إلا الله ، إدخال الحق بالباطل .

هناك من يقول لك : إن السنة النبوية ليست لهذه الأزمنة ، هذه السنة مرحلية ، نكتفي بالقرآن ، ثم تأتي أحكام القرآن ، يقول لك : هذا غير معقول ، لا يتناسب مع إنسان القرن العشرين .

هذه عملية إدخال الحق بالباطل والباطل بالحق ، لأن الطرف الآخر أعداء المسلمين عندهم يقين قطعي أنه لا أحد يستطيع أن يواجه المسلمين جهاراً إلا بأساليب خفية ، فأرادوا أن يفرغوه من قيمه ، أن يفرغوه من أحكامه ، أن يفرغوه من منهجه ، ويبقى الإسلام مظاهر، مساجد ، زيًّا ، كتبًا ، تراثًا إسلاميًا ، ثقافة إسلامية ، فنًّا إسلاميًّا ، أما المضمون فعلماني ، إباحي ، بعيد عن الدين بعد الأرض عن السماء ، هذه العلمية اسمها إدخال الحق بالباطل ، والباطل بالحق .

هو لا يحب أن يكون كافراً ، وفي الوقت نفسه الدنيا محببة له ، فكيف السبيل إلى الجمع بينهما ؟ يقول لك : إيماني في قلبي ، هذه جديدة ، أهم شيء ، وتكون المرأة سافرة ، ومتبذلة في سفورها ، وتبرز كل مفاتنها ، وتصلي ، الصلاة وحدها ، أنا إيماني في قلبي ، وأنا لا أريد أن أؤذي أحداً ، ولكن هكذا الموضة ، ماذا أفعل ؟ عملية إدخال الحق في الباطل ، والباطل في الحق .

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 71)

أحياناً يقول لك البيئة ، الثقافة ، العصر ، الوضع العام ، الإنسان في هذا العصر مضطر أن يعصي الله، والله لا يؤاخذه أيضاً ، هذا الكلام يحتاج إلى بحث طويل ، قضية المغالطة ، إدخال الباطل بالحق والحق بالباطل ، الإسلام صريح واضح ، قال تعالى :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

(سورة القلم : الآية 9)

الآية الكريمة أن جهد الكفار جميعاً من آدم إلى يوم القيامة يتلخص بأن نفتري على الله غير الوحي ، قال تعالى :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا(73)وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)

(سورة الإسراء)

هذه الآية تلخص كل جهود الكفار من آدم إلى يوم القيامة ، قال تعالى :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(71)وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

السخرية من المستقيمين طريق من طرق الإضلال

الإنسان الشارد عن الله عز وجل المرحلة الأولى يقنع إنساناً آخر أن يضل مثله ، فإن لم يستطع يسخر منه ، قال تعالى :

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

(سورة المؤمنون)

آية ثانية :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين : الآية 34)

العبرة أن تضحك آخراً ، لأنه من ضحك أولاً ضحك قليلاً ، وبكى كثيراً ، ومن ضحك آخراً ضحك كثيراً ، وبكى قليلاً .

(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا)

(سورة آل عمران : الآية 72)

أول مرحلة الإضلال ، ثاني مرحلة السخرية ، ثالث مرحلة الاحتيال ، الآن يوجد مرحلة ثانية :

(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 72)

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ

مِن حيلِ اليهود الإيمان في الصباح والكفر في المساء :

إنها حيلة ، يأتي فريق من أهل الكتاب يؤمنون برسول الله ، ويعلنون إسلامهم ، ويصلون مع المسلمين، هذا في الصباح ، فإذا جاء المساء يقولون : نحن كنا نظن أن هذا الدين حق ، وهو ليس

بحق، ونحن العلماء ، هؤلاء الضعاف يفتنون ، لقد آمنوا ، ثم اكتشفوا أن هذا الدين باطل فتركوا ، هذه عملية مراوغة .

ربنا عز وجل حينما كشف هذه الخطة أبطل مفعولها ، وحينما كشف هذه الخطة أثبت الوحي للنبي الكريم ، النبي لا يعلم أنهم اتفقوا فيما بينهم ، اتفقوا اتفاقاً في أعلى درجات الكتمان ؛ أن يؤمنوا إيماناً خلبياً ، صورياً صباحاً ، ثم يكفرون مساءً ، فلعل ضعاف الإيمان يكفرون معهم ، فالله عز وجل فضحهم ، فلما فضحهم أبطل مفعول مؤامرتهم ، وأثبت للنبي الوحي ، وهو دليل نبوته صلى الله عليه وسلم ، وردعهم أن يفعلوا مثل ذلك مرة أخرى ، وهذه حكمة الله عز وجل في فضيحتهم .

(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(72)وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ)

(سورة آل عمران)

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ

1 ـ عصبية اليهود لبني جنسها :

هذه الآية فيما بين اليهود ، قالوا : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، يعني نحن لا نؤمن برسول إلا من ملتنا ، إلا ليهودي مثلنا ، ولا تؤمنوا لهذا النبي العربي ، لأنه ليس يهودياً .

(قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 73)

2 ـ أيّ نبيٍّ جاء بالحق فهو هدى الله :

الهدى الحقيقي ما كان من عند الله عن طريق نبي عربي ، أو نبي غير عربي ، الأصل أن الهدى هدى الله ، فأي نبي جاء بهذا الهدى فهو هدى ، وهو الحق ، الهدى ليس له قومية ، هناك أنبياء من بني إسرائيل ، هناك أنبياء من أمم أخرى ، وهناك سيد الأنبياء من هذه الأمة العربية ، وقد كرمها الله ، وشرفها بهذا النبي .

خيرية هذه الأمة متعلقة بشروط :

نحن بهذه البعثة العظيمة أصبحنا خير أمة أخرجت للناس ، طبعاً هذه الخيرية مرتبطة بإيماننا بالله عز وجل ، وبأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، وقد قال بعض العلماء : هذه الخيرية علتها : تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، هذه علة الخيرية ، فإن كان الإيمان

ضعيفاً ، أو لم نأمر بالمعروف ، ولم ننهَ عن المنكر ، بل جعلنا المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، بل أمرنا بالمنكر، ونهينا عن المعروف فقدنا خيريتنا .

من هنا وفق العلماء بين هذه الآية وبين الواقع ، قالوا : هناك أمة الاستجابة ، وهناك أمة التبليغ ، فأنت إن آمنت بالله ، وأمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر فأنت من أمة الاستجابة ، وتنطبق الآية علينا ، كنتم خير أمة أخرجت للناس ، يعني أصبحتم خير أمة أخرجت للناس ، فإن لم نأمر بالمعروف ، ولم ننهَ عن المنكر ، ولم نؤمن بالله فقدنا علة خيريتنا ، فنحن إذاً من أمة التبليغ ، وأمة التبليغ مثلها مثل أية أمة لا فضل لها إطلاقاً ، وهذا المعنى يستنبط من قوله تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة : الآية 18)

فإن لم نؤمن بالله واليوم الآخر ، إن لم نأمر بالمعروف ، وننهَ عن المنكر فنحن أمة ممن خلق ، هان أمر الله علينا فهنا على الله ، لا يوجد أي ميزة فكونوا واقعيين ، كونوا علميين ، ليس لك أي ميزة إذا لم تأمر بالمعروف ، ونهيت عن المنكر ، والتزمت الشريعة ، وآمنت بالله .

لا قيمة للأنساب في الإسلام :

تقول لي : أنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ابنته قال لها :

((يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[مسلم عن أبي هريرة]

((وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

قال تعالى :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد : الآية 1)

هذا عم النبي ، لكن :

((سلمان منا أهل البيت))

[الحاكم في المستدرك ، وإسناده ضعيف]

و :

((نعم العبد صهيب))

[كنز العمال عن عمر ، والحديث لا أصل له كما في كنز العمال]

في الإسلام الأنساب ليس لها أي قيمة إطلاقاً ، العبرة بالأعمال ، قال تعالى :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات الآية 13)

<< يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له فقط >> .

هذه المعاني مريحة جداً ، قال تعالى :

(إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ)

مع أي شخص جاءني على العين والرأس ، النبي قال :

((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

[البخاري عن أنس]

(أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ)

أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ

1 ـ حسد اليهود وعدمُ تحمُّلهم كون النبي من العرب :

هذا حسد وبغي ، هم لم يحتملوا أن يؤتى أحد النبوة مثلما أوتيها بنو إسرائيل ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، وهذه مشكلة المشكلات ، إنسان له ميزة ، إنسان آخر لأنه شاركه بهذه الميزة يطعن به لا يحتمل ، هذا مرض اجتماعي كبير ، هناك إنسان عنده تفوق اجتماعي ، أيّ إنسان اقترب من مستواه الاجتماعي ، أو الاقتصادي ، أو التجاري ، أو النسبي ، أو هذه الأقنعة المزيفة يقيم عليه الدنيا ولا يقعدها ، ما الذي حصل ؟ غيرة ، ما الذي حصل ؟ حسد ، وبغي ، وعدوان ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم فلا تحتملون .

(أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 73)

2 ـ اليهود فضّلوا عدم الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام :

يعني إذا آمنتم أصبحت الحجة قائمة عليكم ، فلما لم تلتزموا ؟ أنا لا أؤمن أفضل لي ، أيضاً كلام مضحك وساذج .

(أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 73)

أيها الإخوة ، عدم إيمان هذه الطائفة من أهل الكتاب إما حسداً من عند أنفسهم ، لأن الهدى جاء إلى أمة العرب أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو لا تقوم الحجة عليهم ، فجاء النبي ومعه المنهج فلم يصدقوه، وكلا الحجتين باطلة ، يقول الله عز وجل :

(قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 73)

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

1 ـ فضلُ الله لا يُصرف عن صاحبه :

الفضل بيد الله ، لا يستطيع أحد في الكون أن يصرف عن إنسان خيراً أراده الله له ، ولا أن يجلب له شيئاً ما أراده الله له ، قال تعالى :

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : الآية 2)

الخير بيد الله وحده ، يعطي الخير من يشاء ، يعطي النبوة من يشاء ، يعطي الإيمان لمن دفع ثمنه ، يسبغ رحمته على من جاء بموجباتها ، يسبغ مغفرته على من دفع ثمنها ، قال تعالى :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

(سورة الحجرات : الآية 13)

2 ـ لا تحسد أحدا لفضل الله عليه ، فالله واسع الفضل ، عليم بمن يستحقه :

إن الفضل بيد الله ، لا تحسد أحداً الله واسع عليم ، واسع في فضله ، عليم بأحوال الناس ، والله واسع عليم ، الإنسان قد يؤخذ ، فيتوهم شيئا لم يقع ، قد يكون الطرف الآخر متكلمًا ، بليغًا ، فصيحًا ، قد يقنعك بشيء ، وهو لا يملكه ، وقد ينفي عنه شيئاً واقعاً فيه ، وهو متلبس فيه ، أنت تؤخذ بالكلام ، لكن الله عز وجل عليم ، عليم بالحقائق ، عليم بخبايا النفوس ، عليم بما تنطوي عليه الأنفس ، واسع في فضله ، عليم في معرفته ، الله عز وجل فضله كبير وعلمه قطعي ، علمه مطلق ، والفضل بيده .

علاقتك مع الله ، مدحك لإنسان لا يرفعه عند الله ، وذمك لإنسان لا يخفضه ، والمثل الشهير : إن كنت تملك كيلوا من معدن ثمين ذهب ، وتوهمه الناس معدناً خسيساً يبقى ذهباً غالي الثمن ، وإن كان معك كيلو من المعدن الخسيس ، وأقنعت الناس أنه ذهباً يبقى معدناً خسيساً ، مدحك وذمك لا يغير طبيعة الأشياء ، ولا يغيرها .

(قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(73)يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

مشيئة الله موَضَّحة في القرآن الكريم :

فضله عظيم ، ويختص به من يشاء ، يمكن أن تفهم المشيئة عائدة إلى الله ، لكن الله في مشيئته في آيات كثيرة جداً قننها ، ووضح نظامها ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

(سورة الزمر : الآية 3)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المائدة : الآية 108)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 264)

إن عزوت المشيئة إلى الله فلها نظام دقيق في آيات كثيرة ، ولك أن تعزوها إلى الإنسان ، فمن شاء فضل الله يؤتيه الله من فضله ، من شاء رحمة الله يؤتيه الله من رحمته ، يختص برحمته من يشاء يعني في بعض الآيات :

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

(سورة الإنسان : الآية 31)

من الذي أدخله في رحمته ؟ الذي لم يظلم واضحة ، فكلاهما يصب في خانة واحدة ، إن عزوت المشيئة إلى الله فالمعنى أن هذه المشيئة مقننة بآيات كثيرة جداً ، وإن عزوتها إلى الإنسان فالإنسان مخير ، فإذا أراد فضل الله فهو بين يديه ، وإن لم يرده ابتعد عنه .

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

(سورة آل عمران : الآية 74)

وفي الدرس القادم إن شاء الله نبدأ بقوله تعالى :

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 75)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(21-60): تفسير الآيتان 75 – 76
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-04-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس آل عمران ، ومع الآية الخامسة والسبعين، وهي قوله تعالى :

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران)

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ

1 ـ الإنسان بين الاعتقاد والسلوك :

في هذه الآية أيها الإخوة ربط رائع بين ما يعتقده الإنسان وما يسلكه ، فهذا الذي لا تأمنه بدينار خانك في التعامل في الأعم الأغلب لن يكون صادقاً في الدعوة ، هؤلاء الذين كتموا ما في كتبهم عن صفات النبي عليه الصلاة والسلام ، وأنكروا أن يكون في توراتهم ، وفي إنجيلهم بشارات لهذا النبي الكريم ، هؤلاء الذين خانوا الله في علمهم ، ومعرفتهم ، وعقيدتهم طبيعي جداً أن يخونوا الناس في معاملاتهم .

2 ـ إنصاف القرآن :

لكن أروع ما في الآية كلمة (منهم) للتبعيض ، لو أن واحداً من أهل الكتاب كان أميناً ، ولم يكن في هذه الآية من أهل الكتاب بماذا شعر ؟ أن هذا ليس كلام خالق البشر إنه كلام بشر ، الإنسان يعمم ، ولا يدقق ، ولا يلقي حكماً موضوعياً لا يستقصي يميل إلى حكم عام ، لو أنه سافر إلى بلدة ، وأساء إليه بعض سكانها لاتهم البلدة كلها بالانحراف، هذا شأن البشر ، لكن الله جل جلاله هو خالق البشر ، هو الحق ، لذلك قال تعالى :

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

3 ـ الأمانة غنى :

والحقيقة : الأمانة غنى ، إن أكبر رأس مال تملكه ثقة الناس بك ، وأساسها أمانتك ، تكون أميناً معهم فيثقون بك ، وإذا وثقوا بك فأنت تملك أكبر رأس مال على الإطلاق ! فهذا الذي إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، وأحياناً إنسان يخون أخاه بمائة ليرة ، بخمسين ليرة ، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، وهناك من إذا دفعت له مائة مليون على أن يأكل مالاً حراماً ، أو أن يفعل شيئاً لا يرضي الله ركلها بقدمه . نحن مع الأسف الشديد عشنا مع مجتمع متفلت ، ضاعت فيه القيم ، وانهارت فيه العهود ، وسقطت الكلمة ، لأنها لا تعبر عن واقع ، لكن لو عشنا مجتمع قيم ، نحن في مجتمع الشهوة ، لا في مجتمع القيم، في مجتمع المصالح لا مجتمع المبادئ في مجتمع الانحطاط لا في مجتمع السمو ، هؤلاء الناس حينما يعرفون الله ، ويخافونه في أشد الحالات دقة هؤلاء العيش بينهم جنة ! ورد في بعض الأحاديث في الأثر :

((إذا كانَتْ أمَرَاؤُكُمْ خِيارَكُمْ ، وأغْنِياؤُكُمْ سُمَحاؤكُمْ ، وأمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِها ، وإذا كانَتْ أمَرَاؤُكُمْ أشْرَارَكُمْ ، وأغْنِياؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ ، وأمُورُكُمْ إلى نِسائِكُمْ فَبَطْنُ الأرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِها))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لذلك الإسلام لا ينتشر إلا بحالة واحدة ؛ أن تكون هناك مساحة ، ولو كانت صغيرة يطبق فيها الإسلام، أن نجد إنسانًا مسلمًا متحركًا ، فإسلام على الورق لا يؤثر ، وإسلام يُقرأ لا يؤثر ، إسلام يُسمع كشريط لا يؤثر ، أما الذي يؤثر أن ترى مسلماً صادقاً أميناً عفيفاً واضحاً ، يعمل تحت ضوء الشمس .

أيها الإخوة الكرام ، هناك إنسان وجد في مركبته مبلغًا فلكيًا ، كبيرا جداً ، المبلغ كان من الممكن أن يشتري به بيتاً في أرقى أحياء دمشق ، ومحلاً تجارياً في أفضل أسواق دمشق ، وبيتاً في المصيف ، ومركبة فارهة ، بحث عن صاحب المال عشرين يوماً حتى عثر عليه ، ونقده إياه بالتمام والكمال ! وإنسان آخر أحياناً يسرق مائة ليرة ، أو خمسين ليرة ، فهناك مفاضلة ، ومقارنة واضحة في الآية الكريمة :

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

حينما ضاعت الذمم ، ولم يخش الناس ربهم سقطت العهود ، ألا لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له .

(وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

4 ـ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ

حدثني إنسان له أب من أكثر الناس غنى ، لكن لا أزكي على الله أحداً أحسبه صالحاً ، قال لي : سبب غنى والدي أنه كان عليه دين لشخص غير مسلم بالليرات الذهبية ، والقصة قديمة جداً ، من خمسين عامًا تقريباً ، ثم صدر توجيه يمنع التداول بالذهب ، وينقلب التداول بعملة ورقية بحسب القانون ، فلو أنه أدى ما عليه بالورق لدفع ربع ما عليه ، قال : فأصر والدي أن يعيد القرض كما أخذه بالليرات الذهبية ، والرجل المقرض غير مسلم ، هذا له وكالة في بلد عربي مجاور ، طلب منه أن يفتح وكالة في هذا البلد ، وهو على فراش الموت ، وأن يعطوا الوكالة لهذا المسلم الذي أدى له الدين بالتمام والكمال ، فلما جاء أولاده إليه قالوا : نحن لا نملك ثمن هذه البضاعة قال : الثمن علينا ، ولكن خذ الوكالة ، وهذا سبب غناه الشديد ، لأنه يؤدي الذي عليه ، ومن يفعل ذلك فهو إنسان راق . نحن المسلمين ما الذي ضيع الحقوق ؟ ضعف الدين ، كيف أن عمر رضي الله عنه يجلس للقضاء سنتين دون أن يأتيه متخاصمان ، وكيف أن محاكمنا تموج بعشرات ألوف الدعوات ، المسلمون يغتصبون أموال بعضهم ، الطبقة العادية المسلم العادي الذي يرتاد المساجد ليصلي ، المحسوب على المسلمين يأخذ ما ليس له ، اذهب إلى المحاكم تجد آلاف القضايا ؛ اغتصاب أموال ، اغتصاب شركات، اغتصاب وكالات ، أيمان كاذبة ، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، فالبطولة لا أن تصلي فقط، بل أن نرى ثمار صلاتك أمانة ، وصدقاً ، وعفافاً ، هذا النجاشي عندما سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا أجابه سيدنا جعفر ؟ قال : نعرف صدقه ، وأمانته ، وعفافه ، وإخلاصه . أركان الأخلاق الصدق إذا حدثت ، والأمانة إذا عاملت ، والعفة إذا استثيرت شهوتك ، هذه أركان الأخلاق .

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

وقد تجد معاملة طيبة جداً من إنسان غير مسلم ، ومنهم من يبيع دينه وآخرته بعرض من الدنيا قليل .

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا)

5 ـ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا

مطالبة يومية ، كل يوم أنت في مكان عمله ، اتصالات ، ومطالبة ، وإلحاح حتى يؤديه لك ، لكن هناك حالة أصعب ، لو أدمت الوقوف أمامه ، وأطلت المطالبة لا يؤدي لك شيئاً ، على الرغم من المطالبة لا يؤدي شيئاً ، وكم من إنسان اشترى بضاعة ، وقبض ثمنها ، وزوج أولاده بثمنها ،

وحتى الآن عليه ديون من عشرين سنة ! وهو يرتاد المساجد ، وترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام .

لا تغتروا بالشكليات :

والله أعرف إنسانًا اشترى بضاعة من دمشق ، وباعها ، وقبض ثمنها ، وزوج ولديه ، واشترى لهم البيوت ، ولا تزال ذمته مدينة بأموال طائلة ، وهو إن حدثك يحدثك بالدين ، هذه المشكلة ، لماذا يكفر الناس بالدين أحياناً ؟ مِن مثل هذه المعاملات ، هذا الذي يرى إنسانًا محسوبًا على المسلمين ، ويأكل المال الحرام ، ويحتال عليهم ، ويغشهم في بيعهم وشرائهم ، كيف يكون مسلماً ؟ كيف يقبله الله عز وجل ؟ هناك أساليب لكسب المال الحرام لا تعد ولا تحصى ، يكفي أن تحك تاريخ انتهاء الصلاحية لأي شيء، إذا انتهت صلاحيته ، وتبيعه ، وقد يكون المشتري جاهلاً فيشتريها ، إن كان دواء له أثر إذا انتهى مفعوله فهو خطير ، أنا كنت أظن أنه لا يفيد ، الآن ثبت لي بإخبار بعض الأطباء الأكارم أنه يؤذي ، هذه المواد تفكك ، فتنقلب سماً ، فيكفي أن تحك تاريخ انتهاء مفعول الدواء ، أو الطعام ، أو المعلبات ، وتبيعها ، وكأنها صالحة للعمل ، فقد خنت أمانتك ، يكفي أن تغش المسلمين بتغيير منشأ البضاعة الأقمشة الغربية الغالية ، يكفي أن تأتي بأقمشة من الشرق تدمغها بدمغة غربية ، فقد ضاعت الأمانة ، لذلك هؤلاء الناس الذين يغشون بعضهم بعضاً ، ويكذبون ، ويأكلون أموالهم بين بعضهم ظلماً وعدواناً هؤلاء سقطوا من عين الله ، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتحطم أضلاعه خير له من أن يسقط من عين الله .

لا يغرنكم امتلاء المساجد ، واحد كألف ، وألف كأف ، تجده الرجل عند الحلال والحرام ، تجده عند الأمر والنهي ، المليون والواحد سيان عنده إذا كانا في معصية الله ، مثل هؤلاء الرجال يبنون أمة ، مثل هؤلاء الورعين يشيدون حضارة ، مثل هؤلاء الأمناء ينتصرون على عدوهم ، لا يعقل أن يكون العدو لا يزيد على مليونين يتحدون ثلاثمائة مليون ، لا يعقل !

((لن نغلب اليوم من قلة ، وكانوا اثني عشر ألفا ، والكفار أربعة آلاف))

[مسند البزار عن أنس]

هذا كلام بليغ .

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

الجانب العملي هو الذي يؤثر في الناس :

أنا ذكرت لكم أن الذي يشد الناس إلى الدين ليس المنطق السليم فقط ، ليس الكلام المؤيد بالأدلة فقط ، ليس الكلام المنمق فقط ، ليس التصور الصحيح لحقيقة الحياة ، والكون ، والإنسان فقط ، الذي يشد الناس إلى الدين معاملة متميزة .

أقسم لي أخ كريم يعمل في دائرة ، أن لهذه الدائرة مديرا عاما طلب منه إجازة عدة أيام فغضب المدير، الآن نحن في ضيق شديد ، ولا أسمح لك بإجازة ، قال : أنا أصلي في المسجد كل يوم ربع ساعة ، جمعتها فكانت ستة أيام تبرئة لذمتي أمامكم ! قال لي هذا الأخ : والله لا أصدق في حياتي أن يأتي هذا المدير ليحضر درس علم في مسجد ، في الأسبوع التالي وجدته في المسجد يستمع إلى الدرس، هذا ما الذي شده إلى الدين ؟ الورع من هذا الموظف ، عنده قناعات عالية جداً .

إنّ أكبر ملحد في أمريكا دكتور في الرياضيات ، في مدينة سان فرانسيسكو ، انتقد مرة ، كان في صغره أستاذ الديانة ، فأنبه والده تأنيباً شديداً ، فضربه ، وطرده من البيت ، فاتخذ الإلحاد ديناً ، وكبر ، وهو يتمتع بمستوى عال من الذكاء ، يقول هذا الإنسان ، وهو الآن من أكبر دعاة الإسلام في أمريكا : هناك فتاة محجبة حجابًا كاملا ، وفي أيام الصيف الحارة ، وُلدتْ هناك ، ويبدو أن دينها قوي جداً ، وعن قناعة وإيمان ، فهذه الفتاة تحضر دكتوراه في الرياضيات ، أستاذها أرسلها إليه ، يقول هذا الإنسان الملحد : رأيت النساء في أمريكا شبه عرايا ، وهذه ترتدي الحجاب الكامل في أيام الصيف الحارة ، إذًا عندها قناعات متميزة ، يقول : أنا لأول مرة أقدر تقديراً عالياً فتيات الشرق الأوسط ، هذا الإنسان من يومه عكف على قراءة كتب المسلمين ، قرأ القرآن كله ، وجد آية ظنها خطأً ، وأنها غير صحيحة ، حينما قال الله عز وجل :

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

(سورة يونس : من الآية 92)

أي فرعون ، فاتصل بزميله قال : هذه آية خطأ ، قال : فرعون موسى لا يزال كما هو في متحف مصر ! وجيء به إلى فرنسا للترميم ، هذا الآن أكبر داعية بأمريكا ، ما الذي يشد الناس إلى الدين ؟ موقف أخلاقي متميز ، أمانة متميزة ، صدق متميز ، أخلاق عالية ، تضحية ، إيثار، هذا هو تألق الإنسان .

قلت اليوم في الخطبة : الإنسان لا يقدر من كان كثير المال ، أو كثير الدهاء ، أو قوياً في بدنه ، أو مركزه ، الإنسان يقدر الموقف الأخلاقي ، لذلك العصور السابقة على أنها عصور متواضعة في منجزات الحضارة ، الأجداد سكنوا تحت الخيام في الصحراء ، لكن مروءة امرئ القيس لا تنسى ، وكرم حاتم الطائي لا ينسى ، وشجاعة المسلمين لا تنسى ، معنى ذلك أن الذي يرفع الإنسان ما يتمتع به من تألق أخلاقي ، هذه الآية دقيقة .

(مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا)

وهناك حالات أخرى لو كنت قائماً عليه لا يؤدي إليك شيئاً ، هؤلاء الذين يفعلون هذا هؤلاء خانوا أماناتهم ، ماذا يعللون ذلك ؟ تعليلهم :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ

1 - مَن هم الأمّيون ؟

يقصدون بالأميين العرب ! هؤلاء جهال ، ماذا نفهم ؟ لمجرد أن يأتيك من يشتري بضاعة ، وتتوسم فيه الغباء ، أو الجهل ، أو عدم الخبرة ، وتبيعه بضاعة سيئة بأغلى سعر ، فأنت من هؤلاء .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

المستقيم لا يغش الناس مهما كانوا :

واللهِ مرة كنت عند أحد القصابين ، وجاءه طفل صغير يطلب منه قطعة لحم من مكان دقيق جداً لمريض ، أنا أراقب طلب هذا الأخ القصّاب ، نفذ طلب هذا الطفل الصغير بحذافيره ، والطفل لا يستطيع أن يميز شيئاً من شيء ، وكان بإمكانه أن يعطيه لحماً لا يؤكل ، لكن وجدت أن أمانة هذا القصاب تلفت النظر ، الدين فيه شيء متألق ، لو كان الطرف الآخر لا يعرف ، مستحيل على مؤمن أن يغش المسلمين ، ولو كانوا صغاراً ، أو جهالاً ، ولو كانوا لا يعرفون طبيعة هذه البضاعة أبداً .

يا أيها الإخوة ، الدين لا يتجزأ ، لا يوجد شيء اسمه صلاة وحدها ، واستقامة وحدها ، الصلاة ، والاستقامة ، والزكاة ، والحج ، والنطق بالشهادة شيء واحد ، هي الآية كلها .

الإسلام مبني على الوازع الداخلي :

هؤلاء لماذا كتموا ما عندهم في التوراة والإنجيل من البشارة بمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ هؤلاء خانوا عهدهم مع الله ، فمن الممكن أن يخونوا عهدهم مع الناس ، لذلك لا تأمن إلا من يخاف الله ، والذي لا يخاف الله قد تكون ظروفه صعبة فلا ينصفك ، لأن هناك قيوداً تقيده ، لكن لو رفعت عنه بعض القيود لكل كل شيء ، هذه النزاهة التي يتبجحون بها في الغرب جاءت من الضبط الإلكتروني ، فلما انقطعت الكهرباء ليلة واحدة رأينا مائتي ألف سرقة في مدينة واحدة في أمريكا ، مجموع سرقاتها اثنان بليون دولار ! لانقطاع الكهرباء ليلة واحدة ! فكل شيء من النظم الوضعية مبني على الردع الخارجي ، وكل شيء من النظم الإلهية مبني على الوازع الداخلي ، واضع القانون إنسان ، والمواطن قد يكون أذكى منه ، فيعمل عملاً يبطل مفعوله ، ويجهضه ، وينهيه ،

واضع القانون ذكي ، وقد يكون المواطن أذكى منه ، هي معركة بين عقلين ، نقول : السرعة مائة كيلو متر ، جيد ، وهناك أجهزة تراقب السرعة ، رادار جيد ، اخترع جهازا يكشف جهاز الرادار .

أنا مرة كنت أركب مركبة في أمريكا سمعت صوتا ، قلت : ما هذا ؟ قال : هذا يعلمني بوجود مركز رادار ، اقتربنا منه ، فعلي أن أخفض السرعة حتى نتلافى المخالفة ، إذاً انتهى القانون .

الآن الدولة تبحث عن جهاز يكشف أجهزة السيارات ! وهي معركة لا تنتهي ، أما عظمة ديننا ففي مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد رأى راعياً ، وقال له : << بعني هذه الشاة ، وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها ماتت ، قال : ليست لي ، قال : خذ ثمنها ، قال : ليست لي ، والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟ >> .

هذا الذي يعجن العجين ما الذي يمنعه أن يفعل كل شيء فيه ؟ خوفه من الله ، فإن لم يخف الله عز وجل ، ورأى شيئاً لا يعقل أن يكون في الطحين لا يسأل ، بل يتابع .

نحن نحتاج إلى إيمان ، وفهم أسّ الفضائل ، وقوام الضمائر ، وسند العزائم ، وبلسم الصبر عند الشدائد .

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

لا تغشّ غير المسلمين فيتّهم دينك :

واللهِ أيها الإخوة ، لو غششت مجوسيًا لحاسبك الله ، هناك مسلمون جهلة ، يتصورون أنهم إذا غشوا غير مسلم فليس عليهم من سبيل ، يقولون : هذا كافر ، هذا غير مسلم ، أنا أؤمن واللهِ أنك إذا غششت مسلماً أن يقول للناس : فلان غشني ! أما إذا غششت غير مسلم فيقول : الإسلام غشني ، وفرق كبير بين أن يقول : فلان غشني ، وأن يقول : الإسلام غشني ، لذلك أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك .

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا)

(سورة المائدة : من الآية 8)

من هم الأعداء التقليديون للمؤمنين ؟ الكفار ، ولا تحملنكم عداوتكم لهؤلاء أن تظلموهم .

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ)

(سورة المائدة : من الآية 8)

عندما احتلت القدس من قبل الفرنجة ذبحوا في ليلة واحدة سبعين ألفاً ! فلما فتحها صلاح الدين الأيوبي طيب الله ثراه جاءته امرأة من الفرنجة فقدت ابنها ، فوقف ، ولم يجلس حتى أعادوا لها ابنها ! هذا هو الإسلام ؛ دين العدل ، والرحمة ، والحكمة ، والإنصاف .

الآن فرّغ الإسلام من مضمونه ، بقي مساجد رائعة ، خطب رنانة ، كتب مجلدة ، أشرطة ، محطات فضائية ، كل شيء إسلامي ، لكن لا يوجد إسلام ، الإسلام هذا الطهر ، والنقاء ، والالتزام ، وهذه الطاعة .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

لا مشكلة ، هذا غير مسلم .

جاءني أخ يستفتيني فقال : كنت في بلد غربي ، واشتريت بطاقة مصرفية ، واشتريت بها بخمسة آلاف دولار ، وجئت ولم أدفع شيئاً ، لأنهم كفار ! قلت : والله سوف تحاسب عن هذا المبلغ درهماً بدرهم ، من قال لك هذا الكلام ؟ لماذا لما كانت الأمانات مع رسول الله ، وهاجر إلى المدينة لم يأخذها معه ؟ لأنهم كفار ، لماذا أبقى علي بن أبي طالب ابن عمه ليرد الأمانات إلى أهلها ؟ كيف تطمع من هؤلاء الكفار أن يسلموا إن كنت خائناً لهم ؟ أو إن أكلت أموالهم ؟ في الحرب شيء آخر ، هذه تعد غنائم ، حتى زوج السيدة زينب حينما أسر في المدينة ، ومعه بضاعة قريش ، أموال طائلة لقريش ، وبحسب النص إذا أسلم انقلبت هذه الأموال غنائم له ، ولمن حولـه ، ماذا قال ؟ قال : والله لا أبدأ إسلامي بهذا ، عاد إلى مكة ، وأرجع الأموال لأصحابها ، ثم أعلن إسلامه .

حينما تؤذي الإنسان يتهم دينك ، لذلك الدعاء :

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة : من الآية 5)

هذا الكافر إذا رأى مسلماً يكذب عليه ، أو يحتال عليه ، أو يغشه يقول : أنا على المنهج الصحيح ، يتمسك بكفره ، وبشركه ، ولا يقبل أن يلقي أذناً مصغية إلى الدين إطلاقاً أبداً .

قبل أن تدعو إلى الله ينبغي أن تكون أخلاقياً ، صادقاً ، أميناً ، متواضعاً ، وذا قلب كبير ، ينبغي أن تحب الناس ، وأن تزن بميزان واحد ، لأنه لابد من أن يفتح لك القلب قبل أن تفتح لك الآذان .

(وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

أخطر شيء أن يبرر الإنسان لنفسه ، وهناك طرفة : رجل ضيع خمسين ليرة ذهبية ، قال : يا رب أرجو ألا يجدها رجل له دين ظاهري ، يفتي فتوى ، ويأخذها ، هذه مشكلة كبيرة جداً ، يجب أن تكون مطمئناً مع المؤمن ، أنه لن يأخذ منك قرشاً حراماً ، أخطر شيء أن تقول :

(لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

يقول لك : هذا بيعه شرّف ، أنت اكشف العيب ، هو ربما لا يكشف العيب ، فحينما نغش في بيعنا ، وشرائنا ، ونكذب ، ونحتال ، ونهتم أن نصوم يوم الخامس عشر من شعبان ، يقولون : هذا يوم فضل ، ألست صائماً يا أستاذ ؟ هنا المشكلة ، كم من يوم في السنة يصوم ؟ مع أن بعض الأيام صيامها سنة ، وبعضها لم يرد نص صحيح فيها ، على كل ، تعجبه هذه المواسم ، فيتمسك بها ،

ويأكل الملايين الطائلة ، ويدعي أنه مسلم ، وهو يكذب على الناس ، ويخدعهم ، واحد يعمل في القضاء أقام عشر دعاوى كيدية ، قدم له كأسًا من الشاي ، فقال : أنا صائم ، لأن اليوم الاثنين ، وآخر أراد أن يضع أمانته عند رجل أمامي قبل أن يذهب إلى الحج ، فدخل إلى المسجد ، وراقب صلاة بعض المصلين ، فأعجبته صلاة أحدهم ، يقف بخشوع ، مغمض العينين ، أعجبته صلاته فقال : أنا سأضع عندك أمانة ، إنني ذاهب إلى الحج قال : وأنا أيضاً صائم يا سيدي ، قال : والله صيامك لم يعجبني ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

1 ـ مخالفة الظاهر للباطن نوع من الكذب :

يكذبون على الله ، الله عز وجل لا يسمح لك أن تغش عباده كائناً من كان ، اسمعوا : اتقوا دعوة المظلوم ، ولو كان كافراً ! فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ، عد للمليار قبل أن تظلم إنسانًا كائنًا من كان، وإن كان غير مسلم ، هذا هو الدين ، أما هذا الذي يبيح لنفسه أن يأكل أموال غير المسلمين على أنهم كفار فهذا إنسان جاهل ، ولو كان هذا من الشرع لأخذ النبي معه إلى المدينة كل ما عنده من أموال أمانات ، أخذها ، وانطلق ، لكنه أبقى ابن عمه ليؤدي لكل ذي صاحب حق حقه .

(وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

هم يعرفون أنهم يكذبون ، والله عز وجل لا يأمر بالفحشاء ، مستحيل !

مثل للتقريب : أحياناً أب يكون عنده أولاد ، وأحدهم صالح ، وآخر سيئ جداً ، لو أراد هذا الابن الصالح أن يأكل مال أخيه ظلماً ، أيرضى الأب عنه ؟ مع أنه سيئ ، لا يرضى عنه ، بالعكس لو أن المسلم عامل غير المسلم بأخلاق عالية جداً ما الذي يحصل ؟ قد يسلم .

إنسان تزوج امرأة غير مسلمة ، يحق له أن يتزوجها ، لها أم أصبحت قعيدة الفراش ، لها خمسة أولاد وبنت ، الأولاد الخمسة لم يقبل أحد منهم أن يأتي بها إلى بيته لضغط من زوجته ، فاتخذوا قراراً أن توضع في مأوى العجزة ، لكن هذه البنت التي زوجها مسلم طلب من زوجته أن تأتي بأمها إلى البيت ، قال لي : والله ما حدثتها ولا بكلمة واحدة عن الإسلام ، أعلنت إسلامها ، وأسلمت ! لماذا ؟ أولادها الذين من صلبها تخلوا عنها ، أما هذه البنت التي زوجها مؤمن جاءت بها إليهم ، وسكنت عندهم ، واستأنست بهم ، فأعلنت إسلامها .

أقول لكم مرة ثانية وثالثة : لا يشد الناس إلى الدين فصاحتكم ، ولا أدلتكم ، ولا فلسفة بعضكم ، بل أمانتكم ، وورعكم ، واستقامتكم ، وصدقكم ، ونصحكم في البيع والشراء .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

إياكم أيها الإخوة أن تقول : هذا ليس فيه دين ، فماله حلال ، والله أيها الإخوة ، هذا شيء أعاينه ، ذهبت إلى بلاد بعيدة شرقاً وغرباً ، فهناك وهم عند الجالية أن هؤلاء كفار فخذ أموالهم ، وخذ نساءهم ، واكذب عليهم وغشهم ! لذلك سمعت أن المسلمين عندهم في الحضيض .

هل تتوقع أن يسلم واحد من هؤلاء ؟ وأنا أقسم لكم بالله أن الجاليات الإسلامية لو أنها طبقت دينها الصحيح لكان الغرب بحالة غير هذه الحالة ، الغرب قوي ، معه أسلحة قوية جداً .

مرة قال أحدهم في مؤتمر : إننا بشر ، ونحن أقوى الأمم ، ولو أقنعتمونا بدينكم لكانت قوتنا لكم ، أنتم كذبتم علينا ، ولم تكونوا صادقين معنا ، لذلك لا ينفعك عند الله إلا الأخلاق ، إنما بعثت معلماً ،

((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[مسند الشهاب عن أبي هريرة]

هكذا قال النبي الكريم .

عن السيدة عائشة أن أحد أصحاب رسول الله وقع في خطأ في البيع والشراء فقالت :

((أَبْلِغِي زَيْدًا أَنَّهُ قَدْ أَبْطَلَ جِهَادَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِنْ لَمْ يَتُبْ))

[البيهقي في السنن الكبرى عن العالية]

أنت تظن أنك إذا صليت ، ولك مظهر ديني ، وحلفت يمينًا كاذبًا في البيع أن رأسماله أكثر ، وأنت تربح بالمائة ثلاثمائة ، وحلفت بالأمانة وبدينك ، وبكل المقدسات أن رأسماله أكثر ، هل تظن نفسك ذكيا بهذا الشيء ؟ أنت سقطت مع عين الله ، الإسلام خمسمائة ألف بند ، الصلاة واحد ، والصوم واحد، والحج واحد ، والزكاة واحد ، الإسلام ضُغِط حتى أصبح خمس مواد فقط، صلينا ، وحججنا ، وزكيّنا ، وأحضرنا ، وطبلنا ، وزمرنا ، وانتهى .

أليس هذا وضع الإسلام اليوم ؟ نأكل المال الحرام ، ونختلط ، ونشتهي غير زوجاتنا ، ونفعل مالا يرضي الله عز وجل ، لماذا تخلى الله عن المسلمين ؟ ولم يتخلَّ عنهم لسبب صغير ، بل لسبب كبير ، مشكلتنا مع بعضنا الخصومات ، لا يوجد بيت ، أو عائلة ، أو حي ليس فيه خصومة ، خصومات لا تنتهي من البعد عن الله عز وجل .

2 ـ من الظلم والكذب أن يقول المسلم : ليس عليّ في الكافر سبيل :

وقفت عند هذه النقطة في الدرس لئلا يخطر في بال أحدنا ، وهو يعامل غير مسلم أنه ليس عليه فيه سبيل ، عليك فيه ألف سبيل وسبيل ، الآية الثانية من أوجه ما في التفاسير : أن بلى ، عليكم سبيل ، وبعدها وقف ، والكلام بعدها مستأنف ، بلى عليكم سبيل .

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

(سورة المائدة : من الآية 8)

وعلى المسلم ؟ من باب أولى أن تكون مستقيماً معه ، هذا الذي يخاف الله عز وجل هذا الذي ماله حلال أتأخذه حرام ؟

(بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ)

(سورة آل عمران)

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

1 ـ لابد من الوفاء بالعهد والتقوى :

كأنه عاهد الله على معرفته والاستقامة على أمره ، من أوفى بعهده مع الله على الإيمان به ، وتعظيمه، وطاعته ، واتقى أن يعصيه ، ويأكل المال الحرام .

(وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

وهناك تفسير آخر .

(بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

إما أن ترجعه على الآية السابقة ، بلى عليكم سبيل ، أو أن نربطها بما يلحقها .

(بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

2 ـ الحديث في القرآن عن أخطاء أهل الكتاب قصدَ اجتنابها :

أيها الإخوة الكرام ، قد يسأل سائل : لماذا الحديث عن بني إسرائيل في القرآن ، ولا سيما في سورة البقرة وآل عمران ؟ لأنهم أهل كتاب ، والأمراض التي وقعوا فيها نحن مهيئون أن نقع فيها ثانية ، هم ماذا قالوا ؟

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)

(سورة البقرة : من الآية 80)

3 ـ عدم الوفاء بالديون منع للخير وتعطيلٌ له :

ماذا قال المسلمون ؟ النبي يشفع لنا ، العبرة أن نغطي انحرافنا بنص شرعي ، أكثر الأمراض التي وقع فيها أهل الكتاب وقع المسلمون فيها ، وزيادة ! لماذا القرض شبه معطل ؟ لم يعد أحد يقرض أبداً ، السبب عدم الأداء ، تجده يتمسكن لدرجة أنك تراه ملكاً ، فإذا أخذ المبلغ لم يكن مستعداً لأن

يتصل بك ليعتذر ، ولا أن يسلم عليك ، وهذا الحاضر ، وهذه المحاكم ! وحينما نقض الناس عهودهم ومواثيقهم ضعفت القيم في حياتهم ، فأصبحوا في حياة صعبة جداً .

يروى أن أحد العرب يركب خيله في الصحراء في أيام الحر الشديد ، والحر لا يحتمل ، رأى رجلا لا ينتعل نعلاً ، والرمل كأنه نار ، فأشفق عليه ، ودعاه لركوب الفرس ، ولم يكن يدري أن هذا من لصوص الخيل ، فما أن اعتل الفرس حتى دفع صاحبها إلى الأرض ، وقاد الفرس لا يلوي على شيء، قال له صاحب الفرس : يا هذا ، لقد وهبت لك هذا الفرس ، ولن أسأل عنها بعد اليوم ، ولكن إياك أن تشيع هذا الخبر في الصحراء ! فتذهب منها المروءة ، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها .

يمكن أن تقف على الطريق ، وتؤشر لسيارة ، وتركب فيها ؟ مستحيل ، كم ممن ركب ومعه حشيش ، أو مخدرات ، وراح صاحبها ضحية عشرين سنة سجنا ، الناس يخافون ، عندما فقدت الأمانة انقطع هذا الخير ، هذا هو منع الماعون ، وكلما أسأت لمن أسدى لك معروفاً فقد ساهمت في منع الخير .

كان في الشام سبعمائة ألف شقة مغلقة ، لماذا ؟ لأن الذي استأجر لا يخرج ، هذا الحاضر ، وهذه المحاكم ، انتهى الإيجار ، هذا قبل القانون الجديد ، الحمد لله القانون اليوم جيد جداً ، لكن قبل هذا القانون انتهى الإيجار ، لا يمكن أن تستأجر بيتًا في دمشق ، لكن اذهب إلى مدن العالم كلها ، في أي مكان يوجد إيجار بيوت ، لأن الناس حينما لن ينفذوا عهودهم ، وتمسكوا بالبيوت ، وكأنهم أصحابها ، ولم يدفعوا إلا أجراً يسيراً لا يساوي أحد الرسوم المالية للبيت ، وسكن البيت خمسًا وعشرين سنة ، وهذا الحاضر ، وهذه المحاكم ، والقانون معي أغلق باب الإيجار نهائياً ، و كلما أسأنا لبعضنا أغلق باب الخير ، تمر ألف سيارة فارغة لا يركبك أحد خوفًا ، لأن مصيرا من الناس ممن أساء .

4 ـ أكل أموال الناس بالباطل غلقٌ لباب المضاربة :

الآن الطريق الشرعي الوحيد الرائع الذي تطمئن له أن تستثمر مالك عن طريق تاجر المضاربة ، النبي كان أول مضارب في الإسلام ، أخذ من السيدة خديجة أموالها ، وتاجر بها ، والربح بينهما ، هناك أناس كثيرون أخذوا أموال الناس بمئات المليارات ، وأكلوها ، من قوي مركزه ؟ البنك ، لأن هؤلاء الذين أخذوا أموال الناس ليستثمروها فأكلوها أساؤوا لهذا الدين ، الطريق الشرعي الوحيد الصالح الذي أراده الله عز وجل ، أنت بمالك ، وأنا بجهدي ، والربح بيننا ، إنسان لا يحسن استثمار المال ، وإنسان لا يملك المال ، وعنده طاقات عالية ، لكن لا يملك المال ، فالشرع جمع بينهما ، من دون فائدة وربا ، مضاربة ، هؤلاء الذين أكلوا أموال الناس بالباطل بمئات المليارات أغلقوا باب المضاربة ، وفتحوا باب البنك .

لو تتبعت ما في الإسلام من حل مشكلات المجتمع ، كله مغلق ، لماذا ؟ من سوء التصرف ، والائتمان، والكذب ، فنحن الآن بحاجة إلى انتفاضة كالتي في فلسطين ، لكن من نوع آخر ؛ أن ننفض عقولنا ، أن نبحث عن قيم إسلامية صحيحة ، أن نتعامل بصدق ، وأمانة ، الله موجود هو الرزاق ، لن يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، صلح أول هذا الأمر بالاستقامة ، والخلق العظيم ، ولن يصلح هذا الأمر بالعبادات وحدها ، لابد من استقامة وخلق عظيم .

أيها الإخوة ، نتابع هذه الآيات إن شاء الله في درس آخر .

والحمد لله رب العالمين

أسئلة :

س1 : قيل : كيف يكون الله عادلاً ، وقد خلق طفلاً عربياً من أب وأم مسلمين ، وعنده فرصة للتعرف على الله ، والقرآن بشكل واسع ؟ وبين طفل أعجمي من أب و أم غير مسلمين متفلتين ، ولا يمكنه فهم القرآن الكريم ؟

ج 1 : قال العلماء : الكون قرآنا صامت ، آيات الله في الكون ، الله أعطى للإنسان عقلا ، وفطرة عقله يدله على الله ، وفطرته تدله على خطئه ، وفضلاً عن ذلك .

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : 23)

كم من ابن نشأ من أب تاجر ، ورفض التجارة ، عمل بالعلم ؟ وكم ابن نشأ في بيت علم رفض العلم ؟ لماذا أنت في الدنيا ترفض واقعك ، وترفض حرفة أبيك ، ومعطيات بيئتك ؟ وبالدين فقط تتبعهم ؟ لا ، لو أردت الآخرة ، وأعملت عقلك لعرفت الله ، وأنت في أي بلد .

والله أيها الإخوة ، علماء الشام ، وعلماء مصر ، والحجاز أشرطتهم ، وأحاديثهم ، وصورتهم ، ومقالاتهم في كل أنحاء العالم ، الآن العالم أصبح غرفة واحدة ، ليس قرية ليس ، بل غرفة ، لذلك :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : 23)

مرة التقيت مع شخص من هولندا ، أردت أن أذكره بالله قليلاً ، قال لي مباشرة : هذا الموضوع لا يعنيني ، ولا أهتم له ، ولا أعطي له بالاً ! أنا أهتم بامرأة جميلة ، وبيت واسع ، وسيارة فارهة ، ما تذوقت في حياتي الآية الكريمة إلا عندما سمعت كلامه !

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال : 23)

دخل رجل المسجد في واشنطن ، فرأى شخصًا هيئته من الكبراء ، يكنس المسجد ، وينظف دورات المياه ، فإذا به أدميرال في القوى البحرية ! كان على حاملة طائرات ، والتقى في الخليج

بإنسان مثقف مسلم ، فأسلم على يده ، لا تتصور إنسانًا فيه خير واحد بالمليار لا يسمعه الله عز وجل الحق ، اطمأن ، والآية واضحة .

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : 23)

ومع ذلك أعطاك عقلا وفطرة ، والعقل يهديك إلى الله ، وفطرتك تكشف لك خطأك ، هذا السؤال كيف يكون الله عدلاً .

س 2 : هل يجوز للحائض قراءة الكتب الدينية ؟

ج 2 : يجوز ، لو أن طالبة في المدرسة عندها درس قرآن ، فلها أن تقرأ القرآن للتعلم ، وهي في دورتها الشهرية ، في موضوع القرآن كتعليم أو تعلم الفقهاء الأربعة أجازوا ذلك .

فإذا كان مسموحًا أن تقرأ القرآن للتعلم فلأن نسمح لها أن تقرأ كتاب فقه من باب أولى ، ولها أن تقول: لا إله إلا الله سبحان الله ، وهي في الدورة الشهرية ، ولها أن تذكر الله .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(22-60): تفسير الآية 77
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-04-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية السابعة والسبعين ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة آل عمران)

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

1 ـ الله أخذ على البشر ميثاقهم بتصديق الأنبياء :

أيها الإخوة ، إن الله عهد للبشر ، وأخذ عليهم الميثاق أنهم إذا جاءهم رسول مؤيد بالمعجزات ليؤمنن به ، وليصدقونه ، هذا هو العهد الذي أخذ من بني آدم يوم خلقوا ، وقد يكون عهداً خاصاً ، لأن أهل الكتاب حلفوا أيماناً معظمة أنه إن جاء رسول في آخر الزمان ، وقد ورد عندهم في كتبهم أن هناك نبياً اسمه أحمد سيأتي ليؤمنن به ، عهد فطري ، أو عهد كسبي ، وأيمان منعقدة على الإيمان برسول من عند الله .

2 ـ كيف يشتري الإنسان بعهد الله وأيمانه ثمنا قليلا :

هذا العهد وهذه الأيمان قد يشترى بها ثمناً قليلاً ، كيف ؟ بعض من المسلمين على ضعف منهم قابلوا أحد أغنياء المدينة ، وكان من اليهود ، يسألونه شيئاً ، فقال لهم : أنتم مؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ قالوا : نعم ، قال : لا شيء لكم عندي إن كنتم قد آمنتم به ، عادوا بعد أيام ، وقد كفروا بمحمد ليأخذوا من هذا الرجل الثري طعاماً ، وحاجات ، وما إلى ذلك ، طبعاً هذه حادثة تتكرر إلى يوم القيامة، هذا الذي يؤذي مسلماً لينال شيئاً ، هذا الذي يقول كلاماً غير صحيح ليصل إلى هدف مادي ، هذا الذي يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، هذا الذي يقول بخلاف قناعاته ،

إرضاءً لقوي ، هذا الذي ينكر الحق تقرباً من غني ، هذا الذي يقول الباطل تملقاً لإنسان بيده مقاليد الأمور ، كل هذه النماذج تنطبق عليهم هذه الحالة :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا)

القاضي الذي يحكم بخلاف الحق ، لأن أحد الأطراف أعطاه مبلغاً كبيراً ، وأيّ إنسان في أيّ مكان ، في أيّ موقع ، إذا تنكر لمبادئه وقيمه ، وفعل شيئاً نال به مغرماً دنيوياً فهو ممن تنطبق عليهم هذه الآية.

يكفي ألا تصلي أمام أناس ، لأنك لا تحب أن يعرفوا أنك تصلي ، اشتريت بعهد الله ، وأيمانك ثمناً قليلاً .

يكفي أن تذم مؤمناً إرضاءً لمنافق ، اشتريت بعهد الله ، وأيمانك ثمناً قليلاً .

يكفي أن لا تنصف مسلماً تتملق به جهة ما ، اشتريت بعهد الله ، وأيمانك ثمناً قليلاً ، أي إنسان يتنكر لمبادئه ولقيمه فقد اشترى بعهد الله ، وأيمانه ثمناً قليلاً .

يكفي أن تؤمن قدر واحد على عشرة ، وفيهم من هو أرضى لله من هذا ، فقد خنت الله ورسوله ، اشتريت بعهد الله ، وأيمانه ثمناً قليلاً ، آية واسعة جداً .

حينما تتحرك لمصالحك لا لقناعاتك ، حينما تؤثر الدنيا على الآخرة ، حينما تؤثر المال على كلمة الحق ، حينما تكون كلمة الحق صعبة عليك فتسكت ، حينما يكون النطق بالباطل تمهيداً لمصالحك ، تنطق بالباطل .

والله لو ذهبنا بالحديث عن حالات استخدام هذه الآية لوجدناها لا تعد ولا تحصى ، وما أكثر المسلمين الذين وقعوا في هذه الحالة ، وتنطبق عليهم هذه الآية .

لمجرد أن تختار إنساناً في عمل ، وفي رعيته من هو أرضى لله منه ، فهذه خيانة ، هذا الإنسان لك منه بعض المنافع ، آثرته على إنسان كفء ، حينما لا تأتي بأفضل أنواع المعامل ، تختار أسوأها ، من أجل مكسب مادي ينالك فقد خنت الأمانة ، الآية واسعة جداً ، أنت خنت القيم ، خنت المنهج الإلهي ، خنت المبادئ التي ينبغي أن تؤمن بها ، هذا المعنى العام :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا)

هناك قيم ، ومبادئ ، ودين ، ودنيا ، ومصالح ، إن آثرت المصلحة على المبدأ ، إن آثرت الشهوة على القيمة ، إن آثرت الدنيا على الآخرة ، فهذا معناً موسع لهذه الآية ، لكن هنا :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ)

الإنسان يشتري سلعة فينتفع بها مباشرة ، أما حينما يشتري ثمناً فهذا مغبون مائة بالمائة ، لأن الثمن لا يباع ، ولا يشترى ، الإنسان في سابق العصور كان يقايض سلعة بسلعة ، منافع بمنافع ، يأخذ قماشاً ، ويعطي قمحاً ، هذه مقايضة ، أما الشراء فتشتري القمح بالمال ، وتبيع القماش بالمال ، فالمال وسيط ، المال ثمن ، وليس سلعة ، ففي أصل التشريع الإسلامي الثمن لا يمكن المتاجرة به

، لا يمكن أن يعامل كالمنافع يتاجر بها ، عندئذٍ يلد المالُ المالَ ، وحينما يلد المالُ المالَ تهلك الأمة ، لأن الأموال سوف تجتمع في الأيدي القليلة ، وسوف تحرم منها الكثرة الكثيرة .

حينما يجعل الإنسان من الثمن سلعة يبيعها ، ويشتريها ، ويربح منها ، ويثمرها ، وحينما يلد مرة ثانية المالُ المالَ ، فهو ثمن وليس سلعة ، الفرق بين الثمن والسلعة أن السلعة ينتفع بها مباشرة ، الرغيف تأكله ، والقميص تلبسه ، والبيت تسكنه ، والمركبة تركبها ، لكن حينما تستخدم هذه الرموز ، العملة الورقية أو الذهبية تستخدمها سلعة تتاجر بها ، وتنتفع بها أنت فقد فعلت شيئاً يخالف منهج الله .

3 ـ مهما كان الثمن فهو قليل :

هذا تعليق جانبي على الآية ، هؤلاء الذين اشتروا بآيات الله وعهده ثمناً ، ويا له من ثمن كبير ، هو ثمن قليل .

كم من إنسان باع دينه بعرض من الدنيا قليل ، وكم من إنسان حلف يمينا على القرآن الكريم كاذبة ليقتطع حق امرئٍ مسلم ؟

إن أيّ إنسان يحلف يمينا غموساً ليقتطع به حق امرئٍ مسلم فقد اشترى بعهد الله وآياته ثمناً قليلاً ، وأيّ إنسان يعصي الله ليرضي مخلوق من بني البشر فقد اشترى بعهد الله وآياته ثمناً قليلاً ، وأيّ إنسان يرضي زوجته ويغضِب ربه فقد اشترى بعهد الله وآياته ثمناً قليلاً .

لو أردنا أن نتوسع في هذه الآية فهي واسعة جداً ، مثل : لو معك ورقة نقدية بمائة ألف دولار ، وقلبت على وجهها الأملس الأبيض ، فظننتها ورقة عادية ، وكتبت علها رقم هاتف ، ثم مزقتها ، ورميتها في سلة المهملات ، ولم تدر أن هذه ورقة مالية بمائة ألف دولار ، كيف تصاب بخيبة أمل ، ولا تعوض أبداً .

ورقة مالية موضوعة على الطاولة على وجهها الآخر الأبيض ظننتها ورقة عادية ، استخدمتها كورقة عادية لا تساوي قرشاً واحداً استخدمتها ، ثم مزقتها ، ورميتها في سلة المهملات ، وهي ورقة مالية تحل لك كل مشكلاتك المالية .

هذا مثَلٌ للتقريب ، أيّ دين من أجل أن تسعد في الدنيا والآخرة بعته بمائة ألف ليرة ، إذا حكم إنسان بين اثنين ، وتلقى مبلغ مائة ألف ليرة مقابل أن يحكم لغير الحق ، الذي يضع يده على المصحف ، ويحلف يميناً كاذبة من أجل خمسة آلاف ليرة يأخذها كشاهد زور ماذا فعل هذا ؟ اشترى بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً .

الأمثلة كثيرة جداً ، وأينما تحركت ، وأينما اتجهت تجد مسلمين يشترون بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً ، أي هذا الذي يؤثر متابعة عمل ساقط على حضور مجلس علم ، أي اشترى هذا المجلس بمتعة آنية مثلاً، اشترى بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً .

أسباب نزول هذه الآية صارخ ، فإن هؤلاء كانوا قد آمنوا برسول الله عليه الصلاة والسلام ، فلما تضاربت مصالحهم مع إيمانهم تخلوا عن إيمانهم ، ونطقوا بالكفر ، من أجل مساعدة تنالهم من هذا الثري في عهد النبي .

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

لو أنك ملكت الدنيا بأكملها ، لو أنك ملكت القارات الخمس ، لو أنك مهيمن على القارات الخمس معاً ، لو أن أموال الدنيا كلها في حوزتك ، ولو أن الدنيا جلبت لك من أطرافها ، لو أنك وصلت إلى المجد من كل جوانبه ، وخسرت الآخرة فقد اشتريت بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً .

هؤلاء الذين بلغوا قمم النجاح في الدنيا قد يكون نجاحًا ماليًا ، أو علميًا ، أو إداريًا ، وخسروا الآخرة ، اشتروا بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلا ، الدنيا قصيرة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

هذا الذي لا يلتفت إلى الدين إطلاقاً ، بل يلتفت إلى بناء نفسه ، وكسب المال الوفير ليشتري بيتاً مريحاً، ويقترن بامرأة جذابة ، ويتمتع بكل مباهج الدنيا ، ولا يعبأ لا بكتاب ، ولا سنة ، ولا مجلس علم، ولا طاعة ، ولا انضباط ، ولا سلوك فقد اشترى بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلا .

أيها الإخوة ، إن عرفت الله ، وفاتتك الدنيا بأكملها فأنت الرابح الأول ، وإن ملكت الدنيا بأكملها ، وفاتتك معرفة الله فأنت الخاسر الأول .

4 ـ ينبغي لهذه الآية أن تفعل فعلها في نفوس المؤمنين :

أيها الإخوة ، هذه الآية ينبغي أن تفعل فعلها في نفوس المؤمنين ، لا يبيع دينه ولو أعطي أموال الدنيا تحت قدمه ، أعرف والله مؤمناً عُرض عليه مائة مليون ظنوا أنه يمتنع عن تسجيل مائة بيت أنشأها ، وباعها يمتنع عن تسجيلها لهم طمعاً بالمال ، فلما عرض عليه هذا المبلغ قال : لا أنا أخذت حقي ، وقبضت الثمن ، وربحت ، وليس لي عندكم شيء ، لم يبع دينه بمائة مليون ، والله المؤمن لا يبيع دينه ولا بمليار ، ولا بألف مليار ، لأن دينه يعني الأبد ، سعادة الأبد ، أما الدنيا فتنتهي ، عش ما شئت فإنك ميت ، هؤلاء الذين كسبوا أموالاً بالحرام ، وسكنوا بيوتاً رائعة ، وعاشوا حياة مترفة ، وأكلوا ، وشربوا ، وتنعموا ، وسافروا ، وركبوا أجمل المركبات ، وسكنوا أجمل البيوت ، وطافوا أطراف الدنيا، ثم جاءهم الموت ، ونسوا ربهم .

والله سمعت عن إنسان عاش في بلد الحرمين ما صلى فرض صلاة خمساً وثلاثين عاماً ، ولا حج ، ولا اعتمر ، وقد جمع ما يزيد على أربعة آلاف مليون ! مات بسكتة في فندق في أوروبا في الخامسة والخمسين ، هذا اشترى بعهد الله وإيمانه ثمنا قليلا ، هذا الذي ينكب على الدنيا ، ولا يعبأ بالدين ضيع آخرته من أجل الدنيا ، هذه الآية واسعة جداً يمكن أن تفهمها فهماً موسعاً جداً بعموم القصد ، وقد تفهمها فهماً ضيقاً بأسباب النزول ، لكن حينما تؤثر الدنيا على الآخرة ، حينما تكسب من الدنيا وتضيع من الآخرة فأنت ممن تنطبق عليك هذه الآية .

هذا الذي يروق له أن يبقى في بيت ليس له ، وعنده بيت آخر ، ولا يعبأ بعهده الذي عاهد عليه ، فقد اشترى بعهد الله وإيمانه ثمنا قليلا .

قصة وعبرة :

سمعت هذه القصة ، وهي قديمة جداً ، قال تاجر من تجار البيوت : أعندك بيت للأجرة قال : لا ، أنا لا أؤجر ، أنا أبيع فقط ، ألح عليه مرتين أو ثلاثا فأجره بيتاً كاسداً ، قال : عهد الله علي إن طلبته مني لأسلمك إياه في أربع وعشرين ساعة ! مضت السنوات ، وارتفعت أسعار البيوت إلى درجة كبيرة ، وجاء من يشتري البيت بعشرة أمثال ثمنه في السابق ، فجاء هذا المؤجر للمستأجر الذي قطع عهداً على نفسه أن يسلم البيت في أربع وعشرين ساعة ، قال : أنا البيت بعته ، وأنا لا أطالبك بعهدك أن تسلمني إياه في أربع وعشرين ساعة ، معك ستة أشهر ، بعد ساعات لا تزيد على العشرين طرق باب المالك ، وقدم له مفتاح البيت ، صعق ، ودهش ! انطلق إلى البيت فوراً ، فإذا هو في أحسن حال ، التقى بأحد الجيران ، قالوا له : كم أخذ منك ؟ قال : واللهِ لم يأخذ شيئاً ، إلا أنه عاهدني أن يقدم لي البيت حينما أطلبه ، وقد طلبته ، فقالوا : لقد باع كل أثاثه بأبخس الأثمان ، وسكن في الفندق !

لو يوجد مسلمون بهذا المستوى فلن تجد أزمة سكن في بلدنا إطلاقاً ، لأنه عاهد ، اشتروا بعهد الله وأيمانه ثمنا قليلا ، هذه قصة لها تتمة فيها غرابة ، أن هذا الذي وجد هذا العهد من هذا المسلم كأنه استثار كل قيمه ، فذهب إليه ، وأعاده إلى البيت ، وباعه إياه بالثمن الذي سكن فيه أول مرة ، وجعل أجرته التي دفعها من ثمن البيت ! وتكفّل بتأثيث البيت على حسابه ، العهد ، ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له .

لو أن كل مسلم وقف عند عهوده ومواثيقه لكنا في حالة غير هذه الحالة ، لو أن المسلم فهم الدين وفاء بالعهد ، وإنجازاً بالوعد المسلم القديم الذي كان في زمن التألق فهو مستعد أن يخسر الدنيا بأكملها ، ولا ينقض عهده ، والمسلم المعاصر مستعد أن ينقض عهده ألف مرة ، ولا أن يخسر درهماً واحداً ، قيل لأحدهم في المحكمة : أتحلف ؟ وهو شاهد زور ، قال : أحلف ، فلما دخل إلى مجلس القاضي رأى مصحفاً على الطاولة ، فقال له القاضي : ضع يدك على المصحف قال : لحظة

، فعاد إلى الذي كلفه أن يشهد شهادة زور وقال : أريد عشرة آلاف ، وكان طلب منه خمسة آلاف ، قال : لأنه هناك يمينًا !

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا)

والله هناك مؤمنون لو تعطيه مليارا لا يحلف كاذبًا أبداً ، هذا دين .

قد يكون الإنسان في أمسّ الحاجة إلى المال ، ويعرض عليه مال وفير تحل به كل مشكلاته ، لكن هذا المال ليس حلالاً فيركله بقدمه ، إن الله هو الغني ، حينما تجد مسلمين هكذا فلا يستطيع عدو أن يتحدى المسلمين ، حينما تجد مسلمين عند عهدهم ، ووعدهم ، ودينهم أغلى عليهم من حياتهم ، حينما تجد مسلماً لا يمكن أن يخون العهد ، ولا يخلف الوعد لكنا في حالة غير هذه الحالة ، لأسبغ الله علينا هيبة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((... نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ...))

(متفق عليه)

أما أمته من بعده فحينما خانت العهود ، ونقضت المواثيق هزمت بالرعب مسيرة عام ، قد تجد بلادًا أخرى تتحدى هذه القوة الغاشمة بالعالم تصمد وتواجه ، لكن المؤمن حينما يكون مع الله يكون قوياً ، أما حينما يعصي الله يضعف مركزه ، حينما يخون العهد ، ويخلف الوعد يصبح خائفاً ، يخاف من ظله ، هذه الآية وإن كانت في الأصل تعني أهل الكتاب ، لكنها تعني كل المسلمين اليوم ، حينما يكون دينك في المكان الأول ، ولا تساوم على دينك ، ولا على مبادئك .

5 ـ الحكم ظلما هو من اشتراء بعد الله والأيمان ثمنا قليلا :

موقف مرن جداً لو سئلت عن إنسان ، وتوهمت أنك إذا ذممته تنال مكانة عند فلان تذمه ، وقد يكون الذي تنال عنده مكانة سيئاً فاسقاً منحرفاً بعيداً عن الدين ، الأمثلة لا تعد ولا تحصى ، لمجرد أن تقول غير الحق ، وأن تسكت عن الحق ، وتنطق بالباطل ، لمجرد أن تحكم حكماً جائراً لمصلحة ما ، كم من إنسان يحكم في أقربائه ؟ يكون ثمة خلاف زوجي ، حينما ينحاز الإنسان لابنته ، أو لأخيه ، أو لقريبه انحيازًا أعمى فقد خان الأمانة ، ينبغي ألا تأخذك في الله لومة لائم .

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ)

أحياناً الثمن يكون قليلاً ، من أجل أن تتناول طعام الغداء بالمطعم ، أو في مكان جميل لا تصلي ، لا يروق لك أن يقال عنك : إنك ملتزم ، فلا تصلي ، وقد تجلس على مائدة فيها خمر طلباً للسلامة ، أنت دينك رخيص .

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ)

1 ـ الخَلاق :

الخلاق أيها الإخوة ، من الخلق ، وهو ثمن الجنة ، أنت في الدنيا تقلد الكرماء تتكرم إلى أن تصبح كريماً ، وذا خلق كريم ، تعطي براحة من دون صراع من دون شد ، وجذب ، هناك تكرم ، وهناك كرم ، هناك تحلم وحلم ، فالخلق الكريم ثمن الجنة ، أن تكون عفواً متواضعاً كريماً أميناً ، أن تكون صادقاً بلا جهد ، أصبح الكرم طبعاً من طباعك ، أصبح الصدق خلقاً ثابتاً عندك ، تصدق دون أن تدخل في مناقشة مع نفسك ؛ أصدق أم لا أصدق ؟ هذه في البدايات ، لأنه يكون هناك مجاهدة للنفس والهوى ، لكن بعد أن تنضج ، وتصبح مؤمناً ثابتاً تصدق ، لأنك تحب الصدق ، تكون حليماً لأنك تحب الحلم ، تكون منصفاً لأنك تحب العدل ، هذا الخلق الكامل الثابت العفوي الفطري هو ثمن الجنة ، وثمة إنسان يكون ذكيًا جداً ، وإنسان يأخذ موقفاً لطيفاً جداً خارج البيت ، أما إذا دخل البيت فهو الوحش الكاسر ، هذا كله تخلّق ، وليس خلقاً ، أما ثمن الجنة فهو الخلق الحسن .

((وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا))

[ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو]

((بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاق))

[مالك في الموطأ]

هؤلاء الذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً خسروا ثمن الجنة ، أي خسروا الجنة .

2 ـ أهمية الأخلاق :

لا شيء يمهد لك السبيل لدخول الجنة ، والتمتع بها إلى أبد الآبدين ، كأن تكون ذا خلق ؛ أمين ، صادق ، عفيف ، متواضع ، رحيم ، الكمال الإنساني إذا كان فيك طبعاً مع الثبات والاستمرار ، في البدايات الكمال تصنع ، لكن في النهايات الكمال طبع ، إنسان له باع طويل في الإيمان لا يمكن أن يكذب ، وحينما يُسأل ليس هناك شيء اسمه صراع ، أصْدق أم لا أصدق ؟ ألم يقل الله عزوجل :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم: الآية 4)

(على) أي متمكن من هذه الأخلاق ، ثمن الجنة أن تكون الأخلاق الكاملة طبعاً ثابتاً فيك ، فهذا الذي يشتري بعهد الله وإيمانه ثمنا قليلا هذا خسر ثمن الجنة .

(أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ)

أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ

1 ـ تكليم الله للمؤمن وعدم تكليمه للكافر يوم القيامة :

إبعاداً لهم عن ذاته العليا ، هم أحقر من أن يكلمهم الله عز وجل ، أما المؤمنون حينما يساقون إلى الجنة وفداً وزمراً تنقل لهم الملائكة سلام ربهم لهم !

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر : من الآية 73)

2 ـ الله لا ينظر للكافر ، والكافر محجوب عن رؤية الله :

هؤلاء يكلمهم الله يوم القيامة ، يسمح لهم أن ينظروا إلى وجهه الكريم ، وقد أجمع العلماء على أن قوله تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس : من الآية26)

الزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم ، والحسنى هي الجنة ، وما الذي فوق الزيادة أن يرضى الله عنهم.

(وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : من الآية 15)

فثمة دخول الجنة ، ثم النظر إلى وجه الله الكريم ، ثم إن الله الكريم يرحب بهم ، ويمنحهم رضوانه ، ويكلمهم ، فهؤلاء نالهم أشد عقاب في تاريخ البشر .

(وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ)

أضرب مثلاً للتقريب .

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل : من الآية 60)

لو أن إنسانًا عظيمًا ، في أعلى مستوى ، وعنده حاجب ، لو أنه قال لهذا الحاجب : كيف حالك اليوم ، هل أنت مسرور ؟ هل تحتاج إلى شيء مني ، هذا الحاجب يبقى سنة مترنمًا بهذه المودة من سيده ، أو إنسان عنده منصب خطير ، وعنده سائق ، والسائق مؤدب جداً ، هذا السائق حينما يخاطبه سيده بكلام لطيف ؛ كيف حالك اليوم يا بني ، هل أنت مسرور ؟ أهلك بخير ؟ أولادك بخير ؟ يلزمك شيء ؟ مثلاً، يبقى هذا ثملاً بهذه الكلمات الطيبة :

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل : من الآية 60)

فكيف إذا كنت في الجنة ، وخاطبك الله عز وجل ؟ وسمح لك أن تنظر لوجهه الكريم ، وفي بعض الآثار أن المؤمنين يغيبون عن الوعي خمسين ألف عام من نشوة النظرة :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(سورة القيامة : 22-23)

أما الطرف الآخر والعياذ بالله :

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين : 15)

والله أيها الإخوة ، عندنا قصص كثيرة في القرآن ، سيدنا إبراهيم ، وهو في النار كان في قمة السعادة، لأنه حظي بالسكينة ، وجدها إبراهيم في النار ، وجدها أهل الكهف في الكهف ، تركوا الدور والقصور، ولجؤوا إلى الكهف .

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا)

(سورة الكهف : من الآية 16)

وكل واحد مؤمن إذا جاء إلى بيت الله ، وجلس يحضر درس علم ، ثم ذهب إلى بيته ، والتقى بأولاده ، وكان مع الله قد يكون البيت صغيرًا ، ضيقًا ، بعيدًا ، لا يوجد مرافق عالية ، ولا أجهزة كهربائية ، لكن يوجد اتصال بالله ، يوجد أنس بالله ، ورضوان منه ، قد يتجلى الله على سكان بيت متواضع ، وربما لا يتجلى على سكان بيت فخم جداً ، الأولون في سعادة ما بعدها سعادة ، والآخرون في شقاء ما بعده شقاء.

(وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ)

وَلَا يُزَكِّيهِمْ

لا يطهرهم من أدناسهم ، لو أنهم أقبلوا عليه لطهرهم ، ونمّى إمكاناتهم ، وأعطاهم من عنده شيئاً كثيراً ولقربهم .

(أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ)

قال رجل لسيدنا عمر ، وكان عمر لا يحبه : << أتحبني ؟ قال : والله لا أحبك ، لا تلزم المجاملة ، فهو صريح ، قال : وهل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ قال : لا والله ، حقك يصلك ! فقال هذا الإنسان السفيه : إنما يأسف على الحب النساء >> ، ما دام حقي يصل إلي فلا تهمني محبتك ، قال: لك ما تريد ، هنا قد يقول أحد : لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ، خير إن شاء الله أكمل :

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

عذاب لا ينفد ، إذا كان زاهداً في الكلام ، والقرب ، والنظر ، وبالتزكية ، لكن له عذاب أليم ، بربك من هو الناجح في الحياة ؟ من هو الذي ؟ من هو العاقل ؟ من هو المتفوق ؟ من هو الموفق ؟ من هو المفلح ؟ من هو الذي له يوم القيامة مقام عند الله ؟

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(54)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر: 54-55)

هؤلاء الذين لهم عند الله حظوة هم الأذكياء ، هم ملوك الدار الآخرة ، هؤلاء الذين لهم عند الله مكانة ورفعة ، هؤلاء الناجحون ، لذلك دخل على رسول الله صحابي فقير جداً ، فوقف له النبي ، ورحب به ترحيبًا غير معقول ، وقال : أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه ، قال : أو مثلي ؟ من أنا ؟ قال : يا أخي خامل في الأرض ، علم في السماء .

قد يكون الإنسان ضارب آلة كاتبة في دائرة ، أو حاجبًا .

والله مرة كنت في مؤتمر ، والإقامة من أرقى فندق ببلد في المغرب ، سمعت عند صلاة الفجر آذنًا أو عاملا يصلي الفجر بصوت ندي ، والله شعرت أن هذا الذي يصلي بصوت ندي ، ويتلو كتاب الله ، ويتغنى به في الصلاة قد تكون قلامة ظفره خيراً من كل من في الفندق ، مقاييس الله غير مقاييسنا ، نحن عندنا المقاييس بالمال ، والمراتب الاجتماعية ، رجل يفتخر بمتاع الدنيا فقط ، قد يفتخر برقم على مركبته ستمائة ، وليس مائتين وثمانين ، قد يفتخر بمنطقة سكنه ، ومن تخلف المسلمين يفتخرون بمتاع الدنيا فقط ، مكانته من نوع بدلته بيار كاردان ، انتهى ، مكانته من حذائه ! فقط ، هذا حال المسلمين اليوم ، أما أن نفتخر بمعرفتنا لله ، وبطاعتنا له بالمال الحلال الذي نكسبه فقط ، الحرام يركل بقدمنا .

خاتمة :

أيها الإخوة ، هذه الآية يحتاج المسلمون إلى فهمها فهماً دقيقاً ، وإلى العمل بها أيما حاجة ، فالدين هو الأول ، والمبادئ هي الأولى ، والقيم هي الأولى ، وأي شيء على حساب مبادئك ، ودينك ينبغي أن تركله بقدمك ، وما ترك عبد شيئًا لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(23-60): تفسير الآيات 78 – 80
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-05-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون : مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثامنة والسبعين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ

1 ـ من طرق تحريف اليهود للنصوص :

أيها الإخوة الكرام ، هذا نوع من الانحراف ، لأنك تعتقد أن الناس يعظمون كلام الله ، وأنهم يعظمون الله ، وأنهم يعظمون أمره ، فإن أردت أن تصل إلى مصالحك من خلال الدين فلابد أن تلعب بالنصوص ، لابد أن تلوي أعناقه ، لابد أن تأوِّلها تأويلاً غير صحيح ، لابد أن تحلف ، وتقدم وتؤخر ، ولابد أن تدعي أن القصد كذا ، والمعنى كذا ، فهذه العملية بمجملها عملية تحريف النص ، أو عملية لَيِّ عنق النص ، أو عملية مسخ النص ، أو أن تنطق بدلالة ليست له ، أو أن تأتي بمناسبة لا تصلح له ، وأيّ افتعال لصرف النص عن مؤداه الحقيقي ، وأيّة عملية فكرية هدفها أن تغيّر من أجل أن تحقق فهماً لهذا النص ينسجم مع مصالحك فهذا تحريف .

أمثلة عن تحريف النص :

مثلاً : أنت حينما تقول في قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : من الآية 130)

وتقول : إنما النهي لا عن الأضعاف القليلة ، بل عن الضعاف الكثيرة ، وفاتك أن هذا ليس قيداً احترازياً ، بل هو قيد وصفي ، أنت حينما تقرأ قوله تعالى :

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة النور : من الآية 33)

فإن لم يردن تحصناً فلك أن تكرههن على البغاء مثلاً ، هذا فهم خطير لهذا النص ، هذا فهم فيه لَيٌّ لعنق النص .

حينما تقول في بعض الآيات :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة : من الآية 13)

تقول : لا لم يشأ الله أن يهدي البشر ، فالله عز وجل يمتحن عباده .

يأتي إنسان مريض القلب فيفسر هذا النص وفق أهوائه ، يقول لك : ليس في القرآن آية تقول : الخمر حرام ، حرمت عليكم الخمر ، هناك (فاجتنبوه) ، هذا ليس تحريماً ، فإما من كلمة ، أو من عبارة ، أو من إضافة ، أو من حذف ، أو من الإتيان بأسباب نزول ليست صحيحة ، على كلٍّ هناك محاولة ذكية لصرف النص عن مؤداه الحقيقي ، النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال :

((مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، يَعْنِي الثُّومَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا))

(متفق عليه عن ابن عمر)

هل أراد منك أن تأكل من هذه الشجرة من أجل ألا تأتي إلى المسجد يوم الجمعة ؟ مستحيل ، ينهاك عن أن تؤذي من حولك ، أنت فهمت النص فهماً آخر .

حينما قال : غض بصرك ، لولا أنه يجب أن تبرز المرأة مفاتنها لما أمرنا بغض البصر ، من قال لك ذلك ؟ من هذا القبيل نصوص ، واجتهادات ، وتعليقات لا تعد ولا تحصى ، لولا أن المرأة مسموح لها أن تظهر مفاتنها لما أمرنا بغض البصر هكذا ! إذا خرجت المرأة متعطرة ليجد الناس ريحها لم ترح رائحة الجنة ، تقول امرأة إن أرادت لي عنق النص : أنا لا أريد أن يجد الناس هذه الرائحة ، لم أقصد أن تتعطر عطراً فواحاً يلفت النظر ، فمن دون أن تقصد لا شيء فيه ، هذا أيضاً لَيٌّ لعنق النص ، فهناك نصوص في العقيدة ، وفي الفقه ، وفي المعاملات ، النص واضح ، وله قواعد أصولية في فهمه، وعلم الأصول من أرقى العلوم ، حتى إن بعضهم قال : إن علماء الدين أمام علماء الأصول عوام ، علم الأصول علم استنباط الحكم الشرعي من النص ، أما كل إنسان يتأمل في آية ، و في حديث فيستنتج منها ما يحلو له ، يقول لك :

((كُلُّ نَبِيٍّ سَأَلَ سُؤْلًا ، أَوْ قَالَ : لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

(متفق عليه)

جيد ، إذاً : اقترف الكبائر من أجل أن تنالك شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ، هذا كلام مضحك ، هذه التأويلات ، وتلك التفسيرات ، وهذه التخرصات إنما من أجل أن تصرف النص عن مؤداه الحقيقي، عن الغاية النبيلة التي شرع من أجلها ، ولازلنا في هذا التعبير العلمي الدقيق :

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ)

يقول مثلاً :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

يقول : الشيطان وصل للأنبياء ، أنا نبي ؟ هذه الآية ليس هذا معناها ، إذا تمنى النبي هداية قومه ألقى الشيطان في أمنيته هو أن يضلهم ، أما أن يصل شيطان إلى النبي الكريم ، أين حصانته ؟ وأين إقباله وأين نوره ؟ هذا الباب إذا فتحناه لا ينتهي .

المغرض المنتفع الجاهل المتعصب الذي يريد أن يفهم النصوص كما يحلو له ، حتى يغطي بهذا الفهم السقيم انحرافاته ، بعضهم ألّف كتاباً عن القرآن الكريم ، بعد قراءة القرآن ثبت له كما يقول : إنه لا يجد في كتاب الله ما يمنع المرأة من أن تضع على جسمها إلا ثيابها الداخلية ! ولأقربائها ، ولمن هم أقرب الناس إليها أن يروها كما خلقها الله ! هذا كلام لا يحتمل ، يقول لك : الحديث :

((انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا))

[الترمذي، النسائي ، ابن ماجه ، أحمد عَنْ الْمُغِيرَةِ بْن شُعْبَةَ]

انظر إليها ، المطلق على إطلاقه ، أي انظر إليها كما خلقها الله ، هذا كله تحت عنوان ليّ عنق النص، وتحريف النص ، وتزوير النص ، وصرف النص عن غايته الأساسية .

2 ـ لابد من فهم النصوص على مراد الله حتى لا نكون كاليهود :

أنت مسلم لك مع النص تعامل كبير جداً ، دينك دين وحي ، والوحي نص ، أخطر شيء في الدين تعاملك مع النص ، هل تفهمه كما أراده الله أم تفهمه وفق مزاجك وأهوائك وشهواتك ومصالحك ؟ فالذي يأكل الربا يقول : الله لم ينهَ عن الربا بنسب قليلة ، نهى بنسب عالية جداً والدليل :

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : من الآية 130)

عندما قال الله عز وجل :

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

(سورة البقرة : من الآية 279)

آية واضحة كالشمس .

(فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 223)

من أيّ مكان ، لا ، يقول الله : حرثكم من مكان الإنبات ، لا من مكان القذر ، فكل إنسان له أهواء مصالح ، ومطامح ، وغرائز ، يحاول أن يفهم النص كما يحلو له ، وما ذكر الله هذا عن أهل الكتاب إلا لأننا مؤهلون أن نقع في هذه المشكلة مرة ثانية ، وجميع الفرق الضالة اعتمدت على نصوص ضعيفة ، أو موضوعة ، أو على نصوص صحيحة أوّلت تأويلاً غير صحيح ، فقضية

النص قضية خطيرة جداً ، أنت معك منهج السماء ، ومنهج السماء هو الوحي ، الكتاب ، القرآن ، وسنة النبي العدنان ، الوحي الأول والثاني ، الوحي المتلو ، والوحي غير المتلو نصوص ، ولك أن تفهمها كما فهمها علماء الأصول ، كما فهمها أصحاب رسول الله في الحقب الثلاث التي جاءت بعده ، وقد شهد النبي عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الصحاب الكرام ـ ولهؤلاء التابعين ، ولتابعي التابعين ، أي شهد النبي الكريم لقرنه ، والقرن الذي يليه ، والذي يليه أيضاً شهد لهذه القرون الثلاثة بالخيرية ، فأنا أفهم النص لا كما تحتمله اللغة ، بل كما فهمه أصحاب رسول الله .

كشاهد : لو قال بيتًا من الشعر بعض أصحاب رسول الله :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

فمصيره الجنة ، ولو قرأت النص من دون ضبط بالشكل ألا يحتمل أن تقول :

ولست أبالي حين أقتُلُ مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

فمصيره إلى النار ، وبئس المصير ، بالعكس عندما يقتل المرء مسلماً يخلد في النار ، فبين أن تكون من أهل الجنة وأن تكون من أهل النار ، بين أُقتل ، وأقتل حركة بالضمة ! هو النص يحتمل ضمة ، ويحتمل فتحة ، لكن ماذا قال الصحابي ؟ أنت حينما تتغنى بهذا البيت فإنه قال : أُقتل مسلماً ، وما قال : أقتل مسلماً ، هذا مستحيل ، فاحتمالات اللغة لا تكفي أن تفهم ماذا قال الصحابة الكرام .

3 ـ أخطر شيء في حياة المؤمن هو فهم النص :

هذا الشيء يقودنا إلى أن أخطر شيء في حياة المؤمن هو فهم النص ، لا النص نفسه ، فهمه . مثلاً :

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

(سورة النور: من الآية 33)

بربك هل في العالم الإسلامي كلّه أبٌ واحد يكره ابنته على الزنى ؟ مستحيل ، لكن كلما جاءك خاطب رددته ، هذا لضآلة دخله ، وهذا لبعد بيته ، وهذا لعدم لياقته ... وأنت مرتاح ، ابنتك تتمنى زوجاً يسترها ، ويحفظها ، ويحميها وتأنس به ، ويأنس بها ، وأنت تبحث عن أدق العيوب ، وترفض الخاطب لأدق العيوب ، أنت ماذا تعمل ؟ أنت بهذا تقوي رغبة ابنتك في الزواج ، وفي ساعة غفلة قد تفتقدها من البيت ، أو قد تسقط في حمأة الرذيلة ، وغي ساعة غضب قد تستسلم لشاب أغراها بكلام معسول ، لأنه كلما جاءك الخاطب رددته .

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)

هي تريد أن تكون محصنة ، وأنت لا تريد لها ذلك ، أنت تريد شابًا تفتخر به ، وتفتخر بماله ، وتفتخر ببحبوحته ، هكذا الآية ، أما هل يعقل إنسان أن يكره فتاته على الزنى ؟ مستحيل .

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل : من الآية 43)

أهل الذكر هم أهل الوحي ، والله عز وجل يقول :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس : من الآية 39)

4 ـ اسأل أهلَ الذكر عن معنى النص :

معنى ذلك ينبغي أن تفهم تأويل هذا القرآن الكريم من أهل الذكر ، من أهل الوحيين ، أردت من هذا الموضوع تعديل النص ، وجره إلى معنى بعيد عنه ، لي عنق النص ، صرف النص عن مضمونه الحقيقي ، نحن حينما نقول لطالب الوظيفة : ائتنا بحسن سلوك من المختار فرضاً ، هذا شيء مهم جداً ، أن يشهد لك مختار محلّتك أنك إنسان طيب وصالح ، لكن هذا الأمر فُرّغ من مضمونه ، فأي إنسان يطلب حسن سلوك يأخذ حسن سلوك ، ولو كان قاطع طريق ، فإذاً الوثيقة لم يعد لها قيمة إطلاقاً ، فُرغت من مضمونها ، وانتهت هذه الوثيقة .

فالنصوص حينما تؤول تأويلاً مغلوطاً ، وحينما تصرف عن معناها الصحيح إلى معنى مفتعل مغلوط، حينما نقدم ، ونؤخر ، ونضيف حركة ، ونحذف حركة يكون هذا تحريفا .

من الأغلوطات بسبب سوء فهم النص :

ذكرت لكم بعض الأمثلة :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف : من الآية 29)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة التكوير : الآية 29)

أخي متى تصلي ؟ الله لم يشاء لي بعد ! ما هذا الكلام ؟ هذه الآية :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة التكوير : الآية 29)

هل فهمت الآية هكذا ؟ لا ، إذا استحققت دخول الجنة لأن الله منحك حرية الاختيار ، ولولا أن الله تفضل عليك ، ومنحك حرية الاختيار لما كنت مختاراً ، ولما كنت من هذا الاختيار من أهل الجنة ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة التكوير : الآية 29)

يقول الله عز وجل لك لا يريد هداية عباده ، والدليل :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة : الآية 13)

نريد أن نعبئها ! هذا فهم سقيم جداً ، هناك من يدّعي أن الله أجبره على المعصية ، يقول الله عز وجل: يا عبادي لو أني كنت مجبركم على شيء لما أجبرتكم إلا على الهدى ، ولو شئنا أن نجبركم ، ونسلبكم اختياركم ، ونلغي هويتكم ، وأن تكونوا كمخلوقات أخرى مسيرين ، وأجبرناكم على شيء ما لما أجبرناكم إلا على الهدى ، أما هذا الذي تفعلونه من اختياركم ، ومن كسبكم ، ومن صنع أيديكم ، لذلك سوف تدفعون ثمنه باهظاً هذا المعنى ، بين أن تفهم أن الله يريد هداية خلقه .

مثلاً : أمن المعقول أن ترى حاجزًا في الطريق ، خير ، على سجن عدرا ؟ ماذا حصل ؟ لأنه فارغ ، ونريد أن نملأه ! هذا الكلام غير معقول ، ولا يقبله عقل ، هناك من يفهم هذا الكلام هكذا .

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة : من الآية 13)

لا ، ليس هذا هو المعنى .

وقال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

[الحج : من الآية 52]

الشيطان وصل إلى النبي وألقى ؟ لا ، النبي يتمنى هداية قومه ، والشيطان يتمنى إضلالهم ، وليس بأماني النبي ، وليس بأماني الشيطان ، إنما هو باختيار الإنسان .

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 272)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص : من الآية 56)

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

(سورة الغاشية : الآية 22)

الإنسان مخير ، فالفرق كبير ، يقول :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس : الآية 7-8)

الهداية من عند الله عز وجل ، الله لم يهدني بعد ، فلان شارب خمر لا تعترض ، كاسات معدودة بأماكن محدودة ، الآية :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس : الآية 7-8)

ليس هذا هو المعنى ، المعنى أن الله فطر النفس فطرة عالية ، وجبلها جبلة عالية ، وبرمجها برمجة عالية ، حيث إذا أخطأت تحس على خطأها من دون معلم ، وإذا التقت تحس أنها مستقيمة من دون معلم، مصممة هذه النفس أن تعرف حقيقتها .

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة : 14-15)

شيء واضح ، يقول تعالى :

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

(سورة الكهف : من الآية 28)

ما ذنبه هذا ؟ الله جعله غافلا ، أغفلنا ، من قال لك يا أخي : إن أغفلنا تعني أن الله خلق فيه الغفلة ؟ أعوذ بالله ، افتح كتب اللغة ، أغفلنا يعني وجدناه غافلاً ، والعرب تقول قبل الإسلام : عاشرت هؤلاء القوم فما أجبنتهم ، أي ما وجدتهم جبناء ، عاشرت هؤلاء فما أبخلتهم ، أي ما وجدتهم بخلاء .

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

(سورة الكهف : من الآية 28)

ليس معناها أننا خلقنا فيه الغفلة ، ثم نحاسبه ، أيعقل أن يأمر مدير مؤسسة موظفاً أن يسافر إلى حلب ، ثم يتفقده في اليوم التالي ما داوم ، أنت أعطيته أمرًا أن يسافر إلى حلب ، سأعاقبه ، أنت أمرته أن يسافر ، وتعاقبه لأنه غاب عن الدوام في اليوم التالي في مركز الشركة ؟ هذا مستحيل .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياكَ إياك أن تبتل بالماء !

***

هكذا يصورون الله عز وجل ، أنه قدر عليه الكفر قبل أن يخلق ، جاء إلى الدنيا ماذا فعل هذا العبد ؟ نفذ مشيئة الله في جهنم إلى أبد الآبدين ، لأنك كافر ، ألا يقول الإنسان : ما ذنبي أنا ؟ أنت خلقتني كافراً، أنت قدرت علي الكفر ، كيف تعذبني ؟ قال لا :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : الآية 3)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 148)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف : من الآية 29)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 148)

هذا كذب على الله ، سيدنا عمر جاؤوا إليه بشارب خمر فقال : << أقيموا عليه الحد ، قال : والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر علي ذلك ، يتكلم مع سيدنا عمر عملاق الإسلام ، فقال : أقيموا عليه الحد مرتين ؛ مرة لأنه شرب الخمر ، ومرة لأنه افترى على الله ، قال له : ويحك يا هذا ، إن قضاء الله لن يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >> .

في اللحظة التي تتوهم أنك مسيّر في كل شيء ، لِمَ لا تصلي ؟ ما شاء الله لي أن أصلي ، أليس للإنسان علاقة بالهداية والضلال ؟ الله يهدي أناسًا ، ويضل آخرين ، كيف يحاسبهم ؟ لماذا يعذب المنحرف منهم ؟ لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أنه أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً وأعط على القليل كثيراً .

أخطر شيء حينما تفسد عقيدة الإنسان فلابد أن ينحرف ، ما أدري أوضحت هذه الحقيقة : كيف يُلوَى عنق النص ؟ كيف يزوّر النص ؟ كيف يخرج النص عن مدلوله الحقيقي ؟

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

(سورة الحج : من الآية 41)

لم لا تصلِي ؟ الله لم يكلفه بعد ! والله شيء جميل .

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر : الآية 99)

لِمَ لا تعبد الله ؟ أنا جاءني اليقين حتى انتهاء الغائب ، أرأيتم إلى هذه الأمثلة ؟ هذا معنى ليّ عنق النص ، هذا معنى تزوير النص ، هذا معنى إخراج النص عن قصد التعظيم .

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ)

يأتيك بآية ، أو بحديث ، أو بآية من التوراة عن هؤلاء ، أو بآية من الإنجيل ، يلوون ، يعني يغيرون صياغتها ، أو يغيرون مدلولها ، في بعض الكتب المعاصرة المال والبنون قال : البنون البناء زينة الحياة الدنيا ، المال والبناء .

(لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ)

ليس هذا كلام الله ، ليس هذا الفهم فهماً صحيحاً لكلام الله ، وليس هذا الفهم صحيحاً لسنة رسول الله ، عنده اثنا عشر ولداً ، كلهم في الطريق ، لا تربية ، ولا علم ، ولا أخلاق ، ولا مدرسة ، ولا غذاء صحي ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ الْوَدُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ))

[النسائي وأبو داود]

هل تظن أن النبي أراد أن يباهي للعدد فقط ؟ النبي يباهي بالنوع ، عندما تجد عصرًا كعصر النبي كله أبطال ، أصحاب النبي كانوا أبطالا ، عندما تجد ألفًا كأفٍّ ، ما قيمة هذه الكثرة ؟ ما قيمة مليار ومائتي مليون ؟ وليس أمرهم بيدهم ، وليست كلمتهم هي العليا ما قيمته ؟ ما قيمة ملايين مملينة

تائهة عن الله عز وجل شاردة عنه ؟ تقترف المعاصي ، والآثام هان أمر الله عليها ، فهانت على الله ، المسلمون ينتظرون من الله أن يغيّر سننه ، وهم ليسوا مستعدين أن يغيّروا حياتهم أبداً .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد : من الآية 21)

5 ـ المنحرف يخترع لانحرافه تأويلاً بليّ النصوص :

هذا المرض الذي وقع فيه أهل الكتاب ، وقع فيه المسلمون بشكل موسّع جداً ، ما من إنسان منحرف حتى الذي ينحرف في علاقته مع أهله يقول : أنّى شئتم ، يا أخي فأتوا حرثكم ، الحرث مكان الإنبات ، الآية واضحة ، أنى تفيد إطلاق المكان ، ما هذا الكلام ؟ لا يوجد إنسان منحرف إلا يبحث عن تفسير منحرف لنص ، فالمرابي :

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : من الآية 130)

الذي لم يهتدِ ما أراد الهدى .

(وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل : من الآية 93)

هذا ليس عملنا ، شيء من المناقشات والحوارات بين الناس ، تجد أن كل إنسان مقترف المعصية يبحث عن غطاء من النصوص لتغطيتها .

إذا كان الواحد لا يريد مساعدة الفقير يقول لك : لست أرحمَ مِن ربه ، هل يعني ألاّ تساعده ؟ لأن الله قدر عليه الفقر لا يجب أن تساعده ؟ هكذا فهمك ؟ والآية واضحة :

(أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ)

(سورة يس : من الآية 47)

يجب أن تطعم الفقير ولو كان فقيراً .

مرة سمعت طرفة : أن من هذا الذي يؤمن بوحدة الأمة العربية ؟ قال : المهرّب ، لأن الحدود ألغاها ، ونقل البضائع عبرها ، هذا ليٌّ لعنق النص أيضاً

(وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

هذا من تخرصاتهم ، من أهوائهم ، من شهواتهم ، من انحرافاتهم ، من رغباتهم المريضة .

(وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

1 ـ إياك أن تكذب على الله ورسوله :

أخطر شيء في الحياة أن تكذب على الله ، وعلى رسوله ، فعَنْ الْمُغِيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ))

[متفق عليه]

والكذب على رسول الله كأنه كذب على الله ، لأن الله أمرنا أن نأخذ ما قاله النبي ، فقال :

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر : من الآية 7)

الله أمرنا ، فإذا أتيت بحديث موضوع ، أو بحديث غير صحيح ، أو حديث ضعيف ، وأوهمتنا أنه من كلام النبي عليه الصلاة والسلام ، أنت ماذا فعلت ؟ كذبت على الله ، لأنك كذبت على المبلغ الذي يبلغ عن الله عز وجل .

إذاً :

(وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

يقول أحدهم : والله لست قاصدًا بأن أكذب على النبي ، النبي قال :

((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ))

[متفق عليه]

أنا لست متعمدًا ، عندَ والدي كتاب قديم أقرأ منه ، هذه كلها أحاديث موجودة في كتاب والدي ، لم أفعل شيئًا ، اسمع الحديث الثاني : عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ حَدَّثَ عَنِّي حَدِيثًا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ))

[مسلم ، الترمذي]

يجب أن تتحقق قبل أن تقول : قال عليه الصلاة والسلام ، يجب أن تتحقق ، قل : يروى ، سمعت أن هناك حديثا يقول : استخدم صيغة التمريض كي تشعرنا أنك لست متأكداً أن هذا كلام النبي .

2 ـ لا تقل على الله ما لا تعلم ، ولا تقل خلاف ما تعلم :

لكن هنا مشكلة ، المشكلة أن إنسانًا قد يفتي بغير علم ، فتواه فيها خطأ كبير ، طبعاً هذا خطأ كبير أن تفتي بغير علم ، لكن الجريمة أن تفتي بخلاف ما تعلم ، فأنت تعلم أن هذا الشيء حرام ، لكن لمصلحة راجحة عندك أفتيته ، هذا في حكم الذنوب يعد مجرمًا ، هناك من يفتي بغير علم ، وهو آثم ، وإثمه كبير ، لكن هناك من يفتي بخلاف ما يعلم ، يعرف الحقيقة ، يعرفونه كما يعرفون أبنائهم ، ومع ذلك يكذبون نبوته ، ثم يقول الله عز وجل :

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي

1 ـ مقام الرسالة أعلى مقام :

هناك مقام الرسالة ، مقام الرسالة أعلى مقام ، مقام تبليغي ، وهناك مقام النبوة ، مقام سلوكي ، طبعاً مقام الرسالة سلوكي تبليغي ، إنسان يطبق منهج الله ، ويدعو الناس إلى منهج من عند الله ، جاء عن طريقه هو رسوله ، وقد يأتي نبي قبله رسالة ، هو مهمته أن يعيد الناس إلى جادة الصواب التي كانوا عليها ، فمقام النبوة مقام سلوكي ، مقام تطبيقي ، بينما مقام الرسالة مقام تبليغي .

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ)

(سورة المائدة : من الآية 67)

سيدنا يوسف لم يأتِ بكتاب ، لكن أحيا تطبيق الكتاب السابق ، فكلما فترت الهمم يأتي نبي ، كلما ضاع الحق يأتي رسول ، الرسول معه رسالة ، معه منهج من عند الله ، النبي معه تطبيق ، وقد تجد حكيماً آتاه الله فهماً ، وحكمة ، وعقلاً راجحاً ، واتباعاً لنبي قبله ، هذا اسمه حكيم .

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

(سورة لقمان : الآية 13)

فلقمان حكيم ، وسيدنا يوسف نبي ، وسيدنا محمد رسول ، بل هو سيد الرسل ، فهناك حكيم معه حق ، ويطبق هذا الحق ، وهناك نبي معه منهج سابق يطبقه ، وهناك نبي جاء بمنهج جديد فهو رسول ، يقول الله عز وجل :

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ)

يعني رسول معه كتاب معه وحي .

(وَالْحُكْمَ)

معه حكمة كسيدنا لقمان .

(وَالنُّبُوَّةَ)

2 ـ الرسول والرجل الحكيم لا يدَّعيان الألوهية :

معه نبوة ، فلا يوجد حكيم معتمد عند الله أنه حكيم ، ولا نبي ولا رسول يمكن أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عباداً لي ، هذه مستحيلة ، الله يعلم حيث يجعل رسالته ،

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تؤتى كتاباً ، أو حكمة ، أو نبوة ثم تدعي الألوهية ، وتقول: كونوا عباداً لي من دون الله ! مستحيل ، لأن هذه جريمة كبيرة جداً ؛ أن تدعي الألوهية ، وتقول للناس : اعبدوني من دون الله ، لكن ماذا يقول النبي ؟ وماذا يقول الرسول ؟ وماذا يقول الحكيم ؟

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)

3 ـ من هو الرباني ؟

من هو الرباني ؟ لأوضح لكم هذه الحقيقة ، تقول : فلان علماني ، طبعاً أصل كلمة علماني أنّ العلم متغلغل في دمه ، في كل حركاته ، وسكناته ، وأقواله ، وأفعاله ، ينطلق من العلم ، هوايته العلم ، مطالعته كتب العلم ، حديثه في العلم ، مزاجه في العلم ، طموحه في العلم ، همومه أن يكون عالماً ، هذا إنسان علماني ، لكن قد نجد هذه الكلمة تستخدم استخدامًا غير صحيح ، علماني أيْ يحارب الدين ، أو علماني يحارب الدين الإسلامي فقط ، هذا مضمون كلمة علماني في الواقع ، أما كلمة علماني فتعني شديد الالتصاق بالعلم ، تقول : مقالة علمية ، ليس علمانية ، علمية فقط ، تقول : كتاب علمي ، محاضرة علمية ، موقف علمي ، الموقف يغلب عليه الطابع العلمي ، هذه المحاضرة يغلب عليها الطابع العلمي ، أما إن أردت أن تقول : إن كل كلمة في هذه المحاضرة تتصف بالعلم العميق فتقول : محاضرة علمانية .

أحدهم معه شهادة ثانوية تقول : هذا مثقف علمي ، يحمل ليسانس علمي ، لكن العلم تغلغل في أعماقه حتى وصل إلى كل ثنايا جسمه ، وإلى كل قطرات دمه ، وخلايا جسمه ، فلو عصرته لما وجدت إلا علماً ، تقول : فلان علماني .

قدمت لكم بهذا المثل ، كلمة علماني غير علمي ، شدة اتصاف الشيء بالعلمية ، قد تقول : هذا البيت فيه شيء من الجمال ، فيه غرفة ضيوف جميلة ، أما بقية الغرف فسيئة جداً ، أما إذا كان كل سنتيمتر من البيت ينطق بالذوق فتقول : بيت جمالي ، تعطيه صفة أعلى بكثير ، هذا تمهيد .

ما معنى كونوا ربانيين ؟ كيانه كله متعلق بالرب ، حديثه كله عن الله عز وجل ، حركاته ، وسكناته كلها وفق منهج الله ، أن يهتدي الناس جميعاً ، طموحاته أن يكون عند الله مقرباً ، آماله أن يكون الله في قلوب الناس جميعاً .

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)

شدة نسبة الإنسان إلى ربه يعبر عنها بكلمة رباني .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الكهف : من الآية 110)

النبي عليه الصلاة والسلام على جلال قدره كان ربانياً .

لو عندك لوح بلّور مركب على باب ، والباب من أعلى مستوى تقول عنه : بلجيكي شفاف ، من شدة شفافيته ، ونظافته ربما لا تراه ، ترى ما خلفه دائماً ، وحوادث كثيرة ، أحدهم من كثرة نظافة البلور اخترقه برأسه ، يظن أنه ليس بلورًا ، فإذا كان البلور صافيًا جداً يشفُّ عما وراءه ، من هو الرباني ؟ لا يشفّ عن ذاته ، بل يشف عن ربه في كل حركاته ، وسكناته ، وأقواله ، وأفعاله ، وعمله ، ولهوه ، ومرحه ، ومع أهله ، ومع ، إخوانه ، وفي نزهة ، وفي مقام يتحدث عن ربه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي هريرة ، وفي إسناده ضعف]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب : الآية 41)

الرباني يشف عن حقيقة الدين ، يشف عن كمال الله ، وكمال رسول الله ، لا يلفتك إلى نفسه ، يقول : أنا ضجرت من هذه الكلمة ، أنا وأعوذ بالله من كلمة أنا ، ويتكلم عن نفسه ، كل حديثه عن نفسه مفتخراً معظماً ، وكلما قال :أنا ، يضيف أربع كلمات بعدها ! أعوذ بالله من كلمة أنا ، ويمدح نفسه ، الأضواء لا يسلطها على ذاته ، لكن يتحدث عن ربه ، ما ذكرني عبدي في نفسه إلا ذكرته في ملائكتي، وما ذكرني في ملأ من خلقي إلا ذكرته في ملأ خير منهم ، وهذا معنى قوله تعالى :

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 152)

مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يؤتي الله أحداً الكتاب ، والحكمة ، والنبوة ، ثم يقول هذا الإنسان للناس : كونوا عباداً لي من دون الله ، لا يمكن أن يقول إلا : كونوا ربانيين ، أنت رباني ، كيفما تحركت تعبر عن حقيقة هذا الدين العظيم ، وعن حقيقة سيد المرسلين .

4 ـ المؤمن ربّاني :

موقف أبي بكر الصديق عند وفاة النبي دليل أنه ربّانيّ :

شيء آخر ؛ النبي عليه الصلاة والسلام حينما انتقل إلى الرفيق الأعلى ماذا قال الصديق ، وهو أحب الخلق إليه ؟ ما من بشرين على وجه الأرض أحب كل منهما الآخر كما أحب النبي الصديق ، وكما أحب الصديق النبي ، ومع ذلك حينما وافت المنيةُ رسولَ الله قال أبو بكر : من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

المؤمن رباني ، كل حركاته ، وسكناته ، وأقواله ، وأفعاله ، وفي كل أوقاته مع الله ، ينطق بالله ، يستعين بالله ، يفوض أمره إلى الله ، راض بقضاء الله وحكمه ، يسعى لخدمة عباد الله ، يسعى لنشر الحق ، لمسح الآلام عن البؤساء والفقراء ، المؤمن رباني ، وبالمقابل هناك شخص شيطاني خبيث ، كيفما تحرك يؤذي بكلماته ، وحركاته ، وسكناته ، يأكل المال الحرام ، ويفرق بين الأنام ، وأينما تحرك يؤذي ، فهناك رباني ، وشيطاني ، وشهواني ، كلمة شهواني تعني شدة اتصافه بالشهوة ، كلمة رحماني شدة اتصافه بالرحمة ، كلمة رباني شدة محبته لربه .

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)

وكيف لا ؟

(بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ

1 ـ معنى المدارسة :

المدارسة أن نقرأ النص معاً ، ونتعاون على فهمه ، واستنباط الأحكام منه ، هذه المدارسة ، والتعليم أبلغ .

2 ـ كيف تخالفا نصًا تعلمُه وتعلّمه الناسَ ؟!

أنت متمكن من هذا النص ، وتعلمه للناس ، كيف تخالفه ؟ ولا يمكن لهذا النبي ، أو الرسول ، أو الحكيم أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر ؟ هذا موضوع دقيق .

3 ـ طاعة الإنسان في معصية الله تأليهٌ له :

هناك أشخاص يؤلهون بعضهم بعضاً ، يقول لك : أنا لم أقل : إنه إله ، نعلم ذلك ، لم تقل إنه إله ، ولكنك عاملته كإله ، أخذت أمره ، ولم تعرضه على الشرع ، نفذته من دون أن تتأكد من صواب هذا الأمر ، إنك تعبد هذا الإنسان من دون الله ، حينما تتخذ إنساناً إلهاً أو رباً لا يعني أن تقول : إنه إله ، أو رب ، ولكن تتعامل معه وكأنه إله لا يخطئ ، وأمره لا تفكر فيه أبداً ، أما سيدنا الصديق لما تولى الأمر قال : << أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >> ، بينما الشرع يقول: راقبوني .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

((أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْصَرَفَ مِنْ اثْنَتَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ ذُو الْيَدَيْنِ : أَقَصُرَتْ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَصَدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ ؟ فَقَالَ النَّاسُ : نَعَمْ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى اثْنَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ، ثُمَّ سَلَّمَ ، ثُمَّ كَبَّرَ ، فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ))

[متفق عليه]

بعضهم كان في حوار ، وسؤال ، هذا الذي يغمض عينيه ، ويقول أحياناً : خطأ الشيخ خير من صواب طالب العلم ، كلام غير مقبول ، لأنه : أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيتموه فلا طاعة لي عليكم، بيننا كتاب الله ، وسنة رسول الله .

(وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ)

أنت حينما تعظم إنساناً فيصل تعظيمك في هذا الإنسان إلى درجة أنك تطيعه على عمى هذا تأليه ، اتخذته إلهاً ، واتخذته رباً .

4 ـ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ :

الصحابة الكرام لحكمة أراها الله أمر النبي على بعضهم رجل من الأنصار ذا دعابة ، فلما انطلقوا استوقفهم وقال : أضرموا ناراً عظيمة ، فأضرموها ، قال : اقتحموها ، لما ؟ قال : أنا آمركم بهذا ، ألست أميركم ؟ أليست طاعتي طاعة رسول الله ؟ الصحابة ترددوا في هذا الأمر ، بعضهم قال : إنما آمنا بالله فراراً من النار ، فكيف ندخلها ؟ بعضهم قال : طاعة الأمير طاعة رسول الله ، بلغ ذلك النبي، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

((أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ جَيْشًا ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا ، فَأَوْقَدَ نَارًا ، وَقَالَ : ادْخُلُوهَا ، فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا ، فَذُكِرُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا : لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ لِلْآخَرِينَ : لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[متفق عليه]

حتى إن الآية الكريمة تقول :

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

(سورة الممتحنة : من الآية 12)

حتى معصية النبي مقيدة بالمعروف ، يجب ألا تكون معصيتك للنبي في أمر تشريعي ، لو فرضنا في أمر مزاجي ، النبي عليه الصلاة والسلام كان لشعره طريقة خاصة فرضاً ، فتح قميصه ، تسريحة شعره ، كلما فعل النبي شيئاً ليس تشريعياً من أحواله الخاصة ، هذا شيء آخر ، لكن يجب أن تتابعه في أوامره التشريعية التي هي من عند الله ، أما في أحواله الشخصية فكان يحب اليقطين ، لو أن واحدًا ما أحب اليقطين فهل هو في جهنم ؟ لا علاقة لذلك ، هذه قضية شخصية .

(وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا)

لذلك قالوا : يا رسول الله ، أنت رسول ، ونحب أن نعظمك ، أنسجد لك ؟ قال : معاذ الله ، السجود لله وحده ، أبداً ، ديننا دين توحيد .

(وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ)

هذا كفر ، أن تسجد لإنسان ، أن تدعي ، أو تعامل إنساناً على أنه رب ، أو إله فهذا كفر .

(أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

أيعقل من مسلم استسلم لأمر الله أن يعبد من دونه أحداً ؟

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يعيننا في الدرس القادم على متابعة هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(24-60): تفسير الآيات 81 - 91
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-05-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الواحدة والثمانين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ)

(سورة آل عمران)

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ

1 ـ الأنبياء يصدِّق بعضهم بعضًا :

الله جل جلاله في هذه الآية يبين أن كل نبي أرسله الله عز وجل ، وأيده بالمعجزات ، ومنحه الحكمة ، ينبغي أن يؤمن بالنبي الذي بعثه ، لأن الأصل واحد ، ولأن هذه الرسالات ، وهؤلاء الأنبياء يصدرون عن الله عز وجل ، الإله الواحد ، فالأنبياء ينهلون من مشكاة واحدة ، والرسل يوحي الله إليهم ، فلا معنى نظرياً أن يرفض نبي أن نؤمن بنبي بعده ، ولا أن يرفض رسولٌ أن يؤمن برسول بعده ، هذا الشيء ما كان له أن يكون ، لأن الأنبياء والرسل قمم البشر، ينصاعون إلى الله انصياعاً لا يوصف ، في أدق التفاصيل .

2 ـ هذه الآية تعني أتباع الأنبياء :

الحقيقة هذه الآية تعني أتباع الأنبياء ، لأنه بالمنطق كيف يكلف نبيٌ أن يؤمن بنبي بعده ، وبينهما ستمائة عام ؟ مستحيل ! سيدنا موسى مكلف أن يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، مستحيل ، لكن بعض العلماء قالوا : هذه الآية تخص أتباع الأنبياء ، لأن أتباع الأنبياء يتبعون أنبيائهم ، وينفذون شرعهم ، الأنبياء أخذ عليهم العهد .

(لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ)

3 ـ يجب الإيمان بجميع الأنبياء :

الإيمان به التصديق ، النصر أن تنطوي تحت إمرته ، وأن تكون في خدمة هذه الرسالة الجديدة .
أوضح لكم ذلك بمثل من حياتنا اليومية ، مؤسسة لها مدير عام ، هذه المؤسسة تابعة لوزير ، لهذه المملكة ملك ، الملك غير الوزير ، لعله نقله إلى مكان آخر ، لعله جعله سفيرًا ، لعله ألف وزارة جديدة، هل يستطيع مدير هذه المؤسسة أن يقول : أنا لا أتلقى أوامري إلا من الوزير السابق ؟ معنى ذلك أن ولاءه للملك غير صحيح ، ما دام الملك قد غير الوزارة مثلاً ، ما دام الملك قد كلف هذا الوزير الذي كنت تابعاً له لمهمة أخرى ، وعين وزيرًا آخر ، فعلامة ولائك للملك أن تنصاع للوزير الجديد ، ولتعليمات الوزير الجديد ، وأن تكون منفذاً لتعليماته قابلاً لخدمته .
هذا المعنى دقيق ، لأنه لا يعقل أن نكون مسلمين أصلاً إلا إذا آمنا بالأنبياء السابقين واحداً واحِداً ، وأتباع الأنبياء السابقين ينبغي أن يتبعوا النبي الأخير ، النبي الخاتم الذي ختم الله به الرسالات ، مضمون هذه الآية كذلك :

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ)

4 ـ أخذُ الله ميثاقه على الناس بالإيمان بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام :

الميثاق هو العهد ، أخذ عليهم العهد ، والحقيقة أخذ عليهم أن يبلغوا أتباعهم أنه إذا جاء نبي فينبغي أن يؤمنوا به ، ويتبعوا رسالته .
وتعلمون أيها الإخوة أن اليهود وفي كتبهم كلام واضح كالشمس ، أن الله عز وجل سيبعث في آخر الزمان رسولاً اسمه أحمد .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ ؟ قَالَ :

((دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ))

[أحمد]

وقال تعالى :

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

(البقرة : من الآية 129)

بشارة أخي عيسى ، قال تعالى :

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

(الصف : من الآية 6)

إذاً : الأنبياء أصالة ووكالة عن أتباعهم ، كلفوا أنه إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم ينبغي أن يؤمنوا به ، وأن ينصروه بأن يكونوا في خدمته ، وخدمة الحق الذي جاء به .

أيها الإخوة ، الله عز وجل يقول :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

فحوى دعوة الأنبياء واحدة ، وقد ذكرت لكم في درس سابق أن الأنبياء جميعا من دون استثناء ذكروا في القرآن الكريم ، ووصفوا بأنهم مسلمون ، والإسلام بمعناه الواسع أن تستسلم لمنهج الله ، أنت عبد كائن معقد تعقيد إعجاز ، لك خالق عظيم هو الخبير ، أنت مكلف أن تنفذ تعليماته ، أما أن تعبد الله وفق ما تهوى فمستحيل أن تكون عبداً لله بهذه الطريقة ، فينبغي أن تكون عبداً لله وفق رأيك لا وفق منهج الله ، مستحيل أن تكون عبداً لله ، وأنت بهذه العقلية ، أما أن تحدد أني أتلقى تعليماتي من هذا النبي وحده ، ولم أعترف بنبي آخر فمن المستحيل أن تكون عبداً لله بهذه العقلية .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ)

أخذ ميثاق النبيين من أجل أن يبلغوا أتباعهم لأنه من الممكن أن يكونوا أتباع نبي في عصر جاء نبي جديد .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ)

الدعوة واحدة ، والإله واحد ، الجنة والنار ، الاستقامة على أمر الله ، عدم العدوان على الآخرين ، عدم الزنى ، عدم القتل ، المنهج واحد .

بالمناسبة ، لا يعقل أن يكون لكل نبي منهج ، هناك مناهج مختلفة ، لكن بحسب تطور الشعوب ، والمجتمعات الإنسانية ، لكن لا يعقل أن يكون الشيء محللاً هنا ومحرمًا هناك ، الإله واحد ، فإذا كان ضاراً لِمَ أُحِلّ في هذا الدين ؟ وإذا كان نافعاً لمَ حرم في هذا الدين ؟ إله واحد ، هذا يأباه العقل السليم ، لذلك إن رأيت شيئاً حلالاً في دين ، وحراماً في دين آخر ، فهذا يعني أن في هذين الدينين تزويرًا ، أو تغيرًا ، أو تبديلاً ، قال عزوجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة : الآية 183)

فلذلك الأنبياء أخذ الله عليهم العهد أن يبلغوا أتباعهم أنه إذا جاء نبي في آخر الزمان مصدق لما معهم ، ويدعو إلى عبادة إله واحد ، وإلى الاستقامة على أمره ، والإحسان إلى خلقه ، فينبغي أن يؤمن أتباع الأنبياء بهذا النبي الجديد ، وينبغي أن ينصروه ، وأن يضعوا إمكاناتهم - كما يقال الآن - تحت تصرفه! .

(قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي)

قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا

الإصر هو العهد .

(قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا)

بلغوا أتباعكم ليكون هذا منهجاً في كل دين ، لأن أتباع كل دين ينبغي أن يؤمنوا بنبيهم ، فإذا جاء نبي آخر ينبغي أن يؤمنوا به ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الآمر ، والولاء له .

المثل واضح جداً ، أعيده مرة ثانية : مدير مؤسسة تابع لوزير ، ولهذا البلد ملك ، فالملك نقل هذا الوزير إلى منصب آخر ، هل يحق لمدير المؤسسة أن يقول : أنا لا أتلقى تعليماتي إلا من الوزير السابق ، معنى ذلك هو يرفض أن ينصاع للملك ، هذا أمر ملكي ، هذا التوجيه من الملك ، إذاً : يشك في حكمته ، وفي علمه ، ولا يواليه ، المعنى أصبح واضحًا .

(لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ)

قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ

وقد ذكرت في دروس سابقة أن شهادة الله عز وجل تعني أن أفعال الله تأتي مصدقة لكلامه .

(فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ)

والدليل : أن الله ينصر نبيه الكريم الذي جعله خاتم الأنبياء ، ويؤيده بالمعجزات النيرات الواضحات ، ثم يقول الله عز وجل :

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ

1 - يجب اتباع الدين الذي اختاره الله :

يجب أن تكون تابعاً للدين الذي اختاره الله للناس .

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا)

(سورة المائدة : من الآية 3)

رضي الله لنا هذا الدين ، رضي لعباده ، وللناس قاطبة ، فإن لم نعتنقه معنى ذلك أننا رفضنا هذا الدين، ورفض دين الله عز وجل شيء كبير في عالم الإيمان .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

2 ـ الكون أسلمَ لله قسرا :

هذه شاملة شمولا مطلقًا ، الكون يعبر عنه في القرآن الكريم بالسماوات والأرض ، والكون بالتعريف الدقيق ما سوى الله ، والله عزوجل واجب الوجود ، وما سواه فممكن الوجود ، ما سواه الكون ، والتعبير القرآني للكون السماوات والأرض ، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، كرهاً هذا واضح ، كل واحد منا مؤمنًا كان أو كافراً ، مستقيماً أو منحرفاً ، عربياً أو عجمياً ، يسلم قسراً لله عز وجل ، من منا يستطيع أن يعيش ساعة بلا قلب ، لو توقف قلبه عن الحركة لكتب نعيه ، وانتهى أمره ، فأنت مقهور بعمل القلب ، مقهور بعمل الرئتين ، مقهور بنمو الخلايا ، مقهور بالحركة، مقهور بالتنفس ، أيّ خلل في جسمك يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق ، أوضح من ذلك ، الملوك يموتون ، والطب كله بين أيديهم ، وأموال الدنيا بين أيديهم ، وبإمكانهم أن يستقطبوا أطباء العالم ليعالجوهم ، فالملك مقهور ، والفقير مقهور ، والغني مقهور ، قد تجد غنياً يملك ملايين طائلة ، ويمكن أن ينفقها كلها على بقائه حياً ، ولا يبلغ ذلك ! يأتيه ملك الموت .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

3 ـ المؤمن خضع له طوعاً :

المؤمن عرف الله طوعاً ، فخضع له طوعاً في حياته ، أما الكافر فعرفه عند الموت ، فكان مقهوراً بالموت ، وسبحان من قهر عباده بالموت ، المؤمن عرفه طواعية في حياته ، فأطاعه طواعية ، هذا أعلى أنواع الطاعة ؛ أن تطيعه مختاراً ، أن تطيعه محباً ، وتطيعه بمبادرة منك ، لا بقهر ، أو ضبط من الآخرين ، أن تطيعه ، وأنت صحيح ، شحيح ، قوي ، أنت تطيعه ، وأنت في مقتبل حياتك ، وأنت في عز تألقك ، أن تطيعه ، وأنت معافى في جسمك ، لكن هناك إنسان يسهو ، ويغفل عن الله عز وجل، فإذا جاءته الشدة يطيع الله ، على كل حال جيد ، فقد استجاب لله عز وجل ، ولكن لا بد أن نخضع لله اختياراً أو اضطراراً .

هناك قصة تروى ؛ في بلد من بلاد المسلمين امرأة منحرفة أشد الانحراف ، لا تحب أن ترى فتاة محتشمة إطلاقاً ، فكانت تبالغ في إيذاء من كانت محتشمة في هندامها ، وكانت تنزع أي شيء على رأس الفتاة ، ثم رئِيت بعد حين تضع على رأسها الحجاب ، فلما سُئلت قالت : أصابني مرض في رأسي ، ونصحني الطبيب بوضع شيء من القماش على رأسي ، ولما رجوته أن أضع ما يسمى بالباروكة رفض ، قال : هذه تسبب حساسية ، ضعي قماشة على رأسك ، وهكذا يقهر الله عز وجل الإنسان في أي لحظة .

يمكن أن تركع أمام أحقر الناس ، يمكن أن تنقب في الحاويات ، يمكن أن ترى الموت أكبر نعمة ، قد تأتيه الأمراض مجتمعة فلا يرى نعمة أعظم من الموت ، سبحان من قهر عباده بالمرض والموت !!!

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)

4 ـ لماذا الخضوع لغير الله ؟

أتخضع لغير الله ؟ أتنصاع لغير الله ؟ أتأبى أن تكون عبداً لله ؟ أنت أكبر من أن تطيع الله ؟ مركزك أكبر من أن تطيع الله ؟ أتخشى على الدنيا ، وهي فانية ، وتعصي الله ؟

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)

أتبغي أن ترضي مخلوقاً ضعيفاً يموت قبلك ؟ أتبغي أن تكون تابعاً لجهة أرضية ، وأنت مكرم عند الله؟ أترضى أن تكون محسوباً على غير الله ؟

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)

ماذا تبغي ؟ تبغي المال ، ماذا تفعل بالمال إذا زاد عن حده ؟ انقلب إلى ضده ، ماذا تبغي ؟ ثم ماذا ؟ وصلت إلى أعلى ثروة في العالم ، ثم ماذا ؟ هؤلاء الذين ملكوا ثروات بأرقام فلكية ، واحد عنده سبع وثمانون مليار دولار بأمريكا (بل غيتس) ، هذا ماذا يفعل بها بعد أن يأتيه ملك الموت ؟ ثم ماذا بعد المال ؟ وصلت إلى أعلى مرتبة عليمة في الدنيا ، ثم ماذا بعدها ؟ وصلت إلى أعلى منصب في العالم ، ثم ماذا بعدها ؟ سبحان من قهر عباده بالموت .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)

أتتجه إلى غير الله ؟ أتطمع بغير رحمة الله ، ألك مصير إلا إلى الله ؟ هل في الإمكان أن تطلب لجوءًا من جهة أخرى ؟ هذه الجهة لا يملكها الله عزوجل ؟ في الدنيا ممكن ، تتجه إلى بلد يعادي بلدك فتأخذ اللجوء السياسي ، لكن هل تستطيع أن تلجأ إلى غير الله ؟ لا ملجأ منه إلا إليه .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)

خيار الإيمان خيار وقت فقط :

فرعون ألم يسلم ؟ مات مسلمًا ، لكن إسلام قهر ، قال تعالى :

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس : من الآية 90)

لكن متى آمن ؟ وهو يغرق ، أيقن أن دعوة النبي الكريم موسى عليه السلام حق ، وأن الله أغرقه ، وقهره ، أيليق بالإنسان أن يقهره الله عز وجل إذا كان معانداً ؟

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

طبعاً :

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام : من الآية 158)

تقبل توبة العبد ما لم يغرغر ، إذا كان في النزع الأخير لا توبة أمامه !

(حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

(سورة النساء : من الآية 18)

هذا الكلام له معنى آخر ، معناه الآخر أنك في شؤون كثيرة مخيّر خيار قبول أو رفض ، قد ترفض هذا البيت لضيقه ، وقد ترفض الزواج من هذه المرأة لكبرها في السن فرضاً ، وقد ترفض هذه التجارة لأنك مهضوم الحق فيها ، وقد ترفض هذه السفر لأن مردودها قليل ، فأنت في أمور كثيرة جداً مخير خيار قبول ، أو رفض ، إلا في الإيمان فأنت مخير خيار وقت فقط ، فإن لم تؤمن في الوقت المناسب فلابد أن تؤمن في وقت آخر ، لكنه غير مناسب ، بعد فوات الأوان ، كما آمن فرعون .

الديانات الأرضية لا تكاليف فيها :

وأنا أشهد الله أنه ما من عبدٍ على وجه الأرض ، ولا أستثني أحداً إذا جاءه ملك الموت آمن بفحوى رسالات السماء تماماً ، لأنها هي الحق ، لكن في الدنيا يرفض أن يؤمن ، يقول : أنا أعتز بأنني بوذي مثلاً ، كل واحد يعتز بدينه ، لكن المشكلة أن هذه الأديان الوضعية ذات انتشار واسع جداً بسبب أنها تفتقر إلى التكليف ، فلا تكليف فيها ، بل القضية إعلان ولاء فقط ، وهي لا تقدم ولا تؤخر .

قال لي أحدهم : لماذا يحبون دين البوذية هناك ؟ لأنه دين لطيف ، لا تكاليف فيه ! فيه طقوس خفيفة ، فأصبح دينًا ، لكن من دون تكاليف ، يفعل ما يشاء ، يأكل ما يشاء ، يمارس أي شهوة كما يشاء ، دون أن يحاسب ، ومع ذلك فهو بوذي فرضاً ، أو هو من السيخ أو من ديانة أخرى .

لذلك الديانات الأرضية ديانات لا تكاليف فيها ، فقط فيها ولاءات ، الديانات السماوية حينما تنحرف تخف فيها التكاليف ، لا تكاليف فيها ، وتظهر فيها العقائد الفاسدة ، لمجرد أن تقترف كبيرة فالنبي يشفع لك ، هذا شيء مريح جداً ، شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي .

ماذا نفعل بحديث النبي ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ :

((يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا

بَنِي هَاشِمٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

[متفق عليه]

الديانات السماوية حينما ينحرف أهلها عن الصواب ، حينما تعدل ، وتغير ، وتبدل ، وفي بعض الديانات نصوص لن تتغير ، لكن يفهمونها فهماً منحرفاً ، القصد تخفيف التكاليف ، يقولون : الله قال :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

أكمل الآية :

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

يقول لك : الله قال :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر : الآية 53)

أكمل :

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

(سورة الزمر : الآية 54)

كمن يقول :

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)

(سورة الماعون : الآية 4)

أكمل :

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

(سورة الماعون : الآية 5)

إذاً : الآن انتقلنا إلى شيء آخر ؛ كل ضلال في الأديان فيه تخفيف التكاليف ، واعتماد النصوص الموضوعة ، وتأليه الأشخاص ، والنزعات العدوانية .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

القصص أيها الإخوة التي تقع كل يوم حول :

(وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)

الإنسان عبدُ قهرٍ أو عبدُ شكرٍ :

لا تعد ولا تحصى ، إنسان يتمتع بدراسة في جامعات راقية جداً في أوروبا ، وإنسان بالتعبير المعروف حضاري راقٍ جداً ، وتسلم منصبًا رفيعًا جداً ، فقد بصره ، بعد شهر أحيل على التقاعد ،

زاره صديق ، قال له : والله أتمنى أن أجلس على الرصيف أتسول على أن يرد الله لي بصري ! أين الدكتوراه ، والزوجة ، والبيت في أحلى أحياء دمشق ، والدخل ، الفلكي والمركبات ، أين ؟ أتمنى أن أجلس على الرصيف ، أمد يدي للناس ، على أن يرد الله لي بصري ! أنت مقهور ببصرك ، وسمعك ، وحركتك ، وعمل قلبك ، وعمل رئتيك ، وعينيك ، وأذنيك ، ولسانك ، وذاكرتك .

أحد إخوتنا الكرام رحمه الله اتصل بابنه وقال له : أين بيتي يا بني ؟ قال : ساعة وأنا أبحث ، و لم أعرف أين بيتي ، هذا فقدُ ذاكرة جزئيٌّ ، فقد ذاكرته ! من الذي يضمن لك أنك إذا ذهبت إلى عملك ترجع إلى بيتك ؟ الله جل جلاله .

لي أقرباء ، وهم قبل أن يموتوا بسنوات فقدوا ذاكرتهم ، تزورهم يقولون : من أنت ؟ يأتيه ابنه ، من أنت ؟ لا يعرفه ، ذاكرتك ، وحركتك ، وقلبك ، وصماماتك ، وشريانك التاجي ، أعصابك ، وعضلاتك، وسمعك ، وبصرك ، ولسانك ، وعمل جهازك الهضمي ، الكظر كله بيده، الغدة النخامية ملكة الغدد ، أما وزنها فضخم جداً ، نصف غرام ، تعطي اثني عشر أمرًا هرمونيًا ! أحد هذه الأوامر هرمون النمو ، لولا هذا الهرمون لعاش الإنسان قزماً ! أحد هذه الأوامر هرمون توازن السوائل ، لو اضطرب هذا الهرمون كان شغلك الشاغل أن تقبع جنب الصنبور ، ودورة المياه ، تشرب ثلاث قارورات ماء في اليوم ، شرب وطرح ، لو قرأتم عن هذه الغدة التي هي ملكة الغدد لوجدتم شيئًا لا يصدق ، فأي خلل بهرموناتها ، وأوامرها تصبح حياة الإنسان جحيماً لا يطاق ، فسبحان من قهر عباده بالمرض والموت ، فأنت عبد لله فكن له عبداً طائعاً .

لذلك فرق الله عز وجل بين العبيد والعباد ، العبيد جمع عبد القهر ، والعباد جمع عبد الشكر قال :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان : من الآية 63)

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر : من الآية 42)

لكن :

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت : من الآية 46)

أي إنسان عبد قهر ، مقهور ، ألا يوجد أشخاص ماتوا في أوج عظمتهم ؟ وفي أوج صحتهم ؟ بحادث، وفي أوج قوتهم ، وفي أوج غناهم ؟ سبحان الله الإنسان بالتعبير المعاصر سريع العطب ، مائة سبب يفقد الإنسان حياته في ثانية !

لي قريب طالب في الطب ، كان متألقًا جداً ، وعلى مستوى مرتفع ، وعالٍ جداً ، فجأة حدث معه فقر دم ، زار أطباء كثر فقالوا له : إنه فقر دم ! صحته جيدة ، ويأكل طعامًا جيدًا ، وهو طبيب درس الطب، بعد حين ، وبعد سفر إلى أوروبا كُشف أن الطحال عنده يعمل بنشاط زائد ، الطحال

مقبرة كريات الدم الحمراء ، ومعمل كريات احتياط ومخزن لكريات الدم ، ومستودع ، ومعمل ، ومقبرة ، وهو مهمته أن يلتقط كرية الدم الحمراء الميتة ، يقبرها عنده ، ثم يحللها إلى هيموغلوبين يرسلها إلى الكبد ، وإلى حديد ، يرسله إلى معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام ، المشكلة أن هذا الطحال بدأ يأخذ الكريات الحية ، ويقتلها ليحللها ، نحن فرضاً نأتي بمعمل ، ونكبس السيارة التي هي للأنقاض ، أما هذا المعمل نستخدمه لسيارات حديثة جداً ؟ غير معقول ، فالخطأ البسيط لهذا الجهاز الطحال أودت بحياة هذا الأخ ، العالم كله وقف مكتوف اليدين ! ماذا نعمل مع الطحال ، يأخذ الكرية الحمراء الشابة ، ويقتلها كي يحللها ، أصبح هناك فقر الدم ، هذا الإنسان غذاؤه جيد جداً ، فبرأيك كم من جهاز ينهي حياتنا ؟ والله هناك مليون سبب للموت ، ولا أبالغ ، وهناك موت بلا سبب ، والرجل بكامل صحته . حدثني أخ رجل رياضي من الطراز الأول من ثلاثين سنة ، كل شيء يتكلم به عن الرياضة ، والمشي، والجري ، والصحة ، وخبز النخالة ، والخضراوات والسلطة ، والحركة ، والنشاط ، والفيتامينات ، ليس له شغل شاغل غير صحته ، حدثني أخ كريم ، وهو في سن مبكرة ، وليست متأخرة عندما كان في المسبح وقع ميتاً بلا سبب .

أخ ثان كان يقول في جلسة سمر : أنا أمامي وقت لأموت ، فقال له واحد : لماذا لا تموت ؟ قال : أنا رجل طعامي قليل ، وأعتني بصحتي ، ولا أدخن ، هذا كلام علمي ، تكلم ، وكل شيء صحيح ، كل يوم سبت عنده جلسة ، في السبت الثاني كان مدفوناً في التراب !

نحن جميعاً مقهورون ، لا أحد يعرف متى يموت ، لا أحد يعلم ما في جسمه ، تجد شخصًا بأعلى درجة من العناية بصحته ، تجده فجأة ينشأ تفلت بنمو الخلايا بلا سبب ، هذه سبحان الله أمراض عضالة لا سبب لها ولا علاج ، أنا سميتها بوابات خروج ، كيف سيخرج الواحد ؟ قالت امرأة لطبيب قلب : ما نسبة نجاح العملية ؟ قال : ثمانون بالمائة ، قالت : ما تعني هذه النسبة ؟ قال : يأتي مائة شخص يموت منهم عشرون ، قالت : لا أريد ، فقال لها الطبيب : إذاً كيف نموت نحن ؟ إذا كان كله ينجح ، لم يعد هناك موت ، فنحن :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر : الآية 30)

بطولتنا أن نعمل لهذه الحفرة التي لابد منها ، شئنا أم أبينا ، نحن محكومون جميعاً بالموت مع وقف التنفيذ .

(وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(83)قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ)

فحوى دعوة الأنبياء واحدة ، ومضمونها واحدة .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء : الآية 25)

(وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(84)وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)

نحتاج إلى إسلام الباطن أولا :

الإسلام في جوهره أن تستسلم لله ، ليس عند الله دين فلكلور ، جلابية بيضاء ، ومسواك ، ومسبحة ، وعطر مسك من مكة أحضره معه ، والمعاصي لا حدود لها ، ليس عند الله مثل هذا الدين ، هذا دين فلكلور ، دين ثقافة فقط ، إسلام صالونات ، دين حفلات ، وإلقاء كلمات ، هذا غير موجود عند الله ، الدين فكر فقط ، رد على أفكار أعداء الدين ، لكن لا يوجد التزام أبداً ، هذا كله أنواع من الدين عجيبة ، إسلام صالونات ، إسلام عزائم ، إسلام أناشيد ، طرب ، أو مظاهر ، إسلام ألقاب علمية .

الدين عند الله أن تستسلم له في كل أمر وفي كل نهي ، إن الدين عند الله الإسلام ، أن تخضع لله في شؤون حياتك كلها ، الدين الحقيقي أن يحكمك الإسلام بكل تفصيلاته ، لا أن تنتقي منه ما يعجبك ، كثير من الناس يحبون العمرة ، ركوب طائرة ، وإقامة بفندق ، وسفر ، ومشاهدات ، يقول لك : اعتمرت ثلاثا وثلاثين عمرة ، العمرة واجبة ، لكن في غير العمرة لا التزام في الدين إطلاقاً ، فأكثر المسلمين ينتقون من الدين ما يعجبهم ، هذه سهلة ، هذه فيها رحلة ، هذه فيها نشاط ، أما قل له : دع هذه السهرة المختلطة فلا يقبل ، أنفق من مالك في سبيل الله ، اضبط نفسك ، كل شيء يتعارض مع مصالح وشهواته يرفضه ، هو يختار من الدين ، وينتقي ما يعجبه ، فهذا الدين لا قيمة له عند الله ، ولأن هذا الدين ليس مرضياً عند الله فلا يمكّن أصحابه في الدنيا .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور : من الآية 55)

هذا الدين ليس مرضياً عند الله ، ونحن له مسلمون ، لذلك قال الله عز وجل :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ)

(سورة البقرة : من الآية 62)

إذاً : في الانتماءات الشكلية ، الانتماء الشكلي لا قيمة له إطلاقاً .

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : من الآية 62)

أي من آمن بالله الإيمان الحقيقي ، وكان عمله انصياعاً لمنهج الله ، وعطاء للناس آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فهذا الناجي ، فلا خوف عليه ولا هم يحزنون .

(وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

ثم يقول الله عز وجل :

(كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ)

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

1 ـ هكذا كفر اليهود بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام :

هؤلاء اليهود الذين استفتحوا على المشركين ، أنه سيأتي نبي في آخر الزمان ، وسنؤمن به ، وسنسبقكم إلى الإيمان به ، فلما جاءهم نبي كريم أنكروا عليه نبوته ، ورفضوا أن يؤمنوا ، قال بعض العلماء : هذه الآية تعني هؤلاء ، آمنوا به قبل أن يأتي ، ولما أتى كفروا به ، كيف هنا تفيد النفي ، لا يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ، هم يدينون لمصالحهم ، تحصيل حاصل .

(كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ)

2 ـ كلّ الأدلة تشهد على أحقية هذا الدين :

والله أيها الإخوة هناك أدلة لا تعد ولا تحصى على أحقية هذا الدين ، قبل يومين أطالع في بعض المواقع المعلوماتية ، وجدت صورة لجامع في إزمير ، والقصة قديمة جداً ، ومعهدًا شرعيًا ، لم يبق سالماً إلا هذا المسجد والمعهد الشرعي ، وما سوى ذلك أنقاض لا يزيد ارتفاعها على أربعين سنتيمترًا! البنية كلها ، أليست هذه رسالة من الله ؟ آلاف الرسائل من الله ، وهل يهلك إلا القوم الكافرون ؟ وهل نجازي إلا الكفور ؟ تجد كلما انحرف الناس جاء العلاج الإلهي .

(كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم .

3 ـ لابد من الثبات على الدين وعدم التزعزع :

إخواننا الكرام بالمناسبة : أفضل ألف مرة أن تبدأ حياة الإنسان في شرود عن الله ، ثم يصطلح مع الله، لا أن يبدأ حياته في اصطلاح مع الله ، ثم ينتكس ، الارتداد مخيف جداً ، يسبب اختلال توازن كبيرًا ، ومرضًا شديدًا ، ينبغي أنك إذا اصطلحت مع الله أن تكون ثابتاً ، قال تعالى :

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : الآية 23)

في معركة الخندق حينما كاد المشركون أن ينتصروا ، وأن يمحى الإسلام أصلاً قال أحدهم : أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ كأنه ارتد، والآن يقول لك أحدهم : أين الله ؟ !

والله البارحة سألني أخ فقال : الكفار أقوياء جداً ، يفعلون ما يريدون ، هذا امتحان صعب ، الكافر الملحد المتغطرس القوي يبطش ، ويهدم ، ويسحق ، ويهدر ، ولا أحد يحاسبه ، أما إذا أصيبت هرة من طرفه بشظية تقوم الدنيا ولا تقعد ، شيء لا يحتمل .

نحن في امتحان صعب جداً أيها الإخوة ، والله عز وجل له امتحانات عديدة ، أحد هذه الامتحانات أن يقوي الكافر إلى درجة أن يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ ثم يظهر الله آياته ، إلى أن يقول الملحد لا إله إلا الله، ينبغي أن نصبر .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 139)

(كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

4 ـ هؤلاء قوم ظالمون :

هؤلاء ظلموا أنفسهم فابتعدوا عن الهداية ، أرادوا الدنيا ، ظلم نفسه ، أو ظلم غيره ، فالظالم محجوب عن الله عز وجل .

(أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

انظر مَن لعن هؤلاءِ ، واعتبر بعدها :

الله يلعنهم ، والملائكة تلعنهم ، والناس أجمعون يلعنونهم ، فشتان بين أن تكون في رحمة الله ، أو في لعنة الله ، الكافر في لعنة بعيد حياته شقاء ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى)

(سورة طه : الآية 124-126)

(خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ

1 ـ أين مَن يدخل الآخرة في حساباته ؟!

بربكم كم من المسلمين أدخل الآخرة في حساباته اليومية ؟ ترك مبلغًا قال : معاذ الله ، هذا حرام أن آكله ، أخلص في عمله ، خاف من الله ، ترك مغنمًا كبيرًا خوف غضب الكبير ، كم من هؤلاء المسلمين يخشى الله عز وجل ؟ هم قلة ، والكثرة الكاثرة لا يخشون الله ، لذلك : وكأنهم غير مبعوثين ، وكأن لسان حالهم يقول : وما نحن بمبعوثين .

(أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(87)خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

2 ـ الكافر يوم القيامة في ذلةٍ وصَغار :

هو أصغر من أن يستحق نظرة الله عز وجل ! في الدنيا ما كان يعرفه أبداً ، وما كان يرحم عباده أبداً، إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي .

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم

سبحان الله كلما جاءت آيات الشدة جاءت آيات الرحمة .

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة العصر : الآية 1-3)

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا)

دققوا :

(وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

1 ـ مغفرة الله للعبد بعد توبته وإصلاحه :

هناك آيات كثيرة ، فالله مغفرته بعد أن تتوب ، وتصبح علاقتك بالله عز وجل .

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

غفور يمحو الماضي ، رحيم يعطيك عطاء جزيلاً ، غفور كلمة سلبية ، نظفنا هذا البيت ، ثم فرشناه بأفخر الأثاث ، غفور عفا عن كل ما مضى ، ورحيم منحك كل عطاء ، بشرط :

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا)

فالحقيقة التوبة والإصلاح يعنيان أن تقلع عن الذنب فوراً ، وأن تعقد العزم على ألا تعود إليه مستقبلاً ، وأن ترمم ما مضى سابقاً ، فهناك عملية متعلقة بالماضي ، وعملية متعلقة بالمستقبل ، وعملية متعلقة بالحاضر ، فعملية الحاضر إقلاع ، وعميلة المستقبل عزم ، وفي الماضي إصلاح ، فهذا الذي تاب ، وأصلح فإن الله غفور رحيم .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا

1 ـ الموقف الفكري سلوك خطير :

يروي بعض المفسرين أن اليهود أيضاً آمنوا بالنبي قبل أن يبعث ، ولما بعث كفروا به ، وازدادوا كفراً بإلهه ، أحياناً تجد كافرًا مسالمًا ، هو كافر ، لكن ثمة كافر يتدخل في شؤون المسلمين كي يؤذيهم، ويضعفهم ، وهذا ما يفعله أعداؤنا ، هو في بحبوحة كبيرة فيحب أن يأكل كل شيء ، يحب أن يضعف المسلمين ، وأن يفقرهم ، ويحتل أرضهم ، فعندنا كافر ، وكافر مؤذٍ.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا)

أحياناً الموقف الفكري وحده خطأ كبير ، لكن أحياناً مع الموقف الفكري سلوك خطير ، هناك إنسان نمطه مسالم ، لكنه شهواني ، هذا أقرب إلى التوبة من هذا الذي يفسد ، فاسد مفسد ، ومذنب ، ويحمل الناس على الذنب ، وهناك شخص فاعل ، وشخص يفعل في غيره ما يفعله في نفسه ، هذا من أشد المعاصي والآثام .

(لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ)

العلماء أجمعوا على هذا الحل ، أما إذا تابوا فلا مشكلة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا)

ولقوا الله على هذه الحال ، وحشروا على هذه الحال .

(لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الضَّالُّونَ)

الآية الأخيرة :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ

لا ينفع مالٌ يوم القيامة للنجاة من عذاب الله :

إذا كان مع شخص كيلو من الذهب ، ثمنه خمسمائة ألف ، الأرض كم كيلو ؟ يوجد أرقام كبيرة جداً ، مليارات الأطنان ، لو أن وزن الأرض ذهباً ، وقدمته يوم القيامة لتنجو من عذاب الله لم يقبل ، أما الآن فمطلوب منك دفع ثمن أقلّ بكثير ، واحد بمليار المليار ، أن تستقيم على أمر الله ، وأن تصلي ، أن تدعو الله ، وأن تغض بصرك ، وأن تحصن فرجك ، وأن تحلل دخلك ، أن تنفق مالك في سبيل الله ، أنت مكلف بأشياء ضمن إمكانيتك ، لكن يوم القيامة لو معك ملء الأرض ذهبًا من أجل أن تدفعه كفدية من عذاب الله لا تستطيع .

الآن مطلوب منك شيء بسيط جداً ضمن إمكانيتك ، قال عزوجل :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة : من الآية 286)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

نعوذ بالله أن نكون من هؤلاء .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(25-60): تفسير الآيات 92 - 96
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-05-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والعشرين من سورة آل عمران ، ومع الآية الثانية والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : الآية 92)

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ

1 ـ معنى البرّ :

أيها الإخوة ، البر هي طاعة الله ، ثم الجنة ، من معاني البر الطاعة والجنة ، من معاني البر أيضاً مطلق عطاء الله ، فإذا أعانك أن تطيعه فقد أعطاك شيئاً تسعد به إلى أبد الآبدين ، إذا أعانك أن تطيعه ، وهو ينتظر أن تطلب العون منه ، وتسأله العون كل يوم مئات المرات إياك نعبد وإياك نستعين .

2 ـ من معاني البر الطاعة :

فمطلق طاعة الله عطاء من الله كبير ، ألم يقل يوسف عليه السلام :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف : الآية 33)

الجاهل هو الذي يعصي الله ، والعاقل هو الذي يطيعه ، وما كل ذكي بعاقل ، الذكاء قد يعينك على جمع الناس حولك ، وربما لا تكون على الحق ، تجمعهم لمصلحتك ، والذكاء يعينك على جمع الأموال الطائلة ، وربما لم تجمعها بحق ، فقد تغادر الدنيا ، وأنت فقير ، بل أنت أفقر الفقراء ، الذكاء قد يعينك على أن تكسب مودة الناس في حياتك تحقيقاً لمصالحك ، وربما لا تكون على حق أيضاً ، لكن العقل يعينك على معرفة الله ، وعلى طاعته ، وعلى العمل لجنة عرضها السماوات والأرض ، العقل يعينك على أن تعرف سر وجودك ، وغاية وجودك ، لذلك ما كل ذكي بعاقل .

من معاني كلمة (البر) الطاعة ، وحينما تكون مطيعاً لله فقد حققت الهدف من وجودك ، وقد حققت عبوديتك لله عز وجل ، وأنت في أعلى مقام ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سدرة المنتهى، قال تعالى في حقه :

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم : الآية 10)

وهو في أعلى مهمة ، وهي الدعوة إلى الله ، قال تعالى :

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(سورة الجن : الآية 19)

إذاً : البر طاعة الله ، لأنها سبب عطاء الله :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

تعرف هذه الكلمة بسبب العطاء ، وتعرف هذه الكلمة بنتيجة السبب ، سبب العطاء الطاعة ، ونتيجة السبب الجنة ، فالبر الجنة ، والبر الطاعة .

فائدة لغوية في كلمة (البر) :

قال بعض فقهاء اللغة : إن في العربية اشتقاقاً نادراً ، حيث إن حرف الباء وحرف الراء المشددة إذا اجتمعا دل ذلك السعة ، فالبَرُ اليابسة ، والحركة فيها واسعة ، مع أن البحر أوسع ، لكن الحركة عليه مقيدة ، البُرُ القمح ، أوسع إنتاج غذائي في الأرض ، أربعمئة وخمسون ألف نوع للقمح ، البرُ الإحسان، وهذه الكلمة مثلثة عند علماء اللغة .

3 ـ معنى : لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ

هنا البر الطاعة ، والبر الجنة ، أحدهما سبب ، والآخر نتيجة ، لن تنالوا البر ، لن تدخلوا الجنة ، لن يسمح لكم بدخولها ، لن تصلوا إليها إلا بثمن ، فمن طلب الجنة بلا ثمن فقد استهزأ بالله عز وجل ، وطلب الجنة من دون ثمن ذنب من الذنوب ، جنة عرضها السماوات والأرض ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر لا تكون إلا بثمن كبير ، بثمن باهظ ، هذا الثمن هو أن تكبح جماح نفسك ، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : الآية 40-41)

الجنة لها ثمن باهظ في الدنيا .

أيها الإخوة ، لن تنالوا البر ، لن تستطيع أن تكسب طاعة الله ، لن تستطيع أن تكسب معونة الله على طاعته إلا إذا دفعت ثمن هذه الطاعة ، أن تؤثر ما عنده على الدنيا .

4 ـ لابد من إنفاق الوقت :

حتى تنفقوا مما تحبون ، أحياناً الوقت ثمين ، ولاسيما أن في هذه الحياة مشاغل ، ومتاعب ، ومهمات، وخططًا ، وأهدافًا ، وبرامج ، وأعمالاً ، حينما تقطع من وقتك الثمين جزءًا منه لطلب العلم ، ولحضور مجالس العلم ، وجزءًا للدعوة إلى الله ، وجزءًا للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وجزءًا لقراءة القرآن ، فقد أنفقت مما تحب ، قد تجد عند بعض الناس أثمن شيء هو الوقت ، فإنفاق الوقت في طاعة الله ، وفي الدعوة إلى الله ، وفي خدمة الخلق، وفي طلب العلم ، وفي تربية الأولاد ، هذا شيء ثمين جداً ، وأنت تحبه هكذا ينبغي أن تنفقه .

5 ـ لابد من إنفاق المال والجاه والراحة :

وقد يكون المال ثمينًا جداً عند بعض الناس ، فلن يصل إلى ما عند الله من عطاء في الدنيا والآخرة إلا بإنفاق المال ، لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وقد يكون لك شأن كبير في المجتمع ، وأنت لست بحاجة إلى أحد ، لأنك مكتفٍ مالياً ، اجتماعياً ، نفسياً ، يأتيك إنسان ، ويقول لك : أتذهب معي إلى فلان لتكلمه لي ، وتتمنى أنت ألا تذهب ، وألا تبذل ماء وجهك أمام هذا الإنسان ، لكن رضاء الله يغلب عليك ، فتبذل من جاهك ، هناك من يبذل من ماله ، وهناك من يبذل من وقته ، وهناك من يبذل من جاهه ، وقد يمرض الأب أو الأم ، فحينما تسهر على راحتها ، أو راحته ، وحينما تضيع فراشك الثمين مقابلةً إلى هذا الإنسان بالإحسان فهذا شيء ثمين ، أن تنام على فراش وثير ، وأن تستغرق في نوم عميق ، لكن من كان عنده مريض فينبغي أن يسهر على راحته ، فأثمن شيء عند هذا الإنسان النوم ، فينبغي أن يدع الفراش من أجل رعاية هذا المريض .

الفكرة أن الله عز وجل غاية كل المؤمنين ، وهذه الغاية العظمى لن تنال منها شيئاً ، لن تنال رضاها ، لن تنال توفيقها ، لن تنال تجليها ، لن تنال مباركتها لك إلا بطاعتك ، وإنفاق الشيء الثمين ، وكل واحد منا عنده شيء ثمين يحرص عليه ، فلابد من إنفاق هذا الشيء الثمين ، قال تعالى :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة السجدة : الآية 16)

أحياناً النوم شيء ثمين ، المال شيء ثمين ، الوقت شيء ثمين ، الجاه شيء ثمين ، أما حينما ترى نفسك مستعدًا لإنفاق وقتك ، وإنفاق مالك ، وإنفاق جاهك ، وإنفاق راحتك في سبيل إرضاء ربك ، الآن دفعت جزءاً من سبب دخول الجنة ، لا أقول : دفعت ثمن الجنة ، لأن الجنة لا تقدر بثمن ، دخول الجنة محض فضل من الله ، بينما دخول النار محض عدل منه .

تمني دخول الجنة بلا عمل بضاعة الحمقى :

أيها الإخوة الكرام ، أن تتمنى دخول الجنة فهذه بضاعة الحمقى ، يا رب نحن عبيد إحسان ، ولسنا عبيد امتحان ، أن تمسك يدك عن الإنفاق ، ومعك المال الوفير ، لن تذوق ريح الجنة ، أن يكون بإمكانك أن تقيم العدل بين الناس ، لأنك قوي ، ولا تحب أن تدخل في هذه المتاهة طلباً لراحة نفسك ، لن تذوق الجنة ، إذا كان بإمكانك أن تقيم العدل بين الناس ، إذا كان بإمكانك أن تزيح عن الناس بعض البؤس ، إذا كان بإمكانك أن تمد الناس ببعض المال ، إذا كان بإمكانك أن تنطق بكلمة الحق التي هي ثمن سعادة البشر ، إذا أحجمت عن النطق بكلمة الحق ، أو إذا أحجمت عن أن تنفق المال ، أو إذا أحجمت عن أن تبذل الوقت الثمين في سبيل عمل صالح فتربص ، والطريق إلى الله عندئذ ليست سالكة.

هذه الآية أيها الإخوة تقابلها آية أخرى تقصم الظهر ، قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 24)

إيّاك أن تكون الدنيا عندك أغلى من طاعة الله :

إذا كان شيء من الدنيا أغلى عندك من طاعة الله ، إذا كان المال تكسبه من غش المسلمين فهذا المال أغلى عندك من طاعة الله ونفع المسلمين ، فاعلم علم اليقين أن الطريق إلى الله ليست سالكة ، إذا كان إرضاء زوجتك ، وهي تحقق لك متعة الدنيا أغلى عندك من طاعة الله فتربص ، فإن الطريق إلى الله ليس بسالك ، إذا كان البيت الذي تسكنه اغتصبته ، فهذا البيت المريح أحب إليك من أداء الحقوق إلى أصحابها فتربص ، فإن الطريق إلى الله ليست سالكة ، لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .

سمع هذه الآية أحد أصحاب رسول الله ، وكان عنده بستان جميل جداً ، بستان فيه نبع عذب ، وفيه ظلال وارفة ، وفيه أشجار مثمرة ، كان إلى جوار المسجد في" بيروحاء" ، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام ، وقال : يا رسول الله ، إن هذا البستان أحب مالي إلي ، وهو في سبيل الله ، فضعه لمن تشاء .

هكذا كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلى أصحابه رضوان الله ، ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا ببذل الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس .

نطلب من بعض الإخوة أن يأتي إلى درس الجمعة فقط ، ماذا يبذل ؟ اجلس فقط ، ويوجد تدفئة ، وماء بارد ، وكلام واضح ، وتكبير صوت ، وترحيب ، ماذا قدمنا نحن للإسلام ؟ لمجرد أن تمشي في طريق الإيمان الناس يحترمك الناس ، ويعظمونك ، ويبجلونك ، وفلان الله ينفعنا ببركاته ، ماذا قدمت أمام ما قدم الصحابة الكرام ؟ أنفقوا وقتهم ، أنفقوا مالهم ، تركوا بلادهم ، تركوا ديارهم ، تركوا أموالهم ، كانوا مع النبي في السراء والضراء ، قال تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران : الآية من 146)

أسلم أحد الأعراب ، واشترك في غزوة مع رسول الله ، فأعطي غنيمة فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذه غنيمة لك من الحرب ، قال : ما على هذا أسلمت ، أنا أسلمت على الذبح ، على أن أذبح في سبيل الله .

ماذا قدم المسلمون لدينهم ؟ ماذا قدموا لبعضهم ؟ ماذا قدموا إعلاءً لكلمة الله ، ماذا قدموا حلاً لمشكلات الفقراء ؟ ماذا قدموا حلاً لمشكلات الشباب ؟ ماذا قدموا حلاً للأيتام ، وللأرامل ، ماذا قدموا ؟ كل إنسان ينتمي إلى ذاته ، إلى مصالحه ، يحب أن يعيش وحده ، وأن يأكل وحده ، وأن يستمتع بالحياة وحده ، وعلى الناس السلام ، هذا النموذج من المسلمين لا يستحق نصر الله عز وجل ، هذا النموذج لا يستحق أن يكون الله معنا ، ولا أن يقهر أعداءنا ، قال تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : الآية 92)

الشيء الذي تحبه ، أحياناً مجيئك إلى مجلس العلم يقوي هذا المجلس ، أنت دعم للحق ، لك مكانة ، لك شأن ، فإذا جئت إلى بيت من بيوت الله ، وجلست بين الناس مستمعاً إلى مجلس العلم ، فأنت بهذا تدعم مجلس العلم ، وتدعم الحق ، أن تعين أخاك المسلم ، أن تهيئ له عملاً ، أن تبحث له عن فرصة عمل ، أن تيسر له زواجًا ، أن ترعى طالب العلم ، هذا دعم للحق ، ماذا أنفق المسلمون ؟

أيها الإخوة الكرام ، أبواب الخير مفتحةٌ على مصاريعها ، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، لكن البر الذي نطمح إليه جميعاً ، لكن البر الجنة التي هي مقصدنا جميعاً لن نصل إليها ، ولن ننالها إلا أن ننفق شيئاً نحبه .

6 ـ عجبًا لمن ينفق الشيء البالي المهترئ :

قديماً كما كنت أسمع ، ليس الآن ، والحمد لله قطعة الأثاث المهترئة هذه ترسل إلى المسجد ، الثريا القديمة المتكسرة هذه إلى المسجد ، هناك أناس لا يقدمون إلا شيئاً بالياً ، لا قيمة له ، إنسان

دفع زكاة ماله أحذية ، كل فردة بمقاس ، عنده من زكاة ماله بضاعة قديمة ، من يلبس حذاءً كل فردة بمقاس ؟ سجلها على الله زكاة وأنهاها .

هناك من يقدم طعاماً للفقراء لا يؤكل ، أو ثياب مهترئة ، هكذا ألف الناس ، أن يقدموا شيئاً زهد فيه ، أعرضوا عنه ، لا يحبونه ، هذه الأكلة لا يأكلها ، هذه الثياب لا يلبسها ، هذه قطعة الثياب لا يستهلكها ، يدفعها إلى الجامع .

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : الآية 92)

هذه هدية إلى الله .

طرق الخير كثيرة جدا لمن أراد :

أيها الإخوة ، هذه آية دقيقة جداً ، الذي يحب المال طريقه إلى الله إنفاق المال ، والذي يحب المكانة العلية في المجتمع طريقه إلى الله أن يكون مع الضعفاء ، كل إنسان يحب أن يكون مع الأقوياء في مجالسهم ، في نزهاتهم ، في ولائمهم ، في حفلاتهم ، ومع الأغنياء أيضاً ، لكن المؤمن يحب أن يكون مع المؤمنين ولو .....

أردت أن تنقذ نملة من الغرق ، فإن الله بذلك عليم ، قشة حملتها من أرض المسجد ، ووضعتها في جيبك مراعاةً لنظافة المسجد ، فإن الله بها عليم ، أبواب الخير لا تعد ولا تحصى ، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، فالمؤمن همه العمل الصالح ، همه البذل والعطاء ، همه إكرام الخلق ، همه العناية بالمخلوقات حتى الحيوانات في قلبه رحمة بهم .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، قَالَ : فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ : لا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا ، وَلا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا ، وَلا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ))

[البخاري ، مسلم ، الدارمي]

فإذا استحقت امرأة النار في هرة حبستها ، فما قولك فيما فوق الهرة ، هؤلاء الذين يقتلون كل يوم عشرات ، ويجرحون الآلاف ، والمئات كل يوم ، لحقد دفين ، ما مصير هؤلاء عند الله ؟ القتل سهل جداً ، يقتل هذا المقاوم ، وكأنه يقتل ذبابة ، لكن الله كبير ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن ينصرهم عليهم .

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

حجم الشيء ، كميته ، ظروفه ، بواعثه ، أهدافه ، فإن الله به عليم ، يعلم سرك وجهرك .

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ)

(سورة آل عمران : الآية 93)

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ

1 ـ الأصل في الأشياء الإباحة :

أيها الإخوة ، هناك قواعد عامة في الدين تعد من أصوله ، الأصل في الأشياء الإباحة ، لأن الله خلق لنا كل شيء كي ينفعنا في الدنيا ، إذاً فلا يعقل أن يخلق لنا شيئاً طيباً نافعاً مفيداً، ثم يحرمه علينا ، مستحيل ، فالأصل في الأشياء الإباحة ، قال تعالى :

(فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

(سورة الأعراف : الآية 19)

نسبة المحرمات إلى ما هو مباح واحد بالمليار ، كم من شراب لك أن تشربه مطمئناً ؟ مئات ، لكن حرمت علينا الخمر ، كم نوعًا من أنواع اللحم تأكله هنيئاً مريئاً ؟ إلا الخنزير ، فنسب المحرمات إلى المحللات نسب ضئيلة جداً ، ولكن لابد من شيء محرم كي نمتحن عند الله عز وجل .

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ)

2 ـ تحريم يعقوب لبعض الأشياء تحريم شخصي :

هذا التحريم شخصي ، إما أنه نذر لله عز وجل ألا يأكل اللحم فرضاً ، أو تعافه نفسه ، أو لمرض أصابه ، إنسان أحياناً لا يأكل أكلاً معيناً ليس لها علاقة بالتحليل والتحريم ، هناك طعام لا يناسبه ، طعام لا يناسب مرضه ، فسيدنا إسرائيل ، وهو سيدنا يعقوب عليه السلام حرم على نفسه طعاماً ، إما وفاءً لنذر ، أو زهدا في هذا الطعام ، أو وقاية لجسمه من مرض ما .

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ)

3 ـ تحريم بعض الأشياء نوع من التأديب :

لكن الله أحياناً قد يعاقب بالتحريم ، هذا التحريم الذي هو عقاب ليس تشريعاً ، بل هو تأديب ، فالله حرم على بني إسرائيل بظلم منهم أنواعاً من اللحوم .

(فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)

(سورة النساء : الآية 160)

هذا تحريم تأديب ، لا تحريم تشريع .

(قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 93)

1 ـ التحريم لابد له من دليل :

هم ادعوا أن هذه الأشياء حرمت عليهم تحريم تشريع ، فقد نعوا على العرب أكلها في ظل دينهم الجديد، قالوا : لا ، هذه حرمت عليهم تحريم تأديب ، لا تحريم تشريع ، أما الذي حرمه على نفسه نبيهم يعقوب فهذا تحريم شخصي ، النبي له خصوصيات .

قدم للنبي عليه الصلاة والسلام طعام ضب ، قال لا آكله ، أمحرم هو ؟ قال : لا ، ولكن تعافه نفسي .

هل يعد هذا الطعام حراماً ؟ لا ، بالعكس ، سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو من مكة ، وله أذواق في الطعام عالية جداً ، ومع ذلك أكل الضب أمام رسول الله ، وقد قال بعض علماء السيرة : إنه أدرك أنه مقبل على فتوحات مديدة ، وعلى نشر هذا الدين فلا بد أن يكون قدوةً في أكل لحم حيوان يوجد في الصحراء كثيرًا .

أما النبي الكريم فقال : عافته نفسي ، وما حرمه ، إسرائيل حرم على نفسه بعض الأكلات ، اليهود اعتبروها تشريعًا ، لا هذا التحريم شخصي ، والذي حرمه الله عليهم تحريم تأديب لا تحريم تشريع .

تحريم المنع :

وهناك تحريم منع ، قال تعالى :

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

(سورة القصص : الآية 12)

سيدنا موسى حينما كان طفلاً ، تحريم منع ، كلما جاءت مرضعة يرفض أن يلتقم ثديها ، تمهيداً كي تأتي مرضعة هي أمه ، لأن الله عز وجل أمرها بأمرين ، ونهاها بنهيين ، وبشرها ببشارتين ، قال تعالى :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

وهذا أول أمر .

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

هذا أمر ثانٍ .

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)

نهيان .

(إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ)

بشارتان .

(سورة القصص : الآية 7)

هذا كلام خالق الأكوان

انظر إلى المفارقة :

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

إذا خفت على هذا الطفل أن يموت حرقاً ، وأنتَ في الطابق العاشر فألقه من الشرفة ، ما هذا الكلام ؟ الأمر بيد الله ، الأمر دقيقه وجليه بيد الله ، عظيمه وحقيره بيد الله :

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام : الآية 59)

ويعلم ما في السماوات والأرض .

حركة صندوق خشبي في اليم بيد الله ، ساقه إلى قصر فرعون ، وأوقفه عند شط القصر ، وألهم امرأة فرعون أن تنزل إلى شط النهر ، فالأمر بيده سبحانه ، هكذا يفعل الله .

(قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

2 ـ اليهود موسومون بالكذب :

أنتم تكذبون أيها اليهود ، مرة سمعت تصريحاً لم أصدقه ؛ أن وزيرة خارجية أمريكا تناشد العالم أن تقنع الفلسطينيين بالكف عن ذبح اليهود ، ما هذا الكلام ؟ كذب بكذب .

(قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

نحن نعيش عصر الكذب ، عصر التزوير ، عصر أن الحق هو القوة فقط ، أما في غدو الإسلام فالحق ما جاء به الوحيان ، لكن الحق الذي جاء به الوحيان يحتاج إلى قوة ، أما أن يكون منطق العصر القوة وحدها ، هي الحق ، والعياذ بالله ، هذا منهج مجتمع الغاب ، هذا منهج الوحوش ، والوحوش تأكل حاجتها ، أما وحوش البشر فلا تكتفي بحاجتها ، بل تأكل حباً في الأكل ، وتقتل حباً في القتل .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(6)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة : 6-7)

يعني شر ما برأ الله .

(فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 94)

1 ـ صدق الله في تحريمه وتشريعه ، وكذب المفترون :

هؤلاء يفترون على الله الكذب ، يدعون أن ما حرمه يعقوب على نفسه تحريم تشريع ، وأن ما حرمه الله عليهم تحريم تأديب ، هو تحريم تشريع ، قل : صدق الله ، وكذب اليهود :

(قُلْ صَدَقَ اللَّهُ)

(سورة آل عمران : الآية 95)

النبي الكريم صلى الله عليه جاءه أحد أصحابه يشكو أن بطن أخيه قد استطلق ، معه إسهال شديد ، أمره أن يأكل عسلاً ، فعَنْ أبي سَعِيدٍ قَالَ :

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ ، فَقَالَ : اسْقِهِ عَسَلًا ، فَسَقَاهُ ، فَقَالَ : إِنِّي سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا ، فَقَالَ : صَدَقَ اللَّهُ ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ))

[متفق عليه]

ثم قرأت بحثاً أن بعض أنواع الإسهالات الحادة علاجها بالعسل .

(قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 95)

2 ـ الأنبياء من أصل واحد :

هذا كلام دقيق ، يعني الأنبياء ركب واحد ، الأنبياء مذهب واحد ، قيم واحدة ، مبادئ واحدة ، دين واحد ، هكذا الأصل واحد ، هؤلاء الأنبياء العظام حينما يروا ، حينما يطلعهم الله عز وجل ماذا حصل بين أتباعهم من حروب ، وكم من قتيل في الحروب الصليبية ، كان الأمر مخزيًا ، الأنبياء إخوة ، فكيف أصبح أتباعهم أعداءً ؟ لابتعادهم عن الحق ، والجواب واضح ، قال تعالى :

(فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة : الآية 14)

هذا قانون العداوة والبغضاء ؛ حينما ننسى منهج الله ، وحينما نعصي الله ، ونكتفي بالانتماء فقط ، عندئذ يقع بيننا وبين من حولنا عداوة وبغضاء لا تنتهي إلى يوم القيامة ، لذلك قالوا : الحرب بين حقين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدد ، والحرب بين حق وباطل لا تطول ، لأن الله مع الحق ، أما بين باطلين فلا تنتهي .

(قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(95)إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ

1 ـ الكعبة أول بيت لعبادة الله :

الحقيقة بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس في الأرض ، أول بيت للعبادة وضع للناس في الأرض ، لكن إبراهيم عليه السلام جدده ، جدد بناءه ، أما هو فقد بني من عهد آدم ، إن أول بيت وضع للناس لا أول بيت بني في الأرض ، لا ، لا أول بيت سكني بني في الأرض ، لا ، إن أول بيت للعبادة وضع للناس في مكة المكرمة .

ما معنى أن يتخذ بيتاً في مكة ؟

أيها الإخوة ، الإنسان له طبيعة مادية ، وربنا عز وجل اتخذ لنفسه بيتاً في الأرض ، قد يقول قائل : إنّ الله في كل مكان بعلمه ، ومع كل إنسان ، ما معنى أن يتخذ بيتاً في مكة ؟ ويأمرنا أن نذهب إليه ؟

الجواب : أراد الله جل جلاله أن يتخذ بيتاً في الأرض ، وأن يدعونا إليه لنشعر نحن إن لبينا هذه الدعوة أننا فعلنا شيئاً ثميناً ، تركنا بيتنا ، وبلدنا ، وتجارتنا ، وأولادنا ، ومكانتنا ، ودنيانا ، وذهبنا إلى الله شعثاً غبراً ، كي نلبي دعوته .

حينما تحج بيت الله الحرام تؤكد لنفسك أن تلبية دعوة الله عز وجل أغلى عليك من كل شيء ، فدفعت مبلغاً كبيراً ، وتحملت مشاق السفر ، وقد كانت صعبةً جداً من أجل تلبية دعوة الله عز وجل ، هذا معنى أن يتخذ الله بيتاً له في الأرض .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران : الآية 96)

2 ـ لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد :

لذلك لا تشد الرحال إلا إلى بيت الله الحرام ، والمسجد النبوي ، والمسجد الأقصى إن شاء الله، وما سوى هذه المساجد لا تشد الرحال إليها على أنها مساجد ، أي واحد منها كأيّ مسجد آخر لا يجوز

في الشرع أن نشد الرحال إلى جامع في حلب ، نقصد زيارته ، ولا إلى جامع في دمشق أبداً ، لكن نشد الرحال إلى بيت الله ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ : الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

هذا ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام ، أن يضع الله بيتاً له في الأرض كي نقصده حاجين ، معنى ذلك أن نشعر نحن أننا آثرنا تلبية دعوة الله على حظوظنا من الدنيا .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع تفسير هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

أسئلة :

س : هل يؤثر إذا كتب لي أحدهم في قلة الرزق ؟

ج : الله عز وجل قال :

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : الآية 102)

الله هو الفعال ، قال تعالى :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم : الآية 22)

هذه كلها خرافات ، أحياناً الجن يستعيذون من شياطين الإنس .

س : ما رأيكم بمن يسافر إلى بلاد أجنبية بقصد رؤية المساجد هناك؟

ج : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ : الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

ليس ممنوعاً أن تسافر ، إنما أن تقصد التقرب إلى الله بزيارة مسجد ليس من هذه الثلاثة ، هذا خلاف منهج الله .

س : يبدو في درس سابق أنك تكلمت أن يكون الناس سواسية في المجالس ، وأن يجلس الناس حيث انتهى بهم المجلس ، يقول هذا الأخ : ألم يقل النبي أنزلوا الناس منازلهم ؟

ج : أنزلوا الناس منازلهم من دون أن يكون على حساب أحد ، أو على حساب إهانة أحد .

س : إذا سأل أحدهم : لماذا حرام فائدة البنك ، بماذا نجيبه ؟

ج : طبعاً الإجابة طويلة جداً ، أنا لي ثمانية دروس عن الربا ، ولكن بشكل مختصر أضع لكم هذه القصة ، عالم من علماء دمشق الأجلاء كان في أمريكا ، فالتقى مع عالم أمريكي أسلم ، وهو متفوق في العلم ، فطرح موضوع لحم الخنزير ، فهذا العالم الدمشقي بدأ يتكلم عن مضار لحم الخنزير ، وعن الدودة الشريطية ، الوحيدة ، وعن آثار مضار أكل لحم الخنزير النفسية والاجتماعية ... وأمضى ساعة، فما كان جواب هذا الآخر ؟ فقال له : يا دكتور ، كان يكفيك أن تقول لي : إن الله حرمه ، إله خالق الأكوان هو العليم ، هو الحكيم ، نحن نبحث عن الحكم ، ولا مانع ، ونروج له ، وندعم التحريم بالحكمة ، لكن المؤمن الصادق علة الأمر أنه أمر ، فإذا إنسان سألك : لماذا الفائدة محرمة ، وتريد جواباً مختصراً مفيدًا من مؤمن لمؤمن : لأن الله حرمها ، عندنا قاعدة ثانية ، الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، أنا قد أكون أمياً ، لا أقرأ ولا أكتب ، أشتري مكيفاً ، وأضغط على الزر فيأتي هواء بارد ، يأتي دكتور بالفيزياء يحمل دكتوراه بالتكييف يعلم دقائق التكييف ، مبدأ غاز الفريون ، ينتفع بالمكيف كما ينتفع البدوي بالمكيف ، لأنه مصمم أن تضغط على هذا الزر ، فتنتفع بالهواء البارد ، نظام الشرع الإسلامي حينما تطبق منهج الله عن علم ، أو عن غير علم ، كيفما كان تطبقه ، فتجد ثماره من دون فلسفة ، الآن نريد فلسفة ، إذا ما اقتنع لا ينفذ ، أنت لست مع الله ، إذا كنتَ مع عبد حقير جداً تحتقره ، يعطيك أمرًا فتنفذه فوراً ، ولا تسأله ، الله عز وجل كرمك ، وقال لك :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت : الآية 45)

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة : الآية 63)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 103)

ليس الله مضطراً أن يعطيك الحكمة ، افعل فقط ، ولكن تكريماً لك ، تكريماً لشأنك بيّن لك الحِكم ، ولكن أنت مأمور أن تطيع الله عز وجل .

كنت في أستراليا ، وسمعت من أب يشكو من ابنه ، يكاد يخرج من جلده من ابنه ، يقول لابنه : هذه حرام ، يقول الابن : (واي) أي لماذا حرام ؟ أبي هذه عيب ، يقول له الابن : (واي) عيب ؟ هذه لا تجوز ، يقول له الابن : (واي) لا تجوز ؟ هكذا علمه الغرب ، كل شيء يريد أن يرجع به إلى عقله السخيف والضيق ، فهذا الأب بكي أمامي ، وقال لي نزع أخاه الثاني ، هذه ليس لها نهاية ، أنت أمام منهج إلهي خالق الكون ، أعطاك تعليمات ، أساساً أنت لا تجرؤ أن تسأل طبيبًا له مكانة كبيرة ، لا تأكل ملحًا ، هل تقول له : لماذا الملح ؟ أنا أفسر ، وأبين ، ولكن الأصل أنت عبد لله ، والإله يأمرك أن تفعل كذا وكذا ، كل إنسان لا يطبق أمر الله إلا بعد فهم حكمة هذا يعبد نفسه ، ولا

يعبد الله ، وعبادته ليس لها قيمة أبداً ، أما البطولة : اذبح ابنك ، هل هذا أمر قليل ، هل يقبله عقل ؟ قال تعالى :

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

نحن مقصرون جداً ، نتفلسف على الله ، أقل شيء : ما هي الحكمة ، ولماذا ؟ من أنت ؟ يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند

أنا عندي لا يجوز ، من أنت ؟ أنت مشرع ، أنت عبد مأمور ، ما قنعت بها ، لا تناسب العصر ، هذا كلام المسلمين ، لذلك فهم يعانون من تخلي الله عليهم ، لذلك هان أمر الله عليهم فهانوا على الله .

عقد مؤتمر في أمريكا ، قام عالم ، وقال : هنا في هذه البلاد كل شيء قابل للمناقشة ، والرفض ، والازدراء ، هكذا الغرب ، لا شيء مقدس ، كل شيء قابل للرفض ، والمناقشة ، والازدراء ، نحن لا يوجد عندنا هذا ، نحن عندنا مسلّمات ، القرآن كلام خالق الأكوان ، كل كلمة فيه حق ، وصدق ، وموضوعية ، وفيها خير كبير ، هذا المؤمن ، يعظم شعائر الله ، وإن تعظيم الشعائر من تعظيم الخالق، لو عرفت الله لعظمت كلامه ، لو عرفت الله لأطعت أمره ، تأتيك ورقة في البريد تعال الساعة العاشرة، لتقابلني ، لا تتحرك شعرة بجسمك ، ويمكن ألا تذهب ، ليس لديك وقت فراغ ، وتأتيك من جهة ثانية فلا تنام ثلاثة أيام ، لأنك تعرف من دعاك ، هذا غير هذا ، لو عرفت الله ، من هو الذي أمر هذا الأمر ؟ من هو الذي نهى هذا النهي ، أنت تعرف رجلاً قويًّا ، يمكن أن يزعجك جداً ، فتنفذ الأمر بحذافيره ، ألا تعرف أن الله بيده كل شيء ، بيده القلب ، والدسامات ، والشريان التاجي ، والدماغ ، والخثرة بالدماغ ، وبيده الكبد ، والكليتان ، وكل شيء بيده ، أقول لبعض الناس : عند الله أمراض كثيرة ؛ تشمع كبد ، وفشل كلوي ، وخثرة بالدماغ ، وجلطة بالقلب ، عنده أمراض مخيفة ، وكل هؤلاء الناس عباده ، فاتق الله يا رجل ، وخف من الله .

طبعاً أنا أحترم أي سائل ، ولكن لا نعوِّد أنفسنا : لماذا هذا حرام ، أعطني الدليل ؟ آية قرآنية ، الآن أكثر المناقشات هذا المال تجمده ، هل من المعقول من دون فائدة ، الله الذي حرم الفائدة قال :

(فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : الآية 279)

لا تهزه هذه الآية ، هل من المعقول أن هذا المال مجمد ، وإذا أخذت قرضاً ربوياً أنا انتفعت ، والبنك انتفع ، ما دام الأمر المنهي عنه قابلا للمناقشة والأخذ والرد ، فقد هان أمر الله على المسلمين ، فهانوا على الله .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(26-60): تفسيرالآيتان 96 - 97
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-05-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس والعشرين من سورة آل عمران ، ومع الآية السادسة والتسعين، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 96)

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ

1 ـ البيت الحرام أول بيت للعبادة في الأرض :

أيها الإخوة ، ذكرت في الدرس السابق أن الإنسان له كيان مادي ، هو جسم له طول ، وعرض ، وارتفاع ، وله حيز يشغله ، وهو في الحياة الدنيا ذو كيان مادي ، فالله سبحانه وتعالى مع كل مخلوق ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد : الآية 4)

ولكن من أجل أن تشعر أنك فعلت شيئاً لله وضع الله بيتاً للناس ، بل إن أول بيت وضع للعبادة في مكة المكرمة ، ثم جدَّده سيدنا إبراهيم ، لكن هذا أول البيت وُضِعَ في الأرض ، في منطقة مكة ، والآية الكريمة :

(بِبَكَّةَ)

(سورة آل عمران : الآية 96)

أي بمكان البيت ، مكة حرم ، لكن بكة مكان البيت ، فمن دخله كان آمناً ، فالله عز وجل اتخذ بيتاً في الأرض ، ودعا الناس إليه ليشعر المسلم أنه ترك بيته ، وأهله ، وتجارته ، وزوجته ، وأولاده ، ومكانته ، وهيمنته ، وجاء إلى بيت الله الحرام ملبياً ، فالله عز وجل مقابل هذا التفرغ لتلبية ندائه ، مقابل هذا الإيثار ، إيثار تلبية ندائه على شؤونه الحياتية ، هيَّأ له عطاءً خاصاً هناك .

2 ـ طبيعة منطقة مكة خالية من أسباب التمتع الحسية :

الحقيقة أن الله عز وجل اختار بيته في منطقة حارة ، ليس فيها نبات ، وليس بالمواصفات الجمالية ، ليس فيها مسحة من جمال إطلاقاً ، بل فيها حر شديد ، وفيها مناظر لا تريح العين ، جبال جرداء قاسية، أرض ملتهبة ، ومع ذلك فما من حاج يحج بيت الله الحرام إلا وتمنى أن يعود ثانية إلى هذا البيت ، قال تعالى :

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ)

(سورة البقرة : الآية 125)

فالمثابة مصدر ميمي من ثاب أي رجع ، كل حاج حج بيت الله الحرام صادقاً دون أن يشعر يدعو ، ويقول : اللهم لا تجعل هذا الحج آخر عهدي بالبيت ، ارزقني حجاً متوالياً .

إن الله عز وجل ثبّت وسائل اللذة المادية ، وحرك السعادة الروحية ، لو أنه فرضاً في واد ذي زرع ، في جبال جميلة ، في جبال خضراء ، في جبال مشرفة على بحار ، الجو لطيف ، الحج على مدار العام، لئلا يكون ثمة ازدحام ، لو جعل الله وسائل اللذة المادية متوافرة في بلده الحرام ، ثم اتخذ هذا البيت في مكان جميل كسويسرا مثلاً ، عندئذ يختلط السائح بالحاج، لا يدري هذا الذي يحج بيت الله الحرام ، أكان سروره بسبب إقباله على الله ، أم بسبب هذه المناظر الجميلة ، وهذا النسيم العليل ، فلحكمة أرادها الله كل أسباب اللذة الحسية منعدمة هناك ، ازدحام ، وحر ، ومناظر قاسية ، ومع ذلك تنهمر دموع الحاج ، ويتجلى الله على قلبه، إلى درجة أنه يقول : كنت أعيش أسعد لحظات حياتي في يوم عرفة .

إذاً : الله عز وجل تمشّياً مع كيان الإنسان المادي اتخذ لنفسه بيتاً في الأرض ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

3 ـ البيت الحرام بيت لناس جميعا :

الآن دقق للناس ، الناس جميعاً ؛ عربهم وعجمهم ، أسودهم وأبيضهم ، غنيهم وفقيرهم ، أصفرهم وأحمرهم ، مطلوبون لهذا البيت ، دين الله ينبغي أن يسعَ الناس جميعاً .

أضرب لكم مثلاً بسيطاً من الفقه ، أضخم جامع في بلدنا الجامع الأموي ، ويتسع أحياناً لمئة ألف مُصلٍ ، خمسون ألفًا في الداخل ، وخمسون ألفًا في الصحن ، ولو كلفنا أمهر خطيب في بلدنا أن يلقي خطبة في هذا المسجد الجامع ، ثم أغلقنا الأبواب ، وقفلناها ، فالخطبة باطلة ، لأن دين الله ينبغي أن يكون لكل الناس ، ليس هناك في الدين شيء خاص بجماعة دون جماعة ، هذا دين الله كالهواء نستنشقه جميعاً ، إذاً : لا يمكن لإنسان أن يحتكره ، ولا لفئة ، ولا لجماعة ، ولا لطائفة ،

ولا لمذهب ، ولا لشعب ، ولا لبلد ، ولا لمصر أبداً ، هو دين الله كالهواء ينبغي أن يستنشقه كل إنسان ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

فالأسود مطلوب ، والأبيض مطلوب ، والأصفر مطلوب ، والأحمر مطلوب ، والغني مطلوب ، والفقير مطلوب ، ومن كان في ذروة النسب مطلوب ، ومن كان في حضيض النسب مطلوب .

إن أول بيت وضع للناس هذا البيت ، أنت قد تصلي في بيتك ، وقد تصلي في دكانك ، لكنك إذا صليت في الجامع فهذا المكان خُصِّص للصلاة ، فالإنسان حينما يصلي الفجر في المسجد سيستمع إلى قراءة مُتقنة ، وإلى سورة طويلة ، وإلى تراتيل في الصلاة ترتاح لها نفسه ، لعله إذا صلى الفجر في البيت تكون صلاته أضعف من صلاته في المسجد .

في حجّ بيت الله الحرام يستوي فيه جميع الناس :

في الحج أمرك الله جل جلاله أن تترك بلدك ، بيتك ، زوجتك ، أولادك ، تجارتك ، وظيفتك ، مدير دائرة مثلاً ، مدير مؤسسة ، مركبتك ، مكانتك ، ثيابك العسكرية أحياناً ، ثيابك المدنية الأنيقة جداً أحياناً، دع الدنيا وراء ظهرك ، وتعال إلي ، تعال يا عبدي كي تذوق طعم القرب مني ، تعال يا عبدي كي أُريحك من هموم جاثمة على صدرك ، تعال يا عبدي لترى ما عندي من الرحمة ، كأن الله يدعوك إليه ، من هذا الذي يستحق رحمة الله ؟ هو الذي ضحى بدنياه من أجل هذا اللقاء ، ضحى بأهله ، وأولاده ، ومكتبه ، وزبائنه ، ومكانته ، ومركبته ، و ولائمه ، وتوجه إلى بيت الله الحرام ليكون شخصاً لا يرفعه شيء ، اسمه حال ، ليس له أية قيمة ، واحد من ملايين ، ولن يسمح لك أن ترتدي ثياباً غاليةً تُعَبِّر عن مرتبتك المالية، ولا أن ترتدي ثياباً خاصة تُعَبِّر بها عن مرتبتك العسكرية ، ولا أن ترتدي ثياباً أخرى تُعَبِّر عن مرتبتك الملكية ، ترتدي إزاراً وكساءً غير مخيطين ولا محيطين ، فكأن الله أرادك أن تذهب إليه ، وكأن الحج رحلة إلى الله ، هذا في الأصل في كل الأديان ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا)

ذهب إنسان إلى الله ليصطلح معه ، ليُعَاهده ، ليتوب إليه ، ليُقبِل عليه ، ليجعل علاقته بالله طيبة ، ليصطلح معه ، ليكون بينه وبين الله مودة ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

أي أن الله قد اتخذ لنفسه بيتاً في الأرض ، وقال : تعالوا إلي ، فالذي جاءه ماذا يقول ؟ يقول : لبيك اللهم لبيك ، يا رب ، أنا أجبت نداءك ، وأتيت بيتك الحرام طائعاً ، تائباً ، منيباً ، ملبياً ، مكبراً ، خاضعاً ، محباً ، مشتاقاً ، مخلصاً ، فالله عز وجل نظير هذه التضحية ، وهذا الإيثار يتجلى عليك تجلياً في الحج لا يعرفه إلا من زاره ، يشعر الحاج وكأنه وُلِد من بطن أمه لتوه ، كل شيء مضى

غفره الله له ، ومن وقف في عرفات فلم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له ، عاد كيوم ولدته أمه .

أنا أستخدم مصطلحات إسلامية ، لكن هذا البيت قديم ، قديم قدم البشر ، أي ما من إنسان إلا وجُعِل هذا البيت له ، لأن البشر مدعوون جميعاً إلى معرفة الله وطاعته .

لمجرد إرادة الظلم في بيت الله الحرام يعاقب عليه :

لكن العلماء تحفظوا قالوا : ليس أول بيت بني في الأرض ، بل إنه أول بيت بني لعبادة الله عز وجل ، لذلك بيت الله الحرام يتميز بخصائص كثيرة ، أنه من أراد إيذاءه يُحاسَب على إيذائه ، وأصلاً الإنسان لا يُحاسَب إلا على عمله ، لا على إرادته ، لكن الله عز وجل يقول :

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

(سورة الحج : الآية 25)

لمجرد أن تريد إيذاء هذا البيت ، وكم من جهة مشبوهة أرادت إحداث فتنة في الحج ، وكُشِفت فتنتها ، وخطتها مبكراً من دون جهد من بشر ، هذا الشيء ثابت ، يقولون : أمن الحجيج على الله ، وهناك محاولات كثيرة جداً أرادت أن تخلق فتنة في أثناء الحج ، لكنها لم تفلح ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ)

بكة موضع البيت ، ومكة المدينة الحرم .

4 ـ بيت الله الحرام مبارَك :

قال : مباركاً ، إله العالمين يقول : مباركاً .

بالمناسبة أيها الإخوة ، نحن كياننا المادي نرى العطاء بيتًا ، دخلاً ، مركبة ، أسهمًا بشركة ، صحة طيبة ، لكن الله عز وجل عنده عطاء ، لا يقدر بثمن ، أن تكون آمناً في سربك ، أن تكون مطمئناً إلى عدالة ربك ، أن يكون قلبك مفعماً بمحبة الله عز وجل ، وفي قلب المؤمن من الأحوال الطيبة ما لو وزعت على أهل بلد لكفتهم ، معك الحكمة ، معك الأمن ، معك الرضا ، معك الإحساس بأن المستقبل لصالحك ، قال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة : الآية 51)

5 ـ السكينة والرضا يجدهما الحاجّ في مكة :

لنا ، لا علينا ، هذا الشعور ليس له سبب ، المستقبل معك ، مضي الأيام لصالحك ، تقدمك في السن لصالحك ، قلبك مفعم بالرضا ، راضٍ عن الله قلبك مفعم بالسعادة ، قلبك مفعم بالأمن ، عطاء

الله وإن كان في الظاهر غير منظور ، لكن الله عز وجل قادرٌ أن يعطيك الدنيا بحذافيرها ويشقيك ، وقادر أن يحرمك الدنيا كلها ، ويسعدك ، وكم من إنسان قابع في بيت صغير ضيق لا يرى النور ، وكأن هذا البيت جنة من جنان الدنيا ، وكم من إنسان يقبع في بيت ثمنه ملايين كثيرة ، فيه من كل صفات البيت الراقي ، وهذا البيت قطعة من الجحيم ، هذه السَكِينَة هي محيرة حقيقة ، يمنحها الله لإنسان ، ويحرمه الدنيا فإذا هو أسعد الناس ، يحرمها الله لإنسان ويعطيه الدنيا فإذا هو أشقى الناس ، ويحرمه الدنيا ، ويعطيه السكينة ، فإذا هو أسعد الناس ، هذا معنى قول الله عز وجل :

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 103)

هذا الشيء المحير أن أصحاب رسول الله ، كانوا في حياة خشنة صحراء ليس هناك مركبات ، أو تكييف ، أو اتصالات ، كل هذه الوسائل التي معنا لم يعرفوها ، ولكن وصلوا إلى الله ، ونحن مع كل هذه الوسائل لم نصل إلى الله ، هم في سعادة ما بعدها سعادة ، ونحن في جفاء ، وفي بعد ، وفي شقاء ، ومعنا وسائل الدنيا بأكملها ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

لو أن الإنسان زار بيت الله الحرام ، أولاً تُمحى ذنوبه السابقة ، وعاد كيوم ولدته أمه ، يُمنح ما يسمى بالسكينة ، يُمنح ما يسمى بالسعادة ، بالأمن ، يُمنح صفات يسعد بها إلى أمد طويل ، قال تعالى :

(وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

الأزمة أزمة علم ، أهل النار في النار ماذا يقولون ؟

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك : الآية 10)

أزمة علم ، لأن كل إنسان يتمنى السلامة والسعادة ، ولو عرف أن السلامة والسعادة في طاعة الله لأطاع الله ، لكنه يجهل ، والجهل أعدى أعداء الإسلام ، ويفعل الجاهل بنفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ

وقال تعالى :

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ)

(سورة آل عمران : الآية 97)

وقال :

(وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

الدعوة عالمية ، الإسلام لكل الخلق ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

وقال :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)

(سورة آل عمران : الآية 97)

وقوله تعالى :

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ)

(سورة آل عمران : الآية 97)

ما هو مقام إبراهيم ؟

من هذه الآيات البينات مقام إبراهيم ؟

1 ـ موضع قيامه لبناء البيت :

بعضهم يقول : إن إبراهيم حينما جدد بناء البيت وقف على حجر ، فكان هذا الحجر يعلو بحسب الحاجة ، ويهبط بحسب الحاجة ، وهذا من آيات الله هذه الآية الحسية .

2 ـ مقام التوحيد :

لكن بعضهم قال : مقام إبراهيم ، مقامه في الدعوة إلى الله ، دعا إلى التوحيد ، دعا إلى طاعة الله ، دعا إلى محبة الله ، كان عابداً من الطراز الأول ، قال تعالى :

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى)

(سورة الصافات : الآية 102)

لعل ما من موقف تظهر فيه العبودية صارخة كهذا الموقف ، طبعاً هناك أوامر كثيرة ننتهي عنها لقناعتنا أنها تؤذينا ، لكن أن يقال لنبي كريم : اذبح ابنك النبي ، يقول :

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ(102))

فمقام إبراهيم أولاً توحيده ، قال تعالى :

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)

(سورة الأنعام : الآية 76)

وقال :

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ(77)فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ)

(سورة الأنعام)

ثم قال :

(فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(78)إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

هذا هو التوحيد ، مقام إبراهيم مقام التوحيد ، مقام إبراهيم مقام العبودية .

التوحيد أعلى مقامٍ على وجه الأرض :

إن أعظم مقامين في بني البشر أن تكون موحداً ، وعابداً ، إبراهيم قدوة لنا ، هذا النبي الكريم ، أول مقام من مقاماته أنه كان موحداً، حينما رأى قومه يعبدون أصناماً من دون الله ، كسّرها و وضع الفأس في عنق أكبرها ، قال تعالى :

(قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا)

(سورة الأنبياء : الآية 59)

قال :

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ)

(سورة الأنبياء : الآية 63)

فرجعوا إلى أنفسهم ، نعبد أصناماً من دون الله ! نعبد أحجاراً لا تنطق ! فكان موحداً حارب الشرك ، وحارب الوثنية ، وحارب عبادة الأصنام ، وهل من مقام أعلى من هذا المقام ؟ وما الذي يهلك البشرية اليوم ؟ الشرك ، فالناس يعبد بعضهم بعضاً من دون الله ، فهذا من الانحراف في الأديان ، والانحراف عند اتباع الديانات ، قال تعالى :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 31)

والانحراف عند أهل غير الديانات عبدوا الحجر ، والوثن ، والشمس ، والقمر ، ماذا فعل إبراهيم عليه السلام ؟ ما هو أول مقام من مقامات هذا النبي الكريم ؟ أنه حارب الشرك ، وحارب الوثنية ، وحارب عبادة الأصنام ، وهذا المقام مستمر ، فينبغي أن تستمر أنت في محاربة كل شرك خفي ، أو جلي ، وكل عبادة من دون الله ، والإنسان وهو لا يشعر قد يعبد صديقه ، لأن له مركز قوي ، ومعه رقم هاتفه، وقال له : في أية لحظة اتصل بي ، وأنا أُري خصمك نجوم الظهر ، مثلاً ، فلديه بطاقة ، ولديه هاتف ، هذا شرك ، اعتمد على إنسان ، ولم يعتمد على الله ، ابنه بدرجة عالية من المرض فعالجه طبيب ، ونسي الله ، وأثنى على الطبيب ، مع أن الثناء على الطبيب واجب ، لحديث أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ))

[الترمذي ، أحمد]

لكن يجب أن تشكر الطبيب ، وتعتقد أن الله سمح بالشفاء ، ألهم الطبيب صحة التشخيص ، ثم ألهم الطبيب الدواء الناجع ، ثم سمح للدواء أن يفعل فعله ، هذا هو الإيمان ، فأول مقام من مقام سيدنا إبراهيم أنه حارب الشرك ، حارب الوثنية ، حارب عبادة الأصنام ، وهذا المقام ينبغي أن يكون في كل مسلم ، لا تعتمد على أحد اعتماد التأليه ، اعتمد على الله من اعتمد على ماله ذلّ ، من اعتمد على قدرته ضلّ ، لكنه من اعتمد على الله لا ذلّ ولا ضلّ ، مقام إبراهيم ينبغي أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، وينبغي أن تتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، أول مقام من مقامات سيدنا إبراهيم أنه حارب عبادة الأصنام ، المقام الثاني دعي إلى عبادة الواحد الديان ، وقال :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام : الآية 79)

3 ـ مقام الانصياع لأمر الله :

المقام الثالث انصاع لأمر الله إلى درجة لا تصدق ، بربكم لو أن أباً صالحاً قال لابنه : يا بني إني سأذبحك ، ماذا يقول ابنه له ؟ يقول : أبي قد جَنّ ، ما هذا الانصياع الذي لا يصدق لأمر الله ، قال :

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ(102))

(سورة الصافات : الآية 102)

4 ـ مقام التوكل :

المقام الرابع : التوكل ، نحن بحسب أفقنا ، إذا أردت أن تسافر تهيئ كل الأسباب ، وكل الحاجات قبل أن تسافر ، من طعام ، وشراب ، ومال ، وكل شيء مؤمَّن ، اتصالات ، وهاتف ، وفلان توصيه ، ومع كل هذه الأسباب تقول : توكلت على الله ، أما سيدنا إبراهيم فقد أمر أن يضع زوجته وابنه في أرض قاحلة .

((... وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا ، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ ، فَقَالَتْ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا))

[البخاري]

من يستطيع أن يضع ابنه وزوجته في صحراء ، ويتركهم ، ويمشي ، طبعاً هناك ثقة بالله تفوق حد الخيال ، سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يجلس في غار حراء الأيام المتتالية ، مكان مخيف ،

والصعود إليه يحتاج إلى ساعتين أو أكثر ، بجهد شاق فكم كان أنسه بالله ؟! حتى إن أنسه بالله غلب على وحشة المكان .

أنت لا تستطيع أن تسير ليلاً بمفردك ، لو نمت في البيت لوحدك ، وسمعت صوتاً تستيقظ مذعوراً ، أي حركة عفوية تظنها لصاً ، كم كان أنس النبي بالله ، وهو في غار حراء ، حتى غلب أنسه بالله على وحشة المكان ؟ وكم كانت ثقة هذا النبي الكريم بالله كبيرة ، حينما أمر أن يدع زوجته وابنه في مكان لا طعام فيه ولا شراب ، آالله أمرك قال : نعم ، هذا مقام سيدنا إبراهيم ، حارب الشرك والوثنية ، ودعا إلى التوحيد ، وكان عبداً من الطراز الأول ، وكان متوكلاً من الطراز الأول ، هذا مقام إبراهيم ، وهناك مقام حسي ؛ أنّ الله سخَّر له هذا الحجر يعلو ، ويخفض بحسب حاجته للبناء ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ(96)فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ)

(سورة آل عمران)

أي من هذه الآيات البينات مقام إبراهيم ، وقال :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا

1 ـ الأمن مطلب كل إنسانٍ :

مُنيباً لله ، مخلصاً له ، ملبياً لدعوته ، لا يبتغي سمعة ولا ثناء ، إنما يبتغي رضوان الله عز وجل ، لا شك أن الله سيغفر له ، ولا شك أن الله سيرحمه ، ولا شك أن الله سيطمئنه إلى مستقبله في الدنيا ، ومستقبله في الآخرة ، هذا هو الأمر ، كل إنسان إن كان عنده وسائل للأمن ، عنده دخل ثابت ، له مأوى يأوي إليه ، له زوجة وأولاد ، عنده وسائل الحياة الأساسية ، ينام قرير العين ، أما لو فرضنا إنسانًا سُرِّح من وظيفته ، بقي بلا دخل ، يقول لك : لم أنم الليل ، ولو ظهر لشخص في التحليل شيء مخيف لا ينام الليل ، ما معنى الأمن ؟ يعني أنّ الله عز وجل أعطاك أسباب الراحة النفسية ، أعطاك شعورًا أنك ناجٍ من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، أعطاك إحساسًا أنّ الله معك ، ولن يتخلى عنك ، هذا معنى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

إذا اصطلح إنسان مع الله ، وعاهده على الطاعة ، جعل همومه كلها هماً واحداً ، ومن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها ، اعمل لوجه واحد يكفِك الوجوه كلها ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ؟ قال :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

2 ـ الأمن نعمة عظيمة :

هل هناك نعمة أغلى من الأمن في الحياة الدنيا ؟ أنا أسميه أمن الإيمان ، هناك أمن المال ، قد يكون مع الإنسان ملايين كثيرة ، واضع في كل بلد بأوروبا مبلغاً ضخماً في البنك ، لذلك ليس لديه مشكلة مالية أبداً ، فهو آمن من جهة المال ، إنسان آمنٌ من جهة مركزه في وظيفته ، لا يخشى منافساً إطلاقاً ، نظم الأمور تنظيماً دقيقاً حيث لم يبق له منافس ، ينام قرير العين ، هذا أمن السلطان ، وهناك أمن المال ، أحدهم أجرى تحليلاً ، وكان كله نظاميًا ، وفي الحدود الدنيا ، عنده أمن الصحة ، لكن الأمن الذي يمنحه الله للإنسان يفوق أمن المال ، وأمن الصحة ، وأمن السلطان ، أمن مستمر إلى يوم القيامة ، قال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا(51))

(سورة التوبة : الآية 51)

وقال :

(قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

(سورة التوبة : الآية 52)

لو استشهدنا في الحرب فإلى جنة الله ، ولو انتصرنا كسبنا عز الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

الأمن أساسه أن تسلمَ نفسك من كل مُنَغِّص ، من كل خوف ، من كل قلق ، من كل هم ، من كل حزن، من كل توقع شيء مخيف .

3 ـ سيف المصائب مسلَّط على رقبة الإنسان :

والله أيها الإخوة ، لو شققت على صدر إنسان بعيد عن الله لرأيت قلبه مفعماً بالمخاوف ، يشعر أن مائة سيف مسلط عليه ، أحدها سيف المرض ، سيف الفقر ، سيف عقوق الولد ، سيف خيانة الزوجة مثلاً، أحد المفكرين الأجانب قال : لا تشككوا في وجود الله ، اتقوا الله ، لولا الله لخانتك زوجتك ، ولولا الله لعَقَّك ابنك ، لولا الله لسرقك خادمك ، الإيمان بالله نعمة كبيرة ، علقت مرة على هذا الكلام ، أن الله عز وجل أمرك أن تكون صادقاً ، وغاب عنك أنه أمر مليار مسلم أن يصدقوا

معك ، أمرك أن تكون أميناً ، وأمر مليارَ مسلمٍ أن يكونوا أمناء معك ، وأمرك أن تكون عفيفاً ، وأمر مليار مسلم أن يعفوا عن محارمك ، نعمة الإيمان لا تعدلها نعمة ، قال تعالى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

لذلك هؤلاء الذين يطلبون العلم في بيت الله ، ويتلقون شيئاً عن الله عز وجل ، وعن آياته الكونية ، والقرآنية والتكوينية ، هؤلاء عندهم توازن نفسي ، عندهم تصور صحيح ، الأيام لا تقلقهم ، ومضي عمرهم لا يقلقهم ، أما لو شققت على قلب إنسان شارد عن الله لرأيتَ المخاوف ، والأحزان ، والقلق ، والسأم ، والضجر ، هذا هي المعيشة الضنك ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

(سورة طه : الآية 124)

وهذا معنى قول الله عز وجل :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد : الآية 28)

اذكر الله يطمئن قلبك ، الآن معنى آخر قال تعالى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

4 ـ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا : خبرٌ بمعنى الطلب :

هذا تعبير خبري ، جاء بمعنى الطلب ، أي اجعلوه آمناً ، أي يا عبادي هذا بيتي ، أنتم مكلفون من قِبَلي أن تجعلوه آمناً ، صار الأمر تكليفي ، لو أخذنا معنى آمناً بالمعنى المادي فهذا مشكلة ، لأنّ هذا البيت ضُرِب بالمنجنيق ، وهذا البيت في عام أربعمائة وألف ظهرت فيه فتنة ذهب ضحيتها مئات الأشخاص، فإذا قلنا : هذا خبر ، في وقت ما لم يكن آمناً ، فهل يُعقل أن يقول الله :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

ثم تقوم في هذا البيت مشكلة ، ويذهب ضحيتها مئات الناس ، هذا مستحيل .

إذاً : المعنى : من دخل هذا البيت ، من جاءه منيباً طائعاً مخلصاً ، ألقى الله في قلبه الأمن ، وهو أثمن عطاء ، أمن الإيمان ليس أمن الصحة فقط ، ولا أمن المال فقط ، ولا أمن السلطان فقط ، أمن الإيمان ، أمن الإيمان يمتد إلى ما بعد الموت ، أما أمن السلطان فيمتد ما دمت على قيد الحياة ، أمن المال يمتد ما دام بيدك المال ، أمن الصحة ما دامت الفحوص جيدة ، أما إذا طرق طارق فلم يعد هناك أمن للصحة ، بينما أمن الإيمان يمتد إلى ما بعد الموت ، والدليل قوله تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة : الآية 51)

المعنى الثاني أنه يا عبادي اجعلوه آمناً ، أي ينبغي أن يكون آمناً ، هذا البيت ينبغي أن يكون آمناً ، لذلك عباد الله المؤمنون مكلفون من قبل الله أن يجعلوا هذا البيت آمناً لمن دخله ، قال تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

لله على الناس حج البيت : سؤال يتردد كثيراً ؟ لِمَ لَمْ يقل الله عز وجل : لله على المسلمين حج البيت ؟ أو لله على المؤمنين ، أنت لاحظ قوله تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

وقال :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)

1 ـ دعوة من الله للحج :

أي أنها دعوة الله إلى كل عباده ، لا يوجد دعوة خاصة بالمسلمين ، دعوة الله لكل عباده أن يتعرفوا إليه ، وأن يصطلحوا معه ، وأن يوحدوه ، وألا يشركوا به شيئاً ، وأن ينصاعوا له بالأمر والنهي ، فكما أن الله عز وجل يقول :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

قال :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)

الحقيقة أن حج بيت الله الحرام فرضه الله علينا في العمر مرة واحدة ، وقد ورد في بعض الأحاديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ يَرْفَعُهُ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((إِنَّ عَبْدًا أَصْحَحْتُ جِسْمَهُ ، وَأَوْسَعْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ تَأْتِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لَمْ يَفِدْ إِلَيَّ لَمَحْرُومٌ))

[البيهقي في السنن الكبرى]

بعضهم اعتمد على هذا الحديث ، وقال : إذا كنت في بحبوحة مادية ، وفي صحة طيبة فينبغي أن تحج بيت الله الحرام كل خمسة أعوام مرة ، وكل حج له طعم قد يفوق الذي قبله ، وكل حج له مستوى قد يأتي الذي بعده أعلى منه ، قال :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)

على تفيد الإلزام ، مثلاً :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل : الآية 9)

وقوله :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل : الآية 12)

وأيضاً :

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود : الآية 56)

حينما تأتي على مع لفظ الجلالة المعنى أن الله ألزم ذاته العلية أن يعدل بين العباد ، إن الله عز وجل حينما تأتي كلمة على مع اسم ذاته معنى ذلك هناك إلزام ذاتي .

هنا :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ(96)فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ)

(سورة آل عمران)

أعلى درجات الوجوب ، ولله على الناس ، قال تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

2 ـ الحج واجب على المستطيع :

ذكر بعض العلماء تحليلاً لطيفاً ، الفقير أو المريض في محنة ، وهذه المحنة من شأنها أن تقربه من الله، من هو الذي يكون في غفلة أحياناً ؟ صحيح الجسم ، غني الدخل ، الصحة تنسيه ربه أحياناً ، والقوة المالية ، أو القوة الأخرى تنسيه مصيره أحياناً ، فهذا الذي غارق في نعيم الدنيا ، في نعيم المال، في نعيم السلطان ، في نعيم الصحة ، نقول له : أنت ينبغي أن تحج بيت الله الحرام ، لأنك تعيش في أقنعة مزيفة ، الحقيقة الحج هو نزع أقنعة مزيفة عن وجه الإنسان ، وهو في بلده حجمه المالي كبير ، معتز بحجمه المالي ، أو منصبه كبير ، معتز بمنصبه ، أو صحته جيدة ، معتز بصحته ، نقول له : أنت يا من تستطيع بمالك و صحتك و قوتك أن تحج بيت الله الحرام ، عليك أن تحج بيت الله الحرام ، وأنت أيها الضعيف ، أو المريض ، أو الفقير ، فقرك ، وضعفك ، ومرضك يدفعان بك إلى الله عز وجل ، فأنت معفى من هذه الفريضة ، هذا تحليل طبعاً غير ملزم ، لأنه :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

3 ـ مفهوم الاستطاعة :

قال العلماء : الاستطاعة تعني أن الطريق سالك إلى بيت الله الحرام ، فلو كانت هناك حرب ، وكان بالطريق فقدٌ للأمن لسقط الحج عن أهل هذه البلدة من هذا الطريق ، فلابد من أمن الطريق ، و لابد من قوة البدن ـ الصحة ـ و لابد من وفرة المال ، مال تنفقه على أهلك في غيبتك ، و مال تنفقه في الوصول إلى هذا البيت ، وفي السكنى ، والطعام ، والشراب ، أما هذا الذي يذهب ليتكفف الناس في الحج فهذا عاص لله عز وجل ، الله لم يكلفك أن تحج بيت الله الحرام ، وأنت لا تجد ما تأكل ، ليس عليك حج ، أما أن تعبد الله وفق مزاجك ، وفق أهوائك فهذا شيء غير مقبول ، وإنّ الله عز وجل لا يعبد إلا وفق ما شرع ، وهناك من يجمع المال ، من أموال الصدقات ليحج بيت الله الحرام ، وهناك من يتكفف الناس ، وهناك من يقترض ، وهناك من يرشي ، هناك من يدفع ثمن تأشيرة دخول إلى الحجاز فرضاً ، أن تبدأ حجك برشوة ، أو أن تبدأ حجك بتصريح كاذب ، أو أن تبدأ حجك بمال مقترض ، أو أن تبدأ حجك بمال مجموع من أموال الصدقات ، فهذا كله خلاف منهج الله عز وجل :

(مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

ينبغي أن تكون مستطيعاً في بدنك ، و في مالك ، و في أمن الطريق ، و ينبغي أن تكون مستطيعاً في سماح ولي الأمر لك ، لو فرضنا أن أولياء أمور المسلمين اجتمعوا ، وقرروا من أجل سلامة الحجيج أن يُسمَح لواحد بالمئة من كل أمة إسلامية أن تحج بيت الله الحرام ، فهذا النظام كان موضوعاً ولا يزال ، فبلد فيها خمسون مليوناً يُسمَح بخمسين ألفًا ، بلد فيها عشرون مليوناً يُسمَح فيها بعشرين ألف ، مجموع المسلمين في شتى بقاعهم واحد بالمئة منهم ، أي مليونان ، طاقة المشاعر مليونان ، فلو أن أولياء أمور المسلمين لمصلحة المسلمين الراجحة ، و لحسن أداء هذه الفريضة الكبيرة وضعوا نظاماً ، فأنت لست مكلفاً أن تخالف هذا النظام ، وأن تدفع رشوة كي تحج بيت الله الحرام ، لا ، لست مكلفاً ، إذاً أنت مستطيع بصحتك ، وبمالك ، وبسلامة الطريق ، وبإذن ولي أمر المسلمين .

الكلام الخطير أن الله عز وجل بعد هذه الآية يقول :

(وَمَنْ كَفَرَ)

(سورة آل عمران : الآية 97)

4 ـ من لم يحج الفرض وهو مستطيع فهذا نوع من الكفر :

أي من ملك الزاد ، والراحلة ، ولم يحج بيت الله الحرام ، وكان مستطيعاً ، ولم يحج بيت الله الحرام ، فهذا عند الله نوع من الكفر :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ)

لذلك من كان مستطيعاً ، و لم يحج بيت الله الحرام هذا في منطوق هذه الآية كفر ، أو نوع من الكفر ، لذلك حجة الفرض لا يسبقها شيء .

حج النافلة يقدَّم عليها أداء واجبات أخرى :

أما حجة النافلة ربما يُفضل عليها أداء واجباتك ، إنسان حج حجة الفرض ، وله ابن في سن الزواج ، ويخاف عليه العنت ، لو أنه زوجه أفضل ألف مرة من حجة النفل ، و قد قيل : إن ولي أمر المسلمين من صلاحيته أن يمنع نافلة أدت إلى ترك واجب .

هناك مسلمون يحرصون على حج بيت الله الحرام كل عام ، الآن ثلاثون حجة ، ثلاثة وثلاثون ، أربعة وثلاثون ، أحياناً تباهياً ، وعنده مشكلات ، وأولاده بلا زواج ، وبلا بيوت ، يخاف عليهم العنت، نقول : حجّ حجة الفرض ، وأدِّ الذي عليك من واجبات تجاه من حولك ، وأكبر دليل أن أحد كبار علماء المسلمين ، و لعله عبد الله بن المبارك كان في طريقه إلى الحج فرأى فتاة صغيرة تنقب في القمامة ، فعثرت على طير ميت ، فأخذته ، وانطلقت إلى بيتها ، تبعها جماعته فإذا أسرة ذات فقر مدقع ، فأعطاها كل ما يملك ، وعاد ، ولم يحج ، هذا من فقه هذا الإمام ، فإذا كان عليك حقوق ، وعندك مشكلات ، وعندك أبناء في سن الزواج ، تخشى عليهم العنت ، ينبغي أن تودي واجباتك تجاه أولادك قبل أن تحج حجة نافلة ، أما الفريضة فلا شيء يقدم عليها أبداً :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 97)

5 ـ الله غنيٌّ عن المستطيع الذي لم يحجّ :

عن هذا المستطيع الذي لم يحج ، غني عن العالمين ، فعَنْ أبي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي ... لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ...))

[مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الحجرات : الآية 17)

الآيات

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ(96)فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ)

و في درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

الأسئلة :

س : قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة : الآية 28)

أليس المشركون أناسًا ؟

ج : لكن ليس عندنا إنسان مشرك ، بائع خمر ، عابد صنم ، تعال وحج ، تعال أسلم أولاً ، ندعوه للإسلام ، أنا أردت من قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ (97))

أن معرفة الله و عبادته مطالب بها أيّ إنسان ، و أنت أيها المسلم إن رأيت مشركاً نجساً حاول أن تعرفه بالله ، وأن تجعله يسلم بعد ذلك يحج ، لكن هل من المعقول من إنسان فرضاً ، وإن كان قاصراً مثلاً أن يكون جنباً من زنا يقوم على قيام الليل رأساً ، هذا غير معقول ، هل معقول لشخص مشرك يحج ، الإله كله هو كافر به ، فهذا كلام غير مقبول لأن الله قال :

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ(28))

أنا قصدت أن هذا الدين العظيم دين الله و هو لكل البشر .

الملمح في الآية : أن دين الله ليس لفئة دون فئة ، ولا لأمة دون أمة ، لكل البشرية قاطبة ، لكن بعضهم نجس ، ليس نجاسة حقيقية ، فلو فرضنا شخصا كافرا قد اغتسل بشكل جيد ، يظل نجساً ، لأن علاقاته نجسة ، ومزحه بذيء ، نظراته فاحشة ، تعليقاته لاذعة ، كسبه حرام ، هذه نجاسة سماها العلماء حكمية .

هناك شخص استلم مسجداً من إنسان غير مسلم فصافحه بالطريقة التالية حتى لا تلمس يده بيده ، هذه غير معقولة ، نجاسته ليست حقيقية إنها نجاسة حكمية .

س : هل يجوز الزواج من امرأة طلقت ثلاث مرات بقصد تحليلها لزوجها ؟

ج : هذا الذي يفعل هذا سماه النبي تيساً ، سماه التيس المستعار ، و لا يجوز طبعاً ، لا تحل لزوجها الأول حتى تتزوج زواجاً حقيقياً طبيعياً عفوياً على نية التأبيد من قِبلها ، و من قِبله ، ثم لسبب طارئ يطلقها ، عندئذ تحل لزوجها الأول ، حكمة هذا التشريع ، امرأة سيئة الخلق ، وتتهم زوجها بأنه سيئ ، فإن طلقها وتزوجها إنسان آخر ، وطلقها لسوء خُلُقها عندئذ تقتنع أن العلة فيها ، عندئذ يمكن أن تعيش مع الأول .

أما إن طلقها وهو ظالم لها ، و جاء زوج آخر ، وأكرمها فلن يطلقها ، ولن تستغني عنه ، إذاً : هذا تأديب للزوج الأول ، وهذا كلام دقيق ، فإن طلقتها ظالماً ، ثم اقترنت بآخر أكرمها لن تحظى بها إطلاقاً ، وإن طلقها مظلوماً ، تقول له : طلقني ، ثم طلقها إنسان آخر لعلّة فيها عندئذ تقتنع أن زوجها الأول كان محقاً فتعود إليه ، وتصطلح معه .

س : ما قولكم في حفلات النساء ، و هم يستمعون إلى أصوات المطربين و المطربات ، الأحياء منهم و الأموات ، و تنكشف العورات و تقع المنكرات ؟

ج : طبعاً هذا لا يجوز .

س : كيف نوفق بين قضاء الناس حوائج بعضهم ، بل و تعلّق رجاء بعضهم على بعض فيما يسمى اليوم بالواسطة ، و بين قوله صلى الله عليه وسلم لِابْنِ عَبَّاسٍ :

((يَا غُلامُ ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[الترمذي ، أحمد]

ج : الحقيقة هذه بطولة ؛ أن تعتقد أن الله بيده كل شيء ، وأنت بهذا العمل تبحث في الأسباب ، لكن الأمل معقود على الله ، فإذا حصل هذا الأمر ، و نجحت فيه تشكر الله أولاً ، هذه البطولة ، ويمكن لإنسان أن يتعلق بإنسان ، والإنسان يحل له مشكلته ، لكن إن كان ضعيف الإيمان لا يرى الله حل مشكلته ، يرى أن هذا الإنسان هو الذي حلها له ، هذا شرك ، أنت مأمور أن تأخذ بالأسباب ، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ))

[أبو داود ، أحمد]

أنت عندك مشكلة مَن يحلها ؟ أسأل فلانا ، أعمل طلباً ، أو اعتراضاً ، لي صديق يمون على هذا الإنسان أكلفه أن يكلمه ، وأنا بكل هذه الأعمال أمَلي معلق بالله ، يا رب توفقني ، يا رب ألهمهم أن يوافقوا لي ، فأنت معلق الأمل بالله عز وجل ، هذا هو التوحيد ، لكن هذا لا يمنعك أن تأخذ بالأسباب ، وأن تتحرى بالوسائل ، لكن الذي يُخاف منه أن تأخذ بالأسباب ، وأن تنسى الله ، لذلك

الجواب الشافي : قمة الإيمان أن تأخذ بالأسباب ، و كأنها كل شيء ، كما فعل النبي في الهجرة ، ثم تتوكل على الله ، و كأنها ليست بشيء ، يمكن أن تعمل مراجعة كاملة لسيارتك ، كل شيء جديد ، تطلع على السفر ، لا يوجد عندي مشكلة ، ممتازة ، تقطعك رغم كل احتياطك ، ممكن تذهب لست مراجعها إطلاقاً توكلت عليك يا رب ، كذلك هذه سذاجة ، يجب أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله ، و كأنها ليست بشيء هذا الإيمان ، أعمل مراجعة للسيارة ، ويا رب أنت المُسلّم ، أنت الحافظ ، يا رب يسر هذا السفر ، يا رب احفظني من مشكلة ، من حادث ، من قطع ، هذا هو الإيمان ، و هنا البطولة .

إن كثيرا من الناس يأخذون بالأسباب فينسون الله ، و يعتمدون عليها ، و هذا شأن الغرب ، و كثير من الناس بالشرق لا يأخذون بها معصية ، كُلْ سمِّ بالله لا يضر مع اسمه شيء ، لم يغسل الفاكهة ، هناك أمراض ، هناك جراثيم ، أنت تحتقر نظام الله عز وجل ، النبي قال :

((من أكل التراب فقد أعان على قتل نفسه))

[ورد في الأثر]

أي مَن أكل فاكهة غير مغسولة ، انظر الموقف المتناقض يأكل فاكهة لا يغسلها ، سمِّ بالله لا يضر مع اسمه شيء ، توكل على الله لن يصير شيئاً ، ابنه مرض الله يعافيه ، يكون معه مشكلة خطيرة ، تحل في الأول ، ولن يكون لها حل بعد ذلك ، لا يسأل ، هذه معصية ، والطرف الثاني يقول لك : أنا المحامي عني فلان ، أريد أن أخضع رأس خصمي ، قد تحدث مشكلة جديدة ، لعل المحامي يموت ، فهذا الذي يأخذ بالأسباب ، و يعتمد عليها ، و ينسى الله فقد أشرك ، وهذا الذي لا يأخذ بها تهاوناً أو سخرية فقد عصى الله ، والموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء .

س : قرأت لبعض العلماء عن زواج القرابة فذكر أنه مكروه استدلالاً بالحديث :

((اغتربوا لا تضووا))

[الطبراني عن سلمان]

و قرأت عن آخر أن هذا الحديث ضعيف ، و الحديث الضعيف لا يُعمل به إلا في فضائل الأعمال ؟

ج : هذا الحديث أيها الإخوة عندنا حديث مرفوع ، و حديث موقوف ، و حديث مقطوع ، فالحديث المرفوع إلى رسول الله ، و المقطوع على بعض الصحابة ، و الموقوف على بعض التابعين ، تابعي قال كلاماً فهذا حديث مقطوع ، صحابي قال كلاماً فهذا حديث موقوف ، النبي قال كلاماً هو حديث مرفوع ، لكن في أمور التشريع ليس هناك صحابي واحد يجرؤ أن يقول كلاماً من عنده إلا إن سمعه من النبي لذلك الحديث الموقوف يؤخذ به ، و هذا قضية علمية ثابتة أي هذه الجينات كلما اقتربت من سلالة واحدة تكرس الخطأ ، و كلما تباعدت قوي النسل ، شيء تؤكده العلوم كلها ، عقد

مؤتمراً علمياً في أسبوع العلم الرابع عشر في دمشق ، وكان هناك رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق ، وألقيت محاضرات عن تحسين النسل ، محاضرات من أمريكا ، من بريطانية ، و من فرنسا ، من جميع أنحاء العالم ، و أربعة خمسة أيام هذه المحاضرات كلها عن تحسين النسل فقام رئيس المجمع العلمي العربي، وهو طبيب مشهور توفي رحمه الله ، و قال : كل هذه المحاضرات ملخصها قول النبي الكريم : اغتربوا لا تضووا ، فكلما كان هناك تباعد يأتي النسل قوياً .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(27-60): تفسير الآيات 98 - 101
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-06-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع والعشرين من سورة آل عمران ، ومع الآية الثامنة ، والتسعين من قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(98)قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ

1 ـ وقفة متأنية عند كلمة (قل) :

تستوقفنا أيها الإخوة كلمة (قل) .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 98)

ما الفرق بينها وبين قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 65)

إن الله جل جلاله كما قال بعض العلماء يتلطف بعباده ، ويخاطبهم مباشرة أحياناً ، أما حينما يتلبسون بمعصية فليسوا أهلاً أن يخاطبهم ، لذلك تقريعاً لهم يقول الله عز وجل :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

ولله المثل الأعلى : حينما يأتي مدير عام ليتفقد أحوال إحدى الدوائر المسؤول عنها ، ولا يجد الموظف في مكانه ، ولا دوامه منتظم ، لا يخاطبه مباشرة تقريعاً له ، وهو إلى جانبه واقف ، يقول : قل له : ألا يتأخر ، وهو لِمَ لا يقول له : لا تتأخر ؟ عمله لم يجعله أهلاً أن يخاطَب مباشرة ، فحينما يقول الله عز وجل :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور الآية 30)

وكأن المؤمن قبل أن تأتي هذه الآية واقع في حيرة ، ولعله يطلق بصره ، فجاءت هذه الآية :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور الآية 30)

بالمناسبة الله جل جلاله لم يخاطب الكفار إطلاقاً في قرآنه الكريم ، لأن الإنسان حينما لا يقبل الحق ، وحينما يرد الحق ، وحينما يركب شهواته ، وتتحكم فيه نزواته ، مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يخاطبه الله عز وجل ، إلا آية واحدة يوم القيامة قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة التحريم : الآية 7)

لكن الله جل جلاله فيما يزيد على ثلاثمائة آية خاطب المؤمنين :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم الآية 6)

حينما تُخاطَبون من الله مباشرة فهذا شرف عظيم ، وهذا رقي كبير ، قال تعالى :

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

(سورة العنكبوت الآية 56)

حينما تقرأ قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة آل عمران الآية 100)

ينبغي أن تشعر أنه لكرامتك عند الله وجّه الله لك الخطاب مباشرة ، هناك آيات مثل :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا)

(سورة النور الآية 30)

أو قل لفلان ، أما هنا فقال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

لأن أهل الكتاب معهم كتاب ، وفي الكتاب إشارة واضحة إلى مجيء النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان أهل الكتاب فيما مضى يستفتحون بهذه البشارة على الذين آمنوا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا ، هذا النبي الذي في كتابهم جاء حقيقة فكفروا به كِبراً ، وحسداً ، وعدواناً ، لأنهم بمراكز معينة ، فلذلك أيها الإخوة ، المنتفع من الباطل هذا قلّما يهتدي ، أما المقتنع بالباطل فكثيراً ما يهتدي ، فالإنسان المقتنع بالباطل جاءه دليل لم يكن في علمه فخضع للحق ، هذا قضيته سهلة جداً ، أما المنتفع بالباطل فهو لا يدافع عن فكرة يعتنقها ، بل يدافع عن مصلحة ينعم بها ، من هنا لا تفكر أن تخاطب ، أو تحاور غبياً ، ولا قوياً ، ولا منتفعاً ، ليس هناك من جدوى أن تحاور منتفعاً بكفره ، أو منتفعاً بنفاقه ، الله عز وجل يقول :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

2 ـ الله يأمر نبيه أن يبلغهم هذه المقولة :

أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يبلغهم هذه المقولة .

النبيّ مبلّغ عن ربه :

بالمناسبة يتضح من كلمة (قل) ؛ أنّ النبي مُبَلَّغ يُبَلِّغ عن الله ، وقال تعالى :

(مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الأحقاف الآية 9)

ليس من شأن النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحرك إلا بما يمليه عليه الوحي بدقة تامة ، لأنه أمين وحي السماء ، وأمانة الوحي تقتضي بأن يُبَلِّغ ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية 67)

وقال :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية 99)

3 ـ الانحراف طريق للصد عن سبيل الله :

سبحان الله ! حينما ينحرف الإنسان دون أن يشعر بعقله الباطن بدوافع خفية ليست واضحة عنده يصد الناس عن سبيل الله ، لأن المنحرف يحب أن يكون الناس جميعاً منحرفين مثله .

مثلاً : الإنسان غير منضبط ، وغير ملتزم ، ولا يستقي علماً شرعياً من أي جهة ، لو أن قريباً له التزم بمسجد ، وتحسَّن سلوكه ، واصطلح مع ربه ينهاه دون أن يشعر ، يحذره ، يذكر له أخطارا موهومة ، ليست موجودة ، كأن يقول له : انتبه لمستقبلك ، أي يخيفه ، حسناً أنت ما الذي يضيرك لو أنه اهتدى إلى الله ؟ يحب أن يكون الناس جميعاً مثله ، ما دام قد تفلَّت من منهج الله ، وما دام قد آثر طريق الشهوة على طريق الحق ، إذاً دون أن يشعر ببواعث خفية بعقله الباطن يصرف الناس عن الحق ، وهذا شأن أهل الكتاب ، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية 98)

4 ـ أهل الكتاب كفروا بمجيء النبي عليه الصلاة والسلام :

الآيات التي في كتابكم ، والتي تُنَبِّئ بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ، وكنتم تستفتحون على الذين آمنوا ، هذه الآيات التي في كتابكم لِمَ تكفرون بها ؟ لِمَ لا تأخذونها ؟

(وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ

1 ـ الله لا يخفى عليه تخطيط الكافر :

من أجل أن تتذوق معنى هذه الآية تصور إنسانًا يخطط ضد نظام معين ، وهو يتحرك هناك أجهزة تعلم كل حركاته ، وسكناته ، ولقاءاته ، وزياراته كلها مُسَجَّلة عليه ، في الوقت الدقيق ، بل إن كلامه كله مسجل ، فهذا يظن أنه قد أفلح ، لكن الله كما يقول :

(وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

كل حركات الكافر ، وتخطيطاته ، وسكناته ، ومؤامراته على أهل الحق في علم الله عز وجل :

(وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران الآية 98)

لكن في الوقت المناسب يظهر أنه كان غبياً ، ولم يكن ذكياً ، وأنا لم أرَ في حياتي أغبى من إنسان وقف ضد الحق ، لأن الله هو الحق ، من أنت حتى تقف في وجه الحق ؟ من أنت حتى تكون في خندق معاد لخندق المسلمين ؟ من أنت حتى تتمنى أن تطفئ نور الله ؟

2 ـ من الشقاء والغباء والحمق الوقوف في وجه الحق :

والله أيها الإخوة ، وإن كان هذا المثل يدعو للعجب ؛ لو رأينا إنساناً هنا في الشام يتجه نحو أشعة الشمس الساطعة ، وينفخ فيها كي يطفئها ، بماذا تحكم على عقله ؟ أشعة الشمس لا يمكن أن يطفئها إنسان بنفخة من فمه ، فكيف بنور الله ؟ قال تعالى :

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

(سورة الصف الآية 8)

لذلك ليس هناك أشقى وليس هناك أشد حمقاً من الذي يريد أن يطفئ نور الله ، أو أن يقف في وجه الحق ، وهناك كلمات أقولها دائماً : الكلاب تعوي ، والقافلة تسير ، وما ضَرَّ السحاب نبح الكلاب ، ولو تحول الناس إلى كناسين ليُثيروا الغبار على الإسلام ما أثاروه إلا على أنفسهم ، ويبقى الإسلام

هو الإسلام ، وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بحجر ، فهؤلاء الذين عارضوا النبي الكريم ، وائتمروا على أصحابه ، وضيَّقوا عليه ، وأخذوه من دياره ، ونكَّلوا بأتباعه ، كيف كان مصيرهم في حياة النبي؟ كانوا قتلى في ساحة المعركة ، حينها خاطبهم النبي واحِداً واحداً ، وقَالَ :

((يَا فُلانُ ، يَا فُلانُ ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ حَقًّا ، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا ؟ قالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَتُكَلِّمُ قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا ؟ قالَ : مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا))

[مسلم ، النسائي ، أحمد]

فليس هناك إنسان على وجه الأرض يُعَدُّ أكثر غباءً ، ولا أكثر حمقاً ، ولا أكثر شقاءً من الذي يريد أن يطفئ نور الله ، طبعاً هذا يظهر بشكل حاد عند بعض الناس الأقوياء ، ولكن يظهر بشكل مخفف عند معظم الناس ، فبمجرد أن أحد أقربائه ، أو ابنه ، أو قريبه ، أو ابن أخيه التزم ، وطبق منهج الله عز وجل ، وحافظ على صلواته ، وغض بصره ، وأبى الاختلاط ، وأبى كل حفل مشترك يقام عليه النكير، هؤلاء الذين يقيمون على شاب مستقيم النكير ، هم يصدون عن سبيل الله ، بشكل مخفف ، هم لا ينكرون الحق ، لكن ينكرون الالتزام به ، يقولون : من يستطيع أن يستقيم هذه الأيام ؟ هذا الدين ليس لهذه الأيام ، هذا الدين لزمن سابق ، هكذا يوهم نفسه ، إذاً الله جل جلاله يقول:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 98)

معكم آيات في كتابكم ، فكفروا بها ، قال تعالى :

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)

(سورة النمل : الآية 14)

هناك حقيقة دقيقة ، وهي أن الإنسان حينما ينقطع عن الله يصبح أعمى لا يرى ، قال تعالى :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج : الآية 46)

في ساعة الغفلة ، وساعة الانغماس في اللذة يغيب الإنسان عن الحقائق ، ويحاول أن يطفئ نور الله بشكل أو بآخر ، أو يصد عن سبيل الله ، أي يشكك بأية جهة دينية ، لا أحد جيد ، لأنه جال كل الدعوات في العالم ، واكتشف أنها كلها دعوات كاذبة غير صادقة ، إذاً : أنت لا تلتزم ، دع غيرك يلتزم ، لكن لا يسمح بذلك .

أنا لا أذكر هذا الكلام إلا من معاناة ، فتجد بعض المسلمين ألِفوا المعصية ، ألِفوا الاختلاط ، ألِفوا التبذير ، ألِفوا أجهزة اللهو ، ألِفوا كل شيء يبعدهم عن الحق ، وهم يصلون مع ذلك ، فإذا التزم واحد منهم من أقربائهم يُقام عليه النكير ، وهذا العمل صدّ عن سبيل الله ، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا)

(سورة آل عمران الآية 99)

مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا

1 ـ معنى العوج :

الشيء المادي إذا كان معوجاً نقول : فيه عَوج ، العَوج بالفتح ، الاعوجاج في شيء ، في غصن ، في قطعة خشب ، في قطعة الحديد ، الاعوجاج في جسم مادي يقال له : عَوج ، بفتح العين ، أما في الأمور المعنوية ، والأمور الاعتقادية ، والأمور القيمية ، الانحراف يسمى عِوجًا ، قال تعالى :

(تَبْغُونَهَا عِوَجًا)

2 ـ هذا الفهم نوع من العوج :

وهو دين واضح ، لكن هو يريد أن يقول : إن أمة محمد مرحومة ، لن تُعَذَّب ، ويفهم بعض الأحاديث فهماً ساذجاً ، أن شفاعتي بأهل الكبائر من أمتي ، إذاً : عليك بالكبيرة كي تنالك شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ، هو يريد أن يغير منهج الله ، يريد أن لا يعبأ بالآيات التي تؤكد عدل الله التام ، لا يعجبه أن يقول النبي الكريم :

((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

((وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

يعجبه حديث آخر ، مثلاً حديث غير صحيح : أن الإنسان إذا وافته المنية يوم الجمعة فهو إلى الجنة ، ولو كان إنساناً كافراً ! وهذه أحاديث موضوعة ، تعجبه مثل هذه الأحاديث :

((مَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إلا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[مسلم ، أحمد ، الترمذي]

لا تُكَلِّفه إلا خمس كلمات ، هذا الحديث يُعجَب به ، لكن له رواية أخرى لا يتحمس لها :

((من قال : لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة ، قيل : وما حقها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله))

[الطبراني في المعجم الأوسط عن زيد بن أرقم]

يريد الشيء الخفيف ، حتى إنّ الناس حينما يتَّبعون ديانات وضعية من صنع البشر تجد خمسمائة مليون يتبعون ديانة في شرق آسيا ، ما هذا الإقبال على هذه الديانة ؟ لأنه لا تكليف فيها ، فيها ولاء فقط ، بينما منهج الله عز وجل فيه تكليف ، بأمر تكليفي .

القرآن والسنة تولّى الله حفظهما :

بالمناسبة أتباع الأديان السابقين كلّفهم الله أن يحفظوا كتابه ، والأمر التكليفي يُعصى ، فما حَفِظوه ، بل أضافوا ، وبدلوا ، وغيَّروا ، وحذفوا ، لكنّ القرآن الكريم حفِظه الله بأمر تكويني لا بأمر تكليفي ، أي تولى الله بذاته العلية حفظ كتابه ، فالقرآن الكريم كما نزل في عهد النبي ، وكما كُتب في مُصحف عثمان ، وليس في الأديان كلها كتاب يمضي على نزوله أربعة عشر قرناً دون أن يتغير فيه حرف واحد ، وهذه من نِعَم الله العظمى ، أنّ قرآننا ، وهو المصدر الأول لهذا الدين محفوظ بحفظ الله مباشرة، لذلك مئات الألوف ، بل عشرات مئات الألوف يحفظون كتاب الله كله عن ظهر قلب ، فالقرآن الكريم محفوظ في الصدور ، ومَتْلوٌ في العالم الإسلامي ، ومحفوظ في المصاحف ، أي يُتلى ويُحفظ ، ويُكتب كما نزل ، لأن هذا الحفظ تمّ بأمر تكويني ، قال تعالى :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر : الآية 9)

والعلماء يقولون : إن حفظ القرآن الكريم من لوازمه حفظ سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنها مُبيِّنة، فلا معنى أن تحفظ البيان دون التبيين ، وقد أكد الله هذا المعنى بقوله :

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل : من الآية 44)

إذاً : سُنة النبي مُبينة ، فلا معنى أن تحفظ الأصل ، ولا يُحفَظ التبيين فمن لوازم حفظ الله لكتابه أنّ سنته سنة النبي محفوظة بحفظ الله ، لذلك هيّأ لها رجالاً أعلاماً جهدوا ، وبذلوا جهداً لا يوصَف في حفظ السُنة ، واستنباط الصحيح من الضعيف والموضوع ، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(98)قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا)

(سورة آل عمران)

المشكلة أنّ إنساناً ربما لا يؤمن ، ولكن يصُدُّ كل مؤمن عن أن يؤمن ، أنت لم تؤمن لِمَ تصدُّ المؤمنين؟ أنت لم تلتزم ، لِمَ تنهى الملتزمين ؟ أنت لم تلتحق بمسجد ، فلِمَ تنهَ الناس أن يلتحقوا بالمساجد ؟ هكذا ، الإنسان يحب أن يوَسِّع العدد الذي يشبهه ، أما الكتب السماوية السابقة فلم تُحفَظ بأمر تكويني ، بل حُفِظت بأمر تكليفي ، لذلك لم تُحفَظ .

الأمر التكليفي والأمر التكويني :

إنّ كل أمر تكليفي قد يُطاع ، وقد يُعصى ، أوضح لكم معنى الأمر التكويني والأمر التكليفي ؛ الأمر التكليفي كلوحة فيها : ممنوع المرور ، الطريق مفتوح ، وسالك ، لكن هذا الطريق ممنوع أن تأتيه من اتجاه آخر ، لو أنّ إنسانا خالف ، وبإمكانه أن يُخالِف ، لكن هناك مسؤولية ، هناك مخالفة ، هناك جزاء، لكن الأمر التكويني هناك مكعبات إسمنت مسلح على عرض الطريق لا تستطيع أن تخترق هذه المكعبات ، فأنت بين أمر تكليفي وأمر تكويني ، سيدنا موسى مع الخضر ، سيدنا موسى يعلم الأمر التكليفي ، أما سيدنا الخضر فيعلم الأمر التكويني ، لِمَ خرق السفينة ؟ قال تعالى :

(وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

(سورة الكهف الآية 79)

فخرق السفينة ، وقتل الغلام ، وبناء الجدار هذه أفعال الله ، أي أعطاه سر أفعاله ، فهو يعلم حكمة الأمر التكويني ، بينما سيدنا موسى عليه السلام يعلم الأمر التكليفي ، لذلك حينما خرق السفينة اعترض عليه هذا خلاف الأمر التكليفي ، وعندما قتل الغلام اعترض ، وعندما بنى الجدار بلا أجر اعترض أيضاً ، فلما عرف حكمة الأمر التكليفي استسلم ، فالأمر التكليفي قد يُعصى ، لكنّ الأمر التكويني لا يمكن أن يُعصى لأنه فعل الله ، ذاك أمره ، وهذا فعله ، فالكتب السابقة حُفظت بأمر تكليفي .

مثلاً عندما قال الله عز وجل :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران الآية 97)

هذا أمر تكليفي ، والدليل قد تنشأ فتنة في بيت الله الحرام ، وقد يموت أناس كثيرون ، أي أنّ الله عز وجل كلّفنا أن نجعل هذا البيت آمناً ، ولما قال :

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

(سورة النور الآية 26)

هذا أمر تكليفي ، فقد تجد امرأة طيبة مع إنسان شرير ، وقد تجد إنساناً طيباً مع امرأة ، فهل هذا نقض للأمر ، لا ، لأنّ الأمر تكليفي ، الأمر التكليفي قد يُعصى ، أما الأمر التكويني فلا يمكن أن يُعصى ، وأن يُبَدَّل ، لأنه فعل الله عز وجل ، فالقرآن الكريم محفوظ بأمرٍ تكويني من قِبَل الله مباشرة .

أيها الإخوة ، أطلعني أخ على صفحة من موقع معلوماتي تُقلّد القرآن الكريم ، وتوهم الناس أنها من القرآن الكريم ، والله الذي لا إله إلا هو لو عرضنا هذه السورة المزورة من كتاب الله على طفل في الخامس الابتدائي لضحك ملءَ فِيْه سخرية منها ، وأيّ مسلم يشعر أنّ هذا الذي بين أيدينا هو كلام الله ، وما سواه كلام مُفتَعل ، لذلك قد تجري بعض المحاولات لتحريفه .

بالمناسبة حينما أقول : تولى الله بأمر تكويني حفظ هذا الكتاب ، ليس معنى هذا أنه لا تجري محاولة لتبديله ، ولكنها لا تنجح أبداً ، يمكن أن تجري محاولات ومحاولات ، ولكنها لا تنجح أبداً ، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(98)قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا)

أي يريد استثناء ، يريد رخصة ، يريد تعطيل حكم ، يريد أن يأكل الربا .

إذاً : معنى الآية عنده :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : الآية 130)

ليس هناك نهي عن ضعف واحد ، هذا التفسير يرتاح له ، فكلما قرأ آية يريد أن يصرفها عن قصدها الحقيقي ، سمى العلماء هذا العمل لَيَّ عنق النصوص ، قال تعالى :

وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

(وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران الآية 99)

تهديد ووعيد :

هذه كلمات تهديد ، قوله تعالى :

(وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران الآية 98)

هذا تهديد .

وقوله تعالى :

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 99)

هذا تهديد .

الآن قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية 99)

1 ـ سبب نزول هذه الآية :

تروي بعض كتب التفسير أن لهذه الآية سبب النزول ، هي قصة جرت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بين الأوس والخزرج ، كلكم يعلم أنّ هاتين القبيلتين كان بينهما صراع عنيف قبل الإسلام ، وهذا شأن البشر جميعاً ، البشر حينما يبتعدون عن منهج الله عز وجل تُلقى بينهم العداوة والبغضاء قال تعالى :

(فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية 14)

2 ـ اليهود غاظهم اتفاق الأوس مع الخزرج بعد العداوة :

كان بين هاتين القبيلتين عداوة ، وخصومات ، وحروب ، وقتلى ، وشعر ، وهجاء ، وما إلى ذلك ، فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام ائتلف الأوس مع الخزرج ، وأحبَّ بعضهم بعضاً ، من الذي اغتاظ؟ بعض أهل الكتاب من اليهود ، غاظهم هذه الألفة التي لم تكن من قبل بين الأوس والخزرج ، غاظهم هذا الحب ، وهذا الوفاق .

مرة سيدنا الصدِّيق جاءه طلب معين أراد أن يأخذ رأي عمر ، فأحال صاحب الطلب إلى عمر ، سيدنا عمر رفض أن يُنَفَّذ هذا الطلب ، فامتلأ صاحب الطلب غيظاً ، فعاد إلى سيدنا الصدِّيق ليثير حفيظته ، قال له : الخليفة أنت أم هو ؟ يبدو أنه هو ، قال له : هو إذا شاء ، لا مشكلة ، أي بين المؤمنين من الود، والتعاون ، والتفاهم الشيء الكثير ، دائماً الطرف الآخر البعيد عن الله يريد أن يُوقع بين المؤمنين، ولا يُسعده أن يرى أخوين متفاهمين ، فيثير حفيظتهما .

مثلاً : يرى أخوين متفاهمين فيقول لأحدهما : هل تتقاسمون أرباحكم مناصفة ؟ فيقول له : نعم ، فيقول لك : والله أخوك يظلمك ، لأنه كما يبدو فهو لا يداوم ، كانوا مرتاحين ، ومتفاهمين ، ومتعاونين ، وهو يريد أن يُفرِّق بينهما ، هذا فعل الشيطان ، يفرق بين المرء وزوجه ، وبين الأخ وأخيه ، وبين الجار وجاره ، وبين الشريك وشريكه .

2 ـ سعي اليهود للوقوع بين الأوس والخزرج :

فبعض أهل الكتاب من اليهود غاظهم هذا الود ، والحب ، واللقاء بين الأوس والخزرج بعد مجيء النبي ، فأحدهم اسمه شاس ، دفع غلاماً ليقول قصيدة أُلقيت في الجاهلية في هجاء أحد الطرفين ،

فهذا الغلام وقف في مجمعهم ، وألقى هذه القصيدة ، طبعاً ذكَّرَتْهم بالعداوة السابقة ، والشعر الجاهلي هو شعر جاهلي حقيقة ، لأنّ فيه فخرًا ، وكذبًا ، وهجاءً ، وافتراءً ، وكل قيم الشعر الجاهلي عدا بعض القيم من ذكر الشجاعة والكرم ، عدا هاتين القيمتين فهو شعر جاهلي ، فهذا الغلام ألقى هذه القصيدة على مسمعٍ من الطرفين ، فبعض ضعاف الإيمان منهم ثارت حفيظتهم ، فذكروا القصيدة الأخرى المقابلة ، فتشاتموا ، وسحبوا سيوفهم ، وكادت تقع فتنة ، والنبي بين ظهرانيهم ، فخرج النبي عليه الصلاة والسلام ، ووقف بينهم ، وقرَّعهم ، وذكَّرهم بإيمانهم ، أي : أتفعلون هذا ، وأنا بين أظهركم بعد أن نجّاكم الله من الجاهلية ومن العداوة والبغضاء ، ومن الحقد ، ومن هذه الأمور الجاهلية ، ثم تفعلون هذا ؟ مباشرة قَبَّل بعضهم بعضاً ، وبكوا بكاءً شديداً ، وندموا على فعلتهم ، فأنزل الله عز وجل قوله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

3 ـ لا تسمح للطرف الآخر أن يوقع العداوة بين المسلمين :

لذلك أيها الإخوة أنت مؤمن ، وأي مؤمن آخر بأيّ مسجد آخر نحن جميعاً طرف واحد أمام الطرف الآخر ، فإذا كنت حريصاً على دينك فلا تسمح لإنسان من الطرف الآخر أن يتهجم على مؤمن ، ولو لم يكن من أتباعك ، نحن جميعاً في قارب واحد ، نحن جميعاً طرف واحد .

أذكر أنّ أحد العلماء في مصر اجتهد اجتهاداً ، ولعله جانَبَ فيه الصواب ، فقام الطرف الثاني ، أي الذي يُنكر الأديان كلها فهاجمه هجوماً عنيفاً ، ولأول مرة يقف جميع العلماء صفاً واحداً أمام هذا الطرف المتجني ، أي أنك لست أنت المقصود كمسلم ، المقصود دينك .

أحياناً الطرف الآخر يهاجم فئة أو جماعة ، المقصود ليس هذه الفئة ، المقصود هو الإسلام ، لذلك ينبغي أن تكون أنت واعياً جداً ، لا تسمح للطرف الآخر أن ينال من المؤمنين ، ولو لم يكونوا من أتباعك ، ولو لم يلوذوا بك ، الله عز وجل خاطب النبي بقوله :

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 215)

وقال :

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجر : الآية 88)

وازن بين الآيتين ، أنت مُكلَّف أن تخفض جناحك لكل مؤمن ، أما كون هذا المؤمن يأتي إلى جامعك فهذا موضوع آخر ، فإن الله عز وجل مُوَزِّع الدعوات على كل عباده شرائح شرائِح ، فإذا كان الإنسان معجبًا بوالدته فليس معنى هذا أن إنساناً آخر ليس له أم ، وله أم ، وهو معجب بها ، هذه الحقيقة الواقعة، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

4 - احذروا الورقات الرابحة في أيدي الأعداء !!!

لو وسَّعنا هذا الموضوع ، قصدُ أعداء الإسلام الأول إيقاع الفُرقة بين المسلمين ، معهم أوراق رابحة كثيرة ، يمكن أن يُمزقوا العالم الإسلامي شر ممزَّق بسبب جهل المسلمين ، لو انتبه المسلمون ، وكانوا على وعي وإخلاص لمْ يسمحوا لعدو للمسلمين أن يُفَرِّق بينهم ، لكن ماذا يفعل المستعمرون من مئة عام ؟ يعرفون بعض الحساسيات ، وبعض أنواع الخلاف ، هذه يخبئونها ورقة رابحة ، فكلما أرادوا أن يُفَرِّقوا شمل المسلمين أظهروا إحدى هذه الورقات ، عندهم قوائم كثيرة يثيرون بها الخلاف بين المسلمين ، هذه الآية أساسية جداً في حياة المسلمين ، يجب أن نكون واعين .

إخواننا الكرام ، بادئ ذي بدء ، الذين آمنوا بالله ، واستقاموا على منهجه طرف واحد كلهم ، على اختلاف مللهم ، والذين كفروا بالله ، وأرادوا الدنيا طرف آخر ، أنا أتمنى على الطرف الأول ؛ أي المؤمنين ألا يسمح للطرف الآخر أن يدخل بينهم ، يجب أن تدافع عن كل مؤمن ، لأن الطرف الثاني لا يستهدف طرفاً بعينه ، يستهدف دينك كله ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ

ثم يقول الله عز وجل متعجباً بما يليق به :

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)

(سورة آل عمران : الآية 101)

1 - يرقى الاختلاف بين المؤمنين إلى مستوى الكفر :

ماذا سمى الاختلاف بين المؤمنين ؟ سماه كفراً ، أي كيف تكفر أي تختلف مع أخيك ؟ هل يُعقل أن يرقى الاختلاف بين المؤمنين إلى مستوى الكفر ؟ هذا المعنى تؤكده آيات أخرى ، يقول الله عز وجل :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال الآية 1)

ويقول رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((ألا أخْبِرُكُمْ بِأفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قالُوا : بَلَى ، قالَ : صَلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، فَإنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ ، لا أقُولُ : تَحْلِقُ الشَّعَرَ ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))

[أبو داود ، أحمد ، الترمذي]

فساد ذات البين حالقة للدين .

2 ـ التطبيق العملي لهذه الآية :

ما التطبيق العملي لهذه الآية ؟ حاول أن تُصفّي كل علاقة بينك وبين أخيك المؤمن ، صفّها ، لا بمعنى أنهها ، وإنما بمعنى اجعلها صافية ، حاول أن تصلح أية علاقة بينك وبين المؤمنين ، حاول ألا يبقى في قلبك غلٌ ، ولا حسد ، ولا كِبر ، ولا ضغينة على أي مؤمن ، اذهب إليه ، صارحه ، اكشف قلبك له ، إن كان الخطأ منك اعتذر منه ، إن كان في قلبه ضغينة فأهدِ له هدية ، فالهدية شيء عظيم ، وفي الحديث عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تَهَادَوْا ، فَإنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي]

حاول أن تصلح علاقتك مع الناس ، وحاول أن تصلح العلاقة بين الناس ، أصلح علاقتك معهم ، وأصلح العلاقات فيما بينهم ، هذا هو التطبيق العملي ، يجب أن تعتقد أن الخلاف بين المؤمنين خطؤه كخطأ الكفر ، بل يُقَيَّم عند الله كفراً ، والآية صريحة ، قال تعالى :

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

كيف تكفرون ، أي كيف تختلفون ، أيُّ خلاف يزول بالحوار ، حاور أخاك ، اسأله ، بيِّن له الدليل إن لم يقتنع فلا يوجد مشكلة ، أي لو بقي الخلاف بأمور دقيقة قليلة فلا يوجد مشكلة أبداً ، الخلاف في موضوع معين لا يُفسد وداً بين شخصين .

أنا لي وجهة نظر مقتنع بها ، وأنت لك وجهة نظر ، لكننا متفقون على أساسيات الدين ، والأساسيات لا خلاف فيها ، الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره ، وشره من الله تعالى ، هذه أساسيات .

أنا الذي أتمناه أحياناً أن يكون لكل درس تفسير تطبيق عملي ، اعمل مراجعة ، هل مِن إخواني في هذا المسجد شخص لي في قلبي شيء تجاهه ؟ أو هل أخ من إخوة المسجد في قلبه شيء تجاهي ؟ اذهب إليه ، واعتذر له ، وفاتحه في الموضوع ، وصارحه ، إن كان الخطأ منك اعتذر ، إن كان الخطأ منه سامحه ، لكن ما أجملها أن يكون المؤمنون ، فعَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

[البخاري ، مسلم ، أحمد]

ما أجملَ أن يكون المؤمنون كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً ، ما أجمل أن لا نسمح للطرف الآخر أن يدخل بيننا ، وما أقبح أن يكون بأس المسلمين بينهم ، والله الذي يدمى له القلب أني ذهبت إلى الشرق والغرب ، وإلى بلاد بعيدة ، الذي يُدمي القلب أن المسلمين في معظم بلاد العالم بأسهم بينهم ، عداوة بين الجماعات الإسلامية ، أحقاد بين الجماعات الإسلامية ، كل جماعة تدَّعي أن الله لها وحدها ، وأن الحق معها وحدها ، وأن ما سواها انهيار ، هذا اعتقاد سخيف جداً أيها الإخوة ، ولعلها مصالح .

3 ـ الاختلاف قد يكون طبيعياً لنقص المعلومات :

ذكرت لكم من قبل أن الاختلاف قد يكون طبيعياً لنقص المعلومات ، وأن الاختلاف قد يكون محموداً ، اختلاف تنافس ، فأنا أرى أن أفضل شيء الدعوة إلى الله ، يأتي إنسان آخر فيرى أن أفضل شيء تأليف الكتب العلمية ، كلانا له عند الله ثواب ، إذا اختلف اجتهادنا في أي الأعمال أعظم ، هذا خلاف محمود ، وإذا كان هناك خلاف أساسه نقص المعلومات فهو معزول .

4 ـ الاختلاف المذموم سببه الحسد والبغي والمصالح :

أما الخلاف القذر فهو الخلاف بسبب الحقد ، والحسد ، والبغي ، والمصالح ، اختلاف المصالح والحسد، قال تعالى :

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 19)

أيها الإخوة الكرام ، كونوا أنتم مُثُلاً عُليا ، حاول أن تكون منفتحاً على كل المؤمنين ، وما دام انتماؤك ليس لمجموع المؤمنين فلست مؤمناً ، لقوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات : الآية 10)

5 ـ عند الاختلاف نحتكم إلى شرع الله :

يقول الله عز وجل : كيف تختلفون ، ومعكم منهج السماء ، وفيكم رسول الله ؟ كيف تختلفون ؟ أي كيف تكفرون ؟ بمعنى أعمق اختلافنا يتناقض مع كتابنا الواحد ، ومع إلهنا الواحد ، ومع نبينا

الواحد ، إلهنا واحد ، ونبينا واحد ، وكتابنا واحد ، فاختلافنا يتناقض مع هذه الوحدانية ، قال تعالى :

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)

مرة حدثني أخ أعجبني موقفه ؛ اختلف مع زوجته في موضوع ، فقال : نحتكم لشرع الله ، اتَّصلوا بعالِم ، وسألوه فبَيَّنَ الحكم الشرعي ، فانصاع الزوج والزوجة لهذا الحكم ، فأي خلاف بين المؤمنين له جواب في الدين ، فحينما أختلف مع أخي أحتكم إلى شرع الله عز وجل ، انتهى الخلاف مادام معنا كتاب ، ومعنا سنة ، قال تعالى :

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

(سورة النساء : الآية 59)

أيّ منازعة ، في أي موضوع يرد إلى كتاب الله وسنة رسوله .

قال تعالى :

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة آل عمران : الآية 101)

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

يعتصم بالله ، بكتابه ، ويعتصم بتبيان كتابه من قِبل النبي الكريم فقد هُدِي إلى صراط مستقيم ، أي من يعتصم بالمنهج لن يضل عقله ، ولن تشقى نفسه ، قال تعالى :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : الآية 9)

الآية واضحة .

أما الآية الثانية فهي قوله تعالى :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : الآية 123)

وقال :

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : الآية 38)

والحمد لله رب العالمين

لا ستغرب من هذا ، فعِشْ رجَبًا ترَ عجبًا :

1 ـ مسرحيات الدجالين والمشعوذين :

أيها الإخوة الكرام ، معي رسالة يبدو أنها مهمة ، يقول صاحب الرسالة : أنا شاب ملتزم بإذن الله بشريعته ، ولكنني أحترق أشد الاحتراق حينما أسمع أنّ بعض قريبات لي قد ذهبن إلى ذلك الإنسان الذي يدَّعي بأنه شيخ يستطيع أن يفتح نصيب الفتيات ، أو جلب الرزق لفلان ، فطلبت امرأة منه ذلك ، وهي محترقة أشد الاحتراق أن يفتح نصيب ابنتها التي لم تتزوج بعد ، فكان جواب ذلك المحتال بأنه لا يستطيع إلا بدفع خمسة وعشرين ألف ليرة ، وزعم أنه يعطيها للجن ، وهذا ما يقوله بعض المشعوذين.

أنا سمعت أخبارا كثيرة عن هذا ، وسمعت بمبلغ أكبر من هذا بكثير ، امرأة عندها عدة شباب متفقة معهم ، فإذا دفع إنسان مبلغًا ضخمًا ترسل واحداً منهم ، لكنهم جميعاً لا يكملون هذا الزواج حتى النهاية، يرسلون شخصاً فيخطب ، ويضع شروطاً صعبة ، ثم ينسحب ، فترسل الآخر ، فعلى زعمها هذه المائة ألف أتوا لها بعشرة خاطبين ، معنى ذلك أن هذا الشيخ صادق ـ والعملية كلها مجرد دجل ، فطلب خمسة وعشرين ألفاً ، وزعم أنها ليست له ، وإنما للجن الفلاني ، وكانت حالة قريبتي المادية سيئة جداً ، فطُلِب منه أن يُخفِّض السعر ، فقال له : ادفعي الآن أربعة آلاف كدفعة أولى ، دفعت هذا المبلغ ، ولم تستفد شيئاً ، فذهبت إليه ، وقالت له : إنها لم تستفد ، فقال لها : إنني أريد أربعة آلاف أخرى ، دفعت الأربعة الثانية ، ثم نشب خلاف كبير بين الأم والأب فقد دفعوا ثمانية آلاف حتى الآن ، فكان هذا العمل على نية فتح نصيب واحدة من البنات ، وبعد دفع هذه الثمانية نشب خلاف خطير بين الزوجين .

2 ـ بيد الله كلّ شيء :

والله أيها الإخوة كل هذا مجرد جهل ، ونقص في الإيمان ، بل كفر بالله ، فإن الله عز وجل بيده كل شيء ، لا تحتاج الفتاة إلا أن تستقيم على أمر الله ، وأن تدعو الله في الليل ، كل فتاة أودع الله فيها رغبة قوية أن تكون أماً ، والله موجود ومُطَّلع ، والله علمنا أشياء كثيرة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ ، أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ))

[مسلم ، البخاري ، الترمذي ، أبي داود ، ابن ماجة ، أحمد ، مالك ، الدارمي]

هذا الحديث يكفينا ، أية فتاة تنتظر شاباً مؤمناً يرعاها ، ويحميها لها أن تصلي صلاة الفجر ، أو قبل صلاة الفجر بربع ساعة ، وأن تركع ركعتين تدعو فيهما في السجود بما تشاء، لا يوجد سوى هذا الحل، هذا هو الحل الأمثل ؛ أن تطلب هذا الشيء من الله ، وهذا هو التوحيد ، والله جبَّار الخواطر .

والله حدثني أخ له أقرباء ، يبدو أن هناك فتاة في البيت مستواها دون العشرين بالمائة ، فالأب لبعده عن الحكمة كان يقول : ابنتي هذه ستخدمني عندما أكبر ، هذه الفتاة لن تتزوج ، والله أيها الإخوة جاءها زوج أفضل من أزواج إخوتها جميعاً ، الله جبَّار الخواطر ، هو من يزوج ، عندما يعلم الله عز وجل الصدق والإيمان من الفتاة ، لأنّ طلبها مشروع يلبيه لها ، أي فتاة طلبها مشروع .

لابد من السعي لتزويج الشباب :

أنا والله أتمنى من أعماقي أن يتم زواج آلاف الشباب ، لأنّ أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح ، هناك بعض الآثار وردت : من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمة قالها ، وبكل خطوة خطاها، عبادة سنة قام ليلها وصام نهارها .

عندما يتعاون المؤمنون لتزويج الشباب والشابات هذا الآن من أعظم الأعمال ، لأنّ طرق الفساد ، وأبوابه مفتوحة على مصارعها ، وبإمكان أي شاب ، وأية شابة أن ينحرف وتنحرف دون أن يحاسبهم أحد، لذلك إما أن نشجع النكاح ، وإما أن يعُمَّ السفاح ، فهذه كلها أشياء فيها دجل ، أناس كثيرون ، شيوخ دجَّالون وكذَّابون يتعاونون مع الشيطان يوهمون الناس ، قال تعالى :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم : الآية 22)

لابد من العلم والوعي :

أنا أتمنى أن يكون هناك وعي عند المؤمنين ، والله إنّ الدجَّالات والدَّجالين كُثُر ، ولكن مَن زبائنهم ؟ الجهلة فقط ، الجن يريد خروفًا رأسه أسود ، الجن يريد ديكاً لونه كذا ، الجن يريد خمسة وعشرين ألف ليرة ، أعطني الآن أربعة آلاف ، ثم أربعة آلاف أخرى ، وبعد ذلك يُقال : نشأ خلاف قد ينتهي بالطلاق بين الزوجين ، كل ذلك كذب ، كذب صريح ، والله بعض من يفعل هذا ـ واللهِ ، وأنا أعني ما أقول ، وأعلم هذه الأشياء بدقة ـ يزني ببعض النساء اللواتي يأتين إليه بأساليب مخيفة ، ولا يصلي إطلاقاً ، وهو عند الناس شيخ ، يزوج ، ويحل المشاكل ، ويخرج الجن ، هو

في الأصل أصابه جني ، فانتبهوا أيها الإخوة ، نحن رواد حق ، وطلاب حق ، ولا يوجد إلا الله فقط ، وليس بينك وبين الله حجاب ، ولا واسطة .

إخواننا الكرام ، الدعاء له شروط ، قال تعالى :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة : الآية 1)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(28-60): تفسير الآيات 102 - 105
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-06-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن والعشرين من سورة آل عمران ، ومع الآية الثانية بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(102)وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 102-103)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

1 ـ خطاب الله للمؤمنين :

أيها الإخوة الكرام ، كما تعلمون أن الله جل جلاله لم يخاطب الكفار إطلاقاً إلا في آية واحدة يوم القيامة، لأن الكافر عطل عقله ، واتبع هواه فهو ليس أهلاً لأن يخاطبه الله عز وجل ، بينما المؤمن الذي آمن بالله خالقاً ، ومربياً ، ومسيراً ، آمن به موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، يقول له : يا أيها الذين آمنوا ، يعني يا من آمنتم بي ، يا من آمنتم بعلمي ، يا من آمنتم برحمتي ، يا من آمنتم بعدلي ، يا من آمنتم أني خلقتكم لجنة عرضها السماوات والأرض ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران : الآية 102-103)

2 ـ حقّ التقوى :

قال بعض العلماء فيما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حق التقوى أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تنساه ، وأن تشكره فلا تكفره ، هذا حق التقوى ، بتفصيل أكثر يجب أن تتقي غضبه ، يجب أن تتقي معصيته ، يجب أن تتقي سخطه ، يجب ألا تعمل عملاً لا يرضيه ينبغي أن تكون في رضوانه ، ينبغي أن يكون إيمانك كافياً لحملك على طاعته ، ما كل إيمان ينجي ، هناك إيمان لا ينجي ، فيجب أن تؤمن الإيمان الذي يحملك على طاعته ، أي أن تتقيه حق تقاته .

قد تجد مليارًا ومئتي مليون مسلم ، لأنهم لا يتقون الله حق تقواه لم يقطفوا ثمار الدين ، وعدهم الله بالاستخلاف فلم يستخلفوا ، وعدهم الله بالتمكين فلم يمكنوا ، وعدهم الله بالطمأنينة فلم يطمئنوا ، وعدهم الله أن جندهم هم الغالبون فلم يغلبوا ، وعدهم أن لن يجعل الله لأعدائهم عليهم سبيلا لأعدائهم عليهم فثمة ألف سبيل وسبيل عليهم .

3 ـ المؤمن واضح واضحٌ :

إن لم نتق الله حق تقواه لا نقطف ثمار الدين ، دقق في أب عنده ثلاثة أولاد ؛ ولد متفوق ، وأخلاقه عالية جداً ، فيكرمه الأب ، وولد آخر معتوه ، فالأب يحاسبه ، لأنه إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب ، من الذي يؤدبه ليلا ونهارًا ؟ الابن الثالث الذي يملك إمكانات ، وهو مقصر ، المؤمن كما أراد الله واضح ، فهو مرتاح في الدنيا ، والكافر الذي لا يرجى إيمانه اختار الدنيا ، وانتهى الأمر ، وهو واضح أيضاً .

مَن هذا الذي يعالج كل يوم ؟ يؤدب كل يوم ، تأتيه المصائب كل يوم ؟ هذا الذي ليس كافراً ، وليس مؤمناً ، ليس كافراً فيخرج عن دائرة العناية الإلهية ، وليس مؤمناً الإيمان الكامل فيقطف ثمار الدين ، هذه مشكلة المسلمين ، المؤمن واضح ، والله عز وجل يعامله معاملةً كاملة ، معاملةً فيها إكرام ، والكافر واضح ، فالله عز وجل أخرجه من دائرة العناية المشددة ، من هذا الذي يعالج ، ويؤدب ، ويضيق عليه ، ويشدد عليه ، ويصاب تارةً بماله ، وتارةً بصحته ، وتارةً بمن حوله ؟ هذا المؤمن المقصر ، فلذلك كأن هذه الآية تتجه إلى من آمن ، ولكن إيمانه لم يكن يرقى إلى مستوى يحمله على طاعة الله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران : الآية 102-103)

4 ـ ملمحٌ لطيف من الآية : الامتحان يكشف المتفوق :

هنا ملمح لطيف في قوله تعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : الآية 2)

أصل الامتحان أن يكشف هذا الامتحان من هو المتفوق ، أنا عندي خمسون طالباً ، صممت امتحاناً لأكشف المتفوقين منهم ، أما الامتحان الواقعي فهو يكشف الناجحين والراسبين ، فالأصل أن ينبغي أن تكون متفوقاً لا أن تنجح فقط ، فالله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

سبحان الله ! ما من شيء إلا إذا غصت في أعماقه كان ممتعاً ومسعداً ، الحل الوسط أحياناً لا يصلح في الدين إطلاقاً ، يمكن أن يكون الإنفاق وسطاً ، قال تعالى :

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)

(سورة الإسراء : الآية 29)

يمكن في شراء الحاجيات أن تختار حاجة وسطًا ، تؤدي الوظيفة بسعر معتدل ، يمكن أن تتخذ الوسطية في شؤون من حياتك كثيرة ، أما أن تكون استقامتك وسطاً ، أو تدينك وسطاً ، فربما لا تقطف ثمار الدين بهذا الموضوع ، لأن الله عز وجل يقول :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود : الآية 112)

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

أن تذكره فلا تنساه ، أن تطيعه فلا تعصيه ، أن تشكره فلا تكفره ، أن تتمسك بالكتاب والسنة فما إن تمسكت بهما فلن تضل أبداً ، أن تتبع منهج الله ، قال تعالى :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : الآية 123)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : الآية 38)

أن تكون وقافاً عند حدود الله ، أن لا تأخذك بلله لومة لائم ، أن تقيم العدل ، ولو على نفسك وأهلك ، أن تقول الحق ، ولو كان مراً ، ألاّ تداهن أحداً ، والمداهنة أن تبذل الدين من أجل الدنيا ، أن تضحي بدينك من أجل دنياك ، قال تعالى :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

(سورة القلم : الآية 9)

لك أن تداري ، وليس لك أن تداهن ، المداهنة بذل الدين من أجل الدنيا ، والمداراة بذل الدنيا من أجل الدين ، يمكن أن تعطي كل شيء من أمور الدنيا مقابل أن تأخذ بيد من حولك إلى الله ، لكن في أمور الدين لا ينبغي أن تضيع شيئاً من الدين من أجل دنياك ، هذا أن لا تأخذك بالله لومة لائم ، أن تقول الحق ، ولو كان مراً ، أن يكون صمتك فكراً ، ونطقك ذكراً ، ونظرك عبرةً ، أن تصل من قطعك ، أن تعفو عمن ظلمك ، أن تعطي من حرمك ، أن تكون ذاكراً لله ، أن تكون منيباً لله هذه بعض العبارات التي تحضرني في معنى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

ودائماً في مستوى التعليم ؛ الطالب الذي يرجو أن ينجح فقط لا ينجح ، أما إذا رجا أن يكون متفوقاً لعله ينجح ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

5 ـ احرص على أن تموت مسلماً :

الموت ليس بيدنا ، فكيف ينهانا الله عن أن نموت إلا ونحن مسلمون ، الموت ليس بيدنا ، معنى الآية : ما دام الموت ليس بيدك فاحرص على أن يأتيك الموت وأنت مستسلم لله عز وجل .

للتقريب : لو أنك حريص حرصاً لا حدود له على أن تقوم بعمل يعود عليك نفعه الكثير ، ولا تستطيع أن تقوم بهذا العمل إلا إذا لبيت إنساناً فيما بين ساعتين ؛ من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الثامنة مساءً، ما دمت حريصاً حرصاً لا حدود له على الوصول إلى هذا الهدف ، وقال لك : أنا سآتي ، وآخذك من بيتك ما بين الثامنة صباحاً ، والثامنة مساءً ، ولا ينتظرك متى تقف وراء الباب ؟ بدءاً من الثامنة صباحاً ، ما دام المجيء ليس باختيارك بين ساعتين ، فمن شدة حرصك على تأدية هذا العمل تقف بدءاً من الساعة الأولى وتنتظر ، وما دام الموت لا يأتينا باختيارنا ، فقد يداهمنا مداهمةً ، فينبغي ألاّ يأتينا الموت إلا ونحن مستسلمون ، لله خاضعون له .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

مع شيء من التفصيل للتوضيح ، شركة طيران لا ترد ثمن التذكرة ، والتذكرة بطاقة الطيران ثمنها خمسمئة ألف ليرة ، فإن لم تكن راكباً في الطائرة لا يرد ثمن هذه البطاقة ، والشركة هي التي تأتيك إلى البيت لتأخذك ، ولا تنتظر إلا دقيقة واحدة ، متى تأتي ؟ من الثامنة صباحاً ، وحتى الثامنة مساءً ، متى تقف خلف الباب ؟ بدءاً من الثامنة صباحاً ، البطاقة غالية جداً ، فإن فاتتك هذه الطائرة لم يُردّ لك ثمنها، هم يأخذونك من البيت ، ولا ينتظرون إلا دقيقة واحدة ، هذا هو المعنى .

6 ـ الاستعداد للموت الذي يأتي فجأة :

ما دام الموت ليس بيدنا ، وقد يأتي بغتةً إذاً ينبغي أن نكون دائمي الاستعداد له ، وهنيئاً لمن صفى علاقاته ، وأدى ما عليه ، وأدى واجباته ، وطالب بحقوقه ، ولم يبق مشكلةً مالية ، ولا اجتماعيةً ، ولا عاطفيةً إلا وحلها ، فإذا جاءه الموت يرحب به ، وكأنه على موعد معه .

الصحابة الكرام في حياتهم قاسم واحد مشترك بينهم ، وهو أنهم كانوا في أسعد لحظات حياتهم حينما جاءهم الموت .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

لا يأتينكم الموت ، وهو يأتي فجأة إلا وأنتم مستسلمون لله في كل شيء ، خاضعون لأمر الله في كل شيء ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)

(سورة آل عمران : الآية 103)

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا

1 - وجوب الوحدة والاتفاق :

هذه قضية دقيقة في شأن الوحدة ، فلابد من شيء يوحدنا أما لو قلنا : علينا أن نتحد لا نتحد، أن نجتمع لا نجتمع ، أن نتفاهم لا نتفاهم ، لأن الأهواء مختلفة ، والمصالح مختلفة ، والأصل ألاّ يجتمع الناس إلا على شيء يجمعهم ، لذلك هناك قاعدة دقيقة جداً مأخوذة من قوله تعالى :

(وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة : الآية 14)

2 - قانون العداوة :

وكأن هذه الآية قانون ، فمتى تنشأ العداوة والبغضاء ، ومتى ينشأ الحقد والحسد ، ومتى ينشأ البغي والعدوان ، ومتى تقوم هوة بين الناس ؟ متى يكون بأس الناس بينهم ؟ ومتى يمزقون ويشرذمون ؟ حينما ننسى منهج الله ، أما لو أننا طبقنا منهج الله جميعاً كانت المحبة ، والألفة ، والمودة ، قال تعالى :

(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال : الآية 63)

فإيمانهم ، وطاعتهم لله سبب وحدتهم ، ومحبتهم ، وفسق الناس ، وفجورهم ، ونبذهم لمنهج الله سبب العداوة ، والبغضاء بينهم ، وهذا قانون عام يشمل كل الناس وكل الشعوب وكل الأمم .

عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ :

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لا يَظْلِمُهُ ، وَلا يَخْذُلُهُ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إلا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَ))

[متفق عليه]

3 ـ الإسلام هو الذي يجمعنا :

الذي يجمعنا هو حبل الله ، حبل الله في أوجه التفاسير هو القرآن الكريم ، بشكل أوسع هو الإسلام ، الإسلام يجمعنا ، اعتصموا بحبل الله جميعاً ، وحبل الله طرفه الأول بيد الله ، وطرفه الثاني بيد المؤمن، فمن تمسك بحبل الله نجا ، أنت ممسك بحبلٍ طرفه بيد الله ، وطرفه بيدك ، فإذا اعتصمت بهذا الحبل ، اعتصمت بهذا القرآن ، اعتصمت بهذا الدين ، اعتصمت بهذا الإسلام ، هذا الذي يجمع الناس ، وللتقريب ؛ قد تجد حبالاً كثيرة مدلاة من السماء ، وكل يدعي أن هذا حبل الله ، أين بطولتك ؟ أن تمسك بحبل يمسكه الله من الطرف الآخر ؟ هنا البطولة حبال كثيرة ، كلها دعاوى تدعي أنها حبال الله ، لكن لله حبلاً واحداً ممسكاً بطرفه في السماء ، فكل بطولتك أن تهتدي بحبل أمسك الله بطرفه في السماء .

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)

(سورة آل عمران : الآية 103)

إذاً : أن نجتمع بلا شيء يجمعنا فاجتماعنا مستحيل ، أن نتعاون بلا شيء نتعاون عليه ، فتعاوننا مستحيل ، أن نتكاتف بلا شيء يدعونا إلى التكاتف تكاتفنا مستحيل .

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)

(سورة آل عمران : الآية 103)

لو أن صفرًا زائدَ صفر زائدَ صفر فإنه يساوي صفرًا ، الإنسان الذي لا يعتصم بحبل الله صفر ، وليس من الله في شيء ، ليس على الحق ، وليس على المنهج ، وليس على الدين ، وليس على مبادئ ، وليس على قيم ، لو اجتمع زيد مع عبيد فالمحصلة صفر ، أما لو أننا اعتصمنا بالله عز وجل لكنا قوةً يرهب جانبها ، فعن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[متفق عليه]

أما أمته حينما تركت سنته هزمت بالرعب مسيرة عام ، واعتصموا بالله جميعاً ، ينبغي أن يكون الاعتصام بحبل الله حقيقةً ، لأنه كما قيل :

وكلٌّ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكـا ***

4 ـ قف عند كلمة (جميعا) :

الحقيقة كلمة جميعاً لها معنى دقيق ، يقول الله عز وجل :

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور : الآية 31)

لا نقطف ثمارَ الدين إلا مجتمعين :

أنتم لا تقطفون ثمار الدين إلا إذا تبتم إلى الله جميعاً ، أن يكون في بيتك هاتف ، ولك خمسون صديقًا ، ليس عندهم هاتف ، هذا الهاتف لا قيمة له ، يكون له قيمة إذا كان عند كل أصدقائك مثل هذا الهاتف .

للتقريب : حينما تعيش في مجتمع مسلم لماذا تشعر بالسعادة ؟ لأن كل مسلم لن يكذب عليك ، ولن يغشك ولن يؤذيك ، ولن يعتدي على عرضك ، ولن يأخذ مالك ، كما أنك مأمور بالصدق فإن مليارًا ومئتي مليون مسلم أمروا أن يصدقوا معك ، كما أنك مأمور بالعفة فإن مليارًا ومئتي مليون أمروا أن يعفوا عن نسائك ، كما أنك مأمور بالأمانة فإن مليارًا ومئتي مليون مأمورون أن يكونوا أمناء معك .

إن ثمار الإيمان لا نقطفها إلا إذا كان الناس جميعاً أمناء ، وأوضح مثل موضوع الحجاب ، فلو أن أعداد قليلة حجبوا نساءهم ، ومعظم النساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، فثمار الحجاب لا نقطفها ، أما لو أن كل نساء الناس محجبات لا يثرن الغرائز ، ولا يبدين المفاتن لقطفنا جميعاً ثمار الحجاب ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور : الآية 31)

حينما يعم الفساد في الأرض علي أن أستقيم ، لكن لا تظهر قيمة الاستقامة إلا إذا طبقها الناس جميعاً ، لا تظهر قيمة الأمانة إلا إذا كان الناس جميعاً أمناء ، لا تظهر قيمة العفة إلا إذا كان الناس جميعاً عفيفين.

وهنا قال تعالى :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)

فضلُ المعتصم بحبل الله في آخر الزمان :

إذا لم تعتصم الأكثرية بحبل الله ، والأقلية تعتصم بحبل الله ، الأقلية قد تنجو ، لكن ثمرة هذا الاعتصام الكلية لا تأخذها ، قلة قليلة تعتصم بحبل الله ، فهذه نجت ، لكنها تعاني ما تعاني ،

((وَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ على الجَمْرِ ، لِلعامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ ، قالُوا : يا رَسُولَ الله ، أجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ ؟ قالَ : لا ، بَلْ أجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

[الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه عن أبي ثعلبة الخشني]

لأن الله عز وجل قال :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم : الآية 41)

ففي آخر الزمان القابض على دينه كالقابض على الجمر ، وقد ورد في الحديث الصحيح عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

[مسلم ، الترمذي ، الدارمي ، أحمد]

في زمن الفتن .

قال تعالى :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)

أنا حينما أعتصم وحدي ، أو يعتصم من حولي فقط ننجو ، لكن حياتنا صعبة جداً ، لأن الأكثرية لا تعتصم ، الأكثرية لا تصدق ، الأكثرية لا تؤتمن ، ومن علامات آخر الزمان أنه يخوَّن الأمين ، ويؤتمن الخائن ، يكذب الصادق ، ويصدق الكاذب .

حينما يفشو الفساد في الأرض تغدو الحياة صعبةً ، ويغدو القابض على دينه كالقابض على الجمر ، ولكن هذا قدرنا ، أما لو تصورنا أن مجتمعاً بأكمله عرف الله ، واستقام على أمره تجد الحياة شيًا ثمين جداً ، لذلك فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا ، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي]

من ملامح آخر الزمان يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ، ولا يستطيع أن يغير ، ألا ترون ما يجري لإخواننا في فلسطين ؟ يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ، ولا يستطيع أن يغير ، إن تكلم قتلوه ، وإن سكت استباحوه .

أيها الإخوة ، إن الله عز وجل يدعونا أن نعتصم بكتابه ، ولكن جميعاً حتى نقطف ثمار هذا الدين .

وَلَا تَفَرَّقُوا

النهي عن التفرّق :

قال تعالى :

(وَلَا تَفَرَّقُوا)

(سورة آل عمران : الآية 103)

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة التوبة : الآية 71)

أما إذا تفرق المؤمنون بذنوب أصابها أحدهم ، أو بذنوب أصابها بعضهم ، فالاعتصام بحبل الله يجمع، وترك الاعتصام بحبل الله يفرق ، قال تعالى :

(وَلَا تَفَرَّقُوا)

أمر أن نعتصم ، ونهي أن نتفرق ، قال تعالى :

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

1 ـ تذكير الأوس والخزرج بنعمة الله عليهم :

الحروب بين الأوس والخزرج مديدة طويلة ، وحينما جاء الإسلام حلت المحبة محل الخصام ، وحينما جاء الإسلام حل التفاهم محل التنافس ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ :

((لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي ، قَالَ : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا ، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ ، فَقَالَ : قَدْ

اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ؟ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ ، قَالَ : أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا : وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ ، قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ ، وَصُدِّقْتُمْ : أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا ، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ ، قَالَ :فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ ، وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَفَرَّقْنَا))

[أحمد ، والدارمي]

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)

2 ـ الخصومات دليل ضعف الإيمان وقلة العلم :

أقول لكم هذه الكلمة ، وأنا أعني ما أقول : ما دام هناك خصومات بين الإخوة المؤمنين ، ومنافسات ، وعداوة ، وبغضاء ، وحقد وغل ، فليعلم هؤلاء المؤمنون أنهم ليسوا على المستوى المطلوب ، وأن هذا الإيمان لن ينفعهم ، لأن علامة إيمانهم المحبة بينهم ، علامة إيمانهم التعاون بينهم ، علامة إيمانهم التناصر ، والتضامن ، والتآخي ، وحينما يضعف تطبيق هذا المنهج تنشأ العداوة ، وتتفجر البغضاء ، وحينما نتمسك جميعاً بحبل الله عز وجل يحل الوئام محل الخصام ، فالمتبع لمنهج الله عز وجل يتعاون، ولا يتنافس ، يقدر ما عند الآخرين ، ولا يحتقر ، بينما الذي لا يتبع يتنافس ، ولا يتعاون ، وذو نزعة عدوانية ، وليس مسالماً .

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)

3 ـ الأخوّة الإيمانية نعمة من الله ، والعداوة نقمة ومصيبة :

والله أيها الإخوة ، كلما وجدت بين إخوة المسجد محبة ، وتعاوناً ، وإيثاراً ، وتضحية أنام قرير العين ، وكلما وجدت خصومة ، وتنافساً ، ومشاكسة بين إخوة المسجد أتألم أشد الألم ، لأن هؤلاء بهذه الأخلاق لم يقطفوا ثمار الدين أبداً .

ألا ترى أن المسلمين في شتى بقاع الأرض بأسهم بينهم ! بأسهم بينهم ، وليس على عدوهم ، هذا من ضعف إيمانهم ، وكلكم يعلم أن كل فرقةٍ ضالة من شأنها النزعة العدوانية ، والنظرة الأحادية ، لسان حالهم ومقالهم : نحن فقط ، الجنة لنا ، نحن هم المؤمنون فقط ، نحن هم المسلمون فقط ، أية فرقة ضلت سواء السبيل تعتد بنفسها ، والله عز وجل يقول :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

(سورة النساء : الآية 49)

هو يمدحهم أم يذمهم ؟ يذمهم ، قال تعالى :

(بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النساء : الآية 49)

فهذا الذي يسلط الأضواء على ذاته ، وينزهها عن كل نقيصة ، ويطعن بالآخرين ، هذا يشق صفوف المسلمين .

(وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

كنتم في ضلالة عمياء ، وفي انحراف خطير ، الربا ، والخمر ، والزنا ، والعداوة ، والحروب المديدة، وهذه الجاهلية الأولى ، ولأن الله قال :

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب : الآية 33)

معنى ذلك أن هناك جاهلية ثانية ، إنها الجاهلية التي نعيشها ، جاهلية المصالح ، والأهواء ، والحظوظ، والمنازعات ، والتنافس ، والاقتتال أحياناً .

(وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا)

أي على حافة حفرة من النار فأنقذكم منها .

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

فالمودة بين المؤمنين من خلق الله عز وجل ، يخلقها الله ، فإن لم تكن هناك فهذه مشكلة كبيرة في الإيمان ، التجمعات كثيرة ، هناك تجمع مصلحي أساسه المصلحة ، فهؤلاء يتعاونون على باطل ، وليس على حق ، ولكن تجمعات المؤمنين تجمعات خالصة لله عز وجل ، فلا تحتمل جماعة المؤمنين أية خصومة .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

(سورة الحجرات : الآية 10)

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 104)

صفات المفلحين :

1 ـ الدعوة إلى الخير وهو الإسلام :

هذه اللام لام الأمر ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، فلابد من فئة في كل مجتمع تتعلم العلم الصحيح العميق الواسع ، وتدعو إلى الله ، تدعو إلى الخير إلى هذا القرآن ، إلى هذا الإسلام ، إلى هذا الدين القويم ، تدعو إلى كل شيء يقرب إلى الله ، وتنهى عن كل شيء يبعد عن الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

والخير هو القرآن ، والإسلام ، وهذا الدين .

(وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ)

2 ـ الأمرُ بِالْمَعْرُوفِ والنهيُ عَنْ الْمُنْكَر :

ما هو المعروف ؟ وما هو المنكر ؟

هذا من قبيل عطف الخاص على العام ، المعروف ما عرفته الفطر السليمة ، والمنكر ما أنكرته الفطر السليمة ، الإنسان مفطور فطرة عالية ، ومن أصل فطرته يحب المعروف ، ويكره المنكر ، أما حينما تنطمس فطرته ، وتسود صفحته ، وتتحكم به أهواؤه عندئذ يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ، ويقول عليه الصلاة والسلام :

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : أو كائن هذا يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟ قالوا : أو كائن هذا يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن أبي أمامة]

في بلد إسلامي في شمالنا قدموا الوسام من الدرجة الأولى لامرأة تدير أكبر شبكة دعارة ، لأنها قدمت للخزانة أعلى نسب من الضرائب ، قدم إليها وسام من أعلى مستوى ، وهي تدير أكبر شبكة دعارة في بلد إسلامي ،

((... كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ؟ قالوا : أو كائن هذا يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن أبي أمامة]

قبل أيام في موقع معلوماتي ، بلد إسلامي بعيد جداً ، بنغلادش ، صدر فيه قانون يقرّ أن حرفة الدعارة حرفة لا شيء فيها ، فالمرأة التي ترتزق بثدييها امرأة بحسب هذا القانون شريفة ، ولا أحد يسائلها ، هذا في بلد إسلامي ، بنغلادش ،

((... كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ؟ قالوا : أو كائن هذا يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن أبي أمامة]

لذلك هذه الأمة الإسلامية لا يمكن أن تكون خير أمة أخرجت للناس إلا إذا أمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، قال تعالى :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

خيريتها أنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، فإذا لم تأمر بالمعروف ، ولم تنهَ عن المنكر فقدت خيريتها ، بل هي أمة كأي أمة خلقها الله ، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة : الآية 18)

من هؤلاء الشعوب التائهة ، الأمة الإسلامية إن لم تقم بأمر الله ، إن لم تأمر بالمعروف ، إن لم تنهَ عن المنكر فهي أمة كبقية الأمم التي شردت عن الله عز وجل ، وما من كلمة تصدق على واقع الأمة كهذه الكلمة : هان أمر الله عليها فهانوا على الله .

سيدنا عمر حينما طعن ، وأفاق من الإغماء ماذا قال ؟ هل صلى المسلمون الفجر ! فهل يسأل الأب زوجته إذا عاد إلى البيت : هل صلى الأولاد العشاء ، يقول لها : هل كتبوا الوظائف ؟ هل تناولوا الطعام جيدًا ، ربما لا يسألها : هل صلى الأولاد العشاء ، سيدنا عمر قال: هل صلى المسلمون الفجر ؟ فحينما نعظم أمر الله نعظَم عند الله ، وحينما يهون أمر الله علينا نهون على الله .

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 104)

ثمة قصة بسيطة جداً ، ولكنها معبِّرة ، سائق سيارة ، ركب معه شاب وشابة قال له : انتظر قليلاً ستأتينا محفظة ، فانتظر هذا الذي سيأتي بالمحفظة ، فتأخر ، ثم جاء بعد حين رجل كبير بالسن عمره سبعون سنة ، يحمل محفظة على رأسه ، وأخذها هذا الشاب منه ، وضربه على صدره ، لِمَ تأخرت ؟ السائق لم ينتبه ، وبعد أن انطلق في طريقه من بيروت إلى الشام قالت له زوجته : لا ينبغي لك أن تضرب أباك ، فوقف هذا السائق ، وقال له : هذا أبوك ؟ انزل فوراً ، وهذه أجرتكما .

هذا أدى الذي عليه ، شيء رائع جداً ، قال لي رجل : والله أنا سبب توبة سائق سيارة ، كنت أحمل خمرًا ، فلما لمحه رفض أن يركبني ، وطردني ، فشعرت بذل شديد ، وعقدت العزم على أن أتوب ، وكل إنسان أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر.

تأتي الفتاة إلى بيت عمها بثياب فاضحة ، يرحب بها ، ويهش لها ، ويبتسم ، لا يخطر في باله أن يلومها على هذه الثياب ، هذه ابنة أخيك .

حينما نقصر في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر تضيع الأمور ، ويضعف الحق ، ويزداد الباطل قوةً ، فهذه الفريضة السادسة ، لكن ما كلفك الله فوق ما تطيق ، إن نهى عن المنكر أدى ذلك إلى فتنة أشد من هذا المنكر فلست مكلفاً به ، لك أن تنكر بقلبك ، ولك أن تنكر بلسانك ، ولك أن تنكر بيدك ، ولكن الله لا يقبل منك إنكار اللسان إذا كنت قادراً على أن تنكر بيدك ، كما أنه لا يقبل منك إنكار القلب إذا كنت قادراً على إنكار اللسان .

ثلاثة أولاد في الطريق ، ابنك ، وابن أخيك ، وابن الجيران ، رأيتهم يدخنون ، أنت تقيم الدنيا ، ولا تقعدها على ابنك ، وتعنف ابن أخيك ، وتطلب من هذا الثالث أن ينطلق إلى شأنه ، ابنك بيدك ، ابن أخيك بلسانك ، والثالث بقلبك ، لا تعرف من أبوه ، وما رأي أبيه ، بهذا الانحراف ، وقد تنشأ مشكلة كبيرة جداً ، فعليك أن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .

أن تنكر المنكر بيدك إن استطعت ، ثم بلسانك ، ثم بقلبك ، ومن شهد معصيةً فأنكرها كان كمن غاب عنها ، ومن غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها ، قال تعالى :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(104)وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَات

الاختلاف منه المذموم ومنه الممدوح :

قد يكون هناك اختلاف لنقص المعلومات ، وهذا اختلاف طبيعي ، وقد يكون هناك اختلاف تنافسي ، وهذا محمود .

المؤمن يرى أن نشر الدعوة أعظم شيء ، ومؤمن آخر يرى تأليف الكتب أعظم شيء ، وثالث يرى أن بناء المساجد أعظم شيء ، فهذا اختلاف تنافسي جيد ، لكن الاختلاف القذر هو أن نختلف بعد أن جاءتنا البينات الواضحات النيرات اختلاف حسد ، وبغي ، وعدوان ، وتنافس .

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 19)

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ)

(سورة آل عمران : الآية 105)

كيف يفسر ما بين المسلمين ؟ إذا كان الله واحداً ، والنبي واحداً ، والقرآن واحداً ، وكلهم يقولون : قال الله ، قال رسول الله ، ومع ذلك فبينهم ما صنع الحداد ، إذاً هذا اختلاف بغي ، وحسد ، ومصالح .

(وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 105)

الأسئلة :

أيها الإخوة ، أخ كريم يسأل .

س : تحدثتم أن المصائب ، والبلايا تكون مستمرةً على المؤمن المقصر تأديباً له من الله ، مع العلم أن المؤمن الصادق يبتلى أحياناً .

ج : لاشك أن المصائب منوعة جداً ، فالأنبياء مصائبهم مصائب كشف فقط ، يعني عنده نوع من الكمال لا يظهر إلا من خلال ظرف صعب ، أن يذهب إلى الطائف ، وأن يمشي على قدميه ثمانين كيلو مترًا ليدعوهم إلى الله ، ثم يؤذونه أشد الإيذاء ، ويأتيه جبريل ليطبقا الجبلين على أهل الطائف ، فيقول: لا يا أخي ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده ، هذه مصيبة أصابت النبي ، ولكن كشفت عن مستواه الأخلاقي الرفيع ، وعن رحمته بأعدائه ، مصائب الأنبياء مصائب كشف .

مصائب العصاة مصائب تأديب ، قال تعالى :

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

[سورة الشورى : الآية 30]

" ما من عثرة ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر " ، لا يوجد مصائب تأديب ترافقها معاص وآثام ، لكن هناك مصائب امتحان ، هذه خاصة بالمؤمن ، قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة : الآية 155-157)

مصائب تأديب ، مصائب امتحان ، مصائب كشف ، فما كل مصيبة تشبه أخرى ، هذا هو الجواب

س : ما عقوبة تارك الصلاة مع أنه يؤدي باقي العبادات ؟

ج : هي العبادة الوحيدة التي لا تسقط بحال ، الحج يسقط ، والصوم يسقط ، والزكاة يسقط ، والشهادة تؤدى مرة واحدة ، أما الصلاة فلا تسقط بحال ، فمن تركها ، وهو يؤدي بقية العبادات فهذا ليس له معنى ، بقية العبادات من دون صلاة لا معنى لها إطلاقاً ، فإذا تركها رافضاً لفرضيتها فقد كفر ، أما إن تركها تقصيراً فقد فسق .

س : يقول أخ : ملاحظة عجيبة ، خطر في بالي ، وأنا أنظر إليك في أثناء الدرس أن كثيراً منا ترك أهله وأولاده في البيت ، البعض يلعب ، ويلهو ، وقد يخرج الأولاد إلى الشارع ، وهذا يسبب مشكلةً ما لأحدهم ، وعند البحث عن والده يقولون : إنه في الدرس مع الشيخ ، وهذا يسبب تنفيراً من الدرس ، أرجو توجيه زوجاتنا للانتباه للأولاد في غيبتنا ؟

ج : ينبغي أن تضبط أمورك ، وأن تأتي بأولادك معك إذا كانوا يفهمون بسن معقولة ، أو أن تتفق مع زوجتك أن ترعاهم بغيبتك ، أما أن يكون حضور الدرس سبب لمشكلة ، فما كان هذا سببا لمشكلة إطلاقاً .

س : ما عقوبة كشّ الحمام ؟

ج : لا تقبل شهادته ، لأنه يطلع على عورات الناس .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(29-60): تفسير الآيات 106 - 115
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-06-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس التاسع والعشرين من دروس آل عمران ، ومع الآية السادسة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة آل عمران)

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ

1 - البشر كلهم فريقان :

أرأيت إلى البشر بمِلِلِهم ، ونحلهم ، وأعراقهم ، وأجناسهم ، وطوائفهم ، ومذاهبهم ، ونزعاتهم ، واتجاهاتهم ، في النهاية هؤلاء فريق يبيضُّ وجهه ، وهو في رحمة الله ، وفريق يسودُّ وجهه ، وهو في نار جهنم ، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ، لذلك قال تعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : الآية 2)

لماذا قدَّم الموت على الحياة ؟ لأن الإنسان حينما يولد أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى ، أما حينما يأتيه الموت فأمامه خياران ؛ و كلما وقعت عينك على جنازة ، فإما إلى جنة يدوم نعيمها ، وإمّا إلى نار لا ينفد عذابها .

فيا أيها الإخوة الكرام ، كل هؤلاء الناس مشارب ونزعات ، واتجاهات وملل ، ونحل وطوائف ، وعقائد وطروحات ومبادئ ، هذا كله سوف ينتهي إلى نموذجين :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران : الآية 106)

2 ـ أعِدّوا لهذا اليوم حتى تبيض وجوهكم :

وقد قال بعض علماء التفسير : (يوم) ظرف زمان ، أي احذروا هذا اليوم ـ أو أعدوا لهذا اليوم ـ احذروا هذا اليوم الذي يُفرَغ الناس فيه في أحد نموذجين لا ثالث لهما ، أي أعدوا لهذا اليوم عدته ، وما من إنسان عاقل فيه مسحة من عقل إلا كان ينبغي له أن يعد لهذه الساعة التي لا بد منها عدة ، قال تعالى :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران : الآية 106)

الفوز الأبدي لمن ابيضّ وجهه ، العاقل من وصل إلى هذا اليوم أبيض الوجه ، المفلح من كان في هذا اليوم أبيض الوجه ، الذكي من وصل إلى ابيضاض الوجه في هذا اليوم ، الموفق ، المتفوق ، كل معاني التفوق تنتهي في أن يكون وجهك أبيض يوم القيامة ، ولن يكون هذا الوجه أبيضاً إلا إذا عرفت الله ، وعرفت منهجه ، وعملت الصالحات تقرباً إليه .

صحِّح العقيدة أولا ، ثم استقم بعد ذلك :

قال لي أخ كريم اليوم : انصحني نصائح موجزة ؟ قلت له : كأن هذا الدين يبدأ من تصحيح العقيدة ، فإذا صحت فعليك بالاستقامة ، لأن الله عز وجل يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : الآية 30)

عليك بمعرفة الله ، أو بعبارة أخرى عليك بتصحيح العقيدة ، لأن أي انحراف في العقيدة يقابله انحراف خطير في السلوك ، ولو أنه جدلاً لا علاقة للسلوك بالعقيدة فاعتقد ما تشاء ، ولكن أية عقيدة زائغة فاسدة لا بد من أن تنعكس انحرافاً في السلوك ، فإن أردت الفوز ، إن أردت النجاح ، إن أردت أن تكون أبيض الوجه صحِّح عقيدتك ، وطبق منهج ربك ، بتطبيق منهج الله تسلم ، ولكن بالعمل الصالح تسعد ، ولا بد من شيء رابع هو كثرة ذكر الله عز وجل ، عن طريق إحكام العبادات ، وإتقانها ، وعن طريق الدعاء ، والاستغفار ، والتسبيح ، والتهليل ، وما إلى ذلك :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

وجوه بيضاء كثيرة ، ووجوه سوداء كثيرة .

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ

ومثل هذه الآيات كثير في القرآن الكريم :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23)وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ(24)تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)

(سورة القيامة)

مثل هذه الآية أيضاً قوله تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 106)

فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

1 ـ أن موجبات الإيمان بين أيدي الناس :

من أوْجَهِ ما قرأت في هذه الآية أن موجبات الإيمان بين أيديكم ، كفرتم ، وكلُّ موجبات الإيمان بين أيديكم ، كونٌ عظيم إذا تأملت فيه تجد أن وراءه إلهاً موجوداً ، كاملاً ، واحداً ، وفي كل شي له آيةٌ تدل على أنه واحد

كتابٌ كريمٌ بين يديك ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حوادث تراها رأي العين ، وترى فيها العِبَر تلو العِبَر ، وأنبياء مرسلون ، وكتبٌ منزَّلة ، ودُعاة صادقون ، كل موجبات الإيمان مُوَفَّرة لديك ، منحك كوناً تعرفه من خلال الكون ، ومنحك عقلاً أداةُ معرفة الله ، منحك فطرة تكشف لك خطأك ، منحك اختياراً ليُثمِّن عملك ، منحك شهوةً كي تندفع إلى طاعة الله عز وجل ، وأن ترقى عند الله حينما تضبط شهواتك وتسير على منهج الخالق ، منحك حرية الاختيار ، أودع فيك الشهوات ، أعطاك قوة فيما يبدو ، هذا كله أيها الإخوة موجبات الإيمان ، قال تعالى :

(أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

ماذا يقول ـ ولله المثل الأعلى ـ ابن لأبيه ، وقد هيّأ له أرقى مدرسة ، وأفضل أستاذ ، هيّأ له غرفة خاصة ، ونفقات باهظة ، ومدرِّسين متخصصين يأتونه في البيت ، وكتبًا ، ومراجع ، ومكتبات ، ومع ذلك لم يدرس ، هذا الأب أعطى ابنه كل موجبات النجاح ، ومع ذلك لم ينجح ، قال تعالى :

(أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

معنى إيمانكم : أي أكفرتم بعد أن كانت موجبات الإيمان متاحة لكم ، بعد أن كان كل شيء يدلكم على الله ، بعد أن كانت الآيات التي نصبها الله في الآفاق ، وفي الأرض ، وفي أنفسكم، والآيات التكوينية هي أفعال الله ، والآيات القرآنية ، وكل ما في الكون يدل على الله ، ومع ذلك كفرتم ! قال تعالى :

(أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

أي :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة : الآية 18)

وقوله :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

وقال أيضاً :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص : الآية 61]

فإذاً :

(أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

الشيء الذي لا شك فيه أن الإنسان حينما ينحرف انحرافاً خطيراً ، ثم يواجه جزاء عمله حينئذ يسكت ، قال تعالى :

(وَخَشَعَتْ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)

(سورة طه : الآية 108)

وفي بعض معاني قوله تعالى :

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ)

(سورة الأنبياء : الآية 23)

2 ـ عدل الله يُسكت الألسنة :

إضافة إلى كل المعاني التي وردت في التفاسير هناك معنى دقيق ؛ أنّ عدله يُسكت الألسنة .

دخل شخص إلى بيت صديقه فرآه مقتولاً ، فخرج مذعوراً ، فإذا بجار له يعمل في سلك الأمن الداخلي يلقي القبض عليه ، وساقه بتهمة أنّه هو القاتل ، وجرت محاكمة حُكِم عليه بثلاثين عاماً جزاء فعلته الشنيعة ، وهو لم يقتل ، وبعد ست سنوات أُلقي القبض على القاتل ، واعترف بجريمة أخرى ، وبجريمة سابقة ، هذه وقعت في دمشق ، فالذي حصل أنهم أعطوه تعويضاً يساوي عشرة آلاف ليرة ، نظير سجنه ست سنوات ، وأطلقوا سراحه ، طبعاً القصة قديمة ، والعشرة آلاف كانت تساوي ثمن منزل .

لي صديق كان في مرحلة إطلاق سراحه أخذه جانباً قال له : بربك ، أنشدك بالله أنت في الظاهر مظلوم ، لكن كيف ترى عدل الله عز وجل ، فأقسم بالله أنه فعل شيئاً لم يعلم به أحد ، ويستحق عليه

الإعدام ، هكذا قال ، عدل الله يُسكت الألسنة ، فلذلك يوم القيامة يسكت الإنسان ، أي أنتم ترون كيف أنّ الأناس يتلذذون بقتل البشر ، يرتاحون بإفقارهم ، وإشقائهم ، هؤلاء لهم جهنم ، وبئس المصير ، قال تعالى :

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

(سورة الدخان : الآية 49)

كنت في الدنيا عزيزاً كريماً بالمفهوم الأرضي ، ذق هذا هو جزاء عملك ، هؤلاء الذين يفقرون الشعوب ، يقتلون مئات الألوف ، وهم مرتاحون لا بد لهم من جهنم ، وجهنم تُعَدُّ جزاءً وفاقاً ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 106)

أما الطرف الآخر فقال تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 107)

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

1 - الفوز الكبير أن تأتي يوم القيامة أبيض الوجه :

كل عقلك ، وذكائك ، وبطولتك ، ونجاحك ، وفلاحك ، وتفوقك أن تأتي يوم القيامة أبيض الوجه ، أنت لم تظلم أحداً ، ولم تأكل مال أحد ، ولم تسهم في شقاء إنسان ، ولا شقاء أسرة ، ولا شقاء أمة ، هذا الذي فتن فتاة ، ففعل معها الفاحشة ، ثم ألقاها في الطريق ، وعَلِم أهلها بذلك فأهدروا دمها ، ليس لها من عمل إلا أن تكون مومسة ، فسلكت هذا الطريق ، فجاءت يوم القيامة شقية ، ولعلها أنجبت ذرية ربتهم على شاكلتها ، فإذا كشف الله لك يوم القيامة أنه من أجل لذة ساعة أوديت بهذه المخلوقة ، التي كان من الممكن أن تكون أماً وزوجة ، ولها مكانة ، ولها طريق إلى الله ، فهذا الذي يرتكب الموبقات ، ويفعل الفواحش ، ويأخذ ما ليس له ، ويظلم ، هذا أحمق ، سوف يدفع الثمن أضعافاً مضاعفة ، والكافر حينما يرى مكانه في النار يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا ، يقول لم : أر خيرًا قط ، والمؤمن حينما يرى مكانه في الجنة يقول لم أر شراً قط.

مرحباً بالتكاليف الشرعية ؛ بغض البصر ، بضبط اللسان ، ضبط الحلال ، الترفع عن الحرام ، أن تكون مظلوماً لا أن تكون ظالماً ، أن تكون في خدمة الخلق ، أن تكون في طاعتهم ، هذا الذي يبني ثروته على إشقاء الآخرين ، الشيء الذي لا يصدق أن أوسع تجارة الآن ، تجارة الرقيق الأبيض ، مؤسسات ، وشركات يأتون ، يجوبون أقطار الدنيا ، ويأخذون الفتيات القاصرات ، يغرونهن بدخل

كبير ، ثم يعملن في الدعارة ، ويضطهدن ، ويعطين أقل القليل ، هذا الذي يسأله الله عز وجل يوم القيامة : لم فعلت هذا ؟

فيا أيها الإخوة ، قبل أن تأخذ ما ليس لك ، قبل أن تظلم مخلوقاً ، الإنسان بنيان الله وملعون من هدم بنيان الله ، عُدْ من اليوم قبل أن تفعل شيئاً لا يرضي الله عز وجل ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(106)وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ)

(سورة آل عمران)

2 ـ بيض الوجوه المطيع لله والخادم لخلق الله :

أمضى حياته في طاعة الله ، أمضى حياته في خدمة الخلق ، أمضى حياته في رفع البؤس عن الآخرين ، ما تكلم كلمة فيها سخرية ، ما نظر نظرة مشبوهة ، ما متع عينيه بما لا يحل له ، ما ظلم زوجة ، ولا ابناً ، ولا جاراً ، لا صديقاً ، ولا مشترياً ، ما غش مسلماً ، أدى صلواته الخمس ، صلى قيام الليل ، ذكر الله كثيراً ، وقف عند كلام الله ، تَتَبَّع الحكم الشرعي في كل شيء ، حضر مجالس العلم ، تزود بزاد التقوى قبل أن يموت ، هذا يأتي يوم القيامة أبيض الوجه ، أنت لاحظ يوم توزيع الجلاءات على الطلاب ، تجد طالبًا يكاد يرقص من شدة الفرح ، ومعه جلاؤه ، ينطلق إلى أبيه انطلاقاً ليريه الجلاء ، وتجد طالبًا آخر يبكي ، ويمزق الجلاء ، قال تعالى :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

3 ـ الفرق كبير لا يخفى على أحد :

أنت لاحظ هؤلاء الذين يرتكبون السرقات ، والموبقات حينما يقعون في قبضة العدالة ، وحينما يأتي المصورون ليصوروهم ، عيونهم في الأرض ، لا يستطيعون أن ينظروا إلى المصور .

مرة كنت عند قاضٍ للتحقيق ، صديق لي يحقق في جريمة ، فهذا المجرم ناكس الرأس ، خافض البصر ، وجهه أغبر اللون ، مسودّ الوجه ، فُتِح الباب ، ودخل شاب يطفح وجهه بِشْراً ، فقال له : هل الساعة جيدة ، يبدو أنه يصلح بعض الساعات ، فكلّفه بتصليح ساعته ، لأنه إنسان مواطن شريف بريء ، دخل عليه مستبشرا ، فقال له : جيدة جداً ، جزاك الله كل الخير ، وازنت بين هذا الإنسان الذي يُحَقق معه في جريمة قتل ، وبين هذا الشاب الذي يعمل عملاً شريفاً أنجز شيئًا كُلِّف به ، لاحظ كيف أن البريء واضح من وجهه ، مرتاح، هناك صفاء وراحة ، حتى لو اتُّهم كذباً لا يتأثر ، يعلم أنه مستقيم ، ومن عرف نفسه لم تضره مقالة الناس به .

لكن الملاحظة الدقيقة هي أن هؤلاء في رحمة الله ، أي في الجنة ، رحمة الله هي الجنة ، أي رحمة الله هي رمز لعطاء الله ، أعلى عطاء لله أن يكون نصيبك في الجنة .

مرة أخ كان في بلد غربي حدثنا عن نظافة البلد ، وأناقته ، وجماله ، ونظامه ، وعن الحقوق الإنسانية فيه ، وكيف يعيش الناس آمنين مطمئنين ، حاجاتهم كلها متوافرة ، وإلى آخر ما هنالك ، قال له أحدهم في المنهج القرآني :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

(سورة آل عمران : الآية 185)

الدنيا لا تساوي عند الله شيئا :

هذا هو الفوز ، أما أن تعيش سنوات محدودة في بلد جميل جداً ، الأمور كلها ميسرة فيه ، ينتهي ، أي أن الموت قدر الإنسان عندنا وفي بلاد أخرى ، لو عشت في أجمل بلد في العالم، في أغنى بلد في العالم، في أرقى بلد في العالم ، لا بد أن يأتي الموت ، وينهي هذه الحياة ، لذلك ليس من كرم الله أن يعطي عطاء مؤقتاً ، هذا العطاء المؤقت في الدنيا يتناقض مع كرم الله ، لا يليق بالله أن يعطيك الحياة الدنيا فقط ، إنها أحقر من أن تكون عطاءً لله ، لا يليق بكرم الله أن يعطيك الدنيا ، وأن تأتي يوم القيامة صفر اليدين ، لذلك عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي ، ابن ماجه]

إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ، ومن لا يحب ، ولكنه لا يعطي الآخرة إلا لمن يحب ، إن الله يعطي القوة ، والجمال ، والمال ، والذكاء للكثيرين من خلقه ، مع أنه يوجد كفاراً أقوياء جداً ، وكما يبدو لقصير النظر بيدهم مصير العالم ، بيدهم أن يراقبوا كل شبر في كل البلاد ، وأسلحتهم تطول أي مكان في العالم ، وهم متعجرفون متغطرسون ، ومع ذلك لا خلاق لهم عند الله .

4 ـ لابد من تهيئة أسباب دخول الجنة :

العِبرة أيها الإخوة أن تكون في رحمة الله ، هذه رحمة الله هي الجنة ، لكن كما قال علماء العقيدة : الجنة محض فضل ، سألني أحدهم سؤالاً على الهاتف قال لي : ما فهمت هذه : إلا أن يتغمدني الله برحمة منه ؟ فقلت له : لو أن أباً وعد ابنه إذا أخذ الشهادة الثانوية بتفوق أن يعطيه سيارة من وكالتها حديثة جداً ، فهذا الشاب تفوق في الدراسة ، ونجح كما يتمنى الأب ، وأمسك الجلاء ، وذهب مباشرة إلى بائع السيارات ، وقال له : هذا الجلاء ، أعطني هذه السيارة ، هل يعطيه إياها ؟ ورقة الجلاء ليست ثمن السيارة ، لكنها سبب اقتناء سيارة من جيب الوالد ، الجلاء سبب اقتناء السيارة إذا دفع الأب ثمنها ، فكما أنك تشتري بيتاً بخمسين مليونًا ، مفتاحه ثمنه عشرة ليرات ، فهل يعد المفتاح هو الثمن ، المفتاح سبب تدخل به هذا البيت الجديد ، هو هبة من الله ، ولم تدفع ثمنه ،

وكذلك الجنة ، أنت لم تدفع ثمنها ، ولكنك دفعت ثمن دخولها ، سبب دخولها الإيمان بالله ، والاستقامة على أمره ، والعمل الصالح، وذكره، هذا سبب دخولها ، أما هي فمنحة إلهية ، محض فضل من الله عز وجل ، الجنة محض فضل والنار محض عدل من أجمل ما قيل في هذا المقام : ادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم .

مراتب الجنة بحسب أعمالكم ، أما دخول الجنة فبرحمة الله ، وفضل منه ، ثم يقول الله عز وجل :

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 108)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعالَمِينَ

1 ـ الخطأ من العبد ، ولا يظلم ربُّك أحدا :

أنت قد تسأل : هؤلاء الذين دخلوا النار ، وذاقوا حرها ، وتلظوا بلظاها ، لماذا كانوا هكذا ؟ الخطأ منهم ، والله خلقهم ليسعدهم ، ولم يخلقهم لهذا العذاب .

أنت أحياناً تدخل إلى مدرسة رائعة جداً ، بناء فخم ، مُدرِّسون أكفاء ، إدارة ممتازة ، مناهج رائعة ، قيم ، أساليب تربوية ، وأحياناً يصدر قرار بفصل أحد الطلاب ، وأحياناً يُسلَّم إلى جهات كي يؤَدَّب ، فهل تقول : إنّ إنشاء هذه المدرسة من أجل تعذيب الطلاب ؟ معاذ الله، لكن إن كان هناك أحد الطلاب منحرفاً ، سارقًا مثلاً ، منحرفًا أخلاقياً فهذا يُعاقَب ، أما في الأصل أن الإدارة لم تشأ فعل هذا مع طلابها ، أرادت أن يكونوا علماء وحكماء ، أن يكونوا قادة للأمة ، أما حينما ينحرف الإنسان يدفع ثمن انحرافه ، فالله عز وجل يقول : هؤلاء الذين اسودَّت وجوههم ، والذين كفروا مع موجبات الإيمان هؤلاء ما أراد الله لهم ذلك، قال تعالى :

(وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 108)

2 ـ الله غني عن تعذيب الناس :

أراد لهم أن يؤمنوا ، أن يسعدوا ، لا يوجد إنسان إلا مطلوب لله عز وجل ، هذا الفهم السقيم الجبرية أنّ الله عز وجل خلق للجنة أناساً ، وخلق للنار أناساً ، فهذه عقيدة فاسدة ، هذه العقيدة تشل الإنسان وينتهي ، لا الله خلق كل العباد للجنة ، قال تعالى :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)

(سورة هود : الآية 119)

ولذلك خلقهم ، خلقهم ليرحمهم فقط ، قال تعالى :

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 108)

ثم يقول الله عز وجل :

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

(سورة آل عمران : الآية 109)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

1 ـ الكون ملكٌ لله خَلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً :

(لله) هذه لام المُلك ، ما في السماوات وما في الأرض تعبير قرآني عن الكون ، الكون ما سوى الله ، هو مُلك لله ؛ خلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً ، أنت قد تملك موظفاً ، لكنك لم تخلقه ، أجريتَ مسابقة ، فتقدم لها ، ونجح فيها ، فأصبح موظفاً عندك ، أنت لا تملكه خلقاً ، بل تملكه استخداماً ، ثم إنك لك عليه صلاحيات محددة ، عليك أن يأتي في الساعة الثامنة ، وينجز ما يُطلب منه ، أما أن تكون مسيطراً على كل أجهزة جسمه ، أو على بيته ، وحياته الخاصة ، وأولاده فهذا مستحيل ، فأنت علاقتك معه محدودة جداً بهذا الدوام ، وهذا العمل ، لو أنه رفض أن يبقى عندك فله الحرية ، مصيره ليس بيدك ، وإنما بيده هو ، أضف لكم للإيضاح ، لكن ما معنى (لله) ؟ أي أنك أنت ملك لله خلقاً ، هو الذي خلقك ، وهو الذي يُسيِّرك، وإليه المصير قال تعالى :

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

2 ـ افعل ما بدا لك فإنك ملاقٍ ربَّك :

اضطر إنسان إلى اقتراض مبلغ من المال ، فلم يجبه إلى ذلك أحد ، إلا أنّ رجلاً قال له : أريد رهناً ، فقال له : عندي مزرعة أسجلها باسمك مؤقتاً ، فإذا نقدتك المبلغ رددتها إلي ، فقال له : موافق ، بعد أن أصبحت هذه المزرعة بيد المُقرض ، والمقترض بعد حين توافر له المبلغ ، فجاء ، وقال له : رُدّ لي المزرعة ، وهذا مبلغك ، فقال له : لا ، كل واحد معه حقه ، المزرعة غالية جداً ، أضعافاً مضاعفة عن القرض ، فمن شدة الألم أصابته أزمة قلبية كادت تودي بحياته ، قبل أن يموت كتب وصية ، كلّف ابنه ـ أذكر القصة جيداً بيته في المهاجرين ، وخصمه في أحد أحياء دمشق الجنوبية ـ فقال له : سِر بالجنازة أمام دكان هذا الذي اغتصب مني مزرعتي ، وأوقف

الجنازة أمامه ، واخرج من الجنازة ، وقدِّم له هذه الرسالة ، والرسالة كتبها بخط يده ، وقال فيها : أنا ذاهب إلى دار الحق ، سأحاكمك هناك ، وإن كنت بطلاً فلا تلحق بي ، افعل ما بدا لك .

ظلمت زوجتك ، ضحكت على الناس ، غششتهم في بضاعتهم ، حققت ملايين من بضاعة فاسدة ، فعلت شيئاً لا يرضي الله عز وجل ، فافعل ما بدا لك ، قال تعالى :

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

هناك الحساب ، فكل إنسان لا يُدخل الآخرة في حساباته اليومية أحمق ، كل إنسان لا يُدخِل الآخرة ، أنّ الله سيسألك : لِمَ فعلت ؟ لِمَ أعطيت ؟ لِمَ منعت ؟ لِمَ وصلت ؟ لِمَ قطعت ؟ لِمَ سالمت ؟ لِمَ عاديت ؟ لِمَ بششت ؟ لِمَ قطبت ؟ قال تعالى :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

وقال تعالى :

هناك آيات كثيرة جداً :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر : الآية 92 - 93)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله إليه ، وهذه كلمة أقولها دائماً ، أُحمِّلها ما لا أستطيع من الشعور أن الله وحده هو المتصرف ، ليس إلا الله ، لا تنظر إلى قوي هو بيد الله، لا تنظر إلى غني هو بيد الله ، انظر إلى أنّ الله مالك الملوك ، وملك الملوك ، وقد ورد في بعض الآثار القدسية : " أنا ملك الملوك ومالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فإذا العباد أطاعوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم " .

ثم يقول الله عز وجل :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

أمة النبي خير أمّةٍ : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

أي أنتم أيها العرب بهذه الرسالة التي نزلت فيكم ، بهذا النبي الذي هو سيد الأنبياء والرسل ، الذي بُعث فيكم أصبحتم خير أمة أخرجت للناس ، أي جعلكم الله وسطاء بينه وبين خلقه قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)

(سورة البقرة : الآية 143)

أي وسطاء بين الله وبين خلقه ، أي أنّ الله عز وجل حمَّل هذه الأمة رسالة عظيمة ، حمَّلها رسالة الإسلام لتنقلها إلى الأنام ، هناك تقصير أحياناً ، فهذه الأمة التي خصَّها الله بهذه الرسالة ، وبهذا

النبي الكريم هي عنده خير أمة أخرجت للناس على الإطلاق ، لكنّ هذه الخيرية لها علة ، وعلتها قوله تعالى:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

علة خيرية هذه الأمة :

1 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفريضة السادسة :

ولعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة ، وأية أمة لا تأمر بالمعروف ولا تنه عن المنكر أمة هالكة ، والدليل أن الله أهلك بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ونحن - واللهِ - تلبَّسنا بهذه الصفة ، مجاملات ، مديح ، لا أحد يأمر بالمعروف، ولا أحد ينهَى عن المنكر ، لا يتأثر ، لو أن إنسانًا رأى ابنة أخيه بثياب فاضحة ، بالعكس يستقبلها ، ويبُش لها ، ويرحب بها ، ولا يعطيها أية ملاحظة على ثيابها ، لو رأى ابن أخيه الآخر لا يصلي ، فإنه يسأله عن دراسته فقط ، وعن تحصيله ، وعن علمه ، وعن وظيفته ، ودخله ، لو أن إنسانًا تزوج فتاة يُسأل عن بيته ، وعن دخله فقط ، لا عن دينه ، فحينما لا نتناهى عن منكر فعلناه نستحق الهلاك ، قال تعالى :

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة : الآية 79)

الآن لو تناهينا عن منكر بلا إخلاص ماذا نفعل ؟ ننهى عن المنكر إذا وقع به الفقير أو الضعيف ، ونسكت عن منكر وقع به الغني أو القوي ، وهذه وصمة عار بحق الأمة قال الرسول الكريم :

((... إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، أحمد ، الدارمي]

فيجب أن نأمر بالمعروف ، وأن ننهى عن المنكر ، والمعروف ما عرفته الفطرة السليمة ، والمنكر ما أنكرته الفطرة السليمة ، أي ائتِ بمئة إنسان لا على التعيين من الطريق ، أسمعهم قصة واسألهم من الظالم ، يقولون لك : فلان هو الظالم ، بالفطرة ، عند الناس فطرة صحيحة جداً ، هذه الفطرة تدعو إلى معرفة الخطأ ، لذلك :

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

2 - الإيمان بالله :

لماذا قدَّم الله الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر على الإيمان بالله

لماذا قدَّم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله ؟ قال لأن الإيمان بالله شيء داخلي، ولا يُرَ ، أنت ماذا ترى بعينك ؟ ترى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فالله عز وجل قدَّم الظاهر ، وأخَّر الباطن ، أما إذا لم نأمر بالمعروف ، ولم ننهَ من المنكر فنحن عندئذٍ لسنا خير الأمم إطلاقاً ، ليس لنا ولا أية ميزة ، ولا أدنى درجة ، ونستأنس بقوله تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة : الآية 18)

إذاً : العلماء اضطروا إلى أن يقسموا الأمة إلى قسمين ؛ أمة الاستجابة ، وهي خير أمة أُرسلت للناس، وأمة التبليغ ، وهي أمة كأي أمة من الأمم ، لا وزن لها عند الله إطلاقاً ، لأنه هان أمر الله عليها فهانت على الله ، ترتكب المعاصي والآثام جهراً ، وعمَّت الناس الموبقات ، الفساد في كل بيت ، نادِ ليلي دون أن يشعر أصحابه ، عن طريق هذه الفضائيات ، الفساد عمَّ، المال أصبح مشبوهاً ، العلاقات علاقات استغلال ليست علاقات رحمة بين الناس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ ، فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا ، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي]

قال تعالى :

(وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ

اقرأ هذه الآية بتروٍّ ، أي يا عبدي لو آمنت بي لكان خيراً لك ، لو عرفتني لكان خيراً لك ، لو أطعتني لكان خيراً لك ، لو بذلت من مالك في سبيلي لكان خيراً لك ، لو خفت هذا اليوم يوم القيامة لكان خيراً لك قال تعالى :

(وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

وقال :

(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى)

(سورة آل عمران : الآية 111)

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى

1 ـ الكفار يؤذون المسلمين باللسان :

لسان طويل ، يتكلمون ، يطعنون ، يسبون ، يشتمون ، لكنّ فِعلهم بيد الله ، من أجل أن نطمئن ، قال تعالى :

(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى)

(سورة آل عمران : الآية 111)

هؤلاء اليهود وقال تعالى :

(وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

2 ـ الكفار لا يصمدون في قتال المسلمين من شدة الخوف :

أي بعض هؤلاء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل هز كيان العدو أوقفوا السياحة ، أوقفوا الهجرة ، أصبحت هناك هجرة معاكسة ، عشرات رحلات الطيران أُلغيت ، عشرات الرحل من أمريكا إلى بلاد اليهود أُلغيت ، خافوا ، شباب قلة ضحوا بأنفسهم في سبيل هز كيان عدوهم ، فبلغوا الأثر الأقصى ، يقول كبير مجرميهم : نحن لم نضبط أنفسنا لكننا نصون أرواح شعبنا ، شعر أنّ الأمر يتفاقم ، قال تعالى :

(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

تصريح إلهي ، وإن يقاتلوكم ، وأنتم مع الله بإقبال وإخلاص يولوكم الأدبار ، قال تعالى :

(وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا)

(سورة آل عمران : الآية 111)

الكفار أذلة جبناء :

أينما كانوا ، إذا قال أحد الناس : ولماذا أذلاء ، بل أقوياء جداً ، قال تعالى :

(إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ

أي إذا عادوا إلى الله ترفع عنهم هذه الذلة ، لأنهم بشر ، وحبل من الناس ، أي إذا دخلوا في حماية جهة قوية ، أما هم وحدهم من دون جهة قوية تمدهم ، وترعاهم ، وتقلق لأمنهم ، ويأتون من أقاصي الدنيا كي يطمئنوا على سلامتهم ، لولا أن هناك جهة قوية تدعمهم ، وتدافع عنهم وتمدهم لـ :

(ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

إلا إذا تابوا إلى الله ، الله عندئذ ينصرهم ، قال تعالى :

(وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَةُ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَةُ

أي ضربت عليهم المسكنة إمعاناً في إذلالهم الله عز وجل ابتلاهم بالفقر ، ويضرب العوام مثلاً لهذا الذي ضيَّع آخرته ودنياه معاً ، قال تعالى :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ

1 ـ إن البُغاث بأرضنا يستنسر :

هناك مثل عربي يقول : إن البُغاث ـ وهو أضعف أنواع الطير ـ بأرضنا يستنسر ـ أي أصبح نسراً ، معنى ذلك نحن أضعف منهم ، إذا كان الضعيف الذي ضرب الله عليه الذلة ، والمسكنة ، وباء بغضب من الله أقوى من بعض المسلمين ، معنى ذلك أن هؤلاء المسلمين قصروا مع ربهم تقصيراً شديداً ، حتى سلط عليهم من لا يخافه ولا يرحمه ، قال تعالى :

(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

2 ـ بِغَيْرِ حَقٍّ : قيد وصفي احترازي :

يقتلون أنبياءهم ، وما من نبي يُقتَل بحق ، مستحيل ، شأن قتل النبي أنه بغير الحق ، لا يوجد حالة اسمها قتل نبي بحق مستحيل هذا ، هذا اسمه احتراز وصفي ، صيغة احترازية وصفية ، قيد وصفي لا قيد احترازي ، هذا اسمه في البلاغة قيد وصفي ، لا قيد احترازي ، إذا قرأت قوله تعالى :

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)

(سورة النور : الآية 33)

لا يمكن أن نفهم من هذه الآية أن الفتاة إن لم ترد تحصناً لك أن ترغمها على الزنى ، لكن من شأن الفتاة أنها تريد تحصناً ، فسماه علماء البلاغة قيدًا وصفيًّا ، لا قيداً احترازياً ، قال تعالى :

(وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 112)

3 ـ تركُ الأمور تدريجي مآله إلى الكفر :

قال بعض العلماء : من ترك الآداب ابتلي بترك السنن ، ومن ترك السنن ابتلي بترك الفرائض ، ومن ترك الفرائض ابتلي بسوء العقيدة ، ومن ابتلي بسوء العقيدة أوصلته إلى الكفر ، هناك معنى أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فعَنْ سَلْمَانَ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا سَلْمَانُ ، لا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ أَبْغَضُكَ ، وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ ؟ قَالَ : تَبْغَضُ الْعَرَبَ فَتَبْغَضُنِي))

[الترمذي]

أي أن البغض ينتقل .

فتَرَكَ الآداب ، ترك السنة ، ترك الفرض ، ساءت عقيدته ، انتقل للكفر ، قال تعالى :

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 113)

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ

أيها الإخوة ، من ترك الآداب ابتلي بترك السنن ، ومن ترك السنن ابتلي بترك الفرائض ، ومن ترك الفرائض ابتلي بعقيدة فاسدة ، هذه العقيدة الفاسدة توصله إلى الكفر ، قال تعالى :

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 113)

1 ـ لابد من الموضوعية في الأحكام :

فالله عز وجل يعلمنا أن تكون أحكامنا موضوعية ، قال تعالى :

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ)

(سورة آل عمران : الآية 113)

أي قائمة بتطبيق منهج الله ، أو قائمة في عباداتها ، أو قائمة بالعدل ، ثلاثة معانٍ ، أمة قائمة بالعبادات أو قائمة بالالتزام ، أو قائمة بتطبيق العدل ، قال تعالى :

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 113)

2 ـ لا يتلى القرآن في الركوع والسجود :

أي ليس هناك تلاوة قرآن في الركوع والسجود ، نهى عنها النبي ، الركوع هو التعظيم ، والسجود هو الدعاء ، لكن إن سمينا الصلاة سجوداً أي يقرؤون القرآن في الصلاة .

قال تعالى :

(يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 114)

فريق منهم هكذا ، قال تعالى :

(وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 115)

الأسئلة :

أيها الإخوة ، لماذا يقول سيدنا عمر : **<< تعلموا العربية فإنها من الدين >>** ؟

س : كيف يقول الله عز وجل مخاطباً أهل الكتاب :

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)

(سورة الأنبياء : الآية 98)

ج : فإذا عبدوا نبياً من أنبيائهم فهل معنى ذلك أنّ هذا النبي مصيره إلى الله ؟ لو عرف أنّ (ما) تعني غير العاقل ، (من) تعني العاقل ، لما سأل هذا السؤال ؟ لو قال : إنكم ومن تعبدون من دون الله ، لكان السؤال وجيهاً ، لكنّ الله تعالى قال :

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ)

(سورة الأنبياء : الآية 98)

أي الحجر ، إن عبدتم حجرًا فهذا يعني أنكم أنتم والحجر في النار ، أحدهم أحب أن يتفاصح فقال :

ولست أبالي حين أقتُلُ مسـلماً على أيّ جنب كان في الله مصرعي

مصيره إلى جهنم ، أما الصحابي فقد قال :

ولست أبالي حين أقتَلُ مسلـماً على أي جنب كان في الله مصرعي

شتان بين أن أقول : حين أقتُل مسلماً إلى جهنم ، وبئس المصير ، وبين أن يقول حين أُقتل مسلماً بسبب إسلامي فأنا شهيد .

س : نحن نعلم أن العبد إذا صلى ، وصام ، وبذل كل ما يستطيع من أجل أن يستقيم ، وحرَّر دخله ، وزوجته ، وأولاده لا يخرجون عن نطاق الشرع ، فما بال بعض المشايخ يتوعدون الناس عند نزول القبر بعذاب شديد ، وأشياء ليس لنا بها طاقة ؟

ج : الحقيقة أن الجواب سهل جداً ، وهو وفي قوله تعالى :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : الآية 164)

لو كنت في أفسق مجتمع على الإطلاق ، وكنت مستقيماً أنت ، وأهلك لك الجنة ، وكرم الله أعظم من أن تؤخذ بجريرة العُصاة ، إلا إذا قصَّرت في نشر الحق ، مثلاً احترق بيت في آخر الحي ، فالبيت الأول سوف ينجو إذا خرج لإطفاء ذلك الحريق ، أما إذا قال : أنا لا علاقة لي ، بيتي لا يوجد فيه حريق فعندها الحريق سيصل إلى بيتك ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال : الآية 25)

حينما تستقيم على أمر الله أنت وأهلك ، وتحرر دخلك والمجتمع غارق في الربا ، وفي الفسق والفجور، لا علاقة لك به ، فعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

[مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد]

قال تعالى :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : الآية 164)

والحقيقة أنّ الرحمة خاصة والبلاء خاص ، لا يوجد شيء عام ، إلا أن يكون هناك تقصير ، عندما أراد الله إهلاك قرية قالت الملائكة : إن فيها رجلاً صالحاً ، قال : به فابدؤوا ، قالوا : ولِمَ يا رب ؟ قال: لأنّ وجهه لا يتمعَر إذا رأى منكراً .

هذا موضوع آخر ، أما إذا أنت كنت مستقيماً ، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلك معاملة خاصة ، قال تعالى :

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ)

(سورة الزمر : الآية 61)

وقال :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا)

(فصلت : الآية 30)

فكلام واضح .

س : الحسن البصري يروي هذا الحديث : **" ليس من ولد آدم أحد إلا وقد خُلِق معه الحسد "** .

ج : هذا كلام صحيح ، الحسد صفة حيادية ، أنت تحب أن تكون مثل المتفوقين ، هذه الصفة لصالحك، رأيت إنساناً ملتزماً صالحاً حافظاً لكتاب الله يعمل في الدعوة ، عمله طيب ودخله حلال ألا تغار منه ؟ هذا حسد ، وفي الحديث عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لا حَسَدَ إلا عَلَى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ ، وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد]

الحسد صفة حيادية لصالحك أن تتمنى ما عند الآخرين ، فإذا تمنيت ما في دنياهم فهذا الحسد المذموم، وإذا تمنيت أعمالهم الصالحة أن تكون لك مثلها ، فهذا الحسد الراقي ، فكل إنسان عنده رغبة أن يكون كالآخرين ، والذي لا يغار هو عند الناس كالحمار ، يجب أن تغار، هذه الغيرة حسد ، ولكن حسد في الآخرة ، سماه العلماء غبطة .

س : هل يجوز تعليق بعض الآيات في غرفة النوم ، فإن كان لا يجوز هل يمكن أن نغطيها في أثناء النوم ؟

ج : ولِمَ هذا التعب أن تغطيها ، وأحياناً تنسى أن تغطيها فتقوم لتغطيتها ، أزلها من الغرفة وأرح نفسك.

س : يقول أخ أنه ذهب إلى بلد خليجي ، وأخذ من شريكه ما لا يحق له أن يأخذه ، وأخذ من بضاعته ، وأتى إلى الشام ، البضاعة التي أخذها حلالاً بيعت ، والتي أخذها حراما لم تُبَع .

ج : نحن نقول : لا بد أن تُرجع الحق إلى أصحابه ، والأمر في الدنيا سهل أما في الآخرة فهو ليس كذلك ، لو أنّ الله جمعك مع رسول الله ، وقتلت في ساحة معركة مجاهداً في سبيل الله ، وعليك دين ، وليس مالاً مسروقاً فإنه يغفر الله للشهيد كل شيء ما عدا الدَّين ، فكيف إذا كان المال مسروقاً ؟ فعلى الإنسان أن يغتنم الفرصة الآن .

هذا البدوي الذي عند أرض شمال جدَّة ، فلما اقتربت جدَّة منه باعها ، وأخذها مكتب عقاري خبيث جداً ، اشتراها بربع ثمنها ، وأنشأ عليها عمارة طويلة باثني عشر طابقاً ، الشريك الأول وقع من أعلاها ، وخرَّ صريعاً ، والثاني دُهِس بسيارة ، انتبه الثالث ، وبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر حتى عثر عليه ، ودفع له ثلاثة أمثال حصته ، فقال له البدوي : أنت أنقذت نفسك ، فأنا أخاطب هذا الأخ وأقول له : وأنت أيضاً أنقذ نفسك ، ما دام القلب ينبض فهناك متسع من الوقت لتنقذ نفسك ما دام هذا المال حراماً .

س : حلف إنسان يميناً منعقداً ثم حنث به ناسياً فهل تجب عليه الكفارة ؟

ج : أجل ، هي واجبة عليه .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(30-60): تفسير الآيات 116 – 120
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-06-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة آل عمران ، و مع الآية السادسة عشرة بعد المئة ، و هي قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 116)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا

وفي آية أخرى يقول الله عز وجل :

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف : الآية 46)

1 ـ ذاك يومٌ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون :

أي أن تكون غنياً ، و أن يكون بين يديك أولاد أنعم الله بهم عليك ، هذه زينة الحياة الدنيا ، فهذا الذي كفر بالله ، و أدار ظهره لمنهج الله ، و لم يعبأ بوعيد الله ، و لم يبتغ رضوان الله ، و لم يعمل للجنة ، بل جعل الدنيا أكبر همه ، ومبلغ علمه ، فجمع الأموال الطائلة ، وأنجب ذرية تفوقت في الحياة الدنيا ، فإذا أراد الله أن يؤدبه فهل يمكن أن يمنعه المال الوفير الذي بين يديه من تأديب الله له ؟

2 ـ ما كلّ شيء يُحلّ بالمال والولد :

ثمة شخص - وأرجو أن تكون هذه زلته الأخيرة - قال : الدراهم مراهم ، قال : كل شيء يحل بالمال ، فسَاقَ الله له مصيبة تنهد لها الجبال ، و المال لا يفعل فيها شيئاً ، قال لي : أدبني تأديباً كبيراً ، ما كل شيء يحل بالمال ، هناك أمراض وبيلة لو أنفقت كل ما تملك ليس لها شفاء ، هناك مصائب مخيفة لو كل ما تملك في الدنيا دفعته لم تحل المشكلة ، فهذا الذي أعرض عن الله عز وجل ، وأدار ظهره للدين لو أنه يملك الملايين المملينة من الدولارات ، وأراد الله تأديبه ، و ساق

الله له مصيبة ، والله حكيم حينما يسوق المصائب ، سميت مصائب لأنها تصيب الهدف ، الغني لا يتأثر بفقد مبلغ من المال ، لكن تأتيه مصيبة في صحته ، والقوي لا يتأثر بفقد بعض المال ، فتأتيه مصيبة من مركز قوته ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، أي مع الله لا يوجد إنسان ذكي أبداً ، الله عز وجل حينما يسوق مصيبة لا يمكن إلا أن تقع :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ)

(سورة الرعد : الآية 11)

مهما كنت غنياً ، أو مهما كنت قوياً ، أو مهما كانت لك ذرية طيبة ، أو ذرية متفوقة ، ماذا يفعل أولاد الغني حينما يأتيه المرض العضال ؟ لعل بعضهم يتمنى وفاته ، ولعل بعضهم إذا قال الطبيب : قضية عارضة يتألم ، فالعبرة أن الإنسان إذا كفر بالله عز وجل ، وأدار ظهره لمنهج الله لا ينفعه ماله ، حينها يتولى الله تأديبه ، ولا ينفعه أولاده النجباء المتفوقون إذا أراد الله معالجته ، بل إن هذا الذي ربيته ، وأنفقت مالك من أجله قد يتنكر لك ، وقد دخلت مرة إلى مكتب رجل يحتل منصباً مرموقاً ، ومعي والده، فما كان من صاحب هذا المنصب الرفيع إلا أن قال لوالده : اجلس هنا أبا فلان ، دون أن يعرف الناس بأنه أبوه ، وكأنه يستحي به ، فلما خرجت من عنده ، قلت له : ابنك على حساب من درس في أمريكا ؟ قال : و الله على حسابي يا بني ، على حسابي الشخصي ، فدرسه ، ونال أعلى شهادة ، و احتل أعلى منصب ، وها هو ذا يستحي بأبيه ، فلا ينفعك مالك إذا أراد الله تأديبك ، ولا تنفعك ذريتك القوية إذا أراد الله معالجتك ، و آية بليغة جداً .

إن الإنسان حينما يولد كل من حوله يضحك ، و هذا المولود يبكي وحده ، أما إذا جاء ملك الموت كل من حول الإنسان يبكي ، بطولة الإنسان أن يضحك وحده في هذه اللحظة ، أن تنطبق عليه الآية الكريمة :

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ)

(سورة يس : الآية 26 - 27)

وا كربتاه يا أبت ، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، غداً نلقى الأحبة محمداً و صحبه .

فهؤلاء الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً .

والله كنت عند طبيب قلب ، فجاءه اتصال هاتفي ، فسمعت فحوى المكالمة ، الجهاز قديم ، وصوته عال جداً ، قال له : أيّ مكان في العالم ، وأيّ مبلغ بلغ ما بلغ ندفعه ، قال له : والله لا يوجد أمل ، السرطان من الدرجة الخامسة .

حينما يـأتي المصاب الجلل لا ينفع المال ، ولا ينفع الولد ، وهذا الذي عصى الله من أجل أولاده لن ينفعه أولاده عندما تأتيه المصيبة ، هذا الذي عصى الله من أجل تجميع الأموال الطائلة لن تنفعه هذه الأموال حينما تأتي المصيبة.

حدثني طالب له خال صاحب دار سينما ، القصة في الخمسينات أصابه مرض عضال ، وهو على فراش الموت بكى ، فقال له : مالك تبكي ؟ ـ ابن أخيه ، وكان طالباً من طلابي ـ قال له : ـ القصة أعتقد أنها في الخمسينات ـ خمسة ملايين ، خمسة ملايين بالخمسينات أي خمسمائة مليون ، من أجل أن أعيش حياة ناعمة في خريف عمري ، ها أنا ذا أموت ، ولم أنتفع بها ، مساكين هم الأغنياء ، جمعوا أموالاً لا تأكلها النيران ، فأنهاهم مرض عضال ، ولم ينتفعوا بأموالهم .

أقام شخص في البلد الحرام خمساً وثلاثين عاماً ما صلى فرض صلاة ، ولا حج ، ولا اعتمر ، ذهب إلى بلد غربي ليستجم فوافته المنية في الفندق ، ترك أربعة آلاف مليون :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

رجل من أكبر أغنياء بعض البلدان وافته المنية في أيام مطيرة ، و القبر أشتري ، فتح القبر فإذا مجرى المياه المالحة قد دخل إليه ، المياه سوداء ، وله ابن وحيد مدلل ، فسئل : ماذا نفعل ، القبر هكذا ؟ قال : ادفنوه ، وانتهوا ، فوضعوه في قبر مع المياه المالحة السوداء .

3 ـ الابن الصالح ينفع والديه :

الابن لا يغنِي عنك من الله شيئاً ، اعتنِ به ، أما إذا كنت مؤمناً فابنك أكبر ثروة لك ، لأنه امتداد لك ، لأنه استمرار لك ، لأنه خير كسبك .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ : إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، أحمد ، الدارمي]

4 ـ إياك أن يكون مالك وبالاً عليك :

إذا أعرض الإنسان عن الله ، وأدار ظهره لمنهج الله ، لو معه ملايين مملينة لم تنفعه ، إنسان في بأمريكا صاحب ، أكبر مجموعة مطاعم تطعم السمك ، عنده يخت في البحر ، ذهب هو وعشيقته في رحلة بحرية ، واختفت أخباره نهائياً ، لا خبر عنه ، ولا عن عشيقته ، ولا عن مركبته ، فتندر الناس في تلك البلدة ، وقالوا : أطعم الناس السمك أربعين عاماً ، وها هو ذا يأكله السمك ، مهما كنت غنياً ، وأكبر غني يهودي كان في بريطانيا ثروته الطائلة في غرفة ، صندوقه الحديدي في غرفة ، دخل إليها مرة ليتفقد أمواله ، فأغلق الباب خطأ ، والغرفة مصفحة ومسلحة ، بقي يصرخ ، وينادي حتى وافته المنية ، فجرح أصبعه ، وكتب على الحائط : أغنى أغنياء العالم يموت جوعاً و عطشاً .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

جمعت المال مما حلّ ، وحرم فأنفقته في حله ، و في غير حله ، فالهناء لكم ، و التبعة علي ، روح الميت ترفرف فوق النعش ، وتقول : يا أهلي ، يا ولدي ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حلّ ، وحرم فأنفقته في حله ، وفي غير حله ، فالهناء لكم ، والتبعة علي ، وأندم الناس يوم القيامة غني دخل ورثته بماله الجنة ، و دخل هو بماله النار .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

عندما يأتي ملك الموت لا تنفعك الملايين المملينة ، ولا الحسابات الكبيرة في البنوك ، و لا الأخضر ، ولا الأصفر ، ولا الأحمر ، لا ينفعك إلا عملك الصالح ، إن لك قريناً تدفن معه ، وأنت ميت ، ويدفن معك ، وهو حي ، فإن كان كريماً أكرمك ، و إن كان لئيماً أسلمك ، ألا وهو عملك .

5 ـ الغنى الحقيقي والفقر الحقيقي :

الغنى والفقر بعد العرض على الله ، والغنى غنى العمل الصالح ، والفقر فقر العمل الصالح ، حينما سقى لهما سيدنا موسى قال :

(فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(سورة القصص : الآية 24)

الغني الحقيقي الذي أجرى الله على يديه الخير ، و الفقير الحقيقي الذي حرمه الله من عمل صالح ، و الإنسان حينما يكفر لا يتحرك حركة إلا بالمال ، ولا ينطق بكلمة إلا بأجر ، و لا يدل دلالة إلا بنسبة ، ولا يسهم بعقد صفقة إلا بعمولة :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

6 ـ نقمة الولد فاقد التربية ، ونقمة المال الحرام :

أي لن تمنعهم أموالهم من قضاء الله ، من تأديب الله ، من مصيبة أرادها الله ، و لا أولادهم ، وكلكم يرى حينما يأتي تأديب الله ماذا يفعل الابن ؟ يبكي فقط ، هذا إذا كان الابن محبًا مخلصًا ، وإذا لم يربَ التربية الإسلامية يفرح لموت أبيه ، تسلم من بعده مركبته ، وأمواله ، ومكانته ، ومتجره ، قال له : إلى أين أنت ذاهب ـ سأرويها باللغة العامية ـ قال له : سأذهب لأسكر على روح أبي ، ترك له مالاً عريضاً، ولم يربه التربية العالية ، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية :

((أن يا عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال : يا ربي أنفقته على كل محتاج و مسكين لثقتي بأنك خير حافظاً و أنت أرحم الراحمين ، فقال الله : أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

والله ألوف مؤلفة من المؤمنين ماتوا ، و لم يدعوا شيئاً لأولادهم ، فتولاهم الله بالرعاية والعناية ، فكان أولادهم أعلاماً في المجتمع ، و أغنياء ومحترمين ، وقال لعبد آخر :

((عبدي ، أعطيتك مالاً ، فماذا صنعت فيه ؟ قال : يا رب ، لم أنفقه مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، قال : ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم))

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ و إذا كان الله عليك فمن معك ؟ إذا كان الله معك خدمك عدوك ، و إذا كان الله عليك تطاول عليك ابنك .

أقسم لي شخص بالله قال لي : إنه إذا دهس ابنه ليقيمن مولداً نبوياً فرحاً بهذا الحدث من شدة عقوقه .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

هذا الذي جمعت المال حراماً ، هذا الذي جمعت المال كذباً و نفاقاً و دجلاً ، هذا الذي جمعت المال و غششت المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ، وكذبت على المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ، و كنت مجرماً بحق المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ، وابتززت أموال المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ، وخنت المسلمين ، لن ينفعك ، ولن يمنع عنك قضاء الله و قدره ، وهذه المعاصي التي ارتكبت من أجل جمع المال فهذا المال لن ينفعك .

هناك إنسان جمع في الستينات حوالي ثمانمائة مليون من دور القمار ، كان يدير شبكة دور قمار ، وهو على فراش الموت أوتي له برجل ممن يعمل في الحقل الديني ، قال له : ماذا أفعل ؟ هذا الرجل هكذا قال له ، أنا لا أقيم كلام الرجل صحيحا كان أو خطأ ، قال له : والله لو أنفقت الثمانمائة مليون الآن لن تنجو من عذاب الله ، ثمانمائة مليون في الستينات تركها ، لن تنجو من عذاب الله ، هذا مال جمع من القمار :

تشاد له المنازل شاهقات و في تشييد ساحتها الدمار

نصيب النازلين بها سهاد و إفلاس فيأس فانتـحار

***

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

7 ـ الأغنياء أربع فرق يوم القيامة :

يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة ، فريق جمع المال من حرام ، وأنفقه في حرام ، لا يوجد طول في الحساب ، ثانية حساب ، خذوه إلى النار ، وفريق جمع المال من حلال ، تجارة مشروعة ، وأنفقه على الموائد الخضراء ، وفي الليالي الحمراء ـ وفهمكم كفاية ـ فيقال : خذوه إلى النار ، وفريق جمع المال من حرام ، عنده دار ملهى ، وعنده راقصات ، وعنده مغنين ، وعنده عشاء مع الموسيقى ، والسيارات مكتظة حوله ، تجد أمام بعض الملاهي مئة سيارة تقف ، ماذا يوجد داخل الملهى ؟ يوجد راقصة ، ومغن ، وطعام ، وخمر ، إعلانات ، ودعاية ، فهذا جمع المال من حرام ، وتزوج ، وأنفقه في حلال ، فيقال خذوه إلى النار ، جمع المال من حرام ، وأنفقه في حرام ، خذوه إلى النار ، جمع المال من حلال وأنفقه في حرام ، خذوه إلى النار ، جمع المال من حرام ، وأنفقه في حلال ، خذوه إلى النار ، من هذا الذي سيحاسَب ؟ هذا الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال ، قال : هذا قفوه فاسألوه : هل فاتته فريضة ؟ هل قال جاره : يا رب ، لقد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقنا ؟ هل ضيَّع صلاة ، أو فريضة ، أو نسي مسكيناً ؟ فيقول عليه الصلاة والسلام : وما زال يُسأل ويُسأل ، وجد أمامه قائمة أسئلة طويلة جداً ، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

دققوا الآن في هذه الآية ، يقول الله عز وجل في الآية التي بعدها :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران : الآية 117)

8 ـ إنفاق المال في محله ولوجه الله يحتاج إلى إيمان وإخلاص :

الإنسان معه أموال طائلة ، يقول لك : المشروع الفلاني مئة ألف مليون ، عشرة ملايين ، الإنفاق يحتاج إلى إيمان ، وإلى معرفة بالله ، وإلى معرفة بالدار الآخرة حتى يكون الإنفاق عملاً صالحاً ، أما إذا لم يوجد إيمان فالإنفاق هدفه حينئذ أن يمدحك الناس ، وأن يثنوا عليك ، لذلك قد تعجب .

قد تجد غنياً في حفل خيري يتبرع بأموال طائلة ، له ابن أخ يعاني من الجوع ، له قريب حميم يعاني من الفقر ، لا يعطيه شيئًا ، هناك يوجد تصفيق ، وهنا لا يوجد رُخامة ، أنشأ هذه المحسن الكبير ، فهو يبحث عن سمعة ، عن مكانة ، عن ثناء الناس ، فهذا الذي لا يستقيم على أمر الله وينفق ماله ، إذا كان مخلصاً له عند الله أجر ، أما إذا أنفق المال رئاء الناس ، ولم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، قال تعالى :

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا)

(سورة البقرة : الآية 264)

كقوله تعالى :

(قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 53)

أنا لا أثبط عزائم المنفقين ، ولكن أتمنى عليهم أن يكون إيمانهم إيماناً قوياً ، وأن يكون إيمانهم بالآخرة يقينياً ، حتى يكون إنفاقهم درجات عند ربهم يوم القيامة ، قال تعالى :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ)

(سورة آل عمران : الآية 117)

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ

1 ـ معنى الصرّ :

الصر : هو البرد الشديد ، أو الصقيع ، وكلكم يعلم بأنه قد يكون هناك مزارع ، أو بساتين ، أو محاصيل يزيد قيمة بيعها عن مئة مليون في أقل من ستين ثانية يأتيها صقيع يُتلفها عن آخرها ، قال تعالى :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ)

(سورة آل عمران : الآية 117)

فيها صِرٌّ ، أي فيها صقيع .

2 ـ الأهواء والمصالح تفسد العمل الصالح :

فالكفر ، والإعراض ، وحب الدنيا ، وحب الرئاسة ، والأهواء تُفسد العمل الصالح ، ولو كان صالحاً كما يفسد الخل العسل ، قال تعالى :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لو أنّ هؤلاء الكفار أنفقوا ، يقولون لك : الفلان الغني الأمريكي أنفق ثمانية ملايين لأطفال أفريقيا ، هذا جيد ، الغني الفلاني أنفق كذا مليار دولار لأبناء شرق آسيا ، وهذا أيضاً جيد ، ولكن إن لم يكن هناك إيمان حقيقي بالله ، وليس هناك التزام بمنهج الله فلا ينفعه ذلك ، قال تعالى :

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 19)

مرة ثانية ، أنا أبداً لا أُثبط المنفقين ، ولكن أوضح لكل إنسان أن يحتاج إلى إيمان ، إذا آمنت كان هذا الإنفاق درجة عالية في الجنة .

أنا والله كل إنسان ينفق في وجوه الخير أقول له : لعل الله يجعل لك من هذا الإنفاق قصوراً في الجنة ، أدعو له أن يحفظ الله له صحته ، وصحة زوجته ، وأولاده ، وبناته ، وأصهاره ، وصحة من يلوذ به ، وأن يحفظ له ماله ، ومكانته ، وسعادته ، أدعو له من أعماقي ، أي إنسان ساهم بإنفاق ، بعمل صالح ، ببر ، أنا أشجع المنفقين ، وأتمنى عليهم أن يضاعفوا إنفاقهم ، ولكن أُذكرهم أنّ الإنفاق وحده من دون إيمان بالله ، ومن دون التزام بمنهجه ربما لا يُجدي ، لقوله تعالى :

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

(التوبة : الآية 53)

3 - ينفقون باليمين ويذبحون بالشمال :

أليس هناك دول تقدم مساعدات لدول فقيرة باليد اليمنى ، وتذبحها باليد اليسرى ؟ أليس هناك بلاد تقدم مساعدة غذائية لبلد في حرب أهلية ، ومع المساعدة الأهلية نفايات ذرية تُلقى في شواطئ هذا البلد ؟ أليس هناك بلاد تقدم مساعدات لأبناء الشعوب الفقيرة ، ويُجعل أبناء الشعوب الفقيرة حقول تجارب للأدوية ؟ ففي الستينات والسبعينات كانت الفئران حقول تجارب للأدوية ، الآن بشر في الشعوب المتخلفة تُجرى عليها تجارب الأدوية ، فهذا الذي ينفق ماله كمساعدات ، ثم يرتكب جرائم في حق الشعوب ، ما قيمة هذا الإنفاق ، هذا إنفاق إبليسي أساساً ، قال تعالى :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ)

هناك بلد غربي قدَّم هدية لدول شمالي إفريقية ، هدية رائعة ، هدية لهذه الشعوب التائهة ، محطة فضائية إباحية ، قدَّم لهذه الشعوب محطة فضائية إباحية ، هذا إنفاق ، فهذا إنفاق الكفر ، أو حرب طاحنة بين شعبين ، تقدَّم المساعدات أسلحة لتزداد نار هذه الحرب .

أنا لا أنسى كلمة قالها رئيس أمريكي لرئيسة وزراء بريطانيا في مؤتمر أوروبي ، قال كلمة تُعبِّر عن حقيقة الكفار ، هدَّد رئيس أمريكا رئيسة وزراء بريطانيا بإيقاف الحرب بين شعبين مسلمين بين إيران والعراق ، معنى هذه الحرب التي دامت ثماني سنوات درَّت على الغرب مليارات ، ثمن أسلحة ، والجهة الواحدة كانت تبيع أسلحة للفريقين ، وتزداد نار الحرب ، فهناك إنفاق والعياذ بالله شرّ من الإمساك ، النبي الكريم نهى عن بيع السلاح في الفتنة ، فهؤلاء لو أنفقوا شكل مساعدات غذائية ، مساعدات صحية ، أحياناً محطة إباحية تُقدَّم هدية لشعوب شمال إفريقية ، قال تعالى :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 117)

4 ـ الكافر ينفق لينفع نفسه ويضرّ غيره :

إنفاق المؤمن من أعظم الأعمال الصالحة ، قربة إلى الله ، قصر في الجنة ، درجات عند الله، أن تضع لقمة في فم زوجتك هي لك صدقة ، وتراها يوم القيامة كجبل أُحد ، أن تُطعم جائعاً ، أن تكسو عارياً ، أن تعالج مريضاً ، أن تنفق على أسرة ، الله عز وجل في عليائه يرضى عنك ، هذا إنفاق المؤمنين ، أما إنفاق الكافرين يقدمون لك أسلحة كي تزداد الحرب ضراوة ، يقدم لك محطة إباحية ، يقدم لك أدوية لتُجرَّب ، مساعدة أدوية ، يرسلون مندوبين خفية ، ماذا حصل مع من استعمل هذا الدواء ؟ يتابعونه فإن مات فالدواء سيئ ، من دفع الثمن ؟ أبناء هذه الشعوب ، هذا إنفاق أيضاً ، فالكافر حتى لو أنفق فإنفاقه شرير ، إنفاقه تدمير ، إنفاقه إجرام :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 117)

أما المؤمن فينفق ماله الحلال ابتغاء وجه الله .

شيء آخر : أحياناً يكون هناك كساد بالدول الصناعية ، كساد كبير لا حل له إلا أن تقدم مساعدات لهذه الدول الفقيرة ، هذه المساعدات نحن نتوهمها مالاً ، لا ، تقدّم مساعدات ، إنها بضائع كاسدة عندهم ، أو أسلحة فاسدة ، أو مواد غذائية شبه تالفة ، هكذا يقدمون ، هناك مواد غذائية ليست صالحة للاستعمال البشري ، هناك حبوب مخزنة ثماني سنوات ، انتهت كل فاعليتها ، فهذه تقدم مساعدات ، فالكافر إذا أعطى أعطى ليضر لا لينفع ، أعطى ليحل مشكلته هو ، فقد تقدم المساعدات من أجل ترويج بضائعهم الكاسدة ، الدولة قدمت مساعدات ، وقلبت هذه المساعدات إلى بضائع للمعامل كاسدة ، قد تكون كاسدة لانتهاء مفعولها ، أو لسوء تصنيعها ، أو ما شاكل ذلك ، فلا تعجبوا بمساعدات تأتيكم من بلاد الكفر !! هذه ليست مساعدات :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران : الآية 117)

الكفار طبعاً :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ)

معهم أموال طائلة .

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ)

5 ـ خبث الكافر مريح فيها صقيع :

أي كفرهم و سوء طويتهم كمثل ريح فيها صقيع ، أتلفت هذا العمل الصالح ، إذا كان عملهم الصالح كالحرث فكفرهم ، ونياتهم الخبيثة كانت بمثابة ريح فيها صقيع أتلف هذا العمل الصالح فيما يبدو .

هناك موقف آخر ، موقف فيه عدم إنفاق ، في أستراليا قبل عدة سنوات تم إعدام عشرين مليون رأس غنم بالرصاص ، وحفرت مقابر جماعية ، ودفنت هذه الأغنام في مقابر جماعية حفاظاً على سعر اللحم فقط ، حفاظاً على سعر اللحم المرتفع ، أما هذه الشعوب التي تئن من الجوع ، هذه المجاعات التي تجدونها في إفريقيا ، وفي شرقي أسيا ، وفي بلاد كثيرة يموت الإنسان جوعاً ، وعشرون مليون رأس غنم يطلق عليه الرصاص ليموت ، ويدفن للحفاظ على أسعار اللحم المرتفع .

في بلاد بأوربا تتلف من الزبدة ومشتقات الألبان ما يساوي حجم ثلاثة أهرامات في القاهرة ، تتلف من أجل الحفاظ على أسعار مشتقات الحليب المرتفعة .

في بلاد أمريكا أكبر محصول للحمضيات يتلف للحفاظ على الأسعار ، صار الزنجي يتسلل إلى مكان الحمضيات ، ويأكل ، وفي العام القادم سمم المحصول حتى لا يستطيع أن يأكله فقير ، هكذا ، فلابد أن نكفر بالكفر ، حتى يكون الطريق إلى الله سالكاً ، وما دام الكافر عندنا كبيراً ، ومعظماً ، وإنسانياً ، ويعلم حقوق الإنسان ، وهو أول من ينتهكها ، هذا الذي يتفلسف عن حقوق الإنسان أول من ينتهك هذه الحقوق هم ، هؤلاء الذين يتحدثون عن الإرهاب هم أكبر إرهابًا في العالم ، هذه حقائق ، فلذلك إتلاف المحاصيل ، وإلقاؤها في عرض البحر ، إلقاء بواخر محملة بمئات الأطنان من القمح في عرض البحر حفاظاً على الأسعار المرتفعة ، هذا هو الكافر قلب كالصخر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

1 ـ لكل إنسان صديق وبطانة :

يا من آمنتم بالله لا تتخذوا بطانة من دونكم ، أقرب شيء لك بطانة الثوب ، لا يوجد إنسان ليس له صديق يسر إليه ما لا يبوح به لغيره ، يحدثه عن خصوصياته ، عن مشكلاته ، عن معاناته ، عن آلامه، عن آماله ، عن خططه ، عما يدور في خلده ، صديق حميم .

2 ـ الله ينهي أن نتخذ صديقاً غير مسلم :

الآية هنا تنهى المؤمنين نهياً قاطعاً أن يتخذوا غير مسلم صديقاً حميماً يجعلونه مقرباً كالبطانة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

أولاً : بطانة ليست مؤمنة كإيمانكم ، ليست مسلمة كإسلامكم ، ليست تخاف الله كخوفكم ، لا ترجو الله كما ترجون ، إذاً من هو الذي ينبغي أن يكون صديقاً حميماً ؟ من هذا الذي ينبغي أن تتخذه صديقاً حميماً تسر إليه بكل شيء ؟ من ؟ هذا المؤمن ، لأنه يؤمن كما يؤمن ، و يخاف الله كما تخاف ، و يرجو ما عند الله كما ترجو ، و ينضبط كما تنضبط ، ويسعى كما تسعى ، لا يمكن أن يكون الإنسان مقرباً إليك إلا إذا كان على شاكلتك ، إلا إذا كان مؤمناً بما أنت به مؤمن ، يخاف مما تخاف ، يرجو ما ترجو ، أبداً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

إنسان مقرب ، لصيق بك ، تمضي معه ساعات طويلة ، تسافر معه سفرا طويلا ، تقيم معه شراكة تجارية أمينة ، هذا ينبغي أن يكون مؤمناً على شاكلتك ، مؤمناً بما أنت به مؤمن ، مخلصاً كما أنت مخلص ، محباً كما أنت محب ، مندفعاً كما أنت مندفع ، مؤمناً بمنهجك كما أنت مؤمن بمنهجك ، هكذا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا)

(سورة آل عمران : الآية 118)

احذروا صديقا هذه أوصافه :

1 ـ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا

أي لا يقصرون بإفسادكم ، الخبال هو الإفساد ، لا يقصرون أن يفسدوا حياتكم ، أن يفقروكم ، أن يذلوكم ، أن يهبطوا مسعاكم ، أن يفسدوا أبناءكم :

(لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا)

لا يقصرون في إفسادكم ، في تدمير حياتكم ، في إفقاركم ، في تفرقتكم ، في إحباط مسعاكم ، في منعكم من إصلاح ذات أنفسكم :

(لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

تمنوا شقاءكم ، تمنوا هلاككم ، إله يبين لنا :

(لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا)

(سورة آل عمران : الآية 118)

أي لا يقصرون في تدميركم ، وإفقاركم ، واجتياح أراضيكم ، وإفساد أبنائكم .

2 ـ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ

قال تعالى :

(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

يتمنون دماركم ، و شقاءكم :

3 ـ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ

(قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

أنت قد تعجب !!! شعوب تموت بمئات الألوف ، مذبحة جرت في إفريقيا في ليلتين ذبح خمسمئة ألف ، الدول الكبرى تتفرج ، لكن قيل : إنها قلقة ، أحياناً يقولون : نحن قلقون لما يجري في هذه المنطقة ، فقط قلق ، أما إذا أرادوا التدخل بثلاثين دولة يتدخلون فوراً ، ويُنهون اجتياح بلد لبلد آخر ، فهم إذاً منافقون ، حينما تتوافق مصالحهم يتدخلون ، وحينما لا تعنيهم هذه المشكلة يتفرجون ، قال تعالى :

(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ)

إلا تفعلوا كذا وكذا أنهي الحرب ، معنى ذلك أنهم هم من أشعلوها ثماني سنوات ، إن لم تكن لصالحهم تُوقف فوراً بتدخل سريع ، يأتي أكبر شخص من آخر الدنيا حتى يُنهي الحرب إن لم تكن لصالحه ، قال تعالى :

(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

لذلك ورد في بعض الأحاديث : نية الكافر شر من عمله .

مهما رأيت شراً في عمله نيته أكبر ، ينوي ألا يُبقي شيئاً ، أن يُحرق الأخضر واليابس :

(وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

هذا هو الكفر ، لذلك لا يوجد مكان يُناسب الكفار إلا جهنم :

(كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا)

(سورة السجدة : الآية 20)

وقال :

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

(سورة الدخان : الآية 49)

لأنهم بنوا حياتهم على أنقاض الآخرين ، بنوا غناهم على إفقار الآخرين ، بنوا مجدهم على إتلاف الآخرين ، بنوا أمنهم على إقلاق الآخرين ، يقول لك بلد مثلاً فيه استقرار مئتي عام ، ونحن لا نعرف الاستقرار في الشرق الأوسط ، لأنهم زرعوا لنا هذا الكيان العدواني ، لا يوجد استقرار .

نحن دائماً نترقب ماذا سيحدث ، هذا حال يُعيق الاقتصاد ، يُعيق التعليم ، يُعيق أيَّ نمو ، فهم بنوا مجدهم على أنقاض الآخرين ، بنوا غناهم على إفقار الآخرين ، بنوا أمنهم على إقلاق الآخرين ، بنوا حياتهم على موت الآخرين ، لذلك لا ينبغي عن نواليهم : من هوى الكفرة حُشر معهم ، ولا ينفعه عمله شيئاً .

قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

(سورة المائدة : الآية 51)

وقال :

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

(سورة آل عمران : الآية 28)

قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ)

لا تتخذ إنساناً صديقاً حميماً ليس مؤمناً :

(لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا)

لا يقصرون في إفساد حياتكم ، تحت اسم التقدم يصبح كل بيت ملهى ليلي ، اصعد إلى جبل قاسيون وألق نظرة على بيوت دمشق ، وانظرْ ماذا على سطوحها ؟ يقول لك : حتى يرى الصلاة في الكعبة فقط ، لا تصدقوا ذلك ، ليس من أجل هذا يُشترى هذا الصحن ، قال تعالى :

(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ)

لا يألونكم خبالاً ، أي لا يقصرون في إفساد حياتكم ، أما ودوا ما عنتم ، أي تمنوا شقاءكم :

(قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

إلهنا ، ربنا الخبير ، الرحيم ينصحنا :

(هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ

1 ـ لا للثناء على الكفار :

يقول لك : يا أخي أناقة ، رُقي ، يذهب أحدنا إلى بلاد الكفر فيعود مذهولاً ، يتحدث إليك عشر ساعات عن مزاياهم ، وهذه الشعوب التي تموت من الجوع ، وقد أفقروها ، أرض تُغتصب يُصطلح على اغتصابها أزمة الشرق الأوسط ، اغتصاب أرض :

قتل امرئ في غابة جريمة لا تُغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر نراقب بقلق ما يجري هنا ، هكذا يُصرِّحون لنا ، قال تعالى :

(هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ)

يا أخي رقي كبير ، مطارات ، أناقة ، نظافة ، ترتيب ، فنادق ، هذا رقي :

(هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

إله ينصحنا ، ولا يحبونكم ، قال تعالى :

(وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

تؤمنون بنبيهم وكتابهم ، قال تعالى :

(وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

عندهم أيضاً دبلوماسية عالية جداً ، وقد عُرِّفت الدبلوماسية بأنها التعبير عن أسوأ النوايا بأحلى الألفاظ:

(هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

أي إذا ذهبتم إلى بلادهم تُعجبون .

مرة قلت كلمة ، وأرجو أن أكون دقيقاً فيها ، قلت : إذا ذهبت إلى بلادهم ، ورأيت في الأرض جنة فهي هناك ، ولكن على الشبكية فقط ، فإذا انتقلت هذه الصورة إلى الدماغ أصبحت جهنم ، تفكك أسري، إباحية ، انهيار خُلُق ، ماديِّة مُخيفة :

(هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

2 ـ الكفار لا يؤمن بما نؤمن به :

وهم لا يؤمنون بكتابكم ، ولا بنبيكم :

(وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ

1 ـ من الإعجاز العلمي : الموت من الغيظ :

هذا من الإعجاز العلمي ، الإنسان يموت من الغيظ ، يموت موتاً حقيقياً ، الشدة النفسية تُميته فوراً ، الشدة النفسية قد تصيبه بجلطة قاتلة ، أو بسكتة قلبية قاتلة ، أو بتوقف للقلب قاتل ، قال تعالى :

(قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(119)إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

هناك بلد مسلم بجنوب شرق آسيا حقق تقدماً اقتصادياً كبيرًا إلى درجة أصبح عنده فائض بقيمة ستين مليار ، أقاموا عليه مؤامرة ، ودمروه اقتصادياً .

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا

1 ـ من السنن الكونية : أذى الكفار للمسلمين :

قال تعالى :

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا)

(سورة آل عمران : الآية 119)

هذه الآية ، والله أيها الإخوة لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت المسلمين ، ذلك أن الله عز وجل يقول :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46)فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

(سورة إبراهيم)

هذا المكر الذي تزول منه الجبال ، جبل يزول !! مهما كان هناك عدوان لا سمح الله ، ولا قدر تختفي قاسيون ؟ هذا جبيل ، وليس جبلا ، جبال هيملايا تختفي بقنبلة ذرية ، قال :

(وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم : الآية 46)

و مع ذلك ، هنا الآية :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 120)

2 ـ الصبر والتقوى لمجابهة مكر الكفار :

ألغي كيدهم ، انتهى مكرهم ، أحبط مسعاهم ، هذا كلام خالق الأكوان ، زوال الكون أهون على الله من ألا تقع هذه الآية ، أنت اصبر ، واتق الله ، كل كيدهم يتلاشى ، ألم يقل الله عز جل :

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : الآية 249)

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((... وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود ، الترمذي ، الدارمي]

لن لنفي المستقبل .

اثنا عشر ألف مؤمن صادق لن يغلبوا في الأرض ، والمليار ومئتا مليون يُغلبون !

حدثني أحد خطباء دمشق ، وهو من بلد أوربي ، أصله مسلم ، قال لي ذهبت إلى بلدي : وخطبت في أكبر مسجد هناك ، وأمامي عشرة آلاف مصل ، قال لي : تأثروا من خطبتي تأثراً لا حدود له ، ومعظمهم بكى من شدة تأثرهم ، وأخرجوا زجاجات خمر ، وشربوها في المسجد ، من شدة تأثرهم بهذه الخطبة :

((... وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود ، الترمذي ، الدارمي]

هذا الخطيب من فمه إلى أذني ، لا يوجد وسيط ، قال لي : أنا خطبت ، ثم شُرب الخمر في المسجد من شدة التأثر بهذه الخطبة .

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : الآية 249)

تصور دولة عظمى تراقب أي بقعة في العالم .

مرة اطلعت على مجلة ألمانية عليها صورة الأرض من القمر ، صورة مشهورة من القمر على الأرض ، مربع صغير ، كُبِّر هذا المربع ، فإذا أمريكا الشمالية ، على أمريكا الشمالية مربع صغير ، كُبِّر هذا المربع فإذا فلوريدا ، على فلوريدا مربع صغير ، كُبِّر هذا المربع فإذا ساحل من سواحلها ، عليه مربع صغير ، كُبِّر هذا المربع فإذا رصيف في ميناء لها ، وإلى جانبه أرض خضراء ، مساحة خضراء ، على هذه المساحة نقطة سوداء ، كُبِّرت هذه النقطة فإذا إنسان مستلق على ظهره يقرأ قصة عرفت عنوانها ، وإلى جانبه صحن فيه تفاح ، هذه صورة من الأقمار الصناعية أي على مستوى أنها ترصد إنساناً مستلق على الأرض ، ويقرأ قصة ، وقد عُرف عنوان القصة ، يرصدون كل مكان في العالم ، و بإمكانهم أن يدمروا أي مكان في العالم ، حتى إنه لما دمرت يوغسلافيا في حرب البلقان الصواريخ ، نزلت إلى غرفة نوم رئيسها من البنتاغون بالكومبيوتر ، إلى هذه الدقة وصلوا ، رصد أي مكان في العالم ، و تدمير أي مكان في العالم بإحكام ما بعده إحكام ، ماذا قال الله عز وجل :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس : الآية 24)

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

3 ـ تمسكوا بهذه الآية :

تمسكوا بهذه الآية ، والله خلاصنا بهذه الآية ، والله نجاتنا بهذه الآية ، تقدمنا بهذه الآية ، وحدتنا بهذه الآية ، سلامة ديننا بهذه الآية ، سلامة الأجيال الصاعدة بهذه الآية :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا)

كيده الذي تزول منه الجبال ينتهي ، يحبط ، يُعطل ، إذا كان الله معك فمن عليك ، لكن المسلمين مقصرون ، قال تعالى :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا)

تصبروا على قضاء الله و قدره ، و تصبروا على الطاعة ، وعلى المعصية ، و تتقوا ، أي تلتزموا منهج الله عز وجل عندئذ :

(يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

(سورة آل عمران : الآية 120)

الأسئلة :

نجيب عن بعض الأسئلة في هذه العجالة :

س ـ لماذا تكلم الله عز وجل بضمير الجمع ؟

ج ـ قال بعض علماء التفسير : إن الله إذا تكلم بضمير المفرد يقصد ذاته العلية :

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه : الآية 14)

أما :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)

(سورة الحجر : الآية 9)

إذا ذكر ذاته بضمير الجمع فالمقصود أسماؤه الحسنى كلها، فعل الله فيه رحمة ، وفيه عدل ، وفيه قدرة ، وفيه حكمة, وفيه علم فاذا ذكر اسم الله بضمير الجمع فالمقصود اسماؤه الحسنى وان ذكر بضمير المفرد فالمقصود ذاته العلية .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(31-60): تفسير الآية 121 ، درس معركة أحد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-06-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الواحدة والعشرين بعد المئة .

وقفات مع غزوة أحُد :

أيها الإخوة الكرام ، بدءاً من هذه الآية إلى ستين آيةً قادمة يتحدث الله عز وجل عن موقعة أحد ، وقبل أن نَشرَعَ بفضل الله ، وبتوفيقه في تفسير هذه الآيات المتعلقة بموقعة أحد لابد من وقفتين ؛ وقفة أولى نتحدث عن حكمة هذه المعركة التي انهزم فيها المسلمون ، ووقفة ثانية نتحدث فيها عن وقائع هذه المعركة ، فمن حكم هذه المعركة إلى وقائع هذه المعركة ، وبعدها نبدأ بتفسير الآيات التي تبدأ بقوله تعالى :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ)

(سورة آل عمران : الآية 121)

1 ـ حياة النبي صلى الله عليه وسلم مقصودة من قِبَل الله عز وجل :

أيها الإخوة الكرام ، الحقيقة الأولى أن حياة النبي صلى الله عليه وسلم بما فيها من أحداث ومشكلات ، وأزمات ، ومضائق ، وصعوبات ، وانتصارات ، ونكسات ، حياة مقصودة من قبل الله عز وجل ، لأن كل موقف من هذه المواقف وقف النبي فيه موقفاً كاملاً ، وقف موقفاً مشرفاً ، فالأحداث التي جرت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أحداث متميزة كانت سبباً للتشريع ، فهناك انتصارات ، وهناك نكسات ، وهناك تقدم ، وتأخر ، ومؤامرات ، وتنكيل من الكفار ، وهناك موت في سبيل الله ، وهناك نصر عزيز، فكل هذه الأحداث كانت مقصودة لذاتها لتكون درساً بليغاً من بعده .

ما من حدث على الإطلاق إلا وقد أراده الله عز وجل لذاته ، ليكون سبباً لمنهج قويم ننتفع به ، فالأمة الإسلامية اليوم في أشد الحاجة إلى هذه الدروس ، وكأن هذه الدروس التي حصلت من

تفاعل النبي مع المحيط الذي أحاط به ، ومع البيئة ومع المعطيات ، ومع الأحداث هذه الدروس هي منهج يمكن أن ننتفع به في مشكلاتنا التي نعانيها هذه أول حقيقة .

2 ـ نكسة أحُدٍ و نكسة حُنَين :

الحقيقة الثانية ، أيها الإخوة ، أن المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقعوا في نكستين ؛ نكسة أحد ، ونكسة حنين ، في أحد خالفوا النص القتالي ، يعني هزموا لأسباب متعلقة بالقتال نفسه ، وفي معركة حنين هزموا لأنهم وقعوا في شرك خفي ، فنحن إما أن نهزم لتقصير في الإعداد ، وإما أن نهزم لضعف في الإيمان ، قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال : الآية 60)

لابد من الإعداد والإيمان :

هذا بند الإعداد ، شرط الإعداد ، لكنه شرط لازم غير كاف ، الشرط الثاني شرط الإيمان ، قال تعالى:

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : الآية 47)

فهذا النبي الكريم سيد الخلق ، وحبيب الحق ، ومعه أصحابه الذين افتدوه بأرواحهم ، ومع ذلك عندما وضع خطةً ، وألزمهم بتطبيقها ، وخالفوا هذه الخطة لم يستحقوا النصر ، يدل هذا على قيمة التنظيم ، وقيمة القيادة ، وقيمة الطاعة ، لم يهزم المسلمون بسبب خطأ من رسول الله ، ولكنهم هزموا بسبب من مقاتليهم ، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما وضع الرماة على تلٍّ من جبل أحد أمرهم أن يلزموا أماكنهم ، ولو رأوا أن الطير تأكل الجيش ، ينبغي أن يلزموا أماكنهم ، فعصوا رسول الله ، وانكبوا على ساحة المعركة ليأخذوا الغنائم ، وقد قال تعالى :

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

(سورة آل عمران : الآية 152)

فنحن لا ننتصر إلا بشرطين ، وكلٌّ من هذين الشرطين شرط لازم غير كاف ، لا ننتصر إلا بالتوحيد وبالافتقار إلى الله عز وجل ، وبالتوكل عليه كما انتصروا في بدر ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

وننتصر أيضاً بأن نعد ما نستطيع ، قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

وهناك ملمح لطيف في هذه الآية ما كلفنا الله جل جلاله أن نعد لهم القوة المكافئة ، وقد يكون هذا فوق طاقة المسلمين ، ولاسيما في هذه الأيام ، قطع أعداؤنا مراحل كثيرة جداً في التطوير والتحديث في الحروب الإلكترونية ، وفي الأقمار الصناعية ، والصواريخ ، ودقة الإصابة ، والأسلحة الجرثومية والكيماوية ، والفتاكة ، والأسلحة المعنوية ، والإعلام ، فلو أن الله عز وجل كلفنا أن نعد لأعدائنا القوة المكافئة هذا فوق طاقتنا الآن ، ولكنه جل جلاله رحمنا ، فأمرنا أن نعد القوة المتاحة فقط :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

وأمرنا أن نؤمن به حق الإيمان وأن نفتقر إليه ، فإذا آمنا به حق الإيمان ، وافتقرنا إليه كان النصر حليفنا ، لقول الله عز وجل :

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : الآية 173)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

(سورة محمد : الآية 7)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : الآية 47)

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر : الآية 51)

هذه حقائق مسلَّم بها ، فمتى يهزم المسلمون إذًا ؟ إذا قصروا في الإعداد لعدوهم الإعداد المتاح ، أو إذا اعتدوا بأنفسهم ، ونسوا ربهم فأشركوا .

إما أن ننهزم لضعف في إيماننا ، وإما أن ننهزم لضعف في استعدادنا ، فإذا كنا مؤمنين الإيمان الكاف، ومستعدين الاستعداد المتاح كان النصر حليفنا ، ومن نحن أمام أصحاب رسول الله هؤلاء الذين شهد الله لهم بالفضل ، ولقد رضي عنهم في محكم القرآن الكريم ، قال سبحانه وتعالى :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح : الآية 18)

ومع ذلك حينما وقعوا في شرك خفي ورأوا أنفسهم عشرة آلاف مقاتل ، وقد دانت لهم الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، وكانوا أكبر قوة ضاربةٍ في الجزيرة مع ذلك ، قال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة : الآية 25)

ماذا نستفيد من هذا الدرس في حياتنا اليومية ؟ يشتري تاجر بضاعة من دون دراسة ، ومن دون معرفة لاحتياجات السوق فرضاً ، من دون معرفة لجدوى هذه الصفقة ، من دون دراسة لأسعار

السوق، يشتريها شراءً عشوائياً ، فقصر في الإعداد ، ثم إنه لما اشتراها قال : سوف أبيعها ، فقصر في الإيمان ، ولم يتوكل على الله ، إذاً لن يبيعها ، إذاً لا يربح .

درس أحد وحنين يطبقان في حياة المسلمين كلها :

هذان الدرسان يطبقان في كل حقول الحياة ، يطبقان في الدراسة ، قال طالب : يا رب أنا متفوق في الجبر ، وضعيف في الهندسة ، فرسب في الجبر ، ونجح في الهندسة ، في الامتحان الثاني قال : يا رب الهندسة والجبر عليك .

أنت حينما تتوهم أنك متفوق ، وأنك مستغن عن إمداد الله لك لا تحقق النجاح ، أو حينما تقصر ، كطالب لم يدرس أبداً ، ويقول : أنا مؤمن ، والله يحبني ، وإذا ما نجحت فهذا ترتيب الله ، وليس لي نصيب ، سبحان الله ، هذا أيضاً كلام مرفوض .

هذا درس بليغ في حياتنا ، في دراسة طلابنا ، في حرفنا ، في طبنا ، في هندستنا ، في تجارتنا ، في حربنا ، في سلمنا ، في كل شؤون حياتنا ، يجب أن نأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم نتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، فإذا كان التقصير في الإعداد لا ننتصر ، إذا كان التقصير في الإعداد المتاح لا ننتصر ، وإذا كان التقصير في الإيمان التوحيدي لا ننتصر ، إذا اعتددنا بأنفسنا ، ونسينا ربنا، واستغنينا عن الالتجاء إليه لا ننتصر ، وإذا قصرنا في الإعداد لعدونا لا ننتصر ، هذا درس بليغ من دروس السيرة ، وأصحاب النبي ، وهم على ما هم عليه من إيمان ، ومن تضحية ، ومن توحيد ، في بدر انتصروا ، لأنهم كانوا موحدين ، وأعدوا العدة التي أتيحت لهم ، وكانوا قلة قليلة ، وفي أحد عصوا أمر رسول الله ، لو أن الله نصرهم في أحد على الرغم من المعصية لألغي منهج الله ، لو أن الطالب ما درس أبداً ، ونجح معنى هذا أن الدراسة ليس لها قيمة أبداً .

لقد أراد الله عز وجل أن يدفع المسلمون ثمن هذا التقصير ، أليس الله قادراً أن يمسك النبي بحفنة من تراب ، ويلقيها في وجوه الأعداء ، فيولوا هاربين ، هذا شيء يمكن أن يقع ، ولكن لو فعل هذا النبي لانتقل النبي إلى الرفيق الأعلى ، فنقصر في الإعداد ، ونقول : ليس بيننا نبي الله حتى ينصرنا على أعدائنا ، لا فالله عز وجل جعل المسلمين يدفعون ثمناً باهظاً في تقصيرهم ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام صلى على هؤلاء الرماة الذين عصوه ، وقد استنبط العلماء استنباطاً رائعاً ، وهو أنهم عصوا أمراً تنظيمياً ، ولم يعصوا أمراً تشريعياً ، الأمر التشريعي شيء والتنظيمي شيء آخر .

قريشٌ لم تحقق مبتغاها في غزوة أحد :

أيها الإخوة الكرام ، لكن قريشًا في هذه المعركة لم تحقق ما أرادت ، لو أنها أرادت الثأر لقتلى بدر لحققت بعض ما أرادت ، ولو أنها أرادت أن تستعيد هيبتها لحققت بعض ما أرادت لبعض الوقت ، أما لو أنها أرادت أن تقضي على المسلمين ، وأن تفسح الطريق إلى تجارتها إلى الشام لم تحقق ما تريد ، فمهما أصيب المسلمون من نكسات فهم موجودون ، والله معهم ، ولن يتخلى عنهم ، لكنه سبحانه يؤدبهم ، تماماً كالابن يخطئ ، لكن الأب لا يتبرأ منه ، ولا يطرده من البيت ، لكنه يؤدبه ، فمعنى ذلك أنك إذا كنت مؤمناً بالله فينبغي أن تصبر على تأديب الله ، وإن الله لا يتخلى عنك بالكلية ، ولكن يسوق لك من الشدائد ما يحملك على معرفته وطاعته .

أيها الإخوة الكرام ، لقد كانت غزوةُ أحد فرزاً للمؤمنين ، ودائماً هذه المصائب تسمى محك الرجال ، وقد قال الله عز وجل في الخندق :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا(10)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : 10-11)

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

لا بد من امتحان يفرز المؤمن الصادق من غيره :

الطلاب في أثناء العام الدراسي كلهم يرتدون ثياب موحدة ، وكلهم محسوبون على المدرسة طلاباً ، وكلهم قد يرتدي ثياباً أنيقة ، ولكن بينهم تفاوت كبير في العلم ، بين طالب متفوق ، وطالب كسول ، وطالب يدرس ، وطالب لا يدرس متى يكشف التفاوت بينهم ؟ في الامتحان ، فلابد من امتحان ، وأنتم أيها الإخوة هيؤوا أنفسكم ، فكل يدعي أنه يحب الله ، وكل يدعي أنه يحب طاعته ، ويسعى إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، هذا كلام بكلام ، قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

فلابد من امتحان ، ففي مثل هذه المصائب هناك امتحان ، لذلك قال بعض المسلمين في الخندق :

(مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة الأحزاب : الآية 12)

بل قال أحدهم : أيعدنا صاحبكم ، ولم يقل رسول الله ، أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحَدنا لا يملك أن يقض حاجته ، وبالمقابل قال تعالى :

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : الآية 23)

فنحن في دار الابتلاء ، قال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت : الآية 2)

مستحيل ، يا إمام أندعوا الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال : لن تمكن قبل أن تبتلى ، إذاً نحن في دار امتحان ، نحن في دار ابتلاء ، قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون : الآية 30)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : الآية 2)

ومثل هذه المصائب ، ومثل هذه المعارك فيها ابتلاء .

حصل في القاهرة زلزال ، كثير من أطباء القاهرة ولّوا وجوههم شطر الإسكندرية ، وانسحبوا من هذا الزلزال طلباً للسلامة ، وأطباء بقوا في المستشفيات يعملون أربعاً وعشرين ساعة خدمةً لهؤلاء الجرحى ، هذا الزلزال فرز الأطباء .

دائماً وأبداً هناك فرز ، الهجرة فرزت المؤمنين ، مؤمنون انصاعوا إلى أمر النبي ، وهاجروا ، وآثروا الهجرة على أموالهم ، وبيوتهم ، ومكانتهم ، وأناس تشبثوا ببيوتهم ، وأموالهم ، ولم يهاجروا ، فالهجرة فرز ، والمعارك فرز ، والمصائب فرز ، وقهر الإنسان أحياناً فرز ، يأتي ضغط هؤلاء المؤمنون بعضهم لا يصمد لهذا الضغط ، فيعصي الله طلباً للسلامة ، وبعضهم يصمد ، لذلك الإيمان الحق لا يتغير ، ولا يتبدل ، لا تحت سياط الجلادين اللاذعة ، ولا أمام سبائك الذهب اللامعة ، المؤمن كالجبل لا تهزه هذه المغريات ، ولا تثنيه هذه الضغوط ، فهذا المعركة فرز للمؤمنين :

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

(آل عمران : من الآية 152)

أيها الإخوة ، وهناك حقيقة أيضاً دقيقة جداً ، لو أن مدرساً أعطى تعليمات للتوضيح ، وخالفها طالب فلم يعاقب سقطت قيمة هذه التعليمات ، لو أن المدرس كلف طلاباً بوظيفة ، وفي اليوم التالي طلاب كتبوا ، وهناك طلاب ما كتبوا ، استوى عند المدرس الذين كتبوا ، والذين لم يكتبوا، في اليوم الثالث لم يكتب أحد ، فإذا لم تنفذ التعليمات تلغى قيمتها ، فلو أن هؤلاء الصحابة على أنهم عصوا أمر رسول الله فانتصروا لسقطت قيمة الطاعة إطلاقاً ، وهذا شأن تربوي ، حينما لا يحاسب المقصر ، ولا يكافأ المحسن تسقط القيم ، يسقط الباعث ، يسقط الخوف يسقط الطمع .

معركة أحد استكمالٌ لبناء شخصية المسلمين :

الحقيقة تعد معركة أحد استكمالاً لبناء شخصية المسلمين ، والله ، وأنا في طريقي إلى هذا المسجد خطر في بالي أننا في هذه البلدة الطيبة نصلي ، وندعو الله عز وجل ، ونخطب ونلقي الدروس ، والمساجد مليئة بالمصلين ، إلى من يعود الفضل في ذلك ؟ إلى هؤلاء الصحابة الذين بذلوا الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، ففي أُحُد ، وبدر ، والخندق ، وسوف ترون بعد حين كم بذل هؤلاء الصحابة ، سبعون صحابياً من نخبة الصحابة قتلوا في أحد ، هذا الإسلام الذي وصل إلينا مدفوع ثمنه باهظاً ، نحن أخذنا من الإسلام ، ولم نعطه شيئاً ، نحن حملنا ، ولم نحمل ، نحن قطفنا الثمار ولم نزرع الشجر ، أما هؤلاء الصحابة الكرام بفضلهم ، وبفضل إيمانهم ، واستشهادهم ، وإراقة دمائهم وصل الإسلام إلى هذه البلاد.

والله الذي لا إله إلا هو لو أن الصحابة الكرام فهموا الدين كما نفهمه نحن عبادات شعائرية ، ومظاهر واحتفالات ، ومكتبات ، ومحطات فضائية، ندوات ، لو فهموا الإسلام كما نفهمه نحن ، والله الذي لا إله إلا هو ما خرج الإسلام من مكة لم يصل إلى المدينة ، لأنه وصل إلى إسبانيا ، ومن ذهب إلى هناك يرى معالم المسلمين ، ووصل إلى الصين ، حيث يوجد في خمسون مليون مسلم ، وفي إندونيسيا مئتان وخمسون مليون مسلم ، لولا أن الصحابة الكرام فهموا الإسلام فهماً حقيقياً ما انتقلوا من رعاة الغنم إلى قادة الأمم ، والآن نحن لا سبيل إلى استعادة هذا الدور القيادي لهذه الأمة إلا أن نعود إلى هذا المنهج القويم ، وإلى أن نتمسك بالتوحيد، أن نوحد وأن نستعد .

أيها الإخوة ، بعد هذه الهزيمة أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقلبها إلى نصر ، فأصحابه كلهم جرحى ، بعد يوم قتال عنيف ، وسوف ترون بعد حين أنواع الشدة التي شهدها المسلمين ، وأنواع الجراحات التي أصابتهم ، ومع ذلك أمرهم النبي أن يتوجهوا إلى حمراء الأسد ، ليلحقوا بالمشركين ، ولم يقبل إلا من خاض معركة البارحة ، على الرغم من تحمله الشدة ، ومن جراحه العميقة والثخينة لبى نداء النبي ، فخفف هذا الأمر إلى العشر ، وولى المشركون هاربين ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام ما أراد أن يحقق المشركون كل غايتهم .

لا تقلق على هذا الدين :

أيها الإخوة ، آخر تعليق لا تقلق على هذا الدين ، إنه دين الله ، وإن الله جل جلاله يتولى نصرته ، ولكن ليكن قلقك ما إذا سمح الله لك ، أو لم يسمح أن تكون جندياً في هذا الدين .

ويا أيها الإخوة الكرام ، وحينما لا يتاح لك مثل هذا الجهاد القتالي فهناك جهاد وصفه الله عز وجل بأنه جهاد كبير ، أن تجاهد بهذا القرآن ، أن تتعلمه ، وأن تعلمه ، لأنك قبل أن تجاهد الكفار ينبغي أن توصل القرآن إلى المؤمنين .

سأل بعضهم عالماً : أيصل ثواب قراءة القرآن على الموتى إلى الموتى ؟ فقال هذا العالم ، وقد أعجبتني إجابته : وهل بإمكانك أن توصل هذا القرآن إلى الأحياء ؟

دعك من الميت ، هل بإمكانك أن توصله إلى الأحياء ؟ هل بإمكانك أن تقنع الناس أن يطبقوا هذا القرآن في بيوتهم ، أن يطبقوه في زواجهم ، في نزههم ، في حلهم ، في ترحالهم ، في كسب أموالهم ، في أتراحهم ، هذا جهاد كبير .

الجهاد القتالي من أجل هذا الجهاد ، فإذا كان هذا متاحاً للمسلمين في كل العهود فما يمكنك أن تعقد مؤتمراً في أمريكا في عقر دار الأعداء إسلامياً ، متاح لك أن تدعو إلى الإسلام في أي مكان ، والشاهد المساجد مليئة ، والحمد لله فأنت حينما لا يتاح لك جهاد قتالي لسبب أو لآخر ، فإنه قد أتيح لك أن ترسخ هذا القرآن في نفوس المؤمنين ، متاح لك أن تفهمه ، أن تعلمه ، أن تجعل من هذا القرآن منهجاً لنا ، متاح لك أن تأمر بالمعروف ، وأن تنهى عن المنكر، متاح لك أن تبلغ من حولك آية ، أو حديثاً ، أو حكماً ، أو قصة ، أو سيرةً ، متاح لك أن تفعل كل شيء لكنه التقصير ، من يمنعك أن تجلس مع أهلك لتعلمهم ؟ من يمنعك أن تجلس إلى أصدقائك لتعلمهم ، من يمنعك أن تنقل خطبة الجمعة إلى من حولك ؟

أيها الإخوة الكرام ، ورد في بعض الأحاديث

((ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، حتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِى رَأىٍ برَأيِهِ ، وَرَأَيْتَ أَمْرًا لاَ يَدَانِ لَكَ بِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَوَامِّ ، فَإِنَّ مَنْ وَرَائِكَ أَيَّامَ الصَّبْرِ ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ كَأَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ))

أبو داود ، ابن ماجه عن أبي ثعلبة الخشني)

أهلك ، جيرانك ، أصدقاؤك ، زملاؤك ، رواد مسجدك ، هؤلاء خاصة النفس ، فنحن إذا أردنا أن نعلم هؤلاء بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وأن نرسخ قيم الدين ، وأن نكون قدوةً للآخرين ، فهذا سماه الله عز وجل في كتابه الكريم الجهاد الكبير ، الكبير ، قال تعالى :

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(سورة الفرقان : الآية 52)

أبواب الخير مفتحة على مصاريعها ، أبواب الدعوة إلى الله مفتحة على مصاريعها ، الإسلام لا يحتاج إلا إلى نشر هذا الحق ، قوته بكلمته ، والأنبياء جاؤوا بالكلمة الصادقة الواضحة النيرة الصحيحة المخلصة ، فقلبوا وجه الأرض ، من هم العرب ؟ قبائل متناحرة في الجاهلية كان أحدهم يمد رجله ويقول : من كان أشرف مني فليضربها ، فيأتي من يضربها ، وتنشأ حرب تزيد عن عشر سنوات ، جاهلية ما بعدها جاهلية ، تنابز بالألقاب ، افتخار بقيم جاهلية ، غزل رخيص ، معاقرة خمرةٍ ، ربا لا يحتمل .

أتيت ، والناس فوضى ، فكان النبي عليه الصلاة والسلام في حياة قصيرة مفعمة بالخير ، حتى إن الله عز وجل أقسم بعمره الثمين ، فقال تعالى :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر : الآية 72)

أيها الإخوة الكرام ، هذه بعض حكم هذه المعركة معركة أحد ، والله عز وجل في هذه الآيات التي تحدث بها عن معركة أحد يبين أسباب هذه المعركة ، وتفاصيلها ، ولابد من رواية تفاصيلها قبل الشروع بشرح هذه الآيات .

أيها الإخوة الكرام ، الآية الكريمة :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 121)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

1 ـ سببُ غزوة أحدٍ :

هذه الآية هي افتتاح القصة ، وقد أنزل فيها ستون آية ، وأشير في هذه السورة إلى بعض الحكم ، والغايات المحمودة التي كانت في هذه الوقعة ، وكانت في شوال من السنة الثالثة باتفاق الجمهور ، وكان سببها أن الله تعالى لما قتل أشراف قريش ببدر ، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها وحزن أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم ، فجاؤوا إلى أطراف المدينة في غزوة السويق ، ولم ينل ما في نفسه أخذ يؤلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى المسلمين ، ويجمع الجموع ، قريباً من ثلاثة آلاف من قريش على رأسهم أبو سفيان ، بسبب معركة بدر التي انهزم فيها المشركون ، وانتصر فيها المؤمنون ، وقتل في بدر رؤوس الكفر ، فأخذ أبو سفيان يؤلب قريشاً على رسول الله ، وجمع ثلاثة آلاف مقاتل من قريش ، ومن حلفائها ، ومن الأحابيش ، وجاؤوا بنسائهم لئلا يفروا ليدافعوا عنهن ، ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريباً من جبل أحد .

2 ـ الاستعداد المادي والمعنوي والتنظيمي :

دققوا ، واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أيخرجون إليهم ، أم يمكثون في المدينة ؟ وكان رأي النبي صلى الله عليه وسلم ألا يخرجوا المسلمون من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلها المشركون قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت ، ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي ، وكان هو الرأيُ ، فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم

بدر ، وأشاروا عليه بالخروج ، والنبي يرى أن يبقى في المدينة ، وأن يتحصن بها ، وأن يقاتل الكفار من أفواه الأزقة، والنساء يضربون الجند من على السطوح ، وقد قال الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة الحجرات : الآية 1)

فنهض النبي عليه الصلاة والسلام ، ودخل بيته ، ولبس لأمته ، أي لبس درعه ، وخرج عليهم ، وقد انثنت عزائم أولئك الملحين لما رأوه لبس درعه ، وتأهب للخروج فندموا ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ ، وَرَأَيْتُ بَقَرًا مُنْحَرَةً ، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ الْحَصِينَةَ الْمَدِينَةُ ، وَأَنَّ الْبَقَرَ هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ ، قَالَ : فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : لَوْ أَنَّا أَقَمْنَا بِالْمَدِينَةِ فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا فِيهَا قَاتَلْنَاهُمْ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَاللَّهِ مَا دُخِلَ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَكَيْفَ يُدْخَلُ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْإِسْلَامِ ؟ فَقَالَ : شَأْنَكُمْ إِذًا ، قَالَ : فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ ، قَالَ : فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ : رَدَدْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْيَهُ ، فَجَاءُوا فَقَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، شَأْنَكَ إِذًا ، فَقَالَ : إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ))

(أحمد)

لقد بيّن النبي أن التردد آفة كبيرة ، اتخذ قرارًا بالخروج ، أما هذا التردد فمشكلة كبيرة جداً ، والتردد في أغلب الأحيان سبب الإحباط ، وخرج النبي عليه الصلاة والسلام في ألف من أصحابه ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين في المدينة ، انظر إلى النظام ، لابد من أمير على المدينة ، والمسلمون جميعاً في أحد ، استعمل ابن أم مكتوم على المسلمين في المدينة .

3 - رؤيا النبي عليه الصلاة والسلام ليلة المعركة :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا ، وهو في المدينة ، رأى أن في سيفه ثلمة ، ورأى أن بقراً تذبح ، وأنه أدخل يده في درع حصينة ، فتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، إنه سيدنا حمزة ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون ، وتأول الدرع بالمدينة .

4 - خروج النبي إلى أحد وهو يحث أصحابه على القتال :

رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوم الجمعة ، فلما صار بالشوط بين المدينة وأحد خذل عنه عبد الله بن أبي في ثلث الناس مغاضباً لمخالفة رأيه في المقام ، فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر رضي الله عنهما يوبخهم ، ثلث المقاتلين رجعوا ، ولم يقاتلوا مع النبي ، فهذا والد جابر تبعهم يوبخهم ، ويحضهم على الرجوع ، ويقول لهم : تعالوا قاتلوا في سبيل الله ، أو ادفعوا عن مدينتكم العدو .

(قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

فرجع عنهم ، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى ، هذا درس ثان ، أول درس عدم التردد ، الدرس الثاني ينبغي ألا تستعين بمشرك على مشرك ، وسلك حرة بني حارثة ، ومر بين الحوائط ، حتى نزل الشعب من أحد ، مستنداً إلى الجبل ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، هذا النظام ، بما أن قوة الجيش في نظامه ، هذه فاتحة يتعلمها الجنود ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم .

5 ـ تنظيم النبي جيشه ، ووضعه الرماة على الجبل :

لما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال هو وأصحابه السبعمئة ، كانوا ألفاً ، فيهم خمسون فارساً ، وخمسون رامياً ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، وأمره وأصحابه أن يلزموا مكانهم ، وألاّ يفارقوه ولو رأوا الطير تخطف العسكر .

الآن في أي شأن في سفر هناك أمير ، الأمير له رؤية ، يرى ما لا يراه أتباعه ، فإذا أعطى أمرًا فينبغي أن ينفذ ، بالمناسبة ما كل أمر يعلل ، أذكر مرةً أن النبي صلى الله عليه وسلم في معركة بدر قال بإيجاز شديد : لا تقتلوا عمي العباس ، فقط ، صحابي فكر ، وقال : أينهانا عن قتل عمه ، ونحن نقتل آباءنا ، وإخواننا ! هو عمه ، يجب ألاّ نقتله ، ونحن نقتل آباءنا وإخواننا ، فأبقاها في نفسه ، النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيع أن يقول كلمة واحدة زائدة ، لأن عمه مسلم ، وقد أسلم خفية ، وهو عينه في قريش لكل أخبارها ، فتأتيه تباعاً ، كل قرار متخذ في أعلى مستوى يأتي النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذه قيادة حكيمة وذكية فلو قال : عمي مسلم لا تقتلوه لكشفه ، وأنهى مهمته ، لو أن عمه لم يخرج لانكشف أمره ، لو خرج لقتله أصحاب النبي ، لا يستطيع أن يقول إلا كلمة واحدة ، لا تقتلوا عمي العباس ، فما كل أمر يعلل، وهذا نحتاجه في حياتنا اليومية ، هناك أمير يرأس القوم ، وقد علم الله عز وجل منه الحكمة ، والحرص ، والإخلاص ، فأمّره على هؤلاء ، وليس كل فرد يحق له أن يسأل ، وأن يطلب التعليل ، هناك مواقف عصيبة ، يجب أن تأمر دون أن تعلل ، لا تقتلوا عمي العباس ، فقط . هؤلاء الخمسون رامياً أمر عليهم عبد الله بن جبير ، وأمره وأصحابه أن يلزموا مراكزهم ، وألاّ يفارقوه ، ولو رأوا الطير تخطف العسكر ، نص واضح من قيادة حكيمة ، وكانوا خلف الجيش ، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم ، وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين ، أيْ لبس درعين أخذاً بالحيطة ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(سورة النساء : الآية 71)

وهؤلاء المسلمون السذج ، كلما ترك أحدُهم الأخذ بالأسباب ، وأهمل ، ولم يتقن ، تركها لسيدك، ليس لنا إلا الله ، الله يحمي ، هذا كله كلام الجهل ، ينبغي أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق ، وحبيب الحق ، ومع ذلك لبس درعين ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، وجعل على إحدى المجنتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى منذر بن عمر .

6 ـ ردّ النبي لصغار الصحابة :

الآن دققوا ، دققوا بين شبابنا وشبابهم ، واستعرض الشباب يومئذٍ ، وكان بينهم أفراد استصغرهم عن القتال ، منهم عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، كلهم صغار جاؤوا ليقاتلوا فردَّهم ، وأسيد بن حضير، والبراء بن عازب ، وزيد بن الأرقم ، وزيد بن ثابت ، وعبابة بن أوس ، وعمرو بن حزام ، وأجاز من رآه مطيقاً ، منهم سمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، أجاز سمرة ، ورد رافعًا ، أو العكس ، فذهب أحدهما يبكي إلى أمه ، فجاءت أمه إلى النبي الكريم ، الآن الأم على الخدمة الإلزامية ، أمّ الولد تولول، مثلاً هذا الجهل .

فجاءت أم أحدهما تتوسل إلى النبي أن يجيزه ، فتصارعا أمام النبي صلى الله عليه وسلم، النبي هل لديه وقت ؟ الوقت عصيب ، والعدو على الأبواب ، لكن احترام شخصية الصغير جزء أساسي من التربية ، طفل يريد أن يقاتل فتصارعا أمامه ، فأجازهما معاً ، أجاز سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، ولهما خمسة عشر عامًا .

الآن يمسك الهمبرغر ، ويذهب إلى الملعب ، وله خمسة عشر عامًا ، أجازهم للقتال ، فقيل أجاز من أجاز لبلوغه السن ، ورد من رده لصغر سنه ، وقالت طائفة : إنما أجاز من أجاز لإطاقته ، ورد من رد لعدم إطاقته ، ولا تأثير للبلوغ ، وعدمه في ذلك .

7 ـ تقسيم الجيش إلى ميمنة وميسرة :

قال أحد الشابين : فلما رآني مطيقاً أجازني ، وتعبّأت قريش للقتال ، وهم في ثلاثة آلاف ، ثلاثة آلاف أمام خمسين فارساً فقط ، وخمسين رامياً ، وسبعمئة ، قريش هم ثلاثة آلاف ، وفيهم مئتا فارس ، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد ، لا تحكم على الشخص إلا حتى يتوفاه الله ، كان من ألد أعداء النبي ، وهو الذي سبب الهزيمة للمسلمين ، ثم أصبح من كبار الصحابة ، ثم أصبح سيف الله المسلول ، لا تيأس من إنسان ، ولو رأيته غارقاً في المعصية ، ولو رأيته يعادي الدين أشد العداء ، لعل الله يهديه، ولعله يرجع ، فلا تقطع الأمل من أحد ، حينما أسلم خالد قال له النبي الكريم : عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً .

هذا الذي بسببه قتل سبعون صحابياً من خيرة أصحاب رسول الله ، والسبب خالد ، كيف أصبح خالد بعد ذلك ؟ قال : والله خضت مئة معركة ، أو زهاءها ، وما في بدني إلا فيه موضع ضربة سيف ، أو طعنة برمح ، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، كانوا أقطاب الكفر ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه إلى أبي دجانة ، وكان شجاعاً بطلاً يختال عند الحرب .

8 ـ بدء القتال :

وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق ، واسمه عبد الله بن عمرو ، وكان يسمى الراهب ، لترهبه وتمسكه في الجاهلية ، فسماه رسول الله الفاسق ، وكان رأس الأوس في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شرق به ، وما تحمل ، يريد مكسبًا ، فلما جاء النبي ضاع هذا المكسب ، وجاهر رسول الله بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحضهم على قتاله ، ووعدهم أن قومهم إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معهم ، فكان أول من لقي من المسلمين قومه، فنادى قومه ، وتعرف إليهم قالوا : لا أنعم الله عليك ، لا أنعم الله لك عيناً يا فاسق ، أرأيتم إلى الولاء .

فقاتل المسلمون قتالاً شديداً ، وأبلى يومئذ حمزة ، وطلحة ، وشيبة ، وأبو دجانة ، والنضر بن أنس بلاءً شديداً ، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين ، واشتد القتال ، وكانت الدولة أي الغلبة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهزم أعداء الله ، وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم ، هنا العقدة.

9 ـ نزول الرماة من الجبل :

لما رأوا الرماة هزيمتهم انتهى كل شيء ، معهم نص ، معهم توجيه من النبي : لو رأيتم الطير تأكلنا فلا تغادروا أماكنكم ، فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذي أمرهم النبي الكريم بحفظه ، وقالوا : يا قوم الغنيمة الغنِيمة ، قال تعالى :

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

(آل عمران : الآية 152)

فذكرهم أميرهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، فذهبوا في طلب الغنيمة ، وأخلوا الثغر ، ولم يطع أميرهم منهم إلا نحو العشرة من خمسين ، فكرَّ المشركون ، وقتلوا من بقي من الرماة ، ثم أتوا الصحابة من ورائهم ، وهم ينتهبون ، فأحاطوا بهم ، واستشهد منهم من أكرمه الله ، ووثب العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نتابع هذا في درس قادم إن شاء الله .

الأسئلة :

س : يسأل أخ : إذا كتب الإنسان كتاب شيخ ؟

ج : تعليق بسيط ، الحقوق لا تثبت الآن إلا بالكتاب الرسمي ، العقد الشرعي المسجل في سجلات المحكمة الشرعية ، يجوز قبل خمسين سنة أي كتاب شيخ صحيح ، الآن الحقوق لا تثبت إلا بالكتاب الرسمي ، فأنا أنصح الإخوة بعقد رسمي ، إلا إذا في ضرورة بالغة ، فهذا موضوع آخر ، أما من دون ضرورة ، حتى يدخل ويخرج ، لا يدخل ولا يخرج ، اكتبوا الكتاب ، ويدخل ويخرج .

س : إذا كان الشاب خاطبًا ، وكتب كتاب شيخ ، ليس كتاب محكمة ، وأراد أن يترك العروس ، هل يستحق له النقد شرعاً ؟

ج : يستحق ، إن لم يدخل بها فعليه نصف المهر المسمى ، وإن لم يسمِّ المهر فعليه نصف مهر المثل ، ولو كان بكلمتين من شيخ ، هذا دين الله عز وجل .

س : هناك بعض المشايخ مع مريديهم يجعلون من أنفسهم حكماء ، كشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يريدون أن يعترض عليهم أحد ، بدعوى أن الأنبياء معهم ورثة ، ألا وهم العلماء ؟

ج : لا نعتقد نحن بحسب العقيدة الإسلامية أن أحداً معصوماً عن الخطأ ، الكل يخطئ إلا رسول الله ، الصحابة منهم من يريد الدنيا ، ومنهم من يرد الآخرة ، لا نعتقد العصمة إلا لرسول الله ، أما أمته فمعصومة بمجموعها ، فكل من يدعي العصمة وقع في مطب كبير وادعاء العصمة أكبر خطأ يرتكبه من يدعي العصمة .

س : أليس النصر والهزيمة هو قضاء وقدر ؟

ج : نعم ، وهذا لامتحان المؤمنين بإيمانهم وصدقهم ، أحياناً يقوى الكفار ، ويفعلون ما يريدون ، ويفتكون ، ويقتلون كما ترون في أطراف العالم ، هذا امتحان صعب جداً ، هذا الامتحان صعب، فضعاف المؤمنين يسقطون ، يقولون : أين الله ؟ أما أقوياء المؤمنين فلا يتأثرون ، يرون حكمة الله ، ويرون امتحان الله ، يرون يد الله تعمل في الخفاء ، يرون الدنيا دار عمل ، دار امتحان ، ولو لم تنجح، لك إيمانك ، ولك عملك الصالح ، ولك نيتك ، ولك الآخرة ، الفوز الحقيقي ليس في الدنيا ، النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق قال له المولى جل جلاله :

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

(سورة يونس : الآية 46)

قد تموت ، ولا ترى النصر ، أنا علي أن أكون مع منهج الله ، علي أن أكون في مرضاة الله ، أما أن أطالب الله أن يغير سننه هذا شيء مستحيل .

س :هل يجوز للمرأة أن ترتدي البنطال سواء أكانت تحت المعطف ولكم جزيل الشكر ؟

ج : ثياب المرأة ينبغي أن تكون فضفاضة ثخينة لا تظهر خطوط جسمها ، فإذا كانت ترتدي معطفاً سابغاً ، فضفاضاً ، ثخيناً ، لا يشف ، ولا يجسد خطوط جسمها فهذا هو اللباس الشرعي ، أما إذا كانت ترتدي تحت هذا المعطف فهذا شيء لا يعنيها إلا إذا دخلت إلى بيت إحدى قريباتها، وقالت لها اخلعي المعطف ، وكان هناك من ينظر إليها فقد وقعت في معصية ، البنطال إذا كان يصف حجم أعضائها فهذا ثوب لا يجوز ، إلا أن يراها أقرب الناس إليها ، زوجها ، فله أن يراها بأي شكل ، وبأي ثياب ، ولو أنها ثياب حديثة جداً ، أما محارمها فينبغي أن ترتدي أمامهم ثياب الخدمة ، حيث لا ترتفع عن نصف الساعد ، وتحت الركبة ، وفوق الصدر ، ثياب محتشمة سماها الفقهاء ثياب الخدمة ، فالبنت التي تتعرى أمام أخيها ، هذا أخي ، هذا أبي ، هذا ابني ، هذا كله حرام ، ينبغي أن ترتدي المرأة أمام محارمها ثياب الخدمة ، وليس هناك أي قيد أمام الزوج وزوجته ، أما إذا خرجت فلا بد من ثياب تستر كل جسم المرأة ، ونكون ثخينة وفضفاضة ، هذا هو الحكم الشرعي .

س : خلاف بين زوجين ، ارتأى الزوج أن تذهب إلى بيت أهلها كل شهر ساعة ؟

ج : لا يكفي ، هل تستطيع إذا كنت ابناً باراً ألاّ ترى أمك ، ولا أباك في الشهر إلا ساعة ؟ عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ، كما تحب أمك وأباك فهي تحب أمها و أباها ، ولن تستطيع أن تدعهم شهراً بأكمله لتراهم ساعةً مقننة .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(32-60): تفسيرالآيات 121 - 127
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-07-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الواحدة والعشرين بعد المئة .

غزوة أحد :

1 ـ وقفتان عند غزوة أحد :

أيها الإخوة ، بينت لكم في الدرس الماضي أن هناك ستين آية تتحدث عن موقعة أُحد ، وقبل الشروع في تفسيرها بفضل الله عز وجل وتوفيقه ، أردت أن أقف وقفتين ، وقفة عند المعاني الدقيقة التي يمكن أن نستنبطها من معركة أُحد ، والوقفة الثانية حول تفاصيل هذه المعركة من أجل أن تكون أرضية لشرح الآيات التي بعدها ، وقد بينت لكم أيضاً في الدرس الماضي ، حديثاً حول تفاصيل هذه المعركة ، ووصلت إلى أن هؤلاء المشركين حينما التفوا على المسلمين من ظهورهم بسبب معصية الرماة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، التفوا على الرماة ، وقتلوا من بقي منهم .

2 ـ نزول الرماة من الجبل :

كلكم يعلم أيها الإخوة أنهم حينما رأوا الكفار يولون الأدبار قالوا : الغنيمة الغنِيمة ، فذكرهم أميرهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعوا ، وظنوا أنه ليس للمشركين رجعة ، فذهبوا في طلب الغنيمة ، وأخلوا الثغر ، ولم يطع أميرهم منهم إلا نحو العشرة ، فكَرّ المشركون وقتلوا من بقي من الرماة ، ثم أتوا الصحابة من ورائهم .

لله في أفعاله حِكَمٌ :

أيها الإخوة ، المسلمون هُزموا مرتين ، والنبي صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، هُزموا المرة الأولى ، لأنهم عَصَوا أمر قائدهم ، وهُزموا في المرة الثانية في حنين ، لأنهم داخَلَهم شرك خفي ،

فقالوا : لن نُغلَبَ من قلة ، فالإنسان حينما يستغني وحينما يعتدُّ بنفسه لا يستحق نصر الله عز وجل ، وحينما يخالف الأمر الإلهي الذي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستحق النصر ، قد يقول قائل : لو أن الله جل جلاله نصرهم فهم المؤمنون ، وهم أصحاب رسوله ، والنبي صلى الله عليه وسلم، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق بين ظهرانيهم ، لِمَ لَمْ ينصرهم على خطئهم ؟ لو أن النصر جاء بعد أُحد على ما فعل الرماة من معصية رسول الله ، لسقطت قيمة الأمر النبوي .

3 ـ لابد من تطبيق الأمر النبوي :

أنت مؤمن يجب أن تفتقر إلى الله عز وجل دائماً توحيداً ، وينبغي أن تنفذ الأمر تطبيقاً ، فإن أخليت بأحد هذين الشرطين لا تستحق نصر الله ، وهذا يعلمنا الآن أننا إذا أردنا أن ننتصر على أعدائنا لا بد أن نُحْكِم إيماننا ، لا بد أن نُحْكِم توحيدنا ، لا بد أن نُعَمِّق فهمنا لتوحيد الألوهية في القرآن الكريم ، بعد ذلك نستحق النصر ، ثم أتوا الصحابة من ورائهم ، وهم يأخذون الغنائم ، وقد التفَّ عليهم جيش المشركين ، فأحاطوا بهم ، واستشهد منهم من أكرمه الله ، ووصل العدو إلى رسول الله .

4 ـ العطاء الكبير في الآخرة :

تعلمنا هذه الواقعة أن هذا العطاء الكبير في الآخرة ، لابد له من امتحان صعب ، فكلما كان المغنم كبيراً ، كان الامتحان صعباً ، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق دخل في مضائق صعبة جداً ، هذه المضائق صبر ، وانتصر على ذاته فاستحق هذا المقام العلي ، فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ))

(رواه أحمد)

استنباطاً من هذا لا تتمنى أن تصل إلى مقامات عالية في الجنة من دون ثمن ، لا تتصور أن الله يمكن أن يعطيك عطاء لا حدود له من دون ثمن ، من دون امتحان ، لا بد من أن توضع في امتحان صعب ، لا بد أن تُمْتَحن ، لا بد أن توضع في ظرف عصيب ، هل تصبر أم لا تصبر ؟ وصل المشركون إلى رسول الله .

5 ـ صبر الصحابة في غزوة أحد :

وقاتل مصعب بن عمير صاحب اللواء دونه حتى قُتِلَ ، الذي كان يحمل لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مصعب ابن عمير قُتِل ، وجُرِحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه ، أرسله الله رحمة للعالمين ليوقظ الضالين من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، هؤلاء الذين حاربوه آذوه ، لذلك شر الخلق قاطبة من قتلَهُ نبي ، أو من قَتَلَ نبياً ، جُرِح النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه ، وكُسِرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر ، جُرِح وكُسِرت إحدى أسنانه ، وهُشِّمَت البيضة في رأسه ، يُقال أن الذي تولى ذلك عتبة بن أبي وقاص ، وعمرو بن قمئة القيسي ، وشد حنظلة الغسيلُ على أبي سفيان ليقتله ، فاعترضه شداد بن الأوس الليثي في شعوب فقَتَلَه ، وكان حنظلة جُنُبَاً، أي استيقظ ، وكان في جنابة فقُتِل ، قُتِل جُنُباً فَأُخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنّ الملائكة غسَّلَتْه ، وقد استُنبط أن الذي يُقْتَل شهيداً لو قُتِل جنباً فالملائكة تغسِّله ، وأكَبَّت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط في بعض حفرٍ هناك ، جُرِحت وجنته ، وكُسِرت رباعيته ، وهُشِّمت البيضة من على رأسه ، وسقط في حفرة ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق .

6 ـ النبي عليه الصلاة والسلام أصيب يوم أحد :

بينت لكم أيها الإخوة ، أن هناك مصائب تصيب الأنبياء ، إنها من نوع خاص مصائب الكشف ، لأنهم ينطوون على كمال لا يمكن أن يظهر إلا في مثل هذه الحالات ، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما تأتيه شدة كهذه الشدة هو قدوتنا ، هو مثلنا الأعلى ، فأيُّ مؤمن إلى يوم القيامة أصابته شدة فله أسوة برسول الله عليه الصلاة والسلام ، أي أن يكون النبي في هذه الشدة الشديدة هذا هو قدوتنا ، وهو أسوتنا، وهو مثلنا الأعلى ، فحينما يُصاب أحدنا بمصيبة في الدنيا يجب أن يتلو قوله سبحانه وتعالى :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب : الآية 21)

أنا لا أتمنى الشدائد ، لكن لا بد أن تكون هناك امتحانات صعبة للذي يطمح إلى مراتب عليَّة في الآخرة ، إن أردت الآخرة فادفع ثمنها :

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : الآية 11)

فسقط النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الحفر فأخذ علي بيده ، واحتضنه طلحة حتى قام ، ومصَّ الدم من جرحه مالك بن سنان الخدري ، والد أبي سعيد ، ونشبت حلقتان من حِلَق المِخفَر في وجهه صلى الله عليه وسلم ، أي حلقتان من حلقات الدرع ، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجرّاح ، فسقطت ثنيتاه فصار أهثم ، أبو عبيدة انتزع حلقتين من حلقات المِخفر غرستا في وجنة النبي صلى

الله عليه وسلم ، انتزعهما بأسنانه فأصبح أهثم ، ولحق المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكرَّ دونه نفر من المسلمين فقُتِلوا كلهم . أذكركم بما قلت لكم في الدرس الماضي من أنّ أصحاب النبي دفعوا ثمن هذا الدين باهظاً حتى وصل إلينا ، إلى بلادنا ، هم فتحوا هذه البلاد ، ونشروا الحق في الخافِقَين ، هم بذلوا دماءهم ، وبذلوا الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس حتى وصل هذا الدين إلينا ، ولولا جهادهم واستشهادهم لكانت هذه البلاد تابعة لبلاد أخرى .

وكرّ دونه نفر من المسلمين فقُتِلوا كلهم ، وكان آخرهم عمار بن زيد ، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركون ، وأبو دُجانة يلي النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يلي النبي مدافعاً عنه بظهره وتقع فيه النبل فلا يتحرك ، يلي النبي ، ويأتيه النبل من ظهره .

جُلُّ ما هنالك أن يُقال للإخوة المؤمنين : تعالوا احضروا درس التفسير ، تعالوا استمعوا إلى هذه الخطبة ، تعالوا افعلوا هذا العمل ، هذا الذي فعله أصحاب النبي شيء يفوق حد الوصف ، من شدة حرصهم على سلامة نبيهم ، وقف نفرٌ من أصحاب رسول الله أمامه ليدافعوا عنه ، فقُتلوا واحداً وَاحداً، أما أبو دُجانة رضي الله عنه فكان يلي النبي صلى الله عليه وسلم بظهره ، وتقع فيه النبل فلا يتحرك ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان فرجع وهي على وجنته ، فردّها عليه الصلاة والسلام بيده فصحَّت ، وكانت أحسن عينيه ، وانتهى نظر ابن أنس إلى جماعة من الصحابة ، وقد دُهشوا .

7 ـ إشاعة مقتل النبي عليه الصلاة والسلام :

وقالوا : قُتل رسول الله ، سرت شائعة بين الصحابة الكرام أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قُتل ، فقال : فما تصنعون في الحياة بعده ، قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل الناس ، وقاتل حتى قُتل ، ووجِد به سبعون ضربة ، وجُرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة ، بعضها في رجله فعرج منها ، وقُتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ، هكذا الحرب سجال بين الكفار والمسلمين ، ونادى الشيطان الذي سماه النبي شيطاناً : ألا إن محمداً قد قُتل ، لأنّ عُمْر بن قمئة كان قد قتل مصعب بن عمير ، ويظن أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فسرت هذه الشائعة بين أوساط المقاتلين ، ووهن المسلمون لصريخ الشيطان ، قيمة القائد في معنوياته التي يبُثُّها جنودَه ، ثم إنّ كعب بن مالك الشاعر من بني سلمة عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى بأعلى صوته يُبشِّر الناس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : أنصت ، فاجتمع عليه المسلمون ، ونهضوا معه نحو الشِعب ، وأدركه أُبي بن خلف في الشِعب ، أدركه أحد الكفار أُبي بن خلف في الشِعب ، فتناول صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصُمة ، وطعنه بها في عنقه ، فكرَّ أُبي منهزماً ، وقال له المشركون : ما بك من بأس ؟ فقال : والله لو بصق عليّ لقتلني ، لأنه قال : أين محمد لا نجوت إن نجا ، فأبى النبي إلا أن يقتله بنفسه ، تناول حربة من الحارث بن الصُمة فطعنه بها في عنقه ، فكرَّ أُبي منهزماً ، وقال له المشركون : ما بك من بأس ؟ فقال : والله لو بصق

علي لقتلني ، وكان صلى الله عليه وسلم قد توعده بالقتل ، لا نجوت إن نجا ، قال : أنا قاتلك ، فمات عدو الله بسرف في مكان بين مكة والمدينة ، ثم جاء علي رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالماء فغسل وجهه ونهض ، فاستوى على الصخرة من الجبل ، وحانت الصلاة ، وهناك من يُهمل الصلاة لأتفه الأسباب ، هنا في المعركة وبعض الصحابة قتلى ، ومعظمهم جرحى ، وقد نُهكت قواهم ، فدخل وقت الصلاة ، وحانت ، فصلى بهم قعوداً صلى الله عليه وسلم ، وغفر الله للمنهزمين من المسلمين ، ونزل قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 155)

واستشهد نحو سبعين رجلاً ، معظمهم من الأنصار ، وقُتل من المشركين اثنان وعشرون ، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، ويُقال : إنه قال لعلي رضي الله عنه : لا يصيب المشركين منها مثلها حتى يفتح الله علينا .

8 ـ استفزاز أبي سفيان للصحابة بعد المعركة :

أيها الإخوة ، بعد أن انتهت هذه المعركة هناك موقف يجدر بنا أن نستمع إليه ، لما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه، فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه ، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة ، يُفهم من هذا أنهم كانوا أركان الدين ، أعمدة كبار ، والناس بقوادهم ، والناس بأكابرهم ، وعَلِم قومه أنّ قوام الإسلام بهم، فقال : أما هؤلاء فقد كُفيتموهم ـ أي انتهينا منهم ـ فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ، فقال : قد كان في القوم مُثلة لم آمُر بها ولم تسؤني ، فقال: اعلُ هُبَل ـ يمجد آلهة قريش ـ فقال عليه الصلاة والسلام : ألا تجيبونه ؟ فقالوا : ما نقول ؟ فقال : قولوا: الله أعلى وأجلّ ، ثم قال : لنا العُزّى ، ولا عُزّى لكم ، فقال: ألا تجيبونه ؟ قالوا : ماذا نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم .

أيها الإخوة الكرام ، ما معركة أُحد إلا دليل على أنّ هذه الحياة دار ابتلاء ، وليست دار استواء .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

يقول الله عز وجل بعد ذلك :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 121)

لابد من الأخذ بالأسباب :

هذه الآية تشير إلى التخطيط الذي كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ، أي خطط لهذه المعركة تخطيطاً ، وتوكل على الله ، هذا يعلمنا أنه لا بد أن تأخذ بالأسباب ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يعلم ما عند أصحابه من ميزات ، فقد بوّأ كل واحد منهم مكانه الصحيح ، والله سميع عليم ، أي سميع لما تدعونه به ، وعليم بأحوالكم ، قال تعالى :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121)إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة آل عمران)

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ

الفشل هنا هو الضعف ، والله عز وجل يريد أن يذكرهم ببدر ، لماذا انتصروا ببدر ؟ قال :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

تذكير الله لنصره المؤمنين في بدر :

أنتم ضعاف ، أذلة ، أي إنكم ضعاف ، أو قِلة فكنتم أذلة ، وبعضهم قال : أذلة أي مفتقرون إلى الله عز وجل ، إما أنها تصف العدد القليل ، مع العدد القليل ضعف وذِلة ، وإما أن تصف حالهم مع الله عز وجل ، حالهم حال افتقار إلى الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

وقد ذكرت لكم أن المؤمن دائماً وأبداً بين امتحانين ؛ إذا قال : الله ، تولاه الله بالرعاية والتوفيق ، وإذا قال : أنا ، تخلى الله عنه ، فأنت بين التولي والتخلي ، أصحاب النبي رضوان الله عليهم افتقروا إلى الله في بدر فتولاهم بالنصر ، وعصوا أمر قائدهم في أُحد فتخلى الله عنهم ، واعتدّوا بعددهم في حنين فتخلى الله عنهم ، يمكن أن نأخذ هذا درساً لحياتنا اليومية ، إن عصيت لا بد من دفع الثمن ، وإن أشركت شركاً خفياً فلا بد من دفع الثمن ، وحينما يدفع أصحاب النبي وهم خيرة الخلق الثمن على خطأ مادي أو معنوي على معصية لقائدهم ، أو على اعتدادهم بعددهم ، وقد دفعوا الثمن ، فمن نحن حتى لا نُعاقب إن وقعنا في الخطأ نفسه ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

والمؤمن الصادق يراقب الله دائماً ، لعلي أخطأت ، لعلي اعتددت بشيء ، لعلي قلت : أنا ، وينبغي أن أقول : الله ، لعلي اعتددت بمالي ، أو بذكائي ، أو بخبرتي ، فحينما لا تحقق هدفك في الحياة فلا

بد أن تلوم نفسك ، لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسية ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

(مسلم ، الترمذي ، ابن ماجة ، أحمد ، الدارمي)

قال تعالى :

(إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 124)

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ

1 ـ الملائكة تقاتل مع المؤمنين في أحدٍ :

يمكن أن يكون النصر من عند الله عز وجل مباشرة ، ولكنه سبحانه طمأن المؤمنين أنّ الملائكة تدافع معكم ، وهذه من كرامات الله للمؤمنين ، لكرامة المؤمن عند الله ، الله عز وجل يرسل ملائكته يدافعون عنه ، ويعينونه في ساحة المعركة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

(مسلم ، الترمذي ، ابن ماجة ، أحمد ، الدارمي ، أبو داود)

حفتهم الملائكة أي حفظتهم ، أي سددت خطاهم ، أي ألهمتهم الخير ، وهذا ينقلنا إلى موضوع دقيق وهو أن لكل إنسان ملك يلهمه ، وشيطان يوسوس له ، وأنت مخير ، ولا سلطان لأحدهما عليك ، إما أن تستجيب لوسوسة الشيطان فتقع ، وإما أن تستجيب لإلهام الملائكة فتنجو :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم : الآية 22)

هناك قرين من الجن يوسوس لك ولا سلطان له عليك ، وهناك ملك يلهمك الخير ، ولا سلطان له عليك ، وأنت مخير لك أن تستجيب إلى وسوسة الشيطان ، ولك أن تستجيب لإلهام الملائكة قال تعالى :

(بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا)

(سورة آل عمران : الآية 124)

هذه الكلمة وردت في آيات كثيرة :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم : الآية 46)

ومع ذلك :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 120)

الصبر والتقوى لمجابهة كيد الأعداء :

انتهى كل شيء ، ونحن الآن والأعداء محيطون بنا من كل جانب ، والعالم كله يتآمر على الإسلام ، ولا ننجو من مؤامراتهم ، ولا من كيدهم ، ولا من تخطيطاتهم إلا إن صبرنا واتقينا ، والصبر كما تعلمون في ثلاثة مواطن ؛ على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى قضاء الله وقدره ، هذا هو الصبر والإيمان هو الصبر ، وبالمناسبة لم يأمرنا الله عز وجل رحمة بنا في كل الآيات التي تتحدث عن القتال أن نُعدَّ القوة المكافئة ، وهذا فوق طاقة المسلمين ، أمرنا أن نُعدّ القوة المتاحة فقال :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال : الآية 60)

وقتها رباط الخيل ، والقوة مطلقة ، فينبغي أن يكون لكل عصر قوة ، فكل عصر له قوة معينة ، ففي عهد النبي الكريم رباط الخيل ، ثم جاء المنجنيق ، ثم جاءت المدرعات ، والآن المسلمون ينبغي أن يخططوا ليكونوا على مستوى من الإعداد الكافي ، كي يُسقطوا عن أنفسهم إثم عدم الإعداد ، نعتمد على الله بكل ما نملك ، ونستعد لعدونا بكل ما نملك ، قال تعالى :

(بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ(125)وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران)

أي :

(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)

(سورة البقرة : الآية 260)

أحياناً الله عز وجل يسوق للمؤمن توفيقاً بأسباب مادية ، كان من الممكن أن يسوق له توفيقاً بلا سبب ، هذا النصر أو هذا التوفيق بلا سبب قد يقلقه ، فيأتيه الله بأسباب من طبيعة البشر ، هذه الأسباب تطمئنه.

مثلاً لماذا قال الله عز وجل :

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

(سورة الأنعام : الآية 54)

لماذا قال الله عز وجل :

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)

(سورة المجادلة : الآية 21)

هل يكتب الله عز وجل ؟ الله جل جلاله لا يكتب ، هذا من صفات البشر ، لكن قوله تعالى :

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)

(سورة المجادلة : الآية 21)

الشيء المكتوب يبعث في النفس الطمأنينة ، يقول لك : معي عقد ، أو معي إيصال ، فالله عز وجل أحياناً يخاطبنا بحسب مفاهيمنا ، فهنا هؤلاء الملائكة الذين أمد الله بهم المؤمنين قال تعالى :

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

النصر الاستحقاقي ، والنصر التفضلي ، والنصر التكويني :

فما من معركة على وجه الأرض إلا وهي بيد الله ، ينصر من يشاء ، ويحقق الهزيمة على من يشاء بحكمة بالغة ، ولكن ، وهذا أوان أن نقول لكم : هناك نصر استحقاقي ، وهناك نصر تفضلي ، وهناك نصر تكويني ، حينما يقتتل مؤمنون صادقون مع أعدائهم ، صادقين في إيمانهم ، وفي توحيدهم ، وفي افتقارهم إلى الله ، وهم صادقون في إعداد العُدَّة ، فالذي علينا أن نُحكم توحيدنا ، وافتقارنا ، وإيماننا ، وأن نُعدّ القوة المتاحة لعدونا ، إن فعلنا هذا استحققنا النصر الاستحقاقي ، وكتب الله لنا نصراً استحقاقياً، وهذا تؤكده الآية الكريمة :

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 249)

وهناك نصر آخر اسمه نصر تفضُّلي ، هؤلاء الطرفان بعضهم أولى من بعض ، لكنّ الطرفين على انحراف ، تؤكد هذه الحقيقة الآية الكريمة :

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3)فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(4)بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

الروم كانوا أهل كتاب ، والفرس كانوا وثنيين يعبدون النار ، فإذا تقاتل كتابي مع وثني من هو الأقرب إلى الله نسبياً ؟ الكتابي ، هم آمنوا أنّ لهذا الكون إلهاً ، وأنّ هناك جنة وناراً ، ولكن أشركوا ، ولكن هؤلاء الوثنيون عُبَّاد النار ، فالله جل جلاله نصر الكتابيون على الوثنيين نصراً تفضُّلياً ، أي هم لا يستحقونه ، ولكنّ حكمة الله اقتضت أن ينتصر هؤلاء على هؤلاء ، لكنّ المشكلة في النوع الثالث ؛ حينما يشرد الفريقان عن الله ، وحينما لا يعتدُّ الفريقان بالإيمان ، ولا بالاستعداد ، وينطلقان من كفر بالله ، ومن تهميش لكل جانب ديني في حياتهم ، عندئذ ينتصر الأقوى ، والذي يملك أحدث أسلحة ، فكل صفات النصر عندئذ متعلقة بالإعداد ، والسلاح ، وما إلى ذلك ، هذا النصر اسمه نصر تكويني ، قال تعالى :

(لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 127)

الأمر بيد الله ، ويؤكد هذا قوله تعالى :

الأمر بيد الله :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

الأمر بيد الله ، وحينما تعلم أنّ يد الله تعمل في الخفاء وحدها ، وليس لأحد من الأمر شيء ، ألم يقل الله عز وجل :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر : الآية 19)

وقوله :

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(سورة الجن : الآية 21)

وقال :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

(سورة الأعراف : الآية 188)

هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، الأمر كله بيد الله ، وأنت حينما تُوحد وصلت إلى أعلى درجة في العلم ، نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل التقوى ، قال تعالى :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

أي يتوب عليهم لحكمة أرادها ، يعذبهم لحكمة أرادها ، وهذا من شأن الله وحده ، وقد أكد هذا المعنى القرآن الكريم في آية أخرى :

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة : الآية 118)

أيها الإخوة حينما تصل إلى أن الله وحده المتصرف ، ولا أحد سواه ، وأن سيد الخلق ، وحبيب الحق لا يملك لك نفعاً ولا ضراً ، وأن ما من مخلوق على وجه الأرض يملك لك نفعاً ولا ضراً ، وأن الخلق جميعاً بيد الله ، فهو الذي يحركهم ، وهذا هو التوحيد .

أحد الأنبياء قال :

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

والله أيها الإخوة ، حتى في التفاصيل ، حتى في حركتك اليومية ، حتى في تجارتك ، حتى في بيعك وشرائك ، حتى في امتحاناتك ، حتى في سفرك ، الأمر كله بيد الله ، فحينما تتجه إلى الله وحده ، وحينما تأخذ بالأسباب ، ثم تتوكل على رب الأرباب ، هذا هو الموقف الإيماني ، ليس لك من الأمر شيء ، حتى لو أنك انتزعت من فم النبي صلى الله عليه وسلم فتوى لصالحك ، ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله ، فهذا الذي يعلق آمالاً على زيد أو عبيد ، ويضع كل ثقته بفلان أو علان قد وقع في شرك خفي .

وكما تعلمون أيها الإخوة ، الشرك الجلي قلما يقع فيه مسلم ، أي ليس هناك مسلم يعبد صنماً من دون الله ، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا وَلا وَثَنًا ، وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

(أحمد ، ابن ماجة)

قال تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف : الآية 106)

تطبيقات درس : الأمر بيد الله :

وهذا الدرس أيها الإخوة ، له تطبيقات كثيرة ، أنت غداً في عملك حينما ترضي إنساناً ، وتعصي خالقك وقعت في الشرك ، حينما تكسب مالاً حراماً إرضاء لزوجتك وقعت في الشرك ، رأيت رضاها أعظم من رضاء الله عز وجل ، فأكثر أخطاء المسلمين سببها شرك خفي ، حينما تنافق وقعت في الشرك ، رأيت أنّ هذا الذي تنافق له ينفعك ، أو يضرك، لو رأيت أنه لا ينفعك ولا

يضرك لا تنافق له، حينما حجّ بعض خلفاء بني أمية سألوا عن عالِم جليل في مكة المكرمة كي يكرموه ، فدُلَّ على عالِم من علماء مكة ، قال له الخليفة : سلني حاجتك ، وهو في بيت الله الحرام ، قال : والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله ، فلما التقى به خارج الحرم ، قال له : سلني حاجتك ، قال : والله ما سألتها من يملكها ، أفسألها من لا يملكها ، فلما أصرّ عليه ، قال : لي عندك حاجة ، أن تُنقذني من النار ، وأن تُدخلني الجنة ، قال : هذه ليست لي ، قال : إذاً ليس لي عندك حاجة ، هذا الكلام له تطبيقات واسعة ، غداً في بيوتكم ، وفي أعمالكم ، وتجارتكم ، وفي وظيفتكم ، ونشاطاتكم حينما تتجه إلى إنسان ، وتعلّق عليه الآمال ، فقد وقعت بشرك خفي ، لك أن تأخذ بالأسباب ، لكنّ قلبك معلّق بالله ، ترى أنّ الله يلهمه أو لا يلهمه ، يعطيك أو لا يعطيك بأمره وحده ، ليس لك من الأمر شيء ، قلت لكم قبل قليل حتى لو استطعت أن تنتزع من فم النبي صلى الله عليه وسلم فتوى لصالحك ، ولم تكن محقاً فلا تنجو من عذاب الله .

حينما وافت النبي صلى الله عليه وسلم المنية ، ودخل الصدِّيق ، وكشف عن وجهه ، وقبَّله ، وقال : طبت حياً ، وطبت ميتاً ، خرج إلى المسلمين ، ماذا قال ؟ هذا الذي أحبّ النبي حباً لا حدود له ، هذا الذي قدّم له ماله كله ، هذا الذي قال عنه النبي : والله ما ساءني قط ، هذا الذي قال عنه النبي : ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر ، هذا الذي قال عنه النبي : أبو بكر وعمر بمثابة السمع والبصر ، ماذا قال هذا الصدِّيق ؟ دققوا في قوله ، قال : من كان يعبد محمداً ـ لم يقل رسول الله ـ فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، لذلك هناك مطبّات كثيرة ، مثلاً إنسان في مسجد إذا ظنّ أنه يرضي زيداً في هذا المسجد أو عبيداً، وينسى أن يرضي الله عز وجل وقع في الشرك ، ينبغي أن ترضي الله عز وجل ، علامة إيمانك أن يستوي عملك في السر والعلانية ، وأن يستوي قصدك لله عند الحاجة ومن دون حاجة ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو فيقول :

((اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى))

(أحمد ، النسائي ، أبو داود)

أيها الإخوة ، أن تقول : الله خالق الكون هذه حقيقة أقرّ بها الكفار ، وأقرّ بها المشركون ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

(سورة الزمر : الآية 38)

لكن الحقيقة الخطيرة في الدين أن ترى أنّ الله وحده هو المتصرف ، هو وحده الفعال ، هو وحده يرفع ويخفض ، يعطي ويمنع ، يعز ويذل ، يبسط ويقبض ، حينما ترى أن الله وحده هو المتصرف لا تتجه إلى غيره بل تتجه إليه وحده .

قال تعالى :

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(126)لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ(127)لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

(سورة آل عمران)

حكم منع الحمل :

أيها الإخوة المؤمنون ، بادئ ذي بدء لا بد من تنويه وإشارة ، في الأسبوع الماضي سُئلت عن حكم منع الحمل ، وقد بينت أن الصحابة الكرام كانوا يعزلون على عهد رسول الله ، والعزل ألا يأتي الماء في الرحم ، وقد اشترط الفقهاء على صحة العزل موافقة الزوجة ، لأن الرجل قد يتزوج امرأتين ، وله من الأولى أولاد ، ولا يرغب بأولاد من الثانية ، لكنّ هذه الثانية حُرمت النسل ، وهذا ظلم كبير ، فلا يُسمح بالعزل إلا بموافقة الزوجة .

ثم سُئلت عن أنواع أساليب منع الحمل ؟ أنا رجحت أنّ هذه الأساليب قد تؤذي أحياناً ، لأن الطب أحياناً يُتاجَر به ، ومن يقوم على صناعة بعض الأدوية من صالحه أن يروِّج بضاعته بكلام غير صحيح ، فهناك أدوية لمنع الحمل أساسها التغيير في النظام الهرموني ، وهذا قد يسبب نتائج وخيمة جداً ، أنا معلوماتي الطبية أنّ بعض وسائل منع الحمل قد تكون مؤذية للمرأة .

حُكم ربط المبيض :

ثم أُدرج في أثناء سؤالي موضوع الربط ، هذا بعيد عن اختصاصي ، أنا ظننت الربط أحد أسباب منع الحمل ، ثم فوجئت أن الربط منع حمل أبدي ، ربط المبيض انتهى الحمل كلياً لهذه المرأة ، فقد تُطلَّق ، وقد يتزوجها إنسان آخر يريد ولداً ، فأسلوب واحد من أساليب منع الحمل هذا لا يجوز ، لأنه يمنع الحمل كلياً ، إلا أن هناك استثناء لو أنّ طبيباً مسلماً حاذقاً ورعاً أكّد أن حمل هذه المرأة يُميتها ، فعندئذ يجوز الربط .

أريد من هذا أن أؤكد لكم أنه في حالات كثيرة لا بد للمفتي أن يُجيّر فتواه إلى طبيب مسلم حاذق ورع، هذا كلام دقيق ، وقد ضربت على هذا مثلاً ، فلو أن واحداً سأل عالِماً كبيراً من أعلم علماء الأرض في الدين : أنا مصاب بمرض في القلب ، أأجري عملية زرع شريان ، أم عملية بالون ؟ لا يوجّه مثل هذا السؤال للشيخ ، يوجّه إلى طبيب مسلم حاذق ورع ، ففي حالات كثيرة تُجيَّر الفتوى للمتخصصين ، وهذا معنى قول الله عز وجل :

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا)

(سورة الفرقان : الآية 59)

وأيضاً قوله :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنبياء : الآية 7)

فأدرج سؤال حول الربط ، أنا ظننته خطأً وسيلة من وسائل منع الحمل المؤقتة ، ثم أُخبرت بعد حين أنها وسيلة أبدية ، إذاً لا يجوز أن نستخدم الربط ، لأنّ هذه المرأة حرمت الولد إلى الأبد ، إلا في حالة إذا أقرّ الأطباء المسلمون الحاذقون الورعون أنّ هذه المرأة لو حملت لماتت عندئذ يمكن أن نستخدم هذا، هذه واحدة .

رسالة وشكوى من متزوجة قهرًا :

الشيء الثاني أخت كريمة أخطأ أهلها في زواجها ، واحتسبت هذا عند الله ، ولكن أرادت أن تُبصّر من بعدها بمصيبتها ليتعظوا بها ، أنا والله قرأت الرسالة وتأثرت ، قالت : هي توجه الرسالة إلى أمها ، قالت : يا أمي أنا أعيش في جحيم هنا مع زوجي في بلد نفطي ، مع زوجي هذا الرجل العاجز عما تحمله الرجولة من معنى ، هو يكبرني بالعمر بكثير ، فهو في عمر جدي ، وأنا في الثامنة عشر من عمري ، وهو في عمر الخامسة وأربعين ، وهكذا أراد والدي أن يبيعني لهذا الرجل لقاء بعض الريالات ، ليصرفها والدي على نفسه ، وأنا أعيش ، وأتخبط في حياتي ، أرجوك يا أمي أسرعي بالحضور إلى مكان وجودي ، ونجدتي من مشكلتي لأعود معك إلى الشام ، أرجوك يا أمي السعي مع القنصلية هناك بالوقوف بجانبي ، ومساعدتي للعودة إلى الشام ، أرجوك يا أمي أن تخلّصيني من هذا الكابوس الذي أعيشه ، الباب دوماً مقفل علي ، الطعام القديم الذي لا يؤكل هو طعامي في المنزل ، يتركني وحدي في المنزل لعدة أيام بلا شيء ، ولا حتى بسؤال عني ، أو مرور إلى المنزل ليسأل إذا كنت أريد شيئاً ، أمي رغم معرفتي بأن الانتحار هو من المحرمات في الدين الإسلامي ، وفي جميع الأديان ، ولكني كثيراً ما أفكر في الانتحار ، وقد أفعلها إن لم تسعفيني ، وتأتي بي إلى الشام ، رسالة طويلة .

هذا الذي يزوج ابنته ، وهي في الثامنة عشر إلى من يكبرها بعشرات السنين من أجل دريهمات قليلة ، وكأنه باع ابنته ، طبعاً قرأت بعضاً من هذه الرسالة كي تعدّوا للمليون قبل أن توافقوا على زواج ابنتكم من إنسان بينه وبينها فارق كبير جداً ، وقبل أن توافقوا على زواج ابنتكم من إنسان قد يكون بخيلاً ، وقد يكون قاسي القلب ، وقد يكون بعيداً عن كل معاني الإنسانية ، هذه الأخت تريد أن أقرأ الرسالة فقط ليتعظ المسلمون بها ، فهي في جحيم لا يُطاق ، وكيف لا تكون كذلك ، وقد تجد أن الانتحار قد يكون حلاً لمشكلتها .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(33-60): تفسير الآيات 121 - 123
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-07-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الواحدة والعشرين بعد المائة ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

1 ـ مهمة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب :

هذه الآية مررنا عليها سريعاً في الدرس الماضي ، ولكن فيها ملمح دقيق ، هو أن مهمة القيادة الأولى هي أن تضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، فكان سينا عمر رضي الله عنه يقول : << أريد أميراً ! إن كان أميراً بدا وكأنه واحد منكم ، وإن لم يكن أميراً بدا وكأنه أمير >> ، إن لم يكن أميراً من شدة غيرته على المصلحة العامة بدا وكأنه أمير ، وإن كان أميراً فعلاً بدا من شدة تواضعه وكأنه واحد من أصحابه .

البطولة في القيادة أن تختار الإنسان المخلص الكفء ، الكفاءة والإخلاص ، القوة والأمانة ، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم من كمال قيادته لأصحابه أنه يعرف قدراتهم الخاصة وإمكاناتهم ، وأين هم من سلّم الإيمان ، وأين هم من سلّم التضحية ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يندب صحابياً لمهمة ، واقترح عليه شخص يقول : ليس هناك ، أي ليس في هذا المستوى .

الحقيقة أيها الإخوة أنك إذا أدرت مدرسة ، أو مستشفىً ، أو مؤسسةً ، أو كنت رئيس بلدية في أي عمل قيادي ، مهمتك الأولى أن تعرف إمكانات من حولك ، وقدراتهم الخاصة ، وأن تستخدم هذه الإمكانات وتلك القدرات بمكانها الصحيح ، فإذا وضعت الإنسان المناسب في المكان المناسب فقد وفقت أيما توفيق .

ذكرت لكم أن سيدنا عمر قال لأحد الولاة : << خذ عهدك ، وانصرف إلى عملك ، واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنك تصير إلى أربع خلال ، فاختر واحدة منها ، إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعفك ، وسلمتك من معرتنا أمانتك ، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك ، وأوجعنا

ظهرك ، وأحسنا أدبك ، وإن جمعت الجرمين جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً زدناك في عملك ، ورفعنا لك ذكرك وأوطأنا لك عقبك >> .

من ولي أمْرَ عشرة فولّى عليهم رجلاً ، وفيهم من هو خيرٌ منه خان الله ورسوله ، لو كنت معلماً في الابتدائي ، وعينت عريفاً على هؤلاء الطلاب ، بسبب قرابة أو بسبب محاباة ، وفي الطلاب من هو أجدر بهذا المنصب فقد خنت الله ورسوله .

عَن ابْنِ حُجَيْرَةَ الْأَكْبَرِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ :

((قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي ؟ قَالَ : فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))

(صحيح مسلم)

لا يوجد إنسان إلا وعنده محل ، وموظفون ، موظف قرّبه ، وموظف بعّده ، موظف رقّاه ، وموظف لم يرقّه ، موظف ابتسم في وجهه ، وموظف عبس بوجهه ، هذا كله محاسب عليه ، ينبغي أن تضع الإنسان الكفء في مكانه الصحيح ، دون محاباة ، ودون تزوير للحقائق ، فكأن الله جل جلاله يبين أن النبي عليه الصلاة والسلام كان خبيراً لأصحابه ، وقد علمت أن كتاباً في طور التأليف حول وصف النبي لأصحابه ، ما من صحابي جليل إلا وأخذ من رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة دقيقة ، هذا سيف الله ، وهذا أمين هذه الأمة ، وهذا لو كان نبياً لكان عمر ، وهذا مني بمثابة السمع والبصر ، وهذا حبر هذه الأمة ، وهذا حواري رسول الله .

هكذا يجب أن تأخذ الوضع الصحيح ، النبي عليه الصلاة والسلام فضلاً عن كونه زعيماً سياسياً فهو قائد عسكري ، والقيادة تحتاج إلى تعيين قواد فرعيين ، فكان يضع الإنسان المناسب في المكان المناسب ، كل هذا من قوله تعالى :

(وَإِذْ غَدَوْتَ)

2 - وَإِذْ غَدَوْتَ :

أي خرجت ، بالمناسبة : غدا ذهب إلى عمله باكراً قبل الشمس .

وراح : عاد إلى بيته .

هذا هو المعنى اللغوي الصحيح ، لو أن واحداً طرق باب بيتك في المغرب وسأل : هل أبوك في الداخل ؟ فقال له ابنه : والله الآن راح ، فقال له : سلم عليه ، هذه الكلمة معناها الآن أتى ، لأنه غدا : ذهب ، وراح : عاد .

نحن في اللغة الدارجة نستخدم راح بمعنى ذهب ، أما في اللغة الفصيحة فإن راح بمعنى أتى .

لو أن ابناً ذكياً جاء دائنٌ لأبيه ، وقال له : أبوك في البيت ؟ قال له : الآن راح ، هل هو كاذب أم

صادق ؟ هو كاذب فقهاً شرعاً ، لأنه أوهم السائل أنه خرج من البيت ، هو صادق لغة ، العبرة ماذا فهم منك ؟ فهم منك أنه ليس في البيت ، فقد كذبت عليه ، وإن كانت كلمتك في اللغة صادقة ، لكن هنا النبي عليه الصلاة والسلام خرج من المدينة إلى معركة بدر بعد الظهر ، بعد ظهر الجمعة ، فكيف نوفق بين غدا بمعنى ذهب قبل الفجر ، وبين غدا هنا بمعنى ذهب ؟ قال بعض علماء اللغة : يستخدم الغدو والرواح ، الغدو للخروج ، والرواح للعودة مطلقاً من غير قيد زمني ،

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ)

3 - مِنْ أَهْلِكَ :

حبُّ الصحابة للنبي عليه الصلاة والسلام :

أي أنت جالس بين أهلك .. يذكرني هذا أن أبا سفيان حينما ألقى القبض على بعض أصحاب رسول الله المحبين أظنه خبيبًا ، وأرادوا أن يصلبوه ، قال : يا خبيب أتحب أن يكون محمد مكانك ؟ هو سيصلب ! وأنت معافىً في أهلك ، فقال قولة ، والله لو لم يقل غيرها لكان من أهل الجنة ، قال له : والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي (أي زوجته أمامه مزينة ، وأولاده بمظهر حسن ، وأذكياء) وعندي عافية الدنيا (لا يوجد مشكلة ، ولا مرض ، ولا فقر ، ولا قضية) عافية الدنيا ونعيمها (باقة ورد جميلة ، طعام ما لذ وطاب) ويصاب رسول الله بشوكة .

هكذا كان أصحاب النبي ، نحن ينقصنا الحب ، ينقصنا الود ، ينقصنا أن نكون متعاونين ، متكاتفين ، فقال أبو سفيان : والله ما رأيت أحداً يحب أحداً ، كما يحب أصحاب محمد محمداً ، وبهذا الحب أحبهم الله عز وجل ، ففي الحديث :

((الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ ، قَالَ فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَقُلْتُ : يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، لَا أُحَدِّثُكَ بِمَا حَدَّثَنِي مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فِي الْمُتَحَابِّينَ قَالَ : فَأَنَا أُحَدِّثُكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْفَعُهُ إِلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ))

[أحمد]

امرأة أنصارية بلغها أن النبي قتل في أحد ، تخرج إلى ساحة المعركة لترى زوجها مقتولاً، تسأل : أين محمد ؟ ثم رأت أباها مقتولاً ، ثم رأت ابنها مقتولاً ، ثم رأت أخاها مقتولاً ، هذه مصيبة ؛ أب ، وزوج ، وابن ، وأخ !! وتقول : ما فعل رسول الله ؟ ولما وقعت عينها على رسول الله قالت : يا رسول الله كل مصيبة بعدك تهون .

هذه امرأة عندها حب للنبي ، والله لو وزع على العالم الإسلامي اليوم لوسعه، بهذا الحب انتصروا ، بهذه التضحية انتصروا ، ابن أبي رواحة الشاعر ، أرسله النبي إلى يهود خيبر ليقيِّم تمرهم ، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ إِلَى خَيْبَرَ فَيَخْرُصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِ خَيْبَرَ ، قَالَ : فَجَمَعُوا لَهُ حَلْيًا مِنْ حَلْيِ نِسَائِهِمْ ، فَقَالُوا لَهُ : هَذَا لَكَ ، وَخَفِّفْ عَنَّا ، وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْمِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ ، وَمَا ذَاكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ ، فَأَمَّا مَا عَرَضْتُمْ مِنْ الرَّشْوَةِ فَإِنَّهَا سُحْتٌ ، وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا ، فَقَالُوا : بِهَذَا قَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ))

[مالك في الموطأ]

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

أيها الإخوة الكرام ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ

1 ـ القلة ذلة والكثرة عزة :

فسر بعض العلماء كلمة أذلة بأنهم قلة ، القلة أذلة ، والكثرة أعزة ، فكانوا قلة ، لكنهم اعتمدوا على الله، وتوكلوا عليه وافتقروا إليه ، وأخذوا بالأسباب ، فاستحقوا النصر .

أليس هذا الدرس نافعاً لنا ؟ نحن قلة ، ونحن ضعاف ، إذا أخذنا بالأسباب قدر ما نستطيع ، وتوكلنا على الله ننتصر .

2 ـ موازنة بين غزوتي بدر وبين أُحُد :

أيها الإخوة لا بأس من قراءة قصة معركة بدر ، لأن الموازنة بين بدر وبين أحد مهمة جداً ، بماذا انتصر المسلمون في بدر ، ولماذا هزموا في أحد ؟

ذكرت في الدرس قبل الماضي أن المسلمين في عهد النبي الكريم هزموا مرتين ، مرة في أحد ، ومرة في حنين ، في أحد لأسباب سلوكية ، وفي حنين لأسباب اعتقادية ، في أحد لم يطيعوا أمر الأمير ، لو انتصروا لسقط أمر القائد ، ولا قيمة له ، وفي حنين ظنوا أنهم لن يغلبوا من قلة .

مرة قال لي أحده ـ أصلحه الله ـ قال لي : الدراهم مراهم ، تحل أي مشكلة ، تورط في تهمة ، وقبع في السجن ستون يوماً ، قال لي : كل يوم يأتيني هذا الخاطر : الدراهم مراهم ، تحل كل مشكلة ،

الإنسان أحياناً يتكلم كلمة كبيرة ، فيها شرك ، فأدبه الله عز وجل ، لا تنفعك إلا رحمة الله ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

لأن المسلمين يوم بدر كانوا في غاية الضعف ، عدداً وعُدداً ، والكفار كانوا في غاية الشدة والقوة ، ثم إنه تعالى نصر المسلمين ، وهم في غاية الضعف ، والقلة عدداً وعُدداً ، على الكافرين ، وكانوا في غاية القوة والكثرة ، فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن ثمرة التوكل عليه تعالى ، والصبر والتقوى ، هو النصر والمعونة والتأييد ، أي إن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، ولا يمكن أن يذكر الله لنا قصة في القرآن وقعت ، ولن تقع ، إذاً لأصبح القرآن كتاب تاريخ !!

3 ـ غزوة بدر وأحد درس لنا :

لابد من أن تكون قصص القرآن قوانين ، سننًا ، قواعد متكررة ، هذا الدرس لنا الآن ، إذا أردنا أن ننتصر على أعدائنا فلابد أن نكون كأهل بدر ، أن نكون مؤمنين بالله حق الإيمان ، متوكلين عليه ، مفتقرين إليه ، موحدين له ، ولابد أن نستعد ، الاستعداد المتاح ، وعندئذٍ لابد من النصر ، وبدر موضع بين الحرمين الشريفين ، بين حرم مكة ، وحرم المدينة ، إلى المدينة أقرب ، يقال : هو منها على ثمانية وعشرين فرسخاً ، من بدر ، أو اسم بئر حفرها رجل اسمه بدر ، هكذا .

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

وقوله تعالى :

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أي راجين أن تشكروا ما أنعم به عليكم بتقواكم ، من نصرته .

غزوة بدر :

1 ـ سبب غزوة بدر : الخروج للتعرض لقافلة قريش التجارية :

أيها الإخوة ، وكان سبب هذه الواقعة أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن عيراً لقريش (أي جمال عليها بضاعة ثمينة) فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة ، معها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش ، عميدهم أبو سفيان ، قافلة تجارية فيها بضائع كثيرة جداً ، معها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش ، عميدهم أبو سفيان ، ومعه عمرو بن العاص ، ومخرمة بن نوفل ، انظر إلى قوة النبي الكريم ، أحياناً يوجد هجوم دفاعي ، نحن كل حياتنا ردود فعل ، لكن قلما نفعل فعلاً فيه

مبادرة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لحكمته القيادية رأى أن يبادر ، فنزل صلى الله عليه وسلم إلى هذه العير ، وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج ، معنى الظهر أي من كان عنده فرس يركبه ، أو ناقة يركبها ، هذا الشيء ثمين جداً ، ولم يحتفل في الحشد ، لم يعنى عليه الصلاة والسلام بالعدد ، عملية مناورة ، عملية حركة ، عملية إثبات وجود ، عملية لفت نظر ، عملية تلويح العصا ، هذا من معاني غزوة بدر ، ولم يحتفل بالحشد ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يظن قتالاً ، أي ما توقع أن تكون هذه المناوشة معركة ، وخرج مسرعاً في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، عدد مقاتلي بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فقط ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان ، ثلاثمائة رجل وفرسان ، وكان معهم سبعون بعيراً يتعقبونها ، أي يتناوبونها .

النبي عليه الصلاة والسلام يسوّي نفسه مع أبسط الجنود :

والقصة التي أرويها آلاف المرات أنه صلى الله عليه وسلم قال : كل ثلاثة على راحلة ، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة ، قائد الجيش ، نبي هذه الأمة ، زعيم هذه الأمة ، سوى نفسه مع جنديين ، فركب النبي الناقة في نوبته ، فلما انتهت نوبته ، وجاء دوره في المشي ، طبعاً الصحابيان مؤدبان جداً توسلا إليه أن يبقى راكباً في نوبتهما ، فقال هذه الكلمة ، والله تكتب بماء الذهب : قال عليه الصلاة والسلام : ما أنتما بأقوى مني على السير ، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر ، زعيم هذه الأمة ، ونبي هذه الأمة محتاج أن يكسب أجراً وثواباً على مشي .

الإنسان يكون له دعوة بسيطة فتنفع عن ألف عمل صالح ، هذا ليس مقامي !! فما مقامك ؟ المؤمن الصادق يحب أن يفعل كل أنواع الخير ، سيدنا الصديق رضي الله عنه الصحابي الأول، وكان ملازم للنبي عليه الصلاة والسلام ، كان أمين سره ، وكان أقرب أصحابه إليه

ومما ورد في الأثر قوله :

((ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر))

ومع ذلك كان يحلب شياه جيرانه كل يوم ، فلما صار خليفة المسلمين توقع جيرانه أن يترفع عن هذه الخدمة ، في اليوم التالي لتوليه الخلافة طرق باب الجيران ، فقالت الأم لابنتها : افتحي الباب يا بنيتي ، فتحت الباب فقالت : من الطارق يا بنيتي ؟ فقالت : جاء حالب الشاة يا أماه ، أي سيدنا الصديق خليفة المسلمين ، جاء ليحلب الشاة .

لا تخجل من أي خدمة في سبيل الله :

قال النبي : ما أنتما بأقوى مني على السير ، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر ، كنت مرة مع صديق ، قال لي : مرة كنت بأحد المساجد الكبيرة ، فوجدت هناك رجلا هيئته ، وثيابه ينمان عن علو شأنه

، فسأل عنه فإذا هو ضابط كبير جداً في البحرية الأمريكية ، وهو يغسل دورات المياه في المسجد ، هذا أسلم ، فتقرب إلى الله بخدمة المسجد .

والله مرة زارنا أخ من مصر ، ودخل إلى دورات المياه قال لي : شيء لا يصدق !! كأنها في بيت صاحبته من كثرة في النظافة ، وأنا والله أحبه كأحد أولادي ، يخدم هذه الدورات ، فخدمة المسجد شرف ، بل إن سيدنا إبراهيم أبا الأنبياء صلوات الله عليه كان في خدمة بيت الله الحرام :

(أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ)

(سورة البقرة الآية:125)

مهمته تنظيف البيت الحرام ، والآن تقريباً في كل موسم حج ملك المملكة السعودية يغسل الكعبة المشرفة بيده ، هذا شرف ، إذا خدمت مسجداً ، أو قدمت خدمة لمسجد ، أو بنيت مسجداً فهذا بيت الله ، فكلما كان قدرك عظيمًا خارج المسجد تزداد شرفاً بخدمة المسجد ، مهما كان قدرك عظيماً خارج المسجد تزداد شرفاً بخدمة المسجد ، هذا كله من أن النبي عليه الصلاة والسلام ما زهد بعمل ، وهو أن يمشي وصاحبه يركب الناقة ، كان معهم سبعون بعيراً يتعقبونها ، أي يتناوبون ركبوها .

واتصل خروجه بأبي سفيان ، فاستأجر ضمضمة بن عمرو الغفاري ، وبعثه إلى أهل مكة ليحموا عيرهم ، المؤمن إنسان بسيط ، ساذج لا يخيف ، لكن هنا الإيمان قوة ، النبي تحرش بهم ، هذه مبادرة، هذا فعل ، أما الأمة الضعيفة فكل حياتها ردود فعل ، أما النبي عليه الصلاة والسلام هو بدأ

2 - خروج النبي إلى بدر في رمضان :

وخرج صلى الله عليه وسلم لثمانٍ خلون من رمضان ، من زار الديار المقدسة في الصيف يعلم ما معنى الصيف هناك ، ثمانٌ وخمسون درجة ، ستون درجة ، وفي رمضان :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)

(سورة البقرة الآية : 214)

الآية الكريمة :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

لابد من بذل كل شيء في سبيل الله

اسأل نفسك : أنا ماذا أفعل ؟ هل سهرت الليل في سبيل الله ؟ هل بذلت الغالي والرخيص في سبيل الله؟ هل جعت في سبيل الله ؟ فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أحَدٌ ، وَلَقَدْ أخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أحَدٌ ، وَلَقَدْ أتَتْ عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَمَا لِي وَلِبَلَالٍ طَعَامٌ يَأكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلا مَا وَارَى إبطُ بلالٍ))

[سنن ابن ماجه]

الإنسان يحاسب نفسه ، هل خفت في الله ؟ هل جعت في الله ؟ هل أوذيت في الله ؟ هل أوذيت لأنك مسلم ؟ هل حرمت مغنماً لأنك مسلم ؟ هل حرمت بعثة لأنك مسلم ؟ هل ضيق عليك لأنك مسلم ؟ ماذا فعلت ؟ الله عز وجل يريد أن نفعل شيئاً في سبيله ، حتى يرقى بنا إلى أعلى عليين .

3 ـ استخلاف النبي بعض أصحابة لإدارة شؤون المدينة :

فالنبي عليه الصلاة والسلام خرج لثمانٍ خلون من رمضان ، واستخلف على الصلاة ابن أم مكتوم ، يوجد نظام ، الحضارة نظام ، هناك من استخلفه النبي للصلاة في المدينة ، ورد أبا لبابة من الروحاء ، موقع قريب لبدر ، واستعمله على المدينة والياً في غيبته ، يوجد أمير للمدينة ، ويوجد إمام ، أمير وإمام، وصنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس ، الأمراء والعلماء ، العلماء ملح البلد ، فمن يصلح الملح إذا الملح فسد ؟ حينما يقصر العالم بواجبه الديني فالمشكلة كبيرة جداً ، سيدنا علي يقول : قوام الدين والدنيا أربعة رجال ، عالم مستعمل علمه ، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم ، وغني لا يبخل بماله ، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه ، قال : فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره .

4 ـ تنظيم الأمور قبل الوصول على بدر :

رد أبا لبابة إلى المدينة من الروحاء ، واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، أي القيادة العامة ، ودفع إلى علي راية ، وإلى أنصاري راية أخرى ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة ، راية الأنصار كانت مع سعد بن معاذ ، فسلكوا نقب المدينة إلى ذي الحليفة ، ثم انتهوا إلى صخيرات يمام ، ثم إلى بئر الروحاء ، ثم رجعوا ذات اليمين بالطريق إلى الصفراء ، وبعث صلى الله عليه وسلم قبلها بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر ليتجسسا ، لابد من تقصي أخبار العدو، هذا هو التجسس ، فما هو التحسس ؟ قالوا : التجسس تتبع الأخبار السيئة ، أما التحسس فتتبع الأخبار الطيبة ، والآية :

(وَلَا تَجَسَّسُوا)

(سورة الحجرات الآية:12)

فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، كم تأخذ في الشهر ؟ أخبار طيبة ، لكن هذا فضول !! هذا أسلوب حشري ، لم يطلب منك أن تساعده حتى تسأله كم بأخذ في الشهر ، لا تجسسوا ولا تحسسوا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

فمن لوازم القيادة الحكيمة أن تستطلع أخبار العدو ، بعث بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر يتجسسان أخبار أبي سفيان وعيره .

5 ـ استشارة النبي أصحابَه في أمر القتال وسروره بموقف الأنصار :

ثم تنكب عن الصفراء يميناً ، وخرج على وادي دقران ، فبلغه خروج قريش ونفيرهم ، فاستشار أصحابه ، فالقصة من أولها كانت مناورة ، فإذا هي معركة ، استشار أصحابه فتكلم المهاجرون وأحسنوا ، وهو يريد ما يقوله الأنصار ، الأنصار وعدوه أن يمنعوه ، وليس ثمة اتفاق أن يخرجوا معه، فوجد شيئًا جديدًا ، لابد من موافقة الأنصار ، هم وعدوه أن يمنعوه في مدينتهم ، لا أن يحاربوا معه ، فحتى يتأكد من الوضع سألهم ، فقال : أشيروا علي أيها الناس ، فقال سيدنا سعد : لعلك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ، فقال سيدنا سعد كلامًا لو كل إنسان دعا إلى الله معه أمثال سيدنا سعد ، وكل إنسان أراد أن يفعل شيئاً لصالح المسلمين معه أمثال هؤلاء ، لكنا في حال غير هذا الحال ، قال له سيدنا سعد : امض لما أردت ، فو الله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، سر بنا على بركة الله، صِل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعادِ من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل ، لصبرٌ في الحرب صدق عند اللقاء ، فلعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

قوة العالِم بقوة مَن معه :

تقول : إن العلماء مقصرون ، هذا يقال في أكثر من مجلس ، العلماء قوتهم بقوة من معهم ، ولكن لو وجد ولاء بسيط !

تروى قصة شهيرة ، هي طرفة ، في عهود قديمة أحد كبار العلماء كثر أتباعه جداً ، فاستدعاه الوالي ، قال له الوالي : أأنت أم أنا ؟ قال له : أنت الوالي ، وأنا لست بوالٍ ، قال له : ما هذا الجمع الغفير الذي حولك ؟ قال له : ما عندي أحد ، عندي واحد ونصف ، قال له : عندك عشرون أو ثلاثون ألفًا ، قال له: عندي مريد ونصف فقط ، قال له : ما هذا الكلام ؟ قال له : أشع في البلد أنك حبستني ، وانظر ماذا سيكون !! أشيع هذا الخبر فتفرق كل هؤلاء ، ولم يبق أحد ، وجاء يومًا حطاب أراد أن يهدم القصر بفأسه ، لأن شيخه مسجون ، قال له : هذا المريد ، وجاء آخر ناعم ، وقال : لماذا حبستم الشيخ ؟ قال له : هذا النصف ، تجمع فارغ ، لا شيء فيه .

قال له : لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، صل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعادِ من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، ائت لي بأتباع بنصف هذا الصدق ، وبنصف هذه القوة فترى حال المسلمين بغير هذا الوضع ،

النبي سر بهذا الكلام جداً ، وقال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه عن جده قال :

((خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر ، حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا ، ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال عمر مثل قول أبي بكر ، ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله إيانا تريد ، فو الذي أكرمك ، وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم ، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك ، ولا نكونن كالذين قالوا لموسى :

(اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)

، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول سعد :

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق)

إلى قوله

(ويقطع دابر الكافرين)

، وإنما رسول الله يريد غنيمة مع أبي سفيان فأحدث الله إليه القتال))

(الدر المنثور للتفسير بالمأمور للإمام جلال الدين السيوطي)

فالنبي سر بهذا الكلام جداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((سيروا ، فإن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم))

[الدر المنثور للتفسير بالمأمور للإمام جلال الدين السيوطي]

قال له سعد بن معاذ :

((والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل ، فقال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا على بركة الله ، وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم))

[مختصر تفسير ابن كثير اختصار الصابوني]

عدل النبي عليه الصلاة والسلام مع أعدائه :

ثم ارتحلوا من بقران إلى قريب من بدر ، وبعث علياً والزبير وسعداً في نفر يلتمسون الخبر ، أرسل اثنين ، ثم أرسل ثلاثة لتقصي الأخبار ، لم يوجد حينها أقمار صناعية ، فأصابوا غلامين لقريش ، فأتوا بهما والنبي قائم يصلي ، وقال الغلامان : نحن سقاة قريش ، فكذبوهما ، كراهية في الخبر ، ورجاء أن يكون من العير ، فجعلوا يضربونهما فيقولان نحن من العير ، فسلم النبي وأنكر عليهم ، هكذا العدل ؟! حصل خطأ ، فالنبي أنكر هذا الخطأ إنكاراً شديداً .

قال أحد الولاة لسيدنا عمر : إن أناساً اغتصبوا مالاً ليس لهم ، ولست أقدر على استرداده منهم إلا أن أمسهم بالعذاب ، إن أذنت لي فعلت ، قال له : يا سبحان الله أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا حصن لك من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البينة ، فإن قامت فخذهم باللينة، فإن لم تقم فادعهم إلى الإقرار ، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم ، وإن لم يقروا فادعهم لحلف اليمين ، فإن حلفوا فأطلق سراحهم ، وإني والله لأن يلقوا الله بخيانتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم ، هذا هو الورع.

((فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صنيعهم بهما سلم من صلاته وقال : ماذا أخبراكم ؟ قالوا : أخبرانا أن قريشا قد جاءت ، قال : فإنهما قد صدقا ، والله إنكم لتضربونهما إذا صدقا ، وتتركونهما إذا كذبا ، خرجت قريش لتحرز ركبها وخافوكم عليهم ، ثم دعا رسول الله العبدين فسألهما ؟ فأخبراه بقريش وقالا : لا علم لنا بأبي سفيان ، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم ؟ قالا : لا ندري ، والله هم كثير ، فزعموا أن رسول الله قال : من أطعمهم أمس ؟ فسميا رجلا من القوم ، قال : كم نحر لهم ؟ قالا : عشر جزائر ، قال : فمن أطعمهم أول أمس؟ فسميا رجلا آخر من القوم ، قال: كم نحر لهم؟ قالا : تسعا ، فزعموا أن رسول الله قال : القوم ما بين التسعمائة والألف ، يعتبر ذلك بتسع جزائر ينحرونها يوما وعشر ينحرونها يوما))

[الدر المنثور للتفسير بالمأمور للإمام السيوطي]

فقال عليه الصلاة والسلام :

((القوم ما بين التسعمائة والألف))

استخبارات دقيقة جداً ، يسمونه استخبارا وتحليلا ، أحياناً يأتيك إنسان بالخبر ، هذا الخبر يحتاج إلى تحليل ، هذا الغلام جاء بالخبر ، ينحرون في اليوم تسعة إبل أو عشرة ، النبي قال :

((القوم ما بين التسعمائة والألف))

وكان بسبس وعدي مضيا يتجسسان ولا خبر ، حتى نزلا وأناخا قرب الماء ، واستقيا في شنن لهما (دلو) ، ومجد بن عمرو بقربهما ، فسمع عدي جارية من جواري الحي تقول صاحبتها : العير تأتي غداً أو بعد غد ، وأعمل لهم ، وأقضيكِ الذي لكِ ، وجاءت إلى مجد بن عمرو فصدقها ، فرجع

بسبس وعدي بالخبر ، وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر ، فقال لمجد : هل أحسست أحداً ؟ فقال : راكبين أناخا يميلان لهذا التل ، فالتقيا الماء ونهضا ، فأتى أبو سفيان بناخهما - مكان إناخة الإبل - وفت من أبعار واحدهما ، أخذ بعرة من أبعار الإبل وفتّها ، فقال : هذه علائف يثرب ، أي بعر جمل أكل علفاً من يثرب ، أرأيتم إلى الدقة في الاستنباط !! فرجع سريعاً وقد حذر ، وتنكب بالعير إلى طريق الساحل فنجا ، أي نجا بالقافلة وبالبضاعة ، وأوصى إلى قريش أننا قد نجونا بالعير فارجعوا (انتهت المشكلة)، هو خاف على هذه التجارة الكبيرة ، وهذه البضاعة الثمينة والغالية ، فاستطلع ونجا بقافلته إلى الساحل وانتهى الأمر ، فقال : ارجعوا القافلة نجت ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونقيم به ثلاثاً .

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

مستحيل ؛ إنسان كافر منحرف ، فاجر ، عاص لله ، إلا أن يرتكب خطأً فادحاً ، وحماقة كبرى ، لأن الله يحجب عنه الحقائق ، لا يملك رؤيا صحيحة ، قال : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونقيم به ثلاثاً ، وتهابنا العرب أبداً .

أما الأخنس بن شريق فرجع بجميع بني زهرة ، لم يقبل ، لقد جمعتمونا من أجل قافلة قريش ، فانسحب، وكان حليفهم ، ومطاعاً فيهم ، قال: إنما خرجتم تمنعون أموالكم ، وقد نجت فارجعوا ، وكان بنو عدي لم ينفروا مع القوم ، فلم يشهد بدراً عدوي ولا زهري .

6 ـ نزول النبي عليه الصلاة والسلام عند ماء بدر :

وسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً إلى ماء بدر ، وثبطهم عنه مطر نزل وبله مما يليهم ، وأصاب مما يلي المسلمين ماء الوادي ، وأعانهم على السير .

الآن هنا نقطة دقيقة جداً ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من بدر .

أخذُ النبي عليه الصلاة برأي الحباب بن المنذر في مكان العسكر :

بالمناسبة كما ذكرت قبل درسين ما حدث في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان حدثاً مقصوداً لذاته ، وكان من هذا الحدث تشريع ، فالله عز وجل فيما يقول كتاب السيرة حجب عن النبي صلى الله عليه وسلم الموقع المناسب ، حجبه عنه وحياً ، وحجبه إلهاماً ، وحجبه عنه اجتهاداً ، الآن ماذا سيكون؟ هناك فضيلة في الإنسان مهمة جداً غالية جداً ، هذه الفضيلة أن ترجع إلى الصواب إن كنت مخطئاً ، هذا الكمال الأخلاقي لا يمكن أن يفعله نبي لأنه لا يخطئ ، الآن أراد الله عز وجل أن يقف النبي موقفاً كاملاً حينما حجبت عنه الحقيقة العسكرية في موقعة بدر ، جاء صحابي جليل اسمه الحباب بن المنذر جاء بأدب يفوق حد التصور ، وقال : يا رسول الله إن هذا الموقع (انظر

إلى الاحتياط ، والدقة ، والورع) ، أوحاه الله إليك ؟ أم هو الرأي والمشورة ؟ قال : بل هو الرأي والمشورة ، قال والله يا رسول الله ليس بموقع ، انظر إلى جرأة الصحابي ، هو يعترض على سيد الأنبياء ، على سيد الخلق ، وحبيب الحق ، وهذا النبي العظيم المتواضع ما أنكر عليه ولا هدر كرامته ، أو أخرجه من وجهه لانتقاده ، سيد الخلق أشير عليه أن هذا ليس بموقع ، فقبل النبي ، فقال : يا رسول الله ليس بموقع ، وإننا نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ونبني عليه حوضاً نملأه ، ونمنع القوم من الماء (ضغطنا عليهم) ، فاستحسنه النبي .

إخواننا الكرام ، بقدر إخلاصك لله ، وبقدر طاعتك له ، وبقدر حرصك على نجاح المسلمين تصغي إلى النصيحة ، وبقدر مكاسبك التي كسبتها من الدين ، والتي أنت تحافظ عليها ، تصغي إلى النصيحة ، الإصغاء إلى النصيحة علامة الإخلاص ، وأي إنسان يلغي المعارضة يلغى هو ، وهذا موقف ، النبي عليه الصلاة والسلام مع أنه معصوم ، ومع أنه سيد الخلق ، ومع أنه حبيب الحق ، ومع أنه لا يخطئ ، أصغى إلى هذا الصحابي الجليل ، وكان هذا الصحابي الجليل قمة في الأدب ، يا رسول الله ! هذا الموقع وحي أوحاه الله إليك ؟ أم هو الرأي والمشورة ؟ قال : هو الرأي والمشورة ، فلما بين له الصحابي الموقع المناسب استحسنه النبي ، وشكره على نصيحته ، ثم بنوا عريشاً على تل مشرف على المعركة ، يكون فيه النبي صلى الله عليه وسلم يأتيه النصر من ربه ، أنا زرت هذا الموقع ، في طريق بين مكة والمدينة طريق قديم ، على هذا الطريق القديم موقع بدر ، ورأيت موقع العريش ، لكن طرفة!! وجدت هذه السيارات الفخمة جداً أهلها جالسون يأكلون ما لذ وطاب ، المركبات مكيفة ، برادات الماء من أعلى مستوى ، الطعام نفيس ، فقلت هذه الكلمة في نفسي : والله هذا الطقم غير ذاك الطقم .

7 ـ النبي عليه الصلاة والسلام يري الصحابة أمكنة مصرع صناديد قريش :

ومشى النبي عليه الصلاة والسلام يريهم مصارع القوم واحداً وَاحداً ، ولما نزلت قريش مما يليهم بعثوا عريش بن وهب الجمحي يحزر أصحاب رسول الله ، أي يتخمن عددهم ، فحزرهم وانصرف ، وخبرهم الخبر ، ورام حكيم بن حزام ، وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ، فلا يكون الحرب فأبى أبو جهل ، أي ركب رأسه ، وساعده المشركون ، وتوافقت الفئتان .

8 ـ النبي عليه الصلاة والسلام يدعو ربه ويسأله النصر :

عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف بيده ، ورجع إلى العريش ومعه أبو بكر وحده ، وطفق يدعو ويلح في الدعاء ، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه :

((اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني ، اللهم إن تَهْلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعْبَد في الأرض))

فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه .

[الجامع لأحكام القرآن للقرطبي]

وسعد بن معاذ وقوم من الأنصار على باب العريش يحمونه ، وأخفق النبي عليه الصلاة والسلام ثم انتبه ، أي غفا غفوة ثم انتبه ، فقال : أبشر يا أبا بكر ، فقد أتى نصر الله ، ثم خرج يحرض الناس ، ورمى بوجوه القوم بحفنة من حصى .

9 ـ بداية المعركة بالمبارزة الفردية :

((... فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قَامَ عَلَى رُءُوسِهِمْ ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَقَالَ : شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا ، فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حَصَاةٌ إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا))

[صحيح مسلم]

ثم تزاحفوا ، وخرج عتبة ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد ، يطلبون البراز ، أي المبارزة ، فخرج إليهم عبيدة بن الحارث ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ، وقتل حمزة وعلي شيبة والوليد ، وضرب عتبة عبيدة فقطع رجله فمات ، وجاء حمزة وعلي إلى عتبة فقتلاه ، وقد كان برز إليهم عوف ومعوض ابنا عفراء ، وعبد الله بن رواحة من الأنصار ، فأبوا إلا قومهم ، وجال القوم جولة فهزم المشركون ، وقتل منهم يومئذٍ سبعون رجلاً ، من وجوههم ، وأسر سبعون آخرون ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً ، ثم انجلت الحرب ، وانصرف إلى المدينة وقسمت الغنائم ، ودخل المدينة لثمانٍ بقين من رمضان ، دامت هذه المعركة تقريباً أربعة عشر يوماً .

عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : ذَكَرَ لَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ أَبِي طَلْحَةَ

((أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ رَجُلاً مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ ، فَقُذِفُوا فِي طَوِيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ ، وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالْعَرْصَةِ ثَلاثَ لَيَالٍ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرٍ الْيَوْمَ الثَّالِثَ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا ، ثُمَّ مَشَى ، وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ ، وَقَالُوا : مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إِلا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ : يَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ ، وَيَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ ، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالَ : فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لا أَرْوَاحَ لَهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، قَالَ قَتَادَةُ : أَحْيَاهُمُ اللَّهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا))

[صحيح البخاري]

لابد من معرفة سيرة النبي ، لأنها منهج كامل :

أيها الإخوة الكرام ، هذه موقعة بدر بشكل موجز ، لكن لي تعليق لابد منه ، من منا يصدق أن سيرة النبي عليه أتم الصلاة والسلام منهج كامل ، ومعرفتها فرض عين ، لا يوجد مسلم معفى من قراءة سيرة رسول الله ، في كل موقف له ، في كل كلمة ، في كل حركة ، في كل سكنة ، في كل تصرف ، منهج ، فنحن نستنبط الشيء الكثير من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وأقوى دليل قول الله عز وجل :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

(سورة الأحزاب)

ثلاثمائة صحابي ، وبضعة عشر رجلاً ، معهم فرسان فقط ، وسبعون بعيراً ، أمام قوة كبيرة عاتية من قريش ، ومع ذلك انتصروا ، فلما في حنين قالوا : لن نغلب من قلة . يكفي هذان الدرسان .

درسان في حياة كل مؤمن : درس بدر ودرس حنين :

أنا أقول في النهاية : هناك درسان في حياة كل مؤمن ، درس بدر ودرس حنين ، إذا قلت الله تولاك ، ونصرك ، وأيدك ، وأنهضك ، وأغناك ورزقك ، وأكرمك ، ورفع شأنك ، وإن قلت أنا ، فلان بن فلان، أبي فلان ، أحمل الشهادة الفلانية ، عندي أموال لا تأكلها النيران ، تأتي مصائب لا تنفع فيها الأموال ، هناك عند الله أبواب للمصائب لا تنتهي ، وكل إنسان له المصيبة التي تناسبه ، فإذا كنت مع الله كان الله معك ، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق مما في يديك ، إن أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله

الأسئلة :

أيها الأخوة

س : رجل مسلم يدعي بأن شرب الخمر حلال .

ج : هذا لا بد له من مشفى المجانين ، هذا لا يجاب عنه ، قال : استناده إلى ذلك قوله تعالى في سورة النحل :

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

(النحل : الآية 67)

هل السكر رزق حسن ؟ سأقول لك : عندي ولدان ، مثلاً ، الأول جيد ، معنى هذا أن الثاني غير جيد ، هذا أول استنباط خاطئ ، أول إشارة إلى أن الخمر خبيثة هذه الآية :

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

(النحل : الآية 67)

شراباً مسكراً ، أو تتخذون منها :

(رِزْقًا حَسَنًا)

معنى ذلك أن الشراب المسكر ليس بحسن ، هذه أول إشارة ، أما الإشارة الثانية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء الآية :43)

معنى ذلك أن الخمر تذهب العقل ، الإشارة الثالثة ، والحكم الثالث :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : الآية 90)

الرجس الشيء الذي ينبغي ألاّ تقترب منه :

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الْأَوْثَانِ)

(سورة الحج الآية :30)

أي أن تعبد غير الله رجس ، وأن تشرب الخمر رجس ، إذاً رفعت هذه المعصية إلى مستوى الشرك بالله ، لماذا ؟ لأنك تعتدي على عقلك ، وتعطله ، وهو أداة التكليف ، ومناط التكليف والمسؤولية .

الشيء الآخر قال : فاجتنبوه ، لو أن الله قال : حرمت عليكم الخمر ، أي حرم عليكم شربها ، ولم يحرم بيعها ، ولم يحرم الاتجار بها ، أما حينما قال : فاجتنبوه ، فينبغي ألاّ تشربها ، وألا تجلس إلى من يشربها ، وألاّ تبيعها ، وألاّ تعصرها ، وألاّ تنقلها ، وألاّ تعلن عليها ، هذا كله محرم ، لقوله تعالى :

(فَاجْتَنِبُوهُ)

فهذا المسلم الذي يدَّعي بأن شرب الخمر ليس بحرام ، واتخذ هذه الآية دليلا ، قال: لم يقتنع معي، فإن لم يقتنع معك اتلُ عليه الآية الكريمة :

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)

(سورة المدثر)

امرأة لم تقتنع بالحجاب ، لم يبق أحد من إخوتها وأقاربها ، أبداً لم تقتنع ، فأصيبت بمرض عضال ، فقالت كلمة ، والله لا أنساها ، طبعاً نقلت إلي ، قالت : والله لئن شفاني الله لوضعت ستاراً ، وليس حجاباً .

الله أحياناً يرجئ ، فإن لم يقتنع بالحق ، وهو معافى يوجد طريقة تقنعه بالحق ، لا يتكبر أحد على الله عز وجل !! إن لم تقنع بالحق وأنت معافى ، يأتي وقت تقنع به وأنت في مصيبة ، فاقنع بالحق

وأنت صحيح ، قبل أن تقنع به قسراً ، قال لي أحدهم : لا يعاش في هذا البلد ، ودخله والله بالملايين ، أصيب بمرض .

قال لي مرة : يكفي الشخص ألف ليرة بالشهر ، كان ينفق مئات الألوف في الشهر ، ولما أصابه مرض عضال تمنى أن يشفيه الله منه ، وأن يعيش على ألف ليرة بالشهر ، ليكن الإنسان أديباً مع الله عز وجل .

س : خطب شاب ابنتي ، وتم الفراق بينهما ، وبعد أن مشى في شرفها بغير حق ، وهي بريئة ، والآن أعرض لكثير من الأسئلة عن سبب فراقهما ، فهل يصح لي في الدين أن أنوه بعيوبه ؟

ج : قال تعالى :

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

(سورة النساء الآية:148)

لكن أتمنى على كل شريكين انفصلا عن بعضهما ، وعلى كل خطيبين انفصلا عن بعضهما أن يلزما الصمت ، فهذا والله أكمل ، لا يوجد نصيب ، لكن والله أنا أحتقر احتقاراً لا حدود له هذا الذي ينهش في أعراض الناس ، والله عز وجل من أسمائه الستّير ، المؤمن ستير ، قد يكون الخطأ من البنت ، وقد يكون ثمة انحراف ، لكنه يستر عليها .

س : بالنسبة للنذر هل يجوز أن يأكل منه أولاد الناذر أم لا ؟

ج : لا يجوز ، فالنذر لا يؤكل منه شيء ، إلا أنه يجوز أن تعطي الفقراء منه ، أما أولادك فأنت ترعاهم ، وتنفق عليهم ، فإذا أطعمتهم من هذا النذر وفرت النفقة على نفسك ، وهذا لا يجوز .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(34-60): تفسير الآيات 123 - 129
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-07-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثالثة والعشرين بعد المئة ، يقول الله عز وجل :

لماذا انتصر المسلمون في بدر ولم ينتصروا في أحد ؟

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

أيها الإخوة ، معركة بدر وردت مفصَّلة في سورة الأنفال ، أو وردت مستوفاة في سورة الأنفال ، ومعركة أُحد وردت مفصَّلة ومستوفاة في سورة آل عمران ، ولكنّ حكمة الله عز وجل أن قصة معركة أُحد اعترضتها إشارة إلى معركة بدر ، الله هو هوَ ، والأمر بيده ، هو الناصر ، المعين ، القوي ، فلماذا نصركم في بد ولم ينصركم في أُحد ؟ معنى ذلك أن السبب منكم ، الأمر بيد الله ، قال تعالى :

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

(سورة الشورى : الآية 53)

هو هوَ ، الأمر كله بيده :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود : الآية 123)

فلماذا نُصِرتُم في بدر ، ولم تُنصروا في أُحد ، والنبي بين أضلعكم ، وأنتم أنتم ؟ معنى ذلك أن هناك شيئا جديدا في أُحد لم يكن من قبل ، هذا الشيء الجديد هو معصية القائد ، لو أنكم انتصرتم مع معصيتكم لرسول الله لسقط أمر النبي ، ولم يعد له قيمة .

أيها الإخوة ، في قوله تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(123)إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)

(سورة آل عمران)

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِين

1 ـ تبشير النبي الصحابة بنزول الملائكة للقتال معهم :

إذ تقول يا محمد للمؤمنين ، الحقيقة أن الملائكة نزلت في معركة بدر ، والدليل قوله تعالى :

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

(سورة الأنفال : الآية 9)

2 ـ لماذا جعل النصر في بدر عن طريق الملائكة ؟

فالملائكة نزلت في بدر ، وقد يسأل سائل : إذا كانت القوة كلها بيد الله ، وأنّ الله وحده هو الناصر ، فلماذا جعل النصر في بدر عن طريق الملائكة ؟ قال : الإنسان بُني على الأسباب ، ولا يطمئن إلا بنصر عن طريق السبب ، والشيء الذي يَلفت النظر أنّ كل عطاء من الله له سبب ، له سبب أرضي ، وله سبب دنيوي ، والله مسبب الأسباب ، وكل عقاب إلهي له سبب أرضي ، وله سبب دنيوي ، والله مسبب الأسباب ، لأن الإنسان بُني عقله على السببية ، فالله عز وجل من قدرته أن ينصرهم من دون الملائكة ، مباشرة ، ولكنهم يقلقون ، فمن أجل أن يطمئنوا جعل النصر في بدر بمعاونة الملائكة ، وقد أمدهم بألف من الملائكة مسومين ، إذ تقول الآن يا محمد في أُحد للمؤمنين :

(أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 124)

لابد من الفرح لانتصار المسلمين :

قال بعض علماء التفسير : هذه الآيات تابعة لمعركة بدر ، أي أمدهم الله بألف ، وقال : مردَفين ، أتبعهم بثلاثة آلاف ، وأتبعهم بخمسة آلاف ، لكنّ بعض العلماء يقول : سياق الآيات عن معركة أُحد فالنبي عليه الصلاة والسلام شجع أصحابه ، وقال لهم فيما أخبرنا الله عز وجل :

(إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ

(124)

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

(سورة آل عمران)

أيها الإخوة الكرام ، قضية النصر قضية أساسية جداً في حياة الأمة ، والمؤمنون ولا شك يفرحون بنصر الله أيما فرح ، قال تعالى :

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(4)بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

ونحن أمة إسلامية عندما نرى أن المسلمين انتصروا في مكان ما في العالم نفرح جميعاً ، وحينما تأتينا الأنباء السيئة بأنهم لم ينتصروا نتألم جميعاً ، وهذا من علامة الإيمان ، ذلك أنّ المؤمن لا بد أن يتفاعل مع قضايا المسلمين في العالم ، إليكم دليلاً من القرآن حينما قال الله عز وجل :

(الم(1)غُلِبَتْ الرُّومِ(2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3)فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(4)بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم]

المؤمنون فضلاً عن أنهم مهتمون ببقية المؤمنين في العالم ، مهتمون بمن يجمعهم بهم ، قاسم مشترك، هم أهل الكتاب ، الذين انتصروا هم الروم على الفُرس ، الفُرْس عُبَّاد النار ، أما الروم من أهل الكتاب، مع أنّ هناك أشياء لا تجمعنا بهم ، وهناك قواسم تجمعنا بهم ، فهذا المؤمن مهتم بانتصارٍ لفئة تجمعنا بهم بعض القواسم ، إيمان بالله ، إيمان بالآخرة وهكذا ...

إذاً : أن تحمل همَّ المسلمين ، وأن تقلق لهزائمهم ، وأن تفرح بانتصاراتهم ، وهذه علامة إيمانهم ، أما أن تنسلخ من المجتمع ، وأن تنتمي إلى ذاتك ، وألاّ تُعنى إلا بدخلك ، وبيتك ، وأولادك ، وراحتك ، وإنفاقك ، وما إلى ذلك ، هذا دليل بُعد الإنسان عن الله .

والحقيقة أنّ الأحداث نراها نحن جميعاً ، ونستمع إليها ، ولكنّ البطولة لا في رؤيتها ولا في الاستماع إليها ، البطولة في تحليلها ، تحليل الخبر أهم من الخبر ، المؤمن بحسب إيمانه يعطي تحليلاً دقيقاً لأي خبر يسمعه .

التقيت بأخ كريم ، فأراد أن يقرأ الكتاب الفلاني ، والكتاب الفلاني ، وهذه الكتب لفِرَق ضالّة ، فقلت له: استيعاب الباطل مُجهد جداً ، وطريق طويل جداً ، لو أنك استوعبت الحق لكان الطريق أقصر وأسهل ، وإن استوعبت الحق كان معك ميزان تزن به كل شيء ، والدليل أن الله عز وجل قال :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام : الآية 153)

السبيل للحق واحد ، أما الباطل فمتعدد ، ومتعدد تعدد لا حدود له ، لو عشت ألف عام ، وأمضيت هذا العمر كله في قراءة أفكار المذاهب الوضعية والضالة والمنحرفة ، عمرك هذا لا يكفي ، أما لو أنك استوعبت كلام الله فهمته ، واستوعبت سنة رسوله ، هذا هو الحق ، فاستيعاب الحق أولى وهو أسهل وأقصر وأقوى وأمتن ، لا بد أن تتعاطف مع المؤمنين في شتى بقاعهم ، لا بد من أن تفرح لانتصاراتهم ، وأن تتألم أشد الألم لانهزامهم ، لأنك واحد منهم ، ومن لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم، ولا بد أن يكون في قلبك رحمة على هؤلاء المسلمين .

ذاك الذي يقول لك : أنا ليس عندي مشكلة ، أي أموره مُيسرة ، دخله كافٍ ، هؤلاء الذين يموتون ، يُشردون ، يخرجون من ديارهم ، يُقتَّلون لأتفه الأسباب ، يُطهَّرون عِرقياً ، ينبغي أن تتألم لأجلهم ، لا ينبغي أن تعتب على الله لأجلهم أيضاً ، هذا تطرف ، والله عز وجل أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين، هو العدل ، هو الرؤوف الرحيم ، هو الحكيم الغفور ، لكن لا بد من تعاطف بشكل أو بآخر .

العلماء قالوا : هذه الآيات وإن كان بعض العلماء يجعلها في معركة بدر لكنهم يرجِّحون أنها في معركة أُحد ، لكن لا يوجد دليل قطعي أبداً أن الله أمدَّ المؤمنين في معركة أُحد بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، كما أنه لا دليل من أنه لم يمدهم ، لكن الدليل القطعي أن سيدنا سعد بن أبي وقاص يروي عن رسول الله أن النبي قد أعانه في معركة بدر مَلَكَان يلبسان ثياباً بيضاء ، وقد قيل أنّ هذه من خصوصيات النبي لأنه كان في موضع الأمر والنهي تماماً ، قال تعالى :

(بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 126)

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا

الحقيقة يرجح بعض العلماء أنه في أُحد لم يكن هناك مدد ، هذا عرض من النبي أخبرنا الله به ، لأنه لو كان هناك مدد من الملائكة ، ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف ولم ينتصروا هناك مشكلة في فهمنا لأمور التوحيد ، ويقول الله عز وجل :

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران : الآية 127)

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

القرآن كله نزل من أجل التوحيد :

إخواننا الكرام ، لو سألتني ما المحور الذي تتمحور عليه آيات القرآن كلها ، أجيبك : إنه التوحيد ، طبعاً الإيمان بالله لا يكفي ، وأي إنسان آمن بالله خالقاً ، ولم يستجب له فهذا إيمان لا ينجيه من عذاب الدنيا ، ولا من عذاب الآخرة ، وإبليس آمن بالله ، قال تعالى :

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص : الآية 82)

وقال :

(قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف : الآية 14)

وقال :

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة ص : الآية 76)

آمن بالله خالقاً ، وآمن بالله عزيزاً ، وآمن بالله رباً ، وآمن باليوم الآخر ، ومع ذلك فهو إبليس ، إذاً الإيمان الذي لا يتبعه عمل لا قيمة له إطلاقاً ، الإنسان متى يستقيم على أمر الله ؟ حينما يعلم أنه لا إله إلا الله هذه كلمة نقولها في اليوم الواحد مئات المرات ، ولكن حينما نتحقق بفحواها أنّ الفعل بيد الله ، أنّ الذي يعطي هو الله ، وأنّ الذي يمنع هو الله ، وأنّ الذي يرفع هو الله ، وأنّ الذي يخفض هو الله ، أنّ الذي يُسعد هو الله ، أنّ الذي يُشقي هو الله ، أنّ الذي يميت هو الله ، أنّ الذي يحيي هو الله ، هذا التوحيد قد يكون كلاماً ، ولكن إذا تحققت منه تحققاً يقينياً تجد نفسك منساقاً إلى الله وحده ، والاستقامة كما بينتها اليوم استقامة في العقيدة ، وفي الوجهة ، وفي العمل ، فإنّ الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، فمن أجل أن تعتمد عليه ، وتتوكل عليه ، وأن تحبه ، وأن تعلّق الآمال عليه ، وأن تنصاع إلى أمره ، وأن تكون عند الأمر والنهي ، وأن يجدك حيث أمرك ، وأن يفتقدك حيث نهاك ، لا بد أن تعرفه واحداً فرضاً صمداً .

الإنسان لأنه بُني على مبدأ السببية فقد جعل الله عز وجل هؤلاء الملائكة التي أنزلها في معركة بدر جعلها بشرى للمؤمنين ، كي تطمئن قلوبهم ، لكن يقول الله عز وجل :

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران : الآية 126)

معنى : الْعَزِيز

1 ـ المعنى الأول :

كلمة العزيز دقيقة جداً ، العزيز هو الذي ينفرد ، لا شبيه له ، لا مثيل له ، لا يشبهه شيء ، ولا يرقى إليه شيء ، عزيز .

2 ـ المعنى الثاني :

المعنى الثاني : تشتد الحاجة إليه ، بل يحتاجه كل شيء في كل شيء .

مصير الإنسان بيد الله :

لكل واحد من إخوتنا الكرام له قلب ، وله دسام ، وله شريان أبهر ، وله شريان تاجي ، وله كليتان ، ورئتان ، ومعدة ، وأمعاء ، وبنكرياس ، وغدة نخامية ، وغدة الكظر ، هناك أجهزة بالغة التعقيد

، وأي خلل في هذه الأجهزة يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق ، فالله معنا ، لأنه يمدنا بعمل هذه الأجهزة ، لو توقف أحد هذه الأجهزة عن العمل لانقلبت حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق ، لكنّ الإنسان حينما يرى شيئاً مألوفاً ينسى وجوده ، لذلك قالوا : الصحة تاج على رؤوس الأصحاء ، لا يراه إلا المرضى ، فأيّ شخص يتمتع ببصره لا سمح الله ولا قدّر لو فقد بصره ليقولن : أتمنى أن أتسول في الطريق على أن يُرد بصري ، أن تستمتع ببصرك ، وبسمعك ، وبشمك ، وبنطقك ، وبحركتك ، وبهضمك ، وبعمل أجهزتك هذه نعمة كبرى .

الله عز وجل يحتاجه كل شيء في كل شيء ، وهو واحد أحد ، فرض صمد ، ويستحيل أن تحيد به ، هذا هو العزيز ، فإذا كنت مع العزيز أعزك الله ، وإذا كنت مع العبد الذليل أذلك الله معه ، من اتكل على ماله ضلّ ، من اتكل على غير الله ذل ، من اتكل على الله لا ضل ولا ذل ، إذاً :

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران : الآية 126)

3 ـ النصر من عند الله :

أي كل قوى الأرض مجتمعة تحتاج إلى كلمة من الله ، زُلْ فيزول كل شيء ، الإنسان من ضعف إيمانه ، وتوحيده يرى أعداءه يتمتعون بقوى جبّارة ، بقوى عملاقة ، بدرع من الصواريخ كما يقال الآن ، صاروخ يضرب صاروخًا على بعد مئتين وخمسين كيلو مترًا ، هناك إحكام ما بعده إحكام ، من ضعف إيماننا نُعظّم ما يفعله الإنسان المنحرف ، أما إذا آمنا بالله فالأمر : كن فيكون ، زُل فيزول ، لا تستغربوا ، بلد ضعيف جداً ، دولة ضعيفة وصغيرة فيها مجتمع متخلف بدائي قبلي مثل هذه الدولة المتخلفة البدائية لا يمكن أن تنتصر على أقوى دولة في العالم ، مستحيل ، وألف ألف مستحيل ، لكنّ هذا هو الذي حصل في صدر الإسلام ، المسلمون خرجوا من الصحراء بلادهم فقيرة ، حياتهم خشنة ، حياتهم بسيطة جداً ، يهزمون أقوى دولتين في العالم الفرس والروم ، شيء لا يصدق ، لأنه إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك ، وقد أعزنا الله بالإسلام ، ومهما ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله ، قال تعالى :

(لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 127)

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ

لن ينجح شيء إلا بتوفيق الله :

أي فعل الله هذا ليضعف الكفار ، أو يمنعهم من تحقيق مرادهم ، فينقلبوا خائبين ، لأنه لن ينجح شيء في الأرض من بدء الخليقة حتى نهاية العالم إلا بتوفيق الله ، وهذا معنى قول الله عز وجل :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود : الآية 88)

لا ينجح مشروع ، ولا تنجح معركة ، ولا ينجح اختراع ، و لا تنجح تجارة ولا ينجح شيء على وجه الأرض من بدء الخليقة وإلى نهاية العالم إلا بتوفيق الله ، لذلك الذكي قد لا يحقق أهدافه ، لكن المستقيم هو الذي يحقق أهدافه ، الآية الدقيقة التي بعدها :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ

1 ـ لا دخْلَ للنبي في تعامل الله مع المشركين ، يتوب عليهم أو يعذبهم :

هو سيد الخلق ، وحبيب الحق ، قمة البشر ، ومع ذلك توحيدياً ليس لك من الأمر شيء ، أنت لا تفعل شيء ، ليس لك دخل في توبتهم ، ولا في إهلاكهم ، الله عز وجل يهلكهم أو يتوب عليهم .

الآن قد يسأل أحدنا هؤلاء الكفار الأشداء الذين التفوا على المسلمين من ظهورهم وانقضوا عليهم وقتَلوا منهم ، بل قتلوا عمّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وشُجَّ وجه النبي ، وكُسرت رباعيته ، ودخل المِخفر في وجنته الشريفة ، ووقع في الحفرة ، وصاحبه الذي يحبه أشد الحب مات أمامه مصعب بن عمير ، وصحابة كبار ماتوا في أُحد ، هؤلاء الذين التفوا حوله ، وحققوا هذا النصر ، وكانوا سبب هزيمة المسلمين ، لماذا لم يقضِ الله عليهم ؟ لِمَ لَمْ يُهلكهم الله عز وجل ؟ بعلم الله أنّ هؤلاء الكفار الأشداء الذين أوقعوا أشد الأذى بالمؤمنين منهم سيدنا خالد بن الوليد ، منهم سيدنا عكرمة بن أبي جهل، منهم سيدنا عمر بن العاص ، سوف يؤمنون ، أي يا محمد أنت لا تعلم ، لكنّ الله يعلم ، أي مؤمن لو احتك بكافر ورأى منه القسوة والغلظة والظلم والشدة يتمنى أن يموت ، يتمنى أن يُهلكه الله عز وجل ، لكن الله يعلم أن هذا الإنسان الآن هكذا وضعه ، لكن فيه بذرة خير ، وسوف يؤمن ، فلا بد أن نستسلم لله عز وجل .

2 ـ لا لليأس :

والله أيها الإخوة ، في هذه الدعوة المتواضعة ، وفي عمر ليس بالمديد التقيت بأناس كثيرين يزيدون على عشرة أشخاص كان يقول أحدهم : ما من معصية على وجه الأرض إلا اقترفتها مهما تكن قذرة ، ومع ذلك تاب إلى الله توبة نصوحًا .

هذا الكلام أيها الإخوة ، يجب أن يمنحنا نَفَساً طويلاً مع الطرف الآخر ، يجب ألا تيأس من إنسان غارق في المعصية ، لعل الله يهديه ، لذلك كبار العلماء عندهم أدب مع الله كبير ، إذا رأوا إنساناً يعاقر الخمر يقولون : هذا الآن في معصية ، أما إنه يمكن أن يتوب ، وأن يسبقنا ، هذا شيء واقعي ، لا تحتقر عاصيًا .

سيدنا خالد ما هو ظن المؤمنين ، وهو يقاتل رسول الله ، ويقاتل صحابته الكرام ، والتف عليهم من ظهورهم ، وأوقع فيهم الأذى ، وقتّل بعضهم ، ألم يمتلئوا كراهية له ؟ ألم يمتلئوا تمنيات أن يموت ، أو أن يُهلكه الله عز وجل ؟ فإذا هو بعد قليل سيف الإسلام ، يقول هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه : << خُضت مئة معركة أو زُهاءها ، وليس في جسمي موضع إلا فيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء >> .

فأنت كمؤمن يجب أن يكون لك قلب كبيرًا حتى لو رأيت عاصياً ، هذا الذي يعصي الله الآن قد يتوب ، وقد يستغفر ، وقد يقبله الله عز وجل ، وقد يرفع قدره ، والآية الكريمة :

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر : الآية 53)

هذا الكلام يعلمنا الأدب مع خلق الله عز وجل ، قال تعالى :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

3 - النبي بشر كسائر البشر :

فمن حيث التصرف النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه ، نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ، ولا حياةً ، ولا نشوراً ، بل لا يملك لنا :

(فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

(سورة سبأ : الآية 42)

علاقتنا بالله وحده ، لكنه جاء بالهدى ، وجاء بالحق ، وهو يهدي إلى صراط مستقيم ، أما من حيث الفعل فعلاقتك بالله عز وجل ، والدليل لو أنك استطعت أن تنزع من فمه الشريف فتوى، ولم تكن محقاً فيها لم تنجُ من عذاب الله ، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، أبي داود ، ابن ماجة ، أحمد ، مالك]

سيدنا الصديق حينما مات رسول الله عليه الصلاة والسلام نظر إلى وجهه ، وقبَّله ، وقال : << طِبت حياً وطِبت ميتاً ، وخرج إلى الناس وقال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت >> .

نحن في أمسّ الحاجة إلى التوحيد ، نحن في أمس الحاجة إلى أن نرى يد الله تعمل وحده ، مهما سمعت من أخبار ، ومهما قرأت من أخبار ينبغي أن تؤمن أن الفعّال هو الله ، وأنّ كل واقع له حكمة بالغة ، ولو كان الموقع أحمق أو مجرماً ، لكل واقع حكمة ما دام الله قد سمح به فهناك حكمة بالغة ، بل هناك حكمة مطلقة ، بل هناك خير مطلق ، هذا معناه يُريح الإنسان ، الإيمان بالقدر يُذهب الهمَّ والحزن، الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فلا تدعو مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذَّبين ، قال تعالى :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

لو طبقنا هذا التوحيد على مجتمع إسلامي ، أحياناً إنسان في المجتمع الإسلامي قد يكون قويًّا ، أو له مكانة كبيرة ، أو من الدعاة الكبار ، فالمؤمن إذا ظن أن هذا الإنسان ينفعه ، أو يضره ، أو يمنع عنه عذاب الله فقد أشرك ، وهذا شرك خفي خطير جداً ، لذلك حينما دخل عبد الله بن المبارك على إخوانه كانوا آلافًا مؤلفة قال : يا رب لا تحجبني عنك بهم ، ولا تحجبهم عنك بي ، الإنسان يجب أن يبقى موحداً مع الله دائماً ، يستمع من أستاذه ، ويحبه ، ويقدم كل ما يستطيعه في سبيل الدعوة ، لكن لا ينبغي أن يتوهم أنّ هذا الذي يرشده بإمكانه أن يفعل شيئاً معه ، الفعّال هو الله ، لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي ، ولكن أخي وصاحبي ، قال تعالى :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

4 - أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

أو أن يتوب عليهم أمر توبتهم ، وأمر تعذيبهم ليس بيدك ، بيد الله عز وجل ، هو يعلم بدليل أنه لم يعذبهم ، لم يُهلكهم مع أنهم أوقعوا بالمسلمين أشد الضرر ، لأنه علم أن فيهم بذرة خير، وهذه البذرة عملت فعلها وجعلته من كبار المؤمنين ، تصور في أثناء صلح الحديبية ماذا قال سهيل النبي : اكتب هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله ، قال له : امحُ رسول الله ، لو آمنا بك لما حاربناك ، فمحيت كلمة رسول الله ، بعد أن أصبح من كبار الصحابة يقول : أنا أذوب خجلاً من الله عز وجل كيف لم أسمح بهذا الاتفاق ألا يُكتب فيه رسول الله ، الناس أعداء ما جهلوا ، أنت حينما تعرف الحقيقة .

والله أيها الإخوة ، أخ كريم ليس بيننا الآن قال لي : أنا أسرفت على نفسي كثيراً ، ثم أُصيب بمرض عضال وُضع في العناية المشددة ، قال لي : ناجيت الله وأنا في العناية ؛ أن يا رب أيليق أن ألقاك وأنا عارٍ من عمل صالح ، إنسان بلا ثياب يا رب ، يقصد بالثياب العمل الصالح ، أمهلني يا رب ، أعطني فرصة لأتوب إليك ، وهو في غرفة العناية المشددة ، لكن الله امتن عليه بأن أعطاه فرصة ، وحضر الدروس كلها ، وأقبل على الله ، وخشع في صلاته ، وغض بصره ، وأنفق ماله ، وفعل ما فعل ، ذاق طعم القُرب ، قال لي : مرة وأنا أُناجيه قلت له : يا رب كل هذه السعادة من القرب منك لِمَ لَمْ تُرسل لي هذه الأزمة قبل عشر سنوات ، من شدة سعادته ، أنت قد تجد شيئاً مزعجاً ، مرض مزعج ، فقر مدقع أحياناً هذه كلها أبواب إلى الله عز وجل ، دوافع .

هناك صحابة كانوا كفاراً والتفوا على المؤمنين ، وأوقعوا فيهم أشد الخسائر ، وقتلوا منهم الكثير ، وفيهم سيدنا خالد ، وسيدنا عكرمة ، وسيدنا عمرو بن العاص ، بعد ذلك أسلموا ، وأصبحت كل طاقتهم الحربية في خدمة الإسلام ، سيدنا عكرمة بن أبي جهل أبلى بلاءً حسناً في بعض المعارك ، وسيدنا خالد ، وسيدنا عمرو بن العاص ، قال تعالى :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

لكن لعلمه أن فيهم بذرة خير لم يهلكهم الله عز وجل ، والذي حصل بعد ذلك يؤكد هذه الحقيقة . قال تعالى :

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 129)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

1 ـ الملك بيد الله عز وجل :

الملك بيد الله عز وجل ؛ خلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً ، وهذا أوسع أنواع المُلك ، قال تعالى :

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة آل عمران : الآية 129)

الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل ، له الخلق والأمر ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : الآية 123)

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الشورى : الآية 12)

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

(سورة آل عمران : الآية 129)

2 ـ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاء

يغفر من شاء المغفرة ، ويعذب من شاء العذاب ، كلام بسيط ، يقول لك الطبيب : إن فعلت كذا وكذا ، وكذا شُفيت من دون عملية جراحية ، وإن استهترت وتابعت التدخين مثلاً ، ولم تعتن بنظام غذائك ، ولم تتحرك في جسمك فلا بد من عملية جراحية ، فأنت مُخيَّر ، فإما أن تختار المعافاة من دون عملية ، أو أن تفرط ، وأن تتساهل بشأن معاشك ، وحياتك فتحتاج إلى عملية جراحية ، فإما أن تطلب التوبة فيتوب الله عليك ، وإما أن تطلب العذاب ضمناً فيأتي العذاب ، قال تعالى :

(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 129)

لكن الله يريد أن يغفر لك ، يريد أن يرحمك ، أي إذا قال أب لابنه : يا بني أنت حر ، إما أن تتفوق في دراستك يكون لك مستقبلاً زاهراً ، أو أن تُقصِّر ، أنا لا أجبرك على الدراسة ، لكن الأب يتمنى من ابنه أن يختار الأول :

(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أنت مخير ، فإن أردت المغفرة غفر الله لك ، وإن ركب الإنسان رأسه ، وطلب المعصية والتفلت عذّبه الله عز وجل ، لكن الله غفور رحيم ، أي يريد الله المغفرة والرحمة .

ثم يقول الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(130)وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(131)وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

(سورة آل عمران)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً

1 ـ أصلُ المالِ أن يكون متداوَلاً بين الناس :

أيها الإخوة ، شاءت حكمة الله أنّ منهجه يقتضي بأن تكون الكتلة النقدية موزعة بين الناس جميعاً ، قال تعالى :

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

(سورة الحشر : الآية 7)

المال إذا لم يكن متداول بين جميع الناس هناك مشكلة كبيرة يعاني منها العالم من بدء الخليقة وإلى قيام الساعة .

2 ـ الربا سبيل الشقاء والجرائم والفساد في الأرض :

حينما يلد المالُ المالَ عن طريق الربا ، تتجمع الأموال في أيد قليلة ، وتُحرم منها الكثرة الكثيرة ، فهذا التجمع الكبير في أيدٍ قليلة ، وهذا الحرمان الشديد للكثرة الكثيرة هذا يسبب الثورات والجرائم والدعارة والسرقات والاحتيالات والفساد الأخلاقي وشقاء الإنسان .

والله أيها الإخوة ، إن الشقاء الذي تعاني منه البشرية في شتى بقاع الأرض يمكن أن يُردّ إلى الربا ، ذلك أن الإنسان إذا شرب الخمر آذى نفسه ، أضرّ بنفسه وحده ، أما إذا زنى أضرَّ بنفسه وأفسد فتاة معه ، أما إذا أكل الربا أضرَّ بمجتمع بأكمله ، لأن هذه الكتلة النقدية ينبغي أن تكون بين الناس جميعاً متداولة ، أما إذا ولد المالُ المالَ تجمعت في أيدٍ قليلة ، ذلك أن الأعمال إذا ولدت المال فلا بد أن يوزع المال على أطراف كثيرة جداً .

3 ـ لابد أن تلد الأعمالُ المالَ :

أبسط مثل ؛ افتح محلاً تجارياً أكثر من ثلث الربح يذهب مصاريف ، يحتاج إلى موظفين ، يحتاج إلى مستودع ، يحتاج إلى نقل بضاعة ، يحتاج إلى معاملات وقرطاسية ، أبسط محل تجاري ثلث أرباحه تذهب مصاريف ، لأنه حرّك الفعاليات الأخرى ، أما لو وضع ماله في مصرف ، وأخذ الربح ، وعاش به ، كل هذا الربح له وحده ، هو لم يفعل شيئاً ، ما قدَّم شيئاً ، ما ساهم في الإنتاج .

لو فرضنا أن إنسانا هيَّأ مزرعة تفاح ، هو هدفه الربح ، هدفه أن يؤمِّن دخل له ولأولاده ، دون أن يشعر ، ما دام هناك إنتاج جديد من هذه الفاكهة هذا يسهم في تخفيض الأسعار ، كلما حوّلت أرضاً يابسة إلى أرض خضراء ، وطرحت إنتاجها في الأسواق معنى ذلك أنت وفرت الحاجات ، وانخفضت الأسعار ، وانخفضت تكاليف المعيشة .

عندنا قاعدة أساسية : إذا ارتفعت الأسعار ضاقت الشريحة ، كالموشور تماماً ، لو أتينا بألف دائرة متدرجة في التناقص ، ووضعناها فوق بعضها البعض شكلت موشوراً ، فكلما انخفض السعر اتسعت دائرة المنتفعين بهذه السلعة .

أبسط مثل لو نزلت فاكهة الكيلو بمئة ليرة كم من إنسان يشتريها في الشهر ؟ قد يكون خمسة آلاف ، الشام فيها خمسة ملايين ، لو كان الكيلو بعشرين ليرة لاشتراها مليونان ، لو كان الكيلو بخمس

ليرات لاشتراها أربعة ملايين ، فالسعر كلما ارتفع كلما ضاقت شريحة المنتفعين به ، فما الذي يخفض الأسعار ؟ حينما تلد الأعمال المال ، أما إذا ولد المالُ المالَ ارتفعت الأسعار .

هذا الموضوع يحتاج إلى بحث طويل ، لأن النظام الاقتصادي في الإسلام مهم جداً ، وكاد الفقر أن يكون كفراً ، في كل مجتمع منضبط بالشرع تكون هذه الكتلة النقدية متداولة بين الناس جميعاً ، أما حينما يحل الربا محل البيع ، أي الإنسان يُجمِّد أمواله بالبنوك من دون أن يقيم مشروعات ، يقال لك بأي بلد في العالم : أول مشكلة هي البطالة ، وحلها إنشاء مشاريع ، وإيجاد فرص عمل ، شاب في أول حياته وجد عمل ، معناها تزوج ، معناها سكن بيتاً ، اشترى حاجاته من ألبسة وطعام ، أساس الحياة أن يكون لك دخل ، والدخل يحتاج إلى فرصة عمل ، فالربا يتناقض مع الأعمال ، أما حين تُسَخِّر مالك في التجارة ، أو الصناعة ، أو الزراعة ، أو في مشروع استثماري ، أو في خدمة ، أو حرفة ، أو صنعة ، عندها تكون قد قدمت شيئا ، وأخذت شيئًا .

الأسئلة :

س : جاءتني بعض الأسئلة قال إنكم ترددون في دعاء خطبة الجمعة دعاء لا أدري معناه وهو : اللهم كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك.

ج : أي يكون أحدهم قد ورث أرضاً ، وكانت الأرض قديماً تباع مقابل حمار صغير ، أما الآن فأصبحت الأرض غالية جداً ، فالدنم مثلاً يباع بثلاثة ملايين ، ومن عنده مئتا دنم ، وكل دنم بثلاثة ملايين يُضرب اثنان بثلاثة فهم ستمئة مليون ، يشعر بسرور ، عنده بيت ارتفع سعره ، عنده تجارة رابحة جداً ، وكيل حصري لمادة تجارية أساسية ، وبيعها رائج جداً ، تجد أن لديه شعورا أنه غني ، وأموره ميسرة ، وليس لديه مشكلة مادية ، عينه قرّت بهذه التجارة ، وطرب لها ، ظن أنه ملك كل شيء ، فأنا بالدعاء : اللهم كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم ، أنت مثلاً قد تكون أخذت بيتاً بخمسة عشر ألفاً ، والآن لا تبيعه بخمسة عشر مليوناً ، وهذا الآن قد بطل ، والأسعار قد نزلت إلى الثلث ، لكن كل إنسان اشترى بيتاً بعشرة آلاف ، وصار ثمنه عشرة ملايين ، يقولها عدة مرات بأنه يملك ثروة ضخمة ، أو عنده أولاد نجباء ، كلهم أطباء ، ومهندسون ، لكنهم جميعاً بلا دين ، فقط يفرح بمناصبهم العلمية ، فقد يفتخر الإنسان بزوجته ، قد يفتخر بأولاده ، قد يفتخر ببيته .

دخلت على شخص فقال لي : هذا البيت مساحته أربعمئة متر ، فقلت الله : هنيئاً لك ، قال لي : هذا البلاط أتيت به من إيطاليا ، شحن جوي ، فقلت له : والله هذا شيء جميل ، بيت فخم في حي راق جداً، له إطلالة جميلة ، سعره من ستين إلى سبعين مليوناً ، فمن كان عنده بيت فخم ، من كان عنده مرتبة ، من كان عنده أرض تنظمت ، وأخذها بسعر بخس ، ثم أصبح كل دنم بالملايين ، ألا يشعر أنه متفوق ، كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم ، فأقرر أعيننا من رضوانك ، المؤمن يقول : أنا لم أؤذِ أحداً في حياتي ، كل عمري أمضيته في خدمة الناس ، أحس بسعادة لا توصف ، فإذا أخذ الله

عز وجل أمانته سأجد لي عند الله شيئاً ، قدمت الكثير ، وتعبت كثيراً ، وسهرت كثيراً ، أنفقت الكثير من المال ، هذه الأعمال الصالحة كلها تصبح رصيداً ضخماً عند الله ، ومن قدَّم ماله أمامه سرَّه اللحاق به . إذا رأى الإنسان أهل الدنيا يطربون لما عندهم من بيوت فخمة ، من مركبات فارهة ، من أراضٍ شاسعة ، من مزارع جميلة جداً .

والله هناك إنسان يملك مزرعة لا تقل كلفتها عن مئة مليون ، كل شيء فيها ، فإذا قرَّت عين إنسان في هذه الدنيا ، يا رب اجعل عيني تقرّ برحمتك ، قال تعالى :

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس : الآية 58)

أي افرح برحمة الله ، افرح أن هداك الله إليه ، افرح أن جعلك في بلد مسلم تستمع إلى هذا الكلام ، فإن ثمة بلادًا ليس فيها إلا الملاهي ، والنوادي الليلية ، والخمر ، والقمار ، بلاد جميلة جداً ، لا تجد فيها إلا النوادي الليلية ، والمسابح ، والمطاعم ، والفسق ، والفجور على أشده ، هنا عندنا مساجد ، عندنا دروس علم ، عندنا ولد يحترم أباه ، عندنا زوجة مخلصة ، عندنا ابنة تحب أباها حباً لا حدود له، عندنا صهر له ولاء لعمه ، عندنا أشياء جميلة جداً في بلادنا .

والله زارنا أخ من أمريكا بقي عندنا مدة شهر ، فقال : والله عندنا كل شيء ، ولكن عندكم الحب والإيمان ، هناك صلات اجتماعية ، رحمة ، تعاون ، بذل لأعمال صالحة ، كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا برضوانك ، هذا الذي قال لي بيتي مساحته أربعمئة متر ، والبلاط من إيطاليا، والطقم مستورد ، والثريا فخمة جداً ، لم يترك شيئاً لم يصفه لي ، فقلت لنفسي : يجب لي أن أبين له ، فقلت له : ما قولك في بيت من أحياء دمشق الفقيرة جداً ، بغرفتين شماليتان على العظم ، والناس ساكنون فيه ، عوضاً عن الأبواب يضعون قطعة من القماش ، هل يتوازنان ؟ فقال لي : أعوذ بالله ، وازنت له بين بيت ثمنه سبعون أو ثمانون مليون ، وبين بيت في حي فقير ، وتحت الأرض ، وازنت له بين ممرض مهنته أن ينظف المرضى ، وبين أكبر جراح ، كل عملية يأخذ عليها مئة وخمسين ألفاً ، في اليوم يجري عملية أو اثنتين ، وازنت له بين معلم في قرية يحمل طعامه ، ويمشي هو المدير ، والآذن ، والمعلم ، وبين أستاذ جامعة عنده ساعتان تدريسًا ، وأستاذ له كرسي ، رئيس قسم مثلاً ، بين رئيس أركان ، وبين جندي يرابط على الخطوط الأمامية ، فقد قارنت له بين هؤلاء قد يكون أستاذ الابتدائي أرقى عند الله من ألف أستاذ جامعي ، أنا لا أذكر أحداً بسوء ، وبين بيت في حي فقير جداً وبين بيت فخم ، قال لي : ما الذي تقصده ، قلت له :

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء : الآية 21)

لكن درجات الدنيا لا تعني شيئاً ، وقد تعني العكس ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 44)

قلت له : درجات الدنيا لا تعني شيئاً ، وقد تعني العكس والدليل أن سيد الخلق كان إذا أراد أن يصلي قيام الليل لا تتسع غرفته لصلاته ونوم زوجته ، لا بد أن تنزاح جانباً كي تصلي ، لم تكن مساحة بيته أربعمئة متر ، أما درجات الآخرة فتعني كل شيء ، وهي أبدية .

والله أيها الإخوة كلام من القلب ، مثلاً : الواحد وأمامه ثلاثة أصفار أصبح ألفاً ، ثلاثة أخر يصبح مليونا ، ثلاثة أخر ألف مليون ، ثلاثة أخر مليون مليون ، الأصفار إلى الشمس ، تصور مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر ، كل ميليمتر صفر ، إن ساوى هذا الرقم الدنيا ، والآخرة لا نهاية قيمته صفر، لو عشت ألف مليون مليون مليون سنة ببحبوحة ، ودخل فلكي ، وبصحة جيدة ، وزوجة جميلة ، وأولاد ممتازين ، وكل شيء عندك والآخرة إلى جهنم ، فأنت أكبر خاسر ، والدليل قول سيدنا علي : << يا بني ما خير بعده النار بخير ، وما شر بعده الجنة بشر ، وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية >> ، فالبطولة لا أن تحقق دخل كبير ، البطولة أن تزحزح عن النار ، وهذا هو الدليل :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : الآية 185)

س : عزمت على الزواج وتطبيقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا ، وَلِجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[مسلم ، البخاري ، النسائي ، أبي داود ، ابن ماجة ، أحمد ، الدارمي عن أبي هريرة]

طرقت أبواب عدة من المتدينين ، ففوجئت بأسلوب تبييت الاستخارة ، مع أنني لم أرَ الأهل ولا الفتاة ، وهم لم يعرفوني فيبيتون الاستخارة عند الشيخ الملتزمين عنده ، فيكون جوابهم : الاستخارة ليست جيدة، وهذا حدث أكثر من مرة .

ج : إخواننا الكرام ، إن أردتم السُّنة فليس في السنة استخارة بالنيابة أبداً ، الاستخارة تكون مباشرة من صاحب الاستخارة ، الفتاة تستخير الله ، أما أن يستخير إنسانا مكان إنسان فهذا لم يرد في السُّنة أبداً .

س : نتيجة لظروف مر بها زوجي فقد حُرم من نعمة الصلاة ، فهل يجوز أن أقوم بالصلاة عني وعنه؟

ج : لا ، والدليل قوله تعالى :

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

(سورة النجم : الآية 39)

إن كان هناك ظروف صحية قاهرة فالله يعفيه ، طبعاً هي فرض لا يسقط بحال ، إلا بالإغماء الشديد ، أو السبات ، فإذا دخل إنسان في السُبات فهذا لا يصلي ، ولا يوجد عليه شيء إطلاقاً .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(35-60): تفسيرالآيات 130 – 133
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-07-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الخامس والثلاثون من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 130)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

1 ـ سببُ ورودِ آية الربا في سياق آيات غزوة بدر وأُحُد :

قد يسأل سائل : سياق الآيات متعلق بالمعارك معركة أحد ومعركة بدر ، فلماذا أقحمت آية الربا في هذا السياق ؟ لو أن هذا كلام بشر نقبله منه خطر في باله هذا الخاطر فأقحمه ، أما لأنه كلام خالق البشر لابد من حكمة بالغة.

أيها الإخوة المؤمنون ، السياق سياق حرب وسياق قتل ، في الحرب يوجد قتل ، ولا يوجد تقديم باقات ورود ، فالقتل ملازم للحرب ، وما من معصية في القرآن توعد الله فاعلها بحرب من الله إلا الربا ، فكما أن الإنسان في الحرب يقتل ، إذا أكل الربا يحاربه الله عز وجل ويتلف ماله ، ويتلفه مع ماله هذه نقطة دقيقة ، كيف أن سياق الآيات المكية :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس : الآية 1)

(وَالْفَجْرِ (1)وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

(سورة الفجر)

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

(سورة الليل : الآية 1)

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

(سورة الطارق : الآية 1)

كل آيات سور الجزء الثلاثين تتعلق بالكونيات ، فإذا وُجِدت سورة واحدة مقحمة ضمن هذه السور ، ولا علاقة لها بالكونيات ، وهي قوله تعالى :

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1)الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(2)وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)

(سورة المطففين)

فلماذا أقحمت هذه السورة المتعلقة بحكم شرعي مع سور تتحدث عن الكون ؟ قال علماء التفسير : لأن الإنسانَ إذا بخس حق إنسانٍ توعده الله بالهلاك ، كمن اشترى منك قماشًا فلم تعطه الكيل الدقيق ، إن كنت مطففاً تستحق الهلاك من الله ، فكيف إذا قصرت في حقك اتجاه الله ؟ الهلاك مصير من طفف ، فكيف مصير من نسي أن الله خلقه ، ولم يكُن شيئاً ، وأنعم عليه بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد .

أيها الإخوة ، أيضاً هنا السياق سياق بدر ، وأحد ، وانتصار ، وهزيمة ، وقتل ، وأسر ، جاءت هذه الآية آية الربا ، فكيف أنك في الحرب إن لم تنتصر تقتل ، فهنا توعد الله المؤمنين بحرب من الله ورسوله إذا هم أكلوا الربا ، ذلك أن كل معصية لها أثر محدود إلا الربا ، فإنها تهدم مجتمعاً بأكمله ، هذا مجتمع الطبقتين ؛ مجتمع الأثرياء الذين يحتارون كيف ينفقون المال في عرس واحد ، خمسة وثمانين مليونًا ، والفقراء الذين لا يذوقون طعم الطعام .

الربا آثاره مدمرة ، يجمع الأموال بأيدٍ قليلة ، ويحرم منها الكثرة الكثيرة بسبب بسيط ؛ هو أن المال يلد المال ، بينما في البيع والشراء الأعمال تلد المال ، وحينما تلد الأعمال المال فلابد من إنفاق كثير ، ولابد من مصاريف ، ومن متعلقات بهذا المشروع ، هذا بشكل مختصر شرحته في الدرس الماضي ، لكن هناك ملمح في الآية .

2 ـ النداء بالإيمان إيقاظا للمشاعر :

يا أيها الذين آمنوا ، ما دمتم قد آمنتم بالله ، ما دمتم قد آمنتم أن الله عز وجل هو الخالق ، وهو الرازق، وهو المربي ، وهو المسير ، وإليه المصير ، ومنهجه حق ، وكلامه حق ، والجنة حق ، والنار حق ، إذاً لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة.

3 ـ إياكم وهذا الفهمَ السقيمَ لهذه الآية :

بينت لكم في الدرس الماضي ، ولابد من التذكير أن بعضهم يفهم هذه الآية فهماً ساذجاً ؛ لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة على أن النهي عن الأضعاف المضاعفة فقط ، فلو أكلنا الربا أضعافاً غير مضاعفة لجاز ، هذا كلام مردود ، ولأن الله عز وجل يقول :

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

(سورة البقرة : الآية 279)

القيدُ الاحترازي والقيد الوصفي :

أيها الإخوة ، هذا قادنا إلى ما يسمى القيدَ الاحترازي ، والقيدَ الوصفي ، لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، فقد كان المرابون في الجاهلية يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة كيف ؟ أقرضه بالربا ، واستحق الأجل ، فجاء الأجل ، واستحق الدفع ، وليس معه ، يقول له : إما أن تؤدي ، وإما أن أربي ، يضاعف الفائدة لشهر آخر ، يأتي الشهر الآخر ، فإما أن تؤدي ، وإما أن تربي ، فكأن الجاهليون يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة ، كلما زاد الأجل ارتفعت نسبة الربا .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة : الآية 189)

3 ـ اتقوا الله بتركِ الربا :

اتقوا الله هنا بمعنى دعوا الربا ، ففي حياة الإنسان قضية مهمة جداً ، وهي كسب المال :

((يا سعد أطب ، مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

الأحكام الشرعية كلها بكفة ، وكسب المال بكفة واحدة ، إنه إن طاب دخلك استجيبت دعوتك ، إنه إن طاب دخلك بارك الله لك بمالك ، وبارك الله لك بأولادك ، بارك الله لك بزوجتك ، بارك الله لك بدخلك إن طاب دخلك ، معنى أطب مطعمك أن تشتري طعاماً بثمن كسبته من كد يمينك ، وعرق جبينك .

(وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 131)

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

الكافر بحكم تحريم الربا مصيرُه النارُ :

أي أن النار مصير من أكل الربا ، وكفر بهذا الأمر .

إخواننا الكرام ، عندنا كفر يخرج من الملة ، صاحبه كافر ، وعندنا كفر دون كفر ، فالأمر إن لم تنفذه، وأنت متوهم أن هذا الأمر غير معقول فهذا نوع من الكفر ، وإذا قال لك أحدهم : هل من المعقول أن أقرضه مبلغ نصف مليون لسنة ، وما أربح ؟ معنى هذا أني جمدت مالي هذا ، ولو أنني استثمرته في منشأة لعاد علي بالربح .

أنت حينما تحكم عقلك فيما قطع الله به فهذا نوع من الكفر ، قال تعالى :

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

(سورة التوبة : الآية 54)

معنى هذا أن الكفر ألاّ تعظِّم أمر الله عز وجل ، ألاّ تراه من عند خالق الكون ، علة أي أمر أنه أمر ، قال تعالى :

(وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 131)

كنت أقول لكم دائماً : إن الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، مسلمون يؤدون شعائر الدين ، يصلون ، يصومون ، يتصدقون ، اسمعوا ، عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا ، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

إذاً أصبحت أعمالهم هباءً منثوراً ، في موقف آخر حينما سأل النبي أصحابه رضوان الله عليهم سألهم من المفلس ؟ قالوا بحسب العرف من لا درهم له ولا متاع ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((هَلْ تَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، قَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ مِنْ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم ، الترمذي ، أحمد]

لا تصح: العبادات الشعائرية إلا بصحة المعاملات

معنى هذا أن هناك معاملات وعبادات ، عبادات شعائرية ، وعبادات تعاملية ، والعبادات الشعائرية ، لا تصح ، ولا تقبل إلا بالعبادات التعاملية ، لذلك ترك دانق من حرام ، أي ثلث الدرهم خير من ثمانين حجةً بعد الإسلام ، لذلك لما سيدنا ابن عباس رأى رجلاً كئيباً سأله : << مالي أراك كئيباً ؟ قال : ديون لزمتني ، ما أطيق سدادها ، قال : لمن ؟ قال : لفلان ، قال : أتحب أن أكلمه لك ، قال : إن شئت ، فقام من معتكفه ، فقال له أحدهم : يا ابن ، عباس أنسيت أنك معتكف ؟ قال : لا ، ولكنني سمعت صاحب هذا القبر ـ والعهد به قريب ، ودمعت عيناه ـ يقول :

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا))

حقيقة الدين ترك الحرام ، وفعل الخيرات ، هذه هي حقيقة الدين ، وهذا الراعي الذي امتحنه سيدنا عمر وقال له : << بعني هذه الشاة وخذ ثمنها قال : ليست لي ، قال له : قل لصاحبها أنها ماتت ، قال: ليست لي ، قال : خذ ثمنها ، قال : والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : إنها ، ماتت أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق ، أمين ولكن أين الله ؟ >> .

تضع يدك على حقيقة الدين حينما تدع المال الحرام ، وتضع يدك على حقيقة الدين حينما تعمل صالحاً ابتغاء مرضاة الله هذه حقيقة الدين ، أما الصلاة منشطة ، وترفع شأنك عند الناس ، وهذه العبادات الشعائرية ، الحج يرجع زينة ، والحاج فلان ، والله ينفعنا ببركته ، وادعُ لنا يا سيدي ، أنتم كنتم في الحج ، أعمال فيها وجاهة .

العبادات الشعائرية لا تصح ، ولا تقبل إن لم تصح العبادات التعاملية ، أعيد وأكرر : ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة آل عمران : الآية 130)

يا من آمنتم بالله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : الآية 130)

لا تأكلوا الربا ، وكان الجاهليون يأكلونه أضعافاً مضاعفة ، فالنهي هنا عن كل الربا ، وعن جنس الربا .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)

(سورة آل عمران : الآية 130)

أي أطيعوا الله في ترك الربا .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(130)وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 130)

إياكم والأساليب الملتوية لأكل الربا :

هؤلاء الذين كفروا بهذا الحكم ، وقالوا : لابد أن نستثمر أموالنا ، ولا يمكن أن نجمد هذه الأموال ، فنقرضها قرضاً حسناً ، طبعاً الآن إذا كان هذا الربا محرمًا تحريماً واضحاً صارخاً في الشرع فهناك آلاف الأساليب التي يحتال بها الناس على أكل الربا .

يقدم لك بيتاً تسكنه بلا مقابل ، على أن تجعل عندنا مبلغاً من المال نحن نستثمره ، فإذا خرجت من البيت أعطيناك المبلغ .

تدخل شريكاً في ، بيت تأخذ أجرته ، وأنت في الحقيقة تأخذ فائدةً على هذا القرض، مبلغك مضمون بالتمام والكمال بعد سنتين ، وما دام ثمة ضمان فقد صارت هذه الأجرة نوعاً من الربا .

وضعت مالك في الاستثمار بربح ثابت ، قد يقول هذا المستثمر البسيط : أنا تاجر صالح ، حججت ثماني عشرة حجة ، ولا يحب أن يدخل في متاهات الحسابات ، يعطي على الألف كذا ، أفضل لي ، ليس له مصلحة أن يقوم بجرد ، هذا أيضاً ربا .

الربا الصارخ واضح ، قرض ربوي ، هناك ألف أسلوب للربا بشكل ملتوٍ في بعض البلاد الإسلامية يوجد عشرة أكياس رز ، يمكن أن يكون عمرها عشرين سنة ، يأتي إنسان ، ويشتري عشرة أكياس فرضاً بعشرة آلاف ديناً ، ثم يبيعها نقداً لصاحب الأكياس مثلاً بثمانية آلاف ، الذي حصل أن صاحب المشتري دفع ثمانية آلاف ، وقبض بعد حين عشرة آلاف ، هذا بيع العينة ، وهو ربا محقق ، ومشاركة في بيت ، وأخذ أجرة ، ومبلغك مضمون ، هذا ربا .

تشتري الصوف فرضاً بربع قيمتهم لستة أشهر ، الآن كيلو الصوف ثمنه مئة ليرة ، تشتري بعشرين ليرة لستة أشهر ، أنت أخذت قرضًا ربويًا كبيرًا جداً ، الراعي بحاجة إلى علف لغنمه ، وليس معه ثمنه، والغنم يكاد يموت ، فيبيع الصوف بخمس قيمته بقرض لستة أشهر ، وهو قرض اسمه سلم ، الصورة بيع سلم ، وهو ربا ، لذلك من دخل السوق دون أن يتفقه أكل الربا شاء أم أبى ، وأخطر شيء في حياة الرجل موضوع كسب المال ، المرأة دينها سهل ، فإذا صلت خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت نفسها ، وأطاعت زوجها ، دخلت جنة ربها ، ولكن ثمة مزالق في كسب المال لا تعد ولا تحصى ، أكثرها تحايل على الربا ، والعملية عملية ربا ، لكن بأسلوب آخر .

حتى قيل في مصر : إذا وضعت مالك في البنك ، أو في المصرف فهو أمانة عند هؤلاء ، لأنهم أصحاب ذوق ، يقدمون لك عوائد ، وليست فوائد ، الأسماء غيرناها ، ويمكن أن نغير الاسم ، نغير الشكل ، نغير الصيغة ، الطريقة ، الربا ربا بأي اسم ، وبأي طريق ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(130)وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(131)وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

(سورة آل عمران)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

1 ـ رحمة الله واسعة :

رحمة الله مطلق عطائه ، رحمة الله يصعب تفسيرها ، فهي تبدأ من الصحة وتنتهي بالجنة ، تبدأ من التوفيق ، ومن راحة البال ، ومن الشعور بالأمن ، ومن الشعور بالسكينة ، ومن حسن السمعة

بين الناس ، ومن القناعة ، ومن الرضا عن الله عز وجل ، رحمة الله كلمة لا حدود لها ، أقلها الصحة ، وأعلاها الجنة ، قال تعالى :

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

(سورة آل عمران)

2 ـ رحمة الله ثمنها طاعته :

رحمة الله ثمنها طاعته ، لذلك لما التقى سيدنا عمر بسيدنا سعد بن أبي وقاص ، وكان هذا الصحابي الجليل خال رسول الله ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحبه حباً جماً ، وكان يداعبه ، ويفتخر به ، فكان إذا دخل عليه يقول :

((هذا خالي أروني خالاً مثل خالي))

وما فدى أحداً بأمه وأبيه إلا سيدنا سعد ، قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَقَدْ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ أَبَوَيْهِ كِلَيْهِمَا يُرِيدُ حِينَ قَالَ :

((فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ، وَهُوَ يُقَاتِلُ))

[متفق عليه]

ومع ذلك لقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : << يا سعد ، لا يغرنك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم له فقط ، ليس بينك وبين الله إلا الطاعة ، ليس بينك وبين الله إلا الطاعة فقط .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب نا فإنا منحنا بالرضى من أحبنا

و لذ بحمانا واحتمِ بجنابنــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

الآن الآية التي تليها :

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 133)

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

1 ـ دقق في كلمة سارعوا :

أولاً : دقق في كلمة سارعوا ، أنت في الدنيا في أيام معدودة ، بل أنت بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك ، لذلك ينبغي أن تسارع ، وليس هناك مسارعة إلا للسباق ، فأنت في سباق ، ومن لم يكن في زيادة ، فهو في نقصان ، والمغبون من تساوى يوماه .

2 - ينبغي أن تكون مع الجماعة :

(وسارعوا)

فيها واو جماعة ، فينبغي أن تكون مع الجماعة ، وليس هناك سباق فردي في الأرض كلها ، ولكن سمعت إنسانًا دخل في سباق بمفرده فكان الأول ، هذا كلام مضحك ، لا يوجد في الأرض سباق فردي، كلمة سباق في جماعة ، أو اثنين ، ينبغي أن تكون مع الجماعة ، لأن الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، والشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

(وَسَارِعُوا)

المسارعة في سباق أولاً : تقتضي هذه الآية أن تكون في جماعة ، وتقتضي هذه الآية أن تكون متفوقاً، أن تكون في المقدمة ، لأن علو الهمة من الإيمان ، وهناك ملمح دقيق في آية أخرى يفيدنا ، الآن قال تعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : الآية 2)

إذا كانت الشعبة متفوقة كلها نقرأ النتائج لا لنعرف من نجح ، ومن رسب ، لا كلهم ناجحون ، بل نقرأ النتائج لنعرف من هو الأول ، ومن هو الثاني ، ومن هو الثالث.

كل شيء ميسر ، لك الكون ينطق بوجود الله ، وبوحدانيته ، وكماله ، وهذا القرآن فيه إعجاز ، وكلام النبي فيه رحمة ، فكل شيء جاهز أمامك ، النجاح مفروغ منه ، لكن الامتحان من أجل معرفة المتفوقين فقط ، ليبلوكم أيكم أحسن عملاً فقط .

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 133)

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ

1 - المعنى الأول :

كلمة عرضها تعني جنة واسعة أرجاؤها ، كلمة عريض يعني واسع ، فلان له جاه عريض ، مصطلح لغوي ، فلان ذو دعاء عريض ، يرفع صوته بالدعاء ، فلان مثلاً له جاه عريض ، العرض العظم والسعة ، هذا المعنى الأول :

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ)

(سورة آل عمران : الآية 133)

هناك ذنوب تمحى أولاً ، وهناك جنة ثانية ، تخلية وتحلية ، محو سلبي ، وشيء إيجابي ، سارع إلى شيئين ؛ إلى مغفرة ، وإلى جنة ، لو أننا قلنا : سارع إلى مغفرة الله ، غفر لك ، لا يوجد شيء إيجابي ، عفا عنك ، أنت إذا عفوت عن طالب مقصر ، فمقتضى هذا الإعفاء أن تقدم له جائزة أيضاً ، فأنت إن سارعت إلى شيئين ؛ إلى مغفرة الله أولاً ، وإلى جنة عرضها السماوات والأرض .

2 ـ المعنى الثاني :

إذا كان عرضها السماوات والأرض فكم طولها ، السماوات والأرض تعبير قرآني عن الكون ، والكون ما سوى الله ، إذا كانت هذه الجنة الذي دعينا إليها عرضها السماوات والأرض فكم طولها ؟

في آية أخرى :

(فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ)

(سورة الرحمن : الآية 54)

إذا كانت البطانة من إستبرق فما نوع القماش الأساسي ، هذا نوع من المبالغة ، البطانة من إستبرق ، فما قولك بالقماش الذي يظهر إلى الظاهر ، إذا كانت هذه الجنة عرضها السماوات والأرض فكم طولها؟

(أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 133)

3 ـ الجنة لمن اتقى :

الذي يقول : معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، الذي يقول : الله الغني ، هذا الذي يتورع عن المعصية، هو المتقي ، وهذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض ، والتي هو فيها إلى أبد الآبدين :

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر : الآية 48)

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

(سورة الزمر : الآية 34)

(جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة طه : الآية 76)

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

(سورة الدخان : الآية 54)

الفائز الحقيقي مَن فاز بالجنة :

اقرأ أوصاف الجنة في القرآن الكريم ، كلام خالق هذا ، كلام لابد أن يقع ، من هو الفائز ؟ ما هو الفوز عند الناس الآن ؟ من هو الفائز ؟ معظم الناس يرون أن الفائز هو الغني الذي له دخل كبير ، إما من تجارة ، أو صناعة ، أو زراعة ، أو منصب رفيع ، أو بيت واسع جداً في أرقى أحياء دمشق ، أو مركبة فارهة جداً ، أو مزرعة كالجنة مثلاً ، أو بيده وكالات حصرية ، تدر عليه دخلاً فلكياً ، أو عنده أراض أخذها بثمن بخس ، فإذا ثمنها اليوم أضعاف مضاعفة ، هذا الفوز عند الناس ، أو له زوجة تروق له ، أو له أولاد كلهم أطباء ومهندسون ... هذه كلها مقاييس الدنيا ، لكن ما مقياس الفوز عند الله؟ آية واحدة قال تعالى :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : الآية 185)

من زحزح عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز ، الزحزحة فعل ثنائي مضعف ، مثل ك قلقل ، ودمدم ، وعسعس ، وزلزل ، وهو أساسه زل وزل ، تصبح زلزل ، سمّاه علماء اللغة ثنائيًا مضعّفا ، هذا يفيد الحركة ، فكل ما في الدنيا يدعو إلى جهنم ؛ نساء كاسيات عاريات ، الدنيا خضرة نضرة ، مالها يغري، ونساؤها تغري ، وقصورها تغري ، ومركباتها تغري ، وتجارتها تغري ، إنها ترقص للناس ، وقد افتتنوا بها ، فإذا أخذ الإنسان الآن تأشيرة دخول إلى أمريكا فكأنه حج ، يقول : الله يطعمها لكل مشتهٍ مثلاً ، هذه قيم الناس ، استطاع أن يأخذ تأشيرة دخول إلى أمريكا ، أو إلى أوروبا مثلاً ، أو تمكن من تجارة رابحة مثلاً ، لكن في القرآن :

(فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

هذا المؤمن ، المؤمن مصدق ، لذلك لما خرج قارون بزينته قال تعالى عنه :

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص)

طريق الجنة شاقٌ لكنه مريح في النهاية

وبشكل مبسط تمشي على طريق مستوٍ ، ثم وجدت طريقين ؛ طريقًا هابطة معبدة ، فيها ورود ، ورياحين ، وأشجار ، وأنت راكب دراجة ، والطريق الآخر صاعدة ، فيها ، حفر ، وأكمات ، وغبار طبعاً تختار بالفطرة الطريق الهابطة ، لأنها مريحة جداً ، وجميلة ، ومن دون جهد ، وعند مفترق الطريقين لوحة كُتب عليها : هذه الطريق الصاعدة تنتهي بقصر منيف ، فيه كل شيء لمن دخله ، وهذه الطريق النازلة تنتهي بحفرة ما لها من قرار ، فيها وحوش كاسرة ، بعد أن قرأت الإعلان أيّ طريق تختار ؟ الصاعدة تتناقض مع طبيعتك ، أنت راكب دراجة تحتاج إلى جهد كبير

جداً ، والطريق غير مستوية ، وعرة ، وفيها أكمات ، وحفر وحرّ ، ولكن بعد نصف ساعة أنت في قصر منيف ، وهذه الطريق الهابطة مريحة ، معبدة ، محاطة بالأزهار ، والرياحين ، فيها نساء جميلات ، لكن تنتهي بحفرة ما لها من قرار، هذه اللوحة تكفي أن تقلبك مئة وثمانين درجة ، هذه اللوحة تكفي أن تنعكس موازينك ، ما قولك إذا كان معلقًا إلى جانب اللوحة منظارٌ ، إذا أردت فانظر إلى نهاية الطريقين ، هذا ما قاله النبي الكريم ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِيَدِهِ إِلَى الأَرْضِ :

((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، ألا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلاثًا ، ألا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ ، وَمَا مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إلا مَلأَ اللَّهُ جَوْفَهُ إِيمَانًا))

[أحمد]

كل شيء مريح آخرته إلى جهنم ، يأكل بلا قيد ، حرام ، حلال ، يجوز ، لا يجوز ، خنزير ، يمتع عينيه بكل امرأة تحل له ، ولا تحل له ، امرأة أجنبية ، يقول لك : أريد أن أعيش وقتي ، هذا كلام شيطان ، استرخاء من دون قيد ، تفلت ، لا قيد ، ولا قيمة لشيء حرام ، دابة أفلتتْ ، فهي تفعل ما تشاء ، أما عمل الجنة ففيه قيود ، حرام ، حلال ، مكروه ، مستحب ، أمر ، نهي ، يجوز ، ولا يجوز ، جهنم ، ترى حياة المؤمن كلها قيود .

مثلاً : إذا التقى شابان مع بعضهما ، قال الأول : أنا في المدرسة ، وعندنا ست وثلاثون ساعة دوام ، وعندنا أساتذة مخيفون ، وكل يوم هناك وظيفتان ، أو ثلاثة ، وتقارير ، ومحاضرات ، وتلخيص كتب ، وأبي قاسٍ جداً ، فبإشارة من المدرسة أنني مقصر يؤنبني ، والله حياتنا كلها لا تطاق ، فالثاني لا يوجد عنده مدرسة ، من أبناء الأزقة ، ينام إلى الظهر إذا أراد ، يقول : لا يوجد شيء أفعله ، مساءً أذهب إلى السينما ، وقبل الظهر نائم ، وألعب في الليل النرد مع أصدقائي ، في الحقيقة من الناجح ؟ المتعب أم المستريح ؟ العبرة أن ترى النهاية ، العبرة أن تضحك متأخراً ، فكل إنسان يضحك أولاً يبكي كثيراً ، وكل إنسان يبكي كثيراً ، ثم يضحك فهو الفائز ، فبطولتك لا أنْ تضحك الآن ، بل أن تضحك غداً ، قال تعالى :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين : الآية 34)

أما الكفار إذا رأوا مؤمنًا محدودًا ، متزمتًا ، عقله صغير ، يلحق الدين ، ماذا في الدين ؟ تعال ، وانظر معنا ، وانظر المناظر الجميلة ، الاختلاط ما أجمله ، تعال معنا ، نحن شباب طيبون ، ومرحون ، فالذين آمنوا يوم القيامة من الكفار يضحكون .

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

(سورة المؤمنون)

أيها الإخوة الكرام ، المسارعة تقتضي أن تكون في جماعة ، والمسارعة تقتضي أن تكون ذا همة عالية ، والمسارعة تقتضي أن تكون ملتزماً بالأمر والنهي تماماً من أجل المغفرة ، وملتزماً بالعمل الصالح من أجل الجنة ، فالمغفرة تحتاج إلى توبة ، والجنة تحتاج إلى عمل صالح ، والدليل :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

(سورة الكهف : الآية 110)

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133))

جنة تساوي الكون ، هؤلاء المتقون :

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 134)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع شرح هذه الآيات .

الأسئلة :

هناك بعض الأسئلة :

س : إذا كان المسلم قد اقترف ذنباً معيناً ، فتاب إلى الله عن هذا الذنب ، ثم عاد إلى هذا الذنب مرةً ثانية ، وثالثة ، وأكثر فهل يلزم لتوبته الجديدة كفارةً .

ج : الحقيقة القضية نفسية ، كنت أقول لكم دائماً : أهون توبة أول توبة ، بكلمة يا ربِ لقد تبت إليك تشعر أن الله عزو جل ألقى في روعك ، وأنا يا عبدي قد قبلت ، ولو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي ، لكن ثاني توبة صعبة ، لذلك كاقتراح التوبة الثانية من الذنب نفسه تحتاج إلى ترميم ، إلى صدقة ، إلى إحسان ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، من أجل أن ترضى عن نفسك ، وأن تستعيد توازنك مع الله عز وجل إذا وقعت بالذنب أول مرة يكفي أن تقول يا رب لقد تبت إليك ، أما إذا وقعت في الذنب مرةً ثانية ينبغي أن تعمل عملاً يرمم هذه التوبة التي نقضت ، ثم تبت مرةً ثانية ، لذلك الصدقة ممكنة ، الصيام ممكن ، عمل صالح ممكن ، إذا رافق التوبة الثانية هذه الأعمال الله سبحانه وتعالى يمكن أن يقبل هذه التوبة ، لكن في بالنهاية ليس لنا إلا الله ، لو الذنب أعاده مليون مرة يجب أن تتوب للمرة المليون ، لا يوجد طريق ثاني ، إذا لم تتب إليه ماذا سيكون المصير ؟ أطمئنك بقوله تعالى :

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 27)

الله عز وجل يريد التوبة على عباده ، والله عز وجل يحب التوابين .

س : سؤال متعلق بعرض أسعار ؟

ج : أقول لك : من طلب منك هذا العرض يجب أن تضيف على السعر الذي تأخذه مني سعراً إضافياً يكون لي عمولة هذا لا يجوز ، أما أنت إذا أكرمته من تلقاء نفسك فلا مشكلة ، أما أن

تضيف على السعر في الفاتورة الرسمية سعرا إضافيا ليأخذه طالب هذا العرض فهذا لا يجوز ، أما إن أكرمته من عندك ، ومن دون شرط ، ومن ربحك فهذا ممكن .

س : هل يجوز أن تعمل على قدر الأجرة ؟

ج : لا يجوز ، أنت معلّم عندك خمسة وثلاثون طفلاً بين يديك ، والمعاش لا يكفي ، والدرس تعطي ربعه من دون شرح ، اقرأ قراءة صامتة يا بني ، وأنت نائم على الطاولة ، لماذا تفعل هذا ؟ أنا على قدر المعاش أعمل ، هذه ليست واردة أبداً ، إذا لم يعجبك المعاش فاترك العمل فوراً ، وإذا كان معاش هذا العمل قليلاً فاتركه ، أنت الآن تؤذي أناساً بريئين ، وضعوك في مستوصف بمعاش لا يكفي ، وجاء رجل يريد إسعافًا ، ومات ، لماذا أنت أهملته ؟ أنا أعمل على قدر المعاش ، هذا كلام خطير جداً، كلام مخيف ، العمل أمانة في عنقك ، أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك ، إن كنت لا تتحمل هذا الدخل فاترك ، قدم استقالتك ، واعمل عملاً يكفيك دخله ، وإذا لم تجد عملاً آخر معنى هذا أن همتك ضعيفة ، لذلك قالوا : من يتأفف من عمله لا يصلح لأي عمل آخر ، يوجد إنسان نوعه نفاق ، أينما تضعه يقول لك : لا يؤدي المعاش ، وهذا العمل متعب ، والله يخلصني منها ، أحياناً الله عز وجل يبارك لك في هذا الدخل القليل ، يعفيك من مرض ، وأدوية ، وتحاليل ، وتصوير ، والإيكو . أحياناً تجد أن الدخل لا يكفي ، ولكن الله يبارك لك ، يجب أن نؤمن بالبركة ، أنت أدِّ عملك بإتقان والله عز وجل لا ينساك من فضله ، هذا هو المؤمن ، أما أعمل على قدر الراتب والعياذ بالله فهذه إذا بدأت تنتهي حياتنا .

عندك خمسة وثلاثون طفلاً ، كل واحد مثل الوردة ، جاء يتعلم ، لا أعلمه ، المعاش لا يكفي ، وكثير من المدرسين لا يصحح وظيفة ، لا يسأل طالباً ، اقرأ أنت ، وانتهى الدرس ، أنت تضع ابنك في مدرسة يخرج ، ولا يتعلم شيئًا ، فما الحل ؟ لا يوجد حل ، ابنك في مدرسة رسمية ، وهذا المعلم إيمانه ضعيف يعمل على قدر الراتب ، وهذه ليست واردة أبداً ، وأنا أعدها خرقًا للاستقامة ، وخيانة لما ائتمنت عليه ، أنت كمؤمن ابذل كامل جهدك ، واطلب من الله الأجر ، وإذا ما وجدت عملاً آخر ماذا تفعل ؟ هذا الصبر ، الناس يطلبون الرفاه ، وليس الأساسيات ، الأساسيات مؤنة ، أنت تريد غرفة تؤويك ، وثوبًا يسترك ، ويكون عندك قوت يومك ، هكذا النبي قال ، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي ، ابن ماجه]

فإذا كان مع الإنسان - لا سمح الله ولا قدر - مرض عضال ، ودخله فرضاً خمسة آلاف ، وخيروه نشفيك ، ولكن يبقى ألفان ، هل يقبل ؟ يقبل ، ويتمنى ، ويقول لك آكل خبزة يابسة مع الشاي ، ولكن الله يشفيني .

حدثني أخ قصة من يومين جاءته مولودة فيها مشكلة ، قال لي كلفتني سبعمئة ألف خلال يومين ، فقال لي كلمة تأثرت بها : كل إنسان يأتيه مولودة أو مولود سليم كأن معه هدية مليون ليرة ، خطأ بسيط في شريان القلب عوض الشريان وريد بالعكس ، لونها زرقاء .

طبعاً هذا عمل طيب هو أنقذ مولودًا ، إذا جاءت الإنسانَ مولودة سليمة معنى هذا جاءت معها هدية مليون ليرة ، إذا الله عافى لك أولادك وزوجتك ، وأعطاك صحة وسمعة طيبة ، وعندك شيء تعيش منه فكأنما حيزت لك الدنيا بحذافيرها ، ابتعد عن الحرام ، وإن كان مغريًا وسهل .

س : رجل اقترض من البنك قرضًا ثم تاب ؟

ج : قال تعالى :

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

المقترض إذا أودع ماله في البنك ، وأخذ فائدة يجب أن يتبرأ منها ، وأن ينفقها في وجوه الخير ، وأن لا تدخل إليه إطلاقاً ، وليس له وليس له سوى أن يتوب إلى الله عز وجل .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(36-60): تفسير الآيات 134 - 137
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-08-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والثلاثين بعد المئة ، وقد شرح جانب منها في الدرس الماضي من قوله تعالى :

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 133)

الإنفاق :

هؤلاء صنفان المتقون والعاملون ، المتقون من صفاتهم :

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

1 - يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

إنفاق المال صعب محالف لطباع النفس :

بدأ الله بالإنفاق لأنه أصعب شيء ، فقد تتوضأ ، قد تصلي ، قد تذهب إلى العمرة سياحة ، قد تحضر مجلس علم ، أما حينما تنفق ، وقد حبب الله إليك المال ، والمال مادة الشهوات ، والمال يحل مشكلات كثيرة ، أنت حينما أودع الله في قلبك حب المال كلفك أن تنفق معنى ذلك أنك فعلت شيئاً مهماً . بدأ الله بالإنفاق ، بل إن إنفاق المال أهون بكثير من إنفاق النفس ، أكثر الآيات جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وبدأ الله بالمال ، لأنه أهون في إنفاقه ألف مرة أن تنفق من أن تضحي بحياتك ، فجعل الله إنفاق المال أولاً ، ثم إنفاق النفس ثانياً ، إلا في آية واحدة عكست الآية ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 111)

في معرض البيع القطعي نبدأ بالعقد بكتابة المهم ، ثم الأقل أهمية فهنا ينفقون في السراء والضراء .

2 ـ الإنفاق مجاله واسع :

وكلمة ينفق كلمة واسعة ينفق ماله ، وقد ينفق علمه ، وقد ينفق وقته ، هناك أشخاص أثمن شيء في حياتهم وقتهم ، ينفقون من أوقاتهم ، هناك أشخاص أثمن شيء في حياتهم أموالهم ينفقون أموالهم ، هناك أشخاص أثمن شيء في حياتهم ماء وجههم فينفقونه في خدمة أخ مظلوم في سبيل الله ، له صديق، وبيده الأمر يحب أن يبقى معه مترفعاً ، ولو ذهبت إلى هذا الإنسان الذي بيده الأمر لحلت مشكلة هذا المؤمن ، لكن تحتاج أن تزوره في مكتبه ، وأن تسأله عن صحته ، وأن تعرض له هذه ، والقضية هذا يحتاج إلى بذل ماء وجه.

الحقيقة :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : الآية 92)

يجب أن تنفق شيئاً تحبه ، يجب أن تنفق شيئاً ثميناً جداً ، الحقيقة أن الإنسان يرقى بالإنفاق ، ويسلم بالاستقامة ، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : الآية 30)

بالاستقامة تسلم ، لكن بالإنفاق تسعد ، وأوضح دليل على ذلك قوله تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : الآية 110)

قد تملك حقيقة ، ويأتيك إنسان مؤمن طاهر يسألك عن هذه الحقيقة ، هذه تملكها ، وتربح منها في مجال التجارة والصناعة ، فإذا بذلتها لمؤمن تتوهم أنت أن ربحك سيهبط ، لكن المؤمن يبني حياته على البذل ، فقد يعطي من أسرار حرفته لمؤمن .

حدثني أخ توفي رحمه الله ، كان عنده محل حلويات ، دخل إليه شخص من بلاد بعيدة من أقصى الشمال الشرقي ، وليس مسلماً ، وقال له : أتعلمني صناعة هذه الحلويات ؟ قال له : حباً وكرامة ، مباشرةً طبخ طبخةً أمامه ، ثم كلفه أن يطبخ طبخةً تجريبية ، يقول لي هذا الأخ رحمه الله : ثلاثون عاماً كل عام يأتي هذا الذي علمه صناعة الحلويات من أقصى البلاد ليقدم له هديةً ، وشكراً على هذا العمل الطيب .

3 ـ المؤمن يبني حياته على الإنفاق :

إخواننا الكرام ، بالمناسبة المؤمن يبني حياته على الإنفاق ، قال تعالى :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل : الآية 5-7)

لأنه صدق بالحسنى ، لأنه صدق أنه مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض ، لأنه صدق بالحسنى، والحسنى هي الجنة ، قال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس : الآية 26)

ما دام قد صدق بالحسنى ، فهو يتقي أن يعصي الله ، وهذه استقامة ، وفيها السلامة ، لكن لا يكفي لابد أن يبني حياته على العطاء ، بل إن حجمك عند الله بحجم عطائك ، بل إن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح والدليل :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام : الآية 132)

من أنت ؟ من أنت عند الله ؟ بقدر عملك الصالح ، بقدر بذلك وعطائك ، المؤمن الصادق بنى حياته على العطاء يسعده أن يعطي لا أن يأخذ ، يسعده أن يسهر الليل في سبيل الله ، يسعده أن ينفق ماله في سبيل الله ، يسعده أن ينفق وقته في سبيل الله ، يسعده أن ينفق ماء وجهه في سبيل الله .

إخوة كرام يطرقون أبواب التجار ليأخذوا منهم مساعدات للفقراء والمساكين ، هذا العمل ليس سهلا ، فيه بذل ماء وجه ، لكنك تفعل هذا ، وأنت مرتاح ، لكن آثرت بذل ماء الوجه حتى يرضى الله عز وجل. إخواننا الكرام ، حقيقة الإيمان ما أن تستقر في قلب المؤمن حتى تعبر عن ذاتها بعمل ، والإسلام حركة ، الإسلام عمل ، الإسلام بذل ، وتضحية ، ولن يتألق المؤمن إلا بالعمل ، لن يتألق المؤمن إلا بخدمة الخلق ، وقد ناجى أحدهم ربه قال : يا رب لا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك ، ولا يطيب الليل إلا بمناجاتك ، النهار لا يطيب إلا بخدمة عباده ، وجرب أن الله عز وجل إذا تفضل عليك قدر على يديك عملاً صالحاً ، توفيق بين زوجين ، إكرام يتيم ، إطعام مسكين ، توفيق بين شخصين ، حينما تنفق من حكمتك ، ومن ذكائك ، ومن علمك ، ومن وقتك ، ومن مالك ، ومن ماء وجهك ، والآية الأساسية :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران الآية : 92)

4 ـ لابد من الإنفاق في السراء والضراء :

لكن هناك أناس ينفقون في الرخاء ، ليس عنده عمل يذهب إلى المسجد ، الوقت شتاء ، والليل طويل ، والدرس ممتع ، أما لأدنى عمل ، لأدنى انشغال يلغي الدرس ، أما هنا :

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)

ينفق وهو في بحبوحة ، وينفق ، وهو في ضائقة ، هناك أناس ينفقون برخاء ، وهم على فراش الموت، انتهى المال ، عنده المال لا قيمة له ، أن تنفق ، وأنت صحيح شحيح .

سيدنا الصديق كان ينفق على مسطح ، فلما تكلم في ابنته ، واتهمها في الزنا أوقف الإنفاق ، هو بشر ، والبنت غالية جداً ، وهي بريئة ، فعاتبه الله عز وجل :

(أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)

(سورة النور الآية : 22)

فبكى ، وقال : أحب أن يغفر الله لي .

إخواننا الكرام ، ما من صفةٍ صارخةٍ واضحةٍ جليةٍ في حياة المؤمن كالإنفاق ، فإنه يسعده أن ينفق ، أحياناً تعرض على مؤمن خدمةً لله ، تعرض عليه أجراً ، فكأنك صفعته ، ابتغى ذلك عند الله ، أراد هذا العمل أن يكون قربةً لله ، أراد من هذا العمل أن يكون وسيلةً لله عز وجل ، قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : الآية 110)

إذا شكوت جفاف القلب فاعمل عملا صالحا خالصا لله :

بالمناسبة أيها الإخوة ، قد يشكو أحد المؤمنين الصادقين فينكر قلبه ، يشكو جفافاً في قلبه ، يشكو تصحراً في قلبه ، أقول : أنا أصلي ، وأصوم ، وأنا مستقيم ، لكن لا يوجد سرور ، يتضايق ، النصيحة بمثل هذه الحالة اعمل عملاً صالحاً ، اعمل عملاً صالحاً لا تبتغي به إلا وجه الله .

حدثني أخ قال لي : أنا جئت إلى الشام ، وكنت في مصيف الساعة الثانية عشر في بلدة من ضواحي دمشق ، رأيت رجلاً وامرأته يمسكان بطفل ، وهما قلقان جداً ، قال لي : أوقفت مركبتي ، وسألتهم : ما الأمر ؟ وهم نازحون من لبنان في أيام حوادثها ، وقد ارتفعت حرارة الطفل إلى الواحد والأربعين ، وهم قلقون ، قال لي : أخذتهم بسيارتي إلى مستشفى ، ثم إلى صيدلية لتناول الأدوية ، وبقيت معهم حتى الساعة الرابعة صباحاً ، وأعدتهم إلى بيتهم ، أقسم لي بالله أنه خلال عشرة أيام كأنه مغموس في سعادةٍ لا توصف .

كل هؤلاء الخلق عباد الله ، فإذا أردت أن تتقرب إلى الله ، اخدم عباده ، يسرْ لهم أمرهم ، خفف عنهم آلامهم ، يسر لهم حياتهم ، أدخل السرور على قلبهم ، طمئنهم ، لا تخفهم ، لا تبتز أموالهم ، لا تحرجهم ، لا تستغلهم ، لا تتحكم بهم ، لا تلقي في قلبهم الرعب كي يعطوك مالاً ، لا تزور لهم

الحقائق، تصور أن هؤلاء عباد الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، المؤمن كله خير ، المؤمن حينما يموت تبكي عليه السماوات والأرض ، بدليل قوله تعالى أن أهل الكفر :

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)

(سورة الدخان الآية : 29)

لأنهم أستريح منهم ، أما المؤمن يبكي عليه كل شيء كتلة عطاء ، كتلة خير ، كتلة نصيحة ، كتلة توفيق ، كتلة تيسير ، كتلة حب هذا المؤمن لأنه اتصل بالله ، ما فيه من كمال ، من أثر كمال الله ، المؤمن محسوب على الله ، المؤمن لأنه عرف الله ، وأقبل عليه ملك القلوب ، والقوي ملك الرقاب ، الأقوياء ملكوا الرقاب والأنبياء ملكوا القلوب ، وأنت اختر إما أن تكون تابعاً لنبي ، فتملك القلوب بكمالك ، وإما أن تكون تابعاً لقوي ، فتملك الرقاب بقوتك ، وشتان بين من يملك الرقاب ، وبين من يملك القلوب ، من يملك الرقاب يلعن في غيبته ، ومن يملك القلوب يُدعى له في غيبته ، والمحك والمقياس الصحيح ما يقال في غيبتك ، لا ما يقال في حضرتك ، هذا هو المقياس .

فهؤلاء ينفقون ، ينفق وقتاً ، مالاً ، علمه ، خبرته ، حدثني أخ وضع ابنه عند محل إصلاح كي يتعلم هذه الحرفة قال لي : استخدمه لخدمته الشخصية ، وحينما فك المحرك يقول له : اخرج ، لا يعلّم علماً لأحد ، أما المؤمن فلا يبخل بشيء ، ولا يضنّ بشيء ، لأنه يعطي فالله عز وجل يعطيه ، وكلما أعطى يزداد عطاء الله له ، كلما مكن الناس في أعمالهم مكنه الله في عمله ، كلما أدخل على قلب الناس الطمأنينة طمأنه الله عز وجل ، كلما حل مشكلات الناس حل الله مشكلاته ، لأن الله شكور ، الله عز وجل شكور .

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران الآية : 134)

وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ

1 ـ لابد من العفو إن كان يصلِح المذنبَ :

لماذا يعفو بالمناسبة ؟ الله عز وجل يقول :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

(سورة الشورى : الآية 39)

المؤمن عزيز ، المؤمن لا يذل لأحد ، لا يسمح لأحد أن يتجاوزه ، ولا أن يتطاول عليه ، لكن إذا غلب على ظنه أن عفوه يصلح هذا الإنسان عفا عنه ؟

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى : 39 -40)

عفا لأنه رأى في عفوه صلاحاً لهذا الإنسان ، عندئذ يتولى الله مكافأته ، فإذا قال لك ملك في الأرض : أنا أكافئك ، ماذا يقدم لك قلمَ رصاص ؟! أم مركبة ضخمة جداً ، أم بيتًا ؟ يقول الله عز وجل :

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى : الآية 40)

أنت تعفو عن الناس حينما يكون عفوك مصلحاً لهم ، أما إذا كان عفوك يشجعهم على متابعة الأذى فلا تعفُ عنهم ، رجل وقع بين يدي رسول الله ، بكى ، وتباكى ، بكى عن بناته الصغار ، فرق إليه النبي ، وعفا عنه ، فعاد إلى ما كان عليه من التنكيل بأصحاب رسول الله ، وهجائهم ، ووقع مرةً ثانية ، وأعاد قصته مرةً ثانية ، توسل إليه ، واسترق قلبه ، وذكر له بناته ، قال : لا أعفو عنك لئلا تقول : خدعت محمداً مرتين .

مؤمن له شخصيته ، وله حلمه ، وذكاؤه ، سيدنا عمر قال : << لست بالخب ولا الخب يخدعني >> ، يعني لست من الخبث حيث أخدَع ، ولا من السذاجة حيث أُخدَع ، هذا الموقف متوازن ، ليس خبيثاً فَيَخْدَع ، ولا ساذجاً فَيُخْدع ، تعفو إذا غلب على ظنك أن عفوك على هذا الإنسان سيصلحه ، أما إذا عفوت عنه فتطاول ، وتجترّأ على الحق ، فينبغي أن تكون حازماً معه.

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

(سورة آل عمران : الآية 134)

2 ـ الغضب رأس البلاء :

إخواننا الكرام ، الرسول عليه الصلاة والسلام استنصحه أحد أصحابه فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصِنِي ؟ قَالَ :

((لا تَغْضَبْ ، فَرَدَّدَ مِرَارًا ، قَالَ : لا تَغْضَبْ))

[البخاري ، الترمذي، أحمد]

وهناك أحاديث كثيرة ، لا تغضب ، بعض شراح الحديث قالوا : الغضب أحياناً رأس البلاء ، قد تطلق زوجتك في ساعة غضب ، وقد تفقد شريكك في ساعة غضب ، وقد تفضح نفسك في ساعة غضب ، وقد تقضي على أحب الناس إليك في ساعة غضب .

جاء إنسان إلى بيتك ، وقد اشتريت قطع أثاث غالية جداً ، له ابن أمسك بشفرة ، ومزق قماش هذا الأثاث ، فلما جاء إلى البيت ما تحمل هذا المنظر ، فجاء بأصابع ابنه فضربها بمسطرة بعنف شديد ، وبعد حين اسودت يداه ، فأخذه إلى الطبيب ، فقال له : إلى المستشفى فوراً ، في المستشفى قالوا

له : لابد من قطع يديه ، فلما توسل الابن بسذاجة ألا تقطع يداه قتل الأب نفسه من شدة ألمه ، ساعة غضب، ابنك أثمن مِن أي شيء في البيت ، ربما لا تحتمل في الغضب ، قد تقضي على أحب الناس إليك ، بالغضب قد تفقد أقرب الناس إليك ، بالغضب قد تفقد وظيفتك ، قد تفقد عملك ، قد تفقد شريك ، لا تغضب ، فلا تتخذ قراراً وأنت غاضب ، غضبت جمد كل حركة إلى أن ترتاح ، وقل : هذا الموضوع أبتّ فيه بعد يومين.

أيها الإخوة ، العدو الأول هو الغضب ، فلا تغضب ، وحينما يغضب الإنسان يصبح كالوحش الكاسر، فالمؤمن كرمه الله بالحلم ، وبالحلم تحل كل مشكلة ، بل تحل كل شيء ، بتعبير آخر كل شيء يحل عند الموت ، لكن قد يدمر الإنسان نفسه بالغضب ، وهناك حروب دمرت أممًا في ساعة غضب ، حرب بأكملها جرت في الجاهلية بقيت عشر سنوات أحرقت الأخضر واليابس في ساعة غضب ، الإنسان بالغضب ، فيصبح أحمقَ ، ويصبح وحشاً ، ويعطل عقله ، تعطل خبرته ، ويرتكب أشد حماقة ، لذلك أكبر عطاء على الإطلاق يناله المؤمن من الله عز وجل الحكمة ، قال تعالى :

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : الآية 269)

النبي عليه الصلاة والسلام تصور إنساناً ملك الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، بعد حنين بلغ أوج قوته دانت له الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، ثم جاءه أحدهم وهو من أصحابه يخبره بغضب قومه من توزيع الفيء ، و هو في أوج قوته ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ :

((لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي ، وَمَا أَنَا ، قَالَ : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ ، قَالَ : أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا : وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ ، قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ

يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ قَالَ : فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ ، وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا))

[أحمد ، الدارمي]

هذه القصة مع حكمته ، أم مع كظم غيظه ، أم مع وفائه ، أم مع رحمته ، أم مع حنكته السياسية امتص هذه النقمة ، التعبير المعاصر طوقها ، استوعبها ، هكذا المؤمن .

المؤمن بحكمة يسعد بزوجة من الدرجة الخامسة ، و من دون حكمة يشقى بزوجة من الدرجة الأولى ، بحكمة يسعد بدخل محدود ، ومن دون حكمة يشقى بدخل غير محدود ، بحكمة يربي أولاده المتعبين ، ومن دون حكمة يفسد أولاده الصالحين ، دققوا في هذه الكلمة :

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : الآية 269)

لا يمكن للمقطوع عن الله عز وجل أن يكون حكيماً ، لابد أن يرتكب حماقة ما بعدها حماقة ، وهو في أوج ذكائه ، وكانوا مستبصرين ، والدليل :

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

(سورة الجاثية : الآية 23)

يحمل شهادة عالية ، تسمع كل قصة فيها دمار ، قال تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

(سورة الحشر : الآية 2)

هؤلاء يهود خيبر ، وكلما كان الإنسان بعيداً عن الله يتحامق ، قال تعالى :

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد : الآية 1)

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 134)

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

1 ـ أسباب محبة الله لك بيدك :

لكنك إذا أحسنت إلى خلق الله أحبك الله ، وما من مرتبةٍ على الإطلاق أعظم من أن يحبك الله ، ومحبة الله بيديك أسبابها بيديك ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 222)

تب إلى الله يحبك الله ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة المائدة : الآية 42)

كن منصفاً ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة البقرة : الآية 195)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 4)

(وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 222)

تطهر ، وتب ، وأنصف ، وأحسن يحبك الله عز وجل ، فإذا أحبك الله كان معك .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ قَالَ :

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[البخاري]

أن يحبك الله هذه أعلى مرتبة في الأرض ، أن يحبك خالق السماوات والأرض.

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 134)

2 ـ الإحسان مجاله واسع وكبير :

كلمة محسنين واسعة جداً ، إتقان العمل إحسان ، الإنصاف إحسان ، الحلم إحسان ، خدمة الخلق إحسان ، محسن ، قد تحسن مع حيوان في أثناء ذبحه ، قال تعالى ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : اثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[مسلم ، النسائي ، الترمذي ، أحمد ، الدارمي]

قد تحسن إلى عدوك فتردعه عن غيه .

عَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا)

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أحمد]

الإحسان يبدأ بإتقان العمل ، وينتهي بخدمة الخلق ، وما من إحسان أعظم من أن تدل الإنسان على الله دللته على الخير المطلق .

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 134)

هؤلاء هم الذين ينفقون في السراء ، والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين .

الآن إياكم ، ثم إياكم ، ثم إياكم أن تتوهموا أن هذه الواو الذي بعد هذه الآية واو العطف .

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134)وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)

(سورة آل عمران)

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

1 ـ هذه الواو للاستئناف لا للعطف :

هذه ليست عطفاً هذه واو الاستئناف ، هؤلاء فرق ، وسيأتي وصف فريق آخر ، القضية فيها مشكلة كبيرة ، ينفق في السراء والضراء ، كاظم لغيظه ، عاف عن الناس ، محسن ، ثم إذا فعل فاحشةً ، يعني زنا أعوذ بالله ، هذه الواو واو الاستئناف ، وليست واو العطف ، هؤلاء زمرة ، هذا فريق أول ، والنمط الآخر والفريق الآخر .

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة آل عمران : الآية 135)

2 ـ المؤمن المذنب سريع العودة والأوبة :

هو في صراع إذا غلبته نفسه ففعل فاحشةً ، أو ظلم إنساناً سريعاً ما يستغفر يذكر الله يذكر عدله ، يذكر حكمته ، يذكر بطشه فيستغفر ، استغفروا الله ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم ، لكنهم يعتقدون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله وحده .

(وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا)

(سورة آل عمران : الآية 135)

3 ـ المؤمن المذنب لا يصر على المعصية :

لا يقيمون على هذه المعصية ، أولاً يعتقدون أنها معصية ، وأنها مهلكة ، ثم هم من باب العمل لا يقيمون عليها ، من باب الاعتقاد يعتقدون أنها مهلكة ، وأنها تسبب لهم غضب الله تعالى ، تسبب لهم سخط الله وغضبه ، وأنها تستدعي بطش الله عز وجل هذه عقيدتهم .

سلوكهم يقلعون عنها ، لذلك قالوا : النبي معصوم ، والولي محفوظ ، النبي معصوم ، لأن الله عصمه ، فلا يخطئ في قول ، ولا عمل ، ولا في فتوى ، ولا في شرع ، ولا في موقف ، لكن الولي محفوظ يخطئ ، لكن خطأه لا يضره ، لأنه سريعاً ما يستغفر ، وسريعاً ما يرجع ، وسريعاً ما يخاف ، قال تعالى :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 135)

لم يصروا ، أي لا يقول لك : ما عملنا شيئًا ، هذا الذي يستهين بالمعصية ويستهين بالذنب منافق ، لأن ذنب المنافق كالذبابة ، وذنب المؤمن كالجبل يخشى أن يقع عليه ، وشتان في الوزن بين الذبابة والجبل، هذا من تشبيه النبي ، ذنب المنافق ذبابة يقول : ماذا صار ؟ أكلناها ؟ نظرنا فقط ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، هكذا ذنب المنافق كالذبابة ، وذنب المؤمن كالجبل ، يخشى أن يقع عليه ، لذلك الصنف الثاني يخطئ ، ولكن مع خطأه يستغفر ، ومع خطئه يعلم أن هذا ذنب كبير ، وأن الله قد يعاقبه عليه عقاباً أليماً ، هذا الذنب يوجب سخط الله عز وجل ، هذا الذنب يوجب بطش الله عز وجل .

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة آل عمران : الآية 135)

لو فعلت الذنب ألف مرة من الذي يغفر غير الله ؟ قال تعالى :

(وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 135)

لم يصروا لا قولاً ولا فعلاً ، لا يقول لك : هذا ليس بذنب ، هذا معناه أنه أصرَّ على أنه ليس بذنب ، يقول لك : والله ذنب كبير ، وقد أخطأت ، ثم يقلع ، لم يعتقد أنه لا شيء ، لم يستهن به اعتقاداً ، ثم إنه لا يقيم عليه سلوكاً ، يبتعد عنه :

(وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 135)

قال :

(أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 136)

أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ

تواضع ، متواضع ، ذنبه كبير ، تاب منه سريعاً ، استغفر الله ، اعتقد أنه ذنب مدمِّر يحجب عن الله عز وجل ، ثم أقلع عنه ، قال :

(أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 136)

ربهم ، وليس ربي ، الزمرة الأولى محسنون ، والزمرة الثانية عاملون ، يقول لك : هناك ضباط وصف ضباط ، موظفون من الدرجة الأولى ، وآخرون من الدرجة الثانية ، كن طموحاً ، وكن من الزمرة الأولى ، قال تعالى :

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134)وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران)

تطبيق سنة النبي واستغفار الله أمان من العذاب :

إخواننا الكرام ، نحن في بحبوحة في حالتين ؛ في حالة أن سنة النبي عليه الصلاة والسلام فينا قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : الآية 33)

إذا كان بيتك إسلاميًا ، وعملك إسلاميًا ، وأفراحك إسلامية ، وأتراحك لا سمح الله إسلامية ، وتجارتك وكسب مالك إسلاميين ، ونزهاتك إسلامية ، وعلاقاتك الاجتماعية إسلامية ، إذا كان الإسلام فينا فنحن في بحبوحة من أن يدمرنا الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : الآية 33)

عندنا بحبوحة ثانية لو أنّ أقدامنا زلت ، لو أننا عصينا ، قال :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال : الآية 33)

أنت في بحبوحتين ؛ بحبوحة الاستقامة ، وبحبوحة الاستغفار ، أنت مستقيم فأنت في بحبوحة ، أنت مستغفر فأنت في بحبوحة ، لكن لا أنت مستقيم ، ولا مستغفر ، فهذه معصية الكبر ، معصية الرد ، إبليس عصى ، وآدم عصى ، لكن إبليس قال :

(قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

(سورة الحجر : الآية 33)

رد الأمر الإلهي استكبر أن يطيع الله عز وجل ، فكان إبليس اللعين ، أما سيدنا آدم فقال تعالى في حقه:

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)

(سورة طه : الآية 115)

فرق كبير كبيرٌ بين معصية الغلبة ، ومعصية الكبر ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس أن ترد الحق وأن تحتقر الناس .

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

في آية أخرى تفيدنا هنا :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : الآية 11)

1 ـ لابد للمكذب من عقاب عاجلا أو آجلاً :

المكذب بالحق له جزاء وبيل ، فإما أن يأتي تباعاً ، وإما أن يأتي على التراخي ، مرة قال تعالى : ثم ، ومرة : بالفاء :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : الآية 11)

قد يأتي العقابُ بعد الذنب مباشرةً ، وقد يأتي العقاب بعد مهلةٍ على كل الدنيا ، وحدها تبين لنا كل شيء.

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

2 ـ السنن الإلهية قوانين ثابتة :

أي قوانين ثابتة :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(37-60): تفسير الآيتان 137 – 138
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-08-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية السابعة والثلاثين بعد المئة ، يقول الله عز وجل ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

1 ـ تعامل الله مع عباده وفق قوانين ثابتة :

معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يتعامل مع عباده وفق قوانين ثابتة ، ثم تأتي السنن ، أي طرائق واضحة ، قواعد محددة ، قوانين ثابتة ، مبادئ معينة ، التعامل بين الله وعباده ليس تعاملاً مزاجياً وليس تعاملاً كيفياً ، أية مقدمة لها نتيجة ، إن فعلت كذا كان كذا ، فهناك سنن يمكن أن تستنبطوها من التاريخ .

ومن خلال استنباط هذه السنن يمكن أن تتنبؤوا بما سيكون ، لمن وقع في الأسباب نفسها ، فمثلاً : لو أن معلماً لم يتكلم ولا كلمة ، نظر إلى طالب ، وقد وكز زميله ، فضربه ، وبقي المعلم ساكتاً ، في المرة الثانية الطالب وكز صديقه ، فضربه المعلم ، في المرة الثالثة الطالب وكز صديقه ، فضربه المعلم ، ألا يستنبط هذا الطالب أن هناك قاعدة ثابتة لتعامل أستاذه مع الطلاب ، المعلم لم يتكلم ولا كلمة، لكن حينما يضرب الطالب زميله ، يضربه المعلم ، أول مرة ، وثاني مرة ، وثالث مرة ، المرة الثالثة هذا الطالب قدم مكافئة لزميله ، فكافأه المعلم ، ألا يستطيع أن يستنبط من سلوك المعلم الثابت المبني على قواعد قانونا ؟

2 ـ انظر إلى معاملة الله للمجرمين تستنبط السنن والقوانين :

لو لم يكن بين أيدينا هذا القرآن ، ونظرنا كيف يفعل الله بالمجرمين ، بالمكذبين ، بالخائنين ، بالمنحرفين ، بالشاردين ، لوجدنا أن هناك قواعد ثابتة تحكمهم جميعاً ، وأي أمة فعلت مثل ما فعلت

هذه الأمة السابقة مصيرها كمصيرهم ، لذلك من البطولة الرائعة أن تستنبط ما في القرآن الكريم من قوانين ثابتة ، تعالوا بنا نستعرض بعض هذه القوانين .

قوانين قرآنية ثابتة :

1 ـ لابد من كشف الخائن :

من هذه القوانين قال تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 52)

في أي مكان ، وفي أي زمان ، وفي أي عصر ، وفي أي مصر ، الخائن لابد من أن يكشف ، قال تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 52)

2 ـ الإحسان ثمرته الحكم والعلم :

قانون ثان ، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص : الآية 14)

الإحسان من ثماره اليانعة أن الله يؤتي المحسن حكماً وعلماً ، قال تعالى :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف : الآية 56)

3 ـ الإحسان سببٌ لعطاء الله المطلق :

قانون ثالث مطلق عطاء الله عز وجل سببه أن تكون محسناً ، الله جل جلاله من يحب ؟ قال :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 222)

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 146)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 4)

أتمنى أنكم إذا قرأتم القرآن أن تضعوا أيديكم على القوانين ، القوانين التي تحكم علاقتكم بالله .

4 ـ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ

قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

(سورة الزمر : الآية 3)

5 ـ قانون التيسير والتعسير :

قانون التيسير ، قال تعالى :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل : الآية 5-10)

قانون التيسير والتعسير ، لا تقل : حظ ، وليس لي حظ ، كلام ليس له معنى ، كلام شيطاني ، أنت إما أن تيسر أمورك ، وإما أن تعسر أمورك ، إن أعطيت ، واتقيت ، وتصدقت بالحسنى تيسر أمورك ، وإن بخلت ، واستغنيت ، وكذبت بالحسنى تعسر أمورك ، هذا قانون التيسير والتعسير .

6 ـ قانون الود والخصومة :

قانون الود والخصومة ، قال تعالى :

(فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة : الآية 14)

أيّ مؤمنين ، أيّ مجموعة مؤمنين ، إذا عصى أحدهم ربه ، دخل الشيطان بينهم ، فرق بينهم ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ :

((مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أبي داود ، أحمد]

هذا قانون ، فإن أطعنا الله جميعاً كان بيننا من الود ما لا يوصف ، من الود والحب والتعاون ، فإذا اختلت علاقتنا بالله عز وجل ، انعكست خصومات وعداوة فيما بيننا ، قانون العداوة والبغضاء .

7 ـ قانون الخوف :

قانون الخوف ، قال تعالى :

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ)

(سورة الحشر : الآية 2)

فرد ، أو ، جماعة أو أمة حينما تشرك يلقي الله في قلبها الخوف ، الخوف له قانون .

8 ـ قانون العزة والذل :

العزة والذل ، قال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

(سورة يونس : الآية 26)

إن كان عملك طيباً فأنت رافع الرأس ، ولا يستطيع أحد في الأرض أن ينال منك ، أما إذا كان هناك تقصير فهناك :

(وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

(سورة يونس : الآية 26)

قانون العزة والذل .

9 ـ قانون الخوف والأمن :

قانون الخوف والأمن ، قال تعالى :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام : 81-82)

قانون الخوف والأمن والتيسير ، العداوة والبغضاء .

10 ـ قانون التوفيق :

قانون التوفيق ، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : الآية 97)

هذا قانون إلهي ، وهو فوق المكان والزمان والمعطيات ، يقال : بلد موارده قليلة ، هذا القانون فوق كل المعطيات ، فوق المكان ، والزمان ، والمعطيات ، والأسباب والمضائق .

أسعد الناس من كشف القوانين القرآنية :

أيها الإخوة ، أسعد الناس من كشف القوانين التي في كتاب الله ، والتي تحكم علاقة الله عز وجل بالإنسان ، يخادعون الله وهو خادعهم إذا حصل مخادعة فلا بد أن تعود المخادعة على صاحبها ، على كلٍ هذه نماذج .

لكن إذا قرأت القرآن الكريم يمكن أن تضع يديك على كل قانون ، فإذا أيقنت أن هذا قانون قطعي فأنت ما عليك إلا أن تأتي بالمقدمات حتى تقطف الثمار ، هذه المقدمة لها هذه النتيجة ، هذا السبب له هذه النتيجة ، فأنت إذا تعاملت مع الله وفق قوانينه ، سعدت وأسعدت ، أما إذا فهمت الدين فهماً سطحياً وفهماً عشوائياً .

والله أربعة أخماس كلام العوام ليس له معنى ، مسكينة لم تحظ هذه البنت ؟ ما معنى ذلك ؟ الحظ ما قانونه ؟ إن كانت طائعة لله عز وجل فالله سبحانه وتعالى سيكرمها ، وإن كانت عاصية فالله سبحانه وتعالى سيؤدبها ، أدق ما في هذه الآية ، عليك أن تكتشف القوانين ، إما من بيان الله عز وجل كالقرآن، أو من أفعاله ، إما من بيان الله عز وجل لما في هذا القرآن أو من أفعاله ، فإذا كشفت هذا القانون .

فالقانون علاقة ثابتة بين متغيرين وبإمكانك أن تتنبأ بالمستقبل ، إنك لا تعلم الغيب ، ولكن تتنبأ بالمستقبل لإنسان ماله من الربا ، فقد يُرخى له الحبل لكن لا بد من أن يمحق الله ماله ، هذا قانون ، قال تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : الآية 276)

بعكس الواقع ، أنت حينما تقرض قرضاً ربوياً يعود عليك بمئة وعشرين زيادة ، المئة مئة وعشرون ، وحينما تتصدق ، أو حينما تقرض قرضاً حسناً لا تأتيك أية زيادة ، ومع ذلك فالقانون الإلهي :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : الآية 276)

أيها الإخوة ، أحياناً قد يقع شخص في مشكلة مع شخص آخر فوكل محاميًا ، المحامي إن رأى اجتهاد محكمة النقض خمس كلمات يطير فرحاً ، يقول لك : كسبنا الدعوى ، أن هناك اجتهادا في محكمة النقض لصالحك ، أنت حينما تحتفل بكلام إنسان ، وترى أن هذا الكلام حافل ، وأنه قد يربحك دعوى حجمها بالملايين ، ولا تصدق كلام الله عز وجل .

أتمنى عليكم ، وعلى نفسي أيضاً أننا إذا قرأنا القرآن الكريم أن نكتشف هذه القوانين ، قانون التيسير والتعسير ، قانون العزة والذلة ، قانون الأمن والخوف ، قانون الوفاق والخصام ، قانون الحياة الطيبة ، حينما تقول هذا كلام خالق الكون ، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق

وعوده للمؤمنين قد يقول لك : هؤلاء دعوا الله فلم يُوفقوا ، ظروف صعبة جداً والطرف الآخر قوي جداً وحاقد جداً ، حسناً ماذا نفعل بقوله تعالى :

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر : الآية 51)

وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا

معنى ذلك أني لك أقدم الأسباب :

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء : الآية 141)

هناك ألف سبيل وسبيل على المؤمنين الآن ، لو أنهم كانوا مؤمنين كما أرادهم الله عز وجل من سابع المستحيلات أن يكون لهؤلاء الكفار على المؤمنين سبيلا .

إمبراطورة الرومان كانت تدفع جزية لهارون الرشيد ، ثم جاء بعدها إمبراطور اسمه نقفور أرسل رسالة لهارون الرشيد يقول فيها : عليك أن تعيد لي كل ما أخذته من التي كانت قبلي وإلا لي ولك شأن، ماذا فعل هارون الرشيد ؟ كتب : من خليفة المسلمين هارون الرشيد : إلى كلب الروم نقفور الخبر ما ترى لا ما تسمع ، وذهب إليه ، وغزاه في عقر داره ، وكلّفه بجزية مضاعفة ، قال تعالى

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء : الآية 141)

هذه قوانين الله عز وجل ، هذا النصر الإلهي لا يتنزل على أنصاف مسلمين ، ولا على أرباع مسلمين، ولا على أعشار مسلمين ، ولا على أصفار مسلمين ، سيدنا عبد الله بن رواحة حينما ذهب إلى خيبر يُقيِّم تمرها أغروه بحلي نسائهم ليقيِّم تقييماً أقل من الواقع ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ

((أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانُوا ، وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ، أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ ، قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي ، فَقَالُوا : بِهَذَا قَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، قَدْ أَخَذْنَا فَاخْرُجُوا عَنَّا))

[أحمد]

والله الذي لا إله إلا هو لو أن أصحاب رسول الله فهموا الإسلام كما نفهمه نحن ، نفهمه أن ترتدي ثياباً بيضاء يوم الجمعة ، وأن تتعطر بالمسك ، وأن تحمل سبحة ، وأن تأتي إلى المسجد، أما في متجرك تجد أيماناً كاذبة ، ودخلا حرامًا ، وغشًّا للمسلمين ، وهناك سهرات مختلطة ، وهناك انحراف أخلاقي ، لكن نحن مسلمون ، نحن أمة محمد ، لو أن الصحابة الكرام فهموا الإسلام كما

نفهمه نحن عبادات ، استعراضات ، مظاهر ، أما حياتنا في واد ، والإسلام في واد آخر ، والله ما خرج الإسلام من مكة المكرمة ، كيف وصل الإسلام إلى أطراف الدنيا ؟

بهذا الالتزام ، نحن لسنا بحاجة الآن إلى كلام ، ولا إلى دروس ، ولا إلى خطب ، ولا إلى أشرطة ، ولا إلى كتب ، ولا إلى محاضرات ، ولا إلى مؤتمرات ، بحاجة إلى مسلم يعيش الإسلام ، مسلم يطبق تعاليم دينه ، مسلم يعتز بإسلامه ، مسلم لا تأخذه في الله لومة لائم ، مسلم لا يكذب ، مسلم لا يخون ، لا يرتكب معصية إطلاقاً ، هذا الذي نحتاجه ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[ابن ماجة]

أيها الإخوة :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

انظروا إلى عاد وثمود وعليهما فقسْ !!!

عاد وثمود ، أي إنسان ذهب إلى أمريكا يقول لك : لم يُخلق مثلها في البلاد ، جنة الله في الأرض ، كلها معامل ، مطارات ، أماكن جميلة ، جامعات ، مرافق ، وبعد ذلك :

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت : الآية 15)

هذه الصفة الثانية ، الصفة الثالثة :

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 130)

وأيضاً :

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر : الآية 8)

قال :

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(13)إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر : 12-14)

وأية أمة تشبه عاداً وثمود مصيرها كعاد وثمود ، فاطمئنوا ، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله .

قبل أسبوع صدر في ألمانيا قوانين تجعل الشذوذ مشروعاً ، فأي شاب من أية أمة له علاقة شائنة بشاب ألماني يستحق الجنسية الألمانية ، كأنه تزوجه ، وصار هناك عقود قران ، نساء على نساء ،

ورجال على رجال ، في الكنائس أيضاً ، أي إنسان له علاقة شائنة بشريك جنسي ، له تعويضات ، وله أذن سفر ، وله مكافئات ، هذا هو العالم اليوم .

فيا أيها الإخوة :

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(13)إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر : 12-14)

بطولتنا أن نكتشف القوانين قوانين الله عز وجل في هذا القرآن الكريم ، فزوال الكون أهون على الله من ألا تقع قوانينه وسننه .

إياك أن تغفل القوانين فتهلك :

لو أنك أغفلت المسافات البينية في الفيزياء لوقع البناء ، لأن المعادن تتمدد بالحرارة ، هذا القانون في العلم مطَّرد ، وشامل ، أي في أي مكان في العالم إن لم تجعل فراغاً بينياً بين أقسام البناء ، هذا البناء يتصدع ، حينما تفهم قوانين الله عز وجل كما تفهم قوانين الفيزياء ، فالبارود ينفجر بالنار ، هذا قانون ، والغاز يلتهب لأدنى شرارة ، هذا قانون ، فإذا كان عقلك علمياً ، وقرأت القرآن الكريم ، وأيقنت أنه من رب العالمين ، وأن زوال الكون أهون على الله من ألا تقع هذه القوانين تأدبت معها ، قانون الوفاق الزوجي ، طاعة الزوجين بالله ، إذا بُني الزواج على طاعة الله تولى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين ، إذا بُني على معصية الله تولى الشيطان التفريق بينهما .

في العلاقة الزوجية ، في العلاقة مع الشريك ، في العلاقة الأسرية ، حينما تُسوي بين أولادك كلهم يحبونك ، فإذا خالفت شرع الله عز وجل وفرّقت بينهم في العطية أبغضك المبغض ، فأنت إن أردت السلامة والسعادة إليك هذه القوانين ، وعوِّد نفسك أنك إذا قرأت القرآن أن تكشف القوانين ، ولا مانع من أن تجعل مصحفاً في بيتك تشير فيه إلى القوانين بخط أحمر ، قال تعالى :

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس : الآية 33)

إنسان غارق في معاملة ربوية ، هذا لا يقبل أن الربا حرام ، يناقش ، ويحاور ، إنسان غارق في علاقة محرمة مع النساء ، يقول لك : هذا العصر غير عصر النبي ، فهذا الذي غارق في معاملة منحرفة لا يقبل الحق .

أيها الإخوة ، أنا ما أردت أن أجعل هذا الدرس عرضاً للقوانين ، هذا موضوع يطول ، ولكن أتمنى عليكم إن قرأتم القرآن أن تضعوا أيديكم على هذه القوانين ، والعملية سهلة جداً ، ثم هذه القوانين ينبغي أن تحفظوها ، وأن تعملوا بها ، تجدون الثمار يانعة ، قال تعالى :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ)

أي قد مضت من قبلكم قوانين ، أي علاقات ثابتة بين المتغيرات ، أي قواعد عامة .

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

قال تعالى :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(112)وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ(113))

(سورة الأنعام)

أحياناً يظهر من حين لآخر كتاب - والعياذ بالله - كله باطل ، لكن يروج رواجاً غير معقول ، عشر طبعات لأنه يبيح لقارئه كل شيء ، تحت غطاء إسلامي ، هذه الحالة لها قانون ، الله عز وجل شاءت حكمته أن يسمح لهذه الكتب أن تنتشر ، قال تعالى :

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ(113))

(سورة الأنعام)

1 ـ كلما قرأت القرآن فسرت ما حولك :

كلما قرأت القرآن فسرت ما حولك ، تجد أمة في غنى يفوق حد الخيال ، دخل الفرد بما يعادل دخل مئة فرد في بلادنا ، كل إنسان له بيت مستقل ، ومسابح ، ومركبات ، ويخت ، وطائرة خاصة أحياناً ، وأموال لا تأكلها النيران ، وهم على فسق ، وفجور ، وخمر ، وزنى ، وشذوذ ، وعنجهية ، واستكبار ، واستعلاء وهم آمنون مطمئنون ، هذا شيء محير والله ، اقرأ القرآن :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام : الآية 44)

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ

هناك شيء آخر ، أية ظاهرة فيها إشكال ، إن قرأت القرآن تجد تفسيرها واضحاً ، قال تعالى :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا)

(سورة القصص : الآية 4)

فرعون علا في الأرض ، فئة تلوذ به محكمة بكل شيء :

(يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص)

بربك أيهم أحب إليك بعد هذه الآية ، أن تكون مستضعفاً ليمنّ الله عليك ، ويقويك ويمكّنك ، أم أن تكون مستكبراً ؟ هذا قانون ، أي هناك جهتين ، جهة لا تعرف الله إطلاقاً ممكنة في الأرض كما هم الكفار في بلاد العالم ، ممكنة في الأرض ، كل شيء بيدها ، أموال الأرض بيدها ، أسلحة الأرض بيدها ، وفئة مؤمنة مقصرة ، القانون الإلهي أنّ الله يسلط الأولى التي لا تعرفه على الثانية التي تعرفه ، وقد قصرت في حقه قال تعالى :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

قم فعالج الألمَ :

قانون عام ، جهة لا تعرف الله أبداً ممكنة في الأرض ، جهة تعرف الله وهي مقصرة ، هذه تحت العلاج إلى أن تعرف الله ، إلى أن تصطلح مع الله .

ذكرت اليوم في الخطبة كلام دقيق في نهايتها ، قلت : أنت حينما لا سمح الله ولا قدّر تتألم ألماً لا يُحتمل بمرض أصابك ، فهل تصدق أن هذا الألم جزء من الشفاء ، هذا الألم إنذار ، أي قم وعالج نفسك، هذا الألم يدفعك إلى معالجة هذا المرض ، وكأن هذا الألم جزء من الشفاء ، لكن ما هو المرض الخطير ؟ والعياذ بالله إنه الورم ، ليس له آلام أبداً ، ينتشر ، يستحكم ، ينمو ، إلى أن يصل إلى درجة لا شفاء له عندها يظهر ، متى يظهر ؟ بعد فوات الأوان .

إذاً حينما يأتي عدو لنا ويبالغ في قهرنا ، ويبالغ في إذلالنا ، ويُقتّل أبناءنا كما تسمعون كل يوم ، ويهدم بيوتنا ، ويحرق المزروعات ، هذا جزء من النصر إن شاء الله لأنه يدعو إلى الصحوة ، إلى التعاون ، إلى الوحدة ، رب ضارة نافعة ، وكلما ازداد العدو حماقة اقترب الفرج إن شاء الله ، فلا تتألم من آلام المرض إنها جزء من الشفاء ، لا تتألم لقسوة الكافر ، ولجرمه ، ولحماقته فهي جزء من أسباب النصر عليه ، وكفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله .

هناك حساب دقيق أيها الإخوة ، الناس في غفلة شديدة ، الناس في جهالة جهلاء ، وأيّ إنسان أيها الإخوة لا يدخل الله جل جلاله في حساباته اليومية فهو أكبر غبي ، وأكبر أحمق ، لأن الله سينتقم منه أشد الانتقام :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج : الآية 12)

لكن الله سبحانه وتعالى له سياسة ، سياسة إرخاء الحبل ، يرخي الحبل حتى يتوهم هذا المجرم أنه حر طليق ، يفعل ما يريد ، ثم يضعه الله في قبضته في ثانية واحدة ، فالعبرة أن تكون متحركاً في رضوان الله ، لا أن تكون قوياً متحركاً في سخط الله ، قال تعالى :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

2 ـ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

أي هؤلاء الذين عارضوا رسول الله ، وأخرجوه ، وائتمروا على قتله ، ونكلوا بأصحابه ، أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ ، وهؤلاء الذين نصروه ، وأيدوه ، وأعانوه ، واستقبلوه ، وقدموا له أرواحهم ، أين هم الآن ؟ في أعلى عليين ، هذا هو التاريخ ، حتى في حياتنا المعاصرة لا يوجد إنسان وقف مع الحق إلا أعزه الله ، ولا يوجد إنسان وقف مع الباطل إلا أذله الله عز وجل ، أي أشقى الناس قاطبة هو الذي في خندق معادٍ للحق ، قال تعالى :

(فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

ثم يقول الله عز وجل :

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 138)

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ

1 ـ أي دعوة الله بيانية :

بيان ، أي دعوة الله بيانية ، أنا أقول لك : هذا الشيء ينتهي إلى هذا الشيء ، هذه المقدمة تنتهي إلى هذه النتيجة ، من جد وجد ، ومن سار على الدرب وصل ، هناك قوانين كثيرة جداً ، كن أميناً تكسب أثمن شيء في الحياة ثقة الناس ، وثقة الناس هي أكبر رأسمال تملكه ، أتقن عملك يتهافت الناس عليك في كل زمان ومكان ، مهما يكن من كساد المتقن لا يقف عمله أبداً ، أما في أثناء الرواج يروج كل شيء حتى العمل السيئ ، أما عند الكساد فيبقى المتقن مستمراً في عمله ، وإتقان العمل جزء من الدين، قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق : الآية 2)

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

هذا قانون ، والله يكاد يكون القرآن كله قوانين :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق : الآية 2)

يُكتب حول هذه الآية مجلدات ، من يتق الله في اختيار زوجته ، اختارها ذات دين ، يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي ، من اتقى الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم ، من اتقى الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من تلف المال ، من اتقى الله في معاملة جيرانه ، فهناك ألف شيء إن طبقت منهج الله قطفت الثمار ، يجعل الله لك مخرجاً من كل هم وحزن ، هذا بيان .

وبالمناسبة هناك دعوة بيانية ، وأنت صحيح معافى ، في بيتك ، ومعك أهلك وأولادك ، وليس عندك أية مشكلة ، قرأت القرآن ، الله عز وجل بيّن لك أنك مخلوق للجنة ، وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهذه الجنة ثمنها طاعة الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

والأوامر الكلية في الكتاب والتفصيلية في السُّنة ، وليس هناك حرمان ، الآية الكريمة :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ)

(سورة القصص : الآية 50)

المعنى المخالف لو أنك اتبعت هواك وفق منهج الله لا شيء عليك ، هذا بيان ، وأنت صحيح معافى ، لا مشكلة عندك ، الله بيّن لك .

مراحل معاملة الله للعبد :

1 ـ الدعوة البيانية يُنتظر منها الاستجابة :

الدعوة البيانية يُنتَظر ممن دُعي إليها أن يستجيب :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال : الآية 24)

2 ـ عدم الاستجابة يوجب مرحلة التأديب التربوي :

إن لم يستجب الإنسان فلا بأس لأن هناك مرحلة أعلى ، وهي التأديب التربوي ، الله عز وجل يسوق مصيبة ، قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ)

(سورة البقرة : الآية 155)

في معظم البلاد الآن حر لا يُحتمل ، كساد لا يُحتمل ، قلق لا يُحتمل ، تلوث لا يُحتمل ، تلوث ، وكساد، وحر ، وقلق ، وجفاف ، بما قدمت أيدي العباد ، هذه الدعوة البيانية سهلة جداً ينبغي أن تستجيب لله ، إن لم تستجب فهناك تأديب تربوي ، ونحن الآن تحت التأديب التربوي ، هناك تأديب ، هناك قلق عام ، هناك عدو شرس ، وحش ، أنا وصفت هذا العدو ، قلتُ : هو ثور هائج ، مصاب بجنون البقر ، أي لأي شيء يدمر بيوت ، هذا التأديب التربوي ، الله عز وجل ينتظر من هؤلاء المؤدبين الذين أصابهم التأديب التربوي أن يتوبوا :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : الآية 21)

3 ـ بعد التأديب الإكرام الاستدراجي :

إن لم يتوبوا فهناك حل ثالث ، وهو الإكرام الاستدراجي على المعصية ، والإثم ، والانحراف ، يرتفع الدخل ، تروج البضاعة .

حدثني أخ في بلد إسلامي عن معمل تفوق أرباحه حد الخيال ، إعلاناته نساء شبه عاريات ، يأكل الربا ، ويؤكِل الربا ، ويسلك أي طريق قذر لترويج بضاعته ، وأرباحه فلكية ، والقائمون عليه لا يعرفون مَن هو الله ، هذا المعمل بهذا الرواج الكبير ، وهذا الدخل الفلكي ، وهذا النجاح منقطع النظير أربك بعض المؤمنين ، كل دخله ربوي ، وكل إعلاناته فيها فسوق ومجون ، ثم احترق هذا المعمل فجأة ، ولم يبقَ فيه شيء أبداً ، فالله يرخي الحبل .

هناك هدى بياني ، تأديب تربوي ، إكرام استدراجي ، ثم القصم ، قطع ، أكرم شيء أن تستجيب لله بعد دعوته البيانية ، الخطبة دعوة ، الدرس دعوة ، القرآن دعوة ، السُّنة دعوة ، الشريط دعوة ، الكتاب دعوة ، نصيحة الأخ المؤمن دعوة ، دعوة بيانية قال تعالى :

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

أيها الإخوة ، الفرق بين :

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

فرقٌ بين أن يأتيك أمرٌ وأن تعيش هذا الأمر :

أي الله عز وجل يخبرنا أن الزنا حرام ، وأن أكل أموال الناس بالباطل حرام ، وأن الكذب حرام ، وأن السرقة حرام ، لكن حينما يتصل الإنسان بالله عز وجل يُلقي الله في قلبه نوراً ، هو يبتعد عن السرقة لا لأنها حرام فقط ، بل لأن نفسه تشمئز منها ، هذه أرقى ، لقد اهتدى ، أي حينما يدع الكذب لا لأنه محرم فقط ، بل لأن نفسه تعاف الكذب ، ارتقت نفسه من مستوى الهدى البياني إلى مستوى الهدى النوراني ، أي ممكن لأب أن يضغط على ابنه ألاّ ينام قبل أن ينظف أسنانه ، أما إذا سافر الأب يومين فلا ينظفها ، ارتاح ، هذا مشكلته ، أما حين ينمو هذا الطفل على هذه النظافة الرائعة ، فلو سافر أباه شهراً لا يدع تنظيف أسنانه يوماً ، ففرق كبير بين أن يأتيك أمر ، وبين أن تعيش هذا الأمر ، فمثلاً قرأت القرآن ، قال تعالى :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(الأحزاب)

هذه واضحة جداً ، لك صديق لا يصلي ، شارب خمر ، زير نساء ، دخله فلكي ، وأنت موظف دخلك لا يكفيك أسبوعًا ، وتعاني ما تعاني من ضيق الدخل ، يكفي أن تقول هنيئاً له ، ما شاء الله ، الله يجعلني مثله ، فأنت لا تعرف شيئاً في الدين ، الآية فهمتها ، ولكن لم تعِشْها ، لمجرد أن تشتهي أن تكون كالمنحرفين في دخلهم ، مع انحرافهم أنت لا تفقه شيئاً ، ولا تعرف شيئاً ، ولم تذق طعم الإيمان أبداً ، أما المؤمن الصادق لو أمامه ملايين كثيرة من الحرام ، وهو يعيش عيش الكفاف لا يتمنى أن يكون بحال هؤلاء ، لذلك عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، ابن ماجة ، أحمد]

رجل له دعوة ، وصالح ، ويعمل للآخرة مثلاً ، وله زوجة وازنت حياتها مع حياة أختها ، وزوج أختها متفلت ، لا صلاة ، ولا دين ، يعيش لشهواته ، لأن أختها في بحبوحة مادية أكثر قالت : هنيئاً لأختي ، والله حياتها أفضل من حياتي ، فهذه المرأة لا تعرف الله إطلاقاً ، ولم تذق معنى الإيمان إطلاقاً، العبرة أن تكون معتزاً بما أنت فيه ، قال :

((يا عم ، والله لو وضعوا القمر في يميني ، والشمس في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

الاهتداء والاستقامة أبلغ من البيان :

فيا أيها الإخوة ، هذا بيان ، البيان واضح ، لكن هناك ما هو أبلغ من البيان ، وهو أن تكون مهتدياً ، أن يقذف الله في قلبك الهدى ، إن رآك مستقيماً قذف في قلبك الهدى ، لذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد : الآية 28)

وهذه التقوى بمعانيها العلية جداً ، أن يقذف الله في قلبك نوراً يريك الحق حقاً ، والباطل باطلاً .

أيّ شخص سأل ألف رجل : لماذا لا تخون زوجتك ؟ فالإجابات جاءت متعددة ، قسم من هؤلاء قالوا : لا نستطيع لأنها معه في البقالية لا يقدر ، تراقبه ليلاً ونهاراً ، قسم آخر قال : لا أحتمل الشعور بالذنب، الشعور بالذنب ضاغط ، أما لو أن خيانة الزوجة لا يرافقها شعور بالذنب فلا مانع عنده ، أما الجهة الراقية قالت : لا نحب الخيانة ، هناك من قال : لا نحب الخيانة ، وهناك من قال : لا نحتمل الشعور بالذنب ، وهناك من قال : لا نستطيع .

أيها الإخوة موضوع البيان هذا الذي تسمعونه ، أما الهدى فأن يقذف الله في قلبك نوراً يُريك الحق حقاً والباطل باطلاً، وهذا دعاء النبي عليه الصلاة والسلام :

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[ورد في الأثر]

هذا الذي يسرق لماذا يسرق ؟ لأنه رأى أن أفضل شيء أن يسرق ، هذا الذي يزني لماذا يزني ؟ رأى أن الزنى ممتع ، وليس فيه أعباء ومسؤوليات .

حينما تمشي إلى مكان حول دمشق ، وتجد ملهى ، مئة سيارة واقفة ، وقد كُتب : المغني الفلاني ، والراقصة الفلانية ، والموسيقى الفلانية ، والطعام ، والخمور ... إلى آخره ، هذا لماذا دخل إلى هذا الملهى ؟ ألم يقرأ القرآن ؟ إنه يبحث عن لذته ، لو أن الله عز وجل ألقى في قلبه نوراً لرأى أن جلوسه مع أهله ، وأولاده ، وطاعته لله ، وحضور مجلس علم ، أسعد له من كل هذه النزهات .

اطلب من الله أن يلقي في قلبك النور ، يريك الحق حقاً ، والباطل باطلاً ، لأن الذي يحركنا هو رؤيتنا، الذي يغش المسلمين لماذا يغشهم ؟ لكي يضاعف أرباحه ، يغير بيته ، يغير سيارته تأتيه مصيبة تمحقه من أصله ، لم ير الحقيقة ، لو رأى الحقيقة فلن يتردد ، وسيعد للمليون قبل أن يغش المسلمين .

هناك غش كثير في المواد الغذائية ، في بعض البلاد يأتون بلحم كلاب ، ويطعمونه للبشر ، أو مواد فاسدة انتهى مفعولها يبيعها للناس ، لا يهمه ، من أجل أن يربح وحده يسيء للمسلمين جميعاً ، لذلك نحن لا نريد كلمات فارغة ، الله أكبر ، أنت حين تغش المسلمين ما قلت : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو رددتها بلسانك ألف مرة ، لأنك رأيت هذا المبلغ الذي يأتيك من غش المسلمين أكبر عندك من الله . حينما تطيع زوجتك ، وتعصي خالقك فما قلت : الله أكبر ولا مرة ، ولو رددتها بلسانك

ألف مرة ، لأنك رأيت أن طاعة الزوجة أكبر عندك من طاعة الله ، هذه الكلمات التي يرددها المسلمون ولم تكن في مستواها ، فليس لها قيمة أبداً ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، أي لا مُسَيِّر ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا رافع ، ولا خافض ، ولا معز ، ولا مذل إلا الله ، فأنت تتذلل أمام إنسان ، وقد تبيع دينك من أجله ، وربما لا تصلي من أجله ، وقد تنطق بالكفر من أجله ، هل أنت مسلم ؟

كلمة لا إله إلا الله ، الله أكبر ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، حسبي الله ونعم الوكيل ، سبحان الله والحمد لله ، هذه الكلمات الضخمة هي معاني ضخمة جداً .

فيا أيها الإخوة ، كلمة بيان غير هدى ، بيان النفس ، أما هدى : أي يوجد بقلبك نور ، يقال : نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه ، لو فرضنا فرضاً وجدلاً أنه لا توجد آية تحرم الزنى ، المؤمن الصادق الموصول بالله ، الذي ألقى الله في قلبه النور لا يمكن أن يزني فالزنى خيانة ، لا يمكن أن يسرق ، لذلك حينما كان يؤمن الرجل في الجاهلية ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ))

[مسلم ، البخاري ، أحمد]

وقال تعالى :

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

هدى أي الله عز وجل ألقى في قلبك النور :

مثلاً : تمشي في طريق مكتوب لوحة : هنا تقاطع خطر ، لوحة ثانية : يوجد جسر هنا ، لوحة ثالثة : حفريات ، وتحويل ، كلها لوحات ، ولكن لو كان معك ضوء كاشف في الليل ولو لم يوجد لوحات فإنك تراهم جميعاً ، فلو كان عندك ضوء كاشف من الله عز وجل لكنت أقوى بكثير ، فلن تحتاج ولا إلى لوحة ، أما إذا لم يكن ثمة ضوء كاشف فتعطى تعليمات ، فالطيار في الليل كيف ينزل ؟ على اللاسلكي ، انحرف مترا ، يُعطى تعليمات معينة ، أحياناً في حال الضباب ينزل باللاسلكي ، أما إذا كانت الشمس ساطعة ، والطريق واضح فلا يحتاج إلى اللاسلكي ، ينزل معتمدا على الرؤية الواضحة :

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

والحمد لله رب العالمين

الأسئلة :

إخواننا الكرام ، هناك سؤال من الأسبوع الماضي يقول :

س : يروى أن إنساناً طائعاً لله متعبداً حدثته نفسه ذات يوم الذهاب إلى مواطن الشرك والمعصية فترك صومعته ، وذهب ، فتوفاه الله في الطريق ، فأخذته ملائكة النار إلى النار ، كيف يكون هذا ، ولم يفعل هذا الإنسان شيئاً ؟

ج : الحقيقة هذه القصة رواها النبي عليه الصلاة والسلام ، أحدهم قتل تسع وتسعين نفسًا فسأل راهباً : هل لي توبة عند الله ؟ فقال له : ليس لك توبة ، فقال في نفسه : ليس لي توبة فأكملهم على المئة ، فسأل آخر ؟ فقال له : لك توبة ، ولكن اخرج من هذا البلد إلى بلد آخر ، في الطريق وافته المنية ، اختصم الملائكة ، فقاسوا المسافة هل هو أقرب إلى بلد الخير أم إلى بلد الشر ؟

العبرة من هذه القصة عميقة جداً ، لا تقل لإنسان : ليس لك توبة ، لكن قل له : غَيِّر البيئة .

مرة كنت في درس في الطاووسية ، شخص سبحان الله أخذه الانفعال ، وقف ، وقاطعني ، وقال لي : يا أستاذ نسمع منك شيئاً جميلاً جداً ، ونذهب إلى البيت فننسى ، ونعود إلى ما كنا عليه ، فما هو الحل ؟ قلت له : غيِّر الطقم ، أنت عندك طقم سيئ ، فتجلس معهم ، يقولون لك مثلاً : تعال لنلعب الطاولة ، تتحدثون عن النساء ، كلام فارغ ، غيبة ، نميمة ، فإن أنت لم تغيِّر الطقم فلن تجد الحل أبداً ، يجب عليك أن تغيِّر الطقم كله ، يجب أن تعمل طقماً جديداً ، مؤمناً ، فيه أمانة ، وصدق ، وعفاف ، وتوبة ، ونصيحة ، فهذا الإنسان الذي قال له الأول : ليس لك توبة ، فأكمل به المئة ، لأنه لم يعالجه ، ليس لك توبة فقط ، أما الآخر فقد كان فقيهاً قال له : لك توبة ، ولكن عليك أن تخرج من هذا البلد إلى بلد يُطاع الله فيه ، إذاً انظر إلى تغيير البيئة ، أي إنسان يجلس مع مؤمنين يتمنى أن يكون مثلهم ، حديثهم والله جميل ، وهناك منافسة على الطاعة ، الأدب وحفظ اللسان ، حفظ الفرج ، حفظ البصر والسمع ، المداولة بالعلم ، يفهم كتاب الله وحديث رسوله ، يتأثر بأصحاب رسول الله ، اجلس مع إنسان آخر لا يوجد عنده غير الفنانين والفنانات الأحياء منهم والأموات ليس له حديث آخر :

((يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لا أدْري ، فَيَقُولانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاه لا أدْري ؟ فَيَقُولانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لا أدْري ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، ابن ماجة ، أحمد]

طبعاً إذا كان في كل يوم يتغذى تغذية غير إسلامية ، لا يوجد عنده شيء آخر ، أنت عندك وعاء له فتحة في الأعلى وله صنبور مثلاً ، إن وضعت فيه الماء يبقى ماء ، واللبن لبناً ، والشراب شراباً ، أنت لاحظ من أي منهل تتغذى ، ما هي تغذيتك ؟ أخبار فقط ، أخبار لاعبي الكرة مثلاً ، أخبار الفنانين ، مسلسلات ، ما هي تغذيتك ؟ المؤمن يتغذى بالقرآن والسُّنة نظرياً ، وبسيرة النبي وأصحابه عملياً ، عنده أعلى مستوى من الكمال ، عنده عقيدة صحيحة ورؤية صحيحة ، فهم صحيح وقيم ثابتة ، عنده منهج كامل ، غير المؤمن هذا الذي يراه على الشاشة وهذا الذي يسمعه وهذه المجلات والقصص هذه تغذيته ، هذه كلها فيها أشياء ما أنزل الله بها من سلطان .

فيا أيها الإخوة ، الهدى أن يقذف الله في قلبك نوراً ، يُريك الحق حقاً والباطل باطلاً ، فإذاً : نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه ، مستحيل وألف مستحيل إن كنت موصولاً بالله أن تقترف معصية ، لأن نفسك تعافها .

أوضح مثلٍ لو أنك كنت البارحة لا سمح الله غارق في الأغاني ، واليوم تبت إلى الله ، وركبت سيارة ، فوضع لك السائق الأغنية التي تحبها ، التي تذوب بها ، تتفاعل معها ، وتقول في نفسك : أنا لست مؤاخذاً ، الحديث يتحدث عن من استمع ، قد تذهب أحياناً إلى حلب ، ويضع لك السائق أغاني تحبها ، ولكن تعال بعد سنتين أو ثلاث ، الأغنية نفسها التي كنت تطرب لها ، وترقص حين سماعها تعافها نفس

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(38-60): تفسيرالآيات 139 - 147
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-08-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

1 ـ الإيمان الحقيقي هو سبب من أسباب النصر :

إن كنتم مؤمنين الإيمان الحق ، الإيمان المنجي ، الإيمان كما يريد الله عز وجل ، إن كنتم كذلك فأنتم الأعلون ، والعاقبة لكم ، ومهما ألمت بكم المحن فأنتم المنتصرون ، فلا تهنوا ، ولا تحزنوا .

2 ـ أخطر هزيمة الهزيمة من الداخل :

قد يفهم من هذه الآية أن أخطر هزيمة أن يهزم الإنسان من داخله ، قد يهزم هزيمةً في ساحة المعركة الخطورة لا أن تهزم من الداخل ، الخطورة أن تيأس ، الخطورة أن تهن ، أن تحزن ، أن تندم على أنك في طريق الإيمان ، أكبر هزيمة أن تكون من الداخل ؟

3 ـ لابد من الصبر ، فإن الدنيا دار ابتلاء :

سيأتي بعد قليل أن المؤمن تصيبه السراء ، وتصيبه الضراء ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا جاءت الأمور كما يحب قال :

((الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات))

[ابن ماجه عن عائشة]

فإذا جاءت على غير ما يحب يقول :

((الحمد لله على كل حال))

[ابن ماجه عن عائشة]

نحن في دار ابتلاء ، نحن في دار عمل لا في دار جزاء في الجنة دار جزاء لهم ما يشاؤون فيها ، أما في الدنيا فليس لك ما تشاء ، من هنا كان دعاء النبي عليه الصلاة والسلام :

((اللهم ما رزقتني فيما أحب فاجعله عوناً لي فيما تحب وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب))

[جامع العلوم والحكم ، لابن رجب]

وطن نفسك أنك في دار ابتلاء ، قد تأتي الأمور كما تحب ، وقد تأتي كما لا تحب ، قد تكون غنياً وقد تكون فقيراً ، قد تكون قوياً ، وقد تكون ضعيفاً ، قد تكون صحيحاً ، وقد تكون سقيماً ، قد تكون وسيماً ، وقد تكون ذميماً ، نحن في دار ابتلاء ، بل إن هذه الدنيا دار التواء ، الزوجة جيدة الأولاد غير جيدين ، الأولاد جيدون الزوجة غير جيدة ، الزوجة والأولاد جيدون ، الدخل غير جيد ، الدخل جيد الصحة غير جيدة شاءت حكمة الله أن تكون هذه الدنيا دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترح ، لا منزل فرح ، لأنه من عرفها لم يفرح لرخاء ، الرخاء مؤقت ، ولم يحزن لشقاء ، الشقاء مؤقت ، قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبة فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي .

الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل :

شاءت حكمة الله جبراً لخاطر المؤمنين أن يكون أنبياؤه وهم قمم البشر ، وهم أصفياؤه ، وهم أحبابه أن يُبتَلوا ، فالنبي عاش فقيراً :

((كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة))

[البخاري]

سيد الخلق ، وحبيب الحق ، فإذا كان للإنسان عمل بسيط متواضع ، مغمور في الدرجة الدنيا في المجتمع ، فقد كان عليه الصلاة والسلام راعي غنم ، ولا أعتقد في الأرض أي حرفة أقل منها :

((كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة))

فالأنبياء بعضهم فقراء ، كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته ، ولم يجد ما يأكل قال : إني صائم .

لم يجد شيئاً يأكله في البيت قال : إني صائم ، لأنه لو كان غنياً ، ونصح الفقراء بالصبر لم يصدقوه ، يقولون له : ما ذقت الفقر يا رسول الله ، لا ، ذاق الفقر ، وذاق الغنى ، حينما ذاق الغنى قيل له : لِمن هذا الوادي ؟ قال : هو لك ، قال : أتهزأ بي ؟ قال : هو لك ، قال : أشهد أنك رسول الله ، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وادٍ من غنم .

أذاقه الله القهر في الطائف ، يا محمد لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين ؟ قال : لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون .

أذاقه النصر ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ عشرة آلاف سيف متوهجة تنتظر حركة من شفتيه، اقتلوهم يقتلون جميعاً ، قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ذاق طعم الفقر فصبر ، وذاق طعم الغنى فشكر ، وذاق النصر فتواضع، وذاق القهر فقال : يا رب إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى .

ذاق أن يقال عن زوجته شيءٌ لا يحتمل ، حديث الإفك ، اتهمت زوجته بالزنا ، وشاع الخبر في المدينة ، وتأخر الوحي شهراً ماذا يفعل ؟

وذاق الهجرة ، أنت في بلد لك بيت ، ولك عمل ، ولك مركز ، ومعارف ، ودخل ، تذهب إلى بلد آخر لا تملك فيه شيئاً ، اقتلعت من جذورك ، ذاق طعم الهجرة .

ذاق موت الولد ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[متفق عليه]

ما من مصيبة إلا وذاقها النبي عليه الصلاة والسلام ، قال :

((أوذيت في الله وما أوذي أحد مثلي ، وخفت ، وما خاف أحد مثلي ، ومضى علي ثلاثون لم يدخل جوفي إلا ما يواريه إبط بلال))

[الترمذي عن أنس]

نبي كريم ؛ سيدنا نوح كان ابنه ضالاً ، ونبي كريم سيدنا إبراهيم كان أبوه مشركاً ، قال تعالى :

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا)

(سورة مريم : الآية 43)

نبي كريم كانت زوجته كافرة ، قال تعالى :

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا)

(سورة التحريم : الآية 10)

امرأة صديقة ، زوجها طاغية كافرًا ، إنها آسية امرأة فرعون ، قال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة التحريم : الآية 11)

نبي كريم كان عقيماً ، قال تعالى :

(نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(3)قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا(4)وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا(5)يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

(سورة مريم :3-6)

ما من مشكلة كبيرة إلا وهناك نبي قد حلت به ، وهو عند الله في أعلى مقام ، فوطن نفسك ، هذه دار ابتلاء ، لا دار استواء ، دار امتحان ، دار عمل ، قد ترقى بمصيبة رقياً ما بعده رقي ، قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

الذي عاش في الدنيا فقيراً يدخل الجنة قبل الغني بخمسمئة عام ، المجموع ثابت .

أيها الإخوة ، الآية الكريمة :

(وَلَا تَهِنُوا)

(سورة آل عمران : الآية 139)

وَلَا تَهِنُوا

1 - لا ينبغي للمؤمن أن يحزن ويضعف :

إذا كنت مؤمناً فيجب أن تؤمن أنك في أعلى مقام ، يجب أن تؤمن أنك الفائز ، أنك المفلح ، ولو أن الدنيا لا تعجبك ، هذه الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق ، يحكم فيه ملك عادل ، أعطى الدنيا لمن يحب ، وأعطاها لمن لا يحب ، أعطاها لسيدنا سليمان ، وأعطاها لقارون، قال تعالى :

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص : الآية 76)

أعطى الملك لمن يحب أعطاه لسيدنا سليمان ، قال تعالى :

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)

(سورة ص : الآية 35)

وأعطاه لمن لا يحب لفرعون .

إذا كان الشيء يعطيه لمن يحب ، ولمن لا يحب ، ليس له قيمة ، وليس مقياساً ، لكن ماذا قال الله عز وجل ؟

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 113)

الفضل العظيم أن تعرف الحقيقة ، أن تعرف الله ، أن تعرف سر وجودك ، وغاية وجودك ، الفضل العظيم أن تكون مستقيماً على أمر الله ، الفضل العظيم أن تعمل لآخرتك ، الفضل العظيم أن تكون قريباً من الله عز وجل .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 139)

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف : الآية 128)

2 ـ المؤمنون هم الأعلون ، ولهم العاقبة :

الأيام تدور ، ولا تستقر إلا على نصرة المؤمنين ، قال تعالى :

بنو إسرائيل كانت لهم العاقبة بعد الامتحان :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص : الآية 4)

ثم قال تعالى بعدها :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص : 5-6)

إن كنت مستضعفاً ، وقد أراد الله بك الخير ، أراد أن يطهرك ، أراد أن يعلي مقامك ، أراد أن يؤهلك للجنة ، فأنت بخير ، وإن كنت مستضعفاً ،

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

يجب أن تجعل كل همك أن تكون مؤمناً كما ينبغي كي تكون العاقبة لك ، قال تعالى :

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : الآية 173)

3 ـ كن أهلاً للنصر :

يجب أن تكون جنديتك لله ، قال تعالى :

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

(سورة غافر : الآية 51)

ينبغي أن ينصب جهدك على أن تكون أهلاً لعطاء الله ، من أدب النبي عليه الصلاة والسلام مع ربه ما ثبت في حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللَّهِ حَاجَةٌ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضَّأْ ، فَلْيُحْسِنْ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ لِيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ لِيُثْنِ عَلَى اللَّهِ ، وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ))

[الترمذي ، ابن ماجه]

الموجبات يعني أسباب الرحمة ، وعزائم مغفرتك أن تملك موجبات الرحمة ، وأن تملك عزائم المغفرة.

كن على الدين الذي رضيه الله لعباده :

هناك ملمح لطيف حينما قال الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور : الآية 55)

أي دين يمكنه الله ؟ إذا كان قد ارتضاه لهم ، وأي إيمان يجعلك في أعلى مستوى ؟ الإيمان الذي يحملك على طاعة الله ، فإن لم تمكن في الأرض معنى ذلك أن دينك الذي تعتنقه لم يرض الله عز وجل، أو لم يرتضِه الله لك ، وأي إيمان الذي يجعلك في أعلى عليين ؟ ذلك الإيمان الذي يحملك على طاعة الله .

أيها الإخوة ، الآية التي تليها :

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ

1 ـ تسلية الله للصحابة لمصابهم في أحد :

القرح هو الجرح ، أو مطلق الألم ، يا أصحاب رسول الله ، إن يمسسكم قرح في أحد فقد مسح القوم قرح مثله في بدر ، ومع ذلك لم ييأسوا ، وأعادوا عليكم الكرة ، أصابهم قرح لا يحتمل ، قتل عدد كبير منهم ، قتل زعماؤهم ، صناديدهم ، أبطالهم ، ومع ذلك أعادوا عليكم الكرة ، ولم ييأسوا ، إن يمسسكم قرح الآن في أحد فقد مس القوم - قريشًا - في بدر قرح مثله ، فهم لم ييأسوا ، بل أعادوا عليكم الكرة ، فما بالكم أنتم قد وهنتم ، يوجد آية دقيقة جداً :

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

(سورة النساء : الآية 104)

شتان بين ألم المؤمن وألم الكافر :

الألم واحد ، ولكن شتان بينكم وبينهم ، شتان بين من يتألم ، وقد وعده الله بالجنة ، وبين من يتألم ، وقد أوعده الله بالنار ، التجارة فيها متاعب كثيرة جداً ، لكن المؤمن يرجو من هذا العمل التقرب إلى الله ، حبذا المال أصون به عرضي ، وأتقرب به إلى ربي ، يرجو من هذا المال أن يعينه على طاعة الله ، بينما الكافر يرجو من التجارة مالاً ينغمس فيه بالشهوات إلى قمة رأسه ، شتان بين الهدفين ، وشتان بين الباعثين مع أن المتاعب واحدة .

يتزوج الشاب ، متاعب لا تعد ولا تحصى ، بدأ من تأمين البيت ، وفرشه ، وتأمين المهر ، والحلي ، ومعالجة الموضوعات المتفجرة ، أحياناً في أثناء الخطبة هذا شيء متعب ، ومؤلم ، ولكن

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

(سورة النساء : الآية 104)

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

2 ـ معنى آخر للقرح الذي مس الصحابة في أحد :

هناك تفسير آخر : إن يمسسكم قرح في نهاية المعركة فقد مس القوم قرح في بدايتها ، معركة أحد في آخر مرحلة كانت الهزيمة ، أما في أولها فكان هناك نصر ، لكن لبعض العلماء الأجلاء تعليق لطيف قال : وتلك الأيام نداولها بين الناس ، تنتصرون مرةً ، ولا تنتصرون مرة ، بل تهزمون ، لماذا ؟ تصور أن المؤمنين لو شاءت حكمة الله أن ينتصروا دائماً ، أبداً ، في أية معركة ينتصروا

ما الذي يحصل ؟ كل الناس ينضمون إليهم حتى المنافقون ، حتى الكفار ، حتى المشركون ، وإذا وجدت دولة قوية جداً فكل الدول تكون معها ، وكلهم يعلمون أنها على باطل ، و أنها ظالمة ، و أنها منحازة ، و أنها تكيل بمكيالين ، وأنها لا ترحم ، وأنها لا تفي بوعدها ، لكن لأنها قوية جداً ، ودائماً تنتصر في المعارك ، و معها سلاح قوي جداً ، فكل العالم معها ، معها على باطل ، لو أن الله عز وجل جعل المؤمنين ينتصرون دائماً لانضم إليهم كل الخلق ، وقد يكونون كفاراً ، و مشركين ، ومنافقين ، ولو أن الله عز وجل شاءت حكمته ألا ينتصر المؤمنون دائماً لانفض الناس عنهم ، لكن الله عز وجل يمتحن ، المؤمنون ينتصرون تارة ، ولا ينتصرون تارة أخرى ، هذه حكمة كبيرة ، هناك مؤمن غني ، ومؤمن فقير ، هناك مؤمن صحيح ، ومؤمن مريض ، هناك مؤمن يعيش حياة زوجية سعيدة جداً ، وهناك مؤمن وله عند الله مقام كبير يعيش حياة زوجية غير سعيدة ، شاءت حكمة الله أن يكون هكذا ، لو أن الله عز وجل جعل الجزاء معجلاً في الدنيا لكانت هناك مشكلة كبيرة ، أو لو أن الجزاء جاء عقب العمل الصالح ، والعقاب جاء عقب العمل السيئ لألغِي الاختيار ، فلو أنّ كل من دفع مئة ليرة يأخذ مساء ألف ليرة ، تجد صفاً كبير أكثره منافقون ، وأكثره كفاراً ، يقول لك أدفع مئة و أخذ ألفاً ، قد تدفع مئات ، و قد تدفع ألوفاً و لا يأتيك شيء ، وقد يعصي الإنسان الله عز وجل ، يقول لك : لا يوجد شيء ، عملت فحصاً ، كله كامل ، ممكن ، ممكن أن تعصيه إلى أمد طويل دون أن ترى شيئاً مزعجاً ، وممكن أن تطيعه إلى أمد طويل دون أن ترى شيئاً مريحاً ، هذا هو الاختيار :

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ

1 ـ امتحان النصر :

فهذه الدنيا ليست دار جزاء ، قد تغتني فيها ، وقد تفتقر ، وأنت مؤمن ، وقد تصح ، وقد تمرض ، وأنت مؤمن ، بالمناسبة لحكمة أرادها الله عز وجل فهناك ابتلاءان كبيران يبتلى بهما المؤمنون ، أول ابتلاء أنهم ينتصرون ، وتغدو كلمتهم هي العليا ، وأن الأمر بيدهم ، وأنهم قادة ، وأنهم سادة ، هذا ابتلاء ، فحينما يبتلى المؤمن بالنصر ، والتمكين ، والسيطرة ، والعلو ، فهناك مؤمنون تزل قدمهم ، وينصرفون إلى اللهو ، وهذا ما حدث لهؤلاء الذين فتحوا الأندلس ، فتحوا هذه شبه الجزيرة ـ إسبانية ـ فتحوها ، و أنشؤوا حضارة عريقة ، مكن الله لهم في الأرض ، ملكوا ، وحكموا ، واغتنوا ، و كان هناك رخاء يفوق حد الخيال ، ثم مالوا إلى الموشحات ، وإلى الغناء ، وإلى

القيان ، وإلى الجواري ، فسلب الله ملكهم دَولةً دولةً ، وكان آخر ملك من ملوك إسبانيا اسمه عبد الله الصغير ، قالت له أمه :

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

لما مالوا إلى اللهو سلب الملك منهم ، قال بعض الشعراء :

لكل شيء إذا ما تم نقصـان فلا يُغر بطيب العيش إنسـان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمـان

و هذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شـان

أول امتحان أن الله يمكن المؤمنين ، قد تزل قدمهم ، قد ينصرفون إلى اللهو .

افتح بعض كتب الأدب التي أُلفت في العصر العباسي تجد أن القيان ، والغلمان ، والدنان ، والخمور يصفها الشعراء في بغداد بعد هذا العصر ، وبعد هذا الانحراف جاء عصر التخلف ، وعصر الدول المتتابعة ، وجاء الغزاة من الشرق ، جنكيز خان ، وهولاكو ، وقد سئل مرة تيمور لنك : من أنت ؟ فقال أنا غضب الرب :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

يمكن لبعض المؤمنين أن تزل قدمه ، و يتجه إلى اللهو ، و إلى المعاصي ، و الآثام فينتزع الملك منه.

2 ـ امتحان الهزيمة والذل :

الامتحان الثاني القاسي : أن يجعل القوة في الكفار ، هم أصحاب القرار ، هم الممكنون في الأرض ، كلمتهم هي العليا ، أمرهم هو النافذ ، فيما يبدو يفعلون ما يقولون ، لذلك يقوي الله الكافر ، ويطغى هذا الكافر ، ويطغي ، ويستعلي ، ويتغطرس ، إلى أن يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ وهذا يحدث في فلسطين الآن ، وحش ، ثور هائج ، مصاب بجنون البقر ، ثور معه سلاح فتاك ، والطرف الآخر أعزل ، يقتل ، ويغتال ، ولا يعبأ بكل ما يقال عنه في العالم الغربي ، هذا ابتلاء .

إن الله عز وجل يُظهر آياته حتى يقول الملحد : لا إله إلا الله ، ويقوي الكافر حتى يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ ثم يُظهر آياته حتى يقول الملحد : لا إله إلا الله ، فرعون تبع موسى وقومه ، شرذمة قليلون ، خائفون ، هاربون ، فزعون ، وراءهم فرعون بأسلحته الفتاكة ، وجنوده ، وجبروته ، و طغيانه ، والبحر أمامهم ، وبحسب منطق الأحداث لا أمل ، ولا واحدا بالمليار إلا ويقتلهم كلهم :

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء : 61-62)

فلما وصل إلى شاطئ البحر أوحى الله إلى سيدنا موسى أن اضرب البحر ، أصبح طريقاً يبساً فمشى فيه ، فلما خرج من الضفة الثانية ، وتبعه فرعون عاد البحر بحراً ، فأغرقه الله عز وجل ، هذه القصص في القرآن ليست للتسلية .

إخواننا الكرام ، أرجو أن يكون هذا الكلام واضحاً ، إذا تدخل الله ولو كان مع عدوك مليون قنبلة ذرية، لو معه ترسانة أسلحة تدمر العالم خمس مرات فإن الله ينصرك ، وإذا تخلى الله عز وجل عن جهة استعلى عليها أضعف الخلق .

عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ...))

[متفق عليه]

أما حينما لم تطبق أمته سنته هزموا بالرعب مسيرة عام قال تعالى :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

سبب الهزيمة في أحد المعصية والمخالفة :

ما استحق الصحابة نصر الله عز وجل يوم أحد ، لأنهم عصوا أمر النبي ، وعصوه لا في أمر تشريعي ، بل في أمر تنفيذي ، ما شربوا الخمر ، وما زنوا ، لكن عصوا أمرًا تنظيميًّا ، اقبعوا هنا ، ولا تتركوا أمكنتكم ، هذا أمر نبوي ، فلما عصوا هذا الأمر لم يستحقوا هذا النصر ، معنى ذلك أن نصر الله عز وجل لا يستحقه أنصاف المؤمنين ، ولا أرباع المؤمنين ، ولا أخماس المؤمنين ، ولا أعشار المؤمنين ، ولا أصفار المؤمنين ، نصر خالق الكون تأخذه بلا ثمن ، فلو كنا كما يرضى الله عنا، على منهجه سائرون ، والله لا شارون ـ إن صح التعبير ـ ولا اليهود ، ولا أمريكا تستطيع أن تفعل معنا شيئاً ، قال تعالى :

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 160)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : الآية 47)

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : الآية 173)

البطولة أن تملك موجبات رحمة الله ، أن تملك أسباب النصر ، وهي إيمان قوي ، واستقامة على أمر الله .

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

1 ـ معنى : وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ

ليعلم الله ، الله يعلم ، أما هذا العلم كما قال عنه علماء العقيدة هو العلم الحصولي ، هو يعلم علم كشف، أما حينما ينقلب علمه إلى عمل نقول : هذا علم آخر ، هذا علم حصولي .

معلّم بارع عنده خبرة عالية جداً ، نظر في أحد طلابه فقال : هذا لا ينجح ، والفحص لم يأتِ بعد ، وهو طالب ، واسمه طالب في الصف الثاني عشر ، والامتحان لم يأتِ بعد ، أما حينما يأتي الامتحان ، ويقدم الامتحان ، ويرسب نقول : إن علم المدرس الكشفي قد أصبح علماً أصولياً ، وقع الذي توقعه المدرس تحقق ، فالله عز وجل يعلم ، وعلم الله عز وجل لا يكفي للثواب والعقاب ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيا عن بينة ، لابد من عمل تستحق الثواب والعقاب ، فعلم الله بالإنسان علم كشف ، هذا العلم علم الكشف لا يقتضي ثواباً ولا عقاباً ، لو أننا قلنا لطالب : أنت راسب في منتصف العام الدراسي يقيم الدنيا ، ولا يقعدها أنا أقوى من أي طالب ، لكن بعد الامتحان حينما تأتي إجاباته كلها مغلوطة ، وينال علامة الصفر تقول له : أنت راسب يسكت .

فعلم الله الكشفي لا يقتضي الثواب ، ولا العقاب ، أما علم الله الحصولي فهو الذي يقتضي الثواب والعقاب ، لذلك قال تعالى :

2 ـ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

ويقول الله عز وجل :

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد : الآية 4)

يمكن أن يقول الله عز وجل كلمة فيموت كل أعداء المسلمين ، زل فيزولوا ، صيحة واحدة ، لكن المؤمنين لم يرتقوا عند الله ، أما حينما يجابه المؤمنون هؤلاء ، ويدخلون معهم في حرب صعبة جداً ، ويجرح بعضهم ، ويتحمل بعضهم ، ويواجهون كل المتاعب ، ثم ينتصرون ، فقد ارتقى المؤمنون ، قال تعالى:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد : الآية 4)

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

معنى دقيق ، يمكن لله عز وجل أن يتولى بذاته نصرنا على أعدائنا ، وهناك قصص كثيرة جداً بتدخل إلهي مباشر هذه القوة العاتية حطمت ، زل فزالت ، مرض عضال ، حينما جاء نابليون إلى عكا فتك بجنوده مرض فتاك ، إنه الطاعون ، وانتهى الأمر :

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

(سورة المدثر : الآية 31)

مرض أحياناً ، أو حرب ، أو عاصفة هوجاء ، فتنهي المعركة ، في معركة الخندق هبت رياح عاتية قلبت قدورهم ، واقتلعت خيامهم ، وأطفأت نيرانهم ، وكفى الله المؤمنين القتال ، يمكن لله عز وجل أن يتدخل مباشرةً ، وينهي كل شيء ، لكن بهذا التدخل لم يبقَ لهؤلاء المؤمنين من أجر ، أما حينما يحقق المؤمنين الأجر بجهدهم ، وبصبرهم ، وجلدهم ، ويقينهم ، عندئذ يرتقون عند الله عز وجل ، قال تعالى:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(140)وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران)

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ

1 ـ معنى التمحيص :

التمحيص التطهير ، الإنسان حينما يؤمن ، ويسعد بلقاء الله عز وجل يتوهم أنه طاهر النفس ، قد يكون فيه آلاف الشهوات ، وآلاف الأمراض النفسية ، لكن لحكمةٍ بالغة يكشف الله عز وجل له مَرضاً مرضاً، وكل مرض له علاج ، نحن في العناية المشددة ، نحن في طور العناية المشددة ، كان العيب خافياً عن صاحبه ، ثم يظهر ، ثم يعالج ، ثم يطهر المؤمن منه .

(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 141)

حدثني أخ عنده معمل بسيط ألبسة ، دخل عليه أخ من إخوان المسجد ، قال له : أريد عدة قطع لأولادي ، المعمل يبيع بالجملة ، فشعر أن هذا الطلب إهانة ، قال : أنا لا أبيع بالمفرق ؟! فالأخ اعتذر، وخرج من المعمل ، فقال لي : لم يدخل المعمل زبون ثلاثة وثلاثين يوماً .

هذا كبر ، لا تبيع بالمفرق ، أخ كريم مؤمن دخل إلى معملك لا تبيعه بالمفرق ، فأدبه الله عز وجل ثلاثة وثلاثين يوماً ، الآن يبيع بالقطعة .

يمحص المقصرين أحياناً ، وأحيانا يستعلي الإنسان ، يتكلم كلمة قاسية ، يبتسم ابتسامة ساخرة ، يفتخر، فيعالجه الله عز وجل ، دائماً يعالج الله عز وجل هذا المؤمن .

(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

2 ـ إذا كنت في العناية المشددة فاحمد الله :

إذا كنت في العناية المشددة فاشكر الله عز وجل ، اشكر الله إذا كان الله يتابعك ، إذا حاسبك على كلمة، أو على ابتسامة ، أو على تقصير ، أو على نية لا ترضيه ، ورأيت الحساب جاء سريعاً ، فأنت في العناية المشددة ، وينبغي أن ترتعد مفاصلك إذا أهملك الله عز وجل ، وإذا فعلت السيئات ، وأهملك الله عز وجل فأكبر مصيبة أن تكون خارج العناية المشددة ، أكبر مصيبة أن تفعل السيئات ، وتأتيك الخيرات ، إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك ، وأنت تعصيه فاحذره ، فإن هذا ليس إكراماً ، إنما هو استدراج ، إكرام استدراجي ، ينتهي بالقصم ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام : الآية 44)

فالتمحيص كلما أخطأ عاقبه الله ، وكلما تكلم كلمةً سيئة عاقبه الله ، وكلما ابتسم ابتسامةً ساخرةً عاقبه الله ، وكلما اغتاب أحداً واجه مشكلةً لم تكن بالحسبان ، إذا كنت كذلك فاعلم أن الله يحبك ، وإذا أحب الله عبده ابتلاه ، إذا أحب الله عبده عجل له بالعقوبة ، إذا أحب الله عبده محصه يعني طهره ، أدبه ، ما هذا الأدب يا رسول الله ؟ قال : أدبني ربي فأحسن تأديبي .

المؤمن أديب جداً وهذا الأدب ناتج من تأديب الله له .

(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(141)أَمْ حَسِبْتُمْ)

(سورة آل عمران)

أَمْ حَسِبْتُمْ

1 ـ لابد للجنة من ثمن كبير :

سذاجة ما بعدها سذاجة جنة عرضها السماوات والأرض ، جنة إلى أبد الآبدين فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، هذه الجنة تأتي بركعتين شكليتين ، وليرتين تنفقهما من دون اهتمام ، تدخل بهما الجنة لا والله ؟!

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 142)

2 ـ إيثار الآخرة على الدنيا ثمن الجنة :

إله عظيم ، جنته لها ثمن كبير ، ثمن كبير ، حتى تنفقوا مما تحبون ، حتى تخضع لله خضوعاً تاماً ، وحتى تؤثره على كل شيء ، قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 24)

إذا كان بيتك أغلى عليك من الله ، وقد اغتصبته اغتصاباً ، وهو أغلى عليك من الله ، إذا كانت الزوجة أغلى عليك من الله تطيعها ، وتعصي الله ، إذا كان المبلغ الكبير يأتي من غش المسلمين تؤثره على طاعة الله ، فإن الطريق إلى الله غير سالك ، بل هو مسدود :

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

(سورة التوبة : الآية 24)

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

لابد من الجهاد ، ومن بذل الجهد ، أن تجاهد نفسك ، وهواك ، وأن تجاهد جهاداً دعوياً ، وأن تجاهد جهاداً قتالياً ، حينما يجتاح العدو أرضك .

أيها الإخوة الكرام .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

3 ـ طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب :

طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب ، كنت أضرب مثلاً مضحكاً ، محل كبير ضخم جداً في الشام لبيع السجاد ، وبائعو السجاد يضعون بعضه فوق بعضٍ ، فزرت هذا المحل ، فأراك الأولى ، تقول له : أريد الأغلى ، أعطاك الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، الخامسة ، أراك كل شيء في المحل ، تقول له : أريد الأغلى ، أخذك إلى مكان آخر فيه قطع نفيسة جداً ، سعر الواحدة ثمانمئة ألف ، أراك واحدة أعجبتك فقلت له : أتأخذ ثمنها خمس ليرات ، هل تخرج من المحل سالماً ؟

إنسان لا يقرأ ولا يكتب توفي والده ، فذهب إلى المقبرة ليزوره ، فوجد شاباً يقرأ القرآن ، فأعطاه عشرة قروش فقط ، قال له : اقرأ على روح والدي ، فهذا اغتاظ جداً من هذا المبلغ الذي لا يساوي شيئاً ، فقرأ :

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)

(سورة الطور : الآية 30)

هذا الابن بدأ يغلي ، ما وجد غير هذه الآية :

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)

(سورة الطور : الآية 31 - 32)

قبضه فقال له : ما وجدت غير هذه الآيات ؟ فقال له : تريد الجنة بعشرة قروش ؟

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

4 ـ الجنة تحتاج إلى جهاد وصبر :

مرتاح ، تقصير في الصلاة ، غيبة ، نميمة ، تملأ عينيك من الحرام ، تأكل ما تشاء ، تفوتك صلوات وصلوات ، ونحن مسلمون ، والحمد لله ، ومن أمة محمد .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

أيها الإخوة ، الجنة تحتاج إلى جهد كبير ، وإلى سهر طويل ، وإلى إنفاق ، وإلى معاكسة الشهوات ، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : 40-41)

تحتاج إلى غض بصر ، إلى ضبط لسان ، إلى إنفاق مال ، إلى حضور مجالس علم ، أما هذا الذي يعطي نفسه ما تشتهي ، ويتمنى على الله الأماني ، فهذا قال سمّاه النبي الكريم العاجز ، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي ، ابن ماجه]

فلابد من الجهاد ، ولا بد من الصبر على قضاء الله ، وقدره ، وعن معصيته ، وعلى طاعته ، دقق على طاعته ، وعن معصيته ، وعلى قضاء الله وقدره ، لابد أن تصبر ، وأن تجاهد ، تبدأ بجهاد النفس، والهوى ، وتمر بالجهاد الدعوي إلى الله عز وجل ، ثم تنتهي بالجهاد القتالي .

(وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 143)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(39-60): تفسير الآيات 139 – 145
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-08-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثانية والأربعين بعد المائة ، وهي قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ

1 ـ ثمن الجنة باهظ :

أي من السذاجة والحمق أن تتوهم أن هذه الجنة التي فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والتي هي نعيم مقيم إلى أبد الآبدين ، أن هذه الجنة يمكن أن تنالها بلا ثمن ، أو بثمن بخس ، كنت أقول بركعتين وليرتين ، لا .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

2 ـ الله وعدَ المؤمنين بالنصر :

نقيس على هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالنصر ، وعدهم بالتأييد والتوفيق ، لكن وعد المؤمنين الملتزمين المتمسكين المطبقين الذين يؤثرون طاعة الله على كل شيء ، هؤلاء يتنزل عليهم نصر الله ، ولا عبرة بهذا التفوق الذي يتبجح به الأعداء ، لذلك لا ينزل الله عز وجل نصره على أنصاف المؤمنين ، ولا على أرباع المؤمنين ، ولا على أثلاث المؤمنين ، ولا على أخماس المؤمنين ، ولا على أسداس المؤمنين ، ولا على أصفار المؤمنين ، لا ينزل نصره إلا على المؤمنين ز

كل بطولتك أن تستكمل موجبات النصر ، وموجبات رحمة الله ، اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، فلذلك هذه الجنة لا بد لها من ثمن باهظ ، وطلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب ! ثمنها الباهظ أن تؤثر الله على كل شهواتك .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : 40-41)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : 50)

هما طريقان لا ثالث لهما ، إما أن تستجيب لله ، وإما أنك على خط هوى قطعاً ، وليس هناك منزلة ثالثة .

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : 50)

تكاد الحياة الدنيا تجمع الناس على خطين فقط ، إما أن تطلب الآخرة ، وإما أن تطلب الدنيا ، إما أن تلبي الحاجة العليا ، وإما أن تلبي الحاجة السفلى ، إما أن تحكمك القيم ، وإما أن تحكمك المصالح ، إما أن تستجيب للشهوة ، وإما أن تستجيب للعقل ، هكذا فإن لم تكن مع العقل فأنت مع الشهوة ، إن لم تكن مع المبدأ فأنت مع المصلحة ، إن لم تكن تسعى للآخرة فأنت تسعى للدنيا ، فلذلك :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

3 ـ الجهاد و الصبر طريقان للجنة :

أي بذلوا الجهد ، هذا شيء ليس من السهل أن تصل إليه ، هناك جهاد النفس والهوى ،وهذا من أصعب أنواع الجهاد ، بل من أهم أنواع الجهاد ، ثم هناك الجهاد الدعوي ، ثم هناك الجهاد القتالي ، هذا الذي لا يستطيع أن يغض بصره كيف يحارب ؟ لا يستطع أن يضبط لسانه كيف يحارب ؟ لا يستطيع أن يحرر دخله من الحرام كيف يحارب ؟

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ)

جاهدوا بذلوا الجهد ، إما جهاد النفس والهوى ، وإما الجهاد الدعوي ، وإما الجهاد القتالي .

(وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

4 ـ الصبر هو حقيقة الإيمان :

الإيمان كله صبر ، الإنسان مجموعة شهوات ، ومعه منهج ، والمنهج يقنن شهواته ، يوجد مسارات نظيفة ، تقنين الشهوات في مسارات نظيفة هو الجهاد ، والصبر هو حقيقة الإيمان ، لك أن تقول ما تشاء ، ولكن حينما تريد أن تضبط لسانك بكلام يرضي الله عز وجل فأنت مجاهد، لك أن تملأ عينيك من محاسن أية امرأة على الشاشة ، أو في مجلة ، أو في الطريق ، أما حينما لا تسمح

لعينيك أن تستمتعا إلا بمن تحل لك فهذا ضبط ، لك أن تأخذ المال من كل جهة ، أما حينما تتحرى أن تكسب المال من وجه مشروع فهذا جهد ، وضبط ، واتباع الحق .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

سُئل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : " أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال : لن تمكن قبل أن تبتلى".

وطّن نفسك ، مستحيل أن تصل إلى مرتبة عالية عند الله ، مستحيل أن تستحق الجنة من دون بذل جهد، ومن دون امتحان صعب .

أنا لا أخيفكم ، لا والله ، لكن لا أطمّعكم بشيء كالسراب ، الجنة تحتاج إلى جهد كبير ، حتى تضع إلى جانب اسمك حرف دال فقط كم سنة تدرس ؟ ومع كم أستاذ تلتقي ، وكم من كتاب تقرأ ؟ وكم من بحث تعيد صياغته ؟ وكم من سفر تسافر ؟ من أجل أن يضاف حرف الدال إلى اسمك ؟ فكيف إذا أضيف إلى اسمك المؤمن فلان ؟ هذه أعلى مرتبة علمية ، وأخلاقية ، وجمالية ، كلمة مؤمن كلمة علمية ، ومرتبة أخلاقية ، ومرتبة جمالية ، أذواق المؤمن عالية جداً ، تعرف إلى أصل الجمال ، كل الناس مع الجمال وهو مع أصل الجمال ، كل الناس مع النعمة ، وهو مع المنعم ، كل الناس مع الشهوات الآنيّة . إخواننا الكرام ، شيء بدهي أن اللذات تأتي من الخارج ، من المال ، من مركبة فارهة ، من بيت فخم، من دخل كبير ، من منصب خطير ، هذه لذات تأتي من الخارج ، وطابعها حسّي ، وتأثيرها متناقص ، وتعقبها كآبة ، وقد تنتهي بالنار ، بينما السعادة تنبع من الداخل ، ولو كنت في كوخ حقير . نبي كريم فجأة رأى نفسه في بطن الحوت ، كم نسب الفوز بالنجاة في هذه الحال ؟ نسبة النجاة ، وأنت في بطن حوت ، في ظلمة الليل الحالك ، في ظلمة البحر ، إنه سيدنا يونس :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء : 87 - 88)

العبرة أيها الإخوة أن تكون مع الله ، هذه الرحمة العظيمة وجدها إبراهيم في النار ، فلما رحمه الله عز وجل قال تعالى :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء : 69)

ووجدها يونس في بطن الحوت ، وجدها النبي الكريم في غار ثور ، وجدها أصحاب الكهف في الكهف ، وافتقدها أصحاب القصور ، والمليارات ، وأصحاب المكان العلي في المجتمع .

اتخذ الطريق المشروع لتلبية الشهوة :

أيها الإخوة ، هذه الجنة ثمنها بين يديك ، أحياناً ترى قصراً فتقول : هنيئاً لمن يسكنه ، لكنه لا تملك ثمنه ، وليس هناك أمل أن تسكنه ، إلا أن الجنة ثمنها بين يديك ، ثمنها معتدل معقول ، ما منعك أن تتزوج ، لا ، لم يحرمك من النساء ، بل قال لك : تزوج ، وما حرمك من المال ، قال لك : اعمل ، ما حرمك من الطعام والشراب ، قال :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

(سورة الأعراف)

كل ، واشرب ، واعمل ، واكسب المال ، وتزوج ، وأنجب ذرية طيبة ، واستمتع بها ، من دون إسراف ، ولا مخيلة ، شيء بمتناول يدك ، وتملكه ، ولا تحتاج إلى جهة أخرى .

أيها الإخوة ، الذي يضاعف عذاب الكافر في النار أنه كان بإمكانه أن يدخل الجنة ، فإذا رأيت شيئاً فوق طاقتك هل تندم على عدم وصولك إليه ؟ لا ، لو فرضنا أن ملكًا عُيّن في بلد ، تقول : لماذا لم أكن أنا مكانه ؟ مستحيل أن تكون مكانه ، أنت لست من ذاك البلد ، ليس عندك مؤهلات لهذا المنصب الرفيع ، فالشيء الذي لا يمكن أن تصل إليه لا تندم على فواته ، لكن ما الذي يؤلمك أشد الألم ؟ أن يباع بيت بثمن بخس ، وتملك هذا الثمن ، ولأسباب تافهة ترفعت عنه ، ثم تضاعف سعره إلى مائة ضعف ، وأنت في أمسّ الحاجة إليه ، يقول : احترق قلبي ، لما لم أشتر هذا البيت ، معك ثمنه ، وأنت في أمس الحاجة إليه ، ولأسباب تافهة أعرضت عنه ، ثم ندمت أشد الندم ، لماذا حالة الندم في الآخرة عالية جداً وصعبة ؟ لأن هذا الذي استحق النار كان بإمكانه أن يدخل الجنة ، وثمنها بين يديه ، ليس هناك شهوة منعك الله منها ، ليس في الإسلام حرمان أبداً ، في الإسلام تنظيم فقط .

الجهاد الدعوي فرض عين :

ذكرت أن الجهاد جهاد النفس ، والهوى ، وجهاد دعوي ، والجهاد الدعوي فرض عين ـ بدليل قول الله عز وجل :

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

أحد أسباب النجاة التواصي بالحق .

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف)

فإن لم تدع إلى على بصيرة فلست متّبعاً لرسول الله ، وإن لم تتبع رسول الله فلن يحبك الله ، أنت في خندق آخر ، معنى ذلك أن الجهاد الدعوي فرض عين ، ومن مات ، ولم يجاهد ، ولم يحدّث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق ، ببساطة ما بعدها بساطة .

اقتنى أخ كريم مائة شريط ، ووزعها على أقربائه بالتناوب ، قام بدعوة ، هو قد يعجز عن الكلام ، لكن عنده رغبة أن يكون من الدعاة إلى الله عز وجل ، وزّع هذه الأشرطة ، الشيء الذي تفاعل معه ، وذابت نفسه تقديراً له ، وزعه على من حوله ، بعد حين جلبهم إلى المسجد ، ثم بعد حين التزموا ، فكانوا كلهم في صحيفته ! قضية الدعوة فرض عين ، لكن في حدود ما تعلم ، وفي حدود من تعرف فقط ، وعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة ، لو أن كل واحد وطّن نفسه إذا سمع تفسير آية تفسير ، أو حديثًا ، أو حكمًا فقهيًا ، أو موقفًا لصحابي شريفًا حدّث به من حوله طوال أسبوع ، هذا معنى قول النبي :

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ...))

[البخاري]

بلغ ، ما أجمل أن تجعل من هذا الأسبوع من السبت إلى الجمعة ، كل لقاءاتك ، وكل علاقاتك ، وولائمك ، وسهراتك ، وندواتك ، وسفرك ، وجلوسك في مكتبك ، موضوع الحديث عادي ، عن الطعام ، والشراب ، وعن ، الأسعار ، والحر الشديد ، والتلوث ، والجفاف ، والكساد ، والقلق ، والحديث عما يجري في فلسطين ، إذا طعمت هذا الموضوع بدعوة إلى الله ، وببيان حكم شرعي ، ببيان آية كريمة ، ببيان حديث شريف ، ببيان موقف بطولي لأصحاب رسول الله ، هذه الدعوة إلى الله بسيطة جداً ، في حدود ما تعلم ، ومع من تعرف ، فرض عين في حدود ما تعلم فقط ، ومع من تعرف، خاصة نفسك ، من حولك ، أولادك ، إخوانك ، أخواتك ، أولاد إخوتك ، زملاؤك في العمل ، جيرانك أصدقاؤك ، أقرباؤك .

إذا رأيت شحاً مطاعًا ، وهو المتّبع ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فالزم بيتك ، في زمن الفتن ، في الهرج والمرج ، في الطرق المليئة بالكاسيات العاريات ، في كل المقاصف التي توزع فيها الخمور ، في زمن الفسق والفجور ، في زمن يقظة الفتنة ، في زمن الجنس ، في زمن الأفلام ، في زمن النوادي المختلطة ، في زمن السياحة الجنسية ، في هذه الأزمان المفعمة بالمعاصي ، والآثام الجأ إلى كهفك ، وإلى بيتك ، وإلى مسجدك .

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا)

(سورة الكهف : 16)

هذا المجلس إن شاء الله هناك بلاد إسلامية كثيرة لا يعقل أن يعقد فيها مثل هذا المجلس ، فإذا كنت في بلد بإمكانك أن تأتي إلى مجلس علم ، وأن تستمع إلى خطبة مؤثرة ، وأن تلتقي بأخ صادق مؤمن ، هذه نعمة لا تعرف قيمتها إلا إذا فقدتها .

(وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

(سورة آل عمران)

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

1 ـ تمني بعض الصحابة الشهادة :

حينما سمع بعض أصحاب رسول الله في معركة بدر عن بطولات الصحابة ، وعن استشهاد هؤلاء الأبطال ، وعن قربهم من الله عز وجل ، تمنوا أن يكونوا في معركة قادمة من الشهداء ، لكن حينما واجهوا الموت اختلف الأمر .

(وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

(سورة آل عمران)

أحياناً الحديث عن الشيء أمتع من الشيء ، أن تتحدث عن الشهادة أهون من أن تكون شهيداً ، قبل أن يموت الإنسان ، سيدنا أبو رواحة هو القائد الثالث في مؤتة ، فأول قائد قاتل حتى قُتل ، والثاني قاتل حتى قُتل ، جاء دور الثالث كان شاعراً تردد قلبه هكذا تروي الروايات قال :

يا نفس إن لم تُقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليتِ

إن تفعلي فعلهما رضيتِ وإن توليت فقد شقيــتِ

فقاتل حتى قُتل ، قال عليه الصلاة والسلام :

((أخذ الراية أخوكم زيد ، فقاتل بها حتى قتل ، وإني لأرى مقامه في الجنة ، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر ، فقاتل بها حتى قتل ، وإني لأرى مقامه في الجنة ، وسكت النبي عليه الصلاة والسلام ، وقلق الصحب الكرام على أخيهم عبد الله ، ثم سألوا النبي الكريم : يا رسول الله ما فعل عبد الله ؟ قال : ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله ، فقاتل بها حتى قتل ، وإني أرى في مقامه ازورارا عن صاحبيه))

[كنز العمال]

تردد ثلاثين ثانية ! تردد في ماذا ؟ في إنفاق مائة ليرة ؟ في تقديم بيته ؟ لا تردد في بذل روحه ، والجود في النفس أقصى غاية الجود ، هكذا كان الصحابة ، لأنهم ترددوا في بذل أرواحهم هبطت مكانتهم ، فكيف المسلمون اليوم ؟

بماذا أنتم مطالبون أيها الإخوة ؟ مطالبون بضبط اللسان ، وضبط الدخل ، وغض البصر ، وحضور مجلس علم فقط ، مطالبون بشيء يفعله كل إنسان بلا حرج ، وبلا مشقة ، وبلا جهد .

لذلك أيها الإخوة ، الإنسان مسؤول مسؤولية كبيرة إذا وصله الحق ، ثم أعرض .

(وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

(سورة آل عمران)

2 ـ البطولة أن نفعل هذه الأعمال الصالحة لا أن نتمناها :

ليست البطولة أن نتمنى الأعمال الصالحة ، لكن البطولة أن نفعل هذه الأعمال الصالحة ، مسافة كبيرة جداً بين من يتحدث عن القيم ، وبين من يعيش القيم ، أي إنسان منحرف يحدثك عن الاستقامة يطرب ، الاستقامة بطولة ، التواضع بطولة ، الكرم بطولة ، الشجاعة بطولة ، فالحديث عن القيم ممتع ، لكن أن تعيش هذه القيم مسعد ، وفرق كبير بين أن تستمتع ، وبين أن تسعد ، لاحظ نفسك حينما تعمل عملاً صالحاً خالصاً لله ، حينما ترقى غلى مستوى البطولة تشعر بنشوة ما بعدها نشوة ، رائحة . موقف صمت ، وكان بإمكانك أن تتفوه بأقصى الكلمات ، لكنك ضبطت نفسك ، في موقف آخر بذلت ، وكان بإمكانك أن تبخل ، في موقف سادس عفوت ، وكان بإمكانك أن تنتقل ، في موقف رابع وضعت نفسك في الذل ، وكان بإمكانك أن تتألق خوفاً من الله عز وجل ، هذا الذي تفعله لوجه الله له طعم لا ينسى ، الله عز وجل عوضك عن الدنيا بأن ألقى في قلبك السكينة .

في قلب المؤمن الصادق سعادة وسكنيتة :

والله أيها الإخوة ، المؤمن الصادق مع الله في قلبه سكينة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم ، نحن نبحث عن السعادة بالمال ، والمال محدود ، وغير ميسور للجميع ، نبحث عنها في البيت ، في المرأة ، في المركبة ، في المنصب ، لو علمنا حق العلم أن السعادة بين أيدينا بالاتصال بالله عز وجل ، أنت إذا اتصلت بالله اتصلت بأهل الجمال بمنبع القوة ، بمنبع السكينة ، بمنبع الحلم ، لذلك لا يمكن أن ترى مسلماً مصلياً حقوداً ، أو حسوداً ، أو بخيلاً ، أو جباناً ، أو لئيماً ، أو محتالاً ، هذا مستحيل ، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى ، فإذا أحب الله مخلوقاً منحه خلقاً حسناً ، لا يمكن أن يقبل اتصالا بالله مع البخل ، واللؤم ، والجبن ، مستحيل ، لذلك الذي يشد الناس إلى الدين ليس أفكاره ، مع أنها أفكار منطقية ورائعة ، لكن الذي يشد الناس إلى الدين أخلاق المؤمنين هذه دعوة قوية جداً ، دعوة صامتة لا تحتاج إلى كلام ، الأمين يدعو إلى الله بصمت ، الصادق يدعو إلى الله بصدقه ، المتقن عمله يدعو إلى الله بإتقان عمله ، الحليم يدعو إلى الله بحلمه .

فرق كبير بين التحدث عن القيم والأخلاق والاتصاف بها :

سهل جداً أن تتغنى بالقيم ، أو أن تتحدث عنها ، أو أن تستمتع بالحديث عنها ، لكن البطولة أن تعيشها.

ملاحظة طريفة : حدثني أخ : دخل عليهم أستاذ فألقى عليهم محاضرة في التواضع ، شيء لا يصدق ، الأدلة من القرآن ، والسنّة ، وأقوال العلماء ، والقصص الرائعة عن التواضع ، ثم دخل غرفة المدرسين، ووضع رجلاً على رجل ، وترفع عن كل من حوله ، وهو لا يشعر ، حدثتنا عن التواضع حديثاً ممتعاً ، لكنك لست متواضعاً ، هذه المشكلة ، الأخلاق ينبغي أن تعيشها ، لا أن تتحدث عنها ، فالحديث عنها سهل جداً ، لذلك كفر الناس بالمواعظ ، إن أردت أن تحتقر متكلماً ، أخي لا تعظنا ، بلا وعظ ، مع أن الوعظ كلمة قرآنية :

(وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)

(سورة النساء : 63)

كلمة موعظة قرآنية ، لكن لأن الناس فرغوها من مضمونها تحدثوا عن الأخلاق فقط .

مرة ركبت مع سائق ، لشدة ما تحدث عن نفسه ، شيء لا يحتمل ، ثم ركب معه إنسان فقير ، معه بضاعة أتى بها من لبنان طعامًا لأولاده ، فهذا السائق دون أن يشعر هذا الراكب وضع بعضاً منها وراء العجلة في الصندوق ، إذاً هو سارق ، فالحديث عن الخلق سهل جداً ، حتى اللص يتحدث عن أخلاقه ، ومروءته ، القضية قاسم مشترك ،

كل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

العبرة لا أن تتحدث عن القيم ، بأي مجتمع الإنسان منطقي ، والإنسان يحب أن يكون رجل مبدأ، لا يوجد إنسان إلا ويتحدث عن فضائله ، وقد يكون عديم الفضائل ، أكبر دليل :

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

(سورة غافر : 29)

هذا حديثه ، مع أنه كان أكبر طاغية ! فالحديث لا قيمة له ، الإنسان ينبغي ألا يُقيّم من حديثه إطلاقاً .

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

(سورة آل عمران)

1 ـ إشاعة خبر مقال النبي وأثر ذلك في الصحابة :

لأنه أُشيع أن محمداً قد قُتل ، أحد من كان حول النبي قال : لو كان رسولاً لم يُقتل ، لمجرد أنه سمع أنه قد قُتل كفر برسالته ، لو كان رسولاً لم يُقتل ، من قال لك ذلك ؟ النبي بشر ، وتجري عليه كل خصائص البشر ، فالذين كانوا على إيمان رفيع قال : إن يمت محمد فرب محمد حي لا يموت ! المحاكمة السليمة ، بعضهم من شدة ألمه ، وحرصه على حياة النبي قال : ماذا تفعلون بعد موت نبيكم؟ موتوا على ما مات عليه ، فانطلقوا إلى العدو ، بعضهم قال : لو كان رسولاً لم يمت ، فجاء الجواب :

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

(سورة آل عمران)

2 ـ الجواب الإلهي : النبي بشرٌ :

محمد بشر ، تجري عليه كل خصائص البشر ، لأنه انتصر على بشريته فكان سيد البشر .

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ)

لكن هناك معاني تفصيلية ، حينما قال الله عز وجل :

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة : 67)

3 ـ عصمة الله لنبيه من القتل :

وعد إلهي ، إذاً لا يمكن أن يغتال محمد ، لأنه باغتيال محمد تغتال الدعوة ، هو رسول مَن ؟ إنه رسول خالق الأكوان ، أما إذا قتل يمكن أن يقتل بعد انتهاء دعوته ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة، الموت حق ، وقد يكون الموت قتلاً ، أما أن يأتي كافر ، وقبل أن ينتهي النبي من تبليغ دعوته يقتله ، وكأنه تحدى الإله ، لذلك طمأنه الله عز وجل قال :

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة : 67)

يتكلمون عنك ما شاؤوا ، أما أن ينهوا حياتك لا يستطيعون .

حينما كان النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، وتبعه سراقة ، وسراقة طمع بمائة ناقة وضعت لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، وقد أهدر دمه ، فلما تبع النبي عليه الصلاة والسلام شعر أنه ممنوع منه ، غارت قدما فرس سراقة في الرمال ، قال له النبي الكريم :

((يا سراقة كيف بك إذا بلغت سوار كسرى))

[السيرة لنبوية]

حللوا هذا الكلام ؟ إنسان مهدور دمه ، وضعت مائة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، يقول لسراقة : كيف بك إذا لبست سوار كسرى ، أي أنا سأصل وواثق ، وسأؤسس دولة في المدينة ، وسأحارب كسرى ، وسوف يهزم كسرى ، كما لو قلت لمجموعة قبائل في اليمن : سوف تنتصرون على أمريكا ، وسوف تدخلون البيت الأبيض مثلاً ! نفس النسبة :

((يا سراقة ، كيف بك إذا بلغت سوار كسرى)) ؟

معنى ذلك أن الله عز وجل وعد نبيه أن يحميه من القتل .

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة : 67)

لكن قد يقتل بعد انتهاء دعوته ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة فقد يموت على فراشه ، وقد يموت قتلاً ، سيدنا خالد قال : << ما في بدني موضع إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح >> ، في بداية قوله يقول : << خضتُ مائة معركة ، وما في بدني موضع وإلا فيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء >> .

إخواننا الكرام ، المعركة لا تميت ، والمرض لا يميت ، لا يميت إلا انتهاء الأجل .

فكم من صحيح مات من غير علية وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)

4 ـ الدعوة إلى الله ينبغي أن تبنى على التوحيد لا على أشخاص :

هذا يعلمنا أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تبنى على التوحيد ، لا على أشخاص ، فإن بنيت على أشخاص، وكان التركيز عليهم ، والأضواء مسلطة عليهم ، ومات هؤلاء الأشخاص فقد انتهت الدعوة إلى الله ، أما إذا بنيت على التوحيد ، وأن الله حي باق على الدوام ، لذلك أروع كلمة قالها الصديق رضي الله عنه ببساطة ما بعدها بساطة : << من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت >> ، هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، ما خاطبه في حياته إلا يا رسول الله ، بأعلى درجات الأدب ، قال الصديق : << من كان يعبد محمداً - بلا لقب - فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت >> .

(أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

5 ـ تطبيق عملي للآية في واقعنا :

هؤلاء الموحدون الذين تعلقوا بخالق الأكوان ، وعبدوا الله عز وجل ، ولم يهتزوا بموت النبي عليه الصلاة والسلام ، هؤلاء وصلوا إلى قمة السعادة ، لو أردنا أن نطبق هذا على واقعنا ، أنت يمكن أن تكون مستقيمًا في بلدك ، أما إذا سافرت فينبغي أن تكون مستقيماً ، في تعريف لطيف ، إسلام جغرافي، ما دمت في هذا البلد فأنت مستقيم ، كم من امرأة كانت محجبة في الطائرة ، وحينما تسافر ، وتغادر البلد الذي أُلزمت فيه بالحجاب تخلع معظم ثيابها في الطريق ، هذا يعني أن دينها جغرافي ، دين متعلق بمكانه ، بالمجتمع فقط ، أما المؤمن فتطبيقاً لهذه الآية أينما ذهب وحلّ فهو مستقيم ، لا يتأثر بالبيئة ، هو مع الله ، لا يوجد دعوة عميقة جداً يدعو بها الدعاة أعمق من التوحيد ، أن تربط الإنسان مع خالق الأكوان .

قال رجل لعبد الله بن عمر : << بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها ماتت ، قال : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟! >> .

هذا الدين كله ، الدين كله أن تقول : أين الله ؟ أن تخشى أن تأكل درهماً حراماً ، أن تتكلم كلمة نادبية ، أن تنظر نظرة شهوانية ، هذا الدين ، حينما تصل إلى هذه الاستقامة فقد قطعت أربعة أخماس الطريق إلى الله .

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا)

والله يا إخوان في سورة الأحزاب آيات إذا قرأها الإنسان يشعر بقشعريرة .

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : 23)

6 ـ المؤمن الصادق ثابت في السراء الضراء :

في السراء مستقيم ، في الضراء مستقيم ، في الفقر مستقيم ، في الغني مستقيم ، في الصحة مستقيم ، في المرض مستقيم ، قبل الزواج مستقيم ، بعد الزواج مستقيم ، في منصب متواضع مستقيم ، في منصب رفيع مستقيم ، عاهدنا رسول الله في السراء والضراء ، وفي المنشط ، والمكر ، هذا المؤمن لا يتأثر لا بدخل ، ولا ببيئة ، ولا بزواج ، إيمانه فوق كل هذه المتبدلات والمتغيرات .

(وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا)

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا

1 ـ الضال لا يضر إلا نفسه :

مثل مضحك : لو جاء رجل بمطرقة ، وكسر البلّور مركبته الذي ثمنه ستون ألفًا ، من ضرّ ؟ لم يضر أحدًا ، لقد ضر نفسه ، أحياناً يظن الإنسان نفسه انتقم ، أو أخذ موقفًا إذا كان انتكس ، لا ، لا ، إذا انتكس الإنسان فإنما ينتكس على نفسه ، إذا نقض عهده مع الله فإن الله غني عنا ، يكون قد نقض عهده مع سلامته وسعادته .

(وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا)

لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم ، وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص في ملكه شيئاً .

(وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

هؤلاء الذين شكروا ، واستقاموا سوف يجزيهم الله عز وجل .

أيها الإخوة ، ثم تأتي الحقيقة الصارخة ، وكأنها القانون :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

1 ـ أخطر حدث بعد وجودك أيها الإنسان هو موتك :

أخطر حدث بعد وجودك هو موتك ، موت صدفة بسبب طائش تافه ، الموت كتاب مؤجل ، كتب علينا الموت جميعاً ، لكن مع وقف التنفيذ ، وسينفذ الموت في الثانية ، والدقيقة ، والساعة ، و، اليوم ، والأسبوع ، والشهر ، والسنة المحدد له ، في وقت محدد بالتمام .

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا)

2 ـ الموت لا يكون إلا بأجل مسمى :

المرض لا يميت ، ساحة المعركة لا تميت ، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ، ولا تقرب أجلاً ، أن تجهر بالحق فهذا لا ينهي حياتك .

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا)

الموت حق ، وميقاته حق ، ودقيقته حق .

(وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران)

وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ

1 ـ اطلب من الدنيا ما تشتهي فإنها منقطعة :

اطلب ما شئت ، إن أردت الدنيا فلك منها ، وإن أردت الآخرة فلك الآخرة ، افعل ما بدا لك ، اختر ما تشاء .

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)

أيها الإخوة ، عطاء الدنيا بيد الله ، وعطاء الآخرة بيد الله ، الصحابي الجليل سيدنا ربيعة خدم النبي سبعة أيام ، فعَنْ خَادِمٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٍ أو امْرَأَةٍ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَقُولُ لِلْخَادِمِ :

((أَلَكَ حَاجَةٌ ؟ قَالَ : حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَاجَتِي ، قَالَ : وَمَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ حَاجَتِي أَنْ تَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ : وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ : رَبِّي ، قَالَ : إِمَّا لَا فَأَعِنِّي بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

(مسند الإمام أحمد)

فإن أردت الدنيا فلك الدنيا ، لكن الدنيا لا تليق كعطاء لله ، لأنها منقطعة ، مهما علوت .

توفي شخص ، وترك أربعة آلاف مليون ، ما صلى ركعتين في حياته ، فمهما علوت في جمع المال ، أو في منصب رفيع ، أو في مكانة علمية فلا بد أن تموت ، وماذا بعد الموت ؟ ثم ماذا ؟ لابد أن ينتهي كل شيء بالموت ، لذلك من أراد الدنيا فقد احتقر نفسه .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة : 130)

ما عرف قيمته عند الله ، هل من المعقول أن تدخل على ملك ، وتطلب منه قلم رصاص فقط ؟ يُطلب منه بيت ، منصب رفيع ، مركبة غالية جداً ، يطلب منه أن تكون سفيرًا في بلد ، قلم رصاص ! إنك لا تعرف قيمة هذا الملك من هذا الطلب ، ولا تعرف مكانتك عنده من هذا الطلب ، لذلك من عرف نفسه عرف ربه ، فكل إنسان يريد الدنيا فقد سفه نفسه احتقرها ، أراد شيئاً زائلاً .

2 ـ الدنيا لا تستقيم لأحَدٍ :

الدنيا سبحان الله تغر ، وتضر ، وتمر ، متى يأتي ملك الموت ؟ بعد أن تنضج ، لك بيت فخم ، علاقاتك كلها إيجابية ، ووضعك جيد ، أمرك نافذ ، مسيطر ، تفضل الآن ، بعد النضج ، وبعد الغنى ، وبعد القوة ، فما هذه الدنيا ؟

يكون الإنسان قد شاب ، وليس معه ثمن طعام طيب ، إذا اغتنى ، وأصبح معه ثمن طعام طيب لا يستطيع أن يأكل الطعام الطيب ، لوجود خمسين علة في جسمه ، هذه الحياة .

إن هذه الدنيا دار التواء ، لا دار استواء ، الزوجة جيدة ، الأولاد سيئون ، الأولاد جيدون الزوجة سيئة ، الزوجة والأولاد جيدون ، الدخل قليل ، الدخل قليل ، فيه مرض ، هكذا الدنيا .

إن هذه الدنيا دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، فقد جعلها الله دار بلوى ، وقد جعلها دار عقبى ، فجعل بلاد الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(40-60): تفسيرالآيات 146 – 150
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-08-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية السادسة والأربعين بعد المائة ، الآية الكريمة :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

1 - (كم)الخبرية و (كم)الاستفهامية :

كأين بمعنى كم الخبرية ، وكم لها استعمالان ؛ كم الخبرية ، وكم الاستفهامية ، تسأله : كم كتابا عندك؟ استفهامية ، قد تقول : كم كتاب عندي ! أي عندي كتب كثيرة ، فإما أن تسأل ، وإما أن تفتخر ، كم كتاب عندي ؟ أي عندي كتب كثيرة ! تسأله : كم كتابا عندك ؟ فإما أن نستخدمها استفهاماً ، أو إخباراً ، لذلك إعرابها كم الخبرية ، أو الاستفهامية ، كأين تساوي كم الخبرية أو الاستفهامية .

2 - مَن هو الربِّيّ ؟

كم من نبي ، أي ما أكثر الأنبياء الذين قاتل معه ربيون كثير .

الربي هو الرباني ، الإنسان الذي عرف الله فأخلص له ، وجعل كل وقته ، وعمله ، وطاقته ، وجهده ، وماله في سبيل الله ، سئل رجل : كم الزكاة ؟ فقال : عندنا أم عندكم ؟ غريب كم دينا يوجد ؟ قال : ما عندنا ؟ وما عندكم ؟ قال : عندكم اثنان ونصف بالمائة ، أما عندنا فالعبد وماله لسيده ، هؤلاء :

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(10)أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

(سورة الواقعة : 10-11)

هؤلاء الذين انطبق عليهم قول الله عز وجل :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة : 111)

باعوا أنفسهم ، وباعوا أموالهم ، نظير الجنة ، فلذلك :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ)

العبرة أيها الإخوة ، ألا نهزم من الداخل .

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

لماذا قال الله عز وجل :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

الانتصار والهزيمة تابعة لمشيئة الله وحكمته :

شاءت حكمة الله أن ينتصر المسلمون تارة ، وأن ينهزموا تارة ، لو أن الله كتب لهم النصر الأبدي لانضم إليهم كل الخلق نفاقاً ومنفعة ! لكن أحياناً ينهزمون ، أيعقل أن يكون سيد الخلق ، وحبيب الحق يرى أحد أصحابه يعذب كعمار بن ياسر ولا يستطيع أن ينقذه ؟ فيقول :

((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))

[ورد في الأثر]

ليس عنده مال يعطيه لأصحابه ، ليس عنده قوة يمنحها لهم ، الدنيا ليست بيده ، كان من الممكن أن يكون النبي قوياً كهؤلاء الطغاة ، إذا كان النبي قوياً فكل من حوله يسلم ، لا حباً ، ولا تعبداً ، ولا خوفاً من الله ، بل خوفًا منه ، هذا الإسلام لا قيمة له ، لذلك شاءت حكمة الله أن يكون النبي ضعيفاً أحياناً ، لا يستطيع أن يدفع العذاب عن أحد أصحابه .

((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))

(ورد في الأثر)

فحكمة الله تقتضي أن ينتصر المسلمون تارة ، وأن ينهزموا .

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

ينتصرون فيتواضعون لله ، ينهزمون فيتوبون إلى الله ، هذه حكمة الله جل جلاله ، يقول الله عز وجل:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا)

3 ـ الضعف النفسي مرض خطيرٌ :

هذا الضعف النفسي مرض ، دليل عدم الثقة بالله ، دليل عدم معرفة المؤمن لربه معرفة تامة ، معرفته لا تكفي لذلك ضعف .

(فَمَا وَهَنُوا)

ما ضعفوا ، يقال : إن أحد شيوخ الأزهر قبل أن يطلب العلم التحق فلم ينجح ، فيئس ، كان جالساً مرة في بيته ، فرأى نملة تصعد على الحائط ، ثم وقعت ، أعادت الكرة ثانية ، هذا الشيخ عدّ محاولات الصعود فكانت ثلاثا وأربعين محاولة ! هذه النملة علّمته درساً لا ينسى ، ألا ييأس ، وأن يعيد الكرة .

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ)

هناك أناس كثيرون أمام أول عقبة يتراجعون ، أمام أي صعوبة ينسحبون ، أمام أي عقبة يعتذرون ، هذا الإنسان ليس أهلاً أن يكون جندياً لله عز وجل ، الله عز وجل يربي المؤمنين ، ويسوق لهم من الشدائد ومن المتاعب .

4 ـ الضغط يؤدِّب المؤمنَ :

أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي ، وتكدري ، وتضيقي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ، هذا الماس ، أنا رأيت قطعة ماسٍ في متحف في استانبول قيل ثمنها : مائة وخمسون مليون دولار ! بحجم البيضة ، أكبر قياس ! موضوعة في خزانة ، وعليها إضاءة ، فكأنها شمس ، ما أصل الماس ؟ فحم ، لو أردت أن تشتري فحماً مثل هذه القطعة قد تساوي نصف ليرة ، تلك الماسة مائة وخمسون مليون دولار ، كيف تحوّل الفحم إلى الماس ؟ من شدة الضغط والحرارة ، إذا ضغط الفحم ضغطاً ضغطا لا حدود له ، وأصابته حرارة عالية جداً يصبح ماسًا ، الآن هناك ماس صناعي ، تقريباً يشبه الماس الطبيعي ، لكن بالاستعمال يخبو وهجه ووضاءته ، فالضغط الشديد ، والحر الشديد يقلبان الفحم إلى ماس ، هذا مثل مادي .

وأنت أيها المؤمن ، هذا الضغط يؤدبك ، ما هذا الأدب يا رسول الله ؟ قال :

((أدبني ربي ، فأحسن تأديبي))

هذا الذي تراه مؤدباً ساق الله له من الشدائد ما لا يعد ، ولا يحصى ، حتى أصبح دقيقاً ، منضبطاً ، أديباً ، متواضعاً ، رحيماً ، وقافاً عند كتاب الله .

فالعبرة لا أن تنجو من الامتحان ، لكن العبرة أن تنجح في الامتحان ، هذا كلام دقيق .

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا)

أحياناً تخور قوى الإنسان ، ويهبط ، ويُحبط ، وييأس يستخذي ، ويخضع ، ويلين ، لا الله معكم ، ولن يتركم أعمالكم .

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا)

5 ـ المؤمن الصادق لا تخور عزائمه عند الشدائد :

مؤمنون صادقون مخلصون ، مؤمنون باعوا أنفسهم في سبيل الله ، مؤمنون اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم ، مؤمنون سخروا كل شيء في خدمة الحق ، قال :

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

والله الذي لا إله إلا هو نحن لن نذق شيئاً إطلاقاً ، كل ما تكلف به أن تأتي إلى الدرس فقط ، وأن تصلي الخمس ، هؤلاء الذين ضحوا بأموالهم في الهجرة ، وتركوها كلها في مكة ، إنسان يسكن في بلد، له بيت ، وله مركز تجاري ، وله مركبة ، وله رصيد في بيته ، يذهب بثيابه إلى بلد بعيدة ، لا عمل ، ولا بيت ، ولا مكتب ، هذه الهجرة ، اقتلاع من الجذور ، هؤلاء أصحاب رسول الله ضحوا بأموالهم ، وأنفسهم ، ووضعوا أرواحهم على أكفهم في سبيل الله ، قطعت يده اليمنى ، فحمل الراية باليسرى ، قطعت اليسرى فحملها بعضديه ، حتى قتل في سبيل الله ، إنه سيدنا جعفر .

أحدهم جُرحت إصبعه ، يحتاج إلى تعقيم ، وإبرة ضد الكزاز ، وقلق لجرح طفيف أصابه ، أعرابي أسلم ، ثم كانت غزوة ، فشارك فيها ، فانتصر المسلمون ، أُعطي الغنيمة ، قال : ما هذه ؟ قال : غنيمة! قال : ما على هذا أسلمت ، أنا أسلمت على الذبح .

نحن والله ما قدمنا شيئاً ، والله نحن تمتعنا بالإسلام ، نحن الإسلام رفعنا وحملنا ، لكن أصحاب رسول الله حملوا الإسلام ، وجاؤوا به إلينا وتجشموا المشاق .

رأت أنصارية أباها مقتولا في المعركة ، ثم رأت ابنها ، ثم رأت أخاها ، ثم رأت زوجها ، وتقول : ما فعل رسول الله ؟ إلى أن رأته ، واطمأنت على سلامته ، فقالت : يا رسول الله كل مصيبة بعدك تهون .

هؤلاء أصحاب رسول الله بذلوا الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ،

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ))

[صحيح البخاري]

ويقول عليه الصلاة والسلام :

((إذا ذكر أصحابي فأمسكوا))

[ورد في الأثر]

نحن ما فعلنا شيئاً ، ذهب النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف فاستهزؤوا به ، وكذبوه ، وأغروا سفهاءَهم ، ونالوه بالأذى ، حتى سال الدم من قدميه الشريفتين قال :

((رب إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى ، وإن عافيتك أوسع لي))

[ورد في الأثر]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[سنن الترمذي]

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

6 ـ لا للاستكانة والركون إلى الدنيا :

أحياناً قبل الزواج يكون الرجل متألقًا ، بعد الزواج خبا نوره ، وانطفأت همته ، وأصبح على الهامش ، فتاة سلبته عقله ، طلبت منه بعض الطلبات ، قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اعلمي أن في الجنة من الحور من العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أضحي بهن من أجلك))

[ورد في الأثر]

على ماذا عاهد أصحاب رسول الله رسول الله ؟ على الطاعة في المنشط والمكر ، في إقبال الدنيا وإدبارها ، في الصحة والمرض ، في الغنى والفقر .

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : 23)

الثبات نبات ، فقد تجد أخًا التزم فانتهى ، هذا وقت الدرس ، التزم فغض البصر ، التزم فضبط اللسان، التزم فحرّر الدخل ، انتهى الأمر ، عاهد خالق الكون ، أما أن يقبل ، ويدبر ، ويتقدم ، ويتراجع ، أخ أزعجه صاحبه فترك الجامع ، فلان أزعجني ، لا أستطيع رؤيته بالجامع ، شيء جيد ، والله ، لأتفه سبب يتراجع ، وينتكس ، ويقصر ، ويلغي الدرس كله ، لو جاءه ضيف ثقيل قبل الدرس أخجل منه .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((سَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ))

[صحيح البخاري]

كان عليه الصلاة والسلام عمله ديمة دائم ، المؤمن الصادق يبرمج حياته وفق منهجه الديني ، أمور حياته تؤدى في الوقت الفارق ، أما أن يجعل منهجه الديني فضلة ، وعلى الهامش فهذا مستحيل .

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

الاستكانة أن تكون مستخذياً أمام قوي ، متذللاً أمامه ، خانعاً أمامه ، خائفاً منه ، وتنسى أن الله معك ، قال تعالى :

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء : 61-62)

إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ؟

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا)

قال :

هل أنت إلا إصبع دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

المؤمن هدفه كبير في سبيل هذا الهدف يضحي بكل شيء .

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا)

ما تذللوا للعدو ، ولا وقفوا موقفاً ضعيفاً أمامه ، ولا رجوه ، ولا استخذوا .

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

7 - وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ

هناك آية أيها الإخوة تملأ المشاعر :

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)

(سورة ص : 44)

ويعاب من يشكو الرحيم إلى من لا يرحم .

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف : 86)

إن الله يحب الصابر المتماسك ، القوي في الله ، الثابت ، لكن لا يحب المتضعضع المتذلل ، لا يحب الإنسان الذي مقاومته هشّة ، أول ضغط يكسر ، أي سريع العطب ، لسبب تافه جداً يترك ، وينتكس ، وينقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، لأنه يعبد الله على حرف.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

أتحب أن يحبك الله عز وجل ؟ كن صابراً .

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور : 48)

لو كان حكم ربك واضحاً ، لو كان حكم الله واضحاً لا يحتاج إلى صبر ، لو قال لك طبيب الأسنان : أنت لا يناسبك المخدر ، لابد من قلع هذا السن بلا مخدر ، هذا واضح ، هو لصالحك ، ولصالح قلبك ، فالمخدر يؤذي القلب ، قلبك ليس قوياً ، ولا يحتمل المخدر ، لابد من قلع هذا السن بلا مخدر .

الأمر واضح جداً ، الأمر الواضح لا يحتاج إلى صبر ، لكن الأمر الغامض يحتاج إلى صبر ، قد يكون الإنسان مستقيماً ، وتأتيه مصيبة ، هنا الصبر ، الحكمة غير واضحة أمامك ، وكلما اتضحت الحكمة ضعف الصبر ، وكلما غابت عنك الحكمة ارتفع الصبر ، أنت بحاجة إلى صبر .

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

أتمنى على بعض الإخوة الكرام أن يقرأ القرآن الكريم قراءة تصنيفية ، ماذا يحب الله عزوجل ؟ يحب الصابر ، والشاكر ، والمتقي ، والصادق ، والتواب ، والمتطهر ، أسباب محبة الله بين يديك ، محبة الله مقننة ، لها قانون ، كن صابراً ، وشاكراً ، ومتطهراً ، وتواباً يحبك الله .

(وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا)

(سورة آل عمران)

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

1 ـ الاستغفار بعد المصيبة دليل الرضا والقناعة والتقصير في حق الله :

عندهم إحساس ، وعندهم قناعة ، أن الله عز وجل لا يسوق مصيبة إلا لحكمة بالغة ، والأولى أن تكون هذه المصيبة سبب تقصير من هذا الإنسان .

(وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

لعلنا قصرنا في حق ، أو تجاوزنا حدنا ، فإذا قصرنا في حق فهذا ذنب كبير ، أو تجاوزنا الحد فذنب آخر .

((ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، وما يعفو الله أكثر))

[ورد في الأثر]

هذا الذي أصابنا بذنوبنا ، الله غني عن تعذيبنا ، غني عن أن يسوق لنا شدة بلا سبب ، وبلا حكمة ، غني عن ذلك ، لذلك .

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ

(146)

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد]

إنسان يقصر ، وإنسان يتجاوز الحد ، وإنسان يسرف على نفسه ، وإنسان لا تثبت قدمه ، فكان الدعاء:

(اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا)

وهناك ذنوب قد تظنها حسنات ، وهي ذنوب ، لذلك كلما صغر الذنب عند الإنسان كبر عند الله ، وكلما كبر عند الإنسان صغر عند الله ، إذا كان سيد الخلق يستغفر ربه فمن أنت حتى لا تستغفر ؟ لماذا شُرع الاستغفار بعد الصلاة ؟ قد تكون في الصلاة ساهيًا ، أو لم تحكم الاتصال بالله عز وجل ، وهذا ذنب أيضاً ، ينبغي أن تستغفر الله منه .

(وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

نحن في دار تعذيب ، وتكليف لا في دار تشريف ، نحن في دار عمل ، لا في دار جزاء ، اليوم عمل ولا جزاء ، وغداً جزاء ولا عمل ، نحن في دار منقطعة ، في دار فيها هم ، وانقطاع ، وسوف نأتي إلى دار إذا أكرمنا الله ، ونرجو ذلك فيها عطاء ، وامتداد عطاء أبدي ، لذلك من الحمق الشديد أن نذهب طيباتنا في الآخرة في الحياة الدنيا .

(إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

قال :

(فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ)

فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ

1 ـ الراضي باختيار الله يكسب ثواب الدنيا والآخرة :

اخترت رضاء الله عز وجل فكسبت الدنيا والآخرة ، والذي اختار الدنيا بسخط الله خسر الدنيا والآخرة، ربح المؤمن لا يوصف ، استقيموا ولن تعصوا ، من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ، من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً .

(فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا)

ما هو ثواب الدنيا ؟ سمعة طيبة ، حكمة بالغة ، شعور آمن ، ذرية طيبة ، زوجة صالحة ، مكانة عالية ، هذا ثواب الدنيا ، وإذا مات .

(وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ)

قال بعضهم في قوله تعالى :

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

(سورة البقرة : 201)

2 ـ ثواب الدنيا عامٌ :

هي الزوجة الصالحة ، التي إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، إن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها ، فثواب الدنيا زوجة صالحة ، سمعة طيبة ، شعور بالأمن ، شعور بالسعادة ، شعور بالرضا ، رائحة زكية ، أينما جلست يحبك الناس ، ألقى الله حبك في قلوب الخلق ، وثمة إنسان مبغوض ، أينما جلس يلعنه الناس ، ماذا يمنع أن تكون نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة ؟ يمكن أن تنال ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة .

(فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

هذا الذي حينما يسوق الله له مصيبة لا يضعف ، ولا يستكين ، وهذا الذي يستغفر ، يستغفر من تقصيره ، أو من مجاوزته الحد ، وهذا الذي يدعو بالأقدام ، والنصر على القوم الكافرين ، هذا عند الله محسن .

(فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(148)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

1 ـ اتباع الكفار في نمط حياتهم خسارة فادحة :

والله هذه الآية أيها الإخوة ، مفصلية ، أنت حينما تتبع الكفار في تجارتك ، أحياناً طرائق في التجارة مستقاة من العالم الغربي ، نظام ربوي ، وفوائد ، وعملات ، فكل هذه الحركة خلاف الشرع ، أنت حينما تقلد الغرب تطيعهم ، أحياناً تطيعهم في تربية أولادك تؤمن بالاختلاط، أيعقل أن تسمح لبناتك أن يكن مع شباب بدافع الانفتاح ، والحضارة ، والمرونة ، والثقة في البنت ؟ أنت بهذا تقلد الأجانب ، دقق؛ أعراس مختلطة ، وإذا لم يكن ثمة اختلاط فيجب أن يقف العريس أمام النساء الكاسيات العاريات، نمط غربي ، في أفراحنا ، وأتراحنا ، وفي كل شؤون حياتنا ، نقلد الأجانب .

كان أحد المعامل يحقق أرباحًا عالية جداً بأعماله الصالحة ، بإحسانه ، بصداقاته ، بزكاته ، الآن يدفع كل هذه المبالغ للإعلانات ، هذا نمط غربي ، يدفع ملايين مملينة على الإعلانات فقط ، بدل الإحسان ، والزكاة ، والصدقة ، النجاح بالتجارة ، والصناعة أساسه التوفيق ، والتوفيق أساسه الطاعة لله عز وجل

، مؤمن بالتسويق الغربي بالإعلان فقط ، ومتى يكون الإعلان مثيراً ؟ بالمرأة ، فلابد من امرأة كاسية عارية مع هذه البضاعة ، هذا التسويق الغربي الأجنبي ، وهناك من يؤمن بالتسويق الغربي ، ولا يؤمن بالتسويق الإسلامي ، الإسلامي أتقن بضاعتك .

2 ـ النمط الإسلامي فيه الخير كلّه :

لي أخ رصد مبلغا كبيرا بالملايين للإعلان ، فماذا فعل صاحب هذا المعمل ؟ وظفه في الأعمال الصالحة فقط ، قال : لاقت بضاعتي رواجاً لا يوصف ، عنده معمل أجهزة كهربائية ، رصد مبلغًا للإعلان ، فجعله مقابل صيانة كل جهاز أصابه عطب دون مقابل لسنتين ، المبلغ الذي رصده للإعلان جعله في خدمة هؤلاء المشتريين ، أيّ إنسان عنده جهاز أصابه عطب يصلح ، وتبدل القطع التالفة مجاناً ، قال : فراجت البضاعة ، فهل يجب أن تتقيد بالتسويق الغربي ؟

ومعمل آخر سمعت عنه كان له مدير محسن ، ويعطف على العمال ، ويعطيهم مساعدات استثنائية في الأيام الحرجة ، في أيام الولادة فرضاً ، في أيام الشتاء ، وكان العمال منصرفين إلى إتقان عملهم إتقاناً بارعاً ، والمعمل كله أسرة واحدة ، جاء أخ لهذا المدير ، واستلم مكانه على النمط

الغربي ، لم يعط مساعدات أبداً ، وما رحم أحدًا من العمال ، لكن بذل أموالا فلكية على الإعلان ، هذا التسويق الغربي ، فإذا أردت التوسع في الآية فترى أن نظام حياتنا كله غربي .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

3 ـ اتباع الكفار طاعةٌ لهم :

حتى في بيوت المسلمين أجهزة اللهو هي في واد ، وأنت في واد ، هي في الشهوات ، والعلاقات، والمسلسلات ، وكل عمل فني فيه معاص لا تعد ولا تحصى ، والأصل أن الدين شيء قديم لا قيمة له ، نحن نطيعهم دون أن ندري ، ممنوع أن يكون فندق من خمس نجوم دون خمر ؟! مستحيل ، هذه طاعة لهم ، ثم لم يعد هناك نجوم ، لقد طُمست النجوم من دون خمر ، اعتنِ بالفندق عناية بالغة ، سمه باسم إسلامي ، لا خمس نجوم ، ولا فيه خمر ، ونحن نطيعهم بهذا ، طبعاً إذا أطعناهم في الربا ، وفي الكسب الحرام ، وفي الغش مثلاً فلابد لهذه الدجاجة من أن تبقى من دون نوم أربعين يوماً ، هي متوترة ، والذي يأكلها يتوتر ! هكذا تعلمنا بالمداجن ، يطعمون البقر طحين اللحم ، البقر نباتي ، أطعموه طحين اللحم فجنّ ، وما جنون البقر إلا من جنون البشر .

في الغرب يقولون : كل شيء قابل للدراسة والرفض ، لا شيء مقدس أبداً ، نحن عندنا منهج ، أصول الذبح ، وأصول الطعام .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

في سبيل السياحة نسمح بكل شيء ، إطاعة للغرب ، صناعة السياحة تحتاج إلى بيوت إلى شق مفروشة ، وغض البصر عن الدعارة أحياناً ، من أجل الدخل السياحي .

(إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(149)بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

4 ـ منهجُ اللهِ كاملٌ :

أيها الإخوة ، أعيد وأكرر ؛ منهج الله منهج كامل ، ومن الخطأ الكبير أن نظن أن منهج الله هي هذه العبادات الشعائرية وحدها ، منهج الله في كل شيء ؛ في كسب المال ، وإنفاقه ، والزواج ، والطلاق ، والاحتفال ، والأتراح ، والأفراح ، والسفر ، والإقامة ، إنه منهج الله الكامل ، فحينما نطيع الذين كفروا في مناهج حياتنا ، من أجل تقوية أولادنا باللغة الأجنبية لا بد من السفر إلى بلاد بعيدة ، السفر مسموح، أما أن يسكنوا مع أسرة متفلتة ، واحتمال أن يعود الابن زانياً فلا مشكلة ، لكنه قوي باللغة ، هذه مشكلة كبيرة جداً ، يجب أن ننشئ معاهد للتقوية في بلادنا ، أما أن نضحي بأخلاق أولادنا من أجل تعلم اللغة فهذه مشكلة كبيرة جداً ، فنحن ينبغي أن نأتي بالبدائل الإسلامية

لكل شيء ، أما أن نفهم الدين فقط صومًا وصلاة وحجّا ، وزكاة ، وفي شؤون الدنيا كالنمط الغربي ، هذا تنطبق عليه هذه الآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

حينما خرجت المرأة إلى العمل ، وانغمست فيه ، وفقد الأولاد الأم المربية ماذا حصل ؟ حصل خطأ كبير جداً ، يدفع الآباء الآن ثمنه ، لست ضد العمل إذا كان مشروعًا ، أما إذا كان على حساب دين المرأة ، أو على حساب استقامتها ، أو على حساب عفتها ، أو على حسب إخلاصها لزوجها ، هذا عمل يسيء للأسرة ، فما كل عمل نرضاه للمرأة ، نرضى لها عمل يتناسب مع طبيعتها ، ومع حشمتها ، ومع استقامتها ، وإخلاصها لزوجها .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ)

مُطلقة ، تطيعه في ماذا ؟ في شؤون حياتنا ، في أنماط حياتنا ، في منهجنا ، في اقتصادنا ، وعلاقاتنا ، وفي منهجنا ، في أفراحنا .

(إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(149)بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

لو أنكم أطعتم ربكم تولاكم ، ونقلكم من حال إلى حال ، ومن نجاح إلى نجاح ، ومن خير إلى خير .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)

الأسئلة :

- أخ سأل سؤالا وجيها :

س : أنا ذكرت في الخطبة اليوم أنه يستحيل على الله عز وجل أن يقول في قرآنه كلاماً لا معنى له ، أو كلاماً لا يعنيه ، أو أن يخوفنا ، أو أن يبالغ في قوله ، فقال لي أحد الإخوة : كيف نوفق بين هذا الكلام وبين قول الله عز وجل :

(ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ)

(سورة الزمر: 16)

ج : التخويف بالمعنى العامي يستحيل على الله ، أن تقول شيئاً لا تعنيه ، أو أن تهدد ولا تفعل ، هذا تخويف البشر ، لكن إذا خوّف الله ذكر الحقيقة ، ذكر ما سيكون هذا تخويف بالمعنى القرآني هذا على العين والرأس ، الله عز وجل يذكر ما سيكون في النار ، هذا تخويف حقيقي ، أما

التخويف بالمعنى العامي أنني أبالغ وأقول مالا أفعل ، يقول : أخفته ، فهذا المعنى لا يصح أن ينسب لله عز وجل ، هذا هو الجواب .

س : زوجتي لا تقيم وزناً لطلباتي الشخصية ، وهي هنا ، أرجو إبداء النصيحة لها .

ج : قدمي له طلباته الشخصية ، ما هذه الطلبات معقولة أم غير معقولة ، نعرف هل هي وفق الشرع أم بخلافه ؟ هذا كلام عام ، لكن إذا صلت خمسها ، وصامت شهرها ، وصانت نفسها ، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها ، فطاعة زوجها ربع دينها . لكن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، إذا طلب منها أشياء معقولة كأن تؤدي واجبها تجاه زوجها وعصته تعد آثمة ، وقد فقدت ربع دينها ، وأيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض ، وليس أي زوج ، بل الزوج المؤمن فبعض الأزواج فاسقين لا يرضوا عن زوجاتهم إلا بالمعصية ، وأيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة .

س : كيف يكون المؤمن في سكينة ، وهو عليه أن يخاف الله دائماً رأو أن يخاف من النار ؟

ج : حينما يلقي الله في قلب المؤمن السكينة هذا لا يتناقض مع خوفه من النار ، في الإيمان جماليات ، لولاها لما سار أحد في طريق الإيمان ، الله عز وجل يقرب ، ويتجلى ، ويطمئن ، فإذا وجد التقصير يخوّف ، فالمؤمن يخاف من النار ، فإذا التقى النار يطمئن ، فإذا قصر يقلق ، فيجتمعان ولا يتناقضان .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(41-60): تفسيرالآيات 149 - 154
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-09-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية التاسعة والأربعين بعد المائة ، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(149)بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

(سورة آل عمران)

طاعة غير المسلمين واتباع منهجهم خسارة ما بعدها خسارة :

ذكرت في الدرس الماضي في تفسير هذه الآية أن المسلم حينما يؤدي عباداته الشعائرية ، ثم يطبق في حياته اليومية مناهج غير المسلمين ينقلب خاسراً أشد الخسارة ، الإسلام منهج كامل في كل شؤون حياتك ، فما لم تعتمده في أمورك اليومية ، وفي كل المجالات فلن تفلح ، لذلك اكتفى المسلمون اليوم من الإسلام بعباداته الشعائرية ، وغاب عنهم أن المنهج الإسلامي ينبغي أن يكون في كسب المال ، وإنفاقه ، وفي الزواج ، والطلاق ، وفي الأفراح ، وفي الأتراح ، وفي الحل وفي السفر ، حينما ترفض مفردات هذا المنهج ثم تطبقه على حياتك اليومية عندئذ تنجو من أن تخسر ، أو أن تهلك .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

التسويق عند المسلمين نسخة طبق الأصل للتسويق الغربي:

ذكرت في الدرس الماضي دليلين صارخين ، قضية التسويق ، هناك في جامعات في الغرب اختصاصها التسويق ، التسويق عند الغرب هو الإعلان ، والدعاية فقط ، والإعلان لا ينجح إلا بامرأة شبه عارية ، هكذا التسويق الغربي ، أما التسويق الإسلامي فأنا لا أنكر قيمة الإعلان ، لكن هناك منهج يضبط هذا الإعلان .

لابد من تربية المجتمع على هذا الدين في جميع المجالات :

حينما أتقن صناعتي ، وأدفع زكاة مالي ، وحينما أنصح المسلمين فهذا هو التسويق الإسلامي ، فلذلك المسلم يغفل منهج الإسلام في تسويق البضاعة ، ويأخذ منهج الغرب ، قد يطبق منهج الغرب في تربية أولادي ، أعطيهم حرية ، قد يتفلتون ، أهتم بتحصيلهم الدراسي فقط ، ولا يعنيني إيمانهم أبداً ، قد أرشدهم إلى بلاد بعيدة ، وأنا لست واثقاً من انضباطهم ، التفوق في تربية الأولاد بمنهج غربي هكذا ، أما التفوق في تربية الأولاد أن يكون ابنك معك ، أن تلزم أولادك ، أن تأتي بهم إلى المسجد ، أن تربيهم على حب الله ، وحب رسوله ، ففي تربية أولادنا منهجنا غربي ، في تسويق بضاعتنا منهجنا غربي ، في أفراحنا ، وفي أتراحنا منهجنا غربي ، في حل مشكلاتنا منهجنا غربي ، حتى في قضايانا الكبرى .

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

(سورة الحجرات : 9)

نحتكم إلى أعداء الله ، وإلى الكفار كي يحلوا مشكلاتنا فيما بيننا .

القضية خطيرة جداً ، أيها الإخوة ، هذا الإسلام لن نستطيع أن نقطف ثماره إلا إذا طبقناه كله من دون استثناء ، أنا لا أقول كما يقول بعضهم : إما أن تأخذه كله ، أو تدعه كله ، لا لكن أقول : ينبغي أن تأخذه كله في كل شؤون حياتك .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

(سورة آل عمران)

لابد أن نؤمن على البضاعة ، التأمين حرام إلا إذا كان تعاونياً ، هناك من يؤمن على البضاعة عند الله بدفع القيمة لفقراء المسلمين ، ما من تشريع غربي إلا له بديل إسلامي ، لابد من استخدام اليانصيب في ترويج السلع ، أضيف مبلغاً على ثمن القطعة ، وأجمعه من كل القطع ثمن سيارة ، ثم أجعله يا نصيب، هكذا التسويق الغربي ، فالذي يؤلم أن المسلمين في شكلهم الظاهري مسلمون ، في عباداتهم الشعائرية، ولكنهم حينما يدخلون حياتهم العملية الذين يطبقون مناهج غربية .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

لابد أن تخرج المرأة من البيت لتعمل ، وقد يكون العمل مناقضاً لمنهج الله عز وجل ، وقد يكون مع العمل فتنة ، ومع الفتنة فساد ، ومع الفساد انحراف ، ومع الانحراف اختلاط ، فلابد أن نقلد الأجانب ، هذه هي المشكلة ، الإسلام منهج متكامل يجب أن نأخذه كله حتى نستطيع أن ننتظر من الله أن ينصرنا، حتى نقطف ثمار هذا الدين ، لذلك تجد في أسر كثيرة مخالفات للشرع كبيرة جداً في البيوت ، ورب الأسرة محسوب على المسلمين ، ويأتي إلى بيوت الله ، ويجلس في دروس العلم ، وهو مسلم ، لكن لو دققت في عمله لا يطبق الإسلام.

دعوة إلى تطبيق منهج الله الكامل :

أنا أدعوكم أيها الإخوة من خلال هذه الآية إلى تطبيق منهج الله كاملاً ، المسلم الحقيقي هو مسلم ينصاع لأمر الله .

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

(سورة آل عمران : 19)

أما أن نطبق في تجارتنا منهج الأجانب ، وفي تسويق البضاعة ، وفي صنع البضاعة قد أغير خلق الله عز وجل ، قد أطعم هذه الحيوانات التي أتاجر بها مسحوق اللحم الحرام ، لماذا جن البقر ؟ لأنه أطعم مسحوق الجيف ، صممه الله نباتياً فجعلته لاحماً ، فجن البقر ، وما جنون البقر إلا من جنون البشر ، هذه الآية واسعة جداً ، حتى في الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والتسويق ، وفي الزواج ، والطلاق.....

سمعت البارحة عن إنسان يقيم في بلاد غربية حينما كبر أولاده خاف على دينهم ، ومستقبلهم ، فأراد أن يعود إلى بلده ، يقول : إن زوجته داعية ، وقفت أمامه معارضة العودة إلى بلاد المسلمين ، فلما اشتد الخلاف بينه وبينها ، رفعت قضيتها أمام القضاء الأمريكي لتأخذ من زوجها نصف ما يملك ، ولم ترض بالقضاء الإسلامي أن تأخذ مهرها فقط ، أين الدعوة ؟ الذي لا يقبل منهج الله عز وجل ، ويحتكم إلى مناهج أخرى هذا ليس من الله في شيء ، فالذي يلفت النظر أن المسلمين أنفسهم لا يطبقون منهج الله ، توهموا وهماً عجيباً ، توهموا أنهم إذا صاموا ، وحجوا ، وزكوا ، وصلوا فقد طبقوا الإسلام ، وما هي إلا عبادات شعائرية ، لا يمكن أن تقبل عند الله إلا إذا صحت العبادات التعاملية ، إلا إذا انصعت لأوامر الله ، على كل هذا شرحته في الدرس الماضي .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(149)بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِين

1 ـ النموّ الاقتصادي ليس إلهًا يُعبَد :

لا يرتقي دخلنا إلا بالسياحة ، ومن لوازم السياحة الفنادق الفخمة ، وأن تبيع الخمور ، وأن يكون فيها نساء كاسيات عاريات ، والمسابح ، والمقاصف ، وما إلى ذلك ، فهذا أيضاً منهج غربي .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة : 28)

لا ينبغي أن نؤلّه النمو الاقتصادي ، لا ينبغي أن نجعل هذا النمو إلهاً نعبده من دون الله ، لا ينبغي أن نضحي بقيمنا ، ومبادئنا من أجل دخلنا .

(بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ)

2 ـ الله هو الرازق وهو الناصر :

هو الذي يرزقكم ، وينصركم ، ويحفظكم ، ويؤيدكم ، وهو مولاكم .

(وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

مشكلة المسلمين مشكلة عويصة أيها الإخوة ، إنهم استغربوا ، وأصبحوا غربيين في كل شؤون حياتهم، ولم يبق لهم من الإسلام إلا هذه العبادات الشعائرية ، لماذا ينتظرون أن ينصرهم الله عز وجل؟ لماذا يعتبون على الله ؟ شيء لا يصدق ؛ في كل شؤون حياتي غربي الملبن ، أما في مظهري فشرقي الضرع ، لا أن تكون غربي الملبن شرقي الضرع ، ينبغي أن تكون شرقي الضرع ، وشرقي الملبن ، إسلامي الضرع والملبن .

(بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

بيد الله عز وجل الخيارات لا تعد ولا تحصى ، يقويك ، فينصرك ، أو يلقي الرعب في قلب أعدائك فينصرك .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)

(سورة آل عمران)

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

1 ـ الكافر في رعب بسبب الشرك :

اجعل هذا قانوناً ، أي كافر قلبه ممتلئ رعباً ، والمؤمن يلقي في قلبه الأمن قانون الأمن والخوف .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام : 81-82)

من لوازم إيمانك أن قلبك ممتلئ أمناً ، ومن لوازم الكفر ، والشرك أن قلبك ممتلئ رعباً ، فإذا كان قلب الإنسان كفؤاد أم موسى خالياً هذه علامة الشرك ، وعلامة البعد عن الله ، وإذا كان قلب المؤمن ممتلئا أمناً فهذه علامة الإيمان .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران)

هذه الباء باب السبب ، أي بسبب شركهم .

(بِمَا أَشْرَكُوا)

بسبب شركهم ، قلب معه شرك يساوي رعبًا شديدًا ، قلب معه إيمان يساوي طمأنينة شديدة .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

الآية الكريمة :

(تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213)وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء : 213-215)

2 ـ سبب العذاب الدنيوي هو الشرك :

أحد أسباب العذاب في الدنيا الشرك ، أن تعبد غير الله ، لا بلسانك ، ولكن بلسان حالك ، قد تتعلق بإنسان قوي من أقربائك ، قلبك ممتلئ تعظيماً له ، وهو لا يعرف الله ، لأنه قوي ، فاعتمادك عليه نوع من العبادة ، قد تعتمد على مالك فهذا شرك ، قد تعتمد على نفسك ، على خبراتك ، ومكانتك ، وشهرتك، فهذا نوع من الشرك ، قد تعتمد على ابنك ، وهذا نوع من الشرك ، الاعتماد النفسي قد تستعين به دون أن تعتمد عليه ، قد تعتمد على زوجتك ، هذا نوع من الشرك ، أو على شريكك .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ)

بسبب شركهم سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، وكأن هذا مقياس دقيق للإيمان ، قلب ممتلئ رعباً دليل شركه ، وقلب ممتلئ أمناً دليل إيمانه ، المؤمن في قلبه أمناً ما لو وزّع على أهل بلد لكفاهم .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

3 ـ ليس هناك دليل على الشرك :

ليس هناك دليل على الشرك ، أنت توهمت أنه قوي ، وهو في قبضة الله عزوجل ، توهمت أنه يعطيك، والمعطي هو الله ، أنت توهمت أنه يمنع عنك ، والمانع هو الله ، توهمت أنه سيرفعك ، والرافع هو الله ، توهمت أنه سيخفضك ، والخافض هو الله ، توهمت أن بهذه العلاقة المتينة يعزك ، والمعز هو الله ، توهمت أنه يذلك لو أغضبته ، والمذل هو الله .

أرأيت إلى هذا التابعي الجليل الحسن البصري ، حينما كان عند والي البصرة ؟ جاءه توجيه من يزيد ، هذا التوجيه لعله لا يرضي الله عز وجل ، فلو أنه نفذه لأغضب الله عز وجل ، ولو لم ينفذه

لأغضب يزيد ، ولعزله من ولاية البصرة ، كان عنده الحسن البصري قال : يا إمام ماذا أفعل ؟ أجاب هذا الإيمان إجابة يمكن أن تكون شعاراً لكل مؤمن إلى يوم القيامة ، قال له : " إن الله يمنعك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " .

الله عزوجل يمنعك من أقوى قوي ، ولكنك لو أطعت القوي ، وعصيت الله هذا القوي فلا يمنع عنك الورم الخبيث ، لا يمنع عنك الفشل الكلوي ، أو تشمع الكبد ، أو خثرة في الدماغ ، أو الشلل ... " إن الله يمنعك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " ، فكن مع الأقوى لمصلحتك ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

ليس هناك دليل على الشرك

4 ـ لا تتوهم النفع والضر عند غير الله :

نحن توهمنا أشخاصاً أقوياء ، توهمنا أنهم يرفعون ، ويخفضون ، ويعزون ، ويذلون ، ويعطون، ويأخذون ، نحن توهمنا ما لم ينزل به سلطانا ، وما سوى الله لا يفعل شيئاً ، الفعال هو الله ، لا يكمل إيمانك إلا إذا رأيت يد الله وحدها تعمل ، وليس مع الله أحد .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : 84)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : 123)

قال لي أحدهم : أخاف أن أطيع الله فأخسر عملي ، قلت له : الإله الذي تعبده إذا كان لا يحميك فلا تعبده ، ينبغي أن تعبد إلهاً يحميك ، تعبد إلهاً كل أقوياء الأرض بيده .

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(45)قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه : 45-46)

هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، ألا ترى مع الله أحداً .

كما قلت قبل قليل :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : 123)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 26)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر : 62)

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف : 54)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود : 56)

هذا هو الإيمان .

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ)

(سورة يونس : 24)

كما هي الآن :

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس : 24)

قالوا قبل حين : إن هذه الكتلة الشرقية عندها من القنابل الذرية ما تستطيع به تدمير الأرض خمس مرات ! هم دمروا من داخلهم ، تهاوت قلعتهم من الداخل .

أيها الإخوة الكرام .

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس : 24)

ستهلك عاد الثانية كما أهلك عاد الأولى :

وهذا الذي ترونه أيها الإخوة من شأن عاد الثانية ، التي وصفها القرآن الكريم فقال :

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت : 15)

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر : 8)

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(128)وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء : 128-129)

هذه عاد الثانية ، الله عز وجل قال :

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى)

(سورة النجم : 50)

هذا يعني وجود عاد ثانية على شاكلتها .

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت : 15)

أقوى دولة في العالم .

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر : 8)

أجمل بلاد في العالم .

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(128)وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء : 128-129)

أقوى قوة غاشمة في العالم .

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء : 130)

وعندهم أذكياء العالم .

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت : 38)

أرأيت إلى هذه الآيات ؟ واحدة تلو الأخرى ، كانوا أذكياء مستبصرين ، وكانوا بطاشين ، وكانوا يبنون بكل ريع آية يعبثون ، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون ، وقالوا من أشد منا قوة ، ووصفت أنه لم يخلق مثلها في البلاد .

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(6)سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(7)فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)

(سورة الحاقة : 6-8)

هذا مصيرها الذي ينتظرها .

أيها الإخوة الكرام :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ !!!

والله هؤلاء الأقوياء ينفقون على تسليح بلادهم من شدة الخوف الذي يملأ قلوبهم ما لو أنفق على العالم كله لملأه أمناً وطمأنينة ورخاء ، والأرقام التي تنفق على التسليح في العالم العقل لا يقبلها ، أرقام فلكية، ألوف ألوف ألوف البلايين من شدة الخوف الذي ملأ القلوب ، أما النبي عليه الصلاة فاسمه حديثه ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً))

[صحيح البخاري]

أما حينما تركت أمته سنته هزمت بالرعب مسيرة عام !

(بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

نحن أسبغنا على بعض الأشخاص قوة ، هم ليسوا أقوياء ، نحن توهمنا أن بعض الدول لا تهزم ، هي ليس كذلك هم بشر ، نحن أسبغنا عليهم هذه الأوهام ، وهذه الهالات الكبيرة ، وهم ليسوا كذلك

، هم أقل من ذلك بكثير ، لكن الضعيف أحياناً يعظم القوي ، ويسبغ عليه من الصفات ما ليست فيه إطلاقاً ، هذا شأن الضعيف دائماً ، كم توهم الناس أن هؤلاء الأعداء لا يقهرون ، إن قلوبهم الآن ممتلئة رعباً . سمعت من أخ أنه حتى الآن عاد إلى أمريكا مليون يهودي ! وأن الخوف والفزع ملأ قلوبهم ، وأن شدة الرعب لا توصف ، بسبب شباب مؤمنين أرادوا أن يضحوا بأنفسهم في سبيل هز كيان الأعداء ، أليس كذلك ؟ فنحن واهمون مهما تصورنا أعدائنا أقوياء هم أقل من ذلك ، لكن المؤمن يملأ الله قلبه أمناً وطمأنينة .

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ)

(سورة آل عمران : 151)

حينما وعدكم بالنصر صدق وعده ، فنصركم في بدر ، ثم نصركم في أول مرحلة في أحد.

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ)

(سورة آل عمران : 151)

وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِه

1 ـ معنى : تَحُسُّونَهُمْ

معنى تحسونهم تقتلونهم ، سلطكم عليهم ، فقوّاكم وأضعفهم ، ملأ قلوبهم خوفاً ، حسّ قتل ، وجعله بلا إحساس ، وجعله جثة هامدة .

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ)

(سورة آل عمران : 151)

شيء دقيق جداً :

(حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ)

2 ـ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ

معصية الرماة الذين نصبهم النبي على جبل أحدٍ :

ضعفتم ، رأيتم أن النصر قد تحقق ، وأن أرض المعركة ممتلئة بالغنائم ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبقى الرماة في أماكنهم ، ولو تخطف الكفار أصحاب النبي ، أمر واضح من عند رسول الله ، ابقوا في أماكنكم ، حينما ضعفت نفوسهم أمام الغنائم هنا المشكلة ، ضعف النفس ،

حينما ضعفت نفوس بعض الصحابة أمام الغنائم ، وعصوا أمر رسولهم ضعفوا ، تأتيك القوة من طاعة الله ، ويأتيك الضعف من معصية الله ، بالتعبير المألوف معنويات المطيع عالية جداً ، ومعنويات العاصي متدنية ، لذلك :

(حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ)

ضعفتم أمام الغنائم .

(وَتَنَازَعْتُمْ)

3 - وَتَنَازَعْتُمْ

بعضهم قال : الغنيمة الغنيمَة ، وبعضهم قال : ألم يأمر رسول الله أن نبقى في أماكننا ؟ فشلتم ، أي ضعفتم أمام الغنائم ، وتنازعتم أي اختلفتم ، بعض أصحاب النبي كان حريصاً على تطبيق أمر النبي ، وأمر النبي واضح وضوح الشمس ، لو رأيتم الكفار يتخطفوننا فلا تغادروا أماكنكم ، موقع استراتيجي.

النصر يشترط له الإيمان والإعداد :

بالمناسبة أيها الإخوة ، المسلمون انهزموا مرتين ؛ مرة في أحد ، لأنهم عصوا أمر قائدهم عليه الصلاة والسلام ، ومرة في حنين لأنهم أشركوا ، وقالوا : لن نغلب من قلة ، اعتمدوا على عددهم ، في أحد عصوا أمراً ، وفي حنين وقعوا في الشرك ، وهذان درسان بليغان .

لقد ذكرت اليوم أننا نعاني ما نعاني من أعدائنا ، وأن النصر بيد الله وحده ، هذه أول حقيقة ، وأن هذا النصر له أسباب بأيدينا .

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد : 7)

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران)

بيد الله النصر ، الآن سببه :

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد : 7)

التفاصيل :

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : 47)

الإيمان شرط لازم غير كاف للنصر ، الأمر الثاني :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال : 60)

والإعداد شرط لازم غير كاف ، الإيمان الحق الذي يحملنا على طاعة الله ، وهو شرط أول ، والإعداد إعداد القوة المتاحة ، وهو شرط ثان ، فإذا تحقق الإيمان الذي يحملنا على طاعة الله ، والإعداد الذي يكون سبباً آخر للنصر جاء نصر الله ، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، هذا هو النصر .

لابد من إرجاع الأمور إلى أسبابها الحقيقية :

أما أن تحلل ، وتذكر أسباباً للنصر ليست في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله فهذا نوع من الجهل ، إذا كنا مع هؤلاء انتصرنا ، وإذا لم نكن معهم انهزمنا ، هذا شرك ، لذلك الشيء المؤلم إذا وقع فوقوعه ثابت ، لكن الاختلاف في تحليل هذا الشيء ، إلى أي سبب يرد ؟ بطولة المؤمن أن ترد الشيء إلى سببه الحقيقي ، فبهذا تلغي السبب ، وتلغى النتيجة ، شيء واضح تماماً ، هذه مشكلة سببها هذا الشيء ، عد إلى كتاب الله ، وإلى سنة رسوله ، عد إلى الوحيين ، واستنبط منهما أسباب ما يعاني منه المسلمون اليوم ! تلافَ السبب يأتِ ما يسعدنا .

أمة انحرفت ، وتركت منهج الله ، أعرضت عن منهج خالقها ، فقيد الله لها كابوساً يؤلمها ، هذا الكابوس لن يزاح عنها إلا إذا عادت إلى منهج الله ، هذا ملخص الملخص .

(حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ)

ضعفتم أمام الغنيمة ، تنازعتم ، بعضهم أراد أن يبقى مطيعاً لرسول الله ، وبقي نفر من أصحاب النبي، وبعضهم نزل إلى ساحة المعركة ليأخذوا الغنائم ، وعصيتم أمر نبيكم .

(وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ)

من بعد ما أراكم ملامح النصر ، والتفوق ، قال :

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ

أرادوا الدنيا والغنائم فانهزموا :

آية صريحة ، بعض أصحاب النبي أرادوا الدنيا ، لو أن الله نصرهم على ما هم فيه لاختل نظام الدين، البطولة أن تأتي النتائج وفق المقدمات .

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد : 7)

لو أن الله نصرهم على معصيتهم لسقطت الطاعة ، ولا قيمة لها إطلاقاً .

مثل بسيط جداً : مدرس يعطي طلابه وظيفة ، يأتي في اليوم التالي يقول : افتحوا الوظائف ، نصف الطلاب ما كتب الوظيفة ، لو أنه تساهل مع الذين لم يكتبوا الوظيفة فلن يكتبها أحد في اليوم التالي ، لابد من أن يأخذ موقفاً من الذي لم يكتبها ، وإلا سقط أمره ، وانتهى هذا النظام ، نظام التدريس ، والوظائف ، والمتابعة ، فمتى ينتهي إذا استوى الذي كتبها والذي لم يكتبها ، ولو أن المسلمين في أحد انتصروا على معصيتهم لرسول الله لسقطت قيمة الأمر إطلاقاً ، إذاً لابد أن يدفعوا ثمن معصيتهم .

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ)

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ

ابتلاهم بهذه الغنائم بعض من كان مع النبي عليه الصلاة والسلام صبر ، وصمد ، ونجح في الامتحان، وبعضهم ضعفت نفسه ، وعصى ، لكن لأعمالكم الصالحة السابقة ، ولنصرتكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(152)إِذْ تُصْعِدُونَ)

تبتعدون عن ساحة المعركة .

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ

(إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ)

1 ـ تفرّق المسلمين يوم أحدٍ والنبي يدعوهم للقتال :

من شدة الخوف تفرق أصحاب النبي ، ولم يبق معه إلا عدد يزيد على عشرة من الصحابة ، جيش عرمرم تفرق ، وكان النبي يخاطبهم : ارجعوا قاتلوا .

(وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ)

هو يدعو أصحابه أن يصمدوا ، وأن يقاتلوا ، هم ألقي في قلبهم الخوف والرعب .

(فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ)

2 ـ من قصّر في العمل ابتلاه الله بالهمّ :

من قصّر في العمل ابتلاه الله بالهم ، الهم مصيبة كبيرة ، أصابهم غم لأنهم عصوا ربهم ، وهذا أكبر غم ، أصابهم غم أن أصحابهم قتلوا ، وأن بعضهم جرحوا ، أصابهم غم الهزيمة ، وأنهم سمعوا أن النبي قُتل !

قال علماء التفسير : هذه الآية لا تعني غمّين ، بل تعني غموما متتابعة ، غم المعصية ، والهزيمة ، وقتل الأقارب ، والجراح ، ونبأ مقتل النبي .

(فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ)

ولو أردنا أن نستنبط من هذه الآية شيئاً ؛ فمن قصر في العمل ابتلاه الله بالغم ، هذا هو الحزن والخوف والقلق والانقباض .

(فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ)

لو أنهم في وعيهم لتألموا أشد الألم بهذا النصر الذي فاتهم ، والنصر شيء ثمين جداً .

(يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(4)بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم : 3-4)

الإنسان في علاقة مع إنسان لم ينجح في هذه العلاقة ، لو خسر عمله أحياناً ، لو نشأت مشكلة مع زوجته يتألم .

(فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

قد يكون العمل ظاهره طيب ، لكن حقيقته يعلمها الله وحده .

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

مرأى الغنائم أضعفهم ، وحملهم على أن يعصوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام .

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(153)ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ)

على الذين نفذوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام .

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا)

1 ـ بعض الصحابة أخذهم النعاس في أرض معركة أحد :

عرفوا أن الإنسان لا ينام إلا إذا كان في بيته مرتاحاً مطمئناً ، أما أن يكون في ساحة معركة ، وروحه على كفه ، وقتله قائم ، وينام فهذا إكرام من الله عز وجل .

فالذين التزموا طاعة الله أكرمهم الله بالأمن قال :

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا)

هذه المنة التي هي نعاس يغشى طائفة منكم ، من هم ؟ الذين نفذوا أمر النبي ، معنى ذلك هذا بشارة كبيرة جداً ، فإنك إن أطعت الله عز وجل فأنت مستثنى من الخوف العام ، قد يقع خوف عام يأكل القلوب ، إن كنت مع الله أنت مستثنى من هذا الخوف العام .

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ)

معنى ذلك الذين عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم هم صحابة كرام ، ألقي في قلبهم الغم ، غم على غم على غم ، وقد تجد إنسانًا كل أمور الدنيا مريحة له ، ومع ذلك يكاد يخرج من جلده غماً وهماً ، فهو متألم ، قلق ، مضطرب ، خائف من لا شيء ، بل من مجهول ، خائف من المستقبل ، هذا عقاب من الله .

إذا ملأ الله قلب الإنسان خوفاً وهماً وحزناً فهذا عقاب من الله عز وجل ، وهؤلاء الذين عصوا أهمتهم أنفسهم ، عصوا أمر النبي ، وحجبوا عن الله عز وجل ، وخافوا ، وامتلأ قلبهم خوفاً وغماً ، قال :

(وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ)

2 ـ القسم الثاني من الصحابة أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ :

أحياناً يقول الإنسان في ساعة غفلة عن الله : أعداؤنا أقوى منا ، ليس لنا أمل أن ننتصر ، ينسى أن الله موجود ، وأن الأمر بيد الله وحده ، يغلب عليه التشاؤم واليأس ، هذا اليأس من معاصينا ، أنت حينما ترى عدوك قوياً ، ولا سبيل أن تنتصر عليه فهذا نوع من اليأس والضعف .

(يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

3 ـ كل شيء بقَدَر :

لو أننا بقينا في المدينة ، ولم نخرج ما قتلنا .

(هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

لو أن النبي أخذ برأينا ، وأقمنا في المدينة ما قتلنا ، ولا جرحنا ، ولا هزمنا ، ولا خفنا .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)

خروجك سمح الله به ، كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

(يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ)

4 ـ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ

العبرة ما في نفسك ، لا ما تقوله على لسانك ، كل إنسان يقول كلامًا مقبولا عند الناس حفاظاً على مكانته وسمعته ، أما حينما يظن بالله ظن السوء والجاهلية تظهر حقيقته ، وما أكثر المسلمين اليوم الذين يظنون بالله ظن الجاهلية يقول لك : أين الله ؟ لِمَ لا ينصر المسلمين ؟ لمَ تخلى عنهم ؟ أنت هل رأيت ما يفعل المسلمين أساساً ؟

أجريت مقابلة مع مفتي البوسنة منذ خمس سنوات ، وصديقي استمع إلى هذه المقابلة ، شيء لا يصدق قال : إخواننا في المشرق لا ينبغي أن يعتبوا على الله من أجلنا ، نحن لسنا مسلمين ، نحن نأكل الربا ، ونشرب الخمر ، ونأكل لحم الخنزير ، لكن بعد هذه المحنة الشديدة أصبحنا مسلمين ، فحينما تأتي مصيبة متعبة جداً للمسلمين فهذا يعني أن هناك معالجة إلهية .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

5 ـ لابد من حسن الظن بالله :

ينبغي أن تحسن الظن بالله ، ينبغي أن تكون معنوياتك عالية جداً ، ينبغي أن تنطبق عليك الآية الكريمة:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران)

س : هزمت أمته بالرعب مسيرة عام ؟

ج : الإنسان حينما يعصي الله عز وجل تضعف نفسه ، يتوهم القوة بعدوه فييأس من الانتصار عليه ، والخوف من العدو أحد أسباب عدم النصر .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(42-60): تفسير الآية 154 ، حسن الظن بالله (1)

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-09-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والخمسين بعد المائة ، وقد وعدتكم أن أشرح لكم بفضل الله وعونه قوله تعالى :

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ

1 ـ حُسنُ الظن بالله :

ولأن حسن الظن بالله ثمن الجنة ، ولأن الإيمان كله حسن ظن بالله ، وأن تظن بالله خيراً ، وأن تصفه بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، فكم من كلام يطرح بين المسلمين يؤكد جهلاً بالله عز وجل ، وسوءَ ظنٍّ بالله ، فهؤلاء الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية ، ومن أجمل ما قرأت حول هذه الآية من كتاب زاد المعاد كلام طيب مناسب جداً أن نقرأه كلمَةً كلمةً ، فهذا الدرس له طبيعة خاصة ، سأحاول أن أقرأ ، وأشرح ما في كتاب زاد المعاد للعالم الجليل ابن القيم حول هذه الآية .

2 ـ معنى : سوء الظن بالله في هذه الآية :

يقول الإمام الجليل ، وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه وتعالى فسر هذه الآية بأنه من ظن أن الله لا ينصر رسوله ، وأن أمر هذا النبي سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل ، فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية ، كتطبيق عملي من يقول الآن : المسلمون انتهوا ، لأن كل قوى الشر تحاربهم ، وتلصق أشد التهم بهم ظلماً وعدواناً ، فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية ، الله جل جلاله لا يتخلى عن دينه ولا يتخلى عن عباده الطيبين الطاهرين .

قد يقع إنسان غير مسلم عملا فينسب إليه فقط ، أما إذا وقع العمل على يد مسلم فينسب إلى إسلامه ، هكذا ظلماً وعدواناً ، فمن ظن أن الله سبحناه وتعالى لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل ، فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية .

ومن ظن أن ما أصابهم يوم أحد لم يكن بقضائه وقدره ، الله عز وجل خلق وترك ، خلق قوياً وضعيفاً، وتركهم وشأنهم ، فالقوي يأكل الضعيف ، والغني يمتص دم الفقير ، ومن ملك من الدنيا حظوظاً عالية تمتع بالحياة وحده ، واستغل الآخرين كل شيء وقع أراده الله ، لا يمكن أن يقع في الكون شيء لا يريده الله ، إنه دائماً تستوعب خطة الله خطة أهل الدنيا ، يضربون ، ويسفكون الدماء ، ويقتلون ، ويُغيرون ، لكن لو لم يكن الله مريداً لهذا ما وقع ، كل شيء وقع أراده الله .

كلّ شيء وقع فلحكمة بالغة :

لذلك اعتقدوا هذا الشيء اعتقاداً صحيحاً ، لكل واقع حكمة ، سواء أكان الموقع أحمق أم عاقلاً ، خيراً أم شريراً ن فما دام الشيء قد وقع فقد أراده الله ، ولحكمة بالِغةٍ بالغةٍ ، ما دام هذا البناء قد تهاوى فلحكمة بالغَةٍ بالغةٍ بصرف النظر عما إذا كان الذين فعلوا هذا على حق أو على باطل ، اعتقد هذا ، كل شيء وقع أراده الله ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، ومن ظن أن هذا الذي وقع بقضاء الله وقدره ، ولكن لا حكمة له فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية . والله أيها الإخوة ، هناك كلمات يتلفظ بها العامة هي الكفر بعينه ، يقولون : الله يعطي الحلاوة للذي ليس له أضراس ، الله ليس حكيما ، هذا الكلام هو الكفر بعينه ، من ظن أن الله لا ينصر رسوله ، من ظن أنه يتخلى عن رسوله ، وبالتالي يتخلى عن المؤمنين ، من ظن أن هذا الذي وقع ليس بقضاء الله وقدره ، من ظن أن هذا الذي وقع بقضاء الله وقدره لا حكمة فيه ، يقول : سبحان الله ! يأتي المسلم بجهل شديد ، يصف شيئاً غير مقبول ، ويقول : سبحان الله ! هذا الذي وقع ، يجب أن تعتقد أن الذي وقعَ وقَعَ بقضاء الله وقدره .

في أثناء الهجرة أبيح دم النبي ، ووضعت مائة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، فلما تبعه سراقة ، وكان يطمع بالمائة ناقة قال له النبي عليه الصلاة والسلام : كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى ؟

ما معنى ذلك ؟ يعني أن النبي عليه الصلاة والسلام واثق أنه سيصل إلى المدينة ، لأن الله لابد أن يتم أمره ، ولابد أن يؤسس دولة ، ولابد أن تنتشر هذه الدعوة في الآفاق ، والله وصلت إلى أقصى مدينة في العالم شرق جنوب سيدني بأسترالية ، رأيت فيها المساجد ، ورأيت فيها جالية إسلامية ، وإذاعة للقرآن الكريم ، ودروس العلم تنتشر هناك ، سبحان الله !ر هذا مصداق قول النبي :

((يبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

[ابن حبان]

أي مكان على سطح الأرض فيه ليل ونهار ستبلغه دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلابد أن يتم الله رسالته .

ماذا قال الله عز وجل ؟ قال :

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ)

(سورة الفتح : الآية 6)

3 ـ الذي يسيء الظن بالله يتخلى الله عنه :

وكل واحد الآن يقول ، المسلمون انتهوا ، لأن كل قوى الشر ضدهم ، الله جل جلاله لا يتخلى عنهم ، قل هذه المقولة دائماً : لا تقلق على هذا الدين ، إنه دين الله ، هذا الدين شأنه كشأن وقود سائل ملتهب ، كلما أردت أن تقمعه كأنك أردت أن تطفئه بالزيت ! والزيت يزيده لهباً ، اعتقد أنه ما ضر السحاب نبح الكلاب ، وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بحجر ، ولو تحول الناس جميعاً إلى كنّاسين ليثيروا الغبار على الإسلام ما أثاروه إلا على أنفسهم ، ويبقى الإسلام هو الإسلام ، ولكن إن رأيت أن الله سبحانه وتعالى لا ينصر المسلمين فلعلة في المسلمين ، لأنهم نقضوا عهد الله وعهد رسوله ، لأنهم ما عبدوه حق العبادة ، لأنهم أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، ولو كانوا كما أراد الله عز وجل لرأيتم من الآيات مالا يصدق .

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

شيء خطير جداً أن تظن بالله ظن السوء ، وظن الجاهلية ، ومن ظن أن الله لا ينصر رسله ، ولا يتم أمره ، ولا يؤيد جنده ، ولا يعليهم ، ولا يظفرهم على أعدائهم ، وأنه لا ينصر دينه ، ولا كتابه ، وأنه يقوي الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق إدالة مستقرة ، ويضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً ، ولا يقوم بعده أبداً فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية .

مرة ثانية أيها الإخوة الكرام ، هذا الدين دين الله ، والله سبحانه وتعالى يتولى نصرهم ، ولو شاء ربك لانتصر منهم ، إذا تدخل الله أمره كن فيكون ، لكن أراد أن يكسبنا شرف نصر هذا الدين :

(وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد الآية : 4)

لو أن الله تدخل بالأمر مباشرة لا أجر لك ، لكن أراد الله أن يكون هذا النصر على يديك ، قال : إن عزة الله وحكمته تأبى أن يتخلى عن عباده المؤمنين ، هؤلاء الذين عارضوا النبي وكانوا أشداء ، أقوياء ، أبطالاً ، أغنياء ، وكانوا صناديد ، فأين هم الآن ؟ في مزبلة التاريخ ، هؤلاء الذين وقفوا معه ، ونصروه ، وفدوه بأرواحهم وأموالهم أين هم الآن ؟ في أعلى عليين .

قال : فإن عزة الله تأبى أن يذل حزبه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم ، هذا يعني أنهم قد ينتصرون نصراً مؤقتاً للباطل جولة ، ثم يضمحل ، قال : من ظن كذلك فإنه ما عرف الله عز وجل ، وما عرف أسماءه ، ولا عرف صفاته وكماله .

لن يسلِمك الله لعدوّ ما دمت متمسكا بدينه :

مرة ثانية : من أنكر أن يكون ذلك بقضائه ، وقدره فما عرفه ، أنا لا أتكلم من فراغ شعوب بأكملها في الغرب ، تعتقد أن الله خلاق ، وليس فعالاً ، خلق ، وأعطى كل إنسان طاقات ، وتركهم ، افعلوا ما شئتم ، فالقوي يأكل الضعيف ، والغني يستعبد الفقير ، والذكي يسخر من البليد ، إذا أسلمك الله إلى غيره فلا يستحق أن تعبده .

تخيل أن الله أسلم المسلمين إلى عدو لدود قوي جداً ، لمجرد أن يسلم المسلم لعدو لا يرحمه ، إنه قوي جداً ، أين معنى قوله تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : الآية 123)

ما معنى قوله تعالى :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 26)

ماذا نفعل بقوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : الآية 84)

ما معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند الإمام أحمد عن أبي الدرداء]

لذلك ليس في حياة المؤمن كلمة لو .

كلّ شيء بقضاء وقدَر :

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[صحيح مسلم]

ومن أنكر أن يكون قدره من غير حكمة بالغة ، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وإنما صدر ذلك من مشيئة مجردة عن حكمة ، وغاية مطلوبة فهو قد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية ، لمجرد أن تقول: يا رب بلادنا فقيرة ، أمطار لا يوجد ، تذهب لبلاد الغرب جنان ، أنهار ، أمطار ، ثلوج ، خيرات ، لمجرد أن تقول : لماذا نحن هكذا يا رب فقد ظننت بالله غير الحق ، ظن الجاهلية ، وكأنك تشك بحكمته .

لذلك قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : " ليس بالإمكان أبدع مما كان ، هذا الذي وقع هو أمثل شيء لو كشفت الحقيقة .

سيدنا علي كرم الله وجهه يقول : << والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً >> ، أي يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء ، يقول هذا العالم الجليل : " هذه الأسباب المكروهة المفضية إلى قضاء الله وقدره لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإخضاعها إلى ما يحب ، وإن كانت مكروهة له " ، كيف ؟ الله عز وجل يصب في عبده مرضاً عضالاً ، لأن الله يحب عبده ، ويكره أن يصيبه بهذا المرض ، لكن هذا المرض لابد لشفائه من مرض نفسي .

قد يقدر الله قدراً ، ويكره أن يصيب المؤمن به ، لكن لابد من ذلك تماماً كأب طبيب جراح ، التهبت زائدة ابنه ، يضع ابنه على الطاولة ، ويفتح بطنه ، ويخدره ، ويستأصل الزائدة ، ويتمنى ألف مرة أن تكون هذه الزائدة سليمة لا تحتاج إلى استئصال ، هو يفعل هذا بيديه لكنه يعلم علم اليقين أنه لابد من استئصالها .

لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ قَالَ :

((وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[البخاري]

تماماً لو أن ابنك ارتكب معصية فلابد أن تؤدبه عليها ، وتحبه حباً لا حدود له ، تضربه ، وتتألم أنت أكثر منه حين ضربه ، لابد أن تحدث عنده خبرة مؤلمة مع هذا العمل الذي فعله ، هذا هو الأب الحكيم، هذه الأشياء التي نكرهها قدرها الله عز وجل ، لم يقدرها سدى ، ولا أنسأها عبثاً ، ولا خلقها باطلاً ، قال :

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ)

(سورة ص : 27)

المصائب لتستفيق من الغفلة والسبات :

ظن السوء منتشر أشد الانتشار . مرة قرأت كلمة في مجلة : أنت ضعيف لأنك أخلاقي ، وأنت أخلاقي لأنك ضعيف ، هذا كلام خطير جداً ، في العالم الغربي ولاسيما في هذه الدولة العملاقة

يقولون مثل عندهم كالفاتحة عندنا : أنت قوي ، إذاً أنت على حق ، القوة تصنع الحق ، خذ أموال الناس بالباطل ، لأنك قوي، هذا هو الحق ، قيل في هذه الأيام : القوة من دون حيلة تدمر صاحبها ، هذا الذي وقع قوة وعنجهية ، وغطرسة ، وتجاهل لحقوق الآخرين ، أدى هذا كله إلى شيء لا تحمد عقباه .

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ)

(سورة ص : 27)

أكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ، تكون أنت في وضع مريح ، لو أنك رأيت طفلاً مصاباً بمرض عضال تعترض على الله ، لماذا أصابه هكذا ؟ ما ذنبه؟ الإنسان أحياناً يتجاوز سوء ظنه لا إلى ما يفعله الله به ، بل إلى ما يفعله بغيره .

أنا لا أنسى أن مقابلة جرت بين أحد من يعمل في الإعلام في البوسنة ومفتي البوسنة ، قال كلامًا خطيرًا : " لا تعتبوا على الله من أجلنا ، يخاطب المسلمين في المشرق ، نحن لسنا مسلمين ، نأكل الخنزير ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونشرب الخمر ، بعد هذه الشدة الشديدة أصبحنا مسلمين " .

أحياناً يصاب إنسان بمصيبة بالغةٍ بالِغةٍ ، وعقب هذه المصيبة يستقيم على أمر الله ، فلا تعرف حكمة المصائب إلا من نتائجها ، فهي في أثناء وقوعها مؤلمة جداً ، لكن لولا هذه المصيبة لما كنت بهذا الحال .

قال : " ولا يسلم من هذا الظن السوء إلا من عرف الله ، وعرف أسماءه ، وصفاته ، وعرف موجب حمده وحكمته ، فمن قنط من رحمة الله تعالى ، ويئس من روحه فقد ظن به ظن السوء " ، فكل إنسان يقول : انتهينا هذا إنسان يظن بالله غير الحق ظناً الجاهلية .

قال : " ومن جوّز على الله ، أي قبل من الله أن يعذب أولياءه مع إحسانهم ، وإخلاصهم ، ويسوي بينهم ، وبين أعدائه فقد ظنوا به ظن السوء " .

والله مرة قال لي واحد : كلما دعونا على أعدائنا ازدادوا قوة ، قلت له : شيء جيد والله ، إنه يظن بالله ظن السوء ، لكن الله يملي للظالم ، ويستدرجه من حيث لا يعلم ، وقد قيل : إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك ، وأنت تعصيه فاحذره .

هذا الإنسان خارج العناية المشددة ، وهذا كلام دقيق : إن رأيت الله يتابعك كلما زلّت قدمك يعاقبك ، كلما انحرفت سيرتك شدد عليك ، فاشكر الله عز وجل لأنك ضمن العناية المشددة .

لا توازن نفسك مع أهل الدنيا :

لو أن طالبًا شكا إلى صديق له خارج المدرسة ، قال له : أنا مرهق بالدراسة ، ووالدي شديد جداً، والأساتذة كثر ، والوظائف مرهقة ، والكتب ضخمة ، والفحوص شديدة ، والأسئلة صعبة ، ولا أنام

الليل ، فقال له الثاني الذي هو خارج المدرسة : أنا مرتاح جداً ، أستيقظ الظهر ، آكل ، وألعب مع رفاقي ، ونذهب إلى السينما ، مسكين أنت ، لكن من المسكين حقيقة ؟ الثاني المتفلت ، هذا في المدرسة ينتظره مستقبل باهر ، هذا ينتظره مستقبل مظلم ، فلا توازن نفسك مع أهل الدنيا ، هذه الموازنة فيها خطأ كبير ، أهل الدنيا أحياناً تنطبق عليهم الآية الكريمة :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام)

سيدنا عمر دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد اضطجع على حصير ، وقد أثر على خده الشريف فبكى ، قال :

((فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ ، فَبَكَيْتُ ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيكَ ؟ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ))

[البخاري عن ابن عباس]

هذه المفارقة ما فهمها ، هذا سيد الخلق حبيب الحق ينام على حصير ، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟ قال : يا عمر ، أما ترضى أن تكون الدنيا لهم ، والآخرة لنا ؟ قال : يا عمر أفي شك أنت من هذا الأمر ؟ قال : يا عمر إنما هي نبوة ، وليست ملكاً ، أنا لست ملكًا ، والنبي قدوة ، من جوّز على الله عز وجل أن يعذب أولياءه مع إحسانه ، وإخلاصه ، ويساوي بينه وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أن الله يترك خلقه سدى معطلين من الأمر والنهي ، يقول : ترك أناس لا أنبياء ولا رسل غافلون ، الله عز وجل قال :

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

(سورة الرعد : 7)

لا يمكن أن تنقطع رسالاته جل جلاله ، لكن لماذا جعل النبي الكريم خاتم الأنبياء ؟ لأنه علم أن سيكون العالم كله غرفة صغيرة .

والله ذهبت إلى أماكن بعيدة جداً في الأرض ، كل علماء المسلمين تسمع دروسهم هناك من دون استثناء ، الآن أصبح العالم قرية صغيرة ، أينما ذهبت تجد القرآن ، والسنة ، والعلماء ، والمحاضرات، والأشرطة ، والأفلام ، والمؤتمرات ، فهذا الأمر يصل إلى كل مكان .

قال : من ظن أن يترك خلقه سدى معطلين من الأمر ، والنهي ، ولا يرسل إليهم رسله ، ولا ينزل عليهم كتبه ، بل يتركهم هملاً كالأنعام فقد ظن به ظن السوء .

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 23)

لو أنه أسمعهم ، وليس فيهم خير .

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال: من الآية 23)

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل : 12)

تولى الله بنفسه الهدى ، وكلمة على إذا أضيفت إلى لفظ الجلالة ، هذا هو الإلزام الذاتي ، ألزم نفسه جل جلاله أن يهدي الخلق ، يهديهم بالكون ، ويهديهم بالقرآن ، وبالرسل ، وبالأنبياء ، وبالدعاة ، وبالمعالجة النفسية المباشرة ، وبالمصائب ، وبأفعاله ... ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب . يقول : والله فلان غني ، رأى ليلة القدر ، هذا كلام فيه كفر ، وفلان فقير مسكين راحت عليه ، لا يرى شيء .

هذا أيضا سوء ظن بالله فاحذره :

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ، وليظهروا للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين ، فقد ظن به ظن السوء ، ما الذي يريحك ؟ أنه يوجد بعد الموت حياة أبدية .

رجل فقير دخله محدود ، مجهول ، في التعتيم ، لا أحد يعرفه ، لكنه يطيع الله ورسوله ، وإنسان آخر كافر من هؤلاء الطغاة ، الذين يكيدون لأهل الأرض ، كافر ، جميل الصورة ، قوي ، ذو صحة جيدة ، يتربع على أعلى منصب في العالم مثلاً ، فهذا لا شيء ، وذاك كل شيء ، العبرة بعد الموت ، هذا الذي تظنه لا شيء في الجنة ، وهذا الذي تظنه كل شيء في النار ، لمجرد أن تظن أن هذه الدنيا هي كل شيء ، أنت لا تعرف الله ، السبب لأن الحظوظ متفاوتة ، امرأة وسيمة ، يتزوجها غني كبير ، وامرأة تتمنى أن تتزوج ، فلا تجد الزوج ، ما ذنب هذه ؟ هكذا خلقها الله عز وجل ، لو لم يكن هناك دار آخرة تسوى فيها السحابات ، إنسان تمتع بغنى فاحش ، أكل ما لذّ ، وطاب ، وسكن في أجمل البيوت ، وركب أجمل المركبات ، وإنسان يتمنى أن يأكل قطعة لحم في الشهر لا يجدها !

ومن ظن أن الله جل جلاله يضيع على المؤمن عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه الكريم على انكسار أمره ، ويبطله عليه بلا سبب ، والله آلاف الأشخاص ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ :

((إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ : بِرِزْقِهِ ، وَأَجَلِهِ ، وَشَقِيٌّ ، أَوْ سَعِيدٌ ، فَوَاللَّهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ أَوِ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ

بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُهَا))

[صحيح البخاري]

هذا حديث صحيح له تفسير دقيق جداً ، لكن يفهمه على ظاهره أن الله أحياناً يضع عبداً مؤمناً أفنى كل عمره في طاعته في النار ، هكذا الجواب : يقول لك : لا يسأل عما يفعل ، شيء جيد ، كيف تتعالم مع إله عظيم ؟ يضع عبده الذي أفنى حياته في طاعته في النار ؟ هذا أيضاً ظن سوء شديد .

من ظن أن الله يضيع على المؤمن عمله الصالح ، كان من الممكن أن يكون معه مائة مليون بقي على راتب محدود ، لأن ذاك الغنى فيه شبهة ، فبقي فقيراً معذبًا كل حياته ، يقول لك : يا ليتني فعلت ، وربحت هذا المال ، ممكن تترك شيئًا لله خوفاً من الله ، وراجياً رحمته ، وأن تندم ؟ يمكن أن تعصيه وتربح ؟ يمكن أن تطيعه وتخسر ؟ أهكذا ظنك بالله ؟ تطيعه فتكسب ؟ وقالوا :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص : 57)

كم من إنسان يتوهم الآن أنه إذا استقام تماماً تضيع تجارته ، أو يخسر منصبه ؟ كم من إنسان يتوهم أن في طاعة الله خسارة كبيرة في الدنيا ؟ كم من فتاة تتوهم أنها كلما تبرجت تزوجت ، وكلما تحجبت كسدت ؟ أي إنسان يتوهم أنه إذا أطاع الله خسر ، وإذا عصاه ربح إيمانه صفر .

كم من إنسان يتوهم أنه إذا أظهر إعلانا وفيه امرأة شبه عارية يربح ؟ أما إذا التزم بشرع الله يخسر ؟

أي إنسان يتوهم أنه إذا أكل الربا يربح ، فإذا تعفف عنه يخسر ؟ هكذا ، مسلمون في الظاهر ، وفي زيهم ، وفي حضورهم المساجد ، أما في تعاملهم اليومي فليسوا مسلمين :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص : 57)

ومن ظن أن الله يعاقبه بما لا صنيع له ، يقول : سبحان الله ! أنت تظن أنه سيقول لك شيئًا يقشعر منه الجلد ، فإذا به يقول : الرحمة خاصة ، والبلاء يعم ، هذا الذي تفوهت به ؟

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ : 17)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : 97)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

(سورة طه : 124)

يقول : سبحان الله يسبح الله ، وأنه يعاقبه بما لا صنيع له به ، ولا اختيار له ، يقول : هكذا يريد الله ، كله شغل سيدك ، قضاء وقدر ، لا تعترض فتنطرد ، كله كلام باطل ، من ظن أن الله خلقه كافراً ، أو أن إنسانًا خلقه الله كافراً ، ثم أودعه في جهنم إلى أبد الآبدين ، من ظن أن في جيناته انحرافاً

فقد انحرف ، ثم عاقبه الله على هذا الانحراف ، حسب زعم الإنسان ، هذا الانحراف من هذه الجينات ، وهذه الجينات من خلق الله عز وجل ، كل أوروبا ، وأمريكا تعتقد أن المنحرف جنسياً في جيناته خطأ ، وتركيبة خاصة ، لا .

آخر حدث علمي ، أعلن أن الجينات لا علاقة لها بالسلوك أبداً ، مقبول عندك أن الله يركب الإنسان تركيبة فيها انحراف ، ثم يحاسبه على هذا الانحراف ؟! يقول : الله قبض قبضتين ؛ قبضة إلى الجنة ، ولا أبالي ، وقبضة إلى النار ، ولا أبالي .

مدير مدرسة جمع الطلاب أول يوم من العام الدراسي ، قرأ أسماء الراسبين في آخر العام ، وأسماء الناجحين ، واذهبوا وادرسوا ! أصبحت الدراسة لا طعم لها ، كل من يتوهم هذا يسيء الظن بالله عز وجل .

من ظن أن الله يؤيد أعداءه الكاذبين بالمعجزات ، يقول : أنزلوا المطر عن طريق الطائرات ، كل شيء عظيم خارق يعزى إليهم ! وقد ضربوا في عقر دارهم ، رأيتم قبل يومين ، أين ذكاؤهم ، وأمنهم، ودرعهم الصاروخي ؟ أين أصبح هذا ؟ من ظن أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين بالمعجزات التي يؤيد بها أنبيائه ورسله ، ويجريها على أيديهم ، يضلون بها عباده ، فقد ظن بالله ظن السوء ، معقول الله عز وجل أن يعطي للكافر معجزات خارقة يستوي بها مع النبي ؟

الآن هناك فكرة أخطر في هذا الموضوع قال : من ظن أنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته ، واحد كل عمره قيام ليل ، وصوم ، وإنفاق ، وغض بصر ، ووضعه في جهنم ، هكذا يريد الله .

من ظن أنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته ، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين ، وينعم على من استنفذ عمره في عداوته ، وعداوة أنبيائه ، ورسله ، ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين ، الله عز وجل واحد استنفذ كل عمره في المعصية ، ووضعه في الجنة ! وآخر أمضى كل عمره في طاعة الله فوضعه في النار ! وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء ، ما دام ورد نص يا أخي هكذا ورد .

ولا يعرف امتناع أحدهما وقوع الآخر إلا بخبر صادق ، هكذا النص .

ما دام ورد النص فقد عطل عقله نهائياً ، أنت يمكن أن تكون بأمريكا تدخل إلى أضخم دار نشر ، تجد كتاب الأطلس حضّره ثمانية وسبعون دكتوراً ، من أضخم دار نشر ، ثمنه عشرات الألوف ، فتحت على الشرق الأوسط ، وجدت دمشق فوق بيوت على البحر ! هذا صحيح إذًا ، أي صحة هذه ؟ لو تجد مليون دكتور لا تصدقهم ، أنت ابن الشام ، وهي مدينة داخلية ، أحياناً الواقع أقوى من أي نص ، طبعاً لا يمكن أن يكون النص الصحيح خلاف الواقع ، النص من عند الله ، الواقع خلقه ، والنص وحيه ، لكن لو كان النص مكذوبًا أو موضوعًا أو ضعيفًا ، وتوهمت أنه صحيح ، فصدقت

هذا النص ، وتخليت عن قناعتك الكبرى ألاّ تعرف الله ، أي خلقه كافرًا ، وقدر عليه جهنم إلى أبد الآبدين ، هكذا ورد .

خاتمة :

إذا كنت لا تستطيع أن تميز ، بينما يجوز ، وبينما لا يجوز ، فأنت لا تعرف الله ، الموضوع طويل ، وإن شاء الله نتابع هذا الموضوع في درس قادم ، هذا الدرس مهم جداً ، العقيدة أهم شيء في الدين ، وأهم ما في العقيدة حسن الظن بالله ، وحسن الظن بالله ثمن الجنة ، ويريحك ، ويملأ قلبك ثقة وطمأنينة، وتفهم الأمور فهماً عميقاً ، لكن من دون حسن ظن بالله يرتعد قلبك خوفاً مما تسمع ، ومما يتوعد به المتوعدون .

أنا عبد لله ، والله لا يتخلى عني ، ولا يسلمني إلى أعدائي .

الأسئلة :

س : كيف نجمع بين قول الله عز وجل لا إكراه في الدين ، وبين إكراه أهل الكتاب على دفع الجزية ؟

ج : الحقيقة الجهاد فريضة على كل مسلم ، بل هو ذروة سنام الإسلام فهذا الذي يعيش في كنف المسلمين لا يمكن أن يجاهد معهم ، لأن الجهاد أساسه العقيدة الصحيحة ، إذاً هو معفى من الجهاد ، وما دام معفى من الجهاد فعليه بدل نقدي ، هذه هي الجزية كلها ، ما دام هذا الكتابي معفى من الجهاد ، والجهاد فرض عين ما عليه إلا أن يدفع البدل النقدي نظير إعفائه من الجهاد وحماية المسلمين له ، أما نحميه ، وهو آمن مطمئن ، ومرتاح في بيته ، والمسلمون يقاتلون بلا ثمن ، فهذا لا يصح ، بالضبط كالبدل النقدي ، هذا لا علاقة له بالإكراه ، الإسلام سمح لأهل الكتاب أن يبقوا على دينهم ، لكن حروب المسلمين حروب عقائدية ، لا تقبل إلا صاحب عقيدة سليمة ، إذاً هو معفى من حروب الفتوحات طبعاً ، وفي الجهاد في سبيل الله ، أما الحروب الدفاعية فهذا موضوع ثان ، لكن حروب الفتوحات تحتاج إلى إنسان يحمل رسالة إسلامية معينة.

إذاً هو لا يحارب إلا بعقيدة صحيحة ، فإذا أعفيناه من القتال نأمره بدفع الجزية فقط.

س : كيف يأتي المسلمين نصرُ الله ، وهم بهذه الحال ؟

ج : إذا كانوا بحال فيها معصية ، وضعف عقيدة ، وإيمان ، فالنصر أبعد عنهم كبعد السماء عن الأرض ، أما إذا صحت عقيدتهم ، وأعدوا لعدوهم العدة المتاحة ، عندئذ تتحقق قوانين الله عز وجل فينصرهم ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة الأنفال : 10)

النصر محصور قطعاً بيد الله ، لكن هذا النصر له قوانين .

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد : الآية 7)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(43-60): تفسير الآية 154 ، حسن الظن بالله (2)

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-09-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والخمسين بعد المائة .

أيها الإخوة الكرام : بدأنا في الدرس الماضي بتفصيل معنى :

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران : الآية 154)

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ

1 ـ ظن السوء بالله خطرٌ على عقيدة المؤمن :

وقد بينت من قبل أن الله سبحانه وتعالى ذكر المعاصي والآثام فسلسلها تسلسلاً تصاعدياً ، بدأ بالفحشاء، والمنكر ، والإثم ، والعدوان ، ثم الشرك ، ثم الكفر ، وجعل في أعلى هذه الآثام :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف : 33)

والإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول : " لأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون " .

خطر شديد أن تفسد العقيدة ، وأن تظن بالله غير الحق ظن الجاهلية ، خطر على عقيدتك ، وعلى كيانك ، وعلى سلامتك ، وسعادتك أن تسيء الظن بالله .

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

(سورة الفتح : 6)

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف : 180)

كل أسمائه حسنى ، عدله ، ورحمته مطلقة .

2 ـ الموازنة تكون بين الدنيا والآخرة :

ولكن من أجل أن تفهم الحقيقة لا ينبغي أن توازن بين أمتين ، ولا بين رجلين ، ولا بين عملين ، ولا بين مؤسستين ، إلا أن تضم آخرة كل منهما إلى الآخر .

أوضح مثل : مطعم متواضع جداً دخله محدود ، ومطعم يبيع الخمر ، ودخله غير محدود ، قد تقول : هذا دخله أكبر ، ضم الآخرة إلى صاحب هذا المطعم ، وضم الآخرة إلى صاحب ذاك المطعم ينعكس التوازن ، فأنت لا توازن إلا إذا ضممت الآخرة إلى الأولى .

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص : 79-80)

الموازنة ينبغي أن تكون بين الدنيا والآخرة ، لذلك قد ترى أمة قوية مستعلية متجبرة متكبرة متغطرسة، فيما يبدو للناس تفعل ما تريد ، ينبغي أن تضم آخرة هذه الأمة إن أردت أن توازنها مع أمة مستضعفة فقيرة لكنها تقيم شرع الله عز وجل .

العبرة في الذي يضحك آخرًا ، فلذلك من هذا القبيل أردت أن أتابع الحديث عن سوء الظن بالله عز وجل .

3 ـ الله تعلى عدلٌ في قضائه وأفعاله وأحكامه :

أيها الإخوة ، قال بعض العلماء الأجلاء : " من ظن أن الله أخبر عن نفسه وصفاته ، وأفعاله بما ظاهره باطن ، وترك الحق لم يخبر به ، وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملغزة لن يصرح به ، وصرح دائماً بما يلتبس عليه الناس فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية " .

مثلاً : لو أن نجارًا عنده لوحان من الخشب ، وضع الأول على باب قصر ، ووضع الثاني على باب مرحاض ، ألك عنده دعوى ؟ إن هذين اللوحين ملكه ، يفعل بهما ما يريد ، لكن لو أنك قلت : وضع اللوح النظيف على باب القصر ، ووضع اللوح السيئ على باب المرحاض لكان هذا أقرب إلى قبول النفس بهذه الفكرة ، تقول له : الله عز وجل عدل ، يقول لك : عدله غير عدلي ، ينبغي أن نفهم عدله كما يفهمه جميع الناس ، لا ينبغي أن تصدق أن الذي قاله لا يعنيه ، وإنما يعني غيره ، هناك آيات كثيرة واضحة .

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

يقول : البلاء يعم ، والله عز وجل يقول :

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

تقول لي : البلاء يعم ؟

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : الآية 164)

4 - ينبغي أن تفهم النصوص فهماً يليق بكمال الله :

أنت لا ترتاح في إيمانك ، ولا في عبادتك ، ولا في تعبدك مع الله إلا إذا أحسنت الظن به ، لا يعقل أن يعبد العبد ربه على عمره ، ثم يضعه في النار ، والجواب : لا يسأل عما يفعل ، لا يكفي هذا الجواب ، هذا سوء ظن بالله ، الله عز وجل ينمي الخير ويجعله كثيراً ثم يرحم صاحبه ، لا أن الخيّر حقيقة يدفعه إلى النار دون أن يعلم ، هذه ليست من صفات الله ، ولا من أسمائه الحسنى ، يجب أن نحسن الظن بالله عز وجل .

سألني أحد الإخوة الكرام : ما معنى قول النبي الكريم :

((إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ : بِرِزْقِهِ ، وَأَجَلِهِ ، وَشَقِيٌّ ، أَوْ سَعِيدٌ ، فَوَاللَّهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ ، أَوِ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُهَا))

[صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود]

هذا الحديث له رواية في صحيح مسلم عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ))

[صحيح مسلم]

المعنى : أن الذي مصالحه مرتبطة بالمسلمين فنافق لهم ، وعبد الله كما يعبدونه شكلاً لا مضموناً ، وأراد أن يحقق مصالحه معهم فهذا ليس من أهل الجنة ، إنما يعمل بعمل أهل الجنة ، والحديث واضح:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ))

أما إذا خلا بنفسه انتهك حرمات الله ، فعَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا ، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[سنن ابن ماجة]

ينبغي أن تفهم النصوص فهماً يليق بكمال الله .

أضرب لكم أمثلة : يقول الله عز وجل :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة : 13)

لو أن الإنسان غير متمرس في فهم كلام الله ، فهم هذه الآية على ظاهرها ، فهمها فهماً بدائياً .

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

ولكننا لم نشأ ، كان من الممكن أن يهتدي جميع الناس ، ولكن شاء الله أن يكونوا ضالين ، هل تقبل هذا من الله عز وجل ؟ هل تقبل من أب عادي أن يكون خيرُ ابنه بيده ويمنعه ؟ لا ليس هذا هو المعنى .

إنّ العباد حينما ينسبون أخطاءهم إلى الله بدعوى أنهم مجبورون عليها ، كلما رأيت شارب خمر يقول: طاسات معدودة في أماكن محدودة ، الله قدر عليه شرب الخمر ، تجد إنسانًا يأكل المال الحرام يقول : هكذا ترتيبه ، دائماً الإنسان الكافر المنافق يعزو سيئاته إلى الله من باب القضاء والقدر ، فالله رد عليهم: لو شئنا يا عبادي أن نسلبكم اختياركم ، ونلغي تكليفكم ، ونجبركم على عمل ما ، لما أجبرناكم إلا على الهدى ، ولو شئنا أن تكونوا مقهورين أنتم مخيرون ، ما سوى الإنس والجن مسيّر .

(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

(سورة فصلت : الآية 11)

الملك والجماد مسير ، أما الإنسان فمخير .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

أنت مخير ، لو شاء الله أن يأخذ منك اختيارك ، لو شاء الله أن يعطّل هذه الميزة الكبيرة فيك وأراد أن يجبرك على شيء ما ، لو أراد أن يجعلك كبقية المخلوقات مسيراً لما أجبرك إلا على الهدى ، أنت مخير ، لو أراد الله إلغاء اختيارك ، وأن يسيرك لما سيرك إلا إلى الهدى ، هذا المعنى :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

ليس معنى ذلك أن الله لم يشأ أن يهدي الناس ، قال تعالى :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود : الآية 119)

حينما تعرف الله عز وجل تفسّر كل الآيات المتشابهة بما يليق بكمال الله عز وجل ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

[مسلم ، وأحمد]

ظاهر الحديث أن الذنب لابد منه ، وإلاّ نهلك ، يجب أن نرتكب الذنوب ، هذا غير مقبول ، لو لم تذنبوا ، أي إذا بلغ مستوى إيمانكم أنكم تذنبون ، ولا تشعرون بذنوبكم ، ولا تتأثرون لها ، ولا تتألمون من فعلها ، ولا تندمون على فعلها ، فأنتم ميتون ، ولذهب الله بكم .

من هو الحي ؟ الذي إذا أذنب لم ينم الليل ، إذا اغتاب راجع نفسه ، إذا تكلم كلمة قاسية راجع نفسه ، واعتذر ، واستغفر ، هذا الذي يشعر بذنبه فيه حياة .

فيا أيها الإخوة ، العبرة أن تفهم كلام الله فهماً يليق بكمال الله .

سيدنا موسى خاطب الله عز وجل :

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ)

(سورة الأعراف الآية 155)

الفتنة لها معنى راق جداً ، الفتنة امتحان ، مجرد الامتحان ، وقد تنجح بالامتحان .

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا)

(سورة طه : الآية 40)

معنى فتناك فتونا أظهرنا حبك للحق ، لمَ لمْ يجامل ؟ قبطي من أهل فرعون ، وآل فرعون مخيفون ، وإنسان آخر مستضعف ، فالشيء الطبيعي في مجتمع فيه تفرقة ، واستكبار ، واستضعاف ، وفيه قوي، وضعيف أن تكون مع القوي من أجل أن ترتاح ، وهذا ما يفعله العالم كله اليوم ، كل العالم مع القوي كي يرتاح ، الذي يملك سلاح نووي قال : أنا أتعاون بلا حدود ، ومع ذلك خاف ، فسيدنا موسى مع من وقف ؟ مع الحق ، ومع المظلوم ، ولو كان مضطهداً ، ولم يقف مع القوي لأنه ظالم .

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا)

وكزه موسى فقضى عليه ، ما أراد أن يقتله دفعه ، هكذا شاءت حكمة الله ليخرج من قصر فرعون ، ويتبع سيدنا شعيب .

إذاً : لا ينبغي أن نفهم الآية :

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنْ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا)

(سورة طه : الآية 40)

أجبرناك على قتل النفس ، لا ، هذا المعنى لا يقبله الله عز وجل .

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف : 28)

مئات الآيات أيها الإخوة ، حينما تعرف الله عز وجل تعرف أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، لا يمكن أن تفسر آية بما لا يليق بكماله ، لابد أن تفسر الآية وفق ما يليق بكماله .

إيّاكم وهذه الظنون :

أيها الإخوة الأكارم :

ـ من ظن أن الله عز وجل حينما قال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7-8)

المقصود العدل المطلق بهذه الآية ، يقول : الله غفور رحيم ، يظن أن هذه الآية لا يعنيها الله عز وجل.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر : الآية 92-93)

ـ يا رب لا تسألنا عن شيء ، يقول : ما هذا الكلام ؟! القصد من هذا الكلام أنه لا ينبغي أن تأخذ كلام الله عز وجل إلا على النحو التالي : أنه إذا قال كلاماً ، المعنى المتبادر إلى ذهنك هو المقصود ، أما عدله فغير عدلنا ، لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، هذه الآيات لها معنى آخر يليق بكماله ، عدله يسكت الألسنة ، فإذا وزعت شيئاً بالعدل ، وقلت : هل من اعتراض ، كلهم صامتون ، أي هناك اعتراض .

ـ أيها الإخوة الأكارم ، الآن من ظن بالله عز وجل خلاف ما وصف به نفسه ، الله عز وجل قال :

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة التغابن : الآية 11)

قال : الله لا يعلم ، ما هذا الكلام ؟ من قال لك : لا يعلم ؟ ألوهيته تقتضي أن يعلم ، لكن علمه علم كشف ، لا علم جبر ، علم الله بما ستفعل لا يتناقض مع اختيارك إطلاقاً أنت مخير .

ـ من ظن بالله خلاف ما وصف به نفسه ووصف به رسله ، رسله عباد مكرمون معصومون منزهون، فالذي يقول مثلاً : إن النبي نظر إلى بيت مفتوح بابه ، فرأى امرأة عارية فعلقت بنفسه ، وقال : سبحان الله ! والقصة لا أصل لها ، لكن وردت في بعض الكتب ، فالله عز وجل بناء على

ذلك زوجه إياها ، وأمر زيداً أن يطلقها ، وأمر النبي أن يتزوجها ، القصة وقعت ، لكن لا لهذا التفسير ، أراد الله عز وجل أن يلغي التبني إلغاءً تاماً ، فكان النبي هو أداة إلغاء التبني ، فينبغي أن تفهم أفعال الرسل .

ـ عبس وتولى ينبغي ؛ أن تفهمها بما يليق بكمال رسول الله ، الله عز وجل في هذه الآية يعتب له ، ولا يعتب عليه ، ليس هناك حكم شرعي خالفه النبي إطلاقاً ، لكنه اجتهد واختار الأصعب ، بدل من أن يجلس مع ابن أم مكتوم هو الصحابي المحب الجليل جلس مع أهل العناد ، والكفر ، والضلال ، وتحمل من غلظتهم ، ووقاحتهم ، ومن ... لعلهم يؤمنون ، فيؤمن من معهم ، هذا اجتهاد النبي ، لكن الله عزوجل يقول له : لا تتعب نفسك معهم لا خير فيهم ، عتب له ولم يعتب عليه .

الأم التي ترى ابنها يسهر حتى الساعة الثالثة ليلاً ، وهو يدرس قد تعنفه .

إن لجسمك عليك حقاً ارتح قليلاً ، إنها تعنفه ، لكنها عاتبة له ، وليست عاتبة عليه ، فرق كبير بين أن تعتب له ، وبين أن تعتب عليه ، هذا النبي الذي تزوج مائة امرأة ، وأحب أن يأخذ أحد زوجة قواده فقال : قدموه ، قدموه لعله يموت ، فيأخذ امرأته ، كي يتم بها المائة ، هذا نبي ؟

))

(وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً)

يُقَالُ لِلْمَرْأَةِ نَعْجَةٌ ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا : شَاةٌ

(وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا)

((

[صحيح البخاري]

القصة لها تفسير آخر ، لذلك كتب التفاسير فيها من الإسرائيليات ما هب ودب ، هذه ينبغي أن تنقى من هذه القصص الباطلة ، التي استعان بها المفسرون كي يوضحوا بعض الآيات ، لكنهم في كثير من الأحيان جانبوا الصواب .

ـ أيها الإخوة ، من ظن به بخلاف ما وصف به نفسه ، الله قال :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية : 180)

كيف تفهم الجبار ؟ المنتقم ، المتكبر ، ينبغي أن ترى أن اسم الجبار غاية في الكمال ، واسم المنتقم ، والمتكبر غاية في الكمال ، ينبغي أن تفهم أسماء الله الحسنى ، أو أن تفهم أسماء الله فهماً يليق بكماله ، لا أن تفهمها فهماً أرضياً .

الله عزوجل يعاقب المجرم ليردعه عن إجرامه ، هذا هو المؤمن ، والمتكبر أنبأك أنه كريم ، وعظيم ، وقوي ، فاعتمد عليه ، وثق ، به وهكذا .

ـ قال : ومن ظن أن أحداً يشفع عنده من دون إذنه ، توجد قصص كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان .

أحد أتباع الشيوخ مات ، ودفن ، ثم جاء ملكان ليسألاه ، فتلقيا رفسة من شيخه ، فدفعا بها إلى خارج القبر ، وقال لهم : أمثل هذا يُسأل ؟ شيء جيد والله ! أنا لا أقبض القصة تتناقض مع كلام الله ، ومع كلام رسول الله ، فعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ :

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ : اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ))

[سنن أبي داود]

عنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَقُولُ :

((إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ يَشُكُّ عُمَرُ ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ ، وَيَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ ...))

[صحيح البخاري]

ـ ومن ظن أن أحداً يشفع عنده من دون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط ، فقد ظن بالله ظن السوء ، لأن هذا الوسيط لا يعلم أحوال هذا المؤمن ، أما الله عز وجل فيعلم كل أحواله ، يعلم سره وجهره ، ليس بينك وبين الله وسيط ، لذلك حينما قال الله عز وجل :

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة : الآية 219)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

(سورة البقرة : الآية 222)

أكثر من عشر آيات يسألونك قل ، إلا في آية واحدة :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة : الآية 186)

لا يوجد : فقل ، فهم العلماء من هذه الآية الوحيدة أنه ليس بين العباد وبين الله وسيط ، الشيخ له مهمة أخرى يبين ، ويقرب ، لكن ليس وسيطاً بينك وبين الله مسرّع .

أنت راكب دراجة تحتاج إلى جهد أمسكت بمركبة ، فقادتك هذه المركبة إلى سرعة أعلى بكثير ، مسرع معين مقرب إلى الله ، أما أن يكون وسيطاً بينك وبين الله فليس بين العباد وبين الله وسيط ، لذلك ما هذه البدعة التي انتشرت ؟ امرأة تطلب ممن تدرسها أن تبيت لها استخارة ، هذه لم ترد في السنة إطلاقاً ، ما ورد في السنة إطلاقاً أن يستخير أحد عن أحد ، أنت مسلم ، صلِّ ركعتين وادع دعاء الاستخارة ، وليس بينك وبين الله حجاب .

ـ ومن ظن أن الله نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليهم ، ويتوسلون بهم إليه ، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه ، فيدعونهم ، ويخافونهم ، ويرجونهم فقد ظن بالله ظن السوء ، ليس بينك وبين الله وسيط ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ الْوُضُوءِ ، وَلَأَخَّرْتُ الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِ اللَّيْلِ ، فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ))

[مسند الإمام أحمد]

إن تاريخ الصحابة لا يذكر أن أحداً فداه النبي بأبيه وأمه إلا سعداً ، عن عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ

((مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفَدِّي رَجُلًا بَعْدَ سَعْدٍ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ : ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي))

[صحيح البخاري]

وما سجّل تاريخ الصحابة أن صحابياً كان يداعبه النبي أشد مداعبة من شدة محبته إليه كسيدنا سعد ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :

((أَقْبَلَ سَعْدٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَذَا خَالِي ، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ))

[سنن الترمذي]

لما توفي النبي عليه الصلاة والسلام لقيه عمر ، دققوا ، قال : << يا سعد ، لا يغرنك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم له >> .

هكذا ينبغي أن نؤمن ، يجب أن تكون مع المؤمنين ، أن تكون مع الصادقين ، أن تكون مع جماعة المؤمنين ، أن تحب الذي يعلمك ، وتقدره ، هذا كله مطلوب ، لا أن تعبده من دون الله ، وتجعله وسيطاً بينك وبين الله ، هذا يسرع يقوي الإيمان يبين ، إن أحببته شعرت أنك قريب من الله ، هذا كله صحيح ، لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ، ويدلك على الله مقاله ، هذا كله صحيح ، لا أن تعبده من دون الله ، لماذا أهلك الله بني إسرائيل ؟ قال :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 31)

هذا كله في أصل العقيدة مهم جداً ، ليس بينك وبين الله وسيط ، كلنا عند الله سواسية ، ادعوه مباشرة ، لأنك إذا جعلت بينك وبين الله وسيط ، هذا الوسيط لا يراك في بيتك ، ولا في عملك .

من مقتضيات التوحيد : الطاعة في المعروف :

هؤلاء الذين يقيمون لأنفسهم هالة كبيرة جداً ، هذه الهالة من أخطارها أنك إن كنت في بيتك وفي عملك ، والشيخ لا يراك يمكن أن تؤذي ، وأن تعصي ، مادام الشيخ راضياً عنك فأنت في حرز

حريز، هذه عقيدة فاسدة ، لو أنك التقيت برسول الله صلى الله عليه وسلم وسألته سؤالاً ، أو استفتيته فتيا ، فأخذت من فمه الشريف فتوى لصالحك ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله .

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[صحيح البخاري]

أرأيت إلى التوحيد ، هذا هو التوحيد ، ينبغي أن تحب الصالحين ، وتجلس في مجالسهم ، ينبغي أن تكون ودوداً لهم ، وأن تكون في خدمة الحق ، ينبغي أن تحبهم ، لا أن تعبدهم من دون الله ، لا أن ترضيهم ، وتسخط الله ، لا أن تنفذ تعليماتهم فيما لا يرضي الله ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أمر النبي عليه الصلاة والسلام على بعض الأنصار أنصارياً في سرية ، هذا الأنصاري فيما تروي كتب السيرة أنه كان ذو دعابة ، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً ، فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ، فَغَضِبَ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا ، فَجَمَعُوا ، فَقَالَ : أَوْقِدُوا نَارًا ، فَأَوْقَدُوهَا ، فَقَالَ : ادْخُلُوهَا ، فَهَمُّوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا ، وَيَقُولُونَ : فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النَّارِ ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[متفق عليه]

مهما كان الإثم كبيرا ، لو أمرك بمعصية لا ينبغي أن تنصاع له ، لا ينبغي أن تنصاع لأمر من أي شخص كائن من كان إذا كان الأمر لا يرضي الله ، إذا كان الأمر في قطعة رحم أو في إساءة لمخلوق، ينبغي ألا تطيعه ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

سيدنا الصديق : ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر ، ومع ذلك ماذا قال ؟ قال : << أطيعوني ما أطعت الله فيكم ـ أي راقبوني ـ فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم ، بيني وبينكم كتاب الله وسنة رسول الله ، مادمت على الحق فأطيعوني ، فإن خرجت عنه فلا تطيعوني >> ، هذا أعظم إنسان بعد رسول الله .

<< والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك سيوفنا >> ، قالها أعرابي لسيدنا عمر على المنبر ، قال : << والله لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها >> .

قالت أم عائشة : << قومي فاشكري رسول الله ـ بعد أن برأها القرآن من حديث الإفك ـ فقالت : والله لا أقوم إلا بالله بحضرة النبي >> ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((عرفت الحق بأهله))

[ورد في الأثر]

هذا التوحيد ، تعبد إلهاً واحداً ، وما سواه تحبهم جميعاً ، وتتأدب معهم جميعاً وتخدمهم ولا تعبدهم من دون الله .

إخواننا الكرام : ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة ، والرهبة ، وتضرع إليه ، وسأله ، واستعان به، وتوكل عليه أنه يخيبه ، ولا يعطيه ما سأله فقد ظن به ظن السوء .

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تلجأ إليه ، وتتضرع إليه ، وتسأله مخلصاً من خير الدنيا والآخرة ، ثم يخيبك مستحيل .

لو أن أخاً دعا لأخيه ، وهو يعوده ، يقول : اللهم اشفه ، رب العرش العظيم اشفه ، اشفِ عبدك فلانًا ، إلا شفاه الله تعالى ، أرأيت إلى هذا التوجيه النبوي ؟

ـ لذلك من ظن أنه إذا صدقه في الرغبة ، والرهبة ، وتضرع إليه ، وسأله ، واستعان به ، وتوكل عليه أنه يخيبه ، ولا يعطيه ما سأله فقد ظن به ظن السوء وظن به خلاف ما هو أهله .

نفسُك هي أحقُّ بسوء الظن :

أيها الإخوة الكرام ، وليظن المرء السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين ، وأرحم الراحمين .

وأنا أنصح إخوتي ، وانصح نفسي قبلهم ، والله إذا جاء شيء تكرهه فأسئ الظن بنفسك ، هناك مشكلة، أو تقصير ، لا تتهم الله في عدله ، أسئ الظن بنفسك .

والآن أيها الإخوة ، كلكم تسمعون ما يجري في العالم الإسلامي ، هم على شفا جرف .

أقول لكم من أعماقي والله : وأضرب مثلا قبل أن أذكر الحقيقة : أنشأ مهندس بناء ، هذه الشرفة فيها تشققات ، ماذا نفعل بها ؟ أنبقيها ؟ فقد تنهار بأصحابها ، أفنهدمها ؟ قد تكون جيدة ، مثلاً ، قال : نأتي ببراميل ماء ، ونملأها ماء ، ونضعها بهذه الشرفة ، فإذا وقعت فلا خير فيها ، وإن صمدت فهي جيدة ، هؤلاء الذين يحسبون مسلمين ليسوا كذلك ، هم يزعمون أنهم مسلمون ، وهم مليار ومائتا مليون ، وقد حدثني عالم جليل والله من فمه إلى أذني يشهد الله كنا في دعوة ، قال : ذهبت إلى بلد إسلامي في أوروبا ، وهو من هناك ، ودخل إلى أكبر مساجدها ليلقي خطبة ، ألقى خطبة رائعة جداً ، فما ملك المستمعون أنفسهم إلا بكوا ، ومن شدة تأثرهم ، وبكائهم أخرجوا زجاجات خمر من جيوبهم فشربوها ! لأنهم تأثروا بهذه الخطبة ، هؤلاء المسلمون في دول إسلامية كثيرة في آسيا يشربون (الفوتكا)وكأنها ماء ، وهي محرمة .

مفتي البوسنة في لقاء إذاعي قال : إخوتنا في المشرق لا يعتبوا على الله من أجلنا ، إننا لسنا مسلمين نأكل الربا ونشر بالخمر .... بعد هذه المحنة الشديدة أصبحنا مسلمين .

لذلك إذا رأيت شدة من جهة قوية ينبغي أن تظن أن هناك تأديباً إلهياً ، فما لم نعد إلى ديننا، وإلى قرآننا، وما لم نضبط بيوتنا ، ونربي أولادنا ، وما لم نحرر دخلنا ، وما لم نتقن إنفاقه فيما شرع الله فنحن أمام امتحان صعب .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

لابد من امتحان لإظهار حقيقة النفس :

ذكرت من مدة رأيت قطعة ماس باستنبول ، ثمنها مائة وخمسون مليون دولار ! أصلها فحم من شدة الضغط ، والحرارة أصبحت ماساً ، فالضغط الشديد أحياناً نتألق به ، نحن متعلقون بالدنيا ، نريد أن نستريح ، ونستجم ، ونأكل ، ونجلس في أماكن جميلة ، ونتزوج أجمل النساء ، أن يكون لنا أولاد أذكياء نجباء متفوقون فقط ، نحن لا نحمل رسالة أبداً ، لا نحمل هم المسلمين ، لا نريد أن نؤدي شيئاً إلى العالم الآخر ، فنحن الآن الله يمتحننا امتحاناً شديداً ، وسيوف مسلطة علينا جميعاً في شتى بقاع الأرض ، فلابد من أن يكون هذا إنذاراً لنا ، إما أن تصطلحوا معي ، وإلا فأمامكم يوم صعب .

فلا رحب القصور غدا باق لساكنـها ولا ضيق الخصـــاص

وأنت أيها المسلم كما عهدتك لا تبالي بغير مظاهر العبث الرخاص

أي عملية تحميل ، ينبغي أن تقبل هذا الامتحان الصعب ، والله ليس إلا الله .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : الآية 10)

دخلت مرة إلى مسجد آية بحجم كبير جداً :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : الآية 10)

شيء مريح ، الأمر بيد الله وحده ، ذكرت آية اليوم ، والله كأنني أقرأها أول مرة في حياتي والله وكأنها أنزلت لتوها :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

(سورة آل عمران)

خاتمة :

ألم يقل لنا الناس عبر وسائل الإعلام كلها ، والمحطات الفضائية ، واللقاءات ، ووكالات الأنباء ، والتصريحات ، والمناقشات ، ألم يقولوا لنا : إن الناس قد جمعوا لكم ؟ كم حاملة طائرات توجهت نحو الشرق الأوسط ؟ ومائة طائرة توجهت إلى القواعد هنا وهناك ، من أجل أن تشن عدواناً قوياً على بلاد المسلمين .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(174)إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

يخوف الناس من أولياءه .

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

هاتان الآيتان الآن تغطيان وضع المسلمين ، كن كما يحب الله ، عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، عبدي أنت تريد ، وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد ، وحّد ، اقرأ آيات التوحيد :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : الآية 84)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر : الآية 62)

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف : الآية 54)

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس الآية : 24)

(فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

(سورة الحشر : الآية 2)

اقرأ القرآن ، كما أن العسل شفاء للأبدان ، القرآن شفاء للنفوس ، والله إن قرأت آية ، وفهمتها فهماً عميقاً ألقت في قلبك أمناً وسلاماً لو وزعت على أهل بلد لكفتهم ! لكن لابد من عودة إلى الله ، ومن صلحٍ معه ، لابد من مراجعة الحسابات ، لابد من ضبط البيوت ، لابد من ضبط الدخل ، وضبط العين، تجلس حتى منتصف الليل ، تتابع أعمالا فنية ساقطة ، كلها مثيرة جنسياً ، هذا لا يليق بالمؤمن ، ولا بالمسلم ، حينما تنصاع لما يبثونه لك عبر الأقنية الفضائية فأنت عبد لهم ، إذا خوفوك تخاف منهم ، أما إذا كنت حراً لا تخاف منهم .

أيها الإخوة ، والله لست متشائماً بل إني متفائلاً ، أذكركم أن كتاب سلمان رشدي هذا الذي وصف بيت أهل النبي بأوصاف لا تليق بإنسان ساقط ، هذا الكتاب سبّب إسلامَ أربعين ألف بريطاني ! الآن الشيء الدقيق أن الكتب الإسلامية كادت تنفذ في أوروبا ، ما هذا الإسلام ؟ شيء يلفت النظر حدثني أخ كريم رئيس الجالية الإسلامية في أمريكا ، وهو الآن في الشام ، جاءه اتصال هاتفي أن النساء المحجبات في واشنطن يبدو أن لهم سيرة عطرة ، هناك جمعية فيها خمسة آلاف امرأة أمريكية غير مسلمات ، تضامناً معهم وضعن الحجاب ! يبدو أن هناك نقلة نوعية لصالح المسلمين بالعين المجردة ، ليس هذا الذي حصل لصالح المسلمين ، أما في النهاية فلعل الله عز وجل يسمعنا أخبارا طيبة ، أن هذا الدين سوف ينتشر في العالم كله ، وهذا مصداق قول الله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

(سورة الصف : الآية 9)

ادعوا لإخوانكم أن ينصرهم الله ، وأن يجعل تدمير أعدائهم في تدبيرهم ، وأن يجعل الدائرة تدور عليهم ، يا رب العالمين .

الأسئلة :

س : كيف نوفق بين قوله تعالى :

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال : الآية 25)

مع قوله تعالى :

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

ج : إذا اكتفى الإنسان بنفسه ، أنا ناجٍ ، والناس أحرار ، لا خير فيهم ، ما أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر يصيبه ما أصابهم ، لذلك :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

ما قال : صالحون قال : مصلحون ، فإذا كنت مصلحاً لا تهلك ، أما إذا كنت صالحاً فتهلك .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(44-60): تفسير الآيات 154 - 158
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-09-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والخمسين بعد المئة ، وقد شُرح بعضها ، ووقفنا في ثنايا قوله سبحانه :

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران : 154)

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ

يقول الله عز وجل في مطلع هذه الآية :

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران : 154)

1 - الأمن والخوف مرتبطان بطاعة الله :

فالذي أطاع رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألقى الله في قلبه الأمن ، والذي لم يطع رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألقى الله في قلبه الخوف ، إذاً الأمن والخوف متعلقان بطاعة الله عز وجل ، ألم يقل الله عز وجل :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : 173 - 174)

ثم يقول الله عز وجل :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 175)

إن خفت من الله لن تخاف من عبيده ، وإن لم تخف منه أخافك من عبيده ، انخلع قلبك من عبيده .

(وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران : 154)

2 ـ ظن السوء بالله ينعكس سلبا على العقيدة والسلوك :

وقد بينت في درسين سابقين تفاصيل أن تظن بالله غير الحق ، أن تظن أنه لا ينصر رسوله ولا المؤمنين ، يضيع على المؤمن عمله ، ويستوي عنده الذي عصاه ، والذي آمن به ، فهذا كله يعد ظن سوء ، ولو أنه ظنٌّ ليس غير لما كان هناك من مشكلة ، ولكن هذا الظن سيردي صاحبه ، وسيهلكه ، وما من شيء تعتقده خطأ إلا وله انعكاس خطير في سلوكك ، المحاسبة على السلوك ، أن تعتقد عقيدة زائغة ، وأن تتوهم وهماً غير صحيح ، أو أن تتوهم وهماً لا ينبغي ، أن تقول قولا غير صحيح ، وليس هناك وهم صحيح ، أو أن تتوهم وهماً ، هذا له انعكاس خطير في السلوك .

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة آل عمران : 154)

3 ـ اختلاف الصحابة في الخروج للقتال أو البقاء في المدينة :

بعضهم اقترح على النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبقى في المدينة ، ولكن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استجاب لنفر من أصحاب رسول الله الذين أرادوا أن يلقوا العدو خارج المدينة ، فارتدى درعه وخرج، لم شعروا أنهم طلبوا منه شيئاً لعله لا يريده ، فخجلوا ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا سار لم يلتفت ، فخرج ، والتقى بالعدو في أحد ، هؤلاء المنافقون حكى الله قوله فقال :

(هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

4 ـ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ

يعني ما سمع كلامنا ، ولا استجاب لنصحنا .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)

(سورة آل عمران : 154)

الأمر كله لله ، بالمناسبة هنا محل ذكر ، أن الشيء إذا وقع أراده الله ، بصرف النظر عن أن الذي أوقعه كان مريداً ، أو غير مريد ، حكيماً كان ، أو غير حكيم ، صالحاً كان أو طالحاً ، خيراً كان أو مجرماً ، ما دام وقع الذي وقع فقد أراده الله ، هذا نظام التوحيد ، لا يقع شيء في ملكه إلا أراده .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)

هذه الذكرى وحدها أيها الإخوة تجعلك لا تندم أبداً ، ما دام الشيء وقع أراده الله ، لحكمة أعرفها أو لا أعرفها .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)

لأن النبي خرج إليهم ، والتقى بهم ، ولم يحصل ما يريد من النصر ، الله عز وجل قال :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة آل عمران : 140)

لو أن الله كتب النصر المستمر للمسلمين إلى أبد الآبدين لدخل في الإسلام كل منافقي الأرض ، ولو أنه كتب عليهم ألا لا يتنصروا لانفضَّ عنه كل أهل الأرض ، قال الله :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة آل عمران : 140)

يعني في الحياة الدنيا تارة تنتصر ، وإذا كان هناك خطأ لا تنتصر .

5 - إن لم ننتصر فهناك خلل فينا تجب مراجعته :

الآن محل الإشارة إلى فكرة خطيرة جداً : المؤمن لا يخاف ، وحينما يخاف الله ، ولا يخاف عباده أو عبيده ، يلقى الله في قلبه الأمن ويحفظه ، لكن لو أن إنسانًا فهم هذا الكلام ولم يتعمق به فجاءت ضربت مؤلمة لمجتمع مسلم بعد هذه التهديدات ماذا نقول ؟ نقول : الشيء الذي وقع أراده الله ، ونصر الله يتنزل على المؤمنين الذين يستحقونه ، أما أنصاف المؤمنين ، أما أرباع المؤمنين ، أما أثلاث المؤمنين، أما أخماس المؤمنين ، أما أسداس المؤمنين ، أما أعشار المؤمنين ، أما أصفار المؤمنين فهؤلاء ليسوا أهلاً أن يتنزل عليهم نصر الله ، نقول لهم : راجعوا إيمانكم ، وراجعوا عقيدتكم ، راجعوا توحيدكم ، ثم راجعوا سلوككم ، ودققوا في حركاتكم ، وسكناتكم ، دققوا في بيوتكم ، في متاجركم ، أنا أقول كلامًا أصوليًّا ، إنّ الله عز وجل ينصر الذين آمنوا .

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : 47)

بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء : 141)

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد : 7)

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : 173)

هذه كلها وعود ، وزوال الكون أهون على الله من ألا تحقق ، لكن لا تتحقق إلا لمن هو أهل لها ، هؤلاء الذين أهمتهم أنفسهم :

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

يعنون أن النبي لم يستمع إلينا ، فكان الذي كان ، إذاً دخلوا كلمة لو ، وكلمة لو تفتح عمل الشيطان .

((فَلاَ تَقُلْ : لَوْ أني فَعَلْتُ كَذَا كانَ كَذَا وَكَذَا ، وَ لَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَما شاء فَعَلَ فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطانِ))

[أخرجه مسلم عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ]

ولكن هناك لو إيجابية واحدة سمح بها ، إنسان تعامل بالربا ، فألتف الله ماله ، فإذا قال : لو لم أتعامل بالربا لحفظ الله مالي ، هذا كلام صحيح ، إنسان سمح بالاختلاط في بيته ، فخانته زوجته ، فإذا قال : لو لم أسمح لم تخنِي زوجتي ، هذا كلام صحيح ، هذا سماها العلماء لو الإيجابية ، وهي مسموح بها .

(يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

جاء الجواب الإلهي :

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا)

(سورة آل عمران : 154)

الجواب الإلهي : كل شيء بقضاء وقدَر :

لو أنه استمع إلينا ، ونفذ نصحنا :

(يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة آل عمران : 154)

هناك قصة رمزية ، إنسان سيسافر إلى بلد بعيد بالطائرة ، أمه رأت في المنام أن هذه الطائرة سوف تحترق ، وتسقط ، لذلك تعمدت ألا توقظه في الوقت المناسب ، وعدته أن توقظه ، ولم توقظه ليسلم من هذا الحادث الأليم ، بعد أن مضى بعض من النهار دخلت إلى غرفته فرأته ميتًا ، أرادت أن تخلصه من موت محقق بالطائرة فمات في فراشه ، لذلك قطع الله عز وجل سلطان البشر عن الرزق والأجل ، من هنا نقول : كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً.

سيدنا خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ مات على فراشه ، قال : << خضت مئة معركة ، وما في جسمي موضع إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وها أنا أموت على فراش كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء >> .

(يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

(سورة آل عمران : 154)

إذاً : أمضينا درسين بفضل الله تعالى في الظن السوء ، وظن السوء يقود إلى الكفر ، وظن السوء يردي الإنسان ، والمؤمن يحسن الظن بالله عز وجل ، والمؤمن يحسن الظن بالله ، وبأوليائه ، من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، لذلك حينما توقن أن الله حكيم فلا تقع في حيرة من أمرك ، حينما تسمع أخباراً مخيفة ، لحكمة أرادها الله " ليبتلي " ليمتحن :

(وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)

أي ليطهركم .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

إنّ الله يعلم ، وأنت لا تعلم ، قال بعض الصحابة : علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

(يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ)

(سورة الأنعام : 3)

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه : 7)

الذي خفي عنك يعلمه الله عز وجل ، والدليل :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ)

(سورة آل عمران : 179)

لابد من امتحان للفرز والتمحيص:

لا بد أن يمتحن الله عز وجل ، ومع الامتحان يكون الفرز ، الهجرة امتحان وفرز ، حديث الإسراء والمعراج الذي أخبر النبي به أصحابه امتحان وفرز ، بعض من كان مع النبي ارتد عن الإسلام ، غير معقول ، أن يذهب إلى بيت المقدس ، وأن يصعد إلى السماء ، وفراشه ساخن ، فبعض الأحاديث هي امتحان وفرز ، والهجرة امتحان وفرز ، ومعركة الخندق امتحان وفرز ، قال تعالى :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ(10)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : 10 - 11)

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : 11)

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة الأحزاب : 12)

لابد أن يكون المؤمن واثقا في نصر الله له :

والله في هذه الأيام العصيبة هناك من يقول : انتهى الإسلام ، الآن معركة ضد جميع المسلمين في العالم ، والطرف القوي لا يرحم ، قوي جداً معه من أنواع الأسلحة الذرية ، والنووية ، والكيمائية ، والجرثومية ، وما إلى ذلك ، والمسلمون ضعاف ، عزل ، فقراء ، عندهم جفاف ، هكذا نستمع ، هذا الذي إيمانه ضعيف يقول : انتهى الإسلام .

سراقة حينما اتبع النبي ليقتله ، ولينال مئة ناقة كجائزة ، قال له النبي الكريم ، والنبي مطارد ، وقد أهدر دمه ، وقد وضع لمن يأتي به مئة ناقة ، جائزة قال له :

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

[ورد في الأثر]

ما هذا الكلام ؟ إنسان مطارد ، مهدور دمه ، لعل يقتل بين ساعة أو أخرى ،

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

كأنه يقول : أنا سأصل المدينة ، وسأنشأ دولة ، وستحارب هذه الدولة أضخم دولة في العالم ، وسوف ننتصر عليها ، وسوف نأتي بكنوزها ، ويا سراقة الذي تتبعني لتقتلني ،

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

ما معنى ذلك ؟ أن النبي عليه الصلاة والسلام واثق من نصر الله له ، وكذلك المؤمن ، المؤمن لا يخضع لتضليلات الغرب ، الإعلام الغربي يضلل ، ويغسل الأدمغة ، ويخيف ، ويملأ القلوب خوفاً ، كي نعقد ، كي نستلم ، كي نبقى سوق لهم كي يغتنوا عن طريقنا ، ولكن المؤمن لا يخاف إلا من الله .

دقق مرة ثانية بقدر خوفك الله فأنت موحد ، وبقدر خوفك من خلقه فأنت مشرك .

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 175)

يعني علامة إيمانكم أنكم تخافونني ولا تخافونهم ، فإذا خفتوهم ، ولم تخافوني ، فهذا دليل الشرك .

1 ـ الله يعاتب الذين تولوا في غزوة أحد :

ثم يقول الله عز وجل :

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : 155)

الشيطان ، كما قال الله عز وجل :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر : 42)

2 ـ الشيطان يتحيّن أدنى فرصةِ ضعفٍ في الإنسان :

الشيطان كبعض الحشرات يشم رائحة فيأتي ، إن رأى في الإنسان ضعفاً ، حباً للدنيا ، تكاسلاً عن عبادة الله ، خوفاً من غير الله ، فبمخالفة بسيطة يأتي ، وحينما يخالف الإنسان أمرَ الله يضعف ، فإذا ضعف تمكن منه الشيطان .

مثلا : تريد أن تصلي السنة والفرض ، يقول لك الشيطان : اترك السنة ، يأتي وقت تترك الفرض ، السنة حصن ، إن رآك متهاونًا في السنة أغراك أن تترك الفرض ، أما إن رآك محافظًا على السنة يئس من أن تتبعه .

3 ـ معنى : اسْتَزَلَّهُمْ

قال :

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

استزلهم الشيطان يعني جعلهم يزلون ، جعلهم يخطئون .

(وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

4 ـ عفو الله عن الذين عصوا في غزو أحد :

هنا إشارة لطيفة إلى أن هؤلاء الذين عصوا أمر النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بماذا صلى النبي عليهم ، عصوا أمر النبي فقتلوا طبعاً ، لماذا صلى عليهم ، قال علماء التفسير : لأنهم عصوا أمراً

تنظيماً ، ولم يعصوا أمراً تشريعاً يعني اجتهد أن النبي أمرنا أن نقف هنا كي ندافع عن المسلمين فلما انتصرنا ، وتوهموا أنهم قد انتصروا نزلوا ، فليس هناك رغبة ، أو نية في إيقاع الأذى بالمؤمنين ، لكنهم عصوا ، وكان من جزاء عصيانهم أن الله لم ينصر مجموع المسلمين .

المسلمون في قارب واحد :

دائماً وأبداً أيها الإخوة نحن في قارب واحد ، هذا كلام بليغ ، والنبي من أحاديثه الرائعة أنه مثل لهذه الحقيقة ، فعن النّعْمَانِ بن بَشِيرٍ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

((مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالمُدْهِنِ فِيهَا كَمثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ ، فَأَصَابَ بَعْضِهُمْ أَعْلاَهَا وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يَصْعَدُونَ فَيَسْتَقُونَ الْمَاءَ فَيَصُبّونَ عَلَى الّذِينَ فِي أَعْلاَهَا، فَقَالَ الّذِينَ فِي أَعْلاَهَا : لاَ نَدَعُكُمْ تَصْعَدُونَ فَتُؤْذُونَنَا، فَقَالَ الّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا : فَإِنّا نَنْقُبُهَا فِي أَسْفَلِهَا فَنَسْتَقِي ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ فَمَنَعُوهُمْ نَجَوْا جَمِيعاً ، وإِنْ تَرَكُوهُمْ غَرِقُوا جَمِيعاً))

[رواه الترمذي]

ونحن في قارب واحد ، إذاً : ينبغي أن نتعاون ، وينبغي أن نتناصح ، والطرف الآخر لا تعنيه فئاتنا ، بل يعنيه مجموعنا ، لذلك ينبغي أن نكون متعاونين ، كلما عصى الإنسان ربه دخل الشيطان ، وأغراه بمعصية أكبر .

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

ثم قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا)

(سورة آل عمران : 156)

لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا

1 ـ شنشنة نعرفها من أخزم :

أحيانًا يعمل إنسان عملا صالحًا ، فتأتيه متاعب ، المنافق يشمت به ، نصحتك ألا تفعل هذا ، نصحتك ألا تحضر درساً دينياً ، نصحتك ألا تفعل كذا ، نصحتك ألا تقول هذه الكلمة ، نصحتك ألا تخطب ، ما لك وللناس ، المنافق شأنه أن يشمت ، لذلك من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله

، ومن اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله ، فإذا ألمت بك لا سمح الله ولا قدر مشكلة فإياك أن تشكو همك لكافر ، أول كلمة يقولها لك : ألم أنصحك ألا تفعل هذا .

2 ـ شأن المنافق والكافر الشماتة بالمؤمنين :

أنا أتمنى على كل أخ كريم إذا فعل خيراً ألا يندم ، والله الذي لا إله إلا هو حينما أرى أخاً مؤمناً فعل خيرًا ، ثم ندم أتألم عليه ، أنت لا تعرف الله ، تفعل خيراً وتندم ، تكون عفيفاً وتندم ، تكون ورعاً وتندم، تدع شيئاً حراماً وتندم ، كأنك فعلته ، لذلك قالوا : من غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها، ما قولك برجلٍ في (ألاسكا)، هي بأعلى نقطة في الأرض ، أو بأسترالية ، أو بأخفض نقطة عمل عملاً لا يرضي الله ، وأنت قلت ، وأنت في الشام : والله دبر أمره ، عمل طيبًا ، حينما أقررته على هذا العمل كأنك فعلته ، ومن شهد معصية فأنكرها كان كمن غاب عنها ، شأن الكافر والمنافق أنه يشمتوا المؤمن ، لذلك لا تر الطرف آخر منك ضعفاً ، لا تشكُ له همك ، اشكُ همك لمؤمن ، أما الطرف الآخر فكن قوياً أمامه ، تجلد ، تجلد أمامه ، يمكن أن تشكو همك لمؤمن ، أما أن تنهار أمام كافر ، ماذا يفعل معك ؟ يشمت بك ، ويعنفك ، ويلومك ، ويحملك على أن تندم على عمل طيب ، قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا)

3 ـ معنى الضرب في الأرض :

ضربوا في الأرض ، أي سافروا ابتغاء وجه الله ، الإنسان أحياناً يضيق رزقه في بلده ، فيضرب في الأرض ، ويسافر يبتغي الرزق ، أو كانوا في غزوة لنشر الحق ، إن رأيت إنسانًا سافر يبتغي رزق حلالاً ، وقد ضاق به الرزق في بلده فهو ضارب في الأرض .

أهمية الولاء والبراء عند المؤمن :

لكن بالمناسبة ، إذا كنت في بلد مسلم كهذا البلد الطيب ، ولك دخل يكفيك ، وزوجتك وأولادك معك ، وبإمكانك أن تؤدي شعائر الله أداء كاملاً ، وأن يكون ابنك في المسجد ، وأن تسمع الآذان ، من أجل أن ترفع مستوى معيشتك ، من أجل أن ترفع مستوى إنفاقك ، تذهب إلى بلاد الكفر ، وتقيم معهم إقامة دائمة ، وتندمج فيهم ، وتثني عليهم ، وتمدحهم ، وبالمقابل تزدري أمتك ، وتزدري وطنك ، وتضيع مستقبل أبنائك ، وأنت في الأعم الأغلب لست ضامنًا أن يكون ابنك مسلمًا فضلاً عن أن يكون ابن ابنك مسلمًا ، فضلاً عن أن يكون ابن ابْن ابنك مسلمًا ، فهؤلاء ينبغي أن ينتبهوا ،

لذلك الولاء والبراء شيء مهم جداً في الدين ، فينبغي أن توالي المؤمنين ، ولو كانوا فقراء وضعفاء ، وينبغي أن تتبرأ من الكفار والمنافقين ، ولو كانوا أقوياء وأغنياء ، وهؤلاء الأقوياء يتمتعون بحياة راقية جداً في وهم الناس ، فلما أصابهم ما أصابهم انقلبوا وحوشاً .

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(155)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة آل عمران : 155 - 156)

4 - إيّاك من كلمة (لو)فإنها تحرق القلب ، ولا تغيّر من الواقع شيئا :

لذلك أشد حالات الألم حالات الندم ، كلمة(لو)من إنسان غير مؤمن هذه تحرق القلب ، لو فعلت كذا ، لو اشتريت هذا البيت ، لو تزوجت هذه المرأة ، لو لم أرتكب حماقة لكنت كذا وكذا ، قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(156)وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة آل عمران : 156- 157)

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ)

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

الآن دقق : إذا مات رجل في معركة في سبيل الله ، أو مات في سفر ، وكان مؤمناً ، وكان موحداً ، وكان مخلصاً ، وكان له عمل طيب .

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

1 - معنى : يَجْمَعُون

دقق في كلمة(يجمعون)، الإنسان يتاجر ، يربح ، يشتري بيتًا ، يشتري مركبة ، يتزوج ، يهيئ أموره، بعد مراحل مديدة بالتجارة ينتقل إلى شيء اسمه الجمع ، تجاوز موضوع رزقه ، وموضوع تأمين بيت لأولاده ، وتزويج أولاده ، وتجاوز موضوع طعامه وشرابه ، وموضوع ثيابه ، هذا كل شيء عنده منه ما يكفيه حتى الموت ، يدخل في متاهة الجمع ، يتنافس مع بقية التجار ، أنت كم مئة مليون جمعت هذه السنة ، ثلاثة مئة مليون ، هذا هو الجمع ، والجمع هو الكسب ، والكسب ليس لك

، تحاسب عليه ولا تنتفع به ، من الذي هو لك هو الرزق ، ما هو الرزق الذي أكلته ، والذي لبسته ، والذي تصدقت به :

((وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إلاّ ما تَصَدّقْتَ فأمْضَيْتَ ؟ أوْ أكَلْتَ فأفْنَيْتَ ؟ أو لَبست فأبْلَيْتَ ؟))

[رواه الترمذي عن عبد الله بن الشخير عن أبيه]

هذا هو الرزق ، الذي تنتفع به ، تنتفع بجزأين من الدنيا ، وليس له أثر مستقبلي ، أكلت ، الآن إذا واحد عُزم مئة عزيمة ، وكل عزيمة من أرقى أنواع الولائم ، وفي إحدى الليالي آلمه سنه ألماً لا يحتمل، لو أنه استرجع بذاكرته الطعام الذي أكله في الوليمة السابقة ، والتي قبلها ، والتي قبلها ، هل يزول هذا الألم ، أبداً ، هو شيء آني ، ومتاع الدنيا قليل ، والله عز وجل يخبرنا أنْ يا محمد قل لهم : متاع الدنيا قليل ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38)إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التوبة : 38 - 39)

فلذلك :

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

2 ـ جمعت كلَّ شيء من الدنيا ثم ماذا ؟

هؤلاء الذين يجمعون ، بعد أن جمعوا الأموال أين هم ؟ في القبور ، ما بعد هذا المال الكبير الكثير إلا القبر ، لذلك مرة ألقيت درسًا من فضل الله عنونته : ثم ماذا ، جمعت أكبر ثروة في الأرض ، ثم ماذا الموت بعد منها ، ارتقيت إلى أعلى مكانة في الأرض ، ثم ماذا ، الموت جمعت أكثر الناس حولك ، ثم ماذا ، الموت ، الموت ينهي قوة القوي ، وضعف الضعيف ، وغنى الغني ، وفقر الفقير ، وصحة الصحيح ، ومرض المريض ، ووسامة الوسيم ، ودمامة الدميم ، ينهي كل شيء .

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(157)وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران : 157 - 158)

1 ـ لسان حال المسلمين : وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين

أيها الإخوة الكرام ، قبل أسبوعين أو أكثر ، بينت أن التكذيب بالآخرة نوعان ، تكذيب قولي ، وتكذيب عملي ، ربما لا تجد مسلمًا في العالم الإسلامي يكذب بالآخرة تكذيباً قولياً ، ولكن والله الذي لا إله إلا هو ، إن معظم المسلمين يكذبون بها تكذيباً عملياً ، كيف ؟ الذي يغش المسلمين ليزداد ربحه ، هل أدخل الآخرة في حسابه ، هل علم أنه سيوقفه الله عز وجل ، ويسأله لمَ فعلت هذا ؟ الذي يفعل المعاصي ، والآثام ، ويأكل الأموال الحرام ، ويعتدي على الأعراض ، ويغتاب الناس ، ويصلي في المسجد ، هذا الذي يسافر فيزني ، يسافر فيشرب الخمر ، وهو من المصلين في المسجد ، هذا هل أدخل في حسابه الآخرة ؟ لذلك أحد العلماء قال كلمة أعجبتني : حينما ألتقي بالمسلمين وكأن لسان حالهم يقول :

(وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة الأنعام : 29)

لا يمكن أن تؤمن أن هناك حساب بالمثاقيل ، وتغتصب هذا البيت ، وتغتصب هذه الأرض ، وتغتصب هذه الشركة ، وتطلق امرأتك طلاقاً تعسفياً ، هذا مستحيل ، لذلك الشيء الخطير ليس التكذيب القولي ، التكذيب العملي .

زرتَ طبيبًا ، ولم تقتنع بعلمه ، لكنك لطيف ، اجتماعي ومهذب ، أديت له الأجرة ، وصافحته ، وأثنيت عليه ، وشددت على يديه ، وأثنيت على علمه ، ولم تشترِ الدواء إطلاقاً ، ولم تعبأ به ، السلوك هو الأصل ، هذا كلام مجاملة ، كلام ذكاء ، أما لأنك لم تشترِ الدواء لأنك لست قانعاً بعلمه ، أنت تكذبه مع أنك تثني عليه .

دققوا في هذه الناحية هذا الذي يأكل المال الحرام ، يغش المسلمين ، وأنواع الغش الآن لا تعد ولا تحصى ، يبيع المواد المحرمة ، يضع المواد المسرطنة الضارة كي يتضاعف ربحه ، يتعامل مع الشيطان من أجل أن يربح ، يعرض النساء كاسيات عاريات كمعلنات على بضاعته ، من أجل أن يربح، هذا لو أنه صلى في المسجد ، لسان حاله يقول :

(وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة الأنعام : 29)

وما عنده إلا الدنيا ، لا تعبأ بالتكذيب القولي ، لا أحد يكذب بالآخرة قولياً ، ولكن انظر إلى عمله ، هذا الذي يسمح لابنته أن تكون في الطريق كاسية عارية ، كاسية ترتدي ثيابًا ضيقة تصف حجم جسمها ، أو ثيابًا رقيقة ، وهي تثير الفتنة في الطريق ، وهي مسلمة ، وأبواها مسلمان ، وأخوها

مسلم ، هذا الذي يسمح لبناته أن يكنّ هكذا ، هذا أدخل في حسابه الآخرة ؟ علم أن هذه الفتاة سوف تقف أمام الله يوم القيامة ، وتقول : يا رب ، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي ، هو سبب فسادي .

هذه الأم المحجبة التي تمشي في الطريق ، وابنتها شبه عارية تمشي إلى جانبها ، لا سلطان عليها أبداً؟ أين التربية والتوجيه ؟ أين تلقين العلم الشرعي ، أين البيت المسلم الذي ضبطها ؟

لذلك أيها الإخوة ، قضية التكذيب بالآخرة قلّمَا تجد في العالم الإسلامي كله واحدًا يقول لك : ليس هناك آخرة ، لا ، لكن لا يعدّ مصدّقاً بالآخرة إلا من كان عمله منسجمًا معها ، وترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام .

عندك مئة ألف ، ومئتا ألف ، وخمسة ملايين ، وهذا الحاضر ، وهي المحاكم ، ما لي لا أعطيك ، هي مشاكل المسلمين ، والله لا تمر جمعة إلا عندي ست أو سبع قضايا مالية ، بين مسلمين كلهم ، وبمئات الآلوف ، وبالملايين ، لا يدفع ما عليه ، يعد نفسه ذكيًّا ، والقانون معه ، وهذا الحاضر ، ثم يأتي بعدها ويقول : أريد حكم الشرع .

لذلك أيها الإخوة ، لعل الله سبحانه وتعالى لا ينصرنا بما نحن في من ضياع ، لعلكم تظنون أن الصلاة وحدها هي الدين ، قم فصل ، إنك لم تصل ، لا تستطيع أن تتصل بالله إلا إذا كنت مستقيمًا على أمره ، إلا إذا كنت وقافًا عند حدود الله ، إلا إذا كان دخلك حلالاً ، وإنفاقك حلالاً ، فلذلك :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

2 ـ موتٌ أو قتل ، بعده الرجوع إلى الله وحده :

مرة كنت في بلد إسلامي ، وقرأت قصة عالم جليل ، ألف كتيباً صغيراً عن تقليد الأعاجم ، لغطاء الرأس ، برنيطة ، هذا الرجل منع ارتداء العمامة والثياب الإسلامية ، فلما وُجد هذا الكتاب وُضع صاحبه في السجن ، الكتاب ألف بموافقة الحكومة ، ونشر وطبع بموافقتها ، لكن بعد حين منع هذا الزي ، عكف على كتابة مرافعة ، هذا العالم الجليل وهو في السجن ـ الذي يتكلم هذه القصة من كان معه في السجن ـ عكف على كتابة مرافعة في ثمانين صفحة ، يقول هذا الرجل : في أحد الأيام استيقظ هذا العالم الجليل ، وهو في السجن مستبشراً ، ومزق كل هذه المرافعة ، ماذا فعلت ؟ تكتبها في أسبوعين أو ثلاثة ، قال : رأيت رسول الله ، وقال لي : أنت ضيف عندا غداً ، ما لي ولها ، في اليوم الثاني قتل ، أُعدم ، فإذا كان لك عمل للآخرة فما هذه الدنيا ؟ الشيء الغريب أن الصحابة الكرام كانت أسعد لحظات حياتهم عندما غادروا الدنيا ، الآن أسال طبيب قلب ، أو أسال ركاب طائرة كادت أن تسقط ، تجد الهلع والجزع ، إذا لم يكن للإنسان للآخرة رصيد ينخلع قلبه من ذكر ألفاظ الموت .

حدثني أخ مضيف طائرة من إخواننا ، كان في طائرة حلقت فوق باريس ، ودخلت في سحابة مكهربة، وحطمت مقدمتها ، وتحطمت جهاز الرادار فيها ، وكسر بعض النوافذ ، وكان احتمال

سقوطها 99%، قال لي : دخلت على الركاب وهم يضربون وجوههم ، ويندبون وجوههم ، ويبكون على أولادهم وزوجاتهم ، ويصرخون ، قال له الطيار هدئهم ، قال : ما سمع مني واحد ، فرأى رجلا منهم هادئًا في أحد المقاعد ، فقال : لعل هذا عنده أعصاب قوية ، يهدئهم ، ذهب إليه ، فإذا هو مغمًى عليه ، هذا الوحيد .

العبرة أن يكون لك عمل للآخرة ، بمال دفعته ، بطاعة قدمتها ، بدعوة أقمتها ، بميتم بنيته ، بكتاب ألفته ، بتربية أولاد ، وإذا لم يكن لأحدنا رصيد للآخرة فمشكلته كبيرة ، فملامح الموت ترتعد منها مفاصله ، وينهد كيانه ، على كلمة :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ)

ماذا بعد ذلك ؟ قال :

(لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

3 ـ ساعة الموت أحلى لحظة عند المؤمن الصادق :

دقق في المؤمنين عند موتهم ، أحلى ساعات حياتهم ، النبي قال : الموت عرس المؤمن ، الموت تحفة المؤمن .

مرة ركّبت تركيبًا ، أن واحد قلنا له : أنت فقير جداً ، ائتِ بدكتوراه لتكون أغنى إنسان ، وأرقى إنسان في هذا البلد ، فذهب إلى بلاد الغرب ، اشتغل حارسًا ، اشتغل عاملا في مطعم ، أعمال مهينة ، متعبة ومشقية ، والدخل قليل ، ودرس عشر سنوات ، أخذ دكتوراه ، صدق الشهادة ، صدقها بالخارجية ، وصورها ، وقطع تذكرة عودة ، ودخل إلى المطار ، وأعطي بطاقة الصعود ، ووضع رجل على سلم الطائرة ، انتهى زمن التعب ، زمن الشقاء ، زمن الفقر ، زمن القهر ، هذا كله انتهى الآن ، سيتسلم أعلى منصب في بلده ، سيكون أغنى إنسان ، يسكن أجمل بيت ، وأجمل امرأة ، وأجمل مركبة ، هو مثل تركيبي ، حينما يضع رجل على سلم الطائرة أليست هذه أسعد لحظات حياته ، هذا الموت عند المؤمن ، وكل هذا العمر لهذه الساعة ، يغض بصره ، يضبط لسانه ، ينفق ماله ، يصلي الفجر ، يصلي قيام الليل ، يتحمل متاعب الناس ، وفي سبيل الله يحرم نفسه أشياء محببة جداً ، لكن لا ترضي الله ، والناس يعيشون لشهواتهم ، هذه لا ترضي الله ، قد يأكل طعاماً خشناً ، ويسكن بيتًا بأجرة ، وكان بإمكانه لو مد يده للحرام أن يسكن أجمل بيت ، وأن يركب أجمل مركبة ، لكنه آثر طاعة الله عز وجل، هذا الإنسان إذا جاءه ملك الموت ، أو اقترب منه فهو في أسعد لحظات حياته ، هذا معنى الآية :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

يقول هذا الذي في السجن : ما رأيت في حياتي إنسانًا ـ له كتيب صغير قرأته ـ ما رأيت في حياتي إنسانًا سعيدًا ، مستبشرًا ، ومنطلقًا إلا هذا الإنسان ، مزق المذكرة ثمانين صفحة لم يعد في حاجة إليها ، وفي اليوم الثاني غادر الدنيا إلى الله عز وجل .

كل بطولتك ، كل ذكائك ، كل توفيقك ، أن تعمل عملا إذا جاء ملك الموت تكون أسعد الناس .

حينما وُلدتَ كلّ من حولك يضحك ، وأنت تبكي وحدك ، عند المغادرة كل من حولك يبكي ، إلا حالات نادرة جداً .

مرة ورث أحدهم من عمته مبلغًا بالملايين ، طبعاً الحزن جعله يطيل ذقنه ، ويلبس الأسود ، فجاء صديق له ، وقال له : تهانينا ، ما قال له : عظم الله أجركم ، هو حكى الحقيقة طبعاً ، فمعظم الناس إذا وافته المنية كل من حوله يبكي ، فإذا كان بطلاً يضحك وحده ، لا ينفعك شيء .

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

4 ـ لابد من الإعداد لساعة الحقيقة :

تستطيع كل يوم أن تعد للآخرة ، تدخر عملاً صالحًا ، خدمة إنسان ، إنفاق مال ، أمرًا بالمعروف ، نهيًا عن منكر ، تلبية حاجة إنسان ، إعانة أرملة ، إطعام يتيم ، خدمة إنسان ، تستطيع كل يوم أن تعمل صالحًا ، تدخره عند الله ، فإذا جاء ملك الموت كنت أسعد الناس ، هذه مشكلة المشكلات ، وأخطر حدث على الإطلاق في المستقبل مغادرة الدنيا ، وبحسب منظور الناس من كل شيء إلى لا شيء ، أحدهم عنده سرير نظيف ، عليه ملاءة نظيفة ، ينام مرتاحًا ، وثمة غرفة طعام ، ومطبخ ، وأنواع من الطعام ، أولاده أمامه ، زوجته أمامه ، هل هذا الشيء يستمر على طول ؟ لا ، سوف يأتي يوم يرحم الله المرحوم ، فصار ذكرى ، فإذا كان محسنًا يذكره الناس ، وإلا قال لك : استرحنا منه ، والميت مستريح ومستراح منه .

أنا الذي أراه من هذه الآية :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

أن تجعل كل عملك ، وكل همك للآخرة ، حتى إذا كان اقترب الإنسان من الموت ما ينهار .

والله أيها الإخوة بحسب اطلاعي أرى أناسًا إذا اقتربوا من الموت أصبحوا من الضعف كالأطفال ، الموت حق ، ولا يمكن أن يبقى منا أحد ، كل هذا من في المسجد ، ولكن البطولة أن تحسن مغادرة الدنيا ، أن تغادرها إلى الجنة ، فإذا تمكن الواحد أن يأتيه الموت وهو نقي فقد فاز ، ففي الحديث الشريف القدسي :

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله وولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شدد عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

سيدنا سعد بن الربيع تعقب النبي عقب معركة أحد ، ما عرفوا مصيره ، وكّل صحابي يتفقد حاله ، ذهب إلى ساحة المعركة ، فإذا هو بين القتلى ، لكن فيه رمق ، قال له : يا سعد إن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرني أن أتفقدك ، هل أنت مع الأحياء أم مع الأموات ، قال : إنني مع الأموات ، ولكن ، الآن دقق ، واحد مع الأموات ، وسيغادر الدنيا ، وهو شاب ، قال له : << أبلغ رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السلام ، وقل له : جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل لأصحابه : لا عذر لكم إذا خلص إلى نبيكم ، وفيكم عين تطرف >> ، ما لكم عذر أبداً ، معنى ذلك أنه كان في أسعد أوقات حياته، على الإطلاق ، فنحنا جهدنا وتوفيقنا أن نجعل هذا اليوم الذي لا بد منه بعد أو اقترب أن نجعله أسعد لحظات حياتنا طبعاً باستقامتنا ، ومعرفتنا ، وعملنا الصالح :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

فإذا قلنا الآن لشخص : ألقينا القبض عليك ، وسوف نسوقك إلى أمك ، أمه كلها رحمة ، لا يخاف إطلاقاً ، ما دام إلى الأم فلا مشكلة حينئذ ، والآية الأولى :

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(157)وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران : 157 - 158)

الأسئلة :

س : لماذا ورد في قوله تعالى :

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(البقرة : الآية 257)

لماذا جاءت الظلمات جمعاً والنور مفرداً .

ج : لأن الظلمات هي الباطل والباطل متعدد ، والنور هو الحق ، والحق لا يتعدد ، الحق طريق مستقيم بين نقطتين لا يمر منه إلا مستقيم واحد ، ضع نقطتين وائتِ بمسطرة ، وارسم خطًّا بينهما ، وارسم خطًّا ثانيًّا بين نقطتين يأتي فوقه ثالث ، ورابع ، وخامس ، ومليون خط ، الحق لا يتعدد ، أما إنه يمكن أن ترسم من نقطتين مليون خط منحنٍ ، مليون خط منكسر ، الباطل هو الانحراف ، عندنا مليون باطل اعتقادي ، مليون باطل سلوكي ، أما الحق فواحد ، لذلك :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام : 153)

" السبل " جمع .

(يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(البقرة : الآية 257)

س : بعضهم يقول : إن مصافحة النساء حرام ، وبعضهم يقول : إنها ليست محرمة ، وبعضهم يقول : إنها مكروهة ، النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

[النسائي ، وابن ماجه ، وأحمد]

ج : مصافحة المرأة محرمة ، وأنا قلت في بلد أجنبي في أمريكيا ، وقد سئلت هذا السؤال فقلت : الملكة(إيليزايت)لا يصافحها إلا سبعة رجال بحسب القانون البريطاني ، لعلو مقامها ، والمرأة المسلمة لا يصافحها إلا سبعة رجال بحكم القانون القرآني لعلو مقامها عند الله عز وجل ، فالمصافحة محرمة بالنصوص الثابتة .

س : ما موقف الإنسان من الموسيقى والغناء ، وهل الاستماع إلى الأغاني حرام ؟ هذا الأخ حديث عهد ، جزاك الله خيراً ، حديث عهد جداً بسلوكه مع الله عز وجل ؟

ج : الغناء حرام قولاً واحداً ، وليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن ، إن أراد التفصيل ففي درس الأحد عن الغناء ، فقد جمعنا فيه كل الأدلة والتفاصيل ، فليرجع إليه .

س : يقول أخ ثالث : إن في آخر الزمان يأتي عليكم رمضان ، أوله يوم جمعة ، ووسطه يوم جمعة ، وآخره يوم جمعة ، ويأتي بعده شوال ، وما أدراكم ما شوال ، يقتل فيه الناس هرجاً ومرجاً ، فإذا كنتم في ذلك الزمان فسددوا قواكم ، وأغلقوا أبوابكم .

أعتقد أن هذا الحديث لا أصل له .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(45-60): تفسير الآية 159، رحمة النبي صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-10-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية التاسعة والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 159)

مقدمة :

أيها الإخوة الكرام ، لابد من تمهيد لهذه الآية ، النبي عليه الصلاة والسلام بين للناس ما نزل إليه ، الأحكام الكلية التي جاءت في القرآن الكريم بينها النبي عليه الصلاة و السلام و فصلها، هذه سنته ، من سنته أقواله ، ومن سنته أفعاله ، و من سنته إقراره ، و لكن كيف عامل أصحابه ؟ كيف عامل من حوله؟ كيف دعا إلى الله ؟ و كيف كان سلوك النبي مع من دعاهم إلى الله ؟ هذه سنة تربوية ، أي عالم من بعده تبعه في سنته التربوية نجح و أفلح ، و أي داعية إلى الله خالف سنته التربوية أثار حوله جدلاً كثيراً ، إذاً الدعاة إلى الله في شتى أقطار المسلمين ينجحون و يتفوقون و يفلحون إذا اتبعوا سنة النبي التربوية ، كيف دعا أصحابه ، وكيف عاملهم ؟ فكل داعية لا يفلح ، ولا ينجح ، ولا يلتف الناس حوله إلا إذا قلد النبي في أصول دعوته ، فقضية الأحكام الشرعية شيء آخر ، قضية بيان النبي عليه الصلاة والسلام لكليات القرآن ، قال تعالى :

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل : الآية 44)

شيء آخر ، لكن كيف عاملهم ؟ منعهم أن يسألوا ، صادر شخصياتهم ، استعلى عليهم ، سخرهم لصالحه ، كيف عاملهم ؟ هذه الآية أيها الإخوة إحدى الآيات التي تبين أصول الدعوة إلى الله ، يقول الله عز وجل :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

1 ـ لين النبي لأصحابه سببه رحمة الله :

هذه الباء في الآية باء السببية ، أيْ بسبب رحمة في قلبك لنت لهم ، إذاً هناك علاقة بين لين الجانب ، وبين الرحمة المودعة في القلب ، ما لم يكن في القلب رحمةٌ مشتقة من رحمة الله لن تستطيع أن تكون لين الجانب ، ولا أن تكون سهل العريكة ، هذه صفة أساسية فيمن دعا إلى الله، لين ورحمة ، فبما رحمة من الله لنت لهم .

أيْ بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد ، من خلال اتصالك بنا ، أي اتصال بالله يشتق من خلاله من كمال الله ، إذا كنت مع الرحيم فأنت رحيم ، إذا كنت مع الحكيم فأنت حكيم ، إذا كنت مع اللطيف فأنت لطيف ، هذا الكمال الذي جاء به الأنبياء ، وعلى رأسهم رسول الله يسبي العقول، يملأ القلوب محبة ، قال أبو سفيان : ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً ، لِمَ هذا الحب ؟ من كماله ، من رحمته ، من لين جانبه ، من تواضعه ، من حكمته ، من لطفه ، إذاً لن تستطيع أن تؤثر في إنسان على وجه الأرض إلا إذا كنت مشتقاً من كمال الله كمالاً .

2 ـ الخلق الحسن يجذب الناس إلى الدين :

ما الذي يجذب الناس إلى الدين ؟ الكمال الذي يتحلى به المؤمنون ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسيء الجوار ، وهناك جاهلية أشد من هذه الجاهلية ، حينما قال الله عز وجل :

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب : الآية 33)

معنى ذلك أن هناك جاهلية ثانية ، والجاهلية الثانية ليس فيها إساءة إلى أفراد ، بل فيها إساءات إلى شعوب ، ليس فيها عبودية فرد لفرد ، بل فيها عبودية شعوب لشعب ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسيء الجوار، ويأكل فينا القوي الضعيف ، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته ، وصدقه ، وعفافه ، إذا عاملناه فهو أمين ، وإذا حدثنا فهو صادق ، وإذا وضع في موطن شهوة كان عفيفاً ، فدعانا إلى الله كي نعبده ، ونوحده ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

3 - النبي يأمر بالخلق الحسن ويتصف به :

بماذا أمر النبي ؟ بمكارم الأخلاق ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))

[أحمد]

من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان ، الإيمان حسن الخلق ، فعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ : الْمُتَكَبِّرُونَ))

[الترمذي]

أكثر من عشر أحاديث صحيحة في البخاري ومسلم تؤكد هذه الأحاديث أن الإيمان يعني حسن الخلق .

فلذلك بين النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه الكرام فقال :

((تواضعوا لمن تعلمون ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه))

[ورد في الأثر]

والتواضع من صفات المؤمن ، قال تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

لأن في قلبك رحمة جاءتك من الإقبال على الله ، فكنت ليناً ، سمحاً ، سهلاً ، لطيفاً ، متواضعاً ، يدخل عليه رجل فترتعد مفاصله من شدة هيبته ، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ ، فَقَالَ لَهُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه]

يكون مع أصحابه في سفر أرادوا أن يعالجوا شاة :

((علي ذبحها ، وقال الثاني : علي طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام : وعلي جمع الحطب ، قالوا : نكفيك ذلك يا رسول الله ، قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

كان مع أصحابه في بدر ثلاثمئة ، والرواحل قليلة ، قال : كل ثلاث على راحلة ، أمر من قائد الجيش ، وأنا ، وعلي ، وأبو لبابة على راحلة ، فما ميز نفسه عن جندي في الجيش ، ركب النبي ناقته ، فلما جاء دوره في المشي توسلا صاحباه أن يبقى راكباً ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي ، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد عن ابن مسعود]

هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام ، خدمه ربيعة سبعة أيام ، فقال له: يا ربيعة سلني حاجتك ، وكأنه رأى هذه الخدمة ديناً عليه ، لا فرضاً عليه .

السيدة فاطمة طلبت منه خادمةً قال : والله لا أعطيك خادمةً ، وفي المسلمين فقراء ، عدّ ابنته كأحد فقراء المسلمين ، حتى نلبي حاجات الفقراء .

بقدر ما يتبع الدعاة إلى الله منهج النبي في تربية أصحابه ، منهج النبي في معاملة أصحابه ، منهج النبي في تواضعه ، منهج النبي في رحمته يلتف الناس حوله ، فلما لنت لهم التفوا حولك .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

أشيروا علي أيها القوم ، في معركة بدر ، قال سيدنا سعد : امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، صل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فو الذي بعثك بالحق للذي تأخذه من أموالنا أحب إلينا مما تتركه لنا ، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا واحد ، إنا لصبر في الحق ، صدق عند اللقاء، فلعل الله يريك ما تقر بها عينك .

4 ـ النبي أحسن الناس أخلاقا :

لماذا التف أصحابه حوله ؟ لأنه ما ميز نفسه عليهم أبداً ، ما ميز نفسه عليهم أبداً ، لا في سلم ، ولا في حرب ، ولا في ضائقة مادية ، ولا في جوع ، ولا في خوف ، أبداً ، لو أن من يتولى شؤون الدعوة في العالم الإسلامي درس بعناية فائقة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وكيف كان يعامل أصحابه ، كيف كان يتفقدهم ، كيف كان يمشي مع المرأة المسكينة تسأله كل حاجتها ، كيف كانت الجارية البنت الصغيرة تأخذه من يده فتقوده ، وكيف كان يركب الحسن والحسين على ظهره في البيت ، فقد ارتحلاه وهو يقول :

((نِعْم الجمل جملكما ، ونعم الراكبان أنتما))

[ورد في الأثر]

كيف ؟ كيف كان يخطب ، فرأى الحسن أو الحسين يمشي ، ويتعثر فنزل من على المنبر ، وحمله ، وصعد به المنبر ، وتابع خطبته .

كيف كانت رحمته بالأطفال ؟ كيف كان يصلي صلاة الفجر ، وقد علمنا أن نقرأ الآيات الطوال في صلاة الفجر ، فسمع طفلاً يبكي ، ينادي أمه ببكائه ، فقرأ آيات قصيرة ، فقالوا : يا رسول الله لم تطل ، قال : سمعت طفلاً ينادي أمه ببكائه ، فأردت أن أرحمها ، كيف ؟

كيف حينما جاءه الوحي قالت له : خذ قسطاً من الراحة ، قال : انتهى عهد النوم يا خديجة كيف ؟ قبل أن يتوفاه الله جمع أصحابه وقال : من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه ، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ، ومن كنت شتم له عرضاً فهذا عرضي فليشتمني، ولا يخشى الشحناء ، فإنها ليست من شأني ، ولا من طبيعتي .

و أحسن منك لم ترَ قط عين وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءًا من كل عيب كأنك خلقت كما تشـاء

بماذا مدحه الله عز وجل ؟ مدحه بفصاحته ، فكان فصيحاً ، بل كان أفصح العرب ، لكن القرآن لم يمدحه بفصاحته ، مدحه بقيادته ، كان من أحنك القادة ، مدحه بفطنته ، فقد كان من أفطن البشر ، بماذا مدحه ؟ قال تعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم : الآية 4)

دخل مرة أحد على ملك ليعظه ، قال : سأعظك ، وأغلظ عليك ، قال له : ولمَ الغلظة ؟ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني ، أرسل موسى إلى فرعون ، فقال :

(فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

لماذا التف الناس حول رسول الله ؟ لأخلاقه فقط ، لخلقه كان واحداً من أصحابه ، وما سحب يده من مصافح ، ولا رُئي ماداً رجليه بين أصحابه قط ، وكان لا يمدح طعاماً ، ولا يذمه ، وكان يقبل العذر ، ويأكل مع الخادم ، وكانت توقفه امرأة مسكينة في الطريق فيقف معها طويلاً .

رأى رجلاً في المسجد قال : من أنت ؟ قال : أنا عدي بن حاتم ، مالك من ملوك الجزيرة ، أخذه إلى بيته صلى الله عليه وسلم ، ودفع له وسادة من أدم محشوة ليفاً قال : اجلس عليها ، قال : أنا ، قال : بل أنت قال : فجلست عليها ، وجلس هو على الأرض ، قال : إيه يا عدي بن حاتم ألم تكن ركوسياً ، وهو دين بين النصرانية والمجوسية ؟ قال : نعم ، قال : أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ قال : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك ، أرأيت إلى هذا المنطق الصارم ، يناقشه بدينه قال : يا عدي ، لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، أصحابه فقراء ، وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم ، كما هو الآن، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحةً للعرب ، ولقد عاش عدي ورأى كل ذلك .

[ورد في الأثر]

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

هذا الإنسان كيف يحبك ، كيف يحترمك ؟ كيف يتعلق بك ؟ كيف يصغي إليك ؟

كنت أقول دائماً : الإحسان قبل البيان ، لا تطمع في هداية أحد قبل أن تحسن إليه ، لا تطمع بهداية أحد قبل أن تكون قدوة ، لا تطمع بهداية أحد قبل أن تتواضع له ، لا تطمع بهداية أحد قبل أن تكون مطبقاً قبله :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

5 ـ هذا ما تفعله أخلاق النبي في أصحابه :

كنت ليناً بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد من خلال اتصالك بنا فالتفوا من حولك ، وأحبوك ، وفدوك بأرواحهم وأنفسهم .

رجل على وشك أن يُقتَل ، خبيب بن عدي سأله أبو سفيان : يا خبيب أتحب أن يكون محمد مكانك ، وأنت معافى في أهلك ، ماذا قال خبيب وهو على وشك أن يموت صلباً ؟ انتفض وقال : والله لا أحب أن أكون في أهلي وفي ولدي ، يعني وأنا جالس في بيتي ، وزوجتي وأولادي أمامي ، وعندي عافية الدنيا ونعيمها ، طعام ، وشراب ، وبيت مدفأ شتاءً ، مكيف صيفاً ، ألوان الأطعمة ، ألوان الأزهار ، والله لا أحب أن أكون في أهلي وفي ، ولدي ، وعندي عافية الدنيا ، ونعيمها ، ويصاب رسول الله بشوكة ، عندها قال : ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ، كيف ؟

تفقد أحد أصحابه صلى الله عليه وسلم في أحد سعد بن الربيع أرسل إليه أحد أصحابه رآه بين القتلى لم يمت بعد ، قال له : يا سعد هل أنت بين الأحياء والأموات ؟ قال له : أنا مع الأموات ، ولكن أقرئ رسول الله مني السلام ، وقل : له جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل لأصحابه : لا عذر لكم إذا خلص إلى نبيكم ، وفيكم عين تطرف .

ما هذا ؟! إنسان على وشك الموت ، يمتلئ قلبه محبة لرسول الله ، هذا لأخلاقه العالية ، ورحمته بأصحابه ، وبالتعبير الدقيق كانت مشكلة أصحابه مشكلته ، وكانت أفراحهم أفراحه ، وأتراحهم أتراحه، نحن بحاجة إلى الحب أيها الإخوة ، بحاجة أن يحب بعضنا بعضاً ، بحاجة إلى تعاون ، بحاجة إلى البذل ، إلى التضحية ، بحاجة أن تشعر أنه لست وحدك في الحياة ، كل المؤمنين لك ، وأنت للكل ، كلهم لك بإمكاناتهم ، بخبراتهم ، وأنت لهم جميعاً .

هذا المجتمع كل شيء مادي موجود بشكل صارخ جامعات ، مؤلفات ، محاضرات ، مؤتمرات ، مساجد ، مطبوعات ، كل شيء مادي في الإسلام موجود بشكل صارخ ، لكن روح الإسلام هذا الحب بين المؤمنين ، هذه التضحية ، والإيثار .

مد يدك لأبايعك ، كذا قال الصديق لسيدنا عمر ، قال عمر : أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا كنت أميراً على قوم فيهم أبو بكر ، قال له : أنت يا عمر أقوى مني ، قال : أنت يا أبا بكر أفضل مني ، قال: قوتي إلى فضلك .

أيعقل أن يكون مع أصحابه سيدنا عمر ، وأن يقول أحدهم تقرباً إليه : والله يا أمير المؤمنين ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله ، فإذا به يحد بصره إليهم ، إلى درجة أنه كان يقطعهم وَاحداً واحداً ، إلى أن قال أحدهم : لا والله قد رأينا من هو خير منك ، قال : من هو ؟ قال : أبو بكر ، فقال هذا الخليفة العظيم: كذبتم جميعاً وصدق ، عد سكوتهم كذباً ، قال : كنت والله أضل من بعيري ، وكان أبو بكر أطيب من

ريح المسك ، ما هذه الموضوعية ؟

يقف على منبر ، وينزل درجة ، ويقول : ما كان الله ليراني أرى نفسي في مقام أبي بكر ، ماذا فعل النبي ؟ ربى أصحاباً ، ربى أبطالاً الواحد منهم كألف ، الآن المسلمون مليار ومئتا مليون ، لذلك حينما يسقط المسلمون من عين الله يأتي من يتحكم فيهم ، ومن يذلهم ، ومن يأخذ أموالهم ، ومن يوقع بينهم ، وكأنهم ليسوا موجودين ، المسلمون غائبون عن الساحة ، أين هم هؤلاء المسلمون ؟

أيها الإخوة الكرام ، الأنبياء العظام تركوا أصحاباً عظاماً ، ونحن نريد أن يكون المسلم شيئاً كبيراً ، كبيراً بطاعته لله ، كبيراً بمحبته لله ، كبيراً بإخلاصه لله .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران : الآية 159)

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

لو كنت منقطعاً عنا .

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

الفظاظة والغلظة تنفران الناس :

لو كنت منقطعاً عنا يمتلئ قلبنا قسوة ، و إذا امتلأ قلبك قسوة كنت فظاً غليظاً ، فيك قسوة ، وفظاظة ، وكبر ، ولا يوجد رحمة :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

معادلة رياضية : اتصال رحمة لين التفاف ، انقطاع قسوة غلظة انفضاض ، أليس هذا درساً لكل داعية على وجه الأرض ؟

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

من أصول الدعوة : التزكية الأخلاقية :

أيها الإخوة الكرام ، أتمنى أن يتتبع أحدكم الآيات المتعلقة بأصول الدعوة ، مثلاً :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة : الآية 2)

منهج الدعوة أن تعرف بالله من خلال آياته ، و أن تزكي النفوس ، أن ترقى النفوس ، أن تتصعد الميول :

(وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ)

أي القرآن :

(وَالْحِكْمَةَ)

السنة ، هكذا قال علماء التفسير .

إذاً : دعوة بلا تزكية لا قيمة لها ، و تزكية بلا علم لا قيمة لها ، لابد من دعوة إلى الله ، لابد من تعريف بالله من خلال آياته ، و لابد من تزكية للنفس من خلال الاتصال به ، ثم لابد من معرفة المنهج الكتاب و السنة .

حبذا لو تجمعوا الآيات المتعلقة بأصول الدعوة إلى الله ، و يجب أن تعلموا علم اليقين أنه ما من واحد من المسلمين إلا و الدعوة إلى الله في حقه فرض عين لا يعفى منها أحد ، فإن لم تفكر في الدعوة إلى الله فأنت لا تتبع رسول الله ، لأن الله عز وجل يقول :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : الآية 108)

فإن لم تكن متبعاً لرسول الله معنى ذلك أنك لا تحب الله ، والدليل قوله تعالى :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

(سورة آل عمران : الآية 31)

إن لم تتبع لا تحب ، و إن لم تدع لا تتبع ، ولكن تدعو إلى ماذا ؟ إلى ما تعلمت ، ومع من تعرف ، في حدود ما تعلم ، ومع من تعرف ، وهذا معنى حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ...))

[البخاري ، الترمذي ، أحمد ، الدارمي]

أن تحضر درس علم ، خطبة جمعة ، ما أخذت شيئاً منها ؛ ولا آية ، ولا حديثًا ، ولا فكرة ، هذه الآية، والحديث ، والفكرة انشرها في الأسبوع ، لك صديق ، لك زميل ، لك جار ، لك قريب ، كنت في دعوة ، في وليمة ، في سفر ، في نزهة ، في سهرة ، لا يوجد أحد ليس له عدة لقاءات في الأسبوع ، لا يوجد أحد على الإطلاق إلا ، وله لقاءات عديدة في الأسبوع مع من يلوذ به ، لذلك :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ)

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

أي فاعف عنهم يا محمد زلتهم ، لذلك صلى عليهم ، وصلى على من عصاه ، و قد فسر هذا بأن هذه معصية لأمر تنظيمي سببت هزيمة ، ولكنها ليست معصية لأمر تشريعي ، والفرق كبير بين الأمر التنظيمي ، وبين الأمر التشريعي :

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ)

أي خطأهم :

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

سيد الخلق أمره ربّه بمشورة أصحابه :

المشاورة فيها رفع معنويات كبيرة جداً ، النبي سيد الخلق ، وحبيب الحق ، النبي سيد ولد آدم ، النبي معصوم ، النبي يوحى إليه ، ومع ذلك أُمر أن يشاورهم في الأمر ، من أنت حتى لا تستشير ؟ من أنت؟ إذا كان سيد الخلق ، وحبيب الحق قد أُمر أن يشاور أصحابه ، أشيروا علي أيها الناس ، حتى في حديث الإفك قال : أشيروا عليّ ماذا أفعل ؟ أعلمها عفيفة ماذا أفعل ؟ أنت حينما تشاور تستعير عقول الرجال ، من شاور الرجال استعار عقولهم ، بل إن المجتمع المسلم وصفه الله عز وجل بأن :

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

(سورة الشورى : الآية 38)

لا يوجد استبداد ، لا يوجد فرض رأي ، لا يوجد إرهاب فكري ، أمرهم شورى بينهم ، أشيروا عليّ أيها الناس :

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

وأنت سيد الخلق ، و أنت المعصوم ، وأنت قمة البشر ، شاورهم في الأمر ، استشار زوجته في صلح الحديبية ، فالصحابة الكرام تعلقوا بالعمرة ، ثم منعوا منها ، فتألموا ألماً شديداً ، حتى إن عمر قال :

<< ألسنا على حق ؟ قال : نعم ، قال : أليسوا على باطل ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ، قال : أنا أتبع وحي الله عز وجل >> ، و مع ذلك الصحابة تلكؤوا في الحلق ، والذبح ، فتألم النبي عليه الصلاة و السلام ، سأل أم سلمة : ماذا أفعل ؟ قالت : احلق أنت ، واذبح ، ما إن فعل حتى تبعه أصحابه ، علمنا أن نستشير أحياناً زوجاتنا ، هذا شيء ثابت في السنة ، والقصة صحيحة ، حتى إن القرآن الكريم قال :

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

(سورة الطلاق : الآية 6)

أي تأمره بالخير ، ويأمرها بالخير ، من صفات المؤمن المشاورة :

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

ولي أمر المسلمين اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يستشير :

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

(سورة الشورى : الآية 38)

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

لكنه حينما يستشير ، ويأخذ الآراء ، ويريه الله الطريق الصحيح قال :

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه

من دون بلبلة ، من دون اضطراب ، من دون تمييع للقضايا :

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ)

يا محمد ، ومن ينوب مكانك في ولاية أمر المسلمين :

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

خاتمة :

إذاً : من خلال هذه الآية الكريمة تتضح لنا أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام ، و كيف التف الناس حوله ، واجتمعوا عليه ، وكيف فدوه بأنفسهم وأموالهم ، وكيف كانوا قدوة للعالمين :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

(سورة الفتح : الآية 29)

كيف هم أشداء على الكفار ، محمد والذين معه ، أرأيت إلى هذا التعاون ، أشداء رحماء بينهم ، لذلك المؤمن في مجتمع المؤمنين موصوف بآية :

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المائدة : الآية 54)

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

(سورة الحشر : الآية 9)

وأن تعيش بين المؤمنين ، وأن تكون وفياً لهم ، وأن تكون متواضعاً لهم ، وأن تقدم لهم كل ما تستطيع، وأن تسألهم حاجتك أحياناً ، يجب أن نعلم أن المجموع لواحد ، وأن الواحد للمجموع .

أيها الإخوة ، هذه الآية منهج لنا في أصول الدعوة إلى الله عز وجل :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

و الحمد لله رب العالمين

الأسئلة :

س : أخ يقول : كيف تكون الدعوة فرض عين ، والآية تقول :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران : الآية 104)

هذه الدعوة فرض كفاية ، هناك داعية متفرغ تماماً عمله الدعوة إلى الله ، محصل علماً عالياً جداً، معه الأدلة التفصيلية ، يرد على كل شبهات الكفار ، هذه الدعوة بهذا المستوى فرض كفاية ، أن تكون متفرغاً للدعوة إلى الله ، متخصصاً بالعقيدة الإسلامية ، وفي الفقه ، وفي السيرة ، وليس لك عمل إلا الدعوة إلى الله ، هذا المستوى من الدعوة فرض كفاية ، إذا قام به بعضهم سقط عن الباقي ، و أما التي هي فرض عين فأحد أدلتها :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(يوسف : 108)

دليل آخر :

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

أحد أركان النجاة التواصي بالحق .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(46-60): تفسير الآيتان 161 – 162
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-10-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الواحدة والستين بعد المئة الأولى ، وهي قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : 161)

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

1 ـ أشد صيغ النفي(ما كان):

أيها الإخوة : أول ملاحظة أن في اللغة العربية صيغة من أشد صيغ النفي على الإطلاق ، هي قوله تعالى :

(ما كان)

قال عزوجل :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : 33)

يمكن أن تفهمها على الشكل التالي : مستحيل وألف ألف مستحيل .

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة التوبة : 70)

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : 179)

2 ـ بين نفي الحدث ونفي الشأن :

فأية صغية تأتي على شكل ما كان تفيد أن هذه من أشد صيغ النفي ، ذلك أن النفي نوعان ، نفي حدثٍ، ونفي شأنٍ ، قد نلتقي بسارق كبير ، نسأله : أسرقت هذه الحاجة ؟ يقول لك لا ، لم أسرقها ،

هو نفى سرقة هذا القلم ، لكن سرق أشياء أكبر من هذا بكثير ، أما إذا سألت إنساناً شريفاً ، هل أخذت هذا ؟ يقول لك : ما كان لي أن أفعل ، أي هذا ليس من شأني ، ولا من طبيعتي ، ولا أرضاه ، ولا أقبله ، ولا أقره ، ولا أفكر فيه ، ولا يخطر على بالي ، ولا أشجعه عليه ، ولا أوقر من فعله .

3 ـ النبي معصوم :

معنى : ما كان لنبي أن يغل ، جاء النفي نفي شأن ، لا نفي حدث ، لأنه معصوم ، النبي عليه الصلاة والسلام معصوم من أن يخطئ ، لماذا ؟ لأنه مشرع ، ولأن الله أمرنا أن نأخذ منه كل شيء ، بدليل قوله تعالى :

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر : 7)

فلو أنه يخطئ ، لو أنه غير معصوم ، كأن الله أمرنا أن نعصيه ، فما دام الله عز وجل قد أمرنا بآية قطعية الدلالة واضحة أن نأخذ منه وأن ننتهي عمن نهى عنه ، إذاً فهو معصوم ، معصوم أن يخطئ في أقواله ، وفي أفعاله ، وفي إقراره ، وفي صفاته ، لا في أقواله يخطئ ، ولا في أفعاله يخطئ ، ولا في إقراره يخطئ ، ولا في صفاته يخطئ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ :

((كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ ، وَقَالُوا : أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟ فَأَمْسَكْتُ عَنْ الْكِتَابِ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ ، فَقَالَ : اكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ))

لا ينطق إلا بالحق ، في غضبه وفي رضاه ، وفي كل أحواله جميعاً .

4 ـ أمة النبي معصومة بالمجموع :

إذاً : كل من لم يعتقد عصمة النبي فعقيدته زائغة ، بالمقابل ، وكل من يعتقد العصمة في غيره عقيدته زائغة ، أمة النبي صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصومة بمجموعها ، بينما النبي عليه الصلاة والسلام فمعصوم بمفرده ، بمفرده معصوم ، بينما أمته بمجموعها معصومة ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ :

((إِنَّ أُمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلاَفاً ، فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ))

[أخرجه ابن ماجه في سننه]

يلقى في اليوم ألوف المحاضرات ، وتؤلف مئات الكتب ، وتسجل آلاف الأشرطة ، وما دام المسلمون، ولا سيما علماء المسلمين ساكتون فهذا سماه العلماء إجماعًا سكوتيًا ، أي ليس هناك خطأ ، ألقيت خطبة وفق منهج الله ، وفق آيات وأحاديث ، واستنباطات دقيقة جداً ، ما دام الناس أخذوها بالقبول فمعنى ذلك أن كلامك لا شائبة فيه ، لكن لو أُلِّف كتاب مثلاً يفسر القرآن تفسيراً غير معقول ، بعيداً عن المألوف ، بعيداً عن منهج النبي عليه الصلاة والسلام تقوم الدنيا ولا تقعد، معنى ذلك أن المسلمين معصومون بمجموعهم :

((إنَّ أمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ))

لكن ليس معنى هذا أن الأكثرية على حق ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : 116)

الآن نريد أن نفصل ، عندنا مليون إنسان ، سبعمئة وخمسون ألفًا شاردون ، تائهون ، ضالون ، جاهلون ، غارقون في المعاصي والآثام ، والباقي هم المؤمنون ، لا تسمى الأكثرية إجماعًا ، إذا قلنا : إجماع نقصد به المؤمنين ، وإذا كنت على حق فأنت وحدك جماعة ، والجماعة لا علاقة لها بالعدد ، علاقتها بمدى انضباطها بالحق ، لذلك أخطر مقياس أن نعرف الحق بالرجال ، هذا مقياس فاسد ، المقياس الصحيح أن نعرف الرجال بالحق ، هناك منهج من استوعبه ، من طبقه إنسان كبير ، أما أن أخذ الدين من أشخاص لهم شهرة ، كل إنسان يؤخذ منه ، ويرد عليه إلا صاحب هذه القبة الخضراء ، هو عليه الصلاة والسلام ، ما جاءنا عن رسول الله فعلى العين والرأس ، وما جاءنا عن سواه ، فنحن رجال وهم رجال ، تسمعون الحق ، ويسمع منكم ، ويسمع من يسمع منكم ، شهد النبي عليه الصلاة والسلام للقرون الثلاثة الأولى بالخيرية ، وذلك في حديث عُمرَ بنِ الْخَطّابِ عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم :

((خَيْرُ النّاسِ قرْنِي ، ثمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[أخرجه الشيخان والترمذي ، واللفظ له]

إذاً : ينبغي أن نفهم القرآن الكريم والسنة المطهرة وفق ما فهمها أصحاب النبي في قرونهم الثلاثة ، الأصحاب الكرام ، والتابعون ، وتابعو التابعين ، وبعدئذ نحتاج إلى تمحيص دقيق ، وإلى مراجعة طويلة .

النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده ، بينما أمته معصومة بمجموعها ، ورد في أسباب النزول أن بعض المنافقين اتهم النبي عليه الصلاة والسلام ، فجاءت الآية قاطعة الدلالة .

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ)

5 ـ مستحيل أن يقع من النبي غلول :

أيْ مستحيل ، وألف ألف ألف مستحيل أن يقع النبي في معصية من نوع الغلول ، ما الغلول ؟ تترجم بالخيانة في غنائم ، حصلت معركة ، يأتي أحد الجنود ، ويأخذ بعض الغنائم قبل أن تقسم، يأخذها خفيةً، المشكلة في هذا الإثم الكبير ، إثم الخيانة ، وقد ورد في بعض الأحاديث أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ذكروا اسماً عند رسول الله ، فقال : هو في النار ، تعجبوا ، كان في معركة مع رسول الله ، ثم علموا أنه دخل النار في عباءة غلها ، أيْ أخذها من دون حق قبل تقسيم الغنائم ، ماذا يشبه الغلول في حياتنا اليومية .

حينما يموت الأب ، ويدع إرثاً ، ويأتي بعض الإخوة الكبار فيأخذون ما طاب لهم ، قبل أن تقسم الممتلكات ، يأخذ شيئاً ثمينًا غالياً ، يقول : هذا من رائحة والدي ، هذا اسمه غلول ، إذا مات الإنسان أصبح ماله للورثة ، وينبغي أن يوزع المال وفق قواعد الإرث ، أما إذا أجاز بقية الورثة ، فلا شيء عليه ، هذه قضية أخرى .

لذلك :(وما كان)أيْ مستحيل ، وألف ألف مستحيل ، لأن هذا نفي الشأن ، لا نفي الحدث ، الآن لو أردت أن تقرأ القرآن ، وأن تتبع هذه الصيغة :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت : 40)

مستحيل أن يظلم الله أحداً ، ليس هناك ظلم حقيقي في الكون ، هناك ظلم ظاهري .

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام : 129)

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

(سورة آل عمران : 179)

لابد من امتحان لفرز المؤمنين :

لا بد من امتحان يفرز المؤمنين ، قال تعالى :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ(10)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : 10 - 11)

إن الصحابة الكرام عندهم شعور أن هذا نبي عظيم ، وسوف ننتصر على الكفار ، وسوف نفتح بلاد الغرب والشرق ، وسوف نأخذ ثروة كسرى وقيصر ، فلما جاء الأحزاب ، وقد اجتمعوا على أن يستأصلوا المسلمون من جذورهم ، لم تكن معركة الأحزاب معركة غلبة ، بل كانت معركة استئصال :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ (10)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

وأما الذين في قلوبهم مرض فقالوا :

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة الأحزاب : 12)

بل إن بعضهم قال : أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ، ثم يقول الله عز وجل :

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : 23)

فمعركة الخندق فرزت المؤمنين ، والهجرة فرزت المؤمنين ، وقصة الإسراء والمعراج فرزت المؤمنين ، وكل حدث جلل في حياة المسلمين هو فرز للمؤمنين ، هناك من يخاف ، إذاً هو مشرك ، هناك من لا يخاف إلا الله ، إذا هو موحد ، هناك من يجبن ، هناك من يكون شجاعًا ، هناك من يعمل عملا طيباً ، ما من حدث عام إلا وهو في حقيقته فرز للمؤمنين .

إذاً :

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ)

مستحيل .

المؤمن الحقيقي لا يأكل المال الحرام :

ولو أردنا أن نوسع الدائرة قليلاً ، المؤمن الحقيقي يعلم أن الله حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأنه لا إله إلا الله ، وأن الأمر كله بيد الله ، هل يمكن أن يأكل درهماً حراماً ، مستحيل أيضاً ، لذلك من أروع ما قرأت أنه من أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه ، فقد أختصم مع أخ لي أحياناً ، لكن لا تحملني هذه الخصومة على أن أتهم أمانته ، ولا على أن أتهم عقيدته ، هذا حفظ ، النبي معصوم بمفرده، بينما الولي محفوظ ، ومعنى محفوظ أي لا يصر على صغيرة ، ولا يرتكب كبيرة ، فإذا بدرت منه صغيرة سرعان ما يتوب ، وسرعان ما يراجع نفسه .

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ)

وفي قراءة " أن يُغل " ـ " أن يَغُل " أن يرتكب معصية الغل ، يعني الخيانة .

بالمناسبة عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أخرجه أحمد في مسنده عن أبي أمامة]

إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ ! إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ ! إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ !

أيضاً مستحيل لمؤمن أن يكذب ، ومستحيل لمؤمن أن يخون ، لكن هناك طباع أخرى ، فقد يوجد في المؤمن ، قد يكون عصبي المزاج ، وقد يكون هادئاً جداً ، وقد تجده يحب العلاقات الاجتماعية ، وقد تجده يحب العزلة ، فهذه طباع لا تقدم ولا تؤخر ، أما أن يرتكب المؤمن خيانة ، أن يكذب ، فهذا مستحيل ، وألف ألف مستحيل ، إذاً ينبغي أن تحسن الظن بأخيك ، الطرف الآخر الذين يقفون في خندق آخر يسهل عليهم كثيراً أن يتهموا المؤمن بأشنع الذنوب ، يستحيل على المؤمن أن يأخذ ما ليس له ، وأن يخون ، بل إن الله عز وجل حينما قال :

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان : 68)

إذاً :

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ)

بالفتح ، أن يقع في معصية الغل ، وفي قراءة ثانية :

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ)

بالضم ، أي أن ينسب إلى الغل ، وكلاهما لا يصح أن يكون من نبي ، لذلك من أجمل ما في مجتمع المؤمنين ، ثمة أخطاء كثيرة ، لكن من الصعب جداً أن يخونك مؤمن ، ومن الصعب جداً أن يكذب عليك مؤمن ، من الصعب جداً أن يطعنك مؤمن في ظهرك ، هذا مستحيل ، هناك أخطاء كثيرة ، لكن تبقى مجتمعات الإيمان مجتمعات مريحة جداً ، مجتمعات فيها طهر ، فيها صدق ، فيها أمانة ، فيها رحمة ، فيها إنصاف ، فيها حكمة ،

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

ما أشدَّ عقابَ من يغلّ :

عففت فعفوا ، ولو وقعت لوقعوا :

يبدو أن عقاب من يغلل أليم جداً يوم القيامة ، نوع من الخيانة ، لما جاءت كنوز كسرى ، ورآها عمر رضي الله عنه ، وتروي الروايات أن صحابيين رفعا رمحيهما فلم يرَ الأول الثاني ، أو لم ير

الأول رمح الثاني ، وكلها ذهب ، وماس ، وما إلى ذلك ، سيدنا عمر أخذته الدهشة ، قال : إن الذي أدى هذا لأمين ، هذا الذي جاء بالغنائم لما لم يذهب بها إلى أنطاكيا ، فيبيعها ، ويعيش حياة فارهة إلى أن يموت، فقال سيدنا عمر : << إن الذي أدى هذا لأمين >> ، إلى جانبه الإمام علي كرم الله وجهه ، قال: << يا أمير المؤمنين أعجبت من أمانته فقد عففت فعفوا ، ولو وقعت لوقعوا >> ، وفي رواية : << ولو ركعت لركعوا >> .

حينما يغض الأب بصره عن محارم الله يكون في البيت جو من الانضباط ، أما حينما ينفرد الأب ، فيتابع بعض الأفلام التي لا ترضي الله ، على مرأى من أولاده ، وعلى مسمع منهم ، فلن يستطيع أن يضبطهم بعد ذلك ، وإن لم يكن صادقًا فلن يستطيع أن يحمل أولاده على الصدق ، وإن لم يكن عفيفاً فلن يستطيع أن يحمل أولاده على العفة ، والأب الذي يدخن ، ثم رأى ابنه يدخن لن يستطيع أن يقول كلمة .

إن الابن يقلد الأب ، لذلك من أنجع أساليب التربية أن تكون أنت قدوة ، أنت تكون قدوة ، واسكت ، لأن فعلك تعليم ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ليست مهمة التبليغ فحسب ، مهمته الخطيرة أن يكون قدوة ، لذلك نجح الأنبياء في أن يقلبوا وجه العالم في ربع قرن ، بينما لم ينجح المصلحون في أن يغيروا شيئاً من البيئة ، يتكلمون كثيراً ، لكن لا أثر لكلامهم ، ذلك أن الأنبياء يبلغون الناس بأقوالهم ، وبأفعالهم ، بل إن أفعالهم تبليغ ، بل إن أفعالهم سنة ، سماها المحدِّثون السنة عملية ، هناك سنة قولية ، وهناك سنة عملية .

يوم كان مع أصحابه ، في سفر أرادوا أن يعالجوا شاة ، قال أحدهم :

((علي ذبحها ، الشاة ، وقال الثاني : علي سلخها ، وقال الثالث : علي طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام : وعلي جمع الحطب ، يا رسول ، نكفيك ذلك ، قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

هذا من سنته العملية ، لذلك لا بد من قراءة سنة النبي العملية ، لا بد من قراءة سيرة النبي ، بل إن بعض العلماء يرى أن قراءة سيرة النبي فرض عين ، كيف نستنبط ذلك ؟ كيف أن الضوء فرضٌ ، لأن الصلاة هي فرضٌ فلا تتم إلا به ، فالقاعدة الأصولية : ما لم يتم الفرض إلا بها فهو فرض ، وما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة .

إذاً حينما أمرك الله بآية هي قطعية الدلالة :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب : 21)

كيف يكون النبي عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة لي ، إن لم أعرف سيرته ، ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ما لا يتم أن يكون النبي أسوة حسنة لي إلا بقراءة سيرة النبي فقراءة سيرة النبي

فرض عين على كل مسلم ، حتى يتحرك في بيته ، وفي عمله ، ومع إخوانه ، ومع أقاربه، ومع بناته ، وفق منهج النبي .

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يمكن أن تنتفع من طبيب ، وقد يكون فاسقاً ، وقد يكون ملحداً ، وقد يكون شارب خمر ، يعنيك علمه ، لكن في الحقل الديني لا يمكن أن تنتفع بدعوة إلى الله عز وجل إلا إذا رأيتها مطبقة بحذافيرها من قبل من يدعوك إليها ، في حقل الدين لا يمكن أن نفصل القول عن العمل .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : 162)

أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ

1 ـ المتبع لرضوان الله عزيز ، والمتبع لسخط الله ذليل :

كيف أنه لا يستوي العالم والجاهل ، لا يستوي الحر ولا القرّ ، لا تستوي الظلمات ولا النور ، لا يستوي الأحياء ولا الأموات ، إنسان حي متكلم متحدث لبق لطيف ، عالم ، كجثة هامدة تحتاج إلى دفن فقط ، لا يستوي الأحياء ولا الأموات ، لا يستوي الضد ، كذلك لا يستوي من كان في رضوان الله كمن كان في سخط الله ، إن كنت في رضوان الله فقد ملكت كل شيء ، ولو فاتك كل شيء ، و إن كنت في سخط الله فقد خسرت كل شيء ، ولو كان في حوزتك كل شيء .

أنت حينما تفعل أشياء لا ترضي الله ، حينما تظلم الناس ، حينما تأخذ ما ليس لك ، حينما تبني مجدك على أنقاضهم ، حينما تبني غناك على فقرهم ، حينما ترتكب المعاصي والآثام ، حينما تكون متلبساً بمعصية كل يوم ، حينما تبني مكانتك على إيقاع الأذى بالناس ، حينما تهدم بنيان الله وهو الإنسان ، فمثل هذا الإنسان يمشي في سخط الله ، يجب أن يكون محتقراً في نظر الناس ، هو أحقر من أن تخاطبه ، من الذي ينبغي أن تعزّه ، من كان في رضوان الله .

والله فيما أذكر كنت مرة في مؤتمر إسلامي ، ووصلت إلى الفندق ليلاً ، وفي وقت الفجر سمعت قراءة قرآن فأطللت من الشرفة ، فرأيت عامل الحديقة يصلي الفجر في وقته ، بصوت شجي ، والفندق من أرقى فنادق المغرب ، تعقد بها مؤتمرات القمة ، ونزلاءه كثر ، من علية القوم ، والله شعرت أن هذا الذي يصلي الفجر في وقته ، ويقرأ القرآن أقرب إلى الله من هؤلاء جميعاً ، مقاييسك ينبغي أن تكون إسلامية ، أن تمشي في رضوان الله ، أن يكون الكسب حلالاً ، أن يكون البيت إسلامياً ، أن يكون الحديث إسلامياً ، أن تكون العلاقات إسلامية ، أن تكون الأفراح إسلامية ، أن

تكون ربانياً قريباً من الله، كل بطولتنا إن سمح الله لنا ، أن نكون في رضوان الله ، وأنت بفطرتك تعرف بفطرتك تعرف ما إذا كنت في رضوان الله ، أو كنت في سخط الله .

2 ـ أمثلة لمتبعي سخط الله :

هناك أشياء دقيقة جداً ، ربما لا ننتبه إليها ، جاءك شخص ليشتري حاجة ، قال لك : انصحني ، أي لون أختار ؟ فأنت عندك لون كاسد ، فنصحته به ، ماذا فعلت ؟ بعته سروالا ، وقبضت ثمنه ، لكنه استنصحك باللون ، فنصحته باللون الكاسد ، إنك قد خنته ، تشعر أنك محجوب عن الله ، أنا جئت بمثل صغير جداً ، في حياة المسلمين أمثلة صارخة جداً ، اغتصاب ، وأخذ ما ليس لك ، وعلاقات شائنة ، وانحرافات أخلاقية ، وبيوت فاجرة ، وأجهزة تحرك الحائط ، كلها تعرض مفاتن النساء ، فهذه البيوت بيوت المسلمين ، كيف تنعقد الصلة مع الله عز وجل ، لذلك حينما ترون مليارا ومئتي مليون مسلم ليس أمرهم بيدهم ، وليست كلمتهم هي العليا ، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل ، ينبغي أن تعلموا السبب ، لأن الله سبحانه وتعالى ، يقول :

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء : 141)

هذا كلام خالق الأكوان ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : 173)

قولاً واحداً :

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : 162)

عندك مطعم عادي ، دخله محدود جداً ، تعيش منه ، لكن تبيع الناس طعاماً شرعياً ، وثمة مطعم خمس نجوم ، دخله فلكي ، ولكن يوزع فيه الخمر ، نقول له :

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

ليس هناك نسبة مقارنة ، فالبطولة أن تكون في رضوان الله ، أن يكون عملك مشروعاً ، أن تبني دخلك على نفع الآخرين ، لا على إيذائهم ، هذا كلام طويل ، والإنسان يعلم حقيقة نفسه :

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة : 14 - 15)

هناك مهن أساسها إيذاء الآخرين ، ومهن أساسها إفساد الآخرين ، الذي يبيع الدخان مثلاً ماذا يفعل مع الناس ؟ يؤذي صحتهم ، فالبطولة أن تكون حرفتك وفق منهج الله ، وأن يكون بيتك وفق منهج الله ، وأن تكون حركاتك ، وسكناتك وفق منهج الله ، وأن يكون لهوك وفق منهج الله ، وأن يكون بيتك وفق منهج الله ، وهذا تعلمه بفطرتك من دون معلم ، فهناك من يمشي برضوان الله .

أتى رجلان من أوربا إلى الشام ، هما من دمشق ، لكنهما ذهبا ليشتريا سيارتين ، ويعودا بهما إلى الشام ليتاجرا بهما ، يقول لي أحدهم : نزلنا في فندق في إحدى مدن أوربا الشرقية ، في الساعة الثانية عشرة طرق باب الغرفتين ، كل واحد بغرفة ، واحد فتح الباب ، وارتكب الفاحشة ، والثاني ما فتح الباب ، ثم تابعا طريقيهما إلى الشام ، الأول في صعود مستمر في عمله ، وفي بيته ، ومع أهله ، والثاني في انهيارٍ مستمر إلى إن طلق زوجته ، وباع محله ، وصار في وضع صعب جداً ، نقول له :

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

والأمثلة لا تعد ولا تحصى ، وقت الفجر أين أنت ؟ في المسجد ، وهناك أناس يدخلون إلى البيت بعد الفجر من الملاهي ، هناك من يكون وقت الفجر في ملهى ، وهناك من يكون وقت الفجر في المسجد ، هناك من يكون وقت صلاة الجمعة في نزهة يشوي اللحم ، وهناك من تجده وقت صلاة الجمعة في المسجد ، هناك من يربي أولاده تربية دينة ، وهناك من يدعهم يربيهم الطريق ، وأصدقاء السوء ، الحديث لا ينتهي .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

بحرفتك ، هناك من ينصح هناك من يغش ، هناك من يصدق ، وهناك من يكذب ، هناك من يعطي ، وهناك من يأخذ ، هناك من ينظر ، ويملأ عينيه من الحرام ، وهناك من يغض البصر عن محارم الله ، هناك ابن بار ، وهناك ابن عاق ، هناك صانع أمين ، وهناك صانع خائن .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

لا يستويان ، المسافة بينهما كما بين الليل والنهار ، وكما بين السماء والأرض ، لا يستويان .

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

أيها الإخوة ، هذه الآية دقيقة جداً ، تنطبق على رجل معه مال ، وآخر ليس معه شيء من المال ، هل يستويان ! واحد بكامل صحته ، والثاني بأمراض كثيرة ، هل يستويان ، يجب أن تدركوا أن البون شاسع جداً بين من يمشي في رضوان الله ، ومن يمشي في سخط الله ، في كل شؤون حياتك ، فأنت تنجح وترقى عند الله ، وتسعد إذا كنت في رضوان الله ، والإنسان كما قلت قبل قليل بفطرته يعلم علم اليقين أنه في رضوان الله ، وبفطرته يعلم أنه في سخط الله ، والإنسان حينما يمشي في سخط الله ينقطع عن الله ، وحينما ينقطع عن الله ينطفئ نوره ، فيرتكب حماقات ما بعدها حماقات ، لو كان ذكياً ، إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لب لبه ، والشيء الثابت أن المؤمن يؤتى الحكمة ، وأن غير المؤمن لا يؤتى الحكمة ، بل يؤتى الحماقة ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : 269)

الآن القوي حينما يكون مقطوعاً عن الله يتوهم أن القوة هي الحق ، ثم يفاجأ من دون أن يحتسب أن القوة من دون حكمة تدمر صاحبها ، الحق يصنع القوة ، ولكن القوة لا تصنع الحق ، والقوي من دون حكمة يدمر ذاته ، والمؤمن بحكمته يحقق مراده ، فأنت حينما تكون في رضوان الله معك نور ، معك نور بنص القرآن الكريم .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد : 28)

قلّمَا تخطئ ، قلّمَا تقع في ورطة كبيرة ، معك نور ، معك رؤية صحيحة ، إذا كنت في رضوان الله معك نور الله .

3 ـ الشر كله في اتباع سخط الله :

دخل شخص إلى ملهى ، فأحب راقصة ، ثم تزوجها ، تتلقى اتصالات مخيفة ، مئة رجل في حياتها ، لم يحتمل فطردها ، أقامت عليه دعوى من أجل المهر المتقدم ، المبلغ لا يملكه في ساعة غضب ـ هذه قصة وقعت في الشام ـ أطلق النار عليها ، وعلى أمها ، وعلى أختها ، ثم أطلق النار على نفسه ، مات هو ، وبقي الثلاثة أحياء ، عولجوا وبقوا ، إنسان دمر نفسه ، طبعاً هذه حالة حادة ، وهناك حالات أقل من ذلك ، إذا مشى الإنسان في سخط الله فهو أعمى لا يرى ، يرتكب حماقات ، يخرب بيته في يده ، يطلق زوجةً من الدرجة الأولى ، بينما إذا كنت مع الله تسعد بزوج من الدرجة الخامسة ، إذا كنت مقطوعاً عن الله يغدو أولادك أعداءك ، إذا كنت مع الله يغدو أولادك أحبابك ، فرق كبير كل الخير أن تكون في رضوان الله ، وكل الشر أن تكون في سخط الله .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

كيف تعامل من حولك ؟ حينما تعاملهم بهدي من الله ، أنت رحيم ، يلتفون حولك ، يحبونك ، تعيش في جنة ، وحينما تعامل من حولك بالقسوة ، والعنف ، والمصلحة ، والأنانية ينفضون الناس من حولك ، ويكيدون لك ، فأنت أشقى الناس ، يعني مستحيل ، وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، ومستحيل أن تعصيه ، وتربح .

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : 71)

إذا طلق الإنسان زوجته طلاقًا تعسفيًّا ، فهو في سخط الله ، طلقها بلا ذنب منها ، لكنه اشتهى غيرها ، فطلقها ، وإذا كنت في رضوان الله فأنت مع :

(الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا)

(سورة النساء : 69)

الدين ليس أن تكون في المسجد ، الدين في أيام الأسبوع كلها ، ماذا تفعل ؟ كيف تبيع وتشتري ؟ دخلت امرأة إلى محلك ، هل تملأ عينيك منها ، دخل إنسان جاهل هل تستغل جهله فتبيعه بسعر

مضاعف ، وتظن نفسك ذكياً ، العبرة ألا تكون في سخط الله ، في بيعك ، وشرائك ، وحركاتك ، وسكناتك ، واحتفالاتك .

المشكلة أيها الإخوة ، بدأ يظهر انحراف خطير في المسلمين ، تأتيني شكاوى كثيرة ، مسلم من رواد المسجد له علاقة بامرأة ، علاقة غير شرعية ، وله زوجة ، وله أولاد ، وهي لها زوج ، ولها أولاد ، ما هذه القصة ، يعيش الناس جواً لا يرضي الله عز وجل ، الأجانب هكذا جوهم ، جو جنس فقط ، فحينما يكون بيت الإنسان كالمسجد يتلى فيه القرآن ، وتصلى فيه الصلوات ، يجلس الرجل مع أهله وأولاده يحدثهم ، أما حينما تشد الأبصار إلى هذه الأجهزة الملعونة التي تقلب الإنسان رأساً على عقب، كيف يتصل بالله عز وجل .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

هناك آيات من هذا القبيل :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة : 18)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم : 35 - 36)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : 61)

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر : 9)

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا

والله مرة دخلت إلى بيت أحد علماء دمشق ، وجدت آية قرآنية في صدر الغرفة ، والله قرأتها وما في جسمي خلية إلا وتأثرت ، ما هي الآية ؟ هي قوله تعالى :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : 113)

ما قال الله لمن يملك ملايين ملينة :

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

لأنه أعطى المال لمن لا يحب ، فأعطاه لقارون ، وأعطى الملك لفرعون ، وما قال لفرعون :

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

لكنه قاله لنبي عليه الصلاة والسلام :

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

وهذا الفضل بين يديك متاح ، متاح أن تحصل في أي وقت :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : 113)

ينبغي أن يطلب العلم تقرباً إلى الله ، وينبغي أن يكون العلم باعثاً على طاعة الله ، ينبغي أن يكون العلم سبيلاً إلى القرب من الله ، هذا العلم وهذا كتاب الله بين أيدينا ، والله ما من حدث يقع في الأرض الآن ، أترون إلى الدنيا ، وهي تضطرب الآن ، ما من حدث وقع إلا والقرآن يغطيه ، أبداً .

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

(سورة الحشر : 2)

طفل صغير ضرب باب الطيار ، هذا استدعى الأمر أن تقلع طائرتان أف 16 ليراقبوا الطائرة ، وعلى وشك أن تضرب :

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

هذا قانون هذا ، ونحن كذلك ، هناك إشراك فهناك رعب ، أنت تخاف بقدر ما أنت مشرك ، وأنت تطمئن بقدر ما أنت مؤمن ، أبداً .

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 175)

كلام مثل واضح الشمس ، هذا الحدث فرز ، فرز الناس جميعاً ، الذين امتلأ قلوبهم خوفاً وهلعاً ، في الأصل توحيدهم ضعيف :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء : 213)

أما الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان ، فيقينهم بالله عز وجل ، هو خلقهم ، هو الذي يحفظهم ، هو الذي يرعاهم ، هو الذي يوفقهم ، هو الذي يعطيهم ، هو الذي يحميهم ، هو الذي ينصرهم ، هو الذي يوفقهم، القضية قضية إيمان ، نحن في أمس الحاجة إلى التوحيد الآن ، وإلى العودة إلى الله .

ليس بمثل هذا الوضع ننتصر !!!

أنا لا أتشاءم ، أنا والله متفائل على الرغم مما حدث ، عملية قفزة نوعية للمؤمنين ، لكن ينبغي أن نستفيد منها ، لأن هم في بلاد الغرب يقولون : سوف نستفيد مما حدث بلا حدود ، نحن أولى منهم ، نستفيد مما حدث بلا حدود ، كيف ؟ أن نعود إلى الله ، أن نحكم اتصالنا بالله ، أن نقيم الإسلام في بيوتنا، أن نحب بعضنا بعضاً ، أن نسعى لخدمة بعضنا بعض ، أن نقوم بما يسميه المنظرون انتفاضة دينيه ، راجع كل حساباتك ، راجع كل سهراتك ، كل جلساتك ، كل أصدقائك ، وكل

علاقاتك ، وكل أهوائك ، تجد المسلم في سهرة يلعب النرد ، عَنْ بُرَيْدَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ))

[أبو داود]

لعب نرد ، وغيبة ، ونميمة ، ومتابعة مسلسلات ، هكذا الناس يعيشون ، ويا أخي الله ينصر المسلمين، هذا كلام لا بد من موجبات الرحمة ، كان عليه الصلاة والسلام أديباً مع الله ، قال يا اللهم إني أسالك موجبات رحمتك .

هناك امتحان شديد ، على مستوى العالم الإسلامي ، امتحان شديد ، ولا يصمد إلا المؤمن ، ولا يصمد إلا المستقيم ، ولا يصمد إلا الورع ، ولا يصمد إلا الوقاف عند كتاب الله ، لا يصمد إلا من كان بيته إسلامياً ، وقد أمر الله عز وجل ملائكته بإتلاف قرية ، قالوا : يا رب ، إن فيها صالحاً ، قال به فابدؤوا، قالوا : ولمَ يا رب ؟ قال : لأن وجهه لم يكن يتمعر لمنكر رآه ، يعيش لوحده ، يجب أن تسهم في حل مشكلة المسلمين ، أن تنصحهم ، وينبغي أن تدعو إلى الله بشكل أو بآخر ، أعطي شريطًا ، ادعوه إلى درس علم ، تقرب من أخيك ، من صديقك ، اجعل دائرة الحق تتنامى ، ولا تسمح لدائرة الباطل أن تتنامى ، كن قدوة لأولادك ، اكتفِ بأولادك ، ربِّ أولادك ، تجد الأطفال شاردين في الطرقات ، وكلامهم بذيء ، تقصير في الدراسة ، والأب في واد ، والأولاد في واد ، هذا لا يرضي الله، فهي كلمة :

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

لاحظ نفسك ، علاقتك مع جسمك ، مع زوجتك ، مع أولادك ، مع بيتك ، في كسب مالك ، في حديثك، أين تسهر ، وماذا تتكلم ؟ غيبة ، ونميمة ، فلان وعلان ، وفي موضوعات لا تقدم ولا تؤخر ، أما تتكلم في الحق ، قال عليه الصلاة والسلام :

((أمرني ربي بتسع ، خشية الله في السر والعلانية ، كلمة العدل في الغضب والرضا ، القصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرة))

[ورد في الأثر]

وفي الأرض آيات للموقنين ، ما أكثر العبر ، وما أقل المعتبر ، فهذه الآية شعرت أنها آية أساسية في هذه السورة ، ومحورية ، مفصلية .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

تعلم بفطرتك أنك في رضوان الله ، دخلت إلى بيتك ، سلمت على أهلك ، داعبت أولادك ، عطفت عليهم ، أطعمتهم لبيت حاجاتهم ، صليت فرضك ، أويت إلى فراشك ، أنت في رضوان الله ، لكن سهرة مختلطة ، هي غير زوجتي ، أجمل بكثير ، عينك عليها طول السهرة ، ومزح ، وضحك ،

وأذن العشاء قوموا لنصلي ، أي صلاة هذه ، أنت غارق في مخالفات كثيرة ، فإذا كانت السهرة إسلامية بلا اختلاط ، ولا معاص فلا مانع .

عَدَّ الإمام الغزالي أربعة عشر معصية باللسان ، قالت : إنها قصيرة ، الآن تجد النساء حينما يجلسن إلى بعضهم بعض يتحدثن عن الفتيات بشكل غير معقول ، يصفن عيوب بعضهن وصفاً صارخاً ، قالت: إنها قصيرة ، قال : يا عائشة لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته ، ما قالت شيئًا ، قصيرة ، أين جلسات النساء ، جلسات الرجال اللهو ، متابعة المسلسلات ، الفضائيات ، ألا تحب أن ينصرنا الله عز وجل ؟ أن يأخذ بيدنا ؟ أن يحمينا من أعدائنا الأشداء ، الأقوياء ، قساة القلوب ، الذين لا يرحمون ، كما ترون وتسمعون .

فيا أيها الإخوة ، أرجو الله أن تكون هذه الآية شعار لنا في هذا الأسبوع .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(47-60): تفسير الآيتان 161 – 162
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-10-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الرابعة والستين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

هذه الآية منهج للدعوة إلى الله :

1 ـ هذه الآية منهج للدعوة إلى الله:

أيها الإخوة الكرام، هذه الآية في هذه السورة تعد منهجاً للدعوة إلى الله.

كلمة:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

الله أمَرَ في القرآن بالنظر في الكون :

أي أنه تفضل عليهم بما هو فوق حقهم، حقهم خلق كوناً واسع الأرجاء، كل شيء فيه آية تدل عليه، تدل على وجوده، وعلى وحدانيته، وعلى كماله، وقد أمرنا أن ننظر في خلق السماوات والأرض، وأمرنا أن ننظر فيما خلقنا منه،

قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق : الآية 5)

أمرنا أن ننظر فيما نأكل وما نشرب، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

أمرنا أن ننظر إلى السماء، قال تعالى:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس : الآية 101)

هذا الكون تجسيد لأسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، من أعمل فكره في الكون وصل إلى خالقه، من أعمل فكره في تربية الله لعباده وصل إلى رب العالمين، من أعمل فكره في خلق الله وصل إلى خالق الأرض والشمس وما بينهما.

إذاً: أودع الله في الإنسان عقلاً لو أعمله فيما خلقه الله عز وجل لوصل إليه، والآيات التي تتحدث عن العقل تقترب من ألف آية عن العقل والعلم، قال تعالى:

(أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 50)

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة يونس : الآية 3)

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

(سورة الغاشية : الآية 17)

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة الصافات : الآية 154)

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

(سورة يونس : الآية 32)

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر : الآية 9)

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة : الآية 11)

مقومات التكليف طريق لمعرفة الله :

أودع في الإنسان عقلاً يكفيه أن يعرف الله به، وخلق كوناً هو مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، كل أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى تتجلى فيما خلق، ثم أعطاك فطرةً تكشف لك الخطأ، قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس : 7-8)

ثم أودع فيك الشهوات لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، ثم منحك حرية الاختيار ليثمن عملك، ثم بعث لك الشرائع لتكون منهجك إلى الله عز وجل أعطاك كل شيء، وفوق هذا وذاك :

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم.

أيها الإخوة، مقومات التكليف كافية، مقومات التكليف كون ناطق بوجود الله وكماله، ووحدانيته، وعظمته، وعقل مبرمج وفق نظام الكون، ومتوافق في مبادئه مع مبادئ الكون كمبدأ السببية، والغائية، وعدم التناقض، وفطرة تكشف لك الخطأ كشفاً ذاتياً، وحرية اختيار كي يثمن عملك، وشهوة دافعة إلى الله عز وجل بها ترقى إلى رب الأرض والسماوات، هذه مقومات التكليف، وهي كافية كي تعرف الله، وكي تعرف أين أنت منه، وكافية أن تصل إلى الآخرة، وفوق هذا كله من الله علينا إذ بعث فينا رسولاً من أنفسنا.

كأن يضع الأب ابنه في أرقى مدرسة يدفع له أعلى قسط يهيئ له مركبةً تنقله من بيته إلى المدرسة، ويعطيه مبلغاً من المال كي ينفقه، يخصص له غرفة خاصة ليدرس فيها، يهيئ له كل السبل، وفوق هذا وذاك هيأ له أساتذةً يأتون إلى بيته ليعلموه فضلاً، عما تعلمه المدرسة هذا عطاء هائل.

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

مهمة الرسول :

الرسالة التي تمثلت برسول الله صلى الله عليه وسلم لها مهمتان كبيرتان المهمة الأولى هي التبليغ، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة المائدة : الآية 67)

فإن لم تفعل فما بلغت رسالته، لكن المهمة الأكبر أن يكون النبي قدوةً لنا، إنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر، انتصر على نفسه فكان سيد البشر، النبي عليه الصلاة والسلام حينما يكون بشراً مثلنا، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف : الآية 110)

الرسول بشر تجري عليه خصائص البشر :

وحينما تجري عليه كل خصائص البشر، وحينما يتنصر على بشريته، ويسمو إلى ربه هو حجة قاطعة على أن هذا التشريع واقعي، وفي إمكان كل منا، وهو قابل للتطبيق، كل إنسان يقول: إن هذا التشريع ليس واقعياً يصعب تطبيقه ليس لهذا الزمان، فهو يرفض كلام الله عز وجل حينما يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة : الآية 286)

كل تكاليف البشر من وسع البشر، كل التكاليف التي كلف بها البشر ضمن وسعهم وطاقتهم، لكن هذا الوسع والطاقة لا تحددها أنت، بل يحددها خالق الكون، فحينما كان الصيام شاقاً في السفر أباح لك أن تفطر، وحينما كان في المرض شاقاً أباح لك أن تفطر، وحينما تكون مسافراً أباح لك أن تقصر الصلاة، فالله وحده يحدد ما إذا كان هذا التكليف في وسعك أو فوق وسعك، إن كان في وسعك ألزمك به وإن كان فوق وسعك خفف عنك برخصة من الرخص وبحالة من الحالات.

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

هو بشر، ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن من بني البشر، وأمرنا بغض البصر مثلاً لقال له كل الناس: لست بشراً مثلنا، لم تودع فيك الشهوات كما أودعت فينا، لو أنك بشر مثلنا لما أمرتنا بهذا.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ)

(سورة التوبة : الآية 128)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف : الآية 110)

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَال))

يجوع كما نجوع، ويتألم كما نتألم، ويخاف كما نخاف، ويشتهي كما نشتهي، لكنه انتصر على شهواته، وعلى عوامل أرضيته، وسما إلى ربه، إذاً حينما كلفه الله أن يبلغنا كلفه أن يكون قدوةً لنا، وحينما كان قدوةً لنا أقيمت الحجة علينا، قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة : الآية 128)

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

ما مهمته؟ بل ما مهمة كل من جاء بعده؟ ما مهمته وما مهمة الذين أنابوا عنه في إبلاغ الناس الحق؟ قال تعالى:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

الآيات الكونية في السماء :

ولأنه بعد قليل جاءت: ويعلمهم الكتاب، فيغلب على الظن أن هذه الآيات التي يتلوها عليهم هي آيات الله الكونية، وآياته التكوينية التي تعرف به، ماذا أقول لكم؟ نحن محاطون بآيات لو فكرنا فيها لخررنا على الأرض ساجدين لله، قال لك الله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة : 75-76)

بعض النجوم تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، فكم يقطع بالدقيقة؟ وكم يقطع في الساعة؟ وكم يقطع في اليوم؟ وكم يقطع في الشهر؟ وكم يقطع في العام؟ وكم يقطع في عشرين مليار عام؟ هذه بعض أبعاد المجرات ، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة : 75)

من كلمة(مواقع) ، لو أن عالم فلك قرأها لخر ساجداً لله مواقع، الموقع لا يعني أن صاحب الموقع في الموقع، هذا موقع أي أن هذا النجم الذي كان في موقع ما، وأرسل ضوءًا إلينا مضى على هذا الضوء عشرون مليار سنة حتى وصل إلينا، وهو يقطع هذه المسافة بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، ثم إن هذا النجم يسير بسرعة تقترب من سرعة الضوء، فإذا كان في هذا المكان قبل عشرين مليار سنة، وسرعته مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، أين هو الآن؟ بقي يسير في الفضاء الخارجي عشرين مليار سنة بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر، فمن كلمة مواقع، ومن كلمة مواقع النجوم ما بين النجوم من مسافات، لو أن عالم فلك قرأ هذه الآية لخر مغشياً عليه، قال تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ)

(سورة فصلت : الآية 53)

ربنا عز وجل يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج : الآية 1)

هناك اثنا عشر برجاً في السماء والأرض في دورتها حول الشمس تمر على هذه الأبراج التي في السماء، أحد هذه الأبراج برج العقرب، فيه نجم صغير متألق اسمه قلب العقرب، يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، وبين الأرض والشمس مئة وستون مليون كيلو متر، والشمس تكبر

الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وهذا النجم الصغير المتألق أحمر اللون الذي اسمه قلب العقرب، يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، ذلكم الله رب العالمين.

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ)

(سورة فصلت : الآية 53)

والله أيها الإخوة، لو أردنا أن نستقصي الآيات التي وردت في القرآن الكريم تتحدث عن الفلك، وعن المجرات، وعن الشمس، والقمر لأمضينا سنوات وسنوات، بل إن مرصداً عملاقاً رصد نجماً اسمه عين القط، يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، الصورة وردة جورية بكل معاني هذه النجمة، لها أوراق حمراء داكنة، محاطة بوريقات خضراء زاهية، في وسطها كأس أرزق، هذه الوردة الجورية ليست إلا انفجار هذا النجم الذي يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، وقد قال الله عز وجل:

(فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ(37)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن : 37-38)

لكن لو تحدثنا عن أبعد المجرات إلينا، أو عن أبعد المجرات المكتشفة، ثم انتقلنا إلى أقربها إلينا، وأقرب نجم ملتهب إلينا يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، تلك عشرين مليار سنة ضوئية، وهذه أربعة، لو أردت أن تصل إلى هذا النجم الذي هو أقرب نجم ملتهب إلينا لاحتجت إلى خمسين مليون عام بمركبة أرضية، تركب مركبةً أرضية، وتتجه نحو أقرب نجم إلينا في خمسين مليون عام، القطب أربع آلاف سنة، عين القط ثلاث آلاف سنة، المرأة المسلسلة مليونا سنة، تلك المجرة عشرين مليار سنة، فهذا الكون يدل عليه، ويدل على قوته، وعلى عظمته، وعلى علمه، وعلى حكمته، على رحمته، وفي كل شيء له آية يدل على أنه واحد.

الآيات الكونية في الأرض :

الدماغ : لو نزلنا إلى الأرض، إلى أجسامنا، أنت تشم الروائح فهل تصدق أن هناك عشرين مليون عصب شمي، وكل عصب ينتهي بسبعة أهداب، وكل هدب مغمس بمادة تتفاعل مع الرائحة، فيتشكل منها شكلاً هندسياً، هذا الشكل ينتقل إلى الدماغ يعرض على قائمة فيها عشرة آلاف رائحة، فإلى أن يتوافق شكل مع شكل تقول: هذه رائحة الياسمين، فمن أجل أن تشم الروائح هناك جهاز بالغ التعقيد.

من أجل أن تعرف جهة الصوت هناك جهاز بالغ التعقيد، مركبة تطلق بوقها عن يمينك فيصل صوت بوقها إلى أذنك اليمنى قبل اليسرى بواحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية. هناك في الدماغ جهاز يعلم أن الصوت وصل إلى اليمنى قبل اليسرى، إذاً: الصوت من جهة اليمين، فالدماغ يعطي أمراً أن تتجه إلى جهة الشمال دون أن تشعر.

ملكة الغدد : غدة هي ملكة الغدد، وزنها نصف غرام في الدماغ، بالقرب من الجسم، تحت السرير البصري مربوطة بالجسم بمئة وخمسين ألف عصب، هي ملكة الغدد، وزنها نصف غرام بالضبط، تفرز تسعة هرمونات، لو أن أي هرمون تعطل إفرازه لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، هرمون النمو مؤلف من مئة وثمانية وثمانين حمضاً أمينياً، يجب أن يكون في الدم عشرة ميكروغرامات في كل لتر، فإن قلّت هذه النسبة تقزم الإنسان، وإن زادت تعملق، هرمون الغدة النخامية يعطي أمراً إلى الغدة النخامية، فإذا واجه الإنسان خطراً تعطي أمراً إلى الكظر، والكظر يعطك خمسة أوامر؛ أمرًا إلى القلب فيرتفع نبضه، وأمرًا إلى الرئتين فيزداد وجيبهما، وأمرًا إلى الأوعية المحيطية فتضيق لمعتها، وأمرًا إلى الكبد فيطرح كمية سكر إضافية، وأمرًا آخر إلى الكبد فيطرح هرمون التجلط دون أن تشعر في ثوان معدودات، هرمون النمو، هرمون توازن السوائل، هرمون اللون، الهرمون الجنسي، وهذه الغدة لا تزيد على نصف غرام، فالله عز وجل حينما قال:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

في القرآن ألف وثلاثمئة آية كونية، هل يعقل أيها الإخوة أن يقول الله كلاماً لا معنى له ولا يعنيك ؟ هذا مستحيل ، هل يعقل أن يقول الله كلاماً لا علاقة لنا به إطلاقاً؟ مستحيل، إذاً: لماذا أودع الله هذه الآيات في القرآن؟ كي تكون منهجاً لنا في التفكير، قال تعالى:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

لأنك إن عرفت الله، ثم عرفت أمره تفانيت في طاعته، أما إذا عرفت أمره، ولم تعرفه تفننت في التفلت من أمره، وهذه مشكلة العالم الإسلامي، الأولى يعرفون الأمر، والنهي، ولكن معرفتهم بالله ضعيفة، ولأنها ضعيفة اجترؤوا، وفعلوا ما نهى الله عنه، ثم اجترؤوا، وقصروا فيما أمر الله به، إذاً في أية دعوة إلى الله، وهذا منهج الدعوة في أية دعوة إلى الله ينبغي أن تتلى علينا آيات الله الدالة على عظمته.

الشَّعر : شعرنا هذا الذي في رأسنا، لكل شعرة وريد، وشريان وعصب وعضلة، وغدة دهنية وغدة صبغية، وهناك تقريباً ثلاثمئة ألف شعرة عند الشاب.

شبكية العين: مئة وثلاثون مليون مخروط، العصب البصري تسعمئة ألف عصب في قطر لا يزيد على نصف ملم، هذا خلق الله.

الكبد: الكبد ثلاثمئة مليار خلية، كل خلية تقوم بكل وظائف الكبد، خمسمئة وظيفة.

في الكليتين طريق يزيد عن مئة كيلو متر يقطعه الدم في اليوم خمس مرات من أجل التصفية .

القلب: يضخ القلب في اليوم الواحد ما يملأ مستودعاً حجمه ثمانية أمتار مكعبة، القلب يضخ من الدم في العمر المتوسط ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم التي هدمت، هذا خلق الله عز وجل:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

في أية دعوة إلى الله لابد أن تعرف الناس بالله، معرفة الله أصل هذا الدين، التفكر في خلق السماوات والأرض أوسع باب ندخل منه إلى الله، وأقصر طريق نصل به إلى الله، والله عز وجل وصف المؤمنين لا بأنهم تفكروا مرةً واحدة، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة آل عمران : 190 -191)

الساعة البيولوجية: الإنسان مصمم تصميماً رائعاً، فأنت في النهار ينبض قلبك من عشر إلى عشرين نبضة زائدة عنها في الليل، وأنت في النهار تستهلك السكر خمسًا وثلاثين مرة بالمئة زيادة عن الليل، وفي النهار يزداد وجيب الرئتين، وفي النهار ترتفع الحرارة نصف درجة، وفي الليل تنخفض نصف درجة، هناك قائمة طويلة جداً لا أذكرها كلها تتحدث عن نشاط الجسم في النهار، أما في الليل فيرتفع هرمون النمو إلى أعلى درجة، ما الذي يعلم الأجهزة أن الوقت نهار أو ليل؟ أنت بعقلك تعلم أن الوقت ليل، أو الوقت نهار، لكن هذه الأجهزة؛ القلب، والرئتين، والغدد الصماء، والكبد كيف تعلم أن الوقت نهار أو ليل؟ هناك ساعة بيولوجية في الدماغ مرتبطة بقاع العين، فحينما يأتي الضوء إلى قاع العين تبرمج هذه الساعة كل هذه الأجهزة على أن ترفع نشاطها في النهار، وأن تخفضه في الليل، متى كشفت هذه الساعة، حينما تسافر إلى بلاد بعيدة جداً، فأنت هناك في الليل والساعة البيولوجية مبرمجة في النهار، وقد حدث هذا معي، ومع كل أخ يسافر إلى طرف العالم الآخر، يبقى يومين ينام في النهار، ويستيقظ في الليل، لأن ساعته البيولوجية إذا كان الوقت ليلاً هي في النهار إلى أن تعيد الساعة برمجتها على الليل والنهار، هناك فإذا عدت إلى بلدك بقيت أيضاً يومين تنام في النهار وتستيقظ في الليل، إلى أن تعيد الساعة برمجتها مرةً ثانية، هذا معنى يتلو عليهم آياته.

الحديث عن آيات الله في خلق الأكوان، وفي خلق الإنسان لا ينتهي، لكن حسبكم أيها الإخوة أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكون هي منهج لكم، قال تعالى :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل : الآية 16)

البطيخ : لقد خلق الله علامات، حدثني أخ ضمن حقلاً من البطيخ في شمال سوريا، قال لي: قطفت منه ما يزيد على تسعين سيارة، كل يوم أقطف سيارة، وأبيعها، معنى ذلك أن الله صمم هذه الفاكهة -البطيخ- على أن تنضج على مدى تسعين يوماً، سألت صاحب هذا الحقل: ما لون هذا البطيخ؟ كله أخضر اللون متشابه، كيف تعرف أن هذه البطيخة ناضجة؟ قال لي هناك علامة، قلت له: أين هذه العلامة؟ قال: هناك خيط حلزوني في أعلاها، نمسكه فإذا انكسر، أي جف فالحبة ناضجة، فإذا بقي طرياً فالحبة غير ناضجة، لولا هذه العلامة كيف تجني هذا البطيخ؟ وعلامات؟

قال تعالى عن الماء:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر : الآية 22)

الماء: لو أنني أردت أن أخزن ماءً يكفيني عاماً لاحتجت إلى بناء بحجم البناء الذي أسكنه تماماً ، هناك دراسات أن أسرة تسكن في مئتي متر مربع ، ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف ، لو أنها أرادت أن تخزن ماء العام لاحتاجت إلى حجم بيتها تماماً ، قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر : الآية 22)

خزن هذا الماء ، ولاسيما مياه عين الفيجة ، مياه دمشق ، خزنها في جوف يبدأ من عين الفيجة ، وينتهي قبيل حمص ، وفي عرض يبدأ من سيف البادية ، وينتهي تحت لبنان ، كل هذا الحوض مخزن، وفي هذا الجوف صخور معدنية فيها كلور ، فوسفور ، كالسيوم ، هذه المياه المعدنية هي المياه التي تصلح للشرب ، وحتى مياه التحلية التي يحلونها لابد من خلطها بمياه معدنية حتى تكون صالحة للشرب، قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر : الآية 22)

قال تعالى :

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف : الآية 18)

التقلب في أثناء النوم: أهل الكهف؛ حينما ينام الإنسان أيها الإخوة يوجد جهاز عظمي، هيكله العظمي، وهذا الهيكل محاط من كل الجهات بعضلات، فإذا نام الإنسان على سرير الجهاز العظمي مع ما فوقه من عضلات يضغط على ما تحته من عضلات، فإذا ضغطت انعدمت فتحة الأوعية قلت التروية، وشعر الإنسان بتنميل في رجله، ينقلب على شقه الآخر، راقبوا إنسانًا ينام، يتقلب ثمانيةً وثلاثين مرة، مرةً على شقه الأيمن، ومرةً على شقه الأيسر، ولولا هذا التقليب لتفسخ اللحم الذي علينا، وكل مريض الآن يصاب بالثبات لابد من تقليبه، وإلا اهترأ لحمه، وهذا شيء ثابت، قال تعالى:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف : الآية 18)

لولا هذا التقليب لما بقي أهل الكهف في كهفهم ثلاثمئة من السنين، هذه آية، والآيات التي يتحدث الله عنها لا تنتهي، قال تعالى:

(فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)

(سورة الرحمن : الآية 41)

ناصية الرأس: جبهة الإنسان محل الفص المهم في الدماغ، محل محاكمته، فالإنسان يتخذ قراراً في الكذب في فصه الجبهي، ويتخذ قراراً بالإساءة والإفساد في هذا الفص الجبهي، قال تعالى:

(فَلْيَدْعُ نَادِيَه(17)سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(18)كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق : 17-19)

الآية الكريمة:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ(15)نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

(سورة العلق : 15-16)

دقق في هذه الآية، ناصية كاذبة خاطئة، أي الكذب والخطأ يبدأ من الفص الجبهي في الدماغ، لو مضينا في الحديث عن آيات الله على عظمته، إنْ في السماوات والأرض، إن في البحار، إن في الأسماك، إن في الأطيار فلا تنتهي.

الطير: حتى هذه اللحظة لا يعلم العلماء كيف تهتدي إلى بيوتها من خلال مسافات طويلة، الطير يقطع أكثر من سبعة عشر ألف كيلو متراً، ويبقى في الجو أحياناً ستاً وثمانين ساعة، أكبر طائرة عملاقة تقطع ما بين دمشق إلى سيدني سبع عشرة ساعة رحلة متصلة، أما هذا الطائر فيقطع ستاً وثمانين ساعة دون توقف، كيف يهتدي إلى هدفه؟ لا أحد يعلم، نظرية الشمس نقضت، نظرية الساحة المغناطيسية نقضت، نظرية ظواهر الأرض نقضت، ليس هناك من جواب إلا أن الله عز وجل قال:

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَانُ)

(سورة الملك : الآية 19)

يعني تولى الله بذاته هداية الطير إلى أهدافه، هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

أنا ما أردت أن أستقصي، لكن أردت أن أضع أمثلة بين أيديكم، قال تعالى:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

كيف نعرف الله؟ من خلال خلقه فالتفكر في خلق السماوات والأرض، فهو طريقنا إلى معرفة الله.

وَيُزَكِّيهِمْ

(وَيُزَكِّيهِمْ)

ليس هناك إسلام أساسه المعرفة الفكرية فقط، ليس هذا إسلاماً:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)

التزكية:

كيف يزكيهم؟ يدعوهم إلى طاعة الله، يدعوهم إلى الاتصال به، والإنسان إذا أطاع الله، واتصل به زكت نفسه، واصطبغت بالصبغة الكاملة، والإنسان مفطور فطرةً سليمة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم : الآية 30)

لكن إذا أقبل الإنسان على الله اصطبغ بصبغة الكمال:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يكون المسلم حاقداً، أو غداراً، أو محتالاً، أو قاسي القلب، أو جاحداً، أو ظالماً، ولا قيمة لكل ما تعتنق من معتقدات إن كنت بهذه الصفات، لأن الله عز وجل جعل من مهمة النبي عليه الصلاة والسلام أنه يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، وفي القرآن لم ترد قد أفلح إلا بالتزكية، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

(سورة الأعلى : 14-15)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس : 9-10)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون : 1-2)

فتزكية النفس هو غاية الغايات، لأنه ثمن الدخول إلى جنة الله عز وجل.

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)

وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

الآن كمنهج تفصيلي افعل ولا تفعل، قال تعالى:

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

الكتاب هو القرآن الكريم، والحكمة السنة النبوية، وعند الإمام الشافعي الحكمة البيان النبوي لهذه الآيات:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

ينبغي اتباع هذا المنهج الدعوي :

أي داعية إلى الله، أيّ مدرس ديني، أي مرشد، أي عالم من علماء القلوب، أي خطيب منبر، أي مصلح ينبغي أن يتبع هذا المنهج، أن تعرف الناس بالله أولاً ، ثم أن تدعوهم إلى الاتصال به كي تزكو أنفسهم ، ثم تعلمهم التفصيلات المنهج التفصيلي :

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

تطبيق عملي لهذه الآية :

الآن كتطبيق عملي لهذه الآية، كل الأفكار التي تعتنقها إن لم تصاحبها تزكية نفسية؛ خلق كريم، رحمة بالخلق، إنصاف، لطف، غيرة، بعدٌ عن كل انحراف، أو خديعة، أو حقد، إن لم تتمثل مكارم الأخلاق التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام فلا قيمة إطلاقاً لهذا الاتجاه الذي أنت فيه، لابد من معرفة الله أولاً، يتلو عليهم آياته الدالة على وجوده، ووحدانيته، وكماله، ثم يزكيهم بالاتصال به، ثم يعطيهم المنهج التفصيلي الشرعي: افعل ولا تفعل .

معرفة الله، ومعرفة منهجه، وتزكية النفس، معرفة الله من خلال آياته، ومعرفة منهجه من خلال تشريعه، ثم تزكية النفس لتكون هذه التزكية ثمناً للجنة.

هذه الآية أيها الإخوة منهج لكل داعية إلى الله عز وجل، هذه الآية منهج لكل مصلح اجتماعي، أما ألا تهتم بتزكية النفس، ويصبح الدين ثقافةً كأي ثقافة يقترب من التقاليد والعادات، وقد يسميه الناس خطأً التراث التراث الإسلامي، فهذا ليس بالمنهج الذي ارتضاه لنا ربنا.

الأسئلة :

س: أنا عسكري مقيم في مدينة طرطوس، وصلت إلى بلدي دمشق عند صلاة المغرب، هل لي أن أصلي مع الجماعة، أم يحق لي أن أقصر، وأجمع في منزلي حيث أنني سأغادر منزلي غداً؟

ج: صلاة المغرب إن صليتها مع الجماعة في المسجد فهي ثلاث ركعات، وإن أردت أن تقصرها فهي ثلاث ركعات، الأمر لا يتغير، لكن الرباعية تصبح ثنائية، وما دمت قد تجاوزت الثمانين كيلو متراً فلك الحق أن تقصر في الصلاة.

ج: ما الحكم إذا ظهرت المرأة أمام أخي زوجها، أو صهر زوجها بملابس فضفاضة دون زينة؟

س: الحكم أن الحمو هو الموت، كما قال عليه الصلاة والسلام، ذلك أن العلاقة بين زوجة الأخ، وأخ الزوج قد تكون علاقة نابعة من السكنى، والعلاقات الاجتماعية، فقد يحدث في هذا القرب من الخطر ما لا يحدث مع امرأة أجنبية، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام سئل عن الحمو، فقال :

((الحَمْوُ المَوْتُ))

البخاري عن عقبة بن عامر

وهناك آلاف المشكلات الطاحنة التي وقعت في البيوت بسبب هذه العلاقة.

س: إذا كان الوالد كلف ولده ببيع محل، وقال لولده: يا بني بع هذا المحل حتى توفي الدين الذي قد ترتب عليّ، فالأب كلف ابنه أن يبيع محلاً تجارياً ليوفي عنه الدين، فذهب الولد، وباع المحل لوالده، ولم يأتِ له بثمن المحل كاملاً، بل باعه، وأخذ ثلث المبلغ، فهل هذا العمل يحاسب به أمام الله تعالى أم لا يحاسب ؟

ج: لاشك أنه يحاسب، لأن الأب كلف ولده أن يبيع المحل على طريقة الأمانة، وأن يأتيه بالمبلغ ليوفيه الدين الذي استحق عليه، العملية حرام، وسوء ائتمان، ما دام الأب كلف ابنه أن يبيع المحل ليوفي الدين له، وأن يدفع المصاريف التي باع بها المحل، لعلها مصاريف دلال أو شيء آخر، لو قال له: خذ من هذا المبلغ كذا ألف من حقه، لو سمح لك أن تأخذ من هذا المبلغ شيئاً فلك الحق، لو دفعت مصاريف حتى بيع المحل فلك الحق أن تخصمها، أما هو ما أعطاك، ولا وعدك، ولا سمح لك أن تأخذ، وأنت أخذت بالمئة ثلاثين من ثمن هذا البيت، أو هذا المحل، فأنت واقع في إثم كبير، وهو في الفقه سوء ائتمان .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(48-60): تفسير الآيتان 164 – 165
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-11-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الخامسة والستين بعد المئة، ولكن قبل أن نشرع بشرح هذه الآية بتوفيق الله وعونه لابد أن نقف وقفة عند الآية السابقة، وهي قوله تعالى :

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

تذكير بما سبق:

1 ـ هذه الآية أصل من أصول الدعوة:

بينت لكم أيها الإخوة بتوفيق الله في الدرس الماضي أن هذه الآية على قصرها تجمع أصول الدعوة إلى الله، بل تجمع حقيقة الدين، بل تجمع الأهداف الكبرى التي ينبغي أن تحقق من خلال هذا الدين، فلابد من معرفة بالله، وكل ما يعانيه العالم الإسلامي اليوم من مشكلات ما هي بسبب نقص في معرفة أمره و نهيه، الحق بين، الحلال بين، والحرام بين، ولكن بسبب نقص في معرفة الله عز وجل، فحينما قال الله تعالى :

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

هذه الآية أصل من أصول الدعوة

الدالة على عظمته، و حينما قال الله عز وجل يصف حال أهل النار :

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة : الآية 33)

الإيمان بالله شيء، والإيمان بالله العظيم شيء آخر، فما لم تعظم الله عز وجل لا تعظم أمره، تعظيم الأمر يأتي من تعظيم الآمر، تعظيم الرسالة يأتي من تعظيم المرسل :

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة : الآية 33)

لعله آمن بالله، لكن ما آمن به عظيماً، قديراً، حكيماً، رحيماً، فعالاً، إليه يرجع الأمر كله، إذاً عصى أمره .

إذاً : مشكلة العالم الإسلامي الأولى نقص في معرفة الله، يظنون أن هذه الآية التي هي أصل من أصول الدعوة :

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

فتلاوة الآيات لابد لها من ثمرة، إن أينع ثمرة لتلاوة الآيات التزكية، حينما تتلو آيات الله الدالة على عظمته، تعظم الله عز وجل، وتقدم عليه من خلال هذا الإقبال تكون التزكية، تصبح مصبوغاً بصبغة الله، الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، ومشكلات الناس عبادتك .

هناك من يعيش الناس له، وهناك من يعيش للناس، هناك من يعيش كي يتقرب إلى الله بخدمة خلقه، فالثمرة الأولى لتلاوة الآيات الدالة على عظمته أن تزكو نفسك، فإذا زكت كانت في معية الله عز وجل، ولابد من معرفة تفصيلية بالكتاب و السنة كي تتقرب إلى الله بطاعته، هذا كان موضوع الدرس الماضي بفضل الله .

صيغ هذه الآية والحكمة في اختلافها :

ولكن سئلت خلال هذا الأسبوع أن هذه الآية وردت في ثلاث صيغ في القرآن الكريم .

الأولى: هي الآية الحالية :

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

هذه آية الدرس الماضي .

هناك صيغة ثانية :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)

(سورة الجمعة : الآية 2)

في الأولى التي هي من آل عمران :

(إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

المعنى واضح، و في الأولى أيضا :

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

و في الثانية :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

وفي الأولى :

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

وفي الثانية :

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الفرق بين الآيتين فقط أن الآية الأولى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

وفي الآية الأخرى :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)

(سورة الجمعة : الآية 2)

إذاً: الآيتان متطابقتان .

لكن الآية الثالثة، دعاء سيدنا إبراهيم :

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ)

(سورة البقرة : الآية 129)

كالآيتين السابقتين :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ)

(سورة البقرة : الآية 129)

كالآيتين السابقتين، لكن :

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

(سورة البقرة : الآية 129)

فهناك تقديم: ويعلمهم الكتاب والحكمة، وتأخير: ويزكيهم، ما حكمة تغير ترتيب الأولى عن الآيتين السابقتين؟

أيها الإخوة، الله عز وجل ذكر على لسان نبيه إبراهيم هذا الكلام، هذا دعاء سيدنا إبراهيم، وعَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ، دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي))

(أحمد)

الآية هذه من كلام سيدنا إبراهيم، سيدنا إبراهيم سلسلها قال :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ)

(سورة البقرة : الآية 129)

أي آياتك الدالة على عظمتك، الآيات الكونية والتكوينية :

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ)

(سورة البقرة : الآية 129)

القرآن كلام الله :

(وَالْحِكْمَةَ)

(سورة البقرة : الآية 129)

السنة:

(وَيُزَكِّيهِمْ)

(سورة البقرة : الآية 129)

أو بيان القرآن، والله عز وجل قال في سورة آل عمران :

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)

لا قيمة لمعرفة الكتاب والحكمة من دون تزكية:

هذا كله كلام الله، لكن كلام الله في هذه الآية على لسان سيدنا إبراهيم، وفي كلام سيدنا إبراهيم الذي جاء في القرآن الكريم هو أن التزكية تأخرت عند سيدنا إبراهيم، وقدم عليها تعليم الكتاب والسنة، كأن الله عز وجل أراد أن يبين أن معرفة الكتاب والحكمة من دون تزكية لا قيمة لها، فالله قدم التزكية على معرفة الكتاب والسنة، فأي مؤمن لم تزكُ نفسه ما استفاد من إيمانه شيئاً، مؤمن لئيم مثلاً، مؤمن بالكتاب، وقارئ للسنة، ويفقه أحكام القرآن، ويتلوه تلاوة رائعة، ويحفظ أحاديث رسول الله، لكنه يأكل مالاً حراماً، يعتدي على حقوق الناس، لم تزكُ نفسه، إذاً معرفته بالكتاب لا قيمة لها، من هنا نعرف أن العلم في الدين ليس هدفاً في ذاته بل هو وسيلة .

لماذا كان تعليم القرآن قبل خلق الإنسان؟

أنقلكم إلى آية توضح هذه الفكرة حينما قال الله عز وجل :

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن : 1-4)

دقق: الرحمن علم القرآن، بعد أن علم القرآن خلق الإنسان، لمن علمه؟ علمه للإنسان، أيعقل أن يعلمه قبل أن يخلقه؟ مستحيل، أيعقل أن يعلم القرآن قبل أن يخلق الإنسان؟ مستحيل، إذاً: ما هذا

الترتيب؟ قال علماء التفسير: هذا ترتيب رتبي، وليس ترتيباً زمنياً، أي لا معنى لحياة الإنسان من دون منهج يسير عليه، المنهج مقدم على حياته في الأصل إذاً .

ولتوضيح هذه الفكرة: لو أن هناك جهاز حاسوب يحلل الدم آليًّا في ثوان معدودة، كلما جاء إنسان يطلب التحليل تأخذ قطرة من دمه تضعها في هذا الحاسوب، وتضغط على بعض الأزرار فإذا الشاشة ممتلئة بتحليلات دقيقة، سبع عشرة تحليلاً في ضغطة زر واحدة، هذا جهاز مجدٍ، وغالٍ جداً، وريعه كبير جداً، لو أنك اشتريت هذا الجهاز، ونسيت الشركة الصانعة أن تبعث لك بكتيب عن استعماله، وتخاف عليه أن يعطب بين يديك، فلم تستخدمه خوفاً عليه، معنى ذلك أنك جمدت ثمنه، إن استخدمته بلا تعليمات أعطبته، ومعنى ذلك أتلفته، أليس هذا الكتيب أهم من هذا الجهاز؟ إن لم تستخدم الكتيب أعطبته، وخسرت ثمنه، وإن خفت عليه جمدت ثمنه .

إذاً: قد تطير بالطائرة إلى الشركة الصانعة كي تستقدم تعليمات التشغيل، لذلك حينما قدم الله تعليم القرآن على خلق الإنسان، أي أن وجود الإنسان في أصل وجوده لا معنى له من دون منهج يسير عليه، ذلك أن الله جل جلاله هو الخبير، قال سبحانه :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر : الآية 14)

فالإنسان أودع الله فيه الشهوات، فالنفس الإنسانية أودع الله فيها الشهوات، إن لم يكن معها تعليمات؛ افعل، ولا تفعل فسوف تتحرك بدافع من شهواتك حركة عشوائية، سوف تعتدي على أعراض الآخرين هذا ما يحصل في كل مكان بالعالم، سوف تعتدي على أموالهم، على أعراضهم، سوف تكون الفوضى، سوف تكون الجرائم سوف يكون البغاء، سوف يكون العدوان، لذلك ما من فساد على وجه الأرض إلا بسبب حركة عشوائية بدوافع من الشهوة من دون منهج ينهجه الإنسان في حركته في الحياة .

إذاً: عندما قال سيدنا إبراهيم :

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

(سورة البقرة : الآية 129)

فردّ الله عليه قال :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة : الآية 2)

فتعليم الكتاب والحكمة يأتي بعد التزكية، أما أن يكون هو الأصل، وأن ننسى التزكية فلا . ابحثوا كم دعوة إسلامية في العالم ـ والله وأنا أحترم كل الدعوات الإسلامية ـ تبرز عظمة الله عز وجل كي تنصاع لأمره، وتلح على تزكية النفس، على استقامتها، على عفتها، على طهارتها، على صفاء نيتها، على تواضعها، على رحمتها، على حكمتها، إسلام من دون تزكية لا معنى له إطلاقاً،

إسلام من دون تزكية أصبح ثقافة لا غير، أصبح تقليداً، أصبح عادات، أصبح فلكلورا، أصبح نزعة، اتجاهًا، اهتمامًا، أما أن يكون الإسلام ديناً فعالاًفهذا مفقود .

أيها الإخوة الكرام، كلكم يتابع ما يجري في العالم، أي هذا الدين العظيم الذي منّ الله به علينا، هذا الدين الذي هو قوام سعادتنا، هذا الدين هو سبب نصرنا :

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : الآية 173)

هو سبب دفاع الله عنا :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : الآية 38)

الإسلام الصافي هو سعادتنا وسلامتنا :

هذا الدين العظيم هو سبب سلامتنا في الدنيا، هو سبب سعادتنا في الدنيا، هو سبب توحدنا في الدنيا، هو سبب انتصارنا على أعدائنا، هذا الدين العظيم بفضله انتقلنا من رعاة للغنم إلى سادة للأمم سابقاً .

إذاً: هذا الدين العظيم :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور : الآية 55)

أترون معي أن هناك تمكيناً في الأرض؟ لا و الله، أن هناك استخلافاً في الأرض؟ لا والله، أن هناك اطمئناناً؟ لا و الله، كونوا واقعيين، لا يمكن أن تقنع طفلاً إلا إذا كنت واقعياً، هل المسلمون اليوم مستخلفون في الأرض، و قد قال الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

لا و الله، هل هم ممكنون؟ لا و الله، هل هم مطمئنون؟ لا والله؟ إذاً ما الجواب؟ الجواب الدقيق هو أنهم لم يزكوا أنفسهم، هو أنهم لم يعظموا ربهم، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله .

حضرت قبل سنتين مؤتمراً في بلد عربي إسلامي حول الأسرة، وأمضينا في هذا المؤتمر أربعة أيام، شهد الله أنه في اليوم الأول صباحاً ومساء، وفي اليوم الثاني صباحاً حتى المحاضرة الرابعة، و المؤتمر في بلد إسلامي، والمؤتمرون نخبة من رجال الفكر في العالم العربي و الإسلامي، والموضوع ألصق موضوع بالإسلام وبالقرآن، وهو الأسرة، والله الذي لا إله إلا هو لم يذكر اسم الله، ولا كلمة الدين، ولا الإسلام، ولا مرة في اليومين الأولين، كل شيء طرح في هذا المؤتمر لا علاقة له لا بالدين، ولا بالقرآن، ولا بالإسلام، معنى ذلك :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم : الآية 59)

إذاً: دين من دون تزكية لا قيمة له إطلاقاً، لا يوجد مؤمن لئيم، ولا مؤمن محتال ، ولا مؤمن كذاب ، ولا مؤمن يملأ عينيه من الحرام ، لا يمكن أن يكون هذا مؤمناً :

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان : الآية 68)

وإطلاق البصر نوع من الزنا، فهذا الدين العظيم سبب نصرنا :

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : الآية 173)

سبب دفاع الله عنا :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : الآية 38)

سبب وحدتنا :

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(سورة المؤمنون : الآية 52)

سبب تفوقنا على أعدائنا :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ)

(سورة آل عمران : الآية 139)

ترك التزكية سبب للهزيمة والغيّ :

أي الأعلون إن كنتم مؤمنين، هذا الدين إذا ألغينا منه التزكية، إنسان مسلم، لكنه قاسي القلب، يأخذ ما ليس له، يقيم دعوة كيدية على أخيه المؤمن، يتفلت من منهج الله، يطلق بصره في الحرام، يمد يده إلى الحرام، يقبل دخلاً حراماً، و يصلي في المسجد، إذا ألغينا التزكية من هذا الدين بسبب أننا لم نعرف هذا الإنسان بالله عز وجل ماذا يصبح الدين؟ استمعوا ، يصبح الدين على عظمته ظاهرة صوتية كيف؟ أنت قد تأتي بإذاعة، وتضع شريطاً، وتملأ ملعباً كبيراً صخباً، وضجيجاً، بضغطة زر واحدة يشتغل الصوت، ظاهرة صوتية، هذا معنى قول الله عز وجل :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(مريم : الآية 59)

و قد لقي المسلمون ذلك الغي، و أنتم تنظرون كيف أن المسلمين على أنهم يزيدون على مليار ومئتي مليون ، ليس أمرهم بيدهم ، وليست كلمتهم هي العليا ، و للكفار عليهم ألف سبيل و سبيل.

الإيمان مرتبة عالية :

إذاً: أيها الإخوة ، هذه الآية التي تم شرحها في الدرس الماضي خطيرة جداً جداً ، أساس هذا الدين أن تعرف الله ، أساس هذا الدين أن تزكي نفسك ، فما الذي يجذب الناس إلى الإسلام؟ الصدق، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسيء الجوار ، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته ، وصدقه ، وعفافه ، ونسبه ، أمانته ، وصدقه ، وعفافه ، ونسبه ، هذا المؤمن ، المؤمن مرتبة عالية جداً ، المؤمن مرتبة علمية ، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه ، اقرأ هذه الآية :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 113)

ما هو الفضل العظيم؟

الفضل العظيم أن تعرف الله، الفضل العظيم أن تعرف سر وجودك، الفضل العظيم أن تعرف غاية وجودك، الفضل العظيم أن توقع حركتك وفق منهج الله، الفضل العظيم أن يكون لك عمل صالح يصلح للعرض على الله، هذا الفضل العظيم، شق على صدر الناس الآن ما هو الفضل العظيم؟ يكون له دخل فلكي، يركب مركبة راقية جداً ثمنها أربعة وعشرون مليوناً، يسكن منزلا فخمًا جداً، فيه كل وسائل الراحة، يكن له مكانة عالية، هذا الفضل العظيم عنده، كل هذا الفضل عند الناس فضل دنيوي ينتهي كلياً عند الموت، وكل شيء يجمعه الإنسان في الدنيا يخسره في ثانية واحدة، لذلك هذا الدين حينما نلغي منه التزكية، ونلغي منه معرفة الله عز وجل، ويبقى أحكاماً، وأفكاراً، وكتباً، ومجلدات، ومؤتمرات، الحقيقة المظاهر قوية وصارخة، المظاهر الإسلامية قوية وصارخة .

والله دخلت إلى مسجد في الدار البيضاء كلّف مليار دولار، مئذنته جامعة، أعلى مئذنة في العالم، مساحة المئذنة جامعة، كل طابق قسم ـ هذه مئذنة ـ بني على ساحل البحر، قالوا فيه :

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

(سورة هود : الآية 7)

المصلي، وهو في الحرم يرى أمواج البحر في فتحات صغيرة في البلور، مسجد كلّف ألف مليون دولار، أي مليار دولار، أقسم لي أحدهم زار المغرب، وصلى الجمعة في هذا المسجد، أقسم لي بالله لا يوجد فيه نصف صف، في خطبة الجمعة، العبرة لا بهذه المظاهر، مظاهر إسلامية كبيرة جداً، مؤتمرات ، حضرت عدة مؤتمرات، كل دولة لها علم، و لها مرافقة، ولها جناح في الفندق، شيء فخم جداً ، ولكن المحصلة ليس أمرنا بيدنا، ولعدونا علينا ألف سبيل وسبيل، النتيجة لسنا

ممكنين في الأرض، لسنا مستخلفين، لسنا آمنين، تسمعون من حين لآخر كيف أن التهديدات تأتينا من كل جانب، هذا هو النصر العزيز :

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

(سورة الفتح : الآية 3)

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء : الآية 141)

صار الدين ظاهرة صوتية، خطابات، ولقاءات، وحوارات، وندوات بالفضائيات، و مظاهر دينية، ومساجد كبيرة، و مراكز إسلامية، و مكتبات إسلامية، و مؤتمرات إسلامية، لكن لا يوجد التزام بالدين، ألغي منه التزكية و معرفة الله عز وجل ، وبقي :

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

هذه الآية خطيرة جداً، والله عز وجل حينما دعاه إبراهيم عليه السلام ، سيدنا إبراهيم بشر على علو قدره، وهو أبو الأنبياء فقال له :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

(البقرة : الآية 129)

فكان رد الله عليه :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة : الآية 2)

الإيمان قبل القرآن، والمعرفة قبل الطاعة :

لذلك قال الصحابة الكرام، أوتينا الإيمان قبل القرآن، ما لم تؤمن بهذا الخالق العظيم من خلال خلقه في السماوات و الأرض، و من خلال خلقه في النفس البشرية لم تستطيع أن تعرف الله، لذلك سيدنا بلال يقول : <<لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت>> .

أيها الإخوة، سواء كنت مؤمناً عادياً فلابد أن تعرف الله كي تحملك هذه المعرفة على طاعته، إذا كنت مؤمناً عادياً لابد أن تزكو نفسك، هل تحقد؟ هل تتمنى أن تزول عن أخيك نعمة لتصبح لك؟ هل تأخذ ما ليس لك؟ هل تكذب؟ هل تحتال على أخذ ما ليس لك؟ هل تملأ عينيك من الحرام؟ إذاً أنت لست في المستوى الذي أراده الله .

أحياناً بعض المسلمين يعتبون على الله في أنفسهم، لماذا ربنا هكذا؟ لمَ لم يكن معنا؟ لمَ لا يظهرنا على أعدائنا؟ لمَ لا يحقق لنا نصراً مؤزراً؟ فالجواب: العباد جميعاً عباده، وهذا الذي ينتمي إلى الله، هذا الذي محسوب على الله، لا يمكن أن يتنزل عليه نصر الله إلا إذا كان كما يريد الله عز وجل: "عبدي، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد و لا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد ،

وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد" .

لا لإيمان إبليس :

أتمنى على الله عز وجل أن تكون هذه الآية التي كانت محور الدرس الماضي، مع هذا التعليق اليوم أن تكون هذه الآية باعثاً لنا على معرفة الله، ثم على تزكية النفس، راقب نفسك، سيدنا عمر قال: <<تعهد قلبك>> ،راقب نفسك، حينما تعصي الله معنى ذلك أن إيمانك لم يكن كافياً بحيث يحملك على طاعة الله، سمه إن شئت إيماناً إبليسياً: إبليس قال :

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص : الآية 82)

قال: خلقتني، آمن بالله خالقاً، قال :

(قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف : الآية 14)

آمن بالآخرة، و مع ذلك مستوى إيمانه بهذه القضايا الكبرى أن الله خالق، وعزيز، ورب، والدار الآخرة، وأن مستوى إيمانه بهذه القضايا الكبرى لم يكن كافياً ليحمل صاحبه على طاعة الله عز وجل، ثم يقول الله عز وجل :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُم

العاقل يبحث عن سبب المصيبة:

والله لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي

ذلك بأن عطائي كلام، وأخذي كلام .

هناك كلام دقيق سأقوله لكم، وقلته مراراً: لا يمكن لإنسان فيه ذرة عقل أن يتلقى ضربة بعصا، ثم يحقد على العصا، العصا لا علاقة لها، العصا أداة، إذا كان عاقلاً، وتلقى ضربة بعصا فالعصا لا يُحقد عليها، لأنها أداة ليس غير، ينبغي أن يحقد على الضارب الذي استخدم هذه الأداة، فإذا كان الضارب هو الله جل جلاله، وهو صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى رجعت الكرة إلى ملعبها، عنده مشكلة، وكل إنسان على شيء من العقل ما من مصيبة تصيبه إلا ويبحث عن أسباب لها من عنده .

وهذه (لو)المسموح بها في العقيدة، لو لم آكل هذا المال الحرام لما دمر مالي، لو لم أسترق النظر إلى النساء لما نشأ خلاف بيني و بين زوجتي، لو اعتنيت بأولادي عناية بالغة لما عقوني الآن، كلام دقيق ، كل أدوات الشر في الكون يمكن أن تصفها بأنها عصي بيد الله، رجال أقوياء عصي بيد الله، أمراض، جراثيم، فيروسات، هدم، حرق، جفاف، أي شيء يزعجنا هو أداة تأديبية بيد الله عز وجل .

التأديب الإلهي أنواع كثيرة :

المشكلة أن الإنسان حينما يستحق التأديب يأتيه التأديب من مصادر لا تعد و لا تحصى ،ذكرت هذا في خطبة هلاك الأمم، أن الأمة الخطورة أن تستحق الأمة الهلاك، قد يأتيها الهلاك جفافاً، و قد يأتيها زلزال، و قد يأتيها بركان، وقد يأتيها حروباً أهلية، وقد يأتيها عدواناً خارجياً، لا قيمة لهذا التنوع في التأديب، القيمة والخطورة أن هذه الأمة فعلت ما يوجب التأديب، هذا على مستوى أمم، وعلى مستوى أفراد، أي يوجد عند الله عز وجل آلاف الأدوية المرة، يوجد مرض، والمرض مخيف، يوجد مشكلة زوجية، يوجد مشكلة مع أولادك، يوجد مشكلة في عملك، فالإنسان حينما يرتكب ما يوجب التأديب مهما سدّ الثغرات يأتيه التأديب من حيث لا يشعر، و هذا الذي جرى قبل شهر تقريباً في العالم الغربي هو تأديب من الله عز وجل، لأنهم قالوا :

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

فالتأديب موجود في كل مكان في العالم، فالعبرة ألاّ تصل مع الله إلى مرحلة وجوب التأديب .

أنت في بحبوحتين؛ في بحبوحة تطبيق منهج الله :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : الآية 33)

وفي بحبوحة الاستغفار، إن لم يكن هناك تطبيق، ولا استغفار، وفعلت ما يوجب التأديب فلابد أن يكون التأديب :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد : الآية 11)

يؤتى الحذر من مأمنه، لا ينفع حذر من قدر، إذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لبٍّ لبَّه .

أحياناً الكافر على ذكائه الشديد يجمع، ويطرح، ويقسم، ثم يجعل الله تدميره في تدبيره، أحياناً يستدرجه من الغرب إلى الشرق لتكون مصيبته في الشرق، فلا ينفع حذر من قدر، لا ينفع ذا الجد منك الجد يا رب، مع الله لا يوجد ذكي، لا يوجد قوي معه، الله القوي ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي شَيْئًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ))

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ

دقق في قوله تعالى :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

انتهى الأمر، الكرة ردت إليك، فلا تحقد على أحد، ولا تندب حظك، هناك أمهات كثيرا يقلن : مسكينة ابنتي ، ليس لها حظ، ما هذا الحظ؟ لا يوجد حظ في الإسلام ، هناك توفيق وعدم توفيق، هناك إكرام وتأديب فقط، وتيسير وتعسير ، لا يوجد حظ، هناك حظ بمعنى آخر :

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت : الآية 34)

من كان له حظ عظيم من الله يمكن أن يصبر :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

فالمؤمن دائماً، وأبداً كلما أصابته ضائقة يراجع حساباته الداخلية، لا مشكلة عنده، طبعاً يقف موقفاً حكيماً مع الناس، لو أن سائقاً أرعناً أساء إلى ابنه يوقفه عند حده، ويشتكي عليه كي يمنعه عن عنفوانه، وعن طيشه في القيادة، لكن لا يحقد عليه :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر، هذه الفكرة في الدين رائعة جداً، أي لم يعد هناك حقد، هناك شعور أن ثمة محاسبة ذاتية، لمَ كان ذلك؟ لأنك فعلت كذا، والله عز وجل كأنه تولى أن يلقي في روع كل مؤمن سبب المصيبة :

(أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

(سورة التغابن : الآية 11)

إلى حكمتها، إلى سببها، والمؤمن على فطنة عالية إن جاءته الأمور كما لا يشتهي يبحث عن سبب فيه، إن جاءته كما يشتهي تقول: الحمد لله، إن جاءت على ما لا يشتهي يسأل نفسه لماذا؟ لماذا حرمت هذا؟ لماذا تعسر هذا؟ لماذا فقدت رزقي؟ طبعاً إن لم يجد سبباً عليه أن يستسلم لكن في الأعم الأغلب يجد السبب.

الأسئلة :

س: كنت مقصراً مع والدي قبل أن يموت ماذا أفعل؟

ج: هل تصدقون أن هناك برًّا للأب بعد الموت، قال: ماذا بقي لي من بر والدي؟ قال: أن تصلي عليهما في الجنازة، وأن تدعو لهما في الصلاة، ربي اغفر لي ولوالدي، وأن تنفذ عهدهما، قال لك الأب: انتبه لأختك، يجب أن تعتني بها كثيراً، فإنفاذ عهد الأب نوع من بر الوالد بعد موته، وأن تصل صديقهما، وأن تصل الرحم التي لم يكن لها صلة إلا بهما، هذا نوع من بر الوالدين بعد الموت .

س: ما صفات المتكبر ؟

ج: رد الحق، وغمط الناس ، هذا تعريف النبي له، لا يقبل الحق، ويبخس الناس أشياءهم .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس49-60): تفسير الآيات 166 – 171
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-11-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية السادسة والستين بعد المائة، وهي قوله تعالى :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ(166)وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 166-167)

مقدمة :

شتان بين فهم القرآن وقطف ثماره :

أيها الإخوة، هناك حقيقة إن آمنت بها امتلأ قلبك أمنا وأمانا، ولكن قبل الحديث عنها يجب أن تعلم علم اليقين أن آيات القرآن الكريم أن تفهم معانيها شيء، وأن تعيش معانيها شيء آخر، وشتان بين من يفهم معنى الآية، وبين من يعيشها و يقطف ثمارها، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

لو أن مؤمنا طائعا لله ورسوله وكان فقيرا، و له صديق عاص لله ورسوله، و كان غنيا، الآية معناها واضح :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

ولكن بمجرد أن يقول: هنيئا لصديقي فهو أسعد مني، إذًا ما عاش الآية، ولا قطف ثمارها، ولا استقر في قلبه شيء من معانيها إطلاقا .

المشكلة أيها الإخوة أن آيات القرآن الكريم قد نفهمها، لكن لا نعيشها، حينما قال الله عزوجل

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران : الآية 126)

المعنى واضح، لكن المسلمين اليوم لا يعيشون هذا المعنى، يرون النصر أن ترضى عنك جهة قوية فتنتصر، وإذا رفعت عنك الغطاء تنهزم، هناك شرك، فالبطولة لا أن تفهم المعنى، أن تعيش هذا المعنى.

موازين الترجيح في القرآن الكريم :

هذه مقدمة مهمة جدا، القرآن الكريم فيه آيات كثيرة فيها قوانين، لكن الناس في واد، وهذه الآيات في واد آخر، أوضح مثل :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

هل ترى نفسك فائزا إن صحت عقيدتك؟ وإن صح عملك؟ وإن انضبطت في حركاتك وسكناتك، أن ترى الفوز هو الغنى، أن ترى الفوز هو القوة، هناك قيم تعتمد في داخل الإنسان، قيم مرجحة، من هو المؤمن الراقي؟ إذا توافقت قيمك في تقييم الأشياء، وتقييم الأشخاص، وتقييم ذاتك مع تقييم القرآن الكريم، أما إذا كانت منظومة قيمك في واد، وقيم القرآن في واد، القرآن رجح العلم، قال تعالى :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 113)

قال :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة : الآية 11)

وقال تعالى :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

(سورة الزمر : الآية 9)

ورجح قيمة العمل فقال :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف : الآية 19)

وقال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : الآية 110)

فالغنى غنى العمل، والفقر فقر العمل، وتجد الناس يعظمون الأغنياء لقيمة المال، ويعظمون الأقوياء لقيمة القوة، ويعظمون الأذكياء لقيمة الذكاء، هذه قيم ليست في القرآن الكريم .

التوكل والأخذ بالأسباب :

أردت من هذه المقدمة أن فهم الآية سهل جدا، لكن أن تعيش هذه الآية شيء صعب، فهل من الممكن لإنسان أن يضع زوجته وابنه في واد غير ذي زرع، لا ماء فيه، ويتوكل على الله، نحن نقول :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق : الآية 3)

لكن لا يمكن إلا أن نأخذ بالأسباب، السبب الذي نأخذ به يطمئننا، ولا يطمئننا أننا على الله متوكلون، ينبغي أن نأخذ بالأسباب ولا شك، لكن ما الذي يملأ قلبك طمأنينة؟ أنك بالأسباب، أم أنك توكلت على الله رب الأرباب؟ فلذلك تجد العالم الآن منقسم إلى قسمين، قسم أخذ بالأسباب واعتمد عليها، وألهها فوقع في الشرك، وقسم لم يأخذ بها و توكل على الله توكلا غير صحيح سُمِّي تواكلا وقع في المعصية، لكن أن تجمع بين الأطراف جميعا هذه بطولة .

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ

إذًا: هذه الآية آلام لا تنتهي ولا تعد، لو عقلنا هذه الآية لزالت من أنفسنا كل هذه الآلام :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

لا يقع في الكون إلا ما أراد الله :

كل شيء وقع أراده الله، ولا يقع في كونه إلا ما يريده الله، لا يليق بمقام الألوهية أن يقع في ملكه شيء ما أراده، لا يستطيع الكافر أن يسبق الله عزوجل، قال تعالى :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال : الآية 59)

لا يمكن لكافر مهما كان كفره كبيرا أن يفعل شيئا ما أراده الله .

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن .

ليس في العالم المادي شر مطلق، هل تقبلون هذه الكلمة؟ معي الدليل، العالم المادي فيه حوادث، ما دامت هذه الحوادث وقعت إذًا سمح الله بها، والله عزوجل قدرته مطلقة، لا يقع شيء في ملكه إلا إذا أراده، و إرادة الله متعلقة بحكمته المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، ولكن عقولنا في الأعم الأغلب لا تستطيع أن تستوعب حكمة الله، وهذا الذي جرى في العالم ربما بعد سنوات، أو

بعد عقد من الزمان، تنكشف الحكمة المطلقة في الذي حدث، وكأنه قفزة نوعية للمسلمين، وكأنه تمحيص للمؤمنين، وكأنه فرز للمسلمين ، وكأنه دعوة للتمسك بهذا الدين ، قد لا نجد الآن الحكمة واضحة ، لكن المؤمن يقيس على ما سبق، قال بعضهم :

كن عن همومك معرضا و كِلِ الأمور إلى القضا

و أبشر بخير عاجـل تنسى به ما قد مضـى

فرب أمر مسخـــط لك في عواقبه رضـى

و لربما ضاق المضيق و لربما اتسع الفضـــا

الله يفعل ما يشـــاء فلا تكن معترضـــا

الله عوّدك الجميـل فقِس على مـا قد مضى

***

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

أي النبي كان يتمنى أن يبقى في المدينة، لكن أصحابه أشاروا عليه أن يخرج، فخرج بإذن الله، وخرج بمشيئة الله، و أمر الرماة ألاّ يغادروا فغادروا، فالتف عليهم العدو من خلفهم بإذن الله .

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

يقع مرض أحيانا، يقع فقر مفاجئ، تأتي حالة لم تكن في الحسبان، يقع حجر من بناء فيصيب إنسانًا .

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

سهل جدا أن نفهم معنى هذه الآية، سهل جدا أن نفهم معنى هذه الآية، ولكنه ليس من السهل أن نعيشها، ليس من السهل أن ترى يد الله تعمل في الخفاء، قال تعالى :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : الآية 17)

اقرأ قوله تعالى :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : الآية 17)

هذا هو التوحيد، التوحيد يملأ قلبك أمنا وطمأنينة، محنة قاسية أن ينهزم المسلمون، محنة قاسية أن يعصي الرماة أمر النبي، منة قاسية أن يلتف العدو حول المسلمين، محنة قاسية أن يُقتل عدد كبير من صحابة رسول الله يوم أحد، لكن ما دام وقع فهو لصالح المؤمنين، ولحكمة كبيرة جدا، وقس

على معركة أحد أية معركة أخرى، و أي جفاف، وأي زلزال، وأي صاعقة، و أي حرب، و أي اجتياح، و أي عدوان .

إِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ:

لكن إياكم ثم إياكم، ثم إياكم أن تفهموا أنه إذا جاء قضاء على يد البشر أن ترضاه، أو ألا تقاومه، هذا كلام يتناقض مع أصول العقيدة، لو أن عدوا اجتاح أرضنا نقول: هكذا أراد الله؟ لا، نحن راضون بمشيئته، لا، هذا عكس ما أراده الله عزوجل، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ :

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

رواه أبو داود

هذا حينما تُغلب، حينما تبذل كل ما تستطيع، ولا تأتي النتائج كما تتمنى، عندئذ تقول: حسبي الله ونعم الوكيل .

الحاجة ماسّة إلى هذه الآية بسبب طبيعة العصر :

بالمناسبة أيها الإخوة، يبدو أننا نحن نعيش عصرا غريبا جدا، هذا التواصل بين البشر، وارتباط المصالح بين المجتمعات جعل العالم بعد أن كان قرية صار العالم بيتا، وبعد أن كان بيتا صار غرفة، العالم الآن كله غرفة واحدة، من سلبيات هذا التشبيه أن كل شيء يحدث في طرف العالم يتأثر له المسلمون أيما تأثر في الطرف الثاني، طبيعة ها العصر عجيبة، هناك قطب واحد وقوي، ولا يرحم، وكل ما يجري في العالم ينتقل أثره إلى كل أنحاء الأرض، لذلك ما من حدث يقع في طرف الدنيا الآخر إلا و له انعكاس في أي مكان في العالم، لذلك هذه الآية نحن الآن في أمسّ الحاجة إليها :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

كل شيء وقع عن علم وحكمة :

شيء وقع، رهيب غيّر مجرى التاريخ بإذن الله، زلزال هدم مدينة بإذن الله، بركان أحرق قرية بإذن الله، جفاف أمات الحرث والنسل، بإذن الله، ليس معنى هذا أنا لا نتألم نحن، نتألم، ولكن لا نتهم الله في حكمته، ولنصبر، ونغير ونصحح، و نتوب، ولكن لا يحملنا ما جرى على أن نشك في حكمة الله ورحمته، وفي وحدانيته .

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

أتمنى أن أضع بعض الأمثلة بين أيديكم: أب، ورحمة الأب لا يُشك فيها إطلاقا، وعالم، وطبيب جراح، وقد التهبت زائدة ابنه، ولا بد من إجراء عملية فورية، لو أن هذا الأب الطبيب الجراح أخذ ابنه إلى المستشفى، وأعطى أمرا لمساعديه أن يفتحوا بطن الابن، خدروه، و جاؤوا بالمشرط، وفتح البطن، وهو ينظر، لو أن واحدا يراقب سكوت الأب، فهناك حكمة بالغة جدا، لأن الأب عالم رحيم في آن واحد، قد تجد عالما لا يرحمك، وقد تجد رحيما لا يعلم حالك .

أنا ضربت مثلا قبل قليل: الأب المثقف الطبيب الجراح يجتمع فيه العلم والرحمة، فحينما ترى الأب وابنه على طاولة العملية يرى ويسمع وهو صامت، معنى ذلك أن هذا الذي يجري بعلمه وتوجيهه، وبرحمته، ولحكمة بالغة بالغةٍ :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، ولكن عافيتك أوسع لي، حجم أي مصيبة عند الله بأدق دقائقها، بأدق ميزاتها، لماذا ساق الله هذه المصيبة؟ لأن الله عزوجل أول هدف من أهداف الدنيا أنه دار ابتلاء، لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي .

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا

قال تعالى :

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا)

(سورة آل عمران : الآية 167)

إذًا الموضوع موضوع فرز، قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

ضرورة الفرز والامتحان كما في غزوة أُحُدٍ :

الموضوع موضوع فرز .

شيء آخر في هذا الفرز ينكشف الإنسان في وقت مبكر، فلعله يصحو، إذا ألِفَ طالبٌ أن يغش في الامتحان، ولم يكشفه، يستمرئ هذه الطريقة فلا يدرس، ويأخذ شهادة بشكل مزوّر، وقد يؤذي

الناس بشهادته، فإذا كُشف الطالب الذي يغش في الامتحان في وقت مبكر، وتلقى عقابا أليما، وارتدع عن هذا، أليس في هذا خير له ولمجتمعه ؟

إذًا :

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا)

(سورة آل عمران : الآية 167)

هناك منافقون ما كانوا ظاهرين، فلما ساق الله هذه المصيبة، فلما انهزم المنافقون في أحُد ظهر نفاقهم وجبنهم وتخليهم عن رسول الله .

(وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

إذا كان عندك مكعبات إسمنتية، هي طبخات، وتريد أن تعمر بناء شاهقا، وخيرت أي هذه الطبخات تأخذ؟ ماذا تفعل أنت؟ ما دمت تنوي بناء شامخا تحتاج إلى أعلى مواصفات في الإسمنت، فتأتي بآلة رأيتها في بعض معامل الإسمنت، كلما طبخت طبخة يصب منها مكعب، هذا المكعب يربط من أعلى، وفي أسفله كفة ميزان توضع فيه الأوزان بالتسلسل، على أي وزن انقطع هذا المكعب، فهذه مقاومة هذه الطبخة بالضبط، معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بالمؤمنين خيرا، وإذا أراد أن يكلفهم عملا عظيما، وأن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعلهم قادة للأمم، لا بد أن يمتحنهم، تأتي هذه الشدائد كي تمتحن المؤمنين .

كان في القاهرة مثلا ألف طبيب في المستشفيات فرضا، لما جاء زلزال القاهرة هكذا سمعت أو قرأت، هؤلاء الأطباء فروا، منهم من هرب شطر الشمال حيث الأمن والدعة، ومنهم من عمل عشرين ساعة في اليوم لإنقاذ الجرحى والمصابين، فلولا هذا الزلزال لم تكن الأمور غير منكشفة، كلهم أطباء .

التجار: تأتي أزمة اقتصادية، فهناك من يركب هذه الأزمة، ويثري ثراء فاحشا على حساب مصالح المسلمين، وهناك من يقنع بالربح المحدود فلا يأخذ ما ليس له .

إذا: الشدائد أو المصائب محك الرجال، تظهر حقيقة الرجال في المصيبة، وهذا شيء بديهي جدا، ما منكم واحد يمتحن مركبة في الطريق النازلة، لا تمتحن المركبة إلا في الطريق الصاعدة .

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا)

(سورة آل عمران : الآية 167)

هذا حال المنافقين في غزوة أحد :

المنافقون انسحبوا، ولم يتابعوا السير مع رسول الله، فكانت هذه المعركة مناسبة كي يمتحن بها المؤمنون الصادقون، أو المنافقون .

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا)

(سورة آل عمران : الآية 167)

عن أنفسكم هذا العدوان .

(قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

حقيقة الأعذار لا يعلمها إلا الله :

الإنسان منطقي، ويعتذر دائما، ولكن مصداقية هذا الاعتذار لا يعلمها إلا الله، يعتذر، وكل إنسان آتاه الله جدلا بإمكانه أن يقدم آلاف المعاذير، و لكن مدى صدقها هذا لا يعلمه إلا الله .

(قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

كنت أقول دائما: عوام الناس ما عندهم إلا حالتان متعاكستان، أبيض أو أسود، الأشخاص وليّ أو منحرف، لم يتعودوا على أحكام معتدلة، أحكام بين بينَ، أحكام دقيقة، أحكام واقعية، فإذا قلت: هذا الشيء أبيض أو أسود، فأنت أخذت حالتين حادتين، لكن بين اللونين قد تجد مئات الألوان التي بينهما، فهذا حكم دقيق بين بينَ، قال :

(هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ

تعلّم الموضوعية في الأحكام

هو كافر؟ لا، مؤمن؟ لا، لكنه أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان، تأدب بآداب القرآن، عود نفسك أن تعطي حكما متوازنا، نحن ليس عندنا إلا جيد جدا، أو سيئ جدا، هذا في شؤون الزواج، يخطب الخاطب من أسرة يمدحه من في هذه الأسرة، و يمدحه من يعرفه، و يثنون على أخلاقه، وعلى تقواه، و على ورعه، وعلى ذكائه... ينشأ ظرف بين الأسرتين فيفسخ العقد، فإذا به أسوأ الناس، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أُرَاهُ رَفَعَهُ قَالَ :

((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا، مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا))

رواه الترمذي

هذه الآية تعلمنا الحكم المتوازن، الحكم الموضوعي، الحكم ما له، و ما عليه، المؤمن من صفاته أن رضاه لا يخرجه عن الحق، وأن غضبه لا يدخله في باطل، أما عامة الناس إذا أحبوا إنسانا تعاموا عن كل أخطائه، وإذا أبغضوا إنسانا هجروا له كل أعماله الصالحة، والحالات الحادة من صفات العوام، هذه الحالات الحادة في الحكم هذه ليست من شأن المؤمن، بل المؤمن يذكر ما له وما عليه .

سيدنا عمر لما ولاه سيدنا الصديق قيل له : <<أتولّي أشد الصحابة علينا؟ قال: أتخوفونني بالله؟ لو سئلت يوم القيامة أقول: يا رب، وليت عليهم أرحمهم، هذا علمي به، فإن بدّل وغيّر فلا علم لي بالغيب>> .

ما هذا الكلام الدقيق؟ <<هذا علمي به؟ فإن بدّل وغيّر فلا علم لي بالغيب>> .

أنا أقول: من معاناة حتى المثقفين يبالغون، أي إذا توسموا الصلاح في جهة أسبغوا عليها العصمة، فإذا عانت ما عانت من أعدائها عتبوا على الله، وإذا كرهوا جهة يجعلونها في أسفل سافلين، فعوّد نفسك أن تعطي الشيء ما له، وما عليه، أن يكون حكمك موضوعيا، فالموضوعية قيمة أخلاقية، و قيمة علمية في وقت واحد .

(هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

ليسوا كافرين، كما أنهم ليسوا كافرين، لكنهم أقرب إلى الكفر من الإيمان .

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

الازدواجية مرض خطير :

هذا النفاق، ازدواجية، كلام يعلن، و معنى يبطن، ابتسامة في وجه شخص، وحقد عليه في القلب، أمام الناس يظهر ورعا، وإذا خلا في بيته ارتكب معصية، وآفة المسلمين الازدواجية، يظهرون ما لا يبطنون، يعلنون ما لا يخفون، حالتهم في خلوتهم غير حالتهم في جلوتهم، هم مع الناس في حال، وفي خلوتهم في حال آخر .

(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه :

((من أسر سريرة ألبسه الله رداءها))

ورد في الأثر

شخص ركب في بيته جهاز نقل صوت بين المطبخ وغرفة الضيوف، بنية أنه إذا كان مع الضيوف ينادي زوجته: اصنعي لنا شيئا، فجاءه ضيوف ثقلاء، فجاملهم، وجاملهم، وجاملهم، وابتسم في وجوههم، وأثنى عليهم، فلما وصل إلى المطبخ، وكان الجهاز مفتوحا فسبّهم، وكال لهم كل شيء، هذه سريرته نقلت إليهم في حالة حادة جدا، لكن الإنسان أحيانا يبطن شيئا ، ويظهر شيئا، هذه حالة مرَضية.

لا ازدواجية عند المؤمن :

ما في قلب المؤمن على لسانه، وما ينطق به في قلبه، ليس عنده ازدواجية، سريرته كعلانيته، خلوته كجلوته، باطنه كظاهره، فعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ :

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ))

رواه أحمد

الإسلام دين الله، لا يحتاج إلى أقبية، يتحدث عنه تحت ضوء الشمس، لأنه الحق، والحق لا يخشى البحث، والحق لا يحتاج أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، ولا أن تقلّل من خصومه، ولا أن تبالغ به، لا تستح به، والحق لا يخشى البحث، و ليس بحاجة إلى مبالغة ولا إلى كذب، عليه أو له، فلذلك المؤمن علاقته واضحة .

واللهِ أكاد أقول: ليس في حياة المؤمن سر، كل أموره واضحة، ليس عنده شيء يستحيي أن يعرضه على الناس، وشيء يعرضه .

إذًا :

(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

لرجل فقير جدا عمّة تملك الملايين، فتوفيت فجأة، وهو وريثها، الكل يقول: عظّم الله أجركم، وشكر سعيكم، وإن شاء الله خاتمة الأحزان، جاءه صديق قال له: تهانينا، يبدو أن الصديق حكى

الحقيقة، فنحن عندنا كلام نقوله كثيرا لا نعنيه إطلاقا، بل نعني عكسه، ولكن التقاليد الاجتماعية تسير على هذا، قال له: <<أتحبني؟ قالها رجلٌ لسيدنا عمر، فقال: والله لا أحبك، قال له: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي؟ قال: لا والله، قال له: إذًا إنما يأسف على الحب النساء>> .

المؤمن واضح، إن أحب إنسانا أحبه، وإن رآه منحرفا لا يحبه، ولا يقول له: أنا أحبك، صار تضليلا، أما الآن فيعدّون الشخصية الجذابة هي الشخصية المنافقة، التي ترضي جميع الناس، بل إنهم قالوا بمصطلح حديث نستخدمه أحيانا جاءنا من الغرب: الدبلوماسية، وهي تعبير عن أسوأ النيات بأحلى الألفاظ .

هؤلاء :

(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

ومن أسر سريرة ألبسه الله إياها .

قال تعالى :

(الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)

(سورة آل عمران : الآية 168)

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا

الكافر يشمت بالمؤمن حين المصيبة :

وهذا شأن البعيد عن الله، يترصد المؤمن، فإذا وقع في مشكلة قال: نصحتك أنه ينبغي ألاّ تكون كذا، وأنت ما طبقت نصيحتي، وأكبر شامت للمؤمن الكافر، المؤمن الصادق لا يستشير كافرا، ولا يهتدي بنصائحه، ولا يتضعضع أمامه، ولا يعرض عليه مشكلته، ومن اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله، لا تضعضع أمام كافر، كن متماسكا، لأنه يشمت بك.

(الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)

(سورة آل عمران : الآية 168)

هم ما قاتلوا، لما انهزم المسلمون قالوا :

(لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)

(سورة آل عمران : الآية 168)

نحن رأينا ألاّ نخرج من المدينة .

(قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 168)

هناك صحابة قتلوا في المعركة، هؤلاء الشامتون لا يموتون، لذلك قالوا: لا شماتة في الموت، هذا قدر إلهي على كل العباد، بما فيهم الأنبياء والمرسلون.

حقيقةُ الشهيد في سبيل الله:

قال تعالى :

(الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(168)وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا)

(سورة آل عمران : الآية 168- 169)

الشهيد حيٌّ يُرزَق عند ربه :

إياك، ثم إياك أن تقول عن الميت : فقيد، ويحيا حياة بكل معاني هذه الكلمة إذا كان مؤمنا، إذا مات على الإيمان، بل إذا مات شهيدا يحيا حياة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، والدليل هذه الآية :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 169)

علامة الحياة أنك تُرزق، تأكل وتشرب، و المؤمن بنمط آخر، بآلية أخرى، بنظام آخر، بقوانين أخرى بعد أن يموت حي يرزق، بل حي بأوسع ما في هذه الكلمة من معنى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 169)

الشهيد فرحٌ بفضل الله :

ليسوا أحياء فقط، بل هم فرحون .

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة آل عمران : الآية 170)

لكن لا تقل لي: كشفنا عن هذا الميت في القبر فقد فني، هذا الذي في القبر وعاؤه الذي احتواه في الدنيا، أما هو فشيء آخر، النفس لا تموت، أما الذي يموت فالجسم، فهذا الذي تراه في القبر وقد لُفّ في الأكفان فهذا وعاؤه، أما هو إن كان مؤمنا في أعلى عليين، إن كان مؤمنا في روضة من رياض الجنة، إن كان مؤمنا كما قال الله عز وجل :

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ(40)عَنِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة المدثر : الآية 38-41)

فالمؤمن طليق، أما الكافر فرهينُ عمله السيئ .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 169)

لكن عند ربهم، لا في هذه الدنيا الفانية، لا في هذه الدنيا المتعبة، التي كلها هموم ومتاعب ومصائب، لذلك فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ :

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 170)

يستبشر بإخوانه الذين لم يلحقوا به :

كما قال الله عزوجل في حديث قدسي ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ :

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَه))

رواه البخاري

فهؤلاء حينما عرفوا ما عند الله من نعيم لا يزالون في القبر، قبل الجنة ، القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران، هو حينما توفاه الله على الإيمان، كان في جنة، كان قبره جنة، لذلك فرح بما آتاه الله من فضله، واستبشر باللذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، مؤمن توفاه الله ، له أصدقاء مؤمنون ، رأى ما رأى من عطاء الله وكرمه ففرح ، استبشر بإخوانه الذين لم يموتوا بعد .

لا يخاف من المستقبل ولا يحزن على ما فاته:

(أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 170)

هكذا الدنيا .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة .

(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 171)

هؤلاء المؤمنون الذين توفاهم الله عزوجل ، أو استشهدوا في قبورهم في جنة ، بل إنهم في جنة يتمنون معها لو أن المؤمنين الذين تركوهم يعلمون حقيقتهم ، فهم يستبشرون لهم بهذه الجنة .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(50-60): تفسير الآيات 169 – 171
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-11-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية التاسعة والستين بعد المئة، قال تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 169)

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

الشهيد حي يُرزق :

بينت لكم أيها الإخوة أن للحياة نظامين، نظامًا في الدنيا، ونظامًا في الآخرة، فهذا الذي قتل في سبيل الله هو يحيا حياةً من أعلى مستوى، ولكن بنظام آخر، قد تجده مدفوناً في قبر، وقد تجده فَقَدَ بعض أعضائه، وقد يمثل الكفار بجثته، ولكن هذه الجثة ما هي إلا وعاء له، أما هو ففي أعلى عليين، وفي جنة عرضها السماوات والأرض، لذلك من الوهن أن تظن أن هذا الذي قتل في سبيل الله ميت، إنه حي بنص هذه الآية :

(بَلْ أَحْيَاءٌ)

وكلمة حي لها أبعاد، فهي وعي، إدراك، سعادة، سرور، اتصال بالله عز وجل، فهذا الذي قتل في سبيل الله هو حي يرزق :

(بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

الشهيد فرحٌ بفضل الله :

هؤلاء الذين رأوا ما عند الله من إكرام شديد فرحوا فرحاً كبيراً بفضل الله، وقد قال الله عز وجل :

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس : الآية 58)

وأنا أقول لكم : اجعل لنفسك هذا المقياس؛ ما الذي يفرحك، قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، حينما تفرح أن الله يحبك فأنت مؤمن، حينما تفرح أن الله أعانك على طاعته فأنت مؤمن حينما تفرح أن الله أجرى على يديك الخير أنت مؤمن، حينما تفرح أن الله عصمك من معصية فأنت مؤمن، حينما تفرح أن الله أعانك على تربية أولادك وكانوا صالحين فأنت مؤمن، حينما تفرح أن امرأتك مطيعة لله عز وجل، لا تؤذي أحداً في خروجها، ولا في زيها فأنت مؤمن، أما حينما تفرح في الدنيا في الدنيا فقط، ولو أنها جاءتك من معصية فأنت لست بمؤمن، قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، ما الذي يفرحك؟ ما الذي يملأ قلبك سعادةً؟ أن تكون غنياً فقط، أن تكون قوياً، أن تكون في منصب رفيع، أن تشعر أنه بإمكانك أن تتحكم في الآخرين، أما الذي يفرحك أن يسمح الله لك أن تكون جندياً من جنود الحق، الذي يفرحك أن تشعر أن الله سبحانه وتعالى استعملك في نصرته، استعملك في خدمة عباده، استعملك في ملء قلوب الناس أمناً وطمأنينة، ملء قلوب الناس سعادة، إذا استخدمك في الخير ينبغي أن تفرح .

"عبادي، الخير بيدي، والشر بيدي، فطوبى من قدرت على يده الخير، والويل لمن قدرت على يده الشر، لأن الإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، ملعون من هدم بنيان الله، إذا كان عملك مبنيًا على هدم بنيان الله، مبنيا على إلقاء الرعب في قلوب الناس المؤمنين فلست من الناجين، والمرعبون في النار .

إذا كان عملك مبنيًا على ابتزاز أموالهم، إذا كان عملك مبنيًا على إفساد أخلاقهم، يقول لك: هذا العمل عبادة، وهو يبيع أشياء محرمة، من الذي قال لك: العمل عبادة بهذا المعنى؟ قال تعالى :

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة : الآية 2)

كم حرفة في بلدنا المواد التي تتعامل معها لا ترضي الله عز وجل؟ كم حرفة لا تعد ولا تحصى مبنية على معصية، مبنية على إفساد، مبنية على تفرقة، قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت؟ متى يمتلئ قلبك فرحاً؟ إذا أتقنت صلاتك، إذا وجدت عينك تدمع من خشية الله، إذا وجدت نفسك مخلصاً لله، إذا صليت والناس نيام فانهمرت من عينيك الدموع، ما الذي يفرحك ؟ صنف نفسك مع أهل الدنيا، أو مع أهل الآخرة من خلال هذا المقياس؛ إن فرحت بالدنيا فأنت من أهل الدنيا، وإن فرحك بالآخرة فأنت من أهل الآخرة .

أحد خلفاء بني العباس كان في بيت الله الحرام، فالتقى عالماً جليلاً قال له: سمِّ حاجتك، قال: والله إني لأستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما لقيه خارج الحرم قال له: سمِّ حاجتك، قال: والله ما

سألها من يملكها حتى أسألها من لا يملكها، ألح عليه، قال: أنقذني من النار، وأدخلني الجنة، قال: هذه ليست لي، قال: إذاً ليس لي عندك حاجة .

عفة المؤمن صارخة، قال تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(169)فَرِحِينَ)

(سورة آل عمران)

الدنيا متاع ثم ماذا ؟

لذلك حينما يلقى المؤمن الله عز وجل، ويرى مقامه في الجنة يقول: لم أر شراً قط، وقد تكون حياته مفعمةً بالمتاعب، لكنه ينسى، كطالب درس دراسةً مجهدةً، فلما أحرز الدرجة الأولى في الامتحان أنسته فرحته بهذه الدرجة كل متاعبه، أما حينما الكافر يرى مكانه في النار يصيح صيحةً لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، يقول: لم أر خيراً قط .

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز يقرأ قوله تعالى :

جنة الدنيا :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 205)

متعناهم سنين طويلة، طعام وشراب وبيوت فخمة ومركبات .

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 205)

وبعد هذا :

(ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء : 206-207)

هذه الآية كان سيدنا عمر بن عبد العزيز يتلوها كلما دخل إلى مقر عمله.

يقول الله عز وجل :

(إِنَّ هَؤُلَاءِ)

(سورة الإنسان : الآية 27)

احتقاراً لهم .

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا)

(سورة الإنسان : الآية 2)

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

(سورة المدثر :8-10)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم : الآية 42)

(يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران : 196-197)

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة آل عمران : الآية 170)

إخواننا الكرام، كلمة من القلب إلى القلب: إن لم تقل: أنا أسعد الناس، وأنت في الدنيا، وأنت تعاني آلاف المشكلات، أنت سعيد بالله، سعيد بأن الله هداك إليه عرفك بمنهجه، أعانك على طاعته، سمح لك أن تتصل به، إن لم تقل: أنا أسعد الناس ففي إيمانك خلل، لأنه في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، بعضهم استنبط من قول النبي الكريم :

((أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ))

الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف

أنه في جنة القرب ، وهناك دليل قرآني :

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد : الآية 6)

عرفها لهم في الدنيا، أذاقهم بعضاً منها، أذاقهم طعمها، ينبغي أن تكون في جنة، ماذا يفعل أعدائي بي؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، وإن حبسوني فحبسي خلوة .

أنت موصول بالله عز وجل، لابد من أن تكون في جنة هذه الجنة فلنبحث عنها، إبراهيم عليه السلام كان في جنة وهو في النار، قال تعالى :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء : الآية 69)

أهل الكهف كانوا في جنة، وهم في كهف خشن، النبي عليه الصلاة والسلام كان في جنة، وهو في غار ثور، يا رسول الله لقد رأونا، قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف : الآية 198)

يونس عليه الصلاة والسلام كان في جنة، وهو في بطن الحوت، هذه السكينة التي ينعم الله بها على المؤمنين، تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بها ولو ملكت كل شيء .

والله أسمع من بعض الأشخاص الذين فقدوا حرياتهم سنوات طويلة أنهم كانوا في جنة، مع ما كان فيه من سوء المكان والعيش، ومع ذلك فهو مسرور بالله عز وجل، هذا هو جوهر الدين؛ أن تتصل بالله، أن تشعر أن الله يحبك، وأنك بعينه، قال تعالى :

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : الآية 48)

وأنك بحفظه، ورعايته، وأنك محاط برحمته .

((ومَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَه))

مسلم

السعادة تحتاج إلى استقامة :

أنت بأي مرتبة؟ قوي، ضعيف، فقير، غني، صحيح، مريض، وسيم، ذميم، أنت في أي وضع؟ ما دمت مع الله فأنت في سعادة، هذه السعادة تحتاج إلى استقامة، إلى عفة، ورع، إذا كنت ورعاً ذقت من طعم القرب، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

متفق عليه

عند التعارض، تعارضت مصلحتك مع النص الشرعي، فركلت مصلحتك بقدمك، عندئذ تستحق أن تذوق من الله حلاوة الإيمان، الإيمان له حلاوة وله معان، قد تدرك معاني الإيمان، ولا تذوق حلاوة الإيمان، حلاوة الإيمان ثمنها باهظ، ثمنها مجاهدة، ثمنها أن تكون وقافاً عند كتاب الله، ثمنها أن تؤثر النص الشرعي على مصلحتك .

يجب أن تفرح بفضل الله، يجب أن تكون من أسعد الناس وقد تكون دنياك متواضعة جداً، خشنة قد تعاني ما تعاني :

فليتك تحلو والحيــاة مريـرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني و بينك عامـر وبيني وبين العالمين خـراب

إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

ألم تسمع دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

الطبراني عن عبد الله بن جعفر

إذا كان الله معك فمن عليك، هذا الذي أقوله فرحين، رأى ما أعد الله له في الجنة فرح، إنسان.

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 170)

أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

قال تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : الآية 61)

هل يستويان؟ قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة : الآية 18)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم : الآية 35-36)

لا يستوي إنسان معه حق معه نور، معه منهج دقيق، وإنسان آخر ضائع شارد .

على كلٍ معنى :

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

المؤمن لا يخاف من المستقبل ولا يحزن على الماضي:

ما من كلمات موسعة إلى درجة غير معقولة كهاتين الكلمتين، أنت هنا الماضي كله مغطى، لا هم يحزنون، والمستقبل كله مغطى، ألا خوف عليهم، أنت بخوفك الفقر في فقر، ومن خوفك المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، لمجرد أن تقبل طمأنة الله عز وجل، ولمجرد أن تقبل طمأنة الله عز وجل، قال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة : الآية 51)

فأنت في سعادة، كن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، لا يوجد عندك شيء، لا يوجد عندك منقول، ولا غير منقول، ولا أصفر، ولا أحمر، ولا عملة صعبة، ولا أرصدة، ولا شيء، ولكن أنت واثق من رحمة الله، أنت الغني، والذي يملك كتلا مكدسة فوق بعضها من أنواع العملات، وسبائك ذهبية، وشركات، ومساهمات فهذا فقير عند الله، فلذلك أنت في خوف الفقر في فقر، من خوف المرض في مرض، توقع المصيبة مصيبة أكبر منها .

(أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : الآية 30)

ألا تخافوا في المستقبل، ألاّ تحزنوا الماضي، وإذا تقدمت بإنسان السن، وكان في شبابه غارقاً في الملذات يتحسر على شبابه، دائماً في حسرة، وإذا كانت الأخبار غير سارة فهو خائف من المستقبل، يا ترى نبقى في بيتنا أم لا نبقى؟ يا ترى هل يصبح معنا مرض عضال؟ كيف نموت؟ هذا مات موتات قبل أن يموت، أما المؤمن فواثق من رحمة الله، قال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة : الآية 51)

إذاً :

(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 171)

لابد من الصبر على فقد الأحبة :

مرة عثرت على حديث شريف رائع، أن أحد الصحابة كان يضع ابنه في حجره أمام رسول الله، وكان ابنه وسيم الصورة، النبي أراد أن يؤنسه فقال: يا فلان، أتحبه؟ قال: والله أحبك الله يا رسول الله كما أحبه، يبدو أنه يحبه حباً عالياً، فدعا للنبي أن يحبه الله كما يحبه، بعد حين افتقده النبي، فسأل عنه، قالوا: ابنه هلك، مات، فالنبي استدعاه، وعزاه، وقال له: يا فلان أيهما أحب إليك أن تمتع به عمرك، أو أن يسبقك إلى الجنة؟ فأي باب من أبوابها فتحها لك، قال: بل يسبقني إلى الجنة، قال: هي لك .

أنا تعليقي الآن: مؤمنان عندهم ولدان وسيمان يملآن البيت بهجة، مؤمن استمتع بابنه طول حياته، كبر ابنه، وصار شاباً وولدًا بارًّا حتى آخر لحظة في حياته، والمؤمن الثاني مات ابنه، وهو في سن صغيرة، المؤمن الثاني صبر، وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، هل من المعقول ألاّ يكون ثمة تعويض للثاني؟ يوجد عدل، هذا ما صبر، والثاني صبر، معنى هذا أن كل شيء بحسابه، فإذا كان الإنسان يعاني في الدنيا ما يعاني، وكان مؤمناً فله عند الله عطاء كبير، فالعبرة الغنى والفقر بعد العرض على الله .

(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

لا يضيع عند الله شيء :

والله لو أنقذت نملة من الغرق، وأنت تتوضأ لن تضيع عند الله، والله لو نزعت قشة من المسجد لقدسيته عندك، ووضعتها في المزبلة فلن تضيع عند الله، والله لو أطعمت امرأتك لقمة، لو أن في الصحن قطعة لحم واحدة، ودفعتها إلى زوجتك لن تضيع عند الله، لو أنك استقبلت ضيفاً، وآنسته، وأكرمته لن تضيع عند الله، لو أنك في عمل، وأنت رأس العمل، وابتسمت في وجه من يعمل عندك، فطمأنته لن تضام عند الله، يجب أن تعلم أنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، عبر عنها العلماء أنك في أيام الشتاء والشمس تدخل إلى أعماق الغرف اكنس أرض الغرفة، ثم انظر ماذا ترى؟ ترى ذرات عالقة في جو الغرفة يكشفها ضوء الشمس ما لها وزن أبداً، وليس لها حجم، إن عملت عملاً صالحاً بمستوى هذه الذرة فلن يضيع عند الله، لذلك نحن نقرأ ستمئة صفحة من القرآن الكريم في رمضان، ومعنا كتب فقه، وكتب حديث، ومعنا كتب تفسير، وتعليقات ومحاضرات، وندوات، وفضائيات، أعرابي قال للنبي عليه الصلاة والسلام :

((عظني ولا تطل ، قال له:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

قال: كفيت ـ اكتفى بآية، فقال عليه الصلاة والسلام: فقُهَ الرجل))

ورد في الأثر

وما قال: فَقِهَ، أي أصبح فقيهاً، آية واحدة :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

رأى زوجته متعبة، فعاونها بعمل بسيط، عاونها بصنع طبق طعام، بغسل صحن، آلاف الأعمال، أطعم هرةً، أطعم كلباً جائعاً . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا، قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

[البخاري، مسلم، أبو داود، أحمد، مالك]

فلذلك أبواب العمل لا تعد ولا تحصى، بيتك فيه ألف طريق إلى الله، تربية أولادك، جلست مع أولادك صبرت عليهم، ربيتهم، تجاوزوا حدودهم أدبتهم، ألبستهم، أطعمتهم، جلست مع أهلك كلها أعمال صالحة، إن كنت مؤمناً فما من حركة ولا سكنة إلا تعد عند الله عملاً صالحاً .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(120)وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة التوبة : 120 - 121)

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(170)يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

لا تخف ظلماً ولا هضماً، لا تخف أن تعمل عملاً صالحاً، ثم يضيع هذا هباءً منثوراً، أمثلة تدعم هذه الفكرة .

كنت مع صديق لي توفي رحمه الله، وهو من لبنان، في أحد أحياء دمشق يرجع بمركبته إلى الوراء، فاصطدم بمركبة عمومية، أنا قلقت، لعل هذا السائق ينزل، ويتكلم كلاماً، شيء غريب، نزل السائق، ونظر إلى ما أصيبت به مركبته من ضرر، الضرر يحتاج إلى آلاف الليرات، قال للسائق اللبناني: أنت مسامح، اذهب، وهذا في أثناء أحداث لبنان، هذا الموقف غريب جداً، وجدت هذا الصديق تنهمر من عينه دمعة، أنا عجبت، هل من المعقول أنه فرح لأنه ما دفع تعويضاً عن هذا الحادث؟ ليس هذا هو المعنى، سألته: لماذا تأثرت؟ قال لي: والله قبل سنتين، وأنا في بيروت، إنسان من سوريا ركب سيارة بيجو، ومعه أهله محجبون، صدم سيارتي، قال لي: والله ما أردت أن أفسد عليه نزهته، قال له: اذهب، فلما رأى من يعامله نفس المعاملة خشع لله .

لا يضيع عليك شيء أبداً، أطعمت طعاماً، تنقذ إنساناً، تنصح إنساناً، تتساهل مع إنسان، تعفو عن إنسان يعفو الله عنك، فلذلك يجب أن تعلم علم اليقين أنه ما من عمل صالح مهما دق فله عند الله أجر، ما أكرم شاب شيخاً لسنه، وأنت كنت شاباً تركب مركبة عامة، صعد إنسان متقدم في السن، بالمناسبة إن من إجلال الله إجلال ذا الشيبة المسلم، إنسان مسلم وجهه منير، عمره ثمانون سنة، هذا إكرامه إكرام لله عز وجل، فأنت وقفت له، وكنت جالسا في مقعد .

في المسجد يأتي إنسان متقدم في السن، يحب مكاناً مريحاً، وترى شبابًا صغارا جالسين، مرتاحين، وهذا الإنسان المتقدم في السن لا يجد مكاناً يرتاح فيه، جدير بالشاب إذا كان جالساً في مكان مريح، ورأى إنساناً متقدماً في السن أن يقدّمه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّه))

الترمذي

لا يمكن أن يعامل اللهُ المؤمن وغير المؤمن على حد سواء :

لي صديق بمصر قال لي: توفي لنا قريب قبل أن يتوفى قال لي : شخص عادي جداً، حتى أقلّ من العادي، دون الوسط، وأولاده في الدين دون الوسط، أسرة من عامة الأسر، غير متميزة إطلاقاً، فلما مرض الأب وجد من أولاده عناية لا يمكن أن تصدق، أولاد عاديون لا يوجد دين قوي يدفعهم لخدمة والدهم، ولا يوجد هذا الأب المثالي الذي قدم كل شيء لأولاده، لا هذه، ولا تلك، قال لي: عجيب، بقيت أشهراً وأنا في حيرة من هذا الوضع، سمع من خدمة الأولاد لأبيهم شيئا لا يصدق، مع أن الأبناء عاديون، والأب عادي، ثم اكتشف أن هذا الأب حينما كان شاباً كان يرعى أباه رعاية من هذا المستوى، فسخر له الله هؤلاء الأولاد ليرعوه، هذه الآية يجب أن تدخل للعظم، تدخل لأعماقنا، تكون مع ذرات دمائنا، مع خلايا جسمنا :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

اشترى رجلان سيارتين من ألمانيا، فجاءا بها إلى الشام، نزلا في فندق في بولونيا الساعة الثانية عشرة ليلاً، ثم طرق بابا الغرفتين من قبل فتاتين عاهرتين، الأول فتح الباب، والثاني ما فتح، في المستقبل الأول صاعد، والثاني نازل، سلم محله، اختلف مع زوجته فطلقها، وأفلس، والثاني الذي ما فتح ارتفع قدره، كل شيء بحسابه :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة التوبة : الآية 120)

كنت مرة راكبًا مع إنسان، فسألته سؤالاً، قد يكون سؤالاً عادياً، قلت له: هذه المركبة متى اشتريتها؟ قال لي: من كذا سنة، ولكن لها قصة، قلت له: ما قصتها؟ قال لي: أنا ساكن في حي بعيد عن عملي، وما عندي مركبة، وكنت متألماً جداً من أزمة المواصلات، ومن حمل الأغراض، فاشتريت ورقة يانصيب لعلي أربح، فأشتري بالمال مركبةً أحل بها مشكلتي، اشتريت هذه الورقة، ودخلت إلى أحد المساجد، فإذا الخطبة عن اليانصيب، لا حول ولا قوة إلا بالله، علق الآمال على هذه الورقة، فما كان من هذا الخطيب إلا أن تكلم على اليانصيب، أخرج الورقة، ومزقها في المسجد خوفاً من الله، قال لي: أنا بالعادة أعمل في عشرين قطعة مئة قطعة، جاءني إنسان يريد خمسين ألف قطعة، قال لي: ربح هذه الصفقة ثمن هذه السيارة، كان تعليقي أنا: إنه معقول أن تمزق ورقة اليانصيب في الجامع خوفًا من الله، ثم لا يعطيك الله مقابلا، الله موجود .

هناك قصص لا تعد ولا تحصى، لو أردت أن أعزز هذه الحقائق بقصص لا تعد ولا تحصى، هل من المعقول أن تدع شيئاً لله، وتكون أنت الخاسر، معقول أن تطيعه وتخسر؟ وأن تعصيه وتربح؟ معقول أن ترعى أولادك والله عز وجل يجعلهم عاقين لك، مستحيل، معقول أن تختار زوجة لأنها مؤمنة، ثم لا تسعد بها؟ مستحيل، معقول أن تترك عملاً لله فيه دخل كبير وترضى بدخل يسير،

ولكنه شريف، وتكون آخر الناس؟ مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه، وتخسر، وأن تعصيه وتربح .

هذه الآية :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه (7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : الآية 7-8)

أيُعقل كلما رأى شاب فتاةً فقال: أعوذ بالله، معاذ الله، فغض بصره عنها، وإنسان يملأ عينيه من الحرام، لا يدع منطقة في جسم الفتاة إلا ملأ محاسنها بعينيه، ثم يتزوجان، ويعاملان معاملة واحدة؟ قال تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : الآية 21)

حياتهم الدنيا ومماتهم ساء ما يحكمون، تترفع عن شيء محرم ولا تأخذ الثمن، طبعاً قد يكون في الآخرة، وليس في الدنيا، والدنيا ليست دار جزاء .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : الآية 21)

أيُعقل أن تنصح مريضاً بعدم إجراء العملية لأنه لا يحتاجها، وطبيب آخر ينصحه بإجراء عملية، ولا يحتاجها، أن يعامل الطبيبان سواءً؟ معقول أن تعتذر عن أخذ دعوى، وأنت محامٍ، لأن الدعوة فيها ظلم، ومحامٍ آخر لو أنه ظالم يأخذ الدعوى، ويدافع عن الظالم ويربح، ويعامل المحاميان معاملة واحدة .

والله أذكر إنساناً دخل بيتي، فقال لي: كم تقدر عمري؟ قلت له: ستون، قال: ستة وسبعون، أنا تفاجأت، قال: والله بإمكاني أن أهدم هذا الجدار، أشعر كأنني حصان، مات منذ كم سنة، عاش إلى التسعين، والله أعلم، وليس متقيدًا بشيء من قواعد الصحة .

بالمناسبة، قال لي: ولكنني عملت في سلك صعب جداً، وفيه دخل مخيف، لو أراد أن يأخذ مالاً حراماً، قال: والله ما ضررت إنساناً واحداً في حياتي، ولا أكل قرشاً حراماً، والله عز وجل في نهاية حياته كان له بيت في الشام، وبيت في المصيف، وأولاد ومركبة، قال لي: أنا في بحبوحة كبيرة، ومرة أصيب بحادث، وكاد يفقد حياته، لأن دمه كله نزف منه، إلى أن وصل إلى المستشفى قال لي: وأنا مستلقٍ على طاولة العمليات ناجيت الله، وقلت له: يا رب إن آذيت لك عبداً واحداً من عبادك فأمتني الآن، وإلا فلي حق عليك أن تشفيني، قال لي: ما كنت سبباً في إيذاء واحد بكل حياتي، وغيري بنى مجده على أنقاض الناس، وبنى غناه على إفقار الناس، وملؤوا قلوب الناس رعباً، قال لي: قصموا وماتوا فقراء .

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(السجدة : الآية 18)

هذه حقيقة مهمة جداً، لا يمكن أنت تعامل كما يعامل الفاسق، لا يمكن أن تعامل كما يعامل المنحرف، لا يمكن أن تعامل إذا كان دخلك حلالاً كما يعامل الذي دخله حرام، لا يمكن أن تعامل إن أردت من زواجك طاعة الله كمن أراد من زواجه المتعة فقط، مستحيل، لذلك قال تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

أجرك محفوظ، بل إنك إن تضع لقمةً في فم زوجتك تجدها يوم القيامة كجبل أحُدٍ .

أراد إنسان أن يتزوج، فخطب فتاة مناسبة جداً، الفتاة في طول رجليها فارق ثمانية سنتمترات، عاهة ولادية، فتلبس حذاء كعب ثمانية سنتمتر، وكعب زحاف، وتلبس الطويل، الأمر تمام، خطبت، وأعجبت من خطبها، فتم الزواج، وكتب العقد، يوم العرس انكشفت، وحماتها كشفتها، فحملت ابنها على تطليق امرأته، قال لها: لا أطلقها، ولا أكسر خاطرها، يقسمون بالله خلال سنوات معدودة صار معه مئتا مليون، ويوجد قرابة، قال لأمه: لا أكسر خاطرها، لا يوجد مشكلة، واستوعب الموضوع، ورحمها .

مستحيل أن تعمل عملاً طيباً لا ترى ثماره في الدنيا، أو في الآخرة، لذلك هناك قول ترتعد له المفاصل: "ما أحسن عبد من مسلم أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة"، ولو كان كافرًا، ملحدًا، خدم الله فهيأ له من يجازيه على خدمته في الدنيا .

ترى إنساناً لا يوجد به دين، ولكن يحب أن يخدم، ترى أموره ميسرة، دخله معقولا، ما عنده مشكلة، الآخرة موضوع ثان، تخدم إنساناً في الدنيا فيضيع عليك هذا العمل، هذا مستحيل، مستحيل على عظمة الله، وعلى كماله، وعلى فضله، وعلى عدله ورحمته :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

تترك بيتك المريح، وأنت مرتاح على الفراش، وزوجتك معك تشرب الشاي، والقهوة في الإفطار، أريد صحنًا من الفاكهة، وتترك هذا البيت المريح، وتلبس، وتأتي إلى المسجد، وتجلس على الأرض، لا يوجد كأس شاي، تسمع درس ساعة، وتعود ثلاث ساعات، هذه بلا مقابل ! مستحيل، الله يضيفك في المسجد، يضيفك سكينة، حكمة، توفيقًا في حياتك، أولادًا أبرارًا، زوجة صالحة .

قال أحدهم: "أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي"، إذا ما كنت مع الله جيداً تحرن الزوجة، تغلبك من دون سبب، الله يضيفك زوجة، أولادًا أبرارًا، يضيفك صحة، طمأنينة، سعادة، سكينة، "إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر " .

ممكن ألاّ تضيف إنساناً دخل إلى بيتك شيئًا؟ ولو سُكّرة، ولو كأسًا من الشاي، مستحيل، ما تضيف الله عز وجل، أنت في بيته، نوع ضيافته نوع متفوق جداً، يكرمك بسكينة تملأ قلبك يكرمك بالتوفيق، قال تعالى :

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل : الآية 7)

يكرمك بالتوفيق :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

لا تخف، ولو أديت أقل عمل تتصوره فلن يضيع هذا الأجر، بل هو محفوظ عند الله، إن شاء عجل لك ثوابه في الدنيا، أو أخّره إلى يوم القيامة .

ذهب إنسان إلى بلد غربي، يبدو أنه مربى تربية دينية، وجد الفسق غير معقول، أرسل إلى والده رسالة، وقال له: إما أن ترسل لي زوجةً على جناح السرعة، وإما أن أعود إلى البلد، أنا أعصي الله، والوضع لا يحتمل، فالأب طلب منه وكالة، وعمل عقدًا، وأرسلها له .

أسمع قصة أنه يوجد وفاق بين الزوجين لا يصدق، لماذا؟ لأن هذا الزواج بني على طاعة الله عز وجل، الإنسان يشاهد خمسين امرأة لا تعجبه، هذا على ذوق أبيه تزوج، يرى خمسين يكون ما شاهدها، طبعاً في المطار قال لها: إن فلانًا ما شاهدها، يمكن أن ينجح هذا الزواج إلى أقصى درجة، لأنه بني على طاعة، القصص لا تعد ولا تحصى في تعزيز معنى قوله تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

يأتي أخ يعمل في المسجد خمس ساعات يوم الخميس لوجه الله، بلا مقابل، هذه عند الله!

الله عز وجل قبل توبة بغِيّ رأت كلباً يأكل الثرى من العطش، فسقته، قال: فغفر الله لها، فشكر لها، تطعم كلباً بلا مقابل، تطعم هرة، تعتني بحيوان مريض بلا أجر! هذه انزعها من ذهنك، أهل الدنيا مساكين يتوهمون أن المؤمن أجدب، يبذل ماله، ما تريد بوجع الرأس، اجلس في بيتك أريح لك، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُم))

الترمذي، ابن ماجه، أحمد

يقول لك: أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح .

ورد في الأثر :

((من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل خطوة خطاها عبادة سنة ، قام ليلها وصام نهاره))

ورد في الأثر

والعوام يقولون: امش في جنازة ولا تمش في زواج، هذه لا أريد أن أوجع رأسي، وهذه أعتذرمنها، وهذه ليس لدي وقت فراغ، ترى نمطاً لا يعمل شيئاً، شخصان أحدهما أقدسه تقديساً لا

حدود له، لأنه لا يخطئ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم، ويوجد إنسان لا يخطئ، ولكن أحتقره، وهو الذي لا يعمل، فلا يغلط، لا يقدم خدمة، لا يعاون على عمل صالح، لا يساهم بمشروع، ينتقد فقط، لا يغلط، لا يتورط في شيء أبداً، اسمه العفريت النفريت، نازل واقف، دائماً لا يدخل في عمل صالح، مرتاح، فقط ينتقد، ينظر للناس، ويشمت بهم، وينتقدهم، هذا الإنسان مع أنه لا يخطئ يُحتقَر، من لا يعمل لا يخطئ .

فلذلك نحن نرجو رحمة الله عز وجل، يستبشرون المؤمنين .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(51-60): تفسير الآيات 172 – 175
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-11-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الثانية والسبعين بعد المائة، وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ

التضرع إلى الله عقب المصيبة :

شيء رائع أن تستجيب لله عقب مشكلة ألمت بك، معنى ذلك أنك فهمت على الله، أن هذه المشكلة لم تكن صدفة، لكنها كانت بتقدير عزيز حكيم، مرب رحيم، والذي تأتيه المصيبة، ولا يفهمها، لا يفهم حقيقتها، لا يفهم باعثها، لا يفهم من قدرها عليه، فمصيبته في نفسه أكبر، هو المصيبة، من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر بكثير، لذلك لو دخلت إلى مسجد لا تبالغ، فقد يكون تسعة أعشار الحاضرين التجؤوا إلى الله، وأقبلوا عليه، واصطلحوا معه عقب تدبير إلهي حكيم، عقب تدبير تربوي، وإن الله رحيم، والرحيم لا يحصي على الطرف الآخر أخطاءه، لكنه يعالجه .

الابتلاء والمحن من أجل التضرع :

لا بد من مثل أضربه كثيرا، لو أنك مدير مؤسسة، وعينت موظفا، واشترطت عليه أن هناك مدة للتجريب، فإما أن تفصله وإما أن تقبله، المدير في هذه المدة مهمته إحصاء الأخطاء، فإذا بلغت حدا غير معقول صرفه، واستبدل به آخر، لو أن هذا الموظف هو ابنه، مهمة المدير حينئذ ليست إحصاء الأخطاء، ولكنها معالجة الأخطاء، فكلما أخطأ بدافع رحمة، كلما أخطأ يأتي به، يوضح له، ينبهه، يبين له الصواب، هذا شأن الرحيم، شأن القوي إحصاء الأخطاء، شأن الرحيم معالجة الأخطاء، فالإنسان لو أن الله كلفه حمل الأمانة نصب له الكون دالا عليه، وعلى كماله، وعلى وحدانيته، وعلى وجوده، أرسل له الأنبياء والكتب، وأعطاه عقلا، وأعطاه فطرة، وأعطاه اختيارا، و أعطاه شهوة، و أعطاه كل حاجاته للتكليف، وانتهى الأمر، لوجدت أن معظم الناس استحقوا النار

أبدا مؤبدا، لكن الله يسوق لبعض الخلائق شدة، يقتر عليهم في الرزق أحيانا، يسوق لهم بعض الشدائد، يصيبهم بالجفاف أحيانا، يصيبهم بحكم قاهر أحيانا، قال تعالى :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: الآية 65)

هذا كله من أجل التربية ، هناك دليل أقوى ، قال تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم: الآية 41)

لا يمكن أن يكون هناك فساد من قِبَل الله عزوجل، كماله مطلق، فكل شيء يسيره الله عزوجل كمال مطلق .

مثلا: مجتمع النحل أرقى مجتمع في الوجود، لأن مجتمع النحل العلاقات فيما بين النحلات بأمر تكويني، لا بأمر تكليفي، النحلة ليست مكلفة، لكنها مسيَّرة، أن تكون منظمة، هناك أشياء مدهشة في النحل، التكافل، النظام، نحلة لكلمة السر، نحلات للتهوية، نحلات وصفات للملكة، نحلات يستكشفن مواقع الزهر، لو درست مجتمع النحل لذهلت، الملكة واحدة لو ادعت الملك ملكة أخرى تُقتل، نظام ما بعده نظام، لكن هذا نظام بأمر تكويني، لكن مجتمع البشر نظامهم بأمر تكليفي، بعضهم يطيع، و بعضهم لا يطيع، فالشيء من فعل الله مباشرة هو كمال مطلق، لذلك قال تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم: الآية 41)

وهذه الباء للسبب، بما كسبت أيدي الناس، لماذا؟ قال :

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

(سورة الروم: الآية 41)

شاءت حكمة الله أن يذوق هؤلاء البشر نتاج فسادهم، و كان من الممكن ألاّ يذوقوا نتاج الفساد . مرض الإيدز مثلا، هذا ظهر من الشذوذ تقريبا في الدرجة الأولى، كان من الممكن أن يكون هناك انحلال أخلاقي، وإباحية وشذوذ، يكتفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ولا يكون هذا المرض، و لكن هذا المرض شاءته حكمة الله، قال :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم: الآية 41)

لماذا ؟قال :

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم: الآية 41)

واضح تماما، معنى ذلك ما منا أحد إلا تولى الله تربيته، إما أن يخيفه، وإما أن يوهمه بشبح مصيبة ساحق إما أن يعالجه من خلال صحته، من خلال دخله، من خلال عمله، من خلال زوجته، أولاده، من خلال علاقاته الخارجية، لا بد من التربية :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الفاتحة: الآية 2)

المربي ليس مهمته أن يمدك بالغذاء، والطعام، والشراب فحسب، لكن مهمة المربي الأولى أن يأخذ بيدك إلى سعادتك، وإلى صلاحك، وإلى استقرارك، فلذلك قال تعالى :

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

الاستجابة لله والرسول هي الأخذ بالكتاب والسنة :

استجابتك لله أن تتوب إليه، وأن تصطلح معه، واستجابتك لله أن تنفذ ما في القرآن، واستجابتك لرسول الله أن تنفذ سنته الشريفة، لذلك فالإنسان عنده بحبوحة، قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

كيف نفهم الآية بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى؟ الآية دائمة، ما دامت سنة النبي مطبقة في بيوتنا، في أعمالنا، في أفراحنا، في أتراحنا، في علاقاتنا، في كسب أموالنا، في سفرنا، في حلنا وفي ترحالنا، فنحن في مأمن من عذاب الله، لقد أنشأ الله لنا حقا عليه، قال :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

أما إذا اكتفينا بالشعائر، بالعبادات الشعائرية، بالصلاة والصوم والحج والزكاة، ولم نتقيد بالعبادات التعاملية، من الصدق، والأمانة، والعفة، وصلة الرحم، وإنجاز الوعد، وإحقاق الحق، إن لم نتقيد بهذه العبادات فقدنا حقنا في قطف ثمار هذه العبادات الشعائرية، فتغدو عبادات جوفاء لا معنى لها، فلذلك يقول الله عزوجل :

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

يمكن أن تستجيب لله إذا تفكرت في عظمة هذا الكون، يمكن أن تستجيب لله بمبادرة منك، يمكن أن تستجيب لله حينما تنظر أن هذا الكون ينطوي على عظمة خالقه، وأن هذا الخالق العظيم ينبغي أن أكون على صلة معه، ويمكن أن تستجيب بعد مشكلة، وكلاهما على العين والرأس، ومن أساليب النبي عليه الصلاة والسلام أنه يقول :

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

ولكن النبي جبّار الخواطر، قال:

((وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

والمؤمن الضعيف على العين والرأس، أما القوي فنفعه أوسع، ومهمته أخطر، وبإمكانه أن يرقى إلى أعلى درجات الجنة من خلال القوة التي مكنه الله بها، لذلك كلما التقيت بإنسان ممكّن في الأرض بمنصب رفيع أقول له: لك حساب خاص مع الله، ما مكنك الله في الأرض إلا لتستخدم هذه القوة في نفع المسلمين، في إحقاق الحق، فإن لم تستفد من هذه القوة فلك إثم مضاعف، فكل إنسان ممكن في الأرض إن فعل خيرا فله جزاء مضاعف، وإن فعل سوءا فله عقاب مضاعف، لأنك قدوة، وكل من قلدك في الخير أعماله في صحيفتك، ولأنك قدوة، وكل من قلدك في الشر - لا سمح الله - فشره في صحيفتك، لذلك ذكر الله نساء النبي، وقد وعدهن بأن يؤتي كل واحدة منهن أجرها مرتين، لأنها السيدة الأولى في المجتمع، زوجة النبي الكريم، يؤتها أجرها مرتين، قال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

قالوا: ما ضاعت عَبرة - دمعة - كانت لصاحبها عِبرة .

المصائب نعمٌ باطنة:

واللهِ أحيانا إخوة كثر اهتدوا إلى الله عقب مشكلة ألمت بهم، قد يكون عقب مرض، قد يكون عقِب عقاب أليم نزل بهم، قد يكون عقب محنة خسروا بها حريتهم لفترة ما، هؤلاء الإخوة الكرام يقسمون بالله إن هذه المحنة سبب سعادتهم، وأن هذه المصيبة سبب اصطلاحهم مع الله، لذلك وقعها عندهم وقع مقبول جدا، بل محبب، لهذا سمى الله هذه المصاب نعما باطنة، قال:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان: الآية 20)

المصائب نعمة باطنة، واللهِ أخ قبل أسبوع ساق الله له محنة في عمله شديدة، أفقدته محله التجاري، أفقدته مكانته في السوق، وضاقت به الأحوال، وضاقت ذات يده، وعانى ما عانى، أقسم لي بالله قبل أيام أنه عرف عن الله أشياء ما كان يعرفها قبل المحنة، وارتقت عبادته إلى مستوى ما كان يحلم بها قبل المحنة، وازدادت معرفته بالله ما كان ليكون هذا إلا بعد هذه المحنة، فالمؤمن الصادق حينما يصيبه الله بمحنة ليعلم علم اليقين أن وراء المحنة منحة، وإذا ساق الله له شدة ليعلم علم اليقين أن

وراء هذه الشِّدة شَدة إلى الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

رواه مسلم

لابد من الرضى بقدر الله لجهل الإنسان بالحكمة الربانية :

إذا سلب الله منك بعض الصحة ليعوض عليك أضعافا مضاعفة قربا منه، لذلك النبي الكريم علّمنا أن المؤمن إذا جاءت الأمور كما يتمنى، وإذا جاءت الأمور على غير مراده يقول، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ))

ابن ماجه

هو راض عن الله، سواء انتصر المسلمون أو لم ينتصروا، الأمر بيده، أنا عليّ أن أدعو لهم، و أتفاعل معهم، وأن تكون مشاعري معهم، لكن لله حكمة بالغة لا أعلمها أنا .

الفرق بين الذي يعبد ذاته والذي يعبد الله أن الذي يعبد ذاته إذا جاءت الأمور وفق مصالحه يسلم لها و يقبلها، ويثني على الله من خلالها، أما إذا جاءت على خلاف ما يريد أساء الظن بالله عزوجل، هذا الإنسان لا يعبد الله، يعبد ذاته، لذلك الله عزوجل لحكمة بالغة جعل مساحة كبيرة من الأمر التكليفي لمصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة، لكن هناك قيم من أوامره التكليفية لامتحان عبوديته لله، لو لم تفهمها، لو لم تقف على حكمتها، لو عجبت لماذا صار هكذا، لماذا تخلى الله عن هؤلاء؟ أنا عبد فقير، وعلمي محدود، لا يمكن أن تعرف الله من خلال أفعاله فقط، ينبغي أن تعرف الله من خلال خلقه، ومن خلال كلامه، هذان مصدران آمنان لمعرفة الله، في ضوء معرفتك بالله من خلال خلقه، ومن خلال كلامه تفسر أفعاله .

مثل بسيط جدا: أنت إنسان رأى رجلا طويلا قويا متينا يمسك بطفل صغير ويضربه، تقول: هذا وحش، لو علمت أنه أب، و قلب: الأب من آيات الله الدالة على عظمة الله، لعله ضبط ابنه بسرقة، وهو ابنه، لا بد أن يعاقبه، لا أن يحدث له خبرة مؤلمة، أنت لاحظ نفسك، تمشي في الطريق رأيت

ابنك وابن أخيك وصديق ابنك يدخنون، ينشأ عندك انفعا تجاه ابنك لا يصدق، وينشأ انفعال أخف من ابن أخيك، أما الثالث فتقول له: انطلق، الانفعال الشديد تجاه ابنك، قد تضربه، ابن أخيك أقلّ، تقول له: سأخبر أباك، أما صديق ابنك فلا علاقة لك معه، ما دام هناك رحمة، فهناك معالجة .

قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ)

(سورة التوبة: الآية 38)

ينصحكم .

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة: الآية 38)

هذا موقف الإله، لكن موقف الرب :

(إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التوبة: الآية 39)

معنى ذلك أن العقاب دليل رحمة، هناك دليل أقوى، قال تعالى :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ)

(سورة النعام: الآية 147)

جميل.

(وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النعام: الآية 147)

تقتضي رحمته الواسعة ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين، لا سمح الله ولا قدر، لو أن أبا رحيما علم أن ابنه في حاجة إلى عملية، وإن لم تُجر في أيام ثلاثة يتفاقم المرض، هناك أورام، إن استأصلتها في الوقت المناسب لا تنتشر، و هناك أورام لا سمح الله ولا قدر إن أهملت استئصالها تنتشر، عندئذ الشفاء منعدم، فالأب الرحيم قد يبيع غرفة نومه ليجري لابنه العملية الجراحية، هذه الرحمة .

إذًا :

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

القرح، الجرح، مطلق الألم.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ

هنيئا لمن استجاب لله عقب مصيبة :

كنت في درس من دروس الأحد، فإذا أخ يتبعني ويقول: لك عندي قصة، لا بد أن ألقيها، تفضل، طبعا في لقاء في البيت، قال: أنا عندك منذ ثماني سنوات، قال لي: كنت في فرنسا أدرس، قال: ما من معصية إلا اقترفتها هناك، ولو أنها شاذة، و لو أنها قذرة، قال: ألفت حياة الفجور، والزنا، والشذوذ، والسهر، والخمر، طبعا حصل على دكتوراه في الكومبيوتر، قال: عدت إلى بلدي، نقلت ما في باريس إلى دمشق، بيتي فيه ملهى، وتفلت، أول السنة في فنادق، زوجته منطلقة إلى درجة غير معقولة، حدثني بالتفاصيل، وقال لي: أرجوك أن تتلو قصتي على الإخوة، القصة قديمة، في عمله مركزه قوي، وهو وسيم الصورة، له شهادة عالية جدا، منفتح إلى أقصى درجة، متفلت إلى أقصى درجة، بالتعبير الدارج، زوجته سافرة، وهو كذلك، قال لي: فجأة رأيت أشياء تتحرك أمامي هكذا، وفقدت التوافق الحركي، والتوازن في المشي، لا بد من إنسان يمسكني، إذ حاولت إمساك كأس شاي، ست أو سبع محاولات حتى تتوافق يدي مع كأس الشاي، ولا يمكن أن يمشي وحده إلا بمن يعينه، فقد التوازن، و الصورة مرتجة أمامه، وكل شيء يتحرك، قال لي: لم يبق طبيب في دمشق إلا وقد زرته، قال لي: زرت ستة و ثلاثين طبيبا، ولا أمل، فعاد إلى فرنسا مكان دراسته هناك، قال لي: بفرنسا أول ما لاحظوا أعراض هذا المرض أخذوني إلى مستشفى، وجاء طبيب بطائرة هيليكوبتر، فوجئوا أن هذا المرض نادر جدا، نسبة الإصابة به في العالم واحد من ثلاثة عشر مليونا، وسورية ثلاثة عشر مليونا، فهو مندوب سورية، قال لي: الذي آلمني أشد الألم أن معالجتي وإقامتي وعودتي بالمجان، هدية من فرنسا، لأني صرت حقل تجارب، هذا المرض نادر جدا، يقدم كحقل تجربة، قال لي: بقي الطبيب يعالجني ستة أشهر، و قال لي بالحرف الواحد: إن اختصاصي أعلى اختصاص في العالم في هذا المرض، قال لي: لا أمل في شفائك، أرقى مركز في العالم هنا، وأعلى اختصاص أنا، ولا أمل، نصحني أن أذهب إلى الهند كي أمارس اليوغا، وأن ألتحق بمهرجان من مهرجان التهنيد، فعدت إلى بلدي، والدنيا سوداء في عيني، حياة لا تحتمل، لا يستطيع المشي، ولا يستطيع أن يمسك شيئا بيده، والصورة مهتزة أمامه، يسكن هنا قريبا من جامع الحاجبية، وكان لي درس هناك قديما ، قال لي: كان لي قريب كان يحضني على حضور الدرس، بشكل غير معقول قال: مللت منه، لدرجة أني حضرت درسا واحدا كي أسكته، قال لي: واللهِ أنا في واد، وأنت في واد، كل تفكيري في المعاصي والآثام، وما فهمت كلمة من الدرس، هذا قبل أن يصاب بالمرض، قال لي: بعد أن عدت من فرنسا، وحالتي ميؤوس منها، دعاني مرة ثانية، قال لي: حضرت الدرس، هذه المرة هناك شيء من الاستماع، قال: وأنا في الدرس قلت: يا رب إن شفيتني فسأصلي، شرط، قال لي: في الدرس الثاني قلت أنت دون أن تشعر: إن الله عزوجل لا

يشارط، ولا يجرّب، الذات الإلهية علية، لا تشارط، ولا تجرب، قال لي: "دخلت إلى البيت، فقلت لزوجتي: أريد أن أغتسل لأصلي، قال لي: وقفت في الصلاة، وقرأت الفاتحة، وأنا أبكي، في منتصف الفاتحة الصورة ثبتت، قال لي: والله كدت أصعق، ما تركنا محلا في العالم، قال لي: بعد أن انتهت الصلاة مشيت فوقعت، لم تذهب الحالة الثانية، أمسكت الكأس لم أستطع، بعد ساعة عاد لي التوافق الحركي، و التوازن في المشي، وشفيت من مرضي، و لزم هذه الدروس ثماني سنوات، ورجاني أن أقول قصته، والقصة قديمة .

هذا لولا هذه المصيبة أين هو الآن؟ من ملهى إلى ملهى، ما الذي ساقه إلى الدين؟ هذه المصيبة، لذلك عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ :

((كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْخَنْدَقِ فَأَخَذَ الْكِرْزِينَ فَحَفَرَ بِهِ، فَصَادَفَ حَجَرًا، فَضَحِكَ ،قِيلَ: مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: ضَحِكْتُ مِنْ نَاسٍ يُؤْتَى بِهِمْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فِي النُّكُولِ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ))

رواه أحمد

ثمة رجل عنده مطبعة، يبدو في المواسم الجيدة جدا، قال لي: حققت أرباحا فلكية، هكذا قال لي بالضبط، وأنا أنقل لكم ما قال لي، قال لي: هيأت خمسمائة ألف ليرة، وضعتها عملة صعبة، أردت أن أمضي شهرا في أمريكا، من دون زوجته، حتى يأخذ حريته، هكذا صراحة، قال لي: هناك، ثالث يوم أو سادس يوم شعرت بآلام شديدة في ظهري، زار طبيبا فقال له: سرطان في النخاع الشوكي، قال لي: بركت، قطعت إجازته، عاد إلى الشام، من جامع إلى جامع، بعد ذلك لم يكن معه سرطان، ساق الله له هذه الشدة ليحمله على التوبة، ليس هناك واحد إلا والله عزوجل يعالجه، ويؤتى من مأمنه، المكان المرتاح فيه تأتي منه المشكلة، قال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

الاستجابة بعد المصيبة فضيلة كبيرة :

هذه فضيلة في الإنسان، أن هذه المصيبة فكّر فيها، قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء: الآية 147)

إن الله لا مصلحة له أن يسوق لعباده شدة، جفاف، الجفاف تقنين تأديب، لا يمكن أن يكون الجفاف تقنين عجز، أما نحن كبشر فليس عندنا كهرباء زائدة، انقطعت الكهرباء، انقطع الماء، البشر إذا قننوا فتقنين عجز، الإله إذا قنن فتقنين تأديب، لقوله تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: الآية 21)

نحن كل طموحنا في الشام نريد مائتين وعشر ميلي طول السنة، خلال سبعة أشهر، نزلت اثنتي عشرة ساعة في الجزائر، ممكن ، فأن تستجيب لله بعد القرح هذا جيد جدا ، فضيلة، لكن بعد أن تستجيب لله تائبا، و بعد أن تعمل صالحا، لك أجر عظيم .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

استجاب وأحسن، استجاب و تفوق، استجاب وأعطى .

هناك إنسان إذا مر أمام أستاذ ظالم يمكن أن يضربه، هناك إنسان وضعه مع الله خائف، على طول خائف من الضرب، يجب أن تكون محبا، أن تكون محسنا، هناك فرق بين أن تدافع التدني، أو أن تتابع الترقي، فأنت حينما تأتي الله مطيعا منيبا خاشعا يقبلك الله، ويطمئنك، ويرفع شأنك، ويعلي قدرك، ويرفع لك ذكرك .

الإحسان بعد المصيبة شيء رائع :

فالذين استجابوا شيء رائع، لكن للذين أحسنوا منهم، بعد أن استجاب له عمل طيب، بذل، أعطى .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

عكرمة بن أبي جهل، أبو جهل أعدى أعداء النبي، أحد صناديد الكفر، و كان من أشد الناس عداوة للنبي عليه الصلاة والسلام، فيبدو أن عكرمة تاب، فالنبي الكريم لكماله العظيم قال :

((جاءكم عكرمة مسلما فإياكم أن تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذي الحي ، ولا يبلغ الميت))

ورد في الأثر

يؤذي ابنه، ولا يصل الميت، فلما كانت بعض المعارك نزل عن فرسه، سل سيفه، وانخرط في صفوف العدو، سيدنا خالد خاف عليه، لك مواقف وأنت مع رسول الله، أنا ليس عندي شيء .

المؤمن لما يستجيب يتمنى أن يعوض كل شيء قصّر فيه سابقا، يعمل فيه أعمالا صالحة، هذا استجاب، وأحسن، وليس أنه استجاب وبقي سلبيا، لا، كل موقف وقفه ضد الحق سيقف مكانه مع الحق، كل إنفاق أنفقه على شهواته الآن سينفقه في طاعة الله، كل وقت أمضاه مع رفقاء السوء سيمضيه مع طلاب العلم، هذا معنى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

قال تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية 173)

الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

جمعوا لكم حشودا وتحالفات، و طائرات، حاملات طائرات، و صواريخ، وقنابل تلقى بمظلة، و شيء انشطاري، و شيء عنقودي، وشيء ذكي، قال :

(فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران: الآية 173)

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل

اعبد الله الذي بيده الأمر كلُّه :

ليس لنا إلا الله، الله عزوجل مستحيل، وألف ألف ألف مستحيل أن يسلمنا لإنسان ظالم يفعل ما يشاء، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: الآية 123)

ينبغي أن تعبد من أمرك بيده، أما توهم الناس لضعف يقينهم وتوحيدهم، ولشركهم الخفي أن الأمر بيد واحد يملي إرادته على كل الناس وكل الشعوب، هذا وهم شركي، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: الآية 123)

ولو لم تفهم حكمته من بعض أفعاله، أنا مؤمن بوجوده، و بكماله المطلق، وبحكمته، ورحمته وعدله، هذه الأمور أنا لا أفهمها، لا أفهمها إلا بحالة واحدة، أن يكون ليعلم كعلم الله، وهذا مستحيل، إذًا: أنا أسلّم لله عزوجل، أنا مهمتي أن أعبده، قال تعالى :

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر: الآية 66)

وقال تعالى :

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف: الآية 144)

أنا أتعاطف، وأبكي أحيانا ألما لما يجري، أتألم ألما شديدا، وأتمنى تمنيا شديدا، أدعو من أعماق قلبي، أنا عبد فقير لا أملك أن أحدث تغييرات في العالم، لكن أنا علي أن أطبق منهج الله في بيتي وعملي، وأن أشكره .

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف: الآية 144)

تنتهي مهمتك هنا .

قال تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

(سورة آل عمران: الآية 173-174)

إن الله عزوجل وعدنا، لكن متى تحقيق الوعد؟ لا نعرف، وعده قطعي، لكن متى؟ هذا في علمه، متى ينصرنا؟ لا نعلم، نعلم أنه يجب أن نطيعه، أن نحبه، و أن نعتمد عليه، وانتهت مهمتنا .

قال الله عزوجل :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران: الآية 175)

إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

الشيطان يخوف المؤمنين من أوليائه، فهنا نهي :

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران: الآية 175)

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(52-60): تفسير الآيات 173 – 176
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-11-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الثالثة والسبعين بعد المائة، وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

مقدمة :

الدنيا دار امتحان وبلاء :

أيها الإخوة، بادئ ذي بدء، إن المؤمن حينما يوقن أن هذه الدنيا دار ابتلاء، وأنها مرتّبة على الامتحان، وفي آية أخرى يقول الله عزوجل :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون : الآية 30)

وفي آية ثالثة :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك : الآية 2)

أنت لست في دار نعيم، ولست في دار جزاء، ولست في دار سرور، أنت في دار ابتلاء، في دار امتحان ، في دار تكليف، في دار تعب، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق : الآية 6)

الابتلاء في المنع والعطاء :

ذلك أن الله خلق الإنسان للجنة، و ثمن الجنة في الدنيا، هو نجاحك في هذا الابتلاء، الأصل أنك مبتلى، أي ممتحن، ممتحن في شيئين؛ أو في زمرتين، فيما أُعطيت، وفيما سُلب منك، الدعاء الشريف :

((اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله لي عونا فيما تحب ، وما وزويت عني ما أحب فاجعله فراغا لي فيما تحب ...))

ورد في الأثر

إنسان آتاه الله الصحة، هو مبتلى بها، أينفقها في طاعة أم في معصية ؟

إنسان آتاه الله المال ، هو مبتلى به ، أينفقه في طاعة أم معصية ؟

بل إن كل حظ من حظوظ الدنيا آتاك الله إياه لا يعد نعمة، شيء موقوف على طريقة استخدامه، فإن أنفقت المال في طاعة اله عد نعمة، وإن أنفقته في معصية الله عد نقمة، فإياك أن تقول: هنيئا لفلان آتاه الله المال، قد يكون المال بلاء كبيرا، إن أنفقه في معصية، فلذلك القصة أن توقن أن الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء، أنت مبتلى بزمرتين من المواد، فيما آتاك الله، وفيما زوى عنك .

سئل الإمام الشافعي : " أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال : لن تُمكن قبل أن تُبتلى " .

أنا أقول لكم: اعتمادا على نصوص من الكتاب و السنة لا بد للمؤمن أن يبتلى، و لمجرد أن تتوهم أن الله لن يبتليك فأنت واهم، قال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت : الآية 2)

قال تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 142)

يجب أن تتأكد، وأن توقن أنك في دار ابتلاء، بل إن من خطب النبي عليه الصلاة والسلام :

((إن هذه الدنيا دار ابتلاء، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ومن عرفها لم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لثواب الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

الديلمي عن ابن عمر

الابتلاء لكشف حقيقة النفس :

هذه أول حقيقة، أنت حينما توطن نفسك أن هذه الدنيا دار ابتلاء، ذاك من ماله، وذاك من صحته، وذاك من زوجته، و هذا من أولاده، وهذا في عمله، وهذا عنده مشكلة نفسية، ليس هناك إنسان على الإطلاق إلا وقد ابتلاه الله عزوجل، طبعا الإيمان لا يظهر بالابتلاء الإيجابي، يظهر بالابتلاء السلبي، كما أن المركبة لا تظهر قوة محركها في الطريق الهابطة، لا تظهر قوة محركها إلا في الطريق الصاعدة .

أحيانا المدرس يسأل الطالب سؤالا، فيجيب إجابة صحيحة، قد يكون هذا الطالب سمع الجواب من زميله، عندئذ المدرس يتأكد من وثوق معلوماته، يغالطه، فإذا تشبث الطالب بإجابته معناه أنه عن دراسة، أما إذا غالطه فغيّر الإجابة فورا معنى ذلك أنه عن تقليد، لو كنت مؤمنا، و لو كنت مستقيما، فلا بد من أن تبتلى ليظهر عمق إيمانك .

كنت مرة في معمل إسمنت، و دخلت إلى مخبره، أطلعوني على مكعبات إسمنتية، كل مكعب خلطة، طبخة، يمسك من أعلاه المكعب، ومن أسفله بكف، يضعون بها أوزانا بالتدريج، على أي وزن قُطع المكعب هذه قوة تماسكه، فالطبخات مستويات، فكل واحد منا عنده تماسك، على وزن معين يفقد تماسكه، فكل واحد قد يعصي الله بضغط معين، أو لإغراء معين، الله يمتحن، أما أن نعيش حياة وادعة ليس فيها ابتلاء، و نحن في ضعف في إيماننا، لكن لم نُمتَحن فلا، لا بد من أن نمتحن ، قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون : الآية 30)

لذلك أحيانا الله عزوجل يخلق ظروفا معينة، ظروفا صعبة جدا لإنسان، قد يسقط ، قد يعصي الله، و قد يمد يده للحرام، فيرسب الإنسان في الامتحان .

يجب أن تؤمن أنك ممتحن في كل شيء، واحد طرق بابك، إنسان طلب منك حاجة، إنسان استقرضك، إنسان تطاول عليك، أنت مبتلى، هل تكيل له الصاع عشرة؟ أم الصاع بصاع، هل تعفو عنه؟ هل ترثي لحاله، وتأخذ بيده؟ فلذلك نحن في الدنيا في دار ابتلاء، و المضائق الصعبة التي مر بها النبي عليه الصلاة و السلام لا بد لكل مؤمن من أن يمر بمضائق مخففة، لكن لا بد منها .

الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

فمن هذا الابتلاء الذي ابتلى الله به المؤمنين قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

أحيانا إنسان وادع مرتاح مطمئن، أموره جيدة، معه رزقه وبيته وأولاده فيأتي خطر خارجي، ماذا نفعل؟ هناك من ينقم، وهناك من يصبر، هناك من يكشف الحقيقة، هناك من يأخذ موقفا، قال تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

الخطر الخارجي ابتلاء :

والشيء المزعج أن الإنسان أحيانا لأنه قال : لا إله إلا اله أصبح مدانا في بلاد كثيرة، نحن الحمد لله ترون اجتماعكم في المسجد، لكن في بلاد لو دخل الإنسان المسجد مرة واحدة يسجن، فقد يسأل سائل: لماذا هذا الابتلاء؟ الابتلاء لفرز المؤمنين، فمن أنواع الابتلاء أن يأتيك خطر خارجي ، يهدد

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

حشدوا الأسلحة والجيوش، والطيران ، والحاملات، والمروحيات، والقنابل العنقودية، والقنابل الانشطارية، والقنابل الذكية، والأقمار الصناعية، نسمع عن أسماء أسلحة ما سمعناها من قبل، فقد يأتي خطر خارجي فهذا ابتلاء، قد يأتي تهديد خارجي، هذا ابتلاء، قد يأتي وعيد، هذا ابتلاء، قد تبتلى بعدو قوي، عدو متغطرس، عدو لا يرحم، عدو حاقد، عدو ناقم، هذا ابتلاء .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون : الآية 30)

ومن خلال هذا الابتلاء يفرز المؤمنون؛ فريق يخاف، فريق يركع، فريق ينبطح، وفريق يوقن بأن الأمر بيد الله، فربنا عزوجل بين بعض أنواع الابتلاء :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا)

(سورة آل عمران : الآية 173)

التهديد الخارجي لم يؤثر في الصحابة ، بل زادهم إيمانا:

فهذا التهديد ما أثر فيهم، وهذا الوعيد ما أثر فيهم، وهذا الحشد ما أثر فيهم، وهذا الكبر ما أخافهم، وهذه الغطرسة ما أذلتهم .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا)

(سورة آل عمران : الآية 173)

زادهم إيمانا بأنه لا إله إلا الله، أي لا معطي، ولا مانع، ولا خافض، و رافع، ولا معز، ولا مذل إلا الله .

أمرك بيد الله :

بشكل مبسط: هذا الإله العظيم إذا سلمك إلى مخلوق مثلك لئيم ، ولا علاقة له بما يفعل بك كيف تعبده؟ لكنه طمأنك فقال لك :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : الآية 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر عائد إليه بشكل دقيق، هذا معنى قوله تعالى :

(فَزَادَهُمْ إِيمَانًا)

(سورة آل عمران : الآية 173)

هناك مثل، وإن كان مثلا مضحكا، جندي التحق بثكنة، أو بقطعة عسكرية، وهنك متقدم عنه عريف، هدده، وقائد الجيش أبو هذا الجندي، الذي بيده رتب عالية جدا، فلمجرد أن يبكي هذا الجندي من تهديد هذا العريف يكون أحمق، ولا يعرف أن والده هو قائد الجيش، وأن الأمر كله بيد والده، هذا مثل للتقريب، فأنت مؤمن، أمرك ليس بيد إنسان، ولا بيد جماعة، ولا بيد دولة، ولا بيد دولة عظمى، ولا بيد طاغية، أمرك بيد الله، ما دمت موقنا أن أمرك بيد الله فقد نفسك .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا)

(سورة آل عمران : الآية 173)

أحيانا الإنسان يتزلف، أو يتصنع الصبر، هذه القضية لا علاقة لها بدرسنا .

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربعُ

أحيانا يكون هناك تجلد فارغ، هذا يحدث قبل الانهيار، يتجلد، يتجلد، وبعد ذلك جلد لا معنى له، و ليس مستندا إلى قوة عظمى .

قال تعالى :

(فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

معنى : حَسْبُنَا :

حسبنا: أي يكفينا، حسبك أي اكتفِ، إنسان يعطيك طعاما، فقلت له : حسبك ، أي اكتف، قال تعالى :

(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

يكفينا أننا عبيد لله، يكفينا أننا طائعون لله، يكفينا أن الله بيده أمر عدونا وصديقنا .

(وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

فقال تعالى :

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 174)

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ

لذلك لما قال ربنا عزوجل على لسان المؤمنين :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة ، الآية 51)

لنا غير علينا، هذا المبلغ لي، لي تعني أنه لك، و أنه مكافأة، إنما علي تعني أنه عبء، وأنه عقاب .

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة : الآية 51)

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 174)

القضية قضية إيمان .

خذ مثلا فرعون الطاغية :

هناك مثل حاد جدا، فرعون و ما أدراك ما فرعون، فرعون بقوته، وجبروته، وأتباعه ، وأسلحته ، ولؤمه ، وقسوته ، وحقده ، وغطرسته ، يتبع سيدنا مع أصحابه ، الاتجاه نحو البحر الأحمر ، البحر لاح في الأفق ، قال تعالى :

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا)

(سورة الشعراء : الآية 61-62)

ليس هناك أمل، فرعون لا يقابل من حيث القوة، و لا يُسترحم من حيث الرحمة، وسيدنا موسى وأتباعه شرذمة قليلون، هم في اتجاه البحر، و البحر مانع، وفرعون من ورائهم .

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء : الآية 61-62)

والله عزوجل أجرى هذه المعجزة، سيدنا موسى ضرب بعصاه البحر فأصبح طريقا يبسا في البحر، والله على كل شيء قدير .

لا مستحيل على الله :

يجب أن توقن في الأشياء التي تبدو لك مستحيلة، مرض عضال، قال لك خمسون طبيبا :لا أمل، ولا له دواء، وبقي لك بضعة أشهر، هناك أورام خبيثة، عمرها شهر أو شهران، مهما كان المرض خبيثا، مهما كان العدو مخيفا فالله على كل شيء قدير .

واللهِ أيها الإخوة، لي صديق مدرّس، أصيب بمرض السرطان في رئتيه، أنا تابعت الموضوع، وُجد أن هذا المرض من الدرجة الخامسة، صاحبه منتهٍ، فأرسلوا خزعة إلى بريطانيا، الجواب نفسه، لا أمل أبدا، هناك أمل في المائة عشرون، أن تزرع له رئة جديدة في أمريكا، والمبلغ يساوي ثمن بيته، ورث بيتا في أرقى أحياء دمشق، ثمنه غال جدا، هذه العملية تساوي ثمن بيته، لا بد من بيع البيت، وأن يبقى أولاده في بيت بالأجرة، وقد يموت في المائة ثمانون، لا أدري ماذا حدث، والذين عالجوه أصدقائي، والتحليلات في الشام وفي بريطانيا، وكل طبيب شاهده قال: لا أمل له، ثم إن هذا المرض تراجع شيئا فشيئا، والقضية مضى عليها أعتقد خمسة عشر عاما، ولا يزال حيا يرزق .

حينما تؤمن أن الله على كل شيء قدير ترتاح .

البارحة أوقفني أخ اشترى ورقة يانصيب، وربح خمسين ألفا، ثم علم أن هذا مبلغ حرام، فأنفقه على فقراء المسلمين، قضية المشروعية موضوع ثان، هذا الذي فعله ما أدخله إلى حسابه، يعمل في شركة، استدعاه مدير الشركة، قال له: هل تزوجت؟ قال له: أنا خاطب، قال له: عندك بيت؟ قال له: لا، قال له: خذ هذه المائة والخمسين ألف ليرة دفعة من ثمن بيت، شيء لا يصدق، الله على كل شيء قدير، بيد الله كل الخيارات .

لو فتحنا باب القصص لا ننتهي، تحتاج إلى إيمان ، والواحد منا لا سمح الله ولا قدر لو ركب البحر ووقع، و جاء حوت التقمه، و دخل إلى بطن الحوت، والحوت وجبته المعتدلة أربعة أطنان، وزنه مائة و خمسون طنا، ينتج تسعين برميلَ زيتٍ، لحم خمسون طنا، دهنه خمسون طنا، وتسعون برميل زيت، دماغه وزنه أربعمائة وخمسون كيلوًا، نصف طن، وهذا الحوت ابتلعه، أحيانا الواحد يأكل كرزة أو زبيبة، الشخص الذي وزنه مائة كيلو إذا ابتلعه الحوت مثل الزبيبة لنا، هل هناك أمل ليعيش؟

سيدنا يونس التقمه الحوت، مقدار الأمل صفر، هذا الدرس بليغ لنا .

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء : الآية 87)

لم يكن معه خلوي، أساسا ليس هناك تغطية تحت .

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء : الآية 87-88)

واللهِ هذه القصة لو أرويها مليون مرة لا أشبع منها، لأن من قوله تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء : الآية 88)

أيّ همٍّ يركبك، أي شيء يقلقلك، لو أنك في بطن حوت، وفي ظلمة الليل، وظلمة البحر، و ظلمة بطن الحوت، فنادى في الظلمات، وقلت: يا رب صادقا لوجدت الله معك، كن مع الله تر الله معك .

القضية لا بد لها من إيمان، وقد تنجو بقدرة قادر، طائرة انشقت نصفين، فوق جبال الألب، ومات كل ركابها عدا واحدا مقعده مكان انشطار الطائرة، فوقع ونزل ثلاثة وأربعين ألف قدم، نزل فوق غابة كمية الثلج تزيد على خمسة أمتار، فوق أشجار الصنوبر، خمسة أمتار ثلج، مع أغصان الصنوبر، ونزل واقفا .

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم ، فالمخاوف كلهن أمان امرأة تسافر من جدة إلى باكستان، معها طفلان رضيعان، حدث خلل في نافذة الطائرة، والطائرة مضغوطة ثلاثة أمثال، فصار هناك قوة دفع نحو الخارج، فولداها الاثنان خرجا من النافذة، وسقطا حول دبي، في بحر الخليج، الموت محقق، بكت، بعد أيام جاءت برقية إلى الشركة بباكستان أن الطفلين حيّان يرزقان، تابعت الأمر، سقطا إلى جانب صياد، فرأى شيئا هبط من السماء إلى البحر، فغطس وأنقذهما، أخذهما إلى مستشفى، الله على كل شيء قدير، إياك أن تيأس، إياك أن تقول: انتهيت، إياك أن ينقبض قلبك .

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلها أمان هنا :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

(سورة آل عمران : الآية 173-174)

كن مع الله تر الله معك، وإذا كنت مع الله كان الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ هذا الإيمان، تجد المؤمن كالباخرة العملاقة كأنها جبل، والمؤمن الضعيف الإيمان كأنه قارب، تتلاعب به الأمواج .

ثم يخبرنا الله عن سبب ذلك، قال تعالى :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

(سورة آل عمران : الآية 175)

إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ

قد تخاف بغير سببٍ:

بالمناسبة ربما لا يكون هناك سبب للخوف، الخوف يخلق في نفس الإنسان قلقا، والله عزوجل قادر أن يخيف الإنسان بلا سبب، يوهمه بمرض عضال، و ليس كذلك، يوهمه بأشياء كثيرة، فالله عزوجل قادر أن يسوق مصيبة حقيقية، ومصيبة وهمية، قادر أن يملأ قلبك خوفا، وقد تخاف بلا

سبب، وقد تطمئن بلا سبب، الله عزوجل قد يملأ قلبك أمنا وطمأنينة، ولا يوجد سبب، السبب مخيف، لذلك الآية الكريمة :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام : الآية 81-82)

في هذه الآية :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

(سورة آل عمران : الآية 175)

معنى :إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ

الحقيقة: المعنى الدقيق يخوف المؤمنين من أوليائه، الطغاة أولياؤه، بل إن كل الأقوياء عصيٌّ بيد الله .

بالمناسبة، من منكم لا سمح الله ولا قدر لو أن جهة ضربته بعصا يحقد على العصا، الحقد على العصا غباء، تحقد على من؟ على من أمسك بالعصا وضربك بها .

في قضية التوحيد أنا حينما ينالني إنسان بأذى، و أنا أعلم أن هذا الإنسان بيد الله، كيف سمح الله له، فإذا نالني بأذى معنى ذلك أن الله سمح له، والله حكيم، ورحيم، وعادل، أنا عندي مشكلة، بدل أن أحقد على الآخرين، الكرة ارتدت إلي، تجد المؤمن حينما تأتيه المصيبة يفكر في السبب الحقيقي، ما الذي فعلته حتى ساق الله لي هذه المصيبة ؟

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(174)إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 174-175)

فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

في هذا نهي ، و كل نهي يقتضي أن تستجيب له، و كل أمر يقتضي أن تستجيب له .

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 175)

الخوف من غير الله دليل على عدم الإيمان أو ضعفه

المقياس إذًا: لمجرد أن تخاف من غير الله فأنت لست مؤمنا، أو على جانب من الشرك كبير، ولمجرد أن تخاف من الله وحده فأنت مؤمن، ومستحيل و ألف ألف مستحيل أن تخاف منه ثم يخيفك

من غيره، إن خفت منه فلن تخاف من غيره، و إن لم تخف منه أخافك من أحقر خلقه، لذلك فهذا الأمن يلقى في قلب المؤمن، و الآية واضحة .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام : الآية 81-82)

أولئك لهم الأمن وحدهم .

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ

ثم يقول الله عزوجل :

(وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 176)

إنسان في الأعماق وإنسان على حرف

هناك إنسان في الأعماق، وإنسان على حرف، فالذي على حرف كلمة تأخذه، وكلمة تذهبه، هذا نمط شائع، خفيف .

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

(سورة الزخرف : الآية 54)

لمجرد أن أحاط الأعداء برسول الله في الخندق، قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، كأنه خرج من الدين، فالبطولة أن تكون في الأعماق، لا أن تكون على حرف، إذا كانت الأخبار سارة بالشرق، لا إله إلا الله، جلت عظمة الله، وإذا لم تكن الأخبار غير سارة تجدهم يكذبون، كأنه شك في قدرة الله عزوجل، لأنه آمن بغير الله، لا .

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175)وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

(سورة آل عمران : الآية 175-176)

لا يفعل الكافر شيئا ما أراده الله :

كلمة تأخذه، وكلمة تأتي به، خبر برأسه، خبر يبكيه، هذا شيء غير طبيعي، عندك ثوابت في حياتك، أولا المؤمن الله حكيم، وعليم وقدير، ولن يستطيع كافر ما أن يفعل شيئا ما أراده الله، قال تعالى :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال : الآية 59)

هم في قبضة الله، لكن لله حكم لا نعلمها نحن، و المؤمن يحترم حكمة الله، يحترم قرار الله عزوجل، أنت لا تعلم .

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة : الآية 216)

قد تحزن من شيء هو لك خير :

أوضح مثل صلح الحديبية كان فيه مهانة للمسلمين، سيدنا عمر خرج من جلده، قال له: ألسنا مؤمنين؟ قال: بلى، قال: أليسوا كفارا؟ قال: بلى، قال له: فعلام نعطي الدنية في ديننا، قال له: إني رسول الله، معي أمر، لا يوجد صحابي إلا الصديق اقتنع بمواد الصلح، مهينة، ثم كان الخير من هذا الصلح، بشكل لا يوصف، الله قدير، تكون المقدمة مزعجة، أما الخاتمة فجيدة، تحتاج إلى إيمان، فضعف الإيمان كلمة تخرجه من الدين، وخبر يدخله في الدين، هؤلاء :

(يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 176)

أرضوا أم لم يرضوا، قضاء اللهو قدره نافذ في العباد .

قلت اليوم كلمة دقيقة: قانون السقوط، سقوط الأجسام، قانون له علاقة بالوزن، والهواء، والجاذبية، و الحجم ... إلخ، هذا القانون آمنت به أم لم تؤمن، أعجبك أم لم يعجبك، أرضيت عنه أم لم ترض، فهمته أم لم تفهمه، هو مطبق، و عدم إيمانك به لا يلغي وجوده، ولا يلغي فاعليته، السقوط سقوط، لو أن مظليا كفر بقانون السقوط و لم يفتح المطلة هل يعطل هذا القانون، لا، ينزل ميتا، قضاء الله واقع فينا، أعجبنا أو لم يعجبنا، آمنا به أو لم نؤمن ، وفي الأثر :

((أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، و إن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد))

ورد في الأثر

أمر الله هو الثابت .

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ :

((اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ))

رواه البخاري

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا))

رواه أحمد

قال تعالى :

(وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 176)

يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

معنى الإرادة:

معنى يريد أي سمح، وسمح تنفيذا لاختيارهم، هذا هو المعنى، كل شيء يسمح الله به، أو لا يسمح، فإن سمح به أي أذِن أن يكون، وأنت مخير، فإذا رفض الإنسان الدين فإن الله عزوجل جعلك مخيرا، وأنت رفضت الدين، إذًا: سمح لك ألاّ يكون لك حظ في الآخرة، هذا المعنى بالضبط، هنا الإرادة السماح، أراد كذا .

عندنا قاعدة في علم العقيدة أراد، ولم يأمر، أراد ولم يرض، إنسان أصرّ على السرقة، سمح الله له أن يسرق، مع أن الله لم يأمر بالسرقة، و لا رضي عنها، أراد أن يسرق تنفيذا لاختياره، مع أن الله لم بالسرقة، و لم يأمر بالفحشاء .

إذًا: هؤلاء الذين سارعوا في الكفر طبعا :

(إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 176)

هم في قبضة الله، يريد الله، أي ما دام اختار الكفر، وأصر عليه، فكانت مشيئة أن يطلقهم لما يريدون .

(يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 176)

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(53-60): تفسيرالآيات 176 – 179
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية السادسة والسبعين بعد المئة، وهو قوله تعالى :

(وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 176)

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا

ومن الأحاديث القدسية الصحيحة عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((... يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ...))

مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي

الله لا تنفعه طاعة مطيع ولا تضره معصية عاصٍ :

أي أن طاعتنا لله لا تنفع الله، ومعصيتنا له لا تضره، هو غني عنا، وعن طاعتنا، وعن عبادتنا، وعن صلاتنا، وصيامنا، وحجنا، لكنه ما أمرنا بهذا إلا من أجل أن يسعدنا بها، هي لنا من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها .

فهؤلاء الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا، فضلاً عن ذلك فإن الكافر لا يستطيع أن يسبق الله، بمعنى أن يفعل شيئاً ما أراده الله، أو أن يتفلت من عقاب الله، هو في قبضة الله، وكل أفعال الكافر سمح الله بها، لأن خطة الله استوعبت خطته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن .

ورد في بعض الآثار القدسية: أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن أطاعني العباد حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم .

إذاً: أن يسارع الإنسان بالكفر لا يعني هذا أنه يضر الله عز وجل، فلو فرضنا إنسانًا حطم زجاج مركبته، وثمنه سبعون ألفًا أيرتاح؟ خسر؟ من انتكس فإنما ينتكس على نفسه، من مكر فإنما يُمكر به، ومن خادع الله فإن الله يخدعه، فكل عمل ابن آدم يعود عليه في النهاية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

أكاد أقول: إنه من منطلق حبك لذاتك ينبغي أن تطيع الله، من منطلق حبك لذاتك ينبغي أن تعطي ما عليك، وأن تأخذ الذي لك فقط، أما إذا أخذت فوق الذي لك وقعت في إثم كبير .

الإضلال الجزائي :

هناك شرح ضروري جداً حول هذه الآية، أية آية يشم منها أن الله أضل زيداً، أو ما أراد له الهدى، أو ما سمح له أن يهتدي هذا التفسير هو الذي يليق بكمال الله عز وجل، العلماء قالوا: الإضلال إذا عزي لله عز وجل فإنما هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، استناداً لقوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : الآية 5)

معنى الإرادة الإلهية :يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ

معنى أولئك الذين لم يرد الله أن يجعل لهم حظاً في الآخرة معنى الإرادة والسماح، أنت مخلوق مخير، فإذا طلبت شيئاً سمح الله لك به، لذلك قال علماء التوحيد: أراد، ولم يأمر، أراد ولم يرضَ، إنسان أصر على السرقة، وهو مخير، وهو في دار ابتلاء فإن منعه الله من أن يحقق رغبته ألغى حريته، وألغى خياره، وألغى الثواب والعقاب، لأن الله لو أنه أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة .

إذاً: كلمة إرادة ينبغي أن نفهمها بالمعنى الدقيق، أي سمح .

أوضح مثل: أنت صيدلي تريد موظفاً ينوب عنك في بعض الأوقات ليبيع الأدوية، فلابد من حد أدنى من خبرة بالأدوية، أردت أن تمتحنه، جئت بمجوعة أدوية منوّعة، وقلت له: هذه الخزانة للفيتامينات، وهذه للمضادات الحيوية، وهذه للسموم، وهذه للمقويات، وهذه للمغذيات، وهذه الأدوية التي أمامك وزعها بحسب خبرتك، لو أن هذا الذي تمتحنه أمسك دواءً في الفيتامينات، وذهب إلى السموم ليضعه هناك لو منعته ما امتحنته، هل أنت تريد الخطأ؟ لا، أنا أمتحنه الآن، فمن أجل أن ينجح الامتحان لابد أن أعطيه حرية الحركة، أمسك دواءً في الفيتامينات ذهب ليضعه في السموم، فسكوتك عن حركته، وسماحك له أن يتحرك هذا إرادة، فكلمة إرادة سمحت له فقط، لماذا سمحت له؟ لأنه مخير، هو مخير، اختار هذا، إرادتك أنك سمحت له، فلذلك معنى قوله تعالى :

(إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ)

أي سمح الله لهم أن يحققوا مرادهم في الاختيار، هم أرادوا الدنيا، وما أرادوا الآخرة، ما تركوا للآخرة من نصيب، أرادوا الدنيا وحدها أصروا على الدنيا، كفروا بالآخرة، هذا اختيارهم، نفذه الله لهم الآية أصبحت :

(يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ)

سمح الله لهم بناءً على اختيارهم أن يحرموا من الآخرة لأنه :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

(سورة الإسراء : 18-20)

الآية واضحة، كلمة(أريد)إذا تعلقت بإنسان فينبغي أن تفهم فهم عقيدة صحيحة، الإنسان مخير، ومعنى مخير أنه ينبغي أن يختار ما يشاء، وقد تعهد الله له بتنفيذ اختياره، تنفيذ اختيار الله له إرادة

(لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)

(المائدة : الآية 41)

هم اختاروا ألاّ يطهروا فنفذ الله لهم اختيارهم .

(وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ)

هم أرادوا الدنيا وحدها، وكفروا بالآخرة، وقد قال الله عن بعضهم :

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(سورة الروم : الآية 7)

من هو الأعور الدجال بالمفهوم الواسع؟ بالمفهوم الضيق هو إنسان يأتي في آخر الزمان، بالمفهوم الواسع هو الإنسان الذي رأى الدنيا فقط، وفعل عكس ما يقول، فدجل على الناس .

حينما يريد الإنسان الدنيا، ويصر عليها، ويكفر بالآخرة، ولا يعبأ بها، لأنه مخير، ولأنه في دار ابتلاء، ولأن عقده الإيماني مع الله يقتضي أن يفعل ما يريد تتعلق إرادة الله عز وجل بتحقيق مراده، فكأن الله حينما قال :

(يُرِيدُ اللَّهُ)

أي سمح الله لهم أن ينفذوا اختيارهم، هذا هو المعنى، سمح الله لهم أن ينفذوا اختيارهم، لأن عقداً إيمانياً بين الإنسان وخالقه أن يأتي إلى الدنيا ليفعل ما يختار، لو ألغيت اختيار الإنسان لألغيت الثواب والعقاب، والجنة والنار، وألغيت المسؤولية، وألغيت التكليف، وفقد الإنسان قيمته، لأنه أصبح مسيّراً، والمسير لا أجر له، ولا عقاب عليه .

<< أكان مسيرنا إلى الشام يا إمام - سيدنا علي - بقضاء من الله وقدر؟ قال له: ويحك، لو كان قضاء لازماً، أو قدراً حاتماً إذاً لبطل الوعد والوعيد، ولانتفى الثواب والعقاب، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً، ولم يطع مكرهاً >> .

لابد من فهم الآيات المتشابهات على الوجه الصحيح :

هذه الآيات مشتبهات، من كان سيئ الظن بالله يفهمها فهماً لا يليق بكمال الله، ومن كان إيمانه بالله قوياً، وظنه بالله حسناً يفهمها فهماً آخر يتناسب مع كمال الله .

(يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ)

هناك آيات أخرى :

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 27)

الإرادة الابتدائية لله أن يتوب عليكم، أن يرحمكم، أن يغفر لكم، أن يسعدكم، أما الإرادة التي هي تحقيق لإرادة الإنسان فهذه متعلقة باختيار الإنسان .

أب عنده أبناء كثر، طموحه أن يدرسوا، وأن يكونوا في أعلى مقام علمي، هناك ابن ما ترك الأب معه طريقة ، بالإكرام، والتهديد، والوعيد ، وغرفة خاصة، وأساتذة مختصين، وأعفاه من كل عبء، وأعطاه المال، وأعطاه الكتب، ونسبه إلى دورات، وهيأ له أجهزة، والابن مصر على ألاّ يدرس، بعد محاولات يائسة تيقن الأب أنه لا يمكن أن يدرس، فسحب منه الكتب، ودفعه إلى العمل في وقت مبكر، هذا العمل تجسيد لرغبة الابن، وليس قهراً له .

(وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ)

لأنهم أرادوا الدنيا، ويريد الله لهم ذلك لأنهم اختاروا ذلك، وهنا إرادة الله ليست ابتدائية، والابتدائية

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء : الآية 27)

أعطى طبيب مريضًا تعليمات مشددة في الحمية، والأدوية، وقال له: إن لم تأخذها فلابد من عمل جراحي، المريض أهمل، وتابع الدخان، وأصابته أزمة، وتضيق شرايين، فلابد من عمل جراحي، الطبيب أمر، وأخذ قراراً بعمل جراحي، من الذي اختار هذا القرار؟ المريض، لأنه تابع الدخان، وما تابع الحمية، وما مارس الرياضة، كان له أدوية تغنيه عن العمل الجراحي، فلما أهمل هذه الأدوية وتلك الحمية، وحينما تابع الدخان، وتضيق الشريان، وصارت حياته في خطر كان لابد من

فتح القلب، وتبديل الشريان، هو في الظاهر، الطبيب أمر، وأخذ القرار، ووقف المعالجة العادية، لأن هذا اختيار المريض، وهو اختار هذا، هذا اختياره .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

هناك عذاب أليم، وهناك عذاب مهين، وعذاب عظيم، عذاب الدنيا أدنى، وعذاب الآخرة ، قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : الآية 21)

وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن، وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله، أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي علي شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه .

(إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 177)

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

بيع الدين بعرض قليل من الدنيا :

هذا الذي يبيع دينه بدنياه، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، يحلف يميناً كاذباً كي يبيع هذه السلعة، يتكلم بما ليس مقتنعاً به من أجل أن يبقى في مكانه، هذا مشرك، هذا يرى الخير من عند غير الله، ولكن من عباد الله، فيعبد العباد من دون الله، وأنت كعبد لابد أن تعبد جهةً ما، فإما أن تعبد الله الواحد القهار، وإما أن تعبد عبداً لئيماً، وحينما يعبد الإنسان الله يكون حراً، أما حينما يعبد من دونه يكون عبداً، وحالة العبودية لغير الله شائعة جداً، أساسها الشرك بالله، لماذا اشترى الكفر؟ لأنه توهم أن في الكفر خيراً له، وأن الكفر يجعله يرقى في مناصب معينة، وأن الكفر يجلب له المال الوفير، وأن الكفر يعزز مكانته، وكل هذه أوهام، من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى، ومستحيل وألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، وأن تعصيه وتربح، وما عند الله لا ينال بمعصية الله، قد يبيع أمته بعرض من الدنيا قليل، يؤيد الكافر على المؤمن، والذي يناصر الكافر على المؤمن هذا خرج من ملة الإسلام .

هذا الكافر معجب بما عنده من الدنيا ، يتوهم أنه متفوق، وأنه ذكي، وأنه مفلح، وناجح، لأنه جمع أموالاً طائلة، وعاش حياةً رغيدة، لأنه ملك رقاب الناس، يفعلون ما يريدون، وغاب عنه أن هذه الحياة الدنيا محدودة، وأن الفوز الحقيقي بعد الموت، لذلك قال الله عز وجل :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

(سورة آل عمران : الآية 178)

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا

البيان أول أساليب الله مع خلقه :

هذا اسمه استدراج، لأن الله سبحانه وتعالى يبدأ بهداية خلقه بالبيان، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال : الآية 24)

التأديب التربوي :

فإن لم يستجب الإنسان إلى الله فإنه يقع تحت أسلوب آخر، هو التأديب التربوي، قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : الآية 21)

الإكرام الاستدراجي :

فإن لم يرجع، ولم يتب خضع لمعالجة ثالثة، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : الآية 44)

هذا اسمه إكرام استدراجي، قال تعالى :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

الصعود الحاد على غير طاعة الله وراءه سقوط مريع، لذلك إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره، ليس هذا إكراماً، إنما هو استدراج، قال تعالى :

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(182)وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف : 182-183)

الكيد هو التدبير، الإنسان الشارد على الله في قبضة الله، وكأنه مربوط بحبل متين، لا يمكن أن ينقطع، والمتانة مقاومة قوى الشد، بينما القساوة مقاومة قوى الضغط، فالماس أقصى عنصر، والفولاذ المبروم أمتن عنصر، لذلك يصنع من الفولاذ مركبات التليفريك (المصاعد)، لأن الحبل من الفولاذ أو خيط من الفولاذ إذا كان قطره ملم يحمل مئتي كيلو غرام، أمتن عنصر هو الفولاذ، وأقسى عنصر هو الماس، وميناء الأسنان يأتي بعد الألماس، والإنسان خلق من نطفة من ماء مهين، ماء لزج، ويوجد على أسنانه مادة الميناء، تأتي بعد الماس من حيث القساوة .

أما :

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

(سورة الأعراف : 183)

أي أعطيهم المال والصحة، صحته من أعلى ما يكون، كله طبيعي، النبض، والضغط، والنسب، والسكر، كله طبيعي، ومال وفير، ونساء جميلات، وبيوت جميلة، ومركبات فارهة، غارق بالمتع والنعيم، أملي لهم، قال تعالى :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

أملى الله لهم لأنهم طلبوا الدنيا، وطلبوا الزيادة

المؤمن يقول :وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا

لقد نصح الله عز وجل المؤمنين بهذا الدعاء :

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه : الآية 114)

أما لسان حال الكفار: وقل رب زدني مالاً، وقل رب زدني جاهاً، وقل رب زدني استمتاعاً في الحياة، وقل رب زدني انغماساً في الشهوات، هذا لسان حال الكافر، قال تعالى :

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

(سورة الإسراء : الآية 20)

الدنيا منقطعة لا تليق عطاءمن الله :

أما العطاء الأبدي فهو العطاء السرمدي، لأنه لا يليق بكرم الله أن يعطيك الدنيا فقط، لأنها محدودة جداً، ولها سقوف، سقف للطعام، والشراب، فمهما كنت غنياً فلك وجبة، وسقف للشهوة الجنسية، وسقف للثياب، ثياب واحدة، سرير واحد، بيت واحد، مركبة واحدة، والآخرة ليس لها سقف، لذلك لا يليق بكرم الله أن يعطيك الدنيا، لأنها متاع قليل، وقد نصحنا الله بهذا، قال تعالى :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : الآية 38)

قل متاع الدنيا قليل، وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

الترمذي

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

الآخرة هي العطاءلأن الله يحقق فيها اسم العدل :

لكن أيها الإخوة، لا يمكن أن تكون الدنيا دار جزاء، إنما هي دار عمل، أما دار الجزاء فهي الآخرة، قد ترى أو تسمع جهة تقتل، وتذبح، وتستحيي النساء، وتقتل الأطفال، وتهدم البيوت، وهي قوية، والعالم كله معها، وأكبر قوة في العالم تبارك عملها، وتتفهم ما تفعل ولا ترى إلا جانباً واحداً، وهم في عز منيع، وفي قوة وغطرسةٍ وكبر، أنت حينما تنسى الآخرة يقفز أمامك آلاف الأسئلة التي تحير، أما حينما تؤمن بالآخرة تحل كل مشكلاتك الفكرية، حينما تؤمن بالتسوية بعد الموت، حينما تؤمن أن اسم الله العدل لا بد أن يحقق في الآخرة، فهذا الاسم الوحيد لا يحقق في الدنيا أبداً، تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، فيقتل الإنسان بلا سبب، بلا ذنب يرتكبه، يكذب الصادق، ويصدق الكاذب، يكال بمكيالين، القوي جرائمه دفاع عن النفس، والضعيف دفاعه عن حقوقه إرهاب، أليس كذلك ؟

عشرة آلاف مقتول في يومين في بلاد شرقي آسيا، قيل حينها: إنه دفاع عن النفس، أما لو قتل إنسان واحد لقامت الدنيا، ولم تقعد، هذا هو الكفر، وما لم نكفر بالكفر لن نصل إلى الله، من هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، من ظن بهم ظناً حسناً فقد كان مخطئاً، قال تعالى :

(هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

فيا أيها الإخوة ، هذه الآية الكريمة :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

نملي لهم لأنهم طلبوا أن نملي لهم، ولأنهم اختاروا أن نملي لهم، ولأنهم لا يعبؤون بالإثم، ولا بالمعصية، فهم يريدون الشهوات .

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ

حينما تختلط الأوراق يقول الله عز وجل :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

الدنيا دار فرز وتصفية :

طالب يرتدي ثياب المدرسة، هو عند الناس طالب علم، قد تكون كل علاماته أصفارًا، وبل قد يكون مطرودًا، أما عند الناس فيرتدي ثياب المدرسة، فالأمور مختلطة، طالب مجتهد، وطالب غير مجتهد، طالب لا يداوم، وطالب يداوم، طالب لا يكتب، وطالب يكتب، طالب يغش في الامتحان، الامتحان هو الفرز الدقيق للطلاب، قال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت : الآية 2)

لا يمتحنون، لذلك قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

فالخبيث خبيث، والطيب طيب، الله يتكفل أن يفعل شيئاً يفرز به الناس، الهجرة كانت فرزاً للمؤمنين، فالذي هاجر كان مؤمناً، والذي آثر بيته، وعمله، وماله، ومن حوله على طاعة الله سقط في الامتحان، معركة الخندق امتحان، وفرز للمؤمنين، فبينما ثبت المؤمنون الصادقون مع رسول الله، وقال ضعاف الإيمان: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً .

معركة أحد فرز للمؤمنين، معركة حنين فرز، الإسراء والمعراج فرز، هناك من كفر بالنبي بعد الإسراء والمعراج، قالوا: هذا غير معقول، فرز، تكلم ما شئت، وادَّع ما شئت، وانسب لنفسك ما شئت، لكن الله متكفل أن يضعك في مكانك الطبيعي، أن يحجمك، أن يعطيك ما تريد، إنسان لا آكل درهماً حراماً، درهم لا يأكل، ولا مئة، ولا ألف، ولا مئة ألف، أما العرض خمسة ملايين ضعف أمام هذا الرقم، فجاءت تبريرات، عندي أولاد، بلوى عامة صغر، الله يعرف أين ينتهي يقينك، وأين ينتهي ورعك، وأين ينتهي إيمانك، فإذا أعطيت لنفسك حجماً كبيراً فإن الله يفعل شيئاً يكشفك به على حقيقتك .

إنسان يدعي أنه بار لأمه سنوات طويلة، وأنها أغلى كائن في حياته، وأنها ، وأنها، فإذا تزوج، ونشب خلاف بين امرأته وأمه انحاز إلى طرف امرأته، وقسا على أمه في الكلام، كل كلامه السابق

مرفوض، دعوى، خاضوا بحار الهوى دعوى، ولا اهتدوا، تكلم عن نفسك ما شئت، لكن الله متكفل أن يحجمك، أي أن يضعك في مكانك الصحيح، قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

لك أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت، هذا مستحيل، فلابد أن يكشف الله عز وجل هذا الإنسان :

(حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

الله عز وجل ستّير، فإذا كان الشخص تحت المعالجة لا يكشفه الله عز وجل، يعطيه فرصة كي يتوب .

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

الاصطفاء الكسبي والوهبي :

الله يختار، الدليل :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 33)

ثمة اصطفاء، في الاصطفاء جانب كسبي، وفي الاصطفاء جانب وهبي، فإن الله :

(اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 33)

هؤلاء كرموا البشر في إخلاصهم، ومعرفتهم، وطاعتهم لله عز وجل، فاصطفاهم الله على علم :

(وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

الإيمان والتقوى أجرهما عظيم :

إن تؤمنوا بالله، وتتقوا أن تعصوه، لا يكفي أن تؤمنوا، إن تؤمنوا، وتتقوا، ومادامت الأحداث خطيرة يقول الله عز وجل :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم : الآية 46)

يقول الله عز وجل :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 120)

يُلغى هذا الكيد وذاك التفوق، وذاك التغطرس، وهذا الاستعلاء، وهذه القوة الضاربة المخيفة، يلغى جميعه :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 120)

نرجو الله سبحانه و تعالى في دروس قادمة أن نتابع هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(54-60): تفسير الآيتان 181 – 182
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-28

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الواحدة والثمانين بعد المئة .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ

أيها الإخوة، قال تعالى :

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

(سورة آل عمران : الآية 181)

اليهود توهّموا أن الله فقير فطلب القرض :

هذه مقالة قالها اليهود حينما أمرهم الله أن يتصدقوا، توهموا أن الله فقير، وهم أغنياء ، قال تعالى :

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران : الآية 181)

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

مراقبة الله أعلى مستويات الإيمان :

أولاً: إن أعظم مستوى من مستويات الإيمان أن تشعر أن الله معك، وأن الله عليم بما في نفسك، سميع لقولك، يرى حركتك، و يسمع كلامك، و يعلم ما في قلبك، حينما قال الله عز وجل :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق : الآية 12)

الكون يدل على الله الخالق المسيّر :

هذه الآية عجيبة، علة خلق السماوات والأرض بالنسبة للإنسان :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق : الآية 12)

معنى ذلك أن هذا الكون العظيم مهمته أن يعرفك بالله، العين لا ترى الله، ولكن العقل يراه، فهذا الكون فيه أسماء الله الحسنى، و فيه صفاته الفضلى تجسيد لأسماء الله الحسنى، ومظهر لها، فأنت إن أعملت عقلك في الكون توصلت إلى خالق هذا الكون، من الخلق إلى الخالق، من التسيير للمسير، من النعمة للمنعم، من النظام للمنظم، من الحكمة للحكيم، هذا هو الفرق بين المؤمن و الكافر، المؤمن مع المنعم خلق النعمة إلى المنعم .

لكن الكافر مع النعمة يتذوقها، ويقتنصها، ويستمتع بها، لكنه حُجب عن المنعم، الكافر مع النظام، لكن لم يخرق هذا النظام إلى المنظم، وبطولة الإنسان كلُّها أن يخرق النظام إلى المنظم، والحكمة إلى الحكيم، والخلق إلى الخالق، والجمال إلى الجميل، إلى مبدع الجمال .

حين تتأمل وردة فواحة عطرة جميلة فيها ألوان تأخذ بالألباب ينبغي أن تنتقل منها إلى الجميل، القضية كلها أن تعبر هذا الكون إلى مكونيه، وأن تعبر هذا النظام إلى منظميه، وأن تنتقل من النعمة إلى المنعم:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق : الآية 12)

علمُك بأن الله يعلم يجعلك منضبطًا :

من أجل أن تعلموا أن الله على كل شيء قدير، و أن الله قد أحاط بكل شيء علماً، هل تستطيع أن تفعل شيئاً أمام مسؤول عن الأمن؟ لا تستطيع، فحينما تعلم أن الله يعلم هل تقتل طفلاً؟ هل تهدم بيتاً؟ هل تسرق مالاً؟ هل تحتال على مسلم؟

كأنني أقول: إن كل أخطاء الناس سببها أنك لا تعلم أن الله يعلم، وأن كل الانضباط الذي نطمح إليه، الانضباط القومي، والعملي، والانضباط في كسب المال، وفي إنفاق المال، وفي ممارسة الشهوات التي سمح الله لنا بها، لا يمكن أن ننضبط إلا إذا علمنا أن الله يعلم، وهناك آية أخرى :

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة : الآية 97)

فحينما تعلم أن الله يعلم صار هناك انضباط ذاتي، لأن أي إنسان في الأرض لا يمكن أن يقترف مخالفة أمام من بيده أن يعاقبه عليها .

هناك مثال بسيط جداً: لن تعبر الإشارة الحمراء في رابعة النهار، والشرطي واقف، ومعه كتاب الضبوط، لن تستطيع، لكنك تعبرها في الليل الساعة الثالثة، لأن واضع النظام غير موجود، واضع النظام يمثله هذا الشرطي، أما في الساعة الثالثة ليلاً فواضع النظام ليس له عين يراك بها، إذاً تعبر هذه الإشارة، أو أن تكون أقوى منه فلا تعبأ بنظامه .

متى ينضبط الإنسان بشكل علمي؟ ينضبط حينما يعلم أن الله يعلم، و أنه سيحاسب، وأنه سيعاقب، والله الذي لا إله إلا هو، أي انضباط آخر متوهم، يقول لك: وازع داخلي، ضمير مسلكي، تربية بيتية، كله كلام فارغ، ما لم تعلم أن الله يعلم، وما لم تعلم أن الله سيعاقب لا يمكن أن تنضبط .

بالمناسبة تنضبط مع إنسان من جلدتك من جنسك، قد يكون أصغر منك سنًّا، لكنه أقوى منك، أنت حينما ترى أن هذا الذي تخالفه يعلم وسيعاقب، من يجرؤ من التجار على أن يخفي من حساباته صفقة خارجية؟ لا أحد، لأن هذه الصفقة الخارجية تأتي نسبة منها إلى المالية، فإذا أغلفتها غدرت حساباتك، وكُلفت بضريبة فوق طاقتك، وأيّ تاجر حينما يعلم أن هذه الصفقة الخارجية هناك ورقة منها تذهب إلى المالية فلا يمكن أن تغفلها من حساباتك، وإلا يعاقب، فأنت تنضبط مع مخلوق من مثلك، من جنسك، لكنه أقوى منك فكيف للخالق .

أيها الإخوة الكرام .

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

المتفلّت يتوهمّ أوهاما هي سراب بقيعةٍ يحسبه ماء :

هذا الذي يغش المسلمين كيف تغشهم؟ والله لو علم أن الله يعلم، وسوف يدفع الثمن باهظاً من صحته، أو من أولاده، أو من أقرب الناس إليه لما فعل ذلك، ما من معصية تقترف في الأرض إلا بسبب توهم أن الله لا يعلم، أو يعلم و لا يحاسب، يقول لك: الله غفور رحيم، لا تسعنا إلا رحمته، هذا كلام فارغ، تسعنا رحمته حينما نطيع أمره :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر : الآية 53)

تسعنا رحمته إذا أنبنا إليه، و إذا عدنا، و إذا تبنا إليه، و إذا اصطلحنا معه عندئذ تسعنا رحمته، أما إنسان مقيم على معصية، مقيم على مخالفة، مقيم على دخل حرام، مقيم على علاقة محرمة مع امرأة، مقيم على تفلت، ويقول: لا تسعنا إلا رحمة الله عز وجل، لا يمكن أن تستهزئ بدين الله، وأن تنجو من عقاب الله، هذا استهزاء، لو قال شخص من باب الدعابة: أنا أكسب مالاً حراماً، و أدفع جزءاً منه صدقة، والصدقة بعشرة أمثالها، إذاً أنجو، لا تنجو أبداً .

احذروا الاستهزاء والتلاعب بالدين :

بالمناسبة، قضية دقيقة في الفقه الوقت مناسب جداً أن نبحثها: حينما تقول: أنا إذا حججت بيت الله الحرام ، ما جزاء من حجّ دون أن يرتدي ثياب الإحرام ، عليه هدي، و إنسان ميسور، وغني كبير

قال لك: أنا أقدم عشرة أغنام هدياً لارتداء الثياب العادية، لو يدفع مليون رأس غنم فحجه باطل، أما إذا دخل الميقات خطأ من غير ثياب إحرام فعليه هدي، هذه ترمم .

مثلاً: اتفق فقيران على أن يدفع كل منهما زكاة فطره للآخر، هذا عبث بدين الله، كأنهما لم يدفعا شيئاً، لكن ممكن أن تدفع زكاة فطرك، وأنت فقير، وأن تأتيك زكاة فطر دون أن تشعر، أو دون أن تخطط، ودون أن تعلم .

الفكرة لا يمكن أن تستباح محارم الله بشيء، قد يحدث أن حاجاً يحج أول مرة في حياته، ويركب الطائرة أول مرة في حياته، وقد وضع لباس الإحرام في حقائبه الكبيرة، وبعد أن صعد إلى الطائرة، وانطلقت الطائرة إلى بيت الله الحرام أذيع أن هذا المكان هو ميقات الإحرام، فقال: آتوني بالمناشف، لا يفهم بأن موضوع الحقائب لا يمكن أن تصل إلينا في الطائرة، فهي موضوعة في مكان آخر، ماذا حلّ بهذا الحاج؟ دخل الميقات من دون ثياب إحرام، قضية محلولة، عليه هدي، أو أن يعود إلى الميقات فيحرم، أما لو جاء غني، وقال: أنا أدفع ثمن مئة رأس غنم على أن أبقى مرتدياً غير ثياب الإحرام فالحج باطل .

مثل آخر: الواجب في الصلاة إذا ترك يسجد سجدتين سهواً، أحدهم قال: أنا لن أقعد القعود بين الأربع ركعات، وصلى أربع ركعات ثم سجد للسهو، صلاته باطلة، لو أنه سها هناك سجد للسهو، أما أنه قصد ذلك، وعبث بدين الله فهذا غير مقبول منه ذلك إطلاقاً .

أيها الإخوة، ذكرت هذا الكلام لأنه لا يمكن أن تستباح محارم الله بشيء، لا بصدقة، ولا بهدي، ولا بأي عمل، أما إذا وقع الإنسان سهواً، أو غير قاصد فلكل مخالفة كفارتها، أما أن تدفع الكفارات سلفاً تبريراً لانتهاك الحرمات فهذا مستحيل :

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

الله يعلم ويعاقب :

هم ما عرفوا أن الله يسمعهم، أو علموا أن الله يسمعهم، ولكن لا يعاقبهم، و الحقيقة نقطتان لابد منهما: يعلم و يعاقب، الذي نشأ في بلاد إسلامية يعلم أن الله يعلم، لكن يتوهم أن الله يعلم لكن لا يعاقب :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر : 92-93)

و كيف حال ذاك الإعرابي الذي سأل النبي أن يعظه، ويوجز، فتلا عليه قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7-8)

قال: كفيت، بربك لو أن لكل سيئة عقاباً، لو أنك مؤمن بها إيماناً قطعياً، هل ترتكب سيئة؟ حدثني صديق توفي رحمه الله، جاء إنسان ليصلح مركبته، مركبة جديدة، فيها خلل، وهو يجهل دقائقها، فالذي قُدمت له هذه المركبة كي يصلحها ذكي جداً، أدرك أن هذه المركبة جديدة، وأن صاحبها لا يفقه فيها شيئاً، والقضية تحل في عشر دقائق، طلب منه عشرة آلاف ليرة، فصدقه، وعده أن يأتيه بعد يومين، هذا الإنسان أول يوم أخذ أهله إلى مكان جميل، وثاني يوم إلى مكان آخر، وأصلحها في دقائق معدودة، وأخذ على تصليحها عشرة آلاف ليرة عداً ونقداً، له جار صديق لي عاتبه، قال له: هكذا العمل، أنت إنسان مغفل، أنا أدركت أن هذا الإنسان يجهل دقائق هذه المركبة، وهو حريص على سلامتها، و غني، جاء من بلد خليجي، هو يعلم أن الله يعلم، لأنه ناشئ في بلد إسلامي، ولكن ظنه أن الله لا يعاقب، له ابن يعمل في مخرطة، دخلت نثرة فولاذ في عينه، كلفته ستة عشر ألف ليرة لبنانية يوم كان اللبناني بمئة وستين قرشاً، أي قريبًا من اثنين وعشرين ألف ليرة، لو كان يعلم أن هذا المال الحرام الذي سوف يدفعه مضاعفاً ما فعل ذلك، فالقضية قضية علم .

أحدهم ركب مركبته، وجد جرواً صغيراً على طرف طريق المطار، أراد أن يُعبّر عن براعته في القيادة فقطع يديه فقط، دون أن يدهسه كله، وأطلق ضحكة هستيرية، يقسم لي شخص يركب معه في الأسبوع الثاني، وفي المكان نفسه أصاب العجلة خلل، فوقف يبدلها، رفع المركبة بآلة الرفع، وفجأة وقعت المركبة على العجلة، والعجلة على رسغيه فهُرستا، أُخذ إلى المستشفى اسودت كفاه، ولابد من قطعهما، يقسم لي و هو حي يرزق، قال لي: والله بعد أسبوع أصبح بلا كفين .

حينما يعلم الإنسان أن الله يعلم، وسيعاقب يعد للمليار قبل أن يعصيه، أو قبل أن يعتدي على أحد .

هؤلاء هم الأغبياء فلا تكن مثلهم :

من هم الأغبياء اليوم في العالم؟ والله أغبى أغبياء العالم الآن الذين يدمرون، ويقصفون، ويقتلون، هناك تقدير أن هناك ثلاثمئة إنسان قُتل ظلماً في بلاد شرق آسيا، ثلاثمئة ألف قتلوا بالقصف، ولا علاقة لهم بما حدث، من هم الأغبياء؟ هؤلاء الذين يتلذذون بالقتل، وهدم البيوت، وقتل البريئين، وقتل الأطفال، هؤلاء يظنون أنهم حققوا مجداً، لو أنهم يعلمون أن الله يعلم وسوف يخلدون في جهنم إلى أبد الآبدين، لأن الله عز وجل يقول :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم : الآية 42)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

قل :

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت : الآية 40)

هذا تهديد من الله عز وجل، العبرة أن تعلم أن الله يعلم، قبل أن تأكل المال الحرام، قبل أن تطالب الإنسان الذي وثق بعلمك بتحليل لا جدوى منه، أو قبل أن تطالبه بتعويض لا يقابله شيء، كم مهنة مبنية على الكذب، والخداع، والمماطلة، وغش المسلمين، والاحتيال عليهم؟

هذا الانحراف الشديد في سلوك المسلمين ما سببه؟ انحراف شديد في عقيدتهم، هم لا يعلمون أن الله يعلم، أما حينما تعلم أن الله يعلم سينضبط .

والله اليوم سمعت أن أحد الورثة، وهو أكبرهم اغتصب المال كله، و حرم إخوته كلهم من حصصهم في الميراث، وهو في مقتبل العمر أصيب بمرض خبيث، وهو الآن على فراش الموت .

حينما تعلم أن الله يعلم تعد للمليون قبل أن تعصيه، قبل أن تظلم إنساناً، قبل أن تكتسب درهماً حراماً، قبل أن تحتال على الناس، قبل أن تبالغ في إيذائهم .

من هو السعيد؟ الذي يعمل عملاً في نفع المسلمين، من هو أشقى الخلق؟ هو الذي يبني عمله و رزقه على إخافة المسلمين، و على ابتزاز أموالهم، و على هتك أعراضهم، هؤلاء الذين يروجون الفسق، والفجور على أي شيء يعيشون؟ على أخلاق الشباب .

لي طالب قديم قال لي: إن له خالاً يملك إحدى دور السينما في دمشق، قال لي: في مقتبل العمر في الأربعين سنة أصابه مرض عضال، دخل عليه فرآه يبكي، لمَ تبكي يا خالي؟ قال له: جمعت ثروة طائلة كي أستمتع بها في خريف عمري، ها قد عاجلني المرض دون أن أستمتع بها، هذا بنى هذه الثروة على إفساد أخلاق الشباب، كلما كان الفيلم فيه إثارة أكثر يروج أكثر، ويربح أكثر، كان يبحث عن أفلام فيها إثارة شديدة، يأتيه الشباب يستمتعون بالحرام، و قد تنتهي هذه المشاهدة إلى فعل حرام، أو إلى زنا، أو إلى ما شاكل ذلك .

حينما لا تعلم أن الله يعلم، أو تعلم أن الله يعلم، لكن لا يعاقب، هذا خلل خطير في العقيدة، وسوف يدفع الإنسان ثمنه باهظاً، فأخطر شيء في الدين هو أن تستقيم على أمر الله، إنك بالاستقامة تسلم، لكن بالعمل الصالح تسعد، بالاستقامة تسلم :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت : 30-32)

بالاستقامة تسلم، لكن :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : الآية 110)

فيا أيها الإخوة، جوهر الدين أن تكون وقافاً عند كتاب الله، أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، وأن يكون عملك صالحاً، فالمسلم لا يكذب، ولا يأكل مالاً حراماً، ولا يحتال، ولا يغش، ولا يبتز أموال الناس، ولا يفسد أخلاقهم، ولا يقبل عملاً مبنياً على إيذاء المسلمين، أو إخافتهم، أو ابتزاز أموالهم .

أيها الإخوة، أردت من خلال هذه الآية أن تهتز قناعاتنا نحو الأصلح، أي هذا السلوك الإسلامي نؤدي العبادات الشعائرية، وفي أمورنا التعاملية لا نعبأ، هذا كله يؤكده حديثُ أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ، هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

مسلم ، الترمذي ، أحمد

فالمفلس من خالف منهج الله، و أقام شعائر الله، هذا مفلس، فحتى يكسب الوقت والعمر أهم شيء في الدين بعد الإيمان بالله أن تستقيم على أمره، و لن تستقيم على أمره إلا إذا علمت أن الله يعلم، هذا أكبر رادع يردعك عن معصية الله، أن تعلم أن الله يعلم .

هؤلاء :

(قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران : الآية 181)

هذه مقولة كُتبت عليهم، كم من عمل يفعله الإنسان المسلم وهو يرتكب أكبر معصية دون أن يشعر ؟

وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

(وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ)

(سورة آل عمران : الآية 181)

هذا من خصائصهم أيضاً :

(وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(181)ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة آل عمران : الآية 181)

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ

أي :

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء : الآية 47)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(الزلزلة : 7-8)

هذا ملخص الملخص، وهذا هو الدين، هذا الأعرابي الذي امتحنه سيدنا عمر قال له: << بعني هذه الشاة، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها: ماتت، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله >> ؟

هذا البدوي الراعي الأعرابي وضع يده على جوهر الدين، ما لم تقل: أين الله؟ ولن أفعل هذا، لأنني أخاف الله، فكل عباداتك الشعائرية لا وزن لها إطلاقاً، ما لم تقل إذا جاءك شيء، أو عرضوا عليك أمراً لا يرضي الله، ما لم تقل حينئذ: إني أخاف الله رب العالمين، لا أفعل هذا، فكل عباداتك الشعائرية لا وزن لها إن لم تستقم على أمر الله .

الأسئلة :

هناك سؤال يأتيني كثيراً :

س: هل يجوز للمرأة بقصد تعليمي أن تقرأ القرآن ولو كانت في الدورة ؟

ج: طالبة في مدرسة، وهناك حصة قرآن، أو معلمة، فلأسباب تعليمية يجوز في المذاهب كلها أن تقرأ القرآن .

س: هل يجوز لمجرد أن يذكر إنسان غير مسلم أن نشتمه ؟

ج: ما هذا الكلام :

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 7)

(لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة الممتحنة : الآية 8)

لك أن تزوره، و لك أن تهنئه بمولود، أو بنجاح في شهادة، و لك أن تعينه، و له أن يزورك دون أن تخترق حدود الشرع .

(لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة الممتحنة : الآية 8)

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 7)

هذا كلام الله، من أين يأتي هذا الكلام ؟ أساساً هذا التطرف الذي وقع فيه بعض المسلمين سبب ما يجري في العالم اليوم .

س: إنسان اشترى معطفاً، ثم تبين له أنه من جلد الخنزير ؟

ج: الأولى ألا يستخدمه، هناك من يذكر أن دباغة الجلد تطهره، لكن رأي الجمهور ألا تستخدمه .

س: كيف نجمع بين قوله تعالى :

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا(23)إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الكهف : 23-24)

و بين أن الله خلق الإنسان مخيراً ؟

ج: أنت مخير فيما كلفت، فهناك أمور أنت مخير بها، وهناك أمور لست مخيراً فيها، هل أنت مخير في أمك و أبيك؟ هل أنت مخير في مكان ولادتك و في زمن ولادتك؟ لا، هل أنت مخير في إمكاناتك و في شكلك؟ لا، لكن أنت مخير فيما كلفت، أمرك أن تكون صادقاً أنت مخير تصدق أو لا تصدق، فالتسيير في الأمور لا يتناقض مع التخيير في التكاليف، فأنت مخير فيما كلفت، ومسير فيما لا تكلف به، وهذا التسيير لصالحك قطعاً، ليس في الإمكان أبدع مما كان، و لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، أي الله سيرك إلى أفضل شيء يناسبك، المكان المناسب والوقت المناسب والأم المناسبة والشكل المناسب، والإمكانات المناسبة، ليس في الإمكان بالنسبة لك أبدع مما كان، كل شيء أنت مسير به هو لصالحك، و التخيير أنت مخير بين أن تطيع الله وأن تعصيه .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(55-60): تفسير الآيات 183 – 185
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-01-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الثالثة والثمانين بعد المائة، وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ)

من صفات اليهود معاندة الأنبياء :

(الَّذِينَ)

أي أهل الكتاب .

(الَّذِينَ قَالُوا)

أيْ الذين قالوا لأنبيائهم .

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ)

تعليق اليهود الإيمان بالنبي أن يأتيهم بقربان تأكله النار :

لو رجعنا إلى كتب بني إسرائيل لوجدنا أن أنبياءهم أمروهم بالتقرب إلى الله .

ما هو القربان ؟

والقُربان بضم القاف كل شيء تتقرب به إلى الله، فالصدقة قربان، والصوم قربان، وإعانة الفقير قربا، وأيّ عمل صالح على الإطلاق تبتغي به وجه الله قربان، والأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى، الكلمة الطيبة صدقة، أن تميط الأذى عن الطريق صدقة، أن ترشد الرجل الضال صدقة، أن تطعم فقيراً، أن تعين أرملة أن تعود مريضاً، أيّ عمل صالح على الإطلاق هو في حقيقته قربة إلى الله، والله عز وجل حينما يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

(سورة المائدة : 35)

أي ابتغ إلى مرضاته سبباً، لو أن الأمور كلها بيد ملك، ولا تستطيع أن تصل إليه ما نفعك منه؟ لا تستطيع أن تقابله، ولا أن تصل إليه، ولا أن تخط له رسالة، لكن الله سبحانه وتعالى وهو ملك

الملوك لمجرد أن تسأله يعطيك، أن تدعوه يجيبك، وجعل لك إليه ألف طريق وطريق، جعل إليه طرائق يكفي أن تكون أباً كاملاً ، فهذا طريق إلى الله، يكفي أن تكوني أماً كاملة فهذا طريق إلى الله، يكفي أن تكوني زوجة صالحة فهذا طريق إلى الله، يكفي أن تكون ابناً باراً طريق إلى الله، يكفي أن تكون مبتلى صابراً فهذا طريق، الصبر طريق إلى الله فهذا طريق، يكفي أن تكون منفقاً والإنفاق طريق إلى الله، يكفي أن تكون ناصحاً النصح للمسلمين فهذا طريق إلى الله، يكفي أن تكون أميناً فهذا طريق إلى الله ، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وأي عمل صالح تبتغي به وجه الله فهو عند الله قربان، أن توزع اللحم على الفقراء قربان، أن تضحي يوم عيد الأضحى المبارك قربان، أن تغض البصر عن محارم الله قربان، فالمؤمن همه الأول التقرب إلى الله، أعطاك الله عز وجل ملايين الوسائل، وأنت في البيت لك إليه ألف طريق وطريق! وأنت في الطريق كلما غضضت بصرك عن امرأة لا تحل لك هي لك قربان، وأنت في كربة عامة، لو وقفت لعاجز كبير السن فهذا قربان، لو أطعمت عصفوراً، لو سقيت كلباً، امرأة بغي غفر الله لها لأنها سقت كلباً .

حينما تعلم أنه إذا وصلت إلى الله وصلت إلى كل شيء، وإذا لم تصل إليه لم تصل إلى شيء، هذه حقيقة كبيرة، فلذلك المؤمن بعد أن آمن الإيمان الذي أراده الله والإيمان الذي حمله على طاعة الله ليس في حياته شيء أهم من أن يعمل صالحاً، لأن العمل الصالح العملة الرائجة في الآخرة .

هل تستطيع أن تسافر إلى بلد بعيد دون أن تحمل من عملته؟ اذهب إلى بلاد بعيدة ، وخذ معك العملة السورية، لا تقبل هناك تقبل، هنا في بلادنا أو بلاد مجاورة لنا تقبل، أما هناك فلا تقبل، العملة المتداولة في الآخرة العمل الصالح، وأكبر دليل على ذلك أن الإنسان إذا شارف الموت لا يندم إلا على عمل صالح فاته .

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون : 99-100)

الإيمان مقرون بالعمل الصالح والتقرب إلى الله :

بالمناسبة أيها الإخوة، وأنا مضطر لذكر هذه الحقيقة، وهي مؤلمة، لكنها حافزة، أنت حينما آمنت بالله ماذا فعلت؟ أنا أقول لك: ما فعلت شيئاً! توضيح ذلك: الشمس في رابعة النهار، وأنت في أمس الحاجة إلى أشعتها، لو أن واحدًا معه مرض جلدي، دواؤه الوحيد التعرض لأشعة الشمس، فإذا جلس في غرفة قميئة مظلمة، والشمس في خارج الغرفة ساطعة، ثم قال: أنا مؤمن أن الشمس ساطعة، إن شاء الله خير، لم تنتفع بها، يا لها من شمس ساطعة! إنها في كبد السماء! إنها في رابعة النهار! كل هذا الكلام فارغ ما لم تخرج من غرفتك لتتعرض إلى أشعة الشمس، فإيمانك بسطوع

الشمس لا يقدم ولا يؤخر، أنت إذا آمنت فقط ما فعلت شيئاً، لأنك إن لم تؤمن اتهمت في عقلك، وإن آمنت ما أضفت شيئاً، لكن الله عز وجل يقول :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

(سورة الكهف : 110)

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

(سورة الإسراء : 19)

هناك مائتا آية تقريباً ما ذكر الله الإيمان إلا وقرن به العمل الصالح . إذاً: حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وإذا كنت بسيطاً وموفقاً تحاسب نفسك كل يوم، هذا اليوم مضى من عمري ماذا فعلت به؟ أكلت ونمت نوماً مريحاً، نمت ثماني ساعات متواصلة، استيقظت كأنني حصان، أكلت أكلة لم أتذوقها من شهر، هذه لك، اسأل ماذا قدمت للآخرة ؟ في بعض الآثار: قال: يا رب زهدت في الدنيا، قال: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة لنفسك، يا رب أنا كنت صادقًا، صدقك أراحك، ورفع مكانتك بين الناس، أنت قبضت الثمن في الدنيا، يا رب أنا كنت أمينًا، الأمين موثوق، جاءتك خيرات كثيرة لأنك أمين، يا رب أنا غضضت بصري عن محارم الله، سعدت بزوجتك، لكن الله يقول لك: ماذا فعلت من أجلي؟

مثلاً للتقريب: ابن يعاتبه أبوه، يا أبتِ لم أنم حتى أنظف أسناني، قال: لك أسنانك، يا أبتِ كتبت وظائفي، لك شهادتك، يا أبتِ فعلت كذا لك، ماذا فعلت من أجلي؟ ماذا قدمت لله عز وجل؟ هل دللت إنساناً شارداً؟ هل أطعمت فقيراً؟ هل أخذت بيد صديق، أو زميل، أو جار، أو أخ إلى الله عز وجل؟ هل دعوت إلى الله؟ هل بذلت من مالك؟ دائماً اعتقد أن الاستقامة تسلم بها، لكنها لا تسعدك، بينما العمل الصالح تسعد به، استقامة سلبية، ما اغتبت ما أكلت مال حرام ما كذبت كلها ما، لكن ماذا فعلت؟ ماذا قدمت؟ هنا المشكلة الكبيرة، المسلمون يعانون ما يعانون، ماذا فعلت أنت من أجلهم، أحياناً تربي ابنك ليكون عنصراً نافعاً جيد، تربية ابنك هذا عمل جيد وإيجابي، حجبت بناتك لئلا يغروا الشباب في الطريق، هذا عمل إيجابي .

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح :

كلما فعلت شيئاً تقرباً إلى الله عز وجل ارتقيت إلى الله حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، لذلك ترى إنسان من ثلاثين سنة لا يغيب درس علم، لكن لم يقدم شيئا للدين، إلى أين؟ إلى المسجد، من أين؟ من المسجد، أنت ماذا فعلت؟ دققوا في هذه الآية :

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر : 10)

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام : 132)

عملك يرفعك عند الله، فهنا يقول الله عز وجل طبعاً هذا الاستطراد بسبب كلمة القربان هل قدمت قرباناً إلى الله عز وجل؟ هل مشيت مع أخ في حاجته ؟

كان ابن عباس رضي الله عنه معتكفاً في مسجد رسول الله، وهو في أعلى درجات القرب، رأى رجلاً كئيباً قال: << ما لي أراك كئيباً؟ قال: ديون لزمتني ما أطيق سدادها، قال: لمن؟ قال: لفلان، قال: أتحب أن أكلمه لك؟ قال: إذا شئت، فخرج من معتكفه، قال له أحدهم: يا ابن عباس أنسيت أنك معتكف؟ قال : لا والله ولكنني سمعت صاحب هذا القبر، وبكى، والعهد به قريب :

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكاف في مسجدي هذا))

الترغيب والترهيب عن ابن عمر

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، الصحابة الكرام فتحوا البلاد، وصلت رسالتهم إلى أطراف الدنيا، المسلم الآن ماذا فعل؟ محمول لم يفعل شيء، إذا تديّن يقال عنه: ما شاء الله، صاحب دين، شيخ، يكرم، يعظم، يبجل، يدعى إلى الولائم، ماذا قدمت أنت؟ ماذا قدمت؟ الصحابة حتى وصل هذا الدين إلينا بذلوا أرواحهم، ودمائهم، وأكلوا ورق الشجر .

السؤال الكبير: ماذا قدمت للمسلمين؟ إنسان يقدم ماله، يملك المال، إنسان يقدم علمه، إنسان يقدم خبرته، إنسان يقدم مهارات يتقنها، أما ألا تقدم شيئا أبداً وأنت مؤمن ، وتظن نفسك فوق الناس جميعاً؟ إن آمنت دون أن تعمل ما فعلت شيئاً .

هذه كلمة لعلها قاسية: إن آمنت دون أن تفعل شيئاً فما فعلت شيئاً، لأن الذي يرفعك عند الله عملك الصالح .

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر : 10)

لابد من السعي لنفع الناس وإعانتهم:

ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، تزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة ،.

وفقت بين زوجين، أطعمت يتيماً، رعيت طالب علم، أنفقت من مالك، ساهمت بتأسيس مشفى، أو ميتم، معهد تحفيظ قرآن، معهد شرعي، ألفت كتابًا، وزعت شريطًا، عملت عملا طيبًا، إنسان بلا عمل متصحر القلب، الإنسان بالعمل يتألق .

هناك مثل أردده كثيراً: مجند التحق بلواء، وفي هذا اللواء من عرف إلى لواء، وحتى اللواء، هل يستطيع هذا المجند الغر بحكم النظام العسكري أن يدخل على قائد اللواء؟ مستحيل، قبله عشرون أو ثلاثون رتبة، لكنه يستطيع بحالة واحدة، إن رأى ابن هذا اللواء يشرف على الغرق، فألقى بنفسه،

وأنقذه، في اليوم التالي يدخل على قائد اللواء من دون استئذان، قل له: فلان، قد يقف له، ويرحب به، ويجلسه على مكان تكرمة، ويقدم له ضيافة، وهو جندي، لماذا؟ لأنه قدم عملاً صالحاً، أنت حينما تنفق مالك في سبيل الله، حينما تمسح دمعة من خد بائس، حينما تشبع جائعاً، وتلبي حاجة إنسان تعرفه جيداً، أو صديق لك، المؤمن ضعيف، له عنده قضية، حينما تذهب معه، وتعرض له قضيته، وتشفع له، ترقى عند الله، لا أحب أنا أبذل لأحد، لأنني أناني .

تعرف شخصًا مهمًا، هذا الشخص بإمكانه أن يحل مشكلة، ويرفع ظلامة، لا تتنازل أن تذهب إليه، لكن هناك من يقول: أنا لا أبذل ماء وجهي، ضننت بهذا العمل، فيضن عليك يوم القيامة، هذا الذي أتمناه على الإخوة المؤمنين .

هذا الكلام واقعي، الآية الفلانية، والحديث الفلاني، والقضية الخلافية هذا شغل المسلمين الشاغل، دعكم من هذا، واعملوا أعمالاً صالحة، الناس لا ينجذبون إلى الدين بفلسفتكم، ولا بتحليلاتكم، ولا بمحفوظاتكم، بل بأعمالكم الطيبة، إن أردت أن تكون داعية كبيراً فأحسن إلى الناس، الإحسان قبل البيان .

هذا الكلام سقته من كلمة قربان، هل لك شيء تتقرب به إلى الله عز وجل؟ هل لك عمل طيب تعرضه على الله يوم القيامة .

ألخص ما قلته: بعد أن تؤمن الإيمان الذي يحملك على طاعة الله فلا شيء في حياة المؤمن يفوق أن تعمل عملاً صالحاً تبتغي به وجه الله تعالى .

حدثنا أحد إخوتنا العلماء الأجلاء كان في بلد إسلامي في الشمال، قيل له: إنه يوجد إنسان قدم ثلاثمائة مليون دولار لطلاب العلم، وتأسيس المعاهد الشرعية، مبلغ فلكي، تمنى أن يلتقي به، في اليوم التالي دعي إلى طعام فطور، على أمل أن يلتقيا، ويرى هذا المحسن الكبير، فجاء هذا العالم الضيف، وانتظر ساعة، فلم يأت هذا، أين فلان؟ جاء قبلك، أين هو؟ هذا هو، يجلس بأدب وتواضع .

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، بحجم إنفاقك، بحجم دعوتك إلى الله، وبحجم خدمتك للناس، بحجم حل مشكلات الناس، في كل قضية ينسحب، ليس لك مصلحة، أبقى مرتاحًا، امش في جنازة ولا تمش في زواج، لا يقبل أن يسهم في زواج أبداً، أفضل لي، ولا أريد أن أساعد إنسانًا، ولا يقابل إنسانًا مهمًّا، يقول لك: لا يساعدون، الناس ليس فيهم خير، هو وحده الذي ليس فيه الخير، هذا النمط من الإنسان الأناني يحب أن تقدم له الخدمات دون أن يقدم خدمة لأحد، يحب أن يأخذ جهد الآخرين، دون أن يبذل جهداً لأحد، هذا إنسان صغير عند الله جداً، ويوجد إنسان كبير يعيش هم المسلمين، يدمع قلبه إن جاءت الأخبار على غير ما يريد، يدمع قلبه، لا يشمت أبداً، لا يقول: هؤلاء مقصرون، دمرهم الله عز وجل، ليس هذا من أخلاق المؤمن أبداً، الأنبياء ابتلوا .

فيا أيها الإخوة، هذا الكلام سيق على كلمة قربان، بنوا إسرائيل قالوا :

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ)

جاءكم قربان أكلته النار فلماذا كذبتم بالأنبياء ؟

تروي كتبهم أنهم إذا قربوا قربانًا إلى الله عز وجل نزلت نار من السماء فأحرقته، هكذا تروي كتبهم، الذي جاءهم بهذا القربان، وأكلته النار، لماذا عصيتموه؟ انظروا إلى هذه الحجة القوية .

وازن بين عمل المسلم الضعيف وعمل اليهود :

أحياناً يقول لك إنسان: أنا أحتكم إلى الشرع، جيد، لماذا لم يحتكم إلى القضاء؟ لأنه عنده إدراك عميق أنه لا تحل مشكلته بالقضاء، القوانين ليست في صالحه، يلجأ إلى الشيوخ، وفي موضوع ثان، يأتيه حكم العلماء، فلا يقبل به، لمَ قبلت حكم العلماء في قضية لا حل لها في القانون، وفي حكم آخر لم تقبله؟ فالقضية انتقائية، وهذا الذي ينتقي إنسانًا ليس مؤمناً الإيمان الكامل، فيه زيغ، ومخاتلة، ومخادعة .

إن كنت صادقاً فتقبل الحكم الشرعي، إن كان لصالحك أو لغير صالحك، قضية مبدأ .

الله رد عليهم: هذا الرسول الذي جاءكم بقربان أكلته النار لماذا عصيتموه؟ الآن تدعون أن الله عهد إليكم ألا تؤمنوا لرسول حتى يأتيكم بقربان تأكله النار، سابقاً الذي جاءكم بقربان أكلته النار لمَ عصيتموه؟ القضية الانتقائية خطيرة جداً في الدين، يعجبه من الدين العمرة، يركب الطائرة، ينزل في فندق خمس نجوم، يدعى إلى ولائم، يطوف سبعة أشواط، تعجبه العمرة تماماً، لكن لا يعجبه غض البصر! تعجبه التجارة، ولا يعجبه تحريم الربا، يريد أن يستثمر أمواله، يعجبه أن يضعها عند الكفار، فإذا حدثت أزمة ما جُمّدت، سبعمائة مليار ضاعت على مسلمين وضعوها في بلاد الكفر! فهذا الذي يعجبه، هذا ليس مؤمناً، هذا الذي ينتقي من العبادات ما يعجبه، ويرفض مالا يعجبه، هذا الذي يأخذ من الدين ما يروق له، ويدع مالا يروق له هذا انتقائي، ويعبد ذاته، يعجبه أن يقيم مولدًا، والله شيء جميل، مسبح مختلط، وجاء بالدعاة، وألقوا كلمات، وأثنوا عليه، أبو فلان بارك الله بك، أعجبه أن يقيم مولدًا في المسبح المختلط، لكن ما أعجبه أن يكون هذا محرماً عند الله عز وجل، هذا حال المسلمين، ولا يخفى عليكم، وبسبب هذه الأحوال التي لا ترضي الله هانوا عليه، لأنه هان أمر الله عليهم فهانوا على الله .

أرأيتم في تاريخ المسلمين إلى حال من الضعف، والتمزق، وتفرق الكلمة، والخوف، والوجل، والخضوع كهذا الوقت؟ لأنهم هان أمر الله عليهم، فهانوا على الله، ولو أنهم اعتزوا بالله لأعزهم، ولو أنهم انتصروا لدينه لانتصر لهم، حينما لا يقام لأمر الله قيمة، وحينما لا يتبع منهج الله عز وجل المصائب كثرة .

حدثني أخ كان في بلد إسلامي في شمال إفريقيا يطبق هذا القانون، الزوجة إذا طلقها زوجها تستحق نصف أملاكه، أقسم لي بالله، وابنته هناك زارها لم يعد هناك زواج، فصار والد الفتاة يقدم سند أمانة بمبلغ فلكي لخاطب ابنته، فيما لو طالبناك بنصف ثروتك طالبنا بهذا السند ! من أجل أن يرضى أن يتزوج ابنته، قال تعالى :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر : 14)

خالق الكون وضع نظام المهر، لكن لم يجعل نظام نصف الأملاك، ومع الأسف الشديد نساء مسلمات، وبعضهن داعيات إذا طلقهن أزواجهن يحتكمن إلى قاض مدني، لا إلى قاضٍ مسلم، لتأخذ نصف مال زوجها هناك، فحينما يهون أمر الله على المسلمين يهونون على الله .

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(182)الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

هذا حوار منطقي .

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ

من السنن الجارية أن يكون للنبي والمسلم أعداء :

بربكم هل في الأرض كلها من آدم إلى يوم القيامة إنسان أكمل من النبي عليه الصلاة والسلام ؟

خلقت مبرئاً من كل عيب كأنك خلقت كما تشاء

***

ومع ذلك ألم يكن له أعداء؟ ألم يكن له مبغِضون؟ لأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية .

ثم يقول الله عز وجل :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

حقيقة مهمة : كل مخلوق يموت مهما اعتنى بنفسه :

هل يستطيع كائن من كان أن يشك في هذه الحقيقة؟ الملوك ماتوا أم لم يموتوا؟ الأنبياء ماتوا أم لم يموتوا ؟ الأغنياء ماتوا أم لم يموتوا ؟ الذين اعتنوا بصحتهم إلى درجة خيالية في النهاية ماتوا .

سمعت عن رجل من أهل الفن ما ركب طائرة في حياته خشية أن تقع، وما أكل مساء إلا فاكهة طوال حياته، وما أكل إلا لحماً أبيض اللون، لأنه خفيف، ومارس الرياضة، وما ترك شيئاً يحمي له صحته إلا فعله، ثم مات .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

اعملوا ما شئتم، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت .

والليـل مهما طال فـلابد مـن طلوع الفـجر

و العمر مهما طال فلا بد مـن نـزول القبر

***

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنـازة فاعلم بأنك بعدها محمــول

***

يكون الإنسان ملء السمع والبصر، فإذا في طرفة عين يصبح خبراً على الجدران، المرحوم فلان، المهندس، الطبيب، الحاج، من له منصب رفيع، لذلك سيدنا عمر يقول :

<< اعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني >> .

مرة وجدت شريطًا في بيتي، نسيت ما هذا الشريط، هو رسالات إجابة على الهاتف، استمعت إليه قبل اثني عشر عاماً، فوجئت أن خمسة عشر إنسانًا في هذا الشريط لاقوا وجه ربهم، شريط اتصال هاتفي، هنا فلان؟ لا ليس هنا، سمعت هذه الأسماء خمسة عشر إنسانًا في هذا الشريط لاقوا وجه ربهم، والآن هم تحت أطباق الثرى، ونحن كذلك، وهؤلاء الحاضرون، ونـحن معكم بعد مائة عام هل يوجد أحد منا على سطح الأرض؟ هكذا كل مخلوق يموت، لذلك :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

العاقل اللبيب مَن يعدّ لهذه اللحظة عدَّتها :

من هو البطل؟ والله، ثم والله، ثم والله، ما وجدت إنسانًا أعقل ممن أعدّ لـهذه الساعة التي لابد منها، الإنسان حين يولد كل من حوله يضحك، وهو يبكي وحده، حينما يغادر الدنيا حوله أولاد شباب، وأصهار، وبناته، هم شباب، أما هو فأصبح في جسمه خمسون علة، يريد أن يغادر الدنيا، كل من حوله يبكي، طبعاً إذا كان محسنا، أما إن لم يكن محسنًا فيهنؤون بعضهم .

مرة إنسان بخيل جداً أصابه مرض فجاؤوا بطبيب، وقبل أن يموت قال لهم: حالة عرضية، فتألم أهله، ماذا تقصد؟ خيب الطبيب ظنهم، أما إذا كان الأب محسنًا فكل من حوله يتمنى بقاءه، فإذا مات

كل من حوله يبكي، فإذا كان مع الله على استقامة، وعلى عمل طيب يضحك وحده، المشكلة أن تضحك الآخر لا الأول .

الذين قصفوا، وقتلوا خمسمائة ألف بريء لا علاقة لهم بالقصف إطلاقاً، وتغطرسوا، وخرجوا يتبجحون، انتصرنا، مثل بطل ملاكمة، ضربه ضربتين ساحقتين، وقال: أنا هكذا، هذا مجنون، انتصرت على من؟ على جهة ضعيفة فقيرة، لا يوجد أي تناسق بين ما عندك وما عندها، هذا ليس نصراً، النصر يكون على عملاق من مستواك، هذا هو النصر .

على كل، أنت حينما تعد لهذه الساعة التي لابد منها تكون أعقل الناس .

سمعت البارحة عن إنسان لعله صالح، ولا أشك في صلاحه أبداً، اشترى بيتًا، وكساه في أربع سنوات، ثم ما دخله إلا جثة هـامدة، قبل أن يسكنه بيومين أصيب بأزمة، أخذ إلى المشفى، بقي فيها عشرين يومًا، ثم توفاه الله عز وجل، ثم دخل إلى البيت ليغسل !

احذروا مداخل عدوّكم إبليس :

هذه الدنيا لا تحتاج إلى هذا الاهتمام، لذلك بماذا الشيطان يوسوس؟ يبدأ بالكفر، فإن رأى العبد على الإيمان ينتقل إلى الشرك، يغريه أن يشرك، فإن رأى العبد على توحيد ينتقل إلى الكبائر، فإن رآه على طاعة يغريه بالصغائر، فإن رآه على ورع ماذا قبل؟ لا بالكفر قبل، ولا بالشرك قبل، ولا بالبدع قبل، ولا بالكبائر قبل، ولا بالصغائر قبل، بقي مع الشيطان ورقتان رابحتان، يغريه بالتحريش بين المؤمنين، يشق صفوف المسلمين، أنت كيف تصلي؟ أنت كيف تحرك إصبعك؟ يقيم عليها مشكلة، المنبر كم درجة؟ يقام عليها مشكلة، يغري بالتحريش بين المؤمنين، فإذا نجا من هذه بقي أمامه ورقة رابحة وحيدة، يغريه بالمباحات، يمضي عمره في تزيين حياته، وقد يأتي ملك الموت قبل أن ينتهي من خططه ونجاحاته . فيا أيها الإخوة .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

معنى توفية الأجر :

معنى توفون أجوركم: أي تأخذونها كاملة .

الدنيا لا تصلح جزاء وعطاء :

أما في الدنيا توجد دفعات على الحساب، قد يكافئ بعض المحسنين تشجيعاً لبقية المحسنين، وقد يعاقب بعض المسيئين ردعاً لبقية المسيئين، لكن الحساب الختامي، والترصيد وتوفية الجزاء يوم القيامة .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

ولو كنت من أصعب الناس حياة، حياة خشنة، فقر، وضيق، وانتهى بك المقام إلى الجنة، فأنت الرابح الأول .

للإمام علي كرم الله وجهه قول رائع يقول: << يا بني ما خير بعده النار بخير >>، قال تعالى :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء : 205-207)

دعاء سيدنا إبراهيم قال :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة البقرة : 126)

قال الله له :

(وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة : 126)

والله قال :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : 77)

لأنه محدود، وينتهي بالموت، لأن الإنسان مهما يكن غنياً ينتقل من كل شيء إلى لا شيء، القبر معروف أنه لا فيه رفاه إطلاقاً، والكفن أرخص أنواع الأقمشة، لا بدلة ممتازة للعروس فرضاً، أو كفن خام، أسمر لا جيب فيه، ولا دفتر شيكات، ولا شيء، من كل شيء إلى لا شيء فجأة، في ثانية واحدة .

الموت يأتي فجأة :

قبل أيام الرجل صاحب هذا البيت مصدر أنس للأهل، فإذا فارق الحياة خاف أهله من الدخول إليها ! يتشاءمون من غرفته، هذه المشكلة، كل ما تملك ما دام القلب ينبض، كل ميزات الحياة منوطة

بضربات القلب، وباتساع الشريان التاجي، إذا تجلط الدم في العروق مات الإنسان، وإذا وقفت حركات القلب انتهت حياة الإنسان، كل شيء يملكه لغيره .

سمعت عن واحد عاش ببلد نفطي كبير، جمع خمسة أو ستة آلاف مليون، هو في رحلة إلى تركيا، وهو بالفندق جاءته أزمة قلبية أودت به، كل هذه الأموال انتقلت إلى غيره، هذه الدنيا :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : 77)

لكن :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : 113)

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص : 14)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : 77)

متاع الدنيا قليل :

أعطى قارون المال، والله لا يحبه، أعطي فرعون الملك، والله لا يحبه، أعطي الأنبياء العلم والحكمة، وهو يحبهم، فانظر عطاءك من أي نوع؟ هناك من يملك الرقاب، وهناك من يملك القلوب، الأنبياء بكمالهم ملكوا القلوب، والأقوياء بقوتهم ملكوا الرقاب، والأنبياء لهم أتباع، والأقوياء لهم أتباع، أنت أتباع من؟ الأنبياء لهم أتباع، والأقوياء لهم أتباع، الأقوياء ملكوا رقاب الناس بقوتهم، والأنبياء ملكوا قلوب الناس بكمالهم .

أيها الإخوة الكرام، نتابع الآية الكريمة :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ

هذا هو الفوز العظيم بميزان القرآن الكريم :

الآن: ما هو الفوز العظيم؟ أن تملك قوة كبيرة جداً؟ لا، أن تنتصر في حروب؟ لا، أن تعيش في حياة ناعمة؟ أن تسكن في أجمل بيت؟ أن تركب أجمل مركبة؟ أن تملك ملايين مملينة؟ لا، أن تتزوج امرأة ساحرة؟ لا، قال :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

هل أنتم مصدقون ربكم ؟

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

الفوز الحقيقي والفلاح الحقيقي التفوق العقل الذكاء أن تزحزح عن النار وتدخل الجنة .

((وعزتي وجلال لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الداء، فإذا بقي منه عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

ورد في الأثر

فإذا أكرمنا الله عز وجل، وأوصلنا إلى القبر في عافية من الذنوب فهذه نعمة كبرى أنعم الله بها علينا .

إخواننا الكرام، هذا المطمح الكبير، هذا شعار كل مسلم، لو كنت فقيراً، لو كنت مريضاً، لو كنت في أمة مقهورة لا مشكلة .

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

هذا المقياس الحقيقي، هذا مقياس خالق الأكوان، هذا مقياس القرآن، الدنيا تغر، وتضر، وتمر . قد تجد إنسانًا لا يملك ثمن دواء، وقد تجد إنسانًا الصنبور في بيته يعادل ثمن بيت ، هكذا حدثني بعض الإخوة! صنبور في بيت يساوي ثمن بيت، قد تجد إنسانًا غارقًا في النعيم، لكن الله لا يحبه، وقد تجد إنسانًا فقيرًا، لكنه مستقيم على أمر الله .

دخل رجل على النبي فوقف النبي له وقال :

((أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي؟ قال: نعم يا أخي، خامل في الأرض علم في السماء))

ورد في الأثر

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((ابتغوا الرفعة عند الله))

الجامع الصغير عن ابن عمر

العمل الصالح يرفعك عند الله، إخلاصك يرفعك، استقامتك ترفعك .

فلذلك أيها الإخوة، شعار كل مسلم، والهدف الأكبر، وهو الفلاح في مقياس القرآن، النجاح عند خالق الأكوان، أن تزحزح عن النار، وأن تدخل الجنة .

يبدو أن صديقًا له صديق غني مترف، وهو في الجنة، هذا الصديق الأول المؤمن تذكر صديقه، قال :

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(53)قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ(54)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

(سورة الصافات)

الغنى والفقر بعد العرض على الله، الدنيا لا قيمة لها، لو أنها تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء .

أيها الإخوة، تكاد تكون هذه الآية أهم آية نحن بحاجة إليها :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

عندك مطعم خمس نجوم، دخلك اليومي فلكي، تبيع فيه الخمر، ومطعم بطرف المدينة يقدم حمصً فقط، وفلافل، لكن الدخل يكفي مصروف صاحبه، وصاحبه فقير، صاحب هذا المطعم البسيط البَسيط الذي لا يوجد له إلا قليل من رواده، والدخل يكاد يغطي الطعام والشراب أفضل من مطعم خمس نجوم فيه خمر، هناك حرف كثيرة، وأموال طائلة، أساساً أغنى أغنياء العالم تجار المخدرات، يقول: غسيل الأموال، ما معنى غسيل الأموال؟ هذه كلها أموال مخدرات، أكبر تجارة الأسلحة كلها عقود لتدمير العالم، أرقام الأسلحة فلكية، ثم الأدوية الزراعية، وقتل الإنسان، والحيوان، والنبات أربح شيء، هكذا .

على كل حينما تؤمن فلك مقياس، حينما تؤمن فعندك ميزان .

الإيمان بالآخرة يقلب الموازين :

والله أيها الإخوة، حينما نؤمن إيماناً حقيقياً بالدار الآخرة ـ دققوا فيما سأقول ـ يجب أن تنعكس موازيننا، ترى الفلاح في العطاء لا في الأخذ، ترى الفلاح في حياة خشنة، لكنها في طاعة الله، لا يوجد حياة ناعمة، لكنها في سخط الله، لكن على أن تؤمن، إذا آمنت ترى الخشونة مع الطاعة هي السعادة، وترى النعومة مع المعصية هي الشقاء، لذلك في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

تغر وتضر وتمر .

كان عند رجل دعابة؛ يكنس محله بسوق الحميدية، ويضع قمامته في علبة فخمة، ويلفها بورق هدايا، ويجعل لها شريطًا من خيط فخمٍ، ويضعها على الرصيف، فيأتي إنسان فضولي ليرى إن كان فيها قطعة ماس، يحملها، ويعدو، يلحق به، بعد مائتي متر يفك الشريط، ومائتين أخرى يفك الورق، ومائتين ثالثة يجد زبالة المحل بالعلبة فيصعق، هكذا الدنيا والله، لكن عند الموت .

في بداية الحياة المال كل شيء، في المنتصف هو شيء، أما في النهاية فلا شيء، في البدايات المرأة كل شيء، في المنتصف هي شي، في النهاية لا شيء، فكلما ازددت قرباً من الله صغرت الدنيا في عينيك .

دخل سيدنا عمر رضي الله عنه على رسول الله وجده نائم على حصير أثر على خده الشريف فبكى ، قال عمر :

((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ؟ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى؟ وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟ قُلْتُ: بَلَى))

البخاري ومسلم

كل بطولتك أن تكون مطيعاً لله عز وجل، ولا تعبأ بهذه المقاييس المزيفة .

الأسئلة :

س: سيدنا موسى كيف قالت تلك المرأة ابنة سيدنا شعيب :

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص : 26)

القوة واضحة، أنه سقى لهما، لكن كيف عرفت أمانته ؟

ج: من غض بصره، الأمانة لا تتجزأ، الأمين أمين في المال، وفي الأعراض، غض بصره هو أمانة عند الله، هذه المرأة لا تحل له فلم ينظر إليها، عرفت أمانته من غض بصره .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(56-60): تفسير الآيات 186 – 189
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-01-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السادس والخمسين من دروس آل عمران، ومع الآية السادسة والثمانين بعد المئة، وهي قول تعالى :

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

ليس من العقل أن تُجعل الدنيا دارَ قرار :

أيها الإخوة الكرام، لا بد للإنسان أن يعرف حقيقة الحياة الدنيا، من توهمها دار نعيم شقي فيها، ومن أيقن أنها دار ابتلاء سعد بها، الدنيا دار ابتلاء، الدنيا دار امتحان، الدنيا دار عمل، الدنيا دار كدح، لكن النعيم المقيم في الآخرة، والسعادة المستمرة في الآخرة، ولك ما تشتهي في الآخرة، ولك ما تحب في الآخرة، والتكريم في الآخرة، لذلك شقي الناس حينما قلبوا هذه الحقيقة، جعلوا الدنيا دار نعيم ودار استقرار، هي ممر وليست مقراً، من هنا ورد عن رسول صلى الله عليه وسلم أن :

((أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها))

ورد في الأثر

خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه، وهو لا يشعر، والدنيا تغر وتضر وتمر، دار ابتلاء ، المؤمن العاقل هو في الدنيا ضيف، يتحول عنها سريعا .

أنا أضرب لكم مثلاً ذكرته سابقاً: لو أن بلداً من البلدان فيها قانون إيجار غريب، مالك البيت في أية لحظة، وفي أية ثانية يطرد المستأجر من دون إنذار، ولا يستطيع المستأجر أن يأخذ شيئاً، لا ألبسته، ولا أثاث بيته، ولا أي جهاز كهربائي، هذا المستأجر هل من العقل أن يضع هذا كل دخله في هذا البيت، أن يملأه بالثريات، أن يملئه بالأثاث، أن يملئه بالأجهزة، وهو معرض إلى أن يخسر كل شيء في ثانية واحدة، يخسر كل شيء، ولهذا المستأجر بيت بعيد على الهيكل، هل من العقل أن يزين بيته المستأجر الذي سيغادره في أية لحظة من دون إنذار، من دون إعلام مسبق، أمن العقل أن يكسو هذا البيت الذي على الهيكل، وهو مصيره إليه، هذه المشكلة كلها، وضع الناس كل البيض

في سلة واحدة، فكل ما تملك، وكل مكانتك، وكل مكتسباتك، وكل إنجازاتك، وكل هيمنتك، وكل سيطرتك، وكل استمتاعك في الدنيا منوط بضربات القلب، فإذا وقف القلب ألصق النعي في شتى أنحاء المدينة، وكان رجلاً صار خبراً، كان رجلاً ملء السمع والبصر، فأصبح خبراً تتناقله الأفواه

فيا أيها الإخوة، ليس من العقل أن تجعل الدنيا أكبر همك، ومبلغ علمك، الدنيا كما ورد جيفة، وطلابها كلابها، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((ما لي وللدنيا إنما أنا كعابر سبيل استظل بشجرة وتحول عنها))

ورد في الأثر

فأنت حينما تفهم حقيقة الدنيا تسعد بها، وحينما تراها مديدة طويلة الأمد ينبغي أن تستمتع بها، وأن تنشأ فيها البيوت، وأن تركب المركبات، وأن تقتني الأشياء الجميلة، هنا تبدأ المشكلة، لذلك أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه، لا خير في الدنيا إلا لذكر الله .

أيها الإخوة الكرام .

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ)

لابد من الابتلاء والمصائب:

معنى ذلك ولو كنت مؤمناً، ولو كنت مقرباً من الله، هناك مصائب ابتلاء، هناك مصائب عقاب، هناك مصائب ابتلاء .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون الآية : 30)

حقيقة الحياة الدنيا أنك مبتلى فيها، مبتلى بأشياء كثيرة، مبتلى في أشياء لا تعد ولا تحصى، مبتلى بالغنى، فإذا كنت غنياً فأنت مبتلى بالغنى، يعني مادة امتحانك الغنى، من أين كسبت هذا المال؟ وكيف أنفقته؟ وما الحالة النفسية التي رافقت هذا الغنى؟ هل كنت متكبراً؟ هل رأيت نفسك فوق الناس؟ كلهم فقراء أصحاب دخل محدود، أما أنت فلك أرقام في المؤسسات المالية كبير جداً، أنت مبتلى بالغنى ومبتلى بالفقر، هل أنت راضٍ عن الله؟ هل أنت متجمل؟ هل تصمد أمام غني؟ أم تتضعضع، من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، أنت مبتلى بالفقر، أنت مبتلى في الصحة، ماذا فعلت بهذه الصحة؟

اعرف نِعمَ الله عليك قبل زوالها :

ذكرت لكم في درس سابق، وذكرت هذا في العيد، أن أحد علماء دمشق الأجلاء رحمهم الله عز وجل كان من عادته ـ طبعاً وليست هذه سنة ـ لكن من عادته أن يأخذ إخوانه في صبيحة أيام العيد إلى المقابر ليعرف إخوانه نعمة الحياة، أنت حي، ومعنى حي أنه بإمكانك أن تتوب، معنى حي أنه

بإمكانك أن تستغفر، معنى حي أنه بإمكانك أن تكون باراً بوالديك، معنى حي أنه بإمكانك أن تنفق مالك، معنى حي أنه بإمكانك أن تطلب العلم، نعمة الحياة لا تقدر بثمن، لذلك وصف الله الموت بأنه مصيبة :

(فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ)

(سورة المائدة الآية : 106)

الموت أنهى الحياة، أنهى العمل، أنهى الاستغفار، أنهى التوبة كله انتهى، كم من باب مفتح لك وأنت حي، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم جئتني تائباً غفرتها لك ولا أبالي، ما دمت حياً، التوبة بين يديك، المغفرة بين يديك :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الحجر الآية : 49)

فكان هذا العالم الجليل يأخذ إخوانه إلى المقابر في صبيحة اليوم الأول، ليعرف إخوانه معنى الحياة، أنت حي، بإمكانك أن تنفق، وقد مر النبي عليه الصلاة والسلام بقبر فقال لأصحابه :

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

لو أنك تملك أكبر شركة في العالم، لو أن لك دخلا كل يوم مليون، لو أنك تملك كهذا الذي يضرب به المثل، تسعين مليار دولار، وهو شاب في الأربعين :

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

في اليوم الثاني يأخذهم إلى المستشفيات، لا يعرف نعمة الصحة إلا المريض، نعمة الحركة، في إنسان فقد حركته، نعمة الوعي في إنسان فقد وعيه، نعمة انتظام ضربات القلب، نعمة إفراغ المثانة، هناك نعم لا تعد ولا تحصى، وأية نعمة في الصحة فقدتها تصبح الحياة جحيماً لا يطاق، كأس الماء لو منع منك، أو لو منع إخراجه، هذا الطعام الذي يأكله الفقراء لو منع منك تدفع ثمنه مئات الألوف، هناك من يعيش على السائل السكري الملحي، سيروم، قد يشتهي هذا المريض أن يأكل شيئاً مما يأكله معظم الفقراء، لا يستطيع، لذلك قال تعالى :

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر الآية : 8)

ماذا فعلت بنعيم الصحة؟ ماذا فعلت بنعيم الأمن؟ أنت آمن، في اليوم التالي يأخذهم إلى المستشفيات، هذا معه خثرة في الدماغ، هذا معه تشمع بالكبد، هذا معه فشل كلوي، هذا معه التهاب بالأعصاب حاد، هذا معه ضمور في بعض الأجهزة والعياذ بالله، من أجل أن يعرفوا قيمة الصحة، وفي اليوم الثالث يأخذهم إلى السجون، من أجل أن يعرفوا قيمة الحرية، أنت حر، تذهب إلى أي مكان تريد لا تخشى أحداً، ليس هناك مذكرة قبض بحقك، ولا مذكرة بحث، حر، ليس هناك حكم جزائي يطولك، وفي اليوم الرابع يأخذهم إلى مستشفى الأمراض العقلية ليعرفوا نعمة العقل، عقلك برأسك .

فيا أيها الإخوة، معنى قوله تعالى :

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(1)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(2)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(3)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(4)كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6)ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(7)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر : 1-8)

نعيم الصحة، نعيم الفراغ، نعيم الأمن، نعيم الكفاية، من منا يدخل بيته فيقول: الحمد لله، ألم تروا أن سبعين بيتا هدمت البارحة على رؤوس أصحابها ، فصاروا بلا مأوى، ألا يتفطر القلب لهؤلاء المسلمين المشردين في هذه الموجة الباردة ؟

فلذلك أيها الإخوة، الدنيا دار ابتلاء، الدنيا دار تكليف، الدنيا دار عمل، الدنيا دار كدح، من هنا ورد في خطب النبي عليه الصلاة والسلام :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء))

ورد في الأثر

لحكمة أرادها الله جل جلاله، لا تصفو لأحد، إن كنت قوياً مهيمناً مسيطراً فقدت الأمن .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

(سورة آل عمران الآية : 151)

وقد ترتعد من أقوى قوى في العالم، خوف، أعطاها كل شيء وسلبها نعمة الأمن، قد تكون الزوجة صالحة والأولاد ليسوا أبراراً، وقد يكون الأولاد أبراراً، والزوجة ليست صالحة، وقد يكون الأولاد والزوجة كما تتمنى، والدخل لا يكفي، وقد يكون الدخل كافيًا، والصحة متدهورة، ما من إنسان إلا وهو مبتلى بجانب من جوانب حياته .

حينما توطن نفسك على أن الدنيا دار ابتلاء ترتاح، لذلك عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قُلْتُ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد

لابد أن توقن بحكمة الله أن هذه الدنيا دار ابتلاء من أجل أن تتعلق بالآخرة لا من أجل أن تركن إليها، وأن تميل إليها، وأن تكره لقاء الله عز وجل المؤمن دائماً ينتظر أن يلقى الله عز وجل .

أيها الإخوة الكرام .

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ)

الابتلاء في المال وضرورة تقوى الله في الفقر :

لا أعتقد في الناس قلُّوا أو كثروا إلا وقد ابتلي أحدهم بماله، يفقد جزءًا منه، يتلف الله له بعض ماله، يخسر أحياناً، يفوته مال كثير، هناك من يقنصه، هناك من يحتال عليه، هناك من يبتز ماله .

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ)

لكن :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق الآية : 2)

قال العلماء: من يتق الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من إتلاف ماله، من يتق الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم، من يتق الله في إنفاق ماله يجعل الله له مخرجاً من محاسبته يوم القيامة، لذلك الإنسان في الدنيا في دار ابتلاء، في دار حساب، إنما هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، يتزوج الإنسان، فيأتيه طفل صغير، يخاف على عقله من محبته له، قد ترتفع حرارته فلا ينام الليل، قد يمرض، قد يغيب عن البيت، هذا الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، في أمراض لا تعد ولا تحصى، وكل مرض يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق .

قانون الرزق والصحة متحرك

لكن بالمناسبة أيها الإخوة، لحكمة بالغةٍ بَالغةٍ ثبت الله مليارات الأشياء، دورة الأفلاك ثابتة، خصائص المعادن ثابتة، خصائص البذور ثابتة، القوانين كلها ثابتة، من أجل أن ترتاح، أنت اشتريت سبائك ذهب لا تنقلب إلى حديد بعد حين، أنت أنشأت بناء، وسلحته بالحديد، هذا الحديد يبقى حديداً إلى ما شاء الله، لا ينهار البناء، من الذي ثبت خصائص المعادن، وثبت خصائص المواد، وثبت خصائص البذور، لكن الله حرك الرزق، وحرك الصحة ليؤدبنا بهما، جفاف .

حدثني أخ في بلد يظن أن أمطارها ألفا ميليمتر باستنبول، قال لي: مر سبع سنوات في الأربعة أيام يفتح الماء ساعة واحدة، ثم أكرمهم الله بأمطار غزيرة، ونحن قد امتحنا بهذا أليس كذلك؟ سبع سنوات عجاف، المعدلات للنصف والثلث، والينابيع جفت .

أنا أعلم حينما كنت صغيراً أن عشرات الأشخاص يموتون غرقاً في بردى، فهل سمع أحدكم أن أحدًا مات غرقاً في هذا النهر الآن؟ تمشي فيه قطة .

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن : الآية 16 - 17)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف : الآية 96)

وأنا أقول لكم دائماً: كلما قلّ ماء الحياء قلّ ماء السماء، وكلما رخص لحم النساء غلا لحم الضأن، وكلما اتسعت الصحون على السطوح ضاقت صحون المائدة، وكأن هذه الصحون ترد رحمة الله عز وجل .

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ)

فالابتلاء بالمال ثابت، قد تبتلى بالغنى، وقد تبتلى بالفقر، وقد تبتلى بأخذ مالك، وقد تبتلى بهدم بيتك، وقد تبتلى بفقد عملك، وقد تبتلى بسرقة مالك، إن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء ، دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، لأنه مؤقت :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء الآية : 205-207)

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(26)وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(27)كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ(28)فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

(سورة الدخان الآية : 25 - 29)

كل شيء مؤقت، كل حال يزول، قال أحد الملوك لوزيره: قل لي كلمة إن كنت حزينًا أفرح، وإن كنت فرحاً أحزن، قال: كل حال يزول، لذلك ورد في بعض الأحاديث أن الموت ما ذكر في كثير إلا قل له، ولا ذكر في قليل إلا كثر، إذا كنت مؤمن حياتك صعبة فالموت فيه راحة للمؤمن، << لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه >>، وإن كنت في بحبوحة فعلم علم اليقين أن هذه البحبوحة مؤقتة، وأن بعد هذه البحبوحة حساب دقيق، لذلك :

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا)

وَأَنْفُسِكُمْ

الابتلاء في النفس أنواع :

أنفسكم، أي هناك أمراض تصيب الجسم، قد يفقد الإنسان ابنه، وقد سمعت عن إنسان فقد ابنه فترك الصلاة، مات ابنه وهو شاب، فعتب على الله عتباً شديداً، فترك الصلاة، وإنسان آخر فقد ابنه فكان شاكراً لله، راضياً بقضائه وقدر، وقد علمنا النبي صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما مات ابنه إبراهيم الصبر فقال :

((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

متفق عليه عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ)

بالمناسبة أيها الإخوة، أنت كمؤمن البطولة لا أن تنجوا من مصيبة، هذا ليس متاحاً لأحد، ما من إنسان إلا أصابته مصيبة، ولكن البطولة أن تقف موقفاً كاملاً من أية مصيبة، ليست البطولة أن تنجو من المصيبة، ولكن البطولة أن تقف منها الموقف الكامل، لذلك إنسان يطوف حول الكعبة

يقول: " يا رب هل أنت راضٍ عني، وكان وراءه الإمام الشافعي، قال: يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: من أنت يرحمك الله؟ كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ قال: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله "، لذلك قال تعالى :

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

(سورة البينة الآية : 8)

إن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في أصعب حالات حياته في الطائف حيث ضُرب، وكُذب، وسخر به بعد أن أخرجته مكة، ليس له ملجأ إطلاقاً ، علق الآمال عليهم، فخيبوا ظنه، ماذا قال؟ هذا الدعاء، والله يصلح لنا في هذه الأحوال :

((اللهم إنا نشكو إليك ضعف قوتنا ، وقلة حيلتنا ، وهواننا على الناس ، يا رب المستضعفين إلى من تكلنا ، إلى صديق يتجهمنا أم إلى عدو ملكته أمرنا ، إن لم يكن بك غضب علينا فلا نبالي ولك العتبة حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي))

الطبراني عن عبد الله بن جعفر

أيها الإخوة الكرام .

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا)

اتهامات الأعداء من الأذى :

وكل شيء تسمعونه يؤكد هذه الآية، المسلم متهم أنه إرهابي، متهم أنه مجرم، متهم أنه متخل، حضارته متخلفة، هذا نسمعه ليلاً ونهارًا .

(وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا)

يومياً، صباح مساء، الإسلام متهم، المسلمون متهمون، المسلمون مستهدفون بكل فئاتهم ومذاهبهم، ومللهم ونحلهم وطوائفهم، إنها حرب عالمية ثالثة معلنة على الإسلام، هكذا قال الله عز وجل، ولن يرضوا عنا إلا إذا كنا منهم، فإن لم نكن منهم لن يرضوا عنا، الله أخبرنا فقال :

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا)

أليس هذا تطييباً لقلوبنا؟ أليس هذا توضيحاً لما نعيشه نحن الآن؟ شيء عام .

وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا)

لابد من التقوى والصبر على كيد الأعداء :

تتقوا تطيعوا، إن صبرنا وأطعنا .

(فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

لكن هل تصدقون أن هناك آية أخرى؟ والله الذي لا إله إلا هو لو علم الناس فحواها وبُعدها وخطورتها لكان فيها الحل، قال تعالى :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية : 120)

الكيد يعني عندهم أسلحة لا يعلم عددها إلا الله، تطير الطائرة خمسا وثلاثين ساعة محمَّلة بمئات الأطنان من القنابل، وليس في الأرض مطار يحتملها تطير من أقصى البلاد إلى أقصى البلاد تقصف، وترجع، وهذه صنعت عام 62، وصالحة لعام 2040 .

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم الآية : 46)

وهذا ترونه رأي العين :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم الآية : 46)

ومع ذلك قال :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية : 120)

تصور وأنت واقف في مكان فيه جدران ثلاثة حديدية، ومكعب حديدي متجه إليك بقوة كبيرة، وراءك حائط حديدي، وجدران حديدية، وهذا المكعب تماماً بحسب الفراغ على مساحة الفراغ ، الموت محقق، الانسحاق محقق، لكن هناك زر على اليمين كتب عليه إن ضغط على هذا الزر يقف تقدُّم هذا المكعب، ماذا تفعل؟ أو ماذا تنتظر؟ الموت محقق، والانسحاق محقق، قال لك الله عز وجل، خالق الأكوان، مبدع الإنسان :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية : 120)

هذه آية اليوم، آية العصر، آية المشكلة، أي مسلم يتقي ويصبر لا يستطيع قوي مهما كان قوياً أن يصل إليه .

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

أما إن لم نتق فلسنا مستعدين أن نغير شيئاً من أنماط حياتنا، وكل أنماط حياتنا مخالفات في مخالفات، واستمرأنا هذه الحياة، وقبلنا هذه الفواحش والآثام، وألفنا هذه المعاصي والانحرافات، وندعو الله أن يخفف عنا، هذا كلام لا معنى له :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

قال تعالى :

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)

(سورة آل عمران الآية : 187)

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ

لا يجوز للعالِم كتمان العلم ولا القول بخلاف ما يعلم :

هذا ميثاق الذين وكّلهم الله بنقل العلم، هذا ميثاق من تصدوا لتعليم الناس، الأنبياء أخذ الله عليهم العهد، ومن ينوب عنهم في إبلاغ العلم أخذ الله عليهم العهد .

(لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ)

لذلك الذي يفتي بخلاف ما يعلم هذا مجرم، يعلم الحقيقة، لكن لمصلحة دنيوية ليرضي ظالماً، ليرضي قوياً، ليرضي غنياً ، أفتى له بخلاف ما يعلم ، هذا عليه إثم كبير جداً .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ)

لا تكونوا كأهل الكتاب الذين نبذوا الشريعة وراء ظهورهم :

هذا العهد لم يعبئوا به، لم يتمسكوا به، أي إنسان له إلمام بالعلم هذه الفتوى تعطيه مكسباً، أو ترضي عنه قوياً، أو تجعله في مكانة علية ... فأفتى بجهل آثم، أو أفتى بخلاف ما يعلم، خان أمانة الله، وأمانة الرسول .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)

رجل يعمل في عمل ديني في دولة إسلامية بمنصب رفيع جداً، يساوي رئيس وزارة، فأفتى في موضوع المصارف والربا، وما شاكل ذلك، حدثني أحد الإخوة العلماء، وهو على فراش الموت رفع يديه إلى السماء وقال: يا رب، أنا بريء من كل فتوى أفتيتها في المصارف، بعد فوات الأوان، وهو على فراش الموت أدرك أن ما أفتى به إرضاء لقوي، أو جلباً لمنفعة، أو وصولا إلى مقام وإلى منصب، فكانت هذه الفتوى الضالة ثمن هذا المنصب الرفيع، لكن عندما وجد أنه على

مشارف الآخرة شعر بفداحة عمله قال: يا رب إني بريء من كل فتوى أفتيتها في المصارف، الدعوة إلى الله أمانة .

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

هذه صفات العلماء الحقيقيين :

في هذه الآية وصفوا بصفة واحدة فقط ليس غير، قال :

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

وأغفلت الآية صفاتهم الكثيرة، والحقيقة لا معنى إطلاقاً لذكر صفاتهم إلا لم يتصفوا بهذه الصفة، فهذه الصفة مترابطة مع الموصوف ترابطًا وجوديًا، إذا ألغيت ألغي الموصوف، لأنهم إذا خافوا غير الله نطقوا بالباطل إرضاء لهذا القوي، أو سكتوا عن الحق إرضاء لهذا القوي، فإذا سكتوا عن الحق، أو نطقوا بالباطل ماذا بقي من دعوتهم؟ انتهت دعوتهم :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ)

لم يعبئوا بهذا الميثاق .

(وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

نبذ الشريعة سببه ابتغاء الدنيا ومتاعها الزائل :

وصل بفتوى إلى منصب، أو إلى مكانة، أو إلى مكسب كبير :

(وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

والله ما وجدت مثلاً أوضح به هذه الحقيقة إلا هذا: لو أن واحدًا معه شيك بمليون دولار، لكن لا يعلم أنه شيك، رآه ورقة بيضاء، رآه من ظهر الورقة، رآه ورقة بيضاء، كتب عليها كلامًا لا معنى له، ثم مزقه، وألقاه في سلة المهملات، ثم اكتشف أن هذه الورقة شيك بمليون دولار، هو استخدمها استخدامًا رخيصًا جداً، أحيانا الواحد عنده أوراق على الطاولة، يكتب عليها رقم هاتف، يتصل بإنسان يقول له: رقم هاتفي كذا، وهذا الإنسان لا يعيره اهتماما، لو أن هذه الورقة شيك بمليون دولار ما انتبه لها، رأى ظهر الشيك واستخدمه كورقة، وكتب عليها رقم هاتف، ثم وجد هذا الهاتف لا قيمة له فمزقها، وألقاها في المهملات، ثم اكتشف بعد ذلك أن هذا شيك بمليون دولار، وهو معاشه بالشهر خمسة آلاف، اشترى بهذا الشيك ثمناً قليلا، استخدمه أسوأ استخدام، وهذا الذي

يتعامل مع الدين لمكسب مادي، يا لطيف، أراد بالدين الدنيا، أراد بالدين منصبًا، أراد بالدين مكسبًا تجاريًا، أراد بالدين سمعة، أراد بالدين هيمنة، هذا الدين ليسعدك إلى أبد الآبدين، فجعلته من حطام الدنيا، جعلته مطية، لذلك قال الشافعي: " والله لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق من الدين "، الدين لا يرتزق به، الدين دين الله، الدين يطبق، الدين يعظم، الدين ينشر، أما أن ترتزق به فهذه مشكلة كبيرة .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(187)لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا)

هو يقولب الدين كما يريد .

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا)

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا

ليس هذا هو الذكاء والحنكة!!!

أنه أرضى المؤمنين، وصل لأهدافه المادية، وركب الموج كما يقولون، أرضى المؤمنين، ووصل لأهدافه المادية، وركب الموجة، فظن أنه ذكي جداً، وأنه من خلال هذا الدين وصل إلى ما يصبو إليه :

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا)

وجد نفسه ذكيًا، وعنده حنكة، وعنده تجربة، واستطاع أن يلعب على الناس، ويضللهم، وأوهمهم أنه مؤمن، ثم وصل إلى مبتغاه المادي فقط، وظن أنه أذكى منهم .

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

لذلك :

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)

(سورة النساء : الآية 145)

تستطيع أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، وقد تستطيع أن تخدع بعض الناس بكل الوقت، أما أن تخدع الله عز وجل فمستحيل، الله عز وجل يكشفك، بأي لحظة يكشفك ويفضحك، ويحبط عملك، فالإخلاصَ الإخْلاصَ، إن أردت الدنيا فاسلك سبيل الدنيا، أما أن تستخدم الدين للدنيا فهذا عمل قبيح للإنسان، أن تستخدم الدين للدنيا .

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قدير أن يعطيك أي عطاء، ولكن بالأسباب التي رسمها لك .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(57-60): تفسير الآيات 190 – 194
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-01-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية التسعين بعد المائة، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة آل عمران)

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

خلق السماوات والأرض مظهرٌ لعظمة الله :

أيها الإخوة، كلمة السماوات والأرض في المصطلح القرآني تعني الكون، والكون ما سوى الله، الله واجب الوجود، وما سواه فممكن الوجود .

إنّ خلق السماوات والأرض تتمثل فيه عظمة الله عز وجل، فكأن أسماء الله الحسنى مجسدة في خلق السماوات والأرض، وكأن صفاته الفضلى واضحة في خلق السماوات والأرض، فطبيعة البشر لا تستطيع أن تدرك الله عز وجل بحواسها، لأن الله عز وجل يقول :

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام : 103)

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)

(سورة الأعراف : 143)

الله لا يُرى في الدنيا ، بل يُرى يوم القيامة :

وطبيعة البشر في الدنيا لا تسمح لهم أن يروا ربهم، لكن المؤمنين في الجنة يرون ربهم رأي العين، لذلك في قوله تعالى :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(سورة القيامة : 22-23)

ورد في بعض الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى وجه الله الكريم فيغيبون خمسين ألف عام من نشوة النظر! بل إن هناك فوق النظر إلى وجه الله الكريم رضوانًا من الله أكبر! هناك جنة فيها ما

تشتهي الأنفس، فيها فاكهة، فيها أنهار، فيها حور عين، فيها ولدان مخلدون، هذا النعيم الأول، هناك نعيم أرقى من ذلك هو نظرة إلى وجه الله الكريم :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

الجنة .

(وَزِيَادَةٌ)

(يونس : الآية 26)

النظر إلى وجه الله الكريم، وفوق الزيادة رضوان من الله، قد تدخل بيتاً تجد فيه ما لذّ وطاب، قد تستمتع بالطعام وبالشراب، وبالورود وبالمناظر الجميلة، لكنك إذا نظرت إلى صاحب البيت وجدت في وجهه جمالاً يحير العقول، لكن هذا الصاحب لو أنه استقبلك بترحاب شديد، ومودة بالغة، فترحاب صاحب البيت أبلغ من التمتع بالنظر إلى وجهه، والنظر إلى وجه صاحب البيت أبلغ من التمتع بما في البيت من طعام وشراب .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

الجنة .

(وَزِيَادَةٌ)

النظر إلى وجه الله الكريم، وفوق الزيادة رضوان من الله أكبر .

نظام أجسامنا في الدنيا لا يتيح لنا أن ندرك الله عز وجل بعيون رؤوسنا، لكننا نستطيع أن ندركه بعقولنا، لذلك الكون الذي هو مسير الله ينطق بوجوده، وبكماله، وبوحدانيته، وكماله منوع، ينطق بلطفه، ينطق برحمته، ينطق بحكمته، ينطق بمودته، ينطق بقوته، ينطق بعظمته، وفي كل شيء آية تدل على أنه واحد .

الكون طريق إلى معرفة الله :

إذا كان أصل الدين معرفة الله، ومعرفة الله لا تتم إلا من خلال التفكر في خلق السماوات والأرض، لذلك المعرفة قد تكون حسية، وقد تكون عقلية، وقد تكون إخبارية، فالشيء الذي يعجز العقل عن إدراكه عن ذات الله أخبرنا الله به من خلال قرآنه، ومن خلال حديث رسوله صلى الله عليه وسلم، والشيء الذي بإمكان العقل أن يدركه فهو متاح لكل إنسان .

المقولة والمسلّمة الثابتة أن أصل الدين معرفة الله عز وجل، ومعرفته تحتاج إلى تفكر في خلق السماوات والأرض، بل إن هذا الكون في علة وجوده من أجل أن تعرف الله من خلاله، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق : 12)

من أجل أن تعلموا أن علمه وقدرته تطولكم، فإن أيقنتم أن علمه وقدرته تطولكم استقمتم على أمره، ولعل الاسمين اللذين ينفردن من بين بقية الأسماء العليم والقدير، يعلم ويعاقب! علمه يطولك، وقدرته تطولك، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قرأ هذه الآية وقال :

((الويلُ لِمَن لم يفكِّر في هذه الآيةِ))

ورد في الأثر

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة آل عمران)

هذا ما تحويه السماوات :

الحقيقة السماوات كل ما على فهو سماء، يوجد مجرات تزيد على مائة ألف مليون مجرة في العدد الذي توصل العلماء إليه حتى الآن! في المجرة الواحدة تقريباً مائة ألف مليون نجم، ومجرتنا درب التبانة مجرة متوسطة .

لو أننا رسمناها على شكل عضلة مغزلية، المجموعة الشمسية لا تزيد على نقطة على درب التبانة على هذه المجرة! المجموعة الشمسية فيها كواكب كثيرة تدور حول الشمس، أرضنا يأتي في المركبة الثالثة من هذه الكواكب، وتبعد عن الشمس مائة وستة وخمسين كيلو مترًا، والشمس تكبر الأرض بمليون ومائة ألف مرة .

هذه المجموعة الشمسية من آيات الله الدالة على عظمته، أما بقية المجرات فالحديث عنها يطول، هذا من خلق السماوات والأرض، وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية القطب، أربعة آلاف سنة، عين القط ثلاثة آلاف عام، إن أردت أن تقطع هذه المسافة على مركبة أرضية لاحتجت إلى خمسين مليون عام !

مليونا سنة ضوئية بيننا وبين مجرات المرأة المسلسلة، عشرون مليار سنة ضوئية بيننا وبين أبعد مجرة اكتشفت الآن، كم هذه المسافة بيننا وبين مجرة تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، والضوء يقطع ثلاثمائة ألف كيلو متر بالثانية، وبالدقيقة ضرب ستين، وبالساعة ضرب ستين، وباليوم ضرب أربعة وعشرين، وبالشهر ضرب ثلاثين، وبالعام ضرب اثني عشر، اعمل حسابًا بسيطًا، كم يقطع الضوء في سنة ضوئية؟ ضرب عشرين مليار، وهذا ما قاله الله عز وجل :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة : 75-76)

وكلمة مواقع تخر لها رؤوس العلماء خشوعاً لله عز وجل، الموقع لا يعني أن صاحب الموقع في الموقع، لأن هذا النجم الذي أرسل ضوءه، وسار الضوء إلينا خلال عشرين مليار سنة، وهو يسير بسرعة تقترب من الضوء؛ مائتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، أين هو الآن؟ كل ثانية ضرب ستين، ضرب ستين، ضرب أربع وعشرين، ضرب ثلاثين، ضرب اثني عشر، ضرب عشرين مليار :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة : 75-76)

والحديث عن الكون لا ينتهي، وآيات الله كثيرة في الآفاق وفي الأرض وفي الجسم .

أتحسب أنك جرم صغير ؟ وفيك انطوى العالم الأكبر

***

جسم الإنسان عالَم قائم بذاته :

جسمك عالم بذاته، إذا شبكية العين فيها مائة وثلاثون مليون مخروط وعصية، والعصب البصري تسعمئة ألف عصب، وكل عصب له أغماد، وكلها في قطر ميليمترين .

الحديث عن العين وعن الأذن ، والأنف فيه عشرون مليون نهاية عصبية، كل نهاية فيها سبعة أهداب، كل هدب مغمس بمادة مخاطية، تتفاعل مع الرائحة ، يتشكل شكل يشحن إلى الدماغ، ويعرض على الذاكرة الشمية المؤلفة من عشرة آلاف بند، فحينما يتطابق بند مع بند تعرف أن هذه رائحة الياسمين، هذا الشم، والعين .

الأذن: آلية الأذن معقدة تعقيداً بالغاً، أربعة عظام، وغشاء الطبل، والأذن الوسطى والداخلية، وكيف تميز النغم عن الضجيج، وكيف تفهم الكلام ... علوم من مئات عام، وبحوث، وأجهزة، وجامعات، ولا يزال العلم يحبو، ولم تبتل بعد أقدام العلماء ببحر المعرفة .

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

النبات عالَم عجيب :

إن نظرت إلى ما حولك من نباتات فهي آية من آيات الله الدالة على عظمة الله، لا يوجد في حياتنا سائل يصبح خشباً، وحديداً، وقماشاً هو النسغ النازل، يصنع في أوراق النباتات، منه يتشكل الجذع، والأغصان، والأوراق، والأزهار، والثمار، والجذر، من سائل واحد هو النسغ النازل، والحديث عن أوراق النبات، وعن اليخضور، واستهلاك الطاقة الشمسية، وكيف أن النبات يمتص غاز الفحم،

ويطرح الأوكسجين لحكمة بالغة بالغةٍ، النبات وحده آية، بل إن الله سبحانه وتعالى ذكر أن النبات متنوع جداً، حتى إنه قال :

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : 99)

يوجد أوانٍ من النبات، وحبات مسبحة من النبات، ويوجد نبات حدودي، ونبات هدفه أن تستخدم خشبه، يوجد حوالي مائة نوع من الأخشاب، وكل خشب له وظيفة يتميز بها، ونبات دواء، ونبات صباغ، ونبات فلين، ونبات كوشوك، ونبات طعام، ونبات تأكل من جذوره، ونبات تأكل من ساقه، ونبات تأكل من أوراقه، ومن أزهاره، ومن ثماره .

الحديث عن النبات لا ينتهي، وهناك أشجار مهمتها أن تكون مظلة، وأشجار تزرع بينك وبين جارك نباتات حدودية، ونبات لسواك أسنانك، ونبات لتنظيف ما بين الأسنان، ونبات على شكل ليف لتنظيف جسمك، والحقيقة قضية النبات لا تنتهي .

الحيوان: هناك مليون نوع من السمك! من سمك عملاق، الحوت الأزرق يزن مائة وخمسين طنًا، خمسون طنًا لحمًا، وخمسون طنًا دهنًا، وخمسون طنًا عظمًا، وتسعون برميلا زيتًا، ودماغ الحوت وزنه أربعمائة وخمسون كيلو غرامًا، والحديث عن الحوت لا ينتهي، ويوجد فيروسات لا ترى بالعين، والآن كائنات حية أقل من الفيروس! أحياء دقيقة جداً .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر : 62)

لذلك الذي ينقص العالم الإسلامي هو معرفة الله، وكلما ازددت معرفة بالله ازددت انصياعاً له، وخضوعاً لأمره، وطاعة ومحبة له، وشوقاً إليه، فأنت تحب الله بقدر معرفتك له، وأنت تنصاع لأمر الله بقدر معرفتك له، وأنت تخشى الله بقدر معرفتك له .

فلذلك أيها الإخوة، لا يمكن أن ترى إنسانًا يعصي الله إلا لنقص في معرفته لله، ولا يمكن أن ترى إنساناً مستخفاً بأوامر الله إلا لنقص في معرفة الله عز وجل، ومعرفة الله تحتاج إلى تفكر، والتفكر مدرسة قرآنية، بل هي عبادة من أرقى العبادات، لأنها عبادة تضعك أمام عظمة الله، بل إن هذه الآيات التي بثها الله في الآفاق وفي الأرض وفي النفس وهي أقصر طريق إلى الله، وأوسع باب تدخل منه على الله .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

الماء الذي تقوم عليه الحياة :

أحصى عالم أشكال ذرات الثلج، لو أخذت ذرة ثلج، وكبرتها لوجدت أشكالاً لا تصدق، أشكال تقارب خمسين ألف شكل! هذا الثلج الأبيض الذي تراه عينك، كأنه قطن، لو أخذت بعض ذرات الثلج، وكبرتها لوجدت أشكالاً هندسية تأخذ بالألباب .

هذا الماء الذي نشربه شأنه شأن أي عنصر في الكون، إلا أن له خصيصة لو لم تكن لما كنا في هذا المسجد، ولما كانت حياة على سطح الأرض، هو أن هذا الماء إذا بردته ينكمش، كشأن أي عنصر، أما إذا وصل التبريد إلى زائد أربعة تنعكس الآية فيتمدد، بسبب التمدد تطفو على سطوح البحار طبقات جليد، وتبقى أعماقها دافئة صالحة للحياة، لو أن هذا الثلج كلما بردته يقل حجمه، فتزيد كثافته، فيهوي في أعماق البحار لأصبحت البحار متجمدة، ولانعدم البخار، وانعدم المطر، ويبس الزرع، ومات الحيوان، وتبعه الإنسان .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

العين آلة تشهد بعظمة الله :

إنسان يسكن في فلندا، قد تهبط الحرارة إلى ما دون السبعين تحت الصفر، والإنسان هناك عليه أن يحتاط، فيرتدي المعاطف الصوفية، والجوارب السميكة، والقمصان الداخلية الصوفية، ويضع شيئًا على رأسه، ويقي عينيه، ويقي أذنيه ورقبته، وقفازات يضعها في يديه، لكن لا يستطيع أن يغلق عينيه من أجل أن يمشي، وماء العين على تماس مع حرارة لا تقلّ على سبعين درجة تحت الصفر، ما الذي يمكن أن يحدث؟ يتجمد ماء العين، فيفقد الإنسان البصر، لذلك أودع الله في ماء العين مادة مضادة للتجمد، لو ذهبت إلى بلد تقل حرارته عن سبعين تحت الصفر، فلك أن تفتح عينيك، وأن ترى كل شيء، وأنت في مأمن من أن يجمد ماء العين، لأن في ماء العين مادة مضادة للتجمد .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

والمؤمن يفكر في خلق السماوات والأرض، يفكر في طعامه :

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(6)يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

(سورة الطارق : 5-7)

هذه آية خلق الإنسان، في اللقاء الزوجي يوجد خمسمائة مليون حوين! وتحتاج البويضة إلى حوين واحد .

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس : 24)

هذه هي الأرض وما يخرج منها :

انظر إلى القمح؛ المحاصيل تنضج في يوم واحد، رحمة بنا، بينما الفواكه تنضج على مدى شهر أو شهرين أو ثلاثة، والفواكه مبرمجة على أن لا تنضج في يوم واحد، كل نوع ينضج في وقت، وعلى مدار الصيف تنضج كل ألوان الفاكهة، وهذه من حكمة الله عز وجل، والنوع الواحد من المحاصيل، أو من الفواكه، والثمار، والخضراوات أنواع منوعة، أربعمائة وخمسون ألف نوع للقمح، أربعمائة نوع للعنب، عشرات أنواع للتفاح، وأنواع منوعة لا يعلمها إلا الله، هذا كله من إكرام الله للإنسان، خلق السماوات والأرض، المجرات، الكواكب، النجوم، المذنبات، الكازارات، الثقوب السوداء، السماء الدنيا، ما فوق السماء الدنيا منطقة انعدام الجاذبية .

والأرض: الجبال أوتاد، ومصدات، ورواس، الحديث عن الجبال يطول، السهول، الأغوار، البحيرات، البحار، الأنهار، فأنت أمام مظاهر كل هذه المظاهر تدل على عظمة الله عز وجل .

النبات: نباتات الزينة أنواعها بالمئات وبالألوف، نباتات داخل المنازل صالونات أيضاً بالمئات، نباتات الزينة، نباتات الغذاء، نباتات الدواء، نباتات الصناعة، أنواع منوعة لا تعد ولا تحصى .

الحيوانات: مليون نوع حيوانات، الطيور الطير آية من آيات الله، الزواحف، وما إلى ذلك، بعض الحيوانات ترى بالأشعة تحت الحمراء !

البعوضة الحشرة المحتقرَة :

البعوضة حينما تحط على جبين طفل صغير تستخدم جهاز الرادار، فتهتدي إلى جبينه مباشرة، ثم تستخدم جهاز التخدير كي لا يصحو، ثم تستخدم جهاز التمييع، تم تستخدم جهاز التحليل، عندها جهاز تحليل، وتمييع، وتخدير، ورادار، ثم إن لها ثلاثة قلوب؛ قلبا مركزيا، وقلب الكل جناح، وإن أجنحتها ترف أربعة آلاف رفة في الثانية، وإنها تشم رائحة عرق الإنسان من ستين كيلو مترًا، وإنها إذا وقفت على سطح أملس استخدمت محاجمها، وإن وقفت على سطح خشن استخدمت مخالبها، والله عز وجل يقول :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة : 26)

النحل والنمل والعنكبوت :

النحلة آية من آيات الله الدالة على عظمته، النحلة من أجل أن تصنع كيلو من العسل وحدها تحتاج إلى طيران مائة ألف كيلو متر، عشر دورات حول الأرض في خط الاستواء! من أجل أن تصنع من هذه الحركة كيلو من العسل، والعسل من آيات الله الدالة على عظمته .

النمل من آيات الله الدالة على عظمته .

العنكبوت الخيط الذي تنسجه لو سحب الفولاذ بقطره لكان خيط العنكبوت أمتن من الفولاذ !

أيها الإخوة، يمضي العمر ولا تنقضي بعض آيات الله، لذلك قال تعالى :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم : 34)

النعمة الواحدة لو ذهبت تعدد فوائدها وبركاتها لا تنتهي، وإذا كنت عاجزاً عن إحصائها فلا أن تكن عاجزاً عن شكرها من باب أولى .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

أولوا الألباب من هم ؟

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

اختلاف الليل والنهار وعلقته بدوران الشمس والقمر :

والله أيها الإخوة، هناك في اختلاف الليل والنهار آيات كبرى دالة على عظمة الله، من معاني اختلاف الليل والنهار تعاقب الليل والنهار، كرة هي الأرض تدور، الشمس هنا، لأنها تدور على محور لا يوازي مستوى دورانها يكون الليل والنهار تدور هكذا، والشمس هنا لأنها تدور على محور لا يوازي مستوى دورانها، لو أنها تدور هكذا كأنها لا تدور، لأن أشعة الشمس سوف تسلط على نصفها والنصف الثاني بلا شمس، فنصفها ترتفع حرارته إلى ثلاثمائة وخمسين فوق الصفر، ونصفها الآخر إلى مائتين وسبعين تحت الصفر، وتنتهي الحياة، تدور لا على محور يوازي مستوى دورانها، بل على محور متعامد تقريباً مع مستوي دورانها، هذا مستوى دورانها سطح .

إذا كان هناك سطح تمر فيه الأرض في دورانها حول الشمس فهذا السطح يسمى مستوى دورانها، يجب أن تدور على محور متعامد تقريباً مع مستوى دورانها، كي يكون الليل والنهار، يجب أن تدور هكذا والشمس هنا، لو أن هذا المحور متعامد مع مستوى دورانها تماماً لما كان صيف، ولا ربيع، ولا خريف، ولا شتاء، كل منطقة على سطح الأرض فصل أبدي، عند خط الاستواء صيف أبدي، وفي المنطقة المعتدلة خريف أبدي، وفي المنطقة الشمالية شتاء أبدي، ولكن لأن الأرض تدور على محور مائل عن التعامد على مستوى الدوران، محور مائل، من ثلاث وثلاثين درجة إلى سبع وعشرين درجة من هذا الميل، إذا كان هكذا، والشمس هنا تأتي أشعة الشمس عمودية على نصف الكرة الشمالي، فإذا والأرض صلت إلى هذا المكان تأتي أشعة الشمس عمودية على نصف الكرة الجنوبي .

في منتصف شتاء العام الماضي ذهبت إلى استراليا، هذه القارة في نصف الكرة الجنوبي، هنا برد، وأمطار، وثلوج، وهناك حر لا يحتمل، بل إن المسلمين هناك صاموا أطول رمضان في حياتهم!

جاء في الصيف، ونحن نصوم هنا أقصر رمضان في حياتنا تقريباً، معنى ذلك أن الشمس تكون عمودية على نصف الكرة الجنوبي، فيكون عندهم الصيف، الآن بالبرازيل والأرجنتين وأستراليا صيف، عندنا شتاء، والآية تعكس من حين إلى آخر، فاختلاف الليل والنهار، واختلاف الفصول بسبب أن الأرض تدور على محور ليس موازياً لمستوى الدوران، وليس عمودياً على مستوى الدوران، محور مائل، وحكمة الميل لا تعد ولا تحصى، ميل هذا المحور يسبب اختلاف الليل والنهار، وتنوع الفصول في الأرض هذه الآية .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

الكون بوضعه الراهن دليل على حكمة الله:

يوجد خالق حكيم، الحكمة تدل على الحكيم، أنت إذا دخلت إلى بيت، وجدت مفتاح الكهرباء على ارتفاع متر ونصف، وهو ارتفاع مناسب جداً، ما قولك لو رأيت مفتاح الكهرباء في أعلى الحائط؟ وتحتاج إلى سلم كي تفتح الكهرباء، هذا مكان غير حكيم، لو أنك رأيته في أسفل الحائط لابد أن تنبطح حتى تفتح الكهرباء، أما حينما تراه في مكان مناسب جداً يتناسب مع طول الإنسان تشعر أن هناك مرجحًا، ولا ترجيح بلا مرجح، أن هناك حكمة، ولا حكمة من دون حكيم، وكل شيء في الكون ينطق بحكمة الله تعالى .

هذا الطير، وهو في البيضة كيف يخرج منها؟ ينمو على منقاره نتوء مدبب مؤنف يكسر القشرة، فإذا خرج إلى خارج البيضة ذاب هذا النتوء، وتلاشى، وعاد منقاره طبيعياً، من صمم ذلك؟

انظر كيف هدى ربُك الطفل !!!

الطفل حينما يخلق لا يعلم شيئا، لقول الله عز وجل :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

(سورة النحل : 78)

ولنفرض أنه ولد الآن، فلمجرد أن يولد يلتقم ثدي أمه، والتقام الثدي عملية بالغة التعقيد، فلابد أن يضع شفتيه على حلمة الثدي، ولابد أن يحكم شفتيه حول حلمة الثدي، ولا بد من سحب الهواء حتى يأتيه الحليب، بربك هل تستطيع أن تعلم المولود الذي ولد لتوه لو لم يحسن مص الحليب؟ ولولا هذا المنعكس الذي سماه العلماء منعكس المص لما كان إنسان على قيد الحياة .

بين الأذينين ثقب بوتان، الطفل لمجرد أن يولد هكذا قال علماء الطب تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب، فإذا لم تغلق يصاب الطفل بداء الزرق، لا يعيش أكثر من عشر سنوات، ولونه أزرق، لأن الدم بدل أن يذهب إلى الرئتين كي ينقى من غاز الفحم، فهناك ثقب مباشرة بين الأذينين ينتقل من أذين إلى أذين، ولا يذهب إلى الرئتين، من الذي يخلق هذه الجلطة حينما يولد الإنسان؟

أنا أضعكم أمام آيات دالة على عظمة الله في خلق الإنسان، وفي خلق الحيوان، وفي خلق النبات، وفي خلق الجبال، وفي خلق البحار .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

هذه الآيات لأولي الألباب فقط :

لأصحاب العقول، لمن استخدموا عقولهم في معرفة ربهم، في القرآن آيات تقترب من ألف آية، تتحدث عن العقل، وعن العلم، وعن التفكر، وعن التذكر، فهذه الآيات دالة على عظمة الله، ولكنها لأولي الألباب، ماذا يقابل أولي الألباب؟ السطحيون، إنسان بلا لب ساذج، مادي، شهواني، أناني، يعيش لحظته، همه الطعام والشراب والمتعة، إنسان فارغ من مضمون .

(لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران)

هذه صفات أولي الألباب :

لا يوجد حالة رابعة، إما أن تكون واقفاً، وإما أن تكون قاعداً، وإما أن تكون مضطجعاً في سريرك، هذه كل حالات الإنسان، هؤلاء المؤمنون الصادقون الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، يذكرون الله في كل أحوالهم؛ قائمين، وقاعدين، ومضطجعين .

(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

الباطل هو الشيء الزائل :

الباطل هو الشيء الزائل، هذا الكون مخلوق لهدف كبير، كي يسعد الإنسان بربه إلى أبد الآبدين، مخلوق هذا الكون، والذي يخلقه الله من نوره لا يفنى .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران : 185)

يتحول ولا يفنى، فنحن قد نخلع هذا الثوب الذي هو الجسد عند الموت، ولكن ذات الإنسان ونفسه خالدة مخلدة، إما في دار النعيم، وإما في دار الجحيم، لذلك :

(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

هذا هو الفوز العظيم :

أكبر إنجاز، وربح، وكسب، ومرتبة نصلها أن نزحزح عن النار :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : 185)

(رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلْ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ)

(سورة آل عمران)

لو أنك ضعيف، وقهرت، وأسلمت روحك إلى الله، ووصلت إلى الجنة فأنت الفائز الأكبر، ولو أن الذي قهرك، واستعلى، وتغطرس، وتكبر انتهى إلى النار فهو الخاسر الأكبر، العبرة أن تكون وفق منهج الله، قوياً كنت أو ضعيفاً، مضطهداً أو مستضعفاً .

(رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلْ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

من مشاهد يوم القيامة أن رجلاً له صديق في الدنيا من أهل الدنيا المترفين، ولعله من الطغاة قال: إنه كان لي قرين فاطلع فرآه في سواء الجحيم .

(رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلْ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(192)رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا)

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا

الدعاة ينادون الناس إلى الإيمان بالله، والمؤذن حينما يؤذن ينادي الناس إلى أداء الصلوات، والقرآن حينما تتلوه يناديك إلى طاعة الله، فالمنادون كُثُر في الدنيا، المؤذن يناديك، وخطيب الجمعة يناديك، وأبوك الملتزم بالدين يناديك، وأستاذك يناديك، ومقالة، وشريط، ومشهد أمامك، وقصة سمعتها كلها تناديك، الله عز وجل جعل الطرائق إليه كثيرة جداً .

(رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

اغفر الذنوب، وكفر السيئات .

(وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

أن نكون من أهل الجنة، فالذنب يغفر، والسيئة تكفر، المغفرة ألا تعاقب، أما التكفير ألا تذكر هذا الذنب.

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

إن زوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعوده للمؤمنين، الجنة حق والنار حق، والناس في غفلة عنهما، والغنى الحقيقي بعد العرض على الله، والفقر الحقيقي بعد العرض على الله، والنصر والانهزام بعد العرض على الله، هذا الذي في الدنيا لا قيمة له إطلاقاً، لأنه عرض زائل، لا مستمر ولا مستقر .

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع شرح هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(58-60): تفسير الآيات 194 – 197
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-01-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة آل عمران، مع الآية الرابعة والتسعين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

(سورة آل عمران : الآية 194)

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

أهمية الدعاء :

أيها الإخوة، يمكن أن تلخص العبادة كلها بالدعاء، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

الترمذي

وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ : وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ))

الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد

ذلك أن الإنسان لا يمكن أن يدعو جهة ما إلا إذا كان موقناً بوجودها، و لا يدعو جهة ما إلا إذا كان مؤمناً أنها تسمعه، و لا يدعو جهة ما إلا إذا كان موقناً أنها قادرة على تلبية طلبه، و لا يدعو جهة ما إلا إذا كان موقناً أنها تحب أن تلبي طلبه، موجود، سميع، قدير، رحيم، لمجرد أن تؤمن أن الله موجود، وأنه سميع عليم، وأنه قدير مقتدر، وأنه رحيم ودود تدعوه، لذلك من لم يدع الله عز وجل لا يعرفه :

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

(سورة الفرقان : الآية 77)

لولا أنكم تدعونه لا يعبأ الله بكم إطلاقاً، الحد الأدنى من معرفة الله أن تدعوه، والدعاء سلاح المؤمن، وأنت بالدعاء أقوى إنسان في الكون، بالأرض بالدعاء، ومن دون الدعاء أضعف إنسان، هناك آلاف وملايين أقوى منك، أما حينما تدعو الله يكون الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك؟

أعجز إنسان هو الإنسان الذي عجز عن الدعاء، لكن لماذا يعجز عن الدعاء؟ لأن حجاباً بينه وبين الله، المعصية تجعل حجاباً بينك وبين الله، لذلك تستحي أن تدعوه، أما إذا كنت مقيماً على أمره، طالباً وده، ملتزماً بمنهجه، ليس بينك وبينه حجاب تدعوه .

يا أيها الإخوة، الأحاديث النبوية كثيرة تبين أن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، إن الله يحب من عبده أن يسأله ملح طعامه، إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها، قبل أن تخرج من بيتك، قبل أن تدخل، قبل أن تأكل، قبل أن تنام، بعد أن تستيقظ، إذا دخلت إلى الحمام، إذا خرجت منه، إذا دخلت إلى عملك، إذا خرجت منه، إذا ارتديت ثوباً جميلاً، إذا وقفت أمام المرآة اللهم كما حسنت خلقي فحسن خُلقي، إذا أكلت طعاماً يا رب لك الحمد، إذا جاءتك ميزة، فالمؤمن دائماً يدعو الله، ودعاء الله عبادة، وأنت بالدعاء أقوى إنسان، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ إذا كنت في موقف عصيب يمكن أن تدعو الله دعاء خفياً :

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

(سورة مريم : الآية 3)

سيدنا زكريا، يمكن أن تدعوه في سرك، كنت مرة في سفر رأيت مسجداً رائعاً، صليت فيه، فدعاني رجل إلى ضيافة، قال لي: أنا أنشأت هذا المسجد، قلت له: هنيئاً لك، أقسم بالله قبل عشرين عاماً انتهى من خدمته الإلزامية، وأخذ من أخته سواراً ذهبياً، وباعه، واشترى به بطاقة طائرة إلى الخليج، قال لي: و أنا في الطائرة ـ و يقسم بالله ـ ما تحركت شفتاي، لكنني نويت في قلبي أن الله إذا أكرمني سأبني له مسجداً، و قد أكرمه الله، وجاء ليبني مسجداً في مكان ليس منظماً تنظيماً بلدياً، والقوانين لا تسمح، قال لي: بتيسير عجيب لا يصدق المسؤولون وافقوا والمحافظ أمر رئيس البلدية أن يغض طرفه، وأنشأ هذا المسجد، أقسم لي أنه ما تحركت شفتاه، لكنه دعا بقلبه .

فيا أيها الإخوة، الله عز وجل مطلع على قلبك، يعلم السر و أخفى، يعلم سرك ويعلم ما خفي عنك، فأنت إذا دعوته أي ما الذي تظن بالله عز وجل أنت شاب إذا أردت الستر، إذا أردت عملاً ترتزق به، إذا أردت زوجة تحصنك، إذا دعوت الله أن يهبك بيتاً يؤويك، ما الذي تظنه بالله عز وجل ؟

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

(سورة غافر : الآية 60)

إجابة الله لدعاء الداعي :

الدعاء هو العبادة، لذلك المؤمن الصادق يدعو الله ليلاً نهاراً، يدعو الله في أدق الأمور، وفي أبسطها، وفي أصغرها، وفي أقلها، وفي أكبرها، وصدقوا أيها الإخوة أنه ما من مؤمن يدعو الله مخلصاً إلا والله عز وجل يريه آياته، يريه آياته واضحة جلية، قد يكون له عدو شرس إن دعوت الله يصرفه عنك، وقد تكون هناك عقدة أقسم لي أخ أنه درس الرياضيات في دولة غربية، واختار

موضوعاً بالفضاء الخارجي، وسار في الموضوع أربع سنوات، ينبغي أن يصل إلى معادلة متوازنة، لم تتوازن المعادلة، أستاذه نصحه بأن هذا الموضوع صعب جداً، فإن لم تتوازن سوف يختار موضوعاً آخر، ويعيد أربع سنوات، أقسم لي بالله أنه خرّ ساجداً لله، وقال: يا رب أعني، نزل إلى مكان دراسته، والله ألهمه حل للمعادلة، وانتهت بالتوازن، ونال الدكتوراه بالرياضيات، أي مهما تكن القضية صعبة، فأنت حينما تستعين بالله تذلل لك، مهما يكن مرض عضالا بالدعاء الصادق، ما لم يكن مرض الموت يشفى منه الإنسان .

أيها الإخوة، والله الذي لا إله إلا هو لو أيقنّت أنه مستحيل، وألف ألف مستحيل أن تضع كل ثقتك بالله، وإن الله لا يخيبك أبداً، لا يوجد هذه الثقة، النبي عليه الصلاة و السلام كان ملاحقاً في الهجرة وضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، تبعه سراقة ليقتله، قال له: يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟ النبي واثق أنه سيصل إلى المدينة، و سينشئ مجتمعاً إسلامياً، و سيؤسس دولة، و سيحارب الفرس، و سينتصر عليهم، و سيأخذ كنوز كسرى، و سيلبس سراقة الذي وراءه سوار كسرى، هذا الإيمان، الإيمان ثقة بالله، مهما بدت الأمور صعبة، مهما تعقدت الأمور، مهما بدا الباطل قوياً، مهما بدا الطاغية شرساً، مهما رأيت المستقبل مظلماً ما عند الله ليس عند عبيد الله، ادعُ الله :

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

أي وعد الله .

(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الروم : الآية 6)

إن زوال الكون أهون على الله من أن يخلف وعده للمؤمن، والأنبياء و الرسل جاؤوا بالحق المبين، و لا يمكن، ويستحيل أن يخزيهم الله عز وجل، هذا يذكرني أن النبي عليه الصلاة و السلام في معركة بدر حينما وضع صناديد قريش في القليب سماهم باسمهم واحداً وَاحداً، فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ الْقَلِيبِ فَقَالَ :

((هل وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَقِيلَ لَهُ: تَدْعُو أَمْوَاتًا؟ فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ))

البخاري ، مسلم ، النسائي ، أحمد

يجب أن يكون الخط بينك وبين الله مفتوحاً، والخط به حرارة، والطريق إلى الله سالك، وأنت بالدعاء أقوى إنسان، من هو خصمك؟ إذا كان الله معك فأكبر خصم في الأرض في قبضة الله، وإن لم يكن الله معك فأقل خصم في الأرض يقوى عليك، و يزدريك و يضايقك .

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(194)فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 194- 195)

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ

لا يضيع عملٌ مهما كان :

تصور عملاً، أي أنت تتوضأ أنقذت نملة من الغرق، تريثت حتى صعدت إلى أعلى المغسلة، أي عمل تتصوره مهما بدا لك صغيراً، ابتسمت في وجه طفل، طمأنت موظفاً عندك، أكرمت عاملاً، أطعمت امرأتك لقمة، أي عمل مهما بدا لك قليلاً لن يضيع عند الله :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ)

مهما قلّ، عمل مادي، عمل معنوي، إنفاق، ابتسامة، تسامح، تساهل، حل مشكلة .

لي صديق توفي رحمه الله كان في دمشق في مركبته رجع إلى الوراء فصدم بسيارة، وهناك أضرار كبيرة، أنا توقعت أن صاحب السيارة سوف يرفع صوته عليه، نظر إليه، و قال : أنت مسامح، تفسير الحادثة صعب جداً، الضرر كبير، والرجل غني، وليس فقيراً، نظر إليه، عرفه أنه من لبنان قال له: مسامح، وجدت على خد صديقي دمعة، صديقي ميسور مالياً، قلت: لمَ تبكي؟ قال لي: والله قبل سنتين إنسان في بيروت يركب مركبة من دمشق المركبة، ونساؤه محجبات، وقد صدمني بسيارته، وأحدث بمركبتي أضراراً كبيرة، إكراماً لأنه ضيف، ولأن نساءه محجبات أردت ألا أزعجه، قلت: تيسّر ، ولا يوجد مشكلة، بعد عامين عومل المعاملة نفسها في دمشق، أنا هذا إيماني، لا يمكن أن تعمل عملاً طيباً و يضيع عليك في الدنيا قبل الآخرة، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

الترمذي

أي إنسان حينما يفعل خير الله عز وجل شكور .

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ)

(سورة آل عمران : الآية 195)

الذكر والأنثى في العمل والجزاء سواء :

بالمناسبة، أية آية موجهة للذكور هي آية موجهة حكماً للنساء :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

(سورة المائدة : الآية 8)

أي يا أيتها المؤمنات افعلوا ذلك، حتماً أية آية في القرآن موجهة إلى الرجال هي موجهة حكماً إلى النساء، و لكن من أجل أن يؤكد الله لنا أن المرأة مساوية للرجل تماماً، والله الذي لا إله إلا هو كلما تقدم بي العمر أزداد يقيناً أن المرأة مساوية للرجل تماماً في كل شيء، ترقى إلى الله كما يرقى إليه،

و تتقرب إلى الله كما يتقرب إليه، و يجري الله على أيديها الخير كما يجريه على يديه، وقد تكون عند الله أغلى من ألف رجل، وقد يكون قلامة ظفر امرأة مؤمنة بمليون رجل فاسق، لذلك الإيمان الحقيقي، والإسلام الحقيقي أن توقن أن المرأة مساوية للرجل، في التكليف كلفها كما كلفه، أمرها كما أمره، وفي التشريف شرفها كما شرفه، وكرمها كما كرمه، و في المسؤولية سيسألها كما سيسأله، كل مؤمن أو مؤمنة مسؤول عما ولاه الله، فعَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أبو داود ، أحمد

كل إنسان مسؤول في التشريف، وفي التكريم، وفي المسؤولية، والحقيقة التي أرددها كثيراً: لكنه ليس الذكر كالأنثى، هناك خصائص نفسية، وجسمية، و اجتماعية، وعقلية للمرأة تتناسب مع رسالتها الخطيرة التربوية، و هناك للرجل خصائص جسمية، ونفسية، واجتماعية تتناسب مع رسالته في الحياة :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

(سورة آل عمران : الآية 36)

لا يتناقض مع أنها مكلفة كما هو مكلف، مشرفة كما هو مشرف، مسؤولة كما هو مسؤول، النبي عليه الصلاة والسلام فيما تروي بعض الروايات حينما فتح مكة كل بيت في مكة يتمنى أن يستقبله، و دعاه فما زاد على أن قال :

((انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة))

ورد في الأثر

وركز راية النصر عند قبرها، ليشعر الناس جميعاً أن هذا النصر المبين، وأن هذا الفتح العظيم لها منه سهم كبير، لأنها كانت الداعمة له من الداخل، الرجل يحتاج إلى من يدعمه من داخل البيت، الرجل لا يحتاج إلى أن تكون امرأته عبئاً عليه، تطالبه كل يوم بحاجات فوق طاقته، تعكر عليه مزاجه، تعكر عليه دعوته، تعكر عليه رسالته، الرجل يحتاج إلى من يدعمه من الداخل، إلى من تهيئ له بيتاً مريحاً، تهيئ له جواً مناسباً، و لذلك حينما فتح مكة ركز الراية عند قبر خديجة ليشعر الناس جميعاً أن هذه المرأة التي كانت سنده الداخلي، لها جزء كبير في هذا النصر، و ما من رجل ينجح في عمله إلا أحد عوامل نجاح عمله أنه مرتاح في بيته، أن امرأته صالحة، تسره إن نظر إليها، و تحفظه إن غاب عنها، و تطيعه إن أمرها، أما هذه المرأة التي هي عبء على زوجها، ثقيلة

عليه، لا تفتأ تطالبه بشيء فوق طاقته، يغدو بيته جحيماً لا يطاق، لذلك حينما يغيب الرجل عن البيت كثيراً معنى ذلك أن في البيت إزعاجًا مستمرًا .

المرأة الصالحة يرقى عملها إلى مرتبة الجهاد :

إذاً :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

إن الأنثى حينما تكون زوجة صالحة ترقى إلى مستوى الجهاد :

((اعلمي أيتها المرأة ، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

ورد في الأثر

الأم التي ربت أولادها على الصدق والأمانة، والصلاة والصيام، وغض البصر والعفة، الأم التي ربت بناتها على الطاعة والحياء والتستر، هذه أم لها الجنة، الأمومة وحدها تؤهلها كي تدخل الجنة، فالأمومة الكاملة سبب لدخول الجنة، و الأبوة الكاملة سبب لدخول الجنة، والبنوة الكاملة سبب لدخول الجنة، هذا الكلام سقته لقوله تعالى :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

وكل إنسان يستهين بالمرأة، يستخف بها، يذلها، يحتقرها، يهضم حقها، هو إنسان جاهلي، جاهل لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أكرموا النساء، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، و يغلبهن لئيم، و أنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

كان عليه الصلاة و السلام إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً، كان عليه الصلاة و السلام يقول :

((أكرموا النساء فإنهن المؤنسات الغاليات))

أنا أقول: من علّم شاباً علّم شاباً ، لكن من علّم فتاة علّم أسرة بأكملها، لا يوجد شيء يدمر المجتمع كالأم الجاهلة التي تهمل أولادها، تدعهم في الطريق، تهمل إطعامهم، تهمل تغذيتهم، تهمل تربيتهم، تهمل مظهرهم الخارجي، والأم المثالية هي التي ترعى أولادها و زوجها :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا)

(سورة آل عمران : الآية 195)

الهجرة وترك الديار عملٌ عظيم :

أي إنسان صاحب مبدأ ترك بلداً مصالحه فيها محققة إلى بلد دخله فيه قليل، تحمل خشونة العيش في سبيل الله، أتظنون أن هذا الذي آثر أن يهاجر في سبيل الله يستوي عند الله مع الذي لم يؤثر الهجرة، أحياناً طبيب يكون له دخل فلكي في بلد غربي، يتألم لمَ لا يخدم المسلمين؟ يأتي إلى بلده، يفتح عيادة، قد يعاني متاعب كثيرة جداً، لكن هو نيته أن يخدم المسلمين، هذه ترفعه عند الله عز وجل .

على كل الآية الكريمة :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : الآية 21)

مستحيل، وألف ألف مستحيل أن تخافه ولا يطمئنك، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطمئن اطمئناناً ساذجاً وأنت في معصيته، ثم لا يخيفك، تخاف منه فيطمئنك، لا تخافه فيخيفك :

(فَالَّذِينَ هَاجَرُوا)

عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَدَّهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد

عبادة في الهرج أي في زمن الفتن كهجرة إلي، أي شخص جاء من أطراف المدينة ليستمع إلى درس علم، ويوجد إنسان يجلس وراء الشاشة كي يتابع مسلسلاً، يوجد إنسان يذهب إلى مقهى، وإنسان إلى سهرة مختلطة، وإنسان إلى متعة رخيصة، لكن كل شيء له حساب عند الله عز وجل :

(فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي)

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

الترمذي ، ابن ماجه

الجنة لها ثمن، وطلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب، أن تطلب الجنة بغير عمل هذا ذنب كبير :

(وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي)

الصبر على الأذى عمل عظيم :

لأنك مسلم فاتتك هذه الفرصة، لأنك مسلم ملتزم لم تتح لك هذه البعثة، لأنك مسلم ملتزم لا تستطيع متابعة هذه الشركة، بها دخل حرام، لأنك مسلم ملتزم لا تستطيع أن ترتفع في عملك لأن المنافقين يسبقونك، فلذلك أحياناً لأنك ملتزم قد تخسر بعض الدنيا :

(وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا)

أي هاجروا من ديارهم :

(وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران : الآية 195)

أي إذا شخص قُتل ظلماً، أيهما أرجى لرحمة الله الذي قُتل ظلماً أم الذي قتله ظلماً؟ فإذا كان الخيار صعبا ولابد من أحدهما؛ أن تكون ظالماً أو مظلوماً، أفضل ألف مرة أن تكون مظلوماً من أن تكون ظالماً :

ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ

(ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 195)

ما هو الثواب ؟

والثواب هو ما يعود عليك من الله عز وجل، أنت عملت عملاً طيباً فارتفع إلى الله، ما الذي يعود من هذا العمل إليك؟ يعود ثوابه، أي تعود رحمة تملأ قلبك، تعود حكمة تملأ كيانك، تعود طمأنينة تطمئن نفسك، تعود رؤية ثاقبة تهتدي بها في الحياة، المؤمن يتمتع برؤية صحيحة، يتمتع بحكمة، يتمتع بسكينة، يتمتع بالشعور بالأمن، هذا كله من رحمة الله، وحينما ترفع عملاً صالحاً إلى الله يعود منه خير كثير هو الثواب :

(ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

معنى ثواباً: من فعل ثاب، أي رجع، أي رجع لك من الله هذا الخير، وعطاء الله عز وجل عطاء مذهل، أي عطاء يلهمك الحكمة، يلهمك حسن تربية أولادك، تملك أولادك، المال تنفقه بحكمة فيحبك الناس، إن أنفقته تبذيراً وإسرافاً حقد عليك الناس، يلهمك أن تعامل امرأتك معاملة طيبة تصفي لك الود، فالحكمة أكبر عطاء إلهي :

(ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

في الدنيا و الآخرة، ثم يقول الله عز وجل :

(لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

(سورة آل عمران : الآية 196)

لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ

إياكم والدنيا الغرّارة :

الدنيا تغر وتضر وتمر، الدنيا خضرة نضرة، سمها في دسمها، المرأة أحد متع الدنيا، والبيت الفخم، والدخل الكبير، والطعام النفيس، و السفر الممتع، و العلو في الأرض، هذا كله من الدنيا، يقول الله عز وجل :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

من مكان إلى مكان، من بيت إلى بيت، من مركبة إلى مركبة، من منصب إلى منصب، من سفر إلى سفر، يختار أجمل شيء دائماً، متفوق في دنياه، المؤمن أحياناً بساعة ضعف وغفلة عن الله يرى هذا الكافر متمتعًا في الحياة، فربنا سبحانه وتعالى ينصحه .

بالمناسبة، لا يعقل أن يكون عطاء الله في الدنيا، لأن الدنيا منقطعة، لا يليق بكرم الله أن يكون عطاؤه في الدنيا، العطاء الذي يليق بكرم الله عطاء أبدي، لذلك العطاء الذي يليق بكرم الله هو الجنة، قال عليه الصلاة و السلام :

((بل الرفيق الأعلى))

أحمد عن عائشة

فهؤلاء الذين كفروا عطاؤهم في الدنيا :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 44)

(لَا يَغُرَّنَّكَ)

الغرور أن ترى الشيء بأكبر من حجمه، الدنيا تغر، الشيطان سماه الله الغَرور :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

(سورة فاطر : الآية 5)

الشيطان يزين الدنيا، الدنيا خضرة نضرة، فتنتها يقظة، سمها في دسمها :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

معنى التقلب في البلاد :

تقلب، تنقل من بيت لأجمل، من منصب لأعلى، من امرأة لامرأة، من سفر لسفر، من مقتنيات لمقتنيات، هناك تقلب لأن هناك دخلا كبيرًا، وتنوعًا في الحياة .

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

(سورة آل عمران : الآية 197)

إلهنا يقول :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران : الآية 197)

إذا خيرنا إنساناً، وقلنا له: نعطيك مليوناً، ومعك شهر، اذهب أينما شئت، وكُل أي طعام تريد، واجلس مع أية امرأة تريد، ولا تدع شيئاً إلا وفعلته، وبعد هذا الشهر هناك سنوات ، وسنوات تُعذب بها بأحدث آلات التعذيب هل يقبل؟ مستحيل، الدنيا منقطعة، والآخرة أبدية، لذلك الله عز وجل يقول :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

العبرة بالنهاية :

لذلك العبرة بالنهاية، العبرة لمن يضحك آخرا، هناك من ينتصر الآن، معه أسلحة فتاكة، وأمامه شعب أعزل، ولا يوجد أحد يحاسبه، الجو راق له، الجو العالمي لا يوجد توازن قوى أبداً، يوجد قوة واحدة، و قوة واحدة جبارة متألهة، متغطرسة، وسلاح فتاك، وتكنولوجيا عالية جداً، وإصابة دقيقة، وشعوب ضعيفة، وهناك انتصار مزيف، يوجد تبجح و خطابات و ... هؤلاء الضعاف من لهم إلا الله؟ هؤلاء الضعاف لهم الجنة إن شاء الله، هؤلاء الضعاف لهم جنة إلى الأبد، وهؤلاء الأقوياء الظلام سوف يمحقون، قال لك الله عز وجل :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

كم من عام؟ أربعون، خمسون سنة، وبعد ذلك، كل إنسان مهما كان قوياً فلابد أن يموت، لأن كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، و الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر :

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملـــت إلى القبور جنازة فاعلـم بأنك بعدها محمول

***

الأنبياء ماتوا، والأقوياء ماتوا، والملوك ماتوا، والعلماء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والفقراء ماتوا، والأذكياء ماتوا، والأغبياء ماتوا، سبحان من قهر عباده بالموت :

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

لكن الله عز وجل يقول :

(لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

(سورة آل عمران : الآية 198)

الأسئلة :

س : أول سؤال، إخوانا الكرام هو سؤال لطيف، ولعل صاحبه يقصد الدعابة، قال: ذكرتم في درسكم اليوم أن الخطاب في القرآن والسنة إذا كان موجهاً للذكور فهو يشمل الإناث أيضاً، كلام طيب، و السؤال إذا كان الخطاب موجهاً للإناث فهل يشمل الذكور ؟

ج : مرة رفع لقاض قضية غير معقولة أبداً، فقال: أنا حائض اليوم، ولا ينبغي أن أقضي، قال له : سيدي القاضي يحيض؟ قال له : هل هذه القضية معقولة إذاً ؟

إذا وجدت أحكاماً خاصة بالإناث فلا علاقة للذكور بها .

س : أخ صيدلي هل ممكن أن أضع ابني معه بكالوريا أدبي مكاني في الصيدلية ؟

ج : إذا وجد دواء خطر، ولم يعرف أن يوصفه، أو لم يكتب الاستعمال، و صار هناك حالة خطيرة فأنت مسؤول، قضية حياة أو موت، وموضوع الدواء موضوع خطير.

س : لدي مبلغ من المال استثمرته في ميكروباص، وأراد أصحاب هذا الميكرو بيعه، ولكن وجدوا أن سعره في هبوط شديد، فالأخ يجب ألا يتحمل خسارة ؟

ج : كلا تتحمل الخسارة، إذا أخذت قرشاً واحداً من الربح يقابله خسارة، أما إذا كنت أقرضتهم قرضاً فالقرض لا ينزل، والأمانة لا تنزل، أي إذا دفعته مبلغًا أمانة لا يربح، وإن دفعته قرضاً لا يربح، إن دفعته استثماراً فمثلما يربح يخسر .

س : اقتنى إنسان كتاباً فيه بعض طلاسم، أبيات شعر، وآيات، وأرقام، ومربعات ؟

ج : أعتقد أنه لا يوجد إنسان مثقف يصدق هذا الكلام، مثقف ثقافة إسلامية صحيحة، نحن معنا قرآن، ومعنا سنة، ولكن لا يوجد عندنا خزعبلات، ولا خرافات، ولا طلاسم، ولا مربعات، وحروف، وأول حرف من اسمك، ورقمك، أنت متى ولدت؟ هذا كله ليس من الدين بشيء .

س : هل في القرآن ذكر الكهرباء؟ قال له: نعم، قال له: ما هي الآية؟ قال له :

(فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)

(سورة الهمزة)

ج : كلا غير صحيح، هذه تشبه :

(وَتَرَكُوكَ قَائِمًا)

(سورة الجمعة : من الآية 11)

فحم الكوك موجود أيضاً .

س : يوجد سؤال مهم، يقول السائل: هل يمكن لطالب أن يحتاط أن ينجرف مع زملائه في المعهد، هو معهد عال، مع العلم أنه ملتزم ؟

ج : لا يمكن أن تحافظ على التزامك واستقامتك إلا إذا كان حولك أناس صالحون، إذا كان هؤلاء الزملاء بإمكانك أن تؤثر فيهم فكن معهم، أما إن كان بإمكانهم أن يؤثروا فيك فابتعد عنهم، لابد من حمية اجتماعية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 119)

البيئة السيئة تذهب توبتك، و تضعف مقاومتك، و في النهاية تحملك على ما يفعله من حولك، فلابد لك من مجتمع مؤمن، فإذا كان حولك أناس غير مؤمنين فابتعد عنهم بالحسنى .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(59-60): تفسير الآيات 196 – 199
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-02-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية السادسة والتسعين بعد المئة، يقول الله عز وجل :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

و قبل هذه الآية :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

(سورة آل عمران : الآية 196)

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ

الدنيا مهما طالت فهي لا شيء مقارنة بنعيم الجنة :

الكافر خاسر، والكافر في مزبلة التاريخ، و الكافر مصيره إلى النار، و لو أعجبك من الكافر ماله، وشكله، وبيته، ومدينته، الكافر غفل عن المهمة التي جاء من أجلها، الكافر لم يحقق الهدف من خلقه، الكافر خسر الآخرة :

(ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

(سورة الحج : الآية 11)

أيها الإخوة، الدنيا مهما طالت فهي أمام الآخرة صفر، ذلك أن الرقم، أي رقم واحد في الأرض و أصفار إلى الشمس، و كل ميليمتر صفر، كم هذا الرقم؟ تصور أمامك مئة وستة وخمسين مليون كيلومتر، وكل ميليمتر صفر، هذا الرقم إذا نسب إلى اللانهاية فهو صفر، الآخرة لا نهاية، الآخرة أبد، والدنيا مهما طالت فهي محدودة، كل مخلوق يموت، غني أو فقير، قوي أو ضعيف، مثقف أو غير مثقف، صحيح أو مريض، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة و الجبروت، إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، و منزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، و لم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، و جعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، و يبتلي ليجزي .

أنا أؤكد أيها الإخوة أن كل إنسان شاء أم أبى في أعماقه مقياس للتفوق، وهذا المقياس منتزع من عقيدته، و منتزع من إيمانه، و منتزع من مفاهيمه، و منتزع من رؤيته، فحينما ترى المال قيمة كبيرة جداً تسعى إليه و لو على حساب دينك، و حينما تعطي المال حجماً كما حجّمه القرآن، قال عزوجل :

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر : الآية 15)

هذا كلامه، و ليس هذا صحيحاً :

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)كَلَّا)

(سورة الفجر : الآية 15 – 16)

حظوظ الدنيا حيادية :

كأن الله عز وجل يقول: يا عبادي، ليس عطائي إكراماً، و لا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء و حرماني دواء، المال حظ قيمته موقوفة على طريقة استخدامه، إذا أنفق في طاعة الله كان سلماً ترقى به، و إذا أنفق في معصية الله كان دركات تهوي بها، المال، والصحة، والذكاء، والحظ، والقدرة التي منحك الله إياها، قد يمنح الله إنساناً وسامة وجمالاً، هذا النبي رأى صورته في المرآة فقال:

((اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي))

البيهقي في شعب الإيمان

هناك إنسان يستخدم شكله الوسيم لإغواء الفتيات مثلاً، إنسان يستخدم ذكاءه للبحث عن الحقيقة، ولإشاعتها بين الناس، وإنسان يستخدم ذكاءه كي يشيع الضلال بين الناس، فيربح من الضلال أموالاً طائلة، وما من خصيصة، ما من قدرة، ما من حظ، ما من شيء منحك الله إياه إلا واعتقد أنه حيادي يمكن أن ترقى به، ويمكن أن تهوي به، عدد إن شئت حظوظ الدنيا، المال حظ، و الوسامة حظ، و الصحة حظ، و الذكاء حظ، و طلاقة اللسان حظ، و الزوجة حظ، والأولاد حظ، و المنزل الواسع حظ، و المركبة حظ، النبي ذكر الخيل قال :

((ستر ، أو إثم ، أو بر))

ورد في الأثر

عندك خير، ولتكن مركبة، إما أن تكون مسخرة في خدمة الحق، وإما أن تسترك أنت و أهلك، و إما أن تكون وزراً عليك إن استخدمتها في معصية الله، أجر و ستر و وزر، والخيل يقاس عليها المركبات.

هذه فكرة دقيقة: الحظوظ حيادية تُقيّم بعد استعمالك لها، تُقيم وفق توظيفك لها، تُقيم وفق استخدامك لها، فلذلك أيها الإخوة هذا الكافر عنده من حظوظ الدنيا ما شاء، الحقيقة أن الله عز وجل نهانا أن

نعجب بأموالهم وأولادهم، ويقاس على أموالهم بيوتهم، ومركباتهم، ومكاتبهم، ورحلاتهم، و حفلاتهم، وسهراتهم، وندواتهم، ولقاءاتهم، هذا كله مؤقت :

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

(سورة آل عمران : الآية 197)

و الله عز وجل نصحنا ، وهو خالق الأكوان قال :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : الآية 38)

لا تعتر بدنيا الكافر وبهجتها :

فالكافر قد يبدو غنياً جداً ، وقد يقيم عقد قران لابنته بمئة مليون، الله قال :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

(سورة آل عمران : الآية 196)

لا تغتر بتقلبهم، لا تغتر بأحوالهم، ولا بأموالهم، ولا بأولادهم، و لا بعقود قرانهم، و لا بزواجهم، و لا بسفراتهم ... الكافر غفل عن المهمة التي خلق من أجلها، الكافر غفل أن الدنيا دار ابتلاء، فظنها دار جزاء، الكافر غفل عن أن الدنيا دار عمل فظنها دار أمل، الكافر غفل عن أن الدنيا مزرعة للآخرة، جعلها نهاية المطاف، و جعلها مبلغ علمه، و جعلها منتهى طموحه، و هذه مشكلة كبيرة، فلذلك قال تعالى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

(سورة آل عمران : الآية 196)

قد يتقلبون من منصب إلى منصب، ومن مكان إلى مكان، ومن بيت إلى بيت، ومن مركبة إلى مركبة، ومن مستوى إلى مستوى، لا تغتر أي لهم حجم عند الله أقل مما تراهم .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

الترمذي

نِعم عطاء الدنيا للعبد الصالح المستقيم :

لكن إذا جاءت الدنيا، وأنت مؤمن فهذه من نعمة الله الكبرى، نعمة لأنك توظفها في الحق، لو أنك مؤمن إيماناً حقيقياً وآتاك الله مالاً أصبحت خيارات العمل الصالح أمامك واسعة .

الآن موضوع آخر، كل ما أتمناه أيها الإخوة ألا تفهموا من كلامي أن الذي آتاه الله مالاً و كان مؤمناً ليس رابحاً، لا، إن كنت مؤمناً و آتاك الله مالاً ارتقيت به إلى أعلى عليين، المال قيمة إن استخدم في طاعة الله كان صاحبه في أعلى عليين، النبي تمنى أن يكون له مثل جبل أحد لا تأتي عليه ثلاث إلا و قد أنفقها في سبيل الله، فإذا شخص الله أتاه شكلاً وسيماً، أتاه غنى، أتاه علماً، أتاه طلاقة لسان، أتاه زوجة صالحة، و أولادا أبرارا، أتاه اختصاصا نادرا ، له دخل وفير، هذا من نِعم الله لاشك، أنا أتحدث عن الغنى مع الكفر، عن الوسامة مع الكفر، عن القوة مع الكفر، ألا ترون أن القوة من دون إيمان ماذا تفعل في الدنيا الآن؟ هل رأيتم فيما سمعتم ظلماً كهذا الظلم؟ أي الذين يحاربون ما يسمونه بالإرهاب هم أكبر بلد إرهابي في العالم، يستخدمون الإرهاب المنظم، الإرهاب القوي، فهذا الذي ترونه لا يمكن أن يقبل عند الله عز وجل، قال :

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 55)

و لو ذهبت إلى بلادهم فلا ينبغي أن تعجب بهم، و لا بأبنيتهم العالية، و لا بوسائل مواصلاتهم، و لا باتصالاتهم، و لا بحدائقهم، و لا بأماكن البيع عندهم، هذه دنيا محدودة :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

قال ربنا :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 113)

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

(سورة يوسف : الآية 22)

لا توازنْ بين الناس بالماديات :

عندنا قاعدة في العاطفة، هناك عاطفة عميقة، وهناك عاطفة سطحية .

مثلاً: لو دخلت إلى بيت أحد تجار المخدرات، ورأيت بيتاً يزيد على أربعمئة متر، وفيه من الأثاث ما لا يوصف، وفيه من الترفيه، والأجهزة الكهربائية ما لا تعرف، هل تعجب بهذا البيت، وتعلم أن صاحبه تاجر مخدرات ؟

لو دخلت إلى بيت موظف مستقيم على أمر الله تسعين متراً، وأثاثه متواضع جداً، لكن هذا الإنسان يعمل في نشر الخير، في التعليم أي عنصر خير للأمة هل تزدريه على بيته الصغير؟ إن عظمت تاجر المخدرات فعاطفتك سطحية، و إن احتقرت الإنسان المستقيم الفقير فعاطفتك سطحية، أما إذا احتقرت من جمع هذا المال على حساب شبابنا، وسلامة جيلنا إذا احتقرته فأنت تملك عاطفة عميقة، فربنا عز وجل يقول :

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 55)

لأنه من هوي الكفرة حشر معهم، و لا ينفعه عمله شيئاً، والحقيقة أن هذا الذي حدث و الذي آلم المسلمين أيما إيلام له إيجابية واحدة، وقد تكون إيجابية، الإيجابية الوحيدة أن مجتمع الكفر خطف أبصار الناس إليه من قبل، هناك الحرية والديمقراطية، والإنسان مكرم، هذه أقنعة كلها مزيفة، والحمد لله كشفت، هذه أقنعة كلها مزيفة، كلها كاذبة، كلها مزورة، وحينما هددت مصالحهم انقلبوا إلى وحوش، أليس كذلك ؟

إذاً: دائماً فكر في الإيجابيات، المؤمن متوازن، هناك سلبيات، هناك آلام، لكن هناك إيجابيات، لأنه من هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، قال الله :

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ)

(سورة البقرة : الآية 256)

لم يقل: فمن يؤمن بالله فقط، لابد أن يسبق الإيمان بالله كفر بالطاغوت، أن تكفر بهم وبحضارتهم، وبنظمهم، وبمنطلقاتهم، وبأساليبهم، وبكذبهم، ودجلهم :

(يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

(سورة آل عمران)

يوجد آية أخرى :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

إلهنا، ربنا، مولانا، خالقنا، بارئنا، مصورنا، الذي مصيرنا إليه يقول لك :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

هذا هو مقياس الفوز :

ويقول لك :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : الآية 185)

ويقول لك :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

يقول لك :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس : 9-10)

هذه مقاييس التفوق في القرآن الكريم، مقياس التفوق أن تزكي نفسك، أن تعرفها بربها، أن تحملها على طاعته، أن تتقرب إليه بخدمة خلقه، مقياس التفوق أن تطيع الله و رسوله، مقياس التفوق أن تنجو من النار :

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عاملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

ورد في الأثر

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

هذه أشياء خطيرة جداً، لأنك إذا اعتقدت هذا الاعتقاد ترتاح نفسك، وترى نفسك فائزاً، أما إذا كنت غافلاً عن الله تعيش مقاييس أهل الكفر، مقاييسهم المال فقط، القوة فقط، أين بيتك؟ في أي حي، ما مساحته؟ كم كلفك، هل زَيَنته؟ ما نوع الأثاث الذي فيه؟ ما نوع مركبتك؟ لو ذكرت له أعلى نوع يقول لك: رقمها ستمائة أم خمسمائة وخمسون، أم مئتان وثمانون، أم مئة وتسعون؟ في آخر الزمان قيمة المرء متاعه فقط، هكذا قال سيدنا علي، فلذلك :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

لا تنظر إليهم، أنت في زمن فيه إعداد للآخرة :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ

العبرة بمن يضحك في آخر المطاف :

العبرة من يضحك آخرا، من يضحك أولاً يبكي كثيراً، ومن يضحك آخرا يضحك كثيراً، والإنسان يولد كل من حوله يضحك إلا هو يبكي وحده، فإذا شارف الموت كل من حوله يبكي، فإذا كان مؤمناً يضحك وحده، والله قبل أيام قلت كلمة، شيعت جنازة، ورأيت حالة الدفن، قلت: والله ما من إنسان على وجه الأرض أذكى وأعقل ممن يعد لهذه الساعة التي لابد منها، أبداً، لا ينجو منها أحداً،

عمر مديد، تدخل بيتك، وتخرج منه منتصب القامة، وفي مرة واحدة لابد من أن تخرج منه محمولاً .

كل يوم تقرأ عشرات النعي، ولابد من يوم يقرأ الناس فيه نعيك، شئت أم أبيت، هكذا نحن جميعاً، ما من خروج من البيت إلا والأهل ينتظرونك، لم يأت بعد ، الساعة الثانية عشرة، إلا بعد الدفن فلا أحد يقول: لم يأت فلان، انتهى، ذهب ولم يعد، فهذه الساعة التي لابد منها ينبغي أن نعد لها :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

المؤمن محبوب ولو كان مِن أفقر الناس :

لا تستخدم مقاييسهم، أنت إنسان مستقيم تعرف الله عز وجل، قد يكون دخلك محدوداً لو التقيت بواحد من أهل الدنيا لا يقيمك إلا من دخلك، ماذا تعمل يا بني؟ والله أنا موظف، كم يعطونك؟ أنت تأخذ خمسة آلاف، تقول له: أنا آخذ عشرة، استر حالك، فقط عشرة، لا تكفي، كيف تعيش؟ مقياسه مادي محض، لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثلما ترى له، صاحب أهل العلم، صاحب المؤمنين، يقدرون فيك إيمانك، يقدرون فيك طاعتك لله، يقدرون فيك استقامتك، يقدرون فيك حرصك على الحق، يقدرون فيك طموحاتك، يقدرون فيك بطولتك، أما إن صاحبت أهل الدنيا فلا يقدرون فيك إلا مقاييسهم، أموالهم، لذلك ورد أنه من دخل على الأغنياء ـ طبعاً غير المؤمنين، و الله لا أتكلم عن الأغنياء إلا إذا كانوا بعيدين عن الله، أما و الله المؤمنون تشتهي أن تكون مثلهم، من تواضعهم، و من سخائهم، ومن حبهم لله، و قد أكرمهم الله بهذا الغنى ليكون سلماً لهم إلى الجنة، أنا لا أتحدث إلا عن هؤلاء الشاردين الغافلين، المستكبرين المتغطرسين، أما المؤمنون، والله المؤمن تحبه غنياً من تواضعه وسخائه، و تحبه فقيراً من عفته وتجمله، وتحبه ذا دخل محدود، أو ذا دخل غير محدود، تحبه من الريف، كل الطهر، والبراءة به، وتحبه إذا كان من المدينة، تحبه إن كان من أسرة عريقة متواضعاً، وتحبه إن كان من أسرة متواضعة، أنا أقول كلمة: لا يجوز في عالم الإيمان أن تضيف على كلمة مؤمن و لا كلمة، مؤمن حاجب تحبه، مؤمن مدير عام تحبه، كلاهما متواضع، كلاهما متجمل، كلاهما يعرف حدود الله، كلاهما متأدب، فلذلك أيها الإخوة لا يمكن أن نقوم الحياة إلا على مقاييس القرآن .

كان شخص من التابعين قصير القامة، أسمر اللون، أحنف الرجل، مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، ضيق المنكبين، غائر العينين، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، و كان مع ذلك سيد قومه، إذا غضِبَ غضبَ لغضبته مئة ألف سيف، لا يسألونه فيم غضب؟ و كان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه، بطل، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ

((أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنْ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتْ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ))

أحمد

دخل عليه مرة شخص فوقف له، وقال:

((أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي؟ قال: نعم، أنت خامل في الأرض علم في السماء))

ورد في الأثر

سيدنا عمر كان يستقبل رسولاً من معركة نهاوند قال له: << حدثني ماذا جرى؟ قال له: والله مات خلق كثير، قال: من هم؟ قال: إنك لا تعرفهم، لو ذكرت لك أسماءهم لا تعرفهم، فبكى عمر، وقال: وما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم >> .

مجتمع الإيمان مجتمع إخلاص، مجتمع تواضع، مجتمع محبة، مجتمع بذل، مجتمع تضحية، و هذه الحياة الدنيا لا تصلح إلا بالإيمان، لذلك إذا عظم إنسان الكافر لماله، عظمه لقوته، فقد أشرك مع الله، ينبغي أن تبجل المؤمنين، ينبغي أن يكون قلبك مع المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً وفقراء، وأن تتبرأ من الكفار، و المفسدين، ولو كانوا أقوياء وأغنياء، هذا الولاء و البراء، أن توالي أهل الإيمان، و أن تتبرأ من أهل الكفر و الفسق و الفجور :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

انظر متى يكون تألق الإنسان في دنياه ؟

سنوات معدودة، فدقق أيها الإنسان، حتى يستطيع الإنسان أن يتألق في الحياة قليلاً سيكون على الأقل في سن الأربعين، إذا عمل عملاً دؤوباً، و معه شهادات عليا، و درس، أو كان ابن تاجر، واشتهر حتى يتألق تألقه ذاك في الأربعين، و معترك المنايا بين الستين والسبعين، وقلما يجوز ذلك، اسأل أنت كل الذين توفاهم الله يقول لك: في الثامنة والخمسين، في الثالثة والستين، في ست وسبعين، ما شاء الله، أما أكثر الناس فبين الستين والسبعين، والآن أصبح بالثلاثينات، أصبح موديلاً جديداً للموت، أزمة قلبية بالثلاثين، بالخمسة وعشرين، بالاثنين و الثلاثين، يوجد أورام، و يوجد أزمات قلبية تأخذ الشباب الآن، فلذلك هذه الحياة الدنيا ليست مجدية في التمتع بها، لأن الإعداد أربعون، والاستمتاع عشرون، هذا إذا من لم يوجد بحياته منغص بأهل الأرض أبداً ؟

الإنسان لا يخلو من مشكلة في بيته، أو مع أهله، مع أولاده، بصحته، بعمله، برزقه، بدخله، إذا لم يوجد عنده و لا مشكلة معنى هذا أنه هو مشكلة، لأنه لا يحس هموم المسلمين أصبح هو مشكلة

أيضاً، أيمكن أن تكون مرتاحاً، ومن حولك جميعاً يئنون من الجوع، وأن ترتاح أنت بينهم؟ إذاً أنت لست مسلماً، حتى لو لم تكن عندك مشكلة ما تسمع من أخبار المسلمين، ومن آلامهم، ومن قهرهم، ومن ظلمهم لا تحتمل .

والله حدثني أخ صادق قال لي: والله لا أطيق سماع الأخبار، لا أطيق رؤية هذه المآسي التي نراها كل يوم، فلذلك أيها الإخوة: إن هذه الدنيا دار ابتلاء، دار عمل، دار تضحية، دار كدح :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا)

(سورة آل عمران : الآية 200)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز كلما دخل مقر عمله يقول :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء : 205-207)

يقول الله :

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

(سورة إبراهيم : الآية 30)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة : الآية 126)

(لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 198)

لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

هؤلاء الذين عرفوا ربهم و اتقوا أن يعصوه :

(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

(سورة آل عمران : الآية 198)

التقي هو الفائز :

التقي هو الفائز، ولو كنت فقيراً، ولو كنت لا سمح الله مريضاً، ولو كنت بلا زوجة، وبلا ولد، ولو كان بيتك مستأجراً، ولو كنت بوضع يرثى له، ما دمت قد عرفت الله فأنت الفائز :

(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

(سورة آل عمران : الآية 198)

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ

أيها الإخوة، ثم يقول الله عز وجل :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

تعلَّمْ من القرآن أدبَ الإنصافِ :

دققوا، إن(من)للتبعيض، أرأيت إلى هذا الأدب الذي يعلمنا الله إياه، إياك أن تعمم، إن من أهل الكتاب، بعضهم :

(لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

النجاشي استقبل المسلمين، ورحب بهم، وطمأنهم، وأقاموا عنده آمنين، وقال: لو أتيح لي أن ألقى النبي لغسلت عن قدميه، والنبي صلى عليه صلاة الغائب، وحينما أمرهم أن يصلوا عليه عجب بعض الصحابة من هذا الذي نصلي عليه؟ فجاء الرد الإلهي :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

الآن دققوا دخلنا في موضوع دقيق، أولاً: تعلم من الله الموضوعية، تعلم أن الموضوعية قيمة ثمينة، هي قيمة علمية، وقيمة أخلاقية في وقت واحد، لست عالماً إذا حشوت ذهنك بالمعلومات، ولكنك تعد عالماً إذا كنت منصفاً في أحكامك، لا تحكم حكماً ظالماً، لا تغفل الإيجابيات، وتبرز السلبيات، هذا هو إمام السوء الذي إذا أحسنت لم يقبل، وإذا أسأت لم يغفر، هذا هو جار السوء الذي إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، كن موضوعياً، إن سئلت عن إنسان فاذكر ما له وما عليه، إن سئلت عن جماعة فقل ما لها و ما عليها، إن سئلت عن قريب فقل ما له و ما عليه، إن سئلت عن صديق فقل ما له و ما عليه، لا تعمم، لا تغفل الإيجابيات، و تبرز السلبيات، هذا موقف لا أخلاقي .

بعض أهل الكتاب مؤمن بالله وبجميع أنبيائه :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ)

الإيمان الصحيح :

(وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ)

أي بشكل أو بآخر لعلي أوفق في هذا المثل: أنت مدير مؤسسة تابع لوزير، الملك غير الوزارة، وأصبحت تابعاً لوزير آخر، لا أقبل هذا الوزير، أنت بهذا تستعصي على أوامر الملك، الملك عَيَن هذا الوزير، وأنت تابع له، لا يقبل، ولا يعقل أن ترفض أن تنتمي لوزير جديد عينه الذي تعظمه أنت، فالمؤمن يقبل أي رسول جديد، فأنت لك رسول جاء رسول آخر ينبغي أن تتبع الآخر، لذلك هؤلاء :

(لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ)

إليكم وإليهم، لأنهم قبلوا الرسالة الجديدة معنى ذلك أنهم يعظمون الله عز وجل، هذا التعظيم لله كان دليله أنهم آمنوا بما أنزل على محمد، و سأقول لكم كلمة دقيقة: أية معرفة ترقى إلى درجة أنها بديهية هل يوجد أب على وجه الأرض إذا دخل إلى البيت، وأنجب أولاداً من سبع سنوات، ووقف أمامه أحد أولاده يقول له: من أنت؟ هل سمعتم بهذا؟ مستحيل، أي لا يوجد معرفة أوضح، وأصدق عفوية كمعرفة الأب بابنه، ماذا قال الله عز وجل؟ قال :

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة : الآية 146)

يعرفون أنه رسول الله، يوجد أدلة، و علامات، و شواهد، و إخبار عندهم في الكتب، هم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لكن لم يؤمنوا به، أما الذي آمن به الحقيقة إيمانه بالله قوي، الذي آمن به انطلق من إيمانه بالله، فلذلك :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ)

الخشوع صفة بعض أهل الكتاب :

هذا الإيمان بما أنزل إليهم، وما أنزل إليكم معاً، أي إيمانهم بالله قوي جداً، وهذا الإيمان بالله الصحيح حملهم على خشية الله، وعلى طاعته، قال :

(خَاشِعِينَ لِلَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

أما الصفة الثانية رائعة، قال :

(لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

(سورة آل عمران : الآية 199)

خطورة بيع الدين بالدنيا :

أنت لك دعوة، ولك جماعة، ولك مكانة بينهم، لو أنك آمنت برسول الله فرضاً يجب أن تتزحزح عن مكانتك، و تعد تابعاً له، هناك من آثر أن يبقى على مكانته مع إغفال هذه الحقائق، إذاً: اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً .

لو فرضنا مثلاً أوضح من هذا؛ إنسان كلف أن يفتي بموضوع، وله مكانه معينة، فإذا أفتى على خلاف ما طلب منه يخسر هذه المكانة، فأفتى بما يرضي من أمره أن يفتي، مثلاً، هو ماذا فعل؟ اشترى بعلمه ثمناً قليلاً، أفتى بخلاف ما يعلم، المثل واضح؛ أنت بمكانة معينة، بدخل معين، بشكل معين، طلب منك أن تفتي فتوى، فإن لم تكن كما يريدون خسرت هذه المكانة، فالذي آثر هذه المكانة على أن يفتي بخلاف ما يعلم هذا اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، و الذي آثر طاعة الله على مكانته هذا هو المؤمن، فلماذا أنكر من أنكر؟ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، هم في بحبوحة، وبمكانة كبيرة في مجتمعاتهم، فإذا آمنوا فقدوا هذه المكانة، فيما توهموا، لكن الذي حصل على عكس ذلك، الذين آمنوا من أهل الكتاب النبي أكرمهم إكراماً لا حدود له، ورفع شأنهم، وكسبوا الدنيا والآخرة .

إذاً :

(لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

إياك أن تفتي بغير علم ، وإياك أن تفتي بخلاف ما تعلم :

كتعقيب أخير على هذه الآية قبل الأخيرة : دعك من ملابسات هذه الآية، وأنت مسلم، إذا سئلت سؤالاً، وتعرف الجواب الصحيح، لو وجدت أن مصلحتك تقتضي أن تقول جواباً غير هذا الجواب فأنت اشتريت بآيات الله ثمناً قليلاً، لو سئلت من إنسان قوي عن شيء، وأدركت بالحاسة السادسة أنك إذا قلت له بما يهوى تعلو عنده فقد اشتريت بآيات الله ثمناً قليلاً، إن أفتيت بخلاف ما تعلم اشتريت بآيات الله ثمناً قليلاً، ضمن الدين الواحد إن نطقت بالباطل تقرباً إلى زيد، أو عبيد، أو إن سكت عن الحق اتقاء لشيء لا تريده، فقد اشتريت بآيات الله ثمناً قليلاً، فلذلك هذه آية دقيقة جداً :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ)

لأنهم آمنوا بالرسالتين، إذاً خشعت قلوبهم لله، اتصلوا بالله، شعروا أنهم قد أرضوا ربهم، وأن هذا الرسول فيه إشارات في كتبهم، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أما الذين تشبثوا بمناصبهم، ومكاسبهم الدنيوية من خلال زعاماتهم فهؤلاء اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، هؤلاء الذين آثروا الحقيقة، وطاعة الله، ومحبته، قال :

و إن شاء الله في الدرس القادم ننهي هذه السورة بقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 200)

الأسئلة :

إخوانا الكرام، هناك موضوع نقل الكلية أي التقدم الطبي، نحن نحترمه كثيراً، لكن لا يعقل أن يعيش أحد على حساب أحد، إنسان عنده فشل كلوي نلزم مثلاً أخته، أو قريبه، أو أخاه أن يتبرع بإحدى كليتيه، لم يثبت قطعاً أن إزالة كلية واحدة ليس لها مضاعفات إطلاقاً، على كل موضوع نقل الكلى اسأل طبيباً مختصاً، فأكثر الحالات لا تنجح، أي الذي نقلت له الكلية لم ينتفع منها، والذي أُخذت منه الكلية عطب، كما أن المعالجة شيء دقيق جداً، ليست ملزمة في بعض الحالات، وتقدّم الطب يوقع الناس في حرج شديد، هناك فشل كلوي، لكن العملية قد تكلف ملايين أو مليونًا، والنجاح بالمئة ثلاثون، وانعطب إنسان، فما كل تقدم طبي ينبغي أن نسايره، لكن نحن عندنا منهج، فالموضوع لا يزال خلافي و شائك، إذا كان ثمة تبرع بين الأقارب فهو موضوع أقل مما لو تباع الكلية، طبعاً أن يبيع الإنسان كليته فهذا شيء غير مقبول إطلاقاً، و بعض القوانين في بعض البلاد تحاسب عليه .

س : هل تصح توبة المريض الملقى على فراش الموت ؟

ج : في الحديث عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ))

الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد

والغرغرة صوت حشرجة الروح حين خروجها من الحنجرة، إن وصلت الروح إلى هذا المكان، هذه الغرغرة يقفل باب التوبة .

نقول: إن إنساناً يحب أن يحضر دروس الدين، ولم يستطع ترك المعاصي بشكل كامل، فهل يترك الدروس، ويعود إليها لاحقاً بعد ترك المعاصي؟

تتفاقم المعاصي بعدها، وأنت في الدرس تستمع إلى الحق، وتتذكر، ويوجد جو ديني، ويوجد شحنة روحية، وتقترفها، فإذا تركت الدروس معنى ذلك قد تنتقل إلى أكبر، لا يجب أن تبقى في الدروس، وأن تضم إليها الاستقامة التامة والتوبة .

الحاسة السادسة يستعملها بعض علماء النفس إحساسًا عامًّا من دون دليل، يقول لك: هكذا شعرت، هذا شيء يستخدم .

س : هل صيد العصافير محرم ؟

ج : العصفور إذا اصطاده إنسان لغير مأكلة أتى يوم القيامة وله دوي كدوي النحل، يقول: يا رب، سله لمَ قتلني؟ هناك صيد محرم قطعاً، أن تصطاد لغير مأكلة، لست مضطراً، كم من عصفور يصطاد الإنسان حتى يشبع؟ لا يوجد شيء إطلاقاً، فلذلك يا رب سله لمَ قتلني؟ و للصيد بحث طويل .

س : يؤمن المسلم بأن نعيم القبر وعذابه ، والسؤال هل هناك أدلة في القرآن تفسر عذاب القبر ؟

ج : نعم، قال تعالى :

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر : الآية 46)

عذاب القبر حق، و يوجد آية قرآنية تؤكد ذلك .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(60-60): تفسير الآية الأخيرة 200
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-02-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الستين والأخير من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الأخيرة، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 200)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

الحكمة من بدء الآية بالنداء بلفظ الإيمان :

أية آية تبدأ بقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

أي إنكم أيها المؤمنون مرتبطون مع الله بعقد إيماني، أنتم آمنتم به موجوداً وواحداً وكاملاً، آمنتم به خالقاً ومربياً ومسيراً، آمنتم بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، آمنتم أن الأمر كله بيده، وأن كماله كمال مطلق، وأن حكمته لا حكمة بعدها، ورحمته، وقدرته، وعدله بحسب إيمانكم، ومعرفتكم افعلوا كذا اصبروا .

الأمر بالصبر :

ما من آية يحتاجها المسلمون في هذه الأيام الدقيقة التي لم يمر بها المسلمون في ظرف أصعب من هذا الظرف هم في أمسّ الحاجة إلى هذه الآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

يقول الله عز وجل :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : 120)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم : 46)

خالق الأكوان يقول :

(وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم : 46)

ومع ذلك :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : 120)

كل ما تتصورون من قوة، ومن تقنية، ومن تفوق تزول إذا آمنا وصبرنا، وأعددنا لأعدائنا ما نستطيع من قوة، أعددنا الإيمان الذي يحملنا على طاعة الله، هذا هو الحل ولا حل سواه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

حقيقة النصر :

ذكرت اليوم أن النصر ليس أن تكتسح الأراضي، ولا أن تستبيح الأعراض، ولا أن تأخذ الأموال، ولا أن تذل الرقاب، النصر الحقيقي أن تثبت على المبدأ، وأكبر دليل على ذلك أن الله جل جلاله في قصة أصحاب الأخدود، والقصة وردت في البخاري ومسلم، فهذا الملك أراد قتل الغلام الذي آمن بالله فلم يستطع :

((إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ: قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ))

صحيح مسلم

بالعين ، وبشبكية العين من الذي انتصر ؟ الملك ، لكن اقرأ الآية :

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4)النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(5)إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(6)وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(7)وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(8)الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(سورة البروج : 4-9)

أيها الإخوة، هؤلاء ماتوا، وحرقوا، وعذبوا، لكنهم انتصروا، لأنهم ماتوا على الإيمان، ولأنهم ما بدلوا، ولا غيروا، وهذه الدنيا مؤقتة عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك عادل، فالمسلم الصادق قوي الإيمان، لا يؤخذ بنصر شكلي أو مادي، لكن الحقيقة أنه إذا كان ثابتاً على مبدأه فهو المنتصر حقيقة، وكفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، فأنت مأمور أن تصبر على طاعة الله، وطاعة الله مكلفة ومنها التكاليف، وأن تصبر عن معصية الله، والشهوات متألقة، والفتن يقظة، والدنيا خضرة نضرة، وكل شيء يدعو إلى أن تحب الدنيا .

الصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى قضاء الله وقدره :

ينبغي أن تصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وأن تصبر على قضاء الله وقدره .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

أمر إلهي، وحينما يكون الأمر واضحاً وضوح الشمس، لكن متى تصبر؟ حينما تختلط الأمور، وحينما تضيع القضية، وحينما لا يتضح الأمر فأنت مأمور أن تصبر على حكم الله، وعلى طاعة الله، وعن معصية الله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

والله أيها الإخوة، آية في كتاب الله إذا قرأت يقشعر لها الجلد، ربنا يحدثنا عن أحد أنبيائه العظام قال :

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

(سورة ص : 44)

وتكلم عن نبي آخر فقال :

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم : 37)

وفّى ما عليه، وفّى نعمة الله شكراً، ومنهج الله طاعة، وفّى الله ذكراً ومعرفة .

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم : 37)

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

(سورة ص : 44)

ما تركت هذه الآية لدرس بأكمله إلا لأننا في مسيس الحاجة إلى الصبر، والصبر يتناسب مع قوة الإيمان .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

لنصبر على مكر أعدائنا، وعلى شظف العيش أحياناً، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام :

((اخشوشنوا وتمعددوا))

ربما لا تدوم النعم، وقد يأتي ظرف صعب تحسر عنا بعض الثروات، وربما لا يتاح لنا أن نعيش كما كنا نعيش، لأنك مؤمن، ولأن الإيمان أكبر قضية في حياتك، فينبغي أن تصبر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

الصبر هو الإيمان :

والصبر نصف الإيمان، بل هو الإيمان كله، الطاعة صبر، وغض البصر صبر، أن تنطق بالحق صبر، من السهل جداً أن تنطق بكلام يرضي الأقوياء فتنعم بالأمن عندهم، لكنك إذا تكلمت كلاماً يزعجهم فقدت الأمن عندهم، فقد يكون النطق بالحق صبر، وقد يكون التحرك في كسب المال صبر، لأن أبواب الربا مفتحة على مصاريعها .

فيا أيها الإخوة، نحن في أمس الحاجة إلى الصبر، لكن من الذي يصبر؟ أنت إذا كنت مريضاً عند طبيب أسنان كريم، وقال لك: المخدر لا يناسبك إطلاقاً، وله مضاعفات خطيرة، لابد أن نقلع السن من دون مخدر، وبين له الأسباب الكافية، قلبك لا يحتمل أن تأخذ المخدر، لأن الأمر واضح وضوح الشمس، فتصبر، أما إذا لم يكن الأمر واضحًا توقعت شيئاً، وجاءت الأخبار على خلاف الذي توقعته، تمنيت شيئاً، ولم يحصل هذا التمني، أردت نصراً، ولم يكن هذا النصر، أردت أن يرغم أنف الكفار، فأرغموا أنوف المسلمين، تتألم أشد الألم، وألمك إيمان، ومحبة للمؤمنين، ولكن ينبغي أن تحترم قرار الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

ينبغي أن يكون الصبر لله :

لكن: واصبر ولربك، فاصبر، هناك إنسان يصبر، لأنه مقهور، أو ذليل، أو ضعيف، يصبر لأنه فقير، لكن الله يذكرك أن صبرك ينبغي أن يكون لله، ولربك فاصبر، فاصبروا لوجه الله تعالى .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

لكن :

(وَصابِرُوا)

معنى : صَابِرُوا

المعنى الذي يمكن أن يستنبط من كلمة وصابروا: أي احملوا من حولكم على الصبر، اصبر وصابر .

أحياناً الإنسان من غير حكمة يشكو لك مشكلة، والله مشكلتك صعبة لا تحتمل، الله يعينك، ليس هذا

هو الموقف الكامل، ينبغي أن تخفف عنه، وتهون في عينه الدنيا، وأن تطمعه في الآخرة، وأن تشعره أن معظم الناس يعانون ما يعانون، فأنت ينبغي أن تصبر، وينبغي أن تحمل غيرك على الصبر، ينبغي أن تصبر، وينبغي أن تبين حكمة الله التي ينبغي أن نصبر عليها، ينبغي أن تصبر، وتبين ماذا ينتظر الصابرون .

الصبر :أجره بغير حساب :

الحقيقة: دائماً لكل عمل صالح أجر من ضعف إلى عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : 10)

يمكن أن نعطيك أمرَ دفع بمائة بمليون، أما إذا وقعنا لك هذا الأمر، وقلنا لك: اكتب الرقم الذي تريد، هذا مفتوح، هكذا عطاء الصابرين .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : 10)

هناك امرأة صابرة على زوج شرس، هناك زوج صابر على زوجة شرسة، هناك شريك صابر على شريك متعب، هناك ابن صابر لأب صعب المعاملة، هناك أب يصبر على ابنه، هناك من يصبر على الآخرين، يصبر ابتغاء وجه الله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا)

احملوا غيركم على الصبر، اصبر وصابر، اصبر، وانتظر من الله الفرج، اصبر، واعلم علم اليقين أن الله يحب الصابرين، اصبر، واعلم أن الله مع الصابرين، اصبر، واعلم أن الله سيجزي الصابرين بغير حساب .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا)

معنى : وَرَابِطُوا

لكن مركز الثقل في الآية :

(وَرَابِطُوا)

أوجَه معنى لهذه الكلمة مأخوذة من الرباط، من رباط الخيل، استعدوا للعدو، لأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، وهذه المعركة قد تشتد في بعض الأحيان، وقد تخف حدتها في البعض الآخر، وهي الآن شديدة جداً، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

(الأنعام : الآية 112)

لابد من معركة بين الحق والباطل، وقد تكون بين أفراد أسرة بشكل مخفف، ابن متفلت، وابن ملتزم، فإذا كان الأب والأم ضعيفي الإيمان وقفوا مع المتفلت، ولا يقبلون للملتزم عذراً، ويكبرون أخطاءه، ويتغافلون عن إيجابياته، وإذا كان الأب والأم ملتزمين فهم مع الملتزم، وضد المتفلت، فدائماً في معركة بين الحق والباطل تكون كلاماً، أو مشادة، أو آلامًا، وقد تكون سفكاً لدماء، وقهراً لأنفس .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا)

أحاديث نبوية متعلقة بالرباط :

ولكن أنا مضطر إلى أن ألقي على مسامعكم بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بالرباط .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا))

صحيح البخاري

الرباط حفاظ على الدين من الغزو المادي والثقافي:

قد تسألون: ما السبب؟ إنك إن أنشأت معهداً شرعياً فهذه صدقة جارية، أليس كذلك؟ إن نشأت ميتماً فهذه صدقة جارية، إن أنشأت مشفى فهذه صدقة جارية ، إن ربيت ابناً على طاعة الله فهو صدقة جارية، إن ألفت كتاباً ذا نفع عميم فهو صدقة جارية .

الآن دقق: إذا كان العدو قوياً، ولم ترابط في سبيل الله سوف يغلق لك هذا المعهد! وسوف يغير مناهج المسلمين في تدريس دينهم، وسيقصف المستشفيات، وسيقصف المياتم، وسوف يفعل ما يفعل، حتى الصدقة الجارية إن لم تكن هناك قوة تدعمها فلا تبقى جارية، تصبح منقطعة، إذا مات شاب في طاعة الله كان أبوه قد رباه ليكون عالماً جليلاً، قُتل قهراً كما يفعلون في فلسطين، وفي أماكن أخرى من العالم.

هناك الآن من يمنع تدريس التربية الدينية، خمسة آلاف معهد أغلقت! لأن الرباط كان ضعيفًا، تقصير المسلمين في أربعمائة عام ندفع الآن ثمنه مع الفوائد المترتبة، فلذلك الرباط، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا))

البخاري

أردت من هذا مع أن أعظم الأعمال هي التي تستمر بعد صاحبها أنشأت مسجداً، ومعهداً شرعياً، وألفت كتاب تفسير، أنشأت ميتماً، ربيت ابناً صالحاً، إن لم ترابط في سبيل الله ، وقوي العدو هدم لك المسجد والمشفى، وأغلق لك الميتم، ومنع تدريس الدين، وأغلق المعهد الشرعي، أليس كذلك ؟ حتى الصدقة الجارية التي هي أعظم الأعمال على الإطلاق يفوقها رباط يوم في سبيل الله، إذا قوي العدو فرض عليك ثقافته، يجب أن يكون عقد الزواج عقداً مدنياً .

عند شراء مركبة أو أرض يكون العقد بين شخصين، لا بين ذكر أو أنثى، هكذا هناك، انحلالهم الخلقي، وتفلتهم الشهواني ينبغي أن يعمم على العالم كله، وهذا ما يسمى اليوم العولمة، وما رأيت شرحاً لها أفضل من كلمة حيونة .

أن يعود الإنسان حيواناً ينبغي أن نرفع سن الزواج إلى الثلاثين، ونسمح لبناتنا أن يمارسوا هذه العلاقة قبل الزواج، ينبغي أن نربيهم في المدارس تربية جنسية، ونعطيهم الأدوات التي تمنع الحمل، ويكون الإجهاض مسموحاً به، إجهاضا آمنا، ينبغي أن تعمل الزوجة أي عمل تشاء، ولو في الفن، ليس شرطاً أن تسكن الزوجة مع زوجها في بيت واحد، فرق بين الزواج والإنجاب والعلاقة الجنسية، هذا كله في مؤتمر السكان، عقد ثلاث مؤتمرات، ويتمنون أكبر من ذلك، إن لم نعدل قوانين الأحوال الشخصية فسوف تفرض العقوبات، ونحاصر اقتصادياً، الغزو العسكري ليس بشيء أمام الغزو الثقافي .

حينما قويت العدو فرض عليك فنه، وأفلامه الإباحية، وجعل بيوت المسلمين كالملاهي الليلية، وانتشر زنى المحارم بفضل هذه الصحون، أنت حينما لا ترابط في سبيل الله يقوى عدوك عليك، ويفرض ثقافته، بل يفرض عليك أساليبه في الاقتصاد .

الاتفاقيات الاقتصادية لصالح الأقوياء فقط ! أقول لكم هذه الآية دقيقة جداً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا)

حتى إن الأعمال الصالحة التي لها نفع بعد موت صاحبها قولاً واحداً تنتهي بانتهاء هذا العمل، أنت أنشأت مشفى إذا قصفت، وأغلقت انتهى، أنشأت مدرسة ألغيت، ألفت كتابًا أحرق، ربيت ولدًا صالحًا قتل، الحق يحتاج إلى قوة، وهذا درس بليغ جداً، يجب أن يكون تحت سمع المسلمين، وتحت بصرهم .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا)

ففي البخاري :

((رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا))

و

في صحيح مسلم عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ))

الفتان هو الشيطان الذي يفتن الناس بالمرأة، الغرب الآن يحارب المسلمين بالمرأة، يعرضها كما ينبغي أن يكون العرض لزوجها فقط! لم يبق للزوج شيء، يعرضها في الطريق كما أنها في غرفة نوم زوجها! فلذلك يقول رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ))

وهو الشيطان الذي يضل الناس، الشيطان ماذا يفعل؟ يغري الناس بالمرأة، لا يوجد حالة زنى إلا سبقها وسوسة من الشيطان، يغري الناس بأكل المال الحرام، والفساد كله حرية في العلاقة مع النساء دون ضابط، وحرية في كسب الأموال، هذا الفساد العام، منتهى الفساد أن تأكل المال الذي تريد بلا قيد، ولا شرط، ولا مانع، ولا رادع، ولا قانون، ولا مبدأ، أي مال تحت يديك تأخذه، وتضمه إلى مالك، وأية شهوة سنحت لك تمارسها، ولا تعبأ لا بحدود، ولا بقيود، هذا عمل الفتان، مادام الأقوياء الفجار يدعمون الشيطان، والإنجازات الضخمة من حرب معينة أن الناس استمعوا إلى صوت مذيعة، فتحت دور السينما، أشياء متعلقة بالشهوات.

وفي حديث آخر عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((كُلُّ الْمَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ مِنْ فُتَّانِ الْقَبْرِ))

(سنن أبي داود)

((كُلُّ الْمَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ))

كيف ؟ ربيت ولداً صالحاً على العين والرأس، مات الولد، مع موت الولد انتهى العمل، أنشأت معهداً شرعياً أغلق، انتهى العمل، تركت علماً نافعاً أحرق الكتاب، انتهى العمل، حتى الأعمال التي تبقى بعد الموت تنتهي إن لم يكن الحق مدعوماً بقوة .

طبعاً عند الكفار القوة هي الحق، إن كنت قوياً فأنت على حق، وعند أهل الإيمان الحق ما جاء به الوحيان؛ الكتاب والسنة، ولكن هذا الحق يحتاج إلى قوة، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((كُلُّ الْمَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ مِنْ فُتَّانِ الْقَبْرِ))

أيها الإخوة، هذا الملمح دقيق جدًّا، هذا متعلق بمجموع المسلمين في العالم، لا يتعلق بمدينة، أو بقطر، أو ببلد، لا، هذا متعلق بمجموع المسلمين في العالم، إن لم يكونوا أقوياء فرض القوي عليهم ثقافته وإرادته، وفرض عليهم نظمه، وفرض عليهم الربا، وفرض عليهم أنماط معيشتهم، ونظامهم

الشخصي، من أدق خصوصيات الأمة قانون الأحوال الشخصية: الزواج من ذكر وأنثى، وهو عقد مقدس، ويوجد إيجاب، وقبول، وشاهد، ومهر، والطلاق يحتاج إلى مراحل متعددة، يطلقها طلقة تبقى في بيته، تتزين له إلى أن يأتي حيض، ثم حيض ثان، ثم حيض ثالث، ثم طلقة ثانية، وثالثة، تسعة أشهر وهي في بيتها، أما الذي يحصل في بلاد الغرب فليس هناك زواج، وليس هناك زواج مدني، هناك شيء اسمه مساكنة، شاب تسكن معه فتاة، يمارس معها كما يمارس الزوج مع زوجته، ليس لها أي حق إطلاقاً، في أية لحظة يركلها بقدمه، وتغدو خارج البيت، تبحث عن شاب آخر، أما عندنا في بلاد المسلمين فهذه الزوجة مصونة، وهذا أقدس عقد في الأرض، عقد الزواج :

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

(سورة النساء : 21)

تجد المرأة المسلمة لها أولاد، وبنات، وأصهار، والكل يحتفي بها، ويكرمها، نظام إلهي، ومنهج رباني، بيوت المسلمين جنات إن طبقوا منهج الله عز وجل، فلذلك قضية فرض ثقافتهم، وأنماط حياتهم، وأنماط زواجهم هذا شيء، والفضل لله عز وجل .

كنت عضواً في لجنة مؤتمر السكان، وتم رفض توصيات المجتمع بالإجماع من دون استثناء، أول مرة، وثاني مرة، والفضل لله عز وجل، ولا زلنا بخير، لكن أنا أتحدث عن بقية بلاد العالم، هناك أخطار تنتظر المسلمين، هناك تعديل للمناهج الإسلامية في التدريس، هناك إغلاق للمعاهد الشرعية، هناك إلى ما لا نهاية، هذا بسبب ضعفهم، وبسبب قوة عدوهم.

فيا أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا)

شيوع المعصية لا يعني إباحتها :

ينبغي أن تصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، ولو شاعت، هناك من يتوهم أن المعصية إذا شاعت لم تبق معصية! من قال لك ذلك؟ المعصية معصية شاعت أو لم تشع، فلذلك حينما ترى شيئاً شاع بين الناس، وانتشر حتى أصبح كل بيت يقتنيه فليس معنى هذا أنه حق، وقد يبقى باطلاً .

قد يكون الفرد وحده جماعة إذا كان على حق، وقد تكون الملايين المملينة ليست جماعة، لأنها على باطل .

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : 116)

الرباط الملازمة، في أيام السلم حينما تلازم المسجد، وتنتظر الصلاة إلى الصلاة، فأنت مرابط أيضاً، لكن النقطة الدقيقة أن هذا الرباط يحتاج إلى بحث طويل، وأعده إن شاء الله لدرس قادم، إما في درس الأحد، أو في درس الجمعة، أو في خطبة .

بداية الرباط من مجاهدة النفس :

الحقيقة الرباط أول ما يعني أن تجاهد نفسك وهواك، إن هناك عدواً خطيراً هو نفسك! إن كنت مهزوماً أمام نفسك فلا يمكن أن تقاتل نملة، حتى إن بعض كبار العلماء يقول: إن مقاتلة الأعداء الكفار فرع من مجاهدة النفس والهوى، المهزوم أمام نفسه لا يمكن أن يواجه عدواً، وهذه مشكلة كبيرة .

سيدنا خالد طلب المدد من سيدنا الصديق، طلب منه أن يمده بخمسين ألف مقاتل، لأنه واجه ثلاثمائة ألف، وهو معه ثلاثين ألف! فجاءه المدد، رجل واحد اسمه القعقاع ابن عمرو، عندما وصل القعقاع قال له سيدنا خالد: << أين المدد؟ قال: أنا! قال: أنت؟! قال: أنا، معه كتاب من أبي بكر رضي الله عنه، يقول له في هذا الكتاب: لا تعجب يا خالد أني أرسلت إليك واحداً، فو الذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم أبداً >> .

وانتصر الصحابة، وقد كان الواحد منهم كألف، أنت حينما تكون مع الله فأنت أقوى إنسان، لأن الله معك، لا يوجد حل، ولو اقترحت مليون حل، إلا أن نعود إلى الله، ونطبق منهجه، وننتظر وعده لنا بالصبر .

فأول جهادٍ جهادُ النفس والهوى، والمهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، مع أن بعضهم قال: إذا كان عدوك نملة فلا تنم له، كن يقظاً، ومع ذلك إن كان الإنسان مهزوماً أمام نفسه التي بين جنبيه هو أضعف من أن يقاتل نملة، حتى قتال الأعداء فرع من جهاد النفس والهوى .

الجهاد الدعوي نوع من الرباط :

وبعد جهاد النفس والهوى يأتي الجهاد الدعوي، وهو الأصل في الجهاد، والجهاد القتالي تمهيد للجهاد الدعوي، فإذا كان متاحاً لك أن تجاهد الناس بتعليم القرآن، وتبيين أحكامه، وأسسه، وقوامه فأنت مجاهد حقاً، وهذا متاح لأي إنسان على سطح الأرض .

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ : الآية 46)

أيها الإخوة، الجهاد الثالث: عندما تجتاح أرضنا لا سمح الله، ولا قدر فلابد من جهاد قتالي، أما نحن الآن فأمام جهاد النفس والهوى .

والذين لا يجاهدون أنفسهم، ولا أهواءهم ما أكثرهم في بلاد المسلمين، ثم نحن أمام جهاد القرآن الكريم، فعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

صحيح البخاري

ومن أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظمه الله .

خاتمة :

هذه الآية التي ينتهي بها تفسير سورة آل عمران، والفضل لله عز وجل هي آية العصر، وآية المسلمين اليوم، ونحن في أمس الحاجة إلى أن نعرف أنه لابد أن نكون أقوياء، ولن أكلفكم أن تواجهوا الغرب المتغطرس، ولا أن تمنعوا التطرف، لكنني أرى أن كل واحد منا يمكن أن يبني لبنة في صرح هذا الدين عن طريق إقامة الإسلام في بيته وعمله، لمجرد أن يكون عملك وبيتك إسلامياً فقد ساهمت في بناء صرح النصر القادم، إن شاء الله عز وجل :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139)إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة آل عمران : 139-140)

لحكمة أرادها الله جعل النصر تارة للكفار، وتارة للمؤمنين، ليمتحن الطرفين، فالله عز وجل له امتحانان صعبان، يقوي الكافر حتى يقول ضعيف الإيمان: أين الله؟ ثم يظهر آياته حتى يقول الكافر: لا إله إلا الله .

الفهرس

سورة آل عمران

الدرس (01- 60): الآيتان [1 – 2].....01

الدرس (02- 60): الآيات [3 – 6].....16

الدرس (03- 60): الآيات [5 - 7] 28

الدرس (04- 60): الآيات [8 – 9] 42

الدرس (05- 60): الآيات [10 – 13] 54

الدرس (06- 60): الآية [14] 64

الدرس (07- 60): الآيات [15 – 18] 76

الدرس (08- 60): الآيات [18 – 19] 89

الدرس (09- 60): الآيات [20 – 25].....103

الدرس (10- 60): الآيات [26 – 27] 121

الدرس (11- 60): الآيات [28 – 32].....136

الدرس (12- 60): الآيات [33 – 37] 150

الدرس (13- 60): الآيات [36 – 38].....166

الدرس (14- 60): الآيات [39 – 44].....181

الدرس (15- 60): الآيات [45 – 48].....192

الدرس (16- 60): الآيات [49 – 52].....205

الدرس (17- 60): الآيات [54 – 59].....217

الدرس (18- 60): الآيات [58 – 68].....230

الدرس (19- 60): الآيات [64 – 68].....246

الدرس (20- 60): الآيات [69 – 74].....259

الدرس (21- 60): الآيات [75 – 76].....273

الدرس (22- 60): الآية [77].....287

الدرس (23- 60): الآيات [78 – 80]..... 297
الدرس (24- 60): الآيات [81 – 91]..... 313
الدرس (25- 60): الآيات [92 – 96]..... 329
الدرس (26- 60): الآيات [96 – 97]..... 343
الدرس (27- 60): الآيات [98 – 101]..... 362
الدرس (28- 60): الآيات [102 – 105]..... 380
الدرس (29- 60): الآيات [106 – 115]..... 396
الدرس (30- 60): الآيات [116 – 120]..... 415
الدرس (31- 60): الآية [121]..... 433
الدرس (32- 60): الآيات [121 – 127]..... 448
الدرس (33- 60): الآيات [121 – 123]..... 462
الدرس (34- 60): الآيات [123 – 129]..... 479
الدرس (35- 60): الآيات [130 – 133]..... 495
الدرس (36- 60): الآيات [134 – 137]..... 509
الدرس (37- 60): الآيات [137 – 138]..... 523
الدرس (38- 60): الآيات [139 – 147]..... 541
الدرس (39- 60): الآيات [139 – 145]..... 556
الدرس (40- 60): الآيات [146 – 150]..... 570
الدرس (41- 60): الآيات [149 – 154]..... 583
الدرس (42- 60): الآية [154]..... 599
الدرس (43- 60): الآية [154]..... 611
الدرس (44- 60): الآيات [154 – 158]..... 625
الدرس (45- 60): الآية [159]..... 642
الدرس (46- 60): الآيات [161 – 162]..... 653
الدرس (47- 60): الآيات [161 – 162]..... 668

الدرس (48- 60): الآيات [164 – 165]..... 681
الدرس (49- 60): الآيات [166 – 171]..... 694
الدرس (50- 60): الآيات [169 – 171]..... 708
الدرس (51- 60): الآيات [172 – 175]..... 722
الدرس (52- 60): الآيات [173 – 176]..... 733
الدرس (53- 60): الآيات [176 – 179]..... 746
الدرس (54- 60): الآيات [181 – 182]..... 757
الدرس (55- 60): الآيات [183 – 185]..... 766
الدرس (56- 60): الآيات [186 – 189]..... 780
الدرس (57- 60): الآيات [190 – 194]..... 791
الدرس (58- 60): الآيات [194 – 197]..... 803
الدرس (59- 60): الآيات [196 – 199]..... 815
الدرس (60- 60): الآية [200] والأخيرة 829

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

التفسير الكامل

تفسير سورة النساء

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(01-69): تفسير الآية 1 ، طاعة الله وصلة الرحم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-02-15

بسم الله الرحمن الرحيم

مخاطبة الله تعالى عامة الناس بأصول الدين و المؤمنين بفروع الدين :

أيها الأخوة المؤمنون.. مع الدرس الأول من سورة النساء ومع الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

الله جل جلاله يخاطب تارة عامة الناس، ويخاطب تارة أخرى المؤمنين، وفي الأصل أن الله يخاطب عامة الناس بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة: 21]

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

ويخاطب المؤمنين بفروع الدين:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

[سورة البقرة: 43]

إن آمن الإنسان بالله يهديه ويرفعه إلى مرتبة عالية :

هناك آيات كثيرة تأتي التفاصيل مع يا أيها الذين آمنوا، والمعنى أنه يا من آمنت بالله، يا من آمنت به خالقاً، آمنت به رباً، آمنت به مسيراً، يا من آمنت به موجوداً، واحداً كاملاً، يا من آمنت بأسمائه الحسنى، بصفاته الفضلى، يا من آمنت بقدرته بأنه المطلق في كل شيء، يقتضي إيمانك به أن تطيعه، إذاً افعل كذا وكذا، أما حينما يخاطب عامة الناس يخاطبون بأصول الدين، جبلة الإنسان أي فطرته وعقله يقتضيان أن لهذا الكون خالقاً، وهؤلاء الناس جميعاً عبيده، وأن الإنسان إذا تطاول على عبد فأخذ ماله، أو انتهب رزقه، أو قهره، أو ظلمه، فإنّ الذي خلق هذا الكون سيقتص منه، أنت لست وحدك في الحياة، أنت لست مطلقاً، أنت مقيد:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

أي أنت في بلد، ولنضرب على هذا مثلاً قريباً، يوجد بلد فيه جيش وشرطة، وأمن، وقوانين، وأنظمة، ليس من السهل أن تتحرك كما تريد من دون ضوابط، يوجد سجن، وقتل إذا ارتكبت جريمة، وغرامة مالية إن ارتكبت مخالفة مدنية، مجتمع فيه نظام، فيه قوة، فيه سلطة، فيه محاكم،

فيه واجبات، فإنسان يتحرك بلا ضابط، بلا نظام، بلا قيم، لا يبالي، فيدفع الثمن باهظاً، لذلك إن آمن الإنسان بالله، قال الله عز وجل:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

الهدى رفعهم، رفعهم إلى مرتبة عالية، رفعهم وسما بهم عن الظلم، رفعهم وسما بهم عن أن يأخذوا ما ليس لهم، رفعهم وسما بهم عن السفاسف والأشياء الوضيعة، رفعهم وسما بهم إلى مكانة علية، حيث الحرية، والكرامة، حيث السعادة:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

في الهدى رفعة وفي الضلال قيد وغمّ وهمّ :

أما الذين كفروا فــ:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الزمر: 22]

معنى (في): ضمن قيد، ضمن كآبة، ضمن سجن، ففي الهدى رفعة، وفي الضلال قيد، أو غم، أو هم، أو كآبة، أو انتحار، دور القمار ماذا تخرج؟ منتحرين أحياناً!! النازل في هذه الدار قد ينتهي به إلى الانتحار:

تشاد له المنازل شاهقات وفي تشييد ساحتها الدمار

نصيب النازلين بها سهاد وإفلاس فيأس فانتحار

* * *

أنت حينما تضل سواء السبيل فقد دخلت في قوقعة، دخلت في قهر، دخلت في العقاب، في كآبة، ولو نجوت من عقاب الدنيا دخلت في عقاب النفس، الكآبة عقاب، الشعور بالذنب عقاب، الشعور بالدناءة عقاب، قد تكون عند الناس عظيماً، لكنك أمام نفسك محتقر، هذا يسمى في علم النفس الانهيار الداخلي، لو عظمك الناس، لو أثنوا عليك، لو رفعوك، لو بجلوك، إن لم تكن أنت على حق تشعر أمام نفسك أنك دنيء، إذاً الهدى يرفعك:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

أما الكافرون فــ:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الزمر: 22]

(في)، دخل في قوقعة، دخل في حبس، دخل في قهر، دخل في قلق، دخل في حزن، دخل في ندم، دخل في كآبة، دخل في سجن، دخل في قبر بالنهاية، فشتان بين أن ترتفع بالهدى وأن تسقط بالضلال.

من الغباء أن تعتقد أن هذا الكون المعجز بلا حساب :

مثل بسيط، في مجتمع متواضع فيه قوانين، وأنظمة، وفيه شرطة، وفيه جيش، فيه محاكم، فيه قضاء، فيه قوانين، فيه واجبات، ومسؤولية، ومحاسبة، وتحقيق، فإنسان متفلت عاقبة أمره إلى السجن، العصابات تتفلت، تسرق، تنهب، يصوروهم أذلاء في الجريدة، ثم إلى السجن، وإن ارتكبوا جريمة إلى الإعدام. الآن كبِّر الأمر، كون معجز بلا حساب؟!

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

هكذا تأكل مال أخيك ظلماً، وتستهزئ به، وتنجو من عقاب الله؟! تعتدي على عرضه دون أن يدري، وتنجو من عقاب الله؟! تكذب عليه، وهو يصدقك، كفى بها خيانة أن تحدث أخيك حديثاً هو لك به صادق وأنت له كاذب، تظلم امرأتك وتنجو؟! تحتال على شريكك وتنجو؟! تحتال على من حولك وتنجو؟! تبيع السلعة للمضطر بأضعاف مضاعفة وتنجو من عقاب الله؟! تنجو من مصادرة، من ضبط، من تلف بضاعة، من سجن أحياناً، من السذاجة والغباء والحمق أن تظن أنك إن تصرفت كما تشاء لن تحاسب كما يجب، هذه المعاني من قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

قبل أن تعصي، قبل أن ترتكب الحرام، قبل أن تأخذ ما ليس لك، قبل أن تدلي بتصريح كاذب، أو أن تحتال على إنسان ضعيف، قبل أن تستغل ثقة الناس فيك، في مهن راقية جداً، لو فرضنا أنك تعمل في القضاء، والموكل واثق، تقول له: سوف أربح لك الدعوى، فإن كنت موقناً يقيناً قطعياً أن القوانين ليست معك، مع موكلك، بل هي مع خصمك، وأن هذه الدعوى خاسرة سلفاً، لكنك أردت أن تبتز ماله إلى حين، هل تنجو من عقاب الله؟! هذا في مستوى المحاماة، والطب، والهندسة، والتعليم، لو أوهمت أباً أن ابنه ضعيف، ويحتاج إلى دروس خاصة، وكسَّرت له في العلامات، كي يضطر إلى أن يأخذ درساً خصوصياً، هل تنجو من عقاب الله؟! قد يغش الإنسان في البيع والشراء، قد يقدم مواصفات عالية جداً لا يكشفها المشتري المحدود، هل تنجو من عقاب الله؟! قد تشتهي امرأة غيرك، وتملأ عينيك من محاسنها، وتظن أنك مستريح بهذا، وأنك تحدثها، هل تنجو من عقاب الله؟!

أدقُّ الخواطر يعلمها الله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

أي إذا خدعت المؤمنين وصليت معهم، خدعت المؤمنين وتحدثت بما يتحدثون، إذا خدعت المؤمنين فأظهرت الورع وأنت لست كذلك، فهل تنجو من عقاب الله؟! هل تنجو من فضيحة يفضحك الله بها؟!

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

اتق هذا الإله العظيم، الذي يعلم السر وأخفى، يعلم ما خفي عنك، لا تخفى عليه خافية، أضرب مثلا بسيطاً، جاءت صديقة زوجتك، والوقت شتاء، وغرفة الضيوف باردة، وغرفة الجلوس دافئة، وقلت لزوجتك: تعاليْ مع هذه الصديقة إلى هذه الغرفة، لأنها أكثر دفئاً من تلك الغرفة، وأنت لا تريد هذا المعنى، بل تريد شيئاً آخر، الذي خلقك ألا يعلم ذلك؟! تريد أن تنظر إليها، وأن تراها، وأن تحدثها مثلاً، فأدقُّ الخواطر يعلمها الله.

(خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

أنت كطبيب متاح لك أن ترى جسم المرأة، لكن لو أنها تشتكي من مكان ونظرت إلى مكان آخر لا تشتكي منه، لا يعلم هذا إلا الله، من الذي سيحاسبك؟ الله جل جلاله.

(خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي :

هذا الكون العظيم لا يعقل أن ينتهي هكذا، يوجد ظالم ومظلومين، ويوجد أقوياء ويوجد ضعفاء، وأناس قهروا وأناس مقهورون، هكذا تنتهي الحياة ببساطة؟! لذلك أحد كبار العلماء يرى أن الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي، وأن العقل لا يقبل أن يكون في الأرض قوي وضعيف، فشعوب في الأرض تقصف فتموت عن آخرها، والذين أمروا بقصف هذه الشعوب وقتلها وتدميرها، بمساكنها ومساجدها ومستشفياتها، وتقتيل أبنائها، وإذلالهم، كي يتغطرسوا، هل ينجون من عقاب الله؟ هذا يتناقض مع وجود الله.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

علينا أن نتقي الله في حركاتنا وسكناتنا لأنه رقيب علينا :

قبل أن تظلم، قبل أن تكذب، قبل أن تحتال، قبل أن تسيطر، قبل أن ترغم أنف الآخرين، قبل أن تذلهم، قبل أن تستعلي عليهم، قبل أن تقول كلاماً فوق طاقتك، اتق الله.

سيدنا عمر بن عبد العزيز رحمه الله عين رجلاً عالماً ليكون معه دائماً، اسمه عمر، قال له: يا عمر قم معي، إن رأيتني ضللت فأمسكني من تلابيبي، وهزني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر، فإنك ستموت.

قد تكون قوياً، قد يكون الطرف الآخر ضعيف، قد تأتيك امرأة لا تعرف ما تقول، فتستغل جهلها، وتبيعها سلعة بعشرة أضعاف ثمنها، قد يأتيك طفل صغير، ليشتري لحماً من عندك، قد تبيعه لحماً سيئاً جداً، الطفل لا يدري ولا يفقه، ولا يستطيع أن يقول كلمة، فهل تنجو من عقاب الله؟ أبداً.

أيها الأخوة، أردت من هذه الآية أن يعلم الأخوة الكرام أن الله كان عليكم رقيباً، كما في آخر الآية:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

إذا كنت تحت رقابة الله كيف الأمر؟ تحت رقابة خالق الأكوان، تحت رقابة مبدع الإنسان.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

ألا يعلم من خلق؟

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يعلم ما خفي عنك، الذي يعلمه عنك لا تعلمه أنت.

الله تعالى خلق البشر من طبيعة واحدة و خصائص واحدة ولدعوة واحدة :

قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

يوجد عدل، من طبيعة واحدة، من خصائص واحدة، لدعوة واحدة، المؤمنون مدعوون إلى الله، والكفار مدعوون إلى الله.

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)

[سورة الزخرف: 33]

لو أن الله سبحانه وتعالى خلق أناساً للجنة، وأناساً للنار لما عذب الكفار، بل إن الكفار مدعوون إلى الله عز وجل:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43-44]

علينا أن نطيع الله وحده لأنه الخبير بأسباب سعادتنا وأسباب شقائنا :

لماذا ينبغي أن نتقي الله؟ لأنه خالقنا، وأعلم بسعادتنا، قد تسأل إنسان: ماذا أفعل؟ يشير عليك ما هو صانعٌ لنفسه، فإن كان إنساناً غارقاً باللذات الحسية يقول لك: افعل ما أفعل، هو ليس خالقك حتى يعلم حقيقة سعادتك، يعطيك تجربته الشخصية، سألت غنياً: كيف أكون غنياً؟ قد يعطيك تجربته الشخصية، أما إذا سألت الله عز وجل أن يهديك إلى سواء السبيل، الله خالق الكون، هو الخبير، هو وحده يعلم ما يسعدك وما يشقيك، لذلك لماذا ينبغي أن نطيع الله؟ لأنه خالقنا، ولأنه الخبير بأسباب سعادتنا، ولأنه الخبير بأسباب شقائنا.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 19]

أي أنك من الممكن أن تقتني جهازاً غالياً جداً، معقداً جداً، له نفع كبير، ولك جار طيب سموح، لكنه غير متعلم، هل تدفع له هذا الجهاز المعقد لإصلاحه؟ مع أنك تحبه، الحب شيء، والخبرة شيء آخر، لا تدفع بهذا الجهاز إلا للوكيل، للخبير، والله تعالى هو الخبير.

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

أي أن البشر متساوون، أينما ذهب الإنسان فهو الإنسان، الفطرة هي الفطرة، الصبغة هي الصبغة، الخصائص هي الخصائص، القوانين التي تحكم النفس هي نفسها، أينما ذهبت، لو ذهبت إلى أطراف الدنيا، الإنسان يحب الإحسان، يحب العطاء، يحب النوال، يحب الكمال، يحب الجمال، يحب التفوق، يحب الراحة، يحب أن يكون أخلاقياً، لأن هذه فطرته، فلذلك الإنسان مخلوق من

طبيعة واحدة، يوجد تفاوت بالقدرات، لكن لا يوجد تفاوت بالخصائص، الخصائص واحدة، القدرات متباينة، يوجد إنسان ذاكرته أقوى، ويوجد إنسان طليق اللسان أكثر، يوجد إنسان عنده قوة إقناع، ويوجد إنسان عنده قوة أن يظهر بحجم أكبر من حجمه، القدرات متفاوتة، قال الله سبحانه:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

[سورة فاطر: 1]

التفاوت عند الناس بالقدرات لا بالخصائص :

يوجد إنسان لديه مقياس الذكاء يزيد عن مئة وأربعين، يقاس الذكاء كالتالي: الوسط مئة، العباقرة مئة وأربعون، الأغبياء ثمانون. فالقدرات متفاوتة لحكمة يريدها الله ولصالح الإنسان، أما الخصائص فواحدة، مثلاً أحسنْ لأيّ إنسان في أي مكان من العالم يحببْك، أسئْ له يبغضك، أي إنسان يرتاح إن كان متفوقاً، ويتضايق إن كان متخلفاً، فمعنى قوله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

نفوس المؤمنين واحدة، الكفر واحد، ملة الكفر واحدة، يوجد كفر مع وثنية، كفار الرومان ككفار اليونان، ككفار الشرقيين، الكفر ملته واحدة، كبر وقسوة، ظلم وعدوان، ودناءة وعبادة الشهوات، تتغير الأسماء فقط، تتغير الأساليب، أما الكفر فهو كفر، والإيمان إيمان، أينما ذهبت المؤمن مؤمن، فالإنسان له خصيصة واحدة، فأنا أرى بناءً على ما جاء في القرآن الكريم أن الناس على اختلاف اتجاهاتهم، ونزعاتهم، وانتماءاتهم، وأجناسهم، ومللهم، ومذاهبهم، ونحلهم، هم رجلان: رجل عرف الله، وانضبط بمنهجه، أحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة، ورجل غفل عن الله، وتفلت من منهجه، أساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

المرأة مساوية للرجل من حيث التشريف و التكليف :

هذه الزوجة مِن نِعَم الله أنها إنسان، أنت إنسان، وهي من جنسِك، أنت إنسان لك، فكر وهي إنسان لها فكر، أنت إنسان تحب الحقيقة وهي إنسان تحب الحقيقة، أنت إنسان تسعى إلى الراحة النفسية، وهي كذلك، والله تعالى قال:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى)

[سورة آل عمران: 36]

الخصائص الجسمية مختلفة، والعقلية مختلفة، من دون تفضيل لكن مختلفة، والجسمية مختلفة، والاجتماعية مختلفة، والنفسية مختلفة، ومع ذلك متساويان من حيث التكليف والتشريف والمسؤولية، شيء رائع، متساويان في الشرف، فالنبي الكريم حينما فتح مكة أين ينام؟ ما من بيت

إلا وتمنى أن يكون بيتاً لرسول الله، ماذا فعل فيما ترويه بعض السير قال: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة، وركز راية النصر عند قبرها، ليشعر الناس أن هذا الفتح المبين لها منه نصيب، هي سنده من الداخل، الإنسان إن ترك عملاً عظيماً في الحياة، هذه المرأة التي معه، والتي تخدمه، والتي تصبر عليه، والتي تهيئ له الجو المناسب، تأليف مثلاً للإنجاز، والتي ترضى أن يغيب عنها طويلاً ليقوم بأعمال جليلة، هذه سند من الداخل، النبي ما نسي أن السيدة خديجة مع أنها ماتت هذا الفتح المبين لها منه نصيب، فالمرأة مساوية للرجل من حيث التشريف، ومن حيث التكليف، كلفها بالصلاة والصيام والحج والزكاة، وكلفها بأركان الإسلام، بأن تنطق الشهادتين، وأن تصلي وتصوم، وأن تحج، وكلفها بأركان الإيمان، أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، وجعلها مسؤولة عن أولادها وزوجها:

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

إذاً:

(وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

مرة كنت في مؤتمر فقام أحد المؤتمرين، وألقى كلمة عن هذه الآية، والله أعجبتني الفكرة، لأنها طريفة، قال: ليشكر الإنسانُ اللهَ، لأنه يستيقظ ليجد زوجته بقربه، وأن زوجته إنسان، وليست بضبع مثلاً، هكذا قال: إنسان! لو كانت من جنس آخر فهذا شيء مخيف، إنسان تكلمها وتكلمك، تلاطفها وتلاطفك، تبتسم لها فتبتسم لك.

(وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

الزواج من آيات الله الدالة على عظمته :

هي إنسان، ولكن من طبيعة ثانية، أنت وإياها تتكاملان، هي تسكن إلى قوتك، وأنت تسكن إلى عاطفتها المتأججة، هي تسكن له لأنه يحميها، وهو يسكن لها، لأنها تلبي له حاجات هو بحاجة إليها.

(وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

الزواج من آيات الله الدالة على عظمته، لأن الله إذا قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الشورى: 29]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

نظام الأمومة والأبوة بحدّ ذاته دال على رحمة الله :

يوجد معنى دقيق أرجو أن يكون واضحاً لديكم، كيف يعرفنا الله عز وجل بذاته العلية؟ كيف يعرفنا برحمته؟ من قلب الأم تعرف رحمة الله، تجد امرأةً كل حياتها من أجل أولادها، يسعدها أن يأكلوا، وأن يشربوا، وأن يتفوقوا، وأن يناموا، كل سعادتها بسلامة أولادها، إذاً تمنحهم كل شيء دون أن تأخذ منهم شيئاً، فإذا كان قلب الأم هكذا فكيف الله عز وجل؟ والنبي استغل هذا المعنى حينما سأل أصحابه مرة، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيّاً فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةَ وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا))

[البخاري عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

يمكنك أن تعرف رحمة الله من رحمة الأم، يمكنك أن تعرف رحمة الله من رحمة الأب، فنظام الأمومة والأبوة بحد ذاته دال على رحمة الله، لذلك قال تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

[سورة البلد: 1-3]

الأب لا همَّ له إلا أولاده مستعد أن يقدم كل شيء من أجلهم ـ الأب الطبيعي طبعاً، لكن يوجد آباء نادرون، وحوش ـ مستعد أن يقدم كل شيء من أجل أولاده، هذه هي الأبوة، لذلك حينما قال عز وجل:

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)

كل إنسان عمره أكثر من ستين، إن أحصيت ذريته، وجدتها أكثر من الخمسين، عنده ست بنات متزوجات، وكل واحدة منهن عندها أربعة أو خمسة أولاد، مع الأصهار، وأولاده الذكور، وأولاد الذكور، تجدهم في العام الخمسين، وهو حي يرزق، ومن أجل أن يجمعهم كلهم يريد مكاناً كبيراً.

الحكمة من جعل نسبة الرجال أكبر من نسبة النساء :

قال تعالى:

(وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)

لكن يوجد في القرآن إشارات علمية، الشيء المحير أن نسب النساء إلى الرجال نسب دقيقة جداً، دائماً تجد بالمئة خمسة زيادة رجال، لأن الرجل معرض للحوادث والحروب أكثر من النساء، فلو فرضنا أن حرباً جرت بين بلدين، ومات مليون شهيد، لو أحصيت نسب الولادات شيء لا يصدق، أكثرها ذكور، إلى أن ترجع النسبة، مئة وخمسة إلى خمسة وتسعين، هكذا هو التصميم الإلهي، فالرجال أكثر، لأنهم معرضون للأخطار أكثر.

(وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

هذه الآية أيها الأخوة من أدق الآيات، لولا أن الله أودع في قلب الأب أو الأم محبة هذا الطفل فهل يستطيع الطفل أن يسأل أباه شيئاً؟ طفل في الطريق هل يجرؤ أن يسأل رجلاً: يا عم أعطني ألف ليرة؟! هذا مستحيل، أما من أبيه فيطلب وبإلحاح، وأحياناً يرفع صوته، لأنه موقن أن هناك رحمة، من أودع هذه الرحمة؟!

ثمة قصة رمزية، هكذا ترويها الكتب، لها دلالة كبيرة، سيدنا موسى يمشي في الطريق، رأى أمّاً تخبز على التنور، كلما وضعت رغيفاً قبَّلتْ ابنها، قال: يا رب ما هذه الرحمة؟ قال: يا موسى هذه رحمتي أودعتها في قلب أمه، وسأنزعها! فلما بكى ألقته في التنور!! هل هنالك من أم في الأرض إذا بكى ابنها ألقته في التنور؟ بل تقبِّله، وتضمه، وتخشى عليه من الهواء، لذلك اتق هذا الإله العظيم الذي يحبك، وعلامة حبه لك أنه أودع محبتك في قلب أمك وأبيك.

لك أن تسأل إنساناً لوجه الله لكن دون أن تشركه بالله عز وجل :

والله أيها الأخوة، ما محبة الأب والأم إلا من محبة الله، والذي يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه: 39]

أي لو كان لديك أب وأم، وتدللت عليهم، وطلبت منهم، وألححت، وغبت عن المنزل حتى يعطونك حصة، وطالبتهم بقسوة لثقتك أنهم يحبونك، فمن هذا الذي أودع حبك في قلوبهم؟

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ)

لولا أن أودع في قلب الأب والأم رحمة لما سألت أباك وأمك شيئاً، تلاحظ الابن يطلب من أبيه، وقد يطلب من أمه بإلحاح، لأنه واثق أنه سيجاب، لأن الله أودع في قلب الأم والأب محبة هذا الطفل، هذا معنى.

لكن هناك معنى آخر، لك أن تسأل الناس لوجه الله، تقول لشخص: أسألك لوجه الله أن تعطيني، ويوجد أحاديث متنوعة بعضها يؤكد أنه ملعون من سأل بغير الله، بالله، الجواب الدقيق هو أنك إن سألت إنساناً، وظننت أنه مستقل في إرادته عن الله، وأن علاقتك معك مباشرة فهذا شرك، أما إن سألت الله، واتبعت الوسيلة، بأن سألت من يحل هذه المشكلة، وأنت واثق من الله، تسأله أنت دون أن تشركه بالله عز وجل قال: هذا ينبغي، إذاً لك أن تسأل بالله عز وجل مع التوحيد، أما إذا سألت غير الله، ولو سألته بالله مع الشرك فأنت آثم، ولو قلت له: أسألك بالله أن تعطيني. وظنك أنه يعطيك، وأنه قوي، وتركن إلى قوته، وإلى غناه، هذا نوع من الشرك.

للأرحام قراءتان :

قال تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

الأرحام لها قراءتان:

(وَالْأَرْحَامَ)

1 ـ القراءة الأولى أي اتقوا الله أن تعصوه واتقوا الأرحام أن تقطعوها :

أي واتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، والشيء الدقيق أيها الأخوة أن الله جل جلاله جعل ما يسمى بالضمان الاجتماعي على أساس أسري، فأنت مكلف بزوجتك وأولادك، وأمك وأبيك، ويوجد عندنا نظام النفقة في الإسلام نظام دقيق جداً، أي لا بد من إنسان مكلف بالإنفاق على إنسان، إن وجد الأب أو الأم، الأب والأم، والزوج زوج، والابن ابن، والبنت بنت، أحياناً يكون العم، أحياناً يكون الخال، فالله جعل الضمان الاجتماعي أساسه الأسرة، لذلك: واتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، لذلك عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ))

[مسلم عَنِ الزُّهْرِيِّ]

وهناك في الأحاديث الشريفة ما يزيد عن ثلاثين حديثاً صحيحاً كلها تعد قاطع الرحم بالنار، بل إن الرحم مشتقة من اسم الله الرحمن.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ)

أن تعصوه، واتقوا:

(وَالْأَرْحَامَ)

أن تقطعوها، والذي يصل رحمه يزيد الله في عمره، بمعنى من معاني الزيادة، أي يجعل عمره غنياً بالأعمال الصالحة.

أيها الأخوة، صلة الرحم تعني أن تزور أرحامك، وبالتعريف الدقيق للأرحام: مطلق أقربائك، من دون تدقيق، أقرباء الأم والأب، مطلق أقربائك، أن تزورهم، وأن تتفقدهم، وأن تعينهم، وأن تأخذ بيدهم إلى الله، لأن الله عز وجل قال:

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

إذاً أنت مكلف أن تزورهم، وأن تتفقد أحوالهم، وأن تمد لهم يد العون، وأن تأخذ بيدهم إلى الله، فاتقوا الأرحام أن تقطعوها.

2 ـ القراءة الثانية لك أن تسأل بالله وبالأرحام :

وهناك قراءة ثانية:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ)

والأرحامِ: بالكسرة، لك أن تسأل بالله، ولك أن تسأل بحكم قرابتك من فلان، نحن أخوان من أم واحدة، أي لك أن تسأل بالله وبالأرحام، هذه قراءة، ولك أن تتقي الله أن تعصيه، والأرحام أن تقطعها.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

أحاديث شريفة تؤكد أن صلة الرحم واجبة في الإسلام وجوباً عينياً :

أيها الأخوة، روى الشيخان البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

قد تجد إنساناً فقيراً له أقرباء أغنياء، ولفقره يقطعونه، تجده متألماً أشد الألم، لو أن هؤلاء الأقرباء الأغنياء أو الأقوياء أطلوا عليه من حين إلى آخر لملؤوا قلبه سعادة، والله حدثني أخ قال لي: لي أرحام لا أعرفهم أبداً، فأخذت بسنة النبي أن أزورهم، وزرتهم في العيد، وعرفتهم على نفسي، هم لا يعرفونه إطلاقاً، فهؤلاء من أهل الغنى ردوا له الزيارة، وأقسم بالله العظيم أنه ما قصد من زيارتهم إلا تطبيق السنة، هؤلاء محسنون، رأوا بيتاً مظلماً تحت الأرض لا يصلح للسكنى، قال له: اذهب وابحث عن بيت، له مواصفات جيدة، بعد حين وجد بيتاً بمبلغ يقارب المليونين والنصف

مليون، وأعطوه الثمن، ونقلوه من هذا البيت الذي هو كالقبر تماماً إلى بيت، قال لي: والله ما قصدت إلا أن أطبق سنة النبي، أنت موكل بأقربائك بالدرجة الأولى، بمعونتهم وهدايتهم:

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

((الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: إِنَّ جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ))

[مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ عن جبير بْنِ مُطْعِمٍ]

أي قاطع رحم. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا))

[البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

لذلك فيما يروى عن رسول الله قوله صلى الله عليه وسلم مما ورد في الأثر:

((أمرني ربي بتسع خشية الله في السر والعلانية ، كلمة العدل في الغضب والرضا ، القصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأن أعطي من حرمني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

في حديث رابع عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((..وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ...))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

كل هذه الأحاديث تؤكد أن صلة الرحم واجبة في الإسلام وجوباً عينياً. لذلك:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

أن تقطعوها.

الإنسان تحت علم الله وسمعه وبصره في كل حركاته وسكناته :

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفتنا:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

لاحظ لو أنك أحسست أنك مراقب، ماذا تفعل؟ تحاسب نفسك على الكلمة، لو أنك مراقب عبر الهاتف لا تقول كلمة لها معنيان، تحتاط، لا تقول روشيش بل تقول: رشاش ماء، لأن الأولى تفهم بمعنى آخر، إذا كنت مراقباً تضبط كلامك وحركاتك وسكناتك، وتضبط سيرك، لا تمشي على رصيف في سفارة، إذا كنت مراقباً من إنسان فكيف من الواحد الديان؟

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

تحت علم الله وسمعه وبصره، اعملوا ما شئتم، هذه الآية منهج:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع الحديث عن آية ثانية.

***

س: هل تجبر الفتاة على تغطية الوجه؟

ج: طبعاً إن كانت الفتنة قائمة في الوجه، لأن أجمل ما في الفتاة وجهها.

س: هل تسقط صلة الأرحام عن المرأة المتزوجة إذا منعها زوجها؟

ج: إن كان الزوج مؤمناً، وفي هذا البيت تفلت وعري واختلاط، وإن بعث بزوجته إليهم فسيراها ابن خالتها، وابن عمتها، وسيضحكون معها ويمزحون، والبيت غير منضبط، والزوج منضبط، فإنْ منَعَها فلا مانع، بل الأولى أن يمنعها، ودع خيراً عليه الشر يربو، ودرء المفاسد مقدم على جلب المنافع.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(02-69): تفسير الآيتان 2-3، أموال اليتيم وتعدد الزوجات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-03-01

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف اليتيم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من دروس سورة النساء، ومع الآية الثانية من هذه السورة، وهي قوله تعالى:

(وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً)

أيها الأخوة الكرام، في الآية الأولى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

اتقوا أن تعصوه، اتقوا أن تخالفوا أمره، اتقوا أن تحيدوا عن صراطه، ومن تفصيلات هذا الانحراف وهذا التقصير موضوع اليتامى.

اليتيم أيها الأخوة من فَقَدَ أباه أو أمه أو فَقَدَ كليهما، والنبي عليه الصلاة والسلام يبين أنه لا يتم بعد الحلم، ولو أخذنا نص التعريف أن كل من فقد أباه أو أمه، أو فقد كليهما يتيم فكلُّنا أيتام، أو معظمنا أيتام، لكن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى أنه لا يُتْمَ بعد حلم، من كان بالغاً لا يسمى يتيماً، وشيء آخر، حينما يقول الله تعالى:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

[سورة الشعراء: 46]

لا يمكن لساحر أن يسجد، فإذا سجد لم يكن ساحراً، بل هو عابد لله، يعني ألقي من كانوا من قبل سحرة، فإذا تحدث الله عن الأيتام فهم مَن كانوا أيتاماً سابقين.

رعاية اليتيم واجب على كل مسلم :

أيها الأخوة الكرام، في قوله تعالى:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

[سورة الضحى: 9]

اليتيم فَقَدَ أباه، والأب أكبر دعم للإنسان.

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وإخوانكم وَأَزْوَاجُكُمْ)

[سورة التوبة: 24]

بدأ بالأب لأنه موطن اعتزاز، وموطن قوة، والأب يرعى ابنه، أودع الله في قلب الأب رحمة تكفي كي يرعى أولاده، لذلك ربما لا تجد في القرآن وصية للآباء بأبنائهم، لأن رعاية الابن طبع في الإنسان، أو جزء من طبعه، فكأن الله سبحانه وتعالى من أجل أن تستمر الحياة، ومن أجل أن يعتني بالصغار، أودع في قلب الآباء والأمهات ابتداءً محبة أولادهم، فالأب المؤمن وغير المؤمن، والأم الفاسقة وغير الفاسقة، أيّة أم وأيّ أب في الأصل، وهذا في الأعم الأغلب عنده رغبة قوية أن يرعى أولاده، أما إذا فقد الابن أباه بموت أو شيء من هذا القبيل فقدْ فَقَدَ الدعم، فَقَدَ الإمداد، فَقَدَ الرعاية، فَقَدَ التوجيه، فَقَدَ العطف، فَقَدَ الحنان، فَقَدَ الإنفاق، لذلك أنت مكلف أن ترعى اليتيم، وأن تقدم له جزءاً مما فقَدَ من حنان الأب، وهذا واجب اجتماعي، وواجب على كل مسلم، وبيت فيه يتيم مكرم هذا بيت يحبه الله عز وجل، لذلك ينبغي أن ترعى اليتيم، فإن لم ترْعَ اليتيم فأنت آثم، فإن آذيت اليتيم فأنت مجرم.

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ*وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

[سورة الضحى: 9 - 10]

حضنا الإسلام والنبي الكريم على رعاية اليتيم واستثمار ماله بالمعروف :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1 - 2]

أي يضربه ويؤذيه، وكأن الله سبحانه وتعالى أظهر أن من أشنع الأعمال عند الله أن تدفع يتيماً، أو أن تؤذيه، بل إنك إن لم تقدم له شيئاً فأنت آثم، فكيف إذا آذيته، فكيف إذا بالغت في إيذائه، لكن هذا اليتيم بعد أن يبلغ سن الرشد لا يبقى يتيماً، بل من حقه أن يأخذ ماله، والأموال كما تعلمون قد يرثها اليتيم عن أبيه، لكن لأنه صغير لا يستطيع أن يدير هذا المال فقد نظم الشرع نظاماً رائعاً، أن لكل يتيم وصيّاً يتولى أمره، وفي الأعم الأغلب ينبغي أن يكون هذا الوصي من أقربائه، ممن عرفوا بالصلاح والاستقامة والعدل والرحمة والورع، فما من وصي إلا وهو من الأقرباء إجمالاً، ويبالغون في هذا فيضعون ناظراً للوصي، وصي ومن يراقب هذا الوصي، لحرمة مال اليتيم، لكن هذا اليتيم لا يعطى ماله، لأنه لا يستطيع أن يديره، وكذلك السفيه الكبير، السفيه الكبير أيضاً يحجر على أمواله، فالذي لا يستطيع إدارة أمواله، أو الذي ينفق ماله إنفاقاً عشوائياً فيه إتلاف للمال، فإذا كان كبيراً فهو سفيه، والسفيه محظور عليه أن يدير ماله، يلقى ما يسمى بالحجر على تصرفاته، فلا يستطيع أن يبيع، ولا أن يشتري، والصغير كذلك لضعف إدراكه لا يستطيع، أما إذا كبر هذا اليتيم

فينبغي أن يدفع إليه ماله، أما إذا كان صغيراً يدفع إليه مال كي يأكل منه، وكي يكتسي منه، فمن كان دون سن الرشد ينبغي أن يُدفع إليه مال من ريع ماله.

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

[سورة النساء: 5]

ينبغي أن تنفق عليه من ربح ماله لا من أصل ماله، كي تنمي ماله، والنبي عليه الصلاة والسلام بيَّن أننا إذا لم نستثمر مال اليتيم تأكله الزكاة، فلا بد من دفع زكاة مال اليتيم، فإن لم يكن في الاستثمار أكلته الزكاة، إذاً كأن النبي عليه الصلاة والسلام حضنا على أن نستثمر مال اليتيم، بالمعروف طبعاً، إذاً اليتيم ما دام صغيراً، وله وصي معروف بالصلاح والورع والتدين والحرص والأمانة والنزاهة هذا الوصي ينبغي أن ينفق على اليتيم من ريع ماله، هذا هو الصواب، فإن لم يكن، وأنفق من ماله المال صار في طريق النفاذ، وهذه مشكلة، وأكبر خسارة أن يخسر الإنسان رأس ماله، هنا أمر إلهي يقول الله عز وجل:

(وَآتُوا الْيَتَامَى)

بعضهم قال: إذا كان اليتيم دون سن البلوغ معنى الإيتاء هنا أن تنفقوا عليهم نفقة تصلح معاشهم، يأكلوا ويشربوا ويلبسوا، أما إذا بلغوا سن الرشد ينبغي أن تمتحنوا هؤلاء اليتامى، أن تمتحنوا خبراتهم في الحياة، أن تمتحنوا دقتهم في التعامل، أن تمتحنوا عقلهم الراجح.

من بنود التقوى حسن التعامل مع مال اليتيم :

قال تعالى:

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)

[سورة النساء: 6]

وقال بعض الفقهاء: إذا بلغ اليتيم خمساً وعشرين سنة ينبغي أن يأخذ ماله كله من دون قيد أو شرط، ما لم يكن سفيهاً أو مجنوناً، إذاً كأن هذه الآية بعد الإيجاز الأول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ) تفيد أن من بنود التقوى حسن التعامل مع مال اليتيم، ولحكمة أرادها الله عز وجل هناك من يموت في سن مبكرة، هناك من يموت في الحرب أحياناً، هناك من يموت موتاً طبيعياً، وله أولاد صغار، هؤلاء الصغار من يرعاهم؟ من ينفق عليهم؟ من يدير شؤونهم؟ لا بد من أن يعين القاضي وصياً عليهم بمثابة أبيهم تقريباً، ولهذا الوصي أيضاً من ينظر في أمره ويمتحن فعله فهنا الآية:

(وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ)

إن كان دون سن الرشد ينبغي أن تنفق عليه، وإن بلغ سن الرشد ينبغي أن تمتحنوا هؤلاء اليتامى، امتحان رشدٍ، وامتحان عقل، وامتحان دقة،

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)

إلا إذا كانوا سفهاء، لكن ما دام الله عز وجل قد وجهنا أن ننفق عليهم من ريع أموالهم، إذاً الأولى أن نستثمر أموالهم، العلماء لهم وقفة لطيفة متأنية، أنه في الأعم الأغلب إذا كان الذي يستثمر أموال اليتامى غنياً ينبغي أن يستعفف عن أن يأخذ شيئاً مقابل هذا الاستثمار، أما إذا كان فقيراً محتاجاً فله أن يأكل بالمعروف، والأكل بالمعروف حدده العلماء بالقاعدة التالية؛ أن يأخذ أجر المثل أو حاجته أيهما أقل، لو أن يتيماً وضع مع إنسان مليون ليرة، وكان ريع هذا المبلغ مئة ألف في العام، وكان هذا الذي يدير أمواله يكفيه خمسون ألفاً فرضاً، الأرقام لا تعني شيئاً، لو أن هذا الذي يدير أمواله يكفيه خمسون ألفاً ينبغي أن يكتفي بالخمسين، إن كان الربح أربعين ألفاً، وهو محتاج إلى خمسين ينبغي أن يكتفي بالأربعين، يأخذ حاجته، أو يأخذ أجر المثل أيهما أقل، هذه قاعدة رائعة في أخذ الأجر على استثمار أموال اليتامى، وكل هذه المعاني لفظها الفقهاء في قوله تعالى:

(وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ)

على الإنسان أن يتعامل مع مال اليتيم وكأنه مالك من أجل حفظه وصيانته :

تروي كتب التفسير أنه في الجاهلية كان هناك عادات سيئة، منها أن وصي اليتيم يأخذ بقرته الجيدة، ويعطيه بقرةً هزيلةً مكانها، يأخذ شاةً حلوباً، ويعطيه شاةً عجفاء مكانها، يعني يأخذ من مال اليتيم جيده، ويدفع إليه من ماله سيئه، لأن المشكلة أن الوصي هو وصي، وأمره نافذ، وهو موكل عن اليتيم فقد يبيع له بضاعته بأبخس الأثمان، إذا كان وصي اليتيم تاجراً فاشترى له من بضاعته، من نوع بضاعته لهذا اليتيم، هو وصي، هو وكيل، لو أنه اشتراها بثمن بخس، يعني اشترى من نفسه، هو يمثل التاجر ويمثل الوكيل في آن واحد، فربنا عز وجل يقول: (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) أن تأخذوا أطيب أموال اليتيم، وأن تدفعوا بدلاً منه أسوأ أموالكم، هذا أيضاً ممنوع، هذا يذكرني بقوله تعالى:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء: 19]

قال بعض العلماء: ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، لو طبقنا هذه القاعدة ليست الوصاية على مال اليتم تعني عن تمتنع عن إيقاع الأذى بماله، بل أن تتحمل بعض المتاعب من أجل صيانة ماله، ومن أجل تثمير ماله، ولا تنسوا أيها الأخوة الآية الكريمة الرائعة:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة: 188]

الآية فيها ملمح رائع، لا تأكل مالك، مالي هو، لمَ لا آكله؟ هو في الحقيقة مال أخيك، وإنما وصف بأنه مالك من أجل أن تتعامل معه وكأنه مالك من حيث حفظه وصيانته، يجب أن تتعامل مع مال

اليتيم، وكأنه مالك من أجل حفظه وصيانته، أو من زاوية حفظه وصيانته، أوضح مثل قد تعير إنساناً سيارتك، تقول له: اجعلها كأنها سيارتك، من أي ناحية؟ بالتملك؟ لا، من حيث العناية بها، والحفاظ على جاهزيتها، إذاً:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

يعني هذا المال الذي هو مال اليتيم هو في الحقيقة مالك، من زاوية أنه يجب أن تحافظ عليه وكأنه مالك، فلأن تمتنع عن أكله بالحرام من باب أولى.

إن لم تحرص على مال أخيك نقص هذا المال وصار أخوك عبئاً عليك :

شيء آخر: أنك إذا حفظت مال أخيك نما هذا المال، وكان أخوك مكتفياً، فإن لم تحرص على مال أخيك نقص هذا المال، وصار أخوك عبئاً عليك، المؤمن العاقل يرى في قوة المؤمنين قوة له، ويرى في ضعفهم ضعفاً له، فإذا قواهم قوي معهم، وإذا أضعفهم ضعف معهم، إذاً

(وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ)

لأنك أنت الوصي، وأنت المشتري، وأنت البائع، وأنت المجيب، وأنت القابض، فلذلك هناك خطورة أن تأخذ من أمواله ما ليس لك

(وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ)

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ)

تأكلوا هنا بمعنى تضموا، لا تضموا أموالهم إلى أموالكم، أي أنتم هنا أغنياء، وكأن الله سبحانه وتعالى نهانا عن أشنع صورة من صور الاحتيال، أن تأكل مال يتيم وأنت غني، هذه صورة لا توصف، أن تأكل مال اليتيم الضعيف الفقير وأنت غني.

(تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً)

إنه كان إثماً كبيراً، الحوب هو الإثم، أي تأثموا إثماً كبيرا، ليس معنى ذلك أن تأكل ماله إذا كنت فقيراً، لأنّ الله جل جلاله قد يأتي بالحالة الدنيا لينهى عما فوقها.

محرم أن تجعل من مال اليتيم مجساً للسوق أو ذريعة تحفظ بها مالك :

قال تعالى:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

[سورة الإسراء: 23]

هذه حال الدنيا، كلمة أف يحرم أن تقولها لأمك وأبيك، طبعاً أن تقسو عليهما بالكلام من باب أولى، أن تدفعهما بيدك من باب أولى، هنا معكوسة، هنا جاء الشارع الحكيم بأشنع صورة أن تأكل ماله،

وأنت غني، طبعاً هذه شناعة ما بعدها شناعة، (تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ)، أي لا تضموا أموالهم إلى أموالكم، المشكلة أن الطفل الصغير ليس في قدرته أن يحاسبك، يعني مثلاً ماذا يفعل بعضهم؟ معه أموال يتيم، هو تاجر، البضاعة غير المعروفة ربحها غير معروف، يا ترى تباع أو لا تباع؟ هذه في علم الله، يستثمر بها مال اليتيم، فإن خسر ماذا يقول؟ سبحان الله! هذا قدر الله وترتيبه، وإن ربح جس بها السوق، أدخل ماله الذي يملكه هو في هذه الصفقات، فجعل مال اليتيم ذريعة جس بها السوق، فإن ربحت هذه الصفقة أدخل ماله الأساسي، وإن لم تربح، يعني عرف على حساب غيره، عرف نوع هذه البضاعة، ومدى صلاحيتها، ورواجها على حساب اليتيم، هذا المعنى أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام فقال: ولا تجعل ماله دون مالك، تجس به السوق، فإن ربحت هذه الصفقة أدخلت مالك الأساسي، وإن لم تربح اعتذرت بالقضاء والقدر، لكن ما الذي ينبغي أن تفعله في مثل هذه الحالة؟ ينبغي أن تستثمر مال اليتيم في صفقة ربحها شبه مضمون، كل تاجر عنده بضاعة تباع بشكل مستمر وأرباحها ثابتة، وليس فيها إشكال إطلاقاً، ينبغي أن تستثمر مال اليتيم في مثل هذه الصفقات، الصفقات التي تباع بوقت قصير، وأرباحها مجزية، من يعرفها؟ الذي يستثمر يعرفها، لذلك محرم أن تجعل من مال هذا اليتيم مجساً للسوق، أو ذريعةً تحفظ بها مالك، ولا تجعل ماله دون مالك،

(وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً)

إنه كان إثماً كبيراً، هذه القضايا المالية.

وهناك تفاصيل في كتب الفقه، كيف يمتحن اليتيم؟ وكيف يدفع له ماله؟ وكيف على وصي اليتيم أن يُشهد على ماله الذي أخذه شهوداً عدولاً؟ وكيف ينفق على اليتيم قبل أن يبلغ سن الرشد؟ كيف ينفق؟ مستوى الإنفاق؟ حجم الإنفاق؟ كيف يعامل هذا اليتيم؟ كيف يؤدب هذا اليتيم؟ أيضربه؟

((قال رجل: يا رسول الله إن في حجري يتيما أفأضربه؟ قال: نعم، مما كنت تضرب منه ولدك))

[رواه أبو يعلى من حديث الحجاج بن أرطاة عن عبد الملك بن رزين عن بلال]

إذا ارتكب ولدك إثماً يقتضي أن يؤدب فينبغي أن تؤدب هذا اليتيم، الآن في قضية اجتماعية دقيقة جداً مرتبطة بهذا الموضوع، أنت قريب وتحت وصايتك يتيمة، أعجبك جمالها، ولك أن تتزوجها، أو أعجبك وفرة مالها، ولك أن تتزوجها، من هو الذي يبت في قضية زواجها؟ أنت، أنت وكيل عنها، أنت وصي عليها، وأنت الطرف الثاني في آن واحد، فما الذي يحصل؟ عندك يتيمة أعجبك حسنها، أو عندك يتيمة أعجبتك أموالها، فأنت الذي أجبت، وأنت الذي قبلت، وأنت زوجت نفسك من هذه اليتيمة، من الذي يعرف ما إذا ظلمتها أو لم تظلمها؟ الله جل جلاله، أعطيتها حقها أعطيتها مهر المثل، إن كنت طامعاً في مالها، عاملتها كزوجة، أم أنك طمعت بمالها وأهملتها كزوجة.

بعض المذاهب منع أن يبيع الإنسان نفسه :

قال الله عز وجل :

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى)

أي إن كانت عندك يتيمة، وأنت وصي عليها، وأردت أن تتزوجها هناك مزلق خطير أن تظلمها، إما بعدم إعطائها المهر الذي يناسبها، والذي يكافئ مستواها، أو بعدم التفاتك إليها كزوجة إذا كنت طامعاً في مالها، هذه ماذا تتمنى؟ تتمنى زوجاً يحبها، ويحترمها، ويكرمها، وإن توافر هذا في الوصي تتمنى أيضاً مهراً يتناسب مع قدرها، فحينما يبيع الإنسان نفسه هنا في مشكلة كبيرة جداً، أضرب لكم مثلاً يوضح هذه الفكرة، لو أن لك قريبة وضعت معك مالاً للاستثمار، وأنت عندك معمل نسيج، خبرتك جيدة في الخيوط، فهذه القريبة أعطتك مبلغ من المال بقصد أن تستثمره، وأن يكون الربح بينكما، اشتريت به خيطاً، في وقت ما أنت بحاجة إلى هذا الخيط كصاحب معمل نسيج، أنت الآن شخصية مزدوجة، أنت وكيل هذه القريبة التي وضعت معك مالاً للاستثمار وأنت طرف آخر في شراء هذه الصفقة كصاحب معمل، ما الذي يمنع أن تشتري هذه البضاعة بثلثي قيمتها، التي أعطتك المال لا تعلم بالأسعار، وضعته عندك ووثقت بأمانتك، فأنت حينما تبيع نفسك أو تشتري من نفسك هناك مزلق خطير، لذلك بعض المذاهب منع أن يبيع الإنسان نفسه، ممنوع، لا ينعقد هذا البيع ما دمت أنت المشتري، وأنت البائع، فهناك مزلق خطير جداً؛ أن تشتريها بأبخس الأثمان، أو إن بعتها لهذه المستثمرة أن تبيعها بأغلى الأثمان، تشتري بأبخس وتبيع بأغلى، لذلك بعض المذاهب منع أن يبيع الإنسان نفسه، لكن بعض المذاهب الأخرى قالوا: لو أنك أردت أن تبيع هذا الخيط الذي هو لقريبة لك تستثمر عندك مالها، لو سألت أسعار الخيط بالسوق الكيلو بمئة ليرة، وكتبت أن سألنا فلاناً، سألنا فلاناً، سألنا فلاناً، الكيلو بمئة ليرة، وأنت اشتريت منها بمئة وخمس ليرات، في معك استقصاء، معك معلومات مسجلة، وأنت ورعاً ودفعاً للشبهة اشتريت بأغلى مما ينبغي، ما في مشكلة، طبعاً سقت هذا المثل لأنه دقيق جداً، وهذا اليتيم الذي بيدك ماله هذه حالة مشابهة تماماً، أنت البائع وأنت المشتري، أن المجيب وأنت القابض، إذاً:

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى)

إن رأيت أن هذه اليتيمة إذا تزوجتها هضمت حقها، أو إن رأيت أن هذه اليتيمة إن تزوجتها ربما لن تعاملها كزوجة، لأنه لا يعجبك حسنها، لكنك طمعت بمالها، فأنت إذاً تظلمها، ماذا ينبغي أن تفعل؟ ورعاً أن تتزوج غيرها ممن لها ولي، ممن يحاسبك إذا قصرت، ممن يطلب منك إذا أقررت.

الله عز وجل سمح بالتعدد ولم يطالب ببيان السبب بل طالب بالعدل :

قال تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)

والحقيقة بموضوع التعدد، موضوع خاض فيه أناس، فالذين عددوا يتوهمون أن التعدد هو الأصل، والذين لم يعددوا يظنون أن تبقى على واحدة هو الأصل، والحقيقة الدقيقة أن التعدد ليس إلزامياً، لكن الله سمح به، كلام دقيق واضح جداً، وسُمح به لأسباب أساسية في الحياة، لكن الشيء الذي يدهش أن الله سمح به، ولم يطالبك ببيان السبب، بل طالبك بالعدل، فلو أن الله سمح لك بالتعدد، وطالبك ببيان السبب لاضطررت أن تفضح نفسك، ومن أشد العلاقات خصوصيةً ما كان بين الزوجين، فقد تقول: إنها لا تحصنني، اتهمتها، وقد تقول: إنها مريضة، وربما لا تكون كذلك، فحينما سمح الله لنا بالتعدد أعفانا من ذكر السبب، ولكن طالبنا بالعدل التام.

ذكرت لكم سابقاً أن برنامجاً حول التعدد، بني هذا البرنامج على أسئلة لكبار المعنيين بهذه الأمر في الشرق، فجاء سؤال إلى أستاذة في الجامعة تسأل عبر الهاتف عن رأيها بالتعدد، بالفعل كانت إجابتها رائعة، قالت: كيف أدلي برأي في التعدد، وقد سمح الله به؟ خالق السماوات والأرض سمح بالتعدد، ذلك أنه في دين الإسلام ليس هناك زوجة وخليلة، ليس هناك زوجة وعشيقة، ليس في الإسلام إلا زوجة، إنها علاقة واضحة وضوح الشمس، تكون تحت ضوء النهار دون خوف ولا وجل، ولا تستّر ولا سرية ولا كتمان، الزواج من السنة أن يشهر، وهذا الذي يفعله الأزواج يوم عرسهم يشهرون هذا الزواج بأساليب عديدة، فنحن ليس في الإسلام شيء نستحي أن نفعله علناً، فإذا كان هناك أسباب تقتضي أن يكون لهذا الزوج زوجة ثانية، لو أن الأولى لا تنجب أنلقيها في الطريق؟ لا، نبقيها، ونعاملها أكرم معاملة، ونبحث عن زوجة تنجب، لو أن هذه الزوجة مريضة نلقيها في الطريق لأنها مريضة؟ لا، نبقيها أكرم زوجة، ونبحث عن زوجة صحيحة، هناك أسباب كثيرة.

العدل التام بين الزوجات لا العدل المطلق :

في أيام الحروب قد يفقد بلد مليون شهيد، فصار في نقص بالرجال، فهل يعقل أن تبقى امرأة لرجل فقط، ما الذي يمنع من التعدد في أزمات الحروب؟ فثمة أمراض، وعقم، وعدم إحصان، في أسباب كثيرة، لكن عظمة الشرع أعفتك من بيان السبب، وأوجبت عليك العدل التام، والعدل التام أن تعدل بين الزوجتين، أو بين الثلاثة، أو بين الأربعة في الإنفاق، وأن تعدل في المنزل، في البيت، وأن تعدل في الوقت، وقت واحد، ليلة بليلة، ليلتان بليلتين، وبيت في مستوى واحد، وبيتان في مستوى واحد، ونوع الإنفاق واحد، أما حينما يشترط الزوج ألاّ ينام معها إطلاقاً، يأتيها من حين لآخر

ظهراً، هذا مجانب للعدل، امرأة تتمتع بزوجها معها طوال الليل ومع أولادها، وامرأة لا يستطيع إلا أن يكون عندها ساعة في النهار، هذا ليس من العدل، لذلك طالبنا الشرع بالعدل التام، ولم يطالبنا بالعدل المطلق، المطلق في الميل، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك))

[رواه الإمام احمد وأبو داود والدارمي عن عائشة]

قلبك ليس بملكك، قد تميل لمن لها كلام طيب، من لها شكل مقبول، أو شكل جيد، من لها رقة، وقد تنفر ممن لها قسوة في حديثها، وقد يعلو صوتها على صوتك، فأنت لم تطالب بالعدل في الميل، لكنك طولبت بالعدل في الإنفاق والمسكن والوقت لذلك:

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى)

يعني تزوجت هذه اليتيمة فظلمتها من حيث المهر، أو ظلمتها من حيث الإنفاق، أو ظلمتها من حيث الحب، فإن خفت أن تحملك وصايتك لهذه اليتيمة على أن تظلمها فَدَعْها، وخذ من تأخذ حقها منك بالتمام والكمال.

قد يقول قائل: لو أن إنساناً توفي أخوه، فهؤلاء البنات هن بناته حكماً، بحكم وصايته عليهن، وخشي من التردد على بيت أخيه بعد موته، فيسيء الناس الظن به، ما الذي يمنع أن يتزوج أمهم؟ لا مانع، بالعكس هذا أولى، يعني حسماً للقيل والقال، هو مكلف أن يرعى هؤلاء البنات وأمهم أجنبية بالنسبة إليه، فإن تزوجها حل مشكلة كبيرة،

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)

هذا من يقول: إن مثنى اثنتان، وثُلاثاً ثلاث نسوة، مما يساوي خمساً، وإنّ رباعاً أربعُ نسوة فصاروا تسعاً، هذا كلام لا أصل له إطلاقاً، لك أن تتزوج امرأتين، أو ثلاث نساء، أو أربعاً.

من لم يأنس من نفسه العدل في معاملة زوجتيه فعليه أن يكتفي بواحدة :

تروي بعض الكتب أن امرأة جاءت سيدنا عمر تشكو زوجها بلطف بالغ، قالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي صوام بالنهار قوام بالليل، يبدو أن سيدنا عمر كان مشغولاً، فقال لها: بارك الله لكِ بزوجك، فعنده أحد الصحابة، قال: يا أمير المؤمنين، إنها لا تمدحه، إنما تشكوه، ولكن بأدب، فَحَكَم بينها وبينه، وألزمه أن يتفرغ يوماً لها كل أربعة أيام، لو أنه تزوج أربعاً فلها حق في يوم، فحكم لها أن يكون معها لا صواماً ولا قواماً في هذه الليلة، وحينما رأت السيدة عائشة امرأة عثمان بن مظعون في صورة مزرية تهمل نفسها، سألتها، قالت: ما لي وله، هو صوام قوام، فاستدعاه النبي، وقال له: يا عثمان أليس لك بي أسوة؟ إنني أصوم وأفطر، أنام وأقوم، فتوجه عثمان بن مظعون إلى زوجته، وأعطاها نصيباً من اهتمامه، فجاءت في اليوم التالي عطرةً نضرة، فسألتها أخواتها، قالت: أصابنا ما أصاب الناس.

أيها الأخوة، من يظن نفسه لا يعدل بين زوجتين ينبغي أن يبقى على واحدة، لأن هذا ظلم شديد، ويأتي يوم القيامة ليحاسب عن عمله حساباً عسيراً، وأنا والله أصدقكم أن عدداً كبيراً لا يطبق هذه التعليمات، واحدة مهضومة الحق، والثانية تأخذ كل شيء، وأكثر الذين عددوا ولم يعدلوا ندموا أشد الندم، ودائماً يشعر أنه ظالم، فإن استجاب إلى ضغوط الأولى أو الثانية وقع في ظلم الأخرى، فمن لم يأنس من نفسه العدل في معاملة زوجتيه فعليه أن يكتفي بواحدة.

(فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا)

أي ألا تنحرفوا وتظلموا وتأتوا يوم القيامة في شكل محاسَبين عند الله أشد الحساب.

في درس آخر إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات وهي قوله تعالى:

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(03-69): تفسير الآيتان 4-5، الزواج والأسرة لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-03-08

بسم الله الرحمن الرحيم

عقد الزواج هو أقدس عقد على الإطلاق :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة، وهي قوله تعالى:

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

أيها الأخوة الكرام، إن أقدس عقد على وجه الأرض عقد الزواج، لأن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الذكر والأنثى جعل العلاقة بينهما من خلال الزواج فقط، وليس ثمة علاقة أخرى، علاقة الذكر بالأنثى علاقة زواج، لا علاقة صداقة، ولا علاقة مخادعة، ولا علاقة عشق، ولا علاقة تسلية، هناك عشرات العلاقات الآن في جاهلية القرن العشرين علاقات بين الذكر والأنثى لا على أساس الزواج، على أساس التسلية أحياناً، أو على أساس الحب، على أساسٍ ما أنزل الله بها من سلطان، لأن القناة الوحيدة النظيفة في العلاقة بين الجنسين هي الزواج، إذاً عقد الزواج هو أقدس عقد على الإطلاق.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

[سورة النساء: 21]

ما يتاح للزوج ليرى من زوجته لا يتاح لأقرب الناس إليها، أبيها، وأخيها، ولا ابنها، ولا أي إنسان آخر يتاح له من امرأة ما يتاح للزوج من زوجته، بل إن بعض العلماء، وهذا رأي الجمهور أن الزواج إن لم يكن على التأبيد فهو زنى، لأن الزواج المؤقت فيه غش للمرأة، يمكن أن تطلق لأسباب يقبلها الله منك، لكن حينما تعقد العقد، وفي نيتك أن يكون الطلاق بعد حين هذا خداع، وهذا غش للمرأة، لكن حالة العالم اليوم لا تصدق، أحد الإحصاءات في أمريكا أن تسعين بالمئة من حالات الزواج من غير عقد، ولا اتفاق، ولا ورق، ولا تسجيل، إنما هي مساكنة تستغل كزوجة، وتلفظ في أية لحظة، وتركل بالقدم

في أي ثانية، فوضى، لذلك الانهيار في المجتمعات الغربية ليس له حدود، لكننا ولله الحمد مع بقية الدين التي أنعم الله بها علينا، مع بقية الوفاء، بقية الحياء، ينعم العالم الإسلامي بأسر متماسكة في الأعم الأغلب، وكلما قلد الغرب انحلت هذه الأواصر.

يقاس تماسك المجتمع وقوته بتماسك أسره :

حدثني أخ قاضٍ شرعي أن نسب الطلاق في بلاد المسلمين تقل عن خمسة عشرة بالألف، بينما في بعض البلاد تزيد عن خمسة وستين في المئة، نسب الخيانة الزوجية في بعض البلاد تزيد عن سبعين في المئة من حالات الزواج، فالمجتمع يقاس تماسكه وقوته بتماسك أسره، يعني شاءت حكمة الله أن يكون هذا المجتمع، هذا الصرح الكبير مؤلف من خلايا، الأسرة هي الخلية لذلك أي نظام يرعى الأسرة، ويقويها، ويدعمها ويزيل العقبات أمام إنشائها هو نظام يسهم في تقوية المجتمع، وأي نظام يسهم في تحلل الأسرة، وفي تفككها، وفي انحرافها هو نظام يهدم المجتمع، وكأنني سمعت أن أقوى رئيس في العالم قال: هناك خمسة أخطار تهدد أمريكا، قبل سنوات؛ أنا تصورتُ الصين أكبر تجمع بشري في الأرض، تصورت الاتحاد الأوربي، إنه تفكك الأسرة، إن أكبر خطر يهدد أمريكا تفكك الأسرة، لذلك لا زلنا بخير، لا زالت أسرنا بخير هذه بقية الدين، بقية، لأن هذه الأسرة هي الخلية الأولى في المجتمع، تماماً كالحجر في حائط كبير، فكلما تضعضعت أحجار الأساس انهار البناء، لذلك أيها الأخوة، وأنا أقول لكم بكل وضوح: إن العالم الغربي يسعى لا إلى أن ينتصر علينا عسكرياً، هذه قد تتم له أحياناً، ولكن يسعى إلى أن ينتصر علينا ثقافياً، بمعنى أن يهدم قواعد الأسرة المبنية على الشرع، لعلي ذكرت هذا من قبل، لكن لا بأس أن أعيده عليكم.

سفير أقوى بلد في العالم من تقاليد تعيينه كسفير أن يقام حفل في وزارة الخارجية، يحضره وزير الخارجية، ويعطيه أوراق اعتماده التي سوف يقدمها إلى رئيس البلد الذي يذهب إليه، هذا السفير معين في بوخارست في رومانيا، ومن تقاليد هذا البلد أن كل احتفال لا بد أن تكون الزوجة مع زوجها إلى جانبه، لتشهد أيامه العظيمة، هذا السفير وفي وزارة الخارجية، وفي وجود وزير الخارجية يأتي إلى الحفل مع شريكه الجنسي، ليس مع امرأته، لكن مع شريك جنسي، فحينما يصل

المجتمع إلى هذا المستوى فاقرأ على الحضارة السلام، هي قوية جداً، لكنها في ميزان القيم في الوحل والحضيض، وحينما قال الله عز وجل:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة: 256]

أي أنه لن تؤمن بالله قبل أن تكفر بالكفر، وما دامت جهة قوية طاغية في موضع احترام من قبل المسلمين فالطريق إلى الله ليست سالكة.

أي انحراف عن وحي السماء له آثار خطيرة لا يعلمها إلا الله :

لذلك أيها الأخوة، قواعد الزواج التي جاء بها الشرع مهمة جداً، وكما قلت قبل قليل العالم الغربي بدأ يحارب المسلمين لا بالأسلحة الفتاكة، بل بأن يفرض على المسلمين أنظمةً في الأحوال الشخصية، كأن يقول، وهذا الكلام أنا عندي موثق، هذا الكلام هو توصيات مؤتمري السكان اللذين عقد أحدهما في القاهرة والثاني في بكين، والقرارات والتوصيات ارتقت إلى مستوى الإلزام، وأي بلد لا ينفذ هذه التوصيات تنتظره عقوبات قاسية جداً، أن يكون الزواج شيئاً، والعلاقة الجنسية شيئاً، والإنجاب شيئاً آخر، تزوج امرأةً، ولك علاقة مع امرأة، وتنجب من امرأة، وأن تكون الزوجة في حل من أن تساكن زوجها، أو أن تنصاع لأمره، لها أن تسافر متى شاءت من دون إذنه، ولها أن تعمل أي عمل من دون إذنه، وأن يسمح بالإجهاض الآمن كما يقولون، وأن يمنع الزواج قبل سن الثلاثين، وأن يسمح لمن دون هذا السن بعلاقات تحت سمع الآباء وبصرهم، والحديث طويل حول هذا، ونحن بخير والحمد لله، رفضت هذه التوصيات جملةً وتفصيلاً، لأنها تتناقض مع أصل ديننا، فنحن معنا وحي السماء، نحن معنا تشريع خالق الأرض والسماء

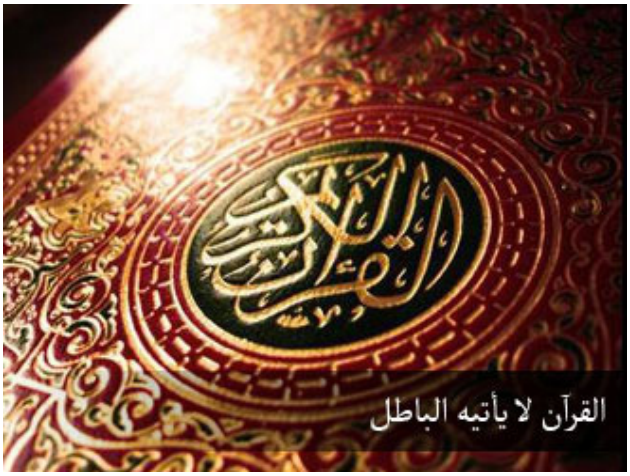

نحن معنا كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأي انحراف عن وحي السماء فهناك آثار خطيرة لا يعلمها إلا الله، في بلد كالصين منع الإنسان من إنجاب أكثر من ولد واحد، بقانون فيما أظن مطبق قبل سنوات ليس أكثر، ما هي نتائج هذا القانون، أن كل أسرة تنجب بنتاً تخنق إلى أن يأتيها الذكر فتسجله، قرأت خبراً موثقاً أن خمسين مليون شاب لا يجدون فتيات يتزوجونهن،

لذلك نشأت هناك عصابات لخطف الفتيات في سن الزواج، لما حددنا إنجاب طفل واحد لهذه الأسرة اختل توازن المجتمع.

لذلك أيها الأخوة، حينما أمرنا الزوج أن يدفع لزوجته نصف ممتلكاته تهرب معظم الأزواج من تسجيل عقود القران، مساكنة فقط، ليس معها وثيقة إطلاقاً، والشيء العجيب أن أي تغيير بمنهج الله نحصد سلبيات لا تعقل.

ذكر لي أخ كريم من شمالي إفريقيا: صدر قرار بتقليد الغرب بمنح المرأة نصف أملاك زوجها عند الطلاق، قال لي أخ كريم: إن سوق الزواج قد بار، فصار والد الفتاة يقدم لخاطب ابنته وصل أمانة بمبلغ فلكي، إن طالبناك بنصف أملاكك طالبنا بهذا السند، حتى يستمر الزواج.

إن كنت حريصاً على سلامتك وسعادتك فينبغي أن تأتمر بأمر الخبير :

يا أيها الأخوة، هذه الأنظمة، أو هذه الأحكام الشرعية التي جاء بها القرآن، وبيّنها النبي العدنان ليست من صنع بشر، إنها من عند خالق البشر، من عند الخبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

هو الخبير، وأنت حينما تمتلك آلةً بالغة التعقيد، غالية الثمن، عظيمة النفع، وتصاب بخلل، ماذا تفعل؟ لك جار يبيع الخضراوات، وهو طيب جداً هل تدفع إليه هذه الآلة؟ طيبة نفسه شيء، وخبرته شيء آخر، لا تدفعها إلا إلى وكالة البيع، حيث الخبراء من قبل الشركات المصنعة، إذاً إن كنت حريصاً على سلامتك وعلى سعادتك فينبغي أن تأتمر بأمر الخبير، فالله هو الخبير، وهو الصانع الحكيم، والجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، هذه مقدمة.

نحن معنا تعليمات الخالق، تعليمات الصانع، معنا تعليمات الخبير، والخبير ينبغي أن يطاع، ولأن الله كان من الممكن أن يأتي بالناس جميعاً إلى الدنيا دفعة واحدة، وأن يأخذهم منها دفعة واحدة، إذاً ليس ثمة يتم، ولكن شاءت حكمة الله أن نأتيها تباعاً، وأن نغادرها تباعاً، ما دام الأمر هكذا إذاً من الممكن أن يغادر الأب الدنيا وأولاده صغار.

عناية الأبناء بالآباء تكليف وليس بطبع بينما عناية الآباء بالأبناء طبع :

إذاً هناك مشكلة أن أكبر داعم للطفل هو الأب، والعرب إن أرادت أن تسب إنساناً تقول له: لا أبا لك، أكبر داعم للطفل هو الأب، لأن الله أودع فيه حب أولاده والرغبة في تربيتهم وتنشئتهم، لذلك هذا طبع لا تكليف، وهل يعقل أن يصدر مرسوم تشريعي يلزم الناس أن يتناولوا الطعام؟ مستحيل، لأن تناول الطعام طبع، لذلك أوصى الله عز وجل الأولاد بالآباء، لأن عناية الأبناء بالآباء تكليف، وليس بطبع، بينما عناية الآباء بالأبناء طبع، فحينما يحرص الأب على إطعام ابنه، وعلى كسائه،

وعلى نومه نوماً مريحاً، أنا لا أقول ليس له أجر، أقول أجره ضعيف جداً، لأن هذا من طبعه، هذه رحمة ليست كسبية، إنما هي وهبية، متى يؤجر؟ إذا حرص على دين ابنه، إذا حرص على أخلاقه، إذا حرص على أن يدخل الجنة، إذا كان سبباً في دخول الجنة، أقول لكم هذه الحقيقة أيها الأخوة لو أن أباً عارض ابنه في سعيه لطلب الله عز وجل، لو أن أباً لم يرضَ لابنه أن يكون متديناً، ثم صار ابنه من كبار علماء الدنيا فلا أجر له، لأن هذا الأب ما أراد لهذا الابن أن يكون كذلك، فإن كان كذلك فليس له أجر، إنما الأعمال بالنيات، فالأب الذي يتمنى أن يكون ابنه صالحاً مؤمناً ولياً لله عز وجل، وكان ابنه كذلك فله أجر كبير، فإذاً لأن الناس يأتون إلى الدنيا تباعاً، ويغادرونها تباعاً نشأت حالة الموت، ومع الموت اليتم، ومع اليتم الترمل، هذه ظاهرة في العالم كله، كتشريع لهذه الظاهرة يقول الله عز وجل:

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

طبعاً في الدرس الماضي قال الله عز وجل:

(وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ)

[سورة النساء: 2]

الآن كتشريع آخر متعلق بالزواج عقد الزواج أقدس عقد على الإطلاق، وأن الله سبحانه وتعالى أوجب للمرأة مهراً، وهذا المهر نحله اللهُ المرأةَ، هذا الحق نحلة من الله، لذلك أمر الأزواج أن يؤتوا نساءهم صدقاتهن، يقول الله عز وجل:

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

الصدقات هي المهور، وأي عقد زواج ليس فيه مهر هو عقد فاسد، لكن العقد الفاسد شيء والعقد الباطل شيء أخر.

العقد الباطل والعقد الفاسد :

العقد الباطل لا يصحح، بينما العقد الفاسد يصحح، يصحح بمهر المثل:

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

[سورة القصص: 27]

هذا الإيجاب:

(عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي)

[سورة القصص: 27]

المهر:

(ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ)

[سورة القصص: 27]

هذا الموقف الكامل من أولياء الفتيات، فسيدنا موسى رد عليه فقال:

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ)

[سورة القصص: 27]

قبلت:

(أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

[سورة القصص: 28]

إذاً لا بد من إيجاب وقبول ومهر وشاهدين، هذا هو عقد الزواج.

ضرورة المهر لأن الله فرضه وأمر به :

من أحد شروط الزواج تسمية المهر،

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

الذي يحصل أنك إذا تزوجت امرأة من دون مهر، أو بمهر رمزي جداً كدرهم فضة تصبح الزوجة هينة على زوجها، لأتفه سبب يطلقها، أما إذا كان ثمة مهر معقول، فالمهر يجعله يفكر في قضية الطلاق، المهر يجعله يحسب حسابه، ويراجع نفسه، هناك مبلغ مئتا ألف مثلاً ينبغي أن تدفع، أنا لست مع مغالاة المهور، لأن أعظم النساء بركةً أقلهن مهراً، ولست مع إلغاء المهور، إلغاء المهور تطرف، ومهور بالملايين المملينة أيضاً تطرف، لكن مع المهر المعتدل، مع المهر الذي تقره العادات الإسلامية، فالمهر ضروري، ولأن الله فرضه، ولأن الله أمر به ولأن الله أمر الأزواج أن يقدموه لزوجاتهم:

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

أي؛ عطاء من الله، وقال بعض المفسرين: نحلة أي أن تدفع مهرها إليها عن طيب نفس دون أن تفكر في استرداده.

أذكر قصةً لعلها مناسبة في هذا المقام، خطب شاب فتاةً أعجبه حسنها، ولم يعجبه دينها، متمسكة، فلما انتقلت إلى بيته كانت عقبةً أمام رغباته ونزواته، لم تقبل أن تكون مع أصدقاءه، ولا أن تسهر معهم، ولا أن تجلس بينهم، هو يفكر بخلاف ذلك، يريدها زوجةً عصريةً، متفلتة، أعجبه حسنها، ولم يعجبه دينها، ومهرها كبير جداً، فخططت له أمه أن يضايقها مضايقةً لا تحتمل حتى تجود له بمهرها، والذي توقعت حصل، فضايقها، وضربها، وأهانها، وغاب عنها كثيراً، وجعلها تجوع

وتعرى، إلى أن طلبت منه المخالعة دون أن تأخذ منه شيئاً، وكل هذا بتخطيط الأم، وكان الأب يستنكر ذلك، حدثني أخ كريم عن هذه القصة، لأنه يعرف الأطراف كلها، عندئذٍ خلعها ولم يعطها شيئاً، ثم تزوج فتاةً كما يتمنى، وصارت معظم نوادره بين أصدقائه كلما نجا من مشكلة يقول: نجونا من هذه المشكلة كما نجونا من مهر فلانة، وفي مرة كان يركب مركبته من مكان إلى مكان، ولحكمة بالغة ركبت زوجته إلى جنبه، وأمه خلفه، وأباه خلف زوجته، وكلما مشى بين مركبتين يحذره أبوه أن يبطئ من سرعته يقول له: نجونا كما نجونا من مهر فلانة، وفي مكان ما قرب دمشق لم ينج فدخل بين مركبتين فشق نصفين، وأمه كذلك، ونجت الزوجة والأب الذي كان ينكر عليه فعله، هذا الذي يستهين بحقوق المرأة يجب أن يعلم أن الله كبير وأنه سينتقم، يقول الله عز وجل:

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

لذلك ورد في بعض الأحاديث أنه:

((أيما رجل تزوج امرأة على صداق ولا يريد أن يعطيها فهو زان))

[البيهقي عن أبي هريرة]

نحلة؛ منحة من الله، إذاً أنت كمؤمن ينبغي أن تنفذ، ونحلةً؛ أن تطيب نفسك بدفع هذا المهر، خرج من نفسك، ونحلةً؛ ألاّ تنوي استرداده، فأناس كثيرون إذا فرض عليهم مهر كبير، يقول لك: اكتب، عندي الحل، الحل يضايقها، يهددها بالطلاق، إلا أن تتنازل له عن مهرها، فلذلك نحلةً؛ أن تعطيه إياها طيبة نفسك، أن تعطيه إياها دون أن تنوي استرداده، أن تعطيه إياها، لأن الله في عليائه فرضه لها، وأنت بهذا تذعن لأمر الله عز وجل.

المرأة تمتلك مهرها ولها أن تتصرف به إلا في حالات نادرة طبعاً :

لماذا قال الله قبل قليل:

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى)

يعني عندك يتيمة، وأنت وليها، وأمرها بيدك، وأنت وكيلها، لماذا أرشدك الله إلى عدم الزواج منها، بل أن تتزوج ما طاب لك من النساء، لئلا تظلمها في مهرها، هي لن تطالبك، تستحي منك، أنت ولي نعمتها، فإذا خفت ألا تقسط في اليتامى فانكح غير اليتامى لذلك:

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

لكن هؤلاء النساء حينما يكرمها الله بزوج وفي، بزوج مؤمن، بزوج كريم يرعاها، ويحترم مشاعرها، ويحترم إنسانيتها، ويؤدي لها حقوقها، ويعطيها ما تستحق هي تحبه حباً جماً، فإن كان في ضائقة مالية، وقدمت له بعض مهرها قال:

(فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

إذا قالت لك زوجتك: خذ هذه الأساور، وبعها، وانتفع بثمنها، وهي صادقة ومحبة، وأنت كل حياتها، وأنت كل أملها في الحياة، فلا مانع أبداً، لكن أن تكرهها إذا ورثت، إذا لم تعطني أطلقك، لا، هذا إكراه، بالمناسبة من عظمة هذا الشرع أن المرأة تمتلك مهرها، ولها أن تتصرف به، وهي صاحبة القرار فيه، إلا في حالات نادرة طبعاً، لو أنها أرادت أن تتجر به ببضاعة محرمة فلك أن تمنعها، أو بطريقة محرمة، أن تهرب مثلاً، لك أن تمنعها، لأن هذا قد يصيبها بالأذى، أنت العاقل، أنت صاحب الرؤية، نساء كثيرات يتجرن بمادة محرمة أحياناً، هي بعيدة عن جو الأسواق، يقول لك: الربح عالٍ، لكن هذا فندق، خمس نجوم، فيه موبقات، وخمر، فلك أن تمنعها إذا أساءت التصرف بمالها، أما إن لم تسئ التصرف بمالها فهي حرة في أن تدير أموالها، وهذا الحق لم تكن تحظى به امرأة في العالم القديم، الإسلام وحده هو الذي أعطاها ذلك الحق، بل إن المرأة في بعض البلدان القديمة كانت تنتقل إرثاً من الأب إلى ابنه، كأنها قطعة أثاث، ولا شك أن النبي عليه الصلاة والسلام لعظم هذا العقد بين الزوجين لم يشأ أن يضع مكانته النبوية في شأن شخصي، فحينما كرهت امرأة زوجها، وطلبت من رسول الله أن يخالعها زوجها، فقال لها عليه الصلاة والسلام: لو تراجعيه، هي فقيهة، فقالت: أفتأمرني؟ قال: لا، إنما أنا شفيع، فأبت، قالت: إني أكره الكفر بعد الإيمان، لا تحبه، قال له النبي عليه الصلاة والسلام: طلقها تطليقة، وردي له الحديقة، هذه مخالعة:

(فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

أحد أكبر أنواع العبادات أن تكسب المال الحلال لتصون به عرضك وتتقرب به إلى ربك :

بعض الأقوال لسيدنا عمر: إن المرأة قد يضغط عليها زوجها، وقد يستعطفها، وقد يستميلها، فتعطيه بعض مالها إن صحت من غيبوبتها، وإن خطأت نفسها فلها أن تسترد ما أعطت لزوجها، هذا رأي سيدنا عمر رضي الله عنه، كل هذا من أجل أن تكون المرأة في أعلى درجة من التكريم، ومن الحرية، ومن الكرامة من دون أن تستخدم هذا استخداماً لا يرضي الله عز وجل، ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً)

بصراحة تقوم حياتك على المال الذي بين يديك، بهذا المال تزوجت، بهذا المال اشتريت بيت، بهذا المال أنفقت على أهلك ثمن الطعام والشراب، بهذا المال كسوت أولادك، بهذا المال استرضيت

زوجتك، بهذا المال عالجت أولادك المرضى عند الطبيب، بهذا المال أدخلتهم المدارس وتعلموا، بهذا المال أنفقت منه على الفقراء والمساكين فارتقيت عند الله، فالمال قوام الحياة، وهذا الذي يزهد بالمال زهداً أبله غبياً، ثم يحتاج الناس يضع نفسه في مكان ذليل، يعني أنا أدعو الله عز وجل لي ولكم الدعاء المشهور: اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسأل شر خلقك، ونبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت يا رب من فوقهم ولي العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء، وبصراحة الآن أعداء المسلمين أحد أكبر خططهم أن يفقروا المسلمين بعبارة جديدة؛ تجفيف منابع الجمعيات الخيرية، أحد أكبر خططهم إفقار المسلمين، وأنا أقول وأحد أكبر أنواع العبادات اليوم أن تكسب المال الحلال لتصون به عرضك، ولتتقرب به إلى ربك، والله ما رأيت كلمة لصحابي جامعةً مانعةً كهذه الكلمة، قال: حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي، حبذا المال، أطعم أولادي، أكسوهم، أسكن بيتاً صحياً، أقدم لهم الطعام والشراب، أعالجهم إذا مرضوا، حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي، إذاً الذي يتقن عمله، ويلزم عمله، ويبدع في عمله، لتكون يده هي العليا هو في أعلى درجات العبادة، بل إن من العبادة أن تكسب رزقك بيدك، ما دامت حرفتك مشروعة في الأصل، وسلكت بها الطرق المشروعة، وابتغيت منها كفاية نفسك وأهلك، ونفع المسلمين، ولن تشغلك عن واجب ديني، ولا عن طاعة انقلبت هذه الحرفة إلى عبادة، لأنك بهذه الحرفة تصون عرضك وتتقرب إلى ربك.

ربع دين المرأة طاعتها لزوجها :

أيها الأخوة، عظمة الزواج الإسلامي أن الزواج الإسلامي يكون الله بين الزوجين، فكل طرف يخشى الله أن يظلم الطرف الآخر، وكل طرف يتقرب إلى الله لخدمة الطرف الآخر، لذلك حينما قال الله عز وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الروم: 32]

السماوات والأرض تعبير قرآني، أو مصطلح

الكون، والكون ما سوى الله، الكون كله دليل على عظمة الله.

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عز وجل، لذلك حينما سئل النبي عليه الصلاة والسلام: من أعظم الرجال حقاً على المرأة؟ قال زوجها، يعني أن أول رجل في عالم المرأة هو زوجها، هو الأصل، وكم من امرأة مسلمة تهتم بغير زوجها أضعافاً مضاعفة عما تهتم بزوجها، أحيانا تغيب شهراً، تقول لك: عند ابني، وزوجك؟ كبر، فهذه المرأة التي لا تهتم بزوجها، ولا تطيع الله عز وجل، بل إن ربع دين المرأة طاعتها لزوجها:

((المرأة إذا صلت خمسها وصامت شهرها وأحصنت فرجها وأطاعت بعلها فلتدخل من أي أبواب الجنة شاءت))

[ابن زنجوية و الديلمي عن أنس]

((لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه))

[البزار والحاكم وصححه عن ابن عمرو]

بل:

((ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم؛ رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها..))

[الحاكم عن أبي موسى]

لأن مئات وألوف النساء يتمنين زوجاً، وهذه لها زوج، ولها بيت، ولها أولاد، تأكل وتشرب وتتنعم، وتسيء معاملته.

ليست البطولة أن تتزوج بل البطولة أن تبقى متزوجاً :

أيها الأخوة، أي زوج يسيء إلى زوجته إنما هو يكفر نعمة الزواج، وأية امرأة تسيء إلى زوجها إنما هي تكفر نعمة الزواج:

((لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه))

[البزار والحاكم وصححه عن ابن عمرو]

((أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة))

[أبو داود والترمذي عن ثوبان]

طلقني تقول له، لماذا؟ لأسباب تافهة، ثم إنه أيضاً لأسباب تافهة يطلقها، لأسباب مضحكة، فقلت لأحد هؤلاء: أنت حينما تطلق زوجتك لأسباب تافهة ينبغي أن تتسكع على أبواب العلماء ممن يفتي لك أن تعود إليك، تشك في علمه، والذي يقسو عليك في الفتوى لا تحتمله، فأنت بين منتقد ومتألم، وأنت تتسكع على أبواب العلماء لأنك ارتكبت أحموقة، وطلقت زوجتك لأسباب تافهة، الإنسان

العاقل هذه زوجته جملةً وتفصيلاً مقبولة، يعاتبها، يهجرها، ليبتعد عن الطلاق، لذلك قال بن عباس: أيرتكب أحدكم أحموقته، ثم يقول: يا ابن عباس يا ابن عباس، والله ما رأيت سؤالاً يتردد في المساجد أكثر من سؤال الطلاق، تجد الشاب زوجته ممتازة لسبب تافه يطلقها، أو يحلف عليها بالطلاق، والذي لا أصدقه أن معظم الزوجات لأن زوجها حلف عليها ألا تذهب إلى بيت فلان فليس في حياتها شيء أهم من أن تزورهم، كي تكسر يمين زوجها، إنه حمق ما بعده حمق من الزوجة، فيا أيها الأخوة هذا الزواج أقدس عقد، ليست البطولة أن تتزوج بل أن تبقى متزوجاً، والبطولة أيتها المرأة لا أن تتزوجي أن تكوني تحت رجل صالح، وإلا تطلقين، إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)

" لكن أروع ما في الآية:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

المودة؛ قالوا: إنها سلوك يعبر به عن الحب، لأنك تحب زوجتك فتبتسم في وجهها، ولأنها تحبك تسعى لمرضاتك، فإذا انقطعت هذه المنفعة أصاحبها مرض عضال معنى ذلك أنه صار لزاماً أن تطلقها، لا، قال:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

فإن لم يكن عامل المودة قائماً، هناك عامل الرحمة، فكم من امرأة تعمل في البيوت لتطعم زوجها المشلول؟! فلذلك لما قلت لكم: نسب الطلاق في العالم الإسلامي خمسة عشر بالألف نسبة مثالية، لكن مع الأسف أصبحت الآن خمسة عشر بالمئة، وهذه الظاهرة جاءت مع انتشار الصحون، فلذلك أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون كل منا سعيداً في بيته، وأن يفعل مع امرأته الأسباب التي تدعوها إلى محبته وطاعته، وأن تفعل المرأة مع زوجها الأسباب التي تدعوه إلى محبتها وخدمتها:

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

من الطرف، قال بعض العلماء: اطلب من زوجتك درهماً من مهرها واشتر به عسلاً، واجعله يذوب بماء السماء، واشربه، لأن الله قال:

(فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً)

[سورة ق: 9]

وهذا من باب الطرفة درهم من مهر الزوجة يشترى به عسل يذاب في ماء السماء ويشرب، ففيه الشفاء إن شاء الله.

أسئلة تتعلق بموضوع الزواج :

سؤال: يقول أخ أنه: من كان تحته امرأة سيئة ولم يطلقها فإنه لم يقبل له دعاء.

جواب: هذا حديث صحيح للنبي الكريم، تبالغ في الإساءة، تتحدى زوجها، تشتمه، تضربه أحياناً، وليس لها أحد غيره، طيب هذه هل نبقى معها أذلة؟ لا، يجب أن تؤدَّب، يجب أن تبقى بلا زوج، أن تكون مطلقة، أن تقبع خادمة عند أخيها، طبعاً عندها زوج، عندها بيت، وعندها أولاد، حينما تفعل هذا فإنما هي تكفر نعمة الزواج، ليس فيها رحمة، ساذجة، إذاً ثمة إساءة بالغة، وعصيان، وتحدٍّ، وكبر، ضغط غير معقول، لماذا نسكت عن الخطأ؟ هذا حديث صحيح.

جواب: والله لا بد أن يكون النص موثقاً، من كان تحته امرأة سيئة فلم يطلقها فإنه لا يقبل له دعاء، أو كما قال.

هناك فهم آخر، أن زوجي لا يطلقني، يخاف مثلاً، هذا الفهم لا ينبغي أن يكون موجوداً، ثمة خطأ يستلزم الطلاق، ليس ثمة خطأ ثمة طمأنينة وأمن.

سؤال: ابن المبارك كانت تحته زوجة سيئة، وكان يصبر عليها، كيف نوفق بين توجيه النبي وبين فعل ابن المبارك؟

جواب: سهل جداً، إن غلب على ظنك أن صبرك عليها يصلحها فينبغي أن تصبر عليها، وإن رأت صبرك عليها ضعفاً وخوفاً وخضوعاً وذلاً فلا ينبغي أن تصبر عليها، وقال النبي الكريم:

((علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فإنه أدب لهم))

[عبد الرزاق والطبراني والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس]

يعني أنت معك سلاح، لا تلغ السلاح، اتركه معك، لكن أنا لا أقر الحمقى كلما قامت يده عن رجله حلف عليها بالطلاق الثلاث، وكلما أحل لك شيخ يحرمك عشرة، لا هذا عمل أحمق، مع امرأة مؤمنة طاهرة عفيفة طائعة، والله حينما تطلقها فكأن عرش الرحمن اهتز، طبعاً أنا لا أتكلم من فراغ، أنا حينما أتكلم بحدة عندي آلاف الحالات، والله في الأسبوع الواحد تأتيني عدة مشكلات، امرأة شاردة متفتلة تحتقر زوجها، تسارع إلى ضربه أحياناً، تسب أمه وأباه، ولا تقبل بشيء، وتحمله على كسب المال الحرام، هذه امرأة لا ينبغي أن نسكت عن خطأها، أنا أقول عن تلك الحالات الخاصة، لا تقل: الشيخ أفتى بالطلاق، وغداً يلصقون لي مشكلة.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(04-69): تفسير الآية 6 ، أعمار الإنسان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-03-15

بسم الله الرحمن الرحيم

إسلام مكة إسلام عقيدة وإسلام المدينة إسلام تشريع :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من دروس سورة النساء، ومع الآية السادسة، وهي قوله تعالى:

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

أيها الأخوة الكرام، الإسلام في مكة كان ترسيخاً لأصول العقيدة، وفي المدينة كان تشريعاً للعباد، إسلام مكة إسلام عقيدة، وإسلام المدينة إسلام تشريع، ولا يستغنَى عن أحدهما، فلا بد من عقيدة سليمة، ولا بد من تشريع حكيم، لا بد من إيمان، ولا بد من عمل، وأنت بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، هناك علاقة دقيقة وخطيرة، وهي أنك إذا عرفت خالق الأكوان، مبدع السماوات والأرض، رب العالمين، من بيده ملكوت كل شيء، تشعر بحاجة إلى أن تتقرب منه، الإنسان في أصل فطرته يحب الجمال والكمال والنوال، فإذا ثبت لك اعتقاداً أن أصل الجمال عنده، وأن أصل الكمال عنده، وأن العطاء كله منه ينبغي أن تتجه إليه، في العلاقات اليومية يكون للإنسان مكانة، غني، له منصب رفيع، تجد الناس يتحلقون حوله، يطمحون إليه، يزورونه في كل مناسبة، يقدمون له آيات الولاء في كل وقت، لأن عنده شيء؛ إما علم، أو جاه، أو مكانة، أو مال، فالناس يقبلون على العظيم طمعاً بما عنده، فإذا ثبت لك يقيناً أن الكمال كله عند الله، وأن النوال كله من عند الله، وأن أصل الجمال هو الله فلا بد أن تتقرب منه، كيف؟ كيف تتقرب منه؟ بعبادته، بطاعته، أنت إذاً بحاجة ماسة إلى أن تعرف أمره ونهيه. قد تتقرب لإنسان بهدية، قد تتقرب إلى إنسان بزيارة، لكن علاقتك مع خالق الأكوان كيف تتقرب منه؟ أنت حينما تعبده وتطيعه تكون قد تقربت منه. هل يمكن أن تكون عبادة بلا علم بالأمر والنهي؟ نعود إلى قاعدة خطيرة ذكرتها في الخطبة؛ ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، فإذا أردت أن تتقرب إلى الله بعبادته حتماً ينبغي أن تعرف بنود عبادته؛ الأمر والنهي، لذلك ورد في بعض الأحاديث أن:

((طلب الفقه حتم واجب على كل مسلم))

[الحاكم في تاريخه عن أنس]

كيف تعبده؟ بطاعته، بتنفيذ أمره والبعد عن نهيه، هكذا يُعبد الله، لذلك معرفة الأحكام الشرعية جزء من الدين، بل إن معرفة الأحكام الشرعية تأتي مرحلة حتمية لازمة بعد معرفة الله.

آيات الجزء الأخير كلها آيات مكية وكلها في العقيدة إلا سورة واحدة :

ذكرت أن أخاً اصطلح مع الله، يعمل في إصلاح المركبات فتاب توبة نصوحاً، أنا أعتقد لأنه تاب توبة نصوحاً، ولأنه اصطلح مع الله، ولأنه أراد أن يبقى وفق منهج الله، أتعبني في أسئلته في مصلحته، شعرت أنه صادق في التوبة، ما دام صادقاً في التوبة فهو يسأل: ما حكم هذا؟ ما حكم هذا؟ كيف أفعل مع فلان؟ ما حكم القطعة التي جددتها؟ هل أستعمل هذه القطعة التي بليت؟ لي الحق أن آخذها؟ أمطرني بوابل من الأسئلة، لماذا؟ لأنه عرف الله وأراد أن يطيعه، فهذا الذي لا يبالي بأمر الله ونهيه في الأساس إيمانه ضعيف، كلما اهتممت لأمره ونهيه كلما كان هذا دليلاً على اهتمامك بالله عز وجل، فلذلك حينما نقرأ آيات التشريع فإنها لا تقِلُّ في قيمتها عن آيات العقيدة. هناك ملمح رائع في الجزء الأخير من القرآن الكريم، آيات الجزء الأخير كلها آيات مكية، وكلها في العقيدة، في الإيمان بالله واليوم الآخر، من دون استثناء.

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

[سورة الفجر: 1-2]

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس: 1]

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)

[سورة الليل: 1-2]

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

[سورة التين: 1]

أبداً: إلا سورة واحدة هي المطففين، لو أن فهم الإنسان سطحي وساذج يراها قد أُقحِمت إقحاماً.

الويل هو الهلاك للمطففين :

قال تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ* أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة المطففين: 1-5]

من أجمل ما قرأت عن هذه السورة، وعن علاقتها بالسياق العام، وكيف أنها ليست مقحمة عليك، أنك إذا فرطت في حق مخلوق يعد هذا التفريط سبب هلاكك، فكيف إذا فرطت في حق الخالق؟ إذا طففت، إذا أعطيته أقلَّ من حقه وزناً، أو مساحة، أو طولاً، أو كمية، أو نوعية، فالتطفيف أن تعطيه

أقلَّ من حقِّه، فإذا قست القماش الذي تبيعه مشدوداً، وقست القماش الذي تشتريه مرخياً فهذا تطفيف، إذا وزنت الكيس لما تبيعه مع البضاعة، وقد تكون بضاعة غالية جداً فصار ثمن الكيس من ثمن البضاعة فقد طففت، أما إذا اشتريت حذفت وزن الكيس، وأخذت الصافي فقد طففت، فالويل لك، والويل هو الهلاك للمطففين، فإذا طففت في حق مخلوق كان هذا التطفيف سبب هلاكك، فكيف إذا بخست حق خالقك؟ كيف إذا بخست حق الذي أوجدك؟ حق الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد؟ كيف إذا بخست حق هذا النبي العظيم الذي جاء لإنقاذنا، فلم تعبأ بسنته، ولم تعرف قدره، ولم تصلِّ عليه:

((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صعد المنبر قال: "آمين آمين آمين": فقالوا: يا رسول الله، علام أمنت؟ قال: "أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل: آمين. فقلت آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين. فقلت: آمين))

[رواه البزار في مسنده عن أنس]

أن تقتطع من وقتك الثمين وقتاً لمعرفة الله هذا استثمار للوقت وليس استهلاكاً له :

إذاً كما أننا في أمس الحاجة إلى أن نعتقد بالله اعتقاداً صحيحاً بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، بالله خالقاً ورباً ومسيراً، بالله صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى، وبرسول الله رسولاً ونبياً، وباليوم الآخر جزاءً ومصيراً، وبالملائكة والكتب والأنبياء ينبغي أن نتعلم شرع الله عز وجل. مثلاً: من دخل السوق دون أن يتفقه أكل الربا، شاء أم أبى، أنا أذكر لكم دائماً مثل، هنا محل إعادته، أنّ المظلي قد يجهل أشياء كثيرة لا علاقة لها بسلامته، وقد يجهل شيئاً واحداً يكون سبب هلاكه، قد يجهل شكل المظلة، دائري، مربع، بيضوي، مستطيل، وقد يجهل نوع قماش المظلة، من خيوط صناعية أو طبيعية، وقد يجهل عدد الحبال وألوان الحبال، ونوع خيوط الحبال، هذا كله لا يؤثر على سلامته، أما إذا جهل طريقة فتحها ينزل ميتاً، في الدين جانب من العلم سماه العلماء، علم ينبغي أن يعلم بالضرورة، فمن لم يتعلم هذا العلم هلك، مثقف، غير مثقف، مشغول، غير مشغول، متفرغ، غير متفرغ، أمي، متعلم، هذا العلم سماه العلماء علم ينبغي أن يعلم بالضرورة، لأنه فرض عين على كل مسلم، تقول ليس لديّ وقت، إذا درس الرجل، وجاء إلى بلده، واشترى عيادة بالدَّين، والآلات بالدَّين، وعليه ديون باهظة، وحدد موعد الزيارة من الخامسة حتى السابعة، وجاءه مريض في الساعة السادسة، قال له: ما عندي وقت، الجواب اللطيف: لأي شيء خصصت وقتك إذاً، هذا اختصاصك، وهذا وقتك، فإذا قال إنسان لك: أنا ما عندي وقت أعرف الله عز وجل فجوابه قوله تعالى:

(مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النمل: 84]

ما هو الشيء الذي هو أعظم من أن تعرف الله، ما هو الشيء الذي هو أعظم من أن تعرف منهجه، ما هو الشيء الذي هو أعظم من أن تعرف الطريق الموصلة إليه، إذاً أن تقتطع من وقتك الثمين وقتاً لمعرفة الله، لمعرفة كتابه، لمعرفة سنة نبيه، لمعرفة أحكام الفقه، لمعرفة سير الصحابة والتابعين، لمعرفة العقيدة السليمة، لمعرفة سر وجودك وغاية وجودك، هذا استثمار للوقت وليس استهلاكاً له، إنسان متعلم، معه اختصاص نادر، يدرس عشر سنوات هذه السنوات العشر فهل هي استهلاك للوقت أم استثمار له؟ بعد التخرج يقول لك: دخلي في اليوم ثمانمئة ألف، من هذا العلم الذي تعلمه، هناك اختصاصات نادرة جداً ودخلها فلكي، فالوقت الذي أمضاه في الدراسة والتعلم هل يعد ضياعاً واستهلاكاً له أم يعد استثماراً؟ إنه استثمار.

العلم خير من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال :

حينما تأتي إلى مجلس علم، ماذا تعمل؟ أنت حصنت نفسك، يا بني العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال.

سائق سيارة أشارت إليه امرأة فوقف، ركبت معه سألها: إلى أين؟ قالت له: حيث تشاء، فهم، وعدَّها غنيمة، وقضى حاجته، وأعطته ظرفين، قصة وقعت في الشام، وقرأتها في الجريدة، أعطته ظرفين، فتح الأول فإذا فيه خمسة آلاف دولار، وفتح الثاني، فإذا فيه رسالة، فيها سطر واحد: مرحباً بك في نادي الإيدز، والمبلغ مزور، فأودع السجنَ، ولو حضر درس علم واحد، وعرف حدود الله عز وجل لنجا، فحينما تقول له: خذني إلى أي مكان تريده، يفتح الباب، ويركلها بقدمه، وينجو من المرض والسجن.

والله أذكر أنه في أول خطبة خطبتها في شهر آب في عام 1974 في هذا المسجد سألني أخ كريم بعد الخطبة في صحن المسجد، وصار يبكي، قلت له: خير إن شاء الله، قال: زوجتي تخونني، قلت له: مع من؟ قال: مع الجار، قلت: وكيف عرفته؟ قال لي: والله الحق علي، كان الجار عندنا يوماً فأردت ألا تبقى وحدها، فقلت لها: تعالي اجلسي معنا، هذا مثل أخيك، لأنه جاهل، إنه يجهل طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى، وعنده خمسة أولاد، وتخونه من سنتين كل يوم، وتعطيه مع كأس الشاي مادة مخدرة، قلت: العلم حصن، العلم حارس، يا بني العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، لا يقبل أن تقول: ليس عندي وقت لمعرفة الله، معرفة كتاب الله أصل في الدين، ومعرفة سنة رسول الله أصل في الدين، ومعرفة الأحكام الفقهية، كم إنسان في هذا البلد المسلم يستثمر أمواله بنسبة ثابتة، عين الربا، يسمعك كلاماً مضحكاً، أكثر راحة من الحسابات والجرد، على الألف مئة ليرة في الشهر فرضاً، عين الربا، كم

إنسان يسهم مع إنسان في شراء بيت، يطالبه بالأجرة من حقه، لكن لأنه يضمن حقه بالتمام والكمال أصبحت الأجرة فائدة ربوية، إذا أراد أن يبيع حصته، فقيَّم البيت تقييماً جديداً فلا مشكلة، والأجرة يستحقها، أما دفع مليون، فالمليون ثابت لا يزيد ولا ينقص، ويريد عليه أجرة، فهذا عين الربا، مئات الحالات التي يتعامل الناس بها في الأسواق هي عين الربا، ولا يشعرون، لضعف ثقافتهم الفقهية، حتى في العلاقات الاجتماعية، حتى في المناسبات، في الأفراح، في البيع والشراء، من دخل السوق دون أن يتفقه أكل الربا شاء أم أبى، هكذا قال سيدنا عمر، فأنت حينما تقتطع من وقتك وقتاً لمعرفة الله من خلال كتابه، ولمعرفة رسول الله من خلال سنته، ولمعرفة أحكام الفقه، ولمعرفة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام تنجو من مطبات الحياة.

الإنسان كما أن له عمراً زمنياً له عمر عقلي :

مرة قال لي أحدهم: هناك اتصال هاتفي مع زوجتي، أنا لا أحتمل ذلك، إنسان سفيه يتكلم معها كلمات لا تليق، قال لي: والله أنا أعرفها طاهرة معرفة يقينية، قلت له: ألم تقرأ في السيرة أن السيدة عائشة رضي الله عنها، وهي زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وهي بنت الصديق اتهمت بالزنى، قال لي: الله أكبر، والله لا أعلم ذلك، وكأن هذه القصة جاءت على قلبه برداً وسلاماً، لو قرأ السيرة لعرف، على كل أيها الأخوة هذا تقديم، لأننا قادمون على سلسلة آيات تتعلق بالمواريث، إنسان يقول لك: موضوعات ثانوية، هي صلب الدين، المواريث من صلب الدين، بعد قليل إن شاء الله نصل إلى هذه الآيات، ونقف عندها وقفة متأنية.

آية اليوم الآية السادسة:

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى)

الابتلاء هو الامتحان،

(حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ)

ورد في كتب الفقه أن الصغير يبلغ الحلم إذا بلغ الخامسة عشرة من عمره، أو يبلغ الحلم إذا ظهرت عنده صفات المراهقة، كخشونة الصوت، وظهور الشعر في أماكن مختلفة من جسمه، أو حينما يحتلم، طبعاً عند الفتاة قضية واضحة جداً، حينما تأتيها الدورة فهذه علامة البلوغ قولاً واحداً، الشاب حينما يحتلم، أو حينما تظهر علامات الرجولة في جسمه، أو بنبت شعر في بعض الأماكن، أو صوت خشن، أو إذا بلغ الخامسة عشرة فهو بالغ حكماً، هذا بعض ما ورد في كتب الفقه،

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ)

يعني بلغوا سناً يتاح لهم أن يتزوجوا، بالمناسبة أنا من أنصار الزواج المبكر، ولا سيما في هذا العصر، نعم،

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً)

يعني بالسؤال والجواب والامتحان، ثمة مواضيع معينة، وأسئلة دقيقة، وثمة إجابات رائعة، وإجابات ساذجة، فاسأله في شأن البيع والشراء والتجارة والاستثمار فرضاً والادخار، موضوعات مالية يعيشها كل إنسان، وموضوعات تعاملية يعيشها كل إنسان، ينبغي أن تمتحنه،

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً)

يعني عقلاً وفهماً وحكمة فادفع إليه ماله، وعلماء النفس قالوا: هناك عمر زمني، وهو أتفه أعمار الإنسان، وهناك عمر عقلي، قد تجد طالباً في الصف التاسع عمره العقلي في الصف الثاني عشر، وقد تجد طالباً في الصف التاسع عمره العقلي في الصف السابع، الإنسان كما أن له عمراً زمنياً له عمر عقلي.

أتفه أعمار الإنسان عمره الزمني الذي لا يقدم ولا يؤخر :

مرة كان معنا مدرس رياضيات يدرِّس الشهادة الثانوية، جاء رمضان قال هكذا في مجلس المدرسين: ماما قالت له صم فصام، مدرس رياضيات، ماما قالت له: صم فصام، فهذا عمره العقلي متخلف جداً، لكن قد يكون معه شهادة عليا في الرياضيات، عمره التحصيلي جيد، فعندنا عمر تحصيلي، وعمر عقلي، وعمر اجتماعي، وعمر انفعالي، هناك إنسان ذكي اجتماعياً، يرضي الناس جميعاً دون أن يعطيهم شيئاً، كلامه لطيف معسول، وهناك إنسان عنده غلظة اجتماعية، كل يوم يلقي قنابل مِن حوله، يفجر مشكلات باستمرار، كل يوم يصنع أعداء، بغير حساب، فهذا متخلف في عمره الاجتماعي، هناك إنسان عنده عمر انفعالي متدنٍ، يبكي مباشرة، ينهار مباشرة، وثمة إنسان متماسك، تأتيه مصائب تهد الجبال، ويبقى متماسكاً، فهناك عمر اجتماعي، وعمر انفعالي، وعمر تحصيلي متعلق بالدراسة، وعمر عقلي، وعمر زمني، والعمر الزمني أتفه أعمار الإنسان.

يروى أن أحد كبار علماء الذرة أينشتاين الذي جاء بالنظرية النسبية أقام في أمريكا، وطاف بخمس وثلاثين ولاية يتحدث عن نظريته النسبية، في آخر ولاية عنده سائق ذكي جداً، حفظ هذه المحاضرة عن ظهر قلب، وكان صاحب دعابة، فرجا أينشتاين أن يسمح له أن يلقي عنه المحاضرة، وأن يقدمه لهذه الجامعة على أنه هو أينشتاين، ويبدو أن العالم نفسه أينشتاين صاحب دعابة، فقدم سائقه على أنه هو أينشتاين، وصعد إلى المنصة، وألقى المحاضرة تماماً كما ذكر، لأنه حفظها عن غيب، فقام أحد الأساتذة يسأله سؤال عويصاً، وهو يحفظ المحاضرة بصماً، وغيباً، لكن ليس عنده إمكانية للجواب، فلما سئل قال: السؤال سخيف جداً، والدليل أني سأكلف سائقي أن يجيبك، هذا عنده ذكاء، عنده ذكاء حاد، لكن عقله التحصيلي ضعيف.

فيا أيها الأخوة،

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً)

مرة أحد الخلفاء وجد شاباً، والقصة طويلة، لكن ملخصها أنه أعجب بإجابته فأعطاه ديناراً، اعتذر أن يأخذه، لِمَ؟ قال: والله يا سيدي لو قلت لأمي: إن هذا الدينار أعطانيه الملك لضَرَبتْني وكذبتني، إن هذا الدينار ليس من عطاء الملك، فاضطر أن يعطيه ألف دينار، فقد تجد إنساناً ألمعيّاً، لكن بالمناسبة أتفه أعمار الإنسان عمره الزمني، لا يقدم ولا يؤخر، سيدنا الشافعي عاش خمسين سنة، بل ما أتم الخمسين، سيدنا النووي ما أتم الخمسين، توفي في السادسة والأربعين، وترك علماً، وترك كتباً لا يعلم خيرها إلا الله، الأذكار، كتاب فقه مشهور، بغية المحتاج، شرح صحيح مسلم، رياض الصالحين، كتب لا يعلم خيرها إلا الله، فالعمر الزمني لا قيمة له إطلاقاً.

من أدَّ عباداته أعطاه الله بركة في عمره :

الآن إذا فتح إنسان محلا تجارياً، كم ساعة فتح؟ إذا فتح إنسان ساعة واحدة جمع مليون ليرة، وإنسان فتح اثنتي عشرة ساعة جمع مئة ليرة، الوقت ما له قيمة أبداً، العبرة بالغلّة التي يجمعها في هذا الوقت، فالإنسان كلما كان قريباً من الله بارك الله له في عمره، ومن أدَّ عباداته أعطاه الله بركة في عمره، فقال:

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً)

والله أيها الأخوة هاتان الكلمتان في هذه الآية لا يعرفهما إلا الخبير، أنت ذاهب لشراء صفقة لهذا اليتيم في حلب، تذهب بالطائرة من أجل راحتك، لست مضطراً لتنام في فندق خمس نجوم، يأتيك عشاء إلى الغرفة، والسعر مضاعف، هي كلها مصاريف الصفقة، لكن لو أن المال مالك هل تفعل هكذا؟ مستحيل، فهناك من يتجر بمال اليتيم، وينفق نفقات غير مقبولة، إن في الطعام، أو في الشراب، أو في التنقل، أو في المصاريف، بل لو أن اليتيم كلفك بحاجة في أثناء السفر تسجل عليه قسماً من مصروف الرحلة، أخدمه لوجه الله،

(وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً)

إياك أن تسرف، عندنا قاعدة رائعة؛ عامل الناس كما تحب أن يعاملوك،

(وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً)

بداراً؛ أن تبادر إلى أكلها قبل أن يكبر، فيأخذ ماله، يعني أن تبادر إلى أكلها بطريقة أو بأخرى قبل أن يكبر، فإذا بلغ السن التي ينبغي أن يعطى فيه ماله دفعت له ماله، فقبل أن يبلغ هذه السن ينبغي أن تستنزف ماله كله، ولا تأكلوها بداراً، من يحاسبك؟ الله وحده، أنت مؤتمن، أنت ولي أمر اليتيم، لأنك مؤتمن كلفت بذلك، لأنك مظنة صلاحٍ كلفت بذلك، لأن الناس يثقون بك كلفت بذلك، فإذا كنت موضع ثقة الناس فينبغي ألا تخيب ظنهم فيك، أن تحاسب نفسك حساباً دقيقاً، أنت في متجر من مال اليتيم، وأنت شريك مضارب، جاء أخوك فأكرمته بضيافة غالية، هذه ثمنها مئة ليرة، على المصروف، ما علاقة اليتيم بالضيافة؟ قد يأتي إنسان ليشتري، قد تقيم له طعام الغذاء فلا مانع،

لمصلحة التجارة، قد يأتي إنسان، وقد تدعوه لطعام، وعلى حساب المصروف، لأن هذا الإنسان قد يشتري صفقة كبيرة جداً، فلا بد من إكرامه، أما حينما يأتي صديقك الشخصي، وتقدم له ضيافة في المحل من مال اليتيم فقد خنت الأمانة، الضيافة على حسابك.

المعروف هو حاجتك أو أجر المثل أيهما أقلّ :

هناك شيء أدق من ذلك، في عالم التجارة صفقات رابحة أساسية، فالتاجر ماله في هذه الصفقة، لكن هناك صفقة جديدة لعلها تربح كثيراً، ولعلها لا تربح، أجسُّ نبض السوق فيها بمال اليتيم، فإن ربحت أنزلت مالي بعده فيها، وإن لم تربح أقل له: هذا ترتيب الله، ماذا نريد أن نفعل؟ كلام معسول، كله نفاق، أخي هو الربح نصيب من الله، أنت اخترت له صفقة مجهولة، اخترت له صفقة اسمها لغم، قد تنفجر، ربما لا تربح، فإذا ربحت عرفت السوق من خلالها فأدخلت بعدئذ مالك فيها، لذلك ورد في بعض الأحاديث: ولا تجعل ماله دون مالك، هذه خيانة، إذا كان معك مال ليتيم فينبغي أن تستثمره في صفقة رابحة، ليس بالمئة مئة، فهذه لا يملكها أحد، لكن في الأعم الأغلب، وفي أغلب الظن أنها رابحة، بضاعة أساسية في السوق، وقديمة، وأرباحها ثابتة وسعرها ثابت، هكذا،

(وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا)

دققوا في توجيه الله عز وجل لهذا الإنسان،

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ)

فليستثمر له هذا المال دون أن يأخذ شيئاً،

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ)

عنده محل، وشركة طويلة عريضة، وأموال طائلة بين يديه، وقال لك: مئة ألف ليتيم، اشترِ له بها صفقة، وبعها، وأعطه كل الربح إليه، هذا،

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ)

أما أنت مهندس مثلاً، ولا تملك شيئاً من الدنيا، وعندك يتيم صغير عمره أربع سنوات، معه مال جيد، وأنت أمين، وليس عندك دخل ثانٍ، فلك أن تستثمره في عمل معين بحسب خبرتك، وأن تأخذ نصف الربح لك، أو أربعين بالمئة حسب الاتفاق، أو حسب العرف، هذا يجوز،

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)

ما هو المعروف الذي تحدث عنه الفقهاء؟

المعروف الذي تحدث عنه الفقهاء بقاعدة رائعة: أجر المثل، أو حاجتك، أيّهما أقلُّ، كيف؟ وضع معك مليون ليرة، ربحت مئتي ألف، وأنت فقير، والعرف بالمئة خمسون، مئة ألف لك ومئة ألف له، أنت تحتاج في الشهر إلى عشرة آلاف، فأنت بحاجة إلى مئة وعشرين ألفاً، ينبغي أن تأخذ مئة ألف فقط، أجر المثل، أنت بحاجة إلى خمسة آلاف في الشهر، ليس عندك زوجة ولا أولاد، وتسكن

عند والدك، بحاجة إلى خمسة آلاف، يكفيك ستون ألفاً، فينبغي أن تعطيه مئة وأربعين، وأن تأخذ الستين، يعني حاجتك أو أجر المثل أيهما أقلّ، هذا معنى بالمعروف،

(وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ)

وقبلها:

(وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ)

أهمية المواثيق والعقود :

مرة سأل أحدُ الخلفاء أحد أكبرِ دهاة العرب، قال له: يا فلان ما بلغ من دهائك؟ قال: والله ما دخلت مدخلاً إلا وعرفت كيف أخرج منه، فقال له: لست بداهية، أمَا أنا فو الله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه، في جو معين تدفع لهذا اليتيم ماله، ولا يخطر في بالك أن هناك مشكلة، تمضي السنوات، تفجر مشكلة، يقول لك: لم آخذ منك شيئاً، أين البينة؟ تقع في إشكال كبير، المؤمن الصادق، المؤمن الواعي، المؤمن الحذر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء: 71]

دفعت اكتب وثيقة، وسجل، وأشهد عليه شاهدين، كل شيء مكتوب مريح، والله أيها الأخوة آلاف المشكلات التي دمرت أسر بأكملها بسبب عدم الكتابة، مشروع تجاري اشتري بعشرين ألفاً، في وقت معين، وقتٍ صعب جداً، أحدهم دفع عشرة، والثاني عشرة، الثاني يعمل في هذا المشروع، بعد عدة سنوات المشروع قيِّم بمليوني ليرة، وثمنه عشرون ألفاً، فالأول طلب الأرباح فدفع له خمسة آلاف ثم خمسة آلاف، فلما طالبه مرة ثالثة، قال له: أنت أخذت رأس مالك، وما كتبا عقداً بهذه الشركة، القضية كيفية، والرجلان حيان يرزقان، الثاني طمع لأنه ليس ثمة وثيقة، فاعتبرها ديناً، رد له خمسة بخمسة، ومن حقه يأخذ مليوناً، مئات الحوادث المؤسفة سببها عدم الكتابة، سببها عدم الوعي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء: 71]

(وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ)

[سورة البقرة: 282]

بشكل عميق، أنك إذا لم تقيد الطرف الآخر بعقد أصولي موثقٍ في محكمة البداية ربما أعنت عليه الشيطان فأغراه أن يأكل هذا المال كله، وأنت لك مسؤولية على هذا، أنت حينما لا تقيد الطرف الآخر بمواثيق وعهود وكتب وعقود وسندات موثقة تغريه أن يأكل مالك، وأن يدعك بلا مال، فإذا أكل هذا المال، وأفسدته بهذا المال تتحمل أنت نصيباً وافراً من الإثم والمسؤولية، لذلك،

(فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

هذه الآية تتعلق بأموال اليتامى، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون وقافين عند حدود الله، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقَّافاً عند كتاب الله، يأتمر بما أمر، وينتهي عما عنه نهى وزجر.

أخ كريم الحديث الذي ذكرته في الأسبوع الماضي جاءني به موثقاً فله الشكر. فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه، ورجل أتى ماله سفيهاً))

[رواه الحاكم في المستدرك والديلمي في المسند وصححه الألباني عن أبي موسى الأشعري]

هؤلاء الثلاثة إذا دعوا الله عز وجل لا يستجاب لهم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(05-69): تفسير الآيات 7-10 ، الإرث وأموال اليتامى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-03-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق بين الفرض والواجب :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من دروس سورة النساء، ومع الآية السابعة، وهي قوله تعالى:

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

المفروض يحتاج إلى فارض، فمن هو الفارض؟ إنه الله، قضية الإرث فرضها الله بذاته العلية، ولم يسمح لأحد من خلقه أن يتدخل فيها، ولو أنه تركها للخلق لكانت العلاقات الاجتماعية والضغوط والمحاباة سبباً في ظلم الناس بعضهم بعضاً، فلذلك أمور الإرث فرضها الله بنفسه، ولم يسمح للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو سيد الخلق، وحبيب الحق أن يكون الأمر فيها إليه، الأمر لله وحده:

(نَصِيباً مَفْرُوضاً)

والفارض هو الله، وهناك فرق بين الفرض والواجب، الفرض يأتي من الأعلى، أما الواجب فينبع من الأدنى، فلان يقوم بواجبه طوعية، وفلان فرض عليه هذا الأمر من أعلى، فالفرض من أعلى، أما الواجب فمن أدنى.

أيها الأخوة الكرام، يروي العلماء أن هذه الآية نزلت في أوس بن ثابت الأنصاري، توفي، وترك امرأة يقال لها: أم كجة، وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت، ووصياه يقال لهما: سويد وعرفجة، فأخذا ماله، ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء.

عدم إعطاء البنات حقهن أحد أنواع الجاهلية :

الآن إذا احتال الأب الغني، وخص بماله أولاده الذكور، وحرم الإناث أليس هذا العمل جاهلياً؟ ويفعل هذا العمل كثير من أغنياء المسلمين، ويفعل هذا العمل كثير من أبناء بعض المناطق، ظنّاً منهم أن البنت إذا نالت من أبيها شيئاً انتقل المال إلى زوجها، وهو غريب عن العائلة، وهذا كلام مخالف للحقيقة، ومخالف لمنهج الله عز وجل، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض ما روي عنه:

((إن أحدكم ليعمل في طاعة الله ستين عام ثم يضار في الوصية فتجب له النار))

[ورد في الأثر]

يعبد الله ستين عاماً، فإذا اقترب أجله حرم البنات وخص الذكور، بشتى الدعاوى، قد يكتب الذكور على أبيهم سندات عالية جداً، فإذا أبرزوا هذه السندات أخذوا كل مال أبيهم، هذا الإله العظيم الذي أمرك أن تعبده لا تخفى عليه خافية، هناك من يهرب من إعطاء البنات حقهن، هذا له عند الله عقاب شديد، لأن المرأة عند الله مساوية للرجل في حقوقها، وفي واجباتها، مساوية له في التكليف والتشريف والمسؤولية، فكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء.

كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف.

مع أن المنطق أن تعطي الصغير قبل الكبير، لأن الكبير اشتد عوده، له بيت، وله سيارة، وله زوجة، أما هذا الصغير إذا مات أبوه، وتركه صغيراً لا شيء عنده، لذلك الجاهلية في بعض الآيات وصفت بأنها الجاهلية الأولى، وفي هذا إشارة إلى أنه سوف تكون هناك جاهلية ثانية، فعدم إعطاء البنات حقهن من آبائهن أحد أنواع الجاهلية.

ويقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة، فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهما، فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلاً، ولا ينكأ عدواً، فقال عليه الصلاة والسلام: انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن، فأنزل الله هذه الآية رداً عليهم:

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

لذلك التلاعب بالإرث تلاعب بدين الله، لا شأن لك أن تقول: هذا فقير، وهذا غني، وهذه البنت لها زوج ميسور الحال لا أعطيها، هذا ليس من شأنك، هذا شأن الشرع، والشرع محكم في حياتنا، وليس منطقنا الأعوج محكماً في الشرع.

الإرث من حق الأولاد جميعاً بحسب الفرائض التي فرضها الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، أتمنى على كل أخ كريم مسلم أن يكون دقيقاً في توزيع ماله وفق شريعة الله لا وفق مزاجه الشخصي، والله أنا أستمع أحياناً إلى شكاوى من بعض الأخوات لا يسامحن آباءهن ولا قيد أنملة، لأنه حرمهن من الإرث، فهذا الإرث من حق الأولاد جميعاً بحسب الفرائض التي فرضها الله عز وجل:

(مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ)

أثبت الله تعالى للبنات نصيباً في الميراث، ولم يبين كم هو، قال:

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

من قِبَل الله عز وجل، النقطة الدقيقة أن الله تولى بنفسه توزيع أموال المتوفى، ولم يَدَعْ هذا للنبي عليه الصلاة والسلام، لذلك لا يملك أحد على وجه الأرض أن يعدل في نظام الميراث، لأنه نصيب مفروض من قبل خالق الكون، ولم يبين كم هو، قال:

(مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ)

[سورة النساء: 11]

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سويد وعرفجة ألا ينفقا من مال أوس شيئاً، فإن الله جعل لبناته نصيباً، ولم يبين كم هو حتى أنزل الله عز وجل: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ).

الله تعالى جعل أصل التوزيع نصيب المرأة :

ما هي الوحدة التي بموجبها توزع الأموال؟ نصيب الأنثى، ما قال: للنساء نصف حظ الرجال، الأصل هي المرأة، قال:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

فجعل الله أصل التوزيع نصيب المرأة، لا تدققوا فيما آلت إليه المرأة في عصور التخلف، التي آلت إليه جاهلية ثانية، أما المرأة في أصل القرآن الكريم ونصوص النبي عليه الصلاة والتسليم لها حقوق لا تدانيها حقوق في أية أمة من أمم الأرض، من منكم يصدق أن المرأة في الجاهلية كانت تُوَرَّث وكأنها قطعة أثاث، تورث؛ ترك بيتاً وسريراً وخزانة وزوجة، هكذا، كانت المرأة تورث، فإذا هي في الإسلام كائن له شخصية مستقلة ترث وتورث، ولها الحق في إدارة مالها، بشرط ألا تسبب للأسرة متاعب هي في غنى عنها.

قال بعض العلماء: نَصِيباً مَفْرُوضاً، هو كقولك قسماً واجباً، وحقاً لازماً، أيها الأخوة، هذا الكلام يدعونا إلى أن نقدس نظام الميراث في الإسلام، لو عندك من الوقت لتقرأ القوانين التي ابتدعها كبار العلماء في الأمم السابقة لوجدت أن نظام الإسلام أروع نظام على وجه الأرض، لأنه نظام خالق الكون، لأنه تشريع الصانع، والصانع هو الخبير، لكن ما الذي يحدث؟ رجل ترك أموالاً، وترك ورثة، وحول هؤلاء الورثة أقرباء وجيران وفقراء، فهؤلاء الأقرباء والجيران والفقراء ينظرون إلى هذه الأموال كيف توزع؟ كي نستل الحقد من قلوبهم، وكي نطيب نفوسهم، وكي نجعلهم يلتفون حول هذا الذي توفي، أو حول ورثته بالعناية والرعاية، يقول الله عز وجل:

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

الزكاة تطهر نفس الغني من الشح و نفس الفقير من الحقد و الحسد :

أرأيت إلى هذا الشرع:

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

ماذا نفهم من هذا الحكم؟ تطلب أحيانا طعاماً، فيحمل لك الطعامَ صانع فقير، ألا يشتهي هذا الذي نقل لك الطعام أن يأكل قطعة، إن أخذت هذا الطعام النفيس منه، وصرفته ألا يحقد عليك؟ هو إنسان يشتهي أن يأكل، فكل إنسان حضر قسمة، أو حضر طعاماً، أو حضر توزيعاً، ينبغي أن تطعمه من هذا الطعام، طبعاً الأصل أن هؤلاء الأقرباء الذين لا يرثون، وأن هؤلاء الجيران الذين لا نصيب لهم من هذا الإرث، لكنهم حولكم أيها الورثة، هؤلاء الذين حضروا القسمة رأوا كيف توزع الأموال، كيف تقسم هذه الأموال غير المنقولة والمنقولة، ما الذي يمنع أن تعطي هؤلاء الذين حولك من الفقراء والمساكين والجيران والأقرباء شيئاً تطيب به قلوبهم، أساساً حينما قال الله تعالى عن الزكاة:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

[سورة التوبة: 103]

إذا دفع الإنسان زكاة ماله طهر من الشح، وإذا أخذ الفقير زكاة الغني طهر من الحقد، والآن حينما يرى الفقير البيوت والمركبات والمطاعم والفنادق والطعام النفيس، والثياب الجميلة، والنساء السافرات الكاسيات العاريات، وهو محروم من مأوى يسكنه، من طعام يأكله، من ثياب تستره، ماذا يفعل الغني حينما يخرج بزينته أمام الفقير؟ يملأ قلبه حقداً، ويملأ قلبه جريمة أحياناً، لذلك المجتمع الإسلامي فيه تعاون، وفيه تكافل، المجتمع الإسلامي فيه تراحم، المجتمع الإسلامي غنيه متواضع وسخي، وفقيره متجمل وعفيف، أما حينما خرج على قومه بزينته كقارون فقد قال تعالى:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

[سورة القصص: 81]

خسفنا به، فإياك أن تتباهى بطعامك وشرابك وبيتك، إياك أن تزرع الألم في قلوب الآخرين، إياك أن تزرع في قلوبهم الحقد، إياك أن تتباهى بما أكلت، وما شربت، وأين سافرت، وفي أي فندق نزلت، ومع من سهرت، هذا كلام الجهلاء، قل كلاماً يؤلف القلوب، ولا تقل كلاماً يبث الأحقاد، تحدث عن الله يجتمع الناس حولك، تحدث عن نفسك يتألم الناس منك، فعوِّد نفسك على أنّ هذا الذي أمامك إنسان.

الوصية الواجبة من الآية التالية :

مثل بسيط، يركب إنسان بمركبة عامة، ويجلس إلى جانبه إنسان مع طفل صغير، يأكل الفستق والفواكه والموز، ولا يخطر بباله أن يضيِّفَ الصغير شيئاً مما يأكل، هذا وحش، إنسان يشتهي ما

تأكل، بالمقابل لا تعطِ ابنك إلى مدرسته شيئاً غالي الثمن، أحيانا يعطيه خمسمئة ليرة، وهو في الحضانة، يعطيه أكلات ثمنها مئة ليرة فما فوق، له رفيق فقير:

((ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ولا تؤذه بقُتَار قدرك إلا أن تغرف له منها))

[ابن عدي والخرائطي في مكارم الأخلاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

الإسلام فيه تعاطف، المؤمن الكريم متواضع، يشعر بمن حوله، لا ينفرد في طعام أو شراب:

((وإذا اشتريت فاكهة فأهد له فإن لم تفعل فأدخلها سِرًّا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ولا تؤذه بقُتَار قدرك إلا أن تغرف له منها))

[ابن عدى ، والخرائطي في مكارم الأخلاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

آية واحدة يبنى منها مئة حكم.

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ)

قريب محجوب، محجوب بالمصطلح الفقهي، والمعنى أنه لا يرث، العلماء استنبطوا الوصية الواجبة الآن من هذه الآية، يعني إنسان مات في حياة والده، أولاده لا يرثون، الوصية الواجبة انطلاقاً من هذه الآية أعطتهم نصيباً، لآن المتوفى جدهم، ولأن أباهم مات في حياة جدهم يأخذون شيئاً، إذاً الوصية الواجبة جاءت لتقرر هذه الآية هؤلاء حضروا القسمة، توفي جدهم، وأعمامهم أخذوا، هم لم يأخذوا، لأن والدهم توفي في حياة جدهم.

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ)

قس عليها حالات لا تعد ولا تحصى، جاء إليك إنسان بطعام فأطعمه منه، جاء لك بفاكهة فأطعمه منها، قدم لك خدمة فأعطه ما يقابلها كي تستل منه الحق، وكي تزرع في قلبه الحب.

الإنسان مأمور بالعدل والإحسان :

أخواننا الكرام، نحن الآن في أمس الحاجة إلى الحب، عندنا مساجد، وعندنا مكتبات، ونعقد مؤتمرات، لكن الحب الذي كان بين الصحابة نفتقده اليوم، ينبغي أن نؤسس هذا الحب، على التبادل، وجبت محبتي، كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[أخرجه الترمذي عن أبي إدريس الخولاني]

((والمُتَحَابّونَ فيّ جَلاَلِي لَهُمْ مَنَابرُ مِنْ نُورٍ يَغْبطُهُمُ النّبيّونَ وَالشّهَدَاءُ))

[رواه أحمد عن عبادة بن الصامت]

أنا أرى أنه من واجبنا جميعاً أن يحب بعضنا بعضاً لا بالكلام ولكن بالفعل، إذا زرت أخاك، إذا أعنته، إذا تفقدت أحواله، إذا أعطيته، إذا استنصحته، إذا رفقت به أحبَّك، فالنبي أمرنا بأسباب الحب، ونهانا عن أسباب البغضاء:

((كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه، وعرضه، وماله))

[مسلم عن أبي هريرة]

بالعكس في آية أخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء: 29]

كيف؟ لي جيبان نقلت ألف ليرة من جيب إلى جيب، فماذا فعلت؟

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

أي؛ لا تأكل مال أخيك، الله سماه مالك، هو مالك من زاوية واحدة، من زاوية وجوب الحفاظ عليه فقط، فإذا كنت مكلفاً أن تحافظ عليه فلأن تمتنع من أكله من باب أولى، تماماً لو قلت لرجل أعرته مركبتك: عدَّها سيارتك، ما معنى ذلك، تتملكها يعني؟ لا، أن تعتني بها وكأنها سيارتك،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

يعني مال أخيك مالك، من زاوية وجوب الحفاظ عليه وكأنه ماله، إذاً:

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى)

الأقرباء الذين لا يرثون بالنصيب المفروض، بالمناسبة:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 90]

كما أنك مأمور بالعدل فأنت مأمور بالإحسان، العدل: توزيع الأموال وفق النصيب المفروض، والإحسان:

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ)

العدل: قسري، والإحسان: طوعي لكنك مأمور بالعدل والإحسان.

العدل نصيب مفروض فهو قسري أما الإحسان فهو طوعي :

أيها الأخوة الكرام، ألف قضية لا تستقيم على العدل، لكنها تستقيم على الإحسان، قال لي مرةً أخ: أنا اشتريت هذا المحضر في دكان لإنسان فقير هدمها له بحسب القانون، فسألته: لمَ فعلت هذا؟ قال: ليس له عندي شيء، أنا اشتريت هذا المحضر، وهذا الإنسان ينبغي أن يقدم لي هذا المحل فهدمته، قلت: والله شيء رائع، هذا هو العدل، فأين الإحسان؟ فسكت، والله دفع شيئاً من زكاة ماله، واشترى لصاحب هذا المحل محل في مكان آخر، فإذا كانت القضية لا تستقيم على العدل يسعها الإحسان، عود نفسك أن تكون منفذاً لهذه الآية التي يقرؤها ويتلوها خطباء المساجد من ألف عام عقب كل خطبة:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 90]

والله التقيت بشخص، طلقت زوجة أبيه، أعطيت حقها كاملة، فابنه من أهل اليسار والغنى، يجعل لها راتباً شهرياً من عشرين عاماً، لا يتغير أبداً، قضية الإحسان قضية واسعة جداً، بالإحسان تحل كل مشكلاتنا، العدل قسري، العدل نصيب مفروض، أما الإحسان فهو طوعي:

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

الله عز وجل له مقاييس غير مقاييس البشر :

أيها الأخوة الكرام، يقول بعض العلماء: ضيع الناس هذه الآية، وقال الحسن: لكن الناس شحوا أي؛ بخلوا، لكن هذا الحق حق على المحسنين، وعلى المتقين، وعلى المؤمنين (فارزقوهم منه)، يعني أعطوهم جزءاً من هذا الميراث:

(وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

قال: إذا كانت الأموال قليلة جداً لا تسع من حضر القسمة، ترك شيئاً لا يذكر، لا يحتمل أن تعطي آخر، فإن لم تعطه قال:

(وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

يعني اعذرونا الوضع في ضيق، والورثة فقراء، والمبلغ قليل، هؤلاء أيتام إن لم تعطهم فلا بد أن تقول لهم قولاً معروفاً، وإن أعطيتهم فينبغي أن تقول لهم كما قال بعض العلماء، هذا المبلغ قليل، لكن إن شاء الله في مناسبات أخرى لا نقصر معك، اعذرنا لقلة هذا المبلغ، وفي كلام آخر هذه هدية، هناك من يعطي ويؤذي، خذ زكاة مالي، لماذا هذه الغلظة يمكن أن تؤدي زكاة مالك دون أن تقول: هذه زكاة مالي، على شكل هدية، على شكل مناسبة، انتهز مناسبة، انتهز أول العام الدراسي فرضاً، بأيام رمضان، بالعيد، يمكن أن تستشف ما يحتاجه هذا البيت، وأن تأتيه بحاجة أساسية دون أن تذله، وأن تقول له: أنت فقير وهذه زكاة مالي:

(وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

قال بعضهم: من القول المعروف خذ بورك لك فيه، من القول المعروف وددت لو كان أكثر من هذا، من القول المعروف لا تستحي من إعطاء القليل، فإن الحرمان أقل منه، انتق كلاماً لطيفاً، طيب به قلب الفقير، ولعل هذا الفقير أقرب إلى الله منك، ولعل قلامة ظفر هذا الفقير أعظم عند الله من مئة من أمثالك، لعل الله له مقاييس غير مقاييس البشر.

((ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه مسلم وابن حبان عن أبي هريرة]

المنطلق من الآية التالية عامل الناس كما تحب أن يعاملوك :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

المنطلق من هذه الآية عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، لو أنك غادرت الدنيا، ولك أولاد ضعاف كيف تحب أن يعامَلوا بعد موتك؟ فإذا كنت وصياً على أيتام فعاملهم كما تحب أن يعامَل أولادك بعد وفاتك، ارعَ حقهم، وارع أموالهم، وأدبهم، وعلمهم، واعتنِ بهم:

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ)

في الأيتام الذين تحت وصايتهم، ليعاملوا الأيتام التي تحت وصايتهم كما يتمنون أن تعامل ذريتهم الضعيفة بعد موتهم، هذا المعنى الدقيق:

(فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

لا تنصح بغير كلام الله وسنة رسوله :

أيها الأخوة الكرام، إذا سألك رجل: نويتُ أن أكتب هذا البيت لأولاد الزوجة الجديدة، أحبها كثيراً، وأحرم أولاد الزوجة القديمة، لا تقل له: معك الحق، وتجامله، تكلم بالقول السديد، قل له: لا يجوز، هذا يوجب لك النار، لا تجامله، لا:

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ)

لمن يستنصحهم:

(وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

ذكره بالآخرة، ذكره أن هذه البنت الذي حرمتها ربما تقف يوم القيامة تحت العرش، وتقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه حرمني، حينما تميز الذكور على الإناث فأنت جاهلي، جاهلي بالكلمة العريضة:

(وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

إذا استنصحوا، لا تنصح بغير كلام الله، لا تنصح بغير سنة رسول الله، لا تجامل أحداً، قال: يا رسول الله اشهد ـ النعمان بن البشير ـ أني نحلت ابني حديقة، قال: يا نعمان ألك ولد غيره؟ قال نعم، قال: هل نحلتهم جميعاً كما نحلت هذا؟ قال: لا، قال: فأشهد غيري فإني لا أشهد على جور:

(وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 90]

((الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم))

[رواه مسلم عن أبي رقية تميم الداري رضي الله عنه]

قصة عن أكل أموال اليتامى تؤكد عدل الله وحكمته ورحمته :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً)

يعني إنما يأكلون في بطونهم مالاً سوف يوجب لهم دخول النار، هذا اسمه مجاز عقلي بما سيأتي، كأن تقول: رعينا الغيث، الماء لا يرعى ولكن يرعى الكلأ، فإذا قلت رعينا الغيث لما سيكون.

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)

أيها الأخوة، قضية الأموال قضية خطيرة جداً:

((يغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّين))

[مسلم عن عبد الله بن عَمْرو وعن أبي قتادة]

وقد استوقفني مرة إنسان في الطريق، وخرج من دكانه غاضباً، وقال: سمعت اليوم قصة لم أستطع تفسيرها، قلت: تفضل، قال: جاء إنسان إلى محلي التجاري في أحد أسواق دمشق القديمة ليبيع الأقمشة، وليسترزق رزقاً حلالاً لأولاده، سمع صوت إطلاق النار، مد رأسه ليرى من يطلق النار فإذا برصاصة تستقر بعموده الفقري، فشُلَّ فوراً، هو أخذ الحادثة على ظاهرها، قال: ما ذنبه؟ جاء ليسترزق، جاء ليفتح دكانه، والعمل عبادة، فما تفسير هذا؟ قلت: والله لا أعلم، لا يمكن أن تفهم عدل الله من خلال أفعاله، إلا أن يكون لك علم كعلم الله، والله لا أعرف، أنا مؤمن بعدل الله وحكمته ورحمته، أخ كريم بعد عشرين يوماً حدثني عن قصة لم يعلم ما أبعادها عندي، قال لي: لي جار يسكن فوقي، وقد أكل أموال الأيتام، يعني أولاد أخيه لهم عنده ثمن بيت تقريباً، وأكله زوراً وبهتاناً، احتكموا إلى أحد علماء دمشق ممن توفاهم الله عز وجل، هذا العالم جاء بهذا العم ليحمله على إعطاء أولاد أخيه حقهم، فركب رأسه، وقال: أنا لا أعطيهم شيئاً هذا الحاضر، اتجه هذا العالم لأولاد الأخ فقال: يا بني هذا عمكم لا تشكوه إلى القضاء، هو عمكم، ولكن اشكوه إلى الله، هو نفسه الذي أطل من دكانه فاستقرت رصاصة جعلته مشلولاً ثاني يوم الساعة التاسعة، هو نفسه، سألته: أين هو؟ قال: هو له محل في السوق الفلاني، قلت: منذ متى؟ قال: من عشرين يوماً، هو نفسه، فالله كبير.

على الإنسان أن يجعل بينه وبين مال اليتيم هامشاً واسعاً :

بموضوع الأموال يجب أن نخاف الله خوفاً لا حدود له، لأنك لو بذلت أثمن ما تملك، وهي روحك، وعليك دين لا تنجو من عذاب الله، فكيف لو أكلت أموال اليتامى ظلماً؟!

كان عليه الصلاة والسلام إذا دعي للصلاة على أحد أصحابه يقول: أعليه دين؟ فإن قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، ما كان يصلي عليه، فكيف إذا أكل أموال اليتامى ظلماً:

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)

هذا العمل سوف يوصلهم إلى جهنم، فالإنسان يعد للمليون قبل أن يأكل درهماً حراماً ليخشَ الله عز وجل، ولاسيما إذا كان المال مال يتيم، بل إن مال اليتيم يقول الله فيه:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الأنعام: 152] z

اجعل بينك وبينه هامشاً واسعاً، هذا هو حكم الشرع، في درس قادم إن شاء الله نتحدث عن آيات المواريث.

أسئلة عامة :

سؤال: قال أحدهم إغلاق العينين في الصلاة من أجل الخشوع يبطل الصلاة؟

الجواب: لا، لا يبطلها، لكن إذا أغمضت عينيك، وأنت تصلي في مكان فيه أفاعٍ، وفيه عقارب، وفيه أخطار لا تستقيم صلاتك، أما إذا دخلت إلى مسجد ورأيته مزخرفاً، هذه الآية والله خطها جميل، وأنت تصلي، وهذه المروحة ما نوعها، وأنت تصلي، لا، أغمض عينيك، أغمضها وارتَحْ، إذا أردت أن تفتح عينيك، وأن تتأمل ما حولك وأنت في الصلاة، لا، الأولى أن تغمض عينيك، أما إذا في مكان، والمكان فيه خطر إذا أغمضت عينيك لا تستقيم صلاتك، تقلق، افتح عينيك.

سؤال: ما حكم الاحتفال بعيد الأم؟

الجواب: أخواننا نحن عندنا ثلاثمئة وخمسة وستين يومَ عيد أم، والأصح عندنا ثلاثمئة وخمسة وستين ضرب اثنين، إذا كانت والدتك قريبة منك، تريد أن تزورها صباحاً ومساء، نحن لسنا أولاداً عاقين، من السنة للسنة مرة، فنحن عندنا في إسلامنا ثلاثمئة وخمسة وستين يوم عيد أم، أما هذا العيد فهو لغيرنا، هذا العيد لإنسانة تنتظر ثلاثمئة وخمسة وستين يوم يطل عليها بالسنة يوم، ولا يأتي أيام، والله حدثني أخ زار ألمانيا بمعرض، لم يجد فندق، سكن في بيت، قال لي: ما وقعت عيني على حديقة في حياتي أجمل من هذه الحديقة فسألت صاحبة البيت: ما سر ذلك؟ قالت: والله أنا أزينها، لعل أولادي يأتون في العام مرة، أصنع لهم أطيب الطعام، وأعتني بالحديقة كي يجلسوا جلسة، بثلاثمئة وخمسة وستين يوماً تنتظر مجيئهم، يوم كان عندها اعتذروا، فبكت بكاء كادت

تموت فيه من الألم، فذهب إلى السوق، واشترى لها الهدايا هو، هذا العيد ليس لنا، هذا العيد لأناس عاقين، قال لي رجل: أنا جئت من بريطانيا لأسكن في الشام، وأنا في بحبوحة كبيرة جداً، وسيارته فخمة جداً، ولديه فيلا، قلت له مداعباً: ما الذي حملك على أن تأتي إلينا؟ قال لي: والله يسكن في بناء مجاور في الطابق الأخير إنسان، في لندن الجو بارد جداً، والأبواب محكمة، والنوافذ محكمة، فمات هذا الجار، ومضى على موته ستة أشهر، وله في لندن أربعة أولاد أو خمسة، لم يخطر في بال أحد أولاده أن يأتيه مرة زائراً في هذه الأشهر فرأى مصيره، أراد أن يعود إلى بلده، هذا العيد لهؤلاء، لهؤلاء العاقين، أما نحن فعندنا ثلاثمئة وخمسة وستين عيد أم، كل يوم.

ما حكم النظر إلى النساء؟

لزوجتك مباح من دون قيد أو شرط، لمحارمك بثياب الخدمة، للأجنبيات محرم.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

سؤال: قال معظم المسلمين ممن يكونون مؤدين لأمور العبادة بشكل كامل، من صلاة، وزكاة، وصيام، وغير ذلك، ولكنهم لا يقومون بتقويم أسرهم، وإرشادهم، حيث إنك تجد معظم الأسر يتبعون المسلسلات والأفلام، ويستمعون إلى الأغاني دون أن يوجهون أهليهم بالنصح والتوجيه، فهل هذه العبادات تصح منهم بحيث أنها أصبحت عبادة سلبية لا أثر فيها.

الجواب: لا بد أن يستمروا على عبادة الله، ولكن ينبغي أن يجمعوا معها الاستقامة على أمر الله، من أجل أن يقطفوا الثمار الصحيحة.

سؤال: هل يجوز توزيع الزكاة خارج البلد الذي جمعت فيه؟

الجواب: الأصل أن توزع الزكاة في البلد التي جمعت منه الزكاة، لأن فقراء هذا البلد أولى بزكاة الأغنياء الذين هم سبب غناهم من بلد آخر، إلا لمصلحة راجحة، إذا أنت عندك بيت لكن غيرك ليس عنده بيت، هدم بيته، فإذا كان في مصلحة راجحة، ولك طريق آمن إليهم، يجوز أن تنقل أموال الزكاة من بلد إلى بلد.

سؤال: هل يجوز الدعاء في صلاة الفرض؟

الجواب: هي الصلاة دعاء، أما يا رب زوجني فلانة بنت فلان خائنة، ومثل هذه التفاصيل في الدعاء تفسد الصلاة، يا رب أريد دولارات مثلاً، أي اسم لم يرد في الأدعية المأثورة فثمة مشكلة، لأن الصلاة دعاء.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(06-69): تفسير الآيات 11-14، موضوع المواريث

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-03-29

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات التالية متعلقة بموضوع المواريث :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من دروس سورة النساء، ومع الآية الحادية عشرة وما بعدها، والآيات متعلقة بموضوع المواريث، الآية الأولى هي قوله تعالى:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

أيها الأخوة، يبين الله تعالى ويفصِّل في هذه الآية ما أجمله في قوله تعالى السابق:

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

ما تفصيل هذا النصيب؟ تفصيل هذا النصيب ورد في آية المواريث:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

علم الفرائض نصف العلم :

أيها الأخوة الكرام، يقول عليه الصلاة والسلام:

((تعلموا الفرائض وعلموه الناس، فإنه نصف العلم))

[أخرجه ابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

علم الفرائض كما قال عليه الصلاة والسلام نصف العلم؛ وهو يُنسَى، وهو أول شيء يُنزَع من أمتي، وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((تعلموا القرآن، وعلموه الناس، وتعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس، فإني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض حتى يختلف الرجلان في الفريضة لا يجدان من يخبرهما))

[رواه أبو يعلى والبزار عن ابن مسعود]

لاحظتم: تعلموا وعلموا، لذلك قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

هذه أركان النجاة، تتعلم وتعمل بما علمت، وتعلم الذي تعلمته، وتصبر على التعلم والتعليم، تتعلم، وتعمل، وتعلم، وتصبر، تصبر إذا طلبت العلم، وتصبر على من تعلمه إذا علمته العلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منهم، وتواضعوا لمن تعلمونهم، هذه أركان النجاة، العلم هو الحاجة العليا في الإنسان، أنت إنسان إذا طلبت العلم، فإن لم تطلب العلم فأنت مع بقية المخلوقات.

العلم ثلاثة :

أيها الأخوة، يقول بعض الصحابة: من لم يتعلم الفرائض والطلاق والحج فبمَ يفضل أهل البادية؟ وفي قول آخر لأحد التابعين: من تعلم الفرائض من غير علم بها من القرآن ما أسرع ما ينساها، إذا ربطت الفرائض بالقرآن وبالآيات لا تنساها، أما إذا درستها بعيدة عن كتاب الله سرعان ما تنساها، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة))

[أخرجه أبو داود وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن ابن عمرو]

يعني أن تعرف كتاب الله، لا شيء في حياتك يعلو على هذا الشيء، وهذا الدرس بفضل الله درس تفسير من ست وعشرين سنة،

((العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل))

1 ـ آيات محكمة لمجرد أن تقرأها تعرف معناها :

أما الأصل فـ(آية محكمة)، أن تفهم كتاب الله، ولا سيما أن تفهم آياته المحكمة، هناك بعض الآيات المتشابهة، هذه أوكل معناها إلى الله عز وجل، أما الذي هو مفروض عليك فريضة عين هو الآيات المحكمة، يعني معظم آيات الكتاب لا تحتاج إلى تفسير.

إن الله يحب الصادقين، أنت لا تحتاج لا إلى تفسير الزمخشري، ولا إلى البيضاوي، ولا إلى القرطبي، ولا إلى ابن كثير، لا تحتاج أبداً.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

[سورة البقرة: 222]

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة الإنسان: 30]

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

هذه كلها آيات محكمة لمجرد أن تقرأها تعرف معناها.

2 ـ سنة قائمة فسنة النبي تفسير لكلام الله :

العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، سنة النبي شرح الآيات.

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

[سورة النحل: 44]

قد يقول قائل: لو أن النبي فسر القرآن فكل أحاديثه هي في الحقيقة بيان وتفصيل لما في القرآن.

3 ـ فريضة عادلة أن تحكم بين الناس بالعدل وفق منهج صحيح :

أو فريضة عادلة، يعني أن تعرف كيف تؤدي الحقوق إلى أصحابها، أن تعرف كتاب الله، وأن تستوعب سنة النبي التي هي تفسير لكلام الله، ثم أن تحكم بين الناس بالعدل وفق منهج صحيح.

الشهداء أحياء بكل معاني هذه الكلمة :

أيها الأخوة، عن جَابِرِ بن عَبْدِ الله:

((أنّ امْرَأَةَ سَعْدِ بن الرّبيع قالَتْ: يَا رَسُولَ الله إنّ سَعْداً هَلَكَ))

[أخرجه أبُو دَاوُدَ عن جَابِرِ بن عَبْدِ الله]

هذا سعد بن الربيع تفقده النبي في أحد، فقال: ابحثوا عنه، فانطلق أحد أصحاب النبي إلى ساحة المعركة، فإذا هو بين القتلى، لكنه يئن، قال: يا سعد أنت مع الأموات أم مع الأحياء، قال: أنا مع الأموات، ذكر له أن النبي تفقده، فقال هذا الإنسان وهو على مشارف الموت: أبلغ رسول الله مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ أصحابه: أنه لا عذر لكم إذا خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، هكذا كان حال هذا الصحابي الجليل وهو يفارق الدنيا، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: 169]

ما دمنا قد تحدثنا عن الشهادة.

((من جهز غازياً في سبيل اللَّه فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا))

[متفق عليه عن زيد بن خالد]

((ومن سأل الله الشهادة مخلصا أعطاه الله أجر شهيد، وإن مات على فراشه))

[أخرجه الطبراني عن معاذ]

وتعلمون أن الله سبحانه وتعالى يجعل لهؤلاء الشهداء جنات تجري من تحتها الأنهار، وهم أحياء، بكل معاني هذه الكلمة.

علم المواريث أو علم الفرائض هو أول علم ينزع بين المسلمين :

((جاءت امرأة سعد ابن الربيع فقالت لرسول الله: إن سعد هلك وترك ابنتين وأخاه، فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد، وإنما تنكح النساء على أموالهن ـ هذه إشارة لطيفة جداً، يعني إذا كان الرجل ميسوراً فكتب لإحدى بناته بيت، فهذه البنت مع البيت تغدو مرغوبة في الزواج منها، وسيلة من الوسائل أن تسهم في تزويج ابنتك، الحياة صعبة، وشاب مؤمن فقير، لكن لا يملك بيتاً، فالأب الرحيم الأب الميسور يسهم في تزويج بناته عن طريق معونة الأصهار، معونة الخاطبين، وإنما تنكح النساء على أموالهن ـ فلم يجبها في مجلسها ذلك، ثم جاءته فقالت: يا رسول الله، ابنتا سعد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع لي أخاه، فجاءه، فقال: ادفع إلى ابنتيه الثلثين وإلى امرأته الثمن ولك ما بقي.))

[روى الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، عن جابر]

وروى جابر أيضاً فقال:

((مرضت فعادني رسول الله وأبو بكر في بني سلمة، فوجداني لا أعقل ـ في غيبوبة ـ فدعا رسول الله بماء فتوضأ، ثم رش منه عليَّ فأفقت، قلت: كيف أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ}))

[صحيح البخاري عن جابر]

أيها الأخوة، إذاً هذا علم مهم علم المواريث، أو علم الفرائض، وأول علم ينزع بين المسلمين:

((تعلموا الفرائض وعلموه الناس، تعلموا القرآن وعلموه الناس، فإني امرؤ مقبوض))

[رواه الدارمي عن ابن مسعود]

ولكن الأمر أصبح ميسراً جداً، وقد اطلعت على برنامج للفرائض يستطيع أن يتعلمه أيُّ إنسان، حيث يستخدمه فيعرف كل المسائل مع تعليلاتها، وقوانينها، ومراجعها، وأدلتها، وحساباتها الدقيقة.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[سورة القمر: 17]

الآن في هذا العصر لا عذر للجهل إطلاقاً، كل شيء واضح، كل شيء ميسر، كل شيء سهل، تعلمون في الدرس الماضي أن أهل الجاهلية لا يورثون إلا من كان يحارب، ويقاتل، لذلك نزلت هذه الآية تبياناً أن كل صغيرٍ وكبيرٍ له حظٌ في الإرث يقول الله عز وجل:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

حقيقة الولد الصلبي الذي منك، ومجازاً ابن الابن، أولادكم تعني أولادكم من أصلابكم، وأولاد أولادكم، كما أن الأب يعني أباك الذي أنجبك ويعني أيضاً والد والدك، مهما علا.

لا يرث المسلم من كافر ولا يرث الكافر من مسلم وهذا استثناء من عموم الآية :

أيها الأخوة:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

طبعاً المطلق في القرآن على إطلاقه، أي جميع الأولاد، القريبين منك، والبعيدين عنك، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

أي أن يكون الميراث لجميع الأولاد، لكن لا يرث المسلم الكافر، ولا يرث الكافر من مسلم، ما دام قد خرج من دين الإسلام لا يستحق الإرث، إذاً هذا استثناء من عموم الآية:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

يعني في جميع أولادكم الصغار، والكبار، الذكور، والإناث، الأقرباء، والبعيدين، هذا ما عليه الجمهور، لكن بعضهم يرى، ومنهم سيدنا معاذ ومعاوية أن المسلم يرث الكافر، فإذا كان لإنسان مسلم أب كافر فإنه يرثه، لكن جمهور العلماء على أن المسلم لا يرث الكافر، والكافر لا يرث المسلم، وقد أجمع العلماء أيضاً على أن الأولاد إذا كان معهم من له فريضة تؤدى هذه الفريضة أولاً، ثم ما بقي فهو لهم:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

الدَّين مقدم على كل شيء ولا يغفر للمسلم الدَّين ولو كان شهيداً :

هناك إرث بالتعصيب، وإرث بالفريضة، فلو أن الأولاد معهم مَن له فريضة بالإرث يعطى أصحاب الفرائض أولاً، وما بقي يوزع بين الأولاد:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

قال عليه الصلاة والسلام:

((ألحقوا الفرائض بأهلها))

[متفق عليه عن ابن عباس]

الشيء الدقيق الآية:

(يُوصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ)

الدَّين مقدم على كل شيء، ولا يغفر للمسلم الدَّين ولو كان شهيداً:

((يغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّين))

[مسلم عن عبد الله بن عَمْرو وعن أبي قتادة]

وكان عليه الصلاة والسلام إذا مات أحد أصحابه يسأل: أعليه دين؟ فإن قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، لذلك قبل أن تقترض عد إلى المليون، هل تستطيع أن تؤدي هذا الدين، لأن حقوق العباد مبنية على المشاححة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة.

لا ميراث إلا بعد أداء الدَّين والوصية :

قال تعالى:

(مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ)

أول شيء يوزع من تركة المتوفى الدَّين، بعد الدَّين الوصية، والوصية ينبغي ألا تزيد على الثلث، فإن زادت فلا تنفذ، والأولى أن تقل عن الثلث إلى الربع، لكن مثلاً إنسان ترك بيت مئة متر، وعنده أولاد خمسة، فإذا أوصى بثلث ماله فلا بد من بيع البيت، وهذه مشقة كبيرة جداً، بيت يأوون إليه، فأنت إذا أوصيت، ولم تترك إلا بيتاً صغيراً هو مأوى أولادك وزوجتك فأنت تأثم بهذه الوصية، ما دام بيت صغيراً فلا توص، أما إذا ثمة أموال كثيرة فلك أن توصي في حدود الثلث، والثلث كثير، والأولى أن تبقي الوصية في حدود الربع، لا ميراث إلا بعد أداء الدَّين والوصية، فإذا مات المتوفى، إياكم أن تقولوا المتوفي، إنه الله، مرة سألت امرأةٌ عالمَ لغة، وكان أستاذنا في الجامعة، قالت له: يا أخي من المتوفي؟ قال لها: الله، قالت له: كفرت، هو لم يكفر، المتوفي هو الله، لكن هذا الذي في النعش متوفى، إذا مات المتوفى أخرج من تركته الحقوق المعينات، ثم ما يلزم من تكفينه، ودفنه، ثم الديون التي على مراتبها، ثم يخرج من الثلث الوصايا، وما كان في معناها، والباقي يكون ميراثاً.

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

يتناول كل ولد ولو كان جنيناً، فإن الجنين في بطن أمه يرث، لذلك ينبغي أن يعلق توزيع الإرث على ولادة الجنين، فإذا نزل ميتاً لا يرث، أما إذا نزل، وصرخ صرخة واحدة يرث، ويورث إذا مات، إذا خرج منه صوت بعد الولادة، وقد يكون نصيبه مئة مليون، فإذا خرج منه صوت يورث، فإن لم يخرج منه صوت، ونزل ميتاً لا يرث، إذاً:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

في جميع أولادكم، حتى الجنين في بطن أمه، قريباً أو بعيداً، ذكراً أو أنثى، ما عدا الكافر كما تقدم.

حظ الأنثى أصل في توزيع الميراث :

قال تعالى:

(يُوصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ)

ما هي الوحدة؟ الوحدة هي حظ الأنثى، حظ الأنثى أصل في توزيع الميراث، قال:

(فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ)

إذا ترك نساء، يعني بنات فوق اثنتين:

(فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ)

وإن ترك واحدة:

(وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ)

الآية:

(فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ)

أريت إلى هذا التكريم، بنت تأخذ نصف مال أبيها والبنتان تأخذان الثلثين.

بعض المعالجة الفقهية لموضوع إرث الاثنتين :

لكن ثمة شيء لطيف جداً، البنت لها النصف، والبنات فوق الاثنتين لهن ثلثا ما ترك، والاثنتان هذه قضية خلافية، أطلعكم على بعض المعالجة الفقهية.

إذاً: لم يفرض الله في القرآن للاثنتين فرضاً منصوصاً في كتابه، فتكلم العلماء في الدليل الذي يوجب لهما الثلثين، ما هو؟ أولاً: عن ابن عباس أنه أعطى البنتين النصف، والبنت الواحدة لها النصف، وما فوق الاثنتين لهن الثلثان، أما البنتان فابن عباس أعطاهما النصف، وعاملهما معاملة البنت الواحدة، لأن الله عز وجل يقول: فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، فهذا شرط وجزاء، فلا أعطي البنتين الثلثين، وقيل: أعطيت الثلثين بالقياس على الأختين، فإن الله سبحانه وتعالى لما قال في آخر السورة:

(وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ)

[سورة النساء: 176]

صحابة كبار قاسوا على البنتين حكم الأختين، فأعطوهما الثلثين، فألحقت البنتان بالأختين في الاشتراك في الثلثين، وألحقت الأخوات إذا زدن على اثنتين بالبنات في الاشتراك في الثلثين، وفي الآية أيضاً ما يدل على أن للبنتين الثلثين، ذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث إذا انفردت معه علم أن للاثنتين إذا كن معه لهما الثلثان.

كتب المواريث تعد آلاف الصفحات كلها مستنبطة من صفحة واحدة من كتاب الله :

أيها الأخوة، هذه قضية أيضاً في المواريث:

(وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ)

إن كانت المولودة واحدة فلها النصف:

(فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً)

يعني كثيرات، فإن كان مع بنات الصلب بنات ابن، الآن بنت واحدة، لكن هناك بنات ابن، وكان بنات الصلب اثنتين فصاعداً حجبن بنات الابن أن يرثن بالفرض، وإن كانت بنت الصلب واحدة فإن ابنة الابن أو بنات الابن يرثن مع بنات الصلب تكملة للثلثين، هذه رياضيات المواريث، أما العجيب أن كتب المواريث تعد آلاف الصفحات كلها مستنبطة من صفحة واحدة من كتاب الله، هل يستطيع واحد أن تعطيه ألف صفحة ليضغطها في صفحة واحدة، الآية:

(يُوصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ)

الجنين إذا خرج ميتاً لا يرث فإذا رفع صوته بالبكاء ثم مات يرث ويورث :

الآن إذا مات الرجل، وترك زوجة حاملاً، فإن المال يقف حتى يتبين ما تضع، وأجمع أهل العلم على أن الرجل إذا مات وزوجته حامل أن الولد الذي في بطنها يرث ويورث إذا خرج حياً واستهل، أي رفع صوته بالبكاء عند الولادة، فقالوا جميعاً: إذا خرج ميتاً لا يرث، فإذا رفع صوته بالبكاء ثم مات يرث ويورث، هذا هو الحكم الشرعي:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

أيضاً:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ)

(وَلِأَبَوَيْهِ)

أي لأبوي الميت، يعني أمه وأباه على التغليب، كأن تقول: الشمسان، وتقصد الشمس والقمر، أو القمران، وتقصد القمر والشمس، وأن تقول: العمران، وتقصد أبا بكر وعمر، وأن تقول: الوالدان، وتقصد الأم والأب:

(وَلِأَبَوَيْهِ)

من علا من الآباء دخل، ومن سفل من الأبناء ـ أنا لا أستخدم هذه الكلمة ـ من نزل، الآباء مهما علوا أي الأجداد، والأبناء في قول مهما سفلوا ـ السفالة ليست مستحبة أن نستخدمها ـ فالأولاد مهما نزلوا هم أولاد.

وجود الأخوة قد يحجب نصيب الأم من الثلث إلى السدس حجب نقصان :

قال تعالى:

(وَلِأَبَوَيْهِ)

أي لأمه ولأبيه:

(لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ)

فالحكم الشرعي:

(لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ)

فرض الله تعالى لكل واحد من الأبوين مع الولد السدس:

(فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ)

من الثلث إلى السدس، من دون أولاد ثلث، مع الأولاد سدس، الأخوة إذاً يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، وهذا هو حجب نقصان، سواء أكان الأخوة أشقاء لأب أو لأم، إذاً فرض الله جل جلاله للأبويين لكل واحد منهما السدس مع الولد، فرض الله سبحانه وتعالى لكل واحد من الأبويين السدس مع وجود الولد، لكن وجود الأخوة قد يحجب نصيب الأم من الثلث إلى السدس حجب نقصان.

لا تُبنى المواريث على مقدار نفع الأولاد وبرهم أو عقوقهم :

ثم يقول الله عز وجل:

(آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً)

الأبناء ينفعون آبائهم بالدعاء والصدقة بعد موتهم، وقد ينفعونهم في حياتهم بالمعاونة، فإذا بنيت المواريث على مقدار نفع الأولاد وبرهم أو عقوقهم، هذه المقاييس غير ثابتة، نشأت فتن لا يعلمها إلا الله، لذلك موضوع أي الأبناء بار وأيهما أقل براً؟ من هو العاق؟ من هو الذي ينفعني؟ من الذي لا ينفعني؟ لو أدخلنا هذه المقاييس في نظام المواريث لكنا أمام مشكلة كبيرة جداً، إذاً:

(آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً)

أي في الدنيا، في الصدقة والدعاء، إن الرجل ـ كما جاء في الأثر ـ ليرفع بدعاء ولده من بعده.

((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

وقد ورد في بعض كتب التفسير أن الابن إذا كان أرفع درجة من أبيه في الآخرة سأل الله فرفع إليه أباه، وكذلك الأب إذا كان أرفع من ابنه يسأل الله فيرفع له ابنه، وهذا تشجيع لنا على أن نعتني بآبائنا وبأولادنا.

هذا التوزيع فريضة من الله، لم يسمح للنبي عليه الصلاة والسلام مع أنه سيد الخلق وحبيب الحق، لم يسمح للنبي عليه الصلاة والسلام أن يوزع المواريث، فريضة من الله، إذاً علاقات الأقارب، البر وعدم البر، العقوق وعدم العقوق، الخير، النفع، اللطف الزائد، هذا كله لا يدخل في توزيع المواريث، وهناك أناس كثيرون يدخلون هذه العلاقات في توزيع الإرث.

(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ)

إذا كان ثمة أولاد فلكم الربع، نصيب الزوج من زوجته النصف إن لم يكن له ولد، فإن كان له ولد فنصيبه الربع، نصيب المرأة من زوجها الربع إن لم يكن لها ولد، فإن كان لها ولد فنصيبها الثمن، فإرث الزوج من زوجته نصف أو ربع، وإرث الزوجة من زوجها ربع أو ثمن.

حينما يضر الإنسان الورثة فله جهنم :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ)

يعني لا أب له ولا ابن، هذا رأي الصديق، سيدنا عمر يرى أن من لم يكن له ابن فقط، على خلاف بين العلماء، على كلٍ الكلالة هو الذي يتوفى وليس له ولد. يقول الله عز وجل :

(وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ)

أساليب الإضرار أنْ يكتب الابن سنداً وهمياً على أبيه، بمبلغ ضخم، هذا السند دين، هذا السند الصوري الوهمي إضرار ببقية الورثة، هناك أساليب لا تعد ولا تحصى، حينما يضر الإنسان الورثة فله جهنم، والدليل حديث خطير جداً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنْ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فلذلك هناك أساليب لا تعد ولا تحصى في الإضرار بالورثة، عن طريق بيع وهمي، أو شراء وهمي، أو قرض وهمي، أو سندات وهمية، هذه كلها تضر بالورثة، فينبغي أن تكون دقيقاً في

توزيع أموالك بين أولادك وأقربائك وفق هذه الفرائض التي فرضها الله عز وجل، ولم يسمح لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يتدخل في تحديدها.

الفرائض والحصص هي حدود الله :

ثم يقول الله عز وجل:

(فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ)

الأخوة لأم، أي الأخ لأم الواحد له السدس، والأخت لأم الواحدة لها سدس، فإذا كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث، ثم يقول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ* تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)

أي هذه الفرائض، وهذه الحصص، وهذه الأنصبة هي حدود الله.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

في قسمة المواريث، ينفذها كما جاءت، ويعمل بها كما وردت.

(يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

في قسمة المواريث، ويتعدى حدوده، فيخالف أمر الله عز وجل.

(يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا)

آيات درس اليوم واضحة ومعبرة عن أن المواريث فرائض من الله تعالى :

أيها الأخوة، طبعاً هذا كلام موجز، وللمواريث بحوث طويلة جداً، ومسائل دقيقة جداً، وتفريعات لا يستوعبها درس عام، هذه تدرس في المعاهد الشرعية، ولطلبة العلم المتفرغين، والمتخصصين، والمتبحرين، على كلٍ هذه فكرة إجمالية عن توزيع المواريث، وقد جاءت هذه الآيات واضحة ومعبرة عن أن المواريث فرائض من الله تعالى، وبقدر إيمانك بالله، وتعظيمك له تجل وتقدر أمره في توزيع المواريث، هناك مسلمون لا يورثون البنات إطلاقاً، أعرف أسرة ترك الأب المتوفى أموالاً طائلة، فأجبر الأخ الأكبر أخواته البنات على توكيله في إدارة أموال أبيهم، ولم يعطهم شيئاً، بدعوى أن هذا المال سينتهي للأصهار، هذا كلام الجاهلية، فيا أيها الأخوة، أنا أذكركم بهذا الحديث الخطير:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنْ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لذلك حينما قال الله عز وجل:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(07-69): تفسير الآيتان 15-16 ، الشهوة وأحكام الزنى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-04-05

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان الشهوات وهي حيادية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من دروس سورة النساء، ومع الآية الكريمة الخامسة عشرة، وهي قوله تعالى:

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)

الحقيقة في هذه السورة التي سميت بسورة النساء شأن المرأة في الإسلام كبير، وكرامتها مصونة، وحقوقها مضمونة، وليس معنى هذا أن لها أن تفعل ما تشاء، إن انحرفت فأمامها عقاب أليم، وأي نظام ليس فيه مؤيدات وروادع فلا قيمة له إطلاقاً، فبعد الحديث عن مكانتها، وعن كرامتها، وعن حقوقها، وميراثها، ومساواتها للرجل في التشريف والتكليف وفي المسؤولية بيّن الله سبحانه وتعالى أنه وضع لخلقه منهجاً، فيبدو أن علاقة المرأة بالرجل علاقة تدخل في صميم كيان الإنسان، لذلك ترى لها من التشريعات، وله من التشريعات ما تغطي هذه الخصيصة اللصيقة بهم.

النقطة الأولى أيها الأخوة: أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان الشهوات، وهي حيادية، لأنه مخير، يمكن أن تكون سلماً نرقى به إلى رب الأرض والسماوات، أو تكون دركات نهوي بها في الظلمات ونيران جهنم، فهي حيادية، يمكن أن توظف في الحق أو في الباطل، والشهوة الجنسية التي أودعها الله في المرأة والرجل معاً شهوة حيادية، يمكن أن تكون سبب إنشاء أسرة سعيدة متفاهمة، تنجب أولاداً أطهاراً أبراراً، تكون هذه الأسرة مباركة في حياتها، وبعد انتهاء عقد الزواج، وفي ذرية هذه الأسرة إلى يوم القيامة، ويمكن أن تكون هذه الشهوة نفسها التي أودعها الله في المرأة والرجل سبباً لفساد عريض، وشقاء أبدي! فإما أن تكون الشهوة سلماً إلى سعادة أبدية في الدنيا والآخرة، أو تكون دركات يهوي بها الإنسان إلى شقاء أبدي في الدنيا والآخرة.

الشهوات توظف في الحق كما توظف في الباطل لأن الإنسان مخير :

الحقيقة الأولى أن هذه الشهوات حيادية، وأن الإنسان مخير، وأن هذه الشهوات توظف في الحق كما توظف في الباطل، توظف في مرضاة الله:

((..وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ يَكُونَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ وَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ))

[أحمد ومسلم عن أبي ذر]

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المؤمنون: 5-6]

عظمة الإسلام أنه ليس فيه حرمان، لكن فيه تنظيم، وفيه نظافة أخلاقية، وعفة، وعلاقات واضحة، هذه زوجة فلان، وأوضح مثل: أنك إذا رأيت شاباً يمشي مع فتاة هو خائف أن يفتضح، وهي خائفة أن يراها أحد، فإذا خطبها من أهلها يجلس في بيت أهلها، وقد يمضي وقتاً طويلاً معها في خلوة، ولا أحد يعترض، لا أبوها، ولا إخوتها الذكور، ولا أخوتها البنات، فالشيء الذي وفق منهج الله نفتخر به.

أرأيت إلى أصوات السيارات حينما تطلق بمناسبة عرس؟ ألا يستحيون؟ لماذا يستحيون؟ هذا شرع الله عز وجل، هكذا صممت المرأة والرجل.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المؤمنون: 5-6]

أي نظام اجتماعي يدعم الأسرة هو نظام صحيح :

حدثني صديق، طُرِق بابه الساعة الرابعة صباحاً، وحِلَ مِن هذا الطَّرْق في هذا الوقت، فتح الباب لم ير أحد! ألقى بنظره نحو الأسفل فإذا كيس أسود فيه طفل ولد لتوه! أنا وازنت بين أن ينجب زوجان ابناً، وتُهيأ له كل وسائل الراحة، والألبسة، والسرير، وغيرها، وحينما يأتي المولود يأتي المهنئون ومعهم الهدايا، ويقيمون الاحتفالات، وبين أن يأتي الطفل من طريق حرام، إما يوضع في حاوية القمامة، وإما أن يلقى في طرف المدينة، وقد نجد الآن في بعض الحاويات أطفالاً ولدوا بالحرام! أما في بلاد الغرب فعدد الأطفال اللقطاء لا يعدون ولا يحصون، لذلك قد تجد شخصيات كبيرة عندهم ليس لهم أب، وأعجبني تعقيب أحد خطباء المساجد في عيد الأم: لماذا يحتفلون بعيد الأم، ولا يحتفلون بعيد الأب؟ فكان جوابه أن الأب غير معروف! وأناس وصلوا إلى أعلى مناصب في بلاد الغرب هم لقطاء، أولاد زنى، لذلك إذا فشا الزنى في مجتمع فهناك انهيار عام يصيب

المجتمع، وأي نظام اجتماعي يدعم الأسرة فهو نظام صحيح، وأي نظام اجتماعي يسمح للإنسان أن يلبي حاجات جسده بعيداً عن الأسرة فهو نظام مهدم للمجتمع.

هذه حقيقة أولى، الشهوات التي أودعها الله في الإنسان شهوات حيادية، إنما أودعت في الإنسان ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، والفرق واضح جداً بين أن تخطب فتاة واضحة مؤمنة طيبة فتسعد بها في الدنيا والآخرة، وبين أن تؤدي هذه الرغبة بطريق غير مشروع، فتشقى في الدنيا والآخرة، والشعور بالكآبة والذنب لا يقف عند المسلمين، لأن الزنى محرم تحريماً قطعياً في دينهم، لكن يبدو أن هذا مركب في أصل الفطرة. إذا أرادوا أن يفضحوا إنساناً في عالم الغرب، فيتهم بإحدى فضيحتين؛ فضيحة مالية أو جنسية، لماذا تسمونها فضيحة؟

الذي كان في أعلى منصب في العالم فضيحته الكبرى أنه أقام علاقة مع هذه المتدربة في بيته الأبيض أو الأسود...

فالعلاقة التي لم يشرعها الله عز وجل علاقة آثمة فاحشة، ويستحيا بها، ويخجل الإنسان منها، لذلك تسمى فضيحة.

ليس في الإسلام حرمان لكن فيه تنظيم :

حدثني قريب مقيم بفرنسا أنه سمع في الليل إطلاق رصاص في بيت جاره، تحرى الخبر فإذا الجار قد تأكد أن زوجته تعمل في مؤسسة كمديرة مكتب المدير العام، وأنها تقيم علاقة معه، فأطلق عليها النار، وقتلها! أنا أسأل نفسي لماذا قتلها؟ أليس الزنى مباحاً عندهم؟ مباح، لكنه محرم بالفطرة، أكبر وسائل الإعلام حينما تريد أن تنال من إنسان تتهمه بالفاحشة، وتقول: فضيحة جنسية، أو أخلاقية.

ليس في الإسلام حرمان، لكن فيه تنظيم، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا ولها قناة نظيفة تسري خلالها، لكن بالمقابل هناك عقوبات رادعة جداً، ولكن الذي يسهل على الناس اقتراف الفواحش أنه لا عقوبات رادعة مطبقة في المجتمع! فلذلك بسبب ضعف إيمان الناس، وضعف الضبط الاجتماعي العام يقعون في هذه المخالفات.

إلا أن قضية الزواج وقضية النساء قضية دقيقة جداً، أساسها أن هذه الشهوة يجب أن يكون بينك وبينها هامش أمان، فإذا ضحينا بهامش الأمان كان احتمال الوقوع في هذه المعصية كبيراً جداً، وهامش الأمان أن تغض بصرك، ألا تخلو بامرأة أجنبية، ألا تتبرج المرأة. أقول لكم كلمة واضحة كالشمس: المرأة التي تتبرج، والمرأة التي تتزين لغير زوجها ومحارمها، والتي تعرض مفاتنها هي بلسان حالها تدعوهم إلى التحرش بها! هل تصدقون أن امرأة محجبة عفيفة مؤمنة طيبة طاهرة يجرؤ إنسان في الأرض أن يسمعها كلمة؟ هي محط إعجاب، وتوقير، وتقدير، ورفعة، الآية الكريمة:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ)

[سورة الأحزاب: 32]

علاقات الرجال بالنساء في عالم المسلمين علاقات نظامية كاملة :

حينما تحدث الله عن الحجاب قال:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ)

[سورة الأحزاب: 59]

لأنهن عفيفات طاهرات مؤمنات تقيات، فلا يؤذين بكلمة نابية، أو كلمة تجرح حياء المرأة، فالمرأة التي تتكشف، وتبرز مفاتنها لغير زوجها هي امرأة تدعو ـ شاءت أم أبت ـ بلسان حالها الناس إلى التحرش بها، لذلك مع التقدير الشديد لمكانة المرأة في الإسلام، ومع التقدير الشديد لكرامتها، ولسمو شأنها في المجتمع، وكيف أنها في الإسلام أم، وزوجة، وأخت، وبنت، وعمة، وخالة ليس في حياة المؤمن امرأة إلا أن تكون أمه، أو ابنته، أو زوجته، أو عمته، أو خالته، وليس في حياته امرأة هي عشيقته، علاقات الرجال بالنساء في عالم المسلمين علاقات نظامية كاملة.

كنت أروي هذه الطرفة دائماً، لكنها واقعة، هذا الذي أحب فتاة فاستأذن والده في الزواج منها، فقال له: لا يا بني، فإنها أختك، وأمك لا تدري! فلما أحب ثانية قال: لا يا بني إنها أختك، وأمك لا تدري، فلما أحب ثالثة قال: لا يا بني، فإنها أختك وأمك لا تدري، كان زير نساء، فلما ضجر وحدث أمه بما جرى له مع أبيه قالت له: خذ أياً شئت فأنت لست ابنه، وهو لا يدري!

هذا هو مجتمع الغرب، والله الذي لا إله إلا هو في هذه البلدة الطيبة قد يحتفل بعض الأجانب، ومضى على إقامتهم في دمشق سنتان أو أكثر، لأن زوجتهم أنجبت مولوداً قبل شهر يجمع أصدقاءه، ويحتفل بهذا الإنجاب، فالقضية عندهم الزواج شيء، والإنجاب شيء، والعلاقة الجنسية شيء آخر، وهذه الحرية المتفلتة، وليست المنضبطة يريدون أن يعمموها على العالم كله، وهذا ما يسمى اليوم بالعولمة أي الحيونة، أن يعود الإنسان حيواناً!

هذه الأحكام في الزنى لا تطبق إلا على المسلمات :

لذلك الآن نبدأ بآيات رادعة للمرأة، ذلك أن الله عز وجل حينما حدثنا عن الزنى قال:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

[سورة النور: 2]

بدأ بالمرأة، لأن الرجل تثيره المناظر المثيرة، أمر بغض البصر، وأمرت المرأة بالحجاب، فإذا لم تتحجب وغض بصره نجا، إذا تحجبت وأطلق بصره لم يحدث شيء، أما إذا تبرجت، وتفلتت، وأطلق الثاني بصره وقعت المشكلة. يقول الله عز وجل:

(وَاللَّاتِي)

اسم موصول لجمع الإناث:

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ)

الفاحشة هي الزنى، ونسائكم أي المسلمات، لأن هذه الأحكام لا تطبق إلا على المسلمات، بينما المرأة من غير دين الإسلام لا علاقة لها بهذه الأحكام، المقصود من نسائكم، أي من نسائكم المسلمات، وهو انتماء إلى الإسلام.

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ)

ما قال الله عز وجل: فارجموهما، هذه تهمة خطيرة ماحقة ساحقة فاضحة، تعيش مع الإنسان إلى نهاية حياته، لأنها تهمة خطيرة ومدمرة، لا تثبت إلا بأربعة رجال! أول حكمة لهذا القيد لا تقوم هذه التهمة إلا على أربع شهادات من رجال، والشهادة ينبغي أن تكون في واقعة الزنى الكاملة الواضحة الصارخة التي لا يشك فيها.

الفرق بين المعصية والفجور :

بالمناسبة حينما وضع الشارع الحكيم هذا القيد أنا لا أقول: قيد تعجيزي، لكن ليس من السهل أن يتوافر هذا الشرط إلا أن تكون المرأة فاجرة! وفرق بين المعصية والفجور، المعصية قد تقترف في حصن في غرف مغلقة، أما الفجور فأن تقترف هذه المعصية على قارعة الطريق كما يجري في العالم الغربي، وقد أنبأ النبي عليه الصلاة والسلام أنه: في آخر الزمان قد تقترف معصية الزنى على قارعة الطريق.

والله حدثني أخ كريم حضر من ألمانيا، أقسم بالله أنه كان في نزهة يمشي في حديقة عامة في ألمانيا قال: فوجئت بشيء لا يصدق، أن الزنى يجري في الحديقة أمام الناس جميعاً من دون تستر، أو حياء، أو خجل! هذا يقع هناك.

كنت مرة في بلد بعيد جداً في أقصى جنوب الأرض، وقد حدثنا أحد الأخوة الكرام أن له بيتاً مطلاً على حديقة، وفي يوم الأحد جاءت رحلة لمدرسة ثانوية فيها شباب وشابات، وأن الذي جرى بين الشباب والشابات في الحديقة يجري بين الزوجين في غرف النوم! هكذا الفاحشة تجري على قارعة الطريق، فلذلك أن تطالب المرأة أن تأتي بأربعة شهود معنى ذلك أنها مستهترة جداً، أنها تزني، ولا تعبأ بمن يراها، أما إذا أغلقت الباب فليس هناك شهود، فكأن الله عز وجل أراد بالأربعة شهود أن يكون الاتهام بالعرض عسيراً، ثلاثة شهود يجلدون ثمانين جلدة، حينما يتهم إنسان امرأة دون أن يأتي بأربعة شهود يجلد ثمانين جلدة.

قصة تروى، ولا أدري مبلغ صحتها لعلها قصة رمزية: امرأة تغسل امرأة ميتة، يبدو أنها اتهمتها بالزنى في أثناء الغسل، هكذا تروي القصص، وهي من باب القصص، فالتصقت يدها بجسمها، ولا

سبيل إلى نزع هذه اليد عن جسم هذه المرأة، يبدو أنها امرأة صالحة، واتهمت بالزنى في أثناء التغسيل، فسألوا الإمام مالك إمام دار الهجرة فقال: اجلدوها ثمانين جلدة تفك يدها! لأنها اتهمتها بالزنى في نفسها، على كل لمكانة المرأة العلية في المجتمع لا تستطيع أن تتهمها بالزنى إلا أن تأتي بأربعة شهود من الرجال رأوا واقعة الزنى رؤيا العين، كما يرى الميل في المكحلة، هكذا جاء في بعض التفاسير.

الشيء الثاني: حفاظاً على سمعة المرأة ومكانتها، وقد ورد في الأثر أن قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة.

حدّ الرجم أو الجلد هو حدّ لا للمرأة العاصية فحسب بل للمرأة العاصية الفاجرة:

أنا والله العبد الفقير أقيس على قذف المحصنة أنك إذا ذكرت امرأة فحركت قميصك هكذا فهذا نوع من الاتهام بالزنى، إذا ذكرت امرأة وقلت: الله يسترها لا نعرف، هذا نوع من الاتهام بالزنى، ويجب أن يكون الشاهد رجلاً.

وكأن هذا الحد، حد إقامة حد الرجم أو الجلد هو حد لا للمرأة العاصية فحسب، بل للمرأة العاصية الفاجرة، التي لا تعبأ أن يراها الناس وهي تزني.

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)

الحقيقة يوجد مفسر توفي قبل سنوات رحمه الله راجعت تفسيره في هذه الآية له رأي، لكن معه دليل قال:

(وَاللَّاتِي)

جمع الإناث، لو أن امرأة ورجلاً لقال واللذان، لأن اللغة العربية تغلب الذكور على الأنوثة، أما هنا:

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ)

هذا العالم الجليل يرى أن هذه الآية أن تكتفي المرأة بالمرأة، هذه الآية تغطي هذا ذلك أن في المجتمعات المحافظة كما يسمونها يصعب لقاء الرجال بالنساء، لكن يسهل لقاء النساء بالنساء، والرجال بالرجال، فهناك معصيتان كبيرتان جداً ترتكب في هذه المجتمعات، أن تكتفي المرأة بالمرأة، والرجل بالرجل، وزرت مدينة في أمريكا تعد من أجمل مدن أمريكا، خمسة وسبعون بالمئة من سكانها يكتفي النساء بالنساء، والرجال يكتفون بالرجال، هنا السياق:

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ)

أكبر خطر يتأتى من التكشف بين النساء :

هناك وهم عند عامة المسلمين، المرأة على المرأة ليس هناك خطر من أن تبدي جسمها للأخرى، مع أن أكبر خطر يتأتى من التكشف بين النساء، هذه الفاحشة أن تكتفي النساء بالنساء، والمطلعون على خبايا الأمور يعرفون أن هذه الفاحشة منتشرة في معظم البلاد انتشاراً واسعاً جداً، بسبب عدم انضباط المرأة مع المرأة، وأكثر هذه الفواحش تبدأ من التكشف، وهل تصدقون أن الأم لا يحق لها أن ترى عورة ابنتها، وعورة البنت على أمها من سرتها إلى أسفل ركبتها! لا يجوز.

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ)

كان من الاختلاط لذلك هو محرم، لأنه أحد أكبر أسباب الانحرافات الجنسية سواء بين ذكر وأنثى، أو أنثى وأنثى، أو بين ذكر وذكر، لذلك جاءتنا مؤتمرات السكان بتعريف جديد؛ الزواج هو عقد بين شخصين، وطالعتنا الأخبار قبل شهرين بأن سفير أمريكا في بوخارست عُيِّن، وعليه أن يأخذ أوراق اعتماده في حفل رسمي تقيمه وزارة الخارجية في أمريكا، ويحضر هذا الحفل وزير الخارجية، والعادة أن يأتي السفير مع زوجته، فهذا الشريك جاء مع سفيره الجنسي!

الحكم الشرعي: منعهن من الاختلاط، لأنه كان سبب هذه الفاحشة.

(فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)

بالتوبة، أو بشيء آخر.

الشذوذ عقابه القتل لأن الشاذ خالف فطرة الإنسان بينما العاصي خالف منهج الرحمن :

شيء دقيق أحب أن يكون واضحاً لديكم: الإله العظيم صمم الرجل على أن يرسل، وفهمكم كاف، وصمم المرأة على أن تستقبل، فالرجل مرسل، والمرأة مستقبل، هذا هو تصميم خالق الكون، فإذا استقبلت المرأة مستقبلاً لم تحقق الهدف، وإذا أرسل الرجل إلى مرسل لم يحقق الهدف، فالإرسال يحتاج إلى استقبال، والاستقبال يحتاج إلى إرسال، أما أن يكون الطرفان مرسلين، أو أن يكون الطرفان مستقبلتين فالأمر فيه خلل كبير، وهو خلاف منهج الله، لذلك قد تجدون أن عقوبة الزاني الجلد إن كانا غير محصنين، وقد تكون رجماً إن كانا محصنين، لماذا الشذوذ عقابه القتل كما عند معظم الفقهاء؟ القتل نهائياً، لأن الشاذ خالف فطرة الإنسان، بينما العاصي خالف منهج الرحمن، فمخالفة الحكم شيء، ومخالفة الفطرة أكبر بكثير، مخالفة الفطرة أن تغير تصميم الله عز وجل في العلاقة بين الأنثى والذكر، تجعلها أنثى مع أنثى، أو ذكراً مع ذكر، أو ذكراً مع بهيمة، أما الزنى وفق تصميم الإله، ولكن فيه مخالفة للشرع، ليس هناك عقد يبيح هذه المرأة لهذا الرجل.

الآية الثانية:

(وَاللَّذَانِ)

إذا كان الطرفان ذكرين:

(وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً)

كأن هاتين الآيتين في وجهة نظر معاصرة، لكن معظم المفسرين حملوا هاتين الآيتين على الزنى العادي بين الرجال والنساء.

(وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً)

الزاني غير المحصن عقابه مئة جلدة بينما الزاني المحصن عقابه الرجم حتى الموت :

بالمناسبة أيها الأخوة، الزاني غير المحصن عقابه مئة جلدة، بينما الزاني المحصن عقابه الرجم حتى الموت، لماذا؟ الرجم ثبت بفعل النبي عليه الصلاة والسلام، وعند علماء الأصول فعل النبي أبلغ من قوله، الفعل لا يؤوّل، بينما القول قد يؤوّل، لذلك فعل النبي أبلغ، ففهمه لكتاب الله من كلامه، فالنبي رجم، لكن قال العلماء: هذا الذي زنى بامرأة غير محصنة فضيحتها تقف عند أهلها فقط، أما هذا الذي زنى بامرأة محصنة فضيحتها تمتد إلى زوجها وأولادها. زارني شاب لا أعرفه قال: أمي تزني كل يوم! أتمنى أن أنتحر.

بالمناسبة، أخواننا الكرام، العلاقة بين المرأة والرجل بعد الإنجاب ليست ملك الرجل والمرأة، كلام دقيق، هي ملك الأولاد، هذا الطفل هذا أبوه وهذه أمه، فإذا اختلفا أو تنازعا يمزق الأولاد، فلذلك سمعة الأب والأم ملك أولادهم، الابن لو عانى من فقر أبويه لكنه يرفع رأسه بهما، هذا أبوه أمام الناس، والبنت ترفع رأسها بأمها العفيفة الطاهرة، ولو كانت فقيرة، أما حينما تعلم البنت أن أمها منحرفة فهي وصمة عار تلحقها إلى نهاية حياتها، لذلك الزاني المحصن يرجم حتى الموت. رأي أعجبني:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنْ الْأَرْضِ)

[سورة المائدة: 33]

حينما يعطل المسلمون حدود الله تقام على الزناة حدود من نوع آخر :

بربكم هل من فساد أعظم من أن تعتدي على امرأة متزوجة لها زوج وأولاد؟ وأن هذا الزوج سوف يصعق حينما يعلم أن زوجته تخونه، وأن هؤلاء الأولاد سوف يصعقون حينما يعلمون أن أمهم تزني، إنك تعتدي على امرأة لها أب، وأم، وأخوة، وأخوات، وأعمام، وأخوال، وعمات، وخالات، أما إن كانت متزوجة تضيف إلى جريمة الزنى أنك تلطخ سمعة أولادها، وسمعة زوجها،

وأهل زوجها، فما من فساد أكبر من أن يقع الزنى بين المحصنين، فالنبي عليه الصلاة والسلام رجم امرأة زانية حتى الموت، لكن هذه المرأة لها حالة خاصة، هي نجت من الشهود، لم يشهد على زناها أحد، لكن من شدة خوفها من الله بعد أن وقعت في هذه المعصية سألت النبي أن يرجمها، فأغفل ذلك قال: انتظري حتى تلدي، ولدت، فجاءته بالمولود، قال: حتى يفطم، ثم جاءته وبيده كسرة خبز، عندئذ رجمها، لأنها عرضت نفسها باختيارها لحد الرجم، فرجمها النبي، لأن ولي أمر المسلمين إذا رفع له أمر الزنى فلم يقم حد الله يقول عليه الصلاة والسلام: لا عفا الله عنه إن عفا، لكن ليس من شأن أي مسلم أن يبلغ عن حالة زنى، إذا كان بيت دعارة فهذا موضوع ثان.

ليس من اختصاص المسلم أن يبلغ، كما أنه ليس من واجب من اقترف هذه المعصية أن يبلغ عن نفسه رحمة بالعباد، أما ولي أمر المسلمين إذا كلف إنسان لمتابعة هذه الجريمة، وضبط الإنسان متلبساً بهذه الجريمة، ولم يقم حد الله عز وجل نقول: لا عفا الله عنه إن عفا، لأنه عطل حد من حدود الله.

إني أقول: إن المسلمين حينما يعطلون حدود الله عز وجل تقام على الزناة حدود من نوع آخر، أليس الإيدز حداً إلهياً أنزله الله بالعصاة؟ إذا سرق إنسان قطعت يده، أليس الله قادراً أن يوقع هذا الإنسان السارق فتقطع يده إثر حادث أليم؟ ممكن، فهذه الحدود إن لم تقم في بلاد المسلمين بحكم القرآن الكريم يقيمها الله عز وجل مباشرة بفعله التكويني، فالذي ينجو من عقاب الزنى في نص القرآن الكريم ربما لا ينجو من عقابه بقدرة العليم الخبير، والله حدثني أخ عن إنسان أصيب بورم خبيث في أداة الزنى التي كان يزني بها، ومات بهذا المرض، فحينما يبطش الله عز وجل:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

القرآن فيه أدب عال جداً :

قال تعالى:

(وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً)

في سورة النور تأتي تفاصيل هذه الأحكام، هناك من يرى أن هذه الآيات نسخت بآيات سورة النور، وهناك من يرى أن الآية الأولى:

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)

هذه منسوخة بالآية التي تليها:

(وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً)

لو فهمنا الآيتين على أن الأولى هي اكتفاء المرأة بالمرأة، والثانية اكتفاء الرجل بالرجل لكانت الآيتان محكمتين. أيها الأخوة، كتعقيب على هذه الآيات المتعلقة بما قاله الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ)

[سورة المؤمنون: 5-7]

القرآن فيه أدب عال جداً، كل ما سوى ذلك مما هو غير مباح ومشروع غطي بكلمة:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ)

[سورة المؤمنون: 7]

الشهوة متغلغلة أعمق التغلغل في الإنسان ولا تثور إلا في مجتمع الاختلاط :

أيها الأخوة، النقطة الأولى أن هذه الشهوة متغلغلة أعمق التغلغل في الإنسان، وما كثرة الأحكام الشرعية المتعلقة بها إلا لأنها شهوة مسعدة أو مدمرة! كهذا الوقود السائل الذي في السيارة، إذا وضع في المستودعات المحكمة، وسال في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب ولد حركة نافعة، أقلّتك هذه المركبة إلى مكان جميل أنت وأهلك، أما إذا خرج هذا الوقود عن مساره، وأصاب المركبة شرارة أحرقت المركبة ومن فيها، ففي هذه الشهوة ليس هناك مؤمن وغير مؤمن، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ))

[الترمذي عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ]

لو تتبعت حالات الزنى أو الانحراف الآخر لما وجدت أكبر من الخلوة سبباً لذلك:

((لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ))

[الترمذي عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ]

الشيء الثاني: التعري من الرجال والنساء معاً مع غير الزوجة، أيضاً هذا التعري أحد أسباب إيقاظ الشهوة، ففي حقيقة علمية دقيقة جداً: أنك إذا قبعت في غرفة، وليس في الغرفة شيء يشير إلى الطعام لا صورة ولا رائحة ـ أحياناً الإنسان يشم رائحة طعام نفيس فيشتهي أن يأكل ـ يقولون: يسيل لعابه، لكن لو قبعت في غرفة لا ترى شيئاً، ولا تسمع باسم الطعام، ولا بصورته، ولا بشكله، ولا برائحته تجوع جوعاً شديداً، لذلك يمكن أن تأكل عند الضرورة لحم الخنزير.

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)

[سورة البقرة: 173]

فالشهوة إلى الطعام شهوة تنبع من الداخل، بينما الشهوة الأخرى شهوة الجنس لا تتأتى إلا من الخارج، لا تثور الشهوة إلا في مجتمع الاختلاط، وفي المناظر المثيرة، وإلا في تفلت الفتيات من

منهج الله، وإلا من صحبة الأراذل، وسماع قصصهم، كل هذه مثيرات، فالشريف ليس الذي يهرب من الخطيئة بل من يهرب من أسباب الخطيئة، هذا القول للسيد المسيح عليه السلام.

نهي الله عز وجل الناس عن أسباب الزنى :

إذا أراد الإنسان أن يكون عفيفاً، وأن يكون محصناً فليطبق هذه الآية:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

أي كلمة، وأي علاقة أو مشي في طريق، لذلك من تنزه في الطرقات تجرح عدالته، من جلس مع أناس يتحدثون عن النساء تجرح عدالته، من كان حديثه عن النساء تجرح عدالته، من صحب الأراذل تجرح عدالته، فلذلك يجب ألا تصاحب صديقاً منحرفاً، كما ينبغي ألاّ تأتي الأماكن الموبوءة، حفلة ماجنة، فعليك أن تعتذر، بعض الأعراس مختلطة في الفنادق الكبرى، تأتي دعوة فخمة جداً، فالاختلاط، والعلاقات، وإطلاق البصر، والتفلت، والتبرج، هذه كلها أسباب، لذلك قال الله عز وجل:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

نهانا عن أسبابه، لأنك إن فعلت أسبابه فأغلب الظن أنك لا تستطيع أن تكبح جماح نفسك فيها، والذي يلفت النظر أن الإنسان ـ وقد قرأت هذه المقالة ممن لا يعرف القرآن إطلاقاً ـ إذا استثيرت شهوته يفرز الدماغ مادة تعطل محاكمته، وهذا ما يفسر أن الإنسان يقع في حماقة كبيرة، وهو في أعلى مكانة، يجلس في البيت الأبيض! فحينما يسمح الإنسان لنفسه أن يتجاوز حدود الله بخلوة مع امرأة أجنبية لا تحل له، أو بعلاقة آثمة مع إنسان منحرف، أو بصحبة الأراذل، أو بتعريض نفسه لمثيرات جنسية بشكل مستمر، هذا أيضاً يسبب الوقوع في الفاحشة.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المؤمنون: 5-6]

مواقف ومشكلات سببت انحرافات خطيرة :

كلمة تدعو إلى الألم، بحكم علاقتي بشريحة في المجتمع كبيرة جداً، وبحكم عملي في الدعوة إلى الله، وبحكم أن بعض الناس يثقون بي فيعرضون علي مشكلاتهم، أجد أن الانحرافات كبيرة جداً، حتى في هذا البلد الطيب! الانحرافات بأنواعها، وحتى زنى المحارم، وأعني ما أقول، لا أتكلم من فراغ، بل من وقائع، مع انتشار هذه الثقافات الغربية، وهذه الفضائيات، فالذي يحرص على سلامة أولاده فليكن دقيقاً جداً فيما يأتيه من البيت من أجهزة.

والله مرة في هذا الصحن وقف رجل وقور، وبكى بكاء كأنه طفل، خير إن شاء الله، قال: ابنتي حامل من ابني، وكلاهما في السجن! هذه مصيبة!

إنسان آخر رجا أحد خطباء دمشق اللامعين، قال: قل هذه القصة على المنبر: وهو جالس مع أولاده يقلبون هذه المحطات، منظر منحط جداً، فوراً نقله الأب لمحطة أخرى، الابن انتبه لرقم المحطة بعد أن آوى الوالدان لفراشهما في الساعة الثانية ليلاً سمع الأب أنيناً، فاستيقظ ليرى ابنه فوق ابنته، فقال للخطيب: أرجوك أن تذكر هذه القصة على المنبر.

أخواننا الكرام هناك مآسٍ لا يعلمها إلا الله، هل تصدقون أن تسعين بالمئة من حالات الاغتصاب لا يبلَّغ عنها! وأن هذه العشرة بالمئة المبلَّغ عنها تغدو رقماً كبيراً جداً! فإذا عافاك الله، وأهلك، وبناتك، وأولادك من هذه المعاصي والآثام فهو في نعمة ما بعدها نعمة، لأن سيدنا جعفر حينما قال: حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه.

أحد أكبر صفات المؤمن أنه عفيف، إن حدثك فهو صادق، وإن عاملك فهو أمين، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المؤمنون: 5-6]

الذي يحرص على سلامته وعفته فليحفظ أمر الله عز وجل :

إذا غض الإنسان بصره، ولم يعرض نفسه لمثيرات، وما أكثرها في هذه الأيام، في الأعم الأغلب أنّ الله عز وجل يحفظه، أما إذا عرض نفسه لهذه المثيرات، وأطلق بصره، وصحب الأراذل، واستمع إلى مغامراتهم، وسمح لنفسه أن يتجاوز حدود الله، والله عز وجل يقول:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

[سورة البقرة: 229]

هامش الأمان اخترقه، فكأنه كان يمشي على شاطئ نهر مستو جاف، وله شاطئ ثان، له ميل شديد، لكنه زلق، ثم نهر عميق، فمن يتعدى حدود الله فكأنه سار على شاطئ مائل زلق، سرعان ما يسقط في الماء، ومن ابتعد عن موجبات الزنى، وعن مسبباته فكأنه يمشي على شاطئ مستو جاف، فالذي يحرص على سلامته وعفته فليحفظ أمر الله عز وجل.

يا غلام احفظ الله يحفظك، وأقول لهؤلاء الشباب الأطهار التائبين: عفتكم قبل الزواج وسام شرف لكم، وهي سبب للتوفيق الإلهي لزوجة صالحة، تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إن غبت عنها، وتطيعك إن أمرتها.

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة البقرة: 201]

أثمن شيء بعد الإيمان بالله زوجة صالحة :

قال علماء التفسير: حسنة الدنيا الزوجة الصالحة، أثمن شيء بعد الإيمان بالله زوجة صالحة، تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إن غبت عنها، وتطيعك إن أمرتها، وما من شاب يتعفف عن الحرام إلا هيأ الله له زوجة صالحة، هذا وعد إلهي. حديث في الجامع الصغير للسيوطي، اقرأه فيقشعر جلدك!

((ثلاثة حقّ على الله عَوْنُهم... والناكحُ الذي يريد العَفَافَ))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

لقد أنشأ الله عز وجل لك حقاً عليه! هناك قصص لا تعد ولا تحصى، الشاب الذي يعف عن الحرام، ويبتغي الحلال، والله هناك شاب، وهذه القصة من أربعين سنة تقريباً، كان محرماً لأمه في الحج، عاد إلى الشام حاجاً، فتح مكتبة في أحد أحياء دمشق، وكان ثمة حافلات كهربائية، المتقدمون في السن وأنا مثلكم يعرفوها، فجاءته فتاة لعوب ماجنة، غمزته فغمزها، فأغلق محله، وتبعها، إلى أين ذاهب؟ إلى الزنى، تذكّر أنه حج بيت الله الحرام، فغلبته خشية الله، وجد حافلة صعد فيها، وترك هذا العمل، هو الآن حي يرزق، يقسم بالله العظيم أنه في اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي، قال له: يا بني أنت متزوج؟ قال: لا، قال: عندي بنت تناسبك، فتوهم أن هذه البنت فيها عيب كبير حتى عرضها أبوها، فلما أرسل أمه إليها وجدتها فتاة رائعة الجمال، فلما عاد الأب إلى هذا الفتى قال: يا سيدي البنت رائعة، لكن أنا لا أملك شيئاً، قال: هذا ليس عملك، أبوها تاجر زيت كبير هيأ له بيتاً، وأثث البيت، وجعله شريكاً له في العمل، وهو الآن حي يرزق من أحد كبار تجار الزيت، لا يوجد شاب على وجه الأرض يغض بصره عن محارم الله، ويرجو رحمة الله، ولا يهون عليه أن يعصي الله إلا أكرمه الله، ولو بدا الأمر صعباً عند العبد، قصص كثيرة جداً، لكن لا وقت لنحكيها، والحمد لله رب العالمين.

أسئلة عامة :

سؤال: هل يستجيب الله للمؤمن إذا دعاه أن يطيل في عمره؟

الجواب: العمر لا يزيد، العلماء حلوا هذه المشكلة بأن قيمة العمر لا في مدته الزمنية فهي ثابتة، ولكن في غناه بالعمل الصالح، وأوضح مثل: تفتح محلك بأربع ساعات تبيع بمليون ليرة، وقد يفتح أحد محله أربع ساعات يبيع بمئة ليرة، فالوقت لا قيمة له، العبرة بالغلة، فالإنسان يطيل عمره بالعمل الصالح هذا المعنى.

سؤال: هل تجوز الصلاة عند سماع الأذان مباشرة؟

الجواب: يكون بقي دقيقتين، أما إذا كان بوقت عندك ركب بسيارة عامة وسفر إذا دخل الوقت تجوز الصلاة، أما في المسجد هل معقول أن يقول الله أكبر فتقوم فوراً للصلاة وتذهب؟

سؤال: أنا زوجة ولي ولدان لزوج يتعامل بالفائدة، هل أعتبر أنا وأولادي آكلين لمال حرام؟

الجواب: الحقيقة حرمة المال لا من عينه بل من طريقة كسبه، فالزوج طبعاً يكسب المال الحرام، أما الزوجة ينفق عليها زوجها ليست آثمة في أن تأكل الحد الأدنى من طعامه وشرابه هي وأولادها وليس عليها إثم، لا دخل آخر ولا طريق أخرى فهي ليست آثمة فيما تأخذ في الحد الأدنى، أما هو آثم قطعاً.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(08-69): تفسير الآيتان 17-18، التوبة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-04-12

بسم الله الرحمن الرحيم

التوبة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من دروس سورة النساء، ومع الآية الكريمة السابعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

أيها الأخوة، لا شك أنكم مؤمنون أن المسلمون في محنة كبيرة، والمقولة الثابتة: أنه ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة، وأي تصور للمسلمين أن مشكلتهم تحل بكذا، أو بكذا، أو بالصلح مع كذا، أو بتقديم التنازلات لهؤلاء... أي حركة للخلاص مما هم فيه أرضية لا تنفعهم! لا ينفعهم إلا أن يتوبوا، وآيات اليوم عن التوبة، أو بعبارة أخرى ما من وقت يحتاج فيه المسلمون إلى أن يتوبوا، وأن يرجعوا فيه إلى ربهم حتى يزيح الله عنهم هذا الكابوس كهذا الوقت الذي نحن فيه، فدرسنا متصل بالأحداث أشد الاتصال، يقول الله عز وجل:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)

إنما تفيد الحصر والقصر، فإنما، والنفي مع الاستثناء هي أدوات حصر، وثمة فرق كبير أن تقول: دخل خالد إلى الصف، أو أن تقول: ما دخل إلى الصف إلا خالد، الحصر والقصر قد يؤخذ من النفي والاستثناء، وقد يؤخذ من التقديم والتأخير، وقد يؤخذ من كلمة إنما، فإنما أداة حصر وقصر، إذا قلنا: إنما فلان تاجر، لا يعمل إلا في التجارة، أما: فلان تاجر، وقد يكون له عمل آخر لا يتناقض مع التجارة، بالتقديم: إياك نعبد وإياك نستعين، إذا قلنا: إياك نعبد، أي لا نعبد إلا إياك، أما إذا قلنا: نعبد إياك، بالترتيب الطبيعي فالمعنى نعبد إياك وقد نعبد غيرك معك!

معان كثيرة تؤخذ من صيغة الحصر والقصر :

آيات كثيرة بهذا المعنى:

(أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

لو أن الله عز وجل قال: تطمئن القلوب بذكر الله، لكان المفهوم أيضاً: وتطمئن بغير ذكر الله، أما حينما قال:

(أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

فالاطمئنان لا يكون إلا بذكر الله حصراً.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة: 5]

العبادة محصورة بخالق الأكوان فقط، معان كثيرة تؤخذ من هذه الصيغة، صيغة الحصر والقصر.

أيها الأخوة:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)

أي التوبة مقصورة على كذا وكذا، ومحصورة في كذا وكذا.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)

حيثما تأتي كلمة (على) مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام الذاتي، الله عز وجل ليس من شأن الألوهية أن يلزمها أحد، ليس من شأن مقام الألوهية أن جهة أخرى تلزمها بشيء، أما إذا جاءت كلمة على قبل مقام الربوبية أو الألوهية معنى ذلك أن الله ألزم نفسه بهذا العمل.

حيثما تأتي كلمة (على) مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام الذاتي :

الآية الدقيقة:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ*إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

الله عز وجل ألزم ذاته العلية إلزاماً ذاتياً أن يعدل بين خلقه، فالأمر بيد الله، وما أكثر الدواب الآن!

(مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

وقد تكون هذه الدواب في أعلى مقام دنيوي، يتربعون على رأس أكبر دولة في العالم، أو أقوى دولة، أو دولة عميلة لهذه الدولة.

(مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

الله عز وجل ألزم ذاته العلية بهدى العباد، هذا شأن الله عز وجل، على الله أن يهدينا، وعلينا أن نستجيب، وربما لا نستجيب، فحيثما وردت كلمة (على) قبل لفظ الجلالة فإنما تعني أن الله ألزم ذاته العلية بهداية الخلق، وألزم ذاته العلية بالعدل بين الخلق.

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

وألزم ذاته العلية أن يفتح باب التوبة على مصراعيه.

أكبر شيء في الذات العلية يؤكد رحمته بالعباد أنه فتح باب التوبة :

أخواننا الكرام: لو تصورنا أنه ليس في الدين توبة ما الذي يقع؟ انظر إلى مسجد قد تجد فيه ألف، ألفين، ثلاثة، أربعة، أنا متأكد أن أربعة أخماس المستمعين والحاضرين ساقهم الله إليه بسلسلة من المصائب، فاصطلحوا معه، وتابوا إليه، لو أن باب التوبة مغلق لا تجد في المسجد شخصاً، لمجرد أن تذنب فقد قطع عنك باب التوبة، أغلق باب التوبة، وأنت حينما ترى أنه لا أمل تفاقم الأمر، ويزداد الإنسان معصية إذا أُغلق باب التوبة دونه، وإذا فُتح باب يُلغى ويُغفر أكبر ذنب، أما إذا أغلق يمكن أن يفجر الإنسان بدءاً من أصغر ذنب، فلو أنه أطلق بصره في الحرام، وهو يائس من توبة الله عليه، وما دام أنه لا توبة هناك، ولا رحمة لما اكتفى بإطلاق البصر؟ ولانتقل إلى أكبر من ذلك؟ لو أغلق باب التوبة لانقلبت الصغائر إلى كبائر حقيقة، ولأن باب التوبة مفتوح تغدو الكبائر صغائر، أعظم عطاء إلهي، أكبر شيء في الذات العلية يؤكد رحمته بالعباد أنه فتح باب التوبة، عبدي لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الزمر: 53]

ما قال الذين أخطؤوا، الذين عصوا.

(الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

[سورة الزمر: 53]

التائب تحت مظلة الله عز وجل :

والله في خلال هذه الدعوة إن شاء الله المباركة أشخاص يزيدون عن عشرين شخصاً كأن أقوالهم متشابهة، يقول لي أحدهم: ما من معصية تتصورها إلا فعلتها! وتاب الله علي، وعاد إلى حظيرة القدس، وأصبح من المؤمنين، حتى من عملتْ في ظروف ساقطة إذا تابت يتوب الله عليها، فأول شيء:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر: 53]

الحديث الشريف:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

والله أيها الأخوة لا أشعر أن كلمة هنيئاً تقال إلا لمن تاب إلى الله، لو أنك اشتريت بيتاً فخماً، وجاءك الناس مهنئين، ولم تكن على ما يرضي الله، هذا البيت يزول بعد حين، لا بد أن تغادره إلى القبر، لو أن لك زوجة في أعلى مستوى فلا بد أن تفارقها أو تفارقك، لو أن معك مال قارون فلا بد أن تدعه وترحل، أما الشيء الذي يبقى إلى أبد الآبدين فهو أن تتوب إلى الله عز وجل، لذلك إحساس التائب لا يوصف، أقول لكم: يشعر أنه خفيف، وأن الله يحبه، وراض عنه، ومعه، ومؤيده، وناصره، وحافظه، والتائب تحت مظلة الله.

الله سبحانه وتعالى ألزم ذاته العلية أن يتوب على عباده رحمة بهم :

للتقريب: موظف بقصر ملكي، معه الملك، فلا يجرؤ مواطن أن يناله بأي أذى، لأنه يشعر بحماية كبيرة جداً من القصر الملكي، فأنت حينما تتوب أنت مع الله، والله معك.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)

وكأن الله سبحانه وتعالى ألزم ذاته العلية أن يتوب على عباده رحمة بهم، تصور لو أن باب التوبة مغلق لوجدت أقل المعاصي تنقلب إلى أكبر الكبائر لا أمل.

هذا الذي سأل أحد الرهبان، وقد قتل تسعة وتسعين رجلاً ألي توبة؟ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَاناً ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ فَأَتَى رَاهِباً فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما دام ليس هناك توبة فيجب أن أتابع القتل، أما مع التوبة فكل شيء له حل، ولو تعاظمت عليك ذنوبك، يجب أن تذكر رحمة الله عز وجل، الله عز وجل قال:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف: 156]

ألست شيئاً أيها العبد؟ بالمناقشة المنطقية أنت شيء:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف: 156]

حينما تتوب معنى ذلك أنك دخلت في مظلة الله عز وجل، أنت في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)

الله بذاته العلية ألزم نفسه بقبول التوبة على العباد.

للآية التالية معنيان :

قال تعالى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)

1 - الإنسان إن لم يكن يعلم أن هذه معصية فتوبته سهلة جداً :

لهذه الآية معنيان: المعنى الأول: أن الإنسان إن لم يكن يعلم أن هذه معصية، فتوبته سهلة جداً، حتى إن بعض الفقهاء من أحكامهم الدقيقة أن الذي يسمى حديثَ عهد بالإسلام لو أنه أفطر في رمضان بغير سبب الطعام والشراب، بل بسبب آخر، ولا يعلم أن هذا محرم في أثناء الصيام فلا شيء عليه، القضية إن لم تكن تعلم أن هذا ذنب فالتوبة منه هينة جداً، وكلما ازداد علمك بهذا الذنب تصعب التوبة شيئاً فشيئاً، وكلما كررت الذنب تصعب التوبة منه شيئاً فشيئاً، التوبة تصعب حينما تعلم أنه ذنب، وحينما تكرر هذا الذنب، والتوبة تسهل حينما تجهل أن هذا ذنب أو تتوب سريعاً من هذا الذنب، فلذلك يقول الله عز وجل:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)

هناك ملمح دقيق في الآية: ما من إنسان على وجه الأرض إلا إذا عصى عُدّ عند الله جاهلاً، لو كان يعلم لما عصى، لو علم أثر الذنب في حجبه عن الله، أو في بُعده عن منهج الله، أو في انقطاع صلته بالله، في ظلام قلبه، في اسوداد وجهه، في خطأ سلوكه، في ردود أفعاله القاسية، هذه كلها آثار الذنب، حتى لو تعلم أنه بينك وبين إنسان علاقة طيبة جداً، وكلاكما مؤمن، هذه العلاقة لا تفسد إلا بذنب يصيبه أحدهما أو كلاهما، فعَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ:

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[أحمد عَن ابْن عُمَرَ]

2 ـ لو تعلم أن الذنب سبب شقائك وانقطاع صلتك لما فعلت الذنب :

إن العداوة والبغضاء التي يعاني منها المسلمون أشد المعاناة فيما بينهم، ويعاني منها المسلمون مع أعدائهم سببها البعد عن منهج الله.

(فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: 14]

لو تعلم أن الذنب سبب شقائك، وحجابك، وانقطاع صلتك، وخطأ تفكيرك، واضطراب سلوكك لما فعلت الذنب، لا يفعل الذنب إلا جاهل، هذا هو المعنى الآخر.

الجاهل من يعصي الله عز وجل:

قال تعالى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)

لولا أنهم تلبسوا بالجهل لما فعلوا السوء، لما سيدنا يوسف قال:

(وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف: 33]

أي إنسان صبت نفسه إلى امرأة لا تحل له فهو عند الله جاهل، لأنه استعجل هذه المتعة الرخيصة العاجلة، وضيّع السعادة الأبدية، أنت حينما تبيع شيئاً يقدر بمليار بمئة ليرة فقط فرضاً، فهل أنت عالم؟ لا، جاهل، حينما تبيع حجر ألماس قيمته مليون بعشر ليرات فأنت جاهل.

أحياناً يسرق الإنسان ـ أبعدنا الله عن هذا السلوك الإجرامي ـ ولجهله بنوع البضاعة التي سرقها يبيعها بثمن بخس، ماذا يسمى عند من اشتراها؟ يقول عنه: إنه جاهل، لأنه باعها بثمن بخس، هذا الذي يعصي الله جاهل، لأنه لا يمكنك أن تعصيه وتربح، ولا يمكن أن تطيعه وتخسر!

(وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ)

[سورة الأعراف: 33]

أنا عندك جاهل يا رب، حتى الذي يعمل الذنوب والسوء هو عند الله جاهل، يجهل المؤدى. لو اقتربنا من بعض الأمثلة: هذا الذي يدخن لو علم أن الدخان سوف يقضي على صحته، على رئتيه، أو ضغطه، أو سيولة دمه لما دخن، لو تعلم النتائج لم تفعل المقدمات أبداً.

من يعمل السوء هو جاهل بالنتائج :

لذلك أحد أسباب الشقاء هو الجهل وأكبر دليل أن أهل النار وهم في النار يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك: 10]

حينما لا تنطلق من حبك لذاتك أو لا سمح الله من أنانيتك تطيع الله عز وجل، لأنك سبحانك لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت.

لو تعلم ما في المعاصي من أخطار، ومن تدمير، ومن شقاء، ومن ضغوط نفسية، ومن تحمل ما لا يحتمل لما أقبلت عليها، من يعمل السوء هو جاهل بالنتائج. الناس الآن بم يتفاوتون؟ هذا الذي أقدم على سرقة صائغ في محافظة دمشق، وسرق سبعة كيلو غرامات من الذهب، وبعد عشرة أيام علق مشنوقاً في البلدة نفسها، لو أنه عرف نتيجة السرقة هل يقدم عليها؟ إذاً فهو جاهل، ففي علم النفس يصنف المجرمون بأنهم أغبياء!

هذا الذي يقتل الناس، يقتل عباد الله، يقتل شبابهم، يذبح أطفالهم، يهدم بيوتهم، هل هو جاهل أم عالم؟ والله إنه لأكبر الجهلاء، لأنه سوف ينتظره عذاب إلى أبد الآبدين، لذلك يعجب الله عز وجل، ويقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى)

[سورة الأعلى: 13]

لذلك أكبر غبي وأحمق الذي يعصي الله عز وجل، فمن هو السعيد؟ الذي في طاعة الله.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران: 185]

كلما تغلغل الذنب في الإنسان أصبح جزءاً من كيانه :

قال تعالى:

(يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)

أول معنى: لو أنك لا تعلم أن هذا ذنب هذا شيء مخفف، ومسهل للتوبة، ومسرع لها، أما إذا علمت أنه ذنب يقيناً فعندئذ تصعب عليك التوبة، فإذا كرر الذنب كانت التوبة أصعب وأصعب!

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

لا سمح الله ولا قدر حينما يقع الإنسان في ذنب، ويرجئ التوبة، كلما أرجأها استمرأ هذا الذنب، ودخل في عاداته اليومية، وكلما تغلغل الذنب أصبح جزءاً من كيانه، وإذا قضى أحد عمره في لعب النرد، ثم بينت له الحكم الشرعي لا أظنه يستجيب، فقد أصبحت هذه اللعبة جزءاً من كيانه، وقبلها جزءاً من عاداته، واستمرأها، هذه نصيحة إلهية ينبغي أن تتوب بعد الذنب مباشرة، ألا تجعل فاصلاً زمنياً طويلاً بين الذنب وبين التوبة، لأنه بعد حين يصبح الذنب جزءاً من حياتك، تستمرئه، وينقلب إلى عادة، وإلى سلوك يومي، لذلك دعوة المتقدمين في السن صعبة جداً، يقتنع ولكن لا

يستطيع أن يغيِّر، لأنه أَلِفَ هذه المعصية والاختلاط، ولعب النرد، ومتابعة المسلسلات، لا يستطيع أن يغير، فالبطولة أن تكون شاباً.

من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة :

كنت في بلد قبل أسبوعين، دخلت إلى أحد المساجد، والله شيء رائع جداً، مصلون خاشعون، لكن قدرت أعمارهم كلهم فوق الخمسين أو الستين، وازنت بين هذا البلد وبين بلدنا الطيب كله شباب، ظاهرة طيبة جداً، الآن ترى رواد المساجد في الأعم الأغلب شباب. ريح الجنة في الشباب، والذي يصنعه الشباب الآن لا يستطيع أن يصنعه الكبار، أليس كذلك؟! صنع الشباب اليوم تعجز عنه الجيوش المجيشة أن تصنعه، ريح الجنة في الشباب، لا أرى عطاء كبيراً من الله يفوق أن تتعرف على الله في مقتبل حياتك، فإن تعرفت إلى الله في مقتبل حياتك شكلت حياتك وفق منهج الله، وكان عملك، وزواجك، وكسب مالك، وإنفاقك، وتربية أولادك شرعياً، فإذا سمح الله لشاب في مقتبل حياته أن يعرفه، أو هيأ له ظروفَ معرفته، أو دله على أهل الحق، على أشخاص مخلصين، وعرف الله عز وجل في مقتبل حياته، هذا من أسعد الناس، وهو الشاب الذي نشأ في طاعة الله، ومن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة.

(ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

لا تنم قبل أن تتوب، لا يمضِ عليك اليوم قبل أن تتوب.

(مِنْ قَرِيبٍ)

لا تجعل مسافة طويلة بين الذنب والتوبة، هذه المسافة الطويلة تغريك أن تعيد الذنب وأن تثبت عليه، وأن تبحث عن غطاء لهذا الذنب، وتبحث عن فتوى ضعيفة لتغطي هذا الذنب، كلما أخرت التوبة بحثت عن شيء يعينك على الاستمرار على هذا الذنب، لذلك قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

شعور الإنسان أن الله تاب عليه وقبله لا يعلمه إلا من ذاق حلاوة التوبة :

لما كان سيدنا عمر يمشي في طرق المدينة مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف، ورأى قافلة قد نصبت خيامها في المدينة قال عمر لعبد الرحمن: تعال يا عبد الرحمن نحرس هذه القافلة، فجلسا في الليل، فإذا بطفل صغير يبكي، فقام عمر لأمه وقال: أرضعيه، فأرضعته، ثم أعاد الكرة فبكى، فقام إليها ثانية، وقال لها: أرضعيه، ويبدو أن عمر كان عصبياً، ففي المرة الثالثة قال لها: يا أمة السوء أرضعيه! لمَ لا ترضعيه؟ عندئذ غضبت هذه المرأة وقالت: وما شأنك بنا؟ إنني أفطمه، قال: ولمَ؟ قالت: لأن عمر لا يعطي العطاء إلا بعد الفطام، أي التعويض العائلي! فضرب سيدنا عمر وجهه

وقال: ويلك يا ابن الخطاب، ويلك كم قتلت من أطفال المسلمين؟ عدّ نفسه قاتلاً، وقال كُتَّاب السيرة: في صبيحة اليوم صلى الفجر بالناس، فما استطاع المصلون أن يفهموا كلامه من شدة بكائه! فكان يقول: يا رب، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟ فإذا شعرت أن الله تاب عليك وقبلك وعفا عنك فأنت أسعد الناس.

أنا أسوق هذه المعاني أيها الأخوة لأننا بحاجة إليها، لو كنت مستضعفاً، لو لم تملك تلك الأسلحة الجبارة لكنك توفيت على إيمان وعلى طاعة فأنت الناجح المنتصر، والله لا أبالغ إذا جاء الموت وأنت على طاعة، وعلى عقيدة سليمة، وطاعة لله مخلصة فأنت المنتصر. ماذا قال الله تعالى عن أصحاب الأخدود؟

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ*الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة البروج: 8-9]

لقد أثنى والله عز وجل عليهم، وبيَّن أن هذا الذي أحرقهم هو إلى جهنم وبئس المصير، فلذلك شعور الإنسان أن الله تاب عليه وقبله لا يعلمه إلا من ذاق حلاوة التوبة، وحلاوة الصلح مع الله، وحلاوة الإقبال عليه، وحلاوة التقلب في نعيم القرب منه.

ما كل توبة يعقبها قبول من الله عز وجل :

قال تعالى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

يتوب عليهم، لكن العلماء قالوا: لا يجب على الله أن يتوب عليه، لله حكمة، لأنه عليم حكيم، أحياناً يقترف الإنسان ذنباً ويقول: أتوب، كالمستهزئ بربه، فما كل توبة يعقبها قبول من الله عز وجل. البارحة وقع أخ في مشكلة كبيرة جداً، والله ليس لها حل، قلت له: هناك حل واحد؛ أن تصلي قبل الفجر ركعتين،وأن تدعو الله في هاتين الركعتين، ففي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

[مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ]

كأن الله عز وجل يقول لك: أنا حاضر يا عبدي فاطلب مني، إذا كان عندك الإخلاص واليقين أن الأمر كله بيد الله.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 26]

إذا كان عندك يقين أن الأمر كله يرجع إلى الله.

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: 18]

إذاً عندك يقين أنّ يد الله فوق أيديهم.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الزمر: 63]

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأعراف: 54]

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

إذا كان عندك هذا اليقين، وتوجهت إليه مخلصاً راجياً رحمته، والله لزوال الكون أهون على الله من أن يخيب ظنك.

الدعاء هو أكبر شيء تملكه :

هناك أشياء تبدو مستحيلة، مرض خبيث أجمع الأطباء على أنه لا شفاء له، والله هناك آلاف الحالات من الشفاء الذاتي، بلا سبب علمي، والعلماء صنفوا هذا الشفاء في الشفاء الذاتي، الآن هناك دراسة حوله، عندي حالات كثيرة لبعض الأخوة الأكارم شيء لا يصدق، أخذت خزعة إلى بريطانيا فحصت في الشام، فأجمع الأطباء النبهاء المخلصون أن المرض من الدرجة الخامسة، ولا بد من استئصال الرئة، ثم تراجع المرض ذاتياً، تضع كل ثقتك بالله، وتعلم علم اليقين أن الأمر بيده، ويخيب ظنك؟!

لذلك أكبر شيء تملكه هو الدعاء، استمع إلى بعض القصص مما يجري في الأرض المحتلة، والله شيء لا يصدق! شاب في مقتبل العمر في الثامنة عشرة من عمره لم يمسك بندقية في حياته أراد أن يكون شهيداً، فزحف ساعات طويلة ليصل إلى ثكنة عسكرية صهيونية، وحولها أسلاكٌ شائكة مكهربة، كيف قطع هذه الأسلاك؟ وكيف وصل إليهم؟ وكيف أوقع فيهم خسارة كبيرة جداً؟ ولعلّ الله قبله شهيداً!

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟ أنتم ترون القوة العاتية الجبارة التي لا تواجه في حيرة أمام إنسان أراد إرضاء الله عز وجل.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

يتوب عليهم بحكمته لأنه:

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

عليم بحقيقتهم، حكيم في التصرف معهم.

السيئة ما أساءك من ذنب أو معصية عن غير قصد أو بقصد :

مثلاً عندك نبتة صغيرة، وعندك ماء يساوي خمس وحدات كبيرة جداً، هل من الحكمة أن تصب هذا الماء الشديد على نبتة؟ فتقصفها، فالعطاء يتناسب لا مع الكرم بل مع الحكمة.

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

أحياناً يقع الإنسان في ذنب ويتوب، ويشعر أنه محجوب عن الله عز وجل، في هذا حكمة إلهية، أراد أن يبالغ في تأديبك.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)

السيئة ما أساءك من ذنب أو معصية عن غير قصد أو بقصد، سمِّها ما شئت، أي شيء يسوؤك هو عند الله سيئة، أي شيء يحول بينك وبين الله هو عند الله سيئة، أي انتقاص من عبادتك هو عند الله سيئة، أي انتقاص من حق عبد هو عند الله سيئة، السيئات المعنوية كالغيبة، والنميمة، وسوء الظن، والمادية كأكل المال الحرام، وكل أنواع المعاصي الباطنة والظاهرة، وكل أنواع الموبقات كلها سيئات.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)

لو أن الإنسان لحكمة أرادها الله يعرف متى أجله، الآن هو في الثمانية عشرة عنده علم أن أجله في الثامنة والستين لا يتوب الآن، يقول: معنا وقت، أما لأن الإنسان لا يعلم متى أجله فلا بد أن يكون تائباً في أية لحظة.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

الإنسان مخير مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض :

أخواننا الكرام: موضوع دقيق جداً أتمنى أن يكون واضحاً لديكم: أنت كإنسان مخير، وقد يكون خيارك فيه مليون حالة، خطبت فتاة فلم تعجبك، فأنت مخير خيار قبول أو رفض، أردت أن تسافر إلى بلد كي تعمل، رأيت المشقة كبيرة، والدخل قليل رفضت، أردت أن تقيم شركة رأيت أن هناك شركات منافسة كبيرة جداً والربح قليل فرفضت، أو قبلت في تأسيس عمل، أو تأسيس شركة، في سفر، في دراسة، أو جامعة، في زواج، في شراء بيت، أنت في مليون موضوع مخير خيار قبول أو رفض، إلا مع الإيمان فإن خيارك خيار وقت، فما الفرق بين خيار القبول وخيار الرفض وبين خيار الوقت؟ إنسان لم يتب إلى الله، وليكن فرعون أكفر كفار الأرض الذي قال: أنا ربكم الأعلى، وما علمت لكم من إله غيري، هذا فرعون حينما أدركه الغرق قال: آمنت بالذي آمنت به بنو

إسرائيل، فتاب، لكن بعد فوات الأوان! أي إنسان على الإطلاق عندما يأتيه الموت فلا بد أن يتوب، لكن هذه التوبة ليست مقبولة، فهو مخير مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، فإذا رفض الإنسان الإيمان فلا بد أن يقبله بعد فوات الأوان.

معنى آخر: لي كلمة لطيفة، الخليفة هارون الرشيد له أعمال طيبة كثيرة، كان إذا نظر إلى سحابة يقول: اذهبي أينما شئت يأتني خراجك، قياساً على هذه المقولة: أنا أقول لأي إنسان شارد في شبابه: اذهب أين شئت، ففي النهاية أنت إلى المساجد، لكن المشكلة الكبيرة أن تعود إلى المساجد في وقت متأخر، وتمضي شبابك في معصية الله، وكثير من أولئك الذين شردوا عن الله في مقتبل حياتهم، وفي زهرة شبابهم، وفي كهولتهم بعد الخمسين أو الستين رأوا أن الحق عند الله، فعادوا إلى الله، لكن بفقر وضعف، فأنت إذا كنت في مقتبل حياتك، وقد عرفت الله عز وجل فاحرص على أن تثبت على ما أنت عليه.

الموت هو ديدن البشر :

قال تعالى:

(لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

هذه ليست توبة، هذه توبة بعد فوات الأوان، بربك لو أنك ذهبت إلى الامتحان، ولم تدرس إطلاقاً، ولم تستطع أن تكتب كلمة، فعدت إلى البيت بعد انتهاء الامتحان، فتحت الكتاب المقرر، وبحثت عن جواب السؤال، وقرأته، ففهمته، ممتاز، فعدت إلى وزارة التربية ترجوهم أن يعاد لك امتحان خاص، لأن السؤال الذي جاء في الامتحان عرفته أنت الآن، هل يقبل؟ هذا مستحيل! هذه معرفة بعد فوات الأوان.

كل إنسان يظن أنه يتوب، مَن قال لك: إن عمرك فيه فسحة تتوب فيه بعد حين؟ كم من إنسان مات فجأة؟ مات قبل أن يعلم؟ لا يوجد إنسان مات إلا في حالات نادرة، ويظن أنه سيعيش حياة طويلة، قد يأتي الموت على خلاف المتوقع وما هو مقبول.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ)

مات على كفره، مات تاركاً للصلاة، مات منكراً لأصل الدين، مات منكراً لفرائض الدين، هذا يموت كافراً، وهذا مخلد في النار.

(أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

ثمة حديث شريف والله الذي لا إله إلا هو يقسم الظهر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً، أَوْ غِنًى مُطْغِياً، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً، أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً، أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

بشكل واقعي من دون مجاملة ماذا ننتظر من الدنيا؟ جمعت المال ثم ماذا؟ هناك مغادرة، ملك، غني، كبير، قوي، الموت هو ديدن البشر، الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر.

قرأت عن إنسان يعمل في الفن أحب الحياة حباً لا حدود له، ما أكل لحماً أحمر في كل حياته حفاظاً على صحته، ولا ركب طائرة، ولا تناول طعامَ العشاء إلا فواكه، ثم مات! إنّ العناية بالصحة مطلوبة، لك عند الله خمسون عاماً، فإما أن تمضي هذه الأعوام هكذا واقفاً، أو تمضي هكذا مضطجعاً، فالعناية بالصحة لعلك تستمتع بحياتك واقفاً، أما العناية بالصحة فلا تغيّر الأجل، الأجل لا يتغير إطلاقاً.

لله وسائل تأديبية صعبة جداً :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ...))

الأيام ماذا تخبئ لعامة الناس؟ دعك من المؤمن، المؤمن:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

لنا وليس علينا، لنا فيها ملمح كبير، لنا من خير، أنت موعود بالخير في المستقبل.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لتأبيد النفي، هذا موضوع ثانٍ، أمّا عامة الناس فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا، ملك جاءته خثرة في الدماغ، فأصبح مشلولاً، ألا تعرفون ذلك؟ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً، هناك فقر ينسيك كل القيم، وكاد الفقر يكون كفراً، أَوْ غِنًى مُطْغِياً غنى مفاجئ، يحمل صاحبه على معصية الله، واقتراف المعاصي والآثام، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً، مرضاً يفسد الحياة، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً، أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً، أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً، أَوِ الدَّجَّالَ، ألا ترون الدجال؟ يقتل الأطفال، يهدم البيوت بادعاء الدفاع عن النفس، يقتل شعباً بأكمله دفاعاً عن الحرية، هذا هو الدجل، الفعل عكس القول، أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ. أعيد على أسماعكم الحديث. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً))

في محاولة إفقار للمسلمين، مصالح في الأوج، الدخل صفر، هذا فقر، والفقر قد ينسي كل شيء، وكاد الفقر أن يكون كفراً،

((أَوْ غِنًى مُطْغِياً، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً، أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً، أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ، السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

فإن لم يتب الإنسان إلى الله لم تطمئن نفسه إلى خريف العمر، لأن المستقبل مجهول ومخيف، وفيه خثرة بالدماغ إذا كنت تسير على خطأ، وشرود عن الله عز وجل، فلله وسائل تأديبية صعبة جداً، أمراض عضالة، وفقر شديد، وتفسخ أسرة، وزوجة ظالمة أحياناً، وابن عاق، وفقدُ حرية، وفقدُ أحد الأعضاء، ومصيبة اجتماعية أسرية.

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

إهلاك الأقوام في آخر الزمان أدهى وأمر من كل إهلاك سابق :

قال تعالى:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

[سورة القمر: 43]

(بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

[سورة القمر: 46]

هؤلاء الطغاة، كيف أهلك الله الأقوام السابقين؟ إن إهلاك الأقوام في آخر الزمان أدهى وأمر من كل إهلاك سابق.

(وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

[سورة القمر: 46]

اطمئنوا فثمة عدالة إلهية، تكلمت على المنبر اليوم: اسمع الأخبار فلا مانع، واقرأ التحليلات، واقبل تحليلاً، وارفض تحليلاً، وتشاءم أو تفاءل، لكن لا تنس لثانية واحدة أن الله موجود، وأن الله في أية لحظة يغير موازين القوى كلها، الشيء الذي كان مستحيلاً أصبح ممكناً، أنا قلت اليوم: متى كانت مشكلة أعدائنا مشكلة بقاء؟ كانت مشكلة أمن فقط، أما الآن لم تعد كذلك، بل مشكلة بقاء، هذا الإنجاز كبير جداً، وما كنا نحلم به أن يقول: مشكلتنا مشكلة بقاء! كانت مشكلة أمن فقط، أما الآن فهي مشكلة بقاء، بفضل هؤلاء الشباب المندفعين.

فيا أيها الأخوة، أنا متفائل، ولكن نحتاج إلى توبة، ما من وقت نحن في أمس الحاجة فيه إلى توبة كهذا الوقت، أختم الدرس بما بدأت به: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة فقط، ولا تزر وازرة وزر أخرى، عليك من نفسك، لو أن الناس لم يستجيبوا فاستجب أنت لله، واضبط أمورك، وانتظر من الله كل خير، والحمد لله رب العالمين.

أسئلة عامة :

السؤال: هل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أمي بالمعنى المعروف للكلمة أم لها معنى آخر؟

الجواب: النبي عليه الصلاة والسلام أمي بمعنى أنه لا يقرأ ولا يكتب.

(وَمَا كُنْتَ تَتْلوا مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُون)

[سورة العنكبوت: 48]

لأن الله عز وجل تولى تعليمه هو، إذاً هو أعلم علماء الأرض، أمِّيته وسام شرف، وأميتنا وصمة عار، لأن الله عز وجل لا يعلمنا مباشرة، نحن نتعلم عن طريق القراءة والكتابة، فكل واحد فيه نقص شديد، أما لأن وعاء النبي كله وحي يوحى، لو قرأ وكتب فجمع ثقافة عصره، ثم جاء الوحي، واختلط الأمر، فكلما تكلم شيئاً يقال له: يا رسول الله هذا من وحي السماء أم من عندك؟ صانه الله عز وجل عن أية ثقافة أرضية.

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إنْ هُو إلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

أميته وسام شرف، لأن الله تولى تعليمه، العلم المطلق عند الله عز وجل، أكبر علم حازه النبي الكريم، مثل تقريبي: أكبر علماء الذرة لو جاء إلى دمشق هو في لغتنا العربية أمي لا يقرأ ولا يكتب، هل يعد جاهلاً؟ فالنبي الذي يقرأ بعض أحاديثه ويفهمها يأخذ دكتوراه! حاز النبي مرتبة في العلم ما بعدها مرتبة، لكنه أمي، بقي وعاؤه نظيفاً من كل ثقافة أرضية، أميته وسام شرف، أما أميتنا فهي وصمة عار، نحن ليس عندنا طريق مباشر مع الله ليعلمنا، ولا نتعلم إلا بالكتابة، إنما العلم بالتعلم، بالنص نقرأ ونتعلم، أميته وسام شرف، لا يقرأ ولا يكتب، ولكن الله تولى تعليمه، والدليل:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى* وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

[سورة النجم: 5-7]

سؤال: توضيح حكم اليمين الغموس؟

الجواب: اليمين الغموس هي اليمين التي تحلفها لتقتطع بها حق امرئ مسلم، إنها تغمس في النار، وبها يخرج الإنسان من ملة الإسلام، وليس لها كفارة، لأنها أخرجتك من الدين، بل لا بد له أن يجدد إسلامه! أعطاك مليون من دون وصل، قلت له: لم آخذه، فقال القاضي: تحلف؟ قال: أحلف، فحلفت يميناً اقتطعت بها حق امرئ مسلم، هذه اليمين غمست صاحبها في النار.

ـ مقاطعة البضائع الأمريكية صار واجباً، تنقل إلي معلومات لطيفة جداً، سمعت عن أحدهم أنه أحرق سيارته كلها لأنها مصنوعة بأمريكا، فالحد الأدنى الذي لا حد بعده لا يوجد منه شيء من صنع أعدائنا نستغني عنه.

سؤال: أليس الله عالماً بما سأفعل وما سأقوم به؟ وإذا ارتكبت إثماً أليس مكتوباً علي أن أفعله؟ إذاً أنا مسير؟

الجواب: لا يوجد عقيدة تشل الإنسان كهذه العقيدة، وهي التي أخرت المسلمين، أوضح ردّ سيدنا عمر حين جاءه شارب خمر فقال: أقيموا عليه الحد، قال: والله إن الله قدر علي ذلك، فقال عمر عملاق الإسلام: أقيموا عليه الحد مرتين! مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(09-69): تفسير الآيات 19-21 ، المعاشرة بالمعروف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-04-19

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا آمنت باختيارك فمن موجبات إيمانك بالله أن تنصاع لتوجيهاته المتعددة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من دروس سورة النساء، ومع الآية الكريمة التاسعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

أيها الأخوة الكرام، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

فالذي آمن بالله عز وجل آمن باختياره، فإذا آمنت باختيارك فمن موجبات إيمانك بالله عز وجل أن تنصاع لتوجيهاته المتعددة، الله عز وجل يخاطب عامة الناس بأصول الدين.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

أما إذا خاطب المؤمنين فكأن بين المؤمن وبين ربه عقداً إيمانياً، أنت يا عبدي آمنت بي، وبعلمي، وبحكمتي، وبرحمتي، لأنك آمنت بي طواعية من دون إكراه، فهذا يقتضي أن تتبع مسائل الإيمان التفصيلية.

الاستجابة لأمر الله جزء من إيمانك :

كل من يدَّعي أنه مؤمن ولا يستجيب لأمر الله عز وجل فهو كاذب في ادعائه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

الاستجابة لأمر الله جزء من إيمانك، لذلك الأحكام التفصيلية والتوجيهات الجزئية في القرآن الكريم تتصدرها العبارة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

فالله عز وجل بعد أن بين الشيء الذي يحل أن نورثه، هناك مورث ووارث وموروث، بعد أن بين لنا من قبل في هذه السورة بالذات الأموال التي يمكن أن تورث، وكيف أن الله سبحانه وتعالى تولى بنفسه توزيع هذا الإرث، لئلا تدخل الاعتبارات الاجتماعية هذا حق الله عز وجل، وفي دروس سابقة كان الحديث عن طريقة تقسيم الإرث، ولكن اليوم يبين الله لنا أن في حياة المسلم أشياء لا يمكن أن تورث! لأنه في الجاهلية كانت الزوجة تورث، وكأنها متاع! فالورثة يتزوجونها بلا مهر، لأنها جزء من الميراث كغرفة النوم، أو يزوجونها لمن يريدون ويأخذون المهر، أو يعضلونها كي تفتدي نفسها بكل شيء، فالمرأة في الجاهلية كانت تورّث كما يورث المتاع، فالله جل جلاله بعد أن بين لنا أن هناك أشياء تورث، والحكم فيها واضح، ومرَّ ذكره قبل درسين، ولكن في هذه الآية يبين جل جلاله أن هناك أشياء يحرم توريثها كالزوجة، إنها امرأة وشريكة الحياة، فإذا أمضت عدتها فلها الحق أن تتزوج، وأن يختارها من يشاء، ويدفع مهرها لها.

المرأة والرجل يتكاملان ولا يتشابهان :

يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)

المرأة مقهورة، وهي جزء من متاع البيت، فإذا مات زوجها تزوجها من يشاء من الورثة، أو زوجوها وقبضوا ثمنها، أو أعضلوها ومنعوا زواجها كي تفتدي بنفسها، هذا حكم محرم في الإسلام، لأن المرأة كما تعلمون مساوية للرجل تماماً في التكليف، والتشريف، والمسؤولية، ولكن إذا قال الله عز وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى)

[سورة آل عمران: 36]

فلأن خصائص المرأة العقلية والجسمية والنفسية والاجتماعية تتناسب مع المهمة التي أنيطت بها، كما أن خصائص الرجل الاجتماعية والعقلية والنفسية والجسمية منوطة ومتناسبة مع المهمة التي أنيطت به، فالمرأة والرجل يتكاملان ولا يتشابهان، وحينما اختلطت الأوراق في العصور الحديثة، وفي مجتمع التفلت والكفر كان هناك من الأخطار، ومن أسباب انهيار المجتمعات ما لا سبيل إلى وصفه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)

المرأة إنسان مكلف مشرف، إنها شريكة حياة الرجل، فإذا مات زوجها فلها الحق بعد أن تمضي عدتها أن تتزوج من تشاء، ولكل من سمع بها أن يخطبها إذا شاء، وتأخذ مهرها بيدها.

أيها الأخوة، في بعض الحضارات الشرقية إذا مات الزوج ينبغي أن تحرق معه، وهذا ظلم شديد، جاهلية العرب فيها ظلم، وثقافة الشعوب في بعض البلاد الشرقية تقضي أن تحرق المرأة مع زوجها الميت، وكلا الحالتين فيهما ظلم شديد، بينما وحي السماء يعطي كل ذي حق حقه.

الأحكام المتعلقة بالآية التالية :

هناك حكم شرعي آخر، قال تعالى:

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ)

الحكم الأول: المرأة لا يمكن أن تورّث، إنها إنسان في أعلى درجات الكرامة والإنسانية، أمرها بيدها، بينما لا يمكن أن يتم عقد زواج دون أن تسأل الفتاة، ويأخذ القاضي موافقتها، وإلا لم ينعقد العقد، وأنتم ترون حينما تحضرون عقود قران لا بد لكاتب المحكمة أن يذهب ليستمع إقرار الفتاة بأذنه، على أنها قبلت هذا الزواج من هذا الشاب على هذا المهر.

الآن عندنا حكم آخر: هو أن الزوج أحياناً يرفض أن يطلق زوجته، لا يطلقها إضراراً بها كي تفتدي نفسها بكل ما أعطته، وهذا محرم أشد التحريم، ولو تتبعنا أصل هذه الكلمة (عضل)، حينما يبدأ المخاض يتقلص الرحم تقلصات لطيفة نظامية إلى أن يدفع الغلام إلى الخارج، وبعد هذه التقلصات المتزامنة اللطيفة ينقبض الرحم انقباضاً شديداً، وكأنه صخر، التقلص الأول اللطيف من أجل أن يدفع الجنين إلى خارج الرحم، فلو كان تقلصاً شديداً لمات الجنين، والتقلص العنيف بعد الولادة من أجل أن يسد عشرات آلاف الأوعية المتقطعة من الولادة، فلو أن الآية انعكست كان التقلص شديداً في بداية المخاض، ثم كان رخواً بعد المخاض لماتت الأم ووليدها، قال تعالى:

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

[سورة عبس: 20]

لكن أحياناً، وكلمة أحياناً أقصد بها حقيقة توحيدية، الرحم ينقبض، ولا يسمح للجنين أن يخرج، نقول: عضل الرحم، فلا بد من عملية قيصرية، لا بد من إخراج الجنين من خاصرة أمه، لو أن الله جل جلاله جعل الأسباب مترافقة مع النتائج إلى أبد الآبدين لما عرفنا الله، ولكانت الأسباب والنتائج شيئاً تافهاً، لأنها رتيبة، لكن مع أن هذا الجسم مبني على نظام دقيقٍ دقيق لكن ما كل سبب في الجسم يفضي إلى نتيجة، وما كل نتيجة لها سبب، فكأن الله جعل الأسباب نظاماً للكون كي تنتظم حياتنا، بل جعل في الأعم الأغلب أن هذه الأسباب مترافقة مع النتائج، لكن أحياناً هذا الرحم لا يدفع الجنين إلى خارجه، صار هناك عضلة، العضل هو عضلة الرحم تكف عن التقلص، ولا بد حينئذ من عملية قيصرية، هؤلاء الذين عبدوا الأسباب والنتائج تخيب آمالهم أحياناً، وقد نستفيد من هذا في معركتنا مع العدو، الكفار أخذوا بكل الأسباب، لكن أحياناً يفاجئون بمعطيات لم تكن في حسبانهم

أبداً، أين أسبابهم؟ فلذلك يأخذ المؤمن بالأسباب، وكأنها كل شيء، ويتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء.

معنى كلمة (عضل) :

الفرق الكبير بين الغرب المشرك والشرق العاصي أن الغرب المشرك أخذ بالأسباب أيما أخذ، واعتمد عليها، وألهها، فأتاه الله من حيث لا يحتسب، والشرق لم يأخذ بها كسلاً وجهلاً وتهاوناً فوقع في المعصية، الرحم مع أن له نظاماً دقيقاً جداً هو أنه في بدء المخاض يتقلص، لكن أحياناً لا يتقلص، من أجل أن تكون متعلقاً لا بالأسباب، بل بمسبب الأسباب، كي لا تكون متعلقاً لا بالأشياء المادية، بل بخالقها، وكأن هذه الاستثناءات التي لا تأخذ الأسباب مجراها، وتُعطل فيها الأسباب أو تُلغى من أجل أن يلفتك الله إلى ذاته، يا عبدي لا تعبد الأسباب، واعبد خالق الأسباب، فالعضل هو المنع والكف، فعضلة الرحم تعضل، أي تكف عن دفعه إلى الخارج فلا بد من عملية قيصرية.

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ)

أي أن زوجاً لم تكن زوجته كما يتمنى فعضلها، لا يعاملها كزوجة ولا تأخذ حقها منه كزوجة ولا يطلقها فيفسح لها المجال كي تتزوج، هذه معصية من أكبر المعاصي والآثام.

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ)

هناك أزواج ظُلَّام، من أجل أن تفتدي نفسها بكل مهرها يسيء معاملتها، إلى أن تطلب منه المخالعة، فإذا طلبت المخالعة ينبغي أن يسترد كل شيء أعطاه لها، فهذه الطريقة في معاملة الزوجة معاملة سيئة من أجل استرداد كل ما أعطيته لها، هذا شرعاً منهي عنه أشد النهي.

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ)

أحياناً تكون المرأة غنية، وليست في مستوى طموح زوجها فيعضلها، من أجل أن يرث مالها، وهذا محرم، قد يطمع أن تفتدي نفسها بكل ما أعطاها، أو قد يطمع بمالها كي يرث مالها، فالمرأة التي لا تروق للزوج ينبغي أن يصبر، وإلا يطلقها كي يفسح لها المجال ليتزوجها من هو معجب بها.

الفاحشة هي الزنى والنشوز وعدم طاعة الزوج وسوء المعاملة :

قال تعالى:

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ)

قال العلماء: الفاحشة المبينة هي الزنا، هذا قول من أقوالهم، المرأة إذا زنت قد تخسر كل مالها، ويحق للزوج أن يكرهها على الطلاق بعد أن تفتدي نفسها منه بكل ما أعطاها! لأنها خانت الأمانة،

بعضهم قال: الفاحشة النشوز، أن تستعصي على زوجها، فلا تطيعه، وكما تعلمون أن دين المرأة من أربع فقرات: إذا صلت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت نفسها، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها، ربع دين المرأة طاعتها لزوجها، فالزوجة التي نشزت، أي التي خرجت عن طاعة زوجها، هذه أيضاً لا تستحق مهرها، والزوجة التي هي سيئة المعاملة، لسانها سليط عليه لا تقيم له وزناً، فتتطاول عليه، ولا تعتني به، تهمل واجباته، هذا أيضاً من الفاحشة، في بعض التفاسير هناك أقوال ثلاثة في الفاحشة؛ نشوز الزوجة، أو وقوعها في الفاحشة، أو معاملتها السيئة:

((ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم؛ رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها..))

[الحاكم عن أبي موسى]

الذي تحته امرأة سيئة لا يرجو صلاحاً لها، ويبقيها تحته لا يستجاب دعاؤه، من أروع ما في تفصيل هذا الحديث، وهو صحيح: لو أنك في ضائقة، وقال لك خبير: اخرج من هنا، فرفضت أن تخرج، ثم قال لك: ماذا أفعل؟ أنت لك الحق أن تمتنع عن إعطائه توجيهاً معيناً، أنا ذكرت لك أن تخرج من هنا، فإن لم تستجب لتوجيهي فلن أستجيب دعائك، فهذا الذي تحته امرأة سيئة، ولا تطيعه، ولا تقوم برعاية زوجها وأولاده، وهي سليطة اللسان، متكبرة لا يرضيها شيء، ولا ترضى عن شيء، وتسأل زوجها الطلاق من غير بأس، فإذا خرجت اشتكت على زوجها، فهذه امرأة ليست مؤهلة أن تكون زوجة لمؤمن، بل ينبغي أن يطلقها، لأنها أم أولاده، وستربي بناتها تربية خاطئة، فالفاحشة عند بعض المفسرين، والقرطبي من كبار المفسرين الذين وجهوا الآيات توجيهاً فقهياً، فالفاحشة هي الزنى والنشوز، وعدم طاعة الزوج، وسوء المعاملة.

معنى آخر لكلمة (عضل) ليس في هذه السورة :

قال:

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ)

أن تبقي امرأة لا تعاملها كزوجة، ولا تطلقها كي تفتدي نفسها منك، أن تبقي امرأة غنية لا تطلقها، ولا تعاملها كزوجة هذا هو العضل.

هناك معنى فرعياً ليس في هذه السورة، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً)

[سورة النور: 33]

يتوهم إنسان أن هذه البنت يجب أن تبقى لخدمته، فيقيم العقبات أمام زواجها، لأنانية وضيق أفق، هذا أيضاً محرم، لذلك الله عز وجل يوجه الخطاب للمؤمنين:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

[سورة النور: 33]

لا يعقل ولا بالمليار واحد أن مؤمناً يكره ابنته على فعل الفاحشة، إلا أنك إذا عضلتها، وكلما جاء الخاطب وضعت العراقيل، وأوقعت العقبات، وسألت عن بيته، ولم يعجبك مدخل بيته مثلاً، ولا دخله، ووازنته بدخلك، وأنت في الستين، فمثل هذا الأب يرتكب خطأ كبيراً جداً حينما يعضل ابنته، وكأنه بهذا العضل يدفعها إلى المعصية.

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً)

[سورة النور: 33]

أيها الأخوة:

(إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ)

قال العلماء: يجوز أن تسترد الذي أعطيتها إذا أتت بفاحشة، أو إذا نشزت، أو إذا عصت، ومن هنا شرع الخلع أحياناً.

الأصل في العلاقة الزوجية المودة والمودة سلوك أساسه الحب :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

قال تعالى:

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

[سورة يونس: 6]

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

الأصل في العلاقة الزوجية المودة، والمودة سلوك أساسه الحب، فحينما تكون الزوجة وفق طموح زوجها، وحينما يكون الزوج وفق طموح زوجته ينشأ بينهما الحب، ويعبر عنه بالود، فمن كلمة طيبة إلى ابتسامة إلى خدمة إلى صبر، وإلى مؤاثرة، وإلى تضحية، إلى ما لانهاية له من علاقة الود بين الزوجين، ولكن لو أن المصلحة انقطعت بين الزوجين، أصيبت الزوجة بمرض عضال، أو الزوج افتقر فانقطعت المصلحة بينهما، ماذا يبقى؟ الرحمة.

المعاشرة بالمعروف أوسع بكثير من الود :

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

فهذا البيت بني ليبقى، فإما أن يبقى على الحب والود، وإما أن يبقى على الرحمة، فلذلك جاءت الآية في قوله تعالى:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

والمعاشرة بالمعروف أوسع بكثير من الود، ما كل بيت يبنى على الحب، لكن الزوج إذا تزوج وله أولاد من زوجته كان مستقبل الأولاد فوق كل شيء، بل إن العلاقة بينه وبين زوجته ليس ملكاً لهما بل هي ملك أولادهما، فالزوج العاقل والزوجة العاقلة تلغيان موضوع الحب إذا كان هناك أولاد، وكانت مصلحة الأولاد الراجحة في بقاء هذه الحياة الزوجية، جاءت الآية:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

وقد قال العلماء: ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، لو أن الزوج أو الزوجة فَهِمَا المعاشرة بالمعروف أن تحتمل أذى الزوج أو أذى الزوجة فما من فرق بين اثنين في العالم الإسلامي، هذا هو توجيه الله عز وجل.

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

الجمال أحد خصائص المرأة وليس كل خصائصها :

هناك حقيقة لا بد من شرحها: حينما يجهل الإنسان طبيعة المرأة يقع في خطأ كبير، هناك امرأة وهبها الله حكمة، وامرأة وهبها عقلاً، وامرأة وهبها الله وفاء، وامرأة وهبها جمالاً، الجمال أحد خصائص المرأة وليس كل خصائصها، فحينما الإنسان يتضجر من عيب في زوجته ينبغي ألاّ ينسى النواحي الأخرى التي امتازت بها، فما كل شيء في المرأة شكلها هذه حقيقة، فالمؤمن ينبغي أن يصبر، والزوجة ينبغي أن تصبر، لأن الزواج قد ينجح نجاحاً كبيراً من دون هذا الشرط الذي يبحث الناس عنه كل يوم، ولهذا الشرط أمد قصير، وتأثيره يضعف مع الأيام، ثم يكتشف المرء أن الأصل في العلاقة الزوجية الود، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما حدثنا عن المرأة المسلمة ذكر أنها ودود ولود، تنجب له أطفالاً يملؤون البيت فرحة، فهو ودود في معاملتها له، لذلك أزواج كثيرون حينما يشتكون من فظاظة زوجاتهم ينسون مع هذه الفظاظة جمال زوجاتهم بالتأكيد، فكأن الله عز وجل لحكمة بالغةٍ بالغة وزع خصائص المرأة بين النساء متفرقة، هذه تنال في هذه الصفة مئة درجة، وفي هذه الصفة عشر درجات، وفي هذه الصفة خمسين درجة، وفي هذه الصفة سبعين درجة، والمجموع ثابت، فأنت حينما تحكم على امرأة ينبغي أن تحكم على دينها، وعلى أخلاقها، وحكمتها، ووفائها، وأمانتها، وشكلها، أما أن يكون الشكل وحده كل شيء في المرأة فهذا ليس في واقع الكون، فالله عز وجل جعل المجموع ثابتاً.

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ)

من زاوية الشكل فقط، الدين جيد، الأمانة، الصدق، الخلق، الحكمة، إدارة المنزل الجيدة، تربية الأولاد الحازمة.

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

قد تنجب لك أولاداً نجباء، قد تمنحك راحة من طرف تربية الأولاد، قد ترى بيتك منتظماً بفضل حكمتها، قد يكون بيتك من البيوت المثالية.

هناك خيرات حسان لا يعملها إلا الله قد تتأتى من زواج إسلامي صحيح :

قال:

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ)

ومعظم المفسرين على هذا الجانب الذي يلهث الرجال وراءه.

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

تروي الكتب أن إنساناً تزوج امرأة، فلما رآها يوم الدخلة لم تعجبه، قضى ليلته وخرج هائماً على وجهه عشرين عاماً، وعاد إلى المدينة، فإذا في مسجدها درس فيه طلاب علم كثر، جمع غفير متحلق حول شاب، فلما سأل عنه إذا هو ابنه الذي أنجبته امرأته منه يوم دخل بها، فلما عاد وعلم أن هذا ابنه ـ حينما ضجر منها يوم الدخول قالت له كلمة: لعل الخير كامن في الشر، إن رأيتني شراً فلعل الخير كله فيّ ـ وحينما علم أن هذا الابن كان عالماً كبيراً من علماء المسلمين، لذلك حينما عاد قال لابنه: يا بني قل لأمك: في الباب رجل يقول لك: قد يكون الخير كامناً في الشر.

هناك خيرات حسان لا يعملها إلا الله، قد تتأتى من زواج إسلامي صحيح.

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

وهذا الإنصاف أن تنظر إلى أمانتها، وعفتها، ودينها، وحسن إدارتها، وتصرفاتها، وأهلها المنضبطين، وأبيها، وأمها، هناك آلاف المقاييس التي ترفع المرأة إلى أعلى عليين، لكن بعض الرجال لا ينظر إلا إلى زاوية واحدة من المرأة فيكرهها أحياناً.

المهر تستحقه المرأة مرة واحدة إذا مكنته من نفسها فقط :

لكن إذا تفاقمت هذه الكراهية إلى درجة أنها حملت الزوج على أن يقترب من المعصية، ماذا نفعل؟

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

لكن إن لم يستطع الزوج أن يبقى مع زوجته، وكاد يقترب من المعصية عندئذ لا بد من الطلاق، قال:

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

أكبر وهم أن يتوهم الزوج أن هذا المهر موزع على العمر، فإذا طلقها في مقتبل العمر يحق له الذي أعطاها، وهذا جهل فاضح، لكن هذه الآية بينت أن المهر تستحقه المرأة مرة واحدة، إذا مكنته من نفسها فقط، وينتهي المهر:

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً)

القنطار، جلد البقرة إذا سلخت يتسع إلى ماذا؟ لو أنك ملأت جلد البقرة مالاً أو ليرات ذهبية.

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً)

المهر استحقته الزوجة حينما مكنتك من نفسها مرة واحدة، معنى ذلك أن هذا العقد الغليظ في القرآن ورد مرتين، فقد أخذ الله عز وجل من الأنبياء ميثاقاً غليظاً، وأن عقد الزواج بين الزوجين هو عند الله ميثاق غليظ.

لمجرد أنك تريد تطليق امرأتك ينبغي أن تؤدي لها كل المهر معجله ومؤجله :

عقد السيارة قد ينتهي بالبيع ولا شيء عليه، والبيت قد تسكنه بالعقد وربما لا تسكنه، أما إذا اقترنت بامرأة، ثم جاء الأولاد، فهذا الابن هذا أبوه، وهذه أمه، من يعاني هذه المشكلة؟ الذي سافر إلى بلاد الغرب، وفي لحظة طائشة تزوج امرأة هناك، ابنه منها، هي في واد وهو في واد آخر، لأن أقدس عهد في الأرض بعد الأنبياء هو عهد الزواج، وكيف تأخذون المهر وقد أفضى بعضكم إلى بعض؟ لا يتاح لا للأب ولا للأخ ولا للابن ولا للأخت ولا لابن الابن ولا ابن الزوجة أن يرى من هذه المرأة ما أبيح لزوجها أن يرى منها.

امرأة مقدسة، جوهرة مكنونة أبيحت لإنسان، هذا شيء كبير جداً، لذلك هؤلاء الذين يستخفون بعقود الزواج لا تنسوا أن في العالم الغربي الآن تسعين بالمئة من حالات مساكنة فقط، لا يوجد عقد، ولا وقت، ولا توقيع، ولا إيصال، في أي لحظة يركلها بقدمه خارج البيت، لأنها مساكنة! أما عندنا في الإسلام فأقدس عهد وعقد هو عقد الزواج، وهذا العقد سيترتب عنه أولاد، جيل، طفل مؤمن أو كافر.

بعض الأخوة عندما يحدثونني عن زوجاتهم الذين تزوجوهن في بلاد الغرب، وكيف أن الابن تبع أمه، وترك دينه، وأصبح من هؤلاء الشاردين، كيف أن الأب كلما تذكر هذا ذاب قلبه ألماً، أقدس عقدٍ عقدُ الزواج.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً)

لمجرد أنك تريد تطليق امرأتك ينبغي أن تؤدي لها كل المهر معجله ومؤجله.

العالم الإسلامي يتمتع بحصانة للزواج ما بعدها حصانة :

قال:

(فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً)

أما هي إن كرهت هذا الزوج، وطلبت المخالعة يحق له أن يسترد منها كل شيء، أو إذا نشزت، أو زنت، أو ساءت معاملتها، لذلك في دعاوى التفريق إذا وجد إساءة معاملة قد يحكم القاضي للزوج بنصف المهر، أو ربعه، أو بعشره، أو بثلثيه، الأصل الزنى، والنشوز، والإساءة، هذه تذهب حق المرأة في مهرها.

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

أتأخذونه، وقد استحقته المرأة يوم مكنتك من نفسها، ويوم أفضيت إليها، الإفضاء من الفضاء، يوم دخلت عليها من أوسع الأبواب، لا شيء محرم فيها عنك، كل شيء مباح لك إلا ما حرم النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

الميثاق الغليظ هو عقد الزواج، لذلك ينبغي على الإنسان أن يحسن اختيار زوجته، لئلا يحتاج إلى تطليقها، وفي طلاقها كسر لها، وتشريد للأولاد، وإضاعة لهم.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

ولم يرد الميثاق الغليظ إلا مع ميثاق الأنبياء، العالم الإسلامي يتمتع بحصانة للزواج ما بعدها حصانة، لذلك حينما تطلق المرأة ينبغي أن تدخل في العدة، لو أنها في سن اليأس فقضية براءة الرحم ليست واردة، ينبغي أن تمسك العدة ثلاثة قروء حفاظاً على قدسية هذا العقد، أما إذا مات عنها زوجها فالعدة أربعة أشهر وعشرة أيام، شيء مقدس لا يكون إلا بتمهيد ولا ينتهي إلا بتوابع، وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات، والحمد لله رب العالمين.

رأي خاص يتعلق بنصر الله لنا و لإخواننا في فلسطين :

سؤال: نصوم يوم الاثنين لعل الله يفرج على إخواننا بفلسطين!

الجواب: عندي رأي دقيق: هذه أشياء كلها جزئية، إذا لم يكن هناك عودة إلى الله عز وجل، ولا يوجد صلح مع الله، ولا استقامة على أمره، ولا رغبة قوية أن نقيم الإسلام في بيوتنا، هذه الأشياء لا تقدم ولا تؤخر، والله عز وجل يريدنا أن نرجع إليه، ولعل الحكمة الكبيرة من هذه الشدة التي أصابت المسلمين كما ذكرت في الخطبة اليوم أن هذه المحنة الشديدة لعل وراءها منحة من الله عز وجل، وأن هذه الشِدة لعل وراءها شَدة من الله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

فهذا كبير مجرمي الصهاينة لعل مهمته عند الله من دون أن يشعر، حيث يريد أن يوحد المسلمين، ويشحذ فيهم البطولة والفداء، ويدفعهم إلى العطاء، وهذا الذي يحصل، لعل كبير مجرمي الكيان الصهيوني أن يحركنا، ونعود إلى قرآننا وديننا، وإلى سنة نبينا، أن نصحو بعد غفلة، ونقف بعد قعود، ونتحرك بعد سكون، ونتعاون بعد منافسة، نتسامح بعد العداوة والبغضاء، هذا كله شيء ضاغط علينا، الآن ينبغي أن نبحث عن حلول استراتيجية، وليست تكتيكية، لا يكفي صيام يوم الاثنين، ولا تحل المشكلة، لكن تحل إذا عقد كل واحد النية أن يتوب إلى الله توبة نصوحاً، وإذا نظر كل واحد إلى مسافات بعيدة كيف أحمي هذه الأمة من العدو الغادر؟ ينبغي أن يختار موقعاً يصب فيه كل طاقاته وخبراته، ليس بمقدور إنسان أن يرفع المعاناة عن الأمة كلها إلى الله، أما كإنسان فاخترْ عملك، وأخلص، وخفف الأعباء عن المسلمين، ومدهم بما يحتاجون.

للجهاد أبواب عدة :

ذكرت اليوم في الخطبة أشياء كثيرة، أربع أو خمس أبواب للجهاد متاحة لكل المسلمين في بلادهم، ذكرت اليوم أن شركة دخان واحدة أرباحها في اليوم من مبيعاتها في العالم الإسلامي ثمانمئة مليون دولار! وبين هذه الشركة والكيان الصهيوني عقد اثنا عشر بالمئة للكيان الصهيوني، تسعة ملايين دولار يأخذها اليهود من ربح هذا الدخان من مسلمي العالم، والشيء الذي يجرح الفؤاد أن المسلمين أكثر الشعوب تدخيناً! فما قولك في بقية أرباح شركات الدخان؟ ما قولك في أرباح شركات المطاعم المنتشرة في شتى بقاع العالمين العربي والإسلامي؟ ما قولك في أرباح شركات المياه الغازية التي تعد أرباحها فلكية؟ ما قولك في أرباح شركات السيارات التي تتصدر إعلاناتها المحطات الفضائية في العالم العربي؟ هل يجبرك أحد أن تشتري هذه البضاعة في العالم كله، لو لم تتلق توجيهاً من قيادة بلدك، والتمس لها العذر، هل يجبرك أحد في الأرض أن تشتري هذه البضاعة؟ هل يحاسبك أحد إذا لم تشتر هذه البضاعة، هذا باب مفتوح من أبواب الجهاد، باب آخر لو بحثت عن قناة نظيفة آمنة توصل من خلالها جزء من مالك إلى هؤلاء الذين هدمت بيوتهم، ودمرت ممتلكاتهم، وجرفت أراضيهم، وقطعت عنهم الكهرباء فتلفت موادهم الغذائية، قطعت عنهم المياه فشربوا المياه المالحة، أعدم رجالهم بالرصاص، أخذ أولادهم إلى السجون، ويعانون ما يعانون، أتهنأ أنت في حياتك؟ أترتاح في طعام تأكله، أو سرير تنام عليه، أو ابن أمامك تتمتع به، وهم قد فقدوا كل شيء، وتقول: ماذا أفعل؟ أمامك مليون فعل تفعله دون أن تكون مسؤولاً.

القضية قضية عودة إلى الله عز وجل :

فيا أيها الأخوة، القضية قضية عودة إلى الله، حينما نتوهم ونسمع من هذا الذي يقبع في واشنطن أن شارون رجل سلام، ما قولكم بهذا الكلام؟ أتتحمل هذا الكلام؟ لا تعلق أمل بأهل الأرض، لن ينفعونا شيئاً، الأمل بالله وحده:

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ)

[سورة الأنفال: 10]

بالأرض القضية أسهل، فلان يحل المشكلة، لكن فلان ليس عنده منهج تطبقه، أنت مرتاح، فكلما علقت الحل بأهل الأرض فلا مشكلة لديك، أما إذا علقت الحل بالله فعند الله منهج إذا لم تطبقه لا يعطيك النصر. المشكلة أننا نجامل أنفسنا، كلما أردنا حلاً أرضياً نحن نجلس مرتاحين، كسالى، غير مطبقين للمنهج، أما عندما نجعل الحل هو الله فإن الله له منهج.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد: 7]

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ)

[سورة الأنفال: 10]

ألا تقام حفلات في ردهات الفنادق، وأبهاء المطاعم، وحدائق المزارع، تكلف مئات الألوف، واختلاط، وغناء؟ هذا وضع المسلمين، أيطيب للمسلم عندما يرى أخوته يقتلون ويؤسرون ويجوعون، أدويتهم دمرت! القضية كبيرة، لا تحل بقضية تكتيكية، لا تحل إلا بشكل استراتيجي، أراد الله من هذه المحنة أن نرجع إليه، وإن رجعنا إليه سوف ترون آيات الله صارخة وواضحة.

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

الظلم ظلمات :

أيها الأخوة، القضية تحتاج إلى مراجعة بيتك وعملك، لك موقع تقدم فيه خدمة للمسلمين، تربي أبناءك! هذه المشكلة، المشكلة لا تحل بصلاة غائب، ولا بصيام يوم الاثنين، بل بأكبر من ذلك، طالب لم يدرس أبداً وعنده امتحان، قال له زميله: خذ حبة أسبرين، ماذا تنفعه؟ والآخر قال: اقرأ الفاتحة، وقال الآخر: قَبل يد أمك، لا تحل لا بقبلة يد الأم، ولا بقراءة الفاتحة، ولا بأسبرين، لأنه لم يدرس أبداً، هذا الواقع المر، دائماً ابق مع الحقيقة المرة، واترك الوهم المريح، الواقع المر عندنا مشكلة كبيرة مع الله، فحينما امتحننا الله بهذا البلاء الشديد، والله ما بعده بلاء، والله الذي يراه الناس ويسمعونه لا يحتملونه، تشعر أنك مدمر لأعماق أعماق أعماقك! لا يوجد إلا الأمل بالله عز وجل.

فيا أيها الأخوة، كأن الله تخلى عنا، وقلت في الدعاء: يا رب لا تتخلَّ عنا، ولكن هناك منا من يفعل ويوجب أن تتخلى عنا.

فرحنا بالأمطار، لاحظ من هنا إلى منين، طريق الربوة كم ملهى يوجد؟ وكم مغنية وراقصة وخمر؟ هذا بعدما أكرمنا الله بالمياه.

عندنا معاصٍ كبيرة جداً، صلاح الدين الأيوبي حينما حارب أوروبا بأكملها ماذا فعل؟ أزال المنكرات، وفتح المدارس، بل حينما فرض على الرعية ضريبة من أجل تجنيد الجيش، وسأل بعض العلماء قال: هذه ليست شرعية، فألغاها في اليوم الثاني، فجاء قواده، وقالوا: كيف تلغي الضريبة؟ كيف نجهز الجيش؟ فقال صلاح الدين رحمه الله: لا يبنى جهاد على معصية. أنا قلت: حينما تؤمن بالله إيماناً حقيقياً ينبغي أن يحملك على طاعة الله، وحينما تؤمن بالآخرة إيماناً حقيقياً ينبغي أن يحملك على ألا تظلم مسلماً.

ألا يوجد ظلم لبعضنا؟ دعك، خذ الطبقة التحتية والشعب، كم دعوة فيها ظلم؟ كم أسرة وكم عائلة فيها ظلم؟ كم صاحب معمل يظلم عماله؟ الظلم ظلمات، لذلك عند الله عز وجل حقيقة مؤلمة جداً، ولا أتمنى أن أقولها: إن الله ينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة إذا وجد ظلم فيما بيننا، أو مشكلة كبيرة جداً لا تحل بصيام، ولا بصلاة غائب، بل بعودة إلى الله من الأعماق، وكل واحد يعاهد الله أن يعمل شيئاً، ويتجاوز حاجاته اليومية، وشغله، ويعمل شيئاً ثميناً لله حتى يستجيب له الدعاء.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(10-69): تفسير الآيات 22-24 ، المحرمات عند الزواج

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-04-26

بسم الله الرحمن الرحيم

زوجة الأب لا ينبغي أن يتزوجها ابنه من بعده صوناً لمكانة الأب :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس العاشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الثانية والعشرين من هذه السورة، وهي قول تعالى:

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)

في الآية السابقة حينما نهانا الله عز وجل أن نرث النساء كرهاً فذاك بيان لمكانة المرأة، وصون لمكانتها في الإسلام، فلا ينبغي أن تكون المرأة متاعاً يورث من زوج إلى أولاد، إذاً صوناً لمكانة المرأة فقد حرم الله جل جلاله أن تورث كمتاع يملكه المورث، لأن في هذا إهانة لها، لكن يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)

[سورة النساء: 19]

لو أنها قبلت أن تتزوج ابنه بمحض إرادتها، وانطلاقاً من مصلحتها جاء تحريم آخر، التحريم الآخر صوناً لمكانة الأب، فهذه زوجته لا ينبغي أن يتزوجها ابنه من بعده، صوناً لمكانة الأب، فحينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)

[سورة النساء: 19]

هذا التشريع صون لكرامة المرأة، وصون لكرامة الأب، جاء التحريم قطعياً كرهاً أم طوعاً:

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)

الله عز وجل عقّب على زواج الابن من زوجة أبيه بالذم البالغ المتتابع :

كان الناس أيها الأخوة يتزوجون امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)

[سورة النساء: 19]

حتى نزلت هذه الآية:

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ)

فصار حراماً في الأحوال كلها، والنكاح يقع على الجماع والتزويج، فإذا تزوج الأب امرأة حرمت على ابنه قطعاً. وقد ورد في الأخبار أن الأشعث بن سوار قال: توفي أبو قيس، وكان من صالحي الأنصار فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني أعدتك ولداً، ولكن آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره أي أستفتيه، فأتته فأخبرته، فأنزل الله هذه الآية، إذاً كحكم شرعي قطعي لا كرهاً ولا رضى لا يجوز من الابن أن يتزوج امرأة أبيه، وحينما قال الله عز وجل:

(إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)

أي تقدم ومضى، فالذي مضى معفو عنه، هذا التشريع ليس له حكم رجعي.

من هم السلف؟ من تقدم من آبائك، وذوي قرابتك، ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)

فعقّب الله عز وجل على هذا الفعل بالذم البالغ المتتابع، وذلك دليل على أنه فعل غاية في القبح، وأصل المقت، هو فحش، ومقت، وطريق سيئ إلى مبتغاك، ثم يقول الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

الله سبحانه وتعالى حرم سبعاً من النسب وستّاً من الرضاع والمصاهرة :

أيها الأخوة، هذه آية في أحكام الزواج أولاً:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ)

طبعاً نكاح الأم محرم تحريماً قطعياً شمولياً، لا يمكن أن يكون إليه سبيل، ولا بشكل من الأشكال، فالأم مهما علت، الأمُ، وأم الأم، ولكن قبل أن نأتي على التفاصيل نقول: إن الله سبحانه وتعالى حرم سبعاً من النسب، وستّاً من الرضاع، والصهر، وألحقت السنة تحريماً آخر، حرم سبعاً من النسب، وستاً من الرضاع، والمصاهرة، وألحقت السنة المتواترة سابعة محرمة، وسيأتي تفصيل ذلك فالسبع المحرمات هي: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

والسبع المحرمات بالمصاهرة هن: الأمهات من الرضاع، والأخوات من الرضاع، وأمهات النساء، والربائب، وحلائل الأبناء، والجمع بين الأختين، والسابعة كما قال عليه الصلاة والسلام: حرم أن يجمع الإنسان بين الزوجة وعمتها، وبين الزوجة وخالتها، هذا موجز، وسيأتي تفصيل ذلك.

تحريم سبعاً من النسب هو تحريم قطعي لا سبيل إلى تحليله :

أيها الأخوة، حينما قال الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ)

تحريم الأمهات عام في كل حال، لا يتخصص بوجه، كلمة لا يتخصص أي ليس هناك نص شرعي يخصص هذا التحريم العام، أو يبيحه، هذا النوع من التحريم يسميه علماء الأصول التحريم المبهم الذي لا سبيل إلى تحليله، لا بحالة خاصة، ولا بشيء آخر، تحريم البنات والأخوات ومن ذكر من المحرمات، فالأم كما قال العلماء: اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، وإن شئت قلت: كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو درجات، فيدخل في هذا الأم، وأمهاتها، وجداتها، وأم الأب، وجداته، وإن علوا، أعيدها ثانية: الأم هي كل أنثى لها عليك ولادة، أي أنت من نسلها، فيدخل في ذلك الأم، وأمهاتها، وجداتها، وأم الأب، وجداته، وإن علوا.

والبنت اسم لكل أنثى لك عليها ولادة، وإن شئت قلت: كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة من الدرجات، يدخل في ذلك بنات الصلب، وبناتها، وبنات الأبناء، وإن نزلوا، فحينما قال الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ)

أي الأمهات مهما علون، ومهما تفرعن في العلو، والبنات مهما نزلن، ومهما تفرعن في النزول، الأم مطلقة، والبنت مطلقة محرمة تحريماً قطعياً لا سبيل إلى تحليله.

والأخت كما قيل اسم لكل أنثى جاورتك في أصليك، أو في أحدهما، أي الأخت الشقيقة، أو الأخت لأب، أو الأخت لأم، جاورتك في أصليك؛ في أمك وأبيك، أو في أحدهما.

والعمة اسم لكل أنثى شاركت أباك أو جدك في أصليه، أو في أحدهما، فأخت الأب، وأخت الجد عمة، وإن شئت قلت: كل ذكر رجع نسبه إليك فأخته عمتك.

والخالة اسم لكل أنثى شاركت أمك في أصليها، أو في أحدهما، وإن شئت قلت: كل أنثى رجع نسبها إليك بالولادة، فأختها خالتك.

وبنت الأخ اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة بوساطة أو مباشرة، وكذلك بنت الأخت، فهذه سبع محرمات من النسب؛ الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

للتوضيح نقول: الأم مهما علت، الجدة لأب، الجدة لأم، وهكذا، والبنت بنتك الصلبية، أو بنت ابنك، أو بنت ابنتك، مهما نزلن وتفرعن، ومهما علون وتفرعن، هذه من التحريم القطعي، ثم الأخت يجمعك مجاورة مع أصليها، أي شقيقة، أو مع أحد أصليها، أخت لأم، أو أخت لأب، والعمة، والخالة كما شرحنا سابقاً.

الأصول السبعة النسبية مجموعة في زمرتين زمرة أصل وفرع وزمرة جوار :

إذاً:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)

بالمناسبة علاقة النسب ترجع هذه الأصناف السبعة إلى أصلين، علاقة أصل أو فرع، وعلاقة مجاورة، فالأخت، والعمة، والخالة، وبنات الأخت، وبنات الأخ علاقة مجاورة، أما الأم والبنت فعلاقة أصل أو فرع، فالعلاقة شاقولية أو أفقية، العلاقة الشاقولية الأم والبنت، الأم ارتفاع، والبنت نزول، والعلاقة الأفقية أخت، أو عمة، أو خالة، أو بنت أخت، أو بنت أخ، فهذه الأصول السبعة النسبية مجموعة في زمرتين؛ زمرة أصل وفرع، وزمرة جوار، فربنا جل جلاله لبلاغة القرآن وإعجازه وإيجازه قال:

(وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)

فذكر من كل زمرة واحدة، فجاء عليه الصلاة والسلام وقال:

((يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاع مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

أي كل علاقات الرضاعة كأصل وفرع، وأخت، وعمة، وخالة، وبنت أخ، وبنت أخت ينطبق عليها التحريم تماماً، لكن الله اكتفى من علاقات الرضاعة بواحدة من كل زمرة فقال:

(وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)

وهي في التحريم مثل من ذكرنا.

علاقات الرضاع مثل علاقات النسب لكن القرآن اكتفى بواحدة من كل زمرة :

قال عليه الصلاة والسلام:

((يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاع مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

إذا أرضعت المرأة طفلاً حرمت عليه لأنها أمه، وحرمت عليه ابنتها، لأنها أخته، وحرمت عليه أختها، لأنها خالته، وحرمت عليه أمها، لأنها جدته، وحرمت عليه بنت زوجها، لأن زوجها صاحب اللبن، هي امرأة لها زوج أرضعت هذه الطفلة، فزوجها صاحب اللبن هي أرضعتها من لبنٍ أصله زوجها، إذاً حرمت على زوجها لأنه أبوها من الرضاعة، وحرمت عليه أخت الأب لأنها عمتها، وحرمت عليه أمه لأنها جدته، وبنات بنيها وبناتها، لأنهن بنات أخوته وأخواته.

أعيد عليكم هذه الفقرة، قال تعالى:

(وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ)

وهي في التحريم مثل من ذكرنا، قال عليه الصلاة والسلام:

((يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

(وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ)

فإذا أرضعت المرأة طفلاً حرمت عليه، لأنها أمه، وإذا أرضعته حرمت عليه ابنتها، لأنها أخته، وإذا أرضعته حرمت عليه أختها، لأنها خالته، وإذا أرضعته حرمت عليه أمها، لأنها جدته، وبنت زوجها صاحب اللبن، لأنها أخته، وأخته، لأنها عمته، وأمه لأنها جدته، وبنات بنيها، وبناتها، لأنهن بنات إخوته وأخواته.

ملخص هذا الكلام لخصه النبي بكلمتين:

((يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

علاقات النسب سبع، ومثلها علاقات الرضاع، لكن القرآن اكتفى بواحدة من كل زمرة.

الإمام الشافعي عدَّ شرطين لوقوع أحكام التحريم بالرضاعة :

التحريم بالرضاع أيها الأخوة لا يمكن أن يكون إلا ضمن حولين، يقول لك: أنا يتيم، وعمره ثمانين سنة، لا يتم بعد حلم، كلمة يتيم دون البلوغ، بعد البلوغ لم يعد يتيماً، معظمنا أيتام، الآن الرضاع لا تنطبق عليه الأحكام إلا ضمن سنتين، ما بعد السنتين لا يسمى رضاعاً، بعض المذاهب يرى أنه لا فرق بين قليل الرضاع وكثيره، فإذا وصل هذا الحليب إلى الأمعاء، ولو مصة واحدة اعتبر رضاعاً، وبني عليه أحكام التحريم.

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى عد شرطين لوقوع الأحكام، أحدهما: خمس رضعات، لحديث عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:

((كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ))

[مسلم عن عائشة]

((أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ تَبَنَّى سَالِماً وَهُوَ مَوْلًى لِامْرَأَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ كَمَا تَبَنَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْداً وَكَانَ مَنْ تَبَنَّى رَجُلاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ دَعَاهُ النَّاسُ ابْنَهُ وَوَرِثَ مِنْ مِيرَاثِهِ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَأَخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ فَرُدُّوا إِلَى آبَائِهِمْ فَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ لَهُ أَبٌ فَمَوْلًى وَأَخٌ فِي الدِّينِ فَجَاءَتْ سَهْلَةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنَّا نَرَى سَالِماً

وَلَداً يَأْوِي مَعِي وَمَعَ أَبِي حُذَيْفَةَ وَيَرَانِي فُضُلاً وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ مَا قَدْ عَلِمْتَ فَقَالَ: أَرْضِعِيهِ خَمْسَ رَضَعَاتٍ فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ وَلَدِهِ مِنْ الرَّضَاعَةِ))

[أحمد عن عائشة]

عند بعض المذاهب مصة واحدة يبنى عليها حكم، وعند الإمام الشافعي خمس رضعات يتم بها الحكم.

الشرط الثاني: أن يكون هذا الرضاع في الحولين دون السنتين، فإذا كان خارجاً عنهما لم يحرم، لقوله تعالى:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ)

[سورة البقرة: 233]

حولين كاملين، فقال بعض العلماء: ليس بعد التمام والكمال شيء.

حكم التحريم لا يبنى إلا بثلاث رضعات :

لكن هناك أحكام تفصيلية، أبو حنيفة أضاف ستة أشهر بعد الحولين لعلة مذكورة في كتب الفقه، ومالك اعتبر شهراً بعد الحولين، وزفر قال: ما دام يجتزئ باللبن؛ أي يكتفي باللبن ولم يفطم فهو رضاع، وإن أتى عليه ثلاث سنين، يعني بين ما دام الطفل مكتفياً بالرضاع، ولو مضى عليه ثلاث سنوات الرضاع يبنى عليه حكم التحريم، وعند بعض الأئمة ستة أشهر بعد الحولين، وعند بعضهم الآخر شهر بعد الحولين، فلا يبنى التحريم إلا إذا وقع الرضاع في هذه المدة من سنتين إلى ثلاث، إذا كان يكتفي بحليب أمه، وإن لم يكتفِ فشهر بعد السنتين، أو ستة أشهر بعد السنتين، وبعض الأئمة يقول: إذا فطم بعد عام، واستمر فطامه فليس بعد هذا العام رضاع، يبدو أن أحكام الرضاع تبنى على مدة الرضاع الخاصة بكل طفل.

بعضهم يرى أن الحكم التحريم لا يبنى إلا بثلاث رضعات، من مصة إلى خمس إلى ثلاث، الآن:

(وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَاعَةِ)

هي الأخت لأب أو لأم، وهي التي أرضعتها أمك بلبن أبيك، سواء أرضعتها معك أو ولدت قبلك أو بعدك فهي محرمة لأنها أخت، والأخت من الأب دون الأم، وهي التي أرضعتها زوجة أبيك، والأخت من الأم دون الأب، وهي التي أرضعتها أمك بلبن رجل آخر.

التحريم بالمصاهرة :

ثم ذكر التحريم بالمصاهرة فقال:

(وَأُمَّهَاتُكُمْ نِسَائِكُمْ)

أي أم الزوجة، والأصهار أربعة، أم المرأة محرمة، وابنتها محرمة، وزوجة الأب محرمة، وزوجة الابن محرمة، إذاً بالرضاع عندنا الأم، والأخت، وتفريعتهما، وبالمصاهرة أم الزوجة، وابنتها، وزوجة الأب، وزوجة الابن. ثم يقول الله عز وجل:

(وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ)

الربائب جمع ربيبة، والربيبة بنت الزوجة من غير الزوج، امرأة مطلقة لها بنت، خطبها رجل، ابنتها معها هذه ربيبة، والأصل فيها أنها تربى في بيت زوج أمها، فهي ربيبة، لكن بعضهم توهم أنها لم تكن عند أمها فهي محللة، قالوا: لا، هي ربيبة، لأنها يغلب عليها أنها عند أمها دائماً، ولو لم تكن عند أمها فهي محرمة، بنت الزوجة محرمة:

(وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ)

بمجرد العقد على المرأة لا تحرم ابنتها، حكمة بالغة بالغة، لا تحرم ابنتها إلا بعد الدخول، لأن الأم تتسامح، فلو أن رجلاً خطبها، ثم عدل عنها إلى ابنتها، فابنتها تتمنى لها كل خير، دقة الشرع بالغة، البنت لا تحرم على الرجل إذا عقد على أمها، لا تحرم عليه إلا إذا دخل بأمها،

(وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ)

قال:

(فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ)

لو عقد على امرأة، ثم فسخ هذا العقد، واتجهت النية إلى ابنتها يجوز العقد الثاني، يعني الدخول معروف، ليلة العرس تقريباً، هناك من الفقهاء من يتوسع في الدخول فيراه النظرة بشهوة، أو الملامسة، على خلاف بين الفقهاء، لكن إذا عقد العقد على البنت حرمت الأم، ولو من دون دخول، هذه نقطة دقيقة، إذا عقد العقد على البنت أصبحت أمها محرمة على زوج البنت، ولو لم يدخل بها، والعكس غير صحيح، قد يعقد على الأم، ثم تتجه النية إلى البنت، تطلق الأم من دون دخول، ويصح العقد على البنت، أما إذا تم العقد على البنت فمجرد العقد تحرم أمها.

تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء وما عقد عليه الأبناء على الآباء :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ)

والحلائل جمع حليلة، وهي الزوجة، لأنها تحل معه أينما حل، أو لأنها حلال له، وهو حلال لها.

النقطة التاسعة: أن العلماء أجمعوا على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء، لمجرد عقد أب على امرأة فهي محرمة على الابن، وما عقد عليه الأبناء على الآباء، ولمجرد أن يعقد ابن على امرأة فهي محرمة على أبيه، لقوله تعالى:

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)

وقول الله عز وجل:

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ)

طبعاً إذا دخل الرجل بامرأة تحرم على أبيه وابنه، وعلى أجداده وأولاده مهما نزلوا بشكل دقيق.

إبطال الإسلام عادة التبني :

طبعاً حينما قال الله عز وجل:

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ)

المتبنى لا حكم له، النبي عليه الصلاة والسلام أمره الله، وكان متألماً أشد الألم أن يتزوج زوجة ابنه المتبنى زيد، طبعاً في الجاهلية المتبنى ابن، وكان اسمه زيد بن محمد، وقد فعل النبي شيئاً بأمر من الله واضح، وكان يتمنى ألا يفعله لأن الناس يتكلمون بهذا الكلام بشكل لا يليق، لكن الله عز وجل أراد إبطال هذه العادة، ويستأصلها من جذورها، فأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زوجة متبناه، لذلك لم يرد اسم صحابي في القرآن الكريم إطلاقاً إلا زيد، لأنه حينما أمر الله نبيه أن يتزوج زوجة زيد فقد نسبته إلى النبي، كان اسمه زيد بن محمد، فخسر هذه النسبة، فعوضه الله عنها أنه ذكر اسمه وحده في القرآن، إذاً عادة التبني أبطلها الإسلام، والآن هناك من يتبنى طفلاً، دققوا أيها الأخوة، هذا الطفل أجنبي، فيقال: هو مثل ابني، لا ليس مثل ابنك، هذا يشتهي زوجتك، ويشتهي بناتك، فعادة التبني خطيرة جداً، فيها اختلاط أنساب، ابنك الذي هو من صلبك فقط، إن شاء الله مثل أختي، أختك التي هي من أب واحد، أو من أم واحدة، أو من أب وأم، أما هي مثل أخي فلا، هذا كله كلام فيه فساد عريض، فالنبي عليه الصلاة والسلام تحمل مشقة أنه أبطل عادة مترسخة في العرب في الجاهلية، أن المتبنى كالابن تماماً، لذلك قال:

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ)

أيضاً ويحرم حليلة الابن من الرضاع، طبعاً الابن من الرضاع ليس من صلبه، لكن من الرضاع، هذا استثناء، تحرم على الإنسان زوجة ابنه الذي من صلبه، وزوجة ابنه من الرضاع تحريماً قطعياً، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

منع جمع الأختين في عقد واحد من النكاح :

قال:

(وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ)

أجمعت الأمة على منع جمعهما في عقد واحد من النكاح بهذه الآية، ثم هناك حكم دقيق في الشرع؛ أن العلماء أجمعوا على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً رجعياً، يعني يملك أن يرجعها فليس له أن ينكح أختها أو أربعاً سواها حتى تنقضي عدة المطلقة، فلا يستطيع أن يجمع بين الأختين بمجرد الطلاق، طبعاً التحريم أن يجمع بينهما، فإن لم يجمع بينهما فلا شيء عليه، والدليل، قد تتوفى زوجة ولها أولاد، ومن حق زوج المتوفاة أن يتزوج أختها، إذا تزوج أختها لم يجمع بين الأختين، إذاً التحريم أن يجمع بين الأختين، لكن العلماء قالوا: إنه لا يجوز أن تجمع بين الأختين إلا بعد انقضاء عدة طلاق الأولى، كما لا يجوز أن يكون عندك فوق أربع نسوة، حتى الأربع يجب أن ينقضي العدة على طلاق الأخيرة، حتى تستكمل بها الأربعة،

(إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)

وهذا من تخفيف الله عن المسلمين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، أن الذي مضى قبل هذا التحريم لا شيء عليه، ثم يقول الله عز وجل:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

أية امرأة لها زوج فهذه محرم أن تتزوجها عطف على المحرمات المذكورات من قبل :

المحصنات عطف على المحرمات، يعني:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً* وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ)

أية امرأة لها زوج فهذه محرم أن تتزوجها عطف على المحرمات المذكورات من قبل، والتحصن هو التمنع، وامرأة محصنة أي لها زوج، لذلك عقوبة الزانية المحصنة الرجم حتى الموت، وعقوبة الزاني المحصن الرجم حتى الموت، بينما عقوبة الزاني غير المحصن مئة جلدة، وعقوبة الزانية غير المحصنة مئة جلدة، وبعضهم قال: المحصنات العفائف من المسلمين، ومن أهل الكتاب أيضاً، طبعاً يجوز أن يتزوج الرجل امرأة من أهل الكتاب، لكن هناك من يحرم الآن الزواج منهن، هو الأصل في تحليل واضح في القرآن بآية واضحة، لكن لأن هذه ليست محصنة، وقلما تجد امرأة ليس لها تجارب قبل الزواج مع أزواج آخرين في بلاد الغرب طبعاً، أقول هذا الكلام، لا يزال الشرق له عادات يتميز بها عن الغرب، أما حينما تذهب إلى أمريكا وإلى أوربا فليس هناك امرأة واحدة ليس لها تجارب قبل الزواج، إذاً ليست هذه محصنة.

شيء آخر: قد يأتي ابن يتبع أقوى الأبوين، هذا حينما قوي الإسلام يجوز أن تأخذ من شئت من أهل الكتاب، أما الآن فهناك مشكلة يعاني منها أخوتنا معاناة لا توصف:

(كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

أي هذا حكم الله عليكم:

(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ)

هذا المحرم وما سواه محلل، لذلك الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالنص، أما العبادات فالأصل فيها الحصر، ولا يشرع شيء إلا بالنص.

أسئلة عامة :

أيها الأخوة، كنت أقول دائماً: إن الحق دائرة يمر بها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي.

وردني سؤال: هل يجوز أن يرى الشخص أخته من الرضاع؟

الحقيقة أن هناك فرقاً دقيقاً بين الأخت النسبية والأخت من الرضاع، تصور إنساناً تزوج، عنده زوجة وابن رضيع، الجارة دخلت مرة إلى بيت الرجل، وأرضعت زوجته ابن هذه الجارة خمس رضعات، وانتهى الأمر، الآن هذه البنت عمرها ثماني عشرة سنة مثل الوردة، والابن عمره عشرون سنة هل تظن أنه لأنها رضعت خمس رضعات من أمه يجوز لها أن يراها كما يرى أخته؟ هل ترتاح أن يخلوَا في بيت واحد، لذلك حرم الفقهاء الخلوة مع الأخت من الرضاع، وبعضهم تشدد فلم يسمح بالنظر إليها، وقد سمعت هذا من رجل فقيه تسلم منصب عمادة كلية الشريعة، قال: أية امرأة، أي لفتت نظر الإنسان، له سبيل إلى الزواج منها، أما لو أن هذه الأخت من الرضاعة لفتت نظره هل هناك سبيل إليها؟ مستحيل، فالاختلاط ممنوع في الأصل، والخلوة من الأخت من

الرضاعة ممنوع أيضاً، وهناك من يتشدد ويرجح ألا يسمح بالنظر إليها، طبعاً إذا كانت شابة، الأخت الكبيرة موضوع ثانٍ، أما فتاة في ريعان الصبا، ولها أخ من الرضاعة فالأحوط أن نجتنب، فلا نسمح بالاختلاط بخلوة محرمة قطعاً في كل المذاهب، هذا جواب السؤال.

سؤال آخر: هل دخول العريس إلى حفلة النساء ليلبس المرأة حرام، وكيف يمكن امتناع الأهل من أجل أن يكون عرساً إسلامياً صحيحاً؟ وكيف يمكن إقناع الأهل؟

يقنعهم الواحد، واحد عنده قناعة أن الدجاجة ستأكله، ما ترك أهله طبيباً، آخر طبيب جلس معه ست ساعات، وشرح له حجم الدجاجة، وأنه ليس من المعقول أن تأكلك، قال له: أنا مقتنع، ولكن أقنعها هي، كيف تقنعهم؟ لا تقنعهم، لا تدخل أنت، إذا اقتنعوا أو لم يقنعوا، لا تعلق أهمية على إقناعهم، أنت رجل فخذ موقفاً، أنا لا أدخل، وانتهت العملية، لا بد أن يشعر من حولك بقضايا الدين، ليس هناك مساومات، ولا أنصاف حلول، ولا موقف لين، حلها برمة سيدي، هذا متزمت كثيراً، لا، تمسك حل وسط غير وارد، إما تمسك أو تفلت، الآن أنت مثلاً في مستودع للوقود، تقول: هذا مستودع محكم، معنى محكم له تفسير واحد، تملؤه ألف لتر، تغيب خمس سنوات لا ينقص شيء إذا كان مغلقاً، أما إذا كان غير محكم فعدم الإحكام نسبي، ويسيل في يوم، أو في ساعة، أو في ثانية، أو في سنة، عدم الإحكام نسبي الإحكام، القضية مهمة، إذا أراد الإنسان أن يعصي الله فالمعصية درجات، أما الطاعة فدرجة واحدة، فأنت في مثل هذه الأحوال في أمور الدين، وأنا أنصح كل خاطب في بداية الخطبة، وأيام الخطوبة أن يعطي مبادئ، أنا في أمور الدين لا أقبل المساومة، حدود الله ينبغي أن نقف عندها، فقضية ندخل على النساء، والنساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، بأبهى زينة، وأنت إلى جانب زوجتك، والنساء أمامك هل هذا كلام؟! أي عرس إسلامي؟ هذا عرس شيطاني، في الدين لا مساومة، فكيف تُقنع من لا يقتنع؟

سؤال: هل أتبع مذهب أبي أم أمي؟

والله لا أعرف مذهب أمك وأبيك.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(11-69): تفسير الآيات 24-27 ، المحصنات وأحكام الزواج

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-05-03

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى بيّن المحرمات من اللواتي لهن أزواج :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ)

بيَّن الله جل جلاله المحرمات من النسب، وبيَّن المحرمات من الرضاع، وبيَّن المحرمات من الزواج، والآن يبين المحرمات من اللواتي لهن أزواج، تحريم نسب، تحريم رضاع، تحريم زواج، تحريم أزواج، المحصنة لها زوج، زوجها حصنها، فالزوج محصن، والمرأة محصنة، أولاً يحميها، يحقق لها حاجاتها من جميع أنواعها، لا تنظر إلى غيره، تقصر طرفها عليه، ومن أغرب ما قرأت في كتاب لعالم غربي يتحدث عن أن أفضل نظام للبشرية أن يقصر الرجل طرفه على زوجة واحدة، بمعنى ألا يكون له أخدان، فهذه المحصنة محرمة ما دام لها زوج، وليس في دين الإسلام، ولا في شرائع الله عز وجل لامرأة رَجُلان، وفق منهج الله المرأة لرجل واحد، فهذه محصنة، زوجها حصنها وكأنها في حصن، والزوج حصن:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ)

هؤلاء أيضاً محرمات على الرجال، وأن يتزوجوا هذه المرأة التي لها زوج، فمحرم على الرجال أن يتزوجوا امرأة لها زوج.

المسلمون أصحاب رسالة وقد جعلهم الله أمة وسطاً :

ثم يقول الله عز وجل :

(إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

الحقيقة ملك اليمين بحث طويل، هذا البحث يتعلق بالفتوحات الإسلامية، لأن الإسلام دين الله عز وجل، ولأن دين الله إنساني، ولأن الهدف البعيد من الفتوحات ليس التدمير، وليس الإبادة، فالإسلام يعرض على الطرف الآخر عرضاً بيانياً، فإن أسلم الطرف الآخر أصبح من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، أول حركة أن تعرض الإسلام على هؤلاء ـ أنا أسميهم الطرف الآخر ـ غير

المسلمين، فإن أسلموا فلهم ما لنا، وعليهم ما علينا، والإسلام جمعنا معهم، وأذابهم فينا، وأذابنا فيهم، وقد تتساءلون: أئمة عظام في الإسلام ليسوا عرباً؟ الإمام البخاري، أنا أنقل لكم عشرات الأسماء، لا يخطر ببالك لثانية واحدة أنه غير عربي، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في حديث من أدق أحاديثه، وهذا الحديث يتوافق مع أحدث نظرية في اللغة يقول: ليست العربية لأحدكم من أب أو أم ولكن من تكلم العربية فهو عربي، هذا الذي أتقن العربية، وأحب دين الله عز وجل في دمائه كريات إسلامية عربية دون أن يشعر، إذاً المسلمون أصحاب رسالة، وقد جعلهم الله أمة وسطاً، وسطاء بين الله عز وجل وبين الخلق، وهذه مرتبة عالية جداً اختص الله بها المسلمين والعرب، والعرب حينما استجابوا لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام أصبحوا خير أمة أخرجت للناس، والجامعة العربية مزينة بهذه الآية:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

والآية الثانية:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

[سورة آل عمران: 103]

أمة سيدنا محمد تقسم إلى أمتين؛ أمة الاستجابة وأمة التبليغ :

لكن هذه أمة استجابة، ما داموا قد استجابوا لله عز وجل إذاً:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

علة الخيرية أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، فخيرتهم علتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، فإن لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يؤمنوا بالله فَقَدوا خيرتهم، فأصبحوا أمة كأية أمة، لا شأن لها عند الله، وهذا يؤكده:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

[سورة المائدة: 18]

أهل الكتاب، فأجابهم الله عز وجل:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

ولا أجد آية تتعلق بأهل الكتاب تنطبق على المسلمين انطباقاً تاماً كهذه الآية، يقول لك أحدهم: نحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الجواب: قل فلم يعذبنا الله بذنوبنا، بل حينما لم نستجب فنحن بشر ممن خلق، هان أمر الله علينا فَهُنّا على الله، لذلك العلماء قسموا أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمتين؛ الأمة الأولى أمة الاستجابة، والأمة الثانية أمة التبليغ، التي استجابت هي خير أمة أخرجت

للناس، والتي لم تستجب هي أمة التبليغ، كأية أمة من الأمم، بشر ممن خلق، المؤمنون الصادقون الذين أناط الله بهم رسالة هي نشر هذا الدين في الآفاق، ألا تسمعون هذه الأمة ذات رسالة خالدة، رسالتها الإسلام، نشر هذا الدين في الآفاق.

المنهج الذي رسمه الله عز وجل وبيّنه النبي لنشر هذا الدين :

قال:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

[سورة البقرة: 152]

أما حينما لا نستجيب فنحن أمة كأية أمة، إذاً في أعناقنا رسالة، في أعناقنا مهمة نشر هذا الدين، المنهج الذي رسمه الله عز وجل، وبينه النبي لنشر هذا الدين كما يلي:

1 ـ نعرض الإسلام على الطرف الآخر فإن استجاب فهو منا ونحن منه :

أولاً: نعرض الإسلام عرضاً بيانياً على الطرف الآخر، فإن استجاب فهو منا ونحن منه، له ما لنا وعليه ما علينا.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

[سورة الحجرات: 13]

أما الآن ليفن بعضكم بعضاً، أبداً، يقال: تطهير عرقي، ما هذا الكلام؟ تطهير عرقي، هذا الذي يُقتَل ليس قاتلاً، وليس سارقاً، وليس منتهكاً لأعراض الناس، ولكن لأنه مسلم يُقتَل.

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

[سورة البروج: 8]

لأن الله جل جلاله أناط بنا مهمة تبليغ الرسالة للخلق جميعاً نعرض هذه الرسالة على الطرف الآخر، فإن قبلها فهو منا ونحن منه، وعلى العين والرأس، وإن لم يقبلها نعرض عليه الجزية.

2 ـ إن لم يقبل الإسلام نعرض عليه الجزية :

الجزية لها معنى لطيف جداً، المسلم لا يستطيع أن يحارب إلا عن عقيدة، المسلم حينما يحارب يحمل عقيدة سامية جداً، هذه حرب مقدسة، هدفها نشر هذا الدين، هدفها أن يُمكَّن دين الله في الأرض، هدفها لتكون كلمة الله هي العليا، هدفها أن يدين الناس بدين الله، الحرب التي شرعها الله عز وجل حرب مقدسة:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة البقرة: 193]

الفتنة كم ترون من إنسان إباحي يفرض إباحيته على كل الأرض، هذه فتنة، قد نحارَب بالمرأة، قد نحارب بالقمار، قد نحارب بالبنوك، قد نحارب بالميسر:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

يأتي إنسان قوي يفرض ثقافته، وإباحيته، وانحرافه، وتفلته على كل شعوب الأرض، كما يجري الآن تماماً، وسوف ترون أيها الأخوة أن أهون غزوٍ الغزو العسكري، بينما الغزو الثقافي أخطر ألف مرة، بالغزو العسكري الجندي في ثكنته وأنت تحاربه، أما بالغزو الثقافي فقد دخل إلى بيتك، وأفسد أولادك، وأفسد بناتك، وأفسد زوجتك، ونقل النمط الغربي إلى بلاد المسلمين، الإباحية، الاختلاط، الربا، الانحراف، التعلق بالدنيا، أنا لا أرى غزواً أخطر من الغزو الثقافي الذي ترونه الآن في مشارق الأرض ومغاربها، لذلك حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله عرضنا هذا الدين على الطرف الآخر، فإن قَبِلَه، فهو منا، ونحن منه، وإن لم يقبله نقول له: أنت في حمايتنا، ولك الحرية التامة في أن تمارس شعائر دينك، ونحن نحترم دينك، ونحترم معتقدك، ولا نقترب منهم أبداً، ولكن لن تستطيع أن تحارب معنا لأننا أصحاب عقيدة، نحن حربنا حرب أساسها نشر الحق، والرحمة بالخلق وليس في الحرب الإسلامية إبادة أبداً، ولا قتل طفل، ولا قتل امرأة، ولا قتل شيخ، ولا قلع شجرة، ولا قتل بهيمة، ولا تجريف أراضٍ، واقتلاع أشجار، وتدمير بيوت، وتدمير ممتلكات، هذه الحرب لا علاقة لنا بها إطلاقاً، الحرب الإسلامية حرب شريفة، أساسها نشر الحق، فإن لم يرضَ أن يدخل في دين الله فهو حر، لأنه لا إكراه في الدين، له أن يبقى على معتقده، وله أن يمارس العبادة في بيته، وله أن يفعل ما يشاء ضمن النظام الإسلامي العام، ولكن هذا الذي أبى أن يسلم، وبقي محافظاً على دينه لا يمكن أن يقاتل معنا، لأننا نحارب على عقيدة إسلامية، إذاً يدفع الجزية، يعني تماماً كما يسميه الناس اليوم البدل النقدي، هذه الجزية، لكن مقابل هذا البدل نحن نحميه حماية تامة، كما فعل سيدنا خالد في حمص.

3 - إن أبى أن يسلم وأن يدفع الجزية وأصرّ على أن يقاتل نقاتله :

فإن أبى أن يسلم، وإن أبى أن يدفع الجزية، وأصر على أن يقاتل نقاتله.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

[سورة البقرة: 190]

لا نقاتل إلا المقاتل، هذا هو الدين، فإذا قاتلناه، وانتصرنا عليه فليس القصد أن نقتله، القصد أن نهديه إلى الله عز وجل.

نظام الأسْر في الإسلام :

هو حينما رفض الإسلام أولاً، ورفض أن يدفع الجزية ثانياً، وأصر على القتال ثالثاً، ونحن أخذناه أسيراً، أو أخذناه وزوجته أسيرين، الآن يدخل هذا الأسير وتلك الأسيرة في دعوة إلى الله من نوع خاص، دعوة بالتعامل اليومي، أنت ائتِ بإنسان ليعمل معك، لو أنه على نقيض مع ما تعتقد، لكن رأى منك لطفاً، ورحمة، وعدلاً، وإنصافاً، أطعمته مما تأكل، ألبسته مما تلبس، ما كلفته ما لا يطيق، أعنته على ما تكلف به، جعلت النهار لك والليل له، هذه المعاملة الطيبة، وهذا الإكرام؛ أن تطعم خادمك مما تأكل، وأن تسقيه مما تشرب، وأن تلبسه مما تلبس، وألا تكلفه ما لا يطيق، وأن ترحمه، وأن تكرمه، فهذا الأسير أنا والله لا أبالغ لو أن الذي يحارب أخذ هذا المقاتل الذي وقع أسيراً، وعامله المعاملة التي شرعها النبي عليه الصلاة والسلام فلا بد أن يسلم، قال: فإن أسلموا فإخوانكم في الدين، انتهت العملية كلها، مدرسة أخرى من مدارس الدعوة إلى الله، هذا الذي أفهمه من خلال أن يأخذ الجيش الإسلامي أسيراً، ليس القصد أن يقتله، ولا أن يستخدمه، ولا أن يذله، القصد فقط أن يعلمه الإسلام تعليماً عملياً.

لذلك لما جاء والد سيدنا زيد بن حارثة ليشتري من النبي هذا العبد الذي كان ابنه، قال للنبي الكريم: كم تطلب؟ قال له: لا أطلب شيئاً، هو ابنك إن أراد أن يذهب معك فله الحرية، فأبى أن يذهب مع أبيه، وأصر أن يبقى مع رسول الله، قال له: أتؤثر هذا الرجل على أبيك وأمك، فقال سيدنا زيد: الذي رأيته من هذا الرجل لا يوصف، لم أره لا من أبي، ولا من أمي، أنا هذا الذي أفهمه من نظام الأسْر في الإسلام، نريد أن ننشر هذا الدين نشرناه بالبيان، فلم يقبل عرضنا الجزية، فلم يقبل ذلك، الآن حاربنا، ولم نحارب حرب إبادة، ولا حرب انتقام، ولا حرب إذلال، ولا حرب تدمير، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((الْحَرْبَ خَدْعَةٌ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أي ينبغي أن ترسم خطة لتأخذ الطرف الآخر أسيراً لا أن تدمره، الآن كم تسمعون في العالم عن مذابح جماعية، إبادة كاملة، كل يوم خبر، اكتشفنا مقبرة جماعية، إبادة، في فتوح المسلمين فيما يروي المؤرخون لم يكن أكثر من ثلاثمئة قتيل من الطرفين، الآن كل يوم ثمة خبران ثلاثة بالمئات تقريباً، فهذا الطرف الآخر إذا أسلم فله ما لنا، وعليه ما علينا، وإذا رفض أن يسلم يبقى على دينه، ونحترم الأديان الأخرى، له أن يعبد الله على نمطه، نحترم دينه وأماكن عبادته، نتسامح معهم، لكن هذا لا يستطيع أن يقاتل معنا، لأن حربنا حرب عقيدة، وحرب نشر دين، إن أبى أن يدفع جزية نقاتله، ونحرص ألا نقتله لنأخذه أسيراً، هذا الأسير من المعاملة الطيبة النادرة التي يلقاها من المسلم

يجب أن يسلم، فإن أسلموا فإخوانكم في الدين، انتهى الأمر، حرب إنسانية، هذا الذي في الإسلام عن الأسر والأسيرات، وليس هناك شيءٌ آخر.

علاقة الرجل بالمرأة في منهج الله عز وجل علاقة مستمرة :

قال تعالى:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

النقطة الدقيقة أن ملك اليمين ولو أن لها زوجاً من الكفار حينما أُخذتْ أسيرة لم تبقَ محصنة، لقد فقدت إحصانها في أسرها، سيدها التي هي ملكه له أن يتزوجها، أو أن يزوجها لمن يشاء، وكأنه وليها، طبعاً لأنها أسيرة لا مهر لها، المهر للحرة.

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

يعني كتب الله عليكم هذا الكتاب.

(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ)

علاقة الرجل بالمرأة في منهج الله عز وجل علاقة مستمرة، ليس هناك علاقة طارئة أبداً، العلاقة الطارئة ليست من منهج الله عز وجل، هذه المرأة ربطت مصيرها مع زوجها، هي زوجته، وأم أولاده، تكبر معه، تتقاسم معه ما في حياته من حلو ومر، وفي كل مرحلة لها جمالها، ولها مكانتها، ولها قيمتها، ولو عرضت على أية امرأة في الأرض الزواج أو أن تكون متعة رخيصة لا ترضى إلا الزواج، ولكن للجهل الذي يهيمن على فتيات المسلمين غير الذين عرَّفوا بناتهم بمنهج الله عز وجل قد يؤثرن التفلت، وقد يؤثرن الخروج، قد يؤثرن علاقات لا ترضي الله عز وجل، هذا كله من الجهل، ومن التغذية غير الإسلامية التي تتغذى بها البنات كل يوم إلى منتصف الليل، هذه التغذية في مجموعها تهيئ تصورات للفتاة تجعلها تتفلت من منهج الله.

أهمية المهر في الإسلام :

إذاً:

(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ)

محرمات من النسب، محرمات من الرضاع، محرمات من الزواج، محرمات الإحصان، أربع زمر محرمة، ما سوى ذلك حلٌّ لكم،

(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ)

زوجة بعقد شرعي، تؤسس معها عشّاً زوجياً لإنجاب الأولاد، وتربيتهم، والنهوض بهذه الأمة عن طريق الأولاد، وليس في الإسلام غير هذه العلاقة، علاقة اختلاط، علاقة موظفة، تكون تارة موظفة، وتارة عشيقة، هذا كله في الإسلام محرم، قال:

(أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ)

هذا المال الذي جنيت بكسب يمينك وعرق جبينك هذا المال ينبغي أن تدفع منه قسماً للمرأة، أولاً تكريماً لها، وإشعاراً لك أن هذه الزوجة لها قيمة وليست من سقط المتاع، قال:

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

أنا مضطر أن أعود إلى بعض آيات الله عز وجل التي ذكر فيها الأجر، لأن من المسلمين من فهم:

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

بعض المسلمين فَهِمَ من هذه الآية أنه يجوز أن تستأجر امرأة لتقضي حاجتك منها بأجر معين، وهذا في الإسلام محرم أشد التحريم، أما من يقول: إن هذا الأجر هو أجر هذا الزواج المؤقت فخطأ.

في ثماني آيات الأجر معناه المهر وليس معناه أنه أجر للاستمتاع المؤقت :

أيها الأخوة، في سورة المائدة آية وهي قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

[سورة المائدة: 5]

الأجر في هذه الآية معناه المهر، آية أخرى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ)

[سورة الأحزاب: 50]

ما معنى الأجر في هذه الآية؟ المهر فقط، في ثماني آيات الأجر معناه المهر، لا يعني الأجر أن تستأجر امرأة لتستمع بها إلى حين مقابل أجر تعطيه إياها، فهذه الحجة باطلة، أن تتوهم أن الله عز وجل حينما قال:

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً)

أنه أجر للاستمتاع المؤقت، لا، الأجر في كل آيات القرآن يعني المهر فقط.

معنى الأجر في القرآن

قد يأتي بمعنى تعويض الإرضاع :

في الأحزاب، وفي الممتحنة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

[سورة الممتحنة: 10]

(أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ)

زواج عادي،

(إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

أي مهورهن، وفي سورة الطلاق:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

[سورة الطلاق: 6]

هنا الأجر بمعنى تعويض الإرضاع.

حينما تعقد عقد زواج ينبغي أن يكون هذا العقد على التأبيد :

أيها الأخوة، إذاً كلمة الأجر في القرآن الكريم لا تعني إلا المهر، والإمام الأوزاعي يرى أن كل عقد زواج ليس على التأبيد فهو زنى، قد تطلق بعد حين بسبب طارئ، أما حينما تعقد العقد ينبغي أن يكون العقد على التأبيد، لأن امرأة في الأرض لا ترضى أن يكون الزواج مؤقتاً، المرأة شيء عجيب، لها مرحلة تكون فيها شابة ومرغوباً فيها، في مرحلة تكون أمّاً، مرحلة ثالثة جدة، فالذي يأخذ الفتاة، يأخذ جمالها ثم يرميها فقد ضيعها، وضيع مستقبلها، فلذلك لا ترضى فتاة في الأرض أن يكون زواجها مؤقتاً، وألّا تعلمها هذا غدر بها أيضاً، إذاً هذا تشريع الله عز وجل،

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ)

أنفسكم، أنتم تحصنون أنفسكم بالزواج، وهن يحصنَّ بتحصينكم لهن،

(غَيْرَ مُسَافِحِينَ)

السفاح هو الزنى، هذا الماء يسفح بلا جدوى، أما هذا الماء للزواج ينجب ولداً طاهراً، مواطناً صالحاً، مؤمناً كبيراً، فشتان بين النكاح والسفاح، وحينما يضع الآباء شروطاً تعجيزية أمام خطاب بناتهم فهم دون أن يشعروا يدفعون الشباب إلى السفاح،

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

هنا نقطة دقيقة وهي أن الإنسان إن لم يدخل، وأراد الطلاق يجب عليه نصف المهر، فلماذا أوجب النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث، ولماذا أوجب الله في آيات كثيرة نصف المهر؟

(وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ)

[سورة البقرة: 237]

لأن الاستمتاع ليس عملية كاملة، حينما تستقبلك، وحينما تحضر لك طعاماً، وحينما تتزين لك فهذا كله استمتاع، فالذي لم يصل إلى الدخول عليه نصف المهر.

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ)

من انسحب من عقد الزواج بعد الخطبة فعليه نصف المهر :

هذا الإله عظيم ورحيم، لو أن اتفاقاً جرى بين الزوجين على التسامح فإن الله عز وجل يسامح إذا سامحت، ويعاقب إذا لم تسامح.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

لو أن إنساناً خطب، ولم يدخل، ثم طلب أن ينسحب من هذا العقد فعليه نصف المهر، قال:

(إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ)

[سورة البقرة: 237]

إلا إذا عفا أهل الفتاة، وعفت الفتاة، قال:

(وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)

[سورة البقرة: 237]

إذا عفوا فينبغي أن تقدم شيئاً جبراً للخاطر.

من لا تسمح له إمكانياته أن يتزوج امرأة حرة فيمكنه أن يتزوج أسيرة من وليها :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ)

لم يستطع؛ أي إمكاناته المالية لا تسمح له أن يتزوج امرأة حرة، نحن في سياق هذه الآيات عندنا امرأة حرة، وامرأة مما ملكت أيمانكم، فالحرة لها أهل، ولها أقارب، ولها مستوى معين في الإنفاق في المهر، وفي البيت، وما إلى ذلك، فيقول الله عز وجل:

(وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً)

يعني إمكانياته المالية لا تطول حرة فيتزوجها، ليس عنده بيت يسكنها فيه، لا تطول يده إلى حرة ليتزوجها.

(وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ)

حينئذ يمكن له أن يتزوج أسيرة من وليها، هذه الأسيرة مهرها قليل، وترضى باليسير، ذلك لأنها في الأصل أسيرة، لكن:

(مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ)

يعني جلست عند سيدها، وتعلمت الإيمان في بيته فأصبحت مؤمنة.

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

حتى لو أنها فتاة من ملك اليمين فينبغي أن تعطيها حقها، وأن تعطيها مهرها،

(فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ)

أهلها الذين ملكوها بعد الحرب.

كلمة المحصنة لها ثلاثة معان :

قال:

(وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ)

كلمة المحصنة لها ثلاثة معان، المعنى الأول: أنها حرة وليست أسيرة، ملكت حريتها، والمعنى الثاني: أنها متزوجة، والمعنى الثالث: أنها شريفة، بمعنى أن زوجها الذي أحصنها جعلها تمتنع عن أي إنسان، وثمة نعمة أسال الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا شكرها، جميع أخواننا المؤمنين تقريباً إذا خرج من بيته يخرج مطمئناً، لا أحد يدخل البيت في غيبته، مطمئناً إلى طهارة زوجته، وإلى استقامتها، وإلى حفظ نفسها، هذه نعمة لا تقدر بثمن، المرأة المحصنة هي امرأة حرة، هي امرأة عفيفة، هي امرأة متزوجة، يعني صفة شخصية متزوجة، صفة أخلاقية، وصفة اجتماعية، امرأة حرة اجتماعياً، متزوجة بنظام شخصي، عفيفة أخلاقياً،

(فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ)

يعني الأسيرة ليس لها أهل بالمعنى الدقيق، وهي تجد نفسها هينة، والهين قد يتساهل في أمر العفة، وهذا معروف في العالم كله، التي لها أهل، ولها أقارب، ولها مكانة لا تتساهل، وقد سأل أحد الصحابة سيدنا عمر: أتزني الحرة؟ فقال: لا، يعني شيئاً بعيداً عنها.

(فَإِذَا أُحْصِنَّ)

إذا تزوجت هذه الفتاة التي هي ملك اليمين.

(فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ)

طبعاً كلكم يعلم أن المرأة إذا زنت، أو أن الرجل إذا زنى، إذا كان أعزب يجلد مئة جلدة، وتجلد المرأة مئة جلدة.

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

[سورة النور: 2]

أما إذا كانت محصنة وزنت ترجم حتى الموت.

المرأة المحصنة إذا زنت بشهادة أربعة رجال فعقابها الرجم حتى الموت :

الحقيقة أنه ما من فساد أكبر من أن تكون الزوجة مكتفية بزوجها، وحاجتها إلى الرجال محققة، ولها بيت ولها أولاد وهي أم وهي قدوة، ثم تخون زوجها، والله مرة شاب قال لي: أكاد أموت، أمي تخون أبي، اطلع على خيانة أمه لأبيه، قال لي: أكاد أموت، يعني هذه المرأة التي تخون زوجها، ولها أولاد، ولها زوج تركب أكبر جريمة، لذلك قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً)

[سورة المائدة: 33]

هل من فساد أكبر من أن تزني امرأة لها زوج، محصنة ولها أولاد، ولعل النبي عليه الصلاة والسلام في حكمه بالرجم على الغامدية أنه استنبط من هذه الآية:

(أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ)

[سورة المائدة: 33]

هذا الذي يحارب الله ورسوله أو يسعى في الأرض فساداً، فالمرأة التي لم تتزوج عقابها الجلد، والرجل الزاني الذي لم يتزوج عقابه الجلد، أما المرأة المحصنة عقابها الرجم حتى الموت، ولأن الرجم لا يكون إلا بشهادة أربعة رجال شاهدوا العملية كاملة، ولا لبس بها، إذاً هذا جزاء الزانية الفاجرة التي لم تتورع أن تغلق الباب حينما تمارس هذه الفاحشة، إذاً هذا عقاب الزنى مع الفجور، وكأن هذا الشرط تعجيزي، فمن سابع المستحيلات أن يتم هذا اللقاء الفاحش على امرأة من أربعة رجال معاً، وكأن هذا الحد حد ردعي، بمعنى أنه قلّمَا يحتاج إليه من بيده الأمر، بالمناسبة هذه الغامدية التي جاءت إلى النبي تعترف بذنبها، والنبي أعرض عنها فألحت، أعرض عنها، ألحت، قال: اذهبي حتى تلدي، جاءت بمولودها، قال: أرضعيه حتى تفطميه، جاءت به بعد أن فطمته، ثم

قال: حتى يأكل الطعام، جاءت به يأكل أمام النبي خبزاً، فرجمها عليه الصلاة والسلام، ولما سمع بعض الصحابة يسبها قال: والله تابت توبة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، وبكى النبي عليه الصلاة والسلام، هي حالة خاصة، فالمرأة والرجل غير مكلفين أن يخبر أحدهما عن نفسه، هذا ليس حكماً شرعياً، ما دام الله قد ستره فينبغي أن يحترم ستر الله له.

الفتاة إذا زنت فعليها نصف الحد وهو الجلد :

هؤلاء اللواتي تزوجتموهن إذا أحصن:

(فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ)

سيدنا سليمان قال:

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ)

[سورة النمل: 21]

العذاب غير الذبح، فهناك من يدعي من الخوارج أنه لا رجم في الإسلام، لأن الموت لا يقسم إلى قسمين، الآية:

(فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ)

ما هو العذاب الذي يقسم إلى قسمين؟ الجلد فقط، هذا واضح، أما الموت فلا يقسم، وليس ثمة نصف موت، وفي اللغة شيء لطيف وهو أن هناك أفعالاً لا تقبل التفاوت، منه مات، فلا يقبل التفاوت، ولا يقبل اسم التفضيل، ولا ألفاظ التعجب، فليس هناك: ما أموته، ولا: فلان أموت من فلان، الموت حالة واحدة، فهناك أفعال لا تقبل التفاوت، هذه لا يصاغ منها اسم تفضيل، ولا صيغة تعجب، والموت منه، فالموت لا يقسم إلى قسمين، إذاً لأن الله عز وجل قال:

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ)

[سورة النمل: 21]

العذاب غير القتل، إذاً العلماء استنبطوا أن هذه الفتاة إذا زنت فعليها نصف الحد الذي يقسم إلى قسمين وهو الجلد.

أحكام الزواج تتوزع بين خمسة أحكام :

قال:

(فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ)

إن أحكام الزواج أيها الأخوة تتوزع بين خمسة أحكام، قد يكون الزواج فرضاً على الشاب، إذا تاقت نفسه إليه وخشي العنت، وهو يملك مقومات الزواج، يملك البيت، والمهر، وكل لوازم الزواج، يملك المقومات، وتاقت نفسه إليه، ويخاف على نفسه من الزنى، فالزواج في حق هذا

الإنسان فرض، أما الذي تاقت نفسه للزواج، ولم يخش العنت، لم يخش الضجر، لم يخش الزنى، طاقت نفسه، ولكنه ضامن لنفسه أنه لا ينحرف، فهذا الزواج في حقه واجب، كان فرضاً فصار واجباً، لأنه لم يخش العنت، أما الذي لم تتق نفسه إلى الزواج، ولا يخشى العنت من عدم الزواج فالزواج في حقه مباح، يعني لا فرض ولا واجب، أما الذي لا يملك القدرة على الزواج، وليس أهلاً للزواج، أنا أستمع من حين إلى آخر إلى شكاوى، شاب تزوج فتاة، لأتفه الأسباب حلف بالطلاق عليها، سبب تافه جداً، يقول ابن عباس: إن أحدكم يطلق امرأته ويأتيني ويقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، أيرتكب أحدكم أحموقته، ويقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، الزواج أهلية، أنت الآن قائد هذا البيت، لأسباب تافهة جداً يرمي عليها يمين الطلاق، بل أيمان الطلاق، بل كلما حلل شيخ يحرمك عشرة، لسبب تافه جداً، ولأسباب لا تعقل يفرض عليها شروط غير معقولة، وكلام غير معقول، فهذا الذي ليس أهلاً أن يتزوج، ليس قائداً لهذه الأسرة، وليس زوجاً كاملاً، وليس زوجاً مؤهلاً، عنده خلل، هذا الزواج في حقه مكروه كراهة تحريم، أما الذي لمجرد أن يتزوج يشقي معه امرأة فهذا الزواج في حقه محرم، والله أستمع أحياناً إلى شكاوى مكتوبة أو على الهاتف، شيء لا يصدق، يأتي بعد منتصف الليل شارباً للخمر، يتكلم بأبشع الكلمات، وينحرف أشد الانحراف، هذا إنسان محرم عليه أن يتزوج.

من لم يستطع الزواج فعليه بالصوم و الصبر :

قال:

(فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ)

إذا كان شاباً لا يخشى العنت فليصبر.. عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَال:

((مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))

[متفق عليه عَنْ عَلْقَمَةَ]

قال:

(وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ)

أي هذه الزوجة أم أولادك، هذه الزوجة سوف تربي أولادك، إن لم تكن في المستوى اللائق انعكس هذا على أولادك، إذا كان لك إمكانية للصبر فابحث عن الزوجة الجيدة.

(وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

من اتبع منهج الله عز وجل سلم و سعد في الدنيا و الآخرة :

ثم يقول الله عز وجل:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

ثم يقول الله عز وجل:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

وهذا البيان من رحمته بنا،

(وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أي حينما يبين الله لنا منهجاً يوصل إليه، وحينما نسلك هذا المنهج إليه يرحمنا، ويسعدنا في الدنيا والآخرة، وفي هذه السورة آيات كثيرة تبدأ بقوله تعالى:

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء: 27]

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

يريد أن يرحمكم.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(12-69): تفسير الآيات 26-28 ، الهداية والخلق
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-05-17

بسم الله الرحمن الرحيم

المصائب في الدنيا أساسها ضمان سلامة الإنسان :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة النساء ومع الآية السادسة والعشرين وهي قوله تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أولاً: الله جل جلاله ذات كاملة، هذه الذات الكاملة لا تريد إلا الخير.

(إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود: 119]

خلقهم ليرحمهم، خلقهم ليسعدهم، هذا أصل في الخلق، كما أن المركبة صنعت لتسير لكن لا بد لها من مكبح، والمكبح يتناقض مع السير، لأنه يوقفه، لكن حاجة المركبة إلى المكبح حاجة أساسية ومصيرية، لأن المكبح يضمن سلامتها، كذلك المصائب في الدنيا أساسها ضمان سلامة الإنسان، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

في سورة النساء ثماني آيات لأمة محمد هي خير لها مما تطلع عليه الشمس وتغرب :

الله سبحانه وتعالى يريد، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "في سورة النساء ثماني آيات لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، هي خير لها مما تطلع عليه الشمس وتغرب"؛ الأولى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

الثانية:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

الثالثة:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

الرابعة:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

[سورة النساء: 31]

الخامسة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

[سورة النساء: 48]

السادسة:

(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً)

[سورة النساء: 110]

السابعة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

[سورة النساء: 40]

الثامنة:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

الهداية أحد الأهداف الكبرى التي يستهدفها الدين :

هذه الآيات أيها الأخوة، كلها في سورة النساء، وهي خير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم مما تطلع عليه الشمس أو تغرب، الآية الأولى:

(يُرِيدُ اللَّهُ)

أي الله عز وجل إرادته أن يهدينا، أن يعرفنا بذاته، أن يعرفنا طريق سلامتنا وسعادتنا، أما هذا الذي يقول لك خلقنا ليشقينا، خلقنا للنار، هذا يتناقض مع هذه الآية، الله عز وجل يقول:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

معناها الهداية أحد الأهداف الكبرى التي يستهدفها الدين، ينبغي أن تهتدي إلى الحقيقة الكبرى، أن تهتدي إلى الحقيقة الوحيدة في الكون، إنها الله، إذاً كل شيء يقربك من هذه الحقيقة هو الحق، وكل شيء يبعدك عن هذه الحقيقة هو الباطل، النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث يقول:

((ليس شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه))

[أخرجه النسائي عن ابن مسعود]

معنى ذلك أن في الكون حقيقة واحدة هي الله، هو مصدر السعادة، ومصدر الأمن، ومصدر السلامة، بيده النصر، بيده التوفيق، بيده العزة، بيده العطاء، بيده المنع، بيده كل شيء، فإذا عرفته وتقربت إليه فقد حققت الهدف الذي من أجله خلقت، وإذا غفلت عنه وابتعدت عنه فقد خسرت

خسراناً مبيناً، بل إن البشر لا يزيدون عن رجلين؛ رجل عرف الله، وعرف منهجه، واستقام على أمر ربه، وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة، ورجل غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة، إذاً يريد الله أن يهدينا، لذلك هناك كلمات يرددها بعضهم نحو: سبحان الله الذي أضله الله أضله، هذا كلام كفر، الله عز وجل أراد أن يهدينا جميعاً، أراد أن يعرفنا جميعاً، لكن الإنسان مخير، قد يفرض أن يتعرف إلى الله، ومعنى مخير يعني يريد أن يفعل ما يختار، إذاً أحياناً يسمح الله لمعصية، لكنه لم يأمر بها، ولم يرض بها، لم يأمر، ولم يرض، لكنه أراد، معنى أراد أي سمح، إذا أعطيت إنساناً حرية الاختيار، وأردت أن تمتحنه فإذا منعته من فعل اختياره فقد ألغيت اختياره.

حقيقة الإنسان أنه مخير :

قال:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

[سورة السجدة: 13]

أي لو شئنا أن نلغي اختياركم، لو شئنا أن نلغي هويتكم، لو شئنا أن نلغي الأمانة والتكليف، لو شئنا أن نلغي اختياركم، وأجبرناكم على شيء ما أجبرناكم إلا على الهدى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

[سورة السجدة: 13]

لكن حقيقة الإنسان أنه مخير:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

إرادة الله مع اختيار الإنسان :

آيات كثيرة تؤكد بشكل قطعي أن الإنسان مخير، فما علاقة إرادة الله باختيار الإنسان؟ إرادة الله مع اختيار الإنسان أن يسمح له أن يفعل ما يريد ولكن لا على حساب أحد.

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأنعام: 129]

قد يختار الإنسان أن يسرق، لكن لا يستطيع أن يسرق ممن يشاء، بل يسرق ممن سمح الله له أن يسرق منه فقط، إذاً أنت مخير، وسمح الله لك، أو أراد أن تحقق اختيارك، ولكن لا على مزاجك بل على توجيه من الله عز وجل:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأنعام: 129]

الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه.

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة يونس: 107]

ما قال: إن يردك الله بضر، الضر ليس مراد من الله عز وجل، وللتقريب إليكم هذا المثل، مدرسة من أعلى مستوى أنشئت كي تعلم الطلاب، كي تهذبهم، كي ترسخ فيهم القيم الأخلاقية، كي تنير عقولهم، كي تخرجهم قادة للأمة، لكن هذه المدرسة فيها عقوبات، فإذا عاقبنا طالباً أيحق أن نقول: إنما أنشئت هذه المدرسة كي تعاقب الطلاب؟ لا، أنشئت كي تعلمهم، وكي تربيهم، وكي تهذبهم، لكنها تضطر أحياناً أن تعاقبهم.

إلزام الله عز وجل ذاته العلية بهداية الخلق :

إذاً حينما يقول الله عز وجل:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

الله عز وجل ألزم ذاته العلية بهداية الخلق، قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ)

[سورة القصص: 51]

فالهداية على الله عز وجل.

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

[سورة النحل: 9]

أي وعلى الله بيان الفصل، إذاً أول إرادة من إرادات الله سبحانه وتعالى أن يهدينا إليه، وأن يعرفنا بذاته، وأن يبين الطريق إليه كي نسلم ونسعد في الدنيا والآخرة:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

الإنسان هو المخلوق الأول :

ما هذا الكتاب إلا تبيان لنا، وما بعثة الأنبياء والمرسلين إلا تبيان لنا، وما الكتب السماوية إلا تبيان لنا، وما الدعاة في الأرض إلا تبيان لنا، وكل مهمة يقول بها العلماء بعد الأنبياء إنما هي تبيان لنا، لقول الله عز وجل:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

يعني البيان المطلق، أن تعرف من أنت، أنت المخلوق الأول، أن تعرف ما حقيقة الدنيا، إنها دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، يريد الله ليبين لنا حقيقة الكون، إنه تجسيد لأسماء الله الحسنى، يريد الله أن يبين لنا حقيقة الحياة الدنيا، إنها دار تكليف لا دار تشريف، دار عمل لا دار أمل، دار سعي لا دار تكريم، التكريم في الآخرة، يريد الله ليبين لنا أن الإنسان هو المخلوق الأول.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

هداية الخلق أحد أكبر إيرادات الله عز وجل :

يريد الله ليبين لنا أن هذه المرأة خلقت لتكون زوجة لا خليلة، دخلنا في المنهج التفصيلي، قواعد الزواج، قواعد العمل، كسب المال وإنفاقه، وكل شؤون الحياة جاء الشرع الحكيم ليبينه للناس كي يستريحوا من متاعب الحياة، لأن الإنسان مخير، وكل شيء في الأرض حيادي بالنسبة إليه، الشهوة حيادية، إما أن تكون سلماً نرقى به، أو دركات نهوي بها، كل الحظوظ التي يؤتيها الله للإنسان يجب أن تستخدم في الخير، كما يمكن أن تستخدم في الشر، لأنه مخير، إذاً معنى يريد الله: أي أن هداية الخلق أحد أكبر إيرادات الله عز وجل، فأنت حينما تبحث عن الحق تحقق إرادة الله عز وجل، هذا الذي يريد، أما إن غفلت عن الحق فإنك لا تحقق ما يريده الله لك، يريد الله لك أن تهتدي، يريد الله لك أن تسلم، يريد الله لك أن تسعد، فإذا أصررت على الضلالة وعلى الشقاء فهذا شأنك، الآن علاقة إرادة الله بإرادة الإنسان ما دام الإنسان مخيراً فإرادة الله تقتضي أن يسمح له أن يفعل ما يريد، ولكن لا على حساب أحد، فالظالم سوط الله ينتقم به، ثم ينتقم منه.

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)

لماذا أهلك بعض هذه الأمم السابقة ؟ لسبب بينه الله عز وجل، أمة انحرفت في المكيال والميزان، أمة انحرفت في غريزتها التي أودعها الله فيها، أمة طففت، أمة عبدت غير الله عز وجل، أمة شاع

فيها الزنى، أمة شاع فيها الخمر، فلذلك يريد الله أن يبين الأسباب التي من أجلها أهلكت الأمم السابقة، ويهديكم السنن والقوانين الثابتة التي خلقها الله عز وجل، والتي بموجبها يهلك الإنسان أو يسعد، فكل إنسان حينما يرى مصيبة وقعت للإنسان يسأل: لماذا وقعت هذه المصيبة؟ ما الذنب الذي ارتكبه؟ ما الخطأ الذي اقترفه؟ لماذا دمرت هذه الأمة؟ لماذا ارتفعت هذه الأمة؟ ارتفاع الأمم وسقوطها، ازدهارها وزوالها له قوانين، فكأن الله سبحانه وتعالى بيَّن هذه القوانين التي بها ترقى الأمم، وبها تسقط، من أجل ماذا؟ من أجل أن نتبع قوانين سعادتنا وسلامتنا، وأن نبتعد عن مسببات شقائنا وهلاكنا، أساساً لماذا يبحث العلم عن القوانين؟ كي يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل، نحن حينما لا نعد فراغاً بينياً في الأبنية، وتأتي شهور الصيف، حيث يتمدد الحديد، ويتصدع البناء، لأن المعادن تتمدد بالحرارة، هذا القانون يعيننا على أن نصمم بناءً فيه فواصل تمدد، من أجل ألا يتصدع، فحينما تكتشف قوانين الله عز وجل من أجل ألا تقع تحت سطوتها، من أجل أن تنجو من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

القوانين الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير من أجل أن يستغفر الإنسان من ذنبه :

لماذا تعرف قانون السقوط؟ لأنك إن أردت أن تسقط بمظلة ينبغي أن تكون المظلة مدروسة، اتساع حجمها يتناسب مع مقاومة الهواء ومع وزنها، إذاً تنزل سالماً، فكأن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)

أي هذه القوانين الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير:

(وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

من أجل أن تستغفروا ذنوبكم، وأن يقبل الله استغفاركم وتوبتكم:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

إذاً أحد الأهداف الكبرى من بعثة الأنبياء، ومن إرسال الرسل، ومن إنزال الكتب أن يبين لنا الله عز وجل أن هؤلاء القوم أهلكوا بذنب كذا، وهؤلاء القوم أهلكوا بذنب كذا.

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

[سورة فصلت: 17]

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ* وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ* سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

[سورة الحاقة: 5 - 7]

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر: 11 - 14]

الحكمة من التوبة :

إذاً القوانين التي يبينها الله جل جلاله لنا في هلاك الأمم وفي رقيها من أجل أن ننتفع بهذه القوانين، فنسعد ونسلم في دنيانا وأخرانا، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، ألا يعلم من خلق؟ العلم المطلق هو للخالق.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

العلم المطلق للخالق، ثم يقول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

الحقيقة أن الإنسان أودع فيه الشهوات، والشهوات متغلغلة أعمق التغلغل في الإنسان، ففي ساعة غفلة، أو ساعة ضعف، قد يقع الإنسان في معصية، فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يشرع التوبة إطلاقاً ما الذي يحصل؟ بعد أي ذنب يرتكبه الإنسان ييئس من رحمة الله، فيتركب ذنباً وذنباً وذنوباً، إلى أن يستحق الهلاك في الدنيا والآخرة، لكن شاءت حكمة الله نظراً لضعف الإنسان أمام شهوته أن الله سبحانه وتعالى فتح له باب التوبة، وأراد له أن يتوب، التوبة فيها أشياء ثلاثة، فيها تشريع للتوبة، وفيها توبة العبد، وفيها قبول التوبة، فتوبة تأتي قبل توبة العبد وهي تشريع التوبة وتوبة العبد وقبول التوبة أو عدم قبولها، لكن التوبة رحمة من الله، لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

الحكمة من تشريع التوبة :

إن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، معنى ذلك أنك حينما تتوب إلى الله يفرح الله بتوبتك، تفرح الله عز وجل بفرح يليق بجلاله وكماله، وفي الحديث:

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

لماذا يفرح الله بتوبتك؟ لأنه خلقك ليسعدك لذلك يفرح بتوبتك، الإرادة الثانية: أولاً أراد أن يبين لنا، فإذا بيَّن لنا وفي ساعة ضعف أو غفلة وقعنا في معصية الإرادة الثانية:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

لذلك لو لم يكن هناك توبة لارتكب الإنسان مليون ذنب، لكن لأن هناك توبة من أول ذنب يتوب منه وانتهى الأمر:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

هذه الآية أيها الأخوة دقيقة جداً، الله عز وجل، الإله العظيم، والرب الحكيم يبين لنا لماذا خلقنا؟ وهذا بيان مهم جداً، وكل ما يقوله عامة الناس كلام باطل، يريد أن يبين لنا، يريد أن يهدينا، كلمات

يقولها أناس كثيرون تتناقض مع القرآن الكريم، الآن إذا وقعنا في خطأ فإن الله جل جلاله يريد أن يتوب علينا، بل إن بعضهم يقول: ما فتح الله لنا باب التوبة إلا ليتوب علينا، وما فتح الله لنا باب الاستغفار إلا ليغفر لنا، وما فتح الله لنا باب الدعاء إلا ليجيبنا، أمرنا أن ندعوه ليجيبنا، وأمرنا أن نستغفره ليغفر لنا، وأمرنا أن نتوب إليه ليتوب علينا، لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يتوب علينا شرع لنا التوبة.

أغلب الظن أن رحمة الله عز وجل تسع كل الذنوب والآثام :

قال:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر: 53]

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف: 156]

أغلب الظن أن رحمة الله عز وجل تسع كل الذنوب والآثام، لذلك:

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة يوسف: 87]

الكافر يائس، والكافر قانط.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

من يغفل الإنسان عن ذكر الله عز وجل يتبع هواه :

طبعاً أهل الأهواء والشهوات يحبون أن تُجَر إليهم، وأن تسقط في وحولهم، وأن ترتكب الآثام التي وقعوا فيها ليستأنسوا بك، فدائماً:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

أتبع من؟

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان: 15]

الناس رجلان، رجل يتبع سبيل الله:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

ورجل يتبع هواه، هذا لا تصغ إليه، لا تستشره، لا تهتدِ برأيه، لا تلق له بالك، لا تعبأ به:

(لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا)

[سورة الكهف: 28]

أما معنى أغفلنا قلبه عن ذكرنا فإياكم أن تفهموا أغفلنا قلبه عن ذكرنا أي أن الله سبحانه وتعالى خلق في قلبه غفلة، لا، بل المعنى وجده غافلاً، هكذا اللغة العربية، والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، عاشرت القوم فما أبخلتهم، أي ما وجدتهم بخلاء، عاشرت القوم فما أجبنتهم، أي ما وجدتهم جبناء، وزن أفعلَ أي وجد، لا بمعنى أنه خلق فيهم الغفلة:

(لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا)

[سورة الكهف: 28]

من وجدنا قلبه غافلاً عن ذكرنا، لأنه غفل عن ذكر الله عز وجل اتبع هواه.

إن لم تكن على طريق الحق فأنت على طريق الباطل :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1 - 2]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

هما فريقان لا ثالث لهما، إن لم تكن على طريق الحق فأنت على طريق الباطل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

وهما طريقان لا ثالث لهما، طريق الحق أو طريق الهوى، طريق الجنة أو طريق النار، طريق الخير أو طريق الشر، طريق الدنيا أو طريق الآخرة:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

أي أن تنحرفوا مَيْلاً عَظِيماً، وكلما أمعن الإنسان في المعصية فرح أهل الباطل، قد يعطونه شهادة حينما يرتكب المعاصي كلها، فلذلك لا تصحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله، لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي.

خُلِقَ الإنسان ضعيفاً ليفتقر بضعفه فيسعد بافتقاره :

الآية الكريمة ينبغي أن نفهمها على نحو أو آخر.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

الإنسان فيه نقاط ضعف، هذه النقاط في أصل خلقه، أول نقطة:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

لماذا خلق ضعيفاً؟ ليفتقر بضعفه إلى الله فيسعد بافتقاره، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، إذاً الضعف لصالحه.

مثل آخر: آلة غالية الثمن، عظيمة النفع لا بد من نقطة في مسار التيار ضعيفة جداً، هذه تسمى بالمصطلح فيوز، إذا جاء التيار عالياً لولا هذه القطعة الضعيفة لاحترقت الآلة، وخسر الإنسان قيمتها، أما هذه الوصلة الضعيفة جداً تسيخ فتُبَدَّل، ونحفظ بهذا الآلة.

فالضعف الذي خلق في الإنسان ضعف لصالحه، خلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه، فيسعد بافتقاره، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، هذه إحدى نقاط الضعف، الإنسان الذي لا يخاف لا يتوب، أما حينما يلوح له شبح مصيبة تنهار أعصابه، فيسرع إلى باب الله عز وجل، لماذا تاب؟ لأنه خاف، لماذا خاف؟ لأنه ضعيف، فالضعف سبب توبته، والتوبة سبب سعادته، خلق الإنسان ضعيفاً، ولا نبالغ إن قلنا أن معظم التائبين سبب توبتهم أنه لاح لهم شبح مصيبة فخافوا، فارتعدت فرائصهم فتابوا فالتجؤوا إلى الله عز وجل، فقبلهم الله، وأكرمهم، وأسعدهم في الدنيا والآخرة، إذاً خلق الإنسان ضعيفاً ليفتقر بضعفه، فيسعد بافتقاره.

بطولة الإنسان أن يأتي الله عز وجل طائعاً مختاراً خائفاً منيباً :

أيضاً خلق الإنسان هلوعاً.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 19]

من هو الهلوع؟

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 20 - 21]

يحرص على ما بيديه، هذا هو المنوع، لا ينفق، فإذا أنفق عاكس فطرته، فإذا عاكس فطرته ارتقى إلى ربه، لو أن الدنيا ليست غالية على الإنسان لما ارتقى بإنفاقها، لو أن المال ليس أسيراً عند الإنسان لما ارتقى بإنفاقه:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

أي لا سمح الله ولا قدر، و وقانا وإياكم جميعاً من مرض عضال، إذا لاح شبح مرض عضال تنهار قوى الإنسان، ليس أمامه إلا الصلاة، والله أيها الأخوة عشرات، بل مئات من الناس الشاردين حينما لاح لهم شبح مصيبة كبيرة التجؤوا إلى الله عز وجل، والله عز وجل يداوي، ودواؤه مر أحياناً، فإذا كان الإنسان شارداً، وسائحاً، ولاهياً، وغافلاً، فإن الله عنده أدوية تدع الحليم حيراناً، فلذلك البطولة أن تأتيه طائعاً، فإما أن تأتيه طائعاً مختاراً، خائفاً منيباً، أو يحملك أن تأتيه طائعاً، تائباً، مختاراً.

الإنسان يرقى بإنفاق المال :

وخُلِق ضعيفاً.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

حدثني أخ مضيف في طائرة دخلت في غيمة مكهربة، فتلفت مقدمتها، وكانت على وشك السقوط، وبينها وبين السقوط وموت جميع الركاب دقائق، لكن بحكمة الله ورحمته نجا ركاب هذه الطائرة، فهذا الأخ كان مضيفاً في هذه الرحلة، قال لي: المنظر لا يصدق، أناس يضربون وجوههم، يمزقون ثيابهم، يصرخون بويلهم، لأن الموت صار محققاً، فالطيار طلب من المضيفين أن يهدؤوا الركاب، فلا أحد ينتبه، ولا أحد يسمع، وهم في ضجيج، وفي ذعر، وفي هلع، وفي خوف، وفي شدة، أحد المضيفين رأى راكباً هادئاً فتوسم فيه الخير، فتوجه إليه كي يطلب منه أن يهدئ الركاب فوجده مغمى عليه، هذا الوحيد.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

بالهلع تتوب، وبالحرص على ما بيديك ترقى إذا أنفقته، والمال محبب، وإنفاقه يحتاج إلى إرادة قوية، والإنسان يرقى بإنفاق المال، والوقت ثمين فارقَ بإنفاق الوقت، والجاه غالٍ فارقَ بإنفاق جاهك، إذاً:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

من ضَعُف أمام شهواته فله باب مفتوح هو باب التوبة :

قال:

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

[سورة الأنبياء: 37]

يريد الشيء أمامه على عجل، فالمؤمن ماذا فعل؟ أعرض عن العاجلة واختار الآجلة، إذاً اختار عكس فطرته، طبع الناس جميعاً أن يختاروا العاجلة، معظم الناس يعيشون وقتهم، هناك متعة راهنة يمارسها، وهناك شهوة محرمة يقتنصها، هناك مال محبب يأكله حراماً، عاجل لأنه أمام يديه، أما المؤمن رسم هدفاً بعيداً جداً، فهو يسعى إلى ما بعد الموت، إذاً لما اختار هدفاً بعيداً عاكس طبعه، فلما عاكس طبعه ارتقى إلى الله عز وجل،

فالله يقول:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

حينما بيَّن لنا، حينما أراد لنا أن نتوب، لأنه يعلم ضعفنا أمام الشهوات، فحينما يضعف الإنسان أمام شهوته فله باب مفتوح هو باب التوبة، فكأن هذه التوبة تخفف عنه العبء، سبحان الله عندما يتوب الإنسان إلى الله توبة نصوحاً يشعر أن جبالاً قد أزيحت عن كاهله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، حينما تتوب إلى الله عز وجل تشعر يقيناً أن جبالاً ضاغطة أزيحت عن كاهلك:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

ثلاث إرادات عظيمة لله عز وجل إرادة البيان والتوبة والتخفيف :

ثلاث إرادات إلهية عظيمة، الإرادة الأولى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

والإرادة الثانية:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

والإرادة الثالثة:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ)

هذا الذي يفعل السيئات لا سمح الله ولا قدر، وهذا الذي يقترف الآثام، أو هذا الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين، يبني أمنه على خوف الآخرين، يبني حياته على موت الآخرين، يبني غناه على إفقار الآخرين، هذا حينما يعود إلى فطرته تعذبه فطرته عذاباً لا يوصف، لذلك ورد في بعض الأحاديث في الجامع الصغير:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر]

حينما دعانا الله عز وجل إلى معرفته وطاعته، وإلى التوبة أراد أن يخفف عنا. لو أن طفلاً مثلاً سرق قلماً من صديقه، ثم اشتكى صاحب القلم المفقود إلى المعلم، وأغلق المعلم الباب، وفتش الطلاب، فإذا خرج هذا القلم من جيب الطفل السارق تحمل من الخزي والعار ما لا يحتمل، فالله عز وجل يعلم ما سيكون.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

[سورة غافر: 10]

يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

يعني إذا وجد أب ابنه لا يدرس ولا يداوم، وهو يصاحب رفقاء السوء، فإن الأب بخبرته العميقة يرى ابنه في النهاية فقيراً، لا عمل، ولا وظيفة، ولا اختصاص، ولا حرفة، ولا زواج، ولا بيت، بل هو منبوذ في الطريق، فمتى يتألم الأب؟ حينما يرى ابنه الصغير لا يدرس، أما متى يتألم الابن؟ حينما يكبر،

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

متى مقت الله؟

(إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

أيها الأخوة، ثلاث إرادات عظيمة لله عز وجل؛ إرادة البيان، والتوبة، والتخفيف.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(13-69): تفسير الآيتان 29-30 ، الإنفاق وقوانين العناية الإلهية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-05-24

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمر التكليفي :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية التاسعة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)

أيها الأخوة، ماذا تفهمون من قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ما من أمر تكليفي إلا ويبدأ في القرآن الكريم بـ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الله عز وجل يقول:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

ثم يقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا وكذا، فكيف نوفق بين قوله تعالى:

[لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينَ]

وبين قوله تعالى: افعل ولا تفعل، في الأمر وفي النهي؟

الإنسان مخير بكل الأدلة العقلية والنقلية والواقعية :

أيها الأخوة، الإنسان مخير، مخير بكل الأدلة العقلية والنقلية والواقعية، ولكن مخير أن يدخل في دين الله أو لا يدخل، فإذا دخل فهو ملزم بأوامر ونواهٍ، كالطالب فهو مخير أن يدخل في الجامعة أو لا يدخل، أما إذا دخل في الجامعة فثمة امتحان، ورسالة، ونظام، ودوام، ومسألة، وتوبيخ، وإنذار مسجل، وترقيم قيد، وفصل من الجامعة، وأوامر، ونواهٍ، وعقوبات، لكن هذه كلها بعد أن تتنسب إلى الجامعة، لو أن الالتحاق بالجيش اختياري تطوعي، فأنت مخير أن تلتحق أو لا تلتحق، أما إذا التحقت فهناك نظام، ودوام، وتنفيذ الأمر، وهناك عقوبات، معنى ذلك الله عز وجل يأمر عباده الذين آمنوا به، أما الذي لم يؤمن فاختياره يعاقبه، الطالب مخير مثلاً أن يدرس أو لا يدرس، لو

اختار ألا يدرس فسوف يجد بعد حين أن كل من حوله لهم مناصب مرموقة، لهم تجارات، لهم مكاتب، يحملون شهادات، لهم زوجات، لهم أولاد، لهم مكانة اجتماعية، وهو شارد في الطريق، فأحياناً الاختيار نفسه يعاقب صاحبه، أما أنت إذا آمنت بالله عز وجل فإنه يأمرك وينهاك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

في الآيات السابقة تحدث الله جل جلاله عن العلاقات بالنساء، قضايا الزواج والطلاق، والقضايا المتعلقة بالمرأة، وغريزة الجنس غريزة متغلغلة في أعماق الإنسان، لذلك تجد آيات وأحاديث كثيرة فيها تنظيم دقيق لعلاقة المرأة بالرجل، علاقة منظمة، ودائماً هناك عبارة استخدمها أصل التصميم، حينما خلق الله جل جلاله الأنثى صممها لتكون زوجة، أو أماً، أو أختاً، أو بنتاً، أو عمة، أو خالة، وكلها علاقات مقدسة، فأصل التصميم أن تتزوج، وأن تنجب أولاداً ليكونون من بعدك استمراراً لك، وتخليداً لذكراك، ينفعون الناس من بعدك، فكأن الله سبحانه وتعالى أرادك أن تتزوج ليكون لك عمل صالح مستمر بعد حياتك:

((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))

[أخرجه البخاري في الأدب ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

معظم البشر يتقاتلون من أجل المحدود بينما المؤمنون يسعون إلى اللا محدود :

الله جل جلاله إذا قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

فهو يخاطب الذين آمنوا، يخاطب الذي اختاروا الإيمان، يخاطب الذين دخلوا في دين الله مختارين، حينما يؤمن الإنسان يؤمن مختاراً، فإذا آمن مختاراً فهناك موجبات للإيمان، واتباع، وائتمار، وانتهاء، وثواب، وعقاب، ومحفزات، ومثبطات، من المحفزات أن الله سبحانه وتعالى حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، حينما يؤمن الإنسان، وحينما يصطلح مع الله يشعر براحة، يشعر أن جبالاً أزيحت عن كاهله، يشعر بتوازن، يشعر بالفلاح، بالنجاح، بالتفوق، يشعر أن المستقبل لصالحه، يشعر أن خطه البياني في صعود، يشعر أن الآخرة هي دار القرار، هي دار النعيم.

ذكرت اليوم في عقد قران أن واحداً في الأرض وأصفار إلى القمر، أو إلى الشمس، المسافة 156 مليون كيلومتر، وكل ميليمتر صفر، ما هذا الرقم بربكم؟ ثلاثة أصفار ألف، ثلاثة أخرى مليون، ثلاثة وثلاثة ألف مليون، كل ميلي صفر، ليست المسافة متر، المتر في ألف صفر المسافة 156 مليون كيلومتر، هذا الرقم إذا وضع صورة، ووضع المخرج لا نهاية قيمته صفر، معظم البشر يتنافسون على الصورة بينما المؤمنون يتنافسون على المخرج، معظم البشر يتقاتلون من أجل المحدود، بينما المؤمنون يسعون إلى اللا محدود، معظم البشر يتنافسون على حطام الحياة الدنيا، بينما المؤمنون يتنافسون على جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة]

هذه الآخرة هي الحياة الحقيقية، والدنيا مهما عظمت لا يمكن أن تكون عطاءاً لأنه منقطع بالموت، ولا يليق بكرم الله أن يعطيك عطاءاً ينتهي بالموت والله سبحانه وتعالى وصف الشاردين عنه قال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

[سورة الروم: 7]

الله تعالى أعطى الدنيا لمن لا يحب لكنه أعطى الحكمة والعلم لمن يحب :

التنافس ينبغي أن يكون على المخرج، على لا نهاية، على الأبد، لا أن يكون على الصورة، مهما عظمت الدنيا لا شيء، والدليل أن الله سبحانه وتعالى أعطى الدنيا لمن لا يحب، فأعطاها لفرعون، وأعطاها لقارون، لكنه أعطى الحكمة والعلم لمن يحب.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

[سورة القصص: 14]

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

إذاً حينما تقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يجب أن تشعر أنك في عقد إيمان مع الله، وأن هذا العقد الإيماني مع الله يقتضي الطاعة، وأن هذا العقد الإيماني مع الله يقتضي المؤاخذة، ويقتضي التأديب لذلك:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35 - 36]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

التشريع الإسلامي في تسعة أعشاره يتعلق بالمال والنساء :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

انتقلنا من الشهوة الأولى وهي شهوة النساء إلى الشهوة الثانية وهي شهوة المال، ويكاد التشريع الإسلامي في تسعة أعشاره يتعلق بالمال والنساء، ومن كان محصناً من الانزلاق مع امرأة، أو

الانزلاق في كسب المال أو إنفاقه فقد جمع الدين من أطرافه، فما من فضيحة على الإطلاق إلا في أحد موضوعين؛ فضحية مالية، أو فضيحة جنسية، ولا يسقط الرجال في العالم إلا بإحدى هاتين الفضيحتين، ومن فضل الله على المؤمنين أن المؤمن محصن من هاتين النقطتين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

الأكل يومي، وقد استعير فعل الأكل لضم المال، يعني أصل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالاً ليست لكم، قال:

(لَا تَأْكُلُوا)

لأن الأكل يومي، وهناك من يأكل أموال الناس بالباطل يومياً، الشيء الدقيق في هذه الآية أيها الأخوة أنني حينما أخاطب إنساناً، وأقول له: لا تأكل مالك، فهذا كلام لا معنى له، إنه ماله، لو أن لك جيبين، ووضعت مبلغاً في جيب، ونقلته إلى جيب آخر ماذا فعلت؟ هذا مالك، لا، بلاغة القرآن تقول: هذا المال الذي نهيت عن أكله هو مال أخيك، وقد وصف بأنه مالك من زاوية واحدة، من زاوية الحفاظ عليه وكأنه مالك، فلأن تمتنع عن أكله بالباطل من باب أولى، ولا شيء يوضح هذه الحقيقة إلا أن يقول أحد الناس إذا أعار مركبته لإنسان يرجوه أن يعتني بها يقول له: عدها سيارتك، من زاوية واحدة أن تعتني بها، ألا تحملها ما لا تطيق، ألا تهمل حاجاتها.

للآية التالية عدة معانٍ :

إذاً الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

1 ـ مال أخيك هو مالك من زاوية وجوب الحفاظ عليه :

مال أخيك هو مالك من زاوية وجوب الحفاظ عليه، لأن مال الإنسان يحافظ عليه، مرة وجدت في طريق وعرة جداً مركبة تسير بسرعة عالية، وكأنها تتكسر بهذا الطريق، فعلمت أن سائقها لا يملكها، فلما وجدت مركبة أخرى تسير ببطء شديد علمت أن سائقها يملكها، فصرت أعرف ملكية السيارة من سرعتها.

الإنسان يحافظ على ماله أشد المحافظة، فلذلك الله عز وجل قال: مال أخيك مالك، بمعنى أنك كيف تحافظ على مالك ينبغي أن تحافظ على مال أخيك.

2 ـ إذا قوي أخيك قويت معه وإن افتقر وجب عليك أن تعينه :

المعنى الثاني أن هذا المال الذي هو مال أخيك هو مالك، بمعنى آخر إذا قوي أخيك قويت معه، وإن افتقر وجب عليك أن تعينه، هذا يحدث في المجتمعات الصغيرة، إنسان بلا عمل، بلا دخل، هذا الإنسان عبء على من حوله، عبء معنوي، وعبء نفسي، أخ كريم بلا عمل، يحتاج إلى إنفاق، فإذا وجد عملاً، وكسب مالاً يرتاح من حوله، كان عبئاً عليهم، فارتاحوا لراحته، وسعدوا لاكتفائه، إذاً المجتمع الإسلامي مجتمع متعاون، فالذي يقوى في المؤمنين قوة واحد منهم قوة لجميع المؤمنين، وضعف واحد منهم إضعاف لجميع المؤمنين، فكلما حلت مشكلة شاب في مجتمع معين، أخوانه وأصدقاؤه يرتاحون، لا أقول: يرتاحون منه، لكن يفرحون لكفايته، وترتاح نفوسهم لراحته:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

كأن هذا الأكل الذي نهي المسلمون عنه مقيد بالباطل، هل هناك أكل أموال بالحق؟ طبعاً أنت حينما تشتري بضاعة، وتسافر، وتتجشم نفقات السفر، وتتخذ قراراً بالشراء، وربما لا يكون مصيباً وقد تخسر، وربما لا تربح، وقد تتلف البضاعة، وقد تحترق، وقد تفسد أحياناً، وقد لا تباع بالسعر المناسب، فأنت ضمنت أخطاراً كثيرة، فإذا جئت بهذه البضاعة، وبعتها في محل صغير في حي من أحياء المسلمين، هذا المسلم ما تحمل عبء السفر، ولا الاستيراد، ولا الضرائب، ولا التلف، ولا الاحتراق، ولا أخطار النقل والشحن، ولا أخطار المنافسة العالية جداً، فلك أن تأكل من ماله ربحاً بالمعقول، فهذا أكل بالمعقول، وهذا هو الربح الحلال.

لا يشرع الإسلام طريقة آمنة لكسب المال إلا إذا بنيت على منافع متبادلة :

أيها الأخوة، هناك قاعدة كلية، أي علاقة مالية بين اثنين في دنيا المسلمين ينبغي أن تكون مبنية على منافع متبادلة، مثلاً أنا اشتريت هذا الحاجة بكمية صغيرة، وقد وصلت إلى بيتي بسعر معتدل فالذي اشتراها، وتحمل مشاق السفر، واختارها، وغامر بشرائها، وضمن أخطار النقل والشحن، وأخطار المنافسة، وأخطار التلف، وأخطار الفساد، ونقلها إليك بسعر معتدل فله أن يضيف على التكلفة ربحاً يعيش منه، أنا انتفعت، وهو انتفع، هي علاقة البيع والشراء، إنسان معه مال، لكنه كبير في السن عاش حياته موظفاً لا يحسن التجارة، أو امرأة توفي زوجها، وترك لها ميراثاً كيف تستثمره؟ أو طفل ورث عن أبيه المتوفى مبلغاً كبيراً كيف يستثمره؟ إنسان معه مال لا يحسن استثماره، يأتي شاب متفتح، مخلص، أمين، خبير، طاقة هائلة، لا يملك المال، فإذا أعطى صاحب المال ماله لهذا المضارب الخبير ينتفع كليهما، هي منفعة متبادلة، إذاً شركات المضاربة منافع متبادلة، التجارة منافع متبادلة، القاعدة الكلية في كسب المال، لا يشرع الإسلام طريقة آمنة لكسب المال إلا إذا بنيت على منافع متبادلة، هذا أصل من أصول كسب المال، منافع متبادلة، أما إذا جعلنا

يانصيباً، فاليانصيب إنسان دفع وما أخذ شيئاً، وإنسان أخذ وما دفع إلا قليلاً، فاليانصيب لا يبنى على منافع متبادلة، يبنى نفع على ضرر، الضرر متعدد، أي خمسمئة ألف إنسان اشتروا بطاقة، واحد ربح خمسين مليوناً، إنسان دفع وما أخذ، وإنسان أخذ وما دفع، القمار محرم، لأنه مبني على منفعة من طرف واحد، وهذه المنفعة مبنية على ضرر الآخرين، القمار محرم، التأمين، شركة تعتمد على الاحتمالات الضئيلة، فإنسان يدفع سبعة آلاف إلى عشرة آلاف في العام بأكمله، ولا يحدث معه شيء ضاع المبلغ، فالتأمين ليس فيه عوض، فيه نفع لجهة على حساب المؤمّن على حساب جهة أخرى، فأي شيء تجدونه محرماً في الإسلام لأنه نفع مبني على ضرر، الغش محرم، لأن الذي اشترى البضاعة توهمها جيدةً فدفع ثمناً لا يوازي سلعته، والذي باعها أخذ مبلغاً أكبر مما دفع للبائع من بضاعة فوق الربح، إذاً كقاعدة عامة: أي ربح يبنى على خسارة فهذا دخل محرم، وأي ربح يبنى على منفعة متبادلة فهذا دخل حلال، فلذلك الكذب في البيع والشراء قد يوهم بمستوى في البضاعة هي ليست فيه، التدليس أخو الكذب، الاحتكار، تجمع البضائع في أيدي قليلة، ويرفع سعرها، فمن دفع ثمن هذه البضاعة لم يدفع ثمنها بل دفع ثمن احتكارها، صار الثمن مضاعفاً، فما من معصية لكسب المال إلا أساسها منفعة بنيت على ضرر، ربح بني على خسارة، إنسان كسب، وإنسان خسر.

تقسيم الله تعالى البشر إلى صنفين :

الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

الباطل الشيء الزائل، المال يزول ويبقى العقاب، والذي انتفع نفعه بالمال يزول، ويبقى الإثم والعقاب في الآخرة، الباطل كما قلت الشيء الزائل الذي لا يصمد، لذلك قال تعالى في تقسيم البشر إلى صنفين:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5 - 6]

صدق بأنه مخلوق للجنة، استناداً لهذا التصديق اتقى أن يعصى الله، واستناداً لهذا التصديق بنى حياته على مطلق العطاء، فأعطى من وقته، وماله، وعلمه، وخبرته، ومن عضلاته، ومن كل طاقاته، لأنه آمن بالآخرة، لأنه تعامل مع كريم، لأنه تاجر مع الله، أعطى واتقى أن يعصيه، إطلاقاً من أنه صدق بالحسنى، فهذا رد الإله له:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 7 - 9]

بنى حياته على الأخذ، واستغنى عن طاعة الله، لأنه ما صدق بالجنة، وأنا أقول أحياناً: ما ترون من جشع الناس، وتكالبهم على المال، وحرص على كسب المال بأية طريقة شيء طبيعي جداً إذا كفروا بالآخرة، وإذا آمنوا بالدنيا، الدنيا فيها شهوات، والمال مادة الشهوات، فإن أردت أن تستمتع إلى أقصى درجة فلا بد لك من المال، وربما لا تكفي قدراتك، ومنهج الله أن تكسب المال الكثير، إذاً لا بد من الكذب، والتدليس، والاحتكار، والغش، والنفاق، وما إلى ذلك.

أول شرط لصحة البيع أن يكون هناك تراض :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

ثمة معنى مخالف؛ بالحق لا مانع، ربح التاجر مشروع، ربح المزارع مشروع، ربح الصانع مشروع، ربح من يؤدي خدمات للأمة مشروع، طبيب يتقاضى تعويضاً عن عنايته بالمريض، المحامي يتقاضى تعويضاً عن أتعابه، المهندس، المعلم، أية حرفة، تقديم خدمة وأخذ أجرة أو تعويض، قال:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

التجارة كأن الله سبحانه وتعالى ذكر من بين أنواع المكاسب مكاسب الزراعة، والصناعة، والتجارة، التجارة لأنها الحلقة الوسطى بين عدة حلقات، نحن عندنا إنتاج، وعندنا استهلاك، من هو الوسيط بين المنتج والمستهلك؟ التاجر، المعامل تنتج، والأشخاص يستهلكون هذه البضائع، من الذي يشتري من المعامل ويبيع المستهلكين؟ التاجر، المزارع تنتج برتقالاً، وحمضيات، وتفاحاً، وزيتوناً، والبشر يستهلكون، فمن الذي يتوسط بين المنتج الزراعي والمستهلك البشري؟ التاجر، أحياناً ثمة مكاتب خدمات، تحتاج أنت إلى خدمة معينة، يكون المكتب وسيطاً بين أصحاب هذه الخدمات وبين من يحتاجون هذه الخدمات، فالله سبحانه وتعالى قال:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

لو أن الغش كُشِف للمشتري هل يرضى؟ لو أن الاحتكار كُشِف للمستهلك هل يرضى؟ أن يدفع أربعة أضعاف ثمن الحاجة، لأن الذي يبيعه إياها محتكر لها، بعض الناس يحتالوا على الشرع، يعطيه مركبة، يقول له: انظر إلى المركبة، وقد يكون فيها عيوب خفية، ربما لا يعرفها، لو كشفت له هذه العيوب هل يرضى؟ لا يرضى، إذاً أول شرط لصحة البيع أن يكون هناك تراض، لذلك عقود الإذعان باطلة، أنت مضطر فيرفع السعر عليك أضعافاً مضاعفة، لأنك مضطر، لا خيار لك، حالات المرض أحياناً، مرض خطير، بعد أن بدأت العملية يُطالب ذوو المريض بمبلغ يفوق طاقتهم، أو يموت المريض، هذا عقد إذعان، شراء السلاح في أثناء الحروب، كلها عقود إذعان كلها، قد يرتفع السعر إلى مئة ضعف.

لا يكون التراضي في البيع والشراء إلا بالإيجاب والقبول :

قال:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

لذلك التاجر الصدوق مع النبيين، ثمة شيء يلفت النظر، تاجر باع واشترى وكسب المال، واشترى بيتاً، وأكل، وشرب، وتزوج، ولبس، وأنت أيها الإنسان مع النبيين، الحقيقة مع النبيين لأن أكبر دولة إسلامية الآن في جنوب شرق آسيا ما دخلها جندي واحد، دخلها التجار، وكانوا دعاة إلى الله، 250مليون في إندونيسيا بسبب التجار المسلمين الذين دعوا إلى الله بطيب معاملتهم، فحينما قال عليه الصلاة والسلام:

((التاجر الصدوق مع النبيين يوم القيامة))

[ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري]

فهذا كلام طيب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام استنبط من هذه الآية عشرات بل مئات الأحاديث، كيف يكون التراضي في البيع والشراء؟ بالإيجاب والقبول، وكيف هناك خيار العيب، وخيار الوقت، بحوث كثيرة جداً، هذه تؤخذ في كليات الشريعة في موضوعات فقه البيوع، إذاً: المسلمون يشكلون وحدة، أموالهم للجميع.

3 ـ المال في الظاهر هو لك أما في الحقيقة فهو ملك جميع المسلمين :

هناك معنى ثالث: أنت معك مال، وهذا المال في الظاهر هو لك، أما في الحقيقة هو ملك جميع المسلمين، فإذا أسرفت في إنفاقه فأنت محاسب عند الله، إذا أسرفت في المباحات، أو بذرت في المعاصي فأنت محاسب عند الله، يمكن ـ وأنا أعني ما أقول ـ لعقد قران أن يكلف خمسة و ثمانين مليوناً؟! ومئات الشباب يبحثون عن غرفة ليتزوجوا فيها، فمعنى: لا تأكلوا أموالكم الكتلة النقدية التي بين أيدي المسلمين هي في الحقيقة ملك لكل المسلمين، فأنت لك أن تأكل، وأن تشرب، وأن ترتدي ثياباً، وأن تتزوج، وأن تنفق لكن بالمعقول.

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

[سورة الأعراف: 31]

إذاً الإسراف محرم في المباحات، والتبذير محرم في المعاصي، كلمة لا تأكلوا أموالكم، أي هذا المال ملك جميع المسلمين، لك أن تنفق منه بالمعروف، وليس لك أن تبذره في المعاصي، ولا أن تنفقه إسرافاً في المباحات، كما أنه ليس لك أن تضيعه، أو أن تتلفه، فإذا ضيعته وأنفقته في غير ما ينبغي حجر على تصرفاتك، لأنه ملك جميع المسلمين، هذا هو المعنى الثالث.

معانٍ عدة لـ (ولا تقتلوا أنفسكم) :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)

1 ـ حينما ينهي الإنسان حياته باختياره قنوطاً من رحمة الله فهذا مخلد في النار:

حينما ينهي الإنسان حياته باختياره يأساً وقنوطاً من رحمة الله فهذا مخلد في النار:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)

2 ـ لا تعمل عملاً ينتهي بقتل نفسك :

وهناك معنى آخر، أي لا تعمل عملاً ينتهي بقتل نفسك، فحينما يرتكب الإنسان معاصي كثيرة جداً يهلك نفسه في الدنيا والآخرة دون أن يشعر:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)

واللهُ عز وجل يعجب أحياناً.

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

عندما يعتدي الإنسان على الآخرين يعرض نفسه لعقاب الله عز وجل، إذاً سوف يذوق النار،

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)

طبعاً هذا الموضوع لا يتعلق بما نسمعه من أناس أرادوا أن يهزوا كيان العدو، هذا موضوع ثانٍ، لا علاقة له بهذه الآية، إنسان يائس كافر بالله عز وجل، يئس من عطاء الله أنهى حياته تكذيباً بالقضاء والقدر، فهذا إنسان منتحر، ومصيره إلى النار:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)

إلقاء النفس إلى التهلكة في حالتين في حالة عدم الإنفاق وفي حالة إنفاق المال كله:

هناك آية ينبغي أن نذكرها الآن يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

[سورة البقرة: 254]

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة: 195]

قال بعض المفسرين: أنفق بعضاً من مالك ولا تنفق كل مالك، لك أولاد، ولك زوجة، ولك ظروف صعبة، فإذا أنفقت كل مالك كأنك ألقيت بنفسك إلى التهلكة، المعنى الآخر: أنفق من مالك، فإن لم تنفق فقد ألقيت بنفسك إلى التهلكة، إذاً إلقاء النفس إلى التهلكة في حالتين حادتين؛ في حالة عدم الإنفاق، وفي حالة إنفاق المال كله، والإسلام وسط متوازن، (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا)، فأنت هالكٌ إن أنفقت كل مالك، وأنت هالك إن لم تنفق من مالك، لأنك إن لم تنفق من مالك سوف تهلك في الدنيا وفي الآخرة:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)

هذا الذي يعيش ساعته، يعيش وقته، ينتهز كل فرص اللذات دون أن يفكر في آخرته هذا إنسان يهلك نفسه، والله سبحانه وتعالى رحيم به خلقك في الدنيا كي تسعد، والدليل:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود: 119]

النبي عليه الصلاة والسلام علمنا عِظَم حقوق العباد :

قال:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً)

من أخذ أموال الناس يريد أدائها أدى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله. بالمناسبة أيها الأخوة، حقوق العباد مبنية على المشاححة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة، أنا لا أصدق وربما لا تصدقون أن أعظم عمل على الإطلاق أن تقدم نفسك في سبيل الله، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، ومع ذلك إذا كان عليك دَين فالدَّين لا يُغفر، يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين، وقد علمنا النبي عليه الصلاة والسلام عظم حقوق العباد، فكان إذا مات أحد أصحابه الذين جاهدوا معه، ودعي إلى الصلاة عليه يقول: أعليه دَين؟ فإن قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، ولا يصلي عليه، فإن قال أحدهم: يا رسول الله علي دَينه، عندئذٍ يصلي عليه، ومرة سأل فقيل: عليه دَين، قال: صلوا على صاحبكم، فقال أحد أصحابه: عليَّ دَينه يا رسول الله، فصلى عليه، وفي اليوم التالي سأله: أدَّيت الدَّين؟ قال: لا، في اليوم الثالث سأله: أدَّيت الدَّين؟ قال: لا، في اليوم الرابع سأله: أدَّيت الدَّين؟ قال: نعم، قال: الآن ابترد جلده، ابتراد جلد الميت لم يكن بالتعهد بالأداء، لذلك الإنسان ممنوع أن يستقرض ما لا يستطيع أن يؤديه، إن أردت أن تستقرض ينبغي أن تفكر في الأداء:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً)

يأكل أموال الناس بالباطل ويغشهم، يأخذ أموالهم قماراً، أو يأخذها كذباً، أو غشاً، أو تدليساً، أو احتكاراً، أو احتيالاً، أو بضغط شديد، كل شيء أخذ بسيف الحياء فهو حرام.

قوانين العناية الإلهية :

قال:

(تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً*وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ)

هنا قف عند سوف، قد تكسب المال الحرام إلى حين، والعقاب لا يأتي بعد دقيقة، ولا بعد ساعة، ولا بعد شهر، قد تستمتع بالمال سنوات طويلة، وهو مال حرام، ثم فجأة يسحب البساط من تحت رجليك، وتقع في قبضة الله عز وجل، لو جاء العقاب عقب المعصية لألغيَ الاختيار، لو جاء العطاء عقب الطاعة لألغيَ الاختيار، قل للناس جميعاً: ادفع مئة، وخذ ألفاً، بحسب الآية ترَ طوابير لا تنتهي، وكلهم غير مؤمنين بالله، لكن أنت مخير، قد تنفق من مالك ولا تأخذ شيئاً إلا بعد حين، لما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

[سورة التوبة: 28]

ثمة قوانين اقتصادية، ما دام المنع من دخول مكة سارياً معنى ذلك أنه لا سياحة، وتهديد بالفقر.

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

[سورة التوبة: 28]

أي سوف تفتقرون، قال:

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

[سورة التوبة: 28]

قوانين اقتصادية واضحة، إنسان عنده مطعم فيه خمر، وفي أماكن معينة الخمر مطلوب في المطاعم، فيكثر زبائن هذا المطعم، ولو أنه تاب إلى الله توبة نصوحاً، وألغى بيع الخمر، فلا بد أن تقلّ غلته إلى الربع، أو إلى العشر، هذا ثمن قراره البطولي، (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيلَةً)، وكل إنسان يتخذ قراراً بطوليّاً يدفع ثمنه كي يرقى يوم القيامة، لكن بعد أن يتخذ هذا القرار البطولي، ويدفع ثمنه، ويصبر على ذلك، ولا يتشاءم، وهو فرح بطاعة الله، الآن الله عز وجل يدخله تحت منظومة قوانين اسمها قوانين العناية الإلهية، عندها يعود عليه الضيق سعةً والخسارة ربحاً.

من أطاع الله و لم يعبأ بمصالحه عادت عليه الدنيا أضعافاً مضاعفة :

قال تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

[سورة التوبة: 28]

(سوف) هي للامتحان، فيمكن أن تطيع الله وتخسر إلى حين، فإذا علم الله منك صبراً ورضى وطاعةً الآن يدخلك في منظومة قوانين أخرى، اسمها قوانين العناية الإلهية، عندئذٍ تربح، ربحت طاعتك بالله، وربحت الدنيا، لذلك من آثر النص الشرعي على مصالحه ربح طاعته لله، وربح الدنيا، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً، أرجو أن أكون قد وضحت ذلك الكلام الدقيق في قوانين مستنبطة من حركة الحياة، وبشكل حسابي على الآلة الحاسبة إذا أقرضت قرضاً ربوياً، أقرضت مئة ألف بفائدة عشرين بالمئة، يأتيك مئة وعشرون ألفاً، وإذا أقرضت قرضاً حسناً يأتي مئة ألف، ومع التضخم النقدي ثمانون ألفاً، على الحاسبات القرض الحسن خاسر، والقرض الربوي رابح، أما على قوانين العناية الإلهية فـ:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

الذي فعلته صدقة يربو المال بطريقة عجيبة لا يعلمها إلا الله، حينما يعلم الله منك الطاعة تطيعه، ولو خسرت الدنيا، هذا موقفك، وسوف تنال طاعتي والدنيا، الآن لا تبالي، تطيعه من أجل الدنيا سوف تخسر الدنيا، وتخسر طاعتي، كلام دقيق، بحسب حركة الحياة هناك أوامر تبدو لك أنها تضرك، وهناك أفعال لا ترضي الله تبدو لك وكأنها تنفعك، ولكن العاقبة للمتقين، في النهاية الذي تفعله طاعة لله ولا تعبأ بمصالحك تعود عليك الدنيا أضعافاً مضاعفة، هذه حقيقة.

الخيارات التي بيد القدرة الإلهية لا نهاية لها :

أيها الأخوة:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً)

لعلي أوفق في كلمة: الخيارات التي بيد القدرة الإلهية لا نهاية لها، ممكن أن تحقق ربحاً بالملايين وتخسر صحتك، القلب بيده، والشريان بيده، وخثرة الدماغ بيده، كل شيء بيده، فأنت من جهة حققت أموالاً طائلة:

(عُدْوَاناً وَظُلْماً)

فسلبك الله الصحة التي تستمتع بها بالمال، كان لي طالب في الحادي عشر، حدثني عن خاله، خاله صاحب دار سينما، بنى ربحه على إفساد أخلاق الشباب، ودار سينما من الدرجة الدنيا، أفلام كلها

فاضحة، هذه القصة عام 1965، جمع من خمسة إلى ستة ملايين، ما يعادل خمسمئة مليون الآن، أصيب بمرض عضال في ريعان الشباب، قال لي: دخلت عليه وهو يبكي، قال له: أنا جمعت هذا المال كي أستمتع به في خريف عمري، هذه المنية عاجلتني قبل أن أستمتع بهذا المال.

أخواننا الكرام، حينما تنصاع لأمر الله، ولا تعبأ بمصالحك يخضعك الله عز وجل لقانون لا تعرفه أنت، هو قانون العناية الإلهية، والله أعرف أناساً بذلوا أموالاً كثيرة في طاعة الله، قال لي أحدهم: مرة صفقة كبيرة جداً شعرت بانقباض لا مبرر له، لم أفهم لماذا كنت مضطرباً، لما اشتد انقباض صدره ألغى الصفقة، هذه الصفقة لو أخذها لدفع كل ما يملك، صرف الله عنه الخسارة عن طريق ضيق القلب، أنت حينما تأتمر بما أمر الله، وتنتهي عما عنه نهى الآن أخضعك الله لقانون العناية الإلهية، فإنك بأعيننا، يشرح صدرك لما هو خير لك، ويقبض صدرك لما له شر لك أحياناً، إذاً:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

العبرة أن تأتي النتائج متوافقة مع المقدمات :

دائماً العبرة لا أن يكون الناس جميعاً مؤمنين، ولكن العبرة أن تأتي النتائج متوافقة مع المقدمات.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

من شاء فليكسب المال الحلال، ومن شاء فليكسب المال الحرام، والآن أيها الأخوة إنسان جمع من القمار ثمانية ملايين، وهو على فراش الموت طلب إنساناً يعمل في الدعوة، قال له: ماذا أفعل؟ قال له: والله لو أنفقت المبلغ كله لا تنجو من عذاب الله، العبرة بخريف العمر، العبرة بساعة المغادرة، ماذا تفعل؟ فكسب المال الحرام محبب للناس، ولكن لو فكروا في مصيرهم، قد يخسر حياته، ولا يستمتع بماله، أندم الناس غنياً دخل ورثة بماله الجنة ـ كسبوه حلالاً ـ ودخل هو بماله النار.

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

في درس قادم إن شاء الله نتابع شرح الآية الكريمة:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(14-69): تفسير الآيات 29-31 ، قتل النفس وتجنب المعاصي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-05-31

بسم الله الرحمن الرحيم

مخاطبة الله جل جلاله الناس عامة بالآيات الكونية ليؤمنوا به :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الثلاثين والواحدة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً*وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

في الدرس الماضي وقفنا مع هذه الآية، ولا بد من تتمة لشرح هذه الآية.

أيها الأخوة الكرام، قلت لكم في الدرس الماضي: إن الإنسان مخير أن يؤمن أو ألا يؤمن، لذلك نجد أن الله جل جلاله يخاطب الناس عامة بالآيات الكونية ليؤمنوا به.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ*)

[سورة الغاشية: 17 - 20]

إذا دخلت في الدين فأنت ملزم بتطبيق ما جاء في القرآن والسّنّة :

الآيات الكونية التي تزيد عن ألف وثلاثمئة آية يخاطب بها الناس كي يؤمنوا بالله، هم مخيرون، هوية الإنسان مخير، يؤمن أو لا يؤمن، أما حينما يؤمن فقد دخل مع الله في عقد إيماني، إذا آمن صار لزاماً عليه أن يصغي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة البقرة: 104]

لأنك آمنت بي فينبغي أن تفعل كذا وينبغي ألا تفعل كذا، فحينما يلزمك الله بغض البصر، أو حينما يلزمك الله بتحري الحلال، أو حينما يلزمك الله بالقسط، ألزمك بعد أن آمنت به، هذا من متطلبات عقدك الإيماني مع الله، إذاً هذه مقدمة مهمة.

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

الدخول في الدين حر، أنت مخير، لكنك إذا دخلت في الدين أنت ملزم أن تنفذ تعليمات الخالق، تماماً كما لو كان التطوع في الجيش أمراً اختيارياً، أنت تتطوع أو لا، أما إذا تطوعت فهناك نظام، وهناك أمر، وهناك نهي، وهناك عقوبات، لو أن الإنسان لم يقبل الدخول في الدين أصلاً، طبعاً هذا هو الاختيار السيئ، فسوف يدفع ثمنه في الدنيا والآخرة، لكن يدفع ثمنه بسبب سوء اختياره، الآن إذا دخلت في الدين فأنت ملزم بتطبيق ما جاء في القرآن الكريم، وما جاء على لسان سيد المرسلين.

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

كل المنهيات التي نهيت عنها أمر الله جميع المؤمنين أن يفعلوها معك أو ألاّ يفعلوها :

أيها الأخوة، لو قلنا لعشرة أشخاص عندهم مركبات: اركبوا سياراتكم، ليركب كل منكم سيارته، إذا وجه الأمر إلى جمع، وكان المفعول جمعاً، فكل واحد يركب مركبته، إذا قال المعلم للطلاب: افتحوا كتبكم، فكل طالبٍ ينبغي أن يفتح كتابه، لكن لو قال أحد الطلاب لأستاذه: ضاع قلمي، فإذا قال المعلم: لا تسرقوا أقلامكم، ما المقصود؟ لا تسرقوا أقلام غيركم، لأن الإنسان لا معنى أن يسرق ماله، لا يسمى هذا سرقة، قاس بعض العلماء هذه الآية على هذه القاعدة، إذا قال الله عز وجل:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

أي لا تأكلوا أموال غيركم، لكن قد يغيب عن المؤمن أن الله حينما ضيق عليك حركتك اليومية ـ دقق ـ لا تغش، لا تكذب في البيع والشراء، لا تدلس، لا تحتكر، لا تستغل، حينما ضيق حركتك اليومية، ضيق على مليار ومئتي مليون مسلم حركتهم، وإذا نهاك الله عن السرقة، فقد نهى مليار ومئتي مليون مسلم أن يسرقوا منك، هذا قد يغيب عنا، إذا أمرك ألاّ تعتدي على أعراض المسلمين، هذا الأمر موجه إلى كل المسلمين ألا يعتدوا على عرضك، إذاً أنت المنتفع الأول من تضيق هذه الحركة، إذاً أي نهيٍ تجده في كتاب الله، أو تجده في سنة رسول الله ينبغي أن تعلم أنه إذا شعرت أن الأمر قد ضاق عليك يجب أن تشعر مع هذا الشعور أن الله سبحانه وتعالى أمر كل المؤمنين أن يحترموك، أن يحترموا مالك، ألا يعتدوا على عرضك، ألا يكذبوا عليك، ألا يسرقوا منك، كل المنهيات التي نهيت عنها أمر جميع المؤمنين أن يفعلوها معك أو ألاّ يفعلوها، إذاً هذا الأمر لصالحك، النقطة الدقيقة أيها الأخوة، والتي أتمنى أن أوفق في شرحها في هذا اللقاء؛ الإنسان له في الحياة حركة، هذه الحركة تزيد وتقل، فمتى تزيد؟ تزيد في حالة واحدة؛ إذا ضمن لك أن تقطف ثمار حركتك، وأن تكون آمناً على نتيجة عملك، هذه الحركة تزداد، أما إذا لم يضمن لك أن تقطف ثمار حركتك، وجاء إنسان آخر فأكل ثمرة عملك، هذا الوضع غير المقبول من شأنه أن يضعف حركة الإنسان في الأرض، ليس شرطاً أن تنوي خدمة الناس، ولا خدمة المسلمين، إذا كنت تريد

مصلحتك، وضمنت لك مصلحتك عم الخير على كل الناس، قد تكون مؤمناً، وفي مستوى عالٍ من الإيمان، فتحمل همَّ الناس، إن فعلت هذا كانت لك الدنيا والآخرة، أما كنظام حينما أضمن لكل إنسان نتائج عمله، وثمرة عمله، وحينما لا أسمح لإنسان أن يأكل ثمرة عمل الآخرين لذكائه، أو لقوته، أو لاحتياله، أو ما شاكل ذلك، حينما أضمن للناس ثمار أعمالهم تزداد هذه الحركة، وحينما تزداد هذه الحركة يعم الخير.

النظام الإسلامي والمنهج الرباني موضوعي :

أضرب بعض الأمثلة، أنا حينما أشجع الناس أن يزرعوا، والإنسان في مخيلته مصلحته الشخصية بادئ ذي بدء، إذا تسابق الناس إلى زراعة الأرض كثر الإنتاج، ورخصت الأسعار، وعمَّ الخير، هذا الخير الذي عمَّ ليس في نية الناس، بل كان ذلك رغبة في تحقيق مصالحهم فقط، لكن لأنه ضمنت لهم نتائج أعمالهم، وضمنت لهم ثمار أعمالهم فتحركوا حركة واسعة، عندئذٍ عمَّ الخير جميع الناس، كأن هذه الآية تريد أن توضح للناس أن حركة الإنسان إذا كانت طليقة، وإذا كانت مضمونة النتائج فإن هذا الشيء يعمَّ بخيره على كل الناس، عندئذٍ تنتعش الحياة، أما إذا لم يضمن لك نتائج عملك لا تعمل، والمجتمعات التي لا يستطيع الفرد فيها أن يقطف ثمار عمله مجتمعات خاملة، ومجتمعات ضعيفة الحركة، ومجتمعات متدهورة وفقيرة، أما حينما يضمن للإنسان ثمار عمله عندئذٍ يتحرك، ويعم الخير، لذلك حينما يلد المالُ المال تتجمع الأموال في أيدي قليلة، ويحرم من المال الكثرة الكثيرة، ولا أبالغ إذا قلت: إن معظم المشكلات التي تعاني منها البشرية بسبب أن الأموال تلد الأموال، أما إذا ولدت الأعمال الأموال فلا بد من توزيع هذه الأموال على أوسع شريحة في المجتمع، وكأن التصميم الإلهي لئلا يكون دُولةً بين الأغنياء منكم، الحالة المرضية السيئة جداً أن يكون المال متداولاً بين الأغنياء، بينما السواد الأعظم، الخط العريض في المجتمع محروم من المال، والمال قوام الحياة.

فيا أيها الأخوة، أنا حينما أضمن للإنسان نتائج عمله، أقول له: افعل، أنشئ مصنعاً، ازرع أرضاً، روِّج تجارة، أسست شركة، ماذا يفعل هذا الإنسان؟ سيؤسس وسيبني وسيوظف وسيوفر فرص عمل كبيرة جداً وسيخفف الأعباء عن الناس دون أن يشعر، أما إذا شعر أنه في خدمة المسلمين هذا إنسان راقٍ جداً، هذا له الدنيا والآخرة، لأن النظام الإسلامي والمنهج الرباني موضوعي؛ بمعنى أنه لو طبقه كافر لقطف ثماره، لو طبق المنهج الموضوعي كافر به " كافر بالله " لقطف ثماره، وهذا ما نجده أحياناً في بعض البلاد المتقدمة، تقدم كبير جداً، رخاء، أسعار منخفضة، فرص عمل كثيرة، لأنه في شيء من النظام الرباني مطبق في هذا المجتمع، لا عن إيمان بالله إطلاقاً، ولكن عن إيمان بالمال.

حينما يسعى الإنسان لمصلحته الشخصية فقط وفق منهج الله يعم الخير على المجتمع كله:

إذاً حينما نهانا الله عز وجل عن أن نأكل أموال غيرنا، معنى أن تأكل مال أخيك؛ المال جهد أيها الأخوة، أوضح مثلاً، لو كلفنا إنسان أن ينقل مثلاً مئة حجر من مكان إلى مكان أعطيناه ألف ليرة، هذه الألف ليرة تعني جهداً، فإذا كان في الطريق إنسان قوي وشهر عليه السلاح وأخذ منه الألف ليرة ماذا حصل؟ هذا الجهد الشاق الذي بذله هذا الإنسان أكله إنسان آخر، تكاد تكون معاصي المال ـ عددها: الربا، الغش، التدليس، الاحتكار، الكذب، السرقة، القمار ـ تكاد تكون معاصي المال في مجملها تنطلق من مبدأ واحد: أن نسمح لإنسان قوي أو ذكي أن يأكل ثمرة إنسان آخر، ولمجرد أن نسمح لإنسان قوي أو ذكي، قوي لما معه من قوة وذكي باحتياله، المال يأخذ غصباً أو احتيالاً، القوي يأخذه غصباً، والذكي المنحرف يأخذه احتيالاً، حينما نسمح أن يقطف إنسان لم يعمل ثمرة إنسان عمل تضعف حركة الحياة، ويعم الفقر في المجتمع، فلذلك حينما نهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم، أي ضمن لهم نتائج عملهم، ضمن لهم أن يقطفوا ثمار عملهم، والإنسان كما أقول حينما يسعى لمصلحته الشخصية فقط وفق منهج الله يعم الخير على المجتمع كله.

إنسان معه في الصندوق مبلغ كبير، مثل واضح، لو أراد أن يبني بناءً، وبحسب نظام الإيجار ينتفع من أجرته، هذا المبلغ مخزن في الصندوق، لو خرج من الصندوق لينقلب إلى بناء ماذا سوف يفعل صاحب هذا المال؟ سوف يشتري أرضاً، وسوف يأتي بعمال، وسوف يستصدر التراخيص، وسوف وسوف، وسوف يقلب هذا المبلغ الكبير إلى أموال أخذها أصحاب هذه المصلحة، تقاسموها، الذي حفر الأرض، والذي بنى، والذي صب السقف، والذي طلى البيت، والذي مدد، ثم جاء إنسانان، وسكنا في هذين البيتين، الإنسان دفع، لكن وجد بيتاً يسكنه، المبلغ الكبير الذي في الصندوق لو خرج فانقلب إلى بناء مؤلف من عشرة بيوت، وجاء أناس، واستأجروا هذه البيوت لحلت مئات المشاكل، لذلك من بعض توجيهات الشارع الحكيم أن الزكاة حينما تفرض على المال الذي لا ينمو، الغنم مال، لكنه ينمو بطبيعته في توالد البقر، الإبل، النبات تزرع حبة واحدة قد تنقلب هذه الحبة إلى مئة حبة، الزراعة تنمو، والأنعام تنمو، لكن المال لا ينمو، فرض على المال الزكاة، لأنك إذا لم تستثمره لصالح المسلمين أكلته الزكاة، وكأن فريضة الزكاة باعث على أن تستثمر المال وتنفع به المسلمين.

البطالة هي أكبر مشكلة تعاني منها المجتمعات الآن :

إذاً حينما قال الله عز وجل:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

أي يجب أن تضمنوا لبعضكم البعض قطف ثمار أعمالكم، أما لو أن هذا الإنسان بعد أن بنى هذا البناء، وقلب هذا المال الجامد من صندوقه إلى بناء من عشر بيوت أخذناه منه عنوة، كم من إنسان آخر يحجم عن استثمار ماله في البناء؟ معظم الناس، أما إذا ضمنا له أن يقطف ثمار ماله إذاً الحركة تتنشط، هذه الآية أيها الأخوة توجيه إلهي دقيق، ومعناها الدقيق أن نضمن لكل إنسان كائن من كان قطف ثمار حركته في الحياة، إذاً تنشأ حركة واسعة جداً، نشيطة جداً، مثمرة جداً وأنا لا أتصور أن الرخاء الذي تنعم به بعض المجتمعات الشاردة عن الله عز وجل إلا أن مبدأ صون حركة المال وحركة الحياة مضمون هناك.

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

إذاً حينما نهى الله عز وجل عن أكل أموال الناس بالباطل فقد نهى كل المسلمين أن يأكلوا أموالك أيها المؤمن بالباطل، فهذا الأمر لصالحك، أنت واحد، أما هناك ملايين مملينة أمرت كما أمرت أن يفكوا عن مالك، هذا المعنى الأول، والمعنى الثاني حينما أضمن للإنسان أن يقطف ثمار حركته في الحياة معنى ذلك أنني نشطت العمل، الآن أكبر مشكلة تعاني منها المجتمعات البَطالة.

سيدنا عمر هذا الخليفة الراشد سأل أحد الولاة: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً إن جاءني من رعيتك من جائع أو عاطل فسأقطع يدك، انتبه هذا الخليفة الراشد قبل ألف وأربعمئة عام إلى أن أكبر مشكلة في المجتمع البطالة، أحياناً يقال لك: في بعض الإحصاءات أن هذه النسبة لم تكن من خمسين عاماً 6.3، هناك مجتمعات البطالة فيها وصلت إلى ستين في المئة، هذا توجيه قرآني لكل المؤمنين لذلك من هو السارق؟ السارق اعتدى على جهد الآخرين، إنسان تعب، وعمل، وقطف ثمار ماله، فجاء من أخذها منه، لذلك الحد قوي جداً تقطع يده، صوناً لحركة الحياة.

في الآية التالية توجيه اقتصادي لمجموع المسلمين :

سأل بعضَ العلماء شاعرٌ فقال له:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟

* * *

أي لو إنساناً أصاب يد إنسانٍ خطأ، بحادث سير فرضاً، عشر مئين عسجد ذهب، ديتها ألف دينار ذهبي، ما بالها قطعت في ربع دينار؟ لو سرقت هذه اليد ربع دينار لقطعت، فأجاب الإمام الشافعي:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

* * *

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت، لذلك يوم طبقت بعض الدول الإسلامية قطع اليد فإنّ القصص التي تروى لا تصدق، هل يعقل أن يذهب صراف في موسم الحج ليصلي الأوقات الخمسة في المسجد، والأموال مكدسة في صندوقه على قارعة الطريق، وهو آمن عليها، نظام، بينما في بعض البلاد المتقدمة في كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، فحينما نضمن للناس ثمار أعمالهم يتقدم المجتمع، وحينما نسمح، أو نتغاضى، أو نتهاون في تطبيق العقوبات على من يعتدي على ثمار عمل الآخرين تضعف الحركة في الحياة، سميت الحالة الأولى نماءً اقتصاديّاً، وسميت الحالة الثانية ركوداً اقتصادياً، هذه الآية فيها توجيه دقيق جداً، توجيه اقتصادي لمجموع المسلمين:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

وبالمناسبة:

(لَا تَأْكُلُوا)

كما قلت في الدرس الماضي: قد يسكن الإنسان بيتاً طوال عمره، وقد يبقى على ثوب واحد لأشهر عديدة، أما الأكل فكل يوم، وأبرز عمل للإنسان أنه يأكل، حتى من تعريفات الإنسان أنه كائن فاتح فمه ليأكل، فالأكل هنا نشاط يومي، وثمة أشخاص كلما تحركوا أكلوا أموال الناس بالباطل، يكذبون، ويدلسون، ويغشون، وكأن الله سبحانه وتعالى ذكر كلمة لا تأكلوا لأن الأكل نشاط يومي، وهناك من يجعل نشاطه اليومي أكل أموال الناس بالباطل، بالباطل أي بطريقة لا معاوضة فيها.

حينما تكون المنافع متبادلة فالمال حلال وحينما تكون مبنية على الضرر فالمال حرام:

ذكرت قبل قليل المبدأ العميق جداً لجمع كل ألوان المال الحرام، قمار، يانصيب، تدليس، غش، سرقة، ربا، كل شيءٍ حرمه الله في كسب المال ينطلق من منفعة بنيت على ضرر، منفعة نالها إنسان بنيت على ضرر، أوضح شيء السارق، السارق انتفع، سرق مئة ألف، لكن ما تعب في كسبها، بنيت على أن ثمرة إنسان آخر ذهبت سدى، الإنسان الآخر بحاجة إلى المئة ألف، قد يشتري بها حاجات العام، قد ينفقها على أشهر عدة، الآن وكل كسب يبنى على منافع متبادلة فهو كسب حلال، فالتاجر يسافر، ويشتري، ويشحن، ويضمن الخسارة، ويتحمل أعباء السفر، وأعباء تخليص البضاعة، ثم بيع البضاعة، ثم جمع ثمنها، هذا جهد كبير مع ضمان، جهد مع ضمان له أن يربح، هذا الربح الذي يأكله التاجر ليس بالباطل، بالحق، لكن لو غش فقد أكل بالباطل، لو أوهمك أن هذا القماش فرنسي، وهو من مصدر آسيوي رخيص، وصدقت أنت، فدفعت له ثمن القماش الفرنسي، بينما أعطيته قماشاً رخيصاً، اعتديت عليه، فأكلت ماله بالباطل، كل إنسان غشاش يأكل أموال

الناس بالباطل، أحياناً لعرض البضاعة يوهمك أن هذا اللحم طازج، يضع ضوءاً أحمر يعطي اللحم الأبيض لوناً زهرياً كأنه طازج، أحياناً عرض البضاعة فيه غش، أحياناً الأوصاف التي يصفها البائع فيها غش، كل أنواع الغش أكل أموال الناس بالباطل، الربا أكل أموال الناس بالباطل، القمار أكل أموال الناس بالباطل، اليانصيب أكل أموال الناس بالباطل، شركات التأمين تأخذ منك مبلغاً صغيراً دون أن تعطيك شيئاً إذا سلمت من حادث، أكل أموال الناس بالباطل، إذا بنيت منفعة على ضرر فهو مال حرام، أما إذا بينت منفعة على منفعة، كمن معه مال لا يحسن استثماره، فأعطاه لشاب مؤمن مهندس فاستثمره، والربح بينهما، صاحب المال في أعلى درجة من الراحة، لأنه استثمر ماله، وعاد إليه منه نفع كبير، والشاب المتقد حيوية، والذي لا يملك مالاً اشتغل بهذا المال فربح، وأعطى صاحب المال نصيبه، إذاً كمبدأ عام حينما تكون المنافع متبادلة فالمال حلال، وحينما تكون المنافع مبنية على الضرر فالمال حرام، مبدأ عام.

إن أطيب الكسب كسب التجار :

قال:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

توسع بعض العلماء في معنى التجارة التي عن تراضٍ، أي لو كشفت الحقائق للمشتري يرضى، لو كشفت الحقائق للبائع يرضى، أما إذا طمست الحقائق، وعتم على بعضها رضي المشتري، إذا أوهمته أن هذه البضاعة سوف يمنع استيرادها خلال أيام، وليس عندي إلا قطعة واحدة، وعندك ألف قطعة في المستودع، ليس عندك إلا قطعة واحدة، أوهمته بذلك فاشتراها مباشرة دون أن يساومك على السعر، هذا مال حرام، لأنك غيرت حركة السوق الطبيعية، حينما تغير الحركة الطبيعية للسوق فهذا نوع من الكسب الحرام:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

لماذا ذكر الله التجارة، ولم يذكر الصناعة؟ لأن التجارة هي الوسيط بين المنتج والمستهلك، قد يكون الإنتاج زراعياً، فالتاجر يشترى الخضار والفواكه فيبيعها، وقد يكون الإنتاج صناعياً، التاجر يشتري ويبيع، فالوسيط الذي يتوسط بين المنتج والمستهلك هو التاجر، فالله عز وجل ذكر التجارة على أنها طريقة من طرائق الكسب، إن أطيب الكسب كسب التجار، لكن أين هم التجار الذين يعنيهم؟ إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا، سبع صفات إذا توافرت في التاجر كان هذا التاجر صدوقاً، وكان مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين يوم القيامة، لأنه صار داعية إلى الله، وأكبر قطرين إسلاميين في شرق آسيا أسلمت شعوبها عن طريق التجار فقط، التاجر يحتل مكانة كبيرة في المجتمع، لأنه أعطاك بضاعة جيدة بسعر معتدل، أما إذا

غش فيحتل مكانة سيئة في المجتمع، كان السلف الصالح حينما يفتحون محلاتهم التجارية ينوون خدمة المسلمين، إذاً هم في عبادة، المؤمن عاداته عبادات، والمنافق عباداته الصرفة سيئات.

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء: 142]

للآية التالية ثلاثة معانٍ :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)

1 ـ يعلمنا الله أن نتلقى الشدائد بقوة متماسكة وألا نيئس من رحمته :

يقتل نفسه يائساً من رحمة الله، كأن الله يعلمنا أن نتلقى الشدائد بقوة متماسكة، سيدنا موسى، وهذا درس بليغ، حينما كان مع قومه، وفرعون من ورائهم، والبحر من أمامه، بحسب قوانين الأرض احتمال النجاة صفر، لا أمل أبداً، فرعون بطغيانه، وجبروته، وقسوته، وجنوده، وأسلحته، وحقده وراء شرذمة قليلة من أتباع سيدنا موسى، والبحر أمامهم.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ*قَالَ كَلَّا)

[سورة الشعراء: 61 ـ 62]

من هو المنتحر؟ إنسان لا يعرف الله أبداً، لكن هناك أمل بالمليار واحد، من وجد نفسه لقمة في بطن حوت في ظلمة الليل، وفي ظلمة أعماق البحر، وفي ظلمة بطن الحوت:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

[سورة الأنبياء: 87]

لا يقال هنا: ليس هناك تغطية في هذا المحل.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 87 ـ 88]

ألا تكفي هذه الآية؟!

2 ـ بحسب منهج الله الذي قتل الآخر كأنه في النهاية قتل نفسه :

من هو المنتحر؟ إنسان لا يعرف الله أبداً، بحسب قوانين الأرض لا أمل، لكن الله يخلق الأمل من لا شيء، يخلق من الضعف قوة، فالمنتحر كافر لأنه لا يعرف الله، ولا يعرف أن الذي خلقه أمره كن فيكون، لكن في معنى آخر لهذه الآية، لا تقتل غيرك فتقتل، بنظام خالق الأكوان.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 179]

حينما يشرع أن القاتل يجب أن يقتل، إذاً ضمنا الحياة للطرفين، للقاتل لم يَقتُل، وللمقتول لم يُقتَل، مادام هناك قناعة ثابتة أن هذا النظام الإسلامي القاتل يُقتل، فالقاتل لا يَقتل، والمقتول لم يُقتل، ضمن حياة الاثنين، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 179]

أحياناً أيها الأخوة، هناك حدود ردعية لو لم تطبق، أو لو لم تستعمل بالأصح أثرها واضح، ما الذي يبعد الناس عن أن يأكلوا أموال بعضهم البعض؟ وجود السلطان، وإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فحينما يعدم الإنسان مثلاً في مركز المدينة لأنه سارق، أو لأنه قاتل فهذا يعطي الناس ردعاً كبيراً جداً ، يرتاحون حينما ينزل العقاب بالقاتل أو بالسارق، فلذلك:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

أي لا تقتلوا بعضكم البعض، عندئذٍ بحسب منهج الله تقتلون، فالذي قتل الآخر كأنه في النهاية قتل نفسه. أذكر جريمة وقعت في ريف دمشق، خمسة أشخاص أخذوا بائع ذهب، وقتلوه، ووضعوه في بئر، وأخذوا من عنده تقريباً عشرة كيلو غرامات من الذهب، أنا أذكر أن المسافة أو الوقت الزمني بين السرقة وبين إعدامهم أسبوعان أو ثلاثة، هل يعقل أن هذا الإنسان لو أيقن أنه مقتول لا يسرق، ولا يقتل، ضعف اليقين، فالشارع الحكيم يأمرنا أن نجعل عقوبة القتل رادعة، لذلك:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

حينما تقتل أخاك فقد قتلت نفسك حكماً، لأنك مقتول، وحينما يكون تشريع القصاص بالقتل قائماً فالحياة ينعم بها من كان سيَقتُل، ومن كان سيُقتَل، فلذلك قضية المنهج الإلهي مهمة جداً:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

3 ـ على الإنسان ألا يتهاون بأشياء تودي به إلى القتل :

معنى ثالث: لا تتهاون بأشياء تودي بك إلى القتل، قضية بسيطة تفاقمت، ثم أصبحت جريمة، أحياناً السرقة تنقلب إلى قتل، دخل ليسرق، فقاومه صاحب البيت، معه مسدس فقتله، كان سارقاً فصار قاتلاً، أيها الإنسان لا تفعل شيئاً ينتهي بك إلى القتل، ولا تَقتل أخاك لئلا تُقتَل، وإنك إذا قتلت أخاك ضعفت المسلمين، لذلك الذي يقتل مؤمناً خطأً بحادث، في أصل التشريع عليه أن يعتق رقبة مؤمنة، لأن هذا المجتمع خسر عنصراً مؤمناً فلا بد من تعويضه بعنصر مؤمن.

حينما يعتدي الإنسان ويعلم أنه معتدٍ فهذا أعلى أنواع الشر:

قال:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً* وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً)

أحياناً يكون العدوان عن غفلة لا عن ظلم:

(عُدْوَاناً وَظُلْماً)

يعني يعتدي، ويعلم أنه معتدٍ، هذا أعلى أنواع الشر، أسوء أنواع الشر، يعتدي ويعلم أنه معتدٍ، لكن أحياناً إنسان لغفلة عنده قد يعتدي ويعتذر، لكن الذنب الذي يبنى على الغفلة أو على الجهل سهل غفرانه، أما حينما يعتدي وهو يعلم أنه معتدٍ، وهو يعلم أنه ظالم فهذا ذنب كبير جداً:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

من فعل في النار فعل الإحراق؟ الله جل جلاله، قوتها من قوة الله عز وجل:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

كل معصية حولها منطقة لو دخلتها لجذبت إليها :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

أخواننا الكرام، في هذه الآية حقائق خطيرة جداً، أولاً:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

معنى تجتنب في القرآن الكريم يقتضي أن تدع مسافة أمان، أو هامش أمان بينك وبين المعصية، فإن كل معصية حولها منطقة لو دخلتها لجذبت إليها، أبداً.

حول الزنى الاختلاط، حول الزنى الخلوة، حول الزنى إطلاق البصر، حول الزنى صحبة الأراذل، أنا سمعت قبل أيام مصطلحاً أعجبني، هناك مصطلح دقيق جداً هو التحرش بالمرأة، هناك مصطلح جديد تحرش المرأة بالرجل، كيف؟ من خلال ثيابها، حينما تكون ثياب المرأة فاضحة مبرزة لمفاتنها، هذه المرأة تتحرش بالرجال، فكيف نعاقب رجلاً تحرش بامرأة؟ نعاقبه، وندخله السجن حسب النظام، فينبغي أن تعاقب المرأة التي تتحرش بالرجل من خلال ثيابها، وقد سئلت البارحة في محاضرة كنت ألقيها عن قضية ثياب المرأة فقلت: كيف أن الرجال لهم عبادات خاصة كالجهاد في سبيل الله، وحضور الجمع والجماعات، للمرأة عبادة خاصة ترقى بها، أنا سميتها عبادة إعفاف الشباب، فالمرأة محببة إلى الرجل، فإذا أظهرت مفاتنها من خلال ثيابها الفاضحة فقد تحرشت بالشباب، ودفعتهم إلى مجموعة من المعاصي، إما أن يقعوا في الزنى، أو في المثلية، أو في العادة، أما إذا كانت ثياب المرأة سابغة، وثخينة لا تصف ما تحته، وواسعة لا تصف حجم

أعضائها، إذاً هي ساهمت في إعفاف الشباب، لها عند الله أجر، لعل المرأة في الصيف محرومة من ثياب خفيفة، قد يفعلها الشاب، ولا شيء عليه، لكن الفتاة ممنوعة أن ترتدي ثياباً خفيفة تظهر مفاتنها، هذه المرأة حينما ترتدي معطفاً في الصيف، وحينما ترتدي ثياباً سابغةً، ثياباً محتشمةً طويلةً واسعةً، وحينما تغطي شعرها ووجهها، ماذا تفعل هذه؟ تعبد ربها، تعبد ربها وكأنها في صلاة، لذلك والله أيها الأخوة، حينما أرى امرأة محجبة حجاباً إسلامياً صحيحاً لا يسعني إلا أن أقول:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة: 17]

أما حينما تسبب أزمات وانحرافات لمن يراها متفلتة في ثيابها فهذه مشكلة.

على الإنسان أن يدع هامش أمان بينه وبين المعصية :

إذاً:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

الكبائر، فيجب أن تدع بينك وبينها هامش أمان، كأن نهراً مخيفاً له شاطئ مائل زلق، وله شاطئ مستوٍ جاف، فحينما تمشي على الشاطئ المائل الزلق احتمال أن تسقط في النهر كبير:

((إن الحلال بين وإن الحرام بين وبين ذلك مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لكل ملك حمى وحمى الله في الأرض محارمه))

[متفق عليه من حديث النعمان بن بشير]

إذاً من كلمة:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

ينبغي أن نفهم أن تدع هامش أمان بينك وبين المعصية، الزنى، الخلوة، الخلوة طريق للزنى، الاختلاط، إطلاق البصر، صحبة الأراذل، متابعة الأفلام الإباحية، هذا كله ينتقل إلى الزنى، الخمر:

((لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها))

[أبو داود والحاكم والبيهقي عن ابن عمر]

هؤلاء جميعاً ملعونون، لم يقل لك الله عز وجل: حرمت عليكم الخمر، بل قال:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

الاجتناب أبلغ من التحريم، أبلغ بكثير، الاجتناب أن تدع منطقة أمان كبيرة، بربكم لو أن وزير الكهرباء أنشأ خط توتر عالٍ جداً ثمانمئة آلاف فولت، وكتب لوحة: ممنوع مس التيار، قبل التيار

بثمانمئة متر مَن دخل إلى هذه المنطقة يصبح فحمة سوداء، ماذا ينبغي أن يكتب؟ ممنوع الاقتراب من التيار، ممنوع مس التيار كلام لا معنى له.

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

اجعل بينك وبينها هامش أمان، والشريف من يهرب من أسباب المعصية، لا من المعصية نفسها، أنا أقول لكم: لو حللت مئة حالة زنى لوجدت خمسة وتسعين في المئة من هذه الحالات لم يخطر في بال الواحد منهم أن يصل إلى الزنى، لكن لأنه دخل المنطقة المحرمة فهذه المنطقة المحرمة ساقته إلى الزنى، وهكذا:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

ولهذه الآية أيها الأخوة، وقفة متأنية إن شاء الله في الدرس القادم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(15-69): تفسير الآية 31 ، الكبائر والصغائر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-06-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الكبائر من خصائصها أن فيها قوة جاذبة لذلك أتى الأمر باجتنابها :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

الحقيقة الأولى: أن هذه الكبائر ـ وسوف آتي بعد قليل على ذكر أمثلة لها ـ لها خصائص، من خصائصها أن فيها قوة جاذبة، لذلك أتى الأمر بالاجتناب؛ والاجتناب كما قلت في الدرس السابق أن تدع بينك وبين هذه الكبائر هامش أمان، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الأنعام: 152]

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

على الإنسان أن يجعل هامش أمان بينه و بين الكبائر لينجو من عذاب الله :

أوضح مثل أنك إذا أردت أن تحذر الناس من خط كهربائي عالي التوتر لا يمكن أن تقول: ممنوع مس التيار، تقول: ممنوع الاقتراب من التيار، لأن هناك مساحة حول التيار لو دخلت إليها لجذبك التيار، إذاً هذه المعاصي يمكن أن تجذب، فالحقيقة الأولى لا تستطيع أن تنجو من هذه الكبائر إلا أن تجعل بينك وبينها هامش أمان. كبيرة الزنى؛ هامش الأمان ألا تخلو بامرأة، هامش الأمان ألا تصحب الأراذل، هامش الأمان ألا تمارس الاختلاط، ألا تعرض نفسك لإثارة أنت في غنىً عنها، هذا هامش الأمان. مال اليتيم؛ ينبغي أن تفصله عن مالك، أما إذا دخل في مالك، ودخل في مصروفك، فهناك مشكلة، إذاً:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

الاجتناب هو أشد أنواع التحريم، لقوله تعالى:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

[سورة الحج: 30]

أشد أنواع التحريم.

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

[سورة المائدة: 90]

لو دققت في آيات القرآن الكريم لوجدت أن الأمر بالاجتناب هو أبلغ من الأمر بالتحريم، الاجتناب يحتاج إلى هامش آمان، لذلك لو أن الله مثلاً حرَّم علينا الخمر لسمح ببيعها، والتجارة بها، سمح بعصرها، سمح بنقلها، لكن الأمر بالاجتناب يقتضي ألا تعصرها، وألا تشتريها، وألا تبيعها، وألا تتاجر بها، وألا تجلس مع شاربها، وألا تكون على طاولة أنت عليها، كل العلاقات الفرعية المتعلقة بشرب الخمر محرمة، إذاً هذه قاعدة عامة ينبغي للإخوة الكرام أن ينتبهوا إليها.

الإنسان هو المخلوق الوحيد مع الجن الذي حينما عرض الله عليه الأمانة اختارها:

الكبائر لا تُتَّقى إلا بترك هامش أمان بينك وبينها، أما لو تجاوزت هذا الهامش فإن احتمال الوقوع كبير جداً، كهذه الصخرة المتمركزة في قمة جبل لو دفعتها قليلاً إلى المنحدر لن تستقر إلا في أعماق الوادي، ولعلي في الدرس الماضي وضحت هذه الحقيقة، قضية الاجتناب، الكبائر تتقى بالاجتناب، ابتعد عن أسباب المعصية، ابتعد عن أجواء المعصية، ابتعد عن مكان تمارَس فيه المعصية، ابتعد عن أشخاص غارقين في المعصية، ابتعد عن المكان، وابتعد عن الزمان، وابتعد عن الأشخاص، وابتعد عن الأسباب، من أراد أن ينجو بدينه فليدع بينه وبين المعاصي هامش أمان، وهذا منطوق قوله تعالى: (إِنْ تَجْتَنِبُوا)، منطوق قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

[سورة المائدة: 90]

الآن ما الكبائر وما الصغائر؟

الحقيقة يجب أن تعرف من أنت أولاً، أنت مخلوق متميز، في الكون مخلوقات كثيرة، هناك الملائكة الذين اختاروا الإقبال على الله من دون مسؤولية وتكليف، وهناك الحيوانات الذين اختاروا الشهوة البهيمية من دون مسؤولية وتكليف، فالحيوان مسير، والملك مسير، لكن الإنسان هو المخلوق الوحيد مع الجن الذي حينما عرض الله عليه الأمانة، أي أن يكون مخيراً، أن يتولى بنفسه تزكية نفسه، فاختارها.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب: 72]

الإنسان كائن متميز فيه نفخة من روح الله وقبضة من تراب الأرض :

أنت كائن في كيانك قبضة من تراب الأرض، وفي كيانك نفخة من روح الله، عندك نوازع عليا تحب الخير، تحب الحقيقة، تحب أن تكون كريماً شجاعاً، وفياً صادقاً، متصلاً بالله، تحب أن تكون كاملاً، وتحب أن تلبي حاجات الجسد، هناك نوازع علوية، وهناك نوازع سفلية، هناك نفخة من روح الله، وهناك قبضة من تراب الأرض، الإنسان كائن متميز.

رُكّب الملك من عقل بلا شهوة، ورُكّب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكّب الإنسان من كليهما، فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 7]

فوق الملائكة بكثير.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة البينة: 6]

وما أكثرهم، تشاهدون أفعالهم كل يوم.

(أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 6]

الإنسان مخير فكل خصائصه وكل حظوظه حيادية :

الإنسان يتذبذب بين أن يكون أرقى المخلوقات إطلاقاً، وبين أن يكون أشقاها إطلاقاً، إذاً أنت إنسان مخير، والتخيير واقع، بإمكانك أن تأتي إلى مجلس علم وبإمكانك أن تذهب إلى ملهى، بإمكانك أن تصلي أو لا تصلي، أن تصدق أو أن تكذب، أن تنجز الوعد أو أن تخلف، أن تكون وفياً أو خائناً، أن تكون منصفاً أو جاحداً، أن تكون أباً مثالياً أو أباً شهوانياً، أن تكون تاجراً صدوقاً أميناً أو تاجراً كذوباً خائناً، الدليل الواقعي قوي جداً، أنت مخير، ولأنك مخير كل خصائصك وكل حظوظك حيادية، يمكن أن تكون سلماً ترقى بها إلى أعلى عليين، ويمكن أن تكون درجات تهوي بها إلى أسفل السافلين، مخير لذلك:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: 148]

أما أن تظن أن السيئات التي تقترفها هي من قضاء الله وقدره فهذه عقيدة فاسدة، لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر بالفحشاء.

الكبائر أساسها أن إنساناً تحرك بدافع من شهوته خلاف منهج الله :

قال:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

أنت مخلوق متميز لأنك مخير، وفيك نوازع سفلية، وفيك نوازع علوية، تحب الحقيقة، وتحب الله، وتحب الخير، وتحب الحق، وتحب أن تلبي حاجات البشر، هذه الهوية المتميزة تجعلك في حالتين متناقضتين؛ إما أن تكون فوق الملائكة، أو دون الحيوانات، الحيوان يفترس إذا كان جائعاً، أما هذا الذي يبيد شعوباً بأكملها، ويتلذذ بمشهد القتل والذبح والتعذيب فهو دون الحيوان بكثير، بل إننا إذا وصفناه بكونه حيواناً نكون قد ظلمنا الحيوان، فيحتج الحيوان علينا.

هذه مقدمة، فالإنسان أودع الله فيه الشهوات، لكن ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تجري خلالها، ليس هناك في الإسلام حرمان إطلاقاً، فالكبيرة أساسها أن إنساناً تحرك بدافع من شهوته خلاف منهج الله، أوضح تعريف لها، إنسان أودعت فيه الشهوات، وهي حيادية، معه منهج، تحرك في الحياة بدافع من شهواته من دون منهج الله عز وجل، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: 50]

الكبائر والصغائر :

هناك طريق شرعي إلى النساء، وهناك طريق غير شرعي إليهن، الزنى، المال هناك طريق شرعي إليه هو العمل، أن تكسبه بالعمل، وهناك طريق غير شرعي إليه أن تكسبه سرقة، أو احتيالاً، أو ربىً، أو كذباً، أو زوراً، فالكبيرة إنسان تحرك بدافع من شهوته من دون منهج يسير عليه، معنى ذلك أن الشر سوء استعمال فقط، كل شيء خلقه الله خير، إذا استعملته وفق منهج الله فأنت على حق، دقق لو أن إنساناً أسس عملاً، وكسب مالاً له اسم لائق في المجتمع، فلو أن هذا

الإنسان سرق مالاً لسقط من عين الناس جميعاً، هو في الحالتين كسب المال، لكن في حالة كسبه مشروع، وفي حالة كسبه كسب غير مشروع.

أيها الإخوة، لا بد من أمثلة، الكبيرة هي معصية تحجبك عن الله حجاباً كثيفاً، أحيانا يخطئ الإنسان، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون))

[أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أنس]

لكن بين أن تخطئ بإخلاف وعد مع صديق حميم دون أن تقصد ذلك، وبين أن تقتل، وبين أن تزني، وبين أن تسرق، وبين أن تشرب الخمر، فشرب الخمر، والزنى، والقتل، والسرقة هي كبائر تشعر أن بينك وبين الله حجاباً كثيفاً، وأن هذا الحجاب ليس من السهل إزالته، فالكبيرة ذنب كبير، ويتبعه حجاب كثيف، فإذا مثلنا الكبيرة بأنك تركب سيارتك، وتمشي على طريق عريض، وعن يمينه واد سحيق، وعن يساره واد سحيق، الكبيرة أن تحرف المقود تسعين درجة فجأة، فإذا أنت في الوادي، هذه هي الكبيرة، أما الصغيرة أن تحرف المقود درجة واحدة، سميت صغيرة لأنه يمكن تلافيها، والكبيرة تهلك صاحبها، تأخر في صلاته هي صغيرة، طبعاً التأخر بسيط، كلما كان التأخر أكبر كان الذنب أكبر، خطر في بالك خاطر، خاطر سيئ، تصورت أن تفعل معصية، لكنك لم تفعلها، هذا من اللمم، هممت أن تفعلها، ثم توقفت هذا من اللمم، معصية لم يتوعد الله عليها صاحبها بالحرمان أو باللعن أو بجهنم، هي صغائر، يقول الله عز وجل:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

لا كبيرة مع الاستغفار لأن رحمة الله تَسَعُ كل شيء :

لكن القاعدة التي بيَّنها النبي عليه الصلاة والسلام أنه:

((لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار))

[رواه ابن المنذر والديلمي عن ابن عباس]

ما أروع هذه القاعدة، هذه القاعدة تحيل الصغيرة كبيرة، والكبيرة صغيرة، لمجرد أن تثبت انحراف المقود درجة واحدة بعد حين أنت في الوادي، أما الكبيرة لو أنك انتبهت مباشرة أعدت المقود إلى ما كان عليه نجوت، فحينما تصر على صغيرة انقلبت إلى كبيرة، وحينما تستغفر من كبيرة غُفِرت لك وكأنها لم تكن، لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر: 53]

هذه بشارة، لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي، لا كبيرة مع الاستغفار، مهما تكن الكبيرة كبيرة، لأن رحمة الله تسع كل شيء، وأنت شيء، وأرجى آية في كتاب الله:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر: 53]

لكن:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

[سورة الزمر: 54]

حينما تقرأ القرآن تشعر أن الله غفور رحيم.

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الحجر: 49]

إذا تبت، وإذا رجعت، وإذا استغفرت، وإذا أقلعت، فإن لم تفعل.

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 50]

ما يُهلِكُ عامة المسلمين :

أيها الأخوة الكرام، هذه قاعدة رائعة، الكبائر إن ندمت على فعلها، واستغفرت الله منها، وأقلعت عنها غفرت لك، وكأنها لم تكن، والصغائر إذا أصررت عليها، وثبت عليها انقلبت إلى كبائر، لذلك في مجتمع المسلمين الآن ـ وهذا من نعم الله علينا ـ الذي يقتل، والذي يزني، والذي يسرق، والذي يشرب الخمر نسبهم قليلة، أنا أقصد عند المسلمين، وعند المؤمنين، وعند رواد المساجد، هذه الكبائر لا يفعلونها، حسناً ما الذي يهلك عامة المسلمين؟ هنا يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم، ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

[الترغيب والترهيب عن سليمان بن عمرو عن أبيه]

يعني الاختلاط، هي مثل أختي، ونحن لا نقيم عازلاً بين الرجال والنساء، نحن أهل، فالشعور أننا أهل ولا مانع من الاختلاط مشكلة كبيرة، هذه لو أصررنا عليها انقلبت إلى كبائر، وحجبتنا عن الله. فالاختلاط يبدو عند الناس صغيرة، وما داموا قد أصروا عليه انقلب إلى كبيرة، أن تملأ عينيك من محاسن امرأة لا تحل لك، تظن أنها صغيرة، أما إذا أصررت عليها انقلبت إلى كبيرة. لذلك ما الذي يهلك عامة المسلمين؟ لا تهلكهم الكبائر، لأن معظمهم لا يفعلونها، تهلكهم الصغائر حينما يصرون عليها، تجد نمط المسلم نمطاً في بيته مئة معصية؛ بعلاقته مع زوجته، مع بناته، بخروج بناته، بكسب ماله، بإنفاق ماله، بحديثه، يظن أنه لا يفعل شيئاً، أنا لا أسرق، هو يظن أنه ناج، لأنه ترك الكبائر، لكن هذه الصغائر التي أصر عليها، ولم يعبأ بها، ورآها شيئاً طبيعياً، كان هلاكه من قِبَلها، وأوضح مثل هذا المسجد بأنواره، ومراوحه، وتكييفه، وكل أجهزة الكهرباء فيه لو قطعت التيار عنه ميليمتراً تعطل كل شيء، لو باعدنا بين التيارين متراً المحصلة انقطاع التيار، فالمتر كالميليمتر، حدث انقطاع، ووقع الحجاب، فلذلك كأني أضع يدي على مشكلة المسلمين، فإن الذي أهلكهم الصغائر،

((مما تحقرون من أعمالكم))

أما إذا لم يكن ثمة وقوع في الصغائر فلا بد من الاتصال بالله في أعلى درجة، ومن خط مفتوح بينك وبين الله، أما إذا تساهلت في الصغائر حجبتك هذه الصغائر عن أن تتصل بالله عز وجل، احفظوا هذا الحديث،

((لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار))

الصغيرة إذا أصررت عليها انقلبت إلى كبيرة، والكبيرة إذا استغفرت الله منها انقلبت إلى صغيرة، وتلاشت.

بعض من الكبائر :

من هذه الكبائر أن تعبد غير الله:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

[سورة الحج: 30]

من هذه الكبائر:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

[سورة المائدة: 90]

من الكبائر:

(وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

[سورة الحج: 30]

أن تدليَ بشهادة باطلة تقتطع بها حق امرئ مسلم، من الكبائر شاهد الزور يرتكب كبيرة، قال القاضي لشاهد زور: احلف، طلب ممن كلفه بالحلف خمس آلاف ليرة، دخل المحكمة، قال له القاضي: احلف، وجد أمامه المصحف، فقال له: أريد عشرة آلاف، لأن ثمة يميناً، هذا شاهد زور، كبيرة جداً:

(وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

[سورة النحل: 36]

هؤلاء الأقوياء هم في الأعم الأغلب أغنياء، فالذي يحتفل بهم، ويعظمهم من أجل أن يأخذ مما عندهم، أو أن يتقي شرهم، وينسى الله عز وجل، أن تتضعضع لغني، أن تعظم إنسان قوياً تخافه، وترجو ما عنده عن طريق معصية الله عز وجل هذه كبيرة أيضاً.

كل إنسان يأمن مكر الله يقترف أكبر الكبائر :

قال تعالى:

(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)

[سورة المائدة: 72]

الشرك من أكبر الكبائر، قول الزور من أكبر الكبائر، الكذب من الكبائر، الزنى من الكبائر، أن تيئس من روح الله، أن تقول: المسلمون انتهوا، أن ترى أن الكافر القوي سوف يدمرهم، وسوف يسحقهم، ولن تقوم لهم قائمة، حينما تيئس من رحمة الله، ومن أن الله سينصر عباده المؤمنين، اليأس من رحمة الله كبيرة، بل هي من أكبر الكبائر، ثم أن تأمن مكر الله، أن تقتل، لا سمح الله ولا قدر، وأن تأخذ الأموال الحرام، وأن تستعلي على خلق الله، وألا تدخل الله في حساباتك إطلاقاً، هذا

من الكبائر، تجد الشخص يكيد، ويدمر، ويسلب أموال الناس، يسحقهم، يفتري عليهم لا يعبأ، لا يفكر أن هناك يوماً يحاسب فيه.

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

قال فرعون.

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

هؤلاء الذين يتحركون ليبالغوا في الإساءة لخلق الله عز وجل يرتكبون أكبر الكبائر.

(فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة الأعراف: 99]

صحفي ذكرتها لكم اقترح أن تضرب الكعبة في موسم الحج رداً على ضرب الأبنية في أمريكا، هذا الصحفي دخل إلى مستشفى مشلولاً، والطبيب سوري، أمن مكر الله، وكل إنسان يأمن مكر الله يقترف أكبر الكبائر.

أمثلة أخرى عن الكبائر :

قال:

(وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً)

[سورة مريم: 32]

عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، ورد في الأثر: ليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يغفر له، هذه الأم التي جعل الله قلبها آية من آياته الدالة على عظمته بذلت لك كل شيء، أنت تقابلها بكفر النعمة، بالعقوق.

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا)

[سورة النساء: 93]

أن تقتل مؤمناً متعمداً فأنت في جهنم إلى أبد الآبدين، من أكبر الكبائر.

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة النور: 23]

أن تفتري على امرأة شريفة طاهرة، أن تشيع عنها فاحشة هي بريئة منها، وقد ورد في الأثر:

((قذف محصنةٍ يهدم عمل مئة سنة))

[ورد في الأثر]

امرأة بريئة طاهرة، تفتري عليها كي يطلقها زوجها، تفتري عليها كي تأخذ من مالها، تبتزها، لذلك من الكبائر قذف المحصنات، هذا الذي يقذف المحصنات لا تقبل له شهادة أبداً، ويجلد ثمانين

جلدة، وثمة قصة تروى؛ أن امرأة تغسل ميتاً من النساء، لعلها اتهمتها في نفسها بالزنى، فلصقت يدها بجسمها في عهد الإمام مالك، فقال: اجلدوها ثمانين جلدة، في الجلدة الثمانين فكت يدها منها.

أكل مال الربا والفرار من الزحف من أكبر الكبائر :

قال:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ)

[سورة البقرة: 275]

أكل مال الربا من الكبائر، لأنك إذا أكلت الربا جعلت المال يلد المال، وإذا ولد المال المالَ تجمعت الأموال في أيدي قليلة، وحرمت منها الكثرة الكثيرة، كل شقاء البشر من الفرق الهائل بين أناس قلة يملكون تسعين بالمئة من ثروات العالم، وبين الكثرة الكثيرة التي لا تملك إلا عشرة بالمئة، مشكلات الأرض الآن ما هي؟ فئة قليلة تملك ثروات الأرض تعيش في بحبوحة ما بعدها بحبوحة، لكن هؤلاء الذين أقلقوهم أذهبوا سعادتهم، لأنهم يبذلون حياتهم في سبيل الله عز وجل، أقلقوهم، الفرار من الزحف من أكبر الكبائر.

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة الأنفال: 16]

الفرار من الزحف من أكبر الكبائر.

أكل مال اليتيم والزنى وكتم الشهادة من الكبائر :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)

[سورة النساء: 10]

أكل مال اليتيم الذي ينبغي أن تنفعه، ينبغي إذا اتجرت بماله ألا تأخذ شيئاً، وإن كنت غنياً ينبغي أن تستعفف، وإن كنت فقيراً فخذ بالمعروف، والمعروف أجر المثل، أو حاجتك أيهما أقل، أما هذا الذي يأكل أموال اليتامى ظلماً:

(إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)

[سورة النساء: 10]

والزنى:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً)

[سورة الفرقان: 68 - 69]

والزنى من الكبائر، وكتم الشهادة من الكبائر.

(وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)

[سورة البقرة: 283]

ركب شخص مركبة، فوقع في حادث وقتل طفلاً، وأنت شاهد أن هذا الطفل قفز إلى أمام السائق، والسائق يمشي الهوينى، بسرعة نظامية معتدلة، ولم يخالف قوانين السير، طُلِبت إلى الشهادة فرفضت وأنت الشاهد الوحيد، يمكن أن يُتَّهم هذا السائق، وأن تُدمَّر حياته، إذا كتمت الشهادة كان كتمك هذا من الكبائر، لا أحد يشهد معك إذا ثمة مشكلة.

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

[سورة البقرة: 282]

الذي يأبى أن يشهد وقع في كبيرة.

إعانة الظالم على ظلمه والفتوى بخلاف ما تعلم من الكبائر أيضاً :

قال:

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ)

[سورة آل عمران: 77]

أي له مكانة دينية، أصدر فتوى إرضاء لجهة قوية، وهو يعتقد اعتقاداً جازماً أنها غير صحيحة، لذلك أحد علماء بلد إسلامي له شأن كبير، وكان يعتلي أعلى منصب ديني في بلده، وهو في النزع الأخير على فراش الموت رفع يديه إلى السماء، وقال: يا رب أنا بريء من كل فتوى أفتيتها في المصارف، أنت حينما تفتي بخلاف ما تعلم إرضاء لقوي فقد ارتكبت أكبر الكبائر، وجعلت جسمك جسراً إلى جهنم، لذلك كلما كنت جباناً في الفتوى كنت أقرب إلى الله، فإياك أن تفتي:

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ)

[سورة آل عمران: 77]

من أعان ظالماً، ولو بشطر كلمة، والله عند بعض العلماء لو قدمت له ليوقع فقد شاركته في إثم هذا التوقيع، لو سألك: هل هذا صحيح؟ فقلت: نعم، لا بد أن تفعل هذا، وأنت لست مقتنعاً بهذا العمل إرضاء له، دخلت في إثم هذا الظلم.

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة آل عمران: 77]

الغلول وترك الصلاة من الكبائر :

من الكبائر:

(وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 161]

الغلول أن تأخذ شيئاً قبل توزيع الغنائم في الحرب، في السلم يموت الأب، ويترك ميراثاً، الأخ الأكبر يأخذ أشياء قبل تقسيم الإرث، السجادة من رائحة والدي، هذا غلول، الشيء الذي يأخذ قبل توزيع الإرث هو من الغلول، الغلول من الكبائر، (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ).

(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ)

[سورة المدثر: 42]

ما الذي أوصلكم إلى النار قالوا:

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ)

[سورة المدثر: 43]

ترك الصلاة من أكبر الكبائر.

الإنسان حينما يعصي الله يختل توازنه :

قال تعالى:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

[سورة البقرة: 27]

إنسان له مرجع ديني، والمرجع الديني واضح، سليم العقيدة، والتوجيه سليم، فأنت تسلية فقط سودت له هذا المرجع، فقطعته عنه، أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل هذا من الكبائر، شاب ملتزم بمسجد يغض بصره، يضبط لسانه، يصلي وقته، يصوم شهره، يقوم الليل، معجب بالمسجد، معجب بأخوانه المؤمنين، له قريب فاسق كذاب، يسوِّد له هذه المرجعية، فالشاب ترك الجامع وفلت، وتبع المعاصي والآثام، ماذا فعلت أنت؟ أنت قطعته عمن يجب أن يصل به:

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

[سورة البقرة: 27]

هناك أشخاص سبحان الله لا همَّ لهم إلا أن يهزوا هؤلاء المُثل عند أتباعهم، طبعاً بالباطل لا بالحق، ذلك أن الإنسان حينما يعصي الله يختل توازنه، ويستعيد هذا التوازن لو أطاع الله، ويستعيده لو التف بالطيبين الصادقين، فإذا عصى الإنسان الله عز وجل يختل توازنه، فحتى يرتاح لا يترك أحداً من شره، هذا كذاب، هذا دجال، هذا لا تصدقه، هذا يده غير نظيفة، هذا الله أعلم، دائماً يطعن، طعان قناص، هو يطعن ليرتاح، هو اختل توازنه، فكل صالح يطعن في صلاحه، كل مستقيم يطعن في استقامته، وكل ورع يطعن بورعه، لذلك الأنبياء ما نجوا من هذا.

(وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا)

[سورة الشعراء: 186]

تريد أن تتفضل علينا، أنبياء معصومون ومع ذلك ما نجوا من تهم أعداء الله عز وجل.

الكبائر بالاستغفار والتوبة تنقلب إلى صغائر والصغائر بالإصرار تنقلب إلى كبائر :

أيها الأخوة، الكبائر بالاستغفار والتوبة تنقلب إلى صغائر، والصغائر بالإصرار تنقلب إلى كبائر:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

هذه السيئات كلها التي ذكرتها توعد الله عليها بالنار أو باللعن.

(أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

[سورة البقرة: 159]

في السنة:

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا ، أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ))

[أبو داود عن أبي هريرة]

فكلمة (ليس منا) كلمة:

(أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

[سورة البقرة: 159]

(وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

[سورة النساء: 93]

الشيطان يزين للإنسان الكفر :

هذه كلها تشير إلى أن هذه المعصية كبيرة، وثمة معاص صغيرة، من فضل الله، ومن رحمته، ومن توبته على عباده أن الصلوات الخمس تكفر ما بينها، والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهما، طبعاً إذا اتقيت الكبائر، ورمضان إلى رمضان يكفر ما بينهما، فـ:

((كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون))

[أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أنس]

أي مخالفة بسيطة لم يقصدها، ولم يصر عليها، وتاب منها سريعاً، واستغفر الله، فإن الله غفور رحيم، وأكبر مشكلة يعانيها المسلمون أنهم محجوبون عن الله لا بكبائر يرتكبونها بل بصغائر أصروا عليها، كل الأجهزة معطلة، لا لمسافة قطع طويلة، بل لمسافة قطع صغيرة، لكن الجهاز تعطل، التيار انقطع فتوقف الجهاز، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم، ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

[الترغيب والترهيب عن سليمان بن عمرو عن أبيه]

بالمناسبة كنت أقول دائماً: الشيطان يزين لك الكفر، فإن رآك على إيمان يزين لك الشرك، فإن رآك على توحيد يزين لك البدعة، فإن رآك على سنة يزين لك الكبيرة، فإن رآك على طاعة يزين لك الصغيرة، فإن رآك على ورع بقي معه ورقتان رابحتان، يزين لك التحريش بين المؤمنين، لا ينجو أحد من لسانك، قناص، تتهم كل إنسان، لا تحسن الظن بإنسان، هذا من وسوسة الشيطان، فإن رآك على حذر بقيت معه ورقة رابحة؛ المباحات، تبالغ في المباحات حتى تشغلك عن طاعة الله وعن اليوم الآخر.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(16-69): تفسير الآية 32، خلق الذكر والأنثى وسؤال الله من فضله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-06-14

بسم الله الرحمن الرحيم

نهانا الله أن نتمنى في المستقبل ما فضَّل فيه بعضنا على بعض إراحة لنفوسنا :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الثانية والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

أيها الأخوة الكرام، في القرآن الكريم أمر ونهي، وكل أمر يقتضي الوجوب وكل نهي يقتضي الترك، كل نهي يقتضي الامتناع، فإنك كمؤمن بينك وبين الله عقد إيماني، هذا العقد الإيماني ينبغي أن تفعل إذا أمرت، وأن تنتهي إذا نهيت، هذه الآية مصدرة بلا الناهية، الله جل جلاله يقول:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا)

والتمني فعل متعلق بالمستقبل، التمني أن تتمنى شيئاً لا يقع، بينما الترقب أن تنتظر شيئاً يقع، إذا قلت: ألا ليت الشباب يعود يوماً، فهذا تمنٍّ، والتمني كما يقول بعض الحكماء بضائع الحمقى، تعيش في خيالات، وفي أوهام لا تقع، فالله سبحانه وتعالى تطيباً لقلوبنا وإراحة لنفوسنا نهانا أن نتمنى في المستقبل ما فضَّل فيه بعضنا على بعض.

الحقيقة أيها الأخوة، أن الله سبحانه وتعالى خلق جنس البشر، وجنس البشر خُلِق على نوعين؛ ذكر وأنثى، وللذكر أفراد، وللأنثى أفراد، صار هناك جنس، ونوع، وأفراد، فالجنس البشري مؤلف من نوعين؛ ذكر وأنثى، مشكلة الحضارة الحديثة أنهم أرادوا إزالة الفروق كلياً بين النوعين، فالمجتمع في فساد خطير، حينما تزول الفوارق بين الذكر والأنثى فهناك فساد عريض، الحقيقة أن أصل التصميم الإلهي أن الإنسان ذكر وأنثى، وأن لكل من الذكر والأنثى خصائص عقلية، ونفسية، واجتماعية، وجسمية، ينفرد بها كل طرف، لكنهما يجتمعان في أن الأنثى والذكر كائنان مكرمان عند الله، كائنان مخيران، كائنان مسؤولان، كائنان مشرَّفان، فحينما أقول الجنس البشري ذكر وأنثى فهناك قواسم مشتركة بينهما وهناك فوارق.

القواسم المشتركة بين الذكر والأنثى أكدتها آيات كثيرة :

القواسم المشتركة أكدتها آيات كثيرة.

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ)

[سورة الأحزاب: 35]

كلاهما في التكليف، وفي التشريف، وفي المسؤولية سواء، المرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعايته، والرجل راع في بيته، ومسؤول عن رعيته، فنقاط الاشتراك كثيرة جداً، هي من بني البشر، هي إنسان، لها فكرها، ولها مشاعرها، ولها عواطفها، يؤذيها ما يؤذيك، ويفرحها ما يفرحك، ترقى إلى الله كما ترقى أنت إلى الله، تسمو كما تسمو، وتسقط كما تسقط، وتنحط كما تنحط، هناك قواسم مشتركة بين الذكر والأنثى لأنهما من جنس واحد، من جنس البشر.

(خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)

[سورة الروم: 21]

من جنسكم، من جنس بشريتكم، إنسان.

الله سبحانه وتعالى أعطى لكل نوع الخصائص التي تعينه على أداء مهمته :

لكن:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

أنت حينما تتجاهل ما تتميز به الأنثى وقعت في خطأ كبير، وحينما تتجاهل ما يتميز به الرجل وقعت في خطأ كبير، فلذلك ورد في أسباب نزول هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى حينما فرض الفرائض، وفرض للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى النساء أن يكون لهم في الإرث نصيب كنصيب الرجل، وحينما فرض للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى الرجال أن يكون أجرهم في الآخرة مثلي أجر المرأة، فجاءت الآية الكريمة:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

المنطلق أن الله سبحانه وتعالى أعطى لكل نوع الخصائص التي تعينه على أداء مهمته، ففي أصل التصميم صممت المرأة لتكون أماً، ولتكون زوجة أعطيت من الخصائص الجسمية والخصائص النفسية وهي شدة عاطفتها، ومن الخصائص الاجتماعية تعلقها بزوجها، ومن الخصائص الفكرية اعتنائها بالجزئيات ما يؤهلها لتكون زوجة ناجحة، وأماً ناجحة، فهذه الخصائص التي اختص بها الله النساء كجنس بنيت على حكمة بالغة، وعلى خبرة لا نهائية، وعلى علم كبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

وتلك الخصائص التي خصها الله للذكور من اهتمام بالكليات لا بالجزئيات، ومن خصائص جسمية، ونفسية، واجتماعية، وعقلية تتناسب مع كسب الرزق، ومع الحركة خارج البيت.

المرأة سكن لزوجها والرجل قائد لمؤسسة البيت :

في الآية الكريمة:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

[سورة الليل: 1]

الليل من خصائصه السكون والهدوء، وأنه يحجب كل شيء.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)

[سورة الليل: 1 - 2]

ومن خصائص النهار الحركة والضياء، ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

[سورة الليل: 3]

هناك إشارة لطيفة إلى أن الرجل عمله خارج البيت، عمله كسب الرزق، وأن المرأة مهمتها الأولى تربية الأولاد، هي سكن لزوجها، وهو قائد لمؤسسة البيت، هناك تناغم وتكامل بينهما، وقد ورد هذا المعنى في قصة المرأة التي اشتكت زوجها إلى الله، فقال الله عز وجل:

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)

[سورة المجادلة: 1]

قالت: يا رسول الله إن زوجاً تزوجني وأنا شابة ذات أهل ومال وجمال، فلما كبرت سني، وتفرق أهلي، ونثر بطني، وذهب مالي قال لي: أنتِ عليّ كظهر أمي، ولي منه أولاد؛ إن تركتهم إليه ضاعوا؛ أنا أربيهم، وإن ضممتهم إلي جاعوا؛ هو ينفق عليهم، هذه المرأة الصحابية وضحت أن للرجل والمرأة تكاملاً فيما بينهما، فيا أيها الأخوة، الحضارة الغربية تريد أن تلغي الفوارق بين الذكور والإناث، أي حينما تختلط المرأة مع الرجل في العمل، وحينما لا تكون ملتزمة في ثوبها، وفي حجابها، ينشأ عن هذا الاختلاط وهذا التواصل فساد لا يعلمه إلا الله، لأننا خرجنا عن منهج الله عز وجل، فلذلك الله جل جلاله يقول: (وَلاَ تَتَمَنَّوْا)، هناك صفات إنسانية مشتركة بين الذكور والإناث، كلاهما مُكرَّم عند الله، وكلاهما مُشرَّف عند الله، وكلاهما مُكلَّف عند الله، وكلاهما مسؤول أمام الله.

المرأة مستقلة في دينها عن زوجها ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

لحكمة أرادها الله جعل امرأة فرعون الطاغية الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 1]

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

جعل امرأة هذا الطاغية صدّيقة، آسيا امرأة فرعون بكل ثقله، وكل جبروته، وكل قوته، وكل ألوهيته المزعومة ما استطاع أن يقنعها أن تعبده، ولا أن تقر بألوهيته المزعومة، قالت:

(رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم: 11]

ماذا أراد الله من هذه القصة أن يعلم النساء جميعاً أن المرأة مستقلة في دينها عن زوجها، تُحاسَب عن دينها، ولتعلم أيضاً أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فلذلك معظم النساء حينما يقلن: هكذا يريد أزواجنا، إن شاء الله هذا في رقبتهم، هذا كلام مرفوض، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، هي مكرمة كما هو مكرم، مشرفة كما هو مشرف، مكلفة كما هو مكلف، مسؤولة كما هو مسؤول، هذه نقاط الالتقاء، أما نقاط الاختلاف فإذا تجاهلناها وقعنا في فساد عريض، وقع تحت يدي كتاب عنوانه (عمل المرأة في الميزان)، هذا الكتاب ليس من مؤلفه كلمة، ولا كلمة إلا أن مؤلفه جمع إحصاءات في العالم الغربي عن الفساد العريض الذي يحصل حينما تكون المرأة مع الرجل في العمل، ولا يكون عند الطرفين الإيمان الرادع.

هناك فروق دقيقة جداً وكثيرة جداً بين الذكور والإناث :

إذاً حينما قال الله عز وجل:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

[سورة الأحزاب: 33]

الأصل أن المرأة تقوم بأخطر عمل أناطه الله بها، حينما تقرُّ في بيتها لتربية الأولاد، المرأة التي تربي أولادها، وتدفعهم إلى المجتمع عناصر ملتزمة مخلصة واعية هي امرأة بطلة، لأن شهاداتها الحقيقية ليست تلك الأوراق التي تعلق على الجدران، إن شهاداتها الحقيقية أولادها الذين ربتهم، ودفعتهم إلى المجتمع، وكثيراً ما نعثر على شباب يلفتون النظر بأخلاقهم، ويلفتون النظر برحمتهم، ويلفتون النظر بتعاونهم، ويلفتون النظر بحبهم للخير، لو دققنا وبحثنا لوجدنا أنهم تلقوا تربية عالية من أمهاتهم، إنك إن علّمت فتاة علّمت أسرة، فيا أيها الأخوة الكرام، المرأة والرجل كلاهما مُكلَّف،

وكلاهما مُشرَّف، وكلاهما مسؤول، ولكن هناك فروق دقيقة جداً، وكثيرة جداً بين الذكور والإناث، خصائص الذكور نبدأ بالجسمية والعقلية والاجتماعية والنفسية تتناسب مع المهمة التي أنيطت بهم، وخصائص الإناث العقلية والجسمية والاجتماعية والنفسية تتناسب مع المهمات التي أنيطت بهن.

حينما كنا في الجامعة درسنا كتاباً لمؤلف فرنسي عن الفروق الدقيقة بين الذكور والإناث، والكتاب يقع في ثمانمئة صفحة، القدرة على الحفظ، كيف هي في الرجال، وكيف هي في النساء، القدرة على الخطابة، القدرة على التأمل، القدرة على التحليل، القدرة على استيعاب المواد مادةً مادة، الفتيات يتفوقن في التاريخ، في الجغرافية، وقد يتخلفن عن الذكور في الرياضيات وبعض المواد المجردة، على كلٍ الكتاب ممتع جداً، وهو مترجم إذا قرأته من دفته إلى دفته، ثم قرأت قوله تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

لا تملك إلا أن تخر لله ساجداً، لأن القرآن ذكر آية خطيرة، هذا الكتاب ترجمة هذه الآية، فأي مجتمع، وأي نظام، وأي ترتيب يتجاهل الفروق بين المرأة والرجل، هذا نظام يقع في إشكال كبير، وفي فساد عريض.

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

الإنسان مُخيَّر فيما كُلِّف ومُسيَّر في أشياء كثيرة :

شيء آخر: طبعاً بدأت بالفرق بين الذكور والإناث، ولكن لو أخذ الذكور وحدهم، كما يقال: إنسان ساقته الأقدار ليكون معلماً، وإنسان ساقته الأقدار ليكون تاجراً، وإنسان ليكون مهندساً، فهذه الحرف، وتلك الدخول، وهذه الخصائص التي خصك الله بها، لو كشف لك الغيب ما تمنيت غير ذلك، لذلك قالوا: لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، فأنت مخير، وأنت مسير، أنت مخير فيما كلفت ومسير في أشياء كثيرة، إنك مسير في والديك، من منا اختار والديه، ولا أحد، أنت مسير في زمن ولادتك، نحن جئنا في هذا القرن، لو جئنا قبل خمسة قرون لكان حالنا حالاً آخر، أنت مسير في البلد الذي ولدت فيه، لو جئنا في مجاهل أفريقيا، أو في أستراليا، أو في أمريكا، لكان لنا حال آخر، إذاً أنت مسير في أمك وأبيك، مسير في مكان ولادتك، مسير في زمن ولادتك، ثم إنك مسير في شكلك، من منا اختار شكله، مسير في قدراتك، هذا ألمعي، وهذا أقل ذكاء، وهذا محدود، وهذا فيه ضعف فكري شديد، وهذا قوي البنية، وهذا عليل الصحة، وهذا يتمتع بذاكرة قوية، وهذا يتمتع بطلاقة لسان، وهذا يتمتع بقدرة على الخطابة، فهناك آلاف القدرات، كل واحد منا خصه الله ببعض هذه القدرات، هذا يسوقنا في التوحيد إلى حقيقة مهمة جداً، وكلمة حظوظ مصطلح، يعني أنت لك حظ من الوسامة، لك حظ من الذكاء، لك حظ من الصحة، لك حظ من الإرث، إنسان يولد من أبويين فقيرين، وإنسان يولد من ابن ملك، طبعاً ليس هذا من كسبه، وليس ذاك من كسبه، إرثك،

وخصائصك، وقدراتك، وشكلك، وإمكانياتك، واستعداداتك هذه أيضاً أنت مسير فيها، ولكن ينبغي أن تعلم علم اليقين أن هذا الذي سُيِّرت فيه لصالحك مئة في المئة، ولو كشف الغطاء ما اخترت إلا الواقع، وهذا معنى قول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: " ليس في الإمكان أبدع مما كان"، أو ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، لذلك نقول: توزيع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، لو أن إنسانين لهما عمر واحد، أحدهما يملك الملايين المملينة، والثاني لا يملك القروش، اختلفا في حظ المال، حظ المال امتحان من الله، فالغني امتحن بغناه، والفقير امتحن بفقره، فرضاً لو أن الفقير نجح في امتحان الفقر فكان صابراً محتسباً متجملاً عفيفاً، ولو أن الغني امتحن في امتحان الغنى فلم ينجح، وعاشا ثمانين عاماً، الفقير يتلوى من الجوع، لكنه صبر، والثاني يتلوى من التخمة، لكنه كفر، ثم انقلبا إلى الآخرة، فالفقير في الجنة إلى أبد الآبدين، وهذا الغني الذي لم ينجح في امتحان الغنى في جنهم إلى أبد الآبدين، فمن هو الرابح الحقيقي؟ هذه الدنيا دنيا الصور، لهذا قال الله عز وجل حينما وصف الدار الآخرة بأنها خافضة رافعة.

((رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره))

[رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة]

في الآخرة.

((ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة))

[رواه ابن سعد البيهقي في شعب الإيمان عن أبي البجير]

العبرة للمستقبل الأبدي والخسارة الحقيقة هي خسارة الأبد.

الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء و في الآخرة توزيع جزاء :

أيها الأخوة الكرام:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، قصة أرويها لكم فيها موعظة بالغة إن شاء الله؛ دخلت إلى أحد البيوت، وكان بيت من أرقى البيوت، قال لي صاحب البيت: هذا البيت مساحته أربعمئة متر، قلت له: بارك الله به، شي جميل، قال لي: وهذا البلاط استوردته خصيصاً من إيطاليا، قال لي: بالشحن الجوي شي جميل، وهذا الأثاث مستورد، وهذه اللوحة ثمنها كذا، وهذا الثريا، حتى أطنب إطناباً لا حدود له في الحديث عن بيته، وعن كسوة بيته، وعن أثاث بيته، فخطر لي أن أذكره بآية قرآنية، قلت له: ما قولك لو وازنَّا بين هذا البيت وبيت يقع في أطراف المدينة تحت الأرض بلا طلاء، وبلا مرافق، وهو صغير، قال لي: لا نسبة بينهما، وازنا بين بيتين، بيت لا يزيد ثمنه عن مئة ألف، وبيت لا يقل ثمنه عن خمسين مليوناً، لا قياس

بينهما، وازن بين طبيب جراح، كل عمل جراحي يتقاضى عليه مبلغاً كبيراً، وبين ممرض مبتدئ مهمته تنظيف المرضى المقعدين، كلاهما في الطب، لكن هذا ممرض، وذاك طبيب جراح، وازن بين أستاذ في الجامعة يحتل أعلى مكانة، وله دخل كبير، ومعلم ابتدائي في قرية، وزان بين رئيس غرفة التجارة، وبين بائع متجول في الأسواق يخاف من الشرطة، وازن بين رتبة عسكرية عالية جداً في مكتب فخم مكيف، عدة سيارات على الباب، وبين جندي في خدمة إلزامية في الخط الأول في الشتاء في حفرة كلها ماء مثلاً، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

مسافة كبيرة.

مراتب الدنيا مؤقتة أما مراتب الآخرة فأبدية :

قال تعالى:

(وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 21]

مراتب الدنيا أيها الأخوة لا تعني شيئاً، لأنها مؤقتة، بل تعني العكس، في ثماني آيات هؤلاء الذي أترفوا هم الكفار، كفروا وأترفناهم في الحياة الدنيا، الله عز وجل قرن بين الترف وبين الكفر، قلت له: مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، وقد تعني العكس، مراتب الدنيا مؤقتة، وليست أبدية، بينما مراتب الآخرة أبدية.

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر: 48]

أما لو اعتنى أحدنا بالبيت عناية تفوق حد الخيال فلا بد أن يخرج منه أفقياً، ولو كان ثمنُ بيتك مئة مليون، في أحد الأيام يخرج المرء من بيته هكذا (أفقياً) ولن يعود، ألم تدخل إلى بيوت فخمة جداً لتعزي أصحابها؟ هم الذي بنوها، وزينوها، وفرشوها، أين هم الآن؟ في القبور، فلذلك مراتب الآخرة تعني كل شيء، مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، مراتب الدنيا مؤقتة، مراتب الآخرة أبدية:

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر: 48]

الآن دعونا من الفرق بين النساء وبين الرجال، والذكور والإناث، فيما بين الرجال، فلان دخله كبير، لا تتمن أن يكون دخلك كدخله، ارضَ بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس، أنا لا أدعو إلى أن تجلس، وإلى أن تقعد، وإلى أن تتكاسل، اجتهد ما أمكنك الاجتهاد، حيث وصل بك الاجتهاد إلى هذا المكان فهذا أنسب مكان لك، لذلك قال بعض العارفين بالله، وهو ابن عطاء الله السكندري: ربما كان المنع عين العطاء، يقول: ربما كان المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.

الله تعالى أناط بكل جنس مهمات من أجل أن يحققوا أهدافهم بخصائص متعلقة بهم :

قال تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

أيها الأخوة الكرام، لا تتمنوا كما قال الله عز وجل ما فضل الله به بعضكم على بعض، الآن سبب هذا التفضيل إذا أعدناه إلى نوع الجنس نحن من جنس البشر، لكن نحن ذكور، وأخواتنا إناث، قال:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

فإن الله أناط بالذكور مهمات ومسؤوليات من أجل أن يحققوا أهدافهم بخصائص متعلقة بهم، أو أن لكل واحد بحسب استقامته، وبحسب إقباله، وبحسب انضباطه، وبحسب علاقته بربه هيأ الله له الشيء الذي يعد بحقه حكمة بالغة.

إن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه، ومن الناس من لا يتحمل الغنى، مقاومتهم هشة، لمجرد أن يتوافر المال بين أيديهم ينحرفون عن سواء السبيل، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، ولأن الله سبحانه وتعالى علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، أي أنت بهذا الحال مستقيم والحمد لله، ولكن لا أنا أعلم ولا أنت تعلم لو كنت في حال آخر كيف تكون، فكأن الله اختار لك أفضل شيء، وهذا معنى قول الإمام علي رضي الله عنه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، فيقيني بحكمة الله، وعدالة الله، ورحمة الله قبل كشف الغطاء كيقيني بعد كشف الغطاء.

لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال :

قال:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ)

أي لنوع الرجال:

(نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا)

تقول المرأة: أنا امرأة، طيب أنت أيتها المرأة الكريمة دينك بسيط:

((إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

من منكم يصدق أن الرجل أمامه مئة ألف امتحان، مئة طريقة لكسب المال محرمة ربما لا يعلمها، فهناك مسؤوليات منوطة بالرجل، وهناك مسؤوليات مناط للمرأة، فالإنسان لا يتمنى أن يكون من جنس آخر لذلك:

((لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء))

[أحمد في مسنده عن ابن عباس]

أن يقف أمام المرآة ساعات وساعات، وأن يتبختر في مشيته، وأن يتعطر، وأن يتكسر، هذا كله محرم:

((والمتشبهات من النساء بالرجال))

[أخرجه أحمد في مسنده عن ابن عباس]

المتشبه من الرجال بالنساء يتمنى أن يكون امرأة، والمتشبهة من النساء بالرجال تتمنى أن تكون رجلاً، بل إن المرأة الرجلة؛ أي المسترجلة، فعلها من أكبر الكبائر لأنها رفضت اختيار الله لها أن تكون أنثى، فالمرأة المؤمنة ترضى عن الله أنه اختارها أنثى، مع أن الأنثى لا تقل ولا شعرة واحدة في مكانتها عند الله عن الذكر.

بديل الحسد أن تسأل الله من فضله :

نحن تحدثنا عن الفرق بين الذكور وبين الإناث، ثم تحدثنا عن الفرق بين الذكور، لكن لو أنك تمنيت أن تكون مثلاً غنياً، وأنت لست كذلك، فهذا لا يمنع، قال:

(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)

لا تحسد بل تسأل، لا تحسد، الحسد جهل، والحاسد جاهل، الحاسد يتمنى أن يتحول الخير من أخيه إليه، هذا مستوى، في مستوى أشر، أن يتمنى أن يتحول الخير عن أخيه فقط دون أن يصل إليه، والمستوى الأشر من هذين المستويين، أن يسعى بجهده كي يذهب عن أخيه الخير، الحسود جاهل، والحسود عاصي لله، والحسود لا يعرف الله.

ألا قل لمن ظل لي حاسدا أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في حكمه إذا أنت لم ترض لي ما وهب

* * *

أما البطولة:

(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)

قال بعض الشعراء:

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

* * *

قم فسألن عن السبب:

الله يعطي من يشاء فقف على حد الأدب

* * *

هذا الذي أعطاه يعطيك، وهذا الذي أكرمه يكرمك، الإله الذي رفعه يرفعك، الإله الذي أغناه يغنيك، الإله الذي وفقه يوفقك، كن موحداً، تمنيت شيئاً على أخيك المؤمن لا مانع، بالمناسبة ليس من المحرم أن تتمنى من خيري الدنيا والآخرة، اللهم اجعل لي رزقاً حلالاً طيباً، اللهم ارزقني زوجة صالحة تسرني إن نظرت إليها، وتحفظني إن غبت عنها، وتطيعني إن أمرتها، ليس حراماً أن تتمنى من فضل الله في الدنيا والآخرة ولكن الحرام أن تتمنى أن يزول هذا الخير عن أخيك لضيق أفق منك أو لجهل منك.

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)

بديل الحسد أن تسأل الله من فضله.

الله موجود اسأله فيما بينك وبينه كما ورد في آيات قرآنية كثيرة :

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((يَنْزِلُ رَبّنَا كُلّ لَيْلَةٍ إلى السّمَاءِ الدّنْيَا حَتّى يَبْقى ثُلثُ اللّيْلِ الآخر، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلْنِي فأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فأَغْفِرَ لَه؟ حتى ينفجر الفجر))

[مسلم عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ]

الله موجود، اسأله فيما بينك وبينه، بل إن الله سبحانه وتعالى في أكثر من اثنتي عشرة آية جاءت على الشكل التالي:

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة البقرة: 219]

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

[سورة البقرة: 219]

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

[سورة البقرة: 222]

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

[سورة البقرة: 189]

اثنتا عشرة آية إلا آية واحدة.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

[سورة البقرة: 186]

ليس في هذه الآية كلمة "قل"، أي ليس بينك وبين الله حجاب، وليس بينك وبين الله وسيط، وليس بينك وبين الله إنسان، اسأله مباشرة.

محبة الله تعالى للملحين في الدعاء :

إن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، وإن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها، وإن الله يحب من عبده أن يسأله ملح طعامه، وإن الله يحب الملحين في الدعاء، ومن لا يدعني أغضب عليه. ليس بينك وبين الله حجاب، اسأل ربك حاجتك كلها، اسأله ملح طعامك، شسع نعلك، اسأله كل شيء، وليس بينك وبينه وسيط، وليس بينك وبينه إنسان، إذاً بديل الحسد والحقد والتآمر والكيد والعداوة والبغضاء:

(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)

أسأله الذي أعطاه يعطيك، والذي أكرمه يكرمك، والذي وفقه يوفقك:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

والله لا أنسى كلمة دخلت إلى أعماق أعماقي، سيدنا عمر التقى بسعد بن أبي وقاص، سيدنا سعد بن أبي وقاص له ميزتان، كان كلما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم يداعبه ويقول:

((هذا خالي فليرني امرؤ خاله))

[رواه الترمذي وحسنه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه]

وهو الصحابي الوحيد من بين أصحاب النبي الذي فداه النبي بأبيه وأمه، في إحدى المعارك قال له:

((ارم سعد فداك أبي وأمي))

[البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن علي رضي الله عنه]

هذا الصحابي التقى عمر بن الخطاب بعد وفاة النبي فقال له سيدنا عمر: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له، لا أحد أحسن من أحد، نتفاضل عند الله بطاعتنا فقط، أطع أكثر تكن أكرم على الله من أي إنسان آخر، حتى بأية جلسة:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

بديل الحسد أن تسأل الله من فضله.

الاختلاف على أنواع ثلاث :

قال تعالى:

(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

أيها الأخوة الكرام، الشيء الدقيق في هذه الآية أن متاعب الناس؛ العداوة، البغضاء، الحسد، الحسد فتت قلوبهم بجلسة كلها غيبة ونميمة، كلها حسد، بل إن الاختلاف على أنواع ثلاث.

1 ـ اختلاف أساسه نقص المعلومات وهذا اختلاف طبيعي :

اختلاف أساسه نقص المعلومات، هذا اختلاف طبيعي، لا فيه إثم، ولا فيه ثواب، أوضح مثل له سمعنا إطلاق مدفع، غداً العيد، يا ترى هذا مدفع العيد، لقد ثبت أن العيد غداً، الله أعلم، وقد يكون تفجيراً بالجبل، اختلفنا، سبب الخلاف نقص المعلومات، استمعنا في الأخبار أنه ثبت لدى القاضي الشرعي غداً أول أيام عيد الفطر، معنى ذلك هذا مدفع العيد.

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)

[سورة يونس: 19]

(فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ)

[سورة البقرة: 213]

اختلفوا لنقص معلوماتهم، جاء الأنبياء، وحسموا الخلاف، الخلاف الأول اختلاف طبيعي، سببه نقص المعلومات، فإذا جاء الوحي من السماء حسم الأمر.

2 ـ اختلاف الحسد والبغضاء وهذا اختلاف قذر :

اختلاف الحسد والبغضاء، وهذا اختلاف قذر، اختلاف الحسد والبغضاء، بكل أسف المسلمون بينهم تسعة وتسعون بالمئة قواسم مشتركة، ادخل أي جامع في الأرض تسمع: قال الله تعالى، قال رسول الله، ومع ذلك يتقاتلون وبينهم تسعة وتسعون بالمئة قواسم مشتركة، أعداء المسلمين يتعاونون وبينهم خمسة بالمئة فقط قواسم مشتركة، أليس هذا الاختلاف بين المسلمين وصمة عار بحقهم؟ فلذلك الاختلاف الثاني اختلاف الحسد والبغي، قال تعالى:

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران: 19]

اختلاف أساسه الحسد، أكثر ما يقوم به مشادات بين الناس موضوع تأكيد للذات، أي أخوك تكلم يجب أن انتقده، يجب أن أسفهه غير صحيح ليس لهذه الدرجة، هذا شيء غير صحيح، فحينما يقصد الإنسان أن يؤكد ذاته على حساب مكانة أخيه إذاً هذا اختلاف الحسد.

3 ـ اختلاف التنافس وهذا اختلاف محمود :

وهناك اختلاف محمود اختلاف التنافس، قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

إنسان رأى أن أفضل شيء تأليف القلوب بدعوة مباشرة، وإنسان رأى أن أفضل شيء تأليف الكتب، إنسان رأى بناء المساجد، إنسان رأى تأسيس جمعيات خيرية، نحن نختلف هنا في وجهات النظر، لكن هذا الاختلاف محمود لأنه رحمة، كل واحد أخذ خطاً وسار فيه.

أيها الأخوة الكرام، إن شاء الله في الدرس القادم نتابع الآيات التي تلي هذه الآية.

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(17-69): تفسير الآيتان 33 – 34، درجة القوامة والمرأة الصالحة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-06-21

بسم الله الرحمن الرحيم

النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نتآخى اثنين اثنين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الثالثة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً)

الموالي جمع مولى، والمولى في هذه الآية الذي واليته في ظرف استثنائي، المولى في اللغة العبد، أو السيد، وهو من ألفاظ التضاد، كأن تقول: شرى، باع أو اشترى، تقول يا مولاي، تخاطب الله عز وجل، وتقول لعبدك: يا مولاي، أي أنت مولاي بمعنى أنه مملك لك، لكن هنا حينما قدم النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، آخى أصحابه اثنين اثنين، هذه المؤاخاة تعني علاقات متينة جداً، تعني أن هذا الأخ مع هذا الأخ يتعاونان، يتناصحان، يتناصران، سلمهم واحدة، حربهم واحدة، يتوارثان، يتوارثان في مرحلة محددة، لذلك بعضهم قال: هذا هو الفقه الاستثنائي، فالله عز وجل يقول:

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ)

يعني كل واحد منكم أيها المؤمنون جعل له مولى، أي أخاً في الله، وأنا أتمنى على كل أخ كريم في هذا المسجد أن يوالي أخاً، الحد الأدنى أن يتفقد حضوره، ما أروع أن يتصل بك أخ كريم يقول لك: لم تكن في هذا الدرس، نحن قلقون عليك، الأمور إن شاء الله صحيحة، تتفقده، تزوره، يزورك، تنصحه، ينصحك، تقرضه، يقرضك، تستشيره، يستشيرك، تأخذ بيده، يأخذ بيدك، النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نتآخى اثنين اثنين، هكذا فعل النبي الكريم، لو أن الواحد منكم آخى مؤمناً فهو مسؤول عنه، مسؤول عن وضعه، يا ترى وضعه الصحي جيد، لعلك تعرف طبيباً له اختصاص بارع في مشكلته الصحية، يا ترى هو متزوج، عنده مشكلة عائلية، عنده مشكلة اجتماعية، عنده مشكلة مالية، هذا هو الإيمان، أن يتولى كل واحد منكم أخاه، فهذا منهج من منهج النبي عليه الصلاة والسلام.

الأخوان في عهد النبي يتوارثان وهذا حكم استثنائي :

حينما قدم النبي المدينة آخى بين أصحابه، آخى أنصارياً مع مهاجر، لكن هذه المؤاخاة بلغت إلى درجة أن الأنصاري يقول لأخيه المهاجر: عندي بيتان خذ أحدهما، وعندي دكانان خذ أحدهما، وعندي بستانان خذ أحدهما، إلى هنا فقط، فصار الأخوان في الله يتعاونان، يتناصران، يتناصحان، يتباذلان، يتزاوران، يتحابان في الله، هناك حكم استثنائي؛ كان الأخوان في عهد النبي يتوارثان، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ)

أي ينبغي أن تعطوا هذا الولي حصته من الميراث وكانت السدس، إلا أن هذا الحكم نسخ في آية كريمة:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ)

[سورة الأنفال: 75]

هذا حكم استثنائي، كيف أن قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

[سورة النساء: 43]

هذا حكم استثنائي، ثم حرمت الخمر كلياً، لا بين الصلوات، ولا في أثناء الصلاة.

أصل كلمة (قوّام) :

قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً)

هذا يعني أن المسلمين عند شروطهم، أنت حينما تتفق مع أخ على شرط وفق كتاب الله ينبغي أن تنفذه قال:

(فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً)

أيها الأخوة، ثم ننتقل إلى الآية التي تليها، وهذه الآية أصل في العلاقات الزوجية الله عز وجل يقول:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

قوامون مفردها قوّام، وقوّام صيغة مبالغة، لا نقول قائم: بل قوّام، مثلاً الذي يغفر مرة واحدة اسمه غافر، أما الذي يغفر الذنوب الكثيرة اسمه غفّار، على وزن فعّال، فهذه صيغة مبالغة، قوّامون فهو قائم دائماً على هذه الأسرة ليلاً ونهاراً، يسعى لتأمين رزقها، ويسعى لصيانة زوجته وأولاده من كل

خلل، يصون علمهم، يصون أخلاقهم، يصون تربيتهم، يصون أولاده، كلمة قوّام تعني أنه لا يستريح أبداً، وثمة نقطة دقيقة أشار إليها الخليفة عمر رضي الله عنه حينما قال: لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً، الحقيقة بالمفهوم الإسلامي الصحيح الأب رب الأسرة، ليس خيراً من أحد أفراد أسرته، لكنه أثقلهم حملاً، ينبغي أن يسعى لكسب رزق حلال، وما أصعب تحصيل الرزق الحلال، وينبغي أن يعود إلى البيت، وأن ينتبه إلى زوجته وإلى أولاده، إلى صحتهم، وإلى علمهم وتحصيلهم، وإلى تربيتهم، وإلى أخلاقهم، وإلى دينهم، وإلى صلاتهم، هذا الأب في الأساس، الأبوة مسؤولية كبيرة جداً.

الفهم الخاطئ لكلمة (قوامة) :

حينما يقول الله عز وجل:

(الرِّجَالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

أي هم يتعبون بلا كلل وبلا ملل بشتى الاتجاهات في كسب الرزق، وفي مراقبة الأسرة، وفي صون الأخلاق، وفي ترسيخ القيم، وفي متابعة تحصيل الأولاد، وفي العناية بالزوجة، كلمة قوّام تعني شديد القيام، لا يرتاح إلا إذا رأى أولاده في أعلى مقام، لا يرتاح إلا إذا رأى زوجته قد عرفت ربها، واستقامت إليه، هذا معنى القوامة، لكن مع الأسف الشديد هناك من يفهم القوامة أنه أعلى منها، يستطيع أن يذلها، يستطيع أن يطلقها، يستطيع أن يستخدمها، يستطيع أن يستهين بها، ليست هذه القوامة إطلاقاً، ولأن المسلمين فهموا القوامة استعلاء، وفهموها تعسفاً، وقهراً، وإذلالاً، واحتقاراً، لذلك خرجت المرأة عن الطوق، وكالت للزوج الصاع صاعين، القوامة رحمة، القوامة علم، القوامة بذل جهد كبير، القوامة سهر على مصالح الأسرة، القوامة قلق على مصير الأبناء، القوامة بذل الجهد، والوقت، والمال، والعلم للأولاد، إذا فهم الأزواج القوامة هكذا كانوا في أعلى مرتبة في أسرتهم، أما إذا فهم الأزواج أن القوامة استمتاع بالزوجة، واستعلاء عليها، وأن يجلس، ويرتاح، وهي تعمل، ولا سيما في بعض المناطق، وهو لا يعمل شيئاً، هي تذهب، وهي تعمل، وهي تجهد، وهي تحصد، وهي تحلب الحليب، وهو مرتاح في البيت، ليست هذه هي القوامة:

(الرِّجَالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

قد يفهم أحدنا أن القوامة قوامة الزوج على زوجته، لا، قوامة الزوج على زوجته، وقوامة الأب على أولاده، وقوامة الأخ الأكبر على أخواته، وقوامة أي مؤمن على من أناطهم الله بهم، لك إخوة صغار، أنت قيوم عليهم، لك أخوات عوانس أنت قيوم عليهن، ينبغي أن ترعاهن، أن تكرمهن، كي يتقربوا إلى الله عز وجل، هذه القوامة لا تعني قوامة الرجل على زوجته فحسب، بل تعني قوامته على من أناطهم الله به، على أخوته الصغار، وعلى أخواته البنات، على أخواته الكبار، على من أناطه الله به.

وجود صاحب قرار في كل مؤسسة مهما كانت صغيرة أمر ضروري :

قال:

(الرِّجَالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

كرامة كل من في المركبة في مستوى واحد، لكن لا بد لها من قائد، الكرامة واحدة، انظر إلى أسرة نموذجية، الأب في عمله، والأم تطبخ الطعام، والابن يأتي بالأغراض من السوق، والبنت تنظف البيت، وفي الساعة الثانية ظهراً الأربعة على مائدة واحدة، وفي مكانة واحدة، وفي كرامة واحدة، وفي محبة متبادلة، وفي إخلاص فيما بينهم، توزيع الأدوار لا يعني انتقاص الإنسان من كرامته، البيت المسلم؛ الزوجة، والابن، والبنت، والأخت، إن كانت في البيت فهي كرامة واحدة، لكن كل واحد له دور، فإذا أناط الله القيادة بإنسان في هذه الأسرة فينبغي أن يطاع، فلا بد في كل مؤسسة، في كل مركبة، في كل عمل، من صاحب قرار، والله سبحانه وتعالى جعل الزوج صاحب قرار، قد نكون في ثكنة عسكرية فيها رتب كثيرة، وفيها رتبتان متساويتان تماماً، فلا بد من أحد الرتبتين أن يكون قائداً لهذه السرية، أبداً، نبحث عن القدم عندئذٍ، قد يكون رتبتان متشابهتان، لكن لا بد من أن يكون أحدهما أقدم من الآخر، أو علاماته أعلى، يتسلم هذا الأول رتبة القيادة، في الإسلام نظام، هذه الأسرة فيها محبة، فيها مودة، فيها تبادل، فيها تناصح، فيها حب، لكن فيها واحد صاحب قرار، إذا قال لا يعني لا.

أيها الأخوة، مما يشكو منه المسلمون أن معظم الأسر ليس فيها صاحب قرار، العلاقات ليست واضحة، كلام الزوج لا ينفذ، أحياناً كلام الزوجة هو النافذ:

(الرِّجَالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

القيادة لهم، لكن بينهم وبين النساء كم درجة؟ درجة واحدة.

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

[سورة البقرة: 228]

القوامة درجة واحدة هي درجة القيادة :

ثمة أزواج والعياذ بالله يرون أن الزوج هو كل شيء، وأن الزوجة لا شيء، ليست هذه القوامة، القوامة درجة واحدة، هي درجة القيادة، وقد وجهتُ أزواجاً إلى أن يتشاوروا مع زوجاتهم، قال تعالى:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

[سورة الطلاق: 6]

أي تأمرها وتأمرك، تستشيرها وتستشيرك، تأخذ وجهة نظرها وتأخذ وجهة نظرك، لكن لك الكلمة الأخيرة، لك القرار، ألم يقل الله عز وجل:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ)

[سورة آل عمران: 159]

ما قال: فإذا عزمتم.

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

أي أنت هيِّئ مجلساً استشارياً، واسأل أصحابك في كل شيء، أما القرار فهو لك، والزوج كذلك قد يسأل زوجته، وقد يستشيرها، وقد يستشير ابنه، وقد يستشير ابنته، لكن في النهاية هو صاحب القرار، إذا قال: لا أو نعم، فهو كذلك .

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

فضَّل الله الرجل بكسب الرزق وإنفاق المال والقوامة وفضَّل المرأة عليه أنها سكن له :

هذه الباء باء السبب..

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

أعود وأكرر: إن كلمة (بعضهم على بعض) تعني معاني دقيقة جداً، هو مفضل عليها أنه صاحب قرار، مفضل عليها أنه هو الذي يكسب الرزق، مفضل عليها أنه هو الذي يخرج من البيت، الأصل أنه يخرج من البيت، هي مفضلة عليه أنها سكنٌ له، يجب أن يعود إلى البيت ليرى بيتاً مرتباً، ليرى زوجة تنتظره، ليراها مزينة له، ليرى طعامه جاهزاً، ليرى أولاده في حالة جيدة، ليرى مرافق البيت نظيفة، هي سكن له، الإنسان يتعب كثيراً، أما إذا رأى في بيته راحة، رأى طمأنينة، رأى زوجة مخلصة، تعتني بنفسها، وبأولادها، وببيتها، هي عبادتها الأولى أن تحسن القيام بزوجها وأولادها:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

إذاً فضَّل الله الرجل بكسب الرزق، وفضله بإنفاق المال، وفضله بالقوامة، وفضلها عليه أنها سكن له، ومعنى السكن أن الرجل يكمل لزوجته ما نقص فيه، تنقصه عاطفة جياشة، ينقصه قلب كبير، ينقصه عطف شديد، ينقصه حب، يجد الزوج المؤمن بزوجته المؤمنة ما ينقصه، إذاً هي سكنٌ له، هي مكلفة إذاً، فهذه التي تهمل بيتها وأولادها، وتهمل زوجها، هي أخذت ولم تعطِ، المرأة ينبغي أن تأخذ وأن تعطي، أخذت ولم تعطِ.

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

الفرق الكبير عند الموازنة بين حجم دين المرأة و حجم دين الرجل :

كسب المال شيء صعب جداً، بل إن كسب المال الحلال صعب جداً جداً، الحياة معركة أيها الأخوة من أجل أن تكسب رزقاً حلالاً، فتأتي بطعام وشراب وثياب ووقود وعلاج للأولاد المرضى، وبحاجات أساسية للبيت، أنت تبذل جهداً كبيراً، وتدخل في منافسة مع بقية الناس، وبمفاجآت، وبصعوبات، لو وازنا بين حجم دين المرأة مع حجم دين الرجل لوجدنا فرقاً كبيراً جداً جداً بينهما، المرأة:

((إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

أربعة بنود، أعتقد أن الزوج أمامه مئة ألف بند، ينبغي أن يغض بصره، وأن يحرر دخله، وأن يصدق في البيع والشراء، وألا يغش، وألا يدلس، وألا يكذب، وألا يوهم، وأن يبتعد عن كل علاقة ربوية، أمامه عشرات، بل مئات، بل ألوف الأحكام الشرعية، ينبغي أن يطبقها، ثم عليه أن يعتني بأولاده وزوجته، وتأمين حاجاتهم، وسلامتهم، وتربيتهم، وإيمانهم، ودينهم:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

لذلك لماذا هم يعترضون؟

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ)

[سورة النساء: 11]

لأنه يكسب المال، وينفق المال، ويعطي المهر، هي تقبع في البيت تربي الأولاد، وتأخذ المهر، وليست مكلفة أن تعطي زوجها شيئاً ولو كانت غنية، هو يعطي، وهي تأخذ، شيء طبيعي جداً أن يكون:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ)

[سورة النساء: 11]

القرآن الكريم رسم أدواراً للذكر والأنثى حينما نحترمها نقطف ثماراً يانعة :

لكن المشكلة أن الإسلام منهج كامل، فإذا أردنا أن نأخذ من الإسلام بعض بنوده، ومن الحياة المعاصرة التي لا ينتظم الإسلام دقائقها بعض البنود نقع في إشكال، فالتي تعمل، وتأتي إلى البيت الساعة الثانية منهكة القوى، أعصابها متوترة، تعاني ما يعاني الرجل من مشكلات في العمل، ومن منافسة، ومن قضايا تحتاج إلى معالجة، ومن تجبر بعض الأشخاص، وغير ذلك... فتأتي إلى البيت منهكة متعبة، وعليها أن تطبخ أيضاً، وعليها أن تربي، فأعصابها متوترة دائماً، لم تعد سكناً له، الآن الدخل من يأخذه، هو أم هي؟ تقول له: هذا لي، وهو لها، لكن لم يأخذ منها كل اهتمامها، أربعة

أخماس اهتمامها لعملها، فهناك تداخل، الحياة المعاصرة فيها تداخل، لو أن النساء كن متفرغات لأزواجهن، متفرغات لتربية الأولاد، حينما تدفع المرأة بابن إلى المجتمع صحيحة عقيدته، صحيح جسمه، سليمة أخلاقه، إنها تقدم أكبر خدمة للمجتمع، بل إن أرقى مرتبة تكتب على بطاقة المرأة في بعض البلاد، أرقى رتبة تكتب على بطاقة المرأة سيدة منزل، إنها متفرغة لتربية أولادها، هذا الطفل سيغدو عالماً، سيغدو قائداً، سيغدو باحثاً، سيغدو مصلحاً، من يربيه في البيت، أيعقل أن يُترَك للطريق؟ لأصدقاء السوء؟ لخادمة لا تفقه في التربية شيئاً؟ لذلك أيها الأخوة حينما تتفرغ المرأة لتربية أولادها تكون قد حققت الهدف الذي من أجله خلقت، للتقريب فقط.

لو قال الطيار: أنا ضقت ذرعاً بهذه الغرفة الصغيرة، ضاقت نفسي، ينبغي أن أكون كالركاب متمتعاً بالحركة، والذهاب، والإياب، والجلوس على مقعد خلف الطائرة، أنت في رقبتك أربعمئة راكب، هنا مكانك الصحيح، أنت حينما تقبع في هذه الغرفة، في قيادة الطائرة، أنت تؤمن السلامة للأربعمئة راكب، ليست هذه الغرفة حداً لحريتك، ولكنها ضمان لسلامة الركاب.

يفهم كثير من الناس أن جلوس المرأة في البيت يعني أنها جاهلة، لا، قد تكون الزوجة في أعلى مستوى ثقافي، وقد تكون في أعلى درجات الإيمان، لكنها متفرغة لزوجها وأولادها، لذلك الابن يتعلم من أمه كل شيء، قالت: يا رسول الله: إن تركتهم إليه ضاعوا، هو لا يربيهم، وإن ضممتهم إلي جاعوا، هو ينفق عليهم، لذلك هناك أدوار رسمها القرآن الكريم، حينما نحترمها نقطف ثماراً يانعة، أما حينما لا نحترمها، ونريد أن تنافس المرأة الرجل في كل شيء تفقد شيئين؛ تفقد السباق، وتفقد أنوثتها:

(وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

لمرأة تكون في أعلى درجات القرب من الله حينما تحسن رعاية زوجها وأولادها :

قال تعالى:

(فَالصَّالِحَاتُ)

أي الزوجات الصالحات.

(قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

قانتة أي متفرغة لله عز وجل، طاعة ربها، وتربية أولادها، والعناية بزوجها، هذا هو قمة نجاحها في حياتها، زواج المرأة كل فصول حياتها، بينما زواج الرجل أحد فصول حياته، فالمرأة التي تعرف ربها، والتي تعرف حق زوجها، وتعرف حق أولادها، وينبغي للرجل أن يعرف حق زوجته، وحق أولاده، فالمرأة التي تعرف المهمة الخطيرة التي أنيطت بها، وأنها في أعلى درجات القرب من الله حينما تحسن رعاية زوجها وأولادها، والحديث أعيده عليكم:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

هذه المرأة عبدت الله فيما أقامها، ماذا أقامها؟ أقامها امرأة، أقام هذا الإنسان عالماً أول عبادة له تعليم العلم، أقام هذا الإنسان غنياً أول عبادة له إنفاق المال، أقام هذا الإنسان قوياً أول عبادة له إنصاف المظلوم، وأقامكِ امرأة أول عبادة لكِ حسن رعاية الزوج والأولاد.

فضل المرأة التي تحسن تربية أولادها ورعايتهم :

هل تصدقون أيها الأخوة أنه ورد في بعض الكتب، كتب الحديث، وهو الأدب المفرد للبخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أول من يمسك بحِلَق الجنَّة أنا))

[مجمع الزوائد عن أبي هريرة]

أي أول إنسان يدخل الجنة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((فإذا امرأة تنازعني ـ عجيب ـ تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل؟ قال: هي امرأة مات زوجها، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلهن))

كم هي تربية الأولاد عند الله عظيمة! شهد الله أيها الأخوة أنا حينما أستمع إلى قصة أخت كريمة متفرغة لأولادها، تعتني بأخلاقهم، تعتني بتربيتهم، تعتني بتحصيلهم العلمي، تعتني بصحتهم، تعتني بطعامهم، بثيابهم، بنظافتهم، والله هناك أخوات يأتون بأولادهم إلى المعهد، وينتظرون ثلاث ساعات في الطريق ليضمنوا أن الابن أمسكته يد أمه، وسلمته إلى المعهد، وهي تنتظره ساعات ثلاثاً، تعيده إلى البيت، هذه امرأة، والله أيها الأخوة، المرأة التي تعرف حق زوجها وأولادها، والله قلامة ظفرها تساوي مليون رجل شارد عن الله عز وجل، قلامة ظفرها، وهناك ملمح ذكرته في الخطبة اليوم، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيْبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ)

[سورة النساء: 32]

حينما تعبد المرأة الله فيما أقامها يمكن أن تصل إلى أعلى مرتبة في الجنة، والرجل حينما يعبد الله فيما أقامه يمكن أن يصل إلى أعلى مرتبة في الجنة، فيا أيتها المرأة لا تتمني أن تكوني كالرجل، ويا أيها الرجل لا تتمنَّ أن تكون كالمرأة، لأن الله هيأ لك أعمالاً صالحة تصل بها إلى أعلى درجة في الجنة، ويا أيتها المرأة، لك أعمال صالحة هيأها الله تصلين بها إلى أعلى مرتبة في الجنة، إذاً العبرة أن تصل إلى الجنة، ذكراً كان أو أنثى.

المرأة الصالحة هي حسنة الدنيا :

قال تعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

أي ملتفتات إلى الله، منقطعات لله عز وجل، كانت الصحابية الجليلة تقف على باب البيت قبل أن تودع زوجها، تقول له: اتق الله فينا، نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام، كم من زوجة الآن تضغط على زوجها إلى أن تحمله على كسب المال الحرام، إلى أن تحمله على أن يرتشي من أجل أن يلبي غرورها، تبدل فراش البيت، تقول له: اتق الله فينا، نحن بك، نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام، ولا تقوم إلى صلاة الليل حتى تستأذن زوجها، تقول له: ألك بي حاجة، وكم من امرأة تهمل زوجها، وتجلس عند بناتها أسابيع وأسابيع، ولا تعبأ بزوجها، ولا بطعامه، ولا بشرابه، ولا براحته، هناك تقصير كبير، هذا الفساد الذي ترونه من تطلُّع الأزواج إلى غير زوجاتهم هو بسبب تقصير الزوجات، وهذا الفساد الذي ترونه من تفلت الزوجات بسبب تقصير الأزواج، لو أن الزوج عرف مهمته، وعرفت مهمتها، وتعاونا على تأسيس عش مسلم ينتج عناصر مؤمنة للمجتمع لكنا في حال غير هذا الحال:

(فَالصَّالِحَاتُ)

فهذه المرأة الصالحة هي حسنة الدنيا، قال تعالى:

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً)

[سورة البقرة: 201]

خير النساء :

قيل: ما حسنة الدنيا؟ قيل: هي المرأة الصالحة، التي إذا نظرت إليها سرتك، بعضهم يظن أن الجمال وحده هو سبب سعادة الزوج، الحقيقة المرأة لها عدة مقومات، أحدها الجمال، أما حينما يسعى الإنسان إلى مقوم واحد إلى الجمال البدني فقط، وينسى الإخلاص، وينسى التقوى، وينسى خوف الله، وينسى الصدق، وينسى الأمانة، وينسى الحكمة، وينسى المنبت الراقي، يقع في وهم كبير، لأن هذا المقوم البدني عمره قصير، وسريعاً ما يزول هذا الجمال، ثم سريعاً ما يزول تأثيره بالزوج، هو يزول سريعاً، وقد يسبق زواله نقص تأثيره في الزوج، فكل إنسان يسعى فقط إلى هذا المقوم دون غيره، فبعد حين يألف هذا الشكل، ثم يفاجأ بعدم الصدق، وعدم أمانة، وعدم التربية، وعدم الإخلاص، فضَاحة، تتحدث عن زوجها بما تريد في غيبته، لا تشكره، إن أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً قالت: لم أر منك خيراً قط، فما الذي حمله على الزواج منها؟

مقوم واحد، إنه شكلها، ثم اكتشف أن شكلها بدأ بالتناقص، أو بدأ تأثيره بالزوال، وبقيت أخلاقها السيئة، ورفع صوتها عليه، ولؤمها، وإهمالها لأولادها، وطلبها للمظاهر الفارغة.

ورد في بعض الآثار: من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، فعليك بذات الدين تربت يداك، أنا أقول لكم أيها الأخوة، وأنصح الشباب المسلمين على الزواج، ألصق شيءٍ في حياتك زوجتك وعملك، فإذا وفقت فيهما فقد وفقت في خير الدنيا والآخرة، إنها حسنة الدنيا، التي إن نظرت إليها سرتك، في رواية التي إن نظرت سرتك، ليس لها، دخلت إلى المطبخ فإذا هو نظيف، نظرت إلى أولادك يرتدون ثياباً نظيفة، نظرت إلى غرفة النوم مرتبة، نظرت إلى الجدران نظيفة، نظرت إما إليها أو نظرت سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، صدقوني أيها الأخوة، ما من سؤال يأتيني من حيث الكثافة كسؤال أنه حلف عليها ألا تفعل ذلك، فلا بد أن تكسر يمينه، ليس لها شهوة إلا أن تكسر يمينه، ولسبب تافه؛ لا تذهبي إلى بيت أختك، تضحي بزوجها، وتضحي بارتباطها بزوجها، يقع الطلاق، لا بد أن تكسر كلامه، وأن تذهب إلى بيت أختها:

((خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك))

[أبو داود عن أبي هريرة]

مالك محفوظ، يكون في البيت حاجات غالية جداً، وأنت دخلك محدود، يأتي أهلها فتعطيهم من دون إذنك، تأخذ بلا أذن، تحفظ مالك في غيبتك، وتحفظ نفسها في غيبتك.

المرأة المؤمنة تحفظ نفسها وفق منهج الله :

إذا كان عند إنسان زوجة وذهب إلى عمله ذهب مطمئناً إليها، فهذه من نعم الله الكبرى، من نعم الله الكبرى أنها لا تكذب، من نعم الله الكبرى أنها أمينة، من نعم الله الكبرى أنها ترعى مال زوجها قال:

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ)

يعني يحفظن أنفسهن في غيبة أزواجهن، والله مرة كنت آتياً بالطائرة من بلد بعيد، ووراء مقعدي امرأة كلها تفلت في الحديث، وفي الثياب، منقطع النظير، المسافة طويلة، ساعات طويلة عشر ساعات، ويجلس بجانبها إنسان لا تعرفه ولا يعرفها، حديث، ومزح، وضحك، ومباسطة لا تكون إلا بين زوجين، وهو أجنبي، وصلنا إلى المطار ارتدت معطفاً، ووضعت على رأسها خماراً، واستقبلها أهلها وهم محجبون، إذاً العبرة أن تحفظك في غيبتك، حالات كثيرة إذا غاب الزوج لم يعد في البيت قيد يفتح الباب على مصراعيه، بثياب مبتذلة، أين الورع؟ من هي المرأة المؤمنة قال:

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

هنا المعنى الدقيق:

(حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ)

لا باجتهادها مثل: هذا أخي، لا ليس مثل أخيك:

(بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

الاجتهادات السخيفة من الناس: هذا مثل أخي، تربينا معاً، لا فرق بيني وبينه، يجب أن تحفظ نفسك وفق منهج الله، هذا أجنبي لا يجوز أن يدخل عليك في غيبة زوجك.

على المرأة أن تحفظ زوجها وفق منهج الله وليس باجتهادها الشخصي :

قال:

(حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

أي وفق منهج الله هذا أجنبي، هذا محرم، حتى المحرم نرتدي ثياب الخدمة، الثياب المحتشمة، لا الثياب الشفافة، ويقوم في البيت بثياب فاضحة، يجب أن تحفظ المرأة زوجها وفق منهج الله وليس باجتهادها الشخصي:

(حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

أيها الأخوة الكرام، هناك نقطة دقيقة أرجو الله أن يوفقني بشرحها، في الحياة قانون هو الإدراك، ثم الانفعال، ثم السلوك، هذا قانون، تمشي أنت في بستان، رأيت أفعى، أنت تعلم أن الأفعى سمها قاتل، وسمعت عن هذا عدة قصص، وفوق ذلك عندك مفاهيم قديمة عن الأفعى، ولك مشاهدات، فحينما رأيت الأفعى أدركت أنك في خطر، بعد الإدراك يأتي الانفعال، تخاف، بعد الانفعال يأتي السلوك، أبداً، لا يمكن أن تسلك إلا إذا انفعلت، ولا يمكن أن تنفعل إلا إذا أدركت.

مرة قال لي طالب: إنه لا يخاف من الله، قلت له: معك حق، استغرب الطلاب، قلت له: أحياناً الأخ الكريم المزارع يذهب إلى المزرعة، يأخذ معه طفلاً صغيراً يضعه بين القمح، يأتي ثعبان طوله عشرة أمتار، فلا يخاف منه، ليس فيه إدراك، فليس فيه خوف طبعاً، فالذي لا يخاف الله لا يعرف الله إطلاقاً، فأنت لا تتحرك إلا إذا انفعلت، ولا تنفعل إلا إذا أدركت، الآن منهج الله عز وجل أين يحاسبنا؟ على البند الثالث فقط، أنت تمشي في الطريق، شاهدت بيتاً جميلاً جداً، أدركت أن البيت جميل، موقع ممتاز، بناء فخم، له إطلالة جميلة، تمنيت أن يكون لك هذا البيت، هل تحاسب على أنك استوعبت جمال هذا البيت؟ لا طبعاً، تحاسب؟ لا تحاسب، هل تحاسب على أن يكون لك هذا البيت؟ لا تحاسب، أما إذا دخلت إلى البيت من دون إذن أهله تحاسب، أصبحت سارقاً، متى تحاسب؟ على السلوك، إلا مع المرأة، هنا الشاهد، مع المرأة.

في علاقة الرجل بالمرأة الإنسان محاسب عن أول خطوة :

أنت قد تنظر إلى وردة جميلة جداً، استوعبت أنها جميلة، لكن لم تقطفها، لم تدخل إلى صاحب الحديقة، وتقطفها من دون إذنه، أنت لا تحاسب إلا على العمل، إلا مع النساء فتحاسب على أول بند، على النظر، السبب لأنه في أجهزة بالجسم حينما تنظر تتحرك هرمونات معينة، ويحدث ما يسمى بالإثارة، فأنت إذا نظرت، فالنظر قادك قسراً إلى الانفعال، والانفعال قادك قسراً إلى السلوك، في علاقتك بالمرأة أنت محاسب عن أول خطوة، نحن بكل حياتنا أول خطوة معفى عنها، ثاني خطوة معفى، الثالثة محاسب، أحدهم رأى شيئاً جميلاً، لم يتكلم كلمة، استوعبه، وانفعلت نفسه به، لكن ما تحرك، لا يحاسب، أما إذا نظر إلى المرأة، وانطبعت صورتها في مخيلته، ففي أجهزة معينة تتحرك هرمونات كلها مع الحركة، فصار الرجل في شهوة، ومع الشهوة صارت حركة سلوك، لذلك بمنهج الله عز وجل لا يمكن أن تكتفي بالسلوك الثالث، لا بد أن تغض بصرك عن محارم الله، من هنا قال الله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور: 30]

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

أيضاً هذه القسم الثاني من الآية يحتاج إلى تأنٍّ في الشرح، لأن معالجة مشكلات الأسر تتم وفق هذا المقطع من الآية.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(18-69): تفسير الآيتان 34 - 35، علاج نشوز الزوجة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-06-28

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى كلمة (ناشز) :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الكريمة الرابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(الرِّجَالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

شرح في الدرس الماضي بعضها، وسوف أشرح بتوفيق الله بقية هذه الآية.

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

النشوز: الارتفاع، أرض ناشز: أرض مرتفعة، نغم ناشز نغم خارج عن الأنغام المألوفة، فالمرأة حينما يخاف زوجها أن تنشز، أي أن تعصيه أو تعصي ربها، أو تسيء العلاقة بينها وبينه، حينما تعصي الله فلا تتحجب، أو لا تصلي، أو تسمح لأجنبي أن يدخل إلى البيت في غيبة الزوج. أذكر أمثلة لئلا يتوهم الزوج أن أي مخالفة بسيطة تقتضي هذه المعالجة.

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

أي أن يستعلين على طاعة الأزواج.

الله سبحانه وتعالى بحكمته هيأ الزوج ليكون صاحب القرار :

في بداية الآية قال تعالى:

(الرِّجَالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

هذه المؤسسة التي هي الأسرة فيها مساواة كاملة بين أفرادها، وفيها حب وتقدير وكرامة، لكن هذه المؤسسة تحتاج إلى قائد، وصاحب قرار، وتحتاج لإنسان واسع الأفق، حريص على هذه المؤسسة، أن يقول في الوقت المناسب لا، وأمره نافذ، فالله سبحانه وتعالى بحكمته هيأ الزوج بقدراته العقلية وصفاته النفسية وخصائصه الاجتماعية والجسدية، وبما أنفق من ماله أن يكون صاحب القرار،

وقواماً على هذه الأسرة، فالمرأة التي تأبه أن تنصاع لأمر صاحب القرار، وتقف نداً له تريد أن تضعف سلطته، وتعصي أمره، إنها في هذه الحقيقة تعصي الله عز وجل، فعَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:

((أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ فَقُلْتُ: رَسُولُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنِّي أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَلَا تَفْعَلُوا، لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ))

[أبو داود عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ]

فنظام المسلمين في شأن الأسر أن هذه الأسرة لها قائد هو الزوج، ليس معنى كلامي هذا أن الزوج يستخدم هذه السلطة استخداماً تعسفياً، لا، ليس معنى هذا أن الزوج يتعالى على زوجته ليست هذه حكمة الشارع، لا أن يتعالى، ولا يستبد، ولا يستخدم هذه المكانة التي وضعه الله فيها استخداماً فيه ترفع، وفوقية، وتحكم، وإذلال، وتعسف، هذا النموذج لا علاقة له بهذه الآية، ولا بهذا القرآن.

الزوج المؤمن الذي يريد أن يقيم الإسلام في الأسرة ينبغي أن يُطاع :

الزوج المؤمن الذي يخاف الله الحريص على أسرته، على علم أسرته، وأخلاق أسرته، ومستقبل أسرته، ومستقبلهم الديني، ومصيرهم الأبدي، هذا الزوج المؤمن الذي يأتمر بما أمر الله، وينتهي عما نهى عنه، هذا الزوج المؤمن الذي يريد أن يقيم الإسلام في الأسرة ينبغي أن يُطاع، لكن زوجاً ما أمر بمعصية نقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولو كان زوجاً، وأكبر دليل أن الله ضرب لنا مثلاً في امرأة فرعون، إنها صدِّيقة، فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

[البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم: 11]

فرعون بكل جبروته، وقوته، وادعائه الألوهية لم يستطع أن يحمل زوجته على أن تعتقد به كما يعتقد رعاياه، ولا أن تطيعه كما يطيعه رعاياه. المرأة مستقلة في دينها عن زوجها، بمعنى أن الله لا يقبل منها يوم القيامة أن تقول: هكذا يريد زوجي، ماذا أفعل؟ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكن لو أن هذا الزوج المؤمن أمرك أن تربي أولادك، وتقومي على رعايتهم، وأمرك أن تتحجبي،

أو ألاّ تدخلي أحداً إلى بيته في غيابه، أو أمرك ألاّ تظهري من زينتك إلا لمحارمك، أمرك بأمر الله، وأن تقتصدي في الإنفاق، أمرك أن هذا المال قوام الحياة فلا ينبغي أن ينفق على مظاهر الحياة، بل على حقيقتها، فحينما يهب الله الزوج رؤية عميقة، وبعيدة، وحكمة واسعة فينبغي للزوجة أن تطيع زوجها، فقال تعالى:

(الرِّجَالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

المرأة التي تستنكف أن تطيع الله وزوجها حينما يأمرها بالمعروف هي امرأة ناشز :

أما المرأة التي تأبى وتستنكف عن طاعة زوجها، أمرها أن تتحجب فأبت، أذكر لكم حالات تتناسب مع النشوز، أمرها ألاّ تدخل أحداً في غيبته فأدخلت، أمرها أن تحتجب عن ابن عمها فلم تحتجب، أمرها ألاّ تخلو بأجنبي فخلت، أبت على الله أن تطيعه، وعلى زوجها أن تطيعه فيما أمر الله، لو تلقت أمراً فيه معصية لله فلها أن تقول بملء فمها لزوجها: لا أطيعك في معصية، بل إن الصحابية الجليلة كانت إذا ودعت زوجها تقول له: نحن بك فاتق الله، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام، هكذا كانت الصحابية الجليلة تنصح زوجها، أما إذا رأينا زوجة تعاند زوجها، ولا تطيع أمره إلا إذا أرضى غرورها كي تفتخر على بنات جنسها، أنا أقول هذه الآية موجهة للمؤمنين والمؤمنات، لزوج مؤمن يعرف الله في قلبه رحمة وإنصاف، يأتمر بما أمر الله، وينتهي عما نهى الله عنه، يريد أن يقيم الإسلام في بيته، فإذا أبت الزوجة أن تتحجب، وأن تستقيم على أمر الله في غيبة الزوج فهذه امرأة ناشز، متأبية، أي ارتفعت، ولم تخضع لأمر الله، واستعصت كما فعل إبليس، استنكف أن يطيع الله عز وجل، فالمرأة التي تستنكف أن تطيع الله وزوجها حينما يأمرها بالمعروف بأمر الله، وبما تعارف الناس عليه: اطبخي، لا أطبخ، اشتري من المطعم، نظفي، لا أنظف، ربي أولادك، لا أربيهم، دعهم للخادمة، اجلسي في البيت، لا أجلس، لا تخرجي بغير إذني، تخرج، لا تذهبي لبيت فلان، تذهب لعنده، هذه امرأة ناشز، قال تعالى:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

والله أيها الأخوة، هناك في هذه الآية ملمح دقيق جداً، ما قال الله عز وجل: واللاتي ينشزن، تخافون نشوزهن، قبل أن يقع الشيء ينبغي أن تنتبه إليه إن رأيت بوادر منه، مشكلة المسلمين اليوم حينما ينحرف ابنه يصحو! أين كنت؟ حينما يؤتى به ليتسلم ابنته من مكان لا يرضي الله يصعق! أين كنت، يوجد ملمح بالآية، ينبغي أن تراقب، وينبغي أن تكون عينك ساهرة، ينبغي أن تتابع، وتحقق، وتضبط إذا بدا لك بوادر نشوز تبدأ هذه المعالجة، لكن بعد أن يقع النشوز هنا المشكلة، العادة الآباء والأمهات تقع المشكلة الكبيرة في بيوتهم بعد أن تقع يتنبهون، أين كنتم قبل أن تقع هذه المشكلة؟ هناك بوادر هل تعرف من يصاحب ابنك؟ هل تعرف هذه البنت إلى أين ذهبت؟ تقول: إلى

صديقتي، هل تأكدت من هذا وأوصلتها، أو اتصلت هاتفياً بصديقتها؟ كيف، إلى أن تقع الطامة نصعق! لا!

توجيه الله تعالى الإنسان لمعالجة الأمر من بدايته وليس بعد أن يستفحل :

قال:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

ينبغي أن تكون متيقظاً حذراً مراقباً محققاً مدققاً، الأبوة مسؤولية كبيرة جداً، صدقوني أيها الأخوة، لو ملكت أموال الأرض، وكنت في أعلى منصب في الأرض، وكنت أغنى الأغنياء، وأقوى الأقوياء، ولم يكن ابنك امتداداً لك، إن لم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس، ابنك أو ابنتك، ففي هذا الملمح:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

قبل أن تنشز ينبغي أن تعالج، وقبل أن تنحرف، وتختلط بأجنبي، قبل أن ترفض الحجاب يجب أن تعالج الأمر في بدايته.

الآن في الطب أمراض كثيرة جداً، حين ننتبه إليها في بدايتها يكون علاجها مضموناً، واحتمال الشفاء بالمئة خمسة وتسعون، أما حينما نتنبه في وقت متأخر، بعد أن يستفحل فالأمل في الشفاء يصبح معدوماً، فالله عز وجل يوجهنا، فلا ينبغي أن تهملوا وتغفلوا، ولا تدققوا، ولا تحققوا، ولا تراقبوا إلا عند وقوع النشوز والانحراف، هذا خطأ فاحش.

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

ماذا تفعل أيها الزوج؟ بوادر معصية، لا تعبأ بالصلاة، لا تتحجب، تفتح الباب على مصراعيه، تستقبل من أقربائها من تشاء في غيبتك، وقد يكون أجنبياً، ولو كان ابن عمها، لم يقع شيء، لكن هناك تقصير وإهمال، لا تعبأ هذه الزوجة بشرع الله.

المرأة الطاهرة المؤمنة العفيفة ينبغي أن تحفظ غيبة زوجها وفق منهج الله :

كيف ذكرت في الآية السابقة:

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

يحفظن أزواجهن في غيبتهن لا وفق مزاجهن بل وفق شرع الله، كم من امرأة تقول: هذا مثل أخي، وقد تربينا سوية، ماذا جرى؟ هي تتوهم أنها تحفظ غيبة زوجها، ولكن وفق مزاجها لا وفق منهج الله عز وجل، المرأة الطيبة الطاهرة المؤمنة العفيفة ينبغي أن تحفظ غيبة زوجها في نفسها، وفي بابه بحفظ الله، أي وفق منهج الله:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

[سورة الأحزاب: 32]

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

ماذا ينبغي أن تفعل؟ الذي يفعله المسلمون أن يغفل، ويهمل، ويتعامى، ولا يعبأ، ولا يأبه حتى تقع الطامة الكبرى، فإذا وقعت الطامة الكبرى يريد أن يقتلها، أو يطلقها! أنت تمشي في طريق غير صحيح.

الموعظة أول طرق معالجة النشوز :

قال تعالى:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ)

ما هي الموعظة؟ أجمع العلماء على أن الموعظة ينبغي أن تختار لها الوقت المناسب، إنسان غاضب لو وعظته لا نفجر، إنسان متوتر لو وعظته لتطاول عليك، إنسان مقهور ومتضايق، الموعظة بالدرجة الأولى تحتاج لوقت مناسب، في ساعة سرور، وانسجام، ورضى، ومباسطة، في ساعة فيها راحة نفسية.

شيء آخر، أضرب لكم مثلاً: لو أن ابناً تشكو منه أمه أخبرت الأب فجاء بهدية لابنه، فلما تملك الهدية فرح فرحاً شديداً، فصار متعلقاً بالأب، ثم يقول له الأب: يا بني شكت لي أمك، ولو كنت علمت شكواها لما كنت أتيت بهذه الحاجة، الابن يتقبل هذه الملاحظة، لأنه أكرمه، حينما تكرم إنساناً فلك أن توجهه وتعظه. فأنا أرى الزوج إذا أراد أن يعظ زوجته لا بد أن يقدم لها شيئاً يملك به قلبها، لا بد من عمل طيب، أو هدية، أو لطف، أو رفق، أو ابتسامة، أو مؤانسة، أو عطف، أو محبة، أو خدمة، فحينما تملك قلبها بإمكانك أن تعظها قالوا: الإحسان قبل البيان، والقدرة قبل الدعوة، إن لم تكن قدوة كيف تعظها؟ إذا كنت عصبياً فإذا توترت أعصابك تكلمت كلاماً لا يليق بك، أنت لست مؤهلاً أن تعظها، لن تستطيع، لو كنت شهوانياً، أو أطلعت زوجتك على انحراف لك لا يرضي الله فلن تستطيع أن تعظها، انتهيت، وانتهى دورك كواعظ، لن تستطيع أن تعظها إلا إذا كنت أنت قدوة لها، لن تستطيع وعظها إلا إذا كنت مستقيماً عفيفاً، أو كنت كبيراً أمامها بعلمك، وأخلاقك، وأدبك، وموضوعيتك، وعطفك، ورحمتك، كلمة (فعظوهن) أعلم أن آلاف الأزواج حينما يعظون زوجاتهم يفاجؤون بتعال، واستطالة، ورفض لهذا الموعظة، ما السبب؟! لأنه ليس قدوة لها، وليس ملتزماً بما يعظها، ولأنه ليس مطبقاً للشريعة، فكيف يعظها وفاقد الشيء لا يعطيه.

لذلك لن تستطيع أن تعظ أحداً إلا إذا كنت قدوة له، وإذا كان فعلك مطابقاً لقولك. فإذا قال الله تعالى:

(فَعِظُوهُنَّ)

أي كونوا قدوة ومنصفين وكملاً، عندئذ تستطيع أيها الزوج أن تعظها وقد ملكت قلبها بهدية، أو بطيب معاملة، أو بابتسامة حارة، أو بمعاملة إسلامية، أو بأن ترحمها، إذا رحمتها وقدمت لها هدية، ورأت منك كمالاً واستقامة تقبل منك هذه الموعظة، ولا تقولوا كلمة واحدة.

(فَعِظُوهُنَّ)

فالموعظة لا يمكن أن تؤتي أكلها إلا إذا خرجت من قدوة، أو مثل، أو من إنسان أخلاقي، عفيف، صادق، أمين، هذه دعوة إلى الأزواج أن يتحلوا بالكمال قبل أن ينصبوا أنفسهم وعّاظاً لزوجاتهم،

إن لم تنجح الموعظة فيجب هجرها في المضاجع :

قال:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ)

لو أن امرأة سيئة فاسدة على الرغم من موقف زوجها، من علمه وأخلاقه، وهو قدوة لها ومثل، وجاءها بأمر طبيعي، وموعظة رقيقة، وفي ساعة مناسبة، وقدم بين هذه الموعظة هدية فلم تعبأ لا بهديته، ولا برقته، ولا بكماله، ولا بمثاليته. معالجة هذه الزوجة عن طريق الموعظة لم تنجح، وهذا الدواء لم يؤثر، ماذا نفعل في هدي القرآن الكريم؟ قال:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)

لا بد من حديث دقيق في هذا الموضوع: الحقيقة طبيعة الرغبة عند الزوج تختلف عن طبيعة الرغبة عند الزوجة، بشكل مختصر هي أكثر صبراً على هجرانه منه على هجرانها، هذه حقيقة، لأن طبيعة الغريزة فيه تثار بسرعة، فإذا أثيرت فلا بد أن تنتهي النهاية المعروفة، أما هي فلا تثار إلا ببطء شديد، ويمكن إذا استثيرت أن تحرص على متابعة الأمر، من أقدر على الهجر بشكل واقعي؟ الزوجة أقدر على الهجر! فكيف يقول الله عز وجل:

(وَاهْجُرُوهُنَّ)

عقاب للزوج لا للزوجة، سلاح المرأة الوحيد رغبة الزوج بها، هذا سلاحها الفعال، فإن كنت رجلاً، واستطعت أن تهجرها، وألا تعبأ بحاجتك إليها عندئذ قد تخضع، تدريب قرآني للزوج، هي أصبر على الهجران منك، وأنت أقل صبراً منها، طبيعة رغبتك تختلف عن طبيعة رغبتها، إنك تستثار بسرعة، فإذا استثرت لا بد أن تفعل، بينما هي تستثار ببطء، وإذا استثيرت يمكن ألاّ تفعل، هي أقدر.

الحكمة من الهجر في المضاجع وليس خارج الغرفة :

كيف يأمرك الله أيها الزوج أن تهجرها، وهو عقاب لك وليس لها؟ هي سلاحها الوحيد أنك بحاجة

إليها، وأن رغبتك قوية في القرب منها، فإذا كنت رجلاً، وأريتها أن هذه الرغبة التي تتوهمها أنها قوية عندك فلا قيمة لها عندك، عندئذ تخضع! لكن قال: أين تهجروهن؟ هنا روعة القرآن الكريم، لو هجرتها إلى غرفة أخرى لعرف الأولاد المشكلة، وانكشف الأمر، وتدخلوا، لو هجرتها لبيت آخر لعرف الأقرباء المشكلة، إما أن تبقي المشكلة بينك وبينها، وإما أن تدخل بها أولادك وبناتك، وإما أن تدخل بها أقربائك.

الحقيقة الأولى في العلاقة الزوجية أنها كلما اقتصرت على الزوجين سهل حلها، وكلما استشرت إلى ما بعد الزوجين إلى الأولاد أو الأقرباء تأخر حلها كثيراً، لذلك حينما قال الله عز وجل:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

[سورة الطلاق: 1]

فيما أتصور أن أكبر مشكلة إذا بقيت بين الزوجين فقط سريعاً ما تصغر إلى أن تنتهي بالوفاق، وأصغر مشكلة إذا خرجت من حدود الزوجين لحدود الأولاد والأقرباء حدث تدخل خارجي أصبحت الزوجة عنيدة والزوج أشد عناداً، عندئذ صار الطريق طويلاً، لأن كل طرف من أطراف الزوجة يلقي في روعها: لا ترجعي إليه، يليق بك زوج أفضل من هذا، وهو يلقي في روعه أيضاً: هذه الزوجة ينبغي ألاّ تبقي عليها، ليست صالحة، أصغر مشكلة بين الزوجين إذا خرجت من البيت أصبحت أكبر مشكلة، وقد تنتهي إلى الطلاق، وأكبر مشكلة إذا بقيت بين الزوجين قد تحل وتنتهي بالوفاق لذلك:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

[سورة الطلاق: 1]

الحل الثالث لهذه المشكلة الضرب غير المبرح :

التوجيه هنا أدق، ليست القضية قضية بيت، قضية غرف نوم، لا ينبغي للزوج أن يهجر زوجته في غرفة أخرى، ولا في بيت آخر، في غرفة أخرى اكتشف الأولاد المشكلة، البنت مع أمها دائماً، في بيت آخر اكتشف الأقرباء المشكلة قال:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)

في السرير الواحد، هي إلى جانبك، وهي زوجتك أعطها ظهرك، وامتنع عنها حتى تعلم أن شهوتك ملك يديك، وتحت قدمك، وأنك يمكن أن تستغني عنها إلى أمد طويل، حينما تكتشف أن سلاحها الفعال لا جدوى منه لعلها تخضع، هذا الحل الثاني، الحل الأول أن تكون قدوة، عفيفاً، منصفاً، رحيماً، وتختار وقتاً مناسباً، وتقدم للموعظة بهدية تملك قلبها، افتح قلبها بهدية قبل أن تعظها، فإن لم تنجح الموعظة ينبغي أن تهجرها في الفراش، في المضاجع، لا في غرفة أخرى، أو بيت آخر.

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ)

أنا مضطر لأن أقدم بأمثلة كثيرة لهذه الكلمة في هذه الآية، لأن أعداء المسلمين يعدونها مأخذاً علينا في الدين، أقدم لكم بأمثلة:

إذا كان عندك يتيم، لا أب ولا أم، وهو في محلك التجاري، وسرق، فأبسط حل أن تطرده، لكنك إذا ضربته، وأدبته، وأبقيته عندك في المحل، وراقبته إلى أن كبر، وصار صالحاً، وزوجته أنت حولت إنساناً من سارق مجرم إلى إنسان طيب، فهل هذا الضرب لصالحه؟ لو طردته لدخل السجن، أما أنت فأبقيته عندك في المحل، وأدبته، وراقبته إلى أن أصبح شاباً صالحاً زوجته، نقلته من مجرم إلى إنسان صادق خيِّر بهذا الضرب.

نشزت امرأتك، رأيت في بيتها رجلاً، ابن عمها، وقد منعتها أن تدخله إلى البيت في غيابك، فأنت بكل بساطة تطلقها، إن طلقتها انحرفت، أما إن أبقيتها، وأدبتها، ثم أصلحتها فلك أجر كبير.

القصد من الضرب أن تشعر المرأة أنها في مكانة صغيرة عندك :

قال علماء التفسير: هذه الحلول الثلاثة ممنوع أشد المنع أن تبدأ بالضرب، قدمت هدية، ووعظتها بأحلى كلام، وألطف طريق، وأنعم أسلوب، وملكت قلبها، فلم تنصع لك ولم تستجب، هجرتها في الفراش، وأقنعتها أنك مستغن عنها، ولم تأتمر بأمرك، ولم تنصع للحق، وقيل: ليس لازماً بل مباحاً، إن رأيت من الحكمة أن تضربها ضرباً غير مبرح لا تكسر عظماً، ولا تسل دماً، ضرباً يشعرها أنك لست راضياً عنها، فإن صلحت انتهى الأمر، وآخر الطب الكي.

أعود وأكرر، لو تصورت أن هذه المرأة الناشز التي انحرفت، وارتكبت مخالفة كبيرة في الشرع، وأبت أن تنصاع لحكم الله، وأبت أن تنصاع لأمر زوجها الذي يطابق حكم الله عز وجل، ووعظتها فلم تتعظ، وهجرتها فلم ترتدع، وأيقنت أنك إذا ضربتها خرج منها شيطانها، إن ضربت ضرباً لا يؤذي تجتنب الوجه، والضرب المتكرر في موضع واحد لئلا يؤذي وتجتنب الضرب المؤذي، القصد من الضرب أن تشعرها أنها في مكانة صغيرة عندك. قال بعض العلماء: أن تضربها بالسواك أخذاً من قول النبي عليه الصلاة والسلام: حينما أرسل خادماً، وتأخر كثيراً فغضب النبي عليه الصلاة والسلام غضباً شريفاً، فلما عاد هذا الخادم قال: أين كنت؟ فذكر قال:

((والله لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

[ورد في الأثر]

الضرب المبني على حقد، وانتقام، وعلى قسوة، وقلب كالحجر منهي عنه، لكن هذه المرأة لا تستجيب لأحد.

والله أيها الأخوة، عشرات الأخوة يقولون لي: تفعل زوجتي هكذا، أين أمها وأبوها؟ لا تعبأ بهما، حالة انحراف، وشذوذ، ونشوز، تقف وتعترض طريق الحق، تأمر ابنك بالصلاة، إنه نائم، دعه

نائماً، هذا يقع كل يوم، ترفض أن توقظ ابنك للصلاة، قد تذهب البنت إلى مكان لا يرضي الله، ترفض أن تمنعها، هذه امرأة ناشز، ينبغي ألا يفهم الأزواج أن الأكل إذا تأخر فهي ناشز، لا، إذا لم تهيئ حاجاتك كاملة فهي ناشز، ليس هذا هو المعنى، حينما تنحرف، وتخرج عن منهج الله، وتتأبى أن تطيع الله، وترفض أن تتحجب، وتحمل بناتها على الفجور، اذهبن لأي مكان تردنه، فهذه زوجة ينبغي أن تعامل هذه المعاملة.

إذا أطاعت الزوجة زوجها فقد استجابت لأمر الله :

قال:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ)

إنسان ضرب زوجته ضرباً مبرحاً في بريطانيا، فلما اشتكت إلى قاضي بريطاني استدعاه فقال له: نحن في كتابنا المقدس الله يأمرنا أن نضرب الزوجات، أساء إلى الدين إساءة ما بعدها إساءة، هذا الضرب له مقدمات، ومبررات، وأسباب، وله شروط، وقد يستغنى عنه، والأولى أن تستغني عنه، القاعدة أنك أمام مشكلة، كلما استطعت أن تعالجها بأسلوب أخف ينبغي أن تعالجها بأسلوب أخف، ولا تنتقل إلى الأشد إلا عند المعاندة، الطبيب هكذا يفعل، إذا كان هذا المرض يشفى بحبة مستواها خمسمئة ينبغي ألا تعطيه حبة عيار ألف، تتصاعد في الدواء، فأول حل عظوهن، والحل الثاني اهجروهن في المضاجع، واجعل المشكلة في أضيق حيز بينك وبينها فقط في غرفة النوم، والحل الثالث اضربوهن قال:

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً)

أطاعتني لكن لا تحبني، هذا لا يهم، ليس لك علاقة بالموضوع الداخلي أبداً، والله يحاسبك، ولك منها طاعتك، أطاعتك، وتحجبت، وصلت، وأمرت ابنتها أن تصلي، واستجابت لأمر الله.

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً)

الآية التالية تهديد للأزواج حتى لا يظلموا زوجاتهم :

لكن انظروا إلى التهديد الإلهي قال:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

إن ظلمتها، أو افتريت عليها لتأخذ بعض ما أتيتها، أو تأخذ ما عندها، أو تفكر في شيء آخر، وافتعلت هذه المشكلة، وضربتها فتوقع أن الله سوف يعاقبك أشد العقاب:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

هذا تهديد للأزواج، هذه امرأة، لو بدت لك أنها ضعيفة، لكن الله معها، وإذا أراد الله أن ينتقم من الزوج جعله يبكي أمام الرجال، أفقره، وأهانه حتى يبكي:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

آخر فقرة في الآية تهديد للأزواج، أيها الأزواج إياكم أن تستعملوا حقكم بشكل تعسفي.

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

أيها الأخوة:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

كما ذكرت آخر فقرة في الآية تهديد من الله للأزواج أن يفتعلوا مشكلة، أو يظلموا امرأة ضعيفة، أو يدّعوا ما ليس هو واقع.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

على كل زوج أن يعلم أن الله أقدر عليه منه على زوجته :

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ:

((كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَاماً لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتاً: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ، فَقَالَ: أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ))

[مسلم عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ]

يجب أن يعلم كل زوج أن الله أقدر عليه منه على زوجته، هناك أمراض تجعل حياة الزوج جحيماً لا يطاق، هناك فقر مذل، ومرض مفند، وهرم لا يحتمل، أقرب الناس إليك يتمنى موتك.

أيها الأخوة، آخر فقرة في الآية تهديد من الله عز وجل، هذه المرأة التي تراها ضعيفة، الله عز وجل قادر على أن يحرمك منها، وينتقم منك انتقاماً لا يوصف، فقبل أن تفتري على الزوجة، وتستخدم هذا الحق الشرعي في القوامة استخداماً تعسفياً عد للمليون قبل أن تفعل ذلك، وفي درس آخر إن شاء الله ندخل في الحل الثاني:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

صار الطريق مسدوداً، لا الموعظة أجدت، ولا الهجران في الفراش، ولا الضرب أجدى، فصار الطلاق على قاب قوسين أو أدنى، قال تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(19-69): تفسير الآية 35 ، الإصلاح بين الزوجين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-07-05

بسم الله الرحمن الرحيم

الرجال ليسوا أفضل من النساء لكنهم أكثر حملاً منهن :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الخامسة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية مرتبطة أشد الارتباط مع الآية التي قبلها، فالآية التي قبلها يقول الله عز وجل:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

شاءت إرادة الله في نظام الزوجية أن يكون الرجل صاحب القرار، لأن الله هيئه فكرياً، وجسمياً، واجتماعياً، ونفسياً ليكون قائد المركبة، أو قائد هذه الأسرة، وشاءت إرادة الله أيضاً أن تكون المرأة على أنها مساوية للرجل تماماً بالتشريف، والتكليف، والمسؤولية، شاءت إرادة الله عز وجل أن تكون المرأة تابعة للرجل في العلاقة الزوجية والأسرة، لما هيأه الله به من خصائص فكرية، واجتماعية، ونفسية، وجسمية، هذا هو التصميم الإلهي:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

والرجال ليسوا أفضل من النساء، لكنهم أكثر حملاً منهن، هذه الكلمة الرائعة قالها سيدنا عمر حينما قال: لست خيراً من أحدكم لكني أثقلكم حملاً، معنى قوامون؛ شديدو القيام، مسؤولون أمام الله عن زوجاتهم، وعن أولادهم، وعن بناتهم، وعن تزويج بناتهم، وعن مراقبة الأسرة، وعن كل خصائصها.

التفضيل لا يقتضي الأفضلية ولكن قد يكون التفضيل لحكمة أرادها الله عز وجل :

وصف الله الصالحات بأنهم حافظات للغيب بما حفظ الله، وفق منهج الله عز وجل، هذا هو الأصل، لو أن أسرة لم تكن كذلك، المرأة لم تخضع لحكم الله، أنا أقول: لم تخضع لحكم الله، إذا أمرها زوجها بطاعة الله، أما لا تخضع لمشيئة الرجل غير المنضبطة بمنهج الله فهذا موضوع آخر، أنا

أتحدث فقط لو أن الزوج أمرها أن تتحجب، أمرها ألا تختلط بالرجال، حينما تتأبى الزوجة أن تطيع الله من خلال أمر زوجها دخلنا في حالة أخرى، الحالة الطبيعية أن:

(الرِّجَالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

لخصائص خصهم الله بها، والمرأة مفضلة على الرجل لخصائص خصها الله بها، وكلمة:

(بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

أي أن كل طرف في وقت واحد يكون مفضولاً ومفضلاً، ومرة ثانية أؤكد هذه الحقيقة، وهي قاعدة أساسية أن التفضيل لا يقتضي الأفضلية، الإنسان حينما يفضل بصفة قد يحتاجها ألا ترى معي إلى أن الطائر يرى ثمانية أضعاف رؤية الإنسان، فُضِّل عليه، هل هو أفضل منه؟ ألا ترى إلى أن الكلب يشم مليون ضعف ما يشمه الإنسان، هل هو أفضل منه؟ التفضيل لا يقتضي الأفضلية، ولكن قد يكون التفضيل لحكمة أرادها الله عز وجل.

حينما لا تستجيب الزوجة لأمر الله، حينما تتأبى أن تطيع الله، الآن هناك وسائل علاجية إلهية، قال:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

موضوع الدرس السابق، وقد أشرت إلى أن الزوج الصالح يراقب ويدقق وهو يقظ وحذر، بمعنى أنه لمجرد أن يبدو على السطح إشارات عابرة لما يمكن في المستقبل أن يكون نشوزاً:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

إذاً أنت لا تعالج المشكلة بعد أن تقع، لا تعالج المرض بعد أن يستفحل، وبعد أن يستفحل لا بد من البتر، البطولة أن تكتشف بوادره في وقت مبكر، وهذا قد ينقلنا إلى حقيقة في جسم الإنسان.

العلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة :

الإنسان أيها الأخوة عنده جهاز مناعة مكتسب، هذا أخطر جهاز في حياة الإنسان، والانحراف الجنسي كما تعلمون يسبب نقص المناعة المكتسب، الآن الرقم 27 مليون، متوقع بعد حين أن يصل إلى 80 مليون مصاب في العالم، وقالوا: هناك عشر مصابين لم يبلغ عنهم، فالآن إذا قلنا 27 مليون معناها 270 مليون مصاب بالأرض بسبب الانحراف، إذاً يجب أن نعلم علم اليقين أن العلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة، وأن العلاقة بين المعصية ونتائجها علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة، هذا الجهاز نقص المناعة المكتسب عبارة عن جيش بكل ما تعنيه هذه الكلمة، فيه أربع فرق؛ فرقة الاستطلاع، أهم شيء في هذه الفرقة المعلومات، استخبارات، فإذا دخل إلى جسم الإنسان عنصر غريب تأتي كريات بيضاء مهمتها الاستطلاع، تأخذ الشيفرة الكيميائية لهذا الجرثوم، لا تقاتل، تأخذ المعلومات، وتأتي بها إلى مراكز تصنيع المصل المضاد؛ أي إلى معامل الدفاع، هذه فرقة، مهمتها الأولى استطلاع المعلومات، الفرقة

الثانية مهمتها تصنيع السلاح، هذه موجودة في العقد اللمفاوية، والإنسان في عنده عدد كبير من العقد اللمفاوية، في هذه العقد يصنع المصل المضاد للجراثيم، لكن هذه العقد فيها ذاكرة عجيبة جداً، أن الجرثوم إذا دخل إلى جسم الصغير، وعاد بعد سبعين عاماً ملف هذا السلاح وهذا الجرثوم محفوظ في الغدد اللمفاوية، لمجرد أن يعود الجرثوم ثانية، ولو بعد سبعين عاماً الملف جاهز، تركيب الجرثوم جاهز، والمصل المضاد الذي صنع قديماً جاهز، يعمل الجسم على تصنيع مصل مضاد جديد كي يكافح الجرثوم، هذه الفرقة الثانية، الفرقة الثالثة هي فرقة مهمتها القتال، بعد أن يدخل الجرثوم إلى الجسم تذهب هذه الفرق إلى الغدد اللمفاوية، فتأخذ السلاح المعد، وتحمله، وتقاتل به الجرثوم، فإذا وجدت على الجلد انتفاخاً أبيض يسمونه قيحاً هذه نتائج المعركة، جرت معركة بين الجرثوم وبين الكريات المقاتلة، فالنتيجة بقايا الجثث في هذا القيح الأبيض الذي يراه الإنسان حينما ينتفخ جلده أحياناً. عندنا الآن فرقة رابعة: فرقة الخدمات، مهمتها تطهير أرض المعركة من الجثث، بعد أن تجري مذبحة ماذا تفعلون؟ كما رأيتم في فلسطين يأتون بالجرافات يحملون الجثث، وينظفون الطرق كي تطمس معالم الجريمة، عندنا أربع فرق؛ فرقة الاستطلاع، وفرقة تصنيع السلاح، وفرقة القتال، وفرقة الخدمات.

عالم كبير اكتشف في عام 67 فرقة خامسة، اكتشفت مؤخراً هذه الفرقة اسمها فرقة المغاوير، ما مهمتها؟ قال: هذه الفرقة أو هذا العنصر يكتشف الخلية السرطانية في وقت مبكر جداً قبل أن تغدو خطيرةً على الإنسان، ويلتهمها، الذي ذكرته أن الإنسان حينما ينحرف يفقد جهاز المناعة المكتسب الذي حباه الله به.

مراحل معالجة المشكلة بين الزوج وزوجته :

هنا جاءت الآيات:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

الذي ذكرته بمناسبة أن الفرقة الخامسة متى تكتشف الخطر في وقت مبكر جداً، تلتهم الخلية السرطانية، والآن الزوج الماهر جداً، الموفق، المؤمن متى يكتشف الخطر؟ في بداياته، في بدايات الخطر قبل أن يستفحل.

1 ـ أول مراحل معالجة المشكلة الموعظة :

قال تعالى:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ)

ذكرت أن الموعظة تقتضي أن تكون لطيفاً رقيقاً محسناً، أن تملك قلبها قبل أن تعظها، أن تملك قلبها بكلام طيب، بموقف كامل، بمروءة، بكرم، بلطف، بهدية أحياناً، فإذا وعظتها قبلت منك، أنت لاحظ لو أنك مدير مؤسسة وعندك موظف ارتكب خطأً، أنت إن أكرمته بهدية، أو إن كافأته بمكافأة، ثم نصحته يتقبل منك النصح بأعلى درجة، ويعاهدك على ألا يعود لذلك، لأنك ملكت قلبه قبل أن تلقي عليه النصيحة، وهذا الذي دعا بعضهم إلى أن يقول: الإحسان قبل البيان، ينبغي أن تفتح قلب الذي تنصحه بإحسانك قبل أن تفتح أذنيه بكلامك:

(فَعِظُوهُنَّ)

2 ـ ثاني مرحلة الهجران بالمضاجع :

فإذا لم تستفد من هذه المعالجة الأولى، هذه المراحل على الترتيب، قال:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)

وبينت لكم حكمة الهجران بالمضاجع، لو هجرتها خارج البيت لعلم الأقارب أنك في خصومة مع زوجتك، تدخلوا تدخلاً سلبياً، الذين من أطراف المرأة أوغلوا صدرها، والذين من أطراف الرجل أوغلوا صدره، ولو أنك هجرتها في غرفة ثانية لعلم الأولاد، فينبغي أن تهجرها في غرفة النوم، وعلى السرير الواحد، وهي محببة إليك، وأنت في حاجة إليها، إذاً حينما تستطيع أن تكبح غريزتك لأن ما عندها أو ما حباها الله به سلاحها الوحيد، وما دام الإنسان معه السلاح يظهر القوة ولا يتراجع، أما إذا سقط سلاحه من يده عندئذٍ يخضع، كيف تستطيع أيها الزوج أن تسقط سلاحها؟ بأن تهجرها، وألا تعبأ بهذا النداء الغريزي إطلاقاً، أما حينما تعلم أنك قادر أن تستغني عنها كلياً تخضع، فالعلاج الثاني:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)

3 ـ ثالث مرحلة الضرب غير المبرح :

قال تعالى:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ)

ضرب الانتقام، ضرب إرواء الغليل، ضرب الحقد، المؤمن بريء منه كلياً، ذلك أن هذا الضرب نهى النبي عنه، قال عليه الصلاة والسلام بما معنى الحديث: أما يستحي أحدكم أن يضرب زوجته

نهاراً ثم يجامعها ليلاً، هي شريكة حياته، فضربها ينزلها عن مقام الزوجة، أما إذا نشزت، وتأبت أن تطيع الله عز وجل، وكان من الحكمة أن تضربها، وأن تؤدبها، وأن تحملها على التوبة ضرباً غير مبرح، ولا غير مؤلم، لكنه يزل مكانتها عن مرتبة الشريك، قال:

(وَاضْرِبُوهُنَّ)

إن بدت المرأة أنها مطيعة لزوجها فينبغي أن توقف كل علاج :

بينت لكم حالات تؤكد حقيقة الضرب الذي أمر الله به، لو أن عندك موظفاً يتيماً لا أب له ولا أم، وسرق منك، والسرقة كبيرة، أسهل حل أن تطرده، لكن أصح حل أن تؤدبه، وأن تبقيه عندك، وأن تصلحه، قال:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

إن أطعنكم انتهى الوعظ، وانتهى الهجر، وانتهى التأديب، أما أن تدعي أنها لا تحبك هذا أمر غير مقبول إطلاقاً:

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ)

فإن بدت المرأة أنها مطيعة لزوجها فينبغي أن توقف كل علاج:

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

هذا تهديد للزوج، أنت بحكم قوامتك، أنت السيد صاحب القرار، أنت يقبل الناس منك ما تقوله عن زوجتك، أما إن كنت ظالماً مفترياً فالويل لك، والويل لك، ثم الويل لك:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

هذا ملخص الدرس الماضي.

على الإنسان أن يعالج الأمور من بدايتها :

درس اليوم:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

لا الموعظة أجدت، ولا الهجران نفع، ولا الضرب أفاد، والزوجان على مشارف الفراق، وينبغي أن تعالج هذه الحالة في وقت مبكر، لم يتم الطلاق بعد، على مشارف الطلاق، وإن خفتم كما قال العلماء شقاقاً بينهما، والشقاق الابتعاد، شق عصا الطاعة أي ابتعد عن الطاعة:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

أضيف الشقاق إلى الظرف:

(شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

المعنى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

مرة ثانية أيها الأخوة ينبغي أن تعالج الأمور من بدايتها، كشأن الأمراض الجسمية، عدد كبير جداً من الأمراض إذا اكتشف في وقت مبكر، وعولج في وقت مبكر كان العلاج قريباً من النجاح، بل قد تصل نسبة النجاح إلى تسعين بالمئة أما إذا اكتشف في وقت متأخر، وعولج في وقت متأخر ربما لا يجدي العلاج:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

صفات الحَكَم :

الآن المرحلة السابقة مرحلة داخلية بين الزوج وزوجته، بدأ من موعظة إلى الهجران إلى الضرب، الآن لا بد من تدخل خارجي:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

من هو الحكم؟ أولاً الحكم إنسان قاض، الصفات الأولى الأساسية للقاضي أنه يعدل، والصفات الأساسية أيضاً أنه يدقق، يملك معلومات دقيقة، يسأل، يستقصي، يستجوب، يبحث، يحقق، لا بد من معلومات دقيقة يبني عليها القاضي حكمه، هذه الصفة العقلية في القاضي، ولا بد من نفس نزيهة تتحرى العدل، من هو الحكم؟ الذي يستقصي المعلومات بدقة بالغة، ثم يحكم بنزاهة بالغة، ليس أي إنسان يكلف أن يصلح بين الزوجين يَصلُح أن يُصلِح بينهما:

(فَابْعَثُوا حَكَماً)

حكماً أي عنده معلومات دقيقة يجمعها، يستنبطها، يحقق، يدقق، يكتشف ثم يعدل، الحكم يجمع بين الحقائق وبين النزاهة، أما هنا أضيف إلى الحكم أن يكون من أهله، هذا القانون في الأعم من خلال اللقاءات العابرة يستمع إلى بوادر المشكلة بين الزوجين، هو يعلم أنه في مشكلة إما مالية، أو اجتماعية، أو نفسية، أو ثقافية بين الزوجين، هو مطلع، أي معه المدى العميق:

(فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

لو طُبِّق نظام التحكيم لكان الطلاق قليلاً جداً :

هنا البطولة، رجل وقور من وجهاء أهله يتمتع بالدقة والنزاهة، ورجل وقور من وجهاء أهل الزوجة يتمتع بالدقة والنزاهة، من أهله لأنه يعرف بواطن الأمور، والثاني من أهلها يعرف بواطن الأمور:

(فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

هذا المنهج لو طبق لكان الطلاق قليلاً جداً، أنا أروي دائماً هذه القصة السريعة؛ أن إنساناً شكا زوجته إلى أخيها، قال له: طلقها، هذا أحمق، أنت بحاجة إلى رجل وجيه عنده خبرات، دين، دقيق في جمع المعلومات، نزيه في إصدار الحكم، على صلة بها، مطلع على أحوال الزوجين، وأنت بحاجة إلى رجل من طرف الزوج وقور، نزيه، دقيق، على اطلاع بأحوال الزوج، هذان الحكمان حكمهما نافذ:

(فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

أنا الذي أراه أيها الأخوة أن هناك نظامَ التحكيم الخاص قديماً، هكذا نسمع، في كل حي وجهاء، هؤلاء الوجهاء لهم هيبتهم، ولهم مكانتهم، وأمرهم نافذ بالحي، أي خلاف ينشب بين اثنين، خلاف اجتماعي، خلاف مالي، خلاف نفسي، هذا الوجيه حكمه نافذ على الطرفين، ويتمتع بالنزاهة، يتمتع بالدقة، فمشكلات لا تعد ولا تحصى تحل بهذا الطريق، والآن حتى في التجارة أسلوب رائع، تحكيم تجاري، التحكيم في القانون أمره نافذ، المحكم تاجر أيضاً، والتاجر قريب من جو التجارة، وقد يكون الحكم تاجراً في المصلحة نفسها، يعلم بواطن الأمور، فحينما يرقى المؤمنون يحكّمون وجهائهم، هم بعيدون عن ما يجري في المحاكم من إطالة طويلة، فأعظم شيء بالحكم السرعة، قد تمتد القضية بالقضاء إلى عشرين سنة تقريباً، عشرون سنة من التعب النفسي، عشرون سنة من التوتر النفسي، بطريقة التحكيم المباشر قضية سريعة جداً.

الإنسان الموفق هو الذي يعطي كل ذي حقٍ حقه وينجو من الخصومات والمحاكم :

حضرت مؤتمراً في طرابلس قبل سنتين عن التحكيم الخاص، لو أنه طبق في مجتمعاتنا حتى في الخصومات التجارية، والخصومات الصناعية، والخصومات الاجتماعية، والخصومات الأسرية، شيء رائع جداً، هناك أشخاص يتمتعون بمكانة وهيمنة، وأمرهم نافذ، هم موضوعيون، هم دقيقون في تقصي الحقائق، هؤلاء تحل بهم مشكلات كثيرة، أما ما يجري في المحاكم بشكل تقليدي شيء لا يحتمل، الطريق طويل، كم من قضية، توارث معالجتها عشرون قاضياً، ينقل القاضي، يأتي الجديد ينبغي أن يستوعبها، شيء آخر، قاعدة عامة أنك إذا عرفت قيمة الحياة الدنيا، ورأس مالك في الحياة الدنيا فلا تدخل في مشكلة تنتهي بك إلى المحاكم، أنا لا أنسى أبداً قول سيدنا عمرو بن العاص، لما سأله سيدنا معاوية: يا عمرو ما بلغني من دهائك؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، قال له: لست بداهية، أما أنا والله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه، أنا لا أدخل أصلاً، من هو الإنسان الموفق في حياته؟ الذي يعطي كل ذي حقٍ حقه وينجو من قضايا الخصومات والمحاكم والقضاة، فقضايا الدخول في المحاكم قضية متلفة للأعصاب، فحيثما استطعت ألا تدخل ينبغي ألا تدخل:

(فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

المعنى الأول للألف في كلمة (يريدا) :

الآن التعليق الدقيق:

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً)

بعضهم قال: الألف في (يريدا) هي ضمير متصل في محل رفع فاعل، يعني إن أرادا، من هما؟ علماء قالوا: الحكمان، وعلماء قالوا: الزوجان، إذا كان الزوج صادقاً يريد أن تسير المركبة وفق منهج الله، والزوجة أيضاً لا تحب أن تكون امرأة عصيةً لله، لكن نشأ سوء تفاهم بينهما، إن أرادت الزوجة أن تكون زوجة كاملة، وإن أراد الزوج أن يكون زوجاً متقياً لله عز وجل:

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

ذلك أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، أنت الذي تجد أن هذه الزوجة لا تنسجم، ولا تنصاع، تتأبى الحق، لو أن الله سبحانه وتعالى أصلحها لك لصلحت، والدليل قول الله عز وجل:

(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

[سورة الأنبياء: 90]

هذا ما حل ببعض العارفين بالله أن يقول: أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، إما أن تلين، وتخضع، وتحسن، وإما أن تتأبى، وتستنكف، وتعصي، لو أن الزوج يعصي الله خارج البيت لوجد في الزوجة تأبياً واستنكافاً عن طاعته، لو كان متعمقاً في الأمر لعلم أن هذا عقاب له على تفلته من منهج الله، لذلك الكلمة التي قالها هذا الإمام العارف بالله: أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، كلمة صحيحة، إذا أراد الزوج أن يبني أسرته على طاعة الله، والزوجة أرادت أن تكون زوجة مؤمنة طائعة لله، فإن أراد الزوجان طاعة الله عز وجل الله يتولى بذاته تليين القلوب، وتأليف القلوب، وهذا شيء ثابت في الحياة الاجتماعية، شخص يكون معانداً فإذا به فجأةً يصبح لطيفاً مسايراً، ما الذي حصل؟ بدله الله عز وجل.

الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى جعل قلوب العباد بين إصبعيه يقلبها كيف يشاء :

لا بد من وقفة متأنية عند هذا المعنى، لماذا قلوب العباد بيد الله عز وجل؟ أو ما الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى جعل قلوب العباد بين إصبعيه يقلبها كيف يشاء؟

1 ـ المعنى الأول أنك عندما تتخذ قراراً حكيماً يعينك على نفسك بشرح صدرك

هذا لصالحك ، لو أنك اتخذت قراراً حكيماً بطاعة الله، أو بالتوبة، أو بالإحسان إلى الخلق، أو بنشر الحق، هذا القرار الحكيم الله عز وجل يدعمك به، يملأ قلبك سعادةً، يملأ قلبك استبشاراً، يملأ قلبك تفاؤلاً، يملأ قلبك طمأنينةً، يملأ قلبك راحةً، لأن قلبك بين إصبعين من أصابعه، لما اتخذت قراراً حكيماً أعانك على نفسك بشرح صدرك، هذا المعنى مستنبط من قوله تعالى:

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

[سورة الحجرات: 7]

والإنسان حينما يتخذ قراراً في معصية الله يشعر بالضيق، يصبح ردود فعله عنيفةً، سيئ الخلق، ينفر منه من حوله، يبغضه أقرب الناس إليه، يصبح في عزلة، وحينما جعل الله قلب الإنسان بين إصبعيه كي يملأ القلب ضيقاً وسوداويةً حينما تعصي الله عز وجل، فكأن الله أعانك على طاعته، وأعانك على ألا تعصيه، هذا المعنى الأول.

2 ـالمعنى الثاني أن الإنسان حينما يوقن أن قلوب من حوله بيد الله لا يخاف منهم :

المعنى الثاني أن الإنسان حينما يوقن أن قلوب من حوله بيد الله لا يخاف منهم، وهذا شيء ثابت، شخص قوي، ومع قوته لؤم، ومع لؤمه قسوة، أحياناً يعامل مؤمناً بألطف معاملة دون أن يشعر، هذا المؤمن لا يستحق إلا كل لطف، لأن قلبه بيد الله، يقلبه على طريقة يحسن معاملة المؤمن، الشخص نفسه قد يقع بين يديه إنسان ينكل به أشد التنكيل، المخالفة نفسها، والإنسان واحد، فلماذا فعل هكذا مرةً، وهكذا مرةً؟ لأن قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن، وبالمناسبة أيضاً قلب الزوجة بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، ويا أيتها الزوجة قلب زوجك بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، أنتِ حينما تصطلحين مع الله عز وجل فلا بد أن تري أن معاملة زوجك تغيرت، وأنت حينما تصطلح مع الله فلا بد أن ترى أن معاملة زوجتك تحسنت، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

[سورة الأنبياء: 90]

وهذا معنى قوله تعالى:

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)

[سورة الفرقان: 70]

إذا تاب الإنسان إلى الله تُبدل سيئاته حسنات :

إذا تاب الإنسان إلى الله تبدل سيئاته حسنات، بمعنى أنه كان عنيفاً فصار ليناً، كان بخيلاً فصار كريماً، كان جباناً فأصبح شجاعاً، كان قاسياً فأصبح رحيماً، وأنا استمعت إلى أخوات كثيرات على الهاتف أن أزواجهن بعد أن التزموا في جامع معين، أي بعد أن تاب إلى الله، أي بعد أن اصطلح مع الله، أي بعد أن طلب مرضاة الله أصبح إنساناً آخر، فلذلك أية امرأة ترجو أن يكون زوجها صالحاً ينبغي أن تعينه على طاعة الله، ولا أبالغ أن في ذاكرتي عشرات، بل مئات من الأخوة الكرام كانت زوجاتهم سبب هدايتهم، بسبب أن هذه الزوجة أعانته على طاعة الله، فلما أطاع الله أكرمها، ولا أنسى الكلمة التي قالها لعله سيدنا الحسن، قال: زوج ابنتك لمؤمن، إن أحبها أكرمها، وإن لم يحبها لم يظلمها، المؤمن مقيد، الإيمان قيده عن كثير من هوى نفسه، والكافر ـ أنا لا أرى وصفاً أدق من هذا الوصف ـ دابة متفلتة بلا قيد، ولا قاعدة، ولا خلق، ولا ذوق، ولا عدل، ولا إنصاف أبداً، أنا ذكرت اليوم في الخطبة أن هذه الطائرة التي سقطت في بريطانيا، والقصة من عشر سنوات تقريباً، وانتهى المطاف أنه ينبغي أن تدفع الجهة المسؤولة عن سقوطها مليارين وسبعمئة مليون دولار لأن فيها مئتين وسبعين راكباً، كل راكب ديته عشرة ملايين دولار، أي خمسمئة مليون ليرة، والذين ماتوا قبل يومين، عددهم مئة وعشرون لا شيء لهم؟! أرأيت إلى الكيل بمكيالين؟ أرأيت إلى الظلم، إنسان يموت تحمل من تسبب بموته عشرة ملايين دولا لكل إنسان، أي ما يعادل خمسمئة مليون ليرة سورية، وإنسان مات بمكان آخر مسلم بخطأ بسيط، ولا أحد يتحرك، ليس هناك مشكلة، خطأ من طيار، مئة وعشرون إنساناً في عرس.

لذلك الذي أتمناه على الأخوة الكرام أن يدققوا في هذه الحقيقة، هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، هل هناك أهون من إنسان مسلم يموت بلا ثمن، ثمنه رصاصة واحدة فقط، يقتلونه طفلاً، كبيراً، مذنباً، غير مذنب، موت كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لمَ يَقتل، ولا المقتول فيما قُتل، يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى، ولا يستطيع أن يغير، إن سكت استباحوه، وإن تكلم قتلوه، إذاً هان أمر الله على الناس أو على المسلمين فهانوا على الله، وهنا تعليق لطيف، هل هم هينون على الله؟ لا والله، لكن الله أراد أن يؤدبهم، يعني حينما يضرب الأب ابنه، هل ابنه هينٌ عليه؟ لا والله، وبعض الآباء، والله فيما أعلم يضربون أبناءهم، ويتألمون أشد من الأبناء، لكن لا بد من هذا العلاج المر، الآن المسلمون يمرون في معالجة شديدة جداً، فإن لم ننتبه، وإن لم نصح، وإن لم نتب، وإن لم نرجع إلى ديننا، وإن لم نرجع إلى قرآننا، وإن لم نرجع إلى سنة نبينا، فأمامنا امتحانات كثيرة.

المعنى الثاني للألف في كلمة (يريدا) :

قال تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً)

المعنى الثاني: الألف في (يريدا) ضمير رفع متصل تعود على الحكمين، فالحكم إن أراد الإصلاح يوفق، والله أيها الأخوة، والفضل لله عز وجل أن مئات الحالات من خلاف مستعصٍ، من خلاف يوشك أن ينقلب إلى طلاقٍ، تدخل الأخوة الكرام الطيبون بإخلاص شديد، فسارت المركبة بطريقة رائعة، والله عشرات بل مئات من الخلافات الزوجية التي كان من الممكن أن تنتهي إلى الطلاق بفضل أخوة كرام حكموا بين الزوجين بحكم الله عز وجل، وأرادوا إصلاح هذه الأسرة فوفق الله بينهما، قبل أيام التقيت بأخ كريم كان على خلاف شديد مع زوجته، وكان فيما يبدو للحكام أنه لا بد من الطلاق، وسألته، وقد مضى على هذه الحالة عشر سنوات، قال لي: والله أنا أسعد زوج، أقسم بالله أنني أسعد زوج، هذا معنى:

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

أي لا تستخدم الطلاق كعلاج أولي، استخدم هذا الطلاق بحالات نادرة، أرأيتم إلى هذا الوعاء البخاري الذي يطبخ الناس به، لو دققت في غطائه لوجدت دائرة فيها قطعة بلاستيك، حينما ترتفع الحرارة إلى درجة أن هذا الوعاء قد ينفجر، ويقتل من حوله، هذه المادة البلاستكية تذوب، فإذا ذابت خرج البخار ووقينا من حول هذا الوعاء الانفجار، أرأيت إلى هذا الصمام، يسمى صمام الأمان، هذا هو الطلاق، حينما تغدو الحياة مستحيلةً، حينما قد تنتهي الحياة إلى جريمة عندئذٍ نطلق، أما أول حل هو الطلاق؟ وأن هؤلاء الأزواج الحمقى لأتفه الأسباب يحلف يمين طلاق، وإذا أحل لك شيخ يحرمك عشرة، وهو في أشد الحاجة إليها، وعنده أولاد، والزوجة جيدة، لكن ساعة شيطان كما يقولون، ماذا يفعل بعد ذلك؟ الذي يفعله، وأنا أشدد على هذه الكلمة المزعجة يتسكع على أبواب المشايخ، الذي أحل له أن تعود إليه يشك في ورعه، والذي قال له: هي محرمة عليك ينقم عليه، أنت كنت في غنى أن تتسكع على أبواب المفتين، ما دامت هذه الزوجة بشكل إجمالي مقبولة ابتعد عن الطلاق، افعل ما تشاء عدا الطلاق، هي زوجتك، لكن تطلق، وتطلق، وتُطلق، وتقع في الشك، يقول: لعلي بالحرام أنا أعاشرها، حالة الشك لا تحتمل أيها الأخوة، لا تعرف زنى أم زواج، في أيمان ثلاثة، كلها وقعت، واحد قال لك: إحداها لم تقع، شككت، لذلك قال ابن عباس: أيرتكب أحدكم أحموقته، ويقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس.

الزواج نعمة كبيرة ينبغي على الزوجين تقديرها :

على كلٍ أيها الأخوة، الإنسان حينما لا يقدر نعمة الزواج قد يحرمه الله من زوجته، والتي لا تقدر نعمة الزوج قد يحرمها الله من زوجها، الزواج نعمة كبيرة، فينبغي للزوج أن يقدر أن الله قد حصنه بهذه المرأة، ولبى حاجته، وهي وديعة عنده، وهي هدية الله له، وينبغي أن تعتقد المرأة أيضاً أن الله حصنها بهذا الزوج، هي في حلال، وهو نعمة كبيرة، رجل يدخل عليها، يحميها، ينفق عليها، يرعاها، لها منه أولاد، فأية امرأة تسيء العلاقة مع زوجها هي تكفر نعمة الزوج، وأي زوج يسيء العلاقة مع زوجته هو يكفر نعمة الزوجة، وقد يكون عقاب الله أليماً، قد يرتكب الإنسان حماقة يدفع ثمنها سنوات طويلة، فلذلك من أراد إنفاذ أمرٍ فليتدبر عاقبته، فالآن إن أراد الزوجان إصلاحاً وفقهم الله عز وجل إلى ما فيه خير لهما، وإن أراد الحكمان الإصلاح وفق الله عملهما:

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

لكن العلماء اختلفوا، هل للحكمان أن يطلقا؟ هل للحكمان أن يقترحا الطلاق أو المخالعة؟ الحقيقة هنا ملمح لطيف، متى أنتقل من العلاج الداخلي، وعظ، هجر، ضرب، هذا العلاج الداخلي على الترتيب، إلى العلاج الخارجي حكم من أهله وحكم من أهلها؟ متى أنتقل من هنا إلى هنا؟ قال بعض العلماء: حينما لا ينصف الزوج، ولا يسامح، ولا يصفح، ولا يطلق، هذه حالة معلقة، من أصعب الحالات، سميت حالة اللا سلم واللا حرب، نعيشها مع اليهود من خمسين سنة، ما في استقرار، أصعب حالة يعيشها المجتمع حالة لا هي سلم ولا هي حرب، في جهنم من أصعب الحالات:

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

[سورة طه: 74]

لو مات استراح، لو أنه عاش حياة مريحة لاستراح، لكن:

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

[سورة طه: 74]

الآن في الزواج لا صفح، ولا وفاق، ولا ود، ولا طلاق، لا يطلق، ولا يصفح، ولا يعفو، ولا يكون زوجاً كاملاً، هي لو أنها طلبت الخلع القضية انحلت، لا تطلب الخلع، ولا تكون زوجة جيدة، مشاكسة، ومقيمة معه بالبيت، فهذه الحالة المستعصية، نفور، مشاكسة، كيد، غيظ، عداوة، بغضاء ، تراشق تهم مستمر، هذه الحالة قد تنتهي إلى الطلاق ينبغي أن:

(فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

الفرق بين الخلع والتفريق والطلاق :

طبعاً إن يريدا كما قال علماء التفسير: يعود على الزوجين أو على الحكمين، أما:

(يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

فتعود على الزوجين حصراً، بعضهم قال: يجوز أن يتخذ الحكمان قراراً بالخلع، أن تطلب منه الخلع، أي هي متأذية منه، لكن لا لذنب منه، لم تحبه، ما دامت لا تحبه هو لم يرتكب خطأ شرعياً معها، لكن لم تحبه، قد يتخذ الحكمان قراراً بالخلع، وقد يتخذ الحكمان قراراً بالطلاق، يشكو منها شكوى غير معقولة، والأمل ضعيف في الإصلاح، وقد يتخذ الحكمان قراراً بتحميل كلٍ من الزوجين مسؤولية يقلل من حق الآخر.

نحن في القضاء عندنا مخالعة، وطلاق، وتفريق. المخالعة؛ بناء على طلب الزوجة، إن طلبت المخالعة فليس لها شيء، طلقها تطليقة، وردي له الحديقة. الطلاق؛ بناء على طلب الزوج، هو أراد أن يبدل زوجته، إذاً يدفع لها كل حقوقها كاملةً، ولا يسترد من هداياه شيئاً. التفريق؛ إذا كان ثمة إساءة متبادلة تقام دعوى تفريق، فيقدر القاضي حجم هي الإساءة من طرفها، وحجم هذه الإساءة من طرفه، قد يحكم لها بنصف المهر، أو بخمس المهر، أو بعشر المهر، أو بكل المهر. فالتفريق غير الخلع وغير الطلاق، قال بعض العلماء: الحكمان هنا من حقهما أن يصدرا قراراً بالخلع أو بالطلاق أو بالتفريق، كما يفعل القاضي، وعلماء آخرون قالوا: لا، الآية لم تنص على الطلاق، على الإصلاح فقط:

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

أي لا يقبل من الحكام إلا التوفيق بين الزوجين، هذا اجتهاد آخر:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)

تكلم ما شئت لكن الله خبير بعملك، هل تفعل هذا كيداً أم أنه مقتضى العدل، إذاً:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(20-69): تفسير الآية 36 ، العبادة بالمفهوم الواسع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-07-12

بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة العبادة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس العشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الكريمة السادسة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً)

أيها الأخوة، أول حقيقة في هذه الآية أن مهمتك الأولى في الحياة الدنيا أن تعبد الله، والعبادة خضوع كامل، وانصياع، وطاعة تامة لله عز وجل، إنها حق الله على عباده، وثمن الجنة، وعلة وجودنا، العبادة طاعة لله مع المحبة، فمن أحب الله ولم يطعه فهو كاذب في محبته، ومن أطاعه ولم يحبه فعبادته غير صحيحة، إنها طاعة القهر، العبادة طاعة مع محبة، ولا بد لها من أساس علمي هي معرفة الله، ولا بد لهذه الطاعة التي أساسها معرفة الله من ثمرة هي إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة، لأن غاية كل حي السعادة، بل إن السلامة قبل السعادة، ما من مخلوق على وجه الأرض شعر أو لم يشعر إلا وهو يبحث عن سلامته وسعادته، فالذي يحقق للإنسان سلامته من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة أن يعبد الله، ويتبع منهج الله ومنهج الصانع، ويتبع تعليمات الشركة الصانعة، فالجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

أخطر شيء في الدين أن تفصل العبادة التعاملية عن العبادة الشعائرية :

أنت حينما تؤمن بالله، تؤمن بعلمه المطلق، وحكمته المطلقة، ورحمته المطلقة، ثم تؤمن بكتابه، وفي كتابه أنه خلقك للجنة لا للدنيا، فحينما تؤمن أنك مخلوق للحسنى تتقي أن تعصي الله، وتبني حياتك على العطاء والبذل، قضية من أخطر قضايا الحياة أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً ومربياً ومسيراً، أن لهذا الكون إلهاً موجوداً وكاملاً وواحداً، وأن أسمائه كلها حسنى، وأن صفاته كلها

فضلى، وأنه خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض، وأن هذه الجنة إعداد لتلك الجنة، وأن عبادته تعني سلامتك وسعادتك، وتعني دخول الجنة، وهي علة وجودك، وواجبك تجاه خالقك، وحق الله عليك، وسبب سلامتك، وسبب سعادتك، ولكن المسلمون يتوهمون أن العبادة تعني العبادة الشعائرية.

أخواننا الكرام، هناك تصنيف فقهي، أنا لا أعترض عليه، ولكن أخاف أن يُعتَمد في فهم العبادة، نحن في الإسلام عندنا عقائد وعبادات ومعاملات وآداب، فإذا قلنا: عبادات لا نفهم منها إلا الصلاة والصيام والحج والزكاة والنطق بالشهادتين، هذا تصنيف الفقهاء، أما العبادة تعني أن تتقن عملك، وتحسن إلى زوجتك، وتعد لعدوك، إذا كانت العبادات بالمفهوم الحقيقي الواسع القرآني قد تزيد العبادات بالمفهوم القرآني النبوي الموسّع عن مئة ألف أمر، كيف أن هذه الأوامر قُلّصت إلى عبادات شعائرية، لذلك المسلمون في مؤخرة الركب، في النهاية الدنيا، لأنهم فهموا دينهم أنه عبادات شعائرية، يصلي ويصوم ويفعل ما يشاء، أنبأني أحد الأخوة الكرام أن عدداً من رواد المساجد يبيعون أقراصاً مدمجة كلها أفلام إباحية! ما خطر في باله لحظة أن هذا العمل يتناقض مع دينه وإيمانه واستقامته، هو يصلي، وفي الصف الأول، لكن حرفته بيع هذه الأقراص، والذي يروج منها الأقراص الإباحية، يبيعها! أخطر شيء في الدين أن تفصل العبادة التعاملية عن العبادة الشعائرية، إذا بقي الإسلام عبادة شعائرية يعني أنه انتهى، والدليل؛ عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا قَالَ: قَال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

[البخاري عَن ابْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا]

العبادة الشعائرية مهمتها أن تعطيك شحنة روحية أما العبادة التعاملية فهي الإسلام :

بني الإسلام شيء، والخمس شيء، إذا قلت بناء من خمسين طابقاً، بني على خمسين عاموداً، هل هذه الأعمدة هي البناء؟ هي أساسات البناء، فالعبادة الشعائرية مهمتها أن تعطيك شحنة روحية، أما العبادة التعاملية هي الإسلام، الدين المعاملة، بماذا وصف سيدنا جعفر رسول الله؟ قال: نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه، بماذا أمرنا؟ بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، الصحابة الكرام فهموا الدين سلوكاً، وقيماً، وأخلاقاً، وعفة، واستقامة، وأمانة، وإتقاناً في العمل، وصدقاً في الأقوال، وإنجازاً للوعد، وحفاظاً على العهد، لما فهموا الدين هذا الفهم الأخلاقي فتحوا أطراف الدنيا، أما المسلمون اليوم فيزيدون عن ثلث سكان الأرض، مليار وأربعمئة مليون! ليس لهم وزن إطلاقاً، ولا يستطيعون بمجموعهم أن يؤثروا في السياسات الدولية الكبرى، السبب أن دينهم أصبح ديناً شعائرياً، هذه الأديان الوضعية ما مشكلتها أن

فيها طقوساً وحركات وسكنات وتمتمات لا تعني شيئاً، تؤدى أداء شكلياً، وبعدها يفعل الناس ما يشاؤون، حتى أتباع الديانات الأخرى، وحضورهم في المعابد بحركات وتمتمات، ولا تجد دينهم في أعمالهم، ولا في بيوتهم، ولا في تجارتهم.

فالمشكلة الكبرى حينما نفهم الدين فهماً شعائرياً فقط، صلاة نؤديها، حجاً نقصده، زكاة ندفعها، صياماً نصومه، وانتهى الأمر، وبيوتنا، وأعمالنا، وعلاقاتنا، ولهونا، وأفراحنا، وأتراحنا على النمط الغربي فيه اختلاط، ومعاصٍ، وملء العين من محارم الله، وفيه كذب في الوعد، وغش في البيع والشراء، هذه هي حالة المسلمين.

لذلك كلمة اعبدوا تدخل في أدق شؤون حياتك، وفي أدق خصوصياتك، وفي علاقتك بزوجتك، وفي تربية أولادك، وفي نظافتك، وحركتك، وسكنتك، وفي كسب وإنفاق مالك.

العبادة أيها الأخوة، أي أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، العبادة أن نعد لأعدائنا ما نستطيع من قوة، وأن نتقن أعمالنا، ونعمر الأرض كما أراد الله عز وجل، لأنه استعمرنا فيها، العبادة أن نفعل عملاً صالحاً، فلذلك المصيبة الكبرى أن هذا المفهوم العظيم، وعلة وجودنا، وأن واجبنا تجاه ربنا، وحق الله علينا أن سبب سعادتنا وسلامتنا هو العبادة، والعبادة نفهمها أداء العبادات الشعائرية ليس غير.

العبادة انصياع لمنهج الله بكامله :

لهذا يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ)

يجب أن ننصاع لله بكل إخلاص، غاية الخضوع، والحب، والتوكل على الله، والثقة بالله، وغاية الإخلاص له، والمحبة، والولاء هذه العبادة، العبادة تدخل في كل ثانية في يومك، فإن دخلت بيتك، وأطلقت وجهك في أبنائك وزوجتك، وملأت البيت سعادة فأنت في عبادة، ولو عدت مريضاً فأنت في عبادة، ولو جلست إلى أهلك تؤنسهم، واشتريت ثياباً جميلة لتكون أمام الناس مرموقاً، لأنك تمثل المسلمين، وإذا انغمست في عملك حتى أتقنته، ونفعت به المسلمين فأنت في عبادة، حينما تحسن الزوجة رعاية أبنائها، وتعتني بزوجها هي في عبادة، مفهومها واسع جداً يدور مع كل نشاطات الإنسان، إن أخذت أولادك إلى نزهة كي تقربهم إليك، وكي تدخل على قلوبهم السرور فأنت في عبادة، إذا نلت من عدو نيلاً فأنت في عبادة، إذا سهرت طوال الليل تفكر في شيء ينفع المسلمين فأنت في عبادة، شيء واسع جداً.

كل أوامر القرآن التفصيلية، وكل أوامر النبي التفصيلية، وكل عاداتك التي يفعلها معظم الناس بحكم العادة إن فعلتها أنت بحكم المؤمن فأنت في عبادة، إذا دخلت إلى البيت، وأعنت والدتك في

شؤون البيت، وإن درست أخاك الصغير الضعيف في مادة دراسية فأنت في عبادة، هذا المفهوم الحضاري، العبادة انصياع لمنهج الله بكامله.

من قال لك: إن منهج الله خمس عبادات شعائرية ليس غير؟ بني الإسلام على خمس، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ)

لو أنك عبدته وعبدت جهة أخرى فما عبدته، لأن الله لا يقبل معه أحداً، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، لذلك جاء الأمر الإلهي:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً)

عبادة الله مقرونة ببر الوالدين في آيات عديدة :

أن تعبد الله وحده، وتحبه، وتطيعه، وتتوكل عليه، وتثق به، وتعقد عليه الأمل، وترضى بحكمه وحده، هذه العبادة، كل حركاتك كأن تنظف جسمك، وتهيئ لبيتك ما يدخل على قلب أهلك السرور فأنت في عبادة، وسع هذا المفهوم تجد أن المؤمن له هدف كبير، أن يأخذ بيد من حوله إلى الله، فالعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، ينبغي أن تعبد الله وتعبده وحده، وينبغي ألا تشرك به أحداً، وأن تكون في عبادته مخلصاً، يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً)

أيها الأخ الكريم، عبادتك لله عز وجل فرع من وجودك، أنت موجود أكبر فرع من فروع وجودك أن تعبد الله، من هما اللذان كانا سبب وجودك؟ إنهما الوالدان، لذلك في أكثر من عشر آيات، أو أقل أو أكثر من آيات عديدة جاءت عبادة الله مقرونة ببر الوالدين:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

العطف أيها الأخوة يقتضي المشاركة، ليس من المعقول أن تقول: اشتريت بيتاً وملعقة، تقول اشتريت بيتاً وأرضاً ومركبة ومزرعة، لا بد من التناسب بين المتعاطفين، فحينما تعلم أن الله رفع الإحسان بالوالدين إلى مستوى عبادته، لأن عبادة الله فرع من وجودك، ووجودك له سبب قريب وسبب بعيد، القريب والداك والبعيد سيدنا آدم، وآدم من خلقه؟ الله عز وجل، الأمر الإلهي:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء: 23]

من بر الوالدين أن تكون قريباً منهما وفي خدمتهما ولو كانا غير مؤمنين :

قال تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

هناك ملمح في الآية رائع هو أن هذه الباء باء الإلصاق، ينبغي أن تكون قريباً من والديك، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(وَبَنِينَ شُهُوداً)

[سورة المدثر: 13]

هم معه، من بر الوالدين أن تكون قريباً منهما وفي خدمتهما، وتكثر من الاتصال بهما في اليوم الواحد، وأن تسدي إليهما المعروف لا عن طريق أحد بل بك مباشرة، لأن الباء باء الإلصاق، فينبغي أن تكون لصيقاً بهما، وينبغي أن يكون برك لهما عن طريقك أنت لا عن طريق أحد، هناك أبناء أقوياء وأغنياء يعطون توجيهات لمن حولهم: خذ لوالدي هذه الحاجة، خذه إلى نزهة، معنى الآية يقتضي أن تكون أنت في خدمته بحجمك الكبير.

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

يا ترى ولو كانا كافرين؟ نعم ولو كانا مشركين، لأن الوالد هنا مطلق، والمطلق على إطلاقه، يا رسول الله أمي مشركة أفأصلها؟ قال: صليها، فالوالدان مؤمنان أو كافران.

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

على الإنسان أن يعترف بفضل الأب الذي أنجبه وزوّجه ودله على الله :

من ملامح قوله تعالى قال:

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

[سورة هود: 42-43]

استنبط بعض العلماء أنه لا يجوز إقامة حد شرعي على ابن أمام أبيه رأفة بالأب، كما لا يجوز إقامة حد شرعي على ابن أمام أمه، لأن قلب الأم والأب لا يحتمل هذا العقاب.

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

[سورة هود: 43]

الأب هو سبب وجودك، فأنت في نعمة لأنك موجود، هناك نعمة الإيجاد والإمداد ونعمة الهدى والرشاد، فالله سبحانه وتعالى خالق أوجدك، ومرب يمدك بكل شيء، وهاد يهديك إليه، فأنت في نعم كبرى ثلاثة، وقد أضاف بعضهم وهي إضافة لطيفة: هناك أب أنجبك، وأب زوجك، وأب دلك على الله، فالذي أنجبك سبب وجودك، والذي زوجك ينبغي أن تعامله كأب، لأنه ربى ابنته ثمانية

عشر عاماً، ورعاها، واعتنى بأخلاقها، وصحتها، وشؤونها، ودراستها حتى سلمها إليك هو أب لك بمعنى أو بآخر، والذي دلك على الله سبب سعادتك الأبدية، فينبغي أن تعترف بفضل الأب الذي أنجبك، وزوجك، ودلك على الله.

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

لو أن الأب أو الأم أمراك بمعصية ولتكن أكبر معصية، الشرك بالله.

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان: 15]

لكن بنعومة، لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يحادون الله ورسوله ولو كانوا آباءهم، الإحسان غير الولاء، لو أن إنسان له أب عاص غارق في المعصية، فالإحسان إليه شيء، والولاء شيء آخر، وهو ممنوع، أب يشرب الخمر، ويقترف الفواحش، ولا يصلي، وظالم، هذا الأب في الحقيقة أب ينبغي أن تحسن إليه لكن لا ينبغي أن تواليه وتقره على أعماله.

السلامة والسعادة الحقيقية لا تتحقق إلا بعبادة الله العبادة الشمولية :

قال:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان: 15]

أيها الأخوة، الشيء اللطيف في الإسلام والعجيب وجود تضامن اجتماعي على أساسين؛ على أساس جغرافي وأساس نسبي، الضمان الاجتماعي في الإسلام أساسه جغرافي الجوار، وأساسه نسبي ذوي القربى.

يقول الله عز وجل بعد أن بدأ بالأمر بعبادته بالمعنى الواسع لا بالمعنى الفقهي أن تصلي، وتصوم، وتحج، وتزكي ليس غير، لا، بالمعنى التعبدي الواسع الشمولي أن تطيعه في كل ما أمر، وتنتهي عن كل ما نهى عنه وزجر، والعبادة غاية الخضوع، والحب، والولاء، والإخلاص، والتوكل، وفيها جانب معرفي وسلوكي وجمالي، فالجانب السلوكي هو الأصل، والمعرفي هو السبب، والجمالي هو الثمرة والنتيجة، وكل واحد من بني البشر شاء أم أبى يبحث عن سلامته وسعادته، والسلامة والسعادة الحقيقية لا تتحقق إلا بعبادة الله العبادة الشمولية، ينبغي أن تعبده فيما أقامك، أقامك غنياً العبادة الأولى إنفاق المال، أقامك عالماً العبادة الأولى تعليم العلم، أقامك قوياً العبادة الأولى إنصاف الضعيف، أقامك امرأة العبادة الأولى رعاية الزوج والأولاد، أقامك طبيباً العبادة الأولى أن تنصح المسلمين في طبك، أقامك محامياً العبادة الأولى أن تنصح الموكلين في دعواك، أقامك مهندساً أن

تنصحه في البناء، لذلك العبادة متعلقة بالحرفة، وبالأحوال الشخصية، وبالزواج، وبإنجاب الأولاد، وبتربيتهم، وبشؤون الصحة، ينبغي أن تعتني بصحتك لأنها ملك المسلمين، ينبغي أن تأكل كما أمر النبي أن تأكل، وأن تنام كما أمر النبي أن تنام، ينبغي أن تقيم علاقة مع زوجتك كما وجهك النبي عليه الصلاة والسلام، العبادة تشمل شؤون حياتك كلها، حتى في أدق الخصوصيات وفي أشد العلاقات دقة ينبغي أن ترعى العبادة، هناك عبادة فيما أقامك وعبادة أخرى في الظرف الذي وضعك فيه!

أمر العبادة يجب أن يكون متناسباً مع عظمة الله عز وجل :

لو أن عدواً اقتحم البلاد لا سمح الله ولا قدر فالعبادة الأولى رد هذا العدوان، لو أن مجاعة ألمت بالمسلمين العبادة الأولى إطعام الطعام، لو أن مرضاً ألم بالمسلمين العبادة الأولى أن ننهض جميعاً لمكافحة هذا المرض، ونعبد الله فيما أقامنا، وفي الظرف الذي وضعنا فيه، وفي الظرف الذي أظلّنا. العاشر من ذي الحجة العبادة الأولى فيه ذكر الله، في رمضان العبادة الأولى الصيام والقيام، يوم الجمعة يوم عيد المسلمين العبادة الأولى حضور صلاة الجمعة، وزيارة الأقارب والأرحام، أن تعبده فيما أقامك، وتعبده في الظرف الذي وضعك فيه، وتعبده في المهمة التي وكلك إليها. إذا كان العدو يتحدانا بالإفقار فكسب المال الحلال وإنفاقه في وجوهه الصحيحة أول عبادة.

اليوم العدو يتحدى المسلمين بالإفقار! يأخذون منا ثرواتنا ويهددونا، العبادة الأولى أن تكون منتجاً وكاسباً للمال، وتنفق هذا المال في وجوهه الصحيحة، وإذا كان العدو يتحدانا في إضلالنا فالعبادة الأولى تعني أن نوضح الحق، ونبين، وننشر الحق، ونلقي الحق على الناس، ونأتي بالحجج والبراهين والأدلة والمؤيدات، ونطالع، ونقرأ، ونؤلف، ونلقي الحق على الناس، وإذا كان العدو يريد إفساد أخلاق أبنائنا فينبغي أن نصونهم من كل فساد، ونهيئ لهم مناشط إسلامية، ونحفظهم، ونؤسس لهم كل ما يشدهم إلى الدين، إن أراد إفقارنا فالعبادة الأولى كسب المال الحلال، إن أراد إضلالنا فالعبادة الأولى أن نوضح الحق للناس، إن أراد إفسادنا فالعبادة الأولى أن نصون أجيالنا من الضياع والفساد، أما إذا أراد العدو أن يذلنا فالعبادة الأولى أن نثأر لشخصيتنا وكرامتنا وديننا، أما إذا اجتاح أرضنا ينبغي أن ننهض جميعاً لرد عدوانه، هذا المفهوم التعبدي الواسع الشمولي الذي يتناسب مع قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة: 21]

إله يأمر بحركات جوفاء وتمتمات لا معنى لها، ينبغي أن يكون أمر العبادة متناسباً مع عظمة الله عز وجل.

حركة الإنسان و سكناته يجب أن تكون متعلقة بالأحكام الشرعية :

حينما تذبح دابة ولا تحد شفرتك، وعندئذ لا ترتاح ذبيحتك، فأنت في معصية، العبادة أنك إذا ذبحت أن تحسن الذبح، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[سنن الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

أما هذا الذي يذبح الدجاجة، ثم يغمسها في الماء المغلي كي يسهل عليه نتف ريشها هذا يعصي الله، كل أوهامنا أن الدين صيام وصلاة بالجامع، بكل مهنة وحرفة أنت حينما تضيف مادة لصنعتك الغذائية تضر بالمسلمين أنت في أكبر معصية، ولو صليت ألف ركعة في اليوم، حينما تضيف مادة مسرطنة لكنها تحسن لون البضاعة، ولا ترعى صحة المسلمين فأنت في أكبر معصية، أنت حينما لا تعلم الصغار إذا كنت معلماً العلم النافع الصحيح فأنت في أكبر معصية، أنت حينما تتسلم قضية لموكل، ولا تحسن المرافعة أمام القاضي فأنت في معصية، أنت حينما تعالج مريضاً بسرعة ومن دون تؤدة وإتقان فأنت في معصية، كل حركاتك وسكناتك متعلقة بالأحكام الشرعية.

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى)

الدائرة الأولى أخوك، أختك، ابنك، ابن أخيك، ابن أختك، ذوي القربى، جدك، جدتك.

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى)

الدائرة الأولى من الأقرباء والثانية والثالثة والرابعة.

النبي عليه الصلاة والسلام يوجه بعض أصحابه أن يتوجه ليتصدق على بعض الأقربين فعَنِ الرَّبَابِ عَنْ عَمِّهَا سَلْمَانَ ابْنِ عَامِرٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْراً فَالْمَاءُ فَإِنَّهُ طَهُورٌ، وقَالَ: الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ))

[سنن الترمذي عَنِ الرَّبَابِ عَنْ عَمِّهَا سَلْمَانَ ابْنِ عَامِرٍ]

(وَبِذِي الْقُرْبَى)

التضامن الاجتماعي أساسه النسب، وكل إنسان يعرف أهله وأوضاعهم الاجتماعية ومشكلاتهم الصحية والاجتماعية والمالية والتربوية.

رعاية اليتيم وصلة القربى من أعظم الأعمال الصالحة :

قال:

(وَالْيَتَامَى)

اليتيم هو الذي فقد الأب والمعيل والراعي والولي، فقد الذي يهتم بشأنه، قد تجد من يعتني بالأيتام عناية لا حدود لها، ومع ذلك كل هذه العناية التي أساسها نفقات باهظة لا تساوي أن يكون الابن مع أبيه، لأنه ما من إنسان على وجه الأرض أحرص على سلامة ابنه وسعادته من أبيه وأمه، فهذا اليتيم فقد الأب المعيل المشرف المعلم، لذلك يقتدي منهج الله عز وجل أن ينهض جميع المسلمين لرعاية هذا اليتيم، وشاءت حكمة الله أن يكون سيد الخلق وحبيب الحق يتيماً إكراماً لليتامى، وأحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم، فأن ترعى يتيماً من أعظم الأعمال الصالحة.

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى)

تصور كل إنسان آتاه الله مالاً أو علماً أو جاهاً تفقد أقربائه، زارهم، دعاهم، كم تكون الحياة رائعة.

حدثني أخ ورجاني أن أنقل لكم قصته: نشأ على تقاطع بين أفراد أسرته، فلما حضر دروس العلم خطر في باله أن يزور أقرباءَه، طرق باب أحد الأسر في العيد لا يعرفونه قال: أنا ابن عمكم، فاستقبلوه، وقدروا له هذه الزيارة، ووعدوه أن يردوا له هذه الزيارة في بيته، دخلوا إلى بيته فإذا هو بيت لا تدخله أشعة الشمس إطلاقاً، تحت الأرض، وغير صحي، فهؤلاء الأقربون المحسنون تبرعوا له ببيت، بمبلغ جيد جداً، أقسم بالله أنه حينما وصلهم لا يقصد الذي حصل إطلاقاً، ولم يعلم أنهم يفعلون هذا، ولكن هذه بركة التواصل. إذا كل إنسان وصل أهله، تفقد أحوالهم؛ بالمناسبة أيها الأخوة، صلة الرحم لا تعني أن تزورهم فقط، بل تتفقد أحوالهم المعيشية التربوية العلمية، أن تسأل عن أولاد أخوتك كيف أحوالهم، ودينهم، وتوجيههم، وتحصيلهم، وصحتهم، أن تزورهم، وتتفقد أحوالهم، وتحل بعض مشكلاتهم، ثم تأخذ بيدهم إلى الله، هذا هو المعنى الدقيق لصلة الرحم.

تعبير الفقراء والمساكين إن اجتمعا افترقا وإن افترقا اجتمعا :

قال:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى)

الدائرة الثانية إنسان له خالة، عمة، عم، خال، ابن أخ، ابن أخت، حفيد جد، ينبغي أن يصل هؤلاء ويتفقد أحوالهم جميعاً، أن يمد إليهم يد المساعدة جميعاً، هذا هو الدين.

لذلك سبحان الله من أدق الأحاديث الشريفة ما ذكره النبي أن: صلة الرحم تزيد في الأجل؛ بمعنى أن الأعمال الصالحة التي تكتب لك من هذه الصلة كأنك عشت عمرين، بهذا المعنى.

(وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)

المسكين في القرآن الكريم تعبير الفقراء والمساكين، فإن اجتمعا افترقا، وإن افترقا اجتمعا، إذا قال الله: للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم؛ تعني الفقراء والمساكين، وإذا قال: المساكين؛ تعني الفقراء والمساكين، أما إذا قال: للفقراء والمساكين، افترقا! ليس الفقير من ترده اللقمة أو اللقمتان، ولكن الفقير الذي لا يجد حاجته، يسكن بيتاً، يبيع بيته! كيف هذا؟! أين سيسكن؟ لكن يحتاج لعملية جراحية لابنه، ودخله محدود، هناك من يتسم بضيق الأفق يبيع بيته، إذا باع بيته أين يسكن؟ فهذا اسمه فقير، دخله لا يغطي حاجاته، هذا ينبغي أن نساعده ونعينه إما لسنة أو لطول العمر، عن طريق تهيئة حرفة له أو أداة أو آلة أو مركبة، أما المسكين العاجز الساكن الذي لا يتحرك، ذو العاهة، فإذا قال الله: المساكين؛ تعني الفقراء والمساكين، وإذا قال: الفقراء؛ تعني الفقراء والمساكين، أما إذا قال: الفقراء والمساكين؛ عندما يجتمعان يفترقان، فالفقير هو الذي لا يجد حاجته، كل إنسان دخله أقل من المصروف الأساسي كالطعام والشراب وثياب ومعالجة ومأوى هذه أساسيات الحياة، فالذي دخله لا يكفي لأساسيات الحياة هذا عند الله فقير، أما المسكين الذي لا يتحرك، مصاب بمرض عضال، هذا ليس له دخل إطلاقاً.

في الآية التالية ثلاثة أنواع للجيران :

قال تعالى:

(وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

أخواننا الكرام، في مصطلح العلماء أربعون بيتاً من جهة الشمال هم جيرانك، وأربعون بيتاً من جهة الجنوب هم جيرانك، وأربعون بيتاً بجهة الشرق هم جيرانك، وأربعون بيتاً بجهة الغرب هم جيرانك، وأربعون طابقاً فوقك هم جيرانك، وأربعون طابقاً تحتك في اليابان هم جيرانك! أربعون بيتاً في كل الجهات هم جيرانك.

((مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيوّرثه))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

عندما يكون الإنسان في بناء، والجيران يحبهم ويحبونه، ويرعاهم ويرعونه، لو أنه سافر يسافر مطمئن البال.

حدثني أخ قال: كنت مسافراً، وابني دهس بسيارة قال: الجار كأنه ابنه أخذه للمشفى، وعالجه أدق علاج، وأعاده إلى البيت، وتتبع مشكلة السائق الذي فعل الحادث، ورعى تمريضه بعد حين والأدوية، هذا الجار، لذلك الجار شيء مقدس جداً. لكن هنا في الآية يوجد ثلاثة أنواع للجيران:

1 ـ الجار ذي القربى :

يوجد الجار ذي القربى، جار مسلم له حقان؛ حق الجوار وحق الإسلام، جار مسلم ابن أخيك له ثلاثة حقوق؛ حق الإسلام، وحق الجوار، وحق النسب، فكل جار له حق فوق حق الجار هو الجار ذي القربى، والجار ذي القربى أي عنده حق زائد، قد يكون قريباً وقد يكون مؤمناً، إن كان لك جار مؤمن فهذا شيء استثنائي، ويصلي الفجر، ويغض بصره عن أهلك، ويرعاك عند الشدة، يتفقدك، يزورك، يمدك بكل خير، والجار ذي القربى جار مؤمن أو قريب أو جار مؤمن قريب له ثلاثة حقوق، حق الجار، وحق القربى، وحق الإيمان.

2 ـ الجار الجنب :

هناك جار جنب، لك جار غير مسلم يجب أن ترعاه. يقال: إن أبا حنيفة رحمه الله تعالى له جار شاب أقلقه مدة طويلة جداً بغنائه، وله أغنية مشهورة: أضاعوني وأي فتى أضاعوا، فلما ألقي القبض عليه لمخالفة ارتكبها ذهب أبو حنيفة بمكانته الكبيرة للمحتسب، وتوسط له وأعاده، وفي طريق العودة عاتبه قال: هل أضعناك يا فتى؟ لعلك إن أحسنت إلى جار ليس ملتزماً يمكن أن ترده إلى الدين بإحسانك، وكم من جار التزم الشريعة بإحسان جاره له، هذا الجار الثاني جار الجنب جار لصيق فقط، من يسكن فوقك؟ لا أعرف! هذا شيء مألوف في زمن التفلت، بناء من أربع طوابق لا يعلم الجار من فوقه، ولا يوجد بينهما سلام، بينما المؤمنون الجار شيء مقدس، إن استعان بك أعنته، إن استقرضك أقرضته، إن أصابه خير هنأته، إن أصابته مصيبة عزّيته، إن مات شيعته، لا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الرياح إلا بإذنه، إن اشتريت فاكهة فأهدي له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذِه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، هذا حق الجار.

((مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيوّرثه))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

هذا الجار الجنب، إنسان قد يكون غير مسلم ينبغي أن تحسن إليه.

اطلعت على قصة لم يتح لي أن أراجع مدى صحتها، لكن لها معنى: كان للنبي جار يؤذيه، في أحد الأيام كفّ عن أذى النبي، فظنه مريضاً فعاده، فكانت عيادة النبي له سبب إسلامه، ينبغي أن تحسن إلى جارك ولو كان مسيئاً.

3 ـ الصاحب بالجنب :

قال تعالى:

(وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ)

هذا جار طارئ، أنت مسافر لحلب، الذي إلى جانبك هذا جار طارئ، في سفر، أو حفل، أو مشروع، أو طالباً في كلية، بعمل واحد، فكل معاملة طارئة مغطاة، والصاحب بالجنب، ويوجد علماء قالوا: هو زميل العمل، أنت في دائرة مدرس، هو مدرس معك، أو محام معك في المكتب، أنت طبيب، وهو طبيب معك في العيادة، تاجر جارك بالتجارة، زميل، زميل العمل، أو جار طارئ مسافر.

(وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ)

هؤلاء ينبغي أن تحسن إليهم.

عظمة الإنسان ليست في استعلائه بل في طاعته لله :

قال تعالى:

(وَابْنِ السَّبِيلِ)

المنقطع في الطريق ليس له مأوى، وقد فقد ماله، هذا ابن السبيل ينبغي أن نحسن إليه، وكثيرون هم أولئك الذين ينقطعون، هم طلاب علم أحياناً يطلبون مبلغاً ليعودون لأوطانهم، هذا المبلغ محسوب من الصدقات.

(وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَت أَيْمَانُكُمْ)

بالمفهوم الواسع عندك شاب في المحل التجاري، هذا موظف عندك ينبغي أن تعامله معاملة طيبة، عندك خادم ينبغي أن تطعمه مما تأكل، ومما تلبس، ولا تكلفه مالا يطيق، والليل له والنهار لك، إن كلفته ما يطيق ينبغي أن تعينه على ذلك، وتحسن إليه، هذا الإسلام، الفوقية العالية غير إسلامية، هذا أخ مؤمن تحت يدك، عمال بمعمل، موظفون في محل تجاري، خدّام في المنازل بالمعنى الواسع، هؤلاء ملكت شؤونهم، يعملون لصالحك ويتقاضون منك أجراً، بالمعنى التقليدي العبيد الذين أخذوا أسرى في الحرب.

(وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

أنت إنسان عظمتك ليست في استعلائك بل في طاعتك لله، من صفات النبي عليه الصلاة والسلام يصغي الإناء للهرة، ويخدم نفسه، وفي مهنة أهله، هذه من صفات النبي عليه الصلاة والسلام.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً)

اختياله لا أساس له، هو عبد فقير.

((إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجة عن أبي مسعود]

مختالاً في مشيته، فخوراً في كلامه.

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

[سورة البلد: 6]

أنا أنفقت على العرس كذا مليون، أنا في سفرتي كلفتني مئة ألف، هكذا يتباهى بإنفاق المال.

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

[سورة البلد: 6]

المؤمن لا يختال لا في مشيته، ولا في حركته، ولا في سكنته، كما أنه لا يفتخر بحاله بل يرى فضل الله عليه.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(21-69): تفسير الآيات 37 - 40 ، البخل والرياء لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-07-19

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان فيه نقطة ضعف في أصل خلقه لكنها لصالحه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية السابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

هذا نموذج بشري؛ بخيل، ويأمر الناس بالبخل، ويدِّعي أنه فقير، نموذج، ونموذج هيأ الله له عذاباً مهيناً، والعذاب الذي يذكره الله في القرآن قد يكون عظيماً، وقد يكون مهيناً، وقد يكون أليماً، هناك عذاب أليم، وهناك عذاب مهين، وهناك عذاب عظيم، فهذا الذي يبخل، ويأمر الناس بالبخل، ويدَّعي أنه فقير هذا أعد الله له عذاباً مهيناً.

أيها الأخوة، الإنسان فيه نقطة ضعف في أصل خلقه لكنها لصالحه يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 19]

وقد فسرت الآية نفسها معنى الهلع:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 20-21]

هذا ضعف في أصل خلقه، لماذا هو ضعف ولصالحه؟ لأنه إذا أنفق المال يرقى عند الله، طبيعة النفس جبلتها تحرص على ما في يديها،

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)

لو أنه لا يجزع ولا يخاف كيف يعالجه الله عز وجل؟ لو أنه لا ترتعد مفاصله إذا لاح له شبح مصيبة كيف يتوب إلى الله عز وجل؟ لو أنه لا يتأثر بالشدائد كيف يؤوب إلى الله عز وجل؟ لو أنه لا يعبأ بالمصائب كيف يتضرع لله عز وجل؟ إذاً لولا أن طبيعة النفس جزوعة أي شديدة الجزع ما تاب أحد إلى الله عز وجل.

السكينة هي رحمة الله والكآبة خروج عن منهج الله تعالى :

لو سألت ألف تائب ما سبب التوبة؟ لاح له شبح مصيبة، أو أنزل الله به مصيبة فاختل توازنه، فطبيعة الإنسان أنه جزوع، وجزوع على وزن فعول، أي شديد الجزع؛ أي لا سمح الله ولا قدر أبعد الله عنا وعنكم كل مرض عضال، لو أن إنساناً أجرى فحوصاً فأخبره الطبيب أن هناك ورماً خبيثاً، ربما لا يستطيع أن يقف على قدميه، سمعت عن طبيب أبلغ مريضه أنه مصاب بورم خبيث، وأنه قد يمتد به العمر إلى أربعة أشهر في اليوم التالي مات، لم يحتمل هذا الخبر، (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)، هذا الإنسان الذي لا يحتمل مرضاً عضالاً، ولا يحتمل فقراً مدقعاً، ولا يحتمل إذلالاً، ولا يحتمل قهراً، كيف يعصي الله؟ مشكلة الشارد عن الله أنه يعيش لحظته فقط، مثله كمثل النعامة تماماً، لا شيء يمكن أن يعطيك الأمل، ولا شيء يمكن أن يهبك التفاؤل إلا أن تكون مع الله، لذلك المؤمن يردد قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

له ثقة كبيرة بالله، مطمئن إلى المستقبل، الآن مرض الكآبة مرض نفسي خطير، من أشد الأمراض انتشاراً في العالم، كآبة، ضيق، غني ومعه كآبة، مدير عمل ناجح ومعه كآبة، يتمتع ببيت مثالي ومعه كآبة، الكآبة من خلق الله عز وجل، إذا خرج الإنسان عن منهج الله يصاب بالكآبة، ولو كان من أغنى الأغنياء، ولو كان من أقوى الأقوياء، ولو كان من أنجح الناس في أعماله، الكآبة مرض قد تصيب الناجحين، لذلك قالوا: إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، وقد يصابون بالكآبة، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، السكينة هي رحمة الله، والله سأقول كلمة لعل معظمكم يقول: إنها مبالغة، المنفردة مع السكينة تغدو قطعة من الجنة، والبيت الرائع مع فقد السكينة تغدو كالمنفردة، ومن ذاق عرف. إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك.

التناقض بين التكليف والطبع هو ثمن الجنة :

إذا تجلى الله على قلبك فأنت من أسعد الناس، وإذا حجبك الله عنه فأنت من أشقى الناس، إن أردت السعادة، إن أردت السلامة، ليس من طريق إلى السلامة والسعادة إلا أن تكون مع الله، لأن إذا كنت مع الله كان الله معك، وكن مع الله تر الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، فلذلك:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

شديد الخوف، شديد الجزع، لا يحتمل مرضاً، ولا فقراً، ولا سجناً، ولا إهانةً، ولا فقد ولد، ولا فقد زوجة،

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

هذا طبع فيه، الأصل في طبع الإنسان أنه حريص على ما في يديه، والتكليف أن تنفق، ولا بد من تناقض بين التكليف وبين الطبع، وهذا التناقض بين التكليف وبين الطبع هو ثمن الجنة، وما سمي التكليف تكليفاً إلا لأنه ذو كلفة، شيء مكلف، أي فيه معاكسة للطبع، وما دام الموضوع قد طرق فلا بد من تكملة له، التكليف يتوافق مع الفطرة، ويتناقض مع الطبع، والفطرة أقرب إلى النفس، والطبع أقرب إلى الجسد، وأوضح مثل إنك إذا صليت الفجر في وقته، وقد تكون قد أويت إلى الفراش الساعة الثالثة صباحاً تنام ساعة ونصفاً، أو ساعتين، وتستيقظ لصلاة الفجر، إنك تعاكس رغبتك في النوم، إنك تعاكس رغبتك في أن تبقى في الفراش، ولكنك بعد أن تستيقظ، وتتوضأ، وتصلي، ثم تأوي إلى فراشك ترتاح نفسك، أتعبك جسدك، وارتاحت نفسك، فأداء الصلاة في وقتها يتعب الجسد أحياناً ويريح النفس دائماً، فكل شيء من أمر الله ونهيه يتوافق مع الفطرة، وكل أمر ونهي يتناقض مع الطبع، وهذا هو جهاد النفس والهوى، وهذه هي الطاعة، وهذه الجنة يدفع المؤمن ثمنها حينما يضع رغبته تحت قدمه وينصاع لأمر الله، فلذلك الإنسان في أصل بنيته يحرص على ما في يديه، لكنه حرص معتدل، أما البخيل فعنده حالة مرضية، حالة حادة من الحرص، البخيل إنسان مريض، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر: 9]

ومن كلمة

(يوقَ)

معنى ذلك أن الشح مرض خطير، كيف أن الجسم يصاب بمرض عضال كالورم الخبيث، كالخثرة في الدماغ، كالفشل الكلوي، كتشمع الكبد، كالشلل، كذلك النفس من أشد أمراضها الشح، حريص على ما في يديه، يعيش فقيراً ليموت غنياً.

صفات البخيل :

قال بعض الشعراء:

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد

فلو استطاع بتقطيره تنفس من منخرٍ واحد

* * *

من شدة تقطيره، البخيل دائماً يشعر بمشقة بالغة إذا أنفق، ولو إذا أنفق ثمن طعامه، يحرم نفسه، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

إن أندم الأغنياء غني دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار، بخل ولم يعطِ، البخيل من صفاته الأخرى أنه يبخل عن نفسه، قد يبخل عن غيره، لكن البخيل في حالاته الحادة يبخل عن نفسه فلا يعطي نفسه ما تحتاج، ويرى أن كنز الدرهم والدينار أفضل عنده من تلبية حاجات نفسه، ثم إن البخيل له دعوة، كيف أن المؤمن له دعوة، والبخيل له دعوة، لا بد من أن يدعو الناس إلى البخل،

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ)

وفي بعض المصطلحات هناك فاسد، وهناك فاسد مفسد، هناك ضال، وهناك ضال مضل، فالبخيل أينما ذهب، وأينما حل ينصح الناس بعدم الإنفاق، لا يحتمل أن يرى منفقاً، يتألم أشد الألم، أو يراه غبياً، إما أن يتألم لأن إنساناً كشف بخله بإنفاقه، أو يراه غبياً بهذا الإنفاق، فهو لا يكتفي أن يكون بخيلاً يدعو الناس إلى البخل.

أيها الأخوة، البخيل لا يتمنى أن ينتفع الناس من حوله إطلاقاً، ولو لم يكن نفعهم من ماله، لا يتمنى أن ينتفع الناس من حوله إطلاقاً، ولو كان نفعهم ليس من ماله، هذه صفات البخيل، أما إذا حدثته وحدثك يشكو من الفقر، وهناك ظاهرة أيها الأخوة عجيبة، تجد إنساناً في هذه البلدة الطيبة دخله محدود، ولا يكفيه نصف الشهر، تسأله: كيف حالك؟ يقول لك: الحمد لله، يقولها من أعماق قلبه، يقول لك: الحمد لله، الله أنعم علينا بالصحة، أنعم علينا بسمعة طيبة، أنعم علينا ببيت فيه زوجة وأولاد، أنعم علينا بالإيمان، إذا أراد أن يعدد لك النعم التي أنعم الله بها عليه لا تنتهي، وهو مستبشر، ويعيش على الكفاف، بل إنه تحت الخط الأحمر، وقد تلتقي بإنسان يملك الملايين المملينة تجلس معه ساعة فلا تستطيع أن تقف.

الإنسان حينما يتصل بالله تتبدل صفاته وخصائصه :

حدثني أخ كريم، قال لي: دخلت على أحد الأثرياء، وقد ذكر رقماً لثروته قد لا يصدق، بآلاف الملايين، من شدة ما شكا إلي، شكا إلي بوار الأسواق، وسوء معاملة الناس له، وشكا بيته وزوجته، قال لي: والله لم أستطع أن أقف على قدمي، ذهبت إلى محلي التجاري كما يقول، فإذا امرأة محجبة تطلب منه مساعدة، وعينت له مكان إقامتها في إحدى القرى المحيطة بدمشق، قال: ذهبنا إلى بيتها للتحقيق فوجدناه بيتاً تحت درج، درج وتحته فراغ، الفراغ الأعلى غرفة، والأدنى حمام، مع فسحة سماوية صغيرة، هي تريد أجرة هذا البيت، ألف ليرة بالشهر، قال: دخلنا إلى البيت، أقسم لي بالله وهو عندي صادق، أنه ارتاح راحة لا حدود لها، بيت كأنه قطعة من الجنة، نظيف، الأطفال يمرحون، أبوهم مريض مضطجع على السرير، البيت محتشم، هذا البيت لا يمكن أن يسكنه إنسان،

ورأى السعادة والبشرى على وجوه من في هذا البيت، في اليوم الذي التقى فيه بالغني، وشكا له ما شكا، فالله عز وجل قد يعطيك الدنيا ولا يسعدك، وقد يحرمك منها ويسعدك

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ)

لحكمة بالغة، لذلك ارضَ بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس، البخيل إنسان محروم، يتمسكن، يدعي الفقر، يدعي أنه لا يملك نقود، يملك سندات، إذا جاءه من يستقرضه له كلام معروف مكرر، لا شيء بالصندوق أبداً، كله ديون وهموم، يقول لك: عندي ديون وعندي هموم، ولكن ليس عندي نقد ألبي به حاجتك،

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ)

فالنقطة الضعيفة في خلق الإنسان أنه،

(خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

هذا الطبع، قال:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 22]

معناها الإنسان حينما يتصل تتبدل صفاته، تتبدل خصائصه، وهذا معنى قوله تعالى حينما يحدثنا عن التائبين.

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)

[سورة الفرقان: 70]

أي كان بخيلاً فأصبح كريماً، كان جباناً فأصبح شجاعاً، كان غضوباً فأصبح حليماً، فالإنسان الذي يتصل بالله عز وجل ولا يتبدل خلقه هذه مشكلة كبيرة، معنى ذلك أن اتصاله كاذب ليس حقيقياً،

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

أي أحياناً الله جل جلاله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

وصف للمصلين الذين تُقبَل صلاتهم :

في بعض الأحاديث الشريفة يقول عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[عن جبير بن مطعم]

الإنسان حينما لا يكون بخيلاً، ولا يكون شحيحاً، هذه نعمة كبرى أنعم الله بها عليه، أي من خلال اتصاله بالله عز وجل اشتق من كمال الله الكرم، المؤمن كريم يجود بما لديه، والمنقطع عن الله بخيل، المنقطع عن الله يعود إلى أصل طبعه.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

من هم هؤلاء المصلون؟ ورد في بعض الآثار القدسية أنه:

((ليس كل مصل يصلي ، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع ، وكسا العريان ، ورحم المصاب وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها، ولا يتغير حالها))

[رواه الديلمي عن حارثة بن وهب]

أيها الأخوة الأكارم، النقطة الدقيقة أن المصلين كما قلت قبل قليل: ليس كل مصلٍ يصلي، من هو الذي تقبل صلاته؟ قال في قوله تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ* وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ* لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ*وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

[سورة المعارج: 23-26]

نعمة المال ومهامه :

قبل أن أتابع لا بد من تعليق من علم الكلام، الصفة قيد، فإن قلت: إنسان، هذه تعني ستة آلاف مليون في الأرض الآن، يكفي أن تقول: إنسان مسلم، الرقم نزل إلى مليار ومئتين، يكفي أن تقول: إنسان مسلم عربي، أصبحوا مئتين وخمسين مليوناً، يكفي أن تقول: إنسان مسلم عربي مثقف، مئة مليون، يكفي أن تقول: إنسان مسلم عربي مثقف طبيب، أصبحوا خمسمئة ألف فكلما أضفت صفة ضاقت الدائرة، فإذا قال الله عز وجل:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

ضاقت الدائرة، الآن:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

ضاقت الدائرة،

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

ضاقت الدائرة،

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

ضاقت.

(وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ* إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المعارج: 27-30]

ضاقت وضاقت، هذا المصلي الذي تبدل صلاته بنيته، ليس كل مصلٍ يصلي، هذا المصلي دائم الاتصال، الذي يحفظ لسانه وفرجه، صادق، أمين، عفيف،

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

ما معنى الكافرين هنا؟ كفر نعمة الله، نعمة المال نعمة كبيرة، أول هدف منها أنك تكفي أهلك، حبذا المال أصون به عرضي، لكن المهمة الأكبر أتقرب به إلى ربي، فكل إنسان مكن في الأرض من خلال المال، عنده مهمتان أن يصون عرضه بهذا المال، وأن يتقرب إلى ربه بهذا المال، أما الإنسان غير المؤمن إذا مكنه الله بالمال يظن أن هذا المال من أجل أن يزداد نعيمه في الدنيا، فينفق المال إنفاقاً فيه إسراف وتبذير في المباحات وفي المعاصي والآثام.

عند الموت الفقر الحقيقي فقر العمل الصالح :

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

الإنسان البخيل في بدايات حياته يظن أن المال هو كل شيء، يعبده من دون الله، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، يحلف يميناً كاذبةً من أجل المال، يطيع مخلوقاً ويعصي خالقاً من أجل المال، أما في منتصف العمر يدرك أن المال شيء، لكنه ليس كل شيء، أما على فراش الموت يدرك أن المال ليس بشيء.

والله حدثني أخ قال لي: رجل على فراش الموت جمع من الحرام ثمانمائة مليون ليرة، من القمار، وجاءه مرض عضال في سن غير متوقعة في سن مبكرة، هو على فراش الموت قال: ماذا أفعل؟ ليتني كنت متسولاً دون أن أملك هذا المال الحرام، قال له أحدهم وهو على فراش الموت: لو أنفقته كله لا تنجو من عذاب الله، فالإنسان في البدايات يظن أن المال هو كل شيء، بعد حين يرى أن المال ليس كل شيء، لكن عند الموت يراه ليس بشيء، إن الغنى غنى النفس.

أخواننا الكرام، عند الموت الفقر الحقيقي فقر العمل الصالح، من قوله تعالى:

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[سورة القصص: 24]

الفقر الحقيقي فقر العمل الصالح، أن تأتي يوم القيامة صفر اليدين، تروي بعض الآثار القدسية:

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه ؟ يقول : يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، فيقول الله له : ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول : يا رب

أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي بأنك خير حافظاً ، وأنت أرحم الراحمين ، فيقول الله له : أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

الرياء :

نموذج آخر هذا نموذج بشري متكرر:

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ)

[سورة النساء: 38]

هو لا يعرف الله، لكن يحب أن يكتب عنه أنه محسن كبير، يحب أن ينتزع إعجاب الناس، يحب أن يرائي بإنفاقه الناس، يحب أن يكسب مكانة علية في المجتمع، وهو ذو مالٍ كثير،

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ)

أي فيما بينهم وبين الفقير لا يعطونه شيئاً، أما في الجمع الغفير، وأمام إعلامٍ كبير ينفقون أموالهم من أجل أن ينتزعوا إعجاب الناس، وأن يحتلوا مكانة مرموقة في المجتمع.

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

وهناك حالات كثيرة جداً ينفق أحياناً مليون، وله قريبٌ قريب يعاني من مرض عضال، ويحتاج إلى عملية جراحية فلا يسعفه، لأن إنفاق المليون له صدى كبير في المجتمع، أما معونة هذا الإنسان الواحد بينه وبينه ليس لها صدى إطلاقاً:

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

أيها الأخوة الكرام، سأقول كلمة وأرجو أن تكون واضحة عندكم، إذا أمنت باليوم الآخر الإيمان الحقيقي الذي أراده الله إن لم تنعكس كل موازينك يكون إيمانك غير صحيح، الذي يؤمن باليوم الآخر يرى النجاح والفلاح في الإنفاق، والذي يؤمن بالدنيا وحدها يرى النجاح والفلاح في الأخذ، إن أردت أن تعلم ما إذا كنت من أهل الدنيا أو من أهل الآخرة انظر إلى نفسك: ما الذي يسعدك أن تعطي أم أن تأخذ؟ المؤمن بنى حياته على العطاء مع الإخلاص.

الآية التالية تبين أن في كل مجتمع نموذجين فقط :

قال:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-9]

كأن هذين النموذجين في كل مجتمع؛ إنسان آمن بالحسنى، آمن أنه مخلوق للجنة، وآمن أن هذه الدنيا دار عمل، وآمن أن هذه الدنيا دار إعداد، وآمن أن هذه الدنيا دار سعي، وأن السعادة والرخاء والقرب من الله في الجنة، هذا لأنه آمن بالحسنى يتقي أن يعصي الله، وهو مستقيم، ولأنه آمن بالحسنى بنى حياته على العطاء، همه أن يعطي، الحديث الدقيق:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

إن كان أكبر همك هو الآخرة جعل الله غناك في قلبك، وجمع عليك شملك، وأتتك الدنيا وهي راغمة، هؤلاء:

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

من باب الطرفة ربما لا يدفع أحدهم مبلغاً لمسجد إلا إذا وضعت قطعة من الرخام على أسفل المئذنة تنوه أن الذي أنشأ هذه المئذنة فلان، من دون هذه القطعة لا ينفق، معنى ذلك هناك خلل في إنفاقه، المخلص لا يعبأ، أنوه الناس بفضله أو لم ينوهوا، لكن أنا مكلف كمؤمن أن أنوه بفضل الآخرين، المؤمن ينوه بفضل الآخرين، لكن الذي ينفق ينبغي ألا يتأثر عطاؤه بالتنويه أو بعدم التنويه، هو لأنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر إذاً ينفق ماله رئاء الناس.

المال من نعم الله الكبرى يصل الإنسان بها إلى أعلى درجات الجنة :

قال:

(وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً)

أي هناك ملك يلهمك أو شيطان يوسوس لك، المؤمن يستجيب لإلهام الملك، والذي لا يؤمن يستجيب لإلهام الشيطان، طبعاً الشيطان يوم القيامة يقول:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة إبراهيم: 22]

أخواننا الكرام، يجب أن أنوه لهذه الحقيقة، المال من نعم الله الكبرى، ويستطيع الذي أتاه الله المال أن يصل إلى أعلى درجات الجنة، والنبي عليه الصلاة والسلام:

((لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل علمه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار))

[رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر وفي الباب عن أبي هريرة وغيرهما]

لذلك المال نعمة كبيرة جداً، أنت بالمال بإمكانك أن تفعل أعمالاً لا تعد ولا تحصى، بالتعبير المعاصر خيارات الأعمال الصالحة أمام الغني لا تعد ولا تحصى، بإمكانه أن يقدم عملاً لفقير، بإمكانه أن يزوج شاباً، بإمكانه أن يشتري بيتاً لزوجين اتفقا على الزواج ولا مأوى لهما، بإمكانه أن يرعى الأيتام، بإمكانه أن يوسع الدعوة إلى الله عز وجل، بإمكانه أن يتبنى الدعاة إلى الله، أبواب الخير المفتحة أمام الأغنياء لا تعد ولا تحصى، وهذه الأبواب كلها وراءها طرق سالكة إلى الجنة، أما الإنسان إذا كان غافلاً عن الله عز وجل، ولا يعرف الله، وليس مؤمناً باليوم الآخر يتوهم أن هذا المال من أجل متعه فقط، لكن الحقيقة العلمية أن متع الحياة لها سقف، لو أنك تملك ألف مليون، كم تأكل؟ وجبة، كم ثياب ترتدي مرة واحدة؟ ثياب واحدة، على كم سرير تنام؟ على سرير واحد، في كم بيت تسكن؟ في بيت واحد، الدنيا لها سقف، مهما كنت غنياً فهناك سقوف تحد من قدرتك على الاستمتاع بالمال، أما الآخرة فلا نهاية لها، لذلك من قدم ماله أمامه سره اللحاق به، وقد يصل الأغنياء من المؤمنين إلى مراتب علية جداً، وأبواب الخير ولا سيما في هذه الأيام والله لا تعد ولا تحصى، والله هناك فقر شديد، وهناك أمراض كثيرة، وهناك حاجات كثيرة تحتاج إلى من ينفق، لذلك الغني المسلم له شأن كبير في المجتمع الإسلامي، لأنه يسد ثغرةً كبيرةً، الناس في أمس الحاجة إليه، وأنا حينما أتحدث عن البخل هؤلاء الذين ما عرفوا الله، وما عرفوا الدار الآخرة.

المؤمن إذا عرف الله عز وجل جاءته الدنيا وهي راغمة :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً)

هل يقل استمتاعك بالحياة إذا آمنت بالله واليوم الآخر، ليس في الإسلام حرمان أبداً، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها، لو أنك آمنت بالله واليوم الآخر هل أنت محرم عليك أن تأكل كل مما لذ وطاب؟ هل أنت محرم عليك أن تتزوج؟ لا، تزوج، كل شهوة أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها، أي أنه ليس في الإسلام حرمان إطلاقاً، لكن في الإسلام تنظيم، ماذا عليهم؟ أي هذا الغني لو أنه اتصل بالله، وأنفق ماله في سبيل الله، وأكل، وشرب، واكتسى هو وأهله وأولاده ومن حوله ماذا عليه لو آمن بالله؟ ماذا عليه لو حقق الهدف من وجوده؟ ماذا عليه لو حقق علة وجوده وهي عبادة الله عز وجل؟ كأن فيها عتاب من الله، أي ماذا عليك أيها الطالب لو درست ونلت درجة عليا علمية، وافتخر بك أبوك، وكنت قرة عين

لأمك وأبيك، وحصلت دخلاً كبيراً، وتزوجت امرأة صالحة، وأسست بيتاً إسلامياً، ماذا عليك لو درست؟ لمَ لم تدرس؟ ماذا عليك لو استقمت، هل تخرب الدنيا؟

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً)

[سورة القصص: 57]

قبل أن تسلموا كان لكم حرم آمن، بعد إذا أسلمتم تتخطفون من الأرض، المؤمن إذا استقام واصطلح مع الله هل يُحرَم الدنيا؟ لا والله، تأتيه وهي راغمة، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه، حياة المؤمن لها معنى آخر، إذا عرف الله عز وجل جاءته الدنيا وهي راغمة.

البخيل لا يعرف الله لأنه لو عرفه لعرف أن الله سيكافئه على إنفاقه أضعافاً كثيرة :

قال:

(وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً)

هم حينما يبخلون لماذا يبخلون؟ كي يستمتعوا بهذا المال، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

أنت حينما تنفق تنال من الله أضعافاً مضاعفة:

((أنفق بلالُ ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))

[أخرجه الطبراني عن بلال]

عبدي أنفق أُنفق عليك، وفي آيات ثمانية في القرآن الكريم يبين الله عز وجل أن الله يخلف على المنفق، هذا البخيل لا يعرف الله، لو عرف الله لأنفق ماله في سبيله، فالله عز وجل يقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة البقرة: 245]

إذاً هذا البخيل لا يعرف الله، ولو عرف أن الله سيكافئه على إنفاقه أضعافاً كثيرة، قد تصل إلى سبعمئة ضعف لدهش، الله عز وجل هو الكريم إذاً:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

وفي الدرس القادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(22-69): تفسير الآيات 40-42 ، عدل الله سبحانه وطاعة رسوله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-07-26

بسم الله الرحمن الرحيم

العقل البشري لا يستطيع أن يحيط بعلم الله عز وجل وعدله :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

أيها الأخوة، الله سبحانه وتعالى الذات الكاملة، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، والله عز وجل في كل أسمائه الحسنى مطلق، الإنسان نسبي، قد يقضي القاضي بمئة حكم، تسعة وتسعون منها أحكام عادلة، وفي أحكامه حكم واحد فيه ظلم يسمى عند الناس قاضياً عادلاً، لكن الله سبحانه وتعالى كماله مطلق، فلا يمكن أن يكون من الله عز وجل أي ظلم، ولو بدا صغيراً، الإنسان لا يستطيع أن يدرك عدل الله بعقله، لأن عقله محدود، وعقله مرتبط بمكان وزمان معينين، وعقله مرتبط بمعطيات محددة، لكن في حالة واحدة افتراضية يمكن أن تدرك عدل الله بعقلك إذا كان لك علم كعلم الله، ولأن هذا مستحيل وألف ألف مستحيل لا تستطيع أن تدرك عدل الله بعقلك، قد تجد شعوب غارقة في الفواحش والآثام، وشعوب أخرى تعاني ما تعاني، قد تسأل لمَ هؤلاء في بحبوحة وهؤلاء في ضنك؟ العقل البشري لا يستطيع أن يحيط بعلم الله عز وجل، قاصر لكن الله أخبرنا في قرآنه بآيات كثيرة جداً بأن الله سبحانه وتعالى لا يظلم:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

[سورة العنكبوت: 40]

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

[سورة النساء: 124]

لا قطمير، ولا فتيل، ولا نقير، وهذه الأسماء مشتقة من حياة العرب في صحرائهم، النواة لها رأس مأنف كإبرة تماماً، اسمه نقير، وبين فلقتيها خيط اسمه فتيل، ولها غلاف رقيق اسمه قطمير، لا تظلمون لا نقيراً، ولا قطميراً، ولا فتيلاً، (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ).

على عقلنا أن يقبل من الله أنه أخبرنا عن عدله :

قال تعالى:

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر: 17]

آيات كثيرة جداً تخبرنا عن عدل الله، فعقلنا ينبغي أن يقبل من الله أنه أخبرنا عن عدله.

إخواننا الكرام، هناك تسلسل في علم العقيدة، يمكن أن تؤمن بوجود الله و وحدانيته وكماله من خلال عقلك، ومن خلال هذا الكون الذي كله آيات دالة على عظمة الله، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، ولك أن تؤمن بالقرآن الكريم من خلال عقلك أيضاً لأن فيه إعجازاً كثيراً، آيات الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة جداً، ففي أدلة قطعية أنه لا يعقل، ولا يمكن، ومستحيل، وألف ألف مستحيل أن يكون هذا القرآن من صنع بشر، ثم إنك تستطيع أن تؤمن أن الذي جاء بهذا القرآن هو رسول الله أيضاً بعقلك، بعد أن آمنت بوجود الله و وحدانيته وكماله بعقلك، وبعد أن آمنت بأن هذا القرآن الكريم كلام الله بعقلك، وبعد أن آمنت أن الذي جاء بهذا القرآن الكريم هو رسول الله بعقلك انتهى دور العقل، وبدأ دور النقل أخبرنا الله عز وجل بأنه لا يظلم، هذا دليل أن هناك آية تكفي، ما دمت قد آمنت بالله بأنه هو الصادق، هو الكامل، هو الحكيم، هو الرحيم، هو القوي، هو المتين، هو الرزاق، ما دمت قد آمنت بأسمائه الحسنى من خلال هذا الكون ينبغي أن تصدق إخبارك بأنه لا يظلم، فأنا أعجب من هؤلاء الذين يبحثون عن أدلة عقلية بعدل الله عز وجل، قد تجد إنسان غارق في المعاصي والآثام، ويعيش حياةً مديدة بصحة طيبة، ويموت بهيئة راقية، من قال لك إن الدنيا هي دار جزاء، من قال لك ذلك؟ إنما هي دار ابتلاء فقط، فإذا عاقب الله بعض المسيئين يعاقبهم ردعاً للباقين، وإذا أكرم الله بعض المحسنين يكرمهم تشجيعاً للباقين، ولكن الدنيا ليست دار جزاء إنما هي دار ابتلاء، وليست دار تكريم إنما هي دار تكليف، التشريف في الآخرة والتكليف في الدنيا، الجزاء في الآخرة، والعمل في الدنيا، إذاً وطن نفسك على أنك في مرحلة ابتلاء.

آيات من القرآن الكريم تبين أن الدنيا ليست دار جزاء إنما هي دار ابتلاء :

قال تعالى:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

لا يقلقك أن ترى إنساناً كافراً يتمتع بالحياة الدنيا تمتع البهائم، يأكل، ويشرب، ويرتدي أجمل الثياب، ويسكن في أجمل البيوت، ويركب أجمل المركبات.

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

(مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

[سورة الإنسان: 27]

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ* فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

[سورة المدثر: 8-10]

على الإنسان أن يؤمن بعدل الله من خلال آياته وكلامه :

حينما تعتقد أو تتوهم أن هذه الدنيا دار جزاء وقعت في خطأ فاحش، لأنك سوف تفاجئ أنه قد تجد إنساناً كافراً منحرفاً غارقاً في المعاصي، وهو في أبهى زينة، وفي أكبر ثروة، وفي أجمل بيت، وقد تجد إنساناً حريصاً على طاعة الله حرصاً لا حدود له، ويعاني ما يعاني، إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، لا شك أن المؤمن يحب أن يوقن أن الله كامل، عادل، رحيم، حكيم، قوي، متين، بيده كل شيء، هذه المعاني ترتاح لها النفس، لذلك حقائق الدين متوافقة مع الفطرة، فأنت حينما تتمنى أن يكون عدل الله مطلقاً فمعك الحق، هذه فطرتك، ولكن لا تسلك طريقاً لم يسمح الله لك به أن تسلكه، ينبغي أن تؤمن بعدله من خلال كلامه، قال لك:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر: 17]

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

عدل الله عز وجل :

آيات كثيرة جداً، لكن أيها الأخوة في مشكلة أتمنى أن تكون واضحة لديكم أنت تعيش في مجتمع، وفي هذه المجتمع الغني والفقير، والصحيح والمريض، والقوي والضعيف، والوسيم والدميم، والمعمر وقصير العمر، ما الذي يحدث؟ ترى أن زيداً من الناس قد أصيب بمرض عضال، أنت اطلعت على قصة في آخر فصل من فصولها، ولأنك لا تدري بقية الفصول تقع في حيرة، لمَ يفسر

هذا المرض؟ والذي مرض إنسان مسلم مؤمن مستقيم فيما تعلم، قد تجد إنساناً آخر في أشد حالات المعصية والانحراف، ومع ذلك في بحبوحة وجسمه قوي، أيضاً أنت اطلعت على قصة في آخر فصل من فصولها، ولم تطلع على بقية الفصول، لكن ما منا واحد أيها الأخوة إلا وعنده بعض القصص، وقد تكون قليلة يعرف كل فصولها من أولها إلى أخرها، يرى عدل الله مطلق، يرى حكمته المطلقة، والله أيها الأخوة لولا أن الوقت لا يسمح، وأن مقام تفسير القرآن لا يتسع لقصص كثيرة، لكن والله عندي عشرات بل بضع عشرات، بل مئات من القصص إن سمعت فصولها كلها من أولها إلى أخرها ينبغي أن تخر ساجداً لله عز وجل، لعدالته المطلقة، لكن العقل البشري لا يستطيع أن يعرف كل شيء، الإنسان بحكم أقربائه ومن حوله، من يتعامل معهم قد يطلع على بعض القصص، فيرى عدل الله المطلق، ولكن آلاف القصص أنت لا تطلع عليها، تطلع على آخر فصل من فصولها، فربما لا تفهمه، قد تحار به، لذلك حينما يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)

لا يمكن أن يبخس لك عملك الصالح، ضحيت، بذلت وقت، بذلت جهد، وبالمقابل لا يمكن أن تنال ما لا تستحق، لا يمكن أن يبخس لك عملك الصالح، كما أنه لا يمكن أن تنال منه ما لا تستحق، هذا عدل الله عز وجل.

كل إنسان في علاقته مع الله يرى رأي العين أن الله عادل، على مستوى علاقتك مع الله، كم من إنسان أصيب بشيء ثم أدرك أن هذا الشيء يقابل هذا الشيء.

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[رواه ابن عساكر عن البراء تصحيح السيوطي]

الإنسان يمكن أن يظلم أما الله جل جلاله فلا يمكن لذاته الكاملة أن يظلم :

إن الله لا يظلم، والإنسان يحتاج إلى أن يظلم، لأنه فقير أحياناً فيأخذ ما ليس له، لأنه قوي، وعنده أحقاد فيأخذ ما ليس له، لكن الله جل جلاله لا يمكن لذاته الكاملة ولأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى أن يظلم، لذلك:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)

لو أنك نزعت من المسجد قشةً لا يزيد طولها عن سنتيمتر هذا العمل سوف تكافأ عليه، لذلك في بعض الأحاديث أنه:

((يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.))

[متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه]

لكن الآية الكريمة والله تملأ النفس راحة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية: 21]

هل يعقل ذلك؟ هل يقبل ذلك؟ هل يصدق ذلك؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

حدثني أخ كريم قال: ذهبنا إلى بلد غربي لشراء سيارتين وبيعهما في سورية، فذهبا إلى هناك بالطائرة، وعادا بهاتين السيارتين، في بلد أوربي أظن بولونيا، ناما في أحد فنادقها، بعد منتصف الليل طُرق باب كليهما من قبل امرأة، واحد فتح الباب، وعصى الله، والثاني قال: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين، الموقف واحد، واحد فتح، والثاني ما فتح، عادا إلى الشام واحد في صعود، والثاني في انهيار، بشر الزاني بالفقر ولو بعد حين.

أدلة تُبين أن الله عز وجل لا يضيع ولا مثقال ذرة :

أيها الأخوة الكرام، أحياناً تتأمل أفعال الله لا تملك إلا أن تخر ساجداً لله، لا يضيع عليك ولا مثقال ذرة، لو تكلمت كلمة، لو أكرمت شيخاً لسنه لا بد أن يُسَخِّر الله لك من يكرمك عند سن هذا الشيخ:

((ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض اللَّه له من يكرمه عند سنه))

[التِّرْمِذِيّ عن أنس رضي الله عنه]

حدثني أخ قال لي: رجل في بلد عربي من الدرجة الوسطى من حيث أخلاقه ودينه، وأقل من الوسط، وله أولاد ليسوا أبراراً، علاقتهم عادية جداً مع أبيهم، أصيب الأب بمرض عضال، قام أولاده على خدمته بطريقة لا يتصورها العقل، اهتمام، وبذل، وتضحية، لا الأب يستحق هذه الخدمة الراقية جداً، ولا الأولاد عهد منهم أنهم أبرار، ما السبب؟ لأن هذا الذي وقع في المرض كان باراً لوالديه، فهيأ الله له هؤلاء الأولاد مع أنهم ليسوا على المستوى المطلوب ليبروه عند مرضه، فعل الله واضح جداً، لكن أنا أتمنى على كل إنسان أن يقف عند أفعال الله، أن يتأملها، أن يحللها، يجد العجب العجاب، يجد رحمة، يجد عدلاً، يجد إنصافاً، يجد حكمة، يجد لطفاً أحياناً:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)

سيدنا عمر جاءه شارب خمر، فقال: أقيموا عليه الحد، فقال هذا الإنسان: والله يا أمير المؤمنين الله قدر علي ذلك، فقال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار، أنت مخير:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا)

قد تضع لقمة في فم زوجتك تود دلالها، ورحمة بها، تجدها عند الله يوم القيامة كجبل أحد.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

من يتاجر مع الله يأتيه الأجر أضعافاً مضاعفة :

قدم معونات لأخوانك المؤمنين، واس مرضاهم، تفقد فقرائهم، خذ بيدهم إلى الله، الوقت الذي تبذله معهم محسوب عند الله، والجهد الذي تبذله محسوب عند الله، والمال الذي تبذله محسوب عند الله، وقد تمشي مع أخيك في خدمته، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لئن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف شهراً في مسجدي هذا))

[عن ابن عمر وأخرجه البخاري]

تعمل عملاً صالحاً بإخلاص توددا من الله عز وجل ثم لا تجد الأجر الذي تستحقه؟ مستحيل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا)

أضعاف مضاعفة، كأن الله سبحانه وتعالى ينتظرنا أن نتاجر معه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الصف:10-11]

(وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

لا يليق بنا كبشر أن نكون لغير الله لذلك أعظم تجارة هي التجارة مع الله :

لو أنك عملت لإنسان ماذا يعطيك؟ والله أيها الأخوة، كلمة دقيقة: لا يليق بك كإنسان أن تكون لغير الله، وإذا كنت لغير الله غير الله ماذا يعطيك؟ يعطيك بيتاً في الحياة الدنيا، يعطيك مركبةً، من الذي بإمكانه أن يعطيك جنةً عرضها السماوات والأرض؟ إنه الله.

يروى أن أحد خلفاء بني العباس، وأظنه هارون الرشيد كان في الحرم المكي أيام الحج، رأى عالماً جليلاً زاهداً، قال له: سلني حاجتك، قال: والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيوت الله، فلما رآه خارج الحرم المكي قال له: سلني حاجتك، قال: والله ما سألتها ممن يملكها، فكيف أسألها ممن لا يملكها، فلما ألح عليه، قال له: حاجتي أن تدخلني الجنة، وأن تنقذني من النار، قال له: هذه ليست لي، قال له: إذاً ليست لي عندك حاجة، يعني لا يليق بك كإنسان أن تكون لغير الله، أنت حينما ترفض أشياء كثيرة ترفضها احتقاراً لها، قد ترفض بيتاً ثمنه كبير، وحجمه صغير، قد ترفض تجارةً متعبة، وربحها قليل، قد ترفض فتاةً لا تعجبك، ومهرها كبير، أنت أحياناً ترفض أشياء كثيرة، ترفضها احتقاراً لها، إلا أنك إذا رفضت دين الله عز وجل فإنك تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة: 130]

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

لذلك أعظم تجارة هي التجارة مع الله:

((يا علي لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الحاكم عن أبي رافع]

كل مكتسبات الإنسان في الدنيا لا وزن لها في الآخرة :

هناك شركات حجم رأسمالها يزيد عن ميزانيات دول، إحصائية ربما لا تصدقونها، شركة واحدة من الشركات العملاقة دخلها السنوي يزيد على الدخل القومي لبلد يبلغ تعداد شعبه خمسين أو ستين مليوناً، هذه الشركات لو أنك تملك واحدة منها مثلاً، قال: يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها.

((خير لكَ من حُمْرِ النَّعَم))

[أخرجه أبو داود عن سهل بن سعد الساعدي]

خير لك مما طلعت عليه الشمس، سيدنا موسى حينما سقى الفتاتين ابنتي سيدنا شعيب قال:

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[سورة القصص: 24]

حتى إنه في بعض الأدعية ورد أن:

((لا بورك لي بطلوع شمس يوم لم أزدد فيه علماً يقربني إلى الله))

[ورد في الأثر]

لذلك المؤمن همه الأوحد أن يقدم أعمالاً صالحة خالصة لله عز وجل، يبتغي بها وجه الله، هذا أغنى إنسان، لو إنسان فرضاً يملك مليارات من عملة معينة، فذهب إلى بلد لا يعترف بهذه العملة، إذاً هو فقير هناك، ربما لا يملك ثمن طعام، كل ما يملك من عملة غير مقبولة هناك، لذلك كل مكتسبات الإنسان في الدنيا لا وزن لها في الآخرة، هناك الوزن لعمل الصالح، الوزن لعمل صالح ابتغي به وجه الله، والعمل الصالح أيها الأخوة لا يقبله الله إلا إذا كان خالصاً وثواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وثواباً ما وافق السنة.

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل: 19]

العمل الصالح لا يُقبَل إلا إذا رضيه الله عز وجل، مقيد برضا الله عز وجل، ورضا الله عز وجل يتحقق أن يكون وفق سنة رسول الله.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

تعمل حفلة غنائية وريعها يرصد للأيتام، لا يصح هذا العمل، يانصيب خيري؟ يجب أن تعمل عملاً صالحاً وفق منهج الله، وتبتغي به وجه الله، هذه هي الثروة الحقيقية، هذا الذي يرفعك عند الله، والعمل الصالح يرفعك.

الله جل جلاله ألزم نفسه بهداية العباد :

ثم يقول الله عز وجل:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ)

أي كل أمة أرسل الله لها نبياً ورسولاً يشهد لها منهج الله، وعدل الله، ورحمة الله، وقد أخبرها أن هناك يوماً آخر فيه يحاسب الناس، فيه تسوى الحسابات، لأن الله عز وجل لا يمكن أن يدع عباده من دون رسول، من دون إرشاد، لقوله تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

الهدى على الله، وكلمة (على) مع لفظ الجلالة تفيد أن الله ألزم نفسه بهدى العباد، الله جل جلاله ألزم نفسه بهداية العباد:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ)

(شهيد) صيغة مبالغة على وزن فعيل، أي نبي كريم يتقن لغة قومه، فصيح، كامل، معصوم، يبين، يوضح في أعلى درجة من الفطانة، والحكمة، والبيان، والفصاحة:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ)

الله تعالى لعلمه بالغيب جعل سنة رسوله متداولة في شتى بقاع الأرض :

تروي بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من ابن مسعود أن يتلو أمامه القرآن، فقرأ له سورة النساء، فلما وصل عبد الله بن سعود إلى قوله تعالى:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)

قال له: حسبك، فقال ابن مسعود: فنظرت إلى رسول الله فإذا عيناه تذرفان.

إخواننا الكرام، سنة رسول الله بين أيدينا، لأن النبي خاتم الأنبياء، وخاتم الرسل، وكأن الله سبحانه وتعالى لعلمه للغيب جعل هذه السنة متداولة في شتى بقاع الأرض، والله ذهبت إلى أقصى مكان في الدنيا، سيدني، إذاعات إسلامية، الأحاديث، والقرآن، والتفسير، وقد تنبأ النبي بذلك، قال:

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

[من حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعا أخرجه الحاكم وصححه ورده الذهبي]

يعني أي مكان في الأرض فيه ليل ونهار، هذا الحق سوف يصل إليه، الآن لو ذهبت إلى معظم أقطار الدنيا، في أي مكان العلم الإسلامي مبذول في أي مركز إسلامي، عن طريق الأشرطة، وعن طريق المحاضرات، وعن طريق الضيوف، والمؤتمرات، فالنبي صلى الله عليه وسلم يشهد يوم القيامة أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وهدى العباد إلى سبيل الرشاد، الحجة قائمة علينا، ما من مشكلة على وجه الأرض إلا وفيها شرح أن هذه المشكلة سبب حصولها مخالفة منهج الله عز وجل، أبداً، لو كنت محللاً اجتماعياً، في أي بيت، في أي عمل، بين صديقين، بين شريكين، بين زوجين، ما من مشكلة إلا بخطأ ارتكبه أحد الطرفين، أو كلاهما:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً*يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمْ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً)

العبرة بالنهاية :

مشكلة الناس اليوم أيها الأخوة، أنهم يعيشون لحظتهم، ولو عاشوا مستقبلهم لارتعدت فرائصهم، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً، وفي بعض الروايات أن روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، و يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة عليّ.

حينما يدرك الإنسان أنه لا بد من أن يموت، والناس ماذا يفعلون؟ يعدون أعمارهم عداً تصاعدياً، والأولى أن يعدوا أعمالهم تنازلياً، ليسأل كل منا نفسه: كم بقي لي؟ ثم سؤال آخر: هل بقي بقدر ما مضى؟ والإنسان إذا تجاوز الأربعين أغلب الظن أنه لم يبق بقدر ما مضى، فإذا كان الذي مضى مَضى بلمح البصر، والذي بقي أيضاً يمضي كلمح البصر، وما من واحد منا وحوله أشخاص توفاهم الله عز وجل، كانوا أشخاصاً، وكان لهم بيوت وزوجات وأولاد، تجارة أو منصب، وله عاداته وتقاليده، وله مكانته، له أنماط حياة خاصة، يحب بعض الأكلات يستمتع ببعض الأشياء، فجأة أصبح نعياً على الجدران، بعد حين أصبح تحت التراب، ملف وانتهى، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

والليل مهما طـــال فلا بد من طلوع الفجر

و العمر مهما طــال فلا بد من نـزول القبر

* * *

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوم على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنــازة فاعلم بأنك بعدها مـحمول

* * *

(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمْ الْأَرْضُ)

العبرة أيها الأخوة بالنهاية، العبرة من يضحك آخراً، الناس اليوم يضحكون قليلاً حينما يغتنمون بعض الغنائم، يقتنصون بعض الشهوات حينما يحققون بعض مباهجهم في الدنيا، يضحكون، ولكنهم يضحكون قليلاً، فإن لم يكونوا على حق في كسبهم للمال، إن لم يكونوا على حق في اقتناصهم للشهوات فسوف يبكون كثيراً، لكنك إذا كنت بطلاً تضحك آخراً، تضحك حينما ترى مقامك في الجنة، تضحك حينما تموت على الإيمان، وا كربتاه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

النبي صلى الله عليه وسلم وحده يطاع استقلالاً :

إخواننا الكرام، ما لم تؤمن باليوم الآخر إيماناً حقيقياً، وما لم تنقل إليه كل اهتماماتك، وما لم يكن عملك الصالح موجه إلى الدار الآخرة مع الإخلاص الشديد فأنت لا تعيش الحياة التي أرادها الله لك، لذلك يقولون: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها جنة القرب، إنها جنة الطاعة، إنها جنة العمل الصالح:

(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمْ الْأَرْضُ)

ما قال: وعصوا الله:

(وَعَصَوْا الرَّسُولَ)

لأن الرسول أمرنا الله عز وجل أن نطيعه، يطاع رسول الله استقلالاً، يطاع الله في قرآنه، ويطاع النبي في سنته.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

لكن أولي الأمر يطاعون تبعاً، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أولو الأمر هم العلماء، وأولو الأمر هم الأمراء، العلماء يعلمون الأمر، والأمراء ينفذون الأمر، لكن طاعتهم مرتبطة بطاعة رسول الله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكن النبي صلى الله عليه وسلم وحده يطاع استقلالاً، لقوله تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

السنة الشريفة هي في حقيقتها تبيان لما في القرآن الكريم :

الآن أيها الأخوة، هناك موجة تجتاح العالم الإسلامي، هذه الموجة تكتفي بالقرآن، يقولون: حسبنا القرآن، فلو قبلنا معك هذه النظرية، أين تجد في القرآن عدد الصلوات، وعدد الركعات؟ وأين تجد في القرآن أنصبة الزكاة، أين تجدها؟ القرآن فيه كليات، أما التفاصيل ففي السنة الشريفة، بل إن السنة الشريفة هي في حقيقتها تبيان لما في القرآن الكريم، من هنا قال الله عز وجل:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

[سورة النساء: 80]

طاعة رسول الله عين طاعة الله، وطاعة الله تقتضي أن تطيع رسول الله والدليل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

هؤلاء الذين كفروا، وعصوا الرسول يتمنون يوم القيامة لو تسوى بهم الأرض، (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً)، الإنسان معه معلومات، إذا أدلى بها يخاف أن يقطع رزقه، أو يخسر منصبه، لذلك يكتمها، هذا الذي يسكت عن الحق شيطان أخرس.

أيها الأخوة، في درس قادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(23-69): تفسير الآية 43 ، أحكام تتعلق بالوضوء والتيمم والصلاة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-08-02

بسم الله الرحمن الرحيم

ورود آيات التشريع في القرآن الكريم متدرجة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثالثة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً)

أيها الأخوة الكرام، هذه آية في التشريع، وقد يبدو لنا أن الله سبحانه وتعالى جاء بالتشريع لحكمة أرادها الله متدرجاً، فحينما أراد الله عز وجل أن يلفت نظر المؤمنين إلى أن الخمر شراب ليس بحسن:

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل: 67]

كأن تقول: هذا طالب وهذا طالب جيد، معنى ذلك أن الأول ليس بجيد، هذه أول إشارة في القرآن إلى أن الخمر فيه ضرر.

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل: 67]

الحكمة من التدرج في آيات التشريع :

أن تأكل الفاكهة هذا رزق حسن، أما أن تخمرها فهذا رزق آخر، هذه أول إشارة، ثم جاء قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)

[سورة البقرة: 219]

سيدنا عمر سأل الله جل جلاله، ففي دعائه كان يقول: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، الآية الثانية: ماذا نستنبط من هذا التدرج؟ نستنبط من هذا التدرج أنك إذا دعوت إلى الله وقنع معك هذا الذي تدعوه، ثم وجدته يألف شيئاً فحاول أن تقنعه أن يترك هذا الشيء بالتدريج، لأنك لو ألزمته أن

يتركه دفعة واحدة لترك الدين، وترك التوبة، فإذا كان تعلق الإنسان بشيء ألفه واعتاده تعلقاً شديداً فمن الحكمة البالغة أن تتدرج في هذا الشيء، ليس معنى ذلك أن هذه الآيات يُعمَل بها الآن هي آيات منسوخة، لأنه في المرحلة السادسة، قال الله عز وجل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

أوقات الصلاة متقاربة، والسكر ضياع العقل، فلذلك امتنع الصحابة عن شرب الخمر فيما بين الصلوات المتقاربة، ولم يتح لهم إلا بعد صلاة العشاء، ثم نزل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة المائدة: 90]

وفي نهاية الآية:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)

[سورة المائدة: 91]

فقال سيدنا عمر: انتهينا يا رب، وعندئذٍ جاء التحريم القطعي، الفوضى في العلاقات الجنسية التي كانت في الجاهلية أيضاً جاء التحريم تدريجياً، فحكمة التشريع أن الإنسان إذا كان متعلقاً بشيء تعلقاً شديداً حتى أصبح عادة من عوائده ينبغي أن تتلطف في حمله على تركه، لئلا يترك التوبة أصلاً، ويترك الإيمان أصلاً.

للبيئة أثر كبير في اقتراف الذنوب :

أيها الأخوة الكرام، تروي بعض الروايات أن أحد الصحابة الكرام صلى بأخوانه فقرأ في الصلاة: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، من أثر السكر، فجاءت هذه الحادثة سبباً لنزول قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

ما بقيت، هذه الآيات المنسوخة طبعاً:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

معنى ذلك مسموح بنص الآية أن يشرب الخمر بعيداً عن الصلاة، هذه الآية منسوخة، لا يعمل بها، ولكن ما الحكمة من بقائها في القرآن الكريم؟ الحكمة أن تتعلم أنك إذا أردت أن تتعامل مع إنسان شارب للخمر فينبغي أن تكون متلطفاً معه، ليس العبرة أن تقمعه، ولا أن تحطمه، ولا أن توبخه، ولا أن تضع أمامه السدود، فهذا الذي قتل تسعاً وتسعين رجلاً، وسأل راهباً: ألي توبة؟ قال: لا فقتله، والحديث في الصحاح، ثم بين أن عالماً جليلاً قال له: لك توبة، على أن تغادر هذه الأرض، يعني البيئة لها أثر كبير في اقتراف الذنوب.

أي شيء يعيق المؤمن عن اتصاله بالله عز وجل ينبغي أن يدعه :

سيدنا عمر كان يدعو الله ويقول: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، بعض العلماء وسَّع كلمة السكر، وقال: إن المراد بالسكر في الأصل سكر الخمر، إلا أن بعضهم قال: هناك سكر النوم، ما الذي ينبئ عن معنى السكر، أنه لا يعلم ما يقول، فبعضهم قال: هناك سكر النوم، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه))

[متفق عليه عن عائشة رَضِيَ الله عنها]

وبعضهم قال: الحاقن الذي تجمع البول في مثانته بحجم كبير؛ هذا لا يستطيع أن يعي ما يقول، لذلك ورد عن رسول الله صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

((لا يصلين أحدكم وهو حاقن))

[عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الأرقم]

لا بد من أن تقبل على الله وأنت متفرغ، أي شيء يعيق إقبالك على الله ينبغي أن تبتعد عنه، حتى إذا جلست إلى طعام، وقد أذن العشاء وأنت جائع ونفسك تتعلق بطعام تحبه، فينبغي أن تصلي العشاء بعد أن تتناول العشاء، العبرة أن يكون قلبك فارغاً من أي شيء يحول بينك وبين الإقبال على الله عز وجل، حتى أن بعضهم قال: الأولى في الصلاة أن تزيل كل مشوش يشوش عليك في صلاتك، لو جاءتك رسالة، افتحها واقرأها ثم صلي، لو اشتريت آلةً وأنت تتساءل هل فيها هذه الميزة افتحها وادرس ميزاتها ثم صلي، أي شيء يعيق المؤمن عن اتصاله بالله عز وجل ينبغي أن يدعه، على كلٍ الأصل في الآية هو سكر الخمر:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

والعلماء قالوا: كلمة (لا تقرَب) ـ بفتح الراء ـ معناها لا تتلبس بفعل الشيء، أما (لا تقرب) بمعنى لا تقترب، فالذي حمل الآية على لا تقرب أي لا تصلي وأنت سكران، أما الذي حمل الآية على الاقتراب فيعني حتى مقدمات الصلاة ينبغي أن تكون فيها صاحياً.

الذي يصلي ولا يعلم ماذا قرأ في الصلاة هذا في حكم السكران :

أيها الأخوة الكرام، ثم يقول الله عز وجل:

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

وقبل أن ننتقل إلى الفقرة التي تليها، لو أن الإنسان ليس سكراناً، لكنه غائب في همومه في الصلاة، يحدث نفسه بحديث الدنيا، ومشاغلها وشهواتها، وجمع أموالها، ومستقبله، هذا الحديث يجعله في حكم السكران، لأنه ما عقل عن الله شيئاً، لأنه لا يعلم ما يقول، إذاً الذي يصلي ولا يعلم

ماذا قرأ في الصلاة هذا في حكم السكران، هناك قصص كثيرة أحياناً يصلي عدد غفير من الناس وراء إمام لو أن الإمام سألهم: ماذا قرأت في الركعة الأولى؟ ربما لا تجد من بين المئة مصلٍ إلا عدداً قليلا جداً يذكر ماذا قرأ في الركعة الأولى، إذً ليست هذه الصلاة التي أمر الله بها، ليست هذه الصلاة التي أرادها الله لنا، قال:

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ*صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة: 5-7]

تقرأ:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة الإسراء: 53]

ألم تسأله أن يهديك الصراط المستقيم؟ جاء الجواب، فكأن الآيات التي تقرأها عقب الفاتحة هي إجابة الله لك حينما سألته أن يهديك الصراط المستقيم، أنت حينما تركع فحالة الركوع حالة خضوع لله عز وجل، كأن لسان حالك يقول: سمعاً وطاعةً يا رب، سألتزم بذلك.

الركوع حالة خضوع لله عز وجل :

قال لك في الصلاة:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

[سورة البقرة: 83]

قال لك في الصلاة:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

قال لك في الصلاة:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأعراف: 200]

حينما تقرأ الآية عقب الفاتحة على أنها الجواب الإلهي عن سؤالك: اهدنا الصراط المستقيم، تكون قد علمت ما تقول في الصلاة:

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

إذا ركعت فالركوع حالة خضوع لله عز وجل، أما إذا سجدت لأنك في الفاتحة تقول:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة: 5]

حينما جاءك الأمر خضعت له، لكنك ضعيف لا تستطيع أن تقيم أمر الله إلا بمعونة الله، فيأتي السجود وفيه طلب العون من الله، أي لسان حالك في السجود إياك نستعين يا رب على أداء أوامرك، واجتناب نواهيك، كما ورد في بعض الأحاديث: أن لكل آية حظها من الركوع والسجود، هذه الآية التي قرأتها عقب الفاتحة لها نصيبها من الركوع، ولها نصيبها من السجود، إذاً أنت صليت وعلمت ماذا قلت في الصلاة، أما هذا الذي لا يعلم ماذا يقول هو في حكم السكران.

حكم من كان جنباً وهو مسافر :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

كأن الله عز وجل أراد هنا موضع الصلاة، أي لا يمكن أن تدخل المسجد جنباً إلا أن يكون عبور سبيل، كان بعض الصحابة الكرام لهم بيوت مطلة على المسجد، فإذا أراد أن يجلب الماء للبيت، وكان جنباً، فلا بد أن يخترق المسجد، فجاء هذا الحكم، أنه يجوز للجنب أن يمر في المسجد مروراً عابراً لا إقامةً ولا صلاةً:

(وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

قد يفهم من هذه الآية أنك إذا كنت مسافراً، وأصابتك جنابة، ولم تجد ماء تغتسل به فلك أن تتيمم، ولك أن تصلي، وقد ورد عن بعض الصحابة أنه استفتي في إنسان شج رأسه، فاحتلم في الليل، فسأل: ألي رخصة في ترك الوضوء؟ فقالوا له: لا، فتوضأ فمات، فغضب النبي غضباً شديداً، وقال: قتلوه قاتلهم الله، هلا سألوا إن لم يعلموا:

(وَلَا جُنُباً)

إذاً لا تستطيع أن تقرب الصلاة إذا كنت جنباً حتى تغتسل إلا إذا كنت مسافراً، وفي السفر رخصة لك أن تتوضأ وأن تصلي إن لم تستطع أن تغتسل، فإن لم تجد ماء أصلاً فلك أن تتيمم وأن تصلي إذا كنت مسافراً، كنت مسافراً، وليس هناك ماء ساخن، والوقت شتاء قارص، إذاً يمكن أن تتوضأ وتصلي، أما كنت مسافراً وليس معك ماء إلا للشرب إذاً يمكن أن تتيمم وتصلي، فأناس قالوا: لا تقربوا الصلاة، الصلاة نفسها، وأناس قالوا: موضع الصلاة، أي المسجد، والطائفة الثالثة قالت: أراد الله الصلاة وموضعها معاً، ذلك لأن الصحابة الكرام لا يأتون المسجد إلا للصلاة، ولا يصلون إلا مجتمعين في المسجد، فاختلط مفهوم الصلاة مع مفهوم مكان الصلاة.

السكر ضياع العقل :

إخواننا الكرام، السكران لا يعلم ما يقول، لأن السكر إغلاق للعقل، والعقل مناط التكليف، حدثني أخ قال: التقى بموظف في مستوى عال جداً من الحكمة، والوقار، والهدوء، والذكاء، ثم كانوا في جلسة، فشرب الخمر هذا الموظف، فتكلم كلاماً لا يمكن أن يتكلمه إنسان عاقل على وجه الأرض، فضح نفسه، تحدث عن خصوصياته، تحدث عن علاقاته الآثمة، تحدث، وتحدث..! لأن السكران معطل عقله، وكأن شيئاً سد عليه عقله، وكأن تدفق الأفكار سدت بالسكر.

تروي بعض الكتب أن إنساناً خيِّر بين أن يسكر، وبين أن يزني، وبين أن يقتل، فتوهم أن السكر أهون هذه الأشياء، فسكر، فزنى، وقتل بعدها، وكم من إنسان كان ثملاً فدخل إلى بيته وقتل كل أطفاله، ثم حينما صحا قتل نفسه، السكر ضياع العقل، لذلك ورد في بعض الآثار أن الشر كله جمع في بيت، فكان مفتاحه السكر.

أيها الأخوة، بعض الدول الأجنبية حرمت الخمر في الثلاثينات، قرأت بحثاً حول هذا الموضوع دهشت له، أنفقت مئات الملايين توعيةً للناس، طبعت آلاف النشرات، ومئات الكتب، وأدخل السجن مئات ألوف الأشخاص، ومع ذلك لم تستطع هذه الدولة أن تحرم الخمر، بل تفاقم شرب الخمر سراً، بل صنعت سفنٌ ذات جدارين كانت الخمور تهرب بين جدرانها، فلما يئسوا من تحريم الخمر أطلقوه، هذا الأمر كان في الثلاثينات، سبحان الله عند المسلمين الأمر غير ذلك، لا يفكر مسلم من عامة المسلمين لا أقول من خاصتهم، ولا أقول من مجتهديهم، لا يفكر مسلم من عامة المسلمين أن يشرب الخمر إلا إذا كان خارجاً عن الملة، أو غارقاً في المعصية والإثم، وهؤلاء بالنسبة لمجموع المسلمين قلة، وحينما يكون الآمر هو الله لا يمكن أن تخالفه.

مرة ضربت مثلاً، ممنوع أن تتكلم بهاتفك المحمول، وأنت تقود السيارة، هذا المنع مرتبط بالشرطي فقط، فإذا لم يوجد الشرطي تتكلم.

أما حينما أمرك الله أن تغض البصر في أي مكان كنت لا يراقبك أحد تستطيع أن تخترق أمر عز وجل، لذلك حينما يضع الإنسان التشريع، الإنسان الذي شرع له التشريع ذكي كواضع التشريع، فكثيراً ما يحتال عليه، حينما وضع إلزامٌ لقائدي المركبات ألاّ يتجاوزوا المئة فوضعت أجهزة رادار تكشف الذين يتجاوزن من قيادة سياراتهم السرعة القانونية، صنع جهاز يكشف جهاز الرادار، فكان الذي يقود مركبته حينما يعلمه جهازه أنه بعد خمس كيلومترات هناك جهاز رادار يخفف السرعة، إذاً حينما يضع الإنسان تشريعاً يكون واضع التشريع عاقلاً، والذي وضع له التشريع أكثر عقلاً، فالقضية معركة بين عقلين، أما حينما يكون المشرع هو الله عز وجل فالأمر مختلف، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال: والله إنني لفي

أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق وأمين، ولكن أين الله؟!

الذي يعبر المسجد وهو جنب إذا توضأ يجوز أن يبقى فيه وكذلك المسافر :

أيها الأخوة، ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

انظر:

(وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

الحكم، لا يمكن لإنسان جنب أن يصلي حتى يغتسل، إلا استثناء:

(إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ)

إذا كان ثمة ماء للوضوء فتتوضأ وتصلي، وإن لم يكن هناك ماء أصلاً فتيمم وصلِّ. الجُنُب أيها الأخوة، هو الذي جامع زوجته أو احتلم، وأجمع العلماء على أن الغسل يجب عند التقاء الختانين، أو عند الإنزال، في هاتين الحالتين يجب الغسل، وحينما قال النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((إنما الماء من الماء))

[مسلم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه]

أي الاغتسال يكون من الإنزال فقط، العلماء وجهوا ذلك الحديث إلى موضوع الاحتلام، فالذي احتلم ولم يجد ماء فليس عليه شيء، أما إذا احتلم ووجد آثار الماء على ثوبه الداخلي فعندئذٍ يجب أن يغتسل.

أيها الأخوة، هذا الذي يعبر المسجد وهو جنب إذا توضأ يجوز أن يبقى فيه، كذلك المسافر إذا دخل المسجد وتوضأ ولم يجد ماء للاغتسال فإنه يسمح له البقاء في المسجد.

حكم الشرع في الوضوء والاغتسال للمريض الجنب ومن في حكمه :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

نبدأ بالمرضى؛ المريض الذي يؤذيه الماء، أو يطيل في مدة شفائه، أو يزيد مرضه، أو إذا كان صحيحاً، لكن الماء يؤذيه برأي طبيب مسلم حاذق ورع، هذا يمكن أن يتيمم ولا يتوضأ، وإذا كان جنباً يمكن أن يتوضأ إذا كان في مقدوره الوضوء، أو يتيمم إن لم يجد الماء أصلاً، إذاً الصحيح الذي يخاف من الماء أن يؤذيه بإخبار طبيب مسلم حاذق ورع هو في حكم المريض، في حالات

خاصة هناك استعداد إلى مرض شديد بسبب الماء البارد، فالصحيح الذي يخشى الماء بإخبار طبيب مسلم حاذق ورع، أو المريض الذي يؤذيه الماء، أو المريض الذي يطيل الماء مدة شفائه، أو المريض الذي يعيق الماء شفاءَه، أو يعجل في تفاقم مرضه فهذا إنسان يمكن أن يتوضأ ويصلي إن كان الوضوء لا يؤذيه، ويمكن أن يتيمم إذا كان أصل الماء يؤذيه:

(وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

المسافر له أن يتيمم إن لم يجد الماء، وله أن يتوضأ إن وجد الماء، ويعفى من الاغتسال، الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى)

السفر وأنواعه :

الآن ليس هناك جنابة، لكن ثمة مرض:

(أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

الحقيقة السفر الشرعي الذي هو مباح، بالمناسبة أعلى أنواع السفر سفر الجهاد في سبيل الله، ثم يأتي بعده طلب العلم، ثم يأتي بعده طلب الرزق، هذا الذي أقر به الفقهاء، ثم هناك السفر المباح، ليس هناك معصية إطلاقاً ترتكب في السفر، هذا سفر مباح، أما والعياذ بالله الآن يقصد من السفر المعصية بشكل واضح جداً.

(وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ)

الغائط؛ المكان المنخفض، وكان الناس من حياتهم الخشنة، ليس هناك دورات مياه، فيذهبون إلى مكان منخفض ليقضوا حاجاتهم، كي يستتروا بهذا المكان المنخفض، فصارت كلمة الغائط كناية عن قضاء الحاجة:

(أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ)

كان في مكان منخفض قضى حاجته، وجاء إلى بيته:

(أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

التيمم لا يكون إلا بتراب طاهر :

أيها الأخوة، أما كلمة:

(لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

تفيد اللقاء الزوجي على خلاف بين العلماء، فبعضهم قال: المباشرة فقط، وبعضهم قال: المس فقط، وبعضهم الآخر قال: اللقاء الزوجي المعروف، ففي هذه الحالات الثلاث:

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

تعريف المرض قبل أن نتابع الآية خروج الجسم عن حد اعتداله، كل إنسان إذا عملت أجهزته عملاً طبيعياً يشعر براحة، وخفةٍ، ويستخدم حواسه، ويستخدم جوارحه، ويستخدم أعضاءه وأجهزته استخداماً صحيحاً، إذا أصاب الجسم خلل ينتقل إلى حالة ثانية، الآن:

(فَتَيَمَّمُوا)

أي هذه عبادة، أنت حينما لا تجد الماء لا بد أن تدخل في الصلاة بعمل آخر، والعبادة تكليف من الله عز وجل، والصعيد هو وجه الأرض، فينبغي أن يكون طيباً، والطيب كما قال بعض الفقهاء التراب الذي ينبت، لا التراب النجس، ولا التراب المجلوب، تراب الأرض، أو صخر الأرض، التراب أو الصخر، أو الحائط أحياناً شيء من الأرض:

(فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

يجب أن يكون هذا التراب طاهراً.

حالات يُباح فيها التيمم :

قال تعالى:

(فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ)

أيْ اضرب ضربةً تمسح بها وجهك، وضربةً أخرى تمسح بها يديك، هذا هو التيمم، والتيمم من رخص الله عز وجل للإنسان، لأن الصلاة كما قلت وأقول دائماً: فرض متكرر، لا يسقط بحال، في حالات كثيرة معك ماء، ولكن لا يكفي لوضوئك وشربك، والشرب أولى، معك ماء ولكن لا يكفي لوضوئك وطبخ طعامك، الطبخ أولى، أو وجدت ماء ولا سبيل إليه، ماء في قعر بئر، ولا تملك حبلاً ولا دلواً، أو كان سعره فوق طاقتك، ولا تملك ثمنه، الفقهاء عددوا حالات كثيرة جداً عندئذٍ يسقط الوضوء، ويجزئ التيمم، أو يسقط الغسل، ويجزئ التيمم، حتى إن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يرى أنه إذا علم أن الماء في الحضر مع خوف خروج الوقت الصحيح، وأردت جلب الماء فينبغي أن تتيمم، وأن تصلي، الآن الفقهاء وسعوا كلمة:

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً)

كما قلت قبل قليل إما عدمه جملةً، أو عدم بعضه، معك ماء للشرب هذا عدم بعضه، أما عدمه جملةً فليس هناك أثر للماء، وإما أن يخاف فوات الرفيق، أنت مسافر مع مجموعة يركبون الخيول، أو يركبون الدواب، فإذا ذهبت لإحضار الماء، والوضوء والصلاة فات الركب، وضللت عنهم، فإن فوات الرفيق أيضاً يجيز التيمم، أو أن رجلاً مطلوب ظلماً، فإذا ذهب إلى جلب الماء ألقي القبض عليه يجوز أن يتيمم، أو يخاف في طريق لصوصاً أو سباعاً، أو قطاع طرق، أو وحوشاً مكان

الماء، أو خاف فوات الوقت، أو خاف عطشاً على نفسه، أو على غيره، وكذلك لطبيخ يطبخه لمصلحة بدنه، هذا كله يجيز له التيمم مكان الوضوء، والتيمم مكان الاغتسال.

الآن مريض أمامه ماء، لكنه مشلول لا يجد من يأتيه بالماء، البيت فيه ماء، لكنه قعيد الفراش، هذا أيضاً يجوز له الشرع أن يتيمم، أو يخاف من ضرره، أو يخاف سعره المرتفع إذا كان يُشترى.

في التيمم لا بد من ضربتين ضربة للوجه وضربة لليدين :

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((جعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً))

[مسلم عن حذيفة]

وهذا من خصائص المسلمين، الأرض كلها مسجد، وترابها الطيب، وكله صالح للتيمم، معنى تيمموا؛ أي اقصدوا، يممت وجهي تلقاء مدين، يممت وجهي تلقاء حلب مثلاً، التيمم القصر، كأن الله عز وجل يقول:

(فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً)

أي وجه الأرض، صخراً، رخاماً، تراباً طاهراً:

(فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

ثم يقول الله عز وجل:

(فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ)

في آية ثانية في سورة المائدة:

(فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ)

[سورة المائدة: 6]

من الموازنة بين الآيتين استنبط الإمام الشافعي أنه لا بد من أن ينتقل جزء من الصعيد الطيب إلى الوجه واليدين،

(مِنْهُ)

وفي الآية الأولى لو لم يعلق شيء بيديك يجوز أن تمسح بوجهك، وأن تمسح بيديك دون أن تنقل من التراب شيئاً، القضية خلافية، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما وضع يديه على الأرض ورفعهما نفخ فيهما، وكأنه أزال أثر التراب، ومن آية (مِنْهُ) تفيد الآية فيما تفيد أنه لا بد أن يصل إلى جلد وجهك وجلد يديك شيء من صعيد الأرض، ويبلغ بالتيمم في اليدين إلى المرفقين قياساً على الوضوء، وبعضهم قال الكفين فقط، فإما يمسح الكفين، وإما المرفقين قياساً على الوضوء، وبعض العلماء قال: هل يجوز أن يكون التيمم ضربة واحدة، للوجه والمرفقين؟ الجمهور على أنه لا بد من ضربتين، ضربة للوجه، وضربة لليدين.

ملخص سريع لما ورد في درس اليوم :

أيها الأخوة، هذه الآية التي تمّ شرحها بفضل الله عز وجل آية متعلقة بالتشريع، لكنها دقيقة جداً ومتداخلة، أعيد تلاوتها يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وقد ذكرتكم سابقاً أن الأمور العقيدية ليس فيها حلول وسط أبداً، وليس فيها تدرج، نقطة من الشرك قليلة تعيق العبد عن ربه، في أمور العقائد لا تدرج ولا توسط، العقيدة حدية، إذا قلت: لا إله إلا الله، أي لا إله إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، أما التدرج أين؟ في الأمور التشريعية، وكأن هناك قاعدة أن الإنسان إذا دعي إلى الله، واستجاب لهذه الدعوة، وكان متعلقاً بشيء تعلقاً شديداً يمكن أن تستفيد من تشريع التدرج في عدم مطالبته بكل شيء، ريثما يقوى إيمانه، هذا معنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

أي الجنب لا بد له أن يغتسل إلا إذا كان مسافراً:

(وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

بمعنى جامعتموهن:

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً)

الرخص هي من تشريع الله عز وجل وحده :

من صفات الله عز وجل أنه عفو، العبرة أن تتصل به، وأن تقبل عليه، فلكل وضع حرج حكمٌ شرعي، والأمر إذا ضاق اتسع، والله سبحانه وتعالى لا يريد أن يجعل عليكم في الدين حرج، فهذا التيمم هو الوسع، وهو استثناء من الوسع، لأن الله عز وجل يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

من الذي يقدر الوسع؟ هو الله عز وجل، أما أن تقدر أنت الوسع فهذا مرفوض رفضاً كلياً، فالله عز وجل سمح بالتيمم، وسمح بقصر الصلاة، وسمح بترك الصيام للمريض والمسافر، وكل هذه الرخص هي من تشريع الله عز وجل، أما أن يخترع الإنسان رخصاً لنفسه فهذا دليل رقة دينه، وبعده عن الصواب.

وفي درس آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ* وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(24-69): تفسير الآيتان 44-45، الأسباب والمسبب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-08-09

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيء المرئي دليله معه أما الشيء المسموع فيحتاج إلى دليل وإلى بحث :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ* وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً)

أيها الأخوة الكرام،

(أَلَمْ تَرَ)

كلكم يعلم أن فعل رأى فعل قلبي أحياناً وقد يكون بصرياً، إن قلت: رأيت الشمس ساطعةً، فهذه رأى البصرية وساطعة تعرب حال، أما إن قلت: رأيت العلم نافعاً، فهذه الرؤية قلبية، إذاً نافعاً مفعول به ثان، فرأيت تستخدم مرة بصرية، ومرة قلبية.

الله عز وجل يعجب، وفي مطلع الآية استفهام تقريري، يعجب بطريق الاستفهام التقريري،

(أَلَمْ تَرَ)

الشيء المرئي كما تعلمون أيها الأخوة دليله معه، ليس مع العين، فأنت حينما ترى إنساناً يرتدي ثوباً أبيض لا يمكن أن تقول له: ما دليلك على أنك ترتدي ثوباً أبيضَ، الرؤية دليلها معها، بينما الخبر يحتاج إلى أن يكون المخبر صادقاً، أنت بالخبر تحتاج إلى بحث.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[سورة الحجرات: 5]

المنهج بالإسلام إن كنت ناقلاً فالصحة وإن كنت مدعياً فالدليل :

الأخبار تحتاج إلى مصداقية، لذلك كما تعلمون هناك يقين حسي أداته الحواس الخمس، وهناك يقين عقلي أداته العقل، وهناك يقين إخباري أداته الخبر الصادق، فالله سبحانه وتعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام، يخاطبه بأسلوب الاستفهام التقريري، يستفهم، وقد وقع الشيء، وهناك استفهام

إنكاري، واستفهام تعجبي، واستفهام تهكمي، الاستفهام يخرج عن حقيقته إلى عشرات المقاصد، هذا استفهام تقريري، وقد يعني التعجب، كيف؟ كيف هؤلاء أوتوا نصيباً من الكتاب هم أهل كتاب، هو على معرفة بالله عز وجل، هم على نوع من أنواع الاتصال به، هم جاءتهم رسالة، جاءهم وحي، ومع ذلك هل يعقل أن يفعلوا ما يفعلون؟ هل يعقل أن يفعلوا مع رسالة النبي عليه الصلاة والسلام بأن يكذبوه، إذاً:

(أَلَمْ تَرَ)

إخواننا الكرام، كما قلت قبل قليل: الشيء المرئي دليله معه، بينما الشيء المسموع يحتاج إلى دليل، والمنهج بالإسلام إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل، إن أردت أن تدعي شيئاً فينبغي أن تأتي بالدليل، أما إن كنت ناقلاً فينبغي أن تكون صادقاً، إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل، الحقيقة أنا حينما أرى إنساناً بهيئة غريبة، ومعي صديق أقول له: أرأيت إلى فلان، كيف يرتدي هذه الثياب، هنا رأيت على حقيقتها جاءت، أما حينما أخبره عن شيء لم يره، وأقول: أرأيت، فثمة معنى آخر، والله عز وجل يقول:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى)

[سورة العلق: 9-10]

النبي عاصر، والتقى بعبد قوي متعجرف ينهى الناس عن الصلاة ، فالله سبحانه وتعالى يقول له:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

هنا رأيت استخدمت على حقيقتها،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

أيعقل أن ينهى إنسان عبداً عن أن يعقد صلة مع الله عز وجل؟! استفهام تقريري بمعنى التعجب، لكن حينما يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

حينما أتوا كان النبي قد ولد لتوه، إذاً هنا رأى ليس معناها رأى على حقيقتها.

كلما ارتقى إيمانك تعلم أن مصداقية القرآن أصدق من أي شيء آخر :

أيها الأخوة، حينما يخبرك الله عن شيء فينبغي أن تأخذه، وكأنك تراه بعينيك، بل إن إخبار الله لك أصدق من عينيك، كلما ارتقى إيمانك تعلم أن مصداقية هذا الكتاب أصدق من أي شيء آخر، هذا هو الإيمان، لذلك قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

إذا حرم الله عليك شيئاً فينبغي أن توقن لو أن الإنس والجن اجتمعوا ليفكروا في محاسن هذا الشيء لا يجدون له محاسن إطلاقاً، إن الله حرمه، إذاً ينبغي أن تأخذ إخبار الله لك وكأنك تراه بعينك، وأصدق أنواع التلقي رؤية العين، ليس الخبر كالعيان، أصدق تلقٍ تتلقاه أن ترى الشيء بأم عينيك، لذلك هناك علم اليقين، وهناك عين اليقين، وهناك حق اليقين، أنت ترى جدار، ووراءه دخان، تقول: لا دخان بلا نار، استنباط عقلي قطعي يقيني، هذا علم اليقين، أما حينما تقترب من وراء الجدار فترى النار بأم عينيك، فأنت في عين اليقين، فإذا اقتربت من النار، وأحسست بوهجها فهذا حق اليقين، فالرؤية أعلى درجات التلقي، فإذا وردك عن الله خبر ينبغي أن تعلم علم اليقين أنه أصدق من عينيك، قد تخون العين، وقد تريك خلاف الواقع، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أخبرك فخبره كأنك ترى الشيء رؤيةً حقيقية.

حينما يرفض الإنسان الحق يحتقر نفسه :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ)

هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم أهل كتاب، جاءهم نبي كريم، وتبعه نبي كريم آخر، وجاء كتاب من السماء، وتبعه كتاب من السماء، ومع ذلك لا يتعظون، ومع ذلك لم يُقبلوا على هذا الدين، الأولى أن أول إنسان ينبغي أن يسارع إلى قبول هذا الدين من لهم صلة بالدين، من لهم صلة بالله، من كان معهم كتاب يوحى إليهم، فالشيء العجيب الذي هو مدار هذه الآية أن هؤلاء الذين هم أقرب إلى الإسلام من المشركين، أقرب إلى الإسلام من عبدة الإسلام، هؤلاء بالذات كانوا أشد المعارضين لهذا الدين، فلذلك حينما يرفض الإنسان الحق يحتقر نفسه، أنت قد ترفض أشياء كثيرة، وبرفضك إياها تحتقرها، لكنك إذا رفضت الحق إنما تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة: 130]

إذاً:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

على حقيقتها، أما:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

معنى ذلك هذا إخبار من الله، وينبغي أن تأخذه كأنك تراه بعينيك.

أيها الأخوة، لكل قوم نبي، كما قال الله عز وجل:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

[سورة الرعد: 7]

لكل قوم نبي، لأن لكل قوم خصوصيات، أمراض، مشكلات، حيثيات، نقاط ضعف، كل قوم لهم خصائص، فكان لكل قوم نبي يعالج هذه الخصائص، وتلك الثغرات، وهذه الأمراض، لكن بعلم الله جل جلاله أن هذه الأرض سوف تغدو قرية واحدة، ثم تغدو بيتاً واحداً، ثم تغدو غرفة واحدة، يمكن أن تقتني جهازاً صغيراً، مذياعاً وتستمع إلى أخبار الأرض في القارات الخمس، ماذا يجري في كل مكان، لأن الله يعلم أن هذا التواصل الذي سيكون سوف يعمم الأدواء ـ جمع داء ـ على كل الشعوب، وسوف يعمم الأمراض على كل الشعوب، لذلك كانت رسالة النبي عليه الصلاة والسلام خاتمة الرسائل، وكان النبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، وسوف تبلغ دعوته ما بلغ الليل والنهار.

الحكمة من أن النبي هو خاتم الأنبياء وأنه لكل الأمم :

والله ذهبت إلى أقصى مكان في الأرض، إلى أستراليا، وأقصى مكان في استراليا سدني، وجدت إذاعات إسلامية، ودروس العلم في هذه البلدة الطيبة هناك، يستمعون إليها صباحاً ومساءً، والقرآن يتلى في الإذاعات، والمحاضرات تلقى، وكأنني في الشام، ذهبت إلى أقصى مكان في الغرب الأمر نفسه، مؤتمرات، وإذاعات، ونشرات، ومجلات، وأشرطة، ومحاضرات، تنبأ النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا الأمر سوف يبلغ ما بلغ الليل والنهار، إذاً لأن الله سبحانه وتعالى علم أن سيكون هناك تواصل إذاً لا بد من نبي واحد لكل هؤلاء الشعوب.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

[سورة الأنبياء: 107]

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

[سورة التكوير: 27]

أيها الأخوة، حكمة أن النبي هو خاتم الأنبياء، وأن النبي لكل الأمم ما كان في علم الله من أن هذه الأرض سوف تغدو من قرية إلى بيت إلى غرفة واحدة، و الأبلغ من ذلك أن ما يجري من أقصى الغرب نتأثر به في أدنى الشرق، وأي حدث يقع في مكان له تداعيات في كل مكان، وهذا الشيء تعلمونه، وترونه، وتسمعونه، قد يقع شيء في أقصى الدنيا نتأثر هنا بكل مناح الحياة.

يا أيها الأخوة الكرام، هذا الذي أردت أن أمهد به لشمول رسالة النبي، ولاتساع رقعتها، ولأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، الحقيقة أن الإنسان يؤمن بالله بفطرته، ويؤمن بالله بعقله، ولكن الإيمان فطري، أنت حينما تأتي إلى الدنيا تجد كل شيء مسيراً بنظام عجيب.

الحليب في النجدين من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد: 8-10]

هذا الطفل الصغير الذي يأتي من علمه كيف يلتقم ثدي أمه؟ هل يستطيع أكبر أب في العالم، لو أنه يرأس أعلى جامعة في التربية أن يستطيع أن يعلم هذا الذي ولد لتوه كيف يلتقم ثدي أمه؟ وكيف يجعل شفتيه حول حلمة الثدي؟ وكيف يحكم الإغلاق؟ وكيف يسحب الهواء؟ تفضل وعَلِّم طفلاً وُلِد لتوه، معنى ذلك:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

النجدان هدية الله لهذا الطفل الصغير، الحليب في النجدين يتبدل في أثناء الرضعة الواحدة، في البداية 60% ماء، في نهاية الرضعة 40% ماء، يتبدل كل يوم بحسب نمو الطفل، وهؤلاء الأطفال الذين يرضعون رضاعةً صناعية يصابون بآفات قلبية، ويصابون بضعف الذكاء، ذلك أن حليب البقر فيه خمسة أضعاف من الحموض الأمينية التي لا تحتملها أجهزة الطفل، بينما حليب أمه مصمم من قبل خالقه ليتحمله الطفل بكل أجهزته، لذلك أجري إحصاء في بعض البلاد أن نسب الذكاء في العالم متفاوتة، طبعاً الفحوص موحدة فكانت جزر الباسيفيك تحتل المرتبة الأولى في ذكاء أبنائها، لسبب بسيط هو أنهم لا يعرفون الرضاعة الصناعية إطلاقاً، وقد تنتبهوا إلى أن القرآن الكريم قال:

(وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

[سورة الطلاق: 6]

(وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ)

ما ذكر الرضاعة الصناعية، ما ذكرها بالقرآن (وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)، لا بد أن يكون الحليبُ من أم مرضع، الطفل يأتي إلى الدنيا كل شيء ميسر، له أم تحرص عليه، له أب يحدب عليه،

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

الهواء يجدد بشكل مستمر، الماء، الطعام، الشراب، الثروات الباطنية، هذه الأرض فيها كل شيء، أيقبل إنسان أن هذا الشيء كله حدث بلا خالق؟!

الرسالات السماوية فحواها مراد الله لنا :

مثل بسيط، لو أنك في الصحراء تمشي لا سمح الله ولا قدر، ونفذ زادك، وضللت الطريق، ونفذ شرابك، وأصبح الموت محققاً، أخذتك سنة من النوم من شدة البكاء والخوف والقلق، واستيقظت

فرأيت مائدة فيها ما لذ وطاب، فيها من أنواع الطعام في الصحراء، فيها من كل ألوان الشراب، ألا تسأل من جاء بهذه المائدة، فالإنسان يؤمن بالله بفطرته، كل شيء في الكون يدل على الله عز وجل، لكن الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل كي يعلمنا مراده، ماذا ينبغي أن نفعل، فطرتك وعقلك ينبآنك أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، أن لهذا الكون قوة وراءه، الوحي ينبئك أن هذه القوة العظيمة هي الله، وأن هذه القوة العظيمة خلقتك بسعادة إلى أبد الآبدين، وأن هذه القوة العظيمة صممت الدنيا على أنها دار عمل، ولأن هذه القوة العظيمة تتصف بالصفات الفضلى، ولها أسماء حسنى، إذاً كأن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنبياءه ليعطينا مراده، أما إيماننا به فهو إيمان فطري.

ثمة حوار مع سيدنا علي رائع، قيل للإمام علي كرم الله وجهه: أعرفت ربك بمحمدٍ، أم عرفت محمداً بربك؟ يقول: لو عرفت محمداً بربي لما احتجت إلى رسول، ولكن عرفت ربي بربي، وجاء محمد ليبلغني مراد ربي، الرب موجود، لكن ماذا يريد منك؟ الرسالات السماوية فحواها مراد الله لنا، أي يا عبادي توبوا إليّ، يا عبادي استقيموا على أمري، يا عبادي كونوا صادقين، يا عبادي كونوا أمناء، يا عبادي افعلوا أعمالاً صالحة، تؤهلكم لجنة عرضها السماوات والأرض.

أيها الأخوة الكرام، المشكلة الآن أن معظم الناس يعيشون غايات قريبة، همه شراء بيت، همه الزواج، همه دخل، هذه همومهم، ولكن نخبة البشر تعيش غايات بعيدة، الإنسان يأتيه الموت قبل أن يتزوج، ويأتيه الموت قبل أن يحقق أهدافه، إذاً هذا الهدف غير صحيح، لأنه يُحقَق أو لا يُحقَق، لكن ما هو الهدف الذي يجمع الناس جميعاً بكل فئاتهم؟ إنه الموت، إنه الدار الآخرة، من هم أعقل الناس؟ من هم أذكى الناس؟ من هم أنجح الناس؟ من هم أشدهم فلاحاً؟ هو الذي عرف الهدف الأخير، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمنّى عَلَى اللَّهِ))

[أخرجه الأحوذي عن عبد الله بن عبد الرحمن]

أهداف الناس جميعاً أهداف دنيوية بينما المؤمن هدفه الآخرة :

يا أخواننا الكرام، الناس على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأديانهم، وأجناسهم، وأعراقهم، وأنسابهم، ومذاهبهم، وطوائفهم، في القرآن لا يزيدون عن فئتين، لا يزيدون عن نموذجين لا ثالث لهما، النموذج الأول هو النموذج الذي صدق أنه مخلوق للجنة، هنا المشكلة، أهداف الناس جميعاً أهداف دنيوية، بينما المؤمن هدفه الآخرة.

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)

[سورة الإسراء: 19]

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

[سورة القصص: 83]

هؤلاء أيها الأخوة، صدقوا بالحسنى، هم مخلوقون للجنة، والدنيا دار عمل، دار دفع الثمن، دار أداء السبب، هكذا، لأنهم أيقنوا أنهم مخلوقون للجنة حرصوا على طاعة الله، اتقوا أن يعصوا الله، ولأن الجنة مراتبها بالأعمال الصالحة، فبنوا حياتهم على العطاء.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-6]

هذا أول نموذج، هو بالترتيب معكوس، صدق بالحسنى فاتقى أن يعصي الله فأعطى.

الناس لا يزيدون عن نموذجين لا ثالث لهما :

النموذج الأول هذا الذي أعطى من وقته، أعطى من علمه، أعطى من خبرته، أعطى من كل ما يملك، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل: 7]

سوف نيسر له سلوك طريق الجنة، وسيصل إلى الجنة.

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 8-9]

كذب بالجنة، قال لك: هي الدنيا، هي جنة الإنسان، إن كان غنياً فهو في جنة، وإن كان فقيراً فهو في جهنم، الدنيا كل همهم، مبلغ علمهم، منتهى آمالهم، لأنه كفر بالحسنى، وصدق بالدنيا استغنى عن طاعة الله، هو لا يحتاج إلى طاعة الله لأنه كفر بالجنة، وكفر بيوم الجزاء، وكفر بالآخرة،

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

لأنه كفر بالحسنى استغنى عن طاعة الله، فبنى حياته على الأخذ، والاحتيال والنهب والسرقة والغش، وما إلى ذلك، قال:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل: 10]

لا تتحقق له لا الدنيا ولا الآخرة، خسر الدنيا والآخرة، لذلك أيها الأخوة، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

لم ينجح في مسعاه.

أذكى إنسان هو من يسعى لهدف يقيني متحقق بعيدويهيئ نفسه لبلوغه بنجاح :

أيها الأخوة، أنت حينما تؤمن بالغايات البعيدة، أي بالآخرة، بالموت، ألا ترون أن الموت يجمع كل الناس، يجمع أغنياءهم وفقراءهم، وأقوياءهم وضعفاءهم، وملوكهم ودهماءهم، وأصحاءهم ومرضاهم، وأذكياءهم وأغبياءهم، الحقيقة يوجد في الدنيا سباق أنا أسميه سباق الحمقى، لو تصورنا طريقاً عريضاً هو مجال السباق، وعندنا ألف سيارة، هذه السيارات على اختلاف قوتها، وضعفها، وكبرها، وصغرها، وميزاتها، وسنة صنعها، وحجمها، السيارة الأولى آخر الطريق في هاوية، أول سيارة في السباق وقعت في الهاوية، الثانية وقعت في الهاوية، الثالثة في الهاوية، إلى أن وقعت كل هذه المركبات في الهاوية، ما قيمة هذا السباق؟

يقاتل الناس، وينهب أموالهم، يكذب عليهم، يحتال عليهم، يخيفهم أحياناً، أو يسلك طريق الاحتيال معهم ليجمع ثروة طائلة، فيشتري بيتاً رائعاً، ثم يأتيه ملك الموت ليضعه تحت التراب، وقد ترك كل الدنيا، هذا الذي يحصل، يجمع دنياه لبنةً لبنة، قشةً فوق قشة، ليأتي ملك الموت ويأخذها منه في ثانية واحدة، ولا خاتمه، ولا مفتاح مركبته، ولا خصوصياته، كل إنسان له خصوصيات في بيته، كل يفتح ويستهلك، فلذلك أيها الأخوة أنت حينما تسعى لهدف حقيقي يقيني بعيد تكون ذكياً وفالحاً، حينما تسعى لهدف يقيني متحقق بعيد، وتهيئ نفسك لبلوغه بنجاح، فأنت أذكى الناس قاطبةً، إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزنكم أشدكم استعداداً له، ألا إن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ)

كيف؟

(يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ)

آيات قرآنية تبين أن الإنسان مخير بين الهدى والضلالة :

دقق الآن، في آية أخرى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى)

[سورة البقرة: 16]

دفعوا الهدى ثمناً وفقدوه وأخذوا الضلالة، بالبيع والشراء الثمن يذهب منك، ماذا يبقى معك المبيع؟ دفعت ثمن السيارة، الثمن أُخِذ منك فبقيت السيارة، الآن اشترى الضلالة بالهدى، ما الذي أخذه؟ الضلالة، ما الذي فقده؟ الهدى، أي هدى؟ الهدى الفطري، حينما تهتدي النفس إلى ربها بفطرتها، هذا الهدى أخذ منهم، وبقيت ضلالتهم، لكن الإنسان حر، اختار أن يكون ضالاً فلا مشكلة، الإنسان مخير، يقول الله عز وجل:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

[سورة فصلت: 40]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

هذا مشكلته أكبر،

(يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)

ضال مضل، كافر يدعو إلى الكفر، ملحد يدعو إلى الإلحاد، فاسق يدعو إلى الفسق، الله عز وجل يعجب، ويقول:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ)

ويشترونها بالهدى، وفوق ذلك يريدون أن يحملوا الناس عليها،

(وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)

الإنسان في الدنيا يعيش مع الأسباب أما في الجنة فيعيش مع المسبب :

يا أيها الأخوة الكرام، في الحياة حقيقة واحدة هي الله، وكل سلوك، وأي عمل، وأي كلام، وأي حركة تقرب إلى الله هي الحق، وأي سلوك، وأي كلام، وأي عمل يبعدك عن الله هو باطل، لأن الله سبحانه وتعالى هو الهدف.

يا أخوتنا الكرام، أنت مع من تعيش في الدنيا؟ مع الأسباب التي خلقها الله لك، تعيش مع زوجة هي مصممة أن تكون رفيقة حياتك، تعيش مع الطعام والشراب، هذا من خلق الله عز وجل، من أودع الطعوم في هذه الأطعمة الآية الكريمة:

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

[سورة الرعد: 4]

من أودع لهذه الأطعمة طعمها المحبوب، هذه التفاحة شكلها جميل، قوامها يتناسب مع أسنانك، ليست في قوام الفولاذ، طيبة، رائحتها عطرة، طعمها طيب، مذاقها حلو، مفيدة، فيها معادن، فيها حديد، فيها بروتينات، فيها فيتامينات، من أودع هذه الخصائص في هذه التفاحة، إذاً الله عز وجل أعطانا كل شيء. فلذلك أيها الأخوة:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)

هذا الذي يبحث عن هدفه الأخروي يسعى في الدنيا إلى أن يكون منضبطاً وفق منهج الله عز وجل، أنت في الدنيا تعيش مع الأسباب، طفل جميل جداً يملأ البيت بهجة، الزوجة ترتاح لها، إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك بمالك ونفسها، وإن أقسمت عليها

أبرتك، هذا الماء الذي تشربه لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، لو كان بطعم الورد لأخرجك من جلدك، لو كان بأي طعم لما احتمل، فجعله الله نعمة عظيمةً لنا.

إذاً أنت تعيش مع الأسباب، لكنك في الجنة تعيش مع المسبب، مع الخالق، وشتان بين خالق ومخلوق، ورد في بعض الآثار والأحاديث أن المؤمن يوم القيامة ينظر إلى وجه الله الكريم فيغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة، أنت في الدنيا تعيش مع الأسباب، وكلما ارتقت حياتك تأتي بالأشياء بأمر، بهاتف، بكبسة زر، لكن في الآخرة أي شيء تشتهيه تراه أمامك.

الجنة هي العطاء الحقيقي والدنيا أحقر من أن تكون عطاء الله عز وجل :

قال تعالى:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الزمر: 34]

(وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ)

[سورة الزخرف: 71]

يمكن أن تأكل في الدنيا تفاحتين فتشعر بثقل، لك أن تأكل في الجنة مليار تفاحة ولا تشعر بثقل، نمط الجنة نمط آخر، تعيش في الجنة مع مسبب الأسباب، أما في الدنيا تعيش مع الأسباب.

يا أيها الأخوة الكرام، هذه نقطة دقيقة جداً فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في الدنيا متاعب، في الدنيا أمراض، في الدنيا تقدم في السن، في الدنيا عجز أحياناً، في الدنيا فقد بصر، في الدنيا أمراض وبيلة، في الدنيا زوجة سيئة تخرج من جلدك منها، واحد سأل شيخاً: يا سيدي، إذا سمح الله لنا بدخول الجنة ما حكم زوجاتنا؟ قال: هي معكم، قال: أعوذ بالله، أنا أردت الموت لأخلص منها، هذه طرفة، أنت في الجنة تعيش مع المسبب، مع مانح الجمال، مع مانح القوة، مع مانح اللطف، لذلك الجنة هي العطاء الحقيقي، والدنيا أحقر من أن تكون عطاء الله عز وجل، لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء.

أسماء الله تعالى كلها محققة في الدنيا إلا اسم العدل محقق جزئياً :

قال تعالى:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

أيها الأخوة الكرام، أعيد هذا كثيراً طمأنةً لكم، أسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا إلا اسم العدل، لأن الدنيا دار عمل، قد تجد إنساناً في أعلى درجة من الكفر، ويهدد العالم كله مثلاً، وليس

ملتزماً بشيء، يسفك الدماء، ويقتل الأبرياء، ويستغل، وغير ذلك.. لكن الآخرة دار جزاء، فأسماء الله تعالى كلها محققة في الدنيا إلا اسم العدل محقق جزئياً، الله يعاقب بعض المسيئين ردعاً لبعض المسيئين، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً لبقية المسلمين، ولكن تسوية الحسابات، ولكن الحساب الختامي، ولكن الرصيد يؤدى يوم القيامة، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

هذه دار عمل، لو كنت فقيراً، لو كنت لا سمح الله مريضاً، لو كنت في الدرجة السفلى من المجتمع، وكنت مطيعاً لله:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

[سورة الواقعة: 1-3]

هذه الحقيقة.

ورود النار للمؤمنين ليروا تحقيق اسم العدل :

لذلك أيها الأخوة، ورد في بعض الآيات يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

[سورة مريم: 71]

النار،

(وَإِنْ مِنْكُمْ)

أي ما من واحد منكم إلا وسيرد النار، كيف؟ قال العلماء: ورود النار غير دخولها، ورود النار لا يتأثر واردوها بوهجها، ولكن ليروا العدل الإلهي في الذين كانوا في الدنيا يتصدرون، ويقصفون، ويذلون الشعوب، وينتهكون الأعراض، ويلبسون التهم للبريئين لا بد من ذلك أيها الأخوة الكرام، يراهم المؤمن في النار كي يتحقق من اسم العدل، وشيء آخر يرى مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً كي تتضاعف سعادته في الجنة، لذلك:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

ورود النار للمؤمنين ليروا تحقيق اسم العدل.

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

[سورة الصافات: 51]

فاسق، فاجر، مستعل، متغطرس، يسخر من العلم والعلماء، والدين أفيون الشعوب، ولا يعبأ به، غارق في الزنى والخمر،

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

[سورة الصافات: 55]

ورود النار يوم القيامة كي يتحقق للمؤمن اسم العدل، وكي تتضاعف سعادته حينما يرى مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً.

العدو الخطير للمسلم من يدَّعي الإسلام :

أيها الأخوة الكرام،

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

الله عز وجل بين لنا فقال:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران: 119]

إن الأحداث أثبتت أنهم لا يحبوننا، فالذين أحبوهم بسذاجة دفعوا ثمناً باهظاً ضاعت أموالهم كلها وأُذِلوا:

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً)

فينبغي أن تصدق الله عز وجل، يقول الله عز وجل :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً)

[سورة فاطر: 6]

كل كافر يعاديكم، الكافر يعاديكم ولو كان في المظهر لطيفاً ناعماً، فإنه ينطوي على حقد، والدليل حينما يُستَفز ينقلب إلى وحش، الإنسان الذكي أحياناً يلبس جلد الجمل وهو ذئب، الذي يراه من بعيد يظنه حملاً وديعاً، فإذا استفزه انقلب إلى ذئب مفترس، ألم تروا ما الذي يحصل في العالم الآن؟ هذه الدولة العظمى التي تزعم الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وكل شيء للإنسان، والإنسان هو الأول، بعد أن استُفِزت ماذا فعلت؟ فعلت ما لا يفعله المجرمون، فلذلك:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً)

أيها الأخوة الكرام، ليس العدو الخطير للمسلم هو الكافر، العدو الخطير للمسلم من يدَّعي الإسلام، العدو الظاهر تتقيه، تجادله، أما العدو الخطير هو الذي من جلدتك، الغرب أيقن أنه لا سبيل إلى مواجهة المسلمين، لا بد أن يصطنعوا اتجاهات مزيفة، يصفونها بأن هذا هو الإسلام، هذا اسمه تفجير من الداخل، ينبغي أن نكون صاحين، ما كل اتجاه إسلامي في إعلامه هو إسلاميٌ في حقيقته، الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

قد يكون العدو من بني جلدتك قد يكون العدو منافقاً كبيراً.

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

* * *

إذاً أنت حينما يقول الله عز وجل لك: هذا عدو لك فاحذره، ينبغي أن تصدق الله عز وجل، ولو رأيت من كلامه لطفاً ونعومة:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً)

ولياً؛ أن يتولى أموركم، ونصيراً؛ ينصركم على أعدائكم، وفي هذه الأيام الصعبة ما من شيء أحب إلى المؤمنين من أن ينتصروا، لكن النصر له ثمن وهو في مقدورنا؛ أن نؤمن بالله عز وجل، وأن نعد لأعدائنا ما نستطيع، الإعداد المتاح ليس المكافئ.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(25-69): تفسير الآيتان 46-47 ، ليّ أعناق النصوص

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-08-16

بسم الله الرحمن الرحيم

التبعيضية تعلمنا الموضوعية والتعميم من العمى :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية السادسة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً)

أيها الأخوة، يقول الله جل جلاله:

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا)

فهذه

(مِنَ)

كما يشرحها علماء العربية تبعيضية، أي بعض الذين هادوا يفعلون، وهذه التبعيضية تعلمنا الموضوعية، والتعميم من العمى، وإطلاق الأحكام من ضيق الأفق، هؤلاء بعضهم يفعلون كذا، وقال بعض علماء التفسير: إنها بيانية، أي:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً* مِنَ الَّذِينَ هَادُوا)

أي أعداءكم من الذين هادوا، أو أن تكون تبعيضية، أي أن بعض الذين هادوا يفعلون هذا، ماذا يفعلون؟ الحقيقة أمراض بني إسرائيل ذكرت في القرآن الكريم بشكل مفصل، لأن المسلمين مرشحون أن يقعوا فيها، وهذه طريقة تربوية عالية حينما يوجه الله قوماً إلى ثغرات وانحرافات يمكن أن يتلبسوا بها، ويسمي علماء التربية هذا الأسلوب بالأسلوب غير المباشر، وهو أوقع وأشد تأثيراً:

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)

الكلم؛ هو الوحي، الكلم هو كلام الله، وهو المقصود به هنا، حينما لا تستطيع أن تلغي النص، حينما لا تستطيع أن تنكر النص، من منَ المسلمين من شتى بقاع الأرض يجرؤ أن يقول: إن القرآن

ليس كلام الله؟ ليس هناك خلاف حول ثبوت كلام الله، أو لا يجرؤ أحد أن يقول: هذا القرآن ليس كلام الله، لكن كيف يطعنون في الدين؟ عن طريق تأويله.

تحريف الكلم عن مواضعه :

إذاً حينما ينحرف الإنسان عن منهج الله، فإن كان من بني إسرائيل فهو يحرف الكلم عن مواضعه، وإن كان من بني الإسلام يحاول أن يفسر كلام الله تفسيراً ما أنزل الله به من سلطان، وقد سمى العلماء هذه العملية سموها ليّ أعناق النصوص، الآية:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

[سورة آل عمران: 130]

النهي هنا عن الأضعاف المضاعفة، أما الضعف الواحد فليس فيه شيء، هذا تحريف للكلم عن موضعه، مثلاً:

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ)

[سورة المؤمنون: 117]

أنا معي برهان مثلاً.

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

[سورة الحج: 41]

لن نمكن، إذاً لا نصلي.

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحج: 99]

أتاني اليقين، فانتهت العبادة، هذا تحريف للكلم عن مواضعه. يا أخي القرآن ما حرم الخمر؟ كيف؟ يقول: فاجتنبوه، هذا أمر إرشادي، ما قال: حرمت عليكم الخمر، ما قال هذا الكلام، كل واحد يحاول أن يصل إلى تغطية شهواته بغطاء ديني.

عملية ليّ أعناق النصوص يلجأ إليها ضعاف الإيمان ليغطوا انحرافاتهم :

بالمناسبة الكتب التي صدرت في مؤخرة الزمان، والتي تغطي كل انحرافات الإنسان بغطاء ديني قرآني هذه كتب ما أنزل الله بها من سلطان، وقد يطبع الكتاب عشرات الطبعات، لا لشيء إلا لإقبال الناس عليه، وتفسيره سهل جداً، الإنسان يخاف أن يخرج من ملة الإسلام، وهو متشبث بشهواته المنحرفة، فإذا جاء من يقنعه أن انحراف الإنسان عن منهج الله مغطًّى بالقرآن، وأنه لا شيء عليه فهذا الكتاب يضعه في القلب، من هنا قال الله عز وجل:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

[سورة الأنعام: 112-113]

لماذا رضوا به؟ كي يقترفوا ما هم مقترفون، أي أنهم مصرون على شهواتهم، فإذا جاء كتاب فيه معاصرة، وفيه فهم لآيات الله ما خطر في بال أحد أصحاب رسول الله، ولا الذين من بعدهم، ولا الذين من بعدهم إلا في هذا العصر، حينما نفهم كلام الله فهماً يغطي كل انحرافات الإنسان فهذا الكتاب يقبل الناس عليه، إذاً حينما يستحيل أن ترد النص، وهو ثابت، حينما يستحيل أن تلغي النص ليس أمامك إلا أن تلوي عنقه، أن تحرفه، أن تصرفه عن غير مراد الله عز وجل.

المرض الذي تلبس باليهود وذمهم الله به تلبس به المسلمون فوقعوا به :

الشيء الثابت جداً أن بعض الناس يفسرون قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

لولا أن المرأة مسموح لها أن تبدي زينتها لما كان لهذه الآية معنى، هذا استنباط، والله ما يخطر في بال أحد هذا الاستنباط، المؤمنة تستر وجهها، وتتحجب، ولكن إذا وجد في الطريق امرأة متفلتة فأنت مكلف أن تغض البصر عنها، أما أن تفهم غض البصر، بمعنى أنه مباح للمرأة أن تظهر زينتها، هذا الفهم ما أنزل الله به من سلطان، إذاً لا سبيل إلى التفلت من منهج الله عز وجل ضمن المجتمع الإسلامي، أما بعيداً عن المجتمع الإسلامي يقال هذا القرآن ليس كلام الله، لكن ضمن المجتمع الإسلامي لا يستطيع أحد أن ينكر أن هذا كلام الله، ماذا يفعل إذاً؟ يلجأ إلى ليّ عنق النص، يفعل في تغيير الكلمة عن مواضعها، وهذا المرض الذي تلبس باليهود، وذمهم الله به في الأعم الأغلب تلبس به المسلمون، فوقع به المسلمون، وما من إنسان تراه منحرفاً إلا ومعه ما يتوهم أنه دليل:

(مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)

لذلك تأويل كلام الله أن تعيده إلى أوله، إلى المعنى الصحيح الأولي الذي انطلق منه.

أخطر ما في الدين أن يُحرّف :

ثم إنهم حينما غيروا الكلمة، وحرفوه عن مواضعه أباحوا لأنفسهم كل شيء، والله مرةً اطلعت على بعض ما في تلمودهم، وجعلت منه خطبةً في بعض الجمع، والله لا يصدق إنسان في الأرض أن يكون في كتاب مطبوع لدين أصله سماوي هذا التوجيه، يحلون لأنفسهم قتل المسلم، وإفقاره، ونهب

ماله، وإذلاله، وقهره، وأنتم حينما تقرؤون التلمود لا تعجبون أبداً مما يفعلون، هذا من تحريف أحبارهم في التوراة، الذي يفعله اليهود اليوم بالمسلمين بحسب كتبهم من واجباتهم الدينية، جرف الأراضي، وحرق الزروع، واقتلاع الأشجار، وقتل الأطفال، وإذلال الرجال، هذا كله عندهم شيء مقبول، لذلك أخطر ما في الدين أن يُحرَّف، من الذي سبب أن يرفض أناس أصول الأديان كلها؟ من هؤلاء الذين حرفوا الأديان، والدين إذا انحرف يرفضه الإنسان ذو العقل السليم، والفطرة السليمة، لأن الشريعة مصلحة كلها، الشريعة حكمة كلها، الشريعة رحمة كلها، الشريعة عدل كلها، أي قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة، ومن العدل إلى الجور، ومن الرحمة إلى القسوة، ومن الحكمة إلى خلافها فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل، إذاً كيف أن الدين يبدأ نقياً صافياً واضحاً، وكيف أن أتباع الدين في المراحل الأولى يأخذونه بقلوبهم، ويطبقونه تطبيقاً نصاً وروحاً، يتألقون به، كنت في عقد قران سمعت أحد الخطباء يقول، وقد أعجبتني هذه الكلمة: حينما فتح المسلمون مشارق الأرض ومغاربها لم يكن في حوزتهم إلا ستة مصاحف، والآن مئات الملايين من المصاحف، وقد غُزينا في عقر دارنا، القضية قضية تطبيق لا قضية مظاهر:

(مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا)

النص مسموع، لكن لسان حالهم:

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

لذلك المسلمون ألفوا عقب صلاة الجمعة أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، الأولى أن تقول: سمعنا وأطعنا، لا أن: تقول سمعنا وعصينا، لسان حالهم يرفض هذا الحكم.

لا يجرؤ اليهود أن يردوا القرآن الكريم لذلك يلوون عنق النصوص ويحرفونها :

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

اليهود قالوا: سمعنا وعصينا، ماذا يقول ضعاف الإيمان؟ يا رب نحن عبيد إحسان، ولسنا عبيد امتحان، يا رب لا يسعنا إلا فضلك، يا رب أمرتنا فلم نأتمر، ونهيتنا فوقعنا، ولا يسعنا إلا فضلك، كأنهم يقولون سمعنا وعصينا، ماذا قالت اليهود لنبيهم سيدنا موسى عليه الصلاة السلام :

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

[سورة المائدة: 24]

ماذا قال له الأنصار؟ يا رسول الله امض بما أردت فنحن معك، صل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعادِ من شئت، وصل ما شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فو الذي بعثك بالحق والذي تأخذه من أموالنا أحب إلينا من الذي تتركه إلينا، لو خضت بنا هذا البحر

لخضناه معك ما تخلف منا واحد، لعل الله يريك منا ما تقره عينك، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، فلعل الله يريك منا ما تقره عينك، هكذا الصحابة الكرام كانوا، إذا كانوا على أمر جامع لم يغادروا حتى يستأذنوا، إذاً اليهود:

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)

الحديث يردونه أحياناً، القرآن لا يجرؤون أن يردوه، إذاً يلوون عنق النص، يحرفون، يبدلون. أعداء الدين مكشوفون، واضحون، يعملون في النهار، يحولون الإسلام حرباً شعواء، هؤلاء ليسوا خطرين على الدين كما الخطر يأتي من أدعياء الدين:

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)

من الذين يغيرون النص إلى غير ما أراد الله جل جلاله.

أساليب يفعلها الخبثاء يأتون بكلام ظاهره مقبول وباطنه مرفوض :

قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

سمعنا كلامك، ولكن لم نطق أن نفعله، لم نطق أن نقبله، نحن نعصي، إذاً هم يعبدون شهواتهم من دون الله، وقد قال الله عز وجل:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً)

[سورة الفرقان: 43]

يعبدون شهواتهم من دون الله، والإنسان في الأصل إما يقبل على حقيقة أو على عبادة، أو على عمل صالح، وإما أن يقبل على شهوة،

(وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ)

الآن هناك أساليب يفعلها الخبثاء يأتون بكلام ظاهره مقبول، وباطنه مرفوض. يروى أن خياطاً اسمه زيد، كان كريم العين، أيْ فقد أحد عينيه، كان أعورَ، وخاط ثوباً لشاعر فلم يعجب الشاعر هذا الثوب فقال: والله لأهجونه ببيت لا يدرى أمدح هو أم ذم، قال:

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء

* * *

يا ترى يقصد أن تكون العين الكريمة بصيرة، دعوة له بالشفاء، أم أراد أن تكون العين السليمة كالكريمة دعوة له بالهلاك.

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء

* * *

هذا الأسلوب اسمه أسلوب التورية، معنى ظاهر مقبول، ومعنى باطن مرفوض، هو إذا عاتبته يدعي أنه قصد المعنى الظاهر.

يا سيداً حاز لطف اً له البرايا عبيد

* * *

شاعر يمدح أميراً قال له: أنت الحسين، يعني مقامك كمقام الحسين، جفاك فينا يزيد بن معاوية الذي أوقع بيننا العداوة والبغضاء، هو يزيد، ولسنا نحن، هو ماذا يقصد؟ أنت لست حسناً لكنك حسين، تصغير وتحقير، وجفاك فينا يزداد مع الأيام، لم يقصد يزيد الاسم، قصد يزيد الفعل.

أنت الحسين جفاك فينا يزيد

* * *

هؤلاء الخبثاء يتكلمون كلاماً ظاهره مقبول، وباطنه غير مقبول.

كلمات قصدها اليهود بمعنى آخر سيئ في لغتهم فيه سباب للنبي عليه الصلاة والسلام:

ماذا قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام،

(وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ)

يطلبون منه أن يستمع منهم، دون أن يكون مأموراً تعظيماً لمقامه، لكنهم قصدوا أنهم سوف يسمعونه كلاماً لا يسمعه من صحابته، سوف يقذعون في القول

(وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ)

إذا عاتبتهم يقولون: نحن قصدنا تعظيم مقامه، أي اسمع منا غير مأمور، ألا يقول العرفاء في الاحتفالات: كلمة من فضيلة فلان فليتقدم غير مأمور، هنا ادّعوا أنهم يقصدون ذلك،

(وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ)

ولكنهم أرادوا أن يقولوا: واسمع يا محمد كلاماً لا ترضاه، كلاماً فيه قسوة، وفيه اتهام،

(وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا)

وراعنا أي ارفق بنا، وقد يستخدم العامة هذه الكلمة في البيع والشراء، من الرعاية، من التلطف، من الاعتناء، من الرفق،

(وَرَاعِنَا)

لكن في لغتهم العبرية كلمة سيئة جداً، لذلك قال الله عز وجل:

(لَا تَقُولُوا رَاعِنَا)

[سورة البقرة: 104]

هم قصدوا معنى آخر، أحياناً تقول له: أنت مولع بكذا، ما المولَع؟ هو الثور الأحمر، يجب أن يقول: أنت مولْع بكذا، هناك أغلاط شائعة، لو أنك أردت معناها الحقيقي فهناك مشكلة كبيرة،

(وَرَاعِنَا)، نقول لك يا رسول الله: الطف بنا، ترفق بنا، أرادوا المعنى السيئ في لغتهم، الذي فيه سباب للنبي عليه الصلاة والسلام.

الاستقامة حدّية وليست نسبية :

لكن لي كلمة، لو أن طالباً والده أستاذ في الرياضيات، وهو أستاذه في الصف، في الصف الحادي عشر، والده أستاذ رياضيات في الصف نفسه، هذا الابن الأولى أن يقول لأبيه مدرس الرياضيات: يا أبتِ أعطني الأسئلة قبل يومين، أم الأولى أن يقول: قوِّ ضعفي في الرياضيات، أيهما أولى؟ أن يطلب منه أن يخون الأمانة، أم أن يطلب منه أن يعتني به في وقت مبكر حتى ينجح بجدارة، أحياناً المراعاة لا معنى لها، فهناك أسس علمية دقيقة، المراعاة لا معنى لها، أوضح مثلاً، إنك إذا أردت أن تبني بيتاً، وقال لك المهندس: لا بد لك أن تضع سبعة أكياس إسمنت في المتر المربع، ولا بد من حديد كميته كذا، وقطره كذا، وصفته كذا، فلو أن هذا الذي يريد أن يبني بيتاً قال للمهندس: راعنا، يكفي أربعة أكياس، يكفي نصف الكمية حديد، قضية بناء، قضية حسابات، قضية علم، فالمراعاة هنا لا معنى لها إطلاقاً، إذا رعاه المهندس سقط البناء، في الإسلام حدّيات، في أمور الاستقامة ليس هناك مراعاة، لأنك إن لم تستقم على أمر الله تحجب عن الله، الاستقامة حدية وليست نسبية، بينما العمل الصالح نسبي، مستودع للوقود السائل، محكم أي محكم، الإحكام قطعي، والإحكام حدي، ولا تفاوت في الإحكام، أما إن لم يكن محكماً هناك تفاوت في عدم الإحكام، هناك عدم إحكام يفرغ مستودع في سنة، وهناك عدم إحكام يفرغه في شهر، وهناك عدم إحكام يفرغه في ساعة، وهناك عدم إحكام؛ ما في قعر يفرغه في ثانية، عدم الإحكام نسبي، أما الإحكام حدي، ليس هناك تفاوت، حتى في اللغة العربية هناك أفعال ليست قابلة للتفاوت، لا يقال: فلان أموت من فلان، الموت حدي، فلان ما أموته، ليس هناك في اللغة أموته، الموت حدي، وليس هناك تدرج فيه، وليس هناك كلمة أمْوَت، الموت حدي، والاستقامة حدية، إذاً،

(وَرَاعِنَا)

لا معنى لها.

جاء أعرابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله عظني، ولا تطل، قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم، استَقم، نظر هذا الأعرابي، الاستقامة صعبة، قال له: أريد أخف من ذلك، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: إذاً فاستعد للبلاء.

قال لك الطبيب: لا بد من تدريبات رياضية، ولا بد من تناول الأدوية، ولا بد من تخفيف الوزن، ولا بد، ولا بد، إن انصعت إلى أمر الطبيب ربما شفيت، أما إن لم تستجب لأمر الطبيب لا بد من عمل جراحي، ليس في العلم مراعاة، الأمور في العلم أكثرها حدي،

(وَرَاعِنَا)

لا معنى لها.

أساليب ليّ اللسان لا تنتهي :

إذاً:

(وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ)

من يقول لك: يا أخي القرآن كتاب الله، أنت تبهج، القرآن الكريم قطعي الثبوت، شيء جميل، إذاً نحن لا نحتاج إلى السنة، بدأ بمديح القرآن ليصل إلى نفي السنة، لأنه قطعي الثبوت، وليس هناك خلاف على ثبوته، وهو كلام الله، وهو الجامع المانع الذي:

(لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)

[سورة الكهف: 49]

فيه كل شيء، لا نحتاج إذاً إلى السنة، القرآن يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

هذا لي اللسان كلام مقبول، كلام معسول، يقول لك أحدهم: إيماني في قلبي، أنا لا أؤذي أحداً، فلماذا الصلاة؟ أليست الصلاة من أجل أن تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ أنا لا أؤذي أحداً، وإيماني في قلبي، ولا حاجة لي إلى الصلاة،

(لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ)

أساليب ليّ اللسان لا تنتهي، لذلك وصلنا إلى مستوى والله أعني ما أقول: إن لكل معصية فتوى، يمكن أن تضع في المصرف الربوي مبلغاً ضخماً، قال: هذا أمانة عند المصرف، والمصرف رقيق المشاعر، لا ينسى لك هذا الفضل يعطيك مكافأة، لا علاقة لها بالربا، إنها عوائد، وليست فوائد، هذه الفتوى صدرت في مصر من أعلى جهة دينية، وعقب هذه الفتوى وضع في البنوك ثلاثة وثمانون مليار جنيه في اليوم التالي، عوائد لا فوائد، مبلغ وضع أمانة لا إيداعاً، هذا كأس لو قلت عنه: إبريق هل يصبح إبريقاً؟ يبقى كأساً، تغيير التسمية لا يفعل شيئاً، فأكثر المحرمات استبيحت في الفضائيات، إذاً خذوا دينكم عن الأرضيات، اجلس على الأرض، وخذ دينك، وهناك اتجاهات منحرفة، ومولون لا يعلم مقصدهم إلا الله، هناك أناس يرتكبون خطأ أخلاقياً، يفتون بغير ما يعلمون.

الإسلام كمنهج فقده المسلمون في حياتهم وبقيت مظاهر الدين الصارخة :

والله حدثني أخ كريم من الدعاة إلى الله في هذه البلدة الطيبة، صدفة حضر وفاة أحد أكبر علماء مصر، هو درس في مصر، وكان في زيارة لها، فزار أعلى مرتبة دينية هناك، وكان على فراش الموت، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة رفع يديه هكذا، وقال: يا رب إني بريء من كل فتوى أفتيتها بالمصارف، لكن متى؟ بعد فوات الأوان، وهو على فراش الموت. فلذلك:

(لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ)

أنا آتيكم بأمثلة، يقول لك: هذا الربا المحرم أن يأتي فقير مدقع إلى غني مترف يستقرضه مبلغاً، فالغني يفرض عليه فائدةً، أو مبلغاً ربوياً، أو فضل نسيئة، أو فضل مال، هذا هو الربا المحرم، أما أن تأتي شركة إلى مصرف، وتأخذ أموالاً من أجل أن تأسس مشروعاً يعود بالخير على الأمة فهذا ليس محرماً، بهذه الطريقة كل معصية نحللها قد نجد لها منفذاً للخروج من هذا التحريم، فهذا هو الليّ باللسان، المستمع جاهل ليس عنده أدلة، هذا الدين وحي من السماء، هناك من يصف الدين بأنه تراث من صنع البشر، هناك من يصف الدين من تصميم محمد عليه الصلاة والسلام، ديننا وحي من الله، ولا مساومة على الوحيين؛ الكتاب والسنة:

(لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ)

الليّ؛ هو الانحراف، لوى عنق النص حرّفه، لماذا حرّفه؟ ليطعن في الدين، إلى أن يصبح الإسلام أقواساً، زخارف إسلامية، أناشيد إسلامية، احتفالات إسلامية، ألقاباً إسلامية، أما كمنهج، أما كشرع، فقده المسلمون في حياتهم، وبقيت مظاهر الدين الصارخة، والله زرت مسجداً في المغرب كلف ألف مليون دولار، مئذنته جامعة، فوق البحر، إن جلست في حرمه ترى ماء البحر من خلال فتحات، لأن الذي أمر ببنائه استوحى ذلك من قوله:

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

[سورة هود: 7]

لذلك المظاهر لا قيمة لها، مساجد ضخمة جداً، مؤتمرات، ألقاب علمية، مظاهر صارخة، كتب إسلامية، لكن لو دخلت إلى بيوت المسلمين لا تجد الإسلام كما أراده الله عز وجل، لذلك ما هو فيه من محنة، معنى قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: 33]

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذبهم الله وسنتك يا محمد مطبقة في حياتهم، نصلي، ونصوم، ونحج، ونعتمر، ونزكي، أما احتفالاتنا ليست إسلامية، وزواج أولادنا ليس إسلامياً، وكسب المال ليس إسلامياً، والبضاعة التي نبيعها ليست إسلامية.

أمثلة من الواقع عن حال المسلمين اليوم :

والله في مسجدٍ في دمشق، ذكر لي أحدهم على ذمة الراوي أن من بين رواد المسجد من يبيع هذه الأقراص الإباحية، كيف تصلي أنت وتفسد أخلاق الشباب؟ كيف تجمع بين النقيضين؟ كيف؟!!

والله مرة اتصلت بي امرأة قالت لي: يا أستاذ إن ابنتي صالحة جداً، وتحفظ كثيراً من كلام الله، ونشأت نشأة دينية، جاءتها زجاجة خمر غالية جداً، هدية من أحد أصدقائها، أيجوز أن تهديها؟!! ما هذا السؤال؟ كيف عرفت هذا الإنسان؟ وما العلاقة بينهما حتى يهديها زجاجة خمر غالية جداً؟ وهل يجوز أن تهديها لغير المسلم؟ هذا هو الدين.

والله جاءني سؤال من بلاد بعيدة جداً، تقول صاحبة السؤال: أنا سيدة مسلمة، نشأت في كنف أسرة مسلمة، ما عرفت من الدين إلا أن الخنزير حرام، تعرفت على شاب قبطي فتزوجته بمركز إسلامي، واشترط عاقد العقد رئيس المركز أن يبقى كل منا على دينه، والله أمر محيِّر!! ثم علمت أنه تزوجني من أجل البطاقة الخضراء، وبعدها اختفى، وبعد عام بأكمله طلقت طلاقاً مدنياً منه، ثم تعرفت على شاب آخر غير مسلم، وتزوجته، فما حكم الزواجين يا سيدنا الشيخ؟ سؤال جاءني من بلاد بعيدة، في موقع معلوماتي، هذا حال المسلمين، قد يجد إنسان يسكن في البلاد الإسلامية الشرقية إنساناً يأتي من الشام مسلماً يبكي، ويعانقه، ويشمه من رائحة بلاد المسلمين، من شدة محبته له يهديه زجاجة خمر، والله خطيب حدثني والله من فمه إلى أذني، أصله من أوروبا الشرقية، قال: ذهبت لزيارة بلدي، وألقيت خطبة في أكبر مسجد هناك، قال لي: عشرات الآلاف، وألقيت خطبة مؤثرةً جداً ما كان منهم إلا أن انهمرت عيونهم بالدموع، من شدة الخشوع أخذوا من جيوبهم زجاجات خمر، وشربوها تأثراً بهذه الخطبة، هكذا حال المسلمين الذين تعتب على الله لأنه تخلى عنهم، هؤلاء هم المسلمون، والله وفي بلادنا منكرات ومعاص يندى لها الجبين، حالات من الخيانة كثيرة جداً، حالات من زنا المحارم كثيرة جداً، وحالات من اغتصاب الأموال كثيرة جداً، وحالات، وحالات لا يتسع المجال لذكرها.

أكبر شيء يهلك الإنسان أن يفعل شيئاً يقطعه عن الله :

قال تعالى:

(لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا)

الآن ماذا يقول الله:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا)

اسمع منا يا رسول الله، النطق بالشهادتين، اسمع منا الولاء لك، اسمع منا اتباعك، اسمع منا محبتك:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا)

أي الابن ينبغي ألاّ يقول لأبيه: أعطني الأسئلة، ينبغي أن يقول: أفهمني هذه النظرية، بدل أن تقول: راعني، قل: أفهمني، وضح لي.

(وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

ليس ثمة عقاب فيما أتصور أشد من أن يلعن الله إنساناً، وأن يبعده عنه، وعن رحمته، يبعده عن جنته، يبعده عن رضوانه، يبعده عن عطائه، ومعنى كلمة ملعون أي مقطوع عن الله، مبعد، فلذلك أكبر شيء يهلك الإنسان أن تفعل شيئاً يقطعك عن الله، أعظم شيء ينفعك أن تفعل شيئاً يقربك من الله عز وجل.

استثناء القليل عند العرب يعني أنه لا شيء عندهم إطلاقاً :

لكن لعن الله له قاعدة، لعن الله ليس جزافاً:

(وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

لأنهم كفروا ولم يؤمنوا، لأنهم عصوا ولم يستقيموا لعنهم الله عز وجل، وكل إنسان يكفر ولا يؤمن، يعصي ولا يستقيم يلعنه الله عز وجل.

(وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً)

قال بعض العلماء: كلمة:

(فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً)

أي أنهم لا يؤمنون إطلاقاً، هذه صيغة يألفها العرب، استثناء القليل يعني أنه لا شيء عندهم إطلاقاً، ولكن لئلا يعترض أحد يا أخي، إبليس مؤمن؟ طبعاً قال له:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص: 82]

قال له:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ)

[سورة الأعراف: 12]

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة ص: 79]

معناه ما آمن، هل نفعه إيمانه؟ إذاً إبليس لم يؤمن إلا قليلاً بهذا المعنى.

الحيل الشرعية التي لجأ لها اليهود يلجأ لها المسلمون هذه الأيام :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ)

يخاطب الله أهل الكتاب، أن أوصاف النبي التفصيلية جاءت بكتبهم، ويؤكد الله هذه الحقيقة في آية أخرى فيقول:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ)

[سورة البقرة: 146]

ليس في الأرض معرفة أصدق ولا أسرع ولا أكثر عفوية من معرفة الأب لابنه:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ)

[سورة البقرة: 146]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا)

الإنسان له وجه حينما يستحق العقاب تطمس معالم هذا الوجه؛ أي تمحى معالمه، أي دليل الهلاك والشقاء، (فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا)، أي حينما يأتي وقت لا ينفع فيه الندم.

(أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ)

الذين احتالوا، واستخدموا الحيل الشرعية، حرم صيد السمك يوم السبت فأنشؤوا أحواضاً، واستجلبوا السمك يوم السبت، ثم أغلقوا الفتحات، ثم اصطادوها يوم الأحد، وكم من المسلمين يفعل عشرات الحيل الشرعية، وهو يظن أن الله لا يعلم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(26-69): تفسير الآية 48 ، التوحيد والشرك
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-08-23

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرك وأنواعه :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثامنة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

أيها الأخوة، ديننا دين التوحيد، ديننا كلمته الأولى: لا إله إلا الله، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، معنى التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، معنى التوحيد ألا ترى رازقاً إلا الله، ولا قوياً إلا الله، ولا رحيماً إلا الله، أن الذي يعطي هو الله، والذي يمنع هو الله، والذي يرفع هو الله، والذي يخفض هو الله، والذي يعز هو الله، والذي يذل هو الله، كفكرة سهل أن تفهمها، أما أن تعيشها فهذا يحتاج إلى جهد كبير جداً، يمكن بوقت قصير أن تستوعب معنى لا إله إلا الله، أما أن تعيش هذه الكلمة، حينما يأتي إنسان، ويضغط عليك، ولا ترى إلا الله سمح له، بين أن تكون علاقتك معه وبين أن تكون علاقتك مع الله، فرق شاسع، لذلك معظم أهل الأرض مؤمنون بالله خالقاً، لكن قلةً منهم تؤمن بالله مسيراً، تؤمن بالله فعالاً، تؤمن بالله أنه إله في السماء، وإله في الأرض، تؤمن أن الأمر كله بيد الله، لكن شاءت حكمة الله ألا تدركه الأبصار، لا تدركه الأبصار، ترى من؟ ترى القوي يهدد العالم، ترى القوي بإمكانه أن يقصف، وأن يدمر، وأن يبيد، وأن يقتل، وأن يمثل، وأن يذل، لذلك عظمة الإيمان أنك لا ترى مع الله أحداً، إن رأيت أن هذا الإنسان القوي بإمكانه أن ينفعك، أو أن يضرك فقد وقعت في الشرك، على كلٍ الشرك نوعان، شرك جلي، وشرك خفي، الشرك الجلي أن تعبد بوذا، أن تعبد حجراً، أن تعبد صنماً، أن تعبد الشمس والقمر. أما أن تعبد شهواتك، أن تعبد القوي، وعبادة القوي لا تعني أنك تعده إلهاً، لا، يأمرك فتأتمر وينهاك فتنتهي، هذه عبادتك له، ولا تعبأ بأمر الله ولا بنهيه، حينما يأمر قوي فتأتمر، وينهاك فتنتهي، فأنت تعبده دون أن تشعر، وهذا شرك خفي، حينما تتوهم أن العطاء بيد زيد، وأن الحرمان بيد عبيد، وأن العز بيد فلان، وأن الذل بيد علان، وتنسى الله عز وجل، فهذا شرك خفي، قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

أخطر موضوع في الدين الشرك :

الشرك أيها الأخوة، أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، أخفى من دبيب النملة إذا سارت على صخرة صماء أتستطيع أن تسمع وقع أقدامها، الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، وأن تبغض على عدل، إنسان نصحك بأدب، لكن لم ترق لك نصيحته، فأبغضته، إنك ألهت نفسك، رأيت أنك أكبر من أن تنصح، أو أحسن إليك إنسان، وهو مشرك فأحببته، علامة إيمانك أن تبغض المشرك ولو كان محسناً لك، وأن تحب المؤمن ولو كان مسيئاً لك، هذه هي علامة إيمانك.

يا أيها الأخوة الكرام، ما من موضوع في الدين أخطر من الشرك، لأن أي ذنب مهما عظم يغفر، ذنب يغفر، وذنب لا يترك، وذنب لا يغفر، أما الذنب الذي يغفر فما كان بينك وبين الله، لأن حقوق الله عز وجل مبنية على المسامحة، وأما الذنب الذي لا يترك فما بينك وبين العباد، لأن حقوق العباد مبنية على المشاححة، أما الذنب الذي لا يُغفر أن تشرك بالله.

أيها الأخوة لا بد من التوضيح، الحقيقة ثمة مصطلح يستخدمه بعض العلماء اسمه تحصيل حاصل، أنا حينما أغلق الباب الخارجي للجامع فلا يستطيع أحد أن يخرج، كون هذا الباب مفتوحاً لا قيمة له، هو مغلق حكماً، لأنك ولو خرجت منه فالباب الثاني موصد أمامك، فكون هذا الباب مفتوح أو مغلق تحصيل حاصل، حكماً مغلق، لأن باب الخروج الأساسي مغلق، الشرك هنا لا يغفر، تحصيل حاصل، لأنك حينما تشرك لا سمح الله ولا قدر تتجه إلى غير الله، وغير الله ليس عنده شيء.

ضربت مرةً مثلاً: لك مبلغ ضخم في حلب، وحدِّد لك موعد لقبضه، الساعة الثانية عشر ظهراً، وأردت أن تركب قطاراً إلى حلب، صعدت القطار، وقطعت الدرجة الأولى، لكن بجهلك بالقطارات ركبت في الدرجة الثانية، هذا خطأ، لكن القطار متجه إلى حلب، جلست مع شباب سيئي الخلق فأزعجوك في الطريق بغنائهم، وصخبهم، وضجيجهم، وهذا خطأ ثان، لكن القطار متجه إلى حلب، جلست عكس اتجاه الطريق فأصابك دوار، وهذا خطأ ثالث، لكن القطار متجه إلى حلب، وسيصل في الوقت المناسب، التوت أمعاؤك من الجوع، ولا تدري أن في القطار عربة طعام تقدم فيها بعض الأطعمة، وهذا خطأ رابع، لكن القطار متجه إلى حلب، وسيصل في الموعد المناسب، فرغم هذه الأغلاط، قطعت في الدرجة الأولى، وركبت في الدرجة الثالثة، جلست مع شباب سيئي الخلق، جلست بعكس اتجاه السير، التوت أمعاؤك من الجوع، لكن القطار متجه إلى حلب، وسيصل في الوقت المناسب، وستقبض المبلغ الثمين، أما الخطأ الذي لا يغفر أن تركب قطاراً إلى درعا، لا شيء هناك، لو كان فخماً، لو جلست في الدرجة الأولى، لو تناولت الشطائر الطيبة، لو كنت وحدك في الغرفة ليس هناك شيء، لم تقبض درهماً واحداً هناك.

مشكلة المسلمين الأولى أنهم يتعلقون بغير الله وهذا هو الشرك :

معنى أن الله عز وجل لا يغفر أن يشرك به، لأنك في الشرك تتجه إلى غيره، لا إليه، نقول: لم يسنح لك أن تعالج إذا ذهبت إلى مقهى ينبغي أن تذهب إلى المستشفى، هناك الفحوصات، وهناك الطب، وهناك الأدوية، وهناك المعالجة، وهناك التحليل، وهناك التصوير، أما لو ذهبت إلى مقهى لا يوجد شيء، فإن الله لا يغفر لك الذنب تحصيل حاصل، إنك لم تتجه إليه، إنك لم تعلق الأمل عليه، إنك لم تنصع إليه، إنك لم تطلب من القوي الغني القدير، طلبت من الضعيف، الفقير الحقير الحقود، أنت حينما تسأل إنساناً لا شك أنك مؤمن بوجوده، ولا تسأله إلا إذا أيقنت أنه يسمعك، ولا تسأله إلا إذا أيقنت أنه قادر على أن يلبي طلبك، ولا تسأله إلا إذا علمت أنه يحب أن يلبي طلبك، لا بد من أن تؤمن بوجوده، وأن تؤمن بعلمه، وأن تؤمن بقدرته، وأن تؤمن برحمته، وجوده، وعلمه، وقدرته، ورحمته، أما إنك حينما تتجه إلى بشر، إلى إنسان ضعيف، هذا الضعيف ربما لا يكون معك دائماً، إن لم يكن معك كيف يسمعك؟ وإن سمعك ربما لا يملك القدرة على حل مشكلة، وإن ملك القدرة ربما لا يحب أن يحل مشكلتك، إذاً الشرك أن تتجه إلى غير الله، الشرك أن تعقد الأمل على غير الله، الشرك أن تتوكل على غير الله، الشرك أن تخلص لغير الله، الشرك أن تكون مجيراً لغير الله، التوحيد، ولا يليق بك إلا أن تكون موحداً، لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله، ولا أن يتذلل إلى غير الله، ولا أن يمرغ جبهته إلا في أعتاب الله، ولا أن يطلب إلا من الله، وألا يستغفر إلا من الله، وألا يطلب العون إلا من الله، مشكلة المسلمين الأولى أنهم يتعلقون بغير الله.

علينا أن نجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله :

أيها الأخوة، من أخذ الأسباب واعتمد عليها فقد أشرك، أي أنت حينما تراجع مركبتك، وتعتقد أن هذه المراجعة ضمان لك من حادث فأنت واهم، ينبغي أن تراجع مركبتك أخذاً بالأسباب، ولا بد من أن تتوكل على رب الأرباب، أن تجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل شيء يحتاج إلى تفوق، الذي أخذ بالأسباب واعتمد عليها، ونسي الله عز وجل، الغرب أخذوا بالأسباب وأشركوا، لأنهم ألهوا الأسباب واعتمدوا عليها.

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا)

[سورة الحشر: 2]

هيئوا دروعاً على بعد مئات الكيلو مترات، هذه الدروع تقيهم أية ضربة خارجية، الدروع الفضائية،

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا)

كلما اعتمدت على قوتك خيب الله ظنك بقوتك، وكلما اعتمدت على مالك؛ أحدهم أصلحه الله قال كلمة في مجلس: إن الدراهم مراهم، تحل بها كل مشكلة، فابتلاه الله بمشكلة لو دفع ألف مليون لا تحل بها، قال لي: بقيت في المنفردة ثلاثاً وستين يوماً، وكل يوم أؤنب نفسي، ألم تقل أيها الإنسان الجاهل: إن الدراهم مراهم تحل بها كل مشكلة.

طبيب في أمريكا رأى أن الجري يقي القلب من كل آفاته، هي فكرة علمية صحيحة، فكان يجري كل يوم ساعتين، وعقد معه ندوات، وألّف مقالات، وألّف كتباً، كلامه ليس خطأ، ولكنه توهم أن الجري وحده يقيه من الموت، فمات وهو يجري، في الثانية والأربعين من عمره، كلما ألّهت شيئاً خيب الله ظنك به، خذ الأسباب ولكن إياك أن تعتمد عليها، خذ الأسباب، ولكن إياك أن تنسى الله معها، خذ الأسباب ولا تنس أن مسبب الأسباب هو الله.

أخطر شيء في حياة المسلمين الشرك الخفي، طبعاً لا يمكن أن يقبل في العالم الإسلامي شرك جلي، هذا ممنوع، غير مقبول، مرفوض، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ـ هذا مستحيل ـ إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم))

[أخرجه البزار عن عبد الرحمن بن غنم]

لكن طمع في الشرك الخفي، أن تعبد شهواتك من دون الله، أن تعبد مصالحك، أن تعبد مركزك، أن تعبد صلاحياتك، أن تعبد قوياً، أن تعبد جميلاً، أن تعبد محسناً، العبادة يعني أن تطيعه في معصية فقط، لو قلت لواحد: أتعبدني؟ يقول: معاذ الله، كيف أعبدك؟! حينما يحرم حلالاً فتطيعه، وحينما يحلل حراماً فتطيعه فهذه عبادة، وأنت بهذا تألهه.

أعظم شيء في الإيمان التوحيد :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان: 43]

آثر هواه على قواعد الشرع.

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وإخوانكم وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 24]

أعظم شيء في الإيمان التوحيد، التوحيد يشفي الصدور، التوحيد يشفي الصدور من الأحقاد، هذا الذي نالك بأذى ما كان له أن يفعل لولا أن الله سمح له، لقد مكنه الله منك، لقد سلطه الله عليك،

وكمال الله مطلق وعدله مطلق إذاً عندي مشكلة، مشكلتي مع الله لا مع زيد ولا عبيد، ألم يقل الله عز وجل على لسان أحد الأنبياء:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

وحوش مخيفة، مفترسة، لكنها مربوطة بأزمة محكمة، بيد أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، علاقتك مع من؟ مع الوحوش أم مع من بيده أزمتها؟ مع من بيده أزمتها، لأنه لو أرخى الحبال لوصلت إليك، لو شدّ الحبال لأبعدها عنك، فعلاقتك ليست مع الوحوش، ولكن مع من بيده أزمتها، هذا هو الإيمان.

دعوة الأنبياء جميعاً لا تزيد عن كلمة التوحيد :

قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

حينما يوحد الإنسان تنحل مشكلاته، إن جاءه ما يحب قال: الحمد لله ربي الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن جاءه ما يكره قال: الحمد لله على كل حال.

أيها الأخوة الكرام، يكاد التوحيد يكون الدين كله، يكاد التوحيد يكون فحوى دعوة الأنبياء جميعاً، لو أردت أن تلخص دعوة الأنبياء جميعاً ما زادت عن كلمة التوحيد.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

دعوة وفحوى جميع الأنبياء:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

أنت متى تعبد الله؟ حينما ترى أنه وحده الفعال، وحده المعطي، وحده المانع، وحده المعز، وحده المذل، وحده الرافع، وحده الخافض، وحده المانع، وحده المعطي، المعطي المانع، الضار النافع، المعز المذل، التواب الرحيم لا تتعلق به، ولا تقبل عليه، ولا تعقد عليه الأمل، ولا تتوخى عنده النجاة إلا إذا عرفت أن الأمر بيده.

الله تعالى ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر عائد إليه :

لذلك الله تعالى ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر عائد إليه قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

ما قال إليه يرجع الأمر، (كله) توكيد.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

هذا الذي ينقص المسلمين، التوحيد، ولاسيما في هذه الأيام، أنت ماذا ترى؟ ترى جهة قوية، متغطرسة، حاقدة، لا ترحم ولا تنصف، تكيل بمليون مكيال، يموت الواحد منهم فيطلبون ديته خمسمئة مليون ليرة، عشرة ملايين دولار، ويموت الآلاف منا فلا يدفعون شيئاً بقصفهم وبأخطائهم، أنت ماذا ترى؟ ترى جهة قوية طاغية آثمة متغطرسة، ما شفاء هذه الرؤية؟ أن توحد، أن ترى أن الله سمح لها أن تفعل هذا لحكمة بالغة.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص: 4-6]

صفات المؤمن الموحد :

المؤمن حينما يوحد لا يحقد، لأنه يرى أن يد الله تعمل في الخفاء.

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: 17]

المؤمن الموحد يثق بحكمة الله، المؤمن الموحد يصبر على حكم الله.

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

[سورة الطور: 48]

المؤمن الموحد يتلو هذه الآية دائماً:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

المؤمن الموحد لا يرى مع الله أحد، لا يرى إلا الله، أما إذا رأى أن قوياً كافراً نال خلقاً بالأذى فهو يؤمن أن خطة الله استوعبت خطة الكافر، لأن الكافر لا يمكن أن يسبق الله، معنى سبقوا أنهم فعلوا

شيئاً ما أراده الله، معنى سبقوا؛ أنهم تفلتوا من عقاب الله، ما فعلوا إلا ما سمح الله به، الأمر بيده كن فيكون، زل فيزول:

((لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقى قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ، ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

التوحيد يذيب الهموم والإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن :

أيها الأخوة الكرام، هناك تعبير معاصر، يقول لك أحدهم: الكرة في ملعبك، أو الكرة في ملعب خصمك، بشكل دقيق، لو أن واحداً تلقى ضربةً بعصا، هل من العقل أن يحقد على العصا؟ يكون أحمق، على من يحقد؟ على من ضربه بالعصا، فإذا كانت الطغاة في الأرض عصياً بيد الله، والله كامل كماله مطلق، معنى ذلك الكرة عندي، المشكلة معي، لولا أنني أستحق هذا التأديب من هذا القوي لما سلطه الله عليّ، لولا أنني أرتقي بهذا القوي صابراً، أو موحداً، أو مستغفراً لما سلطه علي، هناك حكمة بالغة، هذه الحكمة تلخص بقول القائل: لكل واقع حكمة، لأنه لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد الله، ليس من وحدانيته، وليس من ألوهيته أن يقع في ملكه ما لا يريد، ليس معنى أراد أنه رضي بهذا الذي وقع، لكن الإنسان مخير معنى أراد لا تعني أن الله أمر بهذا الذي وقع، أراد ولم يأمر، أراد ولم يرضى، ومعنى أراد أنه سمح، لأنك مخير، هويتك مخير عنده، والتخير يعني أنك تنطلق إلى ما تريد بقوة الله عز وجل، ما دام الله أعطاك قوةً كي تفعل ما تريد، فإذا كان الذي أردته سيئاً، وأعطاك قوةً أي سمح لك أن تفعل هذا لحكمة يعلمها الله، ولخطة استوعبت خطة هذا القوي، هذا هو الإيمان، لكل واقع حكمة، لذلك لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، لو كشف الغطاء ـ كما قال سيدنا علي ـ ما ازددت يقيناً، هذا التوحيد يذيب الهموم، الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، هذا التوحيد يذيب الأحقاد، هذا التوحيد صحة، لأن الشدة النفسية الآن وراء الأمراض كلها، الآن يكاد يتداخل الطب النفسي بالطب الجسمي، كلما تقدم العلم كشف أن الخلل الذي يصيب العضوية سببه شدة نفسية.

التوحيد صحة لأنه يريك أن الأمر سمح الله به :

حدثني أحد الأخوة الكرام من أطباء القلب، قال: الشريان في القلب مصقول إلى درجة لا تصدق، كيف أن بعض البلاط لا يصدق الإنسان نعومته وصقله، لا يمكن أن يعلق عليه شيء، كذلك شرايين القلب من الداخل، ولاسيما الشرايين التاجية، صقيلة إلى درجة لا يمكن أن يعلق عليها شيء، إلا أن الشدة النفسية، الخوف، القلق، الحقد، يحفر بهذه السطوح الداخلية بالشرايين حفر صغيرة، هذه تستقطب المواد الدهنية في أثناء جريان الدم، إذاً تضيق الشريان سببه شدة نفسية، الأورام الخبيثة سببها الشدة النفسية، بدليل أن كل المصابين بمرض الإيدز يصابون بأورام خبيثة، أمراض القرحة سببها الشدة النفسية، السكر سببه الشدة النفسية، الخثرة في الدماغ سببها الشدة النفسية، بعض آلام العضلات سببها الشدة النفسية، الشدة النفسية جاءت من الشرك، إنسان قوي متمكن يريد أن يدمرك ولا يرحمك، ولا يقبل عذراً، ولا ينصفك، هذا الشعور وحده يصيب الإنسان بأزمة قلبية، بل إن الشدة النفسية قاتلة لقوله تعالى:

(مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ)

[سورة آل عمران: 119]

كم من إنسان جاءته الضريبة فوقع ميتاً، لم يحتمل هذا الرقم، كم من إنسان تلقى خبراً سيئاً فوقع ميتاً، التوحيد صحة، التوحيد يريك أن الأمر سمح الله به، والله عز وجل عادل، ورحيم، وغني عن أن يظلمك، وخلقك لجنة عرضها السماوات والأرض، وهذه الدنيا مؤقتة، دار ابتلاء، دار التواء لا دار استواء، منزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

أحد التابعين فقد أحد أعضاءه، بمرض الموات، الغرغرينا، وفقد أحد أولاده، فاحتسب هذا عند الله، قال: يا رب لأن ذهب عني أحد أعضائي لقد أبقيت لي بقية الأعضاء، لأن فقدت أحد أولادي أبقيت لي بقية الأولاد. المؤمن راضٍ عن الله، قال: يا ربي هل أنت راضٍ عني، سمعه رجل اسمه محمد بن إدريس ـ الإمام الشافعي ـ قال له: يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: يا سبحان الله! كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟! قال: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، علامة إيمانك أنك راضٍ عن الله.

علامة إيمانك أنك راضٍ عن الله :

والله أعرف أخاً توفي رحمه الله بمرض خبيث في أمعائه، تقول زوجته لأبيها، وأبوها صديقي: ما سمعت من زوجها مرةً كلمة تأوه، إلا قول زوجها: يا رب لك الحمد.

حدثني أخ طبيب في مستشفى جاءهم مريض بمرض خبيث في الأمعاء، كلما دخل زائر يعوده يقول له: اشهد أنني راضٍ عن الله، يا رب لك الحمد، لأنه رأى يد الله تعمل في الخفاء، يد الله رآها رحيمة:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

عجبت لأمر المؤمن عنده رضى، راض عن الله، راض عن الله في وجوده، وفي إمكاناته، وفي قدراته، وفي دخله، وفي زواجه، وفي أولاده، راضٍ عن الله، المؤمن لسان حاله يقول:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

* * *

إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك، ويا رب ماذا فَقَدَ من وجدك، وماذا وجد من فقدك، هذا هو التوحيد، ألا ترى مع الله أحداً، أما المشركون يموتون بغيظهم.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تدعو من الله إلهاً آخر، أن ترى قوياً مخيفاً، أن ترى قوياً لا يرحم، أن ترى قوياً حاقداً، أن ترى قوياً يطولك، أن ترى قوياً يتمنى دمارك.

من ضعف توحيدك أن تتوهم أن الأمر بيد زيد أو عبيد :

أقول لكم هذه الكلمة أيها الأخوة، وسامحوني بها: إذا سلمك الله لغيره لا يستحق أن تعبده، إذا سلم مصيرك لغيره، كيف يأمرك أن تعبده؟ قال لك: لا!

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ، أنت أغلى من أن تُسَلَّم إلى غيره، ولكن لضعف إيمانك، ولضعف متابعة العلم، ولضعف توحيدك تتوهم أن الأمر بيد زيد أو عبيد:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 26]

أيها الأخوة الكرام، أخطر آية في القرآن الكريم هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

تحصيل حاصل، لأنك حينما تشرك بالله اتجهت إلى الفقير، اتجهت إلى الضعيف، اتجهت إلى الذي لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، ولو كان رسول الله، لأن الله يقول له:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام: 13]

لو توجهت إلى سيد الخلق معتقداً أن له إرادة مستقلة عن إرادة الله فقد أشركت.

إن الله لا ينسى أحداً لأن كماله مطلق :

وقف أحد الخطباء أمام النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله ما شاء الله وشئت، قال له: بئس الخطيب أنت، جعلتني لله نداً! ما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن، هذا التوحيد، الموحد متفائل، الموحد لا يحقد، المشرك يرى القهر فييأس، لكن الموحد يرى التسليط فيعود إلى نفسه، فيراجع حساباته، ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر.

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

تروي الكتب قصة رمزية، امرأة عجوز قالت: يا نوح متى الطوفان؟ قالت: أتمنى أن تخبرني قبل حدوثه، لأكون معكم في السفينة، القصة رمزية غير معتمدة، لكن لها مغزى كبير، يروى أن سيدنا نوح وهو في السفينة نسي أن يبلغها، وهو في السفينة والموج كالجبال تذكرها، أيقن بهلاكها، فلما انتهى الطوفان، واستوت السفينة على الجودي جاءته المرأة، قالت: يا نوح متى الطوفان؟ إن الله لا ينسى أحداً، كماله مطلق، لا يمكن أن ينساك، ولا يمكن أن يسلمك لغيره، أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المكرم، أنت المخلوق المكلف، ولكن أنت حينما تكون لغير الله تحتقر نفسك، أنت حينما تكون لغير الله تزدري مكانتك عند الله، أنت حينما تكون لغير الله ترتكب إثماً كبيراً:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

الشرك الخفي هو داء المسلمين الأوحد :

كما قلت لكم في مثل القطار، قد ترتكب آلاف الأغلاط، لكن القطار متجه إلى حلب، وسوف تأخذ المبلغ عداً ونقداً، أما الخطأ الذي لا يغتفر أن تركب قطاراً آخر متجهاً إلى الجنوب، هذا الخطأ الذي

لا يغفر، الخطأ الذي لا يغفر أن تعقد الأمل على غير الله، أن تتجه إلى غير الله، الخطأ الذي يرتكبه المسلمون، والذي لا يغفر أن يعقدوا الأمل على أعداءنا، أن يروا الأمن في الولاء لهم، أن يروا الراحة في مهادنتهم، هذا هو الخطأ الأكبر، لذلك أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، القلب الذي فيه إشراك، العمل المشترك لا يقبله الله، والقلب المشترك لا يقبل الله عليه، العمل المشترك لا يقبله الله، لقول الله عز وجل في الحديث القدسي: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، والقلب المشترك الذي فيه حب لله وحب للدنيا لا يقبل الله عليه.

أيها الأخوة الكرام، ما من موضوع أخطر من الشرك الخفي، وهو داء المسلمين الأوحد:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

هذا الذي يعصي الله ويطيع زوجته، أليس مشركاً؟! ألم ير أن زوجته أكبر عنده من الله، لأنه آثر طاعتها على طاعة الله، هذا الذي يغش المسلمين ألم يقع في الشرك الكبير، لأنه رأى أن هذا المال الذي يجنيه من الغش أثمن عنده من طاعة الله، لو حللت مواقف المسلمين لوجدت الشرك وراء كل أخطاءهم، المشرك ينافق، لأنه يرى أن هذا الذي ينافق له قوي، يخشى بأسه، ويرجو نواله فينافق له، المشرك جبان لأنه يرى القوة بيد أعداءه، لا يرى أن الله هو القوي، يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

المؤمن لا يرتاح إلا إلى التفسير التوحيدي بينما غير المؤمن يرتاح إلى التفسير الشركي :

أيها الأخوة، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

أي أنت حينما تشرك ترتكب كذباً كبيراً، تزور الحقائق، بالنظام المدني، بالقوانين الوضعية الإنسان متى يعدم قولاً واحداً؟ إذا أراد أن يبدل النظام، ويعتدي على السلطة، أما لو ارتكب إثماً آخر يسجن، أما حينما يرتكب الخيانة في نظر من بيدهم الأمر يقتلوه، أنت مع إنسان لو أردت أن تعتدي على سلطانه لأنزل فيك عقوبة الإعدام، المشرك ماذا يفعل؟ يعتدي على سلطان الله، ولو يعتدي باللفظ فقط، إنه حينما يقول على الله ما لا يعلم، أو حينما يقول على الله بخلاف ما يعلم فقد اعتدى على سلطان الله عز وجل، لذلك من البديهي أن الله لا يغفر له، مواطن ارتكب مخالفات كثيرة يعاقب بقدرها، أما الذي أراد أن يتآمر على النظام بماذا يعاقب؟ بالإعدام، أنت إذا اعتديت على سلطان إنسان اتهمك بالخيانة العظمى فكيف إذا اعتديت على سلطان الله في الأرض؟ كيف إذا

قلت: الأمر بيد فلان وليس بيد الله؟ فلذلك دائماً وأبداً المؤمن لا يرتاح إلا إلى التفسير التوحيدي، بينما غير المؤمن يرتاح إلى التفسير الشركي.

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

[سورة الزمر: 45]

أما إذا ذكر الإنسان زيداً أو عبيداً ترتاح نفوسهم، البطولة أن تكشف الحقيقة، وهي أن الله كل شيء، وأنه بيده كل شيء، وأنه يرجع إليه كل شيء، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، وأن الذي يشرك يرتكب كذباً شنيعاً وإثماً عظيماً، لأنه يفتري على الله الكذب، لأنه يقول ما لا يعلم، أو يقول بخلاف ما يعلم،

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(27-69): تفسير الآيات 49-54 ، أدب التزكية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-08-30

بسم الله الرحمن الرحيم

خبر الله عز وجل أصدق من رؤية العين :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية التاسعة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً* انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)

أيها الأخوة، الحقيقة أن قول الله عز وجل:

(أَلَمْ)

يعني ألم تعلم، ولكن لمَ قال الله: [أَلَمْ تَرَ]، ولم يقل ألم تعلم؟ قال بعض علماء التفسير: إذا أخبرك الله بخبر ينبغي أن تأخذه وكأنك تراه رأي العين، بل إن خبر الله عز وجل أصدق من رؤية العين، من هذا المنطلق يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

[سورة الفيل: 1-2]

أي ينبغي أن تأخذ هذا الخبر من الله عز وجل، وكأنك تراه رأي العين، يستنبط من هذا أن القرآن الكريم له مصداقية لا تعدلها مصداقية في الأرض، كيف لا وهو كلام خالق الأكوان، كيف لا وهو كلام رب العالمين، كيف لا وهو كلام أحكم الحاكمين، كيف لا وهو كلام أعلم العالمين، هكذا ينبغي أن تكون مع القرآن الكريم، ينبغي أن تأخذ خبر الله عز وجل وكأنه شيء تراه بعينيك من هؤلاء الذين يزكون أنفسهم، نموذج، الحقيقة ليس متلبساً بأهل الكتاب فحسب بل هذا نموذج تجده في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل عصر وكل مصر.

المؤمن مع المنعم بينما الكافر مع النعمة :

الإنسان إما أن يعبد الله، وإما أن يعبد ذاته، فإذا لم يكن عابداً لله، لا شك أنه يعبد ذاته أو يعبد جهة في الأرض، فمن دأب النفس أن تمجد الذي تعبده، فإن كان الذي يعبد ذاته لا بد من أن يمجدها، لذلك اجلس في مجلس، وافحص قول من حضر المجلس، فمن دعا إلى الله إذاً هو يعبد الله، وباع ذاته في التعتيم، من هو؟ اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة

المتين، المؤمن يرى أنه لا شيء، وأن الله هو كل شيء، وأن كل خصائص المؤمن من فضل الله عز وجل، ونعمة الله عز وجل.

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)

[سورة النحل: 53]

النعمة أنك تتحرك من الله، نقطة دم لا تزيد عن إبرة لو تجمدت في أحد شرايين المخ لأصبح الإنسان مشلولاً، فالحركة نعمة من الله، لأنك متوازن وتنطق بالكلام المناسب في الوقت المناسب، فأنت تتمتع بعقل، ولمئة ألف سبب قد يفقد الإنسان عقله، فيصبح سخرية بين الناس، إذاً نعمة العقل، نعمة الحركة، نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة الإدراك، نعمة عمل الأجهزة بالغة الدقة،

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)

يكاد يكون هذا الفرق حاسماً بين المؤمن وغير المؤمن، المؤمن مع المنعم بينما الكافر مع النعمة، قد يستخدم النعم استخداماً مخيفاً، يستمتع بالدنيا أشد أنواع الاستمتاع، لكنه كافر بالله، بينما المؤمن يذوب محبةً بالله على أن أوجده، يشكر الله على نعمة الإيجاد، وعلى نعمة الإمداد، وعلى نعمة الهدى والرشاد، فقد كان عليه الصلاة والسلام، وهذا من شمائله أنه تعظم عنده النعمة مهما دقت، الإنسان حينما يفرغ مثانته هذه نعمة لا تعدلها نعمة، كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الأَذَى وَعَافَانِي))

[سنن ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((الحمد لله ـ إذا أكل طعاماً ـ الذي أذاقني لذته، و أبقى فيّ قوته، و أذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

هذا الذي يزكي نفسه مذموم عند الله :

من أشد خصائص المؤمن أنه مع المنعم، ومن أشد صفات المعرض أنه مع النعمة، فأنت حينما تعبد الله تثني على الله، وتمجد الله، وتسبح الله، وتحمد الله، وحينما تعبد نفسك من دون الله تثني على نفسك، وتمدح نفسك، فحينما تتكلم عن نفسك، وعن باعك الطويل في كسب الأموال، وعن باعك الطويل في إيقاع المكر والخديعة بين الناس، فهذا الذي يزكي نفسه في نص هذه الآية مذموم عند الله، لا تزكي نفسك، لأنك إن زكيت نفسك، فالذين من حولك يصدقونك، لكن الله:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

يعلم ما أنت عليه، ويعلم ما خفي عنك، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون:

(أَلَمْ تَرَ)

يخاطب الله عز وجل نبيه الكريم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

بربك هل وجدت في الأرض إنساناً شارداً عن الله إلا ويزكي نفسه، بحق أو بباطل، بكلام مقبول أو غير مقبول، يزكي نفسه، يمدح ذكاءه، يمدح عقله، وعامة الناس يمدحون أولادهم مديحاً غير معقول، والنساء يمدحن بناتهن مديحاً غير معقول، نوع من نمو الذات، نوع من الكبر، نوع من الغطرسة، نوع من الاستعلاء، نوع من التعالي.

من صفات المؤمن الدقيقة أنه متواضع لله عز وجل :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

ما رأيت إنساناً موصولاً بالله إلا وكان متواضعاً، ما رأيت إنساناً يعرف الله عز وجل إلا وهو متواضع، يقدم كل شيء ولا يدعي أنه يقدم شيئاً، يقول: هذا من فضل الله علي، لذلك من علامة المؤمن أنه لا يذكر نفسه بشيء إلا ويقول: من فضل الله علي، لولا أن الله منَّ علي لكنت من الهالكين.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ)

[سورة النور: 21]

لذلك الله عز وجل يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام يقول له:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

معنى يزكون أي ينفون عن أنفسهم النقائص أولاً، ثم يدعون الكماليات ثانياً، هو لا يخطئ، وهو إنسان عظيم، بينما يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

من باب التوبيخ، من باب الانتقاص، من باب الذم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ بَني آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوابونَ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

حينما يتواضع الإنسان يزداد رفعة عند الله، وعند الناس، وحينما يتكبر يفقد مكانته عند الله، انظر إلى الأكحال وهي حجارة لانت فصار مقرها في الأعين، أنت حينما تتواضع لا يعني ذلك أنك وضيع أبداً، قد تكون عند الله عظيماً، لكن من صفات المؤمن الدقيقة أنه متواضع لله عز وجل.

الإنسان حينما ينجح في الحياة أمامه مزلق خطير هو مزلق الغرور والكبر :

ما من قائدٍ فتح بلداً إلا ودخلها متغطرساً متكبراً مستعلياً، إلا النبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل مكة فاتحاً دخلها مطأطأ الرأس، كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل، لذلك حينما ينجح الإنسان في الحياة أمامه مزلق خطير هو مزلق الغرور، ومزلق الكبر، ومن أروع ما في القرآن الكريم في هذا الموضوع قوله تعالى:

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

[سورة الإسراء: 80]

قد يقول قائل: لمَ لم يقل الله عز وجل ربي اجعلني صادقاً، لمَ هذا التفصيل؟ لأنه قد تدخل في مجالات كثيرة مدخل صدق ولا تخرج من هذه المجالات مخرج صدق، قد تغريك الدنيا، قد تأخذك الدنيا، قد يأخذك العجب، كان بعض العلماء الأجلاء إذا دخل على إخوانه يقول: اللهم لا تحجبني بهم، ولا تحجبهم عنك بي، أن نبقى موحدين، أن نبقى عابدين لله عز وجل، ألا تحجب عن الله بإنسان، وألا يحجب الإنسان عن ربه بمجموع:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

معنى يزكون؛ أي يبرؤون أنسفهم من العيوب، وقد قيل: رقصت الفضيلة تيهاً بفضلها فانكشفت عورتها. لمجرد أن تتيه بفضلك فهذه نقيصة، المؤمن الصادق يفعل الخير مع كل الناس وينساه كلياً، أما إذا فعل معه أحد الخير لا ينساه مدى الحياة، إذا فعل معك الخير ينبغي ألا تنساه، أما إذا فعلت الخير ينبغي إذا كنت مؤمناً صادقاً أن تنساه، أن ترى أن الله سمح لك، وسخرك، وأمدك، وألهمك، لذلك قالوا: إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، وكلما أتيت الله من باب التواضع، ومن باب الانكسار، ومن باب التذلل، كنت من أفضل الناس عند الله لأن العبد عبد ولأن الرب رب.

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ))

[أبو داود وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة]

الكبر يفسد العمل كما يفسد الخل العسل :

قد يأتيك الضيوف، وليس عندك شيء، عندك كمية من اللبن لا تكفي واحد منهم، قد تضيف لهذا اللبن خمسة أضعاف حجمه ماء، وتجعله شراباً سائغاً، ويبيض وجهك، أما إذا أضفت إلى هذا اللبن قطرة من البترول لا يمكن أن يستخدم إطلاقاً. فالكبر يفسد العمل كما يفسد الخل العسل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

لمجرد أن تسلط الأضواء على ذاتك، لمجرد أن تجعل الحديث محوره مديح ذاتك، لمجرد أن تعيش مقدساً لذاتك، وأنت تنسى الذي منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، فأنت في بعد عن الله عز وجل.

لا أعتقد أن في الأرض إنساناً هو أشد تواضعاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، دخل عليه أحد الناس وقد أخذته رعدة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام من شمائله أنه شديد الهيبة، فمن رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه، فأخذته رعدة، قال: هوّن عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة، هو سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، أقسم الله بعمره الثمين، وفي معركة بدر الرواحل ثلاثمئة، والجنود يقتربون من الألف، فقال عليه الصلاة والسلام: كل ثلاث على راحلة وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، فركب النبي الراحلة في نوبته، فلما جاء دوره في المشي توسل صاحباه إليه أن يبقى راكباً، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنتما بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

المؤمن متواضع لله عز وجل يمرغ جبهته في أعتاب الله ولكنه عزيز النفس :

سيدنا عمر أيها الأخوة أحد العشرة المبشرين بالجنة، في حياة المسلمين من بعثة النبي إلى يوم الدين هناك عشرة رجال هم في الجنة يقيناً، لأن النبي بشرهم، والنبي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ومع ذلك من شدة تواضع عمر، ومن شدة خوفه من الله، ومن شدة هيبته لله سأل حذيفة بن اليمان، وكان أمين سر رسول الله، قال: بربك اسمي مع المنافقين؟ قال: معاذ الله يا أمير المؤمنين، هذا هو الإيمان، الإيمان تواضع، الإيمان تذلل لله، أي هذا المستكبر، هذا المستعلي، هذا المتغطرس، لو رأيته أمام من هو أعلى منه رأيته كالطفل يتذلل أمامه، لكن المؤمن متواضع لله عز وجل، يمرغ جبهته في أعتاب الله، ولكنه عزيز النفس، يقول: لا، حيث لا يستطيع أن يقولها أحد.

دخل أبو حنيفة النعمان على أبي جعفر المنصور، وكان عند أبي جعفر أحد القضاة الذين هم من أعداء أبي حنيفة، أراد هذا القاضي أن ينتقم من أبي حنيفة، فقال: يا إمام إذا أمرني الخليفة ـ وعلى مسمع من الخليفة ـ بقتل امرئ أأقتله أم أتريث ـ ماذا يقول له؟ قال له: الخليفة على الحق أم على الباطل؟ قال له: على الحق، قال له: كن مع الحق، فلما خرج قال: أراد أن يقيدني فربطته.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ* وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 39 - 40]

أيها الأخوة، الله عز وجل يذم أولئك الذين يمدحون أنفسهم، والأولى ألا تزكي نفسك، وألا تزكي على الله أحداً، لأن الجهة الوحيدة التي تعرف كل شيء تعرف الظاهر، وتعرف الباطن، وتعرف

السر، وتعرف ما خفي عن صاحبها، هي الله جل جلاله، لا تخفى عليه خافية، كان عليه الصلاة والسلام يستعيذ من خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، قد تكون في موقف لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن يحاسبك، لكن الله معك ويحاسبك، فالذي يخشى الله فيما بينه وبين الله هذا من قوة إيمانه، ومن شدة توحيده لله عز وجل.

على الإنسان أن يبتعد عن مدح ذاته لأن الله متكفل أن يجعله في حجمه الحقيقي :

إذاً يزكون؛ ينفون عن أنفسهم المعايب، ويلبسونها الفضائل، وكله كلام بكلام، ألا تعلمون أن شعر الفخر في الجاهلية كلام بكلام، ألم يقل المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها و يختصم

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

وجاهل مده في جهله ضحكي حتى أتته يد فراسة و صم

* * *

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

* * *

كلام بكلام، كان في طريقه من البصرة إلى حلب مع غلامه فجاءه بعض الأعداء فولى هارباً، قال له غلامه ألم تقل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

قال له: قتلتني قتلك الله، فعاد وقاتل حتى قتل.

أي تجد الإنسان يتبجح ويفتخر ويتحدث، أما في المحك العملي، أما عند الضرورة تجده جباناً متخلفاً بخيلاً، فهذا الذي يمدح نفسه لو أن الله يمدحه لانكشف، على كلٍ اعلموا علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى لا بد من أن يحجم خلقه، لا بد من أن يمتحنهم، تكلم ما شئت، أثني على نفسك بما شئت، أعطي نفسك الحجم الذي تشاء، اجعل نفسك محور العالم تكلم، تحدث، امدح علمك، وفهمك، وحكمتك، وغناك، ومالك، وقدرتك لكن الله عز وجل متكفل أن يجعلك في حجمك الحقيقي وهذا هو الابتلاء، لذلك الأفضل أن تبتعد عن مدح ذاتك كلياً.

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ)

[سورة النجم: 32]

حينما تتواضع تزداد رفعةً :

نهي إلهي بآية ثانية:

(هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

[سورة النجم: 32]

أحد الأصحاب مدح سيدنا الصديق رضي الله عنه، فتوجه إلى الله، وقال: يا رب أنت أعلم بي من نفسي، أنا لا أعلم، ولكنك تعلم، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون ـ كان طموحاً ـ واغفر لي ما يعلمون، ولا تأخذني بما يقولون، هذا أكمل موقف لمن أثنى عليك.

عالم جليل سافر إلى بلد غربي للمعالجة، انهالت الرسائل والاتصالات بشكل غير طبيعي، أجريت معه مقابلة بالإذاعة، فسألوه عن هذه المكانة التي حباه الله بها، تواضع لله عز وجل، فلما ألحوا عليه قال: لأنني محسوب على الله، هناك من هم محسوبون في الأرض على جهة، أو على فئة، أو على طائفة، أو على حزب، قال: لأنني محسوب على الله.

حينما تتواضع تزداد رفعةً، النبي عليه الصلاة والسلام توفي ابنه إبراهيم، ولحكمة أرادها الله انكسفت الشمس في يوم وفاته، فالصحابة الكرام ببراءة عجيبة ربطوا بين كسوف الشمس وبين موت إبراهيم، وظنوا أن هذا لكرامة النبي عند الله، أي معجزة، موت إبراهيم رافقه كسوف الشمس، فلما علم ذلك، وكان بإمكانه أن يسكت، جمع أصحابه وقال: إن الشمس والقمر آيتان لا ينبغي أن تنكسفا لموت أحد من خلقه، أنقذ التوحيد، إن الشمس والقمر آيتان لا ينبغي أن تنكسفا لموت أحد من خلقه:

(بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي)

أنت حينما تزكي نفسك، أنت نفسك لا تعلم ماذا تفعل لو كنت في ظرف آخر، إن الله وحده يعلم، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، أنت الآن مستقيم جيد، قل: أرجو الله أن يثبتني، لو وضعت في مكان آخر، لو وضعت في مركز قوي، أو وضعت في ثروة طائلة هل تبقى هكذا؟ الله يعلم، أنت لا تعلم، لذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان، الله وحده يعلم للذي لم يكن لو كان كيف يكون، كيف أنت تكون مع الذي لم يكن أن يكون:

(بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

الله عز وجل وحده يعلم، يعلم ما يبدو للناس، ويعلم ما يستتر عن الناس، ويعلم ما ظهر، ويعلم ما يخفى عنك، كيف هو.

الذي يرفعه الله لا يستطيع أحد أن يخفضه :

الصحابة الكرام بأمر الله عز وجل منعوا من العمرة في مكة، ووقعوا صلح الحديبية، واشتد الألم اشتداداً كبيراً عند أصحاب رسول الله، لأنهم كانوا يحلمون أن يطوفوا حول الكعبة، فمنعوا، وعقد الصلح سمح لهم في العام القادم بالعمرة، قال الله عز وجل:

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ)

[سورة الفتح: 25]

أي في مكة أناس آمنوا بالله وأسلموا ولكن سراً، فلو دخلوا مكة عنوة لقاتلوهم.

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النور: 19]

(بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

إن الله عز وجل إذا زكى إنسان أظهر فضله للناس، فالذي يرفعه الله لا يستطيع أحد أن يخفضه، ألم يقل الله عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 1-4]

إذا زكى الله إنساناً فإنها تزكية صاعدة إلى ما شاء الله، أما إذا زكى الإنسان نفسه قد يفتضح.

إذا أراد الله إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك :

جرت مناظرة بين عالم إسلامي، وعالم آخر من دين آخر، الحديث كان طويلاً، فقال الطرف الآخر: لأنني متخلق بفضائل الأخلاق فكلامي حق، فكان الذي حصل بعد حين أنه ضبط في فضيحة جنسية شاذة، هذا الذي زكى نفسه، وأنت حينما تزكي نفسك دون أن تشعر قد تجر إلى موقف تفتضح فيه، حين تزكي نفسك تزكية باطلة منهياً عنها قد تستدرج إلى موقف تفتضح فيه، فلذلك كن متواضعاً، وكن موحداً، ولا تر لك فضلاً، وإذا أراد الله إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما بلغه أن بعض الأنصار وجدوا عليه في أنفسهم، قال: يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم من أجل لعاعة تألفت بها قوماً ليسلموا، وكلتكم إلى إسلامكم، يا معشر الأنصار، لو شئتم لقلتم فلصَدقتم ولصُدقتم به، أتيتنا مكذباً فصدقناك، طريداً فآويناك، عائلاً فأغنيناك، يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلالاً ـ ما قال فهديتكم ـ فهداكم الله بي، ألم تكونوا عالةً فأغناكم الله، ألم تكونوا أعداء فألف بين قلوبكم، إلى آخر القصة. إذاً:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

من بيئة العرب في الجاهلية النخيل، والتمر من ثمر النخيل، والتمرة لها نواة، والنواة فيها فتيل، وفيها نقير، وفيها قطمير، فالنقير نتوء مأنف في أحد زوايا النواة، نتوء مدبب مأنف كالإبرة تماماً تحسه بلسانك، هذا هو النقير، وبين فلقتيها فتيل، ولها غشاء رقيق هو القطمير، فهذه الأشياء الثلاثة ليس لها قيمة إطلاقاً ليس الحديث عن النواة، عن نتوء في النواة، وعن خيط بين فلقتي النواة، وعن قشرة رقيقة في النواة، هذه الأشياء الثلاثة لا يمكن أن تظلموا بمستواها.

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

[سورة النساء: 124]

لذلك الله عز وجل حينما يزكي من يشاء لا يظلم عبده إطلاقاً، يعطيه حقه، أما إذا تواضعت لله يرفع الله لك ذكرك، يعلي قدرك، يرفع شأنك.

ما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة :

قال:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه: 39]

من أدق تفسيرات هذه الآية أن الله إذا أحب عبده ألقى محبته في قلوب العباد، وإذا أبغض عبداً له ألقى بغضه في قلوب العباد، فالعبد المنحرف عن منهج الله مهما حسن صورته، ومهما لمع شكله، ومهما تجمل أمام الناس يبغضه الناس، والمؤمن الذي اتصل بالله، وأخلص له، وخطب وده، مهما قصر في تحسين صورته فالناس يحبونه، وما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة:

(بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي)

دع التزكية لله، أنت حدث عن الله، أنت أثن على الله، أنت مجِّد الله، سبح الله، كبِّر الله، وحِّد الله، عرِّف الناس بالله، اذكر الله للناس، وعتم على نفسك، ضع نفسك في التعتيم، من أنت؟ أنت حسنة، أنت من فضل الله، أنت من حسنة الله، أنت من توفيق الله، كنت لا شيء فأصبحت به خير شيء في الورى قد صنعك كيفما شاء فكن في يده لك إن فرق أو جمعك.

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

* * *

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

عتِّم على نفسك ولا تبرز فضائلك وتحدث عن الله ودع أمر تزكيتك لله يعطيك حقك :

حينما تسكت ولا تزكي نفسك الله عز وجل هو الذي يرفع قدرك، ويعلي شأنك، ويلقي محبتك في قلوب الخلق، لا تخف لن تُظلم، أما إذا زكاك الله عز وجل لا تستطيع جهة في الأرض أن تخدش مكانتك، وأما إذا أهان الله عبداً لو فعل المستحيل فهو في الوحل، هو في مزبلة التاريخ، وقد ترون أناساً كانوا أقوياء وأذكياء، لكنهم كانوا أعداء لله عز وجل هم الآن في مزبلة التاريخ، هؤلاء الذي عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا سادة قريش، كانوا زعماء قريش، كانوا أبطالاً صناديد، أغنياء، هم في مزبلة التاريخ، وأما الذين نصروه وهم ضعاف فخلَّد الله ذكرهم.

ماذا يقول الصحابة عن بلال الحبشي؟ كانوا يقولون عن الصديق: هو سيدنا، وأعتق سيدنا، يعني بلال، من هذا العبد الحبشي الذي يخرج سيد قريش أمير المؤمنين عمر لاستقباله في ظاهر المدينة، من هذا؟!

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 1-4]

إذا رفع الله عز وجل لك ذكرك فلا تستطيع الأرض بأكملها أن تحط من هذا القدر، لذلك أنت عتِّم على نفسك ولا تبرز فضائلك، وتحدث عن الله، ومجِّد الله، وسبِّح الله، وكبِّر الله، ووحِّد الله، ودع أمر تزكيتك لله، يعطيك حقك:

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

الكذب والافتراء والفرق بينهما :

أيها الأخوة، الآيات الكريمة لها سياق، ولها سباق، ولها لحاق، فلو نزعت الآية وحدها لكانت حكمة رائعة خالدة فوق المكان والزمان، ولو أرجعتها إلى سياقها لكان لها معنى آخر، فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن أهل الكتاب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ)

[سورة النساء: 47]

بهذا السياق يقول:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

أي بسياق الآيات هؤلاء الذين يزكون أنفسهم هم أهل الكتاب، يكابرون، يرفضون الحق، يرفضون بعثة النبي، يرفضون وحي السماء، يزكون أنفسهم ويبخسون بهذه الدعوة الإلهية الإسلامية. لذلك يقول الله عز وجل:

(انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

الإنسان يكذب وربما لا يشعر، فإذا كذب وهو لا يشعر فهو يكذب، أما إذا كذب متعمداً فهو يفتري، الافتراء؛ الكذب المتعمد، لذلك قد يفتي الإنسان بلا علم، يحاسب عند الله حساباً عسيراً، لكن المجرم هو الذي يفتي بخلاف ما يعلم، أي يفتري الكذب:

(انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)

أشد أنواع الكذب أن تكذب على الله :

قد تكذب على إنسان، والإنسان الذي تكذب عليه لا يملك أن يرد عليك، أو ليست عنده وسائل أن يكشف كذبك، لكن أشد أنواع الكذب أن تكذب على الله الذي:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

الذي يعلم حقيقة كل شيء، الذي لا تخفى عليه خافية، هذا إن كذبت عليه فهذه جريمة ما بعدها جريمة، هم يعلمون أنه رسول الله، بل إنهم:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

بل إن كتابهم ليذكر صفات النبي بدقة بالغة، لكنهم يفترون ويكذبون متعمدين، ليس هذا النبي الذي ورد اسمه في التوراة، قال تعالى:

(انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

لأنه افتراء على الله:

(وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)

أي إثماً كبيراً جداً، واضحاً، لأن الذي تفتري عليه الكذب هو الله. أحياناً يكون الإنسان في مكان وحده، فإذا ذهب إلى مكان آخر يتكلم كلاماً على مزاجه، يكذب، أما إذا كنت في مكان، ويراقبك إنسان، وأنت وقفت موقفاً مخزياً، وكنت في جلسة بعد حين، وتبجحت أمام هذا الذي كان واقفاً أمامك أنني فعلت كذا وكذا، وأنت لم تفعل، فهذا منتهى الوقاحة، منتهى الوقاحة أن تتبجح بشيء لم تفعله أمام إنسان كان معك، ويرى كل حركاتك وسكناتك، فكيف إذا كذبت على الله؟!!

الجبت والطاغوت اسمان لصنمين في مكة أو رمزان لمن يدعو لغير الله :

قال:

(فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

(انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ)

هؤلاء أهل الكتاب أي على علم بأن لهذا الكون إلهاً، وأن لهذا الكون نبياً ورسولاً، وكتاباً، ومنهجاً، عندهم نصيب من الكتاب:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ)

يذهبون إلى مكة، ويتفقون مع مشركي مكة على محاربة النبي، ويذمون النبي، فتوجسوا منهم خيفةً، لعله اتفاق بينهم لا نعلمه، فلا بد أن تسجدوا لأصنامنا، للجبت والطاغوت، فإن سجدتم لأصنامنا كنتم صادقين في نقض عهدكم مع النبي، فجاء أهل الكتاب إلى مكة المكرمة، وسجدوا لأصنام قريش، للجبت والطاغوت، وقال بعض العلماء: كل من يدعو إلى غير الله هو جبت، والطاغوت ليس طاغية بل شديد الطغيان، وكل من يطغى في أحكامه وفي تصرفاته فهو طاغوت، إما أن يكون الجبت والطاغوت اسمين لصنمين في مكة، وإما أن يكون الجبت والطاغوت رمزين لمن يدعو لغير الله، ولمن يظلم ظلماً لا حدود له.

القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ بل إنه يقدم نماذج حية في كل زمان :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً)

ألا تجدوا في حياة المسلمين من يثني على كافر ويذم مؤمناً، ألا تجد في حياة المسلمين من يثني على بلد كافر ترتكب فيه الفواحش على قارعة الطريق، يثني على النظام، وعلى التقدم، وعلى الرقي، وعلى الحرية، وينسى أن هؤلاء قال الله عنهم:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

ينسى أن الله عز وجل قال عنهم:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام: 44]

ينسى ما قال الله عنهم:

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

[سورة إبراهيم: 42]

هذا الذي يثني على أهل الكفر، ويمدح أنظمتهم، ويمدح حياتهم، ويمدح قيمهم، ويمدح إباحيتهم، ويمدح حريتهم، ويمدح استغلالهم للدنيا، ويمدح بعدهم عن الدين، هذا الذي يمدحهم ويذم أمته، ويذم قومه، ويذم المؤمنين، ألا تنطبق عليه صفات هؤلاء تماماً، هذا كتاب هداية ليس كتاب تاريخ، لا يمكن أن يكون القرآن كتاب تاريخ، إنه يقدم نماذج حية في كل زمان.

إذا مُدِح الفاسق غضب الله عز وجل :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً)

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ)

طردهم وأبعدهم.

(وَمَنْ يَلْعَنْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً)

قد يلعنك إنسان لا سمح الله ولا قدر، الإنسان مثلك ضعيف، قد يوقع بك الأذى، وربما لا يستطيع، أما إذا لعن الله إنساناً فهل ثمة أمل بالنجاة؟ كم النجاة؟ واحد بالمئة؟ مستحيل:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً)

أي إذا مدح الفاسق غضب الله عز وجل، إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق، هذا مطب كبير، مزلق كبير.

حينما ظهر من العرب نبياً حسده أهل الكتاب واليهود وكذبوه افتراءً وبغياً :

أن تذهب إلى بلاد الغرب وتعود وتقول: يا أخي غير حياة، نظام، قيم، حريات، ديمقراطية، حقوق إنسان، سلام عالمي، كل إنسان غارق في عمله، عمل، إنتاج، حسناً ماذا عن كفرهم؟ وإباحيتهم؟ وزناهم؟ وفسقهم؟ وفجورهم؟ وضياعهم؟ وشقائهم؟ لا يرى إلا الأشياء الإيجابية، ويتعامى عن السلبيات، كل إنسان يذهب إلى بلاد الغرب ولا يرى إلا أنهم نخبة من بني البشر ويزكيهم، ويقبح قومه وأمته، تنطبق عليه هذه الآية:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً)

هم فوق ذلك بخلاء ماديون:

(أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً)

لو أن لهم نصيباً من الملك:

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

الحقيقة هذا حسد، حسدوا النبي، هم يعلمون أنه لا بد من أن يظهر نبي، حينما ظهر من العرب حسدوه، وكذبوه افتراءً، وبغياً، وحسداً.

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً*فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً)

الحديث عن أهل الكتاب الذين عايشوا النبي عليه الصلاة والسلام، الحديث عن اليهود.

من خصائص المؤمن أنه يثني على الله عز وجل ولا يزكي نفسه :

ذكرت في خطبة سابقة كختام لهذا الدرس أن الحصين بن سلام من أحد أكبر أحبار اليهود، علم أنه بعث رجل في مكة، وهو نبي هذه الأمة، عاد إلى التوراة فرأى صفاته منطبقة عليه، فكان ينتظره في المدينة، كان على رأس نخلة، فسمع من ينادي، ويقول: جاء محمد إلى المدينة، فصاح بأعلى صوته وهو على رأس النخلة: الله أكبر، قالت له عمته خالدة: والله لو أن موسى بن عمران أتى لما قلت أفضل من ذلك، قال: يا عمتاه إنه نبي، إنه أخو موسى بن عمران، إنه أتى بما أتى به موسى، فنزل، ودخل إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وأعلن الشهادة وأسلم، فقال له النبي: من أنت؟ قال: أنا الحصين بن سلام، قال: بل عبد الله بن سلام، قال: إذاً والله ما أحب أن يكون لي بهذا الاسم اسماً آخر، أنا عبد الله بن سلام، بعد حين قال له: يا رسول الله اجمع قومي، وادعهم إلى الإسلام، واجعلني في إحدى حجرات البيت، فجمع النبي قومه، ودعاهم إلى الإسلام، فرفضوا، فقال: ما تقولون في الحصين بن سلام؟ قالوا: هو سيدنا، وابن سيدنا، وحبرنا، وابن حبرنا، وعالمنا، وابن عالمنا، قال: أفرأيتم إذا أسلم، قالوا: معاذ الله أن يسلم، ما كان له أن يسلم، فخرج عبد الله بن سلام إليهم، وقال: لقد أسلمت، وهذا رسول الله، وصفته جاءت في التوراة والإنجيل، فقالوا: هذا جاهلنا وابن جاهلنا، وشرنا وابن شرنا، فقال لسيدنا رسول الله: يا رسول الله ألم أقل لك إن قومي أهل غدر وبهتان.

قلت هذا في خطبة إذاعية، وتوجهت إلى إخوتنا في الأراضي المحتلة وقلت لهم: هؤلاء اليهود قبل ألف وأربعمئة عام هذا شأنهم من قديم الزمان إلى الآن قوم غدر وبهتان، فالحديث في الأصل عن أهل الكتاب، إلا أن هذه الآية التي شرحتها، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

هذه إذا نُزعت من سياقها قانون ومنهج، ومن خصائص المؤمن أنه يثني على الله عز وجل ولا يزكي نفسه.

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

[سورة النجم: 32]

سيدنا الصديق لما استخلف عمر بن الخطاب، ماذا قال؟ قالوا له: وليت علينا أشدنا، فقال الصديق رضي الله عنه: أتخوفنني بالله، لو أن الله سألني يوم القيامة لمَ وليت عليهم عمراً؟ أقول: يا رب وليت عليهم أرحمهم، هذا علمي به، فإن بدل وغيّر فلا علم لي بالغيب، أرأيتم إلى هذا الأدب، وأنت إذا سئلت عن إنسان فقل: هذا علمي به، فإن بدل وغيَّر فلا علم لي بالغيب، إن طلب منك أن تزكي إنساناً فقل: أحسبه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً، والله أعلم.

هذا الدرس في أدب التزكية، لا تزكي نفسك الله يزكيك، وإذا زكاك الله لا تستطيع جهة في الأرض أن تخدش سمعتك.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(28-69): تفسير الآيتان 56 -57، تطابق المنهج مع المعجزة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-09-06

بسم الله الرحمن الرحيم

الكون المترامي الأطراف يدل على الله عز وجل :

مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية السادسة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً)

أيها الأخوة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)

كلكم يعلم أن الله جل جلاله لا تدركه الأبصار، ولكن هذا الكون المترامي الأطراف كله يدل على الله عز وجل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

* * *

لو أن الإنسان أراد أن يؤمن فقد تدله على الله بعرة، كما قال الأعرابي: البعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير.

الكافر ما أراد أن يعرف الحقيقة أراد الدنيا والانغماس في المتع الرخيصة :

هناك قضية في القرآن تلفت النظر، يقول الله دائماً في آيات كثيرة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

يا ترى هذه الآية نؤمن بها أم إذا كنا مؤمنين بها نستفيد منها؟ يبدو أن الإنسان إذا أراد أن يؤمن، وأن يتعرف إلى الله، وأراد الحقيقة، وأراد أن يفهم، وأن يعقل كل شيء في الكون يدله على الله، لكن إن أراد الشهوة، إن أراد الدنيا، إن أراد العلو في الأرض، إن أراد الاستمتاع لو أنه في أكبر وكالة فضاء في العالم، ويرى كل يوم مئات المجرات، لو أنه على مجهر إلكتروني يكبر أربعمئة

ألف مرة لا يؤمن، تماماً كآلة تصوير بالغة التعقيد، غالية الثمن، فيها خصائص لا تصدق، لكن ليس فيها فيلم التصوير فلا قيمة لها. فهذا الإنسان الذكي المتبحر في العلم الذي نال أعلى الدرجات إن أراد من علمه شهوةً، أو مكسباً، أو سمعةً، أو مالاً، أو ذكراً فإنه لا يؤمن، وبين يديه آيات بينات واضحات صارخات، وهذا الذي أراد الحقيقة، أو أراد الهدى، أو أراد الإيمان، أو أراد أن يعرف أصغر شيء يدله على الله، ويشهد له كيف خُلق هو، الشمس والقمر، طعامه وشرابه، زوجته، نومه ويقظته، ماء الأمطار، العصافير، الأطيار، الأسماك، البحار، الجبال قال تعالى:

(فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[سورة عبس: 24]

طعامه يكفي، زواجه يكفي، أولاده إن تأمل في أطوار خلقهم، هذه آيات تكفيه أن يعرف الله عز وجل. فالكافر هو بالأصل ما أراد أن يعرف الحقيقة، أراد الدنيا، أراد الانغماس في المتع الرخيصة، أراد المال، ألَّه هواه.

الله عز وجل لا تدركه الأبصار لكن خلقه وأفعاله وكلامه يدلون عليه :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)

هناك آيات دالة على الله، وقد قيل: هناك آيات كونية دالة على الله، وهناك آيات قرآنية دالة على الله، الله عز وجل لا تدركه الأبصار لكنه خلق الكائنات، لا تدركه الأبصار لكن أفعاله بينات واضحات، لا تدركه الأبصار لكن كلامه بين أيدينا، لذلك قالوا: إذا أردت أن تحدث ربك فادعه، وإذا أردت أن يحدثك الله فاقرأ القرآن.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)

لم يعبأ بها، تماماً كما لو أن إنساناً فاضت عنده المياه فأتلفت الأثاث، فانطلق من بيته يريد قطعة كي يتلافى بها نزول المياه إلى أطراف البيت، هو مندفع ليشتري هذه الحاجة كي يمنع تسرب المياه، هو لا يرى شيئاً إلا هذه الحاجة، لو رأى سلعة رائعة رخيصة لا يعبأ بها، لذلك حب الدنيا يعمي ويصم، الإنسان حينما يحب الدنيا لا يرى شيئاً، حب الدنيا رأس كل خطيئة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً)

كل المخلوقات أبت أن تحمل الأمانة حينما عرض الله الأمانة على السماوات والأرض والجبال:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب: 72]

الإنسان مخلوق قبل حمل الأمانة وما سوى الإنسان أبى أن يحملها وأشفق منها :

الحيوانات لا تعذب لأنها ليست مكلفة، لأنها لم تقبل حمل الأمانة، لأنها أشفقت من حمل الأمانة، فالملائكة اختاروا أن يكونوا مع الله دائماً من دون تكليف ومن دون مسؤولية، والحيوانات اختاروا أن يكونوا مع الشهوة من دون تكليف ومن دون مسؤولية، أما الإنسان فحملها الإنسان:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب: 72]

لذلك ركب الله بنيته من شهوة وعقل، من قبضة من تراب الأرض، ونفخة من روح الله، فيه ميول عليا، وحاجات عليا، وفيه ميول دنيا، وحاجات سفلى، إن تحرك في شهواته وفق منهج ربه لا شيء عليه:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: 50]

لو اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه، فالإنسان مع أن فيه عقلاً وفيه شهوة لكن إذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، فهذا الإنسان قَبِل حمل الأمانة، وقال: أنا لها يا رب، فلما جاء إلى الدنيا غلبته شهوته، ونقض عهده مع ربه فاستحق النار.

الاعتداء من لوازم الذي يتحرك بلا منهج :

الإنسان أيها الأخوة حينما يؤمن له جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر له على قلب بشر، وإذا لم يؤمن سوف يدفع ثمن انحرافه جزاء وفاقاً، حينما لو يؤمن، وحينما تحكمت فيه شهوته انطلق ليروي شهواته لا وفق منهج الله، بل وفق مزاجه وأهوائه فاعتدى، من لوازم الذي يتحرك بلا منهج أن يعتدي، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)

سواء بآياتنا الكونية، أو بآياتنا التكوينية، أو بآياتنا القرآنية.

(سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً)

هذا وعيد من الله عز وجل لكن هذه النار تحرق الجلد، يتوهم الكفار أن هذا الجلد الذي يتألم من خلاله يحترق وينتهي، وانتهى الأمر، أمضينا كل العمر في الملذات والشهوات، بعد أن يحترق الجلد ينتهي العذاب، لكن الله عز وجل إذا وعد بالعذاب فوعده واقع لا محالة، لذلك يقول الله عز وجل:

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

تطابق المنهج مع المعجزة شيء يتميز به النبي الكريم لأنه خاتم الأنبياء :

الحقيقة التي تعذب هي النفس، لكن هذه النفس حينما تكون مرتبطة بالجسد، حينما يعالج طبيب الأسنان سناً من أسنانك من دون تخدير، وتصل أداته إلى عصب تحس بألم لا يوصف، وقد تصرخ، وقد تمسك بيده، لماذا؟ لأن هذا الألم انتقل إلى المخ، وهناك من يرى أن هذا الألم وصل إلى النفس، وأن هذه الأعضاء، وأن هذه الجلود إنما هي وسائط لنقل الألم إلى النفس، لذلك حينما تخدر هذه الأعضاء أو تلك الجلود لا ينتقل الألم إلى النفس. في الآخرة لأن وعيد الله عز وجل أن يحترق الإنسان إن كان كافراً إلى أبد الآبدين، والجلد يحترق.

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا)

الحقيقة أيها الأخوة، لا بد من تعريف دقيق بأن نبوة الأنبياء كانت محدودةً بأقوامهم، ولكل قوم هاد، فكل نبي أُرسل إلى قومه حصراً، وخصائص الأنبياء السابقين أن معجزته غير منهجه، سيدنا موسى معجزته العصا ومنهجه التوراة، سيدنا عيسى معجزته إحياء الميت ومنهجه الإنجيل، لكن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معجزته القرآن ومنهجه القرآن، فتطابق المنهج مع المعجزة شيء يتميز به النبي عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء، ولأنه مرسل إلى كل أمم الأرض، هناك معجزة مستمرة إلى يوم القيامة، ذلك أن معجزات الأنبياء السابقين كعود الثقاب تألقت مرةً واحدة، ثم انطفأت فأصبحت خبراً يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه، لكن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام بين أيدي الناس إلى يوم البعث، إلى يوم القيامة.

الإعجاز العلمي في خلق البعوضة :

هناك آية في البقرة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

[سورة البقرة: 26]

من قبل كنت مطلعاً على بحث علمي حول البعوضة، فكنت في بعض المناسبات أتحدث عن البعوضة على أنها تملك ثلاثة قلوب، كلمة قلب تعني أربعة أجواف، ودسامين، أذينين، بطينين،

شرايين، حركة نوبية، للبعوضة ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، وللبعوضة هكذا قرأت في هذه المقالة العلمية جهاز رادار تتجه إلى جبين الصبي، وللبعوضة جهاز تحليل الدم، وللبعوضة جهاز تخدير، وللبعوضة جهاز تمييع، ولها محاجم إن وقفت على سطح أملس، ولها مخالب إن وقفت على سطح خشن، ويرف جناحاها عدد كبير من المرات حيث يؤدي هذا الرفيف إلى طنين، بعد حين بعد عدة سنوات اطلعت على مقالة عن البعوضة، فإذا هي تشم رائحة عرق الإنسان من ستين كيلو متراً، واليوم اطلعت على بحث آخر أذهلني، فقرة من موسوعة علمية حديثة جداً، للبعوضة مئة عين لو كبرنا رأس البعوضة لوجدنا طرفي رأسها على شكل خلية النحل، كل حفرة في هذه الخلية عين، لها مئة عين، ثم لها مستقبلات حرارية، هذه المستقبلات تستقبل الحرارة عن بعد، وعندها حساسية لواحد على ألف من درجة الحرارة، لو قسمنا درجة حرارة واحدة إلى ألف درجة هذه المستقبلات عندها حساسية كي تكتشف ارتفاع أو انخفاض واحد على ألف من الدرجة، الأشكال التي أمامها تتلون بحسب الرائحة، الأشياء التي أمامها تراها بمئة عين بألوان متناسبة مع درجة حرارتها، لذلك إذا كانت في غرفة مظلمة ترى الطفل بعينيها بالأشعة تحت الحمراء، لأن الأشعة تحت الحمراء أشعة حرارية وليست ضوئية، تتحسس الحرارة على مستوى واحد من ألف من الدرجة، تتجه إلى جبين الصبي، ومن الذي صنع لها هذا المخدر؟ لولا هذا التخدير لقتلت مع كل لسعة، هي تمتص دم الإنسان، وبعد أن تطير ينتهي التخدير فيشعر باللسعة، فيضرب يده بلا طائل، وتكون هي قد طارت، أما الشيء الذي لا يصدق أن في خرطومها ست سكاكين، أربع تقطع الجلد، وسكينان يندرجان مع بعضهما البعض فيكونان أنبوباً، هذا هو أنبوب امتصاص الدم، وأساس هذا الأنبوب سكينان مندمجان مع بعضهما بعضاً، كأن السكين على شكل مجراة محدبة، وتأتي الثانية فوقها فتكون أنبوباً يغرس في لحم النائم بعد أن تستخدم السكاكين الأربعة في تقطيع الجلد من أربع زوايا.

هذا كله في البعوضة، مستقبلات حرارية، في خرطومها ست سكاكين، أربعة لقطع الجلد، وسكينان ليكونا مع التوليف أنبوباً لامتصاص الدم، ومئة عين، من صنع لها مادة التخدير؟ من صنع لها مادية التمييع؟ من صنع لها المستقبلات الحرارية؟ من أعطاها القدرة على اكتشاف ضحيتها مباشرةً؟ من جعل لها قلوباً ثلاثة؟ من جعل لها مئة عين؟ من جعل لها قوائم تستخدم المحاجم أو الخوالب؟

كلما تقدم العلم اكتشف جانباً من عظمة الله عز وجل :

ماذا يقول الله عز وجل؟

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

[سورة البقرة: 26]

هذه الآية إعجاز علمي؛ ما من مخلوق أهون على الإنسان من بعوضة، الآن كلمة بعوضة مئة عين، ثلاثة قلوب، محاجم، مخالب، مستقبلات حرارية، جهاز تخدير، جهاز تمييع، جهاز رادار، شيء عجيب.

أيها الأخوة الكرام، في القرآن الكريم ألف وثلاثمئة آية، كلما تقدم العلم اكتشف جانباً من عظمة الله عز وجل، إذاً منهج النبي صلى الله عليه وسلم منهج ومعجزة في وقت واحد.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا)

في بحث علمي حول طبيعة الألم أين الأعصاب؟ آخر ما توصل له العلم أن الأعصاب منبسطة في جلد الإنسان، بدليل أنك لو أخذت حقنةً تشعر بالوخزة لفترة قصيرة، وبعد الشعور بالوخزة لا تحس بشيء، معنى ذلك أن الحقنة حينما غرزت بالجلد لامست عصباً، لكن ما هذه الشبكة؟ ائتِ بدبوس في أي مكان من جلدك، واغرسه تشعر بالألم، أي أن هذه الشبكة تغطي كل مساحة الجلد على مستوى واحد بالمئة من الميليمتر، شبكة الأعصاب الحسية هذه التي تذوق العذاب، هذه التي تحس بألم الإحراق، فهذا الجلد لو أنه احترق، واحترقت معه أعصاب الحس لانتهى العذاب، لكن إعجاز القرآن الكريم يشير إلى أن هذا الجلد كلما احترق بدل الله هذا الجلد بجلد جديد.

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا)

المعجزات السابقة حسية لذلك أصبحت خبراً أما القرآن الكريم فمعجزة مستمرة

لو أنك فتحت بطن مريض، وفتحت أمعائه وصببت فيها ماءً يغلي لا يشعر بشيء لأن أعصاب الحس لا وجود لها في الأمعاء، لكن الأمعاء تتأثر بالضغط، لذلك قال تعالى:

(وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً)

[سورة محمد: 15]

ما قال: أحرقهم، قال:

(فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

[سورة محمد: 15]

الأمعاء تتقطع، والذي يؤلم في الأمعاء التقطع، ولذلك اضطراب الأمعاء يسبب آلاماً لا تحتمل، لا من قبيل الحرق بل من قبيل التقطع.

(أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ)

[سورة التوبة: 92]

الحقيقة أن الدمع يجري بشكل مستمر، له مصرفان في قعر موق العين، وهذان المصرفان يصبان في الأنف، فرطوبة الأنف تأتي من أن الدمع يسيل إليه بشكل مستمر.

أيها الأخوة الكرام، ما هو البكاء؟ حينما يكون إفراز الدمع بكمية أكبر من طاقة التصريف فيفيض الدمع، فكلمة تفيض أعينهم من الدمع فيها إعجاز علمي.

إذاً نحن أمام كتاب منهجي، وأمام كتاب إعجازي، معجزة النبي عليه الصلاة والسلام ومنهجه في كتاب واحد، طبعاً المعجزات السابقة حسية، لذلك انتهت مع نهاية بعثة النبي إلى قومه أصبحت خبراً، ولأن النبي عليه الصلاة والسلام أرسله الله إلى الناس كافة فلا بد من معجزة مستمرة، إنها القرآن الكريم، لذلك يقول الله عز وجل:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت: 53]

منهج الله عز وجل يضبط للإنسان شهواته :

قال تعالى:

(لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً)

معنى كان عزيزاً حكيماً، العزيز الذي تشتد الحاجة إليه، والعزيز الذي لا يُنال جانبه، والعزيز الذي لا يخيب مؤمله، فالله عز وجل كان عزيزاً حكيماً.

هؤلاء فريق الذين كفروا وكذبوا بآياتنا أي لم يتعرفوا إلى الله لا من خلال آياته الكونية، ولا من خلال آياته التكوينية، ولا من خلال آياته القرآنية، ولأنهم حينما كفروا بالآيات كفروا بالمنهج، وتحركوا من دون منهج، تحركوا فاعتدوا.

توضيح لطيف، لو تصورنا أن الإنسان كفر بآيات الله ولم يؤذِ أحداً فهناك مشكلة، حينما يكفر بآيات الله لا بد أن يعتدي، لأن منهج الله يضبط لك شهواتك، أما بلا منهج فالشهوات طليقة والعدوان مستمر، فمستحيل وألف مستحيل ألاّ تعبأ بمنهج الله ثم تستقيم أبداً.

إذا كان الإنسان ذكياً جداً لدرجة أنه يقنع الناس بكماله وهو على الباطل يمتحنه الله عز وجل، فيصاب ببعض مصالحه، فيصبح كالوحش، وهذا ترونه جميعاً، كل يوم هذا البلد القوي الغني الذي طمع الناس أن يصلوا إليه، ولفت نظر الناس، وخطف أبصار البشر، وكان قبلة البشر، وكان أمنية البشر حيث الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والرفق بالحيوان، والثراء الفاحش، والطبيعة الجميلة، هؤلاء ادعوا أنهم كاملون، فتحدثوا عن حقوق الإنسان، وتحدثوا عن حرية الإنسان، وتحدثوا عن حق مقاضاة الإنسان... فلما أصيبوا في مقتل لهم أصبحوا كالوحوش، إذاً لا كمال من دون إيمان، ولا إيمان من دون كمال.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً)

دائرة المرئيات محدودة بينما دائرة المسموعات أوسع ودائرة الخواطر لا تنتهي :

الطرف الثاني، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً)

ليست جنة، بل جنات، الإنسان في الدنيا عنده قلق عميق، صحته طيبة، لكن هذه الصحة لا تستمر، مستحيل، لا بد من يوم يكتشف الإنسان أن في جسمه شيئاً لم يكن من قبل، قد يكون هذا بداية مرض الموت، إذاً يوجد قلق عميق على أن هذه الحياة لا تدوم لأحد، ولا تستقر على حال، بل هي متقلبة، لكنك في الجنة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما يحدثنا عن ربه:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما لا عين رأت دائرة المرئيات محدودة، أنا سافرت إلى أستراليا، إلى ماليزيا، إلى أمريكا، إلى بريطانيا، إلى المغرب، إلى مصر، مثلاً، محدودين، لكن في العالم مئتا دولة، لكنني أسمع في الأخبار عن موسكو مثلاً، أسمع عن مدينة في إفريقيا، دائرة المرئيات محدودة، بينما دائرة المسموعات أوسع بكثير، أما دائرة الخواطر فهذه لا تنتهي، أي خاطرة تأتي إلى ذهنك يمكن أن تكون مقولة، قد يخطر في بالك قلم طوله ألف كيلو متر، ممكن هذه خاطرة.

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

إيمان بلا عمل لا قيمة له وعمل بلا إيمان لا قيمة له فلابدّ من عمل مبني على إيمان :

هذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض، والتي أنت فيها إلى أبد الآبدين، وما أنت فيها من المخرجين، والتي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، هذه الجنة ليس فيها مرض، ولا قلق، ولا خوف، ولا حرج، ولا زوجة سيئة، ولا ابن عاق، ولا مرض عضال، ولا عدو يهدد، ولا منافق يحسد، ولا نفس غاوية، ولا شيطان يوسوس، فيها ما تشتهيه الأنفس، لذلك أيها الأخوة أعقل العقلاء من سعى إلى جنة عرضها السماوات والأرض، هذا هو العاقل، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يعجب ممن يعرف أن الجنة حق، وأن النار حق، ثم لا يعمل للجنة، ولا يتقي النار.

لذلك قال روى بعضهم حديثاً عن رسول الله استغنى به عن أربعمئة حديث: اعمل لله بقدر حاجتك إليه، أنت محتاج إليه في كل شيء، واتقِ النار بقدر صبرك عليها، واعمل للجنة بقدر مقامك فيها، اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، الإنسان حتى يستقر بالأربعين، بالثلاثين، من الثلاثين حتى الأربعين نوعاً ما حتى يستقر، ثم تنمو حياته شيئاً فشيئاً، فإذا بلغ الأوج بلغت خبراته الأوج، له دخل كبير، استقرت حياته، بنى معارف، شبكة علاقات، يأتيه ملك الموت في أحرج وقت، هذه هي الدنيا، ما

جمعه في عمر مديد يخسره في ثانية واحدة، وكل ممتلكاته متعلقة بنبض قلبه، وكل أمواله الطائلة متعلقة بسيولة الدم في شرايينه، وكل مكاسبه متعلقة بنمو خلاياه، كل هيبته متعلقة بحالته الصحية، بقطر شريانه، الموت قريب جداً، فهذا الذي يعمل للدنيا إنما هو يغامر ويقامر. فيا أيها الأخوة الأكارم، هاتان الآيتان:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

كلمة آمنوا وعملوا الصالحات تتوارد في القرآن بعدد كبير جداً، فإيمان بلا عمل لا قيمة له، وعمل بلا إيمان لا قيمة له، فلا بد من عمل مبني على إيمان.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

كل ما في الجنة كمال مطلق :

طبعاً فيها ما لا عين رأت، أوصاف الجنة تقريب لنا، مثلاً أنهار الجنة فيها ماء غير آسن، ماء رقراق، عذب فرات، فيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه، فيها أنهار من عسل مصفى، فيها أنهار من خمر لذة للشاربين، معنى ذلك أن كل ما في الجنة في كمال مطلق، شباب دائم، حياة أبدية، شبح الموت يقطع الرقاب، أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، أما في الجنة: ما هم منها بمخرجين:

(عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

[سورة الطور: 20]

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[سورة الحاقة: 23]

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)

[سورة الإنسان: 20]

هذه الجنة، أخواننا الكرام، الشيء المؤسف جداً أن مفاهيم الجنة ليست داخلة في حسابات الناس، كما أن مفاهيم النار ليست داخلة في حسابات الناس، داخل في حساباتهم أسعار العملات، وطريقة اقتناص الشهوات، داخل في حساباتهم خصوماتهم، داخل في حساباتهم انغماسهم إلى قمة رؤوسهم بالشهوات، أما هذا الموت الذي يصعق له الإنسان فهو خارج حساباتهم، لذلك يقول الله عز وجل:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف: 83]

الموت يأتي بغتةً والقبر صندوق العمل :

هذا اليوم الذي وعدنا به لا بد آتٍ ما بين طرفة عين وانتباهها يغير الله من حال إلى حال، الذين حولك من أقربائك عدد الذين ماتوا منهم كبير، كان إنساناً له بيت، له أهل، له زوجة، يزورك، ينظر إليك، يسلم عليك، يبتسم، يضحك، يكسب مالاً، ينفق، ينام، يأكل، في ثانية واحدة أصبح خبراً على الجدران، وكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر:

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملــت إلى القبور جنازةً فاعلم بأنك بعدها محمــول

حدثني أخ يصلي في جامع في أحد أحياء دمشق، قال لي: أحد المصلين عنده روح دعابة لطيفة، كلما صلينا الفجر معاً وخرجنا من المسجد يتحفنا بطرفة جديدة، أقسم لي بالله أنه في أحد الأيام صلى معهم الفجر وهو في حالة طبيعية جداً، في صلاة الظهر رآه على أحد مواقف السيارات، أذن العصر فكان يصلي عليه، توفاه الله بشكل مفاجئ، وبعد أذان العصر كان تحت أطباق الثرى، الموت يأتي بغتةً، والقبر صندوق العمل.

أحد أخواننا الكرام يأكل شطيرة، وفي أثناء تناوله الشطيرة وافته المنية، كان يأكل ظهراً، العصر كان مدفوناً، انتهى الأمر، ملف مغلق. فالموت يأتي سريعاً، والموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً، لا يعرف صحيحاً ولا مريضاً، لا يعرف مقيماً ولا مسافراً، قد يأتي الموت الإنسان في أحرج المواقف.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ)

يوجد زوجات في الدنيا متعبات، أما في الآخرة، قال تعالى:

(لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(29-69): تفسير الآية 58، أنواع الأمانة ومقوماتها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-09-13

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان مخلوق قبل حمل الأمانة وما سوى الإنسان أبى أن يحملها وأشفق منها ،:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثامنة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)

أيها الأخوة الكرام، هذه آية مهمة جداً، ودقيقة جداً، وأساسية جداً، ذلك أن الإنسان مخلوق قَبل حمل الأمانة، ما سوى الإنسان أبى أن يحملها وأشفق منها، وحملها الإنسان.

المخلوقات أيها الأخوة، أدناها الجماد، وأوسطها النبات، وفوق وسطها الحيوان، وعلى رأسها الإنسان، هذه المخلوقات؛ الجماد، والحيوان، والنبات أشفقن منها، وأبين أن يحملنها، لأن هناك مسؤولية بعد حمل الأمانة، أرادت هذه المخلوقات أن تتقرب إلى الله من دون مسؤولية، فالنبات يسبح لله عز وجل من دون أن يكلف، ومن دون أن يحاسب، ومن دون أن يعذب، ومن دون أن يكافأ، والجماد كذلك، والحيوان كذلك، رُكّب الملك من عقل بلا شهوة، ورُكّب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، هذا الإنسان من بين مخلوقات الله كلها قَبل حمل الأمانة، ولأنه قَبل حمل الأمانة سخرت له السماوات والأرض.

علاقة الأمانة بالله عز وجل أن الله جلّ جلاله سلمك نفسك التي بين جنبيك :

قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

لأنه قبل حمل الأمانة سخر له الكون بأكمله، إذاً هو المخلوق الأول فيه نفخة من روح الله، وفيه قبضة من تراب الأرض، هذه الأمانة نفسه التي بين جنبيه.

الآن دقق أيها الأخ الكريم، لو أعطاك إنسان مئة ألف ليرة، وأخذ منك إيصالاً رسمياً أصولياً وفق القوانين النافذة، هل يعد هذا المبلغ أمانةً؟ لا، لأن الذي أعطاك هذا المبلغ بإمكانه أن يقاضيك، ولو أن إنساناً أعطاك مئة ألف، وأشهد عليك شاهدين هل هذا المبلغ أمانة؟ الجواب لا، لأن الشاهدين يشهدان له عليك، ولكن إذا أعطاك مئة ألف من دون شاهدين، ومن دون إيصال فهذا المبلغ أمانة، أنت بإمكانك أن تؤديه، وبإمكانك ألاّ تؤديه.

فالأمانة الشيء الذي وُضع عندك، وأنت مؤتمن عليه، ولا رقيب عليك إلا نفسك وربك، لذلك حينما حمّل الله عز وجل الإنسان الأمانة، الأمانة نفسه التي بين جنبيه بإمكانه أن يزكيها، وبإمكانه أن يدسها، بإمكانه أن يصدق، وبإمكانه أن يكذب، بإمكانه أن يرتقي، وبإمكانه أن يسفل، بإمكانه أن يكون أميناً، وبإمكانه أن يكون خائناً، فالأمانة نفسك التي بين جنبيك، فإما أن تعرفها بالله، وتحملها على طاعته، فتسعد في الدنيا والآخرة، وإما أن تبقيها جاهلةً، وتسمح لها أن تتحرك من دون منهج تسير عليه، فتشقيها في الدنيا والآخرة.

أيها الأخوة الكرام، هناك أمانة التكليف، وهناك أمانة الإنسان، وهناك أمانة الخلق، هذا الموضوع أيها الأخوة واسع جداً، والدليل على أنه واسع ألم يقل الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

فعلاقة الأمانة بالله عز وجل أن الله جل جلاله سلمك نفسك التي بين جنبيك، فبإمكانك أن تأتي على المسجد وبإمكانك أن تذهب إلى الملهى، بإمكانك أن تتزوج وبإمكانك أن تزني، بإمكانك أن تكسب المال مشروعاً وبإمكانك أن تسرق، بإمكانك أن تصدق الداعية إلى الله عز وجل وبإمكانك أن تكذبه، بإمكانك أن تحترمه وبإمكانك أن تحتقره، أنت مخير، هنا موطن الشاهد.

مقومات الأمانة :

أيها الأخوة الكرام، كتوسيع طفيف ما كلفك الله حمل الأمانة إلا وأعطاك مقوماتها.

1 ـ الكون :

أولى مقومات حمل الأمانة أنه سخر لك ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه تسخير تعريف، وتسخير تكريم، سخرها لك من أجل أن تعرفك بالله عز وجل، وسخرها لك من أجل أن تنتفع بها في الدنيا فهذا الكون مسخر لهذا الإنسان تسخيرين؛ تسخير تعريف، هلال خير ورشد، وتسخير تكريم، أي شيء خلقه الله عز وجل له وظيفتان: الوظيفة الكبرى والأولى أن تتعرف إلى الله من خلاله، والوظيفة الثانية المحدودة أن تنتفع به في الدنيا.

أول مقومات حمل الأمانة أن الله جل جلاله لا تدركه الأبصار، ولكن الكون كله ينطق بالواحد القهار، الكون أحد مقومات الأمانة.

2 ـ العقل :

أعطاك عقلاً هو مناط التكليف، أداة معرفة الله، مناط المسؤولية تدرك الحق من الباطل، والخير من الشر، وما يمكن وما لا يمكن، وما يجوز وما لا يجوز، لكن هذا العقل الذي يقبل الباطل ويرفض الحق هو العقل النفعي، العقل التبريري لا قيمة له عند الله، لكن العقل الذي يهديك إلى الله هو العقل الصريح، حينما تتجرد عن أهوائك وعن مصالحك، وتفكر تفكيراً سليماً تهتدي إلى الله عز وجل.

سيدنا نعيم بن مسعود كان زعيماً من زعماء غطفان، وقد قاد قبيلته لحرب النبي عليه الصلاة والسلام، وقبيل معركة الخندق كان في خيمته، وهو قائد جيش غطفان فكر، ثم قال: لماذا جئت إلى هنا؟ لتحارب هذا الرجل، ماذا فعل حتى تحاربه؟ أسفك دماً؟ انتهك عرضاً؟ أأكل مالاً؟ إنه رجل صالح، يا نعيم أيليق بك وأنت العاقل أن تحارب رجلاً صالحاً، أين عقلك؟ فقام من توه، وتوجه إلى خيمة النبي عليه الصلاة والسلام، لما رآه النبي قال: نعيم، قال نعيم: يا رسول الله، قال: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت مسلماً.

فأعطاك نعمة العقل به تعرف الحق من الباطل، به تدرك الخير من الشر إذا كنت صادقاً في طلب الحقيقة، أما إن لم تكن كذلك قد تستخدمه لتغطية الباطل، ولتبرير الانحراف، وهذا العقل فيه مبادئ ثلاثة: مبدأ السببية، والغائية، وعدم التناقض، وهذه المبادئ تتوافق توافقاً تاماً مع قوانين الكون، فعقلك لا يقبل شيئاً من دون صانع، والكون كذلك فيه نظام السببية، والعقل لا يقبل شيئاً من دون غاية، وفي الكون نظام الغائية. فالمقوم الثاني هو العقل.

3 ـ الفطرة :

المقوم الثالث هو الفطرة، أعطاك فطرةً لو اتقيت الله لارتحت ولو عصيته لاكتأبت، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: 7-8]

الفطرة تعينك لو اتخذت قراراً في طاعة الله ترتاح نفسك، ولو لم تتخذ هذا القرار لأتعبتك نفسك، فكما أن الله تعالى خلق لك الكون دالاً عليه، مشيراً إلى وحدانيته، مبيناً لكمالاته، كذلك أعطاك عقلاً لو أعملته بتجرد بعيداً عن أهوائك ومصالحك لأوصلك إلى الله عز وجل، ثم جبلك على جبلة لو

أنك لم تفعل ما في الكتاب والسنة، ولو أنك لم تأتمر بأمر الله لأتعبتك نفسك، ولوقعت في كآبة ما بعدها كآبة، إنها مرض العصر.

4 ـ الشهوات :

ثم أودع فيك الشهوات، وهذه الشهوات من مقومات الأمانة، أودع فيك حب النساء، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

هذه الشهوات أيها الأخوة، بمثابة المحرك، والعقل بمثابة المقود، والمنهج الذي شرعه الله لك بمثابة الطريق، فالمحرك يدفعك، والمقود يوقع الحركة على الطريق، والطريق هو الشريعة السمحاء التي أنزلها الله عز وجل.

أودع فيك الشهوات لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات أودع بك الشهوات لترقى بها مرتين؛ مرةً صابراً، ومرةً شاكراً، إن غضضت البصر عن محارم الله رقيت صابراً، وإن تطلعت إلى ما أحل الله لك رقيت إلى الله شاكراً، إن تترفع عن المال الحرام ترق إلى الله صابراً، إن كسبت المال الحلال ترق إلى الله شاكراً، ليس في الإسلام حرمان، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها.

5 ـ حرية الاختيار :

أيها الأخوة الكرام، منحك الكون، وسخره لك تسخير تعريف، وتسخير تكريم، إن عرفته وشكرته حققت الهدف الذي من أجله خلقت، لذلك قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

رد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر، إن آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، أعطاك الكون وسخره لك تسخيرين، منحك العقل ليكون أداة معرفة الله، جبلك جبلة راقية وهي الفطرة كي تكون لك معيناً على طاعة الله، لو اتخذت قراراً بالطاعة والتوبة يقول لك: ارتاحت نفسي، نمت قرير العين، ناعم البال، أنا أسعد الناس، لأنك انسجمت مع فطرتك، لأن هذه المركبة مصممة على الطريق المعبد، فلو سرت فيها في الطريق الوعر أتعبتك، ولحطمتها وحطمتك، أما إذا مشيت بها على الطريق المعبد قطفت ثمارها، وأرحتها وارتحت.

6 ـ الشريعة :

أودع فيك الشهوات لترقى بها إلى الله صابراً أو شاكراً، منحك الفطرة السليمة، أعطاك العقل الصريح، خلق لك الكون، ثم أعطاك قوةً من أجل أن تحقق مرادك، أعطاك القوة فيما يبدو، وفضلاً عن كل ذلك لقد أعطاك الشريعة، وهي منهج تفصيلي، أساسه أن تفعل شيئاً، وأن تنتهي عن شيء، هذه مقومات حمل الأمانة، ما كلفك حمل الأمانة إلا وقد أعطاك مقوماتها، ومن مقوماتها الكون، والعقل، والفطرة، والشهوة، وحرية الاختيار، جعلك مريداً ما قيمة العمل الصالح لو أنك مجبر عليه؟ لولا أن الله أعطاك حرية الاختيار لا يثمن عملك الصالح، ولا تكون مسؤولاً عنده، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يطع مكرهاً، ولم يعصَ مغلوباً.

كون ناطق بوجوده ووحدانيته وكماله، عقل يعينك على معرفة الله، فطرة تكشف لك صواب عملك أو خطأه، شهوة ترقى بها إلى الله مرتين، حرية اختيار تثمن عملك، وشريعة هي منهج دقيق تسير عليه، هذه مقومات حمل الأمانة، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

إن لم يعطها حقها.

الرسل أعطوا أمانة التبليغ والدعاة إلى الله أعطوا أمانة التبيين :

الآن هذه أمانة التكليف أعلى أمانة، الرسل أعطوا أمانة التبليغ، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

[سورة المائدة: 67]

الدعاة إلى الله أعطوا أمانة التبيين، الذي ينوب عن النبي في إبلاغ الحق ينبغي أن يبين، أن يبين ولا يعبأ بمصالحه ولا حظوظه، ينبغي أن يبين الحق ولو كان مراً، الآن أنت أب، زوجتك وأولادك أمانة في عنقك، فإما أن تحملهم على معرفة الله وطاعته، وإما أن تكون سبباً في شقائهم، وعندئذ تحاسب عنهم. الرجل مسؤول عن أهله، وعن أولاده، والراعي عن رعيته، والمعلم عن صفه، والمهندس عن أعماله، والطبيب عن مرضاه، والمحامي عن موكليه، وهو مسؤول، وهي أمانة.

أنت صيدلي لو جاءك مريض يطلب دواءً، وقد انتهى مفعول الدواء، فحككت التاريخ كي تضله، وبعته الدواء فأنت ماذا فعلت؟ هذا المريض أمانة في عنقك، وأنت عنده موثوق، إذاً إما أن تؤدي الأمانة إلى أهلها، وإما أن تخون الأمانة، هذا الطالب أمانة في عنق المعلم، إما أن يعلمه باهتمام،

وإتقان، ودقة، وإما أنه يخون الأمانة، فلا يعلمه شيئاً، ويمضي الوقت هكذا، ويتقاضى الراتب هكذا، المهندس إن لم يحضر المفاصل الحساسة في البناء ربما انهار البناء، فالذي يقع من انهيار البناء من إزهاق للأرواح في رقبته، لأن هذا البناء أمانة في عنقه، الطبيب الذي يأتيه مريض ولا يتقن معالجته، لا يفكر في شفائه، بل يفكر في شيء آخر عاد عليه بالخير العميم، هذا لم يطع الله عز وجل، ولم يؤدِ الأمانة. لو ذهبت إلى حرفة الذي يصنع طعاماً، لو لم يكن هناك دقة في صنع الطعام، العامل في المطعم المصاب بالتهاب الكبد الفيروسي إن لم يغسل يديه جيداً قد يصيب ثلاثمئة إنسان من رواد هذا المطعم بمرض قاتل، فحينما تبيع طعاماً هؤلاء الذين يأكلون من طعامك أمانة في عنقك، إما أن تقدم لهم طعاماً جيداً نظيفاً، وإما أن الله سيحاسبك. لو بعت بذوراً، وقد مضى عليها أمداً طويلاً فقلّ إنباتها، وأوهمت المشتري بأنها بأعلى درجة من الإنبات، لقد خنت الأمانة، ما من صاحب حرفة إلا وحرفته أمانة في عنقه، فإما أن يغش الناس أو أن يصدقهم، إما أن يرحمهم وإما أن يقسو عليهم، إما أن يضللهم وإما أن يعاملهم معاملةً طيبة.

سيدنا عمر التقى والياً فقال له: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

كل خطر يتأتى بسبب إهمالك وبسبب عدم أداء الأمانة محاسب عليه :

أيها الأخوة الكرام، ليس من باب المصادفة أن تأتي الأمانة جمعاً في الآية الكريمة، ابنك أمانة، زوجتك أمانة، الموظف الذي في عمله أمانة، قد تكون من أصحاب الحرف، إنسان ركّب صحناً على السطح، حرمة الصحن موضوع آخر، من أجل السرعة وضع بعض البراغي في أيام عاصفة طار الصحن، وقتل طفلةً بسبب إهمال هذا الذي ركبه، فكل خطر يتأتى بسبب إهمالك وبسبب عدم أداء الأمانة محاسب عليه.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

أنت قاض ينبغي أن تحكم بالعدل، ينبغي أن تتريث، ينبغي أن تحقق، ينبغي أن تسأل، ينبغي أن تستمهل حتى يأتي الحكم صحيحاً عادلاً، والله أيها الأخوة لو علم الناس ما في هذه الآية من مسؤولية لارتعدت مفاصلهم، ولارتجفت قلوبهم.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

أيها الأخوة، لو أن كل إنسان أدى ما عليه من حقوق، وأدى ما عليه من واجبات، أدى الأمانات إلى أهلها، أنت بائع تبيع بضاعة، تبيع الزيت، واستيقظت صباحاً، فإذا في وعاء الزيت فأرة،

بإمكانك أن تلتقطها، وأن تبيع الزيت، ولا يعلم أحد في الأرض، لكن هذا الذي يشتري منك الزيت أمانة في عنقك، فينبغي أن تعطيه زيتاً طاهراً، هذه الآية تدور مع الناس في كل لحظة، وفي كل ثانية، وما أكثر الغش، والذي يغش المسلمين لا يفقه معنى هذه الآية، قد تشتري مادةً انتهى مفعولها، تصنعها مادةً غذائية وتبيعها، ولا يعلم أحد إلا الله، تذكر مقدمة الدرس، وضع معك مئة ألف وكتبت إيصالاً، ليس هذا المبلغ أمانة، أشهد عليك شاهدين، ليس هذا المبلغ أمانة، أما إن أعطيت المئة ألف بلا شهود، وبلا إيصال، والأمر عائد إليك، فإما أن تؤديه، وإما ألا تؤديه، فهو أمانة .

كم من الأعمال ما إن فعلتها أو لم تفعلها لا يستطيع أحد أن يحاسبك، إذا جاءك مريض، وقلت له: أريد سبعة تحاليل، والمريض لا يحتاج إلا إلى تحليل واحد، فالستة الباقية لك منها نصيب فأنت خنت الأمانة، لو أن مريضاً عندك، ومرضه صعب الشفاء، وفي البلدة من هو أفضل منك في معالجة هذا المريض إن لم ترسله إلى ذلك الطبيب الذي يفوقك في الطب فأنت لم تحمل الأمانة، بل خنت الأمانة.

الإنسان لا يحاسب عن الأسباب بل يحاسب عن النتائج :

هذه الآية أيها الأخوة، تدور مع كل الناس في كل أوقاتهم وفي كل شؤون حياتهم:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

أدِ الذي عليك واطلب من الله الذي لك، كم من مريض أجريت له عملية جراحية بالغة التعقيد مات لا من خطأ من العمل الجراحي ولكن من خطأ بعد العمل الجراحي من الإهمال، أحياناً إنسان يأتي إلى بلده دمشق من الحجاز في أيام الصيف الحارة، احتاج إلى تبديل زيت علبة السرعة، بدل الزيت، ولم تضبط البراغي، فسال الزيت، ثم احترق المحرك، ثم تحرك صاحب المركبة حركةً زائدةً، فأصابته ضربة شمس فمات من توه، سيحاسب على هذا العمل، لأن الإهمال في ضبط الأمور سبب هذه الوفاة، فكل إنسان محاسب، أنت لا تحاسب على الأسباب بل تحاسب على النتائج، الباب واسع جداً، والحديث عن حمل الأمانة، وعن أداء الأمانة والله لا تستوعبه المجلدات، وما من حرفة على وجه الأرض إلا وهي أمانة في عنقك، فينبغي أن تنصح الناس، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم))

[مسلم عن تميم الداري]

هكذا تقتضي الأمانة أن تكون ناصحاً للناس، لو أن واحداً منا لم يؤدِ الأمانة وقع نزاع، فإذا وقع النزاع بسبب عدم حمل الأمانة، كإنسان لم يؤدِ واجبه في بناء وقع، لأن المهندس غاب في الأيام

الحرجة عن الإشراف على البناء، كم مريضاً فمات، لا تقل: انتهى أجله، قد يكون الموت بسبب خطأ في المعالجة، فيحاسب الإنسان عن ذلك، إنسان دهس بسبب خطأ في القيادة، إذاً الإنسان لا يحاسب عن الأسباب، بل يحاسب عن النتائج.

علاقة الحكم بالعدل وأداء الأمانة علاقة دقيقة جداً :

إن لم تؤدَ الأمانات إلى أصحابها وقع التنازع، الآن يقتضي التنازع أن نحاكم قال تعالى:

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

علاقة الحكم بالعدل وأداء الأمانة علاقة دقيقة جداً، علاقة الحكم بالعدل مع أداء الأمانة علاقة دقيقة، لأنه إن لم تؤدَ الأمانات وقعت المنازعات، إن لم يؤدِ الزوج حق زوجته هي أمانة في عنقه يغيب عنها ثماني عشرة ساعة كل يوم، هي لمن؟ من لها غيرك؟ هي أمانة في عنقك، قصرت في حقها، لم تطعمها مما تأكل، ولم تلبسها مما تلبس، ولم تعتن بها، ولم تكن معها في وقت معقول، إذاً خنت الأمانة، لذلك عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((آخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ وَبَيْنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ: فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ..... قَالَ لَهُ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ فَقَامَا فَصَلَّيَا، فَقَالَ: إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ))

[البخاري والترمذي عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ]

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

إن لم تؤدَ الأمانات نشأت المنازعات، وإن نشأت المنازعات ينبغي أن تحكموا بالعدل.

(إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)

تقول: قد تقنعني وأنت مخطئ فأقنع منك، لكن الله يعلم، قد تفعل شيئاً ما رآه أحد، لكن الله يرى، ما علاقة: إن الله كان سميعاً بصيراً؟ أي كلام تقوله سمعه فإن طابق الحقيقة يعلم الله ذلك، وإن لم يطابق يعلم الله ذلك، وفي مئات الأحوال يمكن أن تقول كلاماً لا يستطيع أحد منهم أن يناقشك فيه، أنت مؤتمن قلت له: كذا فصدقك.

انتشار الغش بين المسلمين دليل عدم حمل الأمانة :

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)

سميعاً لأقوالكم، بصيراً بأحوالكم، هذه الآية وحدها أيها الأخوة والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

لذلك انتشار الغش بين المسلمين دليل عدم حمل الأمانة، قد تضاف مواد مسرطنة لبعض الصناعات الغذائية، لكن تباع بسعر عال، قد تضاف مواد مؤذية، قد تضاف مواد حافظة تسبب بعض الأورام الخبيثة، لا بد أن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

الغش في الصناعة واسع جداً، لدرجة أن الذي يبيع البضاعة لا يهمه إلا أن يربح، أما أن ينفع المسلمين، أما أن يؤدي ما عليه لهم من حق هذا لا يفعله أبداً.

أيها الأخوة الكرام، كي يترجم هذا الكلام إلى واقع ينبغي أن نتريث، هل أدى الأب الأمانة؟ هل ربى أولاده تربيةً إسلامية؟ هل حجب بناته، أم ترك ابنته تفعل ما تشاء، حتى تأتي يوم القيامة، وتقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي؟ هل أخذ بيد زوجته إلى الله عز وجل؟ هل أمر أهله بالصلاة واصطبر عليها؟ هل أتقن صنعته؟ هل باع المسلمين بضاعةً جيدةً بثمن معقول فرحمهم وكشف عنهم الضر؟ هل نفس عن المسلمين كربتهم أم كان كربة عليهم وعبئاً عليهم؟!

أنواع الأمانة :

والله هذا البحث تتسع له المجلدات، ولا ينتهي في سنوات، ملخصه هناك أمانة التكليف الأمانة العظمى التي كلفك الله بها، وهي نفسك التي بين جنبيك، وقد تفلح إذا عرفتها بربها وحملتها على طاعته، وقد تهلك إذا أبعدتها عن معرفة ربها وحملتها على معصيته.

ثم إن هناك أمانة التبليغ، هي أمانة الأنبياء، هناك أمانة التبيين، هي أمانة العلماء، هناك أمانة الولاية سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه زوجته فرأته يبكي قالت له: ما لك تبكي يا أمير المؤمنين؟ قال: دعيني وشأني، قالت له: مالك تبكي؟ قال: وليت هذا الأمر، فنظرت إلى الفقير الجائع، وابن السبيل، والشيخ الطاعن في السن، والأرملة، واليتيم، ذكر أصنافاً تزيد عن ثمانية عشر صنفاً، فعلمت أن الله سيحاسبني عنهم جميعاً، وعلمت أن حجيجي دونهم هو رسول الله، فلهذا أبكي.

أحياناً يجرى تحويل في الطريق لا توضع الإشارات الكافية، حدثني أخ تحويلة واحدة مات فيها أربعة عشر إنساناً، إذا لم تكن الإشارات كافية، والإضاءة كافية من مسافات كافية قد تفاجأ بها، فيكون الحادث، فالذي أهمل عمله يحاسب عند الله، كل شيء أنيط بك فهو أمانة، وينبغي أن تؤديها إلى أصحابها، فالأمانة أمانة التكليف، وأمانة التبليغ، وأمانة التبيين، وأمانة الولاية.

الآن أمانة التولية، من ولي أمر قوم فولى عليهم واحداً فيهم من هو أفضل منه فقد خان الله ورسوله، أنت مدير شركة، مدير مدرسة، وكلت إنساناً بعمل، وفي هؤلاء الذين معك من هو أفضل منه، لقد خنت الله ورسوله، وأمانة الولاية، وأمانة التولية.

أمانة الواجب، واجبات الأب، واجبات الأم، واجبات البنت، واجبات الزوج، واجبات أصحاب الحرف.

أمانة المجالس:

((الْمَجَالِسُ بِالْأَمَانَةِ إِلَّا ثَلَاثَةَ مَجَالِسَ؛ مَجْلِسٌ يُسْفَكُ فِيهِ دَمٌ حَرَامٌ، وَمَجْلِسٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ فَرْجٌ حَرَامٌ، وَمَجْلِسٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ مَالٌ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ))

[أحمد عن جابر بن عبد الله]

المجالس بالأمانة إلا هذه الثلاثة.

الآن الأمانة بين الزوجين، هذا الذي يتحدث عما جرى بينه وبين زوجته في الليل هذا خان الأمانة، هو شيطان، وهي شيطانة، ألم أقل لكم: لو ذهبنا في هذا الموضوع لوجدنا أنفسنا أمام موضوعات طويلة جداً، ومشعبة جداً، وأن هذه الآية تدور مع المسلمين في كل دقيقة في حياتهم، الأمانة واسعة جداً، لذلك جاءت جمعاً.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(30-69): تفسير الآية 59، طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-09-20

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى يأمر عامة الناس بالإيمان به فإذا آمنوا به يأمرهم بتفصيلات الشريعة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية التاسعة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

أيها الأخوة أعيد وأكرر: إن الله سبحانه وتعالى يأمر عامة الناس بالإيمان به، فإذا آمن به الإنسان يأمره بتفصيلات الشريعة، وأية آية في القرآن الكريم تتصدر قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي يا من آمنتم بي، يا من عرفتموني، يا من آمنتم بعلمي، وبحكمتي، وبرحمتي، وأن أمركم كله بيدي، وأن مصيركم إلي، وأنكم خلقتم للجنة لا للدنيا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

تنطوي على كل هذه المعاني، الذي آمن بالله خالقاً، ورباً، ومسيّراً، وآمن به موجوداً، وواحداً، وكاملاً، آمن بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، آمن أن الأمر كله بيده، آمن أن الله في السماء إله وفي الأرض إله، آمن أنه إليه يرجع الأمر كله، آمن أن سعادة المرء بالله وشقائه بالله، وأن الله وحده يرفع، ويخفض، ويعطي، ويمنع، ويعز، ويذل.

الذي خلق الإنسان هو الخبير :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يقتضي إيمانكم بي أن تطيعوني، أنت ببساطة بالغة حينما تقتني حاسوب، ويصاب بالخلل إلى من تذهب؟ بالتأكيد لا تسأل أمك الكريمة على أنك تحبها حباً جماً، لكنها أمية، لا تسألها عن طريقة عمل هذا الجهاز، لا تسأل جاراً لك يعمل في بيع الخضار مع أنك تحبه، لا تسأل إلا مندوب الشركة الخبير، ببساطة ما بعدها بساطة أنت أمام آلة تحرص على سلامتها، وأداء عملها،

وإنجازها، أنت مع آلة بسيطة تحرص على ثمنها وسلامة أدائها لا تتلقى توجيهاً إلا من صانعها، أو من ينوب عنه، ولا تقبل أي إنسان.

أذكر مرة قصة بسيطة لكنها ذات دلالة: ذهب رجل لإصلاح مركبته، الذي يصلح المركبة ألغى قطعة، ورماها في الأرض، وقال: هذه لا فائدة منها، فصاحب المركبة لا يستطيع أن يناقشه! لأنه يجهل حقائق الميكانيك، لكن قال له: أنا لا أصدق أن خمسة آلاف مهندس يعملون في هذه الشركة التي يزيد عمرها عن مئة عام أنك أبلغ منهم في فهمك لطريقة عملها! أرجعها!

فالذي خلق الإنسان هو الخبير، خلقه من لا شيء، ركب جسمه وخلقه في أحسن تقويم، الذي خلق نفسه، وأعطى نفسه خصائصها، هذا الإله العظيم إذا قال لك: غض بصرك، وأهل الأرض الآن يقولون لك بلسان حالهم: انظر هذه المرأة، كما تريد تراها في كل مكان، محصلة الفريق الذي عبد الله سعادة وجنة، ومحصلة الفريق الذي عصى الله شقاء وجهنم، لذلك قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

إن أطعت الله حققت سلامتك وسعادتك :

من قبيل مصلحتك، وحرصك على سلامتك وسعادتك وتقدمك ينبغي أن تطيع الله عز وجل، يا أيها الذين آمنوا يقتضي إيمانكم أن تطيعوني، انطلاقاً من حبك لذاتك، وسلامتك، وكمالك، واستمرار ذاتك ينبغي أن تطيع الله، لأنه الخبير، ذلك لأن العلاقة بين الأمر ونتائجه علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة، في الأديان الوضعية ربما لا تجد علاقة بين الأمر وبين نتائجه، حركات وسكنات وتمتمات وطقوس لا معنى لها، ولا علاقة لها بالحياة إطلاقاً، أما في هذا الدين العظيم أمرك أن تكون صادقاً، ونتائج الصدق لا تعد ولا تحصى، إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً.

أمرك أن تكون صادقاً وأميناً، والأمانة غنى، لا يغتني من اغتنى إلا بسبب أمانته، وأن تكون عفيفاً، وكل فضائح الأرض سببها الخيانة مع المرأة، وما من إنسان يصاب بمقتله إلا بسبب معصيته في علاقته مع النساء! وفضائح الأرض لا تزيد عن أن تكون فضائح مالية أو جنسية، لذلك الذي يأمرك الله به لسلامتك وسعادتك وخلودك في الجنة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

في الحديث القدسي الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((.. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً... إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ..))

[صحيح مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

يجب أن تعلم علم اليقين أنك إن أطعت الله تحقق سلامتك وسعادتك، وإن عصيته تكون سبباً في شقائك في الدنيا والآخرة.

طاعة الله واجبة علينا لأنه الذي خلقنا :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أطيعوا الله لأنه الذي خلقكم:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

لأنه الخالق والعليم والخبير والرحيم، ولأنه خلقكم لجنة عرضها السماوات والأرض، لأنه خلقكم ليسعدكم.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود: 119]

خلقهم ليسعدهم، في موضوع دقيق جداً: النبي صلى الله عليه وسلم ينفي أن يكون الشر منسوباً إلى الله، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ كَبَّرَ ثُمَّ قَالَ:

((.... وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ...))

[سنن النسائي عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما هو الشر؟ الشر مختص بمخلوقين اثنين هما الإنس والجن، لأنهما مخلوقان أودعت فيهما الشهوات، أعطيا عقلاً ومنهجاً.

الشهوات سلم نرقى بها إن أوقعناها وفق منهج الله :

ما هي السلامة؟ أن تتحرك بشهواتك وفق منهج الله عن طريق المقود الذي هو عقلك، والمثل بسيط، تركب مركبة فيها محرك، وطاقة، وشهوات، وروح، وقوة محركة، هذه المركبة بالمحرك والطاقة تندفع، الاندفاع أعمق، مهمة العقل أن يوقع حركة هذه المركبة على الطريق المعبد، فتنتقل بهذه المركبة إلى أهدافك البعيدة، وأنت في راحة ويسر، أما إذا تعطل المقود والطريق فيه

منعكسات كثيرة، والمحرك مندفع، فالحادث حتمي، أي أن أي إنسان عطل عقله، وانطلق بشهواته فلا بد أن يرتكب المعاصي، والمعاصي في معظمها معاص في كسب المال، ومعاص في العلاقة بالنساء، العقل مهمته أن يوقع الحركة على منهج الله، ومنهج الله هو شرع الله، والحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، لو أن هناك منهج ومقود، لكن لا يوجد محرك، لا قيمة للمقود، ول قيمة للمنهج، من هنا قال الله عز وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

فشهوات أودعها الله فينا، وعقل جعله الله أداة معرفته والسلامة، وشرعٌ سنَّه الله لنا، وأنت مخير في النهاية، فتعريف الشر كائن أودعت فيه الشهوات، منح عقلاً لم يستخدمه، ومنهجاً لم يسر عليه، فلو استخدم عقله بلا منهج لا بد من الشقاء، كالأوروبيين استخدموا عقولهم أروع استخدام، لكن ليس معهم منهج يسيرون عليه، فزين لهم عقلهم الانحلال، والفساد، والعدوان، وكسب الأموال اغتصاباً، وقهر الناس ظلماً، عقولهم قادتهم إلى هذا، عقولهم متفوقة جداً من دون منهج يتحركون عليه، والمسلمون عطلوا عقولهم مع أن منهجهم بين أيديهم، وكلا الطرفين فيه شهوات مستعرة تدفعهم اندفاعاً، فإما إلى الهاوية، وإما إلى نعيم مقيم، لذلك الشهوات سلم نرقى بها إن أوقعناها وفق منهج الله، فالله عز وجل يقول:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: 50]

تعريف الشر :

ما هو الشر إذاً؟ حركة اندفاع قوي بلا مقود أو بلا منهج أو من دون كليهما! مركبة مصنوعة في أفضل مصنع، لو أن الذي يقودها شرب الخمر، وهوى في واد سحيق، هل نقول: هذا الشر من صنع المعمل الذي صنع المركبة؟ مستحيل، هذا الشر ناتج من سوء استخدامها، هذا الشر ناتج عن أن الذي قادها لم يتبع تعليمات الصانع، وهي البعد عن الشكر.

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ كَبَّرَ ثُمَّ قَالَ:

((.... وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ...))

[سنن النسائي عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

مثل آخر: قد تضع على الطاولة مسحوقاً من الملح، ومسحوقاً من السكر، ومسحوقاً من المواد المنظفة، المواد كلها جيدة، وثمينة، ولها قيمة في حياتنا، ما هو الشر؟ أن تضع مسحوق الغسيل في الطبخ، فلا تأكله! أو أن تضع الملح في الشاي فلا تشربه، أو أن تضع السكر لجلي الصحون، فلا يتم تنظيفها، فالشر سوء استخدام سلبي، وليس إيجابياً، لذلك قالوا: الشر المطلق لا وجود له في

الكون، لأن الله ذات كاملة، لكن في مخلوق الله عز وجل خلقه، وكرمه، ومنحه حرية الاختيار، وأودع فيه الشهوات ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، أعطاه منهجاً هو الشرع الحكيم، وأعطاه عقلاً ليكون مقوداً له، عطل عقله، أو ألغى شرعه، أو ألغى عقله وشرعه، واندفع بشهواته اندفاعاً أعمى، لا بد من أن يقع بالعدوان، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تنطلق بقوة شهواتك من دون منهج وعقل دون أن تعتدي على الآخرين، وهذا الذي ترونه وتسمعونه كل يوم قوة طاغية وشهوات مستعرة واندفاع أعمى، فلا بد أن ينهبوا ثروات العالم، وأن يعيشوا على حساب بقية الشعوب، ولا بد أن يغتنوا على حساب الشعوب، ولا بد أن يطمئنوا على إخافة الشعوب، وأن يبنوا مجدهم على أنقاض الشعوب، مستحيل أن تندفع بقوة الشهوة من دون منهج، ومن دون مقود، ومن دون عقل يردعك، ومن دون منهج تسير عليه إلا أن ترتكب الجرائم تلو الجرائم دون أن تشعر، فالشر لا يكون إلا من مخلوق أعطي الاختيار، أودعت فيه الشهوات، ووضع له منهج، أعطي العقل، شهواته متحركة مندفعة اندفاعاً أعمى، عطل عقله، ولم يعبأ بالمنهج، واختار أن يروي شهواته تروية من دون أمر أو نهي، فكان الذي ترونه من فساد.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم: 41]

من يعزو الشر إلى الله يقع في عقيدة فاسدة :

الفساد لا يحتاج إلى خالق، لأنه سلبي. أوضح مثلاً: قد تجد مركبة رائعة تقول: والله الذي صممها مهندس ذوقه رفيع، خطوط السيارة، انسياب خطوطها، ألوانها الرائعة، أما إذا وقعت في واد هل تقول أي مصنع صنعها هكذا؟ لا، لا تحتاج هذه إلى مصنع، لأن الشر سلبي، هذا بسبب أن الذي قادها كان مخموراً، لذلك هذا الذي يعزو الشر إلى الله واقع في عقيدة فاسدة.

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ كَبَّرَ ثُمَّ قَالَ:

((.... وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ...))

[سنن النسائي عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

[سورة آل عمران: 26]

ما قال والشر:

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 26]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

لأنه الخالق، والمربي، والمسير، والعليم، والحكيم، والقدير، واللطيف، والغني، والرحيم، لذلك المؤمن حينما يقرأ القرآن ينبغي أن يقف عند الآيات التي فيها أمر له! وحبذا لو أن الواحد منا يقرأ القرآن على نسخة خاصة يضع خطاً تحت كل أمر، وخطاً تحت كل نهي، وكل أمر في القرآن يقتضي الوجوب.

الإنسان مأمور أن يطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلالاً :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

سيدنا عمر كان وقّافاً عند أمر الله وكتابه، أطيعوا الله في قرآنه قال:

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

ما الفرق بين قول الله عز وجل:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ)

وبين:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

الفرق كبير، إنك مأمور أن تطيع رسول الله استقلالاً، حينما يصح عندك حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح يأمرك بكذا، وينهاك عن كذا، ينبغي أن تسارع إلى طاعة رسول الله من دون أن تقول في نفسك: ما سند هذا الأمر من كتاب الله؟ إنك مأمور أن تطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلالاً، لقول الله عز وجل:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

القرآن فيه كليات ولكن الذي بيَّن وفصَّل هو النبي عليه الصلاة والسلام :

هؤلاء الذين يريدون التقليل من قيمة السُّنة يخالفون القرآن الكريم، هؤلاء الذين يسمون الآن القرآنيين يريدون أن يكتفوا بالقرآن، مع أن الله سبحانه وتعالى عصم نبيه صلى الله عليه وسلم من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وصفاته، ثم أمرنا أن نأخذ منه.

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

لولا سنة النبي كيف نصلي؟ وكيف ندفع زكاة أموالنا؟ وكيف نعرف مناسك الحج؟ قال تعالى:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

[سورة البقرة: 196]

القرآن فيه كليات، ولكن الذي بيَّن وفصَّل هو النبي عليه الصلاة والسلام، وجاء هذا في القرآن الكريم:

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

[سورة النحل: 44]

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أطيعوا الله في قرآنه، لأن القرآن قطعي الثبوت، وأطيعوا الرسول في سنته الصحيحة، لأن سنة النبي عليه الصلاة والسلام بعضها قطعي الثبوت، وبعضها ظني الثبوت، فنحن مأمورون بأن نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته التي هي قطعية الثبوت، أي سنته الصحيحة، لذلك ما من إنسان صح عنده حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخالفه إلاّ عصى الله.

((مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي...))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

طاعة رسول الله فرض عين على كل مسلم بصرف النظر عن علاقتها بالقرآن :

طاعة رسول الله فرض عين على كل مسلم، بصرف النظر عن علاقتها بالقرآن، لست مكلفاً أن تحاسب النبي من أين جاءك بهذا الأمر، لأن الله يقول لك:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أما لو قال: أطيعوا الله والرسول صارت طاعة رسول الله مقيدة بطاعة الله! ينبغي أن يكون لهذا الحديث أصل في القرآن الكريم. لا شك أن أوامر النبي مما فهمه من كتاب الله، لكن نحن ربما لا نعرف من أين استقى النبي هذا الأمر.

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أنت في مجتمع فيه شخصيتان مهمتان، عالم وأمير، عالم وحاكم، مهمة العالم أن يبين لك الأمر، ومهمة الحاكم أن ينفذ هذا الأمر، كما يقال الآن في المجتمعات الحديثة: جهة تشريعية، وجهة تنفيذية، فالعلماء بالدين العلماء الربانيون يعلمون الأمر، والأمراء ينفذون الأمر، لذلك حينما يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

طاعة أولي الأمر مقيدة بطاعة رسول الله، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إن كان أميراً أو عالماً أمرك أن تقطع رحمك! لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أوضح شاهد على ذلك، أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل سرية، وأمّر عليها أنصارياً عرف فيما بعد أنه صاحب دعابة، هذا الأنصاري أمر أن تضرم نار عظيمة فأضرمت، فقال لأصحابه: ألست أميركم؟ قالوا: نعم، قال:

أليست طاعتي طاعة رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: اقتحموها، قال بعضهم: كيف نقتحمها وقد آمنا بالله فراراً منها؟ ترددوا، عرضوا ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام فقال: والله لو اقتحمتموها لا زلتم فيها إلى يوم القيامة إنما الطاعة في معروف.

طاعة أولي الأمر منا مرتبطة بطاعة رسول الله :

الآن ما سوى أمر الله في قرآنه، مما سوى سنة النبي الصحيحة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، طاعة أولي الأمر مرتبطة بطاعة رسول الله، بل إن بعض العلماء قالوا: لا يمكن، ولا يصح، ولا يقبل أن يكون أولوا الأمر الظالمون قد أمرنا بطاعتهم مع طاعة الله ورسوله قال:

(وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

هم منكم، هذا العالم منكم، الأمير منكم، يحرص على سلامتكم، وتقدمكم، وسعادتكم، وسلامة دينكم، وآخرتكم، وأخلاق شبابكم، وزواج بناتكم، وتوافر الأموال بينكم.

لو فرضنا مواطناً في فلسطين من هم أولوا الأمر هناك؟ اليهود، فهل لو قرأ هذه الآية هو ملزم أن يطيع أولوا الأمر؟ ليسوا منهم، هم أعداء وخصوم، أرادوا ابتزاز أموالهم، ونهب ثرواتهم، وإذلالهم، وهدم بيوتهم، لا يمكن أن يكون أولو الأمر المعنيون في هذه الآية إلا منكم، هم منكم، من جبلتكم، منكم وإليكم.

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

أولو الأمر هم الأمراء والعلماء، وعملهم متكامل، العالم يعلم، والأمير ينفذ، أما لو أن عالماً مبتدعاً أمرك بخلاف السنة فلا طاعة له، ولو أن له إثماً كبيراً لا قيمة لهذا الإثم، نعرف الرجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرجال.

دخلنا بموضوع ثان: أطيعوا الله قطعاً بقرآنه القطعي، أطيعوا رسول الله بحفظ بسنته الصحيحة، القرآن قطعي الثبوت، أما السنة قطعية الثبوت وظنية الثبوت، فحينما يأمرنا الله عز وجل أن نطيع رسوله بسنته الثابتة الصحيحة، لذلك: لو بقينا في الصحاح لما اختلفنا، كل الفرق الضالة تعتمد على أحاديث صحيحة أو موضوعة، لو اجتمعنا على صحيح السنة لما اختلفنا أبداً.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

قال تعالى:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

أطيعوا الله استقلالاً، وأطيعوا رسوله لأنه معصوم استقلالاً، لكن أولي الأمر هم العلماء، فالعالم المبتدع لا طاعة له، ما أكثر من يبتدع في الدين، إما في العقيدة، أو في العبادات، كل محدثة بدعة،

وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فالعالم الذي يبتدع لا طاعة له، والأمير الذي يعطيك أمراً لا علاقة له بالدين أو مخالف له أيضاً لا يطاع، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

يروى أن والي البصرة كان عنده عالم جليل وتابعي عظيم هو الحسن البصري، ومن غرائب الصدف أنه في أثناء جلوس هذا التابعي الجليل جاءه البريد من الخليفة من يزيد، وفي هذا البريد أمر لا يرضي الله، وقع هذا الوالي في حرج شديد، إن نفذ هذا الأمر غضب الله، وإن لم ينفذه أغضب الخليفة، وربما أزاحه من عمله، أو انتقم منه، وعنده الحسن البصري فقال: يا إمام ماذا أفعل؟ أمران أحلاهما مر، إما أن يُغضب الله، فيستحق جهنم، وإما أن يغضب الخليفة فيستحق السجن، ماذا أفعل؟ أجابه إجابة تكتب بماء الذهب، قال: اعلم أن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله! أنت إذا أطعت الله عز وجل فالله ضامن، أما إن أطعت مخلوقاً، وعصيت خالقاً فهذا الذي أطعته ليس بضامن.

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

[سورة إبراهيم: 22]

من أمره أولو العلم وأولو الأمر بخلاف ما أمره الله ورسوله فلا طاعة لهم عند

قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

أنا أطيع الله استقلالاً، ولا أعبأ بأحد، أطيع رسول الله استقلالاً، ولا أعبأ بأحد، أما أولو الأمر فأطيعهم تبعاً إذا أمروني بما أمر الله به، وبما أمر رسوله به، فإن أمروني بخلاف ما أمرني الله ورسوله به فلا طاعة لهم عندي، وإن أمرني أولو العلم وأولو الأمر بخلاف ما أمرني الله ورسوله فلا طاعة لهم عندي، وهذا ملخصه في قول النبي:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[مسند الإمام أحمد عن علي]

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

الآن قال:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

حدث خلاف مع من؟ هل ممكن أن يكون النزاع مع أمر الله عز وجل؟ مستحيل، مع سنة النبي؟ مستحيل، لأنه معصوم، والله عز وجل كماله مطلق، فالنزاع محصور حتماً مع من؟ مع أولي الأمر؛ العلماء والأمراء:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

من هو الحكم؟ قال:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

في القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة جواب وحلّ لكل مشكلة :

لو أن قضية تنازعنا فيها، وجاءنا أمر إلهي أن نرد هذا النزاع إلى الله في قرآنه، أو أن نرده إلى النبي في سنته، ثم اتجهنا إلى القرآن فلم نجد شيئاً متعلقاً بهذا الموضوع، ثم اتجهنا إلى السُّنة فلم نجد شيئاً يتعلق بهذا الموضوع هل يعقل هذا؟ هل يعقل أن يحيلنا الله إلى قرآن لا نجد فيه بغيتنا؟ أو إلى سنة نبيه، ثم لا نجد فيها بغيتنا؟ مستحيل، هذا لا يقبل أن يحيلك الله إلى لا شيء، معنى ذلك أنه ما من مشكلة يعاني منها المجتمع البشري من آدم إلى يوم القيامة إلا وفيها حل في كتاب الله، وحل في سنة رسول الله قطعاً، لا يمكن أن نحال إلى لا شيء، لو أن إنساناً اختلف مع إنسان في إعراب كلمة، وقال: اذهب إلى الكتاب الفلاني ففيه الجواب، فتح الكتاب فلم يجد شيئاً، فالذي أحالك إليه لا يعلم! المحيل هنا من؟ هو الله قال:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

لا بد من أن تجدوا في القرآن وفي سُّنة النبي جواباً وحلاً لكل مشكلة، وما من مشكلة تعاني منها البشرية اليوم إلا بسبب مخالفة لما في الكتاب والسنة، هذا كلام قطعي ما من مشكلة كبرت أو صغرت، يقول لك: الحرب قد تطول عشر سنوات، وحرب دارت بين دولتين إسلاميتين دامت ثماني سنوات، أحرقت الأخضر واليابس، ماذا في القرآن؟ في القرآن أشهر حرم يمنع فيها القتال، إذا جاءت هذه الأشهر توقف القتال لا غالب ولا مغلوب، الكرامة موفورة، ذاق الناس طعم السلم، بحثوا عنه، لو أنهم أطاعوا الله، حينما اجتاحت دولة إسلامية دولة إسلامية احتكمنا إلى الغرب فجاءوا، وقبعوا على أرضنا، القرآن ليس كذلك، بل قال:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

[سورة الحجرات: 9]

ينبغي أن يجتمع المسلمون ويدعو هؤلاء الذين بغوا أن يعودوا عن بغيهم، فإن أبوا نحاربهم جميعاً، لا نأتي بالكفار ليأخذوا ثرواتنا، ويقتلوا أولادنا، ويعيثوا فساداً في الأرض، ثم نصبح عبيداً لهم.

إذا آمن الإنسان بالدنيا والمال لا يرجع مشكلاته إلى الله ورسوله بل إلى مصالحه :

حتى في السياسة الدولية القرآن فيه كل شيء، حينما يركب خمسون ضابطاً تلقوا تدريباً في أعلى دولة عظمى في طائرة واحدة أسقطوا الطائرة، قال:

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ)

[سورة يوسف: 67]

القرآن يخبر، هؤلاء ينبغي أن يأتوا تباعاً، كل واحد في رحلة، أما عندما اجتمعوا في طائرة واحدة أسقطها اليهود بتوجيه من الأرض، ولا يزال سر هذه الطائرة معمى عليه، أسقطت من الأرض، فيها ثمانية وثلاثون ضابطاً تلقوا أعلى تدريب في أعلى أكاديميات عسكرية.

يا أيها الأخوة الكرام، ما من مشكلة يعاني منها البشر اليوم إلا وفي القرآن حل لها، وفي السنة حل لها.

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

إذا آمن الإنسان بالدنيا؛ آمن بالمال لا يرجع مشكلاته إلى الله ورسوله، بل إلى مصالحه، إذا آمن بالدنيا قد يقترض قرضاً ربوياً تحقق به مصالحه، إذا آمن بالمال قد يبخل، ولا ينفق منه شيئاً، إذا آمن باللذة يقتنصها، ولو بالحرام، هذا الكلام للمؤمنين.

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

الإنسان لا يعود لحكم الله وسنة رسوله إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر :

الشيء اللطيف أن أركان الإيمان خمسة، لكن ترد مثنى مَثنى في أكثر الآيات، آمنت بالله لا يكفي، ينبغي أن تؤمن بالله، وأنه سيحاسب، وأنه موجود ويعلم، وسيحاسب، لا يمكن أن تعصيه، أوضح مثلاً: تركب مركبتك، الإشارة حمراء، والشرطي واقف، وشرطي آخر على عجلات، وسيارة فيها ضابط شرطة، وأنت مواطن عادي ليس لك ولا ميزة، هل تسير والإشارة حمراء؟ واضع نظام السير علمه يطولك بهذا الشرطي، وقدرته تطولك بسحب الإجازة، وأخذ السيارة، أليس كذلك؟ تعصي الأمر في حالتين؛ الساعة الثالثة صباحاً، لا يوجد شرطي، أو إذا كنتَ أكبر من واضع نظام السير فلا ترد عليه، فحينما تؤمن أن الله موجود، وأنه يعلم وسيحاسب لا يمكن أن تعصيه.

هذا الكلام للمؤمنين، يقول: حلف يمين، هذه اليمين ليست للكفار هي للمؤمنين، المنافق يقول: جاء الفرج، أحلف كذباً وينتهي الأمر، قبض مئة ألف من دون وصل، هل تحلف؟ نعم أحلف، جاء الفرج! هذه اليمين للمؤمن الذي يخاف الله واليوم الآخر.

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

إن كنتم تؤمنون بأن الله موجود، ويعلم وسيحاسب، واختلفتم مع علمائكم وأمرائكم، ورجعتم إلى كتاب الله وسنة رسوله تلتزمون بها، لأنكم مؤمنون، أما إن آمنتم بالدرهم والدينار، وباللذائذ والشهوات ترجعون إلى أهل الدنيا، يوجد قوانين أحياناً يكون الحق معك، لكن القانون لا يعطيك هذا الحق، ماذا يفعل معظم الناس؟ يلتجئون إلى المشايخ، أحياناً يكون الحق عليك، لكن القانون يعطيك

هذا الحق فتلجأ إليه، فأنت مؤمن بمن؟ إن كنت مؤمناً بالله واليوم الآخر ترجع لما في القرآن والسنة مِن حل حاسم لمشكلتك.

تختلف امرأة مع زوجها في أمريكا، تعرض أمرها على قاضي أمريكي لماذا؟ لأن هذا القاضي سيحكم لها بنصف ثروة زوجها، أما القاضي المسلم فيحكم لها بالمهر فقط، لأنها مؤمنة بالدولار، ترجع في قضيتها إلى قاض ليس مسلماً، قضية واضحة جداً، فأنت لا تعود لحكم الله وسنة رسوله إلا إذا آمنت بالله واليوم الآخر.

المؤمن يعود إلى شرع الله لأنه وقاف عند كتاب الله :

قال تعالى:

(ذَلِكَ خَيْرٌ)

خير لك أن ترجع إلى حكم الله، هذا البيت ليس لك شرعاً، لكن القانون معك، ارجع لحكم الله، فلاح فقير فقراً مدقعاً، عاش عمره أجيراً، أعطي أرضاً بعشرين دونماً، اختل توازنه من الفرح، ذهب إلى شيخه، قال له: هذه الأرض ليست لك، لا يجوز أن تتملكها بشرع الله، أما بالقوانين الوضعية فلك أن تأخذها عنوة من صاحبها، فهذا الفلاح بعد أن بلغ قمة السعادة في تملك هذه الأرض انقلبت سعادته إلى شقاء، هكذا الشرع، لا يجيز له أخذها، فذهب إلى صاحب الأرض وقال له: يا سيدي أعطوني من أرضك عشرين دونماً، ولي شيخ منعني من أخذها، لأنها مغتصبة منك، هل تبيعني إياها تقسيطاً؟ قال: يا بني ذهب مني أربعمئة دونم لم يأت واحد إلي إلا أنت، هذه هدية لك خذها، وتملكها، وبارك الله لك بها، وأنا سامحتك بها، المؤمن يعود إلى شرع الله، وهو وقاف عند كتاب الله، لذلك:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

خير لكم.

(وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

حينما تختلفون في حكم شرعي، وتعيدونه إلى الكتاب والسنة تكونون قد أولتم هذه الآية أفضل تأويل، والتأويل هو وقوع الوعد والوعيد، أو تنفيذ الأمر الإلهي. هذه الآية أساسية جداً في حياتنا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

أيها الأخوة، في درس آخر إن شاء الله نتابع تفسير هذه السورة.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(31-69): تفسير الآيات 60-63 ، القانون الإلهي والقانون الوضعي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-09-27

بسم الله الرحمن الرحيم

الزعم مطية الكذب :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الستين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً)

أيها الأخوة، كما تعلمون أن قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ)

أي ألم تعلم، أي ألم تعلم بإخبار الله، لكن عدل القرآن عن قوله: ألم تعلم بألم ترَ، إشعاراً للمؤمن أنه ينبغي أنه يأخذ خبر الله وكأنه يراه، فخبر الله أصدق من عينه، قد تخونه عينه، والله جل جلاله هو أصدق القائلين.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

[سورة النساء: 87]

إذاً:

(أَلَمْ تَرَ)

بمعنى ألم تعلم، عدل عن قوله ألم تعلم إلى:

(أَلَمْ تَرَ)

لتأخذ إخبار الله عز وجل وكأنه شيء تراه عينك:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ)

قالوا: الزعم مطية الكذب، فلان يزعم أنه مؤمن، أي هو ليس مؤمناً، إنه منافق، فكلمة يزعم تعبير عن عدم الصدق، تعبير عن الكذب، تعبير عن الخلل.

علامة المؤمن أنه يتهم نفسه بالنفاق :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

بربك أيها الأخ المؤمن هل التقيت بإنسان مسلم لا يطبق من دينه شيئاً يقول لك: أنا منافق؟ مستحيل، أنا مؤمن، قد يقول: أنا مؤمن إيماناً أشد من إيمانك، سبحان الله! الناس جميعاً يثنون على ذواتهم بغير الحق، بينما المؤمن الحقيقي يتهم نفسه بالنفاق.

أحد التابعين قال: التقيت بأربعين صحابياً ما منهم واحد إلا يظن نفسه منافقاً، حتى إن عمر بن الخطاب الخليفة الراشد التقى بسيدنا حذيفة بن اليمان، وكان أمير سر رسول الله قال: يا حذيفة بالله عليك اسمي مع المنافقين؟ فعلامة المؤمن أنه يتهم نفسه بالنفاق، وعلامة المنافق يزعم أنه مؤمن، وكلما تواضعت لله رفعك، وكلما اتهمت نفسك فأنت أرقى عند الله، لا تستجب لنزوات النفس في أن تعلو على الناس، لا تحكم على نفسك، دع الله عز وجل يحكم عليك، لأن الذين يزكون أنفسهم يرتكبون معصية:

(بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 49]

لو أنك مخلص، لو أنك مستقيم، لو أنك محسن، الله جل جلاله يرفع لك ذكرك، يرفع لك شأنك، يلقي محبتك في قلوب الخلق، يجعل ألسنة الخلق تلهج بمديحك دون أن تريد ذلك أنت.

كل إنسان فيه دوافع ثلاث لكن الدافع الثالث هو الأخطر بينها جميعاً :

أيها الأخوة، ما منا واحد إلا وفيه دوافع ثلاث، دافع إلى الطعام والشراب ليحفظ وجوده دون أن يشعر، ودافع إلى الجنس ليحفظ النوع عن طريق هذا الدافع، ودافع إلى العلو، دافع إلى تأكيد الذات، دافع إلى تأكيد الأهمية، الدافع الثالث خطير جداً، ولأن الإنسان مخير إذاً كل دوافعه حيادية، بمعنى أنه يمكن أن تروي الدافع الثالث دافع تأكيد الذات، دافع التفوق عن طريق الإيمان بالله وطاعته، ألم يقل الله عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 1-4]

هل في تاريخ البشرية إنسان رفع الله ذكره كرسول الله؟!

مفكر وباحث غربي، ليس مسلماً، ألّف كتاباً عن المئة الأوائل في العالم، ألف كتاباً عن المئة الأوائل في تاريخ البشرية، قرأ تاريخ البشرية من قبل الميلاد بستة قرون إلى عصرنا الحاضر، واختار من بين أعلام الأرض مئة، ورتب هذه المئة بحسب الأهمية، فكانت مكانة نبينا عليه الصلاة والسلام لا في نظر المؤمنين به، لا في نظر المسلمين، بل في نظر الطرف الآخر كانت الأولى،

جعله على رأس المئة الأوائل في العالم، واعتمد عدة مقاييس. المقياس الأول: قوة التأثير. المقياس الثاني: اتساع رقعة التأثير. المقياس الثالث: طول أمد التأثير. أي أن أخاً كريماً جاءه ضيف إلى بلادنا، وقد كلف هذا الأخ أن يرافقه، ذهبا إلى مكان أثري فلاحظ هذا الضيف أن الحركة قليلة، قال: اليوم يوم عطلة، قال له: ما المناسبة؟ قال له: بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف، وشرح له أن لهذه الأمة نبياً، قال له: من كم سنة توفي؟ قال له: من ألف وأربعمئة سنة، فكاد هذا الضيف أن يصعق، ولطول هذه المدة تقدسونه؛ قوة التأثير، واتساع رقعة التأثير، وطول أمد التأثير، لكن هذا المؤلف غفل عن نوع التأثير، لو جعل نوع التأثير إيجاباً لطرح من هذه المئة ثلثين.

فحوى دعوة الأنبياء واحدة :

إذاً:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

المنافق يظن أنه مؤمن، ويدعي أنه مؤمن، ويتبجح أنه مؤمن لماذا؟ لتحقيق مصالحه، لأنه إذا ادعى أنه مؤمن أخذ من كل ميزات المؤمنين، وعاش حياته الخاصة كما يعيشها الكفار، فجمع بين ميزتي الإيمان وتفلت الكافر، لذلك المنافق يوم القيامة مكانه في الدرك الأسفل من النار، المنافق كافر لكن مصالحه تقتضي أنه مؤمن لهذا يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)

طبعاً الأنبياء جميعاً دعوتهم واحدة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

فحوى دعوة الأنبياء واحدة:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

العقيدة لا إله إلا الله، والسلوك العبادة، في كل مذهب فكر وسلوك، عقيدة وشريعة، منطلقات نظرية وتطبيقات عملية، لا إله إلا أنا العقيدة، التوحيد، وما من وقت في تاريخ المسلمين نحن في أمس الحاجة إلى التوحيد كهذا الوقت، لأن زعماء الكفر يخيفون الأرض كلها، يتهددون، يتوعدون، يرسلون صيحاتهم وزمجرتهم كل يوم، ما الذي يقينا من بأسهم؟ أن نوحد الله، أن لا نرى مع الله أحداً، أن لا نرى مع الله إلهاً آخر.

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

[سورة الإسراء: 23]

ليس القرآن كتاب تاريخ ولكنه كتاب هداية :

الحقيقة عندنا قاعدة في القرآن الكريم: أن خصوص السبب لا يلغي عموم القصد، لا يعقل ولا يقبل أن يتحدث القرآن عن قصة بعينها ليس غير، وقعت في عهد رسول الله، ليس القرآن كتاب تاريخ، ولكنه كتاب هداية.

كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل منافق اسمه بشر اختلف مع يهودي، يبدو أن اليهودي على حق في موضوع الخلاف، فطلب اليهودي أن يحتكما إلى رسول الله مع أنه لم يؤمن به، لكنه يعتقد أنه يعدل إذا حكم، لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أرسل عبد الله بن رواحة إلى خيبر ليقيِّم تمر اليهود تنفيذاً لاتفاق بينهم وبين رسول الله أرادوا أن يغروه بحلي نسائهم، كي يخفض قيمة التمر، أرادوا أن يرشوه، فقال: والله جئتكم من عند أحب الخلق إلي، من عند محمد بن عبد الله رسول الله، ولأنتم عندي أبغض من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا، وإن أردنا أن نستفيد من هذا القول لا يمكن أن نغلبهم إلا إذا كنا على حق.

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا)

[سورة المائدة: 8]

اعدلوا ولو مع كافر، ولو مع عابد صنم.

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

من هنا قال بعض العلماء: إن الله ينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة، من هنا قال بعض العلماء: الدنيا تصلح بالكفر والعدل، ولا تصلح بالإيمان والظلم، الظلم أيها الأخوة ظلمات يوم القيامة، عد للمليار قبل أن تظلم إنساناً، لأنك إن ظلمته سقط من عين الله، ولن يجدي دعاؤك إطلاقاً.

الفرق بين الظالم والطاغية :

هذا اليهودي في موضوع الخلاف مع بشر كان على حق، ولأنه واثق من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحكم إلا بالعدل أراد اليهودي أن يحتكم مع خصمه المسلم المنافق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما المنافق فرفض أن يحتكم إلى رسول الله، وطلب أن يحتكم إلى أحد زعماء اليهود، عجيب! اليهودي يطلب الحكم من رسول الله، وهذا المسلم الذي يدعي أنه مسلم، ويزعم أنه مسلم، وهو في الحقيقة منافق يطلب الاحتكام إلى أحد أحبار اليهود الذين يرتشون، فقال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)

يزعمون:

(أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)

من التوراة والإنجيل على سيدنا موسى، وعلى سيدنا عيسى:

(يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ)

ما معنى الطاغوت؟ الطاغوت صيغة مبالغة، طاغية وطاغوت، الطاغوت أشد طغياناً من الطاغية، من هو الطاغوت؟ هو الظالم، ما الفرق بين الظالم والطاغية؟ الظالم كلما أطعته يزداد طغياناً، هذه خصيصة في الطاغوت، كلما أطعته، كلما استسلمت له، كلما خضعت له، كلما حققت رغبته يزداد طغياناً وعدواناً، بدليل قول الله تعالى:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

لا يستطيع الطاغية أن يطغى إلا على الفسقة:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

الطاغية هو الظالم، والفرق بين الظالم والطاغية أن الطاغية كلما زدت طاعة له زادك طغياناً، والطاغوت صيغة مبالغة من الطاغية.

الإنسان بحسب إيمانه يحتكم إما إلى الله أو إلى جهة تعطيه ما ليس له :

قال تعالى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

[سورة البقرة: 257]

كم من قضية بين المسلمين لعل خصمين احتكما إلى عالم جليل فحكم لهما بشرع الله، أحدها يطلب الاحتكام إلى القوانين الوضعية، لأنه ليس على حق، يريد أن يأخذ ما ليس له، فلعل القانون يعطيه ما ليس له، والقضية واضحة جداً في البيوت أحياناً. قبل القانون الأخير الذي صدر، قانون الإيجار، المستأجر كأنه تملك البيت، فإذا كان لإنسان بيت قد أجره قبل سنة الستين، فهذا البيت انتهى، ولا يمكن أن يناله، ولا أن يستمتع به، فإذا احتكما إلى عالم جليل ليعطياهما الحكم الشرعي في هذا الاغتصاب، المستأجر الذي ليس بحاجة إلى البيت، لكن يحتجزه عدواناً وطغياناً، يحتكم إلى القانون الوضعي الذي يبيح له أن يبقيه في حوزته ما دام حياً. فالإنسان بحسب إيمانه يحتكم، إن كنت مؤمناً تحتكم لشرع الله، وإن كان الإنسان منافقاً يحتكم إلى جهة تعطيه ما ليس له.

الآن أحياناً يسكن إنسان في بلاد الغرب، يختلف مع زوجته، لو عرض عليها أن يحتكما إلى قاضٍ شرعي هناك ترفض، لا تقبل إلا أن ترفع القضية لقاضٍ غربي، لماذا؟ لأن القانون الغربي يعطي

الزوجة المطلقة نصف ثروة زوجها، أما الشريعة المحمدية فتعطي المطلقة مهرها كاملاً. الذي يعدل عن تحكيم الشرع إلى النظام الوضعي الذي يعطيه ما ليس له هو إنسان منافق:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)

إشارة إلى هذا المنافق الذي اختلف مع اليهودي:

(يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ)

إلى أحد أحبار اليهود الذي عرف بالطغيان:

(وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ)

فرق كبير بين إرادة الله في التوبة علينا وبين إرادة الشيطان في إضلالنا :

هذا الذي ولاؤه للغرب يتهم كل من أراد أن يتحرك ضد الغرب، يتهمه بالعمالة، ولاؤه كله للغرب، محبته كلها للغرب، انصياعه كله للغرب، لا يرى في أمته قيماً ولا بطولات إطلاقاً، هذا يحتكم إلى الطاغوت:

(وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً)

أنت دائماً ابحث ماذا يريد الله منك.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

فرق كبير بين إرادة الله في التوبة عليكم، وبين إرادة الشيطان أن يضل الناس ضلالاً بعيداً، أي ألا تشعر بحرج حينما تقرأ هذه الآية:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ)

الفرق بين العلم التجريبي والوحي :

أيها الأخوة، في قول الله عز وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 88-89]

قالوا: القلب السليم هو القلب الذي سلم من شهوة لا ترضي الله، والقلب السليم هو القلب الذي سلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، المؤمن شخصية فذة كبيرة، أن يقرأ مقالة، يستمع إلى حديث، ينظر إلى ندوة فيها تجاوز لما في القرآن الكريم ويقبل! مستحيل، لأن فضل كلام الله على

كلام خلقه كفضل الله على خلقه، القرآن كلام الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المؤمن لا يصدق أن الأرض كلها لو اجتمعت، وبحثت، ودرست، وخرجت بنتيجة تخالف القرآن لا يصدق كل هؤلاء الناس ولو كانوا قمماً في علمهم، معه وحي الله عز وجل. أنت معك آلة، قد تفتح هذه الآلة، وقد تعبث بجزئياتها، وقد تستنبط بعض المعلومات من العبث بجزئياتها، وقد تصل إلى بعض الحقائق، أو إلى بعض الأوهام، لكن حينما تجلس إلى جانب مخترع هذه الآلة، فكل اجتهادك لا قيمة له، هذا المخترع، هذا المصمم، لذلك الفرق بين العلم التجريبي والوحي أن العلم التجريبي فيه خطأ وفيه صواب، لكن وحي السماء حق صرف.

أيها الأخوة، أنتم تعلمون علم اليقين، هذا شيء ليس خافياً عنكم، أحياناً يصدر قانون النوايا الطيبة، الذين قننوا هذا القانون أرادوا إصلاح المجتمع، أرادوا فرضاً الحد من ارتفاع الأسعار في قضية السيارات مرة مثلاً، فمنع إلا للأقارب، نشأ بعد هذا القانون حالة اسمها زواج سيارات، زواج صوري لا وجود له، عقد زواج من أجل بيع سيارة، ونشأ من هذا التصرف مشكلات لا يعلم إلا الله مداها، امرأة ثرية جداً تزوجت إنساناً زواجاً صورياً كي تبيعه سيارتها، ثم توفيت، تمسك بالإرث، هي زوجتي، لذلك عدل القانون وألغي، هذا أتيت به مثلاً، أي إنسان وضع قانون لأنه بشر، ولأن علمه محدود، ولأن أفقه محدود، ولأن رؤيته محدودة، ولأن تجاربه محدودة، يتخيل حالات ويغطي هذه الحالات ببنود هذا القانون، حينما يصدر هذا القانون، ويصبح بحيز التنفيذ تنشأ مشكلات لم تكن تخطر في بال واضع القانون، فيضطر إلى تعديله، ثم يعدل، ثم يعدل، ثم يعدل، ثم يلغى، هذه قصة قديمة مستمرة، الإنسان حينما يشرع، أنا أفترض فيه النوايا الحسنة، علمه محدود، خبرته محدودة، أفقه محدود، رؤيته محدودة، تجاربه محدودة، يتخيل حالات كثيرة، يغطي هذه الحالات ببنود، لكن بعد حين يكتشف أن هناك حالات غابت عنه، ولا بد من تعديل القانون، يعدل، ويعدل، ويُعدل، إلى أن يصبح مهلهل، عندئذٍ يلغى ويسن قانون جديد، هذه القصة تكرر وتعاد، لأن خبرة الإنسان حادثة، وخبرة الإنسان تأتي من تجاربه، لكن قانون الله عز وجل أساسه أن خبرة الله قديمة، لو ابتعدتم عن القضايا العملية.

القانون الإلهي أساسه الوازع الداخلي أما القانون الوضعي فأساسه الرادع الخارجي:

الآن أنت انظر إلى مركبة صنعت عام ألف وتسعمئة، البوق على الهواء، باليد، الإضاءة بالكبريت، فانوس، التشغيل من أمام السيارة، الآن انظر إلى مركبة حديثة جداً، موديل ألفان واثنان الفرق كبير جداً، فمن أين جاء هذا الفرق؟ لأن خبرة الإنسان حادثة، كل عام يطور، يبدل، يحسن، والآن أحدث سيارة بعد خمس سنوات سوف تشاهدون تطويرات لم تكن بالحسبان، لأن الإنسان خبرته حادثة.

أما انظر إلى جسم الإنسان، عندك إنسان موديل ألف وتسعمئة فرضاً، بيد واحدة فرضاً، وموديل معدل مطور إف إس، كل مخلوق مثل صاحبه، منذ أن خلق آدم عليه السلام خلقه خلقاً كاملاً، لأن خبرة الله قديمة، خبرته قديمة، وتشريعه قديم، لذلك العلماء قالوا: الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، الشيء الذي الله عز وجل حرمه سيئ جداً إلى أبعد الحدود، مهما زينته، إلا أن المشكلة أنك إذا اتبعت تشريعاً أرضياً التشريع الأرضي له ضحايا كثيرة، لأن القانون ناقص، أو لأنه ظالم، أو لأنه محدود، أو لأنه لا يغطي كل حاجات الإنسان، مثلاً القانون الإلهي أساسه الوازع الداخلي، أما القانون الوضعي فأساسه الرادع الخارجي، أقرب مثل: يمنع أن تستخدم الجهاز الهاتفي المحمول في أثناء قيادة السيارة، متى لا تستخدم هذا الجهاز؟ أمام الشرطي فقط، أما إذا كنت بعيداً عن الرقابة فتستخدمه، ولا تشعر بشيء، لأن هذا القانون من وضع البشر مرتبط بالشرطي، أما حينما يأمرك الله أن تغض بصرك، قد تكون في بيتك وحدك، وقد تفتح الجارة باب نافذتها، لماذا تغض بصرك عنها، ولا يستطيع أحد في الأرض أن يضبط هذه المخالفة، لأنه قانون إلهي، مبني على الوازع الداخلي، أنا أقول لكم: لا يمكن أن تصلح الحياة من دون إيمان.

إذا وجد بائع الزيت صباحاً في وعاء زيته فأرة، فسحبها بملقط، وباع الزيت، هل في الأرض كلها جهة يمكن أن تضبط هذه المخالفة؟ أما إذا كان مؤمناً فلا يمكن أن يبيع هذا الزيت. في كل حياتنا، إن اعتمدنا على القانون الوضعي لا يمكن أن تصلح الأمور، أما إن اعتمدنا على الإيمان القوي لا يمكن أن تفسد الأمور، في الإسلام قيم مذهلة.

حدثني أخ قال لي: والله عندي مهندس يعمل في معملي، ودخله محدود، ولا يكفيه، وليس متزوجاً، ولا يملك بيتاً، وجد في كيس أسود في أطراف المدينة مبلغ ثمانمئة ألف ليرة، بحث عن صاحبها وقدمها له، بأي قانون هذه؟! بقانون الإيمان، بقانون الخوف من الله، بقانون الإنصاف، بقانون العدل.

النظام الوضعي له ضحايا كثر أما النظام الإلهي فكله خير :

حدثني أخ كريم: في واشنطن سائق مغربي وجد في مركبته محفظة نسائية فيها عشرة آلاف دولار، فذهب إلى مركز للشرطة، وطلب مقابلة رئيس المركز، وقال له: معي هذه المحفظة، وفيها عشرة آلاف، وأريد أن تبحثوا عن صاحبتها، وهي عندي، أنا أعطيها لصاحبتها ضماناً لإيصالها لصاحبتها، بحثوا عن صاحبتها، وسلموها هذه الأمانة، حاكم الولاية دهش لهذه الأمانة، جمع طلاب المرحلة الثانوية، وعند سوق الاحتفال، قام حاكم الولاية فيهم خطيباً، وسأل معظم الطلاب لو وجدتم في مكان ما حقيبة كهذه الحقيبة ماذا تفعلون؟ فقالوا جميعاً بصوت واحد: نأخذها، قال: ولكن هذا الإنسان المسلم أعادها لصاحبتها، هذه الأمانة.

أيها الأخوة، الإنسان حينما يحكم بقانون الله لا يمكن أن يعصيه ولو كان خالياً، في أيام الصيف الحارة، الحرارة خمسون، وكان في رمضان، وأنت صائم، وأول يوم وصلت إلى آذان العصر فكدت أن تفقد حياتك، ودخلت إلى بيتك، وفتحت صنبور الماء البارد هل تستطيع أن تلعق قطرة ماء؟ لا تستطيع، ما الذي يحكمك؟ قانون الله عز وجل، أما لو كان الصيام بقانون وضعي كم يصوم من الناس؟ طبعاً لا أحد يشرب في الطريق، أما كم من إنسان يصوم في بيته؟ ولا واحد. كأنني بهذا التعليق أردت أن أبين الفرق الكبير بين القانون الإلهي من عند الخبير، من عند الحكيم، من عند العلي، من عند الرحيم، من عند المطلع، من عند السميع، البصير، الخبير، والله خبرته قديمة، وكلامه حق، والوحي مطلق في خيريته، وبين إنسان ولو كان حسن النية بحسب رؤيته المحدودة، وعلمه المحدود، وخبرته المحدودة، يقنن، ثم يكتشف أن فيه أخطاء كثيرة جداً ثم يعدل، إذاً النظام الوضعي له ضحايا كثيرة جداً، أما النظام الإلهي فكله خير:

(وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً)

أي تفسير توحيدي قرآني سماوي مرفوض عند المنافق :

مثلاً في بلاد الصين نمو سكاني كبير جداً، فوضعوا قانوناً من صنع البشر، هذا القانون يقضي بأنه لا يجوز للزوجين أن يكون لهما إلا ولد واحد، ولأنهم يحبون الذُكران، فإذا جاءتهم البنت خنقوها، وإذا جاء المولود ذكراً سجلوه في الدوائر الرسمية، ثم اكتشفوا بعد حين أن الصين تحتاج إلى خمسين مليون فتاة، ثم أنشئت عصابات لخطف الفتيات لشدة الحاجة إليهن، لأنهم غيروا قانون الله عز وجل، الآن ثمة قوانين تصدر في الصين عجيبة، ممنوع أن تبحث في المستشفى عن نوع المولود ذكراً كان أو أنثى، هناك تشديدات شديدة جداً، أما الآن القضية الأولى أن الصين تعاني نقصاً حاداً في الفتيات، إذاً هناك عصابات تخطف الفتيات، لأن قانون إلزام الناس بمولود واحد قاد الناس إلى أن يقتل الفتاة، وأن يبقي الشاب، هذه من آثار القانون الوضعية، وقانون ببلد آخر صدر تقليداً للغرب أن المرأة المطلقة تنال نصف ثروة زوجها، أقسم لي أخ في هذه البلاد أن سوق الزواج توقفت نهائياً، فصار الأب مضطراً إلى أن يأتي لوالد الشاب الذي يزمع أن يخطب ابنته فيعطيه سندَ أمانة بالملايين، إن طالبناك بنصف ثروتك طالبنا بهذا السند، لكن تعال وتزوج، تعديل طفيف بقانون الزواج ألغى الزواج كله، هذا القانون الإلهي من عند الخبير، أي في خيرات لا يعلمها إلا الله ناتجة عن هذا القانون.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً)

الآن المنافق يكره أن تفسر ما حدث تفسيراً إلهياً، تفسيراً توحيديّاً، الذي حدث له تفسير أرضي شركي، وله تفسير سماوي توحيدي، المنافق يرفض أن الذي حدث هو خير، يرفض أن الذي حدث

هو بسبب تقصير المسلمين، أي تفسير توحيدي قرآني سماوي مرفوض عند المنافق، وأي تفسير أرضي شركي مادي مقبول عند المنافق.

المنافق على نوعين إما أساسه كافر أو أساسه ضعيف اليقين بالله عز وجل :

قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً)

الله عز وجل لم يفضحهم أولاً، لماذا؟ لأن المنافق على نوعين، منافق أساسه كافر، لكنه غطى كفره بالنفاق، ومنافق أساسه ضعيف اليقين بالله عز وجل، عنده شبهات وشهوات، هذا المنافق يرجى له أن يكون مؤمناً في المستقبل، لذلك من حكمة الله عز وجل أنه ما فضحهم، بل أعطى أسماءهم لسيدنا حذيفة، من هنا جاء سيدنا عمر، وسأل سيدنا حذيفة: بربك اسمي مع المنافقين؟ فالمنافق الكافر هذا لا يرجى إيمانه، وأغلب الظن الله عز وجل يفضحه في المستقبل، أما المنافق الذي أساس نفاقه ضعف في الإيمان لشبهات تعتريه، أو لشهوات يفعلها هذا المنافق يرجى له أن يكون في المستقبل مؤمناً، لذلك حينما يكشف حال المنافقين أحياناً يسارعون إلى رسول الله ليتبرؤوا من النفاق:

(فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً)

الحكمة من عدم فضح المنافقين :

حسناً لماذا احتكمتم إلى هذا اليهودي؟ فكان جوابهم: أردنا أن نريحك يا رسول الله، أردنا أن لا نتعبك، ألا نشغلك بمشكلاتنا، فالنبي عليه الصلاة والسلام قبل منهم ذلك، ولم يفضحهم، والتوجيه الدقيق إذا وجدت إنساناً مقصراً، أو متلبساً بمعصية، إيمانه ضعيف، انضباطه ضعيف، فلست مكلفاً أن تفضحه على الملأ، هذا العمل لا يرضي الله أبداً، أنت مكلف أن تنصحه فيما بينك وبينه، لأن قلقه من أن يفتضح يعني أن فيه بقية خير، لذلك لا ينبغي أن تفضحه، فحينما تأتيهم مصيبة، وهذه المصيبة كأن الله حذرهم بها، وكشف نفاقهم قال:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)

قل لهم في أنفسهم قولاً يبلغ أعماق قلوبهم وخفايا عقولهم لكن بينك وبينهم دون أن تفضحهم:

(وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)

أعرض عنهم إشعاراً لهم أنك تعلمهم، إذا كان لك اهتمام ومودة بالغة مع المنافق يظن نفسه على حق هو، يظن نفسه أنه احتال عليك، لا، أعرض عنهم إشعاراً لهم أنك تعلم نفاقهم ثم عظهم، بيّن لهم الحق:

(وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)

يصل إلى قرارة نفوسهم.

عبادات كثيرة نفعلها ولا أحد يلزمنا بها لكنها تؤكد لنا إيماننا بالله وطاعتنا له :

أيها الأخوة الكرام:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)

كلمة أخيرة: لحكمة بالغةٍ بالغة في أشياء مشتركة بين القانون الإلهي والقانون الوضعي، فالإنسان إن لم يسرق لعله يخاف الله، أو لعله يخاف القانون، فإذا كنت بمؤسسة فيها ضبط شديد، مراقبة شديدة، فيها نظام محاسبة دقيق جداً، وإذا اختلس الإنسان شيئاً يفتضح ويحاكم، وتكف يده، وتصادر أمواله فأنت بهذه الحالات لا تسرق، الله وحده يعلم لماذا لم تسرق؛ خوفاً من الله، أو خوفاً من القانون، لكن ما من تشريع أرضي على الإطلاق فيه أمر بغض البصر، فأنت حينما تغض بصرك تخاف ممن؟ لا تخاف إلا من الله، فغض بصرك دليل أنك تخاف الله، هذه العبادة هي عبادة الإخلاص، صيامك في البيت دليل خوفك من الله، فالله عز وجل في بعض الأوامر ينفرد بها الدين، والقوانين الوضعية لا تشترك معه إطلاقاً، فلذلك تكشف نفسك أنت من صلاة قيام الليل، من غض البصر، من إنفاق المال، دون أن تبوح بهذا الإنفاق، من صيام النفل، في عندك عبادات كثيرة تفعلها، ولا أحد يلزمك بها، ولا أحد يطلع عليها إلا الله، فهذه العبادات يمكن أن تؤكد لك إيمانك بالله، وطاعتك له، وحبك له.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(32-69): تفسير الآيتان 64-65 ، مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-10-04

بسم الله الرحمن الرحيم

طاعة رسول الله والاستجابة له عين طاعة الله والاستجابة له :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والستين، وهي قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

أي أن أيَّ رسول كائناً من كان معه منهج إلهي، ومعه منهج تفصيلي، وما أرسله الله إلا ليكون هذا المنهج مطبقاً في حياة من دعاهم إلى الله، فطاعة رسول الله عين طاعة الله، والاستجابة لرسول الله عين الاستجابة لله، وإرضاء رسول الله عين إرضاء الله، والله ورسوله أحق أن يرضوه:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

أي أن استجابتهم لك هي استجابة لله، والبديل اتباع الهوى:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

[سورة النساء: 80]

إذاً:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

هذا الأمر الذي يلقيه عليك النبي ليس من عنده، ولا من اجتهاده، ولا من ثقافته، ولا من بيئته، إنه من الوحي، أنت حينما تطيع رسول الله معنى ذلك أنك تطيع الله، لا تأخذ كلام النبي على أنه كلامه، ينبغي أن تأخذه على أنه من عند الله، ولأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

أحد أصحاب النبي رضوان الله عليه وهو سيدنا سعد بن أبي وقاص قال: ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس ـ من هذه الثلاثة أنه ـ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى.

مقياس نجاح تعاملك مع رسول الله لا في الإعجاب به فحسب ولكن في طاعته :

إذاً علاقتك برسول الله لا أن تعجب به فقط، لا أن تثني على عبقريته، لا أن تثني على حكمته، لا أن تجعله فوق المئة الأوائل في الأرض فقط، ينبغي أن تطيعه، أي مقياس نجاح تعاملك مع رسول الله لا في الإعجاب به فحسب، ولكن في طاعته:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

وهذه (من) تفيد استغراق أفراد النوع، أي ما من رسول على الإطلاق إلا ينبغي أن يطاع، لأن أمره ليس من عنده، بل هو من عند الله:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

فرق كبير بين أن تتوهم أن هذا الأمر من عند النبي وبين أن تعتقد اعتقاداً يقينياً أن هذا الأمر الذي جاء به النبي هو من عند الله، إنك إن أطعته أطعت الله، إن استجبت له استجبت لله، إن أرضيته أرضيت الله، إن أحببته أحببت الله، محبة النبي عليه الصلاة والسلام عين محبة الله، لذلك قال بعض العلماء: هناك حب في الله، وهو عين التوحيد، أنت في الأصل تحب الله، ولأنك تحب الله تحب رسول الله، ولأنك تحب رسول الله تحب أصحاب رسول الله، ولأنك تحب أصحاب رسول الله تحب كل من اتبع رسول الله، ولأنك تحب هؤلاء جميعاً تحب المساجد، وتحب تلاوة القرآن، وتحب العمل الصالح، وتحب العبادات، كل أنواع هذه المحبة هي في الحقيقة محبة واحدة، هذا هو الحب في الله، أما الحب مع الله هو عين الشرك، أن تحب جهة لا تحب الله، أو أن تحب جهة لا يرضى الله عنها، أو أن تحب جهة هي في الأصل ليست مطيعة لله عز وجل لمصلحة تبتغيها، هذا حب مع الله، وهو عين الشرك.

أكبر خسارة على الإطلاق أن يخسر الإنسان نفسه :

قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)

أيها الأخوة، الإنسان قد يظلم الآخرين، ولكن أشد أنواع الظلم، ولكن أقسى أنواع الظلم، ولكن أخطر أنواع الظلم أن يظلم نفسه، قد يخسر بيته بخطأ ارتكبه، وقد يخسر شركة، وقد يخسر رأسماله، أما أكبر خسارة على الإطلاق أن يخسر نفسه:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: 15]

قد تخسر فتعوض، أما حينما تخسر نفسك، يقاس عليها أن الإنسان حينما لا يُعرّف نفسه بالله، ولا يستقيم على أمر الله، ولا يعمل العمل الصالح الذي يرتقي به عند الله، ولا يسعى إلى الجنة، ولا

يتقي النار فقد وقع في ظلم نفسه الشديد، أرأيت إلى إنسان يعرض عن الله، وعن طاعته، وعن طلب العلم، وعن مرضاته، يبحث عن شهوة يقتنصها، أو لذة يمارسها، أو مصلحة يأخذها، إنه يظلم نفسه، ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً؟ رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهولها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهولها مكرم. الغنى والفقر بعد العرض على الله.

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذّ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)

ماذا ينبغي أن يفعل من ظلم نفسه؟ أولاً:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذّ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

أيها الأخوة، والله لا أبالغ إن من أخطر الآيات في كتاب الله التي تتحدث عن مقام رسول الله هذه الآية، أي أنت حينما تخطئ، حينما تظلم نفسك، ماذا ينبغي أن تفعل؟ ينبغي أن تتجه إلى رسول الله الذي اعتمده الله مبلغاً عنه، والذي أمرك أن تأتمر بأمره، وأمرك أن تنتهي عما عنه نهى، ينبغي أن تأتي أولاً إلى رسول الله، لأنك إن أهملت مقامه أهملت المرسل، إن لم تعبأ بمنهجه لم تعبأ بمن أرسله، إن لم تأتمر بما أمرك لا تأتمر بالذي أمره، هذا الذي يقول لا علاقة لي بالأشخاص، أنا علاقتي مع الله مباشرة، أنت بهذا لا تعبأ بالمرسل، حينما تأتيك رسالة، وتمزقها قبل أن تقرأها أليس هذا كفر بالمرسل؟

من أخطر الآيات في كتاب الله التي تتحدث عن مقام رسول الله الآية التالية :

أيها الأخوة الكرام:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذّ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

يأتونك أولاً ليستطلعوا منك ماذا ينبغي أن يفعلوا؟ ما الأمر الذي يرضي الله؟ ما الأمر الذي يغضب الله؟ كيف يتوبون؟ كيف يصلحون أنفسهم؟

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذّ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

أما حينما يتجاوزوك فهم يتجاوزون من أرسلك، حينما يتجاوزوك لا يعبؤون بالذي أرسلك، هم حينما لا يهتموا بك هم لا يهتموا بقرار الله عز وجل الذي أرسلك، لو وسعنا الدائرة، لو أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسولاً أتباع الرسول السابق لم يعترفوا به، ولم يذعنوا له، ولم يسلموا له، كيف؟ أي أنت كمدير مؤسسة تابعة لوزارة، هناك وزارة جديدة تشكلت، أنت كمدير مؤسسة ترفض أن تأخذ أمرك من الوزير الحالي، تقول: لا، أنا أتلقى أمري من الوزير السابق، أليس هذا تحدياً للملك الذي عيَّن هذه الوزارة؟ شيء واضح جداً، فهذا الذي يرفض أن يتبع آخر نبي أرسله الله عز وجل إنه يتحدى من أرسله، إنه لا يستسلم لمن أرسله، إنه لا يذعن لمن أرسله، الآن حينما تلغي

مقام الرسالة ومقام النبوة، ولا تعبأ بمنهج النبي، وتقول مدعياً: أنا علاقتي مع الله مباشرة، فالله لا يقبلك، ولا يتوب عليك، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

أي اعتراض على حديث صحيح ثابت قطعي الدلالة هو اعتراض على رسول الله :

بعد أن يأتوك استغفروا الله وفق توجيهاتك، استغفروا الله وفق منهجك، يقول لك أحدهم: أنا إيماني بقلبي، لو لم أصلِ أنا خير ممن يصلي، مرتاح، لا يصلي أبداً، أنا لا أؤذي أحداً، أنت بهذا تجاوزت كلام سيد الخلق:

((العهد بيننا وبينهم ترك الصلاة فمن ترك الصلاة فقد كفر))

[رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد]

لم تعبأ بهذا الكلام، يقول: أنا قلبي نظيف، أنا لا أحقد على أحد، ليس في قلبي غل لأحد، إذاً أنا أفضل ممن يعبدون الله، هذا نموذج متكرر، إلغاء الرسالة كلياً، لا يعبأ بكلام رسول الله، هناك دعوة صريحة الآن إلى إلغاء السنة كلها، مع أن الله عز وجل يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

إذاً لا يقبلنا الله عز وجل، ولا يتوب علينا إلا إذا أتينا رسوله، لأنه معصوم من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، أمرنا أن نأخذ عنه، وأن ننتهي عما نهى عنه، أمرنا أن نجعله أسوة لنا، فهذا الذي يلغي مقام رسول الله هو هكذا فعل، أفعاله سنة، أقواله، وأفعاله، وإقراره سنة، فالنبي ما صافح النساء تقول: هذا الحكم لا يصلح لهذه الأيام، إذاً أنت تلغي مقام الرسالة، أي اعتراض على حديث صحيح ثابت قطعي الدلالة والثبوت هو اعتراض على رسول الله، وهو اعتراض على من أرسله، دققوا: إنه اعتراض على من أرسله:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

بدؤوا بك ماذا توجهنا، كيف نتوب؟ أما حينما لا نأتمر بأمر رسول الله، ولا ننتهي عما عنه نهى، وندعي أن علاقتنا بالله مباشرة، نقيم يانصيباً خيرياً، ونقيم حفلة غنائية صغيرة يرصد ريعها للأيتام، لماذا السنة؟ أقول: لكم هذا الشيء واقع، هناك من يقول: أنا مؤمن بالله، ولا أرضي أحداً، أما هذا التوجيه الضخم من رسول الله فليس له عنده قيمة إطلاقاً:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

جاءوك يا محمد، جاؤوك أولاً.

النبي بشر مثلنا ولكن يُوحى إليه :

إن جاؤوك هم يحترمون من أرسلك، إن جاؤوك يعظمون من أرسلك، إن جاؤوك يعظمون من كلفك، يعظمون من أنطقك:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

لكنك لست إلا نبيّاً، لا تزيد عن أنك بشر، ولكن يوحى إليك:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة فصلت: 6]

إذاً أنت لا تستغفر، الذي يستغفر هو الله:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا)

أرأيت إلى التوحيد؟ أنا أعتقد أنه ما من إنسانين على وجه الأرض أحبا بعضهما بعضاً كحب الصِّديق لرسول الله، ومع ذلك يوم توفاه الله قال الصديق رضي الله عنه: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

مقام الألوهية شيء ومقام النبوة شيء آخر :

أخواننا الكرام، مقام الرسالة مقام خطير جداً، يوجد خط أدنى لو نزلت عنه لكفرت بالرسالة، ولو تجاوزت الخط الأعلى لألهت رسول الله، هناك من يقول: إن الكون كله مخلوق من نور محمد، هذه مبالغة، هذا كلام غير صحيح، إن الخلق خلقوا ليكونوا على شاكلة محمد، هو قدوة لنا، لذلك سمح الله جل جلاله لرسوله بهامش اجتهادي ضيق فإن أصاب النبي أقره على إصابته، وإن لم يصب صحح له:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

[سورة التوبة: 43]

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

[سورة عبس: 1-2]

ليكون هذا الهامش الاجتهادي دليلاً على أن مقام الألوهية شيء، وأن مقام النبوة شيء آخر، لئلا يعبد من دون الله، قال أحد الأصحاب وهو يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام: ما شاء الله وشئت، فقال له: بئس الخطيب أنت، جعلتني لله نداً، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

إذاً حينما يأتونك لا ليعبدوك من دون الله، لا، فاستغفروا الله، لكن جاؤوك ليأخذوا المنهج من عندك، جاؤوك ليتعرفوا على أمر الله من خلالك، جاؤوك لترسم لهم الطريق إلى الله من خلال توجيهك، جاؤوك أي احترموا من أرسلك، وعظّموا من أرسلك، واعتقدوا أنك على حق بأقوالك، وأفعالك، وإقرارك:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذّ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

لو توسعت في هذا الموضوع قليلاً، النموذج المعاصر الآن يلتقي إنسان مثقف مع مئة شيخ، أنا أقول: ليس على وجه الأرض إنسان مؤهل أن تأخذ منه من دون دليل، لأن هذا دين، قضية مصيرية، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها، لكن حينما تأتي عالماً جليلاً، ويأتيك بالدليل، ولا يعجبك الدليل، حينما يأتيك بالأمر الإلهي، والدليل على أنه واجب التطبيق، ولا تذعن له، حينما يأتيك بالنهي الصريح من كتاب الله، ومن سنة رسول الله، ولا تعبأ به أنت من؟ أنت ممن لم يأت رسول الله، القرآن كتاب هداية ليوم القيامة.

حينما نتجاوز كلام النبي فنحن إذاً لا نتبع الله عز وجل :

لا يعقل أن تغطي هذه الآية الصحابة فقط، هذه الآية تغطي المؤمنين إلى يوم القيامة:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذّ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

حينما يأتونك يا محمد هم يعظمون الذي أرسلك، يقرون لك بالعصمة، ينفذون أمر الله عز وجل بطاعتك، لأن طاعتك طاعة الله عز وجل:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذّ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ)

وفق توجيهك، أي قد يأتي إنسان إلى عالم، والعلماء كما قال عليه الصلاة والسلام: ورثة الأنبياء، لكن لا يمكن أن تقبل أقوالهم من دون دليل، لا يوجد في حياة المسلمين إلا إنسان واحد كلامه هو الدليل، إنه رسول الله فقط، ما سوى النبي كلامه يحتاج إلى دليل من كلام النبي، فحينما تأتي عالماً تسأله عن موضوع الربا يقول لك: يا أخي هذا العمل محرم، لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 279]

ولا يعجبه هذا الكلام، أنت لا تعترض على هذا العالم، لا، العالم ما قال لك من عنده شيْئاً، العالم جاءك بالدليل من كتاب الله، أنت بهذا لا تعبأ بكلام الله، ولا تعبأ بحديث رسول الله، لولا أن هذه ظاهرة متفشية، ومتكررة، ومستمرة ما ذكرها الله في القرآن الكريم:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذّ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

أي جاءوا إلى الرسول، إلى من اختاره الله رسولاً، إلى من سمح الله له أن ينطق بالحق، إلى من عصمه الله، إلى من أمرك الله أن تلتزم أمره ونهيه، هذا الشيء الطبيعي، أما حينما نتجاوز كلام النبي فنحن إذاً لا نتبع الله عز وجل، وأقوى دليل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

استغفار الرسول يدلنا على طريق الاستغفار لله :

قال تعالى:

(فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ)

استغفار الرسول دلهم على طريق الاستغفار لله، افعل كذا، إذا أسأت فأحسن، استغفر، تب، صم نفلاً، ادفع صدقة، الزم الدرس فرضاً، أي دلك النبي على طريق الاستغفار لله عز وجل، بعد أن أتيت النبي، واستغفرت الله بتوجيه النبي الآن تجد الله تواباً رحيماً، لذلك فإن احترام الرسالة احترام للمرسل، واحترام الأمر احترام للآمر، وتعظيم النبي تعظيم لمن أرسله، واتباع النبي اتباع لمن أرسله، محبة النبي محبة لمن أرسله، الأدب مع النبي أدب مع من أرسله، أي بالنظام المدني في العالم كله الوالي قديماً أو المحافظ في المصطلح الجديد يمثل رئيس الجمهورية في محافظته، فمن تطاول عليه فهو في الحقيقة تطاول على رأس المجتمع فيعاقب، هذا في النظام المدني فكيف بقانون الله عز وجل؟ هذه الآية تعني أنه ينبغي أن تأتي البيوت من أبوابها، والنبي عليه الصلاة والسلام باب الله، لا تأتي البيوت من السطوح، تعال من الباب، والنبي باب الله عز وجل، سلوا لي الوسيلة هكذا، قال عليه الصلاة والسلام، فإنها مقام لا ينبغي إلا لواحد من خلقه، وأرجو أن أكون أنا، كما قال عليه الصلاة والسلام، لذلك نحن عقب الأذان نقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً الفضيلة والوسيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد، لذلك هذا الذي لا يعبأ بالسُّنة لا يعبأ بالدين، هذا الذي لا يعبأ بحديث رسول الله لا يعبأ بالقرآن، هذا الذي لا يتأدب مع رسول الله لا يتأدب مع الله، هذه الآية تبين مقام النبي عليه الصلاة والسلام.

في الآية التالية أقسم الله تعالى بعمر النبي صلى الله عليه وسلم :

قال الله عز وجل:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر: 72]

أقسم بعمر النبي، وتأسيساً على هذه الحقيقة:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

حينما تختلف مع أخ، مع صحابي، وأنت صحابي، وتأتيان إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وتحتكمان إليه، ولم يعجبك حكم النبي فأنت لست مؤمناً:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

حينما نحتكم إلى سنة رسول الله التفصيلية هذا يقوم مقام أن نأتيه في حياته :

أيها الأخوة، الآن موضوع دقيق، في حياة النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

جاؤوك، وتعلموا منك كيف يستغفرون الله، وبينت لهم الطريق إلى الله، وطريق التوبة، وطريق الاتصال، وطريق العمل الصالح، ولكن هذه الآية كيف نفهمها بعد وفاة رسول الله؟ العلماء قالوا: أنت حينما تحتكم إلى سنة رسول الله التفصيلية هذا يقوم مقام أن تأتيه في حياته، يؤكد هذا المعنى الدقيق أن الله جل جلاله يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

من خلال سنته، يؤكد هذا الكلام:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

توفي الرسول، التحق بالرفيق الأعلى، تطيعوا أمره ونهيه اللذين حفظا بعد وفاته، إذاً هذه الآية تعني بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تحتكم إلى سنته التفصيلية، أن تحتكم إلى الشرع الذي جاء به، أن تحتكم إلى الأحاديث الصحيحة التي نسبت إليه، أن تحتكم إلى توجيهاته، إلى إرشاداته، إلى أحكامه:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

كل أمر موجه للمؤمنين بطاعة الرسول في حياته هو موجه إليهم باتباع سنته بعد مماته:

إذاً في حياته تأتي إليه، وبعد مماته تأتي إلى سنته، هذا معنى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة الحجرات: 1]

لا تقترح اقتراحاً خلاف ما في القرآن، وخلاف ما في السنة، لو ألغينا قطع اليد لما كنا عند الغرب همجيين، لا، لا تقترح إلغاء حكمٍ حَكَم اللهُ به، ولا تقترح إلغاء حكمٍ حَكَم به رسول الله.

أيها الأخوة، كل أمر موجه إلى المؤمنين بطاعة رسول الله في حياته هو موجه إلى عامة المؤمنين باتباع سنته بعد مماته، إذاً حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم.

توفي عليه الصلاة والسلام، وترك سنته بين أيدينا، الآن لا يوجد بيت في العالم الإسلامي إلا ويوجد فيه كتاب سنة، رياض الصالحين، أذكار النووي، صحيح البخاري، صحيح مسلم، كتب الحديث الستة، سنته بين أيدي الناس، والآن مع ثورة المعلومات والاتصالات تنبأ النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا الأمر أمر الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، وأنا العبد الفقير ذهبت إلى أقصى مكان

في الأرض، إلى سيدني في أستراليا، فوجدت أن إذاعتين في سيدني تذيعان أقوال النبي وسنته وتفسير القرآن، سيبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، فسنته بين أيدي الناس جميعاً في القارات الخمس، الكتب، والأشرطة، والمحاضرات، والندوات. إذاً أن تأتي النبي بعد مماته أن تأتي إلى سنته فتتبعها:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

نفي الإيمان عن إنسان لا يذعن لحكم النبي :

نفي الإيمان عن إنسان لا يذعن لحكم النبي، أضرب لكم هذا المثل: قال النبي الكريم: لا تقتلوا عمي العباس، قبيل بدر، شخص فكر وقال: أينهانا عن قتل عمه، وأحدنا يقتل أباه وأخاه في الحرب، أي أساء الظن برسول الله، لما كشف له أن عمه العباس قد أسلم في مكة، وبقي عين النبي في مكة، لو أنه لم يخرج لكشف أمره، فانتهت مهمته، لو أن النبي ذكر أنه قد أسلم لكشفه، وانتهت مهمته، لو سكت النبي لقتله أصحابه، لا بد من أن يقول لا تقتلوا عمي العباس، هذا الذي ظن ظنَّ السوء برسول الله يقول عن نفسه: ظللت عشر سنين أتصدق رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله، قال له: ما عدلت يا محمد، فغضب النبي، وكان إذا غضب عليه الصلاة والسلام ينبض عرق له، فقال: ويحك من يعدل إن لم أعدل:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

نحن لم يتح لنا أن نلتقي برسول الله، تطبيق هذه الآية اليوم كيف؟ أتيت عالماً جليلاً أنت وخصمك فحكم لكم وفق كتاب الله وسنة رسول الله، عملك غير شرعي، وهذا هو الدليل الصحيح قطعي الثبوت والدلالة فلم تعبأ بهذا الحكم، التطبيق المعاصر أوسع تطبيق، أن كل امرأة تختلف مع زوجها في المهجر تحتكم إلى قاض غربي، لأنه يحكم لها بنصف ثروة زوجها، ولم تعبأ بحديث رسول الله أنها إذا طلقت يحكم لها بالمهر فقط، أي لولا أن هذه مشكلة كبيرة جداً ما احتلت هذا الحيز في القرآن الكريم، هناك من لا يعبأ بالسنة، هناك كتب ألفت لإلغاء السنة، هناك محاضرات ألقيت لإلغاء السنة، هناك سلوك يومي مخالف للسنة:

((الحمو الموت))

[رواه البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر]

لا تبتعدوا، كم من أسرة في بلاد المسلمين يجتمع الأصهار وزوجاتهم على مائدة واحدة؟ كم من أسرة قل لي بالعكس: كم من أسرة لا تفعل هذا؟ أسهل، معنى ذلك أن كلام النبي لا يعبأ المسلمون به اليوم، يكفي أن تجمع كل أصهارك وبناتك على مائدة واحدة، لم تعبأ بقول النبي:

((الحمو الموت))

[رواه البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر]

هذه واحدة.

معظم المسلمين هذه الأيام لا يطبقون سُنّة رسول الله في حياتهم اليومية :

يكفي أن تنمي مالك ببنك ربوي، أما أن يعدل أكل درهم من الربا أن يزني الإنسان بأمه، فكلام النبي هذا لا يعبأ به أحد، معظم المسلمين يضعون أموالهم في مصارف ربوية، هذا واقع، والنبي نهى عن الغناء، فكم بيتاً مسلم لا يوجد به غناء؟ مغنية تغني بمعاني جنسية، كم بيتاً مسلم لا يوجد به غناء؟ أين سنة النبي؟ إذا رفض شاب مؤمن أن يدخل يوم عرسه إلى صالة الاحتفال، وفيها مئة امرأة كاسية عارية، وجلس مع عروسه لا يعد هذا لبقاً، وليس من بنى المجتمع، وكلهم مسلمون، هذه آية متعلقة بالواقع، لا أحد يعبأ بسنة النبي الآن، لا أحد يأخذها مأخذاً جدياً، أما من السهل أن تقيم احتفالاً بمولد النبي، وأن تثني على النبي، وأن تأتي بفرقة نشيد رائعة جداً، وأن تتمايل طرباً حينما ينشدون، وأنت لست مطبقاً لسنته شيئاً، أليس كذلك؟

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

أيها الأخوة الكرام، لعلها من أخطر الآيات المتعلقة بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(33-69): تفسير الآيات 65-70 ، الاحتكام إلى سنة رسول الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-10-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق الكبير بين مقام الألوهية المطلق و مقام النبوة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الخامسة والستين، وهي قوله تعالى:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

أراد الله سبحانه وتعالى من هذه الآية أن يبين عصمة النبي، فالله سبحانه وتعالى عصمه من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وبالتالي أمرنا أن نأخذ منه قال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

أيها الأخوة، الإيمان برسالة رسول الله، والإيمان بعصمة رسول الله جزء أساسي من الإيمان، الله عز وجل أعطى النبي هامشاً اجتهادياً ضيقاً، ليكون هناك فارق كبير بين مقام الألوهية المطلق وبين مقام النبوة، هذا الهامش إن أصاب النبي فيه أقره الوحي على حكمه، وإن لم يصب صحح له الوحيُ، إذاً هناك مقام النبوة، وهناك مقام الألوهية، على كل في النهاية النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3 - 4]

سبب نزول الآية التالية :

عصمه الله في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، وفي صفاته، فلذلك حينما يحكم النبي بحكم ما، هذا الحكم لا يمكن أن يكون عن الهوى، إنه حكم حق مؤيد من قبل الحق، فالذي يعترض على حكمه يعترض على نبوته، والذي يعترض على حكمه يعترض على رسالته، والذي يعترض على حكمه يعترض على عصمته، من هنا قال الله عز وجل:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

تروي كتب أسباب النزول أن صحابياً جليلاً اسمه الزبير بن العوام، هذا الصحابي الجليل له أرض مرتفعة في المدينة، ولصحابي آخر اسمه حاطب بن بلتعة أرض في جوار أرض الزبير بن العوام، لكنها أخفض من أرض الزبير، فحصل بينهما تنازع، واحتكما إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي عليه الصلاة والسلام نطق بالعدل، فأعطى حكماً أن يبدأ ابن العوام بسقي أرضه، ثم ينتقل الماء إلى أرض حاطب، لأن أرض ابن العوام أعلى، أما إذا بدأنا بحاطب فلا بد أن يجتمع الماء إلى وقت طويل حتى تنتقل إلى أرض الزبير، فصدر عن هذا الصحابي كلمة، وبالمناسبة أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وعليهم رضوان الله ليسوا معصومين، وهم درجات متفاوتة، فقال هذا الصحابي: ألا لأنه ابن عمتك؟ فكان الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله، هذه الكلمة تركت أثراً بالغاً في النبي عليه الصلاة والسلام، مقام النبوة أعظم بكثير من أن ينحاز الإنسان إلى ابن عمته، عندئذٍ قال عليه الصلاة والسلام: أن تبدأ السقي من عند حاطب تطيباً لقلبه، لكن وجد مشقة كبيرة، عندئذٍ لا بد من أن يجتمع الماء إلى وقت طويل جداً حتى يمكن أن تنتقل إلى أرض الزبير بن العوام، يقول بعض العلماء: إن هذه القصة سبب نزول هذه الآية:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

قصة أخرى عن أسباب نزول الآية التالية :

الحقيقة أنه هناك قصة أخرى، لعلي ذكرتها في الدرس السابق، أن النبي عليه الصلاة والسلام أعطى توجيهاً لأصحابه ألا يقتلوا عمه العباس، قال بعضهم، ولم يفهم حكمة النبي، أو لم يستوعب أبعاد رؤية النبي، أو لم يفهم ملابسات هذا الأمر، ابن عباس أسلم سراً، وبقي في مكة عين النبي عليه الصلاة والسلام، وقيادة النبي قيادة ذكية جداً، وتحتاج إلى معلومات كأية قيادة أخرى عالية المستوى، المعلومات عنصر أساسي جداً في اتخاذ القرار الصحيح، فكان هذا الإنسان عم النبي عليه الصلاة والسلام معلناً إسلامه لرسول الله فقط، أخفى إسلامه عن كفار قريش، وكان بينهم، وكان في أعلى مستوى من إدارتهم، كان من وجهاء قريش، فكان ينقل إلى النبي كل ما يجري في مكة، وكل ما يزمع عليه مشركو مكة، ينقل له أول بأول كل الأخبار الدقيقة، فجاءت معركة بدر، فلو أن هذا الصحابي الجليل لم يخرج مع المشركين لكشف نفسه، وانتهت مهمته، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام أبلغ أصحابه نبأ إسلامه لكشفه، وانتهت مهمته، لو بقي النبي ساكتاً لقتله أصحابه، لأنه عندهم مع المشركين، إذاً لا بد أن يقول النبي هذا الكلام المختصر المفيد، لا تقتلوا عمي العباس، أحدهم قال: أحدنا يقتل أباه وأخاه، وينهانا عن قتل عمه، أساء الظن برسول الله، هؤلاء الأنبياء أيها الأخوة قمم البشر، أن يكون هناك بعد عن أن ينحازوا لأقربائهم، كما بين الأرض والسماء، ثم كشف هذا الصحابي أن هذا العم الذي نهى عن قتله هو مسلم، وهو عين النبي في قريش، يقول هذا الصحابي: ظللت أتصدق عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله.

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

المرء الذي لا يحتكم إلى الشرع ليس مؤمناً بنص هذه الآية، المرء الذي يحتكم إلى قانون وضعي لأنه يتوهم أنه يعطيه أكثر من حقه ليس مؤمناً.

المؤمن الحق هو من يقبل بأمر الله دون مناقشة :

قال تعالى:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول في آية أخرى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 88 - 89]

القلب السليم صاحبه سلم من شهوة لا ترضي الله، وسلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، وسلم من الاحتكام لغير شرع الله.

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة المائدة: 44]

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

[سورة المائدة: 45]

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة المائدة: 47]

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

إذا كنت مؤمناً بهذا الخالق العظيم، مؤمناً بعلمه المطلق، حكمته المطلقة، عدله المطلق، وثبت لك أن هذا كلامه وأن هذا الشرح شرح نبيه، ثم تعترض، ثم تتريث، ثم تضع حكم الله على بساط البحث، ثم تضع حكم الله تحت المناقشة والتصويب، فهذا الذي يفعل هذا ليس مؤمناً ورب الكعبة.

إن لم نقبل حكم الله فلسنا مؤمنين :

كنت مرة في بلد بعيد غربي في مؤتمر إسلامي، قام بعض الخطباء وقالوا: نحن هنا كل شيء قابل للبحث، ليس عندنا شيء مقدس، وكل شيء قابل للرفض، هذا في مجتمع العولمة، في مجتمع الكفر، أما نحن بوصفنا مسلمين نؤمن بإله عظيم، أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى، نؤمن بكلامه القديم، نؤمن برسالة نبيه العظيم، فإذا ثبت لدينا من خلال آية قرآنية أو من خلال حديث شريف صحيح أن هذا هو حكم الله، وترددنا في قبوله، أو وضعناه على بساط البحث أو وضعناه على محك التجربة فنحن لسنا مؤمنين:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

إن لم نقبل حكم الله فلسنا مؤمنين، لا يكفي:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

وبعد أن يحكموك:

(ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ)

أي يرتاحون لهذا الحكم، ثم:

(وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

ينصاعون لهذا الحكم.

الذي ينكر حديثاً صحيحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفر :

ينبغي أن تحتكم إلى رسول الله، وينبغي أن ترضى بحكم رسول الله، وينبغي أن تنفذ حكم رسول الله، هذا في حياته، فما معنى الآية؟ بعد مماته صلى الله عليه وسلم، سنته بيننا، أحكامه بيننا، جمعها العلماء، وبوبوها، وصنفوها، فسنة النبي بين أيدينا متواترة، لذلك بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام الاحتكام إلى سنته، أو الاحتكام إلى ما صح من سنته، لأن القرآن الكريم قطعي الثبوت، بينما سنة النبي ظنية الثبوت، فيها الصحيح، وفيها الحسن، وفيها الضعيف، وفيها الموضوع.

((فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار))

[رواه البخاري عن المغيرة بن شعبة]

((مَنْ رَوَى عَنِّي حَدِيثاً وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبُ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ))

[رواه ابن ماجه وأحمد في مسنده عن المغيرة بن شعبة]

كلما ذكرت القرآن أكتفي بكلمة القرآن، لأنه قطعي الثبوت، أما إذا ذكرت كلمة السنة ينبغي أن أتبعها بكلمة الصحيحة، والذي ينكر حديثاً صحيحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفر ـ كما قال العلماء ـ كفراً دون كفرٍ.

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

من أحكام الفقه مثلاً أن الشريك المضارب على الربح والخسارة، كم من إنسان يضع أمواله في مؤسسة، في شركة، وهذه المؤسسة أو تلك الشركة لم تقصر، ولم تعدِ، وتحقق خسارة، هذا الذي يرفض أن يدفع الخسارة هو يعترض على حكم الله عز وجل، ما الفرق بين المضاربة وبين إيداع المال في البنك؟ ما الفرق بين المضاربة وبين استثمار المال ربوياً؟ هو أن في الاستثمار الربوي نسبة ثابتة رابحة دائماً، بينما في المضاربة ربح وخسارة، فما لم يكن الشريك المضارب الذي يعمل بجهده، ما لم يكن معتدياً، وما لم يكن مقصراً، وما لم يكن مخالفاً لتعليمات صاحب المال، وتحققت خسارة، هذا الخسارة يتحملها صاحب المال، لأن صاحب الجهد خسر جهده، وأصبح الذي أنفقه ديناً

عليه، هذا هو حكم الله عز وجل، فكم من مسلم يضع ماله ليستثمره بالطريقة الشرعية بطريق المضاربة، ويقبل الخسارة؟! لا يقبل الخسارة، بل لا يقبل نسباً ضئيلةً من الربح، مهما تكن الظروف قاسية، فهذا الذي يرفض أن يخسر، ويرفض أن يساهم في الخسارة هذا رفض حكم الله عز وجل.

أمثلة كثيرة عن رفض المسلمين لأحكام الله عز وجل :

أمثلة كثيرة جداً أيها الأخوة، هذا الذي يرفض أن يعطي بناته حصصهم من الإرث، فيكتب كل أملاكه للذكور، متوهماً أن الإناث إذا ورثوا من أبيهم ينتقل هذا المال إلى أزواجهن، هذا إنسان يرفض حكم الله عز وجل، لو ذهبت لأضرب الأمثلة على أن المسلمين يرفضون حكم الله عز وجل لوجدت الأمثلة لا تعد ولا تحصى، وهذه الآية قاسمة أيها الأخوة:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

الآن التحكيم إلى سنة النبي، إذا التجأت إلى عالم بالذكر، ألم يقل الله عز وجل:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنبياء: 7]

إذا التجأت إلى عالم بالذكر بالقرآن والسنة، وحكم لك حكماً وفق القرآن والسنة، أعطاك الدليل من القرآن والسنة، ورفضت الحكم أنت عندئذٍ رفضت حكم الله عز وجل:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

أيها الأخوة، لو ذهبت لأضرب الأمثلة على حكم الله هي أمثلة كثيرة جداً لا تعد ولا تحصى، لذلك ينبغي أن توقن أن الله حينما يتخلى عن المسلمين قضاياهم المصيرية، لا لأسباب بسيطة بل لأسباب كبيرة، ينبغي أن تحتكم إلى الشريعة السمحاء، ينبغي أن تقبل هذا الحكم نفسياً لا بلسانك، ينبغي أن تنصاع لهذا الحكم سلوكياً، أن تحتكم، ثم أن تقبل نفسياً لا لفظياً، ثم أن تنصاع لتنفيذ هذا الحكم، لو أن إنسان يسكن في بيت ليس له، والقانون معه سابقاً والشرع ليس معه، وعنده إمكان أن يشتري بيت، وأن يعطي البيت لصاحبه، ويرفض اعتماداً على مادة قانونية تحميه، هذا حاله كحال الذي رفض حكم الله عز وجل:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

الخلطاء هم الشركاء والأزواج والجيران :

الأهل الذين يصرون على أن يجعلوا الاحتفالات، احتفالات الأفراح وفق النمط الغربي وهم مسلمون، وكتبوا على بطاقات الدعوة:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

وهم من رواد المساجد، لكنهم يصرون على أن يكون الاحتفال على النمط الغربي، فيه اختلاط، ولا بد أن يجلس الزوج أمام كل المدعوات، وهن كاسيات عاريات:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

لو انتقلنا إلى كلمة: لا يؤمنون، يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة ص: 24]

الخلطاء من هم؟ الشركاء، الأزواج، الجيران:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة ص: 24]

الأقوى يأخذ ما عند الأضعف، والأغنى يستغل الأفقر.

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)

[سورة ص: 24]

الذي يبغي على خليطه ليس مؤمناً :

استنبط الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أن الذي يبغي على خليطه ليس مؤمناً، كم دعوة في قصر العدل؟ بعشرات الألوف، في كل غرفة من غرف محكمة النقد دعاوى بعشرات الألوف، وفي معظمها دعاوى كيدية فيها افتراء وظلم:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

أكثر هذه القضايا تبدو واضحة في قضايا الإرث، هناك رغبة أن نحرم أناساً، وأن نعطي أناساً، نأبى أن نوزع الإرث وفق منهج الله، وفق أحكام الإرث، هذا يندرج تحت الرفض، هذا الذي يرفض أن يكون الحفل وفق المنهج الإلهي، ويرفض حكم الله، هذا الذي يرفض أن تتحجب المرأة، أسر إسلامية تصلي في المساجد، ويرفضون الحجاب، والحجاب حق، والحجاب شرع، والحجاب حكم الله عز وجل:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

أنا لا أتحدث عن الشاردين إطلاقاً أتحدث عن رواد المساجد، لو دخلت إلى بيوت رواد المساجد لا تجد حكم الله مقبولاً عندهم، كم من أسرة تقبل أن تقيم وليمة فيها فصل بين النساء والرجال، كم؟ لا يقبلون، يرفضون أشد الرفض أن يكون الرجال في مكان، والنساء في مكان، بدعوى أن هذا تفريقاً للأسرة، هو رفض لحكم الله عز وجل، كم من أسرة ترفض من ابنها أن يبتعد عن قريباته الأجنبيات عنه، يعدونه جفاء.

من أبسط علامات الإيمان أن تحتكم إلى شرع الله وترضى به وتطبقه :

والله قبل يومين جاءني سؤال، هذه المرأة تحضر حفلاً في مكان عام حريصة على حجابها، قال من حولها لها، وهن ملتزمات فيما يدعين: إن لم تخلعي عنك المعطف وغطاء الرأس فهذا جفاء لصاحبة الدعوى، هكذا، أسر إسلامية ملتزمة، يرتادون المساجد، يرفضون حكم الله عز وجل، يرفضون حكم الله في الحجاب، يرفضون حكم الله في الاختلاط، يرفضون حكم الله في عمل المرأة، يرفضون حكم الله في التجارة، يرفضون حكم الله في البيع، يرفضون حكم الله في الإرث.

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

[سورة النور: 15]

أما حينما يصلون لا يرفضون الصلاة، لأنها لا تغير من حياتهم شيئاً، يصلون، ويصومون، ويحجون، ويعتمرون، ويزكون، هذا شيء مقدور عليه، أما أن يعيشوا حياةً إسلامية، أن يعيشوا وفق منهج الله، أن تكون علاقاتهم إسلامية، أن تكون أفراحهم إسلامية، أن تكون أحزانهم إسلامية لا هذا مرفوض:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

طبعاً الآية الآن معناها بالنسبة إلينا الاحتكام إلى سنة رسول الله.

أيها الأخوة الكرام، الاحتكام إلى سنة رسول الله أي أن تلجأ إلى الشريعة، لكن هناك أناس كثيرون يلجؤون إلى الشريعة لا تعظيماً للشريعة، ولا تحكيماً لشرع الله، ولكن يلجؤون إلى الشريعة حينما يتأكدون أن حقهم لن يصلوا إليه عن طريق القانون عندها يلجؤون إلى الشريعة، هم أنفسهم لو تيقنوا أن حقهم يأخذونه من خلال القانون ما لجؤوا إلى العلماء، ولا إلى الشريعة، إذاً من أبسط علامات الإيمان أن تحتكم إلى شرع الله، ومن أبسط علامات الإيمان أن ترضى بحكم الله، ومن أبسط علامات الإيمان أن تسارع إلى تطبيق حكم الله.

الفرق بين القتل وبين الموت :

أولاً: الاحتكام. ثانياً: الراحة النفسية. ثالثاً: الانصياع للحكم.

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

أيها الأخوة الكرام، القتل هو موت قسري، مصباح الكهرباء قد تطفئ المفتاح فينطفئ المصباح، أنت ماذا فعلت؟ عطلت النور، كيف عطلت النور؟ بقطع الكهرباء، هذا هو الموت، حينما تسحب الروح من جسم الإنسان، يسحب إمداد الله لهذا الإنسان، يموت الإنسان، أما حينما تكسر هذا المصباح ينطفئ، الكهرباء تصل إليه، لكن هذا المصباح الذي هو غلاف للكهرباء لم يعد صالحاً لقبول هذه القوة المحركة، فالموت تعطل هذه القوة التي تمد هذا الجسم، لكن القتل تخريب للجسم حيث لا يغدو صالحاً للروح، هذا هو الفرق بين القتل وبين الموت.

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)

[سورة آل عمران: 144]

الموت سحب القوة المحركة من جسم الإنسان، أما القتل فهو تخريب الجسم، حيث لا يصلح لبقاء الروح فيه.

الأمم التي قبلنا حُملت حكماً صعباً لحكمة أرادها الله سبحانه :

يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)

أي القتل هدم قسري، وإخراج الإنسان من دياره إخراج قسري، وبينهما اتصال، والأمم التي قبلنا حُملت حكماً صعباً لحكمة أرادها، لذلك جاء في أدعية القرآن الكريم:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

[سورة البقرة: 286]

الله عز وجل كتب على بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، لا يتوب الله عليهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، الحمد لله الذي يسر لنا طريق التوبة من دون قتل النفس، وقد حمد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ربه على أن هذا الحكم لا يطبق في شريعتنا:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)

(وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً* وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

مهما بدا الحكم الشرعي قاسياً فهو طريق إلى سعادة أبدية :

أنت حينما ترى الدنيا فقط، ترى فقد الحياة أكبر مصيبة، أما حينما تؤمن بالآخرة إيماناً يقينياً ترى أن هذه الحياة لا شيء أمام الآخرة، وكنت أقول دائماً: لو أن واحداً في الأرض وأصفاراً إلى الشمس، وبين الأرض والشمس 156 مليون كم، وكل ميليمتر صفر، هذا الرقم العملاق واحد في الأرض وأصفار 156 مليون كم، وكل ميليمتر صفر، هذا الرقم لو وضع صورة لكسر مخرجه لا نهاية فقيمته صفر، فالإنسان حينما يرى الدنيا فقط تكبر عليه مصائبها، أما حينما يرى الآخرة تهون عليه مصائبها:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً* وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

أيها الأخوة، مهما بدا لك الحكم الشرعي قاسياً إنه طريق إلى سعادة أبدية، طريق إلى جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، طريق إلى سعادة لا تنتهي، مهما بدا لك الحكم الشرعي صعباً، مهما بدا لك الحكم الشرعي قاسياً، قطع اليد حكم شرعي، ولكن قطع يد واحدة أفضل ألف مرة من أن ترتكب كل ثلاثين ثانية جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، في الدول المتقدمة مادياً، في دول الترف والبذخ وحرية الإنسان والتفلت الأخلاقي في كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، لكن في بلاد تطبق فيها الشريعة الإسلامية لا يحتاجون إلى قطع أكثر من يد أو يدين طوال العام هذا حكم الله عز وجل، مهما بدا قاسياً ينبغي أن تستوعب أن الذي أصدره هو خالق البشر، هو الحكيم، قال تعالى:

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

[سورة النور: 2]

بعض الأمثلة عن ثمار تطبيق حكم الله عز وجل :

لأن البشر تساهلوا في أحكام السرقة والزنى، أكبر مشكلات العالم اليوم السرقة والزنى، أكبر مشكلات العالم حتى في البلاد الإسلامية السرقة والزنى، وهما جريمتان في الشريعة الإسلامية عليهما حدود قاسية جداً، وإلى حين بلاد تطبق الشرعية الإسلامية يمكن أن تنقل رواتب محافظة بأكملها بعيدة عن العاصمة ألفين كيلومتر، تنقل بشاحنات عادية ولا يجرؤ أحد أن يسرق هذه السيارة، بينما في بلاد الغرب مركبات مصفحة مع تسليح، مع هيلكوبتر، مع مرافقة عالية جداً، حينما تنقل الأموال من مكان إلى مكان هذا حكم الله عز وجل، إلى مسافة قريبة في مواسم الحج الذي يبيع العمولات في صندوق خشبي بالملايين، يحين وقت الصلاة يضع عليه قماشة، ويذهب إلى المسجد، هذا نراه رأي العين نحن، هذا من ثمار تطبيق حكم الله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام، هذه الآيات فيها معنى دقيق جداً، فلو أن حكم الله يقتضي أن نقتل أنفسنا، والحقيقة أن أكبر مصيبة على الإطلاق قتل النفس، فإذا نفذنا حكم الله لكان خيراً لهذا الذي نفذ الحكم وأشد تثبيتاً:

(وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

لو قسمت المصائب في الدنيا، إنسان فقير، إنسان مريض، إنسان عنده مشكلة، إنسان في السجن، تقع على قمة هذه المصائب أن تنتهي حياته، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه]

الموت مصيبة كبيرة، انتهت الحياة، انتهى الاستغفار، انتهى العمل الصالح، انتهت التوبة، لو أن حكم الله كما كان في بني إسرائيل، لو أن حكم الله هو القتل، أن يقتل الإنسان نفسه:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

لو أن حكم الله يقتضي قتل النفس، وإنهاء الحياة، ونفذ هذا الحكم برضى لكان العطاء الإلهي بعد هذا القتل جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فكيف إذا كان الحكم أن تصلي فقط، وأن تكون صادقاً، وأميناً، وعفيفاً، وطاهراً، صائماً، مصلياً، منفذاً لأمر الله عز وجل.

المؤمنون ليسوا مكلفين إلا بطاعة الله ورسوله :

أعطاك الله عز وجل حكماً ليس في شريعتنا، أعطاك حكماً يحمِّل الإنسان ما لا يطيق، بدليل قول الله عز وجل:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

[سورة البقرة: 286]

ومع ذلك لو نفذت هذا الحكم الذي لا طاقة لك به لهداك الله إلى صراط الجنة، إلى طريق الجنة، وإلى سعادة أبدية، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر:

(وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

أما أنتم أيها المؤمنون فلستم مكلفين إلا بطاعة الله ورسوله.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً)

كل التكاليف مقدور عليها، كل التكاليف ضمن وسع الإنسان، كل التكاليف بإمكان أي مسلم أن يطبقها.

شريعتنا سمحاء تأمرنا بطاعة الله في قرآنه وطاعة نبينا في سنته :

هذا الصحابي الجليل الذي عينه النبي قائداً ثالثاً في مؤتة، وقد أمسك الراية القائد الأول سيدنا زيد، فقاتل بها حتى قتل، وقد قال عليه الصلاة والسلام: وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية سيدنا جعفر فقطعت يده اليمنى، فأمسكها بيده اليسرى فقطعت يده اليسرى، فأمسكها بعضديه ثم قتل، قال: ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل وأن له جناحين يطير بهما في الجنة، ثم سكت النبي، سكت عن القائد الثالث عبد الله بن رواحه، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله ماذا فعل عبد الله، فسكت النبي بمقدر ما تردد عبد الله، عبد الله كان شاعراً قال:

يا نفس إن لا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهمـا رضيت وإن توليت فقد شـــقيت

* * *

فقال: ثم أخذ الراية عبد الله فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه. فالذي نُؤمر به أن نصلي، أن نصوم، أن نؤدي زكاة أموالنا، أن نحج بيت الله الحرام، أن نغض أبصارنا، أن نضبط لساننا، أن نكون أمناء وصادقين ليس غير، لذلك شريعتنا سمحاء:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ)

من يطع الله في قرآنه، ومن يطع الرسول في سنته:

(فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً)

ومن أسباب نزول هذا الآية أن أحد أصحاب رسول الله الذين كانوا في خدمته، وكانوا فقراء، النبي عليه الصلاة والسلام سأله مرة: لمَ أنت حزين؟ قال: يا رسول الله أنا معك في الدنيا لكن في الآخرة أين أنا منك، أنت مع النبيين، فنزلت هذه الآية:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً)

العطاء الحقيقي :

قال تعالى:

(ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ)

هذا هو الفضل، أما الذي اشترى أرضاً بألف، ثم أصبح ثمنها عشرة ملايين، يظن أن هذا فضل كبير، لا بد من أن يموت ويتركها، الذي معه وكالة حصرية أرباحه اليوم بالملايين لا بد من أن

يموت ويتركها، تواضع الناس على قيم الدنيا، وعلى مكاسب الدنيا، وعلى أموال الدنيا، وعلى مباهج الدنيا، وعلى ملذات الدنيا، لكن الله يقول:

(ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ)

هذا هو العطاء الحقيقي، هذا هو الفوز العظيم، هذا هو الفلاح، هذا هو النجاح، هذا هو الفوز.

(ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً)

إذاً هذه الآيات كلف بنو إسرائيل بأحكام لا طاقة لهم بها، ولكننا والحمد لله كُلفنا بأحكام نستطيعها، ضمن وسعنا وإمكاننا، قابلة للتطبيق، قابلة للتنفيذ، إذاً ملخص هذه الآيات:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(34-69): تفسير الآية 71 ، إعداد العدة المتاحة لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-10-18

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية تحدثنا عن علاقاتنا بالأعداء :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والسبعين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

أولاً: هذا الذي توهم أن الدين خمس عبادات شعائرية لم يفقه من الدين شيئاً، الدين نظام متكامل، يبدأ من علاقتك بجسمك، ثم من علاقتك بأقرب الناس إليك، وينتهي بالعلاقات الدولية، وحين نفهم الدين أحوالاً شخصية، أو عبادات شعائرية فنحن أبعد ما نكون عن حقيقة هذا الدين، هذه الآية تحدثنا عن علاقاتنا بالأعداء، ما المشكلة الكبرى التي يعاني منها المسلمون؟ أن أعداءهم ظهروا فجأة بقوة لا تقابل، ما الموقف الذي يريده الله لنا؟ أن نكشف أعداءنا قبل أن يتمكنوا في الأرض، أن نأخذ حذرنا، كأن الله يقول: خذوا سلاحكم، تقول للحارس: خذ بندقيتك، تقول للفارس: خذ سيفك، والله عز وجل يقول للمؤمن: خذ حذرك، هذا الفهم الساذج لمن حولنا هذا فهم يتناقض مع حقيقة الإيمان، إلهك، ومربيك، وخالقك هو الخالق، لأنه خلق الإنسان مخيراً، منهم من اختار الدنيا، ومنهم من اختار الآخرة، منهم من اختار الحق، ومنهم من اختار الباطل، ومنهم من آثر شهوته، ومنهم من آثر مبدأه، لأن الله خلق الإنسان مخيراً بين طريق الخير والشر.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

البطولة أن تكشف الخطر قبل وقوعه وتتوقع عداوة الكافر قبل أن يُظهرها لك :

لأنه خالقنا، وهو الخبير بنا، يعلم الله أن البشر سيكون فريقين؛ فريق محق وفريق مبطل، فريق خيِّر وفريق شرير، فريق منضبط وفريق غير منضبط، فمعركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، ولو تعايش الناس كما ترون فجأة نجد أن العالم كله يحارب المسلمين بكل ثقله، أين كنا قبل هذا التاريخ؟ لم نأخذ حذرنا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

البطولة أن تكشف الخطر قبل وقوعه، وتتوقع عداوة الكافر قبل أن يُظهر لك هذه العداوة، لذلك الله عز وجل في آية محكمة رائعة يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

الله المخاطِب ونحن المخاطَبون، والطرف الثالث من هم؟ أعداء المسلمين:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

ينبغي أن تستنفذ الاستطاعة.

(مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

كل أنواع القوى، القوة جاءت نكرة، ينبغي أن تعد لأعدائك كل قوة متاحة لك، المال قوة أن تكون غنياً مكتفياً تستخرج ثرواتك، عندك المواد الأولية هذه قوة، التنظيم قوة، رفع مستوى الإنسان قوة، بين أن ترى كماً كبيراً جاهلاً هو عبء عليك ينبغي أن تطعمه، وبين أن يكون الإنسان في حساب الأرباح، بلد في آسيا مجموع أرباحه من برمجيات الكومبيوتر ثلاثة وثمانين مليار! لا يحتاج لمواد أولية، ولا لبترول، ولا لشيء، ولا لمناجم حديد، ولا مناجم نحاس، برمجيات، فالكم البشري إن لم يكن يحمل كفاءات عالية يصبح عبئاً في قائمة الخسائر، أما الكم البشري حينما يكون متنوراً ويكون عنده كفاءات عالية يدرج في حسابات الأرباح.

ينبغي أن نعد لأعدائنا كل أنواع القوة :

يجب أن تتوقع الشر قبل أن يقع.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

المال قوة، التنظيم قوة، رفع مستوى إنسان في كفاءته قوة، المعلومات قوة، استخدام الوسائل الحديثة قوة.

(مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

(من) تفيد استغراق أفراد النوع، كل أنواع القوة ينبغي أن نعدها لأعدائنا، كل قوتك في الاتصالات، عندهم قنابل يلغون الاتصالات كلياً، كيف يأمرون الجيش؟ لا يستطيعون، أذكر لكم مما تفتقت عنه عقول البشر من أساليب قهر الناس، والمسلمون في غفلة، الآن يبحثون عن قنابل نووية لا تقتل إلا البشر، ليتسلموا المدن كما هي ببيوتها، وفرشها، وأجهزتها، ومبانيها، وجسورها، هم يقظون من مئات السنين، فحينما سنحت لهم الفرصة ظهروا كالوحوش يريدون الثروات، وكل ما يقال خلاف ذلك، لا تعبؤوا به، يريدون أن يتربعوا على منابع النفط بقوتهم، والله عز وجل يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

هم أعدوا لنا، ولم نعد لهم، لذلك يقول بعض الحكماء: ويل لأمة تأكل ما لا تزرع، وويل لأمة تلبس ما لا تنسج، وأنا أضيف: وويل لأمة تستخدم أجهزة لم تصنعها. نحن بحاجة إلى طائرة تعمير محركها خمسة ملايين دولار، وكل طائرة فيها أربع محركات، عشرون مليون دولار، كم طن قمح؟ وكم طن قطن؟ يأخذون موادك الأولية بأبخس الأثمان، ويبيعونك منجزاتهم الحضارية بأعلى الأثمان، فنحن فقراء وهم أغنياء.

أمثلة عن بعض ما أعده لنا أعداؤنا :

سيدنا عمر حينما كان يجوب بلدة فوجد أن كل الفعاليات الاقتصادية بيد غير المسلمين، فعنفهم تعنيفاً شديداً، وقال لهم: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟

سيدنا عمر قبل ألف وأربعمئة عام أدرك أن المنتج قوي والمستهلك ضعيف، أنا لا أتكلم في أمور بعيدة عن هذه الآية، لكن الله عز وجل يقول:

(خُذُوا حِذْرَكُمْ)

في آية ثانية:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

نحن في تاريخنا الحديث الدول التي لم تعتن بجيش قوي ماذا حل بها؟ حل بها اجتياح، وحل بها الدمار، والسلاح أحياناً له مهمة كبيرة من دون أن تستخدمه.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

قوة مطلقة، اطلعت على مجلة فيها موضوع علمي، كيف تصور الآلات من الفضاء الخارجي؟ الأرض كلها مأخوذة من القمر، الصورة المعروفة على الأرض مربع صغير قطره ميلي، هذا المربع في الصفحة الثانية مكبر، فإذا هو معظم أمريكا! على الصورة الثانية مربع صغير قطر ضلعه ميلي مكبر، في الصورة الثالثة أمريكا الشمالية على هذه الصورة مربع صغير قطره ميلي مكبر، في الصورة الرابعة فلوريدا، على هذه الصورة مربع صغير مكبر في الصورة الخامسة ساحل من سواحل فلوريدا، في هذه الصورة مربع صغير قطره ميلي مكبر في الصورة السادسة ميناء من موانئ فلوريدا، عليه مربع صغير مكبر في الصفحة التي تليها إذا هو إنسان مستلق على الأرض يقرأ قصة يمكن أن تقرأ عنوان القصة! وإلى جانبه صحن فيه تفاح، وعلى يده ساعة، هذه من أين؟ من القمر.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

هم أعدوا لنا هذه الأقمار يكشفون حركات الأرض دون أن نشعر.

المعركة الآن معركة بقاء أو فناء :

أنا أقول أيها الأخوة: لأن المعركة الآن معركة بقاء أو فناء، الآن الأمر لا يحتمل أن نقول كلام لا معنى له، هذا قرآن.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

أنت ما دورك؟ أنت كطالب حينما تتقن دراستك تعد لهم القوة، وأنت كتاجر حينما تحكم عملك، وتأتي بالبضاعة من أرخص المصادر، وتبيعها للناس بسعر معتدل تكون قد ساهمت في بناء صرح هذه الأمة الإسلامية، وأنت كصانع حينما تجلب مصنعاً نستغني به عن أن نستورد تكون قد وضعت لبنة في صرح هذه الأمة، كل إنسان منا له موقع، أنت كطبيب حينما تتقن عملك تغني المرضى عن أن يذهبوا إلى أطراف الدنيا يدفعوا ملايين، حينما يأتي طبيب بأعلى مستوى من بلد غربي، ويكون في دمشق نكون فقد وفرنا على المريض ملايين، فكل واحد منا بشكل أو بآخر من عمله، من دراسته، وطبه، وهندسته، وتجارته يمكن أن يعد لما سيكون في المستقبل من عدوان.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

القوة مطلقة، الاتصالات، والمعلومات، والأقمار، والطيران قوة، مهما تملك دولة من جيش قوي إن لم يكن لها سلاح طيران يحمي سماءها فهي مكشوفة، وتسمعون عن الحروب التي سمعتم أخبارها، السلاح الأول هو سلاح الطيران، يقصف شهر لا يبقي شيء لا من البنية الفوقية، ولا من البنية التحتية، يدمر كل شيء، كالكهرباء، والهاتف، والاتصالات، ومصافي النفط، كل شيء يدمر، انتهت.

ينبغي أن تكتشف مواطن قوة العدو قبل أن تظهر علانية :

أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

ينبغي أن تكشف الخطر قبل وقوعه، وتعرف خطط العدو قبل أن تفاجئك، وينبغي أن تكتشف مواطن قوة العدو قبل أن تظهر علانية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

لئلا يقع التباس في فهم القوة قال:

(وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كانت القوة رباط الخيل، وقد يأتي بعد عهد النبي عهد تكون القوة سلاح المنجنيق، ويأتي بعد سلاح المنجنيق المدرعات، وقد تأتي الطائرات والقنابل، فالقوة

واسعة، جاءت نكرة ليكون التنكير شمولياً، وجاءت (من) كي تؤكد شمول كل أفراد النوع، أحياناً الإعلام قوة، والمعنويات قوة، قد تستمع لخبر صادق فترتفع معنوياتك، وتستمع لخبر كاذب فتنهار معنوياتك، فالإعلام قوة، وهو الآن أكبر سلاح.

الله تعالى رحمة بنا لم يطالبنا أن نعد القوة المكافئة بل أراد أن نعد القوة المتاحة :

قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

هذا سماه علماء التفسير عطف الخاص على العام.

(وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ)

حدثني أخ كريم جاء من بلاد في شرق آسيا قال لي: في هذا البلد نحن تسعون مليون مسلم مضطهد، في بلد إسلامي في شرق آسيا فجرت قنبلة نووية، أقسم لي بعد تفجير هذه القنبلة اختلفت معاملة المسلمين في بلده مئة وثمانين درجة، أحياناً السلاح لا تحتاج أن تستعمله، لكن وجوده له أثر، والآية واضحة:

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

فيها ملمح رائع، ينبغي أن يكون عدوك عدواً لله، أما إذا كان عدوك ولياً لله فهذه مشكلة كبيرة جداً، فهذه الآية أصل في هذا الموضوع.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

وأضيف على هذا الإعداد أن الله سبحانه وتعالى رحمة بنا لم يطالبنا أن نعد القوة المكافئة، بل أراد أن نعد القوة المتاحة.

(مَا اسْتَطَعْتُمْ)

وعلى الله الباقي.

العدو إذا قوي قوة عالية يرهب ضعاف المؤمنين أما الموحدون فلا يخافون إلا الله :

كنت أقول دائماً أيها الأخوة، أن العدو إذا قوي قوة عالية يرهب ضعاف المؤمنين أما الموحدون فلا يخافون إلا من الله.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ)

[سورة آل عمران:173]

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ

مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أبي داود عَنْ ثَوْبَانَ]

هذا الحديث يروى في المساجد من عشرات السنين من مئة سنة، لكن لا يتضح معناه إلا في هذه الأيام:

((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أبو داود عَنْ ثَوْبَانَ]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

ولو درست سيرة النبي عليه الصلاة والسلام كانت قيادته في أعلى مستوى، كان يرسل السرايا ليجس نبض الطرف الآخر، ويرهبهم أحياناً، أما إنسان يعيش غافلاً اتكالياً يفاجئ أنه خرق، وأنه اكتسح، وأن ممتلكاته ذهبت، وقدرته خابت.

كل حالة تعالج بمقتضاها وكل عدوان يعالج بما يكافئه :

ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

معنى كلمة ثبات جمع ثبة، طائفة صغيرة، فلو أن مناوشة من جهة محدودة كافرة ينبغي أن يرسل إليها سرية محدودة، أما إذا كان الخطر داهماً فينبغي أن ننفر جميعاً، كل حالة تعالج بمقتضاها، وكل عدوان يعالج بما يكافئه، فإذا كان العدوان محدوداً سيرنا له قوة محدودة تغطي عدوانه، أما إذا كان العدوان شمولياً فلا بد من أن ننفر جميعاً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً*وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ)

إلهنا، ربنا، بعض الناس ضعاف يخاف، يقول الله عز وجل:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

[سورة آل عمران:173-174]

كل واحد منا يستطيع أن يعد للأعداء ما يستطيع من قوة :

لم تمرّ على هذه الأمة محن كالتي تمر بها الآن، اجتياح مغولي، واجتياح فرنجى من الغرب، هكذا سنة الله في خلقه، نحن في دار ابتلاء، إن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

قد يقول أحدكم: ما علاقتي بهذه الآية؟ أقول: لك علاقة وطيدة، هل منا مَن ليس له دور اجتماعي؟ مستحيل! طالب، مدرس، معلم، أستاذ جامعة، مهندس، طبيب، تاجر، موظف، ألا تستطيع أن تتقن عملك؟ ألا تستطيع أن تخدم المسلمين، وتخفف عنهم، وتيسر لهم أعمالهم، أن تكون في خدمتهم، وتبيعهم حاجات جيدة بثمن معتدل، كل واحد منا يستطيع أن يعد للأعداء ما يستطيع من قوة.

في محاضرة ألقيتها في بعض المحافظات، جاءني طفل عقب المحاضرة، صدقوا، لا يزيد عمره عن ست سنوات، قال لي: ماذا أفعل يا أستاذ أنا لا أحتمل سماع الأخبار! طفل! همّ المسلمين ضغط على طفولته! ماذا أفعل؟ قلت له: أتقن دراستك، إن أتقنت دراستك، وكنت الأول تكون قد أعدت للعدو العدة التي أمرك الله بها، فنحن حينما نتفوق في اختصاصاتنا وأعمالنا نعد لعدونا .

أقول لكم هذه الكلمة أيها الأخوة: والله الذي لا إله إلا هو لا يمكن لهؤلاء الأقوياء أن يحترموا ديننا إذا كنا ضعفاء، ولم نكن متفوقين في أعمالنا، أن تكون قوياً ومتفوقاً.

حينما نعتز بالله ونعظم أمره ونبني حياتنا على منهجه يقوينا ويرفع شأننا :

أنا مضطر أن أسرد لكم تجربة: ذهبت إلى بلد إسلامي في شرق آسيا، علمت أن هذا البلد لا يزيد عن ثلاث وعشرين مليوناً، وأنهم كانوا في الغابات قبل خمسة وعشرين عاماً، ويصدرون للعالم ما يفوق صادرات العالم العربي مجتمعاً بما فيه النفط، وأنهم في العام الماضي عندهم فائض نقدي يزيد عن ستين مليار دولار! وأن نظامهم في المصارف نظام إسلامي، والبطاقات المالية المشهورة في العالم بطاقات إسلامية لا ربا فيها، وأن تأمينهم تأمين إسلامي، وتعليمهم تعليم إسلامي، والحجاب إلزامي، وأن ثمنَ الصحن الفضائي ما يقترب من مليون ليرة، حفاظاً على أخلاق أولادهم، وقد جاءهم رجل كبير جداً من أقوى دولة ليتدخل في شؤونهم، فقالت له وزيرة: ضع حذاءك في فمك، ولا تنطق إلا بما يعنيك! يعيشون معنا، ونعيش معهم، فحينما نعتز بالله، ونعظم أمر الله، ونبني حياتنا على منهج الله يقوينا الله عز وجل، ويرفع شأننا.

أيها الأخوة، لا أتكلم عن شيء لا يعنيكم، بل أتكلم عن كل واحد منا بإمكانه أن يتقن عمله، ويكون إتقان عمله ونفعه للمسلمين مساهمة منه في قوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

والله أيها الأخوة، الطرف الآخر يبيعنا أحياناً تجهيزات وبقدرة قادر تصاب بالخلل، ويكلف إصلاحها مئات الملايين!

التقيت شاباً أمكنه الله من فك هذه الألغاز، وإصلاح هذه الآلات من مئات الملايين إلى عشرات الألوف يأخذ أجراً، كمثل هذا الشاب ألا يسهم في تقوية الأمة؟ وفي توفير أموالها التي كانت تذهب هدراً للطرف الآخر؟ فكل واحد منا إذا أتقن صنعته ودراسته نفع المسلمين، وخفف عنهم، وحل مشكلاتهم، ويسر عليهم أمورهم، ويكون قد ساهم في تقوية هذه الأمة.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً*وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ)

قصة تؤكد أن العاقل من يحتاط للأمر قبل وقوعه :

أضطر أن أروي قصة ذكرتها قبل ذلك كثيراً: أن غديراً فيه سمكات ثلاث؛ كيسة، وأكيس منها، وعاجزة، أي ذكية جداً، وذكاء متوسط، وغباء، مر بهذا الغدير صيادان تواعدا أن يرجعا، ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك، فسمعت السمكات قولهما، أما أكيسهن فإنها ارتابت، وتخوفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ثم لم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت! هذا أعلى مستوى في العقل، أخذت حذرها، وتصرفت في الوقت المناسب، ونجت، واستراحت، وأراحت، وأما الكيسة الأقل ذكاء فبقيت في مكانها متوانية حتى عاد الصيادان، الأولى توقعت الخطر، والثانية واجهت الخطر، العاقل جداً يأخذ حذره، ويتحرك قبل أن يقع الخطر، أما الأقل عقلاً فيواجه الخطر، وقالت: فرطت، وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ثم إنها تماوتت، وتصنعت الموت فطفت على وجه الماء، فأخذها الصياد، فوضعها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر، فنجت بعد أن تحطمت أعصابها، ونجت بقدرة قادر، نجت، واحتمال أن تهلك قائم، وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت، هذا قليل الحيلة لا يفعل شيئاً، فقط يضرب كفاً بكف، ويشتكي همه للناس، ويسمع أخباراً فقط. فأعقل سمكة احتاطت للأمر قبل وقوعه، والأقل عقلاً احتاطت له عند وقوعه، والغبية لم تحتط له لا قبل وقوعه ولا بعده، بل واجهته بعجز واتكال.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً* وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً* وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً)

هذه الآيات إن شاء الله تشرح في درس قادم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(35-69): تفسير الآيات 71-76، نماذج بشرية أشار إليها القرآن الكريم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-10-25

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان خليفة الله في أرضه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والسبعين، والتي تليها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

الله جل جلاله جعلنا خلفاء في الأرض، قال تعالى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

[سورة البقرة: 30]

أوكل إلى المؤمن عمارة الأرض، وأوكل إلى المؤمن إحقاق الحق، ومحاربة الباطل، وإقامة العدل، هذا معنى أن الإنسان خليفة الله في أرضه.

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

[سورة البقرة: 30]

من لوازم خليفة الله في أرضه أن يكون حذراً لأن الإنسان مخير، وقد أودعت فيه الشهوات، فبعض الناس سوف يتحركون وفق منهج الله، وهم أهل الحق، وبعض الناس سوف يتحركون من دون منهج الله عز وجل وفق أهوائهم وشهواتهم، ولا بد من أن تنشأ بين الفريقين معركة من آدم إلى يوم القيامة، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، وكل الصراعات التي تسمعون عنها الآن تندرج تحت هذه المعركة معركة الحق والباطل.

نموذج من النماذج البشرية التي أشار إليها القرآن الكريم :

المؤمن ينبغي أن يأخذ حذره ويكتشف الخطر قبل أن يظهر، ويكتشف العداوة قبل أن تُعلم، وينبغي أن يكتشف عدوه قبل أن يكون أمامه صارخاً، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

معنى كلمة ثبات جمع ثبة، وهي الطائفة الصغيرة، فلو أن مناوشة من جهة محدودة كافرة ينبغي أن يرسل إليها سرية محدودة، أما إذا كان الخطر داهماً ينبغي أن ننفر جميعاً، كل حالة تعالج

بمقتضاها، وكل عدوان يعالج بما يكافئه فإذا كان العدوان محدوداً سيرنا له قوة محدودة تغطي عدوانه، أما إذا كان العدوان شمولياً فلا بد من أن ننفر جميعاً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

الآن هناك نموذج بشري، وهذا في كل مكان وزمان، والحقيقة الصارخة أن في القرآن الكريم نماذج بشرية، وإذا قرأ الإنسان في هذه الآيات يجد نموذجاً يعيشه الناس، قال تعالى:

(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ)

ما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

[سورة التوبة: 38]

ملتم إلى الراحة والقعود، هذا النموذج أميل إلى الراحة، لا يبذل شيئاً، يتابع كل الأخبار، ويصنف كل الناس، ويوزع التهم والاستحسانات للناس، أما هو فلا يتحرك، مؤمن سكوني طوبائي، طوبى لفلان، طوبى لفلان، أما هو فلا يفعل شيئاً، هذا النموذج نموذج الإنسان الذي لا يعمل، ليس هنا في موضع المدح، بل هو في موضع الذم.

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا)

[سورة الفتح: 11]

لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة :

يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً)

حينما نتخلف عن رسول الله، وعن أصحابه الكرام، وينجو من مصيبة ألمت بالمؤمنين يرى نجاته من هذه المصيبة نعمة كبيرة، وحينما يُمتحن المؤمن فيبتلى بماله، أو بنفسه، أو بأولاده، أو بحريته، أو بدخله وقف موقفاً صحيحاً فخسر موقفه، أو خسر من يعينه، فلما يكون الإنسان مبدئياً قد يدفع الثمن باهظاً، فهذا الإنسان النموذج إذا تخلف عن رسول الله وأصحابه، وأصاب النبي وأصحابه مصيبة يرى نجاته من هذه المصيبة نعمة، وأية نعمة! نعمة كبيرة، لكن لا يستوي عند الله من نجا من مصيبة، لأنه تخاذل، وقعد عن نصرة الحق، لا يستوي مع من بذل وقته وجهده وماله وحياته ودفع حياته ثمناً لجهاده، فلا يعقل أن يستوي هذا مع هذا، لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35-36]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص:61]

(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً)

من سنة الله في خلقه أن يُبتلى المؤمن :

لو أن إنساناً في بلاد عديدة لزم درس علم، وعملاً صالحاً، ودعوة، فابتلاه الله بشيء من ابتلائه الذي يرفع به الله درجات المؤمن، الذي لم يعمل، ولم يبذل، ولم يبتلى يشمت به، ألم أقل لك: هذا عمل فيه مخاطر؟ كيف يرقى الإنسان إلى الله عز وجل حينما يسأل الله سلامته دائماً؟ حتى إنه ورد في بعض الآثار أن هذا الذي ينجو من كل مصيبة، ولا يقع في ورطة سمي العفريت النفريت، بل إن بعض الصحابيات الجليلات رأت زوجها لم يُبتلَ أبداً، فذهبت تشكوه لرسول الله، وفي الطريق وقع فتعثر، فقالت: ارجع لقد حلت المشكلة، الإمام الشافعي سئل: أندعو الله بالتمكين؟ قال: لن تمكن قبل أن تبتلى! من سنة الله في خلقه أن يبتلى المؤمن. الخطاب موجه للمؤمنين:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة: 155-157]

أخواننا الكرام، تماماً الوضع كطبيب جاءته حالة مرضية، ورم خبيث منتشر في كل الأمعاء والأحشاء، هذا المريض سأل الطبيب: ماذا آكل؟ قال: كُلْ كُلَّ شيء، لا شيء عليك محظور إطلاقاً، أما المريض الثاني فمعه التهاب حاد في المعدة، والحمية وحدها كافية لشفائه، فالطبيب يشدد على الثاني تشديداً غير معقول، لأنه قابل للشفاء، فحينما تكون في العناية المشددة، وتحاسب حساباً دقيقاً، ويسوق الله لك لكل غفلة، أو سهوة، أو كل انحراف، أو خطأ، أو مصيبة يردع الله بها، فاشكر الله عز وجل، لأنك في العناية المشددة، أما حينما يكون المرض عضالاً، ولا شفاء منه، ولا أمل في الخلاص منه تنطبق على المريض الثاني أن الطبيب يقول له: كُل ما شئت.

يسوق الله للمؤمن من المصائب ما يرقى به وينقيه من الآثام على عكس الكافر :

قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

لذلك قد يتساءل الإنسان: إن هؤلاء غارقون في كل أنواع المعاصي والموبقات، الزنى، الشذوذ، زنى المحارم، الخمور، المخدرات، الإباحية، والظلم، والعدوان، ومع ذلك فهم أقوياء، وبلادهم جميلة جداً، وأموالهم غزيرة، وقوتهم كبيرة، وهم يولون إرادتهم على كل الشعوب، هناك آية في القرآن الكريم تنطبق على هؤلاء، قال تعالى.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

[سورة يونس: 24]

ظن أهلها أنهم يرصدون أي مكان في العالم بالأقمار الصناعية، وبإمكانهم أن يقصفوا أي مكان في العالم.

العبرة من يضحك آخراً :

قال تعالى:

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً)

[سورة يونس: 24]

وقد يكون هذا الأمر عاماً لكل القارات، فجاء ليلاً أو نهاراً، ليلاً على أناس ونهاراً على أناس.

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

[سورة يونس: 24]

هذا نموذج مؤمن مبتلى، لأنه قابل للشفاء، مبتلى لأن الله سبحانه وتعالى وضعه في العناية المشددة، يسوق له من المصائب ما يرقى به، وينقيه من الآثام.

السيدة فاطمة سألها النبي عليه الصلاة والسلام: ما بك يا فاطمة؟ قالت: حمى لعنها الله، قال: لا تلعنيها، فو الذي نفس محمد بيده لا تدع المؤمن وعليه من ذنب، فهذا النموذج يحب مصالحه، ولا يأبه لمبادئه، يعتني بمصالحه وشهواته، ولا يعبأ بقيمه ولا بمبادئه، فإذا نجا من مصيبة وقع بها المسلمون بسبب دعوتهم وجهادهم وغيرتهم وحبهم للعمل الصالح يشمت بهم، ويرى نجاته من هذه المصيبة نعمة كبيرة أنعم الله بها عليه.

(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً)

هو نجا من هذه المصيبة لكنه لم ينج من عذاب النار، ولا ينجو من هلاك الآخرة، ونجا من الفقر، الذي ينافق لا يفتقر، والذي يضحي بمبادئه من أجل دنياه ربما لا يفتقر، فهذا الذي لا يفتقر، وينجو من بعض المتاعب التي يتحملها المؤمنون الصادقون يظن نفسه متفوقاً عليهم، ويظن أنه قد فاز في

حين أنهم قد وقعوا، هو الذي وقع وهم الذين فازوا، فالعبرة من يضحك آخراً، هناك من يضحك أولاً يبكي كثيراً، ومن بكى أولاً يضحك آخراً.

هناك نموذج تحركه مصالحه فهو لا يعبد إله المؤمنين ولا إله الكفار :

قال تعالى:

(فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً* وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ)

انتصرتم في المعركة، وحققتم العزة للمؤمنين، ونلتم مغانم كثيرة، يسيل لعابه لا على النصر بالحق بل على المغانم.

(لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً)

أرأيت إلى هذا النموذج تحركه مصالحه، فإن كانت مصالحه مع المؤمنين ادعى أنه مؤمن، لا من أجل الإيمان، بل من أجل مصالحه، وإذا كانت مصالحه مع الكفار انضم إليهم، فهو لا يعبد إله المؤمنين، ولا إله الكفار، ولكن يعبد ذاته، يعبد شهواته ومصالحه. يقول الله عز وجل:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان: 43]

أقصد بإله الكفار شهواتهم ومصالحهم.

(وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً)

البطولة أن تكون جريئاً في مواجهة الحقيقة :

الله عز وجل يعطينا نماذج بشرية في هذا القرآن، لذلك بعض الصالحين قرأ القرآن ليرى نفسه أين هو؟ في أي نموذج، قرأ نماذج من الكفار فقال: لا، أنا لست من هؤلاء، قرأ نماذج من المؤمنين الصادقين أيضاً فقال: لا، أنا أيضاً لست من هؤلاء، قرأ من الذي يخطئ ويصيب وله عمل صالح وآخر سيئ فقال: أنا من هؤلاء، فأنت حينما تقرأ القرآن ينبغي أن تعلم أنت مع من؟ أي نموذج ينطبق عليك أنت وتنتمي إليه؟ فليكن الإنسان مع نفسه صادقاً وواقعياً وجريئاً في الحكم على نفسه، فهو بالعادة يمالئ على نفسه، ويحابيها، ويصفها بصفات ليست فيها، لكن البطولة أن تكون جريئاً في مواجهة الحقيقة. يقول الله عز وجل:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)

ما دامت الآخرة ليست داخلة في حساباتنا فمشكلتنا كبيرة جداً، وما دامت الدنيا هي كل شيء، هي مبلغ علمنا، ومنتهى آمالنا، ومحط رحالنا، وميزاننا فلنا مشكلة كبيرة، لأن الدنيا تحتاج إلى مال، وقد تنزلق إلى كسب المال غير المشروع، والدنيا تحتاج إلى شهوات، وقد تقع في إرواء شهوات لا

ترضي الله عز وجل، لكن حينما تؤمن بالآخرة تضحي بالدنيا من أجل الآخرة، وقد يشاء الله أن يهبك الدنيا والآخرة.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

بعضهم قال: جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة، لكن جنة الدنيا للمؤمن هي جنة القرب، لقول بعض العلماء العاملين: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها جنة القرب، ويؤكد هذا المعنى أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

[سورة محمد: 6]

ذاقوا طعمها في الدنيا، إنما هي جنة القرب.

المؤمن باع نفسه في سبيل الله وهو راض عن أفعال الله :

قال تعالى:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)

باع الدنيا من أجل الآخرة، (يشرون) بمعنى يبيعون، شرى بمعنى باع واشترى، بدليل قول الله عز وجل:

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ)

[سورة يوسف:20]

أي باعوه، والله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة: 111]

أنت حينما تبيع بيتاً، وتقبض ثمنه بالتمام والكمال عداً ونقداً، والثمن مرتفع بعد أن بعت البيت، هل لك أن تسأل الذي اشتراه: لماذا دمجت الغرفتين ببعضهما؟ هو حر، اشترى منك البيت، ونقدك ثمنه، ثم يفعل بالبيت ما يشاء، هذا المعنى يريحنا، أنت حينما تبيع نفسك في سبيل الله، والله سبحانه وتعالى اشتراها منك، إذاً ينبغي أن تصبر، قد يجعل دخلك غير محدود وقد يجعل دخلك محدوداً، قد يهبك إناثاً فقط أو يهبك ذكوراً، أو يهبك إناثاً وذكوراً، أو يجعلك عقيماً، أنت بعت نفسك في سبيل الله، قد تكون غنياً أو فقيراً، قد تكون في مكانة مرموقة أو في مكانة قليلة، أنت بعت، فالمؤمن باع نفسه في سبيل الله، وهو راض عن أفعال الله، وراض عنه في السراء والضراء، في إقبال الدنيا وإدبارها، بايعنا رسول الله في المنشط والمكره.

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

آيات قرآنية تبين أهمية الفرض الجهادي في الإسلام :

قال تعالى:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

هذه الفريضة التي غفل عنها المسلمون من أربعمئة عام يدفعون الآن ثمن هذا التفريط باهظاً، وما ترون وما تسمعون هو نتيجة تعطيل هذا الفرض الجهادي في الإسلام.

(وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

[سورة التوبة: 52]

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 12]

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر: 51]

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

هذه وعود الله للمؤمنين، وزوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعوده للمؤمنين.

لا يحل مشكلات المسلمين اليوم إلا أن نعدَّ لأعدائنا ما أمرنا الله به :

قال تعالى:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)

لا تقل: لا يوجد تكافؤ، الله عز وجل ما كلفك أن تعد للأعداء ما لا تستطيع، كلفك بأن تعد القوة المتاحة لك، مع التفوق المذهل الذي عند الأعداء، قال أحدهم قبل يومين: ماذا نفعل بهذه الطائرات العملاقة، والبوارج الحربية، والصواريخ العابرة للقارات، ماذا نفعل بها، وقد أصبح العدو شخصاً لا دولة؟ واحد أقلق مجتمعاً بأكمله عشرين يوماً، جاءت الطائرات، وجاء الاستنفار دون جدوى، فالله عز وجل قال:

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

[سورة الحشر: 2]

مئتا ألف طالب عطلت مدارسهم عشرين يوماً بسبب إنسان واحد أقلق مضاجعهم، فلا تقل: ليس هناك مساواة بين الكيانين، عليك أن تعد لهم القوة المتاحة، ولا يحل مشكلات المسلمين اليوم إلا أن نعدَّ لهم ما أمرنا الله به.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)

يشرون، أي يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، الحياة الدنيا سماها الله دنيا، والآخرة هي الحياة الحقيقية، ليس في الآخرة همٌّ، ولا حزن، ولا شيخوخة، ولا كبر، ولا زوجة سيئة، ولا ابن عاق، ولا قلق نفسي، ولا خوف من الفقر، ولا خوف من مرض عضال، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد، فهي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ما من ركنين من أركان الإيمان جاءا متلازمين في القرآن كالإيمان بالله واليوم الآخر:

أنا أؤكد لكم أن قلة من المؤمنين يدخلون الآخرة في حساباتهم اليومية، أما معظم الناس يعيشون الدنيا فقط، ومقاييسهم كمقاييس الطرف الآخر، مقاييس مادية، هؤلاء المؤمنون المسلمون رواد المساجد، أما الآخرة كشيء مهم في حياتهم، كعامل خطير في حساباتهم، هذا هم بعيدون عنه، لذلك ما من ركنين من أركان الإيمان جاءا متلازمين في القرآن كالإيمان بالله واليوم الآخر. حاول حينما توازن بين شخصين وبين بلدين، أو بين أمتين أن تضيف الآخرة إلى الدنيا، أتيت بمثل صارخ: مطعم متواضع جداً في أطراف المدينة، ودخله محدود جداً، لكن صاحب هذا المطعم إنسان مؤمن، وعقيدته سليمة ومستقيم، وقائم بعباداته، ومطعم خمسة نجوم، دخله اليومي مليون، ويبيع الخمور، ويأتي بالمغنين، طبعاً ليس هناك من أساس للموازنة بين هذين المطعمين، لكن المطعم الثاني، لأنه

يبني دخله على الحرام، وعلى بيع المحرمات وانتهاك الحرمات، أضف الآخرة إلى كل طرف من هو الرابح؟ الأول، لولا أن هناك يوماً آخر تسوى فيه الحسابات لحقّ للمؤمنين أن ييئسوا، لكن هناك يوم آخر تسوى فيه الحسابات.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

أنواع الجهاد :

أيها الأخوة:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

طبعاً عندنا جهاد النفس والهوى، هذا هو الأصل، المهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، وبعد جهاد النفس والهوى يأتي الجهاد الدعوي، إذا كان متاحاً للمسلم أن يدخل في الجهاد القتالي فلا بأس، لكن هناك جهادان مقدمان على الجهاد القتالي؛ جهاد النفس والهوى، ثم الجهاد الدعوي.

(وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً)

أحد مشروعية الجهاد أن تقيم الأجواء المناسبة لمن حولك كي يعبدوا الله عز وجل، فإذا حال حائل بين الناس وبين عبادة الله ينبغي أن نجاهد فيه، كما يفعلون في الأراضي المحتلة، يهدمون المساجد، يقتلون الناس وهم يصلون، كما فعلوا من قبل.

المؤمنون يعبدون الله سبحانه وتعالى والكافرون يعبدون الطواغيت :

قال تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هذا هو القتال الذي جزاؤه الجنة.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ)

في سبيل المصالح، الطاغوت هنا من الطغيان، والطاغوت جمع طاغ، والطاغي هو الظالم، لكن الطاغي يفترق عن الظالم بأنك كلما أطعته يزداد ظلماً، لذلك المؤمنون يعبدون الله سبحانه وتعالى، والكافرون يعبدون الطواغيت.

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)

إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك.

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)

لأنك إذا كنت مع الله فمعك القوة المطلقة، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد.

فضل الجهاد في سبيل الله :

أيها الأخوة، أرى أن كل مؤمن عليه أن يبدأ بمجاهدة نفسه حتى ينتصر على شهواته ومصالحه غير المشروعة، فربما أعانه الله على أن ينتصر على عدوه، لكن بين الجهادين؛ بين جهاد النفس والهوى جهاد الأعداء الجهاد الدعوي، فإذا أمكنك أن تنشر هذا الدين بالطرق السلمية فهذا شيء جيد جداً، لأن الله عز وجل يقول:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان: 52]

حينما تبين هذا الكتاب الكريم، تبين أحكامه، وتبين أوامر الله عز وجل، وتبين ما عند الله من خير إذا أطعته، وما عنده من عقاب إذا عصيته، هذا أيضاً جهاد كبير، بنص القرآن الكريم. فلنبدأ بجهاد النفس والهوى، ثم لنثنِّ بالجهاد الدعوي:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت: 33]

حينما يتاح للمسلمين إن شاء الله تعالى أن تكون لهم الشوكة، وينتصرون على عدوهم ينبغي ألاّ يقصر أحد منا في هذا العمل الذي سماه النبي ذروة سنام الإسلام:

من لم يجاهد، ولم يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق.

أحياناً ندعو لمن يجاهد كما ندعو لأخوتنا في الأرض المحتلة، أحياناً تمدهم بالغذاء والمال، وهذا أيضاً نوع من الجهاد:

((مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ الله فقد غَزَا))

[متفق عليه عن زيد بن خالد]

((وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِي أَهْلِهِ فَقَدْ غَزَا))

[متفق عليه عن زيد بن خالد]

من دعا لغاز تقبل الله دعائه، فحسب الوضع؛ إما أن ندعو لهم بالنصر، أو نمدهم بالمال والمساعدات، أو نجهزهم بالمعدات، ثم ينبغي أن نجاهد أنفسنا وأهواءنا، لأن الأعداء يراهنون على علاقتنا بربنا، هم يحاربون بالفساد، وجدوا أن الفساد أهون من السلاح، بالقوة الناعمة، أي المرأة يحملوننا على أن نريد ما يريدون، كانوا من قبل بالقوة المسلحة يجبروننا على أن نفعل ما يريدون، الآن لا داعي، اصعد إلى جبل قاسيون، وألق نظرة على دمشق، ماذا يشغل الناس؟ تعرف الجواب.

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها :

أيها الأخوة، ينبغي أن نعود إلى الله عز وجل، أقول لكم كلاماً من القلب إلى القلب: إذا كنت مهزوماً أمام شهواتك وأمام مصالحك فلا يمكن أن تقابل نملة، أما إذا كنت منتصراً على مصالحك وشهواتك، وكنت ورباني عندئذ تستحق أن يتنزل عليك نصر الله عز وجل، فأنت بين الجهاد جهاد النفس والهوى وبين الجهاد الدعوي وبين الجهاد القتالي، أما حينما يجتاح العدو أرضنا فلا خيار لنا أبداً في الجهاد القتالي. فلنجهز أنفسنا بأن نجاهد أنفسنا وأهواءنا، ونجاهد الجهاد الكبير في نشر الحق بين الناس، يوجد أزمة علم، وأخلاق، وإيمان، أنت حينما تعزز قيم الإيمان، وقيم العلم، وقيم الأخلاق في المجتمع تكون قد أعنتهم على أنفسهم، وأنا حينما أدعو أقول: اللهم انصرنا على أنفسنا حتى نستحق أن تنصرنا على أعدائنا.

أيها الأخوة، هذا الإسلام دين عظيم، إذا حذفنا منه شيئاً ضعفنا، وإذا أضفنا عليه أشياء تفرقنا، فإن أضفت عليه أصبح الإسلام طوائف وشيعاً، وإن حذفت منه أصبحنا ضعافاً، فلا بد أن نأخذه كما جاء في أول الأمر، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها.

((إنَّ الإسْلامَ بَدَأَ غَريباً وَسَيَعُودُ غَريباً فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[سنن ابن ماجة عَنْ أَنَس بْن مَالِك]

كنت أقول سابقاً: هناك عقبات كبيرة جداً أمام الناس منها الشاشة، والمناهج العلمانية، في الجامعة يدرسون أن الإنسان جاء من القرد، وهذا خلاف الكتب السماوية، فالمناهج عقبة، والشاشة عقبة، والأسرة أحياناً عقبة، لأنها ألفت المعاصي والآثام، فإذا أراد الشاب أن يتوب إلى الله كانت العقبة من أهله أحياناً، فلا بد من إصلاح ذات البين، فاتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(36-69): تفسير الآية 77 ، أنواع الجهاد وخشية الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-11-01

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية السابعة والسبعين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

أيها الأخوة الكرام، لأن هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، ولأن الإنسان مخير، ولأنه أودعت فيه الشهوات، ولأنه أعطي منهجاً، هو مخير أودع فيه الشهوات ومعه منهج، فلو تحرك بدافع شهواته وفق المنهج فلا شيء عليه، وعم السلام العالم، لكن بعض الناس رفض المنهج واتبع الهوى، فصار عدواً حكماً لمن طبق المنهج واتبع الحق.

إذاً: هناك في الأرض نموذجان، إنسان عرف الله، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان غفل عن ربه، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، كنتيجة حكمية لجهله ولغفلته عن ربه ولإتباعه الهوى أساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة. لا بد أن تقوم معركة بين هؤلاء وبين هؤلاء، هذه المعركة قديمة قدم وجود البشر، ومستمرة مادام على سطح الأرض بشر، وهذا شيء طبيعي.

الإنسان حركي فكلما وصل إلى شيء يريد شيئاً أكبر :

لذلك أيها الأخوة، لو أن نبياً كريماً جاء بمنهج إلهي، ودعا الناس إليه فالذين استجابوا له مؤمنون به، خيرون، محسنون، منضبطون، مستقيمون، والذين رأوا أن هذا المنهج يقيد حريتهم، ويعيق ملذتهم، ويحد من نشاطهم الاستمتاعي في الحياة لا بد أن يكذبوا هذا النبي، والإنسان حركي، أي ديناميكي، بالتعبير المعاصر حركي، فكلما وصل إلى شيء يريد شيئاً أكبر، وكلما زلت قدمه في طريق تابع الزلل، وكلما سار في طريق الإيمان تابع سيره في طريق الإيمان، إذاً هذا تمهيد، لأنه لا بد من وجود معركة في الحياة الدنيا بين الحق والباطل، يقول الله عز وجل:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً* وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

[سورة الأحزاب]

وفي آية أخرى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

الجهاد القتالي إنما هو تمهيد للجهاد الدعوي :

لكن أيها الأخوة، إن أحكام القتال دقيقة جداً فلا بد أن يكون هناك تكافؤ نوعاً ما بين الفريقين، أما إذا كان أحد الفريقين صفراً والثاني مليوناً فهذا ليس قتالاً ولكنه انتحار، لذلك أمر القتال لا يشرع إلا عن أولي الأمر، المسلمون في مكة مُنعوا أن يقاتلوا، تقتضي الحكمة ألا يقاتلوا، يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

متى يقال لإنسان: كف يدك؟ إذا مد يده، مع أن الظلم الذي كان في مكة لا يحتمل، الظلم، والقهر، والقسوة، والمقاطعة، والإفقار، والإذلال شيء لا يحتمل، ومع ذلك لو سمح الله جلت حكمته بالقتال في مكة لكانت حرباً أهلية تأكل الأخضر واليابس، ففي البيت الواحد شباب مؤمنون وشباب غير مؤمنين، و لانتقلت المعركة من بيت إلى بيت، ومن حي إلى حي، لكن حكمة الله جل جلاله تقتضي في مكة منع أن تمد يدك إلى الكافر، أو أن تقاتله، أما في المدينة فحينما كان هناك كيان للمؤمنين وقوة وقيادة سُمح للنبي عليه الصلاة والسلام أن يقاتل الكفار والمشركين في المدينة، فلذلك أيها الأخوة، فيما أرى أن مشكلة المسلمين هذا الاندفاع غير المنضبط اندفاع عاطفي، فقد تندفع اندفاعاً عاطفياً من دون تطبيق لمنهج الله، ومن دون تخطيط فقد تسبب الويلات للمسلمين، لعل الاندفاع العشوائي العاطفي يسبب فرحاً من قبل المؤمنين، ولكن قد تكون عواقب هذا الاندفاع خطيرة جداً على مجموع المؤمنين، فليست العبرة بعمل فردي طارئ يعقبه ألم شديد، العبرة بهذا الشأن الخطير؛ أن نتبع منهج الله عز وجل، فالله عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

حينما يسمح الله لك تقدم، وإذا منع امتنع، لكن المشكلة اليوم أيها الأخوة طبيعة الحياة تسمح بجهاد دعوي، وحينما تتعمق في مفهوم الجهاد ترى أن الجهاد القتالي إنما هو تمهيد للجهاد الدعوي، فإذا كان الجهاد الدعوي متاحاً لنا جميعاً، ألم يقل عليه الصلاة والسلام:

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

لا نستطيع تحقيق الجهاد الدعوي إلا إذا تحقق جهاد النفس والهوى :

ألا تعتقد أن هؤلاء المسلمين الذين يعدون ثلث سكان الأرض هم في أمس الحاجة إلى أن يعرفوا الحقيقة، ذكرت لكم قبل أسبوعين فيما أذكر أن خطيباً من دمشق ذهب إلى بلد أوربي، وألقى خطبة في أكبر مسجد هناك، ولولا أنني سمعت القصة من فمه لشككت في القصة، اعتلى المنبر، وخطب خطبة رائعة جداً، بكى كل من في المسجد، ومن شدة تأثرهم بما ألقاه الخطيب أخذوا من جيوبهم زجاجات خمر فشربوا وهم يبكون، ألا ترى أن هؤلاء المؤمنين يحتاجون إلى توعية، يحتاجون إلى تعليم، الجهاد الدعوي سماه الله الجهاد الكبير.

(وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

مسموح لك أن تختار جامعاً تثق بخطيبه، وبعلمه، وباستقامته، وورعه، وإخلاصه، اختر جامعاً تظن بخطيبه هذا الظن الحسن، ثم استمع إلى خطبته بإتقان ووعي، ثم حاول أن تنقل هذا الذي سمعته إلى من حولك، إلى أهلك، إلى أولادك، إلى أصدقائك، إلى زملائك، إلى جيرانك، تكون قد ساهمت بتوسيع دوائر الحق وتضييق دوائر الباطل، فهذا الذي يتحرك لكي يقاتل نقول له: هل جاهدت نفسك جهاد النفس والهوى؟ لماذا حينما نذكر جهاد النفس والهوى لا نصغي إليه؟ هل تصدقون أنه مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تنهزم أمام نفسك، أن تنهزم أمام شهوتك، أن تنهزم أمام مصلحتك، مستحيل أن تواجه نملة بعد ذلك، هذه المشكلة، هذا الذي هزم أمام شهواته، أو هزم أمام مصالحه، أو أمام ملذاته، أو نزواته، أنى له أن يواجه عدواً؟! فلذلك أول جهاد يجب أن نندفع إليه جهاد النفس والهوى، وهذا جهاد متاح لكل مسلم في أي مكان وزمان، أول جهاد ينبغي أن نسارع إليه، وهذا لا يكلفنا إلا الصدق في طلب الحقيقة، فإذا استطعت أن تحمل نفسك على طاعة الله، أن تلزمها حدود الله، أن تقيم الإسلام في بيتك، أن تعتني بأولادك، أن تربي أولادك، أنا أتكلم الآن كحل واقعي لما يعاني منه المسلمون، أنا أتكلم الآن لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في هذا الظرف الراهن البالغ التعقيد، يستطيع كل مسلم أن يحمل نفسه على طاعة الله، ويحمل من حوله من زوجة، أو ولد، أو بنت، أو صديق، أو جار، أو زميل، هذا هو المطلوب الأول؛ جهاد النفس والهوى، والحديث الذي قاله عليه الصلاة والسلام وربما لا ينظر الناس إلى هذا الحديث على أنه الحل الأمثل، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؛ جهاد النفس والهوى، إن تحقق هذا الجهاد فينبغي أن تنتقل إلى مرحلة ثانية، إلى مرحلة الجهاد الدعوي، لأن الله عز وجل يقول:

(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

والله أيها الأخوة، أخ كريم لا يحسن أن يدعو إلى الله لا يحسن، لم يحصل من العلم ما يمكنه من أن يكون داعية، لكنه وزع بعض الأشرطة التي هو قانع بها، ومتأثر بها، فشكل دعوة وحده، وسائل الدعوة الآن ميسرة جداً، أن تنقل للإنسان فكرة سمعتها، أو كتيباً قرأته، أو شريطاً سمعته، أو ندوة حضرتها، يمكن أن تكون داعية، والدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، وحينما يتاح لنا إن شاء الله الجهاد القتالي نبادر إن شاء الله جل جلاله لكسر شوكة العدو، لكن قبل أن تحضر الدكتوراه خذ الشهادة الابتدائية أولاً، وقبل أن تتحدث عن موضوع الأطروحة التي ينبغي أن تعالجها خذ الشهادة الإعدادية أولاً، وقبل أن تفتخر أنك أخذت هذه الدكتوراه من جامعة تنتمي إلى دولة عظيمة، أو إلى دولة أخرى خذ الشهادة الثانوية، أما أن تتحدث عن الدكتوراه وعن الأطروحة التي ينبغي أن تعالجها، وعن الجامعة التي ينبغي أن تنتسب إليها، وعن اللقب الذي ينبغي أن تحمله، وأنت لا تزال أمياً، فهذا شيء مضحك، هناك مليون مرحلة، مليون عمل قبل أن تقول: أريد أن أجاهد جهاداً قتالياً، أنا لا أثبط العزائم، ولكنني أحب أن أكون واقعياً:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

لحكمة أرادها الله، ولحكمة مطلقة راجحة أرادها الله عز وجل منع المسلمين من القتال في مكة، وكلمة:

(كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

أي بعض المسلمين لا يحتملون، لا يحتملون القهر والضغط، مَدوا أيديهم، فلما مدوا أيديهم أو هموا بمد أيديهم جاءهم التوجيه القرآني:

(كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

الصحابة الكرام في مكة المكرمة نُهوا عن أن يقاتلوا :

ليست العبرة أن أعمل عملاً تعود تبعته على المسلمين ألف ضعف، ليس هذا هو العمل الطيب، أن أعمل عملاً يتحمل جميع المسلمين نتائج لا تحتمل، العبرة أن يكون العمل وفق منهج الله، والصحابة الكرام في مكة المكرمة نُهوا عن أن يقاتلوا:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

لم يقاتلوا، ماذا ينبغي أن يفعلوا؟ الإنسان حركي ما دامت قد كفت يده عن أن يقاتل فينبغي أن يقيم الصلاة، وأن يؤتي الزكاة، والحقيقة حينما تأتي الصلاة بديلاً للقتال، معنى ذلك أنها شيء عظيم، لأن المسلمين حينما فرَّغوا الصلاة من مضمونها، وحينما ظنوا أن الصلاة ركعتان تؤديان هكذا، أما حينما نفهم معنى الصلاة أن تستطيع أن تتصل بالله، أن تستطيع، ولن تستطيع أن تتصل بالله إلا إذا آمنت به، إلا إذا آمنت بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، إلا إذا آمنت أن الأمر كله بيده، إلا إذا آمنت ـ طبعاً لئلا يقول أحدكم: حينما نواجه العدو يجب أن تحرق المراحل، ليس هذا الكلام مطبقاً في كل بلد إسلامي، حينما يقتحم العدو علينا فلا بد أن نقاتله من دون أي مراحل تسبقه، هذا شيء مفروغ منه، أما في بلد لا نقاتل فيه الأولى أن نجاهد أنفسنا وأهواءنا أولاً، ثم أن نتبع الجهاد الدعوي ثانياً، وحينما يتاح للمسلمين أن يجاهدوا الجهاد القتالي يكرمهم الله جل جلاله بأعلى مراتب الإسلام، فالجهاد ذروة سنام الإسلام.

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي بشكل جريء من دون مجاملة، هذا الذي يأكل مالاً حراماً لا يستطيع أن يصلي الصلاة التي أمر الله بها، يصلي كما يصلي عامة الناس، بإمكانك بكل بساطة أن تتوضأ، وأن تصلي، وأن تقف في الصلاة، وتقرأ القرآن، وأن تركع، وأن تسجد، ولكن أن تصلي الصلاة التي أمرت بها، على النحو الذي ينبغي أن تكون هذا يحتاج إلى أن تعرف الله أولاً، وإلى أن تستقيم على أمره ثانياً.

المعنى الحقيقي لكلمة وأقيموا الصلاة :

كلمة:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي ينبغي أن تعرف أنك تصلي لمن؟ قد تكون الصلاة عادة من عوائد المسلمين، قد تكون الصلاة عملاً لا معنى له عند معظم المسلمين، ولكن حينما يقال لك:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي ينبغي أن تعرف لمن تصلي، ينبغي أن تعرف أن الذي تصلي له بيده مقاليد السماوات والأرض، ينبغي أن تعرف أن الذي تصلي له عنده مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ينبغي أن تعرف أن الذي تصلي له يعاقب بنار إلى أبد الآبدين:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي ينبغي أن تعرفوا الله وأن تطيعوا أمره، وأن تنتهوا عما عنه نهى، وأن تحكموا اتصالكم بالله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

من هنا ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

الدين بمجمله حركتان حركة نحو الخالق وحركة نحو المخلوق :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

إيتاء الزكاة دفع المال لمعاونة أخوانك المؤمنين، سمى الله الزكاة صدقة لأنها تؤكد صدق إيمانك، فلا بد من حركتين، حركة نحو الله، وحركة نحو الخلق، وكأن الدين بمجمله حركتان: حركة نحو الخالق، وحركة نحو المخلوق، حركة نحو الخالق عبادة، وحركة نحو المخلوق إحساناً:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

ثم يقول الله عز وجل:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ)

الآن كانوا يتحرقون على أن يقاتلوا، وكل شيء تتشوق إليه إذا كان بعيداً عنك، والتشوق سهل جداً، هؤلاء الذين أرادوا مد أيديهم، أرادوا القتال في مكة، وجاءهم توجيه الله عز وجل:

(كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

بدل أن تقاتلوا:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

أي طبقوا المنهج بحذافيره، وكونوا من أهل الإحسان.

على الإنسان أن يخشى الله أكثر من أي شيء آخر :

قال تعالى:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ)

لما جاء الأمر بالقتال لما سمح الله بالقتال، وقد أصبحوا في المدينة، ولهم كيان، ولهم قيادة، والأمل بالانتصار صار مقبولاً ومعقولاً:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً)

معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى رسم لنا في هذه الآية معالم شخصية، الشيء إذا كان بعيداً عنا هناك تشوق إليه، فإذا وصل إليه ابتعد، ما بال هؤلاء الذين يتشوقون إلى القتال وإلى الانتصار، وإلى مقاومة العدو لما قيل له: تعال تفضل، تعال قاتل إذًا:

(فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً)

وينبغي أن تخشى الله أكثر من أي شيء آخر.

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ)

[سورة التوبة: 13]

الله عز وجل هو الجهة الوحيدة التي بيدها كل شيء والتي ينبغي أن تخشاها :

الحقيقة الجهة التي تملك كل شيء هو الله عز وجل، يملك وجودك، يملك سمعك وبصرك، يملك حركتك، يملك عقلك، يملك ما حولك، يملك من حولك، يملك من فوقك، يملك من تحتك، فهذه الجهة التي بيدها كل شيء ينبغي أن تخشاها، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((فَوَ اللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً))

[البخاري عَنْ مَسْرُوق]

فكيف أيها الإنسان الذي كنت قبل حين تتشوق إلى القتال، وإلى مقارعة الكفار، لماذا ترى أن قوتهم لا تقابل، وأنك أضعف من أن تقف أمامهم، هذا نموذج، يتشوق إلى ما هو بعيد عنه، فإذا وصل إليه فر منه، هذا نموذج يتكلم كثيراً ولا يفعل شيئاً، يتشوق ولا يسعى، يقول ولا يفعل، يتمنى وليست همته بمستوى أمنياته:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ)

دققوا في هذا الحكم الموضوعي، لم يقل كلهم، قال:

(فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ)

الآن حينما يقول الله عز وجل:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 173]

الحقيقة الآن هناك قطب قوي جداً، بإمكانه رصد كل حركة في الأرض، وبإمكانه أن يقصف كل مكان في الأرض بأسلحة فتاكة لا نظير لها.

ثقة الإنسان المطلقة بالله تزيد إيمانه :

قال تعالى:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً)

[سورة آل عمران: 173]

زادهم إيماناً لأن الله فوقهم، زادهم إيماناً أنهم في قبضة الله، زادهم إيماناً أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، زادهم إيماناً أنه إليه يرجع الأمر كله، زادهم إيماناً أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، زادهم إيماناً أن الله له الخلق والأمر، زادهم إيماناً أنه ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، زادهم إيماناً أن الكفار حينما يعتقدون خطأً أنهم سبقوا، أي فعلوا شيئاً ما أراده الله، أو تفلتوا من عقاب الله هم واهمون.

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

[سورة الأنفال: 59]

زادهم إيماناً:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

[سورة آل عمران]

أي يخوفكم من أولياءه.

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

[سورة آل عمران: 175]

يستحيل أن يسلم الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين للأقوياء الظالمين :

أيها الأخوة الكرام، هذا هو القرآن، ونحن في امتحان، حينما يصدر تهديد من هذا القطب القوي لبلد من البلدان فأهل ذاك البلد بحسب إيمانهم، إن كان إيمانهم ضعيفاً:

(يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً)

وإذا كان إيمانهم قوياً يخشون الله، ويعدون للعدو ما استطاعوا من قوة، أما أن يسلم الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين للأقوياء الظالمين فهذا مستحيل، وألف ألف مستحيل أن يسلمك الله إلى عدوك؟ حر فيما يفعله معك، يقتل، ويهدم، ويبطش، والله عز وجل لا علاقة له بهذا؟!

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدً)

[سورة الكهف: 26]

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

[سورة آل عمران: 175]

أي يخوفكم بأوليائه:

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 175]

علامة الإيمان أن تخشى الله وعلامة النفاق أن تخشى الناس :

أيها الأخ الكريم، علامة إيمانك أن تخشى الله، وعلامة النفاق أن تخشى الناس ولا تخشى الله، أو أن تكون خشية الناس أشد من خشية الله، هذه علامة نفاق، فالمؤمن لا يخشى إلى الله، والمؤمن موقن أن الأمر بيد الله، وأن أحداً في الكون لا يستطيع أن يفعل شيئاً من دون إذن الله، وأن أمرك بيد الله ولا يسلمه لجهة أخرى، وأن الله حينما يسلمك لجهة أرضية عدوة ماكرة حقيرة منتقمة كيف تعبده، ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليه.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

إذاً:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ)

كأن هؤلاء الضعاف ما أحبوا أن تكتب عليهم هذه الفريضة، تمنوا أن يموتوا على فرشهم.

الحياة الدنيا التي يحرص عليها الناس متاعها قليل جداً :

سيدنا خالد يقول: خضت مئة معركة أو زهاءها، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح، وهاأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

(لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ)

أي نتمنى أن نموت على فرشنا، نتمنى لا أن نموت قتلاً، أن نموت موتاً طبيعياً، فالله سبحانه وتعالى أجابهم إجابة رائعة:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

هذه الحياة الدنيا التي تحرصون عليها متاعها إلى متاع الشهيد قليل جداً، لا شيء، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: 169]

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

هذا الذي تحرصون عليه عند الله قليل.

الله عز وجل عادل لا يظلم أحداً :

دقق في قوله تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

وفي قوله تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً* نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

[سورة الإنسان: 27 - 28]

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى)

لمن اتقى أن يعصي الله، لمن أعطاه، لمن آمن به، لمن أحبه، لمن أقبل عليه:

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

ما من شيء لا وزن له ولا قيمة له كالفتيل، خيط رفيع جداً بين فلقتي نواة التمرة:

(وَلَا تُظْلَمُونَ)

لا قيمة له.

ينبغي ألاّ تكون أفعال المسلمين ردود فعل غير مدروسة وعشوائية :

قال تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

أيها الأخوة، هذه آية دقيقة جداً، ينبغي ألاّ تكون أفعال المسلمين ردود فعل غير مدروسة وغير مخطط لها وعشوائية، وانطلاقاً من نزوة طائشة، من انفعال شديد، وقد يجر هذا الاندفاع والانفعال على المسلمين ويلات لا يعلمها إلا الله، فلا بد من تطبيق منهج الله.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننطلق جميعاً إلى مجاهدة النفس والهوى، الآن يسمونه التعليم الأساسي، هذه المرحلة الأساسية، فإن تمكنا من جهاد النفس والهوى، وعرفنا ربنا المعرفة الكافية التي تحملنا على طاعته فلننتقل إلى الجهاد الدعوي، وهذا الجهاد الدعوي سماه الله جهاداً كبيراً، فإذا أتيح لنا، ونرجو الله أن يتاح لنا الجهاد القتالي بادرنا إلى كسر شوكة عدونا.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(37-69): تفسير الآيتان 78-79 ، إرادة الله المطلقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-11-08

بسم الله الرحمن الرحيم

الخوف من القتال في حقيقته هو خوف من الموت :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثامنة والسبعين، وهي قوله تعالى:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمْ الْمَوْتُ)

ما علاقة الآية بالتي قبلها؟ يقول الله عز وجل:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

خوفهم من القتال في حقيقته هو خوف من الموت، إذاً هم يحرصون على الحياة، فالله في الآية السابقة أنبأهم أن الحياة قصيرة، قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

الحياة مصممة عند الله أن تنتهي بالمؤمن إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أما حينما لا يعرف الإنسان الله ولا يطيعه تنتهي حياته إلى عذاب النار وبئس المصير، فليست العبرة أن أحيا سنوات عدة، العبرة أن تنتهي حياتي إلى الجنة، لذلك من أجمل الأدعية: اللهم اجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة.

كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت :

يقول الله عز وجل:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ)

اعتراضاً:

(لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ)

أي نموت على فراشنا:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً*أَيْنَمَا تَكُونُوا)

لو أنكم لم تقاتلوا، لو أنكم استنكفتم عن أن تقاتلوا وعشتم فلا بد من الموت، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر:

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامت ه يوماً على آلة حدبـاء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنــازةً فاعلــم أنك بعدها محمول

* * *

بوابات الخروج من الدنيا لا تعد ولا تحصى وكل من عليها فان :

قال تعالى:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا)

في أي مكان كنتم، في حصن، في قلعة، في غنى فاحش، في قوة كبيرة، في مركز كبير، في قمة مجتمع:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا)

في أي مكان كنتم، في مكان آمن أم في مكان خطر، في بر أو في بحر، في جو أو في يابسة، في راحة أو في غير راحة، مع مرض أو بغير مرض، يضاف إلى هذا المعنى وفي أي مكانة كنتم، فسبحان من قهر العباد بالموت، وسبحان من قهر الجبابرة بالموت.

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمْ الْمَوْتُ)

أنت تفرُّ منه وهو يدركك، بل إن الموت قد يفاجئك وأنت هارب منه، وأنت تتصور أنه يتبعك فتفاجأ أنه أمامك، كيف؟ إنسان مريض، كل توقعاته أن يموت بهذا المرض، قد يكون المرض عضالاً، فيفاجأ أن الموت جاء بغير المرض العضال، قد يكون بحادث، قد يكون بهدم أو بحريق، فالموت يدرك، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

[سورة الجمعة: 8]

بدل أن تتوقعوه وراء ظهوركم يتبعكم، وقد تفاجؤون أنه أمامكم، وبوابات الخروج من الدنيا لا تعد ولا تحصى، قد يموت الإنسان في ثانية، ولا يشكو شيئاً، وقد يموت بعد مرض عضال دام ثلاثين عاماً، ليس هناك قاعدة، القاعدة أنه ليس هناك قاعدة، الموت يأخذ الكبير والصغير، والصحيح والسقيم، والغني والفقير، والذكي والأحمق، ومن كان في منصب رفيع ومن كان في منصب وضيع، يأخذ الناس جميعاً، كل من عليها فان:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمْ الْمَوْتُ)

الموت واعظ وكل الذي يُحصلّه الإنسان يخسره في ثانية واحدة :

لذلك قيل:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تمنـــعت بالحجاب والحرس

فما تزال سهام الموت نافــذةً فـي جنب مدرع منها ومتـرس

أراك لست بوقاف ولا حـــذر كالحاطب الخابط الأعواد في الغلـس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكـها إن السفينة لا تجري على اليبــس

* * *

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

[سورة الجمعة: 8]

أخ كريم أحسن الظن به أصيب بمرض عضال، وأجرى عملية معقدةً جداً، ونسبة نجاح العملية أقلُّ من عشرين بالمئة، ونجا في هذه العملية الجراحية العويصة، حين اتصل بي ولده وقال: والدي توفي رحمه الله، أنا ظننت أنه مات بالمرض الذي أصابه، ثم فوجئت أنه مات بحادث، هو يتوقع أن يموت بهذا المرض، وكل من بلغه نبأ الوفاة متوقع أن يموت بهذا المرض، ثم مات بحادث:

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

[سورة الجمعة: 8]

فالموت له أبواب لا تعد ولا تحصى، العلم اخترع أسماء متعددة، سكتة دماغية، سكتة قلبية، هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، تشمع في الكبد، هذه أسماء أمراض وبيلة، إنها في حقيقتها بوابة الخروج، فالإنسان لا بد أن يخرج، وأنا أقول لكم هذه الكلمة، وأنصح بها نفسي: مستحيل وألف ألف مستحيل أن تستيقظ كل يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله، فلا بد من يوم ترى شيئاً لم يكن من قبل في الجسد، إن باب الخروج يتفاقم إلى أن ينتهي بالنعي، لذلك ما من شيء يعظ الإنسان كالموت، لم أرَ كالموت واعظاً يا عمر، الموت واعظ، وكل الذي يحصله الإنسان يخسره في ثانية واحدة.

الله عز وجل يطمئن المؤمنين في كتابه العزيز :

أيها الأخوة، أنا لست متشائماً، من كان مؤمناً بالله الإيمان الصحيح، وله عمل طيب، وقد ضبط حواسه وجوارحه وفق منهج الله وعمل الصالحات هذا تغطيه الآية الكريمة:

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 62]

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل لنا نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة، والله عز وجل يطمئن المؤمنين فيقول:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

ما كتب الله لنا لا علينا تفيد الخيرات.

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمْ الْمَوْتُ)

قصص الموت عجيبة جداً، قد ينام إنسان فلا يستيقظ، قد يموت وهو ساجد، وقد يموت وهو يرتكب معصيةً، وقد يموت في بيته، وقد يموت بعيداً عن بيته، وقد يموت فلا يعلم به أحد، حتى تكشف موته رائحة جسمه، وقد يموت بين أهله وأحبابه، لكن الأثر ورد أن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

في الآية إشارة إلى موضوع القضاء والقدر :

أحياناً يتقي الإنسان أن يقتل فتأتيه أسباب القتل من الداخل، لو أنه تحصن بحصن منيع يأتيه ملك الموت، ملك الموت يتخطى كل الحصون، ويتخطى كل السدود.

قصة رمزية لرجل كان في حضرة نبي الله سليمان، وكان عند سليمان ملك الموت، فصار ملك الموت يحد النظر برجل في مجلسه، فهذا الذي رأى ملك الموت يحد النظر فيه سأل سليمان أن يأخذه إلى طرف الدنيا الآخر ـ قصة رمزية ـ على بساط الريح، فنقله إلى الهند، فتوفي هناك، فلما سأل هذا النبي الكريم ملك الموت: عجبت لك لما كنت تحدق فيه، قال: عجبت، أنا معي أمر بقبض روحه في الهند، فما الذي جاء به إليك.

ملك الموت جاهز، يتجاوز الحصون والقلاع والسدود، يتجاوز كل حاجز، كيف أن الإنسان يموت بطلقة من الخارج، قد يموت بطلقة من الداخل، هذه الطلقة من الداخل تتجاوز كل الحصون والقلاع:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تمنـــعت بالحجاب والحرس

فما تزال سهام الموت نافــذةً فــي جنب مدرع منها ومتــرس

أراك لست بوقاف ولا حـــذر كالحاطب الخابط الأعواد في الغرس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكـها إن السفينة لا تجري على اليبــس

* * *

الحقيقة خوف القتال هو خوف من الموت ورغبة في الحياة، هذا الأمر يسوق إلى موضوع القضاء والقدر، وقد عولج هذا الموضوع في هذه الآية بطريقة رائعة، يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

كلام جيد كلمة حق.

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ)

أنت السبب، فرد الله عليهم بقوله:

(قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

أول حقيقة في القضاء والقدر أن كل شيء يقع في ملك الله هو بإرادة الله وبفعله :

أول حقيقة في القضاء والقدر أن ما من شيء يقع في ملك الله إلا بإرادة الله، وبفعل الله، فالذي وقعَ وقع بإرادة الله، والذي وقعَ وقع بفعل الله، والإنسان ضعيف لا يملك حولاً ولا طولاً، لكن لماذا وقع الذي وقع؟ الذي وقع له أسباب، فمثلاً حينما يرسب طالب في صفه من الذي وقع قرار الرسوب؟ المدير، من الذي أمر بالرسوب؟ المدير، من الذي أدخل في السجلات أنه طالب راسب؟ المدير، لماذا رسب هذا الطالب؟ من حيث الفعل هو فعل المدير، ومن حيث السبب هو من الطالب، بسبب تقصيره وكسله رسب في صفه، فالفعل إذا نظرت إليه من زاوية الخلق فهو من عند الله، وإن نظرت إليه من زاوية السبب فهو من عند الإنسان، فإذا قلنا: إن إدارة المدرسة قررت رسوب هذا الطالب من حيث الفعل، ثم إذا قلت: إن هذا الطالب رسب لأنه كسول فهذا صحيح أيضاً، وقد ذكرت مرة الفاعل، ومرةً ذكرت السبب، أي شيء يقع في الكون من حيث الفعل فهو من عند الله، أما كل شيء يقع في الكون من حيث السبب فهو من عند الإنسان.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يا عِبَادِي..مَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي عن أبي ذر]

قالوا: الجنة محض فضل والنار محض عدل، فلو أن طالباً وعده والده بمكافأة ثمينة جداً إذا هو نجح، الآن نجح، فهل يكفي نجاحه لأن ينال هذه الهدية الثمينة؟ لا، لولا أن الأب دفع ثمنها ونفذ وعده لما نالها، إذاً نجاحه ليس سبباً كافياً لنيل هذه الهدية، فكرة دقيقة، أب وعد ابنه بدراجة غالية جداً إذا هو نجح، فحينما نجح الابن وأخذ النتيجة توجه مباشرةً إلى بائع الدراجات، وقال له: أعطني هذه الدراجة، وهذه النتيجة، لا يعطيه، الخير هو فضل من الله، ولا بد من أن يدفع الأب ثمن هذه الدراجة وينفذ وعده، لكن نجاح الابن وحده غير كافٍ لامتلاك الدراجة، أما حينما ينزل عقاب بإنسان فيكون الإنسان هو السبب فقط، لولا أنه فعل هذه المعصية لما نال هذا العقاب، لذلك مطلق العقاب هو النار، ومطلق الثواب هو الجنة، فالجنة محض فضل، والنار محض عدل.

كل أعمال المؤمن الصالحة في الدنيا هي سبب لدخول الجنة وليست ثمناً لها :

لو وهبك إنسان بيتاً في أرقى أحياء دمشق، وثمنه خمسون مليوناً، وكلفك أن تدفع ثمن المفتاح، أنت ماذا دفعت ثمناً؟ هل دفعت ثمنه؟ لا، دفعت سببه، دفعت قيمة سبب دخوله، لذلك المؤمن كل

أعماله الصالحة في الدنيا هي سبب لدخول الجنة وليست ثمناً لها، والفرق كبير بين أن تشتري مفتاحاً بعشرين ليرة تدخل به بيتاً ثمنه خمسون مليوناً، وبين أن تدفع الخمسين مليوناً.

نحن كل أملنا في الدنيا أن ندفع ثمن سبب دخول الجنة، بينما ثمن الجنة لا يملكها أحد، لذلك الجنة محض فضل من الله عز وجل، أنت مستقيم، متعك الله بصحة جيدة، وهبك ذرية صالحة، أعطاك ملكات عالية، أعطاك رزقاً وفيراً، هل إمكاناتك وحدها سبب كاف لما أنت عليه؟ لا، ما أنت عليه بفضل الله عز وجل، وبتقدير الله، وبعطاء الله، وبكرم الله، المشكلة أنك حتى لو تفوقت في عملك، في ملكاتك هذه ليست سبباً كافياً لما أنت فيه، إنما هي سبب وسيط، وليست ثمناً لما أنت فيه، هذا معنى الحديث المروي عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَداً الْجَنَّةَ عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ))

[البخاري، مسلم، النسائي أبو داود، ابن ماجه، أحمد، مالك عن عائشة]

فالجنة برحمة الله، ادخلوها برحمتي، واقتسموها بأعمالكم، العمل سبب دخول الجنة، وفضل الله ثمن الجنة، لذلك ما معنى الآية:

(خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ)

[سورة الأنعام: 128]

المعنى أن ثمة احتمال أن نخرج منها، ما معنى الآية؟

(خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ)

[سورة الأنعام: 128]

العلماء قالوا: معنى هذه الآية إنك إن اشتريت بيتاً، ودفعت ثمنه بالتمام والكمال، وبسعره الحقيقي، وما أنقص لك صاحبه درهماً، فحينما تتملك البيت، وقد دفعت ثمنه كاملاً هل تشعر أن هذا الذي باعك البيت له فضل عليك؟ لا، قبض الثمن بالتمام والكمال، وقبض أعلى ثمن، أما حينما تدفع ثمن مفتاحه فقط، والبيت ثمنه خمسون مليوناً كلما رأيته بالطريق تذوب شكراً له.

الجنة محض فضل والنار محض عدل :

الجنة لا يمكن أن ندفع ثمنها لكن يمكن أن نقدم سبب دخولها، استقامتنا إن شاء الله والأعمال الصالحة هي سبب دخول الجنة، هذا معنى قول الله عز وجل في الآثار القدسية: ادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم. أصل الدخول برحمة الله، أما مكانك في الجنة فبحسب عملك، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَنْ يُدْخِلَ أحَداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قالُوا: وَلَا أنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قالَ: لَا وَلَا أنَا، إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أحَدُكُمْ الْمَوْتَ، إمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ أنْ يَزْدَادَ خَيْراً، وَإمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أنْ يَسْتَعْتِبَ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فالجنة محض فضل، والنار محض عدل، إذاً قال تعالى:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

إن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك هذا فهم مغلوط:

(قُلْ كُلٌّ)

كل شيء وقع من عند الله حدوثاً إيقاعاً خلقاً:

(قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

أما سبب الوقوع فمن عند أنفسكم.

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً)

الآن التفصيل من زاوية الفعل، قل كل من عند الله من زاوية السبب، ما أصابك من حسنة فمن الله، لو نجحت أيها الطالب وقد وعدك أبوك بدراجة لو لم يدفع أبوك ثمنها لا تتملكها، فهذه الدراجة تملكتها بثمن دفعته أنت؟ لا، تملكتها بنجاحك بالامتحان، وقد وعد أبوك الذي ينجح بهذه الدراجة، فالقضية واضحة تماماً.

أروع ما في الإيمان التوحيد وأروع ما في التوحيد أنك لا تحقد على أحد :

قال تعالى:

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)

عَنْ أبي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أدْخِلَ

الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

أروع ما في الإيمان التوحيد، وأروع ما في التوحيد أنك لا تحقد على أحد، وفي كل مشكلة تعاني منها ترد الكرة إلى ملعبك، لا يعقل، ولا يقبل أن يحقد إنسان على العصا التي ضرب بها، هذه أداة، قطعة من الخشب، ينبغي أن تحقد إن كنت حاقداً على من ضربك بها، ومن حقد على العصا فهو متهم في عقله، لو ضربت إنساناً، وأمسك هذه العصا، وبدأ يكسرها، ويشتمها، فهو أحمق، ينبغي أن تشتم الذي ضربك بها.

المكارم والعطاءات هي فضل من الله بسبب استحقاقنا لها :

إذاً الأداة لا علاقة لها بالنتيجة، من الذي أمسك هذه الأداة؟ إذا اعتقدت اعتقاداً جازماً أن الطغاة في الأرض عصي بيد الله، وأن هؤلاء الطغاة تسلطوا على بعض المؤمنين لخلل في إيمانهم، ولضعف في استقامتهم، وقد ورد في الأثر القدسي: أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم.

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

لو كنت مستقيماً فإكرام المستقيم فضل من الله عز وجل، لو كنت منضبطاً فإكرام المنضبط فضل من الله، وانضباطك ليس سبباً منطقياً لما أنت فيه من إكرام، فما أنت فيه من إكرام إنما هو فضل من الله، لكن الأمر الآخر ليس كذلك.

(وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)

الله غني عن تعذيبنا، لا يقبل، ولا يعقل أن نعذب بلا سبب، بدليل قول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

المصائب غير المكارم، المكارم والعطاءات هي فضل من الله بسبب استحقاقك لها، كلام دقيق، العطاءات من الله عز وجل هي عطاءات منه، لكنه منحك إياها بسبب استحقاقك إياها استحقاقاً عبادياً لا استحقاقاً مادياً، بينما المصائب هي بسبب من الإنسان فقط.

أي شيء تراه أعيننا هو من فعل الله خلقاً ومن الإنسان سبباً :

قال تعالى:

(وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

أخواننا الكرام، حينما تفهم هذه الآية تنتهي علاقتك بالخلق، وتبدأ علاقتك مع الحق، هؤلاء البشر أمامي كلهم دمى بيد الله، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

إذاً ألزم الله ذاته العلية بالاستقامة:

((... يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي...))

[مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

هذه الآية في سورة النساء أصل في مفهوم القضاء والقدر، وكل ما وقع أراده الله، بمعنى سمح به، وكل شيء أراده الله وقع، لأن الله فعال لما يريد، فأي شيء تراه عينك هو من فعل الله خلقاً، ومن الإنسان سبباً.

مطلق العطاء الجنة ومطلق العقاب النار :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي..مَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

[ابن عساكر عن البراء]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

هذا المعنى مريح يلغي الحقد، ويلغي الاعتراض، علاقتك مع نفسك، علاقتك مع ربك، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، دائماً راجع نفسك، دائماً اتهم نفسك، فقد كان بعض الصالحين يقول: أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، إذا كنت مع الله محكم الصلة، وقافاً عند كتاب الله، غاضاً للبصر يلهم الله هذه الزوجة أن تكون مطيعةً لك، محبةً لك، تراها بعينك جميلة، ولا تتمنى غيرها، أما إذا كان هناك من معصية متعلقة بالمرأة، ولو أن

زوجتك كانت جميلة فلا تراها كذلك، لو أنها وديعة تبدو لك قاسية ومتغطرسة، فأعرف مقامي عند ربي من مقام زوجتي، هكذا قال بعض العارفين، طبعاً لا يعني هذا أن كل إنسان يعاني من متاعب عنده مشكلة مع الله، قد يكون الله جعلها عنده ليستفيد منها.

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)

ذكرت أن مطلق العطاء وهو الجنة محض فضل وأن مطلق العقاب وهي النار محض عدل.

(وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

هاتان الآيتان هما أصل في القضاء والقدر، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

الحقد مدمر :

أيها الأخوة، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، وكنت أقول دائماً: إن العبرة في تفسير الحدث، قصة وقعت قبل ثلاثين عاماً فيما أذكر؛ أن موظفاً عند تاجر شكاه إلى بعض الجهات المسؤولة، فرتبوا عليه مصالحةً بمبلغ يفوق حد الخيال، حقد هذا التاجر على هذا الموظف فأطلق عليه النار فأرداه قتيلاً، فحكم ثلاثين عاماً في السجن، تحليل هذه القصة لو أن هذا التاجر كان موحداً لم يرَ هذا الفعل جاءه من هذا الموظف، بل يراه من الله، فيعيد أوراقه مع الله، ويفتح مع الله صفحةً جديدة، وقد يعوض الله عليه، أما حينما لا ترى أن الله فعال ترى الناس يفعلون ما يشاءون عندئذ ينشأ الحقد، والحقيقة الحقد مدمر، لأنك ترى إنساناً أقوى منك، ويملك أمرك، وأنت في قبضته، ولا يحبك، ويريد تدميرك، والله هذه الأفكار وحدها تسحق، أما حينما ترى أن الله بيده كل شيء، وأن الله عز وجل لا يسلمك إلى أحد، ولا يكل أمرك إلى أحد، ولو أنه أسلمك إلى أحد من خلقه لا يستحق أن تعبده، وأن الأمر كله بيد الله، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

ينتهي الحقد، لذلك قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس38-69): تفسير الآيات 80-83، طاعة الرسول والنهي عن الإشاعات الكاذبة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-11-15

بسم الله الرحمن الرحيم

طاعة رسول الله عين طاعة الله :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثمانين، وهي قوله تعالى:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)

أيها الأخوة الكرام، طاعة رسول الله طاعة حكمية لله، طاعة رسول الله عين طاعة الله، وطاعة الله عز وجل تقتضي طاعة رسول الله، لقول الله عز وجل:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

الذي يفرق بين طاعة الله وطاعة رسول الله ويهمل الثانية فقد أتى أمراً عظيماً لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

كلّ كلام النبي وحي يوحى لذلك طاعته من طاعة الله :

في القرآن كليات، أما التفصيلات ففي السنة، فالنبي عليه الصلاة والسلام يطاع استقلالاً، أما أولو الأمر الذين هم العلماء أو الأمراء فلا يطاعون إلا طاعةً تبعيةً لرسول الله، فإذا جاؤوا بأمر لم يأتِ به النبي فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، بينما النبي عليه الصلاة والسلام لأن الله عصمه، ولأن كل كلامه وحي يوحى لذلك طاعته من طاعة الله، وطاعته عين طاعة الله قال تعالى:

(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)

أنت لست مكلفاً أن تحصي عليهم أخطاءهم كما يفعل بعضهم الآن، أنت يا محمد، وأنت سيد الخلق، وأنت سيد الأنبياء والمرسلين لست مكلفاً أن تحصي على الناس أخطاءهم، أنت داعية، ولست وصياً عليهم:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

[سورة الأنعام: 107]

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

[سورة ق: 45]

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

[سورة الأنعام: 104]

هم مخيرون، مهمتك تنتهي بدعوتهم إلى الله.

ما كلف الله عز وجل الإنسان ديناً مع الإكراه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

[سورة النور: 54]

إذا كان سيد الخلق تنتهي مهمته في التبليغ فلماذا تنصب نفسك وصياً على المسلمين، وتكفر من تشاء، وتبدع من تشاء، وتتهم من تشاء؟ وما كلف الله عز وجل الإنسان ديناً مع الإكراه، قال تعالى:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

يخاطب نبيه ورسوله، يخاطب سيد الخلق، يخاطب الذي أوتي المعجزات، أوتي القرآن يقول له:

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

[سورة الأنعام: 104]

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

[سورة الغاشية: 21-22]

ما أنت عليهم بمسيطر، ما أنت عليهم بحفيظ، ما أنت عليهم بوكيل:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

[سورة ق: 45]

الله عز وجل ما أجبر عباده على طاعته بل خيَّرهم فالإنسان مخير :

المعنى دقيق جداً، عود نفسك أن تبين، دع الإنسان يتخذ القرار، عليك أن تبين، وأن توضح، وأن تذكر الحكمة، تذكر مضار المعاصي والآثام، منافع الطاعات، هنا مجالك أيها الداعية، بيِّن، واشرح، وتعمق، وحلل، وفسر، وأوّل دون أن تجبر، فإن الله عز وجل ما أجبر عباده على طاعته

بل خيّرهم، فالإنسان مخير. ومن يطع الرسول فقد أطاع الله حكماً، بل إن من لوازم طاعة الله طاعة رسوله، بل إن طاعة رسوله عين طاعة الله، لكن من دون أن تجبر.

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)

لا تجبرهم، لا تكن وصياً عليهم، لا توزع عليهم ألقاب الكفر والشرك والفجور، فإن الله يتولى أمرهم، أنت تبلغ والله يحاسب، أنت تبلغ والله يقيّم، أنت تبلغ والله يعلم الطائع مِن العاصي؟

الآن هؤلاء المنافقون الذين جاء الحديث عنهم في سياق الآيات، قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ)

تحدثهم عن أمور الدين، عن منهيات الدين، عن أوامر الله عز وجل يجلسون ويستمعون ويقولون: طاعة، أيْ شأننا مع هذا الكلام الطاعة، شأننا وحالنا مع دعوتك وبيانك طاعة، شأننا الطاعة.

للمنافق وجهان :

قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ)

لو قلنا: ويقولون طاعةً ـ بالنصب ـ فلها وجه في اللغة، أي نطيعك طاعةً أما يقولون طاعةٌ ـ بالرفع ـ أبلغ طبعاً، الفعل يدل على الحدوث، أما التركيب الاسمي فيدل على الثبوت، شأننا مع ما تقول طاعةٌ، تقول: دخل، الدخول يتم وينتهي، لكن فلان طويل القامة، هذا التركيب اسمي، فالتركيب الاسمي يدل على الثبوت والاستمرار، بينما التركيب الفعلي فيدل على الحدوث والانقطاع، وفي اللغة لك أن تقول: ويقولون طاعةً، أي نطيعك طاعةً، لكن الآية جاءت:

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ)

أي شأننا مع ما تقول طاعة. المنافق ذكي، والمنافق أساساً له وجهان:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

[سورة البقرة: 14]

قال:

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ)

معنى بيّت تآمر، والإنسان حينما يكون في بيته في الأعم الأغلب في الليل وقت راحته يفكر، ويخطط، ويتآمر، ويدبر، فبيَّت هنا بمعنى تآمر.

ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً :

قال تعالى:

(فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ)

غير الذي تقول لك في حضرتك، تقول لك في حضرتك: طاعة، نحن مطيعون لك، أما إذا برزوا من عندك، أي خرجوا من عندك، ودخلوا بيوتهم، وخلوا إلى أنفسهم بيّتوا كلاماً وموقفاً غير الذي قالوه لك، فيا محمد ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً.

(وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ)

سجل عليهم ما يبيتون، وما يبيتون في علم الله.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

[سورة إبراهيم: 46]

مسجل، تصور أن فئةً أرادت أن تتآمر، فكتبت، وخططت، وأعطت المناصب، وهيأت، فإذا نسخة من هذا الذي كتب عند القوي، وسوف يقطع رؤوسهم.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

[سورة إبراهيم: 46]

مكرهم سجل عليهم، وصف رائع:

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ)

تحدثهم عن الله، تحدثهم عن الدين، تحدثهم عن طاعة الله، تحدثهم عن الحلال والحرام، يقولون: شأننا مع ما تقول هو الطاعة، فإذا برزوا من عندك، أي خرجوا من عندك، ودخلوا بيوتهم، ولقوا الذين كفروا بيَّت طائفة منهم غير الذي تقول، تداولوا واستقر رأيهم على موقف ليس فيه طاعة بل فيه معصية، على موقف فيه إنكار وتكذيب.

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان :

قال تعالى:

(بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ)

لك في حضرتك يا محمد.

(وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ)

لذلك لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه خير له من أن يسقط من عين الله، حينما يخلو الإنسان بنفسه ينبغي أن يعلم أن الله معه، وأن كل خططه الجهنمية في علم الله، والله مطلع عليه، وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، قال تعالى:

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)

لا تعبأ بهم، فما ضر السحاب نبح الكلاب، وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام حجراً، أعرض عنهم، ولا تعبأ بهم، لا تهتم بهم.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

فيما يبيتون لك، هم أرضوك بلسانهم، أما لما خلوا بأنفسهم تآمروا عليك، لكن الله عز وجل يعلم كل خططهم:

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

إذا توكلت على الله كفاك به وكيلاً فهو القوة المطلقة في الكون :

إذا كان الله مع الإنسان فمن عليه؟ وإذا كان عليه فمن معه؟ الله جل جلاله الذات الكاملة، القوة المطلقة، فتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً، ولو أسقطنا هذه الآية على واقع المسلمين المسلم يرى أن أعداءه يتمتعون بقوة لا توصف، وأنهم بقوتهم هذه أملوا إرادتهم، وعولمتهم، وإباحيتهم، وجريمتهم على كل الشعوب، فبالمنظور الأرضي لا نستطيع مواجهتهم لكن الله يقول:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

من التوكل أن تعد لهم ما تستطيع من قوة والله يتولى الباقي، ومن التوكل أن تعد لهم ما تستطيع من قوة:

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

إذا توكلت على الله كفاك به وكيلاً، فهو القوة المطلقة في الكون، وللتقريب لو أن عدوين بينهما جدار عظيم، هذا يتآمر على هذا، وهذا يتآمر على هذا، لو أن أحد الفريقين مؤمن والله معه فكل ما يتآمر به الطرف الآخر بعلم الله، والله مع المؤمنين، إذاً الله عز وجل يلهم المؤمنين خططاً تحبط تآمرهم، تفسير لطيف: من توكل على الله كفاه، لأن الله عز وجل قدرته مطلقة، ويستنبط من قدرته المطلقة أن الخيارات مطلقة، لو أن عدوك يتمتع بقوة لا توصف يمكن أن يلقي في قلبك الرعب، قال تعالى:

(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

[سورة الحشر: 2]

يمكن أن تنتصر على العدو بإلقاء الرعب في قلبه، ولهذا أمثلة في التاريخ كثيرة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

لكن أمته حينما عصت ربها، ولم تطبق منهج نبيها هُزمت بالرعب مسيرة عام، أي تهديد من وحيد القرن تنقطع له الرقاب، لأنهم ليسوا على ما يريد الله عز وجل، ثم يقول الله عز وجل:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً)

والله أعلم.

معنى التدبر :

التدبر شيء، والفهم شيء، والتلاوة شيء، والعمل به شيء، فالقرآن منهج الله ينبغي أن تتلوه تلاوةً صحيحة، وينبغي أن تتلوه إن كان مجوداً، أن تعطي الحروف مخارجها، والمواقف أحكامها، وفضلاً عن تلاوته تلاوةً صحيحة، ثم تلاوته مجوداً وفق أحكام التجويد ينبغي أن تفهمه، وفضلاً عن فهمه ينبغي أن تتدبره، والتدبر أن تسأل نفسك دائماً: أين أنا من هذه الآية؟ يقول الله عز وجل:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الذاريات: 17-18]

أين أنت من هذه الآية؟ الله عز وجل يقول:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

أين أنت من هذه الآية؟ الله عز وجل يقول:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

[سورة البقرة: 83]

أين أنت من هذه الآية، والله عز وجل يقول:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة آل عمران: 134]

أين أنت من هذه الآية؟ التدبر أن تحاول أن تعلم ماذا انتفعت من هذا الكتاب، وما الذي قصرت فيه، أن تعرض نفسك على كتاب الله.

لو كان هذا الكتاب من عند غير الله لاختلف الوعد عن الواقع :

قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)

[سورة محمد: 24]

لو قال لك أحد من الناس: على كتفك عقرب شائنة، فابتسمت وشكرته على هذه الملاحظة اللطيفة، وبقيت هادئاً معنى ذلك أنك لم تتدبر كلامه إطلاقاً، على كتفك عقرب شائنة، ولدغة العقرب قاتلة، وقال: على كتفك عقرب، وتبقى واقفاً، وتبقى هادئاً، وتبقى مبتسماً، وتجامله، وتقول: شكراً لك على هذه الملاحظة، لو تدبرت معنى ما قال لقفزت من توّك، ونفضت ثوبك، التدبر أن تضع نفسك على مقاييس القرآن، أن تسأل نفسك: أين أنا من هذا الذي أقرأه؟

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً)

الحقيقة لأن الله عز وجل يعلم الغيب، فإذا قال:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة الروم: 2-4]

الله عز وجل لأن الأمر بيده، ولأن النصر بيده، الذي وعد به تحقق، لو كان الذي وعد بهذا النصر عبد ضعيف لا يتحقق الوعد، يكون هناك اختلاف بين الوعد وبين وقوعه، الله عز وجل وعد المؤمن بحياة طيبة، والحياة الطيبة من فعل الله، فلو كان هذا الكتاب من عند غير الله لاختلف الوعد عن الواقع، كلام دقيق، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

لو أن هذا القرآن من عند غير الله، إنسان ووعدك بحياة طيبة، لكنه ضعيف، لم يستطع إنجاز وعده.

إذاً هناك اختلاف بين وعده وبين تنفيذ وعده، لو كان من عند غير الله فغير الله لا يستطيع أن يفعل ما يريد، والله وحده فعال لما يريد لكن ما سواه ليس فعالاً لما يريد، فلو وعدك من ليس فعالاً لما يريد ربما لا يقع هذا الإنجاز، إذاً لوجدت اختلافاً بين الوعد وبين تحقيق الوعد:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً)

وعد المؤمن بحياة طيبة، والحياة الطيبة من فعل الله، فلو آمنت كما ينبغي لكنت في حياة طيبة، لأن الذي وعد هو إله ضامن وقادر، أما لو كان من عند غير الله قد يعدك ولا يحقق وعده، ولكان هناك اختلاف كبير بين الوعد وتحقيقه.

الإشاعة الكاذبة تفعل فعل السلاح المدمر :

الآن هناك آية من أدق الآيات الاجتماعية، هؤلاء المنافقون إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف، أي جاءهم خبر، تناقلوا خبراً متعلقاً بما يوجب الأمن، أو ما يوجب الخوف، من صفات المنافقين أنهم يذيعونه ويبالغون، وفي إذاعة هذه الإشاعة خطر كبير، فقد تكون كاذبة، وقد تكون مبالغ بها، وقد تكون لا أصل لها إطلاقاً، لذلك عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم وأبو داود عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم وأبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وهذه صفة المنافقين، يسمع خبراً ليس متأكداً من مصدره، ولا من صحته يذيعه بين الناس، والخبر ينتشر كالنار في الهشيم، فإذا كان هذا الخبر مما يدعو إلى الأمن والطمأنينة، وانتقل إلى العدو ضاعفوا جهدهم في الإعداد لكم، وإذا كان هذا الخبر مما يدعو إلى الخوف، وقد نقل مبالغاً فيه ضعف معنويات المسلمين وانهاروا، لذلك الذي يروج الإشاعات الكاذبة هو عند الله منافق، لأنه يطعن المسلمين في ظهورهم، ولأنه يثبط العزائم، فالأخبار التي تأتي ينبغي ألا تروج إلا إذا سمح بترويجها رسول الله، ومن يعتمدهم من صحابته الكرام لأن الإشاعة الكاذبة تفعل فعل السلاح المدمر، قال تعالى:

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ)

جاءهم خبر يوجب الأمن والطمأنينة، أو خبر يوجب الخوف ينبغي ألاّ ينتشر، وألا يذاع، فإن كان خبراً يوجب الأمن وأذيع إذاً العدو يستعد، والذي يحصل الآن أشياء ملفقة مزورة لم يقل فلان هذا الكلام، لكن يقال: ليكون كلامه حجةً على ضرب المسلمين، لا تروج هذه الأخبار، إن كان الأمر يوجب الأمن وأذعته، وبالغت به، وانتقل هذا إلى الأعداء ضاعفوا من قوتهم ومن استعدادهم، واتخذوا من هذا الخبر حجةً لضرب المسلمين، وإذا كان الأمر موجباً للخوف، ونشرته ثبطت عزائم المسلمين، وحطمت معنوياتهم، فإذا بلغ العدو أن المعنويات منهارة انقض على المسلمين.

مهمة نقل الإشاعات مهمة المنافقين لذلك لا تروج خبراً يضعف الثقة بالدين :

الذي روج هذه الإشاعة هو مخطئ خطأً كبيراً، فإن كان لا أصل لهذه الإشاعة، كذب بكذب، وافتراء بافتراء فعلت شيئاً لا أصل له، وأضفت إلى تثبيط العزائم الكذب والبهتان، لذلك عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم وأبو داود عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم وأبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

قبل أن تنقل الخبر راجع الأمر، تثبت من قال هذا الكلام، من روَّجه؟ أية إذاعة أذاعته؟ ما مصدر الخبر؟

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ)

ماذا ينبغي أن يعملوا؟ ينبغي أن يصمتوا وكأنهم لم يسمعوا شيئاً، ويسألوا رسول الله أو من يوكله النبي في أن ينطق باسمه.

(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ)

إلى أولي الأمر من المؤمنين الذين اعتمدهم النبي في أن يوضحوا للناس الحقيقة، أنا أنتظر ما رأي النبي الكريم في هذه الإشاعة؟ أنا لا أنقلها، ولا أروجها، ولا أضعف ثقة المسلمين، ولا أثبط عزائمهم.

ما كل خبر ينقل أيها الأخوة، وما كل إشاعة تنقل، مهمة نقل الإشاعات مهمة المنافقين، أحياناً قصة لا أصل لها مثلاً قصة قديمة جداً قبل عشرات السنين، إنسان دخل مسجداً فكتب اسمه، فإذا روجت هذه الفكرة الذي عنده رغبة بحضور درس علم فقد ثبطت بهذا عزيمته، والقصة لا أصل لها إطلاقاً، ليس لها أصل، وهذا الذي يحصل خبر من فعل الشيطان، ومن ترويج الشيطان، حينما يروج يزداد ضعاف الإيمان ضعفاً به، فلا تروج خبراً يضعف الثقة بالدين، ينبغي أن يكون صحيحاً، فإن كان صحيحاً فاسأل رسول الله، أو من ينوب عنه: أيسمح لنا بترويج هذا الخبر؟ قد يكون من الحكمة ألا تنقل هذا الخبر.

إنسان له أخت وقعت في الزنا، أقيم عليها الحد، وتابت إلى الله، بعد حين جاءها خاطب، فجاء سيدنا عمر يسأله: أأذكر له ما كان منها؟ فقال له: والله لو ذكرت له لقتلتك.

عند سماع الإشاعة علينا أن نسأل من اعتمده النبي في توضيح الحقائق :

أحياناً كلمة لا تلقي لها بالاً يهوي بها الإنسان في جهنم سبعين خريفاً، كلمة واحدة، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَال:

((كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْماً قَرِيباً مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيماً..... فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[الترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل]

ترويج الإشاعات، نقل الأخبار الكاذبة، نقل أخبار العدو هذا من فعل المنافقين، أنت اسكت، واسأل من أنابهم رسول الله في ترويج أو عدم ترويج هذه الأخبار، هذه آية متعلقة بالإشاعة، وهذه في التعبير الشائع متعلقة بالطابور الخامس، هذا الذي يروج الإشاعات الكاذبة، ويضعف همة المسلمين. الموقف الكامل قوله تعالى:

(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ)

لنسأل رسول الله.

(وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)

هناك من المؤمنين العقلاء المتمرسين في معرفة بواطن الأمور، هؤلاء يستنبطون الحقيقة إما بعقلهم، وإما بتوجه النبي لهم، فأنت في هذه الحالة اسأل من اعتمده النبي في توضيح الحقائق.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً)

إن الله عز وجل أنزل هذا الكتاب، وبيّن فيه كل شيء، وأرسل هذا الرسول الذي دلنا على كل شيء، ولولا فضل الله عليكم بهذا الرسول، وبهذا الكتاب ورحمته لاتبعتم الشيطان في تثبيط العزيمة، وفي إشاعة الكذب، وفي إضعاف النفوس، وفي تقوية الأعداء.

أي إشاعة تضعف المسلمين ينبغي ألا تذيعها إلا بالتنسيق مع من أوكله الله بهذا الأمر :

قال تعالى:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً)

من هم هؤلاء القليل؟ الإنسان يهتدي بالكتاب وبالنبي، لكن لو أنه كان ذو عقل راجح لهداه عقله إلى الحق، كيف أن ورقة بن نوفل قبل أن يأتي الإسلام عرف الحقيقة، لأن هناك من كان صادقاً في طلب المعرفة، وقد يهتدي إليها بعقله.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً)

قليل منكم طلبوا الحقيقة وطلبوها بصدق، وسألوا الله الحقيقة، فألهمهم الله رشدهم.

أيها الأخوة، والله لا أرى من آية يحتاجها المسلمون كهذه الآية الآن، لأن المعلومات التي يسمعها الناس كثيفة جداً، وغزيرة جداً ومعظمها معلومات يضعها علماء النفس لتثبيط العزائم، وكم من حدث مفتعل، وكم من جريمة مفتعلة، افتعلها من يندد بها من أجل تشويه سمعة المسلمين، أنت لا تروج هذه الأخبار، لا تروج هذه الإشاعات الكاذبة.

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ)

أي أمر يوجب الأمن:

(أَوْ الْخَوْفِ)

أذاعوا به، أحيانا تعجب كيف أذيع هذا الخبر، هذا الخبر إذاعته ليست في صالح المسلمين، تذاع أحياناً برامج حول ما يفعله هؤلاء الذين يستشهدون كيف يعدون هذه الأسلحة، ما فائدة هذه الأخبار؟ هذه تعطي العدو حذراً وقوةً بعد هذه المعلومات، أنت مسلم، وأنت سفير المسلمون، وأنت على ثغرة من ثغر هذا الدين فلا يؤتين من قبلك، فأي خبر إذاعته تضعف المسلمين، أو تقوي أعداءهم ينبغي ألا تذيعه إلا بالتنسيق مع من أوكله الله بهذا الأمر.

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(39-69): تفسير الآيتان 84-85، حقيقة الشفاعة لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-11-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان هو المخلوق الأول الذي أودعت فيه الشهوات ثم منح العقل وأعطي المنهج :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والثمانين، وهي قوله تعالى:

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

حكمة الله اقتضت أن يكون في الأرض حق وباطل، وخير وشر، وعدوان وسلام، ذلك أن الإنسان وهو المخلوق الأول أودعت فيه الشهوات، ثم منح العقل وأعطي المنهج، فينبغي أن يتبع المنهج، وأن تمارس الشهوات وفق منهج الله، فإن لم يكن ذلك كذلك كان العدوان بين البشر، الإنسان في جسمه دوافع إلى الطعام والشراب والجنس، وأشياء كثيرة، وهذه تحتاج إلى أموال، فحينما يتحرك بدوافع من شهوته ومن دون ضابط من منهج أو قيم فلا بد أن يأخذ ما له وما ليس له، فالعدوان بين بني البشر والقتال بينهم أساسه أن تأخذ ما ليس لك، وما يجري في العالم اليوم من حروب هدفها السيطرة على الثروات كي توفر لشعوب المعتدين حياة عالية جداً، فلو دخلنا في أعماق القتال فإننا نجده ناتجاً من طبيعة الإنسان، فهو مخلوق أول أودعت فيه الشهوات، وأعطي حرية الاختيار، وأعطي عقلاً، وأعطي منهجاً، فتحرك بدافع من شهوته من دون أن يحكم عقله، ومن دون أن يسير على منهج رباني، فلا بد أن يأخذ ما ليس له، فإن كان قوياً استغل قوته في العدوان على الآخرين، هذا منطق الحروب في العالم اليوم.

القتال شرعه الله تعالى في القرآن لهدفين :

القتال شرعه الله تعالى في القرآن بهدفين:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ)

[سورة الأنفال: 39]

حينما يكون المسيطر هو الكافر سوف ينشر الفتنة في الأرض كما ترون بأعينكم:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ)

[سورة الأنفال: 39]

ينبغي أن يخضع الناس لمنهج الله، السماء فيها دعوة إلى الله، والأرض ينبغي أن تكون مساوية للسماء، لا ينبغي أن تكون أرض بلا سماء ولا سماء بلا أرض، كمال هذا الدين أن يكون لكل أرض سماء، ولكل سماء أرض.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

حتى لا تستغل المرأة التي شرفها الله وكرمها، وجعلها شريك الإنسان في حياته وشقه الثاني، لئلا يتاجَر بها فتكون في بيوت الدعارة، ومواقع الرذيلة، وما ترونه وتسمعونه اليوم، هذه الفتنة الكبرى.

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ))

[صحيح البخاري عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا]

المرأة لها دور خطير في الإسلام :

حينما أطلقت اليد للكفار ماذا فعلوا؟ حاربوا بالمرأة، والذي نسمعه من أخبار أنه حينما يفتح بلد إسلامي أول شيء يبيحون فيه الأفلام التي لا ترضي الله عز وجل، ينشرونها، ويأمرون بخروج المرأة سافرة، الشيء الذي يلفت النظر أن أعظم إنجاز لهم إذا انتصروا أن يفتتحوا دوراً لتزيين النساء، معنى ذلك أن الكفار يحاربون بالمرأة التي تبيع جسمها مقابل المال، وهذا انحطاط شديد بالمرأة، فالمرأة لها دور خطير في الإسلام، فالمرأة زوجة، وأم، وأخت، وبنت، ليس في الإسلام امرأة معشوقة.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ)

[سورة الأنفال: 39]

في مبدأ آخر:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

[سورة البقرة: 190]

فإذا قاتلك الكافر ينبغي أن تقاتله كما يجري في فلسطين.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

[سورة البقرة: 190]

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ)

[سورة الأنفال: 39]

ويوجد كلام دقيق جداً، الله عز وجل قال:

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

فالذي يكره الناس على كفر يجب أن تقاتله حتى تحقق الآية أنه:

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

القتال في الإسلام لا بدّ منه لردّ العدوان :

الجهة الطاغية التي تكره الناس على عبادة أشخاص، أو أوثان، أو شهوات ينبغي أن تقاتلها كي تتحقق حرية الإنسان في اختيار الدين الذي يريد، لأنه:

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

فالقتال في الإسلام لا بد منه لرد العدوان.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

[سورة البقرة: 190]

وقد قال الله عز وجل:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ)

[سورة الأنفال: 60]

جاءت حكمة الاستعداد الحربي:

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

الفتنة أشد من القتل :

السلاح المتطور أحياناً له دور كبير في الردع، ربما لا تستخدمه أبداً، ولكن قد يؤدي دوره كاملاً دون أن تستخدمه لأنه قوة رادعة، فالآية اليوم:

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هذا أمر موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وكل أمر موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام موجه حكماً لكل المؤمنين، لكن قاتل في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء كلمة الله، وفي سبيل أن يكون الدين لله، وأن تمحق الفتن التي هي أشد من القتل، كيف تكون الفتنة أشد من القتل؟ لو أن جاهلاً من الجاهلية وأد ابنته، وهي في عمر بسيط، وسنوات معدودة، كان يحفر حفرة في الصحراء ويدفعها فيها، ويهيل عليها الرمل، وتقول: أبي، أبي! هذه التي وئدت إلى أين مصيرها؟ إلى الجنة، لأنها لم تكلف بعد، لكن هذه التي كبرت، وأطلقت لها العنان، وفجرت، وزنت، وفتنت الشباب، وأغوت الناس، ثم ماتت إلى أين مصيرها؟ إلى جهنم، أيهما كان أشد عليها؛ أن تئدها أم أن تفتنها؟ والفتنة أشد من القتل، والله عز وجل يقول:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ)

[سورة الأنفال: 39]

ماذا يفعل الكافر؟ قال:

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

[سورة الفجر: 11-12]

طغوا بعدوانهم، وأفسدوا بأفلامهم.

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر: 13-14]

الإنسان مخير :

القتال شرع لتقاتل من يكره الناس على شيء ما أراه الله، لأن هذا عطل الحرية الدينية، أن تقاتل الذي يقاتلك، والذي يشيع في الأرض فساداً وعدواناً، والذي يحول بين الناس وبين أن يخضعوا لدين الله، الآية هنا:

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ)

أنت لا تستطيع أن تحمل الناس على أن يقاتلوا، لك أن تدعوهم، وأن تحرضهم، لكن ليس لك أن تجبرهم، لأن الإنسان مخير.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

[سورة الأنفال:65]

لكن المسؤولية تقع عليك وحدك، وكل إنسان مسؤول عن فعله.

(لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ)

هذا أصل، الإنسان مسؤول عن فعله فقط، لكن يحرض، ويدعو، ويشجع، هذا شيء مطلوب، أما من حيث المسؤولية لو أن واحداً دعوته أتحاسب عنه؟ لا.

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ)

إن قاتلت في سبيل الله، وإن قاتل معك المؤمنين بعد أن حرضتهم ما الذي يكون؟ قال تعالى:

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

المؤمن واثق من الله عز وجل ومن تأييد الله له لأنه مع القوي :

الكافر لا تردعه القيم، ولا الأخلاق، ولا المنطق، ولا الذوق، بل هو وحش، يريد أن يأخذ ثروتك، وبلادك، وإمكاناتك، ويجعلك عبداً له.

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

فبأس الذين كفروا، وبطشهم، وجبروتهم، وطغيانهم، وعدوانهم كيف يكون؟ بأن تحاربهم، وتقاتلهم، وتحرض المؤمنين على قتالهم، لكن المؤمن واثق من الله عز وجل، ومن تأييد الله له، لأنه مع القوي قال:

(وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

تسمعون في الأخبار أحياناً زلزال سبع درجات لا يبقي شيئاً، إعصار خسائره ثلاثين مليار دولار.

(وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

أنت مع القوي، والقوي قوته ظاهرة، قبل أيام اجتاح إعصار الأخضر واليابس، زلزال واحد يهدم ما عمره الإنسان في مئة عام، لثوان معدودة.

(وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

أمرنا الله سبحانه بإعداد القوة المتاحة للعدو لا القوة المكافئة :

الله بيده أمراض، كيف هزم نابليون؟ بالطاعون! مرض! الطاعون من جنود الله، كل المصائب من جنود الله، الله عز وجل يطمئنك أنت مع القوي لا تضعف، ولا تيأس، ولا تحزن.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

عسى من ألفاظ الرجاء:

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

عسى الله أن يهديك، إذا قلتها أنت فلعله يهتدي، أما إذا قالها الله فعلى سبيل الوقوع، إذا نسبت عسى ولعل إلى الله عز وجل فعلى سبيل الحصول.

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

بالمناسبة أيها الأخوة، الله عز وجل إن كنت ضعيفاً لا يطالبك بأن تعد لعدوك القوة المكافئة، هذا فوق طاقتك، إن كنت ضعيفاً ربما كلفت أن تعد للعدو القوة المتاحة، والله جل جلاله بحكمته يرمم ما نقصك من قوة، فقد تنصر بالرعب، وقد تنصر بتفتيت قوة العدو، وقد تنصر بفتنة تقع بصفوف العدو، أنت عليك أن تعد للعود عدة بقدر ما تستطيع، وعلى الله الباقي، ويجب أن تعلم أنك المنتصر.

في الإسلام قصص لأنها وقعت فعلاً نصدقها أما هي فلا تصدق :

قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

في الإسلام قصص لأنها وقعت فعلاً نصدقها، أما هي فلا تصدق، سيدنا الصديق رضي الله عنه جاءه كتاب من سيدنا خالد بن الوليد، وكان في معركة طاحنة، الروم ثلاثمئة ألف، وهم خمسون ألفاً! طلب منه المدد! بعد حين جاءه صحابي جليل اسمه القعقاع معه كتاب، أعطاه الكتاب، وقال له: أين المدد؟ قال: أنا المدد! واحد! فتح الكتاب، قرأه، فإذا فيه قول سيدنا الصديق: يا خالد لا تعجب أني بعثت لك بالقعقاع، فو الذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم، وانتصروا. أين اليوم مليار ومئتا مليون؟ أمرهم ليس بيدهم، ولا يقدمون ولا يؤخرون، ولا أحد يستمع إليهم. واحد! هذه الآية:

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ)

لكن لك أن:

(وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

شيء مما نقرأه في القرآن نراه أحياناً في الواقع، أناس ضعاف، شاب ضعيف يزلزل كيان أمة قوية مستكبرة جبارة طاغية، شاب ضحى بحياته، فزلزل كيان الغرب كله. استمعت لتحريض ضابط كبير في البنتاغون يقول: ماذا نفعل بهذه الطائرات العملاقة، وهذه الصواريخ والأسلحة، لم يعد هناك عدو على مستوى دولة؟ العدو مواطن، إنسان واحد يقلقهم، اختلف الوضع، حرب بين دول تكاد تنتهي، بقيت بين إنسان مظلوم مقهور يضحي بحياته، وبين قوة جبارة عاتية.

حقيقة الشفاعة :

أيها الأخوة، آية ثانية يقول الله عز وجل:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً)

أي مقتدراً، أحياناً إنسان يتوسط في أمر ما، يترتب على هذه الوساطة دفع ضر أو جلب نفع، هذه حقيقة الشفاعة ابتغاء لوجه الله تعالى، وحمل المؤمنين على القتال نوع من الشفاعة، أنت تتوسط بين جهتين تقنع الأولى بالثانية، فإذا نجحت بهذه الشفاعة دفعت ضراً، وجلبت خيراً، بدفع الضر وجلب الخير لك أجر كبير، قال تعالى في أمر مباح، أو مطلوب، أو في واجب ديني، أو فريضة دينية:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا)

أما الشفاعة السيئة فهي بخلاف المنهج.

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

فإذا كنت وسيطاً بين أداء عمل مشروع، أو خدمة إنسانية، أو تأمين رزق لطالب علم، أو تأمين علم لشاب ناشئ في طاعة الله، أو لحل مشكلة، أو لقضاء دين، أبواب الشفاعات لا تعد ولا تحصى، فإذا كنت ممن يشفع شفاعة حسنة فلك من هذه الشفاعات حصة ونصيب كبير، لأنك كنت السبب، لو شفعت لتزويج شاب بفتاة مؤمنة صالحة، وشاب مؤمن كذلك، قربت بينهما، أو دللت أحدهما على الآخر، وكنت وسيطاً بينهما إلى أن تم هذا الزواج، هذه شفاعة حسنة، ورد أن أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح.

الله عز وجل فتح لنا باب الشفاعة :

لكن سلوك الناس الآن سلوك سلبي، لا يحبون الخير، وليسوا مستعدين أن ينطقوا بكلمة في سبيل الله، ولا أن يذهبوا، ولا يمشوا بخطوة.

((من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمة قالها، وبكل خطوة خطاها عبادة سنة، قام ليلها وصام نهارها))

[ورد في الأثر]

الناس يزهدون في الشفاعات الآن، أنت ممكن أن تكون شفيعاً بزواج، وشفيعاً بشراكة، شاب يتحرق على مبلغ من المال يعمل به، وإنسان آخر يتحرق على استثمار هذا المال، صاحب المال عاجز عن استثماره، وهذا الشاب عاجز عن العمل يحتاج إلى مال، فإذا أقنعت صاحب المال أن يعطي هذا المال للشاب المؤمن، الشاب حلت مشكلته، وهذا الذي يملك المال حلت مشكلته، وأنت لك أجر.

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

من يشفع في شركة حلَّ مشكلة صاحب المال ومشكلة الشاب العاطل عن العمل، لو شفعت في زواج وأسست أسرة حللت مشكلة أسرة عندها بنت لم تخطب حتى الآن، وحللت مشكلة شاب يبحث عن فتاة مؤمنة، وأنجب من هذه الأسرة أولاد صالحين، كل الخير بصحيفتك.

أحياناً إنسان مسجون بخطأ مدني، أقام في بلد زيادة عن الحد فأودع في السجن، مع أن المبلغ بسيط، أحياناً ألف ليرة لا أحد يبحث عنه، فأنت شفعت لدى من هو مسؤول عن هذا العمل، ودفعت عنه المبلغ، وأطلقت سراحه، أبواب الخير ولا تحصى، كلها تحتاج إلى شفاعة، والإنسان الذي له مكانة في المجتمع، له جاه، واسم طيب، هذا قد تحل به العقد، وتحل به مشكلات كبيرة جداً، خصومات بالقضاء عمرها عشر سنوات تحل بجلستين، من إنسان له كلمة بالمجتمع، فكأن الله فتح لنا باب الشفاعة.

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

أبواب الشفاعة لا تعد ولا تحصى :

زوجان متخاصمان، الزوج امتلأ كرهاً لزوجته لأنها عنيدة، والزوجة امتلأت كرهاً لزوجها لأنه لم يسأل عنها، والأهل يغذون ابنتهم ضد زوجها، وأهل الزوج يغذون ابنهم ضد زوجته، الأولاد هم الضحية، فجئت أنت وزرت أحد البيتين، وأقنعت الطرف الأول بالطرف الآخر، وحسنت صورة الطرف الآخر، ولينت قلب الطرف لأول، وعقدت لقاء بينهما، ثم حلت المشكلة، فنعم الزوج بزوجته، والزوجة بزوجها، وفرح الأولاد، أنت ماذا فعلت؟ فعلت أعظم عمل! الآن كم خصومة زوجية يوجد في البلد؟ بالألوف، وأسمع نصف المتزوجين متحاربين، فإذا دخلت أنت شفيعاً بين خصومة زوجية، أو بين خلاف بين شريكين، أو بين خلاف بين أبوين، بين خلاف بين أب وابنه، بين خلاف بين زوجة وزوجها، أبواب الشفاعة لا تعد ولا تحصى.

حدث عدوان على سطح إحدى البيوت، دخلا في القضاء عشر سنوات، المبالغ المدفوعة للمحامي لا تعد، جاء رجل صالح، وحل المشكلة بينهم، وأسقطت الدعاوي كلها، وانتهى الأمر، فهذا باب من أبواب الخير كبير جداً:

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

يقرب زوجين، أو شريكين، أو جارين، أو أخوين، أو شقيقتين، الخير الذي حصل من هذه الشفاعة لك مثله إلى يوم القيامة.

شجعنا النبي الكريم بالشفاعة الحسنة في سنته الشريفة وحذرنا من الشفاعة السيئة :

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْداً يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبَّاسٍ:

((يَا عَبَّاسُ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثاً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ رَاجَعْتِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ، قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ))

[صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

النبي تدخل شخصياً في مشكلة زوجية، الحقيقة الحكم الشرعي أنه ما يجوز في الدين أن يشفع فيه فهو شفاعة حسنة، وما لا يجوز أن يشفع فيه فهو شفاعة سيئة. حدث عدوان جنسي، وأودع المعتدي في السجن، هذا له في الإسلام عقاب كبير جداً، قد يصل إلى القتل، فأنت بكل طاقتك عند قاضي التحقيق، وعند القاضي، تريد أن تخرجه من السجن، فهذه شفاعة سيئة، لأنك تشفع في حد، وفي

معصية، كما أنني أحببكم بالشفاعة يجب أن أخوفكم أشد التخويف من أن تشفع في أمر باطل، في تعطيل حد من حدود الله، أي في حب رسول الله.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

((أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وأيم اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ]

فكما أن الله سبحانه وتعالى حببنا وشجعنا بالشفاعة الحسنة حذرنا من الشفاعة السيئة، لا تشفع في معصية ولا في حد.

على الإنسان أن يشفع لوجه الله ولردّ حقّ المسلم :

من يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر، وإن لم يشفع دققوا: ما قال: لم يشفع شفاعة حسنة، الفرق بين شَفِع وبين شُفّع، شَفَع طلب أما شُفع قبض طلبه، الحديث أو الآية لم تكن تريد من يشفّع شفاعة حسنة، لا من يَشفع، شفع يشفع فعل ثلاثي، أنت لمجرد أن تذهب إلى زيد تقول له: هذا الإنسان عندك مظلوم، وأنا أقترح عليك أن ترفع عنه الظلم، ولك عند الله أجر كبير، وأطلب منك ذلك، رفض! أجرك ثابت ولو رفض! من يشفع لم يقل من يُشفَع شفاعة حسنة، هذه دقة اللغة، لمجرد أن تتحرك، وأن تطالب ثبت الجرم حقق الطلب أو لا، استُجيب لك أو لم يُستَجَب، من يشفع شفاعة حسنة يكن له كفل منها.

بعض العلماء يقول: من يشفع شفاعة حسنة هي التي رعُي فيها حق مسلم، ودفع عنه بها شر، أو جلب إليه خير، وابتغي به وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز، لا في حد من حدود الله، ولا في حق من حقوق البشر، هذه الشفاعة واجبة على كل مسلم كي تراعي بها حق امرأ+ مسلم، تدفع بها عنه شراً، أو تجلب له بها نفعاً، تبتغي بها وجه الله، لا تأخذ عليها رشوة، وفي أمر جائز، لا في حد من حدود الله، ولا في حق من حقوق البشر هذه الشفاعة واجبة عليك، والشفاعة السيئة بخلاف ذلك.

أهدي أحد العلماء هدية فغضب وردها، وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك، تشفع شفاعة من أجل مبلغ، هذا رشوة! ينبغي أن تشفع لوجه الله ولرد حق المسلم، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ شَفَعَ لِأَخِيهِ بِشَفَاعَةٍ فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا فَقَبِلَهَا فَقَدْ أَتَى بَاباً عَظِيماً مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا))

[سنن أبي داود عَنْ أَبِي أُمَامَةَ]

عَن ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِماً أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.))

[صحيح البخاري عَن ابْنِ شِهَابٍ]

الله عز وجل أنعم عليك بنعمة فوظفتها في الخير أدامها الله عليه، إن لم توظفها بالخير أخذت منك.

قضاء حوائج الناس في الدنيا لها عند الله أجر عظيم في الآخرة :

ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه، ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرم، أعطاك مالاً غزيراً، وجاء الناس يطرقون بابك، فتبرمت، أعطاك جاهاً عريضاً، وساق إليك الناس فتبرمت:

((ما أنعم الله على عبد من نعمة وأسبغها عليه ثم جعل إليه شيئاً من حوائج الناس فتبرم بها إلا وقد عرض تلك النعمة للزوال))

[ابن النجار عن ابن عباس]

قصة من التراث: بيت من بيوت دمشق القديمة الكبيرة فيها شجرة ليمون تحمل كميات مخيفة، عجيب أمر هذه الشجرة، ما من إنسان في هذا الحي يطرق هذا البيت لأخذ حبة ليمون إلا ويلبى طلبه، تحمل أربعمئة إلى خمسمئة حبة! وأي إنسان طرق البيت في وقت عصيب، في ليل، في مرض يعطى، هذه الجدة صاحبة البيت توفيت، وبقي في البيت كنّتها، طرق الباب مرة فرفضت، طرق الباب فرفضت حتى يبست الشجرة وماتت، قصة واقعية، لكنها معبرة.

أعطاك الله جاهاً، ووضعك بمنصب رفيع، وبيدك حل مشاكل المسلمين، وجاءك الناس إلى البيت، وإلى المكتب زرافات ووحدانا، تبرمت بهم، وأغلقت بابك دونهم، بالوزارة الثانية لا يظهر اسمك، تزاح عن هذا المنصب! أما إذا كنت في خدمة الخلق يزداد مكانك قوة:

((ما أنعم الله على عبد من نعمة وأسبغها عليه ثم جعل إليه شيئاً من حوائج الناس فتبرم بها إلا وقد عرض تلك النعمة للزوال))

[ابن النجار عن ابن عباس]

((من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بر أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام))

[الحسن بن سفيان وابن حبان وابن عساكر عن عائشة]

لك صاحب بمركز حساس، وثمة مسلم له عند صاحب هذا المركز مشكلة، وهو مظلوم، لكن هذا المسلم ضعيف، فذهبت أنت إليه فرحب بك، وأكرمك، وقلت له: هذه قصة فلان قال: على العين والرأس، حلت، خرجت أنت.

((من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بر...))

[الحسن بن سفيان وابن حبان وابن عساكر عن عائشة]

أحاديث من السنة الشريفة تؤكد أهمية قضاء الحوائج :

السلوك المعاصر يقول: والله هو صاحبي، لكن لم أعود نفسي أن أبذل له ماء وجهي أبداً، فاعذرني، يكون في القضية إحقاق حق، حل مشكلة، إنقاذ أسرة، يقول: لا يمكن أن أطلب منه شيئاً شخصياً، هذه ليست لك، لمسلم لا يستطيع قال:

((من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بر أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام))

[الحسن بن سفيان وابن حبان وابن عساكر عن عائشة]

وفي رواية:

((من كان وصلة لأخيه إلى ذي سلطان في مبلغ بر أو إدخال السرور رفعه الله في الدرجات العلى من الجنة))

[الطبراني وابن عساكر عن أبي الدرداء]

الآن:

((من موجبات المغفرة إدخال السرور على أخيك المسلم))

[رواه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

أحياناً يكون إنسان معين بمكان بعيد، وله أهل وأولاد، والذي بأمره النقل صديقك، فذهبت إليه، وكلمته في شأن نقله إلى بلده فنقل، صار الأب بين أولاده، أدخلت على هذه الأسرة كل السرور، فلك أجر كبير.

((من موجبات المغفرة إدخال السرور على أخيك المسلم))

[رواه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

وفي رواية أخرى:

((أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن))

[رواه الطبراني عن عمر رضي الله عنه]

أفضل عمل.

الكفالة فيها دفع أما النصيب ففيه قبض :

أيها الأخوة، بقي شيء في هذا الدرس:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

النصيب سهم حصة:

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

فالكفالة فيها دفع، أما النصيب ففيه قبض، لك نصيب معنا ثلاثون بالمئة، أعطني إياهم، أعطوني المبلغ، أنت كفلت فلاناً فتفضل، فالله عز وجل ذكر الكفالة مع الشفاعة السيئة، عد للمليون قبل أن تكون وسيطاً في منكر، وفي معصية، وفي خلوة، شخص يريد أن يخصص محل تزيين للنساء، رجل فاسق، فاجر يريد رخصة، والذي يعمل في الرخص منعه، فتوسطت له فحصل عليها، جرى في هذا البيت من المنكرات ما لا يعد ولا يحصى، كلها في صحيفتك، لو توسعنا أكثر: واحد عنده بيت مغلق لا يؤجره، وشخص فاسق فاجر يريد أن يستأجره لشيء لا يرضي الله، وأنت توسطت بأن يؤجره هذا البيت، أُجر البيت، وجرت فيه المنكرات، كلها في صحيفتك، فقبل أن تتوسط عد للمليار، ينبغي أن تتوسط لمؤمن ملتزم، ولمؤمن لا يعصي الله عز وجل، والذي شاع الآن البيت يؤجر مفروش الليلة الواحدة بعشرة آلاف! في الشيراتون بخمسة آلاف! يوجد مشكلة هنا، ليست قضية بيت للنوم، ولا لغير النوم، أنا لا علاقة لي، لا، أنت مسؤول، ما يجري في هذا البيت تحاسب عنه، هذا المبلغ ليس نظير نوم، بل نظير فاحشة، فأنت مسؤول.

والله أيها الأخوة، أنا أقول لكم إلى درجة أن صاحب مكتبة في بعض الكتب فيها ضلالات إذا باعها فله وزر كبير، شيء خطير، مكتبة فيها مجلات فاضحة، وقصص جنسية، وأدب إباحي، وكتب فيها ضلالات، وفساد عقيدة، وكتب فيها إنكار السنة هذه كتب، ما هو ذنبي أنا؟ لا، كل كتاب تشتريه وتبيعه أنت بهذا وسيط، فيه ضلالات أو إباحية فأنت محاسب عنه، أبلغ من ذلك الآن شاعت أماكن ومحلات الأقراص المدمجة، تجد إنساناً يصلي في الجامع يبيع الأفلام الإباحية، يقول: هذا عملي، ويبيعها! هذا تحاسب عنه، أي شاب فسد بهذا القرص، وأي بيت تصدع بهذا القرص فأنت مسؤول.

قبل أن تشفع وتسعى لأي شخص احذر لأن ما يفعله في صحيفتك :

عَن ابْن عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شِبْتَ قَالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ...))

[سنن الترمذي عَن ابْن عَبَّاس]

ما الذي شيبه في هود؟ آية واحدة:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

[سورة هود: 112]

فقبل أن تشفع، وتبيع طاولات نرد، وتنصب خيمة رمضانية، وتفتح مقصف نساء كاسيات عاريات، قبل أن تفتح مطعم حديثاً، الإضاءة خافتة، من يأتي لهذا المطعم؟ من معه صاحبة يأتي بها، وأنت بالنسبة لك مطعم، لا، ليس مطعماً، فيوجد أشياء لا تعد ولا تحصى، من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيباً منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها، والله كل الآثام التي ترتكب في الأماكن الموبوءة بصحيفة مالك البناء، وفي صحيفة من استأجره، ومن يعمل فيه! لأن الله لعن الخمر، وشاربها، وبائعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، ويضاف الآن، والمعلن عنها، قال لي أحدهم: عملي بالإعلان، سألته هل تستطيع أن ترد عملاً فيه فسق؟ قال: لا، هل يمكن أن ترفض إعلانَ خمر فيه عرض مغر؟!

هذه الآية دقيقة جداً:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا)

أحياناً يقول: ابنتي ضعيفة جداً بالرياضيات، والله يوجد أستاذ جيد ما شاء الله، أنت ماذا فعلت؟ أقمت خلوة بين فتاة وشاب، ما الذي يجري في هذه الخلوة في صحيفتك؟ فأي شفاعة من إيجار بيوت، وإيجار مطاعم، وإيجار بنوك، من وساطة لوظيفة، أحياناً وساطة لتعيين فتاة في عمل العمل كله رجال، وهذه فتاة جميلة، وساخرة، ومتبذلة، أنت توسطت وعينتها بهذه الوظيفة، كل يوم ترتدي لوناً، أصبحت فتنة لكل من في هذه الدائرة، أنت السبب! أحضر أمثلة من واقعنا لأن الآية خطيرة جداً، فإياك، ثم إياك، ثم إياك أن تكون وسيطاً في شر، أحياناً تسعى لإنسان بالسفر إلى أماكن بعيدة وكافرة، وهذا الشاب لا يقاوم نزعته من بين أهله، وأرسلته، فإذا به زنى هناك، ففي صحيفتك، وإذا ارتكب الفواحش، وأكل المال الحرام، وشرب الخمر هذا كله في صحيفتك، لأنك أنت سعيت له بهذا السفر بجهدك، أمنت له إشارة دخول، فقبل أن تسعى بين شيئين عد للمليار، هل في هذا السعي معصية أو بعد عن الله عز وجل؟!

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(40-69): تفسير الآية 86 ، أحكام السلام
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-11-29

بسم الله الرحمن الرحيم

شعار المسلم أنه يبدأ الناس بالسلام :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية السادسة والثمانين، وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً)

من شعار المسلم أنه يبدأ الناس بالسلام، ويسلم على من يعرف وعلى من لا يعرف، ويستخدم الصيغة القرآنية في السلام، والصيغ الأخرى التي يستعملها أناس آخرون بعيدون عن الدين يترفع عنها تأدباً مع أدب الإسلام. الله عز وجل قال:

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ)

[سورة الأحزاب: 44]

والحقيقة كلمة السلام تعني السلامة، والسلامة مطلقة، تعني سلامة الدين، وتعني سلامة الصحة، وتعني سلامة العرض، فإذا قلت لإنسان: السلام عليكم فأنت تدعو له بكل أنواع السلامة! بدءاً من سلامة الدين والعقيدة إلى سلامة الصحة إلى سلامة العرض والسمعة.

والله عز وجل من أسمائه السلام، فأنت إذا كنت مطبقاً لمنهجه نالك هذا الاسم، فقد تحيا حياة طيبة، كما قال الله عز وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

تحيا حياة طيبة، وإذا انقلبت إلى الآخرة فلك جنة عرضها السماوات والأرض.

الحكمة من ذكر آيات السلام ضمن آيات الحرب :

فالجنة أساساً هي دار السلام، أنت في الدنيا في سلام، فإذا انتقلت إلى الرفيق الأعلى كنت في دار السلام، والتعامل مع الله كله سلام بسلام، والله يدعو إلى دار السلام، والسلام كما قلت: كلمة تحتمل كل المعاني التي يمكن أن تندرج تحتها.

والحقيقة حكمة أن تأتي آيات السلام ضمن آيات الحرب هناك حكمة بالغة! ذاك أن الذي تحاربه هو إنسان، فإذا سلّم عليك، أي طلب منك أن تعامله بالإحسان فلا ينبغي أن تقتله، فأي إنسان يسلم على مسلم في الحرب ينبغي أن يكف عن قتاله، فلعله يسلم على يديه، وقد غضب النبي أشد الغضب

حينما قتل أحد الصحابة مشركاً وقد تلفّظ بالشهادة: قال: قالها تقية يا رسول الله، قال: أشققت على قلبه؟

فحكمة أن تأتي آيات السلام ضمن آيات الحرب، أي أنك تحارب لا من أجل أن تبيد الطرف الآخر، ولا من أجل أن تزهق روحه، إنما تحاربه من أجل أن تأخذ بيده إلى الله، وأساس الجهاد أنه لا يقبل الجهاد قبل أن يمر بالمراحل التالية: بادئ ذي بدء تعرض عليه الإسلام، واضحاً جلياً بيناً مدعماً بالأدلة، لذلك قال بعض العلماء: من عرض الإسلام عرضاً سطحياً، عرضاً غير متين، عرضاً هزيلاً، عرضاً غير متماسك، ثم إنه لم يستخدم الأسلوب الصحيح التربوي أو العلمي، واستخدم أسلوباً آخر مبنياً على الخرافة والخدع، وعلى المنامات والكرامات، ثم إن هذا المدعو إذا لم يجد في الداعي مصداقية في سلوكه لا يعد هذا المدعو مبلغاً عند الله، ويقع إثم تفلته من منهج الله على من دعاه بهذه الطريقة. السلام يعني أن تعرض على الناس الإسلام أولاً، فإن قبلوه فهم منا ونحن منهم، أي مشرك أو كافر إذا عرضت عليه الإسلام فقبله أصبح جزءاً منك، له ما لك وعليه ما عليك، أما إذا رفضه تدعوه لدفع الجزية، وهو حل وسط.

لأن في الإسلام جهاداً، وغير المسلم لا يكلف بالجهاد، لأن الجهاد بالإسلام جهاد عقائدي لا جهاد نفعي، لا يقاتل إلا من يعتقد بالله عز وجل، وبأركان الإيمان، وبأركان الإسلام، ويجاهد لإعلاء كلمة الله في الأرض، ولئلا تكون فتنة ويكون الدين لله.

فهذا المشرك الذي لم يسلم لا يحق له أن يجاهد، لكن المسلمين مكلفون أن يحفظوا له حياته ومصالحه، فلا بد من دفع البدل النقدي وهو الجزية، فإن أبى أن يسلم، وإن أبى أن يدفع الجزية فلا بد من أن يقاتل!

نظام الجهاد :

الآن: حينما تقاتل الكافر ليس القصد أن تقتله، وليس القصد أن تبيده، ليس في الإسلام حرب إبادة، الإسلام دين إنساني، وكلمة إنساني رائعة جداً، قد تجد بعض الدول في العالم الغربي تعتني بشعوبها عناية تفوق حد الخيال، أما مع الشعوب الأخرى فيذبحونهم، ويقتلونهم، وينهبون ثرواتهم، ويشيعون الفوضى في حياتهم، ويقهرونهم ليستغلوا ثرواتهم، هؤلاء ينبغي ألا تحترمهم لأنهم ليسوا إنسانيين. لذلك ورد في حديث شريف عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ]

من أخوه؟ اختلف العلماء! بعضهم قال: أخوه النسبي، بعضهم قال: أخوه الإيماني، لكن الصحيح أخوه في الإنسانية، لا يمكن أن تكون مقبولاً عند الله إلا إذا عاملت كل البشر كما تحب أن يعاملوك، لأن الإنسان على ثغرة من ثغر هذا الدين فلا يؤتين من قبله.

متى تقاتله؟ حينما يرفض الإسلام، وقد عرضته عرضاً صحيحاً دقيقاً متماسكاً عميقاً مدعماً بالأدلة والشواهد، وعرضته بأسلوب علمي وتربوي، وكنت صادقاً في عرضك، لأنك مطبق لما تقول، الآن هذا المدعو يعد مبلغاً عند الله، إن أبى على كل هذه الميزات فينبغي أن تأمره بدفع الجزية، فإن رفض وجب أن تقاتله، فإن قاتلته ليس القصد أن تبيده، ولا أن تمحقه، القصد أن تأخذ بيده إلى الله عز وجل، فينبغي أن يقع أسيراً قبل أن تقتله، إذا وقع أسيراً فرزته لأحد بيوت المؤمنين، تعلم الإسلام العملي، من كان عقله مغلقاً، وأبى أن يؤمن، ربما يؤمن لا بالإقناع النظري ولكن بالمعاملة الطيبة.

أيها الأخوة، القصص التي تروى عن أصحاب رسول الله تنفيذاً لتوجيهات النبي في معاملة الأسرى لا تصدق!

لا يمكن لمؤمن أن يؤثر الأسير بطعامه، وبشرابه، وبلباسه، فحينما رأى الأسير معاملة فائقة في الكمال، معاملة فائقة في الإنسانية دخل الإسلام إلى قلبه، فإن آمن الأسير أصبحوا أخواننا! لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، هذا هو النظام في الجهاد.

لكن أحياناً تلتبس الأمور أنت تقاتل، وينبغي أن تنتصر، ويغيب عنك أن هذا الذي تقاتله قد يأخذ قرار بالإسلام، وهو في المعركة! يقول لك: السلام عليكم، عندئذ ينبغي أن تكف عن قتله، لأنه لعله اهتدى إلى الله، وهو يقاتل. إذاً جاءت هذه الآية ضمن آيات القتال كي تعلمنا أنه ليس المقصود أن تقتل، المقصود أن تهدي، لم يبعث الله النبي عليه الصلاة والسلام قاتلاً للكفار، بل بعثه هادياً لهم لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ)

[سورة التوبة: 6]

ينبغي أن تُسمِع هذا الطرف الآخر كلام الله.

(ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ)

[سورة التوبة: 6]

أحاديث كثيرة وردت في السنة الشريفة عن وجوب إفشاء السلام :

أيها الأخوة، في السنة الشريفة وردت أحاديث كثيرة عن وجوب إفشاء السلام، فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا:

((أَمَرَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ، أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ...))

[صحيح البخاري عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ سُوَيْدٍ]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

[صحيح مسلم وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

عوّد نفسك أن تسلم على كل إنسان، بل إن بعض الصحابة الكرام يسلك على أخيه، ويمشي معه، فتعترض طريقهما شجرة تفرقهما في المشي، فإذا التقيا ثانية سلم أحدهما على الآخر! أرأيت إلى هذا؟!!

كنت في مجلس، قمت لشأن من شؤونك، وعدت إليه تقول: السلام عليكم، عود نفسك أن تفشي السلام، وكلمة سلام هي اسم الله، والسلام يعني السلامة في كل مفاهيمها وفي كل حدودها. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ:

((لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ قِبَلَهُ، وَقِيلَ: قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ثَلَاثاً، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصِلُوا الْأَرْحَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ))

[سنن الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ]

وهو حديث صحيح:

((أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ))

نماذج من صيغ السلام التي وردت في القرآن الكريم :

الآن كيفية السلام: أعرض لكم أيها الأخوة نماذج من صيغ السلام التي وردت في القرآن:

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا)

[سورة هود: 48]

وعن الخليل قال:

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)

[سورة مريم: 47]

أنت بسلام منا، أو سلام عليك، وفي قصة لوط قال:

(فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

[سورة الذاريات: 25]

وعن يحيى:

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً)

[سورة مريم: 16]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى)

[سورة النحل: 59]

وعن الملائكة قال:

(وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

[سورة الرعد: 23-24]

وعن ذاته العليا قال:

(سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

[سورة يس: 58]

(فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

[سورة الأنعام: 54]

ومن سلامات القرآن:

(وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

[سورة طه: 47]

وهذه فيها لفتة ذكية جداً، قد تضطر لتخاطب إنساناً كافراً لمصلحة المسلمين، كيف تبدأ السلام؟

(وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

[سورة طه: 47]

فإن كان مهتدياً فالسلام يقع عليه، وإن كان غير مهتد فلا يعنيه السلام. وعن عيسى عليه السلام قال:

(وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)

[سورة مريم: 33]

لك أن تقول: سلام عليكم، أو السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

طرح السلام مندوب لكن ردّ السلام واجب :

الآية الكريمة:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا)

طرح السلام مندوب، لكن ردّ السلام واجب، يرقى إلى مستوى الواجب، ومن لم يرد السلام يقع في إثم كبير، طرح السلام مندوب، تطرحه أو لا تطرحه، أما رد السلام فهو واجب. عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ:

((أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرٌ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عِشْرُونَ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثَلَاثُونَ))

[سنن الترمذي عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ]

ثلاثين حسنة! قال الترمذي: حديث حسن، في رواية أبو داود عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَشْرٌ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: عِشْرُونَ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ فَقَالَ: ثَلَاثُونَ... زَادَ ثُمَّ أَتَى آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ، فَقَالَ: أَرْبَعُونَ، قَالَ: هَكَذَا تَكُونُ الْفَضَائِلُ))

[سنن أبي داود عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ]

لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)

طرح، إذا حيّاك إنسان غير مسلم:

(أَوْ رُدُّوهَا)

إذا حيّاك إنسان مسلم تقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته. وفي حديث آخر عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ:

((أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَشْرٌ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عِشْرُونَ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثَلَاثُونَ.))

[سنن الترمذي عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ]

حكم السلام في مجلس العلم :

في رواية أخرى عن ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه:

((أن رجلاً مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلس فقال: سلام عليكم، فقال: عشر حسنات، ثم مر آخر فقال: سلام عليكم ورحمة الله، فقال: عشرون حسنة، ثم مر آخر فقال: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: ثلاثون، فقام رجل من المجلس ولم يسلم....))

[ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة]

بالمناسبة إذا كنت في مجلس علم لا ينبغي أن تسلم! كلما دخل إنسان السلام عليكم! يرد عليه معظم الحاضرون، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ألغي الدرس! ففي مجلس العلم، ادخل واجلس، له حكم خاص.

يروي ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه:

((أن رجلاً مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلس فقال: سلام عليكم، فقال: عشر حسنات، ثم مر آخر فقال: سلام عليكم ورحمة الله، فقال: عشرون حسنة، ثم مر آخر فقال:

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: ثلاثون، فقام رجل من المجلس ولم يسلم فقال عليه الصلاة والسلام: ما أوشك ما نسي صاحبكم))

[ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة]

إذا جاء أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإن بدا له أن يجلس فليجلس، وإن قام فليسلم، عليك أن تسلم إذا حضرت، وأن تسلم إذا غادرت، لكن مجلس لا مجلس علم.

دخلت بيت فيه ضيوف، أو لقاء، أو وليمة السلام عليكم، غادرت، السلام عليكم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلِسٍ فَلْيُسَلِّمْ فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْآخِرَةِ))

[سنن الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أي إذا غادرت ينبغي أن تسلم، لكن يوجد بعض التوجيهات: أنك إذا دخلت سلم، وصافح الناس واحداً واحداً، أما إذا غادرت فلك أن تسلم دون أن تصافح:

((أبخلُ الناسِ من بَخِلَ بالسلامِ))

[الديلمي عن أبى هريرة]

بخيل جداً! تركب بالمصعد مع رجل آخر يتأمل بك، يزورك فقط، قل له: السلام عليكم، تلتقيان في مدخل بيت..

من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام في السلام :

من علامات قيام الساعة أنك لا تسلم إلا على من تعرف! أما الذي لا تعرفه فلا تسلم عليه.

((أبخلُ الناسِ من بَخِلَ بالسلامِ))

[الديلمي عن أبى هريرة]

أبخل الناس من بخل بالسلام،

((إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلم عليه وأخذ بيده فصافحه تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر))

[الطبراني في الأوسط عن حذيفة]

وفي حديث آخر:

((إذا التقى المؤمنان فسلم كل واحد منهما على صاحبه وتصافحا كان أحبهما إلى الله أحسنهما بشراً لصاحبه ونزلت بينهما مئة رحمة للبادي تسعون وللمصافح عشر))

[البيهقي عن عمر بن الخطاب]

سلمت عليه بحرارة، وابتسمت، أقرب الرجلين إلى الله من كان سلامه أشد حرارة وبشراً وطلاقة، فإذا تصافحا نزلت عليهما مئة رحمة، للبادئ منهما تسعون وللمصافح عشرة.

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ))

[سنن أبي داود وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ]

الذي يبدأ بالسلام هو الأقرب لله عز وجل، يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، خمسة يسيرون في الطريق، ورجل جالس، ليس هناك من مبرر أن يقول كل واحد من هؤلاء لهذا الجالس: السلام عليكم، من هؤلاء الجمع يكفي أن يسلم واحد منهم نيابة عن بقية إخوانه.

ومن توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام: لو كان جمع يجلسون ومر جمع أو واحد، الواحد ألقى السلام، أو واحد من الجماعة ألقى السلام نيابة عن الجمع، يكفي أن يسلم من الجلوس واحد نيابة عن الجلوس، واحد بواحد، وكأنه بفرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الكل. ومن أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا قال لك مثلاً: كنت والله في حلب، والتقيت بصديق لك، وبلغني أن أقرئك السلام! ماذا تقول له أنت؟ وصل! تقول له: عليك وعليه السلام.

يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام، قالت: وعليه السلام ورحمة الله، يا رسول الله ترى ما لا نرى، هو رأى جبريل وسمعه، وقرأ عليها السلام قالت: وعليه السلام ورحمة الله.

من أحكام السلام :

عن غَالِبٌ الْقَطَّانُ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ:

((أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مَنْهَلٍ مِنَ الْمَنَاهِلِ فَلَمَّا بَلَغَهُمُ الْإِسْلَامُ جَعَلَ صَاحِبُ الْمَاءِ لِقَوْمِهِ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ عَلَى أَنْ يُسْلِمُوا فَأَسْلَمُوا وَقَسَمَ الْإِبِلَ بَيْنَهُمْ وَبَدَا لَهُ أَنْ يَرْتَجِعَهَا مِنْهُمْ فَأَرْسَلَ ابْنَهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: ائْتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْ لَهُ: إِنَّ أَبِي يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَإِنَّهُ جَعَلَ لِقَوْمِهِ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ عَلَى أَنْ يُسْلِمُوا فَأَسْلَمُوا وَقَسَمَ الْإِبِلَ بَيْنَهُمْ وَبَدَا لَهُ أَنْ يَرْتَجِعَهَا مِنْهُمْ أَفَهُوَ أَحَقُّ بِهَا أَمْ هُمْ؟ فَإِنْ قَالَ لَكَ: نَعَمْ أَوْ لَا، فَقُلْ لَهُ: إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ وَهُوَ عَرِيفُ الْمَاءِ وَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ لِيَ الْعِرَافَةَ بَعْدَهُ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ أَبِي يُقْرِئُكَ السَّلَامَ فَقَالَ: وَعَلَيْكَ وَعَلَى أَبِيكَ السَّلَامُ...))

[سنن أبي داود عن غَالِبٌ الْقَطَّانُ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

أيها الأخوة، من أحكام السلام: إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرة، أو جدار، أو حجر، ثم لقيه فليسلم عليه.

أحياناً الإنسان يركب مركبة مع بعض إخوانه المؤمنين ينزل منها لشأن ثم يعود، إذا عاد إليها يقول: السلام عليكم، هذا من أدب الإسلام. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ فَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ أَوْ حَجَرٌ ثُمَّ لَقِيَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ))

[سنن أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ومن الندب أيضاً أنه من سلم عليه إنسان، ثم لقيه عن قرب ندب التسليم عليه ثانياً. رآه على الرصيف المقابل قال: السلام عليكم، بعد حين هذا الصديق انتقل للرصيف الأول، والتقى بأخيه ثانية، يجب أن تعيد عليه السلام مرة ثانية.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

((يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

من أدب السلام في الجماعات الدينية! عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((مَرَّ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَلْعَبُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا صِبْيَانُ))

[مسند الإمام أحمد عَنْ أَنَسٍ]

الابتعاد عن المصطلحات الغير إسلامية والتسليم بسلام رسول الله :

من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام: إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم، قال لك: السلام عليكم، أراد شيئاً آخر، قل له: وعليكم، كما قال.

أحياناً يكون في السوق تجمع حول حاجة، دخلت أنت للتجمع، قلت: السلام عليكم، لا يعنيك أن يكونوا كلهم مسلمون أو نصفهم أو أكثرهم. عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ أَخْبَرَهُ:

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِمَجْلِسٍ وَفِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ))

[سنن الترمذي عَنْ عُرْوَةَ]

أيها الأخوة، أحكام السلام: السلام تطوع والرد فريضة، وهذا ما قاله العلماء قاطبة، لقوله تعالى:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً)

كلمة حسيباً: إن لم ترد السلام يحاسبك، وإن بدئتَ بالسلام، وأنت في المعركة، وقتلته تحاسب! معنى هذا أنه استسلم لك، وانصاع لدينك فلا ينبغي أن تجعل الهدف هو القتل، ينبغي أن تجعل الهدف هو الهداية.

أيها الأخوة الكرام، هناك أناس يتوهمون أنهم راقون يقول لك: باي، كل السلامات الذي يستخدمها الطرف الآخر ينبغي ألا تستخدمها، مصطلحات كثيرة مرحباً، باي، هاي، هذه كلها سلامات ينبغي علينا أن نبتعد عنها، ونسلم بسلام رسول الله، وباسم الله السلام، نطرح السلام بود على من نعرف وعلى من نعرف.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(41-69): تفسير الآيتان 87-88 ، صحة الرؤية لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-12-20

بسم الله الرحمن الرحيم

الذي خلق الإنسان وأمدّه بكل شيء وسيَّره هو ذاته سيحاسبه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية السابعة والثمانين، وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

هناك معنىً دقيق مستفاد من مقطعين في الآية:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أي هو الواحد، هو الفرد المتصرف، إليه يُرجع الأمر كله، منهجه واحد، هداه واحد، الحق واحد، الإله الذي خلق، والذي سيَّر هو نفسه سيسأل، وسيحاسِب، وسيعاقِب، تكون في بلد، وقوانينه تطولك بعقاب أليم، فتنتقل إلى بلد آخر، في البلد الآخر قوانينه لا تطولك، لكن المعنى المستفاد هنا في هذه الآية هو أن الذي خلق الإنسان، والذي أمده بكل شيء، وأن الذي بيده كل شيء، وسيَّره هو ذاته سيحاسبه، لذلك ما من عاصٍ يعصي الله وهو يعصيه يرى العقاب فيعصيه، لكن الذي يعصي الله يتوهم أن الله لا يعاقبه، وأنه سيتفلت من عقابه، ولن يسبق أحد الله عز وجل:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا)

[سورة الأنفال: 59]

معنى سبقوا أي تفلتوا من عقاب الله عز وجل.

التلازم بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر :

أيها الأخوة، الشيء الذي يلفت النظر هو أنه ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن تلازماً كثيراً كتلازم الإيمان بالله واليوم الآخر، لا يكفي أن تؤمن بالله، خالق هذا الكون، رب هذا الكون، إله هذا الكون، لا بد أن تضيف إلى إيمانك بالله إيماناً باليوم الآخر، الإيمان باليوم الآخر هو الذي يضبط الناس، هو الذي يحجزهم عن معاصي الله، هو الذي يمنعهم أن يأكلوا المال الحرام، هو الذي يمنعهم أن يعتدوا على أعراض الناس، هو الذي يمنعهم أن يحتالوا، أن يغشوا، أن يكذبوا، أن ينتقموا، أن يظلموا، ما من إنسان تراه يعتدي على أموال الناس، أو على أعراضهم، أو يظلمهم، أو يكذب عليهم، أو يحتال عليهم، إلا وهو ضعيف الإيمان باليوم الآخر، لو أن الإيمان باليوم الآخر

كان دقيقاً ومحققاً لما عصى إنسان ربه، إنك مع قوي في الدنيا إذا أيقنت أن علمه يطولك، وقدرته تطولك لا يمكن أن تعصيه، وربما لا تحبه، لكنك تحب نفسك، فلا يمكن أن تضع نفسك في مجال عقابه، هذا مع إنسان قوي في الدنيا فكيف مع خالق الأكوان؟ الرحمن الرحيم ذي الجلال والإكرام.

أيها الأخوة الأحباب:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

هذه كلمة الإسلام الأولى، هذه كلمة التوحيد، لا رافع ولا خافض، ولا معطي ولا مانع، ولا معز ولا مذل، ولا شافي ولا قابض ولا باسط إلا الله، هذا الإله العظيم الذي بيده كل شيء له منهج، افعل ولا تفعل، وأنت محاسب يوم القيامة على منهج الله وحده، أي منهج أرضي لا تحاسب عليه، تحاسب على منهج السماء، لذلك قال تعالى:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران: 185]

الفوز أن تفوز بالجنة، والخسارة أن تخسر آخرتك.

كل مقاييس الأرض معطلة يوم القيامة ولا قيمة لها :

قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ)

هو الذي منحكم الوجود، ومنحكم الإمداد، هداكم وأرشدكم، أعطاكم تشريعاً، هو نفسه سيسألكم عنه، أحياناً في التعليم تدرس في مدرسة، وتقدم امتحاناً عامّاً، الذي أعطاك الدروس لن يسألك، ستسألك جهة أخرى، لا يمكن أن يكون هناك ازدواجية في المناهج، منهج واحد؛ منهج الخالق عنه تحاسب يوم القيامة.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية: 25-26]

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

وقد تعلمنا من القرآن الكريم أن تأخذ إخبار الله على أنك تراه، لأن الله سبحانه وتعالى أصدق القائلين:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

ترَ أي ينبغي أن تستقبل إخبار الله لك على أنك تراه، فلذلك:

(يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

لا ريب في وقوعه، ولا ريب في أحقيته، ولا ريب في أنه في هذا اليوم يكرم المحسن ويعاقب المسيء، وأن كل مقاييس الأرض معطلة يوم القيامة، هناك ألقاب عالية اخترعها الإنسان، هذه يوم

القيامة لا قيمة لها، هناك أشخاص أغنياء الغنى لا ينفعهم يوم القيامة، لو أنه يملك ما في الأرض جميعاً لافتدى بما يملك من سوء العذاب، هناك أقوياء جداً، قوتهم لا تمنعهم من عذاب الله يوم القيامة:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

[سورة الأنعام: 94]

جئتمونا فرادى، لا يأتي القوي بجمعه يوم القيامة، لا يأتي القوي بمن حوله يوم القيامة، القوي يأتي فرداً ضعيفاً، الغني يأتي فقيراً.

أخطر شيء في حياة الإنسان رؤيته :

أيها الأخوة الكرام، إله واحد، خالق واحد، رب واحد، منهج واحد، يوم حساب واحد، هذه حقيقة هذه الآية:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

أي إنسان أقدم على معصية لو أنه استحضر عظمة الله، لو أنه استحضر أنه سيوقف يوم القيامة ليُسأل لمَ عصيت؟ لم أكلت أموال الناس بالباطل؟ لم غششتهم؟ لم احتلت عليهم؟ لم أفسدتهم؟ الإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، ما من إنسان يستحضر يوم القيامة في كل حركاته وسكناته إلا استقام على أمر الله، والويل لمن لا يستحضر هذه العظمة يوم القيامة، لمن لا يستحضر عظمة يوم القيامة في الدنيا، المجرم لماذا يرتكب الجريمة؟ لأنه يغلب على ظنه أنه سيسلم من العقاب، وأنه سيتمتع بهذا المال، ولو أنه استحضر الإعدام لما أقدم على هذه الجريمة، سارق، لماذا يقدم على السرقة؟ لأنه يغفل عن العقاب، يستحضر الجانب الذي يتوهمه صحيحاً، أنه سيستمتع بهذا المال، ولو استحضر أنه يلقى القبض عليه ويودع في السجن لما سرق، لذلك ضعف رؤية، وأخطر شيء في حياة الإنسان رؤيته، ماذا ترى أنت؟ ألم يدعو اللهم أرنا الحق حقاً، لماذا دعا بهذا الدعاء؟ لأن من الناس من يرى الحق باطلاً، ومن الناس من يرى الباطل حقاً، من الناس من يرى كسب المال الحرام غنيمة، وإيقاع الأذى بالناس غنيمة، والاحتيال على الناس مغنم كبير، ما من خطأ يقع من الإنسان إلا لخطأ في رؤيته، لو رأى الحق حقاً فاتبعه، ورأى الباطل باطلاً فاجتنبه لما شقي لا في الدنيا ولا في الآخرة، قضية الرؤيا، مرة أقول: لا تحب أحداً أحب نفسك. إن كنت مفرطاً في حب ذاتك فلا بد أن تستقيم على أمر الله، لأن الخير كله في طاعة الله، ولأن الشر كله في معصية الله، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، وأن تعصيه وتربح، صحح رؤيتك، الناس يعيشون لحظتهم ولا يعيشون مستقبلهم، يريد مالاً وفيراً، بيتاً كبيراً، زوجةً رائعةً، مركبة فارهة، يعيش لحظته، فإذا جاء يوم الحساب نـدم أشد الندم.

البطولة أن ترى مستقبلك قبل أن تصل إليه :

إذا جاء يوم الحساب يقول:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَد* وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

[سورة الفجر: 24-26]

كل بطولتك أن ترى مستقبلك قبل أن تصل إليه، أن ترى العقاب قبل أن تناله، أن ترى الثواب قبل أن تأخذه، أن تعيش المستقبل:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

ألا ترون ما يجري في العالم؟ ألا ترون ما يجري من انتهاك لحقوق الإنسان؟ من قتل وتدمير؟ من إذلال وتقتير؟ من إفقار وتجهيل؟ هؤلاء الذين يفعلون هذا ليس لهم رؤية صحيحة أبداً، يرون الفوز في السيطرة، يرون القوة في الغطرسة، أما حينما ترى أن لهؤلاء إلهاً سوف يحاسبك عن كل قطرة دم أريقت، وعن كل دمعة هطلت من عين بائس، وعن كل طفل، لو رأى الطاغية الذي يفعل هذه الأفعال ما ينتظره من عقاب لصعق ومات.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

كلما ازداد علمك بالله صحت رؤيتك وصحّ عملك فسعدت في الدنيا والآخرة :

قضية رؤية أيها الأخوة، أنت حينما ترى الحق حقاً تتبعه، وحينما ترى الباطل باطلاً تجتنبه، قضية رؤية فقط، إن صحت الرؤية صح العمل، وإن فسدت الرؤية فسد العمل، سيدنا يوسف هذا النبي الكريم حينما دعته امرأة العزيز ماذا رأى حتى قال: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين؟ مليون إنسان يوضع في مثل ظرفه فيرى الإقبال على الأمر مغنماً كبيراً، ماذا رأى؟ رؤيا!! صحح رؤيتك، كلما ازداد علمك تصح رؤيتك، لماذا يأتي إنسان يأكل فاكهة دون أن تغسل ولا يشعر بشيء، أما الطبيب الذي يرى الأمراض الفتاكة والأمراض الإنتانية، وعدوى الأمراض والجراثيم، وما تفتك بالإنسان، لا يأكلها قبل أن يغسلها؟ علم الطبيب أكسبه رؤية، فغسل كل شيء وعقمه قبل أن يأكله، والجاهل بأمور الجراثيم والعدوى والأمراض جهله جعل رؤيته منطمسة، فأكل فاكهة دون أن يغسلها، فمرض!! مشكلة الرؤية، قد يأتي إنسان يجهل القانون فيرتكب حماقة تدمره، يأتي إنسان متمكن من القوانين فيمشي وفق القوانين فيسلم في دنياه، قضية رؤية، قد يرى هذا الإنسان أنه أنجب هذا الولد وانتهى الأمر، ولن يكون عبئاً عليه، أما حينما يكتشف بعد حين أنه خسر ولده وأن ولده غارق في الموبقات والمعاصي والآثام، يندم ندماً لا حدود له، أما إذا رأى أنه لا يسعد إلا

بسعادة ابنه، ويشقى بشقائه، هذه رؤية، كلما ازداد علمك بالله صحت رؤيتك، وإن صحت رؤيتك صح عملك، وإن صح عملك سعدت في الدنيا والآخرة، وكلما ضعف علمك فسدت رؤيتك، وإن فسدت رؤيتك فسد عملك، وإن فسد عملك شقيت في الدنيا والآخرة.

الله وحده يحاسب الناس يوم القيامة :

قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

ليس في الكون إلا الله، وليس في الأرض إلا الله، وليس من متصرف إلا الله، وليس من معطٍ إلا الله، وليس من مانع إلا الله، أما هذه القوى التي تتبجح وتهدد وتتغطرس هي بيد الله، هي في قبضة الله، لا ترى الوحش الكاسر لكن انظر من يملك زمامه، إليه يرجع الأمر كله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ*إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

أيها الأخوة، أبرز ما في هذه الآية أن الذي خلق، ومدَّ، وسيَّر، ووضع لك منهجاً هو وحده سوف يحاسبك يوم القيامة، ليس من إله آخر يحاسبك حساباً آخر، ليس من إله آخر يسوي مشكلات الناس تسوية أخرى، إله واحد، خالق، مربٍ، مشرع، واضع المنهج، يعلم وسيحاسب وسيعاقب، هذا معنى الآية:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

الله عز وجل إن أخبر عن شيء فينبغي أن يؤخذ وكأنه وقع :

طبعاً كلكم يعلم إن درستم علم البلاغة أن الكلام خبرٌ وإنشاء، فالإنشاء كالأمر، والنهي، والتمني، والترجي، والاستفهام، والحض، هذا كلام، لو قلت لأحدهم: كم الساعة؟ هل يمكن أن تقول له: كذاب؟ الكلام الذي لا يحتمل الكذب والصدق يقال له كلام إنشائي، أي كلام لم يقع بعد، أسألك: ما اسمك؟ كم الساعة؟ السؤال، والاستفهام، والتمني، والترجي، والحض، هذه أساليب الإنشاء، لأنها لا تحتمل الصدق والكذب، أما هناك نوع آخر من الجمل هي الجمل الخبرية، مثال: سافر أخي، قد يكون سافر، أو يكون لم يسافر، هذا الكلام الخبري يحتمل الصدق والكذب، لكن إذا كانت الآية خبرية الصيغة مثل هذه الآية:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

هو كلام خبري بحسب علم البلاغة، يحتمل الصدق والكذب، لكن لأنه كلام الله عز وجل:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

يجب أن تأخذه وكأنك تراه، يجب أن تأخذه وكأنه وقع، ألم يقل الله عز وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: 1]

معنى هذا أنه لما يأت بعد، يجب أن تأخذ أمر الله الذي لم يأت وكأنه أتى.

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

[سورة المائدة: 116]

هذا القول سيكون يوم القيامة، لأن الله عز وجل إن أخبر عن شيء فينبغي أن يؤخذ وكأنه وقع.

لولا الإيمان باليوم الآخر لكان بطن الأرض خيرٌ لنا من ظهرها :

قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

لا ترتاح النفوس أيها الأخوة إلا بالإيمان باليوم الآخر، والله الذي لا إله هو إن ما يجري في العالم اليوم لولا أن هناك يوماً آخر، يوماً تسوى فيه الحسابات، يوماً يعاقب فيه الظلمة، يوماً يكافأ فيه المحسنون، يوماً يؤخذ للمظلوم من الظالم، وللضعيف من القوي، لكان بطن الأرض خيراً من ظهرها، لولا الإيمان باليوم الآخر، لولا الإيمان أن هؤلاء الذين يتجاوزون الحدود ويذلون الشعوب، لولا أننا نؤمن أنهم خاسرون يوم القيامة، لكان بطن الأرض خيرٌ لنا من ظهرها.

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً * فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)

(ما لكم) استفهام تعجبي، لماذا أنتم هكذا؟ ما لك لا تدرس؟ ما لك لا تستجيب؟ ما لك لا تأخذ بالأسباب؟ ما لك لا تدرس؟ أنا أعجب من عدم دراستك، الأمور كلها ميسرة، أنت في ثانوية جيدة، ولك أب ينفق عليك، ويتمنى أن تكون من الأوائل، والكتب بين يديك، والأساتذة متفوقون، والمدرسة رائعة جداً، ما لك لا تدرس؟ ما لكم استفهام تعجبي.

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ)

لماذا تعددت رؤيتك للمنافقين؟ لماذا وقعتم في حيرة من موقفكم منهم؟ لماذا ذهب فريق إلى رأي وفريق إلى رأي آخر؟ لمَ لمْ توحدوا موقفكم منهم؟ لمَ لمْ تكن لكم رؤية واحدة تجاه المنافقين؟

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ)

المنافق مكانه في الدرك الأسفل من النار لأن إيمانه شكلي :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا)

أركسهم بمعنى أعادهم، كانوا كفاراً فأسلموا، ونافقوا، وقد أعادهم الله كفاراً، بل إن عذابهم يوم القيامة أشد من عذاب الكفار، لقول الله عز وجل:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء: 145]

أركسهم بالعدل، أركسهم بما ظلموا، أركسهم بما كسبوا، هذا الذي يقطف ثمار المؤمنين وهو ليس مؤمناً، ويقطف ثمار التفلت من منهج الله، وهي مكاسب الكفار كما يتوهمون، هذا الذي يجمع بين مكاسب المؤمنين وهو ليس مؤمناً، وبين ما يتوهمه الكافر أنه مكاسب وهو كذلك، هذا مكانه في الدرك الأسفل من النار.

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا)

أي أعادهم إلى سيرتهم الأولى، هم أرادوا بالنفاق أن يغنموا لا أن يوحدوا، أحياناً الإنسان يرى مصلحته أن يكون مع أهل الإيمان، قد يرى مصلحته التجارية فقط، وقد يرى مصلحته الأسرية فقط، فكم من إنسان أسلم ليتزوج من امرأة رائعة؟ ولا ينعقد العقد إلا إذا أسلم، فالمنافق بالتعبير المعاصر وصولي يبرر الوسائل غير الشريفة لأهداف غير شريفة، المنافق همه المصلحة، همه الهوى والدنيا، إذا آمن إيماناً شكلياً فلمصلحة راجحة تتحقق عنده.

الإضلال إذا عُزي إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري :

قال تعالى:

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا)

أي أن نفاقهم مكشوف عند الله عز وجل:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء: 142]

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ*اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة البقرة: 14-15]

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)

أقول دائماً أيها الأخوة: إن الإضلال إذا عزي إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، كقوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف: 5]

الإنسان حينما يختار طريقاً آخر كي يصل إلى الله فلن يصل إليه :

الإضلال إذا عزي إلى الله في بعض الآيات قال العلماء: إنه الإضلال الجزائي، الذي يبنى على ضلال اختياري، تماماً كما لو أن طالباً في الجامعة لم يدرس، ولم يداوم، ولم يشتر الكتب، ولم يحضِّر، ولم يذاكر، ولم يؤدِّ الامتحان، وجاءه إنذارٌ تلو الإنذار كي يعود إلى الجامعة، فيداوم، ويدرس، وهو يرفض أشد الرفض، ثم صدر قرار بترقين قيده، أليس هذا القرار تجسيداً لرغبة الطالب؟ هذا الضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، المنافق أراد الدنيا، لكن أراد الدنيا من خلال اندساسه في صفوف المؤمنين، أراد الدنيا من خلال المؤمنين، هو منافق إذاً:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)

قد يفهم من الآية أنه أضل نفسه عن الله عز وجل، أراد الدنيا، أراد أهل الدنيا، أراد مال الدنيا، أراد متع الدنيا، أراد شهوات الدنيا، أعرض عن الدين، وعن بيوت الله، وعن تلاوة كتاب الله، وعن طلب العلم، وعن الاستقامة والعمل الصالح، أراد الدنيا:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)

أي أن الله عز وجل رسم طريقاً إليه، لا يمكن أن تصل إليه إلا من خلال هذا الطريق، كيف أن الدولة اليوم رسمت طريقاً للطبيب، لا بد من شهادة ثانوية بمجموع عالٍ، لا بد من سنة في العلوم، وسنة في التشريح، وسنة في الفيزيولوجيا، وسنة في علم الأمراض، وسنة في الأدوية، هذا هو الطريق، لا يمكن لإنسان كائنٍ من كان أن يزاول مهنة الطب إلا من خلال هذا الطريق، فالذي أراد أن يكون طبيباً من خلال قراءة بعض المجلات الطبية يودع في السجن، لا يمكن أن تفتح عيادة وتقول: أنا طبيب، وثروتك في الطب قراءة بعض المجلات الطبية، فلذلك الله عز وجل رسم طريقاً إليه، لا يمكن أن تصل إليه إلا عن هذا الطريق، وهذا معنى قوله تعالى:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)

أي أن الإنسان حينما يختار طريقاً آخر كي يصل إلى الله فلن يصل إليه.

أيها الأخوة الكرام نتابع هذه الآيات في درس قادم إن شاء الله.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(42-69): تفسير الآيات 89-91 ، النفاق وأخلاق الجهاد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-12-27

بسم الله الرحمن الرحيم

النفاق نوعان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية التاسعة والثمانين، وهي قوله تعالى:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

أيها الأخوة الكرام، كما قلت سابقاً المؤمن واضح، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ:

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... قَالَ: قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا...))

[الإمام أحمد عن الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ]

والكافر واضح، أنكر وجود الله، أنكر شرعه، أنكر الوحي، أنكر البعث، أنكر النشور، وسلك سلوكاً ينسجم مع ما يعتقد، فالكافر خطر بقوته على المسلمين، لكن ليس خطراً بأفكاره على المسلمين، لأن المسلم معه الحق، من هو الخطر؟ المنافق!! الذي يتكلم بما يتكلم به المسلمون ويفعل بخلاف ذلك، هؤلاء المنافقون كما قلت من قبل نوعان؛ نوع هو كافر يقيناً، بل هو في الدرك الأسفل من النار، هو كافر لكنه أراد أن يجمع بين ميزات المسلمين وبين تفلته من شرع الله فكان في الدرك الأسفل من النار، النوع الآخر من النفاق ضعف إما في العقيدة أو أمام الشهوة، إما أن الشبهات تراكمت في عقله، أو أن الشهوات غلبته على يقينه، النوع الثاني من المنافقين يرجى لهم النجاة إذا تابوا، ورجعوا، وانضموا تحت لواء المؤمنين، لكن النوع الأول هم أكفر الكفار، بل إنهم أخطر من الكفار، لأنهم ليسوا واضحين.

المنافقون لا يقيَّمون عند الله بما يقولون بل يقيَّمون بما يفعلون :

قال تعالى:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

[سورة البقرة: 14]

يقول الله عز وجل: إن هؤلاء المنافقين لا يقيَّمون عند الله بما يقولون بل يقيَّمون بما يفعلون، وهذه حقيقة، الإنسان لا يقيَّم عند الله بما يقول بل يقيَّم بما يفعل، لو قيَّمنا فرعون بما يقول:

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

[سورة غافر: 29]

هذه أقواله، ينبغي أن تقيّمه بأفعاله، كيف أنه ذبح أبناء بني إسرائيل، واستحيا نساءهم، يجب أن يقيَّم الإنسان بأفعاله، فلذلك هؤلاء المنافقون:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)

ماذا حصل؟ المودة من فعل القلب، رغبة، طموح، يطمح المنافق الكافر أن يكون المؤمن كافراً مثله، لماذا؟ هذا الدين أيها الأخوة هو دين الفطرة، تطابق أحكام الدين مع تطابق بنود الفطرة تام كامل، أي أن النفس ترتاح لما يأمر به الدين، وتضطرب إذا فعلت ما نهى عنه، أعلمت أم لم تعلم، لمجرد أن تخرج عن مبادئ الدين أنت في الوقت نفسه خرجت عن مبادئ فطرتك، في الوقت الذي تخرج فيه عن مبادئ الشرع تخرج فيه عن مبادئ الفطرة، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

[سورة الروم: 30]

الكآبة مرض المعصية :

أن تقم وجهك للدين حنيفاً أي أن تهتم، أن تشد النظر إليه، أن تميل إلى هذا الدين هو نفسه فطرتك.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم: 30]

أنت حينما تطبق تعاليم الدين تشعر أن جبالاً قد أزيحت عن كاهلك، حينما تكون صادقاً تنام آمناً، حينما تكون أميناً تنام مطمئناً، حينما تنام عفيفاً تنام آمناً، حينما تعطي بالحق تكون مرتاحاً، حينما تأخذ الذي لك فقط تكون مرتاحاً، حينما تنصف تكون علماً دون أن تشعر، لمجرد أن تكون مطبقاً لتعاليم هذا الدين تنعكس عليك راحة كبيرة، أي بمثل بسيط جداً، مركبة غالية جداً، فاخرة جداً، حديثة جداً، إلا أنها مصممة للطرق المعبدة، إن سرت فيها في طرق وعرة فيها صخور وأكمات وانهدامات تنزعج أشد الانزعاج، تستمع إلى أصوات لا عهد لك بها، ترى السرعة بطيئة جداً، أصوات مزعجة، تعثر في السير، الذي يصمم لهذا الطريق المدرعات والمجنزرات، أما هذه المركبة مصممة للطريق المعبد، فلمجرد أن تسير بها على طريق معبد تختفي كل الأصوات، وتنطلق السرعة بأعلى درجة، وتشعر بقيمتها، هذه في أصل تصميمها للطرق المعبدة، فلمجرد أن تخرج عن الطريق المعبد، قرأت تعليمات الصانع أم لم تقرأ تنزعج، لو أنك عالم بتعليمات الصانع تنزعج، ولو أنك جاهل بتعليمات الصانع تنزعج، أي أن هذه المركبة خرجت على أصل تصميمها، فلذلك كثيراً ما نستمع اليوم إلى مرض الكآبة، مرض الكآبة هو أي إنسان خرج على مبادئ فطرته،

لم يؤمن بالدين، ولم يعبأ بالدين، فعل ما يشتهي، فلما فعل ما يشتهي عاقبته نفسه، وقع بالكآبة، لما أكل ما له وما ليس له وكان قوياً، كإنسان وصي على مال أيتام، وله مكانة كبيرة، ولا يجرؤ أحد أن يحاسبه، فأكل أموالهم بالباطل، لم يحاسبه أحد، لا قانون، ولا دولة، ولا أولاد، لكنه يقع في انهيار داخلي، وتعذبه نفسه، تؤنبه، وينهار داخلياً، يسقط من عين نفسه، يصاب بالكآبة، الكآبة مرض المعصية، أنت حينما تعصي الله!! هذه المركبة أزعجتك حينما سرت بها على الطريق الوعر، أعلمت تعليمات الصانع أم لم تعلمها، كلاهما واحد، مصممة على الطريق المعبد، فالإنسان حينما يأكل أموال الناس بالباطل، حينما يعتدي على أعراضهم، حينما يحتال، حينما يغش المسلمين، حينما يبني مصلحته على أنقاض الناس، حينما يبني غناه على فقرهم، لو لم يحاسبه أحد، لو لم يسائله أحد، هو منهار أمام نفسه، لذلك انعكاس هذا الانهيار كآبة، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

الإسلام دين الفطرة :

والله أيها الأخوة، يوجد في نفس العاصي أو الشارد عن منهج الله من الكآبة ما لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، هذه الكآبة تقود إلى الانتحار أحياناً، هذه الكآبة تقود إلى ردود فعل قاسية جداً، هذه الكآبة تقود هذا المكتئب إلى أن يشقى ويشقي، بيته جحيم، عمله فيه مفارقات حادة، فهذا المنافق يوم نافق استغل طيب المؤمنين، ولم يعبأ بتعاليم الدين، وقع في نفسه خلل، انهيار داخلي، مثال: أنت طبيب، والمريض بين يديك مفتوح البطن، مفتوح الصدر، وضعت له دسام من أسوأ الأنواع، وسجلت عليه دساماً من أغلى الأسعار، هل يمكن لهذا المريض أن يحاسبك؟ تركب الدسام في قلبه، والقلب مفتوح، ثم خيط الجرح، ولا أحد يطلع على ما فعله الطبيب، مثلاً، ينبغي أن يشعر هذا الطبيب بكآبة، لا أحد يمكن أن يحاسبه، لكن فطرته تحاسبه، إن أردت الراحة النفسية، إن أردت أن تكون أسعد الناس، إن أردت أن تنام مطمئناً، إن أردت أن تكون متفائلاً، إن أردت أن تكون حراً، إن أردت أن ترى أنك أسعد الناس في الدنيا، إن أردت أن ترى أن الدنيا شيء رائع جداً، فانسجم مع قوانين فطرتك، وقوانين فطرتك مطابقة لقوانين الله عز وجل، لذلك قالوا: الإسلام دين الفطرة، وكان أصحاب النبي عليهم رضوان الله كما وصفهم القرآن يفرحون بما أنزل الله إليهم، نفوسهم على فطرتها السليمة، فلما كان أمر لم ينزل فيه تشريع يتناقض مع فطرتهم يتألمون، فلما جاء التشريع يحرمه يفرحون، وعلامة أن فطرتك قد بقيت سليمة، الفطرة قد تنطمس أيها الأخوة، علامة أن فطرتك قد بقيت سليمة أنها تنسجم مع أوامر الله، فإن لم تنسجم صف نفسك بأنك لا سمح الله مطموس الفطرة، إذا حافظ الإنسان على سلامة فطرته هذا من نعم الله عز وجل، أي أن ينكر المنكر. الدليل: لماذا سمى الله المعصية منكراً؟ ولماذا سمى الله الطاعة معروفاً؟ ولماذا أمرنا أن

ننكر المنكر، وأن نأمر بالمعروف؟ ذلك أن المعصية تنكرها النفوس السليمة بحسب فطرتها، وأن الطاعة تحبذها الفطر السليمة بحسب فطرتها، بل لماذا في بعض البلدان يأتون بالمحلفين؟ المحلف إنسان من قارعة الطريق، تعرض عليه جريمة فبحسب الفطرة يدلي برأيه، هذا المحلف ليس قاضياً ولا مختصاً، ولا متبحراً في الحقوق، بل هو إنسان عادي، لكن بحسب فطرته قد يكشف الحقيقة.

الله يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين :

هذا التمهيد أيها الأخوة، لمنافق خرج عن شرع الله، عن علم أو عن غير علم، فلما خرج عن علم أو عن غير علم اختلت فطرته، ألا تلاحظ الهرة حينما تطعمها قطعة لحم تأكلها أمامك؟ لأنها تفعل شيئاً مشروعاً، أما حينما تخطف لحمة أين تأكلها؟ بعيدة عنك، لأن فطرتها سليمة، أكلت ما ليس لها، فابتعدت عنك، وهربت بها، فأنت بالعقل تعرف الله، وبالفطرة تعرف خطأك، فالمنافق لما خرج عن قوانين الله، وعن أحكام الشرع، ومبادئ فطرته اختل توازنه، الحالة المرضية سمها كآبة، سمها اختلال توازن، سمها انهياراً داخلياً، حالة مرضية، كيف تعالج؟ أي إنسان في بلد من البلدان، جريمة قتل، لكنها ذكية جداً، أي بشكل سم بطيء، ومات الإنسان، وجاء الطبيب، وعرف الحقيقة، لكن دفع له الملايين، فأفاد أن هذا الموت موت طبيعي، هل تراه مرتاحاً؟ لا أحد كشفه إطلاقاً، لو أن محامياً عرض عليه موكل قضية خاسرة مئة بالمئة، وأوهمه أنها تنجح في خلال هذه السنوات ماذا يشعر هذا المحامي؟ لو أن مدرساً أعطى أسئلة فوق مستوى الطلاب جميعاً، كي ينالوا درجات متدنية جداً، وكي يلجؤوا إليه في دروس خصوصية مثلاً، أتراه مرتاحاً؟ كنت أقول مرة: إن فندقاً في ألمانيا كتب على السرير: إن لم تنم، وتقلبت طول الليل فالعلة لا في فرشنا، بل في ذنوبك.

الإنسان المؤمن المستقيم الذي لم يبنِ مكانته على أنقاض الآخرين، ولم يبنِ غناه على فقرهم ينام مطمئناً، هذه السكينة، هذه السعادة، هذه الطمأنينة، إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

هذا المنافق خرج عن مبادئ الدين أو عن مبادئ فطرته، وقع في الكآبة، وقع في انهيار داخلي، وقع في خلل مع نفسه، فرد الفعل الطبيعي أن يتمنى أن يكون الناس جميعاً كذلك، شيء طبيعي، أين وظيفتك؟ أستاذ لم نكتب!! أنت كم واحد؟ أستاذ لم نكتب!! يتمنى الكسول أن يوسع دائرة التقصير، حتى يكون طبيعياً، أحياناً يكون في المنزل يستقيم شاب، ويغض بصره، ويصلي، ويكون دقيقاً في معاملته مع الآخرين، فيكشف من حوله فيحاربونه، يحاربونه حرباً شعواء، لأنه قد كشفهم، كان عندهم خلل، لكن الخلل قد صار واضحاً، موظف مستقيم لا يرتشي، يُحارَب من كل من حوله لأنهم قد انكشفوا، واختل توازنهم.

الإنسان حينما يختل توازنه فهناك ثلاثة ردود فعل يفعلها دون أن يشعر :

الإنسان حينما يختل توازنه أيها الأخوة فهناك ثلاثة ردود فعل يفعلها دون أن يشعر، رد الفعل الصحيح أن يتوب إلى الله، رد الفعل الكامل أن يتوب إلى الله، لكن الذي يحصل أنه يحاول أن يفسد من حولـه كما كان فاسداً، متوهماً أنها تقوم الحجة على الله، لا يوجد أحد جيد، دائماً المنافق لا يرتاح لمديح مؤمن، لا تصدق، أنت لا تعلم كل شيء عنه، المنافق لا يرتاح لمديح مؤمن، لأنه منافق ومنهار أمام نفسه، لأنه لو كان أحد ما مستقيم يكشفه، فيحاول بشكل أو بآخر أن يطعن بالآخرين، تجد المنافق بشكل أو بآخر يطعن بالآخرين، كي يرتاح، لأنه قلق، هل يوجد إنسان مستقيم؟ يوجد! لا أصدق!! هو لا يصدق أن في الأرض إنساناً مستقيماً، لا يصدق ذلك، الحالة الثانية أن يطعن بالمحسنين الجيدين الملتزمين، الطعن وسيلة، وتوسيع الباطل والفساد وسيلة، والتوبة وسيلة، أكمل شيء لمن اختلت فطرته، أكمل شيء لمن سقط من عين نفسه، لمن اختل توازنه، لمن نافق، أن يتوب إلى الله، لكن الذي يفعله معظم المنافقين أنهم يتهمون الطيبين أنهم ليسوا طيبين، إن هو إلا رجل يريد أن يتفضل علينا، هذه تهمة اتهم بها نبي، أو أن يغري الناس بالفسق.

أوضح مثال المرأة المصابة بالإيدز، تبيع نفسها بلا ثمن، من أجل توسيع دائرة المصابين بهذا المرض، تعاني حالة نفسية، أنها تنقل المرض للمئات بل للألوف، من أجل أن تتسع هذه الدائرة، وكل إنسان واقع في انحراف يتمنى الناس جميعاً أن يكونوا منحرفين، وكل إنسان واقع في الفساد يتمنى أن يكون الناس جميعاً فاسدين، وكل إنسان مبتلى بمعصية يقول لك: هذا هو الأصل، هناك مشكلة لا تحل، لا يصدق أن هناك إنساناً من هؤلاء الناس قد نجاه الله من هذه المعصية، لذلك هؤلاء المنافقون الآن بدأ المعنى الدقيق لهذه الآية:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا)

بأعماق أعماق المنافق يتمنى أن يكون الناس جميعاً مثله:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً)

القرآن الكريم نهى المسلمين عن اتخاذ الكفار والمنافقين أولياء من دون الله عز وجل :

هذا المنافق العدو الذي يتمنى أن تكفر كما كفر، لا يعقل، ولا يقبل، ولا يجوز أن تتخذهم أولياء، ما معنى أن تتخذ إنساناً ولياً؟ أن ترجع إليه، أن تستشيره، أن تهتدي بأفكاره، أن تحاوره، أن تعتمد عليه بشأن مادي، تحتمي به، ينبغي أن لا تتخذه ولياً، لا استشارة، ولا اعتماداً، لأنه يتمنى أن تكون مثله، إن رأى في حياتك ثغرة شمت بك ووبخك وأغراك أن تكون مثله في المعصية:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ)

نهي، فكل نهي في القرآن ينبغي الترك، فلا تتخذوا منهم أولياء، لا ترجع إليهم في مشكلاتك، لا تستشرهم، لا تصغي إلى نصائحهم، هم منقطعون عن الله عز وجل.

أخواننا الكرام، أقول لكم كلمة، والله من أعماق نفسي أتمنى أن تكون واضحة عندكم: هذه العين التي وهبنا الله إياها، ترى كل شيء حولك، لولا الضوء لا قيمة لها إطلاقاً، لو وضعنا إنسانين في غرفة مظلمة ظلاماً دامساً، أحدهما بصير، والآخر كفيف البصر، إنهما سواء، كيف أن العين لا يمكن أن ترى الأشياء إلا بنور الشمس، بضوء ما، كذلك العقل لا يمكن أن يعرف الحقيقة إلا من خلال الوحي، فالوحي للعقل كالنور للعين، فالإنسان حينما ينقطع عن الله عز وجل يصبح أعمى، هل يستشار الأعمى؟ إن رأيت أعمى غريب تقول له: أين المكان الفلاني؟ أعمى غريب!! فاقد الشيء لا يعطيه، إذاً ينبغي أن لا تتخذه ولياً، أي مستشاراً، مرجعاً، ألاّ تصغي إلى اقتراحاته، اقتراحاته كلها مخالفة للوحيين الكتاب والسنة.

(فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ)

لا ينبغي أن تستعين به، ولا ينبغي أن تسترشده لأنه لن يرشدك، وهذه مشكلة المسلمين في العالم، يريدون أن يعتمدوا على الطرف الآخر، والطرف الآخر أكبر عدو لهم، لن يمدهم لا بفكر، ولا بعلم، ولا بقوة، يريد أن يستغلهم، يريد أن يستثمرهم، نهي إلهي:

(فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ)

أعلى أنواع الطاعة أن تهاجر :

أنت منهي عن أن تتخذ منافقاً ولياً، فلأن تكون منهياً عن أن تتخذ كافراً فأن تتخذه ولياً من باب أولى، لكن هذا المنافق هل أغلق باب التوبة أمامه؟ لا! لو أنه تاب، ما علامة توبته؟ السلوك، مئات الأشخاص يعلنون إسلامهم وهم على ما هم عليه، معنى ذلك أن هناك مصلحة يرجونها، أما لو أن امرأة أعلنت إسلامها فينبغي أن تتحجب، لو أن إنساناً أعلن إسلامه فينبغي أن يصدق، أن يقلع عن أكل الربا، لا قيمة للإسلام إلا بالطاعة، فلذلك أعلى أنواع الطاعة أن تهاجر، الهجرة حركة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: 72]

فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله، أي ترك أرض الكفر، وانتقل إلى أرض الإيمان، ترك صحبة الكفار وصحب المؤمنين، ترك المال الحرام وكسب المال الحلال، الهجرة انتقال جذري، انتقال نوعي، من مكان إلى مكان، من قوم إلى قوم، من علاقات إلى علاقات، من ولاء إلى ولاء:

(فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

إذاً أي منافق، ولو كان من أصعب أنواع النفاق إذا تاب إلى الله، ورجع إليه، وهاجر، وانتقل من بلاد الكفر إلى بلاد الإيمان، انتقل من صحبة الكفار إلى صحبة المسلمين، من الولاء للكفار إلى الولاء للمؤمنين، هذا أصبح من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم.

في القرآن أخلاق الجهاد وأخلاق الدعوة :

قال تعالى:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا)

إن أصروا على كفرهم وعلى نفاقهم:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ)

أي إن كنتم في حرب معهم، فخذوهم أسرى:

(فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

عندنا في القرآن أخلاق الجهاد، وأخلاق الدعوة، أخلاق الدعوة:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: 34]

هذه أخلاق الدعوة، أما أخلاق الجهاد:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة التوبة: 73]

الآية التالية متعلقة بالجهاد :

هذه الآية هنا متعلقة بالجهاد:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ)

أسرى.

(وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

لا تستهدوا بهديهم، أو لا تستهدوا بفكرهم، ولا تعتمدوا عليهم، لكن هناك حالات دقيقة جداً، يوجد إنسان له وضع خاص، هو ينتمي إلى قوم بينكم وبين القوم معاهدة، قال:

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ)

فالمسلمون عند شروطهم، والمسلمون يحافظون على عهودهم ومواثيقهم، لو أن هذا الإنسان ينتمي إلى قوم بينه وبين المسلمين معاهدة ينبغي أن تكف عنه:

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ)

هناك حالة ثانية، كشخص هو في الحقيقة مؤمن لكنه لا يستطيع في قومه أن يبوح بإيمانه، كما أنه لا يستطيع أن يحارب قومه، يوجد حالات كثيرة جداً، لا تستطيع أن تكون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، هو في الظاهر ينتمي إلى قوم غير مسلمين، لا يقوى على أن يبوح بإيمانه، كما أنه لا يقوى على محاربة قومه، ضعيف، ضعيف عند قومه وعند المسلمين، فهذا مع أنه لم يهاجر ينبغي أن لا تقاتله وأن لا تأخذه، إما إنسان منافق لكنه ينتمي إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو جاءوكم وأباحوا لكم.

في التوحيد حقيقة خطيرة جداً هي حقيقة التسليط :

قال تعالى:

(أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ)

لا يستطيع أن يواجه قومه كما لا يستطيع أن يواجهكم، هذا أيضاً دعوه، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم، فالله عز وجل هو القوي، هو الذي ينصر وهو الذي لا ينصر، ولو شاء الله لسلطهم عليكم، نفهم من هذه الكلمة حقيقة في التوحيد خطيرة جداً، هي حقيقة التسليط، حينما تضعف أمام كافر ولست موحداً تظن أنه قهرك، ولكن إذا كنت موحداً تعتقد أنه سلط عليك، سلط عليك لسبب منك، الكرة بملعبك، سلط عليك لسبب منك، والمسلمون اليوم في أمس الحاجة لهذا المعنى، هذا الذي يرونه من أعدائهم ليس قهراً بل هو تسليط، والتسليط بيد الله عز وجل، وحينما يصلح الإنسان يزاح عنه هذا التسليط.

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً)

إذا قال: نحن لا نقاتلكم، ولسنا نقوى على مقاتلة قومنا فاعذرونا، هذا ينبغي ألا تقاتله:

(وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ)

أي وعدوكم ألا يقاتلوكم.

(فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً)

ادعاء بعض الفئات السلم و هم كاذبون :

وقوم آخرون:

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

أي الفئة الثانية يريدون أن يأمنوكم، ويأمنوا قومهم، لكن إذا أتيحت لهم الفرصة انقضوا عليكم، هؤلاء كاذبون في ادعائهم السلم.

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا)

أي سقطوا فيها، وتآمروا عليكم:

(فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ)

هؤلاء قاتلوهم في الحرب:

(فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(43-69): تفسير الآيتان 92-93 القتل الخطأ في الإسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-01-03

بسم الله الرحمن الرحيم

نفي الشأن هي أشد صيغ النفي في اللغة العربية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة النساء ومع الآية الثانية والتسعين، وهي قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

أيها الأخوة الكرام، ما من صيغة في اللغة العربية من صيغ النفي أشد من هذه الصيغة:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطأً)

هذا شيء مستحيل على أهل الإيمان، مستحيل على من آمن بالواحد الديان، مستحيل على من آمن بالجنة والنار، مستحيل على من آمن بالله الواحد القهار، مستحيل!

ينبغي أن يكون عدو المؤمنين عدواً لله أما أن يكون عدوهم ولياً لله فهذا مستحيل :

الشأن، ليس من هناك صيغة للنفي أشد من هذه الصيغة، وهذه اسمها في اللغة العربية نفي ليس يتصور، ولا يتخيل، لك أن شأن المؤمن ولا من طبيعته، ولا يرضى، ولا يقر، ولا يسمح، ولا تحميل هذه الصيغة تستخدم عشرات الأفعال بل بضع عشرات الأفعال في.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً)

لذلك يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً، ما دام لم يسفك دماً فهو بخير، لأن هذا الدم المسفوح لا بد من جهة تتحمله، ترون وتسمعون كيف أن الألوف تقتل، يظن المتوهم أن القضية هكذا، قتل وانتهى الأمر، ما من دم مسفوح إلا وتتحمله جهة، الإنسان المقتول بحد شرعي يتحمله الله لكن ما سوى هذا الحد لا بد من جهة تتحمل هذا الدم، لذلك الله عز وجل حينما قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

أي أيها المؤمنون ينبغي أن يكون عدوكم عدواً لله، أما أن يكون عدوكم ولياً لله هذا مستحيل أن يكون، لأنه:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً)

مستحيل.

الموت والقتل والفرق بينهما :

أيها الأخوة، القتل عدوان على العضوية، هذا الجسم فيه نفس هي ذات الإنسان، هي المعني بالخطاب، هي المكلفة، هي المشرفة، هي التي تؤمن، هي التي تكفر، هي التي تسمو، هي التي تسفل، هذه النفس هي ذات الإنسان، هي الإنسان، هذه لا تموت ولكنها تذوق الموت.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران: 185]

هي التي تخلد في النار أو في الجنة، هي التي تعاقب أو تكافئ، هي التي ترتقي إلى الله، هذه النفس في الدنيا في وعاء هو الجسد، الجسد يستقبل الروح، القوة الإلهية المحركة، فإذا اعتديت على بنية الجسد لم يبقى الجسد صالحاً لاستقبال الروح فيموت الإنسان، هذا هو القتل. ولكن الموت شيء آخر، هذه القوة التي تمد هذا الجسم تتوقف، فالموت أن تتوقف القوة الممدة لهذا الجسم، أما القتل أن تعتدي على بنية هذا الجسم فلا يبقى مؤهلاً لاستقبال قوة الله.

مصباح كهربائي متألق لو كسرته لا يعود المصباح مؤهلاً لاستقبال التيار الكهربائي فينطفئ، أما لو منعت عنه التيار الكهربائي ينطفئ أيضاً، ينطفئ إذا منعت عنه التيار الكهربائي، أو إذا كسرت زجاجته، في الحالتين ينطفئ، لكن في حالة واحدة أن تعتدي على بنيته المادية فلا يصلح لاستقبال القوة الكهربائية فينطفئ، أما في الحالة الثانية القوة الكهربائية التي تمده بالنور قطعتها عنه.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطأً)

أي الخطأ كحوادث السير، الذي يتسبب بقتل إنسان لا ينوي قتله إطلاقاً، ولا يتمنى، ولا يفكر، ولا يتصور، لكن خطأ في القيادة، أو طفلاً ارتمى أمام مركبة، أو سرعة زائدة، حصل ما حصل.

أيها الأخوة هذا القتل الخطأ، مع القتل الخطأ ينتفي العمد، وينتفي التصور، وينتفي التصميم، وينتفي القصد، أبداً، هذا يقع بين المؤمنين.

الناس رجلان مؤمن يقوم كيانه على العطاء وكافر يقوم كيانه على الأخذ :

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطأً)

لأنه المؤمن هذا من أولياء الله، أي كيف الإنسان إذا كان منتمياً إلى جهة قوية، وهذه الجهة القوية عادلة، كيف أن العدوان عليه له عقوبات كبيرة جداً، هكذا الحال، هذا مؤمن، هذا عنصر صالح، هذا عنصر خير، هذا عنصر معطاء، هذا عنصر منصف، هذا عنصر يعيش للناس لا يعيش الناس له، هذا عنصر صالح وليس مفسداً، أي الناس رجلان صالح ومفسد، رجل يعيش للناس ورجل يعيش الناس له، رجل يعيش لشهواته ورجل يعيش لمبادئه، رجل معطاء ورجل مغتصب، رجل يأخذ ورجل يعطي، إنسان ينصح وإنسان يغش، إنسان يخلص وإنسان يخون، إنسان ينصف وإنسان يظلم، فالمؤمن مظنة صلاح، مظنة عدالة، مظنة صلاح، مظنة إنصاف، مظنة رحمة، مظنة خير، المؤمن يقوم كيانه على العطاء، بدليل قول الله عز وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-6]

والطرف الآخر يقوم كيانه على الأخذ، يأخذ أموال الناس بالحق أو بالباطل، يغتصب أموالهم، يحتال عليهم، يعتدي على أعراضهم، أن يعيش على أنقاض الناس هو الكافر، أن يغتني على إفقار الناس، أن يصلح أحواله على إفساد الناس، أن يبني حياته على موت الناس، فالكافر عبء على الحياة، لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المؤمن إذا مات استراح من عناء الدنيا مرت جنازة فقال عليه الصلاة والسلام:

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، فَقَالُوا: مَا الْمُسْتَرِيحُ وَمَا الْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدّنْيَا وَأَذَاهَا وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ ـ كما ترون في الطغاة الذين يبنون مجد أممهم على أنقاض الشعوب ـ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلاَدُ وَالشّجَرُ وَالدّوَاب))

[متفق عليه عن أبي قتادة]

كل شيء يستريح منه، لأنه عبء على المخلوقات، يعيش على مص ما عندها.

تصنيف الناس عند الله بحسب رقعة تأثيرهم :

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً)

الآن مؤمن، الحد الأدنى رب أسرة ينفق عليها، يربيها، يأخذ بيدها إلى الله ورسوله، نفعه متعلق بأسرته، وإن كان متعلماً نفعه متعلق بتلاميذه، وإن كان تاجراً نفعه متعلق بمن كان يبيعهم، فالمؤمن خير وخيره متعدد، قد يكون الخير محصوراً في أسرتك، وقد يكون محصوراً فيمن يتعاملون معك،

وقد يكون في أهل بلدتك، وقد يكون في أمتك، وقد يكون في البشرية جمعاء، نبينا عليه الصلاة والسلام أرسله الله إلى الناس كافة، أرسله الله رحمة للعالمين، وكلما اتسعت الدائرة التي ينتفع بها الإنسان ارتقى عند الله، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

[سورة النحل: 120]

اسأل نفسك هذا السؤال: أنت في قلوب من؟ في قلوب أولادك؟ والعياذ بالله قد تجد أباً أقرب الناس إليه لا يحبونه، لأنهم يعيشون له ولا يعيش لهم، كلما اتسعت الدائرة التي تنتفع منك كنت أقرب إلى الله عز وجل، كلما عم خيرك كلما ارتقيت عند الله عز وجل، فهذا المؤمن في الحد الأدنى أسرته، في الحد الأوسع أهله الأقربون، والحد الأوسع من يتعامل معه، في الحد الأوسع من ينتفع بدعوته، في الحد الأوسع أهل بلدته، في الحد الأوسع أمته، في الحد الأوسع البشرية جمعاء، فالناس مصنفون عند الله بحسب رقعة تأثيرهم، لذلك الذي ألَّف كتاباً وعنونه بالمئة الأوائل جعل النبي عليه الصلاة والسلام والمؤلف ليس مسلماً، وليس منحازاً إلى الإسلام إطلاقاً، لكن بالمقاييس الموضوعية التي وضعها وجد أن النبي صلى الله عليه وسلم أعمق الأبطال الأوائل في البشرية أثراً، أعمقهم أثراً، وأطولهم أمداً، وأوسعهم رقعةً، يعني أثر النبي عليه الصلاة والسلام كان على رقعة واسعة جداً، وأثر النبي عليه الصلاة والسلام كان بألف وخمسمئة عام تقريباً، وأما تغلغل دعوته في أعماق الإنسان فقد وصلت إلى بُعد لم يستطعه أحد من البشر، أي يأتي تشريع تحريم الخمر وينتهي الناس، ودولة عظيمة ألقت بكل ثقلها، وبكل إمكاناتها، وبكل ما عندها من قوة، وبكل ما عندها من إغراء، حرمت الخمر فلم تفلح.

الحكمة من تحرير رقبة مؤمنة في حال القتل الخطأ :

أيها الأخوة، لعمق التأثير، ولامتداد أمد التأثير، ولاتساع رقعة التأثير، كان عليه الصلاة والسلام على رأس المئة الأوائل، فلذلك هذا الذي يقتل مؤمناً أي قتل عنصراً نافعاً، الكافر ضال، ضال مضل، فاسد مفسد، ظالم يدعو إلى الظلم، فاجر يدعو إلى الفجور، يبني مجده على أنقاض الآخرين، يبني حياته على موتهم، يبني غناه على فقرهم، يبني أمنه على خوفهم، أفسد الطبيعة، أفسد الحياة، أفسد النفس البشرية، أفسد الصغار، أفسد الكبار، هذا هو الكافر، الخلاص من الكافر راحة، بينما ذهاب المؤمن مصيبة، من هنا قال:

(وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً)

هذا المؤمن إنسان خيّر، إنسان معطاء، إنسان منصف، إنسان عادل، إنسان رحيم:

(وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً)

كما أفقدت المجتمع الإسلامي عنصراً طيباً معطاءً خيراً رحيماً أن تدخل في هذا المجتمع الإسلامي عنصراً مكانه طيباً رحيماً.

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)

العبد حركته مقيدة بسيده فإذا أطلقت حريته نفع المسلمين، أصبحت حركته من تلقاء ذاته، فلذلك إذا حررت رقبة مؤمنة فقد عوضت عن الذي أخذته من المجتمع بعنصر جديد:

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)

الحق الشخصي والحق العام :

هذا حق المجموع، هذا الحق العام، هذا حق الأمة، معمل، أو مؤسسة، أو مدرسة، أو مستشفى، مجتمع، في مئة طبيب، قتل طبيب خطأ، هذا الطبيب ضعف أداء المستشفى، قتل معلم خطأ، هذا المعلم الذي قُتل خطأ ضعف أداء هذه المدرسة، معمل فيه موظف مهم جداً قتل خطأ، ضعف أداء هذا المعمل، لا بد من أن تضيف إلى هذه المدرسة، أو إلى هذه المستشفى، أو إلى هذا المعمل عنصراً جديداً يحل محله، هذا الحق العام، هذا حق المجموع، هذا الحق الجماعي:

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)

صار هناك تعويض، أزهقت روح مؤمن فأدخل إلى المجتمع إنساناً أصبح حر الحركة، وما دام مؤمناً حركته في خدمة المجموع، قال:

(وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ)

هذا معيل، عنده أولاد ينفق عليهم، عنده زوجة، قُتِل فقدت هذه الأسرة المعين الذي يعطف على أفراد أسرته، ينفق عليها، يربيها، لا بد من تعويض، الحق الشخصي هو الدية، والحق العام هو تحرير رقبة مؤمنة، لكن في شيء بالإسلام رائع جداً، أن هذه الدية من يدفعها؟ يدفعها عاقلة قومه، من هم العاقلة؟ قومه الأقوياء الأغنياء، فالدية تدفع من قبل عاقلة القوم، يعني أيها القريب أي واحد من أفراد أسرتك إذا قتل مؤمناً خطأ أنت متكفل أن تدفع جزء من الدية، ما معنى هذا التشريع؟ معنى هذا التشريع أن كل أسرة ينبغي أن تتفقد شبابها، فإذا كان في شبابها شاب طائش أرعن ينبغي أن يهذبوه، أن يوجهوه، أن يكونوا معه، أن يرقوا به، أن يدلوه على الطريق الصحيح، فإن أهملوه وقتل مؤمناً فعليهم دية هذا المقتول، وهذا نوع من التضامن الجماعي، الآن يقول لك: أنا لا علاقة لي، ليس لك علاقة بابن أخيك الطائش الأرعن؟ الذي يأخذ سيارة أبيه ليلاً، وينطلق بها في الشوارع بسرعة كبيرة، لا علاقة لك؟ إن لم تبادر لتنبيهه، وتنبيه أبيه، ونصحه، والقسوة عليه أحياناً فسوف تتحمل جزءاً من المسؤولية.

القصاص من حق ولي المقتول لكن الحدود من حق الله وحده :

ما في أروع من هذا التشريع الذي يعطي المجتمع هذا التضامن إذا قتل هذا الشاب مؤمناً خطأ بحادث سير مثلاً فلا بد من أن تتحمل عائلته وأقرباؤه الأدنون هذه الدية:

(وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ)

الدية مئة ناقة، الناقة ثمنها مئة ألف، يعني عشرة ملايين، معين أسرة، قد يكون طبيباً، قد يكون مهندساً، قد يكون مدرساً، قد يكون تاجراً له دخل جيد، ينفق زكاة ماله، ينتفع المسلمون بماله، يرعى أهله، ينفق على الفقراء والمساكين، أنت قتلته خطأ، أنت جعلت من حوله بلا شيء، بلا معين، بلا منفق، فلا بد من دية تعوض ما فعلت:

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ)

طبعاً هذا البحث لا علاقة له بقوله تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

[سورة البقرة: 179]

الآية الثانية تعني القتل العمد، القتل عن سابق تصور وتصميم، لأن هذا القاتل فكر في قتل هذا المقتول قبل أن يقتله، رسم خطة محكمة ثم نفذها، وكان في هذه الفترة غائباً عن الله عز وجل، لو كان مع الله لما فكر في إزهاق روح إنسان مؤمن، مستحيل، مادام قد غابت عنه فكرة الإله، ومحاسبة الله عز وجل فليدفع الثمن:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

[سورة البقرة: 179]

فلذلك قضية القصاص من حق ولي المقتول، لكن الحدود من حق الله وحده، أما القصاص فمن حق ولي المقتول، لأنه قد يعفو ولي المقتول، ويقبل الدية.

القتل العمد و القتل الخطأ :

موضوع آخر: لو كان هناك قتل عمد، فالجزاء أن يُقتَل القاتل، هنا لا يُقتَل، هنا الذي يقتل خطأ لم يفكر بالقتل أبداً، ولم يخطر على باله، ولم يتصوره، لكن القاتل العمد قتل عن سابق إصرار وتصميم، والقتل العمد جزاؤه القتل، والقتل من حق ولي المقتول، إلا أن يعفو، إذا عفا، وقبل الدية فهذا شأنه، لكن حينما يقتل المؤمن مؤمناً خطأً لا نعاقبه بالقتل أبداً، لأنه ما فكر بالقتل إطلاقاً، ولكن نؤدبه بدفع الدية، ونؤدبه بتحرير رقبة مؤمنة، هكذا الحق العام والحق الخاص.

(وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا)

هناك حالات، طفل قفز أمام المركبة، والسائق منضبط إلى أعلى درجة، ومات الطفل، والسائق فقير، وأهله فقراء، وولي الطفل ميسور الحال، فبدافع من رحمته وخطأ ابنه عفا، ولم يقبل أن يأخذ الدية، هذا شأنه، وهذا مثاب عليه، وهذا أرقى عند الله عز وجل.

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

فإذا وجد العفو يقرب المعفو عنه إلى الله عز وجل، يصلحه فأجره على الله:

(وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا)

إذا عفوت عن حق لك فكأنما كتبت لك صدقة :

الآن هناك معنى رائع جداً، الصدقة أن تدفع المال، دفعت مئة ألف فهذه صدقة، لكن لو أن لك مئة ألف من حقك تستحقها، وعفوت عن الذي ينبغي أن يدفعها لك كأنك تصدقت بمئة ألف، كيف لو أنك فتحت صندوقك الحديدي وأخرجت مئة ألف، ودفعتها لإنسان فقير هذه عند الله صدقة من دون استثناء، من دون شك، لو عفوت عن من قتل إنساناً خطأ، وأنت وليه، لو عفوت عنه فأعفيته من أخذ الدية فكأنك تصدقت بمئة ألف، بالضبط قال: (إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا)، كان من الممكن أن تكون الآية: إلا أن يعفوا:

(إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا)

معنى إذا عفوت عن حق لك فكأنما كتبت لك صدقة:

(إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ)

هذا مؤمن مقيم مع أعداء للمؤمنين، وقتل خطأ:

(فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)

لأن المال إذا أدي إلى قوم هذا المؤمن وهم كفار فهذا المال يقويهم على المؤمنين، فلذلك إذا كان المؤمن مقيماً مع قومه الكفار، وقتل خطأ فالعقاب تحرير رقبة مؤمنة فقط:

(فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ)

أي في حالة حرب بينكم وبين قوم، وفيهم مؤمن قتل خطأ فهذا المؤمن الذي قتل خطأ. أولاً: لأنه أقام مع قوم كفار، وهو ليس على صواب. ثانياً: لو أعطينا الدية إلى أهله لتقووا بها على محاربة المسلمين، إذاً لا يعطون الدية، لكن الذي قتل خطأ ينبغي أن يحرر رقبة مؤمنة.

حكم من لم يجد عبداً رقيقاً ليعتقه :

قال تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ)

أي دولة معاهدة، فيها تمثيل دبلوماسي بينهما، في معاهدات.

(فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)

الدولة المعاهدة لن تستخدم هذا المال لإيقاع أذى بالمسلمين.

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

ما قال الله عز وجل: فمن لم يستطع:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

كأن الله أشار في هذه الآية إلى أنه سيأتي يوم لا تجد عبداً رقيقاً تعتقه، هذه مرحلة وانتهت الآن عبودية الأمم للأفراد، هذه المرحلة قال: فإن لم يجد، أي أنه سيأتي زمان لا تجد رقبة تعتقها.

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ)

صيام شهرين متتابعين، هذا تأديب لهذا الذي قاد مركبة وأسرع، وقتل مؤمناً خطأ، الإنسان شيء ثمين جداً عند الله أن تزهق روحه، فما بالكم من الذي يقتل الألوف المؤلفة والملايين عمداً، لا لذنب ارتكبوه إلا لأنهم مسلمون، ما قولكم؟!!

إذا جاءت التوبة من الله فلها معنيان أن الله شرَّعها وأن الله قبل التوبة :

قال تعالى:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

الله عز وجل جعل هذه الدية وجعل تحرير الرقبة، أو صيام الشهرين المتتابعين تشريعاً للتوبة، وكأن الإنسان إذا فعل هذا تاب الله عليه، (تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ)، إذا جاءت التوبة من الله فلها معنيان: أن الله شرعها، وأن الله قبل التوبة، وإن عزيت إلى العبد معنى ذلك أنه تاب إلى الله:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً)

عن سابق تصور وتصميم، عاش فكرة القتل قبل أن يقتل، وهو يعيش فكرة القتل، ويخطط، وهو غائب عن الله كلياً، غائب عن أن الله موجود وسينتقم منه، وهذا عبد من عبيده، والإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، هذا الذي يقتل متعمداً مقطوع عن الله كلياً لم يدخل مفهوم الألوهية في حسابه إطلاقاً، ولا مفهوم العقاب، ولا مفهوم الجزاء، ولا مفهوم الثواب ولا العقاب، ولا الجنة ولا النار إطلاقاً.

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

الجنة أن تعيش النعيم المقيم وتنظر إلى وجه الله الكريم وتنعم برضوان من الله أكبر:

إنسان يحكم بالسجن، يتوهم الناس أن العقوبة هي السجن، قد يكون مع السجن أشغال شاقة، وقد يكون مع السجن إذلال، إرهاق فلذلك هنا:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ)

كيف أن الإنسان في الجنة، الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيها فوق ذلك نظر إلى وجه الله الكريم.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة: 22-23]

وفوق ذلك: ورضوان من الله أكبر، أي أنت في مكان جميل جداً فيه ما لذ وطاب من الطعام، والشراب، والمناظر، والفواكه، وصاحب البيت جميل الصورة إلى درجة لا تصدق، وفوق كل ذلك: صاحب البيت يرحب بك ترحيباً لا حدود له، لعل أعظم شيء في هذا الإكرام ترحيبه، فالجنة أن تعيش هذا النعيم المقيم، وأن تنظر إلى وجه الله الكريم، وأن تنعم برضوان من الله أكبر، هنا:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ)

أبعده:

(وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

وهو في النار.

بعض التعليق على الخلود والخلود مع الأبد :

كيف أن الإنسان يعاقب بالسجن ثم يعاقب بالأشغال الشاقة:

(وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

وهو في النار، أما أن هذا الخلود في النار موضوع خلاف، وثمة ملمح أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدَاً)

[سورة الطلاق: 11]

وحينما يقول:

(خَالِداً فِيهَا)

فبين الآيتين معنىً دقيق، سيدنا ابن عباس مرة سئل في مجمع من الصحابة: هل لقاتل المؤمن خلود في النار؟ قال: نعم، ثم سئل هذا السؤال فقال: لا، فقالوا: عجبنا لك يا ابن عباس، تجيب مرة بنعم، ومرة بلا، فقال: السائل الأول لم يقتل بعد، أما السائل الثاني فقد وقع في هذه المعصية الكبيرة، فيبدو كلمة " خالداً فيها أبداً " أي الأبدية، أما الخلود تعني أن يكون في النار إلى مسافة طويلة جداً، هذا

بعض التعليق على الخلود والخلود مع الأبد. على كلٍ أعاذنا الله وإياكم من أن يكون الإنسان مشمولاً بهذه الآية:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

يظل المؤمن بخير ما لم يسفك دماً :

أيها الأخوة:

((عذبت امرأة في هرة حبستها))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

في هرة ليس إنساناً مؤمناً، له أولاد، له أهل.

((في هرة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا سقتها حين حبستها، ولا أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض))

فما قولكم فيما فوق الهرة؟ وقولكم فيما فوق الهرة إذا كان مؤمناً؟ أعود وأقول: يظل المؤمن بخير ما لم يسفك دماً، واللغة العربية دقيقة جداً، بعضهم تفاصح، وقال:

ولستُ أبالي حين أقتُل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

* * *

هو في جهنم، الشاعر ما قال هذا، بل قال:

ولست أبالي حينما أقتَل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

* * *

حركة واحدة نقلته من الجنة إلى النار، هذه دقة اللغة العربية، حركة واحد نقلته من الجنة إلى النار. أيها الأخوة، في درس قادم إن شاء الله نتابع:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(44-69): تفسير الآية 94، عَرض الدنيا وجوهرها لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-01-10

بسم الله الرحمن الرحيم

العقد الإيماني :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة النساء ومع الآية الرابعة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

أيها الأخوة الكرام، لا بد من وقفة متأنية عند قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هذا هو العقد الإيماني، أنا حينما آمنت أن الله سبحانه وتعالى خالق ورب ومسير، وأنت حينما آمنت أن أسماء الله كلها حسنى، وحينما آمنت أن منهجه منهج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا هو العقد الإيماني، فعليك أن تتحرك لطاعة الله مبدئياً من دون أن تبحث عن علة الأمر وعن حكمته، لو بحثت عن حكمته وأنت موقن أنه أمر لا شيء عليك، لكن حينما تعلق تطبيق هذا الأمر على معرفة حكمته أنت عندئذٍ لا تعبد الله، ولكن تعبد مصلحتك.

علة أي أمر أنه أمر :

أضرب لكم مثلاً: إنسان يشرب الخمر، ثم اكتشف أن التشمع قد تفشى في كبده، وأنه على وشك الموت، وأنه لا بد من استئصال ثلثي كبده، وأنه إذا امتنع عن شرب الخمر فوراً لعل الكبد ينمو، ويعيد بناء نفسه، ويعيش حياة سليمة، الآن هذا الشارب يمتنع عن شرب الخمر، هل يمتنع تعبداً لله عز وجل؟ إطلاقاً، هو يعبد مصلحته، لما أيقن أن بقاءه متوقف على الامتناع عن شرب الخمر ترك الخمر.

يجب أن تفرق بين إنسان لا يأتمر ولا ينتهي إلا إذا وجد أن مصلحته محققة فيما أمر أو فيما نهى، أنا لست ضد من يبحث عن حكمة الأمر، لا ما في مانع، لكن حينما تتجه إلى تعليق التطبيق على معرفة الحكمة أنت عندئذٍ لا تعبد الله أنت تعبد مصلحتك، وتعبد ذاتك، فلذلك قال علماء الأصول: علة أي أمر أنه أمر وكفى، أي هناك مثلاً من يتعمق في موضوع تحريم لحم الخنزير، شيء جيد،

ولكن يبني التحريم على علل علمية، يبنيها، فيناقش إنسان، يقول لك هذا الإنسان: الدودة الشريطية انتهت، عقمنا اللحم، كلما جئته بعلة لتحريم هذا اللحم يأتيك بالحل، فلو جاءت الحلول مناقضة للعلل ألغى التحريم، ينبغي أن تقول له بملء فمك: لا آكل هذا اللحم لأن الله حرمه، لأن الخالق حرمه، لأن العليم حرمه، لأن الحكيم حرمه، لأن الخبير حرمه، هكذا ينبغي أن نفهم أوامر الله عز وجل، علة أي أمر أنه أمر.

وأعيد على أسماعكم قصة أرويها كثيراً، أن عالماً من الشرق يحاور عالماً في أمريكا حول تحريم لحم الخنزير، بعد أن شرح له ساعات وساعات عن مضار أكل لحم الخنزير قال له هذا العالم المسلم حديثاً ـ وكأنه أشد فقهاً ممن يحاوره ـ قال له: كان يكفيك أن تقول لي إن الله حرمه، وكفى.

أنت مع طبيب تثق بعلمه، يقول لك: دع الملح، تترك الملح، حينما يعطيك أمراً من تثق بعلمه، من تثق بخبرته، فهنا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ما كان الله عز وجل ليوجه الخطاب بالأمر أو النهي إلا للمؤمنين، أما الذي لم يؤمن بالله، ولا بحكمته، ولا بعلمه، ولا بخبرته، أنى له أن يستجيب؟ لذلك الله عز وجل يخاطب عموم البشر بكليات الدين، أما دقائق التشريع الأمر والنهي، وتفاصيل المحرمات، يخاطب الذين آمنوا، أي هذا مؤمن.

لا بدّ من أن يتلازم التعريف بالله مع التعريف بأمره :

أيها الأخوة، هذا الكلام ينقلنا إلى شيء يعانيه الدعاة إلى الله، قد تعرض أمر تعبدي، أو أمر تشريعي على إنسان ثقته بهذا الدين ضعيفة، مفهوم الألوهية عنده مهتز، إيمانه بالله عز وجل ضعيف، فيعرض هذا الأمر على مقاييس العصر، يقول لك: أنا لست قانعاً أن أقرض إنساناً قرضاً بلا فائدة، هذا المال له قيمة والوقت له قيمة، أتريدني أن أخسر؟ هذا القرض الحسن ليس موجهاً لشخص عادي، هذا موجه لمؤمن، يعرف ما عند الله من ثواب كبير في الآخرة لو أنه أقرض قرضاً حسناً، هذا الأمر موجه إلى مؤمن يعرف ما عند الله من عذاب شديد إذا هو عصى الأمر، هذا الأمر موجه للذين آمنوا، لذلك الخطأ الكبير أن توجه أمراً إلهياً تفصيلياً لمن كان إيمانه بالله ضعيفاً، أن توجه نهياً إلهياً لمن كان إيمانه بالله ضعيفاً، عندئذٍ يعرض هذا الأمر بعيداً عن إيمانه بالله، بعيداً عن وعد الله، بعيداً عن وعيد الله، يجد أن الطريق الآخر أكثر راحة له، وأكثر تحقيقاً لمصالحه من منهج الله عز وجل، لذلك هذه المشكلة الكبرى لا بد من أن يتلازم التعريف بالله مع التعريف بأمره، أما إذا اكتفينا بالتعريف بأمر الله عز وجل فإنك سوف تجد تقصيراً وتردداً في تطبيق الأمر، كل هذه المعاني ينبغي أن تستحضرها حينما تقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بي، يا من أمنتم بجنتي، يا من آمنتم بالنار التي أعددتها للعصاة، يا من آمنتم بعلمي المطلق، يا من آمنتم بحكمتي المطلقة، يا من آمنتم بخبرتي، يا من آمنتم بمحبتي لكم، إيمانك بوجود الله، وإيمانك بوحدانيته، وإيمانك بكماله، وإيمانك بوعيده، وإيمانك بوعده، وإيمانك بعلمه، وبخبرته، وبحكمته، تقتضي أن تتحرك نحو تنفيذ الأمر بشكل مباشر دون تردد، ودون أن تعلق التطبيق على معرفة الحكمة، أنا مع معرفة حكمة الأمر، ولكن بعد أن تستسلم للأمر.

أعلى مرتبة في الدين أن تستسلم لرب العالمين :

عندنا أشخاص ثلاثة؛ شخص لا يطبق أمر الله إلا إذا انكشفت له حكمته، إذاً هو الآن يتحرك نحو مصلحته، كهذا الذي ترك الخمر بعد تشمع كبده، ترك الخمر لا طاعة لله، ولا عبادة له، ولكن اتباعاً لمصلحته، وإنسان آخر، والموقف الكامل أنه يبادر إلى طاعة الله، لأنه أمر، ولأن الله أمره، أو لأن الله نهاه من دون أن يعلق تطبيق الأمر أو ترك النهي على معرفة الحكمة، هذا نموذج آخر. النموذج الثالث هو ينصاع على طاعة الله دون أن يلقي بالاً لحكمة الأمر، لكن الله يكرمه بكشف حكمة هذا الأمر فيغدو عالماً، يحقق مرتبة العبودية لله بانسياقه لأمر الله، ثم يحقق مرتبة العلم بكشف حقيقة هذا الأمر لذلك بادر إلى طاعة، وتأكد أن الله سبحانه وتعالى سيكشف لك حكمة الأمر، تجمع بين مرتبة العبادة، وتجمع بين مرتبة العلم، ولا شك أن الله عز وجل حينما قال:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الحجرات: 14]

لكن في آية أخرى يبين الله عز وجل أن أعلى مرتبة في الدين أن تستسلم لرب العالمين.

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سور البقرة: 131]

ولا يخفى أيها الأخوة، أن في القرآن الكريم ومضات تؤكد هذا المعنى، فالأمر الذي لا يمكن أن يقبل، والأمر الذي لا يمكن أن يفهم، والأمر الذي يتناقض مع طبيعة الإنسان، ومع إنسانيته، ومع أبوته أن يقول الله عز وجل لنبي كريم اذبح ابنك.

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

[سورة الصافات: 102]

أعلى درجة من الانصياع لله عز وجل أن يأتيك أمر لا يقبل، ولا يعقل، ولا ينطلق من طبيعة إنسانية، فهذا النبي الكريم يعد قمة في الانصياع لأمر الله، نحن في حياتنا هذه كل الأوامر معقولة واضحة بينة حكمتها، والناس مقصرون، فكيف إذا كان الأمر غير معقول، وغير مقبول، لكن الذي وجه إليه هذا الأمر يعرف من هو الله، يعرف ما عنده، يعرف فضل الاستسلام له، يعرف فضل طاعته.

ينبغي أن تأخذ أمر الله بعيداً عن كل منفعة :

أيها الأخوة، أتمنى من كل قلبي أنكم كلما قرأتم في القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أن تعتقدوا اعتقاداً جازماً أن هذا عقد إيماني بينك وبين الله، أي أنا آمرك بتنفيذ هذه الأمور بناء على معرفتك بي، بناء على إيمانك بي، بناء على استسلامك لي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الآن توسع الناس في اعتقادهم أن الصلاة رياضة، وأن الوضوء منشط، وأن الصيام صحة، هذا كلام طيب، ولكن حينما تنطلق لتصلي من أجل تدريب جسمك على الحركات اللينة، وحينما تنطلق للتوضؤ كي تحس بالنشاط، وحينما تنطلق لتصوم من أجل أن تصح أجهزتك، أنت والله لا تعبد الله، ينبغي أن تأخذ أمر الله بعيداً عن كل منفعة، وعن اتقاء كل مضرة، أن تأخذ أمر الله على أنه أمر، ولا مانع أن تأتيك الفوائد المادية من تطبيق هذا الأمر، لكن المنطلق هو أنك تعبد الله، المنطلق هو أنك تأتمر بأمر الله، المنطلق هو أنك تنتهي عما نهى الله عنه.

الضرب في سبيل الله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

الحقيقة: (إذا) كما تعلمون تفيد تحقق الوقوع، بينما (إن) تفيد احتمال الوقوع، أي إذا جاءت (إذا) قبل جملة يعني هذا الذي سيأتي بعدها لا بد واقع لا محالة، لأن هناك معركة بين الحق والباطل أزلية أبدية، كما ترون وتسمعون، معركة الحق والباطل قديمة قدم الإنسان، وأبدية إلى أن ينتهي الدوران، فشيء طبيعي وقد يقول قائل: كان من الممكن افتراضاً وكل ما سوى الله ممكن، الله عز وجل واجب الوجود، لكن ما سواه ممكن الوجود، ممكن الوجود وممكن عدم الوجود، ممكن الوجود وممكن أن يوجد على غير ما هو كائن، كان من الممكن أن يجمع الله الكفار جميعاً في قارة بعيدة، وأن يأتي النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الرسالة الفريدة، وحوله مؤمنون صادقون، طيبون، أتقياء، صالحون، يسارعون إلى الإيمان به وهم معه، وليس هناك معركة بدر، ولا معركة أحد، ولا معركة الخندق، ولا صلح الحديبية، وليس هناك مكر اليهود، ولا شيء من هذا، ما الذي يحصل؟ أين ثمن الجنة؟ شاءت حكمة الله أن يكون حق وباطل، وخير وشر، شاءت حكمة الله أن يصطرع الحق بالباطل كي يرقى أهل الحق، وكي يرتدع أهل الباطل، أو كي يهتدي أهل الباطل حينما يحتكون مع أهل الحق:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أيها الأخوة، الضرب حركة عنيفة، هناك من يضرب في سبيل الرزق، يسافر يتجشم المشاق، ينام في غرفته وحيداً في البلد الذي سافر إليه، يأكل أخشن الطعام، يعمل طول النهار من أجل أن يجمع مالاً ليشتري به بيتاً، فالضرب حركة عنيفة، حركة فيها نشاط، حركة فيها فعل قوي:

(إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

فالضرب في سبيل الرزق ممكن وفي سبيل الله ممكن، ممكن أن تسافر من أجل أن ترتزق، وهذا سفر مشروع، ويمكن أن تسافر من أجل أن تنشر الحق، وهذا سفر جهادي، هنا الحديث عن الضرب في سبيل الله.

الجهاد رسالة :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي هذا الجهاد لا يمكن أن يكون مقبولاً عند الله عز وجل إلا إذا كان في سبيل الله، في سبيل إعلاء كلمة الله.

(حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)

[سورة البقرة: 193]

لو أن الطرف الآخر بيده أزمة الأمور لنشر الفساد في الأرض كما يجري الآن، حينما تُحتَل دولة إسلامية أول شيء يشاع فيها الفساد، والفجور، والاختلاط، والسفور، والأفلام، والبرامج التي تدعو إلى المعاصي والآثام، الجهاد:

(حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)

[سورة البقرة: 193]

الجهاد من أجل أن يخضعوا الناس لله عز وجل، الجهاد رسالة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا)

أنت حينما تنطلق لتحارب أخاك بعد أن تعرض عليه الإسلام فيرفض، وبعد أن تعرض عليه الجزية فيرفض، وبعد أن يصر على مقاتلتك، وعلى إطفاء نور الله عز وجل هنا شرع القتال، فأنت لا تقاتل من أجل أن تكره الناس على أن يكونوا مسلمين، هذا مستحيل، وهذا غير موجود في القرآن إطلاقاً.

لا يجب القتال من أجل إكراه الناس على الإسلام بل من أجل توفير الحرية للإنسان

قال تعالى:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

أنت لا تقاتل من أجل أن تكره الناس على أن يكونوا مسلمين، لكنك تقاتل لتمنع طاغية يحول بين الدين وبين أتباعه، أنت تقاتل لتوفر الحرية للإنسان:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا)

أي الذي تحاربه لو أنه شهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله عصم دمه منك، لا تستطيع أن تقاتله لأنه أسلم، إنما نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، لمجرد أن يعلن هذا الذي تقاتله يعلن الشهادة ينبغي أن تكف عن قتاله، لأن هذا الذي تقاتله إذا دخل في الإسلام، وأصبح واحداً منكم، له ما لكم، وعليه ما عليكم.

(فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا)

[سورة آل عمران: 20]

فإن أسلموا فإخوانكم في الدين، وانتهى الأمر، فلمجرد أن ينطق هذا الذي تقاتله بالشهادة ينبغي أن تكف عنه فوراً.

معنى القتال :

وقعت بعض الأخطاء من أصحاب رسول الله، وهم كما تعلمون ليسوا معصومين، هم معصومون في نقلهم عن النبي، في هذا كلهم عدول، ثقات، ولكنهم ليسوا معصومين في سلوكهم، النبي وحده معصوم بمفرده، بينما أمته معصومة بمجموعها، وفرق كبير بين العصمة وبين الحفظ، الولي محفوظ، بمعنى أنه لا تضره معصية، لأنه سريعاً ما يتوب منها، ولا تضره معصية، لأنه لا يصر عليها، ولا تضره معصية، لأنها لن تكون أبداً في أشياء كبيرة، في أشياء طفيفة غير مقصودة، إذاً الولي محفوظ بينما النبي معصوم، النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده، بينما أمته معصومة بمجموعها.

((لا يجمع أمتي على ضلالة))

[أخرجه الترمذي عن ابن عمر]

لذلك هذا معنى الإجماع، والإجماع نوعان؛ إجماع إعلاني، وإجماع سكوتي، قد يلقي إنسان كلمة في جمع غفير من المسلمين، والكل معجبون بهذا الكلام، ولا أحد يتكلم بكلمة اعتراض، سكوتهم إجماع، ما قال كلاماً يفتقر إلى دليل، أو يعاكس آية قرآنية، أو حديثاً صحيحاً، فهناك إجماع

سكوتي، وهناك إجماع بياني، إذا أجريت استفتاء فهذا إجماع بياني، أما إذا سكت المسلمون على دعوة صادقة فسكوتهم إجماع سكوتي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي إذا كنتم في الجهاد القتالي، وكما تعلمون هناك جهاد النفس والهوى، وهو الأساس، كيف أن للبناء أساساً، كيف أن للبناء هيكلاً إسمنتياً، هذا الأساس والهيكل جهاد النفس والهوى، يبنى على جهاد النفس والهوى الجهاد الدعوي.

(وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان: 52]

ويبنى على الجهاد الدعوي الجهاد القتالي، إن حالت قوة غاشمة طاغية بينك وبين الدعوة إلى الله هذه القوة الطاغية الغاشمة أجبرت الناس على الكفر، وحملتهم على الشرك، وحالت بينهم وبين التوحيد، أنت تقاتل هذه القوة الطاغية من أجل أن توفر للإنسان حرية التدين، هذا هو القتال.

قصة سيدنا نعيم بن مسعود :

الجهاد يحتاج إلى ولي أمر، ويحتاج إلى كيان وله شروط كثيرة ليس هذا الوقت مجال الحديث عنها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا)

الحرب مستعرة، وكل ما وقف أمامك تقتله، هذا ليس سلوك المؤمنين، تبينوا، لعل هذا الذي تقاتله في لحظة سريعة فكر فأسلم.

كلكم يعلم قصة سيدنا نعيم بن مسعود، كان زعيم غطفان، وجاء لقتال النبي عليه الصلاة والسلام، وكان قائد فرقته، زعيم غطفان، وهو في خيمته عشية معركة الخندق، جرى حوار بينه وبين نفسه، قال: يا نعيم أنت ذو عقل، لمَ جئت إلى هذا المكان لتقاتل هذا الإنسان الكريم؟ هل سفك دماً؟ هل انتهك عرضاً؟ هل أخذ مالاً؟ لمَ تقاتله؟ أنت ذو عقلٍ يا نعيم، لحظة تفكير صادقة وسريعة، نهض من فراشه وتوجه إلى معسكر النبي عليه الصلاة والسلام، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجئ النبي به، قال له: نعيم! قال: نعيم، قال له: يا نعيم ما الذي جاء بك، قال: جئتك مسلماً، زعيم الطرف الآخر، قال: أنت واحد نعيم، قال: لم يعلموا بإسلامي، فأمرني بما تريد، قال: أنت واحد، خبر عنا ما استطعت.

هذا الإنسان الكريم الذي في لحظة تفكير صادقة واضحة وجد أن الحق يقتضي أن يتبع، وأن سلامته وسعادته في إتباع الحق، وأن هذا الإنسان الكريم نبي كريم جاء يدعو إلى السلام، إلى حقن الدماء، إلى حفظ الأموال، إلى حرمة الأعراض، فدخل عليه مسلماً، هل تصدقون أن هذا الصحابي الجليل وحده استطاع أن ينهي هذه المعركة، لم يعلموا بإسلامه، فأوغر صدر اليهود على قريش،

وأوغر صدر قريش على اليهود، واستطاع بذكاء ما بعده ذكاء أن يشق صفوفهم، وأن يلغي اجتماعهم على رسول الله، وجاءت الرياح العاتية قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

[سورة الأحزاب: 25]

في لحظة تفكير واحدة واضحة مخلصة صادقة انتقل من الكفر إلى الإيمان.

علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر :

أنت حينما تقاتل، ثم قال أحد الذين تقاتلهم: أشهد أن لا إله إلا الله انتهى الأمر، ينبغي أن تقبل منه هذه الشهادة، ولست مسؤولاً عما إذا كانت منطبقة عما في نفسه، أو غير منطبقة، لست مكلفاً أن تشق عن صدره، فلذلك غضب النبي أشد الغضب من أحد أصحابه من الذين قتلوا رجلاً أعلن الشهادة في ساحة المعركة، ثم تبين للنبي عليه الصلاة والسلام أن بينهما بغضاء وشحناء، فما كان من موقف هذا الذي يقاتل إلا أن قتله على الرغم من إعلان الشهادة، فلذلك أبى النبي أن يستغفر له، ومات بعد أيام، وقال بعض علماء التفسير: إن هذه القصة سبب نزول هذه الآية، أي أنت تقاتل لتمثل دين، تمثل مبدأ إسلامي، أنت تقاتل لا تشفياً لأحقاد سابقة، لا تقاتل انتقاماً، لا تقاتل استعلاء، إنما تقاتل الفئة الباغية، تقاتل من حال بين الناس وبين التدين الصحيح، تقاتل الذي منع حرية التدين، أما الذي قبل هذا الدين فهو منا ونحن منه، وهذه عظمة الإسلام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً)

أشققتم على صدره؟ علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، قال بعض العلماء: نجاة ألف كافر خير من قتل مؤمن ظلماً، ولئن تخطئ في العفو أفضل ألف مرة من أن تخطأ في الحكم:

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الدنيا فيها شيء عرض، وشيء جوهر، الجوهر باقي، أي أحياناً عندك جوهرة تضعها في صندوق، تضعها في كيس، تضعها في علبة، العلبة شيء زائل، أما الجوهرة فهي الثابتة، الإنسان قد يرتدي ثوباً شتوياً، قد يرتدي ثوباً صيفياً، قد يرتدي ثوباً خفيفاً، ثوباً غالياً فالأثواب أعراض، والإنسان هو الجوهر، أما الإنسان أمام الجبل فعرض والجبل هو الجوهر، الجبل وجوده طويل جداً، فالعرض الشيء الزائل، والجوهر الشيء الباقي، فمال الدنيا عرض يأتي ويذهب، ومتع الدنيا عرض، بينما معرفة الله في الدنيا جوهر، والأعمال الصالحة جوهر لأنها تبقى.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 88 - 89]

الذي يبقى بعد الموت هو جوهر الحياة الدنيا والذي يزول هو من أعراض الدنيا :

إذاً:

(تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

كل شيء زائل في الدنيا من عرضها، ما الذي يبقى؟

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الكهف: 46]

لكن لا تبقى.

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

[سورة الكهف: 46]

معنى ذلك الشيء الذي يبقى بعد الموت هو جوهر الحياة الدنيا، والذي يزول عند الموت هو من أعراض الدنيا، بيتك الفخم عرض بدليل أنك تتركه عند الموت، التحف التي في بيتك، الأموال التي بحوزتك، المركبة التي تمتلكها، كل شيء تتركه عند الموت من عرض الدنيا، ولا قيمة له، ولا يمكن أن تكون الدنيا عقاباً لمؤمن، ولا إكراماً لإنسان، إنها أقل من ذلك، لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء.

جوهر الحياة الدنيا في العمل الصالح :

قال تعالى:

(تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

تبتغون شيئاً زائلاً لا قيمة له، تبتغون مالاً، تبتغون جاهاً، تبتغون متعة، الشيء العرض الزائل الذي لا يبقى، ما الذي يبقى؟ تبقى معرفة الله، تبقى الأعمال الصالحة، تبقى طاعة الله عز وجل، يبقى بر الوالدين، يبقى تربية الأولاد، الشيء الذي يبقى بعد موتك هو جوهر الحياة الدنيا، جوهرها في العمل الصالح.

((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))

[مسلم عن أبي هريرة]

(تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ)

كل ما عند الله شيء لا يصدق، عند الله جنات تجري من تحتها الأنهار، عند الله في الآخرة نظر إلى وجهه الكريم، عند الله في الآخرة رضوان من الله أكبر، هذا الذي ينبغي أن نبحث عنه:

(فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)

هذا الذي تقتله وقد نطق بالشهادة، ألم تكن يا من فعلت هذا مشركاً مثله قبل أن يأت محمد عليه الصلاة والسلام؟ منَّ الله عليك بالهدى، فما دام قد اهتدى ينبغي أن تكف عنه، إنك بهذا تخرج عن حكمة القتال.

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله يعلم :

قال تعالى:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)

فإذا خضع إلى الله ولو شكلاً ولو صورة ينبغي أن تكف عنه:

(فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

كلام دقيق، هذا الذي نطق بالشهادة أمامك فلم تقبلها منه بدعوة أنه قالها تقية، هل أنت متأكد؟ لكن لعلك تبتغي أن تأخذ الغنائم منه، إذاً الله عز وجل خبير بنيتك من هذا القتل، الله عز وجل خبير بينك وبينه شحناء في الماضي، وأحقاد فتشفيت منه، ولم تقبل شهادته، هذا يعلمه الله عز وجل. على كلِ أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله يعلم، حينما تعلم أن الله يعلم تكف عن معصيته:

(فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

خبير بالذي تفعله، خبير بالبواعث، خبير بالخلفية، إنسان تبرع بمسجد، والله شيء رائع جداً! ما شاء الله! بارك الله به! هل تصدقون أن بعض الذين لا يصلون عندهم أراض إذا تبرع بمسجد لا بد من تنظيمها، وإذا نظمت ارتفع سعرها، من يعلم ذلك؟ الله وحده يعلم ذلك.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

لا تخفى عليه خافية.

الحكمة من القتال توفير جو الحرية في التدين :

كأن هذه الآية تهديد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي بعد أن تعرضوا الإسلام على الناس، فإن رفضوا أن يسلموا تعرضوا عليهم الجزية، فإن رفضوا أن يدفعوا وأصروا على قتالكم، وعلى إطفاء نور الله تقاتلونهم، لا لتجبروا الناس على أن يسلموا، لا، لتحولوا بين الناس وبين من يمنعهم أن يسلموا، لتوفروا جو الحرية في التدين:

(إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا)

في أثناء القتال أحد من الناس نطق بالشهادة، انتهى، عصم بهذه الكلمة دمه منك:

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

إما تشفي صدرك منه أو تأخذ ماله غنيمة:

(فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(45-69): تفسير الآيتان 95-96، مفهوم الجهاد لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-01-17

بسم الله الرحمن الرحيم

حجم الإنسان عند الله عز وجل بحجم عمله الصالح :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية الخامسة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)

أيها الأخوة، مطلع هذه الآية يبين بكلام واضح أن حجم الإنسان عند الله عز وجل بحجم عمله الصالح، بعد أن يؤمن وبعد أن يلتزم، وبعد أن يسير على منهج الله، بعد أن يأتمر بما أمر، وينتهي عما عنه نهى وزجر، بعد هاتين المقدمتين الخطيرتين، أن يؤمن وأن يستقيم، أن يؤمن وأن يلتزم.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت: 30]

تفاوت المؤمنين بأعمالهم الصالحة :

الآن بعد الاستقامة المبنية على الإيمان الذي أراده الله عز وجل رادعاً للإنسان، حاجزاً عن كل عدوان، كيف يتفاوت المؤمنون؟ بأعمالهم الصالحة، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: 19]

كل مؤمن على وجه الأرض، من آدم إلى يوم القيامة، له مرتبة عند الله بحجم عمله الصالح، العمل الصالح ما من كلمة أوسع دلالة من هذه الكلمة العمل الصالح؛ العمل الذي يصلح للعرض على الله، العمل الذي إذا قابلت الله به يبيض وجهك، العمل الذي إذا قابلت الله به تقبل عليه، العمل الذي تحس في أعماق أعماقك أن الله راضٍ عنك، إذا بدأنا بالبيت أن تكون أباً صالحاً، وزوجاً رحيماً، أن تكوني أمّاً رؤوماً، وزوجة صالحة هذا عمل صالح، أن يكون الابن باراً هذا عمل صالح، أن يكون الأب شفيقاً، هذا عمل صالح، أن يكون التاجر صدوقاً نصوحاً هذا عمل صالح، أن يكون الموظف خدوماً لمن أمامه هذا عمل صالح، أن يكون الطبيب رحيماً، أي العمل الذي يليق بإنسانيتك، الذي يمتلئ قلب الآخرين امتناناً لك هو العمل الصالح، ما من كلمة ذات مدلول واسع كهذه الكلمة،

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، لعل إتقان عملك من العمل الصالح، لعل تحديد السعر المناسب لهؤلاء الفقراء من العمل الصالح، لعلك كمعلم إذا علمت هؤلاء الطلاب تعليماً دقيقاً وعميقاً، وجهتهم أخلاقياً ودينياً من العمل الصالح، ما من كلمة تحتاجها كل ثانية كالعمل الصالح تحتاجها في بيتك، تحتاجها في الطريق، تحتاجها في عملك، تحتاجها في علاقاتك، تحتاجها في أفراحك، تحتاجها في أتراحك لا سمح الله كالعمل الصالح، وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح، الجار الذي يرعى حق الجوار هذا من العمل الصالح، الذي يكفل الأيتام هذا من العمل الصالح، الذي يرعى الأرامل من العمل الصالح، الذي يطعم الجياع من العمل الصالح، الذي يحكم بين الناس بالعدل من العمل الصالح، الذي ينصح المسلمين من العمل الصالح، الذي ينطق بالحق من العمل الصالح، الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من العمل الصالح، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم من العمل الصالح، لَا يَسْتَوِي.

الإيمان الذي أراده الله عز وجل هو الذي يحجب صاحبه عن معصية الله :

قبل أن نتحدث عن التفاوت والتفاضل والترجيح بين المؤمنين ينبغي أن نظن أن هؤلاء المؤمنين تعرفوا إلى الله المعرفة التي حملتهم على طاعته.

((الْإِيمَانَ قَيْدُ الْفَتْكِ))

[مسند أحمد عن ابن الزبير]

الإنسان الذي يفتك بالناس ليس مؤمناً، إنسان يتجاوز الحدود، يأخذ ما ليس له، يعتدي على الناس ليس مؤمناً، ليس مؤمناً الإيمان الذي أراده الله، إبليس مؤمن.

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: 82]

إبليس مؤمن قال:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة الأعراف: 12]

إبليس مؤمن بالآخرة قال:

(فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف: 14]

ليس هذا هو الإيمان الذي أراده الله عز وجل، الإيمان الذي أراده الله عز وجل هو الذي يحجب صاحبه عن معصية الله، الإنسان حينما يعصي الله ليعلم علم اليقين أن في إيمانه خللاً، أن في إيمانه ضعفاً، بعد أن تؤمن الإيمان الذي أراده الله، والإيمان الذي أراده الله هو الذي يمنعك أن تعصي الله، الآن كيف نرجح بين المؤمنين، كيف يرتقي مؤمن إلى درجة أعلى من درجة مؤمن آخر؟ قال:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أولو الضرر مستثنون من حكم الجهاد :

يروى أن زيد بن ثابت كان من كتاب الوحي، وحينما جاء الوحي النبي عليه الصلاة والسلام قال: اكتب يا زيد: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون، وكان ابن أم مكتوم حاضراً حين نزول هذه الآية، وسمع قول النبي لسيدنا زيد: أن اكتب يا زيد، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله: ما يفعل من أقعدته العاهة عن الجهاد؟ فجاءه الوحي مرة ثانية، ليس استدراكاً ولكن تبيناً أن هذا الصحابي الجليل حينما استمع إلى الآية أقلقته، كأن الله أراد أن يعلمنا أن المؤمن إذا استمع إلى آية ينبغي أن يضع نفسه في موضع الفحص، أين أنا من هذه الآية؟ فجاء الوحي ثانية وقال:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

من كان من أولي الضرر، من كان ذا عاهة، من ابتلاه الله بشيء من ضعف في بنيته، هذا معذور، هذا مستثنى من الحكم، إذاً الموازنة:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

مؤمن قعد ماذا يقابل القعود؟ القيام، المؤمن ينبغي أن يكون قواماً للحق، قائماً في العمل في سبيل الله، إذاً:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: 19]

جهاد النفس والهوى هو الجهاد الأكبر :

من هو المفضل؟ المجاهد، وهذه أيضاً كلمة واسعة جداً، أول درجات الجهاد، وأساسيات الجهاد أن تحمل نفسك على طاعة الله، ودائماً وأبداً أيها الأخوة الإنسان له طبع ومعه تكليف، وشيء واضح لديكم أن الطبع يتناقض مع التكليف، وقد ذكرت هذا مراراً، الطبع يقتضي أن تبقى نائماً والتكليف يقتضي أن تستيقظ لتصلي، والطبع يقتضي أن تأخذ المال والتكليف يقتضي أن تنفقه، والطبع يقتضي أن تملئ عينيك من محاسن النساء والتكليف يقتضي أن تغض البصر، الطبع يقتضي أن تخوض في فضائح الناس شيء ممتع والتكليف يقتضي أن تصمت، ألا تشيع الفاحشة بين الناس، فلأن الطبع يتناقض مع التكليف صار لا بد من جهد جهيد لإيقاع الحركة وفق منهج الله، هذا الجهد الجهيد في إيقاع الحركة وفق منهج الله عز وجل هو الجهاد، هذا جهاد النفس والهوى:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

ما دمنا في الحديث عن الجهاد فالبناء، أهم شيء في البناء هيكله الاسمنتي، هذا الهيكل الاسمنتي يشبه النفس والهوى، قبل أن تفكر في جهاد الأعداء، قبل أن تفكر في الجهاد الدعوي ينبغي أن تنتصر على نفسك بادئ ذي بدء، إن لن تستطيع أن تنتصر على نفسك لا تستطيع أن تقاتل نملة،

والناس الذين اتبعوا شهواتهم، وساروا مع حظوظهم هؤلاء لا يستطيعون مقابلة أعدائهم، والقصة التي وردت في القرآن الكريم قال:

(إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ)

[سورة البقرة: 249]

عصوا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ، فلما واجهوا العدو:

(قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)

[سورة البقرة: 249]

الإنسان يرقى عند الله بطريقتين إما بالصبر أو بالعمل الإيجابي :

المعنى واضح جداً، الإنسان حينما يعصي لا يستطيع أن يواجه العدو، هو أضعف من أن يواجهه، لذلك علة ضعف المسلمين أن حبهم للدنيا استحوذ عليهم، آثروا الدعة والخلود إلى الأرض على الجهاد في سبيل الله، (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، و(غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ) استثناء صاحب هذا الأمر المعذور، والله عز وجل عذره، والله عز وجل أعطاه أجراً لا على أنه جاهد، لكن على أنه ابتلي فصبر، وأنت ترقى عند الله بطريقتين، إما أن تأتي المصيبة فتصبر عليها صبراً جميلاً، وتستسلم لمشيئة الله عز وجل، وتصبر على قضائه وقدره، كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف فقال: إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي، فإما أن تصبر على مصيبة ألمت بك، فترقى عند الله، فهؤلاء أولوا الضرر لم يجاهدوا، لكنهم ارتقوا بصبرهم، فالصبر يرقى بك، والعمل الإيجابي يرقى بك.

نعود إلى الجهاد، فجهاد النفس والهوى هو الجهاد الأكبر، هو الجهاد الذي ليس قبله جهاد، أنت حينما تضبط أمورك وفق منهج الله، حينما لا تسمح بمخالفة في بيتك ولا في عملك، ولا تسمح لجارحة من جوارحك أن ترتكب معصية، لا بلسانك، لا غيبة، ولا نميمة، ولا محاكاة، ولا بهتاناً، ولا افتراء، ولا سخرية، ولا بعينيك، فلا تملأ عينيك من الحرام، ولا بأذنيك، فلا تستمع إلى ما حرم الله من غناء، أو ما شاكل ذلك، ولا بيدك، فلا تحركها إلا وفق مرضاة الله، ولا برجلك، فلا تقودك رجلك إلا إلى طاعة الله، فأنت حينما توقع حركتك اليومية وفق منهج الله فأنت في الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى، إن أتقنت هذا الجهاد وكنت سيد نفسك وكنت متمكناً من تصرفاتك، وكنت ضابطاً لشهواتك، وكنت متحكماً بجوارحك، وكنت دقيقاً في قبض مالك، في دخلك وفي صرفك، الآن تسأل ماذا أفعل بعد هذا، نقول لك هناك جهاد آخر.

المرحلة الثانية في الجهاد مرحلة الجهاد الدعوي :

هناك جهاد آخر متاح لكل مسلم، عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بحديث جامع مانع قصير فقال عليه الصلاة والسلام:

((بلغوا عني ولو آية))

[البخاري عن ابن عمرو]

وعبرت عنه الآية الكريمة في سورة العصر:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر: 2]

وأكدته آية أخرى فقال الله عز وجل:

(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

وأشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى أنه:

((من لقيَ اللهَ بغير أثرٍ من جهادٍ لقيَ اللهَ وفيهِ ثُلمة))

[ابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يمتلئ إنائك ثم لا يفيض على من حولك، إذا امتلأ الإناء فلا بد من أن يفيض على من حوله، ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى تعبر عن ذاتها بدعوة إلى الله، في حدود ما تعلم، ومع من تعرف.

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء: 214- 215]

الآية التالية تعطينا منهجاً في الترجيح :

أيها الأخوة، هذه الآية تعطينا منهجاً في الترجيح:

(لَا يَسْتَوِي)

أي لا يمكن أن يكون عند المؤمن إعجاب سلبي للإيمان، ما شاء الله، دين عظيم، دين الفطرة، دين الإسلام هو الدين الصحيح في الحياة، كلام، ماذا فعلت؟ ماذا قدمت لله عز وجل؟ لو أن الله سألك يوم القيامة ماذا قدمت من عمل صالح بين يدي يوم القيامة؟ ما فعل شيئاً، هذا الإعجاب السلبي، والانتماء الشكلي، والعواطف الإسلامية، والاتجاه الإسلامي، والفكر الإسلامي، والمشاعر الإسلامية، والاهتمامات الإسلامية من دون تقديم عمل ملموس لخدمة المسلمين في حل مشكلاتهم، في التخفيف عنهم، في تنفيس كربهم في الدنيا، في تعليم أبناءهم، لا يرقى بك الإيمان المبني على إعجاب سلبي، كما قلت بعد أن تجاهد نفسك وهواك، وتحقق الجهاد الأكبر، وتنتقل إلى جهاد آخر، هو الجهاد الدعوي، كيف أن الله عز وجل قال:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

[سورة النحل: 120]

أنت في كم قلب؟ هل أنت في قلب أحد، هل أنت في قلب عدد من الناس؟ هم يحمدونك في السحر، جزى الله عنا فلاناً كل خير، هل ساهمت في نقل الحق لإنسان؟ هل ساهمت في إقناع إنسان في هذا الدين العظيم؟ هل وصلت الناس بالله؟ هل دفعتهم إلى باب الله؟ هل حرضتهم على طاعة الله؟ هل بينت لهم عظمة هذا الدين؟ هل شجعتهم؟ هل كنت قدوة لهم؟ هل جلست معهم؟ هل آنستهم؟ هل زرتهم في بيوتهم؟ هل جمعتهم في بيت الله؟ هل دفعتهم إلى بيت من بيوت الله؟ ماذا فعلت؟ تنتقل بعد جهاد النفس والهوى، وكأنه الهيكل الأساسي للبناء إلى الجهاد الدعوي، ثم إذا أتيح لك أن تنشر هذا الدين في الآفاق، إذا أتيح للمسلمين أن يحملوا هذا الدين العظيم إلى الشعوب والأمم كما فعل أسلافهم.

المرحلة الأخيرة الجهاد في سبيل الله :

قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

[سورة البقرة: 143]

إذا أتيح لك ذلك، وعرضت الإسلام على قوم فدخلوا فيه فلك كل الأجر والثواب عند الله عز وجل.

((يا علي! لأن يهدي الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الطبراني عن أبي رافع]

وإن أبوا، ودفعوا الجزية فقد حموا أنفسهم وأموالهم وأهليهم، وإن أبوا إلا قتال المؤمنين يقول الله عز وجل:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا)

[سورة البقرة: 190]

تقاتل من حال بين الناس وبين التدين، تقاتل من حال بين الناس وبين أن يعبدوا الله، ونستبق الأمور الذين لا يستطيعون أن يعبدوا الله عز وجل في مكان، لأن قوة غاشمة تمنعهم من عبادة الله، هذا الذي يمنع حرية التدين هو الذي يقاتَل، ليتيح للإنسان حقه الطبيعي في الحرية، أن يعتقد ما يشاء، وأن يسلك الطريق الذي اختاره لنفسه.

أيها الأخوة، هذه هي المفاهيم الثلاثة: مفهوم الجهاد، جهاد النفس والهوى، ومفهوم الجهاد الدعوي، وهو متاح لكل إنسان مسلم يرتاد بيوت الله عز وجل. وأنا أذكر لكم أن بعض الأخوة الكرام استطاع أن يقنع من حوله من أهله، ومن أخوته، وأصهاره، وأبناء عمه، هناك من أقنع زملاءه بالعمل، هناك من أقنع أصدقاءه القدامى، هذا جهاد كبير، جهاد الدعوة، جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، طبعاً بأسلوب عصري، بتلطف ما بعده تلطف، لأن الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة: 73]

هذا السلوك أين؟ في ساحة المعركة فقط، أما في الحياة المدنية:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: 34]

المؤمن القاعد لا يرقى إلى مستوى المؤمن المجاهد فالفرق كبير بينهما :

أنت يا محمد سيد الأنبياء والرسل، سيد ولد آدم على الإطلاق، أنت يا محمد أوتيت القرآن، ومثله معه، أنت يا محمد أوتيت المعجزات، أوتيت البيان، أوتيت الحكمة، أوتيت الفطنة، أوتيت الرحمة، أوتيت اللطف، كل هذه الميزات أنت بالذات:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران: 159]

كيف لمن ليس نبياً، ولا رسولاً، ولا معه معجزات، ولا معه وحي، ولا معه كتاب، وليس فصيحاً، وليس أصيلاً، وليس منتسباً، وهو فظ غليظ القلب، اختلاط الأمور، اختلاط آيات أخلاق الجهاد مع آيات أخلاق الدعوة يسبب مشكلات كبيرة، المؤمن في دعوته إلى الله في غاية الرقة، كان عليه الصلاة والسلام يصلي، فسمع صوت طفل يبكي ينادي أمه ببكائه، فاختصر الصلاة، وقال: سمعت طفلاً ينادي أمه ببكائه، فأردت أن أرحمها وأرحمه، لطف ما بعده لطف، تواضع ما بعده تواضع، رقة ما بعدها رقة، هذه أخلاق الدعوة، وأخلاق القتال شيء آخر، فلذلك الله عز وجل يدفعنا إلى الأعمال البطولية:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

أي المؤمن لا يقدم شيئاً، لا يفكر أن يقدم شيئاً للمسلمين، يعيش الناس له ولا يعيش للناس، يعيش ليحقق مصالحه، يصلي، ويصوم، ويحج، ويزكي، ولكن لا يفكر بعمل صالح إطلاقاً، لا يخرج عن دائرة مصالحه، ولا عن دائرة اختصاصه وعمله، مثل هذا المؤمن قاعد، ولا يستوي مع مؤمن مجاهد، مثل هذا المؤمن لا يرقى إلى مستوى المؤمن المجاهد، فرق كبير، أين الثرى من الثريا؟

فضل الله عميم ولا ينسى الله أحداً من فضله :

قال تعالى:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ)

يمكن أن تجاهد نفسك وهواك، ويمكن أن تجاهد بمالك، ويمكن أن تجاهد بلسانك، ويمكن أن تجاهد بأن تضع حياتك في سبيل الله، هذه أنواع الجهاد، ثم يقول الله عز وجل:

(فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً)

قد تكون هذه الدرجة أبعد ما بين السماء والأرض:

(فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً)

لكن كرم الله عميم.

(وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى)

أي المؤمن المستقيم على أمر الله له عند الله شيء، فضل الله عميم، لا ينسى الله أحداً من فضله.

المقصود من كلمة (عظيم) :

قال:

(وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)

إذا قال الله عز وجل:

(أَجْراً عَظِيماً)

فكم هذا العظيم؟ يعني أنت لو استمعت إلى طفل يقول أنا عندي مبلغ عظيم، كم تقدر هذا المبلغ من طفل؟ إذا استمعت إلى جهة تنطق باسم دولة غنية جداً، فقال: رصدنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، كم؟ طفل قال: عظيم، وناطق باسم دولة غنية جداً تنوي أن تقوم بحرب ظالمة، قال: رصدنا مبلغاً عظيماً، بألوف المليارات هناك، هنا بعشرات الليرات فقط، كلمة عظيم، فإذا قال الله عز وجل:

(وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)

كم هذا العظيم؟ فلذلك لو يعلم الإنسان ماذا ينتظره بعد الموت ما أكل طعاماً عن شهوة، ولا شرب شراباً عن ظمأ، ولا دخل بيتاً يستريح فيه، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعى إلى اللعب وهو صغير فكان يقول: لم أخلق لهذا، وحينما جاءته الرسالة واختاره الله ليكون نبي هذه الأمة جاء إلى بيته فطلبت منه السيدة خديجة رضي الله عنها أن يأخذ قسطاً من الراحة، فقال عليه الصلاة والسلام: انقضى عهد النوم يا خديجة، ماذا فعل؟ عاش بعد الرسالة ثلاثة وعشرين عاماً قلب وجه الأرض من الضلال إلى الهدى، من الضياع إلى السعادة. واحد: أنت اسأل نفسك ماذا فعلت أنا؟ ماذا قدمت لهذه الأمة؟!!

ينبغي على الإنسان ألا يقعد مع القاعدين :

النبي عليه الصلاة والسلام أقسم الله بعمره قال له:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر: 72]

أقسم بعمره، أنت ماذا فعلت؟ هل ربيت أولادك، هل نصحت الناس في بضاعتهم أم غششتهم؟ هل ربيت أولادك أم سيبتهم بالطرقات والمسلسلات ولأصدقاء السوء؟ هل نصحت أخوانك؟ هل أتقنت عملك؟ هل دفعت من مالك؟ هل أعنت المتضررين؟ هل بكيت لبؤس البائسين؟ ماذا فعلت؟ ماذا قدمت؟

(وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)

لذلك ينبغي ألا نقعد مع القاعدين، قال المنافقون فيما بينهم:

(وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

[سورة التوبة: 46]

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

[سورة المائدة: 24]

قعود الكسل، قعود الهمة المتدنية، قعود الضعف، قعود اليأس، قعود التشاؤم، هذا القعود.

الأجر العظيم درجات وكل درجة ما بين السماء والأرض :

لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)

لذلك يوم القيامة هناك أصحاب اليمين وهناك:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

[سورة الواقعة: 10-11]

لماذا أنت في الدنيا؟ تبتغي أن تكون في أعلى مقام، ولا تقبل إلا أن تكون رأساً في كل موضوع، لا تقبل إلا أن تكون رأساً في دنياك، وترضى أن تكون في مؤخرة الركب، لماذا؟ لماذا ترضى من الآخرة كما يقول معظم الناس وراء الباب، وراء باب الجنة، ولا تقبل في الدنيا إلا أجمل شيء وأكمل شيء، هذا خلل كبير في تفكير الإنسان:

(وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

[سورة التوبة: 46]

ثم يقول الله عز وجل:

(دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

هذا الأجر العظيم درجات، وكل درجة ما بين السماء والأرض. مثلاً إنسان جالس في بيته متنعم يأكل ما لذ وطاب، يستمتع بكل شيء، فقط يوزع ألقاب على الناس، يدلي بآرائه في كل موضوع، يوزع ألقاب، يتهم إنسان، يقدس إنسان، ولا يقدم شيئاً، وإنسان غارق إلى رأسه في خدمة الخلق، هل يستوي هذا مع هذا؟

الطموح الحقيقي أن تكون طموحاً في الآخرة :

قال تعالى:

(دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

أيها الأخوة الكرام، ليس الطموح أن تكون طموحاً في الدنيا، ولكن الطموح الحقيقي أن تكون طموحاً في الآخرة، العبرة أن تكون مع السابقين السابِقين لا أن تكون مع أصحاب اليمين الذين نجوا، إن كان الخيار بين أن تكون مع أصحاب اليمين، وبين أن تكون مع الطرف الهالك ينبغي أن تكون مع أصحاب اليمين، أما إذا كان الخيار بين أن تكون مع أصحاب اليمين وبين أن تكون مع السابقين السابِقين ينبغي أن تكون مع السابقين، والأمر بين أيديكم، الله عز وجل الذي رفع شأن أصحاب رسول الله موجود، وهو إلهنا وربنا، والظروف متشابهة، وأبواب الخير لا تعد ولا تحصى، والأعمال الصالحة بين أيدي كل الناس، ولكن أزهد الناس من زهد بعمل صالح.

أخواننا الكرام، سيدنا كعب بن مالك الذي تخلف عن الغزو في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فلما عاد النبي إلى المدينة وجلس يستمع إلى أعذار المتخلفين، ثمانون إنساناً أبدوا أعذارهم لرسول الله، والنبي قبلها، ولعله قبلها مجاملة لهم، فلما جاء كعب بن مالك، وقد تخلف عن الجهاد خاطب نفسه، وقال: والله لقد أوتيت جدلاً؛ أي أوتي قوة إقناع، القدرة على الإقناع هذا شيء يتميز به بعض الأشخاص، أوتي هذا الصحابي الجليل قدرة على الإقناع، فقال: والله لو أنني خرجت من سخطه، أي أدليت بسبب مقبول محكم، ونجوت من سخطه ليوشكن الله ليسخطه علي، رأى أنه لو كذب على هذا الرسول الكريم فإن الله يكشفه، وسوف يلقي بقلب النبي بغضه، رأى أن يد الله تعمل وحدها، قال: فأجمعت صدقه، أي أخذ قراراً أن يكون صادقاً، فلما وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله، والله حين تخلفت عنك ما كنت في حال أقوى مني أو أنشط، ولكنني تخلفت، أي لا عذر لي، فجاء الوحي بأن يقاطع النبي وأصحابه هذا الصحابي إلى إشعار آخر، لم يكلمه أحد، هم ثلاثة صدَقوا النبي، قال تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة التوبة: 118]

حال المسلمين اليوم في تقصيرهم بالطاعات :

أيها الأخوة، إذا قصر الإنسان في الجهاد، في بذل روحه في سبيل الله فكيف إذا قصر في الطاعات، هو في بيته آمن، مطمئن، في البيت خمسون معصية، ومعاصي بالبنات، ومعاصي بالزوجة، ومعاصي بالأولاد، ومعاصي بالبيع والشراء، ونحن مسلمون، نحن من أمة محمد، وأمة محمد مرحومة، مثلاً، ما هذا الكلام؟ هذا كلام غير مقبول، إذا كان الصحابي الجليل تخلف عن أن يبذل روحه في سبيل الله قوطع خمسين يوماً من قبل النبي وأصحابه، فكيف بهؤلاء المسلمين المقصرين، إذا كان بعض الأصحاب عينه النبي قائداً ثالثاً في معركة مؤتة، وهو عبد الله بن رواحة، فلما جاء دوره في القيادة طبعاً تسلم القيادة زيد، فأمسك الراية بيمينه، وقاتل بها حتى قتل، ثم تسلم الراية جعفر بن أبي طالب، فقاتل بها حتى قتل، فجاء دور عبد الله بن رواحة، وكان شاعراً، تردد عشر ثوان، قال:

يا نفس إلا تقتلي تـموتي هذا حمام الموت قد صليتِ

إن تفعلي فعلهما رضيـتِ وإن توليتِ فــقد شقيتِ

* * *

عشر ثوان، وإن توليتِ فقد شقيتِ، أو خمس عشرة ثانية، قال عليه الصلاة والسلام: أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل، وإني لأراه في الجنة يطير بجناحين، لأن العدو قطع كلتا يديه، ثم سكت النبي، سكت خمس عشرة ثانية، بمقدار تردد عبد الله، فقالوا: يا رسول الله ما فعل عبد الله؟ قال: ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه، نحن ترددنا لبذل نفسنا؟ مترددين في طاعة الله عز وجل، مترددين في كسب المال، يقول لك: لا تدقق، الدنيا كلها غلط، عندي أولاد مثلاً، مترددين بالسماح أن نمارس بعض الشهوات التي لا ترضي الله عز وجل، فوضع المسلمين في حال يرثى له، إذا أردت أن تقول: لماذا تخلى الله عنا؟ هناك ألف سبب وسبب لتخلي الله عنا.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(46-69): تفسير الآيات 97-100 ، الهجرة في سبيل الله والهجرة في سبيل الشيطان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-01-24

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه النفس التي هي ذات الإنسان هي أمانة بين يديه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية السابعة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

أيها الأخوة، اللَّهُ عز وجل يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، أي أن هذه النفس التي هي ذات الإنسان وضعت في أمانته في الحياة الدنيا، وكلف أن يعرفها بربها، وأن يحملها على طاعته، وأن يطهرها ويزكيها بالقرب منه، وقد قال الله عز وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

إلا أن هذه الأمانة ليست إلى أبد الآبدين، هي أمانة بين يديك إلى وقت معلوم، النجاح كل النجاح، والفلاح كل الفلاح، والفوز كل الفوز، والتفوق كل التفوق، في أن تزكيها، أي أن تعرفها بربها، وأن تحملها على طاعته، وأن تسعدها بالقرب منه:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

هذه النفس أمانة لا إلى أبد الآبدين ولكن إلى وقت معلوم :

من تركها جاهلة غير منضبطة بمنهج الله، تملؤها الشهوات والأدران هذه أشقى النفوس، لكن الإنسان لا بد من وقت تسترد فيه الأمانة، ولعوام الناس كلام يقترب من هذا المعنى يقولون: صاحب الأمانة أخذ أمانته، نفسك أمانة بين يديك، كل بطولتك أن تزكيها، أما هي أمانة لا إلى أبد الآبدين، إلى وقت معلوم، الله عز وجل قال:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة آل عمران: 133]

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

[سورة السجدة: 11]

نعود إلى الوفاة، الذي يأمر بالوفاة هو الله، الآمر الأعلى، والأمر يتوجه إلى ملك الموت:

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

[سورة السجدة: 11]

الله عز وجل هو الذي يأمر وملك الموت مشرف على التنفيذ وله أعوان :

الله عز وجل إذا قال:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)

[سورة الزمر: 42]

أي هو الذي يأمر، وإذا قال الله عز وجل:

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

[سورة السجدة: 11]

أي هو المنفذ، وإذا قال الله عز وجل:

(تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا)

[سورة الأنعام: 61]

هؤلاء أعوان ملك الموت، الحقيقة الله عز وجل هو الذي يأمر، وملك الموت مشرف على التنفيذ، وله أعوان أشير إليهم في قوله تعالى:

(تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)

[سورة الأنعام: 61]

على كل هذه النفس التي أودعت في الجسد، والتي خلق لها الكون من أجل أن تعرف الله، والتي أعطيت العقل من أجل أن تهتدي إليه، والتي فطرت فطرة تتوافق مع منهج الله، وقد أودعت فيها الشهوات لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، وقد أعطيت حرية الاختيار، وقد وضع لها منهج قويم تسير عليه هذه النفس البشرية المعنية بالخطاب.

من ظلم نفسه ضيع عليها الأبد و سعادة الآخرة :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ)

أي جاءهم ملك الموت وهم ظالمو أنفسهم، الإنسان متى يظلم نفسه؟ حينما يضيع عليها خيراً كثيراً، هي خلقت للأبد، خلقت للجنة، فغفلت عن الله عز وجل، واهتممت بالدنيا، والدنيا محدودة، الدنيا أمدها قصير مركبة على المتاعب، أما الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

[سورة يونس: 7]

هؤلاء هم الخاسرون. فمن هم الذين ظلموا أنفسهم؟ هم الذين قهروا على أن يعصوا الله عز وجل، أي وضع استثنائي، وقد مر في التاريخ الإسلامي حالات كثيرة جداً أن بلداً من البلدان لا يستطيع فيه المؤمن أن يطيع الله عز وجل، يجبر على معصية الله، هذا الإنسان إذا بقي في هذا البلد، في البلد الذي يجبر فيه على معصية الله، ولا يتاح له أن يطيع الله، ولا أن يعبده إذا بقي في بلد، وضحى بالجنة من أجل أن يبقى فيه، آثر ماله، آثر من حوله، آثر بلداً ألف فيه، هذا يموت ظالماً لنفسه، لأنه استعجل العاجل، وضيع الآجل، لأن هذه الآية جاءت في سياق الجهاد، فالبلد الذي لا تستطيع أن تعبد الله فيه ينبغي ألا تبقى فيه، لأنك مخلوق في الدنيا من أجل العبادة، كلام دقيق، لأن علة وجودك في الأرض من أجل أن تعبد الله، فإذا حيل بينك وبين أن تعبده، إذا حيل بينك وبين أن تؤدي الغاية التي خلقت من أجلها، إذا حيل بينك وبين أن تطيعه، لا شيء يعذرك يوم القيامة، ينبغي أن تهاجر، هذه الهجرة في سبيل الله، هذه الهجرة فراراً بدينك، هذه الهجرة صون لعرضك، هذه الهجرة ضمان لمستقبل أبنائك، كلام دقيق واضح كالشمس، أي بلد في الأرض حال بينك وبين أن تعبد الله ينبغي ألا تبقى فيه، وبقاؤك فيه تعرض دينك، وتعرض أهلك، وتعرض من حولك للشقاء في الدنيا والآخرة.

فهؤلاء الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم أي ضيعوا على أنفسهم الآخرة، ضيعوا على أنفسهم سعادة الآخرة، ضيعوا على أنفسهم الأبد، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فأقاموا في بلد لم يستطيعوا أن يطيعوا الله فيه، أي أقاموا في بلد لا يستطيع أن يمنع ابنته أن تتزوج بفاسق، إذا وجد مع ابنته شاباً في السرير، وعنفه يقاد إلى المخفر ليوقع تعهداً أنه لم تكن حضارياً في تعامله مع صديق ابنته، في مثل هذا البلد الذي ترتكب فيه الفواحش على قارعة الطريق، ولا يستطيع الإنسان أن يضمن مستقبل أبنائه، ولن يكون أبناؤه مسلمين، لذلك قال بعض العلماء، وأنا معه بهذا القول: إن لم تضمن أن يكون ابنَ ابنِ ابنك مسلماً فلا يجوز أن تبقى في بلاد الكفر، ومن أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله، والقصص التي يعاني منها أبناء الجاليات في بلاد الغرب أكثر من أن تحصى، لأن أثمن شيء في حياة الإنسان أولاده، ولن يكون قرير العين على مستقبل أولاده إذا أقام في بلاد يعبد فيها الدرهم والدينار، وتعبد فيها الشهوات، ويضام الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

من يضحي بدينه ودين أولاده من أجل دخل أكبر فهذه بمثابة هجرة في سبيل الشيطان:

أيها الأخوة الكرام، من أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله، ولا أطمئنكم بل أقرر حقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام في أكثر من ثلاثين حديثاً صحيحاً دعا المسلمين في آخر الزمان إلى السكنى في الشام فقال: هي خير بلاد المسلمين للمسلمين يومئذ. وقال:

((رأيت عمود الإسلام قد سلّ من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو بالشام))

[الطبراني والحاكم عن ابن عمرو]

طوبى لمن له فيها مربط شاة، الداخل إليها برضائي والخارج منها بسخطي، إذا كان لك في الشام مربط شاة فطوبى لك، إن كان لك في الشام مورد رزق يكفيك طوبى لك، وترون هذا التجمع في مسجد، في درس ربما لا يوجد في بلاد أخرى، في بلاد أخرى قد تسأل سؤالاً إذا دخلت المسجد مرة واحدة، نحن والحمد لله كما ترون الجوامع مكتظة بالمصلين، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يضاف إلى هذا التجمع التقوى والصلاح، فلذلك هذا الذي يؤثر بيتاً مريحاً، ومركبة فارهة، وحديقة غناء، ومسبحاً خاصاً، ودخلاً فلكياً، ولا يهتم لدين أبنائه، ولا لإسلامهم، ولا لمستقبلهم فهذا إذا توفته الملائكة فهو ظالم لنفسه، لأن أثمن شيء في حياة الإنسان أولاده، وكنت أقول دائماً: لو بلغت أعلى منصباً في العالم، ولو جمعت أضخم ثروة في العالم، ولو نلت أعلى شهادة في العالم، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس، لأن ابنك امتداد لك، لأنك لن تسعد إلا إذا قرت عينك بأولادك، ولو فرضنا جدلاً أنك نجوت بدينك في بلاد الغرب فلن ينجو أبناؤك، أبناؤك سوف يكونون ويشكلون تشكيلاً آخر لا ترضى عنه، أي هذه الآيات يمكن أن تفهم في هذه المعطيات التي نجدها في عالمنا المعاصر:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

من أجل الدنيا أنا أسميها دائماً هجرة في سبيل الشيطان، تضحي بدينك، أو تضحي بدين أولادك، أو تضحي بأهلك، وقد قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

[سورة التحريم: 6]

بعض من علامات آخر الزمان :

من أجل دنيا عريضة، من أجل دخل كبير، من أجل أن تركب كل عام مركبة فارهة، من أجل أن تجلس، وأن ترى العالم كله على الشاشات، هناك متع كثيرة في بلاد الغرب، إنها على شبكية العين جنة الله في الأرض، ولكنك إذا نقلت هذه الصورة إلى الدماغ وجدتها جهنم، وقد ورد في بعض الأحاديث أن الأعور الدجال الذي يرى الدنيا ولا يرى الآخرة، والذي يكذب ويدجل، ناره جنة وجنته نار، من علامات آخر الزمان أن الرجل يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح مؤمناً ويمسي كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ، فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً، وَيُمْسِي كَافِراً، أَو يُمْسِي مُؤْمِناً، وَيُصْبِحُ كَافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

كل المتاعب التي تعاني منها في بلد من العالم الثالث ليست بشيء أمام نار جهنم، كل المتاعب التي تعاني منها في بلد من العالم الثالث ليست بشيء أمام ضياع الجنة، كل المتاعب التي تعاني منها في بلد من العالم الثالث ليست بشيء، كل المتاعب التي يعاني منها من كان في العالم الثالث ليست بشيء أمام أن ترى أبناءك ليسوا مسلمين، والله ذهبت إلى بلاد الغرب مرات عديدة، والله استمعت إلى الآباء كلاماً يعتصر القلب من الألم، شيء يقلقهم إلى حد لا يوصف، أن أولادهم على شيء آخر، لا ينتمون لا إلى أمتهم، ولا إلى عروبتهم، ولا إلى دينهم، ولا إلى قيمهم، شكا لي أحد الآباء أنه كلما عنف ابنه على خلق لا يرضي الله عز وجل سخر من أبيه.

فيا أيها الأخوة الكرام، الإنسان أحياناً يتخذ قراراً مصيرياً، فأن تعقد العزم على أن تقيم إقامة دائمة في بلاد يفتخر علية القوم أنهم شاذون، مدينة بأكملها من أجمل مدن العالم ثلاثة أرباع سكانها من الشاذين، حاكم ولاية، قاض كبير، مدير شركة، ويكفي أن سفير إحدى هذه الدول عندما حضر حفل إعطائه أوراق اعتماده ليقدمها إلى رئيس البلد الذي عين فيه كان في رفقته شريكه الجنسي، أي الفاحشة هناك لا وزن لها إطلاقاً، يمكن أن ترتكب الفواحش كلها، ولك مكانة علية في القوم، بعيدون عن الله بعد الأرض عن السماء، لكن لا يمنع هذا، وأنا أتكلم بشكل واقعي، أن تسافر إلى هناك لتأتي بشهادة تنفع بها المسلمين، لا يمنع أن تذهب إلى هناك لتأتي بخبرة تنفع بها المسلمين، أنا أتحدث عن الإقامة الدائمة، أنا أتحدث على أن تقيم إقامة دائمة، هذا الذي حظره النبي، من أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله.

الفرق بين أن تحس بالضعف دعوى وأن تحس به حقيقة :

يوجد شيء آخر أن هذا اللحم الذي نبت في كتفك هو من بلادك، من بلاد المسلمين، ألا ينبغي أن تعود خبرتك على المسلمين؟ ألا ينبغي أن يكون طبك للمسلمين؟ ألا ينبغي أن يكون ذكاؤك للمسلمين؟ ألا ينبغي أن تكون إمكاناتك بين أيدي المسلمين؟ ولن تستطيع أن ترى توافقاً بين بلاد نامية وبين بلاد نعمت بالاستقرار مئتي عام، هناك مسافة كبيرة، لكن ألا تستحق الجنة أن نعاني بعض المتاعب من أجل ضمان سلامة دين أولادنا؟ ألا تقتضي الآخرة أن نعاني بعض المتاعب من أجل سلامة دين أهلنا؟ هذا معنى الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

إما أنهم في بلد فيه حريات تفوق حد الوصف إلى درجة التفسخ والإباحية، أو فيه قهر إلى درجة الظلم كلاهما واحد، في حالة القهر والقمع لا تستطيع أن تقيم شعائر دينك، وفي حالة الانحلال لا تستطيع ذاتياً أن تقيم شعائر دينك، المحصلة واحدة إن كنت في بلد يحول بينك وبين أن تصلي، يحول بينك وبين أن تحجب ابنتك، يحول بينك وبين أن تطلب العلم الشرعي، يحول بينك وبين أن تدخل المسجد، هذا البلد حال بينك وبين عبادة الله، وإن كنت في بلد آخر فيه من الحريات ما لا

يوصف، لكن هذا البلد الآخر لا يستطيع ابنك أن يستقيم على أمر الله، لأن البيئة فاسدة، ولأن المعصية ضمن يديك، في متناول يديك، أينما توجهت ترى المعصية على قدم وساق، أي سواء أكان الذي منعك من أن تعبد الله قوة قاهرة أو انحلال وحرية فالمحصلة واحدة:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ)

أيها الأخوة، قال بعض العلماء: أن تكون مستضعفاً، هما حالتان؛ أن تحس بالضعف دعوى، وأن تحس بالضعف حقيقة، إذا كنت ضعيفاً حقيقة لا تستطيع أن تغادر، ولا يسمح لك أن تغادر، وليس معك مال يعينك على المغادرة فهذه حالة أخرى هذا ضعف حقيقي، أما يوجد ضعف دعوى، أي ألفت حياة ناعمة، ألفت بيتاً واسعاً، ألفت دخلاً كبيراً، ألفت تيسيرات في الحياة لا توصف، ألفت أن الحياة رغيدة ناعمة كل شيء تناله باتصال هاتفي، ويمكن أن تحل كل مشكلاتك وأنت على الشاشة، ويمكن أن تسافر، وأن تعقد الصفقات، وأن تجدد جواز السفر بسهولة ما بعدها سهولة.

جواب الله عز وجل على من آثر الدنيا على الآخرة :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ)

هل قبل الله حجتهم؟ لا، هل نجاهم الاستضعاف من عذاب النار؟ لا:

(قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)

كلما التقيت بإنسان مقيم هناك ويشكو تفلت أولاده؛ انحرافهم، وانغماسهم في محرمات يحرمها الشرع، وهم متألمون أشد الألم أقول لهم: غادروا، عودوا إلى أوطانكم، عودوا إلى بلدكم، يقول: لا يعاش في بلدنا، البيوت غالية جداً، يوجد أزمة مواصلات، أزمة ركوب، ويوجد أزمة سكن، ويوجد جو ملوث، إذاً أنتَ آثرت الدنيا على الآخرة:

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)

هذا جواب الله عز وجل:

(فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

أرأيتم إلى هذا الحكم الشرعي؟ أرأيتم إلى مصير هؤلاء الذين طابت لهم السكنى في بلاد الأرض، ومدحوا جمالها، ومناخها، وأمطارها، ولونها الأخضر، ورخص أسعارها، وسهولة التعامل مع بعض الناس، قال:

(فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

لا توازن بين بلد متقدم وبلد في الشرق الأوسط ولكن وازن بين الدنيا والآخرة :

كلما ألتقي مع إنسان، وأحضه أن يعود ليسهم في بناء وطنه يقول: الحياة هنا مريحة جداً، أقول له: لا توازن بين هذا البلد الذي أنت فيه، وبين بلدك في الشرق، وازن بيد الدنيا والآخرة، هذه الموازنة خطأ كبير، طبعاً لو أردت أن توازن بين بلد متقدم جداً، وينعم بالاستقرار أكثر من مئتي عام، وقد جمع أموال الدنيا عنده، طبعاً لا يوازَن مثل هذا البلد مع بلد نامٍ يعاني من مشكلات لا تنتهي، صنعها له الطرف الآخر، أقول له: لا توازن بين بلد متقدم وبلد في الشرق الأوسط، ولكن وازن بين الدنيا والآخرة، فالذي يهاجر من بلد يستطيع أن يعبد الله فيه كما ترون يوجد شيء اسمه خجل، حياء، يوجد بقية وفاء، يوجد بقية تماسك أسرة، الأب عندنا مقدس، همه الأول تزويج أولاده، الأم عندنا أم، أي هناك صفات في الأسرة في الشرق تتمتع بها لا نراها هناك إطلاقاً، مرة وقف رئيس دولة عظمى هي قطب العالم غير الذي هو على كرسي الحكم الآن، قال: إننا نعاني من مشكلات مدمرة، قفز إلى ذهني ما المشكلات المدمرة التي يعاني منها؟ بلد يتربع على عرش القوة في العالم، تصورت الصين أو أوربا فالمفاجأة كانت أن أضخم هذه المشكلات تفكك الأسرة، والمخدرات، وشيوع الجريمة، إذاً يوجد إيجابيات في بلادنا أيها الأخوة من الصعب جداً أن يكتشفها الإنسان إلا إذا غادر بلده إلى بلد آخر، يوجد إيجابيات كثيرة، والإنسان المنصف ينبغي أن يكشف الإيجابيات والسلبيات، أما أن يبقى في السلبيات، وأن يكثر التشكي ليس هذا من الإنصاف في شيء:

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

هذا كلام من؟ كلام خالق الأكوان، كلام رب العالمين، أي إذا طابت لك الحياة في بلد، ولم تطب لك العبادة، أولم تستطع أن تعبد الله إما قهراً أو إغراء، الإنسان تحت ضغطين قد يضغط، وقد يغرى، كلاهما يخرجانه عن استقامته.

الله سبحانه وتعالى يرحم أولئك الذين كانوا مستضعفين حقاً لا دعوى بل حقيقة :

لكن الله سبحانه وتعالى يرحم أولئك الذين كانوا مستضعفين حقاً، لا دعوى بل حقيقة، قال:

(إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً* فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً)

أي يوجد إنسان لا يستطيع، إما لا يسمح له، أو لا يملك ثمن السفر، أو لا يملك موافقة الإقامة في بلد آخر، الأمور معقدة جداً، ربما لا يستطيع أن يغادر، أو لا يملك ثمن المغادرة، أو لا يسمح له أن يقيم هناك، هذا معذور عند الله، أما إنسان بإمكانه أن يعود إلى بلده، بإمكانه أن يخدم أمته، بإمكانه أن يضع علمه وخبرته في خدمة المسلمين، لأن الحياة راقت له هناك، يأبى أن يعود هذا الإنسان توعده الله بجهنم والتي وصفها بأنها ساءت مصيراً، لكن هذا الكلام لا ينسحب على كل من أقام في

بلاد الغرب، قد يقيم أحدهم مضطراً، وربما لا يستطيع أن يعود شيء آخر، أنا أتكلم عن إنسان بإمكانه أن يعود، وأن يضع علمه في خدمة أمته، بإمكانه أن يخفف من أخطار تفلت أولاده، لا أمدح البلاد الأخرى، لأن الفساد عمّ الأرض كلها:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

[سورة الروم: 41]

لكن يوجد بيئات أفضل من بيئات، يوجد بيئات احتمال الانحراف أقل من بيئات أخرى.

يجب على المؤمن أن يقيم في بلد يستطيع أن يعبد الله فيه :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

ذكرت في مقدمة هذا الدرس هناك هجرة في سبيل الشيطان من أجل الدرهم والدينار، من أجل التمتع، من أجل الحرية بمعنى التفلت هذه هجرة في سبيل الشيطان، ومن كان في بلد لا يستطيع أن يعبد الله فيه إما إغراء، وإما قمع، وكلاهما سيان، ينبغي أن يغادر إلى بلد يستطيع أن يعبد الله فيه قال:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي فراراً بدينه، أو صوناً لدينه وإنقاذاً لأهله وأولاده:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً)

المراغم: جمع، وهو اسم مفعول، وهو من مادة رغم، والرغام هو التراب، رغم أنفه أي لامس التراب، مراغماً كثيرة أي إذا هاجر في سبيل الله، وأقام في بلاد المسلمين، وصان دينه وعرضه يكون قد أرغم عدوه، ومرغ أنف عدوه في التراب، لأنه نجا بدينه، لأنه ضمن آخرته، لأنه أصلح حاله.

أيها الأخوة الأكارم، أخوة كثر أخذوا قراراً مصيرياً بالعودة إلى بلادهم وخدمة أمتهم، في البدايات عانوا من بعض المتاعب امتحاناً لهم، وتأكيداً لإخلاصهم في قرارهم، لكن بعد حين وفقوا في حياتهم، وهم يلهجون بالشكر دائماً على أن الله مكنهم وأعانهم على أن يعودوا إلى بلادهم، هذا كلام دقيق أقوله.

أهمية الهجرة في سبيل الله :

قال تعالى:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

كلام خالق الكون:

(يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً)

أي يجد إلى البلد الذي هاجر إليه في سبيل الله ما يرغم عدوه على احترامه، أو ما يجعل أنف عدوه يلامس التراب، لأن عدوه أراد أن يضيع عليه آخرته، الطرف الآخر أراد أن يضيع دينه، أراد أن يجعل أولاده متفلتين، أراد أن يعيشوا إباحيين، كلام دقيق أي حينما يؤسس مدرسة في بلاد الغرب لا تعلم فيها الدين، ولا اللغة القومية، يعطون على كل طالب مبلغاً فلكياً، أما إذا علمت اللغة القومية، وعلمتهم الدين لا تأخذ شيئاً كمساعدة، إذاً حينما يريد الطرف الآخر أن يكون أبناؤك إباحيين، وأن يقيموا علاقات محرمة في الإسلام من أجل تأخير سن الزواج، وحينما تعقد المؤتمرات؛ مؤتمرات السكان بأن يعود الإنسان إلى حيوانيته تماماً، أنت حينما تعود إلى بلدك، وتصون أهلك وأولادك تكون قد أرغمت أنفه، تكون قد انتصرت عليه:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً)

والله أيها الأخوة، أخ كريم أرسل لي رسالة قال: أنا سمعت أشرطة كثيرة في بلاد الغرب، هذه الأشرطة ملخصها بأن أعود إلى بلدي، واتخذ قراراً بطولياً، وأنهى علاقاته، وعاد إلى بلده ليضمن دينه، بعد أيام من عودته توفاه الله بحادث، سبحان الله:

(وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

أخذ نيته.

ملخص لما ورد في درس اليوم :

أي أخ جاء من بلاد الغرب، وحدثني عن قصته، وقرأ رسالته، استمع إلى أشرطة كثيرة وجد أن هذا الكلام كلام دقيق وخطير، فلا بد من أن يكون له موقف، فالموقف الذي يرضي الله أن يعود إلى بلاد المسلمين لينجو بدينه، ليفر بدينه أولاً، ليضمن دين أهله ثانياً، بعد عودته بأيام مات بحادث، سبحان الله هذه الآية تشير إلى هذه الحالة:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

أيها الأخوة، هاتان الآيتان المتعلقتان بالهجرة أحكام عامة، وتوجيهات عامة لكن لكل إنسان مقيم أو مسافر، مهاجر أو غير مهاجر، حالة يعلمها الله، فأنا أضع قواعدَ عامة لا يعقل أن تأتيني حالات كثيرة، ويوجد إنسان ليس بإمكانه أن يعود إلى بلده لسبب أو لآخر، هذا لا تنطبق عليه هذه الآيات، أو إنسان لا يستطيع أن يغادر بلداً حال بينه وبين طاعة الله، هذا ورد ذكره في القرآن الحكيم، والسفر إلى هناك من أجل طلب العلم، أو كسب الخبرة لتقوية المسلمين لا شيء فيه، أنا أتحدث عن

الإقامة الدائمة، ولا أتحدث عن سفر طارئ، ولا عن بعثة، ولا عن طلب علم، ولا نيل شهادة، ولا كسب خبرة، هذا كله مباح، أنا أتحدث عن إنسان راقت له الحياة هناك فنسي دينه، ووطنه، وأمته، ونسي مستقبل أولاده، ونسي دين أهله، وراقت له الحياة فآثرها عن الآخرة، هذا الذي أتحدث عنه، أما قد ينشأ من هذا الدرس آلاف الأسئلة أنا لا أتحدث عن حالات خاصة، أتحدث عن معنى آيتين وردتا في القرآن الكريم حول الهجرة في سبيل الله، وفي سبيل الشيطان، أما هناك أسئلة وردتني لتوها، هذه الأسئلة كل حالة تعالج على حدة، هذه أحكام عامة، وكل إنسان له وضع، وله أعذار، وله معطيات، لعل الله يقبلها منه. بالمناسبة الله عز وجل استثنى فقال:

(إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً)

أيها الأخوة الكرام، من كان مقيماً في بلد يستطيع أن يطلب العلم الشرعي، وأن يحضر مجالس العلم، ويوجد بقية حياء، ويوجد بقية خجل، ويوجد بقية حجاب عند النساء، وبقية دين، أقول: بقية، فهو بخير، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أنه: إذا فسدت الشام فسدت الأرض، أي آخر البلاد فساداً بلاد الشام، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا أن نكون في رضوان الله عز وجل.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(47-69): تفسير الآيات 102-104 ، صلاة الخوف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-01-31

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية من أبلغ الآيات التي تحض على صلاة الجماعة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثانية بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

أيها الأخوة، بادئ ذي بدء هل من حالة أصعب في حياة الإنسان من أن يكون في مواجهة عدو وجهاً لوجه، وفي ساحة المعركة، وبالسلاح الأبيض؟ ومع ذلك ينبغي ألا يغفل المؤمن عن الصلاة، وأن لا يغفل المؤمن عن صلاة الجماعة، المسلمون وهم في ساحة المعركة، ويشتبكون مع العدو وجه لوجه ينبغي أن لا تفوتهم صلاة الجماعة، ينبغي ألاّ يغفلوا عن الصلاة، وينبغي ألا تفوتهم صلاة الجماعة، فكيف في حالة السلم؟ لا يوجد قتال، ولا اشتباك، لا يصلي! لا يصلي في المسجد ولا يكون مع الجماعة!

ورود الآية السابقة في بيان كيفية صلاة الخوف :

أيها الأخوة، هذه آية من أبلغ الآيات التي تحض على صلاة الجماعة، ما من حالة في حياة المسلمين أصعب من أن يكونوا في مواجهة العدو، وهم مشتبكون معه، والقتال دائرة رحاه، ومع ذلك ينبغي ألاّ تفوتهم الصلاة، ولا صلاة الجماعة، لأن الصلاة هي الفرض الوحيد الذي لا يسقط بحال، ولا في أثناء مواجهة العدو، وأركان الإسلام الخمسة النطق بالشهادتين، وأداء الصلاة، وصيام رمضان، وحج البيت، ودفع الزكاة، خمسة أركان، أربعة منها تسقط، الشهادة تؤدى مرة واحدة، الصيام يسقط عن المريض والمسافر، والحج يسقط عن الفقير والمريض، والزكاة تسقط عن الفقير، أما الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال هو فرض الصلاة. وقد قال بعض العلماء: في الصلاة من معاني الحج التوجه لبيت الله الحرام، وفي الصلاة من معاني الصيام أنك في الصيام تدع

الطعام والشراب، وفي الصلاة تدع الطعام والشراب والحركة والكلام، ومن معاني الزكاة أن الوقت أصل في كسب المال وها أنت تقتطع من وقتك الثمين وقتاً لتصلي.

أيها الأخوة:

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ)

هذه صلاة الخوف! صلاة الخوف وردت هذه الآية في بيان كيفيتها، النبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق الصدوق، وهو الذي ينبغي أن نأخذ ما أمرنا وننتهي عما عنه نهانا، شرع لنا قصر الصلاة في السفر، القرآن شرع لنا قصر الصلاة في الخوف، والنبي عليه الصلاة والسلام شرع لنا قصر الصلاة في السفر، نحن في السفر نؤدي الرباعية ثنائية، صلاة الظهر والعصر والعشاء تؤدى ركعتين، بينما صلاة الفجر هي في الأصل ركعتان، والمغرب يبقى ثلاث ركعات، فالنبي عليه الصلاة والسلام شرع لنا صلاة السفر، والقرآن الكريم شرع لنا صلاة الخوف، والحقيقة قصر الصلاة في السفر قصر كمي، بينما صلاة الخوف قصر كيفي، الكيّف في صلاة السفر عنه في صلاة الخوف.

ثلاث كيفيات لصلاة الخوف :

قال تعالى:

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ)

الصلاة مع رسول الله شرف عظيم، من نال شرف الصلاة مع رسول الله فهذا في مكانة علية عند الله عز وجل، لذلك لا يمكن أن يصلي المسلمون في الحرب، والعدو ينتظر حتى هذه اللحظة في صلاتهم لينقض عليهم، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن كيس فطن حذر.))

[القضاعي عن أنس]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

الفرض فرض لا بد أن يؤدى، إذا نحن في ساحة المعركة ينبغي أن نؤدي هذا الفرض أداء خاص، أداء قصر نوعاً لا قصر كماً. كما أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، قال:

(فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ)

يقسم الجنود لقسمين، قسم يصلي خلف رسول الله ركعتين فقط في الصلاة الرباعية، ويسلم النبي في القعود الأول يسلم فينهض الذين صلوا خلفه لأخذ مواقع إخوانهم في حراسة هؤلاء المؤمنين، نصف يحرس ويتوجه نحو العدو ومعه أسلحته وهي ملقنة وجاهزة، ونصف يصلي، النبي يصلي أربع ركعات، وحده! نصف الجيش يصلي معه ركعتين، ونصف الجيش الآخر يصلي بعد قعوده الأول ركعتين، يتابع بهما الصلاة، هذه كيفية أولى.

قد تؤدى صلاة الحرب أيضاً قصراً ركعتين، فرقة تصلي ركعة واحدة خلف النبي، وفرقة ثانية تصلي ركعة واحدة خلف النبي، والنبي يصلي ركعتين، فإما أن يصلي النبي ركعتين كل فرقة تصلي ركعة معه، وإما أن يصلي النبي أربع ركعات كل فرقة تصلي ركعتين معه، وإما أن يصلي الفريق الأول ركعة، والفريق الثاني ركعة، ثم يأتي الأولون فيصلون الركعة الثانية مع رسول الله في ركعته الثالثة، ويأتي الفريق الثاني ليصلي مع رسول الله ركعته الثانية في ركعة رسول الله الرابعة ثلاث كيفيات لصلاة الخوف!

في كل عصر يوجد نظام ووسائل يجب أن نأخذ بها :

على كل هذا النظام رائع، نظام تفوق، نؤدي الصلاة لكن ونحن حذرين، ونقف مواجهين للعدو من أجل ألاّ يغدرنا، لذلك قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ)

[سورة النور: 37]

معنى ذلك أنهم يتاجرون، ويشترون، ويبيعون، ويكسبون المال، وينفقون المال ولكن كسبهم للمال لا يلهيهم عن عبادة ربهم، ومن السهل جداً أن تكون متطرفاً في باب واحد، من السهل أن تدع العمل وتصلي، أو تعمل ولا تصلي، أن تغرق في دنياك إلى قمة رأسك، أو أن تعتزل الحياة كلها فلا تصلح أن تكون أباً، ولا زوجاً، ولا منتجاً في المجتمع، لذلك ليس بخيركم من ترك دنياه لأخرته للأسف، ولا من ترك آخرته لدنياه إلا من يأخذ منهما معاً فإن الأولى مطية للثانية.

(وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ)

في كل عصر يوجد نظام ووسائل يجب أن نأخذ بها، على كل رأى بعض المفسرين أن هذا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه رسول الله، ولأن الصلاة معه شرف عظيم، ولكن لو كنا بعده في معركة ولكل مجموعة من الجنود إمام، فيمكن أن تصلي كل مجموعة مع الإمام صلاة الظهر والعصر مقصورتين صلاة كاملة، وتأتي مجموعة ثانية فتصلي مع إمامهم الظهر أو العصر قصراً.

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ)

بعضهم استنبط، ما دامت الصلاة مع رسول الله شرفاً عظيماً، يقسم الجند قسمين، قسم يصلي مع رسول الله نصف الصلاة، والقسم الآخر يصلي معه القسم الثاني، إما تتابعاً أو تفرقاً، ركعة بركعة بركعة، أو ركعتان بركعتين، أما إن لم يكن رسول الله بين صفوفنا وجيش كبير، ولكل مجموعة إمام، يوجد ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة وقلب، الجيش خمس فرق، لكل فرقة إمام، ما الذي يمنع أن تصلي الفرقة الأولى وبقية الفرق تحرس، وتأتي الثانية فتصلي، والباقون يحرسون، على كل المؤمن كيس فطن حذر، وأروع ما قاله سيدنا عمر: "لست بالخبّ، ولا الخبّ يخدعني ".

الله عز وجل جعل الدنيا ثمن الآخرة :

يقول: عدوان غادر! شيء مضحك، متى كان العدوان معه نصيحة، أنا سأضربك، إلا في حالات نادرة مع القوة العظمى التي لا تقابل فرضاً، يقول: أنا سأضرب، أما بأساس العدوان يوجد مفاجأة، والحرب خدعة، وإذا قلت: عدوان غادر، كلام لا معنى له، العدو من خصائصه أن يفاجئك بالحرب، ومن لوازم إعدادك للحرب حتى لا تفاجأ:

(وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ)

قد يقول قائل: أنت مكلف أن تكون حذراً، ألم يتولى الله حفظ المؤمنين، أن يجعلك الله خليفته في الأرض.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ)

[سورة محمد: 4]

وألغى كل الحروب، ولكن لتكسب شرف البذل في سبيل الله، فرق كبير بين أن تبذل من جهدك، ووقتك، وفكرك، وتخطيطك، لتنال عند الله القرب. مثلاً: ألا يستطيع المدرس، وهو يفحص طلابه أن يأخذ ورقة أحد الطلاب، ويكتب الإجابة الكاملة بخطه، ويأخذ الطالب مئة درجة؟ هل لهذا النجاح من قيمة بربكم، فرضاً مدرس رياضيات في الامتحان، وهو صعب، طالب يحبه أخذ ورقته، وكتب الإجابة الكاملة، والمسائل كلها صحيحة، وأخذ العلامة التامة، مئة بالمئة، هل لهذا النجاح قيمة؟ لا قيمة له إطلاقاً، متى نقيم احتفال لهذا الطالب ونقدم له الهدايا؟ إذا اجتاز امتحاناً صعباً، فالله عز وجل جعل الدنيا ثمن الآخرة، جعل الدنيا مطية الآخرة، جعل الحياة الدنيا مكان لدفع ثمن الآخرة.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ)

من حكمة الله عز وجل أنه جعل معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية :

مثل آخر: أليس بالإمكان والله هو الخلاق العليم أن يخلق الكفار جميعاً في قارة واحدة، ولتكن أمريكا فرضاً؟ ويخلق المؤمنين في قارة آسيا؟ لا يوجد حروب، ولا منازعات، ولا مناوشات، ولا بدر، ولا أحد، ولا الخندق، ولا اليرموك، ولا القادسية، ولا شيء، أناس مؤمنون مع بعضهم بعضاً، عندها لا يوجد جنة، الجنة ليس لها ثمن، فقدنا ثمنها، فمن حكمة الله عز وجل أنه جعل معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، حتى الأنبياء، فتروي بعض الكتب أن سيدنا موسى عليه السلام في أثناء المناجاة قال: يا رب لا تجعل لي عدواً، قال: يا موسى هذه ليست لي، الله عز وجل له أعداء، لا يوجد إنسان إلا له أعداء حتى الأنبياء، قال دخلت عليك، وما على وجه الأرض أبغض إلي منك! أحدهم دخل على النبي قمة الكمال، قمة الرحمة، قمة العدل، قمة الإنفاق، العداء بين الحق والباطل

شيء طبيعي جداً، أنت حينما يكون ولاؤك للباطل تعادي أهل الحق بسبب وبلا سبب، مهما كانوا كاملين معك، تعاديهم لأنك في خندق آخر ومحور آخر وفي أنظمة أخرى، شيء طبيعي هذا الصراع بين الإيمان والكفر.

الإنسان إذا كان مؤمناً وولاؤه للمؤمنين له طريقة في التفكير، وطريقة في القبول، وطريقة في التبرير، تختلف عن طريق ولائه للكفار، هذا لا يصدق كل تهمة للمسلمين، هذا يتألم أشد الألم لمصاب ألمَّ بالمسلمين، يفرح أشد الفرح لخير أصاب المسلمين، هذا لا يقبل تهم الطرف الآخر للمسلمين، يفند أدلتها، و يدحضها، ويقوي أدلة المؤمنين، هذا هو الولاء والبراء، نستنبط من هذه الآية أنه إذا كنت في حرب مواجهة في ساحة معركة لا بد من أن تصلي الصلاة في وقتها وتحرص على صلاة الجماعة، فكيف بالسلم؟! لا يوجد قتال، ولا طعن بالسكاكين، ولا إطلاق رصاص، ولا خوف! فكم هي الصلاة عظيمة عند الله عز وجل.

الفرق بين الاختصار والاقتصار :

أيها الأخوة، يقول الله عز وجل:

(وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً)

هذا شأن الكافر، يتمنى أن يكون لك نقطة ضعف، يستغلها أبشع استغلال يبني مجده عليك، يشهّر بك، فلذلك المؤمن حينما يقصر، أو حينما يغفل، أو يتهاون يقوي كفر الكافر، وما من آية في هذا المجال أدق من قوله تعالى في دعاء القرآن الكريم:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: 5]

الكافر حينما يرى المؤمن مقصراً، وهو لا يقصر، يرى المؤمن لا يتكلم بالحقيقة، يرى المؤمن لا يتقن عمله، المؤمن المقصر الذي لا يتقن عمله يقنعه أن الكفر أولى من الإيمان، فالذي جعل هذا الكافر يتشبّث بعمله هو المؤمن المقصر.

(وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ)

أخواننا يوجد ملاحظة لطيفة: أن هناك فرقاً بين الاختصار وبين القصر، الاختصار أن تجمع كلمات الموضوع في كلمات قليلة، أما القصر فأن تأخذ بعض أفكار الموضوع وتدع بعضها الآخر، فرق بين الاختصار وبين الاقتصار.

يروى أن أديباً كبيراً اعتذر عن إطالة رسالته لعدم وجود وقت يختصر فيه، معنى ذلك أن الكلام المختصر يحتاج لجهد كبير، وقد سئل أحدهم وهو في منصب كبير جداً: كم تعد لخطاب يستغرق خمس دقائق؟ قال: ثلاثة أيام؟ قال: خطاب يستغرق ساعة؟ قال أعد له: ساعتين! قال: خطاب مؤلف من خمس ساعات؟ قال: لا أعد له أبداً، فالشيء المختصر فيه دقة بالغة، والحقيقة أن الإنسان حينما

يختصر، يعني أنه أتى بكل الأفكار في كلمات قليلة، أما الإطناب فكلام سهل جداً لا ينتهي، بلا تخطيط، أقسم لي أحد الأخوة أنه حضر خطبة الخطيب فتح ثمانية وعشرين موضوعاً لم يغلق واحداً! خواطر تأتيه تباعاً، فالكلام المركز يجلب الانتباه، هذا الفرق بين الاختصار والاقتصار، كتاب أريد اختصار فصل أو فصلين، أريد اختصاره لا بد من ذكر كل أفكار الكتاب في عشر صفحات! هذا عمل صعب جداً، على كل هذا هو الفرق بين الاقتصار والاختصار، الصلاة أربع ركعات أصبحت ركعتين.

الكافر يجب أن يعذب عذاباً مهيناً ليذوق وبال أمره :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ)

السلاح يجب أن يحمل في أثناء الصلاة، طبعاً السلاح الفردي، إلا إذا كان هناك مطر شديد، وإنسان مريض يؤذيه السلاح فرضاً فيوضع السلاح أمامك، أو فرضاً في حرز فتصلي.

(وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

الإنسان إذا تألّه:

العزة ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني منهما شيئاً أذقته عذابي ولا أبالي، الإنسان إذا ادعى الفوقية، وتغطرس، وتألّه هذا يحتاج لا إلى عذاب أليم، بل إلى عذاب مهين، الله عنده عذاب أليم، وعذاب عظيم، وعذاب مهين، المتكبر عذابه في إهانة، أما يوجد إنسان يعذب عذاباً أليماً، ومكانته علية، ألم داخلي، يوجد أمراض لها آلام لا تحتمل، هذا عذاب أليم، أما الكافر يجب أن يعذب عذاباً مهيناً ليذوق وبال أمره.

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ)

أنتم في أشد حالات الخوف والقلق ومواجهة العدو لا بد من أن تصلوا، وتصلوا جماعة.

على المؤمن أن يبالغ في أداء الصلوات والصلوات النافلة عند انتهاء الحرب :

قال تعالى:

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)

هذا معنى قوله تعالى:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

(سورة الشرح:7-8)

إنسان قد يكون مشغولاً بتأسيس محل، بأداء امتحان، بعمل مشروع، ينبغي أن يصلي، ولكن إذا انتهى هذا المشروع، وهذا الامتحان ينبغي أن يبالغ في أداء الصلوات، والصلوات النافلة.

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً*وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(48-69): تفسير الآيتان 105-106، موضوع الحق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-02-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل إن تحدث عن أفعاله العظيمة كان الحديث بضمير الجمع :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة النساء ومع الآية الخامسة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

أيها الأخوة الكرام، الله جل جلاله إذا تحدث عن أفعاله جاء ضمير الجمع:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى)

[سورة يس: 12]

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

[سورة الزمر: 2]

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر: 9]

حيث ما كان الحديث عن أفعال الله جاء ضمير الجمع، لأن كل أسماءه من قدرة وعلم وخبرة ورحمة ولطف كل هذه الأسماء لها نصيب من أفعاله، فالفعل الواحد من قبل الله عز وجل فيه علم وفيه رحمة وفيه حكمة وفيه خبرة وفيه عدل، فالذي نجده في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى مرة يتحدث عن نفسه بضمير الجمع " إنا " ومرة يتحدث عن نفسه بضمير المفرد:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

الله تعالى إن تحدث عن ذاته العلية كان الحديث بضمير المفرد لأنه واحد أحد فرد صمد:

قال علماء التفسير: إذا تحدث الله عن ذاته العلية كان الحديث بضمير المفرد، وإذا تحدث الله عن أفعاله العظيمة كان الحديث بضمير الجمع، الحكمة المستقاة من استخدام ضمير الجمع تارةً ومن استخدام ضمير المفرد تارةً أن الله إذا تحدث عن ذاته العلية كان الضمير ضمير مفرد لأنه واحد أحد فرد صمد، وإذا كان الحديث عن أفعاله العظيمة كان الضمير ضمير جمع لأن كل أسمائه الحسنة تشترك في أفعاله، هذا عن كلمة: "إِنَّا أَنْزَلْنَا" الحقيقة أن كلمة أنزلنا لا تعني النزول المادي

ولكن تعني أن في الكون جهة خالقة كاملة واحدة واجبة الوجوب علمها مطلق، رحمتها مطلقة، خبرتها مطلقة، وفي الأرض ما سواه من مخلوقات، حينما يقول الله عز وجل: " إِنَّا أَنْزَلْنَا " أي هذه رحمة السماء إلى الأرض، هذا علم السماء إلى الأرض، هذه خبرة الله إلى الأرض، أي هناك اتصال بين الأرض والسماء، نحن بشر والحديث عن البشر، فالأرض تعني هذا الإنسان الذي جُبل من الطين، هذا الإنسان الذي فيه نوازع نحو الأرض، نوازع نحو الشهوات، هذا الإنسان أودعت فيه الشهوات، وسوف يتحرك، قد يتحرك بدافع من شهواته، وقد تكون هذه الشهوات مدمرة لصاحبها، لذلك الله سبحانه وتعالى أنزل كتباً، أنزل وحياً، أي هذا من عند الله عز وجل:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

فهناك المنزِل وهو الله عز وجل، وهناك المنزَل إليه وهو النبي عليه الصلاة والسلام، وهناك الذي نزل، الذي نزل هو الكتاب، والإنسان الذي أُنزل عليه هو رسول الله، أنزل عليه بالحق، يعني هو مؤهل أن يتلقى هذا الوحي، كماله وصدقه ومحبته وإخلاصه وعبادته تقتضي أن يتنزل عليه هذا الكتاب، والكتاب منهج يضبط حركة الناس، في حركة كما تشاهدون في العالم قوي وضعيف، حركة عدوان، حركة شهوات، حركة احتيال، الحركات التي يتحركها الإنسان لا تعد ولا تحصى.

المنهج الإلهي هو الذي ينبغي أن يحكم حركة الحياة :

قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل: 1-4]

أي آلاف، مئات الألوف، ملايين، ملايين الملايين من حركات الناس في الأرض، مهمة الكتاب الذي هو من عند الله من السماء، من الكمال المطلق ليحكم حركة الأرض، فما دام الناس في الأرض يحكمهم منهج السماء هم في خير، هم في خير عميم، أما حينما يتحركون كما يتحركون الآن بلا منهج، بلا ضابط، بلا ميزان يتحركون بحسب ما عندهم من قوة، فالقوي يعتدي على الضعيف، والغني يبني غناه على إفقار الفقير، والذكي يجمع مالاً ويستخدم ذكاءه ليبقي الفقير فقيراً، حركة الحياة من دون منهج إلهي ظلم ما بعده ظلم، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه سوف تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً لأن حركة البشر لا يحكمها وحي السماء، لا يحكمها هذا المنهج لماذا هذا المنهج؟ من أجل ألا يعتدي أحد على أحد، من أجل ألا يستغل أحد أحد، من أجل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء، من أجل ألا يبني الإنسان مجده على أنقاض الناس، هذا المنهج هو الذي ينبغي أن يحكم حركة الحياة:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

هو حق وهو من عند الحق، وإنما أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام بالحق، الحق الشيء الثابت، الشيء الثابت والهادف.

صفة الباطل أنه زهوق سواء أكان باطلاً اعتقادياً أو باطلاً سلوكياً :

قد ننشئ جناح في معرض لأسبوعين من القماش، أما حينما ننشئ جامعة هذه الجامعة بنيت لتبقى مئات السنين، فرق كبير بين إنشاء جناح في معرض وبين إنشاء جامعة في بلد، الحق هو الشيء الثابت، والحق هو الشيء الهادف، أي هذا الجدار حينما يبنى على الشاقول بناء ثابت، أما حينما لا يبنى على الشاقول يبنى جزافاً لا بد من أن يقع، فالباطل زهوق، ألصق صفة بالباطل أنه زهوق، سواء أكان باطلاً اعتقادياً أو باطلاً سلوكياً، إن كان اعتقادياً سينهار وسيسقط، وإن كان سلوكياً سيفتضح وينتهي، لأنه باطل، لأنه لا يستمر.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

في تاريخ العالم كل الحركات الباطلة تلاشت وانهارت وأصبحت في مزبلة التاريخ، أما الدين ففي نمو دائم، هذا الدين الذي جاء به عليه الصلاة وأتم التسليم يتنامى كالطود الشامخ، بل إنه كلما قاومته يزداد شموخاً لأنه دين الله، وهذه معركة البشر اليوم بين الحق وبين الباطل، بين وحي السماء وبين تنظيمات الأرض، بين من يعمل لآخرة أبدية سرمدية وبين من يعمل للدنيا:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً*وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 80-81]

كلمة الحق وردت في القرآن مئات المرات، الحق الشيء الثابت، أي الجامعة حق لأنها تخرج قادة، لأنها تعلم العلم، هكذا ينبغي أن تكون، لكن الملهى أنشئ ليفسد الأخلاق، ليحرف الناس عن الطريق القويم، ولو كان بناء الملهى قوياً إلا أن رسالته حقيرة تعطي المتعة العاجلة، تعطي شيئاً لم يشرع في منهج الله عز وجل، على كلٍ الحق شيء ثابت وشيء هادف، والباطل شيء زائل وشيء ساقط، زائل مع السقوط وثابت مع الخلود ومع السمو، إذا قلت فلان على الحق يعني على مبدأ ثابت، وهذا المبدأ أخلاقي، فلان على الباطل ليس معه حجة، حجته قوته، حجته احتياله، وهدفه مادي محض، الكافر على الباطل لأن هدفه مادي، هدفه استغلال، هدفه العلو، هدفه الغطرسة والسيطرة، نعم، فكلمة حق كبيرة جداً، الله هو الحق، الشيء الثابت والهادف، أي ثبات وسمو، والباطل زوال وانحطاط، الله عز وجل وصف الحق بأنه ثابت، من أين عرفنا هذا الوصف؟ من الباطل.

اللعب لا يتماشى مع الحق :

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

[سورة ص: 27]

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

[سورة الدخان: 39]

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الدخان: 38]

فاللعب لا يتماشى مع الحق، إذاً:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

هذا الكتاب فيه حدود، كل إنسان له حدود، أية علاقة بين جهتين يضبطها الكتاب، العلاقات المادية يضبطها الكتاب:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

[سورة النساء: 29]

النبي قمة البشر والكتاب أنزل بالحق :

أما الربا فيه استغلال:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

[سورة آل عمران: 130]

الله عز وجل توعد آكل الربا بحرب من الله ورسوله، فالربا باطل لأنه فيه استغلال، فيه منفعة على مضرة، أما التجارة فيها منافع متبادلة، وهذا الذي يضبط العلاقات المالية بين الناس، المنافع المتبادلة مباحة بل هي من الحلال، أما إذا بنيت منفعة على مضرة هذا محرم بالإسلام:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

أي أنت مؤهل أن ينزل عليك هذا الكتاب، لكمالك ولطاعتك ولعبوديتك ولمحبتك ولإخلاصك، والنبي قمة البشر، والكتاب وفق الحق، وقد قال الله عز وجل في وصفه:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)

[سورة الأنعام: 115]

قال علماء التفسير: هذا الكتاب من دفته إلى دفته لا يزيد عن أن يكون أمراً أو خبراً، فأمره عدل وخبره صدق:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)

[سورة الأنعام: 115]

منهج الله لبني البشر فإذا طبق بين الناس سعدوا في الدنيا :

قال تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

أنت على حق، والذي أنزله هو الحق، وهذا الكتاب الذي أنزل عليك هو الحق، لذلك العالم كله الآن مع معركته مع هذا الكتاب، يكاد يكون الصراع في العالم كله بين الحق والباطل، بين منهج الله وبين منهج البشر، بين الشهوة وبين الحقيقة، بين الدنيا وبين الآخرة.

(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ)

دققوا أيها الأخوة لم يقل الله عز وجل لتحكم بين المؤمنين:

(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ)

أي أنت في أمور الحق ينبغي ألا تفرق بين مسلم وغير مسلم، هذا منهج الله لبني البشر فإذا طبق بين الناس سعدوا في الدنيا، فإن طبقوه تعبداً لله سعدوا في الدنيا والآخرة، وقد تأتي جهات لا تؤمن بالله أصلاً فتأخذ منهج الله وتطبقه فتقطف ثماره يانعة في الدنيا، بل إن هذا المنهج الذي بين أيدينا منهج موضوعي بمعنى أن الكافر لو طبقه لا تعبداً بل منفعة قطف ثماره، والدول القوية أحد أسباب قوتها أنها بدافع من عقلها تطبق أحكام هذا المنهج لمصالحها فإذا هي قوية، منهج موضوعي لو طبقه ملحد لقطف ثماره، العدل أن تعطي الإنسان حقه، أن تصون له كرامته، أن تهيئ له أسباب العيش أي إلى ما هنالك، إذاً:

(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ)

ما صرف الناس عن الدين إلا لأنهم فرقوا بين مسلم وغير مسلم :

قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

((من غش فليس منا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

من غش مطلقاً، ولو غششت كافراً، ولو غششت عابد صنم فلست من المسلمين، هذا الكتاب لتحكم بين الناس، فلذلك أيها الأخوة حينما أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة ليقيم تمر خيبر أراد اليهود أن يغروه بحلي نساءهم لعله يخفض التقييم فيفوز بربح وفير، فقال هذا الصحابي الجليل: جئتكم من عند أحب الخلق إلي من عند محمد بن عبد الله ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض وبهذا غلبتمونا، والآن والله الذي لا إله إلا هو لا يمكن أن ننتصر على أعدائنا إلا إذا كنا على حق، إلا إذا كنا

منصفين، إلا إذا أزلنا المظالم فيما بيننا، خذ الطبقة التحتية تعبير مصطلح جديد، الناس يظلمون بعضهم بعضاً، خذ الطبقة التحتية، مسلمون موحدون يتجهون إلى قبلة واحدة، يشهدون أنه لا إله إلا الله، ومعظمهم يأكل حقوق بعضهم البعض، فهذا الإنسان حينما يعتدي على أخيه الإنسان يسقط من عين الله، ولئن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض أهون من أن يسقط من عين الله، حينما يهون أمر الله على المسلمين نهون على الله عز وجل:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ)

لك جار مسلم، غير مسلم، مستقيم، غير مستقيم، هو إنسان ويجب أن تعامله بالحق وبالعدل وبالصدق، وما صرف الناس عن الدين إلا لأنهم فرقوا بين مسلم وغير مسلم.

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ)

أنت وإراءة الله للإنسان أرقى إراءة، العلم المطلق، الحكمة المطلقة، العدل المطلق بما أراك الله.

الآية التالية نزلت في قصة وقعت في عهد رسول الله لتُظهر عدل الإسلام :

الآن أيها الأخوة حول قوله تعالى ولا تكن يا محمد:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

هذه الآية نزلت في قصة وقعت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجب أن تعلموا أن كل الأحداث التي وقعت في عهد رسول الله وقعت بشكل مركز من الله، لتكون هذه الأحداث سبباً للتشريع، تشريع حيوي، لم يأتِ التشريع كلاماً مجرداً في كتاب بل جاء التشريع عقب حوادث، القصة لا يعنينا التفاصيل والجزئيات يعنينا منها المغزى، كان عليه الصلاة والسلام في المدينة، من هم الذين استقبلوه وأكرموه ونصروه ورفعوا راية هذا الدين، وفدوه بأرواحهم وأموالهم؟ الأنصار، فالنبي عليه الصلاة والسلام مدين لهم بالفضل.

أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدَقتم ولصُدِّقتم: "أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك". هكذا قال النبي، هؤلاء الأنصار استقبلوه ونصروه وآمنوا به وصدقوه ومنعوه من أعدائه، في أنصاري له درع ثمينة سرقت، وسرقها منه إنسان منافق، إلا أنه محسوب على المسلمين، وكان يصوغ أبياتاً في هجاء أصحاب رسول الله وينسبها إلى الأعراب ليشفي غليله منهم، هذا المنافق سرق هذا الدرع، ووضعه في البيت، تفقد الدرع فلم يجده صاحب الدرع فبحث عنه، خاف هذا المنافق أن يكتشف أمره ويفتضح فهو من الأنصار من قوم نصروا رسول الله، فوضعه في كيس فيه دقيق ونقله إلى بيت يهودي من يهود المدينة، لكن هذا الكيس مثقوب والدقيق نزل منه ورسم الطريق من بيت هذا الذي سرق الدرع إلى بيت اليهودي، ثم اتهم اليهودي بأنه هو السارق بدليل أنه عنده، أما هذا الأنصاري المنافق رجاه أن يضعه عنده وديعة فلما بلغ اليهودي أنه متهم بسرقة الدرع علا صوته وأنكر أشد الإنكار، تتبع الناس الخيط الذي رسمه الدقيق من بيت هذا الأنصاري

إلى بيت اليهودي وقع الناس في التباس شديد من السارق؟ في طريق مرسوم من بيت الأنصاري إلى بيت اليهودي، واليهودي ينكر أشد الإنكار، من هم اليهود؟ الذين ائتمروا على قتل النبي، الذين كادوا للنبي، الذين تآمروا مع أعداء النبي، الذين تمنوا أن تزول هذه الدعوة، الذين ركبوا رؤوسهم وكابروا بما يعتقدون من أجل أن يكذبوا دعوة النبي، تصور في إنسان ينتمي إلى الأنصار، وفي إنسان ينتمي إلى أعداء رسول الله، وفي درع مسروقة، هي في بيت اليهودي وديعة وقد أشيرت إليه الأصابع سرقة، وهذا الأنصاري له أهل من أصحاب رسول الله، ولهم مكانة عند رسول الله، فما كان من أهل هذا الأنصاري إلا أن قابلوا النبي عليه الصلاة والسلام واسمه أريقط، وقالوا للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله نحن أهلك ونحن أنصارك ونحن أتباعك وهذا اليهودي سرق، هكذا أوحى إليهم السارق، فلا ينبغي أن تسكت عنه، ولا أن تفضح هذا الذي اتهم بالسرقة، تكلموا مع النبي عليه الصلاة والسلام والنبي لأنه بشر، قال: إنني بشر، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد ومالك عن أم سلمة]

لولا أنه بشر وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، مشكلة كبيرة سرقة، هناك جهتان واحد متهم بها ظلماً وهو ينتمي إلى أعداء النبي، وواحد يدافَع عنه من قبل أحباب النبي، والنبي بشر، فكاد النبي أن يميل إلى الأنصار لأن الدرع موجودة عند اليهودي وهذا دليل، أما تفاصيل الدليل أنه أخذت من بيت أريقط إلى بيت اليهودي والطحين رسم خطاً بين البيتين، هذا لم يرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام، على كلٍ أراد الله من هذه القصة أن يظهر عدل الإسلام، فقال الله عز وجل يعاتب نبيه عليه الصلاة والسلام:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

من هم الخائنون؟ الذين هم من أتباع النبي، هذا من أتباع النبي لكنه منافق، على من يدافع القرآن؟ عن اليهودي لأنه لم يسرق، أرأيت إلى هذا الدين، أرأيت إلى هذه الآية:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

لا تدافع عنهم، لا تنتصر لهم يا محمد، لا تأخذ بأقوال من حولك، هذا اليهودي لم يسرق، والقرآن نزل ليدافع عنه لأنه لم يسرق، الآن يضج بالظلم، تكون صاحب حق لانتمائك يذهب حقك، أما هنا هذا هو العدل عدل الإسلام:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

علينا إقامة الحق فيما بيننا حتى نستحق أن ننتصر :

أيها الأخوة، الحقيقة هذه القصة مؤثرة جداً، وذات دلالة كبيرة جداً، وأن هذا الدين دين الله، وأنه دين الحق، وأنه دين العدل، وأنه دين الإنصاف، فما معنى أن ينزل الوحي على رسول الله ليدافع عن يهودي، وما معنى أن يسمى هذا الذي حسب على النبي أنه ممن يخونه، هذا هو العدل والعدل يسع الجميع، ولا يمكن أن نرى رائحة النصر إذا كنا نظلم بعضنا بعضاً، لا نروح رائحة النصر حتى نقيم الحق فيما بيننا ودعك من أي جهة أخرى، الطبقة التحتية الطبقة الأولى في المجتمع فيها ظلم شديد، القوي يظلم الضعيف، والغني يأكل حق الفقير، والذكي يستغل محدودية الغبي ويأخذ ما عنده، وحينما نفعل هذا فيما بيننا نسقط جميعاً من عين الله، أما حينما نؤدي الحقوق لا نكذب ولا ندلس ولا نغش ولا نبخس الناس أشياءهم، مثلاً إنسان يصلي بالصف الأول استطاع بطريقة أو بأخرى أن يشتري بيتاً ثمنه سبعة ملايين بسبعمئة ألف، بعدة طرائق، ما قيمة صلاته؟ السيدة عائشة تقول ـ إنسان في عهدها ارتكب مخالفة في التعامل ـ فقالت: قولوا لفلان إنه أبطل جهاده مع رسول الله، أصل الدين أن تستقيم على أمره، أن تقول الحق ولو على نفسك، أن تنصف الناس من نفسك، أن تعطي كل ذي حقٍ حقه، حينما نتظالم، حينما يظلم بعضنا بعضاً، حينما يأكل بعضنا حقوق بعضنا الآخر، حينما نعتدي على حقوق الآخرين وندعي أننا مؤمنون مسلمون، نصلي بالمساجد، ونحج بيت الله الحرام، ونعتمر، ونضع اللوحات في بيوتنا، هذه اللوحات لا تقدم ولا تؤخر، فالله عز وجل بوحي منه يعاتب نبيه أنه دافع عن أنصاري محسوب عليه، والأنصار لهم مكانتهم الكبيرة في الإسلام، والدفاع عن يهودي ينتمي إلى أمة تكيد للنبي منذ أن ظهرت هذه الدعوة وحتى الآن، هذا هو العدل، العدل أن تقف موقفاً نزيهاً.

يروى أن قاضياً طُرق بابه، فتح الغلام الباب فإذا بطبق من الرطب، والرطب التمر في بواكيره، والقاضي يحب هذا التمر كثيراً فسأله ممن؟ قال: من رجل دفعه إلي، قال: صفه لي، قال: صفته كيت وكيت، فعرف أنه أحد المتخاصمين، فقال: رده، في اليوم التالي التقى بالخليفة وطلب منه أن يعفيه من منصب القضاء، قال: ولمَ؟ قال: والله طُرق بابي البارحة وقُدم لي طبق من الرطب في بواكيره وأنا أحب الرطب في بواكيرها، فعلمت أن الذي قدمها أحد المخاصمين، رددته في اليوم التالي وتمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم لي طبق الرطب، فلهذا أطلب أن تعفيني من هذا المنصب.

على كلٍ موضوع الحق، الله هو الحق، وهذا الدين دين الحق، والقرآن حق، والنبي حق، والأوامر حق، والنواهي حق، وحينما نعتدي على بعضنا بعضاً ينبغي ألا نطمع أن ينظر الله لنا، أو أن يرحمنا، والمظالم في بلاد المسلمين لا تعد ولا تحصى، أي الضعيف يُستَغل، ضعيف التفكير

يُستَغل، ضعيف القوة يُستَغل، فإذا أردنا أن ننتصر يجب أن نقيم الحق فيما بيننا حتى نستحق أن ننتصر.

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً*وَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(49-69): تفسير الآيات 105-110 ، علاقتنا مع الله وحده

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-02-14

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص لما ورد في الدرس الماضي :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع الأربعين من دروس سورة النساء ومع الآية الخامسة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

أيها الأخوة الكرام، تحدثت في الدرس الماضي عن هذه الآية تحدثت عن أن الله سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن ذاته العلية يأتي ضمير المفرد، قال تعالى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)

[سورة طه: 14]

وإن تحدث عن أفعاله فكل أسماءه الحسنة منطوية في أفعاله:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

أما قوله تعالى:

(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ)

هذا الكتاب يسع المؤمنين وغير المؤمنين وأنت حينما تتعامل مع الخلق ينبغي أن تكون معاونتك وفق منهج الله، بصرف النظر عن هويتهم، وعن انتمائهم، وعن إسلامهم، أو عن أي شيء آخر، ووقفت وقفةً متأنيةً عند قوله تعالى:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

وذكرت أن الأحداث التي تقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مقصودة لذاتها لتكون متكئاً لتشريع حي، فهناك قيمة هي قيمة العدل، هذه القيمة تبدو واضحةً جليةً في هذه القصة.

قصة الدرع المسروقة :

أيها الأخوة الكرام، كان في بني ظفر واحد اسمه طعمة بن أبيرق، بنو ظفر قوم من الأنصار يسكنون المدينة، وقد بينت في الدرس الماضي أن الأنصار نصروا رسول الله، آووه، نصروه، آمنوا به، عزروه، أكرموه، هم أهله، ومن أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار))

[أحمد عن أبي سعيد الخدري]

((وما سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً آخر إلا سلكت شعب الأنصار))

[البخاري والنسائي عن أبي هريرة]

هناك أحاديث كثيرة تتحدث عن الأنصار، وعن فضلهم، وإيمانهم، وسبقهم.

شاءت حكمة الله عز وجل أن واحداً من الأنصار من بني ظفر اسمه طعمة بن أبيرق سرق درعاً، وهذا الدرع كان لقتادة بن النعمان، أنصاري، كان هذا الدرع في كيس فيه دقيق، وهذا الكيس فيه ثقب بسيط، هذا الثقب رسم خطاً من ساحة المعركة إلى بيت طعمة بن الأبيرق، فلما تفقد صاحب الدرع قتادة بن النعمان تفقد درعه، أشير بإصبع الاتهام إلى الأبيرق من آثار الطحين، لكن ابن الأبيرق خاف أن يحتفظ بالدرع في بيته فيعرف الناس أنه سرق الدرع، يبدو أنه كان منافقاً، ويبدو أنه كان سارقاً، فذهب إلى يهودي وأودع عنده الدرع، وتروي القصة أن الدرع كما قلت قبل قليل كان في جراب دقيق، وحينما خرج به طعمة بن الأبيرق وحمله صار الدقيق ينتثر من خرق في الجراب، وتكوَّن من الدقيق أثراً في الأرض إلى بيت اليهودي، وهذا اليهودي اسمه زيد بن السمين، وعندما تتبعوا أثر الدقيق وجدوه إلى بيت طعمة، ولكنه حلف بالله أنه ما أخذها وما له بها من علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى الأثر إلى منزل اليهودي، فأخذوها وقالوا: لقد سرق ابن السمين.

الآن التهمة وجهت إلى اليهودي لأن الدرع وجدت في بيته، ولأن أثر الدقيق انتهى إلى بيته، وهنا قال ابن السمين: أنا لم أسرق الدرع ولكن أودعه عندي طعمة بن الأبيرق، وذهبوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام في قضية، قضية درع مسروقة ويبدو أنها ثمينة، والتهمة بين اليهودي التي وجدت عنده الدرع وبين ابن الأبيرق الذي انتهى الخط إلى بيته، وجاء بن ظفر وهم أهل ابن الأبيرق وجاءوا بني ظفر وهم مسلمون ومن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وطعمة بن الأبيرق منهم وقالوا يا رسول الله لو حكمت على المسلم ضد اليهودي فستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجه العار للمسلمين دافعوا عن قريبهم ولعلهم ظنوا أنه لم يسرق.

قضية شائكة في دليل يؤكد أنه عند اليهودي ودليل آخر أن خط الدقيق يصل إلى طعمة بن الأبيرق قضية شائكة. لو حكمت يا رسول الله على المسلم ضد اليهودي فستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجه العار إليهم.

أسباب هلاك الأمم :

أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو لو أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فهموا الإسلام كما يفهمه المسلمون اليوم والله ما خرج الإسلام من مكة إلى المدينة، لا يصل، ولأنه وصل إلى أصقاع الدنيا وصل بقيم إنسانية رفيعة.

الآن هناك إنسان ينتمي إلى أشد القوم عداوةً لرسول الله، إنسان ينتمي إلى أشد القوم عداوةً لرسول الله، ائتمروا على قتله وفعلوا الأفاعيل وهو بريء من هذه التهمة بالذات، وهناك إنسان ينتمي إلى قوم النبي، إلى الأنصار الذين نصروه وأيدوه وآمنوا به وصدقوه وعزروه، والأنظار تتجه إلى اليهودي، فإذا كان اليهودي هو السارق فهذا نصر للمسلمين وتبريئاً لهم ورفع لرؤوسهم، وإذا كان الأنصاري هو السارق فهذه وصمة عار بحق الأنصار واليهودي يرفع رأسه عالياً، هل تصدقون أيها الأخوة أنه إذا سرق الشريف ترك وإذا سرق الضعيف أقيم عليه الحد، هذا من أسباب هلاك الأمم لو تتبعتم أسباب هلاك الأمم.

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشاً... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

إن من أسباب هلاك الأمم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، إن من أسباب هلاك الأمم قوله تعالى:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)

[سورة الإسراء: 16]

من أسباب هلاك الأمم ترك الأمر بالمعروف وترك النهي عن المنكر، من أسباب هلاك الأمم الظلم، وإن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة.

معظم أسباب هلاك الأمم موجودة في المسلمين اليوم :

قال بعض العلماء: الدنيا تصلح بالكفر والعدل ولا تصلح بالإيمان والظلم، يؤيد هذا قول الله عز وجل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

أما إذا ألبس المؤمن إيمانه بالظلم ليس آمناً، وليس ناجياً، وسوف يعذب أشد العذاب، قال تعالى:

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

[سورة الكهف: 59]

ما قولكم أيها الأخوة، أن معظم أسباب هلاك الأمم موجودة في المسلمين، وأنا أعني ما أقول، الأقوام السابقون كان الله عز وجل يهلك الأمة لمعصية واحدة، فإذا اجتمعت كل المعاصي في المسلمين فشيء طبيعي جداً أن يتخلى الله عنا، لا يلتفت إلى دعوانا، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

ما قبل الله دعوى محبته إلا بالدليل، والذين قالوا:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

[سورة المائدة: 18]

رد الله عليهم وقال:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

عدل الله المطلق :

إذا قال المسلمون اليوم: نحن أمة محمد عليه الصلاة والسلام، نحن أمة سيد الخلق، نحن أمة حبيب الحق، نحن أمة خاتم الأنبياء، نحن أمة سيد الرسل، الجواب نفسه:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

لا قيمة لكم إطلاقاً، أنتم مع دهماء الأمم، وأنت أيها المسلم إن لم تكن مطبقاً لمنهج الله عز وجل أنت مع دهماء الناس ولا يلتفت إليك، كل انتماءاتك لا قيمة لها، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

ما الذي يحصل؟ موقف عصيب واحد ينتمي إلى أقرب الناس إلى رسول الله، ينتمي إلى الذين نصروه وعزروه وآمنوا به وصدقوه وبذلوا له كل شيء، وواحد ينتمي إلى ألد أعداء رسول الله، وفي أدلة متقاربة، اليهودي رفض هذه التهمة، والأبيرق جاء قومه إلى النبي، بني ظفار: يا رسول الله نحن قومك أيعقل أن يسرق هذا؟ لعل النبي عليه الصلاة والسلام مال إلى تصديق الأنصار واتهام اليهودي، الآن ينزل من السماء وحي يعاتب النبي على أنه مال إلى دعوة الأنصار، ويبرئ اليهودي ألد أعداء رسول الله، هذا هو العدل.

وأنا عقبت على هذا في الدرس السابق أنه والله الذي لا إله إلا هو لا يمكن أن نشم رائحة النصر إذا كان بعضنا يظلم بعضنا الآخر، دعك من الذين فوق الناس، خذ الناس، خذ عامة الناس، كم من زوج يظلم زوجته؟ وكم من رب عمل يظلم عماله؟ وكم من صاحب أرض يظلم فلاحه؟ وكم من قوي يأكل الضعيف؟ وكم من غني يستغل الفقير؟ وكمْ؟ وكم؟ حينما يظلم بعضنا بعضاً لا يمكن أن

نشم رائحة النصر، أرأيت إلى هذا الدين العظيم، أرأيت إلى قرآن الله يبرئ عدواً لرسول الله ويلوم النبي على أنه مال إلى دعوى الأنصار.

حينما يفهم الناس الدين فهماً صحيحاً يستحقون نصر الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

لا تكن مدافعاً عنهم، لا تحكم لصالحهم، الإسلام لا يرتفع بهذا، يرتفع الإسلام إذا أقيم الحق، يقول عليه الصلاة والسلام:

((... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا))

[متفق عليه عن عائشة]

تروي الأخبار أن حد الرجم أقيم على ولد أحد أصحاب رسول الله خاطبه وقال: إذا انتقلت إلى الدار الآخرة قل للنبي الكريم إن أبي أقام علي الحد. هذا هو الإسلام، هذا هو الدين، الدين عدل وما لم يرجع المسلمون إلى دينهم حقيقة، وما لم يكونوا صادقين، وما لم يكونوا أمناء، وما لم يكونوا أعفة، فإن النصر لا يأتي، لعل الناس يغترون بعباداتهم، العبادات التي تؤدى من دون استقامة ومن دون التزام لا قيمة لها عند الله، رب تال للقرآن والقرآن يلعنه، قم فصل إنك لم تصل:

((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))

[البخاري عن أبي هريرة]

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 53]

((من حج بمال حرام فقال: لبيك اللهم لبيك، قال الله له: لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك))

[الشيرازي في الألقاب وأبو مطيع في أماليه عن عمر]

قال بعض العلماء: والله ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام، هذا هو الدين، درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، حينما يفهم الناس هذا الفهم يستحقون نصر الله عز وجل.

لا يعقل ولا يقبل أن تنكشف الحقيقة ويحكم النبي بخلاف العدل :

حينما جاء ابن رواحة إلى اليهود ليقدر تمرهم أغروه بحلي نسائهم فقال لهم: جئتكم من عند أحب الخلق إلي ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض وبهذا غلبتمونا.

هذا هو الدين، الدين أن تعامل هذا الشاب الذي في محلك التجاري كما تعامل ابنك تماماً، الدين أن تعامل هذه الفتاة التي هي زوجة ابنك كما تعامل ابنتك تماماً، أما هذه التفرقة وهذا الكيل بمكيالين هذا يفقدنا كل ميزة نستحق بها النصر.

أيها الأخوة الكرام، لا أجد من درس بليغ أدق من هذا الدرس الذي لقنه الله لأصحاب رسول الله، قال تعالى:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

لا يعقل ولا يقبل أن تنكشف الحقيقة ويحكم النبي بخلاف العدل، ولكن النبي قال:

((إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار))

[البخاري عن أم سلمة]

أي مال إلى تصديق الأنصار وهو بشر، ورغب أن تكون التهمة محققة في اليهودي، فجاء العتاب الإلهي:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

النبي بشر ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر :

أيها الأخوة الكرام:

(فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً)

[سورة النساء: 64]

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

حينما يعاتب الله سيد الخلق وحبيب الحق هذا العتاب من أجل أن يكون هناك فرق بين مقام النبوة ومقام الألوهية، مقام النبوة مقام عصمة، وقد ترك للنبي الكريم هامشاً اجتهادياً طفيفاً، فإذا أصاب باجتهاده أيده الوحي في ذلك، وإن لم يصب صحح الوحي له اجتهاده.

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

النبي بشر ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

[سورة الكهف: 110]

أي إذا انتزعت من فم النبي الشريف فتوى لصالحك أو حكماً لصالحك ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله، فما بال أولئك المسلمون الذين يتكئون على فتوى ضعيفة لإنسان منتفع، أو موظف، أو جاهل، يعتمدون على هذه الفتوى وهم آمنون مطمئنون، لو أن النبي الكريم أفتى لك ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله.

(وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

علمنا النبي هذه الحقيقة: الحق أحق أن يتبع، لا تتصور أنك إذا اتهمت مسلماً وبرأت كافراً هذا يضع من شأن المسلمين، لا، هذا يرفع من شأن المسلمين، وما أهلك الناس إلا التعصب الأعمى.

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

* * *

مع قومه، كم من أب وكم من أم مع ابنها ولو كان على باطل، كم من أب وكم من أم على زوجته ولو كان ظالماً لها، وكم من إنسان مع شريكه ولو كان ظالماً، إذا ضاعت الحقوق فقد تودع من هذه الأمة.

الذي يخون الناس يخون نفسه لأنه يوردها موارد الهلكة :

أيها الأخوة الكرام، النبي عليه الصلاة والسلام بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، إذاً هو سيد البشر.

(وَلَا تُجَادِلْ)

أي لا تدافع، الجدل غزل الخيوط كي تصبح حبلاً مفتولاً قوياً، والجدال إظهار الحجج وإحكام الرأي دفاعاً عن جهة ما.

(وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ)

من أدق المعاني لهذه الآية أن الذي يخون الناس يخون نفسه لأنه يوردها موارد الهلكة، الذي يخون الناس يخون نفسه بادئ ذي بدء لأنه يوصلها إلى الشقاء، إن أشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه، وإن أشد أنواع الخيانة أن يخون نفسه لذلك.

ولا تجادل يا محمد عن الذين أي لا تدافع عن الذين يختانون أنفسهم، يختان لمَ لمْ يقل يخون؟ يخون من خان ثلاثي، أما يختانون من أختان، أختان خماسي وكل زيادة في المبنى زيادة في المعنى، في افتعال، إذا قلنا: فلان كتب، أي كتب مرة واحدة، أما إذا قلنا: فلان اكتتب، هو كاتب يعمل في الكتابة، فالإنسان حينما يخون الناس عن قصد، وعن تصميم، وعن تكرار، وعن معاودة، ويكذب ويحتال هذا يختان، أما إذا أخطأ مرةً واحدة نقول له: خان، أما إذا كانت الخيانة طبعاً وأسلوباً في حياته هذا يختان، الفعل مزيد وفي الزيادة معنى الافتعال والمبالغة.

من علامات الإخلاص :

يروى أن سيدنا عمر جاءه رجل سارق فقال: أقيموا عليه الحد: قال: والله يا أمير المؤمنين إنها المرة الأولى قال: كذبت إن الله لا يفضح من المرة الأولى، فكانت الثامنة.

يختان أي ألِف الخيانة، عاودها، كررها، جعلها طبعاً فيه، جعلها أسلوباً متميزاً في حياته.

(وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً)

مع الخيانة في أثم، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تقترف معصية دون أن تظلم إنساناً، لو أنك طبقت منهج الله عز وجل بالذي لك والذي عليك، أما عندما تأخذ ما ليس لك ظلمت إنساناً، حينما تعتدي على عرض فتاة ظلمت فتاةً، فلذلك إن الله لا يحب من كان خواناً شديد الخيانة، وخوان صيغة مبالغة، وصيغة المبالغة تعني مبالغةً في الكم أو مبالغة في العدد، إما أنه يرتكب خيانات كثيرة، أو أنه يخون أمته، يخون دينه.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً)

في كل أنظمة الأرض الخائن يعدم، يقولون: خيانة عظمى، فالذي يخون المسلمين أو الذي يتعاون مع أعداء المسلمين أو الذي يسلم المسلمين إلى أعدائهم أو يعطيهم الأخبار التي تضعفهم هذه خيانة عظمى، هو في الحقيقة يخون نفسه، يوردها موارد الهلكة.

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ)

هذا من ضعف التوحيد، من ضعف التوحيد ورد أن الله سبحانه وتعالى في بعض الأحاديث القدسية يقول: طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة.

هذا الذي يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله ليس مخلصاً، من علامة إخلاصك أن عملك لا يختلف إذا كنت في جلوة أو كنت في خلوة، من علامة إخلاصك أن عملك لا يتأثر بمديح الناس أو بذمهم، بمكافأتهم أو بعقابهم، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به.

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً)

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان :

أيها الأخوة الكرام، أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، لمجرد أن تشعر أن الله معك تستحي منه، تستحي أن تقول قولاً لا تفعله، تستحي أن تعظ بما لست متعظاً به، تستحي أن تبيت خطةً فيها إساءةً لمسلم أو لغير مسلم والله مطلع عليك.

شخص سأل شيخاً عن معصية الله عز وجل، فقال له الشيخ مقولة غير مقبولة إطلاقاً، قال: اعص الله ما شئت ولكن إذا عصيت الله فاحرص على أن لا تسكن أرضه، قال له: وأين أسكن؟ إذاً قال له: أتسكن أرضه وتعصيه، قال له: هات الثانية، قال: إذا عصيته فلا تأكل شيئاً من نعمه، قال: وماذا آكل؟ إذاً قال: تسكن أرضه وتأكل نعمه وتعصيه، قال: هات الثالثة، قال: إن أردت أن تعصيه فاعصه في مكان لا يراك فيه، قال: هو معنا أين ما كنا، قال: تسكن أرضه وتأكل خيره وتعصيه وهو يراك، قال: هات الرابعة، قال: إذا عصيته وجاءك ملك الموت فلا تذهب معه لا ترضى، قال:

لا أستطيع، قال: تسكن أرضه وتأكل خيره وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تمتنع عن ملك الموت، قال: هات الخامسة، قال: إذا عصيت الله عز وجل وجئت يوم القيامة فلا تدخل النار أيضاً لا ترضى، قال: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه وتأكل خيره وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تمتنع عن ملك الموت ولا عن زبانية جهنم أين عقلك؟!!

فلذلك بعض العلماء قرأ حديثاً قال: استغنيت به عن مئة ألف حديث، اعمل للدنيا بقدر بقاءك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتق النار بقدر صبرك عليها.

مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك :

قال تعالى:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

(يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنْ الْقَوْلِ)

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

[سورة الإسراء: 79-80]

ثم يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

[سورة الشعراء: 213-218]

لذلك مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

كل إنسان مؤمن يجب أن يهيئ جواباً لله عز وجل عن كل أفعاله :

قال تعالى:

(هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً)

أنت إذا جادلت عن هؤلاء من يجادل الله عنهم يوم القيامة، علاقتك مع الله ولا ينفعك بشر كائن من كان: والدليل قل لهم يا محمد:

(لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

في أبلغ:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

فإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فلئن لا يملك لأحد من باب أولى.

(هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً)

موظف له عمل حساس يستطيع أن يوقع الأذى بأناس كثيرين ضمن عمله، فمرةً استنصحني، قلت له: افعل ما تريد ولا تعبأ، ضع الناس في السجن، قال: هكذا تقول؟ قلت: هكذا أقول، ولكن إذا كنت بطلاً تهيئ لله جواباً عن كل فعل تفعله وكلهم عباده. المشكلة أن تهيئ لله جواباً لمَ فعلت كذا؟ لمَ ظلمت فلان؟ لمَ أعطيته؟ لمَ حرمته؟ لمَ ابتسمت في وجهه؟ لمَ عبست في وجهه؟ لمَ وصلته؟ لمَ قطعته ما السبب؟ فكل إنسان مؤمن يجب أن يهيئ جواباً لله عز وجل عن كل أفعاله وإلا فالله شديد العقاب، وإن بطش ربك لشديد.

(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً)

أيها الأخوة الكرام، في درس قادم إن شاء الله نتابع تفسير هذه الآية.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(50-69): تفسير الآيات 111-113
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-02-21

بسم الله الرحمن الرحيم

الكذب والبهتان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخمسين من دروس سورة النساء، ومع الآية الحادية عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

الحقيقة أن الإنسان مخير، ولأنه مخير كل خصائصه وكل حظوظه حيادية، يمكنه أن يوظفها في الخير كما يمكن أن يوظفها بالشر، ولأن الإنسان مخير فأخطاؤه وآثامه من كسبه ولا يستطيع أن يلقيها على جهة أخرى، لا يستطيع أن يتنصل منها، ولا أن يعزوها إلى غيره، فإن فعل هذا فهو أجهل الجهلاء، ومن يكسب خطيئةً؛ والخطيئة تكتسب كسباً من كسبك أي من اختيارك، من تصورك، ومن اختيارك، ومن فعلك بمعنى أنك أردت أن تفعل هذا فأمدك الله بقوة ليحقق اختيارك.

(وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ)

من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، في الأعمال الصالحة تأتي لام الاختصاص وفي الأعمال السيئة تأتي (على)، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

(لنا) تفيد الاختصاص، هذا مما خصصنا به أو الملكية، المعنيان متقاربان بينما (على) تفيد المسؤولية.

(وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً* وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً)

كما فعل الأبيرق كسب خطيئةً أو إثماً، سرق درعاً ثم رمى به بريئاً، فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً، والبهتان أشد أنواع الكذب، كذب اختلاق لا كذب مبالغة، قد تكون الكذبة لها أصل لكن الكاذب يبالغ، يضخمها، وقد تكون الكذبة لا أصل لها إطلاقاً فيختلقها صاحبها اختلاقاً، اختلاق الكذب هو البهتان.

الله عز وجل هو الحق وهو متكفل أن يظهر الحق :

أيها الأخوة، أحد أصحاب رسول الله في بعض الغزوات الصعبة تخلف عن رسول الله، فلما عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وكان من عادته أن يستمع إلى أعذار المتخلفين، فجاءه ثمانون منافقاً واعتذروا أعذاراً متباينة ومحكمة، فلما جاء سيدنا كعب قال: والله ـ في نفسه ـ إني أوتيت جدلاً، أي أوتيت قدرةً على الإقناع، وهذه قدرة بالإنسان قد يملكها قدرة الإقناع، ولكنني خشيت أن أخرج من غضبه فيغضب الله علي، لأن الله يرى الحقيقة، قال: فأجمعت صدقاً، أي أخذ قراراً أن يكون صادقاً معه، فلما جاء دوره في الاعتذار قال: والله ما كنت أقوى ولا أشد حينما تخلفت عنك ولكنني تخلفت ولا عذر لي، فقال عليه الصلاة والسلام بإشارة ذكية: أما هذا فقد صدق، أي الثمانون الذين حدثوه كانوا كاذبين، ولأنه صدق جاء الوحي من السماء بأن يقاطعوا، وقد قوطعوا خمسين ليلة ثم تاب الله عليهم وغفر لهم وعادوا إلى ما كانوا عليه.

رويت هذه القصة لأن الإنسان عندما يكتسب إثماً أو خطيئة ثم يرمي به بريئاً الله عز وجل هو الحق وهو متكفل أن يظهر الحق، فبعد حين تنكشف الأمور ويظهر البريء بريئاً والمذنب مذنباً.

(وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

جاء بأشد أنواع الكذب وهو كذب الاختلاق وإثماً مبيناً.

من يطلب الحق بفضل الله وبرحمته يمكّنه منه ويعطيه إياه :

أيها الأخوة، هذه القصة قصة الأبيرق التي جاءت هذه الآيات تتحدث عنها وتعطي للمؤمنين درساً بليغاً أن الإسلام عدل وينبغي أن تعدل ولو مع خصمك قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

ينبغي أن تكون عادلاً مع من تكره، ومع من تبغض، ومع الذين يناوئونك، فكيف بالمؤمنين؟ يقول الله عز وجل:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ)

وهذه آية عامة.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ)

[سورة النور: 21]

أي كل الذي تتمتع به من فهم لهذا الدين، من استقامة على أمر الله، من عمل صالح، من قيم تتمثلها، من مبادئ تعتنقها، من سلوك تفعله، كل هذا الخير التي أنت فيه هو من فضل الله عليك، وقد تسأل لمَ لم ينله غيري؟ أنت أردته لا بد من أنك أردته فمنحه الله إياك، وفرق كبير بين أن تطلب شيئاً وبين أن تناله، هذه الدنيا أمامك اطلب ما شئت هل تنال كل الذي تطلبه؟ لا، لكن الله

سبحانه وتعالى برحمته وفضله إن طلبت الحق مكنك منه وأعطاك إياه، وإذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

الفرق بين همّ التنفيذ وهمّ التزيين :

قال تعالى:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ)

أيها الأخوة، في هذه الآية ملمح دقيق هم هذه الطائفة، قال العلماء: هناك همّ إنفاذ وهناك هَمّ تزيين، أحياناً يكون همي أن أحمل فلاناً على عمل لا يرضي الله هذا هم تنفيذ، الله عز وجل حفظ نبيه من هم التنفيذ، لم يفعل شيئاً خلاف منهج الله، ولم ينطق بكلمة لا ترضي الله، ولم يحكم حكماً ليس فيه العدل، فالنبي عليه الصلاة والسلام معصوم والنبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده بينما أمته معصومة بمجموعها، فهذه الطائفة التي همت أن تضله كان همها ـ والفضل لله عز وجل والكمال لله عز وجل ـ كان همها هم تزيين لا هم إنفاذ، لأي لم يستطيعوا أن يحملوه على أن ينطق بكلمة فيها حكم ظالم، ولكنهم استطاعوا أن يزينوا له أن الأبيرق بريء، فرق كبير بين هم التزيين وبين هم الإنفاذ، يعني الصاحب السيئ قد يحمل صاحبه على فعل المنكر، فهمّه أن يسقطه في الهاوية، والصاحب الآخر منع من أن يحمل صاحبه فعل المنكر ولكنه زين له المنكر وانتهى الأمر عند هذا، ولم يستجب الصاحب لتزيين صاحبه.

إذاً من فضل الله العميم على رسول الله الكريم أن همّ هذه الطائفة كان همّ تزيين لا همّ تنفيذ، ولولا أن الله حفظ رسوله، ولولا أن الله سبحانه وتعالى وفق رسوله إلى الحق لهمّت طائفة منك أن يضلوك، كيف يضلوك؟ هذا موضوع دقيق جداً لو أن النبي عليه الصلاة والسلام الذي يوحى إليه، الذي يأتيه الوحي من عند الله عز وجل، لو أنه حكم على بريء بالجرم، وحكم على مذنب بالبراءة، ماذا يقول المذنب الذي حكم عليه بالبراءة؟ كيف انطلى عليه ذلك؟ يقيس هذا الخطأ على وحي السماء فيسقط عنده وحي السماء، وهذا الذي حكم عليه النبي بالذنب وهو بريء ماذا يقول؟ أين الوحي؟ كيف حكم علي ظلماً؟ الآن أنتقل معكم نقلة خطيرة جداً، إنسان دعا إلى الله لو تكلم كلاماً في موطن أو مواطن ليس قانعاً به، لو تكلم في شأن آخر ليس شأن الدين كلاماً لا يرضي الله، لو مدح من لا ينبغي أن يمدح، لو ذم من ينبغي أن لا يذم، فرضاً هو لمصلحة راجحة عنده، سقط الحق الذي يحمله، فبذلك الله عز وجل يقول:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 39]

المؤمن لا ينطق إلا بالحق وإذا نطق يتحفظ :

هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله هم خلفاء النبي في نقل الحق للناس، لو أنهم خافوا من غير الله فنطقوا بالباطل وسكتوا عن الحق ماذا بقي من دعوتهم؟ سقطت دعوتهم، أنت ائتمنت فلاناً على خبر السماء لو أنه كذب عليك في خبر الأرض تشك بمصداقية خبر السماء، نقطة دقيقة جداً أراد هؤلاء أن يزينوا للنبي أن الأبيرق ليس بسارق، لو أنهم مكنوا أن يهموا برسول الله أن ينطق بحكم ظالم على إنسان بريء، وأن يبرأ ظالماً، فهذا الظالم الذي حكم عليه بالبراءة ومن حوله ماذا يظنون بهذا الإنسان الذي يوحى إليه؟ يشكون في الوحي الذي يأتيه من السماء، وهذا البريء الذي حكم عليه ظلماً بأنه مذنب؟ هو ومن حوله كيف يقبلون من النبي أنه مؤتمن على وحي السماء وقد حكم على بريء ظلماً شديداً.

لذلك أحد أنواع المطبات الخطيرة التي يقع فيها من ينطقون بالحق بعد رسول الله هو هذا، أي أنت كنت بعقد قران وأثنيت على الشاب الخاطب ثناءً لا حدود له، وأنت لا تعرفه، فأقرباء هذا الشاب يرون هذا المقام؛ مقام العلم، يثني ثناءً كاذباً على إنسان سيئ جداً، تهتز عندهم صورة هذا الإنسان، بل إن الذي يقوله وهو حق سقط عندهم، إذا مؤامرة خبيثة جداً أن هذا الذي يأتيه وحي السماء حكم على بريء بالذنب وحكم على مذنب بالبراءة إذاً أين وحي السماء؟ أين النور الذي ألقاه الله بقلبه؟ أين أثر الوحي بسلوكه؟ إذاً هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ)

لذلك دائماً وأبداً كن متحفظاً، هل بعد عمر من خليفة راشد بعد أبي بكر رضي الله عنهما، ومع ذلك عندما ولى أبو بكر سيدنا عمر جاء من يشتكي، لقد وليت علينا إنساناً شديداً، فقال، أتخوفونني بالله عز وجل، والله لو أن الله سألني لمَ وليت عليهم عمر؟ أقول: يا رب وليت عليهم أرحمهم قال الصديق: هذا علمي به فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب.

هذا درس بليغ لكل من يدعو إلى الله، لكل من يحمل الحق، تحمل الحق لو تكلمت في شأن عام كلاماً غير صحيح، لو تكلمت كلاماً لا ينبغي أن تقوله، لو تكلمت كلاماً لا يرضي الله عز وجل، لو مدحت فاسقاً وينبغي أن لا تمدحه، لو ذممت مؤمناً وينبغي أن لا تذمه هذا الجانب من كلامك غير الصحيح يسقط ما عندك من صحيح، لذلك المؤمن لا ينطق إلا بالحق وإذا نطق يتحفظ. سيدنا الصديق قال: هذا علمي به فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب.

الحق لا يتجزأ والخلق لا يتجزأ والقيم لا تتجزأ :

إذاً هؤلاء أرادوا أن يزينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يوهموا رسول الله تزييناً لا فعلاً أن الأبيرق بريء، فلو أنه حكم على الأبيرق بالبراءة وهو السارق، وحكم على اليهودي بالذنب

بالسرقة وهو الذي لم يسرق، ما قيمة الوحي عند هذين الرجلين ومن حولهما من أقاربهما ومن يلوذ بهما؟ ثم قد يفشو الخبر، ما من مثل يوضح هذه الحقيقة كما لو أن إنساناً أكرمه الله بالدعوة إليه، وفي مكان آخر، في مناسبة معينة، تكلم كلاماً لا يرضي الله، أو تكلم كلاماً غير صحيح، أو مدح من لا ينبغي أن يمدح، أو ذم من ينبغي أن يمدح، فهذا الخطأ الكبير في أحكامه في شأن آخر غير الدين يسقط ما عنده من حق، أي أنت حينما تأتي بخبير بحرفة معينة ويرتكب كذبةً كبيرة أمامك في شأن خاص ماذا تفعل أنت؟ لا تثق بخبرته، ولا تثق بولائه، ولا باختصاصه.

هذا الذي أوهم فرساً أن في ثوبه شعيراً كي يأتي إليه، فلما اقترب منه ـ سافر من المدينة إلى البصرة ليأخذ عنه الحديث ـ ورآه يكذب على الفرس، عاد إلى مكان مجيئه، ولم يسأله عن شيء لأن الحق لا يتجزأ، والخلق لا يتجزأ، والقيم لا تتجزأ، فالذي يكذب على فرسه ليس أهلاً أن ينقل عن رسول الله حديثاً، هذا هو الأصل، فالآية الكريمة:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ)

يزينوا لك براءة الأبيرق وذنب اليهودي، لو تكلمت بخلاف الحق انسحب هذا الخطأ على دعوتك، وانسحب هذا الخطأ على الحق الذي تحمله، فاهتزت صورة النبي عليه الصلاة والسلام. أنت في حياتك اليومية حينما تثق بإنسان ثم تراه يحكم حكماً جائراً في موضوع دنيوي ألا تهتز عندك صورته؟ ألا ينسحب هذا الاهتزاز على العلم الذي يحمله وعلى مكانته؟

مثلاً لو سألت إنساناً عالماً عن إنسان وذمه ابتداءً ولم يلتقِ به، ولم يستمع منه، ولم يقرأ كتاباً له، ذمه هكذا كي يبعدك عنه، ألا تهتز صورة هذا العالم؟ لم يكن واقعياً، لم يكن منصفاً، هل العلم معلومات تحفظها أم مواقف أخلاقية تفقهها؟ العلم في حقيقته حكم فيه إنصاف النبي عليه الصلاة والسلام، حينما رأى صهره في صف المشركين وجاء ليقاتله وقد وقع أسيراً نظر إليه، وقال: والله ما ذممناه صهراً، أي كان صهراً جيداً.

كيد الله تدبير حكيم يردع الكفار عن أن يضلوا المؤمنين :

قال تعالى:

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)

كيداً:

(وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق: 16]

كيد الله تدبير حكيم يردعهم عن أن يضلوا المؤمنين، وما يضلون إلا أنفسهم أي هم حينما أرادوا هذا العمل السيئ، أو حينما أرادوا أن يزينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم براءة الأبيرق وذنب اليهودي، ولو أن بعضهم أراد من هذا أن يقع النبي عليه الصلاة والسلام في حكم ظالم فيبرئ مذنباً

ويتهم بريئاً، ولعل بعضهم وهم قلة أراد من هذا أن تهتز صورة النبي عليه الصلاة والسلام أمام هؤلاء الذين اجتمعوا على هذه القضية، قال: لولا أن الله حفظه من هم التنفيذ وسمح لهم بهمّ التزيين لكانت مشكلة كبيرة جداً.

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ)

الله عز وجل هو الأصل في كل سعادة، وفي كل أمن، وفي كل راحة، وفي كل توازن، وفي كل سكينة، فإذا أسأت إلى خلقه حجبت عنه، أنت الذي دفعت الثمن باهظاً، أضللت نفسك عن مصدر السعادة، وما يضلون إلا أنفسهم، وما يضرونك من شيء لأن الله يحفظك.

الآمر ضامن حينما أرسل الله هذا النبي الكريم أرسله وقد عصمه من أن يضله أحد، عصمه من أن يقتل، عصمه من أن يضل:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

الحكمة من أن القرآن الكريم جاء منجماً وليس جملة واحدة :

إذاً كل محاولات الطرف الآخر باءت بالخيبة لأن الله عصم النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

أخواننا الكرام، في حقيقة خطيرة جداً أتمنى أن أوفق في شرحها، كان من الممكن أن ينزل هذا القرآن جملة واحدة، مرة واحدة، كل هذه الأحكام في كتاب هو القرآن الكريم، ولكن الله شاءت حكمته أن ينزل منجماً، أي يقع حدث يأتي وحي يوجه النبي لهذا الحدث، فالأحكام جاءت مرتبطة بوقائع، هذه الطريقة من أجل تثبيت قلب النبي، أضرب لكم على ذلك مثلاً؛ أنت عندك كتاب في البيت قرأته مرتين، قدمت به امتحاناً، لكن بعد حين تنساه كله، لماذا؟ لأن هذه الأحكام بقيت نظرية لم تتعامل معها تعاملاً واقعياً، لو أنك عانيت مشكلةً ولا بد أن تعرف الحكم الشرعي وقلبت الكتب التي في مكتبتك، ثم سألت بعض العلماء، ثم استقر رأيك على حكم شرعي يتناسب مع هذه الحادثة، لأنه في حادثة وقعت، لأنه في ارتباط بين النص وبين الواقع، هذا الحكم الشرعي لا تنساه مدى الحياة، أنت تذكر أن الذي لا تنساه أبداً هي مشكلة عانيت منها ثم بحثت لها عن حل شرعي، فالأحكام الشرعية التي توصلت إليها بعد معاناة مشكلة لا تنساها أبداً، لأنها ارتبطت بمشكلة، علماء التربية يقولون: ارتبطت بخبرة.

لو أنك لا سمح الله ولا قدر أخطأت في مجال ما فدفعت ثمناً باهظاً هذا الدرس لا تنساه حتى الموت، فالحكم الشرعي حينما يأتي في كتاب، حينما يأتي حكماً نظرياً، حينما لا يرتبط بواقع، حينما لا يرتبط بمعاناة، حينما لا يرتبط بتجربة، سريعاً ما تنساه، واسأل الذين نالوا شهادات عليا كم كتاباً قرأ في الجامعة؟ وكم كتاباً نجح فيه في الجامعة؟ قد لا يذكر منه شيئاً، أما المشكلات التي

عاناها، والقضايا التي عاينها، والأزمات التي مر بها، فكل ما قيل فيها من أحكام شرعية يحفظها غيباً.

القرآن الكريم نزل منجماً ليثبت الله به قلب النبي الكريم :

إذاً كان من الممكن أن ينزل الله على رسوله هذا القرآن جملةً واحدة، مثلما هو قرطاس من السماء كل شيء فيه، لكن الذي فعله الله عز وجل وهو ما ينبغي أن نفعله نحن أنه نزل منجماً بحسب الوقائع، فحديث الإفك فيه آيات عن الإفك، حديث الأبيرق فيه آيات عن الأبيرق، في أحد في آيات عن الحرب وعن السلم، وعن النصر وعن الهزيمة، فهذا القرآن نزل منجماً ليثبت الله به قلب النبي، وأنت أيها الأخ إذا كنت مربياً أو معلماً أو مرشداً لا يمكن أن ترسخ هذه الحقائق التي تتلوها على أخوانك أو على طلابك إلا بحالة واحدة أن ترتبط بمشكلة تعانيها.

كم من حديث شريف يتحدث عن أشراط الساعة؟ لو قرأته قبل عشرين عاماً لا تتأثر له إطلاقاً، أما حينما ترى الأحداث صارخةً، وحينما ترى أن هذا الحديث جاء به النبي وكأنه يعيش معنا، تتفاعل معه تفاعلاً عجيباً لأن الواقع أيده، والواقع دعمه، وهذا ما يسميه العلماء فقه الحياة، فقه الكتب شيء وفقه الحياة شيء آخر، أنت مثلاً دائماً عندك قناعة المعالجة واجب، بل ترتقي إلى مستوى الفرض ثم تفاجأ بحكم شرعي أن المعالجة ليست واجبة، أنت لا تقبل هذا لأنه أنت بخبرتك في التهاب زائدة، والعملية سهلة جداً، في أمراض من السهل جداً أن يشفى الإنسان منها، أما المعالجة غير واجبة، لم ترضَ بهذا الحكم أنت، أما حينما تعلم أن طفلاً يحتاج إلى معالجة تكلف ثمانية ملايين بدولة أجنبية، والأب موظف لا يملك شيئاً، لو باع بيته، وباع كل شيء، وباع أولاده، لا يستطيع أن يعالج ابنه، هذه مشكلة يغطيها هذا الحكم الشرعي، لا تتفاعل مع هذا الحكم الشرعي إلا بهذه المشكلة، هذه المشكلة لولا أن الله تعالى أنطق النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءته امرأة وقالت: يا رسول الله ابني أصيب بالصرع، قال: إن شئت صبرت، وإن شئت دعوت لك، فاستنبط العلماء على أن المعالجة ولو بالدعاء والرقية ليست واجبة إنما هي على الاختيار، هذا يغطي أحياناً أنه قد توقف المنفسة عن إنسان، كل يوم تكلفتها عشرون ألفاً، وموت الدماغ ثابت، كادت الأسرة أن تبيع كل ممتلكاتها، هنا ليست متابعة المعالجة فرْضاً في مثل هذه الحالة.

فالأحكام الشرعية النظرية التي هي في بطون الكتب لا تذكرها إطلاقاً، ولا تحفظها، بل لا تتفاعل معها، أما إن حصلت مشكلة، إن كانت تجربة، إن كانت معاناة، ثم جاء وحي السماء وبين هذه لا تنساها حتى الموت، وأنا أقول لك مرة ثانية الأحكام الفقهية التي تذكرها دائماً هي أحكام فقهية متعلقة بمشكلات تعانيها، الآن أعلى أنواع التروية أن تعالج المشكلة بالقواعد النظرية، لذلك بعض الجامعات ليس فيها تدريس إطلاقاً، فيها بحث، هذا الطالب يكلَّف ببحث، كلما وقع أمام عقبة كأداء

سأل أستاذه: ماذا أفعل؟ راجع البحث الفلاني، راجع البحث الفلاني، لخص البحثين، اجمع بينهما وأجب عن هذه النقطة، فلذلك:

من أخذ البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

* * *

كل شيء تدرسه ولا تتفاعل معه تنساه :

كل شيء يأتيك بسهولة، بلا معاناة، بلا مشكلة، بلا تجربة، لذلك الأفكار التي ينبغي أن نجتمع حولها واضحة لا نجتمع، هؤلاء الأجانب بعد حروب ومعاناة دافعين ثمن ما هم فيه الآن، ثمن من دماء أبنائهم، أي هم يتعاونون، هم بعيدون عن المهاترات بسبب أنهم دفعوا ثمن هذا باهظاً فيما مضى فاتعظوا، والتفتوا إلى تقوية أنفسهم، وبناء مجتمعاتهم، حتى ملكوا ناصية العالم.

فيا أيها الأخوة، حكمة الله عز وجل من أن القرآن نزل منجماً أي نزل بوقائع، ونزل بخبرات، لذلك أحكامه لا تنسى، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة الفرقان: 32]

أي نزل منجماً ليثبت الله به فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام.

أذكر مرة أنني قرأت كتاباً في دراسات عليا تربوية عن الأمراض النفسية، فكانت هذه الأمراض ثلاثمئة مرض، والله لا أذكر منها الآن مرضاً واحداً إلا مرضاً واحداً شاهدناه مصوراً في مقطع مسجل هو الصراع، كيف إنسان أراد أن يتجاوز مركبة ففوجئ بمركبة أمامه فوقع في صراع يتابع أم يتراجع؟ تصور امرأته تجري في جنازته، تصور أبناءه في المياتم، لأن هذا الموضوع رأيته بصورة مع مشكلة ومعاناة حفظته، أما كل شيء تدرسه ولا تتفاعل معه تنساه.

الأحداث التي وقعت في عهد النبي وقعت بشكل مقصود لتكون منطلقاً للأحكام الشرعية :

فكان من الممكن أن يأتي هذا القرآن، أن ينزل هذا القرآن على قلب النبي جملةً واحدة، أما جاء منجماً بحسب الوقائع، حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ

الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وأيم اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

إذاً الأحداث التي وقعت في عهد النبي وقعت بشكل مقصود ومركز من الله عز وجل بشكل لا نهائي لتكون منطلقاً للأحكام الشرعية، ومنطلقاً للوحي المنزل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، إذاً هذه القصة مبعث هذه الآيات وهذه المواقف، وكيف أن طائفةً أرادت أن تضل النبي، وكيف أنه سمح لها أن تهم بتزيين الأمر له، ولم يسمح لها بأن تحمله على فعل ما تريد لأن الله يحفظه، الله عز وجل إذا قال:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

لولا أن حالة جرت لكن النبي لم يتأثر بها إطلاقاً، ثبت بالفعل أنه محفوظ من الله عز وجل، وأنه معصوم، فالواقع حينما ينطقُ ينطق بحجة دامغة، فلذلك الوحي نزل منجماً بحسب الوقائع التي عاشها النبي، وهذه الوقائع كانت مركزة في أعلى مستوى من قبل الله عز وجل.

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

إن عرفت الله خضعت لمنهجه وسعدت بقربه في الدنيا والآخرة :

قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

لو معك ألف مليار تموت وتتركها في الأرض، متاع الدنيا قليل، كم تأكل؟ الذي معه بالمليارات كم يأكل؟ يأكل كما يأكل أي إنسان، على كم سرير ينام؟ كم ثياب يرتدي؟ كم مركبة يركب؟ الدنيا لها سقف، مهما كنت غنياً في الدنيا عند الله قليل، أما إذا علمك الله الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم سمى الله هذا الفضل فضلاً عظيماً، وأنا مرة ذكرت أن طفلاً بالحضانة لو قال لك: يا أبت أنا معي مبلغ عظيم، بعد العيد، يقدر هذا المبلغ بمئتي ليرة، أنت كم تتوهم المبلغ من طفل يقول: معي مبلغ عظيم؟ مئتي ليرة، إذا قال مسؤول بالبنتاجون: نحن رصدنا لحرب العراق مبلغاً عظيماً، كم تتصوره؟ مئتي مليار، انظر كلمة عظيم واحدة، قالها طفل فظننت مئتي ليرة، وقالها مسؤول فظننتها مئتي مليار دولار، إذاً كلمة عظيم بحسب قائلها أليس كذلك؟ إذا قال الله عز وجل:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

ما هو أعظم شيء في الأرض؟ أن تعرفه، إنك إن عرفته خضعت إلى منهجه وسعدت بقربه في الدنيا والآخرة، هذه البطولة، وهذه الآية والله ينبغي على كل أخ كريم أن يضعها في صدر بيته.

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

الشرك عم الأرض، تسعمئة مليون يعبدون البقر في بعض القارات، يعبدون الحجر، يعبدون الشمس والقمر، يعبدون شهواتهم، يعبدون النساء، فإذا سمح الله لك أن تعبده فأنت على هدىً كبير.

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

في بلاد لعل هذه العادة بدأت تنقرض إذا مات الزوج ينبغي أن تحرق معه زوجته وهي حية، هكذا تقاليدهم، لا، نحن تتزوج بعد موته، ليس هناك مشكلة أبداً، انظر الشرع الإلهي، في بلاد يأكلون الجرذان أما الله سمح لنا أن نأكل أطيب الطعام، فنحن في نعمة لا تعدلها نعمة لكن ينبغي أن نعرفها.

أيها الأخوة، قضية أن ينزل القرآن منجماً قضية مهمة جداً، وقضية أن الأحداث التي وقعت في عهد النبي وقعت مقصودة لذاتها من قبل الله عز وجل لتكون متكئاً للتشريع.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(51-69): تفسير الآيتان 114-115، الكلمة الطيبة ومشاققة النبي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-03-07

بسم الله الرحمن الرحيم

من دلائل تكريم الله للإنسان أنه علمه البيان أي اللغة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية الرابعة عشر بعد المئة وهي قوله تعالى:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

الحوار، الكلام، والإنسان مخلوق مكرم، ومن دلائل تكريمه أنه علمه البيان.

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-3]

تصور مجتمع بلا لغة كيف نعيش؟ أوضح مثل الطفل يبكي ساعة لا تعلم مما يشكو، تطعمه يبقى باكياً، تسقيه الماء يبقى باكياً، تنظفه يبقى باكياً، ما في لغة يحكي معك، أما الكبير يقول لك: أنا جائع، أنا متألم، أشعر بدوار، أشعر بألم في الرأس، فهذه اللغة من تكريم الله لنا:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

اللغة أداة اتصال بين أفراد النوع، اتصال راقي جداً، لو أننا مثلاً أردنا أن نمنع التجول في بلد وما في لغة، إذا فيها خمسة ملايين إنسان بالمدينة نحتاج إلى خمسة ملايين شرطي، يمسك كل شرطي إنسان يدفعه إلى البيت، ما في طريقة ثانية، أما في اللغة بلاغ من خمس كلمات بالإذاعة انتهى كل شيء، لا تجد إنساناً في الطريق، أرقى أداة اتصال بين أفراد النوع اللغة أداة تعبيرية تعبر بمقتضاها عن الفكر، وعن المشاعر، فأنت باللغة تعبر عن مشاعرك، وباللغة تعبر عن أفكارك، وباللغة تفهم أفكار الآخرين، وباللغة تفهم مشاعرهم، وباللغة تتصل مع من حولك، هذه اللغة.

اللغة أيها الأخوة من مظاهر تكريم الله لهذا الإنسان، وهي كشأن أي حظ من حظوظه، قد تكون أداة خير، قد تكون سلماً يرقى به الإنسان، وقد تكون دركات يهوي بها، ولحكمة أرادها الله لأن الإنسان مخير كل حظوظه حيادية، وكل قدراته حيادية، وكل إمكاناته حيادية، وكل شهواته حيادية، أية شهوة أودعها الله بالإنسان، وأي حظ آتاه الله للإنسان، وأية قدرة منحها الله للإنسان، يمكن أن تكون سلماً يرقى به إلى الجنة، أو دركات يهوي بها إلى النار، المال حظ الطريق للجنة بإنفاقه في سبيل الله، وطريق إلى النار بإنفاقه في سبيل الشهوات، والمرأة حظ طريق إلى الجنة بأن تتزوجها وأن تحسن إليها، وطريق إلى النار بأن تزني بها.

الكلام يمكن أن يرقى بالإنسان أو يهلكه :

الآن اللغة حظ، القدرة على الإقناع، الحوار، التكلم، فإما بهذا اللسان تعرف الناس بخالق الأكوان فترقى عند الله، وإما أنه بهذا اللسان تعرف الناس بمسالك المعصية والفسوق والفجور فيهوي بها إلى أسفل السافلين، اللغة حيادية، فيقول الله عز وجل:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

أي اللغة نشاط، من أوسع نشاطات الإنسان، لا يوجد إنسان لا يتكلم، ليلاً نهاراً، في بيته، وفي الطريق، ومع من حوله، ومع من فوقه، ومع من دونه، ومع أصدقائه، ومع أعدائه، أوسع نشاط بشري هو الكلام، والذي يجب أن نلتفت إليه أن هذا النشاط البشري الواسع جداً وهو الكلام يمكن أن يرقى بالإنسان أو يهلك الإنسان.

((إن الرجل ليتكلم الكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

ورد في الأثر أن قذف محصنة تهدم عمل مئة سنة، قذف محصنة إنسانة مؤمنة شريفة طاهرة أنت اتهمتها ظلماً ولو إشارة، التعبير أنواع، في تعبير لفظاً، في تعبير إيماء، في تعبير إشارة:

((إن الرجل ليتكلم الكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

((إنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ...))

[رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[سورة إبراهيم: 24-25]

أفضل صدقة عند الله كلمة طيبة :

كلمة طيبة طارت في الآفاق، كلمة طيبة عمّ خيرها في العالمين، الأنبياء بماذا جاءوا أيها الأخوة؟ الآن في صواريخ، حاملات طائرات، كمبيوتر، في منجزات، في أقمار صناعية، في مركبات فضائية، ومع ذلك البشرية شقية من أقصاها إلى أقصاها، الأنبياء بماذا جاءوا؟ بالكلام، بكلمة طيبة، وأفضل صدقة عند الله كلمة طيبة، فالكلمة الطيبة صدقة، والكلمة الطيبة دعوة، والكلمة الطيبة نصح، والكلمة الطيبة تعريف بالله، والكلمة الطيبة إصلاح بين إنسانين، والكلمة الطيبة عمل لا ينتهي:

((إن الرجل ليتكلم الكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى عدّ في إحيائه سبع عشرة معصية أساسها الكلام، فالغيبة من معاصي اللسان، والنميمة، والبهتان، والسخرية، والمحاكاة، والكبر، معاصي اللسان لا تعد ولا تحصى، بل نقطة هنا أن أحد أصحاب النبي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّار عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم))

[أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم عن معاذ]

لذلك المؤمن يعد كلامه جزءاً من عمله، يضبط لسانه، فبكلمة قد ترقى عند الله:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

وعلامة المؤمن منضبط، لا غيبة، ولا نميمة، ولا محاكاة، ولا تقليد، ولا سخرية، ولا فحش، ولا تفحش، هذا المؤمن، بل إن الفرق الصارخ بين مؤمن وغير مؤمن، أن المؤمن منضبط في كلامه، قد تعاشره أربعين عاماً فلا تسمع منه كلمة نابية، ولا تجريحاً، والمنافق لربع ساعة تلتقي به مزاح منحط، وطعن، وكلمة بذيئة، وسباب فاحش هذه من صفات أهل الدنيا، فالله عز وجل في هذه الآية يقول:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

الآن جلسات الناس، سهرات الناس، لقاءات الناس، لقاءهم مع بعضهم بعضاً ماذا يقولون؟ إما أن يكون حديثهم في سفاسف الأمور، أو في المعاصي والآثام، لو لم يكن هناك معصية حديثهم في سفاسف الأمور، أما النبي عليه الصلاة والسلام وصفه الله عز وجل بأنه في الأفق الأعلى، وكلما ارتقيت إلى الله عز وجل كنت في أفق أعلى.

العمل الصالح هو علة وجودنا في الدنيا :

أيها الأخوة، مرة ثانية: كما أن البيان من مظاهر تكريم الله للإنسان كذلك البيان مزلق خطير إلى جهنم عن طريق اللسان فقط، وقد تجد ما يسمى بزنى اللسان الآن، وهو شائع، أي قد يصل الإنسان في حديثه إلى مستويات منحطة جداً، على كلٍ يقول الله عز وجل:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

يستنبط من هذا الكلام أن قلة من الناس وهم المؤمنون كلامهم طيب، وكلامهم عمل صالح، وكلامهم رقي إلى الله عز وجل:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

أحياناً تجلس مع أناس جلسة لا ترى فيها حديثاً قيماً، شيء سخيف، وشيء تافه، وكلام فارغ، وكلام لا معنى له، ومضيعة للوقت، وتبديد للعمر، أما كلما ارتقى مقامك عند الله تحاسب نفسك على الكلمة، تحاسب نفسك على الحرف، (إلا) استثنى الله عز وجل من هذه النجوى، وقد نفهم من معاني النجوى الكلام السري، أي في لقاء سوف نفعل غداً كذا، نفعل بفلانة كذا، وسوف نفعل المطب الفلاني بفلان، النجوى يغلب عليه السرية والتكتم.

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

أي أمر بعمل صالح لأن علة وجودك في الدنيا هو العمل الصالح، علة وجودك، والدليل: أنه حينما يأتي ملك الموت يقول الإنسان:

(رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

[سورة المؤمنون: 99-100]

إذاً علة وجودك هو العمل الصالح.

الدعوة لله عز وجل من أجلِّ الأعمال الصالحة بل هي من صنعة الأنبياء :

الصدقة مطلق العمل الصالح، تتكلم بزواج امرأة برجل، تسعى بزواج شابة مؤمنة بشاب مؤمن هذا عمل صالح، تسعى بتأمين عملٍ لإنسان عاطل هذا عمل صالح، تسعى بدلالة إنسان على منبع للحق هذا عمل صالح، تدعو إنساناً لطاعة الله هذا عمل صالح، تعرفه بعظمة الله هذا عمل صالح، تبين له منهج الله في شأن معين هذا عمل صالح، تبين له شيئاً من سيرة النبي هذا عمل صالح، شيئاً من أخلاقه العلية هذا عمل صالح، أي حينما تدعوه إلى عمل صالح، حينما تدعوه إلى طاعة، حينما تدعوه إلى تضحية، حينما تدعوه إلى إيمان، حينما تدعوه إلى الالتزام، هذا كله عمل صالح، لذلك الدعوة لله عز وجل من أجلِّ الأعمال الصالحة، بل هي من صنعة الأنبياء:

(إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ)

أي بعمل يؤكد صدقك مع الله، أمرت إنساناً بعيداً أو قريباً أو صديقاً أو جاراً أمرته بعمل يؤكد صدقه في طلب الحقيقة، يجب أن توسع هذه الكلمة، صدقة، بمعناها الضيق بإنفاق المال، بمعناها الواسع بشيء يؤكد صدق الإنسان، لأن الصدقة برهان على أنك مؤمن.

(أَوْ مَعْرُوفٍ)

تعارف الناس بفطرتهم السوية السليمة على أن هذا العمل طيب، والله أخبرني إنسان في محافظة في أقصى شمال شرق سوريا، توفيت زوجته عندهم تقليد رائع أن كل معزٍ يعزي طبعاً الوفاة مصيبة، وقد يكون المعزَّى رقيق الحال، فالمعزون يدفعون شيئاً من أموالهم معاونة لهذا الذي أصيب بفاجعة، شيء لطيف، شيء تقره الفطر السليمة، أنبأني أخ بإفريقيا أن هذا مطبق عندهم المعزون يبذلون شيئاً من أموالهم لمن فجعوا بهذا المصاب، فالذي فجع بموت والده أو موت أمه أو

موت شقيقه يتلقى بعض المساعدات من إخوانه المؤمنين وهذا يعينه على حل مشكلاته، فأي عمل تقره الفطر السليمة، أحياناً يكون في تعاون بين الناس على شيء ما، وهذا باب مفتوح مَفتوح على مصراعيه، أي عمل فيه نفع للمسلمين هو عمل صالح، والفطر السليمة تقره، وينبغي أن نقف قليلاً عند قول الله عز وجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ما المعروف؟ ما تعارفت عليه الفطر السليمة، ما المنكر؟ ما أنكرته الفطر السليمة.

العرف دائماً تقره الفطر السليمة :

إذاً: إما أن تدفع الناس بكلامك إلى عمل يؤكد صدق إيمانهم، أو يؤكد صدق إخلاصهم لله، أو بالمعنى الضيق إلى إنفاق أموالهم في سبيل الله، أو معروف أي شيء لم يرد في الدين لكن الأعراف تصدقه وتؤكده.

مرة حدثني أخ أنه في بعض البلاد الإسلامية أحد أنواع الوقف وقف الإصلاح بين الزوجين، أي مؤسسة فيها علماء، وفيها خبراء اجتماعيين، ومرصود مبالغ لها، فأي مشكلة بين زوجين يأتي المشرف، يأتي الشيخ يقنع الزوج، يقنع الزوجة، يعيد هذه الأسرة إلى وئامها، هذا عمل صالح، وقف للإصلاح بين الزوجين، فأي شيء يرقى بالمؤمنين يرقى بالمسلمين، يحل مشكلاتهم هذا أيضاً مما يرد بالمعروف. أي شيء لا نص فيه المرجع هو العرف، والعرف دائماً تقره الفطر السليمة.

(أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

أن تصلح بين أخوين، بين شريكين، بين زوجين، أن تصلح بين إنسان وربه، أن تصلح بين أخوين مؤمنين، فهذا كلام يحتاج إلى لقاء، وإلى حديث، وإلى بيان، وإلى أدلة، وإلى قصص، وإلى تخويف، وإلى ترغيب، وإلى تحذير، هذا كله كلام، فحينما ينطلق لسانك بالإصلاح بين الناس، أو ينطلق لسانك لحل مشكلات المسلمين من خلال معروف تفعله، أو حينما ينطلق لسانك بدفع الناس إلى عمل صالح يقربهم من ربهم، هذه النجوى إن كانت علانية أو سرية محمودة عند الله عز وجل:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

أول صفات المؤمن أنه منضبط بلسانه :

قال تعالى:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)

أي هو حينما يوفق إنسانين، يصلح بين إنسانين، يدفع إنساناً إلى طاعة الله، يحمله على العمل الصالح، يحمله على فعل الخيرات وترك المنكرات، قال:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

إذاً يجب أن تعد أن كلامك من عملك، نحن متوهمون أن العمل فعل، أما هذا كلام بكلام، كلامك فعل أيضاً، بدليل أنك لو تكلمت كلمة بسخط الله تهوي بهذه الكلمة سبعين خريفاً في النار، أي هذا رئيس المنافقين ماذا قال؟ قال كلاماً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا الكلام جعله يهوي في جهنم سبعين خريفاً، كلمة قالها، فينبغي أن تعد ـ دقق ـ كلامك من عملك، بكلامك ترقى وبكلامك تسقط عند الله، وأول صفات المؤمن أنه منضبط، منضبط بلسانه، ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

شاقق الرسول؛ أي خرج عن منهج النبي، منهج النبي عليه الصلاة والسلام من عند الله، النبي عليه الصلاة والسلام جاء بمنهج، عقلك إذا أعملته في الكون دلك على أن هذا الكون لا بد له من خالق، لكن هذا الخالق ماذا يريد منا؟ جاء الإيمان برسول الله الذي يبلغ عن الله، أي عقلك أوصلك إلى الله، ورسول الله أوصل إليك مراد الله منك، فالعقل والنقل يتكاملان، أنت بالكون تؤمن وبالشرع تعبد.

مشاققة الرسول :

كلمة التوحيد والرسالة لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا إله إلا الله آمنت أن لهذا الكون إلهاً، رباً، خالقاً، مسيراً، واحداً في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، حسناً ماذا يريد مني؟ لماذا خلقني؟ ماذا بعد الموت؟ ماذا ينبغي أن أفعل؟ مليون سؤال، جاء رسول الله وأبلغك عن الله، مراد الله منك، لذلك الإسلام كله مضغوط بكلمتين؛ لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهذا المنهج الذي جاء به النبي منهج الإنسان الذي ينبغي أن يسلم ويسعد، فلو أن الإنسان شذ عنه يكون قد شاقق رسول الله:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ)

الرسول لو عصيت أمره أنت المتضرر الوحيد، هو في أعلى عليين، مشاققة الرسول هو أن تخرج عن منهجه، ومنهجه منهج كل إنسان يريد السلامة والسعادة، فالمشاققة أن تخرج عن منهجه، ألا تعتد بسنته، ألا تقيم وزناً لأمره، هذه مشاققة للرسول، لأن الرسول ما جاء بشيء من عنده إطلاقاً:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى)

الأمر واضح، الآن أخواننا الكرام، الأمور واضحة جداً بقي أن نعمل، أي ولاسيما بعد الأحداث الأخيرة، كان في أبيض وأسود ومئة ألف لون رمادي بينهما، الآن في أبيض وأسود أبداً، إما أن تخاف من الله أو من وحيد القرن، ما في إما أن تطلب الآخرة أو أن تطلب الدنيا، إما أن تحكم مصالحك وإما أن تحكم مبادئك، إما أن تكون مطيعاً وإما أن تكون عاصياً، إما أن تلهث وراء الشهوة وإما أن تلهث وراء رضوان الله عز وجل، الأمر واضح جداً.

الآية التالية آية تهديد :

لذلك:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى)

الأمر واضح وكل شيء أصبح واضح إلى درجة غير معقولة، ومع ذلك يتبع غير سبيل المؤمنين، هذا هو الإجماع، يتبع غير سبيل المؤمنين، المؤمنون لا يكذبون، المؤمنون لا يعينون كافراً على بعضهم، مستحيل! المؤمنون لا يسهلون العدوان على أخوانهم المؤمنين، مستحيل! المؤمن له سبيل، المؤمن يتحرج أن تموت هرة بسببه فكيف بما فوق الهرة؟ أي في تقديرات أولية أن أول يوم فيه مليون قتيل وأربعة ملايين شريد، فهذا الذي يعين هذه القوة الغاشمة، يسهل لها، يقدم لها الدعم، يقدم لها الأرض، يقدم لها كل ما تحتاج أين هو من الدين؟

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

((المُسْلِمُ أخُو المُسْلِمِ لا يَخونُهُ وَلا يَكْذِبُهُ وَلا يَخْذُلُهُ، كُلّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ عِرْضُهُ ومَالُهُ وَدَمُهُ))

[متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

أي الحد الأدنى الذي يؤكد أنك مؤمن أنه لا يمكن أن تساعد الآخر على أخيك المؤمن، ولو لم يكن طائعاً لله، الحد الأدنى الذي يؤكد أنك مؤمن ألا تساعد عدواً على أخيك المؤمن، هذا الحق، فلذلك:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

شق عنهم، شذ عنهم، خرق منهجهم، لم يعبأ بهدى رسول الله:

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

أنت مخير، نعطيك ما تريد، لكن:

(وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

هذه آية تهديد، هكذا تريد؟! ليكن ما تريد، لكن انتظر العقاب.

الإنسان مخير في أن يكون في خدمة الخلق أو أن يكون في إيذائهم :

قال تعالى:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

هذا الإنسان مخير.

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً)

[سورة الإسراء: 20]

ماذا تريد؟ تريد أن تكون في خدمة الخلق، لك ذلك، تريد أن تكون في إيذاء الخلق، لك ذلك، لا تؤذي من تريد، إنك تؤذي من يعد الأذى في حقه حكمة بالضبط، أدق كلام أن إنسان نوى أن

يسرق، أنت مخير، لك ذلك، لكن الله يسوقه إلى من إذا سرق ماله اتعظ من هذه السرقة، يسوقه إلى من تعد سرقة ماله معالجة له، بالضبط، الله ينسق.

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأنعام: 129]

الله ينسق.

الله تعالى يوظف الشر لمعالجة الآخرين :

أنت تريد الشر، لكن الله يوظف لك الشر بمعالجة الآخرين، أوضح مثل:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص: 4-6]

هذا ترتيب الله عز وجل، إذا عصاه من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه، إلى أن يعود الذي يعرفه وقد عصاه، فإذا عاد إليه قواه ومكنه من الذي ظلمه إلى أن يعود الظالم إلى الحق، يسوق هؤلاء لهؤلاء، وهؤلاء لهؤلاء، لذلك سألوا مرة تيمورلنك: من أنت؟ أجاب إجابة رائعة، قال: أنا غضب الرب، يعني الإنسان يغضب يعلو صوته، قد يكسر آنية بيده، وإذا غضب الله يرسل تيمورلنك، يرسل هولاكو، يرسل وحيد القرن، أبداً، أنا غضب الرب، أنا ملك الملوك ومالك الملوك.

في الأثر القدسي: "قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم".

أساليب المؤمن في الحياة :

قال تعالى:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ)

لمجرد أن تخرج عن منهج النبي شاققته، انسلخت عنه، خرقت منهجه، لم تستقم على منهجه:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

المؤمنين لهم سبيل، لهم نظم، لهم قيم، لهم مبادئ، لهم أساليب في الحياة أساسها الصدق والأمانة والعفة والانضباط والإحسان والإنصاف والعدل، هذا سبيل المؤمنين:

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

لأنه مخير:

(نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

لك ذلك، لكن لك ذلك لا على من تشاء أنت على من نشاء نحن، حينما يريد الإنسان أن يظلم إنساناً هو أراد أن يظلم لكن الله يسوقه إلى من يعد هذا العمل في حقه حكمة:

(نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

كما تريد:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

[سورة الزخرف: 79]

لك ذلك وادفع الثمن.

هان أمر الله علينا فهنّا على الله :

قال له: عظني ولا تطل، قال: قل آمنت بالله ثم استقم، قال: أريد أخف من ذلك، قال: إذاً فاستعد للبلاء، تحمل، يا ربي كم عصيتك ولم تعاقبني، قال: عبدي كم عاقبتك ولم تدر.

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

الذي يقوله المسلمون اليوم نحن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قل: فلم يعذبنا بذنوبنا، لأننا لم نتبع منهج النبي، نحن بشر ممن خلق، من دهماء الأمم، هان أمر الله علينا فهنا على الله، والله ما من أمة في هذه المرحلة أشد هوناً من المسلمين أبداً، لا قيمة لقتلاهم أبداً، قتلاهم بلا ثمن، أما أي إنسان آخر إذا قتل تقوم الدنيا ولا تقعد، أما مئات وألوف الأشخاص بلا ثمن، لأن أمر الله هان عليهم فهانوا على الله:

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

أنت اتخذ قراراً:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

[سورة الزخرف: 79]

أردت أن تفعل هذا افعل وادفع الثمن، اعملوا ما شئتم:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية: 25- 26]

لا بدّ للإنسان من أن يدفع ثمن اختياره :

قال تعالى:

(نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

لك ذلك، لكن المصيبة في دفع الثمن، إنسان يرتكب جريمة يحقق ربح كبير، يتمتع يومين أو ثلاثة، ثم يلقى القبض عليه، يحاكم بالإعدام، يساق للمشنقة، وصل إلى طريق مسدود، يحب أن يضحك؟ يضحك، لا بد من أن يعدم، يحب يبكي؟ يبكي، لا بد من أن يعدم، يحب أن يتوسل؟ يتوسل، لا بد من أن تعدم، فأنت تختار لكن بعد الاختيار دفع الثمن، اعملوا ما شئتم:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية:25- 26]

أيها الأخوة الكرام، هذه آية خطيرة وهي مناسبة:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(52-69): تفسير الآيات116-118 ، الشرك وتغيير خلق الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-03-14

بسم الله الرحمن الرحيم

الذنوب ثلاثة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية السادسة عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

أيها الأخوة، الذنوب ثلاثة؛ ذنب يغفر وهو ما كان بينك وبين الله، وذنب لا يترك وهو ما كان بينك وبين العباد، وذنب لا يغفر وهو الشرك.

وحقيقة أن الذنب الذي لا يغفر هو الشرك أنك تتجه في الأصل لمن بيده مغفرة ذنبك، تتجه لمن بيده أن يرحمك، ولمن بيده أن يرزقك ويشفيك، فإذا اتجهت لغيره فلا رحمة ولا شفاء ولا رزق ولا مغفرة، معنى الآية: كيف يغفر لك ربك إذا اتجهت إلى غيره؟ كنت قد ضربت على هذا مثلاً: لو أن الإنسان في طريقه إلى مدينة ليقبض فيها مبلغاً ضخماً وركب القطار الموصل لهذه المدينة قد يقع بأخطار كثيرة في ركوب القطار، فقد يقطع بطاقة من الدرجة الأولى ويجلس في عربة من الدرجة الثالثة هذا خطأ! لكن القطار في طريقه إلى هذه المدينة وسيأخذ هذا المبلغ، قد يجلس مع أناس ليسوا على المستوى الذي يليق به فينزعج، لكن القطار في طريقه لهذه المدينة، قد يتلوى من الجوع ولا يعلم أن في القطار عربة فيها طعام يباع وهذا خطأ ثالث! لكن القطار في طريقه إلى المدينة، وقد يجلس في مقعد على عكس اتجاه القطار فيصاب بالدوار وهذا خطأ خامس، لكن القطار في طريقه إلى المدينة، هذه أخطاء مزعجة لكن الهدف الكبير تحقق ووصل إلى المدينة وقبض المبلغ الكبير، أما الخطأ الذي لا يغفر أن يركب قطاراً باتجاه آخر لا شيء! الهدف تلاشى!

الشرك هو الذنب الذي لا يُغفَر :

هناك أخطاء وأنت في طريق الله عز وجل تُغفَر، وأخطاء وأنت في طريقك إلى الله يسامحك الله بها، يوجد أخطاء وأنت في الطريق إلى الله يكفر عنها، أما في خطأ مدمر هو أن تتجه لغير الله، لا شيء، أنت فقير وتتجه إلى فقير، أنت ضعيف وتتجه إلى ضعيف، أنت في قبضة الله وتتجه لمن هو

في قبضة الله مثلك، لا شيء! فقضية عدم المغفرة ليس من نوع أن الله لا يحب أن يرحمك، لا، عدم المغفرة من نوع أنه كيف يغفر لك وأنت متجه إلى غيره؟ كيف تشفى وأنت معلق الأمل على غيره؟ كيف ترزق وأنت تتجه إلى الفقير؟ كيف تعلم وأنت تتجه إلى الجاهل؟

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

كل خطأ مع التوحيد مغفور، لكن كل صواب مع الشرك مدمر، الصواب أحياناً، لو ركبت قطاراً فخماً جداً لا يوجد مشكلة لكن باتجاه معاكس لهدفك، لا شيء!

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

أخواننا الكرام، أساس هذا الدين التوحيد، وما يرتكب الإنسان من معصية إلا بضعف توحيده، ولا يقع في النفاق إلا بضعف توحيده، ولا يجر إلى اليأس إلا بضعف توحيده، ولا يمتلئ قلبه رعباً ولا يقلق إلا بضعف توحيده، ولو أردنا أن نعدد الأمراض التي يعاني منها المسلمون وما أكثرها هي في الحقيقة ليست أمراضاً إنما هي أعراض لمرض واحد هو الشرك، ليس من باب التيئيس لكن من باب الواقع.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

قانون عند الله عز وجل أن الشرك يقترن بالرعب والإيمان يقترن بالأمن :

هذا الذي يرتكب معصية من أجل أن تروج بضاعته أليس مشركاً؟ لا يرى أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، يرى أن الإعلان عن البضاعة بمعصية صارخة يجعلها رائجة هذا نوع من الشرك، هذا الذي يتاجر بمواد حرمها الله هذا نوع من الشرك، لو بحثت في حياة المسلمين لوجدت حياتهم ممتلئة بالشرك، والإنسان حينما يشرك يلقي في قلبه الخوف!

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

[سورة آل عمران: 151]

بسبب شركهم، أي شرك مؤداه الخوف والرعب، ولو كنت أقوى إنسان في الأرض يمتلئ القلب خوفاً، ولو كانت الدولة أقوى دولة في العالم يمتلئ قلب قيادتها رعباً، هذا قانون عند الله عز وجل؛ الشرك يقترن بالرعب، والإيمان يقترن بالأمن:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

فالله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

أبسط مثل، أنك حينما تعلم أن قضيتك لا تحل إلا مع المدير العام فمن الغباء ومن الجهل ومن الحمق أن تتجه لحاجب عند أحد الموظفين وتبذل ماء وجهك أمامه وقضيتك لا تحل إلا بمن هو على رأس هذه الإدارة، فالذي يعقل يتجه لمن هو بيده الأمر.

أيها الأخوة، النتائج التي يقطفها الإنسان من التوحيد لا تعد ولا تحصى أولها الأمن، علاقتك مع واحد بيده كل شيء إن أرضيته خضع لك كل شيء، إن أرضيته استجاب لك كل شيء، من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف من الله أخافه الله من كل شيء، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

أحد أكبر أسباب عذاب النفس أن تدعو مع الله إلهاً آخر :

أيها الأخوة، أكاد أقول إن المشاعر المؤلمة مشاعر الضيق والقلق والحزن واليأس والإحباط وغيرها، إن هذه المشاعر المدمرة يمكن أن تعزى إلى الشرك، والشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، أو أن تبغض على عدل، تحب إنساناً ليس على ما ينبغي أن يكون لكنك منتفع منه هذا نوع من الشرك، أو تبغض إنساناً وقد أصدق لك نصيحة صادقة وهذا نوع من الشرك.

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

أحد أكبر أسباب عذاب النفس أن تدعو مع الله إلهاً آخر ذلك أن الإنسان لا يعلم، وإن علم لا يرحم، وإن أراد أن يرحم لا يستطيع، يقول لك: العين بصيرة واليد قصيرة لا يرحم! لكنك إذا اتجهت لله عز وجل بيده كل شيء.

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ.... لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

لمجرد أن تؤمن أن الله بيده كل شيء، وبيده أقوى الأقوياء، وبيده أغنى الأغنياء وأنه عليم حكيم، هذه الفكرة وحدها تملأ القلب طمأنينة ورضى، والله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

حينما تتجه لغيره أنّى يغفر لك؟ وأنّى ترزق؟ وكيف تشفى؟ وكيف تعلم؟ هو مصدر العطاء والشفاء والسعادة والأمن، فإن اتجهت لغيره لا ترى شيئاً.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

ما سوى الشرك يُغفر، إن كان مع العباد لا بد أن تؤدي ما عليك أو يسامحونك، وإن كان الذنب بينك وبين الله فينبغي أن تقول: يا رب لقد تبت إليك، والله عز وجل يقول: وأنا عبدي قد قبلت.

من شاء المغفرة عمل في أسبابها :

الحقيقة أن الله ما أمرك أن تستغفر إلا ليغفر لك، وما أمرك أن تتوب إلا ليتوب عليك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك، أمرك أن تدعوه كي يجيبك، أمرك أن تستغفره كي يغفر لك، أمرك أن تتوب إليك كي يتوب عليك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَ دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

من شاء المغفرة عمل في أسبابها، النقطة الدقيقة: أنه في القرآن الكريم في آيات أعتقد أنها تزيد على ثمانية آيات:

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأعراف: 153]

أما أن تفهم المغفرة فهماً ساذجاً أن الله غفور رحيم، لكن إذا تبت إليه، وأصلحت بينك وبين الناس، وإذا عقدت العزم على أن لا تقع في الذنب مرة ثانية، أما لمجرد أنك لا تستغفر، أو تستغفر وليس في النفس عزيمة على ترك هذا الذنب، أو تستغفر ولا تصلح، معظم المسلمين يذهبون إلى الحج وهو فريضة ويتوهمون أن كل الذنوب التي على كاهلهم تغفر إذا أدوا فريضة الحج، هذا وهم كبير! يرجع الحاج من ذنوبه كيوم ولدته أمه في الذنوب التي بينه وبين الله فقط، أما التي بينه وبين العباد لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة، لذلك حينما يقف الحاج في عرفات يغفر الله له ويلقي في روعه أنه غفر له، وينطلق إلى الحج بشرط أنه تائب من كل ذنب، الذنوب التي بينه وبين العباد ينبغي أن تصحح وتسوى قبل أن يذهب إلى الحج، عندئذ يلقى في روع الحاج أن الله قد غفر له.

حقوق العباد مبنية على المشاححة بينما حقوق الله مبنية على المسامحة :

أيها الأخوة، كدليل على ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّه عَنْهم قَالَ كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا، فَقَالَ: هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهَلْ تَرَكَ شَيْئاً؟ قَالُوا: لَا، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلِّ عَلَيْهَا، قَالَ: هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قِيلَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ تَرَكَ شَيْئاً؟ قَالُوا: ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ أُتِيَ بِالثَّالِثَةِ فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا، قَالَ: هَلْ تَرَكَ

شَيْئاً؟ قالُوا: لَا، قالَ: فَهَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قالُوا: ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ، قالَ: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ، قالَ أَبُو قَتَادَةَ: صَلِّ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَعَلَيَّ دَيْنُهُ، فَصَلَّى عَلَيْهِ .))

[البخاري عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّه عَنْهم]

وهل تصدقون أن أعلى عطاء على الإطلاق أن تضحي بحياتك في سبيل الله، الشهيد يغفر له كل ذنب إلا الدَّين لأنه حق متعلق بالعباد، وحقوق العباد مبنية على المشاححة، وبينما حقوق الله مبنية على المسامحة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

ذنب لا يغفر وهو الشرك، وذنب يغفر وهو ما كان بينك وبين الله، وذنب لا يترك وهو ما كان بينك وبين العباد، هذه حقيقة ينبغي أن تكون بين أيديكم.

الآن يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

الحقيقة لو أنك أرسلت شيئاً إلى هدف وانحرفت الزاوية درجة واحدة، كلما تحرك هذا الشيء لهدفه ابتعد عن الهدف، لو أطلقت قذيفة بهدف وكان خط في إطلاقها زاوية، وكلما قطعت مسافة هذه القذيفة تبتعد عن الهدف، فالإنسان حينما ينطلق أن الأمر بيد فلان هذا خطأ، فكلما حاول أن يصل لهدفه ابتعد عنه، لذلك ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ومن ابتغى أمر بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى.

الضلال البعيد والضلال المبين :

أنت حينما تريد شيئاً وتتوسل إليه بمعصية أو بترك واجب إنك تبتعد عن هدفك، الحقيقة يوجد ضلال بعيد وضلال مبين، قد تقرأ لوحة عرضها كعرض الطريق أن مكة من هنا، توجد لوحات على عرض الطريق عالية جداً لو أنك قرأت هذه اللوحة وسرت في طريق آخر فهذا اسمه ضلال مبين، الأمر واضح وضوح الشمس، ومع ذلك ضللت الطريق، لكن الضلال البعيد أن تتجه لغير هذا الهدف، وتبقى في الطريق مدة طويلة جداً، فإذا بك تنحرف عنه مثلاً ألف كيلو متر، هذا ضلال بعيد، فأنت حينما تنطلق في شؤون حياتك، في كسب رزقك، وتأسيس بيت، واختيار زوجة وعمل، حينما تنطلق من شرك المرأة الجميلة تسعدك ولو لم تكن ذات دين، هذا منطلق شركي بالأساس، فكلما سرت في المضي في هذا الزواج ابتعدت عن السعادة التي ترجوها، لأن النبي يقول:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ.))

[البخاري عَنْ أبي هريرة]

لن تسعدك لا في بيتك ولا خارج البيت، حينما تختار طريقة لكسب المال أساسها المعصية هذا شرك، فكلما أوغلت في هذا الطريق ازددت فقراً:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

حينما تبني منفعة على مضرة الآخرين لا تحقق أهدافك ولو كنت أذكى الأذكياء .

التوحيد قضية الدين :

أيها الأخوة، قضية التوحيد قضية الدين، الدين كله توحيد، بل إن الأديان السماوية كلها توحيد.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

فحوى دعوة الأنبياء جمعياً أنه لا إله إلا الله، ومشكلة العالم اليوم هو الشرك، أنهم يرون أن هذه الجهة القوية إن أرضيتها فأنت في الجنة، وإن أغضبتها فأنت في النار، وهذا الأعور الدجال ناره جنة وجنته نار، إن تمتعت بحمايته فإلى جهنم وبئس المصير، وإن أغضبته فأنت إلى الجنة، جنته نار وناره جنة، هذه مشكلة المسلمين من كل مستوياتهم قاعدة وقمة، حينما لا ترى الله ترى عبد الله، حينما ترى القوي وتظن أن كل راحتك بإرضائه ولو على حساب دينك فهذا أقبح أنواع الشرك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

ابتعد عن الحقيقة بعد الأرض عن السماء.

(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً)

كان العرب في الجاهلية يتخذون أصنام الآلهة ولها أسماء بصيغة الأنثى:

(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً)

من أشد أنواع العقاب الإلهي للإنسان أن يلعنه ويبعده عن حضرته ورحمته :

هذا الشيطان عتا عن أمر ربه وعصاه كبراً، وفرق كبير بين أن يعصي الإنسان ربه غلبة وبين أن يعصيه كبراً، الذي يعصيه غلبة يرجى له التوبة، أما الذي يعصيه كبراً هذا على درب الشيطان المريد الذي عتا عن أمر ربه، لعنه الله وأبعده، ومن أشد أنواع العقاب الإلهي للإنسان أن يلعنه ويبعده عن حضرته ورحمته وتوفيقه وعن مودته.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

لعنه الله وقال:

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

وقال تعالى:

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)

وفي آية أخرى:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

[سورة الأعراف: 16]

مادام العبد غارقاً في المعصية فالشيطان مستريح منه ويريحه، أما إذا أراد هذا العبد أن يسلك طريق الله عز وجل يأتيه الشيطان ليوسوس له:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

[سورة الأعراف: 16]

حينما يتوب الإنسان لله عز وجل يبدأ فعل الشيطان بالوسوسة :

الشاب الغارق في المعاصي والآثام يتوهم أنه مرتاح لأنه يفعل كما يتمنى الشيطان، لا داعي لإزعاجه، أما حينما يتوب لله عز وجل يبدأ فعل الشيطان بالوسوسة.

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الأعراف: 16]

أحد ضلالات الشيطان أن يزين له العصرنة والتقدم والعلم وعصر الفضائيات والمعلوماتية والكمبيوتر والحرية والتفلت، لا يوجد قيود، يقول لك: هذه الأديان الإنسان اخترعها حينما كان يخاف من الطبيعة وعندما سيطر عليها فلا داعي لها.

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

[سورة الأعراف: 16]

التراث قد يكون وثني، تراث! الخلفية تاريخية أيضاً، حينما تعتز بتراث وثني هذا من الضلال.

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

[سورة الأعراف: 16]

يأتيه من باب الدين لم تصح صلاتك يدخله في الوسوسة في عباداته، قد يتعبه لدرجة غير معقولة إما في وضوئه أو في صلاته، يقول له: في الفاتحة أربع عشرة واحدة أنقصت واحدة فصلاتك مرفوضة!

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

[سورة الأعراف: 16]

الله عز وجل لا يغفر لك، يذكره بذنب قديم وبتقصير قديم يحجبه عن الله عز وجل.

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

[سورة الأعراف: 16]

وهي الآثام.

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 17]

البيت الذي تؤدى فيه الصلاة وتقام فيه أوامر الله عز وجل بيت مرزوق :

قال تعالى:

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

سأدخل في طعامهم وشرابهم، وأدخل في تجارتهم، وأوسوس لهم كسباً محرماً، لذلك إذا دخل الرجل لبيته ولم يسلم قال الشيطان لإخوانه: أدركتم المبيت في هذا البيت، في البيت خصومات ونزاعات وتسليم من قبل الزوج، فإذا جلس إلى الطعام ولم يسمي، قال الشيطان لأخوانه: أدركتم العشاء، طعام لا يكفي فإذا دخل ولم يسلم وجلس إلى الطعام ولم يسمي، قال الشيطان لأخوانه: أدركتم المبيت والعشاء في هذا البيت:

((..إذا لم يسلم أحدكم إذا دخل ولم يذكر اسم الله على طعامه قال الشيطان لأصحابه: أدركتم المبيت والعشاء.))

[مسلم عن جابر بن عبد الله]

ففي بيوت فيها شياطين وخصومات ومتاعب ومشاجرات وكيد وتباغض، بيت فيه شيطان، أما إذا أقيمت الصلاة في البيت فدخل الزوج وسلم على أهله، ودخلت الزوجة وسلمت على أولادها، كان هذا البيت محفوفاً بالرحمة، يقول الله عز وجل:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

[سورة طه: 132]

استنبط العلماء أن البيت الذي تؤدى فيه الصلاة وتقام فيه أوامر الله عز وجل بيت مرزوق.

الأماني بضاعة الحمقى وهي من الأخطاء المدمرة في الدنيا :

قال تعالى:

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً* وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)

عن طريق التوحيد يضلهم بالشرك، فلان مصيرك بيده أرضه ولو نفاقاً تفوز بالدنيا.

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ)

يعيشون في الأماني، والأماني بضاعة الحمقى، يتصور بيت معين، أو قصر معين، أو مركبة معينة تجارة واسعة جداً، يعيش في الأماني، والأماني في الدنيا من الأخطاء المدمرة، يكون قد نسجت أكفانه وهو لا يدري، قد يعمل عملاً ليرتاح لعشرين سنة قادمة.

والله ذكر لي أخ مشاريعه لعشرين سنة سأذهب وسأسافر وسآتي بثروة وسأعود وسأحال على المعاش وسأنشئ مركز تجاري ويكبر أولادي ويديرون هذا المحل، لكن قرأت نعوته في اليوم نفسه والله!!!

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ)

هذه الآية إن شاء الله في درس قادم نقف عندها وقفة متأنية في محاولة لتغير خلق الله وأكثر ما تعاني منه البشرية اليوم تغيير خلق الله، أوضح مثل: نسهر طوال الليل وننام لساعة متأخرة، هذا من تغيير خلق الله، نظام الحياة على خلاف ما صممها الله عز وجل، لهذا الموضوع صلة في درس قادم إن شاء الله، تغير خلق الله حتى في طعامنا وشرابنا، وفي أنماط حياتنا، وفي كسب أموالنا، وفي اللحوم الذي نأكلها في تغيير لخلق الله عز وجل.

تغيير خلق الله هو تغيير في أصل التصميم الإلهي :

قال تعالى:

(وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً*يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً*أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً)

لهذه الآيات إن شاء الله في الدرس القادم وقفة متأنية لأن هناك تفاصيل مدمرة في حياتنا سببها هذا الإنسان المتأله الذي يريد أن يغير خلق الله، وآخر صرعات هذا التغيير الاستنساخ!

صمم الله الإنسان من ذكر وأنثى، أرادوه من دون ذكر أو من دون أنثى، هذا تغيير لخلق الله عز وجل، صمم الله البقر لتأكل حشيشاً نباتاً، فلما أطعموها طحين اللحم جنت! وما جنون البقر إلا من جنون البشر، هذه البلاد التي أطعمت البقر طحين اللحم اضطرت إلى أن تحرق ثلاث عشرة مليون بقرة، ثمنها ثلاثة وثلاثين مليار جنيه! لأنها أطعمتها طحين اللحم وهي مصممة أن تأكل النبات، والآن هذه الأمراض المستشرية وارتفاع نسب الأورام الخبيثة إلى عشرة أضعاف سببها تغيير خلق الله عز وجل، ولو دققنا في طبيعة حياتنا لوجدنا خطأ في العصر لا عند الأفراد، الجو ملوث، والماء ملوث، والعلاقات ملوثة، والأسرة متفككة، والأولاد متفرقون، والحياة معقدة وصعبة وشاقة، وضغوط اجتماعية لا يعلمها إلا الله، هذا من تغير خلق الله عز وجل:

((لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه.))

[البخاري عن أبي هريرة]

يلهث الناس وراء صرعات الغرب ولو دمروا حياتهم، الفتاة فسدت، والشاب فسد، العلم أصبح نفعياً فقط لا يوجد علم للعلم، العلم نفعي وهكذا إلى أن حصد الناس نتيجة أعمالهم شقاء على مستوى الفرد والمجتمع، هذا من تغير خلق الله عز وجل، نظام الأسرة فسد، اخترعوا أسرة أساسها

رجلين أو امرأتين في مؤتمرات السكان، أرادوا أن يكون الإجهاض آمناً مباحاً مسموحاً به حتى في المستشفيات كي تتفلت الفتاة كما تريد، أرادوا أن يكون عقد الزواج عقداً بين شخصين لا بين ذكر وأنثى في مؤتمرات السكان، وهذه العولمة التي يتحدثون عنها، يريدون أن يعمموا إباحيتهم وانحرافهم وماديتهم وشهواتهم المنحطة على العالم كله.

فيا أيها الأخوة، كلمة يغيرون خلق الله يغيرون أصل التصميم الإلهي، وهذا أكبر خطأ يعبر عنه بكلمة العولمة أي الحيونة.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(53-69): تفسير الآيتان 119-120، التصميم الإلهي ووساوس التصميم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-03-21

بسم الله الرحمن الرحيم

همّ الشيطان الأول إضلال بني آدم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية التاسعة عشرة بعد المئة، وكان الذي قبلها قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

هؤلاء الذين أشركوا مع الله عز وجل إن يدعون من دونهم إلا إناث، الملائكة عند العرب إناث، والأصنام التي تعبد من دون الله لها أسماء إناث؛ اللات والعزى.

(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً)

والشيطان هو الذي ابتعد عن الله عز وجل ولعنه الله عز وجل وقال:

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

الحقيقة كلمة مريد أمرد ناعم الملمس، لا تستطيع أن تأخذه من جهة، والشيطان همه الأول إضلال بني آدم، يأتي الإنسان بما يرضيه.

(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

[سورة الأعراف: 21]

أساليب الشيطان المتنوعة في إضلال الإنسان :

هذا الشيطان أراد أن يقعد لبني آدم طريقهم المستقيم.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

[سورة الأعراف: 16]

ما دام الإنسان غارق في المعاصي والآثام الشيطان بعيد عنه لأنه يحقق الهدف على أتم وجه، أما حين يزمع هذا الشاب أن يتوب لله عز وجل ويسلك طريق الحق يأتيه الشيطان ليوسوس له:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

[سورة الأعراف: 16]

وبيّن الله عز وجل في آيات أخرى أساليب الشيطان المتنوعة في إضلال الإنسان.

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

أحدثهم عن التقدم، وعن عصر العلم والحرية، كلها قيم اخترعها الشيطان كي يضل بها الإنسان عن منهج ربه، وتستمع أحياناً من الناس كلاماً عجيباً، المعصية الصريحة الصارخة هذه تلبس عندهم ثوباً رائعاً، الاختلاط يسبب تهذيب للنفوس، ويخفف من جموح الشباب وما شاكل ذلك، والمرأة نصف المجتمع، وهي إنسانة ينبغي أن تشعر بحريتها، وينبغي أن تعبر عن ملكاتها، وجمالها من ملكاتها، فلا بد من أن تظهر مفاتنها تأكيداً لشخصيتها، الشيطان يطرح فكر مناقض لقيم الدين بشكل مزخرف ومقبول، لذلك قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

[سورة الأنعام: 112]

وهذا القول نسمعه كثيراً، نستمع عن حرب إنسانية أو تنموية، كله كذب بكذب، الحرب حرب، والحرب دمار وعدوان، فالشيطان يأتي بقيم من اختراعه يطرحها بين الناس تناقض قيم الدين.

كلما ارتقى الإنسان يحكمه البيان وكلما انحط يحكمه الواقع :

قال تعالى:

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

أزين لهم التقدم وعصر العلم والحرية والديمقراطية وكن واقعياً! وكأن الواقعية إله يعبد من دون الله، معنى واقعي ليحكمك الواقع، وخير إجابة عن هذا أنني ضربت مثلاً أن إدارة المرور مثلاً لو وضعت لافتة في بلدة عدرا أن الطريق لحمص ليست سالكة بسبب تراكم الثلوج، فإذا ركبت مركبة وتوجهت إلى حمص ماذا تفعل؟ تعود من عدرا! لو أن دابة تمشي أين تقف؟ عند الثلج في النبك، هذه الدابة يحكمها الواقع لأنها دابة، أما الإنسان يحكمه البيان لأنه إنسان، فكلما ارتقيت يحكمك البيان، وكلما سفلت يحكمك الواقع.

المدخن متى يدع التدخين؟ عند إصابته بسرطان الرئة أو بأزمة قلبية، هذا إنسان واقعي يحكمه الواقع دابة، أما الإنسان العاقل يكفي أن يقرأ موضوع عن مضار التدخين ليدع التدخين، يحكمه الواقع، بل إن العاقل يصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه، فحينما تتفكك الأسر، ويضيع الأولاد، وتفسد الأخلاق، وتسوء العلاقة بين الزوجين، وتنتشر المخدرات وتشيع لا تقل: والله لقد ابتعدنا عن منهج الله بعد فوات الأوان!

فالمؤمن لماذا هو مؤمن؟ آمن بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً رحيماً خبيراً عليماً وأن لهذا الخالق منهجاً حكيماً، فأنت إذا قرأت منهجه وائتمرت بأمره وانتهيت عما عنه نهى فقد حكمك البيان، إذاً أنت عاقل، ليس من الضروري أن تتعظ بعد أن تدفع الثمن باهظاً، يقال: الحياة مدرسة، أحياناً

الإنسان يجد ما يشبه القنبلة، يا ترى قنبلة أم ليست قنبلة؟ لا بد من أن يعرفها، فإذا عالجها بنفسه وانفجرت وفقد حياته في ثانية لم يبق من حياته ثانية ينتفع من هذا الدرس، أما لو استعان بخبير متفجرات فعرف الحقيقة دون أن يدفع الثمن، الإنسان إذا قرأ القرآن يعرف الحقيقة من دون أن يدفع الثمن، أما إذا تعامل مع الحياة وأكل الربا وفقد ماله كله الآن يتعظ، تطلع لغير زوجته فعاش في شقاء لا يحتمل عندئذ يتعظ، أكل المال الحرام فدمَّر ماله عندئذ يتعظ، فهذه الحقائق إما أن تأتي بياناً في وقت مبكر، وإما أن تكتشفها من المعاناة، وفي معظم الحالات لا يبقى في حياة الإنسان ما ينتفع بدروسه التي تلقاها من الحياة مباشرة.

فرق كبير بين الذي يتعلم بمنهج الله وبين الذي يتعلم بتجربته الشخصية :

لماذا نربي أولادنا؟ لو أن الإنسان لم يربِّ ابنه، الابن سوف يتربى لكن بعد فوات الأوان، بعد أن يمضي كل عمره في معصية الله، وفي الشقاء والبعد عن الله يكتشف أحقية الدين، متى اكتشفها بعد فوات الأوان.

هذا هو الفرق الدقيق بين الذي يتعلم بمنهج الله عز وجل وبين الذي يتعلم بتجربته الشخصية، المرأة التي تذل قدمها وتساق في متاهات الرذيلة وترى امرأة صالحة، زوجة محجبة، تذوب ندماً على فعلتها، إذاً هي أدركت الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان.

أيها الأخوة الكرام، القضية قضية أن يحكمك البيان أو الواقع، الناس جميعاً يحكمهم الواقع ويدفعون ثمن الحقائق التي يتعلمونها باهظاً، بينما المؤمن صدق أن هذا كلام الخبير، وأن الله عليم خبير، وأن هذا المنهج لصالح الإنسان، وأن الإنسان مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض، فلا بد من أن يطبق هذا المنهج.

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

من بين أيديهم المستقبل والتقدم والحرية والمرأة نصف المجتمع، وينبغي أن تعبر عن ذاتها بإظهار مفاتنها كي تتزوج، هذا جمال والله يحب الجمال هكذا يقولون.

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

التراث والتاريخ وما قبل الجاهلية، والعهد الروماني والآرامي والأصنامي، نعتز بتاريخ قبل الإسلام، فيه الأصنام والبعد عن الواحد الديان.

الوساوس كلها بعد عن حقيقة الدين :

قال تعالى:

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

يأتيهم الشيطان من الدين، ييئسه من رحمة الله، يلقي فيه أن هذا الإمام الفلاني صلى الفجر أربعين عاماً بوضوء العشاء وأنت لا تستطيع أن تحيي ليلة واحدة!! ييأس! من قال لك أن هذه القصة صحيحة؟ النبي عليه الصلاة والسلام هو سيد الخلق وحبيب الحق قال:

((عَنْ أَنَسٍ أَنَّ نَفَراً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[مسلم عَنْ أَنَسٍ]

يلقي في روعك قصصاً لا أصل لها، أو يأتيك بأحاديث موضوعة: كل الناس هلكى إلا العالمون! ما شاء الله، قال: والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم لم يبق أحد، بركت! هذه عن أيمانهم، أو بالفاتحة يوجد أربع عشرة شدة، توجد شدة لم تأتي بها صلاة باطلة! ممكن، فيأتيه بالوسواس إما بعباداته أو بمعاملاته أو يأتيه بوسواس عجيب، يصطاد سمكة يقول له: لعل إنساناً صادها فوقعت في البحر فهي ملكه، وأنت الآن مغتصب مثلاً! هذه وسوسة، النتيجة يوجد وساوس لا تعد ولا تحصى، وقد يبقى في الحمام ساعتين ليتوضأ وهذا كله بعد عن حقيقة الدين.

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 17]

دائماً الإنسان يشكو، وكأن الشكوى مركبة في دمه.

أي هذا المشتكي وما بك داء كيف تغدو إذا غدوت عليلا

أي هذا المشتكي وما بك داء كن جميلاً ترى الوجود جميلا

* * *

الله أغفل جهتين جهة العلو وجهة الدنو لأنهما محميتان من قبل الله عز وجل :

الشيطان له مداخل كثيرة يبدأها حين يعقد الشاب توبة مع ربه شيء طبيعي جداً.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ*ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

[سورة الأعراف:16- 17]

التقدم والتراث، لكن الله أغفل جهتين؛ جهة العلو وجهة الدنو، سبحان الله! هاتان الجهتان محميتان من قبل الله عز وجل، جهة العلو جهة الالتجاء إلى الله والاستعانة به والتوكل عليه والإخلاص له، والدنو جهة التواضع، فباب التواضع محمي من الله عز وجل، باب الله محمي من الله عز وجل، يوجد ست جهات يمين ويسار أمام وراء أعلى أدنى، ذكر الله الجهات الأربع.

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

لي من عبادك يا رب جزء كبير، (من)، لم يقل: لأتخذن عبادك، بل قال: من عبادك. قال تعالى:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

[سورة الحجر: 42]

خطأ الاستكبار وخطأ الغلبة :

قال تعالى:

(لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ)

هذا الكلام يخاطب به رب العزة ولم يكن إلا آدم وحواء، وكيف عرف أنه سيكون له من عباده في المستقبل نصيب مفروض؟ قال علماء التفسير: قاس على أبو البشر وأم البشر! استطاع أن يغريهم بالمعصية، فلأن يستطيع أن يغري أبنائهم من باب أولى، آدم وحواء معهم توجيه من الله مباشرة، لكن الفرق الكبير بين معصية آدم ومعصية إبليس، أن آدم عليه السلام ـ وهو كما قال النبي عليه الصلاة والسلام ـ يأتي بعد رسول الله في المقام:

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

[سورة طه: 115]

أغراه الشيطان فصدقه، أن آدم عليه السلام عصى معصية غلبة، ومعصية غلبة ما أسرع قبول توبتها سريعة جداً، يا رب أنا عبد ضعيف سامحني، يا رب اغفر لي، الإنسان حينما يقر بما في القرآن ولا يرفضه ولا يستكبر أن يعبد الله ويخطئ، هذا الخطأ سماه العلماء خطأ غلبة، وخطأ الغلبة سريعاً ما يتوب الإنسان منه، أما إذا عصى استكباراً وتأبياً واستعلاء هذا خطأ من نوع خطأ إبليس ولا توبة لصاحبه، خطأ الاستكبار شيء وخطأ الغلبة شيء آخر.

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

لذلك إذا تبع ابن آدم الشيطان هذا يذكرنا بقوله تعالى:

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ)

[سورة سبأ: 20]

هو ظن ذرية آدم سيتبعونه إلا قليلاً منهم، فالذي يتعامل مع الشيطان وينصاع له يصدق عليه ظن إبليس.

معنى الضلال المبين :

قال تعالى:

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ)

[سورة سبأ: 20]

الهدف أن تسلم وتسعد في الدنيا والآخرة، لأن الله سبحانه وتعالى خلقك لسعادة الدارين.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

ماذا يفعل الشيطان؟ يبعدك عن هذا الهدف، ويزين لك المعصية، والمال الحرام، والعلاقة الحرام، والخوض في أعراض الناس، ويزين لك كسب الأموال بالباطل، هذه المعاصي تحجبك عن الله، والحجاب عن الله عز وجل يسوق صاحبه لضلال مبين، أنت حينما تخطئ في الزاوية كلما تقدمت خطأ في الزاوية تزداد بعداً عن الهدف! لو أن إنساناً اتجه من دمشق إلى حلب بطائرة فلو أخطأ في درجة واحدة لجاء في دير الزور، في درجتين لجاء في الحسكة، فكلما تقدم خطوة ازداد بعداً، وهذا معنى الضلال المبين.

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)

مهمة الشيطان أن يبعدنا عن أسباب السلامة والسعادة :

يصله عن طريق سعادته وسلامته، الإنسان كائن من كان يتمنى لنفسه السلامة والسعادة، بل إنك لو شققت على صدر أي إنسان على وجه الأرض من كل المِلل والنحل والمذاهب والأديان والأجناس والأعمار ما منا واحد إلا ويتمنى السلامة والسعادة، هذا الهدف مركب في أصل تكوينه، مهمة الشيطان أن يبعدك عن طريق سعادتك ويبعدك عن طريق سلامتك، فلذلك تأتي المصائب بسبب الذنوب.

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

مهمة الشيطان أن يبعدك عن أسباب سلامتك وسعادتك.

أيها الأخوة الكرام، كل ما يجري في الأرض وكل ما تسمعونه أو ترونه إنما هو من انحراف الإنسان عن ربه وحينما ينحرف الإنسان عن ربه يدفع ثمن انحرافه باهظاً لذلك:

((عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ

السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أبو داود عَنْ ثَوْبَانَ]

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)

مهمة الشيطان الأولى أن يضلك عن هدفك الكبير، وعن سلامتك وسعادتك فتشقى، لذلك إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها.

الغفلة والأمل أخطر شيئين على إيمان الإنسان :

قال تعالى:

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ)

تجد يعيش الإنسان في أماني، والحقيقة أن الغفلة والأمل أخطر شيئين على إيمان الإنسان! يعيش في آمال تحتاج لعشرات السنين ويكون أجله قد جاء، وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي فيما أذكر أن إنساناً حدثني عن مشاريعه لعشرين عام قادمة وقرأت نعوته في اليوم نفسه! فهذا الذي وضع فوق رأسه قدرة عسل وقال: غداً أبيع العسل وأشتري بها رؤوس الغنم وأصبح راعياً والغنم يتوالد، وأصبح غنياً وأتزوج امرأة تروق لي وأشتري بيتاً وأنجب منها ولداً وأربي هذا الولد، فإذا ضربته فانكسرت القدرة فسال العسل فوقه، فانتهى الأمر!!

(وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ)

ضربت مثلاً آخر لعله طريف؛ أن دابة واقفة في أيام الحر الشديدة ولها ظل، جلس واحد في ظلها قام ليشرب فجلس مكانه واحد، فتلاسنا هذا مكاني لا مكانك، ثم تماسكا، ثم تضاربا، ثم سارت الدابة انتهى الأمر!! فقد تجد حروباً وخصومات ومنازعات، والموت يحصد الطرفين، وكل واحد يحاسَب عن عمله في أدق الموازيين.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

لذلك أيها الأخوة: لو كنا ضعافاً ومغلوب على أمرنا ولو مظلومين، أما إذا لم نكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إضلال المسلمين أو إفسادهم أو إفقارهم أو إذلالهم فأنت من السعداء، لو عانيت في حياتك الدنيا مشكلات لا تعد ولا تحصى، يكفي عند الله أن تكون بريئاً، لأن قتل الشعوب قضية سهلة جداً:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

نريد أن نحرك الأسواق فنهدم هذا البلد الإسلامي كي نعيد إعماره بمناقصات، أما أن يموت مليون مئة إنسان، ويهجّر أربع ملايين مشكلة بسيطة جداً. فإن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين وإضلالهم وإفسادهم وإذلالهم فأنت من الموفقين ولو كنت مغلوب على أمرك ومظلوماً وضعيفاً لا تستطيع أن تفعل شيئاً.

التوبة النصوح والدعاء اللحوح هذا الذي يملكه المسلمون اليوم :

أيها الأخوة الكرام: بالمناسبة لم يبق في أيدينا شيء إلا شيئان يملكهما كل واحد منكم؛ التوبة النصوح والدعاء اللحوح، تب وادعُ، هذا الذي يملكه المسلمون اليوم، لأن الذي حل بهم كما قال الله عز وجل:

(لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ)

[سورة النجم: 58]

حل أرضي لا يوجد، ما نحن فيه، حالتنا، ليس لها من دون الله كاشفة!

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ)

يعبدون الأصنام، ولا بد من الأنعام تخصص للأصنام، يقطعون آذانها لأنها قربة للأصنام.

(وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً)

الفساد في الأرض سببه تغيير خلق الله عز وجل :

أيها الأخوة، يقول الله عز وجل متحدثاً عن الشيطان:

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)

الله عز وجل خلق الذكر والأنثى مصممين ليكونا زوجين لا ليكونا عشيقين، خلق المرأة لتكون أماً وليست عاهرة، خلق الطفل ليكون ابناً باراً وليس منحرفاً، فالله عز وجل كل شيء خلقه لهدف كبير، فالكافر يصرف هذا الهدف لهدف آخر، فتفسد البنت، طبعاً وسائل الشيطان في إخراج الفتاة عن عفتها وحيائها وشرفها وأصل تصميمها، وفي إخراج الطفل عن عفته وأصل تصميمه، هو ابن بار، خلق الله الأنثى لتكون زوجة وليست ألعوبة بيد الرجل، وخلق هذه الشهوة في الرجل ليكون أباً رحيماً لا ليكون عابساً ولاهياً، هذا معنى واسع جداً، خلق الله الليل كي ننام لا كي نسهر إلى ساعة متأخرة منه، خلق النهار كي نعمل به، وخلق الأنعام كي ننتفع بها ونطعمها وفق ما صممت من أجله، فلما أطعمنا البقر طحين اللحم جن البقر، وكما قلت في الدرس الماضي وما جنون البقر إلا بسبب جنون البشر! حينما أبحنا العلاقة بين الذكر والأنثى كان مرض الإيدز! هذا المرض الذي يزيد مصابوه عن خمسين مليون في العالم، وينمو في متوالية انفجارية، وهو المشكلة الأولى في العالم، فتغيير خلق الله أي البعد عن التصميم الإلهي.

المال هذه الكتلة النقدية خلقها الله عز وجل كي تكون متداولة بين جميع الناس، فأبى الشيطان عن طريق الربا أن يجعلها في أيد قليلة ويحرم منها الكثرة الكثيرة، وهذه مشكلة الأرض الأولى، عشرة بالمئة من سكان الأرض يملكون تسعين بالمئة من ثروات العالم وتسعين بالمئة من سكان الأرض يملكون عشرة بالمئة من ثروات العالم! وهذه الحروب التي ترونها لا تلتفت لكل ما يقال عنها من أجل الثروة فقط وامتلاك النفط، أخذ النفط في الخليج وفي بلاد أخرى وفي قزوين واليوم في العراق، قضية السيطرة على منابع النفط في العالم هذا كل شيء، فأصل التصميم أن يكون المال متداولاً بين كل الخلق فصار متداولاً بين قلة قليلة.

تفكك الأسرة، وانتشار الدعارة، وانتشار الجريمة بسبب الفقر، وقد يكون الفقر وراء معظم مشكلاتنا في الأرض، لأنهم أفسدوا أصل التصميم وغيروا خلق الله، جعلوا هذا المال عن طريق الربا وفي أيد قليلة وحرمت منه الكثرة الكثيرة، فحينما تغير نفسية الإنسان فتاة أو شاباً، طفلاً أو راشداً، حينما تغير أصل العلاقة بين الذكر والأنثى، تجد بحالات كثيرة أن الإنسان يفرغ ما عنده من شهوة لا عن طريق مشروع بل عن طريق غير مشروع هذا هو الفساد في الأرض، وحينما يكون أصل المال في خدمة الإنسان صار الإنسان في خدمة المال، وحينما يكون الحيوان في خدمة الإنسان صار الإنسان أحياناً في خدمة الحيوان، صار تغيير جذري في خلق الله.

على الإنسان أن يعود في نمط حياته لأصل التصميم :

حينما صمم الله الإنسان أن يكون من ذكر وأنثى، وأن يكون هناك ثلاثة وعشرين جيناً من الذكر وثلاثة وعشرين جيناً من الأنثى مجموعهم ست وأربعون، أراد الإنسان من باب التحدي والحمق أن يستنسخ إنسان لا من ذكر وأنثى بل من أحد الجنسين وحده! كيف سمح الله بذلك؟ الجواب بسيط جداً: لو أن إنساناً ادعى الآن أن بإمكانه أن يضرب عرض الطريق بنظرية الإسمنت المسلح، قال: هذه خرافة، أنا مستعد لأبني بناء شامخاً من دون حديد، هذه ثورة في عالم البناء، الحديد يكلف ألوف الملايين، فأنت بين أن تحاوره بالعلم وبين أن تسمح له أن يبني بناء وفق نظريته، الأسلوب الثاني أبلغ في الرد عليه، فلما بنى البناء وأنهاه سقطت النظرية نهائياً! قد يسمح الله للإنسان أن يغير أصل التصميم لا لأن هذا التصميم الجديد أكمل، لا، ولكن ليؤكد كمال أصل التصميم، حينما يسمح الله لإنسان متأله أراد أن يتحدى ويصمم تصميم جديد يسمح الله له ليثبت في النهاية أن أصل التصميم هو الكمال المطلق وأن أي خروج عنه نحو الأسوأ!

لذلك أيها الأخوة: ينبغي أن نعود في نمط حياتنا لأصل التصميم، ولمنهج الله عز وجل، ولشريعة خالق الأرض والسماوات، إلى القرآن الكريم هذا من عند الخبير، وأي خروج عن منهج الله عز وجل نحو الأسوأ، وهذا الخروج هو الجهل بعينه، قال سيدنا يوسف:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف:33]

فالإنسان إذا صبا لامرأة لا تحل له هو عند الله جاهل، وإذا أحب ما لا ينبغي أن يحب هو عند الله جاهل، وإذا أخذ ما لا ينبغي أن يأخذ هو عند الله جاهل.

الله عز وجل يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وهو القرآن الكريم :

أيها الأخوة، أصل التصميم هو هذا المنهج القويم، وأي خروج عنه نحو الأسوأ، وإذا سمح الله لإنسان متأله أن يخرج في بحوث عن أصل التصميم فهو لا يخرج إلا نحو الأسوأ وهذه حقيقة، وقبل أشهر ظهرت تسمية اسمها فرقعة إعلامية في الاستنساخ، ثم غابت الأخبار كلها، ماذا حل بهؤلاء الأطفال الذين استنسخوا؟ قضية فرقعة ليس غير. فالله عز وجل يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، والقول الثابت هو القرآن الكريم.

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً)

خسران واضح كالشمس، يعدهم بدنيا ممتعة، يعيش بالأماني، يعده إذا طلق هذه الزوجة وله منها أولاد وتزوج هذه الفتاة الجميلة التي في سن بناته يسعد سعادة لا حدود لها، فبعد أن يطلق امرأته ويتزوج هذه الفتاة تصبح حياته جحيماً لا يطاق! خسر أولاده وزوجته وسئم الحياة مع هذه الفتاة اللعوب. يعده إذا سرق يعيش مدى الحياة في بحبوحة كبيرة، بعد سبعة أيام يعدموه، يعده إذا امتلك هذه المرأة فهي النعيم المقيم، فبعد أن يمتلكها يصبح من أشقى الأشقياء.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)

الغرور شيء له ظاهر وليس له مضمون، واحد يعمل في محل تجاري وعنده روح الدعابة، فكان يجمع قمامة المحل ويضعها في علبة أنيقة ويلفها بورق فخم ويضع لها شريط أحمر بعقدة ويضعها على الرصيف، يأتي إنسان ينظر شيء ثمين جداً يتوقعه قطعة ذهب أو ألماس، لفت لف هدية رائعة، يأخذها ويسرع، يتبعه بعد أن يقطع مئة متر يفك الشريط الأحمر، وبعد مئة متر أخرى يفك الورق، وبعد مئة متر ثالثة يفتح العلبة فإذا بها قمامة المحل، فيلعن ويسب ويفعل مالا يفعله!! هكذا الدنيا تغر وتضر وتمر.

الشيطان يزين المعصية :

سمعت عن إنسان جمع عندما كان الدولار بثلاث ليرات ثمانمئة مليون من القمار، وهو على فراش الموت طلب إنسان على علم بالدين أن يلتقي به، قال: ماذا أفعل؟ فالذي لقيه هكذا قال له ـ موضوع أن قال صواب أو خطأ موضوع ثاني ـ والله لو أنفقتها كلها لا تنجو من عذاب الله.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)

سائق تكسي يركب سيارته أشارت إليه امرأة وقف لها صعدت مركبته، سألها: إلى أين؟ قالت: خذني لأي مكان تريد! فعد هذه غنيمة ما بعدها غنيمة، وبعد أن قضى حاجته منها أعطته ظرفين في الأول خمسة آلاف دولار! وفي الثاني رسالة من سطر واحد مرحباً بك في نادي الإيدز!!! ذهب ليصرف الدولارات فإذا هي مزورة فأودع في السجن.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)

الشيطان يزين المعصية، مرة أناس سرقوا في إحدى أقبية دمشق من بائع ذهب ثلاثة عشر كيلو ذهباً، هم خمسة، فيما أذكر في أقل من عشرة أيام أعدموا في مكان السرقة جميعاً! هم حينما أقدموا على السرقة بماذا فكروا؟ فكروا بثروة عريضة جداً، وبحياة وبحبوحة ومركبات ونساء جميلات، فكان الإعدام مصيرهم.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)

لذلك الإنسان في نهاية حياته بعد أن يمضيها في معصية الله يأتيه عذاب ينسيه كل متع الدنيا، المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ويرى مكانه، مقامه في الجنة، يقول دون أن يشعر: لم أرَ شراً قط، وحينما يمضي الإنسان حياته في معصية الله ويرى مكانه في النار، يقول: لم أر خيراً قط، فالبطولة أن تضحك أخيراً، أناس كثيرون يضحكون أولاً، يسيطرون على بلد ويأخذون النفط وثرواتها، ويعدون أنفسهم منتصرين، يضحكون أولاً وسيبكون كثيراً، عن هؤلاء الذين قصفوهم باليورانيوم المخضب لستة مليارات سنة لا ينقطع تأثير هذا اليورانيوم! هذا بحث علمي! وقد قصفت به بعض البلاد الإسلامية، يده صغيرة بسبب تشوه في الخلق واضطراب في الأجهزة، سيحاسب:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير]

الله عز وجل سيسأل كل إنسان عن عمله يوم القيامة :

من أجل النفط والثروة والعلو في الأرض، لذلك أيها الأخوة: ذكرت هذا في مرة سابقة وأعيدها: قد يقودك عقلك وذكاؤك وتحصيلك وعلمك ومخترعاتك ومنجزاتك لأن تكون قوياً فتخضع كل من حولك، وتأخذ أموالهم، وتستحي نسائهم، وتذلهم، أنت إذاً أذكى إنسان، هذا إن لم يكن هناك آخرة، قد تكون قوياً فتستخدم قوتك لتبني مجدك على أنقاض الآخرين، وتبني حياتك على موتهم، وغناك على فقرهم، وأمنك على خوفهم، وعزتك على إذلالهم أنت أذكى إنسان بشرط واحد ألا يكون هناك آخرة، فإذا كان هناك آخرة أنت أغبى إنسان على وجه الأرض! لأن الله عز وجل يقول:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ)

[سورة الحجر:92]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

و:

((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر]

إذا مات من عندهم إنسان ديته خمسمئة مليون ليرة سورية، أما يموت من المسلمين ملايين والدية صفر لا شيء أبداً، هذا كله سيحاسبون عنه، نحن الآن نملك الدعاء فقط، لا نملك شيئاً إلا الدعاء والتوبة فقط، فتوبوا إلى الله وادعوا لإخوانكم في شتى أقطار المسلمين أن يحفظهم الله عز وجل.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(54-69): تفسير الآيتان121-122 ، حكمة الله المطلقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-03-28

بسم الله الرحمن الرحيم

جهنم هي جزاء ومصير أبدي لهذا الذي والى الشيطان في الدنيا :

أيها الأخوة الكرام؛ مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية الواحدة والعشرين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً)

بعد أن قال الله عز وجل متحدثاً عن إبليس حينما قال:

(لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً*وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً*يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)

سراباً بسراب، أولئك الذين اتبعوا الشيطان وأفتنوا بوساوسه:

(أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً)

كانت جزاء ومصيراً، أحياناً الإنسان يجازى لكن لا يبقى في الجزاء دفع غرامة، يسجن شهر شهرين، سنة سنتين ثم يخرج، أما جهنم هي جزاء ومصير أبدي، لهذا الذي والى الشيطان في الدنيا.

النصر الواقعي والنصر المبدئي :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلاً)

أيها الأخوة، يجب أن نوقن أن هؤلاء البشر على اختلاف مللهم ونِحَلِهم وأديانهم وأجناسهم وأعراقهم ومذاهبهم هم في النهاية إما إلى جنة يدوم نعيمها أو نار لا ينفذ عذابها، كانوا في الدنيا إما أن يعرف الإنسان ربه وينضبط بمنهجه ويحسن لخلقه فيسعد في الدنيا والآخرة، وإما أن يغفل عن الله ويتفلت من منهج الله ويسيء لخلقه، فيشقى في الدنيا والآخرة.

القضية واضحة وضوح الشمس، المؤمن غر كريم والكافر غب لئيم، المؤمن بين أن يستقيم ويحسن فيسعد في الدنيا والآخرة، والكافر يتفلت ويسيء فيشقى في الدنيا والآخرة، فالبطولة من يضحك آخراً.

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين: 34]

هذا ينقلنا الآن ما يسمى بالنصر الواقعي والنصر المبدئي، إنسان مسلم يوجد ظروف معقدة جداً ما سمحت له أن ينتصر لكنه مؤمن وعقيدته سليمة وملتزم ومطبق لكلام الله وسنة رسول الله يسعى في فعل الخيرات ما استطاع، هذا إنسان لو لم ينتصر على أرض المعركة هذا انتصر مبدأه ومات مؤمناً فاستحق الجنة، إنسان آخر حقق نصراً مؤزراً واحتل مساحات شاسعة، وكانت كلماته هي الغالبة، لكن لم يكن مطيعاً لله فهو المنهزم عند الله.

الأمر بيد الله وحده :

أرأيتم إلى أصحاب الأخدود بمقياس الأرض لم ينتصروا، بل إن ملكهم أحرقهم والله سبحانه وتعالى أثنى عليهم، قد يأتي على المسلمين وقت صعب جداً جداً، القوة ليست بيده وهذا امتحان صعب، فالقوة ليست بيده بل بيد أعدائه.

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما التقى بعدي بن حاتم قال له كلمات سبحان الله تنطبق علينا جميعاً، قال له: يا عدي لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، من فقرهم، فو الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ويا عدي لعله ما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ـ القوة ليست بيد المسلمين بل بيد الكافرين ـ وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة لهم، و يا عدي لعله ما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، والله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف، وعاش عدي ورأى كل هذه البشائر التي بشر بها النبي عليه الصلاة والسلام.

المشكلة الآن لا أستطيع أن أنسلخ من الأحداث التي تجري حولك أن الله موجود، وأنه في السماء إله وفي الأرض إله، وأن الأمر والنصر والقوة بيده، وأن المصير إليه، وأنه هو الذي ينصر، وهو الذي لا ينصر إلا لحكمة بالغة جداً، مادام الأمر بيد الله.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْماً فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ،

وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[سنن الترمذي عَن ابْن عَبَّاس]

الله عز وجل وضع بين أيدينا قصصاً في القرآن عن معاني التوحيد :

نحن الآن أيها الأخوة، في أمس الحاجة إلى معاني التوحيد، وإلى أن نخاف من الله لا من الطغاة.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ*فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ *إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 173-175]

هذا فيصل إما أن تخاف من الواحد الديان خالق الأكوان، وإما أن تخاف من طاغية جبار. أيها الأخوة، الله عز وجل وضع بين أيدينا قصص في القرآن أصحاب موسى شرذمة قليلون، هائمون على وجوههم، من عدوهم؟ فرعون! وما أدراكم ما فرعون بطغيانه وأسلحته، بجنوده، بحقده، بظلمه، ببطشه، وبغطرسته، بحسب مقاييس الأرض فرعون وراء شرذمة قليلون، يوجد فرق كبير جداً كما هو الآن تماماً ولعله أشد، وإذا بأصحاب موسى يصلون إلى البحر، فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم، والله بحسب القوانين والمعطيات ليس أمامهم إلا القتل واحداً واحداً، فالقرآن يقول:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 61-62]

الله عز وجل أوحى لموسى أن اضرب بعصاك البحر فإذا هو طريق مشوا فيه، اتبعهم فرعون، فلما خرجوا من البحر دخل هو في البحر وعاد الطريق اليبس ماء كما كان فأغرق فرعون! هذه القصة لمن؟ هذا الذي يقول لك: يستحيل أن تنهزم هذه القوة الطاغية، هذه القصة لمن؟ هذه قصة في القرآن الكريم.

الدعاء سلاح المؤمن :

قصة أخرى: إنسان وجد نفسه فجأة في بطن حوت، احتمال النجاة كم؟ صفر، لا أمل، لقمة صغيرة في فم حوت وزنه مئة وخمسون طناً، وجبته الخفيفة شطيرة أربعة طن، الإنسان كله مئة كيلو! وجد نفسه في بطن حوت في ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت! فالله عز وجل قال:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 87-88]

القصة انتهت وانقلبت لقانون، وقال الله عز وجل:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 88]

هذه القصة في القرآن، لا يمكن أن تكون مشكلة كمشكلة سيدنا يونس وانحلت بدعاء، والآن والله الذي لا إله إلا هو ما نملك إلا توبة نصوح ودعاء لحوح، لأن الله يحب الملحين في الدعاء، تسمعون الله عز وجل أرسل رسائل فبعث لنا رسالة العاصفة الرملية، أليست هذه عاصفة عطلت آلياتهم وعطلت القصف، بعث رسالة ثانية رصاصة صغيرة من بندقية قديمة تنزل طائرة بخمس ملايين دولار! أحدث طائرة هليكوبتر في العالم، ما هذه الرصاصة؟ هذه رسائل!! قصص كثيرة، الله ألقى في قلوبهم الرعب مع أنهم أقوى دولة في العالم، الدعاء سلاح المؤمن، ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب لا ترد، ادعُ لإخوانكم في العراق أن ينصرهم الله عز وجل.

إذا سألنا الله النصر نسأله نصراً تفضلياً ولا نجرؤ أن نسأله نصراً استحقاقياً :

أيها الأخوة، هذه القصص بين أيدينا، النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق ومعه نخبة البشر، إن الله اختارني واختار لي أصحابي.

لم ينتصر في أحد لماذا؟ لأن أصحابه عصوا أمراً لا تشريعياً بل عصوا أمراً تنظيمياً، أنت معك أمر بعدم شرب الخمر هذا تشريعي، عندك أمر بأداء الصلوات هذا تشريعي، أمر بالصدق أمر تشريعي، ويوجد لوحة لا تقترب من هذا المكيف، لا تستند عليه، هذا ما اسمه؟ أمر تنظيمي، أصحابه عصوا في أُحد أمراً تنظيمياً فلم ينتصروا، لو انتصروا لسقطت طاعة رسول الله، أبسط مثل: لو أعطيت الطلاب وظيفة وفي اليوم التالي لم تشاهدها فكان سواء الذي كتبها والذي لم يكتب، لا أحد يكتب بعد ذلك!

لو أن الله نصرهم على معصيتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لسقطت طاعة رسول الله، في حنين لم يعصوا ولكن أشركوا قالوا: لن نغلب من قلة، هذا شرك خفي، وفيهم رسول الله وأصحاب النبي فلم ينتصروا، لو أنهم انتصروا لسقط التوحيد، فإذا كان سيد الخلق وحبيب الحق ومعه نخبة الخلق لم ينتصروا في أحد لسبب سلوكي، ولم ينتصروا في حنين لسبب توحيدي فانهزموا، فإذا كان المسلمين عندهم ألف معصية سلوكية وألف شبهة توحيدية، أنّى لهم أن ينتصروا؟؟

نحن إذا سألنا الله النصر نسأله نصراً تفضلياً ولا نجرؤ أن نسأله نصراً استحقاقياً.

فيا أيها الأخوة، الآن نحن في محنة عظيمة وقد أقول كلاماً والله أعني ما أقول: حينما ينتصر هؤلاء الطغاة لا يسمح لأولادكم أن يقرؤوا كل القرآن! أبداً كل آيات الجهاد ممنوع أن تتلى لا في الإذاعة ولا في المدارس ولا في الكتب، والله وقد وقع هذا، يجب أن توزع الخطبة على الخطباء من السفارة لو أنهم انتصروا، القضية ليست انتصاراً عسكرياً بل انتصاراً ثقافياً، لذلك في هذه الأيام نحن في أمس الحاجة أن نسأل الله أن ينصرهم.

نور الدين الشهيد وهو يواجه التتار سجد وقال: يا رب من هو الكلب نور الدين حتى تنصره؟ انصر دينك، الآن الدين في محنة، والحرب حرب إبادة للمسلمين، ألقوا اليورانيوم المخضب وهذا تبقى آثاره ستة مليارات سنة، فالقضية خطيرة جداً، نحن يجب أن نوحد صفوفنا ونلغي خلافاتنا ونتعاون ويضحي بعضنا من أجل بعض، ويحب بعضنا بعضاً، ونقيم أمر الله في بيوتنا، ونلغي كل مخالفة في حياتنا، في أعمالنا وكسب أموالنا.

هذا الدين لو حذفنا منه نضعف ولو زدنا عليه نتمزق :

الشيء خطير جداً أيها الأخوة: هؤلاء سوف ينتقلون من بلد لبلد، بدؤوا بالعراق بلد بَلد، والنتائج خطيرة جداً، أقول هذا من أعماقي وأنا متألم ألماً لا حدود له: لا بد لنا من أن نصحو من غفلتنا، هذا الإسلام الشعائري، لا نأبه بالتعاملات، لسنا جادين بتطبيق منهج الله الكامل، أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الضربة المؤلمة جداً باعثاً لنا على تجديد إيماننا وتجديد عهدنا مع الله، وعن إذابة كل الخلافات فيما بين المسلمين.

أيها الأخوة الكرام، الأمر خطير جداً لأنه قضية حياة أو موت، دين أو محق هذا الدين، مئات المعاهد أغلقت في بعض البلاد في شرق آسيا، معاهد دينية، التدخل حتى في المناهج، في الكتب والجوامع، وفي أدق خصوصياتنا، التدخل في قانون الأحوال الشخصية، الزواج يجب أن يكون عقد بين شخصين لا بين ذكر وأنثى، مقبول عندهم بين أنثى وأنثى أو ذكر وذكر، وذكر وأنثى، حتى في أشد الأمور خصوصية سوف يتدخلون.

كيف تسمعون عن تيمورلنك وهولاكو والتتار نفس البلاء، لا في قيم ولا مبادئ ولا منطق ولا شيء!

ثور هائج مصاب بجنون البقر وقوي جداً ولا يرى بعينيه.

فيا أيها الأخوة، أسأل الله لي ولكم التوبة، التوبة النصوح، وأن ندعو لأخوتنا في العراق جميعاً أن ينصرهم ويحفظهم ويرد كيد الأعداء عنهم.

لو سألت ما السبب؟ يوجد تقصير وفريضة معطلة من أربعمئة عام في الإسلام تعطيل كامل! هذا الدين لو حذفنا منه نضعف، ولو زدنا عليه نتمزق، بالبدع نتمزق وبالحذف نضعف، هذا الدين ينبغي أن يبقى كما كان عليه أصحاب رسول الله، بالحذف نضعف، حذفنا فريضة الجهاد، انظر لما

آل إليه حال المسلمين لا يستطيعون التكلم بكلمة، تسلب ثرواتهم، كم نظام قمعي بآسيا وأمريكا اللاتينية لم يقتربوا، لكن هنا يوجد نفط، القضية قضية ثروة وقضية سيطرة على النفط واضحة كالشمس، تسلب ثرواتهم، تنتهك أعراضهم في البوسنة والهرسك، تقتلع أشجارهم، تهدم بيوتهم، يقتل أطفالهم، تسبى نسائهم، وباسم الإنسانية وإحلال السلام ونقل الحضارة الحية وهذا شيء يزيدنا غيظاً، باسم السلام نقصفهم بقنابل عنقودية، والقنابل الماسحة الماحقة، كيلو متر لا تبقي فيه شيئاً، عندهم قنابل والعياذ بالله شيء مخيف باسم الإسلام نقصفهم من المتوسط، الآن القنابل تنهال على بعض الأماكن من المتوسط! هناك طائرة (ب52) هذه صنعت عام (1962) صالحة لعام (2040)، لا يستطيع مطار في الأرض أن يتحملها، تنطلق من بلادها وتطير خمسة وثلاثين ساعة بلا توقف تقصف وتعود، وقنبلتها بالأطنان، يمكن أن تسير ثمانمئة كيلو متر بالأقمار الصناعية، آتاهم الله قوة ما بعدها قوة.

قصة هلاك عاد الذين تفوقوا في كل شيء :

حينما ذكر الله عاداً ما ذكر قوماً أهلكهم إلا ذكر أنه أهلك من هو أشد منهم قوة! إلا عاد قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

[سورة فصلت: 15]

ما كان فوقهم إلا الله، وعاد الثانية لا يوجد فوقها إلا الله عز وجل تفوقت في شتى الميادين، لم يخلق مثلها في البلاد، غطرسة ما بعدها غطرسة، من أشد منا قوة؟ تفوق عمراني مذهل.

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

[سورة الشعراء: 128-129]

تفوق صناعي وعسكري:

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

[سورة الشعراء:130]

تفوق علمي، وكانوا مستبصرين، ماذا فعلوا؟ طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، طغوا بأسلحتهم وأفسدوا بأفلامهم.

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر:13-14]

(فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)

[سورة الحاقة: 6-7]

هذه عاد الأولى، والله عز وجل قال: أنه أهلك عاد الأولى، يعني وجود عاد ثانية، هذه الثانية! فالأمر واضح في القرآن الكريم.

الله عز وجل لا يقبل أن ننتمي لهذا الدين انتماء شكلياً :

فرعون وما أدراكم ما فرعون! آتاه الله مالاً وزينة في الحياة الدنيا، سيدنا موسى قال:

(رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

[سورة يونس: 88]

فنحن في محنة كبيرة جداً، لا يكفي أن نستمع للأخبار، اعمل شيء للمسلمين، لا يوجد إنسان إلا يستطيع أن يفعل شيئاً للمسلمين، فهذه الدنيا دار بلاء، وشاءت حكمة الله أن تكون الحرب معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، من آدم ليوم القيامة! والآن صار الباطل واضحاً جداً وجريئاً ووقحاً ومكشوفاً لا يوجد أقنعة، كان يوجد أقنعة أما الآن لا يوجد! نريد أن نحتل بلادك ونقتل المدنيين والآمنين والأطفال ونأخذ الثروة ونبقيك مستهلكاً فقط، فلذلك أقول كلام لعله قاسي لكن هذه الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح: إذا الإنسان لم يعمل ثورة ببيته، بحياته، بعقيدته، بسلوكه، بتربية أولاده، بعلاقته مع زوجته، بكثرة ماله، بإنفاق ماله، بعلاقته مع المؤمنين ومع المسجد، إذا ما بدل علاقاته تبديلاً جذرياً لا ننجو من عذاب الله، الله عز وجل لا يقبل أن ننتمي لهذا الدين انتماء شكلياً، وهذا الذي حدث في الحقيقة فيه إيجابيات لأنه وقع، ولا يقع شيء إلا إذا أراده الله أن يقع، فمن بديهيات العقيدة لا يمكن أن يقع شيء إلا وسمح الله به، فمادام سمح الله به فيوجد حكمة ما بعدها حكمة، ندركها أو لا ندركها، ما هي الإيجابيات من الذي وقع؟ والله يوجد إيجابيات كثيرة جداً لخصتها في ثلاث إيجابيات، أول إيجابية وأكبر إيجابية واضخم إيجابية هو أن الغرب سقط، بقي قوة غاشمة، أما كحاضرة تنافس الدين سقط، كقيم أو كمصداقية، كحقوق إنسان، كإشاعة السلام، كديمقراطية سقط، كل هذه الأقنعة سقطت، رأيتم كيف أنهم وحوش، فأكبر نصر للدين أن الذي كان يخطف أبصار الناس إليه وينافس الدين وجعل الناس يتطلعون لبلادهم ودخول بلادهم والإقامة عندهم، هذا الغرب سقط في الوحل، هذا أكبر نصر!

أربع إيجابيات تبين أنه لا يمكن أن يقع شيء إلا وسمح الله به :

قال تعالى:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة: 256]

أعانونا على أن نكفر بهم، الحمد لله، كان قلة قليلة من المثقفين يعرفون الحقيقة، الآن كل العالم الإسلامي حتى الأطفال يعرفون الحقيقة، هذا نصر كبير لكن لم نعرف قيمته الآن، الآن لم يبق في الساحة إلا الله! كان يوجد فكر شرقي تهاوى كبيت العنكبوت، والآن الفكر الغربي تهاوى وبقي بيت كبير قوي، لكن الفكر تهاوى وسقط.

فرضاً إنسان يدعي المثالية والخلق ضبط بسرقة أو بزنى عند أبناء حيه انتهى كإنسان محترم انتهى، فهذا أكبر نصر حقق الآن.

1 ـ الغرب سقط في الوحل ولم يبقَ إلا الإسلام :

أول إيجابية أن الغرب سقط سقوط مريع في الوحل الحمد لله، ما بقي إلا الإسلام.

2 ـ هذه الأحداث قربتنا من بعضنا البعض ووحدتنا :

الإيجابية الثانية: أن هذه الأحداث قربتنا من بعضنا بعضاً، هم واحد، عدو واحد، قلق واحد، كنا متفرقين فاجتمعنا من دون أن يشعروا جمعونا ووحدونا.

3 ـ كل إنسان كُشف على حقيقته :

الإيجابية الثالثة: أن كل إنسان كشف على حقيقته.

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران: 179]

4 ـ لم يبق من حلٍّ كي نستعيد استقلالنا وكرامتنا إلا ببذل أرواحنا :

والإيجابية الرابعة: هذه الفريضة المعطلة قد أحييت، صار التعلق بهذه الفريضة ببذل النفس سخية في سبيل الله.

صار عندنا أربع إيجابيات إيجابية سقوط الغرب بقيمه وطروحاته، وإيجابية توحدنا، وإيجابية انكشاف الأقنعة وسقوطها، والإيجابية الرابعة أنه لم يبق من حل كي نستعيد استقلالنا وكرامتنا إلا ببذل أرواحنا، هذه أربع إيجابيات لم تكن من قبل، وكل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، فالآيات التي بعد هذه الآية:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلاً)

إن عدنا لربنا، واصطلحنا معه، وتبنا إليه، وعملنا الصالحات، نستحق دخول الجنة، وهذا هو النصر الحقيقي، أن يسمح لك بدخول الجنة، والدليل:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

[سورة آل عمران: 185]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(55-69): تفسير الآيات 123-126 ، ثمن النصر لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-04-04

بسم الله الرحمن الرحيم

الأماني بضائع الحمقى :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والخمسين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثالثة والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

هذه آية حاسمة، الأماني بضائع الحمقى، أنا أقول لكم أيها الأخوة: ما من مسلم على وجه الأرض إلا ويتمنى النصر، والله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ)

وما من مسلم إلا ويتمنى الجنة، قضية التمني قضية سهلة جداً، يستطيعها كل مقصر، يستطيعها كل منافق، يستطيعها كل عاصٍ، فالله عز وجل في آية حاسمة يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ)

تمنى ما شئت، تمنى أن تكون سيد البشر، تمنى أن تكون في أعلى درجات أهل الجنة، تمنى أن تكون في الفردوس الأعلى، تمنى أن تنتصر على أكبر قوة في الأرض، تمنى ما شئت، التمنيات لا تقدم ولا تؤخر، التمنيات لا تحرك ساكناً، لا تشفي مريضاً ولا تجلب عفواً ولا توبة، تمنى ما شئت، الأماني بضائع الحمقى.

إن لم نغير ما بأنفسنا لا يغير الله أحوالنا :

الله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

المسلمون اليوم يتمنون دخول الجنة ولا يدفعون ثمن الجنة، يتمنون النصر، والله حينما أستمع إلى أدعية الدعاة في هذه الأيام العصيبة دعاء يقشعر منه الجلد، الله ألا يسمعنا؟ والأمر بيده، لمَ لا يتغير الحال؟ لأن الله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

تمنى ما شئت، فالآية الحاسمة الأخرى التي تلتقي مع هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

لا تغيِّر لا يغيِّر، قضية واضحة كالشمس، حاسمةٌ تماماً، إن لم نغيِّر لا يغيِّر، الإنسان ضيق الأفق، ضعيف التفكير، يتمنى أن يغيِّر الله وهو لا يغيِّر، لذلك مهما دعونا، ومهما ابتهلنا، ومهما علا صوتنا بالدعاء، ومهما نمقنا الدعاء، ومهما بكينا في الدعاء، الأمر لا يتغيَّر، إن لم نغيِّر لا يغيِّر، فإن غيّرنا رأيت العجب العجاب، إن غيّرنا رأيت موازين القوى تنقلب رأساً على عقب، إن غيّرنا رأيت كيف أن الله يتدخل، إن غيّرنا رأيت كيف أن الله ينصرنا على ضعفنا، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، الصحابة كانوا قلة قليلة قلبوا وجه الأرض، لأنهم غيّروا، لمَّا غيّروا غيَّر الله ما بهم:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

الله عز وجل ما كلفنا ما لا نستطيع بل كلفنا ما نحن عليه قادرون :

أنا أقول كلمة جامعة مانعة موجزة قاطعة، إن لم يفكر أحدنا أن يغِّير فهذا الوضع من سيئ إلى أسوأ، وكل فترة يوجد بلد تنتهك حرماته، وتسلب خيراته، وتقتل أبناءه، وتهدَّم أبنيته، ورأيتم رأي العين ماذا يحل بالمسلمين، والله موجود والأمر بيده، ويد الله فوق أيديهم هذا هو التوحيد، الله عز وجل لا يغِّير إلا إذا غيّرنا، هذه الآية واضحة وضوح الشمس:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

العجيب كيف أن الشيطان وسوس لهؤلاء الناس، يدفعهم إلى ما لا يستطيعون فعله، ويزَّهدهم بما يستطيعون، كل مسلم يستطيع أن يتوب إلى الله ولا أحد يسائله، ولا أحد يتهمه، وليس هناك مشكلة، كل مسلم إذا دخل إلى بيته بإمكانه أن يقيم الإسلام، أن تؤدى فيه الصلوات، أن يأمر بالمعروف، كل مسلم بإمكانه أن يضبط بناته، وبإمكانه أن يحمل أهل بيته على الصلاة، كل مسلم بعمله بإمكانه أن يكون صادقاً وأميناً، وصادقاً وعفيفاً، الله عز وجل ما كلفنا مالا نستطيع، كلفنا ما نحن عليه قادرون، قال لنا:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

الأمر بقدر ما هو بسيط بقدر ما هو بعيد عن الناس، نريد أن نرغم أكبر قوة في الأرض أن تكف عن العدوان، لا نستطيع، لا نحن ولا غيرنا، ولا أهل الأرض، الطغيان بلغ درجة من التعقيد ليس له من دون الله كاشف، الآن حل أرضي غير موجود، لا يوجد حل أرضي، نحن غفلنا أن نعد لأعدائنا أربعمئة عام، هذه الغفلة، وقد أمرنا الله عز وجل وقال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

نحن ما أعددنا لهم، ما أعددنا لهم فأصبحوا أقوياء، فأملوا إرادتهم على كل البشر.

لا تتمنى النصر إن لم تدفع ثمنه :

إذاً أيها الأخوة الكرام هذه آية صدقوني، جامعة مانعة، قاطعة واضحة:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

مسلم ينتمي إلى جماعة إسلامية، له شيخ، ينتمي إلى جامع:

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

مما ورد في الأثر: يا فاطمة بنت محمد، يا عباس عم رسول الله، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لا يسرع به نسبه.

قضية حاسمة، كيف أن هذه الآية جاءت في مثل هذه الأيام، هي أنسب آية لمثل هذه الظروف، لا تتمنى النصر إن لم تدفع ثمنه، لا تتمنى النصر إن لم تزل المنكرات، لا تتمنى النصر إن لم تحجب الفتيات، لا تتمنى النصر إن لم تمنع بيع المسكرات، ما دام هناك معاصي على قدم وساق متفشية بين المسلمين والمسلمون راضون ساكتون:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

الانتماء لا يقدم ولا يؤخر، لذلك المسلمون يعجبون، يا رب ألا ترى ما يفعلون بنا؟!!

الشدة التي يسوقها الله للبشر من أجل أن يتوبوا إلى الله :

حدثني طبيب صديق كان يستمع إلى بعض الإذاعات في منتصف الليل، فإذا بمقابلة مع مفتي البوسنة، الحوار عجيب، يقول هذا المفتي: لا يعتب أخوتنا في المشرق على الله من أجلنا، نحن لسنا مسلمين، هكذا قال!! نأكل الخنزير، نشرب الخمر، نتعامل بالربا، وليس هناك فرق بيننا وبين الآخرين إطلاقاً، بعد هذه الأزمة الطاحنة أصبحنا مسلمين. حقيقة نطق بالحق، والرجل من شدة تأثره من هذا اللقاء حفظ الكلام حرفياً، فهذه الشدة التي يسوقها الله إلى البشر من أجل أن يتوبوا إلى الله، فإذا تابوا رفع عنهم كل مكروب، الكرة بملعبنا، الخلل عندنا، فإن غيَّرنا يغيِّر، وإن لم نغير لا يغير:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

دققوا الآن:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

ما عند الله لا ينال بالتمنيات، ما عند الله لا ينال بأن تحلم بأنك من أهل الجنة، القضية أخطر من ذلك، إله عظيم وشرع حكيم وعدل مطلق، إن لم نغيِّر لا يغيِّر:

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

فعل الشرط وجواب الشرط:

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

إذا هان أمر الله علينا هُنَّا على الله :

تدعو، تصرخ، تبكي، تنمق الدعاء، تأتي به مسجعاً، ادعُ ما شئت، إن لم تعلق ما عند الله على العمل لا يأتيك الله بالنصر، هذه حقيقة، هذا قرآن، هذه قوانين إلهية:

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

[سورة الرعد: 11]

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

[سورة الحج: 18]

إذا هان أمر الله علينا هنا على الله، إذا كان الله معنا فمن علينا، وإذا كان الله علينا فمن معنا، ما معنا أحد، ليس معنى هذا أن الذي قهرنا قريب من الله، لا، هو أفسق بكثير، إن الله يسلط الذي لا يعرفه على الذي يعرفه وهو لا يطيعه، هذه قاعدة ثابتة، جاء في الأثر: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني.

يسلط الذي لا يعرفه أصلاً على الذي يعرفه ويحيد عن أمره، يوجد إنسان طرح سؤالاً محرجاً، قال لي اليوم عقب الخطبة: جميع أهل الأرض قاموا من كبوة أصعب من كبوتنا ووقفوا على أقدامهم ونهضوا، فما بال المسلمين كذلك؟ الحقيقة يوجد إجابة دقيقة جداً، أرجو أن تكون واضحة عندكم، المؤمن الملتزم، المطبق، الطائع، المخلص، مرتاح ومتوازن مع الله، لا يوجد عنده مشكلة، أما الكلمة الدقيقة التي قد لا تقبلونها، والكافر حينما كفر بالله والتفت إلى الدنيا فقط متوازن ومرتاح، هو أراد الدنيا انتهى الأمر، ولم يرد الآخرة، لذلك بلغ أعداؤنا درجة عالية من الدنيا، لأنهم أرادوا الدنيا فقط، وألغوا كل منهج إلهي:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام:44]

الذي يؤدبه الله تعالى هو المؤمن العاصي :

الأمر واضح، المؤمن مرتاح وواضح ـ اسمحوا لي بهذه الكلمة ـ ومتوازن، والكافر واضح ومرتاح في الدنيا فقط، ومتوازن، ليس عندهم آخرة أبداً، في الدنيا نظام عمل كل إنسان في مكانه، قوة اختراع، من هذا الثالث الذي تأتيه المصائب من كل جانب، هذا المؤمن العاصي، فيه خير ليس مع المؤمنين لأنه ليس ملتزماً وليس كافراً، أي أنت كأب لا سمح الله ولا قدَّر عندك ابن معتوه، هل تؤدبه كل يوم؟ أبداً، وعندك ابن متفوق وذكي هل تؤدبه؟ لا! فعندك ابنين مرتاحين، الذكي المتفوق والمعتوه، لا يوجد مشكلة، من هذا الذي تعاقبه كل يوم؟ الذكي المقصِّر، فيه خير لكنه غير ملتزم، هذه هي القصة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام:44]

مال لا تأكلها النيران، بلاد جميلة، أمطار غزيرة، قوة قوية، غارقون في متع لا يعلمها إلا الله، وأمرهم نافذ:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام:44]

هؤلاء في الدنيا لا يعالجون، تماماً كما لو جاء مريض مصاب بورم خبيث من الدرجة الخامسة، وسأل الطبيب ماذا آكل؟ يقول له: كُلْ ما شئت. أما هذا الذي أصيب بالتهاب حاد في المعدة يعطيه الطبيب قائمة ممنوعات، ويسأله كل يوم إياك أن تأكل هذا الطعام، هذا يزيد في التهاب المعدة، من هذا الذي يشدَّد عليه؟ من هذا الذي يحاسَب حساباً عسيراً؟ من هذا الذي يقسو عليه الطبيب؟ هو الذي عنده مرض قابل للشفاء، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون مرض المسلمين قابل للشفاء.

لا أحد ينصرنا إلا الله تعالى إن أطعناه :

لذلك هذه الشدة يجب عليكم أن تعرفوا من هو عدوكم:

(هَا أَنتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران: 119]

هناك من لم يصدق الله عز وجل في هذه الآية!! يحبهم!! أرأيت جريمتهم! أرأيت وحشيتهم! أرأيت قتلهم للمدنيين! قتلهم للأطفال! قتلهم للنساء! أرأيت قصفهم لمستودعات الغذاء! أرأيت إذلالهم للمسلمين! أين الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والسلام؟ أين كل هذا الكلام المعسول الذي يتبجحون به؟ الحقيقة أن هذه الأحداث كشفت عن لؤمهم، وعن وحشيتهم، وعن بعدهم عن مبادئهم كبعد الأرض عن السماء، أمر واضح.

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

لا أحد ينصر المسلمين الآن، حتى الذين اعترضوا على هذه الحرب اليوم أيدوا، وتمنوا أن يكون النصر للأعداء، من أجل مصالحهم، لا أحد يقف معنا إلا الله، والله عز وجل لا يقف معنا إلا إذا أطعناه، هذا كلام دقيق، لا يحتمل أي مناقشة ولا اعتراض:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

لا يوجد إنسان يتولاه بالنصح والإرشاد ولا إنسان ينصره.

حال المسلمين اليوم لا يُحتمل كله كلام بكلام :

قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ)

إذاً أول آية:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ)

بالمقابل:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ)

يوجد تمنيات ويوجد عمل، لذلك أيها الأخوة:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

[سورة القصص: 105]

الآن هناك من يتفلسف، أنت ماذا قدمت؟ لا بد من الجهاد، أنت ماذا قدمت؟ إلى متى نتفلسف؟ أنت ماذا قدمت، هل قدمت شيئاً؟

((عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِي أَهْلِهِ فَقَدْ غَزَا))

[صحيح مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ]

من تمنى أن يجاهد ولم يتح له فكأن الله يكتب له أجر الشهيد، اعمل عملاً، لا تقف عند الكلام، حال المسلمين الآن لا يحتمل إطلاقاً، كلام بكلام، لا يقدم ولا يؤخر، والذي يؤلم الآن هذا الاستنكار العالمي، استنكار فقط، نراقب بقلق، خير إن شاء الله، نشجب، نندد، نشدد على كذا وكذا، لا شيء آخر نفعله!! لا أحد يقدم شيئاً، هذا كلام بكلام.

من معاني كلمة (الصالحات) :

قال تعالى:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً*وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

الإيمان أصل، هناك من يعمل صالحاً وليس بمؤمن، منطلقاً من ذكائه ومصلحته، هذا له الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق، هناك أناس أذكياء يعملون الصالحات تمتيناً لمكانتهم، ودعماً لجهودهم، وجلباً لثناء الناس عليهم، هذا يكافئه الله على عمله الصالح في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ)

الصالحات كلمة جامعة مانعة، من معانيها الاستقامة، والانضباط، ومن معانيها البذل والعطاء، أنفق ماله، أنفق علمه، أنفق خبرته، أنفق جاهه، أنفق وقته في طاعة الله:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

في هذه الآية إشارة إلى أن المرأة مساوية تماماً للرجل في التكليف والتشريف وفي المسؤولية، لو أن الله عز وجل قال: من يعمل من الصالحات من المؤمنين تعني المؤمنات حكماً بقاعدة التغليب، ولكن أراد الله أن يؤكد على أن المرأة كالرجل تماماً، يمكن أن ترقى إلى أعلى مستوى.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

ما هو النقير؟ أكلت تمرة ثم أمسكت بالنواة، في أحد طرفيها نتوء مؤنف كالإبرة تماماً، أي حجمه واحد على خمسين من الميليمتر، إبرة، قال: في مستوى هذا النقير لا تُظلَم:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

حقيقة الدين الذي أراده الله وارتضاه :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً)

حقيقة الدين الذي أراده الله، حقيقة الدين الذي يرتضيه الله، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

[سورة النور: 55]

أي دين يرتضيه الله؟ هذا الدين:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً)

حقيقة هذا الدين الذي يرتضيه الله عز وجل قال:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

أي أولاً اتجه إلى الله، توكل عليه، طلب رضاه، طبق أمره، ترك نهيه، ترك ما نهى عنه، أسلم وجهه، قبل بمنهج الله من دون أن يعترض عليه، لم يقدم بين يدي الله ورسوله، لم يقل قطع اليد توحش، هذا الذي جاء به القرآن وجاءت به السُّنة هو عين الكمال، وقمة الكمال، والحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، هذا أسلم وجهه لله أي عرفه وأقبل عليه، ثم صدق كل ما جاء به من أحكام.

قصة من التاريخ عن أحد الصحابة الكرام :

قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

أي يوجد شيء اعتقادي وشيء سلوكي، بالسلوك يوجد إحسان، يوجد صدق، يوجد أمانة، يوجد عفة، يوجد إنجاز للوعد، يوجد حفاظ للعهد، يوجد رأفة ورحمة، يوجد عدل وإنصاف، هذا المؤمن، أي بمعتقداته سليمة، وبسلوكه محسن، هذا هو الدين الصحيح، هذا هو الدين الذي يمكّنه في الأرض، هذا هو الدين الذي يمكّن في الأرض، هذا هو الدين الذي يقلب الله موازين القوى من أجله، من عمل به غلب أعداءه ولو كانوا قلة:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة: 249]

سيدنا الصديق رضي الله عنه جاءته استغاثة من سيدنا خالد يريد المدد، وسيدنا خالد يطمع بخمسين ألف مدد، لأنه يواجه عدواً أكثر من عشرين ضعف، معه ثلاثين أو أربعين ألفاً، والعدو ستمئة ألف، فطلب المدد من سيدنا الصديق، قصة كالخيال، سيدنا الصديق أرسل له المدد واحد!! اسمه القعقاع بن عمرو، لما وصل القعقاع إلى نهاوند قال له: أين المدد؟ قال له: أنا. دهش سيدنا خالد!! قال له: أنت؟!! قال له: أنا. وهذا الكتاب من الصدِّيق. هكذا يروي التاريخ، يقول الصدِّيق لسيدنا خالد: لا تعجب يا خالد فو الذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم، وانتصروا بواحد، كان أصحاب النبي واحد كألف، بينما إذا ترك الناس سنة النبي يصبحون مليار بواحد، عدد المسلمين مليار ومئتي مليون، ليس أمرهم بيدهم، وليست كلمتهم هي العليا، هم يُعتدى عليهم في بلادهم، وتنهب ثرواتهم، ويقتل أبناءهم، وتهدم منشآتهم، مليار ومئتي مليون أين هم المسلمون اليوم؟ متفرقون، تحكمهم الأهواء والمصالح، هذا فضلاً على من يعاون الأعداء على قتل المسلمين بتقديم التسهيلات.

تطبيق النبي الكريم منهج الله عز وجل الذي جاء به إبراهيم عليه السلام :

الدين الذي ارتضاه الله عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً)

الدين الذي يرتضيه الله عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

آمن به، وأقبل عليه، وقبل منهجه، وانطلق إلى تطبيق هذا المنهج، وعمله فيه إحسان، أي متمثل بالمكارم الأخلاقية من صدق، وأمانة، وعفة، وإحسان، وإنجاز للوعد، وحفاظٍ على العهد، وإنصاف وما شاكل ذلك:

(وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)

أي طبق منهج الله عز وجل الذي جاء به إبراهيم عليه السلام، وفصَّله النبي العدنان عليه الصلاة والسلام أيضاً، وكان هذا النبي الكريم حنيفاً أي مائلاً لله، لذلك من تعريفات العبادة طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، فمن أطاع الله ولم يحبه ما عبده، ومن أحبه ولم يطعه ما عبده:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)

الود بين العبد وبين ربه من لوازم الإيمان :

قال عليه الصلاة والسلام مما ورد في الأثر: أنا بشارة أخي عيسى:

(وَمُبَشِّرَاً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

[سورة الصف: 6]

ودعوة أبي إبراهيم:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة البقرة: 129]

(وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)

حنيفاً أي مائلاً إلى الله عز وجل، طاعة مع الميل، طاعة مع الحب:

(وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

الود بين العبد وبين ربه هو من لوازم الإيمان:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

ملكية الله لما في الكون ملكية مطلقة تملكاً وتصرفاً ومصيراً :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

أي هي ملك لله، لكن ملكية الله عز وجل لما في الكون (السماوات والأرض تعني الكون) ملكية الله لما في الكون ملكية مطلقة، تملكاً وتصرفاً ومصيراً، قد تملك الرقبة ولا تملك المنفعة، كمن يشتري بيتاً ويؤجره، والمستأجر لا يخرج، هذا مالك رقبة، أما المنفعة ليست ملكه، وقد تملك المنفعة ولا تملك الرقبة، وقد تملك المنفعة والرقبة لكن مصير هذا البيت قد لا تملكه، يفتح شارع فيهدم البيت، مثل للتقريب، تملك منفعة ولا تملك رقبة، أو تملك رقبة ولا تملك منفعة، أو تملك المنفعة والرقبة ومصير هذا البيت ليس إليك، أما ملكية الله عز وجل يملك ويتصرف والمصير إليه:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

[سورة إبراهيم: 46]

الله موجود:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(56-69): تفسير الآيات 123-126، القرآن والسُّنة مرجع المؤمن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-04-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا بما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الربوبية والألوهية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآيات التي تم تفسيرها في الدرس الماضي ثانية لأن هذه الآيات تتصل أشد الاتصال بواقع المسلمين.

أيها الأخوة، المسلم من هو؟ آمن بالله رباً، آمن به رباً وإلهاً، الربوبية أنه خلقه وأمدّه، أما الألوهية أنه متصرف، بيده الأمر.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

القرآن والسُّنة مرجع المؤمن :

ما تسقط من ورقة إلا هو يعلمها، ورقة شجر إذا سقطت يعلمها! ما من عقيدة نحن في أمس الحاجة إليها الآن كعقيدة التوحيد، الله عز وجل خالق ورب وإله، موجود وواحد وكامل، بيده الخلق والأمر.

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: 17]

هذا المسلم الذي آمن بالله رباً، ثم بالإسلام ديناً إنه دين الله ودين الحق، وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، جاء بالقرآن منهج الإنسان في سيره، وجاء في شرحه وتبيانه سنة الله في خلقه.

هذه أيها الأخوة من مسلمات الإيمان، المسلم من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.

الآن لا تجد مسلماً واحداً يحاول تفسير الذي حدث بعيداً عن القرآن والسنة، وإلا لم يؤمن بالله رباً ولا بالإسلام ديناً ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، الحد الأدنى من إسلام المسلم أنه يرجع إلى القرآن في تحليل ما حدث، يستنطق القرآن يا رب لما الذي حدثَ حدثْ؟ أين الخلل؟ وعدك حق، والنصر من عندك، والأمر بيدك، ولا راد لقضائك، الذي حدث لمَ حدث؟ المسلم الصادق لا يرجع لأي تحليل آخر إلا لتحليل القرآن، المسلم الصادق لا يصنع مشاجب يعلق عليها مشكلاته.

أكثر المسلمين يقول: الاستعمار، الصهيونية، الماسونية، أين الله؟ الخلل من عندنا والبطل هو الذي يعزو الخلل لا إلى غيره بل إلى ذاته، المسلم يرجع إلى القرآن لفهم ما حدث، والمسلم يرجع للقرآن لتحليل ما حدث، ويرجع للقرآن يتلمس طريق الخلاص مما نحن فيه، والمسلم يستشف من القرآن مصير المعتدين الظالمين، القرآن مرجعنا.

الله عز وجل لا يحابي أحداً :

أيها الأخوة، الله جل جلاله له سنن وقوانين لا تتبدل ولا تتغير، والإنسان مهما حاول أن يتجاوزها ويتجاهلها ويقلل من قيمتها هي محكمة فيه.

أوضح مثلاً، قانون السقوط، هذا قانون كيف نستفيد منه؟ نستخدم المظلات، فالذي يريد أن يسلم من هذا القانون يأخذ به، ويتأدب معه فيستخدم مظلة فيسقط للأرض سالماً، أما الذي لم يعبأ به ولم يحترمه ويصدقه ونزل من دون مظلة عدم تصديقك وتوقيرك لهذا القانون لا يلغي فعله! الفكرة دقيقة! قانون واقع، إن آمنت به استفدت به، وإن لم تؤمن به وقع مفعوله بك شئت أم أبيت، إلى متى لا نتعامل مع هذا الكتاب على أنه قوانين مطردة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ولا تعدل ولا توقف ولا تتغير ولا تجمد، سنة الله عز وجل ثابتة واقعة لا محالة.

الله عز وجل لا يحابي أحداً، في مجتمع البشر هناك محاباة فقد تسكت عن خطأ لزيد لأنه قريبك، وقد تبرر خطأ عبيد لأنه شريكك، وقد تتعامى عن جريمة زيد من الناس لأنه من عشيرتك، هذا في بني البشر ولكن عند خالق البشر الله عز وجل لا يحابي أحداً.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

أيها الأخوة، هذا الذي حصل في العالم الإسلامي في كل بقاعه لا يسر عدواً فكيف بالصديق؟! فلا بد من صحوة ويقظة ومراجعة حساب ومسح لتصوراتنا، هل هي مطابقة للكتاب والسنة أم هي مخالفة؟ لا بد من أن نهتدي بتحليلات القرآن، أنا لا أسمي أحداً ولا جهة ولكن أتحدث عن قوانين الله عز وجل.

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

هذا قانون وسنة من قوانين وسنن خالق الأكوان.

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

الذي عمل سوءاً ولم يجزَ به سيجزى به إلا إذا تاب، لا تقل مساكين أهل هذا البلد، وأي بلد آخر كان على شاكلته وفعلوا ما فعلوا لا بد أنه واقع بهم، إذا وقع بهم هذه قاعدة عامة!

إن أردنا النصر فعلينا أن ندفع الثمن :

لذلك يا أيها الأخوة، لو رجعنا للقرآن الكريم:

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران: 165]

النعامة دائماً تخفي رأسها بالرمل كي لا ترى الحقيقة، والإنسان غير الموفق في حياته دائماً يبحث عن مشجب يعلق مشكلاته عليه فيتهم جهات أخرى وهي كافرة، والكافر واضح يريد أن يأخذ كل شيء ولا يبقي شيء، يريد أن يكون أقوى جهة في الأرض مهما كان الثمن، وأغنى جهة في الأرض مهما كان الثمن، لا يوجد قيم، عندهم قيمة في بلاد الغرب هي دينهم؛ القوة تصنع الحق فقط! أنت قوي يعني أنك على حق ولو كنت مجرماً وسفاكاً للدماء ولو كنت سبب بلاء الناس، ما دمت قوياً فأنت على حق هذا شأنهم، أما شأننا أن نطبق منهج ربنا.

لذلك أيها الأخوة، كأن المسلمين يعيشون التمنيات، يتمنون على الله الأماني، والتمنيات كما قلت في درس سابق بضائع الحمقى، فالأحمق يتمنى ويتسلى، ويقعد ولا يتحرك ويراقب ولا يستجيب، هذا واقع المسلمين، والحقيقة المرة أقولها دائماً أفضل ألف مرة من الوهم المريح، إنسان يستحق التأديب من الله يدعو بدعاء فصيح فيه سجع أو لا يدعو، العلاج لا بدّ واقع به، طبعاً الدعاء الصادق يرد القضاء أما الدعاء غير الصادق فلا يرد القضاء، ما لم يغير الله لا يغير، هذه حقيقة أتمنى أن تكون واضحة وضوح الشمس، كل واحد منا إن أراد لهؤلاء المسلمين انتصاراً وعزة، إن أراد أن يستمع لخبر يملأ قلبه فرحاً، إن أراد أن يفرح فرحاً حقيقياً بنصر من الله عزيز علينا أن ندفع الثمن، الثمن إسلام التزام لا إسلام مظاهر.

التأديب من فضل الله عز وجل :

الله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

هناك من المسلمين من يقول: يا رب أمرتنا فعصينا، نهيتنا فارتكبنا، ولا يسعنا إلا فضلك هذا النموذج المعاصر، الأمر معروف عنده والنهي معروف لا طبق الأمر ووقع بالنهي، ولا يسعنا إلا فضلك هذا فضل الله، فضل الله التأديب، والله عز وجل يقول:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

[سورة الأنفال: 25]

الفتن آتية إلى كل بلد، قبل حين من جهة الغرب والآن من جهة الشرق، وقبل حين من الجنوب، هذه الفتن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً يَبِيعُ قَوْمٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ الْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

الكلام الذي يلقى في العالم الإسلامي لا نهاية له، أما الكلام الذي ينبغي أن يلقى بعناية فائقة هو أن كل واحد منا إن أراد لهذه الأمة النصر، وإن أراد ألا يصاب بأزمة قلبية إذا استمع إلى الأخبار، حدثني طبيب قال: عشرات الأشخاص جاؤوا بمرض أزمة قلبية طارئة بسبب ما سمعوا من أخبار وما رأوا من مشاهد، هؤلاء كانوا يعيشون كما نعيش نحن فجأة حصل الذي حصل، فالله عز وجل إله عادل ونحن علينا أن نأخذ الحيطة:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

الدعاء من دون عمل لا يقبله الله :

إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر الله عز وجل لينزلن بالمؤمنين عذاباً يدعونه فلا يستجيب لهم، هذا مر في بعض الأحاديث، فالدعاء من دون عمل لا يقبله الله.

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

كنت أقول دائماً: هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، وكل واحد على مستوى تفكيره، إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً، وإذا عقد العزم على طاعة الله، وإذا أصلح بيته وعمله، وربى أولاده، يجد من الله معاملة جديدة لم يكن يعرفها من قبل، يجد توفيقاً وصدقاً ومناصرة وأمناً وراحة، حينما لا تستطيع أن تقنع الناس بالتوبة إلى الله انجُ بنفسك، وتب إلى الله، وأصلح ذات بينك، وأقم الإسلام

في بيتك وعملك، وانصح بقية المسلمين أن يفعلوا كما تفعل، فلعل الله جل جلاله يزيح عنا هذه الغمامة السوداء.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

الله عز وجل قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: 55]

إيمانه عمل صالح.

المؤمن لا يضره كيد الكفار شيئاً :

قلت في مناسبة أخرى: أن خلاص المسلمين في كلمتين؛ لهذه الآية التي فيها كلمتان آية مقدمة قال تعالى:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

الله جل جلاله يصف مكر الكفار بطريقة تقشعر منها الأبدان، لمكر الكفار تزول الجبال.

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

هذا المكر الذي تنهدُّ منه الجبال، ببساطة ما بعدها بساطة يمكن أن ننجو منه إن كان الله معنا، قال:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

[سورة آل عمران: 120]

أي أن المؤمن بحسب نص هذه الآية ومعناها لا يضره كيد الكفار شيئاً، هذا المكر الذي تنهدَّ منه الجبال لا يتأثر به المؤمن إطلاقاً، لأن الله إن كان معك فمن عليك؟ وإن كان عليك فمن معك؟ هناك رسائل من الله؛ عاصفة واحدة عطلت مئة وخمسين طائرة، لو استمرت عشرين يوماً أليس هذا في قدرة الله عز وجل؟ الأمر بيد الله فلا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه.

لا يمكن أن ننتصر على عدونا إلا بطاعتنا لله سبحانه :

أيها الأخوة، وقت الكلام الطويل والخطابات انتهى، الآن وقت العمل، والله الذي لا إله إلا هو لو أن كل مسلم طبق واحد بالعشرة آلاف مما يعلم لكنا في حال غير هذا الحال.

أحد الصحابة الكرام كلفه النبي الكريم أن يدعو لله في قبيلة من قبائل العرب، فعاد للنبي وقال: يا رسول الله إنهم كالإبل المستوحشة لا يفهمون شيئاً، قال: أعجبت من هؤلاء؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: أعجب منهم من علم ولم يعلم هذا أشد توحشاً، أنتم تلاحظون هذه المنكرات التي تواجهونها في الطرقات، هؤلاء الفتيات اللواتي يرتدين الثياب الفاضحة، أليس لهن آباء يرتادون المساجد؟ أليس

لهن أمهات؟ أليس لهن أخوة؟ أين آبائهم وأمهاتهم وأخوتهم؟ هذه منكرات، فحينما تكثر المنكرات لا سبيل لرد العدوان، تحدثت في الخطبة اليوم عن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى كيف أنه استطاع أن يرد سبعة وعشرين جيشاً أتوا من بلاد النصارى! هذه الجيوش يقودها الملوك ردهم بإزالة المنكر قبل كل شيء، فنحن لسنا مكلفين بغيرنا، إذا كل مسلم من رواد المساجد فقط؛ لو كل واحد عاد لبيته ودقق في بيته، في تصرفات زوجته وبناته وأولاده، وفي طريقة كسب ماله ودخله، وإنفاق ماله، وطريقة زوجته، إذا أراد أن يوقع هذه الحركة وفق منهج الله فليطمئن لنصر الله وتوفيق الله، فكأنما زمن الكلام انتهى وليس للكلام من معنى بعد الآن، رأيتم مسيرات ملأت أطباق الأرض هل نفعت؟ استنكارات لا تعد ولا تحصى، شجب لا يعد ولا يحصى، تشديد على أن هذا العمل مخالف للشريعة الدولية، خيراً إن شاء الله! لم يحصل شيء!!! نريد الشيء الفاعل إن الله هو الفعال، وفعال لما يريد، وإذا سلط جهة على جهة ليس في الأرض قوة تمنعها من طغيانها لأن الله سلطها، لكن هذه القوة الطاغية لمجرد أن يتوب العبد إلى الله تنحسر عنه، والأمثلة كثيرة جداً والتاريخ شاهد وينطق، فأنا أردت أن أبقى في هذا الدرس بهذه الآية:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

إن أردتم أن تكحلوا أعينكم بأخبار سارة في المعركة بين الحق والباطل أنتم المسؤولون بادئ ذي بدء عن أسباب النصر بطاعتكم لله، ولسيدنا عمر رضي الله عنه كلمة رائعة يقول: إنما ننتصر بطاعتنا لله ومعصية عدونا لله، فإذا استوينا في المعصية كان لهم النصر علينا لقوتهم، والحقيقة الفرق في طريقة الحرب بين العتاد بين المسلمين وأعدائهم فرق كبير جداً، وهو في أطباق الجو العليا يرى المدينة بأكملها ملونة، فإذا رسم الهدف تقترب وتقترب حتى يرى المسبح في البيت، يكفي أن يضع إشارة الرادار على هذا الهدف ويضغط فإذا به يفجر، يوجد تقنية عالية جداً، أعدوا لنا ولم نعد لهم، أعدوا لنا قوة لا تقابل، وليس فوقهم إلا الله، والله فوق الجميع، إذا كنا معه كنا فوقهم، فإن لم نكن معه فهم فوقنا، وهذه حقيقة ثابتة.

التمنيات لا تقدم ولا تؤخر ولا بدّ من استجابة لله وللرسول :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة البقرة: 212]

إذا لم نكن مع الله عز وجل فهم فوقنا بقوتهم، لذلك هذه التمنيات؛ ماذا تعمل يا أخا العرب وجملك أجرف؟ قال: يا أمير المؤمنين أدعو الله أن يشفيه، قال: ماذا ينفع الدعاء، هلا جعلت مع الدعاء قطراناً.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: 72]

الهجرة حركة، إذا لا يوجد حركة لا يوجد شيء، قناعة وشعور وبكاء وتعاطف هذا انتهى فهو لا يقدم ولا يؤخر، إنسان يحتاج لعملية جراحية يبكي يبتسم يتجشم يتجلد ينهار لا بد من عملية جراحية، فالبطولة الآن أن ندع الكلام.

والله أيها الأخوة، ما تمنيت في حياتي أن أصمت كما أتمنى الآن! تكلمنا كثيراً، فإن لم يكن هناك استجابة لله وللرسول إذا دعانا لما يحيينا فلا أمل في الحديث عن أي شيء.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

يوجد أخبار طيبة في هذه البلدة وبذل وعطاء لكن نحتاج لتوجيه وترشيد وبيان ليوضح الحقائق، هذا درس بليغ إن لم يحدث فينا موعظة فمصيبتنا في أنفسنا أكبر، تحدثت في الخطبة اليوم أن صلاح الدين الأيوبي حينما فتح القدس لم يأخذ جنده حاجة من الأعداء إطلاقاً، بل إنهم اشتروا بعض حاجاتهم ودفعوا ثمنها كاملة، وهذا الذي يجري الآن لا يصدق، أين البناء الإيماني؟ جامعات تحرق، كل شيء ينهب ويحرق هذا من فعل من؟ يوجد تآمر كبير جداً.

آيات قرآنية كثيرة تحض على العمل :

أيها لأخوة، المصير أسود والليلة سوداء والله، وهذا المصير يخطط له من سنوات طويلة، ولا أستبعد أن يكون كل بلد إسلامي ضمن خطة من هذا القبيل، فالقضية قضية صحوة والتزام وحركة وطاعة لله عز وجل وتعاون، وليست القضية قضية كلام وتعاون ورفع الصوت في الدعاء، الكلام كله على العمل.

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء: 123]

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً)

[سورة طه: 112]

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

[سورة الإسراء: 19]

الآيات كلها على العمل لا يوجد آيات استماع فقط، آيات تفاعل نفسي الآيات كلها عمل وأوضح آية:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: 72]

معرفتنا لله توصلنا إلى محبته ومحبته توصلنا إلى طاعته :

يجب أن تأخذ موقف! قال تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

علة هذه الخيرية أنكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، لو أننا عطلنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدنا خيريتنا، أصبحنا أمة كأية أمة على وجه الأرض، لا شأن لنا عند الله عز وجل وهذا مصداق قوله تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

الله عز وجل لم يقبل دعواهم أنهم أحبابه، ولو قبل دعواهم لما عذبهم، ولأنه يعذبهم هم لا يحبونه.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

محبتنا لله دعوة، لو أننا أحببناه لأطعناه، ومن أعجب الأشياء أن تعرف الله ولا تحبه، ومن أعجب الأشياء أن تحبه ثم لا تطيعه، معرفة محبة طاعة، معرفة بلا محبة غير صحيحة، محبة بلا طاعة غير صحيحة، أنا أشك بالمعرفة إن لم يكن معها محبة، وأشك بالمحبة إن لم يكن معها طاعة، هذا الكلام.

خطوات عملية نحتاجها لتوصلنا لرحمة الله ونصره :

الخطوات عملية أيها الأخوة، إتقان العبادات، ذكر الله عز وجل، غض البصر، ضبط اللسان، التعاون، النصح، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضبط الأهل والبنات بالذات والبيوت والدخل والإنفاق هذه خطوات عملية ويمكن أن تكون سبباً لرحمة الله ونصره.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

لا ظلم اليوم، لا تظلمون فتيلاً ولا نقيراً ولا حبة من خردل، فما كان الله ليظلمهم والله لا يظلم أحداً، حينما قال الله عز وجل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: 3]

هذا الدين الذي ارتضاه الله لنا له تعريف دقيق، يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

أنت أيها الأخ الكريم هل أنت مستسلم لما في القرآن والسنة ولا تقبل خلافهم مقولة تسمعها أو تقرؤها؟ معنى القلب السليم هو القلب الذي سلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، كلما تعتقد وتتصور وفق الكتاب والسنة أم أن هناك تصورات تتصورها واعتقادات تعتقدها مخالفة لمنهج الله عز وجل، هذه واحدة.

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

الدين الحقيقي أن تتوجه لله وتأخذ من كتابه وسنة نبيه كل ما فيهما وتدع كل ما سواهما::

جعل اعتقاده لما في كتاب الله، جعل ميزانه ميزان القرآن لا ميزان أهل الدنيا وهو محسن وعمله طيب، وأنت أيها الأخ الكريم تعرف بفطرتك التي فطرك الله عليها الخطأ من الصواب، وكل واحد قادر أن يعرف الخطأ من الصواب ذاتياً من دون توجيه أو تبديل، والدين الحقيقي أن تتوجه لله وتأخذ من كتابه وسنة نبيه كل ما فيهما وتدع كل ما سواهما، هذا معنى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

أما هذه المجاوزة، مسلم لكنه غير مقتنع بعدم الاختلاط ويأتي بحجج واهية، هذا الذي لا يريد أن نكون مع بعضنا يفرق العائلة، كيف أنت مسلم ومصدق لما في كتاب الله، لما قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((الحمو الموت))

[البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر]

ثم تجعل كل المناسبات فيها اختلاط، هذا لعب بدين الله، كيف تقول أن الربا بنسب قليلة لا ضرر فيها؟ كيف ترتاح لفتوى قالها رجل في مصر من القطاع العام قالها إرضاء لمن يأمره وتصدقها وتأخذ بها وكأنه شفيعك يوم القيامة؟ هذا حال المسلمين!! أنا أضع يدي على مشكلات كبيرة جداً ولعلها هي سبب تخلي الله عنا.

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

استسلام لله في العقيدة والتصور، وفي حقيقة الكون، والحياة الدنيا، والإنسان، وحقيقة اليوم الآخر، والنبوة، والكتاب، والعمل بكل ما اعتقده، ثم الإحسان للخلق، هذا هو الدين بلا تعقيدات، هناك من يعقد هذا الدين، والذي يعقده ليس فقيهاً به، هذا الدين كالهواء ينبغي أن يستنشقه كل إنسان ببساطة! لذلك البطولة في تبسيطه وتطبيقه والإخلاص فيه، بسطه وطبقه وكن مخلصاً.

ملكية الله عز وجل ملكية تامة خلقاً وتصرفاً ومصيراً :

قال تعالى:

(وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)

حنيفاً أي محباً لله عز وجل ومائلاً إليه ومائلاً عما سواه.

(وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)

وقد ذكرت في درس سابق أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى..))

[ورد في الأثر]

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

[سورة البقرة]

النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول: أنا دعوة أبى إبراهيم وبشارة أخي عيسى ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.

(وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً* وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

الله عز وجل له الملك وله الحمد، هناك من يملك كما ترون كالطغاة ولا يحمدون، يملك ولا يحمد، وهناك من يحمد ولا يملك، لطيف لكنه ضعيف، فالإنسان يريد إلهاً عظيماً يملك ويحمد، له الملك وله الحمد وملكية الله عز وجل ملكية تامة، الله عز وجل يملك خلقاً وتصرفاً ومصيراً، قد تملك ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، وقد تملك وتنتفع والمصير ليس إليك.

لله الخلق والأمر وبيده مقاليد السماوات والأرض :

لكن الله حينما يقول:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ملكاً وتصرفاً ومصيراً، له الخلق والأمر.

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

بيده مقاليد السماوات والأرض.

(وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً)

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه الأحداث الجسيمة التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية ينبغي أن توقظنا وتحفزنا على أن نفعل شيئاً، هذا الشيء هو رجوع لله ولكتابه وسنة نبيه، كيف نمضي السهرات؟ دقق؟ هؤلاء الناس كيف يمضون سهراتهم؟ في طاعة أم في معصيته؟ وبعض هذه المعاصي أن تنظر لامرأة لا تحل لك حقيقة أو على الشاشة مثلاً، كيف يتحدثون؟ هل في حديثهم غيبة أو نميمة؟ كيف يكسبون أموالهم؟ هل في كسبهم شبهات؟ كي يلتقون؟ هل في لقاءاتهم اختلاط؟ كيف يفرحون؟ هل في أفراحهم معاصي؟ ومعاص كثيرة! كيف يحزنون؟ هل في أحزانهم مخالفات للسنة؟ القضية بسيطة جداً:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

كم من شيء حرام يفعله المسلمون وهم ساهون لاهون؟ قال: يا رسول الله عظني ولا تطل، فقال عليه الصلاة والسلام: قل آمنت بالله ثم استقم، قال: أريد أخف من ذلك، قال: استعد للبلاء.

خطة الله عز وجل تستوعب خطة الكفار و لن يفلتوا من عقابه :

قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

وقد لقي المسلمون ذلك الغي! بربكم هل يوجد أشد من الغي الذي وقع للمسلمين؟ أراضي وثروات نفطية أكبر مخزون نفطي في العالم بأقل تكلفة، كلفة البرميل في بعض البلاد ثماني دولارات، كلفة البرميل في هذه البلاد ثمانين سنتاً فقط! خيرات لا يعلمها إلا الله واستولوا عليها كلها، وكل شيء من منجزات هذه الأمة أحرقت، وبددت، وأتلفت، ودمرت، هل من إذلال فوق هذا الإذلال؟

أيها الأخوة، المصاب كبير وخطير وقريب ولا ينفعنا إلا أن يكون ثورة في حياتنا، وفي معتقداتنا، وفي علاقاتنا، وكسب أموالنا، ومحبتنا لبعضنا.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

[سورة الصف: 4]

هذه الـ (أنا) الانتماء الفردي والانتماء لفقاعة صغيرة هذه ضعها تحت قدمك، أنت كمؤمن تنتمي لجميع المؤمنين وفق منهج الله، فلعل الله سبحانه وتعالى ينظر إلينا نظرة عطف ورحمة، لعله ينصرنا ويرينا من قوته وبطشه بأعدائنا ما يثلج صدورنا إن شاء الله.

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً)

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

[سورة الأنفال: 59]

الذي فعله الكفار لم يفعلوه بخلاف إرادة الله، إن خطة الله استوعبت خطتهم ولن يتفلتوا من عقاب الله، ووعدت في خطبة سابقة أن أتحدث عما في القرآن الكريم من أخطار تنتظر الكفار، الله عز وجل وعدهم بالدمار والخذلان، وفي أقوام سابقة فعلوا ما فعل هؤلاء ودمرهم الله عز وجل.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(57-69): تفسير الآيات 127-130 ، الاستفتاء والعدل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-04-18

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا تعرف الإنسان إلى الله يتفانى في طاعته ويبحث عن أمره ونهيه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية السابعة والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى:

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً)

أيها الأخوة، الحقيقة الأولى من هذه الآية: أنه إذا تعرفت بالله تشعر بدافع كبير أن تبحث عن أمره ونهيه، وهذا منطلق هذه الآية، من هذا الذي يسأل؟ ما حكم الشرع في هذا الموضوع؟ ما الفتوى في هذا الموضوع؟ ماذا ينبغي أن أفعل هل هو حرام أم حلال؟ هل يرضي الله أم لا؟ هذا الإنسان بعد أن عرف الله عز وجل نوعاً من المعرفة يندفع قطعاً إلى التقرب إليه بالائتمار بأمره واجتناب نهيه، وما لم تكن هذه المعرفة فالإنسان لا يعبأ أكان دخله حراماً أو حلالاً، أكان يرضي الله أو لا يرضيه، من الذي يعبأ بمراد الله منه؟ هو الذي آمن بالله، لذلك أنت حينما تؤمن تسأل، والسؤال علامة طيبة، أنك تخاف أن تعصي الله أو تغضبه، أو أن لا يأتي عملك مطابق لمنهج الله، منطلق هذه الآية أن الإنسان إذا تعرف إلى الله تفانى في طاعته، وإن لم يتعرف إليه تفنن في معصيته.

الفرق بين السؤال والاستفتاء :

الصحابة الكرام بعد أن رباهم النبي عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً يعرِّفهم بخالق السماوات والأرض ويُعرِّفهم بأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، الآن بدءوا يسألون!

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

[سورة البقرة: 219]

(ماذا ينفقون قل العفو)

[سورة البقرة:219]

(يسألونك عن المحيض قل هو أذى)

[سورة البقرة: 222]

مرحلة السؤال مرحلة طيبة، مرحلة أن هذا الإنسان بدأ يعرف الله ويفكر في التقرب منه، وبدأ يسأل عن أمره وحكمه الشرعي، والذي يرضيه والذي لا يرضيه، والذي يسخطه والذي لا يسخطه.

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ)

لكن العلماء فرقوا بين السؤال والاستفتاء، السؤال أن تسأل عن مجهول، لكن الاستفتاء الحكم معروف فيه، لكن هذه الحالة التي أنا فيها أي حكم يناسبها؟ الاستفتاء يتجه لتطابق الحكم مع الواقعة، هل هذا الدخل شرعي أم ربوي؟ حكم البيع والشراء معروف وثابت، وحكم الربا حرام، أنا إن اشتريت جزءاً من بيت هل لي أن أتقاضى أجرة من هذا الجزء؟ الربا حكمه معلوم، حرام قطعاً، والآجار حكمه معلوم حلال قطعاً، أنا حينما أسهم مع إنسان في شراء بيت هل لي أن أتقاضى أجراً عن حصتي في هذا البيت؟ إن ضمنت المبلغ الذي ساهمت فيه فالأجرة ربا! دفعت معه مليون وضمن لك في أية لحظة تريد يعطيك المليون، وطلبت على هذا المبلغ أو الحصة أجراً هذه ربا، أما إن لم يضمن لك المبلغ بعد حين بعد عام بعد عامين قيّم البيت هبط سعره أو ارتفع الذي أعنته على شراء هذا البيت إن لم يضمن لك المبلغ لك أن تتقاضى أجرة، فالاستفتاء حكم البيع والشراء معروف، وحكم الآجار والربا معروف، أما أن أشتري مع إنسان بيت هل لي أن أتقاضى أجراً على حصتي؟ هل ينطبق عليها حكم الإيجار أم حكم الربا؟ فالسؤال عن مجهول، أما الاستفتاء عن معلوم.

معنى الاستفتاء :

الاستفتاء مدى علاقة الأحكام الشرعية بهذه الحالة، هذا هو الاستفتاء.

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ)

طبعاً حينما يستفتونك هم مؤمنون، أرادوا التقرب من الله عز وجل، أرادوا أن تكون علاقاتهم بالنساء علاقات شرعية جيدة.

(قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ)

لكن الله سبحانه وتعالى في سورة سابقة حدثكم عن هذا الموضوع:

(ا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ)

هذه "ما" معطوفة على لفظ الجلالة قل:

(قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ)

والكتاب الذي بين أيديكم يفتيكم أيضاً، إنسان عنده يتامى جميلات غنيات يتمناهن لنفسه أو واحدة منهن، ولأنه وكيلها ووصيها ووليها قد لا يعطيها حقها، فالإنسان حينما يكون ولياً أو وصياً على فتاة وهضمها حقها وقع في معصية كبيرة، لذلك ورد في سورة سابقة في آل عمران أنك إذا خفت ألا تعطيها حقها تزوج غيرها! كان هناك ردعاً شديداً أن تظلم المرأة، هي لأنها في حجرك وتحت

وصايتك ورعايتك وتخجل أن تطالبك بحقها أنت استفدت من هذه الوصايا فلم تعطيها حقها وقعت في ظلم شديد، فالله عز وجل أشار أنك إن أردت أن تتزوج فتاة تحت وصايتك، كانت غنية فطمعت بمالها أو جميلة طمعت بها، لعلك لا تعطيها حقها أو تنتفع بها، لعلك ظلمتها، فالله عز وجل أشار لهذا.

أخطر شيء في حياة الإنسان أن يستقل بالفتوى عن العلماء :

هناك أناس كثيرون يتوهمون أنهم يقيمون العدل، لكن العدل الذي يقيمونه هم، أخطر شيء في حياة الإنسان أن يستقل بالفتوى عن العلماء، يتوهم مصلحته شرعاً أو هواه منهجاً، أما الإنسان حينما يحضر مجلس العلم ويسأل ويستفتي في الأعم الأغلب لا يقع في خطأ كبير، كم من إنسان وضع أمواله عند أناس يقولون نحن لا نجري حسابات على الألف كذا بالشهر؟ يقول الحساب صعب ولست متفرغ لأدقق في الحساب! هذا الربا بعينه!! إذا لم يكن حساب أرباح حقيقية ولا يوجد عقد واضح بينك وبينهم، ويوجد اتفاق على نسبة ثابتة بينك وبينهم هذا المبلغ المقطوع شهرياً هو الربا بعينه دون أن تشعر، فأكبر خطأ الإنسان أن لا يسأل، أو يستقل بوجهة نظره عن الذين أوتوا العلم،

والله عز وجل يقول:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل:43]

إنسان تحت يده يتيمة، هو الوصي عليها ومكلف بإدارة شؤونها، لها مال وفير تزوجها طمعاً في مالها، أو على جانب من الجمال تزوجها طمعاً في أن يصل لمبتغاه من دون أن يتكلف ما تستحقه مثلاً وقع في ظلم شديد!

(قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً)

حكم مال اليتيم :

أحياناً طفل يتيم ماله في حوزتك ماذا يفعل بعضهم؟ يجعل مال اليتيم درءاً لماله في صفقة مجهولة، يستخدم مال اليتيم لهذه الصفقة فإن ربحت أرباحاً طائلة أنزل أمواله في هذه الصفقة، وإن خسرت يقول لك: لا يوجد نصيب سبحان الله قضاء وقدر، النبي عليه الصلاة والسلام أشار لهذا ولا تجعل مالك دون ماله، لا تجعل ماله دريئة لمالك، لا تجعل ماله جساً لنبض السوق أو تجربة، مالك لا

تستخدمه إلا في صفقة ربحها بنسبة عالية جداً، لكن مال اليتيم تجعله جساً لنبض السوق أو امتحاناً لهذه الصفقة، هذا أيضا يعلمه الله عز وجل.

لذلك العلماء حينما تحدثوا عن مال اليتامى قال: إن كنت غنياً ينبغي أن تستعفف أن تأخذ نصيبك من الربح وإن كنت فقيراً ينبغي أن تأكل بالمعروف، وما هو الأكل بالمعروف؟ أن تأخذ حاجتك أو أجر المثل أيهما أقل، عرف السوق للمضارب نصف الربح، فإذا كان الربح لا يغطي مصروفك ينبغي أن تأخذ نصف الربح فقط، وإن كانت حاجتك أقل من نصيبك من الربح ينبغي أن تأخذ حاجتك، هذا معنى أن يأكل بالمعروف. من كان غنياً فليستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف هذا هو الحكم الشرعي.

الله عز وجل أرادنا ألا نخلط مصالحنا ببنود الشرع، نزّه نفسك عن أن تستغل إنساناً أو طفلاً يتيماً أو فتاة يتيمة في حجرك أو مستضعفاً، هذا المستضعف واليتيم واليتيمة الله جل جلاله هو الذي يدافع عنهم.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

من يكشف أن هذا التاجر اتّجر بمال اليتيم ليمتحن هذه البضاعة؟ أتربح أم لا تربح؟ إن ربحت أدخل ماله الشخصي في هذه التجارة وإن لم تربح قال لليتيم: هذا الربح نصيب من الله لم نوفق لا يوجد قسمة أو نصيب، ويستخدم ألفاظ الشرع ليغطي خيانته لمال اليتيم، لكن الله يعلم وأنت حينما تعلم أن الله يعلم تستقيم على أمره.

كلما شعرت أن الله لا تخفى عليه خافية تكون قد استقمت على أمره :

أمثلة كثيرة جداً أضعها بين أيديكم، يوجد حالات ليس على سطح الأرض إنسان واحد بإمكانه أن يكشف انحرافك إلا الله، الذي تفكر فيه وتصبو فيه والذي بعثك لهذا العمل والمغالطة التي تفعلها وإيهامك الناس كذا وكذا كل هذا عنده علمه.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

كلما كنت واضحاً وأمام الله بريئاً، وكلما شعرت أن الله لا تخفى عليه خافية تكون قد استقمت على أمره.

أضرب لكم بعض الأمثلة: إنسان له أخت توفي عنها زوجها وترك لها مبلغ من المال وضعته عند أخيها لتستثمره فهي واثقة به، جيد! أخوها خبرته بالخيوط، وعنده معمل نسيج اشترى لها بهذا المبلغ كذا طن من الخيوط، الآن احتاج أخوها لخيوط ماذا يفعل؟ الآن هو من جهة وكيل أخته ومن جهة مشتري، يشتري من نفسه كوكيل ويشتري لنفسه كأصيل صفقة داخلية، يضع سعر، من الذي

يعلم علم اليقين أن هذا السعر فيه إنصاف؟ الله عز وجل، لا تستطيع أخته أن تحاسبه، هذا السعر، لكن الله يحاسبه، فإذا تقصى الأسعار وأخذ الوسطية منها، وأضاف قليلاً تبرئة لذمته رضي الله عنه، العلاقة مع الله سهلة جداً، إذا كنت بريئاً الله عز وجل يرضى عنك ولم يحملك ما لا تطيق، أنت بحاجة لطنين خيوط سألت خمسة مصادر أخذت الأسعار الخمسة، أخذت السعر الوسطي وأضفت بالمئة اثنين احتياط واشتريت هذا الخيط من أختك من نفسك فأنت عند الله بريء، لكن هناك من يحتال ويكذب ويدلس، يوجد بيع شكلي مهمته أن تنزل الأسعار، الله عز وجل يعلم، فهذه الآية تشير أنك من جهة طيبة أنك إذا سألت أو استفتيت فهذه علامة طيبة للإنسان، هو تعرف لله وتقصى ارضاءه وعليه أن يتقصى حدود الشرع في ذلك، فيسأل أو يستفتي، يسأل فيما هو مجهول ويستفتي فيما هو معلوم، ولكن حينما يستغل وكالته أو ولايته لصالحه فالله عز وجل عليم بانحرافه أو باستغلاله لمهمة أوكلت إليه.

الطفل الصغير مستضعف واليتيم كذلك واليتيمة أشد ضعفاً وأنت الوكيل، لذلك أعظم ما في هذا الدين أن الله بين كل رجلين وبين كل شخصين.

الله جلّ جلاله حينما قرب المؤمنين منه ما قربهم إلا لأنهم منصفون محسنون :

مرة كنت عند قصاب والله أثني عليه، جاءه طفل عمره خمس سنوات طلب منه قطعة لحم من نوع نادر جداً لمريض، أعطاه هذه القطعة بحسب طلبه تماماً ثم فرمها بالآلة، وهذا القصاب يستطيع أن يعطيه أسوأ أنواع اللحم والطفل لا يعلم، طفل صغير طلب قطعة من الخروف مفيدة جداً للمريض وهي قطعة محدودة وقليلة، فهذا القصاب خاف من الله أعطاه ما طلب بشكل دقيق جداً هذا المؤمن، لا يهمه الطرف الثاني، حاسبه أو لم يحاسبه الله يحاسبه، أعظم ما في الدين أن الله بين شخصين، فكل طرف يخشى الله أن يظلم الطرف الآخر، وكل طرف يرجو رحمة الله بخدمة الطرف الآخر، أما إذا لا يوجد دين القوي يأكل الضعيف، والغني يبتلع الفقير، والذكي يحتال على المحدود، صراع بين ذكي ومحدود، وبين قوي وضعيف، وبين غني وفقير، والذي يجري في العالم هذا، القوي يفعل ما يريد والناس كلهم معه خوفاً منه، والمستضعف لا أحد يلتفت إليه، أعور لا يرى إلا عدوه، يرى شوكة في عين عدوه ولا يرى جذعاً في عينه، هذا بالتعبير المعاصر الكيل بمكيالين، لكن الله جل جلاله حينما قرب المؤمنين منه ما قربهم إلا لأنهم منصفون محسنون.

بالمناسبة الفرق كبير جداً بين هؤلاء الأقوياء الذين يقربون إليهم كل من والاهم وبين الذات الإلهية التي لا تقرب عبداً إلا إذا كان كاملاً.

قيل يا رسول الله مثل بهم هؤلاء الذين مثلوا بعمك، قال: لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً، أعظم ما في حياة المؤمن أنه منضبط، ويخاف من الله عز وجل، ولو كنت مستضعفاً ومهزوماً في معركة، سيدنا علي كرم الله وجهه له قول رائع قال: لا أدخل معركة المنتصر فيها شر من

المهزوم، المنتصر ربح الدنيا، لكن المنهزم إذا بذل كل وسعه ولم يستطيع، أعد الإعداد الأقصى ولم يستطع مات مؤمناً ربح الآخرة.

سمعت شاب في العراق يشير لمكان مات فيه عدد كبير من الذين جاؤوا يبتغون وجه الله في قتال المعتدين، قال هذا الشاب: أنه يوجد إنسان أقسم بالله أربعة أيام والحر شديد وكأنه نائم، فقال: حفرتُ حفرة وقبلته قبل أن أهيل التراب عليه، كل إنسان له عمل، هو أراد أن يموت في سبيل الله، ليس له علاقة بما يجري، هو ابتغى وجه الله عز وجل، فكل إنسان له عمله وكل إنسان له نيته، قال: أربعة أيام ملقى في مكان مع عدد كبير من الذين قتلوا وجاؤوا من بلاد مختلفة لعلهم يلقوا الله عز وجل، فقال: أربعة أيام كأنه نائم، حفر له حفرة وقبَّله ثم أهال التراب عليه، فالله عز وجل رب النوايا، في الآية شيئان حينما تسأل أو تستفتي هذه بادرة طيبة، أردت أن تحاسب نفسك أو تعرف ما الذي يرضي الله عز وجل، وحينما تكون وكيلاً أو وصياً ينبغي أن تكون الأمور واضحة جداً فلا تدخل مصلحتك بمهمتك.

التنازل من صفات المؤمن والتشبث والعناد من صفات المعرض :

ثم إن الله عز وجل يقول:

(وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

الحياة قصيرة وليست لا نهائية، وهذه المرأة التي كانت شريكة حياتك وعشت معها مدةً من الزمن لو حصل مشكلة وانتهت هذه المشكلة بالصلح، فالله عز وجل يحب الصلح، هي خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً أو هو خاف من زوجته نشوزاً أو إعراضاً فأصلح أموره وأصلحت أمورها، تنازل قليلاً وتنازلت قليلاً، التقيا في منتصف الطريق فاصطلحا، المشكلة أن الإنسان يقف دائماً في موقع ويريد من الطرف الآخر أن يأتي إليه، والطرف الآخر تأخذه العزة، يتشبث في موقعه ويطلب من الطرف الآخر أن يأتي إليه لا يأتيان ولا يلتقيان، التنازل فضيلة فإذا تنازلت قليلاً وانتهى هذا التنازل بصلح بينهما، أو لو تنازلت قليلاً وانتهى هذا التنازل بصلح بينك وبين زوجك هذا الذي يرضي الله عز وجل، وحينما تضع نفسك مكان الآخر تكون منصفاً، حين تضعي نفسك مكان زوجك تكوني قد أنصفت.

(وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً)

الإنسان دائماً لا يقبل الحقيقة، يقفز عليها، لكن المؤمن يقبل الحقيقة المرة، مثلاً: إنسانة لا تنجب والعلة منها برأي الأطباء فإذا قبلت من زوجها أن يتزوج بأخرى لأنه يريد أن يرى له ذرية هذه امرأة عاقلة مؤمنة، لأنها قبلت هذه الحقيقة المرة أنها عقيم، وسمحت لزوجها بأن يتزوج بأخرى

لينال منها الذرية، فالتنازل دائماً من صفات المؤمن، والتشبث والعناد وركوب الرأس من صفات المعرض.

حينما يكون الإنسان موصولاً بالله تأتيه الحكمة كهدية من الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً)

لو يوجد سبب أنه تزوجها زواج مصلحة والآن مخير بين أن يعصي الله لا سمح الله ولا قدر وبين أن يبقى معها فسمحت له أن يبقى في منهج الله لا مانع، هذه امرأة بطلة لأنها حفظت دين زوجها، أنا لا أقول عن جهة واحدة أقول مشكلة في هذا البيت، فالمرأة حينما تعقل أن هناك مشكلة وأن هذه المشكلة لا بد أن تحل وقدمت بعض التنازلات هذه التنازلات هي عند الله أمر كبير جداً، والرجل حينما يعاين مشكلة في البيت ويقدم بعض التنازلات حفاظاً على هذه الأسرة وعلى راحة أولاده النفسية وحفاظاً على التئام الزوجين أيضاً شيء عظيم عند الله، لكن دائماً الحمق يأتي من التشبث والعناد ومن الشيطان، وكلمة باللغة الدراجة، الإنسان حينما ينقطع عن الله يرتكب حماقات ما بعدها حماقات ولو كان ذكياً، وحينما يكون موصولاً بالله تأتيه الحكمة كهدية من الله عز وجل.

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة: 269]

(وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

أحياناً يتناطح اثنان في المحاكم، عشر سنوات أعصاب الطرفين مشدودة لا ينامون الليل وتحت رحمة المحامون والقضاة، وكم من دعوة تبدل فيها القضاة عشرات المرات، وعشر سنوات كلام يقال لهما كذب في كذب، فلو جمعا المبلغ الكبير الذي أنفق في هذه الدعوة وسامحا بعضهما بقدر هذا المبلغ لعاشا حياة مريحة، الإنسان أحياناً لا يضع ثمناً للقلق، القلق متعب جداً، أجمل كلمة قالها سيدنا معاوية لسيدنا عمر بن العاص قال: يا عمر ما بلغ من دهائك؟ قال: والله ما دخلت من مدخل إلا أحسنت الخروج منه، فقال له معاوية: لست بداهية، قال: أما أنا فو الله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه!

الشح مركب في أصل طبع الإنسان :

كلما كنت موفقاً أو عاقلاً تستفيد من خبرات الآخرين أو من حقائق الشرع:

(وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ)

كل إنسان عنده نوع من الشح، أيها الأخوة، حينما قال الله عز وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

[سورة آل عمران:14]

محبة المال مزروعة في أصل طبع الإنسان، هو حريص على ما في يديه.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 19-21]

إذا مسه الخير منوع هذا معنى الشح، ومركب في أصل طبع الإنسان، لكن الإنسان المؤمن الذي آمن بالله خالقاً ورباً ومسيراً وآمن بالآخرة ينتصر على بشريته فيعطي كل ذي حق حقه، وإذا كان مستواه أرقى يحسن، فالإنسان حينما يعطي حقوق الآخرين وهي في يده وبإمكانه ألا يعطي يرقى عند الله، وإذا زاد على ذلك وكان محسناً يرقى عند الله عز وجل، فالناس جميعاً متساوون في حبهم للمال وحبهم للنساء وحبهم لكل شهوات أودعت فيهم، من هو النبي؟ هو الذي انتصر كلياً على دوافعه الأرضية، من هو المؤمن؟ هو الذي انتصر في الأعم الأغلب على دوافعه الأرضية.

الإنسان لا يرقى إلا عندما يغلب حظوظ نفسه :

قال تعالى:

(وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

إذا أدى الإنسان ما عليه من حقوق كمثال: أب ترك بيتاً في حي راق في الشام والورثة ابن وابنة، البنت متزوجة ولها زوج، وزوجها له بيت، وهذا البيت الذي ترك للأخ وأخته، كم أخ يقول لأخته: هذا بيت العائلة تعالي اسكني معنا، يسكن وحده مع زوجته فيه ويتمتع فيه وهو في حي راق جداً، ويقول لأخته: هذا بيت العائلة؟!! كم إنسان يقيِّم البيت فارغاً ويعطي أخته حقها الكامل من ثمن هذا البيت؟ فكل إنسان حريص على بيت أو على مبلغ كبير من المال أو على اقتناء أشياء ثمينة، أما حينما ينتصر على بشريته فيعطي كل ذي حق حقه ثم يحسن له عند الله مقام رفيع.

(وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

لذلك الآية الكريمة:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر: 9]

أنت لا ترقى إلا عندما تغلب حظوظ نفسك.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

العدل وأنواعه :

أنت لا تغنى عند الله إلا عندما تغلب حظوظ نفسك.

(وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً*وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)

العدل نوعان عدل مطلق وعدل تام، عدل مطلق في ميل القلب الذي عنده زوجتان أو ولدان لا بد من أن يميل لأحدهما أكثر من الآخر وهذا الذي قال عنه النبي الكريم:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ هَذِهِ قِسْمَتِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ))

[سنن الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

قضية الميل أن يعدل في الميل لا يستطيعها إنسان، لكن الذي طالبك الله به العدل التام في المسكن والإنفاق والكساء وحسن المعاشرة، لك أن تبتسم للاثنتين وتجلس مع الاثنتين، ولك أن تؤنس الاثنتين، وتسكن كل واحدة منهن في بيت يليق بها، ولك أن تنفق على الاثنتين هذا مطالب به، أما ميلك لهذه لأنها أذكى أو أجمل هذا لن تحاسب عليه لذلك:

(وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)

هذا العدل المطلق، هذا ميل القلب، لكنكم مكلفون أن تعدلوا العدل التام في المسكن والإنفاق والمبيت وحسن المعاشرة.

لك أن تحب وتبغض ولكن إياك أن يحملك حبك على معصية وبغضك على ظلم :

قال تعالى:

(فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ)

المعلقة ليست بلا زوج فتتزوج، وليست تأخذ نصيبها من الزواج، حالة صعبة جداً لا سلم ولا حرب، ليست متزوجة فتنعم بالزواج، وليست بلا زوج فتتزوج، هذا أشد أنواع الظلم إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان:

(فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ)

لك أن تحب ولك أن تبغض، لكن إياك ثم إياك أن يحملك حبك على معصية، وإياك ثم إياك أن يحملك بغضك على ظلم، أحب من تشاء وأبغض من تشاء، مادام الحب والبغض لا يحملانك على معصية أو ظلم فلا مانع، سيدنا عمر دخل عليه قاتل أخيه قال له: اجلس لا ترني وجهك، فقال قاتل أخيه: أتحبني؟ قال: والله لا أحبك، لكن ما الذي فعله هذا القاتل؟ أسلم، فلما أسلم أنهى المشكلة، انتهى الأمر لم يبق مشكلة، لكن قال له: لا ترني وجهك، قال له: هل يمنعك بغضك لي أن تعطيني

حقي؟ قال: لا والله، فقال هذا الإنسان بلا حياء: إنما يأسف على هذا الحب النساء، هذا منهج، أحببته أو لم تحبه حقه واصل، نحن على توهم البغض نحرمه كل شيء، إنسان أحياناً يحمد الله ستين عاماً فيضار في الوصية فتجب له النار! عنده اثنتين الجديدة أصغر وسيطرت عليه أكثر طلبت منه أن يكتب بيتين باسم أولادها الصغار، والقديمة لها أولاد حرموا تجب له النار!

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ))

[سنن الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فالحقيقة هنا لك أن تحب وتبغض، ولكن إياك أن يحملك حبك على معصية، ثم إياك أن يحملك بغضك على ظلم.

فساد البين بين الأخوة أخطر من الكفر :

قال تعالى:

(وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا)

ذكرت كم بند؟ ذكرت أن تعدل بين الزوجتين في السكنى ثم في الإنفاق ثم في المبيت في الوقت ثم في حسن المعاشرة.

(وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا)

تعدلوا وتتقوا أن تعصوا الله عز وجل.

(وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

مرة ثانية: الإنسان له ميول فطرية، من هو البطل؟ الذي ينتصر على ميوله الفطرية، فاتقى أن يعصي الله وأصلح قال:

((عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا سَلْمَانُ لَا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَبْغَضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ؟ قَالَ: تَبْغَضُ الْعَرَبَ فَتَبْغَضُنِي))

[سنن الترمذي عَنْ سلمانَ]

دققوا في هذا الحديث:

((عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))

[أَبِي الدَّرْدَاء عَنْ سنن الترمذي]

إذا إنسان كره مسلماً، والمسلم لم ينصفه وكان قاسياً والله لا أبالغ قد تنقلب هذه الكراهية للإسلام، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّه عَنْهم قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبَغْضاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعَرِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

[أحمد عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللَّهم عَنْهم]

لذلك فساد البين بين الأخوة الكرام أخطر من الكفر تنتهي بهم لكراهية الدين، فإذا كنت منتمياً إلى مسجد فانتبه، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك.

المحبة لا تكون إلا بالكمال والعدل والإحسان :

ذكرت مرة أن الأب يُحترم دائماً لأنه أب، لكن لا يُحَب دائماً إلا إذا كان كاملاً! لا تقل: أنا أب يجب أن يحبني أولادي، يحبونك إذا كنت عادلاً بينهم ومحسن، ينبغي أن تحترم لأنك أب، فقط احترام، أما محبة لا تكون إلا بالكمال والعدل والإحسان. قال:

(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ)

الله عز وجل كريم، أبغض شيء إلي التفريق بين الزوجين، حينما أحضر فرقة بين زوجين لي كلمة مشهورة أقول: هيأ الله لك أيها الشاب خيراً من زوجتك هذه التي افترقت عنها، وأقول لأبيها هيأ الله لابنتك زوجاً خيراً من هذا الذي تركها.

(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ)

الله عز وجل قدير! تروي الكتب قصة ذات مغزى فقط: أن إنساناً كان يجلس مع زوجته طرق سائل الباب وهما يأكلان الدجاج فهمَّت أن تعطيه بعض الطعام لأنه فقير، فنهرها وعنفها وقال: اطرديه، بعد حين العلاقة ساءت بينهما فطلقها، تزوجها رجل سعدت بقربه كثيراً، وهما يجلسان ويأكلان الدجاج طرق طارق، فلما فتحت الباب عادت مضطربة قال: من طرق الباب؟ قالت: سائل، قال: من هو هذا السائل؟ قالت: زوجي الأول! قال: هل تدرين من أنا؟ أنا السائل الأول! أحياناً الإنسان يكون متجبراً والله يذله، وأذلّ الله الأمريكان، الآن يا رب يكون متجبراً متغطرساً هذا عقابه عذاب مهين.

(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ)

أجمل كلمة حكتها زوجة شريح قالت: يا أبا أمية لقد كان لي من رجال قومي من هو كفء لي وكان لك من نساء قومك من هي كفء لك، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله، فاتق الله فيّ وامتثل قوله تعالى: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

تقول: لا يوجد غيري! يوجد مليون مثلك، تقول هي كذلك يوجد مليون مثلها، تواضع، بسبب النفاق تجد العي بين الأزواج.

(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً)

الله عز وجل قادر في كل لحظة أن يعطي كل طرف أحسن من زوجته الحالية بمليون مرة، لكن الله امتحنك بهذه الزوجة، إنسان له زوجة سيئة جداً قيل له: طلقها، قال: والله لا أطلقها فأغش بها المسلمين.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(58-69): تفسير الآيات 131-134، التوحيد وأصل الفساد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-04-25

بسم الله الرحمن الرحيم

كل ما في الكون ملك لله عز وجل والعبرة أن ترضى بقضاء الله :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والثلاثين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً)

أيها الأخوة الكرام: آيات القرآن الكريم كما يقول بعض علماء الأمة آخذ بعضها برقاب بعض، أي أن هناك ارتباط دقيق جداً يدركه من وفقه الله لفهم هذا الكتاب، فالله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ)

[سورة النساء: 130]

أي كل ما في الكون ملك لله عز وجل، والله عز وجل قادر أن يهب التي طلقها زوجها زوجاً خيراً منه، وقادر أن يهب الذي أبت عليه زوجته أن تكون زوجة صالحة أن يهبه زوجة صالحة، وقادر على الذي رضي بقضاء الله وقدره فمنحه الله البنات من دون الذكور ورضي بهذا القضاء أن يهبه الله أصهاراً هم أقرب إليه من أولاده، وقادر على الذي وهبه الذكور من دون الإناث أن يعينه في شؤون حياته، العبرة أن ترضى بقضاء الله، العبرة أن تؤمن أن الأمور كلها بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى.

الخيارات عند الله سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى :

حينما تستقبل قضاء الله عز وجل بالرضا، فالله عز وجل له ملك السماوات والأرض، والأمر كله بيده، وبالتعبير القريب إلى أذهان الأخوة الكرام: الخيارات عند الله سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى، كما جعله رجلاً عقيماً، الله عز وجل قال:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ*أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً)

[سورة الشورى: 49 - 50]

هذا الذي جعله الله عقيماً لحكمة أرادها، لو أن هذا الإنسان استقبل هذا القضاء والقدر بالرضا، ورضي عن الله عز وجل فقد يسخر له ربنا من يخدمه خدمة تفوق خدمة الابن، أحياناً الإنسان ينجب أولاداً ذكوراً كلهم مسافرون ولا ينتفع بهم إطلاقاً، لذلك فهمَ بعض العلماء من قوله تعالى:

(وَبَنِينَ شُهُوداً)

[سورة المدثر: 13]

أي بنين معه، في معونته، وليسوا بعيدين عنه، فقد يهب الله الذكور، ولا تنتفع بهم، وقد يهب الله الإناث ولا ترضى بهنّ، وقد يجعل الله من يشاء عقيماً، فإذا قبل حكم الله عز وجل سخّر له من يخدمه أفضل من خدمة أولاده، العبرة أن ترضى عن الله، العبرة أن ترى أن الله بيده الخير، يؤتي الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، العبرة أن ترى الأمر كله بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى.

الموحد الحقيقي :

الآية الكريمة:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

وقد ذكرت لكم من قبل أن (اللام) هنا في كلمة لله لامُ الملك، أي كل الكون ملك لله عز وجل، لكن ملكية الله لهذا الكون هي أعلى درجات الملكية، فهو يملكه خلقاً، ويملكه تصرفاً، ويملكه مصيراً، بينما البشر قد يملكون ولا ينتفعون، وقد ينتفعون ولا يملكون، وقد ينتفعون ويملكون، والمصير ليس لهم. وجاءت هذه الآية ثلاث مرات؛ المرة الأولى:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً)

[سورة النساء: 126]

المرة الثانية:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

الآية الثالثة:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

أي كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يطمئننا، وهؤلاء الذين يضعف إيمانهم في هذه الأيام العصيبة يرون أن الأرض ليست بملك الله عز وجل، بملك أناس بلغوا ذروة القوة، وفرضوا إرادتهم على كل الشعوب، وأنهم آلهة الأرض، وهذا يبعث في النفس القلق والخوف والضجر، بينما الموحد متوازن، والبطولة أن توحد في مثل هذه المحن لا في الرخاء، في الرخاء جميع الناس موحدون، ولكن الموحد الحقيقي هو الذي حينما تشتد المحن يبقى متيقناً أن الأمر بيد الله.

عظمة الإيمان أن تشعر بكل خلية في جسمك أن الأمر بيد الله :

يروى أن أحد الطغاة استدعى صحابياً جليلاً في بدايات العهد الأموي ليقتله، فقال له هذا الصحابي، أو لعله تابعي، لا أذكر، قال له: لو علمت أن أجلي بيدك ما عبدت غيرك، لكن أجلي بيد الله عز وجل.

عظمة الإيمان أيها الأخوة أن تشعر بكل خلية في جسمك، وبكل قطرة في دمك أن الأمر بيد الله، أنت حينما تقرأ القرآن، وتقرأ قوله تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

تطمئن، وحينما تقرأ قوله تعالى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

وحينما تقرأ قوله تعالى:

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

وحينما تقرأ قوله تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

معنى التوحيد :

في صفحة واحدة الله جل جلاله أعاد هذه الآية بصيغ مختلفة ثلاث مرات:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

نحن المؤمنون إن شاء الله نؤمن أن الله فعال، والآية الكريمة:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة البروج:14-16]

الذي يريده يفعله، ولا تستطيع قوة في الأرض أن تفعل شيئاً ما أراده الله، كما أنه لا تستطيع قوة في الأرض أن تمنع عنك خيراً أراده الله، كما أنه لا تستطيع قوة في الأرض أن تجلب لك منفعة حجبها الله عنك.

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

هذا هو التوحيد، وما من وقت نحن في أمس الحاجة إلى علم التوحيد، أو إلى التوحيد كهذا الوقت، لأن الله جلت حكمته من امتحاناته الصعبة للمؤمنين أنه يقوي الكافر، والكافر يفعل فيما يبدو ما يريد، فيما يبدو لضعيف البصر، لكن الحقيقة أن يفعل الله ما يريد.

العبرة أن ترى أن يد الله تعمل وحدها وليس مع الله أحد هذه حقيقة التوحيد :

نحن مدعوون أيها الأخوة إلى التعمق في آيات التوحيد، الموضوع متعلق بالزواج، أنت تزوجت امرأة صالحة، أو تزوجت امرأة ليست صالحة، لو حصل فراق بينكما فالله عز وجل قادر أن يعطي المرأة التي طلقت زوجاً خيراً من زوجها، وقادر أن يعطي الرجل الذي لم تكن زوجته مقدرة له زوجة أخرى تقدره، وقادر لمن أنجب ذكوراً أن يملأ قلبه رضاً، ولمن أنجب إناثاً أن يملأ قلبه رضاً، ولمن جعله الله عقيماً أن يملأ قلبه رضاً، والعبرة أن ترى أن يد الله تعمل وحدها، وليس مع الله أحد، ليس في الكون إلا الله، هذه حقيقة التوحيد، على شبكية العين هناك قوى لا تعد ولا تحصى، قوى طاغية غاشمة ظالمة تقتل، تدمر، تهدم، هذا على الشبكية، أما عند إدراك المؤمن العميق فإن الأمر كله بيد الله، والآية واضحة:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

ترون وتسمعون كيف ينزع الملك ممن يشاء، الذي كان قبل أيام في أعلى درجة هو يتخفى من مكان إلى مكان:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

حينما ترى أن الله يعمل وحده، وأنه يعطي كل إنسان ما يستحقه، وأن حساب الله عسير.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

عندئذٍ ينبغي أن تخاف من الله، ولو وجدت الحبل مرخىً لك، هذا الحبل المرخى يشد في أيّة لحظة.

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

[سورة الأعراف: 183]

أصل الفساد ومصدره :

إن الإنسان مربوط بحبل لا ينقطع، في أية لحظة أرادها الله عز وجل يشد الحبل فإذا هو في قبضة الله، يسحب من تحته البساط فإذا هو بيد الله عز وجل، كأن هذه الآية:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

تطمين لكل زوجين افتراقا، كنت أقول دائماً: حينما يفترق زوجان أدعو لكل منهما أن يهبه شريكاً أفضل من الذي كان، وقد يحدث هذا:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

الآية الكريمة:

(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ)

هناك ملمح أيها الأخوة، وهو أن الذي سخره الله ليس فيه فساد إطلاقاً، هذه الأرض مسخرة، دورتها حول الشمس من ملايين السنين، لا تتقدم ولا تتأخر، أدق الساعات في العالم قد تقصر في العام كله ثانية واحدة، كيف نكشف أنها قصرت ثانية؟ على حركة نجم، فالكون يعمل بنظام عجيب، لأنه مسخّر، إذاً لا يتطرق الفساد إلى الكون أبداً، كل شيء ما سوى الإنس والجن ليس فيه فساد، لأنه مسخر بيد الله عز وجل، وتجد في حياة الحيوان وفي حياة النبات، وحتى في حياة الكواكب والأفلاك نظاماً دقيقاً دقة متناهية، وانسجاماً عجيباً، فالفساد من أين يأتي؟ من مخلوق سمح الله له أن يختار، وأودع فيه الشهوات، وأعطاه منهجاً، فهذا المخلوق وهو الإنسان والجن معه يتحركان انطلاقاً من شهواتهما من دون منهج يسيران عليه فكان الفساد.

ليس هناك فساد في خلق الله أبداً لأن الله كماله مطلق وشمولي :

لذلك حينما قال الله عز وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم: 41]

ليس هناك فساد في خلق الله أبداً، لأن الله كماله مطلق، وكماله شمولي، وكل شيء خلقه في أكمل مستوى.

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

مرة حدثتكم أن هذه البعوضة التي لا تنظر إليها لتفاهتها عندك في رأسها مئة عين، وفي فمها ثمانية وأربعين سناً، وفي صدرها ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، تملك جهازاً لا تملكه الطائرات، مستقبلات حرارية، ترى بالأشعة تحت الحمراء، ترى الشيء في الليل بحرارته لا بلونه وشكله، عندها جهاز رادار، جهاز تخدير، عندها جهاز تمييع للدم، عندها محاجم، عندها مخالب، الله عز وجل قال:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

هذه البعوضة التي تزن واحداً على ألف من الغرام دقة صنعها ليست أقل من دقة صنع الحوت الأزرق، الذي يبلغ مئة وخمسين طناً، وجبته المتواضعة أربعة أطنان، وليده رضعته تساوي ثلاثمئة كيلو، ثلاث رضعات بطن حديد كل يوم:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

الفساد محصور فقط في الإنس والجن

لأنهما مخلوقان أعطيا حرية الاختيار :

الله عز وجل بيده الخلق والأمر، فلذلك من أين يأتي الفساد؟ هناك سمكة في البحر اسمها السمكة الطبيبة، كأن ثمة اتفاقاً بين كل أسماك البحر أن هذه السمكة لا تلتهم، ولا تؤكل، مهمتها معالجة الإنتانات على وجه الأسماك، والأسماك تقف في صف طويل تنتظر دورها في المعالجة، في البحر يوجد طب، وهذه السمكة العرف المكتوب عندها أن سمكة كبيرة لا تلتهمها أبداً؟ غذاؤها هذه الإنتانات التي في حراشف الأسماك، فكل سمكة كبيرة حتى ضمن فمها تفتح لها فمها وتدخل إلى فمها وتنظف هذه الإنتانات، وتريحها من هذه الأمراض:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

أين الفساد؟ في مخلوق أودع الله فيه الشهوات، ومنحه حرية الاختيار، وأعطاه منهجاً، فانطلق بدافع من شهواته من دون منهج يسير عليه، فكان الفساد في الأرض، فلذلك الله عز وجل يقول:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم: 41]

الفساد محصور فقط في الإنس والجن، لأنهما مخلوقان أعطيا حرية الاختيار، وأودعت فيهما الشهوات، وأعطيا منهجان يسيران عليه، فانطلقا بدافع من الشهوات من دون منهج يسيرا عليه، فكان الفساد في الأرض. الآية الكريمة:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم: 41]

علاج الفساد :

كان من الممكن ألا يذيقنا الله بعض الذي نعمل، كان من الممكن أن يكون في الأرض إباحية بلا مرض الإيدز، لكن مرض الإيدز قدره الله عز وجل عقاباً للانحراف، العلة لعلهم يرجعون إليه:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم: 41]

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ)

أي إن أردتم ألا يكون هناك فساد فاتقوا الله، أنت آلة معقدة جداً، ولك صانع حكيم، ولهذا الصانع تعليمات، راقب نفسك بشكل عفوي، إن اشتريت آلة غالية الثمن، عظيمة النفع، معقدة التركيب، لا تستعملها قبل أن تقرأ تعليمات الصانع، الأشخاص المحترمون إذا اقتنوا آلة غالية جداً، ولها فائدة كبيرة جداً لا يستخدمون هذه الآلة إلا بعد قراءة تعليمات الصانع، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها.

العلاقة العلمية والعلاقة الوضعية :

الله عز وجل يقول:

(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ)

لعلك إن انطلقت من محبتك لذاتك، وما منا واحد على وجه الأرض إلا ويحب نفسه، يحب ذاته، أعلن هذا أم لن يعلنه، كل واحد منا يحب وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحب استمرار وجوده، ويحب كمال وجوده، فأنت حينما تنطلق من حبك لوجودك، ومن حبك لسلامة وجودك، ومن حبك لكمال وجودك، ومن حبك لاستمرار وجودك، ينبغي أن تتقي الله، لأنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، ينبغي أن تؤمن أن العلاقة بين المعصية وبين نتائجها علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة، وكنت أضرب هذا المثل دائماً، أنت إذا تلقيت أمراً وأنت في مدرسة، مثلاً أن تخرج من هذا الباب دون هذا الباب، وخالفت الأمر تعاقب، لكن ليس هناك علاقة علمية بين العقاب وبين المخالفة، العلاقة وضعية، المنظم واضع نظام المدرسة ارتأى أن يكون هذا الباب للدخول، وذاك الباب للخروج، فإذا خالفت هذا الأمر تستحق العقوبة، ولكن ليس ثمة علاقة علمية بين العقوبة وبين السبب، العلاقة وضعية، نحن وضعناها.

الآن إنسان خرج من بلده معه مبلغ من المال حصَّله بجهد شرعي، في قوانين تعاقبه، طيب ما في علاقة علمية بين إنسان يحمل ألف بالعملات الصعبة وخرج بها وبين العقاب، العلاقة وضعية، القوانين تمنع ذلك، أما إذا وضع إنسان يده على مدفأة وهي مشتعلة تحترق يده، هناك علاقة علمية بين وضع اليد والاحتراق، يجب أن نفهم جميعاً أن العلاقة بين الأمر الإلهي ونتائجه وبين النهي الإلهي ونتائجه علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة.

لو فرضنا أن وزير الكهرباء كتب أو أعطى تعليمات أن يكتب على عمود يحمل تيار عالي التوتر: ممنوع الاقتراب تحت طائلة الهلاك، لو جاء إنسان وأراد أن يقترب، لكن خاف من الشرطي، رأى أن ثمة شرطة، ليس هنا موضوع شرطة، التيار نفسه يعاقبك، هنا لا تحتاج إلى شرطة، فالإنسان الأحمق يقول: لا أحد يراني، هذه العلاقة بين احتراق الإنسان واقترابه من التيار عالي التوتر علاقة

علمية، فلو كنت في منتصف الليل وحدك واقتربت تحترق. فحينما تفهم أنت منهج الله هكذا؛ أن هناك علاقة علمية بين المعصية ونتائجها، وبين الطاعة ونتائجها، تقبل على طاعة الله عز وجل.

الدين ضمانة لسلامتنا وما المشاكل إلا بسبب خروجنا عن منهج الله سبحانه :

حينما تمشي في مكان مفتوح ووجدت لوحة مكتوب عليها: لا تتجاوز "حقل ألغام"، أولاً: هل تشعر بحقد على من وضع هذه اللوحة؟ لا، بالعكس، تشعر بامتنان له، هل تعد هذه اللوحة تقييداً لحريتك؟ لا، هي ضمان لسلامتك. هذا هو الدين، الدين ضمانة لسلامتنا، لما أمر الله عز وجل بالحجاب، أمر بعدم الاختلاط، أمر بالزواج، أمر بالصدق، أمر بالأمانة، أمر بالعفة، بتلاقي مجتمع سليم متوازن مرتاح فيه تعاون، أما حينما تخرق حدود الله عز وجل، وحينما تنتهك حرمات الله عز وجل ندفع الثمن، ينتهي هذا الكلام بهذه القاعدة، وأنا والله صغتها صياغة أعني ما أقول، ما من مشكلة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بسبب خروج عن منهج الله، لو أردت أن تستقصي المآسي والمشكلات التي يعاني منها البشر، فما من مشكلة إلا بسبب معصية، وما من معصية إلا بسبب جهل.

أخ كريم أهداني كتاباً، ألف هذا الكتاب رجل كان مديراً للسجون، فذكر في الكتاب ثلاثاً وستين حالة من المساجين عنده، كل سجين وقصته وذنبه، لكن أجمل ما في هذا الكتاب أنه بعد أن يذكر قصة السجين والحكم الذي صدر بحقه، يذكر المخالفة الشرعية التي سببت له هذه الجريمة وهذه العقوبة، فما من مشكلة يعاني منها البشر إلا بسبب مخالفة شرعية. عند ضباط الأمن الجنائي قاعدة عند كل جريمة، يقولون: فتش عن المرأة، قد يكون وراء هذه الجريمة امرأة مثلاً، أو تنافس على امرأة، أو مشكلة، أنا أقول: فتش عن المعصية، هذا الأصح، ما من مشكلة تقع إلا وراءها معصية حتى العالم الإسلامي، على الإنسان ألا يكون كالنعامة يغمس رأسه في الرمل.

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران: 165]

لا تعتب على أحد، لا تكن مشجباً تعلق عليه أخطاؤك، تقول: يا أخي ماسونية، عالمية، استعمار، أخطاؤنا من عندنا، ما من مشكلة يعاني منها المسلمون في شتى أقطارهم إلا والسبب معصيتهم لله عز وجل، حتى في أمور الرزق.

الرزق بيد الله عز وجل وما علينا إلا أن نستقيم على أمره :

قال تعالى:

(وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: 66]

الله عز وجل في هذا العام أعطانا رسالة، أرانا شيئاً من فضله، الأنهار التي جفت من ثلاثين عاماً تفجرت الآن، نهر بردى من عشرين عاماً ما وصل إلى قرية العتيبة، الآن وصل، وأصبحت بحيرة ضخمة، الله عز وجل أعطانا رسالة أن الأمر بيده، الرزق بيد الله عز وجل، فما علينا إلا أن نستقيم على أمره، الفساد من عند أنفسنا، البطل لا يقفز على المشكلات بل يواجهها، فنحن تعوّدنا أن نحيل كل مشكلاتنا إلى غيرنا، وارتحنا من المسؤولية، مشكلاتنا من عند أنفسنا.

إن أحسنّا فلأنفسنا وإن أسأنا فعليها :

يقول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً)

هذه الآية معناها: إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله غني عنكم، ولكن الله جل شأنه لا يرضى لعباده الكفر.

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

[سورة الزمر: 7]

((يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه]

لا تظنوا أيها العباد أن إيمانكم ينفع الله عز وجل، إن آمنتم جميعاً أو كفرتم جميعاً عند الله سواء، لكنكم إذا أمنتم فلأنفسكم، وإن عصيتم فعليها، إن أحسنتمْ أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها، فالإحسان لك، والإساءة عليك.

كل الراحة والطمأنينة نجدها في طاعة الله عز وجل :

الآية دقيقة جداً:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

هذان الزوجان اللذان افترقا الله عز وجل قادر أن يهب كلاً منهما شريكاً أفضل من الذي تركه، مع وجود الله عز وجل وقدرته المطلقة، وحكمته المطلقة، ورحمته المطلقة، وغناه المطلق، ما من مشكلة في الأرض وفيها مشكلات لا تعد ولا تحصى إلا بسبب ضعف الإيمان وبسبب المعصية، أما لو آمنت بالله الإيمان الحق، واستقمت على أمره فالله عز وجل يعطيك ما تسأل، ولك عنده المكانة العلية. مرةً ثالثة:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

تطمين:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

دقق في هذا المعنى، أنت عبد الله عز وجل، أعطاك منهجاً، وقال لك: أطعني.

أطع أمرانا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولذ بحمانا واحتمي بجـنابنا لنحميك مما فيه أشرار خـلقنا

وعن ذكرنا لا يشغلنك شـاغل وأخلص لنا تلقى المسرة والهنا

وسلم إلينا الأمر في كل ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بـأمرنا

* * *

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا، الخير كله، والسعادة كلها، والراحة النفسية كلها، والطمأنينة كلها في طاعة الله عز وجل، والآية الكريمة:

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك :

أنت حينما تشتد عليك الأمور عليك بطاعة الله عز وجل، الله ما كلفك فوق ما تطيق، أدق فكرة تكلمت بها اليوم في الخطبة أن من تلبيس إبليس أن الذي بمقدورك أن تفعله ضمن طاقتك، ولا تساءل، ولا تحاسب، و ليس هناك حرج، ولا ضيق، ولا مشكلة يزهدك فيه، والذي لا تستطيعه يقحمك فيه، كرجلٍ دخل بيته، ألا يستطيع أن يصلي؟ طبعاً، ألا يستطيع أن يضبط لسانه؟ أن يأمر أهله بالصلاة؟ أن يصلي قبل أن ينام؟ أن يقرأ القرآن؟ أن يسبح الواحد الديان؟ وأنه إذا أكل يسمي الله عز وجل، ويوجّه لأولاده نصائح ثمينة، يحضهم على معرفة الله عز وجل، إذا دخل إلى محله

التجاري أليس بإمكانه أن يكون صادقاً نصوحاً للذي يبيعه، متقناً لعمله؟ كله بإمكانك، هل هناك إنسان يسألك في الأرض لماذا أنت صادق؟ أنت متّهم أنك صادق، لا، هذا مستحيل، لا أحد يحاسبك على أن تكون صادقاً، أو أن تكون عفيفاً، وأن تكون أميناً، أو أن تكون متقناً لعملك، أو أن تكون أباً كاملاً أو زوجاً رحيماً بزوجتك، مليون عمل بإمكانك أن تفعله ضمن طاقتك، ضمن إمكانياتك دون أن تسأل، دون أن تحاسب، هذا الشيء السهل الذي بقدرتك أن تفعله يزهدك الشيطان به، والتي لا تستطيعه دولٌ يحمسك فيه، هذا من تلبيس إبليس، أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك، فأنا أملك أن أطيع الله، الله قال لي:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

أطعه وتوكل عليه،

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

[سورة الطلاق: 3]

يكفيه، هذه حالة مريحة جداً، ونحن في أمس الحاجة إليها الآن، قلق شديد، خوف، العدوان قريب من كل مسلم، ما من حدث يقع في أطراف الدنيا لا علاقة لك به، الأحداث لها تداعيات كما يقولون، فكل شيء يقع في طرف الدنيا يتأثر مَن في الطرف الآخر، ملخص هذا الكلام الطويل: أطع ربك، وتوكل عليه، وفوض أمرك إليه:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 144]

شأنك كعبد أن تطيعه، وشأنه كرب أن يرحمك، وأن يحفظك، وأن يوفقك، فأنت أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك.

إن أطعنا الله تعالى أتتنا الدنيا وهي راغمة :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً)

[سورة النساء: 133]

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

[سورة محمد: 38]

الله عز وجل منحنا نعمة الوجود، ومنحنا نعمة الإمداد، ومنحنا نعمة الهدى والرشاد، فإن استنكفنا أن نعبده وإن تولينا عن طاعته يستبدل قوماً غيرنا، ثم يقول الله تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

من أراد الدنيا، من أراد التفوق في الدنيا، من أراد أن يكون ذا شأن في الدنيا، من أراد أن يكون متألقاً في الدنيا، من أراد أن يبقى ذكره في الدنيا، هذا الإنسان ليس طموحاً، لأن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة، أنت إذا أطعت الله أتتك الدنيا وهي راغمة، من آثر أخرته على دنياه ربحهما معناً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، أنت إذا أردت الله أتتك الدنيا وهي راغمة.

من يختر الله تعالى يكن في الدنيا وجيهاً وفي الآخرة وجيهاً :

قال تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

اطلب ثواب الدنيا والآخرة، الآن في علماء كبار اخترعوا أشياء نافعة ارتقى ذكرهم، وأشاد الناس بهم، ونصبوا لهم تماثيل، وأقاموا لهم حفلات تكريم بعد موتهم، لو أنهم بهذا الاختراع ابتغوا وجه الله عز وجل، وأرادوا خدمة البشرية، والتخفيف عن عباد الله لكسبوا الدنيا والآخرة، كل إنسان له مراد، هذا أراد السمعة فله السمعة، هذا أراد الشهرة فله الشهرة، هذا أراد المال الوفير من هذا الاختراع له ذلك، هذا أراد أن يبقى ذكره مستمراً له ذلك، لكنه لو أراد الله عز وجل له الدنيا والآخرة، كلام دقيق، لو اخترت الله لكنت في الدنيا وجيهاً، وفي الآخرة وجيهاً، وكان وجيهاً في الدنيا والآخرة، أنت حينما تريد لقاء الله عز وجل يرفع الله لك ذكرك في الدنيا، الآن في الحرم النبوي لو دخل أكبر ملك يرى نفسه صغيراً أمام هذا المقام العظيم.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 4]

مرة إنسان أجنبي ما صدّق، لم يجد حركة في أحد الأيام في الشام، قال له: عندنا عطلة رسمية، قال له: ما المناسبة؟ قال له: والله عندنا عيد المولد، هناك تعطيل، قال له: من هو صاحب هذه المناسبة؟ قال له: رجل كان نبي هذه الأمة، قال له: من كم سنة مات؟ قال له: من ألف وأربعمئة سنة، صعق!! من ألف وأربعمئة عام يموت هذا الإنسان، ونحتفل كل عام بميلاده؟

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 4]

فإذا أردت الله لك الدنيا والآخرة، والله تأتيك الدنيا وهي راغمة، واللهِ هي أحقر من أن تكون عقاباً لإنسان، أو مكافأة لإنسان، لكنها تأتيك عرضاً.

حينما يريد الإنسان الآخرة يكسب الدنيا والآخرة :

قال تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا)

إنسان يريد الدنيا فقط، تأتيه أموال طائلة، بيل غيت يملك تسعين ملياراً، وهو شاب، عمره أربعون سنة، ثروته تسعون ملياراً، إذا مات ليس بشيء، أي إنسان لو أراد الدنيا فقط ومات انتهى كل شيء، فالإنسان عظمته بقطر شريانه التاجي، ميل وربع، كل مكانته وهيمنته وقوته وأمواله وأموال منقولة وغير منقولة على ميل وربع بالشريان التاجي، عندما يغلق يأتي النعي، انتهت الأمور، كل عظمته وثروته وأمواله المنقولة وغير المنقولة وهيمنته وشخصيته وملكه على سيولة دمه، إذا تجمد الدم في العروق انتهت الحياة، أو على نمو خلاياه، إذا نمت نمواً عشوائياً، صار معه ورم خبيث انتهى، فحينما يريد الإنسان الآخرة كسب الدنيا والآخرة.

يقول أحد العلماء: ما يفعل أعدائي بي، بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي؟ لذلك إذا أطعت الله عز وجل كسبت الدنيا والآخرة، وهذا بعض معاني قوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

الشهرة في الدنيا لا قيمة لها :

أنا أختم هذا الدرس بهذه الآية:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الجاثية: 21]

في الآخرة مفروغ منهما، بالدنيا قال:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

[سورة الجاثية: 21]

فهل بيت المؤمن كبيت الكافر؟ زواج المؤمن كزواج الكافر؟ أولاد المؤمن كأولاد الكافر؟ عمل المؤمن كعمل الكافر؟ سمعة المؤمن كسمعة الكافر؟ سعادته كشقائه؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35-36]

من كان يريد ثواب الدنيا، الذي يريد مال الدنيا، منصب رفيع، بيت فخم، مكانة علية، إذا أراد الشهرة، أشهر مخلوق في الأرض إبليس، لا أحد أشهر منه في الأرض، بكل اللغات له مكانة، فالشهرة لا قيمة لها:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

العبرة في النهاية أن تكسب الآخرة :

أنت اختر أن تكون مع الله، النبي عليه الصلاة والسلام حينما اختار أن يلقى ربه بكى سيدنا الصديق، سيدنا بلال حينما جاءه ملك الموت قالت له ابنته: وا كربتاه يا أبتِ، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه، فالبطولة أن تختار الآخرة والله الذي لا إله إلا هو تأتيك الدنيا وهي راغمة، والتوفيق الذي يناله المؤمن يفوق حد الخيال.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل: 5-7]

الأمور ميسرة:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

والله بلغني أن إنساناً من الذين ذهبوا في أحداث العراق ليدافعوا عن الإسلام قتل، أقسم بالله، وهو شاب، أربعة أيام والحر شديد وكأنه نائم، فقال صاحبه: أنا حفرت له حفرةً ودفنته وقبَّلته قبل أن أدفنه، هذا الشاب كسب الآخرة كلها، كسب الجنة، أربعة أيام، الجثة بالحر تتفسخ بعد ساعات، أربعة أيام وهو نائم، قال: والله كأنه نائم، حفر له حفرة في صحن مسجد ودفنه بها، وقبَّله قبل أن يدفنه، عطاء الله لا يقدر بثمن.

الآن واحد مثلاً ملك دولة فيها ستة آلاف بئر، أكبر مخزون نفط بالعالم، ملكها بكاملها، فرضاً، وواحد ملك الجنة، أيها أكثر ربحاً؟ اسمع الآية:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران:185]

يجب أن تكون مقاييسنا مقاييس قرآنية،

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ)

ليس معنى ذلك إذا دخل العدوان نقول: إنها مشيئة الله، لا، يجب أن يقاوم طبعاً، لكن أقول لك: في النهاية سوف نموت جميعاً، من هو المنتصر في الحقيقة؟ الذي كسب الآخرة.

هذا الغلام الذي قال للملك: لن تقتلني إلا إذا أخذت سهماً من جعبتي، وجمعت الناس في مكان عام، وقلت قبل أن تطلق السهم: بسم رب الغلام، فمات الغلام، ما الذي حصل؟ الناس آمنوا برب الغلام، ولم يؤمنوا بالملك، هو ضحى بحياته، لكنه كسب الآخرة، الآن عندنا نصر مبدئي يملكه كل واحد

منا، ولو أننا على صعيد الواقع ما انتصرنا، إذا مات الرجل مؤمناً مستقيماً موحداً له عمل صالح، هذا منتصر، ولو مات بقذيفة، العبرة أن تكسب الآخرة، هذا النصر متاح لكل واحد منا، أن يموت مؤمناً.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(59-69): تفسير الآيات 131-134 ، العدل والظلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-05-09

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جلّ جلاله يخاطب الناس جميعاً بأصول الدين ويخاطب الذين آمنوا بفروع الدين:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية الخامسة والثلاثين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ أَو الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَو فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَو تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

أيها الأخوة الكرام، كما هو معلوم لديكم أن كل آية تتصدر بقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا، معنى ذلك أنه بعقدك الإيماني مع الله ينبغي أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، ذلك لأن الله جل جلاله يخاطب الناس جميعاً بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

ويخاطب الذين آمنوا بفروع الدين.

من لوازم الإيمان أن تؤمن بالله وأن تؤمن بما أراده منك :

لأنك آمنت بالله خالقاً ومربياً ومسيراً، لأنك آمنت بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، لأنك آمنت بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، لأنك آمنت بكل ذلك، آمنت به خبيراً وعليماً وحكيماً ورحيماً وعدلاً، لأنك آمنت به الإيمان الصحيح ينبغي أن تنصاع لأمره وأن تقبل على معرفة مراده منك، هناك من يؤمن بالله ولا يبحث عن مراد الله منه هذا إيمان لا يقدم ولا يؤخر.

من لوازم الإيمان أن تؤمن بالله وأن تؤمن بما أراده منك، تؤمن بالله عن طريق الكون وإعمال العقل، ثم تتعرف إلى مراده منك عن طريق الرسول، فالإيمان بالله ورسوله متلازمان، الإيمان بالله أي آمنت بوجوده وكماله ووحدانيته، والإيمان برسوله أي آمنت بمراد الله منك، لماذا خلقك؟ ماذا ينبغي أن تعمل؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ)

قوّامين جمع قوّام، وقوّام صيغة مبالغة من قائم:

(قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ)

الإنسان مثلاً لو كذب مرة واحدة يقال له: كاذب، أما إذا كان الكذب ديدنه يقال له: كذاب، صيغة مبالغة، فصيغة المبالغة تعني الاستمرار، فبين أن يقول الله: كن قائماً بالقسط، أي قد تكون مرة واحدة، أما: كن قواماً، أي دائماً وأبداً، كن قواماً بالقسط، والقسط هو العدل.

الفرق بين القسط والعدل :

لكن ما الفرق بين القسط والعدل؟ طبعاً قسط يقسط، ظلم يظلم:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

[سورة الجن: 15]

يروى أن أحدهم دخل على أمير وقال: أنت قاسط عادل، فقال هذا الأمير لجلسائه: أتدرون ماذا قال لي؟ قالوا: مدحك، قال: لا، قال لي: أنت ظالم كافر، قالوا: وكيف؟ قال:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

[سورة الجن: 15]

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

[سورة الأنعام: 1]

فقسط بمعنى ظلم، أقسط: بمعنى رفع الظلم، فلذلك العدل أن توزع حقوق الناس ابتداء فأنت عادل، أما إذا قلنا: أنت مقسط أي رددت الحقوق لأصحابها، رفعت الجور، رفعت الظلم، طبعاً العدل درجة ابتدائية، أنت حينما وزعت أموالك وزعتها وفق منهج الله بين أولادك فأنت عادل، لكن لو حابيت واحداً وظلمت الآخر، ثم جاء من يصحح لك القسمة فهذا الثاني يقال له: مقسط، أي رفع الجور عن بقي الأخوة، إذاً الله عز وجل يأمرنا أن نرفع الظلم والحيف، والحقيقة لا يمكن أن ينتصر أناس ولو آمنوا بربهم إذا كانوا ظلاماً، والدليل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام: 81]

قال:

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ)

[سورة الأنعام: 82]

هناك من يؤمن ويلبس إيمانه بالظلم، لذلك: إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة.

الظلم أحد أكبر أسباب انهيار الأمة :

الظلم أيها الأخوة أحد أكبر أسباب انهيار الأمة، وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

((أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَأَيْمُ اللَّهِ لَو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

هذا البرمكي الذي كان في أعلى مقام في عهد هارون الرشيد أودع في السجن فجأة، فزاره زائر قال له: ما هذا؟ قال له: لعلها دعوة مظلوم أصابتني.

الظلم أيها الأخوة ظلمات يوم القيامة، إن بعض العلماء يقول: الدنيا ـ لا أقول الآخرة ـ تصلح بالكفر والعدل، ولا تصلح بالإيمان والظلم، ارفع أي شعار وسمِّ نفسك ما تشاء، قل: أنا مؤمن كبير، أنا مسلم، فإذا كنت ظالماً فهذا الانتماء لا قيمة له إطلاقاً، لذلك لما سيدنا ابن رواحة الذي كلفه النبي أن يقيّم تمر خيبر، وأهل خيبر من اليهود، وقد أغروه بحلي نسائهم كرشوة ليخفض التقييم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ:

((أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانُوا وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قَدْ أَخَذْنَا فَاخْرُجُوا عَنَّا))

[أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

الآن دققوا ماذا قالوا: قالوا:

((بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ))

حينما يظلم بعضنا بعضاً لا نستحق نصر الله عز وجل :

اسمعوا هذه الكلمة أيها الأخوة، والله، ثم والله، ثم والله لو فهم أصحاب رسول الله الإسلام كما نفهمه نحن الآن والله ما خرج الإسلام من مكة المكرمة، كيف وصل إلى الصين شرقاً وإلى إسبانيا غرباً؟ كيف وصل؟ بالعدل، فحينما يظلم بعضنا بعضاً لا نستحق نصر الله عز وجل، والآيات واضحة كالشمس:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام:81-82]

يروي التاريخ أيها الأخوة أن قاضياً من كبار القضاة في بعض العهود الأموية اتصل بالخليفة طالباً منه أن يعفيه من منصبه، فلما سأله عن السبب، قال له: والله طُرق بابي البارحة فإذا بطبق من الرطب، وأنا معروف عند أهل البلدة أنني أحب الرطب في بواكيره، سألت الغلام: من جاء بهذا الطبق؟ قال: رجل، قال: صفه لي؟ قال: هو كيت وكيت، أي هكذا أوصافه، فعلم أنه أحد المتخاصمين عنده فردّ الطبق، في اليوم التالي يقول هذا القاضي: واللهِ لما دخل علي المتخاصمان تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق، مع أني لم آخذه، فكيف لو أخذته؟ هذا العدل، حتى التاريخ الحديث يروي أن بلداً كبيراً جداً في أوربا عقب الحرب العالمية الثانية، وقد دمر كل شيء، وقف رئيس الوزارة يسأل وزيراً وزيراً، سأل وزير الصناعة: كيف الحال عندك يا فلان؟ قال له: المعامل كلها محروقة، سأل وزير الزراعة؟ قال له: الحقول كلها محروقة، سأل وزير الخزانة قال له: والله الخزانة فارغة، سأل جميع الوزراء، فلما وصل إلى وزير العدل قال له: كيف العدل عندك يا فلان؟ قال له: العدل بخير، فقال: كلنا إذاً بخير.

قيمة العدل كبيرة، في العالم الإسلامي ظلم لا يعلمه إلا الله، ظلم من أب لأولاده، من زوج لزوجته، من صاحب عمل لعماله، الظلم والتفرقة من أسباب هلاك الأمم، لذلك عدل ساعة خير من عبادة ستين عاماً، ويروى في الكتب ـ وللمغزى فقط ـ أن حجراً ضج بالشكوى إلى الله، قال: يا رب عبدتك خمسين عاماً وتضعني في أس كنيف؟ فقيل: تأدب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاض ظالم.

أكبر إنجاز للمؤمن أن ينام مساء دون أن يظلم أحداً :

حينما نعدل نستحق النصر، وحينما نظلم لا نستحق نصر الله عز وجل، ماذا قال اليهود لعبد الله بن أبي رواحة؟ قال: بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ. عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ:

((أَنْحَلَنِي أَبِي نُحْلاً فَقَالَتْ لَهُ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: انْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَشْهِدْهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَشْهَدَهُ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي النُّعْمَانَ نُحْلاً وَإِنَّ عَمْرَةَ سَأَلَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: فَقَالَ: أَلَكَ وَلَدٌ سِوَاهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكُلَّهُمْ أَعْطَيْتَ مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَ النُّعْمَانَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمُحَدِّثِينَ: هَذَا جَوْرٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا تَلْجِئَةٌ فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا))

[متفق عليه عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ))

[الترمذي، أبو داود، ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أين العدل في حياة المسلمين؟ كم من أخ حرم أخواته البنات من الإرث؟ وكم من أب حابى أولاد زوجته الثانية وظلم أولاد زوجته الأولى؟ كم من صاحب عمل ما أعطى العامل ما يستحق؟ لأن العامل فقير، ومضطر إلى أن يعمل، أعطاه جزءاً يسيراً من حقه، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

أخواننا الكرام: أكبر إنجاز لك أيها المؤمن أن تنام مساء دون أن تظلم أحداً، وفي الحديث عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، الله عز وجل يستجيب للمظلوم لا بأهليته للاستجابة ولكن باسم الله العدل، ويستجيب للمضطر ولو لم يكن أهلاً للإجابة، لا بأهليته للإجابة ولكن باسم الرحيم.

الله عز وجل عدل والعدل يأبى الظلم :

أيها الإخوان الكرام: ينبغي أن تعدوا للمليار قبل أن تظلموا نملة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

كم من بيت مسلم فيه ظلم؟ زوجة الابن قد تكون مظلومة وكلهم يعلو عليها ويسحقونها، وقد تكون البنت مظلومة مع أخوتها الذكور لا يعطونها شيئاً، حينما يشيع الظلم في حياة المسلمين، في بيوتهم، في أعمالهم، في بيعهم وشرائهم، لا نستحق جميعاً نصر الله عز وجل، إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة، ترون ماذا يفعل بعض المسلمين في بعضهم قبل أن ينكشفوا، هذا نموذج، الله عز وجل عدل، والعدل يأبى الظلم، وعد للمليار قبل أن تظلم نملة، دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطلقتها، ولا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، فإذا كانت الهرة مظلومة يستحق من ظلمها نار جهنم، فكيف بما فوق الهرة؟ وكيف بأمم وشعوب تظلم؟ تُحتَل أرضها وتُنهَب ثرواتها، ويُسفَك دمها رخيصاً بلا سبب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ)

ما قال: كونوا قائمين بالقسط، قوّام صيغة مبالغة، فعل مستمر طوال حياتك، لا تنطق إلا بالحق، ولا تأكل حق أحد ولو كان ضعيفاً، ولو كنت أقوى منه، ولو كان ضعيف الحجة وكنت أفصح منه، الله وليه، يا رب كم عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه: أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، هذه الآلام العامة، هذا الظلم الذي يواجهه المسلمون من دول عظمى سببه أننا نظلم بعضنا بعضاً طبعاً، أموال طائلة تودع في بنوك الكفار ثم تجمد وتصادر والمسلمون في أمس الحاجة إليها، وإذا فتحنا ملف الظلم لا ينتهي الدرس بنا إلى الفجر، الظلم ظلمات يوم القيامة، حاول ألا تظلم أحداً ولو بكلمة، ولو بعبوس، ولو بإعراض، لأن الله سيحاسب، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام وصل في توجيهه إلى أنك إذا قبلت ابنك الأول ولم تقبل الثاني فقد ظلمت، إلى هنا وصل العدل، هلا سويت بينهما في العطية.

على المؤمن أن يشهد بالحق من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ)

الآن ينبغي أن تشهد لله، أن تشهد الحقيقة، أي أن تقول الحقيقة لا من أجل زيد أو عبيد أبداً، من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

[سورة البقرة: 282]

أنت مكلف أن تشهد الحقيقة لماذا؟ فلان رجاني أن أشهد له، لا، لا من أجل فلان ولا من أجل علان، ولا ليرضى زيد ولا ليغضب عبيد، ينبغي أن تشهد لله أداء لحق الله عز وجل ولا تأبى أن تشهد، أحياناً مثلاً يركب الإنسان بمركبة والسائق ظُلِم ولم يرتكب أي خطأ، وصار هناك دهس، لا يتنازل هذا الراكب أن يقتطع من يومه ساعة أو ساعتين ليدلي بشهادة أمام قاضي السير، ارتكب أكبر معصية، أنا كنت راكباً والطفل قفز إلى أمام المركبة، والمركبة تسير ببطء شديد، كان هناك ازدحام، هذه الشهادة لا تقدر بثمن:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

[سورة البقرة: 282]

اشهد ولا تأخذك في الله لومة لائم، ما قيمة حياتك من دون عدل؟ الكفار حينما عدلوا استحقوا النصر، والمسلمون حينما ظلموا استحقوا ألا ينتصروا.

إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ)

القسط العدل، ومعنى القسط أيضاً أن ترفع الظلم، عدل من الدرجة الثانية، أن تعطي بالعدل فهذا عدل، أما أن تكون مقسطاً أن ترفع الجور:

(فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَو إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)

[سورة البقرة: 182]

يروى أن سيدنا علي كرم الله وجهه اشتكى عليه يهودي لسيدنا عمر، وكان هذا الصحابي الجليل جالساً إلى جنب عمر، دخل اليهودي واشتكى على الإمام علي، فقال عمر: قم يا أبا الحسن فقف إلى جنب الرجل، فتغير لون سيدنا علي، بعد أن حكم بالعدل وصرف اليهودي، قال له: يا أبا الحسن أوجدت علي؟ قال له: نعم، ماذا فعلت؟ أوقفتك إلى جانبه، قال: لمَ قلت لي: يا أبا الحسن، ولم تقل لي يا علي، لقد ميزتني عليه؟ وصلنا إلى هذا المستوى، سيدنا علي يُسرَق درعه ويجده عند يهودي، ويرفع القضية إلى أحد القضاة، قال له: يا إمام ـ كان أمير المؤمنين ـ قال له: من يشهد لك؟ قال له: ابني،قال: ابنك لا تقبل شهادته، وبقي الدرع مع اليهودي، فلما رأى اليهودي هذا أعلن إسلامه، أمير مؤمنين يرفع قضيته أمام قاض، ويأتي بشاهد هو ابنه، وترفض شهادته، هكذا العدل، شخص من الصحابة في أثناء الهجرة ألقي القبض عليه، وقال للذين قبضوا عليه: عهداً لله إن أطلقتموني لن أحاربكم، فأطلقوه وصدقوه، فلما وصل إلى النبي، وأخبر النبي بما كان فرح به النبي، بعد حين كانت غزوة فانضم إليها، قال له: ارجع يا فلان، ألم تعاهدهم ألا تقاتلهم، هذا الإسلام، الإسلام لا كما يتوهم الناس بأداء شعائر أداء أجوف، أعود وأقول: والله، ثم والله، ثم والله، لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن ما خرج الإسلام من مكة المكرمة، نفهمه نحن مظاهر، نحج ونضع الزينة، وصار الحاج فلاناً، التعامل اليومي لا يوجد به دقة، الظلم شائع بين المسلمين، على مستوى العلاقات الشخصية، على مستوى الأعمال، على مستوى التجارة، يوجد أحياناً غش، مرة قال لي شخص كلمة عابرة، قال لي: اشتريت مئتي بيضة فاسدة بعناها بسرعة في سوق الجمعة، حينما يظلم بعضنا بعضاً نسقط من عين الله جميعاً ولا نستحق أن ينصرنا الله عز وجل، أعود وأقول: إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة.

إذا لم يتمثل المسلم قيم الإسلام فلا قيمة لإسلامه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ)

صيغة مبالغة أي القسط ينبغي أن يكون ديدنكم، سلوك مستمر:

(شُهَدَاءَ لِلَّهِ)

اشهد الحقيقة، الأبلغ من ذلك:

(وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ)

أي أنت المخطئ، ولا يوجد شاهد عليك أبداً، تقول: أنا فعلت كذا، هذا هو الدين، المسلم إذا لم يتمثل قيم الإسلام ما قيمة إسلامه؟ ماذا قال سيدنا جعفر للنجاشي؟ قال له:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيئُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا فَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ وَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ))

[أحمد عن أم سلمة]

الإسلام فيه عدل لكن المسلمين ظلموا فلما ظلموا لم يستحقوا أن ينصروا :

الإسلام قيم أخلاقية، والله حدثني أخ قال لي: أعمل عند قريبي الغني ـ قصة قديمة جداً ـ والله يعطيني في الشهر ألفي ليرة، وينفق في اليوم الواحد عشرة آلاف، وأنا موكل بتأمين الحاجات للمنزل، أقل مما يستحق بكثير، يستغله، مادام فقيراً يستغله، إنسان يضع لابنه مدرسين بمليون ليرة وعنده موظف بسيط يتيم لا أحد له، يسأله أن يخرج من المحل قبل ساعة ليلتحق بمدرسة ليلية ليأخذ كفاءة فلا يوافق، يبقيه جاهلاً حتى ينتفع منه ويستغله.

حينما يبلغ الظلم مستوى كبيراً جداً نستحق جميعاً غضب الله عز وجل، أي الحمد لله الذي أخرجنا من ظلم الحكام ـ كما قال الصحابة الكرام ـ إلى عدل الإسلام، الإسلام فيه عدل، لكن المسلمين ظلموا، فلما ظلموا لم يستحقوا أن ينصروا، طبعاً:

(شُهَدَاءَ لِلَّهِ)

لا تشهد لا لزيد ولا لعبيد، ولا تعبأ بغضب فلان ولا علان، ينبغي أن تشهد لله إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل.

أيها الأخوة الكرام: كم من شهادة صدق تغير الحكم وتنصف وتزيل الظلم بشهادة؟

(شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أنفُسِكُمْ)

أحدهم تزوج امرأة دون أن يعلم زوجته، هي شعرت أنه يوجد امرأة أخرى بحياته، ثم تهيبت أن تفاتحه بالأمر، كان للزوج في القديم مكانة كبيرة، الآن لا يوجد مكانة أبداً، وتوفي الزوج، فأرسلت هذه الزوجة إلى ضرتها نصيبها من الإرث، فكان جواب الضرة أنه طلقني قبل أيام من وفاته، وليس لي عندكم شيء، هكذا الإسلام، حينما نعدل نعيش في جنة، هذا الذي يعطي هذا العامل هذا الأجر أيكفيه طوال الشهر، وهو ينفق بغير حساب، عرس ابنه بخمسة وثمانين مليوناً، ولا يعطيه إلا النذر اليسير لا يكفيه، يوجد قوة، المال قوة، والمنصب قوة.

حاشا لله أن نعدل فيما بيننا ثم يأتي من يأخذ أموالنا :

أيها الأخوة الكرام، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

((أنَّ قُرَيْشاً أهَمَّهُمْ شَأنُ الْمَرْأةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقتْ فقالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلَّا أسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكَلَّمَهُ أسَامَةُ، فقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قامَ فاخْتَطَبَ ثُمَّ قالَ: إنَّمَا أهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لو أنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقتْ لَقطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

يروي التاريخ أن أحد ملوك الغساسنة أسلم، اسمه جبلة بن الأيهم، جاء عمرَ مسلماً، طبعاً سيدنا عمر رحب به، النبي طلب النخبة، وليس خطأ أن تطلب النخبة، رحب به، في أثناء طوافه حول البيت بدوي من فزارة داس طرف ردائه، فانخلع رداء الملك من كتفه، فالتفت إلى هذا الأعرابي الفقير، وضربه ضربة هشمت أنفه، هذا الأعرابي الفقير من فزارة ليس له إلا سيدنا عمر ذهب يشكو جبلة، صاغ شاعر معاصر الحوار شعراً، سيدنا عمر استدعاه قال له: أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح، قال له: صحيح لست ممن يكتم شيئاً، أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيدي، قال له: أرضي الفتى لا بد من إرضائه، مازال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك ـ أيها الملك ـ

وتنال ما فعلته كفك، قال له: عجيب كيف ذاك؟ هو سوقة وأنا عرش وتاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً، قال له: نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً، فقال له جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني، قال له: عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه، كل صدع فيه بشبا السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى. حينما نظلم بعضنا بعضاً يأتي من يظلمنا، احفظوا هذه الكلمة، وحاشا لله أن نعدل فيما بيننا ثم يأتي من يأخذ أموالنا. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:

((أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ....لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

أكبر مخزون نفط في العالم في العراق، صودر كله:

((...لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ))

هذا الحديث من دلائل نبوة النبي.

إذا خفت من الله فيما بينك وبينه ما كان لله أن يخيفك من أحد :

أنت لست مكلفاً أن تعدل بين الأمة، مكلف أن تعدل بين أولادك، وإن كان لك عمل أن تعدل مع موظفيك فقط، هذا الذي تحاسب عليه، وأن تعدل بين زوجتيك، اعدل فيما أقامك الله عز وجل، قال له: أشهد غيري فإني لا أشهد على جور، حينما نعدل نستحق أن ننتصر، وحينما يظلم بعضنا بعضاً يأتي من يظلمنا، ويسحقنا، ويأخذ أرضنا، وثروتنا، وكرامتنا، وثقافتنا، وديننا.

أقول مرة ثانية أيها الأخوة: إذا خفت من الله فيما بينك وبينه ما كان لله أن يخيفك من أحد، وإذا لم تخف من الله إذا كنت قوياً فجأة تنقلب الموازين، أرأيتم كيف يؤتي الله الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، أرأيتم؟ إن لم تخف من الله فيما بينك وبينه يخيفك من أحقر خلقه، أما إذا خفت من الله فيما بينك وبينه ما كان لله أن يخيفك من أحد.

أيها الأخوة، أتمنى أن نعدل فيما بيننا، في أسرنا، بين أولادنا، مع موظفينا، اعدل فيما أنت قادر عليه، والله عز وجل لن يظلمك، ولن يخيفك من أحد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ أَو الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)

والله أيها الأخوة شاب كان من إخواننا في هذا المسجد، وأنا أعتز به إلى أقصى الحدود، والده أنشأ له عملاً في بلد عربي، وهو يمشي في الليل بمركبته اصطدم بسيارة، حادث طفيف جداً، فيها رجل

بالتسعين من صدمة نفسية مات، فصار هذا الحادث سبب موت إنسان، اتصل بمدير المعمل، أي بالمدير التنفيذي، وهو صاحب المعمل، قال له: هكذا صار معي، قال له: لا تقلق تعال بعد ساعة إلى المخفر الفلاني، جاء بعد ساعة كل شيء منتهٍ، ضبط مكتوب كامل ولا يوجد عليه مسؤولية إطلاقاً، قال له: لا ما هكذا صار، أنا صدمته، الضبط: هو صدمه، قال له: عجيب أنا أخلصك وتوقع نفسك، قال له: أنا لن أوقع هذا الضبط، أنا صدمته، أنا لا أنجو من عذاب الله، يقول هذا المسؤول: أنا لم أشاهد بحياتي إنسان أنا أخلصه ويوقع نفسه، قال له: أوقعني لأنجو من عذاب الله، ودفع الدية الكاملة، وعين أولاده عنده بالمعمل، أنا أعتز بهذا الشاب، نحتاج إلى مسلم كهذا المسلم، لم يقبل ينجو من عقاب الدنيا ويقع في عقاب الله عز وجل، قال له: هذا الضبط غير صحيح، أنا الذي ضربت هذه المركبة وأنا تسببت بموت هذا الرجل، وأنا مستعد لدفع كل شيء علي، عندما نكون هكذا جميعاً نقيم العدل بيننا نستحق أن ننتصر على أعدائنا.

الشهادة إما أن تكون لله لإحقاق الحق أو أن تكون بدافع الهوى :

قال تعالى:

(وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ أَو الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)

يروى أن شريح أحد القضاة الكبار اختصم ابنه مع أشخاص، فقال له:يا أبت أعرض عليك هذه القضية، فإن كنت محقاً نعرضها عليك، وإن كنت ظالماً أدفع لهم ولا نتقاضى أمامك، سمع منه قال له: لا، أنت محق اعرضها علي، فلما عرضها عليه حكم عليه، قال له: كنت سألتك، قال له: خفت ألا تعطيهم حقهم.

عندما يبلغ العدل في الإنسان أن يحاسب نفسه على الليرة، على القرش، يستحق أن ينصره الله عز وجل، بالأمانة لا يوجد حل وسط، ولا نسبية بالأمانة، أمانة أو خيانة، لذلك ورد عن بعض العلماء قالوا: والله ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام.

أيها الأخوة، الشهادة إما أن تكون لله لإحقاق الحق، أو أن تكون بدافع الهوى، فقد يشهد الإنسان مع صاحب له أو مع قريب له، سمعت قصة مؤثرة جداً، إنسان يجلس في بيت، وهو موظف دخله محدود، رفع الأجرة عدة مرات، لكن أصحاب البيت أرادوا البيت بطريقة غير صحيحة فأشار عليهم أحدهم أن يتهموه بالفساد الأخلاقي، والمستأجر في أعلى درجة من الأخلاق والالتزام والطاعة لله عز وجل وغض البصر، فالأمر رفع للقاضي طلب شهادة، عندهم طالبة تستأجر غرفة في بيته قيل لها: أتشهدين أنه يفعل أعمال لا أخلاقية؟ قالت لهم: أشهد، اعتنوا فيها عناية خلال شهر، الطعام والشراب وغسل الملابس، أعلى درجة من الخدمة، لأنها إذا شهدت أنه فاسد أخلاقياً يخلى البيت، وأنا أعرفه توفي رحمه الله محافظ على أوامر الدين بأعلى مستوى ويغض بصره عن النساء، وزوجته وبناته محجبات حجاباً كاملاً، إنسان ملتزم بأعلى مستوى والتهمة أنه فاسد أخلاقياً،

أي يتكلم بكلام بذيء جداً، ويكشف عورته أمام جيرانه، فهذه الطالبة وعدتهم أن تشهد معهم، طربوا لها أشد الطرب، وأكرموها إكراماً لا حدود له، يوم الشهادة قالت للقاضي: والله ما رأيت في حياتي إنساناً أعف منه، ولا أورع منه، فقيل لها: لماذا قبلت أن تشهدي معنا كما نريد، ثم رفضت؟ قالت: خفت أن تأتوا بشاهدة أخرى، وكانت شهادتها حاسمة وحسمت الدعوى لصالح المستأجر، والمستأجر ما ظلمهم أبداً لكن طمعوا، ولكن هذه الفتاة بذكائها وجدت أنها لو رفضت سيأتون بشاهدة أخرى تقبل، فقبلت أن تشهد كما يحبون هكذا قالت لهم، ثم نطقت بكلمة الحق، قالت له: والله ما نظر إلي في هذه الفترة كلها، يغض بصره، وفي بيته ملتزم، وما رأيت أعف منه، فكان الحكم افتراء على المدعي، وتحمل المدعي السجن.

اتباع الهوى يمنع من العدل :

أيها الأخوة، أحياناً الشهادة تفصل الحق، أي تكون حاسمة أحياناً، أنا مرة دعيت إلى شهادة خارج دمشق، ولبيت هذه الدعوة بكل ممنونية، هذا حق، أنا حكمت بين أخوين وبوثيقة بخط يدي، فقدمت بعد عشر سنوات للقاضي، فطلبني للشهادة، والله بادرت بكل نفس طيبة، لأن هذا حق، أن تشهد ما جرى هذا واجب ديني ـ لكن الشهادة لله ـ أما إذا هناك أهواء، قال له القاضي: أحضر شاهداً، فالشهود واقفون في الخارج ينتظرون، قال له: تشهد معي كذا؟ قال له: نعم أشهد، ماذا تريد؟ قال له: خمسة آلاف، لا بأس، دخل فوجد مصحفاً، ويوجد قسم، فقال له: قف أريد عشرة، فلذلك يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا)

ما الذي يمنعكم أن تعدلوا؟ اتباع الهوى:

(وَإِنْ تَلْوُوا)

أي تبدلوا الشهادة:

(وَإِنْ تَلْوُوا أَو تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

هذا تهديد من الله عز وجل، إذا أدليت بشهادة كاذبة لصالح زيد أو عبيد، أو مقابل مبلغ كبير، وغيرت ظروف الحدث، وأضفت، وحذفت، وغيرت، قال:

(وَإِنْ تَلْوُوا أَو تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(60-69): تفسير الآيات 136-141، الإيمان درجات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-05-16

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان درجات :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الستين من دروس سورة النساء ومع الآية السادسة والثلاثين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

أيها الأخوة، في الآية ملمح لطيف، وهو أن الله يخاطب الذين آمنوا ويأمرهم أن يؤمنوا، معنى ذلك أن الإيمان درجات، وأن من درجاته أنه لا ينجي، من بعض درجات الإيمان أنه لا ينجي صاحبه، الحد الأدنى المنجي للإيمان أن يحملك على طاعة الله، ومهما يكن إيمانك واضحاً في ذهنك ولم تستقم على أمر الله فإيمانك هذا لا ينجي، لأنه قد قيل: "كفى بالمرء علماً أن يطيع الله أو أن يخشاه، وكفى به جهلاً أن يعصيه"، فحينما يعصي الإنسان ربه فهو لا يعرفه، لو كان الله عز وجل عنده عظيماً لما عصاه، وحينما يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب: 41]

لو أردت أن تضع تحت كلمة إشارة إلى أنها أهم كلمة في الآية، تحت أي كلمة تضع خطاً؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

تحت كلمة كثيراً، لأن المنافق يذكر الله، بدليل قوله تعالى:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء: 142]

فالأمر منصب على الذكر الكثير.

الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحمل صاحبه على طاعة الله :

الآن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)

يعني أنت مؤمن، ولكن إيمانك لا يكفي، لا بد من أن تجدد إيمانك، وعلامة الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحمل صاحبه على طاعة الله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة]

التوحيد يأتي على قمة درجات الإيمان، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، ألا ترى إلا الله، أن ترى الفعل فعل الله، التوحيد يعني أن تؤمن أنه لا معطي ولا مانع، ولا نافع ولا ضار، ولا معز ولا مذل إلا الله، التوحيد أن تتجه كل طاقاتك إلى الله عز وجل، التوحيد مريح لأن علاقتك بواحد، إن أرضيته انتهى الأمر، إن أطعته انتهى الأمر، هو الذي:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

يعلم الذي تسره، ويعلم الذي يخفى عنك، وإذا كانت علاقتك بالله متينة فلا تحتاج لا إلى أن تكون قلقاً، ولا إلى وثيقة، ولا إلى مستند، الله يعلم:

(وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

[سورة النساء: 6]

أهمية التوحيد :

ما من مستوى في الإيمان يحتاجه المسلمون اليوم كالتوحيد، من دون توحيد الإنسان قلق، هناك أقوياء كثر، وقساة لا يرحمون، ويتربصون بالمؤمنين، ومعهم قوة ترى بالعين المجردة، لكن الموحد يرى يد الله فوق أيديهم، الموحد يرى أن كل أفعالهم تستوعبها خطة الله عز وجل، يرى أن كل طغيانهم سمح الله به لحكمة بالغة.

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

[سورة الكهف: 49]

الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه، وأنا أقول لكم أيها الأخوة: إن أحد أكبر أسباب الأمراض الكثيرة هو الشدة النفسية، والشدة النفسية أساسها الشرك، أن ترى إنساناً أقوى منك، ولا يحبك،

ويريد أن يدمرك، المعاني الثلاثة كافية لإصابة الإنسان بأمراض مستعصية، أما إذا رأيت هذا الإنسان القوي بيد الله، كما قال أحد الأنبياء:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

أيها الأخوة، لا يعقل ولا يقبل أن يسلمك الله لغيره، كيف يأمرك أن تعبده وأمرك ليس بيده بل بيد غيره، الله عز وجل طمأنك قال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود: 123]

الأمر كله، وهذا الذي يجري بالعالم الإسلامي، بنظر توحيدي سهل قبوله، أما بنظر شركي لا يحتمل، ما من مرحلة المسلمون في أمس الحاجة إلى التوحيد كهذه المرحلة.

حق الله على العباد وحق العباد على الله :

قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

الإنسان لا يعلم، وإذا علم لا يرحم، وإذا رحم لا يستمر، أما حينما تؤمن أن الله بيده كل شيء، وأن علاقتك معه، فيكفي أن ترضيه، ويكفي أن تطيعه، والباقي عليه، المؤمن يتمتع بحالة أمن عجيبة، يتمتع بمشاعر أمنية لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، أنا علي أن أطيعه وعلى الله الباقي.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

ما كلفني إلا أن أطيعه، فإذا أطعته يتولى هو تدبير شؤوني، وقد قال بعضهم: دبر ألا تدبر، لك عليه حق، حقه عليك أن تعبده، فإذا عبدته حقك عليه ألا يعذبك. عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ـ كان عليه الصلاة والسلام مربيّاً ـ قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ـ جيد ـ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ـ أي أن الله عز وجل أنشأ لك حقاً عليه ـ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا))

[متفق عليه عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أثمن نعمة على وجه الأرض نعمة الأمن :

أنت لك حق على خالق السماوات والأرض، أنت لك حقاً على ذاته العلية ألا يعذبك، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، لذلك المؤمن المصدق يتمتع بحالة من الأمن لا يعرفها إلا من ذاقها، وهذا مصداق قوله تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الأنعام: 81-82]

أي الذين آمنوا وحدهم.

(وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 82]

والله أيها الأخوة، أكاد أقول لكم: ما من نعمة على وجه الأرض أثمن من الأمن، قد يكون معك مال ولست آمناً، وقد تكون صحيحاً ولست آمناً، قال بعض العلماء: أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، فهذه النعمة نعمة خاصة بالمؤمنين:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ)

آمن بالله كي تشعر أن الأمر بيد الله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة]

التوحيد مريح، التوحيد ليس معه قلق، والتوحيد ليس معه خوف، والتوحيد ليس معه اضطراب، أمرك بيد واحد، والواحد مقتدر ويعلم، وحكيم، ورحيم، ومحب، كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر له دعاء قال: "لا إله إلا الله العليم الحكيم، لا إله إلا الله الرحمن الرحيم".

مستوى الإيمان :

الأمر بيد الإله، وهو رحيم، إذا كانت لك قضية في دائرة، وأبلغت أن الأمر بيد فلان، وفلان يخاف الله، ولا يظلم أحداً، ترتاح، وحقك يصلك، فهذه قضية:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا)

دائماً الإنسان لا يرضى عن رزقه لكن يرضى عن عقله، وعن مستوى إيمانه، البطولة ألا ترضى عن مستوى إيمانك، قال عليه الصلاة والسلام:

((جددوا إيمانكم))

[الحاكم عن أبي هريرة]

الإيمان يخلق كما يخلق الثوب، تجديد الإيمان أن يرتفع مستوى التوحيد، أن ترى يد الله وحدها تعمل.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

[سورة آل عمران:173-174]

لا ينبغي أن تقر أعيننا إلا بإيمان مؤدّاه الاستقامة على أمر الله :

كلمة:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا)

الإيمان درجات كثيرة جداً، لكن أهم شيء أنه إذا كنت في درجة لا يقودك إيمانك إلى طاعة الله ينبغي أن تشمر وتجدد إيمانك، لا ينبغي أن تقر عينك إلا بإيمان مؤدّاه الاستقامة على أمر الله:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ)

آمن بأن الله موجود. مرة في ندوة إعلامية طالبت الأخوة المشاهدين أن يستمعوا إلى الأخبار، وأن يستمعوا إلى تحليلاتها، وليقبلوا بعض التحليلات، وليرفضوا بعضها الآخر، لكن قلت لهم: لا تنسوا لثانية واحدة أن الله موجود.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

في زحمة المحن الإسلامية ينسى المسلمون أن الأمر بيد الله، يقعون في شرك خفي، يرون أن الأمر بيد وحيد القرن، فمن رضي عنه سلم، ومن لم يرض عنه عطب وهلك، هذا التفكير وحده يحطم الإنسان، الله عز وجل خلقك ولا يمكن أن يسلمك لأحد:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

القرآن فيه كليات والنبي عليه الصلاة والسلام بيَّن التفصيلات :

الله عز وجل ألزم نفسه بالاستقامة إلزاماً ذاتياً، قال لك: أنا لا أظلمك:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)

إذاً دعوة إلى تجديد الإيمان، دعوة إلى البحث عن مستوى في الإيمان يحملك على طاعة الواحد الديان، دعوة إلى التفكر في خلق السماوات والأرض، وإلى النظر في أفعال الله، وإلى تدبر آياته القرآنية، أما الإيمان بالرسول فهو الذي تولى شرح هذا القرآن.

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

[سورة النحل: 44]

هذا القرآن في كلياته من شرحه لنا؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم، من بيَّن تفاصيل العبادات؟ من بيَّن تفاصيل المعاملات؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يعقل أن تكتفي بالقرآن، القرآن فيه كليات والنبي عليه الصلاة والسلام بيَّن التفصيلات، فينبغي أن تؤمن بالله الذي أوجدك من عدم، أن تؤمن بالله الواحد الكامل، وأن تؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، وأن تؤمن بهذا الإنسان المعصوم الذي أنزل عليه القرآن وأمره أن يبين أحكامه:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ)

هذا منهج.

شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتمة الشرائع وهي لكل البشر إلى يوم القيامة :

قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: 1]

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

[سورة الكهف: 1]

الكون في كفة والقرآن في كفة ثانية، والكتاب أي القرآن الذي نزل على رسوله وهذه الألف ولام العهد:

(وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ)

نؤمن بهذا القرآن، وبأن الله أنزل كتباً أخرى على أنبياء سابقين، والكتاب هو وحي الله لأنبيائه.

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

[سورة البقرة: 285]

الدين واحد والشرائع متعددة، لكن شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتمة الشرائع، وهي لكل البشر إلى يوم القيامة:

(وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ)

أي وملائكته أنهم يكتبون كل أفعالنا:

(وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

الإيمان بالله واليوم الآخر :

إخواننا الكرام، أكثر ركنين متلازمين من أركان الإيمان في القرآن هما الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالله وحده لا يكفي، الإيمان بالله واليوم الآخر فيه الحساب ودفع الثمن والعقاب، فيه جنة ونار، أؤكد لكم أيها الأخوة، أنه لمجرد أن تؤمن باليوم الآخر الإيمان الصحيح ينبغي أن تنعكس كل مقاييسك، علامة أنك مؤمن باليوم الآخر أن تبني حياتك على العطاء لا على الأخذ، تبني حياتك على بذل الجهد لا على استغلال جهد الآخرين.

إن لم تؤمن أن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي. فلا تنجو ما لم تؤمن أن الأمر بيد الله، وأن هذه الدنيا ممر، وليست بمقر، وأن هذه الدنيا دار عمل وليست دار أمل، وأن هذه الدنيا دار تكليف، وليست دار تشريف، أنت حينما تؤمن بحقيقة الدنيا وبحقيقة الآخرة تنعكس كل المقاييس.

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

إنسان يعيش للدنيا فقط، هذا أكبر ضلال في الأرض، لأن في الحياة قوياً وضعيفاً، وغنياً وفقيراً، وصحيحاً ومريضاً، وطويل العمر وقصير العمر، ووسيماً ودميماً، لو أنه ليس هناك آخرة فما ذنب الدميم؟ وما ذنب الفقير؟ وما ذنب الضعيف؟ وما ذنب المريض؟ وما ذنب قصير العمر؟ لا بد من دار أخرى تسوى فيها الحسابات.

أكبر عزاء للمستضعفين في الأرض أن الحسابات كلها تسوى يوم القيامة :

لا تبتعدوا كثيراً دولة كبيرة عملاقة، معها سلاح فتاك مدمر، لا تستطيع دولة في الأرض أن تقول لها: لا، وتستغل قوتها لسلب ثروات الآخرين، ونهب ممتلكاتهم، وبناء مجدها على أنقاضهم، وتنتهي الحياة، ولا شيء بعد الحياة؟! هذا لا يقبله عاقل، بالمناسبة أيها الأخوة عند علماء العقيدة الإيمان باليوم الآخر إيمان إخباري، أي أن الله أخبرنا، لكن عند بعض العلماء، وأنا أقدره يقول: الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي، لأن العقل البشري لا يصدق هذه الفتن وتلك الحروب، وهذه المنازعات، وهذا الظلم، وهذا القهر، وهذا القتل، وهذا التهديد، وهذا الكبر، وتنتهي الحياة هكذا، ماذا يقول هذا الفقير: لمَ لم أكن غنياً يا رب؟ لمَ لم أكن قوياً؟ لمَ لم أكن وسيماً؟ لمَ لم أكن طويل العمر؟ لذلك أيها الأخوة أن تنتهي الحياة الدنيا من دون يوم آخر هذا لا يقبله عقل سليم، لذلك أكبر

عزاء للمستضعفين في الأرض، أكبر عزاء لمن فاتته الدنيا وكان مؤمناً مستقيماً أن الحسابات كلها تسوى يوم القيامة:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

[سورة الروم: 27]

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه: 15]

يعيد الخلق كي يجازي كل إنسان بعمله، قال تعالى:

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

لمجرد أن تؤمن بالله واليوم الآخر تنعكس كل الموازين :

تركيز على كلمة واليوم الآخر، إذا آمنت باليوم الآخر ينبغي أن تنعكس كل موازينك، أبداً، ترى الذكاء في العطاء لا في الأخذ، الذكاء في التعب لا في الراحة، الذكاء في خدمة الآخرين لا في استغلال جهودهم، ترى الذكاء في أن ترحم الناس لا أن يرحموك، لمجرد أن تؤمن بالله واليوم الآخر تنعكس كل الموازين.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا)

بعضهم آمن بموسى وكفر بعيسى كاليهود، وبعضهم آمن بعيسى، وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً)

حينما كانوا منافقين.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

لأن الكافر واضح تحترز منه، والمسلم واضح، أما المنافق فـ:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

* * *

(ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً)

بالمناسبة: النفاق أيها الأخوة نوعان؛ نفاق ضعف أمام الشهوات، ونفاق ضعف أمام الشبهات، هذا المنافق يرجى له الخير في المستقبل، هذا نفاق الضعف، لكن نفاق الكفر هو في الأصل كافر، كافر في أشد أنواع الكفر، لكنه ذكي، مصالحه مع المسلمين فقلد أهل الإيمان تقليداً دقيقاً، فأرضى

المسلمين وحقق مصالحه معهم، فنال من ذات المؤمنين، وما عرفوه أنه منافق، وكان في الأصل كافراً، لذلك لأنه نال ميزتين معاً هو يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار، في أسوأ درجات النار.

النفاق نوعان؛ نفاق ضعف ونفاق كفر وهو الأخطر :

قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً)

هؤلاء منافقو الكفر، وليسوا منافقي الضعف، منافقو الضعف في عقيدتهم ضعف، أو ضعفوا أمام شهواتهم، هؤلاء يرجى لهم أن يحسن إسلامهم، ولكن الكافر إذا نافق هو في الأصل كافر، لكن أراد أن يستفيد من ميزات المؤمنين فأظهر الإيمان وأبطن الكفر، هؤلاء أساساً لا يتوبون:

(لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً)

(بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

أيها الأخوة، من منا يصدق أنه لمجرد أن تعتز بكافر، أو أن تستعين بكافر، أو أن تستنجد بكافر، أو أن توالي كافراً، أو أن تحب كافراً، فمثل هذا الإنسان محكوم عليه بالنفاق مئة بالمئة، قال تعالى:

(بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيمً*الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

أشد وعيد في القرآن هو وعيد قتل المؤمن عمداً :

أنت فيما تسمع وفيما ترى كم عدد هؤلاء الذين يعتمدون على الكفار، ويتعزون بهم، ويستنجدون بهم، ويوالونهم، ويعادون أخوانهم المؤمنين؟ لا يعدون ولا يحصون:

(بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيمً*الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

ولاؤه للكافر، محبته للكافر، قدوته الكافر، استعانته بالكافر، فكيف إذا أعان كافراً على مسلم؟ كيف إذا أعان كافراً على قتل مسلم؟ هيأ له السبل، أعطاه الأرض والأجواء وهيأ له كل ما يحتاج ليقتل المسلم، وهل تعلمون أن في القرآن وعيداً أشد من وعيد قتل المؤمن:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

[سورة النساء: 93]

في جهنم، عذاب استثنائي، لو قرأت هذا الوعيد لا تجد في القرآن كله وعيداً أشد من وعيد قتل المؤمن عمداً، فالذي يسهل قتل المؤمن، يقدم له الأرض، يقدم له الإمكانات، يقدم له المياه الإقليمية، يقدم له الأجواء، من أجل أن يشعر بالطمأنينة، هو اعتز بالكافر، واطمأن إليه.

(بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً* الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

لو طبّق المؤمنون الآية التالية لكنا في حال أفضل من هذه الحال :

أيها الأخوة، بقيت آية، لكن والله الذي لا إله إلا هو لو أن المؤمنين طبقوها لكنا في حال غير هذا الحال، قال تعالى:

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)

أي الإنسان الكافر بأصل الصلاة لا يصلي ويسخر ممن يصلي، قد يزور أقرباءه المؤمنين، يرحبون به، ويكرمونه، ويستقبلونه، ويودعونه، ولا يعبؤون بأنه لا يصلي، بل ينكرها أصلاً، لو كل إنسان خالف منهج الله عز وجل فقاطعه من حوله، الآن فتاة سافرة تبرز كل مفاتنها في الطريق لو طافت على كل بيوت أقربائها تستقبل! ويرحب بها! ويثنى على ذكائها! وتسأل عن دراستها في الجامعة! وأين وصلتِ! طيب هذه حينما يرحب بها في كل مكان لماذا تستقيم على أمر الله؟ لو كل إنسان خرج على منهج الله نقاطعه، انظر إلى الآية ودقتها:

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)

التساهل في العلاقات سبّب تساهلاً في التوبة :

تارك صلاة، قد يكون شارب خمر، قد يكون له أعمال من دون ذلك، وقد يكون ماله حرام، أينما ذهب يستقبل، ويكرم، ويرحب به، وكأن أمور الدين لا تعنينا إطلاقاً، يعنينا هذه العلاقات العائلية، وعلاقات النسب، وعلاقات العمل، أما إذا المؤمن الصادق رأى إنساناً منحرفاً، عقيدته فاسدة، أو سلوكه غير مستوٍ، بقي معه في حدود علاقات العمل، ولم يزد عليها أبداً. بالمناسبة: لا يجوز أن تقيم علاقة حميمة مع كافر، علاقة عمل يجوز، من دون ود، تؤدي واجبك، تسلم عليه، تأخذ التعليمات، تنفذها فقط، أما أن تقيم علاقة حميمة مع إنسان ينكر عليك أصل دينك، ينكر عليك شريعة ربك، لا يعبأ بما تعتقد به أنت، فهذا التساهل في العلاقات سبّب تساهلاً في التوبة.

هؤلاء الصحابة الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا صادقين، وجاء الأمر بمقاطعتهم، لو كان كل المسلمين كذلك إنسان يجاهر بالمعصية جهاراً، لا يصوم، ويأكل أمام الناس، وقد يزور أخته التي ترحب به أشد الترحيب، وكأنه ولي، أما إذا قاطعته أخته وأخوه، ولم يُدعَ إلى طعام، ولم يبجل، ولم يحترم، يراجع نفسه.

يقسم بالله رجل كان غارقاً في شرب الخمر، اشترى الخمر ووضعه في محفظته واستوقف سيارة عامة، فلما وقفت له ورأى السائق أن في جعبته خمراً، أوقف المركبة وقال له: انزل، يقول هذا الإنسان: سبب توبتي هذا السائق، شعر بمهانة كبيرة جداً، فإذا أمر كل واحد منا بالمعروف ونهى

عن المنكر، وهذه هي الفريضة السادسة، ذكرت قبل قليل قد تأتي ابنة أخيك وتزورك، وثيابها فاضحة، ولا تعبأ بهذا أبداً، ولا تسأل إلا عن دراستها، وعن أبيها، وعن أحوالها المعيشية، وانتهى الأمر، مثل هؤلاء الناس سوف يحاسبون عند الله، وقد أمر الله عز وجل بإهلاك قرية، فقال بعض الملائكة: يا رب إن فيها رجلاً صالحاً، قال: به فابدؤوا، عجيب! قالوا: ولمَ؟ قال: لأن وجهه لم يكن يتمعر لمنكر رآه، ما تأثر.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

[سورة هود: 117]

مصلحون لا يهلكون، أما صالحون يهلكون، صالح ولا يعبأ بالناس!! لو أنت أقمت علاقاتك مع الناس على أساس إيماني؛ تستقبل مؤمناً، ترحب به ولو كان فقيراً، تحترمه، تدعوه إلى غداء، والإنسان الذي ليس فيه دين، ويستهزئ بالدين طبعاً كحكم شرعي إذا كان الإنسان مقصراً في الدين فلك أن تكرمه، مقصراً ليس مستهزئاً، المقصر شيء والمستهزئ شيء، المقصر تستجلبه أما المستهزئ فينبغي أن تقاطعه.

المؤمن معه حجة قوية دائماً :

قال تعالى:

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ)

تجلس في سهرة يستهزَأ فيها بكتاب الله، يستهزأ فيها بحديث رسول الله، أو تطرح أفكار غير صحيحة، وتبقى ساكتاً؟ لا، أنا أتكلم، وآتي بالحجة.

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

[سورة الأنعام: 83]

ليس هناك مؤمن ليس معه حجة، أما أن أسكت وأستمع إلى المنكر، إلى الكفر البواح، ولتحقيق مصالحي مع هؤلاء أبقى صامتاً، هذا يقع كل يوم، مدير شركة، مدير مؤسسة، الموظف جالسٌ أمامه وهو يتكلم كلاماً غير مقبول، خلاف القرآن، خلاف السنة، بالعكس يقول له: هذا صحيح، يبتغي عنده العزة، يبتغي تأمين مصالحه، هذه آية دقيقة جداً.

أنا أذكر دائماً قصة مشهورة مع أنها بسيطة جداً، وأعدتها عليكم كثيراً، سائق سيارة على خط دمشق بيروت، جاءه شاب وشابة يريدان الركوب إلى دمشق، فصعدا المركبة، قال له الشاب: سيأتي بعد قليل رجل ومعه محفظة، فانتظر قليلاً، قال له: حسناً، جاء بعد ربع ساعة رجل عمره سبعون سنة يحمل محفظة على رأسه، فجاء هذا الشاب، وضرب هذا الرجل على رأسه لتأخره في الحضور، السائق لم ينتبه، انطلق بمركبته، وصل إلى مسافة لا بأس بها في طريقه إلى الشام، تقول

له زوجته: لماذا ضربت أباك؟ توقف، وقال له: هذا أبوك؟! انزل وهذه الأجرة، موقف بسيط جداً، أنت أركبت شخصاً يضرب أباه، هناك خطر على المركبة. فإذا أمرنا كلنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولم نعن كافراً، ولم نبتسم له، ولا رحبنا فيه، ولا استقبلناه، ولا دعوناه، وكان معنا حجة قوية، وأدلينا بحجتنا لكنّا في حال غير هذا الحال. أساساً حينما قال الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران:110]

هذه الخيرية لها علة قال:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران:110]

فإذا فقدنا علة الخيرية فقدنا الخيرية.

هان أمر الله علينا فهنّا على الله لذلك فقدت أمتنا خيريتها :

نحن الآن أيها الأخوة والله أمة ـ والله أستحي أن أقول هذا الكلام ـ لا يعبأ الله بها أبداً، لأن أمر الله هان عليها فهنّا على الله، الذي ترونه لا يحتمل، تؤخذ الأرض، تهدم البيوت، يقتل الشباب، تردم الآبار، تقتلع الأشجار، كل يوم قتل عشوائي، هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، أين؟

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

والله لهم علينا ألف سبيل وسيبل، أين؟

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: 55]

والله لسنا مستخلفين، أين؟

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

[سورة النور: 55]

والله لسنا ممكنين، أين؟

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور: 55]

والله لسنا آمنين، كل يوم تهديد، لا نرتاح يومين وفي اليوم الثالث تهديد، واعتبروا لما جرى، وما فعلنا بغيركم، اعتبروا، أين؟ هان أمر الله علينا فهنا على الله:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران:110]

لو عندنا إيمان قوي أي إنسان خرج عن منهج الله يُقاطَع.

إن أردت تقوى الله عز وجل فعليك بمصاحبة المؤمنين :

أخواننا الكرام، كل الناس كانوا يؤدون الفجر في المسجد، إذا تخلف إنسان يأتون إلى بيته، عنده مشكلة، مريض، تجد المسجد يتسع لعشرة آلاف، صباحاً فيه سبعة أو ثمانية مصلّين فقط. فيا أيها الأخوة، هذه الآيات:

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)

لذلك عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِناً وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

لذلك إن أردت تقوى الله عز وجل فالله يأمرك ويقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

صاحب المؤمنين، لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له، صاحب مؤمناً، مر بالمعروف وانهَ عن المنكر، لا تكن وسيطاً لمعصية، لا تنصح بشيء لا يرضي الله عز وجل، اضبط لسانك، لأن الله عز وجل يقول:

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً)

[سورة النساء: 85]

الله عز وجل بيّن في آيات كثيرة عداوة الكفار للمؤمنين :

أي توجيه لك انتهى إلى معصية تتحمل أنت الوزر نفسه، من هنا قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة: 2]

الله عز وجل في آيات كثيرة بيّن عداوة الكفار للمؤمنين، وما لم تصدق الله عز وجل لا يمكن أن تكون عند الله مقرباً، فإذا وثقت بكافر، بإنسان لا يصلي، لا تشاركه، لأنه ولو أعطاك من طرف اللسان حلاوة سوف يطعنك في الظهر، لا تطمئن إلا للمؤمن، يقول الله عز وجل:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ)

يتابعك، ينتظر أن تقع، يفرح إذا وقعت.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة التوبة: 50]

(وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

[سورة آل عمران: 120]

المنافقون يحبون:

(أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة النور: 19]

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ)

يريدون الغنائم:

(وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

المؤمن مظنة صلاح وصدق وأمانة وورع :

أيها الأخوة آية دقيقة جداً هنا مناسبة ذكرها، قال تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: 5]

إذا رأى الكافر مؤمناً يخلف وعده يحتقره ويعتز بكفره، إذا رأى مؤمناً أمره فرطاً يحتقره الكافر ويعتز بكفره، فالمؤمن حينما يقع في خطأ شنيع أمام غير مؤمن، غير المؤمن يتشبث بكفره، ما الذي أعانه على كفره؟ ما الذي جعله يتشبث بكفره؟ هذا المؤمن:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: 5]

مرة طُلب من الحُجاج أو من طالبي الحج أن يقدموا تصريحاً أنهم لم يحجوا من قبل، حينما تقدم عشرات الألوف من التصريحات الكاذبة، كيف يقول هذا الذي يدير شؤون الحج؟ حاج! قدم تصريحاً أنك لم تحج من قبل، فأنت حينما تكذب ـ لا سمح الله ـ حينما لا تتقن عملك، حينما تخطئ، حينما تعتدي، وأنت محسوب على المؤمنين، يأتي هذا الطرف الثاني ويحتقر كل هذا الدين، وأنا أقول لكم هذه الكلمة: هناك إنسان داعية، وهناك إنسان منفر، عمله عكس الداعية، لأن المؤمن مظنة صلاح، مظنة صدق، مظنة أمانة، مظنة ورع، مظنة عفة، هذا المؤمن، فإذا وجدنا مؤمناً يفعل خلاف ذلك، ما كل إنسان يفرق بين الدين وأهل الدين، عوام الناس يخلطون بين الدين وأهل الدين، فهم يحكمون على الدين من خلال الديّنين، القضية خطيرة جداً، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك، كل مؤمن ينبغي أن يكون سفيراً للمؤمنين، فالمؤمن حينما يخطئ مع غير المؤمن فغير المؤمن يتشبث بكفره، ويعتز بكفره، هذا الذي جرى من نهب وسلب عقب نهاية الحرب ماذا كان انطباعه عند العالم الغربي، هؤلاء المسلمون! نحن عندهم مسلمون بالمناسبة، كل

شيء دمر، كل شيء سرق، هكذا المسلم! أنت لا تفكر أن تقرأ كتاباً لإنسان تحتقره، تقرأ كتاباً لإنسان ديّن تحتقره.

فلذلك قضية الإسلام قضية كبيرة، أنا ذكرت في الخطبة الإذاعية اليوم، قلت والله، وأكدت هذا بالأيمان: إن الصحابة الكرام لو فهموا الإسلام كما نفهمه نحن الآن والله الذي لا إله إلا هو ما خرج الإسلام من مكة إلى المدينة، فكيف وصل إلى أطراف الدنيا؟ بالأخلاق، بالقيم، بالمبادئ، بالصدق، بالأمانة، بالعفة، فقضية الدين قضية كبيرة، أن يصلي أحدنا ليس هذا هو الدين، الصلاة فرض، لكن أصل الدين العفة، والأمانة، والصدق، والوعد الصادق، والرحمة، والعدل، والإنصاف، إذا تمثلت هذه بالمؤمن استطاع أن ينشر هذا الدين:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ)

أي ينتظرون أن تسقطوا:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(61-69): تفسير الآيات 141-144، طرق المنافقين وصفاتهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-05-23

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية تتحدث عن المنافقين :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والأربعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

هؤلاء المنافقون، فقد قال الله في الآية التي قبلها:

(إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)

وقلت في درس سابق: إن المؤمن واضح، وإن الكافر واضح، لكن هذا الذي ينحاز إلى المؤمنين تارةً ليحقق مصالحه وتارةً إلى الكافرين هذا هو المنافق، يظهر بخلاف ما يبطن، يقول بخلاف ما يعمل، هذا الازدواجي الذي له وجهان، ولسانان، وموقفان، وقناعتان، هذا المنافق خطير، الكافر واضح، والمؤمن واضح، المنافق حُسِب على المؤمنين فنال كل ميزاتهم، وكان مع الكافرين فأخذ منهم أيضاً مما يستطيع.

معنى التربص :

إذاً الله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)

هؤلاء المنافقون ما موقفهم من المؤمنين؟

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ)

التربص أن أكون متيقظاً لأية معلومة تأتي من الطرف الآخر، ولا بد من أن أنتفع من هذه المعلومة، ولا بد من أن أبتز من خلال هذه المعلومة، ولا بد من أن أحقق مكاسب من هذه المعلومة، سواء أكانت من المؤمنين أم من الكافرين، هذا هو التربص:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ)

أي يتتبعون أخباركم، وهذه الأخبار التي يتتبعونها يوظفونها لمصالحهم، فتارةً يكونون مع المؤمنين، ويوهمونهم أنهم معهم، وأن لهم من الغنائم نصيباً، وتارةً يؤكدون للكفار أنهم معهم، فإذا انتصر الكفار، ولهم أيضاً من الكفار نصيب، فهؤلاء المنافقون يتربصون بالمؤمنين، والتربص الوقوف على أهبة الاستعداد لتلقي المعلومات ولتوظيفها لصالح المنافق تارةً مع المؤمنين، وتارةً مع الكفار والعصاة والفاسقين.

الفرق بين النصر والفتح :

قال تعالى:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ)

النصر الذي يحرزه المؤمنون سماه الله فتحاً:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

أي تحقيقاً للهدف الكبير من دعوة المؤمنين الناس إلى دين الله، هناك فتح:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ)

ولعل النصر يكون انتصاراً مؤقتاً، ولعل النصر انتصار ظاهري، ولعل النصر انتصار مادي، أما الفتح فنجاح الدعوة، ونجاح الجيش في إرغام الطرف الآخر على أن يخضع، ونجاح دين الله عز وجل ليحقق أهدافه، فكلمة الفتح أكبر بكثير من كلمة النصر، والدليل كما قلت قبل قليل:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

قال:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ)

أي إذا نصركم الله عز وجل وجعل كلمة الذين آمنوا هي العليا، فالمنافق لا بد من أن ينتفع من هذا النصر، فهو يؤكد للمؤمنين أنه معهم، وأنه ساعدهم، وأنه يهدي لهم الطريق، ولا بد من أن يأخذ شيئاً من غنائم المعركة.

طرق المنافقين في ابتزاز المؤمنين والكافرين :

قال:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ)

أي نصيباً من النصر، أقل من النصر، قواتهم العسكرية انتصرت لكن سقطوا بقيمهم، نجحوا بقواتهم وسقطوا بقيمهم، ما سماه الله هذا نصراً، سماه نصيباً من النصر.

(وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ)

استحوذ عليهم الشيطان أي ملكهم، استحوذ عليهم الشيطان أي صاروا في حوزته، فيبدو أن المنافقين في المعركة يأسرون الكفار، فإن انتصر المؤمنون نحن أسرناهم من أجلكم، وإن انتصر الكفار قالوا: أسرناهم لنمنعهم من أن يقتلوا، ففي كلا الحالتين معهم حجة، يبتزون المؤمنين تارةً والكافرين تارةً أخرى:

(وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ)

وكان من عادة المنافقين في الحروب التي خاضوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقوا بعض المقاتلين في قبضة الأسر من أجل أن يكونوا حجة لهم إذا انتصر المؤمنون، وحجة لهم إذا انتصر الكافرون:

(وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

نحن أسرناكم كي لا تقتلوا، كي نحميكم من القتل.

الحكمة من أن الله سبحانه يحكم بين عباده يوم القيامة لا في الدنيا :

قال تعالى:

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

أيها الأخوة، قد تسألون: لمَ لم يقل الله عز وجل: فالله يحكم بينكم في الدنيا؟ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، قد تكون دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان.

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

[سورة يونس: 46]

قد لا يتاح للإنسان في الدنيا أن يكحل عينيه بانتصار المؤمنين، لأن دورة الحق والباطل ربما كانت أطول من عمر المؤمن، فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق قد لا يتاح له أن يرى النصر المبين الذي أكرم الله به المسلمين بعد بعثته عليه أتم الصلاة والتسليم، فكأن الله سبحانه وتعالى أرجأ أن يحكم بينهم إلى يوم القيامة، وأكبر خطأ يقع فيه المؤمنون أنهم ينتظرون أن يحكم الله بين المؤمنين والكافرين في الدنيا، فإذا تأخر هذا الحكم يئسوا، وسألوا أين الله؟ ولله عز وجل امتحانات صعبة، قد يقوي الكافر كما ترون، ويتمتع الكافر بأعلى قوة، وقد يقتل، وقد يبطش، وقد يهدد، وكأنه يفعل ما يريد، فمن كان ضعيف الإيمان يتساءل: أين الله؟ فالدنيا ليست دار جزاء، لكن الله سبحانه وتعالى إذا كافأ بعض المحسنين لتكون المكافأة تشجيعاً للباقين، وإذا عاقب بعض المسيئين ليكون العقاب ردعاً للباقين، لكن يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

أي أن اسم الله العدل لا يتحقق في الدنيا كلياً يتحقق جزئياً، أما هذا الاسم العظيم لا يتحقق تحققاً تاماً إلا يوم القيامة، دار تسوية الحسابات، دار أن يأتي الإنسان إلى ربه فرداً لا جماعة معه، ولا جيش معه، ولا ناصرين ولا أنصار معه، يأتي وحده يوم القيامة، ويحاسب عن أعماله كلها.

عظمة هذا الدين أنه بإمكانك أن تطبقه وحدك ولو لم يكن مطبقاًعلى مستوى الأمة:

قال تعالى:

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وهذا حكم الله عز وجل، لذلك الإنسان عليه أن يستقيم على أمر الله، وعليه ألا يستعجل نصر الله عز وجل، فلله حِكم لا نعلمها، مهمتك أن تعبده، فإذا عبدته انتهت مهمتك، وعلى الله الباقي، عليك أن تطيعه، وأن تعبده، والله عز وجل أنشأ لك حقاً عليه، ذكرت في الدرس الماضي فيما أذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام سأل سيدنا معاذ وقد أردفه خلفه، قال: يا معاذ ما حق الله على عباده؟ فبعد عدة أسئلة، قال: يا معاذ حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سأله يا معاذ: ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه؟ قال: ألا يعذبهم، فكأن الله سبحانه وتعالى أنشأ لعباده المؤمنين حقاً عليه، أنت حينما تعبد الله عز وجل بصرف النظر عن مجموع الذين حولك يعبدونه أو لا يعبدونه، عظمة هذا الدين أيها الأخوة أنه بإمكانك أن تطبقه وحدك، لو لم يكن مطبقاً على مستوى الأمة، لو لم يكن منهجاً مطبقاً على مستوى الأمة بإمكانك أن تعبد الله وحدك، وأنت ضعيف مستضعف، وهذا اسمه النصر المبدئي، حينما يأتي ملك الموت ليقبض روح مؤمن، وقد كان مؤمناً حقاً، موحداً حقاً، عابداً حقاً، طائعاً حقاً، هذا الذي جاءته المنية وهو على هذه الحال يعد منتصراً انتصاراً مبدئياً، ولو ضاعت عليه الدنيا لأنه كسب الآخرة، لكن الخسارة الكبيرة التي لا تعوض خسارة الدار الآخرة.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: 15]

كمال الخلق يدل على كمال التصرف :

قال تعالى:

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

كنت أقول دائماً: إن العقل السليم لا يقبل ولا هو مستعد أن يقبل أن هذه الدنيا فيها القوي والضعيف، فيها الغني والفقير، فيها الصحيح والمريض، فيها الحاكم والمحكوم، وأن تنتهي الحياة هكذا، ولا شيء بعد الحياة الدنيا، هذا الكلام لا يتناسب مع كمال الخلق الذي نراه في الكون، لأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، فكما أن في الكون إعجازاً ودقةً واتقاناً وإحكاماً، الإله الذي أحكم صنعته، وأتقن صنعته، وظهرت أسماؤه الحسنى في كل صنعته، هو في باب المعاملة؛ معاملة

عباده كماله مطلق أيضاً، فكمال الخلق يدل على كمال التصرف، ذلك أن معظم العلماء يعدون الدليل الإخباري دليلاً وحيداً على اليوم الآخر، بينما بعض العلماء يرى أن الدليل العقلي إضافة إلى الدليل الإخباري يعد حجة على وجود اليوم الآخر، لأن العقل السليم لا يقبل أن يكون في البشر قوي وضعيف، وأن يأكل القوي الضعيف، وغني وفقير، وأن يستغل الغني الفقير، والصحيح والمعلول، وأن تنتهي الحياة، الذي قتل قَتل، والذي استمتع بالدنيا استمتع، والذي استعلى استَعلى، والذي تَغطرس تغطرس، وتنتهي الحياة هكذا.

أيها الأخوة، ما من قطرة دم تسفك إلا ويتحملها إنسان يوم القيامة، قتل عشوائي في مقياس الناس.

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

[سورة الأنعام: 59]

الأمر بغاية الدقة، والأمر بمنتهى الحكمة، ولكن لا يعقل أن تصل إلى حكمة الله بعقلك إلا بحالة مستحيلة أن يكون لك علم كعلم الله.

الفرق بين دخول النار وورودها :

أيها الأخوة: نحن قد لا ننتبه إلا أن الخطأ موظف للصواب، الخطأ في أصل وجوده موظف للصواب، ويروى أن أكبر عالم في النحو سيبويه، كان عالماً بالقراءات، لحن في كلمة أمام جمع غفير، فذابت نفسه خجلاً، فعكف على قراءة النحو، وصار من أكبر علماء النحو، خطأه وظف ليكون أكبر عالم نحو، حتى الإمام الشاطبي أيضاً سبب عكوفه على علم أصول الفقه أنه أخطأ في مسألة في مقتبل حياته في علم الأصول، فعكف على دارسة العلم، وصار أكبر عالم من علماء الأصول.

والذي يحدث الآن شيء صعب جداً، لكن الله يوظفه لخير المسلمين، مع أن العالم كله يحارب المسلمين، مع أن هناك حرباً عالمية ثالثة معلنة على المسلمين، ولكن هذا لصالح المسلمين، هي إيقاظ لهم، هي دفع لوحدتهم، دفع لاستقامتهم، دفع لتوبتهم، دفع إلى يأخذوا دينهم مأخذاً تطبيقياً لا مأخذاً استعراضياً، لأن الذي وَقع أراده الله، لأن الذي وقعَ وقع بعلم الله، وقع بتقدير الله، وقع إذ سمح الله له أن يقع، ولا يعقل أن يقع في ملك الله ما لا يريد، إذاً:

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

بالمناسبة: في آيات كثيرة، ومن أبرزها أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

[سورة مريم: 71]

هذه آية عجيبة جداً، فما من إنسان إلا ويرد النار، العلماء فرقوا بين دخول النار وورودها، قد يرد الإنسان النار ولا يتأثر بوهجها، لماذا يسمح الله لكل إنسان من خلقه أن يرد النار؟ ليرى المؤمن

مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً، تتضاعف سعادته في الجنة، إذ يشعر أنه نجا من هذه النار المحرقة، وليرى المؤمن في النار هؤلاء الذين طغوا وبغوا، وتغطرسوا واستعلوا كيف أن عدل الله يلاحقهم، أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

[سورة الأنفال]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

كل إنسان يأتيه ملك الموت تكشف له الحقائق التي كشفت للأنبياء ولو كان كافراً :

كل متوقع آت، وكل آت قريب، بل إن كل واحد يأتيه ملك الموت تكشف له الحقائق التي كشفت للأنبياء ولو كان كافراً، ألم يقل فرعون:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات:24]

ألم يقل:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

لما وافاه الأجل قال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس: 90]

لذلك قال تعالى:

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

[سورة الأنعام: 158]

أهمية الأخذ بالأسباب :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

فكيف إذا كان لهم علينا ألف سبيل وسبيل، في أصل سنة الله في خلقه أنه لا يمكن أن يكون للكافر على المؤمن سبيل، إلا إذا قصر المؤمن، الدنيا بالأسباب، لو أخذ الكافر بالأسباب وأتقنها قطف نتائجها، ولو عصى المؤمن ولم يأخذ بالأسباب ينتصر عليه الكافر، لأنه عصى بتركه الأخذ بالأسباب، وكأن الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست

بشيء، الكافر أخذ بالأسباب، وأتقن الأسباب، وأخذ نتائج الأسباب وقطف ثمار سعيه، فكان قوياً في الدنيا:

(مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

[سورة البقرة: 200]

والمؤمن مأمور أن يأخذ بالأسباب لأن الله عز وجل يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

فإن عصى المؤمن هذه الآية، ولم يأخذ بالأسباب، بينما الكافر أخذ بالأسباب، وقوانين الله عز وجل واضحة ومشاعة بين المؤمنين والكافرين، فالذي يأخذ بالأسباب هو الذي ينتصر، والذي يعصي الله فلا يأخذ بها لا ينتصر.

المؤمن الكامل يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء:

أيها الأخوة، طبعا حينما تأخذ بالأسباب المتاحة لك فقط، ولو كان بينك وبين العدو فرق كبير في التسليح، فالله عز وجل يتولى ترميم هذا الفرق، أما إن لم تأخذ بها أصلاً فقد عصيت، فالقصة أيها الأخوة أن الغرب أخذ بالأسباب، واعتمد عليها، وألهها فأخذ ثمارها في الدنيا فقط، وبحسب القرآن الكريم:

(مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

[سورة البقرة: 200]

وأن الشرق المسلم لم يأخذ بها عاصياً، وقع في المعصية، الذي أخذها بها واعتمد عليها وقع في الشرك، والذي لم يأخذ بها وقع في المعصية، وكلا الفريقين مخطئ، أما المؤمن الكامل يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء. قال:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

لكن المؤمن إيماناً صحيحاً، يحمله على طاعة الله، مؤمن أعد للعدو ما يستطيع من قوة، هذا المؤمن لا يمكن أن يكون لكافر عليه سبيل، أما إذا عصى المؤمن الله فلم يعدّ للكافر العدة التي أمر بها وقع في تقصير ومعصية.

تقريباً منهج الله عز وجل منهج موضوعي، فأي طرف أخذه يقطف ثماره، إن أخذه لمصلحته في الدنيا يقطف ثماره في الدنيا، وإن أخذه عبادة لله عز وجل يقطف ثماره في الدنيا والآخرة، إن أخذه من أجل الدنيا يقطف ثماره في الدنيا، وإن أخذه من أجل الآخرة يقطف ثماره في الآخرة وفي الدنيا، هذه آية دقيقة جداً، ولن تفيد تأبيد المستقبل:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

الذين آمنوا حق الإيمان والذين أعدوا لعدوهم الإعداد المتاح له، هؤلاء:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

فإن كان للكفار عليهم سبيل، بل ألف سبيل فهناك خلل خطير إنْ في عقيدتهم وإيمانهم أو في سلوكهم واستعلائهم.

أن يخدع الإنسان الله عز وجل فهذا شيء يدعو للسخرية :

ثم يتابع ربنا جل جلاله الحديث عن المنافقين فيقول:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

الإنسان لا يسمى خادعاً إلا إذا كان الطرف الثاني لا يعلم هذه الخديعة، فقد تخدع إنساناً مغفلاً، وقد تخدع إنساناً لم يحط علماً بخديعتك، شيء طبيعي، أما أن يخدع الإنسان الله عز وجل فهذا شيء يدعو للسخرية:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

معنى خادعهم؛ أي أبطل خديعتهم، لكن أسماء الله عز وجل توقيفية، لا نستطيع أن ننطق بأسماء الله إلا التي سمى الله بها نفسه، لا نستطيع أن نقول: هذا اسم لله إلا إذا سمى الله نفسه بهذا الاسم، أنا لا أستطيع أن أقول: إن الله خادع، مشتق من اسم الفاعل، من خدع، لكن حينما يخدعهم الله عز وجل؛ أي يبطل خديعتهم:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

أي من السذاجة بمكان أن هذا المنافق يصلي ويوهم المؤمنين أنه مؤمن، ثم يتوهم أن الله قبل هذه الصلاة، يعمل عملاً صالحاً أمام المؤمنين ويتوهم أن الله قبل هذا العمل، هذه سذاجة ما بعدها سذاجة.

أهمية الصلاة :

يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

ولأنهم محجوبون عن الله بمعاصيهم فالاتصال بالله عز وجل لا معنى له، لكنه يصلي أمام الناس ليدفع عن نفسه تهمة ترك الصلاة هو حريص على الصلاة أمام الناس فقط:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)

أي أن الصلاة معراج المؤمن، لأن النبي عليه الصلاة والسلام فيما روي عنه: الصلاة معراج المؤمن، يعرج بها إلى الله، الصلاة قرب من الله عز وجل، قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق: 19]

الصلاة ذكر:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

الصلاة وعي: "ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها"، وفي آية:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

الآية منسوخة، لكن ماذا نستفيد منها؟ (حتى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)، فالذي يصلي ولا يعلم ماذا يقول هو في حكم السكران، إذاً الصلاة عقل، الصلاة عروج إلى الله، والصلاة قرب منه، والصلاة ذكر له، والصلاة عقل، والصلاة نور كما قال عليه الصلاة والسلام، نور يلقى في قلب المصلي فيرى في هذا النور الحق حقاً والباطل باطلاً، ويصعب كثيراً أن يقع المؤمن في ورطة كبيرة لأن في قلبه نوراً، ولأن طاعته لله تحرسه من الوقوع في خطأ فاحش.

الصلاة نوروالصلاة طهور :

أيها الأخوة الكرام، الصلاة نور، والصلاة طهور، أما أنها نور فلأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

[سورة الحديد: 28]

أي كفالة في الدنيا، وكفالة في الآخرة.

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد: 28]

المؤمن في قلبه نور، هذا نور الله عز وجل، يريه الحق حقاً والباطل باطلاً، يريه الخير خيراً والشر شراً، فالصلاة نور، والصلاة حبور وسعادة.

عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ قَالَ مِسْعَرٌ أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول:

((يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ]

المؤمن طهور، ليس هناك مؤمن حقود، مؤمن مخادع، مؤمن متكبر، مؤمن دنيء النفس، مؤمن كذاب، مؤمن خائن، مستحيل لأن الصلاة تطهر المؤمن من كل أدرانه، فالصلاة طهور، والصلاة نور، والصلاة حبور وسعادة، والصلاة معراج المؤمن، والصلاة ذكر، والصلاة وعي وعقل، والصلاة قرب.

المؤمن يقوم إلى الصلاة متشوقاًإلى الله أما المنافق فالصلاة لا معنى لها عنده :

قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها، ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

فالمؤمن يقوم إلى الصلاة متشوقاً إلى الله، المؤمن يقوم إلى الصلاة ولسان حاله كما قال عليه الصلاة والسلام:

((يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ]

المؤمن إذا صلى يرتاح، ولاسيما إذا صلى الصلاة على وقتها، يشعر أنه في رحمة الله، في حفظ الله، كأنه تحت مظلة الله عز وجل، أما المنافق فقال تعالى: (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)، لأن المنافق محجوب عن الله بنواياه السيئة وبعمله السيئ، فالصلاة لا معنى لها عنده، وهذا يؤكده قوله تعالى:

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

[سورة البقرة: 45]

هي كبيرة، ثقيلة (إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)، لأنه موصول مع الله عز وجل، (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ)، هذا الذي يبتغي بعمله سمعة أو مكانة، يبتغي بعمله أن يمدحه الناس، أن ينتزع إعجابهم، أن يأخذ ثنائهم، أن يأخذ من هباتهم، هو لا يبتغي الله عز وجل، يبتغي أهل الدنيا، فلذلك: (يُرَاءُونَ النَّاسَ)، المراءاة أن تبتغي عملاً لا تريد به وجه الله بل تبتغي به الناس، ليراه الناس، وهذا من الشرك الخفي، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ بَكَى فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: شَيْئاً سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ فَذَكَرْتُهُ فَأَبْكَانِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ قَالَ نَعَمْ أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلَا قَمَراً وَلَا حَجَراً وَلَا وَثَناً وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِماً فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ))

[أحمد عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

الشرك الخفي :

الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، وأن تبغض على عدل؛ تحب إنساناً غير مستقيم، هذا من الشرك، أو أن تنزعج أشد الانزعاج من نصيحة مخلصة صادقة أزجيت إليك، كلاهما شرك، هؤلاء المنافقون يراؤون الناس، وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً، والأمر الإلهي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)

[سورة الأحزاب: 41-44]

فالأمر ينصب على الذكر الكثير لا على الذكر القليل، القليل يفعله المنافقون، الذكر القليل يفعله المنافقون:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)

[سورة الأحزاب: 41-44]

إذاً:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)

المؤمن واضح والكافر واضح أما المنافق فمتذبذب :

أخواننا الكرام، من باب التوضيح: المؤمن الكامل مرتاح، أموره واضحة جداً، آمن بالله، ووضع كل ثقله في طاعته، ونقل اهتمامه إلى الآخرة، وهو ملتزم بمنهج الله، ولا يفكر أن يعصي الله عز وجل، واضح، هدفه واضح، هدفه الآخرة، سلوكه يحكمه منهج الله عز وجل، لا يسوم ولا يناقش فيما هو طاعة لله عز وجل، أحياناً في المفاوضات يقول بعض الأطراف: هذه القضايا ليست خاضعة للمناقشة، وليست مدرجة بجدول الأعمال، فالمؤمن ممنوع أن يعصي الله، أن يأكل المال الحرام، أن يكذب، أن ينافق، أن يخون، هذا مستحيل، واضح، والشيء المؤسف والكافر واضح، الكافر آمن بالدنيا فقط، ولم ير أن الدين علاج لمشكلات البشر، آمن بالدنيا، آمن بالعلم فقط، علماني لكن واضح، لا يخدعك أبداً، كما أن المؤمن واضح الكافر واضح، الكافر وضع كل ثقله في الدنيا، أتقنها، ليس عنده شيء يحول بينه وبين إتقان الدنيا، أتقنها إتقاناً كافياً، ولا يعتقد إلا بالدنيا فقط، ومن ربحها ربح كل شيء، ومن حاز المال كان في جنة الدنيا، هكذا.

مرة التقيت بإنسان أوربي، فبدأت أتحدث معه عن أمور الدين، ما لبث أن قال لي: هذه الموضوعات لا تعنيني، ولا أهتم لها، ولا ألقي لها بالاً، أنا لا يعنيني بالحياة إلا امرأة جميلة، وبيت واسع، ومركبة فارهة، وانتهى الأمر، لا يخدعك، هذا واضح، له ميزة أنه لا يخدعك، ولا يمكن أن يؤثر فيك، بعيد عنك بعد الأرض عن السماء، أما هذا الإنسان الذي يصلي كما تصلي، ويصوم كما

تصوم، ويكون في بعض المجالس كما أنت فيها، وله لسان لطيف، إذا التقى بالمؤمنين يثني عليهم، ما شاء الله، الله ينفعنا من بركاتكم.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

[سورة البقرة: 14]

المنافق محسوب على المؤمنين وهو مع الكافرين :

له وجهان، ولسانان، وموقفان، وظاهر وباطن، شيء يحير، لذلك الله عز وجل وصف المؤمنين في سورة البقرة بعدّة آيات، والكفار بآيتين، ووصف المنافقين بثلاث عشرة آية، لأن لهم ظاهراً وباطناً، لهم خلوة ولهم جلوة، يعني ذكرت اليوم في الخطبة أن المنافق إذا كان مع المؤمنين يتصنع غض البصر ليحافظ على مكانته عندهم، أما إذا لم يكن مع المؤمنين أطلق لبصره العنان، فقال الله عز وجل:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

[سورة غافر: 19]

العين تخون تنضبط مع المؤمنين ولا تنضبط بعيداً عنهم، لذلك الله عز وجل قال:

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ)

المؤمن واضح، وقطف ثمار إيمانه في الدنيا وفي الآخرة، والله حفظه، ووفقه، وأعلى مقامه، ورفع ذكره، والكافر أنكر الآخرة، وأتقن الدنيا فقطف ثمار كفره في الدنيا فقط، الدنيا أتقنها إتقاناً شديداً، أما هذا المنافق فمحسوب على المؤمنين، وهو مع الكافرين، كما قلت قبل قليل: له ظاهر وله باطل، له موقف معلن وله موقف باطن داخلي، له جلوة منضبط بها مع المؤمنين وله خلوة متحلل بها من قيم الدين، عليم اللسان، جاهل القلب، معك بلسانه عدو لك بقلبه، هذا المنافق، لأنه أخذ ميزات المؤمنين وحسب عليهم، وأخذ ميزات الكفار في التفلت من منهج الله، هذا مكانه يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء: 145]

الله عز وجل يخدع المنافقين ويفضحهم ويحد من مؤامراتهم وخديعتهم :

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

لا بد من أن يفضحهم، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ:

((إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكاً بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ـ هو ليس مؤمناً إطلاقاً لكنه يعمل بعمل أهل الجنة من أجل الدنيا ـ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

فالله عز وجل يخدعهم؛ أي يكشفهم، ويفضحهم ويحد من مؤامراتهم وخديعتهم:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً*مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ)

أكاد أقول: إن الكافر أيضاً ارتاح في الدنيا، كيف ارتاح؟ نزع الآخرة من ذهنه إطلاقاً، ما عنده إلا الدنيا، لا يصلي، ولا يصوم، ولا يحضر درس علم، يتقن عمله فقط، يعبد المال، في الدنيا ليس عنده اضطراب، المؤمن كذلك، أما المنافق فلا يستطيع أن يكون كالكفار تماماً، ولا يستطيع أن يكون كالمؤمنين تماماً، لا قطف ثمار المؤمنين باستقامته، ولا قطف ثمار الكفار ـ إن صح التعبير ـ بأنه أزاح الآخرة من تخطيطه:

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)

يقول الله عز وجل أيها الأخوة في آية فيها نهي واضح وضوح الشمس:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

الولاء أن تحبهم، الولاء أن تهتدي بمنهجهم، أن تستشيرهم، الولاء أن تأتمر بأمرهم، الولاء أن تستعين بهم على أخيك المؤمن.

أيها الأخوة الكرام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

هذه آية دقيقة جداً، إن شاء الله نشرحها بتوفيق الله في الدرس القادم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(62-69): تفسير الآيات 144-147 ، الإيمان والاستقامة على أمر الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-05-30

بسم الله الرحمن الرحيم

نواقض الإيمان ولوازمه :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والأربعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

لعل هذه الآية هي ألزم آية للمسلمين اليوم أن ينتهوا عن هذا النهي الإلهي، فالمؤمن حينما يتخذ الكافر ولياً، معنى يتخذه ولياً أي يعظمه، ويحبه، وينصره، ويطيعه، ويتبعه، لمجرد أن يتخذ المؤمن الكافر ولياً فقد وضع نفسه مع المنافقين، لأن في النفاق كفراً، والمنافق يلتقي مع الكافر، له ظاهر إسلامي، وله باطن كافر، فالمنافق يتخذ الكافر ولياً لأن هناك قواسم مشتركة بين المنافق والكافر، أما إذا اتخذ الكافر ولياً فمعنى ذلك أنه وضع نفسه في خندق المنافقين، ولو لم يكن هذا واقعاً أو يمكن أن يقع لما نهى الله عنه، وتكاد مشكلات العالم الإسلامي تنبع من هذه المواقف، أن نوالي كافراً على مؤمن، أن نعين كافراً على مسلم، أن نتعاون مع الكفر على أهل الإيمان، وهذا والعياذ بالله من نواقض الإيمان، هناك أشياء تضعف الإيمان، لكن هناك أشياء تنقض الإيمان، فمن نواقض الإيمان أن توالي كافراً ضد مسلم، أن تعين كافراً ضد مسلم، أن تحب كافراً، وأن تبغض مسلم، بل إن من لوازم الإيمان أن تحب المؤمن، ولو نالك ـ فرضاً ـ منه أذى، وأن تبغض الكافر ولو ـ نالك فرضاً ـ منه خير، بل إن من بعض الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: "اللهم لا تجعل لي خيراً على يد كافر". لئلا يميل القلب إليه، لأنه من هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً ، كنت أقول: إذا أعان المسلم كافراً على مسلم مثله كمنديل لا قيمة له، تمسح به أقذر عملية، ثم يلقى في المهملات، فينبغي أن توالي المؤمنين ولو كانوا ضعفاء، وينبغي أن تتبرأ من الكفار ولو كانوا أقوياء.

الولاء والبراء من أسس الدين :

أيها الأخوة، موضوع الولاء والبراء من أسس الدين، لا تكون مؤمناً إلا إذا واليت المؤمنين، ولا تكون مؤمناً إلا إذا تبرأت من الكافرين، أما أن يهوى الإنسان الكفار، وأن يكون معهم، وأن يؤمن بأفكارهم، وأن يعظم قيمهم، وأن يهتدي بإرشاداتهم، وأن يقلدهم في أنماط حياتهم، ثم هو يصلي ويصوم ويدعي أنه مسلم فهذا مما ينقض إيمانه، لأنك لو واليت كافراً ماله حرام، وعلاقاته علاقات شائنة، لا يحلل ولا يحرم، ولا قيمة للقيم عنده، فلذلك حينما يحب المسلم كافراً، حينما يعينه، حينما ينصره، حينما يأتمر بأمره، حينما ينتهي عما عنه نهى، إذاً هو مثله، لذلك يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

[سورة الممتحنة: 13]

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

[سورة المائدة: 51]

من نواقض الإيمان، مما يلغي إيمانك في قلبك أن توالي كافراً، فكيف إذا أعنته على مسلم؟ فكيف إذا أعنته على قتل مسلم؟!!

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

[سورة النساء: 93]

لا أعتقد أن في القرآن كله آية فيها وعيد كهذا الوعيد، أليس الذي يجري في العالم الإسلامي موالاة للكافرين على بعض المسلمين؟!!

قضية الإنكار وعدم الإنكار قضية متعلقة بالدين :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

لكن الذي يحصل أن كل إنسان فيه خصائص، هذه الخصائص من صنع عقيدته وقيمه وسلوكه، فحينما تكون العقيدة فاسدة، وحينما يكون السلوك منحرفاً، وحينما تكون القيم مهزوزة، فهذه النقاط والخصائص تلتقي مع نقاط وخصائص أهل الكفر، تأتي المودة من نقاط اللقاء دائماً، فالإنسان إذا هوي الكفرة، إذا هوي إنساناً ماله حرام، أو هوي إنساناً يبني مجده على أنقاض الناس، أو هوي إنساناً يبني أمنه على خوفهم، أو هوي إنساناً يبني غناه على فقرهم، أو هوي إنساناً يبني حياته على موتهم، أو هوي إنساناً يبني عزه على ذلهم، أن تهوى مثل هذا الإنسان فأنت مثله، أن ترضى عن فعل هذا الإنسان فأنت مشترك معه في الإثم، لأنه من أقر بمعصية غابت عنه كان كمن شهدها، ومن رضي بمعصية غابت عنه كان كم شهدها أيضاً، فقضية الإنكار وعدم الإنكار قضية متعلقة بالدين، فآية واضحة قطعية الدلالة، صريحة، بينة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

وبشكل مصغر قد يكون لك قريب ذو شأن، ذو مال، أو ذو سلطان، وتستشيره، وتفتخر به على أنه لا يصلي أبداً، وقد يشرب الخمر، وقد يفعل الأعمال السيئة، حينما تعتز به، وتثني عليه، وتفتخر بالانتماء إليه، وحينما يشير لك بشيءٍ تفعله فوراً فأنت ممن تنطبق عليك هذه الآية، ينبغي ألا تعظم فاسقاً، ألا تعظم كافراً، ألا تعظم عاصياً:

((إن الله يغضب إذا مدح الفاسق في الأرض))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

إنسان فسقه ظاهر أن تقول عنه: لبق، ذكي، عنده حكمة، إذا سمع ابنك منك هذا الكلام يختل توازنه، يراه لا يصلي، يراه يملأ عينيه من محاسن النساء، يراه يمزح مزاحاً رخيصاً، وتقول أنت عنه: إنه لبق وذكي، وموفق في عمله، وله مكانة كبيرة، هذا المديح يحدث اضطراباً في القيم أيها الأخوة، ينبغي ألا ينطق هذا اللسان إلا بالحق، ينبغي إلا تمدح فاسقاً، ألا تثني على كافر، ألاّ تعتز بإنسان لا يعتز بالله عز وجل.

حينما تنعدم القيم الأصيلة تنشأ قيم مزورة :

أتمنى أن أوسع مفهوم هذه الآية، لأن معظم الناس على ضعف إيمانهم متلبسون بهذه المخالفة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

إذا كان إيمانك صحيحاً، وإيمانك متيناً، وكان إيمانك عميقاً، فلا يمكن أن ترتاح لإنسان عاصٍ، لا يمكن أن تجد مسوغاً أن تبتسم في وجهه، هذه اللباقة التي تشيع في الحياة المعاصرة لباقة نفاق، نشأ مصطلحان يتداولهما الناس، وفيهما تعمية للحقيقة، فالفتاة المتفلتة من أحكام الشرع أن تسمى بالتعبير الأجنبي سبور، هي متفلتة، هي فاسقة، والإنسان الذي يأكل مالاً حراماً يسمى شاطراً، والإنسان المنافق الذي يرضي جميع الفئات، وليس له مبدأ يستقر عليه يسمى لبقاً، مرناً، ذا حكمة، فحينما تنعدم القيم الأصيلة تنشأ قيم مزورة.

لكن أيها الأخوة، في القسم الثاني من الآية شيء دقيق جداً، قال:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

ماذا أقول في هذه الآية؟ حتى خالق الأكوان، حتى رب الأرض والسماء، حتى الإله الذي وصف نفسه بأنه لا يسأل عما يفعل، مقام الألوهية لا يليق به أن يسأله أحد، لكن الله سبحانه وتعالى ألزم نفسه العلية بالاستقامة، فقال تعالى:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

إلزام ذاتي، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا..))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

الاستقامة على أمر الله تنجينا من أي عقاب :

حتى الإله العظيم، حتى من بيده كل شيء، حتى الذي لا يسأل عما يفعل، حتى الذي هو فعال لما يريد، لا يمكن أن يسوق لك عذاباً من دون سبب منك.

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

للتقريب إليكم هذا المثل، عندك محل تجاري، والبضاعة كلها وطنية، وكل البضاعة نظامية، والبضاعة كلها فيها فواتير صحيحة، ومحتفظ بها، ومر موظف الجمرك، هل تتحرك شعرة في جسمك، ما له عليك سلطان، لا يستطيع أن يسائلك، ولا أن يقول كلمة، كل عملك صحيح، أما الذي عنده بضاعة غير صحيحة، غير نظامية، ولمح إنساناً يعمل في الجمرك، واقترب من المحل تكاد تتقصف مفاصله، لأن لهذا الإنسان مقابل هذه المخالفات سلطاناً، فهذا المعنى دقيق جداً، وعميق جداً، ونحن في أمس الحاجة إليه، أنت حينما تستقيم على أمر الله، أنت حينما تنام ولم تؤذِ في نهارك أحداً، ولم تسئ إلى أحد، ولم تعتدِ على أحد، خالق الأرض والسماء لأن عدله مطلق، ولأن رحمته لا حدود لها ليس له عليك سلطان، فما من سبب من قِبلك يعاقبك، بدليل قول الله عز وجل:

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

[سورة سبأ: 17]

أيعقل يا عبادي أن نعاقب إنساناً مستقيماً، هذا المعنى جاء في السنة أيضاً قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا معاذ ما حق الله على عباده؟ فقال: الله ورسوله أعلم ـ أعاد عليه السؤال ثانية وثالثة إلى أن قال النبي عليه الصلاة والسلام ـ: يا معاذ حق الله على عباده أن يعبدوه وألا يشركوا به شيئاً، ثم سأله مرةً ثانية: يا معاذ ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه؟ قال: الله ورسوله أعلم ـ أعاد عليه السؤال ثانية وثالثة ثم أجاب عليه الصلاة والسلام ـ يا معاذ حق العباد على الله إذا هم عبدوه ألا يعذبهم))

[متفق عليه عن معاذ بن جبل]

ليس هناك حجة.

قضية الأمن نعمة من أعظم النعم جعلها الله خاصة بالمؤمنين :

تصور أي أب جاء ابنه من المدرسة معه أوراق علاماته، المرتبة الأولى، وثيابه نظيفة، وأخلاقه حسنة، ويخدم أمه وأخوته، هل يوجد على وجه الأرض أب يضرب هذا الابن؟ ما من سبب، ولا عقاب إلا بسبب.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

من أجل أن تطمئنوا، قضية الأمن مهمة جداً، قضية الأمن نعمة من أعظم النعم جعلها الله خاصة بالمؤمنين، قال:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

لهم الأمن وحدهم، لو قال: أولئك الأمن لهم، ولغيرهم، أما:

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

وحدهم، من أجل أن تكون مطمئناً، أنت حينما تعقد صلحاً مع الله، وحينما تخطب وده، وحينما تستقيم على أمره، وحينما لا تؤذي أحداً من خلقه، حينما لا تكذب بل تصدق، لا تخون بل تخلص، الله عز وجل يطمئنك أنت في مظلة الله عز وجل وفي رعايته، لذلك في القرآن الكريم آيات لطيفة جداً، قال:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

هذه لكل الخلق، معكم بعلمه، مع الكافر، مع الفاسق، مع القاتل، مع المجرم بعلمه، لكن هذه معية عامة، بينما المعية الخاصة، إن الله مع المؤمنين، أي معهم بالتوفيق والنصر والحفظ والهداية، إن الله مع المتقين، إن الله مع الصادقين، إن الله مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهذه معية خاصة، وإذا كان الله معك فمن عليك.

حينما تكون في معية الله يدافع عنك وينصرك ويلهمك الصواب :

والله الذي لا إله إلا هو في قلب المؤمن الصادق المستقيم من الأمن ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، قال بعض العارفين بالله: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف، الله موجود، الله فعال.

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود: 16]

أمرنا بيد الله لا بيد أعدائنا، سلامتنا وسعادتنا بيد الله، والله مطلع على أعمالنا، وعلى نوايانا، وعلى خواطرنا، وعلى سرائرنا، وعلى بواطننا، وعلى خلوتنا، وعلى جلوتنا، فلذلك أيها الأخوة المؤمن يتميز بميزة لا تعدلها أموال الدنيا، أنه ينام ناعم البال، ينام مطمئناً، بل إن الله عز وجل أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتحدى الكفار.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

أنت مع من؟ أحياناً جندي بجيش قوي جداً يشعر أن كل هذا الجيش يحميه، وأن كل هذه القوة الجبارة تصونه، وتدافع عنه، هذا إحساس ناتج من قوة جيش، وحينما يهم الإنسان أن يؤذي جندياً ينتمي إلى جيش قوي قد يكون متبصراً تماماً، لأن المضاعفات خطيرة جداً، وأنت حينما تكون جندياً لله، وحينما تكون في معية الله، وحينما تكون تحت مظلة الله، وحينما تكون مع الله معيةً خاصةً يدافع عنك، وينصرك، ويلهمك الصواب، والله البارحة حدثني أخ قصة عن كيد عظيمٍ أريد بإنسان، وضع في بيته قطعة حشيش، وجاء من وشى به أنه مدمن مخدرات، وجيء بالضابطة، واقتحمت البيت، وفتشته عن آخره ثم في نهاية المطاف عثرت على قطعة الحشيش، ودخل السجن، وكل شيء يدل على أنه يحوز هذا الحشيش، القاضي ساعة النطق بالحكم رأى وجه هذا الإنسان ليس وجه إنسان مدمن مخدرات، فأطلق سراحه، وأبطل التهمة كلها، الله عز وجل معه خيارات لا تنتهي، أحياناً يلقي في قلب الناس محبة، أحياناً يلقي في قلب الناس هيبة، أحياناً يسوق لك حادثاً مؤسفاً يكون سبب نجاتك.

الدنيا مزرعة الآخرة :

قال:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

يجب أن تعتقد اعتقاداً صارماً أن الله لا يتخلى عنك، وأن عملك عند الله محفوظ، وأن استقامتك عند الله مثمنة، وأن الذي تفعله تقرباً من الله عز وجل لن يضيع عليك، بل إن قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

وأن الدنيا مزرعة الآخرة، أيها الأخوة الكرام:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

الخالق العظيم، من بيده كل شيء، من بيده الأمراض الوبيلة، من بيده الحوادث المدمرة، من بيده الزلازل، من بيده البراكين، من بيده الصواعق، من بيده الصواريخ، من بيده الألغام، من بيده كل

شيء، لا يصيب إنساناً إلا بما يستحق، و إلا بما فعله هو بنفسه، لأن الله عز وجل لا يمكن أن يسوق شراً في نظر الناس بلا سبب من الناس.

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 165]

الله عز وجل عدله مطلق ما من شيء يصيب شيئاً إلا بعلمه :

لذلك هذا الذي ادعى أمام عمر رضي الله عنه أن الله قدَّر عليه شرب الخمر، قال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا إن قضاء الله عز وجل لن يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.

طبعاً الإنسان المتوحش الذي لا تنظمه قيم، ولا تردعه مبادئ قد يتحرك حركة عشواء، أما إله عظيم، عدله مطلق ما من شيء يصيب شيئاً إلا بعلمه.

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

[سورة الأنعام: 50]

الأمور عند الله ليست كما يتوهم الكفار، الحياة لمن كان قوياً، القوي يعطيه الحياة الدنيا، لكنه سيحاسبه حساباً عسيراً.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

أنتم لاحظوا أن إنساناً في حياته المهنية المدنية مستقيم، وفق القوانين كلها، حتى إذا أطاع أولي الأمر، ليس لأولي الأمر عليه سلطان، مستحيل، لا بد من مخالفة يبنى عليها حكم، لا بد من مخالفة يبنى عليها سجن، لا بد من مخالفة يبنى عليها حرمان، أما إنسان نظامي، ينقاد للقوانين، لا يخالف، هذا له شأن حتى عند أهل الأرض، فكيف عند الواحد الأحد، عند الديان، عند خالق الأكوان؟!!

طاعة الله ومعصيته :

أذكركم بالمثل، لأنه يوضح الآية، مادامت كل بضاعتك بمحلك التجاري صحيحة، ونظيفة، ونظامية، ومدعمة بالفواتير النظامية، لو مر ضابط جمرك هل تتحرك شعرة في جلدك؟ أبداً، لأن هذا الإنسان ليس له عليك سلطان، لأنك مستقيم، أما إذا وُجدت مخالفات كثيرة ترتعد فرائصك، وترتجف أعضاؤك، ويخاف قلبك، لأن هذا الإنسان له عليك سلطان.

مقام الألوهية هذا مقام عظيم، ومع أن الله عز وجل جل في علاه يقول لك عن ذاته: ليس لي عليك سلطان يا عبدي إذا أطعتني، معنى دقيق: يا عبدي إذا أطعتني ليس لي عليك سلطان، لذلك لما فسر المفسرون قوله تعالى:

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

[سورة سبأ: 19]

بلاد اليمن كانت بلاداً خصيبة جداً، وأحياناً تركب مركبة، تمشي مئات الكيلومترات بلاد كلها خضراء، كلها أبنية، كلها مرافق، تقول البناء متصل، أماكن خصبة، الطريق كله مرافق، وبيوت فخمة، وفنادق، ومحلات للبيع تقول: يا أخي البناء متصل، فهؤلاء في اليمن قالوا:

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

[سورة سبأ: 19]

أي اجعل هذه البلاد قاحلة، أحياناً تمشي من مدينة إلى مدينة مسافة مئة وستين كيلومتر معظمها صحراء، باعد بين أسفارنا، هل من إنسان على وجه الأرض يدعو على نفسه بالهلاك؟ لا، مستحيل، ما معنى الآية؟ قال المفسرون: أنت حينما تعصي الله يقول لسان حالك: يا رب دمرني، يا رب عاقبني، يا رب أذهب مالي دون أن تشعر، حينما يتكبر الإنسان يقول لسان حاله: يا رب دمرني، يا رب حطمني، لسان حاله يقول: يا رب أفقرني، لا أحد في الأرض يدعو على نفسه، ولكن العاصي كأن لسان حاله يقول: يا رب دمرني.

آيات كثيرة في القرآن الكريم تطمئن إلى عدل الله سبحانه :

وأنا أقول لكم أيها الأخوة: إنسان يعيش حياةً هادئة مريحةً متوازنة، إن لم يغير الله جل في علاه لا يغير، اطمئن إلى عدل الله، اطمئن إلى رحمته، إن لم تغير فالله لا يغير، أما إذا غيرت فلا بد من أن الله يغير، لذلك في بعض الأدعية الشريفة:

((اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك وغضبك.))

[رواه مسلم في الصحيح عن ابن عمر]

قد تأتي المصائب تباعاً، بثانية واحدة يفقد حركته، بثانية واحدة يفقد بصره، أعوذ بك من فجأة نقمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك، هذه الآية مطمئنة أيها الأخوة، آيات كثيرة مطمئنة، احفظوها.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الجاثية: 21]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35-36]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

آيات الرجاء يجب أن نتلوها من حين إلى آخر حتى نطمئن :

مستحيل وألف ألف مستحيل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: 20]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

خالق الأكوان:

(فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: 48]

أي مؤمن على منهج النبي عليه الصلاة والسلام هو في رعاية الله، وفي حفظه، آيات الرجاء يجب أن نتلوها من حين إلى آخر حتى نطمئن، الحقيقة السبب أن الأخطار التي نراها بأعيننا تفوق حد الخيال، أخطار ماحقة، أخطار مدمرة، فلا ينجينا من الخوف من هذه الأخطار إلا اعتصامنا بالله عز وجل، لا ينجينا من الخوف من هذه الأخطار إلا استقامتنا على أمره.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً)

البشر جميعاً يوم القيامة يأتون فرادى وحكم الله مطلق :

أحياناً إنسان يعاقبه إنسان، قد يتوسط بإنسان أقوى من المعاقب، فيعطي أمراً بالإفراج عنه، لكن القضية مع الله ليست كذلك، ما من جهة في الكون تستطيع أن تعقب على حكم الله.

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

[سورة الرعد: 41]

قد يحكم لك قاضي الصلح في القضية، يحكم لك، فيأتي قاضي الاستئناف فينقض هذا الحكم، وقد يحكم لك قاضي الاستئناف، فيأتي قاضي النقض فينقض هذا الحكم، وقد يحكم عليك حكماً مبرماً، فيأتي عفو من الملك يلغي هذا الحكم،

(لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

[سورة الرعد: 11]

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

[سورة الرعد: 41]

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً)

لذلك الناس يوم القيامة يأتون فرادى، الآن هناك شخص يأتي وحوله ملايين، حوله مئات الألوف، حوله قوة جبارة، هذا يحسب له حساب، أما البشر جميعاً يوم القيامة يأتون فرادى:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

[سورة الأنعام: 94]

لا تقبل توبة المفسد إلا إذا أصلح :

ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

(فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ)

ولكن فتح الله لهم نافذة النجاة.

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً)

حينما كان منافقاً كان مفسداً، حينما كان منافقاً كان مع الكفر على المؤمنين، حينما كان منافقاً كان كذاباً، لذلك أفسد بكذبه، وأفسد بمعاونته للكفار، وأفسد بتآمره على المؤمنين، وأفسد وَأفسد، قال:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا)

لا تقبل توبة المفسد إلا إذا أصلح.

من عظمة هذا القرآن أنه كلما يخوف الله عباده من المعاصي يبث فيهم الرجاء بالتوبة :

قال تعالى:

(تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ)

أي أطاعوه، تاب عن ذنوبه، وأصلح أخطاءه، ثم اعتصم بطاعة الله عز وجل:

(وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ)

لا خوفاً من بشر، ولا طمعاً في عطاء، ابتغاء رضوان الله، قال:

(فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

فأولئك معهم ناجون:

(فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

من عظمة هذا القرآن أنه كلما أوعد يعد، وكلما يخوف الله عباده من المعاصي يبث فيهم الرجاء بالتوبة، لأن الله عز وجل يريد أن يتوب على عباده، قال تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء: 27]

(اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة: 222]

التوبة بلا إيمان ولا استقامة لا قيمة لها إطلاقاً :

كلما زلت قدم العبد فتح الله له نافذة للتوبة:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ)

هذا المفهوم الساذج أن الله غفور رحيم، يرتكب المعاصي والآثام، والله غفور رحيم، يهون على كل إنسان معاصيه، بدعوى أن الله غفور رحيم، لكن اقرأ القرآن، مثلاً:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الحجر: 49]

أكمل:

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 49]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

[سورة الزمر: 53 -54]

أكثر من ثماني آيات.

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة النحل: 110]

هذه آية واضحة إلا الذين تابوا وأصلحوا كل أخطاء الماضي، واعتصموا بالله أطاعوه بإخلاص، وأخلصوا دينهم لله:

(فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

أي توبة بلا عمل، توبة بلا امتناع، توبة بلا ثمن، توبة بلا عزيمة، توبة بلا إصلاح، توبة بلا إيمان، توبة بلا استقامة لا قيمة لها إطلاقاً:

(الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً)

حينما نؤمن بالمعطي ونشكره على عطائه نكون قد حققنا الهدف الأكبر من وجودنا:

أيها الأخوة: ثم يقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

الحقيقة الآية دقيقة جداً، لأن علة وجودنا أن نؤمن به، وأن نسعد بقربه، فحينما نؤمن وحينما نشكر نكون قد حققنا الهدف من وجودنا، إذاً عندئذٍ تنتهي المعالجة، فلو أن طبيباً أقر باستئصال كلية واقفة عن العمل، هذا قرار حكيم، قبل إجراء العملية صور الكلية التي ينبغي أن يستأصلها فإذا هي تعمل بانتظام، هل يستأصلها؟ مستحيل، فحينما يؤمن الإنسان بالله، وحينما يشكر، حقق الهدف من وجوده، لأن الله منحه الحياة، ومنحه الجنة، ومنحه الكون، ومنحه القرآن، ومنحه العقل، ومنحه الفطرة، ومنحه الاختيار، ومنحه الشهوة الدافعة إليه، فهذا كله عطاء، فأنت حينما تؤمن بالمعطي، وحينما تشكر المعطي على عطائه تكون قد حققت الهدف الأكبر من وجودك، إذاً عندئذٍ تنتهي المعالجة:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

بل إن هذا الكون مسخر مرتين، مسخر تسخير تعريف، ومسخر تسخير تكريم، لو أن صديقاً لك أهداك هاتفاً بالغ الفوائد، أولاً أهداه لك هدية، ثم إنك دهشت بخصائصه التي من تصميمه، فأنت حيال هذه الهاتف مثلاً عندك شعوران؛ شعور التعظيم لهذا الإنجاز، ثم شعور الامتنان، لأنه قدم لك هدية، فيجب أن تعلم علم اليقين أن كل شيء في الكون مسخر لك أيها الإنسان، تسخير تعريف من أجل أن تعرف الله من خلاله، وتسخير تكريم من أجل أن تحبه على عطائه، فأنت حينما تؤمن بوجود الله، وبكماله، وبوحدانيته، وحينما تشكر نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، تكون قد حققت الهدف من وجودك، عندئذٍ هل هناك من مبرر للمعالجة والمصائب، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

المخلوق أحياناً ينتفع بتعذيب إنسان، يعذبه ليأخذ ماله، يعذبه ليأخذ زوجته، مثلاً، فالإنسان أحياناً ينتفع بتعذيب إنسان آخر، لكن خالق الأكوان لو أن عباده جميعاً كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد في ملكه شيئاً، ولو أنهم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم ما نقص في ملكه شيئاً.

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه آيات مطمئنة:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

آمن واشكر، وتنتهي المعالجة، والآية واضحة.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(63-69): تفسير الآيتان 148-149، العفو ومراتبه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-06-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر البيئة في التربية الصحيحة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والستين من دروس سورة النساء ومع الآية الثامنة والأربعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

أيها الأخوة الكرام، في هذه الآية توجيه لمجتمع المؤمنين من أجل أن يبقى نقياً طاهراً، وأن تبتعد عنه مقالة السوء، فالله سبحانه وتعالى يبين أنه:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

هناك دليل قوي على سلامة الإنسان، وسلامة نطقه، وحديثه إذا نشأ في بيئة منضبطة، لو أن ابناً نشأ في أسرة لسانها منضبط، هذا الطفل لا ينطق بكلمة سوء في كل حياته، الأسرة المنضبطة النظيفة في أقوالها وفي أفعالها تنعكس طهراً واستقامة على الأبناء، ولو نشأ طفل في بيئة منحطة، وفي أسرة متفلتة، وليست منضبطة ينطق بكلمات السوء بشكل غير طبيعي، إذاً أثر البيئة في ضبط لسان الإنسان كبير، أحياناً ينشأ الابن في أسرة نظيفة منضبطة فإذا بالأب يسمع منه فجأة كلمة نابية، يبحث من أين هذه الكلمة؟ من علمه هذا الكلام؟ ثم يكتشف أنه سمعها في الطريق من ولد متفلت، أو سمعها من رفيق في المدرسة، من طالب ليس منضبطاً بمنهج الله عز وجل، إذاً كأن الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن ننشأ في بيئة طاهرة طيبة منضبطة:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

من خصائص الإيمان الانضباط بالقول :

أيها الأخوة قد تعاشر إنساناً مؤمناً سنوات وسنوات، وقد تزيد على ثلاثين عاماً، ولا تسمع منه كلمة نابية، ولا كلمة فاحشة، ولا كلمة خسيسة، إذاً الإيمان من خصائصه الانضباط بالقول، لذلك ورد في بعض الأحاديث أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((... يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ...))

[أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم عن معاذ]

((لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه.))

[أحمد عن أنس]

وضبط اللسان من خصائص المؤمن، من صفات المؤمن.

أيها الأخوة، من عد كلامه من عمله نجا، كلامك من عملك:

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

((قذف محصنةٍ يهدم عمل مئة سنة))

[ورد في الأثر]

أحياناً طرفة فاحشة تربك الجلسة، وتذهب بخواطر الحاضرين إلى أماكن ما كان لهم أن يرتادوها لولا هذه الطرفة الخسيسة، فلذلك:

((ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء))

[الترمذي عن ابن مسعود]

الكلام الفاحش لا يمكن أن يقوله المؤمن، "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه"، الإنسان أحياناً ترتقي نفسه إلى مستوى الشريعة، فلو أن هذا الكلام ليس النطق به محرماً ما تكلم به، "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه".

سمح الله للمؤمن إذا قيل فيه سوء أن يأخذ حقه :

النقطة الأولى أيها الأخوة، نحن نتكلم بما نسمع، فإذا سمعنا الحق نطقنا به، إذا سمعنا قصص الأبطال نطقنا بها، إذا سمعنا قصص المنحرفين نطقنا بها، إذا سمعنا قصص الظالمين نطقنا بها، إذا سمعنا قصص العصاة نطقنا بها، إذا سمعنا قصص الأبطال، قصص العلماء العاملين، قصص الفاتحين، قصص القادة العظام، كان هؤلاء قدوة لنا، فشيء خطير جداً ودقيق جداً أن يكون الحديث حديث سوء، والله عز وجل أراد أن ينقي هذا المجتمع من قالة السوء. ولكن الله خبير، طبيعة النفس البشرية أنها إذا جرحت تتألم، وإذا جرحت تريد أن تأخذ حقها، ولأن هذا القرآن كلام الخبير، قال تعالى:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

اعتدى عليك إنسان بلسانه، وجرحك، واتهمك بما ليس فيك، أنت كبشر لا ترضى أن تجرح دون أن تأخذ حقك منه، لا ترضى أن تتهم اتهاماً أنت منه بريء دون أن تأخذ حقك منه، لذلك سمح الله للمؤمن إذا قيل فيه سوء أن يأخذ حقه:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

لذلك علماء الفقه استثنوا المظلوم حينما يشتكي على من ظلمه أن يتكلم للقاضي ماذا حدث دون أن يعد هذا غيبة، حينما تشتكي على إنسان ظلمك بلسانه لقاض نزيه فلك أن تقول ما قال فيك، وهذه مقالة سوء، إنك معفو من أن تؤاخذ، لأنك تأخذ حقك بهذا، إذاً:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

والعياذ بالله قد تجلس مع أناس كل حديثهم متعلق بالجنس، وكل كلماتهم ملغومة، وكل طرفهم متعلقة بالقسم الأسفل من الإنسان، وكل مزاحهم مزاح رخيص، مثل هؤلاء بعيدون عن الإيمان، والشيء المؤسف أحياناً أنك تجد أناساً من رواد المساجد إذا مزحوا مزَحوا مزاحاً رخيصاً، ومزحوا مزاحاً يخجل الإنسان أن يستمع إليه وحده، فكيف في مجموع؟!!

ضوابط ينبغي الالتزام بها لمن أراد أن يأخذ حقه ممن ظلمه :

قال تعالى:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

الآية واسعة جداً، ممنوع أن تنطق بكلمة السوء، سواء أكانت غيبة أم نميمة أم مزاحاً أم الهدف إضحاك الآخرين، الكلام السيئ الذي يجرح الأشخاص ويثير الغرائز ممنوع أن تنطق به، ممنوع بحكم الشرع، لكن بعد أن ترتقي، بعد أن تتصل بالله عز وجل، بعد أن تصطبغ نفسك بصبغة الله عز وجل، بعد أن تسمو نفسك لا يمكن أن تنطق بكلمة السوء، ولو أنها ليست محرمة، نقول عندئذٍ: هذا الإنسان ارتقت نفسه إلى مستوى الشريعة.

أيها الأخوة، ولكن أنت حينما تريد أن تأخذ حقك الذي شرعه الله لك، هناك ضوابط قال تعالى:

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)

[سورة البقرة: 194]

أما أن تقول للآخرين: سأكيل له الصاع صاعين فهذا الكلام ليس شرعياً، سأكيل له الصاع عشرة أصوع، هذا كلام جاهلي.

(جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا)

[سورة يونس: 27]

كلما صغر الإنسان عند الله ينتقم وكلما كبر يعفو :

لكن قد يجد الإنسان صعوبة بالغة في أن يأخذ حقه بالتمام والكمال، ولو كان ورعاً يخشى أن يزيد، يخشى أن يقع في الظلم، فيأخذ أكثر من حقه، لذلك فتح الله لنا باب العفو، والعفو أسلم، فحينما ترى أنه من الصعوبة بمكان أن تنال من الذي ظلمك بقدر ما ظلمك تميل إلى العفو، والله عز وجل يحب

أن تعفو عن أخيك، وقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة: أن رجلين يختصمان يوم القيامة يقول أحدهما: يا رب خذ لي مظلمة من أخي، ثم ينظر فيرى قصراً في الجنة، يقول: هذا يا رب لمن؟ فيقول الله عز وجل: هذا لمن يدفع ثمنه، قال: يا رب ومن يملك أن يدفع ثمنه؟ قال: أنت، قال: وكيف يا رب، قال: بعفوك عن أخيك.

أنت حينما تعفو عن أخيك ترتقي إلى أعلى عليين، مرتبة العفو تفوق حد الخيال، مرتبة العفو مرتبة عالية جداً، بل إن الشعور المسعد الذي يتأتى من عفوك عن أخيك هو أضعافُ أضعاف شعور الفوز حينما تنتقم، كلما صغر الإنسان عند الله ينتقم، وكلما كبر يعفو.

أهل مكة أيها الأخوة نكلوا بأصحاب النبي عشرين عاماً، ما تركوا سبيلاً لإيذاء النبي وإيذاء أصحابه إلا سلكوه، وخاضوا معه حروباً عدة، فلما فتحت مكة وكانوا في عشرة آلاف سيف متوهجة تنتظر كلمة من بين شفتي النبي عليه الصلاة والسلام، قال لهم: ما تظنون أنني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، بعد أن كان مقتدراً أن يلغي وجودهم، بعد أن ملك ناصيتهم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، سمح الله لك أن تأخذ حقك ممن ظلمك، وهذا حق مشروع، والعدل قسري، بينما العفو طوعي، ولا تنسى أنك مأمور بالإحسان كما أنك مأمور بالعدل، بدليل آية يذكرها خطباء المساجد من مئات السنين:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 90]

كما أنك مأمور بالعدل أنت مأمور بالإحسان، لكن العدل قسري، بينما الإحسان طوعي، ما كلفك فوق ما تطيق، إن أردت أن تنتقم، أو إن أردت أن تأخذ حقك ممن ظلمك، ولكن إن أردت أن تأخذ حقك فينبغي أن تأخذه بالتمام والكمال من دون زيادة، وهذا شيء ليس سهلاً، لذلك فتح لك باب العفو.

أيها الأخوة: يبدو أن بعض النفوس حينما تأخذ حقها ترتاح، هذه جبلة جبل عليها الإنسان، الشرع ليس لقلة قليلة، وليس الشرع لخواص الناس بل هو لمجموع الناس، فهناك إنسان لا يقر له قرار إلا إذا أخذ حقه ممن ظلمه، قال له: أنت، لك أن تأخذ حقك ممن ظلمك:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى سمح للذي ظلم أن يجهر بالسوء عمن ظلمه :

لكن ما الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى سمح للذي ظلم أن يجهر بالسوء عمن ظلمه؟ قال: هذا الظالم بقوله وفعله، بأخذ مال أخيه، بالاعتداء على عرض أخيه، إذا ذكر فعله السيئ تجنبه الناس، واتقاه الناس، وسلم منه الناس، إذاً هناك حكمة اجتماعية أن هذا الذي ظلم، أو الذي اختلس، أو الذي اعتدى حينما يُذكر بين الناس بفعله السيئ، حينما يقول الذي ظلم: إنه فعل معي كذا وكذا أمام

القاضي، وأمام ملأ من الناس، الناس عندئذٍ يتحاشون أن يتعاملوا معهم، إذاً وقينا المجتمع من شر هذا الإنسان.

الآن هناك حكمة ثالثة: هذا الذي ظلم حينما يظهر عمله للمجتمع، وحينما يفتضح يرتدع، ثم إن الذي يريد أن يَظلم قبل أن يَظلم يعد للمئة، لأنه إذا ظلم سوف يفتضح، إذاً حكمة بالغةٌ بالغة من أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

المظلوم ينفس عن كربه حينما يأخذ حقه، والظالم يُتَقى من قبل الآخرين فلا يتعاملون معه مرةً ثانية، والظالم نفسه حينما يفتضح عمله يكون ردعاً لبقية الظالمين أن يسيروا في الطريق، إذاً حِكَم الشرع لا تعد ولا تحصى، يعد الإنسان ذكياً وعبقرياً حينما يصيب عصفورين بحجر واحد، لكن تشريع الله عز وجل يصيب أهدافاً لا تعد ولا تحصى بحكم واحد، فالذي ظلم شفى غليله فأخذ حقه، والظالم نبهنا الناس إلى أنه ظالم لئلا يتورطوا معه، والظالم نفسه حينما يرى نتيجة عمله لا يتابع هذا الطريق، فيرتدع عن أن يظلم مرة ثانية، وهذا يذكرنا بقوله تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 179]

حينما القاتل يُقتَل، الآن قاتل آخر قبل أن يَقتل يرى مصير القاتل فلا يَقتل، فحفظ نفسه من أن يقتل، وسلم الذي كان يزمع أن يقتله من أن يُقتل، فكأن القتل للقاتل تطهير للمجتمع وحياة لهم.

المسلم عزيز لا يسمح لأحد أن ينال منه :

مرةً رأيت في إحدى محاكم الجنايات آية وضعت فوق رأس القاضي يراها المذنبون، الآية:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 179]

ووضعت آية فوق رأس المذنبين، من يقرأها؟ القاضي:

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

[سورة النساء: 58]

فهذا توجيه للقاضي، وتطييب لقلب المذنبين حينما ينزل بهم القصاص الأليم.

الآن هذه الآية:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

تذكرنا بآية ثانية:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى: 39]

إذا مسلم خنوع، مسلم يُظلم فيسكت، يؤخذ حقه فيخاف أن يطالب بحقه، هذا ليس عند الله وجيهاً، من صفات المؤمنين:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى: 39]

المسلم عزيز لا يسمح لأحد أن ينال منه، لأنه إذا نال منه في الحقيقة نال من إسلامه، ونال من دينه.

من عزة المسلم ومن كرامته عند الله أن الله سمح له إذا بغي عليه أن ينتصر :

حينما يؤذى إنسان مسلم قد يكون الإيذاء لا يستهدف هذا الإنسان بالذات بل يستهدف دينه، وهذا الذي يجري في العالم الإسلامي ليس الأشخاص هم المقصودين ولكن الدين الإسلامي هو المقصود، هناك أعمال ماكرة خبيثة يفعلها الطرف الآخر لا للتشهير بأشخاص معينين بل للتشهير بالمسلمين. فلذلك من عزة المسلم ومن كرامته عند الله عز وجل أن الله سمح له إذا بغي عليه أن ينتصر، والله عز وجل قال:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ*بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم: 4-5]

أما إذا انتصروا هنا المشكلة.

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى: 40]

ثم يلفت الله نظر المؤمنين، قال:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

لهذه الآية ملمح لطيف، حينما يغلب على ظنك أن عفوك عن أخيك يصلحه، أنت كمؤمن ينبغي أن تعفو عنه، لأنك إن عفوت عنه أنقذته من بلاء لا ينتهي وعندئذٍ يتولى الله مكافأتك، فلو فرضنا أن ملكاً قال لإنسان: أنا سأعطيك شيئاً يرضيك، ماذا يعطي؟ يعطي قلم رصاص؟ يعطي بيتاً، أقل شيء بيت، أنا أضرب المثل للتوضيح، لما الله عز وجل يقول:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

أي يا عبدي أنا أتولى مكافأتك حينما تعفو عن أخيك، وحينما تقربه إلى الله، قد يكون الطفل طائشاً، قفز أمام سيارة ودهس، طبعاً الأب من حقه أن يأخذ كل ما شرع له الشرع والقانون، لكن إذا كان السائق صالحاً وخيّراً، والخطأ ليسس منه أبداً، فجاء الأب وعفا عنه، أولاً هذا السائق حينما يرى أن في مجتمع المؤمنين من يقدر وضعهم، ومن يرحم، ومن يعفو، يتألق، في حالات حينما يغلب

على ظنك أن عفوك عن أخيك يصلحه ويقربه إلى الله، ويقربه من الإيمان، ينبغي أن تعفو عنه، العفو أيها الأخوة مرتبة عالية جداً.

بعض القصص عن عفو النبي الكريم عمن آذاه :

تروي كتب السيرة أن ثمامة بن أثال كان من ألد أعداء النبي، لم يكتفِ أنه عدو فكري، بل كان معتدياً على أصحاب النبي، وعدوانه شنيع، وقع أسيراً بيد قائد سرية، ولا يعلم من هم، فلما جاؤوا به إلى النبي عليه الصلاة والسلام، هو زعيم قوم، قال: هذا ثمامة، ربطوه إلى سارية المسجد، ومر به النبي صلى الله عليه وسلم، قال له: يا ثمامة ما عندك؟ فقال: إن تَعفُ تعفُ عن ظالم، وإن تقتلُ تقتل ذا ذنب، وإن ترد المال فلك ما تشاء، وإن تعف تعفُ عن مسيء، وإن تقتلُ تقتل ذا ذنب، منطقي، فأمر النبي أن يقدم له طعام من بيت النبي، مرة ثانية مر به في اليوم التالي سأله أيضاً: ما وراءك يا ثمامة؟ قال له: إن تقتلُ تقتل ذا ذنب، وإن تعف تعفُ عن مذنب أو عن ظالم، وإن أردت المال فلك ما تريد، في اليوم الثالث قال: أطلقوا سراحه، فخرج ثمامة إلى ظاهر المدينة، واغتسل، وعاد إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: أشهد أنك رسول الله، وكان عفو النبي عنه سبب إسلامه، وقد نكل بأصحاب رسول الله.

النبي عليه الصلاة والسلام متميز أنه يقلب العدو إلى صديق، وثمة أشخاص متميزون يقلبون الصديق إلى عدو، الإنسان الأحمق يقلب أصدقاءه إلى أعداء، والإنسان الكامل يقلب أعداءه إلى أصدقاء.

دخل رجل آخر على النبي عليه الصلاة والسلام، وقد عفا عنه، قال له: والله ما كان على وجه الأرض رجل أبغض إلي منك، ولا من دينك، ولا من بلدك، وأنا أخرج من عندك وما على وجه الأرض رجل أحب إلي منك، ومن دينك، ومن بلدك، القضية قضية أن تحبب الناس بهذا الدين لا أن تكون قاسياً.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران: 159]

على المؤمن أن يكون أمْيلاإلى العفو منه إلى الانتقام :

سيد الخلق، وحبيب الحق، الذي أوتي المعجزات، أوتي القرآن، جاءه الوحي، كان فصيح البيان، جميل الوجه، كماله رائع جداً، هذا الإنسان النبي المرسل الذي يوحى إليه، الذي معه المعجزات، طليق اللسان، الحكيم، الرحيم، اللطيف قال له: أنت يا محمد:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران: 159]

فإذا لم يكن أحدنا نبياً، ولا رسولاً، ولا يوحى إليه، ولا معه قرآن، ولا معه معجزات، وليس جميل الصورة، ولا فصيح اللسان وهو غليظ فكيف يكون الأمر؟!!

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران: 159]

أيها الأخوة، هذه الآية دقيقة:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى: 39]

فإذا انتصروا:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

أي أصلح أخاه بعفوه عنه

(فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

كن أمْيلَ إلى العفو منك إلى الانتقام.

الفرق بين أخلاق الجهاد وأخلاق الدعوة :

أحياناً أيها الأخوة: تتداخل عند المؤمن أخلاق الجهاد بأخلاق الدعوة، أخلاق الجهاد تنظمها الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

في القتال لا يلين، القتال ليس فيه: شكراً، آسف، سامحني، القتال قتال، أخلاق القتال هكذا، أما أخلاق الدعوة:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: 34]

ينبغي أن نفرق بين أخلاق الدعوة وأخلاق القتال، الآن إذا أصابك سوء من أخيك فلك ثلاث مراتب: أولاً: مرتبة لك أن تأخذ حقك منه ولا شيء عليك، وهذا من طبيعة النفس البشرية، لكن أرادك الله أن تسمو عن هذا، قال:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

[سورة آل عمران: 134]

أنت كالمرجل تغلي، لكنك كظمت غيظك، هذه مرتبة:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

[سورة آل عمران: 134]

فالإنسان في حالات كثيرة جداً يكون قوياً، والذي أساء له ضعيف، ويستطيع أن يفتته، لكن يضبط، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أخرجه وأبو داود والحاكم في المستدرك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

مراتب العفو:

في التاريخ الإسلامي بطولات رائعة، لما فتح سيدنا صلاح الدين القدس ما قتل إنساناً، بينما لما فتح الفرنجة القدس قتلوا سبعين ألفاً في أيام، ذبحوا سبعين ألفاً، فلذلك العفو مرتبة عالية جداً:

1 ـ الكاظمين الغيظ :

تبدأ:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

[سورة آل عمران: 134]

قد تكون كالمرجل، لكنك تضبط نفسك، ذلك أن:

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أخرجه وأبو داود والحاكم في المستدرك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وما الفرق بين المؤمن المنضبط وغير المؤمن المتفلت؟ غير المؤمن إن أصابته إساءة رد عليها الصاع صاعين، كفعل منعكس شرطي، أما المؤمن فعنده محاكمة، قد تأتيه إساءة فيعفو، وبعفوه يرقى عند الله عز وجل، وبعفوه يصلح أخاه، إذاً باب العفو باب عظيم.

2 ـ العافين عن الناس :

حالة ثانية بعد كظم الغيظ قال:

(وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ)

[سورة آل عمران: 134]

ليس في أعماقه حقد ولا ألم، وكلما ازداد توحيد الإنسان قلّ غيظه، وقلّ انتقامه، ويرى أن يد الله تعمل في الخفاء، وأن هذا الذي أساء إليه لو أن الله سمح له لما أساء إليه، إذاً عنده مشكلة مع الله، دائماً وأبداً المؤمن يحاسب نفسه، طبعاً إذا جاءته إساءة من إنسان بادئ ذي بدء يقول: ماذا فعلت مع الله حتى سلط الله علي هذا الإنسان؟ بل إن بعض العارفين يقول: أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، أحياناً يسلس قيادها، وأحياناً تزعج، أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، فمن بديهيات التوحيد أن المؤمن موحد، فإذا أصابه من إنسان سوء يحاكم القضية على هذه الطريقة، لو

أن هناك خللاً عندي استوجب أن يسلَّط فلانٌ علي لما سلط علي، إذاً هو يعفو، توحيده يدعوه إلى العفو.

3 - الإحسان :

لكن هناك مرتبة أعلى، أعلى من مرتبة الكاظمين الغيظ، وأعلى من مرتبة العافين عن الناس، المرتبة هي:

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة آل عمران: 134]

هل تستطيع أن تقابل أحداً أساء إليك بالإحسان وكأنه ولي حميم؟ هذا هو الإيمان، لذلك أيها الأخوة أقسم بالله العظيم لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن الآن لما خرج من مكة الإسلام، من مكة ما خرج، كيف وصل الإسلام إلى أطراف الأرض، إلى الصين شرقاً، وإلى الأطلسي غرباً، وإلى أذربيجان شمالاً، وإلى اليمن جنوباً، لأن أصحاب رسول الله كانوا في أعلى مستوى أخلاقي، القضية قضية الإيمان، الإيمان قضية أخلاقية، درجة أخلاقية، والإيمان مرتبة علمية، والإيمان مرتبة جمالية، الإيمان وصف لإنسان فذّ، بالتعبير الدقيق شخصية فذة لها مقاييس جمالية راقية جداً، ولها مقاييس أخلاقية راقية جداً، ولها مقاييس علمية راقية جداً، إذاً مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة آل عمران: 134]

أعظم نعمة أن الله معنا يسمع ويرى ويعلم :

فعود على بدء:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

الله عز وجل يسمع قولك إذا تكلمت، وعليم بحالك إذا سكت، وأنت ساكت عليم بحالك، وأنت ناطق عليم بما تقول، فلذلك قال بعضهم: الحمد لله على وجود الله، الله موجود، كم من إنسان موجود، الله يعلم أنه مظلوم، وينتصر له، ويدافع عنه، وأعظم نعمة أن الله معنا يسمع ويرى ويعلم.

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

فلذلك الله عز وجل يقول:

(وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

تكلم ما شئت، وانتقم كما تريد، واعف كما تريد، إن عفوت يعلم، إن انتقمت يعلم، إن كان انتقامك بمستوى الإساءة إليك يعلم، وإن زدت بانتقامك يعلم، وإن كان بالإمكان أن تعفو فلم تعفو يعلم:

(وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

باب العفو باب كبير جداً :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً)

قدمت عملاً طيباً لمن أساء إليك، هذا العمل محفوظ عند الله عز وجل، وقد سمعت قصة، والقصة ذكرتها لكم كثيراً فيما أذكر، وليست حكماً شرعياً، عن موقف إحسان، بداية القصة أن أحد خطباء المساجد في دمشق رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: أبلغ جارك فلاناً أنه رفيقي في الجنة، هذا الخطيب تألم، أنا خطيب، لكن المنام ليس لي بل لهذا الجار، طرق بابه، قال له: لك عندي بشارة من رسول الله، ولكني لن أقولها لك إلا إذا قلت لي ماذا فعلت مع ربك حتى استحققت هذه البشارة؟ فلما ألح عليه، قال له: والله تزوجت امرأة، أظنها صالحة، وفي الشهر الخامس من زواجي كان حملها في الأوج، إذاً هذا الطفل ليس منه، قال له: بإمكاني أن أطلقها، وكان بإمكاني أن أفضحها، وكان بإمكاني أن أركلها بقدمي، وكانَ وكان، لكن آثرت أن تتوب على يدي، وجئت بقابلة وولدتها، وحمل الطفل تحت عباءته، ودخل إلى أحد مساجد دمشق، وبعد أن نوى الإمام فريضة الفجر وضع الطفل الصغير وراء الباب، وصلى مع الناس، فلما انتهت الصلاة بكى هذا الطفل، فتحلق الناس حوله، فجاء وكأنه لا يعلم ماذا حدث، قال: خيراً، قال: انظر طفل، قال: آتوني أنا أكفله، أخذ الطفل أمام الحي، وكفله ورده إلى أمه، ليس كل الانتقام يكون لك أجر فيه، أحياناً العفو والستر والتوبة، إذا زلت قدم من يلوذ به وقدر أن يتوب فله أجر لا يعلمه إلا الله، من السهل أن تنتقم، وأن تفضح، وأن تكشف الأمر، لكن الله ستير، فهذا الإنسان يبدو أنه اقتنع أنها زلة وخطأ، وهي بنت جيدة، لكنها زلت قدمها، وأعلنت عن توبتها، فأعانها على هذه التوبة، وبهذه الطريقة أعاد ابنها إليها، وأمام الحي هو كفل طفلاً لقيطاً، قال له: قل لجارك فلان: إنه رفيقي في الجنة. باب العفو باب كبير جداً، لذلك نعود إلى أول الآية:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً*إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(64-69): تفسير الآيتان 150-151 ، الإيمان بالله والرسل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-06-13

بسم الله الرحمن الرحيم

العقل توصل إلى أن هذا الكون يحتاج إلى قوة في الحكمة والخبرة والتسيير والتنظيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً*أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

الكفر أيها الأخوة هو الستر، والإنسان حينما يستر شيئاً يؤمن به أولاً ثم يستره، فهذا الذي يكفر يحاول أن يستر شيئاً آمن به، القضية أيها الأخوة أن هذا العقل البشري إذا جال جولة في الكون يعود من جولته متيقناً أنه لا بد لهذا الكون من خالق، لا بد لهذا النظام من منظم، لا بد لهذا التسيير من مسير، لا بد لهذا العلم الذي يشف عليه الكون من عليم، لا بد لهذه الخبرة من خبير، لا بد لهذه الرحمة من رحيم، كطائر يقف على قدميه، ويحمل بيضة له، لا يتحرك، ولا يأكل، ولا يشرب أربعة أشهر، حفاظاً على هذه البيضة، لأنه يعيش في القطب الجنوبي، فإذا لامست هذه البيضة الثلج هلكت، في هذا الكون رحمة، من أودع هذه الرحمة حتى في الحيوانات؟ فهذا العقل يصل إلى أن النظام يحتاج إلى منظم، والتسيير يحتاج إلى مسير، الحكمة تحتاج إلى حكيم، الخبرة تحتاج إلى خبير، انتهى دور العقل، من هو هذا الحكيم وهذا القوي وهذا الخبير؟ توجد قوة في هذا الكون، قوة خلق، قوة نظام، قوة حكمة، قوة تسيير، الرسل عليهم صلوات الله عليهم أتوا باسم هذه القوة.

فحوى رسالات الرسل أن يكملوا تفكير العقل :

قال تعالى:

(اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأحقاف: 33]

فحوى رسالات الرسل أن يكملوا تفكير العقل، العقل توصل إلى أن هذا الكون يحتاج إلى قوة في الحكمة، والخبرة، والتدريب، والتسيير، والتنظيم، فالرسول يقول لك: هذه القوة اسمها الله، هذا الإله

ما مراده مني؟ لماذا خلقني؟ لماذا جاء بي إلى الدنيا؟ لماذا كان العمر قصيراً؟ لماذا هناك مصائب، هناك بلاء؟ لماذا هناك حروب؟ لماذا هناك موت؟ ما مراده مني؟ الرسول يقول: الله الذي خلق السماوات والأرض، هذه القوة التي توصل إليها عقلك هي الله، ما مراده مني؟ مراده أن تعبده، أن تطيعه في هذه الدنيا المحدودة كي تسعد بجنة عرضها السماوات والأرض، مراده أن تعبده، مراده أن تتوب إليه، مراده أن تستغفره، مراده أن تتبعه، مراده أن تتوكل عليه، مراده أن تصلي لأن الصلاة في حقيقتها صلةٌ بين هذا المخلوق الفاني وهذه القوة الأزلية الأبدية، فالإنسان يلغى ضعفه إذا اتصل بالقوي، ويلغى خوفه إذا اتصل بالقوي، ويلغى قلقه إذا اتصل بالقوي، فالرسول مهمته ما مراد الله من خلقه، الآن كيف يستطيع هذا الإنسان أن يطبق هذا المنهج؟ يقول الله عز وجل في القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

البيئة مهمة جداً:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

[سورة الكهف: 28]

لا يصح الإيمان بالله إلا من خلال الإيمان برسل الله :

لا يمكن الإيمان بالله إلا بالإيمان برسل الله، لو أنك تملك عقلاً وأمامك الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، قمت بجولة فكرية في هذه الآيات توصلت منها إلى الحقائق التالية: لا بد لهذا الكون من خالق، لا بد لهذا الكون من مربٍّ، لا بد لهذا الكون من مسير، انتهت مهمة العقل يأتي الرسول بما معه من كتاب، يخبرك أن هذا الذي أيقنت بوجوده هو الله، وأن الله مراده منك أن تعبده، وأنه خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض، لذلك أية محاولة للتفريق بين الإيمان بالله والإيمان برسله محاولة تضعف الإيمان، بل تشوه الإيمان، لا إله إلا الله محمد رسول الله، أي لا إله إلا الله، لا مسير للكون إلا الله، لا رافع ولا خافض، ولا معطي ولا مانع، ولا معز ولا مذل إلا الله، ما مراده منك؟ محمد رسول الله، هناك إنسان يُنتمى إليه معصوم، معه كتاب، في حديثه تبيان لهذا الكتاب، لذلك الكفار يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)

أحياناً يأتيك بأدلة على أن الله موجود ولكن لا يؤمن بالرسل، هذا نوع من الكفر، لأنه فرق بين الله ورسله، أيها الأخوة الرسل عقيدتهم واحدة، جاؤوا بكلام واحد:

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

[سورة الأعراف: 65]

هذه الآية وردت على ألسنة عدد كبير من الأنبياء:

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

[سورة الأعراف: 65]

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

تعدد الشرائع ولكن الدين واحد :

فحوى دعوة الأنبياء واحدة، الأنبياء والرسل جاؤوا بعقيدة واحدة، لذلك هذا دين الله دين الله لا يتعدد، ولكن كل أمة بحسب ظروفها، وبحسب مشكلاتها، وبحسب أمراضها، لها تشريع خاص، الشرائع تتعدد، ولكن الدين واحد، كلمة أديان غير صحيحة:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

[سورة آل عمران: 19]

إله عظيم، وكون عظيم، وفكر دقيق، هذا الكون يحتاج إلى الخالق، هذا الخالق له مراد، طاعة الخالق هو الدين، إن الدين عند الله يعني حقيقة الدين عند الله أن تعرفه، وتخضع له، هذا جوهر الدين، فلذلك أيها الأخوة لو قرأتم القرآن الكريم ما من نبي في القرآن على الإطلاق إلا ووصفه الله بأنه مسلم، لكن كل قوم لهم تشريع، الشرائع تتعدد وتتبدل، ولكن لماذا كانت شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتمة الشرائع؟ لأن الله علم أن هذه الكرة الأرضية بقاراتها الخمس المترامية سوف تصبح بلدة واحدة، أو قرية واحدة، بل بيتاً واحداً، بل غرفة واحدةً، لذلك المساوئ سوف تعمم، بهذا التواصل المذهل المشكلات التي تعاني منها بلاد بعيدة نعاني منها نحن، الانحرافات نعاني منها، أكثر القضايا التي يقلق لها الناس أصبحت في كل العالم، مرض صغير يظهر في أقصى الصين ينتقل إلى أبعد بلد غربي، فلأن العالم بعلم الله المسبق سوف يغدو غرفة واحدة عن طريق التواصل، فالأمراض واحدة، الأخطاء واحدة، المشكلات واحدة، الانحرافات واحدة، الإنسان المطّلع على الوسائل الحديثة في التواصل يذهل، أي كأن الذي يجري في الأرض كله واحد، لذلك لعلم الله المسبق بهذا التواصل الشديد، كانت رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتمة الرسالات وتشريعه لكل البشر.

معجزة النبي عليه الصلاة والسلام معجزة عقلية وهي هذا الكتاب الذي بين أيدينا :

قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ)

[سورة سبأ: 28]

بعثه الله رحمة للعالمين، لذلك كل نبي معه معجزة تتناسب مع عصره، بل إن معظم معجزات الأنبياء السابقين كانت حسية، وهذه المعجزات متعلقة بما تفوه الناس به، إذا كان هناك تفوق في

الطب فمعجزة السيد المسيح إحياء الموتى، هذا شيء فوق الطب، وإذا كان التفوق في السحر فمعجزة سيدنا موسى أن عصاه تصبح ثعباناً مبيناً، وهذا فوق السحر، ما من نبي إلا جاء بمعجزة حسية فيما تفوق قومه به، وفيها تحدٍ لهم ما بعده من تحد، لكن لأن البشرية ارتقت، وتطورت، ونمت مداركها، وتراكم علمها، فكانت معجزة النبي عليه الصلاة والسلام معجزة عقلية، هذا الكتاب الذي بين أيدينا معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، كلما تقدم العلم كشف عن جانب من الإشارات التي جاء بها القرآن قبل ألف وأربعمئة عام، وأضرب لكم مثلاً بسيطاً وهو من دلائل نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام، في حديث مقتضب يوجه النبي أصحابه إلى أن ذبح الدابة ينبغي أن يكون من أوداجها فقط دون أن يقطع رأسها، ولم يكن في عهد النبي أي مركز علمي في عصره، كالصين والهند والإغريق وأثينا، ولا بعد مئة عام، ولا بعد مئتي عام، ولا بعد خمسمئة عام، ولا بعد ألف عام ولا بعد ألف وأربعمئة عام في الأرض من مؤسسات علمية يمكن أن تكشف حكمة هذا التوجيه النبوي، لماذا نقطع أوداج الدابة دون أن نقطع رأسها؟ مع أن مسالخ الأرض ـ وهذا يرى رأي العين من خلال الصور ـ تعلق الدابة من أرجلها، ويقطع رأسها نهائياً، ولكن النبي نهانا عن قطع رأسها كيف؟ الآن كشف أن قلب الإنسان وقلب الدابة فيهما تشابه كثير، هذا القلب يتلقى أمراً لكي ينبض من مركز كهربائي مستقل عن الشبكة العامة لخطورة القلب، كما لو أن مستشفى يجري عمليات قلب، لو أن الكهرباء مرتبطة بالشبكة العامة وانقطعت الكهرباء فجأة لمات المريض، لذلك لا بد للمستشفى من توليد ذاتي، والقلب كذلك يتلقى النبض من مركز كهربائي من القلب ذاته، فإذا تعطل المركز هناك مركز احتياطي ثان، فإذا تعطل الثاني فهناك مركز احتياطي ثالث، إلا أن هذا المركز يمد القلب بالضربات النظامية، بالنبض النظامي، ثمانين نبضة في الدقيقة، الإنسان قد يواجه خطراً، قد يلحقه عدو، قد يواجه ثعباناً، فلا بد من جهد عضلي استثنائي، هذا الجهد يحتاج إلى كمية ترد إلى العضلات أكبر من الكمية الطبيعية، لا بد من أن ينبض القلب نبضاً أسرع، ليكون جريان الدم في الأوعية أسرع، لذلك إذا رأى الإنسان الخطر بشبكية العين، ثم أدركه بدماغه بحسب المفهومات السابقة، والدماغ ملك الجهاز العصبي يأمر ملكة الجهاز الهرموني وهي الغدة النخامية أن تواجه الخطر، الخطر يقوم بمواجهته، تقوم الغدتان فوق الكليتان اسمهما الكظر، الكظران، الكظر يعطي خمسة أوامر فورية، يعطي أمراً إلى القلب برفع النبض، فقد ينبض قلب الخائف مئة وثمانين نبضة، ليس هناك محرك في الأرض استطاعته تتبدل من حصانين إلى خمسين حصاناً، القلب تتبدل ضرباته من ثمانين ضربة إلى مئة وثمانين ضربة، الكظر يعطي أمر آخر للرئتين لرفع وجيبهما، فالخائف يرتفع نبض قلبه ويلهث، ثم إن هذا الكظر يعطي أمراً للأوعية الدموية من أن تضيق لمعتها كي يوفر الدم للعضلات، لا أن يكون جسم الإنسان وردي اللون، هذا أمر ثالث، فالخائف يصفر لونه، ثم إن هناك أمراً إلى الكبد بإطلاق كمية كبيرة من السكر كي يكون وقوداً لهذه الحركة الاستثنائية، هذا أمر رابع، ثم إن هناك أمراً خامساً للكبد يفرز هرمون التجلط

كي يكون الدم أقرب للزوجة منه للتميع، حتى يخرج الدم كله من ضربة واحدة، يعنينا من هذا أن الأمر الاستثنائي لرفع الدم إلى مئة وثمانين نبضة لا يأتي من المركز الذاتي للقلب، بل يأتي من الدماغ إلى الكظر إلى القلب، فلا بد من وجود الرأس موصولاً مع الدابة، الآن القلب مهمته بعد الذبح إفراغ الدم كله، فعلى ثمانين نبضة يخرج ربع الدم من الدابة، أما إذا بقي الرأس وقطعت الأوداج وجاء الأمر الاستثنائي إلى الكظر ثم إلى القلب يرتفع النبض إلى مئة وثمانين نبضة، عندئذ يخرج الدم كله خارج الدابة وهذه مهمة القلب بعد الذبح، هذا ليس من عند النبي عليه الصلاة والسلام، ولا من ثقافة النبي عليه الصلاة والسلام، ولا من بيئة النبي عليه الصلاة والسلام، ولا من معطيات بيئة النبي عليه الصلاة والسلام، إنما هو وحي يوحى.

القرآن يشهد لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام أنه رسول الله :

الصحابي الجليل سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حينما قال: ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما ذلك أنا واحد من الناس؛ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى، فالنبي حينما يحتجم ليس معنى ذلك أنها طريقة بدائية كانت في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، لا هذا كلام غير مقبول إطلاقاً، النبي عليه الصلاة والسلام توجيهاته الصحية ليست من عنده، هي وحي يوحى، ومعجزة هذا النبي الكريم معجزة عقلية، في القرآن ألف وثلاثمئة آية في كتاب الله، هذه كلها تتحدث عن الكون، عن المجرات، عن الشمس، عن القمر، عن الليل، عن الأنهار، عن الأطيار، عن الأسماك، عن النبات، عن خلق الإنسان، هذه معجزة النبي عليه الصلاة والسلام، وبشكل أدق يأتي رسول الله بمنهج افعل ولا تفعل، ما الذي يؤكد لهؤلاء الناس أن هذا الإنسان الذي يقول: أنا رسول الله هو في الحقيقة رسول الله؟ لا بد من أن يشهد الله له، وكيف يشهد الله له؟ يجري على يده خرقاً للعادات، وخرقاً لمألوف لا يستطيعه البشر مجتمعين، فإذا جاء الإنسان بهذا الخرق إذاً هذه شهادة الله لهذا الإنسان أنه رسوله، الآن الذي يشهد لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام أنه رسول الله هذا القرآن، هناك إشارات مستحيل وألف مستحيل أن تعرف قبل هذا الوقت، أستاذ علم الأجنة في بريطانيا يملي على طلابه بأنه من الثابت خلال مئة عام بأن العضلات تشكل أولاً، ثم تشكل العظام ثانياً، وله كتابٌ يسمى في أوربا إنجيل علم الأجنة، لقوته ولعراقته، يدخل على طلابه مرة ويقول: هناك حقيقة اكتشفتها تناقض ما في كتابي، ألا وهي أن العظام تتشكل أولاً، ثم تكسى بالعضلات، وعنده طالب باكستاني، قال: هذا موجود في كتابنا المقدس، صعق الأستاذ، مستحيل، حقيقةٌ أنا كشفتها بعد حين، وبعد أن استقرت هذه المقولة التي قالها في أرجاء العالم جاءه في اليوم التالي بالقرآن الكريم مترجماً مع شرحه، فلما قرأ قوله تعالى:

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون: 14]

أسلم، هذا كلام الله، إعجاز القرآن شيءٌ دقيق جداً، فلذلك الأنبياء جاؤوا بمعجزات، هذه المعجزات شهادة الله لهم أنهم أنبياء ورسل، والأنبياء جميعاً من مشكاة واحدة، لو استطعنا أن نصل إلى الكتب المقدسة السابقة كما نزلت لرأيتها متوافقة مع القرآن الكريم مئةً بالمئة، لأننا لا نفرق بين أحداً من رسله، فهذا الذي يؤمن بهذا النبي ويكفر بهذا النبي هذا نوع من الكفر.

الإسلام منهج كامل لا يقبل أن تأخذ بعضه وأن تدع بعضه الآخر :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ)

أيها الأخوة الكرام: الآن هناك دعوات مشبوهة تريد أن تفرق بين الله ورسله، نؤمن بالقرآن فقط ولا نؤمن بالسنة، مع أن السنة متممة للقرآن، مع أن السنة تفصيل للقرآن، تبيان للقرآن، لتبين للناس ما أنزل إليهم، مع أن القرآن يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

هؤلاء وهم كثر يؤمنون بالقرآن ولا يؤمنون بالسنة، هذا الإسلام منهج كامل لا يقبل أن تأخذ بعضه وأن تدع بعضه الآخر، إما أن تأخذه كله أو تدعه كله، هذا المذهب الانتقائي آخذ من الدين ما يعجبني وأدع ما لا يعجبني، هذا مذهب خطير جداً، اسمه المذهب الانتقائي، أنتقي من الدين الشيء الذي له سمعة، لا يكلف شيئاً أؤمن به، والشيء الذي يكلفني أن أضبط شهوتي لا أصدقه، بل أكفر به، فلذلك الله عز وجل يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)

قضية الدين لا تتجزأ، قضية الدين قضية واحدة لا تتجزأ، إما أن تأخذه كله الكتاب والسنة، أو لن تنتفع بهذا الدين.

قضية الإيمان بالله فطرية أما قضية أن تنفذ مراده منك فهذا هو التدين :

قال تعالى:

(وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ)

التفريق نوعان: إما أن تؤمن بالله، ولا تؤمن بالرسل، علماء كثر في العالم الغربي، أينشتاين من أكبر علماء الفيزياء الذي جاء بالنظرية النسبية قال: كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون، عليمة هي أعلم ما تكون، رحيمة هي أرحم ما تكون، حكيمة هي أحكم ما تكون، هو إنسان حي ولكنه ميت، هل آمن بالمنهج؟ لا، هل صدق المنهج؟ لا، أن تؤمن بالله الكون كله ينطق بوجود الله، بل حتى الكفار يعتقدون بأن لهذا الكون إلهاً، حتى الذين عبدوا الأصنام ماذا يقولون؟ ما

نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، قضية الإيمان بالله فطرية، أما قضية أن تنفذ مراده منك فهذا هو التدين، أن تقول لهذا الكون إله قضية فطرية، لا يختلف فيها اثنان حتى الذين كفروا، كفر أي ستر، أحياناً يكون في البيت شيء حريص ألا يراه الضيف، تستره، كأنك تكفر به، ولكن هو موجود، أنت ما سترته إلا لأنك مؤمن به بشكل أو بآخر، عندما يريد الإنسان أن ينحرف يحتاج إلى غطاء إيديولوجي، غطاء عقائدي، فمثلاً عند المسلمين الغطاء الذي يغطي الانحراف الشفاعة بمعناها الساذج، أي افعل ما شئت، نحن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، أمة محمد مرحومة، هذه عقيدة فاسدة، أنا أقول: مفهوم الشفاعة الساذج غير صحيح، كمفهوم أهل الكتاب:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً)

[سورة البقرة: 80]

فالإنسان حينما ينحرف يحتاج أن يبقى متوازناً، إذاً يبحث عن عقيدة فاسدة تغطي انحرافه، أما إذا أراد أن يقتل شعوباً بأكملها يحتاج إلى عقيدة الإلحاد، يحتاجها مع أنه ليس مؤمناً بها.

مهمة الرسول :

إنسان يبني نفسه على أنقاض البشر، يبني حياته على موتهم وعلى قتلهم، ويبني غناه على إفقارهم، يبني عزته على إذلالهم، هذا الانحراف الشديد والإجرامي لا يحتاج إلى مفهوم الشفاعة الساذج، ولا إلى مفهوم أنه لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، يحتاج إلى إنكار وجود الله كلياً، إنكار مفتعل، والدليل يوم القيامة يقول هؤلاء وهم في النار:

(إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ* انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الأنعام: 23]

أنت لمجرد أن تكفر ـ لا سمح الله ولا قدر ـ حينما تكفر أنت مؤمن بالله، تغطي شيئاً أنت مؤمن به، فقضية الإيمان بوجود الله قضية لا تقدم ولا تؤخر، حتى الذين عبدوا الأصنام، حتى الذين قصفوا هؤلاء المقهورين في أطراف الدنيا، والحرب كانت في رمضان، فلما سئل وحيد القرن: كيف تقصف في رمضان؟ قال: بدر كانت في رمضان، هناك من يفهم الدين لمصلحته، قضية الإيمان بالله وحدها من دون أن تنفذ مراده منك لا قيمة لها إطلاقاً، إذاً مهمة الرسول أن يقول لك اسم هذه القوة المتناهية، التي آمن بها عقله بالله، وأن الله مراده منك كذا وكذا، وأنك لن تستطيع تنفيذ مراده إلا بالشروط التالية:

(اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

[سورة الكهف: 28]

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة النور: 31]

المحاور الثلاث الدقيقة التي جاء بها الأنبياء :

ثلاثة محاور دقيقة جاء بها الأنبياء؛ أول محور: مَن هذه القوة الكبيرة؟ لو التقيت بعلماء غربيين لقالوا: الطبيعة، أي أنتم سميتموها الطبيعة، نحن نسميها الله، قوة حكيمة أحكم ما تكون، رحيمة أرحم ما تكون، عليمة أعلم ما تكون، هذه القوة سماها الغربيون الطبيعة، وسماها المسلمون الله جل جلاله، فالنبي يقول: الله علمٌ على الذات واجب الوجود، الذي خلق السماوات والأرض. المهمة الثانية يخبرك أنك مخلوقٌ للجنة، وهذه الدنيا مكانٌ وزمانٌ تدفع فيهما ثمن الجنة، وأن أساس سلامتك وسعادتك تطبيق تعليمات الصانع، وأن سعادتك بالاتصال به هي الصلاة، وأن هذا الجسم يحتاج إلى الصيانة فكان الصيام، هناك عبادات منها الصيام والزكاة، ومنها الصلاة، وهناك انضباط أخلاقي لا كذب، ولا غيبة، ولا نميمة، ولا غش، ولا احتيال، ولا أكل مال الناس بالباطل، وهناك مصدر لسعادتك الحقيقة: ألا بذكر الله تطمئن القلوب، هذا مرادك، فحينما لا تنفذ مراد الله منك فأنت لست مسلماً، ولست ديناً، أنت تقول: أنا مسلم، الله موجود، هذا كلام قاله الشيطان، قال: رب فبعزتك، قال له الشيطان: خلقتني، آمن به خالقاً، آمن به رباً، آمن به عزيزاً، وآمن باليوم الآخر:

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف: 14]

فلذلك الذي يفرق بين الله ورسله، يؤمن بالله خالقاً لهذا الكون، ولا يستجيب لمراد الله منه، مراد الله أن تعبده، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، مراده منك أن تعبده، ولكن لا تستطيع إلا بشروط إذا تحققت، كن مع الصادقين، مستحيل أن تجلس مع أناس متفلتين، زناة، شاربي خمر، يحبون الحياة الدنيا، دينهم مصلحتهم، أن تعيش معهم، وأن تحبهم، وأن تتجانس معهم، ثم تقول: وأنا مقصر! طبعاً مقصر:

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف: 14]

هناك توجيهات قرآنية، كيف تستطيع أن تضل إلى هذا المستوى؟ أنا أقول لك مثلاً: هذا هو الكتاب المقرر على أن تأتي بثمانين علامة من مئة مثلاً، فتقول: كيف أدرس؟ أقول لك: لا بد من تفرغ، لا بد من عشر ساعات في اليوم، لا بد من أستاذ، لا بد من كتب أمامك، قواميس، وكتب، وما شابه ذلك، ففي مع الأنبياء ثلاثة توجيهات، اسم هذه القوة المطلقة، ثم مرادها منك، ثم الشروط التي إذا حققتها وصلت إلى تطبيق مراده منك.

الإسلام لا يفتقر إلى من يمجد به بل يحتاج إلى من يطبق منهجه :

الكفار نوعان: نوع يؤمن بالله فقط، ولا يعبأ برسالات الأنبياء، وأصبح لدينا شيء اسمه إسلام فكري، باعتبار كل المذاهب الوضعية سقطت في الوحل، ليس هناك مذهب وضعي إلا وأصبح في الوحل، ساحة القيم فارغة إلا من قيم الدين الإسلامي، ساحة المبادئ فارغة إلا من مبادئ الدين الإسلامي، باعتبار كل شيء سقط وأصبح في الوحل، ولم يبق إلا الإسلام، فهؤلاء الذين يريدون التألق يتكلمون بالإسلام، لكنه كلام فكري فقط، سماه بعضهم إسلام صالونات، أحدهم لا يصلي ولا يصوم يتكلم عن أحقية هذا الدين، وعن أن هذا القرآن عظيم، وعن أن الإسلام منهج للبشرية، وأصبح هناك خلفية بشرية، وأرضية إسلامية، وتوجه إسلامي، وعاطفة إسلامية، ومنطلق إسلامي، وهموم إسلامية، ولكن لا يوجد إسلام إطلاقاً، العبرة من هذا الدرس أيها الأخوة إن لم تحقق مراد الله منك فلست مسلماً، أن تقول: الإسلام دين عظيم، فالإسلام غني عن أن تعظمه هو عظيم، إن قلت: إنه عظيم فهو عظيم، وإن قلت: ليس عظيماً هو عظيم، الإسلام لا يفتقر إلى من يمجد به الإسلام يحتاج إلى من يطبق منهجه.

(وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ)

عين ملك رئيس وزارة، وهذا الوزير مع وزرائه، وله مؤسسة تابعة لوزير، الملك بعد سنتين أو ثلاث سنوات غيّر الوزارة، أقال رئيس الوزارة والوزراء، وعين رئيس وزارة جديد ووزراء، فتغير الوزير الذي تتبع له هذه المؤسسة، قال المدير: لا، أنا لا أعترف بهذه المؤسسة، أنا علاقتي مع السابق، فأنت مستعص، أنت بهذا تكفر بحكمة الملك، تكفر بأمر الملك، تكفر بتوجيه الملك، الملك غير الوزارة، في هذه المرحلة تشكلت وزارة جديدة، فهذا الذي يؤمن برسول ويكفر بالثاني هذا كفر، قال:

(وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً)

حينما ينتفع الإنسان من مبدأ من الغباء أن تناقشه لأنه لا يُناقش :

الدين أرادوه ورقة رابحة في أيديهم، الحقيقة هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، أنا أضرب مثلاً صارخاً، وجد أحدهم أمامه على الطاولة ورقة فارغة، مستطيلة الشكل، فاستخدمها كمسودة، جمع، وطرح، وضرب، ثم مزقها، وألقاها في المهملات، التمزيق كامل، أو فرمها بآلة الفرم، ثم اكتشف أن هذه الورقة شيك بمليون دولار، هو استخدمها، ولكن لم يستخدمها بمليون دولار، استخدمها كورقة مسودة، انتفع بها واحداً من مليار المليار من قيمتها، فهذا الذي يتعامل مع الدين كورقة رابحة بيده هذا يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، فهؤلاء لماذا يؤمنون بهذا الرسول ويكفرون بهذا الرسول؟ ليتخذوا بين ذلك

سبيل إلى أهوائهم، وإلى حظوظهم من الدنيا، كل إنسان منتفع لا يناقش أساساً، أنا كنت أضرب مثلاً، وهو مثل طريف، أن إنساناً يعمل في حمل الأشياء، وعنده دابة، وقد ماتت هذه الدابة، فقد مورد رزقه كلياً، وكاد يموت من الجوع، هذه الدابة دفنها في مكان، وأقام عليها أربعة جدران وقبة خضراء، وسماها باسم ولي، وجاء الناس إلى هذا المقام، وأغدقوا عليه من أعطياتهم، ومن اللحوم والخرفان، فعاش حياةً تفوق حد الخيال، هل يمكن لجهة في الأرض أن تقنعه أن المدفون هنا دابة، هو دفنها بيده، لكن المنتفع لا يناقش، فالإنسان أحياناً ينتفع من مبدأ يعيش في بحبوحة كبيرة جداً، ما من قوة تقنعه أن المبدأ غلط، مستحيل، فأحياناً الإنسان ينتفع بدعوة معينة، فإذا رأى الحق تمسك بالباطل حفاظاً على مصالحه، قال: يريدون أن يتخذوا إلى ذلك سبيلاً لتحقيق مصالحهم، نؤمن بهذا الرسول وبهذا لا نؤمن، فلذلك حينما ينتفع الإنسان من مبدأ لا يناقش، ونوع من الغباء أن تناقشه، قال:

(أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

كلمة

(الْكَافِرُونَ حَقّاً)

أي كفرهم هذا أشد أنواع الكفر، كيف؟ إذا كفر الإنسان بالأنبياء جميعاً يعني لم يعتقد أن لهذا الكون إلهاً، ولم يعبأ بهذه الرسالة، أما هو فمؤمن بدين معين، مؤمن بشيء اسمه إله، وجنة، ونار، ووحي، وكتاب مقدس، ونبي، ثم هو يكفر بنبي، ثم هو يكفر بنبي آخر، هو ليس بعيداً عن هذه الأجواء، الإنسان فرضاً أستاذ جامعي، فحينما يرتكب خطأ كبيراً جداً علمي، هو ضمن العلم وضمن الأسباب والمسببات، ضمن الأدلة والبراهين، ليس بعيداً عن الأدلة والبراهين، فإذا جاء بشيء ليس له برهان إطلاقاً فالعمل غير مقبول منه إطلاقاً.

لا يقبل إسلام مسلم إن لم يؤمن بجميع الأنبياء السابقين :

فيا أيها الأخوة إذا كفر الإنسان بكل الأنبياء لعل كفره أقل من أن يكون على اطلاع بتفاصيل الدين، والوحي، والرسول، والكتاب المقدس، ثم يكفر بدين فيه أدلته، وفيه معجزاته، وفيه تأكيداته، وهو من الناموس الأكبر الذي جاء به الأنبياء كلهم :

(أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

هناك عذاب عظيم، وهناك عذاب أليم، وعذاب مهين، لأنه لم يعبأ برسالته كلها:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة: 285]

أساساً لا يقبل إسلام مسلم إن لم يؤمن بجميع الأنبياء السابقين نبيّاً نبياً، والله عز وجل يقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(65-69): تفسير الآيتان 153-154 ، الهدى والإيمان قرار داخلي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-06-20

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من ذكر ما حدث لبني إسرائيل مع نبيهم موسى في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثالثة والخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً)

نحن أمام مجموعة آيات تتحدث عن بني إسرائيل، وقد يسأل أحدنا " ما الحكمة وما الغاية من أن يرد في القرآن الكريم ماذا حدث لبني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم؟ الحقيقة هم أهل كتاب، وإن المنزلقات التي انزلقوا بها كثيرة، والمسلمون يمكن أن ينزلقوا في المنزلقات نفسها، كيف؟ لماذا أهلك الله أهل إسرائيل؟ قال: لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، فحينما تطبق الحدود على ضعاف الناس، وينجو منها كبارهم فهذا منزلق خطير وقع فيه بنو إسرائيل فأهلكهم الله عز وجل.

ماذا فعل بنو إسرائيل؟ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، كأن إنكار المنكر ألغي في حياتهم، فهناك مداهنة ومجادلة على حساب الدين، فلذلك أهلكهم الله عز وجل، ونحن حينما ننزلق في المنزلق نفسه فلا نأمر بالمعروف ولا ننهى عن المنكر، أو لا نتناهى عن منكرات نفعلها، نستوجب سخط الله عز وجل. فالحكمة البالغة من إيراد قصص بني إسرائيل وتعنتهم وجمودهم وحرفية فهمهم، وأنهم نسبوا الظلم إلى الله عز وجل، وقالوا: قلوبنا غلف، هكذا خلقنا، إن معظم الأمراض التي أصابت بني إسرائيل هي في الحقيقة متفشية في عالم المسلمين، وكأن هذا أسلوب بليغ: إياك أعني واسمعي يا جارة.

مقام النبوة مقام محدد :

هؤلاء بنو إسرائيل أو أهل الكتاب، يقول الله عنهم:

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ)

الحقيقة السؤال فيه خطأ ينبغي أن يقولوا: يسألك أهل الكتاب أن تسأل الله أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، ذلك لأن مقام النبوة مقام محدد:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة الأعراف: 188]

أول بند:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

[سورة الأعراف: 188]

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام:15]

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً)

[سورة الجن: 21]

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأنعام: 50]

سبب تكذيب اليهود للقرآن :

هذا حجم النبوة لا يعلم الغيب، ولا يملك النفع ولا الضر لا لغيره ولا لنفسه، وهو لو أنه لا سمح الله ولا قدر عصى الله له عذاب عظيم:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام: 15]

هؤلاء أهل كتاب صدقوا أن التوراة أنزلت على سيدنا موسى فلمَ يكذبون بالقرآن؟ في عالمهم الديني كتاب منزل من السماء، لكن أرادوا أن يتعنتوا، وأن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يروا كتاباً من السماء يهبط.

هم حينما قرؤوا القرآن وهم أهل بلاغة وبيان لم يستطيعوا أن يجدوا فيه مأخذاً واحداً، ولو وجدوا مأخذاً في اللغة لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها، ولكن بلاغة القرآن أسكتتهم، إذاً لا بد من حيلة أخرى، لماذا أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام وقالوا:

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)

[سورة الزخرف: 31]

رأوه فقيراً، بمقاييس الأغنياء لا بد من أن يكون غنياً، ثم أرادوا أن يكون القرآن منزلاً دفعة واحدة، جملة واحدة، إذاً هم أرادوا أن يبقوا مع أهوائهم وشهواتهم، فحينما صعقهم القرآن بإعجازه وبلاغته اعترضوا على أنه نزل على رجل فقير، ثم اعترضوا على أنه نزل منجماً:

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنْ السَّمَاءِ)

وكأنه الله سبحانه وتعالى يخفف عن رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول له: يا محمد لا تحزن، لقد سألوا نبيهم ما هو أكبر من ذلك، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك:

(فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ)

لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقوي نبيه عليه الصلاة والسلام، ثم يريد أن يخفف عنه الحزن الذي ينتابه حينما يكذَّب من قبل قومه.

إن أردت الحقيقة فأصغر شيء يدلك عليها :

إذاً إذا كان الإنسان في الأصل متبعاً لشهوته، وجاءه الحق، وليس له رد على هذا الحق يأتي باعتراضات سخيفة وجانبية ليبرر لنفسه بقاءه على باطله:

(فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً)

قالوا: يا إمام، متى كان الله؟ فقال: ومتى لم يكن؟!!

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

* * *

(فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ)

هذا تعنت ثم:

(ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ)

حينما لا يُعمل الإنسان عقله في آيات الله الكونية قد تأتيه النصوص وفجأة ينتكس، رأوا بأعينهم كيف أن موسى عليه السلام ضرب البحر بعصاه فأصبح طريقاً يبساً، رأوا بأعينهم كيف أن العصا أصبحت ثعباناً مبيناً، رأوا بأعينهم آيات بينات، رأوا معجزات حسية، ومع ذلك حينما مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

[سورة الأعراف: 138]

إذاً هم ما أرادوا الحق، هذا الكلام يوجد منه استنباط لطيف: إن أردت الحقيقة فأصغر شيء يدلك عليها، هو قرار داخلي.

الهدى والإيمان قرار داخلي :

إن أردت أن تعرف الحقيقة فالبعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير؟ وإن لم ترد الحقيقة لو

كنت في أضخم قاعدة فضاء بالأرض، ورأيت المجرات بأم عينك من خلال التلسكوبات، لو كنت في مجهر إلكتروني تكبر الخلية أربعين ألف مرة، وترى الخلية عالماً قائماً بذاته، لو كنت في أرقى الأمكنة العلمية بالأرض، ولم تؤمن بالله، أو لم ترد الحقيقة لا تنتفع بكل هذه الحقائق، وللتقريب آلة تصوير بدائية جداً، إذا كان فيها فيلم تلتقط الصورة، بدائية جداً، وائتِ بأرقى آلة في الأرض، وليكن ثمنها فوق المليون، إن لم يكن فيها هذا الفيلم لا قيمة لها، أنت إذا أردت الحقيقة فكأن فيلماً في آلتك تنطبع عليه الحقائق، وإن لم ترد الحقيقة مهما تكن عبقرياً وذكياً فإنك لن تؤمن بالله عز وجل، لذلك الهدى قرار داخلي، وهذه الفكرة تفسر آيات كثيرة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة البقرة: 248]

إن أردت الإيمان هذه آية تعرفك بالله، أما إن لم ترد الإيمان فكل آيات الأرض لا تدلك على الله، لأنك ما أردت الإيمان بالله، حقيقة دقيقة: الإيمان قرار داخلي، صدق في الطلب، بحث عن الحقيقة، إن كان ذلك متوفراً فأقل الأدلة يوصلك إلى الله، وإن لم ترد الحقيقة يوجد الآن مخابر، يوجد مجاهر، يوجد تلسكوبات، يوجد مراكز علمية في العالم فيها شيء لا يصدق، وهؤلاء الذين في هذه المراكز الفضائية، ويرون كل يوم مجرة تأخذ بالألباب، هؤلاء الذين فوق المجاهر الإلكترونية ويرون دقائق بنية النسج البشرية لا يتأثرون، لأن آلتهم على أنها غالية جداً ليس فيها فيلم تنطبع عليه الحقائق.

كلما ارتقى الإنسان في سلم الإنسانية قاده البيان وكلما هبط قادته الوقائع :

قال تعالى:

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ)

عبدوا صنماً بعد أن رأوا آيات الله الصارخة:

(فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً)

آتيناه المعجزات التي خضعت لها رقاب المتعنتين، ثم إن الله سبحانه وتعالى نوّع أساليب هدايتهم، هم لا يخافون إلا بأعينهم، الإنسان أيها الأخوة إما أن يخاف بعقله، وإما أن يخاف بعينيه، كلما ارتقى في سلم الإنسانية خاف بعقله، وكلما هبط إلى مستوى البهيمية خاف بعينيه، والدليل أضرب هذا المثل: إنسان مسافر إلى حمص في أيام الشتاء، وفي أيام الثلوج، فإن رأى لوحة في عدرا أن الطريق في حمص مغلق في النبك بسبب تراكم الثلوج، واللوحة موضوعة في عدرا ماذا يفعل؟ يعود، ما الذي حركه؟ البيان، لو أن دابة تمشي أين تقف؟ في النبك، ما الذي يحركها؟ الواقع، كلما ارتقيت في سلم الإنسانية قادك البيان، وكلما هبط الإنسان إلى درجات البهيمية قادته الوقائع، فكل

إنسان مثلاً حينما يدخن، ثم يصاب بمرض خبيث في رئتيه يقلع عن الدخان، لكن من هو الإنسان الراقي؟ هو الذي إذا قرأ بحثاً عن الدخان، أو قرأ حكماً شرعياً عن الدخان أقلع عنه، حركه البيان ولم يقهره الواقع، فنحن نؤمن بالغيب، لكن كل البشر هذه الملايين المملينة، الستة آلاف مليون يعيشون لحظتهم، يعيشون شهواتهم، لكن كلهم عند الموت سوف يؤمنون بما آمن به الأنبياء والمرسلون، ولكن بعد فوات الأوان، فالبطولة أن تؤمن بالغيب.

الواقع أمام المؤمن ملموس لكنه أعرض عنه وابتغى الآخرة :

أخواننا الكرام، الدنيا محسوسة تراها بعينك، ترى قصراً منيفاً، ترى امرأة جميلة، ترى سيارة فارهة، ترى طعاماً نفيساً، ترى عزاً وسلطاناً، هذا تراه بعينك، أما الآخرة فليست محسوسة، الآخرة مخبر عنها فقط، لذلك حينما يحكمك البيان هذا القرآن، وتصدقه، وتستقيم على أمر الله، وتعمل للآخرة فأنت ارتقيت إلى مستوى الإنسان، لم يكن الواقع هو المحرك لك، الذي حركك البيان الإلهي، هذا هو المؤمن، الواقع أمامه ملموس، لكنه أعرض عنه، وابتغى الآخرة:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)

[سورة الإسراء: 19]

الدنيا محسوسة، لو أن الآخرة محسوسة لاستقام الناس على أمر الله، وليس لهم أجر إطلاقاً، ضع إنساناً أمام خيارين؛ رصاصة تقتله، أو مئة ألف دولار يأخذها؟ كم من شخص يختار الرصاصة؟ ولا شخص بالأرض، لو كان الأمران محسوسين لاخترت الآخرة، ولكن رقيك في الآخرة بسبب أن الآخرة خبر فقط، أما الدنيا فتراها بعينك محسوسة، فلذلك هذا الذي يؤمن بالغيب، يقرأ القرآن، يؤمن أنه كلام الله من إعجازه، يؤمن أن الذي جاء به رسول الله من قرآنه، يؤمن بأن الله موجود من كونه، هذا هو الإيمان بالغيب، فاستقام على أمر الله، له أجر لا يعلمه إلا الله.

الفرق بين المؤمن والشارد عن الله عز وجل :

قال تعالى:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة: 3]

ما الفرق بين هؤلاء وبين الشاردين عن الله عز وجل، رأى امرأة فاستغرق في التأمل في محاسنها، رأى مالاً فأخذه بحق أو بغير حق، يعيش لحظته، تحركه شهواته، لا يرى أبعد من أنفه، هذا هو الإنسان الشارد عن الله عز وجل، أما المؤمن فيرى هدفه البعيد، وينسجم معه، ففي كل تفاصيل حياته يتبع منهج الله عز وجل، هؤلاء طبق الله عليهم مبدأ الشدة:

(وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ)

[سورة البقرة: 63]

الجبل:

(وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً)

(وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

أي اخضعوا لمنهج الله عز وجل:

(وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)

[سورة البقرة: 189]

(وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

يوجد نقطة دقيقة جداً، أرجو الله أن يوفقني بشرحها، أحياناً تكون في ضائقة شديدة، وأبواب الحرام كلها مفتحة، وباب الحلال مغلق، هذا امتحان صعب وكبير، كان من الممكن أن تغلق أمامك أبواب الحرام، وأن تفتح أبواب الحلال، إذاً أنت لم تمتحن، فحينما تغلق أبواب الحلال، وتفتح أبواب الحرام تقول: أنا مضطر، عندي أولاد، ماذا أفعل؟ بلوى عامة، الله يغفر لي إن شاء الله، لو أنك صبرت قليلاً وقلت: والله لا آكل الحرام ولو مت من الجوع، الله الغني، والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أدع هذا الدين ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه، لجاءتك الدنيا وهي راغمة.

من سياسة الله مع خلقه أنه يضع أمامنا عقبات :

إخواننا الكرام: من سياسة الله مع خلقه أنه يضع أمامك عقبات، أمور الحرام سهلة، لو أن الحلال سهل جداً، وأن الحرام صعب جداً لأقبل الناس على الحلال لا حباً بالله ولا طاعة له ولا ابتغاء الجنة، ما لهم أجر، لكن شاءت حكمة الله أن يكون الحلال صعباً والحرام سهلاً، أي امرأة تعمل طوال النهار لتأخذ بضع مئات من الليرات، بينما تأخذ بغيّ أضعاف مضاعفة عن هذا المبلغ بمعصية تغضب الله عز وجل. فلحكمة بالغة بالغةٍ جعل المال الحرام سهلاً، تهريب كيلو مخدرات يغني ولد ولدك، لكن ماذا يفعل هذا الكيلو بهؤلاء الشباب؟ يدمر أسراً، أما التجارة الشرعية فمتعبة، وطريقها طويل، تعمل ليلاً نهاراً كي يأتي مصروفك فقط، هذا امتحان الدنيا، نحن في دار امتحان، فلذلك بنو إسرائيل امتحنوا، حرم عليهم الصيد يوم السبت، ويوم السبت الحيتان تتجول، وظاهرة وكأنها سفن، ممنوع أن يصطادوها، في أيام الصيد لا يوجد حيتان، هذا امتحان مطبق دائماً، طبعاً ليس دائماً هذا الامتحان، وإنما هو مؤقت، الحلال صعب، والحرام سهل، يأتي إنسان يقول: والله لا أفعل معصية ولو مت من الجوع، حينما يرى الله منه هذا الصدق، وهذا الورع يخضعه لقوانين لا يعلمها، قوانين العناية الإلهية، أي إنسان يبيع الخمر غلته مليون في اليوم مثلاً، تاب إلى الله

أصبحت غلته خمسة آلاف، لماذا هذا الهبوط؟ امتحان صعب، مع بيع الخمر يوجد مبلغ ضخم، من دون خمر لا يوجد شيء، فإذا قال: والله لا أعصي الله، وأنا أرضى بالكفاف من العيش، وأن يكون الله راضياً عني، وصلت إلى هذا المستوى، الآن يخضعك الله لمنظومة قوانين أنا أسميها قوانين العناية الإلهية، فإذا بالله يغنيك غنى كبيراً، وأنت في طاعته، ما الذي حصل؟ بلغت مرتبة العابدين في طاعتك لله، وجاءتك الدنيا وهي راغمة، لذلك:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

من ترك الحرام يعوضه الله خيراً منه :

الامتحان ليس سهلاً، أحياناً دخل كبير، حدثني أخ قال لي: أقسم بالله لا أجد مبلغاً لأدفع رسوم سيارتي، عنده معمل موقوف نهائياً، لا يوجد معه رواتب العمال، جاءه عرض بحسب الحسابات البسيطة يأتيه من هذا العرض بضعة ملايين، لكن تصنيع شيء لا يرضي الله عز وجل، محرم، فجاء وسألني، قلت له: هذا امتحان صعب، لكنك إذا تركت الحرام عوضك الله خيراً منه، فقال: لا، وبقي على الشدة التي هو فيها، وبعد حين جاءه عرض آخر كله حلال في حلال واغتنى:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

(وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمْ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ)

فصنعوا أحواضاً يدخلها الحيتان يوم السبت ويغلقونها، يصطادونها يوم الأحد، انتهت العملية، وهذه الحيل التي يفعلها معظم المسلمين في شتى شؤون حياتهم هي سبب هلاكهم عند الله عز وجل.

(وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

أيها الأخوة، نتابع هذا الآيات في الدرس القادم إن شاء الله تعالى، أسأل الله التوفيق لكم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(66-69): تفسير الآيات 155-162 ، قصة السيد المسيح مع قومه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-06-27

بسم الله الرحمن الرحيم

من فضل الله عز وجل أنه يبين لعباده الأسباب التي وراء أفعاله :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الخامسة والخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً)

أيها الأخوة الكرام، من فضل الله عز وجل أنه يبين لعباده الأسباب التي وراء أفعاله؛ إن إكراماً أو عقاباً، هذا فضل من الله عز وجل، فلو أن أباً ضرب ابنه ضرباً مبرحاً، ولم يذكر له لماذا ضربه، هل يعد الأب مربياً؟ الضرب ليس له معنى، أما حينما يقول له: يا بني فعلت كذا وكذا وكذا، ونبهتك مراراً، وأنذرتك، وشجعتك، وحذرتك فلم تنتبه، فهذا عقابك.

فالله عز وجل يبين في هذه الآية لماذا غضب على هؤلاء قال:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ)

بنقضهم ميثاقهم أي بسبب نقضهم ميثاقهم، ما استفهامية، أي كل أنواع المواثيق نقضوها:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ)

والميثاق هو العهد، وأوضح مثل الإنسان حينما يؤدي عمرة، أو يؤدي فريضة الحج، ويقف أمام الحجر الأسود يعاهد الله على طاعته، يا رب عهداً على طاعتك، عهداً أن أطبق سنة نبيك، عهداً أن أتوب إليك.

وسائل القربى من الله عز وجل :

ما من إنسان إلا وله عهد مع الله عز وجل، فالمؤمن يحافظ على عهده، والله عز وجل يقول:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 102]

من خصائص إيمانك أنك إذا عاهدت الله عز وجل تحافظ على هذا العهد، وكل إنسان في ساعة صفاء عقد توبة مع الله عز وجل، عاهد الله على شيء، نذر شيئاً، إذا كان مؤمناً حقاً يفي بوعده، يقول الله عز وجل عن نبي كريم:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

يقول عن نبي آخر:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

[سورة ص: 44]

أن تكون صابراً، أن تكون وفياً، أن تكون صادقاً، هذه وسائل القربى من الله عز وجل، هذا الذي يرفعك عند الله عز وجل:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ)

من علامة الإيمان الوفاء بالعهد :

كم من إنسان وقع في مشكلة وفي ورطة كبيرة في أثناء الشدة عاهد الله أن يتوب، عاهد الله ألا يعود إلى هذه المعصية، فبعد أن يزيل الله عنه هذه الشدة يعود إلى ما كان عليه.

هذه صفة وجدت في اليهود، بل وفي أهل الكتاب، ويمكن أن توجد في المسلمين، دقق أيها الأخ أنك إذا عاهدت الله عز وجل وقت الشدة والمحنة، عاهدته على الطاعة، عاهدته على العمل الصالح، عاهدته على المحافظة على الصلاة، عاهدته على إنفاق المال، عاهدته على غض البصر، هذا عهد، ومن علامة إيمانك أنك تفي هذا العهد.

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

لكن عامة الناس يقول الله عنهم:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 102]

أي بسبب نقضهم كل عهودهم ومواثيقهم ساق الله لهم ما ساق من شدة، سبب آخر:

(وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

هذه الآيات هي الطريق الموصل إلى الله، يقول الله عز وجل:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية: 6]

يريد أن ينال شهادة من دون أن يدخل مدرسة، مستحيل، الله عز وجل جعل لكل شيء طريقاً، فآيات الله طريق الإيمان به، هناك آيات تكوينية، آيات كونية، آيات قرآنية، مجمل آيات الله هي

الطريق الموصل إلى الإيمان به، فحينما يستهزئ الإنسان بآية كونية، أو بآية قرآنية، أو بآية تكوينية معنى ذلك أراد أن يسلك طريقاً غير موصل، مشى في طريق مسدود، فكيف يأتيه الله عز وجل؟ أي بشكل أو بآخر الدولة رسمت للإنسان طريقاً لكي يكون طبيباً، يحتاج إلى شهادة ثانوية، إلى مجموع معين، إلى أن ينتسب إلى كلية الطب، أول سنة علوم عامة، السنة الثانية تشريح وصفي، السنة الثالثة فيزيولوجيا، السنة الرابعة علم الأمراض، السنة الخامسة علم الأدوية، أخذ شهادة أولى في اختصاص، لا يستطيع إنسان أن يفتح عيادة، ويضع لافتة، ويسمي نفسه طبيباً، إن لم يسلك هذا الطريق.

المصيبة رسالة من الله :

الله عز وجل رسم للإيمان به طريق الآيات، فمن كفر بها فقد مشى في طريق مسدود:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

الشيء الذي ترونه أحياناً أنك كلما فسرت زلزالاً أحياناً، أو فقراً، أو اجتياحاً، أو حرباً أهلية، أو جفافاً، أو قحطاً، أو صاعقةً، أو بركاناً، فقراً فسرته تفسيراً توحيدياً يشير إلى أن الله عز وجل غني عن تعذيبنا، ولكن إذا عذبنا فهذه رسالة لنا، الله عز وجل حينما قال:

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

[سورة طه: 134]

معنى ذلك أن المصيبة رسالة من الله عز وجل، سمعت بالأخبار أن عملاً موجهاً ضد مؤسسة، فصاحب المؤسسة جاء واطلع على التخريب، قال: وصلتني الرسالة، عدها رسالة.

الله عز وجل حينما يسوق مصيبةً، حينما يسوق جفافاً، حينما يسوق قحطاً، حينما يسلط عدواً يأخذ ما في أيدي المسلمين، حينما تؤخذ ثرواتهم، حينما يحكمون، حينما تجتاح أراضيهم هذه رسالة من الله عز وجل، لكن نحن لا نقبل بهذا، نقاومه، لكن بالأساس رسالة، الإنسان كلما كان قريباً من الله عز وجل بالتعبير الدارج يفهم على الله، يفهم أن هذا الذي ساقه الله إليه رسالة منه، وينبغي أن يعي الرسالة، وأن يأخذ الموقف الكامل منها، لأنه من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر.

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

[سورة طه: 134]

لا ينبغي أن نفهم الحوادث فهماً أرضياً شركياً بل فهماً توحيدياً علوياً :

لذلك حينما قال بعض المفسرين في قوله تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر: 37]

فقالوا: النذير هو القرآن، والنذير هو النبي العدنان، والنذير سن الأربعين، والنذير الشيب، والنذير المصائب، المصيبة رسالة من الله، أن يا عبدي أنت في طريق غير صحيح، أنت في طريق لا يؤدي بك إلى السعادة، هذه رسالة:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

المصيبة من آيات الله، والشمس والقمر من آيات الله، وما يسوق الله لعباده من مصائب من آيات الله، فينبغي أن نفهم الحوادث لا فهماً أرضياً شركياً، ينبغي أن نفهمها فهماً توحيدياً علوياً، والبطولة لا في أن ينتهي إلى علمك ما حدث، هذا يستطيعه كل إنسان على وجه الأرض، أحداث الحادي عشر من أيلول هل بقي في الأرض كلها إنسان واحد لم ينته إلى علمه هذا الحدث؟ لكن أين يتفاوت الناس؟ في تحليل هذا الحدث، في تفسيره، فلذلك قد تكون الآيات التكوينية، أي أفعال الله التي تعد شدةً في حق البشر هي رسالة من الله، قد تعد هذه آية من آيات الله الدالة على ألوهيته، وعلى تربيته، وعلى رحمته والدليل:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام: 147]

تقتضي رحمته الواسعة ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

ما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة :

أخواننا الكرام، أضع بين أيديكم هذا المثل: أب يمشي في الطريق، رأى ابنه، وابن أخيه، وصديق ابنه يدخنون، يغلي على من؟ على ابنه، وقد يضربه، ويقول لابن أخيه: سأقول لأبيك، أما الثالث فيقول له: اذهب، الغليان على من؟ على ابنه، كلما كان هناك علاقة رحمة وعلاقة محبة وعلاقة قريبة جداً يكون الدواء، ويكون العلاج، وتكون التربية، فحينما تكون ضمن العناية المشددة يسوق الله لك من المصائب لا سمح الله ولا قدر ما يحملك على طاعة الله، ما معنى تاب عليهم ليتوبوا؟ أي ساق لهم من الشدة ما يحملهم على التوبة.

لذلك من هو الإنسان الذي لا يعي على الله أفعاله؟ هو الذي يفسر آيات الله تفسيراً أرضياً، كم من مصيبة نزلت بمن حولنا هل تغير الأمر؟ هل عادوا إلى الله عز وجل؟ هل انضبطوا؟ ونحن كذلك، المصائب من آيات الله التكوينية، والمصائب رسالة من الله عز وجل، وكلما أهملنا هذه الرسائل ساق الله لنا رسائل أشد، ونحن في محنة كبيرة، ويسوق الله للمسلمين اليوم رسائل لا تعد ولا

تحصى، شدة ما بعدها شدة، الطرف الآخر يفقرنا، ويضلنا، ويفسدنا، ويذلنا، لأننا تركنا ديننا، ما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

قد تعتدي على إنسان، لكن حينما تعلم علم اليقين أن هذا الإنسان مبعوث من قبل الله عز وجل، العدوان عليه بمليون ضعف، وقتلهم الأنبياء بغير حق، طبعاً ليس هناك قتل أنبياء بحق، لكن هذا قيد وصفي وليس قيداً احترازياً، فشأن من يقتل الأنبياء أنه يقتلهم بغير حق، يعدد الله أمراض هؤلاء:

(وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ)

وهذه عقيدة الجبر يتمسك بها كل منحرف، الله مقدر علينا، مقدر علي أن أعصيه، الأمر ليس بيدي، هكذا شاءت مشيئة الله عز وجل، عقيدة الجبر كفر.

عقيدة الجبر كفر :

أن تقول: إن الله أجبرك على أن تعصيه، ثم يحاسبك على هذه المعصية، ثم تدخل النار، ألم يقل الله عز وجل:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

هذا الذي يقول: لو شاء الله ما أشركت، لو شاء الله ما عصيت، لو شاء الله لصليت، لو شاء الله لما فعلت كذا وكذا، هذا الذي يعزو معصيته إلى مشيئة الله جبراً إيمانه ضعيف جداً، بل هناك ما ينقض إيمانه:

(وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ)

الباطل لا يخرج منها مصفحاً، والحق لا يدخل إليها، هكذا خلقنا، وهذه عقيدة عوام المسلمين، بل عقيدة بعض من يعمل بحقل الدعوة، كله فعل الله، طبعاً هذه كلمة حق، كله فعله، لكن بسبب المدير يرسب طالب وينجح طالب! لكن لماذا رسَّب فلاناً؟ بسبب، ولماذا أنجحه؟ بسبب.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

* * *

مجرد الأمر والنهي يقتضي أننا مخيرون :

لذلك أيها الأخوة: أن تقول: أنا خلقت هكذا، شاءت مشيئة الله أن أكون كذا، شاءت مشيئة الله أن أفعل كذا، هذا بالتعبير الفصيح، أما بالمعنى العامي طاسات معدودة بأماكن محدودة، الله مقدر عليك، لا تعترض، قضاء وقدر، انتهى الإنسان، قضية سهلة جداً أن تعزو كل المعاصي والآثام إلى الله، أنت ما فعلت شيئاً، تنفذ مشيئة الله فقط، فلماذا يحاسبك؟! أين قوله تعالى:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 8]

بشكل بسيط بسيطٍ جداً، هذا ذكرته كثيراً، لو بنينا حائطين بينهما فراغ مثل عرض كتفيك، وسرت بهذا الطريق، الحائط الأيمن يمس يدك اليمنى، والحائط الأيسر يمس يدك اليسرى، ثم قلنا لك: اذهب إلى اليمين، هل هناك يمين؟ لذلك العلماء قالوا: مجرد الأمر والنهي يقتضي أنك مخير، مادام هناك أمر في القرآن ونهي معنى ذلك أنك مخير، لو كنت مكرهاً أو مسيراً فلا داعي أن يكون في القرآن أمر واحد ولا نهي واحد، لمجرد وجود الأمر والنهي فأنت مخير. فهؤلاء يعزون معاصيهم وجرائمهم إلى الله عز وجل، والآن أكثر كلمة متداولة بين عوام المسلمين: ترتيب سيدك، هذا يشرب الخمر، هكذا كتب الله عليه، هذا لا يصلي حتى يريد الله، هذا سارق، هكذا جعله الله، شيء مريح جداً، فأنت لا تعرف شيئاً، الله قدر عليك السرقة أو المعصية أو الزنا، وأنت نفذت مشيئة الله، لماذا يحاسبك؟!!

قال رجل لسيدنا علي: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ قصده قضاء الجبر، قال: ويحك لو كان قضاءً لازماً وقدراً حاتماً إذاً لبطل الوعد والوعيد، وانتهى الثواب والعقاب، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

إذاً آيات الله أحياناً هي المصائب، وينبغي أن تفهمها لا فهماً جبرياً بل فهماً توحيدياً، فهماً تفضلياً، سيقت هذه المصيبة كرسالة من الله عز وجل، علي أن أنتبه.

سمعت قصة أيضاً ذكرتها كثيراً عن إنسان ببلد من بلاد المسلمين، بدوي له أرض بعيدة عن مدينة مشهورة جداً، فلما توسعت المدينة اقتربت أرضه من ظاهر المدينة، فارتفع سعرها، نزل إلى السوق، وباع الأرض، واشترى الأرض منه مكتب خبيث جداً، اشتراها بربع قيمتها، وبنى بناء ـ والقصة واقعية ـ يزيد على عشرة طوابق، هم شركاء ثلاث، الشريك الأول وقع من أعلى البناء، فنزل ميتاً، والثاني دهسته سيارة، فانتبه الثالث، عدّ هذين الحادثين رسالة من الله، بحث عن صاحب الأرض أكثر من ستة أشهر حتى عثر عليه، ونقده ثلاثة أضعاف حصته، فقال له هذا البدوي: ترى أنت لحقت حالك.

إذا ساق الله لنا في الدنيا شدةً معنى ذلك أننا مؤهلون أن نتوب :

الإنسان أحياناً تأتيه رسالة من الله ينتبه، لا تفهمها فهماً أرضياً، لا تفهمها حياة معقدة، لا تفهمها صعوبات في الحياة، افهمها أن الله عز وجل ساقها إليك، فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك.

نحن نرتاح عندما نقول: ماسونية، واستعمار، وشارون، وبوش، ونحن ما فعلنا شيئاً، هؤلاء الطغاة، هم طغاة، لكن العلة موجودة عندنا حتى سلطوا علينا، لذلك المؤمن لا تنهار معنوياته، لا يحس بالقهر، لكن يؤمن بالتسليط، أن الله يسلط قوياً على مؤمن كرسالة من الله، انتبه، لأن القضية سهلة الآن، كل شيء يمكن أن يحل، يمكن أن تتوب مادام القلب ينبض، يمكن أن ترجع إلى الله، يمكن أن تدع هذا الدخل المشبوه، يمكن أن تدع هذه المعصية، كل شيء يحل ما دام القلب ينبض، إذا ساق الله لك في الدنيا شدةً معنى ذلك أنت مؤهل أن تتوب، أما الذي لا يتوب ذكره الله عز وجل:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)

[سورة الأنعام: 44]

يقول لك إنسان: عند الأجانب الكفر والفجور والشذوذ والمال الحرام، وهم أقوياء، هؤلاء تنطبق عليهم هذه الآية:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)

[سورة الأنعام: 44]

الكفر سبب الطبع :

قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

[سورة القصص: 4-5]

لا تقل طبع الله على قلبي، لا تقل هذا الكلام:

(وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)

أتمنى أن أوضح الفكرة، إنسان يحمل علم بمستوى رفيع جداً، وإنسان لا يعتد به يقول: هذا ليس فهماً، كيف لهذا الذي يحمل هذا العلم أن يعلمه؟ أأنت كافر به؟ الكفر سبب الطبع، طبيب اختصاصه متعلق بمرض مريض، والمريض لا يقنع بهذا الطبيب، هل يستطيع هذا الطبيب أن يقدم لهذا المريض شيئاً؟ لا يستطيع، مستحيل، لأن المريض كفر بهذا الطبيب، حجب المريض عن علم الطبيب، حجب عن خيره وفضله:

(غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)

لأنهم كفروا بالله عز وجل.

الكفر أنواع :

إنسان يمشي بطريق فوجد فرعين للطريق والرحلة خطيرة جداً، في الطريق وجد شخصاً يعرف حقيقة الطريقين فقال له: أنت كاذب، لا تفهم شيئاً، هل يعطيه هذا الشخص نصيحة؟ لا، لأنه كفر بعلمه، فكان كفره بعلمه حجاباً بينه وبينه، قال تعالى:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

[سورة البقرة: 88]

لأنهم كفروا فكان قلبهم مغلفاً فلا يؤمنون إلا قليلاً، وهذه رحمة من الله، هناك أمل، لكن هذا الأمل قليل، هناك أمل حتى لو طبع على قلبه أن يصحو من غفلته.

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً)

الكفر أنواع، الكفر بالله، هناك كفر بأسمائه الحسنى، هناك كفر ببعض أسمائه، هناك كفر بأنبيائه، هناك كفر ببعض أنبيائه، هناك كفر بكتبه، هناك كفر ببعض كتبه، وهناك كفر دون كفر، ليس في القرآن تكرار، قال تعالى:

(وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً)

اتهمت أنها جاءت بهذا المولود النبي الكريم من الزنا.

للآية التالية عدة تفاسير :

قال الله عز وجل:

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً* وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ)

هناك عدة تفاسير:

1 ـإما أن كلمة (رسول الله) من كلامهم وهذا يضاعف جريمتهم :

إما أن كلمة (رسول الله) من كلامهم وهذا يضاعف جريمتهم، قال:

(قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ)

تعرفه موظفاً، وتعرفه تابعاً لجهة قوية جداً، وقتلته، هذا تحدٍّ، هذا معنى.

2 ـ أو أنهم قالوها استهزاءً :

المعنى الثاني: قالوها استهزاءً، هذا رسول قتلناه.

3 ـ أو أن كلمة (رسول الله) ليست من كلامهم إنها من كلام الله عز وجل :

وهناك تفسير آخر: أن كلام رسول الله ليس من كلامهم، إنه من كلام الله عز وجل، على كلٍ قال تعالى:

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً* وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ)

نفي الله أن السيد المسيح قُتِل ثم صُلِب ولكن شُبِّه لهم ورفعه الله إليه :

يقول الله عز وجل:

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً)

نفى الله أنهم قتلوه ثم صلبوه، لكن الذي قتلوه ثم صلبوه شُبِّه لهم بالسيد المسيح، بل رفعه الله إليه، قال تعالى:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 55]

كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام رُفِع إلى سدرة المنتهى، ثم عاد، لكن إقامة السيد المسيح عند الله إقامة مديدة إلى آخر الزمان، وعودته علم بالساعة، من علامات قيام الساعة الكبرى نزول السيد المسيح، يقول عليه الصلاة والسلام:

((تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً حتى يأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً))

[ابن ماجه عن عبد الله بلفظ قريب منه]

ما من أهل الكتاب واحد إلا وسيؤمن بالسيد المسيح قبل موته :

قال تعالى:

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً*بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)

وقال:

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

وإن نافية، أي ما من أهل الكتاب واحد إلا يؤمن به قبل موته، سيعود السيد المسيح إلى الأرض، وسيتلو صحفاً مطهرة، وسوف يؤمن به أهل الكتاب على أنه رسول من عند الله عز وجل، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً)

معظم أخطاء الذين كانوا قبلنا متفشية بين المسلمين اليوم :

ثم يقول الله عز وجل:

(فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)

بظلم، أي بسبب ظلم، هذه الباء للسبب بسبب:

(فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً* وَأَخْذِهِمْ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

هذه أسباب مطولة، ساق الله لهؤلاء من الشدة نقضهم ميثاقهم، كفرهم بآيات الله، قتلهم الأنبياء بغير الحق، إنكارهم أن الإنسان مخير، قولهم قلوبنا غلف، قولهم على مريم بهتاناً عظيماً، قولهم قتلنا المسيح عيسى بن مريم، بظلم من الذين هادوا كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

((أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عن عائشة]

بصدهم عن سبيل الله، أخذهم الربا وقد نهوا عنه، أكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما، هذه أخطاؤهم، بربكم أليست معظم هذه الأخطاء متفشية بين المسلمين؟ ألم يقل الله عز وجل:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة المائدة: 79]

أليست هذه المعصية التي هي عند الله سبب هلاكهم؟ أليست متفشية بين المؤمنين؟ أليس قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وأيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عن عائشة]

أليست هذه المعصية متفشية بين المؤمنين؟!!

الإيمان وحدة لا تتجزأ لذلك ينبغي أن تؤمن بكل أنبياء الله :

قال تعالى:

(لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً)

الإيمان وحدة لا تتجزأ، ينبغي أن تؤمن بكل أنبياء الله، لا أن تختار ما يعجبك، لا أن تؤمن ببعضهم وتكفر ببعضهم الآخر.

لكن الراسخون في العلم منهم من أهل الكتاب، والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك، النبي عليه الصلاة والسلام لا يظنه الطرف الآخر نبياً، يظنونه عبقرياً، يظنونه مصلحاً اجتماعياً، يظنونه إنساناً ذكياً، هو رسول الله، هو نبي الله، كما أن لهؤلاء الذين ينكرون أنبياء، هو نبينا عليه الصلاة والسلام، لكن نبينا عليه الصلاة والسلام هو لكل الخلق، للناس كافة رحمة للعالمين.

الجاهل حينما يقبل أن يتعلم يصبح أحد أركان الدنيا :

قال تعالى:

(لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

مع ذلك أخطر شيء نصف العالِم، نصف العالِم لا هو عالم فينتفع بعلمه، ولا هو جاهل فيتعلم، ألم يقل الإمام علي رضي الله عنه: قوام الدنيا والدين أربعة رجال: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره. فالجاهل حينما يقبل أن يتعلم أحد أركان الدنيا.

قال تعالى:

(لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)

كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، كان من أحبارهم، وقصته مشهورة، آمن بما أنزل على سيدنا محمد، وطلب من النبي أن يخبئه في مكان من حجراته، وأتى بقومه اليهود، ما تقولون في عبد الله بن سلام؟ قالوا: هو سيدنا، وابن سيدنا، وعالمنا، وابن عالمنا، ومدحوه مدحاً يفوق حد الخيال، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: لا نصدق، خرج عليهم وقال: أنا أسلمت، قالوا: هو شرنا، وابن شرنا، وجاهلنا، وابن جاهلنا، هذا تعنت، قال الله عز وجل:

(وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(67-69): تفسير الآيات 163-170 ، التوازن بين البشارة والإنذار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-07-04

بسم الله الرحمن الرحيم

آيات من الذكر الحكيم عن ذات الله العلية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثالثة والستين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً)

الله عز وجل حينما يتكلم عن ذاته العلية، يقول أحياناً:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)

[سورة طه: 14]

ويقول أحياناً:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

ويقول أحياناً أخرى:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

[سورة يس: 12]

من مقتضيات كمال الله عز وجل أن ينزل الكتب وأن يرسل الأنبياء والرسل :

إذا كان الحديث عن ذات الله:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)

[سورة طه: 14]

وإذا كان الحديث عن أفعاله، فأفعاله تشترك فيها معظم أسمائه، فقد يقع فعل من أفعاله فيه رحمة، وفيه علم، وفيه عدل، وفيه حكمة، فإذا كان الحديث عن أفعاله تستخدم أداة أنا أو نحن، وإذا كان الحديث عن ذاته تستخدم أداة إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني.

على كل أيها الأخوة: يقتضي كمال الله ألاّ يدع عباده من دون رسالات، كما أن الأب الذي ينطوي على رحمة إن رأى ابنه يقترب من مدفأة مشتعلة لا يمكن إلا أن يردعه، وينهاه، ويوجهه، شيء

طبيعي، من مقتضيات كمال الله عز وجل أن ينزل الكتب، وأن يرسل الأنبياء والرسل، لكن كل هؤلاء الأنبياء يدعون دعوة واحدة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

[سورة النساء: 64]

فالدين واحد الدين هو الإسلام:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

[سورة آل عمران: 19]

الدين كله ضبط :

جوهر الدين أن تخضع لله، الكفر أن تخضع لشهوتك أن تحقق مرادك، بينما جوهر الدين أن تحقق مراد الله عز وجل، العبد عبد، والرب رب، شأن العبد أن يطيع سيده، فحقيقة الدين خضوع، خضوع بماذا؟ وأنت في هذه الدنيا أودع الله فيك الشهوات، والشهوات يمكن أن تتحرك بسببها حركةً واسعةً جداً، كما هي حال أهل الدنيا، ولكن المؤمن منضبط بالقرآن الكريم، بالمنهج القويم، منضبط بما سمح الله له من هذه الشهوات أن يتحرك بها، فالدين كله ضبط، المؤمن لا يكسب إلا المال الحلال، يضبط دخله ولا ينفقه إلا في وجه مشروع، يضبط إنفاقه، ويضبط عينه فلا ينظر إلى عورة لا تحل له، ويضبط لسانه فلا ينطق بغيبة، ولا بنميمة، ولا ببهتان، ولا بمحاكاة، ولا بسخرية، ولا باستهزاء، وما شاكل ذلك.

إن أردت أن تضغط الدين كله بكلمة واحدة إنه الضبط، المؤمن منضبط، الإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، المؤمن يحاسب نفسه حساباً دقيقاً جداً، فإذا رأيت إنساناً متفلتاً فالتفلت من نتائج ضعف الإيمان، والإجرام من نتائج انعدام الإيمان، وإن رأيت إنساناً منضبطاً فالانضباط من لوازم أهل الإيمان. سيدنا نوح:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ)

أيها الأخوة، هناك عقل أودعه الله في الإنسان، العقل قوة إدراكية، لكن تعتمد على التحليل، والتركيب، والاستنباط، والاستنتاج، والمحاكمة، والتصور، ويوجد في الإنسان فطرة، الفطرة تكشف له الحقيقة، ولكن بشكل نفسي، بشكل روحي يحب ولا يحب، يرتاح ولا يرتاح، يقلق ولا يقلق، فالإنسان مفطور فطرة عالية جداً، وبهذه الفطرة تكشف له خطأه بشكل ذاتي، وأودع الله فيه عقلاً يكشف له الحقيقة، لكن العقل قد يذل، وقد يضل، العقل مرتبط بالواقع، والعقل مرتبط بالمصالح، والعقل مرتبط بالأهواء، إذاً العقل وحده من دون وحي يسدد لا يعد مرجعاً، كما أن العين وحدها من دون ضوء يكون وسيطاً بينها وبين المرئيات لا قيمة لها، والعقل كذلك، فالعقل قد يضل، هو أداة معرفة الله، لكن وحده لا يكفي، كيف لا يكفي عقلك؟ يقول: لا بد لهذا الكون من

خالق، الوحي يقول لك: الخالق هو الله، عقلك يقول: لا بد لهذه الحياة من هدف، الوحي يقول لك: الهدف هو أن تعبد الله في الدنيا، فتسعد بقربه إلى أبد الآبدين، العقل يقول لك: ينبغي أن تستمتع بكل شيء، الوحي يقول لك: ينبغي أن تستمتع بما لا يبنى الاستمتاع به على الإضرار بالآخرين، هناك حدود.

الوحي والعقل والفطرة :

لو أن إنساناً أغوى فتاة، هذه الفتاة حينما أغواها، ثم ألقاها جعلها ساقطة، هو استمتع، لكنه أسقطها من حساب قيم المجتمع، دائماً وأبداً لا تبنى منفعة على مضرة، فالإنسان يرغب أن يستمتع، لكن الوحي يقول له: استمتع فيما لا إضرار منه، المنفعة المتبادلة مشروعة، أما المنفعة التي تبنى على مضرة مرفوضة. الوحي يكمل العقل، والوحي يكمل الفطرة، الفطرة مقياس نفسي:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: 7-8]

الفطرة تنقبض، تتضايق، تنشرح، ترتاح، تنزعج، الفطرة جبلة نفسية مبرمجة وفق منهج الله، كل إنسان خرج عن منهج الله تعذبه فطرته، وكل إنسان أطاع الله فطرته تكافئه بالراحة، بالطمأنينة، الأنبياء جميعاً دعوتهم واحدة، لكن تشريعاتهم متباينة:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ)

طبعاً في القرآن الكريم ذكر عدد كبير من الأنبياء، ولعل هذه الآية من أطول الآيات التي ورد فيها ذكر أسماء الأنبياء، ولكن القاعدة أن الأنبياء والرسل منهم من قص الله علينا، ومنهم من لم يقص علينا، إذاً ما كل نبي ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً)

النقطة الدقيقة أن هؤلاء الأنبياء لا نفرق بين واحد منهم، دعوتهم واحدة، تشريعاتهم متباينة بحسب الظروف.

الإنسان مفطور ومجبول على خصائص منها أن الإنسان خلق ضعيفاً :

قال تعالى:

(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)

الإنسان حينما يشعر أن هذه الدعوة واحدة يرتاح، بالمناسبة ما بال أناس يؤمنون بأديان من صنع البشر؟ الحقيقة الإنسان مفطور ومجبول على خصائص، من هذه الخصائص: أن الإنسان خلق ضعيفاً.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج:19-22]

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

[سورة الإسراء: 11]

خلق عجولاً، وخلق هلوعاً، وخلق ضعيفاً، هذه نقاط ضعف في أصل بنية الإنسان، أو في أصل خلق الإنسان، لا يحاسب عليها، لكن هذه النقاط لصالحه، فالإنسان يشعر بحاجة قوية جداً إلى جهة يعتمد عليها، إلى جهة يركن إليها، إلى جهة تحميه، إلى جهة تسدده، إلى جهة تكافئه، هذا أصل التدين، وقد فطر الإنسان هذه الفطرة من ضعف إلى استعجال، إلى هلع، إلى جزع، من أجل أن يبحث عن خالقه فيسعد بقربه.

تفضل الله على الإنسان بالرسالة والإيمان وهي نعمة لا يعرفها إلا من فقدها :

الإنسان إن لم يهتدِ إلى خالق السماوات والأرض لعله يتخذ من دون الله إلها من الأرض يعبده من دون الله، حتى الذين يعبدون من دون الله آلهة إنهم يحققون رغبتهم، إلى أن يخضعوا إلى قوي يحميهم من الضعف الذي هم فيه.

(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)

هؤلاء الرسل معهم منهج، قد يستغرب واحد منا مئات الملايين يتبعون ديناً من صنع البشر، التفسير سهل جداً، الأديان الوضعية ليس فيها تكاليف فيها طقوس، ليس فيها عبادات فيها طقوس، ليس فيها تكاليف فيها ولاء، الإسلام فيه تكليف؛ أمر ونهي وحرام وحلال وواجب، مجموعة تكاليف تقتضي جهداً ووقتاً، أما الأديان التي وضعها الإنسان ففيها بدل التكليف الولاء، أعلن ولاءك وأنت من أتباع هذه الديانة، وفيها بدل العبادة التي تعلل بمصالح الخلق فيها طقوس، حركات وسكنات وتمتمات لا معنى لها.

فأنت حينما تطلع على ديانات أهل الأرض تشكر الله عز وجل أن هداك إليه، فأقوام كثر في شرقي آسيا يعبدون ماذا؟ يعبدون الجرذان، وعندي تحقيق في مجلة رصينة تصف هؤلاء، وتقدم صوراً دقيقة لمعابدهم، وأناس يعبدون النار، وأناس يعبدون الشمس والقمر، وأناس يعبدون الحجر، وأناس يعبدون الموج، وهكذا الإنسان، لضعفه ولضلاله عن خالقه يعبد جهةً يتوهمها قويةً، فالحقيقة أن الله عز وجل تفضل علينا بهذه الرسالة، وتفضل علينا بهذا الإيمان، وهي نعمة لا يعرفها إلا من فقدها.

سمعت أن مهندساً كبيراً في العالم يعد أحد خمسة مهندسين في العالم، أنشأ ثاني أطول جسر في استنبول، يربط بين قارة آسيا وأوربا، وفي يوم افتتاح هذا الجسر، وهو يعد من خمسة مهندسين في العالم، والجسر معلق بالحبال الفولاذية، ويجتازه في اليوم أربعمئة ألف سيارة، ألقى بنفسه في

البوسفور منتحراً، فلما ذهبوا إلى غرفته في الفندق وجدوا ورقة كتب فيها: لقد وصلت إلى قمة المجد، وذقت كل ما في الحياة، فلم أجد لها طعماً، فأردت أن أذوق طعم الموت.

المؤمن حقق السعادة لأنه عرف سرّ وجوده وغاية وجوده :

إنسان بلا هدف قد يحقق نجاحاً كبيراً، لكن المؤمن إنسان آخر، إنسان له هدف، هدفه واضح كالشمس، قد تأتيه متاعب، ولكن هدفه الكبير والوسائل التي يختارها لهذا الهدف نبيلة، قد تنسيه كل المتاعب لهذا الهدف، ما من شيء متعب كإنسان ضائع، كإنسان شارد لا يعرف لمَ خلقه الله عز وجل، خذ مئة شخص من الطريق واسألهم: لماذا أنت في الدنيا؟ لا يعرف سر وجوده، ولا غاية وجوده، لذلك حركته عشوائية، أنت حينما تعرف سر وجودك تنضبط الأمور، وبشيء بسيط جداً من المحاكمة أنت ذاهب إلى هذا البلد كي تعقد صفقة، كل نشاطك في هذا البلد منحصر بالصفقة، كل تطلعاتك إلى البضاعة، أسعار البضاعة، مصادر البضاعة، قيمة البضاعة، ونقل البضاعة، وشحن البضاعة فقط، ذاهب إلى هذا البلد للدراسة، كل نشاطك متعلق بالمناهج، والكتب، والمراجع، والسكن الجامعي، والأقساط، والأساتذة، والعلاقة معهم.

فأنت لمجرد أن تعرف الهدف الذي خلقت من أجله تأتي حركتك اليومية مطابقةً لهذا الهدف، هذه السعادة، أما الذي يجهل سر وجوده الفكرة دقيقة؛ الله أعطاك عقلاً، العقل هداك إلى أن هذا الكون يحتاج إلى خالق، يأتي الوحي يقول لك: الخالق هو الله، كل سؤال أو كل حكم يتوصل إليه العقل ويحتاج إلى جواب يأتي الوحي ويجيبه عليه، فالمؤمن يتمتع بشيء لا يعرف قيمته لأنه موجود، أنه مرتاح إلى منظومة أفكار متناسقة مترابطة، عنده تفسير دقيق وعميق وواضح ومنسجم إلى الكون والحياة والإنسان، أما الإنسان الذي لم يطلب العلم عنده ضياع، يتحرك حركة عشوائية، من غير قيم تجمعه على هدف.

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)

الله عز وجل خلق الإنسان، سخر له الكون تسخير تعريف وتكريم، كل شيء في الكون يدلك على الله، وكل شيء في الكون إكرام من الله، هناك دلالة، وإكرام تعريف وتكريم، رد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر.

علة وجودنا وغاية وجودنا أن نؤمن وأن نشكر المنعم :

حينما تؤمن وتشكر حققت الهدف من وجودك، لذلك قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

يجب أن تعلم أن علة وجودك أن تؤمن، وأن علة وجودك أن تشكر المنعم، المؤمن مع المنعم، والكافر مع النعمة، هذا ملخص الملخص، الله سخر الكون تسخير تعريف وتكريم، أعطاك عقلاً لو أعملته في خلق الله لهداك إلى حقائق ناصعة، أعطاك فطرةً لو حافظت على صفائها لكشفت لك عن كل أخطائك، الإنسان لا يرتاح إلا إذا طبق منهج الله، اصطلح مع فطرته، صار في انسجام، يقول لك: وجدت نفسي، أعطاك كوناً وعقلاً وفطرة، أعطاك شهوة قوة محركة، لولا الشهوات ما رأيت على وجه الأرض شيئاً، لولا الشهوات التي أودعها الله في الإنسان لم تر حركة على وجه الأرض، هذه الشهوات قوى محركة، إما أن تدمر، وإما أن تبني، إما أن تكون سلماً إلى أعلى عليين، أو دركات إلى أسفل سافلين، أعطاك اختياراً ليثمن عملك، أعطاك كوناً وعقلاً وفطرةً وشهوة واختياراً، وفوق كل ذلك، وهذه كلها تكفي أعطاك تشريعاً، وأنزل كتباً وبعث رسلاً، الكتب والرسل هذه عطاء تفضلي، لئلا يكون على الناس حجة بعد الرسل.

أب ألحق ابنه بأعلى مدرسة، ودفع له أعلى قسط، وهيأ له غرفة خاصة، وهيأ له إنفاقاً جيداً، هذا يكفي أن ينجح بتفوق، فضلاً عن ذلك جعل له مدرساً خاصاً يتابع وظائفه، هذا إضافة، هذا الكلام من أين جاء؟ من قوله تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

[سورة آل عمران: 164]

والمن عطاء زائد.

(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)

الله عز وجل كل شيء يدل عليه، وفوق هذا الذي يدل عليه، فوق الكون، وفوق العقل، وفوق الفطرة، وفوق الشهوة والاختيار أنزل كتباً وبعث رسلاً.

أكبر شيء يمتص متاعب المؤمن أن الله وعده بالجنة :

هؤلاء الرسل والأنبياء:

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ)

يعطونك مشاهد في الكتب من يوم القيامة، من حال أهل الجنة، يبشرونهم بالجنة.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: 30]

قال لي أحدهم: تقول: إن المؤمن سعيد، هو يريد أن يسأل، هو يرى أن المؤمن شأنه كشأن أي إنسان، لا يختلف عن عامة الناس بشيء، قلت له: ما رأيك بإنسان يعاني أشد أنواع الفقر، له قريب يملك ملايين مملينة، توفي بحادث، وهو وريثه الوحيد، فإلى أن يقبض المبلغ الأول بقي سنتين من

أجل تأمين المستلزمات القانونية لانتقال الثروة إليه، لماذا هو في هاتين السنتين أسعد الناس، مع أنه لم يقبض درهماً واحداً؟ دخل في الوعد، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

فالمؤمن أكبر شيء يمتص كل متاعبه أن الله وعده بالجنة:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة: 111]

أنت بعت، والله قد اشترى، والثمن هو الجنة، فالمؤمن لا تعنيه الدنيا كثيراً، يعنيه من الدنيا ما يقيم أوده، ويستر عورته، ويوفر له حاجته فقط، أما هذه المغالاة، وهذا التنافس على حطام الدنيا هو بعيد عنه.

في القرآن توازن بين الوعد والوعيد وبين البشارة والإنذار :

قال تعالى:

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

هذا توجيه للدعاة إلى الله، بشر وأنذر، فالذي يعتمد الإنذار فقط يكون قد جانب الحقيقة، والذي يعتمد التبشير فقط يكون قد جانب الحقيقة، هناك دعاة يسهلون كل شيء؛ الله غفور رحيم، كأنه يدعو الناس إلى المعصية، لكن الله يقول:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 49-50]

في القرآن توازن بين الوعد والوعيد، بين البشارة والإنذار، بين الرجاء والخوف، لذلك لا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن خوف من الله، ومحبة له، وتعظيماً له، هذا التوازن:

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

والمؤمن أيها الأخوة: إذا توسع في حسن الظن بالله لدرجة إلى أنه ترك الطاعات يأتيه تأديب من الله عز وجل، وإذا بالغ في خوفه من الله تأتيه الكربات، لا بد من التوازن بين الرجاء والخوف، وبين الرغبة الرهبة، وبين اعتماد البشارة واعتماد الإنذار.

الإله يحتاجه كل شيء في كل شيء :

قال تعالى:

(لِأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)

الشيء العزيز النادر، الشيء العزيز الذي قلما يوجد، ويصعب الوصول إليه، وتشتد الحاجة إليه، هذا الشيء إذا كان عزيزاً، أما إذا كان الله عزيزاً أي لا إله غيره، هو واحد أحد، فرد صمد، يحتاجه كل شيء في كل شيء، الإله يحتاجه كل شيء في كل شيء، أما أن يصعب الوصول إليه، يستحيل أن تشابه الإله، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تحيط به، هذا معنى قول الله:

(وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)

إن وصلت إليه وصلت إلى كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء.

هؤلاء الأنبياء جاؤوا بمناهج، وجاؤوا بكتب، والكتب فيها أمر وفيها نهي، ما الذي يؤكد لهؤلاء الناس أن هؤلاء الأنبياء هم أنبياء فعلاً، وأن هؤلاء الرسل هم فعلاً رسل؟ قال تعالى:

(لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ)

إذا كان هناك من ينكر رسالتك:

(لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

هناك عدة شهادات يشهد الله لأنبيائه أنهم أنبياؤه :

أيها الأخوة، حينما يشهد الإنسان، يقول: أنا أشهد أن فلاناً أقرض فلاناً مئة ألف، يشهد بلسانه، كيف نفسر شهادة الله لأنبيائه؟ هناك عدة شهادات يشهد الله لأنبيائه أنهم أنبياؤه، ويشهد الله لرسله أنهم رسله:

1 ـتأييد الأنبياء بالمعجزات هي شهادة الله لأنبيائه أنهم أنبياؤه :

حينما يؤيدهم بالمعجزات، والمعجزات التي يؤيد بها الرسل مما تفوق به قومه، قوم سيدنا موسى تفوقوا بالسحر، فجاء سيدنا موسى بشيء يفوق عمل السحرة، عصاه أصبحت ثعباناً مبيناً، قوم سيدنا عيسى تفوقوا بالطب، فجاء السيد المسيح بإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، فكل نبي يأتي بمعجزة هي خرق للعادات، وفيها تحدٍّ لقومه مما تفوقوا به، هذا نوع من الشهادة المعجزة شهادة الله لأنبيائه أنهم أنبياؤه، وشهادة الله لرسله أنهم رسله.

2 ـتطابق أفعال الله مع كلامه شهادة الله لأنبيائه أنهم أنبياؤه :

هناك شهادة أخرى، قال عز وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

آية بالقرآن، يأتي شاب يؤمن بالله، ويعمل صالحاً، يحس أنه متميز، يشعر بسعادة كبيرة، عنده فكر نير، عنده حكمة، له صلة بالله، مسرور، يكاد يطير سعادة، هذه الحياة الطيبة هي شهادة الله لرسوله ولقرآنه أن هذا القرآن كلامه، وأن الذي جاء بهذا الكتاب رسوله.

يأتي إنسان آخر يعرض عن ذكر الله، يعيش حياة ضنكاً، الأمور كلها ضده، أموره كله معسرة، جهده ضائع، حركته عشوائية، غير موفق، غير مسدد، كلما طرق باباً يغلق، كلما طلب شيئاً يخفق في تحقيق هذا الشيء، يتضايق، يضجر، اقرأ الآية:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

فهذه المعيشة الضنك التي هي من فعل الله، شهادة الله أن هذا القرآن كلامه، وأن الذي جاء بهذا القرآن رسوله، يأتي إنسان ثالث يأكل الربا، ويجمع أمواله من الربا، هو يقول: هذه الأموال تتنامى عندي، فإذا بمصيبة تمحق كل ماله، يقرأ قوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

عندئذ يؤمن أن هذا الذي أتلف ماله هو الذي أنزل هذا القرآن، وهو الذي بعث هذا الإنسان كرسول، فتطابق حركة الكون مع آيات القرآن الكريم هي شهادة الله للبشر أن هذا القرآن كلامه، وأن الذي جاء بهذا القرآن رسوله، هذه أقوى شهادة. فإما أن تكون المعجزة هي الشهادة، وإما أن تكون تتطابق أفعال الله مع كلامه شهادة.

1 ـالإعجاز العلمي في الكتاب والسنة شهادة الله لعباده أن هذا القرآن كلامه :

في كتابنا شهادة ثالثة، حقيقة كشفت قبل سنوات، والذي كشفها كاد يطير تألقاً في المجتمع، فإذا بكتاب الله قد ذكرها قبل ألف وأربعمئة عام، هذا الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، الإعجاز العلمي شهادة الله لعباده أن هذا القرآن كلامه، أشياء كثيرة جداً في الإعجاز العلمي، الله عز وجل ذكر السمع والبصر، جاء بالسمع قبل البصر في سبع عشرة آية، والحقيقة أن السمع يشق في رأس الجنين قبل الولادة، أما البصر فبعد الولادة، فهناك سبق وتوافق بين كلام الله والحقائق العلمية.

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً)

[سورة المؤمنون: 14]

هذه كشفت قبل عشر سنوات، والذي كشفها عالم بريطاني كاد لا يصدق نفسه أنه كشف حقيقةً لم يسبق إليها، فإذا بطالب عنده مسلم يقول له: هذه في كتاب الله قبل ألف وأربعمئة عام، أشياء كثيرة جداً كشفوا أن بين البحرين حاجزاً، ما معنى قول الله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن: 19-21]

رائد من رواد الفضاء ركب مركبة، وصعد بها إلى القمر، بعد أن تجاوز الغلاف الجوي صرخ عن طريق الاتصال اللاسلكي، قال: أصبحنا عمياً لا نرى شيئاً، والقرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

[سورة الحجر: 14-15]

هذه حقائق من كان يعلمها؟ ليس هناك مجال للتطوير في هذا الموضوع، لكن هناك موضوعات في الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة كبيرة جداً.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى*مِنْ نُطْفَةٍ)

[سورة النجم: 45-46]

الآن كشف أن الذي يحدد نوع الجنين ذكراً أو أنثى هو الحوين وليس البويضة.

أخطر إنسان هو الكافر المكفر لهذا يحمل أعماله السيئة وأعمال كل من أضلهم عن الله:

إذا قرأت القرآن الكريم، واطلعت على العلوم الحديثة تشعر أنه الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن، هذا معنى قوله تعالى:

(لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

الملائكة يشهدون، سيدنا جبريل هو الذي أوكله الله بإلقاء الوحي على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، والذين يحصون عمل ابن آدم الملائكة أيضاً يرفعون إلى الله أعمالهم، فهم يشهدون المنهج كيف نزل، ويشهدون ردود الفعل كيف كانت، يشهدون في إنزال الكتاب، ويشهدون في رفع الأعمال إلى الله:

(وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

شهادة الملائكة لا تعزز شهادة الله، حاش لله، ولكن الله يشهد، والملائكة يشهدون.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً)

كفر وصد عن سبيل الله، لم يكتف أنه كفر حمل الناس على أن يكفروا، لم يكتف أنه ضل حمل الناس على أن يضلوا، لم يكتف أنه فسد حمل الناس على أن يفسدوا، أخطر إنسان هو الكافر المكفر، والضال المضل، والفاسد المفسد، لهذا يحمل أعماله السيئة وأعمال كل من أضلهم عن الله عز وجل.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً)

إذا مشى إنسان في الصحراء، وضل السبيل، ونفذ ماؤه وزاده، فمات، ضلاله انتهى به إلى الموت، فإذا دخل مؤمن الجنة مؤمن لكن الذي يضل عن الله عز وجل ضلاله يمتد به إلى أبد الآبدين، هذا معنى الضلال البعيد، أثر الضلال لا ينتهي في الدنيا، الأخطاء المادية في الدنيا تنتهي بالموت.

أمراض الموت تبدأ بعد الموت وتشقي صاحبها إلى الأبد:

لو أن إنساناً عنده كليتان، إحداهما عاطلة عن العمل، فجاء الجراح، واستأصل التي تعمل، انتهى الإنسان، هذا الخطأ انتهى بالموت، خطأ كبير انتهى بالموت، لكن الضلال عن الله عز وجل يمتد إلى أبد الآبدين، هذا معنى الضلال البعيد. كل إنسان قد يصاب بمرض، هذه الأمراض كلها تنتهي عند الموت، لكن أمراض الموت تبدأ بعد الموت، وتشقي صاحبها إلى الأبد، هذا معنى قول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا)

لما كفر تحرك حركة من دون منهج، لما تحرك حركة عشوائية من دون منهج، هذه الحركة الطائشة اقتضت أن يكون شقياً في الدنيا، وشقياً في الآخرة، هو ظلم نفسه حينما حملها على معصية الله، هو كفر وشقي بكفره، لو كانت قضية الكفر والإيمان لا علاقة لها بالسعادة والشقاء قضية سهلة، لكن الإيمان من لوازمه السعادة، والكفر من لوازمه الشقاء.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً)

ليس هذا من باب الإجبار، لا، هو عندما كفر بالله ولم يطلب ما عند الله إذاً ما عند الله حجب عنه باختياره، قال تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف: 5]

فهؤلاء الذين كفروا، وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً*إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

ليس للأبد نهاية فهو طريق دائم:

ابن اختار ألا يدرس، فكل خيرات الدراسة حجبت عنه، أمامه طريق الانحراف مثلاً، طريق الفقر، طريق التفاهة في الحياة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً* إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

الأبد تعني: ليس لهذا الأبد نهاية، الأبد دائم.

(وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

الذي أعرض عن ذكر الله ليس أمامه إلا النار:

الآية الكريمة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

إذا لم يتعرف الإنسان إلى الله، ولم يستجب له فهو على طريق جهنم حتماً، هناك أناس عوام يتكلمون كلاماً لا معنى له، لا تعرف النهاية، إنسان ما توجه إلى الله في حياته أبداً، ولا استقام على أمر الله أبداً، ولا أكل الحلال بل أكل الحرام، فهذا ينتظره عذاب أليم، فهذا الذي أعرض عن ذكر الله ليس أمامه إلا النار.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً)

هناك معنى دقيق في الآية، الطريق الذي رسمه الله عز وجل إلى الجنة كفر به، بقي الطريق الآخر، لأنه رفض الدين، رفض الإسلام، رفض طاعة الله الواحد الديان، سلك الطريق الثاني حتماً، والدليل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

الحق والباطل، إن اقتربت من الباطل ابتعدت عن الحق حكماً، إن اقتربت من الحق ابتعدت عن الباطل، فالذي التصق بالباطل إذاً هو في طريق النار، في طريق العذاب الأليم.

حينما ينطلق الإنسان من حبه لذاته ينبغي أن يؤمن:

آخر آية:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

أين الإنسان؟ حينما ينطلق يَنطلق من حبه لذاته، ينبغي أن يطيع الله عز وجل.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ)

أيها الأخوة: ما من وقت الحق واضح كهذا الوقت، الناس رجلان؛ مؤمن وكافر، شهواني ورحماني، مستقيم ومنحرف، صادق وكاذب، ولي أو إباحي، الحق واضح في الأرض كلها، أينما ذهبت:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ)

التواصل الذي نجده الآن، سيصل هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، مرة ذهبت إلى مدينة سيدني في أستراليا، وثمة إذاعة كأنك في دمشق، القرآن الكريم، والأحاديث الدينية، وكل شيء يدعو إلى الله عز وجل، في أقصَى أقصى الدنيا:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ)

حينما تنطلق من حبك لذاتك ينبغي أن تؤمن:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

عليماً بحال كل إنسان، يعامله بالحكمة التي تليق بكماله جل جلاله.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(68-69): تفسير الآيات 171-175 ، الغلو في الدين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-07-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الابتعاد عن الغلو في الدين :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والسبعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

أيها الأخوة الكرام، الله جل جلاله أنزل الدين من عنده على أنبيائه الكرام ورسله العظام، الله جل جلاله بعث بأنبيائه وأنزل معهم الكتاب، لكن الغلو في الدين إما أن نكذب، وإما أن نبالغ، والاعتدال بين التكذيب والمبالغة، فالحق جل جلاله يأمر أهل الكتاب ألا يغلوا في دينهم، والغلو هو الخروج عن حد الاعتدال في الحكم، لأن كل شيء له وسط وطرفان، وعندما ينفق شخصاً طرفاً نطلب منه ألا يكون هناك إفراط أو تفريط، مشكلتنا وقعنا فيها نحن المسلمين، الإفراط والتفريط أي الغلو، أي الخروج عن حدّ الاعتدال، هذا الدين العظيم دين الفطرة دين وسطي، دين متوازن، فأهل الكتاب غلوا في دينهم، وقالوا عن السيد المسيح غير الحق، فالله عز وجل يقول:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

الحق ثابت أما الباطل فزائل :

الشجاعة وسط بين التهور وبين الجنون، الكرم وسط بين إتلاف المال وبين التقطير، كل شيء كماله في الوسط، وكل شيء اعتداله في الوسط، وكل حكم أو موقف أو سلوك يتجاوز الحد المعتدل إلى التطرف فهذا غلو في الدين، وموضوع الغلو في الدين موضوع طويل وطويل.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

يا أيها الأخوة، وقع أهل الكتاب في هذا المأزق فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط أو تفريط، لقد كفر اليهود بعيسى، واتهموا السيدة مريم بالزنى، وهذا غلو في الكره، وغالى الطرف الآخر في

الحب بسيدنا عيسى، فقالوا: إنه إله، أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة، وهذا غلو في الحب، وغلو في الكره، فكفروا بسيدنا عيسى، واتهموا أمه السيدة العذراء بالزنى، وهناك غلو في الحب، فجعلوه إلها أو ابن إله أو ثالث ثلاثة.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

أيها الأخوة، الله جل جلاله يطلب منهم أن يقولوا الحق، والحق الشيء الثابت المستقر الذي لا يتزعزع، والباطل الشيء الزائل، وما من شيء تم في الأرض من آدم إلى يوم القيامة وكان باطلاً إلا زال، حتى لو كان تشريعاً أرضياً فيه غلو، بعد حين يلغى هذا القرار أو يعدل لأن الحق من شأنه الثبوت، والباطل من شأنه الزوال.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

(زهوق) كما يقول علماء اللغة صيغة مبالغة، وصيغة المبالغة تعني مبالغة في الكم أو النوع، أكبر باطل لو أنه يملك من السلاح النووي ما يدمر القارات الخمس خمس مرات تداعى من الداخل وتلاشى.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

مليون باطل مصيره إلى الزوال، وكم من فرقة ضالة ظهرت وتلاشت، أي تصرف، أي فئة، أي جماعة، أي نظام أساسه باطل هو إلى زوال، أما الحق فهو ثابت.

من كان مع الحق فهو مع الله ومن كان مع الله كان الله معه :

أيها الأخوة، لو أنك كنت موثقاً وأنت مع الحق فأنت مع الله، ومن كان مع الله كان الله معه، أنت مع الثبوت لا الزوال، يوجد نعمة ينعم بها المسلمون لا يعرفها غير المسلمين! مهما امتد بك العمر فلن تظهر حقيقة تنقض القرآن الكريم، ولن يظهر فكر يسفّه هذا الدين، فأنت مطمئن، كلما امتد بك العمر تتأكد أنك مع الحق، وعلى الحق المبين.

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)

[سورة الإسراء: 105]

أنت مع الثوابت التي لا تتغير، في تاريخ المسلمين كم من فئة ضالة ظهرت واحتلت بلاد شاسعة ثم اضمحلت؟!!

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

هذه القوة التي تتربع على عرش العالم أيضاً ليست مع الحق، هي تحقق مصالحها المادية على حساب الشعوب، مصيرها إلى زوال، وتأكدوا، وهذا من قوانين الله عز وجل، أن جهة ما مهما تكن

قوية نجاح خططها على المدى البعيد لا يتناقض مع عدالة الله فحسب، بل يتناقض مع وجود الله، والمؤمن متفائل ولا سيما بهذه الآية.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

ديننا هو دين الوسطية والاعتدال :

أيها الأخوة، الحق الشيء الثابت لا يحتاج لأن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، ولا أن تبالغ فيه، وتبالغ في تسفيه خصومه، ولا أن تكبر رجاله، ولا أن تصغرهم، والحق لا يستحيا به، ولا يخشى البحث، لأنه حق، والله هو الحق. كنت أذكر لكم مراراً قصة رئيس وزراء فرنسي انتحر! أكثر من مئة صحافي درس سبب انتحاره فلم يجد سبباً وجيهاً! من أرقى أسر باريس، ولم يتورط في فضيحة مالية أو جنسية، وبلغ من العمر سبعين عاماً، وله سمعة طيبة، فلماذا انتحر؟ إلا أن صحفياً واحداً وضع يده على الحقيقة، هذا كان يعتنق مذهب لا إله، أمضى بهذا المذهب سبعين عاماً ثم اكتشف أن هذا المذهب باطل بباطل! احتقر نفسه..

المسلم مهما امتد به العمر يشعر أن أحداث العالم والتقدم العلمي لا يزيده إلا إيماناً بكتابه، وبمنهج رسوله، وبهذا الدين العظيم، هذه نعمة، ليس في حياة المؤمن مفاجئات، ولا كشف علمي ينقض دينه، وليس في حياة المؤمن كشف علمي يسفه تعاليم دينه، لذلك هذه نعمة كبرى، أننا مع الحق إن شاء الله.

النبي عليه الصلاة والسلام جاء بهذا المنهج الواقعي، المنهج الذي يتوافق مع فطرة الإنسان، بهذا المنهج المعتدل الوسطي، فالغلو هو جنوح نحو الإفراط أو نحو التفريط.

لنأتي لعالمنا الإسلامي؛ الإمام علي كرم الله وجهه قصته تقترب من قصة سيدنا عيسى عليه السلام، فالخوارج كفروه وبعض المتشددين له ألهوه، من التكفير إلى التأليه، لذلك المسرفون جعلوه نبياً، وبعض ولاتهم جعلوه إلهاً، وبعضهم جعله كافراً، كل هذه الأوصاف ليست متوازنة، وليست طبيعية.

((يا علي إن فيك من عيسى مثلاً أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه ـ أي اتهموها بالزنى ـ وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس بها))

[أبو يعلى وأبو نعيم والحاكم عن علي]

سيدنا علي رضي الله عنه قال: ألا إنه يهلك في اثنين محب يقربني بما ليس فيّ، ومبغض يحملني شنآن على أن يبهتني، ألا إني لست بنبي، ولا يوحى إلي، ولكنني أعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما استطعت، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتي فيما أحببتم أو كرهتم. حلنا في الوسطية والاعتدال، لا نريد دعوة تنطح، ولا دعوة تشطح، هذا خطأ، وهذا خطأ،

هذا غلو، وهذا غلو، كيف جاء النبي معتدلاً؟ كيف جاءت دعوة النبي متوازنة في الجانب الاعتقادي والسلوكي والجمالي وغير ذلك.

أيها الأخوة الكرام، هذا هو الغلو، الذين كرهوه اتهموا أمه السيدة مريم بالزنى، ولم يقبلوا نبوته، والذين أحبوه أشكل عليهم أنه بلا أب، فجعلوه إلها أو ابن إله أو ثالث ثلاثة، والله عز وجل يقول:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

كل شيء خلقه الله له سبب فنظام السببية نظام أساسي في معرفة الله :

أيها الأخوة، شاءت حكمة الله أن يجعل من نواميس خلقه أن لكل شيء سبباً، لكن علماء العقيدة يقولون: إن تلازم السبب مع المسبب ليس تلازم خلقي ولكن تلازم توافق فقط! السبب لا يخلق النتيجة عند علماء التوحيد ولكنه يرافق النتيجة، شاءت حكمة الله أن يكون لكل شيء سبب. الآية الكريمة:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً)

[سورة الكهف: 83-85]

كل شيء خلقه الله له سبب، أن تأكل هذه الفاكهة سببها بذرة ألقيتها في الأرض، واعتنيت بها حتى نبتت، أن تشرب كأس ماء له سبب، حفرت بئراً، واستخرجت ماء، أن ترى لك ابناً في البيت يحتاج لزواج، فمن أجل أن نفكر في هذا النظام نظام السببية أن لكل شيء سبباً، فإذا سرنا في سلسلة منطقية، هذه الدجاجة من بيضة، وهذه البيضة من دجاجة نصل في النهاية إلى بيضة أو دجاجة ليس قبلها شيء، من خلقها؟ إنه الله! كأن الله أراد أن ننتقل بلطف من هذه الأسباب المادية إلى مسبب الأسباب وهو الله، طريقة رائعة في الوصول إلى الله، لو أن الله خلق الأشياء بلا أسباب لا تقتنع أن لهذا الكون إلهاً، كما أن هذه الأشياء لا أسباب لها، كذلك هذا الكون ليس له سبب، فنظام السببية نظام أساسي في معرفة الله، لكن أشخاص كثيرون يؤلهون الأسباب، يعدونها خالقة للنتائج، يعتمدون عليها، يستغنوا بها عن الله عز وجل، إذا كان هذا الغلو في تعظيم الأسباب يأتي الله جل جلاله بحادثة من دون سبب، بحسب قوانين الخلق، لا بد للإنسان من أم وأب، فالسيد المسيح جاء من أم بلا أب، ألغي السبب مباشرة من الله عز وجل، هذا الإشكال أراد الله ألا نؤله الأسباب، وألا نعتقد أن السبب وحده خالق النتيجة، أرادنا أن نعتقد أن الله هو الخالق، لكن من خلال سبب، السبب واسطة، وليس هو الخالق.

في خلق السيد المسيح أراد الله أن ينقلنا من تأليه الأسباب إلى تأليه خالق الأكوان :

مثلاً قد يأتي شاب وشابة في ريعان الشباب لا ينجبان، وهذا السيد المسيح يأتي من أم بلا أب، في الحالة الأولى تعطل السبب لم يفعل، في الحالة الثانية ألغي السبب كلياً، أراد الله عز وجل أن ينقلنا من تأليه الأسباب إلى تأليه خالق الأكوان عن طريق هذه المعجزات، فالسبب إما أن يعطل وإما أن يلغى إنقاذاً للتوحيد، يقاس على ذلك:

أن سيدنا عمر رضي الله عنه عزل سيدنا خالداً، شيء عجيب، هو قمة في فنون القتال وتوفيق الله عز وجل، وخاض مئة معركة أو زهاءها، ولم يغلب في معركة واحدة، فلماذا عزله عمر؟ جاءه وقال له: يا أمير المؤمنين لماذا عزلتني؟ قال: والله إني أحبك! سأله ثانية: لماذا عزلتني؟ قال: والله إني أحبك، سأله ثالثة لم عزلتني؟ قال له: والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك لكثرة ما أبليت في سبيل الله، سيدنا عمر خاف على التوحيد، توهم أصحاب النبي ومن تبعهم أنه ما من معركة يقودها خالد إلا انتصروا بها، فكأنهم رأوا أن النصر يأتي من عند خالد، سيدنا عمر عزله وبقي النصر مستمراً من رب خالد. فيقول علماء التوحيد: هذا عزل أراد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أن يعزز معاني التوحيد عند الصحابة الكرام، فلذلك الله عز وجل حينما جعل هذا النبي الكريم بلا أب يعني أن الله هو الخالق، قد يخلق من أم وأب، لكن من الذي خلقنا؟ الله جل جلاله، والله قادر أن يخلق إنساناً من دون أب، بل وقادر أن يخلق إنساناً من دون أب ولا أم سيدنا آدم، لذلك يقول الله عز وجل:

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة آل عمران: 59]

الحكمة من ذكر اسم السيدة مريم في القرآن الكريم :

أما قول الله عز وجل:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)

طبعاً بالمناسبة لم يذكر في القرآن الكريم كله إلا اسم امرأة واحدة مريم، تأكيداً أن هذا النبي الكريم هو عيسى بن مريم!

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ)

هويته بشر ورسول:

(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

صار خلق السيد المسيح يحتاج لشيئين: نفخنا فيها من روحنا، وكلمته ألقاها لمريم، كائن مهيأ، وكلمة كن فيكون، هذا هو السيد المسيح!

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

هيأها وألقى إليها كلمته كن فيكون.

الله عز وجل له رسل وليس له أبناء :

قال تعالى:

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)

الله عز وجل له رسل وليس له أبناء.

(وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ)

إنه ثالث ثلاثة، سيدنا آدم قال:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

[سورة الحجر: 29]

شكلته من تراب على شكل إنسان، ونفخت فيه من روحي، ثم ألقى إلي كلمته كن فيكون، معنى جسد أي مهيأ لاستقبال كلمة الله.

(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

هذا هو السيد المسيح، لكن أن تقول كلاماً عن بدء الخليقة: إن الإنسان الأول هو قرد تطور، هذا مخالف لما في القرآن الكريم، كيف رد الله عليهم؟ قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الكهف: 51]

لم يشهد إنسان بدء الخليقة لذلك لا يستطيع أحد أن ينقض كلام الله عز وجل :

لو فرضنا للتقريب: رجل اشترى محلاً تجارياً في أحد أسواق دمشق، بعد خمسين عاماً جلس في مجلس، تزوج بعدما اشترى المحل بعشرين عاماً، وأنجب مولوداً، ابنه إلى جانبه، قال: هذا المحل اشتريته بخمسة آلاف ليرة، قال له ابنه: لا يا أبت!! قال له: هل كنت أنت وقتها؟ انتهى الأمر:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الكهف: 51]

من كان يشهد بدء الخليقة حتى ينقض كلام الله عز وجل؟

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الكهف: 51]

إذا أخبر الله أن هذه البشرية بدأت من آدم وحواء فلا ينبغي أن نعتقد كما يقول من يؤمن بنظرية داروين، تلك النظرية التي أرادت أن تضرب الدين في أصله، خطأ داروين ليس خطأ علمياً بل خطأ أخلاقي، أراد تحطيم الكنيسة، شيء مفترى، ويوجد أدلة علمية قاطعة وبينة ومدعمة بالأدلة من عندهم أن هذه النظرية من أصلها باطل لمن شاء، لكن الحقيقة أن الإنسان حينما ينحرف يختل توازنه، فكيف يحقق توازناً جديداً؟ لا بد من أن يعتقد عقيدة تغطي انحرافه، أما إذا أراد أن يكون مجرماً، ويقتل مئات الملايين، اثنان وأربعين مليون مسلم قتلوا في بلد كبير، يرفع شعار لا إله، إذا أراد أن يفعل الإنسان كل أنواع الجرائم يحتاج لأي عقيدة، لعقيدة الإلحاد، وكيف يلحد؟ لا بد من أن يأتي بنظرية علمية تبطل ما في الكتب المقدسة من رواية بدء الخليقة، هذا الذي حدث، علماء يهود أرادوا تحطيم الكنيسة فجاؤوا بهذه النظريات، والآن ثبت بطلانها من عندهم وبأدلة قطعية، لكن الذي يتمسك بها هو الذي يتمسك بعقيدة تغطي كل جرائمه هذا هو الواقع.

في خلق السيد المسيح غاب الذكر أما في خلق سيدنا آدم فغاب الذكر والأنثى :

كلمة روح منه:

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

الإشكال حصل أن روح منه، أي بعض منه، كيف نرد على هذه الشبهة؟ قال الله عز وجل:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

هل يعد الجبل ابن الله؟ مستحيل، لو أردنا أن نقول كلمة منه:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة آل عمران: 59]

في خلق السيد المسيح غاب عنصر الذكورة، لا يوجد رجل في حياة السيدة مريم، أما في خلق سيدنا آدم فغاب عنصر الذكورة والأنوثة، بلا أب ولا أم، والآية صريحة في ذلك:

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة آل عمران: 59]

معنى التسوية :

بعضهم يقول: مرة ورد أن سيدنا آدم خلق من تراب، ومرة من ماء، ومرة من طين، ومرة من حمأ مسنون، ومرة من صلصال كالفخار، يا أخي هذا تناقض في القرآن كما يقول أعداء القرآن، القرآن لم يأت بخبر واحد، أتى بأخبار متعددة، فمثلاً أصل الخلق من ماء، مزج معه التراب، فصار

طيناً، ثم تخمر الطين فصار حمأ مسنوناً، ثم صار صلصالاً، مراحل تطور الماء والتراب والطين، حمأ مسنون، صلصال، بالتسلسل، لا يوجد تناقض أبداً، فإذا سويته أي شكله على شكل إنسان، هذه التسوية.

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

[سورة الأعلى: 1-2]

أنت يدك مسواة، لو لم يوجد فيها مفصل ما أمكن أن تأكل إلا كما تأكل القطة، تنبطح فوق الصحن، وتلحس ما في الصحن، لا يوجد طريقة ثانية، بهذا المفصل كرمك الله عز وجل، يوجد قصص لا تعد ولا تحصى عن التسوية.

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

[سورة الأعلى: 1-2]

لو أن عين الإنسان في ظهره مثلاً، غير مناسبة، وكان له عين واحدة لا يرى البعد الثالث، لو كان له أذن واحدة لا يسمع جهة الصوت، لو أنه إذا نام تعطلت أفعاله كلها لا ينام، ينام فيموت، لكن يوجد أفعال لا إرادية، التنفس لا إرادي، ضربات القلب لا إرادية، عمل الأجهزة لا إرادي، وأنت نائم دون أن تشعر يمتلئ فمك لعاباً، يذهب أمر للدماغ، اللعاب أصبح كثيراً، فالدماء يعطي أمراً للسان المزمار، فيفتح طريق المريء، فينزل اللعاب، ثم يغلق طريق المريء لمتابعة التنفس، وأنت نائم! يوجد بخلق الإنسان شيء عجيب جداً، قال:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

[سورة الحجر: 29]

هذا أصل خلق آدم! نفخ روح ثم إلقاء كلمة، وهذا أصل خلق السيد المسيح نفخ روح وإلقاء كلمة، كن فيكون، زل فيزول، أمر الله كلمة واحدة، ويا من أمره بين الكاف والنون، إذا قلت: كن فيها نصف ثانية، أمر الله لا يوجد زمن أبداً كن فيكون، زل فيزول.

أعلى مقام يبلغه الإنسان أن يكون عبداً لله :

أيها الأخوة الكرام: ثم يقول الله عز وجل:

(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ)

أعلى مقام يبلغه الإنسان أن يكون عبداً لله:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

[سورة النجم: 10]

وهو في سدرة المنتهى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

[سورة الجن: 19]

عبد الله أعلى مرتبة ينالها الإنسان، وكلما ازددت عبودية لله عز وجل رفعك الله:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح]

(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً)

من لوازم الإنسان أنه عبد لله، نبياً كان أو غير نبي.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

رسالة النبي عليه الصلاة والسلام خاتمة وهي لكل البشر :

الإنسان مخير، وهذا الحق واضح كالشمس، الآن كلام موجه لكل أهل الأرض، لأن رسالة النبي عليه الصلاة والسلام خاتمة، ولكل البشر:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

كلام واضح قطعي مؤيد بالأدلة والحجج يلغي كل الاختلافات والخصومات السابقة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

القرآن نور، أحياناً الإنسان يحمل ورقة فيها تعليمات تشغيل آلة، كأن هذه التعليمات نور يكشف له أساليب التشغيل، فالعلم نور، فحينما يأتي القرآن الكريم، ويحسم القضايا الخلافية السابقة بين الأديان هذا حسم نهائي، هذا الكلام من عند الله، ودليله إعجازه، وتحدثت في درس سابق كيف أن الله يشهد للناس أن هذا كلامه، فالقرآن معه دليله، ودليله تحقق وعده ووعيده في الدنيا، ودليله إعجازه، دليلان قويان يرقيان لمستوى الدليل القطعي، فهذا القرآن إعجازه دليل كلام الله عز وجل، ووقوع وعده ووعيده في الدنيا دليل أنه كلام الله عز وجل، فهذا فيه برهان على ما أورد القرآن من قصص لأنبياء الله كما هي دون غلو ودون إفراط وتفريط.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

هذا الذي جاء في هذه السورة عن قصة السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وهذا كلام الله حق أنّى له أن يكون معه باطل!

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(69-69): تفسير الآيات 174-176 ، البرهان والاستفتاء وإرث الكلالة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-07-18

بسم الله الرحمن الرحيم

الكمال في الخلق يدل على الكمال في التصرف :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والستين والأخير إن شاء الله تعالى من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والسبعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

برهان ونور، الله عز وجل خلق هذه الأكوان، وخلق الإنسان، في خلق الأكوان إتقان ما بعده إتقان.

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل: 88]

الكمال في الخلق يدل على الكمال في التصرف، فما دام هناك إتقان في خلق الأكوان لا بد من أن يكون مع هذا الإتقان وهذا الكمال تصرف كامل مع الخلق.

إذاً من مسلمات المنطق أن كمال الله عز وجل يقتضي ألا يدع عباده من دون منهج يسيرون عليه، شيء طبيعي.

أيها الأخوة الكرام، هل تجد أباً في الأرض يرى ابنه يقترب من مدفأة مشتعلة ويبقى ساكتاً، يبقى جالساً، لا يتكلم، لا يتحرك، مستحيل، تقتضي رحمة الأب أن يسارع إلى إرشاد ابنه، أو إلى دفعه عن المدفأة، إما إرشاد، أو أن يمسكه وأن يبعده عن المدفأة، هذا مما تقتضيه رحمة الأب.

يقتضي الكمال والإتقان أن الله عز وجل يرسل لعباده منهجاً يسيرون عليه :

ما دام في الكون كمال ما بعده كمال وإتقان ما بعده إتقان يقتضي هذا الكمال وذاك الإتقان أن الله عز وجل يرسل لعباده منهجاً يسيرون عليه، يرسل لعباده كتاباً ينبئهم لماذا خلقهم؟ وماذا بعد الموت؟ وماذا عليهم أن يفعلوا؟ هذا الكتاب هو القرآن الكريم، لكن في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

بالمناسبة أيها الأخوة، التدين فطري، الإنسان خلق ضعيف، فلما خلق ضعيفاً يحتاج إلى قوة يحتمي بها، يحتاج إلى قوة تدافع عنه، يحتاج إلى قوة يطمئن لها، يحتاج إلى قوة تحميه، هذا أصل التدين،

لذلك من لم يهتدِ إلى إله عظيم يعبده قد يتجه إلى شمس، أو إلى قمر، أو إلى حجر، أو إلى وهم يعبده من دون الله، حتى الذين يعبدون الأصنام هم يحققون حاجة خلقوا فيها، وهي حاجة الضعف، والضعف يقتضي أن تلجأ إلى قوي وأن تحتمي بقوي، لذلك الديانات الأرضية لأن فيها الولاء فقط، وفيها الطقوس، الطقوس حركات وسكنات وتمتمات لا معنى لها، ولاء فقط من غير منهج، لكن الدين الإلهي، لكن دين السماء يقتضي منهجاً، يقتضي أمراً ونهياً، الإنسان أودعت فيه الشهوات:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

برهان هذه الشهوات حيادية، ويمكن أن تتحرك بدافع من هذه الشهوات مئة وثمانين درجة، إن من حيث النساء، إن من حيث كسب المال، إن من حيث العلو في الأرض، لكن منهج الله سمح لك بزاوية معينة، إذاً ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة.

المعجزات براهين من الله عز وجل على أن هؤلاء الأنبياء والرسل هم أنبياؤه ورسله:

ليس في الإسلام حرمان، ولكن فيه تنظيم، فحينما يأتي نبي من قبل الله عز وجل، ومعه منهج، وهذا المنهج يلزم أتباعه أن يتقيدوا به، ففي المنهج حرام وحلال، ومكروه ومستحب وأمر، من أمر واجب، إلى مستحب، إلى إباحة، إلى كراهة، إلى حرام، فهؤلاء الذين ألفوا أن يتحركوا بلا قيد ولا شرط حينما يأتيهم منهج السماء يحد من حريتهم، يحد من حركتهم، فطبيعي جداً أن يتهموا هذا الرسول بالكذب.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً)

[سورة الرعد: 43]

(قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[سورة الذاريات: 52]

وقالوا:

(بَلْ هُوَ شَاعِرٌ)

[سورة الأنبياء: 5]

إذاً لا بد من تكذيب الأنبياء والمرسلين، فكيف يعطيهم الله البرهان على أنهم أنبياؤه؟ بالمعجزات، المعجزات براهين من الله عز وجل على أن هؤلاء الأنبياء والرسل هم أنبياؤه ورسله.

تتميز معجزة النبي الكريم أنها عقلية

فمنهجه القرآن ومعجزته القرآن :

سيدنا موسى جعل العصا ثعباناً مبيناً.

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ)

[سورة الأعراف: 33]

ضرب البحر فصار طريقاً يبساً، برهانه على أنه نبي؛ العصا، ويده البيضاء، وجعل البحر طريقاً يبساً، منهجه التوراة.

سيدنا عيسى برهانه إحياء الميت، منهجه الإنجيل، لاحظوا البرهان غير المنهج، البرهان شيء، والمنهج شيء آخر.

هؤلاء الأنبياء والمرسلون بعثوا إلى أقوامهم فقط، إذاً لكل قوم هاد، ومعجزاتهم حسية، أي شيء حدث وانتهى، فأصبح خبراً يصدقه من يصدقه ويكذبه من يكذبه، انتهى، أما النبي عليه الصلاة والسلام فلأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ولأن رسالته خاتمة الرسالات تقتضي أن تكون معجزته مستمرة إلى نهاية الدوران، إذاً تتميز معجزة النبي عليه الصلاة والسلام أنها عقلية، إذا كان النبي الكريم موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معجزته العصا، ومنهجه التوراة، إذا كان سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معجزته إحياء الميت ومنهجه الإنجيل، فإن النبي عليه الصلاة والسلام معجزته عين منهجه، منهجه القرآن ومعجزته القرآن، إذاً القرآن الكريم كتاب معجز إلى نهاية الدوران، فكلما تقدم العلم كشف عن جانب من إعجاز القرآن الكريم، أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله هو إعجازه.

هناك إشارات كثيرة جداً تصل إلى الألفين تقريباً، إشارات إلى حقائق علمية لم تكن معروفة في عصر النبي عليه الصلاة والسلام ثم كشفت تدريجياً، ففي كل عصر كشوف علمية تؤكد أن الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام من وحي هو من عند الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

البرهان أي الذي يثبت أن هذا الإنسان رسول الله، البرهان أي المعجزة.

كل ما يتعلق بحركة الإنسان في الحياة فيهمنهج :

قال تعالى:

(مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

النور هو المنهج، البرهان هو المعجزة والنور هو المنهج، كيف المنهج؟ أنت تمشي بالطريق، وجدت فرعين، في أي فرع تتجه؟ قيل لك: اذهب إلى بلدك من هذا الطريق، هذا نور، كأن الأمور

أظلمت عليك، وهذا التوجيه كأنه نور كشف الظلمة، العلم نور، ماذا أفعل؟ تزوج، إذا تزوجت وأصبحت الحياة لا تطاق، طلق، كيف أطلق؟ ثلاث مرات، في تفاصيل حياتك، تفاصيل كسب المال، تفاصيل إنفاق المال، تفاصيل الزواج؛ الخطبة، والزواج، والطلاق، والنفقة، وتربية الأولاد، وما إلى ذلك، العمل، الشراكة، الكفالة، الحوالة، كل ما يتعلق بحركة الإنسان في الحياة فيه منهج.

أيها الأخوة، ما من حركة يتحركها الإنسان مهما تكن ضئيلة إلا ويغطيها حكم شرعي، نبدأ من الفرض، ثم الواجب، ثم المستحب، ثم المباح، ثم المكروه كراهة تنزيهية، ثم المكروه كراهة تحريمية، ثم الحرام، ما من حركة ولا سكنة ولا موقف إلا وينبغي أن يغطى بأحد هذه الأحكام الستة فرض، واجب، مستحب، مباح، مكروه تنزيهاً، مكروه تحريماً، حرام:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء، ولأن رسالته خاتمة الرسالات، ولأنه للعالمين جميعاً، فكانت معجزته عين منهجه، منهجه القرآن ومعجزته القرآن، معجزات الأنبياء السابقين حسية، بينما معجزة النبي عليه الصلاة والسلام عقلية علمية.

النبي عليه الصلاة والسلام معجزته في القرآن الكريم وفي أحاديثه الصحيحة

حينما أنزل هذا القرآن ورد في بعض آياته أن الإنسان كما قال الله عز وجل:

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

[سورة النساء: 125]

الآن بعد أن ركب الإنسان الطائرة، في أعالي الجو يقل الضغط الجوي، وإذا قلّ الضغط الجوي ظهرت أعراض خطيرة، وقد تكون مميتة، لذلك هذه الطائرات التي نركبها يضخ هواؤها ثمانية أمثال الهواء الذي على سطح الأرض من أجل أن تركب الطائرة دون أن تشعر، فلو تعرض جهاز ضخ الهواء إلى خطر وجب أن يهبط الطيار هبوطاً اضطرارياً، وإلا يموت الركاب، فمن أنبأ النبي عليه الصلاة والسلام أن الصعود إلى الجو إلى أعالي الجو يصيب الإنسان بضيق شديد في صدره؟ إنه القرآن الكريم. الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التي تحدثت عن الجنين جاءت مطابقة لأدق البحوث العلمية في علم الجنين، من أنبأ النبي عليه الصلاة والسلام؟

أضرب مثلاً، النبي عليه الصلاة والسلام أمر أن تذبح الدابة من أوداجها دون أن يقطع رأسها، لم يوجد في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أي مركز علمي في الأرض، ولا بعد عهد النبي بمئة عام، ولا بمئتي عام، ولا بألف عام، ولا بألف وأربعمئة عام، هناك في الأرض كلها جهة علمية يمكن أن تفسر هذا التوجيه النبوي، اذبح الدابة من أوداجها دون أن تقطع رأسها، إلى أن اكتشف أن القلب فيه مركز كهربائي يأمر القلب بالنبض ذاتياً، لأن القلب أخطر جهاز في الإنسان، أخطر عضو، لا يتعلق بالكهرباء العامة كهرباء الشبكة، له مولدة خاصة، له ثلاث مولدات؛ مولدة رئيسية،

ومولدة احتياط، ومولدة احتياط للاحتياط، أرأيت إلى إتقان صنعة الله عز وجل، لكن هذا الأمر الذاتي الداخلي يعطي أمراً بالنبض النظامي ـ ثمانون نبضة في الدقيقة ـ أما إذا احتاج الإنسان إلى أن يرفع النبض؛ خائف يركض يجري لا بد من أن يأتي أمر نبض استثنائي من الكظر عن طريق الدماغ، أو يبدأ من الدماغ إلى الكظر إلى القلب، مهمة القلب بعد الذبح إفراغ الدم من جسم الدابة، لأن الدم بؤرة صالحة للجراثيم والأوبئة، النبض الطبيعي لقلب الدابة لا يخرج إلا ربع الدم، فإذا بقي الرأس متصلاً بجسم الدابة يأتي الأمر الاستثنائي، يأتي من الدماغ عن طريق الكليتين إلى القلب فيرتفع النبض إلى مئتين وثمانين، عندئذٍ يخرج الدم كله من جسم الدابة، فيغدو اللحم وردي اللون شهياً.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام معجزته في القرآن الكريم وفي أحاديثه الصحيحة.

الرحمة مطلق عطاء الله عز وجل :

قال تعالى:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

وقع أحدهم في حفرة، وجدران هذه الحفرة ملساء، موته محقق، فإذا أدليت له بحبل فتمسك به وأنقذته من هذه الورطة الإنسان معنى ذلك أنه اعتصم بهذا الحبل، أي اعتصم بشيء ينقذه. إنسان كاد يغرق، أرسل له شيء يعينه على أن ينجو من الغرق، هذا اعتصام، فأصل تعبير الاعتصام أن تتعلق بشيء، أن تتمسك بشيء ينجيك من بلاء كبير، فهذا المؤمن فضلاً عن أنه آمن بالله اعتصم به، أي أن الله عز وجل نجاه من الشقاء، نجاه من الشقاء النفسي، نجاه من حياة لا معنى لها، نجاه من ضيق، نجاه من كرب، نجاه من سوداوية، نجاه من إحباط، اعتصموا به لأنهم طبقوا تعليمات الصانع، إذاً نجاهم الله بهذا.

(فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ)

الرحمة مطلق عطاء الله عز وجل، مطلق عطاء الله رحمته، فالصحة من الرحمة، وراحة الله من الرحمة، طمأنينة النفس من الرحمة، والتوفيق في الحياة من الرحمة، والبيت السعيد من الرحمة، والأولاد الأبرار من الرحمة، والسكينة التي تلقى على قلب المؤمن من الرحمة:

(فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ)

سلعة الله غالية ومن السذاجة بمكان أن نطلبها بعمل يسير :

إنسان يكون ضيفاً على مضيف من أعلى مستوى، تجد الإكرام فنوناً، الاستقبال، والغرفة، والطعام، والمقبلات، والعصير، والفواكه، والحلويات، والقهوة، والشاي، والترحيب والتكريم، والمجلس المريح، ألوان ملونة، وأنواع منوعة من الإكرام، هذا للتقريب، كلمة فلان في رحمة الله أي في حفظه، في تأييده، في توفيقه، في إسعاده، أي ملأ قلبه غنى، أي ألقى الأمن في قلبه، وأنزل السكينة على قلبه، ويسير شؤونه في كسب رزقه، في إنفاق ماله، في علاقاته الإيجابية، رحمة الله واسعة جداً، إذا منحك الله رحمته سعدت بها ولو فقدت كل شيء، وإذا حجب عنك رحمته شقيت بحجب هذه الرحمة ولو ملكت كل شيء:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ)

ولعل البدايات تحتاج إلى جهد، جاءت سين الاستقبال:

(فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ)

أي نجد في البدايات صعوبة، لأن سلعة الله غالية، يقول لك: فلان يحمل دكتوراه فرضاً، أنت هل تعلم هذا اللقب العلمي الذي يتميز به هل تعلم كم كتاباً قرأ؟ وكم فحصاً أجرى؟ وكم أزمة نفسية أصابته؟ وكم ليلاً سهر؟ وكم أستاذاً صعباً صبر عليه؟ وكم كتاباً صعباً فهمه واستعان على فهمه بأشياء كثيرة؟ ما وصل إلى هذا اللقب إلا كاد يموت من التعب، ومن الهم، ومن القلق والخوف والامتحانات، فسلعة الله غالية، من السذاجة بمكان أن تطلبها بعمل يسير، ما من إنسان بالأرض يقدم طلباً لا يقرأ ولا يكتب، يقدم طلباً للحكومة للتعليم العالي، يرجى منحي دكتوراه، فقط التوقيع فلان، هو لا يقرأ ولا يكتب، هذا طلب يستحق الابتسامة الساخرة، لا بد من عمل دؤوب لا من أجل الآخرة، من أجل الدنيا، من أجل أن يضاف لاسمك حرف الدال ونقطة فقط.

طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب واستخفاف بالجنة :

هكذا الحياة، من أجل أن يقال لك دكتور تبذل هذا الجهد، من أجل أن تدخل الجنة تطمع أن تكون بلا عمل، وطلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب، استخفاف بالجنة، ألا إن سلعة الله غالية.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

هكذا تقول: آمنت، إغراءات، في امتحانات، المؤمن لا يتأثر أنه آمن بالله واعتصم به، وأصر على نيل رضوانه، لا يتأثر لا بسياط الجلادين اللاذعة، ولا بسبائك الذهب اللامعة، لا يؤثر فيه إغراء ولا تهديد، إنه مع الله عز وجل:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ)

رحمة، سعادة، فضل، يجري على يديك عمل صالح، إنسان بلا عمل هذا ليس مؤمناً، فقط إيمان سكوني، أخي دين عظيم، الإسلام دين الفطرة، الإسلام، وبعد ذلك ماذا؟!

مثلاً لو أن إنساناً عنده مرض جلدي لا يشفى إلا أن يتعرض لأشعة الشمس، هذا الإنسان جالس في غرفة مظلمة، وفي الخارج شمس ساطعة، لو قعد في هذه الغرفة المظلمة، وقال: يا لها من شمس ساطعة، إنها شمس مشرقة، إنها شمس منيرة، يا لها من شمس في كبد السماء، يا لها من شمس مشرقة في رابعة النهار، لو أتى بكل ألفاظ الأدب في الحديث عن الشمس وهو لم يتعرض لها لا ينتفع بكل هذه العبارات الطنانة، لا بد من أن يعرض جلده لأشعة الشمس.

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

الله عز وجل إذا أحبك أنطقك بالحق وأجرى الهدى على يديك :

قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

[سورة الإسراء: 19]

أي إسلام سكوني، إسلام تأملي، هكذا معظم الناس، مرتاح، يتابع الأخبار، يوزع تهماً على الناس، لا يقدم شيئاً، أعجبني قول أحدهم، قال لي: أنا أُعَظِّم شخصاً إلى درجة أنني لا أرى إنساناً في الأرض فوقه، إنه رسول الله، لا يخطئ، معصوم، قال لي: وأحتقر إنساناً لا يخطئ أيضاً، هو الذي لا يعمل، الذي لا يعمل لا يخطأ، ما قدم شيئاً لا عمل ولا محاولة، ما ضحى بشيء، ما غامر إطلاقاً، ما تحرك، ما فعل شيئاً، من لا يعمل لا يخطئ، لكن من يعمل يخطئ:

((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي عن أنس]

فيدخلهم برحمة منه، هذا العطاء النفسي، الشعور بالأمن، الشعور بالسكينة، الثقة بالمستقبل، التوازن.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

فضلاً عن ذلك عمل صالح، لعل الله عز وجل إذا أحبك أنطقك بالحق، أجرى الهدى على يديك، وظفك جندياً تدافع عن هذا الحق العظيم، في رحمة، وفي فضل، الفضل عمل صالح:

(وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

أي كإنسان يمشي على طريق واضح، أحياناً تجد سائقاً على خط، يحفظ الطريق متراً متراً، وفي أماكن في اليمين فيها حفر، انتقل إلى اليسار، وتلافى الحفرة، حفظها عن غيب، كيف أن هذا السائق

لشدة مراسه في هذا الطريق تجنب كل الحفر، كذلك المؤمن، طريقه واضح تماماً، الحلال واضح، والحرام واضح، والأعمال الصالحة واضحة، والوسائل أمامه واضحة، والأهداف واضحة.

لا يمكن للإنسان أن يستوعب الباطل لأنه متعدد :

قال تعالى:

(وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

بعد ذلك مستقيم، أقرب خط بين نقطتين الخط المستقيم، استيعاب الباطل فوق طاقة البشر، لو أردت أن تستوعب فرقة ضالة، تحتاج إلى عشر سنوات، تقرأ الكتب كلها، والخلفيات، والملابسات، والوقائع، والأحداث، والمعارك، والحروب، والنتائج، وما قيل، وما كتب، والمعلقين، والمؤرخين، إذا كانت فرقة ضالة تحتاج إلى عشر سنوات تستوعب، يقول لك دكتوراه بالفرقة الفلانية، أي خمس أو ست سنوات تأليفاً، وتصحيحاً، وتعقيباً، وتنقيحاً، لذلك لا يمكن للإنسان أن يستوعب الباطل، لأنه متعدد.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

بين نقطتين لا يمكن أن أمرر إلا خطاً مستقيماً واحداً، الثاني يأتي فوقه، الثالث ارسم نقطتين، وائت بالمسطرة، ضع المسطرة على جانب النقطتين، ارسم خطاً، الثاني فوق الأول، والثالث فوق الثاني، بين نقطتين لا يمر إلا خط واحد، هذا الحق، الحق لا يتعدد، لكن الباطل يمر بين نقطتين مليون خط منحني، ومليون خط منكسر، ومليار خط يمر انحناء صغير، انحناء أشد، انحناء أشد، انحناء أشد، انحناء أشد، انكسار قليل، انكسار كبير، لذلك الباطل لا يستوعب، والطريق مسدود، استوعب الحق والحق مقياس، وفرت وقتك، ووفرت جهدك:

(وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

الفرق بين السؤال والاستفتاء :

آخر آية في هذه السورة المباركة:

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

يستفتونك، الاستفتاء أن تطلب الحكم الشرعي لحالة لا تعرف فيها الحكم، أما السؤال يقتضي أي شيء، السؤال أوسع من الاستفتاء، الله عز وجل قال: يسألونك عن الميسر، يسألونك عن المحيض،

يسألونك عن الجبال، يسألونك عن الخمر، هناك أسئلة، وهناك استفتاء، الاستفتاء أن تطلب الحكم الشرعي لحالة أو لواقعة لا تعلم أنت ما حكم الشرع في هذا، هذا الاستفتاء.

حسناً ماذا يُفهم من هذه الآية؟ يُفهم أن الذي يستفتي، وأن الذي يسأل أراد أن يبني حياته على منهج الله، من هو الذي لا يسأل؟ لأنه لا يسأل لا يعبأ بهذا الدين، وبالتعبير العامي يقول لك: حط بالخرج، لا، المؤمن يسأل، لأنه يتمنى رضاء الله عز وجل، لأنه أخذ قراراً مصيرياً أن تكون حياته وفق متهج الله إذاً يسأل، فهذا الذي يسأل إنسان له عند الله مكانة كبيرة جداً، والذي لا يسأل إما أنه يعرف الحكم لا يسأل، وإما أنه لا يعبأ بهذا الموضوع كله، الذي لا يسأل إما أن يكون عالماً، أو أن يكون شارداً عن الله كلياً، أما الذي يسأل فإنسان ورع، والسؤال مفتاح العلم، وأنت حينما تستشير الرجال تستعير عقولهم، أنت لا تستطيع أن تدخل إلى عيادة طبيب، وليس في جيبك الأجرة، لا تستطيع أن تدخل مكتب محام، وليس في جيبك مقدم الأتعاب، لا تستطيع أن تدخل إلى أي بائع إلا وفي جيبك الثمن، لكنك تستطيع أن تسأل كل داعية إلى الله بلا ثمن، تسأله: ما حكم الشرع في هذا؟ هو يتقرب إلى الله بتوضيح الحق، وأنت تتقرب إلى الله بهذا السؤال، تبحث عن حكم الله عز وجل، وهو يقدم لك هذا الحكم، لذلك السؤال علامة الورع.

الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالنص :

اسألوا قال تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

أهل الذكر هم أهل القرآن والسنة، يا أخي حكم الله في هذا حرام، قال لي إنسان اليوم: هل يجوز أن أؤجر بيتي لبنك؟ قلت له: لا يجوز، قال لي: ما الدليل، قلت: قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة: 2]

ألا يجري في هذا البنك معاملات ربوية، أنت ماذا فعلت؟ قدمت له البيت، قدمت له المكان، هل بإمكانك أن تخيط مثلاً ثياباً فاضحة ترتديها النساء في الطرقات مثلاً؟ فيها إشكال، هل بإمكانك أن تزود ملهى بأجهزة صوت من أعلى مستوى؟ عمل متقن، أين؟ بالملهى، الله يعطيك العافية:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة: 2]

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة]

هناك حكمة بالغةٌ بالغة من الأمر الإلهي، وهناك حكمة بالغةٌ بالغة من النهي الإلهي، وهناك حكمة بالغة بالغةٌ بالغة من الذي سكت عنه الشرع.

قال لي واحد: جاءتني بذلة صنعت في بريطانيا، يجوز أن ألبسها؟ قلت له: يجوز، أليست من عمل الكفار؟ قلت له: لا تلبسها، انتهى، كما ما تريد.

الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالنص، والأصل في العبادات الحظر، ولا تشرع عبادة إلا بالدليل.

الأصل في العبادات الحظر فلا تشرع عبادة إلا بالدليل :

العبادات الأصل فيها الحظر، لا يجرؤ إنسان في الأرض أن يحدث عبادة إلا بالدليل، أما الأشياء الأصل فيها الحظر مادام ليس فيها نص، ما حكم ـ فرضاً ـ أكل الخضار مع الحلويات معاً؟ هذه ليس فيها حكم شرعي، الأصل في الأشياء الإباحة، أما الحظر في العبادات، فالذي أمر الله به ائتِ منه ما استطعت، أمرك بالصدقة، أما الذي نهاك عنه يجب أن تدعه كلياً، كلام دقيق جداً، أنت هيأت مستودعاً للوقود السائل هذا المستودع فيه عمليتان، إحكام وإملاء، املأه ما استطعت، يسع ألفي لتر، لا تملك ثمن الألفين، املأه مئة لتر، أما الإحكام ليس فيه حل وسط، الإحكام حدي، أما الإملاء فنسبي، ليس هناك مستودع محكم نوعاً ما، ما في نوعاً ما، محكم أو غير محكم، محكم بين بيْن، ليس هناك محكم بين بيْن، ولا نوعاً ما، ولا إلى حد، محكم، أما إملاؤه فبقدر ما تستطيع، فإذا أمرت بالصدقات فبقدر ما تستطيع.

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

أما إذا الله نهاك عن أكل الربا فهذا النهي حدي، فالنهي حدي، والأمر نسبي، والذي سكت الله عنه الأصل في الأشياء الإباحة، أنا لا أبحث عن شيء سكت الله عنه، الأصل الأشياء مباحة، لا يحرم شيء إلا بالدليل، الأصل في العبادات الحظر لا تشرع عبادة إلا بالدليل:

((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة]

دعوه كلياً.

حكم الله في الكلالة :

الآن:

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

الْكَلَالَةِ، أي إنسان ليس له ولد، وليس له أب، العادة أن الأب يرعى الابن، والإنسان إذا كبر في السن رعاه ابنه، أنت بين رعاية أب ورعاية ابن، إنسان توفي ليس له ابن، وليس له أب، كيف يرثه من حوله؟!

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

بالمقابل:

(وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ)

ليس له أولاد، وليس له أب، ترك أختين فلهما الثلثان:

(وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

رجال ونساء، للذكر مثل حظ الأنثيين، ترك أختين فلهما الثلثان، ترك أختاً واحدة لها النصف.

بقدر طاعتك لله تنفذ أمر الله في الميراث :

قال تعالى:

(يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أي يبين الله لكم لئلا تضلوا المعنى:

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

بالمناسبة أيها الأخوة، الله عز وجل ما سمح لسيد الخلق وحبيب الحق أن يوزع الميراث، تولاه بذاته، الفرائض من قبل الله بالذات، لماذا؟ الإنسان أحياناً يجتهد، هذا غني ليس بحاجة، احرمه، هذا فقير ضاعف له، تدخل الأهواء، والمنازعات، والخصومات، لا، هذا الشرع أحق أن يتبع، فلذلك إن الرجل يعبد الله ستين عاماً ثم يضار في الوصية فتجب له النار، البنات لا نورثهم، لماذا؟ راح المال من بيت فلان للأصهار، هذا كلام الشيطان، البنت لها الحق في الإرث بالتمام والكمال، فبقدر طاعتك لله تنفذ أمر الله في الميراث، هذا حكم الله في الكلالة، إنسان توفي ليس له أولاد، وليس له

أب، الأب كان يرعاه، والابن يرعاه في شيخوخته، فماله يذهب إلى أخته النصف، إلى الأختين الثلثان، إن كانوا ذكوراً وإناثاً:

(فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ)

أيها الأخوة الكرام: بفضل الله تعالى تم تفسير سورة النساء في تسعة وستين درساً، وفي تسعة وستين شريطاً، وهذا من فضل الله علينا، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً لمدارسة هذا الكتاب.

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

الفهرس

الدرس (01- 69): الآية [1]..... 1
الدرس (02- 69): الآيات [2-3]..... 15
الدرس (03- 69): الآيات [4-5]..... 25
الدرس (04- 69): الآية [6]..... 37
الدرس (05- 69): الآيات [7-10]..... 47
الدرس (06- 69): الآيات [11-14]..... 58
الدرس (07- 69): الآيات [15-16]..... 70
الدرس (08- 69): الآيات [17-18]..... 84
الدرس (09- 69): الآيات [19-21]..... 100
الدرس (10- 69): الآيات [22-24]..... 113
الدرس (11- 69): الآيات [24-27]..... 124
الدرس (12- 69): الآيات [26-28]..... 138
الدرس (13- 69): الآيات [29-30]..... 151
الدرس (14- 69): الآيات [29-31]..... 164
الدرس (15- 69): الآية [31]..... 176
الدرس (16- 69): الآية [32]..... 191
الدرس (17- 69): الآيات [33-34]..... 204
الدرس (18- 69): الآيات [34-35]..... 216
الدرس (19- 69): الآية [35]..... 226
الدرس (20- 69): الآية [36]..... 239
الدرس (21- 69): الآيات [37-40]..... 252
الدرس (22- 69): الآيات [40-42]..... 263
الدرس (23- 69): الآية [43]..... 274

الدرس (24- 69): الآيات [44-45]..... 285
الدرس (25- 69): الآيات [46-47]..... 298
الدرس (26- 69): الآية [48]..... 310
الدرس (27- 69): الآيات [49-54]..... 322
الدرس (28- 69): الآيات [56-57]..... 336
الدرس (29- 69): الآية [58]..... 346
الدرس (30- 69): الآية [59]..... 356
الدرس (31- 69): الآيات [60-63]..... 368
الدرس (32- 69): الآيات [64-65]..... 379
الدرس (33- 69): الآيات [65-70]..... 389
الدرس (34- 69): الآية [71]..... 401
الدرس (35- 69): الآيات [71-76]..... 409
الدرس (36- 69): الآية [77]..... 420
الدرس (37- 69): الآيات [78-79]..... 431
الدرس (38- 69): الآيات [80-83]..... 441
الدرس (39- 69): الآيات [84-85]..... 451
الدرس (40- 69): الآية [86]..... 464
الدرس (41- 69): الآيات [87-88]..... 473
الدرس (42- 69): الآيات [89-91]..... 481
الدرس (43- 69): الآيات [92-93]..... 490
الدرس (44- 69): الآية [94]..... 500
الدرس (45- 69): الآيات [95-96]..... 511
الدرس (46- 69): الآيات [97-100]..... 522
الدرس (47- 69): الآيات [102-104]..... 532
الدرس (48- 69): الآيات [105-106]..... 539

الدرس (49- 69): الآيات [105-110]..... 548
الدرس (50- 69): الآيات [111-113]..... 558
الدرس (51- 69): الآيات [114-115]..... 568
الدرس (52- 69): الآيات [116-118]..... 578
الدرس (53- 69): الآيات [119-120]..... 588
الدرس (54- 69): الآيات [121-122]..... 600
الدرس (55- 69): الآيات [123-126]..... 608
الدرس (56- 69): الآيات [123-126]..... 618
الدرس (57- 69): الآيات [127-130]..... 629
الدرس (58- 69): الآيات [131-134]..... 641
الدرس (59- 69): الآيات [131-134]..... 656
الدرس (60- 69): الآيات [136-141]..... 668
الدرس (61- 69): الآيات [141-144]..... 683
الدرس (62- 69): الآيات [144-147]..... 696
الدرس (63- 69): الآيات [148-149]..... 708
الدرس (64- 69): الآيات [150-151]..... 719
الدرس (65- 69): الآيات [153-154]..... 729
الدرس (66- 69): الآيات [155-162]..... 736
الدرس (67- 69): الآيات [163-170]..... 747
الدرس (68- 69): الآيات [171-175]..... 760
الدرس (69- 69): الآيات [174-176]..... 769

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

تفسير سورة المائدة

www.nabulsi.com
info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (01-49): تفسير الآية 1 ، الوفاء بالعقود
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-08-08

بسم الله الرحمن الرحيم

الترابط الدقيق والعميق بين الآيات في السورة الواحدة وبين السور في المصحف :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من دروس سورة المائدة ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)

أولاً أيها الأخوة، ترتيب الآيات في السورة الواحدة توقيفي من الوحي، وترتيب السور فيما بينها توقيفي، بمعنى أن الله عن طريق جبريل تولى ترتيب الآيات في السورة الواحدة، وترتيب السور في المصحف، ذلك لأن هناك ترابط دقيق وعميق بين الآيات في السورة الواحدة، وبين السور في المصحف، فحينما جاء في سورة النساء عقود كثيرة كعقد النكاح، وعقد الصداق، وعقد البيع، وعقود أيضاً أخرى، فجاءت مقدمة هذه السورة أن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

شيء آخر، إن الله سبحانه وتعالى كما أذكر دائماً يخاطب الناس بأصل الإيمان ويخاطب المؤمنين بالتكاليف، فالتكاليف يخاطب بها المؤمنون والناس يخاطبون بأصل الإيمان.

مخاطبة الله عز وجل الناس بأصول الدين والمؤمنين بالتكاليف :

إذاً حيثما قرأت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ينبغي أن تعلم هذا من التكليف، وهذا التكليف طبيعي جداً لمن آمن بالله، مثلاً طالب في جامعة عاش مع أستاذه سنوات عديدة، وانتقل معه من سنة إلى سنة، فحينما يأمر هذا الأستاذ بكتابة بحث، أو مراجعة كتاب، فهذا الأمر مبني على أن هذا الطالب عرف قيمة أستاذه، وعرف علمه، وعرف حرصه، وعرف رغبته أن يرقى بتلميذه، فكل هذه الحيثيات في ذهن الطالب حينما يأمر هذا الأستاذ تلميذه بكتابة هذا البحث، أو مراجعة هذا الكتاب، أو تلخيص هذا الموضوع، أما هذا الأستاذ نفسه لو مشى في الطريق ورأى إنساناً عادياً قد يكون أمياً وقال له: اكتب البحث الفلاني، معك أسبوع، كلام

ليس له معنى إطلاقاً، يسألك: من أنت؟ من أنت حتى تأمرني؟ هذا الأستاذ لا يستطيع أن يخاطب إلا طلابه بتفاصيل الأوامر، لكن الإنسان العادي يقال له: هل فكرت في الكون؟ هل تعرفت إلى الله؟ ألست مسلماً؟ ينبغي أن تصلي، فدائماً وأبداً الله عز وجل يخاطب الناس بأصول الإيمان، بأصول الدين.

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

[سورة الطور: 35]

أما إذا خاطب المؤمنين يخاطبهم بالتكاليف، إذاً شرف كبير أن تكون مشمولاً بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ما من مرتبة ينالها الإنسان كأن يكون منسوباً إلى الله عز وجل :

بل هناك أبلغ من ذلك، أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(قُلْ لِعِبَادِيَ)

[سورة إبراهيم: 31]

هذه الياء ياء النسب، وقد نسب العباد إلى الله عز وجل، عبادي.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الزمر: 53]

هذه نسبة شرف وتكريم، أي ما من مرتبة ينالها الإنسان كأن يكون منسوباً إلى الله عز وجل، أي من باب الاعتزاز أن تقول: أن ابن فلان، أنا من بيت علم فرضاً، أنا منسوب إلى العالم الفلاني، فحينما تنسب إلى خالق الأرض والسماوات فهذا أعظم تكريم وتشريف للإنسان:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الزمر: 53]

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان: 63]

هكذا، بقي شيء آخر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

العقود هي التي وردت في سورة النساء، ثم إن معنى أوفوا بالعقود تأتي بمعنى آخر؛ أي عقد بينك وبين الله حينما تذهب إلى العمرة أو إلى الحج، وتقف أمام الحجر الأسود وتشير إليه وتقول: اللهم إيماناً بك، وتصديقاً لكتابك، واتباعاً لسنة نبيك، يا رب أعاهدك على التوبة النصوح، يا رب أعاهدك ألا آكل المال الحرام ما حييت، يا رب أعاهدك على غض البصر ما حييت، يا رب أعاهدك على فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، يعود إلى بلده وكأن شيئاً لم يكن، لذلك قال الله تعالى:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 102]

على الإنسان أن يعاهد الله وأن يبقى عند عهده :

شيء مؤلم جداً أن تعاهد الله ثم تنسى، أن تعاهد الله ثم تخلف هذا العهد، الله عز وجل كأنه يعاتبنا أو يأمرنا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

الشيء الذي يهز مشاعر الإنسان قوله تعالى:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

وفى ما عليه، أي رائع جداً أن تعاهد الله وأن تبقى عند عهدك.

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

المؤمن لا يبدل لا في الشدة، ولا في الفقر، ولا في المرض، ولا في القلق، عاهد الله على طاعته، فهو على عهده قائم في الشدة والرخاء، في الغنى والفقر، قبل الزواج وبعد الزواج، قبل المرض وبعد المرض، أخذ قراراً مصيرياً بطاعة الله عز وجل، أما هؤلاء المتقلبون الذين يعبدون الله على حرف، تارة يقبلون وتارة يعرضون، تارة يتمسكون وتارة يتفلتون، هؤلاء في مرتبة دنيا.

كل أمر ونهي في القرآن الكريم هو عقد بين الإنسان وربه يجب أن يلتزم به :

حينما قال الله عز وجل:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم: 4]

أي هو في الأعماق، ورائع جداً أن تكون في الأعماق، لا تتأثر لا بحدث ولا بمصاب ولا بفقر ولا بغنى، راض عن الله عز وجل.

إني وإنْ فتنوا في حبهمْ كبدي باقٍ على ودهمْ راضٍ بما فعلوا

* * *

هؤلاء الذين تساق لهم الشدة ويصبرون هؤلاء عند الله في أعلى مكان، انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، معظم الناس في الرخاء يشكرون الله، لكن الشدة تفرزهم إلى مؤمن وإلى ضعيف الإيمان، والأحداث الأخيرة كأنها فرزت بعض الناس، فحينما لم يتحقق ما كان المسلمون يصبون إليه، أصبحت حالة الإحباط منتشرة بين المسلمين، هناك من ترك الصلاة، هو يصلي إذا في انتصار، ثم لا يصلي إن لم يحقق هذا الانتصار، هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف، فالعقود هي العقود مع الله، ومن أدق معاني العقود أن الله حينما أمرك بالعبادات هي عقود إيمانية، وحينما أمرك بالصدق هي عقود تعاملية، وحينما أمرك ببعض الأوامر الأخلاقية هي عقود أخلاقية، فأنت مكلف أن تفي بالعقود الإيمانية والعقود التعاملية والعقود الأخلاقية، وكل أمر في القرآن الكريم يعني عقداً بينك وبين الله، ينبغي أن توفيه، وكل نهي في القرآن الكريم يعني عقداً بينك وبين الله ينبغي أن تبتعد عنه، وكل دعوة من الله عز وجل إلى عمل صالح هو عقد مع الله ينبغي أن تفعله، وقد قال الله عز وجل:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

أريتم إلى هذه الآية، كأن الله سبحانه وتعالى يقول: أقرضوني يا عبادي، أقرضني معالجة هر أصابه حادث ولا أحد يهتم به، إنك إن أخذت هراً إلى طبيب بيطري وعالجته أقرضت هذا لله عز وجل، أقرض الله عملاً صالحاً تبتغي به وجه الله عز وجل.

الوفاء بالعهد أو العقد من أرقى الصفات الأخلاقية :

أيها الأخوة:

(أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

أي نفذوا هذه العقود، أما (أوفوا) هذا الفعل ثلاثي لكنه غير مستعمل كثيراً (وفى)، ورد منه اسم تفضيل على وزن أفعل.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة: 111]

إلا أن الفعلين اللذين يستخدمان في اللغة فعل (وفى):

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

وفي فعل (أوفى):

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

ما من صفة ترقى بالإنسان كالوفاء بالعهد والعقد، وما من صفة تحطمه وتلغي إنسانيته كأن يتنكر لعقوده ولوعوده، أي مرةً سمعت تصريحاً لمستشارة لدولة كبرى تقول: من يلزمنا أن نفي بعهودنا ومواثيقنا.

أنت حينما تشعر بقوتك وتلغي عهودك ومواثيقك أنت لا تنتمي إلى بني البشر، والوفاء بالعهد أو العقد من أرقى الصفات الأخلاقية.

العقود هي بيننا وبين الله :

أذكر أن إنساناً عرض بيته للبيع فجاء من يشتريه بمبلغ، ولحكمة أرادها الله عز وجل بعد حين جاء من يدفع له ثلاثين بالمئة زيادة عن هذا المبلغ، فالذي اشترى البيت بلغه أن فلان عرض على صاحب البيت هذا المبلغ فأيقن يقيناً قطعياً أنه لن يبيعه البيت، بحسب أخلاق الناس الآن، جاء وقت تنفيذ الوعد وكتابة العقد فذهب إليه ومعه المبلغ الأول، استقبله بترحاب وكتب العقد ووقعه، وهو يعلم علم اليقين أن زيداً دفع له ثلاثين بالمئة من ثمن البيت، بعد أن وقع العقد ونقضه المبلغ، قال له: لي عندك سؤال، ألم يُعرَض عليك ثمن أعلى؟ قال نعم، ولكني لا أبيع ديني.

هكذا كان المسلمون، يوفون بعهودهم ومواثيقهم وعندئذٍ يرفعهم الله عز وجل، أما حينما نقلد التائهين، نقلد الشاردين، ونتنكر لعقودنا ومواثيقنا ولا نعبأ بها بقي الدين اسماً، والقرآن رسماً، وانتهى المسلمون وسقطوا من عين الله عز وجل، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض أهون من أن يسقط من عين الله، فإذا عقدت عقداً ينبغي أن تنفذه، وإذا عاهدت عهداً ينبغي أن تنفذه، وهذا يرفعك عند الله عز وجل، والدنيا تذهب وتأتي، ولكنك إذا سقطت من عين الله لن تستطيع أن تفعل شيئاً بعد ذلك يقربك من الله عز وجل إلا أن تتوب توبة نصوحة، وأن تعاهده ثانية على الوفاء بالعهد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

إذاً العقود هي بينك وبين الله، وقد توسع المفسرون بفهم كلمة العقد، فعبادات أمرت بها كالصيام والصلاة والحج والزكاة، هي عقود إيمانية أمرك الله بها، والأوامر والنواهي التعاملية أمرك الله بها كالصدق والأمانة والعفو والإنصاف والعدل والرحمة، وحينما تتخلق بأخلاق رسول الله هذه عهود أخلاقية أمرك الله بها، أنت مع عقود الله وعهوده، وأحياناً قد تبرم عقداً مع إنسان، هذا العقد مع الإنسان ينبغي أن تنفذه، لذلك المؤمن لا يتسرع بتوقيع العقد، أما إذا وقع انتهى، وفي القضاء الإنسان مأخوذ بإقراره، وهبتك وهَبتك انتهى الأمر، أعطيتك أعطيتك، بعتك بعتك، وكان السلف الصالح يتغنون بوفائهم للعقود أما الجيل المعاصر فيفتخر بأنه نقض عهده ولم ينفذ هذا البيع.

العهد بين الإنسان و ربه و بين الإنسان و الناس يرفع الإنسان عند الله :

هذا الذي يرفع الإنسان عند الله العهد الذي بينك وبين الله، والعهد الذي بينك وبين الناس، وكلا العقدين واجب التنفيذ، وربنا عز وجل يقول:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

هو قدوة لنا، العقد يبدو غير معقول.

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

[سورة الصافات: 102]

ومع ذلك وضعه وتله للجبين، والله جل جلاله فداه بذبح عظيم، لكن بلغ أعلى مستوى يبلغه إنسان، وأنت حينما تفي بوعدك وتنفذ عهدك لك عند الله مقام كبير، وحينما تتنكر لعهدك وعقدك تسقط من عين الله.

سمعت قصة أن امرأة خطبت من شاب، هكذا سمعت، من شاب مؤمن يعمل مهندساً في بلد نفطي، وتمت الخطبة وعقد العقد وانتهى كل شيء، وهناك رسائل واتصالات هاتفية بين الخاطب وبين مخطوبته، وهي زوجته بعد العقد، جاء من يخطبها وهو غني كبير ماذا فعلت الأم؟ أمرت ابنتها أن تقطع اتصالها بخطيبها وزوجها وأرسلت الهدايا إلى بيت أهل الخاطب، وكانت قطيعة بين الزوجة والزوج، وقيل له: لا بد من تطليقها لا نريدك، فلما رأى إصرارهم طلقها، أعطيت لهذا الخاطب الغني، ولحكمة أرادها الله عز وجل هذا الغني طلقها، ثم تزوجت ثالثاً وطلقها، وهي في هذا الوقت عانس تعيش مرارة العنوسة لأنها طمعت بالمال وكانت أداة بيد أمها.

فالوفاء بالعهد والعقد صفة في الإنسان رفيعة، لا يعلم إلا الله كم لصاحبها من مكانة عند الله عز وجل، فالإنسان يعيش بسمعته، يعيش بأخلاقه، يعيش بدينه، عند الله محمود وعند الناس محمود، ومن ألطف ما فسره المفسرون لكلمة محمود: محمود عندك، أنت محمود عند نفسك، ومحمود عند الله، ومحمود عند الناس، إذا كنت وفياً بالعقود والعهود.

قصص من الواقع عن الوفاء بالعهد :

سمعت قصة أخرى؛ مفيد جداً أن نتابع هذا الموضوع، شابان كانا على مقعد دراسة واحد، الأول صار من كبار تجار البناء، والثاني بقي ذا دخل محدود، عنده دكان صغيرة يرتزق منها، لما كبرا الثاني الفقير أراد الزواج ليس عنده بيت، فذهب إلى صديقه الذي كان معه على مقعد الدراسة ورجاه أن

يؤجره بيتاً من بيوته، تاجر بناء كبير، قال له بلطف بالغ: والله أنا لا أؤجر البيوت أنا أبيعها فقط، فاعذرني، ألح عليه ثانية فاعتذر، ألح عليه ثالثة فاعتذر، قال له مرة: عهداً لله إن أجرتني بيتاً وجاء من يشتريه أسلمك إياه في يوم واحد، يبدو أن الصديق الثاني صدقه ورقت نفسه وأسكنه هذا البيت في أحد أرقى أحياء دمشق وكانت أسعار البيوت متدنية جداً، بعد أربع سنوات جاء من يشتري البيت برقم فلكي، ارتفعت الأسعار، فجاء صاحب البيت وطرق باب صديقه المسلم، الأول غير مسلم، قال له: أين عهدك؟ أنت وعدتني أن تخرج بيوم واحد، أنا أعطيك مهلة ستة أشهر، فما قولك؟ قال له: حاضر، بعد يوم واحد يفاجئ صاحب البيت أن هذا الصديق الذي استأجر بيته طرق الباب وقدم المفتاح، بعد يوم، وقد منحه ستة أشهر، لم يصدق، انطلق إلى البيت فإذا البيت في أعلى درجة، نظيف، كل الوسائل التي أعطاه إياها سليمة، فسئل ـ القصة دقيقة جداً ـ لما فتح الباب ودخل وخرج، فتح الجيران الباب وسألوه: كم دفعت له من المال حتى خرج؟ قال: والله ما دفعت له شيئاً، إلا أنه وعدني ووفى بوعده، قالوا: عجيب باع كل أثاث بيته في سوق في الشام بأبخس الأثمان وسكن مع أهله في فندق، قال: هكذا ؟ قالوا: والله هكذا، فذهب إليه لأنه قال له: عهد الله علي أن أسلم البيت بعد يوم من طلبك إياه، هذا الرجل كبر عنده هذا العمل، هذا عمل بطولي، فالتقى به في الفندق وأقسم له بكل ما يؤمن أن يعود إلى البيت وقد باعه إياه بثمن البيت يوم سكنه، وبأبخس الأسعار، وأن كل الأجر الذي دفعه من ثمن البيت، والأثاث تكفل أن يؤسس له أثاثاً جديداً، هذه القصة وقعت في دمشق.

هذا وفاء العهد، كان في دمشق أكثر من سبعمئة ألف بيت مغلقة لا تؤجر لأن هناك أزمة ثقة بين الناس، يسكن البيت ويقسم بأبلغ الأيمان ثم يتحكم بالبيت ولا يعبأ بشيء ولا يخرج ولا بأية وسيلة، فالمشكلة أيها الأخوة بيننا مشكلة ثقة، فإذا كان المسلمون عند عهودهم ومواثيقهم والله تحل آلاف المشكلات، والله تحل كل المشكلات.

الحياة مع المؤمنين جنة والحياة مع المتفلتين جحيم لا يطاق :

بلغني أنه في بلد غربي تقليد رائع لك مثلاً تعويض عشرة آلاف، وأنت بحاجة ماسة إليه، فتأتي إلى المحاسب وتوقع توقيعاً خاصاً اسمه توقيع شرف أن لك هذا المبلغ وتقبضه، والمعاملة تمشي على الرخاء، أي هذا التوقيع مقدس، إذا وقعته معنى ذلك أنك صادق مئة بالمئة، تحل بهذا التوقيع كل المشكلات.

أحياناً الإنسان يدفع ثمناً باهظاً كبيراً لتعقيد في المعاملات، أما إذا كان هناك صدق وأمانة والله الحياة مع الناس جنة، أما الآن من ضعف دين الناس، وضعف وفائهم بعقودهم، وعهودهم، ومواثيقهم، كل

إنسان لغم لا تعرف متى ينفجر، أي إذا ما وقعت ووثقت وبكاتب العدل ومع ذلك تخضع لمحاكمة قد تطول عشر سنوات، مع التوثيق والشهود والعقود والعهود والتسجيل، الحياة مع المتفلتين جحيم لا يطاق، والله في زحمة أزمة السكن الحادة التي ينتج عنها أن إنساناً سكن بيتاً لا يخرج منه مهما كلف الأمر، مهما كان ديناً انتهى هذا البيت ملكه.

أعرف رجلاً أعطى بيتين لمؤمنين والقوانين كلها مع المستأجرين بعد سنتين طلب البيتين فأخذ البيتين بكلمة واحدة، أريد البيت، تفضل، هذا العهد.

بيت فارغ، كم بيت قبل قانون الإيجار الأخير مغلق، سبعمئة ألف بيت في دمشق مغلق لا تعطى لأحد لأن هناك أزمة ثقة بين الناس، حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

والله الذي لا إله إلا هو أنت حينما تفي بعهدك وتنفذ العقد الذي بينك وبين مسلم تشعر برضا الله عز وجل.

لي جار هنا في الحي كان يحضر عندنا، له مكانة كبيرة، وله عمل رسمي بأعلى مستوى، انتهت مدة خدمته، محمي، موظف، يقول صاحب البيت طرق بابه هذا المفتاح جزاك الله خيراً، كاد توازن صاحب البيت يختل، معقول من دون سبب، من دون ثمن، من دون أن تستعصي بالبيت أبداً، هذا بيتك، وهذا المفتاح، ولك الشكر.

المؤمن الحقيقي هو من يفي بوعده وينفذ عهده :

الحياة مع المؤمنين جنة والله أيها الأخوة، لأن المؤمن يفي بعهده، ويحترم وعده ووعد الحر دين، والوفاء بالعقد عمل عظيم، وتنفيذ العهد عمل عظيم، والله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

الآن نوقع ألف عقد إذا الأسعار ارتفعت، كل هذه العقود تصبح باطلة، يقول لك: لا أطوب إلا بمئة ألف، ألم نتفق على السعر، والبيت انتهى، لم تدفع شيئاً بعد ذلك، يقول لك: ارتفعت الأسعار.

والله سمعت قصة أنا أروي بعض القصص في هذا الدرس لأن الآية واحدة لكنها تحتاج إلى إغناء، إنسان أظنه صادقاً عند الله وأظنه شريفاً، بنى بناء ضخماً جداً في أحد أحياء دمشق، والبناء يزيد عن مئة وحدة سكنية، وباع البيوت كلها، قبل ثلاثة وعشرين عاماً، هناك عقبات إدارية حالت بين صاحب هذا المشروع وبين تسليم البيوت لأصحابها في السجلات الرسمية هم ماذا ظنوا؟ ظنوا كبقية تجار العقارات، أنه لا يسجل إلا بمبلغ كبير، لكن الفرق ما هو؟ بيت بيع بخمسة عشر ألف ليرة ثمنه الآن

خمسة ملايين، قصة قديمة جداً كان الثمن رخيص جداً، هم توهموا وغلب على ظنهم أنه لا يسجل لهم إلا ليأخذ مبلغاً ضخماً، إنسان بيته بخمسة عشر مليوناً وجد أنه إذا دفع مليون وطوبه هو الرابح، والله الذي عرض عليه هذا المبلغ أحد أخوتنا، له بيتين لابنه بيت ولصهره بيت، عرض على هذا الإنسان تقريباً مئة مليون كي يسجل هذا المشروع في الشهر العقاري، مباع من ثلاث وعشرين سنة ثمن البيت ارتفع مئة ضعف، فقال هذه الكلمة، قال: والله أنا ليس لي عندكم شيء، أنا بعتكم البيوت بأسعارها الصحيحة وربحت عليكم وليس لي عندكم شيء، وأنا حينما يتاح لي فرصة أسجلها لكم، إنسان ركل بقدمه مئة مليون، لأن هذا المبلغ ليس له حق فيه أبداً، باعهم وربح منهم وقبض الثمن كاملاً، هل تظن هذا الإنسان بطل؟ لا ليس بطلاً، هذا إنسان عادي، وهو من أخوتنا لكن لأن العمل الصالح أصبح نادراً جداً، والاستقامة نادرة جداً كأنه أصبح بطلاً، هو ليس بطلاً، لأنه قال: أنا ليس لي عندكم أي شيء، أنا بعتكم وقبضت الثمن وربحت عليكم وليس لي عندكم شيء، وبعد شهرين فيما أعلم سجل كل هذه البيوت لأصحابها بعد أن زالت العقبات. هذا هو المؤمن، وهناك مؤمنون معاصرون، ينفذون عقودهم ومواثيقهم ولا يعبؤون بأي قرار، أحياناً القرار يحميك لكن من يحميك في القبر؟ في الحياة الدنيا هناك بعض القوانين تحمي بعض الناس، لكن من يحمي الإنسان في القبر؟ لمَ فعلت هذا؟!!

البطولة أن تهيئ لله يوم القيامة جواباً عن كل عمل تعمله :

أخواننا الكرام، أنا أتمنى دائماً أن تسأل نفسك إذا عملت عملاً هل هيأت لله جواباً لو سألك؟ أنا أقول لكم: البطل هو الذي يهيئ لله يوم القيامة جواباً عن كل عمل يعمله، قد تستطيع أن تتحكم بالآخرين لأن القوانين إلى جانبك ولكن من يحميك من الله عز وجل؟

أنا لا أنسى كلمة قالها الحسن البصري لوالي البصرة، حينما كان زائراً عنده جاءه توجيه من يزيد بن معاوية، يبدو أن هذا التوجيه فيه ظلم شديد، فإذا نفذه أغضب الله عز وجل، وإذا لم ينفذه أغضب الخليفة وربما أزاحه من مكانه، وقع في حيرة شديدة، وكان عنده الحسن البصري، قال: يا إمام ماذا أفعل؟ قال كلمة والله أتمنى على كل واحد منكم أن يجعلها شعاراً له، قال له: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.

أنت حينما تشعر أن القوانين إلى جانبك وساق الله لهذا الإنسان مرضاً خبيثاً ماذا يفعل؟ ما قيمة المال عندئذٍ؟!!

مرة كنت عند طبيب قلب، وجاءه اتصال هاتفي وسمعت المكالمة جهاز قديم صوته عال جداً، قال له:

أي مبلغ ندفع وإلى أي مكان نذهب به، قال له: والله ليس هناك أمل السرطان من الدرجة الخامسة، لا أمل في شفائه.

فإذا ساق الله للإنسان شدة وكان قد أخلف وعوده ومواثيقه، أناس كثيرون اغتصبوا شيئاً ليس لهم، ودخلوا مع أصحاب هذا البيت في محاكم لسنوات طويلة، ثم صدر حكم لصالحهم لأن القانون معهم، والله بعد الحكم بيومين وافته المنية، ولم يستمتع بالبيت.

أحياناً الإنسان يعمل عمل يلعنه الله والملائكة والناس أجمعين، فأنا أتمنى عليكم آية قصية جداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

نفذ وعدك، نفذ عهدك، حتى مع الصغير، تعال هاك، قال النبي الكريم لإحدى قريباته: ماذا أردت أن تعطيه، قالت: تمرة في يدي، قال: أو إنك لو لم تفعلي لعدت عليكِ كذبةً.

لي قريب مقيم في أمريكا جاء زائراً قبل سنوات، له ابن صغير جداً، لعب كثيراً وشوش على الناس كثيراً، قالت له جدته: اجلس حتى آخذك إلى مكان جميل في المساء، فجلس وسكت، وفي المساء وجد أن جدته تكذب فقال لها: أنت كاذبة، هذا الطفل الصغير، انتبه لو طفل صغير إن وعدته ينبغي أن تفي له، أبداً.

أحد علماء الحديث جاء من المدينة إلى البصرة ليتلقى حديثاً من إنسان رآه يرفع ثوبه ليوهم فرسه أن في ثوبه علفاً، فلما وصلت إليه قبض عليها وأرخى ثوبه، فعاد إلى المدينة، هذا الذي يكذب على الفرس لا يمكن أن آخذ منه حديثاً عن رسول الله.

أيها الأخوة، ما أتمنى إلا أن تنقلب هذه الآية، أن تترجم إلى سلوك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

نفذ العقد لكن كن دقيقاً قبل كتابة العقد، أي بالتعبير التجاري شطارتك قبل العقد لا بعد العقد، كل شطارتك وذكائك قبل العقد، لكن بعد العقد بعدما وقعت انتهى كل شيء، لذلك العوام يقولون ألف قلبة ولا غلبة، هؤلاء العوام الشياطين، أما المؤمنون ألف غلبة ولا قلبة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (02-49) : شرح الآيات 1-2 ، شعائر الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-08-15

بسم الله الرحمن الرحيم

الأنعام غير مكلفة ومذللة ومسخرة للإنسان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من دروس سورة المائدة الآية الأولى التي شرح بعضها في الدرس السابق بتوفيق الله عز وجل هي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)

فالله سبحانه وتعالى الذي عقد لنا عقوداً وأمرنا أن نطبقها، والعقود كما تحدثت في درس سابق واسعة جداً منها عقود إيمانك بالله، وعقود طاعتك له، وعقود الأحكام الشرعية، هذه العقود ينبغي أن نفي بها، وذكرت لكم تفاصيل دقيقة حول هذه الآية، لكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحل لنا وهو الذي يحرم علينا، هو الخبير، هو الخبير بما يسعدنا والخبير بما يسلمنا من أخطار تتأتى من مخالفة تعليمات الصانع:

(بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ)

الإبل والبقر والغنم والماعز، هذه الأنعام أحلت لنا، لكن فضلاً عن أنها أحلت لنا هي مذللة. لو أحل لك لحم الضبع مثلاً غير مذلل، لكن في أصل تركيب هذه الأنعام أنها مذللة، وهناك حالات استثنائية قد تمرض بعض هذه الأنعام فتجن كما هو جنون البقر.

حدثني أخ كريم أن بقرة عند صديق له أصابها الجنون فقتلت رجلين وكادت تقتل الثالث أطلق عليها النار وأنهى حياتها، إذاً حينما ترى بقرة مذللة، حينما ترى غنمة مذللة، شاة مذللة، بعيراً مذللاً، قد لا ننتبه أن التذليل نعمة أخرى غير أن الله سخرها لنا، سخرها لنا وذللها لنا، أما العقرب صغير غير مذلل، لدغته قاتلة، والأفعى صغيرة غير مذللة لكن لدغتها قاتلة، إذاً هذا التناسب بين الحِل وبين التذليل:

(أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ)

أي الأنعام ليست مكلفة، هذه الأمور مبهمة عليها ونحن لا نفقه مرادها لكن نرى أنها تأكل الحشيش نطعمها الحشيش، الأمور مبهمة عليها، لأنها غير مكلفة، لم يعطها الله قوة إدراكية، أما الإنسان مكلف بحمل الأمانة، مكلف أن يعرف الله عز وجل، أعطاه الله قوة إدراكية، بينما الأنعام ليست مكلفة، إنما

اختارت ألا تقع في معصية وأن تملأ حياتها هذه الشهوات التي أودعت بها، فالأنعام غير مكلفة ومذللة ومسخرة للإنسان، ولحمها حلال لأن لحمها متوافق مع حاجة الإنسان.

الله عز وجل حرم علينا الدم والميتة ولحم الخنزير وما كان في حكم الميتة :

قال تعالى:

(إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ)

الله عز وجل حرم علينا الدم والميتة ولحم الخنزير وما كان في حكم الميتة، المتردية والموقوذة والنطيحة وما أكل السبع، فهذا الذي تلاه الله علينا محرم:

(أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ)

لكن الإنسان إذا كان محرماً، هذا المكان مكان مقدس هو بيت المنعم، لذلك إما أن تكون مع المنعم وإما أن تكون مع النعم، منعت منك بعض النعم لتكون مع المنعم، فمحرم عليك وأنت محرم أن تلبس مخيطاً، أن أو تقص شعرك، أو أن تتعطر، ومحرم عليك أن تصطاد فكل من في الحرم يجب أن يكون آمناً:

(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)

نحن عبيد لله عز وجل، والله عز وجل هو الخالق، وهو الآمر وهو الناهي، والأمر بيده، وهو الذي يعلم، وهو الذي يحكم:

(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)

شعائر الله ما يدل على الله بالمعنى الواسع :

أيها الأخوة، لكن الوقفة المتأنية التي ينبغي أن نقفها هي وقفة مع الآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

شعائر الله ما يدل على الله بالمعنى الواسع، مثلاً هذا الوطن له علم فهذا العلم من شعائر الوطن، له نسر هذا النسر من شعائر الوطن، له اسم، له عاصمة، له نظام هذه كلها من علامات هذا الوطن، للتقريب؛ الدين، القرآن من شعائر الله، الصلاة من شعائر الله، الصيام من شعائر الله، الحج من شعائر الله، كل شيء يدل على هذا الدين العظيم، وعلى خالقنا العظيم هو من شعائر الله، فتعظيم شعائر الله من

تقوى القلوب، والاستخفاف بشعائر الله من أكبر العيوب في إيمان المؤمنين، لذلك ومن يعظم الله يعظم شعائره، ومن يستخف بشعائر الله ففي إيمانه خلل خطير.

كل شيء يدل على أن هذا الإنسان مسلم هو من شعائر الله :

قال تعالى:

(لَا تُحِلُّوا)

لا تستخفوا، هناك شيء يستخف به، هناك شيء يعظم، كلما عرفت من هو الآمر تعظم أمره، وكلما ضعفت معرفتك بالآمر تستخف بأمره، فتعظيم الأمر وعدم تعظيمه يتأتى من تعظيم الآمر أو عدم تعظيمه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا)

إذاً الكلمة الأولى تعني كل شيء يدل على الله هو من شعائر الله، المصحف من شعائر الله، بيت الله الحرام من شعائر الله، المسجد من شعائر الله، الآذان من شعائر الله، والله أنا دائماً والفضل لله لو كنت في درس وشرع المؤذن في الآذان أسكت إلى أن ينتهي الآذان تعظيماً لهذه الشعيرة، فالآذان من شعائر الله، والصلاة من شعائر الله، الصيام من شعائر الله، الحج من شعائر الله، النطق بالشهادتين من شعائر الله، المسجد من شعائر الله، القرآن من شعائر الله، كل شيء يدل على أن هذا الإنسان مسلم هو من شعائر الله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا)

لا تحلوا بمعنى لا تستهينوا، لا تستخفوا، لا تهملوا:

(لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ)

بدليل الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج:32]

المعنى الواسع والمعنى الضيق لشعائر الله :

لكن الذي اشتهر أن الشعائر تعني مناسك الحج، الإحرام أن تحرم، أن تخلع المخيط وأن ترتدي ثوباً غير مخيط وغير محيط، وأن تمتنع عن التطيب، أن تمتنع عن قص الشعر، أن تمتنع عن قص الأظافر، أن تأتي بيت الله الحرام، أن تطوف حول البيت، أن تسعى بين الصفا والمروة، أن تقف في

عرفات، أن تقف عند المشعر الحرام، أن تجلس في منى أياماً ثلاثة، أن ترمي الجمار، هذه كلها من شعائر الله، فشعائر الله لها معنىً واسعاً؛ أن كل شيء يدل على الله هو من شعائر الله، ولها معنىً ضيقاً؛ هي مناسك الحج:

(لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ)

لا تستخفوا بهذه الشعائر، بل وأنت في هذه الشعائر ينبغي أن تكون لك مشاعر، فلا معنى لأداء الشعائر إن لم تكن لك فيها مشاعر، فالوقوف في عرفة هو مناجاة، والطواف حول الكعبة هناك شعور خاص بها، والسعي بين الصفا والمروة.

بالمناسبة أيها الأخوة، حكمة الحج أن كل المسلمين على اختلاف مراتبهم وأعراقهم وأنسابهم ومراتبهم الاجتماعية، أو مراتبهم المالية، أو مراتبهم الإدارية كلهم من دون استثناء يجب أن يخلعوا ثيابهم لأن ثيابهم تشير بشكل أو بآخر إلى مرتبتهم، أو إلى غناهم، أو إلى مكانتهم، فليس في الحرم دنيا، الناس سواسية كأسنان المشط، وليس هناك طواف خاص بالسلك الدبلوماسي، وطواف خاص مع عامة المسلمين، لا، ولا في مسعى للمهمات ومسعى لبقية المسلمين، لو جاء ملك يجب أن يطوف مع المسلمين، وأن يسعى مع المسلمين، في هذه الشعائر تتوحد المشاعر، وتزال كل الفروق بين الطبقات، لا فرق بين أمير وخفير، ولا بين قوي وضعيف، ولا بين رجل من أدنى سلم اجتماعي ورجل في أعلى سلم اجتماعي.

الحج صلح مع الله وصلح مع الناس جميعاً وصلح مع كل مخلوقات الله عز وجل :

أيها الأخوة، هذا البيت الحرام ومعه الحرم ما يحيط بالبيت هذا مكان مقدس بمعنى أن الله اتخذه بيتاً له، فالله عز وجل خلق العباد كلها سواسية كأسنان المشط لا يقبل تمايزاً في بيته، شيء آخر، أرادك أن تبتعد عن النعم لتقترب من المنعم، لو أنك غارق في النعم ابتعدت عن المنعم، الشيء الثاني.

الشيء الثالث، أرادك أن تكون مع كل الخلق على صلة واحدة، أنت في بلدك هناك جندي غر، وهناك لواء لا يستطيع أن يصل إليه، هناك حواجز، أرادك في بيته الحرام أن تكون أنت وبقية الخلق سواء، بل أرادك أن تصطلح مع كل المخلوقات، لا تستطيع في الحرم أن تصيد شيئاً الصيد محرم في الحرم، إما محرم وأنت محرم، أو محرم في أرض الحرم، أي أرض الحرم أوسع، أي إنسان محرماً كان أو غير محرم مُحَرم عليه أن يصيد في الحرم، إذاً أنت اصطلحت مع حيوانات الحرم، لا صيد، واصطلحت مع نباتات الحرم لا يمكن أن تقطع نباتاً، بل اصطلحت مع أحجار الحرم أرادك الله أن تقبل الحجر الأسود وقد قيل الحيوان في خدمة الإنسان، والنبات في خدمة الحيوان، والجماد في خدمة

النبات، فأقل شيء بعيد عن خدمتك هو الحجر أرادك أن تقبله مرةً وأن ترجمه مرةً، في رمي الجمار ترجم حجراً، وحول المسعى تقبل حجراً، إذاً ليست القدسية في الحجر ولكن لرب الحجر، أمرك أن تقبل هنا وأن ترجم هنا، إذاً الحج صلح مع الله، وصلح مع الناس جميعاً، وصلح مع كل مخلوقات الله عز وجل من جماد إلى بنات إلى حيوان:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ)

لا تستخفوا بها، وعلامة إيمان المؤمن أن أمر الله عنده كبير، وأن المؤمن يغضب لله ويرضى لله، ويعطي لله ويمنع لله:

(وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ)

الحكمة من تحريم القتال في الأشهر الحرم :

خالق البشر أعلم بطبيعة النفوس، الإنسان حينما يدخل في حرب مع إنسان آخر يفور الدم بينهما ولا أحد مستعد أن يوقف القتال، وقد يدمر الاثنان بعضهما بعضاً، وقد تأتي الحرب على الأخضر واليابس، وقد تفني ملايين، والحرب لا تقف، شاءت حكمة الله أن يجعل في شرعه العظيم ـ لكنه الآن غير مطبق ـ أن يجعل أشهراً حرماً، الأشهر الحرم؛ ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، أربعة أشهر، هذه الأشهر القتال مستعر، دخلنا في الشهر الحرام لا قتال، حفاظاً على كرامة الطرفين، الأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، أربعة أشهر، فشاءت حكمة الله أن كل قتال دخل في شهر حرام ينبغي أن يقف، وهذا الوقوف لا يخدش كرامة واحد من الطرفين، لا القوي ولا الضعيف، فإذا دخل هذا الشهر أو هذه الأشهر شعر الناس بقيمة السلام، فحافظوا عليه وكأن الله الذي خلق الإنسان وخلق جبلته هو الذي شرع له أن يوقف أي قتال في الأشهر الحرم، لكن العرب في الجاهلية كانوا إذا دخلوا في قتال يغيروا الشهر الحرام حتى يتم النصر، فقال الله عز وجل:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

[سورة التوبة: 36]

الذي لا يعبأ بهذا الأمر الدقيق يغير في مواقيت هذه الأشهر تبعاً لمصلحتهم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ)

هناك إشارات في القرآن الكريم قلّما ننتبه إليها :

حينما قال الله عز وجل:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

[سورة الحجرات: 9]

أيضاً هذا تشريع، لو أن بلدين مسلمين تقاتلا كما جرى بدلاً من أن يأتي الطرف الآخر فيأكلنا جميعاً، ويأخذ كل ثرواتنا، ينبغي نحن أن نصلح بينهما:

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى)

قاتلنا جميعاً التي تبغي:

(حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

أي أن المشكلة يجب أن تحل بين المسلمين لا بين الإسلام والطرف الآخر، هذا تشريع الله عز وجل لكنه غير مطبق، فما أروع الأشهر الحرم يقف القتال، كم حرب أهلية استمرت عشر سنوات، وحرقت كل شيء، حرب أخرى بين بلدين مسلمين استمرت ثماني سنوات، مليونا قتيل، لو طبقوا الأشهر الحرم وقف القتال، ثلاثة أشهر شعر الناس بالسلم، حافظوا عليه، حقنت الدماء لا غالب ولا مغلوب، القوي لا يستطيع أن يتجبر، والضعيف لا يسحق:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ)

يوجد إشارات في القرآن الكريم قلما ننتبه إليها، حينما ركب ثمانية وثلاثون عالماً كبيراً بعد أن تخرجوا من أكاديميات عسكرية في بلد بعيد ركبوا جميعاً في طائرة واحدة والطائرة أسقطت، ماذا ينبغي أن يفعلوا؟

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ)

[سورة يوسف: 67]

ينبغي أن يأتي كل منهم برحلة، أما حينما تجمعوا برحلة واحدة، صيد ثمين؛ ثمانية وثلاثون عالماً تخصصوا في علوم عسكرية وهم مسلمون، إذاً سولت للطرف الآخر نفسه أن يُسقط هذه الطائرة.

أنواع الهدي :

قضية الأشهر الحرم قضية تشريع رائع، أولاً يحقن الدماء، ويحفظ كرامة المتخاصمين، ويقصر أمد الحرب، الأشهر الحرم:

(لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ)

الهدي جمع هدية، والحاج قد يقدم هدية إلى الله عز وجل هي هذا الكبش الذي يذبحه، فهذا هدي، والهدي أنواع: هناك هدي تمتع، وهدي جزاء، وهدي قران، إذا الإنسان جمع بين العمرة والحج عليه هدي قران هدي شكر، إذا جمع بين العمرة والحج وقد أتاه الله قوة وصحة واستمر محرماً من العمرة إلى الحج فعليه هدي شكر، هذا هدي القران، وإذا تمتع واعتمر أولاً ثم خلع ثياب الإحرام وتمتع كما يتمتع أي إنسان في بلده وفي اليوم الثامن من ذي الحجة أحرم هذا متمتع عليه هدي جبر، هدي القران هدي شكر، وهدي التمتع هدي جبر، فإذا ارتكب مخالفة في الحج عليه هدي جزاء، وكل هذا الهدي هو هدية إلى الله عز وجل، والهدي جمع هدية، وفي هدي آخر معلَّم؛ أي عليه قلادة أن هذا هدي لبيت الله الحرام، قربة إلى الله عز وجل، قال: هذا الهدي وتلك القلائد لا تستخفوا بها، لا تذبحوها قبل أن تتحللوا من حجكم.

(وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً)

ولا تمنعوا حجاجاً أرادوا أن يحجوا بيت الله الحرام، لا تمنعوا أناساً أرادوا أن يحجوا بيت الله الحرام تقرباً من الله عز وجل.

الفرق بين رضوان الله وبين فضله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً)

أخواننا الكرام، كل الخلق ينالهم فضل الله، لكن ما كل الخلق ينالهم رضوان الله، فرق كبير بين رضوان الله وبين فضله، الكافر يتمتع بفضل الله، أليس له قلب ينبض؟ أليس له عينان؟ أليس له جسم يتحرك؟ أليس له عقل يدرك؟ أليس له لسان ينطق؟ أليس أمامه طعام يأكله؟ هذا فضل الله عز وجل، لكن المؤمن وحده يتمتع برضوان الله:

(وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً)

قد يذهب هناك تاجر ويبيع الحجاج هذا جاءه نفع في الحج، هذا ابتغى فضل من الله، لكن ما ابتغى رضواناً، أما الحاج المخلص يبتغي من الله فضلاً ورضواناً، إذاً لا تقف حجر عثرة أمام من أراد أن يحج بيت الله الحرام:

(وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا)

إذا انتهى الحج بالتحلل الأصغر أو الأكبر:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)

ممنوع أن تدرك وأن تنفعل مع المرأة في الحج إلا إذا أحلّ الله لك :

أخواننا الكرام، قضية دقيقة جداً أنت بإمكانك أن تدرك لو نظرت إلى وردة جميلة، تدرك أنها وردة، فإذا اقتربت منها تنفعل بجمالها، صار هناك إدراك أنها وردة، ثم تأثرت بجمالها، لكن إذا مددت يدك لتقطعها وليست في حديقة دارك هذا عدوان، مسموح لك أن تدرك وأن تنفعل وغير مسموح لك أن تقوم بعمل عدواني، هذا مطبق في جميع الحالات، لك أن تنظر إلى شيء جميل أن تدرك جمال هذا الشيء، ثم أن تنفعل بهذا الجمال، لكن ليس لك أن تعتدي عليه، إلا مع المرأة منعت من المرحلة الأولى لأن المرأة إذا أدركت جمالها وانفعلت به تغيرت كيمياء دمك وصار الطريق مغرياً إلى الوصول إليها، فقال الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

فقط مع الطرف الآخر مع المرأة، ممنوع أن تدرك وأن تنفعل إلا إذا أحل الله لك.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المؤمنين: 5-6]

إذاً مسموح لك أن تدرك، مسموح لك أن تنفعل، ممنوع أن تعتدي، إلا مع المرأة ممنوع أن تدرك، ممنوع أن تنفعل، ممنوع أن تفعل شيئاً لا يرضي الله عز وجل، ما قيمة هذه المقدمة لهذه الآية؟ قال:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ)

يجرمنكم بمعنى يحملنكم، والشنآن البغض الشديد، الإنسان من حقه أن يبغض كافراً، كل واحد منا هناك شخص يكونه وشخص يتمنى أن يكونه كمثله الأعلى، وشخص يكره أن يكونه، إن كنت صادقاً تكره الكاذب، وإن كنت أميناً تكره الخائن، وإن كنت شجاعاً تكره الجبان، وإن كنت كريماً تكره البخيل، وإن كنت مؤمناً تكره الكافر، شيء طبيعي، فالله عز وجل ما منعهم أن يبغضوا.

لا يكمل إيمان المؤمن حتى يحب في الله ويبغض في الله :

قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ)

من هم القوم الذين يبغضونهم المؤمنون؟ لا يمكن أن يكون هناك فاعلان لفاعل واحد، النحاة يأتون بمثل طريف هل لك أن تقول: أكلوني البراغيث، صارت البراغيث فاعلاً والواو فاعلاً، يجب أن تقول: أكلتني البراغيث، لا أكلوني البراغيث، فلا يجوز أن يكون هناك فاعلان للفعل، إذاً سمح الله لك أن تبغض بل إن هذا البغض في الله، لا يكمل إيمان المؤمن حتى يحب في الله ويبغض في الله، ويعطي لله ويمنع لله، ويصل لله ويقطع لله، سمح الله لك أن تبغض إنساناً خائناً، إنساناً خسيساً، إنساناً قذراً، إنساناً دنيئاً، إنساناً متلاعباً، إنساناً مختالاً متكبراً قاسي القلب بطاشاً، ليس له عهد، طبيعي جداً، لكن أنت منهي عن أن يحملك هذا البغض على أن تعتدي عليه.

سيدنا عمر هناك رجل قتل أخاه زيد بن الخطاب، ثم أسلم قاتل أخيه، قال له: أتحبني؟ قال له: والله لا أحبك، قال له: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي، قال: لا والله، بغضي لك لا يمكن أن يمنع عنك حقك، قال: إذاً إنما يأسف على الحب النساء، هنا:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)

أي لا يحملنكم:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)

أي لك أن تدرك أن هذا عدو، ولك أن تبغض، لكن ليس لك أن تعتدي، هذه الآية تذكرنا بآية ثانية:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

اعدل مع هذا الذي تبغضه فلعل عدلك يقربه إلى الله، ولعل عدلك يقربه إليك فيسلم، أي لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن صلوات، مساجد، كلام، مكتبات، مؤتمرات، لكن ما في استقامة، ما في التزام، والله ما خرج الإسلام من مكة، فلأنه كان إسلام قيم، وإسلام مبادئ وصل إلى أطراف الدنيا.

أمثلة من التاريخ الإسلامي عن المساواة في الإسلام :

عندما أسلم ملك الغساسنة جبلة بن الأيهم على يدي سيدنا عمر، هذا الملك في أثناء الطواف حول البيت داس بدوي طرف إزاره فانخلع الإزار من كتفيه، فغضب والتفت إلى هذا البدوي وضربه ضربة هشمت أنفه، لم يجد هذا البدوي من يشتكي إليه إلا عمر، فجاء لعمر وشكا ملك الغساسنة، تصور أحدهما في قمة المجتمع ملك والآخر في الدرجة الدنيا من المجتمع لكن هذا هو الإسلام، فاستدعي هذا الملك ـ هناك من صاغها شعراً ـ قال:أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ فقال جبلة: لست ممن ينكر شيئاً، أنا أدبت الفتى، أدركت حقي بيدي، قال: أرضي الفتى لا بد من إرضائه، ما زال ظفرك

عالق بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك وتنال ما فعلته كفك. قال: كيف ذاك يا أمير هو سوقة ـ هذا من عامة الناس، ألا يقول لك الشارع العربي، هذا من الشارع ـ هو سوقة وأنا عرش وتاج ـ قمم ـ كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً؟ فقال له: نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساووا الناس لدينا أحراراً وعبيداً. قال جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز ـ هكذا ـ أنا مرتد إذا أكرهتني. قال له: عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه كل صدع فيه بشبا السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى.

هذا هو الإسلام، سيدنا بلال اشتراه الصديق من سيده قال له: سيده والله لو دفعتَ به درهماً لبعتكه ـ لا قيمة له عندي ـ فقال الصديق عن سيدنا بلال: والله لو طلبت به مئة ألف لأعطيتكها، هذا أخي في الله، وضع يده تحت إبط بلال وقال: هذا أخي في الله، وكان الصحابة الكرام إذا ذكروا الصديق قالوا: هو سيدنا، وأعتق سيدنا، هذا الإسلام، الإسلام فيه عدل، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

سأل سيدنا عمر: لمن هذه الإبل؟ إبل سمينة، قالوا: هي لابنك عبد الله، قال: أتوني به، كان غاضباً، فلما رآه غاضباً قال له: ماذا فعلت يا أبتِ هي إبل اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن، فماذا فعلت؟ قال له: ويقول الناس ارعوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين، تعلم لماذا سمنت إبلك؟ لأنك ابني، بع هذه الإبل، وخذ رأس مالك ورد الباقي لبيت مال المسلمين، هذا هو الإسلام.

هان أمر الله علينا فهنّا على الله :

والله الذي لا إله إلا هو لو طبق هذا الدين، ماذا أقول لكم؟! هؤلاء الطغاة لكانوا تحت أقدامنا والله تحت أقدامنا، الأمر ليس كذلك الآن، لهم علينا ألف سبيل وسبيل، هان أمر الله علينا فهنا على الله.

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

لهم علينا ألف سبيل وسبيل:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)

أما الآية التي أحرص عليها حرصاً شديداً:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

إن شاء الله في درس قادم نمضي الدرس في هذه الآية التي نحن الآن في أمس الحاجة إليها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (03-49) : تفسير الآية 2 ، التعاون على البر والتقوى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-08-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أي أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب وأي نهي يقتضي الترك :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من دروس سورة المائدة ومع قوله تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

أيها الأخوة، بادئ ذي بدء إن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، أي أمر يقتضي الوجوب، وأي نهي يقتضي الترك، إلا إذا كان أمر تهديد كقوله تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

فليكفر لام الأمر، هذا أمر تهديد، أو إذا كان أمر إباحة.

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

[سورة البقرة: 187]

أو إذا كان أمر ندب.

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

[سورة النور: 32]

التناقض بين الطبع و التكليف ثمن الجنة :

إن لم يكن هناك ندب ولا إباحة ولا تهديد فالأمر يقتضي الوجوب، وكيف أن الله أمرك أن تصلي والصلاة فرض، لأن الله أمرك أن تصلي، في قوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ)

[سورة طه: 14]

كذلك الأمر بالتعاون فرض، أمر يقتضي الوجوب، وتعلمون أيها الأخوة أن في الإنسان طبعاً ومعه تكليف، وبديهي أن الطبع يتناقض مع التكليف، فإذا أمرك الله أن تصلي الصلوات الخمس وأول هذه الصلوات صلاة الفجر ينبغي أن تستيقظ وجسمك يطلب أن تبقى نائماً، فهناك تناقض بين الرغبة في النوم والاستيقاظ لصلاة الفجر، وكما أن الله أمرك أن تغض البصر والنفس تميل إلى إطلاق البصر،

فهناك تناقض بين الطبع وبين التكليف، وهذا التناقض بين الطبع وبين التكليف هو ثمن الجنة، وكيف أن الله أمرك أن تنفق المال والطبع يقتضي أن تأخذه وهذا التناقض بين الطبع وبين التكليف هو ثمن الجنة، وكيف أن الله أمرك أن تتعاون والطبع يقتضي الفردية، أن تؤكد فرديتك، أن تؤكد ذاتك، أن تعيش وحدك ويموت الناس، فالإنسان مكلف أن يتعاون وطبعه فردي، لذلك بقدر طاعتك لله تتعاون، وبقدر معصيتك له تكون فردياً، والمجتمعات الجاهلية مجتمعات فردية، الأنا مسيطرة، والمجتمعات الإسلامية مجتمعات تعاونية، مصلحة المجموع تغلب فردية الفرد.

أول شيء أيها الأخوة أن فعل تعاونوا أمر، وهذا أمر يقتضي الوجوب، وأن التعاون تكليف، يناقضه الطبع الفردي، فأنت حينما تقوم لتصلي وجسمك يميل إلى الراحة، حينما تغض البصر وأنت تميل إلى إطلاق البصر، حينما تغالب النوم وتستيقظ لتصلي هذا هو عند الله ثمن الجنة.

الإنسان مقهور أن يكون مع أخيه :

قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا)

أما كلمة (وتعاونوا) فعل أمر من عاونَ، عاون على وزن فاعل، صيغة مشاركة، وفي اللغة العربية صيغ المشاركة من أبرزها وزن فاعل، مثل: قاوم وقاتل ودافع، أي الفاعل يكون تارةً فاعل وتارةً مفعول به، لماذا الأمر بالتعاون؟ لمَ لم يقل: أعينوا؟ أعينوا الفعل من طرف واحد، لكن شاءت حكمة الله أن تتقن شيئاً في حياتك، وقد تتقن شيئين أو ثلاثة، لكن هذا الشيء الذي تتقنه محدود، أنت بحاجة إلى مليون خبرة، تتقن واحدة، أوضح مثل هذا الرغيف الذي تأكله صباحاً، اشتريته من البقال، البقال جاء به من الفرن، الفرن في الليل عجن الطحين، وخمر العجين، ورقق الأرغفة، ووضعها في الفرن، هذا الطحين جيء به من المطحنة، المطحنة أخذت القمح وغسلته، وهيأته، وطحنته، والمطحنة جاءت بالقمح من الفلاحين الذين زرعوه، لو عددت الذين ساهموا في هذا الرغيف الذي تأكله صباحاً، وفي طبق الطعام، هذه المداجن الكثيرة التي تأتي بالفراخ وتربيها، وتعتني بها، تدفئها، تطعمها، تعالجها من أمراضها، أنت بحاجة إلى مليون خبرة وحاجة، تتقن حاجة واحدة، من أجل أن ترتدي ثياباً هناك معامل للقماش، هناك معامل أصبغة لصبغ القماش، هناك معامل لغزل الخيوط، هناك من يحصد القطن، ثوب تلبسه يدخل في إعداده آلاف الأشخاص، من أجل أن تعالج ابنك عند الطبيب، هذا الطبيب درس ثلاثين سنة، علم التشريح، وعلم الفزيولوجيا، وعلم الأمراض، وعلم الأدوية، ثم التدريب العملي، ثم جاء بالدبلوم، ثم ماجستير، ثم دكتوراه، ثم بورد، درس من ثلاثين إلى خمس وثلاثين سنة حتى يستطيع أن

يقول لك: أعطِ ابنك هذا الدواء، فالطبيب أتقن شيئاً، ومعلم ابنك في الرياضيات درس سنوات طويلة حتى أتقن الرياضيات، وعلمه المعادلات والجبر والهندسة وما إلى ذلك، وأستاذ الجغرافيا، وأستاذ التاريخ، وأستاذ الفلسفة، وأستاذ اللغة العربية، ثم الكليات المتنوعة في الجامعة، ثم من أجل أن تنتقل تحتاج إلى مركبة وهذا المعمل للمركبات عمره مئة عام، كل سنة فيه تحسين، فشبكة العلاقات العقل لا يصدقها، ستة آلاف مليون إنسان كل إنسان يتقن شيء ويسهم بشكل أو بآخر في تقديم هذه الحاجة، حينما تشرب كأس من الشاي هل تدري أنه لولا أن البحار تدفع الأجسام إلى الأعلى لما كان هناك سفن، ولا كان هناك ملاحة في البحر، بواخر تحمل آلاف الأطنان من الشاي تنقله من الهند إلى الشرق الأوسط، هذه البواخر الضخمة العملاقة بعضها يحمل مليون طن كيف صنعت؟ من صممها؟ كيف يقودها؟ كيف خطط لها؟ أنت فكر بكل شيء تستخدمه، أحياناً ترتدي قميص، هذا الزر الذي خيط معه له معامل أنشأته، هذا المقص الذي تقلم به أظافرك معامل صنعته، هذه الشفرة التي تستخدمها أحياناً، هذه الفرشاة التي تصنعها، معامل، أي أنت أمام مليون مِليون مليون حاجة وسمح الله لك أن تتقن حاجة أو أكثر، فأنت مقهور أن تكون مع أخيك، ابنك يحتاج إلى مدرسة، وانتقاله يحتاج إلى مركبة، والمدرسة يحتاج إلى من ينظف هذه المدرسة، وإلى من يعلم، وإلى من يدير المدرسة، وإلى من يراقب، ويحتاج الطفل إلى شيء يأكله في النهار، إذاً هناك من يبيعه الطعام، يحتاج إلى شيء يعينه على استذكار الدروس؛ يحتاج إلى آلة حاسبة فرضاً، أو إلى أجهزة كثيرة.

في الإسلام عبادات جماعية من أجل أن نكون مع المجموع :

إذاً، حينما قال الله عز وجل:

(وَتَعَاوَنُوا)

أي أن التعاون قدر أولاً، شئت أم أبيت إن لم تتعاون لا تعيش في الحياة، لكن شاءت حكمة الله أن يكون هذا القهر في الاجتماع طريقاً إلى الجنة، أنت من خلال وجودك مع البشر يمكن أن تكون صادقاً كما يمكن أن تكون كاذباً، يمكن أن تكون مخلصاً كما يمكن أن تكون خائناً، يمكن أن تكون متقناً ويمكن أن تكون غير متقن، يمكن أن تفي بوعدك أو لا تفي، يمكن أن تنجز عهدك أو لا تنجزه، فأنت مقهور بوجودك مع البشر، ولا يستطيع واحد في الأرض أن يعيش وحده، لذلك نجد في الإسلام عبادات جماعية، أنت حينما تصلي بالمسجد صلاة الجماعة تفوق صلاة الفرد بسبع وعشرين ضعفاً، والحج جماعي، والصيام جماعي، والصلاة جماعية، وأحاديث كثيرة جداً تأمرك أن تكون مع المجموع.

((عَلَيْكُمْ بِالْجَماعَةِ، وَإِيّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنّ الشّيْطانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ))

[رَوَاهُ ابنُ المُبَارَكِ عن محمدِ بن سُوقَة]

((فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

أمرك أن تتعاون، والتعاون فعل مشاركة أي تعينه ويعينك، تقدم له خدمة ويقدم لك خدمة، تنصحه وينصحك، تمنحه ويمنحك، تعطيه خبرتك ويعطيك خبرته، أوضح مثل الإنسان يشعر بالاضطراب في صحته فيذهب إلى الطبيب، في هذا الموقف هو أدنى من الطبيب، وقد يذهب إنسان بمنصب رفيع جداً يشكو ألماً في قلبه يقف أمام الطبيب وهو متأدب، لأن الطبيب في هذا الموقف أعلى من المريض، الطبيب نفسه يسمع صوتاً غريباً في مركبته فيذهب إلى الميكانيكي، ويقف بأدب ويسأله ألهذه المشكلة حل أم لا بد من تغيير المحرك؟ في هذا الموقف الطبيب دون الميكانيكي، فأنت في النهار الواحد مئات المرات دون إنسان وفوق إنسان، باختصاصك أنت فوق، بغير اختصاصك أنت تحت، أحياناً تمسك تخطيط قلب أنت عالم كبير ودارس عقيدة وفقه ومواريث وعلم تفسير وعلم حديث وفقه مقارن وتاريخ التشريع الإسلامي وعندك فلسفة عميقة جداً تُعطى تخطيط قلب فلا تفهم منه شيئاً، أُمِّي، أنت أمام هذا التخطيط أُمِّي، والذي معه أعلى شهادة بأمراض القلب أمام آية أُمِّي، يقول لك: ما معنى هذه الآية يا أستاذ؟ حرت في معنى هذه الآية.

القيم التي جاء بها الدين هي الدين نفسه :

كل إنسان باختصاصه أستاذ، بغير اختصاصه طالب علم أو أُمِّي قد يكون، هكذا شاءت حكمة الله أن تكون الحياة متشابكة، لكن وأنت مقهور أن تكون في مجتمع ينبغي أن تكون صادقاً ليكون الصدق سبب دخول الجنة، ينبغي أن تكون متقناً ليكون الإتقان سبب دخول الجنة، ينبغي أن تكون أميناً لتكون الأمانة سبب دخول الجنة، ينبغي أن تكون مخلصاً ليكون الإخلاص سبب دخول الجنة، فهذه القيم التي جاء بها الدين هي الدين.

كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان ـ الآن دققوا ـ وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء.

أنت مقهور أن تكون مع المجموع، شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، فبين أن يكون هذا المجتمع طريقاً إلى الجنة وبين أن يكون هذا المجتمع طريقاً إلى النار، أنت بلقائك مع الناس إما أن يكون هذا اللقاء وهذا التعاون وفق منهج الله سبباً لدخول الجنة وإما أن يكون هذا التعامل مع الناس سبباً لدخول النار،

فهذا الذي يعتدي، يأخذ ما ليس له، يكذب، يدلس، ينافق، يشتم، يوقع الأذى بالآخرين، هذا يمشي في دركات النار، وهذا الذي يصدق، ويؤتمن، ويحسن، وينصح، هذا في طريق الجنة، فالله عز وجل يقول:

(وَتَعَاوَنُوا)

لأنني أردتكم أن تكونوا مجتمعين، الشيء الدقيق أيها الأخوة، أن هذا التعاون ليس بين المؤمنين فقط، المطلق في القرآن على إطلاقه، ممكن تتعاون مع أي إنسان، فالتعاون شيء والود شيء آخر، ودك محبتك للمؤمنين، لكن تعاونك مع كل الخلق.

وجوب معاملة كل الناس بالعدل حتى ولو كانوا غير مسلمين :

قال تعالى:

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

[سورة التوبة: 7]

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ)

[سورة الممتحنة: 8]

أنت مكلف أن تتعاون مع كل الناس، وعلاقات العمل لا شائبة فيها ما دام العمل منضبط بالمنهج الإلهي، ولا يوجد أي مخالفة شرعية، لك أن تتعامل مع أي إنسان، مع المسلمين ومع غير المسلمين، بل إنك إن تعاملت مع غير المسلمين ولم تكن عادلاً معهم وقعت في إثم كبير، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا)

[سورة المائدة: 8]

مع من؟ مع من تكرهونهم، ولا يحملنكم بغض قوم عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، العدل فوق الجميع، يجب أن تعامل كل الناس بالعدل.

سيدنا عمر له أخ قتله إنسان في الجاهلية ثم أسلم، انتهى، قال له: أتحبني؟ قال له: والله لا أحبك ـ ما في مجاملات هنا ـ قال له: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي؟ قال: لا والله، لا يمكن أن أمنعك حقك.

الود شيء والتعاون شيء آخر :

المسلم منفتح، المسلم متعاون مع كل الناس، هذا أمر موجه لكل البشر لا للمسلمين فقط:

(وَتَعَاوَنُوا)

أي سكان بلدة فيها عدة أديان فرضاً، المفروض أن يتعاونوا لصلاح هذه البلدة، لتأمين فرص العمل، لتأمين مصالح الناس، تأمين أغذيتهم، مساكنهم هذا مندوب أيضاً:

(وَتَعَاوَنُوا)

الود والحب شيء آخر، الود والحب للمؤمنين، لكن التعاون لجميع الناس:

(وَتَعَاوَنُوا)

الإنسان أحياناً لضيق أفقه، ولجهله بأحكام هذا الدين لا يتعاون إلا مع المؤمنين، طبعاً إذا قادني التعاون مع غير المؤمنين إلى معصية ممنوعة المعصية، أنت تمتنع لا عن التعاون تمتنع عن المعصية فقط، أما لو أن التعاون وفق منهج الله، أي لو أن بلدة بحاجة إلى مشروع وفتح باب للتبرع، ما الذي يمنع أن تسهم مع كل سكان هذه البلدة في إنشاء هذا المشروع الحيوي هذا ضمن الدين؟ والنبي عليه الصلاة والسلام حضر حلف الفضول، وحلف الفضول حلف ليس إسلامياً لكنه حلف يقوم على تحقيق العدل للمجتمع بأكمله، هذه العقلية لو ملكها المسلمون لكانوا في حال غير هذه الحال، أي أن يكون في الحياة مسلم وغير مسلم هذا واقع، وهذا الغير مسلم ما دام في قواسم مشتركة، ما دام هناك وسائل منهجية شرعية ينبغي أن نتعاون.

البر هو الفطرة :

قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا)

على ماذا؟ هنا المشكلة، هذا الكلام كله عن التعاون هذا الكلام كله عن معنى التعاون، فعل أمر، وأمر يقتضي الوجوب، والمطلق على إطلاقه والصيغة مشاركة، تعينه ويعينك، لكن على ماذا أتعاون؟ عرف من المتعاون، الأمر موجه إلى المسلم، ومن الذي ينبغي أن تتعاون معه لكل الناس، والفعل مشاركة، لكن على ماذا؟ قال:

(عَلَى الْبِرِّ)

ما هو البر؟ البر بتعريف النبي صلى الله عليه وسلم التعريف الجامع المانع؛ البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في صدرك وخشيت أن يطلع عليه الناس، طبعاً إضافة الماء للحليب لا تكون أمام الشاري، مستحيل، تكون في غرفة سرية، إضافة الماء للحليب تكون بمعزل عن المشتري، إذاً هذا إثم، فأي عمل تفعله تحت ضوء الشمس ولا تخشى أن يلومك أحد عليه، أي فعل تفعله وأنت واثق أن الناس

لن ينالوا منك هو البر، أي الفطرة، لمَ سمى الله المعروف معروفاً؟ لأن الفطرة السليمة تعرفه ابتداءً، ولمَ سمى الله المنكر منكراً؟ لأن الفطرة السليمة تنكره ابتداءً.

أنا لا أنسى ووقت مناسب جداً لسوق هذه القصة، سمعت من صديق لي أن محطة فضائية عرضت مقابلة مع شاب مجرم اغتصب أكثر من خمس عشرة فتاة ثم قتل كل هؤلاء الفتيات، حُكِم عليه بالإعدام، باحثة اجتماعية طلبت من النيابة العامة إجراء حوار مع هذا الشاب، فالذي جرى أنها سألته: أتقرأ وتكتب؟ قال: لا، جاهل، قالت له: أتصلي؟ قال: لا أعرف الصلاة، قالت له: أتعرف الفاتحة؟ قال: لا، قالت: هل شهدت أنه لا إله إلا الله في حياتك مرة؟ قال: ما هي الشهادة؟ قالت: لا إله، قال لها: كلمة كلمة، حتى أتقن لا إله إلا الله أكثر من دقيقتين، سقت هذه التفاصيل لتعلموا أنكم أمام إنسان لا يفقه شيئاً، كتلة جهل، فسألته: لمَ تغتصب هؤلاء الفتيات ثم تذبحهن؟ قال: من لباسهن، قالت له: وإذا رأيت فتاة محجبة؟ قال: والله الذي يتكلم معها كلمة أقتله، أرأيتم إلى هذا الجهل المطبق! هذه الفطرة، أن هذه إنسانة محجبة محترمة لا تثير غرائز الشباب، لا تثير عواطفهم ومشاعرهم، لا تعتدي على أحد، المرأة حينما تظهر مفاتنها تعتدي على من ينظر إليها، تعتدي عليه، تلجئه إلى الانحراف، هذا الشاب الجاهل المجرم المحكوم بالإعدام قال:: السبب من ثيابهن، فأنا خطر في بالي مصطلح جديد اسمه تحرش الفتيات بالشباب عن طريق الثياب فقط، فلما سألته: وهذه التي تراها محجبة؟ قال: من يكلمها كلمة أقتله، هذه فطرة، هذه إنسانة شريفة، هذه طاهرة، هذه امرأة لزوجها، لأولادها، لمحارمها، مفاتنها ليست لكل الناس، هي تعتدي في المجتمع.

التعاون يجب أن يكون على البر وعلى ما ترتاح له الفطر السليمة :

أيها الأخوة، صار معنى التعاون على البر، على ما ترتاح له الفطرة، على ما هو معروف من قبل الفطر السليمة، لو أنَّا أنشأنا بناء بشكل متعاون، ما في مانع، مقبول، لو أنشأنا جمعية خيرية، مقبول، لو أنشأنا جمعية لمكافحة التسول، مقبول، لو أنشأنا مستوصف دار أيتام، دار عجزة، لو أنشأنا مكتب لفرص العمل، جيد، لو أنشأنا مكتب للزواج جيد جداً، لو أنشأنا بناء على طرق السفر لينام فيه المسافرون، جيد، أي شيء تقبله الفطر السليمة وترتاح له النفس يجب أن نتعاون عليه، أرأيتم إلى هذا الشمول:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ)

البر ما اطمأنت إليه النفس، ترتاح، في مشاريع رائعة، كل واحد منا فرضاً يكون في وليمة يشعر أن هذه الوليمة دفع ثمنها مبلغاً كبيراً جداً، وأن هذا الطعام لم يؤكل خمسه، فإذا أنشأت جمعية لجمع هذا

الطعام الزائد، وإعادة تصنيعه بإضافة بعض المواد الأساسية، ثم وضعه في علب وتقديمه للفقراء، أليس هذا العمل رائعاً، هل يعترض أحد؟ أبداً:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

أيها الأخوة، البر الأعمال التي ترضاها الفطر السليمة، وتعرفها ابتداءً من دون تعليم، ألف عمل يقوم به إنسان ولا يتكلم أحد كلمة من مئة مليون، عمل طيب، لو أننا أنشأنا مستشفى، وجئنا بأطباء متخصصين لمعالجة الأمراض، جيد، لو فتحنا مدارس، لو نظمنا حياتنا، لو نظمنا أمورنا، لو جعلنا لكل شيء نظام دقيق نمشي عليه كي يعيش الناس براحة وسهولة وبيسر هذا هو المطلوب:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ)

البر هو صلاح الدنيا أما التقوى فصلاح الآخرة :

لكن الدنيا محدودة، ستون سنة عشت حياة رائعة، بعد ذلك يوجد أبد، قال لك: والتقوى؟ التقوى طاعة الله عز وجل، يجب أن تبذل جهداً كبيراً جداً فضلاً عن صلاح الدنيا بصلاح الآخرة، أن تطلب العلم، أن تعلم العلم، أن تأمر بالمعروف، أن تنهى عن المنكر، أن تقوي ارتباط الإنسان بالله عز وجل، أن تشد همته إلى الله عز وجل هذا مطلوب، فكل إنسان يتعلم القرآن ويعلمه، يتعلم الفقه ويعلمه، يتعلم الحديث ويعلمه، يكون قدوة لغيره، يدعوك إلى الله عز وجل، إلى معرفته، إلى طلب العلم هذا أيضاً مشمول بهذا الأمر:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ)

أي على صلاح الدنيا:

(وَالتَّقْوَى)

التقوى صلاح الآخرة، أي لعل الأجانب اقتصروا على صلاح الدنيا فقط، مجتمعات فيها تعاون كثير جداً والتعاون عندهم، يربون أبناءهم عليه في سن مبكرة جداً، حتى إنهم إذا أرادوا موظفاً من الشروط التي تلفت النظر أن يصلح للعمل ضمن فريق يتعاون، والبلاد المتخلفة ـ وهذا شيء مؤلم جداً ـ فضلاً عن أنها متخلفة أفرادها لا يتعاونون، يحطمون بعضهم بعضاً، فالتعاون رقي، والتعاون دين، والتعاون خلق، والتعاون حضارة، والتعاون قوة، ألا ترى إلى المسلمين ماذا حل بهم من فرقتهم، ومن عدم تعاونهم؟ ومن أن بأسهم بينهم، ومن أن كل واحد منهم يريد أن يعلو على الآخرين، أرأيت إلى هذه النتائج التي لا ترضي صديقاً ولا عدواً؟

الشياطين يتعاونون على الإثم والعدوان :

قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا)

وفي آية أخرى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

[سورة الأنفال: 46]

تضعفوا:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

لكن الشياطين يتعاونون:

(عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

يتعاونون على إفساد البشرية، سبعمئة مليون امرأة وطفل يعملون في الدعارة، سبعمئة مليون في العالم يعملون في الدعارة، وقد غرر بهم، هؤلاء يتعاونون على جلب أموال خيالية، وأول تجارة في العالم تجارة المخدرات، أربح تجارة، تحتاج إلى تعاون، إلى مراقبة الطريق، وإلى إخفاء المهربات بشكل ذكي جداً:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

مثلاً إنسان خرج إلى المطار ليسافر ورجله مكسورة، وهي مجبرة، وجاء من يتصل أن هذا المسافر على الطائرة الفلانية بالرحلة الفلانية مهرب مخدرات، فانتبهوا أوقفوه، كسروا الجبصين ما في شيء، فتشوه لا شيء أبداً، اعتذروا منه، ذهب بالرحلة الثانية، بالرحلة الثانية وضع المخدرات، أليس هذا عمل ذكي! عمل ذكي جداً، في تعاون على تهريب المخدرات، على إيقاع الفتيات الغافلات بفخ الدعارة، في تعاون على إيهام الشاري.

الإثم أن تنقطع عن الله عز وجل :

والله أخ قال لي: قبل يومين أناس يلعبون بالقمار على الرصيف، وهو ماشي قطع مسافة جيدة، يأتي إنسان ينبهه أن هذا مسكين أتى من بلاد بعيدة معه قرشين أخذوهم منه، وصف له وصفاً يدمى له القلب، وقابض قبضة، رجع حتى يسأله، اعتبروه شريك بالمقامرة وضربوه وأخذوا منه النقود، تمثيل، والآخرين تمثيل، أنا أتيت بحالات حادة طبعاً، لكن هناك مليون تعاون على الباطل، مليون تعاون على

الإثم، مليون تعاون على العدوان، مليون تعاون على أكل الحقوق، مليون تعاون على تحقيق ربح غير شرعي:

(وَلَا تَعَاوَنُوا)

إله يقول:

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

الإثم أن تنقطع عن الله عز وجل، يقول لك: أنا لا أؤذي أحد، كلام طيب، إيماني بقلبي أستاذ، لا أؤذي أحد أبداً، فعلاً لطيف ناعم، إذا خلا ارتكب كل المحرمات فيما بينه وبين نفسه، لم يفعل شيئاً، هذا إثم، أي هذا الأمر قطعك عن الله عز وجل، قطعك عن الذي خلقك، قطعك عن سبب التوفيق، أحياناً إنسان لا يؤذي أحداً لا يعتدي لكن هو يقع في الإثم، أي أحياناً أنت مهمتك الوحيدة أن تصلح هذه الأجهزة وتأتي بالمحطات البعيدة، هذا عملي، ماذا تفعل أنت بالمجتمع؟ تهيأ للناس بسهراتهم أن تأتيهم بأبعد المحطات ليغرقوا في الإثم، أليس كذلك؟

((إن روح القدس نفث في روعي إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب))

[رواه البزار عن حذيفة]

واستجملوا مهنكم، أنا أبيع مثلاً طاولة زهر مربحة مئة بالمئة، لكن أنت تعين الناس على هدر أوقاتهم وإيقاع العداوة بينهم، من لعب النرد فكأنما غمس يده في دم خنزير ولحمه، فقد تبيع شيئاً محرماً، تصلح شيئاً محرماً، تتاجر بشيء محرم، تبيع شيء أنت لا تقبله، دار نشر، في كتب فيها ضلالات، أحدهم قال كلمة هي تبدو مستهجنة جداً: لئن تبيع الخمر أهون من أن تبيع كتاب فيه ضلالات، شارب الخمر يتوب، لكن هذا الذي اعتقد خطأ وسار على خطأ طوال حياته، هذا لا يتوب، أنت تقول: أنا أبيع كتاباً لا علاقة لي، لا، لك علاقة، تبيع كتاباً فيه ضلالات، تبيع كتاباً فيه شبهات، تبيع كتاباً يدعو إلى معصية، تبيع كتاباً يحلل الربا فرضاً، تبيع كتاباً يظهر الدين على أنه سلوك غيبي متخلف لا يتناسب مع العصر، تحت اسم مكتبة هذا لا يصح.

أي عمل ينشأ عنه معصية أو مخالفة هذا العمل له حساب عند الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

أحياناً تجمع بعملك شباب وشابات، هل تدري ماذا يحصل بينهم من مخالفات شرعية؟ فالقضية لا ترونها تضيقاً، لا والله ولكن سلامة أيها الأخوة، إذا كان عملك ممكن أن ينتج عنه معصية، قد تقول:

مطعم، أحل عمل المطعم؟ في زوايا إضاءة خافتة، من يأتي إلى هذا المكان؟ يأتي إلى هذا المكان من عنده شبهة، عنده مشكلة، فأنت يجب ألا تكون سبباً لمعصية، لمخالفة شرعية، لإثم، لعدوان:

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ)

أي اتق أن تعصي الله:

(إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

أنا أستميحكم عذراً ذكرت بعض المهن لا على سبيل أنني أعد هذه المهنة محرمة لا، لكن أية مهنة، أية حرفة إذا لابسها حرام فالحرام هو الحرام لا الحرفة، أن تبيع طعام هذا عمل حلال مئة بالمئة، لكن إذا رافق بيع الطعام علاقات لا ترضي الله عز وجل فالذي جمع هؤلاء في مكان عليه مسؤولية، أي عمل ينشأ عنه معصية أو بعد عن الله أو مخالفة هذا العمل له حساب عند الله عز وجل:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

لكن لا يوجد نظام من دون ـ بالتعبير الفقهي ـ المؤيد القانوني، مثلاً قانون السير، اقرأ قانون السير: من يقود مركبة بلا شهادة تسحب الإجازة منه تسحب المركبة ويدفع مبلغ كذا، من يقف في مكان ممنوع، كل أمر ونهي فيه عقوبة، الله عز وجل قال لك:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

يجب ألا نبني ثرواتنا على فساد أخلاق المجتمع :

إنسان صاحب دار سينما حدثني أحد أقربائه كان طالباً عندي، قال: كل ما كان الفلم فيه إثارة أكثر فيه أرباح أكثر، فكان يتعمد أن يأتي بالأفلام المثيرة جداً، والشباب ينخرطون بهذه الشهوة الحرام، وقد ينحرفون بعد الفلم ما لا يعلمه إلا الله، فجمع ثروة كبيرة جداً، وهو في مقتبل الحياة أصابه مرض خبيث، فقال لقريبه وهو تلميذه، قال له: جمعت أموالاً طائلة حتى أتمتع بخريف عمري فإذا أنا أموت بهذا السن، أيقن أنه ميت، ومات:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

لا تبن ثروتك على فساد أخلاق المجتمع، لا تبن ثروتك على إفقار الناس، لا تبن ثروتك على إضلال الناس، لا تبن ثروتك على فساد ذات البين، والله هناك أعمال أيها الأخوة لا يعلمها إلا الله تفرق بين الزوجين، تفسد العلاقة بين الأزواج، تفسد العلاقة بين الآباء والأبناء، أعمال كثيرة جداً، مثلاً قد تعمل عملاً يجلب الشباب، من لا يجد معه يسرق، شيء ممتع وليس له فائدة إطلاقاً، ألعاب ما لها فائدة إطلاقاً، ممتعة، فهذا الشاب أنفق المال الذي معه، لم يكفه، أخذ من أمه، بعد ذلك أخذ من أبيه بإلحاح،

بعد ذلك دون أن يعلموا، دخل بالحرام حتى تربح أنت، وعمل غير مجدٍ، اختر حرفة فيها نفع للناس، اختر حرفة تكون حلالاً مئة بالمئة، أنا لست متشدداً بهذا الموضوع ولكنني أضع النقاط على الحروف، الآن هناك حرف لا تعد ولا تحصى، أكثرها يبنى الربح فيها على فساد الأخلاق، أو على فساد العلاقات، أو على ضياع الشباب وانحرافهم.

أيها الأخوة، أتمنى على الله عز وجل أن تنقلب هذه الآية إلى سلوك يومي:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

والمؤيد القانوني:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

نجد قصصاً كثيرة جداً عن هذا الذي بنى مجده على أنقاض الناس، أو على فساد أخلاقهم، أو على فساد علاقاتهم، أو بنى ثروته على فقرهم، له نهاية عند الله سواء في الدنيا أو في الآخرة، ليس شرطاً في الدنيا لأن الله يعاقب بعض المسيئين ردعاً لبقية المسيئين ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً لبقية المحسنين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (04-49) : شرح الآية 3 ، الحكمة من التحريم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-08-29

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من التحريم في الآية التالية :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من دروس سورة المائدة ومع قوله تعالى:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة:

السؤال الأول: من الذي حرم الميتة والدم ولحم الخنزير؟ الله جل جلاله، لما قال: حُرِّمت عليكم، على البناء للمجهول؟ هذا سؤال يقتضي الجواب، ذلك أن المؤمن حينما آمن بالله، وحينما عرفه، يتلقى عنه كل شيء، فهو قانع أن هذا الشيء من عليم، وأنه من خبير، وأنه من رحيم، وأنه من محب، فكأن هناك مشاركة في هذا التحريم، الله عز وجل حرَّم وأنت قبلت، فالقضية ليست قصراً وليست ضغطاً ولكنها قضية مبنية على قناعة، فقال تعالى: حُرمتْ عليكم، لم يقل: حَرَّمتُ عليكم، أنت حينما تتلقى أمراً ممن لا تحب، أو ممن يظلمك، أو ممن يريد أن يأخذ كل ما عندك تشعر بقسوة هذا الأمر، أما عندما تتلقى أمراً ممن تحب، من أحب الناس إليك، وأنت واثق من علمه، ومن حكمته، ومن خبرته، ومن رحمته، ومن محبته، لا تأخذ هذا الأمر على أنه أمر ضاغط لكن على أنه أمر أنت محتاج إليه، وهو ينبع من مصلحتك ويصب في نتائج نجاحك في الدنيا والآخرة، هذا معنى قوله تعالى:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ)

الفرق الكبير بين الموت وبين القتل :

قال تعالى:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ)

أيها الأخوة، لعلي ضربت مثلاً قبل أشهر أن مصباح الكهرباء ينطفئ لحالتين؛ ينطفئ إذا قطعت عنه الكهرباء، أو إذا كسرته، الحالة الأولى هي الموت، انقطاع الإمداد الإلهي يموت الإنسان، أما إذا كانت العضوية قد اختلت وليست صالحةً لاستيعاب هذه الروح تقتل فيموت الإنسان، إما أن يموت حتف أنفه على فراشه، وإما أن يموت بتخريب عضويته بحيث لا تستطيع أن تستقبل إمداد الله عز وجل، فرق كبير بين الموت وبين القتل، القتل عطب يصيب العضوية فلا تستطيع أن تستقبل إمداد الله عز وجل فيموت الإنسان، أما الموت حتف الأنف، الموت على فراش الموت أساسه انقطاع الإمداد الإلهي، فهذه الدابة الميتة محرم أكلها لأن دمها فيها، والدم هذا السائل الذي ينقل المواد الغذائية والأكسجين ويأخذ نتائج الاحتراق من حموض سامة كحمض البول ومن مواد سامة ومن ثاني أكسيد الكربون هو يأخذ الغذاء والأكسجين ويعود بثاني أكسيد الكربون ونواتج الاحتراق، ولاسيما حمض البول، فما من سائل في جسم الإنسان هو بؤرة لنمو الجراثيم كالدم، كل عوامل المرض في الدم، وكل المواد السامة في الدم، وكل المواد التي تؤذي في الدم، وفيه المواد النافعة، وفيه الأكسجين.

لكن الدم في الجسم يصفى بأجهزة ثلاثة بالغة التعقيد؛ يصفى عن طريق الرئتين، فالرئتان تعطيان الدم الأكسجين، والدم يطرح في الرئتين غاز الفحم، فالشهيق أخذ الأكسجين والزفير طرح غاز الفحم، فالدم يصفى من السموم الغازية عن طريق الرئتين، ثم إن الدم يمر على الكليتين في اليوم خمس مرات، ويمشي في طريق طوله مئة كيلو متر في الكليتين كي يأخذ منه حمض البول، فالإنسان يطرح في بوله المواد السامة المؤذية، فهذا الدم مادام في الجسم فهو طاهر لأنه يصفى، أما إذا سفح فهو بؤرة فيها من الجراثيم والمواد السامة وحمض البول الشيء الكثير، لذلك لا يصح أكل الدابة إلا إذا زكيت، زكيت بمعنى خرج منها دمها كلياً.

الحكمة من إبقاء رأس الدابة متصلاً بجسمها بعد ذبحها :

حدثتكم من قبل وهذه الآية مناسبة لإعادة هذا الموضوع وهو: أن النبي عليه الصلاة والسلام نهانا أن نقطع رأس الدابة في أثناء ذبحها، أمرنا أن نبقي رأسها متصلاً بجسمها وأن نقطع أوداجها فقط، لا في حياة النبي ولا في أي مركز علمي في الأرض في عصر النبي ولا بعد مئة عام ولا بعد خمسمئة عام ولا بعد ألف عام ولا بعد ألف وثلاثمئة عام ولا بعد ألف وأربعمئة عام في العالم من بحوث علمية يمكن أن تكشف حكمة هذا التوجيه النبوي، والشيء القطعي الثابت أن النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، لا ينطق لا عن تجربة، ولا عن ثقافة، ولا عن خبرة، ولا عن معطيات بيئة، إنما ينطق من وحي السماء، الآن اكتشف أن مهمة القلب ضخ الدم إلى جميع أنحاء الجسم، هذا الضخ يعتمد على

نبض، وهذا النبض يتلقى أمر من القلب نفسه، لأن القلب أخطر أعضاء الجسم لا يمكن ربطه بالشبكة العامة الكهربائية، لا بد من مولد ذاتي، ففي قلب الإنسان مولد كهربائي أساسي، فإذا تعطل هناك مولد احتياطي آخر، فإذا تعطل هناك مولد احتياطي ثالث، ثلاث مولدات كهرباء في القلب تمد القلب بالنبض النظامي ثمانين نبضة في الدقيقة، أما الإنسان حينما يواجه جهداً طارئاً، أو يتبعه عدو مخيف، لا بد من بذل جهد عضلي عالٍ جداً؛ النبض النظامي لا يكفي لإمداد العضلات بالدم فلا بد من أن يرتفع النبض إلى مئة وثمانين نبضة، بالمناسبة القلب ينبض من ستين إلى ثمانين نبضة بشكل نظامي، أما إذا واجه الإنسان خطراً قد يرتفع النبض إلى مئة وثمانين نبضة، كيف يرتفع النبض؟ العينان ترى الخطر، ينطبع الخطر كأفعى أو كحيوان أو كعدو أو إنسان يشهر مسدس، ينطبع الخطر على شبكية العين إحساساً ثم ينتقل إلى الدماغ إدراكاً، الدماغ فيه مفهومات؛ لو أن الإنسان رأى أفعى، الأفعى لها ملف في الدماغ، هذا الملف ما الذي أملاه؟ قصص سمعها أو دراسة درسها أو شيء رآه، يتكون من مجموعة الدراسات مفهوم الأفعى، فالدماغ يدرك الخطر يعطي أمراً عن طريق تحت السرير البصري إلى ملكة الغدد، الغدة النخامية، الغدة النخامية ملكة الغدد، ملكة النظام الهرموني تعطي أمراً إلى الكظر فوق الكليتين، الكظر مسؤول عن مواجهة الخطر، يعطي أمراً إلى القلب برفع النبض، وأمراً إلى الرئتين لرفع الوجيب، وأمراً إلى الأوعية المحيطة بتضييق اللمعة، فالخائف يلهث ويرتفع نبض قلبه ويصفر لونه، ويعطي أمراً إلى الكبد بطرح كمية من السكر زائدة ويعطي أمراً إلى الكبد أيضاً لطرح هرمون التجلط هذا كله يتم في ثوان، فالإنسان حينما يدرك الخطر يرتفع نبض قلبه إلى مئة وثمانين ولحكمة بالغة بَالغة بالغة أرادها الله جعل نظام الحيوان مشابهاً لنظام الإنسان، إنك ترى أدق الأجهزة عند القصاب، ترى القلب والكليتين والكبد والطحال، وترى الأوتار والعضلات والعظام، فالدابة إذا قطعت أوداجها فقط وبقي رأسها متصلاً يأتي الأمر الاستثنائي من الدماغ إلى الكظر إلى القلب فيرتفع نبض القلب.

ما مهمة القلب بعد الذبح؟ إفراغ الدم بالنبض النظامي، الدم لا يخرج إلا قسم منه أما بالأمر الاستثنائي يخرج الدم كله من الدابة، فإذا هي وردية اللون طاهرة، وهذا ما يسمى بالتزكية؛ أي إخراج الدم من الدابة، أما الدابة التي تصعق كما في المسالخ الغربية، أو الدابة التي يقطع رأسها وتعلق من أرجلها، هذه الدابة ليست مزكاة لأن معظم الدم يبقى فيها، ويبقى فيها معظم عوامل المرض، والدم فيه مواد سامة، فإذا أكل الإنسان لحماً غير مزكىً انتقلت إليه المواد السامة، وربما ترسبت في مفاصله وفي أجهزته الحساسة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، أمرنا أن نقطع أوداج الدابة دون أن نقطع رأسها.

الدم هو سبب تحريم أكل الدابة :

هذه الميتة لماذا حرم أكلها؟ لأن دمها فيها إذاً ليست مزكاة.

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ)

الدم هو أصل التحريم، كان العرب في الجاهلية يأخذون دم الدابة ويضعونه في الأمعاء، ثم يأكلون هذه الأمعاء مع الدم، وحينما أعطي البقر الدم المجفف وطحين اللحم جن البقر، وما جنون البقر إلا من جنون البشر. بريطانيا اضطرت إلى إتلاف ثلاثة عشر مليون بقرة إحراقاً، وقيمة هذه الأبقار التي تم إحراقها ثلاثة وثلاثين مليار جنيه إسترليني، ومرض جنون البقر ليس عنا ببعيد، وكل منتجات البقر تؤذي الإنسان أشد الإيذاء، هذا الذي جن. والله عز وجل يقول:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ)

لأن دمها فيها، ولأن كل عوامل المرض في الدم، والدم فيها، حدثني صديق ذهب ليشتري صفقةً من اللحوم من بلاد شرق آسيا، فكان لهذه الدواب سعران؛ سعر دمها فيها، وسعر إذا ذبحت على الطريقة الإسلامية، لأن الدم قد يصل وزنه إلى خمسة كيلو غرام.

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ)

لأنه الأصل في التحريم، ولحم الخنزير، الآن إذا أرادوا أن يستنبتوا الجراثيم يضعونها في جزر من الدم، ما من وسط مساعد على نمو الجراثيم كالدم؛ السائل الأول الذي يرعى الجراثيم وينميها بأعداد، بسلسلة هندسية وليست حسابية.

علة أي أمر أنه أمر :

لحم الخنزير؛ يمكن أن نتحدث عن لحم الخنزير وعن حكمة التحريم، ولكن لو أنك أردت أن تفهم التحريم بتفسير علمي فقط هذا طريق مسدود، تقول لمن تحاوره: إن في الخنزير دودةً شريطية، يقول لك: عقمناه، تقول له: إن الخنزير يعيش في الأماكن الموبوءة، في القمامة، يقول: لا نحن نربيه في مزارع نظيفة جداً، أما قل له: إن الذي خلقنا والذي أوجد هذا الكون والذي أنزل هذا القرآن والذي شرع لنا حرمه علينا، لذلك أروع جواب سمعته من عالم غربي أسلم، التقى بعالم من بلاد المشرق وجرى حوار طويل حول حرمة لحم الخنزير، فهذا العالم المشرقي أسهب وأفاض في الحديث عن حكمة التحريم، فأجابه العالم الغربي إجابةً جامعةً مانعةً قاطعةً شافيةً قال له: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرَّمه، لأن المحرم هو خالق الأكوان، أنت دون أن تشعر إن دخلت إلى عيادة دكتور وقال لك: دع الملح، لا تفكر لثانية واحدة أن تناقشه، إنك مستسلم لعلمه، وقد يقول لك: بع بيتك الذي في الطابق الرابع

واشتري بيتاً أرضياً، لا تتردد ساعةً، تعرض البيت للبيع، أيعقل أن تصدق الطبيب وألا تناقشه وألا تحاوره وألا تصدق الله عز وجل؟!!

فعلة أي أمر أنه أمر، الحقيقة الخنزير له وظائف، أي مجهز بجهاز هضمي بالغ التعقيد يمكن أن يأكل الجيف، وكأن هذا الحيوان سخره الله لتنظيف الفلاة من الجيف ومن الحيوانات الميتة، ولكن الطرف الآخر أعجبه ولم يجد طعاماً أطيب منه.

حدثني أخ درس في بلاد الشرق يحمل دكتوراه وصار عميد كلية الطب، قال لي: هناك بحوث كثيرة جداً عن انتقال طباع الحيوان إلى آكليه، فهناك حيوانات لا تسمح لأحد أن يرى لقاءها مع أنثاها، وهناك حيوانات تمارس هذا اللقاء أمام جمع غفير؛ منها الخنازير، فالذي يأكل هذا اللحم لعله يأخذ من طباع هذا الحيوان، على كل نحن مسلمون، نحن متبعون.

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ)

الخنزير محرم لذاته بينما الشاة الميتة محرمة لعلة الموت :

هناك حقيقة دقيقة جداً وهي: أنك إذا اقتنيت مكيفاً وأنت تحمل دكتوراه في الفيزياء، أو في التبريد، من أرقى جامعات العالم، فإذا ضغطت على الزر وعمل هذا المكيف، وجاءك الهواء البارد، أنت تعلم بدقة بالغة ماذا يجري في هذا المكيف؟ مبدأ الغاز، ومبدأ التبريد، ومبدأ التبديل، ومبدأ الدفع، لكن إذا جاء إنسان لا يقرأ ولا يكتب، أمِّي، ووضعت في غرفته هذا المكيف، وضغط على الزر وجاءه الهواء البارد، ألا ينتفع هذا الذي لا يعلم كما ينتفع الذي يعلم، لذلك قالوا: الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، أي أنت بمجرد أن تطيع الله عن فهم عميق أو عن عبادة لله فأنت تقطف ثمار هذا المنهج، السلف الصالح شأن الدين عندهم كبير جداً، فإذا حرم الله شيئاً انتهى، هذا محرم.

قال له: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرمه، أنا لا أنصح أن تدخل مع الطرف الآخر في مناقشة علمية حول حكمة تحريم لحم الخنزير، كلما جئته بعلة نقضها لك، الخنزير حرمه الله علينا، والله هو العليم، وهو الحكيم، وهو الخبير، مضطر لمثل جزئي ولكن معبر: كنت مرةً عند إنسان لتصليح مركبتي، فوجد قطعة حديدية رماها أرضاً، وقال: لا لزوم لها في هذا المكان، قلت له: أعدها، قلت له: أنا لا أستطيع أن أناقشك فيما تفعل، ولكن لا أصدق أن خمسة آلاف مهندس في هذه الشركة الصانعة أنت أفهم منهم، أعدها إلى مكانها.

غير معقول خالق الأكوان يقول لكم:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ)

وأنا أناقش! علة أي أمر أنه أمر.

أيها الأخوة، هذه الأشياء الثلاث محرمة؛ الميتة والدم ولحم الخنزير، طبعاً لحم الشاة حلال أكله، أما إذا ماتت محرم أكله، لكن لحم الخنزير سواء أذبح أو لم يذبح، أريق دمه أو لم يرق محرم أكله، يقول العلماء: الخنزير محرم لذاته بينما الشاة الميتة محرمة لعلة الموت، ليست محرمة لذاتها محرمة لغيرها.

ينبغي أن تُذبح الدابة على اسم الله تعالى وأن نقول الله أكبر :

يوجد عندنا تحريم عقدي أو عقائدي قال تعالى:

(وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

أي دابة ذبحت على شرف فلان؛ باسم اللات والعزة نذبح هذه الدابة، من اللات والعزة هنا؟ ليس التحريم تحريم ضرر لكن تحريم عقدي، بمعنى الآن أنت مشرك أنت حينما تذبح دابة ولم تقل: الله أكبر، معنى الله أكبر أي أن الله سخرها لي وسمح لي أن آكل لحمها لأنني مخلوق مكلف، وهذه الدابة مخلوق مسخر، ولعل ما ينتظرها من عطاء إلهي لأنها سخرت لهذا الإنسان، فأنا حينما آكل دابةً وأذبحها أنا أفعل ما أمرني الله به، فأقول: الله أكبر الذي سخرها لي، الله أكبر الذي ذللها لي، الله أكبر الذي سمح لي أن آكلها.

لا تأكلوا مما عليه أما إذا ذبحنا هذه الدابة لزيد أو عبيد أو فلان أو علان أو تعظيماً لهذا هذا تحريم لأنه مبني على شرك.

(وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

ينبغي أن تُذبح الدابة على اسم الله تعالى، أن تقول: الله أكبر.

(وَالْمُنْخَنِقَةُ)

التي خنقت بقي دمها فيها، إذاً هي تشبه الميتة.

(وَالْمَوْقُوذَةُ)

التي وقذت أي ضربت فكانت على وشك الموت.

(وَالْمُتَرَدِّيَةُ)

التي وقعت من مكان مرتفع.

(وَالنَّطِيحَةُ)

التي نطحت إذاً حرمت أيضاً.

خمسة أنواع من الدواب محرم أكلها :

قال تعالى:

(وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ)

أي حيوان مفترس نهش شاةً فبين الموت والحياة، خمسة أنواع من الدواب محرم أكلها؛ المنخنقة دمها فيها، والموقوذة التي ضربت، والمتردية التي وقعت، والنطيحة التي نطحت، وما أكل السبع:

(إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ)

كيف؟ للفقهاء رأي دقيق في الموضوع، أنت حينما ترى دابةً نطحت وهي على وشك الموت، فإذا ذبحتها وسال الدم منها وتحركت، فهي مزكاة وكأنها ليست نطيحة، أما إذا ذبحتها والدم لم يسل منها ولم تتحرك فهي ميتة، علامة تزكية النطيحة والمتردية والموقوذة وما أكل السبع والمنخنقة أن الدم يسيل منها بغزارة، وأنها تتحرك، فإن لم تتحرك ولم يخرج الدم منها بغزارة فهذه ميتة محرم أكلها، لذلك في بعض المسالخ يخففون عن الدابة ألمها فتصعق بمخدر، عندنا جيء ببعض العلماء ليأخذوا رأيه في هذه الطريقة في الذبح فأجاب الإجابة التالية: إذا صعقت ولم تذبح فماتت محرم أكلها، أما إذا صعقت وذبحت فانهار الدم منها وتحركت معنى ذلك أنها لم تمت، علامة تزكية الدابة المنخنقة أو الموقوذة أو المتردية أو النطيحة أو ما أكل السبع علامة تذكيتها أن ينهمر الدم منها وأن تتحرك، لو تحرك ذيلها أو رجلها أو رأسها فالحركة دليل الحياة، وخروج الدم منهمراً دليل الحياة.

الذبح على النصب والاستقسام بالأزلام :

إذاً:

(وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ)

قال بعض العلماء: إلا ما زكيتم لا تنسحب على الميتة والدم ولحم الخنزير، إلا ما زكيتم فقط للمنخنقة والموقوذة والنطيحة والمتردية وما أكل السبع، ولم يذكر الله عز وجل أن هذا الوقت الضرب كان على رأسها أو في بطنها أو في أي مكان آخر، أي مكان إذا ضربت الدابة بدت كأنها ميتة سارعنا إلى ذبحها، فإذا انهمر الدم منها وتحركت فهي دابة مزكاة وكأنها لم توقذ ولم تخنق. والعرب كانوا يضعون الحجارة فوق بعضها بعضاً على شكل هرم ويذبحون الدابة باسم اللات والعزة.

(وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ)

حينما يقدس الناس إلهاً غير الله عز وجل، يعبدونه من دون الله، فالدابة التي ذبحت على نصب تعظيماً لغير الله أيضاً محرم أكلها، لكن هذا التحريم عقائدي، تحريم بالتعبير الدقيق عقدي لا تحريم علمي.

(وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ)

الاستقسام بالأزلام أي العرب كانوا في جاهليتهم يأتون بسهام أو نبال يكتبون على أحدها أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، وعلى الثالث لا شيء، فيأتي هذا الإنسان إن أراد السفر، أو أراد الزواج، أو أي عمل، يأتي إلى الكاهن يعطيه كيساً فيه الأسهم فيسحب، فإن جاء أمرني ربي يسافر، وإن جاء نهاني لا يسافر، وإن جاء بسهم فارغ يعيد القرعة، يعيد السحب، كلام لا معنى له إطلاقاً، نحن عندنا ضوابط، فالإسلام جاء بمنهج، جاء بضوابط، جاء بأمر ونهي، أما أنا أن أفعل لصدفة لا تستند لأي شيء علمي هذا شيء محرم.

(وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ)

أيضاً كانوا يذبحون ناقةً وفي عدد من السهام كبير، يقطعون هذه الناقة إلى ثلاثين جزءاً تقريباً، ففي سهم عليه جزء واحد له اسم معين يأخذ من أصابه هذا السهم قطعة من لحم هذه الناقة، وسهم عليه جزأين له اسم خاص لم أحفظه يأخذ قطعتين، وسهم يأخذ ثلاثة، وسهم أربعة، وسهم خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، ومن يدفع ثمن الناقة لا يأخذ شيء، هذا ظلم، إنسان أخذ معظم الناقة صدفةً، والثاني دفع ثمنها ولم يأخذ شيئاً، هذا كان سائداً في الجاهلية.

أمور الدين تناقش في أصولها أما في فروعها فهي أمر ونهي لحكمة أرادها الله عز وجل:

قال الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ)

إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام شرع لنا القرعة في المباحات لا في التحريم والتحليل، أول خصائص القرعة أنها في المباحات، أي عندك ولدان لهما غرفة، فسرير إلى جانب النافذة وله إطلالة وسرير داخلي فاختصما الحل القرعة، عندك سفر ولك زوجتان وتنافستا على أن ترافقانك في هذا السفر، كان عليه الصلاة والسلام يستخدم القرعة، القرعة تطيب القلوب لا تحرج أحداً، فهناك أشياء مباحة في عليها تنافس؛ إما تنافس شرف، أو تنافس مصلحة، على كلٍ يمكن أن تستخدم القرعة لحل بعض المشكلات لا لتحليل الحرام أو تحريم الحلال، الشيء الآخر نحن في هذه التحريمات:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ)

هذا التحريم تَحريم تفصيلي، المحرمات لا تناقش لكن يناقش أصل الدين، أنت إذا آمنت بالله خالقاً، مربياً، مسيراً، موجوداً، واحداً، كاملاً، آمنت بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى قال:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ)

انتهى كل شيء، كما لو دخلت على طبيب وقبل أن تأتيه سألت عنه آلاف الأشخاص، تأكدت من علمه، ومن إخلاصه، ومن تدينه، ومن خبرته، ومن مهارته، دخلت إليه لا ينبغي أن تناقشه، عقلك أوصلك إليه، لكن عقلك ينبغي أن يتوقف عن العمل حينما تأتيك التوجيهات منه، فأمور الدين تناقش في أصولها أما في فروعها فهي أمر ونهي لحكمة أرادها الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (05-49) : تفسير الآية 3 ، ديننا ثابت لأنه دين الله تعالى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-09-05

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين ليس طرفاً من أطراف أهل الأرض بل من عند الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من دروس سورة المائدة ومع تتمة الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ)

تتمة هذه الآية:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ)

الكلمات في هذه الآية تعني أن هذا الدين هو دين الله في الأرض، قوى كثيرة وبينها خصومات وبينها حروب وتنتصر هذه القوة مرةً وتلك مرةً، ولكن الدين له شأن خاص، هذا الدين هو دين الله عز وجل، فإذا كان الإنسان متمسكاً بدينه فالله معه، وإذا كان معه فمن عليه، أي مستحيل أن يكون الدين طرفاً كأطراف الأرض، هذه فكرة خطيرة جداً، الدين ليس طرفاً من أطراف أهل الأرض، هذا الدين من عند الله عز وجل، فإذا كان الذين يتمسكون به يتمسكون به مخلصين وصادقين ومطبقين لا يمكن أن يهزموا، بدليل قوله تعالى:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

على مستوى المعارك والحروب لا يمكن أن يهزموا.

عدم انتصار المسلمين إما لخلل في عقيدتهم أو لخلل في استقامتهم :

قال تعالى:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: 55]

أي أن يكون هذا الدين طرفاً من أطراف قوى الأرض يفوز مرةً وينهزم مرةً من غير سبب من المتمسكين به هذا مستحيل، لكن أحياناً لا ينتصر المسلمون؛ إما لخلل في عقيدتهم، أو لخلل في استقامتهم، لخلل في عقيدتهم:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

[سورة التوبة: 25]

ولخلل في استقامتهم كيوم أحد إذ لم ينتصر المؤمنون لأنهم عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما لو تصورنا ليس هناك خللاً في العقيدة، ولا خطأً في السلوك، وهؤلاء متمسكون بهذا الدين، فهذا الدين لا يُوازى مع قوى الأرض، خالق الأكوان هو الذي يرعاه ويؤيده وينصره، فإذا كنت مع الله كان الله معك، طبعاً هذا المعنى القتالي.

المعنى العقائدي لا يمكن أن يأتي العلم أو التطور بشيء يناقض ما جاء به القرآن إلى أن ييئس الذين كفروا أن يستطيعوا تقويض دعائم هذا الدين.

على المؤمن أن يطمئن أنه لن يظهر تطور في الأرض ينقض الدين :

الحقيقة أيها الأخوة: شدة الضغط على الدين في هذه الأيام من قِبل العالَم كله لأنه دين الله، لأنه متغلغل في أعماق الإنسان، أعداء الدين الألداء أيقنوا أنه لا سبيل لمواجهة هذا الدين، لذلك غيروا خططهم فجعلوا أبرز خططهم تفجيره من داخله، أي اصطناع اتجاهات منحرفة إن في العقيدة أو في السلوك ودعمها، وعرضها على الناس على أن هذا هو الدين، فأي اتجاه منحرف في الدين، منحرف في العقيدة، أو في السلوك، ترى من يرعاه من أعداء الدين، يرعونه لا حباً بالدين ولكن حباً في تفجيره من داخله، فكلمة:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ)

أي هذه معركة مع الدين خاسرة تقريباً، للتقريب: إنسان لا يستطيع بأي شكل أن يواجه دولةً، لا يستطيع، أضعاف مضاعفة، قوى، جيوش، طيران، بحرية، جوية، أجهزة، إنسان واحد لا يتمكن أن يواجه دولة، فكذلك للتقريب: جهة في الأرض مهما علت، مهما عظمت، لا تستطيع أن تواجه دين الله عز وجل إلا بأساليب ملتوية، إلا بتفجيره من داخله، أو باصطناع اتجاهات منحرفة في العقيدة والسلوك وعرضها على الناس على أنها هي الدين، قد ينجح أعداء الدين بمعركة إعلامية فيصورون أهل الدين على أنهم إرهابيون، أو على أنهم مجرمون، أو على أنهم قتلة، وقد يصطنعون مثل هذه المواجهات

اصطناعاً، والحقيقة التاريخ الحديث يكشف خطط جهنمية لأعداء الدين قد لا تصدق، حينما يقول الله عز وجل:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

فأنت إذا كنت مع الدين، وكنت صادقاً، ومستقيماً، ومخلصاً، يجب أن تتأكد وأن تطمئن إلى أنه لن ـ لن لتأبيد النفي ـ لن يظهر تطور في الأرض ينقض الدين، ذلك لأن الكون خلق الله عز وجل، ولأن القرآن الكريم كلامه، ولأن العقل مقياس أودعه فينا، ولأن الفطرة جبلة جبلنا عليها، فكل هذه الأطراف من عقل إلى واقع، إلى فطرة، إلى جبلة، إلى كون، هذه من أصل واحد هو الله عز وجل، توافق قوانين الكون مع قوانين القرآن الكريم توافق تام، وتوافق قوانين الفطرة مع قوانين القرآن الكريم توافق تام، وتوافق مبادئ العقل مع مبادئ الكون والقرآن توافق تام، يجب أن تطمئن.

يجب أن ييئس الذين كفروا من إلغاء هذا الدين :

يحضرني في هذه المناسبة أن إنساناً في فرنسا كان رئيس وزارة، وهو من أرقى عائلات باريس، وله سمعة طيبة، ولم يضبط بمخالفة للقوانين، وهو في سن السبعين انتحر، أذكر أنني قرأت حول هذا الخبر أن مئة باحث وصحفي أرادوا تعليل سبب انتحاره فلم يهتدوا، لا اختلاس، ولا فضيحة، ولا أي مشكلة، إنسان متوازن، ذكي، من أرقى العائلات، متوازن جداً لماذا انتحر؟ إلا أن صحفياً واحداً كشف السر، هذا أمضى سبعين عاماً وهو يعتقد أنه لا إله، فلما اكتشف أنه كان مضللاً، وأنه كان غائباً عن الحقيقة سبعين عاماً احتقر نفسه.

لو عاش مسلم مئة سنة مستحيل أن يظهر شيء في الأرض ينقض إسلامه، مستحيل، بالعكس كلما تقدم العلم، وكلما تطورت الأمور أكدت حقائق هذا الدين لأنه دين الله، هذه نعمة أيها الأخوة لا تعدلها نعمة، أنك مطمئن أنه لن يظهر في الأرض تطور علمي أو اكتشاف علمي يرفض ما تعتقده، بينما إذا اعتقدت مذهباً أرضياً، أو اتجاهاً أرضياً، فقد تفاجأ أنك على خطأ ولو أمضيت باعتقاده سنوات وسنوات، هذا معنى قوله تعالى:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ)

أي معركة رأوها خاسرة، هذا الدين الذي أكرمنا الله به كم مؤامرة دبرت عليه؟ والله آلاف المؤامرات، كم فرق ضالة ظهرت كي تحيده عن مساره الصحيح؟ ظهرت وانقرضت وبقي الدين شامخاً، هذا الدين دين الله، كم إنسان ادعى أنه أتى بقرآن آخر؟ الآن ببعض المواقع المعلوماتية في كلام عن قرآن ليس بكتاب الله عز وجل، يكفي أن تقرأه لا تملك إلا أن تضحك، لا تملك إلا أن تضحك لأن هناك فرقاً كبيراً

بين كلام الله وبين كلام خلقه، أي محاولة حاولها الطرف الآخر لمحو هذا الدين، في بلاد إسلامية في الشمال جاء رجل أراد إلغاء الإسلام كلياً، قام بأشياء تفوق حد الخيال؛ لا آذان، ولا قرآن، ولا مسجد، ولا شيء ينتمي إلى الدين، حتى الحروف غيَّرها، إذا سافرت إلى هذه البلاد تجدها بلاداً مسلمة، وكل ما فعله هذا الذي أراد إلغاء الإسلام لم يجدِ إطلاقاً.

النقطة الدقيقة هذا دين الله، دين الله لا تستطيع جهة في الأرض مهما تكن قوية أن تلغيه، يجب أن ييأس الذين كفروا من إلغاء هذا الدين.

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ)

يجب على المؤمن أن يطمئن إلى تحقق وعد الله عز وجل :

الآن أيها الأخوة، هذه المحاولات التي تجري لتغيير مناهج المسلمين، لقمع نشاطاتهم، لتجفيف منابع الخير فيهم، هذه المحاولات لا تنجح لأنه لا يعقل ولا يقبل أن يسمح الله لجهة في الأرض أن تفسد على الله خطته في هداية الخلق مستحيل، الله عز وجل فعال لما يريد، بيده كل شيء، كن فيكون زل فيزول، أيسمح الله لجهة في الأرض قوية بلغت قوتها ما بلغت أن تلغي الدين في الأرض؟ أن تحول بين الناس وبين هدايتهم؟ هل تستطيع جهة أرضية أن تفسد على الله هدايته لخلقه؟ مستحيل، لكن الله لحكمة أرادها يسمح لهؤلاء الأعداء أن يتكلموا فقط، أن يتكلموا، لن ينالكم إلا أذى.

لكنك ينبغي أن تطمئن إلى أن هذا الدين دين الله، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تمحوه، سيدنا رسول الله كان مهاجراً من مكة إلى المدينة، وقد أهدر دمه، ووضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، وتبعه سراقة، فإذا بأقدام الخيل تغوص في الرمل حتى لامس بطنها الرمل، وعلم سراقة أن هذا الإنسان الذي أمامه والذي أراد قتله ممنوع منه، قال له النبي الكريم ـ وهذه قصة ثابتة في التاريخ ـ قال له: يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟

ما هذا الكلام! إنسان ملاحق، مهدور دمه، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يقول لسراقة الذي يتبعه: سوف أصل إلى المدينة، وسوف أنشئ دولة، وسوف أحارب أكبر دولتين في العالم، وسوف أنتصر عليهما، وسوف تأتيني كنوز كسرى، ويا سراقة سوف تلبس سواري كسرى.

لولا أنه رسول الله، ويرى أن الكون كله بيد الله، وأن الفعل كله فعل الله، وأنه لا ناصر إلا الله، ولا معطي إلا الله، ولا مانع إلا الله، يقول هذا الكلام؟ يتورط بهذا الكلام؟ لو لم يكن رسول الله لكان متورطاً، ما هذا الكلام؟ وفعلاً وصل إلى المدينة، وأسس دولة، وفتح البلاد، وفي عهد عمر جاءت

كنوز كسرى، وطلب سراقة، وألبسه بيده سواري كسرى، وقال: بخ بخ، أعيرابي من بني مدلج يلبس سواري كسرى، وتحقق وعد الله عز وجل.

أيها الأخوة، يجب أن تطمئن أنك لست مع جهة أرضية تقوى وتضعف لا، أنت مع خالق الأكوان، لست مع جهة أرضية تتقدم وتتأخر، تزيد وتنقص، تقوى وتضعف، تغتني وتفتقر، لا، أنت مع خالق الأرض والسماوات، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟

في الكون جهة واحدة ينبغي أن نخشاها هي الله تعالى :

أخواننا الكرام، المؤمن يتمتع بمعنويات عالية جداً، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

في تاريخ المسلمين من أدلة أن هذا الدين دين الله، وأن الناصر هو الله، ما لا يعد ولا يحصى، المسلمون حينما فتحوا الأرض كانوا قلة؛ أربعون ألفاً يواجهون ثلاثمئة ألف وينتصرون عليهم، إذا كنت مع الله كان الله معك، ومهما تصورتم ضعف المسلمين الآن، وضعف قوتهم، وقلة حيلتهم، مهما تصورتم هوان المسلمين على بقية الناس، مثلاً يموت إنسان، وتُتهم جهة أنها أسقطت هذه الطائرة، ديته خمسمئة مليون ليرة سورية سوف تدفع بعد أيام، كل إنسان مات بهذه الطائرة يأخذ خمسمئة مليون، أي أن ديته عشر ملايين دولار، والآلاف المؤلفة الذين قتلوا في حروب، وفي أعمال بلا ثمن، مهما تصورتم ضعف المسلمين، وقلة حيلتهم، وهوانهم على الناس، ومع ذلك الله عز وجل لا يتخلى عنهم، ولكن نحن في محنة مع أنفسنا.

أيها الأخوة، إذا كنت مع الله كان الله معك، إذا كنت مع الله أنت أقوى جهة في الأرض، قال تعالى:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي)

بالكون هناك جهة واحدة ينبغي أن تخشاها هي الله، الله وحده ينبغي أن تخشاه، لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه، فكأن الله يطمئن المؤمنين أنتم إذا كنتم معي لا تخافوا من أية جهة، فلا تخشوهم واخشوني إن كنتم مؤمنين.

كلما تقدم العلم جاء بكشوف تبين عظمة هذا القرآن وأنه من عند الواحد الديان :

تصور حلبة مركبات كهربائية وأصحابها يصطرعون، هناك إنسان بيده قطع التيار، مهما احتدم الصدام بحركة من هذا الإنسان يقف التيار الكهربائي، انتهى كل شيء، هذا مثل صارخ، حلبة مواجهة بين سيارات كهربائية في بعض الألعاب، فإذا قطع التيار توقف كل شيء، فالأمر بيد الله عز وجل.

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ)

أي يئسوا من أن ينتصروا على دينكم؛ إما انتصار عقائدي، أو انتصار ميداني، هناك انتصار علمي، أحياناً قد يأتي إنسان بفكرة يروج له بعض الصحف والمجلات، هي تضرب الدين في بعض مبادئه، هذا الشيء الذي ظهر ليكون مأخذاً على الدين يتلاشى وحده، سمعتم قبل سنة أنا سميتها فقاعة إعلامية بموضوع الاستنساخ، أين الاستنساخ الآن؟ ماذا جرى؟ فقاعة وانتهت، لم يظهر حتى الآن شيء يمكن أن يزحزح قناعة المسلمين عن حرف في القرآن الكريم، كلما تقدم العلم جاء بكشوف تبين عظمة هذا القرآن وأنه من عند الواحد الديان، ثم يقول الله عز وجل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

الإكمال نوعي والإتمام عددي، أكملت لكم دينكم فلا زيادة، وأتممت عليكم نعمتي فلا نقص، لا في الدين زيادة ولا فيه نقص، أو مجموع القضايا التي عالجها الدين تام عدداً، طريقة المعالجة كاملة نوعاً، هذا الدين لا يستدرك على الله فيه شيء، لأن القضية لم تذكر استدركناها على الله.

الآية التالية أصل بأن هذا الدين كماله مطلق :

الإله كماله مطلق:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

اليوم أكملت لكم دينكم فلا نقص، إذاً أي إضافة إلى الدين يعد بدعةً، وأي زيادة يعد بدعةً، هذا دين الله، لكن هناك من يقول ويتحدث عن التجديد في الدين، كلمة ممكن أن نتداولها ولكن بشرط التجديد، أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه هذا هو التجديد، أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه، أما أن نضيف شيئاً فهذا عمل خطير، أو أن نحذف شيئاً فهذا عمل أخطر، لا زيادة ولا حذف لأنه دين الله، ولأن الله علمه مطلق وخبرته مطلقة، فإذا أضفنا كأننا نتهم الله بأنه أنقص شيئاً في الدين أكملناه نحن، وإذا حذفنا كأننا نتهم الله عز وجل بأنه زاد في الدين شيئاً ينبغي أن نحذفه، فلا زيادة ولا نقصان، ولكن التجديد يعني أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه. هذا معنى قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

طوبى لمن وسعته السنة ولم تستهوه البدعة، ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.

هذه الآية أيها الأخوة أصل بأن هذا الدين كماله مطلق، ولعلماء العقيدة كلمات لطيفة في هذا الموضوع: الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالدليل، والأصل في العبادات الحظر ولا تشرع عبادة إلا بالدليل. لا زيادة ولا نقص، الزيادة بدعة والنقص بدعة والبدعة ضلالة والضلالة في النار، البدعة التي هي ضلالة هي البدعة في الدين، أما لو كبرنا الصوت هذا بدعة ولكن لا علاقة لها لا بالعبادات ولا بالعقائد، هذه بدعة في اللغة لا شيء فيها يحكمها الشرع، فإذا كانت مباحةً أبيحت، وإذا ابتدعنا شيئاً محرماً ابتدعنا شيئاً واجباً فهي واجب.

البدعة نوعان؛ بدعة في اللغة وبدعة في الدين :

البدعة نوعان بدعة في اللغة وبدعة في الدين، في الدين لا زيادة ولا نقص، قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

في الدين يوجد التزام في النص الذي جاء به القرآن، وبشرح هذا النص الذي ورد عن النبي العدنان، فهذا هو مبدأ كبير من مبادئ عقيدة المسلم؛ لا يقبل زيادة ولا نقصان، الزيادة اتهام بالزيادة، والنقصان اتهام بالنقصان، فلا نزيد ولا ننقص.

معنى آخر: الإتمام عددي، أي عدد القضايا التي عالجها الدين تام عدداً والإكمال نوعي طريقة معالجة الدين للموضوعات التي عالجها كاملة نوعاً، فالمعالجة كاملة والعدد تام، فلا زيادة في العدد ولا نقص، ولا معالجة أعمق ولا معالجة أطول المعالجة كاملة والعدد تام:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

هذه الآية أصل في أن هذا الدين لا يضاف عليه شيء ولا يحذف منه شيء، وحينما تضيف أو تحذف إنك تتهم الله وهو الكامل، فالذات الكاملة تتهمها إما بزيادة لا مسوغ لها أو بنقص ضروري أن نستكمله، وهذا بحق الله عز وجل وبحق كماله مستحيل على الله عز وجل.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

لكن هناك بدعة في اللغة، يمكن أن نكبر الصوت في المسجد، لم يكن على عهد رسول الله، هذا لا علاقة له بالدين هذا له علاقة بالدنيا، يمكن أن نكيف الجو في المسجد، يمكن أن نحسن الإضاءة في المسجد، يمكن أن نأتي بماء ساخن في الشتاء، وماء بارد في الصيف، هذه بدع لكنها بدع لغوية، وهناك

بدع موقوفة على طريقة استخدامها، فكما أن هذا الجهاز يكبر الصوت كذلك يكبر صوت المغني، فهذا متوقف على نوع استخدام هذا الجهاز.

الضرورات تبيح المحظورات :

إذاً:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

لكن الله يعلم أن هناك حالات قد تعتري الإنسان، هذا الإنسان كائن يأكل فإذا منع عنه الأكل لسبب أو لآخر وأشرف على الموت جوعاً له أن يأخذ بالمحظورات، الضرورات تبيح المحظورات:

(فَمَنِ اضْطُرَّ)

المضطر:

(فِي مَخْمَصَةٍ)

أي في حالة جوع شديد، طبعاً علاقة نهاية مع أولها:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ)

بعض بنود الضرورة الشرعية :

قال تعالى:

(فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ)

في حالة جوع شديد يفضي به إلى الموت، الجوع الذي ينتهي بصاحبه إلى الموت:

(غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ)

أي يأكل من لحم الميتة وهو كاره، غير متجانف: غير مائل، المتجانف: المائل، غير مائل إلى أكل هذا اللحم لكنه مضطر:

(فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ)

في حالة جوع شديد:

(غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ)

غير مائل لإثم:

(فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لأن الله سبحانه و تعالى يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

هو الذي خلقنا ويعلم حاجتنا إلى الطعام، ففي حالات قد تكون نادرة جداً إنسان ضل الطريق وكاد يموت من الجوع فلم يجد إلا دابة ميتة، هل بإمكانه أن يأكل منها؟ نعم، يأكل عند الضرورة الشرعية التي يخشى بها الموت، أو فقد أحد الأعضاء، أو التعذيب الذي لا يحتمل، أو فقد المال كله، هذه بعض بنود الضرورة الشرعية. في مخمصة وغير مائل، الذي يترك المعاصي ثم تتاح له فيفرح ليس هذا، يأكل وهو متألم أشد الألم:

(غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الله عز وجل يعفو عنه لأن الحياة مقدمة على كل شيء، رأسمال الإنسان حياته، فهذا من دفع الحرج عن المؤمنين، في حالات نادرة جداً في إمكانه أن يأخذ بالذي حرمه الله عليه للضرورة القصوى الشرعية، وكره هذا الشيء.

يوجد شيء آخر: العلماء قالوا الضرورة تقدر بقدرها، إذا كاد يختنق في غصة في حلقه فرأى كأساً من الخمر فشرب منه كمية قليلة جداً دفعت هذه الغصة لا ينبغي أن يشرب كل الكأس، الذي يسمح له أن يمرر هذه الغصة، فالضرورة تقدر بقدرها، والضرورات الشرعية تبيح المحظورات، وهذا الأصل في كتاب الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (06-49) : تفسير الآيتان 4-5 ، السؤال علامة الإيمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-09-26

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس من دروس سورة المائدة ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

أيها الأخوة، من صفات المؤمن أنه يسأل لأنه أراد أن يطيع الله، هذا قرار أولي، أراد أن يقبل عليه، وسيلته الطاعة، لذلك الفرق بين المؤمن وبين غير المؤمن، غير المؤمن لا يسأل استغنى عن طاعة الله لأنه كذب بالحسنى.

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى*وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل: 6-10]

لماذا استغنى أن يطيع الله؟ لأنه كذب باليوم الآخر، لذلك أيها الأخوة: يكاد يكون الإيمان باليوم الآخر لا يقل أهمية عن الإيمان بالله، لأن أهل الأرض قاطبة إلا فئة شاذة عطلت عقولها لم تؤمن به، لو آمنت أن هناك يوماً آخر، وأنه في هذا اليوم سيحاسب كل إنسان بما عمل، سيكافأ المحسن وسيعاقب المسيء، لا يمكن أن يعصي الإنسان الله عز وجل، فلذلك حيثما ورد في القرآن الكريم من أركان الإيمان بنود وجدت الإيمان بالله واليوم الآخر متلازمين.

كمال الخلق يدل على كمال التصرف :

القضية تبدأ من هنا؛ أن إنساناً آمن بالله، آمن أن لهذا الكون إلهاً موجوداً كاملاً، أسماؤه حسنى وصفاته فضلى، وأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، فلا يعقل أن يكون غني وفقير، وقوي وضعيف، وصحيح ومريض، ووسيم ودميم، أن يكونوا سواء، أن تنتهي الحياة الدنيا ولا شيء بعد الدنيا، هذا شيء يتناقض مع كمال الله، لأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، هذا الكون يدل على إله عظيم، ومن لوازم عظمة الله عز وجل أن يكون هناك يوم تسوى فيه الحسابات، لأن الإنسان آمن بالله واليوم

الآخر، هو يبحث عن الأمر والنهي، تأتي كلمة يسألون، فمن لم يسأل ليس مؤمناً باليوم الآخر، والذي يسأل علامة إيمانه باليوم الآخر أنه يسأل، ما حكم الشرع؟ ماذا يرضي الله؟ وقد قال الله عز وجل:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

من هم أهل الذكر؟ أهل القرآن الكريم، ومن لوازم أهل الذكر، أهل القرآن الكريم أو أهل الفقه، لأنك بالكون تعرفه وبالشرع تعبده، كون ينطق بعظمة الله، وشرع هو صراط مستقيم يوصلك إلى الله، يسألونك فسؤالك عن هذا الموضوع دليل إيمانك، وعدم سؤالك دليل عدم إيمانك، هذا الذي لا يبالي أأكل حلالاً أم حراماً؟ هل ارتكب معصية أم طاعة؟ أكان عمله يرضي الله أم يغضب الله؟ هذا الذي لا يبالي ليس مؤمناً وقد وصفه الله عز وجل بأنه استغنى عن طاعة الله، بينما المؤمن محتاج أن يطيع الله عز وجل طلباً للسلامة وللسعادة.

المؤمنون حريصون على طاعة الله وسلامتهم من عقاب الله :

يسألونك؛ مادام الله عز وجل يقول:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه آية الدرس الخامس، هؤلاء المؤمنون الحريصون على طاعة الله وسلامتهم من عقاب الله، الطامعون بما عند الله، يسألونك:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

وفي آية ثانية:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان: 59]

ينبغي أن أوضح لكم أن الدين واسع جداً، وأن الإنسان لو أمضى حياته كلها في طلب العلم يحقق مساحة محدودة في مساحة الدين، لذلك لا بد من تعاون العلماء فيما بينهم، لا يوجد عالم أحاط بكل علوم الدين، ما من عالم إلا وتفوق في جانب وهو بحاجة إلى أخيه العالم الآخر ليستأنس برأيه، فلذلك هناك من يعرف الله معرفة دقيقة وعميقة يمكن أن نسمي هؤلاء علماء بالله تعالى قال:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان: 59]

كلمة(يسألونك) وردت في عدد من الآيات الكريمة تزيد عن عشر آيات :

هناك علماء بالقرآن الكريم وبالسنة وبالأحكام الفقهية وبالسيرة وبتاريخ التشريع، أبواب الدين واسعة جداً ولا يستطيع واحد أن يحصلها كلها، لكن كل واحد تفوق في جانب وأخوه تفوق في جانب آخر، فإذا تعاونوا نجحوا وارتقوا عند الله وكبروا في أعين الناس جميعاً، وإذا تنافسوا سقطوا من أعين الله عز وجل وسقطوا من عين الأتباع.

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان: 59]

إذا القضية متعلقة بالله عز وجل فاسألوا به الخبير، متعلقة بالأحكام الشرعية:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

لكن يسألونك هذه الآية وردت مثيلاتها في عدد لا بأس به من الآيات الكريمة تزيد عن عشر آيات:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ)

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ)

[سورة البقرة: 215]

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ)

[سورة البقرة: 220]

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

[سورة البقرة: 222]

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

[سورة البقرة: 189]

ليس بين المسلم و ربه حجاب أو وسيط :

إلا آية واحدة إن قرأتها يقشعر جلدك:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

[سورة البقرة: 176]

أي أنه ليس بينك وبين الله حجاب ولا وسيط، إذا قال العبد يا رب وهو راكع قال الله له لبيك يا عبدي، وإذا قال العبد يا رب وهو ساجد قال الله له لبيك يا عبيدي، وإذا قال العبد يا رب وهو عاص يقول الله له لبيك ثم لبيك ثم لبيك، أنا أنتظرك.

لو يعلم المعرضون انتظاري لهم وشوقي لترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين؟!!

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43-44]

آية قرآنية! لمن؟ لفرعون.

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

هذا الإنسان قولا له قولاً ليناً، فإذا أخطأ إنسان في المسجد في حكم لا يعرفه أيعقل أن تقيم عليه الدنيا ولا تقعدها؟!!

شروط الدعاء :

هناك فرق بين أخلاق الدعوة وأخلاق الجهاد في الحرب في ساحة المعركة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

لكن في ساحة الدعوة:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: 34]

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

[سورة البقرة: 186]

معنى ذلك أن شروط الدعاء أن تؤمن بالله الإيمان الذي يحملك على طاعته، ومن شروط الدعاء أن تستجيب له بطاعته، والائتمار بأمره والانتهاء عما عنه نهى، ومن شروط الدعاء أن تدعوه حقيقة ومخلصاً، إلا أن إنسانين مستثنيان من شروط الدعاء؛ المظلوم يستجيب الله له لا لأهليته ولكن بحكم اسم العدل، والمضطر يستجيب الله له لا لأهليته ولكن باسم الرحمة، باسم الرحمن.

في المعاملات الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالدليل :

قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ)

والسؤال مفتاح العلم، أنت تستطيع أن تستعير عقول الرجال بالسؤال، لا تستطيع في أي مجال آخر غير مجال الدين أن تسأل بلا أجرة، لا تستطيع أن تدخل لعيادة طبيب إلا وفي جيبك مبلغ من المال ليغطي أجور المعالجة، ولا تستطيع الدخول إلى مكتب محامي إلا وفي جيبك أتعاب الدعوة، ولا تستطيع أن تدخل لمحل تجاري إلا ومعك الثمن إلا إذا دخلت لبيوت الله، لك أن تسأل ما شئت ومن دون ثمن لأن العلم مبذول، أنت إذا سألت استعرت عقول الرجال، من علامة المؤمن أنه يسأل ويتحرى ويتأكد ويستوثق لأن دينه غالٍ عليه:

((ابن عمر دينك ديْنك إنما هو لحمك ودمك فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[ابن عدي عن ابن عمر]

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ)

أيها الأخوة، عندنا قاعدتان أصوليتان: الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالدليل، ليس هناك دليل على الإباحة بل دليل على التحريم، إذا قلت: هذا محرم، يجب أن تأتي بالدليل، أما أكل التفاح لا يحتاج للدليل، وشرب الماء البارد لا يحتاج لدليل، لأن الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالدليل، بالعبادات بالعكس الأصل فيها الحظر، ولا تشرع عبادة إلا بالدليل، أن تخترع صلوات وعبادات وأذكار وتلزم أخوانك بما لم يلزم رسول الله أصحابه هذا ممنوع، الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالدليل، والأصل في العبادات الحظر ولا تشرع عبادة إلا بالدليل، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولأن الله عز وجل قال:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

[سورة المائدة: 3]

العبادات الأصل فيها الحظر ولا تشرع عبادة إلا بالدليل :

طريقة معالجة الدين لقضايا الحياة كاملة لا تعدل ولا تطور، وعدد القضايا التي عالجها الدين تامة تماماً عددياً وكمالاً نوعياً، وأية إضافة على الدين اتهام له بالنقص، وأي حذف من الدين اتهام له بالزيادة، ويوم حذفنا من الدين فرائض كنا آخر الأمم، استبيحت أراضينا، نهبت ثرواتنا، قتل أبنائنا، لما

عطلنا فريضة من مئتي عام وأضفنا على الدين ما ليس فيه اختصمنا، إن أضفت اختصمت وإن حذفت ضعفت، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ....))

[سنن النسائي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

في العبادات لا تشرع عبادة إلا بالدليل وفي المعاملات الأصل في الأشياء الإباحة:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ)

فجاء الجواب عاماً:

(قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ)

الأشياء التي تطيب به نفوسكم، هذا ينقلنا إلى أن العلاقة بين الأمر وبين نتيجته علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة، وأن العلاقة بين النهي وبين نتائجه علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة، لأن هذا أمر خالق الأكوان وأمر الخبير، لا يوجد أمر رمزي، كل شيء منعك الله منه يبدد سلامتك وسعادتك، وكل شيء أمرك الله به تطيب به نفسك.

الفقه الحقيقي أن ترى أن الحسن ما شرعه الله والقبيح ما حرمه الله :

هذا الكلام يقودنا إلى المثل التالي: إنك تمشي في الطريق فإذا بلوحة كتب عليها: حقل ألغام ممنوع التجاوز، لا شك أن معظم الناس يشعرون بامتنان لواضع هذه اللوحة، لا يرون فيها حداً لحريتهم بل يرون فيها ضماناً لسلامتهم، وأنت حينما تعتقد أن كل شيء نهاك الله عنه من أجل سلامتك وسعادتك وآخرتك، وأن كل شيء أمرك الله به هو قوام سلامتك وسعادتك هذا هو الفقه الحقيقي، أن ترى أن الحسن ما شرعه الله والقبيح ما حرمه الله، فماذا أحل لكم؟ قل الطيبات طعام تطيب نفسك به، لكن طعام يمرضك لا يحل لك، كمٌ يمرضك لا يحل لك أن تسرف فيه، هناك نوع يفسد جسمك كلحم الخنزير ينبغي ألا تأكله، وهناك كمٌّ من لحم الضأن يؤذي صحتك فينبغي ألا تسرف، فهناك شيء محرم نوعاً وشيء منهي عنه كماً، فحينما تعتقد أن الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع لأنه من عند الخبير، أو لأنه من الجهة الصانعة، أنت دون أن تشعر ودون أن تفكر حينما تقتني آلة غالية الثمن، عظيمة النفع، بالغة التعقيد، تحترم هذه الورقة التي جاءت معها وتنظر إليها على أنها من عند الصانع ومن الشركة الصانعة من عند الخبير، فتحرص على ترجمتها والتقيد بتفاصيلها، لأنك حريص على

سلامة الآلة، وأنت أعقد آلة في الكون ولك صانع حكيم، وهذا الصانع الحكيم له تعليمات التشغيل والصيانة فينبغي أن تتبع التعليمات.

الكلاب إذا تعلمت لها مكانة وجاء اسمها في القرآن الكريم :

قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

هذه حالة كانت فائدة من قبل، فكان الكلب المعلم، الكلب يُعلَّم، وقد بلغني قبل حين أن تكاليف تعليم الكلب يتجاوز الخمسين ألفاً أحياناً، الكلب المعين متميز، فقد يُعلَّم الكلب أن يأتي بالصيد دون أن يأكل منه، فالكلب إذا أرسل هو أو الطائر الصقر ليصطاد وصاحب الكلب سمى وجاء الكلب بهذا الصيد دون أن يأكل منه فهذا صيد حلال تناوله، حتى الكلاب إذا تعلمت لها مكانة! جاء اسمه في القرآن الكريم قال تعالى:

(وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ)

الكلاب أو الصقور أو ما شابه ذلك، لها أنياب تجرح.

(وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ)

أي أن هذا الكلب أصبح خبيراً في هذا الصيد.

(تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

على المؤمن التقيد بكلام الله عز وجل :

أيها الأخوة، أعاد الله عز وجل أنه أحل إلينا الطيبات:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ)

أجاز أكثر العلماء أن ذبائحكم حل لكم، لكن المشكلة أن هؤلاء الذين ذكر اسمهم في القرآن الكريم على أنهم أهل كتاب قد لا تجدهم أحياناً، الإنسان حينما يكفر بالله عز وجل وبكتابه وبنبيه، وينكر وجود الله أصلاً، ولا يتقيد بشيء، هذا ليس من أهل الكتاب، تماماً كما لو أطلعك واحد على أنه مسلم في الهوية وهو ينكر وجود الله عز وجل ولا يصلي ولا يصوم ولا يعبأ بما حرمه الله، هل يعد هذا مسلماً؟ لا والله. لذلك أيها الأخوة، أهل الكتاب الذين آمنوا بسيدنا عيسى، والذين آمنوا بالإنجيل، أما إذا آمن من يكفر

بوجود الله أصلاً، ولا يعبأ بأي منهج أنزله الله، فهذا ليس من أهل الكتاب، هذا تحفظ لا بد منه، يقول لك: أن تتزوج كتابية، الله عز وجل قال:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ)

هذه ليست محصنة، قد لا تجد في العالم الغربي من مئة ألف فتاة، فتاة عذراء هي ليست محصنة، فلا بد من التقيد بكلام الله عز وجل.

(الْيَوْمَ أحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ)

يوجد ملاحظة: طعام أهل الكتاب حل لنا قطعاً، أما طعام الملحد الذي لا يؤمن بالله أصلاً ولا بمنهجه ثانياً، قد يكون هذا الطعام قد تم صعقه وبقي الدم فيه ولم يزكى، فهناك إشكال في هذا الموضوع، لا أخوض في تفاصيل هذا الموضوع لأن الله سبحانه وتعالى تفضل علينا وجعلنا نقيم في بلاد المسلمين، لا مشكلة عندنا، لكن هذه المشكلة كبيرة جداً في بلاد الغرب بالنسبة للمسلمين، الأصل أنه حلال ما لم يثبت أنه صعق ولم يذبح ولم يزكّى إطلاقاً، على كل هناك من يفتي بحله ولو كان قد صعق، قضية خلافية لا مجال للخوض في تفاصيلها.

سدّ الذرائع :

من المسلمات طبعاً:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ)

يجوز الزواج منهم، لكن هناك حكم ورد عند بعض العلماء المعاصرين في شيء طيب، الأصل أن الأولاد يتبعون أقوى الأبوين، فإذا كان أقوى الأبوين هي الزوجة وهي ليست مسلمة وفي الأعمّ الأغلب سيكون أولادها تبعاً لها وسينشؤون على دينها، وفي أية لحظة تأخذهم وتمضي ولا تملك من أمرهم شيئاً، فهناك إشكال في تطبيق هذا الحكم على إطلاقه لا بد من التحفظ، هذا في الفقه يسمى لسد الذرائع، تزرع العنب حلال مئة في المئة، لكن إذا غلب على يقينك قطعاً أن هذا العنب مآله إلى الخمارة ليكون خمراً هنا ينشأ حكم طارئ ليس في أصل الحكم، الأصل إباحة، لكن إذا كان العنب في هذه المنطقة لا يورد إلا للخمارات ليغدو خمراً ينشأ حكم استثنائي طارئ سداً للذريعة، لا يجوز أن تزرع العنب ازرع شيء آخر، كذلك إذا غلب على اليقين أنك إذا تزوجت كتابية من العالم الغربي فمآل أولادها إلى الكفر كالإباحية مثلاً، إذا غلب على يقينك هذا فينبغي أن تتمهل وتتوقف وتسأل أهل الذكر إن كنت لا تعلم.

الإحصان وفق منهج الله أما السفاح فخلاف منهج الله :

قال تعالى:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ)

أجورهن المهر، مسافحين هو الزنى، والإحصان هو الزواج، الإحصان وفق منهج الله، والسفاح خلاف منهج الله.

(مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ)

هناك من يقول: صداقة بريئة بين شاب وفتاة، من قال لك: بريئة؟ ليس هناك صداقة بريئة.

(وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

نعيد الآيات:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

يكفر بالإيمان، من كفر بالإيمان وما ينتج عنه من أمر ونهي حبط عمله وكان عمله سيئاً يستوجب النار، أو لو أن له عملاً في ظاهره جيد ونواياه شركية يفقد العمل قيمته، فالعمل إما أن يفقد قيمته أو صورته، إما أن تكون صورة العمل سيئة أو نية العمل سيئة.

(وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (07-49) : تفسير الآية 6 ، شروط الصلاة وثمارها
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-10-03

بسم الله الرحمن الرحيم

في الصلاة كل أركان الإسلام وهي عماد الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع من دروس سورة المائدة، ومع الآية السادسة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، لا بد من وقفة متأنية عند الصلاة، الذي يعد الوضوء شرطاً لها.

أيها الأخوة، الحقيقة الأولى أن أركان الإسلام خمسة: صوم وصلاة وحج وزكاة ونطق بالشهادة، النطق بالشهادة مرة واحدة، ينطق بالشهادة مرة واحدة، والحج يسقط عن المريض وعن الفقير، والصيام يسقط عن المسافر والمريض، والزكاة تسقط عن الفقير.

ما الفريضة المتكررة التي لا تسقط بحال؟ إنها الصلاة، الفرض الأول الذي لا يسقط بحال هو الصلاة، والصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين، وبين المؤمن والكافر ترك الصلاة، وفي الصلاة معنى الصيام، لأن الصائم يدع الطعام والشراب، بينما المصلي يدع الطعام والشراب والكلام والحركة، وفي الصلاة معنى الحج، لأن المصلي يتوجه إلى بيت الله الحرام، وفي الصلاة معنى الزكاة، لأن المصلي يقتطع من وقته وقتاً ليصلي، والوقت أصل في كسب المال، وفي الصلاة نطق بالشهادة، إذاً في الصلاة كل أركان الإسلام، وهي عماد الدين، هي غرة الطاعات، وسيدة القربات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات.

العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إنما هو وسيلة :

أيها الأخوة، يمكن أن يفهم واحد الدين على أنه فكر، هذا فهم قاصر، فقد تجد إنساناً تفكيره إسلامي، تفكيره يقتنع بالدين، وبالفكر الديني، وبالمبادئ الدينية، وبالقيم الدينية، ولكن ما لم يتصل فلا قيمة لهذه

الأفكار التي يعتقدها، وأدق دليل على ذلك أن الإنسان حينما يصاب بمرض جلدي ويقول له الطبيب: شفاؤك الوحيد أن تتعرض لأشعة الشمس، فهذا الإنسان لو اعتقد أن الشمس ساطعة، وأن الشمس مشرقة، وأن الشمس مفيدة، وأن أشعتها مطهرة، ما لم يتعرض لأشعة الشمس فلا قيمة لكل هذه الاعتقادات وتلك الأفكار، صار الآن إسلام فكري، كل المذاهب الوضعية سقطت، ولم يبقَ في الميدان إلا الإسلام، وأصبح الإسلام الآن ورقة رابحة بأيدي جميع الناس.

ذكرت لكم أن أحد العلماء الذي زار بريطانيا وهو مسلم التقى بالجالية الإسلامية وقال لها: أنا أستبعد أن يستطيع المسلمون اللحاق بالعالم الغربي في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما، ولكنني أعتقد أن العالم بأكمله سوف يركع أمام أقدام المسلمين، لأن خلاص العالم بالإسلام، لكن عليهم أن يحسنوا فهم دينهم، وأن يحسنوا تطبيقه، وأن يحسنوا عرضه للناس.

إذاً أن تقتنع أن الإسلام حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، ولا تتحرك وفق قناعتك، أنا الآن أضع يدي على جراح المسلمين، لو التقيت بمليون مسلم، بمئة مليون، بألف مليون، بمليارات المسلمين ما منهم واحد إلا وهو مقتنع أن الإسلام حق، وأنه دين الله، وأنه من عند الله، وأنه كلام الله، وأن النبي معصوم، وأن الجنة حق، وأن النار حق، ما لم تتحرك وفق قناعاتك فلا قيمة لقناعاتك، ذلك لأن العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إنما هو وسيلة.

أيها الأخوة، يمكن أن نتحدث عن الصلاة من زاوية فقهية، وهذا شيء بين أيديكم، بل إن مناهج التربية الإسلامية في التعليم الإعدادي والثانوي تتحدث عن الصلاة، وعن فرضتها، وعن شروطها، وعن واجباتها، وعن سننها، وعن مستحباتها، وعن دخول الوقت، هذا شيء معروف بين أيدي الناس جميعاً.

ولكن أيها الأخوة، هناك إنسان يعلم علم اليقين الأحكام الفقهية المتعلقة بالصلاة، وهناك إنسان آخر يعلم كيف تستطيع أن تتصل بالله، وهناك إنسان ثالث اتصل بالله، تماماً كمن يملك خارطة قصر، ومن يعرف الطريق الموصل إليه، ومن يدخله، فلا أريد في هذا الدرس أن نبقى في الأحكام التي بين أيدي الناس جميعاً، بل نريد أن نرقى بها قليلاً إلى الطريق، أحكام الصلاة كخارطة القصر، نريد أن نصل إلى القصر، ما الطريق؟

الصلاة تنهى نهياً ذاتياً عن الفحشاء والمنكر :

أيها الأخوة، من الثابت أن المسلم إذا كان متلبساً بمعصية، إذا كان مخالفاً لحكم، إذا كان مقصراً في واجب، إذا كان في كسبه شبهة، إذا كان في إنفاقه شبهة، إذا كان في علاقاته معصية، فإن هذا التقصير، وتلك المخالفات، وهذه المعاصي تحجبه عن الله، فليست العبرة أن أقف منتصب القامة، وأن أفتتح

الصلاة بالتكبير، ثم أن أقرأ قراءة صحيحة، ثم أن أركع مطمئناً، ثم أن أسجد مطمئناً، ثم أن أقعد القعود الأخير، وأن أتلو الكلمات، وأن أؤدي الحركات بالتمام والكمال، على أن الصلاة مجموعة أعمال وأقوال تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم، وانتهى الأمر، يجب أن نعلم أن هذا الخالق العظيم الذي أمرك أن تصلي في اليوم خمس مرات لا يكون أمره أمراً شكلياً، تقف وتقرأ، وتركع، وتسجد، ثم تسلم، وانتهى الأمر، وأنت لا تجد فرقاً بين مسلم يصلي وإنسان لا يصلي، لكن إن لم يكن الفرق شاسعاً بين الذي يصلي والذي لا يصلي فليست هذه الصلاة التي أمرنا الله بها.

أيها الأخوة الكرام، يعني من تعريفات النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة أنها عماد الدين، والذي رأى خيمة في حياته، الخيمة أيها الأخوة في وسطها عمود لو سحبته لانتهت الخيمة، قيام هذه الخيمة بهذا العمود، قد تجد خيمة دائرية واسعة كبيرة، كل هذه الخيمة لولا هذا العامود لكانت قطعاً من القماش لا تسمى خيمة، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة عماد الدين))

[أخرجه البيهقي عن عمر رضي الله عنهما]

هذه واحدة، الدين صلاة، وأن الدين اتصال هذا المخلوق الحادث الضعيف الجاهل الفاني بمبدع الكون، أنت لا شيء والله كل شيء، فأنت بالله قوي، وبالله غني، وبالله عالم، فما لم تجد فرقاً صارخاً بين المصلي وغير المصلي فلا يمكن أن تكون الصلاة من دون أن ترى أثرها في السلوك، وفي الأخلاق، وفي المعاملات، لا يمكن أن تكون الصلاة بهذه الطريقة التي يؤديها المصلون بالمستوى الذي أراده الله عز وجل:

((الصلاة عماد الدين))

[أخرجه البيهقي عن عمر رضي الله عنهما]

هل يمكن للمصلي أن يكذب؟ مستحيل، هل يمكن للمصلي أن يخون؟ مستحيل، هل يمكن للمصلي أن يحتال؟ مستحيل، هل يمكن للمصلي أن يأخذ ما ليس له؟ مستحيل، هل يمكن للمصلي أن يظلم؟ مستحيل، هل يمكن للمصلي أن يخادع؟ مستحيل.

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)

[سورة العنكبوت: 45]

إن الصلاة تنهى نهياً ذاتياً عن الفحشاء والمنكر.

الصلاة طهور :

أيها الأخوة، يمكن أن يقوم نظام بالغ الدقة على نظام الردع، لكن الصلاة تعطي النظام الإسلامي طابع الوازع، الإنسان يخاف أن ينقطع عن الله فلا يكذب، ولا يغش، ولا يحقد، ولا يظلم، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، إما نهياً إرادياً، أو نهياً ذاتياً، إما أنك تخشى أن تنقطع عن الله عز وجل فلا تظلم، ولا تفعل شيئاً يقطعك عن الله، وإما أن الكمال الذي حصلته بالصلاة يدفعك إلى أن تكون في أعلى مقام عند الله عز وجل، هذه واحدة.

الآن الصلاة طهور، أريد من هذا الدرس أيها الأخوة أن يكون درسَ تطبيقٍ عملي، الصلاة تطهر قلب المؤمن من الأدران فالمصلي لا يحقد، الصلاة تطهر قلب المصلي من الحقد، تطهر قلب المصلي من الحسد، تطهر قلب المصلي من الغل، تطهر قلب المصلي من كل رذيلة نفسية أو قلبية، لأن الصلاة طهور، فالمصلي عنده براءة أطفال، بريء صافٍ ليس ساذجاً، وليس غبياً، لأن سيدنا عمر يقول: (لست بالخب، ولا الخب يخدعني)، لست من الخبث حيث أخدع، ولا من السذاجة حيث أخدع، (لست بالخب، ولا الخب يخدعني)، فالمصلي بعد أن اتصل بالله عز وجل تراه سليم القلب، طاهر الفؤاد، لا يحقد، ولا يحسد، ولا يحتال، ولا يكذب، ولا يظلم.

أيها الأخوة، هذه ثمار الصلاة، لكنك تجد أناساً كثيرين غارقين في معاصٍ وآثام واعتداءات على حقوق من حولهم، ومع ذلك يصلون، هذا الذي يحير العالم اليوم، العالم الإسلامي يعد ملياراً وثلاثمئة مليون ليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، ما السبب؟ إنهم لا يصلون كما كان الصحابة يصلون، إنهم لم تطهر قلوبهم بالصلاة التي هي في الأصل، كما قال الله عز وجل:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)

[سورة العنكبوت: 45]

الصلاة نور :

قال الله عز وجل:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

أي أكبر ما فيها، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الصلاة نور))

[رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري]

ما من سلوك منحرف إلا وتسبقه رؤية غير صحيحة، فالذي يسرق لماذا يسرق؟ لأنه رأى أن السرقة تعطيه مالاً كثيراً بجهد قليل، فظن نفسه أذكى من كل من حوله فسرق، الصلاة نور، تهبك نوراً تمشي به في الناس.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد: 28]

الصلاة نور، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تركب مركبة في الليل ولها أضواء كاشفة وأن تقع في حفرة، أو أن ترتطم بجدار، أو أن تقع في مشكلة، لأن هذا النور يكشف لك الطريق، وهكذا المؤمن، الصلاة نور، نور يقذف في قلب المؤمن في أثناء الصلاة، لذلك تجد أن هذا القرآن حينما يطبقه المؤمن يهدي المؤمن سبل السلام، لأنه طبق تعليمات الصانع، يهدي القرآن المؤمنين سبل السلام، في سلام مع نفسه، ليس فيه ضيق داخلي، ولا اختلال توازن، ولا شعور بالذنب، ولا عقدة، لأنه مستقيم على أمر الله، ينام خالي البال، لذلك في بعض الفنادق كتب على زاوية السرير: إن تقلبت في الفراش ولم تنم فليست العلة في فرشِنا، إنها وثيرة، ولكن العلة في ذنوبك، إنها كثيرة، الإنسان حينما يخرج عن منهج الله يخرج عن فطرته.

الصلاة ميزان فمن وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمراتها :

أكاد أقول لكم: والله اعلم أن الصلاة يمكن أن تكون ميزاناً لاستقامتكم، إن فعلت هذا الفعل هل تستطيع أن تصلي بعده؟ قطعاً لا، تستطيع أن تقف، وأن تقرأ الفاتحة، وأن تركع، وأن تسجد، وأن تسلم، وأن تقول لمن حولك: تقبل الله، ولكن لا تستطيع أن تتصل بالله، فكأن الصلاة ميزان، من وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمراتها بالضبط، كأن الصلاة ميزان من وفى الاستقامة حقها، استوفى من الصلاة ثمراتها.

إذاً أول بند: هي عماد الدين، ثاني بند: هي طهور، مستحيل أن يكون هناك أمراض في قلب المؤمن وهو يصلي، أما أن يصلي صلاة شكلية عنده من الحقد، والحسد، والبغض، والنكد، والتطاول، والظلم، والاحتيال ما لا يعد ولا يحصى، طهور ونور، المصلي مستنير، يقذف الله في قلبه النور، يريه الحق حقاً والباطل باطلاً، وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم:

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[تفسير ابن كثير]

أرنا، والرؤية تحتاج إلى نور، ما قيمة عينين حادتي البصر في مكان مظلم؟ يستوي في المكان المظلم الأعمى والبصير، الأعمى والبصير يستويان تماماً في مكان مظلم، لكن المؤمن باتصاله بالله يقذف الله في قلبه نوراً، وهذا كلام فيه آيات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

[سورة الأنفال: 29]

الحق واضح والباطل واضح، الخير واضح والشر واضح، الاستقامة واضحة والانحراف واضح:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد: 28]

الصلاة حبور :

النور من ثمرات الصلاة، الصلاة حبور، فيها سعادة لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((أرحْنا بها يا بلالُ))

[رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

(أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

القلب لا يسعد، ولا يطمئن، ولا يتوازن، ولا يستقر، ولا يأمن إلا بذكر الله:

(أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

لذلك:

((أرحْنا بها يا بلالُ))

[رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

أصبحت البنود أربعة.

الصلاة عقل :

الآن الصلاة عقل، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها))

[أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن أبي داود والنسائي]

وهذا الحديث تدعمه آية يقول الله فيها:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

فهذا الذي لا يعلم ما يقول في حكم السكران:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

فينبغي أن تعلم ما تقول في الصلاة، تقول:إياك نعبد وإياك نستعين، تقول:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة: 1-7]

كأن القرآن كله جمع في الفاتحة، وكأن الفاتحة جمعت في:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

أنت حينما تقرأ الفاتحة وتقرأ آية:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة الإسراء: 53]

الله أكبر، سبحان ربي العظيم، أنت الآن سألت الله أن يهديك الصراط المستقيم، وجاء الرد الإلهي:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

هذا هو الأمر، فإذا ركعت كأنك خضعت لله عز وجل، وإذا سجدت كأنك طلبت العون من الله. لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن لكل سورة حظها من الركوع والسجود، أية سورة تقرأها بعد الفاتحة لها ركوع خاص بها، ولها سجود خاص بها، فالركوع خضوع، والسجود طلب العون من الله عز وجل، الركوع والسجود ترجمة عملية لقولك في الفاتحة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

إياك نعبد في الركوع سمعاً وطاعة يا رب، وإياك نستعين في السجود. إذاً الصلاة وعي، وإدراك، وعقل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

((ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها))

[أخرجه أحمد بإسناد صحيح]

الصلاة ذكر:

الآن: الصلاة ذكر.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

أكبر شيء في الصلاة أن تذكر الله، أكبر شيء في الصلاة على الإطلاق أن تذكر الله عز وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

لكن بعض العلماء يقول في تفسير قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

إن ذكر الله لك أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته عبدته، لكنه إذا ذكرك وفقك، إذا ذكرك طمأنك، إذا ذكرك أمنك، إذا ذكرك ألهمك الحكمة، إذا ذكرك ألقى في قلبك السكينة، إذا ذكرك أسعدك، إذا ذكرك جعلك ذا هيبة، إذا ذكرك جعلك من الموفقين، إذا ذكرك أجرى على يديك الخير، إذا ذكرك قربك إليه، لذلك في تفسير قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

أي ذكر الله لعبده في الصلاة أكبر من ذكر العبد لربه، أنت تقوم بواجب، لكن عطاء الله يكون حينما يمنحك من أسباب السعادة والتوفيق ما لا سبيل إلى وصفه.

الصلاة قرب من الله :

إذاً من معاني الصلاة الذكر، ومن معاني الصلاة:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق: 19]

القرب من الله.

(أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

[سورة فصلت: 44]

فالإنسان إما أن يكون بعيداً عن الله أو قريباً منه، بالصلاة تقترب من الله، أيها الأخوة كيف أن الإنسان أحياناً يتقرب إلى إنسان يراه عظيماً أحياناً بهدية، هديتك إلى الله في الصلاة أن تكون محسناً لخلقه، هذا معنى إشاري بعيد:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

[سورة الأعراف: 31]

طبعاً المعنى البسيط الواضح الذي يلزم من كلمات هذه الآية أن تكون نظيفاً، وذا هيئة حسنة، ولكن الإنسان أحياناً يتزين بهدية إذا زار عظيماً، فالهدية أيضاً من معاني الزينة حينما تخدم عباد الله، حينما ترحمهم، حينما تنصحهم، حينما تدلهم على الله، حينما تكرمهم، حينما تطعمهم، حينما تواسيهم، حينما تجبر كسرهم، فالله عز وجل ينتظرك في الصلاة ليكرمك جزاء إكرامك لهم، لأن الله شكور.

الصلاة عروج إلى الله عز وجل :

إذاً من معاني الصلاة أيضاً أنها قرب من الله عز وجل، والصلاة أيضاً عروج إلى الله عز وجل، وقد ورد أيضاً في بعض الآثار أن:

((الصلاة معراج المؤمن))

[ورد في الأثر]

تعرج أنت في الصلاة إلى رب الأرض والسماوات، فمن أنها عماد الدين، إلى أنها طهور، إلى أنها نور، إلى أنها حبور، إلى أنها ذكر، إلى أنها قرب، إلى أنها عقل، إلى أنها عروج، إلى أنها مقياس ميزان، إلى أنها الدين كله، الصلاة عماد الدين ولكن يحضرني هنا أيها الأخوة حديث شريف أنا أكرره كثيراً، هو في الحقيقية حديث قدسي فقد روى النبي عن ربه أن الله سبحانه وتعالى يقول:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

فالصلاة تحتاج إلى تعظيم لله عز وجل، والتفكر في خلق السماوات والأرض يجعلك تعظم الله عز وجل.

((أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك؟ قال: يا داود، أحب عبادي إلى نقي القلب ونقي الكفين، لا يأتي إلى أحد بسوء، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب! إنك لتعلم أني أحبك، وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال؛ ذكرهم بآلائي، وبلائي، ونعمائي))

[أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة]

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي))

يفكر في خلق السماوات والأرض وهو مستقيم على أمر الله، التفكر والاستقامة.

((ولم يصر على معصيتي))

سريع التوبة، تواب.

أخواننا الكرام، الحديث دقيق جداً:

((ليس كل مصل يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي))

أي فكر في خلق السماوات والأرض، وتعرف إلى الله عز وجل، وإلى عظمته، وإلى أسماءه الحسنى وصفاته العلى،

((وكف شهواته عن محارمي))

استقام على أمر الله، تفكر في خلق الله، واستقام على أمره.

((ولم يصر على معصيتي))

المؤمن مذنب تواب سريع التوبة.

الأعمال الصالحة تفكرٌ واستقامة وعملٌ صالحٌ وصلاة :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

[سورة آل عمران: 135]

هذه ثلاثة، تعرف إلى الله بالتفكر، واستقام على أمره، وبادر إلى التوبة النصوح.

((وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب))

هذه الأعمال الصالحة تفكر، استقامة، عمل صالح، صلاة، أربع نقاط في الدين، كلها مرتكزات، أن تفكر في خلق السماوات والأرض فتعرفه، وأن تستقيم على أمر الله فيكون الطريق سالكاً إليه، وأن تعمل الأعمال الصالحة فتتحرك إليه.

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

العمل حركة، والاستقامة إزالة العقبات.

الشيء الأخير: أن تتصل به فتسعد في الدنيا والآخرة، إذاً:

((وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب وآوى الغريب ـ الإخلاص ـ كل ذلك لي))

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)

[سورة الإنسان: 9]

((كل ذلك لي))

ثمار الصلاة:

الآن ثمار الصلاة:

((وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً))

غضوب صار حليماً، بخيل صار كريماً، محتال صار مستقيماً،

((على أن أجعل الجهالة له حلماً ـ الأخلاق السيئة له حلماً ـ والظلمة نوراً ـ كان في عمى فصار في هداية، كان في ظلماء فصار في مكان منير وضاح،

((على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً يدعوني فألبيه))

صار مستجاب الدعوة.

((ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها))

ونختم هذا الدرس بآية كريمة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 10]

شديد الخوف.

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 10]

حريصاً على ما في يديه، خائر القوى إن استمع إلى خبر سيئ.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

المصلي معافى من الهلع والحرص، لكن قبل قليل ماذا قلت؟ ليس كل مصلٍّ يصلي:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 22]

كل مَن وقف، وكبر، وقرأ الفاتحة، وركع، وسجد يصلي، لكن كلما نضيف صفة تضيق الدائرة.

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج: 22-23]

ضاقت الدائرة.

كلما نضيف صفة تضيق الدائرة :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ)

[سورة المعارج: 24-35]

كي تتضح جلياً إنسان: ستة آلاف مليون، الآن قل: إنسان مسلم: مليار ومئتا مليون، إنسان مسلم عربي: أربعمئة مليون، إنسان مسلم عربي مثقف: مليون، إنسان مسلم عربي مثقف طبيب: مئتا ألف، كلما تضيف صفة تضيق الدائرة.

فهذه الصلاة التي تنجيك من الهم والغم والحزن والقلق والانهيار، وأن تكون منوعاً وجزوعاً، ليس كل مصل يصلي، اقرأ هذه الآية، واقرأ تفصيلاتها، ثم انظر أية صلاة تقطف ثمارها؟ التي ترافقها هذه الخصائص.

أيها الأخوة، في درس قادم إن شاء الله نتناول الوضوء، وتفاصيل أحكام الوضوء، وأحكام الغسل الذي هو شرط أساسي من شروط الصلاة، وقد قال علماء الأصول القاعدة التالية: إنه ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (08-49) : تفسير الآية 6 ، أحكام الوضوء والتيمم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-10-10

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن بينه وبين الله عقد إيماني :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن من دروس سورة المائدة ومع الآية السادسة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، في العالم اليوم ثلاثمئة مليون إنسان مريض بمجموعة أمراض تحت عنوان: أمراض القذارة، العالم الإسلامي يعد تجاه هذا المرض، أو تجاه هذه الأمراض حزاماً أخضر بسبب الوضوء والغسل، ثلاثمئة مليون إنسان مصاب بمجموعة أمراض تحت عنوان: أمراض القذارة، العالم الإسلامي بسبب فرائض الغسل والوضوء والمبالغة في النظافة يعد حزاماً أخضر تجاه هذه الأمراض، فالله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي مؤمن يستمع إلى هذه الآية أو إلى مثيلاتها ينبغي أن يعلم علم اليقين أنه معني بهذا الخطاب، لأن بينه وبين الله عقداً إيمانياً آمن بالله، آمن بكتابه، آمن بالملائكة، آمن بأنبيائه ورسله، آمن باليوم الآخر، آمن بالقدر بخيره وشره من الله تعالى، إذاً بدأ يتلقى عن الله.

العقل هو أداة معرفة الله من أجل أن نؤمن ثم يأتي دور النقل والتلقي :

العملية أيها الأخوة: تؤمن فتتلقى، تستخدم عقلك وهو أداة معرفة الله من أجل أن تؤمن، فإذا آمنت جاء دور النقل، دور التلقي، فأي آية في القرآن الكريم تبتدئ بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي يا من آمنت بوجودي، يا من آمنت بوحدانيتي، يا من آمنت بكمالي، يا من آمنت بعلمي، يا من آمنت برحمتي، يا آمنت بحكمتي، يا من آمنت أنك مخلوق للجنة، افعل كذا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

علامة إيمان المؤمن أنه إذا قرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يشعر بكل خلية في جسمه، وبكل قطرة في دمه أنه معني بهذا الخطاب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ)

أي إذا أردتم أن تصلُّوا، وهي كقوله تعالى:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

[سورة النحل: 98]

الصلاة لقاء مع الله فيجب على الإنسان أن يكون طاهراً ومتجملاً :

إن أردت أن تقرأ القرآن، هذه حالة دقيقة:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

[سورة النحل: 98]

أي إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله، إن أردت أن تصلي فافعل كذا وكذا، لذلك القاعدة الأصولية: "ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض "، الوضوء فرض، لأن الصلاة وهي فرض لا تتم إلا به، وما لا يتم الواجب به فهو واجب، وما لا تتم السنة به فهو سنة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ)

لأن الصلاة لقاء مع الله، فينبغي أن تكون طاهراً، بل ينبغي أن تكون متجملاً، وقد ذكرت في درس سابق أن قوله تعالى من بعض معانيه الإشارية:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

[سورة الأعراف:31]

فضلاً عن الطهارة والنظافة والتطيب والتجمل ينبغي أن يكون معك عمل صالح تضعه بين يديك في هذا اللقاء مع الله.

ينبغي على الإنسان أن يتوضأ

سواء أكان طاهراً أم محدثاً :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ)

لا بد من بعض التفصيلات، قال فريق من العلماء: هذا لفظ عام في كل قيام إلى الصلاة، هذا أول اتجاه في فهم هذه الآية، أنه ينبغي أن تتوضأ، سواء أكنت طاهراً أم محدثاً:

(إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ)

هناك أثر آخر، أن ابن سيرين يقول: كان الخلفاء الراشدون يتوضؤون لكل صلاة، وقال بعضهم: الخطاب موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال آخرون: المراد بالآية الوضوء لكل صلاة طلباً للفضل، أي أفضل شيء أن تتوضأ لكل صلاة، وحملوا هذا الأمر على الندب لا على الوجوب، مندوب أن تتوضأ لكل صلاة، أنا أعطيكم آراء العلماء نحو هذه الآية، وكان كثير من الصحابة الكرام منهم ابن عمر يتوضؤون لكل صلاة طلباً للفضل.

وكان عليه الصلاة والسلام لأنه المشرع يفعل ذلك، إلى أن جمع يوم الفتح بين الصلوات الخمس بوضوء واحد، لأنه مشرع رحمةً بأمته، لك أن تأخذ بسنة النبي، ولك أن تتوضأ لكل صلاة من باب زيادة الفضل، ومن باب الندب لا من باب الوجوب.

وقال بعض العلماء: إذا قمتم إلى الصلاة من النوم فيجب أن تتوضؤوا، قولاً واحداً، إذا قمتم إلى الصلاة من النوم، من المضاجع، لكن جمهور العلماء يقول: معنى الآية: إذا قمتم إلى الصلاة محْدَثين لستم على وضوء، وإذا قمتم بمعنى: أردتم الصلاة، كقوله تعالى:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

[سورة النحل: 98]

أي إن أردت أن تقرأ القرآن، إذاً النبي عليه الصلاة والسلام، وهو المشرع صلى خمس صلوات يوم الفتح بوضوء واحد، هذه هي السنة، إن أردت الفضل على أن الأمر ندب وليس أمراً فلك أن تتوضأ لكل صلاة، إذا كنت في أيام الصيف، وفي مكان جميل، والمياه غزيرة، وأنت في حالة شعور بالحر، وتوضأت وأنت متوضئ فلا مشكلة، أما إذا كنت في أيام البرد، أو في وضع صعب، لك أن تأخذ بسنة النبي عليه الصلاة والسلام، كان يتوضأ لكل صلاة، وصلى خمس صلوات بوضوء واحد، هذه وتلك.

ذكر الله في الوضوء أربعة أعضاء :

الموضوع الثاني في هذه الآيات:

(فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ)

ذكر الله في الوضوء أربعة أعضاء، الوجه؛ وفرضه الغسل من شحمة الأذن إلى شحمة الأذن، ومن منبت الشعر إلى الذقن، هذا هو الوجه، والوجه يغسل غسلاً، فلو قلنا لإنسان: اغسل لنا هذا الكأس،

فذهب، ووضعها تحت الصنبور، وجاء بها، هل هذا هو الغسل؟! أما أن يعالجها بيديه أو بشيء آخر مرةً ومرةً وَمرةً حتى تغدو نظيفة، فالنبي عليه الصلاة والسلام فهم من قول الله عز وجل:

(فَاغْسِلُوا)

أن تغسل مرة أولى وثانية وثالثة، أول مرة يصب عليها الماء، والمرة الثانية تدلِك، والمرة الثالثة يصب عليها الماء كي يزول الماء الذي استخدم في دلكِها وغسلها:

(فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ)

ذكر الله تعالى أربعة أعضاء، الوجه؛ وفرضه الغسل، واليدين كذلك، قبل أن تستخدم اليدين لغسل الوجه، لا بد من أن تغسل اليدين، أرأيت إلى الترتيب الذي فهمه النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الماء الذي تتوضأ به هل يجوز أن تتوضأ به، رجل أعلن إسلامه في مصر، والتحق بمسجد ليتعلم الفقه، أبقاه الشيخ الذي يعلمه الفقه ستة أشهر في أحكام المياه فخرج من جلده، وكاد يعود عن هذا الدين، إلى أن التقى بعالم أوتي الحكمة، قال له: الماء الذي تشربه توضأ منه.

اتفق جمهور العلماء على أن الوضوء لا بدّ له من نية :

حينما تمضمض النبي عليه الصلاة والسلام هذه المضمضة فضلاً عن أنها تطهير للفم، الماء الذي لا تستسيغ أن تضعه في فمك إياك أن تتوضأ منه.

ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما استنشق الماء الذي يتوضأ به معنى ذلك فضلاً عن تنظيف الأنف، الماء الذي لا تستطيع أن تشم رائحته إياك أن تتوضأ منه، أي أن المضمضة والاستنشاق والاستنثار فضلاً عن تطهير وتنظيف الفم من بقايا الطعام، والأنف من بقايا التنفس، ينبغي أن تعلم أن حكمة المضمضة والاستنشاق أن الماء الذي لا تستطيع أن تضعه في فمك، ولا تستطيع أن تضعه في أنفك إياك أن تتوضأ منه. فذكر الوجه وفرضه الغسل، واليدين كذلك، والرأس وفرضه المسح اتفاقاً:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ)

واختلف بالرجلين، لم يذكر سوى هذه الأعضاء الأربعة، إذاً هذه فرائض الغسل، وفيما سوى ذلك سنن وآداب ومستحبات.

أيها الأخوة، رأى جمهور العلماء على أن الوضوء لا بد له من نية، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ]

وفسر بعضهم قوله تعالى:

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

[سورة الإسراء: 84]

أي على نيته، وقيمة عمله من قيمة نيته، فالوضوء يحتاج إلى نية على رأي جمهور العلماء، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ]

فالنية أصل كل عمل، وكتوضيح؛ لو وضعنا على الطريق ليرة ذهبية، ووقف مصور، فجاء إنسان، والتقط هذه الليرة، ووضعها في جيبه، فصوره المصور صورة متحركة ملونة، ثم وضعنا ليرة ثانية على الرصيف، ووقف مصور، رآها إنسان آخر، التقطها، ووضعها في جيبه، وصوره المصور، عرضنا الصورتين، الصورتان متشابهتان تمام التشابه، إلا أن الأول نوى أن يبحث عن صاحبها، والثاني نوى أن يأكلها، أي أن يأخذها، العمل في صورته مشابه للآخر تماماً، ولكن في حقيقته واحد يعلو، والثاني يسقط:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ]

الوضوء ليس عبادة مقصودة لذاتها

بل هو أداة لعبادة كبرى وهي الصلاة :

بعض العلماء قال: الوضوء لا يحتاج إلى نية، لماذا؟ قال: لا تجب النية إلا في الفروض المقصودة لذاتها، الوضوء ليس فرضاً مقصود بذاته، ليس هناك إنسان يتوضأ ويجلس، ويقول: الحمد لله أدينا ما علينا، الوضوء تعقبه صلاة، فالوضوء ليس مقصوداً لذاته، بل مقصود كوسيلة إلى الصلاة. الإمام الشافعي وتابعه في ذلك أبو حنيفة: أن العبادة التي ليست مقصودة لذاتها لا تحتاج إلى نية، النية للعبادة المقصودة لذاتها.

إذاً الوضوء شرط لصحة الصلاة، كملمح لطيف التكبير شرط أو ركن، الركن يؤدى، وتنتقل إلى ركن آخر، الوقوف ركن، والركوع ركن، والسجود ركن، الركن تنتقل به إلى ركن آخر، أما الشرط فيدوم طوال الصلاة، فاستقبال القبلة ينبغي أن يستمر طول الصلاة، والطهارة من الحدث ينبغي أن تستمر طول الصلاة، هل تكبيرة الإحرام ركن أم شرط؟ قال بعضهم: شرط، لأنه ينبغي أن تستحضر عظمة الله طول الصلاة، أما الذي قال: هي ركن، الركن ينقضي، القصد من كلمة الله أكبر أنك في الصلاة،

وهذا أكبر عمل من أي شيء آخر، أكبر من إنهاء الحسابات، أكبر من لقائك مع زيد أو عبيد، الله أكبر تركت الدنيا كلها، وانغمست في صلة مع الله عز وجل، والدليل على أن الوضوء لا يحتاج إلى نية أنه من لا صلاة له لا يحتاج الوضوء، لو أن امرأة في أيام العذر تسقط عنها الصلاة هل يجب عليها الوضوء؟ لا، إذاً الوضوء ليس عبادة مقصودة لذاتها، بل هو أداة لعبادة كبرى، هي الصلاة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا)

المرفق داخل في الغسل، أما (إلى) فتفيد انتهاء الغاية، المرفق دخل أم لم يدخل، قال قوم: لا يدخل المرفق، لكن بعضهم قال: ما بعد (إلى) إذا كان من جنس ما قبلها يدخل، أي هنا من الرسغ إلى المرفق يد، وما بعد المرفق يد، من الرسغ إلى المرفق لحم وجلد وعضلات، وما بعد المرفق جلد وعضلات ولحم، إذا كان ما بعد (إلى) نوع ما قبلها فالمرفق داخل.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما توضأ أدار الماء على مرفقيه :

لكن ما قيمة هذه المناقشة المنطقية إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام أدار الماء على مرفقيه، قضية حاسمة، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما توضأ أدار الماء على مرفقيه. فعن جابر:

((أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه))

[الجامع الصغير عن جابر]

ما فهم أحد مقطع المسألة إلا القاضي أبو محمد، حيث قال: إن قوله إلى المرافق حد للمتروك من اليدين لا للمغسول فيهما، إذاً المرافق تدخل في الغسل:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ)

باء للإلصاق، أمسكت بيده، وهناك معنى لطيف استنبطه العلماء حينما قالوا في شرح قوله تعالى:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة النساء: 36]

ينبغي أن يكون إحسانك إلى والديك بذاتك مباشرة، لا أن تقول لواحد: اذهب إلى أبي وأعطه هذه الحاجة، أو خذه إلى نزهة، لا، ينبغي أن تباشر الإحسان إلى الوالدين بذاتك، ينبغي أن يكون إحسانك ملاصقاً لوالديك، إحسانك أن تقوم أنت بالذات بهذا الإحسان.

في القرآن من التوجيهات والآداب ما لا يصدقه العقل :

هناك استنباطات أيها الأخوة مذهلة، استنبط بعض العلماء أن قوله تعالى:

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

[سورة هود: 43]

عن سيدنا نوح، حينما أراد الله أن يغرق ابنه الذي أبى أن يؤمن بالله عز وجل، وأن يركب معه في السفينة، قال:

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ)

[سورة هود: 43]

أيها الأخوة، حينما أراد الله إغراقه جاءت موجة حالت بينه وبين أبيه، فالله عز وجل رحمة بالأب لم يغرق ابنه تحت مرأى عينه، ماذا نستنبط؟ هذه التي استشهدت قبل أيام في حيفا، قتل أخوها أمامها، وأمام أبيه وأمه، وقد رجا الأب أن يأخذوه، لا، لا بد من أن تقتله أمام أمه وأبيه وأخته، أرأيتم إلى أدب القرآن الكريم! ما الذي حدث أن هذه الفتاة لم تر للحياة طعماً حتى فعلت ما فعلت، فلو أننا تأدبنا بأدب القرآن لكنا في حال غير هذا الحال.

طائرة تحمل ثمانية وثلاثين عالماً كبيراً، تدربوا على أحدث الأسلحة، وركبوا جميعاً في طائرة واحدة، وقد أسقطت الطائرة.

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ)

[سورة يوسف: 67]

لو قرأت القرآن بدقة وعناية لوجدت فيه من التوجيهات والآداب ما لا يصدقه العقل.

الدقة في اللغة العربية تتجلى بشكل رائع في القرآن الكريم :

طبعاً:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ)

الوجه من الرأس، فهل ينبغي أن تمسح وجهك بالماء، لأن آية مستقلة خصت الوجه بالغسل، إذاً من الرأس على الوجه، أي سطح الشعر:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ)

المسح لفظ مشترك، أما الرأس فهو عبارة عن الجملة التي يعلمها الناس ضرورة، ومنها الوجه، فلما ذكر الله عز وجل الوجه في الوضوء، وعين الوجه للغسل بقي باقيه للمسح، فمسح الرأس أي مسح

الشعر، ومسح ربع الرأس يجزئ، والباء للإلصاق، ينبغي أن تلصق يدك المبللة بربع رأسك، فهذا مما يتم تأدية هذه الفرائض في الوضوء:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ)

لو أن الآية: وامسحوا برءوسكم وأرجلِكم لكان المعنى أن الأرجل تمسح مسحاً، ولكن:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ)

(أَرْجُلَكُمْ) تابعة:

(فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ)

دقة اللغة العربية شيء رائع، مثلاً قال تعالى:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

[سورة التوبة: 40]

الآن هناك واو حرف عطف، لو أن القارئ قرأ: وكلمة الله هي العليا فالمعنى فاسد، أي كانت سفلى فأصبحت عليا، لا:

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً، هذه جملة استئنافية.

الفرض في الرجلين الغسل دون المسح :

أيها الأخوة:

(وَأَرْجُلَكُمْ)

أي اغسلوا أرجلكم، فالفرض في الرجلين الغسل دون المسح، وهذا مذهب الجمهور، والكافة من العلماء، وهو ثابت في فعل النبي صلى الله عليه وسلم، واللازم من قوله في بعض أحاديثه الشريفة، وقد رأى قوماً يتوضؤون، وأعقابهم تلوح، فنادى بأعلى صوته:

((وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمرو]

أسبغوا الوضوء، فغسل الرجلين أجمع عليه جمهور العلماء، بل العلماء كافة، لأن هذا الحديث وهو في الصحاح، رواه الإمام بخاري ومسلم، ولازم هذا الحديث أن غسل الرجلين فرض في الوضوء:

(وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا)

أي بالاغتسال بالماء طبعاً، هذه العبارة لمن؟

(وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا)

هذا الحكم لواجد الماء، تسكن في بيت وفيه ماء، فلا بد من أن تغتسل إذا كنت جنباً، أما الجنب عادم الماء فله أن يتيمم، هناك حكم لجنب واجد الماء، وهناك لجنب فاقد الماء.

كيفية التيمم وحالات تشريعه :

قال تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى)

لا تستطيع أن تتوضأ:

(أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

لا تجد الماء في السفر:

(أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ)

أي جاء من مكان منخفض قضى فيه حاجته:

(أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

كناية عن جماعهن:

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ)

تضرب الصعيد الطيب الطاهر بيديك، وتمسح به وجهك ومرفقيك، هذا هو التيمم.

يجوز التيمم إن لم تجد الماء أو إن كان الماء يؤذيك :

قال تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى)

أي الماء يؤذيكم:

(أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

الماء مفقود، أو انتقض وضوؤكم وأنتم في سفر، أو مرضى، أي إذا كنتم مرضى أو على سفر، وأحدثتم حدثاً أصغر أو حدثاً أكبر:

(وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

الحالة الأولى الماء يؤذيك، والحالة الثانية الماء لا تجده، وأصابك حدث أصغر، أي جئت من مكان منخفض بعد قضاء الحاجة:

(أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

كناية عن الجماع:

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

لا يجب الإسراع بالفتوى فإن لم نعلم فعلينا بسؤال أهل العلم :

أيها الأخوة، أذكر لكم حادثة وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أن صحابياً أصابته جنابة في سفر فسأل فقيل له: اغتسل، ويبدو أن الوقت كان بارداً جداً، فاغتسل فمات، فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم، وهو سيد الخلق في لطفه وفي رحمته قال: قتلوه قتلهم الله، هلا سألوا إذ لم يعلموا، ونص هذا الحديث عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

((خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ شَكَّ مُوسَى عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ))

[أبو داود عن جابر]

لا تسرع بالفتوى، إن لم تعلم فاسأل أهل العلم.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

قال:

((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ))

لا أذكر ما إذا كان الجو بارداً جداً، أو جرحه بليغاً، فلما اغتسل أصاب الجرح التهاب فمات، فلما علم النبي ذلك قال:

((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))

إن كنت واثقاً من الحكم الشرعي فقل، وإلا فسأل:

(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ)

هم أهل الوحيين الكتاب والسنة:

(إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

الحقيقة أن الذين يحملون أنفسهم ما لا يطيقون هؤلاء ليسوا على حق، فقد كان عليه الصلاة والسلام في جهاد في أيام رمضان، وكان الحر شديداً، فأمسك بإناء، وأفطر، ورفع الإناء أمام كل أصحابه، ثم علم أن بعض أصحابه لم يفطر، فماذا قال؟ قال: أولئك العصاة، وفي الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ))

[أبو داود عن ابن عمر]

لا تكن متعنتاً، لا تكن متشدداً، لا تزايد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالنبي شرب، وأفطر، فلما علم أن أناساً لم يفطروا قال: أولئك العصاة، لكن مرة أخرى أفطر النبي، ولم يرفع الإناء، هكذا، وكأنه أمر أصحابه أن يفطروا أفطر، بعض الأصحاب المتقدمين بالسن أفطروا، وبعض الأصحاب الشباب لم يفطروا، فالذين أفطروا وجاء وقت الطعام أعدوا الطعام لأخوانهم الصائمين، وجهدوا في إعداد الطعام، فسر النبي عليه الصلاة والسلام، فماذا قال؟ قال: ذهب المفطرون بكل الأجر.

لا تكن متعنتاً ولا متشدداً ولا تزايد على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مرةً دعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى وليمة ومعه أحد الصحابة، فلما دعي إلى الطعام قال: إني صائم يا رسول الله، قال: أخوك دعاك، وتكلف لك، وتقول: إني صائم! أفطر وصم يوماً مكانه. هناك أناس متشددون يزايدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ))

[أحمد عَن ابْن عُمَر]

لذلك في بعض المذاهب القصر واجب، عند الأحناف واجب، ما دمت في سفر ولو نزهة يجب أن تقصر، لأن الله أرادك أن تخفف من الركعات في السفر، صل الظهر ركعتين، والعصر ركعتين، فالله عز وجل حينما سمح لك أن تقصر ينبغي أن تقصر، إن سمح لك أن تتم ينبغي أن تتم،

هذه آية الوضوء أيها الأخوة أعيدها على أسماعكم في نهاية هذا الدرس بسم الله الرحمن الرحيم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

لتفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (09-49) : تفسير الآية 7 ، نعم الله علينا، ابتغاء الرفعة عند الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-10-17

بسم الله الرحمن الرحيم

الذاكرة من نعم الله تعالى على الإنسان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع من دروس سورة المائدة ومع الآية السابعة، وهي قوله تعالى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

أيها الأخوة، من فضل الله على الإنسان أنه منحه ذاكرة، فالشيء الذي يراه ينطبع في ذاكرته، فكلمة: واذكروا، أي تذكروا نعم الله عليكم، أنت حينما تأكل، وحينما تشرب، وحينما تأوي إلى فراشك، وحينما ترى زوجتك وأولادك، وحينما تتمتع بطعم الطعام، وحينما ترى جمال الطبيعة، وحينما ترى ابنك بين يديك، هذه كلها نعم الله، وقد انطبعت في ذاكرتك، فأنت مكلف أن تذكر هذه النعم، أي أن تستحضرها من ذاكرتك، فالتذكر يعني الحفظ والتذكر، يعني الاسترجاع والذكر، يعني الكلام، والإنسان لا يتكلم إلا إذا انطبع شيء في ذاكرته، يتكلم من ذاكرته، لذلك إذا قال إنسان: ذكر فلاناً، أي تكلم كلاماً مأخوذاً من ذاكرته، ذكر كذا، ذكر كذا.

لكن أيها الأخوة، موضوع الذاكرة شيء عجيب، فيما قرأت عن ذاكرة الإنسان أن حجمها لا يزيد على حبة العدس، تتسع لسبعين مليار صورة، وأن هذه الذاكرة مبرمجة برمجة عجيبة، فهناك بؤرة لهذه الذاكرة، وهناك حواش، فقد توضع صورة في بؤرتها، وقد تنتقل صورة إلى حواشيها، لكن الإنسان في وقت واحد لا يستطيع إلا أن يلتقط شيئاً واحداً، فإذا جاءه شيء، وهو مشغول بشيء ثان لا ينطبع، أنت داخل إلى المسجد تضع حذاءك في مكان، هذا المكان له مكان في الذاكرة، ليس الحذاء له مكان في الذاكرة، لا، مكان هذا الحذاء له في الذاكرة مكان، فإذا خرجت من المسجد دون أن تشعر تتجه إلى المكان الذي ركز في ذاكرتك، وتأخذ الحذاء وتمشي، أحياناً وأنت داخل يحدثك أخ حديثاً معيناً، فذاكرتك تتلقى من هذا الأخ، فإذا وضعت الحذاء في مكان فهذا المكان لا ينطبع في الذاكرة، فإذا خرجت تقول: أين وضعت حذائي؟ في وقت واحد لا تلتقط الذاكرة إلا شيئاً واحداً.

في الذاكرة بؤرة وحواش :

الآن أنت مشغول بموضوع، الموضوعات التي التقطت سابقاً موضوعة في الحواشي، ما لم تكن هناك مناسبة لا تذكرها، أنا التقيت مع إنسان من ثلاثين عاماً، أخ كريم رجاني أن أتوسط له، وهو قاض في موضوع، فذهبت إليه، قبل أيام كنت في عقد قران صافحني رجل، قال: لي هل تعرفني؟ غير أنني قبل هذا اللقاء لم أره من ثلاثين عاماً، قلت له: الأستاذ فلان، طبعاً ملامح وجهه تغيرت تغيراً كبيراً، لكن بقيت ملامح أساسية، ما هذه الذاكرة؟ من ثلاثين عاماً لقاء في ربع ساعة فقط تذكرت، فنعمة الذاكرة نعمة لا تقدر بثمن، قال تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ)

[سورة يس: 67]

حدثني أخ توفي رحمه الله صاحب معمل، قال لي ابنه: والدي خرج من معمله، ونسي أين بيته؟ بقي ساعة يجول في شوارع دمشق، أين بيتي؟ لكنه تذكر بيت ابنه، ذهب إليه، ودله ابنه على بيته، حينما الإنسان يفقد ذاكرته لا يحتمل وضعه، قد لا يعرف أولاده، فنعمة الذاكرة نعمة كبيرة.

هذه الذاكرة لها بؤرة، ولها حواش، لو أنك تلقيت آلاف الأفكار والصور هذه تنطبع وتوضع بالحواشي بحسب أهميتها، والأهميات متنوعة، هناك درجة أولى، درجة ثانية، درجة ثالثة، درجة رابعة، وفي مكان ثمة سلة مهملات، سافرت إلى بلد، وأنت بعيد عن هذا النشاط التجاري كلياً، أعطاك واحد بطاقة فيها رقم هاتفه، قرأتها لا تذكرها أبداً، وضعتها في سلة المهملات، لكن أحياناً تبلغ أن رقم هاتفك كذا تحفظه مرة واحدة، ولا تنساه أبداً.

فصار في الذاكرة بؤرة وحواش، وفي الذاكرة مستويات، وفي الذاكرة سلة مهملات، فالذاكرة تقوم بعمل خطير جداً، أول شيء تحفظ، وتحفظ عدة مستويات، ولها بؤرة نشاط، ولها حواشي تخزين، ويوجد لها سلة مهملات، فموضوع الذاكرة موضوع دقيق جداً، وهو من أجلِّ نعم الله علينا، والإنسان من دون ذاكرة ينسى معلوماته كلها، تدرس الطب ذهبت المعلومات، أين معلوماتك؟ كل خبراتكم في الذاكرة، كل الخبرات والمعلومات والمهارات كلها في الذاكرة، من دون ذاكرة ما من إنسان له نشاط أبداً، تنتهي مهمة الإنسان في الحياة.

نِعم الله لا تعد ولا تحصى لكن أجلّ هذه النعم أنه خلقنا :

قال تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ)

[سورة يس: 67]

فالله عز وجل امتن علينا بنعمة الذاكرة، أحياناً صاحب محل تجاري يبيع قطع تبديل، قد يكون في محله عشرة آلاف نوع، يأتيه إنسان، عندك القطعة الفلانية؟ يقول لموظف عنده: اصعد إلى الأعلى في الدرج السابع، في الرف الأول هناك قطعة ائت بها، ما معنى ذلك؟ أن كل هذا المحل في ذاكرته، أكثر ربات البيوت تعرف ما عندها، تحتاج إلى مادة غذائية تقول لابنتها: اصعدي إلى المكان الفلاني ائت بقطعة. فهذه الذاكرة نعمة كبرى، لكن الله عز وجل يقول:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

أحبوا الله لما يغدوكم به من نعم، ذكرهم بأيام الله، طبعاً النعم لا تعد ولا تحصى، لكن أجلّ هذه النعم أنه خلقك، أجلّ هذه النعم أنك موجود، أنت موجود، لك حيز، لك اسم، منحت اختياراً، منحت حرية، كلفت بطاعة الله عز وجل، منحك نعمة الوجود، هذه أجلّ نعمة، لأن هذه النعمة تؤهلك لتكون في جنة الله إلى أبد الآبدين، منحك الله نعمة الوجود، وفوق نعمة الوجود منحك نعمة الإمداد، ما قولك لو أن الهواء بثمن؟ أمدك بالهواء، أمدك بالماء، أمدك بجو مناسب، أمدك بطرف آخر تسكن إليه، ويسكن إليك، أمدك بأموال وبنين، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ثم أنزل على نبيه قرآناً، نعمة المنهاج الإرشاد:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

الله عز وجل له أيام منها أنه أسمعنا الحق :

قال عز وجل:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم: 5]

الله عز وجل له أيام، ذكرهم بأيام الله، من أيام الله عز وجل أنه امتن عليك فزوجك، من أيام الله عز وجل أنه أسمعك الحق، قال تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال: 23]

من أيام الله عز وجل أنه جعلك من بيئة صالحة، من أم وأب مسلمين، وهذه نعمة كبرى، جعلك في زمن يمكن أن تعمل أعمالاً صالحة، اختيار وجودك في مكان وفي زمان من أم معينة ومن أب معين أيضاً هذه نعمة كبرى من نعم الله عز وجل، قال تعالى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

طبعاً جاءت الكلمة مفردة، لأن النعمة الواحدة لو أمضيت كل حياتك لا تستطيع أن تحصي منافعها، نعمة هذا المفصل، لو لم يكن ثمة مفصل كيف تأكل؟ لا بد أن يأكل الإنسان كالقطة، ينبطح، ويأكل بلسانه مباشرةً، لولا هذا المفصل لا يأتي الطعام إلى فمه، هذا المفصل نحو الداخل، لكن مفصل الرجل نحو الخارج، حكمة بالغة، لولا المثانة كل عشرين ثانية هناك قطرتا بول، تحتاج إلى فوط الرجل السعيد، طبعاً المثانة تجمع هذا البول لخمس ساعات، لولا أن لهذه المثانة عضلات تحتاج إلى نصف ساعة، والبول لا ينزل، لأنه يحتاج إلى تنفيس، تحتاج إلى أنبوب، نعمة أن المثانة لها عضلات هذه نعمة لا تقدر بثمن.

العيون واللسان وغيرها بعض من نعم الله علينا التي لا تعد ولا تحصى :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد: 8]

العين الواحدة ترى بعداً واحداً، ترى طولاً وعرضاً، ولكن لا تستطيع أن تضم إبرة بعين واحدة:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد: 8]

بالأذنين تعرف جهة الصوت، بأذن واحدة لا تعرف جهة الصوت، هناك جهاز دقيق بالدماغ يحسب لك تفاضل وصول الصوتين، والفرق بينهما واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية، وصل الصوت إلى هذه الأذن قبل هذه الأذن، تعرف جهة الصوت، تستمع إلى بوق مركبة تنحرف نحو الجهة المعاكسة، من دلك أنها عن يمينك؟ جهة الصوت التي كشفها جهاز في الدماغ، نعمة السمع، نعمة البصر، نعمة الشم، نعمة الذوق، نعمة الدماغ، فيه مئة وأربعون مليار خلية لم تعرف وظيفتها بعد، أربعة عشر مليار خلية قشرية في الدماغ تقوم بوظائف تعجز عنها كل حواسيب العالم، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ)

[سورة البلد: 8-9]

هذا الكلام كل حرف تسهم في تشكيله سبع عشرة عضلة، فإذا كانت الخطبة نصف ساعة أو ساعة كم كلمة فيها؟ والكلمة كم حرف؟ دون أن تشعر تأكل وتنام، وتتم عمليات هضم، لو أن الله أوكل لك الهضم عندك سبع ساعات هضم، بنكرياس، الغدة الفلانية، الصفراء، تقع في عسر هضم وإسهال، وأنت نائم لو ترك لك الله نعمة التنفس بيدك لا تنام الليل تنام فتموت، تنام ملء العين والتنفس يعمل بانتظام.

يتجمع اللعاب في الفم، تذهب إشارة إلى الدماغ أن اللعاب تجمع في الفم، فيعطي الدماغ أمراً للسان المزمار ليفتح طريق المريء، ويغلق طريق القصبة الهوائية، فتبلع اللعاب، وأنت نائم دون أن تشعر.

النعمة الواحدة لو أمضينا كل حياتنا في متابعة دقائقها وفضائلها لا تنتهي :

من أعطى أمر للبروستات لتغلق طريق ماء الحياة، يكون طريق البول سالكاً في اللقاء الزوجي، يغلق طريق البول ويفتح طريق ماء الحياة، ماء طاهر، والمجرى سابقاً فيه بول، لا بد من مادة مطهرة؛ المزي، ومادة معطرة، ومادة مغذية دون أن تشعر هذه الغدة تعمل ثمانين عاماً، تفتح باب المثانة وباب الخصيتين، تفتح وتغلق وأنت لا تشعر:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

والله لو ذهبنا نتحدث عن نعم الله في أجسامنا تنقضي الأعمال ولا ينقضي الحديث عنها، نعمة واحدة، عيناك متألقتان بسبب أن هناك دمعاً مستمراً يغسل العينين، بقايا هذا الدمع الذي غسل عينيك أين يجري؟ يجري في قناة دقيقة دَقيقة إلى الأنف، لماذا الأنف تراه رطباً؟ من قناة الدمع؛ من العين إلى الأنف، لو أن هذه القناة انسدت لأصبحت الحياة لا تطاق، دائماً ينبغي أن تمسح الدموع من على خدك حتى لا ترسم الدموع مجرى ملتهباً على ظاهر الخد.

من جعل هذا الجفن يتحرك حركة آلية ويغسل العينين؟ هناك مرض اسمه مرض ارتخاء الجفون، لا ترى إلا بهذه الطريقة، ما قولك كلما أردت أن ترى إنساناً تمسك بإحدى يديك الجفن وترفع، من جعل الجفن يتحرك حركة عفوية آلية؟ أيها الأخوة، هذه أمثلة:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

اذكر أن لك ولداً، لك زوجة، اذكر ماءً عذباً فراتاً، اذكر الطعام، اذكر هذا الحليب المتوافق مع جسمك تماماً، الحديث يطول عن نعم الله عز وجل، ولكن النعمة الواحدة لو أمضينا كل حياتنا في متابعة دقائقها وخصائصها وفضائلها لا تنتهي، لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

[سورة إبراهيم: 34]

تمام النعمة الهدى :

إن تعدوا نعمة، أنت من الممكن أن تقول لإنسان: خذ هذه الليرة فعدها، يمكن أن تقول له: خذ هذه الليرة فعدها، هكذا يقول الله:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

[سورة إبراهيم: 34]

معنى ذلك أن النعمة الواحدة فيها خيرات لا يعلمها إلا الله، لذلك إذا كنتم عاجزين عن إحصائها فأنتم عن شكرها أعجز، إذا جاء إنساناً غلام، وتلقى هدايا، جلس مع زوجته مساءً قال لها: هذه من أين؟ قالت له: من بيت فلان، وهذه من بيت فلان، أحصاها، أيهما أهون أن تحصي الهدايا أم أن تردها كلها؟ إحصاؤها سهل جداً، أما أن تقابل كل هدية بهدية فهذا شيء يحتاج إلى مبالغ كبيرة جداً، ووقت وشراء.

إذا كنتم يا عبادي عاجزين عن إحصاء النعم فلأن تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى، نعجز عن شكر نعمة واحدة يقول الله عز وجل:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

نعمة الهدى بشكل مختصر، نعمة الإيجاد، ثم نعمة الإمداد، ثم نعمة الهدى والرشاد، لكن تمام النعمة الهدى، لكن أصل النعم أن تعرف الله واحداً، لك زوجة صفر، لك أولاد صفر ثان، لك دخل صفر ثالث، لك مأوى صفر رابع، كنا بواحد صرنا بعشرة، بمئة، بألف، بعشرة آلاف، لك سمعة طيبة صفر خامس، وهبك الله أولاداً ذكوراً وإناثاً صفر سادس، اسحب الواحد الحياة كلها أصفار، أموات غير أحياء، لذلك قالوا: تمام النعمة الهدى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ)

ماذا تعني كلمة (واثقكم)؟ واثق على وزن فاعل تعني المشاركة، قتل غير قاتل، من يقول: قاتلت الحشرة؟ تقول: قاتلت العدو، لأن العدو معه سلاح قوي وأنت معك سلاح، فيوجد فعل مشاركة، أما الحشرة فتقول: قتلتها ولا تقول: قاتلتها، المقاتلة فيها معنى المشاركة.

الفطرة توافق برمجة النفس وجبلة النفس وخصائص النفس مع منهج الله عز وجل:

إذا قال الله عز وجل:

(وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ)

أي الله عز وجل أعطانا ميثاق الفطرة، فطرتك متوافقة مع منهج الله عز وجل، لا ترتاح نفسك إلا إذا أطعت ربك، لا ترتاح نفسك إلا إذا كنت وفق منهج الله، لا ترتاح نفسك إلا إذا كنت صادقاً، لا ترتاح نفسك إلا إذا كنت أميناً، الله عز وجل جبلك على حب الأمانة، وأمرك أن تكون أميناً، فجبلتك متوافقة لمنهج الله، جبلك على حب العدل، وأمرك أن تعدل، إذاً الميثاق الأول ميثاق الفطرة، وأنت في الأساس مؤمن بالفطرة من دون دليل، موجود في أصل فطرتك أن لهذا الكون إلهاً، موجود في أصل فطرتك أن لهذا الكون رباً، موجود في أصل فطرتك أن لهذا الكون مسيراً، موجود في أصل فطرتك أن هذا الإله

رحيم وعادل وحكيم، هذا جميعه بالفطرة، حينما يهتدي الإنسان إلى الله يهتدي إلى فطرته، مَركبة مصمّمة لطريق معبد، أنت إذا سرت بها في طريق وعر فيه أكمات وصخور وحفر، والأصوات العالية جداً التي تصدرها، والأصوات الشاذة التي تسمعها، كأنها تقول لك: هذا المكان ليس لي، هذا المكان لمدرعة، لمجنزرة، مكاني على الطريق المعبد، فإذا نقلتها إلى طريق معبد تختفي كل هذه الأصوات، وتنطلق بانسياب رائع، إذاً هذه المركبة مصممة للطريق المعبد، ارتفاع أسفل المركبة عن الأرض مسافة قليلة جداً، لأن الطريق معبد، العجلات مصممة على طريق معبد، أما إذا وجد تفاوت كبير بين الصواعد والنوازل فالطريق تحتاج إلى مجنزرة، فالفطرة توافق برمجة النفس، وجبلة النفس، وخصائص النفس مع منهج الله عز وجل، فكل إنسان يستقيم ترتاح نفسه، يطيع الله يطمئن قلبه، فهذا ميثاق، أي الله عز وجل منحك فطرة تدفعك دائماً إلى طاعة الله، لو أن الفطرة تخالف الإيمان بالله من الذي يرتاح عندئذ؟ الكافر، الآن من يرتاح؟ المؤمن، لأن أصل فطرتك إيمان بالله وعدل ورحمة وطاعة وإنصاف وإحسان، هكذا جبلت، هكذا صممت، هكذا خلقت، فهذا الميثاق الذي واثقكم به هو ميثاق الفطرة، سوف تسأل عنه.

الفطرة تدلنا على خطئنا وعقلنا يدلنا على الله :

الآن يوجد ميثاق ثان هو ميثاق العقل، أعطاك عقلاً، أي من منا يصدق بربكم هذه الطائرة العملاقة سبعمئة وسبعة وأربعين أنها وجدت من دون مصنع؟ من يصدق أن كتاباً ضخماً جداً مؤلف من ألف صفحة، قاموس فيه مواد وفيه دقة بالغة في التأليف واسم فاعل واسم مفعول واسم زمان واسم مكان واسم آلة، المصادر، ضبط المصادر، كتاب ضخم جداً أنه نتج بالانفجار في مطبعة، من يصدق؟ من يصدق أن هذه الطائرة سبعمئة وسبعة وأربعين إنما نتجت عن انفجار في مستودع معدني، طائرة بأربعة محركات، مقاعد ركاب، أجهزة، أجهزة تشغيل، أجهزة صوت، من يصدق؟ خلق الإنسان أعظم بكثير، فلذلك الميثاق الثاني ميثاق العقل، أعطاك عقلاً الله عز وجل، الفطرة تدلك على خطئك، وعقلك يدلك على الله، الفطرة والعقل في كل إنسان، بلغته رسالة أم لم تبلغه، جاءه نبي أو لم يأت إليه، كان بجزيرة، أم كان بمدينة، أم كان بقرية، التقى مع علماء أم لم يلتق، كان في مسجد أم لم يكن في مسجد، الميثاق أي الفطرة والعقل معاً، والذي لم تبلغه رسالة يحاسب على الفطرة التي أودعت به، والتي تكشف له خطأه، ويحاسب على العقل الذي ركز فيه، وهو كاف ليدله على الله. وبعض المفسرين لا أقول: كل المفسرين يفهم قوله تعالى:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

[سورة الإسراء: 15]

الرسول هو العقل أحياناً، وأحياناً المصائب رسائل:

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

[سورة طه: 134]

المصيبة هنا جاءت بمعنى الرسالة، فأحياناً هذا الضغط على المسلمين رسالة من الله، أنتم أيها المسلمون لستم على ما أرضى، يوجد ضغط، فإذا نقضوا عهد الله وعهد رسوله سلط الله عليهم عدواً يأخذ ما في أيديهم، تُحتل أرضهم، وتُنهب ثرواتهم، ويُقتل أبناؤهم، وجئنا كي نحرركم، هذه الرابعة أصعب، جئنا لننقذكم، لا طعام ولا شراب، ولا أمن ولا استقرار، ولا كهرباء ولا ماء، وجئنا من أجلكم، وبترولكم أصبح ملكنا، هذه رسائل أيضاً.

من الميثاق الإلهي الفطرة والعقل والكتاب والسنة :

من الميثاق الإلهي الفطرة، ومن الميثاق الإلهي العقل، ومن الميثاق الإلهي الكتاب والسنة، رسل الله عز وجل:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً)

[سورة آل عمران: 164]

هو أعطاهم العقل، وهو كاف لمعرفة الله، فطرهم فطرةً كاملةً كافيةً لمعرفة الخطأ والصواب، وفوق هذا وذاك منحهم التشريع، الأنبياء، والرسل، والكتب، قال تعالى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)

من قبلكم سمعنا وأطعنا، ومن قبلنا الفطرة والعقل والتشريع، تحاسب على فطرتك وعلى عقلك، وإذا بلغتك رسالة تحاسب على تفاصيل الشريعة، وإن لم تبلغك رسالة تحاسب على الفطرة والعقل، وهما كافيان لمعرفة الله وطاعته، قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

[سورة الأعراف: 172]

الله عز وجل منح الإنسان الفطرة والعقل والتشريع وعليه السمع والطاعة :

هذا هو الميثاق، منحك فطرة، منحك عقلاً، منحك رسالة الفطرة، وهو مقياس نفسي، والعقل أداة معرفة الله، والرسالة أمر تفصيلي، افعل ولا تفعل، فالذي لم تبلغه الرسالة محاسب على الفقرتين الأولى

والثانية؛ على الفطرة التي فطر عليها، وعلى العقل الذي منح إياه:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)

قلنا: (واثقكم) فعل مشاركة، منكم السمعة والطاعة، ومن الله الفطرة والعقل والتشريع، الله منحك الفطرة والعقل والتشريع، هذا من الله، ومن العباد السمع والطاعة:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

أي اتقوا عذاب الله، اتقوا غضب الله، اتقوا سخط الله، اتقوا عقاب الله، إذا خرجتم عن فطرتكم لم تعدلوا، خرجتم عن فطرتكم لم ترحموا عباده، خرجتم عن فطرتكم لم تنصفوا، إذاً سوف تعاقبون عقاباً شديداً من الله عز وجل، وإذا خرجتم عن عقلكم الذي منحتم إياه، فلم تعملوا عقلكم في معرفتي، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

[سورة القيامة: 36-39]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

[سورة المؤمنون: 115]

لولا الإيمان بالآخرة لكانت الحياة لا تحتمل فلابدّ من يوم تسوى فيه الحسابات :

أيعقل؟ في الميناء ترى رافعة تحمل ثمانين طناً، هذه الرافعة التي تحمل ثمانين طناً صممت لعلب فارغة أم لمعدات ثقيلة جداً؟ لا بد من تناسب، هذه الرافعة مصممة لمعدات ثقيلة جداً، قد تحمل قطاراً، قد تحمل مركبات كبيرة جداً، فأنت من حجم الرافعة، ومن استطاعات الرافعة تقرر المهمة التي صنعت من أجلها، هذا الكون العظيم من أجل أن تعيش أربعين سنة، خمسين سنة، كلها متاعب، وهناك قوي وضعيف، وغني وفقير، وذكي وغبي، وصحيح ومريض، وتنتهي الحياة، يأتي طاغية يقتل، يهدم بيوت، يقتل الآلاف، وتنتهي الحياة، ولا شيء بعدها، والذي مات مات، والذي عاش عاش، والذي اغتنى اغتنى، والذي افتقر افتقر، ولا شيء بعد الموت، هل يقبل العقل ذلك؟ العقل لا يقبل، لا بد من تسوية الحسابات، ولولا الإيمان بالآخرة لم تحتمل الحياة، تسعون بالمئة من ثروات الأرض بيد عشرة بالمئة، هم غارقون في اللذائذ، والشعوب تموت من الجوع، وهؤلاء الأغنياء الأقوياء غارقون في لذائذهم ونعيمهم، وقد بلغوا من الإجرام درجة خطيرة جداً، هم الآن يجربون الأدوية على البشر، في الشعوب النامية تنتهي الحياة هكذا، لا شيء أبداً، لا شيء بعد الموت، العقل لا يقبل ذلك، بل إن الإمام

ابن القيم الجوزية رحمه الله يرى أن الإيمان باليوم الآخر عقلي، لكن تفاصيله نقلية، أما أصل الإيمان بالآخرة فعقلي، مستحيل أن تكون هذه الفتن وهذه الحروب وهذه الاجتياحات.

تلقى قنبلة ذكية تدمر مئات الأشخاص، الآن هناك قنابل تميت الأشخاص والبناء يبقى على حاله، كما لا يتأثر أبداً صانعو الأسلحة الجرثومية والكيماوية والقنابل الذرية، حينما ألقيت على هيروشيما وناكازاكي باليابان ثلاثمئة ألف ماتوا بثوان معدودة، وتنتهي الحياة، هكذا لا شيء أبداً، الذي أعطى أمراً بإلقائها مات وانتهى الأمر أين الله؟!! الله موجود، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

أسماء الله الحسنى محققة في الدنيا كلها إلا اسم العدل :

أخواننا الكرام: كلمة للتاريخ، أسماء الله الحسنى محققة في الدنيا كلها إلا اسم العدل، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ)

[سورة الروم: 27]

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه: 15]

لكن اسم العدل متحقق جزئياً، قد يعاقب الله بعض العباد ردعاً للباقي، وقد يكافئ بعض العباد تشجيعاً للباقين، لكن تسوية الحسابات يوم القيامة، لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

[سورة مريم: 71]

أي ما منكم واحد إلا وسيرد النار، أعوذ بالله، كلنا، لكن العلماء قالوا: ورود النار غير دخولها، ورود النار ترى من فيها ولا تتأثر بوهجها، ترى عدل الله، لترى هؤلاء الطغاة أين هم؟ لتتأكد أن الله حينما قال:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

ليست البطولة أن تنجو الآن بل البطولة من ينجو يوم العرض الأكبر على الله :

إذا قال الصادق المصدوق، والذي لا ينطق عن الهوى:

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ: فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

فما قولكم بما فوق الهرة؟

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

في التاريخ الحديث يقول لك: هذا قتل خمسين مليوناً، هذا أربعين مليوناً، هذا ثمانين مليوناً، الجماعة مرتاحون، وبراءة الأطفال في أعينهم، قتل خمسين مليون هكذا، لذلك الإيمان بالآخرة يجب أن يكون كإيمانك بوجودك، بطولتك ليس أن تنجو الآن بل يوم العرض الأكبر على الله، قال تعالى:

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

[سورة الصافات:24]

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

[سورة الواقعة: 1-3]

بطولة الإنسان أن يكون عند الأمر والنهي :

ترى إنساناً، رب أشعث أغبر ذي طمرين، طالب علم ساكن في بيت صغير، دخله محدود، يسأل الله النجاة والرحمة، يقرأ القرآن الكريم، يصلي، يغض بصره، لا أحد يأبه له، لا أضواء، ولا كاميرات، ولا شيء، لا أحد يعلم به، هذا يوم القيامة في أعلى عليين.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

[سورة الصافات:24]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لا تهتم بالشهرة، أشهر واحد إبليس، لا أشهر منه بالعالم كله، الشهرة لا قيمة لها، لا تهتم أن تخطف الأضواء لا قيمة لها، لو أن أهل الأرض أثنوا عليك، وكان الله غاضباً عليك لا قيمة لكل ثنائهم، ابتغوا الرفعة عند الله، بطولتك أن تكون عند الأمر والنهي، هذا اسمه نصر، ولكنه نصر مبدئي، أنا ضعيف لأنني مستقيم، قتلت في بلاد إسلامية لأنني أدعو إلى الله، أنهوا لي حياتي، هذا منتصر، والذي قتلني

منهزم، أنا نصري أن أموت موحداً مطيعاً لله عز وجل، هذه الدنيا لا قيمة لها، صدقوا رسول الله، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

جناح بعوضة له قيمة، البعوضة كلها لها قيمة، جسمها، ورأسها، وأرجلها، وأجنحتها:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

الله عز وجل يعلم ما نخفي وما نعلن فهو عليم بما في الصدور :

لذلك:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)

اتق غضب الله، اتق سخطه، اتق عقابه، اتق مصائب الدنيا، اتق مصائب الآخرة، اتق النار، معنى اتق الله اتق عقابه، اتق عدله، اتق انتقامه:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

تكلم ما شئت، نمق كلامك، الله ماذا يقول في القرآن الكريم؟ الله يقول:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ)

[سورة يس: 65]

أصبغ على الجريمة طابعاً إنسانياً، الهدف التحرير، الهدف الحرية، الهدف كذا:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

قرأت القرآن الكريم ليقال عنك قارئ، وقد قيل، خذوه إلى النار، تعلمت العلم ليقال عنك عالم، وقد قيل، خذوه إلى النار:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

من الممكن أن تقدم لمسجد أرضاً، والناس جميعاً يثنون عليك، يا أخي محسن كبير، وأنت هدفك أن يرتفع سعر الأرض، حينما تقدم أرضاً لمسجد يعاد تنظيم الأرض، ويرتفع سعرها، وعند الناس أنت محسن كبير، ولكن عند الله لست محسناً:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

البطولة أن تنجو من عذاب الله لا من عذاب الدنيا :

تكلم ما شئت، لكن الله عز وجل متكفل أن يضعك في حجمك الحقيقي، فلذلك لا تخفى عليه خافية، علم ما كان، وما سيكون، و ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، هذه الآية تكفي، قال تعالى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

طبعاً أنا تكلمت هذا الكلام لأن المسلمين في حالة إحباط شديد الآن، ما بيدنا شيء، لا بد من أن توقن بعدل الله عز وجل، والله البارحة جاءتني رسالة بالإيميل عن صورة فرعون الذي كان في عهد سيدنا موسى، صورة حقيقية، ثبت أنه هو نفسه محنطاً، ويده هكذا مربوطة، لكن صورة مؤثرة، أين جبروت فرعون؟ أين ما علمت لكم من إله غيري؟ أين أنا ربكم الأعلى؟ أين يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم؟ الصورة عندي، صورة حقيقة فوتوغرافية لجثة فرعون التي ذهبت إلى فرنسا، واستقبلت هناك كملك، ورئيس فرنسا انحنى له هكذا، هو ووزراؤه، ما كفاه في حياته، وعند مماته له زبائن، قال الله عز وجل:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً)

[سورة غافر: 46]

منذ ستة آلاف سنة ضرب اثنين اثني عشر ألف، والخير إلى الأمام، ويوم تقوم الساعة:

(أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

[سورة غافر: 46]

والله الصورة تأثرت بها تأثراً لا حدود له، مكبرة، ملونة كما هو، حتى يداه، كلها شاش مربوطة، رمموا يديه في فرنسا، كان فيها فطور، وربطوها بشاش، ماذا قال تعالى:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

[سورة يونس: 92]

البطولة أن تنجو من عذاب الله لا من عذاب الدنيا، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

لا تهتم بالشهرة، لا تهتم بالغنى، هناك حساب دقيق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (10- 49): تفسير الآيات 8-10 ، العبادات التعاملية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-10-24

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يريدنا أن نكون قوامين لأن القوامة أعلى درجة من الاهتمام والإخلاص :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس العاشر من دروس سورة المائدة ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أيها الأخوة، كما هي الحقيقة دائماً، الله عز وجل يخاطب الناس بأصول الدين، يلفت نظرهم إلى وجود الله عز وجل، وإلى وحدانيته، وإلى كماله، لكن الذين آمنوا بالله، آمنوا به موجوداً، وواحداً، وكاملاً لهم خطاب آخر، يخاطبهم بفروع الدين، وكأن معنى الآية: يا من آمنتم بوجودي، ووحدانيتي، وكمالي، يا من آمنتم بأسمائي الحسنى، وصفاتي الفضلى، افعلوا كذا وكذا، الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

كلكم يعلم أن اسم الفاعل له صيغة، والمبالغة لها صيغة، فالذي يقف على قدميه يقال له: قائم، والذي يعالج قطعة من الخشب مرة واحدة يقال له: ناجرٌ، والذي يصيد سمكة واحدة في حياته يقال له: صائد، أما الذي يعتاد صيد السمك فيقال له: صياد، والذي يبالغ في القيام يقال له: قوام، فالله عز وجل لا يريدنا أن نكون قائمين فحسب، بل يريدنا أن نكون قوامين، فهي أعلى درجة من الاهتمام، وأعلى درجة من الإخلاص، وأعلى درجة من التطبيق.

الجهد والسعي والمثابرة والإلحاح والصدق يجب أن يكون لله وحده :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ)

أي أن حركة الإنسان في الحياة يجب أن تكون سعياً حثيثاً، وجهداً كبيراً، وصبراً مبالغاً فيه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ)

لكن هذه الحركة، وهذا النشاط، وهذا الاهتمام، وهذا التصحيح، وتلك المراجعة، وهذه المتابعة، لمن؟ لله، أشخاص كثيرون يتحركون من أجل مصالحهم، يتحركون من أجل حظوظهم، من أجل شهواتهم، هناك فريق يسعى للسيطرة على الآخرين، هناك فريق آخر يسعى لجمع الدرهم والدينار، هناك فريق ثالث يسعى للانغماس في المتع الرخيصة، ولكن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يطلب منا أن يكون جهدنا ونشاطنا وحركتنا في الحياة بأعلى درجة من النشاط، وبأعلى درجة من الإخلاص:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ)

أحياناً الإنسان يسعى بجهد غير معقول لبلوغ هدف، هذا النموذج من الجهد والسعي والمثابرة والإلحاح والصدق والمتابعة والتصحيح، هذا الجهد يريدنا الله أن نقوم به ولكن لله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

حينما يؤمن المؤمن تصير كل أهدافه وميوله لله عز وجل :

أخواننا الكرام، ما من إنسان على وجه الأرض من ستة آلاف مليون إلا ويتحرك، قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل: 1-4]

كل إنسان في ذهنه شيء يسعى إليه، وقلّما تجد إنساناً جهده، وسعيه، ومثابرته، وبحثه، ومراجعته تكون هذه الحركة المتعددة لله، يقول الله:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة الأنعام: 162-163]

فكل إنسان يتحرك، وحركته إن كانت من دون إيمان لا ينتفع بها، فإذا مات انتهى كل شيء، لكن المؤمن يجعل حركته لله، حتى التي يألفها معظم الناس، المؤمن إذا تزوج يقصد مرضاة الله عز وجل، وإذا عمل يقصد كفاية نفسه، وأهله، وخدمة المسلمين، ونصحهم، وتقديم نموذج كامل للتاجر المسلم،

وحينما يؤمن المؤمن تصير كل أهدافه وميوله لله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

فالإنسان يطلب العلم، ويأتي من مكان بعيد ليستمع إلى تفسير كتاب الله، أو يقصد إنساناً ليعلمه أحكام الله، فيقدِّم من ماله، من وقته، من جهده، من عرقه الشيء الكثير:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

عادات المؤمن عبادات وعبادات المنافق سيئات :

هذا الذي ينبغي أن نكون عليه، أن يكون جهدنا وسعينا، بل وحركتنا ونشاطنا وأوقات فراغنا لله عز وجل:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة الأنعام: 162-163]

أيها الأخوة الكرام، عادات المؤمن عبادات، وعبادات المنافق سيئات، هل تستطيع أن تقصد بزواجك مرضاة الله عز وجل؟ وهل تستطيع أن تقصد بدراستك الجامعية مرضاة الله عز وجل؟ وهل تستطيع أن تقصد بحرفتك مرضاة الله عز وجل؟ وهل تستطيع أن تقصد بمعاملتك لأسرتك مرضاة الله عز وجل؟ هذا هو المؤمن حركته نشيطة ولله، المؤمن يتحرك، والذي لا يتحرك ليس مؤمناً، لأنه ما إن تنطبع حقيقة الإيمان في قلب المؤمن إلا وتعبر عن ذاتها بذاتها بحركة نحو الخلق، فالمؤمن يعين أخاه، ويرشده، ويأخذ بيده، وينصحه، ويعفو عنه

يبحث عن عمل صالح يتقرب به إلى الله عز وجل، يطعم تارة المسكين، يأوي الغريب، يطعم الجائع، يكسو العاري، ينصح الضال، فهو في حركة ونشاط، حركة ظاهرة بل صارخة، هذا هو المؤمن، هذا معنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

يجب أن تكون هذه الحركة في سبيل الله، لكن هذا العصر الذي نحن فيه حبطت فيه الأعمال، حتى لو رأيت عملاً إنسانياً طيباً، يقال لك: هذا العمل من أجل أصوات الناخبين، لم يبتغ به صاحبه وجه الله عز وجل، من أجل الانتخابات، حتى لو كنت دقيقاً في معاملتك من أجل أن تربح هذا التشويق، يحتاج إلى صدق، وإلى إتقان، وإلى أمانة، حتى القيم الأخلاقية العريقة التي هي سبب دخول الجنة فرغت من مضمونها، وأصبحت من نوع العمل، من نوع العمل الذي يعود على صاحبه بالربح:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

أيّ شيء يقرّبك إلى الله فهو عبادة :

أيها الأخوة الكرام، الحقيقة حرفتك لله، شراء ملابسك لله، ينبغي أن تظهر بمظهر يليق بالمؤمن، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك، إدارة بيتك لله ووفق منهج الله، إدارة مالك لله وفق منهج الله، إدارة وقتك لله وفق منهج الله:

(كُونُوا قَوَّامِينَ)

هناك إنسان نائم، وإنسان مستلقٍ على السرير كأنه نائم، لكنه لم ينم، وهناك إنسان مضطجع، وإنسان قاعد، وإنسان قائم، وإنسان قوام، حالات الحركة من نوم، وقبله، واستلقاء، وقبل اضطجاع، وقبله قعود، وقبله قيام، والمؤمن يجب أن يكون قواماً لله عز وجل، حركتك في الحياة هذه أوسع كلمة، وأشمل كلمة، حركتك في الحياة، شراء بيت، زواج، دراسة جامعية، تأسيس شركة، علاقات اجتماعية، احتفال، تعزية، كل حركاتك، وسكناتك، ومناسباتك، وإقامتك، وسفرك، وعملك، وجدّك، ونشاطك، وقت الجد، ووقت الفراغ لله، ليس معنى هذا أن تنقطع للعبادة، ولكن حينما تنفع المسلمين فأنت في عبادة، وحينما تقري الضيف فأنت في عبادة، وحينما تطعم الطعام فأنت في عبادة، وحينما تدعو أخوانك إلى جلسة يتلى فيها القرآن، وفيها ذكر الله عز وجل عبادة، فالعبادة منوعة جداً، أي شيء يقرّبك إلى الله فهو عبادة، إنْ في التفكر، وإنْ في المطالعة، وإنْ في اللقاء، وإنْ في إلقاء المحاضرة، وإنْ في السفر، وإنْ في الحضر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

حركتك لله، والله عز وجل يرضيه أن تكون إنساناً صالحاً، إنساناً خيراً، إنساناً معطاء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً :

الآن إنْ لم يكن الإنسان قواماً لله، كان مقصراً، وكان منحرفاً، وكان مسيئاً، بل كان ظالماً، ما الذي يضمن أن يصحح الخطأ؟ ما الذي يضمن أن يزول الظلم؟ ما الذي يضمن أن يصحح المسار في المجتمع؟ أن تكون شاهداً بالعدل، لأن المنحرف إذا شهد له أناس على أنه ليس منحرفاً ضاعت معالم الحق، كما أنك مطالب أن تكون قواماً لله، مطالب أن تكون ناطقاً بالحق، وينبغي ألا تأخذك في الله لومة لائم، ينبغي أن تقول الحق ولو كان مراً، ينبغي أن تنطق بالحق ولو كان على أقرب الناس إليك، ينبغي أن تكون عدلاً، الأصل أن تكون قواماً لله، لو حدث انحراف أو تقصير، أو ظلم أو تعدٍّ، الآن موقفك أن تشهد بالعدل، فلو شهد الإنسان بالعدل اتضحت معالم الحق وانحسر الباطل، أما لو تواطأ الناس على أن يدعموا المنحرف بشهادة باطلة ضاعت معالم الحق، إذاً كما أنك مطالب أن تكون قواماً لله، مطالب أن تشهد بالعدل ولو كانت الشهادة تكلفك شيئاً كبيراً، لأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً:

(كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

وأحياناً أيها الأخوة، شهادة منصفة تحق حقاً، وتبطل باطلاً، شهادة حقٍّ تغيّر مجرى القضية بأكملها، متى ييأس الإنسان؟ إذا ضاع الحق في المجتمع.

أحد زعماء بريطانيا عقب الحرب العالمية الثانية جمع وزراءه، وسألهم واحداً وَاحداً، سأل وزير الصناعة: كيف المعامل عندك يا سيد فلان؟ قال: المعامل كلها محترقة، وسأل وزير الزراعة: كيف الزراعة عندك؟ قال: الحقول محترقة، سأل وزير الخزانة: كيف المال عندك؟ قال: الخزائن خاوية، ليس فيها شيء، سألهم واحداً وَاحداً، فلما وصل إلى وزير العدل سأله: كيف العدل عندك؟ قال: بخير، فقال هذا الزعيم البريطاني: كلنا إذاً بخير، فحينما يحق الحق، ويبطل الباطل، حينما تستطيع أن تأخذ حقك من أي إنسان كائناً من كان فنحن في خير، هذا الوضع الصحي الراقي الذي يليق ببني البشر مغطًّى بهذه الكلمة:

(شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

تشهد بالعدل، ولو على نفسك.

إن لم نشهد شهادة عدل ضاعت الحقوق وإذا ضاعت الحقوق يئس الناس من هذا الدين:

يروي التاريخ أن قاضياً طلب شاهداً من سيدنا علي رضي الله عنه، فسيدنا عليُ لم يكن له شاهد في هذه القضية إلا ابنه، فالقاضي قال لسيدنا علي: يا أمير المؤمنين، لا تُقبل شهادة الابن لأبيه، فأتني بشاهد آخر، ليس عنده شاهد آخر، فحكَم للطرف الآخر وهو يهودي، عندئذ أسلم هذا اليهودي، أيعقل أن هذا القاضي يحكم لي على أمير المؤمنين، معه شهود، ولكن الشهود أولاده، وفي القضاء لا تقبل شهادة الابن لأبيه؟ الشهادة الإيجابية لا تقبل، فاعتذر، بهذا قامت السماوات والأرض وبهذا انتصر المسلمون على أعدائهم، بالحق والعدل.

يروى أن قاضياً قال له غلامه: هذا الطبق من التمر من الرطب جاء به رجل، قال له: صفه لي، قال: صفته كيت وكيت، علم أنه أحد المتخاصمين عنده، قال له: ردّ الطبق، في اليوم التالي، تمنى القاضي أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق، مع أنه لم يقبله، في اليوم الثالث التقى مع أمير المؤمنين، وطلب منه أن يعفيه من منصب القضاء، قال: ولمَ؟ قال: لأنني لست أهلاً لهذا المنصب، لأنني تمنيت في اليوم التالي أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق، مع أني لم آخذه، فكيف لو أخذته؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

إن لم نشهد شهادة عدل ضاعت الحقوق، وإذا ضاعت الحقوق يئس الناس من هذا الدين، لماذا ـ إن صح التعبير ـ يخرج الناس أحياناً من دين الله أفواجاً؟ لأن هذا الدين ما رأوا فيه إلا العبادات الشعائرية، لم يروا البطولات التي تلفت الأنظار، بطولات إحقاق الحق، وإبطال الباطل، نصرة المظلوم، هذا لم يُرَ.

أخلاق الحرب شيء وأخلاق الدعوة شيء آخر :

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

هذا هو التوجيه الإلهي، لكن ما الذي يحصل؟ أن المؤمن له خصم تقليدي وهو الكافر:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)

أي لا يحملنكم:

(شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

أي هؤلاء أعداء المؤمنين التقليديون، فينبغي أن نعامل الطرف الآخر بأعلى درجات العدل والإحسان، لأن أخلاق الحرب شيء، وأخلاق الدعوة شيء آخر، ففي الحرب:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

هذه أخلاق الجهاد، ولكن في السلم:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: 34]

الإسلام لا ينتشر بشيوع العبادات الشعائرية ولكنه ينتشر بالعبادات التعاملية :

قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا)

أيها المؤمن مع من؟ مع الطرف الآخر، مع خصومكم، مع الكفار:

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

عدلكم أقرب إلى طاعة الله، وعدلكم معهم يجعلهم أقرب إلى الله، وعدلكم معهم يجعلهم أقرب إليكم:

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

أنا أيها الأخوة متأكد بفضل الله عز وجل أن الإسلام لا ينتشر بشيوع العبادات الشعائرية، ولكنه ينتشر بالعبادات التعاملية، فالصادق داعية، وإن لم ينطق بكلمة حق، والأمين داعية آخر، والعفيف داعية ثالث، لأن الله عز وجل حينما بعث النبي عليه الصلاة والسلام بعثه بمكارم الأخلاق، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ولما سأل النجاشي جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: حدثني عن الإسلام، أجابه سيدنا جعفر فقال:

((... أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ...))

[أحمد عَنْ أم سلمة]

الإسلام لا ينهض ولا يجلب أنظار الناس إليه إلا حينما يتمسك المسلمون بالقيم الأخلاقية، حينما يحدثون صدمة للطرف الآخر، ما هذا الورع؟ ما هذه الأمانة؟ ما هذا الصدق؟ ما هذا الإنصاف؟ عندها يدخل الناس في دين الله أفواجاً.

ما من شيء يقنع الكافر بكفره كمسلم يقصر في تطبيق دينه :

واللهِ الذي لا إله إلا موقف أخلاقي واحد أنفع من ألف محاضرة، موقف فيه عفة، موقف فيه صدق، موقف فيه أمانة، فهو أكبر مؤثر في جلب الناس إلى هذا الدين، ولكن مهما كنت فصيحاً ومتكلماً، ولم يكن عملك كما ينبغي نفرَ الناسُ منك، دققوا في هذه الآية:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

إذا سافر المسلم إلى بلد بيننا وبينه تمثيل دبلوماسي عن طريق السفارات، هل يحق له أن يشتري ببطاقة الائتمان ولا يدفع الثمن؟ يكون قد أساء إلى هذا الدين إساءة كبيرة، المسلم أمين، المسلم صادق، كيف تقنعهم بدينك إن لم تكن صادقاً؟

المسلم الخاطئ المنحرف يقنع الكافر بكفره

لذلك أيها الأخوة، تكاد تكون المشكلة على النحو التالي، حينما يرى الطرفُ الآخر مسلماً غيرَ ملتزمٍ، حينما يرى مسلماً لا يصدق، حينما يرى مسلماً لا يفي بوعده، حينما يرى مسلماً لا يحقق عهده، حينما يرى مسلماً يحتال عليه، هذا المسلم المقصر الخاطئ المنحرف يقنع الطرف الآخر أنه على حق، وهذا معنى قوله تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: 5]

أي يا رب لا تجعلني سبباً كي أفتن الكافر بكفره، إذا رأى الكافرُ المسلمَ الكاذبَ والمقصرَ، والذي يدلي بتصريح كاذب، والذي يخلف وعده، والذي لا ينجز عهده، ماذا يقول في نفسه؟ يقول: ليسوا على حق، أنا على حق، أنا أصدق ولا أكذب، أنا أتقن عملي، أنا عند وعدي وعند عهدي، فلذلك ما من شيء يقنع الكافرَ بكفره كمسلم يقصر في تطبيق دينه، والآية دقيقة جداً:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: 5]

علينا أن نتقي غضب الله وعقابه ونقمته وفُجاءة حسابه :

هذه الآية أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

أي إذا عدلت مع الطرف الآخر كنت أقربَ إلى الله أنت، وإذا عدلتَ مع الطرف الآخر قربته إلى الله، وإذا عدلت مع الطرف الآخر قربته إليك، اقتربت أنت، وقرّبته إليك، إذا كنت عادلاً مع الطرف الآخر:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

هذا تهديد أيضاً أي اتقوا غضب الله، اتقوا عقابه، اتقوا نقمته، اتقوا فُجاءة حسابه:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

للفعل (قسط) معنيان متعاكسان :

يا أيها الأخوة، بقيت ملحوظة على كلمة القِسْط، فقسَط يقسط قسطاً أي عدَل، وقسَط يقسط إقساطاً أي ظلم، هذا الفعل له معنيان متعاكسان، لكن أقسط أزال الظلم.

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

[سورة الجن: 15]

قسط يقسط ظلم يظلم، قسط يقسط عدل يعدل، أقسط يقسط أزال الظلم، فقسط عدَل ابتداء، أقسط أزال الظلم، فكان عمله عدلاً، ومما يروى أن رجلاً دخل على بعض الأمراء فقال له: أنت قاسط عادل، قال: أتدرون ماذا قال لي؟ قال لي: أنت ظالم كافر، فقالوا: كيف؟ قال: بقوله تعالى:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

[سورة الجن: 15]

وقوله:

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

[سورة الأنعام: 1]

إذاً القسط العدل، الإقساط، أقسط إقساطاً إزالة الظلم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ)

أي اتقوا عقابه، واتقوا غضبه، واتقوا عذاب الدنيا، واتقوا عذاب النار:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

بإمكانك أن تعمل عملاً في ظاهره جيد، ولكن في حقيقته ليس بجيد، مَن هو الخبير بعملك؟ الله جل جلاله يعلم السر وأخفى.

ما ينتظر المؤمن من نعيم وما ينتظر الكافر من جحيم :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

الأخطاء التي تابوا منها تُمحى، وتنتظرهم سعادة أبدية لا توصف:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ)

عما سلف منهم من خطأ:

(وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

هذا ما ينتظرهم من نعيم مقيم في جنة عرضها السماوات والأرض، وبالمقابل:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

هذا الذي كفر، أي لم يصدق بما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، وبما جاء به القرآن، وأعرض عن الله مع التكذيب:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

أصحاب الهلاك في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (11- 49): تفسير الآية 11 ، النعم والمنعم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-10-31

بسم الله الرحمن الرحيم

التلازم الحتمي بين رؤية النعمة ومحبة المنعم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

أيها الأخوة، من خصائص النفس البشرية أنها جبلت على حب من أحسن إليها، فهنالك تلازم حتمي بين رؤية النعمة ومحبة المنعم، هذا شيء قطعي، إلا أن الإنسان قد ينسى النعم، وأحيانا يبحث عن الشيء الذي ينقصه، فإذا هو في همّ وحزن وسخط، وأحيانا يبلغ درجة النقمة، وهو مغمور بالنعم، ولأن هذا الدين أساسه محبة الله، ومحبة الله أساسية في العبادة، لأن من أدق تعريفات العبادة: طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية، ما عبدَ الله من أطاعه ولم يحبه، كما أنه ما عبد الله من أحبه ولم يطعه، لا بد من طاعة طوعية، وليست قسرية، وأن تكون هذه الطاعة الطوعية ممزوجة بمحبة قلبية، فمن أجل أن تحب الله ينبغي أن ترى نعمه، والإنسان نسّاء، قد ينسى، قد يكون متزوجاً، والزواج نعمة، وقد يكون سليم الأعضاء، والسلامة نعمة، وقد يملك عقلاً راجحاً، والعقل نعمة، وقد يكون عنده أولاد نجباء، والأولاد نعمة، لكن بعض مشكلات الحياة تصرفه عن شكر الله، فلذلك البطولة أن ترى ما عندك، والذي عندك كبير، وإذا أردنا أن نعدد النعم فالنعم لا تعد ولا تحصى، بل إن النعمة الواحدة لا يمكن أن نستقصي خيراتها طوال الحياة، من هنا جاء قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ)

أية نعمة أنعم الله بها عليك ينبغي أن تملأ قلبك محبة له، ورد في بعض الآثار القدسية أن أحد الأنبياء قال: يا رب أيّ عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحبُّ عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي لأحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي.

استقرار محبة الله والخوف منه وتعظيمه في قلب المؤمن :

ينبغي أن تحب الله، وينبغي أن تحب من يحب الله، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، فقال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكّرهم بنعمائي، وآلائي، وبلائي، النعمة تدعوك إلى محبة الله، والبلاء يدعوك إلى الخوف منه، والآلاء تدعوك إلى تعظيمه، لا بد من أن تعظمه، لأن هذا الذي في النار يخبر الله عنه:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة:33]

ينبغي أن تعظمه، وينبغي أن تحبه، وينبغي أن تخاف منه، فهذه مشاعر ثلاثة ينبغي أن تكون مستقرة في قلب المؤمن، فالله عز وجل يأمرنا، وكل أمر يقتضي الوجوب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ)

أنت لستَ ملاحقاً، أليست هذه نعمة؟ أنك حر، ليس عندك فضيحة في البيت، أحياناً يستدعى إنسان إلى قسم الشرطة ليسلّم ابنته الزانية، ما الذي يحصل لهذا الأب؟ عندك بنات شريفات مصونات، عندك أولاد لهم سمعة طيبة، لك زوجة ترضيك، وترضي الله عز وجل، لك دخل قليل، أقلُّ من حاجتك، هذا ممكن، هذه الدنيا دار ابتلاء، ومعنى دار ابتلاء أن الله امتحنك بها بزمرتين من الامتحانات؛ امتحنك فيما أعطاك، وامتحنك فيما زوى عنك، لأن الله سبحانه وتعالى جعل حقيقة الدنيا الابتلاء.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

بعض من نعم الله علينا التي لا تعد ولا تحصى :

الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا)

إذاً التحدث للنفس بنعم الله، سبحان الله! فهم بعضهم التحدث بنعم الله أن تجلس في مجلس، وأن تتحدث عن رحلاتك، وعن إنفاقك للمال، وعن ولائمك، وعن أصحابك، وعن مصروفك الشهري، فتدخل الأسى على قلوب هؤلاء الذين حولك، التحدث بنعم الله أن تحدث نفسك بنعم الله، أكبر نعمة أنعم الله بها عليك أنك موجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان: 1]

نعمة أخرى: جعلك من أبوين، ولست لقيطاً، لك أب، ولك أم. نعمة ثالثة: منحك السلامة في الأعضاء والأجهزة، هذه نعمة ثالثة. نعمة رابعة: عرفك بذاته، وهذه أعظم النعم، النعم إذا صنفت يقع على رأسها معرفة الله عز وجل، فأنت في حياتك حلال وحرام، وشيء مسموح وشيء ممنوع، عندك مجموع قيم تنتظم سلوكك، هؤلاء الذين يديرون بيوت الدعارة هل عندهم قيم؟ الذين يبنون رزقهم على إفساد الآخرين، يبنون حياتهم على موت الآخرين، يبنون أمنهم على خوف الآخرين، يبنون عزهم على إذلال الآخرين، كنت أقول دائماً: في آخر الزمان إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة لإفقار المسلمين أو لإضلالهم أو لإذلالهم أو لإفسادهم فأنت في نعمة لا تقدر بثمن، تنام مساء مرتاح البال، لست سبباً في شقاء إنسان، أنا أذكركم بالنعم السلبية، قبل أن تكون غنياً، قبل أن تكون قوياً، فما لم تكن سبباً في شقاء الخلق فهذه نعمة كبرى، لك نسب واضح، لك أم وأب، تتمتع بصحة، لك مأوى تأوي إليه، لك زوجة تحصنك عن أن تتطلع إلى ما عند الآخرين، لك أولاد يملؤون البيت بهجة وسروراً، هذه كلها من نعم الله.

الشكر يحصن النعمة :

وعدنا الله عز وجل فقال:

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

[سورة إبراهيم: 7]

الشكر يحصن النعمة، بل إن علة خلقك في الدنيا أن تعرفه، وأن تشكره، بدليل قول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

ينبغي أن تشكره بعد أن تعرفه، فحينما تتعرف إليه، وحينما تشكره تحقق الهدف من وجودك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد، نعمة الهدى والرشاد، نعمة أنه أسمعك الحق، لو ذهبت إلى بلاد بعيدة شرقاً وغرباً حيث لا زواج ولا بعقد مدني، ولا بعقد الكنيسة، يعاملها كزوجة، وفي أية لحظة يركلها بقدمه، هكذا يعيش الغرب والشرق، أنت لك زوجة بعقد شرعي، تشعر أنك تحت غطاء الله عز وجل، ولك أولاد نسبهم معروف، أنا أذكركم بالنعم التي نتمتع بها، والتي لا تقدر بثمن، في حياة المسلمين شيء اسمه حرام، وشيء اسمه حلال، شيء اسمه مكروه، شيء اسمه واجب، شيء اسمه مستحب، أشياء كثيرة، هذه من الخيرات التي ينعم الله بها على المسلمين المتمسكين بدينهم، أما هؤلاء الذين لم يتمسكوا فقد خسروا الدنيا والآخرة، فلا هم مع أهل الكفر بقوتهم واستمتاعهم بالحياة كما يحبون، ولا هم

مع أهل الإيمان بتطلعهم إلى جنة عرضها السماوات والأرض، ولا هم راضون عن الله عز وجل، لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء.

تمام النعمة الهدى :

أيها الأخوة، لكن يجب أن تعلم علم اليقين أن نعمة الهدى لا تعدلها نعمة، وتأكد أن نعمة الهدى تشبه الرقم واحداً، فإذا كنت صحيحاً فأمام هذا الواحد صفر، وإذا كنت منعماً عليك بقدرات معينة مهنية أو عقلية فهذه نعمة ثانية، الصحة نعمة، القدرات العقلية نعمة، الزوجة نعمة، الأولاد نعمة، كلها أصفار، لكن لو سحبت هذا الواحد من هذا الرقم ماذا بقي من هذا الرقم؟ أصفار، لذلك قالوا: تمام النعمة الهدى. والإمام علي كرم الله وجهه يرى أنه من أولى النعم بالشكر هدايتك إلى الله عز وجل، تأتي بعدها الصحة، وبعدها الكفاية. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ]

أي مطمئناً إلى الله عز وجل، مطمئناً إلى مصيره مع الله.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

أصبغ الله عليه بنعمة الأمن، الأمن خاص بالمؤمنين.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

تذكُّر النعم من العبادة :

الآن ربنا عز وجل في آيات أخرى يقول:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم: 5]

أيام الله هي الأيام العصيبة التي لاح لك فيها شبح مصيبة كبيرة، ثم نجاك الله منها بقدرة قادر، هذا يوم ينبغي ألاّ تنساه:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم: 5]

ما من مؤمن إلا وله مع الله أيام، بامتحان، بتهمة هو بريء منها، بعقدة في عمله، بعقدة في زوجته، بصحة زوجة، بمرض داهم أحد أولاده، ثم شفاه الله عز وجل، هذه الأيام ينبغي أن تذكرها:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم: 5]

يبدو أن تذكُّر النعم من العبادة، وحينما يذكر الإنسان الإيجابيات تصغر عنده السلبيات. أذكر مرة أنه جاءني أخ أجمعَ على أن يطلق زوجته، أنا استدرجته إلى ميزاتها دون أن يشعر، قلت له كلمة لكنها قاسية: لعلها تكون كذا؟ قال لي: معاذ الله يا أستاذ، إنها امرأة شريفة، لعلها لا تحسن الطبخ؟ قال لي: والله طبخها ممتاز، لعلها ليست نظيفة؟ قال لي: لا والله، إنها نظيفة، فهو دون أن يشعر ذكر أنها شريفة، وأنها نظيفة، وأنها طباخة ماهرة، وأنها أم أولاده ثم استحيا أن يتابع الموضوع واستأذن وانصرف لقد كان غافلاً عن هذه النعم.

البطولة أن نرى الإيجابيات والسلبيات معاً :

كل بطولتك أن ترى الإيجابيات والسلبيات معاً، وهذا الذي يرى السلبيات شيطان، لما التقى النبي عليه الصلاة والسلام بصهره بين الأسرى ما معنى أن يكون صهره بين الأسرى، أي أنه كان مشاركاً في معركة ضد صهره، وإذا شارك إنسان في معركة ماذا ينتظر؟ أن يقتل، أليس كذلك؟ فلما نظر إلى صهره بين الأسرى قال: والله ما ذممناه صهراً، فهو كصهر ممتاز، أرأيت إلى الإنصاف، حتى إنك إن أردت أن تعاتب إنساناً، أو أن تلفت نظره إلى تقصير يقول علماء النفس: ينبغي أن تبدأ بإيجابياته، وهكذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل إنسان، وأحدث جلبة وضجيجاً بالمسجد ليلحق بركعة مع رسول الله، فلما انتهت الصلاة قال النبي عليه الصلاة والسلام: زادك الله حرصاً، فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ:

((أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: زَادَكَ اللَّهُ حِرْصاً وَلَا تَعُدْ))

[البخاري عَنْ أَبِي بَكْرَةَ]

ميزة، زادك الله حرصاً ولا تعد، شوشت علينا، لكن زادك الله حرصاً، وطّن نفسك أنك إذا أردت أن تنتقد إنساناً انتقده نقداً بناء، أو أن تلفت نظره إلى قضية وطّن نفسك أن تذكر له ما يتمتع به من إيجابيات كي يطمئن إلى إنصافك، النموذج الذي لا يحتمل في المجتمع أنه لا يرى إلا العيوب، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر، وكان يستعيذ عليه الصلاة والسلام بجار سوء، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، وبين المسلمين

إنسان لا يرى إلا الخطأ، وهو قناص، فإن أصاب خطأ شهّر به، ويكون صاحب هذا الخطأ مليئاً بالفضائل، هذا الذي قال فيه تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النور: 19]

هذا الذي ينشر القصص السيئة، أو يبني على أوهام قصة لم يتحقق منها، حتى إنه قد قيل في الأثر: " قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة "، هذه التي قالت لأختها: قصيرة، السيدة عائشة ماذا قال لها النبي عليه الصلاة والسلام؟ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلاً وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

على الإنسان أن يحب الله ووسائل محبة الله أن يذكر نعمه :

على الإنسان دائماً أن يتذكر النعم، نعمة البيت، لك مأوى، لك عمل، لك زوجة، لك أولاد، لك مسجد، أنت على شيء من العلم، لا تضجر، الله عز وجل أراد أن يمتحنك في الدنيا، وقد قال الله عز وجل:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة: 155-157]

لو أن واحداً لا سمح الله ولا قدر كانت زوجته لا ترد يد لامس كيف يعيش في عمله؟ مضطرباً، قلقاً، خائفاً، في شك، في اضطراب، ليس مرتاحاً لعفة زوجته، أما نعمة الزوجة العفيفة هذه لا تقدر بثمن، تسافر وتغيب وأنت مطمئن أن أحداً لم يدخل بيتك في غيبتك، وأن إنساناً لم يضع يده على يدها، نعمة هذه، فكلما ذكرت نعم الله عز وجل أحببته، وقد ورد:

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه.))

[الترمذي عن ابن عباس]

أي يجب أن تحب الله، ووسائل محبة الله أن تذكر نعمه، لذلك علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أنك إذا رأيت إنساناً مبتلى بمرض عضال ينبغي أن تشكر الله على أنه عافاك من هذا المرض من دون أن تسمعه ذلك، فعَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ رَأى صَاحِبَ بَلَاءٍ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً إِلَّا عُوفِيَ مِنْ ذَلِكَ الْبَلَاءِ كَائِناً مَا كَانَ مَا عَاشَ... وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا رَأى صَاحِبَ بَلَاءٍ فَتَعَوَّذْ مِنْهُ يَقُولُ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ وَلَا يُسْمِعُ صَاحِبَ الْبَلَاءِ))

[الترمذي عَنْ عُمَرَ]

إذا كان الإنسان عاجزاً عن إحصاء النعم فلأن يكون عاجزاً عن شكرها من باب أولى:

هذا من أدبك مع الناس، أن تدعو له بالشفاء بينك وبين نفسك، وينبغي أن تشكر الله على أنه عافاك من هذا المرض، عافاك من هذه المشكلة، عافاك من هذه المصيبة، نعم الله لا تعد ولا تحصى، نحن عاجزون عن شكرها، بل عن إحصاءها.

كنت أضرب هذا المثل دائماً، ثمة رجل جاءه مولود، فجاءته مئة هدية، أيهما أسهل أن يمسك ورقة وقلماً، ويكتب عدد هذه الهدايا ومن قدمها بربع ساعة، أم أن يرد على كل هذه الهدايا بهدية مثلها، أيهما أهون؟ الإحصاء أهون بكثير، فإذا كان الإنسان عاجزاً عن إحصاء النعم فلأن يكون عاجزاً عن شكرها من باب أولى.

والله أيها الأخوة: نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة النطق، نعمة إفراغ الفضلات، هذا الذي يحمل كيساً إلى جانبه، وثمنه مبلغ كبير يريد تبديله كل فترة، ولا يعرف متى خرج هذا الغائط منه، أناس كثيرون معهم هذا المرض، إنسان يضطر إلى أن يغسل كليته كل أسبوع ثلاث مرات، وكل مرة بثلاثة آلاف ليرة، وكل مرة خمس ساعات، كليتاك تستعملان بانتظام، فهذه نعمة، النبي علمنا أدعية كثيرة، في النوم والاستيقاظ منه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَنْ فِرَاشِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ إِزَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ بَعْدُ فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ]

هناك إنسان يأتي إلى البيت بعد الفجر، لكن من الملهى، لا من المسجد، شتان بين أن تأتي البيت بعد الفجر من المسجد وأن تأتيه من الملهى، أليس كذلك؟ أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

كن مع الله بنعمه.

الفرق الكبير والجوهري بين المؤمن والكافر أن الكافر مع النعمةلكن المؤمن مع المنعم:

أخواننا الكرام: الفرق الكبير والجوهري بين المؤمن والكافر أن الكافر مع النعمة، لكن المؤمن مع المنعم، المؤمن خرق النعمة إلى المنعم، فإذا كان في بحبوحة يرى فضل الله عليه، وإذا كان في أمن يرى فضل الله عليه، وإذا كان في صحة يرى فضل الله عليه، وإذا كانت له زوجة يرى فضل الله عليه، له أولاد يرى فضل الله عليه، هذه النعم إذا شكرت الله عليها حصّنت، وإذا كفرت أتلفت، حتى إن الله عز وجل إذا أنعم على عبد نعمة، وبخل بها عن الناس حوّلها إلى غيره، يقرّها فيهم ما بذلوها، فإن منعوها أهلها صرّفها عنهم.

أروي قصة قديمة، قصة بيت من بيوت دمشق العريقة فيها شجرة ليمون تنتج في العام أربعمئة حبة أو أكثر، كل أهل الحي كلما احتاجوا إلى حبة ليمون يطرقون الباب، وفي هذا البيت امرأة صالحة كبيرة في السن، فكلما سئلت حبة ليمون قدّمت للسائل هذه الحبة، ثم توفيت، عندها زوجة ابن شابة رعناء، طرق الباب فطردت السائل، والثاني طردته، في العام الثاني يبست هذه الشجرة، قيسوا عليها كل شيء. تبذل يمدك الله، تمنع فضلك يحرمك الله، بل إذا أراد الله إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، وإن الله يحب أن يكون الخير على يديك، بدليل قوله تعالى:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ)

[سورة محمد:4]

الله قادر ألاّ يبقِي كافراً، لكن قال لك: يا عبدي أحب أن تقوم أنت كي أجري على يديك هذا النصر.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

[سورة محمد:4]

فالله عز وجل فتح لنا في الدنيا أبواب جنته على مصاريعها عن طريق الأعمال الصالحة، وأجمل شيء يمكن أن يقال في هذه الآية: إن الطريق إلى الله واحد، لكن طرق الضلال لا تعد ولا تحصى، والدليل:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ)

[سورة الأنعام: 153]

(صِرَاطِي)

مفرد،

(مُسْتَقِيماً)

فبين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، الثاني يأتي فوقه تماماً، ارسم نقطتين على ورق، وائتِ بمسطرة، وارسم خطّاً بينهما، ارسم خطّاً ثانياً، يأتي فوق الأول، والخط الثالث فوق الثاني، فالحق لا يتعدد أبداً،

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً)

لكن بين هاتين النقطتين يمر مليون خط منكسر، ومليون خط منحنٍ، فالباطل متعدد، والحق واحد.

الباطل متعددأمّاالحق فلا يتعدد :

قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

(وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ)

[سورة المائدة: 16]

جمع:

(إِلَى النُّورِ)

[سورة المائدة: 16]

طيب قد يقول قائل: لمَ لمْ تكن الآية: يخرجهم من الظلمات إلى الأنوار، أو من الظلمة إلى النور، لا! من الظلمات، الباطل ظلمات بعضها فوق بعض، الباطل متعدد، أمّا الحق فلا يتعدد، لذلك قالوا: الحرب بين حقين لا تكون، لماذا؟ لأن الحق لا يتعدد، مستحيل، وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي، مع العمر تنتهي، وبين حق وباطل لا تطول، بين حقين لا تكون، بين باطلين لا تنتهي.

من النعم الظاهرة ما تتمتع به من صحة ومال ومن النعم الباطنة ما زوي عنك :

أيها الأخوة، من العبادة أن تذكر نعمة الله عليك، النعم العامة والنعم الخاصة، النعم الخاصة أيام الله، الصحة نعمة عامة، والزواج نعمة عامة، مرة لاح شبح مرض أصاب ابنك ـ لا سمح الله ـ فدعوت الله، وتصدقت، وأخذته إلى طبيب تثق بعلمه، فشفاه الله، وأصبح المرض ذكرى، هذا من أيام الله، أن الله استجاب لك وشفى لك ابنك، لكن المؤمن أحياناً كما قال الله عز وجل:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة: 155-157]

لذلك من النعم الظاهرة ما تتمتع به من صحة ومال وغيرها من النعم، ومن النعم الباطنة ما زوي عنك، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول: اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعل عوناً لي فيما

تحب، أي رزقتني صحة، أن تكون في طاعة الله، رزقتني مالاً، أن يكون في رضوان الله، وما زويت عني ما أحب، فلانة كنت أتمنى أن أتزوجها لكن الأمر لم ييسر، وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب.

مرة طالب علم كان في درس أمامي، قال لي: ما حكمة الزوجة التي هي أقلُّ من طموح زوجها؟ قلت له: حتى نراك في الدرس، أحياناً يعبد الإنسان امرأته من دون الله، وينسى أنه يعبدها، لحكمة بالغة كانت هذه زوجتك، ارض بها تكن أغنى الناس.

حينما نفقد المثل الأعلى نضيعونتيه في الحياة وهذه إحدىأكبر مشكلات المسلمين :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

لكن الآية تشير إلى نعمة خاصة، النبي عليه الصلاة والسلام كان بينه وبين بني قريظة عهد، فلما زارهم لينفذ بنود العهد ائتمروا على قتله، فأجلسوه في مكان وأعطوا إشارة لمن يأتي إلى السطح، ويرمي النبي بصخرة تقتله، فجاءه الوحي وغادر قبل أن يفعلوا فعلتهم، فالملمح في الآية أن هذه نعمة ليست للنبي بل للمؤمنين، والإنسان قوته في مرجعيته الدينية، فإذا كان لك مرجع ديني أنت واثق منه، مرتاح له، تثق بورعه وعلمه وتستشيره، ويدلك على الله عز وجل فهذه نعمة كبيرة، وأنا أقول لك: أكبر مصيبة أن يفقد الناس المثل الأعلى، حينما نفقد المثل الأعلى نضيع، ونتيه في الحياة، وهذه إحدى أكبر مشكلات المسلمين، ليس لهم مثل أعلى، ومن بعض المؤامرات على المسلمين أن يُهزّ المثل العليا الآن حتى نيأس، يقال لك: ليس هناك مثلٌ جيد أعلى، هذا فقرة من فقرات الكيد للمسلمين، أن تهتز عندك المثل العليا، أنت لك قريب بجامع ومستقيم، وسمته حسن وصالح، وله أعمال طيبة، إنه لا يرضي الله أن تهز مثله الأعلى، ما دام التزم بالمسجد وهو يمشي بشكل صحيح، ويغلب عليه الصلاح والتستر، عقيدته سليمة، يؤدي الفرائض تماماً، لا يأكل مال حرام، فمن الخطأ الكبير أن تهز له مثله الأعلى، البطولة أن تأتِي بإنسان من ملهى إلى المسجد، لا من جامع إلى جامع، إذا كنت بطلاً فآت بالعاصي تارك الصلاة من ملهى إلى مسجد، أما أن تذهب إلى جامع آخر لتفسد هذا الطالب على شيخه فهذا سلوك غير مقبول إلا إذا كان فيه انحراف خطير في العقيدة هذا موضوع ثان، وتصير هذه نصيحة له، أما أن يغلب على هذا المسجد الصلاح والتستر، وليس فيه مشكلة كبيرة في العقيدة، فالأولى أن يكون الإنسان أداة جمع لا أداة تفريق.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه: 45-46]

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (12-49) : تفسير الآية 12 ، الميثاق ومعية الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الميثاق بين العبد وبين ربه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثانية عشرة من هذه السورة، وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

أيها الأخوة، تكلمت في درس سابق عن الميثاق الذي بين العبد وبين ربه، من أوجه ما قاله المفسرون عن الميثاق أن العقل من الميثاق، وأن الفطرة من الميثاق، وأن الرسالة من الله عن طريق النبي من الميثاق.

أي أن الله سبحانه وتعالى أعطاك عقلاً تستطيع به أن تتعرف إلى الله، فهو مناط التكليف، بل إن بنية العقل متوافقة مع قوانين الكون، فكما أن في الكون لا يحدث شيء إلا بسبب، ولا يحدث شيء إلا بغاية، ولا يمكن أن يكون في الكون تناقضٌ، كذلك العقل لا يفهم شيئاً إلا بسبب، ولا يفهم شيئاً إلا بغاية، ولا يقبل التناقض.

فالميثاق الأول هو العقل الذي بمبادئه متوافق مع قواعد الكون، أداة معرفة الله، والفطرة؛ جبلّة جبلنا عليها، هذه الجبلة متطابقة تطابقاً تاماً مع منهج الله بنداً بَنداً، إذا أمر الله أن تكون صادقاً فإنك جبلت على حب الصدق، لذلك سيان بين أن تطيع الله أو أن تستجيب لقوانين فطرتك، فأنت في الحالين واحد.

رسالة الله إلى البشر ميثاق وعقولهم ميثاق وفطرهم ميثاق :

الآن من يعصي الله يختل توازنه من حيث الفطرة، إذاً الفطرة ميثاق، والعقل ميثاق، وهذا الشرع الذي أنزله الله ميثاق، فرسالة الله إلى البشر ميثاق، وعقولهم ميثاق، وفطرهم ميثاق:

(وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً)

أي رئيساً، الإنسان يتولى شؤون من حوله، يطلع على أحوالهم، يأخذ بيدهم إلى الله عز وجل، هؤلاء النقباء اثنا عشر، لكن مركز الثقل في الآية:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

أي من الحياة الواقعية، إذا قالت أعلى جهة في الدولة لمواطن: أنا معك، فمن يستطيع في هذا النظام كله أن يصل إليك؟ إذا قال رأس النظام: إني معك، هذا في عالم الدنيا، فإذا قال خالق الأكوان، إذا قال رب العالمين، إذا قال الواحد الديان: أنا معك، من يستطيع في الأرض أن يصل إليك؟ إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك.

لكن العلماء قالوا: المعية معيتان؛ معية عامة، ومعية خاصة، المعية العامة أن الله مع كل الخلق، حتى من كان كافراً، حتى من كان ملحداً، معهم بعلمه، الله عز وجل مهيمن، مسيطر، لا تغيب عنه غائبة، لا يخفى عليه شيء، لا يقع شيء في الكون إلا بإذنه وإرادته، إذاً الله مع الخلق جميعاً، لكن معهم بعلمه، إلا أنه مع المؤمنين من نوع آخر، مع المؤمن بالتوفيق، مع المؤمن بالحفظ، مع المؤمن بالتأييد، مع المؤمن بالنصر، مع المؤمن بأن يأخذ بيده إلى سعادته.

ثمن المعية الخاصة :

لذلك إذا قال الله عز وجل:

(إِنِّي مَعَكُمْ)

فهذه معية خاصة لذلك الآية:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال: 19]

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة البقرة: 19]

إن الله مع الصادقين، مع التفصيل، وَقَالَ اللَّهُ:

(إِنِّي مَعَكُمْ)

الآن ثمن المعية، ليس هناك شيء بلا ثمن في الأرض، في أصل الخلق ما من شيء بلا ثمن:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ)

أنت حينما تصلي الصلاة التي أرادها الله كأنك تدفع ثمن معية الله، دفعت بند من هذا الثمن، إن صليت صلاةً خاشعة، إن سبقت الصلاة استقامة على أمر الله، إن صليت وأقبلت، إن صليت وخشعت، إن صليت واتصلت:

(لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ)

لذلك:

((الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[رواه الطبراني عن معاذ]

أهمية الصلاة :

بين المسلم والكافر ترك الصلاة، الصلاة هي الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، يسقط الصيام عن المريض والمسافر، ويسقط الحج عن الفقير والمريض، وتسقط الزكاة عن الفقير، والنطق بالشهادة مرة في العمر، الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال هو الصلاة، ذلك أن الصلاة فيها معنى الصيام، فإذا كان الصائم يدع الطعام والشراب فالمصلي يدع الطعام والشراب والحركة، ففيها من الصيام معنى الترك، وفيها من الحج معنى التوجه إلى القبلة، أنت في الصلاة تتوجه إلى القبلة إلى بيت الله الحرام، وفيها من معنى الزكاة أن الوقت أصل في كسب المال، كسب المال يحتاج إلى أربعة عناصر، هذه حقائق تدرس في الجامعة، يحتاج إلى مواد، ويحتاج إلى معلومات، ويحتاج إلى أشخاص، ويحتاج إلى وقت، ما من إنجاز على وجه الأرض إلا وفيه مواد، معلومات، أشخاص، وقت، فالوقت، بل إن الوقت أخطر هذه العناصر كلها، فمن دون وقت لا تجد أشخاصاً، ولا تجد أموالاً، ولا مواد، ولا خبرات، الوقت وعاء كل ذلك، فإذا كان الوقت أصلاً في كسب المال فمن اقتطع من وقته وقتاً ليصلي فكأنه أدى مقابل هذا الوقت مالاً، إذاً في معنى الزكاة الوقت، أن الوقت أصل في كسب المال، من معنى الحج التوجه إلى بيت الله الحرام، من معنى الصيام ترك الطعام والشراب والحركة والكلام، من معنى الشهادتين في الصلاة نطق للشهادتين:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِن أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ)

لذلك لا يمكن أن نتساهل في الصلاة، فإذا جاءك خاطب لابنتك ولا يصلي ليس لك معه مصلحة إطلاقاً، لأنها أول عبادة، عماد الدين، عصام اليقين، سيدة العبادات، غرة الطاعات، معراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات هي الصلاة.

المؤمن متصل ومحسن وغير المؤمن منقطع ومسيء :

قال تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ)

أي بالمفهوم الضيق أديت زكاة مالك، لكن بالمفهوم الواسع الزكاة عطاء، بذل، فالمعنى هنا العمومي الشمولي أنك تتصل بالله وتبذل للخلق، كما قال سيدنا عيسى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم: 31]

كأن الدين كله حركة مع الله؛ اتصال، واستغفار، وتوبة، ومناجاة، وإقبال، وحركة نحو الخلق إحساناً، ما من مسلم إلا وله صلة بالله، وإحسان إلى الخلق، ما من إنسان شارد ضائع إلا وله قطيعة مع الله، وإساءة إلى الخلق، إن أردت تفسيراً واضحاً صارخاً هو أن المؤمن متصل ومحسن، وغير المؤمن منقطع ومسيء:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ)

لذلك:

((أرِحْنا بها يا بلالُ))

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

الصلاة نور، قلما يرى المصلي رؤية مشوهة، ما من عمل سيئ إلا وراءه رؤية غير صحيحة، أما أوضح شيء، ماذا يرى السارق قبل أن يسرق؟ يرى أنها كسب كبير بجهد قليل، ماذا يرى الزاني قبل أن يزني؟ فرصة لا تعوض، إذاً كل الأعمال الكبيرة الإجرامية وراءها رؤية خاطئة، إنك إن صليت اتصلت بالله، ألقى الله بقلبك النور، رأيت الحق حقاً والباطل باطلاً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

[سورة الأنفال: 29]

الصلاة معراج المؤمن :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد: 28]

فالصلاة نور، والصلاة طهور، لا غل مع الصلاة ولا حقد، وليس هناك أمراض نفسية مع الصلاة، هي طهور، ونور، وحبور، وسعادة، أرحنا بها، والصلاة عقل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

معنى المصلي يعقل ما يقرأ:

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

فالذي لا يعلم ما يقول لم يعقل من الصلاة شيء كأنه لم يصلّ، فالصلاة عقل، الصلاة قرب.

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق: 19]

الصلاة ذكر:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

الصلاة معراج، الصلاة ميزان، فمن وفى استوفى، وبشكل مختصر لا تستطيع إن عملت عملاً سيئاً أن تصلي، ثمة حجاب كثيف بينك وبين الله، بل إن إقبالك على الله عقب عمل ما دليل صحته، لأنك لو كنت صادقاً مع نفسك وعملت عملاً سيئاً أنت في الصلاة تشعر بحجاب كثيف، وكأن هناك حجاباً بينك وبين الله، فالصلاة معراج المؤمن:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ)

ما دامت سنة النبي الكريم قائمة في حياتنا فنحن في مأمن من عذاب الله :

أحسنت بذلت، طبعاً أداء الزكاة داخل في هذه الآية، لكن لو وسعت المعنى مطلق العطاء، المؤمن يعطي، وغير المؤمن همه الأخذ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا شيئاً، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا، وهناك أناس بينَ بين، يأخذون ويعطون:

(وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي)

الرسول بأحاديثه الشريفة الموضحة لكتاب الله مرجع لك، فالمؤمن الصادق مرجعه الوحيان الكتاب والسنة، لكن هناك إنسان مرجعه القانون فقط، فإذا كان القانون معه ولو كان ظالماً يعتز به، بينما المؤمن لا يرتاح إلا إذا كانت السنة النبوية معه، من هنا يقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: 33]

النبي توفاه الله عز وجل، وانتقل إلى الرفيق الأعلى، ما معنى الآية؟ أي ما دامت سنة النبي، منهجه، قائماً في الناس، بيعك، شرائك، كسبك للمال، بيتك، بناتك، زوجتك، أولادك، اللهو كيف يكون؟ الأفراح كيف تكون؟ الأتراح كيف تكون؟ السفر كيف يكون؟ ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم قائمة في حياتنا فنحن في مأمن من عذاب الله:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: 33]

الإنسان

في حالتين لا يعذَّب إذا كان وفق منهج رسول الله أو كان يستغفر :

الآن أخطأنا، ولكن لا زلنا في بحبوحة ثانية.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال: 33]

أنت في حالتين لا تعذب إذا كنت وفق منهج رسول الله، أو كنت تستغفر، أما إذا لم تكن على المنهج، ولا تستغفر إذاً لا بد من أن تعذب:

(لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي)

الرسول أهم شخص في حياتك، منهجه أهم منهج، توجيهه أهم توجيه، أما الرسول فقط تصلي عليه صلاةً جوفاء، وأنت تخالف منهجه في كل دقيقة فليس هذا إيماناً بالرسول، الإيمان بالرسول أن تؤمن بمنهجه:

(وَعَزَّرْتُمُوهُمْ)

أي نصرتم رسل الله، وبعد ارتحال النبي إلى الرفيق، أيّدتم من ينطق نيابة عن رسول الله، هناك إنسان أساس حركته بالحياة تأييد للحق، وإنسان آخر نقد له.

الآن أحياناً يبلغ أن أخاً صديقاً التحق بجامع، والجامع عقيدته سليمة، منهجه صحيح، فأنت أن تمتن، أن تثني على هذا الأخ الذي انضم، والتزم، واستقام، أو أن تثبط عزيمته، فصفات المؤمن معزز:

(وَعَزَّرْتُمُوهُمْ)

كل إنسان دعا إلى الله وكان صادقاً ينبغي أن تدعمه حتى لو بالقول فقط :

كل إنسان دعا إلى الله، وكان صادقاً، وكانت عقيدته سليمة، ومنهجه صحيحاً، وكان بالتعبير المعاصر نظيفاً ينبغي أن تدعمه، يكفي أن تدعمه بالقول، شخص التزم عنده؛ بارك الله، والله فرحت لك، الزم، هذا نوع من الدعم، وإن كنت أنت معه دعمته أيضاً إما بحضورك، الحضور دعم، أنت عندما تحضر درساً تقوّي همة الآخرين، وإذا وجد عند أحد أربعة أو خمسة فقط، يحكم عليه من العدد، وإن وجد في جمع كبير معناها أن ثمة شيئاً ثميناً بالدرس، فأنت حينما تكثر سواد طلاب العلم هذا نوع من الدعم، قد تكون مشغولاً، لمجرد أنك أطللت إلى المسجد فلك مكانتك، أنت يتأسى الضعاف بك، فلان يحضر يا أخي، إذا كانت لإنسان مكانة، له شأن، له دراسة، يحمل شهادة، له دور بالحياة أساسي، ولزم مجلس علم، وجلس على الأرض، وأصغى إلى الدرس فهذا دعم للحق كبير جداً، هناك أعمال صالحة تكلفك

حضوراً فقط، أنت بهذا كثرت سواد أهل الحق، لكن أحياناً تجد من أجل مباراة رياضية يقول لك: مئتان وخمسون ألفاً، ما شاء الله!! ومن أجل حضور أمسية غائية يقول لك: ستون ألفاً حضروا مثلاً، فأنت بين أن تدعم أهل الباطل وبين أن تدعم أهل الحق فرق كبير:

(وَعَزَّرْتُمُوهُمْ)

أنت أيدت، ونصرت، وعززت، إن كنت مع رسول الله ينبغي أن تعزر هذا النبي الكريم، وإذا كنت مع مخلص ينوب عنه بإلقاء العلم يجب أن تعاونه، فأقلّ أنواع المعاونة إذا التزم إنسان هنئه وشجعه، وهناك إنسان والعياذ بالله يقطع الناس عن الحق، ماذا تريد من هذا الزحام؟ اجلس في بيتك فثمة الراحة، لا أحد جيد، لا أحد نظيف، لا تغلب حالك، هكذا يقولون، لا عمل له إلا أن يقطع الناس عن منابع الدين أو عن مرجعيات الدين، فأنت أقل دعم إذا كان لك أخ صديق والتزم بجامع، واستفاد، وتاب،وغيّر سلوكه، بارك الله هنيئاً لك، وأنا أتمنى أن أكون معك، وإن شاء الله ألحق بك، هذا دعم، دائماً أناس مشككون مهما كان الدرس مفيداً، يقول لك: كله أعرفه، كله مُعاد، لا شيء جديد، ولا أحد نظيف، دائماً يتكلم كلاماً قبيحاً، ويمكر، أنا أتكلم بشكل عام، هناك شخص همه أن يقطع الناس عن مجالس العلم للتشكيك، تشكيك بلا ثمن.

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ)

مواقف فيها تعزيز لرسول الله :

أنت حينما تطبق السنة تعزر رسول الله، يكون الاجتماع ضخماً قبل المغرب، وسينتهي بعد العشاء، لا أحد جلس ليصلي إطلاقاً، جلس أحدهم، قال: أريد أن أصلي، فلحق به الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، والعاشر، ومئة، الكل صلوا، من الذي بدأ؟ الذي قام أولا، عندما جلس ليصلي شجع الآخرين، فقيامك للصلاة تعزيز لرسول الله.

هناك علاقة ربوية لا أفعلها، ولما قام بالعلاقة الربوية كل الناس زلزل الناس، الكل مخطئون، أما إذا امتنع الكل فأنت عززت سنة رسول الله، أنت لا تتصور حينما تطبق السنة تعزز رسول الله، الكل صافح، أنت لم تصافح، طبقت السنة، هناك بقية حق، الكل جامل، وأنت لم تجامل، الكل نافق، وأنت لم تنافق، أما إذا لم ينافق الكل، والكل لم يجامل، والكل لم يصافح، والكل لم يأكل الربا، كنا بخير، ما كان الله ليعذبنا ساعتئذٍ، أما الآن فأكل، وقتل، وتفريق:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ)

أي تعزيز الرسول، إما أن تدعم من ينوب عنه في إلقاء العلم، هذه واحدة، تبنّ داعية يا أخي، هذا طالب علم جاء من بلاد بعيدة، يطلب العلم ليعود خطيباً في بلده، أنت قدم له شيئاً، قدم له كساءاً، قدم له طعاماً، قدم له غرفة صغيرة ينام فيها، قدم له أثاثاً، هذا أيضاً دعم، أو أن تطبق السنة وتعزز سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

أحياناً تجد مكان البيع فيه مسجد صغير، والله شيء جميل!! في أثناء السفر تجد مسجداً، صاحب هذا المطعم بنى مسجداً، هذا الإنسان يريد أن يصلي، فإنشاء مسجد إلى جانب مطعم هذا تعزيز لرسول الله.

أيّ عمل صالح من دون استثناء مع أي مخلوق هو في حقيقته قرض لله عز وجل:

قال تعالى:

(إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

الله عز وجل الذات الكاملة، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، هل يحتاج إلى أن تقرضه؟ أي عمل صالح مع مخلوقاته قرض له.

إذا قال لك ملك معه أموال الدنيا كلها، قال لك: أقرضني ليرة واحدة ليعطيك مقابلاً لها مليون ليرة تقريباً، ملك الملوك يقول لك: أقرضني ليرة وسأكافئك عليها بمليون ليرة.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

الله عز وجل يطلب منا أن نقرضه، يا عبدي اعمل عملاً، تاجر معي، اربح علي، اعمل عملاً لي حتى أكافئك مكافأة لا تعد ولا تحصى، هذا معنى:

(وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

أي عمل صالح من دون استثناء مع أي مخلوق هو في حقيقته قرض لله عز وجل، الآن الله عز وجل أعطاك ثمن معيته الخاصة، معيته الخاصة أكبر ميزة ينالها الإنسان على وجه الأرض، الأقوياء لهم ميزات، لكنهم سيقصَمون، لكن أنت في سلام مع الله عز وجل، أن يكون الله معك هذه معية خاصة، هو معك بالتأييد، بالحفظ، بالتوفيق، بالنصر، معك بالسكينة، معك بالتجلي، هذه المعية ثمنها أن تقيم الصلاة، وأن تؤتي الزكاة وأن تؤمن برسول الله، وأن تعزره، وأن تقرض الله قرضاً حسناً، هذه بنود الثمن.

(وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

معية الله ثمنها أداء الصلوات وأداء الزكاة والإيمان بالرسول ثم العمل الصالح:

كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، السيئات كلها تمحى مع هذه الأعمال البطولية:

(وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

والله أيها الأخوة قضية رائعة جداً، معية الله ثمنها أداء الصلوات، وأداء الزكاة، والإيمان بالرسول ودعمه بأية طريقة، ثم العمل الصالح، افعل هذه البنود وعندئذٍ يكون الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك.

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطـاك من يمنعه ثمن من يعطي إذا ما منعك

ماذا فعل اليهود؟ قال تعالى: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ)

الباء هنا باء السبب، أي بسبب نقضهم الميثاق.

(لَعَنَّاهُمْ)

أي أبعدناهم وطردناهم، إذاً أكبر عقاب يقابل أكبر مكسب، يكون العبد ملعوناً من قبل الله، أي مطروداً ومحروماً ومبعداً.

كل إنسان قلبه قاس مطرود وبعيد وملعون :

قال تعالى:

(لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً)

قسوة القلب دليل البعد عن الله، قسوة القلب دليل الطرد، قسوة القلب دليل اللعن، كل إنسان قلبه قاس مطرود بعيد ملعون، إذا كان في للإيمان مؤشر كعداد المركبة، وللرحمة في القلب مؤشر، مؤشر الرحمة ومؤشر الإيمان يتحركان معاً، أنت رحيم بقدر إيمانك، رحيم بقدر إقبالك:

(وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً)

الآن استحكمت فيهم الشهوات، الآن سيوجهون النصوص الدينية لصالحهم، هو يريد أن يأكل الربا، هناك آية محرمة تحريماً قطعياً، اقرأ الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران: 130]

الله نهى عن النسب العالية فقط، الآن لأنه أراد الدنيا، وقلبه قاسي عندئذٍ:

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)

يصرف الآيات لصالحه.

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر: 99]

أنا أيقنت انتهى، العبادة انتهت، أنا أيقنت أن الله موجود.

أمثلة تحريم الكلم عن مواضعه عند المسلمين :

قال تعالى:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

[سورة الحج: 41]

الله لم يمكنا حتى نصلي، لسنا ممكنين في الأرض، هذا من أمثلة تحريم الكلم عن مواضعه عند المسلمين، النبي قال عليه الصلاة والسلام:

((من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مصلانا))

[عن عبد الله بن عمر]

يأكل حبتين من الثوم، يقول لك: أنا لا أقدر أن أصلي، النبي نهاني أن أصلي، أكل حبتين، هناك ملايين الأمثلة المضحكة من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، طبعاً هذا شيء مضحك، لكن هناك فتاوى غير مضحكة، للمرأة أن تنزع حجابها في بلاد الغرب ضماناً لسلامتها من أن تتهم من أنها إرهابية، انزع الحجاب، ولك أن تقاتل مع جيش يقاتل المسلمين، إنك أقسمت الولاء لهم، ينبغي أن تقاتل معهم، الآن تخرج فتاوى الإنسان يخرج من جلده منها، هذا تحريف للكلم عن موضعه:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)

فرق كبير بين أن تنتمي وبين أن تلتزم :

أخذوا من الدين مظاهره البيضاء السهلة، عطراً، ومسكاً، ومسبحة، لكن ليس هناك دين أبداً:

(وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)

تركوا التطبيق، وأخذوا المظاهر:

(وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ)

من جبلتهم الخيانة.

(إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ)

هذه الموضوعية في القرآن الكريم، بعض من أهل الكتاب صالحون وورعون ومؤمنون.

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*مِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ)

الآن دققوا:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)

لم يطبقوا بنود منهجهم، لكنهم انتموا إلى هذا الدين، هناك انتماء، وهناك تطبيق، الآن أي إنسان أعطني هويتك مسلم من أب مسلم وأم مسلمة، هذا ينتمي إلى هذا الدين لكن لا يطبق منه شيئاً، ففرق كبير بين أن تنتمي وبين أن تلتزم، الانتماء قائم الالتزام غير قائم.

العداوة والبغضاء من صفات المتفلتين من منهج الله :

قال تعالى:

(وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى)

لم ينتمون إلى النصرانية:

(أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)

النتيجة:

(فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

ما هو قانون العداوة والبغضاء؟ قانون العداوة والبغضاء أنك إذا نسيت حظاً مما ذكرت به تصبح إنساناً عدوانياً، تصبح إنساناً همك العداوة والبغضاء، العداوة والبغضاء من صفات المتفلتين من منهج الله، ليس هناك آية أوضح من ذلك:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

الخصومات، والحزازات، والكراهية، والطعن، والخلافات، وهذه بين المسلمين أيضاً، التجمعات الإسلامية لأنها غير ملتزمة حقيقة بأحكام الدين، تجمعات مصلحية أساسها العدوان، والطعن، والتحزب، والتعصب.

خصائص الفرق الضالة :

دققوا أيها الأخوة ما من فرقة ضالة من عهد رسول الله إلى يوم القيامة إلا ولها أربع خصائص: تأليه الأشخاص، وتخفيف التكاليف، واعتماد النصوص الضعيفة، والنزعة العدوانية. هذه الآية:

(وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمْ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

نعيد النتائج المستنبطة من هذه الآية أولاً: لله عز وجل معية عامة: هي معية العلم، وهو معكم أينما كنتم، معكم بعلمه. ومعية خاصة: معية المؤمنين والمتقين والصادقين.

المعية الخاصة: تأييد ونصر وحفظ وتوفيق، المعية الخاصة لها ثمن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالسنة، وتعزيز النبي بتطبيق سنته، أو تعزيز من ينوب عنه بإلقاء العلم، وأن تقرض الله قرضاً حسناً أن تعمل الصالحات، أما اليهود حينما نقضوا ميثاقهم لعنهم الله، وجعل قلوبهم قاسية، وحينما قسا القلب تعلقت النفس في الدنيا والمال، النصوص تصطدم مع هذه الشهوات، إذاً نعدل النص:

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ)

الخيانة ديدنهم.

معنى المعصية :

قال تعالى:

(إِلَّا قَلِيلاً)

الموضوعية:

(مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

هذه العداوة بين جماعات المسلمين وبين جماعات غير المسلمين، وبين المسلمين وغير المسلمين، عداوات لا تنتهي سببها أن كل الأطراف:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)

بشكل مبسط:

((ما تواد اثنان، ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أحمد عن ابن عمر]

هذه هي، بشكل مبسط رائع:

((ما تواد اثنان، ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أحمد عن ابن عمر]

المعصية تعني البغضاء والعداوة، والتعصب والغطرسة، والاستعلاء والطعن، والغمز واللمز، نسيان الحظ مما ذكر الإنسان به.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول ـ سورة المائدة 005 : الدرس (13-49) :تفسير الآية ، 15-17ـ حفظ القرآن الكريم وملكية الله المطلقة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-14

بسم الله الرحمن الرحيم

من دلائل نبوة النبي القطعية أنه جاء في القرآن أسرار وخفايا ما في الكتب السابقة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

أيها الأخوة، من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم القطعية أنه جاء في القرآن أسرار وخفايا ما في الكتب السابقة لهذا القرآن كالتوراة والإنجيل، قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

[سورة آل عمران: 44]

من أين جئت يا محمد بهذه الأخبار الدقيقة التي وردت في الكتب السابقة لولا أنه يوحى إليك؟ لذلك ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم السابقة، ومن دقائق الحوادث وتفاصيلها يعد دليلاً قطعياً على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ)

أهل الكتاب أخفوا بشارة عيسى بن مريم لسيدنا محمد.

موضوع الإعجاز ككل هو أكبر دليل قطعي على أن هذا القرآن الكريم كلام الله :

قال تعالى:

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

[سورة الصف: 6]

طبعاً هذا أخفاه أهل الكتاب، فجاء القرآن الكريم بهذا الذي أخفوه، الشيء الثاني كتمهيد لهذا الموضوع لو أن وزارةً قائمة، وهناك عدة مؤسسات، كل مؤسسة تابعة لوزير، لو أن مدير مؤسسة، وهو تابع لوزير معين يتلقى منه التوجيهات، ثم غيرت الوزارة، ألفت وزارة جديدة، وتبدل الوزير الذي يعطي

مدير المؤسسة التوجيهات، فقال مدير المؤسسة: أنا لا أتلقى توجيهاتي إلا من الوزير السابق، ولم يعترف بالوزير الجديد، أليس هذا عصياناً للملك الذي بدل الوزارة؟ هذا عصيان واضح جداً، فالله عز وجل حينما ينزل كتاباً، ويبعث رسولاً بعد رسول سابق، وبعد كتاب سابق، فالذي يعبد الله يأتمر بأمر النبي الجديد، ويأتمر بأمر الكتاب الجديد، فهذا فضلاً عن أن الكتاب الجديد فيه أدلة قاطعة على أن الذي جاء به نبي من عند الله عز وجل، فالله عز وجل يقول:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا)

الله عز وجل حينما يرسل رسولاً يجعل معه برهاناً، البرهان هو المعجزة، كيف يصدق الناس أن هذا الإنسان رسول الله؟ لا بد من أن يشهد الله لهم أنه رسوله عن طريق المعجزة، فأي رسول جاء بالمعجزة، والنبي عليه الصلاة والسلام معه معجزة، أضخم معجزة له القرآن الكريم الذي جاء به، وفيه إعجاز إخباري، وإعجاز تشريعي، وإعجاز بلاغي، وإعجاز علمي، موضوع الإعجاز ككل هو أكبر دليل قطعي على أن هذا القرآن الكريم كلام الله، وإذا كان هذا القرآن كلام الله فالذي جاء به قطعاً هو رسول الله، وكنت أقول دائماً: إنك تؤمن بالله عن طريق العقل من خلال الكون الذي هو تجسيد لأسماء الله الحسنى، وتؤمن بالقرآن من خلال إعجازه بعقلك، وتؤمن بالنبي من خلال كتابه، فإذا آمنت بالله من خلال الكون، وبالقرآن من خلال الإعجاز، وبالنبي من خلال القرآن، أدى العقل أعلى مهمة كلف بها أنه حملك على الإيمان بالله وبكتابه وبرسوله، وانتهى دور العقل وجاء دور النقل، التلقي.

أهل الكتاب أخفوا كل الدلائل والبشارات التي جاءت في كتبهم عن رسول الله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)

[سورة البقرة: 183]

تلقي أمراً بالصيام، أمراً بالحج، أمراً بأداء الزكاة، أمراً بالصلاة، أمراً بضبط اللسان، أمراً بالأمانة، أمراً بالصدق، الآن نتلقى عن الله كل ما أمر به في الكتاب والسنة، فالله عز وجل يخاطب أهل الكتاب أنه قد جاءكم رسولنا، نحن أرسلناه، أعطيناه الدليل، لكن الشيء الذي لا يصدق، ودققوا فيما سأقول: أنت عندك معارف في حياتك، ما هي أقوى معرفة؟ ما الشيء الذي تعرفه بداهةً من أول نظرة من صوته، من حركته؟ هو ابنك، قال تعالى:

(يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

أي رسول الله يعرفونه، هل هناك من معرفة سريعة يقينية قطعية، هل هناك أب في الأرض يرى ابنه، ويقول له: ما اسمك أنت؟ أنت متى ولدت؟ مستحيل، ومع ذلك أخفوا كل الدلائل والبشارات التي جاءت في كتبهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإخفاء بدافع المصالح الدنيوية، والزعامات الدينية، والكبر.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

الحكمة من حفظ الله سبحانه وتعالى للقرآن الكريم :

هذا الذي أخفوه ذكر الله بعضه، وعفا عن بعض حفاظاً لهم على ماء وجوههم، لكن أي شيء أخفوه، وأي شيء حرفوه هو في علم الله عز وجل، إلا أن هناك فرقاً بين الكتب السابقة وبين القرآن الكريم، فالكتب السابقة لم يتكفل الله بحفظها، ذلك لأن المعجزة شيء والكتاب شيء آخر، أما القرآن فتكفل بحفظه بنص القرآن الكريم، إذ يقول:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر:9]

لماذا؟ لأن المعجزة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم، فإن لم يحفظها ضاعت المعجزة، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، وليس بعده نبي، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لكل الأمم والشعوب إلى يوم القيامة، فلا بد من معجزة مستمرة، فإن لم يتولّ الله حفظ هذه المعجزة ضاعت البينة، لذلك الله عز وجل بالذات القرآن الكريم تولى حفظه، قال تعالى:

(لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر:9]

ومن لوازم حفظ القرآن الكريم حفظ سنة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها بيان لهذا الكتاب، لذلك هيأ الله لهذه السنة رجالاً عندهم من الملكات ما لا يوصف، وعندهم من الدأب والإصرار والجهد الذي بذل ما لا يصدق حتى حفظوا لنا هذه السنة، وفرزوها بين حديث مختلق موضوع، لا أصل له، وبين حديث حسن، وبين حديث صحيح، وبين حديث متواتر، فالجهد الذي قاموا به بمعونة الله عز وجل، وهي من بنود حفظ كتاب الله.

كل شيء أخفاه أهل الكتاب ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً عن القرآن الكريم :

إذاً:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ)

كل شيء أخفاه أهل الكتاب ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً عن القرآن الكريم:

(وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

أي عرف بعضه وأعرض عن بعض، ذكر النبي شيئاً ولم يذكر أشياء، ذكر كذبةً وترك كذبات.

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

العلم نور أيها الأخوة، أنت في نعمة قد لا تعرفها، تعلم أن هذا الكون له خالق، وأن هذا الخالق واحد، وأن هذا الخالق الواحد كامل، وأن أسماء الله عز وجل حسنى، وأنه خلق الإنسان في الحياة الدنيا ليعد لحياة أبدية، وأن هذه الدنيا تنقطع بالموت، ولكن الحياة الأبدية لا تنتهي، حياة مستمرة، فهذه الحقائق التي تعلمتها من كتاب الله، هذه تحدث عندك توازناً، تحدث عندك صورة منسقة كاملة واضحة عميقة للكون والحياة والإنسان، هذه نعمة لا يعرفها إلا المسلمون، لأنهم يعتقدون اعتقادات من عند خالق السماوات والأرض، خالق الأرض والسماوات أعطاهم صورةً كاملةً لحقيقة الكون، ولحقيقة الحياة، ولحقيقة الإنسان، ولحقيقة الماضي والحاضر والمستقبل.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ)

الشيء الذي يلفت النظر أن الله علم مسبقاً أنه سيكون هناك تواصل في الأرض، مثلاً، والله لا أتمنى أن أقول هذا افتخاراً، لكن الدرس الذي يلقى بعد التراويح هذا بعد ساعة يكون بالإنترنت يستطيع أن يسمعه بالصوت كل إنسان في القارات الخمس، الأرض أصبحت غرفة واحدة، أنا أذهب إلى البيت، أفتح الإنترنت أستمع إلى درسي بعد ساعة في كل أنحاء الأرض، الآن الأرض كلها غرفة واحدة، أينما ذهبت تجد العلم الإسلامي منتشراً هناك.

النبي الكريم آخر الأنبياء لأن دقائق رسالته وبعثته ستنتقل إلى كل أهل الأرض :

مرة زرت أستراليا، ودعيت لألقي محاضرة في جامعة سيدني، وجدت أمين المكتبة استقبلني استقبالاً عجيباً وحاراً، ثم علمت أنه يستقي كل معلوماته الدينية من موقعي في الإنترنت، قلت: يا سبحان الله إنسان قابع في الشام، وكل شيء قاله في الدروس يصل إلى أقصى أطراف الدنيا، لأن الله علم أن سيكون هناك تواصل في الأرض، من أجل أن نصل من المدينة إلى البصرة أشهر، الآن يمكن أن ترسل رسالة عبر الفاكس بثانية بأقصى أنحاء المعمورة، يمكن أن ترسل رسالة بهذا إلى أقصى مكان في الأرض بثانية، شيء لا يصدق، علم الله أنه سيكون هناك تواصل، لذلك كان النبي آخر الأنبياء، لأن دقائق رسالته وتفاصيل بعثته سوف تنتقل عبر هذه الوسائل إلى كل أهل الأرض، ولا أدل بعد ذلك من

نقل الصورة عبر الأقمار، ما يحدث في طرف الدنيا تراه بعد دقيقة بحقيقته مصوراً بشكل دقيق، هذا التواصل من الثورة التي يسميها الآن بعضهم ثورة المعلومات.

فلأن النبي صلى الله عليه وسلم كان خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعثته خاتمة البعثات، وكتابه آخر الكتب، هذا لعلم الله مسبقاً أنه سيكون هناك تواصل بين أطراف الأرض.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

الله عز وجل نوّر بالشمس الأكوان ونوّر الحياة بالقرآن الكريم :

أخواننا الكرام: الأمور واضحة كالشمس، لن يبقى أمامنا إلا تطبيق القرآن، واضح، وكل الحوادث التي تقع كل يوم تؤكد ما في القرآن الكريم، فالقرآن نور، به تعلم ما كان وما يكون وما سيكون، أنت حينما ترى شيئاً منكراً قد أصبح مألوفاً وتعجب، يقول عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً المنكر معروفاً؟))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأبو يعلى الموصلي عن أبي أمامة]

((حتى يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً وتفيض اللئام فيضاً ويغيض الكرام غيضاً))

[أخرجه الطبراني عن عائشة أم المؤمنين]

واللهِ وصلنا إلى هذا الزمان، الشيء الذي لا يقبل مألوف عند الناس، طبيعي جداً، والشيء الذي ينبغي أن نفعله لا نفعله.

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

الله عز وجل نوّر بالشمس الأكوان، ونوّر الحياة بالقرآن الكريم، في القرآن شيء اسمه حرام، وحلال، وواجب، ومندوب، ومباح، ومستحب، ومكروه، ما من شيء على وجه الأرض إلا ويعتوره حكم شرعي، حلال أو حرام، واجب أو فرض، مكروه أو محرم، مباح أو مستحب.

(وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

أي تبدلات وتغييرات وتزويرات في الكتب السابقة يعلمها الله، لكن الله عز وجل ذكر بعضها، وترك بعضها الآخر.

حينما تتبع منهج الله يهديك الله سبل السلام :

قال تعالى:

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ*يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

أنت حينما تطبق ما في القرآن الكريم يهديك سبل السلام مع نفسك، فأنت في راحة، وأنت في توازن، وأنت في سعادة، لأنك تطبق منهج الله عز وجل، نفسك مرتاحة، ذلك أن منهج الله عز وجل هو عين فطرتك، فالذي يستقيم على أمر الله يجد نفسه ترتاح، لأنه يطبق مبادئ فطرته، مثلاً أنت حينما تفتح كتيباً في مركبة حديثة، يقول لك الكتيب: لا تمش إلا على طريق معبد، الآن تمشي أنت بهذه المركبة على طريق وعر، تسمع أصواتاً، وتسمع اضطرابات، وحركة بطيئة، وعقبات كأداء، فلما سرت بها على طريق معبد انسابت السيارة، وانطلقت بصوت خفيض، وسرعة عالية، فكتيب فيه تعليمات وممارسة واقعية تطابق ما في الكتيب، مع الممارسة هذا دليل أن هذا الكتاب من عند صانع هذه المركبة، تطابق ما في الكتيب مع هذه الممارسة يؤكد أن هذا الكتيب من عند صانع هذه المركبة، فسواء أخرجت عن أوامر الله وعن نواهيه أو خرجت عن مبادئ فطرتك فالمحصلة واحدة، أنت تشعر بكآبة إذا عصيت الله، وتشعر بكآبة إذا خالفت مبادئ فطرتك، إذاً أنت حينما تتبع منهج الله يهديك الله إلى سبل السلام، السبل جمع سبيل، للسلام مع نفسك، وسبيل السلام مع أسرتك، أنت حينما تطبق منهج الله في بيتك ترى الزوجة صالحة ومطواعة ومحبة، لأنك تعاملها وفق منهج الله، وتجد الأولاد تحبهم، وتحرص على سعادتهم، لأنك ربيتهم تربيةً إسلامية، فإذا بسبيل سلام آخر مع أولادك، ومع زوجتك، الآن هناك سبيل سلام آخر مع عملك، مادام لا غش فيه، ولا كذب، ولا تدليس، ولا احتيال، ولا احتكار.

تاجر محترم جداً، محبوب، فهناك سبيل السلام بتجارتك، وسبيل للسلام بوظيفتك، تؤدي واجبك بالتمام والكمال من دون رقيب، فلك مكانة في هذه الدائرة، الآن أنت كزوج مطبق لمنهج الله، محترم جداً في بيتك، لا لأنك في الأصل محترم بل لأنك اكتسبت هذا الاحترام من تطبيق منهج الله، فالأب يقطف ثمار أبوته إذا طبق تعليمات الصانع مع أولاده، والزوج يقطف ثمار أنه زوج صالح إذا طبق تعليمات القرآن الكريم، والتاجر يقطف ثمار تجارته إذا طبق التعليمات، فكأن الله يهديك سبل السلام، مع صحتك لا تأكل حتى تجوع، وإذا أكلت لا تشبع، يكفي ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، لو طبق هذه النصيحة النبوية لعاش في سلام مع صحته.

إذا استقيت العقيدة الصحيحة الإسلامية فسَّرت لك كل شيء تفسيراً متوازناً عميقاً :

قضية السلام قضية رائعة جداً، أنت في سلام مع جسمك، في سلام مع نفسك، في سلام مع عقلك، إذا استقيت العقيدة الصحيحة الإسلامية فسَّرت لك كل شيء تفسيراً متوازناً عميقاً، لا تقع في حيرة، فأنت تضمن السلام مع عقلك، ومع نفسك، ومع جسمك، ومع زوجتك، ومع والديك، ومع أولادك، ومع أحفادك، ومع زبائنك في التجارة، ومع رؤسائك في العمل، ومع كل الخلق.

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

الحق لا يتعدد، الحق جاء مفرداً، أما الباطل فمتعدد، ظلمة الكفر، ظلمة الشرك، ظلمة الإلحاد، ظلمة المعصية، ظلمة الفسق، ظلمة الفجور، ظلمة الظلم، هذه كلها ظلمات، أما النور فواحد، أنت مستقيم، تؤدي ما عليك، تكسب مالك بالحلال، تنام مطمئناً.

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

أي هذا الصراط ينتهي إلى الجنة، أين طريق الجامعة؟ أين طريق الجنة؟ الله عز وجل يهديك طريقاً مستقيماً، ومعنى مستقيماً أقصر طريق بين نقطتين، أقصر خط هو المستقيم لذلك إذا طبقت منهج الله عز وجل فأنت على طريق مستقيم ينتهي بك إلى الجنة.

لا معبود بحقٍ إلا الله :

ثم يقول الله عز وجل:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

لو كانوا آلهة لما أمكنه أن يهلكهم، لو كانوا آلهة لكانوا أنداده، لكن من يملك من الله شيئاً قال تعالى:

(أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

ليس إلا الله، ولا إله إلا الله، ولا يعبد غير الله، وهو الذي يستحق العبادة وحده، ولا معبود بحق إلا الله، هو الذات الكاملة ووحده الإله وما سواه مخلوقون، عاجزون، ضعفاء، مفتقرون في وجودهم وفي استمرار حياتهم إلى الله، لذلك الأنبياء وصفوا بأنهم كانوا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، هم مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام، ومفتقرون في ثمن الطعام إلى المشي بالأسواق للعمل، نعمل فنكسب المال، فنأكل، فنبقى أحياء، هذا ملخص الملخص. نعمل، نكسب المال، نشتري به الطعام

والشراب، نأكل، نبقى أحياء، فنحن مفتقرون في وجودنا إلى تناول الطعام والشراب، ومفتقرون إلى الطعام والشراب عن طريق العمل والسعي والكد والتعب، إذاً ما من إنسان إله، والدليل أن الله قادر على أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً.

الملكية لله ملكية مطلقة يملك ما في السماوات وما في الأرض خلقاً وتصرفاً ومصيراً:

قال تعالى:

(أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الملكية لله ملكية مطلقة، يملك ما في السماوات وما في الأرض خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، أنت في الدنيا قد تملك بيتاً ولا تنتفع به، وقد تنتفع ببيت ولا تملكه، المالك المؤجر على النظام القديم يملك ولا ينتفع، والمستأجر ينتفع ولا يملك، لكن لو أنك تملك وتنتفع، وصدر قرار تنظيم، فألغي البيت، الآن تملك وتنتفع ولكن المصير ليس لك، لكن ملكية الله عز وجل ولله المثل الأعلى يملك خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً.

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

السماوات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله، الله واجب الوجود ما سواه ممكن الوجود، فكلمة السماوات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون.

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

تعلقت قدرته بكل ممكن، على كل شيء قدير، يفعل ما يريد وعلى كل شيء قدير.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 – الدرس (14-49) : تفسير الآية 18 ، أمراض بني إسرائيل وقع فيها المسلمون اليوم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-21

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل أكثر من الحديث عن بني إسرائيل في القرآن لأنهم أهل كتاب مثلنا :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثامنة عشرة، وهي قوله تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

أيها الأخوة، قد يسأل سائل: لماذا يكثر الله جل جلاله من الحديث عن بني إسرائيل في القرآن الكريم؟ والجواب واضح جداً: لأنهم أهل كتاب، ونحن أهل كتاب، نحن أهل القرآن، وأمراض أهل الكتاب معرضون لها نحن تماماً، وحينما يحدثنا ربنا عن أمراض أهل الكتاب من قبل فهذا أسلوب تربوي رائع اسمه التوجيه غير المباشر، فالأمراض الذي وقعت بها بنو إسرائيل المؤسف أننا وقعنا فيها، مثلاً: كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ونحن نجامل، ولا نأمر بالمعروف، ولا ننهى عن المنكر، وفي اللحظة التي نكف فيها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدنا خيريتنا، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

علة هذه الخيرية:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران: 110]

بعض من أمراض بني إسرائيل وقعنا فيها :

إذا فقدت علة خيريتنا فقدنا خيريتنا، وأصبحنا أمة من الأمم، ليس لنا عند الله شيء، إذاً هذا مرض من أمراض بني إسرائيل، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، نحن فعلنا مثلهم، بل قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا فسق فتيانكم وطغى نساؤكم، قالوا يا رسول وإن ذلك لكائن؟ فقال عليه الصلاة والسلام: وأشد منه سيكون، قالوا وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن

المنكر؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر، ونهيُتم عن المعروف؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُّ منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً))

[تاج الأصول في جامع أحاديث الرسول عن علي بن أبي طالب]

ونعيش نحن في هذا العصر شيئاً من هذه المصيبة، أن المعروف أصبح منكراً، وأن المنكر أصبح معروفاً، إذاً هذا مرض انتقل إلينا، والحديث عن أمراض أهل الكتاب يعنينا بكل ما فيه. مرض آخر، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

((أنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

هذا يعبر عنه اليوم بازدواج المعايير، وازدواج المكاييل، فالحد لا يطبق على كل الناس، يطبق على بعضهم، وهذا من أسباب هلاك الأمم، ومن أسباب هلاك الأمم بئر معطلة وقصر مشيد، أي المرافق الأساسية معطلة، وأهل الغنى يتمتعون بحياة تفوق حد الخيال، بيوت فخمة جداً، إنفاق بغير حساب، والمرافق الأساسية للناس، وهو البئر عنده معطلة، وبئر معطلة وقصر مشيد، هذا مرض آخر من أمراض الأمم السابقة التي استحقوا عليها الهلاك موجود عندنا، أي مليون لا يملكون واحداً وواحد يملك مليوناً، هذا المال ليس وفق تصميم الله عز وجل، حينما خلق الله المال خلقه ليكون متداولاً بين كل الناس، فإذا تجمع بين أيدي قليلة، وحرمت منه الكثرة الكثيرة استحق هذا المجتمع الهلاك لأنه مجتمع لا يرحم القوي، هو الغني فقط، والقوي لا يرحم، والغني لا يرحم.

أمراض كثيرة ألمت ببني إسرائيل ونحن مرشحون أن نصاب بها :

أمراض كثيرة ألمت ببني إسرائيل، ونحن مرشحون أن نصاب بها، لذلك هذا مرض من هذه الأمراض ادعاء أننا أمة محمد، ادعاء أننا أمة القرآن الكريم، يا أمة القرآن لسنا مطبقين شيئاً منها، ادعاء أننا أمة خاتم الأنبياء والمرسلين، نحن أمة مختارة، تحدث ما شئت، الله عز وجل لم يقبل منا ذلك، بدليل أنه يعذبنا في شتى بقاع الأرض، هذه آية، أخوتنا والله الذي لا إله إلا هو، أكاد لا أجد آية متعلقة بأهل الكتاب تنطبق على المسلمين كهذه الآية، ادعاء:

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

* * *

كل فئة تدعي أن الله لها وحدها، وأن الجنة لها وحدها، كل فئة، كل فقاعة من فقاعات العالم الإسلامي تدعي أن الله لها، وأنها الفرقة الناجية، وأنها وحدها على حق وما سواها على الباطل وإلى النار، هل بعد هذا التمزق من تمزق؟ هل بعد هذه الشرذمة من شرذمة؟ أمراض أهل الكتاب وقعنا فيها، قال تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ)

هذا ادعاء:

(وَأَحِبَّاؤُهُ)

الخلق كلهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له :

لو أن الله جل جلاله قبل دعواهم لما عذبهم:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

هذا الدليل أنه ما قَبِل هذه الدعوة بل ردها، والدليل الموقف العملي، إذا كنت تدعي أن لك علاقةً بفلان حميمة، وأن إشارتك إليه أمر، وأنك إذا دخلت عليه قامت الدنيا ولم تقعد ترحيباً بك، فذهبت مع صديقك إلى مكتبه، فلم يقل لك: اجلس، ولم يلتفت إليك، ولم ينادك باسمك، من أنت؟ ماذا تريد؟ كل الذي قاله من علاقة متينة، وعلاقة وشيجة مع هذا الإنسان باطلة، بدليل أن فعل هذا الإنسان لا ينطبق على دعوى الأول، دعوى باطلة، أنا أسوق لكم قصةً أيها الأخوة. في الحقيقة قصة ذات تعبير كبير، أن النبي صلى الله عليه وسلم، وكلامه حق، ولا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، كان إذا دخل عليه سعد بن أبي وقاص يقول: هذا خالي، مداعباً له، والعظماء إذا داعبوا إنساناً فلمقامه الكبير، هذا خالي، فأروني خالاً مثل خالي، لم يَرِد أن النبي صلى الله عليه وسلم فدا صحابياً بأمه وأبيه إلا سعداً، قال له:

((ارْمِ فداك أبي وأمِّي))

[متفق عليه عن علي بن أبي طالب]

ومع كل ذلك قال له عمر بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى قال: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له. هذه حقيقة أيها الأخوة تحل مليون مشكلة، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

تمايز العباد باستقامتهم وإيمانهم :

سلمان فارسي ليس عربياً أصيلاً، ليس من أرومة قريش، ليس له نسل عظيم، قال عليه الصلاة والسلام:

((سلمان منا آل البيت))

[الحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

وقال تعالى عن عم النبي صلى الله عليه وسلم:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

[سورة المسد: 1-2]

أين النسب؟ عم النبي تبت يدا أبي لهب وتب، وسلمان منا آل البيت، هذا هو الدين، الناس سواسية كأسنان المشط، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، يجب أن تنطلق من أن أي إنسان خلقه الله عز وجل له عند الله مكانة لا تقل عن مكانتك، وإذا تمايز العباد فبعلمهم وباستقامتهم، العباد يتمايزون باستقامتهم وبإيمانهم، لأن قيمة الإيمان والعلم معتمدة في القرآن الكريم، ولأن قيمة العمل معتمدة في القرآن الكريم، أما قيم لا تعد ولا تحصى معتمدة عند أهل الأرض لا قيمة لها عند الله، يقول لك: أنا أبيض، خير إن شاء الله، فلان ملون، قد يكون قلامة ظفر الملون تعدل عند الله مليون أبيض، هذه قيمة جاهلية تحت أقدامنا، كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكروا سيدنا الصديق قالوا: هو سيدنا وأعتق سيدنا، أي بلالاً، فقيمة اللون تحت أقدامنا. قيمة المال الله عز وجل أعطى المال لمن لا يحب، أعطاه لقارون، وكان عليه الصلاة والسلام فقيراً، جاءه جبريل قال له: يا محمد، أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره، أي بالمئة فقير قد ينجو ثمانون، لكن بالمئة غني قد لا ينجو عشرة.

الضعف المادي، وضعف القوة أقرب إلى العبودية من قوة المال وقوة السلطان، فلذلك الله أعطى المال لمن لا يحب، وأعطى القوة لمن لا يحب، هل يحب فرعوناً؟ جعله ملكاً، ليس معنى ذلك أن كل ملك كفرعون، لا سيدنا سليمان آتاه الله الملك، قيمة حيادية، لا تقدم ولا تؤخر، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

أما هؤلاء الذين يحبهم الله عز وجل ماذا أعطاهم؟ قال تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

القيم القرآنية المعتمدة قيمة العلم والعمل :

أيها الأخوة الكرام، مقاييس الأرض المال، أندم الناس غني دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار، دخل ورثته بماله الجنة، لأن ورثته ورثوا مالاً حلالاً، أنفقوه في طاعة الله، فدخلوا به الجنة، أما هو فكسب مالاً حراماً، فدخل به النار، لذلك ما من ميت إلا وروح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي يا ولدي لا تلعب بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي. قيمة المال لا قيمة لها:

((رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره.))

[الطبراني في المعجم الأوسط من حديث أنس بن مالك]

الإنسان الذي في الدرجة الدنيا اجتماعياً قد لا يستقبل، قل له: ليس هنا، قد لا يستقبل، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره، لذلك قال تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

[سورة الواقعة: 1-3]

قد تجد المسكين والفقير في أعلى مقام، وقد تجد الغني المترف يوم القيامة في أدنى مقام، إذاً حينما نعتمد قيماً أرضية لا نفلح، قيم أهل الأرض المال، ومع المال القوة، ومع القوة الوسامة، ومع الوسامة الذكاء، ومع الذكاء الحسب والنسب، هذه قيم أهل الأرض لم تعتمد في القرآن الكريم إطلاقاً، إنما الذي اعتمد قيمة العلم، قال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: 9]

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: 11]

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

والقيمة القرآنية المعتمدة قيمة العمل، قال تعالى:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

قيمة العلم والعمل.

الذي يؤسف له أن واقعنا ليس في مستوى ماضينا :

لذلك حينما نعتمد قيم أهل الدنيا لا نفلح، أما إذا اعتمدنا قيم القرآن الكريم نفلح، اسمعوا وأطيعوا ولو تولى عليكم عبد رأسه كالزبيبة، نظام الإسلام عجيب جداً، جيش من كبار الصحابة، وفيهم أبو بكر وعثمان وعلي، قائد الجيش شاب في السابعة عشرة من عمره، أسامة بن زيد، يركب أسامة الناقة، ويمشي أبو بكر خليفة المسلمين، هو أديب جداً، قال: والله يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن، قال: والله لا نزلت ولا ركبت، وما علي أن تغبر قدمي ساعة في سبيل الله، عين قائد جيش، الآن اضطر أبو بكر رضي الله عنه أن يبقي عمر، هذا عمر جندي تحت إمرة أسامة، إذاً لا بد من خليفة المسلمين من أن يستأذن أسامة في عمر، فقال له: أتأذن لي بعمر يا أسامة. هذا هو الإسلام، نظام ما بعده نظام، إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم غلام صغير، جاءت ضيافة، فبحسب ما ألف الصحابة من رسول الله يبدؤون برسول الله، ويثنون بالذي عن يمينه، وعن يسار النبي صلى الله عليه وسلم أشياخ كبار، قال له: يا غلام، أتأذن لي أن أعطي الأشياخ؟ قال: لا والله لا آذن لك، هذا النظام.

هذه الأمة التي هي الآن تعشش فيها الفوضى، أنا أقول: لعلهم فحصوا دم العربي فوجدوا فيه كرية حمراء وكرية بيضاء وكرية فوضى، لكن أجدادنا السلف الصالح كانوا على مستوى من النظام يفوق حد الخيال، ما فتحوا الأرض بالفوضى، الآن لو ذهبت إلى الحج أو إلى العمرة أنت مع من إنسان سيؤدي أعلى فريضة في الإسلام، يركبون في طائرة، والطائرة لا يمكن أن تقلع من دون واحد من هؤلاء، وهذا الواحد له محل مرقم، لا يمكن أن يجلس بمحل آخر، انظر إليهم على سلم الطائرة كيف يتزاحمون، أين عقلهم؟ لا يمكن أن تقلع الطائرة من دون واحد من هؤلاء، ولا يمكن أن تجلس في مكان غير مكانك، ومع ذلك ترى التدافع والشد، عجيب الأمر، أين العقل؟ فنحن أمة النظام، نحن أمة الحضارة، ولكن الذي يؤسف له أن واقعنا ليس في مستوى ماضينا.

حينما نعتمد قيمة العلم والعمل نرتقي إلى الله :

إذاً حينما نعتمد قيمة العلم والعمل نرتقي إلى الله، أما إذا اعتمدنا قيماً أخرى كقيمة القوة و المال لا نرتقي إلى الله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

أي تمسكن له، أي شكا له همه لاستعطاف قلبه ذهب ثلثا دينه، والله لو افتتحنا جمعية لتعطي الناس حاجاتهم، والله أول من يأتيك الأغنياء ليأخذوا منك، بينما الصحابة الكرام حينما هاجر أصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ما من أنصاري إلا وعرض على أخيه المهاجر نصف ماله، ونصف بستانه، وإحدى حانوتيه، وما سجل التاريخ أن مهاجراً أخذ من أنصاري شيئاً، بل كان قولهم: بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق.

الآن إن أعطيت إنساناً عطاء تلبية لحاجته لا يعمل، الأخذ أريح من العمل، كأنك تعلمه الكسل، والله يوجد أمراض في العالم الإسلامي شهد الله كأنها أمراض وبيلة، أمراض عضالة، الرغبة بالكسل، استلقاء، تأمل، متابعة أخبار، تقييم الناس، لا يقدم شيئاً، بالمناسبة أنا من عادتي أنني ـ وهذا حال أي مؤمن، وأرجو أن أكون كذلك ـ أُعَظِّم النبي إلى درجة غير معقولة، لأنه سيد الخلق وحبيب الحق، ولأنه لا يخطئ معصوم، وإنني أحتقر واحداً لا يخطئ، من هو الذي لا يخطئ ويحتقر؟ هو الذي لا يعمل، لم يعمل شيئاً حتى لا يغلط، لا يعمل إذاً لا يخطئ، هذا أحتقره، أما أي إنسان قدم شيئاً، ويوجد مع الشيء خطأ، فالخطأ يُغفَر ونكبر هذا الشيء، فمن لا يعمل لا يخطئ، فأنا أتمنى أن نعود إلى سيرة أصحاب النبي عليهم رضوان الله، ونعود إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، كيف عامل أصحابه؟ وكيف أحبه أصحابه؟ وكيف كانوا علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء؟ و كيف كانوا رهباناً في الليل، فرساناً في النهار؟ وكيف أعطوا كل شيء؟ وكيف ضحوا بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس؟

الآية التالية متعلقة بأهل الكتاب ولكنها تنطبق علينا أشد الانطباق :

أيها الأخوة: هذه آية متعلقة بأهل الكتاب، ولكنها والله الذي لا إله إلا هو تنطبق علينا أشد الانطباق:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

هذه دعوى ولك أن تقول ما شئت، الآن قل: أنا أعظم مؤمن بالأرض، كلام فارغ، كلام تلقيه على عواهنه، الآن قل: معي مليار دولار، خير إن شاء الله، مضطر لرغيف خبز، الذي يملك ملياراً لا يطلب نقوداً من أجل رغيف خبز، دائماً السلوك لا يؤكد الدعوى السلوك ضعيف جداً، لذلك ربنا عز وجل متكفل بأن يضع الإنسان في حجمه الصحيح، كيف؟ بعمله، يضع الإنسان في ظرف هذا الظرف دقيق جداً يمتحن دعواه، فإما أن يصمد، وأن يأتي عمله موافقاً لدعواه، وإما أن يسقط فيكون الله قد امتحنه، ويكون قد فرزه، لذلك الآية الكريمة:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

القضية سهلة، تقول: أنا معي دكتوراه، من أين أخذت هذه الشهادة؟ بمعلوماته ولغته هذا لا يؤكد ذلك. والله مرة قصة طريفة جرت معي، دعيت إلى عزاء، يوجد إنسان بهذا العزاء توهمته أحد علماء

الحديث في هذه البلدة، ظننته كذلك، لأن له شكلاً يشبه ذاك مئة في المئة، ألقى كلمة، صدقه أنه رفع المفعول به، فحينما رفع المفعول به أيقنت مئة بالمئة أنه ليس هذا العالم، من كلمة، من ضمة، لأن ذاك العالم مستحيل على سليقته وعلى علمه أن يرفع المفعول به، فلما رفع المفعول به أيقنت أنه ليس هذا الذي توهمته، من كلمة واحدة.

الله عز وجل ابتلاءاته عجيبة كل إنسان يضعه في ظرف يكشف على حقيقته :

أنت تكلم ما شئت، ادّع أنك مؤمن كبير، ادّع، لكنّ تصرفاً واحداً يسقطك:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت: 2-3]

الله عز وجل ابتلاءاته عجيبة، كل إنسان يضعه في ظرف يكشف على حقيقته، أي إنسان يقول لأمه ليل نهار: يا أمي حينما أتزوج سأكون أنا وزوجتي في خدمتك، قال هذا الكلام ثلاثين عاماً، ثم تزوج، الله عز وجل يخلق ظرفاً ينشأ شجاراً بين أمه وزوجته، فيأتي، ويسمع من زوجته فقط، ويغضب، ويتوعد، وينظر إلى أمه نظرة قاسية، ويقول: كل البلاء منك، إذاً كل كلامه السابق تحت قدمك، كلام بكلام، أنا أرى الأخ الذي يحلق يستخدم المقص، يمكن عشرين قصة في الهواء، وواحدة على الشعر، وهذا كلام أهل الناس كلام بكلام، أنا مؤمن، وأنا كذا، تأتي عند التطبيق العملي بعيداً عن هذا الذي قاله بُعد الأرض عن السماء، لذلك كلما رأيت من سقوط الناس، ومن تقصير الناس، ومن أن البنية التحتية لا ترضي الله عز وجل، تعلم لماذا تخلى الله عنا؟ والله الذي لا إله إلا هو، وإن شاء الله لا أحنث بهذا القسم أنه لو وجد في العالم الإسلامي اثنا عشر ألف مؤمن كما يريد الله عز وجل لن نهزم في الأرض، ليقل لي أحدكم: من أين جئت بهذا الكلام؟ أقول: جئته من حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفاً مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

مليار ومئتا مليون غثاء كغثاء السيل، واحد كألف من الصحابة، وألف كأف من الناس في آخر الزمان.

مرة ذهبت إلى العمرة، أكرمني الله بها، لكني اخترت طريقاً قديماً الذي يمر على موقعة بدر، والله وقفت ساعة، وتأثرت تأثراً شديداً، وجدت الناس يجلسون، يمدون ليجلسوا، يأكلون أطيب الطعام، يرتدون أفخر الثياب، فقلت كلمة: والله هذا الطقم الذي أمامي غير الطقم الذي عاش مع النبي، أين الثرى من الثريا؟

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح: 29]

الإيمان أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

والله بعضنا يقسو على بعض، الآن أنت أمام القوي كالهر، أما أمام أخيك المؤمن تريد أن تذبحه من الوريد إلى الوريد، جرب، يكون لك علاقة مع إنسان مسلم لا يرحمك أبداً، أما أمام القوي فيخضع. ما صفة المؤمنين؟

(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح: 29]

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة: 54]

الآن بالعكس، أمام الكافر كالهر، أما أمام مؤمن يقوى ويزبد ويرعد ويربي. أيها الأخوة:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

أكبر دليل على أن الله لم يقبل دعواهم أنه يعذبهم:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

نعاني ما نعاني من كل لون، من كل ألوان المصائب، الدليل أن الله لم يقبل دعوانا أننا من أمة محمد، أمة خاتم الأنبياء، يا أمة القرآن، أنا أقول لكم كلمة مؤلمة: الحقيقة، وأنا أعتمد الحقيقة المرة لأنني أعتقد أنها أفضل ألف مرة من الوهم المريح، في حرب العراق هل هناك مسجد في العالم الإسلامي لم يقنت في الصلوات، ويدعو على أعداء الله ليدمرهم، وأن يجعل بأسهم بينهم، وأن يزلزل الأرض تحت أقدامهم، لم يكن كذلك لأن النصر له شروط لم تكن متوافرة عندنا، فالكلام لا يقدم ولا يؤخر، كطالب ما درس أبداً، ودخل إلى الامتحان، يا رب ما لي غيرك، يا رب أنت الموفق، يا رب ألهمني الصواب، ما قرأ ولا كلمة، هذا كلام بكلام، لم تأخذ بالأسباب، الإيمان أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء.

الله رحيم لم يطالبنا أن نأخذ بالأسباب المكافئة للطرف الآخر بل بالأسباب المتاحة :

إن لم تأخذ بالأسباب لا تطمع، لكن الله رحيم، لم يطالبنا أن نأخذ بالأسباب المكافئة للطرف الآخر، بل بالأسباب المتاحة، قال تعالى:

(مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

والله أيها الأخوة، أنا أتكلم من ألم، كنت في إحدى الحجات، أقمت خمسة عشر يوماً زيادة عن الوقت المطلوب، وأردت أن أُقبل الحجر الأسود مرةً في حياتي، فذهبت إلى الحرم المكي في يوم قائظ، ستة وخمسين درجة الحرارة، وقبيل العصر، وهذا أفضل وقت لقلة الزحام، وجدت خمسين شخصاً ليس غير، ولو اصطفوا في نسق لقبلوا جميعاً الحجر الأسود، رأيت زحاماً وتدافعاً، رأيت شدّاً، حتى إن امرأةً خرجت من دون حجاب من بين الرجال، قلت: هؤلاء يخيفون العالم، خمسون إنساناً لا يستطيع أحد أن يقف في نسق، هؤلاء يخيفون العالم؟ الأمر مؤلم جداً.

أيها الأخوة: أنا لا أتكلم عن الناحية السوداء في حياتنا، لكن هذه الناحية السوداء موجودة، وهي سبب تخلي الله عنا، ليس هناك نظام.

والله أيها الأخوة: لما عدنا من الحج تأخرنا أكثر من خمس ساعات، أو سبع ساعات، قدموا شطيرة وعلبة عصير، الذي لم يصب شطيرة أو عصيراً سبّ الدين، وقد أنهى حج بيت الله الحرام، هؤلاء الحجاج نماذج، تخرج من جلدك، هؤلاء المسلمون، هؤلاء الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم: علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، طبعاً أنا لا أعمم، حاش لله، والله هنالك حجاج أولياء، لكن كمجموع فينا تقصير كثير جداً، أين هذه الأمة التي أطاعت الله عز وجل؟ أمراض بني إسرائيل عندنا.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله :

أنتم الآن مادمتم لم تستقيموا على أمر الله:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

أحياناً الإنسان يكون رقماً فقط، ما له قيمة إطلاقاً، رقم لا شأن لك عند الله، ما قدمت شيئاً حتى ترتقي إلى الله:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

مرة كنت في الخليج قبيل العدوان، وكان هناك دعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية، والدول المساندة إلى اليهود، والله إنسان قال لي: أمّن لي البديل قبل أن تطالبني أن أقاطع البضائع الأجنبية، قلت له: مثل ماذا؟ قال: ليس مستعداً أن يتخلى عن البيبسي من أجل قضية أمته، لما صار اختيار إحدى المغنيتين كم من اتصال صدر من العالم الإسلامي، تسعة وسبعون مليون اتصال، لأن هذه قضية مصيرية، هذه قضية أمة، أي المغنيتين سوف تفوز هذه أمة الإسلام أمة الغناء والطرب، أليس كذلك؟!!

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

مع هذا الكم الهائل، مع هذا الكم الهائل مع هذه الأمم المعذبة، وأنا أقول: هان أمر الله على المسلمون فهانوا على الله، والله المسلم ما له قيمة، أما إذا وقعت طائرة، وفيها ركاب من الطرف الآخر دية كل راكب خمسمئة مليون، عشرة ملايين دولار سوف ندفعها مرغمين، مئتين وسبعين ملياراً، ملياران وسبعمئة مليون دية مئتين وسبعين راكباً، أما هذه الألوف المؤلفة التي قتلت في حرب الخليج، وبعضهم قتل خطأً خطأً، مات مئة وخمسة وعشرين، هذه لا قيمة لها، صفر، هان أمر الله على المسلمين، فهانوا على الله.

من شاء أن يغفر له من دون مصيبة فليتب ومن لم يشأ فلينتظر من الله المصيبة :

إذا ما فكر الإنسان يبدأ بنفسه، يبدأ ببيته، يبدأ بعمله، يبدأ بأولاده، ما كلفك الله فوق ما تطيق، ابدأ بمن تعول، أقم الإسلام في نفسك، في بيتك، في عملك، ربِّ أولادك حتى تستحق أن تسأل الله النصر.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

تتوب إلى الله وأنت معافى يغفر لك، لا تتوب تأتي الشدة كي تحملك على التوبة، تماماً كما يقول الطبيب لمريضه: معك التهاب معدة حاد، إما أن تطبق نظام حمية قاسياً جداً، فلعلك تشفى من هذا المرض، أو تحتاج إلى عملية جراحية، الأمر بيدك، تحب معالجة دوائية من دون عملية جراحية تحتاج إلى حمية عالية جداً، تؤثر الطعام والشراب، انتظر أن تثقب المعدة، وتضطر لإجراء عملية لترقيع المعدة، إما دوائية أو عملية جراحية، هذا معنى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، هذه تعود على الإنسان، من شاء أن يغفر له من دون مصيبة فليتب، ومن لم يشأ أن يغفر له من دون مصيبة، فلينتظر من الله المصيبة، قال تعالى:

(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

كل شيء بيد الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 – الدرس (15-49) : تفسير الآيات: 19-21 ، تتمة الحديث عن بني إسرائيل وأهل الكتاب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-12-12

بسم الله الرحمن الرحيم

كمال الخلق يدل على كمال التصرف :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية التاسعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيها الأخوة، كلمة

(عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ)

أي على انقطاع من الرسل، الله سبحانه وتعالى كامل في خلقه، وهذا الكون يدل على كمال خلقه، ومن لوازم كمال الخلق كمال التصرف، ومن أبرز كمالات التصرف ألا يدع الله عباده معطلين عن التوجيه، وعن الإرشاد، لذلك تقتضي رحمة الله وحكمته ومحبته لعباده أن يرسل إليهم رسلاً، وأن ينزل على رسله كتباً، والأمر ببساطة بالغة كما يلي، أب يجلس في غرفة الجلوس، فرأى ابنه يقترب من المدفئة وهو لا يدري ما سيكون من هذا الاقتراب، لا بد من أن يكلمه، لا بد من أن يقوم ويمسكه، إذاً التدخل الإلهي لإنقاذ الخلق من الكفر والشقاء حتمي، لأن الله رحيم، ولأن الله خلقنا ليرحمنا، وخلقنا ليسعدنا، هذه حقيقة دقيقة جداً؛ أن الله عز وجل ما خلقنا إلا ليسعدنا، وما خلقنا إلا ليرحمنا، لذلك كان ربنا، الحمد لله رب العالمين، والرب يعني المربي، ملخص هذا الشرح أن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، وهذا الكون يدل على كمال خلق الله عز وجل، ومن لوازم كمال خلق الله كمال تصرفه، ومن أبرز كمالات تصرفه أنه يرسل رسلاً، وينزل كتباً، لكن هؤلاء الرسل متفرقون على امتداد الزمان، فبين الرسول والرسول والنبي وَالنبي حقب من الزمان، بين رسولين فترة، أي انقطاع، لكن لنعرف ما حكم هذه الفترة؟

الميثاق ثلاثة بنود العقل والفطرة والتشريع :

أيها الأخوة، الميثاق الذي واثقنا الله به هو ميثاق العقل، وميثاق الفطرة، وميثاق التشريع، فإذا لم يصل إلينا تشريع، ولم تبلغنا رسالة، فنحن محاسبون على ميثاق العقل وميثاق الفطرة، فالعقل كافٍ كي نعرف الله به، والفطرة كافية كي نعرف خطأنا بها، فتعرف الله بالعقل، وتعرف خطأك بالفطرة، إذاً الميثاق ثلاثة بنود: أهل الفطرة معفون من البند الثالث، لذلك أهل الفطرة معفون من تفاصيل الشريعة، لكن لو أن إنساناً ولد في جزيرة، ولم يتلقَ أية رسالة كائنة من كانت، وكان جائعاً، وكانت أمه جائعة، فجاء بطعام، فأكله وحده، ألا يشعر أنه مذنب بحق أمه؟ هناك ثوابت في الإنسان، أي إنسان في أي زمان ومكان، في أي قطر ومصر، في أي حقبة، في أي نظام، في أي ثقافة، في أي بقعة، الإنسان له خصائص، وله فطرة، لذلك من أروع ما استخدم القرآن الكريم من مصطلحات مصطلح المعروف، ما هو المعروف؟ أي أشياء كثيرة تعرفها الفطر السليمة بداهة، ما هو المنكر؟ أشياء قبيحة تنكرها الفطر السليمة بداهة، اعتمد القضاء الغربي على هذه الحقيقة، فيأتي برجال متفرقين من الطريق يسمون المحلفين، تعرض عليهم قضية بفطرتهم وبحسن إدراكهم يكتشفون الحكم الصحيح في هذه القضية، لذلك المعروف ما عرفته الفطر السليمة بداهة، والمنكر ما أنكرته الفطر السليمة بداهة، فالإنسان بفطرته يعرف أخطاءه، وبعقله يعرف ربه، فالميثاق الذي واثقنا الله به، ميثاق الفطرة وميثاق العقل وميثاق المنهج، المنهج قد يكون واضحاً جلياً في عصر، وقد تضعف ملامحه في عصر آخر، فكلما ضعف ضعفت ملامح منهج الله عز وجل، بعث الله على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة دينها، طبعاً الأنبياء ليسوا مكلفين برسالة، الرسل هم أنبياء معهم رسالة، معهم منهج، فهناك رسل، وهناك أولو العزم من الرسل، وهناك أنبياء، وهناك دعاة صادقون ينوبون عن الأنبياء في تبليغ الحق للناس، وشاءت حكمة الله أن يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة دينها، (من) لا تعني واحداً، تعني نوعاً، أي في كل بلد، في كل مصر، في كل مكان، هناك من يجدد المعاني الصحيحة لهذا الدين، هناك من يرجع الدين إلى أصوله الصافية، هناك من يكشف النقاب عن حقيقة الدين، هناك من يزيح غبار التقليد عن جوهر الدين، فعلى رأس كل مئة عام يبعث الله من يجدد لهذه الأمة دينها:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا)

أي محمد صلى الله عليه وسلم:

(يُبَيِّنُ لَكُمْ)

ما اشتبه عليكم.

التجديد في الإسلام أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه :

كما تعلمون قد يقع حادث في مكان ما، الأخبار تتناقله، يصل بعكس ما أراد المتكلم، أنا فوجئت أحياناً أن بعض رؤوس الديانات الوثنية هم في الحقيقة كانوا أنبياء ثم أُلّهوا وعبدوا من دون الله، هناك أشخاص كثيرون في البلاد البعيدة شرقاً يعبدون كآلهة، هم أنبياء كانوا ومعهم بعض الدلائل على نبوتهم، فحينما يطول الأمد على الرسالة تشوه معالمها، والإسلام كأي دين سماوي نزل صافياً نقياً واضحاً:

((تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.))

[رواه أحمد وابن ماجه عن العرباض بن سارية]

ما الذي حصل؟ أضيف على الدين ما ليس منه، وكأن نبعاً صافياً في أثناء مسيره كنهر جاءته روافد، بعد حين أصبحت المياه آسنة وسوداء، فنحن ينبغي أن نعود إلى الينابيع، أن نعود إلى الأصول.

((إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء))

[مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، والآن نستمع كثيراً إلى كلمات كالتجديد في الإسلام، والتجديد أيها الأخوة له معنى دقيق جداً لا يجوز أن نحيد عنه قيد أنملة، معنى التجديد أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه، فقط، ولا يحتمل التجديد في الإسلام شيئاً آخر، إنه منهج الله، إنه كلام الله، إنه شرح المعصوم، أية زيادة على الدين يعني اتهاماً له بالنقص، وأي حذف من الدين تعني اتهاماً له بالزيادة، الحذف يعني اتهام الدين بالزيادة، والإضافة يعني اتهام الدين بالنقصان.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

[سورة المائدة: 3]

البدعة في الدين مرفوضة لكن الابتداع في الدين محمود :

الإتمام عددي، والإكمال نوعي، أي أن عدد القضايا التي عالجها الدين تامة عدداً، وأن طريقة المعالجة التي عالجها الدين لهذه القضايا كاملة نوعاً، والتجديد يعني أن ننزع عن الدين كل ما علق به كل مما ليس منه، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار))

[أخرجه أحمد في مسنده و مسلم والنسائي وابن ماجة عن جابر]

البدعة في الدين مرفوضة، لكن الابتداع في الدين محمود، ومطلوب، ومندوب، أن نطور سبل معيشتنا، أن نطور حياتنا، أن نهيئ لشبابنا مساكن، أن نحل مشكلاتنا، هذا كله مطلوب، لكن المسلمين

وللأسف الشديد طوروا في دينهم وقلدوا في دنياهم، والأولى أن يطوروا في دنياهم وأن يقلدوا في دينهم، النبي عليه الصلاة والسلام فيما يجري على لسانه في القرآن الكريم:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة يونس:15]

سيدنا الصديق قال: إنما أنا متبع، فالإتباع من صفات المؤمن الصادق، لأنه يتبع منهج الله عز وجل، منهج الحكيم العليل:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ)

الإنسان حينما قبل حمل الأمانة أعطاه الله مقومات هذه الأمانة :

الإنسان حينما كلف حمل الأمانة كما قال الله عز وجل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

الإنسان حينما قبل حمل الأمانة أعطاه الله مقومات هذه الأمانة، أعطاه كوناً ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله، أعطاه عقلاً مبادئه متوافقة مع مبادئ الكون، أعطاه فطرة تدل على خطئه، أعطاه شهوة كقوة دافعة إلى الله عز وجل، أعطاه اختياراً ليثمن عمله، ثم أعطاه منهجاً، وكأن المنهج يعني مرجعية ليس غير، الإنسان إذا أعرض عن التفكر في خلق السماوات والأرض، فالمنهج يشير إلى آيات الله الدالة على عظمته، إذا طغى العقل وبغى المنهج يضع العقل عند حدوده المشروعة، الفطرة إذا طمست المنهج يصحح لها انطماسها، الشهوة إذا جمحت، مرجع، الشرع مرجع، مرجع للكون وللعقل وللفطرة وللشهوة وللاختيار، فلذلك لئلا يقول الناس يوم القيامة: يا رب أعطيتنا كوناً ولكن ما فكرنا به، أعطيتنا فطرة ولكنها طمست يا رب، أعطيتنا عقلاً ولكنه جمح بنا، أعطيتنا اختياراً ولكننا أسأنا استخدامه، أعطيتنا شهوة ولكنها طغت وبغت، لولا أنك أرسلت إلينا رسلاً، فجاء الرسول ليقطع حجة البشر، لذلك:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

[سورة القصص: 47]

(لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

[سورة طه: 134]

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ)

الله عز وجل خلق الكون و نوّره بالعلم :

النبي والرسول معه منهج، معه تعليمات الصانع، فالذي يطبق هذا المنهج يلقى نتائجه في الدنيا قبل الآخرة، فكأنه بشير، والذي يخالف هذا المنهج يعاقب في الدنيا قبل الآخرة، فكأنه نذير، فمن صفات النبي الكريم أنه بشير لمن أطاعه، ونذير لمن عصاه، نقول للمريض: هذا الدواء مفيد فإن استعملته شفيت من مرضك فنحن نبشرك بالصحة، وإن أبيت إلا أن تتابع خطأك فنحن ننذرك بمضاعفات لهذا المرض، قد تحتاج معها إلى عمل جراحي، فنحن بهذا ننذره، أي لئلا تقولوا:

(مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ)

لئلا تقولوا:

(مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ)

لتقوم الحجة على الخلق:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الله عز وجل فضلاً على أنه خلق الكون فقد نوّره بالعلم.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: 1]

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

[سورة الكهف: 1]

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة النور: 35]

فقط للتقريب، تشق الطرقات، وبعد أن تشق الطرقات توضع الإشارات، منحدر خطر، تقاطع خطر، منزلق، منعطف، طريق صاعدة، هذه كلها إشارات تحذيرية تكون قبل أماكن الخطر، فكما أن الإنسان الحكيم يصنع شيئاً ويقدم له تعليمات، والآن في أكثر الآلات يأتي الجهاز معه تعليمات التشغيل والصيانة، معه تحذيرات، والتحذير دليل الحكمة والرحمة.

الله تعالى يشير في الآية التالية إلى أن بني إسرائيل وقفوا موقفاً لا يليق بهم من أنبيائهم :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

(إذْ) أيها الأخوة بمعنى حين، أي اذكر يا محمد حين قال موسى لقومه:

(يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

واذكروا يا أتباع محمد حين قال موسى لقومه:

(يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

واذكروا يا قراء القرآن الكريم حين قال موسى لقومه:

(يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

ولكن متى يقال للإنسان: اذكر أنك ابن فلان؟ حينما يأتي بعمل منكر، حينما نقول لطالب: اذكر أنك ابن فلان، أي أن عملك الآن سيئ، لا يليق بك أن تفعل هذا العمل وقد نسبت إلى هذا الأب الكريم، لذلك الله عز وجل يشير في هذه الآية إلى أن بني إسرائيل وقفوا موقفاً لا يليق بهم من أنبيائهم، فسيدنا موسى يقول:

(يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

الأنبياء دليل الحرص الإلهي والرحمة الإلهية :

النعمة أيها الأخوة لعلها اسم جنسٍ، أي اذكروا كل نعم الله مطلقة، نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد، نعمة الهدى والرشاد، نعمة السمع والبصر، نعمة النطق، نعمة الكلام، نعمة هذه الأجهزة التي تعمل بانتظام، نعمة الزوجة، نعمة الولد، نعمة الأمن، نعمة المال، هذه كلها نعم لا تعد ولا تحصى، وأما كلمة نعمة بمعنى اسم جنس هذه يؤيدها قول الله عز وجل:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

[سورة النحل: 18]

أي وأن تعدوا نعم الله لا تحصوها، أو المعنى الآخر أن النعمة الواحدة لو أمضيت كل حياتك في تعداد بركاتها ما انتهيت إلى نتيجة، " اذكروا نعمة الله عليكم ".

(إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ)

أولاً:

(إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ)

الأنبياء جاؤوكم يتبع بعضهم بعضاً، وهذا دليل رحمة الله بكم، كما لو عندك مريض، وهو غال عليك، فتأتيه بالطبيب، التحسن طفيف، تأتيه بطبيب آخر، صار في نكسة، تأتيه بطبيب ثالث، أن يأتي الأطباء تباعاً إلى مريض هذا دليل العناية الفائقة لولي هذا المريض، فكأن الله عز وجل أراد أن يذكر هؤلاء بنعمة الله عليهم إذ جعل فيهم الأنبياء، والأنبياء دليل الحرص الإلهي والرحمة الإلهية:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

لماذا تعارضونني؟ لماذا لا تستجيبوا لي؟ هذه آيات بينات، بعصاه ضرب البحر فأصبح طريقاً عظيماً، نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، معجزات جاء بها ليؤكد لهم أنه هو رسول الله.

الله عز وجل جعل بني إسرائيل مالكين وجعل فيهم الملوك :

من يستطيع من بني البشر أن يجعل البحر طريقاً يبساً؟ كيف أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان مع قلة من بني إسرائيل؟.

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ)

[سورة الشعراء: 54-55]

أتبعهم فرعون، وصلوا إلى البحر، اليقين بالهلاك بالمئة مئة.

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ*قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 61-62]

الأمل بالعقل، والواقع معدوم، فرعون بجبروته، وطغيانه، وحقده، ورجاله، وأسلحته وراء شرذمة من المؤمنين، فيهم سيدنا موسى، فقال موسى: " كلا "، ردعهم عن أن يقولوا: إنا لمدركون، فماذا فعل هذا النبي الكريم؟ ضرب البحر بعصاه فإذا كل طريق كالطور العظيم، هذه شهادة الله له أنه رسول، نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، فهذه من نعم الله الكبرى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً)

هناك مالك، وهناك ملك، قال بعض علماء اللغة: أنا أملك بيتي فأنا مالك، أملك مركبتي فأنا مالك، ولكن الذي يملك من يملك هو المَلِك، الذي يملك من يملك، الذي يملك يسمى مالك، أما الملك فيملك من يملك، لذلك الله عز وجل جعل في بني إسرائيل الملوك أيضاً، جعلهم مالكين، وجعل فيهم الملوك.

الميزة لا تقتضي الأفضلية :

في قصة سيدنا يوسف:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ)

[سورة يوسف: 50]

طبعاً في مصر كان هناك فراعنة، ولكن في حقبة معينة كان فيها ملوك.

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ)

الميزة كما قالوا لا تقتضي الأفضلية، " آتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين "، هذه ميزة لهم، ولكن هذه الميزة لا تقتضي أنهم مفضلون عند الله عز وجل، أنت أحياناً تشدد العناية بجهة حرصاً عليها، فإن لم تستجب ليس لها فضل على غيرها، أخذت ميزة، ولم تكن مفضلة على غيرها.

الأرض تطهر بطاعة الله وتنجس بمعصية الله :

قال تعالى:

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

الأرض المقدسة المطهرة، والأرض تطهر بطاعة الله، وتنجس بمعصية الله، بل الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

[سورة التوبة: 28]

لم يقل: نجسون، لأن النجس يُطهر، لكنهم عين النجاسة، أينما حلوا أساؤوا، وفتنوا، ونشروا الفتن، ونشروا المعاصي والآثام، الأرض المقدسة هي الأرض التي يعبد الله فيها، أرض مقدسة، والمؤمن حقيقته أنه ينبغي أن يعيش في أرض يعبد الله فيها، لأن علة وجوده عبادة الله عز وجل، وأي مكان حال بينك وبين عبادته ينبغي أن تغادره.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

[سورة النساء: 97]

لأن علة وجودك أن تعبد الله فأي مكان حال بينك وبين عبادة الله ينبغي أن تغادره.

أيّ مكان حال بينك وبين أن تعبد الله ينبغي أن تغادره :

ذهب أحدهم إلى بلد ليأخذ دكتوراه، جلس مع أصدقاء في غرفة، صرفوه عن الدراسة، لما صرفوه عن الدراسة صرفوه عن هدفه الأساسي في هذا البلد، ينبغي أن يغادرهم إلى مكان آخر، أما إذا بقي معهم يرجع خائباً خاسراً، فأي مكان حال بينك وبين أن تعبد الله ينبغي أن تغادره.

كنت في مؤتمر، وألقى بعض العلماء كلمة في هذا المؤتمر بيَّن أنه إن لم تضمن أن يكون ابن ابْن ابنك مسلماً في بلد ما ينبغي أن تغادره، ذكرت هذا في كلمة في عقد قران، وكان حضور هذا العقد أكثرهم من الجالية الإسلامية في بلد بعيد، فتقدم مني واحد، ورأيت دمعة تسيل على خده، قال: ابن ابْن ابني، ابني ليس مسلماً، لأن هناك ابني ليس مسلماً.

أيها الأخوة الكرام: أكرر وأعيد أن قصص بني إسرائيل في القرآن كثيرة، وأن الحديث عن أهل الكتاب كثير، والحكمة من ذلك أنهم أهل كتاب، وأن كل منزلقاتهم، وكل انحرافاتهم، وكل أمراضهم، نحن كوننا مسلمين معرضون لها، وقد قيل عن هذا الأسلوب: إنه أسلوب بليغ، إياك أعني، واسمعي يا جارة، وحينما قال عليه الصلاة والسلام:

((أيّهَا النّاسُ إنّمَا أهْلَكَ الّذِينَ قَبْلَكُمْ، أنّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشّرِيفُ، تَرَكُوهُ وَإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضّعِيفُ، أقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدّ، وَأيْمُ اللّهِ لَوْ أنّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[مسلم عن عائشة رضي الله عنها]

وفي مجتمعات المسلمين المتخلفة إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، من أسباب هلاك بني إسرائيل أنهم كانوا:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

[سورة المائدة: 79]

وقد تجد في أوساط إسلامية كثيرة أن المنكر لا يُنكر إطلاقاً يُرَحب به، تحت اسم مجاملات، ولباقة اجتماعية، وذكاء اجتماعي، ومرونة، وفهم عميق للدين، فالمنكر لا ينكر، فلذلك أكثر أمراض بني إسرائيل، أو أكثر أمراض أهل الكتاب أصبحنا مبتلين بها، فلذلك الحديث عن هؤلاء هو حديث عن أنفسنا، عن أخطاء، وعن منزلقات، وعن ترهات سلكها أهل الكتاب، ونحن معرضون لمثلها، حينما احتال بنو إسرائيل على ربهم في قضية صيد السمك، فحينما حرم عليهم الصيد يوم السبت، كانوا يبنون الترع والبحيرات لتأتي الأسماك يوم السبت شرّعاً، ثم تغلق أبواب هذه البحيرات، ويصطاد السمك يوم الأحد، فهذه كلها حيل، وما أكثر الحيل التي يتبعها المسلمون اليوم للتملص من أحكام دينهم، فلو ذهبت توازن بينما ما فعله أهل الكتاب وبين ما يجري بين المسلمين تجد شبهاً عجيباً.

الحديث عن أهل الكتاب في القرآن الكريم هو توجيه لطيف غير مباشر للمسلمين :

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ)

[سورة البقرة: 111]

والمسلمون اليوم يتوهمون أنهم وحدهم يدخلون الجنة، وهذا خطأ كبير.

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

[سورة البقرة: 112]

هذا الذي يدخل الجنة، أيضاً زعم اليهود أنهم إذا دخلوا إلى النار لن يلبثوا فيه إلا أياماً معدودات، تلك أمانيهم.

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 111]

والمسلمون اليوم يزعمون أنهم أمة محمد، أمة الشفاعة، فشفاعتي بفهم ساذج لأهل الكبائر من أمتي، تطابق عجيب بين ما اعتقده وما فعله أهل الكتاب، وبين ما نعتقده اليوم ونفعله نحن، لذلك الحديث عن أهل الكتاب في القرآن الكريم هو توجيه لطيف غير مباشر للمسلمين.

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 – الدرس (16-49) : تفسير الآيات: 21-26 ، نصر الله لعباده المؤمنين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-12-19

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص للدروس السابقة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الواحدة والعشرين، وهي قوله تعالى في معرض الحديث عن قصة بني إسرائيل:

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

وكان الله جل جلاله قد بدأ الآيات بقوله تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

ولقد تم شرح هذه الآية في درس قبل الماضي، في الدرس الماضي:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ*)

الخوف الشديد غير المعتدل والتخاذل من صفات العصاة والشاردين :

قال تعالى:

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ)

دعي بنو إسرائيل إلى دخول فلسطين، وكان في فلسطين قوم جبارون، فالإنسان حينما يعرف الله، ويعرف قدرته المطلقة، ويعرف أن النصر بيده، ويعرف أن الفعل بيده، ويعرف أن الأمر راجع إليه، ويعرف أن العباد في قبضته، ينفذ أمر الله ويستجيب له، ويقتحم المعارك، أما إذا غفل عن الله وضعفت ثقته بنفسه لضعف طاعته لله عز وجل يخاف، فالخوف الشديد غير المعتدل من صفات العصاة والشاردين، بينما الثقة بالله عز وجل والاعتماد عليه، والتوكل عليه من صفة عباده المؤمنين، فحينما دعي بنو إسرائيل إلى دخول القدس أو فلسطين قالوا:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ)

الكنعانيون كانوا في فلسطين، وكان هؤلاء جبابرة وعمالقة، وهذا أمر تكليفي، إن دخلتم نصرتكم، فأحجموا.

(وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ* قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا)

موقف من التخاذل ومن الضعف والجبن الذي أساسه الشرك، الإنسان حينما يشرك يلقي الله في قلبه الخوف.

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

[سورة آل عمران: 151]

الجرأة والشجاعة والثقة بالله والتوكل عليه من صفات المؤمنين :

أيها الأخوة،

(يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة)

ومعنى الأرض المقدسة أي أنها أرض الأنبياء، مهبط الرسالات الثلاث، أرض الأنبياء والمرسلين،

(يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم)

أي أمركم بها أمراً تكليفياً، فإن كان إيمانكم به قوياً، وإن كان اعتمادكم عليه كافياً، وإن كانت ثقتكم بأنفسكم عالية بسبب طاعتكم لله عز وجل فلا بد من أن تدخلوها معتمدين على الله آخذين بالأسباب، ولو أردنا أن نسقط هذا الحدث على مجتمع المسلمين، المسلمون حينما يغفلون عن الله، وحينما يقعون في الشرك الخفي، وحينما تضعف ثقتهم بأنفسهم بسبب معصيتهم لا يستطيعون التوكل على الله، ولا يستطيعون الاعتماد عليه، ولا يجرؤون على مواجهة أعدائهم بسبب ضعف ثقتهم بأنفسهم، وبسبب بعدهم عن خالقهم لذلك: الجرأة والشجاعة من صفات المؤمنين، والخوف الشديد، والقلق الشديد من صفات العصاة والمذنبين.

(قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا)

أنعم الله عليهما بالإيمان، وبالتوحيد، وبالثقة بالله عز وجل.

(ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

لكن هؤلاء القوم أبوا الدخول، واستنكفوا، وخافوا، وظنوا أنهم لا يستطيعون أن يحققوا النصر لضعف ثقتهم بربهم، ولضعف ثقتهم بأنفسهم، ولأن توكلهم كان ضعيفاً بسبب المخالفات.

لم يكلف المؤمنون أن يعدوا العدة المكافئة لعدوهم بل كلفوا أن يعدوا العدة المتاحة فقط:

بالمناسبة أيها الأخوة أنت حينما تخالف أمر الله عز وجل لا تستطيع أن تتوكل عليه، وأن حينما تخالف أمر الله عز وجل لا تستطيع أن تعتمد عليه، وأنت حينما تخالف أمر الله عز وجل تضعف ثقتك بالله عز وجل، وأنا عند حسن ظن عبدي بي.

أيها الأخوة، سيدنا موسى حينما قال أصحابه ووراءهم فرعون، وأمامهم البحر، والأمل بالانتصار ضعيف جداً إلى درجة الانعدام.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ*قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 61-62]

هذه ثقة المؤمن، والله الذي لا إله إلا هو كإسقاط لهذه القصة على الأحداث العامة لو أن المسلمين آمنوا بالله حق الإيمان، آمنوا بالله إيماناً يحملهم على طاعة الله، ثم أعدوا لعدوهم ما يستطيعون، ولم يكلفوا أن يعدوا العدة المكافئة بل كلفوا أن يعدوا العدة المتاحة فقط، والله الذي لا إله إلا هو كان النصر أقرب إليهم من البياض إلى السواد، النصر في متناول أيديهم، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ)

[سورة الأنفال: 10]

آيات من الذكر الحكيم تؤكد على أن النصر من عند الله وحده :

الله عز وجل يقول:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد: 7]

والله عز وجل يقول:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

والله عز وجل يقول:

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر: 51]

والله عز وجل يقول:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

والله عز وجل يقول:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور: 55]

حينما تتحقق جنديتك لله لا بدّ من أن تنتصر :

أيها الأخوة، هذان الرجلان تذكر بعض الروايات أسماءهما، ولا فائدة ترجى من ذكر الأسماء؛ رجلان مؤمنان يخافان الله عز وجل، ويقدرانه حق قدره، أنعم الله عليهما بالإيمان، أشارا على قومهما،

(ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون)

لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

حينما تتحقق فيك جندية الله عز وجل، أن تكون جندياً لله، لا أن تكون جندياً لجهة أرضية، حينما تتحقق جنديتك لله لا بد من أن تنتصر، لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

الآيات التي تبشر المؤمنين بالنصر كثيرة جداً، وكلكم يعلم أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، فلذلك:

(قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

لكن الضعف والخور الناتجة عن ضعف الإيمان، وعن ضعف الطاعة، أقول وأعيد: الضعف والخور الناتج عن ضعف الإيمان وعن ضعف الطاعة يسبب الخوف الشديد والفرقة من مواجهة العدو.

الإنسان قيمته بمن حوله من أخوانه المؤمنين :

قال تعالى:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

هذا الموقف يذكرنا بموقف سيدنا سعد بن أبي وقاص، حينما أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يحارب قريشاً، فسأل الأنصار عن موقفهم، فقال زعيمهم: امضِ يا رسول الله لما أردت، صل حبال من

شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فو الذي بعثك بالحق لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا واحد، إنا لصدق في الحرب، لصدق عند اللقاء، فلعل الله يريك منا ما تقر به عينك، ولا نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، بل نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا، ونحن معك مقاتلون، ألم يقل الله عز وجل:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح: 29]

والذين معه، الإنسان قيمته بمن حوله، قيمته بأخوانه، قيمته بالمؤمنين.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

[سورة الأنفال: 46]

((يد الله مع الجماعة))

[رواه الحكيم وابن جرير عن ابن عمر]

((من شذ شذ في النار))

[الحكيم وابن جرير والحاكم عن ابن عمر]

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ*قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

حينما تكون في مجتمع فاسد فلك أن تعتزله :

أنت حينما تكون في مجتمع فاسد، وفي مجتمع شارد، وفي مجتمع ترتكب فيه المعاصي في الطرقات، وفي مجتمع يكثر فيه الكذب، ويكثر فيه النفاق، وحينما تكون في مجتمع ترتكب المعاصي على قارعة الطريق، وحينما تكون في مجتمع تحكم المصالح لا المبادئ، وحينما تكون في مجتمع يعلو فيه الفجار، ويبتعد عن الأضواء المستقيمون، إذا كنت في هذا المجتمع فلك أن تعتزله لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الكهف: 16]

لهذا قال عليه الصلاة والسلام يحدثنا عن آخر الزمان:

((يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن))

[أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري]

لذلك ما لم تشعر بالغربة في مجتمع الفساد، ما لم تشعر بالغربة في مجتمع التفلت، ما لم تشعر بالغربة في مجتمع النفاق، ما لم تشعر بالغربة في مجتمع المعاصي والآثام، لن تكون مؤمناً.

((إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء))

[مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة]

إذا كنت في مجتمع فاسد فكن مع المؤمنين الصادقين :

أيها الأخوة الكرام: إذا قال الله عز وجل:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ)

[سورة الكهف: 16]

أين الكهف هذه الأيام؟ إنه المسجد، إنه بيتك:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ..))

[الترمذي و أبو داود عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ]

الزم بيتك، وأمسك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة، وقد فسر علماء الحديث خاصة النفس أنهم أقرباؤك، جيرانك، زملاؤك، أصحابك، أي من تثق بهم، عليك بخاصة نفسك، أي عليك بمن تثق بهم، ودع عنك أمر العامة، هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام في زمن الفتن، في زمن التمثيل، إتقان التمثيل في هذا الزمن لا يصدق، إتقان التمثيل تظنه صديقاً وهو عدو لدود، تظنه مخلصاً لأمته وهو خائن كبير، إتقان التمثيل يدعوك إلى أن تكون حذراً من الناس، إذا رأيت:

((شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً))

الشح المطاع المادة، المادة إلهاً تعبد من دون الله، المال يبيع دينه وعرضه بعرض من الدنيا قليل، يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً، يبيع دينه وعرضه بعرض من الدنيا قليل، إذا كنت في مثل هذا المجتمع فكن مع المؤمنين الصادقين:

((يد الله مع الجماعة))

[رواه الحكيم وابن جرير عن ابن عمر]

((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم عن عمر]

((من شذ شذ في النار))

[الحكيم وابن جرير والحاكم عن ابن عمر]

إذا كنت في مجتمع التفلت فعليك بالتوبة إلى الله وطاعته :

قال تعالى:

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي)

هذا الكلام الدقيق يعلمنا أنك إذا كنت في مجتمع فاسد، وهذا المجتمع الفاسد استحق أن يتخل الله عنه، وألا ينصره على أعدائه، بل استحق أن يسلط عليه أعداءه، فينتهك حرماته، ويفقرونه، ويضلونه، ويفسدونه، ويذلونه، ماذا تفعل أنت أيها المؤمن؟عليكم أنفسكم، يا أيها الذين آمنوا في وقت من الأوقات، في عصر من العصور، في ظرف من الظروف، عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، فإن كنت مع الله مستقيماً على أمره، لك معاملة خاصة.

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 88]

مهما كان الظرف صعباً، ومهما كان الوقت شديداً، سيدنا يونس عليه السلام حينما وجد نفسه فجأة في بطن الحوت، وهل من مصيبة أشد من أن تكون في بطن الحوت في ظلمة الليل الأليل، وفي ظلمة أعماق البحر، وفي ظلمة بطن الحوت.

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 77-88]

إذا كنت في مجتمع التفلت فعليك بالتوبة إلى الله وطاعته، أقول لك: لك معاملة خاصة، لأن زوال الكون أهون على الله من أن يذهب الطائع مع العاصي، الطائع إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإن الله ينجيه، أما إذا لم يأمر بالمعروف، ولم ينهَ عن المنكر وقال: علي نفسي، لذلك حينما أرسل الله الملائكة لإهلاك قرية قالوا: يا رب، إن فيها رجلاً صالحاً، قال: به فابدؤوا، قالوا: ولمَ يا رب؟ قال: لأنه كان لا يتمعر وجهه لمنكر رآه، الله عز وجل يبين أنه لا يهلك إلا القرية التي ليس فيها من يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر.

حقائق ينبغي أن تكون مسقطة على واقعنا الإسلامي :

أيها الأخوة الكرام، هذه حقائق ينبغي أن تكون مسقطة على واقعنا الإسلامي:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

أيعقل أن يسأل خالد بن الوليد سيدنا الصديق أن يمده بمدد، وهو يتوقع خمسين ألفاً، بعد حين طويل جاءه صحابي واحد اسمه القعقاع، فسأله: أين المدد؟ أنا أنتظر المدد بفارغ الصبر، فقال: أنا المدد، قال: أنت! قال: أنا، ومعي هذا الكتاب فاقرأه، فقرأ الكتاب من أبي بكر، قال: يا خالد، لا تعجب أنني أمددك بواحد، فو الذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم، واحد بمئة ألف، واحد بخمسين ألفاً، كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الواحد منهم بألف، والمسلمون في آخر الزمان الألف منهم

بأف، الألف بأف، غارقون في شهواتهم، غارقون في نفاقهم، غارقون في مصالحهم، غارقون في التنافس على الدنيا، غارقون في ظلمهم للفقير، واحد كألف وألف كأف:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي)

وقد يأتي النبي يوم القيامة ومعه الرجل والرجلان فقط، فإن كنت من القلة المؤمنة فهذه نعمة لا تقدر بثمن، وإذا كان الإنسان من الكثرة الكافرة فهذه مصيبة خطيرة:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

فقال الله عز وجل:

(قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

فكيف إذا استحق هؤلاء القوم الفاسقين أن ينتصروا على المؤمنين؟ لا بد أن هؤلاء أشد فسقاً منهم، فكيف إذا استحق هؤلاء القوم الفاسقين أن ينتصروا على المؤمنين؟ إنهم شرذمة قليلون، ومع ذلك انتصروا على مئتي مليون، إنهم مليونان انتصروا على مئتي مليون.

الله عز وجل لا ينصر عباده إلا بإيمانهم ولا يتفاوت العباد عند الله إلا بتقواهم :

أيها الأخوة: الله عز وجل لا يحابي أحداً، الله عز وجل لا ينصر عباده إلا بإيمانهم، ولا يتفاوت العباد عند الله إلا بتقواهم.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

أيها الأخوة، من بعض الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، والتي ينبغي أن تذكر لاتصالها الشديد بهذا الموضوع.

(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ)

[سورة الإسراء: 104]

أنت في أي مكان تسكنه هو في الأرض، ما معنى هذه الآية؟ لفتة رائعة، لأنهم جبنوا عن أن يدخلوا، قال: اسكنوا الأرض، هذه الآية تشير إلى أنهم شتتوا في الآفاق حتى أنهم سموا شذّاذ الآفاق، اسكنوا الأرض، تفرقوا في معظم البلاد، لكن لم يهلكوا إهلاك استئصال، قال تعالى:

(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً)

[سورة الأعراف: 168]

هم لم يذوبوا في المجتمعات الأخرى، لذلك أينما ذهبت في أي مكان في الأرض هناك حارة اسمها حارة اليهود، يحافظون على قوميتهم، وعلى دينهم، وعلى لغتهم، وحبذا لو قلد المسلمون هؤلاء إذا

سافروا بعيداً عن وطنهم، لو أن كل جالية إسلامية اجتمعت في مكان، وأكلت الطعام الحلال، وأنشأت المدارس الإسلامية، وحافظت على لغة أبنائها، لكن الشيء المؤسف جداً أن أبناء الجالية الإسلامية لا يتكلمون العربية أبداً.

تجمع اليهود في فلسطين من علامات قيام الساعة :

كنت مرة في سدني في أستراليا، وطلب إلي أن أجتمع مع طلاب الثانوية، والثانوية من أرقى الثانويات، كلفت عشرة ملايين دولار، من أرقى ما رأيت في حياتي من أبنية تعليمية، جمع الطلاب في المسرح الكبير، الشباب في الأمام، والبنات محجبات، والله دخل على قلبي من السرور ما لا يوصف، وأنا لا أعرف الحقيقة بعد، فلما أردت أن أبدأ الكلام همس في أذني أحد الأساتذة، إنهم لا يفهمون العربية أبداً، فلا بد من الترجمة، اليهود أينما ذهبوا يحافظون على لغة أبنائهم، يحافظون على هويتهم، يحافظون على دينهم، يحافظون على قوميتهم، فالله عز وجل يقول:

(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ)

[سورة الإسراء: 104]

هم مفرقون في شتى البلاد.

(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً)

[سورة الأعراف: 168]

أيها الأخوة الكرام، لكن في الإسراء آيات، أنا أقول لكم بالضبط: أنا أذكر لكم خواطر إيمانية مع هذه الآيات، ولا أزيد على أن تكون خواطر إيمانية، فإن أصبت فمن توفيق الله، وإلا فمن تقصيري، الله عز وجل يقول بعد أن قال: اسكنوا الأرض، وبعد أن قال: وقطعناهم في الأرض أمماً، قال:

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً)

[سورة الإسراء: 104]

فتجمع اليهود في فلسطين من علامات قيام الساعة، (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً).

ضعف المؤمنين وتقصيرهم سمح لليهود أن يقووا عليهم :

الله عز وجل يقول:

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً*فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا)

[سورة الإسراء: 4-5]

في بعض التفاسير يشار إلى هؤلاء العباد بأنه بختنصر ومن معه، هؤلاء ليسوا عباداً لله هؤلاء عباد للشياطين، هؤلاء جبابرة، يقول: عباد لنا، لذلك استنبط بعض المفسرين أن الفساد الأول الذي كان في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، أرسل عليهم أصحاب النبي، وقد قاتلوهم، وأجلوهم عن أرض الحجاز.

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً)

[سورة الإسراء: 5]

هذا شيء وقع، بنو النضير وقينقاع، وكل هؤلاء قد أُجلوا من الجزيرة العربية، ثم يقول الله عز وجل يخاطب اليهود:

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ)

[سورة الإسراء: 6]

لضعف المؤمنين، وتفلتهم، وتقصيرهم، ومعصيتهم، ونفاقهم، وبعدهم عن ربهم سمح لهؤلاء الشرذمة أن يقووا عليهم.

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ)

[سورة الإسراء: 6]

أموال الأرض بإدارة اليهود.

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً)

[سورة الإسراء: 6]

في الآيات التالية بشارة أن يسترد المسلمون المسجد الحرام و يفتحوه تحقيقاً لوعد الله:

الآن:

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ)

[سورة الإسراء: 7]

أي أخذتم المسجد من المسلمين:

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً)

[سورة الإسراء: 7]

أخذوه أول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم أخذه اليهود منهم، فإن بقوا على ظلمهم الذي ترونه كل يوم وفي كل نشرة أخبار، فإذا بقوا على ظلمهم:

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً)

[سورة الإسراء: 7]

بعض العلماء لا يرى أن هذه الآيات متعلقة بما يجري، وبعضهم يسقطها أول مرة على بختنصر، وبعضهم كما قلت قبل قليل: يسقطها على فساد اليهود بعد مجيء القرآن الكريم، في المرة الأولى فسدوا، ولم يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فسلط الله عليهم عباداً مؤمنين وأجْلوهم عن الجزيرة، لكنهم بعد ذلك لتقصير المؤمنين دخلوا المسجد مرة ثانية، وفي هذه الآيات بشارة إن شاء الله أن يسترد المسلمون هذا المسجد، وأن يفتحوه تحقيقاً لوعد الله عز وجل، وهذا ثابت أيضاً عندهم في كتبهم.

ما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة :

مرة سأل وزير دفاعهم، وقد احتل قلعة في جنوب لبنان عن هذه الوقائع، فقال: هذا صحيح، سوف يأخذوا منا كل ما أخذناه منهم، وسوف ينتصرون علينا، ولكن ليس مع هؤلاء الذين حولنا، وله كلمة مشهورة: إن هؤلاء حينما تكتظ مساجدهم على صلاة الفجر كما تكتظ في صلاة الجمعة ينتصرون علينا، فمن مسجد يتسع لعشرين ألف مصل لا تجد صفاً واحداً في صلاة الفجر، لذلك أيها الأخوة:

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً*عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)

[سورة الإسراء: 7-8]

وهذه آية لكل المؤمنين، وإن عدتم عدنا، أيها المسلمون، أيها العرب، عودوا إلى الله يعود الله لنصركم. سيدنا صلاح الدين كما ذكرت في الخطبة اليوم بلغه أن أحد ملوك الفرنجة قطع الطريق على الحجاج، وصار يقتل الرجال، ويسبي النساء، ويقول: قولوا لمحمدكم أن ينتصر لكم، سمع صلاح الدين هذا الكلام فبكى، قال: أنا سأنوب عن محمد في نصرة أمته، ومازال يسعى حتى استطاع أن يقبض على هذا الأمير الإفرنجي أرناط في الكرك ويقتله، قال له: أنا أدافع عن أمة محمد، القضية بيد الله، ولكن الله لا ينصر القوم الفاسقين، لا ينصر القوم المنحرفين، ولا القوم المنافقين، ولا القوم العصاة، إن الله ينصر عباده المؤمنين، فما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة.

أيها الأخوة، ما يجري في الساحة العربية والإسلامية شيء مؤلم جداً، أحياناً يبالغ الطرف الآخر في إذلال المسلمين، وفي إفقارهم، وفي إضلالهم، وفي إفسادهم، يفقرونهم، ويضلونهم، ويفسدونهم، ويذلونهم، واللهُ مع الحقِّ، فإذا أردنا أن نسترجع ما لنا من مكانة عند الله فعلينا بطاعة الله قال:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ* قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

من أمثال العرب: إنَّ البُغَاثَ بأَرْضِنَا يَسْتَنْسِر. يستنسر أي يتخلق بأخلاق النسر، والبغاث أضعف أنواع الطير، فهؤلاء الشرذمة القليلون، هؤلاء المشردون في الآفاق، هؤلاء كانت لهم الكرة علينا، ولا ينجينا منهم، وطموحاتهم لا تنتهي، وما يجري في العراق في أعلى التقديرات بتخطيطهم، إشاعة الفوضى، إشاعة الفقر، إشاعة الفساد، من أجل أن تحقق شعاراتهم من الفرات إلى النيل، وما كنت أظن في حياتي أن هذا يحقق في المدى المنظور، لكنهم وصلوا إلى الفرات، وأرجو الله أن يبعث عليهم عباداً له أشداء يخرجونهم من هذه البلاد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 – الدرس (17-49) : تفسير الآيات: 27-31 ، قصة قابيل وهابيل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-01-02

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة قابيل وهابيل هي قصة البشر وقد جعلها الله عز وجل درساً بليغاً للإنسان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع عشر من سورة المائدة، ومع الآية السابعة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ)

أيها الأخوة الكرام، إن قصة قابيل وهابيل هي قصة الإنسان في ارتفاعه وانحطاطه، في طاعته ومعصيته، في سعادته وشقائه، في سموه وسقوطه، هي قصة البشر، ولقد جعلها الله عز وجل درساً بليغاً لهذا الإنسان.

في هذه القصة أيها الأخوة: الله عز وجل يطلب من نبيه الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم أن يتلو على هؤلاء اليهود قتلةِ الأنبياء الذين حسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله، أن يتلو عليهم هذه القصة، ففي بعض جوانبها تنطبق عليهم أشد الانطباق، الإنسان يغدو فوق الملائكة، أو يسقط حتى يكون دون الحيوان، تسمو نفسه إلى الله فيسعد إلى أبد الآبدين، وتسفل نفسه فيكون أشقى خلق الله أجمعين.

قصة قابيل وهابيل قصة التكليف، قصة قابيل وهابيل قصة الشهوة، قصة قابيل وهابيل صراع بين المبدأ والشهوة، قصة قابيل وهابيل قصة الطاعة والمعصية، يمكن أن تلخص أحداث الدنيا إلى يوم القيامة بهذه القصة، قابيل وهابيل، ولأن الذين استمرؤوا قتل الأنبياء، واستمرؤوا الكفر بالأنبياء، وهم يعرفونهم كم يعرفون أبناءهم.

قصة قابيل و هابيل إضاءة لنا في الطريق إلى الله :

أيها الأخوة، ما من معرفة أوثق وأوضح وأسرع من معرفة الأب لابنه، ولقد بين الله عز وجل أن هؤلاء القوم يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نبي مرسل كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك الاستكبار، والحسد، والبغي، والعدوان حال بينهم وبين الإيمان بهذا الرسول، لو دققنا في هذه القصة لوجدناها قصة البشرية جمعاء، لو دققنا في هذه القصة لوجدناها تعبيراً عما يجري الآن، في مناطق

العالم، كيف أن الشهوة شهوة التسلط وشهوة الاستمتاع بالحياة تقضي على كل قيمة وكل مبدأ، وكيف أن الناس رجلان، غر كريم وخب لئيم، إنها قصة بليغة إلى أقصى حد، وأراد الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه القصة إضاءة لنا في الطريق إلى الله، فينبغي ألا نكون كقابيل الذي قتل آخاه ظلماً، وينبغي أن نطيع الله عز وجل:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ)

أي بيّن لهم والتلاوة ذكر الحقائق مرتبة، أي حقيقة تلو حقيقة:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ)

والمقصود بضمير الغائب بنو إسرائيل الذي قتلوا أنبياءهم بغير حق، وكفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم بغياً وعدواناً:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ)

النبأ هو الخبر، ولكن ليس كل خبر، الخبر المهم، الخبر المتميز، الخبر الذي له دلالة:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ)

إذا كان الخطاب من خالق الأكوان فينبغي أن تأخذه وكأنك تراه :

لأن الله سبحانه وتعالى هو المتكلم، ولأن الله تعالى هو الذي يقص هذه القصة، فهذه القصة بالحق، أي لابس الحق أحداثها، أي إن هذه القصة هكذا وقعت تماماً، ولقد علمنا القرآن الكريم أن نأخذ إخبار الله كأننا نراه، قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

مع أننا جميعاً لم نر هذا الحدث، مع أن الأمة الإسلامية جميعها لم تر هذا الحدث، والله عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَ)

أي إذا كان الخطاب من خالق الأكوان ينبغي أن تأخذه وكأنك تراه، لذلك:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ)

الحق هو الشيء الثابت والهادف، الحق هو الشيء المتيقن:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ)

أيها الأخوة: الله عز وجل حينما يقص علينا بعض القصص يقول:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ)

[سورة آل عمران:62]

هذه القصة وقعت مئة بالمئة، ثبوتها قطعي، صوابها قطعي، فائدتها ليس لها حدود، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)

[سورة القصص:3]

القصة هي حقيقة مع البرهان عليها :

القصة أيها الأخوة هي حقيقة مع البرهان عليها، أي أبلغ ألف مرة أن تقول:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة: 276]

وهي آية قرآنية، والله عز وجل أصدق القائلين، لكنها فكرة، أو أن تأتي مع هذه الآية بقصة لإنسان جمع أموالاً طائلة بالربا، ثم محقها الله له، فهذا المحق برهان على أحقية الحكم، لذلك قال تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

[سورة يونس: 39]

تأويل القرآن وقوع وعده ووعيده، القصة أيها الأخوة لها أهداف تربوية عالية، إنها سلاح ذو حدين، فكما أنك بالقصة تسمو إلى الله يمكن أن يسفل الإنسان بقصة ساقطة، لذلك قال بعضهم: لكاتب القصة أن يصور الرذيلة، مسموح له ذلك، ولكن على نحو نحتقرها، وعلى نحو نشمئز منها، أما إذا قرأنا قصة تعظم الرذيلة، وتبين أن فاعليها أبطال إذا حركت القصة المشاعر السفلى، أو الغرائز السفلى، ولم تحرك المشاعر العليا فإن مجتمع بأكمله يمكن أن ينهار من خلال هذا الفن الساقط، وأقول لكم إن صح التعبير: إن النتاج العقلي والشعوري للبشرية يصنف في فلسفة وعلم وفن، والفلسفة ما يجب أن يكون، والعلم ما هو كائن، والفن ما هو ممتع، فإذا اعتمدنا على المتعة، وصورنا الرذيلة على نحو نعظم أبطالها، ونشتاق إلى فعلها، وهذا ما يحصل في العالم اليوم، الرذيلة، الخيانة الزوجية، الزنا، الانغماس في الملذات الدنيئة، يصور على أن هذه هي الحياة، هذا هو التفوق، هذه المتعة الحقيقية، هذه هي السعادة.

إذا كان الإنتاج العقلي والشعوري للبشرية مسوغاً للانحراف الأخلاقي على أنه نعجب به، فإن مجتمعاً بأكمله يمكن أن يسقط من خلال هذا الفن:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ)

البشرية كلّها من أب واحد وأم واحدة :

لأنه لا بد من مقدمة فيما روت بعض الكتب، أن الله سبحانه وتعالى بدأ البشرية بسيدنا آدم، وسيدنا آدم في بعض الأحاديث تسمو مكانته إلى ما بعد مكانة النبي عليه الصلاة والسلام.

((آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة))

[أحمد وأبو يعلى عن ابن عباس]

هو نبي كريم، وقد قال الله عز وجل مبيناً هذا البدء بالخليقة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

[سورة الأعراف: 189]

السيدة حواء:

(وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)

[سورة الأعراف: 189]

الآن هناك ستة آلاف مليون، كلما عدنا إلى الوراء قلّت هذه الأعداد، فإذا تابعنا الرجوع يجب أن نصل إلى إنسانين، آدم وحواء، لأن البشرية كلها من أب واحد، وأم واحدة:

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)

[سورة النساء: 1]

كلما كان التباعد بين الزوجين كان النسل أقوى :

سيدنا آدم والسيدة حواء تزوجا، وأنجبت حواء في البطن الأول قابيل وأخته، وفي البطن الثاني هابيل وأخته، نحن أمام أربعة أولاد، ذكران وأنثيان، من أجل متابعة التوالد لا بد من تشريع مرحلي، لأن أصل منهج الله عز وجل التباعد، فقد ورد عن سيدنا عمر: (اغتربوا لا تضووا)، فكلما كان التباعد بين الزوجين كان النسل أقوى، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ)

[سورة الإنسان: 2]

فالنطفة والبويضة كل منهما فيه مورثات فإذا امتزجا ففي المورثات صفات تفضيلية للإنسان، فإذا التقت صفة في الأب وصفة في الأم الصفة الأقوى تنتصر، فالذي يحصل أن المولود يأتي بصفات أقوى الأبوين، فالنسل يزداد قوة، أما في الاستنساخ الضعف يزداد، لذلك في مفاجئات كبيرة جداً لم تكن في الحسبان، أن صفات الشيخوخة ظهرت مبكرة جداً في سنوات قلة، لأن الله سبحانه وتعالى حينما يصمم، أو حينما يخلق يخلقُ أكمل خلق إطلاقاً، وأي تعديل عن خلق الله عز وجل هو نحو الأسوأ، لأن

خلق الله هو قمة الكمال، قمة الكمال في الخلق.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة الإنسان: 2]

هذه القمة، فإذا أخذنا خلية من ثدي حيوان، وأودعناها في رحم أنثاه، ونمت هذه الخلية بما يسمى بالاستنساخ، فإن أخطاء وانحرافات وتشوهات ومشكلات ومتاعب لا تعد ولا تحصى تتأتى من هذه الطريقة التي لم تكن في أصل الخلق، إذاً أي تعديل عن خلق الله عز وجل نحو الأسوأ، إذاً لا بد من التزاوج، ولا بد من التباعد، ولكن كيف يكون التباعد بين بطنين؟ في البطن الأول ذكر وأنثى، وفي البطن الثاني ذكر وأنثى، التباعد النسبي المتاح وقتها أن يتزوج قابيل من أخت هابيل التي ولدت معه من بطن واحد، وأن يتزوج هابيل من أخت قابيل التي ولدت معه من بطن واحد، هذا هو التشريع وقتها.

الله عز وجل أورد القربان في القرآن الكريم :

إذاً التباعد الزوجي ضرورة لقوة النسل، ما الذي حدث؟ هناك تشريع أن يتزوج قابيل من أخت هابيل، وهناك بالتشريع نفسه أن يتزوج هابيل من أخت قابيل، ولحكمة أرادها الله عز وجل وقد قال الله عز وجل:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

أخت هابيل ليست جميلة بالقدر الذي يتمناه الزوج، بينما أخت قابيل كانت جميلة، فقابيل آثر الشهوة، فلمَ أتزوج أخت هابيل؟ أتزوج أختي، ولم يعبأ بتوجيه الله عز وجل، أي غلبته شهوته.

(رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا)

[سورة المؤمنون: 106]

قابيل غلبته شهوته، ورفض أن يتزوج أخت هابيل، لأن أخته أجمل، فحينما رفع الأمر إلى سيدنا آدم هكذا تروي الروايات والشيء منطقي، أمرهما أن يقربا إلى الله قرباناً، فكان قابيل يعمل في الزراعة، وكان هابيل يعمل في رعي الغنم، فقدم هابيل قرباناً إلى الله، أي شيئاً يتقرب به إلى الله، قدم من غنمه أسمنها وأفضلها، وقدم قابيل قرباناً إلى الله من إنتاجه الزراعي أسوأه وأردأه، هذا موضوع ثان، فتقبل الله قربان هابيل، ولم يتقبل قربان قابيل.

أيها الأخوة، الله عز وجل أورد القربان في القرآن الكريم:

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ)

[سورة آل عمران: 183]

أولاً إرادة قابيل أن يعصي الله عز وجل، ويتزوج أخته التي ولدت معه في بطن واحد، هذا ذنب عظيم، ثانياً أنه قدم قرباناً من أسوأ ما عنده، الله عز وجل لم يتقبل منه قربانه لأنه اختار الأسوأ، وقد قال الله عز وجل:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران: 92]

قصة البشرية أن السيئ يمنع الجيد أن يفعل الحسن :

تقبل من هابيل قربانه، لأنه قدم لله عز وجل أفضل ما عنده، فقابيل رفض التشريع المرحلي، واحتكما بتوجيه أبيهما إلى قربانين يقدمان لله عز وجل، ولأن قابيل رفض توجيه التشريع المرحلي، ولأن قابيل قدم أسوأ ما عنده فلم يتقبل من قابيل وتُقبل من هابيل، لذلك قال تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ)

ما هو الحسد؟ السيئ إن رأى إنساناً جيداً يحسده، ويتمنى أن يمنعه أن يفعل الخير، يتمنى العاصي أن يعصي الناس جميعاً، لو أن العاصي قوي لمنع الطائعين من طاعة الله، وهذا ما يجري في الأرض الآن، الإنسان حينما يعصي الله يختل توازنه، كيف يستعيد هذا التوازن؟ يطعن في الطائعين، ويشوه استقامتهم، ويتهمهم بظلم أنهم ليسوا طيبين، أو أنه يمنعهم أن يكونوا طيبين، قد يمنع المرأة من أن تتحجب كما يجري في فرنسا الآن، يمنعها، امرأة منضبطة تخشى الله، تستر مفاتنها عن الناس، أما الثانية فلها حرية مطلقة بأن تتعرى، لها حرية مطلقة في أن تكون كالقنبلة تفسد الشباب، هذه لا تحاسب، هذه لا يقيد تصرفها، هذه لا تؤاخذ، هذه لا تذم، أما التي أرادت أن تطيع الله، وأن تستر مفاتنها التي أعدها الله لزوجها ولأسرتها، لتكون أماً رؤوماً، وزوجة مقبولةً، هذه التي تتحجب طاعة لله مرفوض أن تتحجب، وهذه قصة البشرية، السيئ يمنع الجيد أن يفعل الحسن، حسداً وضيقاً، أو بشكل آخر، الإنسان العاصي يختل توازنه، يستعيد هذا التوازن إذا اتهم الصالح والطائع بأنه سيئ كذلك، قال بعض الشعراء الجاهليين:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

* * *

جعل الأصل هو الظلم.

أول من رفض طاعة الله وأول من تأبى على الانصياع لله عز وجل هو قابيل :

الآن إذا كان للإنسان ثلاث زوجات، يقول لك: الأصل هو التعدد حتى يرتاح، الأصل هو التعدد، مبالغة، التعدد مسموح به، لكن أن تقول: هو الأصل، لا، فالإنسان أحياناً يتملك نفسه، فحينما رأى قابيل أن أخاه هابيل طائعاً لله، وقد قدم أفضل ما عنده، وقد تقبل الله قربانه أدركه الحسد كما أدرك اليهود، من هنا بدأت المشكلة، قال:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

السيئون في العالم المنجرفون، عبيد شهواتهم، الذين يبنون أمجادهم على أنقاض الآخرين، ويبنون غناهم على إفقارهم، ويبنون عزهم على إذلالهم، ويبنون أمنهم على خوفهم، ويبنون حياتهم على موتهم، هؤلاء تضيق أنفسهم بالصالحين، لا يحبونهم، لأن الصالحين يكشفونهم، لأن الصالحين بالموازنة يظهرون عيبهم، يظهرون دناءتهم، يظهرون انحرافهم، لذلك هم المنحرف أن يمنع الاستقامة، وهم الكاذب أن يمنع الصدق، وهم السارق أن يمنع العفة، الأصل أن تتعرى المرأة، كي تكون حضارية، وكي يكون المجتمع سليماً، الأصل أن تفسد وأن تفسد، الأصل أن يكون الزنا هو الأصل، الأصل أن يحل السفاح محل النكاح، حقيقة دقيقة سارية في أنحاء العالم اليوم، المنحرف يتمنى أن يكون جميع الناس منحرفون، إذا كان المنحرف قوياً يقاوم الاستقامة، وإذا كان جباراً يقتل المستقيم، من إنكار إلى مقاومة إلى قتل، قابيل:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

لماذا تُقبل منك؟ هو كان تقياً، لماذا رضيت بحكم الله؟ يجب أن أقتلك، الموقف الكامل ينبغي أن ترضى بحكم الله، ينبغي أن تصبر، ينبغي أن تحتسب، ينبغي أن تعتقد أن هذه الدنيا دار ابتلاء، دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي، إذا آمن الإنسان بالآخرة يرضيه كل شيء، لأن المعول عليه هو الآخرة، الدنيا زائلة، الدنيا تغر وتضر وتمر، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، الدنيا ممر وليست مقرّاً، الدنيا جيفة وطلابها كلابها، لو أن قابيل آمن بالآخرة لرضي بنصيبه في الزواج، ولقدم لله أفضل ما عنده من إنتاج زراعي، لذلك أول من رفض طاعة الله، وأول من تأبى على الانصياع لله عز وجل هو قابيل، لذلك ورد حديث رائع يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل))

[رواه أبو معاوية عن عبد الله]

أول قاتل إلى يوم القيامة في صحيفة قابيل، أعمال شارون كلها في صحيفة قابيل:

((لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل))

رفض قابيل التشريع

وآثر أن ينتقم وأن يثبت أن الأصل هو الفساد والشهوة :

أيها الأخوة، رفض قابيل التشريع، وآثر أن ينتقم، وآثر أن يثبت أن الأصل هو الفساد، والأصل هو الشهوة، والأصل أن يعيش وحده، قال:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

فقال هابيل مرشداً أخاه: عدم قبول قربانك لأنك لم تكن تقياً، لم تقدم لله أفضل ما عندك، ثم إنك رفضت شرع الله عز وجل، رفضته حينما أبيت الزواج من أختي، ورفضت التشريع حينما قدمت أسوأ ما عندك، لذلك الحيل الشرعية كلها تنطوي تحت هذا الباب، والحقيقة أن كل جهد الإنسان الكافر من آدم إلى يوم القيامة أن يأتي بتشريع آخر، يتملق شهواته، يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً *وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً* إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً)

[سورة الإسراء: 73-75]

أي بكل سذاجة تقول: مرجعية إسلامية كبيرة، ما دام الحجاب قد منع فلا عليكن أيتها الفتيات المسلمات اللواتي يزيد عددهن عن مليون أن تخلعن الحجاب، هذه فتوى قبل أيام.

هذه القصة تصور البشر إلى يوم القيامة :

هذه القصة تصور البشر إلى يوم القيامة، يقول هذا الابن البار هابيل:

(لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي)

الحقيقة هذه الآية تحتاج إلى توضيح دقيق:

(مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ)

ليس عن ضعف مني، ليس عن شعور بالضعف، لا، عن خوف من الله، في تشريع تلك المرحلة لم يكن مسموحاً أن تقتل دفاعاً عن نفسك، فإذا قتل أحد أحداً باء بهذه الجريمة أحدهما، فهابيل لخوفه من الله عز وجل أبت نفسه أن يتحمل إثم القتل قال له:

(لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

أي هذه واضحة جداً، أنا لست عاجزاً عن قتلك، ولكنني أعلم علم اليقين أن القاتل له النار، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه، فالقاتل والمقتول في النار قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))

[متفق عليه عن الأحنف بن قيس]

إذا كان لا بد من أن تكون قاتلاً أو مقتولاً فكن عبد الله المقتولوهذا تشريع من قبلنا :

في توجيه آخر: إذا كان لا بد من أن تكون قاتلاً أو مقتولاً، ولا تكن عبد الله القاتل، إذا كان لا بد من أن تكون قاتلاً أو مقتولاً فكن عبد الله المقتول، وهذا أهون الشّرّين، تنتهي حياتك في الدنيا، لكنك كسبت الآخرة، أما الذي قتل عاش سنوات عدة، ثم خسر الدنيا والآخرة، لذلك: كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل، أنا أتمنى على أخوتنا الكرام ألا يستنبطوا أن الضعف هون التشريع، لكن في تشريعنا نحن هذا تشريع من قبلنا، في تشريعنا:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ*وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[سورة الشورى: 39-40]

أي إذا غلب على ظنك أن عفوك عن أخيك يصلحه ينبغي أن تعفو عنه، ولك عندي جزاء كبير:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

(لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

أروع ما كتب حول هذه الآية أن هابيل كان ينصح قابيل :

أعيد وأكرر: لم يكن في التشريع وقتها أن الذي يقتل دفاعاً عن النفس ينجو، إذاً كان أمام خيارين صعبين، إما أن يكون القاتل فإلى النار، أو المقتول فإلى الجنة، فآثر أن ينجو من عذاب الآخرة.

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

أي إني أخشى أن أتحمل هذه الجريمة، فإن تحملتها أنت فلا ذنب لي، أيضاً هذه الآية تفهم فهماً ما أراده الله عز وجل:

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي)

لا، ليس هذا هو المعنى، هما خياران صعبان، إما أن تقتلني، وإما أن أقتلك، (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)، لا أريد أن أتحمل هذا الذنب، فإن تحملته أنت فهذا شأنك:

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي)

إثمك الأول أنك قدمت ما عندك قرباناً إلى الله، وإثمك الثاني أنك قتلتني:

(فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

أروع ما كتب حول هذه الآية أن هابيل كان ينصح قابيل، إياك يا قابيل، إن قتلتني تحملت إثمي، إثم قتلي، وإن قتلتني تحملت جريرة معصيتك، أنت لست من المتقين، لذلك لن يتقبل الله منك، لأنك لست من المتقين، فإياك أن تقتلني، فإن قتلتني تحملت إثمي، وتحملت الإثم الذي بسببه، وتحملت الإثم الذي بسببه أردت أن تقتلني:

(فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ)

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

خسران قابيل الآخرة بقتل أخيه وهي أكبر خسارة على الإطلاق :

الحقيقة يقول الله عز وجل:

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

ما زال الشيطان ينفخ فيه إلى أن حمله على قتل أخيه فكان أول قاتل في البشرية:

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ)

النفس أمارة بالسوء إن لم تتعرف إلى ربها، وهناك نفس لوامة، وهذه مرحلة جيدة، وهناك نفس مطمئنة، مطمئنة إلى طاعتها لله، وإلى رضاء الله عنها:

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

خسر الآخرة، وهي أكبر خسارة على الإطلاق، خسر الأبد لو عاش مليار، مِليار، مليار، إلى أن تنتهي حياة المتكلم هذا الرقم صفر أمام الأبد، خسر الأبد.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: 15]

الويل أشدّ أنواع الهلاك :

أيها الأخوة، إن أغبى البشر قاطبة هم الطغاة، لأنهم ربحوا أن يتبجحوا أمام الناس أنهم قتلوا وهدموا لكنهم خسروا الأبد، لذلك يقول سيدنا علي: (لا أدخل معركة المنتصر فيها شر من المهزوم)، المنتصر هو الشرير، ألم يحرق ملك اليمن أصحاب الأخدود، أثنى الله عليهم مع أنهم احترقوا، لكنهم رفضوا أن يشركوا بالله عز وجل، إلى الجنة:

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

الآن اختل توازنه، ماذا يفعل به، جثة هامدة، ماذا يفعل به؟

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ)

معنى السوءة المنظر التي تتقزز النفس منه، فإنسان إذا مات وانتفخ، وأصبح أزرق اللون، مخيف، صار هذا الإنسان المقتول سوءة، قال:

(يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي)

ينادي يا ويلتاه، الويل هو الهلاك، تقول عالم وعلّام وعلّامة هذه تاء المبالغة، الويل والويلة، والويلة اشد أنواع الهلاك، لذلك يأتي على العاصي ساعة يتمنى أن يسوى بالتراب، دققوا في هذا الحديث الذي ورد في الجامع الصغير:

((إن العار ليلزم العبد يوم القيامة، حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[رواه أبو نعيم عن جابر]

هذه القصةهي قصة الإنسان الذي كرمه الله فنسي حمل الأمانة وتنكر لها :

هذا الندم الذي يصيب الكافر لا يتحمل، حتى إن الله تعجب منه.

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

(قَالَ يَا وَيْلَتَا)

ماذا فعلت بنفسي:

(أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ)

أيها الأخوة الكرام، كما قلت في مطلع الدرس، وعود على بدء: هذه قصة البشرية، هذه قصة الطاعة والمعصية، هذه قصة الشهوة والمبدأ، هذه قصة الدنيا والآخرة، هذه قصة الانسياق مع أمر الله، وقصة التأبي على أمر الله عز وجل، هذه قصة تجدون مثيلاتها في كل أنحاء العالم اليوم وبعد اليوم، إنها قصة التكليف، إنها قصة حمل الأمانة، إنها قصة ارتفاع الإنسان وانحطاطه، إنها قصة سموه وسقوطه، إنها قصة الشهوة التي سببت هلاك البشر، إنها قصة الإنسان الذي كرمه الله فنسي حمل الأمانة وتنكر لها، وحمل شهوته هدفاً كبيراً، وسار وراء هذه الشهوة، هذه قصة البشرية جمعاء ذكرها الله لنا كي تكون لنا موعظة ودرساً، وإضاءةً نهتدي بها في حركتنا اليومية.

لذلك الدرس القادم إن شاء الله يقول الله عز وجل:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 – الدرس (18-49) : تفسير الآية: 32 ، الدعوة إلى الحياة الحقيقية التي تليق بالإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-01-09

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى الندم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثانية والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)

أيها الأخوة، الآية التي سبقت:

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)

ما هذا الندم؟ الحقيقة هو ندم الفطرة، لأن الإنسان فطر فطرة كاملة، وجبل جبلة كاملة، فلو خرج عن مبادئ الشرع، أو مبادئ منهج الله، أو مبادئ فطرته، لأصابه ندم شديد، والندم تعذيب الفطرة لصاحبها:

(فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الإِثْمُ ما حاكَ في نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أنْ يَطّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

[مسلم عن النواس بن سمعان]

((البرُّ ما اطْمأنَّت إلَيْهِ النَّفْس وَاطْمأنَّ إلَيْهِ القَلْب))

[أحمد والدارمي عن وابصة]

ما كان التخصيص لبني إسرائيل إلا بسبب أنهم كانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق :

قال الله عز وجل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: 7-8]

أيها الأخوة، من أجل ذلك أي بسبب أن قابيل قتل هابيل، وكل قاتل إلى يوم القيامة في صحيفة قابيل، لأنه أول من سفك دماً في الأرض. أيها الأخوة:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ)

لماذا بني إسرائيل بالذات؟ لأنهم قتلوا، فمن قتلوا؟ قتلوا أنبياءهم، أنت محرم عليك أن تسفك دماً، محرم عليك أن تقتل إنساناً أي إنسانٍ، كائناً من كان، فكيف بإنسان يدعو إلى الله عز وجل، فكيف بإنسان هو صلة السماء بالأرض، فكيف بإنسان يشيع في الناس العقيدة الصحيحة والسلوك القويم، لذلك هؤلاء الذين قتلوا أنبيائهم بغير حق هذا كان الحكم لهم بالذات، وما كان التخصيص لبني إسرائيل إلا بسبب أنهم كانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ)

النبي صلى الله عليه وسلم عصمه الله من أن يُقتَلَ قبل أن يؤدي الأمانة :

بعد قليل سيتضح أنه يجوز أن يُقتَل القاتل لأن القتل أنفى للقتل.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 179]

ويجوز أن يُقتَل عن طريق أولي الأمر المفسدون في الأرض، ولكن:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ)

أيها الأخوة، يقول الله عز وجل في آية أخرى:

(قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة البقرة: 91]

أي النبي صلى الله عليه وسلم عصمه الله من أن يُقتَلَ، قال له:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

وبناء على هذه الآية صرف حراسه، ليكون واثقاً من أن عصمة الله لا يمكن أن تخرق، لذلك بعض الغربيين أسلم بسبب هذه الآية، لو لم يكن واثقاً من أن الله سيعصمه ما صرف حراسه، فالنبي عليه الصلاة والسلام معصوم من أن يقتل، طبعاً سوف يموت، لكن يموت متى؟ بعد أن يؤدي الرسالة، ويبلغ الأمانة، وينصح الأمة، ويكشف الغمة.

حدود الله عز وجل لا يقيمها إلا أولي الأمر :

معنى قوله تعالى:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

[سورة الزمر: 30]

بهذا المعنى.

(أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)

[سورة آل عمران: 144]

بهذا المعنى، أي بعد أن يؤدي الرسالة ويبلغ الأمانة، لكن ما دامت الرسالة لم تبلغ، والأمانة لم تؤدَ فالله سبحانه وتعالى عصم نبيه صلى الله عليه وسلم بنص القرآن الكريم من أن يقتل قبل أن يؤدي الأمانة:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ)

لو أن الإنسان قتل يقتله ولي أمر المسلمين، والحدود أيها الأخوة لا تقام إلا من قبل ولي أمر المسلمين، وإلا كانت الفوضى، ومن التطرف، ومن الانحراف عن منهج الله أن يتصور الواحد من المسلمين أنه بإمكانه أن يقيم الحدود من تلقاء نفسه، حدود الله عز وجل لا يقيمها إلا أولي الأمر.

الله سبحانه وتعالى أرادنا أن نكون جميعاً وحدة إيمانية :

أيها الأخوة:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

كأن الله سبحانه وتعالى أرادنا أن نكون جميعاً وحدة إيمانية، قال تعالى مثلاً:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة: 188]

المعنى: لا تأكلوا أموال بعضكم، لا تأكلوا أموال أخوانكم، لكن الآية:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

لأنكم إن أكلتم أموال أخوانكم فكأنما أكلتم أموالكم، لأن إضعاف المؤمن إضعاف لأخيه، ولأنك مطالب أن تحافظ على مال أخيك وكأنه مالك، فلئن تمتنع عن أكله ظلماً من باب أولى، توجيه رائعٌ جداً لكل مسلم مال أخيك هو مالك من زاوية واحدة، هو أنه يجب أن تحافظ عليه وكأنه مالك، فإذا كنت مكلف أن تحافظ عليه وكأنه مالك فلئن تمتنع عن أكله ظلماً من باب أولى، بكلمة: ولا تأكلوا أموالكم إشارة إلى أن هذا المال ينبغي أن تحافظ عليه.

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)

[سورة النساء: 29]

إنكم إن قتلتم مسلماً فكأنكم قتلتم أنفسكم، له زوجة وأولاد، أفجعتم أسرة تنتمي إلى المسلمين.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة سادسة :

كأن الله في آيات كثيرة:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ)

[سورة الحجرات: 12]

هذه الآيات في مجملها تشير إلى أن الله يريدنا أن نكون مجتمعين، أن نشكل وحدة إيمانية، فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعض، إذاً:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

مطلوب أن الناس جميعاً عليهم أن يستنكروا فعل المنكرات لا أن يسكتوا، لذلك يعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة سادسة، وحينما أرسل الله ملائكة ليهلكوا قرية قالوا: يا رب إن فيها رجلاً صالحاً، قال: به فابدؤوا، قالوا: ولمَ يا رب؟ قال: لأن وجه كان لا يتمعر إذا رأى منكراً، وحينما قال الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران:110]

علة هذه الخيرية الأمر المعروف والنهي عن المنكر، فإن قصرت الأمة في هذه الفريضة ليست خير أمة أخرجت للناس، هي أمة كأية أمة خلقها الله عز وجل، لا تمتاز عن بقية الأمم ولا بشعرة.

المجتمع بأكمله ينبغي أن يستنكر المنكر وهذا من الإيمان :

أيها الأخوة الكرام، من أسباب هلاك بني إسرائيل أنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة المائدة: 79]

بل إن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: (والله لو أن أهل بلدة ائتمرت على قتل واحد لقتلتهم به جميعاً)، فالقتل أنفى للقتل، ولكم في الحياة قصاص يا أولي الألباب، المجتمع بأكمله ينبغي أن يستنكر المنكر، وهذا من الإيمان.

حدثني أخ كريم سائق سيارة على خط دولي جاءته فتاة وشاب ليركبا معه، لكنهما ينتظرا محفظة تأتي بعد ربع ساعة، مضى ربع ساعة ولم تأتِ المحفظة، انتظر زمناً آخر فجاء رجل في السبعين من عمره، وقد وضع المحفظة على رأسه، فما كان من هذا الشاب إلا أن وكزه على رأسه ولامه على تأخيره، ثم أخذ المحفظة منه، وسارت المركبة، وفي منتصف الطريق سمع السائق هذه الفتاة وهي زوجته تقول للشاب وهو زوجها: لمَ ضربت أباك؟! فأوقف السائق المركبة، وطرد منها الراكبين، وأعطاهما ما دفعاه له، وقال: أخشى أن أقع في حادث مأساوي لأنكما أغضبتما ربكما.

لو أن كل واحد منا سمع أو رأى شيئاً منكراً فأنكره لكنا في حال غير هذا الحال، لو أن كل عم رأى بنت أخيه ترتدي ثياباً فاضحة فوعظها ونصحها، واستنكر عملها لكنا في حال غير هذا الحال، لذلك الذي يسبب هلاك المسلمين أن تقول: أنا ليس لي علاقة، حينما تقول: ليس لي علاقة، ولست مكلفاً، وأنا مكتفي بنفسي، وأنا أقيم الإسلام في بيتي ولا شأن لي بمجتمع الناس هذا أيضاً من ضعف الإيمان، لذلك يقول الله عز وجل:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

أي يا أيها الناس جميعاً استنكروا فعلاً واحداً خرج عن منهج الله عز وجل.

حينما نتعاون على إقامة الحق وإنكار الباطل نعلو في عين الله جميعاً :

الحقيقة في ملاحظة تستدعي أن نذكرها، ما الذي يعين الإنسان على التجرؤ على الحق؟ ما الذي يعين الظالم أن يظلم؟ ما الذي يعين المجرم أن يرتكب جريمة ثانية؟ سكوت الناس عنه، لا شيء يعين على تفاقم الخطأ كسكوت الناس عن الخطأ، لذلك:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران: 104]

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ)

ولحكمة بالغة أن الله سمى العمل الصالح معروفاً، لأن النفوس البشرية تعرف المعروف بفطرها السليمة، ولأن النفوس البشرية تنكر الخطأ بفطرها السليمة، فالمعروف نعرفه بالفطرة، والمنكر ننكره بالفطرة، وهذا معنى أن الدين متوافق مع الفطرة توافقاً تاماً، لذلك لا شيء يعين الشرير على أن يرتكب الخطأ كسكوت الناس عنه.

قصة مشهورة جداً: رأى سبع من السباع في غابة ثيراناً ثلاثة، ثوراً أبيض، وثوراً أسود، وثوراً أحمر، فأقنع الثورين الأسود والأحمر على أن يأكل الأبيض فسمحا له، ثم أقنع الثور الأسود على أن يأكل الأحمر فسمح له، بقي أمامه الأسود، فلما توجه إلى الأسود ليأكله قال: أُكلت يوم أكل الثور

الأبيض.

المجتمع الذي لا يتناصح، ولا يأتمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، مصيره إلى الزوال، وما من شيء يضعف الناس كتفرقهم، وما من شيء يضعف الناس كسلبيتهم، وما من شيء يضعف الناس كأن يقول الواحد: أنا ليس لي علاقة، أوضح مثلاً: شب حريق في نهاية الشارع، بينك وبينه عشرون بيتاً، إن لم تخرج من بيتك للمساهمة بإطفاء هذا الحريق فسيأتي إلى بيتك، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[سورة الأنفال: 25]

إن لم تسارع لإطفاء الحريق في نهاية الشارع فهذا الحريق سوف يصل إليك، لذلك حينما نتعاون على إقامة الحق، وإنكار الباطل نعلو في عين الله جميعاً، وحينما نتفرق وكل واحد ينتمي إلى ذاته، ولا يعنيه مجتمعه ينبغي أن ندفع الثمن باهظاً.

الآية التالية توجه إلى الحياة الاجتماعية :

طبعاً قصة أخرى ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام: أن أناساً ركبوا قارباً واقتسموا بينهم الأماكن، فقال الذي في الأسفل: أنا سأثقب مكاناً في السفينة لأخذ الماء منه من أجل ألا أزعج من فوقي، فقال عليه الصلاة والسلام: لو أخذوا على يديه نجا ونجوا، ولو تركوه هلك وهلكوا.

أوضح مثل السفينة، إذا أراد أحد الركاب أن يثقب في أرض السفينة ثقباً ليأخذ منه الماء غرقت السفينة بمن فيها، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا.

أيها الأخوة الكرام: قال عليه الصلاة والسلام:

((من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))

[مسلم عن جابر]

كيف أننا في الكمبيوتر عندنا نسخ ولصق، فكل عمل صالح الذي دل عليه والذي دعا إليه له مثل النتائج التي تفعل هذا العمل:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

هذه الآية توجه إلى الحياة الاجتماعية، توجه إلى أن تنتمي إلى مجموع المسلمين توجه إلى أن يعنيك ما يعني المسلمين، توجه إلى أن تكون حاملاً لهموم المسلمين، توجه إلى أن تكون إيجابياً لا سلبياً، توجه إلى أن تسهم بشكل أو بآخر في التخفيف عن المسلمين، الآن:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا)

أعيد وأكرر: إنه ممنوع أشد المنع، ومحرم أشد التحريم أن تسفك دماً كائناً من كان، ولكن حينما يكون سفك الدم لإنسان له عمل صالح فقد حرمت المجتمع كله من هذا العمل الصالح.

حياة النفس أن تعرف الله وتتوب إليه وتعمل صالحاً وتتقي أن تعصيه :

أيها الأخوة الكرام: هذه آية تشير إلى قيمة من له عمل طيب عند الله عز وجل، هو في قلوب الناس جميعاً، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

[سورة النحل: 120]

وَمَنْ أَحْيَاهَا)

أحياها بتعريفها بربها، أحياها بحملها على طاعته، أحياها بأن دفعها إلى التوبة، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

الإيمان هو الحياة، والطاعة هي الحياة، هناك حياة بيولوجية، حياة مادية، القلب ينبض، الرئة تعمل لها وجيب الأعصاب تستقبل، العضلات تتحرك، المعدة تهضم، الدم يدور في الأوعية، هذه حياة الجسم، لكن حياة النفس أن تعرف الله، وأن تتوب إليه، وأن تعمل صالحاً، وأن تتقي أن تعصيه، لذلك:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا)

أي من دل إنساناً على الله، من عرف إنساناً بالله، من حمل إنساناً على طاعة الله، من دفع إنساناً إلى عمل صالح، من أعانه على التوبة، من سهل له طريق الحق، من جمعه مع أهل الحق، من نور قلبه بالهدى، أي عمل هدفه إحياء النفس فكأنما أحييت الناس جميعاً، السبب؛ هذا الذي دللته على الله، واهتدى بهدي الله، وانضبط وفق منهج الله، حوله أشخاص، له زوجة وأولاد، وله عمل يتعامل مع الناس، أي مئات بل ألوف من البشر تعاملوا معه، وأثنوا على استقامته، وعلى صلاحه، فكان سبباً لهدايتهم، ومن يصدق أنك قد تكون سبباً في هداية إنسان فتأتي يوم القيامة لترى أن هناك ملايينا مملينة قد اهتدت إلى الله عز وجل عبر السنوات والحقب بسبب هداية هذا الإنسان، وهذا شيء لا يقدر بثمن.

الفساد أن تخرج النفس عن طبيعتها التي فطرها الله عليها :

عن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لعليّ رضي الله عنه:

((فَوَ اللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه]

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ)

أيها الأخوة الكرام، نعود إلى كلمة الفساد:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ)

طبعاً القتل أنفى للقتل:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

أي أن يكون عقاب القاتل القتل، هذا يردع القاتل عن أن يقتل، فيحي نفسه ويحي الذي كان سيقتله:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ)

والعرب تقول في الجاهلية: القتل أنفى للقتل:

(أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ)

الفساد أيها الأخوة أن تخرج النفس عن طبيعتها، هذه البنت التي خلقها الله، خلقها لتكون بنتاً تسعد أبويها، ثم لتكون زوجة لتسعد زوجها، ثم لتكون أمّاً تسعد أولادها، ثم لتعيش حياة مطمئنة هادئة راقية، فجاء الذي أفسدها ودلها على الزنى، فجعلها بغِيّاً، وعندئذ تكون سبباً لشقاء من يأتي بعدها، هذا هو الفساد في الأرض، أن تخرج الإنسان عن طبيعته التي فطره الله عليها.

الدعوة إلى الله دعوة إلى الحياة الحقيقية التي تليق بالإنسان لنيل رضوان الله تعالى :

ما الذي يجري الآن في العالم؟ يوضع إعلانات في الصحف عن فرص عمل في بلاد غربية برقم كبير جداً، تتقدم طالبات العمل، ولأن الإسلام حرم أن تسافر المرأة من دون محرم تقبل هذا الطلب المغري وتسافر، يؤخذ جواز سفرها، وتساق إلى الدعارة، وتضرب وتعذب إن رفضت، ولا تعطى مما يأخذون عليها إلا الشيء اليسير، آخر إحصاء سبعمئة ألف امرأة كل عام تدخل إلى حيز الدعارة، هذا الذي يفعل هذا ألا ينبغي أن يُقتَل؟ ألا ينبغي أن ترتاح الأرض منه؟ هذا يجري في دول شرق آسيا، وفي دول أوربة الشرقية، وفي بلاد كثيرة، هذا الفساد طفل صغير خلقه الله بريئاً تفسده، ويعمل في الدعارة؟ أيضاً الشيء الذي يجري في العالم لا يتصور من شدة الفساد في الأرض، فحد الذي يقتل نفساً بغير نفسٍ أن يقتل، وحدّ الذي يفسد الإنسان، يفسد براءة الأطفال، يفسد براءة الفتيات، هذا حده أن يقتل أيضاً على يد ولي المسلمين، هذا هو الحكم الشرعي، لذلك معنى قوله تعالى:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

لذلك قالوا: هذا الذي يكيد لخصم له، هذا محاسب عند الله، سواء أكان الذي أخذه منه مساوياً لما فقده أو أكثر، ولكن هذا الذي يقطع الطرق، قديماً كان هناك قطاع طرق والآن يوجد قطاع طرق لكن إلى الله،

الطرق إلى الله تقطع بالشهوات، وصور العاريات والانحراف في الملمات، هذا كله أيضاً قطع طريقٍ إلى الله عز وجل، لذلك الله عز وجل يقول:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

فأنت إذا هديت إنساناً فكأنما أحييت الناس جميعاً، وأوضح دليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

فالدعوة إلى الله دعوة إلى الحياة الحقيقية، دعوة إلى الحياة التي تليق بالإنسان، دعوة إلى الحياة التي ينبغي أن يحياها الإنسان، دعوة إلى الحياة التي يمكن أن تتصل بالآخرة، فتكون هذه الحياة سبباً لنيل رضوان الله تعالى.

أيها الأخوة الكرام، ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)

الإسراف تجاوز الحد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (19-49): تفسير الآيات 33-34 ، التشريع الإلهي.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-01-16

بسم الله الرحمن الرحيم

محاربة الله ورسوله أن تشرع تشريعاً يتناقض مع تشريع الله أو يبتعد عن تشريع الله:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثالثة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، كيف يحارَب الله؟ الله عز وجل لا تدركه الأبصار، الحرب بالمفهوم الأرضي أن تقاتل إنساناً، وتستلب ما عنده، أن تحتل أرضه، أن تستولي على ثرواته، أن تأخذ متاعه، الحرب صِدام، لكن كيف يحارَب الله؟ الحقيقة أن الله يحارَب بإحداث تشريع خلاف تشريع، لأن التشريع من حق الله وحده، الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، فحينما نشرع نحن تشريعاً بعيداً عن تشريع الله، أو مخالفاً لتشريع الله فكأنما حاربنا الله، هذه حقيقة أولى، محاربة الله ورسوله أن تشرع تشريعاً يتناقض مع تشريع الله، أو يبتعد عن تشريع الله، أو يفسد الإنسان.

التشريع الإلهي يحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة، الله عز وجل حينما خاطب نبيه وقال:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)

[سورة الإسراء:73]

إن سمينا الكفار الطرف الآخر فإن جهد الطرف الآخر من آدم إلى يوم القيامة أن يبدلوا منهج الله، أن يبدلوا منهج الله بمنهج أرضي يحقق للإنسان شهواته، ويبعده عن المسؤولية، القضية واضحة جداً، إما أن تختار الله أو الدنيا، إما أن تختار الآخرة أو متاع الحياة الدنيا، إما أن تختار أن تتبع منهج الله أو أن تتبع هوى نفسك، فالتشريع الإلهي يحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة.

تعريف آخر للتشريع الإلهي دقيق جداً: هو أنك إذا صنعت آلة هذه التعليمات التي مع الآلة من أجل صيانة الآلة من التلف، من أجل صيانتها من العطب، من أجل أن تعطي هذه الآلة أعلى مردود، فكأن تشريع الله عز وجل من أجل صيانة الإنسان من أن يشقى في الدنيا والآخرة، فالجهة الوحيدة الخبيرة

القادرة على إسعاد الإنسان عن طريق تعليمات دقيقة مفادها افعل ولا تفعل، هذه الجهة هي الله عز وجل، بمعنى أن الله هو الخبير بما يسلمك وبما يسعدك.

إذاً: الطرف الآخر مهمته أن يأتي بتشريع خلاف التشريع الإلهي، الربا يجمع الأموال في أيد قليلة ويحرم منها الكثرة الكثيرة، وتشريع الله عز وجل أن يكون المال متداولاً بين الناس جميعاً، الكتلة النقدية ينبغي أن تكون متداولة بين الناس، أما حينما يعتدى على شرع الله، فنسمح للمال أن يلد المال عندها يتجمع المال بأيدٍ قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة، فنحن بتشريع الربا حاربنا الله، بمعنى؛ أننا أحللنا تشريعاً مناقضاً لتشريعه، لأن الله سبحانه وتعالى أحل البيع وحرم الربا، فنحن شرعنا الربا، فلما شرعنا الربا صار هناك في كل بلد فرق طبقي كبير جداً، هذا وراء كل مآسي البشرية، أي أن يمتلك عشرة بالمئة من سكان الأرض تسعين بالمئة من موارد الأرض، وأن يعيش الباقون على فتات هؤلاء العشرة بالمئة، هذا يتناقض مع تشريع الله، فإذا قرأتم في القرآن الكريم قوله تعالى: " يُحَارِبُونَ اللَّهَ "، أي يشرعون تشريعاً يتناقض مع تشريع الله، تشريع الله عز وجل مهمته صيانة الإنسان من الفساد، صيانته من الشقاء، صيانته من التعاسة، لأن الله سبحانه وتعالى أدرى بمن خلق، وهو الخبير، هو الوحيد الذي يعلم ما يصلحنا وما يفسدنا.

تشريع بني البشر يحقق متعة بني البشر ومصالحهم :

لذلك:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ)

أي أنت حينما تحارب الله، تريد أن تفسد خلق الله، تريد أن تشقيهم، فهذه الفتاة حينما تدفعها إلى التبذل، وإلى عرض مفاتنها في الأماكن العامة تحت غطاء حريتها وكرامتها وحقوقها، وهي امرأة تمثل نصف المجتمع، هذه مصممة بأعلى درجة من الوفاء لزوجها، والتصديق لمن حولها، والليونة والخضوع، هذه الصفات كلها تؤهلها لأن تسعد زوجها، وتكون بارةً بأولادها، أما حينما تدفعها إلى أن تعرض مفاتنها على الناس، وأن تختلط مع الرجال فخصائصها التي تتميز بها، والتي أحد أسباب إسعاد زوجها قد تكون سبب دمارها، فيأتي من يضحك عليها، ومن يغريها بكلمات معسولة، ثم ينال وطره منها، ويلقيها ساقطة تعيسة، فحينما يشرع الإنسان تشريعاً من أجل متعته، من أجل أن يستمتع بالمرأة في أي مكان حتى في العمل، يحبذون الموظفات على الموظفين بدافع عميق فيهم، ألا وهو الاستمتاع بالمرأة، فلذلك تشريع بني البشر يحقق متعة بني البشر، يحقق مصالحهم، يحقق تحقيق شهواتهم، يحقق انغماسهم في شهواتهم، لكن تشريع خالق البشر يحقق للإنسان سعادة أبدية تمتد إلى أبد الآبدين.

لذلك أيها الأخوة: لا يستطيع الإنسان أن يحارب الله بالمفهوم المحدود في الأرض، الله يقول له:

(كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

بلحظة يجعله أثراً بعد عين، يرسل عليه صاعقة فتحرقه، يوقف قلبه فجأة، فهناك مليار مِليار مليار خيار الله يقضي على الإنسان في ثانية.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

التشريع هو صيانة الإنسان من الفساد والشقاء في الدنيا والآخرة :

حرب بالمفهوم الساذج مستحيلة، لكن محاربة الله أي أن تشرع تشريعاً متناقضاً مع تشريع الله، أن تسمح للمرأة بالاختلاط، أن تدفعها إلى السفور، سمعت مرة مقولة والله منصفة، لكنها غير شرعية، قال: كما أن المرأة حرة في أن تتعرى فهي حرة في أن تتحجب، ما سمحوا لها أن تتحجب، حينما تظهر مفاتنها لكل من هب ودب لا تؤاخذ، أما إذا تحجبت -وضعت خرقة على رأسها بالمفهوم الاصطلاحي- فتقوم الدنيا ولا تقعد من أجل حجابها، إذاً هذا موقف غير منصف، لماذا سمحت للأولى أن تتعرى، وأن تفسد الشباب، وأن تفسد في الأرض، ولم تسمح للثانية أن تتحجب، هذا يقلق الطرف الآخر، لذلك التشريع الإلهي هو صيانة لصنعته.

الآن اقتن أية آلة فيها تعليمات دقيقة، هذه الأشياء تعطبها، تحذيرات، هذه الأشياء تقلل مردودها، هذه الأشياء تقصر في عمرها، هذه الأشياء ترفع من كفاءتها، هذه الأشياء تعلي مردودها، هكذا أية صنعة محكمة دقيقة لا بد لها من صانع حكيم، وهذا الصانع الحكيم من لوازم حكمته، وإتقانه لعمله أن يقدم التعليمات، فإذا أردنا أن نضغط التشريع كله في كلمات: صيانة الإنسان من الفساد ومن الشقاء في الدنيا والآخرة، الآن الإنسان الذي يتبع هواه، والإنسان بالمناسبة أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما أن تتبع الهوى وإما أن تتبع الحق، والله عز وجل يقول أنت على أحد الطريقين حتماً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

أنت أحد رجلين، إما أنك تتبع الحق، أو أنك تتبع الهوى، إما أنك تتبع ما أنزل الله، أو تتبع ما تمليه عليه غرائزك، إذاً محاربة الله ورسوله أن تشرع تشريعاً يتناقض مع تشريع الله ورسوله:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ)

وحي الله هو الحق المطلق والكمال المطلق:

الله عز وجل يحارب بتشريعات تفسد بني البشر، أما الرسول فيحارب حربين، في حياته يحارب من يعتدي عليه، وقد حاربه المشركون، وتمنوا قتله، وحاربوه ليقتلوه، أما إذا انتقل إلى الرفيق الأعلى كيف يحارب؟ بسنته، حينما نأتي بتشريعات تتناقض مع سنته التفصيلية، فنحن إذاً نحارب رسول الله، ومن أجمل ما قاله المفسرون في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الحجرات: 1]

أي لا تقترح اقتراحات لم يأتِ بها النبي، أو تعاكس منطوق النبي عليه الصلاة والسلام، هذا افتراء على الله ورسوله، وهذا دليل الجهل بأن هذا الوحي الذي جاء به النبي لم يرق لك، وحي الله هو الحق المطلق والكمال المطلق، وبيان النبي لهذا الوحي أيضاً حق مطلق، وبيان مطلق:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً)

أي إما أن تزلزل عقيدة المؤمنين لطرح شبهات وترهات وضلالات ونظريات وأطروحات تنفي حقائق القرآن، أو أن تسعى في الأرض فساداً، هذا الماء مصمم أنه لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة، وله سيولة معينة، وله خصائص معينة، فأنت إذا لونته غيرت طعمه، أو غيرت قوامه، أو جعلته ذا قوام شد أفسدت طبيعة الماء، مثلاً هذه الفتاة خلقها الله عز وجل إفسادها أن تعرضها للفساد، أن تضعها في بيئة تتعرض فيها للفساد، إفسادها أن تعزف عن الزواج، إفسادها أن تكون متعة محرمة لكل الناس، فمحاربة الله ورسوله تعني هذا، وإفساد الأطفال عن طريق تقديم ما يشوه عقيدتهم أو أخلاقهم عن طريق أفلام متحركة يشاهدونها وهم صغار، هذا من إفساد الصغار، من إفساد البنات، من إفساد البيئة:

(وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً)

الصفة الجامعة المانعة للمجتمعات الشاردة عن الله هي النفاق والسرقة :

كأنك تستشف من هذه الآية أن الكافر مهمته الأولى إفساد عقيدة الناس، وإفساد أخلاقهم، من حيث العقيدة الدعوة إلى إنكار ما في القرآن والسنة، وإفساد أخلاقهم، الدعوة إلى إفساد العلاقة الاجتماعية والعلاقات بين الجنسيين، بحيث تحل الإباحية محل الانضباط، هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله يعتدون على منهج الله، لماذا هناك حدود؟ من يعتدي على الدين عليه حد، ومن يعتدي على العرض، ومن يعتدي على النفس، ومن يعتد على العقل، ومن يعتدي على المال، هذه مقاصد الشريعة الخمس، الدين، والحياة، والعرض، والعقل، والمال، فإنما شرع الله كل هذه التشريعات من أجل صيانة الدين،

والعرض، والعقل، والمال، والحياة، من يعتدي على حياة الإنسان يقتل، ومن يعتدي على ماله تقطع يده، ومن يعتدي على عرضه يجلد ثمانين جلدة ولو بكلمة، ومن يعتدي على عقله بشرب الخمر أيضاً يجلد ثمانين جلدة، هذه حدود والحدود من أجل أن يسلم المجتمع من هذه الشرور.

إذاً: هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله، أي يقيمون تشريعات تتوافق مع أهوائهم وشهواتهم، ولا يعبؤون باليوم الآخر ثم إنهم يفسدون النفس البشرية، أنت مثلاً حينما تأتي بموظف إلى محلك التجاري تعطيه بالشهر ألف ليرة، والمال بين يديه، أنت بهذا الدخل القليل حملته على أن يسرق، أفسدته، فحينما لا تعطي الإنسان حاجته، ولا تحقق له كرامته إن لم تعطيه حاجته يسرق، وإن لم تعطيه كرامته ينافق، فكأن الصفة الشاملة للمجتمعات المتخلفة النفاق والسرقة، الصفة الجامعة المانعة للمجتمعات الشاردة عن الله عز وجل هي النفاق والسرقة.

الحدود لا يقيمها إلا أولو الأمر من أجل ألا تكون الفوضىوالفتن :

أيها الأخوة، هؤلاء الذين:

(يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً)

هؤلاء خطرون جداً، إنسان يعتدي على أقدس ما عند الأمة، هذا ينبغي أن يعاقب أشد العقاب، إنسان يعتدي على أقدس ما تملكه المرأة، عرضها، ينبغي أن يعاقب أشد العقاب قال تعالى:

(أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنْ الْأَرْضِ)

أيها الأخوة، هذه كلها بالتعبير القانوني: مؤيدات قانونية، ما من تشريع في الأرض إلا وفيه عقوبات، لو ألغينا العقوبات من التشريعات، التشريعات لا معنى لها، إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، ولكن كحقيقة ثابتة أكيدة أن هذه الحدود لا يقيمها إلا أولو الأمر من أجل ألا تكون الفوضى والفتن، الحدود لا يقيمها إلا أولو الأمر.

أيها الأخوة الكرام، لا تظنوا هذا قسوة، أضرب لكم مثلاً، في إحصاءات دقيقة جداً أنه في كل ثلاثين ثانية في بعض المجتمعات الغربية ترتكب جريمة سرقة، أو قتل، أو اغتصاب، قسمت جرائم القتل والاغتصاب والسرقة على ثواني العام فكان كل ثلاثين ثانية جريمة، في بلاد بقياس التقدم العلمي متخلفة جداً، لكنها طبقت أحد حدود الشرع قطع يد السارق، ما الذي حصل؟ هذا شيء ثابت، أنه يمكن لمن يصرف العملة أن يدع صندوقاً فيه ملايين، ويذهب ليصلي وقت الصلاة، وهناك قصص تروى عن بلد متخلف، لكنه طبق حد السرقة لا تصدق، فأنت حينما تضحي بواحد في العام كله، واحد أو اثنان فقط وتصون أموال الأمة أفضل؟ أم أن تضحي بمجموع أموال الأمة، وبمجموع طمأنينة الناس على

أموالهم؟ الله عز وجل هو المشرع.

يد بعشر مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

* * *

أجاب الإمام الشافعي:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

* * *

لما كانت أمينة كانت ثمينة فلما خانت هانت.

جزاء الإفساد في الأرض :

أنت حينما تجد في وعاء فواكه واحدة فاسدة، هذه الواحدة الفاسدة بعد حين تفسد كل ما حولها، فأيهما أفضل أن تضحي بكل هذه الفاكهة الجيدة برمي أحد الحبات الفاسدة، أم أن تضحي بكل هذه السلة التي فيها فواكه من أعلى مستوى؟ قضية بسيطة جداً، المجتمع أولاً، لذلك هذا الذي يحارب الله ورسوله، هذا الذي يفسد عقائد الناس، هذا الذي يحببهم بالدنيا ويزهدهم بالآخرة، هذا الذي يؤكد لهم أن الدين أفيون الشعوب، هذا الذي يقول لهم: الدين شعور، ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة يوم كان ضعيفاً، هذا الذي يبين أن الأديان ليس لها صلة بالسماء إطلاقاً، إنما هي اجتهادات من عباقرة عظماء سيطروا على الناس، وأتوا بهذه التشريعات، هذا الذي يبين للناس أن كل القيم الأخلاقية متبدلة من مكان إلى مكان، وأنه ما يكون هناك حرام هو في مكان آخر حلال، هذا الذي يلغي الدين من حياة الناس، يلغي الانضباط، يلغي طلب الآخرة، يلغي عبودية الإنسان لله عز وجل، يلغي رسالة الإنسان، يلغي تكليف الإنسان، يجعل الإنسان كائناً يبحث عن لذته وشهوته، يجعل الإنسان كائناً لا يتجه إلا لمصلحته، شيء لا يحتمل، هذا الذي يحارب الله بتشريع أرضي يخالف شرع الله عز وجل، ويسعى في الأرض فساداً، إفساد الشباب، إفساد الشابات، إفساد الأذواق، إفساد العلاقات، هذا كله إفساد، أي الإفساد أن تفسد بنيته، أن تفسد أخلاقه، أن تفسد أذواقه، أن تفسد علاقاته مع الآخرين، أن تجعل المجتمع كالذئب، إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، أن تلغي اتصال الأرض بالسماء، أن تحاول أن تبعثر جهود الإنسان، أن تصرفه عن الدار الآخرة.

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

أطروحات تزين المعاصي وتزخرفها :

أنا لا أغيب عن ما يطرح من أجل المعاصي، أن الإنسان عنده حاجات يجب أن تلبى، عنده واقع يجب أن يعيشه، هذه الفتاة لها فترة فتوة ينبغي أن تعيش وقتها، أن تعطى ما تريد، هذه الأطروحات أطروحات شيطانية مزخرفة، لكن الحقيقة هي ذلك الوحي العظيم من عند الله عز وجل:

(ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ*إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الحقيقة في دساتير العالم قاعدة: أن القوانين لا يعمل بها رجعياً، وإلا فهناك ظلم شديد، أي أنت تعمل عملاً مشروعاً ومباحاً، بعد حين يصدر قانون يحرم هذا الشيء، أنت لا ينبغي أن تؤخذ بهذا القانون الجديد، إذاً:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

هذه الآية نشرحها في الدرس القادم إن شاء الله.

القوانين لا تطبق بمفعول رجعي :

قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

ارتُكِب مثلاً شيء يوجب الحد فأنت إذا قبضت عليه بهذا الجرم يجب أن تقيم عليه الحد، ومن يعفو عنه لا عفا الله عنه، لأنه يسعى في الأرض فساداً أيضاً، لكن إذا ارتكب ما يوجب الحد ثم تاب إلى الله توبة نصوحة وجاءك تائب، مادام تاب من قبل أن تقدر عليه، من قبل أن تضبطه بهذه المخالفة فهذا حقه محمي، عندئذٍ هذا يغفر له عند الله، وينبغي أن يغفر له عند الناس، هذه قاعدة قانونية دقيقة جداً.

إنسان مثلاً يعمل في تبديل العملات، لو صدر قانون يحرم التعامل بالعملات هل يجوز أن نضع هذا في السجن، يوم فعل ما فعل كان هذا مباحاً، وضمن الأنظمة النافذة، فإذا منع فلا ينبغي أن يحاسب من ترك هذه الحرفة قبل صدور هذا القانون، هذه قضية دقيقة جداً، القوانين لا تطبق بمفعول رجعي.

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أي هذا حد لأن القتل والصلب وقطع الأيدي والأرجل من خلاف والنفي من الأرض هذه حدود مؤلمة ردعاً للمجتمع، وصيانة له، لكنها لا تطبق بمفعول رجعي:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (20- 49): تفسير الآيات 35-37 ، وسائل مشروعة للتقرب من الله تعالى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-02-06

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يخاطب الناس بأصول الدين ويخاطب الذين آمنوا بفروع الدين :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس العشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

أيها الأخوة الكرام، ذكرت من قبل أن المؤمن إذا قرأ في مطلع الآية: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ " فهذا عقد إيمان بينه وبين الله، لأن الله عز وجل يخاطب الناس بأصول الدين.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة: 21]

ويخاطب الذين آمنوا به، آمنوا بوحدانيته، آمنوا بكماله، آمنوا بعلمه، آمنوا بحكمته، آمنوا برحمته، آمنوا بقدرته، يخاطبهم بفروع الدين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

آمنوا، التقوى أيها الأخوة هي طاعة الله، بالمعنى العام، أو أن تجعل بينك وبين سخط الله وقاية.

ما من دم سفك إلا وسوف يحمله إنسان يوم القيامة إلا الذي أقيم عليه الحد فيتحمله الله:

الله جل جلاله وحده يفر منه إليه:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

[سورة الذاريات: 50]

ويتقى سخطه بالإقبال عليه، ويرجع منه إليه:

(اتَّقُوا اللَّهَ)

أي اجعلوا بينكم وبين عذابه ستراً، اجعلوا بينكم وبين جهنم ستراً، اجعلوا بينكم وبين أن ينالكم الله بعقابه ستراً، اجعلوا بينكم وبين عدله ستراً، لأن الله سبحانه وتعالى عدل، ما من حق أُكل إلا والله عز وجل سيحاسب الذي أكله، وما من قطرة دم أريقت إلا ويحملها إنسان كائناً من كان يوم القيامة، مهما

علا اسمه، دم الإنسان لا يسفك إلا بحد، دم الذي أقيم عليه الحد يتحمله الله عز وجل، وما سوى ذلك ما من دم سفك إلا وسوف يحمله إنسان يوم القيامة، يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

أي اتقوا الأخطار التي تقود بكم إلى الهلاك، أنا متى أتقيه؟ الآن لو دخلنا بالتفاصيل، أنا أسير في طريق متعرج، وعن يمين الطريق وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق، فأنا كيف أتقي الخطر؟ والوقت ليل كيف أتقي الخطر؟ عن اليمين وادٍ يحيق ـ هكذا الدنيا ـ وعن اليسار وادٍ سحيق، والطريق كله انعطافات، متى أتقي الخطر؟ أتقي الخطر بضوء كاشف، فالضوء الكاشف يبين لي مسار الطريق، والضوء الكاشف يبين لي عمق الوادي، والضوء الكاشف يبين لي الأكمة التي أمامي، والحفرة التي عن يميني، والخطر الذي عن يساري.

عدة معان لتقوى الله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

بمعنى أن استنيروا بنوره لتروا الحق حقاً والباطل باطلاً.

أيها الأخوة الكرام، اعتماداً على أن الإنسان مجبول على حب وجوده، وحب كمال وجوده، وحب سلامة وجوده، وحب استمرار وجوده، لو أيقن أن هذا لصالحه يأخذ به، هذه الأزمة أزمة علم، أهل النار وهم في النار يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك: 10]

بالمعنى العام اتقوا الله أطيعوا الله لئلا تعاقبوا، لئلا تهلكوا لا في الدنيا ولا في الآخرة، بالمعنى الأدق اجعل بينك وبين عدل الله ستراً، اجعل بينك وبين عقوبة الله حجاباً، اجعل بينك وبين ما ينتظر الإنسان يوم القيامة دريئةً، هذا المعنى الثاني.

المعنى الثالث: لا بد من أن تستنير بنور الله حتى ترى الحق حقاً فتتبعه، وحتى ترى الباطل باطلاً فتجتنبه.

ما من إنسان قبل أن يقدم على عمل إلا ويسبق العمل رؤية :

الآية الكريمة أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد :28]

أيها الأخوة، ما من إنسان قبل أن يقدم على عمل إلا ويسبق العمل رؤية، هذا الذي سرق ماذا رأى؟ رأى أنه أذكى من كل الناس، بوقت قصير وجهد قليل أخذ مبلغاً كبيراً، لكن لم يرى أنه سوف يكون في السجن بعد حين، وسوف يعاني ما يعاني، ما من عمل يقوم به الإنسان إلا ويسبقه رؤية، سيدنا يوسف حين قال: معاذ الله! ماذا رأى؟ رأى أن قضاء هذه الشهوة سوف يحجبه عن الله عز وجل، الذي يستيقظ لصلاة الفجر، ويصلي ماذا رأى؟ رأى أن في طاعة الله راحة لقلبه مع أن جسمه يتمنى أن يستمر في الفراش.

دققوا أيها الأخوة، ما من حركة، ولا سكنة، ولا كلمة، ولا موقف، ولا عطاء، ولا منع، ولا صلة، ولا قطيعة إلا ورائها رؤية، من هو المؤمن؟ هو الذي تطابقت رؤيته مع منهج الله، من هو غير المؤمن؟ هو الذي تناقضت رؤيته مع منهج الله، فالمؤمن يرى أن كسب المال الحلال سبب سعادته في الدنيا، والطرف الآخر يرى أن كسب المال يحقق كل شهواته بصرف النظر عن مصدره، تناقضت الرؤية.

أيها الأخوة، إذا كان للصلاة من فائدة لا تقدر بثمن هي أن الصلاة نور، في الحديث الموجز الصلاة نور، أنت بالصلاة ترى الحق حقاً والباطل باطلاً، أنت بالصلاة تكون حكيماً، أنت بالصلاة تكون واعياً، لأن الله سبحانه وتعالى قذف في قلبك النور. والإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول: إن التقوى نور يقذفه الله في قلب المؤمن.

تجد المؤمن أموره واضحة، لو قطعته إرباً إرباً لا يمد يده إلى الحرام، لأنه يرى عدل الله، وكلما اشتد اتصالك بالله اشتد نورك، وكلما اشتد النور رأيت الدقائق، الآن غرفة فيها مئة شمعة لا ترى إبرة في ثنايا أرضها، أما غرفة فيها عشرة آلاف شمعة ترى أدق الدقائق فيها، فكلما اشتد النور توضحت الرؤيا ورأيت التفاصيل.

كلما اشتدت صلتك بالله عز وجل توضحت رؤيتك :

هذا الصحابي الذي اسمه عبد الله بن رواحة هذا عينه النبي قائد ثالث في مؤتة، فالقائد الأول سيدنا زيد، أخذ الراية وقاتل بها حتى قتل، والقائد الثاني سيدنا جعفر، أخذ الراية وقاتل بها حتى قتل، فلما جاء

دور عبد الله تردد، وكان شاعراً وقال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت وإن توليت فقد شـقيت

* * *

ثم أخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، هذا ماذا رأى؟ رأى أن في إقدامه سعادة، لكن هذا التردد جعل مقامه أقل من مقام صاحبيه، قال عليه الصلاة والسلام: أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر، وقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، وسكت النبي عليه الصلاة والسلام بقدر تردد عبد الله، فقال أصحابه: يا رسول الله ما فعل عبد الله؟ قال: ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه.

كلما اشتدت صلتك بالله عز وجل توضحت رؤيتك، لذلك هناك ذنوب يرتكبها عامة الناس ولا يعبؤون بها، هي عند الخاصة كبائر، فكلما علا مقامك دقت رؤيتك، وكلما علا مقامك ازداد ورعك، وكلما علا مقامك عرفت عدل الله أكثر، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

النبي عليه الصلاة والسلام أرسل خادماً في حاجة فتأخر كثيراً، والنبي بشر غضب، فلما عاد متأخراً كان بيده سواك فقال عليه الصلاة والسلام:

((والله لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

[رواه ابن سعد عن أم سلمة]

ماذا يرى؟ هؤلاء الذين يقتلون كل يوم المئات، ويهدمون البيوت، وينتهكون الحرمات، هؤلاء في عمى، لو كشفوا الحقيقة لكانوا أشقى الناس قبل أن يموتوا، فالبطولة أن ترى رؤية صحيحة وفق منهج الله عز وجل.

وقوع الوعد والوعيد أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

أي أطيعوه، أي اجعلوا بينكم وبين عقابه ستراً، اجعلوا بينكم وبين سخطه ستراً، اجعلوا بينكم وبين النار ستراً، ولكن كيف؟ لا بد من أن تتصلوا به، لينعقد بهذه الصلة رؤية صحيحة ترون الحق حقاً والباطل باطلاً، فكأن آية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

أي أحكموا اتصالكم به كي يقذف في قلوبكم نوراً ترون به دقائق الحياة. مرة ثانية: ما من إنسان إلا ويسبق سلوكه رؤية، فإن كانت صحيحةً صح عمله وسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإن كانت رؤيته خاطئة فسد عمله وهلك في الدنيا وفي الآخرة، والله عز وجل في قرآنه الكريم أوعد وتوعد، قال تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

[سورة يونس: 39]

قال علماء التفسير: إن تأويل القرآن الكريم وقوع الوعد والوعيد.

حدثني طبيب قلب زاره مريض يدخن، قال له: أنت لا بد من أن تصاب بجلطة في القريب العاجل، أقسم لي بعد ستة أشهر سيق هذا المريض إليه بجلطة أصابته في قلبه، هذا علم، لا نقول الطبيب: يعلم الغيب، ولكن يعلم بالقوانين.

طبيب آخر جراح للقلب: أقسم لي بالله أنه في ثماني سنوات أجرى عمليات قلب مفتوح، ما من إنسان أجرى له عملية في قلبه إلا وهو يدخن.

إذاً هذا الذي يرى ما سيكون إنسان موفق، وهذا الذي يعيش لحظته إنسان هالك، الآن العالم كله يعيش اللحظة، يأكل، ويشرب، ويستمتع كما تستمتع البهائم، ويغفل عن وعيد الله عز وجل، الله عز وجل توعد المرابي بمحق ماله، توعد الذي يزني أن يلقى هذا في بيته، توعد كثيراً، فالبطولة أن تكون لك رؤية تسبق عملك.

فوائد الاتصال بالله :

لماذا ترى المؤمن يرضى بالعيش القليل بمعيشة خشنة، ويعرض عن دخل كبير فيه شبهة، لأنه يرى عدل الله عز وجل، لماذا تمتنع عن أن تقتل مخلوقاً ضعيفاً؟ لأنك ترى عدل الله عز وجل.

إذاً: الآية الأولى دعوة إلى أن يستنير العبد بنور الله عز وجل، طبعاً الاتصال بالله له فوائد لا تعد ولا تحصى، من فوائده قوله تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران: 159]

إنسان اتصل بالله، امتلئ قلبه رحمة، انعكست الرحمة ليناً في تعامله، فانعكس اللين التفافاً حوله، المقطوع عن الله يمتلئ قلبه قسوة تنعكس القسوة غلظة وفظاظة، من نتائج الغلظة والفظاظة انفضاض الناس من حوله:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران: 159]

بالاتصال بالله يقذف النور في قلبك، عندئذٍ ترى به الخير خيراً والشر شراً، عندئذٍ تتقي الله، فلو أتيت بستة آلاف مليون هم سكان الأرض، لو أعطيتهم مصباحاً كشافاً وأمامهم حفرة يتحاشونها، هذه جبلة الإنسان، لو أعطيت ستة آلاف مليون مصباحاً كاشفاً، ورأوا ثعباناً يهربون منه، هكذا الإنسان، الإنسان جبل على حب وجوده، وعلى حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده، الأزمة أزمة علم فقط، المدخن حينما يرى أنه سينتهي إلى ورم خبيث في رئتيه، أو جلطة في قلبه، أو أزمة في أحشاءه لكف عن الدخان، لكن لا يرى ذلك يراه متعةً.

الإنسان مأمور بهذه الآية أن يبتغي إلى الله الوسيلة :

أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

أنت مأمور بهذه الآية أن تبتغي إلى الله الوسيلة، الحقيقة الأولى التي لا ريب فيها أن الله سبحانه وتعالى لا يتوسل إلا بما شرع، كلام دقيق وخطير، الله جل جلاله لا يتوسل إليه إلا بما شرع، أما أن تجتهد أنت بوسيلة لم يأمر بها النبي، بل نهى عنها النبي، هذا بعد عن حقيقة الدين، لأن العمل لا يكون صالحاً مقبولاً عند الله إلا بصفتين، إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً إذا وافق السنة، فالحقيقة الأولى ينبغي أن نتقرب إليه، أن نتخذ من الوسائل ما أمر بها وحث عليها، أما أن نتبع وسيلة لم يأمر بها، أن نعقد زواجاً صورياً من أجل أن تحج امرأة مع محرم خلبي، هذا من البدع - أنا أضرب أمثلة كثيرة - أن أقيم حفلاً غنائياً ليكون ريعه للأيتام، هذا غير مقبول، أن أجري يانصيباً خيرياً لتكون الجوائز من أجل مستشفى، ينبغي أن تكون الوسيلة من جنس الهدف.

وسائل مشروعة نتقرب بها إلى الله عز وجل :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

أي من أجل أن يقذف هذا النور في قلوبكم لا بد من القرب من الله، فاتخذ من الوسائل المشروعة ما تتقرب بها إلى الله عز وجل.

1 - أول وسيلة طلب العلم :

أخواننا الكرام، من أهم هذه الوسائل طلب العلم، لأنك مفطور على حب وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك، فإذا طلبت العلم عرفت أن الطريق الوحيد إلى سلامتك وسعادتك هي طاعة الله عز وجل، لكن المشكلة الذي لا يطلب العلم يظن أنه على حق، وهو على باطل، الشريعة لها دقائق، الحركة اليومية تحتاج إلى نور يكشف لك خبايا الأمور، فأول وسيلة تتقرب بها إلى الله، وتعينك على طاعته، وتريك الحق حقاً والباطل باطلاً، طلب العلم هذه أول وسيلة.

2 -الوسيلة الثانية طاعة الله عز وجل :

الوسيلة الثانية: طاعة الله عز وجل فيما أمر، والنهي عما نهى وزجر، وما تقرب أحد إلى الله بأفضل مما افترضه عليه، وترك ما نهاه عنه، هذه الوسيلة الثانية.

3 -الوسيلة الثالثة أن تأتي الفرائض

وأن تدع المحرمات :

أن تأتي الفرائض، وأن تدع المحرمات، هذه الوسيلة الثالثة.

4 - الوسيلة الرابعة العمل الصالح ثم الدعوة إليه :

الوسيلة الرابعة: العمل الصالح، ثم الدعوة إليه، هذه وسائل مشروعة، الله عز وجل أمر بالاستقامة، أمر بطلب العلم، قال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: 9]

أمر بطاعة الله ورسوله:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

[سورة الأنفال: 46]

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

أمر بالعمل الصالح قال:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة محمد: 12]

لو اكتفينا بفهم الوسيلة عند طلب العلم وعند طاعة الله عز وجل، وأداء فرائضه وترك محرماته، والعمل الصالح بشتى أنواعه بدءاً من إماطة الأذى عن الطريق، وانتهاءً بالدعوة إليه، وأن تبذل من أجل الدعوة الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، فقد أخذت الوسيلة التي تقرب إلى الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ)

علاقة الجهاد بالوسيلة :

قد يسأل سائل: ما علاقة الجهاد بالوسيلة؟ هذا النظام الإلهي، هذا المنهج الإلهي يحتاج إلى صيانة، الآن البيت يقول لك: أجهزة إنذار مبكر، رقابة إلكترونية، حوائط مسلحة فرضاً، فهذا الدين يحتاج إلى قوة، فحين يضعف ترون بأم أعينكم ماذا يجري للمسلمين؟ الدين يحتاج إلى أن تقيم أحكامه، وإلى أن تدافع عنه عن طريق تنفيذ قوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

يوم كان الإسلام قوياً، صلاح الدين الأيوبي رد ملوك أوربا، والمسلمون في أوج عصرهم وصلوا إلى الأندلس، وإلى مشارف الصين، الحق يحتاج إلى قوة، فإذا ضعف الحق يتفنن أعداء الحق باتهامه، تارةً يتهمونه بالإرهاب، وتارةً يتهمونه بالتزمت، وتارةً يفسرون الحجاب بأنه رمز، وينبغي أن ندع الرموز كلها.

ذكرت اليوم في الخطبة أن أي مركبة يكون للمصنع الذي صنعها إشارة، كل مصنع له إشارة يضعها في مقدمة كل مركبة، وفي مؤخرتها، هذا الرمز لو نزع المركبة تسير، وتؤدي كل غاياتها، لكن المكبح ليس رمزاً جزء من السيارة، وأساسي جداً، ومن أجل سلامتها، فإذا قال أحدهم: المكبح رمز في السيارة ينبغي أن ننزعه، كلام مضحك.

الحجاب ليس رمزاً، الحجاب أمر إلهي للمرأة، لأن المرأة تعبد الله بعبادة إعفاف الشباب، فلما برزت مفاتنها حصل فساد لا يعلمه إلا الله، لكن لأن الإسلام ضعيف اتهم الإسلام بالإرهاب، واتهم بقصوره عن فهم تفاصيل الحياة المعاصرة، لو أنه قوي لكنا في حال آخر غير هذا الحال.

الحق لا قيمة له من دون قوة تحميه :

إذاً:

(وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ)

الحق لا قيمة له من دون قوة تحميه، لذلك قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

[سورة الأنفال: 60]

وَأَعِدُّوا لَهُمْ، فإن لم نعد لهم ما قيمة أننا معنا وحي السماء؟ وما قيمة أننا على حق، وأن ديننا هو الدين الخاتم، وأن نبينا خاتم الأنبياء والمرسلين؟ كلام لا يقدم ولا يؤخر، يتفننون في الكيد لنا، يتفننون في قتل أبنائنا، يتفننون في هدم بيوتنا، يتفننون في نهب ثرواتنا أليس كذلك؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

لا بد من وسيلة تتقرب بها إلى الله. أولاً: طلب العلم. ثانياً: أداء الفرائض وترك المحرمات. ثالثاً: طاعة الله في تفاصيل الشريعة. رابعاً: العمل الصالح، بدءاً من إماطة الأذى عن الطريق، وانتهاءً بالدعوة إليه.

هذه الوسائل ولسنا بحاجة إلى أن ندخل في خلافات بين علماء المسلمين أدت إلى تكفير بعضهم بعضاً في شأن الوسيلة، هذا الذي قلته من طلب علم، ومن طاعة، ومن أداء فريضة، ومن ترك محرم، ومن عمل صالح واسع جداً، هذه المعاني نكتفي بها في معنى الوسيلة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

فإن لم نعد لأعدائنا القوة لا نفلح، ويصبح ديننا مضغة في الأفواه، يستهزأ بديننا، يستهزأ بعقائدنا، يستهزأ بنبينا لأننا ضعاف، ولو كنا أقوياء لعد الطرف الآخر ألف حساب وحساب لينال منا.

عدم استجابة الله لنا هو عدم أخذنا بالأسباب :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

الآن علاقة الآيات مع بعضها، هؤلاء الذين أخذوا بأسباب القوة واستعلوا، وبنوا وجودهم على أنقاض الآخرين، بنوا حياتهم على موتهم كما ترون كل يوم، بنوا قوتهم على ضعفهم، بنوا غناهم على فقرهم، بنوا عزهم على ذلهم، هؤلاء الأقوياء الذين أخذوا بأسباب القوة، أسباب القوة مبذولة لكل إنسان، ولو كان كافراً، ولو كان ملحداً، هذا شأن الدنيا، الدنيا لها قوانين، إن أخذت بها ملكت الدنيا، هؤلاء الذين

حاربوا الدين واتهموه بأشد التهم لكنهم أخذوا بأسباب القوة، وملكوا ناصية الأمور هؤلاء تفوقوا في الدنيا، واستعلوا في الدنيا، وتغطرسوا في الدنيا، وتحكموا بمقدرات الآخرين في الدنيا، وفرضوا إرادتهم على سكان الدنيا، لكن البطولة أن ترى مصيرهم في الآخرة.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

هذا عدل الله عز وجل لهم الدنيا، أخذوا أسبابها، أتقنوا أعمالهم، خططوا.

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

[سورة النساء: 104]

وهذا شيء يدعو إلى الألم، أن الكافر على كفره يخطط، ويتعاون، ويصبر، وله نفس طويل مع الطرف الآخر، والمؤمن الذي معه وحي السماء، ومعه منهج الخالق، ومعه القرآن، ومعه العقيدة السليمة نائم ينتظر معجزة إلهية، والله لن تأتي إلا بدفع ثمنها، وثمنها طاعة الله، وإعداد القوة للطرف الآخر. سيدنا عمر رأى رجلاً معه جمل أجرب قال: يا أخا العرب ماذا تفعل بهذا الجرب؟ قال: أدعو الله أن يشفي الله جملي، قال له: يا أخا العرب هلا جعلت مع الدعاء قطراناً؟ دعاء فقط لا يكفي، ونحن نملك الدعاء، اللهم دمرهم، اللهم شتت شملهم، اللهم اجعل كيدهم في نحرهم، اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم، اللهم أرنا قدرتك بهم، لا يوجد استجابة لأننا ما أخذنا بالأسباب.

الرد الإلهي على من لم يعبأ بالآخرة ولم يعقد عليها الآمال :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

هذه الآية تذكرني بآية ثانية:

(وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:8-9]

أي كذب بالآخرة، وكذب أنه مخلوق للجنة، بناء على تكذيبه استغنى عن طاعة الله، لماذا يطيعه؟ لا يريده، وبناء على تكذيبه أيضاً جعل حياته مبنية على الأخذ لا على العطاء:

(وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:8-9]

الرد الإلهي عليه في الدنيا:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل:10]

لم يعبأ بالآخرة، ولم يعقد عليها الآمال، بل لم يصدق بها أصلاً، وجعل الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، ونهاية آماله، ومحط رحاله، وعمل عملاً كبيراً، وأسس إنجازاً عظيماً وملك أطراف الدنيا، ماذا قال الله لنا؟

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

[سورة الليل:11]

هو لماذا عصى الله؟ ليجمع أموالاً طائلة، وقال لك دعك من الحلال والحرام، المهم أن أجمع المال، هو أراد أن يجمع المال ليستمتع به فلما وافته المنية، قال:

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

[سورة الليل:11]

هذه النتيجة، هذا الذي أخذ بأسباب الدنيا، وتمكن منها، وقوي في الأرض.

ينبغي من أجل أن نتقي النار وأن نطلب الجنة أن نصحح عقيدتنا :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم*يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

أنا أتمنى على أخوتنا الكرام، وهذه الصور لما ينتهي به الإنسان الكافر ألا ينبغي أن تهز أعمق الأعماق؟

(يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

دائم، لذلك الله عز وجل في بعض آياته يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

فينبغي أن نتقي النار بطاعتنا لله، وينبغي أن نطلب الجنة بعملنا الصالح، وينبغي من أجل أن نتقي النار وأن نطلب الجنة أن نصحح عقيدتنا، لذلك الجاهل عدو نفسه، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، لذلك قالوا: إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم،

وأهل النار وهم في النار يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك:10-11]

أيها الأخوة الكرام، هذه الآيات الكريمة التي وردت في هذا الدرس تفيد السلامة والسعادة؛ طلب العلم، وأداء الفرائض وترك المحرمات، وطاعة الله في التفاصيل، والعمل الصالح بدءاً من إماطة الأذى عن الطريق، وانتهاءً بالدعوة إلى الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (21- 49): تفسير الآيات 38-40 ، الحدود في الإسلام والحكمة من تطبيقها.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-02-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق حول الآية التالية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة المائدة ومع الآية الثامنة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام، هناك حقائق لا بد من أن توضع بين يدي الأخوة الكرام حول هذه الآية:

1 ـ أول حقيقة أن الإسلام نظام متكامل لا تقطف ثماره إلا إذا أخذ بمجموعه :

الحقيقة الأولى: أن الإسلام منهج كامل لا تقطف ثماره اليانعة إلا إذا طبق بأكمله ومجموعه، فإذا اقتطعنا من الإسلام حكماً وطبقناه وحده بمعزل عن بضع مئات الأحكام الأخرى فإننا لا نقطف ثمار هذا الحكم، بل نثير جدلاً كبيراً حول هذا الحكم، وهذا ما يجري الآن، نقتطع من الأحكام الشرعية حد قطع يد السارق، ونجعل علامة تطبيق المنهج الإسلامي في بلد ما هي قطعُ يد السارق، وهناك مئات، بل عشرات مئات، بل آلاف الأحكام الأخرى غير مطبقة، تطبيق حد السرقة وحده من دون أن يراعى في الإسلام وحدته وتكامله هذا يسبب جدلاً طويلاً، كما جرى في العالم الإسلامي، فأول حقيقة أن الإسلام نظام متكامل لا تقطف ثماره إلا إذا أُخذ بمجموعه، عندئذٍ تكون الثمار يانعة جداً.

2 ـالمسلم مضمون له أن يكسب رزقه من عمله وعلى ولي الأمر أن يوفر الأعمال:

الحقيقة الثانية: أن المسلم في المجتمع الإسلامي مضمون له أن يكسب رزقه من عمله، فعلى ولي الأمر أن يوفر الأعمال، وسميت في القرآن المعايشَ، أي سبلَ كسب الرزق، والدليل: أن سيدنا عمر رضي الله عنه عين والياً، وأراد أن يمتحنه، فقال: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ فقال:

أقطع يده، قال: إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، قال له: يا هذا إن الله استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفةً، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية. فتأمين فرص العمل من أولى مهمات ولي أمر المسلمين، هذه واحدة.

الآن لو أن مسلماً لا يستطيع أن يعمل، أو أن دخْله من عمله لا يكفيه فلا بد من أن يلزم ولي أمر المسلمين من حوله من أقربائه الميسورين بالإنفاق عليه، فإن لم يكن له أقرباء أغنياء فلا بد من أن يأخذ من بيت مال المسلمين، فإن كان لا يكفي فيجب أن تفرض على مجموع الأمة ضرائب تكفي لكفالة كل أفراد المجتمع الإسلامي، هذه أحكام في الفقه الإسلامي بديهية، فالمسلم ضمن منهج الله، وضمن مظلة الإسلام مكفول رزقه إما من عمله، أو من قرابته، أو من أبناء محلته، أو من بيت مال المسلمين، أو من مجموع الأمة.

أيها الأخوة، شيء آخر، الإنسان حينما يكسب المال في المجتمع الإسلامي لا يستطيع أن يكسبه إلا من طريق مشروع، لأن الطرق غير المشروعة محرمة في الإسلام، فحينما لا يكون في المجتمع الإسلامي كذب، ولا غش، ولا تدليس، ولا احتيال، ولا احتكار، ولا معاصٍ متعلقة بكسب المال فهذا العمل في الأصل مشروع، والكسب مشروع، والمال حلال، وفي تعريف جامع مانع للمال الحلال: هو الذي يؤخذ من كسب مشروع، ويُكسب عن طريق منافع متبادلة، أما إذا بنيت منفعة على مضرة فهو الكسب غير المشروع، إذا بنيت منفعة على مضرة كاليانصيب مثلاً، كالربا مثلاً، وما شاكل ذلك، هذا كسب بنية منفعة لفرد على مضرة المجموع، إذاً الكسب في ضمن المجتمع الإسلامي مشروع، وفي ضمن المجتمع الإسلامي يُمنَع الكذب والغش والاحتيال والاغتصاب والاختلاس والاحتكار، وممنوع أن تستغل قوتك بأخذ مال الآخرين، فإذا ضُمن للإنسان معاشه الكريم، إنْ من عمله الذي وفره له ولي أمر المسلمين، أو من قرابته الموسرين، أو من أقرب الناس إليه، أو من بيت المال، أو من مجموع الأمة، وكان كسب الإنسان المتفوق حلالاً وفق منهج الله، ولنفع الأمة فلا بد من أن يضمن المنهج لكل عملٍ ثمرته، وإلا تتعطل الحياة، ما الذي يغرك أن تنشئ بناء، وتنتفع من أجرة بيوته؟ إلا أن يضمن لك أن هذا البناء لك، وأن هذه الأجرة تكسبها لك، إذاً ما لم نضمن نتائج عمل الإنسان في مجتمع ما فإن الإنسان لا يعمل، لذلك يبدو في المجتمعات التي تسمح للإنسان بالتملك هناك نشاط كبير جداً، وهناك نمو اقتصادي كبير جداً، وفي المجتمعات التي لا تسمح بالتملك يبدو هناك ضعف كبير في الإنتاج وفي إتقان العمل.

3 ـ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ومواقف النبي تعلّم أنّ العمل في الإسلام مقدَّس:

الحقيقة التي بَعدها، القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، ومواقف النبي تعلّم أنّ العمل في الإسلام مقدَّس، يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه أمسك يد ابن مسعود، وكانت خشنة من العمل، رفعها، وقال: إن هذه اليد يحبها الله ورسوله، رأى شاباً يتعبد الله في وقت العمل، فسأله النبي عليه الصلاة والسلام: من يطعمك؟ قال: أخي، قال: أخوك أعْبَد منك، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((واليدُ العليا خير من اليد السُّفْلى))

[مسلم والترمذي عن أبي أمامة الباهلي]

وقد قال العلماء: إن العمل الذي تعمله، والحرفة التي تحترفها إذا كانت في الأصل مشروعة، وسلكت بها الطرق المشروعة، وابتغيت منها كفاية نفسك وأهلك ونفع المسلمين، ولم تشغلك عن فريضة، ولا عن واجب، ولا عن عمل صالح انقلبت إلى عبادة.

إذاً الكسب الحلال أصل في تحصيل المال:

((واليدُ العليا خير من اليد السُّفْلى))

[مسلم والترمذي عن أبي أمامة الباهلي]

وفي الحديث:

((المُؤْمِنُ القويُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللَّهِ تَعالى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

فهناك حث على العمل، ومن أبلغ ما قرأت في السيرة أن سيدنا عمر رضي الله عنه حينما تفقّد بلدة من رعيته ووجد أن كل الفعاليات الاقتصادية بيد غير المسلمين، عنفهم تعنيفاً شديداً، وقال لهم: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟ هذا الخليفة الراشد أدرك قبل ألف وأربعمئة عام أن المنتج قوي، وأن المستهلك ضعيف، وأن القوي من المنتجين ينهب أموال الطرف الآخر إذا اشترى منهم، وينهبها إذا باعهم، مثلاً ما يزن ألف غرام من الصوف المصنع قماشاً راقياً يباع بثلاثة آلاف ضعف عن ثمن الصوف، ثلاثة آلاف ضعف بين ثمن الصوف قبل أن يصنع، وبعد أن يصنع، وهكذا يبدو المجتمع المنتج قوياً غنيّاً.

المال له صفة جماعية :

بعض الدعاة إلى الله فسر قوله تعالى:

(أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

[سورة الأنبياء: 105]

الذين درسوا قوانين الحياة، واستوعبوها، وطبقوها، فملكوا الدنيا، كما هي حال أعدائنا، أتقنوا أعمالهم، واستخرجوا ثرواتهم، واكتشفوا الأشياء التي هم بحاجتها، فملكوا ناصية الأرض، هذا شأن الدنيا، ثم إن الله عز وجل في قوله تعالى حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء: 29]

أي أنّ هذا المال له صفة جماعية، أنت حينما تكسب المال عن طريق هذا الكسب توفّر فرص عمل للناس.

إنسان أخ كريم عنده معمل، وقد قلَّ ربحُه إلى درجة أنّ دخله أصبح يساوي مصروف المعمل، فجاءني مستفتياً، ألي الحق أن أنهي العمل؟ أنا لا أربح أبداً، قلت له: كم عاملا عندك في المعمل؟ قال: ثمانون، قلت له: أنت تفتح ثمانين بيتاً، هذا في حد ذاته في مقياس منهج الله ربح كبير، ثمانون أسرة بيوتها مفتوحة ونفقاتها مغطاة بسبب بقاء هذا العامل عندك في المعمل.

في الإسلام حدود لكن هناك تركيزاً شديداً على حفظ الأموال والأعراض :

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء: 29]

أي أنّ مال أخيك هو مالك من زاوية واحدة، من زاوية أنه يجب أن تحافظ عليه وكأنه مالك، كما تقول لمن تعيره مركبتك: عدَّها مركبتك، ماذا تقصد من ذلك؟ أن يعتني بها وكأنها مركبته، وهذا معنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء: 29]

بمعنى أنك إذا أكلت مال أخيك أضعفته، وإذا أضعفته كنت مكلّفاً بالإنفاق عليه، فكأنك أضعفت نفسك، هذا معنى. والمعنى الثاني: أن هذا المال ينبغي أن يكون مالك، من زاوية أن تحافظ عليه وكأنه مالك، فلأن تمتنع من أكله من طريق غير مشروع من باب أولى.

أيها الأخوة: النبي عليه الصلاة والسلام بسنّته القولية حث على العمل، وسيدنا عمر قال: "إني أرى الرجل ليس له عمل فيسقط من عيني "، النبي عليه الصلاة والسلام بسيرته العملية حث على العمل، جاءه رجل يطلب مساعدة، فقال عليه الصلاة والسلام: أعندك شيء في البيت؟ قال: والله ما عندي إلا قعب وحلس - الحلس قماش نجلس عليه، والقعب وعاء نشرب منه - قال له: ائتني بهما، النبي عليه

الصلاة والسلام بنفسه عرض القعب والحلس على أصحابه، قال: من يشتري هذين؟ فقال أحد أصحابه: أنا أشتريهما بدرهم، فقال من يزيد على ذلك - ومنا هنا شرعت المزايدة في البيع - قال آخر: أنا أشتريهما بدرهمين، فباع النبي الحلس والقعب لهذا الصحابي الثاني الذي اشتراهما بدرهمين، وقال للرجل السائل: اذهب فاشتر بدرهم طعاماً لأهلك، واشتر بالدرهم الثاني قدوماً وائتني به، جاء له بالقدوم، يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام شد بيده الشريفة عصاً على هذا القدوم، وقال: اذهب واحتطب، ولا أرينك لخمسة عشر يوماً، عاد بعد هذه الفترة ومعه ثمانية دراهم، فقال عليه الصلاة والسلام: هذا خير لك من أن تسأل الناس أعطوك أو منعوك.

أيها الأخوة الكرام، في الإسلام حدود، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن هناك تركيزاً شديداً على حفظ الأموال والأعراض، فلو أخذت مئة حكم شرعي لوجدت أنّ تسعين بالمئة من الأحكام الشرعية متعلقة بحفظ الأموال والأعراض، لأن المال والعرض شيئان أساسياً في المجتمع الإسلامي.

المال قوام الحياة والعدوان على المال عدوان على قوام الحياة :

أيها الأخوة، طبعاً هناك حد للعدوان على العرض، وهناك حد للعدوان على المال، وهو موضوع درس اليوم:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا)

أخوتنا الكرام، المال قوام الحياة، والعدوان على المال عدوان على الحياة، هل تصدقون أن باحثة اجتماعية أرادت أن تبحث في موضوع الدعارة في بعض البلدان المجاورة، فوجدت أن خمسة وتسعين بالمئة من النساء اللواتي يمتهن الدعارة لم يمتهنها لفساد فيهن ولكن لفقرهن، أنت حينما تعتدي على أموال الناس فأنت تعتدي على حياتهم، وعلى قيمهم، وعلى مبادئهم، فأي إنسان يحاول أن يخفض القيمة الشرائية لما في أيدي الناس من أموال لا يدري ماذا يفعل، وهو بذلك يسبب أزمات لا تنتهي في كل أسرة، المال قوام الحياة، والعدوان على المال عدوان على قوام الحياة، لذلك السرقة عدوان على قوام الحياة، نحن نقول: المسلم في المجتمع الإسلامي مضمون له معاشه، والمكاسب التي تشرع في العالم الإسلامي مكاسب مشروعة، ليست مبنية على ضرر أحد، مبنية من جهد مشروع، فالعدوان عليها عدوان على الحياة.

من تعاريف السرقة: أن السرقة أخذ مال مقوَّم في حرز مثله، أي المال في بيت، والبيت له باب، والباب له قفل، والمال في خزانة، هذا معنى في حرز مثله، مال مقوَّم يؤخذ من حرز مثله خفيةً، لو أخذ بقوة السلاح فهو اغتصاب، وهذا موضوع آخر، لو خطف طفلٌ حاجة من محل، ولم يستطع البائع أن

يلحق به فهذا اسمه خطف، لو عينت أمين صندوق، وهو عندك أمين، ثم اختلس من المال الذي بحوزته فهذا اسمه اختلاس، فالاختلاس شيء، والخطف شيء، والاغتصاب شيء، والسرقة شيء آخر.

السرقة، أن تأخذ مالاً مقوماً خفيةً في حرز مثله، هذا هو التعريف، لكن قد يغيب عن الناس أن هذه الفتاة التي تبرز كل مفاتنها في الطريق لسان حالها يقول: تحرشوا بي لأنني أتحرش بكم، بلباسها تتحرش بالشباب، وكأن لسان حالها يقول: تحرشوا بي، لأنني أتحرش بكم.

سقت هذا الكلام تمهيداً، والذي يدع ماله من دون حرز فهذا إهمال، كمن يكون عنده موظف صغير شاب فقير، ومكان المال بين يديه، ويغيب صاحب المال عن المحل التجاري، فكأن هذا الذي أهمل المال لم يضعه في حرز مثله، كأنه أغرى هذا الشاب أن يسرق منه، وقد يغب عن أذهان المؤمنين أن الذي يدع ماله معرضاً لسرقة ليس في حرز مثله لا يقلُّ إثمه عن إثم السارق، لأنه هو السبب، لأنه أغراه بالسرقة.

محاسبة المرء على الإهمال لأنه أغرى ضعاف النفوس بالسرقة :

أيها الأخوة، المرء محاسب عند الله أشد الحساب على الإهمال، والإهمال ألاّ تضع المال في حرز مثله، فالذي لا يضبط حساباته، ولا يضع المال في حرز أمين، ويعرِّضه للنفوس الضعيفة لا يقلُّ إثمه عن إثم السارق، لأنه أفسده.

مثلاً: صاحب محل تجاري له مكتب، والمبيعات توضع في هذا المكتب في درج، والدرج مفتوح، وذهب إلى مكان بعيد، وليس في هذا المحل إلا هذا الموظف، وهو ضعيف النفس، وجد الدرج مفتوحاً، المبلغ لم يحسب، يضع في الدرج المبيعات بشكل من الإهمال، من غير حساب، ولا هناك آلات دقيقة جداً، فشيء مغرٍ أن يأخذ من هذا الدرج، هل تصدقون أن هذا الإنسان صاحب المحل التجاري يحاسب عند الله كما يحاسب السارق، لأنه أغراه بالسرقة، كيف أن الفتاة بثيابها الفاضحة لسان حالها يقول: تعالوا تحرشوا بي، لأنني بهذه الثياب أتحرش بكم، كذلك الإنسان المهمل المقصِّر الذي لا يضع ماله في حرز حريز هو أحد أسباب أن تمدَّ اليد إلى هذا المال.

العلماء قالوا: اليد تقطع في ربع دينار، وربع دينار يكفي طعام أسرة يوماً بأكمله، لذلك سُئل أحد الفقهاء:

يد بخمس مئين عسجد وُدِيتْ ما بالها قطعت في ربع دينار؟

* * *

فأجاب المسؤول:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

* * *

لما كانت أمينة كانت ثمينة، دية اليد التي تُقطع خطأ عَشر مئين من الدنانير الذهبية.

يد بخمس مئين عسجد وُدِيتْ ما بالها قطعت في ربع دينار؟

* * *

فأجاب المسؤول:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

* * *

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ادرؤُوا الحدودَ بالشبهاتِ))

[أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عائشة رضي الله عنها]

ويقول سيدنا عمر: والله لأن أخطئ في أن أدرأ الحد بالشبهات أفضل من أن أخطئ في أن أقيم الحد بالشبهات.

شريك يعتقد توهُّماً أن له عند شريكه مالاً، فلو أخذ منه لا تقطع يده بشبهة، قناعته أن شريكه ظلمه، والحديث عن هذا طويل، فحيثما كانت الشبهة لا تقطع اليد.

تعريف جامع مانع للمال الحلال والمال الحرام :

أيها الأخوة، لأن المال قوام الحياة، والعدوان على المال عدوان على الحياة، لذلك كان العقاب شديداً في منهج الله عز وجل، ولأن المسلم مضمون له حاجاته الأساسية، إن من عمله، أو من بيت المال، أو من أقاربه، أو من مجتمعه المسلم، ولأن المكاسب في ظل المجتمع الإسلامي مشروعة، ولأن المكاسب ثمرتها مال حلال، والمال الحلال لم يبنَ على مضرة بل بني على منفعة متبادلة، وأوضَح مثل البيع والشراء، فأنت تسكن في حي، إلى جانب بيتك إنسان يأتيك بالبضائع من محلات بعيدة، يبيعك إياها وأنت مرتاح بسعر يزيد على كلفتها، فأنت انتفعت بقربه منك، وبتلبيته لحاجاتك، وهو انتفع بهذا الفرق بين ثمن الشراء والبيع، أما السرقة فليست منفعة متبادلة، انتفع السارق على حساب المسروق، إذاً لو أردت تعريفاً جامعاً مانعاً للمال الحرام قلت: هو مال بُنِي على مضرة، ولو أردت تعريفاً جامعاً مانعاً للمال الحلال: فهو مال أُخِذ من منفعة متبادلة.

أيها الأخوة، كتطبيق عملي طُبِّق حد السرقة في بعض البلاد الإسلامية، طُبِّق بحزم قبل سنوات عديدة، والله القصص التي سمعتها، والمشاهدات التي رأيتها، وما تناقلته الأخبار عن الأمن في هذا البلد لا تصدَّق، رواتب محافظات تبعد عن العاصمة عشرات ألوف الأميال تُنقَل بسيارة مكشوفة، الذين يعملون بتبديل العملة يضعون الأموال في صندوق خشبي مفتوح، ويذهبون للصلاة، القصص التي يراها كل من زار هذا البلد حينما طبق هذا الحد شيء لا يصدق. لي قريب يأتي بطريق البر من هذا البلد، وأنا قلق عليه، قلت له: كيف تأتي وحدك؟ قال لي: ما مِن مشكلة أبداً، أشعر بحاجة إلى النوم فأنام في الطريق، ولا شيء أخاف منه.

الثمار العملية لتطبيق هذا الحد تفوق حد الخيال، لأنه من عند خالق الأكوان، الحقيقة أنه كان التطبيق على آحاد المسلمين، لكن الردع يبلغ درجة تفوق حد الخيال، أن تكون آمناً على بيتك وعلى مالك شي عظيم، فلذلك هذا الحد طبق في بعض البلاد، وقطفت ثماره اليانعة.

كمال الخلق يدل على كمال التشريع :

شيء آخر، سواء أفهمت أم لم تفهم، اقتنعت أم لم تقتنع، هناك حقيقة مقطوع بها، أن كمال الخلق يدل على كمال التشريع، أنا ربما لا أعرف الحكمة، وقد أقول كلاماً ليس مقبولاً، ولكن قال الشرع: تنتفع به سواء أعرفت حكمته أم لم تعرف، لأن القاعدة تقول: الانتفاع بالشيء ليس أحدَ فروع العلم به، كإنسان يضع يده على مكيف فيأتيه الهواء بارداً، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، وإنسان آخر يضع يده على المكيف فيأتيه الهواء البارد، وهو دكتور في التكييف، ينتفع كلاهما بالهواء البارد سواء عرف الأول الأمي ماذا يجري في هذا المكيف أم لم يعرف، وهذا الشرع العظيم لمجرد أن تطبقه تقطف ثماره، وسواء عليك أعرفت الحكمة أم لم تعرف، لكن لا تكن تابعاً لمن يقول: هذا القطع فيه قسوة بالغة، نحن مجتمع متحضر لا نحتاج إلى قطع يد، لذلك في كل ثلاثين ثانية ترتكب في بعض البلاد الغربية المتفوقة جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، وفي معظم الأحيان السارق يَقتُل حينما يكتشف أمره ومعه سلاح يَقتُل به، لذلك أن تضحي بيدين في كل العام لعشرات الملايين خير من أن يكون في كل ثلاثين ثانية جريمة قتل أو سرقة أو اغتصاب، لكن الشيء الدقيق في هذا الحد أن يكون تنفيذه أمام جمهرة من المسلمين، لأن الحد له هدف ردعي، والحقيقة هدفه الردعي أكبر بكثير من علاجه الفردي، له هدف ردعي:

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

[سورة النور: 2]

شيء آخر، أن الدخل المشروع الحلال يبارك الله لأصحابه فيه، بينما الدخل الحرام يمحق، وقد ورد في الأثر: مَن أصاب مالاً مِن مَهاوشَ أذْهَبَه اللَّه في نَهابر. المال الحرام يذهب، بل يذهب بأهله:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

المقصود من أن الله عزيز حكيم :

طبعاً السرقة كسبُ الكسبِ، أيْ عدوان على كسبِ إنسان اشتغل أشهراً مديدة في حقله، وباع المحصول، وحمل الثمن، فجاء من سرق هذا المبلغ، هذا عدوان على الكسب الحلال، إذاً:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ)

عقاباً من الله:

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

فالسارق لا يغلب اللهَ عز وجل، السارق يسرق رزقه، ويعاقب على هذه السرقة. كتوضيح لهذه الفكرة: بستان فيه شجر تفاح، البستان العاشر في هذه القرية الشجرة التاسعة، الغصن السابع، التفاحة السادسة، هذه لفلان، حينما كوّنها الله عز وجل كوّنها لفلان، الآن فلان قد يأخذها سرقة، وهي في الأصل له، وقد يأخذها ضيافة، وقد يأخذها شراء، وقد يأخذها هدية، وقد يأخذها تسولاً، فالتسول والشراء والضيافة والهدية والسرقة من اختياره، أما هي له، هذا معنى قوله تعالى:

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أي أنّ السارق ما أخذ إلا ما سمح الله له به أن يأخذه لكنه أخذه حراماً، واللهُ حكيم، لأن الإنسان مخير يسمح له أن ينفذ اختياره، لكن لا على حساب الناس، كأن السارق مخير في أن يسرق، وليس مخيراً فيمن يسرق، يسوق الله السارق إلى من تعدّ السرقة منه حكمة، لا أقول عقاباً، قد تكون حكمة، لأن أحد الصحابة سُرق، فقال: اللهم إن كان هذا الذي سرق المال سرقه عن حاجة فاجعله آخر ذنوبه، وإن كان عن بطر فاغفر له، المؤمن يرى حكمة الله عز وجل، لا يسكت إذا كان في بيته سارق، ويقول له: افعل ما تريد، الله يرضى عليك، لا، ليس هذا هو المعنى، لكنه لا يحقد، أولاً: الله عزيز، لأن السارق أخذ ما سمح الله له أن يأخذ، لأن هذا المال رزق، لكنه اختار أن يأخذه سرقة ولو صبر لأخذه حلالاً. الشيء الثاني: الله حكيم، لأنه يسوق السارق لمن تعدّ سرقة ماله تأديباً، أو حكمة، أو امتحاناً.

لا يليق بألوهية الله أن يقع في ملكه ما لا يريد لكنه يمتحن عباده لينظر كيف يعملون :

قال تعالى:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ*فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ)

لو أن إنساناً لا سمح الله ولا قدر أخذ مالاً حراماً، ولم يكشفه الله عز وجل، وأراد أن يتوب، القضية سهلة جداً، رُدّ المال لأصحابه، إذا كنت تستحي فلست مكلفاً أن تعلن عن اسمك، يمكن أن ترسل حوالة بريدية مع اعتذار لهذا الذي أخذت ماله:

(فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ)

أصلح أي ردّ المال لأصحابه:

(فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فلا يليق بألوهية الإله أن يقع في ملكه ما لا يريد، لكنه يمتحن عباده لينظر الله كيف نعمل:

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

الإنسان إذا سرق يعذَّب، وإذا عفَّ يغفر له، وإذا تاب يغفر له، وفي معنى آخر أنه يعذب في الدنيا بقطع اليد، لكنه إذا تاب بعد قطع اليد يغفر له في الآخرة:

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيها الأخوة، هذا شرع الله، وكمال الخلق يدل على كمال التصرف، وأنا أعلم علماً يقينياً أن هناك من يهاجم الإسلام من خلال هذا الحد، لكن واللهِ لو كشف المجتمع الآخر فوائد هذا الحد لعضُّوا عليه بالنواجذ، أن تنعم أمة بأمن يفوق حد الخيال بسبب تنفيذ هذا الحد الشرعي هذا من عند الخالق، إلا أن هناك من يقول في بعض الندوات: إن هذا سلوك قاسٍ جداً، نحن متحضرون هذا يكفي أن نسجنه، السجن لا يردع، لكن قطع اليد يردع.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (22- 49) : تفسير الآية 41 ، الفتنة وصفات المنافقين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-02-20

بسم الله الرحمن الرحيم

النبي عليه الصلاة والسلام من بين جميع الأنبياء والمرسلين لم ينادَ باسمه :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الإحدى والأربعين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، أنبياء الله جل جلاله خوطبوا ونودوا بأسمائهم؛ يا زكريا، يا يحيى، يا إبراهيم، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام من بين جميع الأنبياء والمرسلين لم ينادَ باسمه، بل نودي بكلمة يا أيها النبي و:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

وهذا تكريم له وأي تكريم، لأن رسالته ألغت كل الرسائل السابقة، ولأنه سيد الأنبياء والمرسلين:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

النبي بشر، لولا أنه بشر وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، لأنه بشر، وانتصر على بشريته كان سيد الأنبياء والمرسلين.

البشر خلقوا من أجل أن يكونوا على شاكلة محمد فهو قدوة البشر :

الذين قالوا: إن الكون خُلق من أجل محمد شطحوا، لكن البشر خلقوا من أجل أن يكونوا على شاكلة محمد، فهو قدوة البشر، وهو القدوة الذي جعل الله حياته كلها تشريعاً، فأقواله تشريع، وأفعاله تشريع، وإقراره تشريع، وصفاته تشريع، رسالته خاتمة، ورسالته ناسخة، ناسخة وخاتمة، وهو قمة بني البشر، وهو سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم ولا فخر، كما قال عليه الصلاة والسلام، ولم ينادَ باسمه،

اسمه جاء خبراً:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح: 29]

أما إذا ناداه الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ)

[سورة التحريم: 1]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

إذاً هناك تفوق، وهناك تميز، وهناك نسخ للشرائع السابقة، وهناك شريعة هي خاتمة الشرائع إلى يوم القيامة:

(لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

فرق كبير بين سارع إلى الشيء وسارع في الشيء :

أيها الأخوة الكرام، قد يسأل سائل: لمَ لمْ يقل الله عز وجل: أولئك الذين يسارعون إلى الكفر، لو أن الآية: يسارعون إلى الكفر فهم كانوا في موقع آخر غير الكفر، كانوا مؤمنين، لكنهم سارعوا إلى الكفر، المعنى ليس كذلك، هم لم يؤمنوا أصلاً، إلا أنهم كانوا في الكفر، فلما جاءت هذه الرسالة سارعوا إلى مزيد من الكفر، فلا بد من استخدام كلمة (في)، فرق كبير بين سارع إلى الشيء، وسارع في الشيء، الله عز وجل قال:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

[سورة آل عمران: 133]

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد: 21]

الأداة (إلى)، هنا يسارعون في الكفر، إن قلنا: سارع إلى الشيء فقد كان في موقع آخر، وسارع إلى موقع جديد، أي كانوا مؤمنين فانتقلوا إلى الكفر، المعنى ليس كذلك، هم لم يؤمنوا أصلاً، إلا أنهم كانوا كفاراً، فلما نزلت هذه الرسالة سارعوا إلى مزيد من الكفر، هم في الكفر، كانوا في مستوى فأصبحوا في مستوى آخر، فالكافر حينما يكفر، ولم تبلغه رسالة سماوية هو كافر، لكن إذا جاءته الرسالة السماوية مع الأدلة الكافية، ومع المعجزات والبراهين، ورفض أن يؤمن إذاً هو سارع في الكفر، بلغ مستوى أكبر من الذي كان فيه:

(لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

عصمة النبي بالمعنى السلوكي أنه لا يسمح لجهة كائنة من كانت أن تنال منه :

أيها الأخوة الكرام، هؤلاء الذين أرسل إليهم كانوا يحزنونه لعنادهم وإبائهم أن يؤمنوا، لكن الله سبحانه وتعالى يطمئن نبيه مرتين، يطمئن نبيه أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بك وهم أقوياء، وهم سادة قريش، لن يستطيعوا أن ينالوا منك لأنك معصوم، قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

ولا يقبل المنطق أن الله يرسل رسولاً إلى أناس، ثم يسلمه إليهم، خالق هذا الكون، مبدع هذا الكون هو القوي، لا يسمح لأعدائه أن ينالوا من أنبيائه، لذلك أخبره الله عز وجل أنه يعصمه من الناس، وعصمة النبي بالمعنى السلوكي أنه لا يسمح لجهة كائنة من كانت أن تنال منه، إذاً:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

لا تخف منهم، لأنهم بيد الله، وليس إلا الله، وليس لك من الأمر شيء.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف: 54]

لا تخف منهم، لا تخف أن يطفئوا نور الله، هذا الذي يتوهم أنه يستطيع إلغاء الدين إنسان في منتهى الغباء، الله عز وجل يقول في آية أخرى:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[سورة التوبة: 32]

بربكم لو أن واحداً من الناس توجه إلى قرص الشمس، ونفخ ليطفئ لهيبها ألا نشك في عقله؟ فإذا كان البشر مجتمعين عاجزين عن أن يطفئوا نور الله، فهل يستطيع واحد أن يحول بين الله وهداية خلقه؟!

لاتستطيع جهة في الأرض مهما قويت أن تحول بين الله وهداية خلقه :

الآن وقد كثر الحديث عن ضغوط توجه إلى العالم الإسلامي ليغير مناهجه، وليلغي العبادات التي جاء بها الدين، هل تعتقدون أن جهة في الأرض مهما قويت، ومهما تضخم شأنها، ومهما استعلت، ومهما تغطرست، تستطيع أن تحول بين الله وهداية خلقه؟ هذا من سابع المستحيلات، لكن الله يسمح للطرف الآخر أن يهدد وأن يتوعد ليمتحن إيمان المؤمنين.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

[سورة آل عمران: 173]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

هؤلاء الألداء الأعداء الذين أصروا على كفرهم، ورفضوا دعوة الحق، ورفضوا دعوة النبي عليه الصلاة والسلام؛ هؤلاء لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، لأنهم في قبضة الله.

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 56]

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً*فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

[سورة الطارق: 15-17]

الله عز وجل يريد أن يطمئن نبيه لأنه بشر :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ)

على عنادهم وعلى كفرهم لا تقلق من مؤامراتهم، لا تنظر إلى قوتهم، هم أقوياء ولكن الله أقوى منهم، الله عز وجل يريد أن يطمئن نبيه لأنه بشر، قال عليه الصلاة والسلام:

((لقد أوذيت في الله، وما يؤذى أحد، وأخفت في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه عن أنس]

إنه بشر، ولأنه بشر وجرت عليه كل خصائص البشر، وانتصر على بشريته كان سيد البشر، لكن الله يعامله كبشر، يطمئنه، لا تقلق.

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى)

[سورة طه: 45]

على فرعون:

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه: 46]

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف لك من نيته فتكيده السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين

يديه، وأرسخت الهوى من تحت قدميه، وما من عبد يطعيني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني))

[أخرجه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

لو أراد الله أن يقهر الناس على الإيمان به وعلى طاعته لكان ذلك يسيراً عليه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

لا تحزن خوفاً منهم، ثم إن هناك معنى آخر: لا تحزن خوفاً عليهم إنهم مخيرون.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

لو أراد الله أن يقهر الناس على الإيمان به وعلى طاعته لكان ذلك على الله شيئاً يسيراً.

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

[سورة هود: 118]

ولكنه أراد أن نأتيه محبين، مختارين، طائعين.

الفرق بين العبيد والعباد :

لو أن عبداً شرساً كذوباً شروداً ربطه بسلاسل، فإذا طلبته شدت السلسة فجاءك، وازن بينه وبين إنسان حر طليق، لمجرد أن تناديه يكون أمامك، أيهما تحب؟ تحب الثاني، الذي يأتيك طوعاً، يأتيك عن حب، يأتيك عن تقدير، لذلك حينما نقرأ قوله تعالى:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

[سورة فصلت: 46]

العبيد جمع عبد، وحينما تقرأ قوله تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان: 63]

ألم يخطر في ذهنك الفرق بين العبيد والعباد؟ العبيد جمع عبد، والعباد جمع عبد، واختلاف المبنى دليل اختلاف المعنى، قال بعض علماء التفسير: العبيد جمع عبد القهر، أي إنسان كائناً من كان، مسلماً أو كافراً، مستقيماً أو عاصياً، مؤمناً أو ملحداً، هو عبد لله، هو عبد قهر، قطر الشريان التاجي بيد الله،

سيولة الدم بيد الله، نمو الخلايا بيد الله، والله عز وجل في آية ثانية يجعل الإنسان جثة هامدة.

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)

[سورة يس: 29]

فكل إنسان كائناً من كان، مسلماً كان أو كافراً هو عبد لله، شيئاً بمعنى أنه مقهور بحكم الله، هذه الحقيقة تغيب عن الأقوياء الجهلاء، في أية لحظة أنت في قبضة الله، مليون سبب تصبح به جثة هامدة، تستمع أحياناً إلى موت مفاجئ، سكتة دماغية، سكتة قلبية، حادث، تشمع كبد، فشل كلوي، التهاب بالأعصاب حاد، فالله عز وجل قاهر عباده، فكل عباده عبيد له قهراً، لكن كلمة عباد التي هي جمع عبد فهو عبد الشكر، هذا الذي عرف الله مختاراً، هذا الذي أقبل عليه مشتاقاً، هذا الذي أطاعه وهو قوي، وهو في مقتبل حياته، هذا العبد يجمع على عباد:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

[سورة الفرقان: 63]

الإيمان محله القلب والإسلام محله الجوارح :

إذاً يا محمد لا تحزن بسبب خوفك منهم، فإنهم في قبضتي، ولا تحزن بسبب خوفك عليهم، فإنهم مخيرون، أنا لا أريد طاعة قسرية، الطاعة القسرية لا تسعد الطائع، يريد الله إنساناً يحبه ويطيعه. لذلك يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ)

الإيمان محله القلب، والإسلام محله الجوارح، فأنت تؤمن بقلبك، أما إذا آمنت بلسانك فهذا هو النفاق، ولا يستطيع أحد في الأرض كائناً من كان أن يطلع عليك فيما تضمر، هذا من فضل الله عليك، لا تستطيع جهة في الأرض مهما أوتيت من قوة أن تمنعك أن تفكر، أو تمنعك أن تؤمن، فالإيمان محله القلب، والإسلام محله الجوارح، هؤلاء جعلوا الإيمان بأفواههم، إذاً هذا إيمان المنافقين، فالمنافقون:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ*اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)

[سورة البقرة: 14-15]

هؤلاء:

(الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ)

لم يدخل الإيمان في قلوبهم، إذاً هم كفار ولكنهم أذكياء، أرادوا أن ينتفعوا من صفات المؤمنين.

إيمان المنافقين :

قال تعالى:

(الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا)

المنافقون كفار في الحقيقة، إن المنافقين هم الكافرون، لكنهم كفار أعلنوا الإسلام تحقيقاً لمصالحهم، لذلك مكانهم يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار، ذلك لأن الكافر واضح، وأحياناً تحترمه لأنه واضح لم يكذب، قال لك: أنا لا أؤمن بالدين، بعيداً عن أن يكون كلامه صحيحاً أو خطأ فهو واضح، والمؤمن واضح، لكن المخيف هو المنافق، يقول ما تقول، ويفعل بعكس ما تقول، معك بلسانه، ومع الكفار بقلبه، يقول من قول خير المرسلين، ويفعل فعل أسوأ الشياطين، ومشكلة المسلمين في المنافقين، ونحن أيها الأخوة لا نخشى على الإسلام من أعدائه بل نخشى عليه من أدعيائه، لا نخشى عليه من الطرف الآخر، نخشى عليه ممن تلبسوا بالدين لأسباب دنيوية.

لذلك يقول الإمام الشافعي: لأن أتجر بالرقص أفضل من أن أتجر بالدين، أو لأن أرتزق بالرقص أفضل من أن أرتزق بالدين.

فهؤلاء الكفار الذين عاشوا مع النبي، والذين أبوا أن يؤمنوا به، ثم آمنوا بألسنتهم لا بقلوبهم، تحقيقاً لمصالحهم، أو تحقيقاً لمصالح الطرف الآخر، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ)

المؤمن يطبع على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة :

أنت إذا أتيت بمنشار وقدوم، وقطعت خشبة هل تسمى نجاراً، لا تسمى نجاراً، النجار الذي اتخذ النجارة حرفة، له خبرات متراكمة، الإنسان قد يسمع الكذب، المؤمن قد يكون في مكان فيسمع الكذب إلا أنه لا يقبله، فإذا استطاع رده، لكن المنافق من خصائصه أنه سماع للكذب، اتخذ من سماع الكذب صفة له، يستمع إلى الكذب، وينطق بالكذب، ويرحب بالكذب، ويروج الكذب، فالإنسان حينما يتخذ الكذب أداة يسمعه، يرحب به، يثني عليه، ينطق به، يعظم الكذابين، ويحقد على الصادقين، هذا إنسان عدو للدين، فهؤلاء الذين ينهى الله عز وجل نبيه أن يحزن من أجلهم، أو أن يحزن عليهم، أو أن يحزن خوفاً منهم، هؤلاء سماعون للكذب، والمؤمن يطبع على الخلال كلها، قد تجد مؤمناً عصبي المزاج، وقد تجد مؤمناً هادئ الطبع، وقد تجد مؤمناً اجتماعياً، وقد تجد مؤمناً يؤثر الوحدة على الاجتماع، وكل هذه الطباع مقبولة وعلى العين والرأس.

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة))

[رواه أحمد بين الأعمش وأبي أمامة]

فهو لا يكذب ولا يخون:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ)

القوم الآخرون هم زعماء قريش؛ لكبرهم وغطرستهم واستعلائهم يتأبون أن يجلسوا بمجلس رسول الله، لكنهم يرسلون الجواسيس ليعلموهم ماذا يقول؟ فهؤلاء:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)

للآية التالية عدة معانٍ :

أيها الأخوة، من معاني:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ)

أنهم يستمعون إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وهدفهم أن يكذبوا عليه، أن يحوروا كلامه إرضاء للطرف الآخر. في معنى آخر: هم يستمعون من أهل الباطل للكذب، ويثنون على الكذب. في معنى ثالث:

(سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ)

أي يستمعون من رسول الله لحساب قوم آخرين، القوم الآخرون دفعوهم إلى أن يستمعوا ليقفوا على دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وكلمة (سمّاعون) صيغة مبالغة أي أنهم ألفوا أن يستمعوا إلى الكذب، المؤمن قد يستمع إلى الكذب فيرفضه، لكن لا يسمى سماع، يسمى سامع، أما السماع هو الذي اتخذ من سماع الكذب خصيصة من خصائصه الثابتة:

(سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ)

كبراً واستعلاء وغطرسة.

من صفات المنافقين أنهم لا يضعون الكلمة في مواضعها بل يزورون ويحرفون :

قال تعالى:

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)

يتلاعبون بالألفاظ، أي إذا قال الله مثلاً:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

[سورة النساء: 43]

يكتفون بقوله لا تقربوا الصلاة، وإذا قال الله عز وجل:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر: 99]

يفسرون اليقين لا على ما فهمه أصحاب رسول الله، بل على مزاجهم، ما دمت قد تيقنت من إيمانك فقد انتهت عبادة ربك، يستمعون للكذب من الكفار، ويثنون على الكفار، ويستمعون من رسول الله من أجل أن يكذبوا عليه، ويستمعون لحساب قوم آخرين مستكبرين لم يأتوا رسول الله:

(سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)

لا يضعون الكلمة في مواضعها، يزورون، يحرفون:

(يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا)

فإذا كان الكلام قابلاً للتحريف فخذوه من رسول الله وحرفوه، وإن لم تستطيعوا تحريفه فاحذروا أن تنقلوه عن رسول الله، والكلام الذي لا يؤول قطعي الدلالة، هذا كلام إذا نقل قوَّى مركز النبي عليه الصلاة والسلام، فكل كلام واضح قطعي الدلالة ينبغي ألا تأخذوه، وألا تنقلوه، أما الكلام الذي يحتمل التأويل، ويحتمل التزوير فخذوا هذا الكلام، وغيروا مواضعه، وروجوه بين الناس.

الفتنة امتحان حيادي :

أذكر هنا قصة للتوضيح، مرةً قلت: إن الإنسان لو قبل المصحف من وجوهه الستة ولم يعمل بأحكامه لا ينتفع بهذا التقبيل، نقل أحدهم هذا الكلام، وقال: إن فلاناً يحرم تقبيل المصحف، أنا لم أحرم تقبيل المصحف، لكنني أشرت إلى حديث قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((ربَّ تال للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

لا يحلُّ حلاله، ولا يحرِّم حرامه، فماذا تنتفع بأن يكون المصحف في صدر محلك التجاري، وأنت تكذب مع كل نفس؟ ماذا تنتفع بمصحف في مقدمة مركبتك، وأنت تتحرك لإيذاء الناس وللكذب عليهم ولابتزاز أموالهم؟ لذلك يمكن أن تقول كلمة لا شيء فيها إطلاقاً، لكنها تحرف، وتغير، وتؤول لا لصالحك، هذا كشاهد.

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً)

الحقيقة أن الفتنة ليست مخيفة إطلاقاً، الفتنة حيادية، قد تفتن فتنجح، قد تفتن بالمال، يؤتيك الله مالاً كثيراً، لكنك تحافظ على هذا المال، وتنفقه في وجوهه الشرعية، لا تستعلي به على الناس، تنفقه بكلتا يديك لكل مسكين ومحتاج، أنت فتنت بالمال فنجحت، وقد تفتن بالمال فلا تنجح، بل يدعوك إلى الاستكبار، وإلى البخل، وإلى أن تنفقه جزافاً على شهواتك، وإلى أن تمنعه في وجوه الخير، فالفتنة امتحان حيادي، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)

هكذا شاءت حكمة الله.

العبرة لا بالفتنة بل بنتائج الفتنة :

قال تعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون)

[سورة العنكبوت: 2]

فلا بد من أن تفتن، إلا أن المعنى الذي يفهمه العامة من كلمة فتنة أن تدمر فلاناً، فتن فدمِّر، لا، فتن أيْ امتحن فقط، والعبرة بالنتيجة، قد تنجح وقد لا تنجح، سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ألم يفتن بامرأة العزيز؟ هل نجح أم رسب؟ نجح، قال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

[سورة يوسف: 23]

لم يرسب، وآلاف الشباب يكونون في موقف مشابه لهذا النبي الكريم فيفتنون ويقترفون الفاحشة، فالعبرة لا بالفتنة، بنتائج الفتنة، إذا نجحت فهذا نجاح كبير، الله عز وجل خاطب سيدنا موسى فقال:

(وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً)

[سورة طه: 40]

فامتحنا ما في نفسك، الله عز وجل يفتن عباده كل دقيقة، وكل ساعة، وكل يوم، وكل شهر، إن آتاك المال فتنك به، وإن حرمك منه فتنك، هل تصبر؟ هل ترضى بقضاء الله؟ إن قوى الكافر يفتنك بهذا، هل تقول أين الله، أم تقول: حسبي الله، ونعم الوكيل؟ فقد يقوي الكافر، وقد يقوي المؤمن، وقد يعطي، وقد يمنع، وقد يرفع، وقد يخفض، وقد يعز، وقد يذل، وقد يبسط، وقد يقبض، هذه كلها فتن، لذلك حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

الأصل في الدنيا أنها دار امتحان :

المرأة الكاسية العارية في الطريق أليست فتنة؟ إما أن تغض عنها البصر فترقى، وإما أن تملأ عينيك من محاسنها فتفتن فتسقط، المال الحرام إما أن تأخذه فتسقط، وإما أن ترفضه فترقى عند الله:

(وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)

أنت يا محمد لا تستطيع أن تحول بين الله عز وجل وبين امتحان عباده، لأن أصل الدنيا دار امتحان، الأصل في الدنيا أنها دار امتحان:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك: 2]

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)

الحقيقة هذه الآية تحتاج إلى شرح بسيط، هذا الطالب الذي هو في الجامعة، والذي لم يحضر درساً واحداً، والذي لم يقدم الامتحان، ولم يداوم، ولم يعتبر، أرسلت بطاقات الإنذار، أرسل له من يقنعه بمتابعة الدراسة، شدد عليه، هدد، رغب، لم يتأثر، ولم يستجب، ولم يعتبر، ولم يأتِ إلى الجامعة، ولم يقرأ، ولم يتصل بأستاذ، هذا ماذا أراد؟ أراد ألا يتابع الدراسة، الآن الإدارة لها موقف من هذا الطالب، تريد الإدارة أن ترقن قيده، وأن تفصله من الجامعة، فإرادة إدارة الجامعة هي في الحقيقة تجسيد لإرادة الطالب.

من أراد الدنيا لا يستطيع أحد أن يقنعه بالدين لأنه اتخذ قراراً بدائياً برفض الدين :

إذا قال الله عز وجل:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)

لأنهم ما أرادوا تطهير قلوبهم، هذا شيء واضح تماماً، إنسان لا يعنيه إلا المال، لا يعنيه إلا المرأة، لا يعنيه إلا الشهوة، لا يعنيه إلا العلو في الأرض، مهما حدثته عن الدين، وعن كتاب الله، وعن سنة رسول الله، وعن أصحاب رسول الله، وعن الآخرة المديدة التي فيها ما لا عين رأت، هو ليس معك إطلاقاً، هذا الإنسان لا تستطيع قوى الأرض أن تقنعه بالدين، لأنه اتخذ قراراً بدائياً برفض الدين من الداخل، فانتهى الأمر، هذا معنى قوله تعالى:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

في الدنيا، لأنهم ابتعدوا عن الله عز وجل سقطوا من أعين الله، وأراد الله تأديبهم، إما بعذاب مهين، وإما بعذاب أليم، وإما بعذاب عظيم، فإذا أصروا على كفرهم، وانتقلوا إلى الدار الآخرة كان الجحيم منتهاهم.

أيها الأخوة: الآية:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (23- 49): تفسير الآيات 42-43 ، سمات أهل الكتاب سمّاعون للكذب أكّالون للسحت

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-02-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان المعرض عن الله فيه صفتان جامعتان مانعتان أنه سَمَّاعٌ للكذب أكَّالٌ للسحت:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثانية والأربعين، وهي قوله تعالى:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

أيها الأخوة الكرام، هؤلاء الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وصفهم القرآن الكريم بقوله:

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء: 159]

وصف بعضهم بأنهم:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)

الإنسان المعرض عن الله عز وجل هو الذي يتبع هوى نفسه، وما من صفتين ألصق به من هاتين الصفتين، أنه سَمَّاعٌ للكذب، أكَّالٌ للسحت، وفي اللغة العربية دقة بالغة في بناء الكلمة، فكلمة:

(سَمَّاعُونَ)

جمع سَمَّاعٍ، والسَمَّاعُ صيغة مبالغة من سامع، فهناك فعل سمع، واسمع الفاعل سامع، وصيغة المبالغة من اسم فاعل سماع.

الذي يستمع لينقل وكأنه يتجسس هذه صفة المنافقين وصفة البعيدين عن الدين :

هناك آكل، وهناك أكَّالٌ:

(أَكَّالُونَ)

جمع أكَّالٍ، السماع ليس الذي يسمع لمرة واحدة، فأي واحد منا قد يكون في مكان ويقال فيه كلام ليس صحيحاً، وكأنه سمع كذباً، لكن لأنه ليس مكلفاً أن يكون إقراره تشريعاً كما هي حالة النبي عليه الصلاة

والسلام، وقد يكون من الحكمة أن يسكت أو أن ينطق بالحق، على كلٍ ما منا واحد إلا وكان في مجلس ما وقد ألقى أحدهم كلمة كذب، كلمة نفاق ليست صحيحة، هذا اسمه سامع، ولكن الذي اتخذ سماع الكذب ديدنه، يسمع الكذب، ويروج للكذب، ويقبل الكذب، وينطق بالكذب فهو سَمَّاعٌ، والذي ينبغي أن يكون معلوماً لديكم أن الكذب يتناقض مع الإيمان، ومعنى كلمة يتناقض أي أن الكاذب ينفي عن نفسه الإيمان دون أن يشعر، لأن المؤمن لا يكذب، بل إن المؤمن:

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب))

[أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

لمجرد أن يكذب أو أن يخون فليس مؤمناً، فالذي يسمع الكذب مرةً واحدة، والحكمة تقتضي ألا يرد عليه لأسباب كثيرة، أو يرد عليه فهو في الحقيقة سمع الكذب، ولكن الذي يتخذ سماع الكذب ديدنه، وقبول الكذب ديدنه، وترويج الكذب ديدنه، بل الذي يستمع لينقل، وكأنه يتجسس، فهذه صفة المنافقين، وصفة البعيدين عن الدين:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)

أي الكسب الحرام، ويسمى في المنهج الإلهي سحتاً، فالذي يأكل المال الحرام غصباً، أو اختلاساً، أو سرقةً، أو خطفاً، أو احتيالاً، أو عن طريق الربا، أو عن طريق الاحتكار، أو عن طريق الكذب، أو عن طريق التدليس، أو عن طريق الغش، فهو كسب غير مشروع، وهو في المنهج الإلهي سحت، فهذا الذي بَعُد عن الله، ولم يعبأ بالآخرة، ولم يحرص على طاعة الله، وفسدت عقيدته، وانحرف سلوكه، ففيه صفتان جامعتان مانعتان، أنه سَمَّاعٌ للكذب، أكَّالٌ للسحت.

وُصِف الإنسان في آخر الزمان بأنه أعور دجال :

أيها الأخوة الكرام: لو أردت صفةً جامعة مانعة للمؤمن فهي الصدق، فهو يصدق ولا يكذب، ولا تأخذه في الله لومة لائم، بل إن المؤمن إذا كان من خصائصه الثابتة أنه صادق فهذا في الدعاة إلى الله من باب أولى، لأن الله سبحانه وتعالى حينما وصف الدعاة إلى الله قال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

[سورة الأحزاب: 39]

لمجرد أن تخشى غير الله فتسكت عن الحق خوفاً أو إرضاءً، وتنطق بالباطل خوفاً أو إرضاءً فقد انتهت دعوتك، ويمكن أن نصف آخر الزمان بأنه عصر الكذب، فكل ما يقال يفعل عكسه، والإنسان بذكائه يستطيع أن يقول كلاماً يرضي من حوله، ولكن المعول عليه فعْله، وقد وصف الإنسان في آخر الزمان بأنه أعور دجال، أي يرى الدنيا ولا يرى الآخرة، يرى مصلحته ولا يرى مصالح الآخرين،

يرى حظوظه ويمنع الآخرين من حظوظهم، يرى وجوده ويحب أن يلغي وجود الآخرين، يعتز بمبادئه ولا يعتز بالحق الذي مع الآخرين، هذا اسمه أعور، أما أنه دجال فلأنه يتكلم كلاماً أحلى من العسل، وله فعل أمرٌ من الصبر، هذه المفارقة الحادة في شخصية الإنسان الشارد عن الله، فهو أعور دجال، وسماع للكذب، أكال للسحت، وهي صفة البعيدين عن الله عز وجل، وقد تلبَّس بعض الذين كانوا حول النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب بهاتين الصفتين:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)

المهم أن يأخذ المال، ولا يعبأ أمن حلال هو أو من حرام، المهم أن يعيش حياةً مرفهة، ولا يهتم كثيراً بأنه بنى حياته على أنقاض الآخرين، أو بنى غناه على فقرهم، أو بنى عزه على ذلهم، أو بنى أمنه على خوفهم، المهم أن يحيى حياةً تروق له من دون مبادئ.

لكل عصر سمة وسمة عصرنا المصالح لا المبادئ :

لذلك أيها الأخوة، العصور التي مرت بها البشرية متنوعة، ففي حقبة من الحقب كانت مبادئ الأمة الإسلامية هي التي تحكم، فلما جاء ملك الغساسنة إلى سيدنا عمر، وطاف حول الكعبة، وداس أعرابي من فزارة طرف ردائه، فانخلع عن كتفه، فالتفت نحوه، وضربه ضربةً هشمت أنفه، فهذا الإنسان اشتكى لسيدنا عمر، اشتكى على من؟ اشتكى على ملِك، سيدنا عمر جاء به، وصاغ بعض الشعراء المعاصرين هذا الحوار شعراً، قال له عمر: أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ قال: لست ممن يكتم شيئاً، أنا أدبت الفتى، أدركت حقي بيدي. قال: أرض الفتى، لا بد من إرضائه، مازال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك. قال: كيف ذاك يا أمير المؤمنين؟ هو سوقة، وأنا عرش وتاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً. فقال عمر: نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية قد دفناها، وأقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً. فقال جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني. فقال: عنق المرتد بالسيف تجز، عالم نبنيه، كل صدع فيه بشبا السف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى.

في هذه الحقبة كان أثمن شيء فيها المبدأ والآن نضحي بأكبر إنسان من أجل المبدأ، وها قد ضحى سيدنا عمر بجبلة وقد ارتد عن إسلامه وفر إلى بلاد الشام من أجل المبدأ.

في عصر آخر كان التركيز على شخص لا على مبدأ، فالحق ما نطق به، والباطل ما لم ينطق به، وإشارته توجيه، وحركته توجيه.

في حقبة أخرى، التركيز على الشخص، لكن لو سألت هذا العصر الذي نحن فيه: ما سمته الأساسية؟ المصالح، تداس المبادئ كلها من أجل المصالح، وهؤلاء الذين رفعوا شعارات رائعة في العالم الغربي كأن تقول: حرية الإنسان، كرامة الإنسان، كفاية الإنسان، تكافؤ الفرص، الديمقراطية في المجتمع، مثلاً، حينما هددت مصالحهم تنكروا لها، وضربوا بها عرض الحائط، وانقلبوا إلى وحوش كما ترون. إذاً نحن في عصر المصالح، لا في عصر المبادئ، يمكن أن تتغير بألف لون ولون من أجل أن تحرص على مكاسبك، فلذلك هؤلاء الذين ذمهم الله عز وجل قال عنهم إنهم:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)

يستمع إلى الكلام الكاذب، يرضى به، يقبله لأنه يحقق مصالحه، يروجه لأنه يحقق مصالحه، يثني على الكاذب، ويمدحه مدحاً فيه إفراط لأنه يحقق مصالحه، فلذلك المصلحة أولاً، والكذب وسيلة لتحقيق المصلحة.

الصادق الذي يعبأ بطاعة الله والإخلاص له يخضعه الله لقانون العناية الإلهية :

الإنسان كما قال بعض المفكرين: يستطيع أن يخدع بعض الناس لكل الوقت، أو أن يخدع كل الناس لبعض الوقت، أما أن يستطيع أن يخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل، والله عز وجل يقول:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران: 179]

لا بد من أن يكشف الإنسان.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت:2- 3]

فالآية أيها الأخوة، تصف هؤلاء أنهم سماعون للكذب، والإنسان حينما يكذب يتوهم أنه يكسب، أو أنه يزداد في مكانه قوة، أو أنه يبعد نفسه عن قسوة أعدائه، هذه القواعد استنبطت من حركة الحياة، لكن الإنسان حينما يصدق، ولا يعبأ بهذه القوانين التي استنبطت، بل استنبطها الناس من حركة الحياة، ويعبأ بطاعة الله والإخلاص له، هذا الإنسان الصادق الذي أثار حفيظة من حوله بصدقه يخضعه الله لقانون لا يعلمه معظم الناس، إنه قانون العناية الإلهية، وقد ذكرت مرة أن أحد كبار التابعين، وهو الحسن البصري قام بأمانة التبيين التي كلف الله بها العلماء، وميز بعض النقاط السلبية في حياة الحَجاج، ولما بلغ الحجاج مقالة الحسن البصري غضب أشد الغضب، وأرغى، وأزبد، وقال لمن حوله: واللهِ يا جبناء لأروينكم من دمه، وأمر بقتله، وكان قتل الرجل عند الحجاج أهون من قتل حشرة، جاء بالسياف،

وجيء بالحسن البصري، فلما دخل على مجلسه، ورأى السياف مستعداً لقطع رأسه، وأن النطع قد مد على الأرض حرك شفتيه، ولم يفهم أحد ماذا قال، فلما دخل على الحجاج وقف له، وقال: أهلاً بأبي سعيد، أنت يا أبا سعيد سيد العلماء، وما زال يدنيه من مجلسه حتى أجلسه على سريره، واستفتاه في موضوع، وأكرمه، وضيفه، وشيعه إلى باب المجلس، الذي صعق السياف والحاجب، تبعه الحاجب، وقال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت وأنت داخل؟ قال: قلت: يا مؤنسي في وحشتي، يا ملاذي عند كربتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

المؤمن لا يكذب ولا يخون :

إذاً أنت حينما تصدق، وقد يكون الصدق ضاراً بك بمقاييس أهل الأرض، وقد يكون الصدق مهدداً لمصالحك بمقاييس أهل الأرض، وقد يكون الصدق أحياناً مدمراً لك بمقاييس أهل الأرض، يخضعك الله لسلسلة قوانين أنا أسميها قوانين العناية الإلهية، هذه تقلب كل الموازين. لذلك المؤمن لا يكذب، قد تجد مؤمناً حاد الطبع، وقد تجد مؤمناً لين الطبع، وقد تجد مؤمناً متفاعلاً مع من حوله، وقد تجد مؤمناً منزوياً، وقد تجد مؤمناً كثير الأناقة، وآخر أقل أناقة، وقد تجد مؤمناً كثير الإنفاق، مؤمن أقل إنفاقاً، هذه كلها طباع مقبولة عند الله عز وجل، ولكن المؤمن لا يكذب، ولو كان الثمن باهظاً:

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب))

[أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

فهو ليس كاذباً، كثيرو الكذب، وسماع في اللغة صيغة مبالغة اسم الفاعل تعني شيئيين؛ الكم والنوع، قد يروج أكبر كذبة، وقد يروج مليون كذبة، إما نوعاً أو كماً:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ)

لو ألغي الكذب من حياتنا لحلت معظم مشكلاتنا، قال قائل أخ سيدنا عمر: يا أمير المؤمنين: أتحبني؟ قال: والله لا أحبك، قال: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي؟ قال: لا والله، قال: إذاً يأسف على الحب النساء.

سيد الخلق وحبيب الحق، يسأل عمر: كيف أصبحت يا عمر؟ قال: أصبحت أحبك أكثر من أهلي وولدي ومالي إلا نفسي التي بين جنبي، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام وقد أكبر فيه هذه الصراحة التي ليس فيها كذب أبداً، قال: لما يكمل إيمانك يا عمر، وفي لقاء آخر قال: يا رسول الله أنت اليوم أحب إلي من أهلي وولدي ومالي ونفسي التي بين جنبي، قال: الآن يا عمر.

صفة المجتمع المؤمن أنه مجتمع صادق ورع :

أحد أصحاب رسول الله، وقد يكون أقلهم شأناً صلى خلف النبي، صلى الظهر ركعتين، اسمه ذو اليدين، قال: يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال: كل ذلك لم يكن، فأصر، وقال بعضهم: قد كان، فسأل النبي أصحابه فإذا قد صلى ركعتين فعلاً، فقال عليه الصلاة والسلام: إنما نُسّيت كي أسن.

صفة المجتمع المؤمن أنه مجتمع صادق، وصفة المجتمع المؤمن أنه مجتمع ورع، يركل بقدمه مئات الملايين إذا كانت حراماً، أو إذا كان فيها شبهة، فهات ورعاً وصدقاً، وخذ نصراً وتأييداً، أما إذا فهمنا الدين عبادات تؤدى أداء أجوف، وأفعالنا كذب بكذب، وانحراف بانحراف، فأنى نطمع أن ننتصر على أعدائنا؟

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ)

هم عندهم التوراة، وعندهم الإنجيل، وفيها حكم الله، ولكن حكم الله للزاني في التوراة والإنجيل هو الرجم، مع أنهم لم يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يعبؤوا بها، وكذبوها، ولكن لعل عند رسول الله حكماً ليس في مستوى الرجم، هم يعبدون مصالحهم، مع أنهم يملكون كتاباً سماوياً فيه حكم الزنا، والحكم واضح جداً، إنه الرجم للمحصن طبعاً، جاؤوا النبي ليسألوه عن حكم الزنا، فإن جاء بحكم ملطف يتوافق مع مصالحهم ويعينهم على اقتراف شهواتهم وانحرافاتهم قبلوا به، مع أنهم كفروا به كرسول، وقبلوا بحكمه كمفتٍ، قال:

(فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ)

أنت مخير، لا تلام إذا حكمت بينهم، أو أعرضت عنهم، لأنهم ما أرادوا الحقيقة، أرادوا حكماً يتوافق مع مصالحهم، أرادوا حكماً يتمشى مع أهوائهم، هم لا يطلبون الحقيقة ولو كانت مُرّة، هم يطلبون حكماً مخففاً يدغدغ شهوتهم، قال تعالى:

(جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ)

إن شئت فاحكم، ولست ملاماً، وإن شئت لا تحكم، فلست ملاماً أيضاً:

(فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ)

من أراد أن ينطق بكلمة الحق فالله معه :

أيها الأخوة، كلام دقيق جداً:

(فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ)

في موضوع ما، وعندهم التوراة والإنجيل، وفيها حكم الله، إذاً لماذا جاؤوك مع أنهم لم يؤمنوا بك، ولم يصدقوك، ولم يقبلوا أنك نبي، لأنهم أرادوا حكماً على أهوائهم، فإن جاء حكم وفق أهوائهم ممن يكذبون به قبلوه، إذاً هم يعبدون أهوائهم، يعبدون مصالحهم، وهذا نمط شائع في العصر الحديث، العبرة أن يحقق شهوته، وأن يسعى إلى مصلحته، من أي طريق، وبأي عقيدة، وبأي مذهب، المذهب في خدمة المصلحة، والاعتقاد في خدمة المصلحة، هذا شأن إنسان الشهوة، لذلك هناك عبد الشكر، وجمعه عباد، وعباد الرحمن، وهناك عبد القهر وجمعه عبيد، هو عبد لشهوته، وعبد لمصلحته، وعبد لملذاته، فأينما تحققت فهو مع الذي يحققها له، هذه سمة العصر. قال عز وجل:

(وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ)

لو أنك رفضت حكمهم اطمأن فلن يصلوا إليك، الأمر بيد الله، وإن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً:

(وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً)

والله عز وجل ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده، فلا تخش في الله لومة لائم، ولا تحمل نفسك على مجاملتهم خوفاً منهم، إنهم لن يضروك، هذا قانون إلى يوم القيامة، إن أردت أن تنطق بكلمة الحق فالله معك.

الله مع المؤمنين بنصره وتوفيقه وتأييده وحفظه :

وقف موسى عليه السلام أمام أكبر طاغية في العالم.

(قَالَا رَبَّنَا)

[سورة طه:45]

كبشر:

(رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى* قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه:45- 46]

وفي اللحظة التي ترى أن الله معك، وأنه يحفظك، وأنه يؤيدك، وأنه يوفقك، وأنه ينصرك، ويثبت قلبك، وهو معكم بعلمه، لكنه مع المؤمنين بنصره، وتوفيقه، وتأييده وحفظه:

(وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ)

أنت مخير:

(وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ)

أي:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة المائدة:8]

اعدل مع من تبغض، اعدل مع الطرف الآخر، اعدل مع من يكيد لك.

الله عز وجل هو العدل وكل من طبق العدل في حياته أحبه الله :

قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

أقرب إلى طاعة الله، وإنك بالعدل مع الطرف الآخر تقربه إلى الله، وإنك بالعدل مع الطرف الآخر تقربه إلى ذاتك، أما إذا ظلمته فضِفْ إلى عداوته لك عداوة جديدة، أما إذا ظلمته فيضاف إلى كرهه لك كرهاً، أما إذا ظلمته فسيضيف هذا الظلم إلى حقده عليك حقداً جديداً:

(فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

الله عز وجل هو العدل، وكل من طبق العدل في حياته أحبه الله، أما الظالم فينتظره يوم القيامة ظلمات بعضها فوق بعض، الظلم ظلمات يوم القيامة، لذلك أنت لست قاضياً، أنت مهندس، مدرس، تاجر، بائع، لكنك شئت أم أبيت تعد قاضياً في آلاف الحالات وأنت لا تشعر، أنت قاضٍ بين أولادك، أنت قاضٍ بين أصهارك، أنت قاضٍ بين زوجتك وبين نفسك، أنت قاضٍ بين زوجة ابنك وابنتك، هل تحكم بالعدل بينهما؟ أنت قاضٍ في عملك، هل تنصف الموظفين؟ أم الذي يحابيك تعطيه ما لا يستحق، وأما الذي يحترمك من دون أن يخضع لك، ويتملق لك تسحقه، شئت أم أبيت، تقف في اليوم الواحد عشرات المرات موقف القاضي، لذلك المؤمن يحكم بالعدل. قال النعمان بن البشير:

((اشهد يا رسول الله أن نحلت ابني حديقة، قال عليه الصلاة والسلام: ألك ولد غيره؟ قال: نعم، قال: أنحلتهم كما نحلت ابنك هذا؟ قال: لا، قال: اشهد غيري، فإني لا أشهد على جور))

[متفق عليه عن النعمان بن البشير]

أنت مكلف بالعدل بين أولادك، بين بناتك، بين أصهارك، بين جيرانك، بين زملائك، بين أصدقائك.

أهل الكتاب يصدقون بأن محمداً نبياً فيما بينهم وبين أنفسهم :

أيها الأخوة الكرام: آية دقيقة جداً، هؤلاء الذين أعرضوا عن الله:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

أي لمَ يحكّموك:

(وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ)

عندهم كتاب يدعون أنه كتابهم، إنه كتاب من عند الله عز وجل، لماذا يرفضون حكم الله في كتابهم، ويبحثون عن حكم من إنسان لا يصدقونه نبياً؟ إذاً هم يصدقونه نبياً فيما بينهم وبين أنفسهم.

الذي يتقلب بين الحكم الشرعي وحكم القانون مراعاةً لمصالحه قطعاً لا يعبد الله :

قال تعالى:

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)

أي لا يقبلون حكم الله، هم أرادوا حكماً يتوافق مع مصالحهم، فلما جاء حكم النبي بأن الزاني يرجم ما استفادوا شيئاً، لذلك:

(وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة التوبة: 76]

قال سبحانه:

(وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

نحن في حياتنا اليومية كم من مسلم له مشكلة لا تحل إلا عند العلماء؟ القوانين لا تحلها، ولنضرب على ذلك مثلاً قضية الإيجار، فقبل صدور القانون الجديد هذه القضية لا تحل في القانون، المستأجر ملك البيت، يأتي هذا الإنسان الذي له بيت مؤجر إلى العلماء، يا سيدي أريد حكم الله، أنا أريد الشرع، يقول كلاماً رائعاً، لأنه يعلم في أعماقه أن هذا البيت لا سبيل إلى استرداده بحكم قضائي، أما إذا كانت القضية محرمة عند العلماء كقضية إيداع المال بالبنوك، يا أخي نحن عندنا قوانين، أجبرونا على ذلك، لماذا في موضوع تلجأ إلى العلماء وفي موضوع تلجأ إلى القوانين؟ هو يعبد مصلحته، فإن تحققت عند العلماء لجأ إليهم، وإن تحققت في المحاكم لجأ إلى المحاكم، قد يقول واحد منهم: نحن نعيش في بلد لها قوانين، والقوانين هي الأصل في التعامل، وقد يكون القانون غير منصف أحياناً، فأنت مع مصلحتك إن

كانت قانوناً أو شريعةً، إذاً أنت في الحالتين لا تعبد الله، ولست مواطناً صالحاً، إنك تعبد مصلحتك وشهوتك، والمال الذي تراه هو كل شيء في الحياة.

حقيقة هذا الدين خضوع لأمر الله لا أن تخضع خضوعاً انتقائياً فهذا ليس من الدين :

هذه حالة بشرية موجودة، أنت مع المصلحة:

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

الآن لو نشب خلاف بين زوج وزوجة في بلاد الغرب، لا تلجأ الزوجة المسلمة إلى الحكم الشرعي الذي يعطيها المهر فقط، بل تلجأ إلى قاضٍ غربي ليعطيها نصف أملاك زوجها، ترفض حكم الشرع الإسلامي وهي مسلمة، وتطلب حكم الغرب في بلادهم، لأن حكم الغرب يعطيها نصف أملاك زوجها، فهذا الذي يتقلب بين الحكم الشرعي، وحكم القانون مراعاةً لمصالحه قطعاً لا يعبد الله:

(وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

إنما يعبد مصلحته من دون الله، أحياناً في قوانين الإرث يعطى للذكر مثل الأنثى بقانون قديم توارثناه من الحكم العثماني، في الأراضي الأميرية، فالذي يعبد الله لا يقبل إلا أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، والذي يعبد مصلحته يقول: لا، هذا حكم، هذا قانون، هذا قضاء، أنا لا أتراجع، ولا أتنازل عن حقي.

إذاً هناك من يعبد نفسه من دون الله، وهناك من يعبد الله، وحقيقة هذا الدين خضوع لأمر الله، لا أن تخضع خضوعاً انتقائياً، الخضوع الانتقائي ليس من الدين، هؤلاء الذين ذمهم الله عز وجل يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض، فالأحكام التي تتوافق مع مصالحهم يقبلونها، والأحكام التي تتناقض مع مصالحهم يرفضونها، تصف الآية الكريمة من كانوا حول النبي من أهل الكتاب، أو تصف بعض من كانوا حول النبي من أهل الكتاب:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (24- 49): تفسير الآية 44، التشريع الإلهي والكتب السماوية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-03-05

بسم الله الرحمن الرحيم

لكل قوم هاد لأن طبيعة الحياة من قبل لم يكن فيها تواصل بين الأمم والشعوب:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الرابعة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

أيها الأخوة، طبيعة الأمم والشعوب قديماً أن كل قوم مستقل عن القوم الآخر، ليس هناك تواصل، لذلك جعل الله لكل قوم هاد، وقد يتعاصر الأنبياء، لأن كل نبي لقوم، ولأن كل قوم لهم مشكلات، ولهم سقطات، ولهم زلات، ولهم مخالفات، فالنبي الذي يرسل الله لقوم يرسله ليعالج مشكلات هؤلاء بالذات وتحديداً، فلكل قوم هاد، طبيعة الحياة من قبل لم يكن فيها تواصل بين الأمم والشعوب، لذلك قال الله عز وجل:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)

الهدى: هو الطريق إلى الله عز وجل. والنور: هو النور الذي يضيء الطريق. وشيء طبيعي جداً أننا إذا شققنا طريقاً لا بد من أن ننوره، فقد يعبَر الطريق ليلاً ونهاراً، فتنوير الطريق من لوازم شقّه، فالله سبحانه وتعالى يبين أنه رسم طريقاً إليه، وأنه نوّره بنوره، ففي حياة الإنسان طريق يستوعبه بفكره، ونور يقذف إلى قلبه، فهناك معالم للطريق، وهناك نور يقذفه الله في قلب المؤمن يهتدي به في الطريق إذا أظلمت الأمور، لكن هذه التوراة كما قلت قبل قليل متعلقة ببني إسرائيل، باليهود حصراً.

من لوازم كمال الله عز وجل أنه خلق كل شيء فأحسن خلقه:

قال تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)

أولاً: لأن الله سبحانه وتعالى خلقنا لنعرفه، وخلقنا لنعبده، ولا بد من أن ينزل كتباً، وأن يرسل رسلاً، هذه حقيقة. لكن الإنسان حينما يغفل عن الله عز وجل، حينما لا يتبع طريق الهدى، وحينما يعمى قلبه فلا يستنير بنور الله، يضل سواء السبيل، وقد قال الله عز وجل:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)

هذا الكون يدل على عظمة ما بعدها عظمة، يدل على علم، وعلى حكمة، وعلى رحمة، وعلى لطف، فكل أسماء الله الحسنى يشفّ عنها الكون، كمال الخلق يدل على كمال التصرف، وكمال الخلق يدل على كمال التشريع.

من لوازم كمال الله عز وجل أنه خلق كل شيء فأحسن خلقه، ولا يعقل، ولا يقبل أنه ترك خلقه معطلين عن التوجيه وعن الإرشاد، لذلك بعثة الأنبياء متواصلة، وإرسال الرسل متواصل، وإنزال الكتب متتابع، لأن الله سبحانه وتعالى خلقنا لنعرفه، وخلقنا لنعبده، وخلقنا لنسعد به في الدنيا والآخرة، وبشكل مبسط جداً لا يمكن لأب على وجه الأرض جالسٍ في غرفة الجلوس وابنه يقترب من المدفأة دون أن يقول كلمة، أو أن يتحرك، لأن من لوازم الرحمة أن ترشد الضال، ومن لوازم الرحمة أن تربي الذي شرد عنك.

الله عز وجل ألزم نفسه ذاتياً بهداية الخلق:

إذاً: أن يرسل الله رسلاً، وأن يبعث أنبياء، وأن ينزل الكتب، هذا شيء يتناسب مع كماله، ومع علة وجودنا، أوجدنا الله كي نعرفه، إذاً يقول الله عز وجل:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

وكلمة (على) إذا جاءت مع لفظ الجلالة تعني الإلزام الذاتي، أي أنّ الله عز وجل ألزم نفسه ذاتياً بهداية الخلق:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

وفي آية ثانية:

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

[سورة النحل: 9]

أي: وعلى الله بيان سبيل القصد.

الإنسان إذا شرد عن الله عز وجل يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة:

قال تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال: 23]

أنت مطلوب شئت أم أبيت، بل إن هدايتك ليست صدفةً، إنها فعل إلهي مقصود لذاته، أراد الله أن يهديك، لذلك نصب لك هذه الآيات في الكون، هو طريق إليه، منحك عقلاً متوافقاً مع الكون، أنزل كتباً فيها إعجاز، أرسل أنبياءً جعلهم معصومين، أرسل رسلاً حملهم أمانة لينقلوها للناس، هذه كلها سبل الهداية، ثم تولى الله تربيتنا مباشرةً، فالإنسان إذا شرد عن الله عز وجل يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة، تاب الله عليهم ليتوبوا.

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ*أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة: 155-157]

إن دخلت إلى مسجد، ورأيت جمعاً غفيراً فاعلم علم اليقين أن هؤلاء جميعاً قد وفّر الله لهم تربية عالية جداً، ساق لهم بعض الشدائد، رغبهم، خوفهم، جمعهم مع أهل الحق، أسمعهم كلمة الحق، أنت مطلوب لمعرفة الله، مطلوب لعبادته، مطلوب كي يرحمك الله عز وجل، وهذا هو الحق.

المعنى الواسع والضيق للإسلام:

إذاً: هذه الآية:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)

التوراة في الحقيقة طريق إلى الله واضحة المعالم كما قال الله عز وجل، وهذه الطريق منوّرة بنور الله، يحكم بها النبيون الذين أسلموا، والحقيقة أنه ما من نبي في القرآن الكريم، وما من رسول في القرآن الكريم إلا وَوُصِف بأنه مسلم، لو تتبعت أسماء الأنبياء جميعاً، وأسماء الرسل جميعاً في كتاب الله لوجدت أنه لا بد قطعاً وحصراً من أن يوصف النبي، وأن يوصف الرسول بأنه مسلم، ومعنى كونه مسلماً أنه استسلم لله، خضع لله، انصاع لحكم الله، هذا مفهوم الإسلام الواسع أن تنصاع لله، أن تستسلم له، أن تخضع له، أن تطيعه، أن تأتمر بما أمر، أن تنتهي عما عنه نهى وزجر، هذا المعنى هو معنى

الإسلام الواسع، معنى الإسلام الضيق هو بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، والوحي الذي نزل على قلبه، وهذا القرآن، هذا هو الإسلام بالمعنى الضيق، فكل مسلم، وكل رسول مسلم، وكل من اتبع رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم، واتبع قرآناً نزل على قلبه فهو مسلم بالمعنى الآخر.

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا)

الدين واحد، والشرائع متعددة، وشرائع الأنبياء السابقين متعلقة بالظروف التي عاشوا بها، وبالمشكلات التي ألمت بأقوامهم، وبالمعاصي التي ارتكبوها، فأناس بخسوا المكيال والميزان لهم معالجة خاصة، وأناس أكلوا الربا لهم معالجة خاصة، لكن ما الذي حصل بعد ذلك؟ حصل بعد ذلك هذا التواصل بين الأمم والشعوب، هذا التواصل نقل كل المعاصي إلى كل الشعوب، هذا شيء واقع الآن، فالانحرافات الخطيرة في أقصى الدنيا تنتقل إلى كل أرجاء الدنيا عن طريق هذا التواصل الذي هو سمة العصر، فلأن هناك تواصلاً بين الأمم والشعوب، ولأن هناك علاقات مستمرة بين الأمم والشعوب اقتضى أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم محمد آخر الأنبياء والمرسلين، لأن رسالته سوف تعمَّم على كل الخلق أجمعين.

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا)

الرباني هو الذي يتوخى مرضاة الله عز وجل في كل حركاته وسكناته:

كما قلت قبل قليل: هؤلاء الأنبياء لأقوامهم حصراً، ولكن:

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ)

من هو الربّاني؟ هو الإنسان الذي يتحرك من أجل ربه، بهدى من ربه، ومن أجل ربه، متوكلاً على ربه، محباً لربه، مهتدياً بهدى ربه، لذلك لأنه في كل شؤون حياته وفي كل حركاته وسكناته يتوخى مرضاة الله عز وجل، فسمي هذا الرباني، لعله ما من صفة يرتقي بها الإنسان كأن يكون ربانياً، كما يقال: فلان رباني، فلان شهواني، فلان شيطاني، فالرباني هو الذي يهتدي بهدي ربه، والذي ينصاع لأمر ربه، هو الذي يقبل على ربه، هو الذي يتوخى مرضاة ربه.

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

العلماء، وعلماء اليهود بالذات.

(بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ)

أيها الأخوة، هناك حقيقة دقيقة، وهي أن الأنبياء السابقين كانت الكتب التي أنزلت عليهم قد أوكل إليهم حفظها بأمر تكليفي، وكتبهم شيء والمعجزات شيء آخر.

ليست معجزات الأنبياء السابقين منطبقة على كتبهم:

ليست معجزات الأنبياء السابقين منطبقة على كتبهم. إن سيدنا عيسى عليه وعلى سيدنا أفضل الصلاة والسلام، معجزته إحياء الموتى وكتابه الإنجيل. سيدنا موسى معجزته العصا، وكتابه التوراة.

فالمعجزة ليست عين الكتاب، والكتاب ليس عين المعجزة، الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل أوكل حفظها إلى الأنبياء، وإلى الذين من بعدهم من المؤمنين، فالأنبياء قطعاً قاموا بحفظها، لكن الذين جاؤوا من بعدهم لم يحفظوها كما أراد الله عز وجل، لأنه أمر تكليفي، والأمر التكليفي غير الأمر التكويني، الأمر التكليفي يعصى، الأمر التكليفي قد لا يطبق، تماماً كما لو رأيت لوحةً كتب عليها: ممنوع المرور، على طريق، لكن الطريق مفتوح، وبإمكانك أن تخالف، وأن تسير، نقول: هذه اللوحة التي كتب عليها: ممنوع المرور، هذا أمر تكليفي، يطاع أو يعصى، أما إذا عصي هذا الأمر فهناك تبعات تلحق الذي عصى، لكن الأمر التكويني أن ترى أن الطريق مسدودة بمكعبات من الاسمنت المسلح، ارتفاع المكعب متران، هذا أمر تكويني، وليس أمراً تكليفياً. إلا أن الله جل جلاله لأن معجزة النبي هي القرآن اتحدت المعجزة مع الكتاب، فلأن النبي لا لقوم محددين، بل لكل الأمم الأرض مجتمعين، لذلك كانت معجزته وهي القرآن محفوظة بأمر تكويني من قبل الله.

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر:9]

هذا يفسر أن الكتب السماوية السابقة أُمر الأنبياء وأتباعهم من بعدهم بحفظها، فالأنبياء حفظوها، لكن أتباعهم لم يحفظوها، لأن الأمر بحفظها كان أمراً تكليفياً، بينما حفظ القرآن تولاه الله بذاته، قال:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

القرآن الكريم تولى الله حفظه بذاته بأمر تكويني:

لذلك الشيء الذي لا يصدق مع أن الناس تفلتوا من أحكام القرآن، لكنّ القرآن حُفِظ كما أنزل، وبأساليب وبأشكال لا تعد ولا تحصى، شيء يلفت النظر، ففي كل بلاد الأرض هناك طبعات من كتاب الله، بكل الأحجام والألوان والأشكال والتوضيحات والتيسيرات، ومطبوع بطرائق رائعة جداً، لأن الله تولى حفظه، تجد معظم الناس لا يطبقون أحكامه، ولكن إذا علم أن تغيراً طرأ عليه تقوم الدنيا ولا تقعد، فحفظ القرآن شيء يلفت النظر، تطبيقه شيء، وحفظه شيء آخر، لأن الله تولى حفظه، لا تجد في العالم الإسلامي احتمالاً طفيفاً أن تغير كلمة، أو أن يعدل حرف، بل إن هناك دراسات تتعلق بالحروف القرآنية، وبقضايا في الرياضيات بالغة الدقة تؤكد أنه لو بدلت حركة مكان حركة لاختل النظام

الرياضي للقرآن الكريم، هذا قد يكون نوعاً من أنواع الإحكام والإعجاز.

على كلٍ أن القرآن الكريم تولى الله حفظه بذاته بأمر تكويني، هذه قضية إيمانية فإذا ما آمن الإنسان بهذه الآية، وأراد أن يناقش القضية مناقشة عادية فقد لا يصل إلى نتيجة، لكن هذه القضية قضية إيمانية مسلم بها الإنسان أن الله تولى حفظه، وأن القرآن الذي نزل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، والذي قرأه الصحابة الكرام هو القرآن نفسُه الذي بين أيدينا، ودقة حفظه وضبطه شيء لا يصدق، في كل العالم الإسلامي إن هو إلا انعكاس لتولي حفظ الله له بنفسه. إذاً:

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ)

هذا منهج الله، وهذا منهج الحكيم، وهذا منهج الرحيم، وهذا منهج القوي، وهذا منهج من إليه المصير، لا تستحي بكتاب الله، هو المنهج القويم، لا تستح بآية يثار حولها جدل كبير، لا تستح بحكم شرعي ينتقده أعداء الدين:

(فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ)

اعتقد يقيناً أن هذا كلام الخبير، وأن هذا كلام العليم، وأن هذا كلام الرحيم، وأن كل ما يثار حول القرآن الكريم من أعداء الدين هي زوبعة في فنجان، أو هو نباح من حيوان، لا يغيِّر من واقع القرآن شيئاً.

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه:

ما ضر السحابَ نبحُ الكلاب، وما ضر البحرَ أن ألقى فيه غلام بحجر، ولو تحوّل الناس إلى كناسين ليثيروا الغبار على هذا القرآن، ما أثاروه إلا على أنفسهم، ويبقى القرآن قرآناً هو كلام الواحد الديان.

(فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا)

هناك من استحيا ببعض الآيات، خجل من بعض الآيات، فقال: هناك آيات ظالمة في القرآن الكريم، هكذا:

(فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ)

لأن الطرف الآخر يعيش للدنيا فقط، بينما ربنا عز وجل أراد لنا الآخرة، أراد لنا حياة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر:

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا)

فالإنسان ـ للتوضيح فقط ـ حينما يكون معه شيك مصرفي بمليون من العملة الخضراء، ولا ينتبه إليه،

كتب على ظهره كلاماً لا طائل منه، ثم مزّقه، ولم ينتبه لقيمته، استخدم هذا الشك كورقة على ظهره، ولما انته من هذا الذي كتبه مزقه، وألقاه في المهملات، ماذا فعل هذا الإنسان؟ استخدم ورقة مالية قد تحل كل مشكلاته، وتجعله غنياً جداً، استخدمها كورقة بيضاء، أو كمسودة، ومزقها تمزيقاً تاماً، ثم اكتشف الحقيقة، هذا الذي اشترى بكلام الله ثمناً قليلاً، هذا الذي أفتى في كتاب الله بغير علم، أو أفتى بخلاف ما يعلم، هذا الذي اتخذ القرآن مطية إلى الدنيا، هذا الذي فسر القرآن ليرضي الأقوياء، أو ليحقق مصالحهم.

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

هذا الذي لا يعرف عظمة الله من خلال الكون، وبالتالي لا يعرف عظمة هذا القرآن، لأن الفرق بين كلام الله وكلام خلقه كالفرق بين خالق الأكوان وهذا الإنسان الضعيف، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

من لا يثق بتشريع الله وحكمه فهو كافر:

هذه الآية أيها الأخوة:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

حينما تعتقد أن حكماً أرضياً، وأن تشريعاً أرضياً هو أصوب من تشريع الله وحكمه فهذا كفر، وأيّ كفر، حينما لا تثق بتشريع خالق السماوات والأرض وتثق بتشريع إنسان ضعيف جاهل، له مصالح، بصره قاصر، حينما لا تثق بحكم الله عز وجل من فوق سبع سماوات، وتثق بحكم إنسان له مصالح وضعيف، رؤيته محدودة، فهذا نوع من الكفر وأيّ كفر:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

أيها الأخوة، هذه الآية تبين أن النبوة في الأرض موجودة، لأن الله خلقنا لنعرفه، لكن كانت هناك مرحلة أقوام متباعدين، ولكل قوم هاد، ولكل قوم معجزة، وهي كعود الثقاب تألقت، ثم انطفأت، وأصبحت خبراً، وكان كل تشريع يعالج قضايا الأقوام الذين جاء التشريع من أجلهم، أما حينما كان التواصل بين الأمم والشعوب كما هي الحال الآن كان عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء، ولأنها اتحدت معجزته بكتابه، لذلك تولى الله بذاته حفظ كتابه بأمر تكوين لا بأمرٍ تكليف.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (25- 49): تفسير الآية 45-49، القصاص وحفظ القرآن من التغيير والتزوير.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-03-12

بسم الله الرحمن الرحيم

القاتل يبقى حياً والمقتول يبقى حياً حينما يشرع أن القاتل يُقتَل:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا)

أي شرعنا لهم. على أيّ كلمة تعود (فيها)؟ الآية التي قبلها:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ*وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا)

أي في التوراة.

(أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل يقول:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

[سورة البقرة: 179]

أي إذا أيقن القاتل أنه سيُقتَل فلا يَقتُل، فإن لم يَقتُل بقي حياً، وإذا أيقن القاتل أن القتل ينتظره إذا قتل أبقى على من سيكون ضحيته حياً، فالقاتل يبقى حياً، والمقتول يبقى حياً، حينما يشرع أن القاتل يقتل.

العالم اليوم يقترب من الدين لا عن إيمان بالدين ولكن عن تحقيق لمصالحه:

أيها الأخوة، الإنسان أحياناً يجتهد، وقد يحاول أن يأتي بتشريع جديد، وحينما ألغي حكم الإعدام من بعض الدول تفاقمت الجرائم بشكل واضح جداً، فهذا يقتل عشرين شخصاً، وهذا عشرة، وهذا يدخل إلى مدرسة ابتدائية ويقتل معظم الطلاب، فحينما يكون السجن هو العقاب ففي السجن بقي الإنسان حياً، على

كلٍ هذا تشريع خالق الأكوان، الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها هي الجهة الصانعة، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الخبيرة.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

والعالم اليوم يقترب من الدين لا عن إيمان بالدين، ولكن عن تحقيق لمصالحه، لأن الذي خلق الإنسان هو أعلم به، أعلم بما يردعه، أعلم بما يمنعه، من أن يفعل كذا وكذا فالله عز وجل يقول:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ)

تقتل:

(بِالنَّفْسِ)

والقاتل يقتل، وأن العين تفقأ بالعين، وأن الأنف يجدع بالأنف، وأن الأذن تصلن بالأذن، وأن السن تخلع بالسن:

(وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ)

أي الجرح أيضاً يقتص به بجرح، لكن هذا الحكم حكم العدل، فأين الإحسان؟ والله عز وجل:

(يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 20]

من حكم الله أن الذي قتل له إنسان هو ولي المقتول يجب أن يباشر القتل بيده:

من حكم الله عز وجل أن الذي قتل له إنسان هو ولي المقتول، يجب أن يباشر القتل بيده، لأن في هذا شفاء له، والإنسان حينما يملك أن يقيم حد القتل بيده قد يعفو، والحالات التي تنتهي بالعفو لا تعد ولا تحصى، حينما يشعر ولي القتيل أنه بإمكانه أن يقتص من قاتل ابنه، ويوضع الأمر بيده طبعاً برقابة وبضوابط كثيرة جداً كما هو مطبق في بعض البلاد الإسلامية، في الأعم الأغلب يعفو، لأنه حينما سلمناه أمر أن يأخذ بيده بالقصاص شفي صدره، بينما في بعض البلاد الأخرى التي يقتل فيها القتيل تثور الثارات بين أطراف الأسر، وقد لا تنتهي إلا بعدد كبير من القتلى، هذا شرع الله عز وجل:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ)

لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يدعونا إلى الإحسان، والقاعدة أيها الأخوة أن الله عز وجل حينما قال:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى: 39]

من صفات المؤمن أنه ينتصر:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[سورة الشورى: 40]

حينما يعفو صاحب الدم، ويغلب على ظنه أن عفوه يصلح من عفا عنه فينبغي أن يعفو، وعندئذٍ يتولى الله مكافأته.

العفو مشروع في الإسلام لكن إقامة العدل قسري والإحسان طوعي:

رجل من زعماء القبائل اسمه ثمامة، ألقي القبض عليه من قبل بعض الصحابة في سرية كانوا فيها، لكنهم قبضوا عليه ولا يعلمون من هو، فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال: ثمامة! قال: نعم يا رسول الله، قال: ماذا عندك؟ فقال ثمامة: إن تقتل تَقتل ذا دم ـ كان متورطاً بقتل بعض أصحاب رسول الله ـ إن تقتل تَقتل ذا دم، وإن تعف تعفُ عن شاكر، وإن أردت المال فخذ منه ما تريد، تركه النبي مقيداً، ومر به في اليوم التالي، قال: ما وراءك يا ثمامة؟ فقال: إن تقتل تَقتل ذا دم، وإن تعفُ تعف عن شاكر، وإن أردت المال فخذ منه ما تريد، في اليوم الثالث سأله النبي: ما وراءك يا ثمامة؟ قال: كما قلت البارحة، فعفا عنه النبي، فخرج، وعاد بعد قليل، يبدو أنه اغتسل، ودخل على النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلن إسلامه، قال: يا رسول الله، والله ما كان من رجل أبغض إلي منك، والآن ما من رجل أحب إلي منك، وما كان دين أبغض إلي من دينك، والآن دينك أحب إلي من أي دين. العفو مشروع في الإسلام، لكن إقامة العدل قسري، بينما الإحسان طوعي، فالله عز وجل العدل:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ)

أي له أن يقتل فعفا، وله أن يقتص لعين، أو لأنف، أو لأذن، أو لسن، فعفا، وله أن يقتص لجرح فعفا، فهذا الذي يعفو يكفر الله له من ذنوبه بقدر ما عفا:

(فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ)

وكأن العفو شيء يتصدق به:

(فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

حينما ترد قضية من قضايا العقائد في الإسلام فهذا كفر:

لو استعرضنا أيها الأخوة هذه الآيات الثلاثة، الآية الأولى حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

أنت حينما ترد قضية عقدية، أو حينما ترد قضية من قضايا العقائد في الإسلام، حينما ترد ربوبية الرب العظيم، أو حينما ترد إلوهية الإله العظيم، أو حينما ترد كتاباً أنزله الله عز وجل، فهذا كفر:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

لكن حينما لا تقتص من القاتل، أو ممن تسبب فيه فقأ العين، أو جدع الأنف، أو صلن الأذن، أو خلع السن، أو إيقاع الجرح، فهذا ليس كفراً، ولكنه ظلم شديد:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

الذي يتميز به نبينا محمد أن المعجزة التي جاء بها مطابقة للكتاب الذي أنزله الله عليه:

قال تعالى:

(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

سيدنا عيسى جاء بعد سيدنا موسى، معنى قفينا أي جاء بعده:

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ)

الإنجيل يصدق ما في التوراة، والقرآن يصدق ما في التوراة والإنجيل، لأن المصدر واحد، إلا أن الحقيقة التي ينبغي أن تكون واضحة جداً هو أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل قوم نبياً يوم كان التقاطع بين الأمم، أما حينما صار التواصل جعل نبياً واحداً، وجعله آخر الأنبياء لكل أمم الأرض.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ)

[سورة سبأ: 28]

لأن الله علم أنه سيكون ثمة تواصل بين بني البشر، الأرض الآن سطح مكتب، أي شيء يحدث في أطراف الدنيا يصلك بعد ثوانٍ من وقوع الشيء، يصلك صوتاً وخبراً وصورة، والأرض كلها في متناول يدك، إذاً الله عز وجل جعل نبينا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعل رسالته لكل الناس أجمعين، إلا أن الذي يتميز به النبي عليه الصلاة والسلام أن المعجزة التي جاء بها مطابقة للكتاب الذي أنزله الله عليه.

لكل قوم نمط من المخالفات والمعاصي وجاء التشريع معالجاً لهذا النمط بالذات:

سيدنا عيسى معجزته إحياء الموتى، بينما الكتاب الذي بين يديه هو الإنجيل، وسيدنا موسى معجزته العصا، بينما الكتاب الذي بين يديه هو التوراة، هناك انفصال بين الكتاب والمعجزة، وسيدنا عيسى وسيدنا موسى كلفا، وكلف بالمقابل أتباعهما بحفظ التوراة والإنجيل بأمر تكليفي، لا بأمر تكويني، لذلك نفذ الأنبياء الكرام هذا الأمر، ولم ينفذه أتباعهم، فطرأ على التوراة والإنجيل تغيير وتبديل، وهذا ما جاء في القرآن الكريم، أما نبينا عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ولن يأتي كتاب بعد القرآن يصحح التغيير الذي تم فيه كما كان في السابق، لأن النبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، ولأن كتابه الذي جاء به القرآن الكريم خاتم الكتب المنزلة، ولأن المعجزة هي نفسها الكتاب الذي جاء به، لذلك تولى الله حفظه بأمر تكويني، لذلك لا يمكن لأحد كائناً من كان إلى يوم القيامة أن يغير في القرآن حرفاً ولا حركةً، وذكرت لكم في الدرس السابق أن هناك دراسات متعلقة بنظم القرآن الكريم تؤكد أنه لو غير حرف واحد لفسد نظام القرآن كله:

(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ)

أيها الأخوة، ما دام الأقوام في تباعد فقديماً كان لكل قوم مشكلات، قوم لوط عليه السلام انحرفوا في العلاقات المثلية، قومٌ آخرون بخسوا الكيل والميزان، قوم آخرون أكلوا أموال الناس بالباطل، فلكل قوم نمط من المخالفات والمعاصي، وجاء التشريع معالجاً لهذا النمط بالذات، وهذا يؤكده قوله تعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

[سورة الرعد: 7]

ويؤكده قوله أيضاً:

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)

جاء القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السابقة وناسخاً لها يعالج قضايا البشر كافة:

إلا أن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كما قال الله عز وجل:

(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ)

الهدى والنور في الإنجيل غير الهدى والنور في التوراة، لأن التوراة نظمت العلاقات المادية لليهود، فأصبحوا ماديين، إذاً هم بحاجة إلى شحنة روحية، فجاء الإنجيل بهدى ونور يختلف عن الهدى والنور الذي جاء به التوراة، هنا تنظيم علاقات مالي، هنا شحنة روحية، فجاء القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السابقة، وناسخاً لها، يعالج قضايا البشر كبشر مجتمعين، ويعالج هذه القضايا إلى يوم الدين.

(وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

هناك ملمح لطيف جداً في الآية أن الإنجيل فيه هدى ونور:

(وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

لمن أراد أن يتقي الله عز وجل، هناك طلب أولي، أنت حينما تريد أن تتقي الله، حينما تريد أن تعرف الله، حينما تريد أن تطيع الله، حينما تريد أن تسأل: لماذا أنا في الدنيا؟ الآن أي شيء ينفعك، أية آية تدلك، أية موعظة تهزك، أية حادثة تثيرك، لأنك اتخذت قراراً أولياً بطلب الحقيقة.

ردّ العقائد كفر وردّ حقوق البشر ظلم وردّ العبادات فسق:

أيها الأخوة، قضية دقيقة جداً، أنت إذا أردت الحقيقة، أردت الحق، أردت الهدى، أردت أن تحقق الهدف من وجودك، أردت الله والدار الآخرة، هذا قرار أولي، إذاً أي شيء بعد اتخاذك هذا القرار ينفعك ويرقى بك، ويمدك بعلم وبطاقة وبإرادة. أما حينما لا تتخذ هذا القرار الأولي لو كنت في أكبر محطة فضاء في الأرض، وترى بعينك المجارات البعيدة جداً، ولو كنت على مجهر الكتروني ترى الخلية مكبرة أربعة آلاف مرة، وحينما ترى بالتلسكوبات والميكروسكوبات عجائب خلق الله عز وجل لا تهتدي، وما من مثل يقرب هذه الحقيقة من أنك إذا أردت الحقيقة، وسعيت إليها كنت كآلة تصوير فيها فيلم يلتقط الصورة، أما إذا لم ترد الحقيقة، ولم تسعَ إليها كنت كآلة تصوير ليس لها فيلم، فمهما فتحت العدسة مئات المرات فليس لهذه الصور أي أثر في الآلة، لذلك الله عز وجل يقول:

(وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

الذي لا يحكم بما أنزل الله إن كان عدم الحكم متعلقاً بالعقائد فهذا كفر، والذي لا يحكم بما أنزل الله إذا كان عدم الحكم متعلقاً بالحقوق فهذا ظلم، والذي لا يحكم بما أنزل الله إن كان عدم حكمه متعلقاً بالعبادات فهو فسق، رد العقائد كفر، ورد حقوق البشر ظلم، ورد العبادات فسق:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

ردّ العقائد كفر وردّ حقوق البشر ظلم وردّ العبادات فسق:

أيها الأخوة:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

الآن الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

أي القرآن، أي المعهود، تقول: هذا الرجل، وتكلم هذا الرجل، الألف واللام في الكلمة الثانية للعهد، المعهود، نكون في دائرة نقول: جاء المدير، أي مدير؟ مدير الدائرة، نكون في احتفال نقول: جاء الوزير، أي وزير؟ المعني المعهود، فهذه أل العهد، فنحن بيننا معهود أن الكتاب الذي أنزل على رسول الله هو القرآن:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

بالحق، أي أن هذا القرآن لا يستطيع أحد تحريفه، ولا تبديله، ولا إضافة شيء عليه، ولا حذف شيء منه لأن الله تولى حفظه بأمر تكويني، والدليل: أن العالم كله يهتم بالقرآن وطباعته وتيسيره بشكل لا يصدق، مؤسسات كبيرة جداً.

ترتيب الآيات وترتيب السور ترتيب توقيفي:

القرآن يطبع بأحلى الخطوط، ويضاف إلى نصه الحركات والسكنات وأحكام التجويد بشكل رائع، ثم يترجم إلى جميع اللغات، وبأحجام وأشكال وأساليب لا يصدقها العقل، هذا كله تنفيذ بحكمة حكيم من الذي تولى حفظه، الآن أي برنامج تجد فيه البحث، يمكن أن تبحث عن كلمة في القرآن الكريم، فتأتي كل الكلمات في كل الآيات، يمكن أن تقتني حجماً صغيراً جداً يسمعك كلام الله عز وجل بقراءة أشهر القراء، والنص على الشاشة، وحجمه حجم صغير جداً، فهناك وسائل للقرآن طباعية والكترونية وجدارية وبأحجام وبأشكال وبخطوط وبترجمات تفوق حد الخيال، لأن الله تولى حفظه، ولأن الله تولى تيسيره للناس.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[سورة القمر: 17]

والذي يدهشك أنك إذا سافرت إلى بلاد بعيدة شرقاً تستمع إلى القرآن الكريم من أفواه الطلاب بشكل لا يصدقه العقل، ولا يفهمون كلمة واحدة باللغة العربية:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[سورة القمر: 17]

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

بالحق أي بالثبات، القرآن الذي بين أيديكم بكل طبعاته، وكل أشكاله، هو الكتاب نفسه الذي نزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إن ترتيب الآيات ترتيب توقيفي، حتى إن ترتيب السور ترتيب توقيفي، مع أنه نزل منجماً فكان جبريل عليه السلام يقول: يا محمد ضع هذه الآية في المكان كذا، وهذه الآية في المكان كذا، ترتيب الآيات وترتيب السور ترتيب توقيفي.

لا يمكن أن تنجح حالة من حالات تزوير أو تبديل القرآن الكريم لأن الله تولى حفظه:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)

لكن لا يعني هذا الكلام أنه لا تجري محاولة للتغيير، لأن الحفظ لا يعني عدم وجود محاولة، ولكن الحفظ يعني عدم نجاح المحاولة، لذلك قبل خمسين عاماً تقريباً طبع خمسين ألف نسخة من المصحف بحذف كلمة واحدة، ومن يبتغي الإسلام ديناً فلن يقبل منه، بحذف كلمة غير، والنسخ جمعت وأحرقت، الكلام الدقيق أنه لا تنجح حالة من حالات التزوير أو التبديل، لأن الله تولى حفظه، هذه حكمة أرادها الله عز وجل أنه ما منع المحاولات، ولكن منع نجاحها، أما أن تضاف كلمة أو أن تحذف كلمة، وأن يكون الكتاب بين أيدينا، ولا ننتبه لذلك هيأ الله لهذا الكتاب علماء كبار وعندهم باع طويل، وعندهم جهد كبير، وعندهم صبر مديد، وعندهم طاقات كبيرة جداً من أجل حفظ هذا الكتاب:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ)

الكتاب الثاني جنس الكتاب، أل الجنس، أي كتاب نزل قبل القرآن هو كتاب، بمعنى أن الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه قبل القرآن اسمه الكتاب، أي جنس الكتاب، تقول: التمرُ، أي جنس التمر، الألف واللام هنا ليست عهدية ولكن جنسية:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ)

لأنه كتاب خاتم، ولأنه كتاب لكل الأمم والشعوب، ولأنه كتاب إلى نهاية الدوران، إذاً كل حاجات الشعوب، وحاجات الأقوام في هذا الكتاب، وأنت حينما ترى بعض الأخوة الذين آمنوا في بلاد الغرب، كيف يستمتعون بقراءة القرآن، وكيف يذوبون من خشية الله يتأكد لك هذا الذي أقوله لك الآن.

الحق لا يتعدد لكن الأهواء تتعدد:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ)

يا محمد:

(بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)

أي لا تجاملهم، الحق أحق أن يتبع، والأهواء تختلف، الحق لا يختلف، الحق لا يتعدد لكن الأهواء تتعدد، أي بشكل أو بآخر حقائق العلم لا اختلاف فيها أبداً في العالم كله، حقائق الفيزياء والكيمياء، مثلاً الذرة في كل بلاد الأرض، شرقاً وغرباً، الحقائق التي يعرفها العلماء في بلاد متخلفة كالحقائق التي يعرفها العلماء في بلاد متقدمة، وقوانين الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والطب والهندسة قوانين مضطردة وشاملة وموحدة في العالم كله، لكن لماذا تقوم الحروب؟ لأن الشعوب لها أهواء، حينما تتبع أهواءها تقتتل، أما حينما تتبع العلم لا تقتتل، لذلك الله عز وجل قال:

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)

مبدأ الطائرة، مبدأ السيارة، مبدأ نقل الصوت، مبدأ البث الإذاعي، أي مبدأ بأي مكان في العالم موحد ومطبق كما هو مطبق في أي بلد آخر، أما الخلافات في الأطروحات الفكرية، والعقائدية، والاجتماعية، والنفسية، والصراعات الطبقية، والصراعات بين الأمم والشعوب، والصراع على الثروات، والصراع على البترول، والصراع على الهيمنة، والصراع على السيطرة، هذه كلها أهواء.

المحبة أساس العلاقة بين الخالق والخلق:

لذلك:

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

لو أن الإنسان يعتقد أن الله قادر على هداية الخلق هذا اعتقاد صحيح، ولكن قد يسأل لمَ لم يهدهم؟ لأن الله ما أرادنا أن نأتي إليه قسراً، ما أرادنا أن نحمل على الطاعة قسراً، هذه الطاعة القسرية لا تسعد صحابها، أرادنا أن نأتيه طوعاً، أرادنا أن نأتيه محبين، أرادنا أن نأتيه مختارين، أرادنا أن نحبه، المحبة أساس العلاقة بين الخالق والخلق.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

[سورة آل عمران: 31]

يحبهم ويحبونه، إذاً:

(وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

مثلا: ألا يستطيع عميد كلية العلوم أن يوزع على الطلاب أوراق الامتحان، وقد طبع عليها الإجابة الكاملة؟ طبعاً، بالمطبعة، وأن يكلف الطالب أن يكتب اسمه ورقمه فقط ويخرج، والعلامات مئة بالمئة لجميع الطلاب دون استثناء، ممكن، ما قيمة هذا النجاح؟! لا قيمة له إطلاقاً لا عند إدارة الجامعة، ولا عند الطلاب، ولا عند أولياء الأمور، ولا عند الناس، نجاح ساقط لا قيمة له.

سعادتنا أن نأتي الله طائعين لا مكبلين:

لو أن الله أرادنا أن نهتدي قسراً لهدانا قسراً، ولو شئنا أن نلغي اختياركم، وأن نلغي تكليفكم، وأن نلغي حريتكم، وأن نلغي مبادرتكم:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

[سورة السجدة: 13]

لو أراد الله أن يجبرنا على شيء فما أجبرنا إلا على الهدى، ولكن جعلنا مختارين، جعلنا أصحاب إرادة، نؤمن أو لا نؤمن، نشكر أو لا نشكر، نصلي أو لا نصلي، نصدق أو لا نصدق:

(وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

ليمتحنكم.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

[سورة البقرة: 148]

لأن سعادتنا في اختيارنا، لأن سعادتنا في حريتنا، لأن سعادتنا أن نأتي الله طائعين لا مكبلين.

ابتلاء الله للإنسان هو امتحان له:

قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

ليمتحنكم، يعطي المال لفلان، فلان ينفقه على ملذاته، وعلى شهواته، ويحرمه للفقراء، وفلان يوظفه في أعمال الخير، المال واحد، يعطي الصحة لفلان فيستهلكها في المعاصي والآثام، ويعطي الصحة لفلان فيستهلكها في الطاعات والعبادات:

(لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

يعطي الإنسان أولاداً وذرية فيربيهم على طاعة الله، ويعطي إنساناً آخر أولاداً وذرية فيربيهم على التمثيل والرقص والغناء والموسيقى، أليس كذلك؟

(لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

يهبكم تمكيناً في الأرض فبعض الذين يمكنون في الأرض يقيمون العدل، ويتواضعون، وبعض الذين مكنوا في الأرض يتغطرسون، ويستعلمون، ويقتلون، ويبتزون أموال الناس بالباطل كما ترون فيما يجري في العالم من طغيان وقتل ونهب وسلب وإفقار وإضلال وإذلال.

كل جماعة تدّعي أنها على حق لكن الله وحده سيفصل بين عباده يوم القيامة:

قال تعالى:

(وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

أنتم مخيرون:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

بالنهاية نحن جميعاً نرجع إلى الله، وسوف يفصل الله بيننا، وسوف يحاسبنا على كل حركة، وسكنة، وكلمة، وغمز، ولمز، وعبوس، وابتسامة.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

كل يدعي وصلاً بليلى، كل جماعة تدعي أنها على حق، لكن الله وحده سيفصل بين عباده يوم القيامة، ليس هناك عصر كثرت فيه الأطروحات والضلالات والترهات والمشكلات كهذا العصر، لكن الحمد لله على وجود الله، الحمد لله أن الله سيفصل بين عباده يوم القيامة.

مشكلة المسلمين في العالم اليوم أن الإسلام كشكل وكتراث مقبول أما كمنهج فمرفوض:

قال تعالى:

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ* وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

قال:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 73]

هذه مشكلة المسلمين في العالم اليوم، يسمح لنا أن نقيم شعائر الإسلام، وأن تكون هناك مساجد، ومؤتمرات، ومؤلفات، ومكتبات، ولكن لا يريدوننا أن نقيم شرع الله في حياتنا، الإسلام كشكل، كفلكلور، كتراث مقبول، أما كمنهج فمرفوض، لذلك:

(وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

ما يجري الآن من فسق وفجور في العالم بكل قاراته شيء لا يصدق، لذلك:

((بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء))

[مسلم عن أبي هريرة]

ما لم تشعر بالغربة في هذا العصر الذي ملئ فساداً وانحرافاً وانحطاطاً وإباحيةً فلست مؤمناً، ما لم تشعر بالغربة فلست مؤمناً، إن كنت منسجماً مع ما يجري، ومع ما يعرض، ومع ما يمثل، ومع كل البرامج، ومشارك بكل برنامج ومستمتع بما يجري فاعلم أنك على خطر شديد، وأن صلاتك الجوفاء لا تقدم ولا تؤخر.

التغيير والتزوير الآن لا بالنص ولكن بالتأويل:

الآن يا أخوان هناك حالة اسمها الخلط، خلط الأوراق، أي كل شيء مباح، وأنت مسلم، كل شيء مباح وأنت مؤمن، وكل شيء مباح والصلاة لوحدها، والقرآن وحده افعل ما بدا لك، انغمس في لذاتك حتى قمة رأسك وأنت مؤمن ومسلم، وإيمانك بقلبك، من الداخل فقط، هذا الخلط الذي نعيشه اليوم:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

هنا يوجد سؤال لطيف: ألا يعتبر التحريف للقرآن ما يحاوله البعض في أيامنا هذه من تفسير القرآن بغير مواده؟ هم لا يستطيعون تحريف النص، ولكنهم يحرفون التأويل، أخي لمَ لم تصلِّ؟ أنا أيقنت بوجود الله، أن الله يقول:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر: 99]

انتهى أنا أيقنت، لمَ لم تصلِّ؟ قال:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

[سورة الحج: 41]

نحن لسنا ممكنين في الأرض، الآن التغيير والتزوير لا بالنص، ولكن بالتأويل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (26 - 49) : تفسير الآيات 50 - 53، وصف العالم الإسلامي في أدق تفاصيله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-03-26

بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة في طبيعتها تقوم على الإسناد :

أيها الأخوة المؤمنون:مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخمسين، وهي قوله تعالى:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الكلمة في اللغة تدل على معنىً، فإذا قلت: جبل، قفز إلى ذهنك معنى الجبل، أو قفزت إلى ذهنك صورة الجبل، فهناك اسم، وهناك مسمى، فالاسم يشير إلى المسمى، هذه حقيقة مسلم بها في اللغة، لكن الكلمة وحدها لا تفيد معنىً تاماً، لو أنك قلت: جبل، ما شأنه؟ أي جبل، ماذا حصل؟ فالكلمة من دون أن يأتي بعدها خبر لا تدل على معنىً مفيد، دقق في حديثك اليومي، أحياناً تقول لواحد: أرأيتني مع الرجل البارحة؟ وكان طويل القامة، أشقر اللون، يرتدي ثياباً داكنة، يقول لك: ما شأنه؟ لقد مات، مثلاً، فالكلمة من دون خبر لا تؤدي معنى تاماً، حينما تنطق بكلمة واحدة قد تشير إلى معنى، أو إلى ذات، ولكن ليس هناك معنى مفيد تام إلا إذا أسندت الكلمة إلى خبر، فاللغة كلها هي إسناد، لأن البهيمة حينما تغيب الشمس تعود إلى حظيرتها، فإدراك الأشياء لا يحتاج إلى لغة، أما اللغة فوظيفتها الحكم، أو الإسناد، أو الإضافة، أو النسبة، كلها كلمات أسماء لمسمى واحد، تقول: خالد، ما شأنه؟ مجتهد، نسبت الاجتهاد إلى خالد، تقول: خالد حضر، نسبت الحضور إليه، فلا بد من مسند ومسند إليه، لا بد من علاقة، اللغة تقوم على علاقة، أما أن تكون اللغة مفردات ليس غير لا يحتاج الناس إليها، لأنهم يدركون الحقائق والأشياء بديهة من دون لغة، لذلك الحكم أن تحكم على شيء بشيء، أن تحكم على فلان بأنه بخيل، فلان قابض اليد، أن تحكم على فلان بأنه شجاع، لك أن تقول، أن تحكم عليه، أو أن تنسب إليه، أو أن تصفه، أو أن تخبر عنه، هذه كلمات تؤدي معنىً واحداً. فاللغة في طبيعتها تقوم على الإسناد، تقوم على النسبة، لاحظ كلامك، تقول: الجو حار، الأمطار في هذا العام غزيرة، الأسعار مرتفعة، فرضاً، الناس متفلتون، ليس من لغة ولا من تعبير إلا أساسه مسند ومسند إليه، مبتدأ وخبر، فعل وفاعل.

مطابقة الواقع دليل العلم وقناعتك دليل الإيمان أو النفاق :

أيها الأخوة، هذه العلاقة بين المبتدأ والخبر، بين الاسم والصفة، بين الفعل والفاعل، هذه العلاقة بين المسند والمسند إليه هذه علاقة إن كانت قطعية، أي العلاقة مئة بالمئة، هذه علاقة نسميها علاقة مقطوع بصحتها، وإذا غلب الإثبات على النفي نقول: هذه علاقة ظنية، وإذا تساوى الإثبات مع النفي نقول: علاقة شك، وإذا قوي النفي، وضعف الإثبات فالعلاقة بين المبتدأ والخبر علاقة وهم، وبين الفعل والفاعل، وبين المسند والمسند إليه، إما علاقة قطع، أو علاقة ظن، أو علاقة شك، أو علاقة وهم.

الآن ما هو العلم؟ علاقة أو مسند أو مسند إليه، أو مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل، أو علاقة مقطوع بصحتها، نعتقده ومعنا عليها دليل، هذا هو العلم، علاقة مقطوع بصحتها، نعتقدها، ويؤيدها الواقع، وعليها دليل، فإن لم نأتِ بالدليل فهذا هو التقليد، الفرق بين العلم والتقليد أن التقليد قد يقلد الإنسان حقيقة يعتقدها، ويؤمن بها، وهي صحيحة ومقطوع بها، لكنه لا يملك الدليل عليها، فلو قال طفل: لا إله إلا الله، هو ينطق بها، ويعتقدها، وهي صحيحة، ومقطوع بها، لكن الطفل لا يملك التأكيد، ولا التدليل، ولا أدلة، ولا براهين عليها.

الآن إذا اعتقدت شيئاً، ولم يطابق الواقع فهو الجهل، نحن نظن خطأ أن الجاهل لا يعلم، الجاهل ممتلئ علاقات، لكنها غير صحيحة، أما الأمي فهو الذي لا يعلم، وعاء الأمية فارغ، بينما وعاء الجاهل ممتلئ، ولكن بمقولات غير صحيحة، وهذه أكبر مشكلة في الحياة، هذا هو نصف العالم، لا هو جاهل فيتعلم، ولا هو عالم فينتفع بعلمه، لكنه نصف عالم، حفظ شيئاً فغابت عنه أشياء.

إذاً: حينما أقول كلاماً أعتقد به، وهو لا يطابق الواقع فهو جهل، حينما أقول كلاماً مطابقاً للواقع لكنني لا أعتقد به، هذا هو النفاق، مطابقة الواقع دليل العلم، وقناعتك دليل الإيمان أو النفاق، إن قنعت فأنت مؤمن، إن لم تكن قانعاً فأنت منافق، إن ملكت الدليل فأنت عالم، وإن لم تملك الدليل فأنت مقلد، وإن كانت العلاقة مقطوعاً بها فهو العلم، وإلا فهي ظن، أو شك، أو وهم، وكلمة الجاهلية منسوبة إلى الجهل أم إلى الجاهل؟ لو أنها نسبت إلى الجهل لقلنا جهلية، أما هي منسوبة إلى الجاهل، وما من مصيبة تلم بالإنسان كأن يكون جاهلاً، لأن أزمة أهل النار هي الجهل:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك: 10]

الجاهل عدو نفسه :

الجاهل عدو نفسه، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، وأعدى أعداء الإنسان الجهل، مراتٍ ومرات سقت هذا المثل: أن إنساناً يعمل في تنظيف الطائرات رأى غرفة العجلات كبيرة جداً، فلجهله ولعدم علمه بحقيقة الطيران، وبأجزاء الطائرة، قال: أنا أقبع في هذا المكان، وأنتقل من بلد إلى بلد بلا ثمن، وبلا وثائق، وبلا جواز سفر، وبلا تأشيرة، جلس في هذا المكان، وبعد أن حلق الطيار بدقائق معدودة حرك هذا المكان فسقط الإنسان ميتاً، ما الذي قتله؟ جهله، هو ما أراد أن يموت، أراد أن يصل إلى بلد بعيد بلا ثمن، وبلا وسائل، وبلا موافقات وظن أنه أذكى من كل الناس، ولكن الذي قتله جهله.

فالجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، لذلك الإنسان من شدة حبه لذاته ينبغي أن يتعلم، لأن كل إنسان مجبول على حب وجوده، وعلى حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده:

(فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)

[سورة يونس: 108]

إذا قلت لكم: لا تحبوا أحداً أحبوا ذاتكم، إن أحببتم ذاتكم فينبغي أن تطلبوا العلم، وأن تعملوا به، والله عز وجل يبين أن الإنسان خاسر ما لم يؤمن ويعمل صالحاً، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

أي ما لم تطلب العلم، وما لم تعمل بما علمت، وما لم تدع إلى ما علمت، وما لم تصبر على طلب العلم، وتطبيقه، وتعليمه فأنت خاسر لا محالة، لأن مضي الزمن يستهلكك.

ليس الجاهل الذي لا يعلم ولكن الجاهل هو الذي يمتلئ بمقولات غير صحيحة :

أنت بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بعض منك، كبعض التأكيدات لما قلت: حينما أعلن أحدهم إسلامه قال: وأشهد أن محمداً (رسولَ) الله، قال له رجل أعرابي: ومال له؟ أشهد أن محمداً، حينما قال: رسولَ الله – بالنصب - صفة، فأين الخبر؟ قال له: وما له؟ أما إذا قال: أشهد أن محمداً رسولُ الله، فهذا هو الخبر، المعنى ناقص ما لم يكن مخبراً عنه.

من طرائف اللغة أن فيها مفرداً وجملة، قد أقول عشرين كلمة، وهي في التصنيف مفرد، وقد أقول حرفاً واحداً، وهو في التصنيف جملة.

مثل طريف: لو أنني قلت: رئيس مجلس إدارة مؤسسة، إعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي في القطر العربي السوري، ما له؟ هذا مفرد، أما حينما أقول: ق، حرف من وقى، يقي، ق، والفاعل ضمير مستتر، فهذه جملة، الحرف جملة، والعشرون كلمة مفرد، المفرد لا يعطي معنى تاماً، الآن بينك وبين أقربائك، قل: فلان، واسكت، يقول لك: ما له؟ حضر، سافر، اعتمر، أدى الحج، اللغة مبنية على الخبر، على الإسناد، على الحكم.

الآن: الدين حق، هذا حكم، الدين أفيون الشعوب، أيضاً حكم، لكن الحكم الأول حق، والثاني باطل، محمد رسول الله، حكم، محمد عبقري فقط، هذا جهل، ليس عبقرياً، هو عبقري، لكن مهمته ليس عبقرياً، مهمته أنه نبي يوحى إليه. فمن هو الجاهل؟ هو الممتلئ حتى قمة رأسه بأحكام غير صحيحة، كل تفكيره غير صحيح، اجلس مع أهل الدنيا، مع الشاردين، مع كل أحكامه غير صحيحة، فالجاهل ليس الذي لا يعلم، ولكن الجاهل هو الذي يمتلئ بمقولات غير صحيحة.

حكم الإسلام هو حكم المساواة :

الله عز وجل يقول:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)

المال ينمو بالربا، المرأة مباحة لكل الرجال، هكذا كانوا في الجاهلية، كان يقول الرجل لزوجته: اذهبي فابتضعي من فلان، فوضى جنسية، وفوضى في العلاقات، العقل لا يصدقها:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)

القوي يأكل الضعيف، الغني يلتهم الفقير، الشهوات تعبد من دون الله، الضعيف يسحق، البنت وئدتْ في التراب:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير: 8-9]

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)

قال بعض الصحابة: الحمد لله الذي أخرجنا من جور الحكام إلى عدل الإسلام، الأباطرة والقياصرة كانوا طغاة جبارين في الأرض، فصار المسلم يشعر بحريته وبكرامته.

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه رأى صفوان بن أمية يعذب بلالاً فاشتراه منه، قال أمية: والله لو دفعت به درهماً لبعتكه، قال له أبو بكر: والله لو طلبت به مئة ألف لدفعتها لك، أعطيتك إياه، هذا أخي حقاً،

وكان أصحاب رسول الله إذا ذكروا الصديق يقولون: هو سيدنا، وأعتق سيدنا، يقصدون بلالاً، هذا حكم الإسلام، حكم المساواة، الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

الإسلام مبادئ وقواعد وقيم :

قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

و:

((سلمان منا آل البيت))

[الطبراني في الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

و:

((نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه))

[كنز العمال عن عمر]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد: 1]

((سلمان منا آل البيت))

[الطبراني في الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

الإسلام مبادئ، والإسلام قواعد، والإسلام قيم:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)

وحينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

[سورة الأحزاب: 33]

هذه إشارة إلى أن هناك جاهلية ثانية، كما ترون أن العالم يئنّ بالظلم الآن، يئن بالقتل، يئن بالقمع، يئن بالسحق، القوي يأكل الضعيف، شعار القوي: أنت قوي فأنت على حق، الحق يعني القوة فقط.

كل بطولة الإنسان أن يهديه علم اليقين إلى حق اليقين :

أيها الأخوة:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

هذا اسمه استفهام تقريري، يغلب على هذا الدرس الطابع اللغوي والبلاغي، استفهام تقريري، الآن أسألك: كم الساعة الآن؟ أنا لا أعلم كم الساعة، أسألك لأتعرف إلى الساعة، هذا استفهام حقيقة، لكن إنساناً أحسن إلى إنسان إحساناً لا حدود له، وهذا الإنسان جحد إحسان المحسن، إذا قال المحسن لفلان: ألم أحسن إليك؟ هذا استفهام تقريري، أي أنا أحسنت إليك، ألم أنقذك من كذا وكذا؟ ألم أعطك كذا وكذا؟ الاستفهام التقريري حقيقة يقر بها الطرف الآخر، لكن سيقولها مضطراً، وهي أبلغ مما لو أخبرتك بها، لو فرضنا إنساناً اتهم إنساناً آخر أحسن إليه بالجحود قال له: من أخرجك من السجن؟ هو يعلم علم اليقين أن المحسن هو الذي أخرجه من السجن، يقول: أنت، فإذا نطق المنكر بالحقيقة فهذا أبلغ من أن ينطق بها الطرف الأول:

(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

أخواننا الكرام، اليقين درجات، هناك علم اليقين، وهناك عين اليقين، وهناك حق اليقين، لعل علم اليقين هو يقين العقل، أنت إذا نظرت إلى جدار، ورأيت خلفه دخاناً، بحسب قوانين الأرض تقول: لا دخان بلا نار، أنت موقن عقلاً أن وراء الجدار ناراً، لكنك لم ترَ النار بل رأيت دخانها، لا دخان بلا نار، هذا يقين عقلي، أما إذا ذهبت إلى وراء الجدار، ورأيت النار رأي العين فهذا عين اليقين، أما إذا اقتربت منها، وشعرت بوهج النار فهذا حق اليقين، فمن اليقين، إلى عين اليقين، إلى حق اليقين، فالإنسان إذا أخبره الله وهو أصدق القائلين أن هناك ناراً بعد الموت، هذا علم اليقين، فإذا سار على الصراط، ورأى النار بعينه، لكنه نجا منها فهذا اليقين، فإذا ألقي فيها، وأحرقت جلده فهذا حق اليقين، كل بطولة الإنسان أن يهديه علم اليقين إلى حق اليقين، علم اليقين متوافر في الدنيا، لكن الناس بعد أن يغادروا الدنيا يعاينون الحقيقة:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

الإنسان خياره مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض :

فرعون حينما أغرقه الله بلغ حق اليقين قال:

(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس: 90]

الإنسان خياره مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، وقت فقط، فإما أن نؤمن في الوقت المناسب، ونحن أقوياء، أصحاء، أشداء، أغنياء، وإما أن نؤمن بعد فوات الأوان، وحينئذ:

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

[سورة الأنعام: 158]

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

المؤمن مع اليقينيات لا مع الظنون، معه الحجة البالغة، الأمور واضحة.

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

[سورة هود: 28]

باليقين:

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

[سورة هود: 28]

اليقين أكبر نعمة خصها الله بالمؤمن :

انظر:

(عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

[سورة هود: 28]

المؤمن معه اليقين، معه الحجة، الأمور واضحة، رؤيته صحيحة، بصره ثاقب، نظره عميق، هذه أكبر نعمة خصها الله بالمؤمن، ليس هناك ضلال، وليس هناك شك، وليس هناك حيرة. وليس:

جئت من أين؟ ولكنني أتـــيت فرأيت قدامي طريقاً فمشيت

أين كنت؟ أين صرت؟ لست أدري! ولماذا لست أدري لست أدري

* * *

هذا حال أهل الدنيا، ليس عندهم يقينيات، قاعدتهم: لا نعرف.

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكمـــا

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسارة عليكما

* * *

هناك آخرة، وهذه نعمة، وإذا ليس هناك الله فمشكلة.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*تَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[سورة التكاثر: 5-6]

المؤمن باليقين، وكأنه يرى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل:1]

معنى ذلك أنه لم يأتِ، أما،

(أتَى)

فيقيناً، إذا أخبرك الله بشيء فينبغي أن تقول: رأيته، أحد الصحابة قال: وكأنني بأهل الجنة يتنعمون، وبأهل النار يتصايحون، قال له النبي الكريم: عرفت فالزم، كأني بأهل النار يتصايحون، وبأهل الجنة يتنعمون، فأنت حينما تجد إنساناً قتل إنساناً، وألقي القبض عليه، هو مجرم، ألا ترى مصيره، وهو الشنق مثلاً، تقول: رأيته يشنق، لم يشنق بعد، هذا حكم النتائج اليقينية، فالإنسان حينما يسير في طريق غير صحيح تكون النتائج واضحة جداً.

حينما اتخذ المسلمون اليهود والنصارى أولياء ضاع منهم كل شيء :

أيها الأخوة: يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

طبعاً هذه الآية نعيشها، ولا تحتاج إلى شرح، لأن المسلمين حينما اتخذوا اليهود والنصارى أولياء ضاع منهم كل شيء، لكن الذي يلفت النظر:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

قد يكون بين هؤلاء وهؤلاء عداوات لا يعلمها إلا الله ولكنهم أمام قضية المسلمين صف واحد، شرقاً وغرباً:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

هم أمام الحق يتعاونون، أمام الحق يتحدون، أمام الحق يتوافقون:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

الولاء والبراء :

هذا الموضوع يقودنا إلى الولاء والبراء، الولاء أن توالي المؤمنين، أن تحبهم، أن تنصرهم، أن تنصحهم، أن تحمل همومهم، أن تخفف عنهم، أن تنتمي إليهم، ألا تستحي بهم، اللهم اهد قومهم إنهم لا يعلمون، هذا هو الولاء. والبراء أن تتبرأ من الطرف الآخر، ولو كانوا أقوياء، ولو كانوا أغنياء، ولو كانوا مصدر رزقك، لذلك المؤمن يوالي المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً وفقراء، ويتبرؤون من الطرف الآخر، ولو كانوا أغنياء وأقوياء، لأنهم حيال أهل الأيمان بعضهم أولياء بعض، لأنهم يتعاونون، ويتناصرون، ويدلي بعضهم لبعض النصيحة في طريقة السيطرة على المسلمين:

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

دائماً ينبغي أن تعلم من أنت؟ ما هويتك؟ إلامَ تنتمي؟ ما الذي يقلقك؟ ما الذي يسعدك؟ ما الذي يحفزك إلى أي عمل؟ انتماؤك إلى هذه الأمة أم انتماؤك إلى الأقوياء والأغنياء؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أنت حينما تتولاهم فقد ظلمت نفسك، وظلمت المسلمين، وكنت عبئاً عليهم، ولم تكن في خدمتهم.

في القرآن دقة ما بعدها دقة :

أيها الأخوة، أقول مئات المرات: إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين، أو إضلالهم، أو إفسادهم، أو إذلالهم، فأنت في خير، يجب أن تنتمي إلى هؤلاء المؤمنين، ولو لم يكونوا أقوياء كما تتمنى، ولو لم يكونوا متفوقين في الدنيا كما تتمنى، لكنهم قومك، بدل أن تنسحب منهم، بدل أن تنتمي إلى أعدائهم، خذ بيدهم، وقل: يا رب أعني على تخفيف الظلم عنهم.

(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

في القرآن دقة ما بعدها دقة، قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

[سورة آل عمران:133]

المسارعة إلى الشيء غير المسارعة في الشيء:

(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ)

هم معهم في الأصل، هم على شاكلتهم، هم على أهوائهم، هم على مصالحهم، هم فيهم، هم معهم، لكن عندما يدنو الخطر يلتصقون بهم، يزدادون قرباً منهم، هم في الأصل معهم، هم فيهم في بوتقة واحدة، لكنهم حينما يلوح خطر يزدادون التصاقاً بهم.

الآيات التالية تعلل وتبرر الخضوع والاستسلام للطرف الآخر :

قال تعالى:

(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ)

وقد تجد معاني هذه الآيات محققة على أرض الواقع، وتراها رأي العين؟

(يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ)

هم معهم في الأصل، هم على شاكلتهم، هم على أهوائهم، هذا الخضوع والاستسلام للطرف الآخر تعليله وتبريره:

(يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

[سورة آل عمران: 173]

أيها الأخوة، ذكرت اليوم في الخطبة أن كل هذه المحن التي لا حصر لها، والتي تصيب المسلمين في شتى بقاع الأرض، وكأن حرباً عالمية ثالثة معلنة على هذا الدين، إنها رسالة من الله، من أجل أن نغيّر، لأن الله يحبنا، يحب لنا جنة عرضها السماوات والأرض، يحب أن نصطلح معه، يحب أن يتوب علينا، يريد أن نغادر الدنيا ونحن أنقياء، لذلك نحن في العناية المشددة، نحن في العناية الإلهية المشددة، هذا الضغط الذي لا يحتمل على المسلمين من أجل أن نغيّر، لأن الله لا يغيّر حتى نغيّر:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد 11]

آيات ثلاثة في سورة المائدة تصف العالم الإسلامي في أدق تفاصيل حياته :

آيات ثلاث في سورة المائدة تصف العالم الإسلامي في أدق تفاصيل حياتهم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ*فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم)

هم كانوا معهم، هم معهم ولا يزالون، ولكنهم يزدادون التصاقاً فيهم حينما يلوح خطر أمامهم:

(يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ)

الخضوع والاستسلام يبرر:

(نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ)

مع أن الأمر بيد الله وحده، وهذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد:

(فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ*وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)

العبرة في العاقبة والله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن عباده المؤمنين :

قال تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

العبرة في العاقبة، والله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن عباده المؤمنين، لكننا في محنة شديدة.

(إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً)

[سورة الأحزاب: 10-12]

وهناك أناس لا يعدُّون ولا يحصون يقولون: أين الله؟ ألسنا مسلمين؟ أين وعود الله عز وجل؟ لكن الله عز يقول:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

هذا هو الثبات على الحق، والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

النصر المبدئي أن تموت مؤمناً كما مات أصحاب الأخدود :

قال تعالى:

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)

العبرة أيها الأخوة، أن تنتهي الحياة وأنت على حق، وهذا الذي تنتهي حياته بعدوان، وهو على الحق هو المنتصر، ولو فيما يبدو قتل، النصر المبدئي أن تموت مؤمناً، كما مات أصحاب الأخدود، وكما ماشطة بنت فرعون، الأمور أيها الأخوة واضحة وضوح الشمس، كان قبل عشرات السنوات هناك أبيض وأسود، وألف لون رمادي بينهما، الآن لم يبقَ إلا الأبيض والأسود، إباحي أو عفيف، صادق أو كاذب، مؤمن أو كافر، رحماني أو شيطاني، يعمل للدنيا أو يعمل للآخرة، الأمور واضحة كالشمس، والله عز وجل يقول:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35- 36]

(أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

لا يستوي الذين آمنوا والذين لا يؤمنون :

الأمور واضحة كالشمس، والله عز وجل يقول:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35- 36]

(أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

هذه الآيات أيها الأخوة تدعونا إلى أن نؤمن بكل خلية في أجسامنا، وبكل قطرة في دمائنا أنه كلام الله، لأن الله يصف ما يجري في دقة بالغة.

لا تستطيع جهة في الأرض مهما قويت أن تحول بين الله وهدايةِ خَلقه :

الآن حينما يضعف إيمان الإنسان يقول: أخاف، أخشى أن تلحقني دائرة، هو يخضع، ويغيّر المناهج، ويلغي دروس العلم خوفاً من أن تصيبهم دائرة، لكنه نسي أن الأمر بيد الله، وأن الأمر كله بيد الله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن، وأنه:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

وما أمرنا أن نعبده إلا بعد أن طمأننا:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

وأنه لا إله إلا الله، لا رافع، ولا خافض، ولا معز إلا الله، وأن جهة في الأرض مهما قويت لا تستطيع أن تحول بين الله وهدايةِ خَلقه، إنهم يتوعدون ويهددون ليمتحن الله إيمان المؤمنين.

(فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة التوبة: 13]

دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان :

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع الآيات التي تبدأ بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

ضعاف الإيمان عند الشدائد يضعف إيمانهم، وقد يفقدون إيمانهم، ويتبعون القوي خوفاً منه، لكن المؤمنين لا يرتدون عن دينهم، لأنهم يحبون الله والله يحبهم، الذي يحب الله لا يرتد عن دينه، والله عز وجل له امتحانان صعبان جداً، الامتحان الأول يقوي الكافر ويقوّيه حتى يفعل ما يقول، ويفعل ما يريد، إلى أن يقول ضعيف الإيمان: أين الله؟ نحن جاء دورنا في هذا الامتحان، ثم يقوي المؤمن، ويقويه حتى يقول الكافر: لا إله إلا الله، فاصبروا أيها الأخوة، ودورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان، فإذا عاش إنسانٌ عشر سنوات هل يستطيع أن يدرك رمضان في الصيف مرتين؟ لا مرة واحدة، رمضان يأتي في الصيف كل ست وثلاثين سنة مرة، فإذا عاش إنسانٌ عشر سنوات فعمره القليل لا يتيح له أن يدرك رمضان في الصيف مرتين، هذا مثل تقريبي، ودورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان، لذلك قال تعالى:

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

[سورة يونس: 46]

ربما لا يتاح للنبي عليه الصلاة والسلام أن يكحل عينيه برؤية انتصار المؤمنين، ولكن هذا الدين دين الله، ولا تقلق عليه، ولكن اقلق على نفسك، ما إذا سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون من جنوده، والمؤمن يعمل ويتوكل، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ويقول: حسبي الله ونعم الوكيل، ويسعى جهده للتخفيف عن المسلمين، وحمل همهم، وإجلاء النصح إليهم، والعمل على إسعادهم، والله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (27 - 49) : تفسير الآية 54، التعظيم للمنهج الإلهي فقط.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-04-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى يخاطب المؤمنين بفروع الدين ويخاطب عامة الناس بأصول الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الرابعة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

يعلمنا القرآن أيها الأخوة أنه إذا قال: يا أيها الذين آمنوا إنما يخاطب المؤمنين بفروع الدين، أو أنه يبشرهم، أو أنه يحذرهم، أو أنه يلفت نظرهم إلى شيء، لكنه إذا خاطب عامة الناس فيخاطبهم بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

ولكن هناك خطاب للمؤمنين يعقبه دعوة إلى الإيمان، مثل هذه الآية تُشكل على بعض المفسرين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا أيها القائم قم، هو قائم، يا أيها الجالس اجلس، هناك إشكال في الآية، لذلك السادة المفسرون فهموا هذه الآية بمعنى: أنْ أيها المؤمن حافظ على إيمانك، أن أيها المؤمن جدد إيمانك، لأن الإيمان ليخرق كما يخرق الثوب، فالإنسان كلما قفز قفزة نوعية، ثم ضعفت همته، وضعف إقباله فعليه أن يجدد إيمانه بمزيد من العلم، بمزيد من الطاعة، بمزيد من العمل الصالح.

المؤمن بحاجة إلى أن يجدد إيمانه أو أن يحافظ على إيمانه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وحينما تخاطب إنساناً، وتأمره بشيء، وهذا الشيء متمثل فيه معنى ذلك: أنْ حافظ على ما أنت فيه، كقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 1]

النبي يتقي الله، إذاً حافظ على تقواك، وحافظ على مقامك، وعلى مكانتك، لذلك هناك محذور كبير أن يكون الإيمان ضعيفاً، أن تغلب الإنسان الشبهات، أو أن تغلبه الشهوات، فإذا غلبته الشبهات، طرحت ضلالات، طرحت تفسيرات، طرحت انتقادات للدين، فقد يضعف إيمانه أمام هذه الشبهات، أو يضعف إيمانه أمام هذه الشهوات، قد يعيش في عصر الفتن.

لذلك الإنسان بحاجة إلى أن يجدد إيمانه، أو أن يحافظ على إيمانه، في الحد الأدنى يحافظ على إيمانه بدوام ذكر الله عز وجل، يحافظ على إيمانه بطلب العلم، وبالاستزادة من العلم، يحافظ على إيمانه بصحبة الصالحين، يحافظ على إيمانه بأن يكون مع الصادقين، هذا معنى قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

المعركة بين الحق والباطل معركة أبدية سرمدية :

الآية هنا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ)

الحقيقة هناك ملمح دقيق جداً من هذه الآية، ذلك أن الإنسان حينما يمرض ويشفى من مرضه يتكون في الجسم مناعة ضد هذا المرض، أو حينما نريد أن نحصن إنساناً من مرض معين نعطيه لقاحاً من الجراثيم التي تسبب هذا المرض، ولكنها ضعيفة، إذا أعطي هذا اللقاح يعمل جهاز المناعة على تصنيع مصل مضاد محفوظ في الذاكرة، يغدو هذا الإنسان الذي لقح ضد هذا المرض محصناً من هذا المرض، لأنه جاءه بشكل مخفف، وهيأ سلاحاً فتاكاً له، وحفظه في الذاكرة، وأصبح ذا مناعة ضد هذا المرض، هذا الذي نفعله مع الإنسان تحصيناً من الأمراض فعله الله عز وجل مع المؤمنين تحصيناً لهم من الارتداد، فأخبرهم أن هناك من يرتد عن دين الله، لا تعجب، والذي يرتد عن دين الله ينبغي ألا يتوهم أنه يستطيع أن ينال من هذا الدين، هذا الدين دين الله، والله عز وجل يتولى حفظه بذاته، ولا تقلق على هذا الدين، ولكن اقلق ما إن سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون أحد جنوده. لذلك يطمئن الله المؤمنين، ويعطيهم لقاحاً ضد الارتداد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

لي تجربة متواضعة في تدريس الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، فقد قدمت لطلابي بحثاً من موقع معلوماتي يهاجم القرآن من خلال الإعجاز، يأتي بقضية عدها العلماء إعجازاً، وينقض هذا الموضوع العلمي تمهيداً لنقض القرآن، حتى أعطي الطلاب مناعة ضد هذه المواقع الفتاكة التي تهاجم القرآن، هذا نموذج، وهذا هو الرد، فالطالب لا يفاجَأ إذا رأى في موقع معلوماتي ما ينقض القرآن، ينبغي أن يهيئ نفسه أن هناك معركة بين الحق والباطل أبدية سرمدية، هذه معركة الحق والباطل قدرنا، والعبرة لا فيمَ يصيبك؟ بل كيف تقف ممَ يصيبك؟

الذي تحاسب عليه لا الذي ينالك من قضاء الله وقدره بل موقفك من قضاء الله وقدره:

في حقيقة دقيقة جداً، العبرة لا أن تكون فقيراً أو غنياً، البطولة أن تقف من الغنى موقف الشاكر، وأن تقف من الفقر موقف الصابر، أن تقف من الصحة موقف الشاكر، ومن المرض موقف الصابر، الذي تحاسب عليه لا الذي ينالك من قضاء الله وقدره، بل تحاسب على موقفك من قضاء الله وقدره. لذلك فيما تروي الروايات أن جبريل عليه السلام خيّر النبي صلى الله عليه وسلم قال: أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ فقال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره.

ذكرت لبعض الأخوة الكرام شرحاً لهذا الحديث، أننا لو أخذنا مئة قوي لا ينجو من هؤلاء إلا قلة قليلة، لأن القوة مزلة قدم، لو أخذنا مئة ضعيف ينجو منهم ثمانون بالمئة، لو أخذنا مئة غني لا ينجو منهم إلا قلة قليلة، لأن الغنى والكبر والسيطرة واتباع الشهوات مظنة الزلل، ولو أخذنا مئة فقير ينجو منهم ثمانون، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان قدوة لنا، علمنا كيف أنه في بعض الصفات السلبية تكون أقرب إلى العبودية، وأسلم لدينك، وأنجى لك من صفات إيجابية قد تكون حجاباً بينك وبين الله.

والله أيها الأخوة، حقيقة عاينتها معانية دقيقة، أن الرخاء الكبير في بعض البلاد كل الأمور ميسرة، دخل كبير، طبيعة جميلة، حقوق الإنسان مقدسة هناك، ترى في هذه البلاد بعد عن الله لا يصدق، ترى في هذه البلاد تصحراً دينياً، جفافاً في قلوبهم، غفلة لا تحتمل عن ربهم، وتجد في بعض البلاد الأخرى التي فيها مشكلات وأزمات، وضغوط شديدة أحياناً، وتهديد من العدو، تجد أن الناس أقرب إلى الله من هؤلاء بكثير، هم مع الله، لأن هذه الشدة دفعتهم إلى الله، وألجأتهم إلى باب الله.

لذلك مرةً رأيت في متحف في اسطنبول جوهرة من الماس (البرلنت)، سألت عن قيمتها، فقالوا: مئة وخمسون مليون دولار، هي أكبر جوهرة في العالم، موضوعة في متحف، وكأنها شمس تشع، سألت هذا الماس: ما أصله؟ قالوا: من الفحم، قلت: لو جئنا بفحمة بحجم هذه الجوهرة كم ثمنها؟ أقلّ من قرش، بين القرش وبين المئة والخمسين مليون دولار مسافة كبيرة جداً، حسناً كيف تحول الفحم إلى

ماسٍ؟ من شدة الضغط والحرارة، فالإنسان إذا ضغط عليه كثيراً، وكان على إيمان، وعلى علم، وكان على معرفة يغدو جوهرة.

محمد جوهرة وليس كالبشر فهو جوهرة والناس حجر

* * *

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن لا يمكن تصوره :

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن لا يمكن تصوره، كيف إذا كنت جائعاً جوعاً شديداً وجلست إلى مائدة عليها لحم مشوي، وهو طازج من أفضل أنواع اللحم، كيف تقبل على هذا اللحم؟ إقبالاً رائعاً، لو أنك مررت بحيوان ميت قبل بضعة أيام، وتفسخ اللحم وفاحت منه رائحة لا تحتمل، كلا الحالين لحم، لحم جذبك، ولحم أخرجك من جلدك وكلاهما لحم، وقد تجد إنساناً مؤمناً تنجذب إليه، تنجذب إلى علمه، إلى خلقه، إلى تواضعه، إلى سكينته، إلى عفته، إلى أمانته، إلى صدقه، إلى مصداقيته، إلى وضوحه، إلى براءته، إلى صفائه، وقد تجد إنساناً كيفما عاملته آذاك، وكيفما سألته غشك، وحينما تستعين به يخيب ظنك، هذه المشكلة أيها الأخوة. لذلك الله عز وجل يعطينا لقاحاً، أنه تجد من يرتد عن هذا الدين، وقد تجد من يهاجم هذا الدين، وقد تجد في بعض المواقع المعلوماتية من يهاجم القرآن الكريم، وهناك كتب لا تعد ولا تحصى كل يوم تظهر تطعن في هذا الدين، وفي مصداقية هذا الدين، وفي أحقية القرآن الكريم، والحقيقة أن الله عز وجل يقول:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ*وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

[سورة الأنعام: 112-113]

أشقى إنسان على وجه الأرض هو الذي يقف في خندق مناهض للدين :

هذا الذي يرتد عن دين الله لا يتوهم أنه يستطيع أن يقوض دعائم الدين، الدين دين الله، وإن الذين يريدون إطفاء نور الله كمن يريد إطفاء الشمس بنفخة من فمه، هذا يحتاج إلى مستشفى المجانين.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[سورة الصف: 8]

لذلك أشقى إنسان على وجه الأرض الذي يقف في خندق مناهض للدين، الله عز وجل يقول:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم:4]

يا رب! امرأتان أخطأتا:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

امرأتان انتقدتا نظاماً معيناً، أيعقل أن يستنفر الجيش كله، والطيران كله، والجيش البري كله، والبحري كله، وأجهزة الأمن كلها، معقول؟! قال العلماء: هذا الذي يقف في خندق مناهض للدين يجب أن يعلم من هو الطرف الآخر؟ إنه خالق الأرض والسماوات.

لذلك أيها الأخوة، نحن كوننا مسلمين معنا منهج السماء لكن لا نعرف قيمته، معنا خطاب السماء إلى الأرض، معنا في منهجنا خلاص العالم، ولكننا مقصرون في فهمه، وفي تطبيقه، وفي حسن عرضه على الآخرين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ)

بعض من إعجاز القرآن الإخباري :

يمكن أن يرتد الإنسان عن دينه، ومسيلمة الكذاب ارتد عن الدين، وكتب إلى محمد صلى الله عليه وسلم: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، ما استطاع أن ينفي عن النبي الرسالة، أما بعد: فإن الأرض نصفان، نصفها لي، ونصفها لك. فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى:

(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

لو يتاح لكم أن تقرؤوا ما جاء به مسيلمة الكذاب، ومن ارتد عن دين الله، من قلّد القرآن، لا تستطيعون أن تملكوا أنفسكم من الضحك، لأن كل ذرة في جسمك، وكل خلية في جسمك، وكل قطرة في دمك تشعر أن هذا القرآن كلام الله، أما إذا قرأت كلاماً مزوراً منحولاً تشعر بكل ذرة في جسمك، وكل خلية، وكل قطرةٍ أنه كلام إنسان لا وزن له عند الله إطلاقاً. فحينما يرتد الإنسان عن دينه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ضد هذا الدين، إنما يسيء إلى نفسه فقط، كأن هذه الآية تنبئ المؤمنين، ولاسيما في عهد رسول الله الأمين، وبعده في عهد الصحابة أجمعين، أن هناك ارتداداً جرى في عهد رسول الله e، والآية تثبت للصحابة الكرام الذين تولوا الأمر من بعد رسول الله أنه هناك ارتداداً سيكون، وهذا من إعجاز القرآن الإخباري، مثلاً، حينما قال الله عز وجل:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ*فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد: 1-5]

لو أن هذا الإنسان - أبا لهب - فكر في هذه السورة، وانطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعلن إسلامه ظاهراً، إنه بهذا نقض الآية، لكن إرادة الله طليقة، حتى اختيار الإنسان أحياناً ملك الله عز وجل.

الأمر بكل تفاصيله وأصوله بيد الله عز وجل :

في مثلٍ أبلغ يقول الله عز وجل:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

[سورة البقرة: 142]

وصفهم الله بأنهم سفهاء، وسوف يقولون كذا وكذا، لو أنهم صمتوا لأبطلوا الآية، الأمر بيد الله، الأمر بكل تفاصيله وأصوله بيد الله عز وجل، فالله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ)

أي لا تفاجؤوا، ينهاهم عن أن يفاجؤوا، وطن نفسك، هناك من يرى أن القرآن من صياغة محمد عليه الصلاة والسلام، هناك من يرى أن هذا الدين لا يصلح إطلاقاً، هناك من يتهم الدين بأنه إرهاب، هذا شيء نسمعه كل يوم، هناك من يرى أن القرآن ينبغي أن يغيّر، وأن تحذف منه فصول كثيرة جداً، وهم جادون في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون. إذاً:

(مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ)

اطمئنوا:

(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ)

أول استنباط دقيق جداً: أنه لا يمكن لمن يحب الله أن يرتد عن دينه، هذا أول استنباط، الذي بنى علاقته مع الله على إيمان قوي ومحبة، والمحبة أساسها الاتباع، هذا الإنسان لا يمكن أن يرتد عن دينه، لأن المحبة حصن حصين مِن أن يرتد الإنسان عن دينه.

الإنسان سيد هذا الكون لأنه قبل حمل الأمانة من بين كل المخلوقات :

أيها الأخوة:

(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ)

بدأ هو بحبهم لأنه رحيم، لأنه خلق الخلق ليسعدهم، وبعضهم قال: علم أنهم سيحبونه فأحبهم سلفاً، لكن المعنى الدقيق أن الله سبحانه وتعالى لأنه ذات كاملة خلق خلقاً ليسعدهم، أما إذا قلت لي: الناس في شقاء، هذا شيء واقع، هذا الشقاء من صنع أنفسهم، لأنهم مخيرون، ولا بد لاختيارهم أن يأخذ أبعاده.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

لأن الإنسان قبل حمل الأمانة من بين كل المخلوقات كان سيد هذا الكون، كان المخلوق الأول، لذلك تكريماً له سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، الإنسان مكرم، وهو المخلوق الأول لأنه قبل حمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيه، ومن لوازم حمل الأمانة أن الله جعله مخيراً، صاحب اختيار، صاحب إرادة، فإذا أراد الدنيا وأراد الشهوات، وأراد البغي والعدوان، فله ذلك، فالله يبعث له الأنبياء، وينزل عليهم الكتب، ويهيئ الدعاة.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

للحب معنيان عقلي وعاطفي :

أما لماذا يوقع الله المصائب بالعباد؟ هذا معنىً آخر، لأن الله سبحانه وتعالى إنما يسوق هذه الشدائد لعباده كي يعودوا إليه، كي يصطلحوا معه، كي يقبلوا عليه، كي يتوبوا إليه، كي يسعدوا بقربه في الدنيا والآخرة، أرأيت إلى هذه المركبة، ما علة صنعها؟ علة صنعها السير، لماذا فيها مكبح شديد؟ والمكبح يتناقض مع علة صنعها، ضمان لسلامتها، الإنسان خلق للسعادة، لماذا الفقر؟ لماذا المرض؟ لماذا الخوف؟ من أجل أن تكون هذه المصائب التي تأتي في الدنيا حائلاً بين الإنسان وبين الشقاء الأبدي، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

أيها الأخوة، الحب له معنيان؛ له معنى عقلي، وله معنى عاطفي، إنسان مريض ومرضه يقلقه ويؤلمه، ذهب إلى طبيب متفوق وصف له دواء، دواء مراً، هذا الدواء لم يجده، بحث عنه في كل مكان، سافر إلى بلد مجاور، وأتى بهذا الدواء، وهو سعيد أكبر السعادة بأنه حصل على هذا الدواء، وهو مر، لماذا أحب هذا الدواء؟ هذا حب عقلي، لا حب عاطفي، الإنسان يحب الطعام الطيب، يحب الشراب اللذيذ،

يحب الأكلة الفاخرة، لا يحب دواءً مراً هذا حب عقلي، فالإنسان يحب الله يبدأ حب الله في قلبه عقلياً، هو الذي خلقني أمري بيده مصيري إليه، هو المسير، هو المربي، هو الواحد، بيده مقاليد السماوات والأرض، بيده من فوقي، بيده من تحتي، بيده من معي، بيده صحتي، بيده رزقي، فكلما أيقن أن الله بيده كل شيء، وأنه وحده هو المعطي والمانع، والرافع والخافض، والمعز والمذل، يحبه حباً عقلياً بادئ ذي بدء، فإذا أحبه حباً عقلياً وأطاعه، وبعد أن أطاعه أقبل عليه فأحبه حباً عاطفياً، عندئذٍ يقول:

فليتك تحلو والحياة مــريرة وليتك ترضى و الأنــام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عـامر وبيني وبين العالمين خــراب

وليت شرابي من ودادك سائـغ ومن شربي من ماء الفرات سراب

إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تــراب

* * *

الإنسان لا يسعد إلا إذا أحب اختياراً :

يبدأ الإنسان من محبة الله بعقله، يفكر في خلق السماوات والأرض، يفكر في طعامه وشرابه، يفكر مما خلق، يفكر في الإبل كيف خلقت، في السماء كيف رفعت، في الجبال كيف نصبت، ويفكر في الفجر وليال عشر، في الشمس وضحاها، يفكر في ذاته، في أقرب الناس إليه، أقرب شيء إليه، فيعظم الله عز وجل، ويحمله تعظيمه على طاعته، وحينما يطيعه، ويقبل عليه، ويذوق طعم القرب منه فيحبه.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لـما وليت عنا لغيــرنا

ولو سمعت أذناك حسن خـطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا

ولو ذقت من طعم المــحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحـبنا

ولو نسمت من قربنا لك نســمة لـمـت غريباً و اشتياقاً لقربنا

فما حبنا سهل وكل من ادعــى سهولته قلنا له: قد جهـلتنا

* * *

أيها الأخوة، المعنى الأول: أن الله أحبهم لأنه أراد أن يسعدهم، ولأن الله ذات كاملة، وهم أحبوه لأنه أكرمهم، منحهم نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد.

المعنى الثاني: إنه أحبهم حينما خلقهم، وحينما أمدهم، وحينما هداهم إليه، هم إذا استجابوا له، وأقبلوا عليه، واصطبغوا بصبغته يحبهم محبة ثانية، محبة الإيجاد، ومحبة الطاعة، والإخلاص، والوفاء، والكمال، لذلك هذا الدين مبني على الحب، لو أن الله أراد من الناس أن يطيعوه قسراً لجعلهم يطيعونه،

لكن هذه الطاعة القسرية لا يمكن أن تكون مسعدة لهم إطلاقاً، الإنسان لا يسعد إلا إذا أحب اختياراً، أما إذا ألزم أن يحب هذا الحب لا قيمة له، إنه شكل بلا مضمون، وقشر بلا لب. لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ـ وفي رواية ـ من ماله وولده وأهله ونفسه))

[الطبراني في الأوسط عن عبد الرحمن بن أبي ليلة عن أبيه]

ما من دعوة ضالة مضلة من بعثة النبي إلى يوم القيامة إلا وفيها خصائص :

سيدنا عمر كان صريحاً مع رسول الله، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن هِشَامٍ قَالَ:

((كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ))

[البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن هِشَامٍ]

لا بد للإنسان أن يشعر بحب لله عز وجل، وحب مشتق من حبه لله، أن يحب المؤمنين والصالحين، وأن يحب خلق الله أجمعين، فهو فقير لأصل من أصول الدين.

سؤال دقيق أيها الأخوة، هذا السؤال يلزمنا أن نفهم جوابه، هؤلاء الذين ارتدوا، وادعوا النبوة، ألم يطالبوا بالدليل؟ النبي معه معجزات، لماذا لم يطالبوا بالدليل، ولماذا آمن الذين آمنوا بهم من دون دليل؟ الجواب بسيط جداً: لأنهم لم يأتوا بمنهج، بل خففوا المنهج، الذين ارتدوا، وادعوا النبوة ألغوا الصلاة، والشيء الطريف جداً أن بعضهم ألغى الصلاة، وألغى الصيام، وسمح لأتباعه أن يرى نساء بعضهم الآخر، أي وضع يده على شهواتهم، خفف التكاليف عنهم، لذلك ما من دعوة ضالة مضلة من بعثة النبي إلى يوم القيامة إلا وفيها خصائص، منها تأليه الأشخاص، أما في الدين فالتعظيم للمنهج.

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

[سورة الحاقة:44-47]

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً*إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ)

[سورة الإسراء:74-75]

في المنهج الإلهي التعظيم للمنهج أما في منهج أهل الأرض فالتعظيم للشخص :

في المنهج الإلهي التعظيم للمنهج، أما في منهج أهل الأرض فالتعظيم للشخص، لذلك المنهج يكبر فيصغر الشخص.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة يونس:15]

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

[سورة الكهف: 110]

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً)

[سورة الجن: 21]

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة هود: 31]

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام: 15]

كلما كبر المنهج صغر الإنسان وكلما كبر الإنسان صغر المنهج :

كلما كبر المنهج صغر الإنسان، وكلما كبر الإنسان صغر المنهج، لذلك حينما يأتي نبي كريم، ويأتي بمنهج قويم، هذا المنهج يحد من شهوات الناس، ومن طغيانهم، ومن تعدياتهم، ومن انحرافهم، ومن اتباعهم لشهواتهم، لذلك يطالب النبي بالدليل.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

[سورة الرعد: 43]

تأتي المعجزة كدليل، أما حينما يأتي إنسان، ويبيح الاختلاط، ويبيح النساء من دون قيد أو شرط، وانتم إلينا، وافعل ما تشاء، أعلن انتماءك وافعل ما تشاء، لذلك أتباع مثل هذه الديانات يعدون بمئات الملايين، ليس فيها جهد، ولا تكليف، ولا افعل ولا تفعل، افعل ما تشاء، أعلن انتماءك إلينا، وانتهى الأمر، فلذلك هؤلاء المشعوذون الذين ادعوا النبوة لم يطالبوا بالدليل، لأنهم تملقوا لأتباعهم بتخفيف التكاليف، لذلك جميع الدعوات الضالة من بعثة النبي إلى يوم القيامة تتسم بتأليه الأشخاص، وتخفيف التكاليف، واعتماد النصوص الموضوعة والكاذبة، والنزعة العدوانية، ولا تجد دعوة ضالة مضلة من بعثة النبي إلى يوم القيامة إلا وتعتمد على تأليه الأشخاص، وتخفيف التكاليف، واعتماد النصوص الموضوعة والكاذبة،

واعتماد النزعة العدوانية، ولا تجد فئة صادقة مؤمنة مخلصة إلا وتتبع ولا تبتدع، إلا وتعظم المنهج ولا تعظم الأشخاص، إلا وتعتمد النص الصحيح، وذات سجية سلمية ليس هناك عدوان ولا طغيان.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

هؤلاء القوم:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

المعنى التوحيدي والمعنى التكتيكي لنصرة الضعيف :

هناك ذل ضد العز، وهناك ذل ضد القسوة، شيء مذلل أي لين مطواع، شيء ذليل ليس بعزيز:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

أي متواضعين للمؤمنين، يحبون المؤمنين، يلبون حاجاتهم، ينساقون معهم:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

المصيبة الكبيرة أيها الأخوة أن ثمة إنسان إذا عامل مؤمناً ضعيفاً سحقه، أما إذا عامل كافراً قوياً وخضع له وكأنه ظله، فليس هناك من لؤم يفوق هذا اللؤم، أن تسحق الضعيف، وأن تذل أمام القوي، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما تنصرون بضعفائكم))

[مسند البزار عن سعد]

هذا الضعيف الذي تملك أن تسحقه فأكرمته، هذا الضعيف الذي تملك أن تحرمه فلم تحرمه، هذا الضعيف الذي تملك أن تهينه فأكرمته، أعطيته حقه، أكرمته كرمته، يكافئك الله على هذا العمل الطيب أنه ينصرك على من هو أقوى منك:

((إنما تنصرون بضعفائكم))

[مسند البزار عن سعد]

هذا المعنى التوحيدي، أما المعنى التكتيكي: فأنت حينما تنصر الضعيف، وتكرم الضعيف، وتعطي الضعيف حقه، يلتحم معك فيصبح المجتمع قوة لا يمكن أن تخرق، لذلك تجد بعض المجتمعات التي فيها قسوة بالغة لا تصمد أمام عدوان خارجي ساعات، المجتمع مفكك، القسوة والظلم فكك المجتمع لذلك يسهل اختراقه، أما المجتمع المؤمن المتكاتف المتعاون المتناصر، الذي يرحم بعضه بعضاً، فهذا مجتمع متكاتف يصعب أن تخترقه.

الكافر يتجبر على الضعيف ويذل أمام القوي لأنه مقطوع عن الله :

أيها الأخوة الكرام: هؤلاء المؤمنون:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

لكن اللئيم ذليل أمام القوي، ينبطح أمامه، ومتجبر أمام الضعيف، يجرب عليه عضلاته.

طائرة من أحدث الطائرات في العالم، وإصابتها مئة في المئة، وقد تلقي بقنبلة لا تصل إلى الأرض، بل تقتل كل ما حول هذا الإنسان، ثم يشرف هذا الطاغية بنفسه على اغتيال هذا الإنسان، ما هذا النصر؟ النصر على من؟ على إنسان في السبعين، قعيد الكرسي، معاق، يرى بعين واحدة، مصاب بالشلل، هل هذا نصر؟ هذا نصر هذا؟ سبحان الله قلبت الموازين، البطولة أن تقابل مثيلاً لك، قوة عظيمة كقوة هذا الجيش، أما أن تضرب، وأن يشرف هذا الطاغية بنفسه على اغتيال هذا الإنسان، إنسان قعيد الكرسي معاق في السبعين من عمره، هل هذا هو النصر؟ لذلك الكافر يتجبر على الضعيف، ويذل أمام القوي، وكل إنسان مقطوع عن الله يتصرف بلؤم ما بعده لؤم.

والله واللهِ مرتين لحفر بئر بإبرتين، وكنس أرض الحجاز بريشتين، ونقل بحرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون علي من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين.

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

عزيز أمام القوي لأنه يعتصم بالله، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، تكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه.

إذا كان عملك وفق المنهج الإلهي ووفق الضوابط الشرعية فلا تعبأ بكلام الناس :

الكريم يرحم من دونه، ويقف في وجه من فوقه، لا تأخذه في الله لومة لائم، واللئيم يسحق من دونه، ويذل لمن فوقه:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

لا يقنط من رحمة الله.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ* وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[سورة الشورى: 39-40]

إذا لم تستح فاصنع ما تشاء، إذا لم تستح من الله، إذا كان عملك وفق المنهج الإلهي، وفق الضوابط الشرعية فلا تعبأ بكلام الناس:

(وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)

الذي يعبد الناس من دون الله يخاف على سمعته، ويرجو أن يعظموه، وأن يوقروه، ومع ذلك لا يسلم منهم أبداً، كيف ما تحركت هناك من ينتقدك. ركب جُحا على الحمار ومشى ابنه، فانتقده الناس، ما هذا الأب القاسي؟ أركب ابنه ومشى، ما هذا الابن العاق؟ ركبا معاً، ما هذه القسوة على الحمار؟ مشيا، ما هذا الجنون في رؤوسهم؟ يركبا الحمار، ماذا بقي؟ أن يحملا الحمار. كيفما تحركت فهناك من ينتقدك، لذلك إذا لم تستح فاصنع ما تشاء، لا تعبأ بكلام الناس، ومن عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به:

(وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)

إن تمسكت بالدين تزمت، وإن قلت: أنا أقيم شرع الله، جمود بالفكر، وإن انفتحت على الناس، مائع، كيفما فعلت انتقِدت، لذلك احرص على طاعة الله، ولا تأخذك في الله لومة لائم، قال:

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)

أن تكون محباً لله، أن يحبك وتحبه، وأن تكون أمام المؤمن ذليلاً مطواعاً متواضعاً، وأن تكون أمام القوي شهماً عزيزاً، وأن تجاهد في سبيل الله جهاد النفس والهوى، وجهاداً دعوياً، وجهاداً بنائياً، ثم جهاداً قتالياً:

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (28 - 49) : تفسير الآيات 55 - 58، الولاء والبراء.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-04-23

بسم الله الرحمن الرحيم

الولاء والبراء :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة المائدة ومع الآية الخامسة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

أيها الأخوة، ما معنى كلمة الولي؟ الذي يتولاك، الذي يربيك، الذي يمدك، الذي يعالجك، الذي يحبك، الذي يرحمك.

في الإسلام شيء دقيق جداً هو: الولاء والبراء، فإذا كان الله وليك ينبغي أن تكون وليه أنت، أن ترجع إليه، أن تهتدي بهداه، أن تحب من يحبه وأن تبغض من يبغضه، أن تعين المؤمنين، أن تنصحهم، أن تكون في خدمتهم، لذلك لا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا اتضح عنده الولاء والبراء، أن يوالي المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً، وأن يبرأ من الكفار والمشركين، ولو كانوا أقوياء، ما لم يكن عندك ولاء للمؤمنين، وبراء من غيرهم فلست مؤمناً، الله عز وجل يقول: " إنما "، إنما أداة حصر وقصر، أي لو أن الله عز وجل قال: الله وليكم، هذا لا يمنع أن يكون لكم ولي آخر، أما حينما يقول الله عز وجل:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ)

فلا يمكن، ولا يقبل، ولا يعقل أن تتخذ ولياً غير الله عز وجل، وغير رسوله، وغير المؤمنين، بل محرم عليك أشد التحريم أن توالي أعداء الله، أن تميل نحوهم، أن تسترشد بهم، أن تهتدي بمناهجهم، أن تقلدهم، أن تقف معهم، أن تتبع توجيهاتهم، هذا محرم عليك أشد التحريم.

فرق كبير جداً بين من كان الله وليه وبين من لا ولي له :

أيها الأخوة:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[سورة محمد: 11]

للتقريب، أب نموذجي بأعلى درجة من العلم والحكمة والقدرة والغنى والرحمة والعطف، وله ابن يرعى شؤونه كلها، يرعى صحته، يرعى دراسته، يرعى تربيته، يرعى أخلاقه، يرعى دينه، يخطط

لمستقبله، يدفعه إلى أعلى مراتب التفوق، نقول: هذا الأب ولي لهذا الابن، لو تصورنا ابناً مات أبوه، وتزوجت أمه وأهمله المجتمع، فمن انحراف إلى آخر، ومن مخفر إلى مخفر، ومن سجن إلى سجن، يتعاطى المخدرات، ينغمس في بحر الرذيلة، نقول: فرق كبير جداً بين طفل له ولي كبير، أب حكيم، أب عالم، أب مقتدر، وبين طفل مات أبوه، وتزوجت أمه، وشرد على أنظمة المجتمع، واستحق الضياع والسجن، هل هناك ما يقارب هؤلاء مع هؤلاء؟ هل هناك نسبة بين الولدين؟

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[سورة محمد: 11]

أنت كمؤمن لك مرجع، لك منهج، لك قيم، لك توجيهات من الله عز وجل، في حياتك فرائض، وواجبات، ومباحات، ومكروهات، ومحرمات، وسنن، لك قدوة، النبي قدوتك، والصحابة قدوتك، والقرآن منهجك، والسنة دليلك، فرق كبير جداً بين من كان الله وليه وبين من لا ولي له.

الله تعالى حينما ألزمك أن تجعل الله وليك أراد لك الولي المطلق الذي لا يعجزه شيء:

لذلك أيها الأخوة، بعيد جداً، ويكاد أن يكون مستحيلاً أن يقع المؤمن في ورطة كبيرة، لأن منهج الله يحرسه، لأن أمر الله ونهيه يحميه، لأن علمه أن الله موجود، وأنه يحاسب، وأنه يعاقب، وأن الله معه، ولا يتخلى عنه، هناك حقائق كثيرة جداً تحمي الإنسان من أن ينحرف، هؤلاء الذين يدمرون، هؤلاء الذين يسحقون، هؤلاء الذين يفضحون، هؤلاء لم يتخذوا الله ولياً لهم، ليس لهم مرجع إلا شهواتهم ومصالحهم ونزواتهم، لذلك يقعون في ورطة ما بعدها ورطة، الله عز وجل يقول:

(إنما)

أي أنت لست مكلفاً أن توالي ربك فقط، بل وأن تحصر ولاءك لله عز وجل، الله وليك، أي أن الله سبحانه وتعالى منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، يربيك، ويهديك، ويصحح مسارك، ويصوب أفعالك، ويحاسبك، ويشدد عليك، ويضيق عليك أحياناً، ثم يوفقك، ثم يجمعك مع أهل الحق، ثم يعينك على صلاح دنياك، وصلاح آخرتك، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ)

لماذا لم يرد الله لنا أن نتخذ ولياً غيره؟ لأنه إذا كان وليك الإنسان فالإنسان بالأساس محدود، علمه محدود، قدراته محدودة، عواطفه محدودة، الإنسان محدود وضعيف، فقد يرشدك إلى شيء فيه هلاك لك، لأن علمه محدود، قد يدلك على شيء فيه إخفاق لك، لأن علمه محدود، وقد يكذب عليك، ويبين لك أنه وليك وهو في الحقيقة ليس وليك، ففيه احتمال المحدودية، واحتمال الكذب، لماذا لم يرد الله أن يكون الإنسان وليك، ولو كان كبيراً أو عظيماً؟ لأن أي إنسان محدود، لم يرد الله لك أن يكون المرجع

محدوداً، ولا أن يكون منافقاً، لكن الله سبحانه وتعالى حينما ألزمك أن تجعل الله وليك أراد لك الولي المطلق الذي لا يعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماء، أراد لك أن يكون الولي غنياً وقوياً ومهيمناً ومتصرفاً، أراد لك أن تقوى بقوته، وأن تغتني بغناه، وأن تكون حكيماً بحكمته، وأن تسعد بالقرب منه، لو خيرت بين أن يكون لك مرجعان: مرجع فقير جاهل، ومرجع قوي غني عالم، الشيء الطبيعي والبديهي أن تؤثر أن ترجع إلى القوي، إلى الغني، إلى الرحيم، فكيف إذا كان الله عز وجل بيده كل شيء، بدأ من صحتك، إلى أجهزتك، إلى أعضائك، إلى حواسك، إلى أهلك، إلى أولادك، إلى من فوقك، إلى من تحتك، إلى الرزق، إلى الرحمة، إلى السكينة، كل شيء بيد الله عز وجل، اجعله وليك، إذا كنت مع القوي فأنت القوي، نحن في المنظور الأرضي أضعف دولة، لو أن دولة قوية دعمتها لأصبحت أقوى دولة، أنت حينما تكون مع الله كان الله معك، كلمات لا أدري أين تصل إليكم، إذا كان الله معك فمن عليك؟ لا تستطيع قوى الأرض أن تنال منك، ألا ترون واقع المسلمين اليوم؟ في وضع لا يحسدون عليه.

القرآن منهج الله في الأرض وفيه تعليمات الصانع :

قال الله عز وجل:

(قَدْ مَكَرُوا مَكْرُهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

أعداؤهم مكروا، مكر أعداء المؤمنين تزول منه الجبال، وفي آية قصيرة يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

[سورة آل عمران: 120]

الخلاص في هذه الآية، كمجند بفرقة هل يخشى هذه الرتب المخيفة إذا كان أبوه قائد الجيش؟ انتهى كل شيء، الله عز وجل ينتظر منا أن نجعله ولياً لنا، أن نجعله مرجعاً لنا، أن نجعله ملاذاً لنا، أن نجعله ملجأ لنا، أن نجعله هادياً لنا.

((يا عبادي، كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيتُه، فاسْتَهدُوني أهْدِكم، يا عبادي، كُلُّكم جائع إلا مَنْ أطعمتُهُ، فاستطعِموني أطْعِمْكم، كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم))

[مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

إذاً الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)

أي الله في قرآنه، هذا القرآن منهج الله في الأرض، هذا القرآن تعليمات الصانع، هذا القرآن الكريم لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والحسن ما سمح الله به، والقبيح ما نهى الله عنه.

السنة منهج تفصيلي والقرآن منهج كلي :

قال تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)

في كتابه، والله وليكم في الدعاء أيضاً، ادعوه يستجب لكم، إن دعوتموه أولاً: يسمعكم، وثانياً: هو قادر على إجابة دعائكم، وثالثاً: يحب أن يرحمكم، موجود ويسمع، وقادر ويرحم، وليكم فيما ينبغي أن تعتقدوا، وليكم في أنه قدم لكم تفسيراً شاملاً متناسقاً لحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان وليكم هو معكم، تدعونه سراً وعلانية، تدعونه سراً وجهراً، وليكم إذا رآكم قد انحرفتم يربيكم، يضيق عليكم:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

وليك في عقيدتك، وليك في المنهج القويم الذي إذا سرت عليه سلمت وسعدت، وليك في أنه تدعوه فيستجيب لك، وليك في أنه يربيك، الآن الإنسان أحياناً يهمه ممن يعمل معه أن يقوم بواجبه أتم القيام، لكن لا يعنيه دينه، ولا استقامته، ولا خلقه، لكن الله خلقك ليسعدك، ليرحمك، فإذا قصرت ضيق عليك، إذا قصرت شدد عليك، أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدري، وتضيقي، وتشدي على أوليائي حتى يحبوا لقائي، هناك متابعة من الله عز وجل:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)

الله عز وجل أنزل هذا الكتاب، والنبي عليه الصلاة والسلام بيَّنه وفصَّله، فالسنة منهج تفصيلي، والقرآن منهج كلي، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام بأقواله وأفعاله وإقراره كان تفسيراً وتوضيحاً وبياناً لما في كتاب الله عز وجل فالنبي إذا أمرك بأمر ينبغي أن تأتمر.

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

المؤمن نصوح يرشدك ويقدم لك العون :

النبي إذا وجهك توجيهاً ينبغي أن تستجيب له:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

(وَالَّذِينَ آمَنُوا)

المؤمن نصوح، المؤمن ينصحك ولا يسكت على انحراف، المؤمن يرشدك، المؤمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، المؤمن يقدم لك العون، المؤمن يغار على مصلحتك، المؤمن يغار على سمعتك، المؤمن يغار على مصيرك، فالله ورسوله والذين أمنوا واحد، الأصل أن الله ولينا، فرع من هذا الأصل أن النبي عليه الصلاة والسلام ولينا، فرع آخر من الفرع المؤمنون أولياؤنا، لذلك المؤمن يرجع إلى القرآن لأن الله وليه، يرجع إلى السنة لأن النبي عليه الصلاة والسلام وليه، الآن يستشر المؤمنين لأن المؤمنين أولياؤه، أي لو استشرت إنساناً شارداً عن الله، الله عز وجل قال:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

هناك آلاف القضايا، إن استشرت مؤمناً نصحك، وأرشدك، ومنحك النصيحة، وأخلص لك، إن استشرت غير مؤمن لم يدلك على ما فيه مصلحتك، مثلاً: لو أنت في محل تجاري، واستشرت صاحب المحل أتابع دراستي أم لا؟ إذا كان مؤمناً ينصحك بمتابعة الدراسة ولو خسرك، بينما غير المؤمن يزهدك في الدراسة، يقول لك: ابقَ هنا، الدراسة لا تطعم الطعام، لمصلحته، يرشدك لمصلحته، بينما المؤمن يرشدك لمصلحتك.

لا يجوز أبداً أن تستنصح غافلاً ولا شارداً ولا أن تستشيره ولا أن تركن إليه :

إذاً هذه الآية دقيقة جداً:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا)

لماذا المؤمن يجب أن ترجع إليه؟ لأنه اهتدى بهدى الله عز وجل، وطبق سنة رسول الله، لكن بشكل أدق:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

متصل بالله، قلبه مستنير بنور الله، أي إذا عرض عليك عمل كان فيه نفع كبير مادي، لكن فيه مخاطرة كبيرة جداً في الدين، لو سألت مؤمناً ينهاك عن هذا العمل، تقول له: خمسة أمثال الدخل، يقول لك: إذا ضاع دينك خسرت كل شيء، استشر إنساناً آخر شارداً عن الله ينصحك بأن تقبل على هذا العمل من دون تردد ولا يعبأ بدينك، إنه يعبأ بالمال فقط، لذلك:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

لا يجوز بحال من الأحوال أن تستنصح غافلاً ولا شارداً، ولا أن تستشيره، ولا أن تركن إليه:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

[سورة هود: 113]

ولا أن تتمنى أن يقربك أبداً، يجب أن تزهد به.

الاستخارة لله عز وجل والاستشارة لأولي الخبرة من المؤمنين :

قال تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

هذا موصول بالله عز وجل، موصول بالمطلق، موصول بنور السماوات والأرض، الله نور السماوات والأرض، موصول بالحكيم، موصول بالعليم، موصول بمن خلقنا ليسعدنا، لا ليمتعنا في الدنيا لسنوات معدودات ثم تنتظرون جهنم وبئس المصير، لا، فالمؤمن ينظر إلى آخرتك، إذاً:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

من لوازم إقامة الصلاة أنهم يؤتون الزكاة، وكأن الله اختار من أركان الإسلام عبادة شعائرية، وعبادة تعاملية، واحدة اتصال بالله، والثانية إحسان للخلق، والثانية دليل الأولى، والأولى سبب الثانية، فهذا المؤمن المتصل بالله، وهذا المؤمن الذي له أعمال صالحة في خدمة الناس، هذا ينبغي أن تستشيره، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار))

[أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك]

وقال العلماء: الاستخارة لله عز وجل، والاستشارة لأولي الخبرة من المؤمنين، أجمل ما في هذه الآية أن المؤمن له مرجع، له مرجع يسأل، إن علم الحكم الشرعي علم الحكم الشرعي، وإن لم يعلم سأل، ما الحكم الشرعي في هذا الزواج؟ ما الحكم الشرعي في هذه التجارة؟ ما الحكم الشرعي في هذه السفرة؟ ما الحكم الشرعي في شراء هذا البيت؟ له مرجع يخاف أن يخرج عن منهج الله، إن علم الحكم علم الحكم، وإن لم يعلم الحكم سأل من يعلم، قال تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

من صفات المؤمن أنه يسأل لأن له مرجعية :

إذا كانت القضية متعلقة بالله عز وجل:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان: 59]

لأن الله مرجعك، ولأن رسوله مرجعك، ولأن أولي الخبرة من المؤمنين مرجعك، ينبغي أن تسأل، لذلك ورد في القرآن آيات كثيرة:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

[سورة البقرة: 219]

(يسألونك عن المحيض قل هو أذى)

[سورة البقرة: 222]

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

[سورة البقرة: 219]

من صفات المؤمن أنه يسأل، لأن له مرجعية، أقول مرة ثانية: قلّما يُدَمَّر المؤمن، قلّما يُسحَق، قلّما يُفتضَح، لماذا؟ لأن له مرجعية، ويتحرك بنور الله، يطبق منهج الله، يسعى لنيل رضوان الله عز وجل، المؤمن قد تأتيه بعض الامتحانات، وبعض المصائب لكنها معقولة جداً، خفيفة، لطيفة، سريعة.

الكافر يعيش لحظته وإن عرضت له شهوة يقتنصها :

أحياناً الإنسان يُدَمَّر، هذا الذي يرتكب جريمة ثم يعدم، هذا مقطوع عن الله، لو كان مع الله لما أقدم على هذا، لا تنسوا هذا المثل: ابن له أب كبير بعلمه، ورحمته، وحكمته، وخبرته، وماله، هيأ له أجواء رائعة، اعتنى بصحته، اعتنى بعقله، اعتنى بنفسه، اعتنى بعلاقاته، اعتنى بدراسته، رسم له مستقبلاً مشرقاً، تفرغ له، هذا الابن هل يوازى مع ابن مات أبوه، وتزوجت أمه، وسكن في المخافر، وفي مأوى الشاردين، ومن مخفر إلى مخفر، ومن سجن إلى سجن، وهو غارق في المخدرات وفي الانحرافات والشذوذ، هذا كهذا؟ أين الثرى من الثريا:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[سورة محمد: 11]

الكافر يعيش لحظته، عرضت له شهوة فيقتنصها، حرام أو حلال، عرض له مال يأخذه، لا يسأل أيجوز أو لا يجوز.

سمعت عن إنسان فقير جداً يعمل في بستان بأجر زهيد، أعطي عشرين دونماً من ملاك كبير بقوة القانون، فهذا اختل توازنه من الفرح، فذهب إلى شيخه ومرجعه يبشره بهذا العطاء، انتقل من أجير إلى مالك، من فقير إلى غني، فقال له شيخه، وأنا لا أعلق على حكم الشيخ في هذا الموضوع، لكن يهمني المغزى، قال له: هذه الأرض مغتصبة، لا يجوز أن تأخذها، كأن فرحته في هذه الأرض جمرة أطفأتها

بكأس ماء، همد، لا يجوز، ماذا أفعل يا سيدي؟ قال له: ليس لهذا وجه شرعي، إذا أردت فاشترِ الأرض من صاحبها، قال له: لا أملك ثمنها، قال له: لعله يبيعك إياها تقسيطاً، فذهب إلى صاحب الأرض الذي أخذت منه، قال: يا سيدي أعطوني من أرضك عشرين دونماً، وسألت شيخي فقال: لا يجوز أن آخذها منك، لأنها أخذت منك غصباً، هل تبيعني إياها؟ تأمله ملياً، وقال له: يا بني أنا أخذوا مني أربعمئة دونم، لم يأتِ إلي إلا أنت، هذه هدية لك، خذها وتملكها، وازرعها، وانتفع بخيرها، هي هدية لك، بارك الله لك بها، له مرجع، تملكها حلالاً، له مرجع، المؤمن له مرجع، قبل أن يسافر، قبل أن يغامر، قبل أن يتزوج، قبل أن يعمل في جهة لا ترضي الله، قبل أن يكتب، قبل أن ينال شهادة في فن لا يرضي الله، له مرجع:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

قلّما يُدمَّر المؤمن لأنه يتحرك وفق منهج الله :

والله أيها الأخوة، إنسان جمع أموالاً طائلة للاستثمار، ثم أقام مسابقة لانتخاب ملكة جمال، الذين أودعوا معه أموالاً من المتدينين رابهم هذا الأمر، فسألوا مشايخهم، فقال: يا بني اسحبوا أموالكم، هذا إنسان يبدو على غير منهج، الذين سحبوا أموالهم في الوقت المناسب هم الذين نجوا وحدهم من الإفلاس، المؤمن له مرجعية، يسأل، الله عز وجل ما دام يعلم منك صدقاً يلهم الذي تسأله أن يقدم لك النصح، أقول لكم مرة ثانية: قلّما يُدمَّر المؤمن، قلّما يُسحَق، قلّما يُفضَح، لماذا؟ لأن له مرجعاً يتحرك وفق منهج الله، يتحرك في مظلة الله، يتحرك بتوجيه كتاب الله، يتحرك بهدي رسول الله، يستنصح المؤمنين، لذلك لست وحدك في الحياة، أنت عضو بأسرة، أجمل ما في الإيمان هذا الجمع، أنت عضو بأسرة، الكل لواحد، والواحد للكل، ألف أخ مؤمن ينصحك ويعينك، فإذا كنت مع المؤمنين ألف مؤمن يساعدك، ألف مؤمن يعاونك، والله التضحيات التي تراها في مجتمع المؤمنين تكاد لا تصدق، أنت في جماعة، أنت مع المؤمنين، لذلك قال تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

في بعض أسباب النزول قد لا تقبلونها، أنه أثناء الركوع سائل سأل سيدنا علي، مد له يده، وفيها خاتم فسحبه، فلذلك أدى الزكاة وهو راكع، لكن المعنى الذي يليق بقرآن الله عز وجل، أنه يؤدي الزكاة، وهو خاضع لله في منهجه، يطبق منهج الله عز وجل، هناك إنسان يدفع مالاً، معه مال وفير، هو غارق في شهوته، لكنه يعطي من ماله ما يشاء، لا:

(وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

خاضعون لمنهج الله عز وجل.

مستحيل أن تكون من حزب الله وأن تُغلَب :

قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ)

مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تكون من حزب الله وأن تُغلَب، مستحيل أن تكون جندياً لله، وأن تُغلَب. فإن لم تَغلِب فيجب أن تشك في جنديتك لله، وإن لم تَغلِب أنت لست من حزب الله بالمعنى القرآني طبعاً:

(فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ)

[سورة المائدة: 59]

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر: 51]

هكذا حكم الله عز وجل:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

حينما لا يظلم بعضنا بعضاً ننتصر على أعدائنا :

كل هذا وعد الله عز وجل، وزوال الكون أهون من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، فإن لم تحقق هذه الوعود فالخلل عندنا، والكرة في ملعبنا، الخلل عندنا، في إنسان يسأل لمَ لم ينصرنا الله على أعدائنا؟ عندما يبلغك أنه ستة وسبعون مليون اتصال هؤلاء قيمتهم النقدية مليارات من أجل اختيار مغنية أو أخرى، هذا واقع المسلمين، سبعون مليون اتصال تكلف مليارات فقط من أجل أن تتصل، وتقول: أنا أحب هذه المغنية، هؤلاء كلهم مسلمون، فلذلك لا تعتبوا على الله، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ*وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ)

هذا قول خالق الأكوان، لذلك عندما أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة لتقييم تمر خيبر، اليهود أغروه بحلي نسائهم، فقال: والله جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض وبهذا غلبتمونا، ونحن حينما لا يظلم بعضنا بعضاً ننتصر على أعدائنا.

((إنما تُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

الضعيف، أنت قوي، حينما تعطيه حقه، وحينما توفر له كرامته، يكافئك الله على أن نصرت من هو أضعف منك بأن ينصرك على من هو أقوى منك، يكافئك الله، لأنك نصرت من هو أضعف منك ينصرك على من هو أقوى منك، وأنت حينما تعطي كل إنسان حقه، وتعطيه كرامته، تعطيه رغيف خبزه وكرامته تأخذ منه كل شيء، ويصبح المجتمع متماسكاً لا يخرق.

من أرضى الناس بسخط الله سخط عنه الله وأسخط عنه الناس :

بربكم قوة اليهود من أسلحتهم فقط؟ من معلومات، من أعطاهم إياها؟ كيف اغتالوا فلاناً وفلاناً؟ من أين جاءتهم المعلومات؟ معنى ذلك هناك خطأ وخلل كبير في حياتنا:

(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ)

لا تنسوا هذه المقولة، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تؤمن بالله، وأن تعد لأعدائك ما تستطيع ثم لا تنتصر، هناك خلل إما في الإعداد أو في الإيمان، الخلل إما في الإيمان أو في الإعداد، أما آمنت بالله الإيمان الحق، وأعددت لعدوك ما تستطيع ولا تنتصر، هذا يتناقض مع القرآن الكريم، ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أقول لكم: المسلم المقصر دون أن يشعر إن رأى جهة قوية مسيطرة غنية يميل إليها على حساب دينه، يميل إليها على حساب كرامته، فإذا والى الواحد منا الطرف الآخر، ولم يوال المؤمنين خيب الله مسعاه، من أرضى الناس بسخط الله سخط عنه الله، وأسخط عنه الناس، وفي تجارب المسلمين مع الطرف الآخر هل جاءنا خير منهم؟ أبداً، الله عز وجل قال:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

[سورة النساء: 45]

(وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له :

أيها الأخوة، بتوجيه من الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً)

أي لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له، لا يراك عظيماً يراك سخيفاً، يراك جاهلاً، يراك ضيق الأفق، يهزأ بدينك، يهزأ بقرآنك، يهزأ بسنة نبيك، يهزأ بقبلتك، يهزأ باعتقادك، لماذا تصاحبه؟ لماذا ترتاح له؟ لماذا تجامله؟ لماذا تداهنه؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ)

ممنوع أن تصاحبه، فكيف إذا اتخذته ولياً؟ استهديت بهديه، سألته، استشرته، نصحك أن تفعل كذا، أن تتاجر بهذه التجارة، يقول لك: هذه تجارة مربحة، أين عقلك؟ فيها ربا، فيها مادة محرمة، لا تهتدي بهديه، لا تصغ إلى توجيهه، لا تعرض له مشكلتك، فيشمت بك، من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله، لا تضعف أمامه لا تظهر نقاط ضعفك أمامه أبداً:

(لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

اجعلوا الله وليكم، اجعلوا رسوله وليكم، اجعلوا توجيه المؤمنين وليكم، والدليل الآخر؛ أنت في حياتك مقدسات، هذا الذي لا يقيم وزناً لمقدساتك ينبغي ألا تصغي إليه، وألا تصاحبه، وألا تقيم معه علاقات حميمة، لا يجوز، علاقات العمل مسموح بها، أما علاقات حميمة، زيارات طويلة، سهرات إلى وقت متأخر، رحلات مشتركة، شراكة اندماجية، هذه علاقة حميمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ*وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

نحن في حياتنا إذا إنسان متفوق في العلم، وعنده مكتبة ضخمة، وهذه المكتبة استوعبها، وهي تجري في دمه، لو التقى بإنسان جاهل يهزأ به، يقول له: هذه المكتبة لا تطعمك الخبز، افعل كذا وكذا، لا يعرف قدر العالم إلا العالم، فأنت حينما تصاحب من لا يرى لك فضلاً تكون قد أخطأت خطأ فاحشاً، لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (29 - 49) : تفسير الآيات 59 - 62، العقيدة السليمة وزيغ عقيدة الطرف الآخر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-04-30

بسم الله الرحمن الرحيم

العقيدة السليمة تكشف زيغ عقيدة الطرف الآخر :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والعشرين من سورة المائدة، ومع الآية التاسعة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)

لماذا ينقم أهل الكتاب على الذين آمنوا بالله؟ هذه حقيقة أيها الأخوة تنسحب على أية علاقة بين مؤمن وغير مؤمن إلى يوم القيامة، ذلك أن المؤمن حينما انتصر على نفسه وأقر بالحق، وخضع له، وجعله منهجاً له في حياته، وأرض نفسه، وأرض ربه، وشعر بالتفوق، هذا الإنسان بهذا السلوك، وبهذا الانصياع، وبهذه الطمأنينة، وبهذه السعادة، كشف العاصي، وكشف المقصر، وكشف من كانت عقيدته زائغة، وكشف من كانت علاقاته سيئة مع الآخرين، لذلك هذا الذي كُشف وعرِّي أمام المجتمع، ينقم على المؤمن، تماماً كما لو أن موظفين في دائرة كلفا بشراء حاجات، فالواحد رفض أن يوقع توقيعاً غير صحيح، وأن يأخذ عمولة لا يستحقها، فلما رفض الأول، وانتصر على نفسه، وأكد استقامته، وأكد نزاهته، يكشف الطرف الأخر الذي أراد أن يأخذ مالاً حراماً، وأراد أن يغش الأمة، وأراد أن يخون الأمانة، فالإنسان حينما يستقيم يكشف غير المستقيم، وحينما تصح عقيدته يكشف من زاغت عقيدته. حينما يقول الطرف الآخر: يد الله مغلولة، إن الله فقير ونحن أغنياء، فحينما يؤمن المؤمن بأن الله سبحانه وتعالى بيده مقاليد السماوات والأرض:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

حينما يؤمن المؤمن أن الله غني ونحن الفقراء، هذه العقيدة السليمة تكشف زيغ عقيدة الطرف الآخر، وهذه الاستقامة الرشيدة تكشف انحراف الطرف الآخر، وهذا التعامل الأخلاقي والسلوك الرباني يكشف سلوك الطرف الآخر، لذلك كانت النقمة.

المعركة بين الحق والباطل معركة أزلية أبدية :

أيها الأخوة: العلاقة بين شخصين:

((والذي نفس محمد بيده ما تواد اثنان ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أحمد عن ابن عمر]

على مستوى الأمم والشعوب.

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: 14]

حينما يعتدي شعب يعادي الشعوب الآمنة المسالمة، كأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، الإنسان المؤمن يوطن نفسه على الطرف الآخر، يكره المؤمنين، الطرف الآخر كره سيد المرسلين، الطرف الآخر لم يعبأ بهذا الكمال الفريد الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، لم يعبأ بهذا المنطق السديد، لم يعبأ بهذا الوحي الذي بيَّن كل شيء، وشرح كل شيء، وقد أعطى تفسيراً للكون والحياة والإنسان، فلذلك الآية الكريمة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا)

العداوة والبغضاء بين الذين آمنوا والذين كفروا عداوة طبيعية من الأزل إلى الأبد :

لماذا قال قابيل لهابيل:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

[سورة المائدة: 27]

ماذا فعل هابيل؟ قدم قرباناً لله عز وجل من أفضل ما عنده من أموال فتقبله الله عز وجل، ماذا فعل قابيل؟ قدم من أسوأ ما عنده فالله عز وجل لم يتقبله قال:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

[سورة المائدة: 27]

ما فعل معه شيئاً، هابيل قبل أن يأخذ أخته التي من بطن قابيل، وقابيل رفض أن يأخذ أخته التي من بطن هابيل، فقال:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

[سورة المائدة: 27]

وهذه العداوة والبغضاء التي ترونها بين الذين آمنوا بالله وبين الذين لم يؤمنوا به، بين الذين استقاموا وبين الذين لم يستقيموا، بين الذين أحسنوا وبين الذين لم يحسنوا،

هذه عداوة طبيعية من الأزل إلى الأبد.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

[سورة الأنعام: 112]

حينما تعصي الله يختل توازنك لأن منهج الله متوافق مع فطرتك توافقاً تاماً :

أيها الأخوة الكرام، يدخل واحد على رسول الله، وهو قمة المجتمع البشري قاطبة، قمة المجتمع البشري بكلامه السديد، بخلقه الرفيع، برحمته الواسعة، بكل ما أتاه الله من كمال، يقول: يا محمد دخلت عليك وما على وجه الأرض رجل أبغض إلي منك، والآن أغادر وما على وجه الأرض رجل أحب إلي منك.

فالعداوة بين المؤمنين وبين الطرف الآخر عداوة طبيعية، أساسها أن الإنسان حينما يعصي ربه، دققوا الآن، يختل توازنه لأنه خالف فطرته، لأنه خالف ما جبل عليه، لأنه تنكر لفطرته، قال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ *وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة الإنسان: 14-15]

أنت حينما تعصي الله عز وجل يختل توازنك، لأن منهج الله متوافق مع فطرتك توافقاً تاماً، فسواء أخرجت عن مبادئ فطرتك، أو أنك خرجت عن مبادئ دينك النتيجة واحدة، كآبة ما بعدها كآبة، فالإنسان حينما يعصي الله، حينما تغلبه شهوته، حينما تسيطر عليه نزوته، حينما يؤثر الدنيا على الآخرة، حينما يتنكر لإنسانيته، أيها الأخوة الكرام، الإنسان إذا فعل ذلك يختل توازنه، وإذا اختل توازنه كيف يستعيده؟ هنا يستعيد توازنه بأن يطعن بالمؤمنين، وهذا سلوك مألوف من قديم الأزمان.

الآن في البيت شاب مستقيم، منضبط، ورع، يغض بصره، صادق، دخله حلال، وأخوه في البيت نفسه، متفلت، يميل إلى كل شيء لا يرضي الله، لا يصدق، يسيء، لا يحسن، لماذا تنشأ عداوة بين الأخوين؟ مع أن الأول مسالم جداً، لأن الأول كشف الثاني، لذلك الثاني تأتي عداوته من الطرف الأول لأنه كشف، لذلك كيف يستعيد توازنه؟ يستعيد توازنه بطريق واحد، يدقق على أخيه، لو أنه هفا هفوة لجعلها جريمة.

من فسدت عقيدته يعادي من صحت عقيدته لكن المؤمن يسالم ويسامح :

أيها الأخوة الكرام: الآية تقول:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ)

أي نحن آمنا بأنبيائكم، آمنا برسلكم، آمنا بالسيد المسيح، آمنا بسيدنا موسى عليه السلام، آمنا بالتوراة، آمنا بالإنجيل، آمنا بالله، آمنا بوحدانيته، نحن ما فعلنا شيئاً يسيء إليكم:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

[سورة المائدة: 27]

بشكل مختصر الفاسق يعادي المستقيم، والخائن يعادي الأمين، والمنحرف يعادي الذي هو على صراط مستقيم، والكاذب يعادي الصادق، والورع يعادي المتساهل، ومن فسدت عقيدته يعادي من صحت عقيدته، لكن المؤمن يسالم، ويسامح، وهو أكبر بكثير من أن يكون له عدو من بني البشر، هذا أخي في الله أنصحه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً، قِلنا: يا رسول الله، نَصَرْتُهُ مَظْلُوماً، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِماً؟ قال: تَكُفُّهُ عَنْ الظُّلْمِ، فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيّاهُ))

[البخاري عن أنس بن مالك]

سبب معاداة الطرف الآخر للمؤمنين أنهم آمنوا بالله واستقاموا على أمره وأحبوه

قال تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)

فرعون ماذا فعل؟ لأنه آمن بالله نقم عليه، الذي ألقى أصحاب الأخدود في الأخدود وحرقهم.

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ* الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[سورة البروج: 8-9]

المشكلة أنت تعادي قاتلاً، تعادي من يسفك دماء الناس، تعادي من ينتهك أعراضهم، أما أن تعادي إنساناً ذنبه الوحيد أنه آمن بالله، آمن بخالق الأكوان، واستقام على أمره، وتقرب إليه وأحبه، وجعل مرضاته مطمح آماله، ومحط رحاله، ماذا فعل؟ هذا الموقف وقفه سيدنا نعيم بن مسعود، وكان سيد غطفان، حينما جاء ليحارب النبي في موقعة الخندق، وهو في خيمته فكر، لماذا جئت إلى هنا يا نعيم؟ لتقاتل هذا الرجل الصالح!! ماذا فعل حتى تقاتله؟! هل سفك دماً؟! هل سلب مالاً؟! هل انتهك عرضاً؟! أين عقلك يا نعيم؟ أرأيت إلى هذا الحوار الصادق، أين عقلك يا نعيم؟!

الله سبحانه وتعالى يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين :

يا أيها الأخوة الأكارم، آلاف الأعمال يفعلها الناس اليوم بلا عقل، يعادي بلا سبب، يسالم بلا سبب، يعطي بلا سبب، يمنع بلا سبب، الناس إمعة هم مع الناس إن أحسن الناس، وإن أسَاؤوا أساؤوا.

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

قد تجلس مع إنسان لوقت قصير لا يجد حديثاً يحدثك فيه إلا عن بعض العلماء، تركت شرائح المجتمع كلها، فئات المجتمع كلها، تركت أصحاب الحرف كلهم، لا يحلو له شيء إلا أن يتصدى لمن أقامهم الله بالدعوة، أنا لا أبرئهم، ولكن لماذا هذا التركيز على من دعا إلى الله؟ لماذا هذا التركيز على من فعل شيئاً وأنت لم تفعل شيئاً، لماذا؟ قلت لواحد منهم مرةً، لو أن كل هؤلاء الدعاة ليسوا على حق، وليسوا مخلصين، هل تنجو أنت من عذاب الله؟ لا تنجو، من هو شر مكاناً من الذي ينتقده؟ الذي أعرض عن الله كلياً، أي أنتم تنقمون منا أننا آمنا بالله، هل هذا ذنب؟ وآمنا بما أنزل إلينا من هذا الكتاب العظيم، وآمنا بما أنزل من قبل، هذا ذنبنا، وهذا سبب نقمتكم علينا، أما أنتم، قل لهم يا محمد:

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ)

أي أبعده عنه، الله عز وجل يعطي الصحة، والمال، والذكاء، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، قد يعطي الله المال لمن لا يحب، وقد يعطي القوة لمن لا يحب، وقد يعطي الصحة لمن لا يحب، ولكن هؤلاء الذين يحبهم الله عز وجل ماذا يعطيهم؟ يعطيهم السكينة.

الإسقاط العملي للآية السابقة على مجتمعنا :

لو انتقدت كل الدعاة إلى الله، وسفهت آراءهم، ومحصت في سلوكهم وانتقدتهم، وأسأت الظن بهم، هل تنجو أنت من عذاب الله؟ دعك منهم إذاً، التفت إلى نفسك هذا الإسقاط العملي لهذه الآية، هذه الآية عن أهل الكتاب، وعن علاقتهم بالمؤمنين، ولكن الإسقاط العملي لهذه الآية على مجتمعنا أنك حينما تنتقد داعية، وقد تكون مصيباً هل تنجو أنت من عذاب الله؟ هل يعد هذا خطأ؟ هذا الذي نصب نفسه للدعوة إلى الله، هل هذا الخطأ يبرر انحرافك؟ وأكلك المال الحرام؟ ومجاوزتك لحدود الله عز وجل، لذلك هذا الذي يعادي أهل الحق، ولا يأتمر بأمر الله، ولا يستقيم على أمره، ولا يقدم لآخرته شيئاً، هذا شر مكاناً عند الله من هذا الذي قدم شيئاً، وقد جانب الصواب أحياناً.

مرة سألني إنسان عن شخص وأنا لا أحب أن أجرح أحداً، قلت له: أقدم لك قاعدة: لو أنك التقيت بسيد الخلق وحبيب الحق افتراضاً، لو التقيت بسيد ولد آدم، لو التقيت بالذي كمله الله عز وجل، وعصمه عن

أن يخطأ في أقواله وأفعاله وإقراره، التقيت معه وجهاً لوجه، وصاحبته، ولم تطبق منهجه إطلاقاً، هل تنتفع به؟ قال: لا، لو التقيت بإنسان لا تعرف أنه غير صادق، قال لك: يا بني استقم، فاستقمت، أدِّ الذي عليك، أديت الذي عليك، غض بصرك، غضضت بصرك، ألم تنتفع من هذا، وقد يكون هذا ليس على صواب، وليس صادقاً، وليس مستقيماً، ماذا تستنبط من هذه المفارقة الحادة؟ أنك لم تنتفع بمنهج سيد الخلق، وانتفعت بإنسان منحرف، المقصد من هذا المثل أن المعول عليه أنت، أنت محاسب عما سمعت، والذي ألقى الدرس محاسب عما قال، لك حساب، وله حساب، حسابك هل طبقت ما جاءك به من البينات؟ قال لك: افعل وهذا الدليل، لا تفعل وهذا الدليل، ولا يستطيع إنسان كائن من كان أن يقول برأيه في الدين:

((انْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ هَذَا الْحَدِيثَ فَإِنَّمَا هُوَ دِينُكُمْ))

[أخرجه الدرامي عن الحسن البصري]

((عمر، دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[العلل لابن أبي حاتم]

الذي تنمو شهوته وتسيطر على كل شيء يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل :

أنت تسأل: ماذا فعلت مما قيل لك؟ والذي قيل لك مدعم بالأدلة والشواهد، والذي ألقى الكلام، ألقى العلم، له حساب خاص، هل طبقت الذي تقوله؟ هل كنت ملتزماً بما تقول؟ هل كنت قدوة لما تقول؟ فالمعول عليه أنت، دعونا من هذه المشاحنات، وهذه التقييمات، وهذه الاتهامات، دعونا منها، وليلتفت كل واحد منا إلى علاقته بربه، وإلى مصيره عند ربه، وإلى مدى التزامه بمنهج ربه:

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ)

فحينما تعودون إليه، مثوبة: من ثاب أي رجع:

(مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ)

هذه الكلمات في هذه الآية قد تثير تساؤلات، هل مسخ هؤلاء قردة وخنازير؟! كان إنساناً فأصبح خنزيراً؟! هل تعتقدون ذلك؟ كان إنساناً فأصبح قرداً؟! أصبح حجمه صغيراً؟ يمشي على أربع، نبت له وبر، لا، بقي إنساناً، لكن صار همه كهم القرد في طعامه وشرابه، وصار خنزيراً همه شهوته، فالذي لا همّ له إلا بطنه، ولا همّ له إلا فرجه هذا قرد وخنزير معاً، فهذا المسخ الذي ورد في بعض آيات القرآن الكريم قد يفهم هكذا، وقد يفهم فهماً آخر، القرآن حمال أوجه، لكن يمكن أن تفهم الآية أن الذي تنمو شهوته، وتسيطر على كل شيء يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، يقسم أيماناً كاذبة، يقسم يميناً غموساً ليقتطع به حق مسلم، هذا الذي يعبد الدرهم والدينار من دون الله، ويبيع بالدرهم والدينار دينه

وآخرته، هذا قرد، والذي من أجل الجنس يبيع آخرته هذا خنزير، فلعل قوله تعالى وهذا خاطر إيماني ليس غير:

(وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ)

الطاغوت صيغة مبالغة للطاغية، الطاغوت صيغة مبالغة للطغيان، فلان طاغية وطاغوت، لذلك الإنسان يعبد القوي كما هو شأن العالم اليوم، القوي يعبد من دون الله، القوي ينافق له، جميع الضعاف ينافقون للقوي، لذلك صفات ثلاث رائعة، عبادة الطواغيت في الأرض، وأن تكون الشهوة هي المسيطر، وأن يكون المال هو المسيطر، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

ينبغي أن نكثر من ذكر الموت وأن نعد أعمارنا عداً تنازلياً :

أيها الأخوة، في بعض البرامج التي تهدف إلى رفع قدرة الإنسان هناك مقولة رائعة: ابدأ من النهاية، نحن جميعاً في هذا المسجد المبارك إن شاء الله نهايتنا جميعاً أن نكون تحت الأرض من وقت لآخر، لكن بالتأكيد بعد مئة وخمسين سنة ليس منا واحد من هؤلاء الحاضرين، وأنا معكم فوق سطح الأرض، بالتأكيد، هذه النهاية، النهاية:

عش ما شئت فإنك ميت

وأحبب ما شئت فإنك مفارقه

واعمل ما شئت فإنك مجزي به

*** * ***

لو أن كل واحد منا بدأ من النهاية، سوف أترك هذا البيت، وأترك هذه التجارة، أترك هذه الزوجة، وهؤلاء الأولاد، وهذه المركبة، وسوف أترك كل ما عندي، أترك أموالي ومقتنياتي، وسوف أدس في التراب، ما ينبغي أن أفعل حتى أكون في التراب مكرماً؟ ابدأ من النهاية، لذلك كان عليه الصلاة والسلام فيما بين صلاة السنة والفرض في الفجر يضطجع على شقه الأيمن، ويتفكر في الموت، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أكثروا من ذكر هادم اللذات ـ مفرق الأحباب ـ مشتت الجماعات))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

أكثر من ذكر الموت، وينبغي أن نعد أعمارنا عداً تنازلياً، ليقل كل منا لنفسه: كم بقي لي؟ لا ينبغي أن يقول: كم مضى من عمري، العد التصاعدي فيه إيهام، أما العد التنازلي فيه رهبة، كم بقي لي؟ مضى خمسون، في الأعم الأغلب لم يبقَ بقدر ما مضى، فإذا مضى الذي مضى كلمح البصر، فالذي بقي

يمضي أيضاً كلمح البصر، كل واحد منا يجري إحصاء، كم من إنسان من أقربائه توفي في حياته؟ واللهِ مرة اطلعت على دليل هاتف أكثر من عشرين شخصاً في هذا الدليل توفاهم الله عز وجل، عشرون شخصاً، وكل يوم نودع بعضنا بعضاً، أعرف أخاً كريماً دخل إلى غرفته ليكتب بعض المقالات، واستأذنته زوجته أن تذهب لتنام، في الصباح دخلت عليه فإذا هو ميت، قد يأتي الليل ولا نعيش فيه إلى النهار، وقد يأتي النهار ولا نعيش في اليوم إلى الليل:

الدنيا ساعة اجعلها طاعة النفس طماعة عودها القناعة

* * *

قرد على خنزير على عابد للطواغيت، وصف جامع مانع لهذا الإنسان.

البطولة لا في الدخول ولكن في الخروج ينبغي أن تدخل صادقاً وأن تخرج صادقاً :

قال تعالى:

(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)

أيضاً في صفة النفاق، كلما تقدم الإنسان في حياته يتقن فن التمثيل، فالإنسان حينما يعبد ذاته، ويعبد مصالحه يعنيه أن يرضي معظم الناس، لذلك يجامل أهل الإيمان.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

[سورة البقرة: 14]

فهذا الإنسان الشارد له ألف لون ولون، يرضي هؤلاء المؤمنين، ويرضي هؤلاء المنحرفين، هو مع المرابين، ومع الورعين، ومع المخلصين، ومع غير المخلصين هو هدفه أن يحقق مصالحه، لذلك:

(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ)

أي دخل مدخلاً في هذا المدخل كفر، وخرج وهو كافر، لذلك الآية الكريمة:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

[سورة الإسراء: 80]

البطولة لا في الدخول، ولكن في الخروج، ينبغي أن تدخل صادقاً، وأن تخرج صادقاً.

حينما تؤمن أنه لا تخفى على الله خافية تستقيم على أمره :

قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)

حينما تؤمن أنه لا تخفى على الله خافية تستقيم على أمره، وحينما تؤمن أنه لا رافع ولا خافض، ولا معز ولا مذل، ولا معطي ولا مانع إلا الله تجمع كل اتجاهك إلى الله عز وجل.

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هذا الإنسان حينما يغفل عن الله، ويشرد يقوم بأعمال لم يدرك أخطارها، ولا مضاعفاتها، يتكلم كلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً. ألا تذكرون أن السيدة عائشة قالت عن أختها صفية قصيرة، قال لها عليه الصلاة والسلام:

((لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته))

[أبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها]

يتكلم كلمة يتهم إنسانة محصنة، وقذف محصنة كما قيل يهدم عمل مئة سنة، يوقع بين أخوين، بين زوجين، بين شريكين، يروج الكفر، يروج النفاق، يثني على العصاة، يكفي أن تقول: فلان لا يصلي، ولا يأتمر بما أمر الله، ولا ينتهي عمل نهى الله عنه، لبق، لطيف، صاحب ذوق رفيع، فهيم، أين الدين؟ تجاهلت دينه كله، إذا سمع ابنك هذا الثناء الكبير، وهو يرى أن هذا الذي تثني عليه قد يشرب الخمر أحياناً، وليس هناك انضباط بحياته، أنت ماذا فعلت؟

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[أخرجه ابن أبي، وابن عدي، وأبو يعلى والبيهقي عن أنس]

يتكلم كلاماً لا معنى له، يتحرك حركة مشبوهة، ينغمس في مستنقع آثم، يقول ما لا يعلم، يتهم صادقاً، يكذب صادقاً، يصدق كاذباً، يخون أميناً، يؤمن خائناً.

الإثم والعدوان وأكل السحت :

قال تعالى:

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

الإثم المعصية، الإثم علاقته مع الله، والعدوان علاقته مع أخيك، لا يكتفي أنه يعتدي على من حوله، يأثم في علاقته بربه:

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتَ)

السحت أن تكسب الكسب الحرام، عندنا كسب مشروع أساسه تجارة مبرورة مشروعة، أساسه إرث صحيح، أساسه هبة شرعية، تأتي أنت، وتعتدي على هذا الكسب المشروع بقوة، أو باحتيال، أو بإغراء، أو بتهديد، فالعدوان على الكسب اسمه أكل السحت، إنسان اشتغل في أرض ثمانية أشهر وزرع، وسمد، وسقى، وحصد، وباع، وقبض ثمن هذه الغلة، يأتي إنسان بتهديد السلاح يأخذها منه

سرقة، ماذا نسمي الثاني؟ آكل للسحت، اعتدى على كسب مشروع، اعتدى على كسب الآخرين، ولو دققت في حياة الناس اليوم كم من إنسان يستخدم قوته، أو سلطته، أو ذكاءه، أو احتياله في كسبِ كسب الناس، والعدوان على كسبهم الحلال، هذا هو أكل السحت، لو سألتني أن أضغط الفساد في الأرض بكلمتين، أقول له: حرية في كسب المال، وحرية في اقتناص الشهوات، فساد أهل الأرض لا يزيد على كلمتين: علاقة مباحة مع النساء من دون قيد أو شرط، وكسب للمال من دون قيد أو شرط، المؤمن يقيده إيمانه عن كسب غير مشروع، ويقيده عن علاقة غير مشروعة، انضباط في كسب المال، وفي العلاقة بالنساء.

أمراض أهل الكتاب نحن مرشحون أن نقع فيها واحداً وَاحداً :

أيها الأخوة، حينما يحدثنا ربنا جل جلاله عن أهل الكتاب، ليس القصد أهل الكتاب ولكن القصد نحن، لأن كل الانحرافات العقدية والسلوكية التي وقعوا بها نحن كمسلمين مرشحون أن نقع بها، فكأن الله عز وجل يريد أن يلفت نظرنا إلى أن هذه الانحرافات في العقيدة والسلوك يمكن أن يقع بها المسلمون، والدليل مثلاً:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً)

[سورة البقرة: 80]

والمسلمون اليوم يفهمون بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فهماً سطحياً وساذجاً، يقولون: افعل ما شئت والنبي يشفع لك، الفكرة واحدة.

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ))

[متفق عليه عن عائشة]

فحينما لا يعاقب إلا الضعيف وينجو من العقاب القوي فنحن وقعنا في مرض آخر من أمراض بني إسرائيل، وإنما أهلك الله بني إسرائيل أنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

[سورة المائدة:79]

حينما نكف اللسان مطلقاً عن أي إنكار لمنكر، وعن أي أمر بمعروف وقعنا في انحرافاتهم، وحينما قال اليهود:

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

[سورة البقرة:93]

ولسان حال المسلمين: سمعنا وعصينا، فنحن مثلهم، أمراض أهل الكتاب نحن مرشحون أن نقع فيها واحداً وَاحداً، وها أنا قد ذكرت لكم بعضاً من هذه الأمراض، وقد تماثلت بيننا وبينهم، فلذلك حينما يحدثنا ربنا عن هؤلاء أي أنكم معرضون لانحرافات كهذه الانحرافات، نسأل الله جل جلاله أن يعفو عنا، وأن يلهمنا رشدنا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (30 - 49) : تفسير الآية 63، الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-05-21

بسم الله الرحمن الرحيم

آية اليوم تشير إلى الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثالثة والستين، وهي قوله تعالى:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

وقبل هذه الآية:

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أيها الأخوة، كأن آية اليوم تشير إلى الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه، فالله عز وجل يقول:

(لَوْلَا)

ولولا تفيد في اللغة الحض، لولا فعلت كذا، أي افعل كذا:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

القدوة أبلغ من التبليغ :

قال علماء التفسير: الربانيون علماء النصارى، والأحبار علماء اليهود، أو الربانيون المنسوب إلى الرب، فهذا الذي يدعو إلى الله منسوب إلى الله، محسوب عليه، هذا الذي يدعو إلى الله يمثل وحي السماء، يمثل كمال الإسلام، يمثل العلم، يمثل الورع. لذلك سيدنا علي رضي الله عنه يقول: قوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالم مستعمل علمه، أي عالم يطبق علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه.

ما الذي يحصل؟ قال: إذا ضيع العالم علمه، لم يستعمل علمه، لم يطبق علمه دعا إلى شيء وهو لا يطبقه، فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، صار هذا الإنسان أداة تنفير من الدين، لأنه تكلم شيئاً وفعل شيئاً آخر، هذا الإنسان يحمل الناس على أن يكفروا بالكلمة.

الأنبياء بماذا جاؤوا؟ جاؤوا بالكلمة، لم يأتوا لا بالبوارج، ولا بالصواريخ، ولا بالطائرات، ولا بحاملات الطائرات، ولا بالكمبيوتر، جاء الأنبياء بكلمة صادقة، فقلبوا وجه الأرض، لكن الكلمة حينما لا تكون صادقة يكفر الناس بها، وهذا الذي حصل، لذلك الخطاب الديني الآن في أكثر الأحايين لم يحقق أهدافه، لأنه الأنبياء حينما طبقوا ما قالوا، قلبوا وجه الأرض، والذين ينقلون العلم للناس إذا لم يطبقوا حملوا الناس على أن يكفروا بالكلمة، قال: فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره، الفقير كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه: كاد الفقر أن يكون كفراً، فالفقير حينما لا يجد حاجته، ولا كرامته، ولا يرى حقوقه، يكفر بكل شيء، فيبيع نفسه للشيطان، وهذا الذي يحصل.

إذاً: البطولة لا أن أتصدر المجالس، وأن ألقي المواعظ، البطولة أن أكون مثلاً أعلى، أن أطبق ما أقول، والحقيقة النطق سهل، أي إنسان أتاه الله ذاكرة قوية، وحافظة متينة، وطلاقة لسان يبلغ ويتكلم، لكن أن تكون في مستوى ما تبلغ، وأن تفعل ما تقول، وأن تحقق ما تقول لتكون قدوة، فهذا الذي يريده الله عز وجل.

لذلك الأنبياء العظام لهم مهمتان كبيرتان، المهمة الأولى أنهم قدوة، والمهمة الثانية أنهم مبلغون، لكن القدوة أبلغ من التبليغ، الله عز وجل يقول:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ)

هؤلاء الربانيون المنسوبون إلى الله، المحسوبون عليه، الذين يمثلون وحي السماء، يمثلون الكمال البشري، من هنا قال بعضهم: الورع حسن، لكن في العلماء أحسن، والتوبة حسنة، لكن في الشباب أحسن، والحياء حسن، لكن في النساء أحسن، والصبر حسن، لكن في الفقراء أحسن، والسخاء حسن، لكن في الأغنياء أحسن ".

الآية التالية تتحدث عن دور العلماء الذين حمّلهم الله أمانة التبيين :

الأزمة الآن أزمة خطاب ديني، وكأن هذه الآية تتحدث عن دور الذين ينطقون بوحي السماء، عن دور الدعاة إلى الله، عن دور العلماء الذين حملهم الله أمانة التبيين.

خليفة في موسم الحج التقى مع أحد العلماء، قال له: سلني حاجتك، قال له: والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما التقاه خارج المسجد قال له: سلني حاجتك، قال: واللهِ ما سألتها من يملكها، أفأسألها من لا يملكها؟ فلما ألح عليه قال: نجني من النار، وأدخلني الجنة، قال له: هذه ليست بيدي، قال له: إذاً ليس لي عندك حاجة، أرأيت إلى هذه العفة. الحسن البصري سئل: بمَ نلت هذا المقام؟ قال:

باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي، فكيف إذا استغنى الأمراء عن علم العالم، والعالم احتاج الأمراء في دنياه، انتهت مهمته، الله عز وجل يقول:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

[سورة الأحزاب: 39]

هؤلاء ما صفاتهم، لهم آلاف الصفات، أليس هذا المبلغ صادقاً، طبعاً صادق، أليس أميناً؟ أمين، أليس مصلياً؟ مصلٍّ، أليس صائماً؟ صائم، أليس ورعاً؟ ورع، لماذا أغفل الله كل هذه الصفات، ولم يذكرها، اكتفى بصفة واحدة، قال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 39]

لو أن هذا الذي كلفه الله أن ينقل العلم للناس خشي من غير الله، ما الذي يحصل؟ سينطق بالباطل إرضاء له، وسيسكت عن الحق خوفاً منه، فماذا بقي من دعوته؟ انتهت دعوته، آية دقيقة جداً:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 39]

أبو جعفر المنصور قال لأبي حنيفة النعمان: يا أبا حنيفة لو تغشيتنا، فقال له: ولمَ أتغشاكم؟ فليس لي عندكم شيء أخافكم عليه، وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء؟

الدين توقيفي لا يقبل التغيير ولا التعديل ولا التطوير ولا الزيادة ولا النقصان :

أخوتنا الكرام:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ)

المشكلة الآن أن الشرع في هذا المستوى، بمستوى عال، وأن الناس في مستوى متدنٍّ، الداعية أو العالم أمامه خياران، إما أن يرفع الناس إلى مستوى الشرع، وإما أن يهبط إليهم، الحالة الثانية أهون وأسهل، وتوسع له قاعدته بشكل كبير جداً، ويصبح عالم العصر، وهذا الإنسان المرن الواقعي الحديث العصري، لكن على حساب أحكام الشرع، هذه يجوز، وهذه يجوز، وهذه يجوز، وهذه بلوى عامة، وهذه فيها رأي ضعيف، وهذه فيها رأي شاذ، فإما أن يهبط إلى الناس، أو أن يرفع الناس إلى مستوى الشرع، إذا أراد أن يرفع الناس إلى مستوى الشرع لا يرتفع معه إلا قلة قليلة، أما إذا هبط إلى مستوى الناس يرى جماهير لا تعد ولا تحصى، هذه مشكلة موجودة في الأديان السماوية الثلاثة، فإما أن تتملق الناس، وأن تفتي لهم بما يهوون، وأن تقدم لهم الحلول التي لا ترضي الله، ولكنها ترضي غرورهم، أو ترضي شهواتهم، أو ترضي شبههم، وإما أن تصر على موقف دقيق، أهم شيء في هذا الموضوع أن

الدين توقيفي، معنى توقيفي أنه لا يقبل التغيير، ولا التعديل، ولا التطوير، ولا الزيادة، ولا النقصان، لا يقبل هذا أبداً لأنه توقيفي، ولأنه من عند الله، لو كان من عند البشر فالبشر كماله نسبي، وإطلاعه نسبي، وفهمه نسبي، ودائرته متعلقة بالواقع، أما لأنه من عند خالق البشر، فكمال هذا الدين مطلق، لذلك أي حذف اتهام لهذا الدين بالزيادة، وأي إضافة اتهام لهذا الدين بالنقص، ولأن الله عز وجل يقول:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

[سورة المائدة: 3]

التجديد في الدين :

أي إن عدد القضايا التي عالجها الدين تامة عدداً، وأن طريقة المعالجة كاملة نوعاً، إذاً هذا الدين توقيفي، وما التجديد التي يروّج له؟ هذا التجديد يروج له الآن بشكل لا يتصور، هناك ترويج للتجديد، أما التجديد الذي يروج له فلا يفهم في هذا الدين إلا على النحو التالي، أن ننزع من الدين كل ما علق به مما ليس منه.

هذا هو التجديد، أي بناء من أرقى أنواع الحجر تراكمت على هذه الأحجار عبر السنين والحقب طبقة سوداء شوهت منظره، فلذلك التجديد أن ننزع عن هذا البناء كل ما علق به مما ليس منه، أما أن نفهم التجديد تطوير في أسلوب الخطاب الديني فلا مانع، أن نتخذ قنوات جديدة في الخطاب الديني لم تكن معروفة من قبل لا مانع، لأنه:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ)

[سورة إبراهيم: 4]

أي بطريقة نقل المعرفة في قومه، فقد نستخدم أساليب الآن لم تكن من قبل، مثلاً الآن هناك مجال كبير جداً عبر المواقع المعلوماتية، فقد يدخل على هذه الصفحة مئات الألوف، الذين يستخدمون هذه المواقع يزيدون في الأرض عن ثلاثمئة مليون، فإذا أحسنت استخدام هذه القنوات الدعوية الجديدة فهذا تطوير في أسلوب الخطاب الديني.

كنا حينما نحضر مؤتمراً نأتي بمحاضرات والله بحجم هذه الطاولة، حملها صعب، الآن يعطى الذي حضر المؤتمر قرصاً مدمجاً فيه ثلاثمئة موضوع، كل موضوع مئتا صفحة في قرص يوضع في الجيب ولا يرى، هناك تطوير، فتطوير الخطاب الديني بمعنى توفيق التقنية الحديثة بنشر هذا الدين، إذاً هذا مسموح به،

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ)

النهي يحتاج إلى إرادة قوية وإلى تضحية و ورع و خوف من الله :

إذاً:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

أنت تمثل الدين، وقيلت أمامك كلمة تتعارض مع الدين، إذا بقيت ساكتاً أسلم لك وأكثر راحة، مصالحك محققة، وتعيش في بحبوحة، ليس عندك أي مشكلة، وإنسان تكلم، وتحداك بكلام يتناقض مع الدين، وافقه أسلم لك، إذاً النهي يحتاج إلى إرادة قوية، يحتاج إلى تضحية، يحتاج إلى ورع، يحتاج إلى خوف من الله، يحتاج إلى صدق، يحتاج إلى جرأة، يحتاج إلى شجاعة:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

معنى ذلك أن الناس يتكلمون بالإثم:

(عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ)

هناك معاص بالقول، ومعاصٍ باليد، يأكلون مالاً حراماً، هذه مسموح بها، تجد أعلى جهات دينية في بعض الأقطار العربية يفتون بأشد المعاصي حرمة، وهي الربا، لا شيء عليك لو أودعت مالك في مؤسسة ربوية، وتقاضيت الفائدة على أنها عائدة؟ عوض الفاء عين، ولا شيء عليك، فالمعصية التي قال الله عنها:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة البقرة: 279]

إذاً هذه المعصية تهدم مجتمعات، لأن المجتمع البشري الله عز وجل شرع له أن يلد المال من الأعمال، وإذا ولد المال من الأعمال توزعت الكتلة النقدية في المجتمع على أكبر شريحة في المجتمع، عندئذٍ لا يكون المال دولة بين الأغنياء منكم.

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

[سورة الحشر: 7]

المال قوام الحياة :

إذا سمحنا للمال فقط أن يلد المال عن طريق الربا تجمعت الأموال في أيدٍ قليلة، وحرمت منها الكثرة الكثيرة، وتكاد تكون مشكلات أهل الأرض الآن مجتمعة في أن مليوناً لا يملكون واحداً، وواحد يملك مليوناً، تسعون بالمئة من ثروات الأرض بيد عشرة بالمئة من سكان الأرض، تجد البذخ وإتلاف المال والإنفاق غير المعقول بمجتمعات، وتجد القهر والفقر والحرمان بمجتمعات أخرى.

أنا ذكرت لكم في الأسبوع الماضي أنني زرت بلداً في جنوب إفريقيا، رأيت ما لا يصدق، لا طعام، ولا شراب، ولا كساء، ولا صحة، ولا تعليم، ولا أدوات، ولا شيء، ولا ثياب تستر عوراتهم، ومجتمع آخر ما يأكله الكلاب في هذا المجتمع لا يأكله شعب كبير في آسيا، تسعمئة مليون، هذا التفاوت حينما يلد المالُ المال، تتجمع الأموال في أيد قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة، فكل ما يجري في العالم من عنف الآن بشكل أو بآخر يمكن أن يفسر من خلال هذه المقولة، وقد عبر عنها الإمام علي رضي الله عنه: كاد الفقر أن يكون كفراً، والإنسان حينما تعطيه رغيف خبز، وحينما تعطيه كرامته تأخذ منه كل شيء، والنفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت، والمال قوام الحياة، فإذا كان في مجتمع ما كتلة نقدية ينبغي أن تكون متداولة بين أكبر شريحة من شرائح المجتمع. فحينما تأتي مراتب دينية عالية جداً، وتفتي بأكبر معصية في المجتمع بتغيير كلمات والألفاظ، ماذا نقول؟

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

كم من إنسان ينقل مقولات لا أصل لها في الدين، عقيدة زائغة، ينقل مقولات تتناقض مع كلام الله عز وجل، ومع كلام رسوله، وتروَّج، وفي محاضرات دينية أحياناً ينقل الذي وكله الله بالدعوة إليه أن ينطق بالباطل، أو أن يسكت عن الحق، أو أن يتغاضى عن أكل مال حرام، قد تدخل إلى معبد لا تجد فيه إلا الغناء والموسيقى، وقد تدخل معبداً ولا تجد امرأة محتشمة إطلاقاً طيب ما الفرق بين الشارع والمعبد؟ لا بد أن يكون هناك فرقاً، لذلك:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

من صفات الداعية أن يكون ورعاً ولا ينافق :

أقول لكم أيها الأخوة: أنت حينما تسكت تسلم، لو شاهدت المعاصي على قارعة الطريق، لو أن مسلماً زارته بنت أخيه، وكانت في ثياب فاضحة، فاستقبلها ورحب بها، وسأل عن صحتها، وعن دراستها، وعن مستقبلها، وأثنى عليها، وعلى جمالها، هذا ماذا فعل؟ هذا أعطى المنكر دعماً، عزز المنكر:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

نريد ما عندنا، دعونا من عند غيرنا، الذي وكله الله بنقل هذا العلم ينبغي أن يكون ورعاً، ينبغي ألا ينافق، ينبغي ألا يقول قولاً يثير حوله جدلاً كبيراً، مثلاً عقد قران يأتي إنسان يلقي كلمة فيثني على هاتين الأسرتين ثناء غير معقول، أنا أذكر مرة أنه عقد قران في مكان عام، والذين تكلموا أثنوا على الأسرتين الدمشقيتين، العريقتين، التقيتين، الورعتين، هذا عقد القران، العرس كان بفندق، وزعت الخمور، وجيء بالراقصات، والنساء شبه عرايا، هاتان الأسرتان العريقتان الدمشقيتان الورعتان

التقيتان، أين مكانة العلم؟ انتهت مكانة العلم:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

المديح بلا طائل، بلا ثمن، بسرعة، من دون تحقق.

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أنس رضي الله عنهم]

إنك إذا مدحته اضطرب الناس، لو إنسان لا يصلي، يشرب الخمر، وقلت لشخص أمامك، أمام أولادك: لبق، لطيف، عنده خبرات عالية بالحياة، فهيم يا أخي، ابنك رآه يشرب الخمر، وهو فهيم، يقترف المعاصي، وهو ذو خبرة عالية بالحياة، اضطرب ابنك.

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أنس رضي الله عنهم]

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

بعض من أسباب هلاك بني إسرائيل :

لماذا أكثر الله من الحديث عن أهل الكتاب في القرآن الكريم؟ لأن كل الأمراض التي وقعوا فيها نحن مرشحون أن نقع فيها، وقد وقعنا فيها، ما سبب هلاك بني إسرائيل؟

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة المائدة: 79]

ما سبب هلاك بني إسرائيل؟

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ))

[متفق عليه عن عائشة]

ما سبب هلاك بني إسرائيل؟

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

[سورة المائدة: 24]

كل واحد جالس مرتاح لا ينتقد، لا يأمر بالمعروف، لا ينهى عن المنكر، يجامل إلى درجة النفاق، مصالحه محققة، ومكانته كبيرة، وحوله هالة كبيرة جداً، لا داعي لأن يغامر بمكانته، مرض:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

تتكلم كلاماً لا أصل له، تدرس بمدرسة أن الإنسان أصله قرد، أين أصبح آدم وحواء؟ ألغي القرآن بهذه الطريقة، تؤلف موسوعات علمية عن الإنسان الحجري، أي إنسان حجري؟ البشرية بدأت بنبي كريم، بهذه الطريقة ألغيت كل الأديان:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

بعض أمراض المسلمين اليوم :

القول لا يتطابق مع الواقع، والواقع القديم من أعلمنا عنه؟ ربنا، الله عز وجل قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الكهف: 51]

حينما تقول: الإنسان بدأ بإنسان حجري متوحش، وكان أصله قرداً، أي أنت كنت وقتها؟ لكنك تردد كالببغاء ما قيل لك، يقول كما تقول الببغاء، ما كنت وقتها أنت، لكنني قد أفاجئكم الآن أنني آمنت أخيراً بهذه النظرية، لكنها معكوسة، كان الإنسان إنساناً فصار قرداً، مسخ إلى قرد، لأنه همه بطنه وفرجه، هذا هو القرد، شكله شكل إنسان، الإنسان حينما ينسى سبب وجوده، وينسى غاية وجوده، وينسى أنه المخلوق المكرم، وأنه خلق ليعرف الله، حينما يصبح همه بطنه وفرجه وشهوته يمسخ قرداً وخنزيراً، القرد همه بطنه والخنزير همه فرجه:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

أنا أسقط هذه الآية على واقع المسلمين، دعونا من غيرنا، ولنتحدث عن أمراضنا نحن، إذاً ينبغي أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، ينبغي ألا تسكت على خطأ، ينبغي أن تنطق، أنا أروي قصة نموذجية: سائق سيارة على خط دمشق بيروت، ركب معه شاب وشابة، وتمنيا عليه أن ينتظر قليلاً حتى تأتيهم محفظة، انتظر السائق، بعد ربع ساعة جاء رجل كبير في السن بالسبعين، أعطاه المحفظة، فهذا الشاب وكزه على رأسه معنفاً، لمَ تأخرت؟ لم ينتبه السائق، وضع المحفظة وانطلق إلى الشام، بعد ما قطع ثلث المسافة سمع الشابة تقول للشاب: لماذا ضربت أباك؟ وإذ بالسائق يوقف السيارة، قال له: أبوك هذا؟ انزل، هذا المبلغ، بهذه البساطة البالغة. عندما يرتكب إنسان جرماً كبيراً بحق أبيه والجميع صامتون الباطل يتعزز، ومن يقف في وجه المنحرف؟!!

قصة عابرة، لكنها تعبر على أن هذا الإنسان مؤمن، ما ارتضى أن يركب معه إنسان عاق بوالديه.

التفسير الأرضي يريح الناس والتفسير السماوي يزعجهم :

قال تعالى:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

أنت في جلسة يقول أحدهم: الآن في أدوية تطيل العمر، أنت ساكت والسكوت راحة لك، عندك في القرآن:

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

[سورة الأعراف: 34]

السكوت فيه راحة، مصالحه محققة، ليتكلموا بما يشاؤون، لا، ما وظيفتك؟ وظيفتك أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

ما يعانيه المسلمون اليوم يفسر تفسيراً أرضيّاً، ما عندنا تقنية عالية، هذا السبب فقط؟ أين الله؟ أين وعود الله للمؤمنين؟ هناك أسباب أكبر، لكن دائماً التفسير الأرضي يريح الناس، والتفسير السماوي يزعجهم.

زلزال، سهل جداً أن تقول: اضطراب بالقشرة الأرضية، وهذا شيء صحيح، التفسير العلمي لا يتناقض مع التفسير التوحيدي، يتكاملان، لما أراد الله أن يؤدب هؤلاء ساق لهم هذه المصيبة، أما هذه فأساسها اضطراب بالقشرة الأرضية، فكلما أردت أن تصف حال المسلمين اليوم بتخلفهم علمياً وتقنياً، وهذا شيء لا يكفي، الله وعد المؤمنين:

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة :

تسمع أحياناً أطروحات غير صحيحة، وغير مقبولة، أو الحل أن نكون مع الأقوياء، وأن نبطح أمامهم، هذا حل أيضاً، عالم يجلس بمجلس ويتكلم كلاماً كهذا؟!

والله أنا كنت في سفر، وفي جلسة طرحت فيها ما تعانيه الأمة الإسلامية من ضغوط، ومن قهر، ومن قتل، ومن تدمير، ومن تحديات، الأشياء الآن لا تحتمل، فالجو العام هبط، المعنويات هبطت إلى أدنى مستوى، فبعد أن انتهت الجلسة قلت لهم: اسمحوا لي بكلمة فيها إضاءة قرآنية لما نعانيه نحن اليوم من أزمات، قلت لهم: إنما يعانيه المسلمون اليوم من أزمات ما هي إلا رسالة من الله للمسلمين كي يغيروا

ما في أنفسهم حتى يغير الله ما بهم، رسالة من الله، وأن جهة قوية في الأرض إذا خططت أن تبني مجدها على أنقاض الآخرين، وأن تبني حياتها على موتهم، على إبادتهم، الآن حرب إبادة، أن تبني عزها على ذلهم، أن تبني غناها على فقرهم، أن تبني أمنها على خوفهم، وأن تنجح الخطط على المدى البعيد فنجاح هذه الخطط على المدى البعيد لا يتناقض مع عدل الله فحسب بل مع وجوده، الله موجود.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

[سورة الزخرف: 84]

أكثر الجلسات الآن محصلة الجلسة معنويات هابطة، إحباط شديد، وكأن الله غير موجود، أعطى هؤلاء القوة يفتكون بالناس ويذلونهم، ويهدمون البيوت، ويقصفون الآمنين كما ترون وتسمعون. لذلك أي معالجة لقضية مما نعانيها ينبغي ألا تبتعد عن التوحيد، لكن أنا لست مكلفاً أن أفهم حكمة الله فهماً مطلقاً بل فهماً نسبياً، وإذا قلت لي: لماذا يدع الله هؤلاء يفعلون ما يريدون، قد لا أملك أنا الجواب لكنني أملك القرآن، ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة. أملك أن أقول لهم:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

[سورة الشورى: 30]

من أسباب هزيمة المسلمين أنهم يفتقرون إلى شروط النصر :

أملك أن أقول لهم: هان أمر الله علينا فهنا على الله، أملك أن أقول: إننا نفتقر إلى شروط النصر، رسول الله سيد الخلق، وحبيب الحق، ومعه نخبة الخلق:

((إن الله اختارني واختار لي أصحابي))

[رواه الطبراني عن عوير بن سعادة]

ولم ينتصروا في أُحد لأنهم عصوا رسولهم، لو أن الله نصرهم لسقطت طاعة رسول الله، ولم ينتصروا في حنين لأنهم أشركوا:

((لن نغلب من قلة))

[أخرجه البيهقي عن أبي داود]

فلو انتصروا لسقط التوحيد، نبي كريم معه أصحاب كرام، ولمعصية واحدة لم ينتصروا، إذا كان مليون شرك ومليون معصية لماذا لم ننتصر؟ مليون قضية شركية، ومليون قضية فيها مخالفة لمنهج الله، يجب أن تطرح الحق، معنا كلام الله، معنا سنة رسول الله، أما أن تجلس في مكان تُطرح قضايا خلاف القرآن وتسكت، وتهز رأسك بالإيجاب وتجامل، هذه الفكرة سرت بين الناس، وأفسدت عقائدهم:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

هذا القول يبعدك عن الله عز وجل، بل يقربك من أعداء الله، الخلاص في أن نستسلم؟ الخلاص في أن ننبطح؟ الخلاص في أن نعطيهم ما يريدون؟ الخلاص أن نواليهم أو يأس وقهر؟ انتهينا، إما حل استسلامي مهين أو يأس قاتل؟ هذا الذي يطرح بالمجالس الآن، تجد عالماً يجامل، أنت معك كلام الله، معك كلام النبي عليه الصلاة والسلام.

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ)

دخول لا تعد ولا تحصى مشبوهة بالحرام، وأن العبد يقول: يا رب، ويا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له.

أكل السحت أن تعتدي على كسب الآخرين :

أكل السحت أن تعتدي على كسب الآخرين. إنسان زرع أرضاً، وجمع الغلال، وباعها بالسوق، وقبض ثمنها، تعب سنة، جاء إنسان سرق منه هذا المال، هذا اسمه سحت، لماذا هو سحت؟ لأنه أخذ الكسب بغير الحق، أي دخل حرام هو سحت، إن غششت أخذت ثمن سلعة جيدة والسلعة غير جيدة، فهو سحت، إن كذبت، إن احتلت، إن دلست، إن احتكرت، أي كسب حرام، هو أخذ ما ليس لك أن تأخذه، هذا أكل سحت:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

لكن شيء يلفت النظر أن الله عز وجل في الآية السابقة يقول:

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ)

كثيراً منهم، أي عامة أهل الكتاب:

(وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أما الأحبار والربان:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

الفرق بين يصنعون و يعملون :

فرق كبير بين يصنع ويعمل، أي إنسان تمزق ثوبه، معه إبرة خياط وخيط فحاكه، هذا يسمى خائطاً، لا يسمى خياطاً، لأنه لا يصنع الألبسة، أما الذي حرفته صنع الألبسة يقال له: خياط، الإنسان العادي يخطئ، نقول:

(لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

أما إنسان يعلم، ويفتي بخلاف ما يعلم، ويفتي إرضاءً لزيد وخوفاً من عبيد، هذا يصنع الباطل، الأول ارتكب الباطل، أما الثاني فيصنع الباطل:

(لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

أيها الأخوة، هناك من يدعو إلى ذاته بدعوة مغلفة بدعوة إلى الله، وهناك من يدعو إلى الله مخلصاً، ونسأل الله جل جلاله أن نكون من المخلصين جميعاً، كل مؤمن داعية، شئت أم أبيت، صدقت صدقك دعوة، تعففت عفتك دعوة، كنت أميناً أمانتك دعوة، كنت حليماً حلمك دعوة.

حدثني أخ قال لي: أريد أن أركب مركبة من حلب إلى أحد أقضيتها، فالتقى بسائق قال له: أنا لا أذهب إلى هناك، ألح عليه، قال له: أبداً لا أذهب، سأله: لمَ؟ فلما ألح عليه قال له: ركب معي إنسان له زي ديني، فلما أوصلته إلى بغيته، قال لي: ارجع، ولا تأخذ أي أجرة، وإلا كلفت من يضربك، فهذا أخذ قراراً ألاّ يركب معه إنسان له زي ديني إطلاقاً، فقال له هذا الشيخ الوقور: كم كنت تتوقع أن تأخذ أجرة هذه الرحلة، أو هذا الطلب؟ قال له: أربعين ليرة، قال: أعطيك أربعين عن الأول، وأربعين عني، وعشرين إكرامية، تسامحنا؟ انظر إلى إنسان سبب لواحد كراهية للدين ولرجال الدين، وإنسان آخر قال له: أنا أعتذر عنه، أدفع المبلغ أنا، وفوقه إكرامية بعشرين ليرة، فرق كبير جداً بين من يحبب الناس بالدين، وبين من يبغض الناس بالدين.

((يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم إني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[ورد في الأثر]

تناقض الطبع مع التكليف هو ثمن الجنة :

إذاً الدعوة إلى الله خالصة من لوازمها الإتباع، من لوازمها التعاون لا التنافس، من لوازمها الاعتراف بفضل الآخرين، أما الدعوة إلى الذات المغلفة بدعوة إلى الله من لوازمها الابتداع، أن تأتي بشيء ما جاء به القرآن، ولم تأت به سنة النبي العدنان، ومن لوازم الدعوة إلى الذات المغلفة بدعوة إلى الله فضلاً عن الابتداع التنافس لا التعاون، مشكلة المسلمين التنافس، جميع المسلمين مستهدفون، وبأسهم بينهم، تجد الطرف الآخر الحروب طاحنة خلال مئتي سنة، الآن ينطق عنهم إنسان واحد، وأموالهم تنتقل فيما بينهم من دون قيد أو شرط، يتعاونون تعاوناً لا حدود له، أيليق بالمؤمنين المسلمين أن يكون بأسهم بينهم؟ وألا تعجب من هؤلاء الذين لا حق معهم يتعاونون من أجل مصالحهم؟

إذاً التعاون من صفات المؤمنين، ويا أيها الأخوة، كتعليق سريع، الإنسان كما كنت أقول دائماً: له طبع، ومعه تكليف، ولحكمة أرادها الله عز وجل الطبع يتناقض مع التكليف، فإذا كان من لوازم الطبع أن تأخذ المال، فمن بديهيات التكليف أن تنفقه، وإذا كان من لوازم الطبع أن تملأ عيناك من محاسن النساء، فمن لوازم التكليف أن تغض البصر، وإذا كان من لوازم الطبع أن تبقى نائماً حتى ترتاح، فمن لوازم التكليف أن تستيقظ، وإذا كان من لوازم الطبع أن تخوض في فضائح الآخرين، فمن لوازم التكليف أن تصمت، ومن طبع الإنسان أنه فردي، والتكليف تعاوني، فأنت تتعاون مع الآخرين بقدر طاعتك لله وتتنافس معهم بقدر بعدك عن الله، فحيثما وجدت أناس متخاصمين متباغضين متناحرين بأسهم بينهم، فاعلم أنهم بعيدون عن الله عز وجل، وأوضح ما يقال الآن: ما تواد اثنين في الله ففرق بينهما إلا بذنب أصابه أحدهما؛ على مستوى فردي، على مستوى جماعي:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: 14]

أما المؤمنون فمتعاونون، بعضهم لبعض نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم، إذاً الله عز وجل يأمرنا بالتعاون، والطبع تناقضه مع التكليف هو ثمن الجنة.

التواصي بالحق ربع النجاة وأحد أركانها :

أيها الأخوة، لا بد من أن أختم هذا الموضوع المتعلق بالدعوة والدعاة، بأن الدعوة إلى الله فرض على كل مسلم، أعيد وأكرر: الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، بدليل قول الله عز وجل:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

التواصي بالحق ربع النجاة وأحد أركان النجاة، إذاً هي فرض عين، الدليل الآخر:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة يوسف: 108]

فإن لم تدع إلى الله على بصيرة فأنت لا تتبع رسول الله، والذي لا يتبع النبي لا يحب الله.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران: 31]

التطبيق والإخلاص يقوِّيان الإسلام وهما ما نحتاجه هذه الأيام :

لكن الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، وأقول لكم أيها الأخوة: أنت حينما تطبق ما تقول، وتخلص فيما تقول يهبك الله قوة تأثير لا حدود لها، حينما تطبق ما تقول، وتخلص فيما تقول، التطبيق والإخلاص يقوِّيان، والآن الإسلام يحتاج إلى تطبيق، لا يحتاج إلى كتاب يتحدث عن الإسلام، هناك كتب تتحدث عن الإسلام لا تعد ولا تحصى، لكن الناس يحتاجون إلى مسلم يرونه بأعينهم، يتحرك أمامهم، إن تكلم فهو صادق، وإن عاملك فهو أمين، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف، لذلك أنت داعية شئت أم أبيت، أنت داعية ولو كنت صامتاً، وقد يكون الصامت أبلغ في دعوته من الناطق، هناك دعوة صامتة أساسها أخلاق الإسلام، وهناك دعوة ناطقة أساسها الفصاحة والبيان.

ذكرت قصة قبل فترة ذكرتها مرات عديدة، وذكرتها في سفرتي هذه عن هذا الإمام الذي كان بلندن، ونقل إلى ظاهر لندن، واضطر أن يركب مركبة كل يوم، وأن يلتقي مع السائق كل يوم، في أحد المرات أعطى السائق ورقة نقدية كبيرة، ورد له البقية، عدها فإذا هي تزيد عشرين سنتاً عما يستحقه، لأنه مسلم، ولأنه ورع، ولأنه تقي، ونقي، ويحب الحق، ولا يقبل أن يأكل مالاً حراماً، قال: ينبغي أن نعيد المبلغ إلى السائق، جاءه خاطر أن الشركة عملاقة، ودخلها فلكي، والمبلغ زهيد جداً، وأنا بحاجة له، ولعل هذا المبلغ هبة من الله ساقه لي، خاطر غير صحيح، شيطاني، لكن الذي حصل أنه قبيل أن ينزل من المركبة دون أن يشعر مد يده إلى جيبه، وأعطى السائق العشرين سنتاً، قال له: هذه زيادة، فقال له السائق: ألست إمام هذا المسجد؟ قال: بلى، قال: والله حدثت نفسي قبل يومين أن أزورك في هذا المسجد لأتعبد الله، ولكنني أردت أن أمتحنك، قال: يا رب كدت أبيع الإسلام بعشرين سنتاً.

أنت حينما تصدق أنت أكبر داعية، وحينما تتقن عملك أنت أكبر داعية، وحينما لا تغش الناس أنت أكبر داعية، وحينما تكون أميناً أنت أكبر داعية، نحن الآن بحاجة إلى مسلم متحرك، نراه بأعيننا، الكتب لا تؤثر الآن، الذي يؤثر إنسان متحرك، كيف أن القرآن كون ناطق، وكيف أن الكون قرآن صامت، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، الآن المسلمون في أشد الحاجة إلى مسلم مطبق يرونه رأي العين.

الأمانة والصدق والنصح والإتقان هو ما يعيد للمسلمين مصداقيتهم :

قلت لكم مرةً: إنسان محسن في هذه البلدة أراد أن ينشئ مسجداً لوجه الله تعالى في منطقة ليس فيها مسجد إطلاقاً، كلف أحد أخواننا الكرام، هذا الأخ وجد أرضاً مناسبة جداً، وسعرها مناسب جداً فبلغ المحسن، فجاء المحسن ليرى الأرض، وليدفع الدفعة الأولى، الأرض مناسبة، مساحتها مناسبة، شكلها

مناسب، سعرها مناسب، فالمحسن الكبير وقع شيكاً لصاحب الأرض بنصف ثمن الأرض، صاحب الأرض مستخدَم في مدرسة، راتبه أربعة آلاف ليرة، عنده ثمانية أولاد، فقير جداً، هذه الأرض ورثها قبل شهر، وثمنها أربعة ملايين تقريباً، وسطر له شيكاً بملونين، فقال صاحب الأرض للمحسن: أين بقية الثمن؟ قال له عند التنازل، قال له: التنازل لمن؟ قال له: للأوقاف، قال: لماذا للأوقاف؟ قال له: هذه سوف تكون مسجداً، قال له: مسجد! أمسك بالشيك ومزقه، قال له: والله، إني أستحي من الله أن أبيع أرضاً تكون مسجداً، أنا أولى منك أن أقدمها إلى الله، يقول هذا المحسن: والآن مريض شفاه الله، يقول: والله ما صغرت في حياتي كما صغرت أمام هذا الإنسان، أي إذا كان معه مئتا مليون ودفع مليوناً لن يحصل شيء، أما هذا راتبه أربعة آلاف، وعنده ثمانية أولاد، لا يملك من الدنيا إلا ثمن هذه الأرض، استحيا من الله أن يبيعها كي تكون مسجداً. الآن الذي يهز الناس موقف أخلاقي، أمانة، صدق، حلم، إتقان عمل، نصح، فهذا الذي يعيد للمسلمين مصداقيتهم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (31 - 49) : تفسير الآية 64، معاني اليد في القرآن الكريم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-05-28

بسم الله الرحمن الرحيم

اليد عضو من أعضاء الإنسان ولكنْ أصدق صفة فيها الحركة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الرابعة والستين، وهي قوله تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

أيها الأخوة، اليد جارحة، عضو من أعضاء الإنسان، ولكنْ أصدق صفة فيها الحركة، تتحرك يمنة ويسرة، وارتفاعاً وانخفاضاً، فيها رسغ، الكف فيه أصابع، الأصابع فيها سلاميات، الإبهام له وظيفة، السبابة لها وظيفة، الوسطى لها وظيفة، فأوضَحُ عضو من أعضاء الإنسان تظهر فيه الحركة هو اليد. فاليد جارحة، لها الحركة، وحركتها حرة، بعض الأعضاء الحركة فيها محدودة، العمود الفقري حركته محدودة، يمكن أن ينثني، لكن في حدود لحركته، أما اليد فلها حركة مسبقة، يمنة ويسرة، ارتفاعاً وانخفاضاً، الكف تتحرك قبضاً وبسطاً، وحينما تمنع من الحركة، حينما تقيد تكون مغلولة.

إذا رضي الناس بقول إنسان فاسق وسكتوا وارتاحوا لقوله فكلهم آثمون :

قال تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

كيف؟ ورد في الكتب أن اليهود قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام تفرغوا لصناعة آلات الحرب، وبناء الحصون، وأهملوا الزراعة، فلما خابت محاصيلهم، وقلّت أرزاقهم، قال زعيمهم (فينحاص): لماذا قبض الله يده عنا؟ بل:

(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

الغريب أن الله عز وجل يقول:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ)

قال واحد منهم، بل قال زعيمهم، لأنهم سكتوا، وأسروا بهذا القول، إذاً جميع اليهود حملوا إثم هذا القائل، والذي عقر الناقة واحد، لكن الله عز وجل قال:

(فَعَقَرُوهَا)

[سورة الشعراء: 157]

إذا رضي الناس بقول إنسان وسكتوا، بل وارتاحوا لقوله فكلهم آثمون، وكأن كل واحد منهم قال هذه المقولة:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ)

مع أن الذي قال واحد، هو (فينحاص):

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

أنواع الفقر :

لأنهم أهملوا زراعتهم فقلّت محاصيلهم نسبوا تقصيرهم إلى الله، هذا يقودنا إلى موضوع دقيق: هو أن هناك فقر الكسل، وهناك فقر القدر، وهناك فقر الإنفاق، فقر الإنفاق دعونا منه، هذا لكبار الصحابة، لسيدنا الصديق الذي أنفق كل ماله، ولم يقبل النبي من أحد من أصحابه أن ينفق كل ماله إلا الصديق، قال له: يا أبا بكر، ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله، هذا فقر الإنفاق، حالات نادرة.

لكن فقر القدر أن يكون الإنسان ذا عاهة تمنعه عن كسب رزقه، هذا الفقير فقير القدر معذور، لكن الفقر الذي لا يعذر صاحبه هو فقر الكسل، الإنسان حينما يقعد، لا يعمل، لا يبحث عن عمل، له عمل لا يتقنه، له عمل لا ينجزه، يتواكل، يسوف، يرجئ، يميل إلى الراحة، إلى النوم، إلى قبض المال من دون أن يقدم شيئاً، هذا كسل خطير، وهذا الكسل موجود في المجتمعات المتخلفة، في كسل، بالمجتمعات المتخلفة في فقر، لكن هذا الفقر أساسه الكسل، ليس هناك حركة، كلام فارغ، تتبع مشكلات الناس، كل إنسان مشغول بأخطاء الآخرين، يتابعها، يدقق فيها، يذيعها بين الناس، يشهر بهم، وكأنه يتلذذ بنقل هذه الأخبار، أما أن يعكف على نفسه، ويقوم بعمل نافع للأمة، فهذا السؤال الذي ينبغي أن يسأله كل إنسان: ماذا قدمت لأمتك إذا سألك الله عز وجل يوم القيامة: ماذا قدمت للمسلمين؟ هل قدمت لهم علماً؟ هل قدمت لهم مالاً؟ هل قدمت لهم خبرةً؟ هل قدمت لهم نصيحة؟ هل فكرت في مشكلاتهم؟ هل حملت همومهم؟ هل أقلقك وضعهم؟ هل آلمك ألمهم؟ هل ساءتك مساءتهم؟ ماذا فعلت؟ الإيمان حركة أيها الأخوة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: 72]

أنت إذا اكتفيت بالإيمان لم تفعل شيئاً، هذا الضوء متألق، لو أنك قلت: أنا مؤمن أنه متألق، ماذا فعلت؟ هو متألق، أقررت بذلك أم لم تقر، الشمس ساطعة، قل: الشمس ساطعة ألف مرة، هي ساطعة، إن لم تقل ذلك تتهم بعقلك.

أن تكتفي بالإيمان دون أن ترفقه بعمل فهذه طامة الطامات :

إذاً أيها الأخوة، أن تكتفي بالإيمان دون أن ترفقه بعمل فهذه طامة الطامات، ومصيبة المصائب، إعجاب سلبي، نحن مؤمنون والحمد لله، مؤمنون بالله، برسول الله، بالجنة، بالنار، بالقضاء والقدر، ماذا فعلت؟

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: 19]

هناك أعمال لا تعد ولا تحصى أساسها المصلحة الشخصية لا وزن لها عند الله.

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

[سورة الكهف: 105]

بعض آراء المفسرين فيما يتعلق بالآية التالية :

1 ـ حينما تعزو أخطاءك لقضاء الله وقدره تكون كاليهود :

أيها الأخوة، حينما تعزو أخطاءك لقضاء الله وقدره تكون كاليهود الذين قالوا:

(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

التق مع أي إنسان، فرص العمل نادرة، هل بحثت عن عمل؟ هل فكرت في عمل مبدع؟ هل فكرت في عمل لم تسبق إليه؟ هل فكرت بإخلاص لخدمة الناس؟ الله موجود في كل عصر، وكل مصر، وبكل وقت، وبكل زمان، لا بد من حركة:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

هذا رأي من آراء المفسرين.

2 ـ حينما رأى اليهود فقر المسلمين وحاجتهم رأوهم لا شأن لهم عندهم إطلاقاً :

الرأي الآخر أن اليهود قالوا:

(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

حينما رأوا فقر المسلمين وحاجتهم. النبي عليه الصلاة والسلام التقى بعدي بن حاتم، وكان عدي ملك من ملوك العرب، قال: يا عدي، لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجته، المسلمون فقراء، وأيم الله ليوشكن المال أن يفيض بهم حتى لا يوجد من يأخذه.

هناك سرّ، لماذا كان النبي فقيراً؟ ولماذا كان ضعيفاً؟ لو كان قوياً لطمع الناس به، ليعتزوا به، ليتقووا به، لو كان غنياً لطمعوا بماله، فآمنوا به لا محبة بالله، ولا قناعة به، ولكن طمعاً بمصلحة، فلحكمة بالغةٍ بالغة جعل الله الأنبياء فقراء، وضعافاً، يُتَّهمون بالكذب، وينامون في بيوتهم، يتهمونه بأنه مجنون، وينامون في بيوتهم، لكنك لا تستطيع أن تنطق بكلمة عن قوي، لا تنام في بيتك، يتهم أنه شاعر ومجنون، وله مآرب، ولا شيء، يرى النبي أصحابه يعذبون لا يستطيع أن يفعل شيئاً، يقول: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة، أنت حينما تؤمن بإنسان ضعيف فقير، لكن الحق معه تكون بطلاً، عندئذٍ الله عز وجل يطمئن نبيه، ومن تبع نبيه.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى: 5]

القرآن الكريم اعتمد قيماً متاحة لكل واحد منا وهي قيم العلم والعمل :

إذاً الإنسان حينما يكون فقيراً أو ضعيفاً، أحياناً المصائب تولد البطولات، الحزن خلاق، أنت حينما تعطي نصف دخلك لأخيك، ودخلك لا يكفيك تكون بطلاً.

ذكرت مرة قصة، أن هذا الذي ورث أرضاً، ويعمل حاجباً في مدرسة، ودخله أربعة آلاف ليرة، وعنده ثمانية أولاد، عرض الأرض للبيع، فكان ثمنها ما يزيد على أربعة ملايين، ثروة كبيرة جداً لإنسان معدم، الذي اشتراها أراد أن يجعلها مسجداً، فلما علم أن هذا الفقير يبيعها لتكون مسجداً استحيا من الله، ومزق الإيصال، وقال: أنا أولى أن أقدمها لله منك، يقول هذا الغني الكبير: ما صغرت في حياتي كما صغرت أمام هذا الفقير المحسن. الحزن خلاق، قد تنشأ في بيئة فقيرة، قد يكون المال قليلاً، لكن ميزان الله لا علاقة له بالمال، القرآن الكريم اعتمد قيماً متاحة لكل واحد منا، اعتمد قيمة العلم، وقيمة العمل.

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: 9]

(وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: 11]

واعتمد قيمة العمل:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: 19]

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

على الإنسان ابتغاء الرفعة عند الله عز وجل:

أما قيمة الذكاء، وقيمة الغنى، وقيمة الوسامة، وقيمة الجمال، وقيمة القوة، فهذه قيم مزيفة، يتعامل بها في حياتهم الدنيا، لذلك:

((رب أشعث أغبر ذي طمرين ـ مدفوع بالأبواب ـ لو أقسم على الله لأبره))

[رواه أنس عن أبي هريرة]

دخل على النبي الكريم رجل فقير جداً، فرحب النبي به ترحيباً لا مثيل له، فعجب، فقال: أهلاً يا من خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي؟! قال: نعم يا أخي، أنت خامل في الأرض علم في السماء.

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[ورد في الأثر]

((كلكم من آدم وآدم من تراب))

[الترمذي]

قد تكون في الدرجة السفلى من المقياس الاجتماعي، لكن قلامة ظفرك تعدل عند الله مليون إنسان، قد تكون في أدنى درجة من السلم الاجتماعي، ولك عند الله شأن كبير.

((ابتغوا الرفعة عند الله))

قال له: لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتك، وأيم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من كثرة عدوه ـ الآن الأرض كلها تحارب الإسلام ـ وأيم الله، ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف، ولعله إنما يمنعك من دخول من هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم _ المسلمون مليار وثلاثمئة مليون، بكل إمكاناتهم وثرواتهم وموقعهم الجغرافي، وأنهم أمة واحدة، دينهم واحد، ولسانهم واحد، هل يستطيعون الآن بربكم أن يفعلوا شيئاً في الأرض؟! أبداً، قيمتهم ليست واضحة أبداً،

هذا امتحان صعب نحن به، وهذا الذي أصابنا رسالة من الله: أن يا عبادي غيروا ما بأنفسكم حتى أغير ما بكم _ ولعله ما يمنعك دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة للعرب، وقد عاش عدي حتى رأى هذه الوعود الثلاثة. الرأي الآخر: أن اليهود قالوا:

(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

لأن المسلمين فقراء، ضعاف، وهذا الذي يصرف الناس عن الإسلام الآن، دول فقيرة نامية متخلفة، الفقر مستشرٍ، والبطالة، هم أقوياء وأذكياء وأغنياء، ومعهم أسلحة فتاكة، وصواريخ، والإعلام بيدهم، والاقتصاد بيدهم، ونحن أمم متخلفة لا شأن لنا عندهم إطلاقاً.

3 - يد الله مغلولة عن عقابهم في الآخرة لأنهم شعب الله المختار :

رأي ثالث:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

أي مغلولة في الآخرة عن عقابنا.

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً)

[سورة البقرة: 80]

نحن لا نعاقَب، لأننا شعب الله المختار.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

أمة محمد أمتان أمة الاستجابة وأمة التبليغ :

والمسلمون اليوم إذا قالوا: نحن أمة محمد، الجواب هو ما يلي:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

لذلك العلماء يقولون: أمة محمد أمتان، أمة الاستجابة، وأمة التبليغ، إن استجابوا كانوا:

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

وإن لم يستجيبوا فهم أمة التبليغ، هم أمة كأي أمة، لا شأن لها عند الله إطلاقاً:

(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

أي في الآخرة عن عقابنا، نحن لا نعاقب.

(قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة آل عمران: 80]

إذا قال المسلم: أنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وسيشفع لي يوم القيامة يقول الله له:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

[سورة الزمر: 19]

أيّ عمل صالح هو قرض لله عز وجل وسيوافيك بأضعاف مضاعفة يوم القيامة :

لو أنك انتزعت من فم النبي صلى الله عليه وسلم فتوى لصالحك، انتزعتها من فم النبي، لا من مفتي، قضية متعلقة بالجنة والنار، وأكل المال الحرام، تكتفي بإنسان جاهل يصلي أحياناً، وغير معين من قبل الأوقاف يفتي لك بهذا، وينتهي الأمر؟! لماذا أنت إذا أردت أن تبيع بيتك، وقال لك أحد الذين في طريقك: هذا ثمنه مليونان، لماذا تسأل مئة إنسان؟ لماذا في أمر دنياك تتحقق، تتثبت، تتأكد، تبحث، توازن، تقارن، لماذا؟

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

أي مغلولة عن عقابنا في الآخرة، صدقوا أيها الأخوة، أن ثلثي عقائد المسلمين التي توارثوها خرافات وأوهام، الدعاء: اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

اعمل مراجعة لعقائدك، قد تعتقد أننا أمة مرحومة، لسنا مرحومة على ما نرى نعاقب عقاباً أليماً، نعاني ما نعاني، المرحوم من استقام على أمر الله، هناك أوهام، ومعتقدات زائغة، وكلام غير مقبول، الكلام الصحيح هو كلام الله عز وجل، وما صح من حديث رسول الله، واليهود ألفوا هذا الكلام والتطاول على مقام الألوهية، لهم قول آخر:

(إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

[سورة آل عمران: 181]

لأنهم سمعوا قول الله عز وجل:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

أن الله فقير يطلب القرض منا، لكن الله عز وجل بهذه الآية الدقيقة: أي عمل صالح لو قدمته لنملة، لطائر، لهرة، هو قرض لله عز وجل، وسيوافيك بأضعاف مضاعفة يوم القيامة، بعض الأحاديث ورد: أنك إذا وضعت لقمة في فم زوجتك، توددا لها وتطييباً لقلبها، رأيتها يوم القيامة كجبل أحد، لقمة طعام،

لو أعطيت طفلاً حلوى، لو ابتسمت في وجه أخيك، لو سألته عن صحته، لو سألته عن أولاده، لو دعوته إلى بيتك، لو قدمت له طعاماً، لو قدمت له هدية، إذا أدخلت على قلب أخيك الفرح والسرور سوف ترى هذا العمل يوم القيامة كجبل أحد.

كل إنسان ينسى ما عند الله من إكرام إنسان أحمق ومحدود :

أيها الأخوة الكرام، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

[سورة آل عمران: 181]

لكن رب العزة أغنى الأغنياء، ملك الملوك يقول: يا عبدي هل تقرضني، الله عز وجل يحب أن تربح عليه. تصور ملكاً قال لمعلم: علّم ابني، وأنا أكافئك، هذا المعلم بعد أن أعطى الدرس، قال لهذا الطفل: أعطني أجرتي، الملك هيأ لك بيتاً، ومركبةً، وراتباً مدى الحياة، أنت أردت أن تأخذ من الطفل مبلغاً محدوداً. فكل إنسان ينسى ما عند الله من إكرام إنسان أحمق وغبي ومحدود.

مرة حدثني أخ كانت سيارته معطلة، والطريق صعود شديد، والمركبات كلها لا تقف في هذا الموقف، بعد ساعة أو ساعتين أحدهم وقف، قال له: ماذا تريد؟ قطعة أعاره إياها، قال لي: حدثت نفسي أن هذا الإنسان عظيم، هذا الإنسان وقف، هذا الإنسان أراد أن ينجدنا، عندما انتهى، أرجع له هذه الأداة، قال له: خمس ليرات إذا أمكن، قال: والله لو طلبت مئة ليرة لأعطيتك، لكنني كنت أتمنى ألا تأخذ شيئاً، كان العمل عظيماً، فلما أخذت عليه أجراً سقط من عين الله عز وجل.

للآية التالية معنيان :

1 ـ المعنى الأول ليست دعاءً إنما تعليم لنا ألا نسكت على قولهم :

الآن:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

كيف نفسر هذه الكلمة؟

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

هي دعاء، هل يليق بمقام الله أن يدعو على عبد؟ هو الإله، تدعو من أنت؟ تدعو الله يا رب دمر فلاناً، دمر أعداءنا، اجعل الدائرة تدور عليهم يا رب، اجعل بأسهم بينهم، أنقذنا منهم، أنت تخاطب إلهاً قوياً

لأنك ضعيف تدعو الله عز وجل، الإله العظيم المطلق يمكن أن يدعو هو على إنسان؟ هذا ليس دعاءً إطلاقاً، لا يقبل أن تكون هذه دعاء:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

أي أن الله يعلمنا أنك إذا سمعت وصفاً لا يليق بالله عز وجل لا ينبغي أن تسكت، قل له: غلت يداك، بل يداه مبسوطتان، هذا ليس دعاء، بل هو تعليم لنا، إذا استمعت إلى كلام فيه اتهام للذات الإلهية، اتهام لها بالظلم، اتهام لها بأن الله في السماء، ولا علاقة له بما يجري في الأرض، ما هذا الكلام؟ هل تقبل من أب عاديّ أن يرى أحد أولاده يضربه أخوته ضرباً مبرحاً والأب ساكت؟ مستحيل، لا بد من أن يتدخل، إذاً هذا الذي يجري ليس قهراً لنا، بل تسليط من الله عز وجل، لحكمة بالغة، قد لا نكشف اليوم حكمتها، هذا تسليط، وليس قهراً لنا، الكرة في ملعبنا، وإذا غيَّرنا يغيّر الله ما بنا، إذاً:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

ليس دعاءً، إنما هو تعليم لنا، أنه إذا سمعت آيات الله يستهزأ بها فينبغي أن يكون لك موقف، إذا سمعت إنساناً يصف الله عز وجل بما لا يليق به فلا ينبغي أن تسكت، ينبغي أن ترد عليه، هذا المعنى الأول.

2 ـ المعنى الثاني عاقبهم الله بالبخل حينما وصفوا يد الله بأنها مغلولة :

المعنى الثاني:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

أي عاقبهم الله حينما وصفوا يد الله بأنها مغلولة، عاقبهم بالبخل، فالبخل من شيمهم، فحرص اليهود على المال لا يوصف.

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ)

[سورة البقرة: 96]

حرصهم على المال لا يوصف، يعبدون المال من دون الله، هم يأكلون الربا ويأكلون السحت من أجل حبهم للمال، إذاً:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

إما تعليم لنا ألا نسكت على قولهم، أو أن الله عاقبهم بهذا الافتراء والتطاول بأن جعل البخل من شيمهم ومن أخلاقهم.

الإنسان إذا ظن بالله ظناً سيئاً عوقب بالبعد عنه :

قال تعالى:

(وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا)

قولهم أبعدهم عن الله عز وجل، الإنسان إذا ظن بالله ظناً سيئاً يبتعد عن الله، وكأنه لعن أي أبعد، إذا ظن أن الله ليس عادلاً، إذا ظن أنه ينبغي أن يكون أفضل من فلان، هذا ظن السوء.

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

[سورة الفتح: 6]

حسن الظن بالله ثمن الجنة:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

أي ينبغي ألا تسكت أمام من يتهم الله عز وجل، أو أن الله عاقبهم بالبخل والشح:

(وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا)

قولهم أبعدهم عن الله عز وجل.

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ)

اليد هي الجارحة، واليد هي النعمة، فلان له على فلان يد، أي له نعمة، واليد هي الملكية.

معاني اليد في القرآن الكريم :

قال تعالى:

(أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ)

[سورة البقرة: 237]

إما تعني التملك، وإما تعني النعمة، وإما تعني الجارحة، وإما تعني المبالغة في العناية.

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)

[سورة ص: 75]

الله خلق الكائنات بكلمة كن.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

خلق الكائنات بكلمة كن، لكن الإنسان خلقه بيده، تكريماً له.

(وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)

[سورة السجدة: 9]

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)

[سورة: 75]

فإما أن تعني اليد أنها الجارحة، وإما تعني أنها النعمة، وإما تعني أنها الملكية، وإما أنها تعني العناية المشددة، هذه معاني اليد في القرآن الكريم، الله عز وجل له يد وله يدان، واليد لها معنى، لكن يجب أن تعلم علم اليقين أن يده ليست كيدك، وأن وجوده ليس كوجودك، وأن كل صفات الله عز وجل ليست كصفاتك، هذه حقيقة مستنبطة من قوله تعالى:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى:]

كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، له يد أثبتها الله في القرآن الكريم، يده ليست كيدنا، ندع تفسيرها لما يليق بذاته جل جلاله.

الله جل وعلا له يدان وكلتا يديه اليمين واليمين رمز العطاء والسخاء والخير :

أيها الأخوة الكرام:

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

هناك بحث دقيق جداً، ليس عند الله يمين وشمال، بل كلتا يديه يمين، اليمين رمز العطاء، ورمز السخاء، ورمز الخير، له يدان وكلتا يديه اليمين فلماذا قال في موقف:

(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)

وقال في آية ثانية:

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

أيها الأخوة، في هذه الآية ملمح رائع جداً، الله عز وجل عطاؤه عطاء، ومنعه عطاء، يعطي بيد نعمة، ويعطي باليد نعمة المنع، وقد يكون المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، لكن عطاء الإيجاب ظاهر، وعطاء السلب باطن، عطاء الإيجاب واضح، قد يعطي الله الإنسان مالاً، قد يعطيه وسامة، قد يعطيه ذكاء، قد يعطيه منصباً رفيعاً، قد يعطيه زوجةً صالحة، هذا عطاء ظاهر، قد يبتليه بمرض هذا عطاء باطن، قد يبتليه بفقر، هذا عطاء باطن.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ)

[سورة الشورى: 27]

إذاً يمنعك وهو يعطيك، ويعطيك وهو يمنعك، لذلك تجد في بلاد كثيرة فيها رخاء لا يوصف، وفيها ترف لا يوصف، مشكلاتهم تكاد لا تكون، لكن أكبر مشكلة عندهم أنهم بهذا الرخاء وهذا الترف

أعرضوا عن الله عز وجل، متصحرون، جفاة، قلوبهم ميتة، هل هذا عطاء؟ اذهب إلى أي مكان تر الناس في بحبوحة، في غنى، وفي ترف، وهمهم سباق السيارات، وسباق الخيل، هل هناك قرب من الله عز وجل؟

إذا كشف الله لنا حكمة المنع عاد المنع عين العطاء :

أيها الأخوة، ربما منعك فأعطاك، وقد تكون الشدة في بلد هي أكبر دافع إلى الله عز وجل، لذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان، أنا لا أقول: أن نرضى بواقع سيء، لا بد أن نحسن واقعنا، ولكن أحياناً لا تستطيع أن تحسن واقعك، لأن هناك حكمة بالغة.

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

أيها الأخوة، حينما يكشف الله لك يوم القيامة ما ساقه لك من هموم وأحزان ومصائب ومتاعب ينبغي أن تذوب محبة لله عز وجل، حينما تكشف حكمة هذه المتاعب، إنها سبب سعادتك الأبدية، أنا أقول دائماً: نحن في العناية المشددة، دقق في طبيب رأى مريضاً مصاباً بالتهاب في المعدة خطير، يعطيه قائمة الممنوعات، ويشدد عليه إلى درجة التعنيف، أما إذا رأى مريضاً مصاباً بورم خبيث في الدرجة الخامسة، وسأله المريض: ماذا آكل؟ يقول له: كل ما شئت.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام: 44]

فلذلك عندما تكون مؤمناً ومستقيماً وعفيفاً وصادقاً وقريباً من الله، وتؤدي العبادات، وتؤدي ما عليك من زكاة أموالك، وترحم الناس، وتكرمهم فأنت أفضل ألف مرة ممن يعريهم في السجون، ويتفنن في تعذيبهم، أليس كذلك؟ لذلك العطاء قد يكون منعاً، وقد يكون المنع عطاء، وإذا كشف الله لك حكمة المنع عاد المنع عين العطاء:

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

المؤمن يكشف الله له بصيرته فيرى نعمة السلب كما يرى نعمة الإيجاب :

النعم نعمة الإيجاب ظاهرة، بل صارخة، نعمة السلب باطنة مستترة، فالمؤمن يكشف الله له بصيرته فيرى نعمة السلب كما يرى نعمة الإيجاب:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ)

[سورة الشورى: 27]

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[رواه سلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

الست مليارات إنسان، لو طلب واحد وقال: يا رب أريد قصراً، ويخت، وطائرة خاصة، وأغلى مركبة، وبيت بالمدينة، وبيت بالمصيف، وبيت على الساحل، لو الست مليارات إنسان طلبوا هذا الطلب لنفذه الله، وما نقص في ملك الله إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في مياه البحر، ذلك لأن عطائي كلام، كن فيكون، وأخذي كلام.

يقول لك: شح بالأمطار، الأمطار قليلة، المحاصيل ماتت، مليارات خسرنا هذه السنة لأن المطر انقطع خمسة أسابيع، لا يمكن أن يكون تقنين الله عجزاً إنما تقنين الله تأديب.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

[سورة الشورى: 27]

أحياناً ننتج من القمح خمسة أضعاف ما نحتاج، وأحياناً ننتج أقل مما نحتاج، والأمر بيد الله.

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات: 58]

تقنين الله لا يمكن أن يكون تقنين عجز بل هو تقنين تأديب :

أيها الأخوة، التقنين لا يمكن أن يكون تقنين عجز، بل هو تقنين تأديب.

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: 66]

ويقاس على هذه الآية: ولو أنهم أقاموا القرآن الكريم:

(لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

الإنسان حينما يبتليه الله في الدنيا هذا دليل أن فيه خيراً :

إذاً:

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

يد فيها عطاء الإيجاب، ويد فيها عطاء السلب، يد تعطي الصحة، ويد تعطي المرض، ليكون المرض دافعاً إلى التوبة، يد تعطي راحة البال، ويد تعطي القلق والهم والحزن، ليكون الهم والحزن دافعاً إلى التوبة، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

[سورة السجدة: 21]

الإنسان حينما يبتليه الله في الدنيا هذا دليل أن فيه خيراً، لأن الذي لا خير فيه تنطبق عليه الآية الكريمة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

أما الإنسان المؤمن المقصر يبتليه الله عز وجل، والابتلاء دليل أن فيه الخير، وأن الله يريد أن يصلحه، لكن بشكل دقيق ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة.

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 165]

كلّ عطاء إلهي حيادي إما أن ترقى به أو أن تهوي به :

أيها الأخوة، الآية الدقيقة:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: 15]

كلام صحيح، نرى بعد قليل:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: 15]

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* كَلَّا)

[سورة الفجر: 16-17]

(كلا) أداة ردع ونفي، كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، الإنسان يبتلى بالمال، يمتحن بالمال، فإذا أنفقه في طاعة الله كان نعمة، وإذا أنفقه في معصية الله كان نقمة، يبتلى بزوجة، إذا أحسن معاملتها، وحببها، ودلها على الله كانت نعمة، وإن أهملها فانحرفت، وأطاع أمرها كانت طريقه إلى النار، قد يعطي الإنسان بنتاً إذا أحسن تربيتها دخل بها الجنة، وإن أهملها وانحرفت تقول يوم القيامة: يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، المال سلم ترقى به، أو دركات تهوي بها، الزوجة سلم ترقى به، أو دركات تهوي بها، القوة قد تكون قوياً، فالقوة إن استخدمتها لإحقاق الحق ونصرة الضعيف كانت سلماً ترقى بها، وإن استخدمتها لأن تتشفى بخصومك، وتنكل بهم كانت دركات إلى النار، فكل عطاء إلهي حيادي، ترقى به إذا استخدمته وفق منهج الله، وتهوي به إذا استعملته بخلاف منهج الله، لذلك الشهوات حيادية:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر: 15-16]

كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء.

عطاء المنع أنفع للإنسان في آخرته من عطاء الإيجاب :

أيها الأخوة الكرام، قال بعض العلماء: عطاء المنع أنفع للإنسان في آخرته من عطاء الإيجاب.

(وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

[سورة الإسراء: 11]

مثلاً، كم من غني ينجو من عذاب النار؟ قلة قليلة، الغنى مغرٍ، الغني يوهم بالقوة، الغنى يوهم بالتكبر، بالتغطرس، بالعجرفة، بالاستعلاء على الناس، لكن الفقر أقرب للعبودية، المئة فقير قد ينجو منهم تسعون، أما المئة غني قد لا ينجو منهم عشرة.

لما سأله جبريل: أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره.

الضعف والفقر أقرب إلى العبودية، واحتمال النجاة في الضعف والفقر أقرب من احتمال النجاة في الغنى والقوة، هذا موضوع جديد، لذلك قالوا: عطاء المنع أنفع للإنسان في آخرته من عطاء الإيجاب، فكلما كان نصيبك من الدنيا قليلاً كان حسابك يسيراً، وكلما كان النصيب كبيراً كان الحساب عسيراً، أنا لا أدعو إلى أن تكونوا فقراء لكن أدعو إلى أن تكشف حكمة الله حينما لا تكون كما تريد، حينما تسعى بكل جهدك، ولا تصل إلى ما تريد إذاً هذا له حكمة بالغة يجب أن ترضى عن الله عز وجل، مع أن

الغنى قوة، والعمل الصالح يحتاج إلى قوة، فالأعمال الصالحة المتاحة أمام الغني أكبر بكثير من الأعمال الصالحة المتاحة أمام الفقير، لكن الغنى زلة قدم، والفقر أضمن للعبودية من الغنى، أنا لا أدعو إلى أن تكون فقيراً، كاد الفقر أن يكون كفراً، أنا لا أدعو إلى الكسل، لا أدعو إلى القعود، أدعو إلى العمل، أدعو إلى تحسين المستوى المعيشي، لكن أنا أقول: حينما تبذل كل ما في وسعك، وتصل إلى مكان تتمنى أن تكون في مكان آخر، ينبغي أن ترضى عن الله، هكذا فقط، ينبغي ألا يفهم من كلامي أنني أدعو إلى القعود أو الكسل، أنا أحارب القعود والكسل، لكن أحياناً الظروف صعبة جداً، بكل ما أوتيت من قوة لا تستطيع أن تصل إلى ما تريد، ارضَ عن الله عز وجل، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل، أما إذا كان الإنسان كسولاً، وكان فقيراً، وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، هذا كلام مردود عليه، طالب ما اجتهد، فلم ينجح، فقال: لا إله إلا الله، حسبي الله ونعم الوكيل، هذا كلام مرفوض، هذا جزاء التقصير.

إن لم تكن مستقيماً على أمر الله فلن تفهم حقائق هذا القرآن ولن تفهم أبعاده :

قال تعالى:

(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً)

أي أن هذا القرآن هدى ورحمة للمؤمنين، هدى للمتقين، لكنه يزيد الظالم ظلماً.

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

[سورة الإسراء: 82]

وهو عمى عليهم، الآية الكريمة:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ*فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ*كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الشعراء: 198-200]

إن لم تكن مع الله، إن لم تكن مستقيماً على أمر الله فلن تفهم حقائق هذا القرآن، ولن تفهم أبعاده، فأن تفهمه يحتاج هذا إلى نفس طاهرة، لذلك قال تعالى:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

[سورة الواقعة: 79]

العداوة والبغضاء لها قانون :

قال تعالى:

(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

هذا قانون العداوة والبغضاء:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ)

[سورة المائدة: 14]

العداوة والبغضاء لها قانون، حينما يتفلت مجتمع من منهج الله تنشأ عداوات لا تحتمل، الأرض كلها عداوات الآن، الأرض كلها حروب أهلية، الأرض كلها عدوان، أحقاد، شيء لا يوصف، التفلت من منهج الله هذه نتيجته، هذا على مستوى شعوب وأمم، وعلى مستوى أفراد:

((ما تواد اثنان، ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أخرجه أحمد عن ابن عمر]

(وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

فالكافر عمله العدوان والإفساد، يقصف ويصدر الأفلام، يقصف ويصدر الأشياء التي تفسد أخلاق البشر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (32 - 49) : تفسير الآيات 65 - 67 ، حقيقة العقيدة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-06-04

بسم الله الرحمن الرحيم

الانتماء إلى الدين التاريخي لا قيمة له إطلاقاً :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة والستين، والآيات التي تليها، يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

أعيد وأكرر أن ذكر أهل الكتاب في القرآن الكريم يعني أن هؤلاء الذين جاءهم كتاب من عند الله قد انحرفوا، ووقعوا في أمراض نحن مرشحون أن نقع بها تماماً، فالحديث عن بني إسرائيل وأهل الكتاب كمن يقول: إياكِ أعني، واسمعي يا جارة، لو أن أهل الكتاب آمنوا، إذاً في هذه الآية خرجوا عن حيز الإيمان، وأي مسلم لم يعبأ بمنهج الله، وأي مسلم لم يعبأ بوعيد الله، ولم يعبأ بوعد الله، بل وضع كل ثقله في إيقاع الأذى بالناس، هذا خرج عن دائرة الإيمان.

الانتماء إلى الدين التاريخي لا قيمة له إطلاقاً، والانتماء الشكلي لا قيمة له إطلاقاً، وهذه حقيقة يجب أن تكون واضحة عند كل الأخوة، لا يجعلك مسلماً حقاً إلا إذا كنت مؤمناً حقاً، ومستقيماً حقاً، ومحسناً حقاً، فإن لم تستقم، ولم تحسن خرجت من حيز الإيمان، وبقي إسلامك بالهوية، وانتماؤك شكلي، وهذا الانتماء الشكلي لا يقدم ولا يؤخر، وهان أمر الله على المسلمين، فهانوا على الله، لا أعتقد أمة من الأمم تعاني كما يعاني المسلمون، تؤخذ أراضيهم، ويقتل أبناؤهم، ويفتك بنسائهم، وتنتهك أعراضهم، ولا أحد يقدم لهم شيئاً، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله.

حينما ينتمي الإنسان إلى الله ينبغي أن يتخلق بالخلق الذي أمر الله به :

الآية واضحة:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا)

إذاً هم عند الله ليسوا مؤمنين، الله عز وجل له أسماء حسنى، وله صفات فضلى، وله منهج، وحينما ينتمي الإنسان إلى الله أي ينتمي إلى منهج الله، وحينما ينتمي الإنسان إلى الله ينبغي أن يتخلق بالخلق الذي أمر الله به، من صدق، وأمانة، وعفو، وتسامح، ورحمة، ولطف، وخير، وعطاء، وبذل،

وتضحية، فهذا الكلام معناه: إياك أيها الإنسان أن تتوهم أن انتماءك الشكلي إلى الدين ينجيك من عذاب الله، الانتماء الشكلي، والانتماء التاريخي، والانتماء الذي لا يعني أنك مصدق بما عند الله من وعد وهو الجنة، ولست معنياً بوعيد الله وهي النار، ولست ملتزماً بمنهج الله، ولست تسعى لخير البشر، بل تسعى لأن تبني مجدك على أنقاض الآخرين، وأن تبني حياتك على موتهم، وأن تبني غناك على فقرهم، وأن تبني عزك على ذلهم، وأن تبني أمنك على خوفهم، أنت إن كنت كذلك خرجت من الملة، وخرجت من حيز الدين، وحيز الإيمان كما قال الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا)

لو أنك زرتني، لو، لولا حرف امتناع لوجود، أما لو فهو حرف امتناع لامتناع، لو أنك زرتني لأكرمتك، أنا لم أكرمك لأنك لم تزرني:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ)

لمَ لم يكفر عنهم من سيئاتهم من شيء؟ لأنهم لم يؤمنوا.

الانتماءات الشكلية والتاريخية لا تقدم ولا تؤخر :

ملخص هذه الآية: لا تعبأ، ولا تهتم لانتماء شكلي لهذا الدين، قد لا تجد الآن المسلم مسلماً، ولا النصراني نصرانياً، ولا اليهودي يهودياً، مثلاً يقول الله عز وجل متحدثاً عن أتباع السيد المسيح:

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

[سورة الحديد: 27]

هل ترون فيما يجري حولنا إنْ في العراق أو في فلسطين، هؤلاء الذين اتبعوه هل في قلوبهم رأفة ورحمة، هذا الانتماء الشكلي أيها الأخوة يسبب التعصب، يسبب العداوة، يسبب البغضاء، يسبب الحروب، الانتماءات الشكلية والتاريخية لا تقدم ولا تؤخر:

(لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا)

لو حرف امتناع لامتناع، هم امتنع إيمانهم، وامتنعت عنهم مغفرة ربهم:

(لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

إذاً الله عز وجل لا يتعامل مع التمنيات، ما من مسلم على وجه الأرض إلا ويتمنى أن يكون من أهل الجنة، أليس كذلك؟

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ)

[سورة النساء: 123]

أيها المسلمون:

(وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء: 123]

الآية التالية ينبغي أن تكون ماثلة أمام كل إنسان :

هذه الآية ينبغي أن تكون ماثلة أمام كل إنسان:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء: 123]

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 111]

يقاس على ذلك والمسلمون يقولون: نحن أمة محمد، نحن أمة مرحومة:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أنا أتكلم بالحقيقة المرة، لأنها أفضل ألف مرة من الوهم المريح، أي ما ينطبق على أهل الكتاب ينطبق الآن على المسلمين، الإيمان الحقيقي ما أُقر في القلب، وأقر به اللسان، وصدقه العقل، عمل المسلمين لا يعبر عن إيمانهم، وكلامهم لا يعبر عن إيمانهم، فإذا لم يكن عملهم يعبر عن إيمانهم، ولا كلامهم يعبر عن إيمانهم، إذاً هم ليسوا مؤمنين، أما أن تقول: أنا مؤمن، والحمد لله أن الله هو الخالق، فهذه كلمة قالها إبليس، قال:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة ص: 76]

حقيقة العقيدة ليست ما ينبغي أن نعتقد بل ما ينبغي أن نكون عليه :

أما أن تؤمن أن الله رب العالمين قالها إبليس:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص: 82]

أما أن تؤمن أن الله عزيز قالها إبليس، أما أن تؤمن أن هناك يوم آخر قالها إبليس:

(فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة ص: 79]

فأن تقر إقراراً لا قيمة له إطلاقاً، ولا زلنا في دروس الأحد من مدة تزيد على ستة أشهر نتحدث عن أن حقيقة العقيدة ليست ما ينبغي أن تعتقد فحسب، بل ما ينبغي أن تكون عليه، إذا كنت مؤمناً بالله، لماذا

لا تستقيم على أمره؟ لماذا لا تحبه؟ لماذا لا تخدم عباده وتحسن إليهم؟ لماذا لا تتوكل عليه؟ فحقيقة العقيدة ليست ما ينبغي أن نعتقد، بل ما ينبغي أن نكون عليه، بناء على عقيدتنا:

(لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

وكأن الله ينتظر كل عباده، ما من إنسان على وجه الأرض إلا وهو مطلوب من قبل الله عز وجل، مطلوب ليرحمه، مطلوب ليسعده في جنة عرضها السماوات والأرض.

ما ينطبق على أهل الكتاب ينطبق على المسلمين :

ورد في بعض الآثار القدسية:

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين؟ عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيا بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض بها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً فأنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلمي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد "، إني والإنس والجن في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ومن أعرض عني منهم ناديته من بعيد، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، فإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد والسيئة بمثلها وأعفو وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[ورد في الأثر]

(لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

ما ينطبق على أهل الكتاب ينطبق على المسلمين، انتماء المسلمين إلى دينهم انتماء تاريخي بحكم الولادة، أو انتماء شكلي، يصلي صلاة جوفاء، لكن تعامله اليومي ليس وفق منهج الله، لكن وفق أهوائه ومصالحه، هذا الإسلام الشكلي، هذه قشور لا تقدم ولا تؤخر.

من آمن بصحيح التوراة والإنجيل آمن بالقرآن الكريم :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

التوراة التي أنزلت من الله تماماً، والإنجيل الذي أنزل من الله تماماً، أي ما صح من التوراة، وما صح من الإنجيل يقود هؤلاء إلى الإيمان بالقرآن الكريم.

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

[سورة الصف: 6]

إذاً لو أنهم آمنوا بصحيح التوراة، وآمنوا بصحيح الإنجيل، لقادهم إيمانهم بالتوراة والإنجيل إلى الإيمان بالقرآن الكريم:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ)

ما الذي أنزل إليهم من ربهم؟ القرآن، أنزل إلينا وإلى كل من في الأرض، كتاب هو رحمة للعالمين.

في السماء خيرات لا يعلمها إلا الله :

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

إشارة إلى أن في السماء خيرات لا يعلمها إلا الله:

(مِنْ فَوْقِهِمْ)

أي أحياناً تأتي أمطار غزيرة فننتج من القمح ستة أضعاف ما نحتاج، وأحياناً كالعام الحالي يأتي جفاف استمر ستة أسابيع، قد لا ينتج بلدنا كله نصف حاجتنا:

(لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ)

أي في السماء خيرات لا يعلمها إلا الله، أحياناً يأتي منخفض جوي يسبب ثروة زراعية تزيد عن ألف مليار. مرةً اطلعت على صورة الأقمار الصناعية، فإذا فوق الشرق الأوسط سحابة رمادية، هذه السحابة سببت مئات المليمترات في كل مناطق القطر، وانعكاسها كان ثروة للمواشي تقدر بالمليارات.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ)

لو أنهم آمنوا بصحيح التوراة، ولو أنهم آمنوا بصحيح الإنجيل، لقادهم إيمانهم بالتوراة والإنجيل إلى الإيمان بالقرآن، ثم هذا الإيمان قادهم إلى الاستقامة على أمر الله، عندئذٍ تتوقف المعالجة ويأتيهم الخير:

(مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

الثروات في باطن الأرض لا يعلمها إلا الله :

هناك ثروات في باطن الأرض لا يعلمها إلا الله، أحياناً مناجم ذهب، أحياناً مناجم ألماس، أحياناً بترول، فالبلاد التي فيها بترول تتنعم بغنى يفوق حد الخيال:

(لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

هذه إشارة لطيفة من الله، يقول الله عز وجل:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

[سورة طه: 6]

البترول تحت الثرى، النحاس، الحديد، الفوسفات، القصدير، هذه المعادن الثمينة جداً، الفحم الذي أصبح ماساً، هذا تحت الثرى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

هذه الآية تذكرنا بقوله تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

(وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن الآية: 16-17]

تقنين الله سبحانه ليس تقنين عجز ولكنه تقنين تأديب :

أخطر حقيقة في هذا الموطن أن التقنين الذي ترونه، الجفاف، التصحر، قلة الأمطار، ضعف الإمكانات، لا يمكن أن يكون تقنين عجز، سبحانه وتعالى، ولكنه تقنين تأديب.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

[سورة الشورى: 27]

كنت مرة في موسم الحج، واطلعت على مقالة عليمة مفادها أنه اكتشف سحابة في الفضاء الخارجي كشفتها الأقمار الصناعية الأوربية، هذه السحابة يمكن أن تملأ محيطات العالم، محيطات الأرض، الخمس قارات تساوي خمس الأرض، آسيا، أوربا، أفريقيا، والأمريكيتان، والقطب الجنوبي، ست قارات، أوقيانوسيا، الست قارات تساوي عشرين بالمئة من مساحة الأرض، والثمانين بالمئة من مساحة الأرض بحار، وقد تصل أعماق البحار إلى ما يزيد على اثني عشر ألف متر في خليج مريانا في

المحيط الهادي، هذه السحابة التي اكتشفت في الفضاء الخارجي يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة باليوم الواحد، هل هناك تقنين عجز أم تقنين تأديب؟ تقنين تأديب.

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

(وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

الله عز وجل يعلمنا الدقة في الأحكام :

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة الآية: 66]

التوراة والإنجيل والقرآن، لكن دقة القرآن الكريم دقة علمية:

(مِنْهُمْ)

من أهل الكتاب أمة مقتصدة، أي استقامت على أمر الله، واستسلمت لمشيئة الله، وأحسنت إلى خلق الله، هؤلاء مستثنون من هذا الوصف العام، الله عز وجل يعلمنا الدقة في الأحكام:

(مِنْهُمْ)

ومن للتبعيض، أمة مقتصدة، وكثير منهم:

(سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

أي كيف يباح للناس الزواج المثلي؟ وقد يكلل هذا الزواج في دور العبادة، هذا في بريطانيا، وفي هولندا، وفي ألمانيا، كيف يمكن لسفير دولة عظمى تدعي أنها راعية الديمقراطية والحرية في العالم، كيف يمكن لسفيرها في بلد أوربي أن يكون مثلياً؟ حينما أقيم له حفل وداع في الخارجية كان الذي معه ليس زوجته، ولكنه شريكه الجنسي.

معنى كلمة (مقتصد) :

قال تعالى:

(مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

إباحية، تبادل زوجات، زنى محارم، أعمال يندى لها الجبين، الإنسان له مئات العشيقات، حدّث ولا حرج، البشرية وصلت من الانحلال، ومن الانحطاط، ومن تفكك الأسرة، ومن العبث بالقيم السماوية ما

لا يوصف:

(مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

مقتصد أي اقتصد، أي أطاع الله عز وجل، لم يكن متفلتاً، الاقتصاد أن تحدد الهدف والإنفاق، هذا الاقتصاد.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

كلمة مقتصد، الله عز وجل أودع في الإنسان الشهوات؛ حب النساء، حب المال، يمكن أن يأخذ مالاً من أية جهة، وبأية طريقة، لكن المؤمن لن يكسب المال إلا من طريق حلال، هذا مقتصد، يمكن أن تكون العلاقة بالمرأة واسعة المدى، الإنسان يلتقي مع أية امرأة، وقد يمارس اللذة مع أية امرأة، ولكن المؤمن مقتصد، أي حصر هذه الشهوة في زوجته فقط، هذا معنى مقتصد:

(مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

حينما يبلغ الناس مرتبة من الانحلال وفساد العقيدة لا بدّ من نبي جديد :

أيها الأخوة الآية التي بعدها:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

الحقيقة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى يرسل نبياً أو رسولاً، وهذا النبي والرسول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقيم منهج الله في الأرض، ثم ينتقل إلى الرفيق الأعلى، أمته من بعده تحافظ على منهجه، لكن مع مضي الزمن يتفلت الناس من المنهج، لكن لا تزال في المجتمع نفوس لوامة، تنصح، وتلوم ذاتها، وتسعى إلى الإصلاح، أما حينما يعم الفساد ولا ترى واحداً يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؟))

[ابن أبي الدنيا وأبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي أمامة]

الآن العمل الصالح يثير التهمة، ما قصده؟ إذا خدمك إنسان لوجه الله تشك به سريعاً، الأصل أن يؤذيك أما إذا خدمك أصبحت حالة مرضية:

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؟))

حينما يعم الفساد في الأرض، حينما ينسى الناس منهج الله عز وجل، حينما ينسون الآخرة كلياً، حينما لا تجد من يقول الله. والله الذي لا إله إلا هو حضرت مؤتمراً للأسرة في بلد إسلامي، والمدعوون جميعاً من بلاد إسلامية، وهم أساتذة الجامعات والله اليوم الأول بكامله كان هناك تقريباً عشر محاضرات، واليوم التالي بأكمله عدا محاضرة واحدة، والله لم تذكر كلمة الله، والموضوع أسرة، والأسرة ألصق شيء بموضوع الدين، حينما لا تجد من يقول الله، التحليلات أرضية، التفسيرات أرضية، الشرك عميم، حينما يبلغ الناس هذه المرتبة من الفساد، والانحلال، وفساد العقيدة، لا بد من نبي جديد، هذا ما يجري في البشرية، النبي الجديد معه منهج، لكن هذا المنهج من شأنه أن يحد حركة الناس، هذا الذي ألفَ أن يأكل الربا، وأن يشرب الخمر، وأن يزني مع أية امرأة، كيف يأتي هذا المنهج ليحدد له مساراً محدوداً، لذلك الرسول يبلغ، والناس ينقمون على الرسول، لأنه بلغهم بلاغاً حد من حركتهم، لذلك يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

هذه التعليمات ليست من عندك ولكن من عند الله.

الله عز وجل نادى كثيراً من أنبيائه بأسمائهم كما ورد في القرآن الكريم :

لكن قبل ذلك:

(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

[سورة البقرة: 35]

ناداه باسمه.

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم: 13]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي)

[سورة الأعراف: 144]

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

[سورة المائدة: 116]

يا عيسى، ويا موسى، ويا إبراهيم:

(قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)

[سورة الصافات: 105]

(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ)

[سورة البقرة: 35]

لم يرد في القرآن الكريم أن الله خاطب محمداً باسمه :

لم يرد في القرآن الكريم أن الله خاطب محمداً باسمه، يا أيها النبي، يا أيها الرسول، هذا يفسر تفسيرين؛ التفسير الأول لعلو مقام هذا النبي الكريم، ولأنه سيد الخلق وحبيب الحق، ولأنه سيد ولد آدم بلا منازع، تكريماً له خاطبه الله بصفته لا باسمه، يا أيها النبي، يا أيها الرسول، ولم يرد في القرآن الكريم أن أحداً أقسم الله بحياته، إلا النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر: 72]

الملمح الثاني: أن كل خير جاء به نبي سابق ضمن رسالة هذا النبي، وكل خير ورد في رسالة سابقة هي في رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقل: يا محمد، قال: يا أيها النبي، أي أن الأنبياء السابقين فحوى دعوتهم في دعوتك، والرسل السابقون فحوى رسالتهم في رسالتك:

(يا أيها النبي)

(وأيها الرسول)

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

هذا ليس من عندك.

أنت موظف بدائرة، ولك زميل متفوق عليك في القدم، وفي المرتبة، ولهذه المؤسسة مدير عام، فإذا أبلغك هذا الزميل الذي تفوق عليك في القدم، وفي المرتبة، وفي الشهادة، قال لك: المدير العام يأمر أن نبقى بعد الدوام ساعتين، هل تنزعج أنت منه؟ لا، أنا مُبلغ، المدير العام بلغني أن أنقل هذا إليك، أن الدوام يمتد غداً ساعتين بعد النهاية.

ما يأتي به النبي الكريم ليس من عنده :

إذاً الله عز وجل يريد من هذه الآية أن هذا الذي يأتي به النبي عليه الصلاة والسلام ليس من عنده.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأنعام: 50]

لكن الطرف الآخر يريده عبقرياً لا يريده نبياً، هو نبي، ينبغي أن يطرح على أمم الأرض على أنه نبي لا على أنه مصلح وعبقري:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

هذا الذي تعطيه للناس من أمر ونهي ليس من عندك، ولا من اجتهادك، ولا من تصورك، ولا من بيئتك، ولا من ثقافتك، إنما هو من عند الله عز وجل.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ)

حينما كذب أهل قريش برسالة النبي عليه الصلاة والسلام، وقالوا: صبأ محمد، وقالوا: هو شاعر، وقالوا: هو مجنون، وقالوا: هو كاهن، ثم أسرى الله به من مكة إلى بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى السماوات العلى، حتى بلغ سدرة المنتهى، هل تتصورون أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يتمنى أن يبلغ هذا للناس من دون أن يسرى به من مكة إلى بيت المقدس الناس يكذبونه، ومن دون أن يبلغهم أنه عرج إلى السماوات العلى الناس يكذبونه، والله لو شققت على صدر النبي لا يتمنى أن يقول هذا، لكن الله أمره أن يبلغه:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

وكل إنسان داعية أقامه الله في إلقاء العلم، أحياناً يتمنى ألا يقول الحقيقة، محرجة جداً الحقيقة، لكن الدعاة الصادقين كما قال الله عنهم:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

[سورة الأحزاب: 39]

يستحيل أن يؤخر النبي البيان عن وقته :

يروى أن الحسن البصري رحمه الله تعالى، كان سيد التابعين، وقد عاش في عصر الحجاج، وقد بلغ رسالة الله في عصره، فغضب الحجاج أشد الغضب، وقال لمن حوله: يا جبناء والله لأروينكم من دمه، وأمر بقتله، وجيء به ليقتل، دخل الحسن البصري فإذا السياف واقف، والنطع قد مد على الأرض، وينتظر إشارة البدء من الأمير ليقطع رأسه، حرك الحسن البصري شفتيه، ولم يسمع أحد ماذا قال، فإذا بالحجاج يقف له، ويستقبله، ويقول: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيد العلماء، وما زال يدنيه من مجلسه حتى أجلسه على سريره واستفتاه في موضوع، وضيفه، وشيعه إلى باب القصر، السياف صعق، لأنه أوتي به ليقطع رأسه، والخادم صعق، تبعه الخادم، قال: يا إمام لقد جيء بك لغير ما فُعل بك، فماذا قلت لله عز وجل وأنت داخل؟ فقال الإمام قلت له: يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم. إذاً:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)

وقال العلماء: يستحيل أن يؤخر النبي البيان عن وقته، أبداً.

كان مرةً عند أصحابه وقد توفاه الله عز وجل، فسمع امرأة من وراء الستار تقول: هنيئاً لك أبا السائد لقد أكرمك الله، لو أن النبي بقي ساكتاً لكان كلامها صحيحاً، فقال عليه الصلاة والسلام: ومن أدراكِ أن الله أكرمه، قولي: أرجو الله أن يكرمه، هذا سماه العلماء تألي على الله، قال لها: وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

يجب أن تؤدي الرسالة، وأنت حينما تقف أمام مقام النبي عليه الصلاة والسلام تقول: السلام عليك يا سيدي يا رسول الله، لقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغمة، وجاهدت في الله حق الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)

أي لا تعتبوا عليه إذا قال لكم: هذا حرام، هذا حلال، هذا مكروه، لا تعتبوا عليه، ليس من عنده شيء:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأنعام: 50]

أخواننا الكرام: في القرآن قل لهم:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة الأنعام: 50]

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

[سورة الأعراف: 188]

هو لا يعلم الغيب، قل لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، أبلغ من ذلك:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

إذا كان عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فمن باب أولى ألا يملك لأصحابه نفعاً.

مقام النبي هو مقام العبودية لله عز وجل :

قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام: 15]

هذا مقام النبي، مقام العبودية لله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

أي لا يستطيع إنسان كائن من كان، ولا يستطيع البشر مجتمعين أن ينهوا حياتك، إنك رسول الله.

تروي بعض الأحاديث أنه من أشد الأيام على رسول الله، وكان متعباً حتى الإعياء، فقال يا عائشة: لو أن بعض أصحابي يحرسني حتى أنام قليلاً، فإذا بحذيفة بن اليمان، وصاحب آخر أتيا طواعية ليحرسا النبي عليه الصلاة والسلام فنزلت هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

فأطل من خيمته وصرف حراسه.

باحثة بلجيكية قرأت سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت هذه الآية سبب إسلامها، قالت: لو أن النبي يخدع الناس ما خدع نفسه، فإذا أخبره الله عن طريق جبريل أنه يعصمه من الناس، لو لم يكن واثقاً من وعد الله عز وجل، ومن حفظه، لما صرف حراسه.

الإنسان أحياناً يخدع الناس لكنه لا يخدع نفسه، قد يقول: فلان مشى على وجه الماء، هذا كذب بالطبع، تفضل وامشِ أنت؟ يعلم أنه إذا مشى يغرق، فقد تروي آلاف الكرامات، وأنت تدَّعي أنك ولي لله عز وجل، لمَ لا تفعل أحدها؟ إنك تخدع الناس ولكنك لا تخدع نفسك، أما النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءه الوحي فقال تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

أطل من خيمته، وقال لحارسيه: انصرفا، فقد عصمني الله.

لا يستطيع إنسان أن ينهي حياة النبي لأنه بهذا يتحدى خالق الأرض والسماوات :

قد يقول أحدكم: كيف نفرق بين هذه الآية:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

وبين قوله تعالى:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)

[سورة آل عمران: 144]

أي ما دام النبي عليه الصلاة والسلام يؤدي رسالة ربه فلا يمكن لإنسان كائن من كان أن ينهي حياته، أما إذا أدى الرسالة فقد يموت موتاً طبيعياً، وقد يقتل، أما وهو يؤدي الرسالة، أو لما يؤدي الرسالة بعد، مستحيل وألف ألف مستحيل أن يستطيع إنسان في الأرض أن ينهي حياته، لأنه بهذا القتل يتحدى خالق الأرض والسماوات.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

الدنيا لها أسباب قد تملكها بأسباب من عند الله وقد تملكها بأسباب من صنعك :

أيها الأخوة الكرام، بقي ملمح في الآيات مجتمعة أن هؤلاء أهل الكتاب:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ*وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

أي أنتم حينما تؤمنون يعطيكم الله أسباب الدنيا، الدنيا لها أسباب، قد تملكها بأسباب من عند الله، وقد تملكها بأسباب من صنعك، إذا إنسان كافر، ملحد، أتقن عمله تماماً، وكشف قوانين الأرض، واستخرج الثروات، وعاش في بحبوحة ما بعدها بحبوحة، هذا إنسان بسعيه ملك أسباب الحياة الدنيا، وذاك المؤمن بتوفيق الله عز وجل ملك أسباب الحياة الدنيا، ما الفرق بينهما؟ المؤمن بعد أن آمن واستقام على أمر الله، وأحسن إلى خلق الله، كافأه الله في الدنيا بأنه أعطاه أسباب الدنيا، لذلك المسلمون حينما عرفوا ربهم، واستقاموا على أمره، فتحت لهم الدنيا من كل أبوابها، هذا الفتح هدية من الله عز وجل، والطرف الآخر حينما أتقنوا أعمالهم، وتعمقوا في بحوثهم، وكشفوا قوانين الأرض ملكوا أسباب الدنيا، لكن الطرف الآخر مقهور، قد تملك أسباب الدنيا ثم يأتي زلزال فيقضي على كل شيء، ثم يأتي إعصار فيهلك كل شيء، قد تملك أسباب الدنيا بقوانين الدنيا، ولكن لا تملك النتائج، أما المؤمن فكما قال الله عز وجل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

الفرق بين أن تملك أسباب الدنيا في ظل الإيمان وبين أن تملكها في ظل الشرك والكفران:

قد يملك المؤمن أسباب الدنيا، وقد يملكها الكافر بصدقه، وسعيه، وإتقان عمله، وبحثه، ودرسه، وسهره، ولكنه يملك أسباب الدنيا، ثم في ثوانٍ معدودة يقهره الله عز وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

فشتان بين من يؤمن، ويستقيم، ويتقي الله، ويحسن إلى خلقه، ثم يؤتيه الله أسباب الحياة الدنيا، فيرتقي عند الله، هذه الأسباب جاءت مكافأة له، يصونها الله له من كل عبث، ويطمئنه على مستقبله.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: 30]

أما من نال أسباب الدنيا بجهده وشركه واعتداده بنفسه فهو كقارون قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

[سورة القصص: 87]

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

[سورة القصص: 81]

هذا الفرق بين أن تملك أسباب الدنيا في ظل الإيمان، وبين أن تملكها في ظل الشرك والكفران.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (33 - 49) : تفسير الآية 68 ، حقيقة الدين.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-06-11

بسم الله الرحمن الرحيم

البطولة أن تعرف الحقيقة المُرّة وأنت حيّ قبل أن يفوت الأوان :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثامنة والستين، وهي قوله تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

أيها الأخوة الكرام، أقول وأكرر: الحقيقة المُرّة أفضل ألف مَرَة من الوهم المريح، الإنسان قد يتوهم أنه على شيء وهو ليس على شيء، قد يتوهم أنه مؤمن وهو في الحقيقة ليس بمؤمن، قد يتوهم أن مصيره إلى الجنة، والحقيقة قد تكون خلاف ذلك، فالبطولة أن تعرف الحقيقة المُرّة وأنت حي قبل أن يفوت الأوان، لأنه أكفر كفار الأرض حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: 90]

فقال الله له:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

[سورة يونس: 91]

ينبغي أن تعرف الحقيقة وأنت حي، ينبغي أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان.

مع الإيمان لك خيار وقت لا خيار قبول أو رفض :

كنت أقول أيها الأخوة: إن خيار الإنسان مع آلاف الموضوعات خيار قبول أو رفض، قد ترفض حرفة دخلها قليل، وقد ترفض سفرةً نتائجها هزيلة، وقد ترفض فتاةً لا يعجبك مظهرها، إلا أنك مع الإيمان لك خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، فإما أن تؤمن في الوقت المناسب، أو أن إيمانك بعد فوات الأوان حيث لا قيمة له، لأن الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

ولأن الذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: 90]

لذلك تنطلق هذه الآيات، وقد تبدو صعبة، تنطلق هذه الآيات من أن الحقيقة المُرّة أفضل ألف مَرَة من الوهم المريح.

العبرة أنالإنسان قد يتوهم أنه على شيء وهو عند الله ليس على شيء :

أنا أخاطب المسلمين، قد يتوهم المسلمون أنهم على شيء وهم ليسوا على شيء، قد يتوهم المسلمون أنهم أمة النبي عليه الصلاة والسلام والنبي يوم القيامة سيتبرأ منهم، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ النبي عليه الصلاة والسلام يَقُولُ:

((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَداً، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، قَالَ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقاً، سُحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[متفق عليه عَنْ سَهْلَ بْن سَعْدٍ]

كلمة شيء في اللغة لا أدري ماذا أقول، لو وجدت في المسجد قشة طولها نصف ميل، وقطرها عشر الميل، هذه شيء، أي أحقر شيء تتصوره هو الشيء، أقل شيء تفكر فيه هو الشيء، ليس من كلمة في اللغة العربية مدلولها أقل من الشيء، شيء:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

أي يا محمد قل لهم:

(لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى)

وأيها المسلمون:

(لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ)

العبرة نحن البشر، العبرة هذا الإنسان الذي خلقه الله عز وجل لجنة عرضها السماوات والأرض، فإذا توهم أنه على شيء قد يكون عند الله ليس على شيء:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى)

معية الله لها ثمن والآخرة لها ثمن :

قبل أن أتابع ما بعد حتى، قال الله:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

[سورة المائدة: 12]

وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

[سورة المائدة: 12]

إذاً معية الله لها ثمن.

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

[سورة الإسراء: 19]

الآخرة لها ثمن.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

النسبية مقبولة في كل شيء إلا في الدين :

لقاء الله له ثمن، لكن أيها الأخوة هناك حقيقة دقيقة، النسبية مقبولة في كل شيء إلا في الدين، إذا عملت بالتجارة، وبذلت جهداً بسيطاً تأخذ ربحاً قليلاً، إذا درست، ونلت ابتدائية فأنت بعيد عن الأمية، الشهادة الإعدادية أعلى، الثانوية أعلى، الليسانس أعلى، الماجستير أعلى، الدكتوراه أعلى، ففي العلم نسبي، فلان ثقافته وسط، معلوماته محدودة، فلان حجمه المالي قليل، يوجد أشياء كثيرة نسبية، إلا في الدين:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

القرآن، أي أن تأخذ بعض الدين، وأن تعتمر، وأنت في بيتك تعيش كما تريد، وأنت في تجارتك تفعل ما تشاء، وأنت في علاقاتك تقيمها على مزاجك، وأنت في أخذك وعطائك لا تعبأ بمنهج الله، ولكنك اعتمرت، ولكنك في رمضان صمت، ولكنك حججت بيت الله الحرام، ولكنك لبست ثياب المسلمين، وتعطرت بعطرٍ زيتي لا كحولي، وحملت مسبحة، ووضعت في بيتك:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

ووضعت مصحفاً في مركبتك، هذا ليس هو الدين، هناك من يتوهم أنك إذا أخذت ببعض ما في الدين تنتقي ما يعجبك، وتدع ما لا يعجبك، تنتقي ما لا يكلفك شيئاً، وتدع ما هو يضعك أمام مسؤوليتك، لذلك هذا الكلام يوجه لأهل الكتاب، ويوجه أيضاً للمسلمين، لأن الأمراض التي وقع بها أهل الكتاب المسلمون مهيئون أن يقعوا فيها نفسها، أو قد وقعوا فيها، الدليل: الله عز وجل أهلك بني إسرائيل لأنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

[سورة المائدة: 79]

لسنا على شيء حتى نقيم القرآن الكريم بكل تفاصيله :

الآن في الأوساط الإسلامية قد تأتي ابنة أخيك، وترتدي ثياباً فاضحة، ثياباً تصف معالم جسمها بدقة بالغة، ترحب بها، وتثني على هيأتها، وتسألها: كيف حالها، ولا تفكر أبداً أن توجهها إلى الثياب التي ينبغي أن ترتديها فتاة مسلمة، أليس كذلك؟

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

[سورة المائدة: 79]

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة، فإذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدنا خيريتنا، وفقدنا كل الميزات، هذا الدين له خصيصة، إما أن تأخذه كله فتقطف ثماره، وإما ألا تأخذ من ثماره شيئاً، قال الإمام الغزالي: " العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطيك شيئاً ".

كذلك الدين، إما أن تأخذ بهذا المنهج بكل تفاصيله، وأنا لا أشدد عليكم، لكنها الحقيقة، والدليل هذا الذي نجده في العالم الإسلامي من قهرٍ، وظلمٍ، وضياعٍ، وتشتتٍ، وتفلتٍ، وتشرذمٍ، وتجزئةٍ، وقهرٍ، لماذا حصل ما حصل؟ لأننا لسنا على شيء، ولو كنا على شيء لعوملنا غير هذه المعاملة من قبل الله عز وجل، لأن الأمر بيد الله، وطنوا أنفسكم على أن تقبلوا الحقيقة المرة، لسنا على شيء حتى نقيم القرآن الكريم بكل تفاصيله، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما إذا استمسكتم بهما: كتاب اللّه القرآن وسنتي))

[الدار قطني عن أبي هريرة]

أيها الأخوة الكرام، وطنوا أنفسكم على أن تقبلوا الحقيقة المرة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ)

التي أنزلت:

(وَالْإِنْجِيلَ)

الذي نزل، وأن تؤمنوا بالقرآن الكريم:

(لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ)

المؤمن يحاسب نفسه حساباً عسيراً في الدنيا حتى يكون حسابه يسيراً يوم القيامة :

المؤمن يحاسب نفسه حساباً عسيراً في الدنيا حتى يكون حسابه يسيراً يوم القيامة، وغير المؤمن يحاسب نفسه حساباً يسيراً في الدنيا، فإذا هو يحاسب حساباً عسيراً يوم القيامة، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، اسأل نفسك كل يوم: هل بيتي إسلامي؟ هل تجارتي إسلامية؟ هل علاقاتي الاجتماعية وفق منهج الله؟ هل تغضب لله؟ هل ترضى لله؟ هل تعطي لله؟ هل تمنع لله؟ هل تتصور أن الله سيحاسبك عن كل حركة وسكنة وكلمة ولفتة وابتسامة وعبوس، أم أن الأمور هكذا كما تتوهم؟

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

عود نفسك أن تواجه الحقيقة الصعبة، عود نفسك أن تواجه الحقيقة المرة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

ويقاس عليها: قل يا أيها المسلمون:

(لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا)

القرآن الكريم، حتى تقيموا هذا المنهج.

ما دامت سنة النبي مطبقة في علاقاتنا الداخلية والخارجية فنحن في مأمن من عذاب الله:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: 33]

كأننا في مأمن أن نعذب، والنبي عليه الصلاة والسلام فينا، كيف يكون النبي عليه الصلاة والسلام فينا؟ طبعاً حينما كان حياً الآية واضحة، ما دام النبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرانينا فلن نعذب، ضمن الامتحان، لكن بعد أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى ما معنى الآية؟ أي ما دامت سنته مطبقة في بيوتنا، وفي أفراحنا، وفي أحزاننا، وفي كسب أموالنا وفي إنفاق أموالنا، ما دامت سنته مطبقة في علاقاتنا الداخلية والخارجية، فنحن في مأمن من عذاب الله، وهناك مأمن آخر:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال: 33]

لو أن الإنسان طبق منهج الله لا يعذب، ولو أنه أخطأ فاستغفر لا يعذب، عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((كُنْتُ رِدْفَ النبي عليه الصلاة والسلام عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ـ دققوا في هذه الإجابة ـ قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا))

[متفق عليه عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أنشأ الله لك حقاً عليه، أنك إذا أطعته لن يعذبك، فإذا كان المسلمون يعذبون ليلاً ونهاراً، وصباحاً ومساءً، وفي كل أقطارهم، معنى ذلك أن هذه رسالة من الله أن يا أيها المؤمنون غيّروا ما بكم، غيروا ما بأنفسكم حتى أغيّر ما بكم.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

حفظ كتاب الله من لوازمه حفظ سنة النبي عليه الصلاة والسلام :

هذه الشدة التي يتحملها المسلمون في شتى أقطارهم إنما هي رسالة من الله:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

لذلك هذا القرآن الكريم منهج الله، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، هذا منهج السماء، هذا وحي السماء، هذا القانون الذي لا يعدل، ولا يطور، ولا يبدل، ولا يغيّر، ولا يستدرك عليه، ولا يضاف عليه، ولا يحذف منه.

أيها الأخوة، مصيبة المسلمين الكبرى أنهم حينما أضافوا إلى دينهم ما ليس منه تفرقوا، واقتتلوا، وكان بأسهم بينهم، وحينما حذفوا من الدين ما هو منه ضعفوا، وأصبحوا في مؤخرة الأمم، هذا الدين توقيفي، لا يضاف عليه، لأن الإضافة عليه اتهام له بالنقص، ولا يحذف منه، لأن الحذف منه اتهام له بالزيادة.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: 3]

لذلك إذا قلنا كلمة تجديد في الدين لا تعني إلا شيئاً واحداً، أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه، هذا هو التجديد، التجديد في الدين أن تعود إلى ينابيعه الأصيلة، أرأيت إلى نهر بردى، مياه عذبة صافية رقراقة رائعة، يمشي في طريقه إلى دمشق، تأتيه الروافد يمنة ويسرة، في مصبه ماء أسود، أليس كذلك؟ فإذا أردت أن تجدد في هذا الدين فارجع إلى ينابيعه الأصيلة، ارجع إلى الكتاب والسنة، لأن الله جل في علاه تولى حفظهما، وحفظ كتاب الله من لوازمه حفظ سنة النبي عليه الصلاة والسلام،

فهذا الذي تجده في العالم الإسلامي من عناية بنص القرآن تفوق حد الخيال، لأن الله تولى حفظ هذا القرآن بأمر تكويني، بينما كلف الأنبياء السابقين أي يحفظوا كتبهم السماوية بأمر تكليفي، والأمر التكليفي يعصى، بينما الأمر التكويني لا يتبدل، لأنه فعل الله عز وجل.

الدين أن يجدك الله عند الحلال والحرام :

إذاً الحقيقة الأولى في هذا الدرس: يجب أن نخاطب أنفسنا ونحن المعنيون، والقرآن الكريم الذي تحدث عن أهل الكتاب فبأسلوب: إياكِ أعني واسمعي يا جارة، نحن المعنيون بهذه الآية: يا أيها المسلمون:

(لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ)

حتى تقيموا القرآن، أما الدين فله مظاهر، قد ترتدي ثوباً أبيض يوم الجمعة، وتتعطر بمسك وعطر زيتي، وتحمل سبحة، وتضع المصحف في مركبتك، والآيات الكريمة في بيتك، وقد تقيم احتفالاً بعيد المولد، وقد تدعو كبار العلماء إلى عقد قران ابنك، ليس هذا هو الدين، الدين أن يجدك الله عند الحلال والحرام.

ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء، ولا الذي يطير في الهواء، ولكن الولي كل الولي أن يجدك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، أن يراك الله في طاعته، وأن يفتقدك في معصيته، هذه الولاية، والولاية في المفهوم القرآني بسيطة جداً:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[سورة يونس: 62-63]

هذه الوَلاية كلها، ولولا أن الولاية في متناول كل إنسان لما كان الحساب عسيراً.

هذا الدين أيها الأخوة مثله مثل الهواء، ينبغي أن يستنشقه كل إنسان، وهناك قاعدة في هذا الدين رائعة: الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، لمجرد أن تطبق هذا الدين تقطف كل ثماره، إن طبقته عن علم أو عن غير علم، بعمق فلسفي أو بغير عمق، لأن هذا الدين منهج موضوعي، يعطي ثماره لكل من طبقه.

الأدق من ذلك لو جاء كافر، لو جاء ملحد، وطبق المنهج الإلهي في بلده لقطف ثماره، لذلك تعجب أن هذه الدول القوية كل إيجابياتها إسلامية، دون أن يؤمنوا بالله، هم آمنوا بالمال، هم عبدوا المال من دون الله، فطبقوا المنهج الإلهي عن ذكاء لا عن تعبد ، فقطفوا ثماره كلها.

كلما جاءت الآيات الباهرات تؤيد هذا الدين العظيم ازداد الكفار بغضاً وكفراً :

أيها الأخوة، هذه الحقيقة الأولى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ)

على أدنى شيء، ولا على قشة:

(حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ)

التي أنزلت:

(وَالْإِنجِيلَ)

الذي أنزل، إن طبقتم التوراة التي أنزل، والإنجيل الذي أنزل قادكم هذان الكتابان إلى الإيمان بالقرآن الكريم، لأن في الإنجيل بشارة إلى سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام.

الآن القسم الآخر في الآية:

(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً)

الشيء المنطقي أنه كلما نزلت آية خففت تشددهم وتعنتهم، وكلما جاءت الأحداث موافقة لوعد الله ووعيده ينبغي أن تخف حدة بغضهم وعداءهم، لكن الذي حصل هو عكس ذلك، كلما جاءت الآيات الباهرات تؤيد هذا الدين العظيم ازدادوا بغضاً، وازدادوا كفراً، وازدادوا عداءً، وازدادوا بعداً.

علاقة الإنسان بالقرآن :

هذه الحقيقة لها ما يقابلها في عالم الفيزياء مبدأ العطالة، الجسم المتحرك يرفض السكون، والجسم الساكن يرفض الحركة، أي أنت حينما تركب مركبة، ويوقف السائق المركبة فجأةً، الركاب متحركون مع المركبة، يرفضون أن يقفوا، فتكون الحوادث المؤلمة، لذلك صنعوا الحزام، حزام الأمان كي تبقى مرتبطاً بالمركبة إذا وقفت، فالذي يركب مركبةً، وتقف فجأة يندفع نحو الأمام، فقد يموت بفعل الصدمة، فالأجسام المتحركة ترفض السكون، والأجسام الساكنة ترفض الحركة.

فإذا مشى الإنسان في طريق الكفر لا تزيده الأيام إلا كفراً، والذي مشى في طريق الإيمان لا تزيده الأيام إلا إيماناً، فاحرص على أن تكون بين المؤمنين، الإنسان أحياناً يبالغ في العداوة والبغضاء، كلما جاءت آية باهرة ازداد كفراً، وكلما جاء تأييد سماوي ازداد تعنتاً، هكذا قال الله عز وجل، لذلك يقول الله عز وجل عن القرآن:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

[سورة الإسراء: 82]

ويقول الله عنه:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

[سورة فصلت: 44]

يقول الله عز وجل موضحاً علاقة الإنسان بالقرآن:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ* كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الشعراء: 198-200]

القرآن بإعجازه وكماله ووضوحه يزيد الكافر طغياناً وكفراً :

إذا كان الإنسان بعيداً عن الله، غارقاً في الشهوات، منحرفاً، لو قرأ القرآن يزداد بالقرآن بعداً عن الله عز وجل.

(الم*ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ*الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة: 1-3]

(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً)

الطغيان مجاوزة الحد.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى*أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: 6-7]

فهذا القرآن بإعجازه، بكماله، بوضوحه، يزيد الكافر طغياناً وكفراً:

(فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

هم اختاروا هذا الطريق، والإنسان مصيره باختياره، فالمؤمن اختار طاعة الله عز وجل، وغير المؤمن اختار معصيته، المؤمن اختار الدار الآخرة، وغير المؤمن اختار الدنيا، والدنيا تغر، وتضر، وتمر، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً، وهؤلاء الذين آمنوا برسول الله أين هم الآن؟ في أعلى عليين، إنك إن ذهبت إلى العمرة تقف أمام قبر الصديق، وتسلم عليه، تقف أمام قبر عمر، أما هؤلاء الذين حاربوا النبي عليه الصلاة والسلام أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ.

هل اعتمر أحدهم، ووقف أمام قبر أبي جهل؟ مستحيل، إياك أن تقف في خندق معارض للحق، لأن المصير في مزبلة التاريخ، أما هؤلاء الذين نصروه في الدنيا كانوا أعلاماً يوم القيامة.

الآية التاليةأصل في حقيقة التدين :

لذلك أنا أقول لكم أيها الأخوة: لا تقلق على هذا الدين، إنه دين الله مهما تآمر المتآمرون عليه، مهما ائتمرت قوى البغي على هذا الدين، إنه دين الله، لكن يسمح لهم إلى حين كي يعربوا عن عداوتهم له، سوف يألفون لنا فرقاناً، من آيات هذا الفرقان: يا محمد أأنت أضللت عبادي؟ يقول يا ربي أنا ضللت فأضللتهم، هذا يعد لنا ليكون كتابنا المقدس بعد حين، لكن خاب ظنهم، والله طفل من أطفال العالم الإسلامي إذا سمع فقرات من هذا الفرقان الحق لا تستأهل آية منه إلا سخريته فقط.

أيها الأخوة: هذا كلام الله، وزوال الكون أهون على الله من أن يبدل أو يغير، ولكن نية الكافر شر من عمله، مهما فعل فهو ينوي أشد مما فعل. يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

الآية الثانية:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

هذه الآية أصل في حقيقة التدين.

إذا تخلى الله عنا لأسباب وجيهة فقد هان أمر الله علينا فهنّا على الله :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أي الذين ينتمون إلى هذا الدين انتماءً تاريخياً أو شكلياً:

(وَالَّذِينَ هَادُوا)

أتباع سيدنا موسى:

(وَالصَّابِئُونَ)

من لا دين لهم:

(وَالنَّصَارَى)

أتباع سيدنا عيسى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أتباع سيدنا محمد ممن كان له انتماء شكلي صوري تاريخي، مليار وثلاثمئة مليون، ولا وزن لهم عند الله إطلاقاً، ذكرت اليوم في الخطبة بلداً إسلاميّاً خلال عشرين يوماً صدر منه خمسة وسبعون مليون

اتصال لبرنامج ستار أكاديمي، لهذا البرنامج الساقط، الذي يثير غرائز الإنسان، ويجعله كالثور، هؤلاء مسلمون؟ وكل دقيقة بعملات البلد التي صدرت منه هذه المكالمات تساوي مئة ليرة، كل دقيقة، والاتصال يجب الانتظار ساعة أو نصف ساعة، ألوف المليارات تجبى بهذه الطريقة، والناس يموتون من الجوع في جنوب السودان، يموتون من الجوع في بقاع متعددة من المسلمين، وألوف المليارات من أجل اتصال بلد إسلامي خلال عشرين يوماً، خمسة وسبعون مليون اتصال، وقبل ذلك كان ستة وثمانون مليون اتصال، لسوبر ستار، أيضاً مليارات وراء المليارات تدفع، والناس يموتون من الجوع أهؤلاء مسلمون؟ إذا تخلى الله عنا لأسباب وجيهة، هان أمر الله علينا فهنا على الله.

الانتماء الشكلي للأديان والتعصب لها يسبب الحروب الطائفية في العالم :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أتباع النبي عليه الصلاة والسلام اتباعاً تاريخياً شكلياً أجوف، لم يبقَ من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ)

طبعاً ينبغي أن تكون والصابئين، هذا اسمه كسر الإعراب، لفتاً للنظر، حتى الذين لا دين لهم:

(وَالنَّصَارَى)

يوجد معنى ضمنياً، سواء عند الله، وانتماء شكلياً، لا يقدم ولا يؤخر، أربعة محلات تجارية، مكتوب على الأول حرير، والثاني أجواخ، والثالث قرطاسية، لكن ليس فيها بضائع إطلاقاً، فقط اختلاف لافتات، المحلات الثلاث ليس فيها بضائع إطلاقاً، إذاً الاختلاف شكلي، هذا الانتماء الشكلي لهذه الأديان، والتعصب لها يسبب هذه الحروب الطائفية في العالم، الانتماء الشكلي دون التطبيق يسبب هذا الذي يجري في العالم اليوم، أحقاد تفوق حدّ الخيال، حروب، قسوة، إبادة، قتل، تمثيل، يقول عليه الصلاة والسلام من علامات آخر الزمان:

((... وموت كعقاص الغنم ـ وباء يصيب الغنم))

[الحاكم عن أبي عوف الأشجعي]

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

في تاريخ البشرية القاتل يقتل، أما الآن الحروب الأهلية، خمسمئة ألف إنسان ذبحوا في أيام في رواندا بجنوب إفريقيا، الآن أقل خبر يقول لك: مئتا قتيل ومئة جريح، في جنوب السودان ثلاثمئة ألف شخص على وشك الموت الآن جوعاً وتشرداً.

وصف دقيق لآخر الزمان :

أيها الأخوة:

((... وموت كعقاص الغنم ـ وباء يصيب الغنم))

[الحاكم عن أبي عوف الأشجعي]

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ؟ وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ؟))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى، ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه))

[ورد في الأثر]

نحن في آخر الزمان:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أتباع رسول الله الذين اتبعوه اتباعاً شكلياً صورياً تاريخياً، حياتهم، معاشهم، تجارتهم، علاقاتهم ليست إسلامية:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا)

أتباع سيدنا موسى:

(وَالصَّابِئُونَ)

من لا دين لهم:

(وَالنَّصَارَى)

الدين أداة وحدة لا أداة تفرق :

دققوا: سواء عند الله، انتماء شكلي، انتماء تاريخي، هذا الانتماء الشكلي معه تعصب، والعلاقات مصالح، والمصالح متناقضة، إذاً هناك حروب، تجد أحقاداً بين المسلمين، بينما في غير المسلمين لا يعلمها إلا الله لأن الانتماء شكلي، الدليل:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: 13]

الأسير عند المسلمين كان يطعم أطيب الطعام، ويأكل الذي أسره أردأ الطعام، النبي عليه الصلاة والسلام خلع رداءه، وألبسه لأسير، أما في بغداد فيعرى الأسير، ويذل، وتنتهك حرماته، هكذا، فلذلك:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: 13]

هذه العداوة والبغضاء بين أتباع الأديان سببها أن أتباع الأديان جميعهم نسوا ما ذكروا به، لم يطبقوا مناهجهم، ولو بقوا لاجتمعوا، ولتحابوا، الدين أداة وحدة لا أداة تفرق:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى)

إن المعنى الضمني والحتمي: كلهم سواء عند الله، انتماء شكلي لا قيمة له.

كل يدعي وصل بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

* * *

كل فئة وكل أتباع دين يتوهمون أن الله لهم وأن الجنة لهم والله بريء منهم جميعاً :

الآن كل إنسان، وكل فئة، وكل طائفة، وكل جماعة، وكل دين، الله لهم والجنة لهم، والله سبحانه وتعالى لا يقرهم على ذلك أبداً.

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 111]

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 80]

كل يدعي وصل بليلى، كل فئة، وكل طائفة، وكل أتباع دين يتوهمون أن الله لهم، وأن الجنة لهم، والله بريء منهم جميعاً:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 111]

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

واقع المسلمين اليوم :

هذه الآية تنطبق أشد الانطباق على المسلمين المعاصرين، وقال المسلمون: نحن أتباع أمة محمد، نحن أتباع سيد الخلق وحبيب الحق، نحن أتباع وحي السماء، يردّ الله علينا: فلمَ أعذبكم بذنوبكم، هل هناك خبر واحد سار من خمسين سنة إلى الآن؟ أبداً، كأن الله تخلى عنا، لكنه وعدنا، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

وقد لقينا ذلك الغي، الآن المسلم أو المسلمون فيه تجسيد وصفي، إنسان يضرب ضرباً حتى تكسر كل عظامه، ما اكتفينا، هذا الذي ضربه وقته ثمين، ومصروفه كبير، يحتاج إلى أجرة، لأنه ضربك، يريد أجرة، سيأخذ كل ما تملك أجرة له، لا يكفي، وتريد مدحه أيضاً، تريد أن تُضرَب، وتدفع أجرة، وتمدح، هذا واقع المسلمين اليوم أليس كذلك؟

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

مقياس الإيمان أن يحملك على طاعة الله :

أنت حينما تؤمن الإيمان الحقيقي الذي يحملك على طاعة الله، مقياس الإيمان أن يحملك على طاعة الله:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

((من قال : لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة ، قيل : وما حقها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند فيه مقال كبير]

لذلك:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

الإيمان الحق:

(وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

أيقن أن الله معه، ويعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، وما من ركنين من أركان الإيمان اقترنا أشد من الإيمان بالله واليوم الآخر، أنت حينما تعلم أن علم الله يطولك، وأن قدرته تطولك فلن تعصيه، لذلك لا يكفي أن تؤمن بالله، لا بد من أن تضيف إلى إيمانك بالله أنه سيحاسبك وسيعاقبك:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

بربكم إنسان قوي إذا قال فعل، هل يعصيه أحد؟ أبداً، إنسان من جنسك، من جلدتك، من بني قومك، ما دام قوياً، وعلمه يطولك، وقدرته تطولك، أبسط مثل؛ الإشارة حمراء، والشرطي واقف، وشرطي على دراجة، وسيارة فيها ضابط مرور، وأنت مواطن عادي تمشي على الأحمر؟ هل هناك أبسط من هذا المثال؟ إذا أيقنت أن علم واضع قانون السير يطولك من خلال هذا الشرطي، وأن قدرته تطولك من خلال سحب الإجازة، ومصادرة السيارة لا تعصيه، هذا القانون أبديّ.

حقيقة الدين وفحواه :

لذلك أيها الأخوة:

((كفى بالمرء علماً أن يطيع الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه))

[ورد في الأثر]

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

بنى حياته على العطاء، يعطي من ماله، من وقته، من صحته، من خبرته، من كل شيء رزقه الله إياه، من هؤلاء:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

هؤلاء المتدينون حقيقة، هذه هي حقيقة الدين، هذا فحوى الدين:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

مما سيأتي:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

على ما مضى، هذا ملخص الملخص، هذه حقيقة الدين، أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً.

آيات قرآنية تبين أن حقيقة الدين أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً :

قال تعالى:

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ)

[سورة الأعراف: 54]

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

[سورة المعارج: 11]

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً*يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً)

[سورة الفرقان: 27-28]

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية: 25-26]

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

[سورة الفجر: 27-28]

الآيات التي قرأناها موجهة إلينا نحن المسلمين :

قال تعالى:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

مما سيكون:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

على ما مضى.

أيها الأخوة الكرام، الآيات التي قرأناها موجهة إلينا نحن المسلمين، لا تخاطب بها غير المسلمين، هي موجهة إلينا، ولكن من باب إياكِ أعني، واسمعي يا جارة، فنحن كوننا مسلمين، والله لا أبالغ، لسنا على شيء حتى نقيم القرآن الكريم في بيوتنا، وفي أعمالنا، وفي تجارتنا، وفي كسب أموالنا، وفي إنفاق أموالنا، وفي لهونا، وفي أفراحنا، وفي أتراحنا، وفي إقامتنا، وفي سفرنا، فإن لم نفعل فلسنا على شيء، وليس لنا عند الله ولا ميزة، هذه الحقيقة المرة التي أعتقد أنها أفضل ألف مرة من الوهم المريح.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (34 - 49) : تفسير الآيات 70 - 71 ، المواثيق.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-06-18

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة (ميثاق) لها معانٍ كثيرة في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية السبعين، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

ما هو الميثاق؟ الحقيقة أن هذه الكلمة لها معانٍ كثيرة في القرآن الكريم، أحد المواثيق أن الله سبحانه وتعالى منحك عقلاً تتعرف به إلى الله، أحد المواثيق أنه منحك فطرة متوافقة مع منهج الله، فلو خرجت عن منهج الله عذبتك نفسك، هذه الفطرة، أحد هذه المواثيق يوم كنا في عالم الأزل في ظهر أبينا آدم أخذ منا الميثاق، قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)

[سورة الأعراف: 172]

أحد هذه المواثيق أن الله سبحانه وتعالى أخذ من الأنبياء ميثاقاً غليظاً أن يتبعوا النبي عليه الصلاة والسلام.

تعريف الميثاق :

الميثاق أيها الأخوة، هو العهد المؤكد الموثق الذي يقتضي الوفاء الشديد، فميثاق الأزل:

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

لذلك الله عز وجل جعل أول آية في القرآن الكريم:

(اقْرَأْ)

[سورة العلق: 1]

أي تعلم.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[سورة العلق: 1]

القراءة من أجل أن تؤمن بالله.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

[سورة العلق: 1-3]

ينبغي أن تقرأ قراءة إيمان، وينبغي أن تقرأ قراءة شكر وعرفان.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

[سورة العلق: 1-5]

هناك مواثيق لا تعد ولا تحصى لكن يقع في مقدمتها ميثاق عالم الأزل :

هذه قراءة الوحي،

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

الوحي أخبرنا أن الله خلق السماوات والأرض، وأن الإنسان خلق لجنة عرضها السماوات والأرض، وأن الإنسان في الدنيا مخير وأن كل شيء بقضاء من الله وقدر، هذا كله أخبرنا به الوحي، فصار هناك قراءة إيمان، وقراءة شكر وعرفان، وقراءة وحي وإذعان، لكنك إذا طلبت العلم من أجل العدوان والطغيان هذا شيء آخر.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: 6-7]

حينما يقوى الإنسان يتعلم ليحكم سيطرته على العالم، يتعلم لينهب ثروات العالم، يتعلم ليبني مجده على أنقاض شعوب الأرض، فصار عندنا علم إيمان، وعلم شكر وعرفان، وعلم وحي وإذعان، وعلم عدوان وطغيان، فالله عز وجل أخذ منا ميثاقاً غليظاً في عالم الأزل أننا إذا جئنا إلى الدنيا ينبغي أن نؤمن بربنا،

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

هناك من وفى بهذا الميثاق هم الأنبياء، هناك من وفى وقصر هم المؤمنون، هناك من خان وغدر هم الكفار والمشركون، هذا ميثاق عالم الأزل، ميثاق العقل، العقل ميثاق، أعطاك جهازاً كافيّاً كي تعرف الله، ميثاق الفطرة، جبلك على فطرة تكشف الخطأ وحدك، ينبغي أن توفي حق العقل وتؤمن، وينبغي أن توفي حق الفطرة وتستقيم، وينبغي أن توفي حق الأزل فتعترف بالله رباً وخالقاً ومسيراً، وهناك مواثيق كثيرة جداً.

القرآن ميثاق، أركان الإيمان مواثيق؛ ينبغي أن تؤمن بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين.

أي أمر في القرآن الكريم هو ميثاق بينك وبين الله :

ميثاق الإسلام: الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والنطق بالشهادة، هذه مواثيق الإسلام. أمرك أن تغض البصر، أمرك أن تكون صادقاً، أمرك أن تكون أميناً، أمرك أن تكون عفيفاً، الحقيقة أن هناك مواثيق لا تعد ولا تحصى، لكن يقع في مقدمتها ميثاق عالم الأزل، ويقع حكماً ميثاق العقل، وميثاق الفطرة، ثم ميثاق الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، ميثاق أركان الإسلام، وأي أمر في القرآن الكريم هو ميثاق بينك وبين الله، بدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة التحريم: 8]

(أَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

[سورة الأنعام: 72]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

[سورة المائدة: 1]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

[سورة المائدة: 105]

فأيّ آية تخاطب بها: يا أيها المؤمن، هي ميثاق من الله عز وجل، وهناك ميثاق يأتي بسياق هذه الآيات ميثاق بني إسرائيل:

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

معنى الهوى :

الآن الهوى ما هو الهوى؟ الهوى هو الميل، أنا أهوى الرياضة أميل إليها، أهوى الرسم أحب أن أرسم، أهوى التنزه في الفلوات، الهوى هو الميل في الأصل، لكن الهوى من أين يأتي؟ من المعرفة، إنك إن عرفت الله عز وجل ملت إليه، لأنه من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه، فلذلك هذا الهوى إما أن يكون هوى مرتبط بالآخرة، مرتبط بالله عز وجل، مرتبط بسعادة الآخرة، وإما أن يكون غريزة حسية، يهوى الطعام، يهوى النساء، يهوى تجميع الأموال، يهوى

العلو في الأرض فالهوى هو الميل، الهوى متعلق بالرؤيا والعلم.

إنسان يركب دراجة ويمشي في الطريق، وصل إلى مفترق طرق، طريق نازل، وطريق صاعد، كونه يركب دراجة هواه مع النزول، ركوب الدراجة في النزول ليس هنالك جهد إطلاقاً، الطريق معبد، ومحفوف بالأزهار والرياحين والأشجار والظلال، والنسيم عليل، وركوب الدراجة يحتاج إلى جهد في الصعود، فهواه المادي الجبلي أن ينزل، الطريق الصاعد وعر، فيه غبار، وفيه منزلقات، وفيه صخور، وفيه جهد كبير جداً، متى يهوى هذا الإنسان الصعود؟ بحسب بنيته وواقعه، وكونه راكب دراجة، والطريق الهابط جميل، يجب أن يهوى الهبوط، إذا رأى لوحة كتب عليها هذه الطريق الصاعدة تنتهي بقصر منيف هو ملك لمن يصل إليها، وهذه الطريق الهابطة تنتهي بحفرة عميقة ما لها من قرار فيها وحوش كاسرة. هذا البيان يعكس الهوى، فإما أن تهوى الشهوة العاجلة بسبب الجهل، وإما أن تهوى الجنة وما فيها من نعيم مقيم بسبب العلم، لذلك العلماء قالوا: هناك حب عقلي، وهناك حب عاطفي.

الواحد ـ لا سمح الله ولا قدر ـ معه ضيق بشرايين القلب، وكان في سهرة، ووضعوا طعاماً نفيساً جداً، قشدة، وحلويات نفيسة جداً، لكن هذا الطعام يميته، هو يحب هذا الطعام، يحبه بحسب طبعه، لكنه يكرهه بحسب مصلحته. العلماء فرقوا بين حب حقيقي وحب عقلي، بين حب مادي، وحب عقلي، فالمؤمن يحب الله، يحب الدار الآخرة، يحب الائتمار بأمر الله، والانتهاء عما نهى الله عنه، يحب بيوت الله، يحب المساجد، يحب تلاوة القرآن، يحب الأعمال الصالحة، يحب حفظ القرآن، لأن هذا يحقق له الجنة وما فيها من نعيم مقيم، يكاد يكون الحب عقلي، لكن الشهوات بين يديه.

((ألا إنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ،...إنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عبَّاس]

يكفي أن تطلق بصرك في الحرام، وأن تأكل ما تشاء، وأن تلتقي مع من تشاء، وأن تفعل ما تشاء، من دون قيد ولا شرط، ولا وازع ولا رادع، ولا قاعدة ولا قيمة، ولا حرام ولا حلال:

((ألا إنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ،...إنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عبَّاس]

الله تعالى أودع فينا الشهوات لكن هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان حيادية :

أيها الأخوة، الآية الكريمة:

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا)

رسلاً تترى:

(كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ)

لا بد من وقفة متأنية، الله عز وجل أودع فينا الشهوات، كل بني آدم يحب النساء، يحب المال، الدليل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

[سورة آل عمران: 14]

إذاً أي إنسان على وجه الأرض في ستة آلاف مليون إنسان على وجه الأرض في القارات الخمس ما منهم واحد إلا ويحب النساء، ويحب المال، ويحب بيتاً فخماً، ومزرعة فارهة، ومالاً وفيراً، هذا متاع الدنيا:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

لكن هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان حيادية، أودع فيك حب الطعام والشراب حفاظاً على بقاء الفرد، لكن الطعام والشراب إذا تحول إلى سم قاتل فأنت بهذا تعصي الله عز وجل، إذا أكلت بالاعتدال، فالطعام قوام حياتك، أما إذا أكلت بنهم، أدخلت الطعام على الطعام، وكان همُّ الإنسان الأول بطنه عندئذٍ انقلب الطعام إلى سم قاتل.

أية شهوة أودعها الله في الإنسان هي سلم ترقى بها أو دركات تهوي بها :

أودع فيك حب المرأة كي يبقى النوع، إذا كان حب المرأة سبباً لهلاك النوع الذي يجري أحياناً من حروب، ومن مآسي، ومن اجتياحات سببه الشهوات، الشهوات تحتاج إلى أموال، من أجل أن تعيش كما تريد كالنمط الغربي تحتاج إلى بيوت فخمة، وإلى مركبات، وإلى دخل كبير، وإلى عشيقات، هذا يحتاج إلى مال، والمال يحتاج إلى عدوان، فإما أن تحب المرأة وفق منهج الله فتتزوج، وإما أن تحب المرأة بخلاف منهج الله فيكون حب المرأة سبباً لهلاك الإنسان، أي أن هذه الشهوات حيادية، إما أنها سلم نرقى به، أو دركات نهوي بها، لأنك مخير فكل الشهوات التي أودعها الله فيك حيادية، إما أن تكون قوة للآخرة أو قوة إلى دركات النار، لذلك:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* كَلَّا)

[سورة الفجر: 15-16]

(كَلَّا)

الله عز وجل يقول:

(كَلَّا)

الله عز وجل يقول:

(كَلَّا)

ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء.

أي بشكل مختصر هل المال نعمة؟ الجواب: نعم ولا، إذا أنفق في طاعة الله فهو نعمة، أما إذا أنفق في المعاصي والآثام فهو نقمة، هل المرأة نعمة أم نقمة؟ هي نعمة ونقمة، إذا اتقيت الله فيها، أحسنت اختيارها، اخترت ذات الدين، أنجبت منها أولاداً صالحين كانت نعمة، وأيّ نعمة، بل إن بعض المفسرين حينما فسر قوله تعالى:

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

[سورة البقرة: 201]

المرأة الصالحة التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك، كلام دقيق جداً، أية شهوة أودعها الله في الإنسان سلم ترقى بها إلى رب السماوات والأرض، أو دركات تهوي بها أسفل السافلين.

الشهوة التي أودعها الله في الإنسان لها زاوية محددة :

إذاً الشهوة حيادية، فمن الممكن أن تتحرك بالشهوة مئة وثمانين درجة، لكن في الشرع الإسلامي مسموح لك بسبعين درجة، المرأة عند المؤمن زوجة، أو أم، أو بنت، أو أخت، أو عمة، أو خالة، أو بنت أخ، أو بنت أخت، هذه المحارم اللواتي يمكن أن ألتقي بهن، وأن أجلس معهن بثياب محتشمة، لا قيد ولا شرط بين الزوجين، أما المحارم فلا بد من الاحتشام، فهذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان لها زاوية محددة.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المؤمنون: 5-7]

أودع فيك حب المال، إذا كسبته من طريق مشروعة، وأنفقته في الطرق المشروعة ارتقيت به وكان نعمة وأيّ نعمة، أما إذا اكتسبته من طرق غير مشروعة، وأنفقته في طرق غير مشروعة كان نقمة وأيّ نقمة، إذاً الهوى هو الميل، إما أن يكون الهوى راقياً جداً يسمو بك إلى الله، وإما أن يكون هوى حسيّاً ماديّاً يهوي بالإنسان إلى دركات النار، الهوى متعلق بالعلم، أنت حينما تقرأ هذه اللوحة تتجه في الطريق الصاعدة، أما إن لم تقرأ هذه اللوحة فأمامك طريقان، واحد هابط، والثاني صاعد، وراكب الدراجة يهوى الطريق الهابط، إذاً:

(كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

تكذيب اليهود لأنبيائهم :

أيها الأخوة، هؤلاء اليهود كانوا يكذبون أنبياءهم، وتكذيب رسول معه معجزة أرسله الله رحمة لهؤلاء القوم لينقلهم من الظلمات إلى النور، من وحول الشهوات إلى جنات القربات، من الجهل إلى العلم، من الشقاء إلى السعادة، يكذبونه؟ فما بالكم إذا قتلوه، لذلك الله عز وجل قال:

(فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

يقتلون جاءت بصيغة المضارع، لأن صورة القتل ينبغي ألا تبرح الأذهان، جريمة بشعة جداً، أن الله بعث لك نبياً ليهديك إليه، ليسعدك في الدنيا والآخرة، لتكون من سعداء الدارين، بدل أن تصدقه، وأن تنصره، وأن تعززه، وأن تدعمه، وأن تكون جندياً معه، تكذبه ثم تقتله؟!

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

تعدد المواثيق :

ذكرت قبل قليل أن المواثيق كثيرة، فالنبي عليه الصلاة والسلام بايعه الأنصار بيعات ثلاثاً، الأولى، والثانية، والثالثة، نقف عند الثالثة، النبي عليه الصلاة والسلام قال للأنصار: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فقال البراء بن معروف: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه نساءنا وأبناءنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة، وتكلم أبو الهيثم، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال ـ أي اليهود ـ حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا كذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم عليه الصلاة والسلام وقال:

((بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ ـ أنا منكم وأنتم مني ـ أحاربُ مَنْ حارَبْتُمْ، وأسالِمُ منْ سالَمْتُمْ))

[أحمد عن كعب بن مالك]

وبسط يده عليه الصلاة والسلام فبايعوه، فكانت بيعة العقبة ميثاقاً لأهل البيعة بالجنة إن أوفوا بما عاهدوا الله عليه، هذا ميثاق، عقد الزواج ميثاق.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

[سورة النساء: 21]

عقد العمل ميثاق، لا تخون صاحب الشركة، عقد الزواج ميثاق، عقد بيع ميثاق، لا تبع على بيع أخيك، أي أمر إلهي في المعاملات ميثاق من الله يؤكده:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة التحريم: 8]

افعل كذا، ولا تفعل كذا، مواثيق كثيرة جداً، ميثاق الاعتراف بالربوبية، هذا ميثاق عالم الأزل، منحك الله عقلاً يكفي أن تعرف الله من خلاله، هذا ميثاق العقل، ميثاق الفطرة، منحك فطرة تكشف بها خطأك، ميثاق الإيمان بالرسل، أن تؤمن بهم، وأن تنصرهم، وأن تدعو بدعوتهم، وأن تكون جندياً معهم، هذا مثال أيضاً.

المعرفة هي التي تحدد نوع الهوى :

أيها الأخوة الكرام، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

[البيهقي عن الحسن وابن سيرين]

هواك أنت كونك مؤمناً وفق منهج الله، لا ينبغي أن يكون هواك في وادٍ، والدين في واد آخر:

((... حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

[البيهقي عن الحسن وابن سيرين]

لذلك الصحابة الكرام كانوا يفرحون لما نزل إليهم من الحق، يفرح بما نزل إليه.

كملخص: الهوى هو الميل، يمكن أن يكون الهوى سامياً يرقى بك إلى الله، وإلى الجنة، وإلى نعيم مقيم، ويمكن أن يكون الهوى متدنياً يهوي بالإنسان إلى دركات النار، ما الذي يحدد نوع الهوى؟ أهو هوى سامٍ أم هوى منحط؟ المعرفة، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعرفه ثم لا تحبه، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تحبه ثم لا تطيعه.

وضعنا أمام إنسان إناء كبيراً من أرخص أنواع البلّور، ثمنه عشر ليرات، ووضعنا إلى الجانب كأس كريستال ثمنه ألف ليرة، و وضعنا ماسة موجودة باسطنبول ثمنها يقدر بمئة وخمسين مليون دولار، وقلنا له: اختر، فالجاهل يأخذ أكبر قطعة، التي ثمنها عشر ليرات، لأنه جاهل، لو علم أن هذه الماسة ثمنها يقدر بمئة وخمسين مليون دولار لاختارها، مع أنها صغيرة بحجم البيضة، ما الذي حملك على أن تختار هذه القطعة الثمينة جداً؟ المعرفة.

لذلك إذا عرفت الله اخترته، إذا عرفت الله طلبت رضاه، إذا عرفت الله خفت من وعيده، إذا عرفت الله طمعت في جنته، إذا عرفت الله أسعدك القرب منه، وإذا ما عرفته، فتاة بغي تسوقك إلى النار وأنت لا تشعر، هلاك الناس الآن بالنساء، بالمال الحرام، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، أما المؤمن:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية لابن هشام]

هذا الثبات على المبدأ، لذلك قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

عاهدنا رسول الله على السمع والطاعة، في المكره والمنشط، في الغنى والفقر، في إقبال الدنيا وإدبارها، المؤمن أخذ قراراً مصيريّاً، وهناك من يعبد الله على حرف، إن أقبلت عليه الدنيا شكر الله، وإن أدبرت أعرض عن الله عز وجل.

كلما وفَّى الإنسان بما عاهد الله عليه كان عند الله مقرباً :

أيها الأخوة الكرام، أردت أن أقف وقفة متأنية عند موضوع الميثاق، أنت مرتبط مع الله بآلاف المواثيق، والمواثيق مع خالق الأكوان، الميثاق ليس مع واحد من بني البشر، مع خالق البشر، فكلما وفيت بما عاهدت الله عليه كنت عند الله مقرباً، لذلك ألا تهز مشاعرك هذه الآية؟

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

وفَّى كل مواثيقه،

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

ألا تنزعج من أن تنطبق عليك هذه الآية؟

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 102]

لا تكن مع الأكثرية الفاسقة كن مع القلة التي وفت بما عاهدت عليه الله عز وجل.

النبي لا ينطق عن الهوى وما من شيء يرقى بالإنسان كأن ينطق بالحق :

الآن مقام النبوة أنه:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

أحياناً ينطق الإنسان عن الهوى، أي ينطق بحسب مصلحته، يقيم الشيء تبعاً لمصلحته، يمدحه أحياناً، ويذمه أحياناً أخرى، لكن المؤمن ينطق بالحق، بينما النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى

[، إطلاقاً،

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

أروي طرفة، مرة أردت أن أشتري ستائر، دُللت على إنسان تاجر في أحد أسواق دمشق، فقبل أن أختار أحد أنواع القماش تكلم بمحاضرة، قال لي: الستارة كلما كانت عريضة أكثر، ثم انثنت على بعضها كانت أجمل، والله كلام طيب، قال لي: ضع دائماً ضعف عرض الغرفة زائد متر، قاعدة، عندك جدار أربعة أمتار لا بد من ثمانية أمتار زائد متر أي تسعة أمتار، قلت له: غرفتي بالبيت ثلاثة أمتار، قال لي: جيد إذاً نريد سبعة أمتار، اخترت ثوباً، قاسَ عوض السبعة أمتار خمسة أمتار، وأنا أعجبني هذا الثوب، قال لي: يا أستاذ، المطرز على الفرد يكون أجمل، معنى ذلك نطق عن الهوى.

ثلاثة أرباع كلام الناس ينطق عن الهوى، تقول له: انصحني، فينصحك بالبضاعة الكاسدة التي عنده، إذا كان وكيل شركة يمدحها مدحاً غير طبيعي، إذا سحبوا منه الوكالة يذمها في اليوم الثاني، يقول لك: هذه سيئة جداً، تسعون بالمئة من كلام الناس ينطقون عن الهوى، عن مصالحهم، وهذا يحدث في الخطبة أحياناً، يخطب إنسان من بيت يصبح ملاكاً، تقياً، نقياً، ورعاً، فهيماً، ذكياً، تحدث مشكلة، يترك الخطبة، يصبح سيئاً، مريضاً، يصاب بالصرع، يتكلمون عنه كلمات منها الصحيح ومنها ما هو غير صحيح، معظم الناس ينطقون عن الهوى، لكن المؤمن ينطق بالحق، لكنه غير معصوم، أما النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، يتكلم الحقيقة، وما من شيء يرقى بالإنسان كأن ينطق بالحق، لذلك ببعض الأحاديث:

((أمرني ربي بتسع: خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى))

[القرطبي في تفسيره عن أبي هريرة]

الناس تحت سيف المصيبة يلجؤون إلى الله لكن في الرخاء شاردون عن الله :

معظم الناس في المصيبة يلجؤون إلى الله، لكن في الرخاء شاردون عن الله، حدثني أخ من اسطنبول قال لي: والله عقب الزلزال الذي أصاب اسطنبول لم نجد مكاناً بالجوامع ولا بالصحن، الصلوات الخمس، بعدما غاب الزلزال سنة لم نجد صفين بالجوامع، الناس تحت سيف المصيبة يلجؤون إلى الله.

((أمرني ربي بتسع: خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

[القرطبي في تفسيره عن أبي هريرة]

(وَحَسِبُوا)

اليهود:

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

أي كذبوا الأنبياء، هم أبناء الله وأحباؤه.

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً)

[سورة البقرة: 80]

وقالوا:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

[سورة المائدة: 18]

إذاً لو أنهم قتلوا الأنبياء فالقضية بسيطة جداً، الآن مثل الغربيين:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

*** * ***

المسلم وقاف عند كتاب الله ووقاف عند الأمر والنهي :

قال تعالى:

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

أي أنهم كذبوا الأنبياء وقتلوهم، قضية ثانوية جداً، لأنهم أبناء الله وأحباؤه، منتهى الجهل، النبي عليه الصلاة والسلام دعي إلى التمثيل بجثة أحد المشركين، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً. المسلم وقاف عند كتاب الله، وقاف عند الأمر والنهي، أما اليهود:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

[سورة المائدة: 18]

بماذا رد الله عليهم؟

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

ما لكم ولا ميزة، وإذا قال المسلمون: نحن أمة محمد، نقول كما قلنا لليهود:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

الله عز وجل فتح باب التوبة :

قال تعالى:

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا)

الله عز وجل أنشأ لنا السمع والأبصار، أنت بالبصر ترى آيات الله، ترى الكون، ترى الشمس، ترى القمر، ترى الليل، ترى النهار، ترى هذا النبات الذي فيه طعامك، ترى هذه المخلوقات التي سخرت لك، ترى ابنك كيف كان نقطة من ماء مهين وأصبح طفلاً سوياً بأجهزة، بدماغ، بعين، بسمع، ببصر، بلسان، بجهاز هضم، جهاز دوران، قلب، أعصاب، جهاز تصفية، العين من أجل أن تعرف الله، لو أنك أهملت النظر في مخلوقات الله، في عندك سمع ما سمعت درس علم، ما سمعت خطبة، ما سمعت نصيحة، ما سمعت موعظة:

(فَعَمُوا)

أبصارهم عميت عن رؤية الحقائق:

(وَصَمُّوا)

وأذانهم حُجبت عن سماع الحق:

(ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

معنى تاب عليهم أي شرع لهم التوبة، تصور لو لم يكن هناك توبة ما الذي يحصل؟ أصغر ذنب ينتهي بأكبر ذنب، ينتهي بأكبر ذنب، ينتهي بجريمة، ينتهي بجهنم، لكن الله عز وجل فتح باب التوبة.

التوبة النصوح كما وردت في الكتاب والسُّنّة :

قال تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء: 27]

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

العبد إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه:

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ رَجُلٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، وَمَا يُصْلِحُهُ، فَأَضَلَّهَا، فَخَرَجَ فِي طَلَبِهَا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي أَضْلَلْتُهَا فِيهِ فَأَمُوتُ فِيهِ، فَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ، فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، وَمَا يُصْلِحُهُ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

شرع لهم التوبة، وفي معنى آخر:

(ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

ساق لهم بعض الشدائد كي يحملهم على التوبة.

الله عز وجل يسوق للإنسان أحياناً بعض الشدائد ليحمله على التوبة :

هناك توبة قبول من الله عز وجل، تابوا:

(تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

أي قبل توبتهم، وهناك توبة تسبق توبة العبد، أي شرع لهم التوبة، وساق لهم بعض الشدائد التي تحملهم على التوبة:

(ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا)

البحر أصبح طريقاً يبساً، هل من آية تفوق هذه الآية؟ البحر الأحمر كان بحراً فصار طريقاً، لأن فرعون بقوته وطغيانه وأسلحته وجنوده وحقده وقسوة قلبه تبعهم وهم شرذمة قليلة.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء: 61]

لا أمل، أحياناً تجد أن لا أمل، دولة متغطرسة، معها أسلحة فتاكة، معها أسلحة نووية، معها طائرات، معها حاملات طائرات، يمكن أن تقصف أي مكان في العالم بأسلحة لم تستخدم بعد، يمكن أن تدمر القوة البشرية في مدينة، وتبقى المدينة كما هي، ممكن أن تعطل الاتصالات كلها في مدينة، تنشل قوة العدو، فدولة عظيمة، قوية، متغطرسة، جبارة، متكبرة، مستعلية، ليس في قلبها رحمة، تريد أن تبني مجدها

على أنقاض الآخرين، لا أمل، لسان حال بعض المسلمين يقول: لا أمل، لا:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء: 61]

ما كان ثمة أمل أبداً، شرذمة أمام البحر ووراءهم فرعون بكل قوته.

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 62]

فشق لهم البحر طريقاً يبساً، دخلوا فيه وخرجوا من الطرف الآخر، تبعهم فرعون، في منتصف الطريق عاد البحر بحراً فغرق فرعون.

وصف الله تعالى جهل اليهود وبعدهم عن الحقيقة وحبهم للدنيا :

أيها الأخوة، إذاً لأنهم توهموا أنهم أبناء الله وأحباءه، لأنهم توهموا أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة قالوا:

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

مع أنهم قتلوا أنبياء الله وكذبوهم، ولم يبحثوا عن الحقيقة ذاتياً، ولم يصغوا إلى الحقيقة التي نقلها إليهم الآخرون:

(فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

وجاءهم بالآيات الدالة على عظمته، وبعد أن رجعوا إلى أرضهم، ونجوا من عدوان فرعون رأوا أناساً يعكفون على أصنام لهم قالوا:

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

[سورة الأعراف: 138]

يصف الله جهلهم وبعدهم عن الحقيقة وحبهم للدنيا:

(ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

وفي الدرس القادم نتابع تفسير هذه الآيات:

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (35 - 49) : تفسير الآيات 72 - 81 ، مقام الألوهية ومقام البشرية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-06-25

بسم الله الرحمن الرحيم

مقام الألوهية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثانية والسبعين، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)

مقام الألوهية مقام عظيم، فالإله ليس قبله شيء وليس بعده شيء، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده كل شيء، قادر على كل شيء، لا يحتاج إلى شيء، هذا المقام مقام الألوهية:

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

ما عرفوا مقام الألوهية، لأن المسيح بن مريم يأكل الطعام، والذي يأكل الطعام يحتاج إلى ما دونه، نحن بني البشر، مع أن البشر مخلوقات مكرمة.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

مقام البشرية :

الإنسان هو المخلوق المكرم، ولكن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يحتاج الإنسان إلى الماء، والماء دونه، وأن يحتاج إلى الطعام، والطعام نبات، وأن يحتاج إلى الحيوان ليأكل لحمه، والحيوان دونه، فمادام هذا المخلوق إنساناً إذاً هو مفتقر في وجوده إلى أشياء كثيرة هي دونه عند عز وجل، فإذا قلنا: الله الذات الكاملة، واجب الوجود، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي:

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص: 3-4]

ليس قبله شيء، ولا بعده شيء، ولا فوقه شيء، ولا تحته شيء، وهو ليس كشيء في شيء، فوق كل شيء، وبيده كل شيء، الله عز وجل يحتاجه كل شيء في كل شيء فكيف يكون إنسان إلهاً، وهو يأكل ويشرب؟ يحتاج إلى طعام، وإلى شراب، وإلى نوم، أما إذا أكل، وشرب يحتاج إلى إخراج هذا البراز، هذا مقام البشرية وليس مقام الألوهية، لذلك الآية الكريمة:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

والحقيقة أن المسيح جاء من غير أب، والذي أشكل عليهم:

(قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

المعجزة مقبولة عقلاً وغير مقبولة عادة :

أن الله سبحانه وتعالى أتى به من دون أب، لكن أن يأتي به من دون أب هذه معجزة، والمعجزة مقبولة عقلاً غير مقبولة عادة، فالشيء المألوف أن الإنسان يأتي من أب أو أم، فإذا كان هناك مشكلة أن يكون المسيح ابن مريم بلا أب فآدم بلا أب ولا أم، والمسيح بن مريم بلا أب، وحواء بلا أم، من ضلع آدم، وقد تجد زوجين شابين لا ينجبان، هذا الكلام معناه أن هناك سبب، وهناك نتيجة، وأن اقتران السبب بالنتيجة اقتران لا يعني أن السبب خالق النتيجة، تلازما، السبب أتى قبل النتيجة تلازماً، شاءت حكمة الله أن يكون لكل نتيجة سبب، لكن السبب ليس خالق النتيجة، بدليل أن الله عز وجل في أيّ لحظة يعطل هذا السبب، فالسبب موجود، لكنه ليس فعالاً، وأحياناً يلغى السبب بلا سبب تكون النتيجة، بسبب لا تكون نتيجة، ومن غير سبب تكون النتيجة، إذاً السبب ليس خالق النتيجة، لكن الله سبحانه وتعالى كي تستقر الحياة بأنظمة وقوانين جعل لكل نتيجة سبباً.

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً* فَأَتْبَعَ سَبَباً)

[سورة الكهف: 84-85]

نظام الكون كي يتصل مع نظام العقل، بالعقل في مبدأ السببية، والكون بني على نظام السبب، الماء يأتي من بئر، والبئر يحتاج إلى حفر، النبات ينبت من بذر، والبذر يحتاج إلى زرع، والطفل يأتي من أب وأم، إذاً لا بد من زواج، هذا في الأعم الأغلب، ولئلا نتوهم أن السبب يخلق النتيجة، ولئلا نؤله الأسباب كما يفعل أهل الغرب، من حين لآخر تعطل هذه الأسباب، تكون النتيجة من دون سبب، كالسيد المسيح، وأحياناً تلغى، فيتزوج شابان في ريعان الشباب ولا ينجبان.

(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً)

[سورة الشورى: 50]

كل شيء له سبب من أجل انتظام الحياة لا من أجل تأليه الأسباب :

السبب إما أن يلغى، وإما أن يعطل، معنى ذلك أن السبب ليس خالق النتيجة، هذا الموضوع يقودنا إلى موضوع عقائدي، أهل الغرب ألهوا الأسباب، واعتمدوا عليها، فوقعوا في الشرك، وهؤلاء أهل الشرق الذين تخلفوا، لم يأخذوا بالأسباب، فعصوا، فالذين أخذوا بالأسباب، ونسوا خالق الأسباب، ومسبب الأسباب وقعوا في الشرك، والذين لم يأخذوا بالأسباب وقعوا في المعصية، السبب لا يخلق النتيجة، لكن الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يأتي السبب قبل النتيجة كي تستقر الحياة، وكي تنتظم الأمور، فالذهب ذهب، والفضة فضة، كل شيء له سبب، صهر الذهب يحتاج إلى حرارة، وتجميد الماء يحتاج إلى برودة، فكل شيء له سبب، هذا من أجل انتظام الحياة لا من أجل تأليه الأسباب، فإذا شاءت حكمة الله أن يجعل هذا النبي الكريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم من دون أب فلا يعقل أن تنسى من هو الإله، الإله لا يأكل، ولا يشرب.

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى: 11]

ذات كاملة، واجب الوجود.

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

يعلم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد: 3]

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى: 11]

مقام الألوهية يقتضي أن الله صمد لا يتوقف وجوده على جهة أخرى :

مقام الألوهية يقتضي أن الله صمد لا يتوقف وجوده على جهة أخرى، أما نحن يتوقف وجودنا على استنشاق الهواء، وعلى شرب الماء، وعلى أكل الطعام والشراب، ونحتاج إلى أن ننام، ونحتاج إلى أن نخرج الفضلات، فالذي قال: المسيح هو الله، ما عرف مقام الألوهية، مثلاً، هذه المركبة تحتاج إلى دفع من الخلف كي تسير، أحدث مركبة، غاب عنه أن فيها محرك، وأن قوته عالية جداً، وأنها تنطلق بسرعة عالية جداً حتى في الصعود، قال: لا تمشي إلا بالدفع، إذاً هو ما عرف قيمة هذه المركبة، ولا عرف خصائصها، ولا روعة صنعها، ولا دقة صنعها، للتقريب فقط. فالذي قال:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

أي ما عرفوا مقام الألوهية، ما عرفوا أن الخالق يستغني عن كل خلقه، ما عرفوا أن الخالق:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى: 11]

ما عرفوا أن الخالق لا يتوقف وجوده على طعام، ولا على شراب، الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة يصف الأنبياء بأنهم كانوا يأكلون الطعام، وهذه إشارة لطيفة جداً أن الذي يأكل الطعام لا يكون إلهاً، لأن وجوده متوقف على شيء خارج عنه، إن لم نتنفس نموت، إن لم نشرب نموت، إن لم نأكل نموت، إن لم نعالج نموت، إن لم نخرج نتيجة الاستقلاب واحتراق السكر نموت، لذلك:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

أي ما عرفوا مقام الألوهية.

أي إنسان يتجه إلى غير الله اتجه إلى لا شيء :

قال تعالى:

(وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)

الله عز وجل عنده كل شيء، عنده سلامتك، وعنده سعادتك، وعنده جنة عرضها السماوات والأرض، إذا اتجهت إلى غيره لم تجد شيئاً:

(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)

أنت تركب مركبة إلى حلب لتأخذ مبلغاً فلكيّاً، الساعة الثانية عشرة، وقد ترتكب أخطاء كثيرة، وأنت راكب هذه المركبة، ولكنها في طريقها إلى حلب، لكن الخطأ القاتل أن تركب مركبة باتجاه درعا، والقبض في حلب، اتجهت إلى جهة ليس عندها شيء. المشكلة أنك إذا اتجهت إلى جهة غير الله، وغير الله مخلوق لا يملك لك نفعاً ولا ضراً.

(لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)

[سورة الفرقان: 3]

أي إنسان يتجه إلى غير الله اتجه إلى لا شيء، لذلك يقول الله عز وجل لنبيه الكريم قل:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة هود: 31]

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضراً)

[سورة الأعراف: 188]

هذا مقام البشر.

لا يعرف الله من يقول الإله هو فلان :

هذا أعلى إنسان على وجه الأرض، هذا سيد الخلق، وحبيب الحق، لا يعلم الغيب، ولا يملك لنا نفعاً ولا ضراً، بل إنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فإذا كان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فألا يملك لنا نفعاً ولا ضراً من باب أولى، هذا مقام البشرية، أما مقام الألوهية فبيده كل شيء، خالق كل شيء، قادر على كل شيء، يعلم كل شيء، علمه مطلق، قدرته مطلقة، لا يعجزه شيء، ليس قبله شيء، وليس بعده شيء، وهو في كل شيء، لا كشيء في شيء، علم ما كان، وعلم ما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فالذي يقول الإله هو فلان إذاً هو لا يعرف الله.

فرضاً: جيش مؤلف من خمسمئة فرقة، ويقول: هذه النملة تقود هذا الجيش ما عرف ما هو الجيش، جيش، أسلحة برية، وبحرية، وجوية، وقنابل ذرية، وقواعد صاروخية، حاملات طائرات، مثلاً ويقول هذه النملة تقود هذا الجيش!! إذاً لا يعرف ما هو هذا الجيش، فحينما تقول: هذا الإنسان إله فأنت لا تعرف ما الإله، إطلاقاً:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)

كما أنه ربكم هو ربي، وكما أنكم عبيد لله أنا عبد لله أيضاً:

(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)

تحريماً حكميّاً، اتجهت إلى غير الله، كإنسان يكاد يموت عطشاً، واتجه إلى صخرة صماء، ليس فيها إلا الموت، لكنه إذا اتجه إلى نبع ماء عذب فرات اتجه إلى الحياة.

(فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ)

حينما لم يؤمن بالله الواحد القهار، ولم يتجه إليه، ولم يتقرب منه، توجه إلى بشر لا يملكوا لنا نفعاً ولا ضراً، إذاً ليس عند هذا البشر شيء:

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)

حينما يقعون في قبضة عدالة الله عز وجل.

ثلاث مقولات عن الله سبحانه :

طبعاً هذه المقولة:

(قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

وفي مقولة ثانية:

(أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة المائدة: 116]

المقولة الثالثة أن هناك إلهين، المسيح والسيدة مريم، المقولة الثالثة:

(إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ)

[سورة المائدة: 73]

أي هناك ثلاثة آلهة اللهُ أحدهم، ثلاث مقولات، فرقة قالت:

(اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

وفرقة قالت:

(إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ)

[سورة المائدة: 73]

وفرقة قالت: إن الله هو المسيح ابن مريم وأمه.

الافتراء على الله أن تجعل له نداً من البشر :

أيها الأخوة، أنا حينما أقول: هذا ثالث ثلاثة، أي ثلاثة متشابهون، وهذا أحدهم من دون تعيين، هذا معنى ثالث ثلاثة، أما الله عز وجل فقال:

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

[سورة المجادلة: 7]

لو أن الله قال: الله عز وجل رابع ثلاثة، صحيح، هو إله، والثلاثة بشر، خامس أربعة، سادس خمسة، أما:

(ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ)

رابع أربعة، أي هم كلهم من جنس واحد، فلذلك:

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ)

أي الثلاثة آلهة، والله واحد منهم، وما من إله إلا الله.

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيضاً افتراء على الله أن تجعل له نداً من البشر.

الإنسان مفتقر في وجوده إلى الطعام والشراب :

أيها الأخوة، الأنبياء وُصِفوا في بعض الآيات:

(لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

[سورة الفرقان: 20]

في الأسواق، هل فكرتم في دلالة هذه الآية؟ يأكلون الطعام، أي هم مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام.

مرة في بلد عربي أصابه ثلج كثيف، فالثلج قطع الطرق، وهناك فئة قُطعت في مكان بعيد عن الطعام والشراب، فاضطروا أن يأكلوا الجيف، وأن يشربوا بولهم. الإنسان مفتقر في وجوده إلى الطعام والشراب، فلمجرد أن تقول: فلان يأكل ويشرب إذاً هو بشر، ليس إلهاً.

الآن أنت مفتقر لشيء آخر، مفتقر إلى ثمن الطعام، أن تمشي في الأسواق، أنت مفتقر إلى الطعام وإلى ثمن الطعام، وهذا شأن بني البشر جميعاً، كل إنسان يذهب إلى عمله ليكسب رزقه، ليشتري طعاماً ليأكل، ولولا الحاجة إلى الطعام والشراب لما رأيت على وجه الأرض شيئاً، كل هذه المنشآت، وهذه المشاريع، وهذه المعامل، وتلك الزراعة، وهذه التجارة، وتلك الصناعة، كل شيء تراه عينك بسبب أن الإنسان مفتقر في وجوده إلى الطعام والشراب.

إذاً هناك دلالة عميقة جداً حينما يقول الله عز وجل:

(لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

[سورة الفرقان: 20]

هم مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام، ومفتقرون في ثمن الطعام إلى أن يمشوا في الأسواق.

الشرك خطأ اعتقادي أما الذنب فخطأ سلوكي :

قال تعالى:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

الإنسان إذا كفر بالله عز وجل وقع في الشرك الأكبر، والشرك يقتضي أنه لا منهج يضبط عملك، والشهوات تقتضي أن تأخذ ما ليس لك، وأن تأخذ ما ليس لك يقتضي أن تعاقب، شيء طبيعي جداً، تشرك فتتفلت من منهج الله، فتأخذ ما ليس لك، فيعاقبك الله عز وجل.

(أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

ماذا تنتظر أيها المؤمن؟ ماذا تنتظر أيها المقصر؟ ماذا تنتظر أيها المشرك؟

(أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ)

من شركهم، وألا يستغفروه من ذنوبهم؟

عندنا شرك، وعندنا ذنب، الشرك خطأ اعتقادي، والذنب خطأ سلوكي:

(أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

مرتبة الصدّيقة مرتبة تأتي بعد مقام النبوة :

ما حقيقة المسيح؟

(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ)

صدقته، ومرتبة الصدّيقة مرتبة تأتي بعد مقام النبوة، سيدنا رسول الله نبي مرسل، وأبو بكر الصدّيق صدّيق، اسم على مسمى، وأمه صدّيقة، وفي إشارة لطيفة إلى بطلان هذا الادعاء أن المسيح هو الله، وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام، فالذي يأكل الطعام ليس إلهاً، والتي تأكل الطعام ليست إلهاً أيضاً.

(كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

من هو الإله الذي ينبغي أن تعبده؟ ما صفات الإله الذي ينبغي أن تعبده، وأن تمحضه عمرك كله، وأن تمحضه حبك، وشبابك، وشيخوختك، ومالك، ومحبتك؟ الإله الذي يملك لك نفعاً وضراً، وحياةً وموتاً، وسعادةً وشقاءً، من بيده أمرك، من بيده سعادتك، من بيده من دونك، من بيده من فوقك، من بيده أهلك، من بيده صحتك، من بيده سمعك وبصرك، من بيده قوتك، من بيده حركتك، الذي يملك لك نفعاً وضراً:

(لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)

[سورة الفرقان: 3]

هو الإله الذي ينبغي أن تعبده.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة النساء: 1]

ينبغي أن تعبد الخالق لا المخلوق، القوي لا الضعيف، الذي يعلم لا الذي لا يعلم.

لا يملك نفعاً ولا ضراً إلا الله سبحانه :

قال تعالى:

(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

إلى أين ينصرفون؟ إلى إنسان ضعيف، إلى إنسان يموت!

كل إنسان يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

* * *

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

* * *

وسبحان من قهر عباده بالموت، هو الحي الباقي على الدوام.

(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلَا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

لو دخلت إلى دائرة، وفيها طوابق عديدة، وفيها مئات الموظفين، وطلبك لا يوافق عليه إلا المدير العام، وكل هؤلاء الموظفين لا يملكون موافقة على طلبك، ولا تيسيراً لأمرك، هل تضيع وقتك معهم؟ هل تبذل ماء وجهك أمامهم؟ هل تتضعضع أمامهم؟ القضية بيد المدير العام.

حينما يأتي الخطاب لأهل الكتاب يجمع الله بين اليهود والنصارى في آية واحدة :

هذا الذي يعبد من دون الله ما لا يملك له ضراً ولا نفعاً:

(وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

حينما يعبد غير الله فالله عز وجل يسمع شركه، وإذا أبقى الشرك في نفسه، وفي خاطره يعلم حديث نفسه وخاطره، سميع لما يقول من كلام الشرك، وعليم لما يجول في خاطره من كلام الشرك، أحياناً يخاطب الله أهل الكتاب، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، فإذا كان الخطاب في موضوع مشترك بينهما قال الله عز وجل:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

إذا كان الخطاب لبني إسرائيل يخاطبهم: يا بني إسرائيل، أما حينما يأتي الخطاب لأهل الكتاب فيجمع الله بين اليهود والنصارى في آية واحدة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

الغلو؛ مجاوزة الحد، لأن بني إسرائيل اتهموا السيدة العذراء مريم بأنها زانية، وابنها السيد المسيح ابن زنا، والنصارى جعلوه إلهاً، كلاهما غلا في دينه، أحدهما غلو نقص، والثاني غلو زيادة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

الغلو في الدين :

وهذه الآية موجهة إلينا أيضاً، الشيخ لا ترفعه فوق مقامه، هو بشر، لا يعلم الغيب، لا يملك لك نفعاً ولا ضراً:

(لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)

[سورة الفرقان: 3]

لكنه يدلك على الله، مقامه أنه يدلك على الله، وإذا كان متين الصلة بالله، أي أن التعامل معه يشعرك براحة، لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله، هذا مقام الشيخ، ليس أكثر، أما أنه يعلم الغيب، أنه يراك في بيتك، وكيف تتقلب في فراشك، نحن كوننا مسلمين إما أن نرفع الشيخ فنجعله إلهاً، وإما أن نكذب كل الشيوخ، وكلاهما غلط، وكلاهما غلو، أعطي لكل ذي حقٍ حقه:

(لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

كل ما يجري قضاء وقدر، فعلاً، لكن تسعاً وتسعين في المئة مما يجري نحن سببه، فإذا عزوت كل أخطائك إلى القضاء والقدر هذا غلو في الدين، وإذا قلت: ليس هناك قضاء وقدر فهذا غلو في الدين أيضاً، لو أخذت عقائد المسلمين بين غلوين، غلو زيادة وغلو نقص، إنسان لا يعمل يتوكل على الله توكلاً أبلهاً، وإنسان يقول: أنا جمعت هذا المال بكد يميني، وعرق جبيني، وليس لأحد علي فضل بجمعه، كلاهما غلو في الدين، قضية الغلو في الدين هي الطامة الكبرى، هي مشكلة المسلمين، نقلل من قيمة الدعاء، ولا أحد يعبأ بالدعاء، هذا غلو، أو أن نعتد بالدعاء، ونحله محل السعي، فقط الدعاء، الدعاء من دون سعي غلو، والسعي من دون دعاء غلو، لو تتبعنا موضوعات العقيدة لوجدت أن المسلمين في غلوين، غلو إفراط وغلو تفريط، غلو مبالغة وغلو تقليل، غلو زيادة وغلو نقص:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

هناك من يعتد بسعيه ولا يعبأ بالتوكل، وهناك من يتواكل ولا يسعى، كلاهما مغالٍ في الدين.

الإنسان أحياناً يحكمه الهوى :

قال تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ)

الحق هو الواقع، الواقع المطابق للوصف مع الدليل، الحق هو الله عز وجل، والحق هو الموجود. الآن هناك صحابة كرام، بعضهم كفره، وبعضهم ألهه، وكلاهما غالى في الدين، الذي دمر المسلمين غلوُّهم في الدين، غلو زيادة وغلو نقص، غلو مبالغة وغلو تقليل قيمة، غلو إفراط وغلو تفريط، وأمراض أهل الكتاب قد وقعت فينا في معظمها.

(وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

أحياناً الإنسان يحكمه الهوى، أي بشكل أو بآخر لو أن إنساناً ذكيّاً فقد أداة رزقه، كان يعمل على دابة، والدابة ماتت، إذاً فقد رزقه، أحد خبيث أشار عليه أن يدفنها، وأن يبني عليها مقاماً وقبة خضراء، وأن يسميها باسم وليٍّ من أولياء الله الصالحين، وتهافت الناس على مقام هذا الولي، وجاؤوا له بالهدايا، وعاش في بحبوحة ما بعدها بحبوحة، هو حينما يصر على أن هذا مقام ولي ما الذي يدفعه إلى هذا الإصرار؟ مصلحته ومنفعته، فهو منتفع من هذه الفكرة، الإنسان أحياناً يصر، ويتشبث، ويبالغ، ويؤكد أن الذي يدفعه لهذا الهوى والمصالحة والمكاسب الكبيرة جداً:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

الله سبحانه وتعالى يسلي النبي صلى الله عليه وسلم في الآيات التالية :

هناك ضال، هناك ضال مضل، هناك فاسد، وهناك فاسد مفسد، هناك منحرف، وهناك إنسان يحمل الآخرين على الانحراف، وهناك عقائد كثيرة من شرق آسيا من ديانات وثنية انتقلت إلى ديانات سماوية:

(وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا)

في التاريخ السحيق:

(وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

ثم إن الله سبحانه وتعالى يسلي النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول: يا محمد لا تحزن قد كذبوك، لا تحزن، لم يؤمنوا بك، لا تحزن، في آية دقيقة جداً يقول الله عز وجل:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

هل هناك أب على وجه الأرض إذا رأى ابنه يقول له: من أنت؟ ما اسمك؟ أنت ترتيبك بعد من؟ مستحيل! ليس هناك معرفة أوضح، ولا أسرع، ولا ألصق بالإنسان من أن يعرف ابنه، فالله عز وجل يقول:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

إله، يعرفون أن هذا رسول الله:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

لكن المصالح، والأهواء، والمكاسب، والزعامات تحول بينهم وبين أن يؤمنوا، فيا محمد لا تأسَ على هؤلاء الذين كذبوك، ولم يؤمنوا بك، مع أنهم يعرفونك نبياً كما يعرفون أبناءهم.

معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ليمتحن الله عباده المؤمنين :

قال تعالى:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

أي هم كذبوا سيدنا داود، وكذبوا سيدنا عيسى، وهذه مأساة الأنبياء جميعاً، وأنت حينما تعلم أن هناك معركة بين الحق والباطل من آدم إلى يوم القيامة فلا تتألم إذا سمعت أن هناك فرقاناً سوف يفرض على المسلمين، وهذا الفرقان يؤكد أن هذا القرآن ليس كلام الله، وكتبت فيه آية: أن يا محمد أأنت أضللت عبادي؟ يقول: يا ربي ضللت فأضللتهم، هذا الفرقان يصنع لنا ليكون كتابنا المقدس بعد حين. فهذا شيء طبيعي جداً، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، ولحكمة بالغةٍ بالغة شاء الله عز وجل أن تكون هذه المعركة ليمتحن عباده المؤمنين.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

[سورة محمد: 4]

وأطمئنكم، لا تقلقوا على هذا الدين، إنه دين الله، والله لو أن أهل الأرض اجتمعوا على تشويه معالمه لما استطاعوا، وأي كتاب يصنعونه لنا واللهِ طفل صغير إذا قرأه يضحك فقط، يضحك ساخراً، كلام الله كلام الله، وكلام البشر كلام البشر، مضحك، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، هذا من كلام مسيلمة الكذاب، والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً، على تقليد:

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً)

[سورة العاديات: 4-5]

شيء مضحك.

هذا الدين دين الله والله عز وجل يتولى حفظه :

الآن في الإنترنت صور مفتعلة زعم أنها من كلام الله، والله إن قرأتها للفكاهة والمتعة فقط، ما مِن خلية بجسم مسلم، ما مِن قطرة دم بدم مسلم إلا وتنطق بأنه كذب على الله، هذا الدين دين الله، مهما احلولكت الخطوب، مهما اشتد الزمان، مهما مكر أعداء الإسلام، مهما أرادوا تشويه هذا الإسلام، مهما كادوا له، مهما شوهوا معالمه، هذا الدين دين الله، والله عز وجل يتولى حفظه.

جد النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاء أبرهة سأل عن إبله، فقيل له: أتسأل عن إبلك وجاء أبرهة ليهدم الكعبة؟ قال: إن للبيت رباً يحميه، أنا رب هذه الإبل، إن للبيت رباً يحميه، وأنا أؤكد لكم والله إن هذا الدين دين الله، لا تقلق عليه أبداً، الله عز وجل قادر على أن ينصره على أعدائه، هذا شيء ثابت، إياكم أن تقلقوا.

والله أيها الأخوة، كنت في سفر، وقيل عن مؤامرات العالم الغربي الشيء الذي لا يكاد يصدق، وكل واحد أدلى بدلوه، حتى وجدت أن الناس لا يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم لهول المؤامرات، الله عز وجل:

﴿ قَدْ مَكَرُوا مَكْرُهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

[سورة إبراهيم: 46]

قلت لهم: إن تروا قوة طاغية متغطرسة متعالية مجرمة تفعل ما تريد، وتقصف، وتدمر، وتقتل، وتكذب، وتكون أول دولة إرهابية في العالم، إرهاب دولة، إرهاب منظم، إرهاب أسلحة، هذه القوة الطاغية إن أرادت أن تبني مجدها على أنقاض الشعوب، وأن تبني حياتها على موت الشعوب، وأن تبني أمنها على قلق الشعوب، وأن تبني عزها على ذل الشعوب ـ دققوا الآن ـ أن تنجح خططها على المدى البعيد، هذا لا يتناقض مع عدل الله فحسب، بل يتناقض مع وجوده، لا يتناقض نجاح خططها على المدى البعيد مع عدل الله، بل يتناقض مع وجوده، لكن نية الكافر شر من عمله، مهما رأيت من إجرامه يتمنى أن يفعل فوق هذا، لكن الله لهم في المرصاد، يجب أن يكون اعتمادنا على الله قوياً، هذا الدين دينه، ولكن ينبغي أن نقلق ما إذا سمح الله لنا أو لم يسمح أن ننصر دينه.

الفرق بين المعصية والعدوان :

قال تعالى:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

المخالفة الداخلية اسمها معصية، أما التي تنتهي بعدوان على الآخرين اسمها عدوان، هم فيما بينهم وبين أنفسهم عصوا، وفي علاقتهم بالآخرين اعتدوا:

(ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ*كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

إنسان يقتل تقوم الدنيا ولا تقعد، رؤساء الدول يصرحون، ومئة إنسان يقتل بقصف، بقصف فيه خطأ لا أحد ينطق بكلمة، أرأيت إلى هذا الصنف المؤذي، كأن الإنسان المسلم بلا ثمن، فلذلك:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ)

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

من يوالي جهة ليبطل الحق ويغير معالمه هذا لا يمكن أن يكون مؤمناً بالله عز وجل

مرة قصفوا مكاناً فيه عرس فقتلوا أربعين منهم، مرة أربعة وعشرين، مرة مئة وخمسة وعشرين، ولا أحد ينطق، ولا أحد يستنكر، ولا إنسان يقوم في بلد يندد، أبداً، صمت عالمي مطبق، لأن الميت مسلم ولا قيمة له، أما حين يموت إنسان، وقد يكون قتله خطأ كبيراً، لكن الدنيا تقوم ولا تقعد، تصريحات، وتنديدات، واستنكارات:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ*تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

هذا الذي يتولى أهل البغي والعدوان، يواليهم، يقدم لهم المعلومات والمشورة كي يعتدوا على بقية الشعوب، أقول لكم هذه الكلمة: الإنسان إذا لم يكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين، وإضلالهم، وإذلالهم، وإفسادهم فهو في عيشة راضية، إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة، لكن هؤلاء الذين يقدمون الخطط والمؤامرات كي يفتكوا بالمسلمين:

(لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة المائدة: 63]

الآن يقومون بعمل يموت فيه مئات الأشخاص، والذي صنعه ليس المسلمون، لكنهم بخطط ماكرة ذكية يصنعون عملاً يخرج الناس من جلدهم، وينسب إلى المسلمين.

أيها الأخوة، اليهود كانوا خصوماً ألداء للسيد المسيح، هل استطاع أن يوقع بهم الضرر أو أن يقمعهم؟ لم يستطع، والحواريون كانوا أنصاره، هل استطاع أن ينفعهم؟ فكيف يكون إلهاً؟ ومن كان يدير الكون قبله؟ شيء واضح كالشمس.

أيها الأخوة:

(وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

الإنسان يوالي جهة ليبطل الحق، وليغير معالمه هذا لا يمكن أن يكون مؤمناً بالله عز وجل.

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (36 - 49) : تفسير الآيات 78 - 85 ، صراع الحق والباطل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-07-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل أراد في هذه الآية أن يخفف عن النبي حزنه من تكذيب قومه له :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثامنة والسبعين، وهي قوله تعالى:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

الله عز وجل أراد في هذه الآية أن يخفف عن النبي عليه الصلاة والسلام حزنه من تكذيب قومه له، فالأنبياء السابقون أيضاً كذبوا، وعورضوا، واستهزئ بهم، واتهموا من خلال الأقوام الذين أرسلوا إليهم ظلماً وبهتاناً، وصبروا، فهؤلاء الذين كفروا كما يقول الله عز وجل عنهم:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى)

سيدنا داود كُذِّبَ، وسيدنا عيسى كُذِّبَ، فإذا كُذِّبْت يا محمد فهذا شأن معركة الحق والباطل.

كان من الممكن أن يكون الكفار في مكان من الأرض والمؤمنون في مكان، ولكن شاءت حكمة الله أن يكونوا جميعاً، وأن تكون بينهم معركة أزلية أبدية، فالمؤمن الصادق يوطن نفسه على أن هناك معركة الحق والباطل، هذه من آدم إلى يوم القيامة، ولولا ذاك الامتحان وذاك الابتلاء، ولولا هؤلاء الذين يقفون في وجه الحق ويعيقون تقدمه، ولولا إصرار المؤمنين، وتشبثهم بالحق، وسعيهم إلى نيل رضوان الله عز وجل لما كانت جنة ولا نار.

صراع الحق والباطل من سنن الله عز وجل :

صراع الحق والباطل من سنن الله عز وجل:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى)

أي هؤلاء الذين عاصروا سيدنا داود لعنهم الله عز وجل لأنهم كذبوه، وهؤلاء الذين عاصروا سيدنا عيسى بن مريم أيضاً لعنهم الله عز وجل لأنهم كذبوه:

(ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

دقق في هذا الملمح الرائع، الإنسان متى يكذب بالحق؟ حينما يعصي الله عز وجل، ويحقق مصالحه عن طريق العدوان، لذلك هو يرفض الحق، فالذي يعصي ويعتدي المعصية فيما بينه وبين الله، والعدوان فيما بينه وبين الناس، فالذي ينطلق من معصية أو عدوان لا يمكن أن يصدق أهل الحق، لأنه إذا صدقهم اختل توازنه، هو حينما يكذبهم يحقق توازناً موهوماً، أما إذا صدقهم كشف على حقيقته. لذلك الإنسان المنحرف لا يحلو له شيء إلا أن يكذب أهل الحق، أو أن يطعن بهم، أو أن يشكك في نواياهم، لأنه في هذا يحقق توازناً مريحاً.

الطالب الكسول يرتاح إذا كان معظم الطلاب كسالى مثله، أما الطالب المجتهد فلا يضيره أن في الصف مجتهدين.

إذاً التكذيب سببه أن هؤلاء الذين كفروا، حينما كفروا، وحينما عصوا، وحينما اعتدوا اختل توازنه، أحد أسباب إعادة التوازن أن يكذبوا الأنبياء والرسل.

بشكل مبسط: إنسان يأكل المال الحرام، أو يأكل الربا لو حضر درساً دينياً في موضوع الربا لا يرتاح لهذا الدرس، في عقله الباطن يقول: هذه مبالغات، هذا تزمت، هذا ضيق أفق، هذا الذي يلقي الدرس لا يعيش الواقع، لا يعيش العصر، متقوقع على ذاته، لماذا كل هذه الاتهامات؟ لو أنه صدق هذا الذي ينطق بالحق لكشف أمام نفسه، فمن أجل استعادة التوازن مع نفسه أسهل طريق أن يكذب هذا الذي يقول.

أحد أسباب التصديق الاستقامة والطهر وأحد أسباب التكذيب الانحراف والمعصية :

إذاً في الإنسان عقل باطن، العقل الباطن يعمل من دون وعي الإنسان، فأنت حينما تصدق، أنت حينما تزمع أن تشتري مركبة، يقول لك أحدهم: رفعُ نسبة الرسوم غير صحيح، دون أن يشعر يكذب هذا الخبر، لماذا يكذبه؟ لأنه بهذا الخبر لا يحقق هدفه من شراء مركبة، فأنت حينما تقبل أو حينما ترفض هناك عقل باطن يعمل دون أن تشعر. فالكافر الذي بنى حياته على المعصية فيما بينه وبين الله، وبنى حياته على العدوان على الناس بأخذ ما ليس له، بحكم فطرته التي فطر عليها، بحكم تطابق الفطرة مع المنهج يختل توازنه، كيف يستعيد هذا الاختلال؟ بأن يكذب بالحق، إنسان مستقيم حينما يدعى إلى الحق يستجيب لأنه في تناغم، في انسجام بين حاله وواقعه وبين هذه الدعوة.

إذاً أحد أسباب التصديق الاستقامة والطهر، أحد أسباب التكذيب الانحراف والمعصية، فأنت حينما تكذب دون أن تشعر معنى ذلك أن هناك خللاً في السلوك، وأنت حينما تكذب دون أن تشعر معنى ذلك

أن هناك عدواناً، لأن الآية الكريمة:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى)

كذبوا أنبياءهم، كذبوا سيدنا داود، كذبوا بسيدنا عيسى، إذاً لعنوا على لسان هذين النبيين الكريمين، لماذا كذبوا؟

(ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

حالة ثانية: لو أن طالباً أبلغه أحد الطلاب أن الأستاذ يعطي الأسئلة، ولكن بثمن قبل الامتحان بأسبوع، فترك الدراسة كلياً، وحقق توازناً مريحاً، أن القضية سهلة، قبل الامتحان آخذ الأسئلة، وأجيب، وأنجح دون هذا الجهد الطويل طوال العام، فلو أن المدرس الذي توهم أنه يعطيه السؤال طرده، وعنفه، ماذا يفعل؟ يكيل له كل تهمة، المدرس مستقيم، هذا طموح مستحيل من قبل الطالب. فالإنسان حينما يكذب فعنده مشكلة، حينما يكذب الحق فعنده مشكلة، عنده خلل، عنده معصية، عنده عدوان، يحقق مصالح من طريق غير مشروع، لذلك لا يستجيب إلى الحق، إذاً كأن الله عز وجل يخفف عن النبي e أن هؤلاء الذين يكذبونه هؤلاء منتفعون بالباطل، هم حريصون على مصالحهم وعلى شهواتهم، هم لا يدافعون على باطلهم بل يدافعون عن شهواتهم.

المنتفع بالباطل لا يستجيب للحق :

قصة ذكرتها كثيراً، لكنها معبرة عن الحقيقة: إنسان يعمل في نقل الأحمال على دابة، ماتت هذه الدابة، بقي بلا دخل، دفنها في مكان، وأنشأ بناء متواضعاً، وزينه بالقبة الخضراء، وسماه باسم ولي من أولياء الله، فارتاد الناس هذا المقام ليتبركوا به، لجهلهم طبعاً، وقدموا له الهدايا الثمينة، وعاش في بحبوحة ما بعدها بحبوحة، هل من قوة في الأرض تستطيع أن تقنعه أن هذا المكان فيه دابة مدفونة مكان الولي، هو لا يقبل بذلك، مع أنه دفنها بنفسه، هو عن ماذا يدافع؟ يدافع عن دخله، عن مصالحه، عن شهواته، عن مكانته التي حققها من هذه الكذبة.

فالمنتفع بالباطل لا يستجيب للحق، فأنت حينما ترى إنساناً يكذب بالحق فعنده مشكلة كبيرة، عنده خلل، عنده معاصٍ، عنده عدوان، عنده مصالح يحافظ عليها، ويدافع من أجلها، أما الإنسان المستقيم الطاهر فاستجابته للحق عجيبة، يقول: هذا الحق، ورب الكعبة، فتفاوت الناس باستجابتهم للحق بسبب تفاوتهم في استقامتهم، تفاوت الناس في إقبالهم على الدين بسبب تفاوتهم في نظافتهم المادية، أو طهارتهم المعنوية.

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

هذه الباء باء السبب، أي بسبب معصيتهم، وبسبب عدوانهم كذبوا أنبياءهم، وكل إنسان يكذب بالحق ينتفع بالباطل، والإنسان الذي لا ينتفع بالباطل استجابته سريعة، مشكلته بسيطة، حاول أن تقنعه فقط، أما الذي ينتفع بالباطل مهما أقنعته لن يقتنع.

المجاملة وغض البصر عن الأخطاء وعدم التدقيق في كسب الأموال هذه سمة العصر :

هل هناك من معرفة أوثق من معرفة الأب لابنه؟ قال:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

ولكنهم إذا آمنوا به تعطلت مصالحهم، وفقدوا مكانتهم، وفقدوا سيطرتهم على الناس، لذلك كذبوا، كذبوا دفاعاً عن أهوائهم، وعن مصالحهم، لذلك المؤمن لا يحزن كثيراً إذا كذَّب أحدُهم أهل الحق، تكذيبه لأهل الحق يعني أنه منتفع بالباطل، وتكذيبه لأهل الحق يعني أنه يحقق مصالح كثيرة عن طريق باطله، وهؤلاء الذين كذبوا بالحق عصوا، وكانوا يعتدون، لهم صفة أخرى، اسمها الآن المجاملات.

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

اثنان يأكلان مالاً حراماً، يجامل أحدُهما الآخر، وهذا واضح جداً في المجتمعات الإسلامية المقصرة في تطبيق الشرع، يكيدون لبعضهم مديحاً لا يوصف، وكل واحد متلبس بآلاف المعاصي والآثام:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

الآن المجاملة، وغض البصر عن الأخطاء، وعدم التدقيق في كسب الأموال، هذه سمة العصر، هذه المجاملة تساوي تماماً من يسكت عن الحق، وإنه شيطان أخرس:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

الأمة الإسلامية عندما تكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفقد خيريتها :

أيها الأخوة الكرام، لو أن الأمة كفت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لفقدت الأمة الإسلامية خيرتها، لقوله تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران: 110]

لو أحجمت هذه الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما الذي يحصل؟ فقدت خيرتها، وأصبحت أمة كأية أمة خلقها الله، لا يعبأ الله بها، لأن أمر الله هان عليها فهانت على الله عز وجل، وينطبق عليها عندئذ قوله تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

هؤلاء الملايين المملينة من المسلمين مليار وثلاثمئة مليون، لأن أمر الله هان عندها هانت على الله، لذلك لا تتمتع بأية ميزة، هي أمة كهذه الأمم الشاردة عن الله عز وجل لأنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

المصارحة الصريحة لمنهج الله عز وجل لا أحد يذكرها، لا أحد يدقق فيها، لا أحد يعلق عليها، صفة أخرى، هذا الذي يكذب الرسل فضلاً عن أنه يعصي الله، يخرج عن منهج الله، وفضلاً عن أنه يعتدي على حقوق الآخرين، وفضلاً عن أنه يجامل، ولا ينهى أحداً عن منكر قال:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

الولاء والبراء من صفات المؤمنين :

أنت أيها الإنسان الذي تدّعي أنك مؤمن كيف تنسجم مع هذا الإنسان البعيد عن الدين، الذي لا يصلي، الذي يكذب، الذي ينافق، الذي يعتدي على أعراض الآخرين، الذي يشرب الخمر، كيف تنسجم معه؟ كيف تنشأ بينك وبينه علاقة متينة جداً؟ هذا الذي يتودد إلى الكفار هو منهم.

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

[سورة المائدة: 51]

من علامات أهل الإيمان ما يسميه العلماء بالبراء والولاء، ولاؤه للمؤمنين، ولو كانوا ضعفاء وفقراء، وبراءته من الكفار ولو كانوا أغنياء وأقوياء، بينما ضعيف الإيمان يوالي أهل الباطل، لأنهم أقوياء، أو لأنهم أغنياء، يحقق بولائه معهم مصالحه:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

أي ألا ترى إنسان مسلماً يحقق مصالح كبيرة جداً من شركة أجنبية، فإذا جاءت زائرة إلى بلده قدم لها الخمر، وكانت علاقته معها متينة جداً، بسبب أنها تحقق له مصالحه، الولاء والبراء من صفات المؤمنين، من أولى صفات المؤمن أنه يوالي المؤمنين، ولو كانوا فقراء وضعفاء، وأنه يتبرأ من الكفار والمنحرفين، ولو كانوا أقوياء وأغنياء، ولاءه للحق لا للمال، لا للدنيا:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

الله سبحانه وتعالى يغضب إذا مُدح الفاسق أو الكافر :

إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق، فكيف إذا مدح الكافر؟ فكيف إذا واليت الكافر؟ فكيف إذا أعنته على مسلم؟ ليس بعيداً عنكم أن بعض ضعاف النفوس يوالون أعداء المسلمين يقدمون لهم كل مساعدة من أجل أن يعتدوا على المسلمين، هذا شيء يعيشه المسلمون اليوم:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

هؤلاء الذين عقروا الناقة كم واحداً عقر الناقة؟ واحد، الله عز وجل قال:

(فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا* وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

[سورة الشمس:14-15]

قال:

(فَعَقَرُوهَا)

[سورة الشمس:14]

لأنهم أقروا جميعاً فعل هذا الذي عقرها، والإنسان حينما يوالي أهل الكفر، يوالي أعداء المسلمين، يعاونهم، يقدم لهم المشورة، الخبرة، الحقيقة، الفكرة، المعلومات، ليسهل لهم أن يعتدوا على المسلمين هذا بحكم من قتل مؤمن متعمداً.

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

[سورة النساء:93]

السعيد هو الذي يمشي في طريق رضوان الله عز وجل :

قال تعالى:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

من هو السعيد؟ الذي مشى في طريق رضوان الله عز وجل، من هو أشقى أشقياء أهل الأرض؟ من تحرك في سخط الله عز وجل، المؤمن كما وصفه الله عز وجل في الحديث القدسي:

((... وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ _ أي لا يستمع إلا إلى الحق _ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ))

[البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

إذا رأى الأغنياء يقول: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، لا يرى الشيء إلا بحقيقته.

كمثل: لو دخلت إلى بيت فخم جداً، وعلمت أن صاحب هذا البيت تاجر مخدرات، وأن هذه الأموال الطائلة التي حصلها من تجارة المخدرات على حساب سلامة الشباب والشابات، هل تعجب بهذا البيت، بمساحته، بأذواق الأثاث فيه، بإطلالته؟ ينبغي أن تحتقره، وأن تحتقر صاحب البيت، لأنه بني على أنقاض الشباب، فأحياناً الشيء على الشبكية رائع، لكن بعد الإدراك يصبح شيئاً مقيتاً، هذا ما يقوله بعض الأدباء، العاطفة العميقة، والعاطفة السطحية، العاطفة السطحية أن تعجب بظاهر الأشياء، والعاطفة العميقة أن تعجب بحقائق الأشياء. إنسان دخله مشروع، ودخله محدود، مستقيم، ولا يكذب، ولا يعتدي، لو دخلت إلى بيت صغير، بأثاث متواضع، ينبغي أن تحترمه، أن تحترم استقامته وطهارته ونزاهته.

السبب الآخر لانحراف ضعيفي الإيمان وموالاتهم لأهل الكفر أنهم فاسقون :

قال تعالى:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ* وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

سبب آخر لانحرافهم وموالاتهم لأهل الكفر أنهم فاسقون.

أيها الأخوة الكرام، لو أن هذه الأمراض يمكن أن تنتشر بين المسلمين لما ذكرتها، هذه الأمراض يمكن أن يقع بها المسلمون جميعاً، أو معظم المسلمين. ثم يقول الله عز وجل:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

على المسلم تصديق الله عز وجل لأنه هو الحق المبين :

الحقيقة الله عز وجل حينما يقول:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

[سورة النساء: 45]

ينبغي أن نصدق الله عز وجل، والمسلمون في حقبة سابقة حينما عظّموا وقدّروا وبجّلوا أعداء الله عز وجل، ثم كشف الأمر على حقيقته عرفوا أن الله هو الحق المبين:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

[سورة النساء: 45]

أي مهما تصورت أن هؤلاء يمكن أن تصطلح معهم، يمكن أن تعيش معهم في سلام، هم يريدون العدوان:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ)

هناك تعليق لطيف، هو أن اليهود حققوا مكاسب مادية كبيرة، لذلك هم حينما يكذبون النبي عليه الصلاة والسلام يدافعون عن مكاسبهم، وعن مصالحهم، وعن أموالهم، وعن مكانتهم، لذلك كما قلت قبل قليل: المنتفع بالباطل لا يمكن أن يستجيب للحق:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)

وإذا قال الله لك:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

[سورة النساء: 45]

إذاً لا مجال بحسب خالق الأكوان أن تتعايش مع هؤلاء، لأنهم لا يقبلون إلا أن يكونوا فوقنا، لا يقبلون إلا أن يكونوا هم المسيطرين.

الهجرة إلى الحبشة والحكمة منها :

قال تعالى:

(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى)

وكأن هذه الآية تشير إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما تصاعدت موجات إيذاء المسلمين في مكة، وحينما بالغ الكفار بالتنكيل بالمسلمين، وبأصحابه الكرام، لم يجد النبي عليه الصلاة والسلام من مخلص لهذا التعذيب والتنكيل إلا أن يأمر أصحابه بالهجرة، وكان عليه الصلاة والسلام قائداً حكيماً، فاختار من بين كل البلاد التي تحيط بمكة الحبشة، لأنه علم أن على رأسها ملكاً لا يظلم عنده أتباعه، فأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، بالفعل أصحابه الكرام هاجروا إلى الحبشة، حينما علمت قريش أن نفراً من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قد أجمعوا الهجرة إلى الحبشة بذلوا كل ما يستطيعون ليحولوا بينهم وبين هجرتهم، ولكن أصحاب النبي عليهم رضوان الله تمكنوا من أن يصلوا إلى الحبشة، وأن يقيموا عند ملِكها، حينما علمت قريش أن الأصحاب الكرام وصلوا إلى الحبشة، وأقاموا في كنف ملك الحبشة، الذي لا يظلم عنده أحد، أرسلوا وفداً رفيع المستوى، منهم سيدنا عمرو بن العاص قبل أن يسلم، ومعهم هدايا ثمينة جداً إلى ملك الحبشة، وقابلوه، وقالوا له: إن هؤلاء خرجوا عن دين آبائهم

وأجدادهم، واعتنقوا ديناً لا نعرفه، فنرجو منك أن تردهم إلى قومهم، فهذا الملك استدعى هؤلاء الأصحاب، وأمرهم أن يتحدثوا عن هذا الدين، وقف سيدنا جعفر بن أبي طالب وقال:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ... فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ))

[أحمد عن أم سلمة]

كلام رائع جداً، الإسلام مجموعة قيم أخلاقية، النجاشي ـ رحمه الله تعالى ـ لأن النبي e صلى عليه صلاة الغائب، وحينما جاء وفد النجاشي لم يرض النبي إلا أن يخدمهم بنفسه، إكراماً للنجاشي الذي أحسن استقبال أصحاب النبي، وجعلهم آمنين في بلده، ثم جاؤوا بكيد آخر، وذكروا للنجاشي في اليوم التالي أن لهم قولاً لا ترضاه في المسيح بن مريم، فَقَالوا لَهُ:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيماً، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ، قَالَتْ ـ أي أم سلمة ـ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ، قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا، كَائِناً فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ، قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُوداً، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ، فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ))

[أحمد عن أم سلمة]

وأثنى عليه النبي.

الآيات التالية تشير إلى حادثة الهجرة إلى الحبشة :

في بعض كتب السيرة يعد النجاشي من التابعين، لم يلتق برسول الله لكنه آمن به، لذلك هذه الآيات تشير إلى هذه الحادثة:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

قسيسين جمع قس، ومعناه المتفرغ لمعرفة الإنجيل، من علماء الإنجيل، والرهبان العبَّاد، أي علماء وعبَّاد:

(ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

الإنسان المستقيم الذي لا يعصي الله عز وجل يتقبل الحق بسهولة ما بعدها سهولة:

(ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

الحقيقة أن هذه القصة قصة أصحاب رسول الله الذين هاجروا إلى الحبشة قصة جديرة أن نقرأ تفاصيلها، من هؤلاء الذين هاجروا بنت أبي سفيان مع زوجها، زوجها في الحبشة تنصر وارتد عن دينه، لو أن هذه المرأة التي رافقت زوجها، رافقته من أجل مصالحها لارتدت معه، لكنها بقيت مؤمنة متشبثة بإيمانها، وقد علم النبي بما جرى، فخطبها إكراماً لها، لأنها أصبحت امرأة لا معيل لها في بلاد الغربة، تنصَّر زوجها، وترك دينه، وانضم إلى الطرف الآخر، وبقيت هي بلا زوج، وأوكل النجاشي أن يعقد العقد عليها، كان وكيل النبي عليه الصلاة والسلام النجاشي في عقده على هذه المرأة التي تنصَّر زوجها وارتد عن دينه.

الدليل على أن المرأة مستقلة في دينها عن زوجها :

هناك حقيقة أن المرأة مستقلة في دينها عن زوجها، والدليل أن الله لحكمة بالغة جعل امرأة صديقة، آسيا امرأة فرعون، جعلها زوجة لأكبر طاغية في الأرض، فهذا الطاغية بكل قوته وجبروته وهيمنته لم يستطع أن يحمها على أن تعبده، بل قال الله عنها:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم: 11]

أيّ امرأة، وهذا الكلام موجه إلى الأخوات المؤمنات، أيّ امرأة تعصي الله إرضاء لزوجها، وتقول: الذنب ذنبه، هو الذي طلب مني ذلك، هذا كلام مرفوض أشد الرفض، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

امرأة في بلاد الغربة يتخلى عنها زوجها، تصر على موقفها، وعلى إيمانها، وعلى استقامتها فيكافئها الله عز وجل بأن يجعلها زوجة رسول.

علامة استقامتك وعلامة نظافتك السلوكية أنك سريع الاستجابة لله عز وجل :

هؤلاء القسيسون والرهبان الذين عبدوا الله عز وجل، وأمضوا أوقاتهم في معرفة كلام الله عز وجل قال تعالى:

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

أي إذا سمعوا إلى القرآن، وأنا مرة ثالثة ورابعة ألح على هذه الحقيقة، أنت حينما تكون مستقيماً، وحينما تكون نظيفاً، وحينما لا تبني مجدك على أنقاض الآخرين ، وحينما لا تحقق مصالح عن طريق الكذب، وشهادة الزور، أنت حينما تدعو إلى الحق تستجيب له سريعاً، علامة استقامتك وعلامة نظافتك السلوكية أنك سريع الاستجابة لله عز وجل، هؤلاء النصارى:

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

هذه حقيقة مفادها أنك إذا كنت مستقيماً استجابتك للحق أكيدة ويقينية، أما إذا لم تستجب فثمة خلل كبير، إما في العقيدة، وإما في السلوك، وبكاء الإنسان دليل تأثره التأثر الكبير.

العبرة أن تكون صادقاً في طلب الحقيقة :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

أيها الأخوة الكرام، العبرة أن تكون صادقاً في طلب الحقيقة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ))

[متفق عليه عن ابن مسعود]

وهذا الصدق الذي يتحدث عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ليس صدق الأقوال، بل صدق الأفعال، أنت حينما تصدق في طلب الحقيقة تهدى إليه، وحينما تصدق في طلب الحقيقة ينشرح صدرك إليه، وحينما تصدق في طلب الحقيقة تعان على قبولها، وعلى الأخذ بها، فالله عز وجل يقول:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت:69]

فأي إنسان كائن من كان، والبشارة التي أقولها لكم:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال:23]

ما دمتم قد سمعتم الحق وهذا من فضل الله علينا جميعاً فهذه بشارة من الله أن فينا خيراً:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال:23]

الإنسان حينما يكون صادقاً في طلب الحقيقة يتولى

الله هدايته :

ما دام الله عز وجل أسمعنا الحق فهذه علامة طيبة على أن فينا الخير، فإذا قبلناه فهذا شيء أروع، فإذا استجبنا للحق، وعملنا به، أروع وأروع، ما دمنا قد سمعنا الحق فهذه بشارة، نسمع الحق ونقبله ثم نستجيب له، والحق يعرف بالقلب، لقوله تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا)

[سورة الأعراف: 179]

الحق يعرف، ودليل أن الحق يُعرَف أنّ الإنسان حينما يستمع إلى الحق يهفو قلبه إليه، ودليل آخر أنك حينما تكون صادقاً في طلب الحقيقة يتولى الله هدايتك، والآية الكريمة:

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

[سورة النحل: 9]

حيثما تأتي كلمة (على) مع لفظ الجلالة أي إن الله ألزم نفسه بهداية طالب الحق، والآية فيها ملمح بلاغي، أي: وعلى الله سبيل القصد، وعلى الله أن يهديك إلى السبيل الذي تقصده، إلى طريق الهداية، وعلى الله، والآية الكريمة:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

أنت لا يطلب منك إلا أن تطلب الهدى، وعلى الله الباقي، لا يطلب منك إلا أن تكون صادقاً في طلب الحقيقة.

طريق الحق واضح كالشمس والدنيا كلها في خدمة المؤمن :

قال تعالى:

(وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

ما الذي يمنعك أن تكون مؤمناً؟ هل في الإيمان والإسلام حرمان؟ لا والله، ما الذي يمنعك أن تؤمن بهذا الخالق العظيم، والمربي الحكيم، والمسير في كل شيء؟ ما الذي يمنعك أن تكون طاهراً، زكي النفس، صادق اللسان، أميناً في التعامل؟ ما الذي يمنعك أن تكون في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله؟ ما الذي يمنعك أن تمشي في رضوان الله؟ ما الذي يمنعك أن تكون محسناً؟ أن تكون منصفاً؟ أن تكون معطاء للآخرين؟ كل الوسائل تدعوك إلى هذا، الشيء المؤلم أن الناس تائهون، لكن طريق الحق واضح كالشمس، والدنيا كلها في خدمة المؤمن.

أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه، عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما صلحك،

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين ، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك ، فلأُسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي ، وكنتَ عندي مَذْموماً))

[ورد في الأثر]

أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

الخلق كلهم خُلِقوا ليسعدهم الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، ما الذي يمنعك أن تحضر مجلس علم، تتعرف به إلى الله عز وجل، إلى سر وجودك وإلى غاية وجودك، ما الذي يمنعك أن تتعرف إلى هذا القرآن الكريم؟ ما لنا لا نؤمن بالله، ما الذي يمنعنا؟ سهرة، وليمة، لقاء، مطالعة قصة، ما الذي يمنعك؟

(وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

الخلق كلهم خُلِقوا ليسعدهم الله عز وجل.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

حتى فرعون:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43-44]

ما من إنسان خلقه الله إلا وهو مطلوب لرحمته، الله عز وجل ما خلق كافراً ليعذبه في جهنم إلى أبد الآبدين، خلق الناس ليكونوا مؤمنين، خلقهم ليكونوا مسلمين، خلقهم ليسعدوا في الدنيا والآخرة:

(وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ* فَأَثَابَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

الذي يتبع هدى الله لا يضل عقله ولا تشقى نفسه :

لذلك أيها الأخوة، هذه الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، وهذه الدنيا لا يمكن أن تكون عطاءً لمخلوق ولا عقاباً لمخلوق، هذه الدنيا منقطعة بالموت، وعطاء الله لا يكون منقطعاً، هذا لا يسمى عطاء من الله عز وجل، أن نعطى الدنيا، يقول الإمام علي رضي الله عنه: " فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمد أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا ". في الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ:]فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [ ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذه الدنيا الفانية الزائلة المشحونة بالمتاعب.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

لكن الذين قالوا:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

[سورة فصلت: 30-31]

فهذا الذي يتبع هدى الله عز وجل يقول الله عنه:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 38]

لو جمعت الآيتين لكان الذي يتبع هدى الله عز وجل لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت، ماذا بقي من سعادة الدنيا والآخرة؟!!

من يعبد الله عز وجل ينشئ الله له حقاً عليه ألا يعذبه :

أيها الأخوة الكرام، أنت حينما تعبد الله عز وجل ينشئ الله لك حقاً عليه ألا يعذبك.

((بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِي صلى الله عليه وسلم لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أُخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[متفق عليه عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

معك حق على الله، ألا تعذب في الدنيا، إذاً يقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

ينتهي العلاج، تنتهي المتاعب، لأنك حققت الهدف الذي خلقت من أجله.

(وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ* فَأَثَابَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة النساء: 147]

أخوتنا الكرام، الزاهد هو أكبر طموح، هذا الذي زهد في دنيا تنتهي بالموت هو أكبر طموح، طمح بما عند الله من نعيم مقيم.

الناس رجلان برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هيِّن على الله :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

في النهاية الناس رجلان، بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيِّن على الله، والذي يؤكد هذا:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى* وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى* إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى* فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل: 1-10]

أنت حينما تصدق بالحسنى، وهي الجنة، تتقي أن تعصي الله، وتبني حياتك على دفع ثمن الجنة وهو العطاء، أعطى، واتقى، وصدق بالحسنى، وأنت حينما تكذب بالحسنى، بالجنة، وتؤمن بالدنيا العاجلة تستغني عن طاعة الله، وتبني حياتك على الأخذ، صفات ثلاث كصفات ثلاث، الناس على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأديانهم، وأجناسهم، وطوائفهم، ومذاهبهم، لا يزيدون على رجلين؛ أعطى واتقى وصدق بالحسنى، بخل واستغنى وكذب بالحسنى.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (37 - 49) : تفسير الآيات 87 - 88 ، حدود الله عز وجل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-07-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر التحليل والتحريم وأمر الوسع من شأن الله وحده :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية السابعة والثمانين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء التحليل والتحريم من شأن الله وحده ولا يستطيع بشر كائن من كان أن يحلل ولا أن يحرم، لذلك كأن الله سبحانه وتعالى يقول يا أيها الإنسان إياك أن تحلل حراماً أو أن تحرم حلالاً، هذا ليس من شأنك ولكنه من شأن الله وحده. يضاف إلى هذا الاستطاعة أيضاً يحددها الله وحده، إذا قال الله عز وجل:

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

وسع النفس يحدده الله بالقرآن ويكلف نبيه صلى الله عليه وسلم بتحديده أيضاً من خلال السنة، فأمر التحليل والتحريم وأمر الوسع من شأن الله وحده، ولا يستطيع إنسان كائناً من كان أن يحلل أو أن يحرم.

الإنسان حينما يتدخل بتحريم ما أحل الله وهو الغلو، أو حينما يتدخل بتحليل ما حرم الله وهو التفريط، بتحريم ما أحله الله إفراط، وبتحليل ما حرمه الله التفريط، الإنسان حينما يتدخل فيحرم ما أحل الله، أو يحلل ما حرم الله يفسد الحياة، وقد يعزى الفساد التي تعاني منه البشرية اليوم أن الإنسان تدخل واعتدى فحرم ما أحله الله، أو حلل ما حرمه الله.

من حرم ما أحلّ الله وقع في الغلو :

أولاً: أيها الإنسان إياك ثم إياك ثم إياك أن تعتقد أن هذا الشيء الذي أحله الله حراماً، لا تعتمد على عقلك، ولا على فلسفتك، ولا على قول إنسان، لأنك لست خالقاً، ولست خبيراً، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

الجهة الوحيدة التي تحلل أو تحرم هي الجهة الخبيرة، ولا خبير كالخالق فالإنسان ينبغي ألا يعتقد أن هذا الشيء الحلال هو حرام، وكل الذين يحرمون ما أحله الله وقعوا في الغلو.

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

[سورة المائدة: 77]

والذي يحرم ما أحله الله كأنه يزاود على الله، وكأنه يزاود على رسول الله، وهذه جرأة على الله ورسوله، وهذا تطاول أيضاً على الله وعلى رسوله، ينبغي ألا تعتقد أن هذا الشيء الحلال هو حرام، وينبغي ألا يتقول بلسانك أن هذا الشيء وإن كان حلالاً لكنني أحرمه، من أنت؟ يقولون هذا عندنا غير جائز، فمن أنتم حتى يكون لكم عندي؟ من أنتم؟ لا تعتقد أن هذا الحلال حرام من باب الغلو في الدين، ولا تقل لأحد أن هذا الشيء الذي أحله الله لست قانعاً به ويغلب على ظني أنه محرم، وهذا هو الانحراف في السلوك الديني، أن يعتدي الإنسان على حق الله في التحريم والتحليل، فيحرم أو يحلل.

والذين يرأسون جماعات إسلامية وليسوا في المستوى الصحيح قد يحلون ما حرمه الله، أو يحللون ما حرم الله، يحلون ما حرمه الله أو يحرمون ما أحله الله فيقع الفساد في الأرض، والمسلمون أعطي أعداءهم مبررات لسحقهم وإبادتهم بسبب أن أناساً أحلوا ما حرم الله وأن أناساً حرموا ما أحل الله.

الله عز وجل يُعلمنا من خلال توجيه النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الإنسان لا تعتقد أن الشيء الذي أحله الله حراماً كما ولا تقل أن الشيء الذي أحله الله حراماً، إن لم تعتقد ولم تقل نقول لك: أنت لا تمتنع عن شيء أحله الله أنه حراماً.

بلغ إلى علمي أن بعضهم في بلاد أخرى يحرمون الزواج، ينبغي أن تكون منقطعاً لله عز وجل، هذا تحريم لما أحله الله، وهذا غلو في الدين، لا تعتقد، ولا تقول، ولا تمتنع، ولا تفتي للناس لأن هذا الشيء الذي أحله الله هو حرام، لأن التحريم والتحليل من شأن الله وحده، والله عز وجل خبير عليم بشؤون عباده.

الآن: ولا تنذر، من النذر أن تحرم حلالاً، ولا أن تحلل حراماً، لو قال أحدهم: نذرت ألا آكل الطعام، أنت ماذا فعلت؟ حرمت حلالاً، والله عز وجل يعلمنا من خلال توجيه النبي عليه الصلاة والسلام:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ)

[سورة التحريم: 1]

في شأن غير الطعام، أي كأنها قاعدة لا تحرم ما أحله الله لك.

مرةً ثانية أن تحلل ما حرمه الله، أو أن تحرم ما أحله الله عدوان على حق الله الخبير في التحليل والتحريم، والعدوان كما تعلمون تجاوز الحد، رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده.

حدك أن تطيع، حدك أن تعبد الله، حدك أن تأتمر بما أمر الله، وحدك أن تنتهي عما نهى الله عنه، وليس من حدك أن تشرع أمراً أو نهياً، أنت منفذ ولست مشرعاً، إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق، الذي أوتي جوامع الكلم، والذي أوتي الوحي والقرآن، والذي أوتي المعجزات، والذي بلغ سدرة المنتهى، يقول إنما أن متبع:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأنعام: 50]

أي أن شأن العبد أن يتبع، شأن العبد أن يطبق، شأن العبد أن ينصاع لله عز وجل، شأن العبد أن يخضع لله عز وجل، هذا شأننا، وشأن الله أن يشرع، وأن يقول الله عز وجل هذا حرام اجتنبوه، وهذا حلال اتبعوه.

الذي يمارس أولى خطوات الخطيئة لابدّ من أن يصل إلى نهاية الخطيئة :

أيها الأخوة، في آيتين دقيقتين الآية الأولى تقول:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

[سورة البقرة: 229]

والآية الثانية:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

في المنهيات لا تقترب، في المباحات لا تتجاوز الحد الذي حده الله لك، في المنهيات لا تقترب لأن المعاصي التي نهى الله عنها بحسب الآيات الكريمة لها قوة جذب، لذلك لم ينهَ الله عن مباشرتها بل نهى عن الاقتراب منها، تماماً كما أنك قرأت على لوحة إلى جانب تيار عالي التوتر: ممنوع الاقتراب، لأن هذا التيار عالي التوتر فيه قوة جذب للإنسان فإذا دخل مسافة معينة جذبه التيار وجعله فحمة سوداء، فالتحذير يكون لا تقترب من التيار:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

[سورة البقرة: 229]

الذي لا يهرب من أسباب الخطيئة يقع فيها، والذي يمارس أولى خطوات الخطيئة لا بد من أن يصل إلى نهاية الخطيئة.

لابدّ من أن تدع هامش أمانٍ بينك وبين المعصية :

الآيات الكريمة تقول:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

ليس في القرآن كله نهي عن الزنى، في نفي:

(وَلَا يَزْنُونَ)

[سورة الفرقان: 68]

لكن ما في نهي، في نهي عن مقدمات الزنى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

لذلك لا بد من أن تدع هامش أمانٍ بينك وبين المعصية، ما لم يكن هذا الهامش بينك وبين المعصية احتمال الوقوع بالمعصية احتمال كبير، تصور نهراً عميقاً جداً، مخيفاً جداً، خطراً، له شاطئ مائل زلق، وله شاطئ مستوي جاف، فأن تمشي على الشاطئ المستوي الجاف أنت في أمان، أما إذا مشيت على الشاطئ المائل الزلق أنت في خطر كبير؛ أن تزل قدمك وأن تقع في النهر وأن تغرق.

المسموح لا تعتدوه والممنوع لا تقربوه هذه حدود الله عز وجل :

أيها الأخوة، قوله تعالى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الأنعام: 152]

لو أنك خلطت مالك مع مال اليتيم فهناك احتمال كبير في أن تأكل ماله دون أن تشعر، لا تخلط مالك بمال اليتيم:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الأنعام: 152]

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

[سورة الإسراء: 32]

بشكل عام:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

أما حينما سمح الله لك بشيء لا تجاوزه إذا ما حرمه عليك، لو أن الله سبحانه وتعالى سمح لك أن تأكل شيئاً محرماً عند الضرورة لكن الضرورة تقدر بقدرها، فإذا كان يجزئك من أجل أن تحافظ على حياتك بلقمتين ينبغي ألا تأكل الثالثة، الذي سمح الله لك به ينبغي ألا تزيد عليه، المسموح لا تعتدوه، الممنوع لا تقربوه، هذه حدود الله عز وجل.

الحلال بيّن والحرام بيّن لكن المشكلة في المتشابهات التي بينهما :

أيها الأخوة، الحلال بيّن والحرام بيّن، وهذه من نعم الله علينا، أي لا أحد يسأل أنني إذا عملت عملاً حلالاً مشروعاً وكسبت مالاً حلالاً مشروعاً واشتريت به طعاماً أيجوز أن آكل هذا الطعام؟! طبعاً يجوز بديهة، فهذا حلال بيِّن، أما أن تأكل مالاً حراماً، أو أن تعتدي على عرض امرأة، أو أن تأخذ ما ليس لك، هذا حرام قطعاً، فالحلال بيّن والحرام بيّن، ولكن المشكلة لا في الحرام لأنه بيّن، ولا في الحلال لأنه بيّن، ولكن المشكلة في الأمور المتشابهة التي تشبه الحلال تارةً وتشبه الحرام تارةً أخرى، كيف؟

إنسان قال لك: هل تعينني على شراء هذا البيت؟ ثمن هذا البيت مليونان معي مليون واحد، فهل تعينني على شراء هذا البيت وأعطيك أجرة شهرية بحسب نسبة مالك في ثمن البيت، هذا قرض حسن، القرض الحسن مشروع، وأن تستأجر نصف بيت، وأن تؤجر نصف بيت، أيضاً هذا مشروع، لكن الذي عاونته بشراء البيت ضمن لك المليون بعد سنتين، وأعطاك على هذا المليون نصف أجرة البيت، البيت ثمنه مليونان، دفعت معه مليون، أولاً أجرة هذه لا شيء فيها، ثانياً المبلغ الذي دفعته له قرض، وإن سميته شراء جائز أيضاً، القرض بلا أجرة، والشراء يستوجب أجرة، فإذا أعددت هذا المليون شراء لنصف البيت لك أجرة، وإذا أعددت هذا المبلغ قرض ليس لك أجرة، والكلام واضح، لكن غاب عنك إذا ضمنت هذا المليون بعد سنتين، وقد تقاضيت عليه أجرة أنك وقعت في الحرام، لأن مبلغك مضمون، لا يكون التأجير حلالاً إلا إذا لم يضمن شريكك في البيت هذا المليون، بعد عامين يقيِّم البيت، فقد تهبط الأسعار وقد ترتفع الأسعار، فإذا قبلت أن تأخذ المليون سبعمئة ألف أو أكثر أو أقل فالأجرة حلال، الآن مشكلتنا في المتشابهات، أجرة أو قرض والقرض بلا أجر، والشراء يحتاج إلى أجرة، لكن لما جمعت الضمان مع الأجرة فهر الربا بعينه، طبعاً هذا مثل.

المشكلة في المتشابهات التي تشبه الحلال تارةً، والحرام تارةً أخرى، لذلك الحديث الشريف الصحيح:

((إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس))

[متفق عليه عن النعمان بن البشير]

ماذا تعني هذه الفرقة في الحديث؟

((لا يعلمهن كثير من الناس))

[متفق عليه عن النعمان بن البشير]

معنى ذلك أن القليل من الناس يعلمون الحقيقة، لو سألت عالماً مدققاً متحققاً ورعاً أعطاك الجواب.

((وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه))

[متفق عليه عن النعمان بن البشير]

حينما تأتمر بما أمر الله وتنتهي عما نهى الله عنه لا تدمر نفسك :

أيها الأخوة، ماذا يعني أن يحرم الله عليك أو أن يحل لك؟ أي أنه أعطاك خبرة الخبير فأنت وفرت الوقت الطويل، والجهد الكبير، والتدمير الشامل، بالضبط، أنت أمام كرة معدنية مقطعة إلى مربعات ولها نتوء، أنت تقول يا ترى قنبلة هذه؟ لعلها قنبلة؟ أو لعلها كرة؟ أو لعلها جهاز؟ أو لعلها لعبة؟ لو أدرت أن تمتحن هذه القطعة بنفسك، وحركت هذا النتوء فإذا هي قنبلة تنفجر، هل لك من وقتك ما تنتفع بهذه الخبرة، جربت فدمرت، لكن لو قال لك خبير: هذه قنبلة إياك أن تنزع فتيلها، هذا الخبير أنقذ حياتك، طبعاً هذا المثل صارخ وحاد، ولكن أشياء كثيرة الإنسان يدمر بها لأنه جربها بنفسه ولم يسأل الخبير، والله عز وجل يقول:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

أشياء كثير تدمر الإنسان، وتنهي سلامته، وتحطم سعادته لأنه جربها بنفسه ولم يصغي إلى الخبير.

لو أنك بعت بيتك وقبضت ثمنه بعملة أجنبية، لو فرضنا أنه معك في هذا الجيب جهاز يكشف زيف العملة، ومعك بهذا الجيب نشرة تبين لك أرقام العملة المزورة، لم تستخدم هذا الجهاز في كشف العملة المزورة، ولم تستخدم هذه النشرة في الكشف عن العملة المزورة، الجهاز هو العقل، والنشرة هي الوحي، لم تستخدم لا هذا ولا ذاك، وقبضت هذا المبلغ ثم اكتشفت بعد فوات الأوان، وبعد أن سافرت إلى بلاد بعيدة، وبعد أن انقطعت الصلة مع البائع أن العملة كلها مزورة، فاللوم على من؟ عليك وحدك، معك جهاز ومعك نشرة، لم تستخدم لا الجهاز ولا النشرة، ولم تستعن بالخبير الذي أعطاك النشرة، ولم تستعن بالجهاز الذي يكشف لك الزيف، فضيعت هذا المال، ولم تنتفع به، هذا الأمر تماماً.

فيا أيها الأخوة، حينما تأتمر بما أمر الله، وتنتهي عما نهى الله عنه لا تدمر نفسك، كمثل صارخ: إنسان يركب مركبة، أشارت له امرأة فوقف، إلى أين يا أختي؟ قالت: خذني حيث تريد، فظنها مغنماً كبيراً،

ثم اكتشف أنه أصيب بمرض الإيدز، ما الذي حصل؟ إنك لم تصغ إلى كلام الخبير، لم تأتمر بما أمر، ولم تنتهِ عما نهى وزجر فدمرت نفسك، هذا مثل طبعاً، ويقاس على ذلك آلاف الحالات.

من الجهل أن تتوهم أن الذي أحله الله لك لا ينفعك فتحرمه على نفسك :

أيها الأخوة، الصحابة الكرام رأوا عظم مقام النبي عليه الصلاة والسلام فاجتهدوا أنهم كي يبلغوا مرتبة يرضى الله عنها ينبغي أن يمتنعوا عن الزواج، وبعضهم يمتنع عن تناول اللحم، وبعضهم يمتنع عن الإفطار فيصوم، بلغ ذلك النبي عليه الصلاة والسلام، فجمع أصحابه وخطب بهم وقال:

((أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن أنس]

لذلك لا تحرم ما أحل الله لك، لا تزاود على الله عز وجل، لا تعتقد أن هذا الذي أحله الله لك قد يؤذيك، لا يمكن أن يؤذيك شيء أحله الله لك، لأنه من عند الخبير. مثلاً الذين ابتدعوا الرهبانية قال تعالى:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)

[سورة الحديد: 27]

هم كتبوها على أنفسهم من عند أنفسهم، ولم يكتبها الله عليهم، لأنهم كتبوها من عند أنفسهم ولم يعبؤوا بكلام الخبير.

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

[سورة الحديد: 27]

إذاً الشيء الذي أحله الله ينبغي أن تأخذه وأنت مطمئن، والذي حرمه الله عز وجل ينبغي أن تبتعد عنه وأنت مطمئن، أما أن تحلل أو تحرم، أما أن تتوهم أن الذي أحله الله لك لا ينفعك فتحرمه على نفسك هذا من الجهل الفاضح.

بالمناسبة: أنت حينما تحرم ما أحله الله لك ينبغي ألا تستعمل شيئاً من جهد إنسان أخذ ما أحله الله له، تمتنع عن أن تدرس من أجل أن يبقى لك صفاء، أما إذا أصابك مرض تذهب إلى الطبيب، تمتنع عن فعل شيء أحله الله لك، أما إذا ضاقت بك الدنيا تذهب إلى من بيده الدنيا، هذا موقف غير متوازن، موقف غير صحيح.

تحليل الحرام أو تحريم الحلال عدوان على حق الله في التحريم والتحليل :

الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ)

كأن الله سبحانه وتعالى يذكرنا أن اليهود حرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم، فيا أيها المؤمنون لا تكونوا مثل هؤلاء الذين حرموا ما أحل الله لهم.

(وَلَا تَعْتَدُوا)

فكأن تحليل الحرام أو تحريم الحلال عدوان على حق الله في التحريم والتحليل:

(وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

((فرحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما]

ثم يقول الله عز وجل:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

أخوتنا الكرام، بكلمة:

(وَكُلُوا مِمَّا)

تفيد من للتبعيض، أي كلوا بعض ما أحل الله لكم من الطيبات، والباقي أطعموه لمن لا يستطيع شراء هذا الطعام، كل وأطعم، خذ حاجتك من هذه المادة، وما فضل منها أطعم به أخوك في الله، أي كل وأطعم، خذ وأعطي، لا تأخذ كل شيء ولا تأكل كل شيء، هذا معنى قوله تعالى:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ)

الرزق ما انتفعت به والكسب ما لم تنتفع به :

أول شيء الرزق أيها الأخوة ما تنتفع به، فالطعام الذي أكلته ظهراً هذا رزقك، والشراب الذي شربته هذا رزقك، والثوب الذي تلبسه هذا رزقك، والشهادة التي تحملها وقد وفقك الله إلى حملها هذا رزقك، والخبرة التي تملكها وتعيش بها هذا من رزقك، والمحبة التي أولاك الله إياها، ألقى محبتك في قلوب الخلق هذا أيضاً من رزق الله عز وجل، والمكانة العالية التي وهبك الله إياها هذا أيضاً من رزق الله عز وجل.

من أدق تعريفات الرزق: أن كل شيء تنتفع به، مادياً كان أو معنوياً، آتاك الله طلاقة لسان هذا من رزق الله عز وجل، آتاك الله حكمة هذا من رزق الله عز وجل، آتاك الله يقيناً، آتاك الله سكينة، آتاك الله

راحة، آتاك الله طمأنينة، آتاك الله رضاً، هذا أيضاً رزق، فكل شيء آتاك الله إياه فمن الرزق، مادياً كان أو معنوياً، الآن:

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

[سورة الواقعة: 82]

أي رزقك من الله أنك كذبت بهذا الدين، هذا رزق سلبي، إذاً الرزق ما انتفعت به، والكسب ما لم تنتفع به لكنك محاسب عليه، مثلاً معك مليون ليرة، أكلت طعاماً بمئة ليرة ثم غادرت الدنيا، رزقك هذه المئة ليرة التي أكلت بها، والباقي كسب تحاسب عليه، من أين اكتسبته وفيما أنفقته؟ بشكل أو بآخر ضربت هذا المثل مرات عديدة: تفاحة في بستان هي لك، هي رزقك، لك أن تأكلها ضيافة، ولك أن تأكلها هدية، ولك أن تأكلها شراء، ولك أن تتسولها، ولك أن تسرقها، ولك أن تغتصبها، وهي لك. فالرزق ما انتفعت به والكسب ما لم تنتفع به.

ما من مقياس لهذا الدين العظيم أروع من أنك لا تكون مستجاب الدعوة إلا إذا أكلت طيباً :

لكن الآية الكريمة:

(وَكُلُوا مِمَّا)

بمعنى إما كلوا بعض الرزق أو استبقوا من الرزق لمتابعة كسب هذا الرزق، أي عندك قمح، كُل بعض القمح وأبقي بعضه ليكون بذاراً لموسم قادم، أم عندك دقيق كُل كلّ الدقيق، الدَّقيق لا يتابع به الإنتاج بعد نفاذه. إذاً:

(وَكُلُوا مِمَّا)

إما لاستبقاء النوع أو لإطعام الغير، هذه كلمة من:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً)

لكن الآية هنا تضيق إلى ما بعد مفهوم الطعام، كل طعاماً حلالاً، ومعنى حلالاً أي كسبته بطريق حلال، ومعنى كسبته بطريق حلال أي ما كذبت، وما دلست، ولا غششت، ولا احتكرت، ولا استغليت، ولا أوهمت، ولا قللت، ولا أخفيت، ولم تستخدم حقك بتعسف:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً)

طيباً تطيب به نفسك، أي أيها الأخوة، ما من مقياس لهذا الدين العظيم أروع من أنك لا تكون مستجاب الدعوة إلا إذا أكلت طيباً، أكلت طيباً ليس معنى هذا أنك أكلت طعاماً طيباً، لكن معنى هذا أنك أكلت طعاماً حلالاً بجهد حقيقي من دون كذب، ولا تدليس، ولا احتكار، ولا انحراف، ولا مساومة، ولا إيهام، ولا غش، كل مخالفات البيع والشراء أنت منزه عنها.

الحلال يجب أن يكون حلالاً نوعاً وكسباً :

قال تعالى:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً)

حلالاً نوعاً وكسباً، أي لو أن إنساناً أكل شيئاً محرماً ما أكل حلالاً، لو أكل طعاماً حلالاً ولم يدفع ثمنه ما أكله حلالاً، فحلالاً نوعاً وحلالاً سلوكاً، هناك شيء محرم لذاته أن تأكل لحم خنزير، وشيء محرم لغيره أن تأكل لحم ضأن دون أن تدفع الثمن، هذا حرام وهذا حرام، الأول محرم لذاته، الثاني محرم لغيره، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً)

أي حلالاً في أصله، وحلالاً في طريقة كسبه، وطيباً تطيب به النفس لأنك بذلت جهداً، فلم تكذب، ولم تدلس، ولم تغش، ولم تفعل شيئاً حرمه الله عز وجل، وأنت فوق هذا مستجاب الدعوة، يقول العبد:

((يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، فأنى يستجاب له))

[الترمذي عن أبي هريرة]

أما كلمة (من) كما قلت أياستبقي جزء للزراعة أو استبقي جزء للفقير:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

أي أنت حينما تخضع لله عز وجل ليس في هذا الخضوع غضاضة، أنك تخضع لخالق السماوات والأرض، لكن قد تجد غضاضة حينما تخضع لمشابهك، أو لمثيلك، أو لندك، فأنت حينما تخضع لإنسان مثلك الذي يُخضَع له يشعر بالعزة والذي يَخضَع يشعر بالذل، لكنك إذا خضعت لرب العالمين هو شرف وسمو أن تخضع لله عز وجل وأهل التقوى وأهل المغفرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (38 - 49) : تفسير الآية 89 ، أنواع اليمين وكفارته.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-07-16

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق في اللغة العربية بين أخذ وآخذ :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية التاسعة والثمانين، وهي قوله تعالى:

(لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، في اللغة العربية أخذ وآخذ، أخذ يأخذ، وآخذ يؤاخذ، أخذ يأخذ هذه للكفار.

المؤمن يؤاخذ لأنه في عقد إيماني مع الله أما الكافر فعلاقته مع الله علاقة أخذ أي تدمير:

قال تعالى:

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

[سورة النحل: 46]

اللهم اهده، فإن لم تهده فخذه، الكافر ليس بينه وبين الله عقد إيماني، شرد عن الله ولم يؤمن لا بوجوده ولا بأسمائه الحسنى، ولم ينضبط بمنهجه، فالعلاقة بين الله عز وجل وبين هذا الذي كفر به علاقة أخذ، أي تدمير.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج:12]

إذاً أخذه أي نكل به أو قتله، لكن آخذه، بين المؤمن وبين الله عز وجل عقد إيماني.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة التحريم:8]

يا من آمنتم بي، آمنتم بوجودي، آمنتم بوحدانيتي، آمنتم بكمالي، آمنتم بأسمائي الحسنى وصفاتي الفضلى، أنتم مؤمنون، ومعكم منهج من رب العالمين، وفي هذا المنهج افعل ولا تفعل، ينبغي أن تأتمر بما أمر وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، فإن لم تأتمر بما أمر فهناك مؤاخذة، هناك عقوبة، لكن لا

عقوبة من دون جرم، ولا جرم من دون نص.

فالله عز وجل حينما أنزل هذا القرآن، وهو منهج كلي، وكلف النبي عليه الصلاة والسلام بشرح هذا المنهج وتفصيله، وقد أمرنا الله عز وجل أن نأخذ ما آتانا النبي، وننتهي عما عنه نهانا، إذاً إذا قصرنا في جانب، أو انتهكنا حرمة، أو قصرنا في واجب فهناك عقاب من الله عز وجل، وهذا معنى المؤاخذة، المؤمن يؤاخذ لأنه في عقد إيماني مع الله، المؤمن آمن بالله، وآمن برسوله، وآمن بكتابه، وآمن بسنة رسوله، ومعه منهج تفصيلي، فإذا خالف هذا المنهج لا بد من أن يؤاخذ.

إذاً المؤاخذة تقتضي أن الإنسان آمن بالله وعرف الحلال والحرام، فإذا زلت قدمه وفعل ما نهى الله عنه أو قصر فيما أمر به لا بد من أن يناله عقاب وهو في الحقيقة كفارة له.

البشر ثلاثة أصناف :

لذلك البشر أصناف ثلاثة:

1 ـ صنف عرف الله وائتمر بأمره وانتهى عما عنه نهى :

صنف عرف الله، وائتمر بأمره، وانتهى عما عنه نهى، هذا صنف تغطيه الآية الكريمة:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

هذا الذي آمن، وشكر حقق الهدف من وجوده، عرف الله، وعرف منهجه، وأطاعه، وأقبل عليه، وأحسن إلى خلقه، لا ينتظره إلا الإكرام من الله عز وجل، لكن قد يمر بمرحلة تأديب قبل أن يستقيم تماماً، ثم يمر بمرحلة ابتلاء، فإذا تاب من تقصيره، ثم صمد في ابتلائه، بقي أمامه مرحلة الإكرام، لذلك يبين الله لنا هذه البشارة فيقول:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: 30]

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

هذا حال الذي عرف الله، وعرف منهجه، واستقام على أمره، وأقبل عليه، هذا صنف أول، هذا نجا من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة، طبعاً امتحنه الله فنجح، أدبه الله فتاب، ثم أكرمه الله عز وجل، وقد قال الله عز وجل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

المؤمن حينما يصطلح مع الله لن يأتيه في المستقبل إلا الخير، هذه بشارة من خالق السماوات والأرض:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

2 ـ مؤمن في عقد إيماني مع الله لكنه أخلّ ببعض بنود العقد وهذا يخضع للمؤاخذة:

الصنف الثاني: مؤمن في عقد إيماني مع الله، لكنه مقصر فيما أمر، يتجاوز أحياناً ما نهي عنه، أخل بعض بنود العقد، هذا يخضع للمؤاخذة، وهذا حال المسلمين في العالم، مؤمنين بالله لا يرتكبون الكبائر، لكن يقعون في الصغائر، ويقعون في كلمة لا ترضي الله، وفي نظرة لا ترضي الله، وفي علاقة لا ترضي الله، يستحقون المؤاخذة، وهذا الذي يجري في العالم الإسلامي نوع من المؤاخذة من قبل الله عز وجل، رسالة ومؤاخذة، هذا الصنف فيه الخير، وعنده إيمان لكن معه تقصير، ومعه تجاوز فهو معرض للبلاء وللتأديب، وهذا يرد في القرآن الكريم تحت قوله تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

3 ـ الصنف الثالث شرد عن الله شرود البعير لم يؤمن ولم يستقم :

الصنف الثالث: شرد عن الله شرود البعير، لم يؤمن، ولم يستقم، فالله عز وجل يقول في حقه:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

شاب صحيح الجسم يأكل ما يشاء، وشاب سقيم الأمعاء والمعدة، عنده قائمة محظورات، والطبيب يشدد عليه أشد التشديد، أما الثالث فمعه ورم خبيث في أمعائه، يقول له الطبيب: كل ما شئت. الصنف الثالث: هم الذين شردوا عن الله شرود البعير، هؤلاء تأتيهم ضربة واحدة قاصمة تنهي وجودهم،

يعطيهم الله من المال والقوة والوسامة الشيء الكثير، لكن حينما يأتي الأجل ينتهي وجوده، وينقلب إلى عذاب أليم، لذلك قالوا: إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

لله عز وجل سياسة مع خلقه :

الذي أريد أن أنقله لكم أن الذي يؤاخذه الله عز وجل هو في نعمة كبرى، في أمل، عنده استعداد أن يكون مؤمناً طيباً، لذلك يؤاخذه الله عز وجل، يعالجه تارةً بهمٍّ نفسي، أو بمرض جسمي، أو نقص في ماله، أو نقص في أولاده، قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوفِ والْجُوْعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ* أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ*)

[سورة البقرة: 155-157]

يجب أن تعلم أيها الأخ أن لله عز وجل سياسة مع خلقه.

1 ـالمرحلة الأولى الهدى البياني :

الله عز وجل لطيف ورحيم، يبدأ مع عبده بما يسمى بالهدى البياني، تبيان، تستمع إلى خطبة، إلى درس، تقرأ كتاباً، تستمع إلى نصيحة، وأنت معافى، وأنت صحيح الجسم، وأنت آمن مستقر في بيتك وأولادك، يأتيك الحق على طبق من ذهب ما عليك إلا أن تستجيب والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

2 ـالمرحلة الثانية التأديب التربوي :

إن لم تستجب أخضعك الله عز وجل لأسلوب أشد، الأسلوب الأشد التأديب التربوي،

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى)

في الدنيا،

(دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ)

في الآخرة،

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 165]

هذا التأديب التربوي.

3 ـالمرحلة الثالثة الإكرام الاستدراجي :

إن لم يتب، في التأديب التربوي احتمال التوبة كبير جداً، لأن التأديب التربوي متعب، ومزعج، والخلاص في التوبة، فإن لم يتب أخضعه الله عز وجل بطريقة ثالثة هي الإكرام الاستدراجي:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام:44]

يزداد قوة، ويزداد غنى، ويزداد سيطرة، أموره كلها ميسرة.

4 ـالمرحلة الرابعة مرحلة القصم :

الله عز وجل ينتظر منه أن يشكر، فإن لم يشكر قصِم:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

[سورة الأنعام:44]

لذلك أيها الأخوة، أن تؤاخذ من قبل الله عز وجل ببلاء، بنقص من الأموال والأنفس، والثمرات، لا سمح الله ولا قدر بمرض، بشدة، بتضييق، بتشديد، معنى ذلك أنك مطلوب إلى رحمة الله، معنى ذلك أن فيك بقية خير، أن الله ينتظرك، ينتظر أن تأتيه طائعاً، أن الله عز وجل شدد عليك، وضيق عليك من أجل أن تندفع إلى بابه، من أجل أن تصطلح معه، من أجل أن تسعد بقربه، فكلما ازداد علمك برحمة الله وحكمته تزداد فرحاً أن الله لم يجعلك خارج المعالجة، لكن الإنسان إذا أصر على ما هو فيه، أصر على معصية، أو انحراف، أو ترك واجباً، أو عبادةً، عندئذٍ تقتضي الحكمة أن يخرج من دائرة العناية الإلهية. ولي كلمة أرددها كثيراً: المسلمون اليوم في العناية المشددة، هذه الشدة تعني أنهم في العناية المشددة، وكلما تعمقت في معرفتك بالله عز وجل تشعر أن الله إذا تفقدك ببلاء، أو بمصيبة، أو ضيق عليك، أو دفعك إلى التوبة، أو حملك على أن تمرغ جبهتك في أعتابه، معنى ذلك أنه يحبك وينتظرك.

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف بالمقبلين

[ورد في الأثر]

يمين اللغو :

الله عز وجل يقول:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ)

هذا الكلام كله حول كلمة

(يُؤَاخِذُكُمُ)

إذا آخذك الله عز وجل غير إذا أخذك، هؤلاء الذين شردوا عن الله عز وجل ندعو عليهم فنقول: يا رب، خذهم أخذ عزيز مقتدر، أخذه أي دمره، أخذه أي نكل به، أخذه أي أنهاه، أما آخذه عالجه، آخذه عاقبه، آخذه لفت نظره. لذلك أيها الأخوة يقول الله عز وجل:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر: 37]

النذير؛ المصيبة، المصيبة لون من ألوان النذير:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ)

الإنسان أحياناً يتكلم كلاماً يجري على لسانه لكنه لم يمر على قلبه، فهذا الأعرابي الذي ركب ناقة، وأراد أن يقطع فيها المفازة (الصحراء)، جلس ليستريح من عناء السفر أخذته سنة من النوم، استيقظ فلم يجد الناقة، فأيقن أنه هالك لا محالة، فجلس يبكي، ثم يبكي، ثم يبكي، حتى أخذته سنة أخرى من النوم، فاستيقظ فرأى الناقة، فاختل توازنه فقال: يا ربي أنا ربك وأنت عبدي، هل قصد هذا الذي قاله؟ أبداً.

لذلك قال بعض العلماء: ما كل من وقع بالكفر وقع عليه الكفر، هذا كلام لغو، أي ملغي، أي أنه لم يمر على القلب، وقد تقول الأم في ساعة غضبها: والله لأذبحنك، ولا تحتمل أن تسيل قطرة دم من يد ابنها، هذا الكلام لم يمر على قلبها، هذا كلام لغو، أي ملغي، والإنسان أحياناً يقول لا والله، وأي والله، هذا كلام لغو الله عز وجل رحمنا، وتلطف بنا، فبلغنا أنه لا يؤاخذنا باللغو في أقوالنا. تفضل كل، والله لست بجائع، لم ينتبه، هو جائع، لكن ما أحب أن يكون متطفلاً، وجد الطعام لا يكفي، لم يدعَ إلى الطعام، والله لست جائعاً، نسي أنه قال: والله، أناس كثيرون يستخدمون اليمين وقد سماها العلماء يمين اللغو، أي لا يقصد معناها، ولم تمر هذه اليمين على قلب الإنسان جاءت على لسانه، في حياتنا كلام كثير لا نعنيه

إطلاقاً، ولا نقصده، ولا نقبله لو أريد منا أن نؤكده، أي هل تحتمل الأم إذا دعت على ابنها أن تقول لها: آمين؟! لا تحتمل، لأنها لا تقصد أن تدعو عليه، لكنه كلام لغو جرى على لسانها، فمن رحمة الله بنا أن هذا الكلام الذي يجري على ألسنتنا دون أن نقصده، ودون أن يمر على عقولنا وقلوبنا، ودون أن نعتمده هذا الكلام يطمئننا ربنا أننا معفون من أن نؤاخذ عليه:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ)

الله عز وجل تفضل علينا فجعل يمين اللغو معفاة من المؤاخذة :

الحقيقة هذه الآية أيها الأخوة سببها أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ)

[سورة المائدة: 87]

لأن بعض الصحابة الكرام تقرباً إلى الواحد الديان حلف يميناً ألا يأكل اللحم ما دام حياً، تقشفاً، وزهداً، وتقرباً إلى الله، وصحابي آخر حلف بالله ألا يقرب النساء تقرباً إلى الله، وخضوعاً لمنهجه، لكن النبي عليه الصلاة والسلام جمعهم وقال:

((أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

قالوا: يا رسول الله، نحن عقدنا أيماناً، وحلفنا على ألا نأكل اللحم، وألا نقرب النساء، وألا ننام الليل، وأن نبقى في ذكر دائم، ماذا نفعل في هذه الأيمان التي حلفناها؟ فجاء جواب الله عز وجل:

(لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ)

هذه اليمين سماها العلماء يمين اللغو، أي الذي حلفها لا يقصدها، والذي حَلفها حلفها دون أن يشهر ودون أن يقصد، إذاً الله عز وجل تفضل علينا فجعل هذه اليمين معفاة من المؤاخذة.

الشدة في الفعل الثلاثي تفيد المبالغة :

قال تعالى:

(وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الْأَيْمَانَ)

ما معنى:

(عَقَّدْتُمْ)

أي وثَّقتم،

وما الفرق بين عَقَّدْتُمُ وعقدتم؟ قال تعالى:

(وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ)

[سورة يوسف: 23]

ما الفرق بين قوله تعالى:

(وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ)

وبين أن نقول: وغلقت الأبواب، الباب مفتوح، غلقه أي رده، أما غلّقه أي قفله، أرتجه، فالشدة في الفعل الثلاثي تفيد المبالغة، ما الفرق بين قطع اللحم وقطّعه، قطع اللحم قطعتين، أما قطعه جعله آلاف القطع، ما الفرق بين كسّر وكسر؟ كسر الزجاج أصبح قطعتين، أما كسّره جاء بمطرقة وجعله آلاف القطع، غلق وغلّق، كسر وكسّر، وعقد وعقّد، يقول لك: والله، وتالله، وبالله، هذه يمين، هذه يمين منعقدة، مرت على قلب الإنسان وعقله، وقصدها، واعتمدها، وأرادها، ولم تكن لغواً ولا خطأ ولا نسياناً:

(وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ)

أنت حينما تحلف وتقصد ما تقول، أحياناً الزوج يقول: إن حللك شيخ يحرمك عشرة، بالثلاث، مرة واحدة، هو قصد ذلك.

أنواع اليمين :

لذلك أيها الأخوة، من رحمة الله بنا أنه لا يؤاخذنا على الأيمان التي لا نقصدها، والذي يجري على لسان الناس، ولكن السلف الصالح كانوا يتصدقون بدينار ذهبي إذا حلفوا يميناً لغواً، لأن الله عز وجل يقول:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

هذا اللسان مكنك الله به، ومنحك إياه، وعلمك البيان لا لتحلف كل دقيقة يميناً لغواً بل لتذكر الله به، لذلك التوجيه بآخر الآية:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

هناك يمين لغو لا نؤاخذ عليها، لكن الأولى ألا نحلفها، ويمين منعقدة نؤاخذ عليها، ولها أحكام تأتي بعد قليل، ويمين غموس تغمس صاحبها في النار ولا كفارة لهذه اليمين، لأنها تخرجه من ملة الإسلام، وعليه أن يعيد إسلامه، وأن يجدد إيمانه.

اليمين الغموس إن أراد بها الإنسان أن يقتطع حق امرئ مسلم غمسته في النار :

حدثني أخ كريم يعمل في المحاماة أن قضية بحجم كبير تقدر بمئات الملايين متنازع عليها، وبحسب القوانين النافذة لو أن المدعي جاء بشاهد لكانت الشهادة حاسمة، المبلغ كبير جداً، فجاء بشاهد زور، والشاهد الزور درب تدريباً دقيقاً على أن يدلي بشهادة كاذبة، لكنها في القانون مقبولة، ودخل إلى قاعة المحكمة، ووضع يده على القرآن الكريم، وأقسم بالله العظيم أن يقول الحق، وذكر شهادة الزور، يقسم لي هذا الأخ المحامي أنه كان واقفاً فأقسم بالله العظيم، وأدلى بالشهادة، فانتهى من قسمه فرفع يده وأبقاها مرفوعة، فقال له القاضي: اخفض يدك، لم يستجب له، فإذا هو ميت، بعد قليل وقع على الأرض، كان يمسك طرف الطاولة، توازن دقيق، فلما اختل توازنه وقع على الأرض.

لذلك اليمين الغموس إن أراد بها الإنسان أن يقتطع حق امرئ مسلم غمسته في النار، والآية الكريمة:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران: 137]

جاءت الفاء للترتيب على التعقيب، وأحياناً الإنسان يحلف يميناً غموساً كاذبة يقتطع بها حق امرئ مسلم، وتمضي سنوات وسنوات دون أن يعاقب، هذا على ثم:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: 11]

ثم للترتيب على التراخي، أما إذا فقد حياته فور حلف اليمين هذه على الفاء:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران: 137]

أمثلة تبين أن الله قد يبطش بهذا الذي حلف يميناً غموساً فوراً وإما أن يمهله :

الله عز وجل لحكمة يريدها إما أن يبطش بهذا الذي حلف يميناً غموساً فوراً وإما أن يمهله، وهذا المحامي بالذات حدثني في الجلسة نفسها بقصة أخرى قال لي: والله أحد الذين اتهموا بجريمة قتل، نطق القاضي بحكم الإعدام، الغريب أنه لم يتأثر، وبقي متماسكاً، إعدامه بعد يومين، قال لي: ما الذي دفعني إلى أن أشهد إعدامه؟ لا أدري، لكنني أردت أن أكون حاضراً، بعدما تلي عليه الحكم، ورفع إلى منصة المشنقة ليشنق قال: انتبهوا واستمعوا، أنا سوف أشنق، لكن هذا الذي اتهمت بقتله ما قتلته أبداً، ولكنني سأحدثكم لماذا وصلت إلى حبل المشنقة؟ قال: أنا قبل ثلاثين عاماً كنت رئيساً لمخفر في العهد الفرنسي، وجاءني ضابط فرنسي، ودفع إلي رجلاً من أجل أن أحتفظ به ليأتي بآخر فيعدما معاً، فقال: وضعته في إسطبل، وغلقت الباب، غير وغلّقت الأبواب، غلق الباب على هذا الأسير، وفي اليوم التالي جاء

الضابط بإنسان آخر ليعدما، في صبيحة اليوم فتح الإسطبل فلم يجد هذا الذي خبأه في هذا الإسطبل، فذهب إلى السوق، وأتى بأعرابي، وأركبه ناقة، وجره، ووضعه مكانه، وباع الجمل، ووضع ثمنه في جيبه، في اليوم التالي جاء الضابط بإنسان آخر أعدما معاً في الإسطبل رشاً بالرصاص، ومضى على هذه الحادثة ثلاثون عاماً، واتهم بجريمة قتل ما قتله بها، قال لي: والله سمعته بأذني يبين قبل أن يشنق لماذا حكم عليه بالإعدام في جريمة لم يرتكبها؟!!

لذلك أحد الذين يطوفون حول الكعبة كان يقول: رب اغفر لي ذنبي، ولا أظنك تفعل، وكان وراءه رجل من الصالحين، قال: يا هذا ما أشد يأسك من رحمة الله! قال: ذنبي كبير، قال: ما ذنبك؟ قال: والله كنت جندياً في قمع فتنة، فلما قمعت أبيحت لنا المدينة، وهذا شأن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، فإنّ:

(الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً)

[سورة النمل: 34]

حكم اليمين المنعقدة :

ترون وتسمعون كل يوم ما يجري في العراق، وفي فلسطين، وماذا جرى في السجون؟!

والله حدثني أخ البارحة أن الاحتلال إذا دخل إلى بيت ببغداد يأخذ كل شيء ثمين، الذهب في البيت، وكل الهواتف الخلوية، وكل الكمبيوترات، والشيء الذي لا يحمله يكسره، ذكر لي تفاصيل يندى لها الجبين من هذا الاحتلال، فهذا الذي يقول: يا رب اغفر لي ذنبي، ولا أظنك تفعل، قال: يا هذا ما أشد يأسك من رحمة الله! قال: ذنبي كبير، قال: ما ذنبك؟ قال: كنت جندياً في قمع فتنة، فلما انتصرنا، وقمعنا الفتنة أبيحت لنا المدينة، فدخلت أحد البيوت، فرأت فيها رجلاً وامرأة وطفلين، فقتلت الرجل، وقتلت الولد الأول، فلما رأتني زوجته جاداً في قتل الثاني أعطتني كل ما تملك فأصررت على قتل الثاني، فقدمت لي درعاً مذهبة، مطلية بالذهب، فأخذتها، وتأملتها، فأعجبتني، فإذا عليها بيتان من الشعر، فلما قرأتهما وقعت مغشياً علي، كتب على هذه الدرع المذهبة:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويـل لقاضي الأرض من قاضي السماء

* * *

فاليمين الغموس تغمس صاحبها في النار، ولا كفارة لها، لأنها تخرجه من الملة، عليه أن يعيد إسلامه، لأنه بهذه اليمين يقتطع حق امرئ مسلم.

الآن أحياناً المدعي لا يملك الأدلة، لا يملك البينة، والمدعى عليه ينكر، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر))

[أخرجه الدارقطني عن عمر بن شعيب]

لم يبقَ بيد القاضي من دليل إلا أن يدعوه لحلف اليمين الحاسمة، وقيل للكذاب: أتحلف؟ يقول: جاء الفرج، يحلف، وإذا حلف واقتطع حق امرئ مسلم كانت هذه اليمين يمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار، فهناك يمين لغو لا نؤاخذ عليها، ولكن الأكمل ألا نستخدمها، ويمين منعقدة، ما حكم اليمين المنعقدة؟

أولاً: من حلف على يمين فرأى الخير في خلافها فليفعل الخير، وليكفر عن اليمين، واحد بساعة غضب، قال: والله لن أزور أختي ما حييت، خير إن شاء الله، كفِّر عن يمينك وعد إلى زيارة أختك، لكن لو إنسان قال: والله لا أصلي، هذه اليمين لا تنعقد أصلاً، لأن الصلاة فرض، إن حلفت على أن لا تفعل فريضة لا تنعقد أصلاً، أما إن حلفت على شيءٍ لا يرضي الله فأمامك أن تكفر عن يمينك، وأن تفعل الذي يرضي الله.

الحنث في اليمين :

يقول الله عز وجل:

(وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ)

أي وثقتم الأيمان:

(فَكَفَّارَتُهُ)

إن حلفت وفعلت الذي حلفت ألا تفعله ماذا يسمى هذا؟ الحنث في اليمين، إن حلفت ألا تزور أختك ثم زرتها، زيارتك لها حنث باليمين، هذه اليمين إذا حنثت بها تدفع كفارة، لكنك إذا دفعت كفارة قبل أن تحنث هذا يسمى تحلة.

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ)

[سورة التحريم: 2]

إن فعلت قبل أن تحلف فهي تحلة لليمين، أما إذا حلفت قبل أن تكفر فالذي تفعله بعد الحنث كفارة لليمين:

(وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ)

كفارة اليمين أنت مخير إما أن تطعم عشرة مساكين أو تكسوهم أو تحرر رقبة مؤمنة :

الإنسان أحياناً يأكل طعاماً غالياً جداً، وأحياناً يأكل طعاماً رخيصاً جداً، أما كفارة اليمين فأن تطعم عشرة مساكين وجبة أو وجبتين من أوسط ما تأكل، يمكن أن تأكل بخمسمئة ليرة، أو بخمسين ليرة،

الوسط مئتان وخمسون ليرة، وجبة أو وجبتان، إطعام عشرة مساكين، أو مسكيناً عشرة أيام، كلاهما جائز:

(أَوْ كِسْوَتُهُمْ)

أن تكسوهم كساء يصلون به، أي يستر عورتهم:

(أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ)

وبعض العلماء قاسوا على الرقبة المؤمنة في آية أخرى، أي إنسان عبد فقَد حريته في حرب، ثم تاب إلى الله، وأسلم، وحسن إيمانه ينبغي أن يكون أخوك في الإسلام، ينبغي أن تحرره، فكفارة اليمين أنت مخير، إما أن تطعم عشرة مساكين، أو أن تكسوهم، أو أن تحرر رقبة مؤمنة، وبعضهم قال: أي رقبة:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

أي من لم يجد مالاً يزيد عن نفقته ونفقة عياله في يوم واحد، وبإمكانه أن يطعم بهذا المبلغ الزائد عشرة مساكين، أو أن يكسوهم، أو أن يحرر رقبة لا يقبل منه صيام ثلاثة أيام، الثلاثة على التخيير لقوله تعالى:

(فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ)

أو للتخيير:

(أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ)

الله سبحانه وتعالى ينتظر منا أن نحفظ أيماننا :

قال تعالى:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

لم يجد مالاً لإطعام المساكين أو لكسوتهم، ومن لم يجد مالاً لتحرير رقبة:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ)

متتابعات إذا شئت، أو متفرقات:

(ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ)

لكن الله سبحانه وتعالى ينتظر منك أن تحفظ يمينك:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

أي مما يرفع مكانتك في المجتمع أن تقول كلاماً عادياً، الآن بعض الباعة بلا سبب، وبلا طلب، وبلا مناسبة، بالقرآن، بالكعبة، بدينه، بشرفه، بالأمانة، رسمالها أكثر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((اليمين الكاذبة منفقة للسلع ممحقة للبركة))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

اللسان من نعم الله الكبرى وشكر هذه النعمة أن يكون هذا اللسان ذاكراً لله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام، من علامة نضج إيمانك أن تبتعد قدر ما تستطيع عن الحلف، تكلم بالحقيقة من دون أن تكون ضعيفاً، فتستعين بالحلف الذي لا يليق بك:

(ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

من ألطف ما قال العلماء في هذه الآية: إن هذا اللسان من نعم الله الكبرى:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

فشكر نعمة الكلام لا بالحلف، ولا باليمين اللغو، ولا المنعقدة، ولا الغموس، ولكن شكر هذه النعمة أن يكون هذا اللسان ذاكراً لله عز وجل، أَمَرَنِي رَبِّي بِتِسْعٍ:

((خَشْيَةِ الله في السِّرِّ والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصِلَ مَنْ قطعَنِي، وأعطي مَنْ حَرَمَنِي، وأعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وأن يكون صَمْتي فِكْراً، ونُطْقِي ذِكْراً، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

لذلك أيها الأخوة، أتمنى عليكم وعلى نفسي أن ينقلب هذا الدرس إلى سلوك عملي أن نحفظ أيماننا، أما حينما تدعى إلى شهادة، وبهذه الشهادة يحق الحق ويبطل الباطل، ينبغي أن تشهد، وأن تقف، وأن تحلف اليمين، هذه طاعة لله عز وجل، لقول الله عز وجل:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

[سورة البقرة: 282]

لا أن تحلف مطلقاً، أحياناً تشهد، وتحلف، وترقى عند الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (39 - 49) : تفسير الآية 90 ، الخمر - الميسر - القمار.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-07-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يأخذ أو يؤاخذ :

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية التسعين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

كما تكلمت سابقاً الآية التي يكون صدرها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي هذا عقد إيماني بينه وبين الله، وما دام قد آمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وخالقاً ورباً ومسيراً، وما دامت أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى، فهذا الأمر ينبغي أن يطبق بناءً على العقد الإيماني بينك وبين الله.

في درس سابق قلت: الله عز وجل يأخذ، أو يؤاخذ، يأخذ الكفار، لأنه ليس بينه وبينهم عقد إيماني، يبطش بهم بطشة واحدة، بينما المؤمن يؤاخذه على تقصيره في عمله، أو على تجاوزه لما حرم.

الحيوان غريزته وحدها تحكمه أما الإنسان فيتحرك وفق شهواته بشكل يؤذيه ويدمره

الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا)

لا بد من وقفة متأنية عند كلمة إنما، لأنه يبنى على هذه الأداة أحكام كثيرة، هذه أداة قصر وحصر، فإذا قلت: إنما زيد عالم، قصرت زيداً على العلم، أما إذا قلت: إنما العالم زيد، قصرت العلم على زيد، إما أن تقصر صفة على موصوف، أو موصوفاً على صفة، إنما تفيد الحصر والقصر، فإذا قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة الفرقان: 28]

أي العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله عز وجل، فحيثما وردت كلمة إنما في القرآن الكريم، أو في سنة النبي عليه أتم الصلاة والتسليم ففي معناها الحصر والقصر، وفي معناها الدقة والانتباه:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

أيها الأخوة، لو تتبعنا أحوال الحيوان لوجدت أن الغرائز التي أودعها الله فيه تحكمه حكماً قطعياً، بمعنى أن الحيوان إذا أراد أن يأكل واكتفى لا يمكن أن يأكل لقمة زائدة مهما ضغط عليه، مهما جررته إلى العلف لا يأكل، مجهز بغرائز منضبطة، وتحكم صحته، وتحكم قوته، لو جررت دابة لتغوص في قناة أو في بركة تمتنع، هذا حديث طويل، الحيوان علاقته مع غرائزه منضبطة أشد الانضباط، لأن غريزته وحدها تحكمه، أما الإنسان يأكل أكثر مما يحتاج، وقد يغامر، وقد يتحرك وفق شهواته بشكل يؤذيه ويدمره، لأن العقل يحكمه.

انضباط الحيوان بغريزته بينما انضباط الإنسان بعقله :

كملخص، الغرائز في الحيوان تحكمه، لذلك قلما تجد حيواناً مريضاً إلا بحادث، لأنه يأكل وفق غريزة منضبطة، ويقارب أنثاه أيضاً وفق غريزة منضبطة، قرأت عن حيوان آخر لمجرد أن يشم أنثاه فيعلم أن حامل يبتعد عنها، الإنسان أحياناً يتجاوز الحدود التي وضعت له كثيراً، لذلك نقول بشكل مختصر: الحيوان تحكمه غريزة منضبطة تحقق له سلامته في الحياة، بينما الإنسان يحكمه عقله، والعقل كما يقولون مناط التكليف، تماماً كما لو وضعنا في جيب أحد منا جهاز لكشف العملة المزيفة، فالذي يحكم تعامله مع النقد هذا الجهاز، فإن استخدمه حقق الهدف، وإن لم يستخدمه وقبض مبلغاً كبيراً من عملة مزيفة دون أن يستخدم هذا الجهاز فقد ضيع بيته كله، باع بيته بعملة أجنبية، ولم يتحقق من سلامة النقد بالجهاز الذي في جيبه.

هذا تمهيد لفكرة خطيرة، ما دامت الغريزة تحكم الحيوان، وقد صممت تصميماً رائعاً بحيث أنها تقف عند حدود السلامة، وأن الحيوان ينضبط بغريزته أشد الانضباط فيحقق سلامته في الحياة، أما الإنسان يحكمه عقله، أما غرائزه مفتوحة يمكن أن يمارسها بشكل معقول، أو بشكل غير معقول، بالحدود التي ينبغي أن يقف عندها، أو يتجاوز الحدود التي لم يقف عندها، لكن العقل في الإنسان هو الذي يحكمه.

للتقريب: الإنسان يولد عارياً، لكن العقل الذي أتاه الله إياه ارتدى به أجمل الثياب، والإنسان بلا مأوى، لكن العقل الذي أكرمه الله به سكن في أفخر البيوت، هو يحتاج إلى مأوى، ويحتاج إلى ثياب، ويحتاج إلى طعام، فتفنن في أنواع الطعام، وتفنن في ألوان الثياب، وتفنن في أنواع البيوت، لكن الحيوان له مغارة يأوي إليها، وله صوف على جلده يحميه من البرد، فالحيوان مزود بحاجاته الأساسية من دون

إبداع، ومن دون تفوق، ومن دون ترف، ومن دون أي شيء آخر، أما الإنسان بهذا العقل ركب الطائرة، ونقل الصورة، ووصل إلى أعماق البحار، ووصل إلى أعالي الآفاق، بهذا العقل صنع أسلحة فتاكة، بهذا العقل تفنن في ألوان النعيم الذي اخترعها من أجل جسده.

إذاً الإنسان أكرمه الله بعقل، والحيوان أكرمه الله بغريزة، فانضباط الحيوان بغريزته، بينما انضباط الإنسان بعقله، غرائزه مفتوحة، يمكن أن يمارس شهواته فوق الحدود المعقولة، وأبعد من الحدود المعقولة.

شرب الخمر يضيع العقل الذي هو ضمان سلامة الإنسان :

ما علاقة هذا الكلام بقوله تعالى:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

العلاقة والمناسبة أن العقل هو مناط التكليف، وأن العقل هو الذي يحكم تصرفات الإنسان، وأن العقل هو الذي يضمن سلامته، فإذا شرب الخمر ضيع الأداة التي هي ضمان لسلامته.

حدثني أحد الأصدقاء أن إنساناً له مكانة كبيرة، بعد أن شرب تكلم كلاماً لا يصدر من طفل، فضح نفسه، وتحدث عن أسراره في ساعة الغيبوبة. فهذا الشراب الذي يذهب العقل، ويغيّبه عن الوعي محرم أشد التحريم، لأنه الأداة التي يمكن أن تكون ضمانة لسلامتك وسعادتك عطلتها، وتعلمون أن مقاصد الشريعة الحفاظ على الدين، والحفاظ على الحياة، والحفاظ على العرض، والحفاظ على العقل، والحفاظ على المال، ولكل مقصد كبير من مقاصد الشريعة حد ردعي إذا تجاوزه الإنسان، فحد الارتداد معروف، وحد القتل معروف، القتل يعاقب القاتل بالقتل، وحد شرب الخمر معروف، وحد انتهاك العرض معروف، وحد السرقة معروف، هذه المقاصد الخمس للشريعة، وكل مقصد من مقاصدها له حد رادع، إذاً العقل الذي هو مناط التكليف، والعقل الذي يمكن أن يتعرف إلى الله، والعقل الذي يريك الحق حقاً والباطل باطلاً، والخير خيراً والشر شراً، العقل الذي زودك الله به هو الميزان، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ* أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

[سورة الرحمن: 7-8]

فالذي يعطل هذا الميزان، الذي يلغي عمل هذا الميزان، الذي يغيب هذا الميزان عن أن يكون حكماً في تصرفاته، هو الخمر، فلذلك الخمرة في الإسلام محرمة أشد التحريم، (إِنَّمَا الْخَمْرُ).

الحكمة من التدرج في تحريم الخمر :

أيها الأخوة:

((ما أسكر كثيره فقليله حرام))

[أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان عن جابر وأحمد والنسائي وابن ماجة عن ابن عمرو]

((ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام))

[رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنهما]

شراب يعطل أعظم جهاز زودك الله به، أفضل الفضائح تتم في حالة السكر، أكثر أنواع السقوط يتم في حالات السكر، والسكر كما ورد في بعض الآثار: " جمع الشر كله في بيت ثم أرتج عليه، فكان مفتاحه السكر".

وهناك مقولة لطيفة، هي أن إنساناً خُيِّر بين أن يقتل غلاماً، وبين أن يزني، وبين أن يشرب الخمر، فتصور أن أهون هذه الثلاثة شرب الخمر، فلما شرب الخمر زنا وقتل الغلام. جمع الشر كله في بيت ثم أرتج عليه، فكان مفتاحه السكر، فالله عز وجل كما تعلمون، لأن السكر والخمر كانت شائعة شيوعاً كبيراً في حياة العرب، وقبل الإسلام، وحكمة التشريع جاءت فتدرجت بالتحريم، فأول إشارة إلى أن هذا الشراب ليس شراباً مستحباً، قوله تعالى في هذا الموضع:

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل: 67]

إذاً السكر ليس رزقاً حسناً، هذه أول إشارة. ثم الإشارة الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

والآية الثالثة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

منهج الدين منهج موضوعي :

العالم الشرقي قبل أن يفكك بسنوات حرم الخمر تحريماً كلياً، مع أنه يرفع شعار لا إله، هؤلاء الذين رفعوا شعار لا إله، حرموا الخمر، وفي حيثيات التحريم كلام رائع، يذهب العقل، يبدد الطاقات، يقع الإنسان فيه في متاهات، وحرم الخمر، قبل انهيار الكتلة الشرقية بسنوات تحريماً قطعياً لا باحتفال، ولا بالطائرات، ولا بمائدة رسمية، لأن واقع السكارى الذي يخزي، والذي يدمر صاحبه كان باعثاً على هذا التحريم.

بالمناسبة أيها الأخوة، منهج الدين منهج موضوعي، بمعنى أن كافراً لو أخذ به لقطف ثماره، في الدنيا طبعاً، لو أن إنساناً ملحداً أخذ ببنود منهج الله عز وجل وطبقها لقطف ثمارها في الدنيا، لأن العلاقة بين الأمر ونتائجه علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة، وأن العلاقة بين النهي ونتائجه علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة، فالله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا)

أداة قصر:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ)

أي قذارة، عمل قذر، عمل نجس، وكلمة قذر تعني قذارة مادية، وقذارة معنوية، الخيانة قذارة، لكنها معنوية، النفاق قذارة، لكنه معنوي، خيانة الأمانة قذارة، إخلاف الوعد قذارة، الكذب قذارة، وشرب الخمر قذارة، إما أن يكون القذر مادياً كالخمر، أو أن يكون معنوياً كالخيانة أو الاحتيال والكبر وما إلى ذلك.

الشيطان من أكبر فخاخه مع الإنسان قضية الميسر :

(إنما الخمر) ليست إلا قذارة حصراً، قصرنا الخمر على القذارة ليست إلا قذارة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ)

الميسر:

هي الداء الذي لا برء منه ... وليس لذنب صاحبها اغتفار
تشاد له المنازل شاهقات ... وفي تشييد ساحتها الدمار
نصيب النازلين منها سهاد ... وإفلاس فيأس فانتحار

* * *

قبل سنوات ورد في بعض الصحف أن إنساناً مسلما مقيماً في أمريكا دخل إلى دار قمار، وخسر كل ما يملكه من دون استثناء، مليونين ونصف مليون دولار، عاد إلى البيت، وأطلق النار على زوجته وعلى أولاده الخمسة ثم أطلق النار على نفسه، وقال: ليغفر الله لي.

لماذا حرم الله الميسر؟ لأنها تلغي العمل، الإنسان إذا لعب الميسر، وكسب مالاً وفيراً بجهد يسير يرى أن هذه طريقة رائعة جداً في كسب المال، بدقائق معدودة يكسب الملايين، هو يتوهم أن كسب المال بهذه الطريقة يسر، ومن هنا سميت الميسر، وليس عسراً، أما كسب المال الحلال ففيه مشقة كبيرة جداً، وتعب، وسفر، وتحصيل ديون، ومشكلات، ومتاعب لا تنتهي، أما القمار فيما يتوهمه المقامرون قضية

سهلة جداً، فلذلك الشيطان من أكبر فخاخه مع الإنسان قضية الميسر. وقد حدثني أخ كريم أنه ما من بقالية في بلاد الغرب إلا وفيها آلة ميسر، وذكر بعض أصحاب البقاليات أن إنساناً جاء ليشتري حليباً لأولاده فلعب الميسر، فخسر كل ما معه من نقود، فعاد بلا حليب إلى البيت.

يتوهم المقامر أن لعب المسير يوفر له دخلاً كبيراً بلا جهد، وبلا تعب، وبلا مشقة، لكن هذا الذي يربحه فخ كبير، ثم يخسر، يتابع لعله يعوض خسارته، ثم يخسر إلى أن يدمر، إلى أن يخسر كل شيء، وفي أغلب الأحيان ينتحر المقامرون، لأنهم فقدوا كل شيء، ودور القمار في العالم الغربي واسعة الانتشار، ولأنها أحد أحابيل الشيطان.

كل كسب للمال أساسه أن تبنى مصلحة على مفسدة أو منفعة على مضرة فهو محرم :

القمار يلغي العمل، أراد الله أن يكون العمل طريقاً لكسب المال، لذلك حرم الربا، المال يلد المال، وحرم الميسر الحظ يلد المال، وأمر بالعمل، لأن العمل يؤكد قدراتك، العمل فيه تنافس شريف، العمل فيه إبداع، العمل فيه تقديم خدمات للأمة، العمل فيه بناء الأمة، فأي كسب للمال عن طريق غير طريق العمل، عدا طبعاً الإرث والهبة، حرمه الشرع، فكل كسب للمال أساسه أن تبنى مصلحة على مفسدة، أو منفعة على مضرة فهو محرم، ما هو العمل المشروع؟ بل ما هو الكسب المشروع؟ هو الطريق الذي يأتي بالمال من دون أن يؤذي أحداً بهذا الكسب.

الآن السرقة كسب، لماذا هي محرمة؟ لأن واحداً انتفع بمبلغ كبير سرقه، والثاني هذا المبلغ جهده الكبير الذي حصله في سنوات طويلة، جاء من يأخذه ظلماً وعدواناً، بنيت منفعة للسارق على مضرة للمسروق، إذاً هو محرم، اليانصيب محرم، لماذا؟ لأن الآلاف دفعوا، وواحد الذي أخذ، واحد دفع وما أخذ وواحد دفع شيئاً يسيراً وأخذ شيئا كثيراً، بلا جهد، وبلا تعب، وبلا إبداع، وبلا تفوق، فأية منفعة تبنى على مضرة، وأي كسب يبنى على محق، وأي كسب لمال حلال اغتصاباً أو احتيالاً أو سرقة أو نهباً محرم، لأن منفعة بنيت على مضرة.

أما لماذا أحل الله البيع؟ أنت فتحت محل، واشتريت مواد أساسية في الحياة، والجيران، جيران هذا المحل وجدوا حاجاتهم إلى جانب بيوتهم، فأنت اشتريت بسعر، وبعت بسعر الفرق هو الربح الذي لك، وهذا الجار بدل أن يركب المركبات، ويتوجه إلى مركز المدينة اشترى حاجاته من جانب بيته، هو انتفع وأنت انتفعت. بالمضاربة، لماذا المضاربة مشروعة؟ إنسان يملك مالاً ولا يحسن استثماره، وإنسان عنده خبرة يحسن استثمارها ولا يملك المال، فالطرفان قد انتفعا.

لو سألتني: هل يمكن أن نجمع أنواع الكسب المشروع في محور واحد، وأنواع الكسب غير المشروع في محور واحد؟ الجواب: ممكن، أي كسب يبنى على مضرة للآخرين فهو محرم، وأي منفعة متبادلة بين شخصين هو المحلل، فالكسب الحلال منافع متبادلة، والكسب الحرام منفعة بنيت على مضرة.

لذلك الميسر: إنسان أخذ ملايين وما بذل جهد، إما لحظ، أو لاحتيال، المتمرسون بالقمار عندهم أساليب لا يعرفها أحد، من هم الضحايا؟ المبتدئون بالقمار يدخلون ويخرجون وقد خسروا كل أموالهم، لذلك الخمر عطلت العقل فحرمت، والميسر عطلت الكسب المشروع فحرمت.

كل أنواع الغش كسب غير مشروع لأنه عدوان على الكسب المشروع :

الأمة أيها الأخوة، لا تبنى إلا على كسب مشروع، كيف؟ نحن بحاجة إلى أطباء وإلى مهندسين، وإلى مدرسين، وإلى عمال، وإلى تجار، وإلى أصحاب حرف، فكل إنسان يتقن حرفة، أو ينال شهادة، يقدم خدمة يأخذ مقابلها مال يعيش به، هو انتفع ونفع، إنسان درس الطب حوالي ثلاثين سنة، فتح عيادة، يأتي إنسان آخر ابنه مريض أخذه إلى الطبيب، الطبيب عالجه، وصف له دواء، شفي بهذا الدواء بعد أن أذن الله عز وجل، فالأب حقق هدفه بشفاء ابنه، والطبيب حقق دخل، هذه منفعة متبادلة، فالأمة لا تبنى إلا على العلم والخبرة وتبادل المنافع، بينما القمار كسب غير مشروع، لأنه عدوان على الكسب، وكل عدوان على الكسب، أو كل كسب في الكسب يعد حراماً، سماه الشرع أكل السحت.

إنسان زرع أرضاً خلال موسم زراعي، وبذل جهداً كبيراً، واشترى البذار، واشترى السماد، وعين موظفين، واعتنى بالنبات، وعشب النبات، وسمد النبات، وسقى النبات، ثم حصد النبات، ووضعه في عبوات مناسبة، وساقه لسوق البيع، ونال ثمنه، وجاء إنسان خطف منه محفظة النقود، ماذا فعل هذا السارق؟ أخذ جهد موسم زراعي بكامله، لماذا السرقة حرام؟ لأنها عدوان على الكسب، وسع هذا الأمر، أي عدوان على الكسب محرم، الإنسان قد يملك قدرة على الأذى، قد يكون في مكان حساس يملك قدرة على الأذى، فإذا استخدم قدرته على الأذى في ابتزاز أموال الناس، وأخذ كسبهم المشروع فهذا الدخل محرم أشد التحريم، ابقَ في الكليات، أي عدوان على الكسب المشروع حرام، أكل للسحت، أي إيهام، أو أي تدليس، أو أي تهديد، أو أي احتيال لتعتدي على كسب الآخرين المشروع هو كسب غير مشروع، طبعاً في المقدمة تأتي السرقة واضحة، والميسر واضح جداً، واليانصيب واضح، لكن في أساليب بالكسب غير مشروع لا تبدو واضحة تماماً.

أنت حينما تغير صفات البضاعة، وتوهم الآخرين أنها مصنوعة في بلاد معينة، وأنت تشتري قماشاً من دولة شرقية رخيصاً جداً، وتأتي بشريط ذهبي تستخدمه مع المكواة، صنع في فرنسا: (made in

France)، وتبيع هذا القماش لامرأة جاهلة على أنه مستورد من فرنسا، تأخذ أربع أمثاله، السعر الذي تأخذه لو علمت أنه من بلاد شرقية، أنت هنا لم تسرق، بعت قماش، لكن أوهمت هذا الشاري أن هذا القماش مصنوع بفرنسا، مع أنه مصنوع في بلاد أخرى، فكل أنواع الغش كسب غير مشروع، لأنه عدوان على الكسب المشروع، أنت حينما تبيع سلعة، وتوهم الشاري أنها ذات صفات معينة، حينما تبيع حلويات على أنه قد استخدم فيها الحليب كامل الدسم، وقد استخدمت حليباً مسحوقاً خالي الدسم مثلاً، وتوهم الناس على أنه حليب كامل الدسم، هذا كسب غير مشروع، لأنك سرقت من أموالهم، كل أنواع الغش سرقة لكن ليست واضحة، الغش، والتدليس، والاحتيال، والاحتكار، وتلقي الركبان، والتعتيم على عيوب الآلة حينما تبيعها، هذا كله كسب غير مشروع، فيه عدوان على الكسب في أخذ ما ليس لك بحق.

هناك طرق كثيرة جداً لكسب المال الغير مشروع :

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[الطبراني عن ابن عباس]

معنى أطب، إياكم أن تفهموا أطب أي كُل طعاماً طيباً، لا، بل أن يكون هذا الطعام قد اشتري بمال حلال، ومعنى مالاً حلالاً أي كسبته من طريق مشروع، مثلاً: لو أن إنساناً محامياً غير منضبط بقواعد الشرع، ولا يخاف الله عز وجل، وأوهم موكله أن قضيتك رابحة، رابحة مئة بالمئة، وهو يعلم علم اليقين أنها خاسرة مئة بالمئة، وأن كل اجتهادات محكمة النقض تخالف أحقية ربح هذه الدعوة، وأوهم الموكل، وبدأ يأخذ أتعابه منه هذا كسب غير مشروع، هذا ابتزاز لأموال الموكل. وأي تحليل يقوم به طبيب لا يحتاجه المريض إطلاقاً، ولكن فيه اتفاق بين الطبيب وبين المخبر مثلاً، هذا كسب غير مشروع. وأي شيء يفعله المهندس حينما يغش في البناء، ويقلل الحاجات الأساسية الهندسية لهذا البناء فهو كسب غير مشروع. وأي إيهام من المدرس للطالب أنه ضعيف جداً، ولن تنجح، يأتي بأسئلة فوق طاقة الطلاب، يأخذون أصفاراً، ثم يوهمهم أنه لا بد من دروس خصوصية، هذا كسب غير مشروع.

إياكم أن تظنوا أن صاحب الدين إنسان يصلي، صاحب الدين إنسان يصلي، وهو منضبط أشد الانضباط في تعامله مع الخلق، لا كذب، ولا تدليس، ولا مبالغة، ولا أيمان كاذبة، قال عليه الصلاة والسلام:

((الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

لو دققنا في سلوكنا لماذا تخلى الله عنا؟ لأن الغش والتدليس والكذب والاحتيال وكسب المال الحرام، والعدوان على كسب الآخرين هذا شيء شائع بين المسلمين، طبعاً الشيء الصارخ الميسر، الشيء الصارخ السرقة، الشيء الصارخ اليانصيب، الشيء الصارخ الربا، لكن هناك أكثر من مليون طريق لكسب المال الغير مشروع.

حينما تلد الأعمال المشروعة المال يكون هذا المال حلالاً :

إنسان يعمل في بيع البيوت، فدخل بيتاً شمالي الاتجاه، والوقت ليل وظلام، فحتى يوهم الشاري أنه باتجاه القبلة صلى باتجاه الشمال، فأوهمه أنه باتجاه القبلة، وإذا كان البيت من خمسة طوابق يقف معه عند كل طابق دقائق حتى يرتاح، يحكي له قصة لا ينتبه، يصل إلى فوق مرتاحاً تماماً، مناظر جميلة، لم يصعد معه بشكل مستمر، مقطع، أوهمه أن البيت مريح جداً. فأي إيهام، أي تدليس، أي كذب نوع من الكسب الغير مشروع، أنا ذكرت الأشياء الصارخة، الواضحة، لكن هناك مليون طريق لكسب المال الغير المشروع، يفعله المسلمون وهم في حجاب عن الله عز وجل، ما لم تكن صادقاً، ما لم تكن ورعاً، ما لم تكسب المال، وقد وصل إليك بشكل حلال، بشكل يثني عليك الناس، ويقولون: بارك الله لك بهذه السلعة.

أحياناً تبيع جوارب في الشتاء من الصوف، في الصوف خيوط أساسها ألبسة بالية تعالج، ويؤخذ منها خيوط ضعيفة جداً، فهذا الجورب، تأخذ ثمن جورب خيوط صوفية متينة، وهي خيوط مستعملة سابقاً، لا يصمد على الاستعمال أكثر من أسبوعين، والمفروض الجورب يتحمل موسم شتاء بكامله مثلاً، هذا كسب غير مشروع.

أيها الأخوة، حينما تلد الأعمال المشروعة المال يكون هذا المال حلالاً، فإذا اشتريت به طعاماً يكون هذا الطعام طيباً، فإذا أكلت طيباً كنت مستجاب الدعوة، كلام جامع مانع، إذا عملت عملاً مشروعاً، وسلكت به الطرق المشروعة، وخدمت به المسلمين، ولم تكذب، ولم تغش، ولم تدلس، ولم تبالغ، ولم تحلف، ولم تقع في آلاف الأخطاء التي يقع فيها الباعة حينما يبتغون ربحاً وفيراً بجهد قليل، فإذا خدمت المسلمين بسلعة جيدة، وسعر معتدل، وكسبت مالاً، واشتريت به طعاماً كان هذا الطعام طيباً، فإذا كان الطعام طيباً كنت مستجاب الدعوة.

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

إذا قدر الإنسان أن يكسب مالاً مشروعاً، ويأكل به طعاماً فهو مستجاب الدعوة، طبعاً أنا توسعت في كسب المال غير المشروع، لأن كسب المال غير المشروع الصارخ يعلمه جميع المسلمين، لكن هناك ألوان وأنواع من الكسب غير المشروع محرمة، لأن فيها غشاً، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((من غش فليس منا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنهما]

((من غشنا فليس منا))

[أخرجه الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود]

بالمناسبة، كلمة ليس منا ينفي النبي عليه الصلاة والسلام انتماءه إلى الأمة، وهذا من أشد أنواع الوعيد.

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الأشياء المحرمة التي تفتك بالأمة، وتفتك بقدرات الأمة لأنها تودي بأصحابها إلى الهلاك.

أنواع الغش لا تعد ولا تحصى :

أيها الأخوة: الآن في غش بالكيل، إذا اشترى القماش يكيل، والقماش له خط منحن على المتر، وإذا باع القماش يشد القماش حتى يتمزق، يفرق، أحياناً تضع قطعة اللحم بقوة على الكفة ترجح، رجحت لا بوزنها بل بقوة اندفاعها، هذا غش أحياناً، أحياناً مروحة بالمحل، وأنت تبيع مادة غالية جداً، مواد غالية، المروحة مسلطة على الميزان، فإذا جاءت الحركة باتجاه الكفة وزن وقام، هذا أيضاً غش، قلت لكم: أنواع الغش لا تعد ولا تحصى.

حدثني أخ قال لي: والله من أربعين سنة أخذت زيتوناً لي إلى المعصرة، وأنا أريد أن يعصروا أمامي، وعصروا أمامه، ثم فوجئ أن هناك مستودع زيت نباتي مربوطاً بقعر حوض العصر، فيعصرهم نصف عصرة، ويفتح المفتاح فينزل كمية من الزيت النباتي بقدر ما عصر نصف عصرة، ويقول لك: أمام عيني، الغش قديم، والغش كسب غير مشروع، وأنت حينما تغش الناس تُحجب عن الله عز وجل، والله هو الرزاق، هو الرزاق ذو القوة المتين. فصلت في أساليب كثيرة جداً، والله الأمثلة لا تعد ولا تحصى، كل أنواع المصالح فيها غش، فهذا الذي يغش نفى النبي أن يكون منه:

((من غشنا فليس منا))

[أخرجه الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود]

يقول إنسان: هذا غير مسلم:

((من غش فليس منا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنهما]

لو غششت مجوسياً لست من المسلمين، فما قولك إذا غششت مسلماً؟ تقول: فلان غشني، أما إذا غششت غير مسلم يقول: الإسلام غشني، والفرق كبير جداً بين أن يتهمك بالذات بأنك غشاش - لا سمح الله - وبين أن يتهم الإسلام كله بأنه دين غير صحيح، بأن أصحابه لا يطبقون أحكامه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك))

[ورد في الأثر]

((من غش فليس منا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنهما]

((من غشنا فليس منا))

[أخرجه الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (40 - 49) : تفسير الآيات 90 - 91 ، الأنصاب والأزلام.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-07-30

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك عقد إيماني بين المؤمن وبين ربه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية التسعين، والتي بعدها وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

ذكرت في الدرس الماضي أن عقداً إيمانياً بين المؤمن وبين ربه، يشير إليه قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الله عز وجل بوجود عقد إيماني بينك وبين الله يؤاخذك، بينما الكافر لا عقد بينه وبين الله فيأخذه، وفرق كبير بين أن يأخذه الله، وبين أن يؤاخـذه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بالله، آمنتم بوجوده، بوحدانيته، بكماله، بأسمائه الحسنى، بحكمته، برحمته، بقدرته، بعدله، برأفته، بلطفه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

من بنود التشريع أن الشيء الذي يعطل العقل وهو مناط التكليف محرم أشد التحريم :

أيها الأخوة، لأن الحيوان تحكمه غريزته، وغريزته منضبطة أشد الانضباط بأمر تكويني، الغريزة عند الحيوان منضبطة بأمر تكويني من الله عز وجل، لا عقل له، ولا تكليف معه، لكن له غريزة منضبطة. الإنسان غرائزه مفتوحة، بإمكانه أن يتحرك من خلال غرائزه في كل الاتجاهات، ولكن الله سبحانه وتعالى أعطاه عقلاً، وأنزل تشريعاً. بالضبط كجهاز لكشف العملة المزيفة، وفيه نشرة بأرقام العملات المزيفة، وأنت الآن تبيع بيتك الذي لا تملك سواه، وقبضت ثمنه عملة صعبة، معك جهاز

يكشف زيف هذه العملة أو عدم زيفها بالجهاز، أو اقرأ النشرة، انظر إلى أرقام العملات المزيفة، ودقق بينها وبين هذا الذي أمامك، فالإنسان إذا لم يستخدم الجهاز ولم يقرأ التعليمات هو الآثم، هو المخطئ، هو المتسبب بهذا الضرر الذي لحق به.

لذلك الله عز وجل أعطانا منهجاً، أعطانا عقلاً، فالشيء الذي يذهب عقلك، والعقل مناط التكليف، الحيوان ليس له عقل، والمادة ليس لها عقل، إذاً هي مسيرة، ومسيرة بغرائز الحيوان، والجماد بقوانين، والغرائز من أمر الله التكويني، من فعله، بينما الإنسان معه أمر تكليفي، حريته مطلقة، معه حرية كاملة، ومعه شهوات، يمكن أن يمارسها بكل دقيقة، لكن معه عقل، ومعه تشريع، فمن بنود هذا التشريع أن الشيء الذي يعطل عقلك، وهو مناط التكليف محرم أشد التحريم، هذه واحدة.

لكن أراد الله سبحانه وتعالى أن نكسب أرزاقنا ليكون كسب الرزق امتحاناً لنا، فأنت بوجود دافع إلى الطعام، ودافع إلى الجنس، ودافع إلى تأكيد الذات، لا بد من أن تتحرك، لا بد من أن تأكل، ولا بد من ثمن الطعام، ولا بد من عمل لكسب ثمن الطعام، ولا بد من عمل لكسب نفقات الزواج، ولا بد من عمل لتأكيد الذات، إذاً الله عز وجل زود الإنسان بدوافع إلى الطعام والشراب، وإلى الجنس، وإلى تأكيد الذات، هذه الدوافع من خلالها يمتحن الإنسان، يصدق أو يكذب، يخلص أو يخون، ينصف أو يجحد، لذلك مناط التكليف هو العقل، مناط الانضباط في الحيوان الغريزة، والغريزة منضبطة بأمر تكويني، مناط السلامة بالقوانين، والقوانين منضبطة بأمر إلهي.

الخمر محرمة أشد التحريم لأنها تلغي العقل :

لذلك ليس في الكون إلا الإنس والجن اللذيْن أعطيا حرية الاختيار، أعطي الإنسان عقلاً، الحيوان لم يعطَ عقلاً، لكن نبت له على جلده لحكمة أرادها الله صوف، أما الإنسان فولد عارياً، لكن ارتدى الثياب الفخمة الأنيقة الجميلة المنوعة العديدة، فبهذا العقل سبق الحيوان بملايين المرات في ثيابه، والحيوان يأوي إلى مغارة، الإنسان ليس عنده مغارة، لكن عنده عقل، بنى القصور والبيوت، هذا العقل الذي وهبه الله لنا أثمن شيء على الإطلاق، هو مناط التكليف، فلذلك الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ)

هذا الخمر يستر العقل، يلغي عمل العقل:

(وَالْمَيْسِرُ)

الخمر محرمة أشد التحريم، لأنه يلغي المقود، الآن إنسان يركب مركبة، لو تعطل المقود فالحادث حتمي، الطرقات كلها انعطافات، وجبال، ووديان سحيقة، وبحار على الطرف الثاني، السيارة تمشي

بسرعة في طرقات ملتفة ملتوية، عن يمينها جبل شاهق، وعن يسارها بحر عميق، لو تعطل المقود انتهى الإنسان.

الشيء الذي يعطل المقود مهلك للإنسان، والشيء الذي يعطل المكبح مهلك له أيضاً، المقود والمكبح، فالإنسان آله بالضبط، المحرك الشهوة، والمقود العقل، والمنهج الطريق، فما دام العقل مسيطراً على المحرك فعلامة سيطرته أنه أبقى المركبة على الطريق، ولو تعطل المقود لوقعت المركبة في الوادي أو في البحر، لو تعطل المحرك لوقفت المركبة، فالشهوة محرك، والعقل مقود، والمنهج هو الطريق، فالشيء الذي يعطل المقود مدمر، هو الخمر:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ)

الميسر يلغي التنافس الشريف في الأعمال :

تحدثت عن هذا في درس سابق بالتفصيل، لكن:

(وَالْمَيْسِرُ)

طريقة لكسب المال، أول شيء فيه وهم كبير أنك سوف تربح، وما من إنسان يقدم على الميسر "القمار " إلا ويتوهم أنه سيربح، وعملياً يخسر، ويربح، وقد يخسر أضعاف ما يربح، فلذلك طريقة لكسب المال غير مشروعة، لأنها تعطل السعي، تعطل الإبداع، تعطل التفوق، تعطل أن تظهر قدرات الإنسان في إنتاجه.

مثال: لماذا بيع العملة غير مستحب كثيراً، وله ضوابط كثيرة جداً؟ بيع العملة لا علاقة له بالخبرات إطلاقاً، قضية أسعار، ترتفع هذه العملة فيربح، تنخفض فيخسر، من دون سبب منه، كأنها قمار، الجانب غير مشروع منها طبعاً، لكن فيه شروط دقيقة جداً لو طبقت لأصبح بيع العملة حلالاً، لكن بشروط صعبة جداً، لكن بالنهاية هذه التجارة ليست مستحبة كثيراً، لأنها لا تعبر عن ذكاء الإنسان، ولا عن قدرته، ولا عن خبرته، ولا عن حنكته، ولا عن حكمته، إنما هو ارتفاع وانخفاض أسعار لا علاقة له إطلاقاً.

(وَالْمَيْسِرُ)

قمار كسب من دون جهد، من دون عمل، من دون مخاطرة، من دون مغامرة، من دون إتقان، من دون حرص على علاقته مع الناس، حركات، أشياء تدور، أو أشياء تلقى في أرقام، فرقم يربح، ورقم يخسر، والقمار أنواع منوعة لا تعد ولا تحصى، حتى إنه بلغني أنه ما من محل تجاري في بلاد الغرب إلا وفيه آلة قمار، فالقمار طريق لكسب المال يعطل الإبداع، يعطل العمل، يعطل التنافس الشريف،

يعطل ألف شيء للإنسان، إبداعه، قدرته، حلمه، صبره، جلده، إصراره، إتقانه، تصحيح أخطائه، كل هذا يعطل، قضية دولاب يدور كاليانصيب تماماً، يدور الدولاب، هذا الرقم ربح خمسين مليوناً، هذا الذي ربح المبلغ ماذا فعل؟ ما فعل شيئاً، ولا قدم شيئاً، ولا يعبر هذا المبلغ عن جهده، ولا عن إتقانه، ولا عن تفوقه، ولا، ولا أبداً، فالميسر طريق لكسب المال يعطل قدرات الإنسان، يعطل صبره، يعطل ذكاءه، يعطل خبرته، يعطل إتقانه، يعطل إبداعه، يعطل جانب الخير فيه، فلذلك كما أن الخمر تحجب العقل فكذلك الميسر يلغي التنافس الشريف في الأعمال.

الكسب المشروع أساسه منفعة متبادلة والكسب المحرم أساسه منفعة على مضرة :

نحن عندنا أصل، الأعمال يجب أن تلد المال، وحينما تلد الأعمال المال توزع الأرباح بين شريحة واسعة جداً، هذه قاعدة، افتح محل تجاري تحتاج إلى دفتر فواتير، وورق، ومعامل ورق، ومستوردي ورق، وطباعة، وآلة طابعة، ومطبعة، ولها مستودعات، ولها موظفون، ولها وسائل نقل، وسائل النقل تحتاج إلى قطع تبديل، المطبعة مئة إنسان، ألف إنسان يعيشون من خلال الطباعة، وتحتاج إلى مستودع، والمستودع يحتاج إلى بناء، وإلى مواد بناء، وإلى طلاء، وإلى كهرباء، وإلى تمديد صحي، كم حرفة عملت لبناء مستودع، وتحتاج إلى مكتب، تحتاج إلى سفر، شركات الطيران، وشركات النقل، وتحتاج إلى شحن بضاعة، دون أن تشعر، هذه المؤسسة المتواضعة قد يعيش منها آلاف الأشخاص بشكل غير مباشر، لذلك حينما تلد الأعمال المال تتوزع الأرباح وفق شريحة واسعة جداً، لذلك الكسب المشروع أساسه منفعة متبادلة، والكسب المحرم أساسه منفعة على مضرة، ينتفع إنسان ويضر بالآلاف، باليانصيب ينتفع الرابح بالقمار ويضر الخاسر، ينتفع السارق بالسرقة ويتأذى المسروق، أيّ منفعة بنيت على مضرة فهي كسب غير مشروع، وأي مال ولده المال فهو كسب غير مشروع، المال إذا ولد المال تجمعت الأموال في أيدي قليلة، وحرمت منها الكثرة الكثيرة، وعندئذٍ تنشأ البطالة، وتنشأ الجريمة، وتنشأ بيوت الدعارة، وكل انحرافات المجتمع أحد أسبابها التفاوت الطبقي الكبير، وأحد أسباب التفاوت الطبقي أن يلد المالُ المالَ.

أنت حينما تدخل إلى مصرف بناء حضاري، كمبيوترات، غرف استقبال، مكاتب تكييف، معاملة لطيفة، ابتسامة، لكن مجتمع بأكمله يمكن أن ينهار لو ولد المال المالَ عن طريق الربا، ليس هناك أعمال، بحث لطيف وطويل، الإنسان حينما يستطيع أن يأخذ فائدة على أمواله إذا أودعها في المصارف ثمانية في المئة أو أكثر لم يعد يقبل أن يطرح مبلغاً ضخماً في مشروع تجاري، أو صناعي، أو زراعي إلا بربح أربعين بالمئة، لأن العشرة مضمونة بيسر من دون جهد، وأنت ببيتك مرتاح، لست مسؤولاً،

لا بقرار خطر، لا بصفقة خاسرة، لا بعلاقة مع المالية، أو مع التموين، أو مع الجمارك، كل هذه المتاعب تلافيتها بإيداع مالك بالبنك، وتتقاضى الربح، فلما كان بالإمكان أن تربح من دون جهد صار طرح المبالغ بمشاريع لا يكون إلا بأرباح عالية، والأرباح العالية تعني أسعاراً مرتفعة، والسعر إذا ارتفع قلت الشريحة المنتفعة بهذا السلعة، الكرز بخمس ليرات، يشتريه باليوم في دمشق خمسمئة ألف، الكرز بمئة ليرة يشتريه خمسة آلاف، بمئتين ألفان، فالسعر كلما ارتفع تقل الشريحة المنتفعة بهذه السلعة، كلما انخفض تتسع الشريحة، لأن الربا يمنع استثمار الأموال في التجارة والصناعة والزراعة إلا بأرباح عالية، إذاً الربا يسهم في رفع الأسعار، الربا يسهم في البطالة، وأخطر مشكلة تعاني منها المجتمعات في العالم البطالة، ماذا يفعل إنسان ليس له عمل؟ إما أن يلجأ إلى الاحتيال، والسرقة، واغتصاب الأموال، بشكل أو بآخر، أو أن يلجأ إلى السفر، أو أن يلجأ إلى الحرمان والكآبة، وما إلى ذلك.

الذي يغيب العقل عن العمل شيء مهلك :

سيدنا عمر قال لأحد الولاة: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً. أردت من هذا الشرح أن الخمر تحجب العقل، والعقل مناط التكليف، معك شهوات مفتوحة ومعك حرية اختيار، من هو الضابط؟ العقل، فالذي يغيب العقل عن العمل شيء مهلك:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ)

الآن أنت عندك قدرات، عندك إبداع، عندك طاقة، عندك وقت، عندك عضلات، يمكن أن تبدع، وتؤسس عملاً تتفوق فيه، تخدم الأمة، تصنع صناعة رائجة نستغني بها عن استيراد سلع كثيرة، في صناعتك، في تجارتك، بزراعتك، تمد الأمة بمزروعات جيدة، ناضجة، بسعر معتدل، الإنسان عمل مزرعة تفاح مئة دونم، الإنتاج نزل إلى السوق، ساهم الإنتاج الوفير بتخفيض الأسعار، عندما ساهم بتخفيض الأسعار ساهم بانخفاض مستوى المعيشة، وساهم برفع القوى الشرائية عند الناس، فإنسان يسعى إلى الربح فقط دون أن يشعر خدم الأمة، هناك أعمال كثيرة جداً تبتغي أنت منها النفع فقط، لكن دون أن تشعر، هذه تسهم في خفض الأسعار، وفي خفض مستوى المعيشة، وفي رفع القوى الشرائية، أما الأموال إذا أودعت في البنوك فليس هناك سلع، ولا منافسة، ولا استيراد، ولا بضاعة، أسعار غالية

جداً، والذين يربحون الأموال الطائلة قابعون في بيوتهم، هم عالة على الناس ولو معهم ملايين كثيرة.

الأنصاب إلغاء الاختيار :

أجمل شيء أيها الأخوة أن الناظم للكسب الحلال منفعة متبادلة، وأن الناظم للكسب الحرام منفعة بنيت على مضرة، كسب بني على حرمان، السرقة، والربا، واليانصيب، والميسر، والغش، والاحتيال، والتدليس، والاحتكار، مئة بند من بنود الكسب غير المشروع هو ينظمها، أنها منفعة بنيت على مضرة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ)

الميسر طريق واهم لكسب المال، يلغي الجهد، يلغي الإبداع، يلغي التنافس الشريف، يلغي خفض مستوى المعيشة، يلغي خفض الأسعار هذا تكلمت عنه في الدرس السابق، اليوم:

(وَالْأَنصَابُ)

الكاهن عنده ثلاثة سهام، سهم كتب عليه أمرني ربي أن أفعل، وسهم مكتوب عليه أمرني ربي ألا أفعل، وسهم فارغ، يأتي إنسان يريد الزواج من امرأة، يأتي الكاهن فيسحب من هذه السهام الثلاثة أحدها، فإذا قرأ عليه أمرني ربي أن أفعل تزوج هذه المرأة، وإذا كان السهم أمرني ربي ألا أفعل لا أتزوجها، وإذا جاء السهم الثالث فارغاً يجب أن تعيد السحب مرة ثانية، طيب قد تكون امرأة جيدة جداً، أخلاقها عالية، جاء السهم ألاّ تتزوجها، السهم ليس له قاعدة، السهم لا يدرك، ومن قال: إن الله أمرك أن تفعل هكذا، هذا كلام من عند الكهان ما أنزل الله به من سلطان، كلام لا أصل له، الأنصاب إلغاء الاختيار، إلغاء التحليل، إلغاء التمايز بين البدائل، إلغاء القدرة على الاختيار، إلغاء خصائص الأشياء، إلغاء حسن اختيار الأشياء، كل هذه القدرات ألغيت بهذه الطريقة، قد يأتي السهم لا تتزوج، وهي أفضل امرأة، وقد يأتي السهم تزوج، وهي أسوأ امرأة، بدل السهم تفحص أخلاقها، تفحص سلوكها، تفحص خصائصها، وأقبل عليها إن أعجبتك.

الأنصاب عطلت في الإنسان القدرة الإدراكية :

هل أتاجر؟ قد تكون التجارة مشروعة، ومباحة، والناس بأمس الحاجة إليها، وإن استورد التاجر طرح البضاعة في الأسواق، فحل مشكلة المسلمين، أتى السهم لا تتاجر، شيء مضحك، شيء لا معنى له إطلاقاً، أول سهم: أمرني ربي، والثاني: نهاني ربي، والثالث: لا علامة فيه، فالاختيار يتعطل، ويعطل التحليل، يعطل الاستنباط، تعطل علاقة المقدمات بالنتائج، كل هذا قد ألغي عن طريق الأنصاب:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ)

الأنصاب عطلت في الإنسان القدرة الإدراكية، أعظم شيء الله منحك إياه القدرة الإدراكية، هذه تعطلت، من دون أنصاب تحكم عقلك، تحكم الواقع، تحكم المعطيات، تحكم المقدمات، تحلل، توازن، تراجع، تسأل، تستفتي، تستشير، تجرب، آلاف الطرق لاكتشاف الصواب، كل هذا تعطل بموضوع الأنصاب، أنت وحظك، لا معنى لها إطلاقاً. الآن هناك أشياء، تفتح المصحف لا على التعيين، يظهر:

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي)

[سورة طه: 25]

إذاً يجب أن أسافر، تشبهها، هذه لا معنى لها هنا، تظهر آية:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة البينة : 7]

إذاً اتركها، أي شيء غير مبني على علم، ولا على خبرة، ولا على فحص، ولا على دراسة، ولا على تحليل، هذا شيء ليس له معنى إطلاقاً.

فالإنسان من ضعف تفكيره، ومن جهله كان يرتاح أن الإله أمرني أن أتزوج، من قال لك: إن الإله أمرك، من قال لك؟ هذا كاهن، هذا مرتزق، بهذه الطريقة يجمع الأموال الطائلة، ويوهم الناس أن هذا أمر إلهي، هذا نهي إلهي، لماذا السهم الفارغ ما عددته مباح؟ يقول لك: يستوي فعله وتركه، هكذا اقترح الكاهن، الفارغ أعيد مرة ثانية، لأن فيه رسماً على الإعادة، شيء مضحك، كسب أموال الناس بالباطل، ابتزاز أموال الناس.

من لوازم الدعاء أن تأخذ بالأسباب :

لو سألت إنساناً يشرب الخمر: لماذا تشرب الخمر؟ يقول لك: لأني أنسى همومي، هذه الهموم إذا شربت الخمر ونسيتها هل تتلاشى؟ عندك مشكلة كبيرة، المشكلة هل تلغى بشرب الخمر؟ لا، تجمد، المشكلة قائمة.

فالإنسان بطولته لا أن يقفز على المشكلات، ولا أن يجمدها، بل أن يواجهها، واجه هذه المشكلة وضع حلولاً، وقل: يا رب، توكل على الله عز وجل، استعن بالله، ولا تعجز، أما طريق الخمر فطريق مضحك، تجميد المشكلة، المشكلة قائمة، تتفاقم بالخمر، نسيت هذه المشكلة، لو أن الوسائل التي كانت بين يديك غير كافية لحل هذه المشكلة فادع الله عز وجل، والله عز وجل يقول:

(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

[سورة البقرة: 186]

وقد يقول: دعوت ولم يستجب لي، نقول له: لم تكن مضطراً أو لم تقدم الأسباب، والذي يدعو ولم يقدم الأسباب يستهزئ برب الأسباب.

يا أخا العرب ما تفعل في هذا الجمل الأجرب؟ فقال له صاحبه: أدعو الله أن يشفيه، قال له: يا أخا العرب هلا جعلت له مع الدعاء قطراناً.

من الثابت أنك إذا دعوت الله، ولم تأخذ بالأسباب فأنت مستهزئ بهذا الدعاء، من لوازم الدعاء أن تأخذ بالأسباب، لو أخذت بالأسباب ودعوت الله نجوت، فبدل أن تشرب الخمر، وأن تستر همومك وهي قائمة ومتفاقمة، ابحث عن حل لهذه المشكلة، إن لم تجد الحل فادع الله عز وجل، ومع الدعاء خذ بالأسباب.

أكبر قذارة في الإنسان أن يكون مشركاً :

أيها الأخوة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ)

طريقة في الاختيار مضحكة، طريقة غير علمية، طريقة لا تعتمد على معطيات مقنعة أبداً، وعلى أسباب كافية. أما:

(وَالْأَزْلَامُ)

شيء يدعو للضحك، ناقة تذبح، عندنا سبعة سهام، السهم الأول سهم واحد، السهم الثاني اثنان أي حصتان، الثالث ثلاث حصص، الرابع أربع حصص، الخامس خمس حصص، السادس ستة حصص، السابع سبعة، مجموعهم ثمان وعشرين، الثامن والتاسع والعاشر لهم دور آخر، يأتي عشرة أشخاص تذبح هذه الناقة، يأتي إنسان فيأخذ أحد السهام، فإذا كان رقم واحد يأخذ جزء من الثماني والعشرين، إن كان سهمه رقم سبعة يأخذ سبع أجزاء، إن كان ست ستة أجزاء، خمس خمسة أجزاء، أربع أربعة أجزاء، ثلاث ثلاثة أجزاء، اثنان جزأين، فالسبع سهام يأخذون الناقة كلها، أما الثامن والتاسع والعاشر يدفعون ثمنها، شيء مضحك، إن حكم السهم كان السهم رقم ثمانية أو تسعة أو عشرة سيدفع الثمن ولم يأكل شيئاً، واحد دفع ما أكل، وواحد أكل وما دفع، منفعة بنيت على مضرة، هذه الأزلام، طريقة مضحكة لكسب اللحم، وأكل اللحم، ودفع ثمن اللحم. الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ)

أي قذر:

(مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)

أيها الأخوة: أحياناً هناك قذارة مادية، وقذارة معنوية، أكبر قذارة في الإنسان أن يكون مشركاً، لقوله تعالى:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

[سورة الحج: 30]

يعني أكبر ذنب، أو أكبر رجس، أو أكبر قذارة، أن يكون الإنسان مشركاً يتجه إلى غير الله، وينسى الله عز وجل الذي بيده كل شيء.

أشد أنواع التحريم هو الاجتناب :

لأن الخمر يعطل العقل، وهو مناط التكليف، ولأن الميسر يعطل الكسب المشروع المبني على التنافس والخبرة، ولأن الأنصاب تعطل القوة الإدراكية في الإنسان، ولأن الأزلام طريقة مضحكة لنيل الطعام، هذه كلها طرائق باطلة، فقال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)

الشيطان له مهمة واحدة؛ أن يصرف الإنسان عن طاعة الله، وأن يغريه بمعصية الله، وأن يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء، فلذلك قال تعالى:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

الشيء المضحك أن بعضهم توهم أن ليس هناك آية تحرم الخمر، لكن هناك توجيه إرشادي باجتناب الخمر، والحقيقة عكس ذلك، أشد أنواع التحريم هو الاجتناب، لو أن الله عز وجل قال: الخمر حرام أي أنها حرام أن تشربها، وليس حراماً أن تكون في مكان فيه خمر، وليس حراماً أن تبيعها، وليس حراماً أن تتاجر بها، وليس حراماً أن تعلن عنها، وليس حراماً أن تعصر العنب ليكون خمراً. لكن حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

فهذا أبلغ أنواع التحريم، ممنوع أن تشربها، وممنوع أن تحملها، وممنوع أن تحمل إليك، وممنوع أن تعصرها، ممنوع أن تعتصرها، ممنوع أن تتاجر بها، ممنوع أن تعلن عنها، ممنوع أن تكون في مكان فيه خمر، أيهما أبلغ؟!

الأمر بالتحريم لم يأتِ مباشرة بل أتى بتحريم أسبابها :

قال تعالى:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

وكلمة:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

أي أعطِها جنبك، أي اجعل بينك وبينها هامش أمان، والمعاصي التي تغري الإنسان، فالأمر بالتحريم لم يأتِ مباشرة، يأتي بتحريم أسبابها، كقوله تعالى:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

لأن المرأة مغرية، وقد تثير الشهوة في الإنسان، فلو كان معها في بيت واحد ربما وقعت الفاحشة، فالإسلام حرم الخلوة، وحرم إطلاق البصر، وحرم صحبة الأراذل، وحرم متابعة قصص ماجنة، وحرم متابعة أفلام ساقطة، لأن هذا كله يغري الإنسان بالزنا، فالزنا محرمة أسبابه، بدليل قوله تعالى:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

والخمر محرمة أسبابها، ليس متاحاً لك أن تجلس على مائدة تدار فيها الخمر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

الكسب المشروع فيه مودة على عكس الكسب غير المشروع :

الشيطان ماذا يريد؟ قال:

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ)

طبعاً الكسب المشروع فيه مودة، أنا وكيل فلان، أعطاني بضاعة، بعتها، ربحت وربحته، أنا ممتن منه، وهو ممتن مني، واضح؟ مثلاً صنعت بضاعة، وراجت بالأسواق، فالذين اشتروها ربحت منهم وطربوا من إتقان هذه البضاعة.

أما بالقمار الذي يكسب المال، وقد أخذ مالاً من أخيه بغير حق، دخل مسلم بأمريكا على نادي قمار، وخسر بليلة واحدة اثنين ونصف مليون دولار، كل ما يملكه، من قطر عربي مجاور، ذهب إلى البيت،

وأمسك بالمسدس، وأطلق طلقة على زوجته فقتلها، وطلقة على أولاده واحداً واحداً، قتل خمسة أولاد، وزوجته، ثم انتحر، لأن يئس.

هي الداء الذي لا برء منه وليس لذنب صاحبها اغتفار

تشاد له المنازل شاهقات وفي تشييد ساحتها الدمار

نصيب النازلين منها سهاد وإفلاس فيأس فانتحار

* * *

حكمة الله عز وجل كبيرة جداً حينما بدأ بتحريم الخمر بإشارة لطيفة جداً :

إذاً:

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ)

العداوات تنفجر بين المقامرين، وتنفجر بين من يعملون في الأنصاب والأزلام، وتنفجر بين مدمنين الخمر، يتكلم كلاماً وقحاً، كلام فيه فضائح، فالصاحي يقتله:

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ)

الحقيقة: حكمة الله عز وجل كبيرة جداً حينما بدأ بتحريم الخمر بإشارة لطيفة جداً، هي قوله تعالى:

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل: 67]

السكر رزق غير حسن فقط، الآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

الآية الثالثة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ)

المجتمع يقوى بطاعة لله ويتفتت بمعصية الله :

كأن ثمة انسجاماً والتحاماً بين إنسانين، مهمة الشيطان أنه يريد شرخاً كبيراً بينهما، الآن المجتمع يقوى بالطاعة لله ويتفتت بمعصية الله لأن المعاصي متناقضة، والمصالح متناقضة، والأهواء متناقضة، أما الطاعات فمتطابقة.

((ما تواد اثنان فَفُرِّقَ بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أحمد عن ابن عمر]

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ)

بذكر الله تحيا القلوب، بذكر الله يقذف نور الله في قلبك، بذكر الله تكون حكيماً، تكون حاد البصر، فصيح اللسان، سديد البيان، حكيماً في تصرفاتك، بالضبط راكب مركبة والطريق متعرج، وعلى الأطراف وديان سحيقة، معك ضوء قوي، هذا الضوء القوي يكشف لك معالم الطريق، لا تقترب، حينما ترتكب معصية فتطفئ الأنوار، وإذا انطفأت الأنوار وقع المصاب، وقع الحادث، فالإنسان إذا كان مع الله مستنيراً الله عز وجل يقذف في قلبه نوراً يريه الحق حقاً والباطل باطلاً، الدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

[سورة الأنفال: 29]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد: 28]

الله عز وجل وصف الإيمان بأنه نور وبأن الكفر والبهتان ظلام :

أنت حينما تكون مع الله يقذف الله في قلبك النور، وحينما تنقطع عن الله تقع في عمىً، وفي ظلام، والله عز وجل وصف الإيمان بأنه نور، وبأن الكفر والبهتان ظلام.

(وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة المائدة: 16]

الشيء الذي يعد مثالياً أن يكون محبة ومودة والتحام بين المؤمنين، والشيء الذي يريده الشيطان أن يحدث شرخاً بينهما، شرخاً، انفصالاً، عداوة، خوفاً، قلقاً، مؤامرة، كيداً، تراشق تهم، هذا الذي يريده الشيطان. وكل إنسان يحقق أمنية الشيطان يكون متبعاً للشيطان، وكل إنسان يحقق ما يريده الرحمن منك، أن تكون أخاً لأخيك، صدوقاً، ودوداً، وفياً، محباً، مخلصاً، يرضى الله عنك. إذاً:

(الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ)

ثم يقول الله عز وجل:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

أهل الدنيا يشربون الخمر، يلعبون الميسر، يستقسمون بالأزلام ويتبعون الأنصاب، أعمال غير معقولة، وغير علمية، وغير نافعة، وغير صحيحة، وغير مثمرة، هذا من عمل الشيطان، مما يرضي الرحمن أن تعمل، جاءك خيار بين شيئين تحلل، تدرس، تناقش، تمايز بينهما، تسأل، تستشير أولي الخبرة من المؤمنين، أو تستخير الله عز وجل.

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات من سورة المائدة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (41 - 49) : تفسير الآيات 93 - 96 ، الحساب بعد التكليف.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-09-10

بسم الله الرحمن الرحيم

التدرج في التشريع :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة المائدة ومع الآية الثالثة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

أيها الأخوة الكرام، كلكم يعلم أن التشريع نزل متدرّجاً، ففي وقت فرضت الصلاة، في وقت فرض الصيام، في وقت فرض الحج، في وقت حُرمت الخمر، في وقت حُرم الميسر، فالعبادات والمحرمات نزلت بالتدريج.

لذلك بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ممن استشهدوا أو ماتوا قبل تحريم الخمر، قلق الأصحاب الكرام على أخوانهم، فتساءلوا: ما حكم أخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر قبل أن تُحرم؟ هذا القلق قلق مقدس، لكن الله جل جلاله رحيم بعباده، الله عز وجل لا يكلفنا إلا بما شرع لنا.

إذاً قبل التشريع الإنسان معفو عنه، هذا التساؤل الذي تساءل به أصحاب النبي رضوان الله تعالى عليهم، وهذا القلق المقدس الذي قلقوا به على أخوانهم ممن سبقوهم إلى دار الحق من هؤلاء الذين فعلوا شيئاً حرم فيما بعد، بعد موتهم أو بعد استشهادهم، هذا السؤال الكبير جاء جوابه في هذه الآية.

الصحابة الكرام الذين توفاهم الله قبل نزول تحريم الخمر حُكم الله فيهم العفو :

أولاً يقول الله عز وجل:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ)

قد يسأل سائل: غير المؤمن عليه جناح؟ غير المؤمن لم يدخل في عقد مع الله عز وجل، لذلك ليس بعد الكفر ذنب، الذي يدخل في عقد إيمانٍ مع الله عز وجل هو مؤمن، لذلك المؤمن يحاسب، أو يؤاخذ، أو يعفى عنه، فهذا معنى قوله تعالى:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ)

أي لومٌ:

(جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا)

الحقيقة،

(طَعِمُوا)

تشمل الطعام والشراب، الدليل حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي)

[سورة البقرة: 249]

إذاً معنى طعم الماء أي شعر طعمه في فمه، وليس معنى طعم الماء أن الماء يؤكل، لكن هنا تأتي كلمة طعم لتغطي الطعام والشراب معاً، فهؤلاء الصحابة الكرام الذين توفاهم الله عز وجل قبل نزول تحريم الخمر، أو استشهدوا في بعض المعارك قبل تحريم الخمر ما حكم الله فيهم؟ حكم الله فيهم العفو، لأن الله عز وجل حينما كانوا أحياء الذي كلفهم به أتموه على أكمل وجه، إذاً ليس عليهم شيء.

الله سبحانه وتعالى لا يحاسب إلا بعد التكليف :

أيها الأخوة، الآية تبشر وتطمئن الأصحاب الكرام، ومن سبقوهم إلى رحمة الله: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا)

أن يعصوا الله فيما أمرهم، أي في حياتهم كل شيء أمروا به نفذوه، وائتمروا به، وكل شيء نهوا عنه تركوه، وابتعدوا عنه، إذاً في حياتهم وقبل موتهم أو استشهادهم أدوا الواجب، وتركوا المحرم، أما الشيء الذي لم يحرم بعد ما فعلوه ثم حرم بعد ذلك فلا إثم عليهم فيه، وماتوا أطهاراً عند الله عز وجل. إذاً:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا)

آمنوا بالله الإيمان الذي حملهم على طاعته، فاتقوا بعد أن عرفوه أن يعصوه، أن جعلوا بينهم وبين الله شيئاً يتقون به غضبه، أو يتقون به سخطه، أو يتقون به ناره.

(إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

عرفوا الله، وائتمروا بأمره، وانتهوا عما عنه نهى، ثم عملوا الصالحات، وماتوا على هذا الحال، والأشياء التي حرمت من بعد فعلوها، ولكن ليسوا مؤاخذين عليها، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحاسب إلا فيما كلف، ولا معصية إلا فيما حُرِّم، ولا مؤاخذة إلا بعد التكليف.

من مات وقد فعل شيئاً لم يحرم في حياته فهو ناج عند الله :

لكن الذين جاؤوا بعدهم أضيف إلى الأحكام التي عاش أخوانهم في خلالها، ونفذوها أضيف أحكام جديدة، فالمؤمنون الذين عاشوا بعد موت أخوانهم أو بعد استشهادهم، ونزلت أحكام جديدة في تحريم الميسر وتحريم الخمر نفذوها، هؤلاء تغطيهم الآية الثانية.

إنسان مات، وقد فعل شيئاً لم يحرم في حياته، فهو ناج عند الله، الإنسان الثاني امتد به العمر حتى نزلت أحكام جديدة فنفذها، هؤلاء غطاهم الله عز وجل في قوله:

(ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا)

بعد حين حرمت الخمر، فتركوها، حرمت الميسر فابتعدوا عنها كلياً:

(إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا)

ولكن بعدما انتهى التشريع، وبعد أن ختمت الرسالة، وبعد أن تحددت المحرمات، والمأمورات، والإنسان امتد به العمر بعد ذلك، بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى، وبعد انقطاع الوحي، ماذا عليه أن يفعل؟ قال:

(ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا)

أي كلفوا بالصلاة فأحسنوا، صلوا صلاة النوافل، كلفوا بالصيام فصاموا صيام النفل، كلفوا بالزكاة فدفعوا أموالاً زيادة عن واجبهم في أداء الزكاة.

الآية تتحدث عن ثلاث مراحل :

إذاً هناك ثلاث مراحل: مرحلة صحب كرام عاشوا الوحي، وطبقوا التشريع الذي كان في عهدهم، وماتوا هم إلى رحمة الله ومغفرته، لأنه لا مؤاخذة إلا بعد التكليف.

وأناس آخرون عاشوا حياة بعد موت أخوانهم فاستقبلوا أحكاماً جديدة، ونفذوها هم عند الله أيضاً ناجون، لأنهم طبقوا كل ما انتهى إليهم، لكن بعد انقطاع الوحي، وانتقال النبي إلى الرفيق الأعلى هؤلاء زادوا في عباداتهم، زادوا في صلواتهم، زادوا في أداء الأموال التي يبتغون في إنفاقها وجه الله عز وجل، زادوا في صيامهم، زادوا بعد الحج حجة، أنفقوا أموالهم، هؤلاء اتقوا وأحسنوا، الآية تقول:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

هؤلاء الفريق الأول، ثم الفريق الذي عاش بعد هؤلاء، واستقبل أحكاماً جديدة فنفذها:

(ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا)

والفريق الذي عاش بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى فزاد في عباداته، وزاد في إنفاق ماله:

(ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

إذاً الله عز وجل من رحمته بنا أنه لا يكلفنا ما لا نطيق، ولا يكلفنا إلا في حدود ما شرع لنا، ولا معصية من دون تكليف، وهذا بند كبير في كل دساتير العالم، أي إن القانون لا يمكن أن يأخذ مفعولاً رجعياً، فإذا أخذ القانون مفعولاً رجعياً كان فيه ظلم كبير، لأنه حينما شرع هذا القانون الذين خالفوه قبل التشريع لا شيء عليهم، وهذا أصل فيما يسميه علماء القانون بالمسؤولية، لا مسؤولية إلا بعد التشريع، ولا معصية إلا بعد التكليف، ولا مؤاخذة إلا بعد التبيين، وهذا من رحمة الله بالمؤمنين.

حكم من عاش بين نبوتين وفي وقت لم يصل إليه وحي من السماء :

لكن هذا الكلام يذكرنا بكلام آخر، أن هؤلاء الذين عاشوا فيما بين نبوة الأنبياء، يسميهم العلماء أهل الفترة، أليسوا محاسبين؟ هناك من توهم أنهم لا يحاسبون أبداً، الحقيقة بين ذلك، بين هذا وذاك، الحقيقة أن الإنسان أودع الله فيه عقلاً كافياً للتعرف إلى الله، وأودع فيه فطرة كافية كي تكشف له خطأه، فالإنسان الذي لم يتلقَ رسالة من السماء، ولم يتلقَ توجيهاً نبوياً محاسب لا بضوء تفاصيل الشريعة، ولكن محاسب على شيئين كبيرين أودعهما الله فيه، وهو العقل والفطرة، فالعقل كافٍ أن يدله على الله، والفطرة كافية أن تدله على خطئه، إذاً هو يحاسب.

إنسان ما التقى برجل دين في الأرض، عاش في جزيرة، لو أنه قتل أمه، أو أكل وأجاع أمه، هذا الإنسان بفطرته التي فطر عليها يشعر أنه بحق هذه المرأة هو مجرم من دون تشريع، فالفطرة كافية أن تكتشف خطأك، والدليل:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة: 14-15]

والدليل الآخر أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: 7-8]

فالإنسان يكشف خطأه، وبعقله يصل إلى ربه، فحينما يكون الإنسان بين نبوتين، وفي وقت لم يصل إليه وحي من السماء ليس محاسباً على تفاصيل الشريعة، ولكنه محاسب على أصل الإيمان، وأصل طاعة الرحمن، عقله تدله على الله وفطرته تمنعه من أن يخطئ.

المؤمن يوطن نفسه أن التحريم لابدّ منه في الأديان لأن ترك المحرمات ثمن الجنان :

قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أخواننا الكرام، لا يمكن أن تكون هناك جنة من دون محرمات، لو أن إنساناً بسذاجة طفل تصور أن الله عز وجل لم يحرم علينا الزنا، ولا المال الحرام، ولا الفواحش، ولا السرقة، ولا لحم الخنزير، ولا الخمر، لارتحنا، وكنا جميعاً في طاعة الله عز وجل، وجميعاً إلى الجنة، عندئذٍ لم يكن هناك جنة، الشيء الذي لم تدفع ثمنه لا قيمة له إطلاقاً.

فيجب أن نعتقد جميعاً أنه لا بد من شيء محرم، الربا محرم، وقد يتراءى للإنسان أن كل مصلحته في الربا، والزنا محرم، وقد يتوهم الإنسان أن كل لذائذه تحل أو تتحقق بالزنا، والسرقة محرمة، وقد يتوهم الإنسان أن السرقة يمكن أن تعطيه مالاً كثيراً بلا جهد إطلاقاً، لذلك المؤمن يوطن نفسه على أن التحريم لا بد منه في الأديان، لأن ترك المحرمات ثمن الجنان.

الله عز وجل لا يمكن أن يعطي الجنة إلا لمن يدفع ثمنها وثمنها ليس سهلاً :

لذلك الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ)

الأشياء مغرية، أحياناً المال بين يديك بإمكانك أن تأخذ منه ما تستطيع دون أن يكشفك أحد، والله عز وجل يضع الإنسان في ظروف دقيقة جداً، بإمكانك أن تأخذ المال الوفير دون أن تكون مسؤولاً، ما هي الأمانة؟ الأمانة لا أن تؤدي مبلغاً من المال كتب عليك بسند، أو إيصال موثق، لا، هذا سلوك مدني، الأمانة أن يودع عندك مبلغ كبير بالملايين، والذي أودعه عندك لم يأخذ إيصالاً، ومات بحادث، وأهله لا يعلمون عن هذا المبلغ شيئاً، أنت لست مداناً في الأرض إطلاقاً، ولكن خوفك من الله يدعوك إلى أداء هذه الأمانة. أقسم لي أخ بالله، وهو عندي صادق، أنه كان عنده عشرون مليون ليرة سورية، والذي أودعها عنده لم يعلم أحداً بذلك، وتوفي بحادث، فذهب إلى الورثة، وقدم لهم المبلغ عداً ونقداً تبرئة لذمته، هذه الأمانة.

لذلك الله عز وجل لا يمكن أن يعطي الجنة إلا لمن يدفع ثمنها، ثمن الجنة ليس سهلاً، ثمن الجنة أمانة قد تغري الإنسان أن يخالفها، فنبدأ بالشيء الصغير:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ)

إنسان يقول لك: أنا لا آكل حراماً لو قطعتني إرباً إرباً، ويقصد ألف ليرة، ألفين، أو ثلاثاً، يأتيه مبلغ مليون، وتحل به كل مشكلاته، يقول لك: ماذا أفعل؟ هذه بلوى عامة، سقط في الامتحان، امتحن فلم ينجح، فالله عز وجل كل عصر له ابتلاءات، وكل إنسان له ابتلاءات، وكل ظرف له ابتلاء، في كل مكان وفي كل زمان هناك أشياء مغرية جداً بين يديك، لذلك يفرز الناس حيال هذا الابتلاء إلى إنسان صدق ما عاهد الله عليه، وإنسان سقط تحت ضغط شهوته ومصلحته.

ما كل تشريع سماوي يقابله تشريع أرضي :

يبدو أن الصيد شيء محبب جداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ)

أحياناً الصيد لا يحتاج إلى سلاح، لا يحتاج إلى رمح، لا يحتاج إلى بندقية، بين يديك حيوانات أليفة جداً، في أثناء الحج محرم أن تصطادها وهي بين يديك، قد تمسكها بيديك:

(تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ)

أضرب لكم بعض الأمثلة، يمكن أن تكون في غرفتك، والنافذة مفتوحة، وبيت مقابل لبيتك، فتحت النافذة امرأة صاحب البيت، ولم تكن تهتم بحشمتها، ثيابها متبذلة، وقد تبدو كل مفاتنها من خلال الثياب، وأنت في مكان مظلم، وليس على وجه الأرض إنسان يكشف أنك تملأ عينيك من شيء حرم عليك، ليس إلا الله الذي يعلم خائنة الأعين، فإذا غضضت البصر، وقلت: إني أخاف الله رب العالمين، لا أحد على وجه الأرض يكشفك، هذه المخالفة، هذا امتحان أحياناً، ما كل تشريع سماوي يقابله تشريع أرضي، فالسرقة تتفق بين تشريعات السماء وتشريعات الأرض، لكن غض البصر مما تنفرد به شريعة السماء، فأنت لست مؤاخذاً في كل بقاع الأرض إذا مرت امرأة متبذلة وملأت عينيك من محاسنها، لا أحد يحاسبك، لكن الله وحده يعلم ذلك، هذا أيضاً امتحان.

قد تدخل إلى بيتك في أيام رمضان، ورمضان في شهر آب، والنهار طويل جداً، وتكاد تموت عطشاً، وبإمكانك أن تفتح الصنبور، وأن تشرب ماء بارداً لا يعلم أحد بهذه المخالفة إلا الله، ما الذي يمنعك أن تشرب في رمضان؟ إيمانك بالله، فالصوم عبادة الإخلاص، وغض البصر عبادة الإخلاص، لكن السرقة ممكن أن تضبط من قبل أهل الأرض، وقد تحاسب حساباً عسيراً على هذه السرقة.

الناس يمتحنون ويفرزون بين مؤمن يخاف الله وبين غير مؤمن يتجرأ على النواهي

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ)

أي هو يمتحنكم:

(بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ)

القصة التي ذكرتها عشرات المرات، وقد تركت في نفسي أثراً كبيراً: أن هذا الإمام الذي كان في لندن، وانتقل إلى ظاهر لندن، وركب مركبة كل يوم، وصعد المركبة مرة، ودفع للسائق ورقة نقدية كبيرة، وردَّ له السائق البقية، فلما عدها وجدها تزيد عشرين بنساً عما يستحق، فقال: أنا كمسلم ينبغي أن أرد هذه الزيادة، هذا موقف المسلم، وبما أن لكل إنسان ملك يلهمه، وشيطان يوسوس له، يبدو أن الشيطان قال له: إنها شركة عملاقة، ودخلها فلكي، والمبلغ زهيد ويسير، لا يقدِّم ولا يؤخر، فلا عليك إذا أخذته، وأنت بحاجة إليه، وكأنه هبة من الله لك، لكنه قبل أن يغادر المركبة، دون أن يشعر مد يده، ودفع للسائق العشرين بنساً، ابتسم السائق، وقال له: ألست إمام هذا المسجد؟ قال له: بلى، قال له: والله قبل يومين حدثت نفسي أن أزورك بالمسجد لأتعبد الله عندك، ولكنني أردت أن أمتحنك، وقع هذا السائق مغشياً عليه لهول الصدمة، وأدرك لحظتها كم هي الجريمة التي كاد أن يقترفها لو أبقى في جيبه العشرين بنساً، ثم لما صحا من غفوته قال: يا رب، كدت أبيع الإسلام بعشرين سنتاً، هذا رسب أمام إنسان، فكيف إذا رسبت أمام الواحد الديان؟!

أنا أقول لكم أيها الأخوة: لو أن إنساناً وقع من طائرة، وتكسرت أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، والله عز وجل يمتحنك كل يوم، أنت في دائرة الامتحان كل يوم، إذاً هذا الصيد بين يديك، الله عز وجل حرم الصيد على المُحرم، وحرم الصيد في الحرم، حرم الصيد على المُحرم في حدود المواقيت، وحرم الصيد على غير المُحرم في الحرم في أثناء الحج، فلذلك قد يأتي الصيد إلى ما بين يديك، تستطيع يداك أن تناله ومع ذلك الناس يمتحنون ويفرزون بين مؤمن يخاف الله وبين غير مؤمن يتجرأ على النواهي التي نهى الله عنها:

(لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ)

العاقل هو الذي يحكمه النص والأحمق هو الذي يحكمه الواقع :

أخواننا الكرام، كل إنسان حينما يرى سلاحاً موجهاً ضده يرعوي ويستقيم، لكن البطولة أن تخشى الله بالغيب، لذلك الله عز وجل حينما قال:

(الم*ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ*الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

[سورة البقرة الآيات: 1-3]

يا أيها الأخوة، الدنيا محسوسة، تراها بعينيك قصراً جميلاً، سيارة فارهة، طعاماً طيباً، مزرعة رائعة، امرأة جميلة، هذه كلها محسوسة، أما الآخرة فتفتح كتاباً اسمه القرآن الكريم تجد أربع كلمات:

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

[سورة الضحى: 4]

هذا خبر، الدنيا محسوسة، والآخرة خبر، لذلك الإيمان بالغيب درجة متقدمة عالية جداً بالإنسان، الآن كم من إنسان يموت من الدخان، وآلاف الأبحاث العلمية تبين أخطار الدخان، من هو العاقل؟ الذي يحكمه النص، من هو الأحمق؟ الذي يحكمه الواقع، الإنسان حينما يصل إلى الواقع المر يندم أشد الندم، لكن العاقل قبل أن يصل إلى ما وصل إليه يرعوي قبل فوات الأوان.

(فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

الذي يعتدي على الصيد:

(فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

الله عز وجل جعلك عبداً تاماً له في الحج خاضعاً لكل توجيهاته :

في الحقيقة له عذاب، لأنه لم يعبأ بمنهج الله عز وجل، لكن الحكمة من ذلك أيها الأخوة أن الإنسان بالحج عليه أن يخضع لله خضوعاً تاماً، وعليه أن يصفي نفسه، وأن يبتعد عن كل شعور بالفوقية، فالإنسان أعلى المخلوقات، دونه الحيوان، في الحج ممنوع منعاً باتاً أن يقتل الحيوان في أثناء الحج، صيد البر محرم في الحج، الآن الحيوان فوق النبات، والنبات دون الحيوان، وممنوع أيضاً أن تؤذي نباتاً في أيام الحج، الإنسان، الحيوان، النبات، دون النبات الجماد، وعليك أن تقبل حجراً في أثناء الحج، تقبل حجراً بتوجيه الله، وترجم حجراً بتوجيه الله، وتمتنع عن اقتلاع نبات أو إيذاءه، وعن قتل حيوان في أيام الحج وفي الحرم.

إذاً الله عز وجل جعلك عبداً تاماً له، خاضعاً لكل توجيهاته، تأتمر بأمره، وتنتهي عما عنه نهى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ)

الصيد ممنوع وأنت محرم، محرم طبعاً من المواقيت، في أثناء الحج ممنوع لغير المحرم في منطقة الحرم فقط أن يقتل صيداً، أي المُحرم مكان التحريم حدود المواقيت المكانية، وغير المحرم حدود التحريم منطقة الحرم من التنعيم إلى الجعرانة، حدود الحرم الضيقة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ)

أي إذا قتل فرضاً نعامة عليه أن يقدم بدنة، إذا قتل حمار وحش عليه أن يقدم بقرة وهكذا، الذي يقدم فدية لخطئه واعتدائه مثلما قتل من النعم.

(يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)

أي هناك رجلان يحكمان بنوع النعم الذي ينبغي أن يكون فدية لما قتل، لو أنه قتل غزالاً عليه أن يقدم شاة، وهكذا.

ليس من دين إلا وفيه محرمات :

قال تعالى:

(هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ)

يجب أن يكون هذا الهدي في الكعبة:

(أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ)

أي ليس من دين إلا وفيه محرمات، وفيه ألم حينما يعاقب على اقتراف بعض المحرمات، وبال الأمر يعطي خبرة مؤلمة، عندما يكذب طفل فيؤدب من قبل والده، هذا التأديب له فائدة تربوية كبيرة جداً، هذه الفائدة التربوية أن الطفل قرن في نفسه، في عقله الباطن بين هذا الكذب وبين هذا التأديب، وكل واحد منا إذا اقترف معصية وأدبه الله عليها، يقول لك: تربيت، هذا أسلوب الحكيم في التربية، أي إحداث خبرة مؤلمة مع المعصية، طفل جاء بشيء ليس له، أخذه من رفيقه دون أن يعلمه، فالأب حرمه من نزهة، فارتبط عند الطفل أن أخذ شيء ليس له يقابله حرمان من نزهة، لا بد من تربية الأولاد بهذه الطريقة، والله عز وجل يتولى تربية الكبار بطريقة أخرى، أن الإنسان كلما عصى الله عز وجل جاءه من الله تأديب يوازي هذه المعصية، فارتبط في عقله الباطن هذا العقاب مع هذه المعصية.

أؤكد لكم أيها الأخوة أنك إذا دخلت إلى مسجد، ورأيته ممتلئاً بالأخوة الكرام المؤمنين يجب أن تعلم علم اليقين أن عدداً كبيراً جداً من هؤلاء إنما عالجه الله معالجة حكيمة، وساقه إلى مسجده، وإلى بابه بطريقة لطيفة، أنه شعر أنه في خطر ليس له إلا الله، فانكب على أعتاب الله، واصطلح مع الله، وأطاعه، فأزاح الله عنه هذا الخطر بالتربية، فإما أن يقدم مثل هذا الحيوان الذي قتله:

(هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ)

وإما أن يطعم مسكيناً طعاماً يساوي هذا الذي قتله ظلماً، أو أن يصوم صياماً يوازي طعام هذا الذي لم يطعمه.

إذا لم يرافق الانحراف عقاباً وتأديباً أو خبرة مؤلمة فهناك مشكلة كبيرة :

قال تعالى:

(لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ)

مثلاً: الأمر ببساطة بالغة لو أن ابنك عملَ عملاً سيئاً، وأنت لم تحاسبه أبداً، يرى هذا السوء طبيعياً جداً، يستمرئه ويدوم عليه، لو لم تحاسبه إطلاقاً لفعل أكبر منه، والأمر يتفاقم.

يروى أن إنساناً حكم عليه بالإعدام، فطلب منه ماذا يتمنى؟ قال: أريد أن أرى أمي، جاءت أمه، فقال لها: مدي لسانك كي أقبله، فلما مدت لسانها قطعه بأسنانه، وقال: لو لم يكن هذا اللسان مشجعاً لي في الجرائم ما فقدت حياتي. إذاً: إذا لم يرافق الانحراف عقاباً، وتأديباً، أو خبرة مؤلمة فهناك مشكلة كبيرة، الأمر يتفاقم:

(عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

قبل نزول هذه الآيات، وقبل هذا التشريع الذي كان قبل هذا التاريخ معفواً عنه أيضاً، وهذا من رحمة الله بنا:

(عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

التحريم مرتبط بالإحرام أما تحريم منطقة الحرم فمرتبط بأيام الإحرام لغير المحرم :

أيها الأخوة الكرام:

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

لكن للبحر شأن آخر:

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ)

السيارة أي القافلة:

(وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً)

(وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا)

[سورة المائدة: 2]

التحريم مرتبط بالإحرام، أما تحريم منطقة الحرم فمرتبط بأيام الإحرام، لغير المحرم:

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

الإنسان محاسب على كل حركاته وسكناته ومحاسب على كل أفعاله :

أيها الأخوة، ورد في بعض الأحاديث أنه: من قتل عصفوراً لغير مأكلة جاء يوم القيامة له دوي كدوي النحل تحت العرش يقول: يا رب اسأله لمَ قتلني؟

الصيد حلال ومباح لغير المحرم، ولكن لعلة وجيهة، الإنسان مخلوق مكرم عند الله، يمشي في الطريق انقطع زاده، فإذا اصطاد حيوان، وأكله، وأبقى على حياته فهذا مباح في الشرع، أما أن يذهب ليمارس هواية الصيد، وليقتل مئات الطيور دون أن يأكلها فقط لإحكام الرمي هذا في كتب الفقه محرم أشد التحريم، هواية الصيد، من اصطاد طائراً لغير مأكلة، ليمارس هواية معينة في إصابة الهدف هذا محرم أشد التحريم.

أعيد الحديث عليكم ثانية: من قتل عصفوراً لغير مأكلة جاء يوم القيامة له دوي كدوي النحل تحت العرش يقول: يا رب، اسأله لمَ قتلني؟ الإنسان محاسب على كل حركاته وسكناته، محاسب على كل أفعاله، ولا ينبغي أن يجرب بندقيته بحيوان، ولا يجوز أن تجعل الحي غرضاً لصيد، أو لرمح، هذا أيضاً محرم أشد التحريم، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام نهى أن تروع حيواناً أن تشحذ سكينك أمامه، أو أن تذبح شاة أمام شاة، هذا محرم أيضاً بنص الحديث الشريف:

((إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ فإذا قتلتُم فأحسِنُوا القِتلة، وَإذا ذَبحتُم فأحْسِنُوا الذَّبحَ، وليُحدَّ أحدُكم شَفرَته، وليُرِحْ ذبيحَته))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن شداد بن أوس]

عملية الحج خضوع تام لإرادة الله عز وجل :

الآيات أيها الأخوة:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ)

أيها الأخوة، هناك موضوع جانبي يحسن أن نأتي عليه، هو أن هناك مكاناً يسمى الحرم، وهناك أشهر حُرم، الذي يحصل أن الحروب التي تقوم بين البشر ترتبط هذه الحروب بكرامة المتقاتلين، فالدخول في الحرب سهل جداً، أما الخروج منها فصعب جداً، فالإنسان في أثناء الحرب يمكن أن يُدمر كل شيء، أو أن يُدَمر له كل شيء، حفاظاً على دعواه التي يدعيها، لكن رحمة الله بهؤلاء البشر أن الأشهر الحُرم

يُحَرم فيها القتال، فحينما تقف الحرب، لا لأن أحد الطرفين غلب الآخر، ولا يقدح توقيف الحرب لكرامة أحد الطرفين، بل لأن تشريع السماء يُحَرم القتال بهذه الأشهر، الناس ماذا يقول لهم؟ يذوق طعم السلم، ويحب السلم فلعل هذه الهدنة التي فرضها الله عز وجل على المتقاتلين تكون سبباً في إنهاء الحرب، وفي حقن الدماء. فلذلك عندنا مكان فيه تحريم لقتل الحيوان، وإيذاء النبات، حتى وفي هذا المكان الإنسان يهبط إلى أدنى مستوى فيقبل حجراً، أو يرجم حجراً بتوجيه الله.

سيدنا عمر حينما قبل الحجر قال: والله إني أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

هذا تشريع، أما الإنسان فهو أكرم من أي حجر كان، ومع ذلك الإنسان في الحج يخضع خضوعاً تاماً، أي حتى الذي أحله الله للبشر في الحج محرم عليه، محرم على الحاج أن يتطيب، أو أن يحلق شعره، أو يقلم أظافره، أو أن يقارب أهله، الأشياء المباحة خارج الحج محرمة في أثناء الإحرام، فعملية الحج خضوع تام لإرادة الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (42 - 49) : تفسير الآية 97 ، حج بيت الله الحرام.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-09-17

بسم الله الرحمن الرحيم

الجعل تخصيص الشيء بعد إيجاده :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية السابعة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، ما معنى كلمة جعل؟ جعل لا تساوي كلمة خلق، فرق كبير بينهما، الجعل بعد أن يوجد الشيء تعطيه بعض الخصائص:

(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة النحل: 78]

فجزء من الخلايا كانت سمعاً، وجزء آخر كانت بصراً، وجزء ثالث كانت فؤاداً، إذاً الجعل تخصيص الشيء بعد إيجاده.

الحقيقة أن الله عز وجل اتخذ لنفسه بيتاً في الأرض، ما معنى كلمة بيت؟ الإنسان يكدح، ويعمل، ويسعى، ويعود إلى بيت ليستريح، ليسر، فالإنسان يعتني ببيته لأنه يؤوي إليه، وبه ينسى تعب النهار، وبه ينسى مشقة النهار، إذاً كلمة بيت تعني مكان فيه راحة، أو مكان فيه سعادة، والبيت المادي في الأرض يعني ذلك.

الله تعالى اتخذ بيتاً في الأرض هو البيت الحرام وأرادنا أن نأتيه لنستجم روحياً :

الله عز وجل اتخذ بيتاً وأرادنا أن نأتيه، كي نستجم استجماماً روحيّاً، كي نرتاح راحة نفسية، كي نجدد النشاط في السعي للدار الآخرة، فالله عز وجل جعل هذه الكعبة قياماً للناس، جسمك يقوم بالغذاء، بالطعام، والشراب، ولكن نفسك تقوم بالاتصال بالله، فهذا البيت جُعل لإقامة الصلاة.

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

[سورة إبراهيم: 37]

أي أن الإنسان بحاجة إلى غذاء، وبحاجة إلى اتصال بخالق الأرض والسماوات، فالحقيقة أن الإنسان له نزعة مادية، لذلك الله عز وجل اتخذ بيتاً، وقال: تعالوا إليّ، الحاج حينما يقول: لبيك اللهم لبيك، فكأنه يجيب نداء من الله، أن يا عبادي تعالوا إلي، تعالوا كي أريحكم من متاعب الحياة، تعالوا كي أريحكم من أثقال الشهوات، تعالوا كي أريحكم من مشكلاتكم، تعالوا إلي.

والحقيقة أن الصلاة تتم في بلدك، والصيام يتم في بلدك، لكن الحج عبادة منفردة، هذه العبادة تحتاج إلى تفرغ، تحتاج إلى ترك بلدك، ولو كان بعيداً عن مكة، تحتاج إلى تجشم مشقة، تحتاج على إنفاق مال، من أجل ماذا؟ الإنسان حينما يشد الرحال إلى بيت الله الحرام قد يكون هذا البيت خالياً من كل قريب له، لا قريب، ولا نسيب، ولا حبيب، ولا تجارة، ولا مصلحة.

مرةً في أحد أيام الحج أحد علماء دمشق قال: يا رب ليس لنا أحد في هذه الأمكنة إلا أننا أتينا نبتغي رضاك، فهي رحلة إلى الله.

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

[سورة الذاريات: 50]

رحلة الإنسان إلى خالقه، لأن الإنسان مادي، فربنا عز وجل اتخذ بيتاً في الأرض، قال: تعالوا إلي.

بيت الله الحرام قيام للناس تقوم سعادتهم على الصلح مع ربهم :

الحقيقة حينما جعل هذه العبادة، تحتاج إلى ترك الأوطان، وترك الأهل والخلان، وإنفاق الأموال، وتجشم مشاق السفر، والسفر عند الفقهاء مظنة هلاك، والآن يقول لك: وقد مات جميع ركابها، أربع كلمات، خبر سقوط الطائرة جداً قصير، ما فيه تفاصيل، وقد مات جميع ركابها، إذاً السفر مظنة هلاك.

فالله سبحانه وتعالى يقول لك: يا عبدي تعال إلي، تعال كي تصطلح معي، تعال كي تذوق طعم القرب مني، تعال كي تسعد بقربي، تعال كي أريحك من هموم كالجبال، تعال كي أريحك من متاعب الحياة، من خصومات الحياة، من القيل والقال، وكثرة السؤال، من مشاحنات الأرض، تعال إلي، تعال وذق طعم القرب مني، فهذا الحج ذهاب إلى بيت الله الحرام، وبيت الله الحرام قيام للناس، تقوم سعادتهم على الصلح مع ربهم، طبعاً الحج زيارة بيت الله الحرام، بيت الله الحرام مكان، لكن العبرة ليس في المكان، ولكن بما يجري في هذا المكان، الله عز وجل في هذا المكان يتجلى على عباده المؤمنين تجليات استثنائية، من وقف في عرفات، ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له، يجب أن تشعر أن الله قبلك، وعفا عنك، يجب أن تشعر أنك في أعلى درجات القرب، لأنك تجشمت مشاق السفر، وأنفقت المال الوفير، وغادرت الأوطان، وتركت الأهل والخلان إلى بيت الله الحرام.

إذاً الله عز وجل منذ أن خلق السماوات والأرض اتخذ لنفسه بيتاً في الأرض، هذا البيت مكان.

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 96]

المكان طول وعرض، أما إذا أنشأنا بناء صار فيه طول وعرض وارتفاع، وكل شيء ناتئ يسمى كعبة.

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ)

[سورة البقرة: 127]

البيت مكان، أما الكعبة فحجم، الكعبة نتوء، هذا بيت الله عز وجل، الكعبة رمز، ما من إنسان على وجه الأرض يقصد هذا البيت وهو صادق في طلب مرضاة الله عز وجل إلا توصف من السعادة، ولحكمة بالغةٍ بالغة عطل الله كل متع الأرض هناك، ما فيه منظر جميل، جبال قاسية، حر لا يحتمل، ازدحام لا يحتمل، ازدحام وحر.

(بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)

[سورة إبراهيم: 37]

الكعبة بيت الله الحرام :

كل أسباب السرور المادية منعدمة هناك، بقي سبب واحد للسعادة وهو الاتصال بالله، ومن حج البيت حجاً صادقاً، ولم يقل وهو يغادر البيت: يا رب لا تجعل هذه الزيارة آخر عهدي بالبيت، يكون قد ابتعد عن مفهوم الحج والعمرة، لأنك تزور الله عز وجل.

((إن بيوت الله في الأرض المساجد))

[رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنهما]

إلا أن هذا المسجد، وأي مسجد آخر هو بيت الله، ولكن باختيار الإنسان، الذي أنشأه اختار هذا المكان، وجعله مسجداً، ولكن الكعبة بيت الله الحرام بيت الله باختيار خالق الأكوان، فالفرق كبير، لذلك:

((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى))

[متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد]

ليس هناك تقرب إلى الله بأن تشد الرحال إلى مسجد بحلب مثلاً، أو إلى مسجد في بغداد، هذا ليس عبادة، أما إذا شددت الرحال إلى بيت الله الحرام، أو إلى المسجد النبوي الشريف، أو إلى الأقصى، بيت المقدس، هذه عبادة إلى الله عز وجل.

فأنت حينما تزور بيت الله الحرام تلبي دعوة الرحمن، أنت حينما تزور بيت الله الحرام تؤوي إلى خالق الأكوان، فقيامك في معرفتك بالله، وقيام سعادتك، قيام سلامتك، قيام راحتك، قيام طمأنينتك، قيام أمنك، قيام تفاؤلك، قيام محبتك أن تتصل بخالق الأكوان، إلا أن الاتصال هنا في بلدك بلا ثمن، تتوضأ

وتصلي، لكنك إذا أردت أن تذهب إلى بيت الله الحرام فتحتاج بالحد الأدنى إلى خمسين ألف ليرة، وأن تدع عملك ومكتبك وتجارتك ووظيفتك، هناك ثمن، هذا الثمن تقبض ما يكافئه من تجليات الله على قلبك، لذلك إن لم تقل وأنت في بيت الله الحرام: أنا أسعد الخلق ففي الحج مشكلة، أنت في ضيافة خالق الأكوان.

الحج من أجل أن تعلم أن الله يعلم وحينما تعلم أن الله يعلم حلت كل مشكلاتك :

طبعاً الذي يؤلم أشد الإيلام أنك حينما تلتقي بإنسان حجَّ بيت الله الحرام يحدثك عن كل شيء، فصار الحج نزهة، يقول لك: تسوق بأبراج مكة، أسواق مذهلة، يركب الطائرة، وينزل في هذه الفنادق الفخمة، ويؤدي مناسك العمر أداء شكلياً ويعود، فإذا عاد إلى بلده حدثك عن كل شيء، إلا مشاعر المؤمن حينما يدخل بيت الله الحرام، وحينما يلتقي مع خالق الأكوان.

لذلك مرة كان أحد الخلفاء في الحج التقى بعالم جليل، فقال له: سلني حاجتك، تقرباً إليه، قال له: والله إنني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما التقاه خارج بيت الله الحرام قال له: سلني حاجتك، قال: والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها؟ قال له: ما حاجتك؟ قال له: أن أدخل الجنة، قال له: هذه ليست بيدي، قال: إذاً ليس لي عندك حاجة. فأنت في بيت الله الحرام مع خالق الأكوان.

أيها الأخوة، ورد في بعض الأحاديث أن الناس في آخر الزمان يذهبون إلى الحج للسمعة، ليكتب قبل اسمه الحاج فلان، أو للتجارة، أو للمنفعة، أو حينما يحج أحدهم بيت الله الحرام، ويكسب أموالاً طائلة بغير حق، ويناقش بهذه الأموال يقول:

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)

[سورة الحج: 28]

فهم المنافع فهماً مادياً محدوداً، لكنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

كما أن الصلاة من أجل أن تتصل بالله، وكما أن الزكاة تزكو نفسك بهذا المال، والصيام من أجل أن تتقي الله، الحج من أجل أن تعلم أن الله يعلم، وحينما تعلم أن الله يعلم حلت كل مشكلاتك، الدليل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

أنت حينما تعلم أنك إذا خالفت هذا الأمر دفعت الثمن باهظاً، لا تخالف، مشكلة المعاصي كلها تبدأ من توهم أن الله لا يعلم، أما إذا أيقنت أن الله يعلم وسيحاسب، وسيعاقب لا يمكن أن تعصيه، تبدأ المعصية من الغفلة عن الله عز وجل.

الاتصال بالله اتصال متميز فيه سكينة و إجابة دعاء :

إذاً:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ)

الكعبة بنيت على بيت الله الحرام، بناها إبراهيم عليه السلام، وجددت من بعده، أما بيت الله الحرام فمن بدء الخليقة:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ)

[سورة آل عمران: 96]

أي إذا زرت هذا المكان نزل على قلبك من السكينة مالا يوصف، وهذا كلام لا يعرفه إلا من ذاق طعم الحج والعمرة، أنت حينما تشعر أنك في كنف الله، وأن الله قد عفا عنك، وقبلك، وأن الله سبحانه وتعالى سيكرمك، وسيوفقك في أمور الدنيا والدين تشعر بمعنى الحج الصحيح.

لذلك للتقريب فقط، لو أن إنساناً والده أستاذ رياضيات، قال له: تعال يا بني أعطيك درساً خاصاً، يتهرب من هذا الدرس لأنه بلا ثمن، أما الابن نفسه لو كان ضعيفاً بالفيزياء، وأخذ درسا خاصّاً، والدرس بألف ليرة، يأتي قبل ربع ساعة إلى الدرس، وإذا خفف الأستاذ الدرس دقيقتين، يقول له: بقي دقيقتان، دفع ألف ليرة، مثلاً.

الله عز وجل أراد أن تدفع ثمن هذا الاتصال، وهو اتصال متميز، اتصال مركز، اتصال فيه تجلٍّ، فيه سكينة، فيه إجابة دعاء، أرادنا الله بزيارة بيته الحرام أن ندفع ثمن هذا الاتصال، وبقدر الدفع يكون إحكام الاتصال بالله عز وجل.

سبب تسمية البيت الحرام بهذا الاسم :

قال تعالى:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ)

لمَ سمي بيتاً حراماً؟ لأن الذي يزور هذا البيت ينبغي أن يكون آمناً، إلا أن هذا الأمن، دققوا، ليس أمراً تكوينياً، بل هو أمر تكليفي، ما معنى ذلك؟ لو كان أمراً تكوينيّاً لا يمكن لهذا البيت أن ينال بأذى، لكن

الله أرادنا أن نجعله آمناً، أي يا عبادي اجعلوه آمناً، احرصوا أن يكون من فيه آمناً، فكلفنا أن نجعله آمناً، إذاً هو أمر تكليفي، وليس أمراً تكوينياً، بدليل: أنه في بعض السنوات مات فيه عدد كبير، تعلمون هذا، ألف وأربعمئة، ادعى أحدهم أنه المهدي، وقاتل، وأطلق الرصاص، وكوفحت هذه الحركة بوابل من الرصاص، ومات المئات، فكيف يقول الله عز وجل؟

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً)

[سورة آل عمران: 97]

هذا أمر تكليفي وليس أمرناً تكوينياً، أي اجعلوه آمناً، أن يكون هذا البيت آمناً منوطاً بكم، كلفتكم أن تجعلوه آمناً، تماماً كما تقول:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور : 26]

أليس في الأرض مئات الأسر الرجل طيب جداً والمرأة سيئة؟ وبالعكس، ما معنى قول الله عز وجل:

(الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

؟ أي احرصوا على أن يكون

(الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

واضح تماماً:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ)

بيت الله الحرام مكان ينفرد فيه حكم شرعي أن الإنسان محاسب على نيته فقط :

محرم أن تقطع غصناً، محرم أن تدوس جرادة، محرم أن تزهق روحاً، محرم أن تؤذي، إلا أن بيت الله الحرام مكان ينفرد فيه حكم شرعي أن الإنسان محاسب على نيته فقط، أنت حينما لا سمح الله ولا قدر قررت أن تؤذي إنساناً ثم لا تؤذيه لا تحاسب، لكن في بيت الله الحرام:

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة الحج: 25]

على الإرادة فقط، حرمة لهذا البيت، وضماناً لأمنه، لا يسمح لك أن تقتل كائناً من كان عدا خمس كائنات استثناها النبي عليه الصلاة والسلام، العقرب، والحية، والفأرة.. ولا يسمح لك أن تؤذي نباتاً، ولا أن تشتم إنساناً، ولا أن تجادل.

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ)

[سورة البقرة: 197]

لا جدال، ولا مشاحنة، ولا إيذاء، لا إلى إنسان، ولا إلى حيوان، ولا إلى نبات، فجعله حراماً أي له حرمته، وقد يلتقي الإنسان بقاتل أبيه فلا يستطيع أن يفعل شيئاً، هذا البيت آمن، وأرادنا الله أن نجعله آمناً هذا معنى بيت الله الحرام، حراماً أن تؤذي إنساناً، حرام أن تشتمه، حرام أن تجادله، حرام أن تؤذي حيواناً، حرام أن تؤذي نباتاً، بل إنك يجب أن تخضع لتوجيهات الله بكل التفاصيل.

لا تقوم سعادتنا إلا باتصالنا بربنا :

إذاً:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ)

الحقيقة الشهر الحرام؛ رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، هذه أشهر حرم، وحكمتها كما قال بعض العلماء أن البشر حينما يقتتلون يفور الدم عندهم، وترتبط معركتهم بكرامتهم، وقد تستمر الحرب سنوات طويلة، وقد استمرت ثماني سنوات بين بلدين إسلاميين، وقد أزهقت أرواح مليوني إنسان، لكن لو أنهما طبقا حكم الله عز وجل أن القتال يقف في الأشهر الحرم بأمر الله عز وجل فليس هناك غالب ولا مغلوب، وكرامة الطرفين مصونة، وعندئذٍ يذوق الناس طعم السلم، فلعل هذا السلم الذي ذاقوه يعينهم على متابعة السلم والصلح، فلذلك الله عز وجل جعل الأشهر الحرم يحرم فيها الاقتتال، فهذا البيت هو آمن، وفي الأشهر الحرم أيضاً أمنٌ على أمن، وسلم على سلم:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ)

أنت لا تقوم سعادتك إلا باتصالك بربك، قد تنجح في حياتك الدنيا، ولكنك تشقى إذا كنت بعيداً عن الله عز وجل، والدليل:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

كائناً من كان، ضعيفاً أو قوياً، غنياً أو فقيراً، صحيحاً أو مريضاً:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

الحج هو شحنة العمر :

الله عز وجل:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ)

تقوم سعادتهم بزيارة هذا البيت، وتقوم سعادتهم بالاتصال برب هذا البيت.

((إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره))

[رواه الطبراني عن ابن مسعود]

لذلك إذا التقيت بإنسان حج بيت الله الحرام حجاً صحيحاً كما أراد الله، أو التقيت بمعتمر اعتمر بيت الله الحرام كما أراد الله يجب أن تشعر بثمرة هذه العبادة، وهي عبادة راقية جداً، ذلك أن الإنسان يشحن في الصلاة شحنة روحية تمكنه أن يبقى مع الله إلى الصلاة الثانية، شحنة محدودة، أما في يوم الجمعة في خطبة، وفي صلاة جماعة وأخوانك كلهم في المسجد، وفي خطبة مؤثرة تشحن شحنة أسبوعية، من أسبوع لأسبوع فالإنسان بعد خطبة الجمعة يشعر باندفاع إلى الدين، باندفاع إلى طاعة الله، باندفاع إلى الإنفاق، إلى عمل صالح، إلى دعوة إلى الله، هذا الاندفاع تخبو جذوته كلما ابتعدت عن يوم الجمعة، إلى أن تصل إلى يوم الخميس، وأنت في أمسّ الحاجة إلى شحنة جديدة.

لكنك في الصيام تشحن من عام إلى عام، ثلاثين يوماً، ثلاثين صلاة تراويح، ثلاثين قيام ليل، ثلاثين يوماً وأنت صائم، غاض للبصر، ضابط للسان، ضابط للجوارح، هذه شحنة تكفيك للعام القادم، أما الحج فهو شحنة العمر، لذلك جعل الله الحج رحلة إلى الله قبل الأخيرة، الأخيرة في التابوت، في النعش، هي قبل الأخيرة، من أجل أن تشحن شحنة تعينك على طاعة الله، والصلح معه إلى نهاية الحياة، لكن يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن عبداً أصححت له جسمه، ووسعت عليه في رزقه لم يفد إلي في كل خمسة أعوام لمحروم))

[رواه ابن عساكر عن أبي هريرة]

إذا كنت في بحبوحة من العيش، أيضاً هذه الحجة تضعف قيمتها بعد مضي خمس سنوات، إذاً لا بد أن تجدد هذه الحجة بحجة أخرى.

الهدي هي الأنعام التي تساق لتقدم هدية إلى الله عز وجل :

الآية اليوم عن الحج:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ)

إنسان مضطجع، إنسان نائم، واحد قائم، معنى قائم بأعلى درجات النشاط، قائم بأعلى درجات اليقظة، يقظة ونشاط، فالقيام دليل الحركة والنشاط، فقيامك مع الله قيام سعادتك، قيام مصالحك، قيام سلامتك، قيام طمأنينتك، قيام تفاؤلك، قيام محبتك لله أساسه أن تأتي بيت الله الحرام:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ)

أي ضمن الله لحجاج البيت الحرام ولعماره أمناً من كل المستويات، أمن مع أخيك الإنسان ألا يشتمك، وألا يجادلك، وألا يحاورك، وألا تقوم علاقة غير صحيحة بين رجل وامرأة، حتى المباح، حتى الزوجة لا يمكن في أيام الحج أن تقربها، انقطاع عن المباحات بغية أن تصل إلى رب الأرض والسماوات.

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ)

الهدي هي الأنعام التي تساق لتقدم هدية إلى الله عز وجل، ويجب أن تكون لأهل مكة، أي الله عز وجل هذا الوادي الذي كما وصفه الله عز وجل:

(بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)

[سورة إبراهيم: 37]

الهدي يساق له من أطراف الدنيا، والحقيقة أنه يذبح من الغنم في أيام الحج بالملايين، هذه تعود إلى أهل مكة، وإلى فقراء المسلمين الذين يطعمون من هذا اللحم الذي قدم هدياً لبيت الله الحرام.

على الإنسان أن يعلم أن الله يعلم :

قال تعالى:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

أي أراد الله سبحانه وتعالى من هذه العبادة أن تعلم أن الله يعلم، أراد الله من الصلاة قال تعالى:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

أي أكبر ما فيها ذكر الله، هذه الصلاة، الصيام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 183]

من الزكاة:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة: 103]

هذه الزكاة، الحج:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

الحج من أجل أن يرتقي الله تعالى بالإنسان إلى طاعته الطاعة المستمرة :

كلمة كبيرة جداً، حينما تعلم أن الله يعلم لا يمكن أن تعصيه، حينما تعلم أن استخدام الهاتف المحمول في أثناء قيادة السيارة فيه غرامة كبيرة جداً، وتلمح شرطياً فوراً تنزله طبعاً، واضع القانون يطولك من خلال هذا الشرطي، فإذا علمت أن الله يعلم، الله معك دائماً كلام دقيق جداً. أنت حينما تقف على إشارة حمراء، وأمام الإشارة شرطي، مجهز لكتابة ضبط، والإشارة حمراء، وأنت مواطن عادي، ما لك ولا ميزة، هل تتجاوز هذه الإشارة؟ لأنه مركب في أعماق أعماقك أن واضع نظام السير علمه يطولك من خلال هذا الشرطي ، وقدرته تطولك من خلال القانون، تحجز المركبة أحياناً، تسحب منك الإجازة، وقد تدفع غرامة كبيرة، أنت حينما توقن أن واضع نظام السير علمه يطولك، وقدرته تطولك لا يمكن أن تعصيه، لكن ممكن في الساعة الثالثة أن تتجاوز الإشارة الحمراء، لأن علم واضع القانون لا يطولك لغياب الشرطي الساعة الثالثة ليلاً، وإذا كنت أقوى من واضع القانون أيضاً لا تطولك قدرته، أما بالأحوال الطبيعية، بشكل مدني طبيعي لا يمكن أن تعصي جهة يطولك علمها، وتطولك قدرتها.

الحج من أجل أن تعلم أن الله يعلم، وإن علمت أن الله يعلم لا يمكن أن تعصيه، فالحج من أجل أن يرتقي بك إلى طاعته، إلى الطاعة المستمرة، في طاعة نوبية.

الآن الناس عندهم مشكلة، برمضان تأتيهم كريزة استقامة، اسميها أنا كريزة، يغض بصره، يصلي الفجر بالمسجد، يضبط لسانه، هذه غيبة، اسمحوا لنا، لا تناقشوني بهذا الموضوع، هذه غيبة، ينتهي رمضان، كل شيء فعله برمضان ينساه بعد رمضان، هذا الذي ما أراده الله من رمضان، أرادك أن ترتقي، فعدت إلى ما كنت عليه ولم ترتق.

حينما تعلم أن الله يعلم تستقيم على أمر الله :

أخواننا الكرام، القضية دقيقة، أرادك الله في رمضان أن تصفو نفسك، بطاعة ربك، لينسحب هذا الصفاء على كل أيام العام، أنت أردته بجهل منك أن يكون هذا الصفاء في رمضان فقط إذاً لم تنتفع في رمضان، وحينما اصطفى الله من كل الأماكن بيت الله الحرام، وقال: اذهب إليه، وتعال يا عبدي إلي، من أجل أن يشيع هذا الصفاء الذي ذقته في بيت الله الحرام في كل مكان، حتى إذا عدت إلى بلدك تابعك هذا الصفاء إلى بلدك، لكنك أردت رؤيته هناك فقط، أن يبقى الصفاء في بيت الله الحرام.

إذاً نحن إذا عدنا إلى ما كنا عليه بعد الصيام، وحينما نعود إلى ما كنا عليه بعد الحج عطلنا الحكمة البالغة من فرض الحج وفرض الصيام، أراد الله عز وجل أن تكون هذه الأشهر التي نصومها كل عام

كالدرج، كل سنة درجة، ثم تستمر، هكذا، لكننا أردناها حجراً ارتقينا عليه، ثم عدنا إلى المستوى السابق، بين أن تكون درجات متتابعة، أردناها صعوداً طارئاً، ونعود إلى ما كنا عليه.

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

إذاً حينما تعلم أن علم الله يتعلق بكل ممكن، وأن الله يعلم من الصعب جداً أن تعصيه، هل هناك إنسان في الأرض يضيف الماء إلى الحليب أمام المشتري؟ مستحيل، أنت حينما تعلم أن الله يعلم تستقيم على أمر الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (43 - 49) : تفسير الآيات 98 - 100 ، الخبيث والطيب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-09-24

بسم الله الرحمن الرحيم

العلم يقتضي البحث والدليل وعدم التقليد :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة المائدة ومع الآية الثامنة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أولاً:

(اِعْلَمُوا)

أي تحققوا، الدين لا يؤخذ تقليداً، ولا يمكن أن يقبل مقلّد عند الله، لأنه لو قُبل مقلّد عند الله لكانت كل الفرق الضَّالَّة ناجية يوم القيامة، لأنهم قلّدوا رؤساءهم، رؤساء هذه الطوائف، ولكن لأن الدين تحقق، ولأن الدين بحث، ولأن الدين درس، ولأن الدين اعتقاد أساسه الدليل، لذلك قال:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

العلم يقتضي البحث، يقتضي الدليل، يقتضي عدم التقليد، يقتضي العلم، المثابرة.

أيها الأخوة:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

ألا ترون إلى أمراض عضالة تجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق؟ ألا ترون إلى فقر مدقع؟ ألا ترون إلى ذل لا يحتمل؟

هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله :

الله عز وجل في بعض ما يروى في كتب الأثر أن نبياً قال:

((يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقك، قال: يا رب إنك تعلم إني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[ورد في الأثر]

والله هناك بلاء لا يحتمل، لأن الله عز وجل يقول:

(رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

[سورة البقرة: 286]

والله الذي يصيب المسلمين لا يحتمل،

(لَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

العالم كله يحاربنا، المسلم في الأصل متهم ما لم تثبت براءته، ويصعب أن تثبت براءته، والطرف الآخر في الأصل معزز مكرم مبجل، هذا بلاء من الله، لأن الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

ولأنه هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، ذكرهم ببلائي، هناك أمراض، هناك شدة.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

[سورة الأنعام: 65]

قديماً كانت الصواعق وأضيف لها حديثاً الصواريخ حارقة، وخارقة، وانشطارية، وعنقودية، وذكية، وجرثومية، وكيماوية، وما إلى ذلك.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

[سورة الأنعام: 65]

الإنسان دائماً في قبضة الله :

كان قديماً، ولا يزال الزلازل، أضيف إليها الألغام.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

[سورة الأنعام: 65]

الحروب الأهلية، الطغاة في العالم:

(وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

ذكرهم بآلائي، بالآيات الكونية الدالة على عظمته، ذكرهم بنعمائي، ذكرهم ببلائي، ذكرهم ببلائي كي يعظموني، ذكرهم بنعمائي كي يحبوني، ذكرهم ببلائي كي يخافوني، مستحيل أن يستقيم إيمانك من دون أن تخاف من الله، مستحيل أن يستقيم إيمانك من دون أن تحب الله، ينبغي أن تخافه، وينبغي أن تحبه، والأنبياء يعبدون الله رغباً ورهباً، خوفاً وطمعاً، رجاءً وحذراً:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

هذه للعصاة، للذين يبنون مجدهم على أنقاض الآخرين، للذين يبنون غناهم على إفقار الآخرين، للذين يبنون عزهم على إذلال الآخرين، هؤلاء الذين يحبون أن يعيشوا وحدهم، وأن يأكلوا وحدهم، ومن بعدهم الطوفان، هؤلاء ذكرهم أن الله شديد العقاب، أنت في قبضة الله، بدءاً من أصغر خلية في جسمك إلى أكبر مصيبة في الأرض، أنت في قبضة الله، أحياناً كآبة لا تحتمل، أحياناً ضيق، شدة، أحياناً وساوس متسلطة، مس جنٍ، إصابة عين، حسد فاسق، أحياناً مرض مادي، والله هناك أمراض تحيل حياة الإنسان إلى جحيم، لو تعطلت وظيفة ثانوية في أحد الأجهزة لقلبت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، أنت في قبضة الله، إن كنت في قبضته فلا تقل: أنا، قل: أنا عبد لله، ارجُ رحمته واخشَ عذابه:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

الله عز وجل خلقنا ليسعدنا :

أنت في متناول قبضة الله، قد تأتي المصيبة من جسمك، أو من نفسك، أو ممن حولك، أو ممن فوقك، أو ممن تحتك، حينما تعلم أنك في قبضته، وحينما تخاف منه تستقيم على أمره، وليس الهدف أن تخاف منه الهدف أن تستقيم على أمره، وليس الهدف أن تستقيم على أمره، الهدف أن تسعد باستقامتك على أمره، خلقك ليسعدك.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

خلقهم ليسعدهم:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

ما الذي يمنع أن تزور المستشفى من حين لآخر فتجد مصائب لا تحتمل؟ ما الذي يمنع أن تزور حياً متواضعاً من أحياء المدينة لتعرف مدى النعمة التي أنعم الله بها عليك؟

((انظري إلى من تحتك، ولا تنظر إلى من فوقك فإنه أجدر ألا تزدري نعمة الله عندك))

[رواه الطبراني عن أبي ذر]

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، ومن فجاءة نقمتك، ومن جميع سخطك))

[أخرجه مسلم من حديث ابن عمر]

الخثرة في الدماغ تأتي في ثانية واحدة، بثانية تعطل الكلام، وشل طرف الإنسان، وأصبح عالة على من حوله، يتمنى أقرب الناس أن يموت ويسمعه ذلك، هكذا:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

من لا يخاف الله لا يعرفه :

أخوتنا الكرام، الذي لا يخاف الله إنسان لا يعرفه.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

وقد ترون أحياناً ما يجري حولنا، كيف أن إنساناً كان في أعلى درجات القوة إذا هو يصبح في أدنى درجات الذل:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

هذه عينة، لأن الله لا يعاقب كل المسيئين في الأرض، يعاقب بعضهم ردعاً للباقين، ولا يكرم كل المحسنين يكرم بعضهم تشجيعاً للباقين.

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

أخواننا الكرام، لا يعقل ولا يقبل أن يكون في الأرض قوي وضعيف، وظالم ومظلوم، وغني وفقير، وصحيح ومريض وأن تنتهي الحياة هكذا، ولا شيء بعد الموت.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون]

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة]

بنى مجده على أنقاض الآخرين، هؤلاء الطغاة في العالم ماذا يفعلون؟ يموت بسبب عدوانهم ألوف مؤلفة، بل ملايين مملينة، وهم ينعمون في عز الدنيا فيما يبدو، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أخذ أدهش:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

قصة عن أحد العصاة المنحرفين الضالين المضلين :

الله عز وجل يقول:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

والله أيها الأخوة هذا الدرس يحمل قصصاً كثيرة، والله هناك قصص مما يجري حولنا، وتحت سمعنا وبصرنا من عبر رائعة ما لا يصدق:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

لهؤلاء العصاة المنحرفين الضالين المضلين قصة واحدة: إنسان يضع مركبته في مكان لتستقر، مست مركبة أخرى، كتب ورقة بهاتفه وعنوانه كي يتولى تصليح هذا العطب الذي أصاب المركبة الأخرى، وهو من أهل العلم، ورعه يقتضي ذلك، بعد قليل جاء صاحب المركبة، أسمعه كلاماً لا يستحقه، بقسوة ما بعدها قسوة، بتجبر ما بعده تجبر، بتطاول ما بعده تطاول، والقصة طويلة، لكن هذا الذي تجاوز الحد، وتطاول على إنسان من أهل الله، والرجل يعتذر، ويقدم له أي مبلغ يغطي إصلاحها إصلاحاً كاملاً، أراد أن يتشفى منه، في اليوم التالي دعا أصدقاءه إلى طعام في مزرعة خارج دمشق، أحد أصدقائه لم يهتدِ إلى المزرعة، فاتصل به هاتفياً، قال له: أنا آتيك، أين أنت؟ قال له: في المكان الفلاني، في طريقه إليه ضربته مركبة فشلته نصفين، عمره ثلاث وثلاثون سنة، الآن طريح الفراش إلى أن يموت:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

علامة عقل الإنسان خوفه من الله :

قبل أن تستعلي، قبل أن تجمح، قبل أن تقسو، قبل أن تحتقر الآخرين، قبل أن تنسى أن لهذا الإنسان إلهاً سيحاسبك، علامة عقل الإنسان خوفه من الله، ورأس الحكمة مخافة الله:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

أخواننا الكرام، لكن أتمنى عليكم إذا استمعتم إلى قصة ألا تتبنوها إلا بحالة واحدة، أن تعرفها من فصلها الأول إلى فصلها الأخير، إن عرفتها من فصلها الأول إلى فصلها الأخير يقشعر جلدك من عدل

الله عز وجل، أما إن عرفتها من آخر فصولها ما لها معنى أبداً، بل إن رواية هذه القصة تسهم في خلل يصيب السامع:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذا الذي أناب إليه، وآمن به، واستقام على أمره، وأحبه، وخدم عباده، وبنى حياته على العطاء، أعطى من وقته، ومن ماله، ومن خبرته الشيء الكثير:

(وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

سيمحو له خطاياه التي لم يرتكبها قصداً، وسوف يرحمه في الدنيا وفي الآخرة:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الأنبياء لهم مهمة واحدة وهي أن يبينوا ويبلغوا :

هذه حقيقة أيها الأخوة، الخير بيد الله، والتأديب بيد الله، فإما أن تصلح للإكرام، أو أن تصلح للتأديب، الأمر بيدك والكرة في ملعبك، وأنت مخير إما أن تكون أهلاً لإكرام الله وإما أن تكون مستحقاً لعقاب الله، الأنبياء ما مهمتهم؟ لهم مهمة واحدة فقط؛ أن يبينوا، أن يبلغوا.

(مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)

[سورة النور: 54]

لأنك مخير، لأن الله حينما خلقك منحك حرية الاختيار، النبي الكريم يبين، والداعية يبين، والعالم يبين، والناصح يبين، وأنت حر إما أن تأخذ بهذه النصيحة أو ألا تأخذ بها.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

[سورة البقرة: 148]

هذا قرارك، وأنت وحدك تتحمل مسؤوليته.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

[سورة الأنعام: 164]

كل إنسان يتحمل تبعة عمله :

كل إنسان يتحمل تبعة عمله.

(مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

النبي لا يستطيع أن يهدي أحداً قسراً.

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة القصص: 56]

(لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

[سورة الأنعام: 66]

لست عليهم بحفيظ.

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

[سورة الغاشية: 21-22]

هذا النبي، فكيف بإنسان داعية بسيط؟ النبي قال: لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، لا أعلم الغيب، ولا أقول لكم عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك:

(مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)

علامة إخلاصك أن تكون سريرتك كعلانيتك :

الذين يدلون عن الرسول ما عليهم إلا البلاغ، إلا البيان فقط، والله عز وجل:

(يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

قد تكون ذكياً، ذكاؤك يعينك على أن تظهر أمام الناس بمظهر رائع من التقى والصلاح، كإنسان يوم الجمعة يرتدي ثياباً بيضاء، يتعطر عطراً أو مسكاً، يحمل مسبحة، تغسل بشكل جيد، يتألق وجهه، يُظن أنه ولي، أين أمضى السهرة البارحة؟ ماذا كان يفعل في البيت؟ أنت أبديت الصلاح يوم الجمعة، لكن الله يعلم ماذا تخفي، ما الذي أخفيته عن الناس، لذلك علامة إخلاصك أن تكون سريرتك كعلانيتك، باطنك كظاهرك، خلوتك كجلوتك، علامة إخلاصك، ليس هناك ازدواجية أبداً، ما في قلبك على لسانك، ما تنطق به تعتقده، ما تعتقده تنطق به:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لأهل معصيته شديد العقاب، ولأهل طاعته غفور رحيم و

(اعْلَمُوا)

لا تبقي هذا تقليداً، ولا سماعاً غير مسؤول:

(مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)
(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

كلمة:

(خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

يعني لا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يضبط، في حالات كثيرة عينك تخون، وتنظر إلى الحرام، في آلاف الظروف لا يمكن لمخلوق أن يضبطك بخيانة العين إلا الله،

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

على النبي أن يبلغ، وعليك أن تستجيب لأمره، فإن استجبت فلك، وإن لم تستجب فعليك.

المال الذي يأتي بأساليب غير مشروعة يذهب بطرق مؤلمة جداً :

ثم يقول الله عز وجل:

(قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

هذه الآية دقيقة جداً، هناك شيء طيب تطيب به النفس، وشيء خبيث تخبث به النفس، فالطيب الذي تطيب النفس به طيب ولو كان قليلاً، والخبيث الذي تخبث به النفس يبقى خبيثاً ولو كان كثيراً، عشرة آلاف ليرة مشروعة مقابل عمل مشروع دقيق، متقن، مخلص، نصحت به المسلمين أفضل من مليون ليرة جاءتك بالكذب والاحتيال، لأن العشرة آلاف ليرة من عمل مشروع مخلص منضبط متقن، نصحت به المسلمين هذا المبلغ يبارك الله فيه، يصرف عنك نفقات لا تعد ولا تحصى، أنت في أمسّ الحاجة أن تتلافاها، أما إذا طمعت بالكثير الخبيث هذا تنفقه في وجوه أنت في غنى عنها. بعض الأقوال في كتب الأثر: من أصاب مالاً في مهاوش أذهبه الله في مهابر. المال الذي يأتي بأساليب غير مشروعة يذهب بطرق مؤلمة جداً:

(قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ)

لا تستوي امرأة مؤمنة طاهرة عفيفة متحجبة تزوجتها، وامرأة جميلة جداً بغية منحرفة فاسدة مفسدة على جمالها الأخاذ، وتلك على جمالها المتواضع، هذه مؤمنة، في حكمة بالغة أنه أحياناً يكون الخبيث كثيراً كثرة مطلقة، أي كثيرة الجمال، أو كثيرة المال، أو كثيرة الجاه، وأحياناً المؤمن قد يكون دخله محدوداً جداً، قد يكون شأنه محدوداً، وقد يكون شكله متواضعاً، لكن البطولة في الدنيا أن تكون في المستوى الذي أرادك الله أن تكونه، أي كلمة الخبيث مال خبيث، مال من حرام، زواج خبيث من امرأة في دينها رقة.

الخبيث أحياناً يكون كثيرا في نوعيته وكميته والطيب قليلاً في نوعيته وكميته :

مثلاً سفر خبيث في رخاء، وفنادق، ومعاص، وآثام، سفر متعب إلى العمرة، والحج، ازدحام، وحر، ونفقات باهظة، ومناظر ليست محببة، جبال سوداء، وحر لا يحتمل، دائماً كلمة خبيث وكلمة كثرة، شيء تخبث به نفسك إذا فعلته، وقد يكون كثيراً، كثيراً في تألقه، كثيراً في كمه، كثيراً في نوعه، كثيراً في لذته:

(وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ)

لذلك أيها الأخوة، الإنسان في الدنيا قد يتمتع بعين باصرة وقد يتمتع بعين بصيرة. مثلاً: لو دخلت إلى بيت بمقاييس العصر أربعمئة متر، في أرقى أحياء المدينة، له إطلالة رائعة، شرفات واسعة، فيه كل الأجهزة الإلكترونية والكهربائية، تكييف، على تبريد، على تدفئة، على أجهزة المطبخ، على أجهزة الصالون، لكنه اشتِري من مال جاء من بيع المخدرات، مثلاً، وبيت غرفتان متواضعتان في حي متواضع، الفرق بين البيتين لا يقدر بثمن، هذا البيت مشروع، صاحبه مؤمن، مطعم خمس نجوم، غلته اليومية مليون ليرة، ومطعم بسيط غلته اليومية ثلاثة آلاف، المطعم الفخم يقدم خمر، خبيث، والغلة كثيرة جداً، كلمات لطيفة خبيث وكثير، كثير في نوعيته. صالة للقمار كلفت ثلاثين مليون دولار، وقد تجد مدرسة أو جامعة متواضعة جداً تخرج أطباء ومهندسين، البناء متواضع لكن يقدم للأمة قادة وأطباء وعلماء، الخبيث أحياناً يكون كثيراً، كثيراً في نوعيته، في كمه، في متعته، وأحياناً الطيب قليل، قد يكون قليلاً في نوعيته، وقليلاً في كميته.

الإنسان دائماً بين خبيث كثير وطيب قليل :

أيها الأخوة، آية دقيقة:

(قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

أي اتقوا الله أن تتجهوا إلى الخبيث الكثير، وآثروا عليه الطيب القليل، أحياناً وظيفة في التعليم فرضاً، والتعليم صنعة الأنبياء، التعليم متعب، لكنك تربي النفوس، أو محل تجاري بأفسق الأسواق، والنساء فيه شبه عرايا، والله من حيث المتعة هذا المحل أجمل من هذا العمل الشاق مع طلاب متعبين، لكن التدريس مع الطلاب، والأخذ بيدهم إلى الله، وغرس القيم والأخلاق فيهم، وتعريفهم بالله مع التعب والمشقة والدخل القليل أفضل ألف مرة من محل تجاري تنتهك فيه حرمة الله كل يوم، ويكون فيه نوع من الزنا في كل دقيقة، زنا النظر، وزنا اللمس، وزنا الكلام. لذلك: أنت دائماً بين خبيث كثير، وطيب قليل، حتى في الزواج.

((من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه))

[رواه الطبراني عن أنس]

قد تكون المرأة الدينة أقل من المرأة التي ليس فيها دين إطلاقاً، قد يكون ذلك لذلك:

((إن المرأة تنكح لدينها، ومالها، وجمالها، فعليك بذات الدين تربت يداك))

[رواه أحمد في مسنده ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر]

ملخص الآية: أن تختار زوجة صالحة، ولو كانت أقل من التي تعجبك، وأن تختار حرفة خيرة للمجتمع، وإن كان دخلها أقل من دخل حرفة لا ترضي الله، وأن تختار مكاناً تعبد الله فيه وإن كان في هذا المكان متاعب كثيرة، لا أن تختار مكاناً ترتكب فيه المعاصي على قارعة الطريق، وهذه مشكلة المسلمين أحياناً، يسافر إلى بلد بعيد يقول لك: كأنني في الجنة، الآن في الجنة، لكن بعد حين سوف يصيب هذا الإنسان من الألم ما لا يحتمله، حينما يرى أولاده فسقة وفجاراً، ولا ينتمون لا إلى أمتهم ولا إلى دينهم.

من حكمة الله أن الحرام محفوف بالمرغبات والتسهيلات أما الحلال فيحتاج إلى جهد كبير:

أيها الأخوة، الملخص: إن أردت الزواج فعليك بالطيبة، إن أردت العمل فعليك بالعمل الطيب ينفع الأمة، إن أردت السفر فعليك ببلد طيب، أما إن أردت الخبيث الكثير في الدخل، وفي الزواج، وفي الإقامة فسوف تدفع الثمن باهظاً في النهاية، والله عز وجل يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص: 83]

حدثني أخ أن أخوين أرادا الذهاب إلى بلد غربي للإقامة والعمل وجمع ثروة طائلة، أحدهما تمنى أبوه عليه ألا يسافر ليبقى معه، والثاني لم يعبأ برجاء والده وسافر، يحدثني أحد الأخوين قال لي: والله بين حالي في الشام ومع أهلي وأولادي وتوفيقي بالعمل وسعادتي المنزلية، وبين حال أخي الذي تزوج امرأة ليست مسلمة، وضاعت بناته، وضاع أولاده، ثم أصابه مرض عضال، قال لي: لو وازنت عملي الذي ابتغيت به رضاء الله عز وجل وعمل أخي الذي ابتغى الدنيا المسافة كبيرة جداً:

(قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

أي يا أصحاب العقول أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، أرجحكم عقلاً من أراد الآخرة.

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

[سورة الإسراء: 19]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية أصل في اختيارك، كلما عرض عليك شيئين؛ سفراً أو إقامة؟ زواجاً من هذه أم من تلك؟ هذه الوظيفة أو هذه الوظيفة؟ هذا العمل أو هذا العمل؟ والله عز وجل يبتلي عباده دائماً، أنت بدخل لا يكفيك، يأتيك عرض وفير بشبهة كبيرة.

إذاً أيها الأخوة ينبغي ألا يغتر الإنسان بالخبيث ولا بكثرته، ولو كان محبباً، وينبغي أن يسعى للطيب ولو كان متعباً وقليلاً.

وبالمناسبة شاءت حكمة الله أن يكون الحلال صعباً والحرام سهلاً، الحلال صعب والحرام سهل، لأنه لو كان العكس لأقبل جميع الناس على الحلال، لا حباً بالله، ولا طمعاً بالجنة، ولكن لأنه سهل، الأوراق تداخلت، لكن العمل متعب، أما السرقة فسهلة، تأخذ مبلغاً كبيراً بلا جهد، وقد تنجو أحياناً، الزواج صعب جداً، أما الزنا فسهل جداً، الحرام محفوف بالمرغبات والتسهيلات، أما الحلال فيحتاج إلى جهد كبير، وهذا من حكمة الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (44 - 49) : تفسير الآيات 101 - 104 - التحليل والتحريم من شأن الله وحده.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-10-01

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى أمر بأشياء ونهى عن أشياء وسكت عن أشياء رحمة بنا :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الواحدة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

أيها الأخوة، أوضح مثلٍ لهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وكان يجزئهم، ويقبل منهم أن يذبحوا أية بقرة، سألوا: ما لونها؟ ما شكلها؟ ما هي؟ حينما أكثروا هذه الأسئلة جاءت التقييدات، فبعد التقييدات التي عوقبوا بها الصفات التي أمروا أن يلحظوها في البقرة لا توجد إلا عند يتيم طلب بملء جلدها ذهباً، وكان يجزئهم، ويقبل منهم أية بقرة.

لذلك القاعدة: أن الله سبحانه وتعالى أمر بأشياء، ونهى عن أشياء، وسكت عن أشياء رحمة بنا، فمن أخذ هذا القسم الثالث وبدأ يسأل ويسأل، وكلما جاء السؤال جاء التقييد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بحكمة الله، أنّ الله حينما أمر، وحينما نهى، وحينما سكت، الحكمة من سكوته عن أشياء لا تقل حكمة عن أمره ونهيه. مرة إنسان سألني، قال لي: يجوز أن نرتدي ثياباً مصنوعة في بلاد الغرب؟ قلت له: يجوز، لأن الأصل في الأشياء الإباحة، قال: لا، إنها من صنع أعدائنا، ينبغي ألاّ نرتديها، قلت له: لا ترتدِها، شددت فشددت عليك.

عندنا قاعدة أصولية: أن الأصل في العبادات الحظر ولا تشرع عبادة إلا بالدليل، فالأشياء العكس، الأشياء الأصل فيها الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالدليل، في الأشياء التحريم يحتاج إلى دليل، لأن الأصل هو الإباحة، أما في العبادات فالعبادة تحتاج إلى دليل لأن الأصل في العبادة الحظر.

للآية السابقة عدة توجيهات منها :

1 أن تعتقد أن الذي سكت الله عنه لا يقل عن الذي أمرك به أو نهاك عنه :

فأول توجيه لهذه الآية أن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

إن سألتم عنها جاء التقييد، وإن جاء التقييد جاءت المشقة، وقد تسوءك المشقة.

هذا أول بند من البنود، ينبغي أن تعتقد أن الذي سكت الله عنه لحكمة بالغة لا يقل عن الذي أمرك به أو نهاك عنه، بشكل أو بآخر أيّ شيء يقربك من الله مهما كان صغيراً أمرك الله به، إن في قرآنه، أو في سنة رسوله، وما من شيء يبعدك عن الله عز وجل مهما يكن صغيراً نهاك الله عنه إن في كتابه، أو في سنة نبيه، لكن سكت عن طريقة الطعام، لك أن تأكل على طاولة ولا شيء عليك، ولك أن تأكل على الأرض ولا شيء عليك، ولك أن تؤثث بيتك بأثاث معين ولا شيء عليك، ولك أن ترتدي قماشاً ملوناً أو غير ملون ولا شيء عليك.

في الأشياء العادية التي لا تقدم ولا تؤخر، ولا علاقة لها أصلاً بوجهتك إلى الله عز وجل سكت الله عنها رحمة بنا، وتوسعة على عباده، فهذا الذي يتنطع ويسأل: لو فعلت كذا، هل أعد آثماً؟ يضيق عليك إلى أن يلجئك إلى أن تحرم عليه، عقاباً من الله له، طبعاً هذا من عند الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بكمال الله وحكمته، يا من آمنتم أن الذي حرمه يحرمكم من السعادة، وأن الذي أحله تطيب أنفسكم به، وأن الذي سكت عنه رحمة بكم:

(لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

هذا هو المعنى الأول.

2 هناك أشياء أحياناً تقتضي الحكمة ألا تسال عنها :

المعنى الثاني: إنسان شكّ في والده، فسأل النبي عليه الصلاة والسلام: من أبي يا رسول الله؟ فالنبي سكت، قالت له أمه:

((مَا سَمِعْتُ بِابْنٍ قطّ أعَقّ مِنْكَ؟ أأمِنْتَ أنْ تَكُونَ أمّكَ قدْ قارَفَتْ بَعْضَ مَا تُقارِفُ نِسَاءُ أهْلِ الْجَاهِلِيّةِ فَتَفْضَحَهَا عَلَى أعْيُنِ النّاس؟))

[رواه ابن شهاب عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة]

هناك أشياء أحياناً تقتضي الحكمة ألا تسال عنها، إنسان جالس بمجلس، لماذا طلقت زوجتك؟ سؤال محرج، لا ينبغي أن يفضحها، أو أن يقول: لقد خانتني، مع من خانتك؟ ومتى؟ وأين؟ هذه أسئلة تسبب إحراجاً، والله عز وجل ستير، وينبغي أن تتخلق بأخلاق الستير:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

هذا بند آخر من بنود السؤال.

3 تجنب سؤال دس الفتنة بين الناس وسؤال الإحراج :

بند ثالث: أنك تسأل، وتعرف الجواب، من أجل أن تمتحن المسؤول، هذا فتنة، وليس سؤالاً لتفهم، لذلك كان بعض العلماء يقول: إن سألتني: قال العالم الفلاني في القضية الفلانية كذا وكذا، فماذا تقول أنت؟ كان هذا العالم الورع لا يجيب مثل هذا السائل، لئلا تقع الفتنة، أما لو سألتني أيها الأخ: ما حكم هذا الشيء؟ أقول لك: حلال أو حرام، حلال، وهذا الدليل، وحرام، وهذا الدليل، أما أن تأخذ من عالم إلى عالم، ومن جماعة إلى جماعة، ومن مفتٍ إلى مفتٍ، كيف تفتي بهذا، وقد أفتى فلان بخلاف ما تقول؟ هذه فتنة:

((أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً))

[أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة عن أبي أمامة]

البند الثالث: سؤال الإحراج، سؤال الامتحان، سؤال الفتنة، سؤال إحداث مشكلة، ذلك لأن الشيطان حينما يئس من أن يوسوس لهذا الإنسان بالكفر، أو بالشرك، أو بالكبيرة، أو بالصغيرة، أو بالبدعة، أو بالمباحات، بقيت عليه ورقة رابحة، ألا وهي التحريش بين المؤمنين، ما تقول في كذا؟ ما تقول في كذا؟ تقول له: هذا رأيي، قال فلان عكس ما تقول، من هو على صواب، أنت أم هو؟ هذا سؤال الفضول، سؤال الامتحان، سؤال الإحراج، سؤال دس الفتنة بين الناس. فالله عز وجل أدبنا بهذا الأب، وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

لا تسأل عن سؤال يشدد لك في نتيجته، ولا تسأل شيئاً تحرج الآخرين، ولا تسأل ممتحناً، ولا مستعلياً، ولا مستكبراً، ولا بادراً لفتنة بين الناس:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

لكن الله سبحانه وتعالى حينما ينزل حكماً يحسم الموضوع، حينما حرم الله التبني انتهى الأمر:

(وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ)

الله عز وجل حكيم، فإذا كانت حكمته أن يحرم، وجاء التحريم انتهى الأمر، وإذا كانت حكمته أن يحلل، وجاء التحليل انتهى الأمر، أما قبل أن يأتي القرآن بالحكم الشرعي فلا تسأل لئلا تُحرْج، أو لئلا تُحرَج، أو لئلا ينقلب سؤالك تشديداً عليك، كما فعل بنو إسرائيل.

الآية السابقة لا تمس سؤال التعلم :

هذه الآية أيها الأخوة لا تمس سؤال التعلم.

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة البقرة: 219]

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

[سورة البقرة: 219]

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

[سورة البقرة: 189]

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

[سورة البقرة: 222]

إذا كنت تسأل سؤال المتعلم، وسؤال المستفهم فالسؤال سؤال العلم، والسائل محترم عند كل الناس، وينبغي لكل عالم أن يجيب السائل بتواضع وأدب جم، لأن هذا الذي يسأل يطلب العلم، وإنسانان لا يتعلمان، هما المتكبر والمستحيي، المستحيي لا يتعلم، والمتكبر لا يتعلم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة]

مرة سُئلت في رمضان الماضي وأنا على الإذاعة، وعلى الهواء مباشرة: كيف نصلي التراويح؟ نصليها ثماني ركعات أم عشرين؟ صلِّ ثماني ركعات، وصلِّ اثنتي عشرة، وصلِّ عشرين، صلِّ في بيتك، وصلِّ بالمسجد، ولا تحدث مشكلة، لا تحدث فتنة، الأمر واسع، والأمر على السعة.

السؤال والجواب إن لم يبتغ به وجه الله ينقلب إلى جدل والجدل مذموم :

أيها الأخوة الكرام، السؤال والجواب إن لم يبتغَ به وجه الله عز وجل ينقلب إلى جدل، والجدال في القرآن مذموم، لأن الهدف إظهار ما عند الناس، وتحجيم الآخرين، الهدف من المجادلة ليس شريفاً، أما الحوار والسؤال والجواب بقصد التعلم فشيء آخر، أقره الشرع، وأكرمه العلماء الربانيون، مثلاً في سورة الإسراء:

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً*أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً*أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)

[سورة الإسراء: 93]

سؤال التعنت، سؤال التعجيز، سؤال التحجيم، سؤال الكبر، سؤال الفتنة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

إما أن تسألوا سؤال التضييق فيشدد عليكم، وإما أن تسألوا سؤال الإحراج فتقعون في إثم كبير، وإما أن تسألوا سؤال الامتحان، فيكون هذا كبراً واستعلاءً لا يرضي الله عز وجل.

أعرابي سأل النبي عليه الصلاة والسلام وهو على المنبر: يا محمد، متى الساعة؟ قال: وماذا أعددت لها؟ رد عليه بسؤال، وماذا أعددت لها؟ أي لا تهتم بمتى ولكن اهتم بما أعددت لها؟!!

اتباع منهج الله وسنة رسوله والاستغفار يجعلنا في مأمن من عذاب الله :

لذلك أيها الأخوة الله عز وجل قال:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: 33]

هذه الآية تملأ نفوس المسلمين راحة، لأنهم في مأمن من عذاب الله ما دامت سنة الله في ظهرانيهم، إذا كانت سنة النبي مطبقة في حياتهم، في بيوتهم، في أعمالهم، في كسب أموالهم، في إنفاق أموالهم، في تجارتهم، في أفراحهم، في أتراحهم، في سفرهم، في حلهم، إذا كان منهج الله عز وجل وسنة النبي صلى الله عليه وسلم مطبقة في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، هم في مأمن آخر:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال: 33]

الآية التي تليها:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ)

(مَا جَعَلَ)

ما نافية.

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

مهمة التشريع أن كل شيء خلقه الله أعطاه وظيفة :

أحياناً يأتي الرجل وبيده قطعة من الصابون، ويأتي بقطعة من الجبن يضعها في المطبخ، طبعاً الجبن للأكل، والصابون للغسل، جُعل الجبن من أجل الأكل، وجُعل الصابون من أجل الغسل، رَبُّ البيت جاء بقطعتين، قطعة للاستعمال، وقطعة لها استعمال آخر، لو أننا وضعنا هذا الصابون في الطعام لفسد الطعام، ولو وضعنا الجبن لغسل الصحون لما نجحت هذه العملية.

إذاً الذي جعله الله لشيء ينبغي ألا تجعله أنت لشيء آخر، في البراري مثلاً قد تموت بعض الحيوانات، وقد تتفسخ، وقد يصدر عنها رائحة لا تحتمل، لذلك خلق الله الخنزير لمهمة تنظيف هذه الأمكنة الخالية، وفيها حيوانات متفسخة، تموت قطة، يموت كلب، يموت حيوان آخر، فيأتي هذا الخنزير، ويرى أن هذا اللحم المتفسخ أطيب طعام له، هكذا صمم، الشيء الذي يُشمّ منه العفن من مئات الأمتار هو يراه طعاماً من الدرجة الأولى يأكله، إذاً جعل هذا الخنزير من أجل تطهير الفلاة من الحيوانات المتفسخة، فإذا جاء الإنسان، وأكل هذا الخنزير فقد خالف ما جعله الله للتطهير، فجعله طعاماً له، إذاً الجعل أن هذا الشيء بعد أن يخلق يخصص بشيء، الخلق شيء، والجعل شيء آخر، الذي صنع من لا شيء خلقه، لكن حينما خُلق هذا الشيء خصص بوظيفة.

مهمة التشريع أن كل شيء خلقه الله أعطاه وظيفة، هذا فرض، هذا واجب، هذا مستحب، هذا مباح، هذا مكروه تنزيهاً، هذا مكروه تحريماً، هذا محرم، الخمر محرمة، لكن هناك ألف نوع من المشروبات حلال، الخمر خصصت للتحريم، فقضية التحريم والتحليل من شأن خالق الأكوان.

أيها الأخوة الكرام، هذا موضوع دقيق، الله عز وجل خالق، وإذا خلق الأشياء جعلها حلالاً أو حراماً خصصها بالحرمة أو بالحل، لكن حينما حرم الله علينا لحم الخنزير قد يسأل سائل: لماذا خلقه؟ خلقه لمهمة أخرى واضحة جداً.

لذلك قضية الجعل، أي التخصيص هذا من شأن الله وحده، لذلك قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

[سورة يونس: 59]

أي أنت لستَ مؤهَّلاً أن تقول: هذا برأيي حلال ولا شيء فيه، وهذا لا أحبه وأحرمه، وأباحه الله عز وجل، يقولون: هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند، قضية الجعل أو التخصيص أو التحليل أو التحريم من شأن الله وحده.

نماذج مما جعله الجاهليون في التحريم :

الآن نقدم نماذج مما جعله الجاهليون في التحريم، قال الله عز وجل:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ)

البحيرة هي الناقة التي تشق أذنها، كعلامة على أنها محرمة، فلا يتعرض لها أحد، ولا ترد عن مرعى، ولا ترد عن ماء، ولا يشرب لبنها، ولا يركب ظهرها، ولا يجز صوفها، لأنهم قالوا: أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر، من قال هذا؟ من شرع هذا؟ هذه الناقة أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر، إذاً تشق إذنها علامة تحريمها، لا يتعرض إليها أحد، لا ترد عن مرعى، لا ترد عن ماء، لا يشرب لبنها، لا يركب ظهرها، لا يجز صوفها، من قال هذا؟ هذا تحريم من غير مبرر، هي ناقة خلقها الله لنا.

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

[سورة النحل: 5]

إذاً يمكن أن نركب ظهرها، وأن نشرب لبنها، وأن نأكل لحمها، وأن نردها عن مرعى ليس لها، الله عز وجل جاء بأمثلة، قال:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ)

أما السائبة فهي الناقة التي يقدمها الرجل إن برأ من مرضه، أو قدم من سفره كنذر سائب، اذبحها وأطعم لحمها للفقراء، لا، لأنني شفيت من مرضي، ولأنني سلمت في سفري، هذه الناقة أسيبها، أيضاً محرم أن تؤكل، أو أن يشرب لبنها، أو أن تركب، أو أن يجز صوفها، الله عز وجل قال:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ)

هذه الناقة السائبة لا يربطها أحد، وتأكل كما تريد، وتشرب ما تريد، وتنام في أي مكان، ولا يستطيع أحد أن يتعرض لها، وقد سميت سائبة أخذاً من الماء السائب.

معنى الوصيلة والحام :

قال تعالى:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ)

الوصيلة هي الناقة التي تصل أخاها، كيف؟ الناقة عندما تحمل، وتضع المولود، هنا ينظر أصحاب الناقة إلى جنس المولود، فإن كان ذكراً أكلوه، وإن كان أنثى أبقوها، لأنها تلد نوقاً أخريات، أما إذا أنجبت ذكراً وأنثى يستبقى الذكر، لأنه صاحب الأنثى، فهذه الأنثى حمته من الذبح والأكل، هذه اسمها وصيلة، أي ناقة أنجبت توأماً أنثى وذكراً، فلو كان ذكراً لذبح وأكل، ولو كانت أنثى لاستبقيت، لأنها

تحمل وتلد، أما إذا أنجبت هذه الناقة ذكراً وأنثى معاً إذاً الأنثى تحمي أخاها فلا يذبح، ولا يؤكل، هذه اسمها وصيلة، الله عز وجل قال:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ)

الحام: هو الفحل الذي يحمى ظهره من أن يركب، ويترك لينطلق كما يريد، لأنه لقح عشرة أجيال من الإناث، كفاه، مكافأة له على هذا العمل العظيم، هذا يحمى ظهره من أن يركب، فالله يقول:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

الاقتصاد في الأحكام :

كان العلماء الكبار رحمهم الله تعالى يتحاشون أن يقولوا: حرام أو حلال، لأن التحريم من شأن الله وحده، والتحليل من شأن الله وحده، وأنا كنت في مكان سمعت أباً يقول: هذا حرام، قلت له: خفف من كلمة حرام، التحريم هذا من شأن الله وحده، أحياناً تخترع الأم أن السباحة حرام للبنت، إذا كانت في فتن طبعاً حرام، أما إذا كانت في مكان لا يراها فيه إنسان، مغلق، لا، ليست حراماً، ما من إنسان مسموح له أن يحرم وحده من دون دليل، ولا يحلل، لكن العوام أهون شيء أن تقول الأم لابنها: حرام، قد يكون غير حرام، من كثرة استعمال كلمة حرام سقطت قيمة الحرام، صار شيئاً لا قيمة له، لا تستخدم كلمة حرام إلا بدليل قطعي، من كتاب الله، وما صح من سنة رسول الله بالمعنى القطعي، ليس الظني، أي يجب أن يكون الدليل قطعي الثبوت، وقطعي الدلالة، قطعي الثبوت أي قرآن، أو سنة صحيحة، أو قطعي الدلالة لا يحتمل شيئين، لذلك ينبغي أن تقتصد في أحكامك، فلا تقل: هذا حرام وهذا حلال، دع هذا لله عز وجل، لأن الله عز وجل قال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

[سورة يونس: 59]

الذي يقع في الإفراط والتفريط خرج من منهج الله عز وجل :

طبعاً الشواهد كثيرة جداً، هناك شخص يدعي أنه ورع، لا يرى أم زوجته، من أنت؟ أنت مشرع؟ أنت أورع من النبي عليه الصلاة والسلام، هناك إفراط في التحريم، وهناك تفريط، فالذي يقع في الإفراط والتفريط خرج من منهج الله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام:

((أشدكم لله خشية أنا، أنام وأقوم، أصوم وأفطر، أتزوج النساء، هذه سنتي فمن رغب عنها فليس من أمتي))

[متفق عليه بلفظ آخر عن عائشة]

بعض الجماعات في البلاد الإسلامية المجاورة يحرمون الزواج على الشبان، من سمح لك أن تحرم عليه الزواج، قضية الحلال والحرام قضية من شأن الله وحده، فأنت مكلف أن تبحث عن دليل التحريم القطعي الثبوت، والقطعي الدلالة قرآن أو سنة، وأن تبحث عن دليل التحليل، أن يكون الدليل قطعي الثبوت والدلالة، المشكلة أن العادات والتقاليد أحياناً تغلب على الإنسان، لذلك:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)

أحياناً تنشأ فتن، العادات والتقاليد في الأعراس تخالف الشرع، فإذا رفض الشاب المؤمن التائب أن يجاري أهله أو أهل زوجته في هذه الاحتفالات التي فيها منكرات، أقيم عليه النكير، وقامت الدنيا، ولم تقعد، ماذا فعل؟ أراد تطبيق منهج الله فرفض، لذلك:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)

ملخص الدرس أن الله تعالى هو الخبير بجعل الأشياء حراماً وحلالاً :

أيها الأخوة الكرام، ملخص هذا الدرس أن الله سبحانه وتعالى اختص بجعل الأشياء حراماً وحلالاً، وهو الخبير.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

وأنت ما عليك إلا أن تبحث عن الدليل، دليل التحريم أو دليل التحليل، وأن تنصاع لأمر الله، أما أن تُنصب نفسك مشرعاً، وأن تحرم أشياء، وأن تحلل أشياء، وتدعي أن هذه غير منطقية، هذا الشيء يقال يومياً، معقول المال لا أستثمره؟! هذا جهدي وعرقي، أضعه في مصرف ربوي، وآخذ فائدته، الزمن تغير، هو يحلل لنفسه، معقول أن أحجب نسائي؟! المرأة يجب أن تكون حرة، وأن تفعل ما تشاء، فكل واحد يضع لنفسه ديناً بتفصيله، يفصِّل الدين تفصيلاً على شهواته ومصالحه، الشيء الذي لا يكلفه شيئاً يعمله، يصلي، يضع:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

ويضع آية الكرسي، ويضع المصحف بالسيارة، لكن إيداع المبلغ في البنك، وأخذ الفوائد يقول لك: هذه أصبحت ضرورة، الله عز وجل كان غافلاً حينما حرم الربا؟! هذا شيء غير مقبول، هناك من يدعي

أن العصر تغير، والأحكام الشرعية لغير هذا الوقت، هذه مشكلة الناس الآن، هو يجعل الشيء حراماً أو حلالاً كما يلوح له.

لكن هذا الدرس يعني أن الذي حرَّمه حرمه الله، والذي أحله أحله، والذي سكت عنه لا تسأل عنه، ولا تقيد نفسك بشيء كنت في بحبوحة منه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (45 - 49) : تفسير الآية 105 ، الحياة الاجتماعية التي ينبغي أن يحياها المؤمنون.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-10-08

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الآية من أدق الآيات الدالة على الحياة الاجتماعية التي ينبغي أن يحياها المؤمنون:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

هذه الآية أيها الأخوة من أدق الآيات الدالة على الحياة الاجتماعية التي ينبغي أن يحياها المؤمنون، لا بد من أمثلة كثيرة الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء:29]

المعنى البديهي: لا تأكلوا أموال أخوانكم فجاءت الآية:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

[سورة البقرة: 188]

أي إن مال أخيك هو مالك من زاوية وجوب المحافظة عليه، فلئن تمتنع عن أكله من باب أولى، أي إن هذا المال ملك المسلمين جميعاً، هناك ملك خاص وملك عام، أنت إنسان تملك مالاً هو لك، لكن ينبغي أن تنفقه بطريقة لا تؤذي بها المسلمين، المسلمون جميعاً لهم حق في هذا المال، لا أن يأكلوه، ولا أن يغتصبوه، ولا أن يأخذوه منك، ولكن أن تحسن إنفاقه في الصالح العام، فالمسلمون وحدة لا تتجزأ.

المؤمن حينما يستقيم ينتفع المجموع من استقامته :

أيها الأخوة الكرام:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

يجب أن تهتم بكل المسلمين، بكل المؤمنين، لم تأتِ الآية: عليك نفسك:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

ذلك أن المؤمن حينما يستقيم ينتفع المجموع من استقامته، ويتأذى الضلَّال، لأن استقامته كشفت انحرافهم، المؤمن حينما يصدق ينتفع جميع الناس من صدقه، إلا أن الكاذب كشف كذبه، فالمؤمن حينما يحسن، وحينما يستقيم، ينتفع المجموع من استقامته وإحسانه، ويتأذى الضالون، لذلك هناك معركة قديمة أزلية أبدية بين الحق والباطل في أي عصر، في أي مصر، في أي مكان، في أي زمان، لا بد من هذه المعركة بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين المستقيم وبين المنحرف، المستقيم يكشف المنحرف، العفيف يكشف السارق، المخلص يكشف الخائن، لأن الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

لا يمكن أن يقبل من مؤمن أن ينجو وحده، لا بد من أن يسعى لهداية من حوله، أسرته، أقرباؤه، زملاؤه، جيرانه، أصدقاؤه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

معنى عليكم: أي الزموا، طبعاً جار ومجرور مصنفة في علم اللغة باسم فعل، هناك أسماء أفعال ليست أسماء، وليست أفعالاً، ولكنها اسم فعل، هي اسم ولكن تؤدي معنى الفعل، حي على الصلاة، أي أقبل على الصلاة.

المؤمن حينما ينقل الحق إلى الآخرين يعود الخير عليه أيضاً :

إذاً حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

كما تعلمون أن الله يخاطب عامة الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروع الدين، يا من آمنتم بالله، آمنتم بعلمه، وبحكمته، وبكماله افعلوا هذا:

(عَلَيْكُمْ)

أي الزموا، الزم، ودقق، وأصلح، وصوب، وحاسب:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

معنى الزم، إن قلت لأب: الزم ولدك، أي انتبه له، دقق في تصرفاته، ابحث عن أصدقائه، دقق في تحصيله، لاحظ أخطاءه، حاول أن تصلحها، كامل العناية تفهم من كلمة الزم:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أي الزموا، لذلك المؤمن حينما يصلح من حوله، وحينما يهدي من حوله، وحينما يحمل على طاعة الله من حوله، هذا الخير الذي عم يعود عليه بالخير، أنت مؤمن أمرك الله أن تكون صادقاً، فإذا أقنعت

مجموع الناس أن يصدقوا تصرفوا معك، ولم يكذبوا، أنت مؤمن لا تسرق، حينما تقنع مجموع الناس ألا يسرقوا إذاً هم لم يسرقوا منك، أنت مؤمن، حينما تقنع الناس أن يغضوا أبصارهم عن نساء لا تحل لهم، فإذا أقنعت الناس بطاعة الله هؤلاء الناس جميعاً غضوا أبصارهم عن أهلك، القضية رائعة جداً، أنت تحرص حرصاً كبيراً على أن تنقل هذا الحق إلى الآخرين، فإذا انتقل إليهم عاد الخير إليك، المثل واضح.

قد تفهم الآية التالية فهماً ما أراده الله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

في الحقيقة أن هذه الآية سبحان الله! قد تفهم فهماً ما أراده الله، قد تفهم أن أيها الإنسان عليك نفسك، ولا تعبأ بمن حولك، مع أن الآية على عكس هذا المعنى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أي كل نفس تلوذ بك شئت أم أبيت، إن استقامت تنتفع أنت من استقامتها، وإن انحرفت تتأذى من انحرافها، أنت حينما تشتري بضاعة من بائع مسلم ينصحك، ويأخذ منك سعراً معتدلاً، أما إذا اشتريتها من إنسان غير منضبط فقد يغشك، وقد يأخذ منك سعراً فاحشاً، فحينما يعم الخير تنتفع بهذا الخير، وحينما يعم الشر تتأذى بهذا الشر، فالمؤمن يهتدي، ويسعى لهداية الناس، يستقيم، ويسعى لحمل الناس على الاستقامة، يصدق، ويسعى لحمل الناس على الصدق، لذلك الذي يبدو أن هناك فريقين من أقدم العصور وإلى نهاية الدوران، فريق مؤمن، وفريق غير مؤمن، يمكن أن نقول: هناك مؤمن وكافر، مؤمن آمن بالله، وطبق منهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان آخر كفر بالله، فلم يطبق أمره، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة، ولن تجد إنساناً ثالثاً.

الله عز وجل يهلك الصالحين وينجي المصلحين وفرق كبير بين الصالح والمصلح :

أيها الأخوة الكرام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أما إذا فسد المجتمع يتضرر المؤمن، لا يجد صادقاً، لا يجد مخلصاً، لا يجد ناصحاً، لا يجد أميناً، لا يجد عفيفاً، وهذا حال فساد الأمة الآن، كل إنسان له علاقة معه لغم قد ينفجر، قد يخونك، قد يختلس منك، قد يضحك عليك، قد يكذب عليك، إذاً المؤمن من شأنه أنه يسعى لإصلاح الناس، وما لم تنشأ هذه

الرغبة عند المؤمن فإنه لن يفلح، لذلك ورد في بعض كتب الحديث:

((أن الله أرسل ملائكة لإهلاك قرية، فقال الملائكة: يا رب، إن فيها صالحاً، قال: به فابدؤوا، قالوا: ولمَ يا رب؟ قال: وجهه لا يتمعر إذا رأى منكراً))

[ورد في الأثر]

لذلك الله عز وجل يهلك الصالحين وينجي المصلحين، فرق كبير بين الصالح والمصلح، يهلك الصالحين، وينجي المصلحين، فمعنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

الزموا، انصحوا، ارشدوا، ادعوا، دققوا، حاسبوا، اخرج من ذاتك لهداية الخلق لا تتمحور حول ذاتك، لا تقل: لا يعنيني أمر هؤلاء، ينبغي أن تحمل همَّ المسلمين، ينبغي أن تسعى لهدايتهم، لذلك:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

جميعاً، إن صلح الناس سعد المجتمع، صلاح الناس يعود بالخير على المؤمن، وفساد المجتمع يعود بالشر على المؤمن.

المسلمون وحدة إذا صلحوا سعد الأفراد بصلاحهم وإذا انحرفوا شقي الأفراد بانحرافهم:

مرةً إنسان استنصحني قبل زواجي، قلت له: يتوهم معظم الأزواج أنه لمجرد أن يقترن بفتاة دخل في سعادة لا تنتهي، لا، ما لم تأخذ بيد الفتاة إلى الله، ما لم تدلها على الله، ما لم تحملها على طاعة الله، لن تنتفع منها، لن تسعدك، أما تسعدك إذا تعرفت هي إلى الله، أو ساهمت أنت في هدايتها إلى الله، الآن أنت لا تنجو من المجتمع، كله يكذب، كله يغش، كله يحتال، كله يقتنص، كله يأخذ ما ليس له، أما إذا ساهمت في هداية هؤلاء يعود الخير عليك، ولا تنسى أبداً أن الله نهاك عن أن تكذب نهى ملياراً وثلاثمئة مليون مسلم عن أن يكذبوا عليك، وإذا نهاك عن أن تسرق نهى ملياراً وثلاثمئة مليون مسلم أن يسرقوا منك، فكلما صلح المجتمع عاد الخير عليك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

المسلمون وحدة، كتلة واحدة، إذا صلحوا سعد الأفراد بصلاحهم، وإذا انحرفوا شقي الأفراد بانحرافهم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

الزموا، وجهوا، ائمروا بالمعروف، انهوا عن المنكر، خذوا بيد الآخرين إلى الله، دلوهم على الله، أعينوهم على طاعته، هيئوا لهم أسباب الهداية:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

ابدأ بنفسك، ابدأ بأولادك، ابدأ بأولاد أخيك، ابدأ بأولاد جيرانك، ابدأ بمن حولك، ابدأ بزملائك، ابدأ بأصدقائك، مثلاً:

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ)

[سورة النساء: 5]

المعنى: أموالهم، السفيه المجنون له إرث كبير، المعنى: لا تؤتي هذا السفيه ماله.

مال الفرد هو مال المجموع :

الآية:

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ)

[سورة النساء: 5]

المال ملك المجموع، بمعنى أنه يجب أن ينفق بمصلحة المجموع، المال ملك جميع الناس، بمعنى أن يوظف هذا المال لمصلحة المجموع، أنت معك مال أسست معمل غذائيات، وطرحت بضاعة جيدة في السوق بأسعار معتدلة، فساهمت في خفض الأسعار.

إنسان معه مال، أنشأ معمل خمور، يقول لك: مالي، هو مالك فعلاً، لكن هذا المال مال الأمة، أن تنفقه في صنع شراب يعطل العقل فأنت أسأت إلى مجموع الأمة.

إذاً معنى مال الفرد هو مال المجموع بمعنى أن ينفق في صالح المجموع، هذا المعنى، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

[سورة البقرة: 188]

المعنى الحرفي لا يستقيم، واحد له جيبان، أخذ مئة ليرة من هنا، وضعها هنا، ماذا فعل؟

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

[سورة البقرة: 188]

لا أريد أن آكل أموالي من جيب إلى جيب، هذا المعنى غير مقبول، لكن الله عز وجل يلفت نظرنا إلى أن هذا المال الذي تملكه أنت ملك الأمة، مسموح أن تنفقه إنفاقاً لصالح الأمة، أما أن تنفقه إنفاقاً لإفساد الأمة، الأمة تمنعك من ذلك، هذا المعنى بالضبط، لذلك:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

[سورة البقرة: 188]

هو ماله، لكنه مال الأمة من حيث أن تكون رقيبة على إنفاق هذا المال.

للزوج الحق في أن يمنع زوجته من أن تستثمر مالها في طريق غير مشروع :

لو أن إنساناً متزوجاً، والزوجة تملك مالا وفيراً، أرادت أن تتاجر بالمهربات، لو أن هذا التهريب كشف تعتقل الزوجة، تتعطل الأسرة، يشرد الأولاد، يقول لها الزوج: هذا المال هو لك، ولكنه لمجموع الأسرة، أي أنفقيه لصالح الأسرة، لو أنفق هذا المال في مشروع يعود على الأسرة بالضرر فأنا أمنعك من ذلك، لذلك للزوج أن يمنع زوجته أن تستثمر مالها في طريق غير مشروع، يعود بالدمار، لو أنبأها تاجر مخدرات أن القرش بمليون فلزوجها أن يمنعها، لأن هذا قد يجلب إعدامها بحسب القوانين، فمع أن المال مالها ينبغي أن ينفق لصالح الأسرة، هذا المعنى، ومع أن المال مال زيد أو عبيد فينبغي أن ينفق لصالح المؤمنين، لذلك:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

[سورة البقرة: 188]

بعدئذٍ يقول:

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)

[سورة النساء: 6]

ما قال: أموالكم، هذه ملمح رائع جداً:

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)

[سورة النساء: 6]

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

ينبغي أن تهتم بمن حولك، ينبغي أن تهتم بأولادك، بأسرتك، بأهلك، بجيرانك، بأصدقائك، بأقربائك، ينبغي أن تهتم بمجموع المسلمين، ينبغي أن تخرج عن ذاتك إلى هداية الآخرين، ينبغي أن تحمل هم الأمة، ينبغي أن تسهم بشكل أو بآخر في التخفيف عنها، في تقويتها، في صلاحها، في صلاح أبنائها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أي اجتهد، مر بالمعروف، انهَ عن المنكر، وضح للناس الحق.

قد يغيب عنكم أيها الأخوة، وقد ذكرت هذا كثيراً أن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، عينٍ، عينٍ وليس فرض كفاية، هي فرض كفاية على بعض المسلمين، إذا قاموا بها سقطت عن المجموع، التبحر، والتفرغ، والتعمق، وامتلاك الأدلة التفصيلية، والرد على كل الشبهات هذه فرض كفاية، إذا قام

بها بعض العلماء المتبحرين، المتفرغين، المتعمقين سقطت عن المجموع، يؤكد هذا قوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

[سورة آل عمران: 104]

أما الدعوة إلى الله كفرض عيني تؤكدها الآية الكريمة:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

التواصي بالحق فرض عين على كل مسلم في حدود ما يعلم ومع من يعرف :

التواصي بالحق فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم، ومع من يعرف، يؤكد هذا الفرض العيني آية أخرى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

إن لم تدع إلى الله على بصيرة فأنت لست متبعاً لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وحينما قال الله عز وجل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

معنى ذلك أنك إن لم تتبع رسول الله عليه الصلاة والسلام فأنت لا تحب الله بنص هذه الآية. إذاً معنى:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أن تسعى لهداية من حولك.

من لم يفكر بنشر الحق الطرف الآخر يقوى ويفرض عليه دينه :

قال تعالى:

(عَلَيْكُمْ)

الزموا، دققوا شددوا، اهتموا، احرصوا على هداية الآخرين، ذكروهم، أعطِ أخاك شريطاً تأثرت به كثيراً، اسمعه ورده إليه، أنت ساهمت، أعطِ أخاك مقالة قرأتها فتأثرت بها، اقرأها وردها إليه، اجلس مع أخوانك في لقاء لطيف قصير معتدل، ذكرهم بآيات الله، بيِّن لهم آية كونية، اشرح لهم آية قرآنية، بيّن لهم حديثاً شريفاً، بيّن لهم حكماً فقهياً، بيّن لهم موقفاً من مواقف الصحابة المشرفة، ذكرهم بالآخرة،

ذكرهم بعظمة هذا الدين، ذكرهم بعظمة هذا النبي الكريم، بيّن لهم عدل الإسلام، سماحة الإسلام، سمو الإسلام، تحرك، تكلم.

هناك حالة اسمها إدمان سماع، مدمن لسماع دروس، إلى متى؟ أيعقل أن يمضي إنسان كل عمره يسمع؟ ينبغي بعد أن سمع أن ينطق، أن يتكلم، أن يتحرك، أعطِ شريطاً إن كنت لا تحسن إلقاء الموعظة، إلقاء العلم، أعطِ شريطاً، وزع الحق بين الناس.

أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

لماذا؟

(لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

إن لم تفعلوا ذلك ضركم من ضل، الآن الذين ضلوا ألا يضروننا؟ يصلون إلى أدق تفاصيل حياتنا، يريدون أن يبدلوا كلام الله، يريدون أن يضعوا بين أيدينا قرآناً من صنعهم، فرقاناً جديداً، فيه آيات عجيبة: يا محمد أأنت أضللت عبادي، فيقول محمد: يا رب، لقد ضللت فأضللتهم!!!

هذه إحدى آيات الفرقان الحق، يريدون أن يضعوا لنا قرآناً آخر، يريدون أن يمنعوا أولادنا من تعلم الشريعة، يريدون أن يوقفوا كل العمل الخيري، أليس كذلك؟ هذه الآية، إذا أنتم لم تفكروا بنشر هذا الحق الطرف الآخر يقوى، فإذا قوي فرض عليكم ثقافته، وفرض عليكم إرادته، وفرض عليكم دينه، أليس كذلك؟!!

عليكم أنفسكم حتى لا يضركم من ضلّ :

هذه آية العصر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

فإن لم تفعلوا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا)

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

عندئذٍ:

(لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

أما إذا لم تهتدوا تدخَّلوا في أدق تفاصيل حياتكم، ومنعوا عنكم كل خير، ومنعوكم أن تؤدّوا عباداتكم ، منعوكم أن تدفعوا زكاة أموالكم، أليس كذلك؟ هذا ما يجري في العالم الإسلامي. في بلد إسلامي في

شرق آسيا أغلقت خمسة آلاف معهد شرعي، في مكان آخر منع من طبع المصحف، في مكان ثالث الأخبار سيئة جداً:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أو يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ، فلئلا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

كيفية إنكار المنكر بالقلب :

أخواننا الكرام، موضوع دقيق جداً، حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أي ينبغي أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، أمرت بالمعروف، وانتهى الأمر، لكن هذا المنكر الذي أمامك كيف تنهى عنه؟ ابنك وجدت معه حاجة ليست له، هنا ينبغي أن تزيل هذا المنكر بيدك، لأنه ابنك، لعل ابن أخيك لا تستطيع أن تعامله كابنك، ينبغي أن تزيل المنكر بلسانك، لكن لو رأيت إنساناً لا تعرفه ولا يعرفك، وهو أقوى منك يرتكب منكراً كبيراً لا تستطيع أن تنصحه، يسحقك، مثلاً، كما أنه لا تستطيع أن تزيل هذا المنكر بيدك، ماذا تفعل؟ ينبغي أن تنكره بقلبك، هنا المشكلة، ما معنى إنكار المنكر بالقلب؟ قد يفهم الناس خطأ أن إنكار المنكر بالقلب بحيث تقول في قلبك: اللهم إن هذا منكر لا أرضى به، لكن هذا الذي يقترف هذا المنكر ينبغي ألا تبتسم له، ينبغي ألا تحتفل به، ينبغي ألا تعظمه، ينبغي ألا تقيم معه علاقة حميمة، ينبغي ألا تمدحه، إنكار المنكر بالقلب أيضاً حركة، لكن حركة سلبية، لا تمدحه أبداً، ولا تثن عليه، ولا تزره، ولا تعظمه، ولا تحتفل به، ولا تبتسم له إن رأيته، كل إنسان فعل منكراً فرأى المسلمين تجهموا به، وابتعدوا عنه، ولم يسلموا عليه فأنت حاصرته، وضيقت عليه، فحملته على أن يستقيم، إنكار المنكر بالقلب له معنى عملي.

مثلاً: إنسان له أخت متفلتة، متبرجة، مستهترة، تبرز كل مفاتنها في الطريق، دخلت عليه زائرة، قال بقلبه: اللهم هذا منكر لا أرضى به، كيف حالك يا أختي؟ إن شاء الله بخير، والله اشتقنا لك، لم نعد نراك، أطلت الغياب علينا، هكذا قلبكِ قاس علينا؟! بهذا المنظر البشع المتفلت؟! هذه الشقيقة حينما ترتدي هذه الثياب ينبغي ألا تستقبلها في بيتك، وينبغي أن يفعل هذا أخوك أيضاً، وأخوك الثالث، فإذا رأت أنها معزولة ومحاصرة عادت إلى رشدها، إنكار القلب أي أن تأخذ موقفاً سلبياً، ألا تثني على من يفعل المنكر، ألا تمدحه، ألا تحتفل به، ألا تبتسم له، ينبغي أن تأخذ منه موقفاً، هل تصدقون أن إنساناً إذا ظلّم، ونظر إليك، ولم تقل شيئاً، إلا أنك هززت برأسك، وكأنك أشعرته أنك توافق على هذا الظلم،

فقد شاركته في الإثم، لأنه:

((من أعان ظالماً سلطه الله عليه))

[رواه ابن عساكر عن ابن مسعود]

((من أعان ظالماً على ظلمه جاء يوم القيامة وعلى جبهته مكتوب: آيس من رحمة الله))

[أخرجه الديلمي عن أنس رضي الله عنهما]

صلاحنا بصلاح المجموع :

المفهوم الذي ينبغي أن نفهمه من إنكار القلب أن تأخذ موقفاً سلبياً، هذا إنكار القلب، أنت لا تستطيع أن تمنعه بيدك، كما أنك لا تستطيع أن تنصحه، لا يلقي لك بالاً، لكن بإمكانك ألا تقيم معه علاقة، دعاك إلى نزهة تعتذر، تعال زرنا، تقول: واللهِ أنا مشغول، ينبغي أن تشعره أنه معزول، وأن مجموع المسلمين قاطعوه، هذا الذي ينبغي أن يكون، إذا فعلنا هذا فقد طبقنا قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

صلاحنا بصلاح المجموع، ثمة حالة استثنائية سأوردها لكم، قال عليه الصلاة والسلام حينما سئل مرة عن هذه الآية: يا رسول الله ما تعني:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

فقال:

((بَلْ ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامَّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه عن أبي أمية]

من هم خاصة النفس؟ أولادك، أقرباؤك، جيرانك، أصدقاؤك، زملاؤك.

في هذا الزمان دع عنك أمر العامة وعليك بالخاصة ممن يثق بك وتثق به :

أنت لست مكلفاً بعصر وصفه النبي:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً))

مادية، يبيع دينه بمئة ليرة، يقسم يميناً معظماً كاذباً أن شراء هذه البضاعة أعلى مما يبيعها، وهو كاذب:

((حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً))

الجنس هدف كل إنسان:

((وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأيٍ برَأيهِ))

كل إنسان محور العالم، تقول له حديث صحيح، يقول: الحديث غير واقعي، لا يطبق في هذا الزمان، الله حرم الربا، مستحيل، يقول لك: الحاجة أساسية:

((وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأيٍ برَأيهِ))

في هذا الزمان بالذات دع عنك أمر العامة فقط، العوام لا علاقة لك بهم، لكن:

((فَعَلَيْكَ بِخَاصّةِ نَفْسِكَ))

بمن يلوذ بك، بمن يثق بك وتثق به، بمن يقبل نصيحتك لذلك الله عز وجل قال:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ* وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[سورة الشعراء: 213-214]

القريب واثق منك، القريب لا يخاف منك، القريب يستمع إليك، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((فإنّ مِنْ وَرَائِكُم أيَامَ الصّبْر، الصّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قبْضٍ عَلَى الْجَمْر، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلَ أجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ))

[أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه]

إذاً عندنا حالة خاصة:

((إذَا رَأيْتَ شُحّا مُطَاعاً، وَهَوًى مُتّبَعاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأيٍ برَأيهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامّ))

خاصة النفس كل من يثق بك وتثق به ينبغي أن تبلغه هذه الرسالة، ينبغي أن تنصحه، ينبغي أن تأمره بالمعروف وأن تنهاه عن المنكر، حتى تسلم هذه الأمة، وحتى يتحقق قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

[البخاري والترمذي أخرجه وأحمد في مسنده عن ابن عمرو]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (46 - 49) : تفسير الآيات 106 - 108 ، الوصية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-10-15

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات التالية حول الوصية :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية السادسة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية والتي تليها حول الوصية، والوصية واجبة في الشريعة في حالات كثيرة، من هذه الحالات: أن تكون هناك أملاك ليست لك، سجلت باسمك لسبب أو لآخر، فإذا مات الإنسان فجأة فهذه الأملاك، وقد تكون بيوتاً وعقارات غالية جداً هي لك، ولا يستطيع أحد أن يأخذها منك، من حق الورثة، فإن لم تكن لك، ولم تكتب في وصية أنها ليست لك، وأنها لزيد أو عبيد، فقد أطعمت أولادك مالاً حراماً، قد تلقى بهذا العمل عند الله عقاباً كبيراً.

المال قوام الحياة فينبغي أن نحسن إدارته :

الذي في اسمه أملاك ليست له، أو عنده أمانات ليست له، أو عليه أداء واجبات لم تؤدَّ، أو عليه حقوق لم تعط، في مثل هذه الحالات لا يجوز أن تبيت ليلة واحدة من دون وصية، والشواهد والقصص التي نستمع إليها من خلال إهمال الوصية لا تعد ولا تحصى.

إنسان أمواله مصادرة، فتلافى مصادرة بيته الذي يسكنه بأن سجله تسجيلاً صورياً عند صديق له، وهذا الصديق لم يكتب في الوصية أن هذا البيت ليس له، فمات الإنسان فجأة، فهذا البيت له وللورثة من بعده، معنى ذلك أننا أطعمنا الورثة مالاً حراماً. لذلك من واجب المؤمن أن يدير أمواله في حياته، وأن يحسن إدارتها بعد مماته، أن يديرها في حياته بالعدل والإحسان، أما أن يديرها بعد مماته فعن طريق الوصية، كل شيء مكتوب.

أيها الأخوة، المال قوام الحياة، أحياناً الرجل يدع لأولاده مالاً فيشترون بيتاً يسكنونه، يتجرون بمبلغ، يتزوجون، يكون قد ترك لأولاده ما يقيم أودهم، فإذا كان هذا المال الذي تركه لهم لكن لم يحقق، كان باسم آخر، وحرم الأولاد منه، وفقدوا قوام حياتهم، فالمسؤولية تعود على الأب، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ، ثُمَّ قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ:]مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ [، إِلَى قَوْلِهِ:]ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [ ))

[الترمذي، أبو داود، ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

كما أنك مكلف أن تدير مالك في حياتك فأنت مكلف أن تعطي كل ذي حق حقه، وأن تدير المال بعد حياتك، فهذه ملاحظة أولى. المال مرة ثانية قوام الحياة، فينبغي أن تحسن إدارته، الآن هناك علوم جديدة اسمها إدارة النفس، وإدارة الوقت، ومعها إدارة المال، إدارة المال جزء أساسي من سلوك المؤمن، يعطي كل ذي حقٍ حقه.

شيء آخر، أن الله عز وجل في هذه الآية أورد أن الموت مصيبة، فالذي جمعه الإنسان في كل حياته يخسره في ثانية واحدة، بمقياس الدنيا، بيوت، مزارع، مركبات، تجارة، أموال منقولة، أموال غير منقولة، لمجرد أن يقف القلب أصبحت هذه الأموال ليست له، إذاً الموت مصيبة، لكن بطولة الإنسان أن يجعل الموت كما قال عليه الصلاة والسلام عرس المؤمن، باستقامته وتوبته يجعل الموت أحلى لحظاته حياته الأبدية.

الهبة في الحياة والوصية بعد الممات ولا وصية لوارث :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بالله عز وجل، يا من دخلتم مع الله بعقد إيماني، يا من آمنتم أن الله عدل، ورحيم، وحكيم، وتشريعه مطلق في خيريته، افعلوا كذا وكذا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ)

كلكم يعلم أنه لا وصية لوارث، لكن ماذا يمنع إن وجد الأب ابنته فاتها قطار الزواج، وقد تكون تحت رحمة أخوتها الذكور، بل تحت رحمة زوجاتهم، وقد تُهان، فقد هيأ لها بيتاً، منحها إياه في حياته، هذا هبة، والهبة حكمها نافذ في الشرع، ولكن الذي يهب من حوله في حياته ينبغي أن يهيأ لله عز وجل جواباً منزهاً عن الهوى، منزهاً عن المحاباة، لك أن تهب أولادك، أو من يرثك في حياتك أي شيء،

ولكن بشرط أن تهيئ لله عز وجل جواباً عن ذلك. إنسان عنده ابن معاق، فلا عليه أن يهبه في حياته بيتاً أو دكاناً، بحيث تدرّ عليه دخلاً، ويعيش عزيزاً، ويتأبى أن يكون تحت رحمة أخوته.

إذاً مبدئياً الهبة في الحياة، والوصية بعد الممات، ولا وصية لوارث، لكن الوصية هنا بمعناها الواسع، أيّ قضية مشكلة، أي إشكال في العقارات، في الأموال المنقولة، الغير المنقولة، في الشركات، لو أن إنساناً أودع عندك أمانة، مبلغاً ضخماً، وعندك صندوق حديد، ولم تكتب مع هذا المبلغ لمن هذا المبلغ، والإنسان مات فجأة، هل يستطيع الورثة أن يعطوا كل مدعٍ ما يقول؟ مستحيل، إلا أن تأتي ببينة، فأنت ما منحته إيصال لهذا الذي أودع عندك الأمانة، ولم تكتب مع المال أن هذا المال عائد لفلان أمانة يؤدى حين الطلب، ومات الإنسان فجأة، وحالات الوفاة المفاجئة كثيرة جداً. أراد إنسان أن يبدل بعض العملات، والقصة قديمة، فأعطى الذي يعمل في صرف العملة مبلغ مليوني ليرة، وعاده بعد المغرب أن يعطيه المقابل، بينهما وافته المنية باحتشاء في قلبه، لا هناك ورقة، ولا شيء، فكاد هذا الإنسان أن يختل توازنه.

يجب أن تُكتَب الوصية وأن يشهد عليها شاهدا عدل :

الوصية بمعنى أيّ علاقة مالية لك أو عليك، أي واجب لم يؤدَّ، عندك موظف وعدته بمنحة بعد فترة، الآن لا تملك هذه المنحة، الإنسان مات فجأة، هذا أصبح حقه، اكتب هذا الوعد على ورقة، كل قضية مالية تخشى أن تضيع أو ألاّ تؤدّى اكتبها في وصية، والوصية تتجدد، هناك أشخاص كل شهر يجدد الوصية، وأشخاص كل سنة، لكن لو فرضنا إنساناً ليس له علاقة مالية، ليس عليه حق يؤديه، وليس له عند الناس حق يأخذه، وعلاقاته نظيفة جداً، وقلما تجد هذا الإنسان، هذا الإنسان الوصية في حقه مباحة، أي إن كتبها يكون قد اقتدى بسنة النبي عليه الصلاة والسلام، لكن العلماء يؤكدون أن الإنسان لا يجوز أن يؤوي إلى فراشه إلا ووصيته تحت وسادته، وأنا أعلم رجلاً مات بخثرة في الدماغ فجائية، هناك علاقات بالملايين، ولا وثيقة لديه، كلها اتفاقات شفهية، أذكر سنوات تزيد على عشرين سنة، والأمور لم تنتهِ، أتعب أهله تعباً لا حدود له، فالأولى أن تكتب العلاقات المالية، ما لك وما عليك، ما عليك من حقوق، ما عليك من واجبات، ما ينبغي أن تؤديه، ما يمكن أن تطالب الآخرين به، هذا كله يكتب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ)

اكتب الوصية، وأشهد عليها شاهدي عدل، ما معنى عدل؟ نحن في الحياة المدنية عندنا مصطلح اسمه الحقوق المدنية، الإنسان له حقوق مدنية، وأحياناً تسقط هذه الحقوق، لكن في الإسلام العدالة أحد

خصائص المؤمن، العدالة والضبط، وهذان المصطلحان يستخدمان كثيراً في علم الحديث، ولاسيما في الجنح والتعديل، فلان عدل، غير أنّ:

((مَن عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة]

العدالة من صفات المؤمن :

هذا الإنسان عدل، لا يكذب، لا يزوِّر، لا يغير، لا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، صادق، أمين، عفيف، العدالة من صفات المؤمن، تسقط إذا ظلمت الناس، تسقط إذا وعدتهم فأخلفتهم، تسقط إذا خالفت مبادئ الدين في تعاملك معهم، عاملهم فلم يظلمهم، حدثهم فلم يكذبهم، وعدهم فلم يخلفهم. عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد في المسند عَنْ أَبِي أُمَامَةَ]

إذا خان أو كذب فليس مؤمناً، بل انسلخ من الإيمان، إذاً العدالة تسقط حين الكذب، وحين إخلاف الوعد، وحين الظلم، لكن العلماء من بعض الأحكام الشرعية، ومن بعض الأحاديث النبوية استنبطوا حالات كثيرة تجرح فيها العدالة مثلاً: من علا صياحه في البيت تجرح عدالته، من تنزه في الطرقات ليملأ عينيه من الحسان تجرح عدالته، من أكل في الطريق، من مشى حافياً، من بال في الطريق، من طفف بتمرة، الوزن ما كان دقيقاً، لم يرجح الميزان، من أكل لقمة من حرام، أكل حبة من الفاكهة، وأوهم البائع أنه سيشتري، بهذا جرحت عدالته، من أطلق لفرسه العنان، السرعة العالية في قيادة السيارة، هذه تجرح العدالة، من ربى حيواناً مخيفاً أخاف به الناس، من قاد برذوناً بسرعة تجرح عدالته، من كان حديثه عن النساء تجرح عدالته، العلماء ذكروا عدة أشياء تزيد على الثلاثين بند كلها تجرح العدالة، من صحب الأراذل تجرح عدالته، أنت مستقيم مسلم، هذا الذي تمشي معه زانٍ، أو شارب خمر، وأقمت معه علاقة حميمة إذاً تجرح عدالتك، لا تقبل شهادتك، العدالة أن تتمتع بالحقوق المدنية في المصطلح الحديث، أو في المصطلح الإسلامي تقبل شهادتك، يقبل حكمك في أمور كثيرة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ)

يجوز للذمي أن يشهد في السفر :

إضافة إلى هذه الشهادة التي كتبتها عليك أن تشهد اثنين:

(اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)

يتمتعان بالعدالة، بالخلق القويم، لا يكذبان، لا يدلسان، لا يزوران، لا يبالغان، بالتعبير المعاصر موضوعيان.

(اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)

إن كان الإنسان مسافراً، ومعه غير المسلمين، هو المسلم الوحيد، في هذه الحالة:

(أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ)

العلماء رأوا من خلال هذه الآية أنه يجوز للذمي أن يشهد في السفر، وأن تنفذ شهادته.

(آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ)

أي سافرتم:

(فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ)

الموت مصيبة طبعاً، فضلاً عن أن الإنسان المؤمن تنتظره وينتظره قبر هو روض من رياض الجنة، وفضلاً عن أن المؤمن يرى مكانه في الجنة حينما يأتيه ملك الموت، والمؤمن يعرق من شدة خجله من الله عز وجل لعظم العطاء الذي ينتظره بعد الموت، وهذا يؤكده قول النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة فاطمة حينما كان على فراش الموت. قَالَ:

((لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام: وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ...))

[البخاري عَنْ أَنَسٍ]

الحكمة من حبس الشاهدان اللذان حضرا موت المسلم من بعد الصلاة :

إذاً:

(فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ)

أيها الأخوة، الإنسان يولد كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، فإذا وافته المنية كل من حوله يبكي فبطولته أن يضحك وحده.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة ياسين: 26-27]

(فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ)

الآن هذان الشاهدان:

(تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ)

ما الحكمة؟ القافلة وصلت، والميت دفن في الطريق، والوصية مكتوبة، وهناك شاهدان، إما مسلمان أو غير مسلمين، أتيا إلى بيت المتوفى، وسلما ما عندهما من أمانة، قد تكون مالية، قد تكون ذهباً، قد تكون حاجات، قد تكون أدوات، قد تكون بضاعة، فهذان الشاهدان اللذان حضرا موت هذا المسلم يُحبسان من بعد الصلاة، الملمح الرائع في هذه الآية أن الإنسان حينما يصلي كأنه يصطلح مع الله، فمن الصعب جداً أن يزوِّر أو أن يكذب بعد الصلاة، ملمح أنه أنت حينما تدخل بيت الله كي تصلي، الآن بعد الصلاة، بعد هذا الدرس، لو خرجت إلى خارج هذا المسجد، وإنسان سألك سؤالاً: أمعك مئة ليرة تقرضني إياها؟ ومعك ألف وخمسمئة، تقول له: والله ما معي، هذه لا تتناسب مع صلاتك، لا تتناسب مع الصلاة التي أديتها، هناك تناقض مريع.

اصطفاء الله عز وجل لعلة هداية خلقه ولعلة حسن علاقتهم به :

الحقيقة هذا شيء يقودنا إلى موضوع في الصيام، الله عز وجل منعك من تناول الطعام والشراب وهو مباح في كل أشهر العام، منعك من اللقاء الزوجي في نهار رمضان وهو مباح في كل أشهر العام، فأنت في رمضان امتنعت عن المباحات، هل يعقل أن تأتي المعاصي والآثام؟ يختل توازنك، فكأن الله سبحانه وتعالى قوَّى إرادتنا على طاعته هذه، فالإنسان إذا ضبط نفسه ثلاثين يوماً في رمضان ففي الأعم الأغلب، وفي الأعم الأغلب مرة ثانية أنه يتابع هذه الاستقامة بعد رمضان، فالله عز وجل حينما اصطفى من بين الأشهر شهر رمضان كي تصفو علاقتنا مع الله في هذا الشهر، فمن أجل أن ينسحب هذا الصفاء لكل أشهر العام، وحينما اصطفى مكاناً هو بيت الله الحرام من أجل أن تصفو علاقتنا بالله في هذا المكان، العبرة أن ينسحب هذا الصفاء الذي أصابك في بيت الله الحرام إلى كل مكان تقيم فيه، وحينما اصطفى سيد الأنبياء والمرسلين ليكون سيد الخلق وحبيب الحق، من أجل أن يكون هذا المنهج، وتلك القدوة معممة على كل بني البشر، فاصطفاء الله عز وجل لعلة هداية خلقه، ولعلة حسن علاقتهم به. إذاً: هذان الرجلان يدليان بشهادة مدعمة بالأيمان:

(تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ)

أحياناً أهل الميت يعلمون أن معه مبلغاً ضخماً جداً، أو اشترى بضاعة غالية جداً، وأجهزة ثمينة جداً، وإذا بالذي يأتي إلى البيت أشياء تافهة، فصار هذان اللذان كانا مع الميت في سفره في ريب، وكتب

الميت وصية في ريب، وشهدا عليها في ريب، ثم جاءا بالبضاعة أو بالمتاع أو بالأموال في ريب، وعند الأهل تصور أكبر بكثير في ريب، فهنا دخل الشك، قال تعالى:

(فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنْ الْآثِمِينَ)

الشهادة من أعظم الأشياء في هذا الدين الحنيف :

الحقيقة أن هذه من نعم الله الكبرى، أنه عندنا في القضاء شيء اسمه اليمين الحاسمة، لو وجدت ألف مسلم لا يتجرّأ واحد أو اثنان أن يضع يديه على المصحف، وأن يقسم بالله قسماً مغلظاً مؤكداً أنه سيقول الحق، ويقول بغير الحق، فالقسم يعد حاسم.

مرة التقيت مع أحد المحامين، قال لي: والله أمام عيني قضية مالية كبيرة جداً بمئات الملايين، ومن أجل أن تنتقل من جهة صاحبة الحق إلى جهة معتدية لا تملك هذه الثروة يحتاجون إلى شاهد زور، وجاؤوا بالشاهد، قال لي: والله أمام عيني، وقف الشاهد أمام القاضي، ووضع يده على كتاب الله، وقال: أقسم بالله العظيم أن أقول كل الحق، ولا شيء غير الحق، وأقسم، وأدلى بالشهادة المزورة، ورفع يده فبقيت مرتفعة، فالقاضي انتبه فقال له: أنزل يدك، فارق الحياة، ثم وقع على الأرض، قال لي: والله أمام عيني رأيت هذه القضية، فاليمين الحاسمة كبيرة جداً. رجل عليه محاكمة فقيل له: ائتِ بشهود، ما عنده شهود، لكن له شهود بالأجرة، فخرج إلى ظاهر البناء فوجد أناساً كثيرين يعرضون عليه الشهادة، فاختار أحدهم، وساومه على خمسة آلاف، هي قضية تموينية، فلما دخل الشاهد أمام القاضي، ورأى مصحفاً، وعليه أن يقسم بالله، قال له: لحظة، خرج، وقال له: أريد عشرة آلاف، ظهر أن هناك يميناً، قضية لها ثمن. لذلك الشهادة من أعظم الأشياء في هذا الدين الحنيف، قال تعالى:

(إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

لو فرضنا إنساناً مات مسمماً، ويملك ألف مليون، والذي ساهم في تسميمه أحد أقربائه الذين يرثون حصة كبيرة، وجيء بالقاضي الشرعي، وأعطي خمسة ملايين، أو خمسة وعشرين مليوناً، صار الآن من يملك أربعة آلاف مليون خمسة آلاف مليون لو أعطى هذا القاضي الشرعي خمسة وعشرين مليوناً ليقول: الموت طبيعي، فقط، إذا كتب بالتقرير: الوفاة طبيعية، قبض خمسة وعشرين مليوناً، هذا القاضي مؤمن، قال له: والله لو تعطيني الألف مليون لا أكتب خلاف الحق، هذا ما اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، أما لو قبض خمسين مليوناً، لو قبض نصف الألف فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً.

الخوف من الله أحد أبرز معالم الشخصية الإسلامية :

في الإسلام شيء لا أحد ينتبه إليه، هذا الخوف من الله، الخوف من الله أحد أبرز معالم الشخصية الإسلامية، لا يبيع دينه ولا بالمليارات.

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه))

[سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري]

هذا هو الموقف، أنا أقول دائماً: المؤمن لا تثنيه عن مهمته في الحياة لا سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة، ثابت.

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

يروي بعض علماء التفسير سبب نزول هذه الآيات أن رجلاً مسلماً هو مولى العاص بن وائل السهمي كان على سفر لغير المسلمين، وحضرت له مقدمات الموت، فكتب ورقة فيما بينه وبين نفسه، ووضعها مع كل ما معه من متاع، ونادى على اثنين من غير المسلمين، وهما تميم الداري، وعدي بن بداء، وأوصاهما أن يسلما متاعه إلى أهله، أي بضاعته، وقد يكون تاجراً، ومات الرجل، لكن الاثنين فتحا المتاع، ووجدا فيه إناء مفضضاً ومذهباً، وله قيمة كبيرة، فأخذاه وباعاه بألف درهم، واقتسما المبلغ، وسلما المتاع لأهل الميت، أهل الميت عثروا على الورقة التي كتبها ميتهم في ثنايا المتاع، وفيها كل التفاصيل، بما فيها الإناء المذهب والمفضض، وسأل أهل الميت الشخصين اللذين سلما المتاع عن الإناء، فأنكرا أية معرفة به، وأنكرا أيضاً أنهما رأيا صاحب الإناء يبيعه، وبعد فترة عثر أهل الميت على الإناء معروضاً للبيع، وعرفوا أن البيع الأول كان من الشخصين اللذين حضرا موت صاحب الإناء، فذهب أهل الميت إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعرضون عليه مسألة خيانة الأمانة في أمر الوصية، مما يروى بعد هذه الحادثة أن تميم الداري كان غير مسلم، لكنه أسلم، فلما أسلم ذهب إلى أهل الميت وأدى الخمسمئة درهم نصيبه من بيع الإناء.

تفريق الشهود أحياناً يكون سبب كشف الكذب :

حدثني أخ، والله له عندي مكانه بحسب ورعه، كان يعمل في لف المحركات ، قال لي: قبل أن أصطلح مع الله، وقبل أن أتوب قد يأتي محرك فيه شريط خارجي مقطوع، أصلحه في ثانية واحدة، نقطة لحام،

ويعود ليعمل هذا المحرك، المحرك أجرة لفه خمسة آلاف ليرة، والقصة قديمة، الآن أكثر، في بعض الحالات يأتي محرك، يفتحه فيجد الشريط الخارجي مقطوعاً، يضع له نقطة لحام، ويعود كما كان، قال لي: قبل أن أعرف الله يأتي صاحب المحرك بعد أسبوع أعرضه عليه يعمل بانتظام، وأقبض الخمسة آلاف ليرة زوراً وبهتاناً، قال لي: بعد أن اصطلحت مع الله أقول له: خمس وعشرون ليرة، قال لي: غير معقول، انظر إلى الفرق، الفرق بعد أن عرفت الله، وقبل أن تعرفه. فتميم الداري قبل أن يعرف الله أخذوا الإناء وباعوه، وأخذ نصف قيمته، بعد أن اصطلح مع الله، وأسلم ذهب من عنده مباشرة إلى أهل الميت وأعطاهم خمسمئة درهم نصيبه من بيع الإناء.

(فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ)

هذان الشاهدان المسلمان أو غير المسلمين كلاهما سواء:

(فَإِنْ عُثِرَ)

أي اكتشف صدفة، أحياناً هناك طريقة يتبعها القضاة في تفريق الشهود، ثلاثة أشخاص قدموا كتاباً زوراً وبهتاناً لإنسان مستقيم، أنه قبض رشوة على هذا العمل، فهذا إنسان مستقيم بريء طاهر، فلما جيء به إلى المحاكمة طلب من القاضي تفريق الشهود، فرق الشهود، جاء بالشاهد الأول، قال له: متى أخذت المبلغ؟ وكيف أخذته شيكاً أم نقداً؟ بأي عملة، وفي أي مكان، اضطرب الشاهد، تكلم بكلام ارتجالي، جاء الشاهد الثاني فتكلم بكلام آخر، جاء الشاهد الثالث فتكلم بكلام مغاير، فظهر أنهم كاذبون، أحياناً تفريق الشهود يكون سبب كشف الكذب.

لابدّ في الدين من أن نعتمد في النهاية على خوف الإنسان من الله :

قال تعالى:

(فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً)

يأتي شاهدان من طرف أهل الميت، ويقولان: نحن نعلم علم اليقين أنه كان في تجارة، كان معه أموال كبيرة جداً، واشترى بضاعة غالية، واتصل بنا هاتفياً قبل أن يغادر، وقال: شحنت لكم كذا وكذا وكذا، فهناك أدلة قطعية من المتوفى قبل أن يموت عن طريق اتصال معين:

(فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ)

القضية كما ترون قضية ثقة وإيمان، أما في قضايا العلم فكل كلام يمكن أن يكون مزوّراً، أي لا بد في الدين من أن نعتمد في النهاية على خوف الإنسان من الله، لو ألغينا هذا الخوف لا تستقيم حياة على وجه الأرض، ممكن لإنسان أن يوصي، ويكتب وصية، ويشهد عليها مسلمان أو غير مسلمين، أما إذا اكتشف أن في القضية تزويراً أو اختلاساً أو باطلاً فعلى أهل الميت أن يعيّنا شاهدين معهم أدلة قوية على خلاف هذه الشهادة، ويقسمان أيضاً أنهما ما اعتديا على الشاهدين الأولين، إنهما:

(إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ)

حقوق العباد مبنية على المشاحة و حقوق الله مبنية على المسامحة :

أخواننا الكرام، حقوق العباد مبنية على المشاحة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة.

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

كل شيء له حل، لو أن إنساناً اعتدى على زوجته، وشهد شهادة كاذبة أنه رآها تزني، كيف نقابل هذه التهمة الظالمة، نقول: من حق الزوجة أن تشهد شهادة بالله أنه يكذب، في القضايا الحميمة من الصعب أن يكون معك دليل عليها، هذه قضايا ليس لها حل إلا الاعتماد على صدق الإنسان، وعلى خوفه من الله، وعلى مروءته، واليمين أيضاً حاسمة، لكن هذا اليمين الغموس سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار، وقد تعجبون أن اليمين الغموس ليس لها كفارة، لأنها تخرج الإنسان من الإسلام، واليمين الغموس يحتاج مَن حلف بها بعد حلفها إلى تجديد إسلامه، لأن حقوق العباد مبنية على المشاحة، وحقوق الله عز وجل مبنية على المسامحة، وكل إنسان يتوهم أنه إذا زار بيت الله الحرام حاجاً أو معتمراً يعود من ذنوبه كيوم ولدته أمه، مع أن في هذا حديث صحيح، إلا أن شراح الحديث يصرفون الحديث قطعاً إلى ما كان بينك وبين الله فقط، لكن ما بينك وبين العباد لا يسقط بحال إلا بالأداء أو المسامحة.

أيها الأخوة، الإنسان يظل بخير ما لم يسفك دماً، لكن مرة ثانية، ويظل بخير ما لم يأكل مالاً حراماً ليس له، ثمة أخطاء كثيرة الله عز وجل يعفو عنها، لكن حينما تأخذ ما ليس لك، تغتصب بيتاً، محلاً، شركة، تأخذ شيئاً ليس لك، وتحرم به الآخرين فهذه مشكلة كبيرة جداً، والله عز وجل بالمرصاد. وما قولكم إن صحابياً جليلاً خاض مع رسول الله كل الغزوات ومات وعليه دَين؟ عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

((تُوُفِّيَ رَجُلٌ فَغَسَّلْنَاهُ، وَحَنَّطْنَاهُ، وَكَفَّنَّاهُ، ثُمَّ أَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَيْهِ، فَقُلْنَا: تُصَلِّي عَلَيْهِ، فَخَطَا خُطًى، ثُمَّ قَالَ: أَعَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قُلْنَا: دِينَارَانِ، فَانْصَرَفَ، فَتَحَمَّلَهُمَا أَبُو قَتَادَةَ،

فَأَتَيْنَاهُ، فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ: الدِّينَارَانِ عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَحِقَّ الْغَرِيمُ، وَبَرِئَ مِنْهُمَا الْمَيِّتُ، قَالَ: نَعَمْ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمٍ: مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ، فَقَالَ: إِنَّمَا مَاتَ أَمْسِ، قَالَ: فَعَادَ إِلَيْهِ مِنْ الْغَدِ، فَقَالَ: لَقَدْ قَضَيْتُهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدُهُ))

[أحمد عَنْ جَابِرٍ]

مرة ثانية وأخيرة: كأن هذه الآيات تنبئ أن حقوق العباد مبنية على المشاححة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة.

عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَذَاكَرْتُهَا حَتَّى ذَكَرْنَا الْقَاضِيَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْقَاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَةٌ يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ))

[أحمد عن عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (47 - 49) : تفسير الآيات 109 - 110 ، خصوصية السيد المسيح.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-10-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى سيجمع الخلائق ويجمع معهم الرسل ويسألهم عن استجابة الناس لهم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية التاسعة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

هذه الآية أيها الأخوة يتضح منها أن الله سبحانه وتعالى سيجمع الخلائق، ويجمع معهم الرسل، وسيسألهم: كيف كانت استجابة الناس لهم؟ لم يقل: بماذا أجبتم؟ ولو كان السؤال هكذا لكان الله عز وجل قد أراد التفاصيل، ولكن سألهم: ماذا أُجِبتم؟ تماماً كما لو أن طالباً أدى امتحاناً مصيرياً، إذا دخل إلى البيت يُسأل سؤالا إجماليّاً: كيف كنت؟ يقول: جيد، لكن في لقاء أطول يُسأل عن تفاصيل الأجوبة. إذاً السؤال الآن:

(مَاذَا أُجِبْتُمْ)

هل استجاب الناس لكم أو لم يستجيبوا؟ والآية الثانية التي توضح هذه الآية:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)

[سورة النساء: 41]

أي استجابة من الناس للأنبياء هي استجابة في الظاهر لكن المضمون متعلق بالنوايا :

الرسل سوف يسألون:

(مَاذَا أُجِبْتُمْ)

ماذا قابل الناس دعوتكم؟ استجابوا لكم أو لم يستجيبوا؟ وأتباع الرسل يسألون أيضاً، هل استجبتم لدعوة أنبيائي أم لم تستجيبوا؟ فالرسول له سؤال، والذي أرسل إليه له سؤال، أما النبي عليه الصلاة والسلام فهو شاهد علينا يوم القيامة:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)

[سورة النساء: 41]

لكن جواب الأنبياء:

(قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا)

الحقيقة أن الجواب يحتاج إلى تأمل، كيف لا علم لهم به؟ ألم يلتقوا بالناس؟ ألم يروا أن بعض الناس قد آمن بهم، والبعض لم يؤمن؟ لمَ قالوا: لا علم لنا؟ هو يسألهم كيف كانت استجابة الناس لهم؟ هم عاصروه، وهم عاينوه، هم الذين عاشوا مع الناس، فكيف يقولون: لا علم لنا، من أدق ما قاله المفسرون حول هذه الإجابة التي لا تعني التفاصيل أن الأعمال الظاهرة لا قيمة لها عند الله إلا إذا رافقتها نيات عظيمة ونيات مخلصة، فنحن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، فأي استجابة من الناس لأنبياء الله عز وجل فهذه الاستجابة في الظاهر، لكن المضمون متعلق بالنوايا.

الإخلاص لا يتطلع عليه أحد إلا الله :

لو أن إنساناً يملك أراضي شاسعة وجاء من أخبره أنك إذا تبرعت بأرض لمسجد البلدية تضطر أن تنظم الأرض، وأن تجعلها محاضر، وعندئذٍ ترتفع قيمتها إلى ضعفين، فهذا صاحب الأرض بدافع من حبه للربح، يقدم قطعة أرض لتكون مسجداً، فكل من شاهد هذا التبرع يثني عليه، ما شاء الله، محسن كبير، قدم الأرض لتكون مسجداً، لكن الله وحده يعلم أنه ما قدم هذه الأرض لتكون مسجداً إلا من أجل تنظيم الأرض، ورفع ثمنها، فلذلك نحن جميعاً كبشر نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، فأنا حينما لا أزكي أحداً على الله أكون متأدباً مع الله، أنا حينما لا أزكي أحداً أكون متأدباً مع الله، لذلك كان السلف الصالح إذا أرادوا أن يزكوا إنساناً قال: نحسبه صالحاً، ولا نزكي على الله أحداً، إذاً: إجابة الأنبياء من هذا القبيل:

(قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا)

بعض الناس استجابوا لنا، لكن بمَ استجابوا؟ ما مستوى إخلاصهم؟ ذلك لأن الإخلاص لا يتطلع عليه أحد إلا الله، لا ملِك ولا غير ملِك، تقوم بعمل طيب، من هنا جاء قوله تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ أَخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عَنْ ثَوْبَانَ]

إذاً:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

الإخلاص في العبادة هو الذي يعطي العبادة قيمتها :

ذكرت مرةً أن رجلاً لزم الصف الأول في صلاة الفجر أربعين عاماً، وفي أحد الأيام غفل عن وقت صلاة الفجر فلم يحضر الصلاة، فقال: ماذا يقول الناس عني في هذا اليوم؟ فهم من هذا القلق أنه إنما يصلي من أجل الناس، فلذلك قضية الإخلاص قضية مهمة جداً، أنا لا أريد أن ألخص عمل كل إنسان، ولكن لينتبه الإنسان أن الإخلاص أساس الدين، الإنسان مكلف أن يعبد الله مخلصاً له الدين، الإخلاص في العبادة هو الذي يعطي العبادة قيمتها. إذاً من شدة أدبهم مع الله:

(قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا)

والنبي عليه الصلاة والسلام كان عند بعض أصحابه الذين توفاهم الله، كان من عادته عليه الصلاة والسلام أنه إذا توفي أحد أصحابه كان يأتي بيته قبل أن يغسل، من باب التكريم، عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ:

((أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ، وَغُسِّلَ، وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَداً بَعْدَهُ أَبَداً))

[البخاري و أحمد عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ]

نحن من باب علم اليقين، من هو الذي يدخل الجنة مؤكداً؟ عشرة أشخاص في الأمة الإسلامية، بشرهم النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة، وما سوى ذلك فعلى الرجاء جميعاً، ليس معنى هذا أن عملك الصالح يضيع عند الله، لا، ولكن من باب الأدب مع الله لا يجوز لأحد أن يتألى على الله، أنت حينما تحكم على مصير إنسان حكماً قطعياً هذا سماه العلماء التألي على الله، قال لها:

((وَاللَّهِ مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي))

[البخاري و أحمد عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ]

خصوصية السيد المسيح عند الله عز وجل :

إذاً كلمة الأنبياء والرسل (لا علم لنا) كلمة توحيدية، وفي أعلى درجة من الأدب:

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

أنت المطلع يا رب على الخبايا، أنت الذي تعرف السرائر، أنت الذي تعرف الظاهر، وتعرف الباطن، وتعرف السرائر، أنت الذي تعرف ما يخفيه الإنسان عن الآخرين، وتعرف ما يخفى عنه، وتعلم ما يخفي، وتعلم ما يخفى عنه، لذلك قال تعالى:

(لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

[سورة الطور: 18]

علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

الآن في سؤال موجه لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام خصوصية في هذا النبي الكريم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى بعث الأنبياء والمرسلين، من الناس من استجاب لهم، ومن الناس من لم يستجب لهم، من الناس من كذبهم، من الناس من آمن بهم، لكن السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام له خصوصية، ذلك أن الذين دعاهم إلى الله إما أنهم ألّهوه، أو أنهم وصفوه بأنه ابن الإله، إذاً لا بد من سؤال تفصيلي حول هذه الظاهرة التي ينفرد بها السيد المسيح.

لم يذكر في القرآن إلا السيدة مريم وحدها :

قال تعالى:

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

ولم يذكر في القرآن إلا السيدة مريم وحدها، لأن سيدنا عيسى ليس له أب فقال الله عنه: عيسى بن مريم.

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ)

والحقيقة هناك ملمح في الآية دقيق جداً، هو أن هذه النعم يعرفها السيد المسيح معرفة تامة، هو الذي تلقاها من الله عز وجل، أو جرت على يديه، ولكن هذا تقريع للذين لم يؤمنوا به، كل هذه النعم وهذه المعجزات التي أجراها الله عليه، مع ذلك لم تؤمنوا:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي)

أقدس ما في المرأة عفتها والسيدة مريم صدّيقة النساء :

حينما أراد الله جل جلاله أن تكون معجزة هذا النبي أنه ولد من دون أب، أمه السيدة العذراء ولدته من دون أن يمسها بشر، والمألوف عند الناس أن التي تلد ولا زوج لها تعد عند الناس زانية، وهذا الذي دعا السيدة مريم أن تقول:

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنسِيّاً)

[سورة مريم: 23]

شيء عظيم أن تتهم المرأة بعفتها، وأقدس ما في المرأة عفتها، وكانت هذه السيدة صدّيقة النساء:

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنسِيّاً)

[سورة مريم: 23]

وقال سبحانه:

(يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً)

[سورة مريم: 28]

في الآية إشارة إلى أن الوالدين الصالحين من لوازم صلاحهما أن يكون الابن صالحاً.

(مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً)

[سورة مريم: 28]

لذلك لهذا النبي الكريم خصوصية.

تكلم عيسى عليه السلام في المهد ليبرئ أمه معجزة كبيرة :

قال تعالى:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ)

روح القدس هو سيدنا جبريل عليه السلام.

(تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ)

الطفل في المهد لا يملك شيئاً، فهو ضعيف ضعفاً مطلقاً، لا يستطيع لا أن يتكلم، ولا أن يأكل وحده، ولا أن يقضي حوائجه وحده، فحضيض الضعف حينما يكون الطفل في المهد، المهد فراش مهيأ له،

لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، لو أن في الفراش بحصة لا يستطيع أن يزيلها، هذا الطفل الذي في المهد إذا به ينطق، ويتكلم، لأن أمه لزمت الصمت، هي متّهمة الآن، ودفاعها عن نفسها لا يقدم ولا يؤخر، والناس لن يصغوا لها، فكانت هذه المعجزة أن وليداً في المهد يقول:

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً*وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم: 30-31]

تكلم هذا الوليد وهو في المهد ليبرئ أمه، هذه معجزة كبيرة، هذا يذكرنا بماشطة فرعون، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتْ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَقَالَتْ لَهَا: ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي، قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللَّهُ، قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْبَرَتْهُ، فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبّاً غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ، فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا، قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنْ الْحَقِّ، قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا، فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِداً وَاحِداً، إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ؛ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ وَشَاهِدُ يُوسُفَ وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ))

[أحمد عَن ابْن عَبَّاس]

الأم آية من آيات الله الدالة على رحمته :

الأم آية من آيات الله الدالة على رحمته، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:

((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ، فَمَرَّ بِقَوْمٍ فَقَالَ: مَنْ الْقَوْمُ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ، وَامْرَأَةٌ تَحْصِبُ تَنُّورَهَا، وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا، فَإِذَا ارْتَفَعَ وَهَجُ التَّنُّورِ تَنَحَّتْ بِهِ، فَأَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَتْ: أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَرْحَمِ بِعِبَادِهِ مِنْ الْأُمِّ بِوَلَدِهَا؟ قَالَ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ الْأُمَّ لَا تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ، فَأَكَبَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْكِي، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا الْمَارِدَ الْمُتَمَرِّدَ الَّذِي يَتَمَرَّدُ عَلَى اللَّهِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ))

[ابن ماجه عَنْ ابْنِ عُمَرَ]

أخوتنا الكرام، يكاد يكون قلب الأم آية دالة على عظمة الله، وعلى رحمته، بل إن أرحم الخلق بالخلق من دون استثناء هو سيد الخلق وحبيب الحق، ومع ذلك قال الله له:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ)

[سورة آل عمران: 159]

نكرة، كل هذه الرحمة التي حملته على أن يبكي طوال الليل على الكفار، يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً))

[الترمذي عنْ عَائِشَةَ وَعن أبي هُرَيْرَةَ وابن عَبَاسٍ وَأَنَسٍ]

لأنه يحمل هم البشرية، وقد يحمل أحدنا همّ أسرته فقط، وهناك من لا يحمل همّ أسرته، يضيعهم، هناك من يحمل همّ أسرته الموسعة، أخواته وإخوته، هناك من يحمل همّ المسلمين في بلدة صغيرة، لكن النبي عليه الصلاة والسلام لعلو مقامه عند الله كان يحمل همّ البشرية، لذلك كان أرحم الخلق بالخلق، ومع كل ذلك قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران: 159]

أحد أنواع النصر أن تموت موحداً :

الرحمة جاءت نكرة، وهي دليل أنها أقلّ من الرحمة التي قال الله عنها:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

[سورة الكهف: 58]

الرحمة كلها عند الله، هذه الأم لما رأت ابنها الرضيع على وشك أن يلقى في النار تضعضعت وسكتت:

((قَالَ: يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ))

[أحمد عَن ابْن عَبَّاس]

هل انتصر عليها أم انتصرت عليه؟ لقد انتصرت عليه، أحد أنواع النصر أيها الأخوة أن تموت موحداً، أحد أنواع النصر ألا تستجيب لأي ضغط، لذلك أصحاب الأخدود هم الذين انتصروا على الذي أحرقهم، وقد تنسحب هذه الحقائق على ما يجري في العالم الإسلامي اليوم، هذا الذي يقتل موحداً، يقتل مستقيماً، يقتل صحيح العقيدة، هذا الإنسان هو المنتصر، مع أنه فقد الحياة، ولأن هناك حياةً أبدية فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لا قيمة لهذه الحياة الدنيا، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

النبي عليه الصلاة والسلام في الإسراء والمعراج شمّ رائحة ما شم مثلها قط:

((لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ، وَأَوْلَادِهَا))

[أحمد عَن ابْن عَبَّاس]

إذاً تهمة كبيرة جداً امرأة متهمة بعرضها، إنسان متهمة بعفتها، إنسان متهمة بأثمن ما تملكه المرأة، لو أنها دافعت عن نفسها لا أحد يصدقها، لو أن أناساً دافعوا عنها لا أحد يصدقهم، شيء لم يكن له سابقة، غلام يولد من امرأة غير متزوجة، بحسب الوقائع والمألوف والعادات هي زانية قطعاً، واليهود اتهموها بالزنا لذلك جاء نطق ابنها أعظم تبرئة لها.

السيد المسيح كلّم الناس في المهد بمعجزة وسيكلمهم كهلاً بعد أن يعود إلى الأرض :

قال تعالى:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ)

روح القدس هو جبريل.

(تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ)

كنت ضعيفاً، فكلّمتَهم بقدرتي.

(وَكَهْلاً)

كلّم الناس في المهد بمعجزة، وسيكلمهم كهلاً بعد أن يعود إلى الأرض.

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ)

[سورة آل عمران: 55]

بعد أن تعود:

(فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 55]

هذه معجزة، وهذا فضل كبير أن الله برأ السيدة مريم بأن أنطق ابنها الوليد الذي هو في المهد.

أساليب الدفاع عن المؤمنين لا تعد ولا تحصى :

إذاً:

(اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ)

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟ والحمد لله على وجود الله، وحينما تكون بريئاً أمام الله جل جلاله يتولى أن يدافع عنك.

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

أساليب الدفاع عن المؤمنين لا تعد ولا تحصى، تكون متهماً فيأتي إنسان حيادي بعيد يشهد ما رأى فيبرئك، هذا الذي دافع عنك هو في الحقيقة دفاع الله عنك، وأنت حينما يحبك الناس، أحبك الله فألقى محبتك في قلوب الخلق، الآن دافع الله عنك، أي ألهم أناساً منزهين عن الهوى أن ينطقوا بالحق فيدافعوا عنك. والقصص أيها الأخوة التي تجري مع المؤمنين إذا كانوا أطهاراً ومتقين كيف يتولى الله الدفاع عنهم، والله لا تعد ولا تحصى، يكون في تهمة لا بد من أن تحيط به، فيأتي إنسان، ويتكلم بالحق، ويلغي هذه التهمة.

الكتاب هو الوحي المتلو والحكمة هي الوحي غير المتلو أي الحديث الشريف الصحيح :

قال تعالى:

(وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ)

بعضهم فسرها بالكتابة.

(وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ)

كلامه كان حكمة، وكان كلام النبي عليه الصلاة والسلام هو الحكمة.

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

[سورة الجمعة: 2]

الكونية:

(وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

[سورة الجمعة: 2]

الكتاب الوحي المتلو، والحكمة الوحي غير المتلو، وهو الحديث الشريف الصحيح، إذاً الذي تكلم به سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام هو الحكمة، وقد عُلِّم الكتابة والتوراة، درسها وعلمها، والإنجيل أنزل عليه، هذه النعم التي تترى على هذا النبي العظيم.

شاع الطب كثيراً في عصر سيدنا عيسى فجاءت معجزته مما تفوق فيه القوم :

قال:

(وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ)

وكمعجزة.

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ)

لأنه الذي يخلق الطير طيراً هو الله عز وجل، أما البشر فمكَّنه الله عز وجل أن يصنع من الطين شيئاً يشبه الطير، لكن الله تولى أن ينفخ فيه الروح:

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي)

بقدرتي وعلمي.

(فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي)

جاءت بإذني مرتين:

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي)

وقد شاع الطب كثيراً في عصر سيدنا عيسى فجاءت معجزته مما تفوق فيه القوم، تفوقوا في الطب.

الله عز وجل أجرى على يد سيدنا عيسى معجزة إحياء الموتى :

قال تعالى:

(وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)

نقل الميت من الموت إلى الحياة، الطب ما تقدم بعد، لو ذهبت إلى أكبر بلاد العالم تقدماً، لو جبت أعلى مستشفيات العالم، إذا توقف القلب ومات الدماغ انتهى كل شيء، يقف الطب عاجزاً أمام حالة الموت، ولا يستطيع أن يحيي الميت إلا الله، لكن الله سبحانه وتعالى أجرى هذه المعجزة على يد سيدنا عيسى عليه وعلى سيدنا أفضل الصلاة والسلام.

(فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)

وحينما ائتمر عليه بنو إسرائيل كي يقتلوه ما استطاعوا أن يفعلوا ذلك، حفظه الله عز وجل، وقتلوا إنساناً شبه لهم، وكان خائناً.

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ)

[سورة النساء: 157]

إذاً:

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

يروى أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الغار قال له الصديق: يا رسول الله لقد رأونا، أي وقعت عينهم عليهما، قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قول الله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف: 198]

المعجزات التي جاء بها السيد المسيح كانت بإذن الله وقدرته لا بإذن المسيح وقدرته :

قال تعالى:

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

إذاً هناك أسئلة تفصيلية لهذا النبي الكريم لأن له خصوصية، وهي أن الذين حوله والذين أرسل إليهم وصفوه بأنه إله أو أنه ابن إله، فجاءت هذه التفاصيل، فأن يخلق من الطين ما يشبه الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً كان هذا بإذن الله وقدرته ولا بإذن المسيح وقدرته:

(بِإِذْنِي)

جاءت مرتين:

(وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي)

لا بقدرة المسيح ولا بإذنه، ولكن بقدرة الله وإذنه:

(وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)

أي: بقدرة الله وإذنه، لا بقدرة المسيح وإذنه، إذاً هو عبد يجري الله على يديه المعجزات.

لم تتحد المعجزة مع الكتاب عند السيد المسيح كتابه الإنجيل شيء ومعجزاته شيء آخر:

قال تعالى:

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ)

أحياناً الله عز وجل يحفظه، يعمي عنه الأبصار، أرادوا قتله ولم يستطيعوا:

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ)

[سورة النساء: 157]

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

أيها الأخوة الكرام، لا بد قبل نهاية الدرس من توضيح هذه الحقيقة، إذا أراد الإنسان الحقيقة فأقلّ شيء في الكون يدله على الله، البعرة تدل على البعير، والماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير،

وإن لم يتخذ قراراً لطلب الحقيقة، وكان في أكبر محطة فضاء في العالم يرى المجرات بعينه، لو كان على مجهر إلكتروني يرى الخلية بدقائقها لا يؤمن، العبرة أن يكون هناك قرار ذاتي في أعماق نفسه في البحث عن الحقيقة.

فهؤلاء رأوا إنساناً يصنع من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فإذا هو طير حقيقي، يبرئ الأكمه، ويبرئ الأبرص، ويحيي الموتى، ينطق وهو في المهد، هذه كلها معجزات، والمعجزات هي في الحقيقة شهادة الله للناس أنهم أنبياء الله عز وجل.

ولكن لم تتحد المعجزة مع الكتاب عند السيد المسيح، كتابه الإنجيل شيء ومعجزاته شيء آخر، والله عز وجل لم يتولَ حفظ التوراة والإنجيل، وأمر بحفظهما، والأمر بالحفظ شيء، والحفظ التكويني شيء آخر، أمر بحفظ التوراة والإنجيل فبناء على قوله تعالى:

(بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ)

[سورة المائدة: 44]

الأنبياء نفذوا هذا الأمر التكليفي، وحفظوا التوراة والإنجيل، ولكن الأتباع لم ينفذوا هذا الأمر، وغيروا التوراة والإنجيل، لكن المعجزة شيء، والكتاب شيء آخر، ولكن في القرآن الكريم اتحد القرآن مع المعجزة، والمعجزة في القرآن علمية مستمرة إلى يوم القيامة، ففي القرآن ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون، بسبق علمي لا يصدقه عاقل على وجه الأرض أن يستطيع البشر وقت نزول القرآن أن يفهموا هذه القضايا العلمية، لكن تقدم العلم هو الذي كشف عن جوانب هذه الآيات، فكانت هذه الآيات في خانة الإعجاز العلمي في القرآن، والإعجاز العلمي في القرآن أكبر دليل على أنه كلام الله.

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى نتابع الآيات التي تتحدث عن هذا النبي العظيم الكريم السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (48 - 49) : تفسير الآيات 111 - 118 ، قصة المائدة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-10-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الوحي في القرآن الكريم لها معانٍ عديدة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الحادية عشرة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

أولاً أيها الأخوة، الوحي إعلام خفي، كالوحي إلى أم موسى، أحياناً يأتيك خاطر، هذا الخاطر يعد نوعاً من الوحي، ولكن كلمة الوحي في القرآن الكريم لها معانٍ عديدة.

1 من معانيها الأمر :

فأولاً: من معانيها الأمر:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا* وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا* يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا* بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا* يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ*)

[سورة الزلزلة: 1-8]

(بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)

أي أمرها أن تخرج ما في بطنها، هذا الوحي للجماد أمر.

2 عندنا وحي غريزة :

في عندنا وحي غريزة:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

[سورة النحل: 68]

هذا الوحي غريزة.

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[سورة النحل: 68]

3 وحي إلهام :

هناك وحي إلهام، أي: إعلام بخفاء، من دون صوت، يعبر عنه الناس بخاطر.

بالمناسبة، الإنسان له ملك يلهمه، وله شيطانه يوسوس له، وكأن الملك مهمته أن يدعو الإنسان للعمل الطيب، وكأن الشيطان مهمته أن يدعوه إلى عمل خبيث، وكل إنسان مخير، فإما أن يستجيب لملك، وإما أن يستجيب لشيطان، فالوحي إعلام بخفاء:

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ)

هنا الوحي ليس وحي رسالة.

4 أرقى أنواع الوحي وحي الرسالة :

بالمناسبة، آخر أنواع الوحي، بل أرقى أنواع الوحي وحي الرسالة، أي أن رسولاً هو جبريل عليه السلام ينقل للرسول الذي من بني البشر وحي السماء، هذا وحي رسالة، وهناك وحي إلهام، ووحي غريزة، ووحي أمر، هنا وحي إلهام.

المؤمن مادام يطلب الخير ويطلب العمل الطيب يلهمه الله عز وجل :

أحياناً قد تخطر في بالك أكلة تحبها، تأتي إلى البيت، فإذا هي في البيت، قد يخطر في بالك إنسان بعد دقيقة تلتقي به، قال العلماء: هذا نوع من الوحي، إلهام، الإنسان يُلهم، والحقيقة أن الإنسان المؤمن أحياناً بالذات يُلهم الخير، الله عز وجل حينما علم منه صدقه، وإخلاصه، وحبه للخير يُلهم هذا المؤمن أن يقول كلمة هي شفاء للسائل، هذا الشيء يقع في مجالس العلم كثيراً، يأتي إنسان وعنده مشكلة، فالمتكلم دون أن يشعر يُلهم أن يعالج هذه المشكلة. أحياناً المؤمن مادام يطلب الخير، يطلب العمل الطيب يلهمه الله عز وجل، هذه لكل مؤمن، لكل مؤمن، يُلهم أن يقول كلمة فيها حل لمشكلة، يُلهم أن يروي قصة فيها حل لمشكلة، يُلهم أن يزور إنساناً فيها حل لمشكلة، هناك قصص كثيرة جداً الإنسان يجد نفسه مسوقاً بدافع إلهام يقوم بعمل، فإذا بهذا العمل يكون له دور كبير جداً في الخير، فأنت كن مع الله، فالله عز وجل يستخدمك، أي يوظفك عنده.

فهنا الوحي موضوع إعلام بخفاء، وكل إنسان يمكن أن يكون له وحي من هذا النوع، أما وحي الرسالة فخاص بالأنبياء والرسل، وحي الغريزة بالحيوانات، وحي الأمر للجمادات، فكل إنسان يمكن

أن يلهمه الله عز وجل، إنسان دخله مشروع، وورع، ومستقيم أحياناً يكون في صفقة سيئة جداً، وهو رآها جيدة فيوحي له الله عز وجل بانقباض فينقبض، أحياناً يوحي الله عز وجل بإلهام لإنسان ألاّ يذهب لهذا المكان، يكون فيه مشكلة كبيرة، أنت حينما تكون مع الله تُلهم الصواب والسداد، وهذا من إكرام الله لك.

وأنا أقول لكم أيها الأخوة: مستحيل إنسان يخطب ود الله عز وجل إلا والله عز وجل يريه نوعاً من الكرامات، هذه نوع من الكرامات، أن تُلهم أن تفعل شيئاً، هذا الشيء مهم جداً أحياناً. وأنا أؤكد لكم مرة ثانية: ما منكم واحد إلا وله مع الله تجربة في هذا الموضوع، والقصص لا تعد ولا تحصى، هذا شيء يحصل لكل المؤمنين، ولا يتميز بها مؤمن عن مؤمن، إلا أنك مادمت تطلب الحق والعمل الصالح والخير تشعر أن الله يلهمك الخير، يلهمك كلمة معينة، حركة معينة، امتناعاً معيناً، عملا معيناً، تعليقاً معيناً، يكون فيه خير كبير جداً.

الإنسان المخلص والنقي والصافي يستحق أن يوحي الله إليه وحي إلهام :

إذاً:

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي)

الحواريون مشتقة من الصفاء والنقاء والمحبة، الآن هناك تعبير معاصر شفافية، الإنسان الشفاف الذي عنده وضوح شديد، عنده نفس طاهرة، فهذه الشفافية جاء في القرآن التعبير عنها الحواريون، إنسان مخلص، نقي، صافٍ، هذا المخلص والنقي والصافي يستحق أن يوحي الله إليه وحي إلهام:

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي)

فلما جاء السيد المسيح آمنوا به فوراً:

(قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

بالمناسبة: ما من نبي في القرآن الكريم إلا وقد وصف بأنه مسلم، وكأن الأصل في الدين هو الإسلام، ولعل معنى قوله تعالى:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

[سورة آل عمران: 19]

حقيقة الدين أن تسلم وجهك لله، أن تستسلم إليه، وأن تتوجه إليه، أن تستسلم إليه بسلوكك، وأن تتوجه إليه بقلبك، بانصياع بالجوارح، وتوجه بالقلب إلى الله.

اليقينيات ثلاثة يقين استدلالي ويقين شهودي ويقين تماس :

إذاً:

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا)

لما جاء السيد المسيح:

(قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

منصاعون لمنهج الله، مقبلون على الله، ثم إن هؤلاء الحواريون يقولون:

(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أنتم آمنتم بالله، آمنتم بقدرته المطلقة، آمنتم بعلمه، آمنتم بحكمته، ماذا بعد الإيمان؟ أرادوا أن يكونوا كسيدنا إبراهيم.

(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)

[سورة البقرة: 260]

الحقيقة أن الإيمان اليقيني هو إيمان قوي جداً، لكن الإيمان الشهودي أقوى منه، الإيمان اليقيني الاستدلالي العقلي هو علم يقين قطعي، تماماً كما لو نظرت إلى دخان من وراء جدار، تقول أنت: لا دخان بلا نار، أنت موقن مئة بالمئة باليقين العقلي الاستدلالي أن وراء الجدار ناراً، هذا يقين، لكن لو التفت إلى وراء الجدار فرأيت عين النار، هذا أول حالة علم اليقين، فلما رأيت عين النار هذا حق اليقين، فلما اقتربت من النار، وأصابك وهجها هذا عين اليقين، اليقينيات ثلاثة، يقين استدلالي، ويقين شهودي، ويقين تماس.

الأمر الإلهي مطاع قولاً واحداً :

أيها الأخوة:

(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ)

أي هل يستطيع؟ هل يستجيب لنا إذا دعوناه أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ طبعاً الأرض فيها موائد، كل هذه الخيرات أنتم في الإفطار تأكلون على مائدة، طبعاً المائدة الخوان عليه طعام، من دون طعام اسمه خوان فقط، فالمائدة مرطبات، مشروبات، مقبلات، فتات، رز مع اللحم، هذه مائدة الله عز وجل، من خلق الرز، اللحم، الفواكه، الخضار، المقبلات؟ هذا كله من خلق الله عز وجل، ففي الأرض موائد

لا تعد ولا تحصى، وأحياناً الموائد لها منظر يلفت النظر، تنسيق بالأطباق، وجمال بالتزيين، هذه مائدة أيضاً، لكنهم يريدون مائدة من السماء لا من الأرض:

(هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ)

يا أيها المسيح لو سألنا الله أن ينزل علينا مائدة من السماء هل يستجيب لنا؟ هناك معنى آخر، هل تستطيع سؤال ربك؟ إما هل يستجيب، أو هل إذا أمر شيئاً أن يكون فيكون؟ أي هل الأشياء تجيب الله عز وجل؟ مع أن الحقيقة الصارخة أن كل ما في الكون إذا أمره الله عز وجل يطيعه صاغراً، كل ما في الكون.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

فالأمر الإلهي مطاع قولاً واحداً، العلماء عدوا معاني هل يستطيع؟ هل يجيب؟ هل يستطيع؟ من الطاعة، فلو أن الله أمر شيئاً أن يكون مائدة تكون، لقوله تعالى:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

أو هل تستطيع أن تسأل الله عز وجل:

(أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ)

الحواريون أرادوا أن ينتقلوا من يقين عقلي إلى يقين شهودي :

كما قلت قبل قليل في علم اليقين هم موقنون قولاً واحداً أن الله قادر، لكن لو أرادوا أن ينتقلوا من اليقين الاستدلالي إلى اليقين الشهودي، أنت في حياتك اليومية في حالات كثيرة جداً تستنبط أن الآلة معطلة، هذا يقين استدلالي، حينما تضع السلك الكهربائي في المكواة في المأخذ، وتبقى باردة، معنى ذلك أن المكواة معطلة، هذا استنباط عقلي، لكن لو فتحت المكواة فوجدت الوشيعة مقطوعة انتقلت من استدلال عقلي لاستدلال شهودي، فكأن الحواريين أرادوا أن ينتقلوا من يقين عقلي إلى يقين شهودي، لكن السيد المسيح رأى في ذلك تجاوزاً لمقام العبودية لله عز وجل، كل هذا الكون ينطق بوجوده ووحدانيته وكماله:

(قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أنت كمؤمن مهمتك أن تتقي الله فقط، أن تطيعه وعلى الله الباقي، مهمتك أن تطيع الله فقط.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

الحواريون أرادوا من هذه المائدة أن تكون شهادة الله للمسيح أنه رسول الله :

قال تعالى:

(قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

ما دمتم آمنتم بالله عز وجل موجوداً، وواحداً، وكاملاً، وخالقاً، ورباً، ومسيراً، وإلهاً، وأسمائه حسنى، وصفاته فضلى، يكفيكم هذا الإيمان، تابعوا:

(قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنْ الشَّاهِدِينَ)

أن نأكل طعاماً أعد في السماء ولم يعدّ في الأرض، وأن تنزل علينا مائدة من السماء:

(نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا)

أي ننتقل من اليقين العقلي إلى اليقين الشهودي:

(وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا)

كأن هذه المائدة شهادة الله لك أنك رسوله، ودائماً وأبداً حينما يرسل الله رسولاً إلى خلقه هناك من يكذبه، لا بد من معجزة تشهد للناس أن هذا الإنسان الذي يقول أنه رسول الله هو رسوله حقاً من خلال المعجزة:

(قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنْ الشَّاهِدِينَ)

الحواريون أرادوا أن يكونوا رسلاً يشهدون للناس بقدرة الله عز وجل :

نريد أن ننتقل من الإيمان الشهودي بقدرة الله عز وجل إلى الإيمان الشهودي برسالته، وقبل كل هذا نريد أن نأكل:

(قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا)

لقدرة الله:

(وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا)

إلى أنك رسوله:

(وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنْ الشَّاهِدِينَ)

لمن حولنا، نحن نكون أيضاً رسلاً نشهد للناس بقدرة الله عز وجل من خلال هذه المائدة.

الفرق بين خطاب سيدنا عيسى وخطاب الحواريين :

قال تعالى:

(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ)

طبعاً اللهم أصلها يا الله، لكثرة استخدام هذا النداء حذفت ياء النداء، وعوض عنها بالميم، اللهم أصلها يا الله، إذاً الحواريون توجهوا إلى الله: هل يستطيع ربك باسم الربوبية، لكن سيدنا عيسى توجه إلى الله باسم الألوهية، مقام الألوهية يقابله مقام العبودية، أي يا رب، أنت إله، ونحن عبيدك، والعبد عبد، والإله إله، وما على العبد إلا أن يطيع سيده، وكلما ارتقيت عند الله اقتربت من مقام العبودية، والنبي صلى الله عليه وسلم في أعلى مقاماته حينما بلغ سدرة المنتهى قال الله:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

[سورة النجم: 10]

إذاً أعلى مقام تصل إليه أن تكون عبداً له، فالفرق بين خطاب سيدنا عيسى وخطاب الحواريين، الحواريون خاطبوا الله باسم الربوبية، لكن سيدنا عيسى خاطبه باسم الألوهية:

(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ)

سيدنا عيسى بدأ بالهدف التعبدي أما الحواريون فبدؤوا بالهدف النفعي :

هم بدؤوا:

(نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا)

سيدنا عيسى قال:

(تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا)

أي تكون آية باهرة دالة على عظمتك يا رب، نعود بهذه الآية إليك، ونقبل عليك، فبدأ بالهدف التعبدي، هم بدؤوا بالهدف النفعي:

(نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا)

أما سيدنا عيسى فبدأ بالهدف التعبدي:

(تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا)

ونأكل أيضاً منها:

(وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ)

لكن أيها الأخوة، هناك سُنة من سنن الله عز وجل، وهي أن جهة من البشر إذا سألوا الله شيئاً فلم يستجيبوا لله بعد هذا الشيء يستحقون الهلاك، لما طلبوا من سيدنا صالح ناقة، ثم عقروها، فدمرهم الله تدميراً، وأي جهة من البشر تسأل الله شيئاً ليكون سبب الإيمان، فإن لم يؤمنوا استحقوا بهذا الشيء الذي طلبوه الهلاك.

من سنن الله أن البشر إذا سألوا الله شيئاً ولم يستجيبوا بعده يستحقون الهلاك :

قال تعالى:

(قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنْ الْعَالَمِينَ)

أحياناً الإنسان يقول: يا رب، لو نجحت في الامتحان سأجعل بعد هذا النجاح توبة نصوحاً لك، وكل إنسان يعاهد الله عز وجل يربط سيره إلى الله بشيء، ثم يقع هذا الشيء، ولا يسير إلى الله، يكون هذا دليل كذبه، ودليل استحقاق البعد عن الله عز وجل.

بالمناسبة قوم النبي عليه الصلاة والسلام:

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)

[سورة الإسراء: 90-93]

قال علماء التفسير: النبي عليه الصلاة والسلام رحمة بقومه لم يسأل الله هذه الطلبات، لو سأل الله هذه الطلبات ولم يؤمنوا لاستحقوا الهلاك والدمار، فلذلك رحمة بهم لم يسأل النبي عليه الصلاة والسلام ربه هذه الطلبات التي طلبها قومه حينما بعثه الله نبياً.

الله سبحانه وتعالى يعبر عما سيكون بفعل ماضٍ تحقيقاً للوقوع :

أيها الأخوة الكرام، الآن:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

هذا القول يوم القيامة، ولكن لأن الله سبحانه وتعالى يعبر عما سيكون بفعل ماضٍ تحقيقاً للوقوع.

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: 1]

معنى ذلك لم يأتِ بعد:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

المعاني الدقيقة لكلمة (سبحان الله) أن تنزهه وأن تمجده وأن تستجيب له :

أنت يا رب منزه أن يكون لك ولد:

(قَالَ سُبْحَانَكَ)

سبحان الله من ألفاظ التنزيه، والتنزيه أن تنزه الذات الإلهية عن كل نقص لا يليق بالله عز وجل، وأن تمجده، أن تنزهه، وأن تمجده، وأن تستجيب له، المعاني الدقيقة لكلمة سبحان الله أن تنزهه، وأن تمجده، وأن تستجيب له:

(قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)

أي مستحيل أن يكون رسول من عندك يا رب، ويدعي أنه إله، هذا مستحيل:

(مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ)

والله عز وجل بالمناسبة لا يستفهم، لا يليق بذات الله أن يستفهم، الاستفهام له معنيان؛ إما أن السائل يطلب معلومة لا يعرفها من المسؤول، هذا الاستفهام على أصله، أسألك كم الساعة؟ أنا لا أعلم كم الساعة، أسألك هل حضر فلان؟ السؤال بمعناه الطبيعي أن السائل يطلب معلومة لا يعلمها من المسؤول، لكن الاستفهام قد يخرج عن معناه الأصلي إلى معنى آخر يطبق في هذه الآية هو التقرير، الله يعلم أن هذا النبي الكريم لم يقل هذا الكلام، لم يقل لقومه:

(اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

ولكن ليكون جواب السيد المسيح لله عز وجل حجة على من ادعى ألوهيته. إذاً هذا اسمه التقرير، إما طلب العلم بمجهول أو التقرير، فهذا الاستفهام في هذه الآية اتجه إلى التقرير.

ما من إنسان كالأنبياء يعلم مقام العبودية :

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

نزهه ومجده أن يكون له ولد، لأن الله عز وجل ليس كمثله شيء، وكل ما خطر في بالك فالله خلاف ذلك، سبحانك، ثم إنه لا يحق لي، ولا يمكن لنبي اصطفاه الله عز وجل، وأرسله للناس، ثم يدعي هذا النبي وهو عبد لله أنه إله، وثمة إشارة لطيفة جداً، أن الأنبياء كانوا يأكلون الطعام، والذي يأكل الطعام ليس إلهاً، ويمشون في الأسواق، مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام، ومفتقرون إلى ثمن الطعام بالمشي في الأسواق.

لذلك الميكادو كان يعد في اليابان إلهاً، له طبيب أسلم، لماذا أسلم؟ لأنه رأى الإله يمرض، فيه علل لا تعد ولا تحصى في جسمه، ما دام قد رأى إنساناً ممتلئاً بالأمراض إذاً ليس إلهاً. إذاً يقول سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)

إله عظيم اصطفى إنساناً، اصطفاه على علم ليكون رسوله إلى الناس، وما من إنسان كالأنبياء يعلم مقام العبودية، أيعقل هذا الإنسان أن يدعي أنه إله؟!!

(مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)

ثم:

(إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ)

الإنسان له نفس وهي مجموع جسمه مع روحه لكن نفس الله ندع لله تأويله :

أنت تسأل سؤال التقرير:

(إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

طبعاً الإنسان له نفس، وهي مجموع جسمه مع روحه، ذاته، لكن نفس الله عز وجل ندع لله تأويله، الله عز وجل له وجه، ولكن ليس كوجوهنا، وله نفس، ولكن ليست كنفوسنا، وله يد، ولكن ليست كأيدينا، كل ما خطر في بالك فالله خلاف ذلك:

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

(علَّام) صيغة مبالغة، أي لا تخفى على الله خافية، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون:

(إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ* مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

خطيب جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال له: ما شاء الله وشئت، قال له: بئس الخطيب أنت، أجعلتني لله نداً، قل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فأشد الناس توحيداً هم الأنبياء، وأشدهم عبودية هم الأنبياء.

تقييم الأشخاص من شأن الله وحده:

قال تعالى:

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ)

أنا يا رب أشهد يوم القيامة عليهم أنني ما قلت لهم هذا الكلام، ومرة ثانية هذا السؤال خرج عن قصده الأصلي إلى قصد التقرير ليكون كلام السيد المسيح شاهداً ضد من ادّعى أنه إله:

(فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ْ)

أنت عزيز، لو عفوت عنهم ليس في الكون جهة تستطيع أن تعترض على ذلك:

(أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ْ)

(أنت) أيها الأخوة الكرام، إذا كان شأن السيد المسيح في هذا الموضوع هو عدم التألي على الله، فنبي كريم يقول: يا رب:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ْ)

فما بال أقوام الآن يقولون: فلان إلى جهنم، فلان كافر، فلان مؤمن، من أنت؟ هذا تألٍّ على الله، مقام النبوة أعلى مقام، قمة في الكمال، هذا شأن الله عز وجل فاحفظوا هذه الكلمة، تقييم الأشخاص من شأن الله وحده، لكن هناك تطرف، شارب خمر، غارق في المعاصي، لا يصلي، لعله يكون وليّاً، هذا من أولياء الله، هذا كلام فيه لعب بالدين، هذا عاصٍ، هذا شارب خمر، هذا لا يصلي، ولكن يمكن أن يتوب، وأن يسبق السابقين، هذا عدم التألي، فإذا مدحت إنسان قل: أظنه صالحاً، ولا أزكي على الله أحداً:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ْ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (49 - 49) : تفسير الآيات 119 - 120 ، الرضا والصدق في القول والفعل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-11-05

بسم الله الرحمن الرحيم

يستحيل أن يصطفي الله رسولاً ليدل عليه ثم يدّعي الألوهية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سورة المائدة وهو الدرس الأخير إن شاء الله تعالى، ومع الآية التاسعة عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

حينما سأل الله سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)

أي لا يمكن أن تصطفي يا رب رسولاً ليدل عليك ثم يدعي الألوهية:

(قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

لكن الذي قلته لهم:

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

ثم إنك أنت العزيز القدير، العزيز الحكيم، مالك الملك لا أحد يسألك عما تفعل:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الآخرة ليستدار تكليف لذلك الصدق فيها لا ينفع :

أيها الأخوة، قال الله عز وجل:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)

سيدنا المسيح كان صادقاً، وهو حجة على من أدعى أنه إله:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)

الذي قال لهم:

(اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)

[سورة المائدة: 72]

صدقُه نجاه يوم القيامة، لكن ما كل صدق ينفع صاحبه، لما سئل إبليس يوم القيامة:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

[سورة إبراهيم: 22]

هذا صدق، هذا كلام صحيح، لكن الآخرة ليست دار تكليف، لذلك الصدق فيها لا ينفع.

الصدق الذي ينفع صاحبه يوم القيامة هو ما كان في الدنيا في دار التكليف :

فرعون كان صادقاً حين جاءه الموت، قال:

(قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: 90]

لا ينفع الصدق إلا في الدنيا، هذا الصدق في الدنيا ينفع صاحبه يوم القيامة، أما أن تعترف يوم القيامة بأنه لا إله إلا الله، وأن الجنة حق، والنار حق، هذا الإيمان أصبح محسوساً، ولا أجر لك في الإيمان به.

(فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

إذاً ما كل صدق ينفع صاحبه، الصدق الذي ينفع صاحبه ما كان في الدنيا في دار التكليف، يوم تكون صادقاً، يوم تصدق مع الناس، يوم تصدق مع الله، يوم تعبر عن الحقيقة الحقيقية في الدنيا، يوم تنصح الناس لله ورسوله ولكتابه ولدينه، هذا الصدق في الدنيا ينفعك يوم القيامة، أما حينما قال فرعون:

(قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: 90]

قال له الله:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

[سورة يونس: 91]

خيارنا مع الإيمان خيار وقت وليس خيار قبول أو رفض :

هذا الكلام أيها الأخوة ينقلنا إلى حقيقة دقيقة جداً، وهي أن الإنسان مخير، وخياره في ملايين الموضوعات خيار قبول أو رفض، تعرض عليك تجارة فترفضها، أرباحها قليلة، ومتاعبها كثيرة،

تعرض عليك فتاة لا ترضى أخلاقها، فترفض الزواج منها، تعرض عليك سفرة ترى المشقة عالية، والدخل قليل، فأنت مخير خيار قبول أو رفض، إلا أنه إذا عرض عليك الإيمان فأنت مخير خيار وقت، إما أن تؤمن الآن فتنتفع من إيمانك، أو أنك سوف تؤمن لكن لا تنتفع من إيمانك، لذلك أكفر كفار الأرض فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

يوم جاءه الموت قال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: 90]

الحقائقالتي جاء بها الأنبياء لا بد من أن يؤمن بها الناس قاطبةً لكن بعد فوات الأوان:

إذاً الحقائقُ التي جاء بها الأنبياء لا بد من أن يؤمن بها أهل الأرض قاطبةً إيماناً شهودياً، لكن بعد فوات الأوان، وهذا الإيمان لا ينتفعون به إطلاقاً.

بالضبط كما ولو دخلت إلى امتحان، ولم تستطع أن تكتب كلمة واحدة، لأنك لم تدرس، عدت إلى البيت، فتحت الكتاب، وقرأت الإجابة، وأصبحت تفهمها، هل لك أن تعود إلى الامتحان، وتقول: اسمحوا لي أن أقدم ورقة ثانية، نقول له: لا، الآن علمت الإجابة الصحيحة، لكن علمتها بعد فوات الأوان، انتهى الآن. فلذلك إبليس كان صادقاً حينما قال:

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

[سورة إبراهيم: 22]

كان صادقاً، ولكن هذا الصدق لأنه جاء في دار الجزاء فلا قيمة له، ينبغي أن يكون في دار التكليف، حينما كلفت أن تكون صادقاً فصدقت تنتفع بصدقك، وحينما كلفت أن تكون صادقاً فكذبت، هذا الكذب تدفع جريرته وتبعته يوم القيامة، ولو كشفت له الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان.

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)

الصدق في الأقوال والأفعال أكبر صفة من صفات المؤمنين :

أبرز صفة في المؤمن أنه صادق، صادق مع نفسه، وصادق مع من حوله، وصادق مع ربه، صادق في أفعاله تأتي مطابقة لأقواله، وصادق في أقواله تأتي مطابقة لحاله، هناك صدق الأقوال، وصدق الأفعال، قد يقول إنسان لأمه: أنا حينما أتزوج سأكون باراً بك، يأتي فعله بعد الزواج بعكس ما قال، نقول: يكذب بفعله، وقد تقول مقولة ليست صحيحة، هذا كذب الأقوال، على كلٍّ الصدق في الأقوال، وفي الأفعال أكبر صفة من صفات المؤمنين:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

الآن الأقوياء حينما يطرحون فكراً معيناً عدد لا يعد ولا يحصى من المنافقين والمنتفعين يلهجون بهذه الأقوال ويرددونها، ويعبرون عن إيمانهم بها، وهم كاذبون، لم يكونوا صادقين، إذا تكلم الإنسان بخلاف الحق، وتكلم بخلاف ما يقتنع ضيع الناس.

إنسان له مكانة، الإنسان لو تكلم بكلام ليس مقتنعاً به إرضاءً لقوي هذا الذي يتعلم منه يصدقه، معنى ذلك أنه ضيع معالم الحق، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي وأبو يعلى والبيهقي من حديث أنس]

جاءك ضيف، وفي أثناء الحديث معك بيّن لك أنه من حين لآخر يشرب الخمر، ولا يصلي، وبعدما ذهب قلت لأهلك: هذا شخص محترم، لبق، ذكي، متفوق، يحمل شهادة عليا، وابنك سمع منه أنه لا يصلي، ويشرب الخمر، أنت حينما مدحته ضيعت ابنك، أوقعته في اضطراب، إذاً لا شيء على الإنسان لو شرب الخمر، ولو ترك الصلاة:

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي وأبو يعلى والبيهقي من حديث أنس]

قد لا تستطيع أن تذمه، وأنت معذور، لكن لا ينبغي أن تمدحه، يقبل الله منك إذا كنت ضعيفاً ألاّ تذمه لأنك لا تستطيع أن تواجه بطشه، لكن لمَ تمدحه، ولست مكلفاً بذلك؟ كلمة الصدق ضرورية جداً، لأن معظم المترفين والأقوياء يطرحون كلاماً ليس صحيحاً، وكل من يردد هذا الكلام، ويوهم من حوله أنه مقتنع به فهو كاذب، وهذا الكذب إذا استشرى في الأمة أصبح مجتمع الكذب، مجتمع النفاق، فلذلك لا يمكن لمؤمن أن يكذب.

في عصور التخلف الإسلامي لا بد من ثبات الأخلاق :

مرةً وجهاء قوم يمدحون من استخلفه بعض الخلفاء ليكون خليفة بعده، فكل من في المجلس أثنى ومدح هذا الذي استخلفه الخليفة، كان أحد التابعين جالساً، وبقي صامتاً، صمته أربك المجلس، قال: يا فلان تكلم، قال: والله أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فكان تلميحاً أبلغ من تصريح. لا تكذب، لا أحد يستطيع أن يحملك على أن تكذب، لا تكذب، ابقَ ساكتاً:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)

أقول هذا الكلام لأنه في عصور التخلف الإسلامي يحل الكذب محل الصدق، يُكذَّب الصادق، ويُصدَّق الكاذب، يؤتمن الخائن، ويخوَّن الأمين، في مثل هذا الوقت ينبغي أن تكون صادقاً، وألا تقول: هناك ضغوط علي، لا بد من ثبات الأخلاق:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

رضي الله عنهم واضحة، أنت حينما تؤمن بالله الإيمان الصحيح، وحينما تستقيم على أمره، وحينما تنصح عباده، وحينما تقدم لهم كل خير ابتغاء مرضاته، وحينما تكون أداة خير، أداة أمن، حينما لا يتقيك الناس مخافة شرك، حينما تكون كذلك تستحق رضاء الله عز وجل، ولكن كيف ترضى عن الله؟ كان أحدهم يطوف حول الكعبة ويقول: يا رب، هل أنت راضٍ عني؟ كان وراءه الإمام الشافعي، قال: يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: سبحان الله! من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا محمد بن إدريس، قال: كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ فقال الإمام الشافعي: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عنه.

إذا كنت راضياً عن الله رضي الله عنك :

حينما ترضى أن يكون دخلك محدوداً وتصبر، ولا تضجر، ولا تحقد، ولا تهمل عملك، تجد معلماً لا يدرِّس، يقول لك: المعاش قليل، إما أن تدرس بإخلاص أو أن تستقيل، أما أن تغش المسلمين بحجة أن الدخل قليل فهذا عند المؤمنين مرفوض أبداً، فترضى عن الله إذا كان دخلك بسيطاً، قليلاً، أو محدوداً، وترضى عن الله إن لم تكن زوجتك كما تتمنى، وترضى عن الله إذا كان في الجسم بعض العلل، وترضى عن الله إن زوي عنك شيء في الدنيا، لذلك علمنا النبي صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الخَطْمِيِّ الأَنْصَارِيِّ]

هو رابح في الحالتين، إنسان كان يتمنى شيئاً فزوي عنه، الفراغ الناتج من انشغاله من هذا الشيء: يا رب، اجعله في طاعتك.

مرة قال لي أخ: ما الحكمة من أن تكون الزوجة سيئة؟ أردت أن أداعبه، قلت له: حتى نراك في المسجد. أحياناً يتزوج الإنسان وينسى الجميع، ينسى كل شيء، لازمها، وسبح بحمدها، وانتهى كإنسان، الزوجة الوسط نعمة، فإذاً يجب أن ترضى عن الله، أن ترضى عن الله في زوجتك، وفي أولادك، وفي دخلك، وفي صحتك، وفي مكانتك، وفي مرتبتك، أحياناً أنت من أب فقير، وأنت اسمك عصامي، تجد إنساناً ابن شخص مترف، تتألم، تقول: لو كان أبي كهذا الإنسان لكنت في بحبوحة، ومركبات، وسيارات، وبيوت.

((فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَني فَعَلْتُ كَذَا كانَ كَذَا وَكَذَا، وَ لَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَما شاء فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطان))

[رواه مسلم عن أبي هُريرة رضي الله عنه]

ينبغي أن ترضى عن أمك وأبيك، لأنك منهما، ولست مخيراً في ذلك، وأن ترضى عن البلدة التي ولدت فيها، وأن ترضى عن كونك ذكراً أو كونك أنثى، الله اختار لهذا المخلوق أن يكون أنثى، وأن ترضى عن الزمن الذي ولدت فيه، نحن ولدنا في زمن ضعف المسلمين، نحن ما رأينا قوة المسلمين، ما رأينا عزهم أبداً، كل الأخبار تأتي بخلاف طموحنا، هكذا أراد الله أن نكون في زمن ضعف المسلمين، فيجب أن ترضى عن الله في زمن ولادتك، وفي مكان ولادتك، وفي كونك ذكراً أو أنثى، وأن ترضى عن الله في دخلك، وفي صحتك، وفي زوجتك، وفي أولادك، فإذا كنت راضياً عن الله رضي الله عنك، معنى ذلك أنك تعرفه، وتعرف حكمته، وتعرف محبته لك، وتعرف أنه أعطاك العطاء المناسب لك:

((إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح له إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك))

[ابن عساكر عن أنس]

الرضا الحقيقي يوم القيامة حينما ترى مكانك في الجنة :

أمثلة كثيرة جداً؛ على الغنى ترك الصلاة، على الغنى عاشت معه زوجته ثلاثين سنة، وكان فقيراً، فلما اغتنى طلقها، وتزوج شابة، منتهى اللؤم، رضيت بك فقيراً، ووقفت معك طوال الحياة، فإذا قوي

مركزك، وزاد مالك لم تعد تعجبك، تريد شابة بسن بناتك، لا تريدها زوجة، تطلقها، وتقول لها: هذا الحاضر، وهذا مهرك، ألفا ليرة، خذيه وامشي منتهى اللؤم، لذلك:

((إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح له إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك.))

[ابن عساكر عن أنس]

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

لكن الرضا الحقيقي يوم القيامة، حينما ترى مكانك في الجنة، حينما ترى حياةً أبدية لا نغص فيها، ولا نصب، ولا تعب، ولا حقد، ولا فقر، ولا مرض، ولا زوجة سيئة، ولا ولد عاق، ولا ظروف صعبة، ولا قهر، حينما لا ترى شيئاً يزعجك.

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

[سورة الحجر: 46]

عند ذلك ترضى عن الله، والله عز وجل يقول:

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

[سورة الضحى: 4]

ينصحك الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

إلهنا وربنا ومولانا يقول:

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

الرضا في الدنيا هو مقام المؤمنين :

أيها الأخوة:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

يجب أن ترضى عن الله في كل شيء، في السراء راض، في الضراء راض، في الصحة راض، في المرض راض، في إقبال الدنيا راضٍ، في إدبار الدنيا راضٍ، هذا الرضا في الدنيا هو مقام المؤمنين، راضٍ عن الله:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

هناك إنسان ساخط، كل شيء يسخط عليه، يسخط عن دخله، وعن عمله، وعن وظيفته، حاقد، متبرم، ليس هذا من صفات المؤمن، المؤمن راضٍ عن الله.

لكن هناك معنى أخاف أن تفهموه، كسول جداً، غير متقن بعمله، يرجئ، دخله قليل، فقير معدم، أولاده يتضورون جوعاً، هو راضٍ عن الله، ما قصدت هذا المعنى أبداً، هذا المعنى مرفوض. أما حينما تبذل كل ما تستطيع، وتبلغ هذا المستوى، الآن ارضَ عن الله، أما إذا كان هناك مجال لتعمل، وتحسن وضعك، وتحسن عملك، وتحسن دخلك، وتربي أولادك، أن تطعمهم الطعام الجيد، أن تلبسهم الكساء الجيد، أن تدخل الفرحة على قلوبهم، أن تكرمهم، كسول، ومهمل، ومرجئ، ودخله قليل، وحوله أناس جائعون، وهو راضٍ عن الله، هذا جزاء التقصير وليس قضاءً وقدراً، لذلك هناك فقر الكسل، وهناك فقر القدر، وهناك الفقر المحمود فقر الإنفاق.

الله تعالى جاء بنا إلى الدنيا ورزقنا عملاً صالحاً هو ثمن الجنة :

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)

[سورة الزمر: 74]

كنا في الدنيا، وقد وعدنا بالجنة، نحن في الجنة، وصدقنا الله وعده.

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

[سورة الزمر: 74]

أضرب مثلاً للتقريب: طبيب دخله كبير جداً، مر أمام جامعته فتذكر سبع سنوات أمضاها في دراسة متعبة، وفي قلق، وفي سهر، وفي عكوف على الكتاب، وترك لقاءاته مع أصدقائه، وترك نزهاته، وترك كل المناسبات الاجتماعية، وتقشف حتى نال هذه الدكتوراه، الآن يأتيه خيرها، يقول لك: ثمانون مريضاً جالسون في العيادة، وكل واحد ألف ليرة، كل يوم بثمانين ألفاً، لولا هذه الجامعة التي درست وتعبت ما كنت في هذه الحالة الرضية، هذا للتقريب طبعاً.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

[سورة الزمر: 74]

جئنا إلى الدنيا، ورزقنا عملاً صالحاً هو ثمن الجنة. الآن:

(نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

[سورة الزمر: 74]

هناك أشخاص كثر مركزهم قوي، درسوا دراسة عالية جداً، يعتمد عليهم في مراكز حساسة، مكانتهم عالية، وكرامتهم عالية، ولا أحد يستطيع أن ينال منه أبداً، نظير تعبه في الجامعة، ودراسته المتأنية، وتفوقه في الدراسة، وما قدم لأمته من خدمات، الكل يحترمه، فهذه المكانة العلية سببها ذاك الجهد الكبير:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

[سورة الزمر: 74]

الملكية المطلقة لله عز وجل مالك كل شيء :

ثم يقول الله عز وجل:

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الملكية المطلقة لله، الله عز وجل مالك كل شيء، ومالك من يملك شيئاً، مالك ومالك المالكين، لكن في الدنيا سمح لعباده لأنهم مخيرون ومستخلفون في الأرض سمح لهم أن يملكوا شيئاً، فهذا يملك بيوتاً كثيرة جداً، وهذا يملك الغذاء، وهذا يملك الصناعة، وذاك التجارة، وهذا الزراعة، وهذا السلطة، وهذا وزير، وهذا محافظ، هؤلاء ملكوا ملكاً جزئياً في الدنيا، لكنهم في قبضة الله، وقلوبهم: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ]

لكن في الدنيا مالكون كثر، أصحاب شركات عملاقة، أصحاب أموال كبيرة جداً، أصحاب مراكز حساسة، أصحاب سلطة، في الدنيا مالكون، لكن الله عز وجل في الدنيا مالك كل شيء، ومالك من يملك شيئاً، مالك الملوك، وقد ورد في بعض الآثار القدسية:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخطة والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاكم بصلاحهم))

[ورد في الأثر]

لا تناصر في الآخرة بل يأتي الناس فرادى :

لكن يوم القيامة ليس إلا مالك واحد هو الله، الذين يملكون بعض الأشياء في الدنيا، أو بعض الصلاحيات، أو بعض المراكز يتناصرون، ترون لما أرادت دولة أن تعتدي على دول، دول كثيرة ناصرتها، يقول الله عز وجل يوم القيامة:

(مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

[سورة الصافات: 25]

لا تناصر.

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى)

[سورة الأنعام: 94]

الآن هناك شخص في الدنيا يحرك أضخم جيش، يعطي أمراً بالقصف، إذاً هو أمة، ودولة، وجيش، وسلطة، وسياسة، أما في الآخرة:

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى)

[سورة الأنعام: 94]

(مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

[سورة الصافات: 25]

قد تقع عين الأم على ابنها، تقول: يا ولدي، جعلت لك صدري سقاء، وبطني وعاء، وحجري غطاء، فهل من حسنة يعود علي خيرها اليوم؟ قال: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنما أشكو مما أنت منه تشكين:

(مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

[سورة الصافات: 25]

الله عز وجل مالك كل شيء خلقاً وتصرفاً ومصيراً :

الله عز وجل يملك كل شيء، لكن مالك كل شيء سمح للعباد أن يمتلكوا أشياء، مع أنه سمح لهم أن يتملكوا فهو مالكهم لأن قلوبهم بيده، ومن قدرته أن ينهيهم، وأن يبطش بهم.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

هذا الشخص الثاني في الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد؛ البرمكي الشخص الثاني، أمره نافذ بالمملكة كلها، فجأة رأى نفسه في السجن، فقال: لعل دعوة مظلوم أصابتنا، الله أيضاً بطاش، ورأيتم الذي كان جباراً قوياً كيف أخذ من قبر، الله بطاش، الله يعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين، لكن تصفية الحساب يوم القيامة.

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الملك أيها الأخوة الله عز وجل، مالك كل شيء خلقاً وتصرفاً ومصيراً، الإنسان أحياناً يملك بيتاً، يملك أن ينتفع به، يملك منفعته إذا كان بيتاً مستأجراً على النظام القديم، ولا يملك رقبته، وأحياناً إنسان يملك رقبة البيت، ولا يملك منفعته إذا كان مؤجراً، وأحياناً يملك رقبته ومنفعته، لكن يصدر قرار تنظيم أو استملاك فذهب البيت، لا يملك مصيراً، فالله عز وجل ولله المثل الأعلى يملك كل شيء خلقاً وتصرفاً ومصيراً، ويملك أيضاً الملوك، ومن لا يملك شيئاً، إنسان حجمه يقدر بتسعين ملياراً، هذا (بيل غيت)، إذا مات تنتهي هذه الملكية، الله عز وجل خير الوارثين.

كل شيء بيد الله وحده :

مات رجل، وترك ألف مليون ليرة، القصة من سنتين أو ثلاث، نصيبه تسعون مليوناً، فشمر وانطلق لإجراء المعاملات، بقي ستة أشهر خارج المحل التجاري ما دخل إليه إطلاقاً، ومات قبل أن يأخذ شيئاً، الله هو المالك، مالك كل شيء.

أحياناً يموت إنسان، ويظن شخص أنه الوريث الأول، قد لا يعيش ساعات بعد هذه التركة الكبيرة، إذاً:

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وتوسعنا: قلبك بيد الله، دسامات القلب بيد الله، النبض الكهربائي بيد الله، قطر الشريان التاجي بيد الله، أن يسري الدم بأوعية الدماغ بشكل طبيعي بيد الله، وأن تنشأ خثرة بالدماغ بمكان شلل، بمكان جنون، بمكان عمى، بمكان فقد ذاكرة، خثرة لا ترى بالعين، تتجمد بأحد أوعية الدماغ، ينتهي كل شيء.

أيها الأخوة، كل شيء بملكه، عملك، صحتك، زوجتك، أولادك، من فوق، من تحت:

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الفوز الحقيقي أن تصل إلى الجنةوما سوى هذا الهدف لا يعد فوزاً :

إلا أنه لما قال الله عز وجل:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

عندنا فوز سطحي، معنى ذلك كما أن هناك فوزاً عظيماً فهناك فوز سطحي، كيف؟ إنسان في الدنيا ملك ثروة كبيرة، أحياناً تروج تجارته، يصبح وكيلاً لشركات عديدة، صار من جامعي الأموال.

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف: 32]

هذا فوز لكنه سطحي، ما دام ينتهي بالموت فلا قيمة له عند الله، لذلك: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

إذاً عندنا فوز سطحي، وعندنا فوز حقيقي، الفوز الحقيقي أن تصل إلى الجنة، وما سوى هذا الهدف لا يعد فوزاً.

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعم: 44]

إذا كنا في العناية الإلهية المشددة فهذه نعمة كبيرة :

هؤلاء الذين يعتدون على شعوب مسلمة والله عندهم أموال لا تأكلها النيران، لوحة زيتية لا تفهم منها شيئاً على الإطلاق مكتوب عليها: بيكاسو، ثمنها ستون مليون دولار، هذا المبلغ يحلّون به مليار مشكلة عندنا، هو ثمن لوحة زيتية. قضية البذخ والإنفاق شيء لا يصدق في العالم الغربي:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعم: 44]

ممثلة انتحرت، بيعت قطعة ثيابها بالمزاد بمبلغ فلكي، أموال لا تأكلها النيران، ترف، كبر، فسوق، فجور:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

فإذا كنا نحن نعالج فهذه نعمة كبيرة، إذا كنا في العناية الإلهية المشددة، ونعالج لعل الله عز وجل يرحمنا عند الموت، فهذه نعمة كبيرة، لذلك ورد أنه:

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

الطغاة يموتون لكن عذابهم يبدأ من الموت :

نحن أيها الأخوة، والله أنا أصدُقكم إذا وصل أحدٌ إلى القبر نظيفاً ليس عليه شيء فهذا أسعد إنسان في الأرض، أما الطغاة يموتون، لكن عذابهم يبدأ من الموت.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

هؤلاء الأقوياء يهدمون في اليوم سبعين بيتاً، يجرفون أشجار الزيتون، يقتلون قتل تشفٍّ، يدمرون، يقتلون الأطفال، تصدر زعيمهم على الشاشة ليقول: نحن نكافح الإرهاب، أي إرهاب هذا؟ شهد الله أنه ليس في الأرض من هو أغبى منه، لو أدخل في حساباته أن الله سيحاسبه.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

البطولة أنا أقول دائماً: إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين، أو إضلالهم، أو إفسادهم، أو إذلالهم، أو إبادتهم، أنت ملك الآن، إذا كنت نظيفاً لا علاقة لك بما يحاك ضد المسلمين فأنت في بحبوحة كبيرة، وأنت من أسعد الناس.

بهذا تنتهي سورة المائدة.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة المائدة 005 - الدرس (01-49): تفسير الآية 1 1

سورة المائدة 005 - الدرس (02-49) : شرح الآيات 1-2 11

سورة المائدة 005 - الدرس (03-49) : تفسير الآية 2 21

سورة المائدة 005 - الدرس (04-49) : شرح الآية 3 33

سورة المائدة 005 - الدرس (05-49) : تفسير الآية 3..... 42

سورة المائدة 005 - الدرس (06-49) : تفسير الآيتان 4-5 51

سورة المائدة 005 - الدرس (07-49) : تفسير الآية 6..... 60

سورة المائدة 005 - الدرس (08-49) : تفسير الآية 6..... 72

سورة المائدة 005 - الدرس (09-49) : تفسير الآية 7 84

سورة المائدة 005 - الدرس (10- 49): تفسير الآيات 8-10..... 97

سورة المائدة 005 - الدرس (11- 49): تفسير الآية 11 107

سورة المائدة 005 - الدرس (12-49) : تفسير الآية 12 118

سورة المائدة 005 : الدرس (13-49) :تفسير الآية 15-17 130

سورة المائدة 005 – الدرس (14-49) : تفسير الآية 18 138

سورة المائدة 005 – الدرس (15-49) : تفسير الآيات: 19-21 149

سورة المائدة 005 – الدرس (16-49) : تفسير الآيات: 21-26 159

سورة المائدة 005 – الدرس (17-49) : تفسير الآيات: 27-31 171
سورة المائدة 005 – الدرس (18-49) : تفسير الآية: 32 183
سورة المائدة 005 - الدرس (19-49): تفسير الآيات 33-34 192
سورة المائدة 005 - الدرس (20- 49): تفسير الآيات 35-37 199
سورة المائدة 005 - الدرس (21- 49): تفسير الآيات 38-40 211
سورة المائدة 005 - الدرس (22- 49) : تفسير الآية 41 221
سورة المائدة 005 - الدرس (23- 49): تفسير الآيات 42-43 233
سورة المائدة 005 - الدرس (24- 49): تفسير الآية 44 243
سورة المائدة 005 - الدرس (25- 49): تفسير الآية 45-49..... 250
سورة المائدة 005 - الدرس (26 - 49) : تفسير الآيات 50 - 53..... 263
سورة المائدة 005 - الدرس (27 - 49) : تفسير الآية 54 276
سورة المائدة 005 - الدرس (28 - 49) : تفسير الآيات 55 - 58..... 289
سورة المائدة 005 - الدرس (29 - 49) : تفسير الآيات 59 - 62 300
سورة المائدة 005 - الدرس (30 - 49) : تفسير الآية 63 311
سورة المائدة 005 - الدرس (31 - 49) : تفسير الآية 64 326
سورة المائدة 005 - الدرس (32 - 49) : تفسير الآيات 65 - 67 343
سورة المائدة 005 - الدرس (33 - 49) : تفسير الآية 68 358
سورة المائدة 005 - الدرس (34 - 49) : تفسير الآيات 70 - 71 374

سورة المائدة 005 - الدرس (35 - 49) : تفسير الآيات 72 - 81 388
سورة المائدة 005 - الدرس (36 - 49) : تفسير الآيات 78 - 85 403
سورة المائدة 005 - الدرس (37 - 49) : تفسير الآيات 87 - 88 419
سورة المائدة 005 - الدرس (38 - 49) : تفسير الآية 89 429
سورة المائدة 005 - الدرس (39 - 49) : تفسير الآية 90 442
سورة المائدة 005 - الدرس (40 - 49) : تفسير الآيات 90 - 91 453
سورة المائدة 005 - الدرس (41 - 49) : تفسير الآيات 93 - 96 466
سورة المائدة 005 - الدرس (42 - 49) : تفسير الآية 97 478
سورة المائدة 005 - الدرس (43 - 49) : تفسير الآيات 98 - 100 489
سورة المائدة 005 - الدرس (44 - 49) : تفسير الآيات 101 - 104 500
سورة المائدة 005 - الدرس (45 - 49) : تفسير الآية 105 510
سورة المائدة 005 - الدرس (46 - 49) : تفسير الآيات 106 - 108 521
سورة المائدة 005 - الدرس (47 - 49) : تفسير الآيات 109 - 110 532
سورة المائدة 005 - الدرس (48 - 49) : تفسير الآيات 111 - 118..... 544
سورة المائدة 005 - الدرس (49 - 49) : تفسير الآيات 119 - 120 555
الفهرس..... 568

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

التفسير الكامل

تفسير سورة الأنعام

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(01-73): تفسير الآية 1 ، الحمد والنِّعَم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-12-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الأول من دروس سورة الأنعام .

ارتباط الحمد بالنعم:

مع الآية الأولى وهي قوله تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1))

أيها الأخوة ، في قوله تعالى :

(اَلْحَمْدُ للهِ)

الحمد دائماً مرتبط بالنعم ، فالنعم يحمد عليها ، لكن القضية أنه لا خلاف في النعم ، ولكن لمن يكون الحمد على هذه النعم ؟

الإنسان موجود ، نعمة الإيجاد ، من أوجده ؟ الإنسان يرى ، نعمة العينين ، نعمة الأذنين ، نعمة التفكير ، نعمة الأجهزة ، نعمة الهواء ، نعمة الماء ، نعمة الزوجة ، نعمة الأولاد، هذا الجمال في الأرض ، ألوان الطعام والشراب كلها نعم ، لا يشك لثانية واحدة أنها نِعم ، بل إن العالم الغربي هو العالم الأول الذي استمتع بهذه النعم إلى درجات قصوى ، بينما في هذه الآية يشار إلى المنعم ، هذه النعم لمن تعزى ؟ من أوجدك ؟!

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

(سورة الإنسان)

من منحك نعمة الوجود ؟ أنت الآن موجود ، لماذا أوجدك ؟

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (119))

(سورة هود الآية : 119)

خلقهم ليرحمهم ، فأنت موجود برحمة الله ، وقد خُلقت ليرحمك الله .

إعجاز الله في خلقه :

لو نظرت حولك لوجدت نعم لا تعد ولا تحصى ، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ (34))

(سورة إبراهيم الآية : 34)

نعمة واحدة ، هذا الشيء المفرد يُعد ؟ كأن الله أراد من خلاله قوله تعالى :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ)

أن يشير إلى أن النعمة الواحدة لو أمضيتم كل أوقاتكم في تعداد بركاتها وفضائلها لا تستطيعون ، فإذا كنتم عاجزين عن تعداد بركات نعمة واحدة فأنتم عن شكرها أعجز ،

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

وفرق كبيرٌ كبير بين أن تعد فضائل نعمة واحدة وبين أن تشكر عليها ، كما أنه فرق كبير بين أن تحصي عدد الهدايا التي تلقيتها في مناسبة سارة وبين أن ترد على هذه الهدايا ، فرق كبير جداً ، الإحصاء سهل ، نحن عاجزون عن إحصائها ، فلأن نكون عاجزين عن شكرها من باب أولى .

أيها الأخوة الكرام ، في خلق الإنسان أي خلل يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق ، فمثلاً : هذه العين، يوجد في الشبكية في الميليمتر المربع مئة مليون مستقبل ضوئي ، بينما في أرقى آلة تصوير رقمية احترافية في عشرة آلاف ، ما معنى وجود مئة مليون مستقبل ضوئي في الميليمتر المربع من الشبكية ؟ من أجل أن تميز بين ثلاثة ملايين لون ، لو أن اللون دُرج إلى ثمانمئة ألف درجة من أجل أن تميز بين درجتين ، ولماذا كانت القرنية شفافة شفافية تامة ؟ لأنها تتغذى عن طريق الحلول ، لا عن طريق الأوعية الشعرية ، ولو غُذيت عن طريق الأوعية الشعرية لرأيت من خلال شبكة الأوعية .

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

بعض من نِعم الله سبحانه وتعالى :

لو أمضيت سنوات وسنوات تتحدث عن نعمة العينين ، قال تعالى :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد)

لو أمضيت سنوات وسنوات تبحث في نعمة السمع ، تستمع إلى أدق الأصوات ، وكأنك بخلق بديع ، لا تستمع إلا إلى الذي تهتم له ، فلو جلست مع صديق حميم ودار بينكما حوار طيب ، ووضعت مسجلة على النافذة كل الأصوات التي سجلتها المسجلة لا تسمعها أنت أبداً، لأنك منشغل بموضوع آخر ، فما كل صوت يصل إلى أذنك ، وكأن هناك تصفية خاصة .

نعمة العينين ، ونعمة الأذنين ، ونعمة الدماغ ، الإنسان تقريباً يتذكر سبعين مليار ذكرى ، إنسان عاش عمراً متوسطاً في ذاكرته سبعون مليار صورة ، وكل إنسان له نبرة صوت خاصة ، وكل إنسان له

رائحة جلد خاصة ، وله قزحية عين خاصة ، وله بصمة إبهام خاصة ، وله خصائص كثيرة جداً جعلت هذا الإنسان فرداً ، وقد ورد في بعض الأحاديث أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم على صورته :

((إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبْ الْوَجْهَ ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ))

[متفق عليه عن أبي هُرَيْرَةَ]

أعطاه الفردية وهي من أسماء الله . هو فرد واحد أحد فرد صمد .

هذه نعمة الحواس الخمس نعمة اللمس ، نعمة السمع ، نعمة البصر ، نعمة الإدراك ، هناك آلية معقدة جداً في جسمك تعمل دون أن تشعر ، من يأمر القلب أن ينبض ؟ لو كُلفت أنت أن تأمر القلب بالنبض لما استطعت أن تنام إطلاقاً ، والرئتان تتحركان بعمل نوبي آلي ، والهضم يتم بأعقد أسلوب وأنت مرتاح ، آلية معقدة جداً ، من نبض قلب ، إلى وجيب رئتين ، إلى عمل جهاز الهضم ، ولو تتبعت الأجهزة في الجسم والأعصاب والدماغ والقلب والرئتين لوجدت خلقاً كاملاً ، وكل هذا كان من قطرة ماء ، شيء لا يُرى إلا بالمجهر ، والبويضة كحبة الملح ، البويضة كحبة الملح مع حوين لا يُرى إلا بالمجهر ، تم خلق الإنسان في تسعة أشهر ، لذلك هذه النعم ؛ نعم خلق الإنسان ، نعم الفواكه التي حوله، نعمة كأس الحليب ؛ هذه البقرة معمل صامت يحول هذا الكلأ إلى شراب سائل للإنسان ، من صمم تركيب الحليب وفق حاجة الإنسان ، هو الغذاء الكامل ، الغدة الثديية في البقرة على شكل قبة يجري في سطحها الأعلى الدم بشبكة عروق دقيقة جداً ، وهذه الغدة تأخذ من الدم الذي يجري فوقها حاجتها من مكونات الحليب ، وترشح قطرة حليب في سطحها الداخلي وكل أربعمئة حجم دم تساوي حجم حليب واحد ، فالحليب الذي نشربه ، ومشتقات الحليب التي نأكلها من أبرز نعم الله عز وجل .

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن :

الإنسان أيها الأخوة يمكن أن يأكل كما تأكل الأنعام ، أما أن يفكر في طعامه ، وفي شرابه ، وفي كأس الماء الصافي العذب الزلال ، وفي ابنه الذي أمامه ، وفي كل حاجاته التي وفرها الله له في الأرض ، هذه النعم ، والفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن يخترق النعم إلى المنعم ، بينما غير المؤمن يبقى في النعمة ، يعبدها من دون الله ، بينما المؤمن يعبد المنعم .

لذلك لا يشك اثنان على سطح الأرض أن الإنسان يتمتع بنعم لا تعد ولا تحصى ، أي شيء يتعطل في أجهزة الجسم أو في الأنسجة يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق ، لذلك حينما تستيقظ في الصباح معافًى في جسمك ، قوياً في بدنك ، متوازياً في حركتك ، هذه نعمة كبرى .

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (7))

(سورة إبراهيم الآية : 7)

كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من منامه قال :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي ، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي ، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

قضية الحمد يجب أن تعزى إلى مستحق الحمد .

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري))

[أخرجه الحكيم البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء]

فقضية الحمد هنا يجب أن تعزى إلى مستحق الحمد ، ولا يستحق الحمد إلا الخالق ، لا يستحق الحمد إلا الذي وهب النعم ، وهب الوجود ، وهب الإمداد ، وهب الهدى والرشاد ،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

وهذه في الفاتحة :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

(سورة الفاتحة)

الحمد مستويات ثلاثة :

الحمد أيها الأخوة مستويات ثلاثة ، لمجرد أن تعلم أن هذه نعمة من الله فهذا أحد مستويات الحمد ، ولمجرد أن يمتلئ القلب محبة لله هذا المستوى الأعلى ، ولمجرد أن تتحرك كي تشكر المنعم لعمل صالح ، لقوله تعالى :

(اعْمَلُوا آلَ داود شُكْراً (13))

(سورة سبأ الآية : 13)

هذا المستوى الأرقى ، أرقى مستوى للحمد أن تتحرك لخدمة الخلق ، بعضهم يقول : يا رب لا يحلو الليل إلا بمناجاتك ، ولا يحلو النهار إلا بخدمة عبادك ، ومن أراد التقرب إلى الله عز وجل فسبيله خدمة عباد الله ، لأن :

((الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[أخرجه أبو يعلى في مسنده والبزار عن أنس والطبراني وابن مسعود]

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)

مصطلح قرآني يعني الأرض والكون ، الكون في بعض التقديرات فيه مليون مليون مجرة ، في كل مجرة ـ في بعض التقديرات ـ مليون مليون كوكب ونجم ، ومجرتنا درب التبانة مجرة متواضعة جداً ، متوسطة على شكل مغزل ، فيها نقطة هذه النقطة هي المجموعة الشمسية كلها ، والأرض ذرة في هذه النقطة ، أي بين أرضنا وبين أقرب نجم ملتهب إلينا أربع سنوات ضوئية إن أردت أن تصل إلى هذا

النجم بمركبة أرضية تحتاج إلى خمسين مليون عام ، مع أن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)

مستحق الحمد وحده هو الله ، لأنه خلق السماوات والأرض .

الظلمات جاءت جمعاً بينما النور جاء مفرداً ذلك لأن الحق واحد لا يتعدد:

شيء آخر ، أنه :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ)

الشمس ضياء فإذا غابت عمّ الظلام ، فنعمة الضياء نعمة كبيرة ، فهذه العين أيها الأخوة لا قيمة لها إطلاقاً من دون ضياء يتوسط بينها وبين الأشياء ، كذلك العقل لا قيمة له إطلاقاً من دون وحي ينير له السبيل ، فكما أن العين بحاجة إلى ضياء ترى به الأشياء كذلك العقل بحاجة إلى وحي السماء كي ترى بالوحي الحقائق ، لذلك الإنسان اليوم اعتمد على عقله فقط فلما اعتمد على عقله فقط حلت المصائب في الأرض ، ماذا يجري في الأرض ؟ الأرض الآن امتلأت ظلماً وجوراً ، عشرة بالمئة من سكان الأرض يملكون تسعين بالمئة من ثرواتها ، وهم يعيشون حياة تفوق حد الخيال ، بينما المحرومون يعيشون حالة من الفقر والبؤس تفوق حد الخيال، الصراعات في الأرض والحروب وكل ما يجري وما ترونه وما تسمعونه إنما هو بهذا التفاوت الحاد الذي هو من صنع العقل وحده ، لو أن هناك وحي أو تطبيق لمنهج الله عز وجل لما كانت البشرية بهذا الشقاء ، إذاً الله عز وجل فضلاً عن أنه

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ)

الظلمات جاءت جمعاً ، بينما النور جاء مفرداً ، ذلك لأن الحق واحد لا يتعدد ، بينما الباطل ألوان وأنواع لا تعد ولا تحصى .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (153))

(سورة الأنعام)

بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد ، ولو رسمت ألف مستقيم بين هاتين النقطتين تأتي كل المستقيمات على بعضها بعضاً ، الحق لا يتعدد ، لذلك قالوا : الحرب بين حقين لا تكون لأن الحق لا يتعدد ، بينما الحرب بين حق وباطل لا تطول لأن الله مع الحق ، أما بين باطلين فلا تنتهي ، حرب لا تكون ، وحرب لا تطول ، وحرب لا تنتهي ، دائماً الحق واحد .

الشمس من آيات الله الدالة على عظمته :

الآن المؤمن إما أن يستوعب الحق ، وإما يتجه ليستوعب الباطل ، لو يعيش الإنسان مليار سنة لا يستطيع أن يستوعب الباطل لكثرته ، الآن أي فرقة ضالة لو درست تاريخها لوجدت نفسك أمام مجلدات ، استيعاب أي باطل يحتاج إلى سنوات وسنوات ، بينما لو استوعبت الحق وحده لكان الحق ميزاناً لك ، فما سواه فهو باطل ، لذلك البطولة أن تمضي وقتك الثمين المحدود في استيعاب الحق لا في استيعاب الباطل ، الحق يمكن أن تستوعبه في عمر معتدل ، بينما الباطل لا يمكن ، الباطل متعدد بينما الحق واحد ، لذلك لا يكفي أن يخلق الله السماوات والأرض لا بد من أن ينورهما بالنجوم والشموس ، فالشمس التي نتعامل معها من آيات الله الدالة على عظمته ، شمسنا تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، أي أن جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض ، وبين الأرض والشمس 156 مليون كيلومتر ، وأن ألسنة اللهب التي تنبعث من الشمس يزيد طولها على مليون كيلومتر ، وأن الأرض إذا ألقيت في جوف الشمس تبخرت في ثانية واحدة ، فإذا كانت الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، وإذا كان بين الشمس والأرض 156 مليون كيلومتر ، فما قولك أن في برج العقرب وهو نجم صغير أحمر اللون متألق ما يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما ؟! من هو مستحق الحمد وحده ؟ خالق السماوات والأرض ، فضلاً عن أنه خلق السماوات والأرض نورهما بالشموس ، وفضلاً عن أنه نور السماوات والأرض بالشموس نور العقول بالوحي ، بوحي السماء ، فهناك كون ، وهناك شموس تعطيه الضوء المادي ، وهناك وحي يعطي العقول النور العلمي .

الطرف الآخر هم الذين رفضوا الحق ولم يؤمنوا بالآخرة:

قال تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

هؤلاء الطرف الآخر ، الإنسان يؤمن أو يكفر ، يستقيم أو ينحرف ، يصدق أو يكذب، يخلص أو يخون، يرحم أو يقسو ، يعدل أو يظلم ، الطرف الآخر هم الذين رفضوا الحق ولم يؤمنوا بالآخرة ، آمنوا بالدنيا ، لم يؤمنوا بالله ، آمنوا بالطاغوت ، هؤلاء الذين كفروا مع كل هذه الآيات الدالة على عظمته ، مع كل هذه الشواهد التي تشهد لله وحدانيته وكماله :

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

أما كلمة

(ثُمَّ)

يعني بعد كل هذه الآية ، بعد كل هذه الأدلة ، بعد كل هذه النعم والنعم التي حولنا نراها رأي العين ، أغمض عينيك ، ما قيمة الألوان ؟ ما قيمة الأشجار ؟ ما قيمة الزهور ؟ كل شيء جميل تراه في عينيك.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد)

ما قيمة هذه الأطعمة لولا حاسة الذوق ؟ ما قيمة هذه الروائح لولا حاسة الشم ؟ ما قيمة هذه الأصوات الندية لولا حاسة السمع ؟ مع كل هذه النعم ، ومع كل هذه الآيات الباهرات تتجه لمخلوق تعبده من دون الله ؟!!

((أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي أهل شكري ، أهل زيادتي أهل معصيتي ، لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، فإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

المشيمة التي ترافق الجنين فيها آيات لا تصدق:

قال تعالى :

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ)

لم يقل الله عز وجل : ثم الذين كفروا بالله ،

(بِرَبِّهِم)

الذي رباهم ، من الذي ربى الجنين في بطن أمه ؟ من شق له سمعه وبصره ؟ من أمده بالحياة ؟ المشيمة التي ترافق الجنين فيها آيات لا تصدق ، المشيمة هي قرص من اللحم ، تجتمع فيه دورتا الأم والجنين ، ولكل دم زمرة ، لو أن دم الأم ودم الجنين اختلاطا لماتت الأم والجنين معاً بحالة اسمها انحلال الدم ، ففي المشيمة يجتمع دم الأم ودم الجنين ولا يختلطان لأن بينهما غشاء سماه الأطباء غشاء عاقلاً ، لأن هذا الغشاء العاقل يقوم بمهمات يعجز عن القيام بها أطباء الأرض مجتمعين ، ماذا يفعل هذا الغشاء ؟ يأخذ الأوكسجين من دم الأم ، ويطرحه في دم الجنين ، كي يحرق السكر في الجنين ، كي ينشأ من هذا الحرق طاقة ، فهو جهاز تنفس ، ويأخذ من دم الأم الأنسولين ويطرح في دم الجنين ليحرق السكر في درجة 37 فهو بنكرياس ، ثم يأخذ مناعة الأم التي حصلتها في عمرها ، ويطرح هذه

المناعة في دم الجنين كي لا يمرض ، فهو جهاز مناعة مكتسب ، ثم هم يمنع وصول المواد السامة إلى دم الجنين فهو حصن حصين لحياة الجنين ، ثم إنه يأخذ من دم الأم الحاجة الساعية ، لا أقول : اليومية، من المواد الغذائية ، كيف يقدر هذا الغشاء ما يحتاجه هذا الجنين من المواد الغذائية من سكر ، ودسم ، وشحوم ، وبروتينات ، وفيتامينات ، ومعادن ؟ وكيف ينفذ هذه المهمة ؟ كيف يعرفها أولاً ، كيف يقدر حاجة الجنين من هذه المواد الغذائية ؟ ثم كيف ينفذ هذا فيأخذ من دم الأم هذه المواد الغذائية ليطرحها في دم الجنين ؟ إذاً هو جهاز هضم ، ثم كيف يعيد من دم الجنين إلى دم الأم ثاني أكسيد الكربون الذي هو محصلة احتراق السكر ، ويعيده إلى دم الأم كي تطرحه عبر جهازها التنفسي زفيراً ؟ زفير الأم جزء منه من الجنين ، وكيف يعيد حمض البول من دم الجنين إلى دم الأم ؟ فهو بمثابة كليتين كي تطرحه الأم عن طريق جهازها البولي ، ما هذا الغشاء العاقل ؟

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ (88))

(سورة النمل الآية : 88)

أدلة من القرآن والسنّة عن تكبر الإنسان وعبادته لغير الله :

قال تعالى :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

البويضة كحبة الملح والحوين لا يرى إلا بالمجهر يتحدان في الرحم ، ثم يتكونان ، فإذا بهذا الكائن بعد تسعة أشهر طفل له عينان ، له أذنان ، له أنف ، له لسان ، له فم ، يبكي ، يتثاءب ، يهضم الطعام ، يتنفس ، ونحن جميعاً مررنا بهذا الطريق .

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18)مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19)ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20)ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21))

(سورة عبس)

لمَ التكبر ؟ خرج من عورة ودخل في عورة ثم خرج من عورة :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (يَعْدِلُونَ)

أي يعبدون جهة من دون الله ، يعبدونها وكأنها إله .

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ (43))

(سورة الفرقان الآية : 43)

الهوى يعبد من دون الله ، واللذائذ تعبد من دون الله ، والمال يعبد من دون الله لذلك :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

المقصود من كلمة (يعدلون):

الإنسان لما يعصي ربه من أجل شهوته فهو يعبد شهوته من دون الله :

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

أنا لا أقول : إن واحداً يقول : هذا إله ، لا ، يقول : هذا صديقي ، لكن له صديق قوي يطيعه في معصية الله فكأنه عبده من دون الله :

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

أو يعدلون عن الله إلى شركاء ، إما أن تتجه لما اعتقدته نداً لله عز وجل ، هذا المعنى الأول من

(يَعْدِلُونَ)

أو عدلت عن الله إلى مخلوق من مخلوقاته فجعلته إلهاً تعبده من دون الله :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

النعم الظاهرة والنعم الباطنة :

أيها الأخوة ، تحدثنا قبل قليل عن النعم الظاهرة ، النعم الباطنة هي المصائب ، وقد قال الله عز وجل :

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (20))

(سورة لقمان الآية : 20)

ما من إنسان إلا وخضع لمعالجة إلهية ، فمن خلال المعالجة الإلهية تاب إلى الله ، واصطلح معه ، وعفا الله عن ما مضى ، وصار مؤمناً يرقى في معارج الكمال ، ولولا أن الله ساق بعض الشدائد وضيق عليه حتى دفعه إلى التوبة دفعاً ما كان بهذه النعمة ، لذلك قال تعالى :

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (20))

(سورة لقمان الآية : 20)

(ظَاهِرَةً)

أي جلية ،

(وَبَاطِنَةً)

تلك المصائب ،

وقال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

وقال :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

حينما تصيبك شدة اعلم علم اليقين أنها رحمة لكنها رحمة باطنة :

يجب أن نعتقد اعتقاداً جازماً أن الشيء الذي يزعجنا هو نعمة باطنة ، فربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك ، وإذا كشف الله لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء ، لو دخلت إلى مسجد ، ورأيت فيه آلاف مؤلفة يجب أن تعلم أن كل الحاضرين خضعوا إلى عناية إلهية مشددة ، وساق لبعضهم من الشدائد ما حملهم على التوبة .

إذاً هذه نعمة كبرى ، أن الله سبحانه وتعالى الله سلمنا للدار الآخرة ، فهذا الذي يتأفف من الشدة ، الشدة عين الرحمة ، الدليل :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147))

(سورة الأنعام)

تقتضي رحمته الواسعة أن

(لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

الذين شردوا على الله شرود البعير ، إذاً أنت حينما تصيبك شدة اعلم علم اليقين أنها رحمة لكنها رحمة باطنة ، وليست رحمة ظاهرة ، مادامت الشدة قد ساقتك إلى باب الله ، وإلى باب التوبة ، وإلى أن تستقيم على أمر الله فهي نعمة باطنة .

الآن الأب الذي يتشدد مع أولاده فيكونون رجال مستقبل كباراً ، يحمدون له شدته حينما يكبرون ، والأب الذي يتساهل مع أولاده فيكبرون بلا علم ، ولا حرفة ، ولا مال ، ولا كسب يحقدون على أبيهم الذي تساهل معهم ، فالشدة رحمة .

علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن المؤمن ينبغي أن يحمد الله على كل حال ، إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر ، فليس هذا لغير المؤمن ، المؤمن يدرك أن يد الله تعمل وحدها ، وأن يد الله

فوق أيدي هؤلاء الذين ترونهم بأم أعينكم ، في الأرض طغيان ، وفساد، وقهر ، وظلم ، هذا كله شيء ظاهر في الحقيقة :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف)

المحصلة أن هناك نتائج إيجابية ترى بعد حين ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الشدة التي تصيب المسلمون الآن من نوع النعم الباطنة التي ترأب الصدع وتلم الشمل إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(02-73): تفسير الآيات 2-6 ، الأجل وحكمة تغييبه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-12-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثاني من دروس سورة الأنعام .

مخاطبة الله سبحانه وتعالى آدم من خلال ذريته:

مع الآية الثانية وهي قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2))

بعد أن قال الله عز وجل :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1))

يعدلون عنه إلى غيره أي يشركون به :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ)

أرجح التفسيرات أن الله سبحانه وتعالى يخاطب ذرية آدم من خلال آدم عليه السلام ، أو يخاطب آدم من خلال ذريته ، فآدم خُلق من تراب ، أو أن الإنسان حينما يُخلق لأن الأم والأب يأكلان ويشربان من طعام نبت من تراب ، فمحصلة هذا الإنسان هو الطعام الذي يأكله ، أرأيت إلى طفل صغير حينما يلد ووزنه 3 كغ ، يصبح 80 كغ ، 100 كغ ، من أين جاء هذا الوزن ؟ من الطعام الذي يأكله ؛ نبات ولحوم ، أصل اللحم كائن أكل نبات ، والنبات من تراب ، فبالمعنى التحليلي أن هذا الإنسان الذي ولد وينمو هو من التراب ، أو أن الله سبحانه وتعالى خاطب آدم من خلال ذريته ؛ أن الإنسان خلق من تراب .

الحكمة التي أرادها الله من تغييب الموت عنا :

قال تعالى :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ)

قضى لهذا المخلوق أجلاً ، كل واحد منا له عند الله أجل ، لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ، لذلك الإنسان مهما اعتنى بصحته الأجل لا يتغير ، لكن قد يمضي هذا العمر بصحة وعطاء ونشاط ، وقد يمضيه

بمرض واستلقاء على السرير ، أما الأجل فلا علاقة له بالمرض إطلاقاً ، فما منا واحد إلا وله عند الله أجل ، ومتى ؟ لا أحد يعلم .

رأى بعض العلماء ملك الموت مرةً فسأله : كم بقي لي من أجلي ؟ أشار له هكذا ، يعني خمساً ، فلما استيقظ ازداد حيرة يا ترى خمس سنوات ، أم خمسة أشهر ، أم خمسة أسابيع ، أم خمسة أيام ؟ فلما سأل عالماً من علماء التعبير عن الرؤيا قال : يقول لك : يا إمام ، إن هذا السؤال من خمسة أسئلة لا يعلمها إلا الله .

الإنسان قد تنسج أكفانه وهو لا يدري ، قد يبقى له عدة ساعات وهو في أتم صحته ، وقد يخرج ولا يعود ، وقد يعود ولا يخرج ، وقد يعود ويخرج في نعش ، وقد يسافر ولا يعود ، وقد يشتري بيتاً ولا يسكنه ، وقد يخطب امرأة ولا يتزوجها ، وقد ينال شهادة ولا ينتفع بها ، وقد يجني ثروة طائلة ولا ينفعه منها شيء .

إذاً الموت غيبه الله عنا ، وحكمة تغييبه عنا أن نسعى جاهدين لطاعة الله عز وجل ، وأن نكون جاهزين لاستقبال الموت ، حتى إن بعض الآيات الكريمة وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102))

(سورة آل عمران)

كأن الموت بيدنا ، لكن علماء التفسير قالوا : إياكم أن يأتيكم الموت إلا وأنتم مسلمون، ينبغي أن تستعدوا لاستقباله في أية لحظة ، والإنسان لا يدري هل يعيش ساعة بعد الساعة التي هو فيها ؟

قصص تؤكد أن الإنسان يجب أن يكون مستعداً للقاء الله تعالى :

ذكرت لكم قصة مرات عديدة لكنها مناسبة في هذا المكان ؛ أنني جلست مع إنسان وحدثني عن مشاريعه المستقبلية ، ولا أبالغ حدثني عن عشرين عاماً قادمة ، وسوف يسافر ، وسوف يقيم في هذا البلد خمس سنوات ، وسوف يزور في الصيف هذا البلد في أول صيف ، وهذا البلد في ثاني صيف ، وهذا البلد في ثالث صيف ، وهذا البلد في رابع صيف ويعود ، ويقدم استقالته ، ويأخذ التعويض ، وينشئ محلا تجارياً يبيع فيه التحف ، ويجعله منتدىً فكرياً ، ساح معي عشرين عاماً قادمة ، وأقسم بالله العظيم أنني رأيت نعيه في اليوم نفسه .

أذكر قصصاً عديدة تؤكد هذا المعنى ، في جلسة من جلسات الأخوة الطيبين قال لي أحدهم : إنني لن أموت مبكراً ، اعتمدَ على شيء علمي ، على صحته الطيبة ، وعلى رشاقته ، وعلى خفة وزنه ، وعلى طعامه الصحي ، وعلى عنايته بالرياضة وبالسباحة ، وعلى بعده عن الشدة النفسية ، هذا كلام علمي ، ذكر كل أسباب طول الحياة ، ذكر هذا يوم السبت ، وكان في السبت التالي تحت الأرض .

طبيب بأمريكا يرى أن الجري هو الطريق الوحيد لوقاية القلب من النوبات القلبية والجلطات ، يجري في اليوم الواحد عشرين كيلومتراً ، وعمل ندوات في التلفزيون ، ومقالات في الصحف ، وألقى محاضرات في المنتديات وهو يزعم أن الجري هو السبيل الوحيد لوقاية القلب ، وهذا كلام صحيح ، وكلام علمي ، وله ثمار طيبة ، لكنه عد الجري مانعاً للموت ، مات وهو يجري ، في الثانية والأربعين من عمره ، مات وهو يجري .

أحياناً الطبيب المختص باختصاص نادر يتوهم أنه بعيد عن أمراض اختصاصه ، ولحكمة بالغة يصاب المختص بالمرض نفسه ، لأنه أله الجري ، وجعله عاصماً من الموت ، على كلٍ لا أحد يعلم متى سوف يموت ؟ وقد أخفى الله أجل الإنسان ليكون مستعداً في كل لحظة للقاء الله عز وجل ، هذا ينتج عنه أن تكتب وصية الأموال التي باسمك ، والديون التي عليك ، والأمانة المودعة في بيتك ، والأموال التي أودعتها في صندوق وفي حوزتك مفتاحه ، لو أن الإنسان مات فجأة هذا المال يُظن أنه له ، فأي قضية عالقة مالية ، أمانة ، تسكن بيتاً ليس لك ، سُجل باسمك بيت هروباً من ضريبة معينة ، فأي علاقة مالية ينبغي أن تكون واضحة في الوصية لأن الإنسان لا يدري متى سيموت .

حدثني أخ أودع عند إنسان مبلغاً من المال ليغير له نوع العملة بعد ساعتين ، في هاتين الساعتين جاءته المنية ، وليس مع أهله إيصال إطلاقاً .

حدثني أخ أيضاً أنه أُودِع عنده مبلغاً فلكياً لاستثماره ، وليس في حوزة الأهل علم ولا إيصال ، ومات فجأة صاحب المبلغ ، ولولا الذي أودع عنده المال أمين لأكله على ورثته .

هذا الكلام يعني أن تكون مستعداً للقاء الله دائماً ، مستعداً بتوبة ، مستعداً بطاعة ، مستعداً بأداء عبادة ، مستعداً بتوضيح العلائق المالية التي يمكن أن تكون سبباً إما أن تطعم الناس مالاً حراماً ، أو أن تأكل أنت مالاً حراماً وأنت لا تدري .

الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه:

قال تعالى :

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً)

لكل واحد منا أجل لا يقدم ولا يؤخر ، في بعض برامج الكمبيوتر تعطيه تاريخ الميلاد ، يقول لك : بعد ثوانٍ أنت بلغت من العمر فرضاً ثلاثة وخمسين عاماً وثمانية أشهر وأربعة أيام وخمس ساعات وسبع دقائق وثمان ثواني ، والإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

*** * * ***

لذلك أدق تعريف للإنسان أنه بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه ، وما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

الإنسان إذا نام قد لا يستيقظ ، أحد علماء دمشق الكبار آوى إلى الفراش ، وقبل أن يؤوي إلى الفراش تسلم رسالة مني ، وبعث إلي بسلام حار ، وأثنى على خطبة العيد ، وفي الصباح قيل لابنه : أيقظ والدك على صلاة الفجر ، فكان ميتاً .

الإنسان يموت فجأة ، قد ينام ولا يستيقظ ، قد يستيقظ ولا ينام ، قد يذهب ولا يعود ، والإنسان يقرأ كل يوم نعي الآخرين ، هذا عميد أسرتهم ، وهذا الطبيب ، وهذا المهندس ، وهذا العالم ، وهذا الصيدلي ، وهكذا ، وفي أحد الأيام لا بد من أن يقرأ الناس نعينا ، شئنا أم أبينا ، ندخل كل يوم إلى المسجد لنصلي، وسوف ندخله مرةً ليصلى علينا ، مرةً قرأت كلمة أعجبتني : صلِّ قبل أن يصلى عليك .

أعلى أنواع الذكاء أن تتكيف مع الموت بالتوبة والاستقامة وإتقان العبادة :

قال تعالى :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ)

هذا الأجل أجل ، فأحد أسباب النجاح في الحياة الدنيا أن تبدأ من النهاية ، ما هي النهاية ؟ الموت هذا أخطر حدث في حياة الإنسان بل إن الله قدمه على الحياة قال تعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2))

(سورة الملك)

دائماً أقول : أدق تعريف جامع مانع للذكاء هو التكيف ، ولأن أخطر حدث سيكون هو الموت ، فأعلى أنواع الذكاء أن تتكيف مع الموت ، تتكيف مع الموت بالتوبة ، والاستقامة ، وإتقان العبادة ، والإنفاق من مالك ، وتربية أولادك ، ورعاية من حولك ، هكذا تستعد للموت ، ودائماً أحب أن أوضح هذا المثل:

إنسان فقير جداً جاءه عرض مغرٍ جداً ، أنك إن نلت الدكتوراه يمكن أن تكون في أعلى منصب ، وفي أجمل بيت ، وتقترن بأجمل امرأة مثلاً ، ولك بيت في المصيف ، وبيت على البحر ، ومركبة فارهة وما إلى ذلك ـ هذا الذي يحلم به الناس دائماً ـ وذهب إلى بلد غربي ليدرس ، فقير جداً ، اضطر أن يعمل في المطاعم ، اضطر أن يكون حارساً ، يعمل ساعات طويلة في البرد والحر ، وقد يعمل عملاً مهيناً أحياناً ، ويدرس في الليل ، ويذهب إلى الجامعة في النهار ، ويسهر إلى ساعة متأخرة لتحضير ما

عليه ، وأمضى سنوات طويلة حتى نال الدكتوراه ، وأخذ الشهادة وصدقها من الخارجية والقنصلية ، وما إلى ذلك ، ثم قطع بطاقة العودة وذهب إلى المطار ، ونودي على الركاب أن يتجهوا إلى الطائرة ، ومعه بطاقة الصعود ، فإذا وضع رجله في درج الطائرة هو بحسب وضعه وطموحاته والوعود التي وعد بها هو الآن أسعد إنسان في الأرض ، لأنه حينما وضع رجله على سلم الطائرة مضت مرحلة الشقاء ، مرحلة التعب ، مرحلة الهم ، مرحلة القلق ، مرحلة الجهد الكبير والدخل القليل ، وجاءت مرحلة الغنى والعز والراحة ، وما إلى ذلك . هذا حال المؤمن حينما يأتي ملك الموت .

أجل الإنسان قد يُعلم لكن أجل يوم القيامة لا يعلمه أحد إلا الله:

الموت عرس المؤمن ، الموت تحفة المؤمن ، وا كربتاه يا أبتِ ، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، التعب انتهى ، الجهد انتهى ، التكليف انتهى ، مجاهدة النفس والهوى انتهت ، معاناة الدعوة انتهت ، خصوم الإيمان انتهينا منهم ، أعداء الدين انتهينا منهم ، كل متاعب الدنيا تنتهي ، فلذلك :

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

(سورة يس)

قال تعالى :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ)

طبعاً آجال الناس تُعلم بعد تنفيذها ، الإنسان مات إذاً عُلم أجله ، تقول له : كم مضى من عمره ؟ يقول لك : 63 سنة ، فالإنسان حينما يموت يُعلم أجله بالدقائق والساعات .

شيء آخر ، حينما يأتيه مرض عضال يُتوقع أن يموت بعد حين وقد يقول الأطباء : بقي له أسابيع ، وقد تأتي توقعاتهم صحيحة ، فالأجل أجل الإنسان يُعلم ، لكن الأجل أجل يوم القيامة لا يعلمه أحد إلا الله .

(وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ)

عنده علمه وحده ، إذاً هناك أجلان ، إذاً هناك يوم مفقود هو الماضي ، ويوم مشهود هو الحاضر ، ويوم مورود هو الموت ، ويوم موعود يوم القيامة ، ويوم ممدود إلى أبد الآبدين ، نحن أمام خمسة أيام، لكن أخطر هذه الأيام اليوم المشهود ، لأنك في هذا اليوم المشهود يمكن أن تتوب إلى الله ، ويمكن أن تصطلح معه ، أن تنفق من مالك ، ويمكن أن تعمل لآخرتك .

إعجاز كتاب الله يشهد أنه كلامه سبحانه :

قال تعالى :

(ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)

الامتراء هو الشك ، يعني تجادلون من قبيل الشك ، يقول لك بعضهم : من الذي مات ورجع وأخبرنا بما رأى ؟ إله عظيم خلق السماوات والأرض ، وكل هذا الكون يشهد له بعظمته .

(أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف الآية : 1)

إعجاز هذا الكتاب يشهد أنه كلام الله ، وقد أخبرك الله عز وجل عن مشاهد يوم القيامة ،

(ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)

بل هل يعقل أن تكون الدنيا من دون آخرة ، هل يعقل أن يكون القوي قوياً ، والغني غنياً ، والضعيف ضعيفاً ، والمظلوم مظلوماً ، والمقهور مقهوراً ، والفقير فقيراً ، والمريض مريضاً ، والصحيح صحيحاً، وتنتهي الدنيا هكذا ؟! بلا حياة أخرى ؟! إذا أردت أن تتجاوز الآخرة يقفز أمامك آلاف الأسئلة ليس لها جواب ، بل إن بعض العلماء الكبار يرى أن الإيمان باليوم الآخر أصله عقلي وتفصيلاته نقلية، لأن هذه الحياة لا تستقيم في فهمها من دون يوم آخر تسوى فيه الحسابات ، هؤلاء الطغاة في الأرض يقتلون ، ويهدمون البيوت ، ويستبيحون المحرمات ، ويقتلون المرضى والأطفال وكأنهم يقتلون حيوانات وهم مرتاحون ، وتنتهي الحياة هكذا ؟! أناس يموتون من التخمة ، وأناس يموتون من الجوع ، وحقوق الفقراء عند الأغنياء ، وتنتهي الحياة ؟! أناس قاهرون وأناس مقهورون ، أناس ظالمون وأناس مظلومون ، وتنتهي الحياة من دون تسوية حسابات ؟!

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

وقال :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

إذا آمنا باليوم الآخر الإيمان الذي أراده الله عز وجل لا بدّ من أن تنعكس كل مقاييسنا:

ما لم نؤمن باليوم الآخر لا نفلح ، إذا آمنا باليوم الآخر الإيمان الذي أراده الله عز وجل لا بد من أن تنعكس كل مقاييسنا ، إذا آمنت باليوم الآخر رأيت الإنفاق هو الذكاء وليس أخذ المال ، رأيت بذل الجهد

لخدمة الخلق هو الذكاء وليس أن تستخدم جهود الآخرين ، رأيت أن التواضع هو الذكاء وليس أن تستعلي على عباد الله ، فإذا آمنت باليوم الآخر لا بد من أن تنعكس كل المقاييس التي تقيس بها الأمور:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)

هل هناك جامعة في الأرض من دون امتحانات ؟ ما من مؤسسة في الأرض للخريجين فيها ميزات كبيرة من دون امتحانات ، هل سمعت عن طالب يقدم طلباً يقول فيه : أرجو أن أمنح الدكتوراه ؛ من دون دراسة ، من دون تأليف أطروحة ، من دون مناقشة ، من دون جهد كبير ؟ مستحيل .

(ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)

بما سيكون بعد الموت ، بحساب دقيق .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الأنعام)

لا يعلم السر إلا الله فهو يعلم ما ظهر وما خفي :

قال تعالى :

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49))

(سورة الكهف)

معنى

(تَمْتَرُونَ)

إذاً تجادلون شاكين في أحقيتها ، أو بدافع من الشك .

(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3))

(سورة الأنعام)

إله في السماء وهو في الأرض إله أيضاً ، أمرنا بيده ،

(يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ)

الإنسان يكتم أشياء كثيرة عن من حوله ، فأسراره يعلمها الله ، يعلم ظاهره ويعلم باطنه ، يعلم علانيته ويعلم سره ، يعلم أحوال قلبه وخواطره ، إن تكلم الإنسان فالله سميع ، وإن انطوى على همه أو على نية فالله عليم ، وإن تحرك فالله بصير ، إن تحرك فهو بصير ، وإن قال فهو سميع ، وإن سكت فهو عليم ، ويعلم ما لا تعلمون ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، قال تعالى :

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7))

(سورة طه)

يعلم الذي تسره ، ويعلم الذي يخفى عنك أنت .

الحركة في الحياة هي الكسب:

قال تعالى :

(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3))

الكسب هنا العمل الذي ينتهي بمنفعة ، أو العمل الذي ينتهي بمضرة ، هذا هو كسب الإنسان ، كل إنسان له عمل في الحياة ، بالمعنى المطلق يعني إنسان في حرفته صادق ، ومتقن ، وأمين ، ولا يغش أحداً ، وفي بيته إنسان صالح ، ومعتن ، ورحيم ، وحليم ، فمجموع هذه الشخصية في البيت ، وفي الطريق ، وفي العمل ، وفي الفرح ، وفي الترح ، وفي الحضر والسفر ، وفي كل نشاطات الإنسان هذا إنسان صالح ، وإنسان آخر له موقف مع الناس وله موقف مع ذاته هذا النفاق ، وإنسان سيء مع الجميع هذا الفاجر الذي لا يبالي بسمعته إطلاقاً إذاً :

(وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)

يعني الحركة في الحياة هي الكسب ، هناك حركة خيرة ، وحركة شريرة ، حركة تؤدي إلى منفعة ، وحركة تؤدي إلى مضرة ، حركة تؤدي إلى سعادة ، وحركة تؤدي إلى شقاء ، هذا معنى

(وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)

الكسب هو السعي الذي يسعى فيه الإنسان لمنفعة ، أو يتلافى بها مضرة ، أو ليستحق عليها مضرة .

التحليل التوحيدي للأمور يبين أنه ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4))

(سورة الأنعام)

ما أكثر العبر وما أقل المعتبرين ، العبر تترى ، أحياناً تجد قصصاً صارخة تبين عدل الله ، وتبين رحمته ، وتبين فضله ، وتبين غضبه أحياناً ، تبين بطشه ، تبين إكرامه ، فهناك عبر لا تعد ولا تحصى، والله عز وجل يسوقها لعباده كي يعرفوا أنه :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ (84))

(سورة الزخرف الآية : 84)

أن الأمر كله بيده ، وأن الأمر راجع إليه .

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4))

(سورة يس)

لكن أنت حينما تحلل الأحداث تحليلاً توحيدياً ، وتبين أن الناس حينما تنزل عليهم المصائب يستحقونها أحياناً لأنه ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة ، أنت حينما تشرح هذا الشرح هناك أناس يتألمون أشد الألم .

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ (45))

(سورة الزمر الآية : 45)

التحليل الأرض الشركي مقبول عند أهل الدنيا أما التحليل التوحيدي فغير مقبول:

إذا حللت الأحداث تحليلاً أرضياً وشركياً ، وزيد وعبيد ، وفلان وعلان ، والقوة الفلانية والقوة الفلانية، التحليل الأرضي مقبول عند المشركين ، والتحليل الأرضي مقبول عند من يئس من الآخرة ، التحليل الأرض الشركي مقبول عند أهل الدنيا ، أما التحليل التوحيدي فغير مقبول ، قد تجري أحداث طاحنة في بلاد مجاورة ، طبعاً هناك آلاف التحليلات لكن حينما تقرأ قوله تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112))

(سورة النحل)

هذا تحليل قرآني لأحداث جسيمة ظهرت ، لذلك المؤمن يرضيه التحليل التوحيدي الإيماني ، بينما الذي لا يؤمن بالآخرة لا يرضيه أبداً التحليل التوحيدي الإيماني بل يبحث عن تحليل شركي أرضي .

كل الحقائق التي جاء بها الأنبياء يكشفها الإنسان عند الموت :

قال تعالى :

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4)فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5))

الحقيقة أيها الأخوة أن كل الحقائق التي جاء الأنبياء يكشفها الإنسان عند الموت .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

الحقائق التي جاء بها الأنبياء يعرفها أكفر كفار الأرض عند الموت ، الدليل فرعون الذي قال :

(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92))

(سورة الأنبياء)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38))

(سورة القصص الآية : 38)

حينما أدركه الغرق قال :

(آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

(سورة يونس)

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

الشيء المؤلم أيها الأخوة أن خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط ، لا بد من أن تؤمن عند الموت ولكن بعد فوات الأوان .

(لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158))

(سورة الأنعام)

خيارك مع ملايين الأشياء خيار قبول أو رفض ، إلا مع الإيمان خيار وقت ؛ إما أن تؤمن قبل فوات الأوان ، أو أنه لا بد من أن تؤمن بعد فوات الأوان .

(فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5))

(فَسَوْفَ)

للاستقبال ، لذلك من أدق تعريفات العقل أن العاقل لا يندم لأن الذي سيأتي توقعه ، الذي سيأتي في المستقبل توقعه فتكيف معه فلم يكن مفاجئاً له .

مثلاً : طالب يعلم علم اليقين أن الأستاذ نزيه جداً ومعطاء في الدرس ، وأن هناك امتحان دقيق ، وتصحيح أدق ، ونجاح بجدارة ، ورسوب بجدارة ، فما درس ، يقول لك : رسب بجدارة ، مثلاً درس ، أمضى كل العام بالدراسة ، فلما جاء الامتحان هو مستعد له ، ليس عنده مفاجأة ، سؤال الامتحان أجاب عنه ، والثاني أجاب عنه ، والمسألة حلها ، والتحليل حلله ، وإكمال الجمل أكملها ، وملأ الفراغات ، وعلاماته تامة ، الطالب الثاني قال له صديقه : الأستاذ من عادته أن يعطي الأسئلة لمن يقدم له هدية قبل الامتحان ، فوجد أنه لا داعي للدراسة ، أمضى العام الدراسي كله في النزهات ، وفي النوادي ، والملاهي ، واللعب ، اعتماداً على وهمه أن الأستاذ سوف يعطي الأسئلة لمن يقدم له هدية ثمينة ، فجاء بالهدية وقدمها إليه فتلقى منه صفعتين وعرف الحقيقة قبل الامتحان بيوم واحد ، هذه القصة كلها ،

إنسان علم ما سيكون فتكيف مع ما سيكون ، وإنسان جهل ما سيكون وفوجئ بما سيكون ، فما هو العقل؟ العقل هو التكيف مع المستقبل ، أو الذكاء هو التكيف .

أخطر شيء في حياة الإنسان صحة الرؤيا أو خطأ الرؤيا:

قال تعالى :

(فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5))

أي عندما يرتكب إنسان جريمة لا يمكن لمجرم أن يرتكب جريمة إلا وهو يتوهم أنه سينجو من العقاب، كل أحلامه بهذا المال الذي سيسرقه من هذا المقتول ، بعد أيام صار في السجن ، بعد عشرين يوماً على حبل المشنقة ، هذا الواقع ، لذلك أخطر شيء في حياة الإنسان صحة الرؤيا ، وأسوأ شيء في حياة الإنسان خطأ الرؤيا ، فأنت حينما ترى رؤيا صافية وصحيحة تفلح في عملك ، من هنا كان دعاء النبي عليه الصلاة والسلام : " اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، قال تعالى :

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6))

القرن قالوا : ستون سنة ، سبعون سنة ، ثمانون ، حتى المئة ، مئة عام الناس كلها التقت مع بعضها بعضاً ، نحن في هذه البلدة الطيبة الناس يعرف بعضنا بعضاً ، هذا يموت قبل هذا ، هذا بعد هذا ، لكن في تعارف إما حقيقي باتصال مباشر ، أو فكري وإعلامي ، القرن كما قلت من ستين إلى مئة عام ، يعني الزمن الذي يجمع الناس ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم))

[متفق عليه عن عمران بن حصين]

العطاء الدنيوي ليس دليلاً على أن الله راضٍ عن هؤلاءالناس :

قال عز وجل :

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً)

أحياناً الإنسان يذهب إلى بلاد الغرب ، يقول لك : جنات ، كلها خضراء ، قد يركب مركبة ساعات طويلة ، كل الجبال خضراء ، كل السهول خضراء ، كل الوديان خضراء ، الأنهار ، البحيرات ، الأطيار ، الأسماك ، بلاد جميلة جداً ، قال :

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ)

يعني الأمطار من السماء والأنهار والبساتين والجنات :

(فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ)

العطاء الدنيوي ليس دليلاً على أن الله راضٍ عن هؤلاء .

((ألا إنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يأكُلُ مِنْهَا الْبرّ والْفَاجِر ألاَ وإنّ الآخِرَةَ أجلٌ صَادِقٌ يَقْضِي أفواهها مَلِكٌ قادِرٌ))

[الطبراني عن شداد بن أوس]

الله عز وجل يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب :

الدنيا تعطى لمن يحب ، ولمن لا يحب ، أعطاها الله لقارون ، وهو لا يحبه ، قال :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (78))

(سورة القصص الآية : 78)

وقال :

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ (81))

(سورة القصص الآية : 81)

أعطاها لفرعون ، وهو لا يحبه ، لكن الذي يحبهم ماذا أعطاهم ؟ قال :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14))

(سورة القصص)

الذين يحبهم أعطاهم العلم .

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

(سورة النساء)

الذين أحبهم أعطاهم الحكمة ، الذين أحبهم أعطاهم السكينة ، الذين أحبهم أعطاهم الأمن ، هذه ثمار الإيمان اليانعة ، أن ترضى عن الله ، أن تكون آمناً في سربك ، معافى في جسمك ، عندك قوت يومك ، أن تكون حكيماً ، أن تكون راضياً عن الله عز وجل ، أن يكون لك سمعة طيبة .

قوة الأمم والشعوب ليست دليلاً على أنها قريبة من الله عز وجل :

إذاً :

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ)

أي أن قوة الأمم والشعوب ليست دليلاً على أنها قريبة من الله عز وجل على العكس أحياناً .

(وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً)

الأمطار الغزيرة بألوف ، يقول لك : 2000 مم ، 1500 - 3000 مم في العام ، في بلاد فقيرة 200 - 150 - 160 .

(وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ)

هناك أنهار غزارتها 300 ألف كم مكعب في الثانية بالأمازون ، وهناك بحيرات ، وجبال خضراء ، وثروات ، وبترول ، وفلزات ، والله عز وجل يقول :

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6))

(سورة طه)

ما تحت الثرى الثروات .

(فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ)

هذه الباء باء السبب ، يعني بسبب ذنوبهم أهلكناهم :

(وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ)

ففساد الأمم عاقبته واضحة جداً .

أيها الأخوة ، نتابع هذه الآيات إن شاء الله في درس قادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(03-73): تفسير الآيات 7-12 ، خسارة الكافر ومكسب المؤمن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-12-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث من دروس سورة الأنعام .

من أراد أن يؤمن فلا يحتاج إلى معجزة ومن أراد ألا يؤمن فلا تنفعه المعجزة :

مع الآية السابعة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ(7))

هذا الكتاب القرآن الكريم الذي أُنزل على قلب سيد المرسلين ، والذي فيه المنهاج القويم ، لو أنهم درسوا ما فيه ، ونظروا في توجيهاته ، وفي أخباره ، وفي تفاصيله لآمنوا ، لكنهم كذبوا .

الآن لو رأوا بأم أعينهم كتاباً ينزل من السماء ، فلما وصل إلى الأرض لمسوه بأيديهم لقالوا :

(إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

معنى ذلك أن الذي يريد أن يؤمن أبسط شيء يراه يكفيه للإيمان ، والذي لا يريد أن يؤمن لو رأى المعجزات تلو المعجزات لا يؤمن ، القضية قضية قرار داخلي يتخذه الإنسان ، لو أن الإنسان أراد الحقيقة فإن البعرة تدل على البعير ، والأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟!!

القضية أيها الأخوة أن هذا الكون بوضعه الراهن ، بوضعه القائم من دون خرق لنواميسه هو معجزة ، عينك معجزة ، حواسك الخمس معجزة ، الدماغ معجزة ، ابنك الذي تراه بعينك معجزة ، الطعام الذي تأكله معجزة ، لو أنك نظرت إلى ما في هذا الكون من دون تغيير لنواميسه ، ولا لقوانينه ، من دون خرق لقوانينه هو بحد ذاته معجزة ، فهذا الإعجاز اللامتناهي إن تعامى الإنسان عنه فلن يؤمن بخرق لنواميسه ، ولا بخرق لقواعده ، فلذلك أيها الأخوة ، هذا الذي أراد أن يؤمن لا يحتاج إلى معجزة ، والذي أراد ألا يؤمن لا تنفعه المعجزة .

الطريق إلى الله ليس في المعجزات ولكن في اتخاذ قرار إيماني مسبق :

قال تعالى :

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ(7))

إذاً ينبغي أن تطلب الحقيقة ، ينبغي أن تتخذ قراراً داخلياً في البحث عن الحقيقة ، فإن اتخذت هذا القرار فكل شيء في الكون يدل على الله ، من دون خرق للنواميس ، من دون تعطيل للقوانين ، الكون بحد ذاته معجزة ، ثلاثمئة ألف شعرة ، لكل شعرة وريد وشريان ، وعصب وعضلة ، وغدة دهنية وغدة صبغية ، هذا الشعر ، هذا خلق الله ، قلت : في العين في الميليمتر المربع من الشبكة يوجد مئة مليون مستقبل ضوئي ، في المعدة 35 مليون عصارة ، الدماغ فيه 140 مليار خلية استنادية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد ، ماذا أقول ؟! الإنسان من حوين وبويضة في تسعة أشهر صار إنساناً سوياً .

أيها الأخوة ، الطريق إلى الله ليس في المعجزات ، ولكن في اتخاذ قرار إيماني مسبق ، و هذا يفسر آيات كثيرة تأتي على نمط واحد .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49))

(سورة آل عمران الآية : 49)

أي إن أردتم أن تؤمنوا فهذا آية لكم ، أكثر من آية على هذا النمط ،

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أنت حينما تريد أن تؤمن كل شيء في الكون يدلك على الله ، كأس الحليب ، ما علاقة هذا الكائن البقرة بهذا الإنسان ؟ غذاء كامل للإنسان ، ما علاقة هذا الطعام بأجسامنا ؟ توافق تام مع أجسامنا ، معنى ذلك أن هناك إلهاً عظيماً هو الذي خلق هذا الإنسان ، وخلق له هذه النباتات ، وخلق له هذه البهائم كي يأكل منها .

ما معنى أن تكون الكرة الأرضية وحدها من بين المجموعة الشمسية صالحة للحياة ؟ هذه الكواكب السيارة التي هي المجموعة الشمسية ، بعض هذه الكواكب تصل سرعة الرياح فيها إلى 2000 كم في الساعة ، 2000 كم في الساعة أي لا يمكن أن يبقى شيء على سطح هذا الكوكب ، نحن برياح سرعتها ستمئة كيلومتر مدن بأكملها تطير ، برياح سرعتها مئة كيلومتر يحصل انهدام واقتلاع أشجار، برياح سرعتها ستمئة كيلومتر لا يبقى شيء في المدينة ، بعض الكواكب السيارة سرعة الرياح فيها ألفَا كيلومتر في الساعة ، بعض الكواكب الهواء كله حول الكوكب ، ثاني أكسيد الكربون غاز سام ، في بعض الكواكب الحرارة 450 درجة فوق الصفر ، بعض الكواكب الحرارة 238 درجة تحت الصفر ، لو استعرضت الكواكب السيارة واحداً وَاحداً لا يمكن لواحد أن تصلح فيه الحياة ، ما معنى أن تكون

الأرض وحدها بحجمها ، بنسبة يابستها إلى بحرها ، بهوائها ، بحرارتها ، بليلها ، بنهارها مناسبة تماماً للإنسان ؟ معنى ذلك أن هناك خالقاً عظيماً .

الآن هذه الخلية في رحم الأم تنمو وتنقسم ، وتنمو وتنقسم ، لو لم تكن هناك يد إلهية لنما هذا الجنين ، وأصبح نسيجاً لحمياً متجانساً ، أو نسيجاً عصبيّاً ، أو نسيجاً عظميّاً ، ما معنى أن يكون في هذا الطفل عظام ، وأوعية ، وشرايين ، وقلب ، وجهاز هضم ، ومريء ، ومعدة ، وأمعاء ، وكبد ، وبنكرياس ، ودماغ ، وأعصاب ، وأطراف ، وأصابع ، يد من صنعت هذا ؟!

لولا أن النبي والرسول بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر :

أيها الأخوة :

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ(7))

اقتراح آخر من هؤلاء المكذبين :

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8))

لو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان ملكاً ، وأمرنا أن نغض أبصارنا ماذا يُقال له ؟ أنت ملك لا تعرف ، هذه شهوة أودعها الله فينا ، لم تودع فيك حتى تنهانا عن هذا ، يجب أن يكون الرسول بشراً ، ولولا أن النبي والرسول بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، لولا أنه بشر وتجري عليه كل خصائص البشر ، ثم انتصر على بشريته لما كان سيد البشر ، يريدون نبياً ملكاً ، الملك لا يعيش واقع الإنسان ، لا يعيش شهوة الإنسان ، لا يعيش ضغوط الإنسان ، لا يعيش ظروف الإنسان ، ولا عقبات الإنسان ، كل هذه الظروف والعقبات والضغوط والشهوات الملك لا يعرفها إطلاقاً، إذاً كيف يكون رسولاً لنا ؟ لكن لو أنه كان ملكاً كيف يرونه ؟ كيف يستمعون إليه ؟ لا بد من أن يكون له شكل كشكلهم ، وحركة كحركتهم ، وجسم كأجسامهم .

الأنبياء لهم مهمتان مهمة التبليغ القولي ومهمة الأسوة العملية :

قال تعالى :

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (9))

مستحيل أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام من جنس آخر عندئذٍ تتعطل مهمته الثانية ، الأنبياء لهم مهمتان ؛ مهمة التبليغ القولي ، ومهمة الأسوة العملية ، بل إنني أرى أن مهمة الأسوة العملية أبلغ ألف مرة من مهمة التبليغ القولي ، فأيّ إنسان إذا أوتي فصاحة في اللسان ، وذاكرة قوية ينطق بما ينبغي أن

يقول ، ويقول كلاماً رائعاً ، لكن الذي خصّ الله به الأنبياء أنهم في سلوكهم انضباط مذهل ، ما تكلموا كلمة إلا فعلوها ، ليس هناك مسافة أبداً بين أقوالهم وأفعالهم ، فلو أن هذا النبي كان في الأصل ملكاً ، ثم ألبسه الله شكل الإنسان ، وكان بينهم وتحدث ، فهو قد يؤدي مهمة التبليغ ولكن لا يؤدي مهمة الأسوة، الله عز وجل يقول :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (21))

(سورة الأحزاب)

إذاً لا بد من أن يكون هذا الذي يبلغك ناطقاً بالحق ، مطبقاً للحق ، ربما تقنع من طبيب اختصاصه بأعلى مستوى تنتفع بعلمه ولا يعنيك سلوكه ، قد يكون غير مستقيم ، قد لا يصلي ، قد يشرب الخمر ، لكنك في هذا الموطن أنت بحاجة إلى علمه فقط ، فتأتي طبيباً يعنيك من الطبيب اختصاصه فقط ، فتنتفع بطبيب ، بمهندس ، بخبير ، بمحلل ، بمترجم ، تنتفع بآلاف الأشخاص ، ولا يعنيك ما يفعلون ، إلا أنك لا يمكن أن تنتفع من رجل دينٍ إلا إذا كان مطبقاً لما يقول وإلا تسقط الدعوة ، وهذا الذي يقولونه أحياناً : خذ من أقوالهم ولا تلتفت إلى أفعالهم ، هذا كلام غير صحيح ، لا يمكن أن تحترمهم إذا تكلموا شيئاً وفعلوا شيئاً ، لا يمكن أن تلقي لهم أذناً مصغية إذا رأيت كلامهم في واد وأفعالهم في واد آخر .

إذاً لو لأن الله سبحانه وتعالى جعل الأنبياء والرسل ملائكة ، ثم أعطاهم صورة الإنسان ، وبيان الإنسان ، وألبسهم لبوس الإنسان ، بلغوا الأقوام ، ولكن أعظم شيء في النبي والرسول هو أنه قدوة ، لكنهم فَقَدوا القدوة .

الإنسان المنكر إذا طلب معجزة وتحققت ولم يؤمن يستحق الهلاك :

أيها الأخوة الكرام ، الله عز وجل يقول : لا بد أن يكون النبي والرسول من جنسكم ، ومن طبيعتكم ، ومن بني البشر ، وهو بشر كالبشر ، خصائص البشرية موجودة فيه ، إذاً لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر ثم انتصر على بشريته لما كان سيد البشر .

النقطة الدقيقة أن الإنسان المنكر إذا طلب معجزة وتحققت ولم يؤمن يستحق الهلاك ، لذلك :

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8))

أحياناً هذا شيء مبسط ، إنسان يطلب من الله شيئاً ، يا رب إن فعلت كذا فأنا تائب إليك ، هكذا بسذاجة، الله عز وجل يحقق له هذا الشيء ، أنا أقول لكل إنسان تمنى على الله شيئاً، وربط إيمانه بالله ، أو استقامته ، أو توبته بهذا الشيء ، فالله عز وجل تكرماً منه حقق له هذا الشيء ، ولم يتب بعدها ، ولم

ينجز وعده بعدها ، فأمامه مصيبة كبيرة ، قياساً على هذه السنة الكبيرة التي هي من سنن الله عز وجل. الأقوام الذين كفروا لو طلبوا معجزة ، وبنوا إيمانهم على هذه المعجزة ، وتحققت هذه المعجزة ولم يؤمنوا لاستحقوا الهلاك العاجل :

(وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ)

من سنن الله عز وجل أن هناك معركة قائمة أزلية أبدية بين الحق والباطل :

قال تعالى :

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10))

معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية من آدم إلى يوم القيامة ، الله عز وجل شاءت حكمته أن يكون في الأرض مؤمن وغير مؤمن ، ففريق يدعو إلى الله وفريق يدعو إلى الشيطان ، ربانيون وطواغيت ، مؤمنون وكافرون ، أخرويون ودنيويون ، أناس شهوتهم يعبدونها من دون الله وأناس إله عظيم يعبدونه وحده ، فهناك فريقان في كل مجتمع ، هذا النظام أن هناك معركة قائمة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، هذه من سنن الله عز وجل .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112)وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ(113))

(سورة الأنعام)

الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بحرية الاختيار :

قال تعالى :

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ)

للتوضيح : لعلكم فهمتم أنه شاءت حكمة الله أن يكون في الأرض كفار ومؤمنون ، لا أقصد أبداً أن الله خلق الكافر كافراً ، لكنني أريد أن أقول : إن الله سبحانه وتعالى ميز هذا الإنسان بحرية الاختيار .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

وقال :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة الآية : 148)

وقال :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف الآية : 29)

وإن الناس بعضهم لم يؤمن فالذي آمن يدعو إلى الهدى ، والذي لم يؤمن يدعو إلى الضلال ، إذاً شيء طبيعي مادام الإنسان في اختيار ، وقد أودعت فيه الشهوات ، وقد أعطي حرية في اختياره أن تنشأ هذه المعركة الأزلية الأبدية بين الحق والباطل .

تكذيب الإنسان للحق وسخريته منه تكون سبب هلاكه أحياناً :

الاستهزاء بالرسل شيء قديم ، والسبب أن أنبياء الله جل جلاله معهم منهج ، المنهج فيه ممنوعات ، الدين الذي من عند الله يقيد الإنسان في شهواته ، فأيّ شهوة أودعها فيه مسموح له أن يمارسها في حيز محدود ، أما أن تمارس من دون قيد أو شرط فهذا ليس ديناً هذه إباحية ، الآن يقول لك : فلان إباحي ، يعني ما عنده شيء حرام ، ممكن أن يمارس شهوته من دون قيد أو شرط إطلاقاً ، لا في كسب الأموال ، ولا في علاقته بالنساء ، ولا في أي شيء آخر ، فلذلك الشهوات واسعة جداً ، والمنهج الإلهي يقيد المؤمن في ممارسة شهواته ، فهناك قناة نظيفة لكل شهوة أودعها الله فيك .

لذلك الإنسان حينما يكون حراً في ممارسة الشهوة يفعل ما يشاء ، ثم يأتي إنسان يقول له : أنا نبي ، وهذه حرام لا تفعلها ، ماذا يفعل ؟ هذا الذي ألِف أن يتحرك بلا قيد ولا شرط يأتي إنسان ويقول له : إنه رسول الله ، والزنا محرم ، والربا محرم ، وأكل الخنزير محرم .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً (43))

(سورة الرعد الآية : 43)

ردّ الفعل الطبيعي من هؤلاء الكفار المتفلتين على دعوة الأنبياء والرسل التكذيب ، التكذيب معه استهزاء ، التكذيب معه عداء ، التكذيب معه قتل ، أنبياء كثر قتلوا :

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10))

حاق أي أحاط ، سخريتهم كانت سبب هلاكهم ، سخريتهم أحاطت بهم ، وأهلكتهم ، ودمرتهم ، والإنسان أحياناً تكذيبه للحق وسخريته منه سبب هلاكه .

من يحارب الحق فهو الخاسر لا محالة :

لما قال الله عز وجل :

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4))

(سورة التحريم)

امرأتان يقول الله في حقهما :

(وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ)

أي على رسول الله ،

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

ما معنى هذه الآية ؟ أي يجب أن تعلم أيها الإنسان أنك إذا كذبت الحق من هو الطرف الآخر ، أنت في النظام المدني أو في بلاد في العالم الثالث لا تجرؤ أن تعتدي على إنسان بصفة رسمية ، لماذا ؟ لأن الدولة كلها وراءه ، أنت حينما تمتنع أن توقع الأذى به تعلم ما المصير ، تعلم أن هناك قوة عظمى لا تستطيع أن تقابلها .

لذلك هذا الذي يسخر من أنبياء الله ، من رسل الله ، من دين الله ، من شعائر الله عز وجل ، لا يعلم أن الله سبحانه وتعالى قد يدمره ، وقد يهلكه بسبب هذه السخرية ، ولاسيما إذا كانت علانية ، ثم يقول الله عز وجل :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11))

الآن التاريخ كما يقال يعيد نفسه ، والتاريخ مدرسة ، هؤلاء الذين كذبوا الرسل والأنبياء ما مصيرهم ؟ التاريخ القريب ، لما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم للناس رسولاً الذين كذبوه ، أبو جهل ، أبو لهب ، أين هم الآن ؟ بعضهم يقول : هم في مزبلة التاريخ ، والذين وقفوا معه ، وأيدوه ، ونصروه أين هم ؟ في أعلى عليين ، دائماً إذا حاربت الحق فأنت خاسر لا محالة ، قد يكون لك جولة على الحق كما هو الوضع الآن ، الآن دول عظمى تحارب المسلمين في كل بقاع الأرض ، وبما تملك من أسلحة فتاكة، قد تنتصر في معارك محدودة ، لكن في النهاية العاقبة لمن ؟ للمتقين ،

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

ثم تفيد الترتيب على التراخي ، أي أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل ، وكل أفعالك وحركاتك وسكناتك محسوبة عليك ، وهناك عقاب أليم ، وهلاك مبين ، إذاً انظر إلى التاريخ ، كم من قوم حارب المسلمين؟

الإسلام بقي كالطود الشامخ ، والذين حاربوه عبر التاريخ الإسلامي هم في مزابل التاريخ ، كم حركة أرادت أن تكيد للإسلام ، أين هي الآن ؟!!

الله عز وجل لخص لنا كل الحقائق بالقرآن الكريم :

أيها الأخوة ، هذه أيضاً طريق للمعرفة ، التاريخ يعطي حقائق ناصعة ، والإنسان إذا أراد أن يعرف الحقيقة فليأخذها من كتاب الله ، وليعززها بما يجري في التاريخ .

شيء آخر ، لو أن إنساناً عنده وقت فارغ ، وعنده تحليل عميق ، وعنده دراسة اجتماعية دقيقة ، وتابع ما يجري حوله ، يجد أفعال الله في أعلى درجة من الحكمة والعدل والرحمة ، الله عز وجل موجود ، تجد المخلص له معاملة ، الخائن له معاملة ، الصادق له معاملة ، الكاذب له معاملة ، المتقن له معاملة، لكن نحن في غفلة ، والذي يحصل أيها الأخوة أن معظم الناس مطلعون على آلاف القصص من آخر فصل ، هذا لا يكفي ، لكن لو أنك اطلعت على قصة من أول فصل إلى آخر فصل قد تخر لله ساجداً لعظمة الله ولعدله ، إنسان تطاول ، إنسان بنى مجده على التطاول على الآخرين ، يأتي من يهينه ، إنسان جمع مالاً من حرام ، هذا المال يبدد ويدمر ، فلو أنك تتبعت ما يجري حولك لرأيت منهجاً دقيقاً جداً ، ولكن هذا طريق طويل وشاق ، الله عز وجل لخص لك هذه الحقائق بالقرآن الكريم ، لكن هذه الآية :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا)

(ثُمَّ)

يعني على التراخي :

(كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

الذين كذبوا الحق .

ملكية الإنسان محدودة :

الله عز وجل بعدها يقول :

(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12))

هذا الكون كله لمن ؟ من مالكه ؟ ملكية الله له من أعلى مستوى ، أي خلقاً وتصرفاً ومصيراً ، لاحظ الإنسان قد يملك بيتاً ولا ينتفع به ، هو مستأجر على القانون القديم فرضاً ، يملكه لكن لا ينتفع به ، وقد

ينتفع ببيت ولا يملكه ، وقد يملك بيتاً وينتفع به ، ولكن مصيره ليس إليه ، يصدر قانون استملاك ، هذا مثل للتقريب ، ملكية الإنسان محدودة ، إنسان يملك أموال منقولة وغير منقولة ، ما دام القلب ينبض فهذه الأموال له ، وقف القلب في ثانية تحولت كل هذه الأموال لورثته ، لا يملك شيئاً ، فالإنسان مهما كان قوياً فملكيته محدودة .

الآن مهما كان في نعمة فإما أن تزول عنه وإما أن يزول عنها ، أبداً ، إنسان يكون في بيت فخم جداً يفتقر ، يفلس ، يضطر فيبيعه ، يسكن في بيت متواضع جداً حتى يؤدي ما عليه من ديون ، هذه النعمة زالت عنه ، أو أن يموت فيزول عنها ، إذاً ملكية الإنسان محدودة .

لذلك لما سألوا بدويّاً معه قطيع من الإبل : لمن هذه ؟ أجمل كلمة ، وأبلغ كلمة قالها : هي لله في يدي .

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ (26))

(سورة آل عمران الآية : 26)

الملك الحقيقي لله ، لك عينان هل تملكها ؟ أبداً ، في أي لحظة هذه النعمة العظمى يفقدها الإنسان ، لك سمع ، لك عقل ، نقطة دم لا تزيد على رأس دبوس تتجمد في بعض الأوعية في الدماغ فيفقد الإنسان ذاكرته كلها ، ويفقد علمه كله ، ما من شيء يملكه الإنسان .

رحمة الله تعالى بعباده :

إذاً :

(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ)

مالك الملك ، هو خير الوارثين ، إنسان ترك ألف مليون ، أحد الورثة اختل توازنه ، نصيبه تسعون مليوناً ، أغلق محله التجاري ، وتابع معاملات الإرث ، وبراءات الذمة والمالية ، ستة أشهر ، وهو في دوائر الحكومة ، ومات بجلطة في الحمام ، ولم يأخذ قرشاً واحداً ، الله عز وجل خير الوارثين ، أنت لا تملك شيئاً :

(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

الآية دقيقة جداً ، أن يعطى الإنسان مهلة للموت هذه رحمة كبيرة ، أخطأت ، ما دمت حياً ، ما دام القلب ينبض هناك فرصة للتوبة ، ما دمت حياً ، وما دام للعمر بقية ، وما دام القلب ينبض فباب التوبة مفتوح ، هذه رحمة الله .

الرحمة الثانية أن الذي ظُلم في الأرض سيأتي يوم تسوى فيه الحسابات ، سوف ينتصر الله له يوم القيامة ، والذي أُخذ ماله في الدنيا يُعوض عنه يوم القيامة ، والتي كان حظها من الرجال سيئاً وكانت صالحة لها يوم القيامة معاملة خاصة ، فأدق كلمة أن هذا اليوم ؛ اليوم الآخر تسوى فيه الحسابات ، هذه

رحمة الله عز وجل ، فلذلك الإنسان لولا الإيمان باليوم الآخر لكانت حياتنا جحيماً ، أحياناً أنت ضعيف ولك عدو قوي حاقد عليك ، يتمنى تدميرك ويدمرك ، وأنت لا تفعل شيئاً ، لولا أن هناك حساباً .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

أكبر خسارة للإنسان أن يخسر نفسه :

المشكلة كبيرة جداً إذاً يوم القيامة ، أولاً :

(كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

أي الحساب يوم القيامة ، ما دمت في الدنيا فالفرصة متاحة كي تتوب ، والفرصة متاحة لتصلح ما كان منك ، فكل شيء قابل للإصلاح ما دام القلب ينبض وهذا من رحمة الله بنا .

الرحمة الثانية أن الإنسان إذا مات ، وكان مظلوماً ، وكان إنساناً فقيراً ما تمتع بالحياة الدنيا ، وثمة إنسان غني ، فهذا الذي كان فقيراً له معاملة خاصة يوم القيامة ، إذاً سيأخذ حقه كاملاً ، بالمناسبة الحياة الدنيا قصيرة جداً ، الآخرة سرمدية ، فإذا ضاع منك شيء في الدنيا تعوض عليه إلى أبد الآبدين .

أيها الأخوة الكرام ، تقتضي رحمة الله أن الإنسان إذا أخطأ ما دام حيّاً فله أن يتوب ، باب التوبة مفتوح ، وهذه رحمة .

الآن كان في الدنيا فقيراً ، أو كان معذباً ، أو كان مريضاً ، هذا عرض ضيق ، لكن الآخرة رحمة إلى مالا نهاية ، فإذا خسر الدنيا وربح الآخرة فهذا خير له ألف مرة من أن يربح الدنيا ويخسر الآخرة ، إذاً هذا من رحمة الله عز وجل :

(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

أي يمكن أن تخسر كل شيء ، أما إذا خسرت نفسك فهذه أكبر خسارة .

(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

أي الذي لا يؤمن هو الذي خسر نفسه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(04-73): تفسيرالآيات 13-16 ، الفوز في الآخرة لا في الدنيا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-12-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنين ، مع الدرس الرابع من دروس سورة الأنعام .

الكلمة الجامعة المانعة الشاملة التي تغطي كل مخلوق أنه سَكَنَ :

مع الآية الثالثة عشر ، وهي قوله تعالى :

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13))

(لَهُ)

أي : الكون كله ، الكون وما سواه له ملكاً مطلقاً ؛ خلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً ، وهو مالك الملك ، فأي شيء يُملك هو مالكه ، وملكية الله مطلقة ، فهذا المعنى يقتضي أن ترجع إليه ، لأنه يملك سلامتك وسعادتك ، يملك رفعتك أو خلاف ذلك ، يملك إسعادك أو شقاءك .

(وَلَهُ مَا سَكَنَ)

الحقيقة أن بعض المفسرين قالوا : له ما سكن وتحرك ، لكن كلمة سكن أشمل من تحرك ، لأن المتحرك لا بد له من طور يكون فيه ساكناً .

هذا القلب الذي هو مظنة الحركة من طور الرحم إلى القبر ، ومع ذلك في حالة سكون بين النبضتين ، فالكلمة الجامعة المانعة الشاملة التي تغطي كل مخلوق أنه سكن ،

(وَلَهُ مَا سَكَنَ)

الأصل هو السكون والحركة طارئة ، حتى إذا رأيت حركة مستمرة فهي في الحقيقة صور متتابعة ، لكن قدرة العين على اكتشاف الفروق بين الصور ضعيفة في طور معين ، فتبدو الحركة مستمرة ،

(وَلَهُ مَا سَكَنَ)

أي : كل شيء سواه له ، هو واجب الوجود ، والكون كله ممكن الوجود .

(فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

الزمن طارئ ، الشيء جوهر والزمن طارئ عليه ، فله ما سكن في الليل والنهار ، يعني المكان والزمان ، المكان الأصل فيه السكون فكل شيء له ، والزمن الأصل فيه الظلام والنور طارئ ، ومن آياته :

(اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37))

(سورة يس)

مطلق العلم مع مطلق المكان والزمان كله ملك لله عز وجل :

قال تعالى :

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13))

أي شيء تقوله يسمعك ، فإذا آثرت الصمت يعلم ما في نفسك ، أي مطلق العلم مع مطلق المكان والزمان كله ملك لله عز وجل ، فلذلك كيف يتوازن الإنسان وهو يبعد عن الله ، وأمره كله بيد الله ؟ من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه ، أمرك بيده ، سلامتك بيده ، رزقك بيده ، سعادتك بيده ، من حولك بيده ، من فوقك بيده ، من تحتك بيده ، أقرب الناس إليك بيده ، أكبر قوة في الكون بيده ، الأمراض بيده ، الفيروسات بيده ، عوامل المرض بيده ،

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ (26))

(سورة آل عمران الآية : 26)

لذلك ماذا يبنى على هذه الحقيقة الخطيرة ؟ يبنى على هذه الحقيقة الخطيرة :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14))

ما دام الأمر بيده ، والأمر إليه ، وهو المالك ، مالك كل شيء ، مالك أي شيء سكن ، مالك أي شيء تحرك ، مالك أي شيء في الليل ، مالك أي شيء في النهار ، إن سكت يعلم ما في نفسك ، إن تكلمت يسمع كلامك ، هذا الإله المطلق في ملكه ، وفي علمه ، وفي قدرته ، تتخذ غيره ولياً ؟

((أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي))

[ورد في الأثر]

الفرق بين كلمة (فاطر)وكلمة (خالق):

أيها الأخوة ، من أعجب العجب أن يتخذ الإنسان ولياً غير الله عز وجل :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً)

معنى الولي هو الذي يتولى أمرك ، هو الذي تهتدي بتوجيهاته ، هو الذي يحميك من خصومك وأعدائك ، هو الذي يدلك على طريق سعادتك وسلامتك ، هو الذي يرحمك ، هو الذي يغفر لك ، هو الذي يعطيك ، هو الذي يرفعك ، هو الذي يحفظك :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أي خالق السماوات والأرض ، وربما أضافت كلمة فاطر على كلمة خالق أن الشيء المادي يحتاج إلى خالق ، لكن الكائن الحي يحتاج إلى فاطر ، لك نفس ، لك فطرة ، لك خصائص ، لك قوانين ، هناك سمات عميقة في نفس الإنسان ، هذه من أعطاه إياها ؟

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

أيها الأخوة :

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ)

معنى ذلك أن الذي يأكل مفتقر في وجوده إلى الله عز وجل ، فرق كبير بين الذي يأكل والذي لا يأكل،

(يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ)

فلما أراد الله أن يثبت للبشر بشرية الأنبياء والمرسلين قال :

(لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ (20))

(سورة الفرقان الآية : 20)

أدلة من القرآن الكريم عن أن الأمر كله بيد الله وحده :

نحن جميعاً مفتقرون في وجودنا وفي استمرار وجودنا إلى الطعام الذي نأكله ، فضلاً عن ذلك نحن مفتقرون إلى أن نمشي في الأسواق كي نكسب ثمن الطعام ، أنت مفتقر مرتين ، مفتقر إلى الطعام وإلى ثمن الطعام ، إذاً أنت مضطر أن تعمل ، وهذا شأن العبد ، لكن الله سبحانه وتعالى فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ،

(يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ)

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ما بال الناس اليوم يتخذون بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، يتخذون بعضهم بعضاً أنداداً لله عز وجل ، لذلك ما من إنسان يسقط سقوطاً مريعاً كالذي يشرك بالله ، فيتوجه إلى مخلوق ضعيف ، لو توجهت إلى سيد الخلق ، إلى حبيب الحق ، إلى سيد ولد آدم ، إلى قمة البشر ، يقول الله عنه قل :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ (50))

(سورة الأنعام الآية : 50)

وقال :

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ (188))

(سورة الأعراف الآية : 188)

يقول الله عز وجل :

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً (21))

(سورة الجن الآية : 21)

يقول الله عز وجل :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً (188))

(سورة الأعراف الآية : 188)

يقول الله عز وجل :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(13))

(سورة الزمر)

خيارك مع الإيمان خيار وقت :

سيدنا الصديق لما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى قال قولته الشهيرة :"من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت".

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

التفوق مطلوب أيضاً ، علو الهمة من الإيمان ، المسارعة أيضاً مطلوبة ،

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ)

قد يُسلم الإنسان بعد فوات الأوان ، وقد يُسلم الإنسان في وقت متأخر من حياته ، ودائماً وأبداً أؤكد أن خيارك مع الإيمان خيار وقت ، فإما أن تؤمن قبل فوات الأوان ، وإما أن تؤمن ولا بد من أن تؤمن بعد فوات الأوان ، أما فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38))

(سورة القصص الآية : 38)

آمن :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ (90))

(سورة يونس الآية : 90)

ولكن بعد فوات الأوان ، فقال الله له :

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91))

(سورة يونس)

على الإنسان ألا يجعل بين الذنب والتوبة أمداً طويلاً لأنه إذا طال عليه الأمد قسا قلبه :

قضية أن نؤمن بعد فوات الأوان شيء مفروغ منه ، ولكن كل البطولة أن تؤمن قبل فوات الأوان ، أن تؤمن وأنت صحيح ، قوي ، غني ، شاب في مقتبل حياتك ، من أجل أن توقع حركتك بالحياة وفق منهج الله عز وجل ، من أجل ألا يكون الموت أكبر المصائب ، من أجل أن يكون الموت انتقالاً إلى الجنة ، من أجل أن تأتي نعم الدنيا متصلةً بنعم الآخرة :

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

الذي يتمنى أن ينجح فقط في الأعم الأغلب لا ينجح ، الطالب في الامتحانات العامة إذا جعل هدفه فقط النجاح في الأعم الأغلب لا ينجح ، أما إذا جعل هدفه التفوق قد ينجح ، فالإنسان عليه أن يطلب المرتبة العليا لينال المرتبة الدنيا ، هناك ملمح في هذه الآية :

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ)

لذلك مما تقتضيه هذه الآية أن الإنسان لا سمح الله ولا قدر إذا وقع في ذنب عليه أن يبادر إلى التوبة ، وألا يجعل بين الذنب وبين التوبة أمداً طويلاً ، لأنه إذا طال عليه الأمد قسا قلبه ، هذه الخاطرة إذا أهملتها تنقلب إلى فكرة ، وإذا أهملتها تنقلب إلى رغبة ، ثم إلى إرادة ، ثم إلى عمل ، ثم إلى عادة ، وإذا انتقلت هذه الخاطرة إلى عادة يصعب تركها ، وهذا حال معظم الناس .

(فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ (16))

(سورة الحديد الآية : 16)

في حياتنا أربعة أشياء إن صحت لا نندم على ما فاتنا وإن اختلت واحدة خسرناها كلها :

إذاً :

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ)

في هذه الآية ملمح إلى أن الإنسان عليه أن يسارع إلى التوبة ، وإلى الطاعة ، وإلى الصلح مع الله ، وإلى تحسين علاقته بالله عز وجل .

مرة ثانية أؤكد لكم أيها الأخوة أنه في حياتك أربعة أشياء إن صحت فلا عليك إن فاتك من الدنيا شيء وإن اختلت واحدة انعكست على الثلاثة فاختلت معها ، أول هذه الأشياء : علاقتك بالله ، ثانيها : علاقتك بجسمك ، ثالثها : علاقتك بعملك ، رابعها : علاقتك بأسرتك .

إن صحت العلاقة مع الله لعلها تنعكس علاقة طيبة مع جسمك ، ومع عملك ، ومع أسرتك .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15))

(سورة الأنعام)

عذاب الله عظيم نراه في الدنيا قبل الآخرة :

نحن نرى في الدنيا قبل الآخرة كيف أن عذاب الله عظيم ، سمعتم ولا شك بهذا الذي جرى في آسيا ، بلاد سواحل هذه البلاد من أجمل بلاد العالم ، في منطقة استوائية دافئة في الشتاء ، أمطارها غزيرة ، جوها لطيف ، حرارتها دافئة ، فيها أجمل منتجعات العالم ، بدقائق أصبح كل ما عليها :

(قَاعاً صَفْصَفاً (106)لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً (107))

(سورة طه)

هذه الهزة التي ظهرت قبل تقريباً ألف كيلومتر في مكان الحوادث ، قوتها تعادل مليون قنبلة ذرية :

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

ألواح تحركت ، باطن الأرض فيه حمم لزجة عالية الحرارة ، متحركة مندفعة نحو الأعلى ، وفوق هذه الحمم غلاف صخري هذا الغلاف الصخري متصدع ، ألم يقل الله عز وجل :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11)وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12))

(سورة الطارق)

هذا الغلاف متصدع ، فهذه الحمم إذا اندفعت نحو الأعلى هذا الغلاف مؤلف من ألواح ، أستراليا كلها لوح واحد ، آسيا لوح ، لوح آسيا اسمه اللوح الأورانسي ، واللوح الأسترالي ، لما اندفعت هذه الحمم من مركز الأرض نحو الأعلى تباعدت هذه الألواح ، لما رجعت إلى مكانها اقتربت فاصطدمت ، هذه الصدمة تعادل مليون قنبلة ذرية وقعت في المحيط الهادي ، والمحيط هادي ، أي هادي ؟ وقع هذا التصادم بين الألواح في قعر المحيط الهادي فدفع الماء نحو الأعلى ، هذا الماء المندفع مشى باتجاه الشمال بسرعة ألف كيلومتر ، وبقي يمشي ساعة ، إلى أن وصل إلى سواحل الهند ، وإندونيسيا ، وسريلانكا ، ووصل إلى سواحل إفريقيا إلى عُمان ، وإلى الصومال ، وإلى بنغلادش ، وإلى سومطرة،

سرعة الموج حينما وصلت إلى البر كانت خمسة وستين كيلومتراً ، وارتفاع الموج أربعون متراً يجتاح الساحل ويأخذ كل شيء ، والخسائر حتى الآن مئة وخمسة وعشرون ألف قتيل ، والمتوقع أن تصل إلى مئتي ألف ، والمتوقع أن يموت مئتا ألف بسبب الأمراض والأوبئة التي أصبحت خطراً أخطر من اجتياح الماء .

أدلة من الواقع عن عذاب الله في الدنيا :

قال تعالى :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران الآية : 26)

ثلاثة آلاف وستمئة إنسان ماتوا في برجي التجارة في أمريكا فقامت الدنيا ولم تقعد ، وبدأت الحروب ، على أفغانستان حرب ، وعلى العراق حرب ، وحصار اقتصادي ، ومكافحة الإرهاب ، والدنيا قامت ولم تقعد ، بل إن تاريخ الأرض الحديث يقسم إلى قسمين قبل الحادي عشر من أيلول ، وبعد الحادي عشر من أيلول ، لكن هذا الحادث الذي وقع في أمريكا جُيّر إلى العرب والمسلمين ، لذلك أعلنت عليهم حرب عالمية سادسة ، أما المئتا ألف وفيهم تقريباً عشرة آلاف أوربي ، من ألمانيا خمسة آلاف ، من إيطاليا ألف وخمسمئة ، مجموع السياح هؤلاء نخبة المجتمع الأوربي ، أجمل بلاد العالم ، أجمل منتجات العالم ، والأسعار طبعاً غالية جداً ، أماكن ، وسواحل ، ومنتجعات ، ورفاه يفوق حدّ الخيال في المحيط الهادئ ، والشمس ساطعة ، والجو لطيف ، والنساء شبه عاريات ، وجاء بلاء الله عز وجل في دقائق .

الشيء الذي لا يصدق ، وقد سمعت الخبر بأذني أنه لم يُعثر على جثة حيوان واحد ، الإنسان ، وعظمة الإنسان ، ومختبرات الإنسان ، والجامعات ، الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بوقوع هذه الهزة ولا قبل ثانية ، لكن لو كان هناك مراصد بعد ألف كيلومتر لعرفوا بعد أن ظهرت ، أما الحيوانات يعلمون الخطر قبل وقت كافٍ لخروجهم من المنطقة ، والخبر لا يصدق ، لم يُعثر على جثة حيوان واحد ، ليسوا مكلفين ، وما عندهم معاص وآثام .

عذاب الله تعالى عقاب للمذنبين وابتلاء للمؤمنين وإنذار للناجين :

أيها الأخوة ، لعل هذا الذي حدث يجسد هذه الآيات :

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

لم يرَ الناس منذ ثلاثمئة عام مثل هذا المد البحري ، هذه الموجة أيها الأخوة يمكن أن تحمل صخرة تزن عشرين طنّاً وترفعها في الهواء وتلقيها بعد خمسين متراً ، أساساً عندما اجتاحت هذه الموجة العظيمة المنتجعات والفنادق أخذت كل من في الفندق وألقته في البحر ، الناجون قلائل جداً ، الناجون بالمئات ، وكل هؤلاء وافتهم المنية ، على كلٍ هذه الموجة عقاب للمذنبين وابتلاء للمؤمنين ، لأنه يوجد مؤمنين ، إندونيسيا مسلمة ، وفيها مؤمنون ، ابتلاء ، وإنذار للناجين ، وهذا التفسير التوحيدي الإلهي لا يتناقض مع التفسير العلمي ، من أمر الألواح أن تتحرك وأن تتصادم ؟ الله عز وجل ، تصادم الألواح سبب ، والله مسبب الأسباب .

ركاب طائرة ، راكب متجه فرضاً من دبي إلى تايوان ليشتري قماشاً يستورده للمسلمين في أيام الحج، مثلاً ، راكب آخر يذهب إلى هذه البلاد ليرتكب الفاحشة ، تحترق الطائرة ، كل راكب يموت على نيته ، فالمؤمنون كان هذا الهلاك امتحاناً لهم ، والمذنبون كان هذا الهلاك عقوبة لهم ، والناجون كان هذا الهلاك إنذاراً لهم ، ومن السذاجة أن تظن أن تلك المناطق فيها زلازل ، مئة عام أو أقل من مئة عام لم يحدث شيء .

بلادنا منطقة زلازل ، قرأت في التاريخ أن زلزالاً وقع في حلب قضى على مئتين وثلاثين ألف إنسان، ودمشق جاءها زلزال لم يبق فيها شيئاً ، حتى الجامع الأموي هُدم وأعيد بناؤه .

أي مكان في الأرض معرض لزلزال ، أو لهزة ، أو لبركان ، أو لجفاف ، فلذلك المؤمن الناجي عليه أن يصطلح مع الله ، وقد رأيتم قدرة الله بأم أعينكم ، سومطرة جزيرة تفوق مساحة سورية انزاحت ثلاثين متراً ، جزر كثيرة ظهرت لم تكن من قبل ، جزر انشقت نصفين ، أصبحت جزيرتين ، حدث تأثير على حركة الأرض .

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64))

(سورة غافر)

بطش الله عز وجل شديد ويتجلى باسم الجبار :

الله عز وجل من أسمائه الجميل ، يتجلى على الوردة باسم الجميل ، ويتجلى في الزلزال باسم الجبار .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12)إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13))

(سورة البروج)

الحديث عن الدمار يفوق الخيال ، الحديث عن الضحايا والأرقام فلكية ، آلاف الجثث تفسخت ، المياه ملوثة لا تشرب ، المشكلة الأولى الآن ماء الشرب ، المياه الآن غير صالحة للشرب ، الدواء ، المأوى، خمسة ملايين مشرد الآن بلا مأوى ، خمسة ملايين .

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(13)قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(14)قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(15))

مدينة في المغرب اسمها أغادير ، منتجع للأوربيين ، فيها نوادي العورات ، كل أنواع الموبقات التي يندى لها الجبين في هذه المدينة ، حتى إن سكان المدينة ممنوع أن يدخلوا إلى تلك المنتجعات لعظم الفواحش التي فيها ، جاءها زلزال استغرق أربع ثوان أصبحت :

(قَاعاً صَفْصَفاً (106)لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً (107))

(سورة طه)

ومن أغرب ما فيها فندق من أرقى الفنادق في العالم ، ثلاثون طابقاً ، غاص كله في الأرض عدا الطابق الأخير ، وقد كُتب على الطابق الأخير اسم الفندق ، فكان اسم هذا الفندق كالشاهدة على القبر :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

ليست الدنيا دار جزاء لكنها دار ابتلاء :

أيها الأخوة الكرام ، الناس يخافون من بعضهم بعضاً ولا يخافون الله عز وجل ، هذا الحدث الضخم لعله أزهق أرواح عشرة آلاف إنسان أوربي من نخبة المجتمع ، يعادون من ؟ هل وراءه عمل إرهابي؟ فعل الله ، الله عز وجل كما يقال بالتعبير المعاصر جيّره له ، لا يستطيع أحد أن ينطق بكلمة ، أما أي حدث آخر يقول : وراءه عمل إرهابي ، الدولة الفلانية هي السبب ، الجهة الفلانية هي المخططة لهذا العمل ، هذا العمل ، كل عمل إرهابي يقع يعزى إلى بلد ، وتتهم مجموعة ، أما هذا الذي حدث فلمن يعزى ؟ إلى الله وحده .

أيها الأخوة ، الحقيقة آية دالة على عظمة الله عز وجل ، وتتبع أخبار هذا الزلزال مما يزيد الخوف من الله ، ويزيد الخشوع لله عز وجل ، طبعاً حتى يكون كلامي دقيق قد يقول أحدكم : هناك مناطق فيها فسق أشد ، في أوروبة وغيرها فساد أشد ، الله عز وجل يقول : ليست الدنيا دار جزاء ، لكنها دار ابتلاء ، قد يبتلى بعضهم بهذا الدمار ردعاً للباقين ، وقد يكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين ، إذا قلنا ـ والكلام الدقيق ـ هناك حكمة من وقوع هذا الزلزال ، هو للبعض عقاب ، ولبعضهم الآخر ابتلاء ، ولبعضهم الثالث الذين نجوا إنذار ، وليس معنى هذا أن هؤلاء يستحقون وغيرهم لا يستحق ، لا ، نحن في دار ابتلاء لا في دار جزاء ، فشاءت حكمة الله أن يختار هذا المكان ، وقد يكون مكان آخر ينتظره حدث آخر ، بدليل قوله تعالى :

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

(سورة الإسراء)

بعض أفعال الله سبحانه تجير لجهة أرضية وبعض أفعاله لا تجير إلا له :

قال تعالى :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ (65))

(سورة الأنعام الآية : 65)

هذه الصواعق ، قد تنزل صاعقة تحرق كل شيء في البيت مع أهل البيت ، والصواريخ قصف جوي ، قنابل حرارية ، قنابل عنقودية ، قنابل انشطارية ، قنابل ذكية ، قصف من طرف الدنيا الآخر على الكومبيوتر .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ (65))

(سورة الأنعام الآية : 65)

الزلازل ، والبراكين ، والألغام :

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ (65))

(سورة الأنعام الآية : 65)

كما في العراق وفلسطين ، كله من فعل الله عز وجل ، لكن بعض أفعاله تجير لجهة أرضية ، وبعض أفعاله لا تجير إلا له :

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64))

(سورة غافر)

الفوز أن نكون في الدنيا وفق منهج الله عز وجل وأن تكون حركتنا مطابقة لأمر الله ونهيه :

قال تعالى :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15))

الإنسان الذي لا يخاف الله إنسان ضعيف الإدراك ، ضعيف التوحيد :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16))

(سورة الأنعام)

اسأل نفسك أيها الأخ الكريم : ما مقياس الفوز عندك ؟ بل ما مقياس الفوز في عقلك الباطن ؟ متى تشعر أنك تفوقت ، أو فزت ، أو كنت ناجحاً ، أو فالحاً ، أو ذكياً ، أو عاقلاً ؟ لو فرضنا إنسان مقاييسه مادية ، يشعر بالفوز إذا جاءه دخل فلكي ، أو إنسان يشعر بالفوز إذا تزوج امرأة تروق له ، أو يشعر بالفوز إذا بلغ منصباً راقياً ، أو يشعر بالفوز إذا استمتع بالحياة ، الإله العظيم هو الخبير يقول لك :

(مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

يعني الفوز في الآخرة لا في الدنيا ، من هنا يقول الإمام علي كرم الله وجهه : " الغنى والفقر بعد العرض على الله " ، الفوز أن ننجو من هذا العذاب الأليم ، من هذا العذاب العظيم ، الفوز أن نكون في الدنيا وفق منهج الله عز وجل ، أن تكون حركتنا مطابقة لأمر الله ونهيه ، الفوز أن نعرفه ، وأن نطيعه ، وأن نتقرب إليه ، وأن يكون عملنا صالحاً ، هذا هو الفوز العظيم ، هذا العذاب العظيم

(مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ)

قبل ما في الجنة من نعيم مقيم مبدئياً إذا صرف عن الإنسان عذاب النار فهو في فوز عظيم .

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185))

(سورة آل عمران)

عطاء الله تعالى لا يمكن أن يكون منقطعاً بالموت فعطاء الله الحقيقي هو العطاء الأبدي :

الحياة الدنيا أيها الأخوة تنتهي بالموت ، والموت يلغي غنى الغني ، وفقر الفقير ، وقوة القوي ، وضعف الضعيف ، وصحة الصحيح ، ومرض المريض ، ووسامة الوسيم ، ودمامة الدميم ، الكل سيموتون ، والموت يوحد بينهم جميعاً ، وعطاء الله عز وجل لا يمكن أن يكون منقطعاً بالموت ، فعطاء الله الحقيقي هو العطاء الأبدي ، عطاء الله الحقيقي هو ما بعد الموت ، هذه الدنيا جيفة ، طلابها كلابها .

((الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له))

[أحمد في مسنده والبيهقي عن عائشة عن ابن مسعود]

لأنها لا تستقر على حال ، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه ، والدنيا متحولة ، وكل إنسان بنعمة في الدنيا عنده قلق عميق ، إما أن يزول عن هذه النعمة بالموت أو أن تزول عنه ، الغني قد يفتقر ، والصحيح قد يمرض ، والإنسان قد يكون في أعلى درجات الصحة ، فجأة ورم خبيث ، انتهى ، ورم بالدماغ انتهى ، فإما أن تزول عنه ، وإما أن يزول عنها ، إذاً لا تصفو لإنسان ، لكنك إذا كنت مع الله عز وجل و جاء الموت ، وا كربتاه يا أبتِ ، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه .

المؤمن ألقى الله في قلبه أمناً لو وزع على أهل بلد لكفاهم ، هذه الآيات :

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(13)قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(14)قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(15)مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(16))

أتابع الآيات في درس قادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(05-73): تفسير الآيتان 17-18، الشرك و التوحيد لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-01-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الخامس من دروس سورة الأنعام .

الآية التالية جمعت كل التوحيد وفحوى دعوة الأنبياء جميعاً هو التوحيد :

مع الآية السابعة عشرة ، وهي قوله تعالى :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(17))

كأن هذه الآية جمعت كل التوحيد ، والدين كله توحيد ، وفحوى دعوة الأنبياء جميعاً هو التوحيد .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

((لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه))

[رواه الطبراني عن أبي الدرداء]

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ((2))

(سورة فاطر)

الشرك هو ضعف التوحيد :

حينما توقن يقيناً يظهر في السلوك أنه لا معطي ولا مانع ، ولا رافع ولا خافض ، ولا معز ولا مذل إلا الله تتجه إليه وحده ، وما لم يكن التوحيد قوياً فلن تتجه إليه وحده ، يكون الشرك ، الشرك هو ضعف التوحيد ، والشرك ليس معناه أن تزعم أن هناك إلهاً آخر ، لا ، حينما تتوهم أن زيداً بإمكانه أن يرفعك ، وأن عبيداً بإمكانه أن يخفضك ، وأن فلاناً بإمكانه أن يعطيك ، وأن علاناً بإمكانه أن يحرمك .

حينما تؤمن إيماناً قطعياً أن المعطي هو الله ، والمانع هو الله ، والخافض هو الله ، والرافع هو الله ، والمعز هو الله ، والمذل هو الله تكون مؤمناً ، عندئذٍ لا تتوجه إلا إلى الله ، ولا تعبأ بغير الله .

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ (72))

(سورة طه الآية : 72)

سحرة فرعون يخاطبون جبار الأرض .

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72))

(سورة طه)

وقال :

(لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ (72))

(سورة طه الآية : 72)

أي أن يواجه هؤلاء السحرة جباراً كبيراً لولا اعتقادهم أن الله بيده كل شيء ما قالوا هذا الكلام .

لن تذوق طعم الإيمان ولن تقطف ثماره إلا إذا كنت موحداً :

قال تعالى :

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73))

(سورة طه)

أيها الأخ الكريم ، لن تذوق طعم الإيمان إلا إذا كنت موحداً ، ولن تقطف ثماره إلا إذا كنت موحداً ، ولن تكون صادقاً معه إلا إذا كنت موحداً ، ولن تكون من منجاة من النفاق إلا إذا كنت موحداً .

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(17))

كل طموحاتك ، وكل آمالك ، وكل أحلامك الله عز وجل قدير على تحقيقها ، وكل مخاوفك الله عز وجل قدير على أن ينجيك منها .

في القرآن الكريم قصص دقيقة ومعبرة جداً ساقها الله لتكون دروساً لنا :

في القرآن قصص دقيقة ومعبرة جداً ، حينما يصبح الأمل صفراً ، فرعون من ورائهم ، والبحر من أمامهم ، فرعون بقوته ، وجبروته ، وجنوده ، وأسلحته ، وحقده ، وشرذمة قليلون مع سيدنا موسى ، البحر أمامهم ، وفرعون وراءهم ، وقالوا :

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

سيدنا يونس وهو في بطن الحوت :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الأنبياء)

سيدنا رسول الله في الغار ، عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ :

((لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟))

[متفق عليه عَنْ أَنَسٍ]

أهل الكهف في الكهف . إبراهيم في النار .

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69))

(سورة الأنبياء)

سيدنا يوسف في البئر ، في الجب ، هذه القصص ليست لأخذ العلم ، ولا لمعرفة الماضي ، ولكن هذه القصص إنما ساقها الله في القرآن الكريم لتكون دروساً لنا ، ليس إلا الله المعطي ، هو المانع ، هو الخافض ، هو الرافع ، هو المعز ، هو المذل ، هو الضار ، هو النافع.

كل ما يساق لنا في الدنيا مسٌ أي حالة مخففة جداً من عذاب الله تعالى يوم القيامة :

أيها الأخوة ، الآية تقول :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ)

ما معنى

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ)

؟ لاحظ نفسك حينما توصل المكواة بالكهرباء ، ثم تحب أن تمتحن جاهزيتها ، ماذا تفعل ؟ تضع على لسانك شيئاً من لعابك ، وتمس المكواة لأقل وقت ممكن ، وبأضيق مساحة ممكنة ، هذا هو المس . الزلزال الذي أصاب جنوب آسيا لو أنه انطلق قريباً من اليابسة لأمات ملايين الملايين ، لكنه انطلق بعيداً عن اليابسة بألف وستمئة كيلومتر ، لذلك أصاب من مئة وخمسين ألفاً إلى مئتي ألف تقريباً ، هذا مسّ .

كل ما يساق لنا في الدنيا مس ، أي حالة مخففة جداً ، أحياناً آلام الكلية لا تحتمل ، تأتي نوبات ، آلام الأمعاء لا تحتمل ، تأتي نوبات ، هذا كله مس :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)

حينما تضع أملك في زيد أو عبيد ، حينما تعتمد على مالك ، حينما تعتمد على مكانتك ، حينما تعتمد على جماعتك ، فهذا نوع من الشرك .

الحقيقة أن الإنسان لضعف توحيده يبحث عن جهات قوية تعطيه الأمن ، هذا الإنسان يعالج بطريقة دقيقة ، جهة أمنه تخذله ، الشيء الذي اعتمد عليه يزلزله ، الجهة التي وثق بها تخيب ظنه ، وهذه معالجة إلهية :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)

إنسان توقفت كليته عن العمل وهو غني كبير ، اختار أفضل طبيب ممن يعرف ، فالطبيب أخطأ واستأصل الكلية السليمة ، فأصبح بلا كليتين .

الإيمان هو أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم نتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

أنت حينما تعتمد على جهة أرضية وتثق بها ، وتستغني عن الله عز وجل فلله علاج دقيق ، هذه الجهة القوية تخيب ظنك ، وتحبط مسعاك ، وتنسيك كل الأسباب التي اتخذتها ، ينبغي أن تأخذ بالأسباب ، وأن تتوكل على رب الأرباب ، ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

الابن حينما يمرض يجب أن تبحث عن أفضل طبيب ، ويجب أن تطبق أدق التعليمات ، ويجب أن تعطيه الدواء بكل التفاصيل ، لكنك تعتقد اعتقاداً جازماً أن الشافي هو الله ، لذلك تدعو الله عز وجل أن يشفيه ، وقد تتوسل إلى الله بصدقة لعل الله سبحانه وتعالى يأذن لهذا المرض أن يزول ، تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، هذا هو الإيمان .

سهل جداً أن تأخذ بالأسباب وأن تنسى الله عز وجل ، إن أخذت بالأسباب واستغنيت عن الله بعقلك الباطن دون أن تشعر فهذا ليس من الدين في شيء ، الغرب أخذ بالأسباب وألهها ، واستغنى عن الله عز وجل ، وفي حالات كثيرة يخيب ظن الغرب بكل الأسباب التي اتخذها ، والشرق لا يأخذ بها ، ولكنه يتواكل على الله ، وهذا طريق غير صحيح ، الذي يأخذ بالأسباب ويؤلهها فقد أشرك ، والذي لا يأخذ بها فقد عصى ، فأنت على طريق دقيق ، عن يمينك وادٍ سحيق ، وعن يسارك وادٍ سحيق ، الوادي الذي عن يمينك ؛ أنت تأخذ بالأسباب وأن تعتمد عليها فتسقط في وادي الشرك ، والوادي الذي عن يسارك ألا تأخذ بها فتسقط في وادي المعصية ،

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)

هذا ينقلنا إلى الأخذ بالأسباب ، يجب أن تأخذ بالأسباب ، ويجب أن تتوكل على الله ، يجب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ويجب أن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، والجهة التي تعتمد عليها تخيب ظنك ، وتحبط عملك .

الإنسان حينما يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها ويستغني عن الله عز وجل يقع في وادي الشرك :

مثلاً : الطبيب الذي درس اختصاصاً نادراً يظن أنه لن يمرض بهذا الاختصاص ، من أعجب العجب أن هذا الذي اعتمد على علمه ، وظن أنه لن يمرض بهذا الاختصاص الذي هو متفوق فيه لا يمرض إلا بالمرض المختص فيه ، والمهندس الذي ظن أن علمه يقيه أي خطأ في بناء بيته ، أنا مع الإتقان ، ومع الدراسة ، لكن لست مع الشرك .

طبيب في بلاد بعيدة ، وهو محق فيما يقول ، يرى أن الجري أفضل طريق لصيانة القلب من الأمراض ، فكان يجري في اليوم عشرين كيلومتراً ، أقام ندوات على الشاشة ، وكتب مقالات ، وحضر مؤتمرات ، كل يوم يجري عشرين كيلومتراً ، الجري صحيّ وضروري ، لكنه ظن أن الجري وحده يلغي كل الأمراض ، مات وهو يجري وهو في الثانية والأربعين من العمر.

الإنسان حينما يأخذ بالأسباب ، ويعتمد عليها ، ويستغني عن الله عز وجل يكون قد وقع في وادي الشرك ، الآن وقعت مصيبة ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه))

[مصنف ابن أبي شيبة عن علي]

هذه الجهة مخيفة ، موقف المؤمن : يخاف منها أم لا يخاف ؟ كلاهما خطأ ، يخاف ولا يخاف ، من أجاب عن هذا السؤال ؟ رب العزة على لسان سيدنا إبراهيم :

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً (80))

(سورة الأنعام الآية : 80)

هذه الجهة الأرضية لا أخافها إذا أراد الله أن يحميني منها ، أما إذا أراد الله أن تصل إلي ينبغي أن أخافها ، فالأمر بيد الله .

الوضع تماماً كمجموعة وحوش ربطت برزمة محكمة بيد جهة قوية ، فعلاقة الإنسان ليست مع الوحوش ، ولكن مع من يملكها ، فلو أن الذي يملكها أرخى الزمام وصلت إلي ، لو أنه أبعدها عني نجوت منها ، فعلاقتي ليست معها ولكن مع من يملكها .

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

(سورة آل عمران)

لن نصل إلى الله إلا إذا كفرنا بالطاغوت :

وقع مصاب ، الذي أوقعه هو الله عز وجل لحكمة أرادها ، النجاة منه تكون بالعودة إلى الله ، وبالثقة بالله ، وبالأخذ بأسباب إزالته مع الدعاء ، وأحياناً الله جل جلاله يربي عباده المؤمنين ، تقع مشكلة ، فهذا المؤمن يبحث عن حل أرضي ، توهم حلاً في هذه الجهة ذهب إليها فصدته ، توهم حلاً آخر في جهة ثانية التجأ إليها فخيبت ظنه ، توهم حلاً ثالثاً في جهة ثالثة تضعضع أمامها فصدته ، فحينما تتوهم أن هناك جهة في الأرض تنقذك مما أنت فيه ، فالطرق كلها مسدودة ، أما حينما تتجه إلى باب السماء ، وتسأل الله عز وجل تفتح كل الطرق ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2))

(سورة الطلاق)

وكلمة :

(يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

توحي أن كل المخارج الأرضية بدت مسدودة إلى أن تنعقد لك مع الله صلة ، إلى أن تصطلح معه ، إلى أن تؤوب إليه ، إلى أن توحده ، إلى أن تتذلل على أعتابه ، إلى أن تثق به ، إلى أن تكفر بكل من سواه .

لذلك أيها الأخوة ، لن نصل إلى الله إلا إذا كفرنا بالطاغوت ، وما دام عند المسلمين جهة قوية يخافون بطشها ويرجون رضائها ولو على حساب دينهم فالطريق إلى التحرر منها طريق مسدود ، قال تعالى :

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى (256))

(سورة البقرة الآية : 256)

من فضل الله علينا أن هؤلاء الأقوياء بعد الحادي عشر من أيلول أعانونا على أن نكفر بهم ، وهذا أكبر إنجاز تحقق بعد الحادي عشر من أيلول للإسلام ، لم يبقَ في ساحة القيم والمبادئ إلا الإسلام .

حينما تشرك تتجه إلى جهة لا تملك شيئاً أما حينما تؤمن تتجه إلى جهة تملك كل شيء :

قال تعالى :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(17))

لا يمنع حينما أفهم هذه الآية فهماً عميقاً أن أشكر الناس ، من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، لا يمنع أن أعرف قدر الناس ، أن أعرف عطاء الناس ، ولكن هذا من باب العبادة ، أنا مكلف أن أشكر من أسدى إلي معروفاً ، أما أن أعتقد أن هذا المعروف من هذا الإنسان دون أن أفكر أن الله سخره وألهمه وسمح

له أن يقدم لي خدمة ، هذا نوع من الشرك ، لذلك قالوا ـ ليس حديثاً ـ : اتق شر من أحسنت إليه ، إن كنت قد أحسنت إليه ونسيت الله عز وجل ، إن أحسنت إليه ، ولم يدخل في حسابك أن الله هو الذي يمنعه عنك ، أو هو الذي ألهمه أن يعطيك فقد أشرك ، لذلك وطن نفسك أن يأتيك شر من هذا الذي أحسنت إليه عن طريق الشرك :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

آمالك عند الله ، طموحاتك ، رزقك ، صحتك ، زوجتك ، أولادك ، مستقبلك ، مكانتك ، سمعتك ، راحتك النفسية ، سعادتك ، سكينتك ، طمأنينتك ، رضاك ، كل ما ترجوه عند الله ، لذلك الذنب الذي لا يغفر هو الشرك لماذا ؟ لأنك حينما تشرك تتجه إلى جهة لا تملك شيئاً ، أما حينما تؤمن تتجه إلى جهة تملك كل شيء ، ماذا تريد ؟ تريد صحة ، تريد زواجاً ناجحاً ، تريد رزقاً حلالاً وفيراً ، تريد راحة نفسية ، تريد طمأنينة ، تريد رفعة ، كل الذي ترجوه عند الله، أما إذا اتجهت لغير الله ما عنده شيء إلا أنه يحملك ما لا تطيق .

الله فعال ليس خلاقاً فقط :

أقول لكم أيها الأخوة ، أحد أكبر عذابات الدنيا ، قال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء)

من اعتمد على ماله ضل ، أحياناً يتوهم الإنسان أنه بالمال تحل كل المشكلات ، كنت عند طبيب قلب ، وجاءه هاتف من إنسان ثري يقول هذا المتكلم : أي مكان في العالم ، أي مبلغ ، قال لهم : والله لا أمل ، الحالة مستحيلة المعالجة ، من يعتمد على ماله يؤدبه الله تأديباً بحيث يسوق له مشكلة لا تحل بالمال .

مرةً إنسان أظنه مؤمناً ، لكنه أخطأ ، قال : بالمال يحل كل شيء ، وقع في مشكلة فبقي في المنفردة ستين يوماً ، والمال عندئذٍ لا يفعل شيئاً ، أحياناً بصحته ، يأتي خلل بالصحة لا يحل بالمال .

قضية التوحيد أيها الأخوة هي الدين كله ، أنت مؤمن إذا كنت موحداً ، أما إذا اعتقدت أن الله خلق السماوات والأرض فهذا الاعتقاد اعتقده إبليس أيضاً ، هذا الاعتقاد يعتقده كل أهل الأرض الآن ، لا تجد أحداً لا يقول : إن الله خلق السماوات والأرض ، أما حينما تعتقد أن الله فعال ليس خلاقاً كما يتوهمه الغربيون ، عندهم الله خلاق وليس فعالاً ، لا علاقة بالأرض .

الآن مات بالزلزال مئتا ألف ، وقد يصل الرقم إلى ثلاثمئة ألف ، وقد يصل إلى خمسمئة ألف ، والخسائر تقترب من خمسين ملياراً ، ولن تعود هذه البلاد إلى نشاطها السابق قبل عشر سنوات من

العمل الدؤوب ، هناك من يعتقد أن لوحان تصادما فكوّنا هذا الزلزال ، الله عز وجل ما له علاقة ، هذا الاعتقاد مطروح ، لذلك :

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ (45))

إذا جئت بتفسير توحيدي إيماني يرفضه الناس ، وإن يشرك به يؤمنوا ، أما إذا اكتفيت بتحليل علمي فقط أن لوحان تصادما ، كونا مداً أمواجه أتت على السواحل فدمرت كل شيء ، فقط ، معنى ذلك أن الله خلاق لكنه ليس فعالاً .

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام الآية : 59)

سقوط ورقة من شجرة لا يعلمها إلا هو فكيف بهذا الزلزال ؟!!

التوحيد أن ترى أن يد الله فوق يد البشر :

أيها الأخوة ، قضية التوحيد هي أخطر قضية في الدين ، التوحيد أن ترى أن يد الله فوق يد البشر .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (10))

(سورة الفتح الآية : 10)

وقال :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (17))

(سورة الأنفال الآية : 17)

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، كل هؤلاء الطواغيت ، وكل هؤلاء المجرمين هؤلاء بيد الله عز وجل ، يحركهم أو يمنعهم ، فالضر بيد الله ، والخير بيد الله ، لكن علماء العقيدة يقولون : لا ينبغي أن تقول الله ضار مع أن من أسماءه الضار ، ينبغي أن تقول الضار النافع ، مثنى مثنَى ، المانع المعطي ، الخافض الرافع ، لماذا ؟ لأنه يضر لينفع ، ويبتلي ليجزي ، ويخفض ليرفع ، ويذل ليعز ، وهذه سياسة الله .

امتحن إيمانك بقدر توحيدك لأن التوحيد هو الدين كله :

قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

لا تمتحن إيمانك بقدر ما تحفظ من حقائق ، امتحن إيمانك بقدر توحيدك ، والتوحيد هو الدين كله ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، يعني الأخطار كلها بيد الله ، نجاتك وما فيها متوقف على أن الله

سبحانه وتعالى يتولى حمايتك ، وطموحاتك كلها بلوغك إياها متوقف على تيسير الله عز وجل ، أنت حينما ترى أن الضر والنفع بيده ، والمنع والعطاء بيده ، والرفعة والانخفاض بيده تتجه إليه ، وهذا المطلوب منك ؛ أن تتجه إليه وحده وأن تكفر بمن سواه ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18))

(سورة الأنعام)

لا قهراً مكانياً فوق ، ليس المعنى أنه يقهرهم مكانياً ، يقهرهم لأن كل شيء في الكون يحتاج الله في كل شيء ، كل شيء يحتاجه في كل شيء ، إذاً الأمر بيده ،

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

وسبحان من قهر عباده بالموت ، والإنسان وجد حلاً لكل مشكلات الأرض ، والله هناك حلول قد لا تأتي على البال ، هناك حلول لكل مشكلات الأرض إلا الموت فلا حل له :

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

سبحان من قهر عباده بالموت !

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

حكيم بأفعاله ، خبير بعباده ، أفعاله فيها حكمة ، فالذي وقع لا بد من أن يقع ولو لم يقع لكان الله ملوماً ، والذي لم يقع لا بد من أن لا يقع ، ولو وقع لكان نقصاً في حكمة الله .

التوحيد إذا صحّ في الإنسان صحّ عمله وسلم ونجا :

الله عز وجل قال :

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44))

(سورة القلم)

نخبة أغنياء العالم تذهب في هذه الأيام إلى سواحل المحيط الهندي ، وهذه السواحل من أجمل سواحل الأرض ، وحجزوا في أرقى المنشآت السياحية ، وكل المحرمات تُفعل هناك ، كل المتع المحرمة في الشرائع السماوية الثلاث تُفعل هناك ، استدرجوا والرقم يقترب من مئتين وخمسين ألفاً ، نخبة أغنياء العالم والرقم يقترب من مئتين وخمسين ألفاً .

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

أيها الأخوة ، لا بد من توضيح ، ليس كل من هلك في الزلزال مذنب ، التعميم من العمى ، كل إنسان يموت على نيته ، وعلى عمله ، الحديث عن الذين هلكوا في الزلازل يجب أن يكون دقيقاً ، فهذه المصيبة للمذنب عقاب ، وللمؤمن ابتلاء ، وقد يكتب شهيداً ، وللناجي من غير المؤمنين تحذير وإنذار،

هذا كلام دقيق ، لا أحب أن يتورط أحد في أن يصف كل الذين هلكوا في الزلزال بأنهم مذنبون ، هذا الصواب ، لكن :

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (17))

(سورة الإسراء الآية : 17)

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

يحتاجونه في كل شيء ، يحتاجه كل شيء في كل شيء ، وقد قهرهم بالموت ،

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

أي حكيم في أفعاله خبير بعباده .

الآيتان اللتان شرحتا في هذا الدرس تتحدثان عن التوحيد ، والتوحيد إذا صح في الإنسان صح عمله وسلم ونجا ، قد يسأل أحدكم : ما الطريق إلى التوحيد ؟ الطريق إلى التوحيد أن تزداد معرفة بالله ، أن تتعرف إلى الله عز وجل من خلال خلقه ، ومن خلال أفعاله ، ومن خلال كلامه ، فكلامه أي قرآنه طريق إلى معرفته عن طريق التدبر ، وأفعاله طريق إلى معرفته عن طريق النظر ، وخلقه طريق إلى معرفته عن طريق التفكر ، فإذا ازدادت معرفتك بالله ، ثم إذا استقمت على أمر الله ، ورأيت فعل الله كيف أن الأمور تجري لصالح المؤمن ، عندئذٍ يزداد توحيدك ، الدعاء يقوي العقيدة ، أنت حينما تدعوه ويأتي الجواب توفيقاً أو صرفاً عنك ، وهذا الأمر كبير فوق طاقتك توقن أن الله سمعك واستجاب لك وأن الأمر بيده ، فكلما زدت في تعاملك معه ورأيت من آياته الباهرة ازددت توحيداً .

أيها الأخوة ، نتابع هذه الآيات في درس قادم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(06-73): تفسير الآيات 19-24 ، الإيمان الحقيقي أن تعلم أن الله فعال لما يريد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-01-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنين ، مع الدرس السادس من دروس سورة الأنعام .

الذين ألفوا اقتناص اللذات وكسب الأموال المحرمة يرفضون نبوة النبي ورسالة الرسول:

مع الآية التاسعة عشر ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ((19))

أيها الأخوة الكرام ، حينما يرسل الله إنساناً هو رسول للناس ، ويقول لهم : أنا رسول الله ، ومعه منهج فيه أمر وفيه نهي ، ولأن الإنسان حينما يتبع شهوته لا يألف الأمر والنهي ، يألف التفلت والحرية المطلقة ، وهذا شأن المجتمعات حينما تبتعد عن منهج الله ، الكلمة التي تُقال بالعالم الغربي : الحرية . الحقيقة أن هذه الكلمة لها حدود لا تنتهي ، لكن الواقع يبين أن من معاني هذه الحرية التي يفهمونها أن تفعل كل شيء ، ألا تُسأل ، أن تفعل كل شيء يحلو لك ، هذه ليست حرية إنما هي تفلت ، على كلٍ الإنسان إذا ألف التفلت ، إذا ألف أن يمارس الشهوة بلا قيود ، ولا حدود ، ولا ضوابط ، والشهوات الكبرى كسب الأموال ، ومقاربة النساء ، وما من فساد في الأرض إلا ويرتكز على حرية في كسب الأموال ، وحرية في اقتناص اللذائذ ، ما من فساد في الأرض إلا ويرتكز على حرية ؛ أي إباحية ، أي تفلت من منهج الله عز وجل في كسب الأموال ، وحرية أو إباحية أو تفلت في العلاقة بالجنس الآخر ، هؤلاء الذين ألفوا اقتناص اللذات ، وكسب الأموال المحرمة هؤلاء يرفضون نبوة النبي ورسالة الرسول، والجواب الأول له :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ((43))

(سورة الرعد الآية : 43)

أكبر دليل أن هذا القرآن الكريم كلام الله هو وقوع الوعد والوعيد:

إذا جاءك إنسان ولم يقيدك ، ولم يلزمك بعمل ما ، قد تجامله وقد ترحب به ، لكن حينما يلزمك بشيء يقلل من حريتك فردُّ الفعل الطبيعي أن تكذبه ، لذلك هؤلاء الأنبياء والرسل لا بد لهم من دليل يؤكد نبوتهم ورسالتهم ،

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

فكيف يثبت هذا الإنسان أنه رسول من عند الله ؟ بل كيف يشهد الله له أنه رسول ؟ الآية تشير إلى أنهم طالبوه أن يشهد الله له ، إذا كان الله هو أرسلك فليشهد أنه أرسلك ، فليعلمنا أنه أرسلك ، ثم يقول الله عز وجل :

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً)

أي إن أردتم دليلاً على أنني رسول ، إن أردتم شاهداً ، أكبر دليلٍ ، بل أكبر شهادة هي شهادة الله عز وجل :

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)

هذه الشهادة التي هي شهادة الله ، وهذه البينة التي كانت من الله ، وهذا الدليل الذي معي إنما هو شهادة الله ، وشهادة الله مركزة في القرآن الكريم :

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ)

التسلسل كما يلي : هذا الكتاب كلام الله عز وجل ، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، في هذا القرآن دليلان كبيران صارخان على أنه كلام الله ، أول دليل : أن الوعود التي في القرآن والوعيد الذي في القرآن يتحقق ، وتحققه لا يمكن أن يكون إلا عن طريق خالق البشر .

قصص كثيرة وردت في القرآن الكريم هي في الحقيقة وقوع الوعد والوعيد:

الله عز وجل قال :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا (276))

(سورة البقرة الآية : 276)

أي إنسان يتجرأ على الله ، ويأكل الربا ، أو يُطعم الربا يرخى له الحبل إلى حين ثم يُدمر ، ثم يُتلف ماله ، فتدمير ماله شهادة الله لهذا الإنسان أن هذا القرآن كلام الله بدليل وقوع الوعيد ، إنسان عمل عملاً صالحاً فعاش حياة طيبة ، الحياة الطيبة التي يحياها المؤمن هي شهادة الله لهذا المؤمن أن القرآن

كلامه، فالحياة الطيبة لا يملكها إلا خالق الإنسان ، ولأنه آمن ونفذ تعليمات الله عز وجل فالله منحه هذه الحياة الطيبة .

أيها الأخوة ، وقوع الوعد والوعيد شهادة الله لهذا الإنسان أنه كلام الله ، هناك قصص كثيرة لا تعد ولا تحصى هي في الحقيقة وقوع الوعد والوعيد ، إذاً أكبر دليل في هذا القرآن على أنه كلام الله أن ما فيه من وعود تحققت إنما هي شهادة الله عز وجل .

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3)فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4))

(سورة الروم)

طبعاً هذه الآية نزلت قبل أن يغلب الروم ، فلما غلبت الروم وقوع هذا الوعد كان شهادة الله لهذا الإنسان أن هذا القرآن كلامه ، وإن أردت أن توسع الموضوع أو أن تضيقه سيان ، لكن أنت لمجرد أن تصطلح مع الله ، وأن تستقيم على أمره تشعر بسعادة ، تشعر بسكينة ، لأن الله سبحانه وتعالى حينما قال :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل)

حينما تصدق أنك مخلوق للجنة ، وتبني حياتك على العطاء ، وتتقي أن تعصي الله تجد أن الأمور جرت لصالحك ، وهذه الأمور جرت من قبل خالق الأكوان .

الإشارات التي تسمى إنجازاً علمياً عددها كبير جداً تقترب من ثلث القرآن:

إذاً أكبر دليل من هذا القرآن الكريم على أنه كلام الله هو وقوع الوعد والوعيد ، وقوع الوعد شهادة الله لهذا الإنسان أن هذا القرآن كلامه ، ووقوع الوعيد شهادة الله لهذا الإنسان بأن القرآن كلامه . مثلاً :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

(سورة مريم)

المسلمون حينما أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، لقوا ذلك الغي ، وهذا الغي الذي هم فيه الآن شهادة الله للبشر أن هذا القرآن كلام خالق البشر ، هذا دليل .

الدليل الآخر : أن الله سبحانه وتعالى أورد في هذا القرآن قريباً من ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون، هذه الآيات الكونية بعضها فيه مفهوم علمي ، وبعضها فيه إعجاز علمي ، معنى الإعجاز أن إشارة قرآنية إلى عظمة الله عز وجل من خلال خلقه لم تكشف إلا في نهاية الزمن ، إلا بعد ألف وخمسمئة عام ، وعندما نزل الوحي مستحيل أن يستطيع مخلوق على سطح الأرض أن يكشف هذه

الحقيقة ، فهذه الإشارات التي تسمى إن شئتم سبقاً علمياً ، أو تسمى إن شئتم إنجازاً علمياً ، هذه عددها كبير جداً تقترب من ثلث القرآن .

بعد تقدم علوم الطب اكتُشف أن نوع الجنين يحدده الحوين لا البويضة ، فإذا قرأت القرآن الكريم :

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

بعض الأدلة عن الإعجاز العلمي في القرآن :

حينما نكتشف أن كل شيء يدور في هذا الكون بدءاً من الذرة وانتهاء بالمجرة ، ثم تقرأ قوله تعالى :

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة يس الآية : 40)

حينما يكتشف رواد الفضاء أن الفضاء الخارجي مظلم ظلاماً تاماً لانعدام الهواء في الفضاء الخارجي، وحينما تقرأ قوله تعالى :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15))

(سورة الحجر)

حينما ارتاد الإنسان الفضاء ، وشعر بضيق صدره كلما علا في طبقات الجو تقرأ قوله تعالى :

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ (125))

(سورة الأنعام)

حينما يكتشف أن بين كل بحرين حاجزاً يمنع اختلاط مياه البحر بمياه البحر الآخر ، وأنه تمت بحوث علمية مطولة اكتُشف فيها أن لكل بحر مكوناته ، وطبيعته ، وملوحته ، وكثافته ، وخصائصه ، ثم نقرأ قوله تعالى :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(سورة الرحمن)

كروية الأرض ودورانها حول الشمس وردت في القرآن الكريم :

حينما يكتشف مؤخراً أن الأرض تدور حول الشمس ، وأن الشمس بالنسبة إلى الأرض ثابتة ، لكن الشمس مع المجموعة الشمسية تتجه إلى نقطة في الفضاء الخارجي ، أما في العين الظاهرة الشمس تدور حول الأرض ، بهذه العين الشمس تشرق وتغرب ، وتشرق وتغرب ، فالمتحرك هو الشمس ، لكن حينما نطلع على آيات القرآن الكريم نجد أن :

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا (38))

(سورة يس الآية : 38)

الأرض هي التي تدور حول الشمس ، وحينما يكتشف أن الأرض كرة ، وأن الله سبحانه وتعالى أشار إلى هذه الكروية في آيات عديدة ، فقال تعالى :

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (61))

(سورة الحج الآية : 61)

لا يقبل من شكل هندسي إلا الكرة إذا دارت هذه الكرة حول منبع ضوئي فتداخل النور والظلام ، على هذا الشكل هذه الحادثة لا تكون إلا في الكرة ، أما في المكعب فالضوء يأتي فجأة ، ويغيب فجأة ، إلا في الكرة تتداخل الأشعة مع الظلام في وقت واحد ، والدليل أنه بين الفجر وبين طلوع الشمس في تداخل بين النور والظلام ، وأنه بين المغرب وغياب الشفق الأحمر هناك تداخل بين الضوء والظلام ، ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ (3))

(سورة الرعد الآية : 3)

ما من شكل هندسي تمد عليه الخطوط إلى مالا نهاية إلا الكرة ،

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

وآيات كثيرة جداً في هذا الموضوع .

أكبر شهادة لله عز وجل لخلقه أن محمداً بن عبد الله هو رسول الله هو هذا القرآن:

إذاً الآيات المتعلقة بالإعجاز العلمي ، أو بالسبق العلمي التي يستحيل على الإنسان أن يعرفها وقت نزول الوحي هذه الآيات هي شهادة الله لنا جميعاً أن هذا القرآن كلامه ، مادام هذا القرآن كلام الله عز وجل فالذي جاء به رسول الله .

إذاً : يمكن أن نقول إن أكبر شهادة لله عز وجل لخلقه أن محمداً بن عبد الله هو رسول الله هو هذا القرآن .

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)

ألا ترضون أن يكون الله هو الشهيد ؟ يقال : نعم ، وكيف يشهد الله لك يا محمد ؟ يقول : هذا القرآن ، مادامت وعود القرآن تتحقق ، وما دام وعيد القرآن يتحقق ، ومادام في القرآن إشارات علمية يستحيل فهمها وقت نزول الوحي ، بل تفهم الآن بعد تقدم العلم ، وما دام الله عز وجل يقول :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ (53))

(سورة فصلت الآية : 53)

هذان الدليلان الكبيران وقوع الوعد والوعيد ، وآيات الإعجاز العلمي هي شهادة الله للبشر أن هذا الذي جاء بهذا الكتاب هو رسوله ، إذاً حينما تُسأل ما الدليل القاطع على أن هذا الإنسان الذي اسمه محمد بن عبد الله هو نبي ورسول وليس عبقرياً ومصلحاً ؟ إنه القرآن الكريم .

كل شيء في الأرض يدل على الله عز وجل:

التسلسل في الإيمان على النحو التالي :

هذا الكون هو الثابت الأول ، يراه كل الناس ، يراه الكفار ، ويراه المؤمنون ، يراه أهل الأديان كلهم ، هذا الكون المترامي الأطراف ، هناك أرقام تكاد لا تصدق ، مئتان وثلاثون مليار مجرة ، في كل مجرة عدد كبير من المليارات من الكواكب ، هذا الكون ثابت ، يراه الناس جميعاً ، يرون الشمس والقمر ، يرون البحار والأنهار ، يرون الجبال والمنخفضات ، يرون الحيوانات على كثرتها ، يرون الأسماك ، يرون الأطيار ، يرون النبتات ، كل شيء في الأرض يدل على الله عز وجل .

هذا الكون ، هذا الكون لا يستطيع إنكار وجود صانعه إلا الإنسان ، فهل يعقل أن نضع قنبلة في مستودع للحديد والمحصلة طائرة من أحدث الطائرات ، بمحركات ، وأجهزة قياس ، وأجهزة ارتفاع ، وأجهزة تبريد ، ومقاعد وثيرة ؟ أيعقل أن يكون الانفجار منتهياً إلى طائرة ، لو فجرنا مطبعة أيعقل أن تكون المحصلة كتاب فيه حروف ، وفيه فصول ، وفيه أبواب ، وفيه حواشٍ وتعليقات ، وفيه علم ، فهذا الكون هو الثابت الأول ، فأنت بعقلك وحده تستطيع أن تؤمن بوجود الله ، وبأسمائه الحسنى ، في الكون رحمة ، وفي الكون حكمة ، وفي الكون علم ، وفي الكون قدرة ، وقدرة الله عز وجل تجلت قبل أسبوعين بهذا الزلزال الذي قوة تفجيره مليون قنبلة ذرية ، وأن هذا الموج كيف أنه دمر كل شيء ، وشاء الله لهذا الماء أن يكون نعمة فكان ، ويشاء له أحياناً أن يكون نقمة فيكون ، فهذا الكون يشف عن قدرة ، يشف عن علم ، يشف عن رحمة ، يشف عن حكمة ، فبعقلك يمكن أن تكتشف حقيقة الوجود الإلهي ، والكمال الإلهي ، والوحدانية الإلهية ، هذا أول شيء.

بعقلك وحده يمكن أن تكتشف أن هذا القرآن كلام الله من خلال إعجازه ، ومن خلال وقوع الوعد والوعيد ، وبعقلك وحده يمكن أن تكتشف أن الذي جاء بهذا القرآن المعجز هو رسول الله ، إذاً يمكن أن تؤمن إيمانا علمياً محضاً ، ويمكن أن تؤمن إيماناً عقلياً محضاً ، ويمكن أن تؤمن إيماناً يقينياً محضاً أن الله سبحانه وتعالى موجود وواحد وكامل من خلقه ، ومن كتابه ، ومن هذا الإنسان الذي بعثه الله للبشر جميعاً إنما هو محمد بن عبد الله .

بعد أن ينتهي عقلك من الإيمان بالله عن طريق الكون ، والإيمان بالقرآن عن طريق الإعجاز ، ووقوع الوعد والوعيد ، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم عن طريق القرآن ينتهي دور القرآن ، ينتهي دور العقل ، ويأتي دور التلقي ، يأتي دور الوحي ، فكل شيء يعجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به .

القرآن الكريم يخاطب الله به كل البشر إلى نهاية الدنيا والله تولى بذاته حفظ هذا الكتاب :

هذا الكلام كله أيها الأخوة يساق في قوله تعالى :

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)

هذا القرآن ليس لأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وليس لأهل مكة ، وليس لقريش ، وليس للعرب جميعاً ، وليس للذين عاشوا في حياة النبي e ، هذا القرآن لكل إنسان أتى بعد نزوله من القارات الخمس ، هذا القرآن يخاطب الله به كل البشر إلى نهاية الدوران ،

(لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)

بالمناسبة أيها الأخوة ، الله جل جلاله تولى حفظ هذا الكتاب ، تولاه بذاته ، ما معنى تولاه بذاته ؟ أمر أنبياءه السابقين أن يحفظوا الكتب السماوية ، قال تعالى :

(بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ (44))

(سورة المائدة الآية : 44)

أمر الأنبياء أن يحفظوا كتابه ، كتبه السابقة ، فحفظوها ، ولكن الله لم يتولَ حفظه فأتباعهم لم يحفظوه، بل غيروها وبدلوها ، لكن الله سبحانه وتعالى لأن هذا القرآن لنهاية الدوران ، ولكل الأمم والشعوب تولى الله بذاته حفظه ، مع هذا التفلت الذي ما بعده تفلت ، مع هذا الفسق والفجور الذي ما بعده فسق وفجور ، العناية بهذا القرآن تفوق حد الخيال ، العناية بكتابته ، بخطوطه ، بطبعاته ، بحفظه ، بمؤسساته ، شيء لا يصدق ، وما من كتاب على وجه الأرض حظي بالحفاظ عليه دقيقاً كما نزل ككلام الله عز وجل ، فالله تولى بذاته حفظ هذا الكتاب .

من لوازم حفظ كلام الله حفظ كلام النبي عليه الصلاة والسلام :

لعلماء العقيدة إضافة أخرى ، بما أن كلام النبي عليه الصلاة والسلام هو بيان وتوضيح لكلام الله فمن لوازم حفظ كلام الله حفظ كلام النبي عليه الصلاة والسلام ، لذلك هيأ الله لهذا الحديث الشريف رجالاً عظاماً أعطاهم ملكات تفوق حد الخيال ، فنقحوا هذا الحديث وبوبوه ، وصنفوه ، وأخرجوه ، وبينوا لنا المتواتر ، والصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والموضوعي ، أيضاً أن ينهض رجال كبار ويستخدمون

طاقات إنسانية كبرى من أجل الحفاظ على حديث رسول الله ، هذا أيضاً يندرج تحت باب أن الله سبحانه وتعالى تولى حفظ كلامه .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9))

(سورة الحجر)

إذاً :

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)

القرآن الذي نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم هو هذا الذي بين أيدينا بالتمام والكمال ، قد يقول قائل ما الدليل ؟ أقول لك هذه قضية إيمانية ، لعلي أشرت قبل قليل إلى أنه يمكن أن تؤمن بالله من خلال خلقه عن طريق عقلك ، ويمكن أن تؤمن بالله من خلال كلامه عن طريق التدبر ، ويمكن أن تؤمن بالله عن طريق رسوله ، ولكن قضية أن الله تولى حفظه هذا إخبار من الله عز وجل ، فإذا آمنت بهذا الثابت الأول الكون الذي يدل على الله ، ثم آمنت بإعجاز القرآن الكريم على أنه كلام الله ، وعلى أنه بكل آياته قطعي الثبوت ، قال الله عز وجل في هذا القرآن :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9))

(سورة الحجر)

هذه قضية إيمانية ، كما أنك تعالج قضايا متنوعة .

القضايا التي غابت عنك عينها و آثارها دليل اليقين بها الخبر الصادق:

هناك قضايا أداة اليقين بها الحواس الخمس فقط ، القضايا التي ظهر فيها عين الشيء وآثاره ، والقضايا التي غابت فيها عين الشيء وبقيت آثاره أداة اليقين بها العقل فقط ، بعرة تدل على البعير ، أقدام تدل على المسير ، ماء يدل على الغدير .

القضايا التي غابت عينها وآثارها دليل اليقين بها الخبر الصادق ، الله عز وجل أخبرنا بقرآنه أنه حفظ هذا القرآن ، فإيماننا بحفظه ، وأن الذي بين أيدينا هو نفسه الذي نزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، هذه قضية إيمانية لا تحتمل المناقشة :

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى)

الآن الشهادة شهادة عملية ، لك أن تشهد بلسانك ، ولك أن يشهد عليك عملك ، فأنت حينما تخاف من غير الله ، وترجو ما عند غير الله ، وتعتز بغير الله ، وتلجأ إلى غير الله ويكون ولاؤك لغير الله ، ويكون عملك لغير الله ، هذا سلوك عملي هو في الحقيقة شهادة عليك أنك مشرك بالله :

(لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى)

المؤمن يعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى فعال وحده وأن يد الله فوق أيديهم :

حينما تطيع مخلوقاً وتعصي خالقاً فهذه شهادة منك عملية على أنك لست موحداً ، أنت حينما تغش المسلمين ـ لا سمح الله ولا قدر ـ لماذا غششتهم ؟ لأنه اعتقدت دون أن تشعر أن هذا المال الذي تكسبه من غش المسلمين أكبر عندك من طاعة الله ، فالإنسان حينما يرضي الناس بسخط الله يقدم شهادة من عنده على أنه مشرك ، وحينما يرضي مخلوقاً ويعصي خالقاً يقدم شهادة على أنه مشرك ، قال تعالى :

(أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ)

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

فالمؤمن يتقد بكل قطرة في دمه ، وبكل خلية في جسمه أن الله سبحانه وتعالى فعال وحده ، وأن يد الله فوق أيديهم ، وأنه :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (17))

(سورة الأنفال الآية : 17)

الإيمان الحقيقي أن تعلم أن الله فعال لما يريد:

قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (123))

(سورة هود الآية : 122)

بيده مقاليد السماوات والأرض .

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف)

وقال :

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2))

(سورة الفتح)

أنت حينما تعتقد هذا الاعتقاد التوحيدي تكون مؤمناً حقاً ، والإيمان لا يرقى إليك بإيمانك أن الله موجود، وأن الله خالق السماوات والأرض ، ولكن الإيمان الحقيقي أن الله فعال لما يريد .

ابدأ بمعرفة الله لا من خلال أفعالهبل من خلال خلقه وكلامه :

قال تعالى :

(أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

قد ترى حروباً ، واجتياحات ، وزلازل ، وبراكين ، وحروباً أهلية ، وحروباً دولية ، وظلماً في الظاهر ، وإنساناً يُقتل ، وإنساناً يُعذب ، وإنساناً يُهدم بيته ، هذا كله يؤكد أن الله سبحانه وتعالى وحده هو الفعال ، لكن حينما تبدأ بمعرفة الله من خلال أفعاله أقول لك هذا طريق محفوف بالمخاطر ، ابدأ بمعرفة الله لا من خلال أفعاله بل من خلال خلقه وكلامه، إذا أتقنت معرفة الله من خلال خلقه ثم كلامه عندئذٍ هذا الذي حصَّلته من إيمانك من خلال خلقه وكلامه ينعكس على فهمك لأفعاله :

(قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

لذلك قال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء)

أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تدعو مع الله إله آخر ،

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

والشيء المريح وحده هو أن توحد وأن تؤمن .

الإنسان حينما يكذب بهذا الدين يخسر نفسه:

أيها الأخوة ، ثم تأتي الآية التي بعد هذه الآية :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20))

(سورة الأنعام)

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ)

أي رسول الله ،

(كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ)

الآية دقيقة جداً ، فما من معرفة أثبت ولا أصدق ولا أسرع من معرفة الأب لابنه ، هل هناك أب على وجه الأرض يسأل ابنه ما اسمك ؟ أم أنت من ؟ مستحيل ، وأقرب معرفة بديهية للإنسان معرفة ابنه ، الأدلة التي جاءت على يد النبي صلى الله عليه وسلم هو هذا القرآن ، وهذا القرآن يمكن أن تعرفه بالفطرة ، ولمجرد أن تقرأه تعلم أنه كلام الله ، ولمجرد أن تقرأ كلاماً مزوراً لا يستأهل منك إلا

سخرية، الآن هناك فرقان الحق ، أنا متأكد وأعني ما أقول أن واحداً في العالم الإسلامي ، واحداً كائناً من كان ، إذا قرأه يشعر بكل خلية في جسمه ، وبكل قطرة في دمه أنه كلام مفترىً على الله ، هناك دليل فطري في القرآن عجيب ، تقرأ كلام الله يقشعر جلدك ، وتشعر أن الذي يتكلم هو خالق السماوات والأرض ، ولا تستطيع جهة في الكون أن تقول كلاماً توهمك أنه كلام خالق الكون ، إلا الله عز وجل .

لذلك :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ)

لأهواء سيطرت عليهم ، ولمصالح خافوا على ضياعها ، أنكروا نبوة النبي عليه الصلاة والسلام ، وأنكروا أن يكون هذا القرآن كلام الله لكنهم في الحقيقة يعرفون رسول الله على أنه رسول الله

(كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ)

وما من تشبيه أبلغ من هذا التشبيه ، معرفة أهل الكتاب للنبي عليه الصلاة والسلام على أنه نبي ، ومعرفة أهل الكتاب للقرآن أنه كتاب الله لا تبتعد عن معرفة الأب لابنه :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ)

لكنهم حينما لم يؤمنوا به ، وحينما أنكروا نبوة النبي عليه الصلاة والسلام خسروا أفدح خسارة ،

(خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)

قد تخسر بيتك لا سمح الله ، وقد تخسر مالك ، ولكنك أنت أهم شيء ، الإنسان قد يخسر ماله كله ، وبعدها يصبح أكبر الأغنياء ، وبعدها يصبح غنياً كبيراً ، ولكن حينما يخسر نفسه خسر كل شيء ، فالإنسان حينما يكذب بهذا الدين خسر كل شيء ، يعني خسر نفسه .

الرابح الأول هو الذي ربح نفسه والخاسر الأول هو الذي خسر نفسه:

قال تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

أي إن لم تؤمن خسرت نفسك ، وإن آمنت ربحت نفسك ، والرابح الأول هو الذي ربح نفسه ، والخاسر الأول هو الذي خسر نفسه .

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (15))

(سورة الزمر الآية : 15)

التكذيب يوصل إلى الخسارة الفادحة ، الإنسان بيده أشياء كثيرة ، خسر محل تجارة لم تربح ، شريك اقتنص الشركة لكن طاقاته وإمكانياته موجودة ، أما إذا قُتل توقف كل شيء . شيء آخر ، في مرحلة أخرى غير أنك لا تؤمن ، قال :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21))

(وَمَنْ أَظْلَمُ)

عند الله أي : من أشد الناس ظلماً ؟

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

كذب بالقرآن ، كذب بنبوة النبي عليه الصلاة والسلام ، الآن اخترع شيئاً لم يقع :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21))

صار إنساناً لم يؤمن فخسر ، الإنسان فضلاً عن أنه لم يؤمن أورد روايات كاذبة واخترع شيئاً لا أصل له ، هذا أصبح ظالم ، خاسر ظالم .

عندما رتب الله المعاصي تصاعدياً جعل على رأس هذه المعاصي أن تفتري على الله الكذب:

قال تعالى :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21))

عندما رتب الله عز وجل المعاصي ترتيباً تصاعدياً بدأ بالفحشاء والمنكر ، ثم بالإثم والعدوان ، ثم بالشرك ، ثم بالكفر ، وجعل على رأس هذه المعاصي الكبيرة :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169))

(سورة البقرة الآية : 169)

أن تفتري على الله الكذب ، أن تقول مثلاً : إن الله خلق الإنسان في الأصل كافراً جاء إلى الدنيا نفذ مشيئة الله عز وجل ، لأن الله قدر عليه الكفر ، ثم وضعه الله في جهنم إلى أبد الآبدين ، هذا افتراء على الله ، هذا سوء ظن بالله عز وجل ، بل إن عقيدة الجبر فيها إساءة إلى الإيمان بالله عز وجل :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

* * * *

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21)وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22)ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23)انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24))

تكاد ترقى هذه الأعمال إلى مستوى الجريمة ، إن لم تؤمن خسرت نفسك ، وخسرت كل شيء ، وخسرت الأبد ، إن افتريت على الله كذباً كنت ظالماً أشد الظلم ، فالإنسان إن لم يؤمن وغطى عدم إيمانه بافتراء على الله وعلى كتابه وعلى رسوله صار خاسراً ظالماً ، لذلك يوم القيامة حينما يسأل يقول :

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

يقول الله عز وجل :

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(07-73): تفسيرالآيتان 25-26 ، سبب قبول الهداية أو رفضها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-02-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس السابع من دروس سورة الأنعام .

هذه الآية على إيجازها فيها حقائق خطيرة ودقيقة متعلقة بالإيمان:

مع الآية الخامسة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25))

أيها الأخوة الكرام ، هذه الآية على إيجازها فيها حقائق خطيرة ودقيقة متعلقة بالإيمان .

كلكم يعلم أيها الأخوة أن أول حاسة تنشأ في الإنسان هي حاسة السمع ، أما حاسة البصر فتكون بعد الولادة ، لذلك أكثر الآيات القرآنية التي ورد فيها السمع والبصر جاء السمع مقدماً على البصر ، إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى يشق سمع الإنسان قبل أن يتكون بصره بالضبط ، لذلك الاستماع هي الملكة الأولى في نقل الواقع إلى الإنسان ، أنت ما الذي تراه في بيتك ؟ في الغرفة التي أنت فيها تقف حاسة البصر عند الجدران ، لكن أحياناً تقول : أسمع صوتاً غريباً ، لكن الأذن تستطيع أن تكشف أية حركة في البيت ، بل في كل غرف البيت ، وأحياناً تدخل حشرة أو حيوان صغير تحت السرير ويموت ، ما الذي يكشفه ؟ رائحة الشم ، فمن حاسة البصر ، إلى حاسة السمع ، إلى حاسة الشم .

الأنبياء ألقوا الكلمة ، وفهمها مَن حولهم عن طريق السمع ، لذلك تعد حاسة السمع الأداة الأولى لتلقي الهداية ، ويعد النطق الشفهي الأداة الأولى في تبليغ الدعوة .

الله عز وجل له آيات ظاهرة متجسدة في هذا الكون:

أيها الأخوة ، المشكلة أن الإنسان يرى بعينه آيات الله الدالة على عظمته ، ويسمع بأذنه ما ينطق به الأنبياء ، لذلك :

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ (36))

ما الفؤاد ؟ هو العقل .

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

(سورة الإسراء)

إذاً ما زودك الله بحاسة البصر ، وحاسة السمع ، وجهاز الإدراك المتمثل في الدماغ إلا من أجل أن تهتدي إلى الله عز وجل ، ثم ما علمك الله البيان .

(الرَّحْمَنُ (1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2)خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

إلا ليكون البيان أداة نقل الحق إلى الآخرين ، فصار السمع والبصر والفؤاد ، أنت بالسمع تأتيك المعرفة جاهزة من أفواه الأنبياء إن عاصرتهم ، ومن أفواه صحابتهم ، أو التابعين ، أو من ينوب عنهم من العلماء العاملين الربانيين .

إذاً حاسة السمع تتلقى بها ما تكلم به الأنبياء ، وحاسة البصر تنظر من خلالها إلى ملكوت السماوات والأرض ، فالله عز وجل له آيات ظاهرة متجسدة في هذا الكون ، وله وحي متجسد في هذا القرآن والسنة ، فلذلك إما أن تأتيك المعرفة جاهزة عن طريق الأنبياء أو أصحابهم أو من ينوبون عنهم ، وإما أن تتفكر في خلق السماوات والأرض .

الحقيقة واحدة إما أن تأتيك عن طريق الوحي أو عن طريق التأمل:

قال تعالى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37))

(سورة ق)

المعارف إما أن تأتيك جاهزة فتتفكر فيها وتبحث ، وتنقلها إلى أفكار متبناة ، أنت إما أن تأتيك المعرفة جاهزة تتفكر فيها ، والدليل :

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ الآية : 46)

إن جاءتك المعرفة جاهزة عليك أن تتأمل فيها ، وإن فكرت في خلق السماوات والأرض وصلت إلى الحقيقة التي ينبغي أن تبحث عنها ، يعني الحقيقة واحدة إما أن تأتيك عن طريق الوحي ، وإما أن تأتيك عن طريق التأمل ، إما أن تأتيك عن طريق وحي السماء ، وإما أن تأتيك عن طريق التأمل .

لكن الحقيقة التي تأتي عن طريق التأمل قد يعتورها الخطأ ، لأن العقل قد يخطئ، أما الحقيقة التي تأتيك عن طريق الوحي لا يمكن أن يعتورها الخطأ ، بالضبط كما لو أن عندك مذياع ، وأردت أن تفككه ، وأن تدرك تفاصيل صنعته ، قد تحذف صماماً منه فينقطع الصوت ، فأنت تتوهم أن هذا الصمام للصوت ، لكن قد يكون لتصفية الصوت ، وقد يكون على طريق الصوت ، فلما نزعته انقطع

الصوت ، فمعرفتك التجريبية التأملية قد يعتورها الخطأ ، أما إذا التقيت بمن اخترع هذا الجهاز وأعطاك بياناً توضيحياً لخصائص كل صمام فحقيقة المخترع لا يمكن أن يعتورها الخطأ .

لذلك الحق واحد ، فإما أن تصل إليه ببحثك ، ودرسك ، وتفكرك ، وتجريبك ، وإما أن تصل إليه عن طريق تصديق الوحي .

خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط :

أيها الأخوة ، أخطر قضية في الموضوع أنك إذا عرفت الحقيقة عن طريق التجربة ، والتأمل ، والتفكر ، والبحث ، قد تأتي المعرفة الصحيحة متأخرة ، وقد تأتي بعد فوات الأوان ، بالضبط ، كما لو أنك رأيت في الطريق كرة وتوهمتها قنبلة ، فأنت في شك بين أن تكون كرة وبين أن تكون قنبلة ، لو أتيت بخبير الألغام وقال لك : إنها قنبلة ، حفظت نفسك ، أما لو أردت أن تجرب هذا بنفسك ، وأمسكتها، وتأملتها ، وتفحصتها ، وقلبتها فانفجرت تدرك لأقل من ثانية إنها قنبلة ، ولكن لم يبقَ في الحياة ثانية تنتفع بهذه الخبرة .

هذا الكلام مفاده أن الإنسان بعد فوات الأوان قد يكتشف الحقيقة ، ولكن يكتشفها ولا ينتفع بها ، كفرعون تماماً حينما أدركه الغرق قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91))

(سورة يونس)

هذا الكلام ينقلنا إلى شيء آخر ، ما من إنسان على وجه الأرض ولاسيما الكفار إلا ويعرفون الحقيقة عند الموت ، الحقيقة التي جاء بها الأنبياء .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

إذاً خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط ، إما أن تؤمن في مقتبل العمر فتنتفع في هذا الإيمان استقامةً وإقبالاً وعبادةً ، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان وعندئذٍ هذا الإيمان لا ينفع .

(لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً (158))

(سورة الأنعام الآية : 158)

الفرق بين الدعوة الشفهية والدعوة المكتوبة :

إذاً أول حاسة لتلقي الحق هي السمع ، ثم تأتي حاسة البصر ، ترى الآيات ، ترى الشمس ، القمر ، الليل ، النهار ، ترى البحار ، الأنهار ، الأطيار ، الأسماك ، ترى الطعام والشراب ، ترى أولادك الذين هم بين يديك ، إذاً أنت عن طريق السمع تصل إلى الحقيقة بشكل مبسط ، لذلك أنبياء الله عز وجل استخدموا الدعوة الشفهية .

الآن هناك دعوة شفهية ودعوة مكتوبة ، لكن ما الفرق بينهما ؟ الدعوة المكتوبة من ينتفع بها ؟ من يقرأ ويكتب فقط ، فإذا اكتفيت بالدعوة المكتوبة فقد قلصت المنتفعين بها إلى أصغر دائرة ، وكل مجتمعات المسلمين ، فالذي يقرأ ويكتب قلة وليسوا كثرة ، بل الذي يقرأ ممن يحسن القراءة أيضاً قلة ، هناك من لا يقرأ ولا يكتب ، فحينما اقتصرت الدعوة على الكتابة كان حيزها قليلاً ، لذلك قالوا : إما أن تؤلف الكتب ، وإما أن تؤلف القلوب ، تأليف القلوب أعمق أثراً ، وأقل أمداً ، لكن تأليف الكتب أقل أثراً ، وأطول أمداً .

من هو الإمام الغزالي لولا إحياؤه ؟ كان في درسه أربعمئة عمامة ، فلما توفاه الله عز وجل انتهى هذا الدرس ، وانتهت هذه الدعوة ، ما الذي أبقاه حياً إلى الآن ؟ كتاب الإحياء مثلاً ، من هو القرطبي من دون تفسيره ؟!!

لذلك الأولى ممن يجد في نفسه قدرة على العطاء أن يجمع بين تأليف القلوب وبين تأليف الكتب ، تأليف القلوب أعمق أثراً ، وأقل أمداً ، بينما تأليف الكتب أقل أثراً ، وأطول أمداً .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)

الصورة وخطرها على أطفالنا :

الآن ـ وهذه حقيقة ينبغي أن أدلي بها ـ العولمة العالمية لم تعتمد على الكلمة المنطوقة بل اعتمدت على الصورة التي تشمل كل إنسان ، وتستطيع العولمة الغربية أن تغسل أدمغة أهل الأرض عن طريق الصورة ، لذلك أخطر شيء على أولادنا وشبابنا الشاشة ، هذه الشاشة لا تهاجم الدين أبداً ، لكن تريك رجل الدين بوضع غير مقبول ، لا من حيث صحته ، ولا من حيث بيته ، ولا من حيث أولاده ، يمكن أن تشوه هذه الصورة بأبشع صورة .

لذلك الصورة أكبر خطر ، على من ؟ على أولادنا ، يمكن أن تنقل للجيل الصاعد كل الأفكار الكافرة والإلحادية ، وكل الأنماط الإباحية عن طريق فلم الكرتون ، اعتماد الصورة الآن السلاح الأكثر تأثيراً في العالم الإسلامي ، الصورة ، هذا سماه العلماء " التفجير من الداخل " ، إعطاء صورة قاتمة للمسلم،

والآن الحرب على المسلمين على قدم وساق ، وتعتمد في الدرجة الأولى على الإعلام ، الإعلام سيف مسلط على رقاب المسلمين ، ممكن طفلة صغيرة في بلد عربي لا ترتدي الحجاب تأتيها رصاصة فترديها قتيلة من مسلم متشدد ، هذا الخبر يُعرض مئة مرة ، يصبح المسلم مجرم ، بنت بريئة لطيفة صغيرة في السن ، وادعة ، فيأتي من يقتلها لأنها بلا حجاب .

الحقيقة الآن أن هناك معركة من أشد المعارك عن طريق الإعلام ، فلا يمكن أن تربي الجيل ثم تسلمه للإعلام ، ومن يُسلم الجيل للإعلام كأنما يُسلم الجيل إلى جهتين ، الأولى إباحية ، والثانية إلحادية ، لأن الطرح العقدي طرح إلحادي ، والطرح السلوكي طرح إباحي في معظم وسائل الإعلام التي تأتي عن طريق هذه الصحون ، الطرح العقدي طرح إلحادي ، والطرح السلوكي طرح إباحي ، فالذي يسلم أولاده للإعلام المستورد كمن يسلم أولاده لأستاذين الأول ملحد والثاني إباحي ، وهذا الذي أوهن القوة الفاعلة في المجتمع الإسلامي .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)

الفرق بين سمع واستمع ، قد يسمع الإنسان عرضاً ، شيئاً في الطريق ، تمشي في الطريق ، ومحل تجاري يفتح المذياع على أغنية ، أنت استمعت إليها شئت أم أبيت ، العين لها جفن ، الله عز وجل أمرنا بغض البصر ، أداة الغض هي الجفن .

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (30))

(سورة النور الآية : 30)

لكن الأذن مفتوحة دائماً ، لذلك أهل الكهف :

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (11))

(سورة الكهف)

طبعاً أجفانهم مغلقة ، فهم مقطوعون عن عالم الصورة ، لكن آذانهم مفتوحة ، إذاً هم مع الأصوات التي حولهم ، فلئلا يزعجوا ضرب الله على آذانهم بحيث منعهم عن أن يتلقوا الأصوات الخارجية .

هناك من يستمع إلى حديث الرسول لا ليفهمه أو ليهتدي به ولكن ليكون نقطة ضعف في الإسلام:

قال تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)

(مَنْ)

للتبعيض ، يستمع إليك لا ليؤمن ولكن ليقنص ، هناك إنسان قناص يستمع إليك ليرى المثالب والعيوب ، يستمع إليك ليرى نقاط الضعف ، يستمع إليك ليبحث عن طريقة يرد بها الحق .

أيها الأخوة الأكارم ، هناك من الطرف الآخر من يقرأ القرآن لا ليهتدي به ، يقرأ القرآن ليقتنص ما يتوهمه عيباً في نظم القرآن فيذيعه على الناس نقداً لاذعاً للقرآن ، هناك من يستمع إلى حديث رسول الله لا ليفهمه ولا ليهتدي به ولكن ليكون نقطة ضعف في الإسلام ، فهذه الآية دقيقة جداً ، تصور الطرف الآخر ،

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)

لا يستمع إلا ليقتنص المثلبة المتوهمة ، أو الخطأ المتوهم ، أو نقطة الضعف المتوهمة ،

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)

لكن الله عز وجل في أصل تصميم الإنسان قال :

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً)

أتمنى على الله عز وجل أن أُمكّن من توضيح المعاني الدقيقة من هذه الآية ، أنت حينما تنطلق من بيتك لتشتري أداة توقف فيضان مستودع المياه في بيتك ، هذا الفيضان الذي أتلف أكثر ما في البيت من أثاث بسبب أداة معطلة في هذا المستودع ، تنطلق أنت إلى السوق لتشتري هذه الأداة ، وأنت منطلق لا ترَى شيئاً إلا من يبيعك هذه الأداة ، صحيح هذا الكلام ؟ قد ترى في محل تجاري باقات ورود جميلة جداً ، لا تعنيك أبداً ، قد ترى في محل آخر هدايا أو قطع كريستال رائعة جداً لا تراها إطلاقاً ، لا ترَى إلا محلاً تجارياً يبيعك هذه الأداة التي توقف بها فيضان مستودع الماء ، فهذا الإنسان أعمى عن كل شيء ، وأصم عن كل شيء ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمّ))

[أبو داود من حديث أبي الدرداء ، وروي من حديث معاوية بن أبي سفيان]

هذا الإنسان من الطرف الآخر الذي يجلس في مجلس رسول الله لا ليهتدي أبداً ، ولا ليستمع أبداً ، يجلس ليقتنص ، ليبحث عن نقطة ضعف ليذيعها في جماعته .

الإنسان البعيد عن الله والغارق في الملذات لا يفقه من القرآن شيئاً وكأنه بلغة أعجمية :

قال تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً)

الأكنة جمع كنان ، والكنان هو الغطاء .

أنا سافرت إلى بلاد كثيرة ، في بعض البلاد لا يمكن أن أفهم حرفاً واحداً من لغتهم ، ولا الأرقام ، فلو أنني استمعت إلى محاضرة بتلك اللغة هل أفقه بالمئة خمسة منها ؟ ولا واحداً بالمئة ، ولا واحداً بالمليون ، ولا حرف ، قال تعالى :

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198)فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199))

(سورة الشعراء)

افتراضاً أو جدلاً ، لو أن هذا القرآن نزل بلغة أخرى ، بلغة أعجمية ، والذي أنزل عليه القرآن باللغة الأعجمية ، قرأه على مجتمع مكة ، هل يفقهون شيئاً ؟ الآن أنت اجلس بين أخوين من تركيا ، هل تفهم حرفاً واحداً من كلامهم ؟ بين أخوين من إيران هل تفهم حرفاً واحداً ؟ قال :

(مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

دققوا الآن :

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200))

(سورة الشعراء)

لو أن إنساناً عربياً قُحاً بعيداً عن الله عز وجل ، غارقاً في ملذاته وشهواته ، وقرأ القرآن لا يفقه منه شيئاً وكأنه بلغة أعجمية ،

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

لذلك قال تعالى :

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (44))

(سورة فصلت الآية : 44)

وقال :

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82))

(سورة الإسراء)

الذي لا يفقه القرآن لا يريد إلا الدنيا لأن الذي يحب الشيء يجعله أعمىً وأصماً عن الحق:

قال تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً)

الشهوات المستعرة في نفوسهم كانت حجاباً بينهم وبين القرآن ، فما فهموا شيئاً .

سؤال دقيق : لماذا يجلس في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أناس فهموا هذا القرآن وفاضت أعينهم من الدمع ، وأناس لم يتأثروا به إطلاقاً ما السبب ؟ هنا المشكلة ، الجواب عن هذا السؤال هو مفتاح هذه الآية ، هذا الذي تفكر في خلق السماوات والأرض ، وآمن بآيات الله الدالة على عظمته ، أولاً حينما يتلو القرآن الكريم يتصور أنه نزل من عند الخالق فهو يصغي إليه ، أما هذا الذي لم يتفكر في خلق السماوات والأرض أصلاً ، ما تفكر إلا في حظوظه ، وشهواته ، وأهوائه ، ونزواته ، ومصالحه ، هذا لا يفهم شيئاً ، لذلك أيها الأخوة أنا سأضع بين أيديكم هذه الحقيقة :

السبب في أن زيداً يفهم ، وعبيداً لا يفهم ، في أن فلاناً بكى من شدة التأثر ، وأن فلاناً بعيد بعد الأرض عن السماء عن أن يبكي ، السبب أن الأول طلب الحقيقة ، والثاني ما طلبها ، بالضبط تماماً كآلة تصوير من أعلى مستوى ، الآن هناك آلات احترافية ثمنها يزيد على مليوني ليرة ، هذه الآلة الاحترافية الغالية جداً تمثل إنساناً أراد الشهوة وما أراد الهدى ، كهذه الآلة ، هو ذكي جداً ، لكن ليس فيها الفيلم ، فعلى عظمة الآلة ، ودقتها ، ودقة عدستها وخصائصها المذهلة ، والتقريب والتبعيد لكن ليس فيها فيلم تنطبع عليه هذه المشاهد .

الذي لا يفقه القرآن معنى ذلك أنه لا يريد إلا الدنيا ، لأن الذي يحب الشيء يجعله أعمىً وأصماً عن الحق ،

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)

يستمعون إليك لينتقصوا ، يستمعون إليك ليكشفوا بعض الضعف ، يستمعون إليك لينتقدوك ، يستمعون إليك وشهوة السيطرة والكفر متمكنة في قلوبهم ، لأنهم كذلك شاءت حكمة الله ، وشاءت عدالته أن يكون حجاباً بينهم وبين هذا القرآن .

الكفر يجعل قلوب الكفار مغلفة:

قال تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً)

كأن آذانهم سُدت ، وأن قلوبهم مغلفة .

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ (88))

(سورة البقرة الآية : 88)

كفرهم جعل قلوبهم مغلفة :

(وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا)

لأن خطيب مسجد في بلاد المغرب قال : هذا الزلزال لعله تأديب من الله عز وجل للمذنبين ، وما تكلم إلا الحق ، قال : لعل بعض الذين أصابهم كانوا مذنبين ، قامت مظاهرات ، ونشأت فتنة ، لأن الإنسان يرفض الحق ، يريد تفسيراً أرضياً .

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ (45))

(سورة الزمر الآية : 45)

أما إذا ذكر الذي دونه :

(إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45))

(سورة الزمر الآية : 45)

إذاً هنا الآية لماذا زيد يفهم ، وعبيد لا يفهم ؟ لماذا زيد يبكي ، وعبيد لا يبكي ؟ يتململ ، أحياناً يأتي الإنسان ليستمع إلى خطبة ولا يعنيه من هذه الخطبة إلا أنه نفذ أمر أبيه ، لذلك يطول عليه الوقت بشكل مريع ، أما الذي جاء ليتعلم يمضي الوقت كلمح البصر ، فلذلك الوقت يثقل ويخف ، دقيقة الألم ساعة وساعة اللذة دقيقة ،

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً)

الكافر لا يقبل أن توجه الحدث توجيهاً توحيدياً لا يقبل إلا التوجيه الأرضي الشركي :

الآن :

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا)

أحياناً آيات ، زلازل ، فيضانات ، أبنية أصبحت مع الأرض ، إلا مسجداً ، يقول لك : الإسمنت كان قوياً جداً ، لا يقبل أن يقول : إن الله أبقاه لرسالة منه لعباده ، يقول لك : هذا مبني بالإسمنت المسلح ، وكان هناك إسراف فلم يتأثر ، لا يقبل أن توجه الحدث توجيهاً توحيدياً ، لا يقبل إلا التوجيه الأرضي الشركي ،

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً)

بالمقابل :

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ (83))

(سورة المائدة الآية : 83)

من شدة التأثر ، وشدة الخشوع ، فلذلك هذا الذي يصلي فلا يتأثر ، ويقرأ القرآن فلا يتأثر ، ويذكر الله فلا يتأثر ، فعنده مشكلة كبيرة جداً ينبغي أن ينتبه إليها ، لكن بعد ذلك الله عز وجل عمم قال :

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بها)

كزلازل ، ومد بحري ، وصواعق ، وحروب أهلية .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ (65))

(سورة الأنعام الآية : 65)

تعريف الأسطورة :

قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(25))

الأسطورة يعني قصة سطرت على ورق مكتوبة ، يعني قصة غريبة ، نادرة ، غير معقولة ، خرافية ، فيها توهم ، شيء مكتوب في كتب الأقدمين ، مثلاً : الأرض يحملها ثور فإذا نقلها من قرنٍ إلى قرن تزلزلت ، هذه أسطورة ، شيء مضحك ، يعني من هذه الأساطير هناك عدد لا يعد ولا يحصى ، والمؤمن عليه أن يجري جرداً لتصوراته العقدية ، خرافات أحياناً ، أوهام ، ترهات ، أباطيل ، أما المؤمن الصادق فيجري مسحاً لكل ما يتصوره عن الدين ، فإذا كان لكل شيء دليل من الكتاب والسنة قبله ودعا إليه ، أما من غير دليل يرفضه ، مرة ثانية :

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

أيها الأخوة ، الآن المشكلة ، يقول الله عز وجل :

(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26))

هؤلاء الذين جلسوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتنصوا ما يتوهمونه أخطاء إذا خرجوا من عنده

(يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ)

يبتعدون عن رسول الله وعن منهجه ، وعن هدايته ، وينفرون الناس منه ، ارتكبوا جرمين ، الجرم الأول أنهم ضلوا ، والثاني أنهم أضلوا ، في ضال مضل ، وفي فاسد مفسد .

أشقى البشر قاطبة الذي يستخدم إمكاناته وطاقاته في سبيل ردِّ الحق :

قال تعالى :

(يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

الإنسان حينما يكون أداة إضلال فهو أشقى البشر قاطبة ، وحينما يضع نفسه في خندق معادٍ للحق فهو أغبى الخلق قاطبة ، لأنه لا يعرف من هو الطرف الآخر .

في موازين القوى في الدنيا لا يستطيع مواطن أن يتهجم على دولة كبيرة جداً ، وبيدها كل شيء ، وبإمكانها أن تسحقه في ثانية ، يكون جاهلاً وأحمقاً ، ليس هناك توازن ، أما إنسان مخلوق ضعيف كن فيكون ، زل فيزول ، سمعه ، وبصره ، ودماغه ، وقدراته ، وحركاته ، وسكناته بيد الله ، ثم يجلس في

خندق معادٍ للحق ؟ كيف ؟ أشقى بني البشر من كانوا في خنادق تعادي أهل الحق ، قد تكون مقصراً ، الله عز وجل يعينك على نفسك ، قد تكون مذنباً ، أما أن تنصب نفسك عدواً للحق ، عدواً لأهل الحق ، هذا هو أشقى البشر قاطبةً الذي يستخدم إمكاناته وطاقاته في سبيل رد الحق .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ((36))

(سورة الأنفال الآية : 36)

وقال :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ (12))

(سورة آل عمران الآية : 12)

آية واضحة .

إذا كنت في خندق معادٍ للحق يجب أن تعلم أنك خاسر لا محال:

قال تعالى :

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4))

(سورة التحريم)

ما معنى هذه الآية ؟ امرأتان انتقدتا النظام ، دولة كبيرة جداً ، ممكن أن تستنفر قوى البرية والبحرية والجوية ، وقوى الأمن من أجل امرأتين ، في الآية ملمح دقيق جداً ، هو أنك إذا وضعت نفسك عدواً للحق أو في خندق مضاد للحق يجب أن تعرف من هو الطرف الآخر ؟ الطرف الآخر قوي جداً ، فهذا الذي ينصب نفسه عدواً للحق يريد إطفاء نور الله عز وجل .

الآن دققوا : لو أن واحداً رأيتموه بأعينكم يقف باتجاه الشمس وينفخ عليها لعلها تنطفئ ، فاحتمال انطفاء الشمس بنفخة من إنسان في الأرض بينه وبين الشمس 156 مليون كيلومتر ، ولسان اللهب مليون كيلومتر ، وهي متقدة لخمس مليارات عام قادم احتمال منعدم ، والحديث عن الشمس يفوق حد الخيال ، إنسان وقف باتجاه الشمس ونفخ من فمه نفخة فلعلها تنطفئ ، هذا كلام مقبول ؟ قال تعالى :

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ (8))

(سورة النور الآية : 32)

إذا كان إطفاء الشمس مستحيلاً فكيف بإطفاء نور الله عز وجل في كل الكون ؟ لذلك إذا كنت في خندق معادٍ للحق يجب أن تعلم أنك خاسر لا محال ، وإذا نقل إليك أمر إلهي أو خبر إلهي يجب أن تتلقاه وكأنك تنظر إليه .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1))

(سورة الفيل)

من الذي رأى ؟ ما أحد رأى ، لكن مادام خبراً من عند الله يجب أن تأخذه ، وكأنك تراه ، المعنى الثاني :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ (1))

(سورة النحل الآية : 1)

معناه لم يأتِ بعد ، لكن إذا أخبر الله عن شيء يجب أن تستخدم الفعل الماضي وكأنه وقع فعلاً ، هذا هو الإيمان .

الآيات التالية تبين أن من أراد الهدى يهتدي ومن لم يرده لا يهتدي :

أيها الأخوة الكرام ، هذه الآية والتي بعدها تفسر لماذا يتأثر زيد ولا يتأثر عبيد ، لماذا يهتدي فلان ولا يهتدي فلان ؟ لأن الذي اهتدى أراد الهدى والذي لم يهتدِ لم يرد الهدى ، لأن الله عز وجل يقول :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف الآية : 29)

وقال :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

وقال :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(08-73): تفسير الآيات 27-31 ، الندم بعد فوات الأوان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-02-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثامن من دروس سورة الأنعام .

حذف جواب(لو)في الآية التالية إشارة إلى أن اللغة أحياناً تكون عاجزة عن وصف الواقع :

مع الآية السابعة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27))

أيها الأخوة الكرام ، من قواعد اللغة أن (لو)تُعرب حرف امتناع لامتناع ، امتنع شيء لامتناع شيء آخر ، لو جئتني لأكرمتك ، امتنع إكرامي لك لأنك لم تأتِ ، أما (لولا)فهي حرف امتناع لوجود ، لولا المطر لهلك الزرع ، امتنع هلاك الزرع لوجود المطر، هذه من بديهيات اللغة .

إلا أنه في هذه الآية تأتي (لو)من دون جواب ، لو جئتني لأكرمتك ، لو فعلت كذا لكافأتك ، لو تجنبت كذا لنجوت من هذا الألم ، هنا :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ)

أين الجواب ؟

الحقيقة في حذف الجواب ملمح دقيق جداً ، وهو أن الله بهذا الحذف أشار إلى أن اللغة أحياناً تكون عاجزة عن وصف الواقع ، اللغة في بعض الأحيان بكل إمكاناتها ، وبكل مفرداتها ، وبكل تراكيبها ، وبكل مؤكداتها تعجز عن وصف الواقع ، قد يقول لك أحدهم : رأيت شيئاً لا يوصف ، يقول لك أحدهم: اللغة عاجزة عن تعبير ما في نفسي .

كأن اللغة بكل مفرداتها لا يمكن أن تنقل لنا الصورة التي يكون عليها الكفار يوم القيامة من الذل :

كأن الله سبحانه وتعالى يقول لنا : هؤلاء الطغاة ، هؤلاء المجرمون الذين طغوا ، وبغوا ، واستكبروا ، واستعلوا ، ألم يقل فرعون ؟

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24).

(سورة النازعات)

ألم يقل فرعون ؟

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38))

(سورة القصص الآية : 38)

هؤلاء الأقوياء الذين استهانوا بحياة البشر ، وبكرامة البشر ، يقول الله عز وجل: يا محمد ، لو ترى وضعهم يوم القيامة ، تصور إنساناً طاغية ، يمكن أن يفني نصف شعبه ، وضع في يديه القيد ، تصور حاله ، تصور مشاعره ، تصور ذله ، تصور قماءته ، تصور خضوعه ،

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ)

أحياناً مجرم يسطو على البيوت ، ويأخذ الأموال ، ويرهب الناس ، إلى أن يقع في أيدي العدالة تجده ذليلاً لا يستطيع أن ينظر إليك ، خافض الطرف ، الآية دقيقة جداً ، أن هذا الذي يطغى ، هذا الذي يستعلي ، هذا الذي يتغطرس ، هذا الذي يتكبر ، هذا الذي يدعي الألوهية ، هذا الذي يقول كما قال فرعون :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

هذا الذي يقول :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

قوم عاد حينما قالوا:

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً (15))

(سورة فصلت الآية : 15)

ليس بعيداً عنكم ما يقوله أقوياء الأرض الآن ، ما يتبجحون به ، ما يرددونه ، ما يهددون به ، الفراعنة كثيرون ولكل عصر فرعون ، ولكل عصر وحيد القرن ، هؤلاء أيها الأخوة :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ)

لو ترى خزيهم ، لو ترى ذلهم ، لو ترى خوفهم ، لو ترى خضوعهم ، لو ترى صغارهم ، لو ترى تضعضعهم ، كأن اللغة بكل مفرداتها لا يمكن أن تنقل لنا الصورة التي هم عليها ، فالذي أتيح له أن يتابع التاريخ الحديث حينما يقع الطاغية بيد خصومه ، وحينما يبالغ الخصم في فحص حامضه النووي، وحينما يبالغ الخصم بفتح فمه ليرى أسنانه ، هذا ذل ما بعده ذل .

بلاغة الآية التالية في حذف الجواب :

قال تعالى :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ)

أيها الأخوة ، الآية فيها بلاغة ما بعدها بلاغة ، بلاغة الآية في حذف الجواب ، الآن أحياناً تقول : رأيت شيئاً لا يصدق ، تقول أحياناً : رأيت شيئاً لا يوصف ، تقول أحياناً : اللغة عاجزة عن الوصف ، درسنا في علم اللغة ، بل في فقه اللغة ، أو ما يسمى فلسفة اللغة أنه في أحيانٍ كثيرة من سلبيات اللغة أنها عاجزة عن نقل الصورة الحقيقية ، الآن في البرمجة العصبية يقولون : إن النص المكتوب لا ينقل من الواقع إلا 6 % فقط ، إذا رافقه صوت يضاف إليه 35 % ، فإذا أضيفت له الصورة يصل إلى 100 % ، لكن رأيت أن بعض الأهوال في بلد عربي في جنوبه ، وقد دامت فيه الحروب الأهلية 40 عاماً ، قلت : والله إن النص المكتوب ، والنص المسموع ، والنص المرئي لا يساوي 10 % من الواقع الذي رأيته، أحيانا اللغة تعجز عن نقل الصورة الحقيقية .

في اللغة تعبيرات كثيرة تستخدم أسلوب العجز عن الوصف كأسلوب للوصف ، هذه الآية بلاغتها في حذف الجواب ، لعلي أنقل لكم آيةً مشابهة :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9)عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

أين الجواب ؟ انظر إلى أحواله ، هذا الذي ينهى عبداً إذا صلى انظر إلى مواثيقه، إلى عهوده ، إلى استقامته ، ليس مستقيماً ولا يفي بالعهد ، ولا ينجز الوعد ، مادي ، دنيء ، شهواني ، يخون ، ينافق ، يكذب ، يحب ذاته ، لشدة النقائص التي فيه ، لكثرة العيوب التي تلبس بها ، لشدة الحقارة التي تغطيه من رأس إلى قدمه الله عز وجل حذف الأوصاف كلها ، قال :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9)عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

لأسلوب الحذف طريق إيجابي أيضاً :

لهذا الأسلوب طريق إيجابي أحياناً ، تلقى النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سدرة المنتهى تجليات من الله عز وجل ، تجليات مسعدة ، يا ترى هذه التجليات مسعدة فقط ، فيها نور ، فيها معرفة ، فيها قرب ، فيها سعادة ، فيها إطلالة كبيرة على الكون ، فيها كمال لا ينتهي ، قال :

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16))

(سورة النجم)

هذا أسلوب آخر ،

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)

ليس هناك تفاصيل ، أحياناً تقول لأحدهم : آه لقد أصابني ما أصابني ، ماذا أصابك ؟ إذا قال لك : لقد أصابني ما أصابني ، تظن مصيبته مرضاً عضالاً ، تظنه فقراً مدقعاً ، تظنه سجناً مديداً ، تظنه شقاء أسرياً ، لقد أصابني ما أصابني ،

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)

قال تعالى :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ)

لو ترى حالهم يا محمد ، لو ترى ذلهم ، لو ترى تضعضعهم ، لو ترى ندمهم ، لو ترى حسرتهم ، لو ترى عظمة خسارتهم ، لو ترى ندمهم ، كأن اللغة لا يمكن أن تعبر عن حال هذا الإنسان الذي خسر الأبد .

والله أيها الأخوة ، والله الذي لا إله إلا هو لو أن الإنسان في الدنيا أصابته كل أنواع المصائب من دون استثناء ، ووصل إلى القبر ناجياً فهو الرابح الأول ، ورد في بعض الآثار القدسية :

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن ، وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها ، سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

كل إنسان مؤمن فيه خير مبتلى :

أيها الأخوة الكرام ، لا تحزنوا على ما فاتكم حينما يكشف الله لكم حكمة الذي ساقه إليكم ، كل إنسان مبتلى ، كل إنسان مؤمن فيه خير مبتلى ، أما الذي شرد عن الله شرود البعير تنطبق عليه الآية الكريمة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

استنباطاً من هاتين الآيتين ، إذا رأيت الله يتابعك ، ويؤدبك ، ويعاتبك ، ويعاقبك، ويشدد عليك ، ويضيق عليك ، ويحاسبك على الخاطر ، إن رأيت الله يعاملك هذه المعاملة فاستبشر ، فإنك تنطبق على الخير ، ولو لم تكن كذلك لما أدبك ، ولما عاقبك ، بل تركك تستمرئ هذا الطريق الذي ينتهي إلى الهلاك ، فخير لنا ألف مرة أن نكون في العناية الإلهية المشددة من أن نكون قد أخرجنا من هذه العناية.

طالب يدرس في الجامعة ، ويعدّ نفسه لمنصب رفيع ، ولدخل كبير ، ولمكانة اجتماعية كبيرة ، إذا

شكا لك ضيق الوقت ، وكثرة الواجبات ، وصعوبة متابعة الدروس ، وقسوة الأساتذة ، وثقل الوظائف ، والدوام الطويل ، والأعمال التي يكلف بها الطالب مِن قِبل أستاذه وقد لا يجد وقتاً لها ، إذا شكا لك هذا الطالب هذه الشكاوى المتعددة ، وقال لك آخر لا يقرأ ولا يكتب : أنا ما عندي مشكلة أبداً ، أنام إلى الظهر ، ثم أتمطى ، ثم آكل ، ثم أذهب إلى السينما ، ثم أعود لألعب الورق مع رفاقي حتى منتصف الليل ، يجب أن تعلم أن هذا الثاني خارج الحسابات كلها ، هذا الذي يقول لك : أنا ما عندي مشكلة هو نفسه مشكلة .

إن لم تشعر أنك مكلف بمعرفة الله وطاعته ، ونيل رضوانه فأنت خارج الحسابات .

أحاديث من السُّنة الشريفة تبين أن الرخاء مؤقت والشقاء مؤقت :

أيها الأخوة ، هذا الملمح الكبير ملمح حذف الجواب في الآية :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ)

لو ترى حالهم ، لو ترى ذلهم ، لو ترى ندمهم ، لو ترى حسرتهم ، لو ترى خنوعهم ، لو ترى خوفهم، لو ترى تقصيرهم ، ورد في بعض الأحاديث :

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة ، حتى يقول : يا رب ، لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى ، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه السيوطي عن جابر رضي الله عنهما]

أخواننا الكرام ، حالة الندم التي تعتري الإنسان حينما يغادر الدنيا وكان ساهياً لاهياً لا توصف ، حتى إنه في بعض الأحاديث : " أن الإنسان الشارد عن الله إذا رأى مكانه في النار بعد أن وافته المنية يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا " . بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض أحاديثه يقول :

((المؤمن إذا رأى مكانه في الجنة عند النزع يقول لم أرَ شراً قط))

[ورد في الأثر]

ينسى كل المتاعب ، والذي كان في أعلى مرتبة ، وكان في أبهى زينة ، وكان في أجمل بيت ، يركب أجمل مركبة ، إذا وافته المنية ، ورأى مكانه الآخر في العالم الآخر يصيح صيحة ، ويقول : لم أرَ خيراً قط . من أدق خطب النبي صلى الله عليه وسلم :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشدة ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[أخرجه الديلمي عن ابن عمر]

الرخاء مؤقت والشقاء مؤقت .

كل مخـــــلوق يمـــــوت ولا يبقى إلا ذو العزة والـــجبروت

* * *

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

* * *

وإن كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يـــــوم على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنـــــازة فـــــــاعلم أنك بعدها محمول

* * *

حالة الندم لا توصف عند من خسر شيئاً من الدنيا فكيف بمن خسر الآخرة ؟

صدقوا أيها الأخوة ، ما رأيت أعقل ممن أعد لساعة الموت ما تستحق ، أحياناً إنسان يعزي في إنسان رآه أين دفن ، ثم دخل إلى بيته في التعزية ، مسافة كبيرة جداً ، بيت واسع ، وازنه مع قبر ، ونحن جميعاً مصيرنا إلى القبر ، واقرأ كل النعوات ، وسيشع إلى مثواه الأخير ، ماذا تسمي بيتك إذاً ؟ مثوى مؤقت .

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ)

هذه حالة الندم التي لا توصف ، الإنسان أحياناً يعمل في التجارة ، يشتري صفقة لا يربح منها شيئاً ، يبذل من أجلها جهوداً جبارة لسنوات عديدة ، ولا يجد ربحاً ، يصدر صوتاً خارجاً من أعماق أعماقه ، يا ليتني لم أشترِ هذه الصفقة ، لأنه لم يربح ، فكيف إذا خسر ؟ فكيف إذا عمل سنوات طويلة ، وحقق خسارة كبيرة ؟ هذا هو الندم أيها الأخوة ، الندم لا يوصف ، الإنسان يخسر بيتاً ، أحياناً يخطب فتاة مناسبة جداً ، يتردد بالقرار ، يذهب إليهم موافقاً ، يقولون والله خطبت ، وانتهى الأمر ، يبقى سنوات والحسرة تملأ قلبه ، أحياناً يفرط بتجارة ، ببيت ، بزوجة ، بمنصب أحياناً ، يرتكب حماقة أحياناً ويطلق زوجته ، وهي جيدة جداً ، يندم ندم لا يوصف ، فكيف إذا خسر الأبد ؟ فكيف إذا خسر الآخرة كلها ؟!!

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27))

(سورة الفرقان)

في الآيات التالية يخبرنا الله عز وجل عن حال أهل النار :

أيها الأخوة الكرام :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27))

هذا الكلام يتلى علينا الآن ، نحن أحياء ، والفرص كلها مفتوحة ، بإمكانك أن تتوب ، وأن تستغفر ، وأن تصلي ، وأن تقرأ القرآن ، وأن تعمل الصالحات ، وأن تنفق الأموال ، وأن تدعو إلى الله ، وأن تطلب العلم ، وأن تكون باراً بوالديك ، وأن تربي أبناءك ، كله ممكن ، مادام في العمر بقية كله ممكن .

في هذه الآيات يخبرنا الله عز وجل عن حال أهل النار :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

نحن أحياء الفرص كلها مفتوحة أمامنا ، فرص التوبة والعمل الصالح ، والتزام درس العلم ، وطلب العلم مفتوح أمامنا .

(بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28))

الله عز وجل هو العليم يخبرنا أنه لو أرجعناهم إلى الدنيا لعادوا إلى المعاصي والآثام ، لأنهم لم يعرفوا الواحد الديان ، لو أنهم عرفوه لأطاعوه ، لكنهم ما عرفوه في الدنيا، فلو عادوا إلى الدنيا لأخذتهم الدنيا ، وسيطرت عليهم شهواتهم .

(رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا (106))

(سورة المؤمنون الآية : 106)

أمثلة من الواقع عن أشخاص أكرمهم الله بالإنذار المبكر فلم يستفيدوا منه :

قال :

(وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

الإنسان دائماً تحت التعذيب يتكلم الحقيقة أما إذا رفع التعذيب عنه عاد إلى كفره ، أوضح مثل : ركاب سفينة عصاة ، فجار ، هاج البحر واهتزت وكأنها ريشة ، وكانوا على وشك الغرق ، يا رب ، يا رب ، أقسم لي أحد كان في طائرة ، وقد دخلت في غيمة مكهربة ، واهتزت ، وكادت أن تسقط ، فيها خبراء ملحدون ، عادوا إلى فطرتهم ، وقالوا : يا رب ، أنقذنا ، ملحدون ، بعد إن حطت الطائرة على الأرض عادوا إلى إلحادهم :

(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

ركب رجل سيارته في دمشق في طريق صاعدة قليلاً ، والإشارة حمراء وقف ، فإذا به يهوي على المقود ، وقد أصابته جلطة ، أو جُلطة ، الصواب جُلطة بالضم ، وإلى جانبه زوجته ، ومن غرائب الصدف ، وراءه صديقه ، فصاحت الزوجة ، فجاء الصديق ، وحمل صديقه ، وأخذه إلى مستشفى ، إلى العناية المشددة ، هذا بعد أن صحا من غفوته ، وشعر بدنو أجله ، طلب مسجلة وكاسيت ، طلب مسجلة وشريطاً ، وقال ، هو أكبر إخوته ، واغتصب ثروة أبيه ، وحرم إخوته من حصصهم : المحل الفلاني ليس لي هو للورثة ، البناء ليس لي هو للورثة ، صرح بكل الأموال غير المنقولة والمنقولة التي اغتصبها من إخوته ، بعد يومين شفي من مرضه ، لأن الجُلطة بعد أخذ الدواء أحياناً تذوب وتتلاشى ، عاد إلى نشاطه وقوته ، قال : أين الشريط ؟ أعطوه إياه فكسره ، جاءت القاضية وتوفي بعد ثمانية أشهر ، لقد رحمه الله بالإنذار المبكر فلم يستفد منه .

لذلك الإنسان يجب أن يصحو من غفلته وأن يستقيم على أمر الله عز وجل

(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

الإنسان غير المؤمن عاش الدنيا فقط ويذوب ندماً عندما تُكشف له الحقائق عند الموت :

هم يرون :

(وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29))

هم مع الواقع ، الواقع فيه صحة ، ودخل ، وفيه مركبة ، ونساء جميلات ، وسهرات ماجنة ، واختلاط، وغناء ، وكل الشهوات ، ودخله كبير ، يعيش هذا الواقع ، لكن غفل عن المستقبل ، من هو العاقل ؟ هو الذي يعيش المستقبل ، من هو الغبي ؟ هو الذي يعيش الواقع ، من هو الأغبى ؟ هو الذي يعيش الماضي ، كنا وكنا ، يظل يتغنى بهذه الأمة ، دعك من التغني ، وقم وتحرك ، وأسهم في نصرة هذا الدين العظيم ، فلذلك أخطر حدث مستقبلي هو الموت ، وهذا الموت قدر كل إنسان ماذا أعددت له؟ كل نشاطك ومكانتك ، وبيتك ، وهيمنتك ، ومكتبك ، ومراكبك ، وبيوتك ، وأملاكك المنقولة وغير المنقولة منوطة بميلي وربع قطر الشريان التاجي ، إذا سد هذا الشريان ، ولم تتحرك وقت انسداده بشكل صحيح كتب على النعي : المرحوم فلان ، كان إنساناً صار مرحوماً ، صار خبراً ، قال الله :

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (44))

(سورة المؤمنون الآية : 44)

كل هيمنتك ، وقوتك ، ومالك ، وحجمك المالي ، وممتلكاتك ، وسلطتك ، مبنية على سيولة الدم ، فإذا تجمد الدم في أحد الأوعية انتهت الحياة ، ساعة يقول لك : سكتة قلبية، ساعة سكتة دماغية ، ساعة خثرة بالدماغ ، ساعة تشمع في الكبد ، ساعة فشل كلوي ، تنوعت الأسباب والموت واحد ،

(وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

لذلك الإنسان غير المؤمن عاش الدنيا فقط ، متى يذوب ندماً ؟ حينما تكشف له الحقائق عند الموت ، والدليل :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

أنا أؤكد لكم أن أكفر كفار الأرض عندما يأتيه ملك الموت يصدق بكل ما جاء به الأنبياء ، ولكن بعد فوات الأوان أيضاً .

الأمور بيد الله دائماً ولكن تكون خافية عن الغافلين :

قال تعالى :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30))

أخواننا الكرام ، في الآية السابقة ملمح :

(بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ)

الإنسان بفطرته يؤمن أن الأمر بيد الله لأن المصائب أحياناً تأتي عقاباً ، لكن حتى يستمد راحة موهومة يدعي خلاف ذلك ، يخفي إيمانه بأن الله بيده كل شيء ، ويعلن شركه ، الأمر بيد زيد ، أو عبيد ، أو فلان ، أو علان ، وظروف صعبة ، ونحن ما لنا علاقة ، الصهيونية العالمية سببت لنا هذه المشاكل ، يعزي دائماً أخطاءه وحماقاته إلى جهات موهومة ، لكن عندما يأتيه ملك الموت ، هذا الذي كان يخفيه عن الناس ظهر صارخاً ، من أدق المعاني في قوله تعالى :

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53))

(سورة الشورى)

بيد من كانت ؟ هي بيد الله سابقاً ولاحقاً ، ولكن في الدنيا يرى الشاردون الأمر بيد هذه القوة ، وذاك القطب ، وفلان ، بيد وحيد القرن فرضاً ، هو يقصف المدن ، ويقيم الحصار الاقتصادي ، هكذا يظن الناس .

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47))

(سورة الزمر)

بدا لهم أن الأمر بيد الله وحده ، لذلك الأمور بيد الله ولكن كانت خافية عن الغافلين ، أما المؤمن فيراها في الدنيا بيد الله ، أما يوم القيامة فالذي كان يتوهمه الناس يصبح حقيقة صارخة :

(بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ)

الله تعالى لم يدع وسيلة لهداية الكفار إلا أعطاهم إياها ومع ذلك لم يؤمنوا :

الحقيقة الثانية : أن الله لم يدع وسيلة لهدايتهم إلا أعطاهم إياها ، ومع ذلك لم يؤمنوا :

(بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28)وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)وَلَوْ تَرَى)

الطريقة السابقة يا محمد :

(إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ)

أذلاء .

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (94))

(سورة الأنعام الآية : 94)

الطغاة في العالم يحركون أساطيل ، يحركون مئات الطائرات ، يحركون قنابل ذرية أحياناً ، يفرضون قرارهم على كل الخلق ، لكن يوم القيامة

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

العقيدة المناسبة للمتفلّت أخلاقياً أنه ليس هناك يوم آخر :

قال تعالى :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ)

أليس هذا الدين بحق ؟ أليس هذا القرآن بحق ؟ أليس تحريم الزنا حق ؟ دولة إسلامية تطمح أن تدخل في السوق المشتركة لا تُقبَل إلا إذا صرحت أن الزنا ليس جريمة ، سلوك طبيعي ، كأن تشرب كأس ماء ، أليس الزنا جريمة ؟ أليس الربا جريمة ؟ كل شيء الله حرمه ، وكل شيء الله ذكره ، هذه الحقائق يراها الإنسان عند الموت :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

ويراها يوم القيامة ثانية :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا)

مع القسم :

(قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

الباء باء السبب ، يعني بسبب كفركم بهذا الدين وبهذه العبادات وبهذه التشريعات:

(فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30)وَلَوْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31))

(قد)حرف تحقيق ، هؤلاء الذين كذبوا بلقاء الله ، الذي كذب بلقاء الله ، ويكذب ليفعل ما يشاء ، مادامت شهوته تتحكم فيه ، العقيدة المناسبة للمتفلّت أخلاقياً أنه ليس هناك يوم آخر ، الآن لا نجد إنساناً متفلتاً إلا ويعتقد أن هذه هي الآخرة ، من مات ورجع الآن ؟ يريحه أن يكذب باليوم الآخر .

العقل السليم لا يقبل أن تنتهي الدنيا بلا حساب والقرآن يؤكد ذلك :

طالب لا يدرس إطلاقاً تصدر إشاعة أن الامتحان سيتأخر شهراً ، أو نظراً للظروف العصيبة قد يدمج الامتحان مع العام القادم ، الكسول يصدقها فوراً من دون دليل ، هذه مريحة له ، وأي فكرة تريح الإنسان من عذاب نفسه أو من الندم يتشبث بها ، يسمع من درس علم ـ لا يدقق ـ أن النبي e يشفع لأمته ، لا يفهم من الدين غير الشفاعة ، مريحة هذه الشفاعة ، وإذا قرأ الحديث :

((شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي))

[رواه أبو داود والترمذي والبيهقي عن أنس]

يطير عقله فرحاً ، صار عنده مجال يفعل الكبائر الآن ، الإنسان يصدق شيئاً يريحه دائماً .

الآن اشترى واحد سيارة ، وقال له واحد : سيصدر قرار يخفضون فيه الجمرك مئة بالمئة فقط ، لا بمئتين وخمسين بالمئة ، يقول لك : غير معقول ، لمَ كذّب الخبر ؟ لأن الخبر لو كان صادقاً يزعجه ، والذي لم يشتر يصدقه ، تذيع خبراً أنت واحد يصدقه مئة بالمئة ، والثاني يكذبه مئة بالمئة ، أنت تلحق راحتك النفسية ، فلذلك :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ)

الذي كذب بلقاء الله ، أولاً أيها الأخوة ، اسمعوا هذه الكلمات : مستحيل وألف ألف مستحيل أن يكون في الدنيا غني وفقير ، وقوي وضعيف ، وصحيح ومريض ، وظالم ومظلوم ، وتنتهي الدنيا ولا شيء بعد الدنيا ، لا بد من أن تسوى الحسابات ، مستحيل إنسان يهدم سبعين ألف بيت فوق أصحابها ، ويتصدر المؤتمرات ، وهو في أقوى مركز ، وأن يموت ، ولا شيء بعد الموت ، مستحيل أن يقصف الناس بالقنبلة الحارقة ، ويبيد عشرة آلاف إنسان في ثوانٍ وتنتهي الحياة ولا شيء عليه ، مستحيل أن تلقى قنبلة على اليابان تزهق أرواح ثلاثمئة ألف إنسان في ثلاث ثوانٍ ، وتنتهي الحياة ، ولا شيء بعد الموت ، هذا شيء يتناقض مع الكون كله ، هذا الكون ينطق بعظمة الخالق ، والعدل من كمال الخالق ،

لذلك أحد العلماء ينفرد أنه يعتقد أن الدليل على الآخرة ليس نقلياً فحسب بل هو عقلي ، يعني العقل السليم لا يقبل أن تنتهي الدنيا بلا حساب ، والقرآن يقول ذلك :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

الله تعالى لم يخلقنا عبثاً بل خلقنا ليحاسبنا :

أنت تجرب الدواء على شعب ضعيف ، وتبعث بخبراء لتعرف نتائج هذا الدواء ، إذا كان مسرطناً تمنعه في بلدك ، وإذا كان غير مسرطن تسمح به ، هؤلاء حقل تجارب ، وتموت ولا شيء عليك ؟ مستحيل ، تبعث باخرة كلها مواد غذائية ، وربعها مواد غذائية ، وثلاثة أرباع نفايات ذرية ، وتلقيها بسواحل بلد متخلف ويتضاعف السرطان عشرة أضعاف ، وتموت ولا شيء عليك ؟ تقتنص سبعمئة ألف فتاة كل سنة ساذجات ، ويعملن في الدعارة في بلاد الغرب ، وتأخذ عشرين ضعفاً من أجورهن ، وأنت مرتاح ، ولا شيء عليك مستحيل ، الإنسان حينما يتوهم أن الإنسان يموت ، ولا يحاسب يكون كتلة غباء .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ (116))

(سورة المؤمنون)

تعالى الله أن يخلقكم عبثاً ، آية ثانية :

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

مستحيل ، هؤلاء الذين دخلوا وسرقوا خلال ساعات ألقي القبض عليهم ، والأموال عادت فيما سمعت إلى أصحابها ، ممكن أن يسرق عدة ملايين ، شكراً ، مستحيل ، في النظام الأرضي مستحيل ، عند الملك العادل يكون ذلك ؟

الاعتداء على أي مخلوق كائناً من كان يحاسب الإنسان عليه حساباً عسيراً :

لذلك يا أيها الأخوة عدّ للمليون قبل أن تظلم نملة ، عدّ للمليون قبل أن تدوس على نملة ، لأن ملك الملوك بطشه شديد ، لوحان اصطدما بالزلزال قوتهما الانفجارية مليون قنبلة ذرية ، شيء مخيف ، مدن بأكملها ، جزر اختفت ، قطع بحرية تلاشت ، قواعد نووية غرقت اصطدم لوحان ، الله كبير جداً ، عد للمليون قبل أن تعصي ، عد للمليار قبل أن تعتدي على مخلوق .

((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ ، فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا ، فَلاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا ، وَلاَ هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

بربكم فما قولكم بما فوق الهرة ؟ على هرة الله سيحاسبها ، واحد غني كبير ببلد عربي مات ، وأولاده قلقون عليه ، فبلغهم أن أول ليلة أصعب ليلة بالقبر ، فسألوا واحداً فقيراً جداً يموت من الجوع ، تأخذ عشر جنيهات وتنام مع أبينا أول ليلة بالقبر ، وافق وتمدد إلى جانبه ، جاء الملكان ، ووجدا اثنين ، وهذه جديدة عليهم ، هذا من خوفه حرك قدمه ، قال له : الثاني طيب وليس ميتاً ، تعال نبدأ به ، أجلسوه وكان يلبس كيس خيش من فقره مفتوحاً من أعلاه ويظهر رأسه منه ، ومن الطرفين تظهر يداه ، وربطه بحبل من فقر ، بدؤوا بالحبل من أين جلبتها ؟ وجدا أنه أخذها من بستان ، تركوا البستان ، كيف دخلت إلى البستان ؟ ضربوه ضرباً مبرحاً ، الآن كيف دخل للبستان ، ثم كيف أخذ الحبل ، من أين أتى بهذا الكيس ؟ خرج في اليوم الثاني باكراً ، وقال لهم : الله يعين أباكم .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

أنا والله لا أحب أن أروي مناماً أبداً لكن للاستئناس ، لي قريب أعتقد أن له خالة أو عمة يحبها حباً جماً ، ماتت ، حسب ما قال لي ثمان سنوات يراها بحالة صعبة بالمنام ، تحترق ، بعد هذا رآها بحالة طيبة ، لابسة أبيض ومبتسمة ، سألها : ما الذي حصل ؟ قالت له : الحليب يا بني ، فدقق ، هي خالة امرأة أب ، عندها أولادها وأولاد زوجها ، كانت تعطي أولادها كأس حليب وتعطي أولاد زوجها كأساً نصفه حليب ونصفه ماء .

عد للمليون قبل أن تعصي الله ، لكن عد للمليار قبل أن تعتدي على مخلوق كائناً من كان ،

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الله عز وجل يعرض علينا شريط أعمالنا في الدنيا :

قال تعالى :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30)قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31))

حدثني إنسان ببلد شرقي بأوربا ، ارتكب مخالفة ، فلما جاؤوا به للتحقيق ، أسرع طريقة للتحقيق ، أروه فيلماً وهو يرتكب المخالفة ، انتهى الكلام .

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14))

(سورة الإسراء)

الله عز وجل يعرض لك شريط أعمالك ، قالوا : هو ملون أيضاً ، من وقت ولادتك إلى وقت الوفاة ، ليس فيه مناقشة ، الله عز وجل يعرض عليك شريط أعمالك التي عملتها الدنيا . إذاً :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

هذه الأحمال سوف تسوءهم ، الكذب ، والنفاق ، والغش ، والتدليس ، وأكل المال الحرام ، ومعاونة الظلام ، هذا كله سوف يدفعون ثمنه .

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32))

هذه الآية إن شاء الله سوف نشرحها في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(09-73): تفسيرالآيتان 31-32 ، الدنيا مزرعة الآخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-02-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس التاسع من سورة الأنعام .

الإنسان حينما يؤمن أنه خُلق للآخرة تراه منطلقاً إلى طاعة الله :

مع الآية الواحدة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31))

أيها الأخوة الكرام ، الحقيقة أن(قد) حرف تحقيق ، فإذا جاءت قبل فعل ماضٍ يكون حرف تحقيق ، يعني خسارة هؤلاء محققة ، ماذا خسروا ؟ خسروا الأبد ، خسروا الجنة التي خلقوا لها ، خسروا أعظم ثمرة من ثمار الإيمان وهي السعادة الأبدية ، لذلك :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ)

المشكلة أن الإنسان حينما يؤمن أن الدنيا هي كل شيء يستغني عن طاعة الله ، أما حينما يؤمن أنه خُلق للآخرة تراه منطلقاً إلى طاعة الله ، الآية الكريمة :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6))

(سورة الليل)

إن صدق بالحسنى تجده يتقي أن يعصي الله ، وإن صدق بالحسنى تجد حياته كلها مبنية على العطاء ، خُلق ليعطي .

الحياة الدنيا أساسها العمل أما الحياة الأخروية فمبنية على التكريم :

أخواننا الكرام ، أنت حينما تؤمن أن قيمتك في الحياة الدنيا فيما تعطي لا فيما تأخذ ، لكن الإنسان الغافل الشارد يبني مجده على ما أخذ لا على ما أعطى ، حصلت كذا وكذا ، ثروتي كذا وكذا ، حجمي المالي كذا وكذا ، بإمكاني أن أفعل كذا وكذا ، فقيمة الإنسان من منظور الدنيا التي هي مزرعة الآخرة، قيمة الإنسان فيما يعطي ، لذلك ترى المؤمن يسعد إذا أسعد الآخرين ، يسعد إذا قدم خدمات للآخرين ، يسعد إذا اعتنى بعباد الله أجمعين

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ)

فلما كذب بلقاء الله ، فلما كفر بالحسنى استغنى عن طاعة الله .

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9))

(سورة الليل)

هو الأصل إما أن تؤمن بالحسنى أي الجنة ، أنك مخلوق لها ، وإما أن تكذب بالحسنى ، وتؤمن بالدنيا فقط ، وقد لا ننتبه بأن الحياة التي نعيشها نحن نسميها اقتباساً من القرآن الكريم حياةً دنيا ، معنى دنيا أي منخفضة ، ولا نعبأ بالحياة التي تقابلها ، وهي العليا الحياة العليا ، الحياة الأخروية مبنية على التكريم .

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا(35))

(سورة ق الآية : 35)

أساسها التكريم ، والحياة الدنيا أساسها العمل .

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (6))

(سورة الانشقاق)

إن كان العطاء يسعدك فأنت من أهل الآخرة وإن كان الأخذ يسعدك فأنت من أهل الدنيا :

الحياة الدنيا أرادها الله أن تكون حياة عمل ، حياة تجربة ، حياة ابتلاء ، حياة امتحان ، حياة غرائز ، ومعك منهج ، والمنهج يحول بينك وبين أن تلبي هذه الغرائز ، فهناك صراع ، ومجاهدة ، وتكليف ، أشياء ذات كلفة ، فالحياة الدنيا أساسها بذل الجهد ، والأوامر تكليفية ، أي ذات كلفة ، والحياة الأخرى أساسها الإكرام .

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23))

(سورة الحاقة)

وقال :

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35))

(سورة ق)

لذلك أيها الأخوة ، أنت حينما تؤمن بالحسنى أي بالحياة الآخرة ، أي أنك مخلوق للآخرة ، تتقي أن تعصي الله ، بل وتبني حركتك اليومية على العطاء ، يسعدك أن تعطي ؛ أن تعطي من مالك ، من وقتك، من جهدك ، من خبرتك ، من علمك ، من كل شيء تملكه ، تعطي وتسعد بالعطاء ، ودقق : إن كان العطاء يسعدك فأنت من أهل الآخرة ، وإن كان الأخذ يسعدك فأنت من أهل الدنيا .

إذاً لأنه صدق بالحسنى اتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء ، أما إن صدق بالدنيا وكذب بالحسنى استغنى عن طاعة الله ، ليس هناك داعٍ ، كذب بالحسنى ، يبنى على تكذيبه بالحسنى أنه بخل واستغنى ، بنى حياته على الأخذ ، وشهد الله أيها الأخوة أن هؤلاء البشر على كثرتهم ـ ستة مليارات ـ وعلى تنوع انتماءاتهم ، وألوانهم ، وأجناسهم ، ومذاهبهم ، ونحلهم ، وطوائفهم ، واتجاهاتهم ، وأطيافهم كما يقال الآن ، وكل التقسيمات الأرضية هي تقسيمات لا معنى لها ، التقسيم الإلهي قسمان

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

ولن تجد نموذجاً ثالثاً ، من أي إقليم ، من أي بلد ، في أي عصر ، في أي مصر ، في أي عنصر ، من أي لون ، من أي جنس ، من أي عرق ، من أي مذهب ، من أي طائفة ، صدق بالحسنى فاتقى أن يعصي الله وبنى حياته على الخير ، كذب بالحسنى فاستغنى عن طاعة الله وبنى حياته على الأخذ ، فلذلك :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ)

الآخرة ، كذبوا بالدار الآخرة ، كذبوا بجنة عرضها السماوات والأرض ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، لكن متى المشكلة ؟ إنسان قد يستمتع بوهم مريح ، لكن متى المشكلة ؟ حينما يكتشف الحقيقة .

البطولة في العاقبة :

لو أن إنساناً يحمل بالتعبير التجاري شيكاً بمليون دولار ووجده مزوّراً ، هو لا يعلم أنه مزور ، هذا الشيك بمليون دولار يعطيه شعوراً بالغنى ، شعوراً بالتفوق ، شعوراً بالسيطرة ، شعوراً بأنه يفعل ما يريد ، يشتري ما يشاء ، لكن متى المصيبة الكبيرة ؟ حينما يكتشف أنه مزور ويزج به في السجن ، هنا المصيبة ، فلذلك البطولة لا أن تضحك أولاً ، أن تضحك آخراً ، من ضحك أولاً ضحك قليلاً وبكى كثيراً ، البطولة في العاقبة ، قال تعالى :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة الأعراف)

((ألا يا رُبّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ، ألا يا رُبّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة ، ألا يا رُبّ مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا يا رُبّ مهين لنفسه وهو لها مكرم))

[أخرجه ابن سعد البيهقي في شعب الإيمان عن أبي البجير]

العاقبة في الدار الآخرة ، من أجمل ما قاله الإمام علي رضي الله عنه : " الغنى والفقر بعد العرض على الله " ، تقول : إنسان يملك تسعين ملياراً ، بيل غيت صاحب مايكرو سوفت ، وإنسان قيل : يملك عشرة مليارات ، وقيل : يملك أربعة مليارات ، بثوانٍ معدودة أصبح خبراً بعد أن كان بشراً ، أليس كذلك ؟

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185))

(سورة آل عمران)

لا ينفعه بعد الموت إلا أعماله الصالحة ، إذاً

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ)

الخسارة التي لا تعوض أن تخسر الآخرة وتخسر لقاء الله عز وجل :

أنت حينما تؤمن بلقاء الله ، دقق : كل حركة بكل دقيقة تربطها بلقاء الله ، الآن سأكذب ، لكن الله حرم عليّ الكذب ، فإذا كذبت لن أكون في مرضاته ، لا يكذب ، إن آمنت بلقاء الله ، أنت لاحظ إنساناً يكتب ، ويعلم أن كل كلمة يتكلمها محاسب عليها وسوف يُسأل ، وسوف يحقق معه ، كلما كتب كلمة يتصور هذه الكلمة تعد مأخذاً عليّ ، هل أحاسب عليها ؟ لأنه آمن بإنسان في الأرض قوي يحاسبه فقط ، الآن انضباط الناس عجيب في الأرض ، ينضبط انضباطاً يفوق حد الخيال ، لأنه إنسان ، إنسان بشر ، لكنه قوي ، وبإمكانه أن يوقع به أذىً شديداً ، إذاً ينضبط ، يطبق الأمر بحذافيره ، يبتعد عن الذي نهي عنه بحذافيره ، هذا مع بشر ، فكيف مع خالق البشر

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ)

لكن هذه الخسارة متى تكتشف ؟

محل تجاري له مستودع كبير ، ولهذا المستودع بابان ، والبضاعة إلى السقف ، فالذي سُرِق من باب خلفي لا يستخدم إلا قليلاً ، سرق بضاعة بالملايين ، كشف الأمر بعد حين ، العبرة عند المفاجأة ، عندما يوقن الإنسان أنه كان مخطئاً .

(فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8))

(سورة القصص)

وقال :

(آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ (91))

(سورة يونس)

وقال :

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27))

(سورة الفرقان)

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

إذاً الخسارة الحقيقية ، الخسارة التي لا يمكن أن تتلافاها ، هناك خسارات في الدنيا تعوض ، لكن الخسارة التي لا تعوض أن تخسر الآخرة ، أن تخسر لقاء الله عز وجل .

المؤمن آمن بساعة اللقاء لذلك حياته كلها متكيفة مع ساعة اللقاء :

قال تعالى :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا)

أخواننا الكرام ، دائماً وأبداً العاقل هو الذي لا يفاجئ ، والأقل عقلاً هو الذي يفاجئ ، والأقل الأقل عقلاً هو الذي يصعق عندما يأتيه خبر غير متوقع ، فهذا الإنسان المؤمن آمن بساعة اللقاء فكل حياته متكيفة مع ساعة اللقاء ، كالطالب تماماً لحظة الامتحان لن تغادر ذهنه إطلاقاً ، فإذا جاءه صديق فهو أمام خيارين ، إما أن يستقبله وأن يرحب به وأن يمضي معه ساعاتٍ وساعات ، والصديق غير مكلف بامتحان ، أو أن يعتذر منه ، كلما رأى أنه سيضع وقتاً يعتذر ، لأن ساعة الامتحان لن تغادر ذهنه إطلاقاً .

أحد الطلاب الأوائل في الشهادة الثانوية أجرى معه بعض الصحفيين حواراً ، سأله : إلامَ تعزو نيلك الدرجة الأولى في الشهادة الثانوية ؟ فأجابه إجابة رائعة ، قال : لأن لحظة الامتحان لم تكن تغادر ذهني ولا لثانية بالعام كله ، لحظة الامتحان لم تكن تغادر ذهنه ولا ثانية في العام كله ، والمؤمن كذلك ، سوف ألقى الله ، هل في هذا العمل ما يغضب الله ، هل في هذا الأخذ ما يغضب الله ، هل في هذا العطاء ما يغضب الله ؟ هل في هذه الصلة ما يغضب الله ؟ هل في هذه القطيعة ؟ هل في هذه المودة ما يغضب الله ؟

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (22))

(سورة المجادلة الآية : 22)

مودته محسوبة ، وابتسامته محسوبة ، وصلته محسوبة ، وقطيعته محسوبة ، وبره محسوب ، ومنعه محسوب ، كل هذه التفاصيل تنطلق من أنه سوف يلقى الله ، وسوف يسأله عن هذا العمل .

ابدأ من النهاية فالبدء من النهاية يجعلك تنضبط وفق منهج الله :

أيها الأخوة ، أسأل كثيراً أسئلة متعلقة بالحياة اليومية ، والتجارة ، والبيع ، والشراء ، والموظفون يسألونني حول تطبيق النظام ، وقد يكون هناك من يتأذى بسجن ، أو بضبط كبير ، فماذا أجيبهم ؟ أقول له : هيئ جواباً لله عز وجل ولا تعبأ بأحد ، بطولتك لا أن تهيئ جواباً لمن كان أعلى منك من بني جلدتك ، ينبغي أن تهيئ جواباً لله عز وجل ، والله يعلم كل شيء .

إذاً العاقل لا يفاجئ بشيء ، العاقل لا يفاجئ لأنه بدأ من النهاية ، وفي البرمجة العصبية اللغوية قاعدة رائعة ابدأ من النهاية ، النهاية الموت ، ابدأ من الموت ، فأي عمل حينما تلقى الله لا تستحي به فافعله ، وأي عمل حينما تلقى الله تستحي به لا تفعله ، لذلك ورد في بعض الأحاديث :

((إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ))

[رواه البخاري عن أبي مسعود البدري]

إن لم تستح من الله ، ابدأ من النهاية ، النهاية هو الموت ، والموت تراه كل يوم ، الأغنياء يموتون ، والأقوياء يموتون ، والفقراء يموتون ، والضعفاء يموتون ، والأصحاء يموتون ، والمرضى يموتون ، ابدأ من النهاية فالبدء من النهاية يجعلك تنضبط وفق منهج الله.

أيها الأخوة ، النبي عليه الصلاة والسلام دعانا كثيراً إلى تذكر الموت :

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ))

[رواه الحسين بن حريث عن أبي هريرة]

مفرق الأحباب ، مشتت الجماعات .

((عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي في الألقاب عن سهل بن سعد ؛عن جابر]

كل إنسان حينما يأتيه الموت يؤمن بكل ما جاء به الأنبياء فالقضية قضية وقت :

فرعون آمن ، لكن بعد فوات الأوان ، ويجب أن تعلموا علم اليقين أننا جميعاً ، وأن كل البشر ، وأن كل الكفار ، وأن كل الملحدين ، وأن كل الوثنيين ، وأن كل إنسان على وجه الأرض حينما يأتيه الموت يؤمن بكل ما جاء به الأنبياء ، فالقضية قضية وقت ، إما أن تؤمن اليوم ، أو أن يؤمن الإنسان عند فراق الدنيا :

(يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا)

لذلك قال تعالى :

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8))

(سورة التكاثر)

أنت في نعمة الأمن ، ماذا فعلت في هذه النعمة ؟ أنت في نعمة الكفاية ، أنت في نعمة الصحة ، أنت في نعمة الفراغ .

((اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك))

[رواه الحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس]

(وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

الآية الكريمة أيها الأخوة :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

وقال :

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

الإنسان لم يخلق عبثاً بل سيحاسب على كل ذرة :

تدخل جامعة والأقساط بمئات الألوف ، قاعات المحاضرات ، والمكتبات ، والمهاجع ، والمطاعم ، ولا يوجد امتحان آخر السنة ؟! كل هذا العطاء بلا امتحان ؟! يكفي أن تقول : يرجى منحي الدكتوراه ، هل تمنح ؟ هل في الأرض جامعة تفعل هكذا ؟ لذلك أن يُخلق الإنسان عبثاً هذا من سابع المستحيلات ، وأن يُخلق سدى هذا من سابع المستحيلات .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

عند بعض العلماء أيها الأخوة أنه ما من قطرة دم تراق إلا ويحملها إنسان ، إلا دم الذي يموت بحد شرعي يتحمله الله جل جلاله ، أما أن تقتل مئة شخص بقصف ، بعد هذا تقول : كان هذا خطأ في المعلومات ، هؤلاء الذين ماتوا سوف يتحمل الذين أخطؤوا في تصويب الأهداف دمائهم كلها :

(يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

أحيانا يرتكب الإنسان خطأ ماليّاً وعليه حجز ، وعليه محاكمات ، وعليه سجن ، يقول لك : لا أنام الليل ، فكيف إذا كان الخطأ مع خالق الأكوان ، وتعلقت بهذا الخطأ حقوق ، كيف إذا كنت ظالماً بنيت مجدك على أنقاض الناس ، كيف إذا بنيت غناك على فقرهم ،

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

أحيانا الإنسان يتكلم كلمة ويندم عليها أشد الندم ، ولا يعلم إذا ما كان سيحاسب عليها أو لا يحاسب ، لا ينام الليل ، هي كلمة ، يحمل أوزارها ، أحياناً هناك فقر ، هناك قهر، هناك أمراض نفسية ، هناك تحول نساء للدعارة ، هناك انهيار بيوت ، هناك شقاق زوجي ، هناك عقوق والدين ، كله بسبب الفقر أحياناً ، فهذا الذي يبني ثروته على أنقاض الناس ، يستمتع بالمال الوفير ويشقى الناس بالحرمان الشديد هل هذا ينجو من عذاب الله ؟ ألم يقل عليه الصلاة والسلام حينما سأله أحد الأعراب ، وهو رجل جاء ليتعلم ، فانتهى إلى قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

فقال : يكفني هذا وانصرف ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

((انصرف الرجل وهو فقيه))

[أبو داوود والنسائي وابن حيان والحاكم عن عبد الله بن عمر]

مثقال ذرة ، كله محسوب .

الذنوب أنواع :

أيها الأخوة :

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

أي أن هذا الحمل الثقيل الذي حملوه بأخطائهم ، وذنوبهم ، ومعاصيهم سوف يسوءهم ، بالمناسبة المخالفات التي هي حق لله عز وجل يسهل مغفرتها ، أما المخالفات التي هي من حقوق العباد فيصعب أن تغفر إلا أن تؤدى ، أو أن الذي ظلمته يسامحك ، حقوق العباد مبنية على المشاحة ولا تسقط إلا بالأداء أو المسامحة ، بينما حقوق الله مبنية على المغفرة ، فذنب يُغفر وهو ما كان بينك وبين الله ، وذنب لا يُغفر وهو الشرك بالله ، وذنب لا يترك يُغفر إذا أديته أو سامحك الذي له حق عليك .

أيها الأخوة ، يقول الله عز وجل :

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32))

(سورة الأنعام)

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا)

هذا أسلوب في القصر والحصر ، يعني الحياة الدنيا لهو ولعب فقط ، ولا شيء غير ذلك ، ما هو اللعب ؟ يذهب الإنسان إلى الثلج ، يضع على مركبته شكل دمية من الثلج ، وهو يضع الثلج على شكل دمية ، ألا يعلم علم اليقين أن هذه سوف تنقض بعد حين ؟ هذا هو اللعب ، يعني عمل عابث ، عمل

سوف ينقض ، بناء سوف ينقض ، أحياناً يصنعون على شاطئ البحر من الرمل أشخاصاً ، أحياناً كل عمل في الدنيا بلا هدف متعلق بالآخرة لا قيمة له إطلاقاً ، هذا اللعب ، يعني عمل عابث .

أيها الأخوة ، بادئ ذي بدء يجب أن نُعرِّف اللعب ، نحن أحياناً نبني جامعة ، هذه الجامعة بنيت لتبقى، وأهداف نبيلة وراء بنائها في أن نخرج قادة للأمة ، علماء ، أطباء ، أدباء ، مربين ، فأحياناً نبني بناءاً ليبقى ، وأحياناً يقام سيرك مثلاً ، هذا البناء مؤقت ، خيمة ، بعد حين يتحول لبناء آخر ، فأن تبني ثم أن تهدم في هذا لعب ، أوضح مثل دمية الثلج ، أو دمية الرمل ، بنيت لتنقض ، لعب يعني عمل غير هادف ، أدق كلام عمل بلا هدف يعني عبث .

المفهوم الحقيقي للعب :

الآن طفل صغير يشتري سيارة صغيرة ، يحركها على قطع الأثاث ، يرافقها صوت ، وهو منغمس في لذة ما بعدها لذة ، لكن أباه يراه أنه يلعب ، وهذا نوع من اللعب ، أما حينما يكبر ويصبح شخصاً مهمّاً ، وتقدم له صوره عندما كان صغيراً ، كيف كان يحرص على هذه اللعبة ؟ وكيف كان يقاتل أخاه من أجلها ؟ وكيف كان يبكي والدموع تنهمر إذا أخذت منه ؟ وهو في مركز كبير يضحك ويقول : هذا لعب ، تعريف اللعب أنه عمل بلا هدف ، تعريف اللعب أنه ينتهي بنقيضه ، تعريف اللعب أنك تراه صغيراً حينما تتجاوزه .

الآن لو وسعت الموضوع : الدنيا كلها لعب ، بالنهاية هناك موت فالقوي يموت ، والضعيف يموت ، نحمل شهادات ، نطبع بطاقات نُعرِّف بأنفسنا ، نبني بيتاً فخماً ، جاءنا زائر نريه البيت ، غرف البيت ، مرافق البيت ، ألّفت كتاباً تطلع الناس عليه ، هناك حركة لكن كلها تنتهي عند الموت ، لو ابتعدنا عن الآخرة ، تصور دنيا بلا آخرة لعب بلعب ، ميزات ، فكلما اطلع على آلة يقول لك : هذه فيها ذاكرة ، هذه تقف حينما لا تستعملها آلياً ، فكل إنسان عنده آلة أو عدة آلات ، ويتحدث عن الخصائص حديث ممتع ، لكن في النهاية هذا الذي اشتراه ينساه ، ثم يمله ، المعنى الصغير في اللعب عمل الأطفال ، أو عمل الكبار عند العبث واللهو ، أما اللعب بالمفهوم الحقيقي الدنيا كلها لعب ، حينما تحذف الآخرة ، وتحذف الإيمان بالله ، وتحذف الحياة الأبدية ، وتلغي الجنة والنار ، الحياة الدنيا من دون فكر إيماني ، من دون هدف كبير ، لعبٌ ولعب .

وصلنا إلى القمر ـ خيراً إن شاء الله ـ وكلفت الرحلة خمسة و عشرين مليار دولار ، واضطربت ميزانيات معظم الدول ، لأنه استطاع إنسان أن يضع قدمه على سطح القمر ، وضع العلم الفلاني ، ركز هذا العلم على تراب القمر ، هؤلاء المعذبون في الأرض ماذا استفادوا ؟ هؤلاء الفقراء ، هؤلاء

المرضى ، هؤلاء الشعوب الجائعة ، ماذا استفادت من أن يطأ الإنسان القمر برجله ؟ نوع من اللعب أيضاً ، لكن اللعب مكلف ، لعب كلّف أرقاماً فلكية، يقول لك رحلة إلى القمر ، الآن يُفكر برحلات سياحية للقمر ، مبالغ فلكية ، لعب ، وإذا ذهبت إلى القمر فهو لا يصلح للحياة ، بذلة الرائد كلفت 17 مليوناً لأنه ليس في القمر هواء ، وإذا لم يكن فيه هواء فليس فيه أمواج صوتية ، تحتاج إلى أجهزة بث، وأجهزة استماع ، وبذلات لكن لعب بلعب ، أنا لا أقلّل من قيمة الكشف العلمي إطلاقاً ، أما في النهاية أنا حينما أعيش بلا هدف عملي لعب بلعب ، يعني حركة كبيرة جداً ومظاهر ، لكن لا تنتهي بإسعاد الإنسان .

في النهاية الحياة لعب بلعب فيها أشياء ومبالغات تفوق حدّ الخيال :

أنت أحياناً يمكن أن تطوف حول الأرض في ساعة واحدة ، طائرة أسرع من الصوت ، يقول : من بيتك إلى المطار ساعة ، وحول الأرض ساعة ، ومن المطار إلى بيتك ساعة ، قطعت المسافات بزمن قياسي ، حسناً ما النتيجة ؟ ما الذي حصل ؟ تقدم تقني كبير جداً ، اتصالات ، فضائيات ، إنترنيت ، كمبيوتر ، حواسيب ، آلات تصوير رقمية ، أجهزة تفوق حد الخيال .

أنا كنت في بلد الثلاجة ؛ كل مكان فيها فيه حساس الكتروني ، فأنا سآتي بمثل واحد ، طبعاً مكان للفواكه ، مكان للأجبان ، مكان للحوم ، مكان للعصير ، مكان للبيض ، سنأخذ مثلاً البيض ، هذه الثلاجة فيها تلفزيون ، وفيها إنترنيت ، يمكن للسيدة أن تتابع برنامجاً تلفزيونيّاً في أثناء الطبخ ، فلو أن حساسات مكان البيض أشارت إلى أنه استهلك ثلاثاً الثلاجة تخبر السوبر ماركت وتدفع ثمن البضاعة من بطاقة صاحب البيت ، ويطرق الباب ، وتأتي البضاعة ، وأنت لا تشعر ، خدمات أصبحت إلى هذا المستوى ، وبعد هذا ؟ إذا أنت اشتريت ، ماذا حصل ؟ لعب ، وثمن الثلاجة ثمن فلكي كبير جداً ، لأن كل نواقص الثلاجة يتم باتصال عن طريق الإنترنيت ، عن طريق الثلاجة نفسها ، ويعطى رقم بطاقة صاحب البيت ، وتأتي البضاعة إلى البيت بحسب النقص التي شعرت به الحساسات الالكترونية ، أليس هذا لعباً ؟

يمكن أن تجلس على كرسي يقدم لك دلكاً آلياً ، خيراً إن شاء الله ، ويمكن أن تستحم بحمام يعطيك ماء بقوة شديدة ، قال : هذا دلكٌ أيضاً ، في النهاية الحياة لعب بلعب ، فيها أشياء ومبالغات تفوق حد الخيال.

عندما قال الله :

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ)

مرة ثانية عمل غير هادف ، عابث ، عمل ينتهي بنقيضه .

هذه الناقة من أجل السباق ، الجمال التي تعد للسباق في دول الخليج لا تأكل إلا الفستق الحلبي ، والعسل ، والكاجو ، وجبة الجمل الواحدة تطعم أهل قرية ، فلان سبق ، ماذا حصل ؟! تجد الشيء العجيب ، الدنيا كلها هكذا ، كرة القدم لعب أليس كذلك ؟ سباق الخيول ، سباق السيارات ، صعود الجبال ،

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ)

الفرق بين اللهو واللعب :

اللهو : هنا السؤال ، اللهو أخطر من اللعب ، اللعب عمل عابث ، أما اللهو عمل عابث يضاف إليه أنه يصرفك عن واجب أساسي .

طالب في الصيف تعلم شيئاً عابثاً ، لعب الشطرنج فرضاً ، أذهب ثماني ساعات، لكن لعب الشطرنج في الشتاء وعنده فحص بكالوريا ، هذا لعب مضاف إليه اللهو ، اشتغل بالخسيس عن النفيس .

إله عظيم خالق الأكوان يصف لك الدنيا وصفاً جامعاً ، مانعاً ، بليغاً ، قاطعاً ، قال لك :

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

عمل غير هادف ينتهي بنقيضه تحتقره بعد حين ، إما أن يكون عمل الصغار هكذا ، والأصح من ذلك أن عمل الكبار هكذا أيضاً :

(وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

أما الدنيا مع الإيمان فليست لعباً ، تطلب العلم ، تعمل الصالحات كي يرضى الله عنك ، الحقيقة أن الدنيا مع الإيمان رائعة ، وقتك ثمين لا تنفقه إلا بالطاعة ، في طلب علم ، في أمر بالمعروف ، في نهي عن المنكر ، في خدمة ، في تخفيف الأعباء عن الناس ، في حل مشكلات ، فكل هذه الأعمال من أجل أن يرضى الله عنك والسعادة من عند الله تأتي ، فإذاً العمل العابث هو الدنيا من دون إيمان ، الآن مثلاً: طالب طب يريد أربعة أشياء ، يريد سيارة ، وعيادة ، وعروساً ، وعيّاناً ، أي مريضاً ، يريد مريضاً يعطيه أجره ، وعروساً ، وسيارة ، وعيادة ، صار طبيباً لامعاً ، وأمّن بيتاً ، ومركبة ، وعروساً ، ثم ماذا ؟ الموت بعد هذا ، لو كنت أغنى أغنياء الأرض ثم ماذا ؟ الموت ، لو كنت أقوى إنسان ثم ماذا ؟ الموت .

طائرة كبيرة جداً ، غرفة نوم ، وغرفة جلوس ، ويخت في البحر لقضاء إجازة بكاملها ، وأرقام تفوق حد الخيال ، وبيت يفوق في مساحته حد الخيال ، والإنسان في ثانية صار خبراً بعد أن كان شخصاً مهماً جداً ، هذه الحياة لعب ولهو ، فاللعب عمل عابث بلا هدف ، ينتهي بنقيضه ، تستصغره بعد حين،

أما اللهو فهو عمل عابث بلا هدف ، ينتهي بنقيضه تستصغره بعد حين ولكنه يشغلك عن عمل جليل ، فالذي يلهو بالخسيس عن النفيس يعد من أكبر الخاسرين

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

إيمانك باليوم الآخر وانسجامك معه يقلب الدنيا من لعب ولهو إلى عمل جاد مثمر ونافع :

طبعاً أنا حينما أذكر هذه الأمثلة لا أقصد إنساناً إطلاقاً ، قد يكون الإنسان محسن وله أعمال طيبة ، أنا أقصد أن الحياة تنتهي بالموت ، والموت نصيب كل إنسان من دون استثناء :

(وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

نحن خُلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، فإذا جئت إلى الدنيا وكان في ذاكرتك هذه الجنة فكل أعمالك ليست لعباً ولا لهواً ، إنما هي أعمال هادفة جادة .

إذاً ما الذي يلغي أن تكون الدنيا لعباً ولهواً ؟ أن تؤمن بالله ، فإذا آمنت بالله عز وجل أصبحت الدنيا ثمينة جداً ، لأنها مزرعة الآخرة ، ولأن كل أعمالك فيها أعمال صالحة تستحق من الله الثواب والجزاء،

(وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ)

الأبدية ،

(وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

معنى ذلك العقل يأمرك أن تسعى للآخرة ، وما من ركنين من أركان الإيمان قرنا معاً كالإيمان بالله واليوم الآخر ، فلذلك : إيمانك باليوم الآخر وانسجامك مع اليوم الآخر يقلب الدنيا من لعب ولهو إلى عمل جاد مثمر ونافع ، هذا هو الفرق ، الغرب يتمتع بالحياة بشكل مخيف ، ومع ذلك يأتي الموت فينهي كل شيء ، نتابع الآيات إن شاء الله في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(10-73): تفسير الآيات 32-35 ، الهداية قرار داخلي لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-02-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس العاشر من دروس سورة الأنعام .

كل عمل ولو بدا عظيماً إن لم يكن موظفاً للسعادة الأبدية فهو لعب :

مع الآية الثانية والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32))

أيها الأخوة الكرام ، تحدثت في درسٍ سابق عن حقيقة اللعب وعن حقيقة اللهو ، وبينت أن العمل العابث الذي لا جدوى منه في المستقبل ، والذي ينطوي على نقيضه في الدنيا هو لعب ، والمثل الواضح : حينما تذهب إلى الثلج ، الأطفال يصنعون دمية من الثلج ، هذه يصنعونها ، ويعتنون بشكل وجهها ، لكن بعد حين إما أن تذوب ، وإما أن تنهار ، كذلك على شاطئ البحر ، هذا أوضح مثل للعب، عمل لا جدوى منه في المستقبل ليس له أثر مستقبلي ، ينطوي على نقيضه ، وحينما تبتعد عنه يصغر في عينيك .

ضربت مثلاً آخر ، طفل أحياناً يلهو بمركبة صغيرة ، يمررها على الأثاث ، ويحدث صوت مع تمريرها ، وكأنها محرك ، فإذا أُخِذت منه بكى بكاءً شديداً ، فإذا صورناه بهذه الحالة ، فلما أصبح راشداً ، وله مقام في المجتمع ، وأريناه هذه الصور يستصغر عقله حينما كان في هذه السن .

لكن لو تعمقنا أكثر لوجدنا أن الدنيا كلها لعب ، ماذا يجدي سباق السيارات أحياناً؟ ماذا يجدي سباق الهجن ؟ سباق الخيل ؟ إلا إذا كان موظفاً لهدف نبيل ومروءة ، أما لمجرد السباق ، ماذا يجدي أن يهيج الناس من أجل إدخال كرة في مرمى ؟ ماذا يجدي أن يصعد الإنسان إلى القمر وشعوب تموت من الجوع في أطراف الأرض ؟ لذلك لو تعمقنا أكثر لوجدنا أن كل عمل ولو بدا عظيماً إن لم يكن موظفاً للسعادة الأبدية فهو لعب .

حينما يؤمن الإنسان بالآخرة إيماناً حقيقياً كل حركاته وسكناته في الدنيا مرتبطة بذاك الهدف :

متاحف في أوربة فيها تماثيل من صنع فنانين كبار ، شيء لا يصدق في أبهائها ، وتماثيلها ، يأتي السائح فيؤخذ بهذه التماثيل ، ماذا فعلنا ؟ أيّ عمل لا يوظف للسعادة الأبدية فهو لعب ، أي عمل لا

يوظف للدار الآخرة فهو لعب ، الدليل :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

(سورة القصص الآية : 77)

لكن أيها الأخوة ، أنا مضطر أن أوضح ؛ أحياناً الأب إذا أخذ أولاده إلى نزهة بعد مدة طويلة من الدراسة المضنية ، وملأ قلوبهم بالفرح ، وآنسهم ، ومتن علاقتهم به ، وأكرمهم فهذا عمل متعلق بالآخرة ، ليس لعباً ، أنت حينما ترتدي ثياباً أنيقة لأنك مسلم وتمثل هذا الدين ، ثيابك نظيفة ، تعتني بهندامك ، هذا ليس لعباً لأن له أثراً في مكانة المسلم ، أنت حينما ترتب محلك التجاري ، لأن اسمك مسلم ، فإذا كان في المحل فوضى ، وغبار ، وأشياء لا لزوم لها تؤخذ عنك فكرة سيئة ، فأنت حينما تعتني بمحلك التجاري ، وببيتك ، وبهندامك ، وحينما تمتّن علاقتك بأهلك وبأولادك هذا ليس من اللعب، هذا من عمل الآخرة .

لذلك أنت حينما تؤمن إيماناً حقيقياً ، وحينما تؤمن بالآخرة إيماناً حقيقياً ، كل حركاتك وسكناتك في الدنيا مرتبطة بذاك الهدف .

أبين هذا بمثلٍ : إنسان ذهب إلى بلد غربي لينال دكتوراه ، ويعلق أهمية لا حدود لها على هذه الشهادة، في عودته إلى بلده يحمل هذه الشهادة العليا ، وفي زواجه ، وفي شراء بيته ، الهدف الأول في هذا البلد نيل الدكتوراه ، علة وجوده في هذا البلد نيل الدكتوراه ، الآن عنده حركة يومية ، كل تصرفاته الجزئية مربوطة بهذا البلد ، الآن أراد أن يستأجر بيتاً ، يفكر ، يجب أن يختار موقعاً قريباً من الجامعة لأن هدفه نيل الدكتوراه ، ويجب أن يكون الوقت المستهلك في الانتقال للجامعة قصيراً ، أراد أن يقتني مجلة، يختارها متعلقة باختصاصه ، أراد أن يصاحب صديقاً ، يختاره متقناً للغة حتى يتعلم منه المحادثة ، يختار أن يأكل ، يختار أكلة خفيفة تعينه على الدراسة ، والحديث طويل ، كل حركاته وسكناته في هذا البلد مربوطة بهدف كبير . هكذا المؤمن لأنه آمن بالله ، واختار الدار الآخرة .

لا تصح حركتك في الدنيا إلا إذا عرفت سرّ وجودك فيها :

الآية تقول :

(وَابْتَغِ فِيمَا أَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

يمكن أن نجري مسابقات علمية وعسكرية فقط لأنها تدعم أهدافَ الأمة ، كي يكون المقاتل قويّاً يحتاج إلى تدريبات ، نقيم مسابقات ، أما المسابقات لاختيار أفضل مغنية مثلاً فهذا لعب ، لا علاقة له بالدار الآخرة .

أنت حينما تعرف الهدف تكون جميع الوسائل في خدمة الهدف ، وتأخذ قيمة الهدف مادام الهدف نبيلاً، هذه الوسائل المؤدية إلى هذا الهدف تأخذ قيمة الهدف .

(وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)

(سورة التوبة : الآية : 120)

اللعب حركة فيها نقيضها ، ولا هدف لها ، ولا أثراً مستقبلياً لها ، وتنتهي بانتهائها ، وتستصغرها بعد حين ، هذا هو اللعب ، أما اللهو فأخطر من اللعب . لو أن طالب أقام في العطلة الصيفية أشياء مؤقتة كي يستمتع بها ، لكن لو أنه انشغل بهذه اللعب والفحص على الأبواب ، نقول : هذا فضلاً على أنه لعب فهو لهو لأنه صرفه عن هدف نبيل بشيء خسيس ، حينما تنصرف بالشيء الخسيس عن الشيء النبيل فهذا لهو .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ (9))

(سورة المنافقون الآية : 9)

القصة كلها أن تعرف سر وجودك وغاية وجودك ، ولا تصح حركتك في الحياة إلا إذا عرفت سر وجودك ، وغاية وجودك ، كالذي ذهب إلى مدينة في الغرب ، ونام في الفندق أول ليلة ، واستيقظ وسأل : أين أذهب ؟ نسأله نحن : لماذا جئت أنت إلى هنا ؟ إن جئت طالب علم فاذهب إلى المعاهد والجامعات ، وإن جئت تاجراً فاذهب إلى المعامل والمؤسسات ، وإن جئت سائحاً فاذهب إلى المقاصف والمتنزهات ، فلا تصح حركتك في هذا البلد إلا إذا عرفت الهدف من وجودك فيه ، كما أنه لا تصح حركتك في الدنيا إلا إذا عرفت سر وجودك فيها ، لماذا أنت في الدنيا ؟

العبادة علة وجودنا :

قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

العبادة علة وجودنا ، الآن يُبنى على هذه الحقيقة الدقيقة الحركة :

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (97))

(سورة النساء)

المكان الذي يحول بينك وبين عبادة الله التي هي سر وجودك ينبغي أن تغادره ، وإلا كان المصير إلى النار .

أيها الأخوة الكرام ، المشكلة أن الإنسان حينما يسافر يجد حياة مريحة جداً ، يجد جَمالاً أخّاذاً ، حاجات متوفرة بشكل لا يصدق ، كل شيء مُيسر ، إلا أن الشيء الذي لا يُحتمَل أنك لا تستطيع أن تضبط من حولك في هذه البلاد ، فحينما تخسر أولادك تخسر كل شيء ولم تربح شيئاً ، فالمكان الذي يمنعك أن تعبد الله ينبغي أن تغادره ، والمكان الذي يغري أولادك أن يعصوا الله ينبغي أن تغادره ، لقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً (6))

(سورة التحريم الآية : 6)

المكان الذي يحول بينك وبين أن يكون أولادك في طاعة الله ينبغي أن تغادره :

البنت التي وُئِدت في الجاهلية تُسأل :

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

لكن الله يقول :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ (191))

(سورة البقرة الآية : 191)

أما التي تنشأ في بلد متفلت ، ولها صاحب ، ولا يستطيع الأب أن يعنفها بحسب القوانين النافذة فهذه موءودة ، والله الذي لا إله إلا هو أخ كريم جاء من بلد بعيد ، وحدثني عن صديق له سمة إسلامية ، قال له : ماذا أفعل ؟ ابنتي فوق في غرفتها ومعها صديقها ولا أستطيع أن أفعل شيئاً ، إن عنّفتها وقّعت تعهداً في مركز الشرطة ألاّ أعود إلى ذلك لأنه سلوك غير حضاري ، هذا الصديق الذي خلا بابنته جاء بدعوة من ابنته ، أنت إنسان غير حضاري . إذاً المكان الذي يحول بينك وبين أن يكون أولادك في طاعة الله أيضاً ينبغي أن تغادره ، ومعنى :

(كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ (97))

(سورة النساء الآية : 97)

إما ضعف قمعي وإما ضعف نفسي ، قد يضعف الإنسان أمام الشهوات ، فهو في هذا المكان مستضعف ، وقد يضعف أمام قوة قاهرة .

(فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ (97))

(سورة النساء الآية : 97)

العقل أن تبدأ من النهاية أي الموت :

لذلك أكبر شيء مهم في الدين أن تعرف لماذا أنت في الدنيا ؟ وما حقيقة الكون ؟ وما حقيقة الحياة الدنيا ؟ وما حقيقة الإنسان ، من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ من هنا يكون المؤمن عاقلاً ، لأنه عرف سر وجوده وغاية وجوده ، وتكيف مع أخطر حدث في حياته ألا وهو الموت :

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32))

هناك كتب كثيرة ، من هذه الكتب كتاب قصص العرب ، من أربعة أجزاء ، والحقيقة أنه ممتع جداً ، لكن هناك موعظة أن الأقوياء في هذا الكتاب ماتوا ، وأن الضعفاء ماتوا ، وأن الأذكياء ماتوا ، وأن المغفلين ماتوا ، وأن أصحاب الوسامة ماتوا ، وأن أصحاب الدمامة ماتوا ، وأن كل مخلوق في هذا الكتاب تحت أطباق الثرى ، وهذا المجلس بعد مئة عام لا يبقى فيه واحد منا موجوداً ، بين مقبرة الشيخ محي الدين والباب الصغير ، كلنا ، هذه مقابر دمشق وفيها شواهد ، وإذا نزل واحد فوقنا يجدون جمجمة وعظمتين ، أليس كذلك ؟

هذا الكلام الواقعي ، فماذا أعددنا لهذه الساعة التي لا بد منها ؟ هذا هو العقل ، ابدأ من النهاية .

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32))

الفرق الشاسع بين الدنيا والآخرة :

بربكم مثل بسيط جداً ذكرته كثيراً : لو خيّروك بين أن تركب مركبة فاخرة ربع ساعة ، وبين أن تعطى دراجة نارية لك طوال الحياة ، ماذا تختار ؟ الدراجة ، هذه مدى الحياة ، وهذه مؤقتة ، حسناً لو كان الاختيار بين أن تركب هذه المركبة ربع ساعة أو أن تركب هذه الدراجة ربع ساعة ؟ تختار المركبة ، أما إذا خيّروك أن تركب هذه الدراجة ربع ساعة ، وأن تقتني هذه المركبة الفارهة مدى الحياة هل تتردد ثانية ؟ هذه الدنيا والآخرة .

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4))

(سورة الضحى)

وقال :

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17))

(سورة الأعلى)

هل يوجد أوضح من هذا ؟

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17))

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

[أخرجه الطبراني عن سهل بن سعد]

ليس في الجنة أمراض ، ولا متاعب ، ولا اغتيالات ، ولا هموم ، ولا فقر ، ولا قلق ، ولا تهديد ، أما في الدنيا فالأمراض والمتاعب لا تنتهي .

(وَمَا لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35))

(سورة ق)

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

أدلة من القرآن والسُّنة تبين أن الدنيا إذا قيست بالأبد فهي لاشيء :

هذه الحياة الأبدية إلى ما شاء الله ، أكبر رقم في الدنيا إذا قيس بالأبد فهو صفر ، يمكن أن تعيش خمسة آلاف مليون سنة ، ممكن ، لأنَّ كل ما سوى الله ممكن ، الله عز وجل واجب الوجود وما سواه ممكن الوجود ، ممكن أن تعيش خمسة مليارات سنة ، ممكن أن تعيش خمسة آلاف مليون مليار سنة ، لكن قيمة هذه الدنيا كلها إزاء الآخرة صفر ، أي أخ درس الرياضيات من بديهيات الرياضيات أن أكبر رقم أنا عبرت عنه بواحد في الأرض ، وأصفار إلى الشمس ، 156 مليون كم ، لا كل من الكيلومترات أصفاراً ، كل ميليمتر صفر ، واحد في الأرض وأصفار إلى الشمس ، اسألوا علماء الرياضيات ، كل ميليمتر صفر ، 156 كم من الأصفار ، هذا الرقم ضعه صورة وضع في المخرج 8، القيمة صفر ، لذلك :

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26))

(سورة الدخان)

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[أخرجه الترمذي عن سهل بن سعد]

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32))

ما الحياة الدنيا إلا تفاخر ولعب ولهو وزينة :

لذلك هذا كلام لكل الأخوة الكرام :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[أخرجه الترمذي عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ]

دخل صحابي على رسول الله ، وهو من أفقر الصحابة ، فالنبي هشّ له وبشّ ، قال :

((أهلاً بمن خبرني بقدومه جبريل ، قال : أو مثلي ؟ قال نعم يا أخي ، خامل في الأرض علم في السماء))

[ورد في الأثر]

لذلك :

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة]

الحياة الدنيا تعريفها لعب ولهو ، وفي آية وزينة :

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ (20))

(سورة الحديد الآية : 20)

تفاخر ، تكاثر ، زينة ، لعب ، لهو ، إذا قال الله :

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا)

يعني أن في الآية حصراً وقصراً ، وليست غير ذلك ، لذلك ورد في بعض الأحاديث :

((خذ ما تشاء من الدنيا ، وخذ بقدره هماً))

[الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر))

[البزار من حديث أنس وضعفه ابن حبان]

الله عز وجل يواسي سيدنا محمد في الآية التالية على تكذيب الكفار له :

قال تعالى :

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33))

هو الرسول ، سيد الخلق وحبيب الحق ، من شدة كماله ورحمته بالخلق فهو أرحم الخَلق بالخَلق ، فحينما يُكذَّب يتألم أشد الألم ، فالله سبحانه وتعالى يواسيه :

(فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

إذاً الإنسان مخيّر ، فإذا صدّق الحق واتبعه كسب الدنيا والآخرة ، وإذا كذّب الحق ولم يتبعه خسر الدنيا والآخرة ، وطريق الإيمان بالله آياته الدالة على عظمته ، والدليل :

(وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

والآيات العلامات ، هناك آيات كونية دالة على عظمة الله ، وهناك آيات تكوينية ـ أي أفعاله ـ دالة على عظمة الله ، وهناك آيات قرآنية ـ أي كلامه ـ دالة على عظمة الله .

(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34))

أي يا محمد لا تحزن لأنّ شأن المرسلين أن يكذبوا ، لكن هناك نقطة دقيقة وهي عن الجامعة ، الجامعة الكبرى لا يعني أن كل الطلاب ينجحون ، أبداً ، لكن الجامعة الكبرى أن تأتي النتائج متوافقة مع المقدّمات ، حينما ينجح المتفوق ولا ينجح الكسول فهي جامعة عظيمة ، لذلك أن يكون الإنسان مخيَّراً ، وأن يمنح الإنسان مقوّمات التكليف من كون دال على عظمة الله ، ومن عقل يعد أحد أسباب معرفة الله ، ومن فطرة تعد سبب معرفة الله ، ومن شهوة كقوة محركة ، ومن اختيار كثمن لعمل الإنسان ، ومن شرع كطريق واضح يسير فيه .

يجب أن تؤمن أن من سنن الله عز وجل المعركة بين الحق والباطل :

أيها الأخوة ، حينما يكون الإنسان مؤمناً ، وحينما يتفوق في الدنيا بإيمانه عندئذٍ يحقق الهدف من وجوده ، فالنبوات بعض أتباع الأنبياء ، أو بعض الذين التقى بهم الأنبياء يصدقونهم ، وبعض الذين التقى بهم الأنبياء يكذبونهم ، فالعبرة أن يكون مصير المُكذب مصيراً معيناً ، وأن يكون مصير المصدق مصيراً معيّناً ، إذاً هناك عدل في الكون .

يا محمد لا تتألم ، ولا تحزن إذا كذبك قومك ، فهذا شأن الأنبياء من قبل :

(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34))

يجب أن نؤمن أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، هكذا أراد الله عز وجل ، وكان من الممكن أن يجمع الله الكفار كلهم في قارة واحدة ، والمؤمنين في قارة ثانية ، وليس هناك تواصل بينهما، لكن لم تعد هناك جنة ، لو كان الكفار في بلد بعيد ، وجاء النبي عليه الصلاة والسلام ، وجاء بالرسالة ، وجاء بالقرآن فذاب الناس محبة له خضعوا له ، وليس هناك بدر ، ولا أحد ، ولا خندق ، ولا نفاق ، ولا أعداء ، لكن لم تعد هناك جنة .

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ (4))

(سورة محمد الآية : 4)

يجب أن تؤمن أن من سنن الله عز وجل المعركة بين الحق والباطل ، الأعداء لهم دور مهم جداً ، الأعداء يدفعونك إلى طلب العلم إذا كذبوا دينك ، قد يأتي مؤلف ويقول : هذا الدين خرافة ، والدين

أفيون الشعوب ، مثلاً ، وقد يأتي إنسان مبطل ويقول : هذا القرآن من كلام محمد ـ e ـ النقطة الدقيقة أن الله سمح بذلك لدفع المؤمنين إلى تمكين إيمانهم ، ما الذي يحصل في النهاية ؟ أن عمالقة الشر ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله .

(فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ (36))

(سورة الأنفال الآية : 36)

يمكن أن نشكر القوة الغاشمة لأنها أعانتنا على أن نكفر بها ونؤمن بالله :

الطرف المناوئ له فضل كبير ، نحن على مستوى ما يجري في العالم أنا أرى ، وأتمنى ، وأعتقد أن هذه الهجمة الغير معقولة على الإسلام والمسلمين لصالح المسلمين لأنها توحدهم ، ولأنها توقظهم ، ولأنها تدفعهم إلى التمسك بدينهم ، ولعل هناك خيرات حِسان لا يعلمها إلا الله من نتائج هذه المعركة ، ومن قبل ما جرى في الحادي عشر من أيلول هناك قوة عظمى خطفت أبصار أهل الأرض ، وطمع كل إنسان أن يُسمح له بزيارة هذه البلاد ، وكأن هذه البطاقة الخضراء بطاقة إلى الجنة الخضراء ، وأن هذه القوة الكبيرة العملاقة الغنية القوية التي طرحت قيماً رائعة يُحبها الإنسان كحريته ، وما شاكل ذلك من قيم العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص والعولمة وغيرها ، هذه القيم خطفت أبصار أهل الأرض ، وتعلق الناس بهذه الجهة القوية ، ورأوها بديلاً للدين ؛ هي الحضارة والتفوق ، فلما ظهرت وحشيتهم أصبحت قوة غاشمة ، ليس غير ، وبقي الإسلام عملاقاً في نظر الناس .

لذلك الكلمة الدقيقة ، أنه يمكن أن نشكر هذه القوة الغاشمة ، لأنها أعانتنا على أن نكفر بها ، وما لم نكفر بها فالطريق إلى الله ليس سالكاً :

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا(256))

(سورة البقرة الآية : 256)

إذاً الله عز وجل يخفف عن نبيه الكريم فيقول :

(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى ـ لانتهاء الغاية ـ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا)

الله عز وجل لا يتخلى عنا ، وأرانا بعض الآيات ، هذه القوة العملاقة الطاغية ، لوحان اصطدما فكانت قوة تصادمهما مليون قنبلة ذرية .

الحكمة من إثبات التهم التي اتهم بها النبي الكريم في القرآن :

أخواننا الكرام ، بربكم إذا قال الكفار والمشركون : إن محمداً مجنون ، أو ساحر ، أو كاهن ، أو شاعر ، لماذا أثبت الله هذا في القرآن ويتلى إلى يوم القيامة ، ما الحكمة ؟ سبّ أحدهم إنساناً بسباب مؤذٍ هل

من الحكمة أن تروج هذه الكلمة بين كل الناس ؟ هذا الذي وقع ، جميع التهم التي اتهم بها النبي عليه الصلاة والسلام قد أثبتها الله في القرآن ، وهذا كتاب يُتلى إلى يوم القيامة ، فما الحكمة ؟

الحكمة : أنْ يا أيها الدعاة إذا نالكم أذى فلكم في هذا النبي الكريم أسوة حسنة ، هل يعقل أن يذهب النبي الكريم إلى الطائف مشياً على قدميه ، وهناك يستهزأ به ، ويُكذّب ، ويناله الأذى حتى سال الدم من قدميه الشريفتين ، أيضاً هذا درس للدعاة ، أنك إذا تحملت في سبيل الدعوة مضايقة وعذاباً فلك بهذا النبي أسوة حسنة ، والآخرة تسوى فيها الحسابات

(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا)

هؤلاء الذين حاربوا النبي أين هم الآن ؟ هؤلاء صناديد قريش ، زعماء قريش ، أين هم الآن ؟ هم في مزبلة التاريخ ، والنبي الكريم الذي كان ضعيفاً مستضعفاً يمر على عمار بن ياسر ، وهو يعذب ، لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا أنْ يقول :

((صبراً آل ياسر ! فإن مصيركم إلى الجنة))

[الحارث والبغوي في مسند عثمان وابن منده]

كان ضعيفاً ، بالمناسبة ، لو كان النبي قوياً لآمن كل من في الجزيرة في ثانية واحدة خوفاً منه ، كالأقوياء تماماً ، إذا أعطوا توجيهاً ينفذ بشكل غير معقول ، لكن أراده الله أن يكون ضعيفاً ليكون الإيمان به قيماً ، الإيمان به له ثمن كبير ، لأنه آمن :

(وَمَا قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً (21))

(سورة الجن)

وقال :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً (188))

(سورة الأعراف الآية : 188)

هذا الإنسان جعله ضعيفاً ليثمن الإيمان به ، آمن به وهو ضعيف :

(حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يتخلى الله عن المؤمنين ، ولكن علينا أن نصبر .

إن عصينا وصبرنا فالمصير إلى القهر أما إن أطعنا وصبرنا فالنتيجة هي النصر :

قال تعالى :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً (120))

(سورة آل عمران الآية : 120)

إن عصينا وصبرنا فالمصير إلى القهر ،

أما إن أطعنا وصبرنا فالنتيجة هي النصر :

(وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)

هذا قانون إلهي .

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51))

(سورة غافر)

وقال :

(وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35))

(سورة الأنعام)

قضية الإيمان بالله في نفس الإنسان لا في الآيات :

هنا نقطة دقيقة جداً ، أسأل الله أن يوفقني إلى شرحها :

(وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

الإنسان حينما يريد أن يؤمن فالبعرة تدله على البعير ، والأقدام على المسير ، والماء على الغدير ، وإذا لم يرد أن يؤمن يكون بوكالة (ناسا)الفضائية ويرى المجرات كل يوم ، يكون بالمجهر الإلكتروني ويرى الخلية ، ولا يؤمن ، معنى ذلك أن الإنسان الذي رفض أن يؤمن لو رأى المعجزات إلى نهاية الدوران لا يؤمن ، والذي أراد أن يؤمن فهذا الكون من دون خرق للمعجزات يكفي للإيمان بالله ، فالقضية في نفس الإنسان لا في الآيات ، النبي عليه الصلاة والسلام بسبب رحمته وحرصه على هداية الخلق يسعى ، قال تعالى :

(وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى)

جعل إيمانهم قسرياً ، وبربكم لو أراد رئيس الجامعة أن ينجح جميع طلاب كلية الطب ، فطبعَ أوراق الإجابة عليها الإجابة التامة والعلامة مئة على مئة ، فقط اكتب وامش ، كلهم ينجحون ، ما قيمة هذا النجاح ؟ لا قيمة له إطلاقاً لا عند رئيس الجامعة ، ولا عند إدارتها ، ولا عند الناس ، ولا عند الطلاب، فالهدى القسري سهل ، لكن لا يسعِد .

أراد الله تعالى أن يكون الإيمان اختيارياً لأنه سيكون ثمن جنة عرضها السماوات والأرض:

الله عز وجل أرادنا أن نأتيه راغبين ، طائعين ، مختارين ، محبّين :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى)

أراد الله أن تكون العلاقة بينك وبينه علاقة محبة ، علاقة اختيار ، علاقة مبادرة شخصية ، لو أن الله أراد أن يؤمن الناس جميعاً لآمنوا ، لكن أراد أن يكون الإيمان اختيارياً ، لأنه سيكون ثمن جنة عرضها السماوات والأرض ، فالنبي عليه الصلاة والسلام من حرصه على قومه قال الله تعالى له :

(فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

هذه قوانين الله عز وجل ، وأنت حينما تريد أن تؤمن فلا تحتاج إلى معجزة ، هذا الكون بوضعه القائم يكفي ، حسبكم الكون معجزة ، وإن أردت ألا تؤمن ترى زلزال آسيا ، وترى آيات لا تنتهي ، وغرق التيتانيك ، وسقوط كولومبيا ، وسقوط المتحدي (تشالنجر)، ترى آيات دالة على عظمة الله ولا تؤمن . بالمناسبة ، أغلى آلة تصوير إذا لم يكن فيها فيلم لا قيمة لها ، وأقل آلة تصوير مع الفلم فيها فائدة ، فالفائدة أن تبحث عن الحقيقة ، فإن أردت الحقيقة كل شيء في الكون يدلك على الله ، وإن أردت أن تتجاهل الحقيقة فلو كنت في كل مراكز العلوم والجامعات والمجاهر والتلسكوبات لا تؤمن :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى)

الهدى قرار داخلي تتخذه ، فإن اتخذته فكل شيء يدلك على الله ، وإن لم تتخذه فلو رأيت نفقاً في الأرض ورأيت منه الطرف الآخر للأرض ، أو سلماً إلى السماء فلا تؤمن.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(11-73): تفسير الآيات 36-38 ، اتحاد المعجزة بالمنهج

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-03-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة الأنعام .

الله عز وجل يصف الذين يدَّعون السماع ولا يطبقون بأنهم لا يسمعون :

مع الآية السادسة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36))

الذي يستمع في القرآن الكريم يعني أن يطبق ، وما لم تطبق فلست مستمعاً .

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا (4))

(سورة التحريم الآية : 4)

علامة إصغائكما إلى الله التوبة ، فما لم تتحرك ، ما لم تتخذ موقفاً ، ما لم تستجب ، ما لم تصل ، ما لم تقطع ، ما لم تعطِ ، ما لم تمنع ، ما لم تغضب ، ما لم ترض ، ما لم تتخذ موقفاً من سماعك للحق ، فكأنك لم تستمع للحق

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ)

أي إنما علامة استجابة الذين يسمعون أنهم يستجيبون ، إنما علامة سماع الذين هم يسمعون أن يستجيبوا للحق .

أيها الأخوة الكرام ، لا يمكن أن تقول لإنسان : على كتفك عقرب شائلة ، ويبقى هادئاً مرتاحاً مبتسماً ، ويلتفت إليك ويقول لك : أشكرك على هذه الملاحظة ، وأسأل الله أن يمكنني أن أكافئك عليها ، حتماً لم يسمع ما قلت له ، ولو سمع ما قلت له لمّا تكلم ولا كلمة ، بل ارتعدت فرائصه ، وخلع معطفه ليبعد العقرب عنه ، أليس كذلك ؟

مستحيل أن تدرك ولا تنفعل ، مستحيل أن تنفعل ولا تتصرف ، مستحيل أن تنفعل ولا تتحرك ، الله عز وجل يصف الذين يدَّعون السماع ولا يطبقون بأنهم لا يسمعون .

الاستجابة تكون بالإيجاب أما الذي لا يستجيب فهو عند الله ميت :

أيها الأخوة ، فرق كبير بين يستجيب وبين يُجيب ، قد تسأل أحداً مبلغاً من المال فإذا قال لك : لا ، لقد أجابك ، لكن أجابك بالنفي ، أجابك بالسلب ، أجابك بغير مرادك ، أما حينما تسأل أحداً مالاً ، ويستجيب لك ، أي يعطيك المال ، فالاستجابة شيء ، والإجابة شيء آخر ، الإجابة قد تكون سلباً أو إيجاباً ، لكن الاستجابة لا تكون إلا إيجاباً ، فلذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال الآية : 24)

الاستجابة تكون بالإيجاب أما الذي لا يستجيب فهو عند الله ميت ، الدليل :

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى)

أي والذين لا يستجيبون ، لأنهم لم يستمعوا حقيقةً هم عند الله موتى .

وليس من مات فاستراح بميت إنما الميت مـيت الأحياء

* * * *

وقد قال الله عن هؤلاء الشاردين :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ (21))

(سورة النحل الآية : 21)

وقد قال عنهم أيضاً :

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22))

(سورة فاطر)

الخطورة أن يموت قلب الإنسان ، أن يكون قلبه مغلفاً ، أن يكون سمعه فيه وقر، أن يكون القرآن عليه عمىً ، هذه حالة مرضية خطيرة مهلكة ،

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

خيارك مع الإيمان خيار وقت :

إذاً إذا دعاك خالق السماوات والأرض ، دعاك إلى أن تعبده كي تسعد بعبادته في الدنيا والآخرة ، إذا دعاك إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، وجعل الكون كله دليلاً على وجوده وكماله ووحدانيته ، وجعل منهجه متوافقاً مع حاجاتك الأساسية ، من حاجة إلى الأمن وإلى الكفاية ، وإلى السلامة ، وإلى السعادة ، فإذا استجبت فقد حققت الهدف الذي من أجله خلقت ، وإن لم تستجب ، بمعنى أنك لم تستمع السماع الذي أراده الله عز وجل ، فأنت عند الله ميت ،

(وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ)

لكن هذا الذي يموت بعد أن يموت يعرف الحقيقة .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

لكن متى عرف الحقيقة ؟ بعد فوات الأوان ، ولا قيمة لهذه المعرفة إطلاقاً ، إذاً : معنى ذلك أن خيارك مع الإيمان خيار وقت ، ليس غير ، لأن أكفر كفار الأرض حينما أدركه الغرق قال :

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

(سورة يونس)

متى ؟ بعد فوات الأوان ، يعني شيء لا بد منه ، إما أن يكون وأنت في ريعان شبابك ، أو أن يكون بعد فوات الأوان .

((اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك))

[رواه الحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس]

أحمق أهل الأرض الذي يوقع الأذى في بني البشر ويظن أنه سينجو من عقاب الله :

إما أن تؤمن في الوقت المناسب ، أو أن يكون الإيمان لا جدوى منه لأنه جاء بعد فوات الأوان ،

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

وقال :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

لن تجد على وجه الأرض إنساناً أغبى من الذي لا يدخل المسؤولية يوم القيامة في حساباته ، هذا أحمق أهل الأرض الذي يوقع الأذى في بني البشر ويظن أنه سينجو من عقاب الله .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

في الآخرة يأتي الإنسان ربه فرداً ليس له شيء إلا عمله الصالح :

أنت في الدنيا حولك جمع غفير يؤيدونك بإشارة منك ، هذا في الدنيا فقط ، أما في الآخرة :

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (94))

(سورة الأنعام الآية : 94)

انظر الآن ، قد تعتدي دولة كبرى طاغية ، فكل من له مصلحة معها يؤيدها ، ويعينها على باطلها ، وعلى ظلمها ، وعلى عدوانها ، في الأرض هناك تكتلات ، وقد يكون التكتل على باطل ، هذا في الأرض ، ولكن في الآخرة يأتي الإنسان ربه فرداً ، ليس له شيء إلا عمله الصالح .

إذا وقعت عين الأم على ابنها يوم القيامة تقول : يا بني ، هل من حسنة منك أرجو ثوابها ؟ قال : يا أمي ، ليتني أستطيع ذلك ، إنما أشكو مما أنتِ منه تشكين ، قالت : يا بني ، ألم يكن لك صدري سقاءً ، وبطني وعاءً ، وحجري غطاءً ، قال لها : ليتني أستطيع ذلك .

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ (101))

(سورة المؤمنون الآية : 101)

انتهت كل علائق الأرض ، لذلك أغبى أغبياء أهل الأرض هؤلاء الذين يبطشون، ويقتلون ، ويهدمون، ويظنون أنهم لن يحاسبوا :

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36))

معجزة النبي معجزة مستمرة فكلما تقدم العلم كشف عن جانب كان غائباً عن الناس :

قال تعالى :

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37))

(سورة الأنعام)

لأنه بلغهم أن أنبياء الله السابقين جاؤوا بمعجزات حسية ، فسيدنا إبراهيم ألقي في النار ولم يحترق ، وسيدنا موسى جعل عصاه ثعباناً مبيناً ، وهكذا ، وفاتهم أن هؤلاء الأنبياء إنما بعثوا إلى أقوامهم فحسب، لذلك كانت معجزاتهم حسية ، لأقوامهم فقط ، فيؤمن بها من رآها ، ومن لم يرها قد يؤمن وقد لا يؤمن ، لكن غاب عنهم أن النبي خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولكل البشر أجمعين ، وأن كتابه آخر الكتب ، لذلك لا بد من أن تتحد معجزته بمنهجه ، واتحاد المعجزة بالمنهج هي أن في القرآن آيات كثيرة فيها إشارات تعد سبقاً علمياً ، فكلما تقدم العلم كشف عن جانب من عظمة هذه الإشارات ، وهذا دليل قطعي أبدي سرمدي مستمر على أن هذا القرآن كلام الله ، لذلك غاب عنهم أن معجزة النبي أبلغ من أية معجزة، إنها ليست كتألق عود الثقاب تتألق ثم تنطفئ فتصبح خبراً يصدقه من يصدقه أو يكذبه من يكذبه ، إن معجزة النبي معجزة مستمرة ، فكلما تقدم العلم كشف عن جانب كان غائباً عن الناس ، مثلاً حينما يقول الله عز وجل :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً (26))

(سورة البقرة : 26)

بعوضة ذُكرت في كتاب الله ؟ في وحي السماء ؟ في منهج الله عز وجل ؟ بعوضة !

خلق البعوضة آية من آيات الإعجاز العلمي :

قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً (26))

(سورة البقرة : 26)

ما قيمة هذا المخلوق الهين على الناس ؟ وقد أشار النبي إلى ذلك ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

بعوضة ذُكرت في سورة البقرة ، فلما اخترع المجهر الإلكتروني الذي يكبر أربعمئة ألف مرة ووضعت البعوضة تحته ، تبين أن في رأسها مئة عين ، وفي فمها ثمانية وأربعين سناً ، وفي صدرها ثلاثة قلوب ، قلب مركزي ، وقلب لكل جناح ، وفي كل قلب أذينان وبطينان ودسامان ، ومع البعوضة أجهزة لا تملكها الطائرات ، جهاز استقبال حراري ترى الأشياء لا بأشكالها ، ولا بأحجامها ، ولا بألوانها ، ولكن بحرارتها ، وحساسية هذا الجهاز واحد على ألف من الدرجة المئوية ، ومعها جهاز تحليل دم فما كل دم يناسبها ، ينام أخوان على سرير واحد ، يستيقظ الأول وقد ملئ بلسع البعوض ، والثاني لم يصب بشيء ، معها جهاز تحليل للدم ، ولكي يسلك الدم في خرطومها الدقيق لا بد من أن يتميع ، معها جهاز تمييع دم ، ولئلا تقتل في أثناء امتصاص الدم معها جهاز تخدير ، فمن جهاز استقبال حراري رادار ، إلى جهاز تحليل ، إلى جهاز تمييع ، إلى جهاز تخدير .

أما خرطومها لما وضع تحت المجهر الالكتروني تبين أن له ست سكاكين ، أربع سكاكين لإحداث جرح مربع ، وسكينان تلتئمان على شكل أنبوب امتصاص الدم ، وتبين في أرجل البعوضة مخالب كي تقف على سطح خشن ، ومحاجم على أساس تفريغ الهواء كي تقف على سطح أملس . إذاً : هذه الآية من آيات الإعجاز العلمي ، هذا متى عُرف ؟ بعد اكتشاف المجهر الالكتروني ، إذا قال الله عز وجل :

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ (3))

(سورة الملك الآية : 2)

ليس معنى التفاوت بالحجم ، بين البعوضة والحوت الأزرق مسافة كبيرة جداً ، الحوت الأزرق فيه ما يقدر بخمسين طنّاً من اللحم ، وخمسين طنّاً من العظم ، وخمسين طنّاً من الدهن ، وتسعين برميلاً من

الزيت ، ويرضع وليده ثلاثمئة كغ في كل رضعة ، ثلاث رضعات في اليوم ، وطنّاً من الحليب ، فهناك تفاوت كبير بين البعوضة وبين الحوت ، لكن معنى الآية :

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

في إتقان الصنعة ، نحن كبشر نصنع صناعة متقنة جداً وصناعة رخيصة للاستهلاك الخفيف قطعة للمنزل ، أما قطعة الصناعة من مواد أولية عالية جداً ، لكن الله تعالى يقول :

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

معجزة نبينا محمد هي الكتاب الذي أنزل عليه وهو القرآن الكريم :

إذاً : قضية أن تأتي النبي آية حسية هذه قضية متعلقة بالأنبياء السابقين ، الذين جاؤوا لأقوام محدودين، والمعجزة لهؤلاء فقط ، أما أن يأتي نبي لكل الأمم والشعوب ، ولآخر الزمان ، وكتابه آخر الكتب ، فلا بد من تلازم بين المعجزة وبين المنهج ، الإنجيل شيء ، وسيدنا عيسى أحيا الميت شيء آخر ، التوراة شيء ، وسيدنا موسى جعل البحر طريقاً يبساً شيء آخر ، أما النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم معجزته هي كتابه ، المعجزة في القرآن الكريم .

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37))

أراد الله العلاقة بينه وبين العباد علاقة حب ، وعلاقة ود ، وعلاقة اختيار ، وعلاقة طواعية ، وعلاقة مبادرة شخصية ، ما أرادها علاقة قهر وسيطرة ، ولو أراد الله أن يخضع الناس جميعاً له لجعلهم أمة واحدة ، إذاً : إن الله عز وجل قادر أن ينزل آية تجبر الناس على الإيمان ،

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

أنّ هذا الإيمان القسري لا يسعد صاحبه .

تماماً كما لو أن رئيس جامعة أراد أن ينجح كل الطلاب ، قضية سهلة جداً ، يوزع أوراق الامتحان مطبوع عليها الإجابة التامة ، والعلامة مئة من مئة ، لكن يكلف الطالب كتابة اسمه ، لكن هذه الدكتوراه لا تساوي شيئاً لا عند رئاسة الجامعة ، ولا عند المجتمع ، ولا عند صاحبها ، لا قيمة لها إطلاقاً ، فأن تقول : ألا يستطيع رئيس الجامعة أن ينجح جميع الطلاب ؟ بلى ، ولكن هذا النجاح لا قيمة له إطلاقاً ، هذه معنى قوله تعالى :

(لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

النمل من آيات الله الدالة على عظمته :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38))

(سورة الأنعام)

أيها الأخوة الكرام ، أريد أن أشرح لكم هذه الآية من خلال بحث علمي عن مجتمع النمل ، فالنملة حشرة اجتماعية راقية ، موجودة في كل مكان وفي كل وقت وزمان ، بل إن أنواع النمل تزيد عن تسعة آلاف نوع ، وبعض النمل يحيا حياة مستقرة في مساكن محكمة ، هذا المجتمع المدني للنمل ، وبعض النمل يحيا حياة الترحال كالبدو تماماً ، هذا مجتمع البدو عند النمل ، وبعضهم يكسب رزقه بجده وسعيه بمجتمع حضاري ، وبعضهم يكسب رزقه بالعدوان والسيطرة ، هذا إرهابي .

النمل حشرة ذات طبع اجتماعي فإذا عُزلت عن أخواتها ماتت ، ولو تهيأ لها غذاء جيد ، ومكان جيد ، وظروف جيدة ، فهي كالإنسان ، إذا عزلته في مكان بعيد عن الضوء والصوت والساعة والزمن والليل والنهار عشرين يوماً فقد توازنه ، واختل عقله .

تُعلم النملة الإنسان درساً بليغاً في التعاون ، فإذا التقت نملة جائعة بأخرى شبعى تعطي النملة الشبعى للجائعة خلاصات غذائية من جسمها ، ففي جهازها الهضمي جهاز ضخ تطعم به غيرها من جياع النمل ، ومعها جهاز مص لتأكل ، الإنسان مص فقط لا يضخ شيئاً ، لذلك قال r :

((ليس المؤمن الذي يبيت وجاره إلى جنبه جائع))

[رواه علقمة بن أبي علقمة عن أمه عن عائشة]

أيها الأخوة ، لقد رصد العلماء طرق معيشة النمل ، وأدهشهم عملها الجاد الدؤوب في تحصيل أرزاقها، والتعاون ، وتوزيع الوظائف فيما بينها بكل دقة وجدية ، فللنمل ملكة كبيرة الحجم ، مهمتها وضع البيض ، وإعطاء التوجيهات ، ولها مكان آمن في مساكن النمل ، لها قصر ، وهي على اتصال دائم بكل أفراد المملكة .

بعض من مهام النمل :

الإناث العاملات عند النمل لها مهمات متنوعة ، من هذه المهمات : تربية الصغار ، وهذا يشبه عندنا قطاع التعليم ، وفي النمل عساكر لها حجم أكبر ، ولها رأس صُلب ، كأن عليه خوذة ، وهذا يشبه قطاع الجيش في حراسة المملكة ، وحفظ الأمن ورد العدوان ، ومن مهمات العاملات : تنظيف المساكن

والممرات ، وهذا يشبه قطاع البلديات ، ومن مهماتها سحب جثث الموتى من المساكن ، ودفنها في الأرض ، وهذا يشبه مكاتب دفن الموتى ، ومن مهماتها أيضاً جلب الغذاء من خارج المملكة ، وهذا يشبه قطاع المستوردين ، ومن مهماتها زرع الفطريات ، وهذا يشبه قطاع الزراعة ، ومن مهمات العاملات تربية حشرات تعيش النمل على رحيقها ، وهذا يشبه قطاع مربي الماشية .

إن للنمل نظاماً دقيقاً لمعاشه ، فله قائد يوجهه ويأمره ، وله مساكن يعيش فيها ، وهذه المساكن مقسمة إلى غرف معيشة ، ومستودعات لتخزين المُؤَن ، ولها دهاليز معقدة عليها حراسة مشددة على مدار الساعة ، ويجتمع في تلك المساكن قرى كاملة كأنها مستعمرات تصل بينها طرق ومسالك ، حيث تهتدي بها إلى سطح الأرض .

يعمل النمل في قراه بموجب انضباط مدهش وصارم للغاية ، وبإشراف النمل الذي كبرت رؤوسه ، وعظمت خراطيمه ، دققوا الآن في تفسير قوله تعالى :

(إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)

يبني النمل المدن ، ويشق الطرقات ، ويحفر الأنفاق ، ويخزن الطعام في مخازن وصوامع ، وبعض أنواع النمل يقيم الحدائق ، ويزرع النباتات ، وبعض أنواعه يشن حروباً على قبائل أخرى ، هذه تعرفونها ، من أجل الحرية طبعاً ، قال الله عز وجل :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)

هناك نوع من النمل يبني بيوته فوق الأرض ، من أوراق الأشجار وأغصانها ، ويكثر هذا تحت شجر الصنوبر ، أو ينحت هذه البيوت في الأشجار العتيقة كما يتخذ الإنسان من الجبال بيوتاً ، ومع أن النمل لا يملك الآلات والعدد فإنه يبني أبراجاً في غاية الدقة والإحكام ، مستعيناً بمقص فمه الحاد ، حيث يمضغ ما يقصه حتى يصبح كالعجين ، ولعل ما بناه القدماء المصريين في مساكنهم وأهراماتهم كان تقليداً للنمل .

يبقى صغار النمل في الديار لحفر الحجرات ، تحفر هذه الصغار الحجرات ، وتبني السراديب ، وتنمو وهي فيها ، بالإضافة إلى وجود المربيات ، وبعض النمل مسؤول عن الحراسة ، والتنظيف ، وحفظ وترتيب المُؤَن التي يحضرها النمل العامل ، وهو يأبى كل الإباء أن يتطفل عليه لمعرفة نظامه العجيب في الحياة .

بعض الغرائز التي أودعها الله في النمل :

وقد وجد العلماء أن النمل حينما يغادر قريته يرسل في كل مسافة معينة مادة كيمائية لها رائحة حتى يستطيع التعرف إلى طريق عودته ، عندما يمشي يحدث نقاط فيها مواد كيمائية ، حتى تكون هذه المواد علامات في طريق العودة ، وأنه أحدهم حينما أراد إزالة هذه المادة لم يستطع النمل الاهتداء إلى طريق عودته ، وإذا رأت النملة شيئاً مفيداً لا تقوى على حمله نشرت حوله بعض الرائحة ، وأخذ منه قدراً يسيراً ، وكرت راجعة إلى أخواتها ، وكلما رأت واحدة منهن أعطتها شيئاً مما معها كي تدلها على مكان هذه الوجبة الدسمة ، حتى يجتمع على ذلك الشيء جماعات منها يحملونه ويجرونه بجهد وعناء ، متعاونين على نقله ، علماً بأن للنمل قوى عضلية بالنسبة إلى حجمه تزري بقوة أعظم المصارعين والرياضيين .

كما وجد العلماء أن النملة ـ دققوا الآن ـ ينشر عند موته رائحة خاصة تنبه بقية الأفراد على ضرورة الإسراع بدفنه ، عندما تموت النملة ، قبل أن تموت ترسل إشارة ورسالة : أن تعالوا ادفنوني ، وعندما قام أحد العلماء بوضع شيء من هذه المادة على جسم نملة حية سارع باقي النمل إلى دفنها ، معه نص، انتهى ما في مجال ، أرسلت نص ، أن تعالوا وادفنوني ، أنا لست ميتة ، أبداً ، فدفنوها .

النمل من الحيوانات والحشرات القليلة التي أودع الله فيها غريزة ادخار الغذاء ، فهو يحتفظ بالحبوب في مسكنه الرطب الدافئ تحت الأرض دون أن يصيبها تلف ، ويتفنن النملة في طرق الادخار بحسب أنواعه ، فهو يقطع حبة القمح نصفين ، حتى لا تنبت ويقشر البقول لئلا تنبت من جديد ، أو يتركها أسابيع في تهوية وحرارة معينة ، ويسمح لها بعد ذلك بالإنبات ، فتنمو .

الموضوع أيها الأخوة موضوع دقيق جداً ، الله عز وجل أثبت لها المعرفة قال :

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

(سورة النمل)

هذه معرفة ، ولغتها لغة كيماوية ، وللنملة مخ صغير ، وخلايا عصبية ، وأعصاب لتقدير المعلومات ، وخرائط كي تهتدي بها إلى مواقع الغذاء .

للنملة أيضاً رأس ووسط وذيل اسطواني ، ولها ستة أرجل تقدر بها على الجري السريع ، ولبعضها أجنحة للوثوب ، لها خمسة أعين ، عينان مركبتان على جانب الرأس مكونة من أعين بسيطة تعد بالمئات ، وهي ملتئمة الوضع والتركيب والترتيب ، حيث ترى وكأن لها عين واحدة ، والثلاث العيون الباقية موضوعة على شكل مثلث يعلو العينين المركبتين ، وهي أعين بسيطة لا تركيب فيها .

النمل أقرب الحشرات إلى الإنسان في أفعاله :

أيها الأخوة ، النملة تملك نوعاً من التصرف العقلاني وهي من أذكى الحشرات ، وهي ترى بموجات ضوئية لا يراها الإنسان ، ولغة النمل كيماوية لها وظيفتان : التواصل والإنذار ، فلو سحقت نملة فإن رائحة تصدر عنها تستغيث بها النملات ، إذا كان هناك خطر يمكن لجماعة النمل القضاء عليه ترسل رسالة استغاثة ، أما إذا كان الخطر أكبر من طاقة جماعات النمل ترسل رسالة تحذير ليبتعدوا ، عندها ثلاث رسائل : تعالوا ادفنوني ، أو ابتعدوا ، أو اقتربوا .

للنمل جهاز هضم مدهش ، فيه فم ومري ومعدة وأمعاء ، وجهاز مص ، كما قلت قبل قليل ، وضخ ، ويَعرف النمل بعضه بغير علامة ، والتودد موجود بين أهل القرية الواحدة فقط ، ما عدا ذلك فعداء مستحكم ، حيث يمكن أن تنشب الحروب بين عدة قرى من النمل فتنتظم في صفوف قتالية ، وتحدث المعارك ، ويقع القتلى والجرحى ، ويتخذ النمل المنتصر الأسرى ليجعلهم خدماً في قراه ، ويقوم بدفن موتاه في مقابر خاصة ، كما ينظف أرضه من جثث أعدائه حتى قيل أن النمل أقرب الحشرات إلى الإنسان في أفعاله ، وقد يصبح النمل قوة مزعجة مهلكة شديدة الخطر على الإنسان نفسه ، حيث يمكن أن يقوض دعائم المساكن الخشبية حتى تتداعى عروشها ، أو يكون مستعمرات في دور الكتب حيث يقوم بإتلاف الورق أكلاً وتمزيقاً ، سيدنا علي كرم الله وجهه يقول : " انظروا إلى النمل في صغر جثتها ، ولطافة هيأتها ، لا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على أرضها ، وصبت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، وتعدها في مستقرها ، تجمع في حرها لبردها، وفي وردها لصدرها ، مكفولة برزقها ، مرزوقة بوسقها ، لا يغفلها المنان ، ولا يحرمها الديان ولو في الصفا الوابد ، والحجر الجامد ، ولو فكرت في مجاري أكلها ، في علوها وسفلها ، وما في الجو من شراشيف بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً ، فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها ، وبناها على دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه على خلقها قادر ، لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه " .

أردت من هذا البحث أيها الأخوة أن أبين معنى قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ـ والنملة دابة ـ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)

ثمة عالم وضع في عش طائر بيضة ليست منه ، فلما فقست ورآها ليست منه قتل زوجته ، لأنها خانته .

الغربان يأكلون أحياناً جوز الهند ، ولها غلاف خشبي قاسٍ جداً ، يصعدون إلى أعالي السماء ، ويلقونها ، تنكسر في الأرض ، يكون حول هذه الجوزة مئات الغربان ، هناك عُرف أنّ هذه من حق الذي صعد إلى أعالي السماء وألقاها من هناك ، ليس هناك خطف ولا سرقة .

الفرق بين الأمر التكويني والأمر التكليفي :

طبعاً هذه المعلومات أيها الأخوة مفادها أن هؤلاء المخلوقات :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38))

هذا النظام البديع ، وهذه القدرات الفائقة ، وهذا التعاون المدهش ، وهذا التنسيق ، وهذا التخصيص ، بمجتمع النمل شيء لا يصدق ، لكن هذا كله بأمر تكويني ، أما الإنسان إذا صدق ، وأتقن عمله فهذا بأمر تكليفي ، وفرقٌ كبير بين الأمر التكويني وبين الأمر التكليفي ، عندما ينجح طالب بالامتحان بجهده، ودراسته ، وتعبه ، وبحثه ، وقراءته ، وحفظه ، وتجاربه شيء ، وعندما يتلقى ورقة الامتحان مكتوب عليها الجواب شيء آخر .

هذا النظام البديع ، وهذه الدقة والتنسيق بالوظائف ، وهذا القيام بالواجبات على أعلى درجة هذا بأمر تكويني ، أما الإنسان حينما ينشئ مجتمعاً راقياً في أمانة وصدق وعفاف فهذا إنسان مكلف ، ويستحق الجنة على هذا الالتزام ، فرق كبير بين انضباط الإنسان لأنه إذا انضبط بأمر تكليفي ، وبين انضباط الحيوان بأمر تكويني ، لأنه لا أجر له ، الحيوان غير مكلف ، أما الإنسان فمكلّف .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(12-73): تفسير الآيات 39-45 ، سياسة الله مع خلقه لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-03-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة الأنعام .

مثل المؤمن وغير المؤمن كمثل الحي والميت :

مع الآية الأربعين ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(40))

والآية التي قبلها :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39))

أيها الأخوة ، كما أن في عالم المادة هناك نور وظلام ، كذلك في عالم الإيمان ، هناك إنسان يرى وهناك إنسان أعمى ، وإذا وسعنا الدائرة هو أصم عن سماع الحق ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يرى .

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ (21))

(سورة النحل الآية : 21)

مثل الرجل المؤمن وغير المؤمن كمثل الحي والميت ،

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22))

(سورة فاطر الآية : 22)

تعريف الحياة والموت في عالم الإيمان :

أحد العلماء الغربيين ، وهو من كبار علماء الفيزياء يقول : كل من لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون ، رحيمة هي أرحم ما تكون ، عليمة هي أعلم ما تكون ، حكيمة هي أحكم ما تكون ، فهو إنسان حي ولكنه ميت ، هذا المعنى ذكره بعض الشعراء :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

***

قد تجد إنساناً يتمتع بأعلى درجة من الحيوية والنشاط والشباب ، ولكنه عند الله ميت ، وقد تجد إنساناً طُرِحتْ عليه الأمراض وهو حي في أعلى درجات النشاط الإيماني .

يا أيها الأخوة ، الحياة والموت في عالم الإيمان معرفة الله والغفلة عنه ، الحياة والموت في عالم الإيمان اتصال بالله وانقطاع عنه ، الحياة والموت في حياة الإيمان عمل صالح وعمل سيئ ، إقبال وإعراض ، استقامة وانحراف .

الإنسان له وجود مادي يشبه في هذا الوجود بقية المخلوقات ، وله وجود إنساني هذا الوجود يعني أن يؤمن ، وأن يعرف ربه ، وأن يعرف سر وجوده ، وغاية وجوده ، وأن يتحرك وفق ما خلق له ، فلذلك

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ)

لهم آذان موسيقية رائعة ، يستمعون إلى الموسيقى وإلى الغناء ، ويفرقون بين المغنين والمغنيات ، الأحياء منهم والأموات ، ولكنهم صم عن سماع الحق ، ولهم لسان طليق ، أدباء وشعراء ، ينطقون بالشعر والغزل ، وما إلى ذلك ، ولكنهم بكم عن أن ينطقوا بكلمة الحق ، يتواطئون مع الكفار والمشركين ، فيصمت لسانهم عن النطق الحق ، معنى قوله تعالى :

(صُمٌّ وَبُكْمٌ)

أي لا يستمع إلى الحق .

ثلاث طرق سالكة لمعرفة الله :

قال تعالى :

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14))

(سورة البقرة)

معنى صم أي : لا يستمع إلى الحق ، جعل الشهوة حجاباً بينه وبين الله ، وحبك الشيء يعمي ويصم ، جعل شهوته ومصلحته وملذته ونزوته وغرائزه حجاباً بينه وبين الله ، أصم لا يستمع الحق ، ولو وصلت موجات أصوات الحق إلى طبلة أذنه لكنه لا يستمع ، لأنّ علامة استماعه مبادرته إلى التطبيق، علامة استماعه للحق أن يترجم هذا السماع إلى سلوك، وإلى انضباط ، وإلى التزام ، وإلى عمل طيب.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

لأن الطريق الوحيد إلى معرفة الله آياته ، والدليل :

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6))

(سورة الجاثية الآية : 6)

لا سبيل إلى معرفة الله إلا من خلال آياته الكونية والتكوينية والقرآنية ، ثلاث طرق سالكة لمعرفة الله، أن تتفكر في آياته الكونية ، وفي آياته القرآنية ، وفي آياته التكوينية هم

(صُمٌّ وَبُكْمٌ)

وعمي ، أي

(فِي الظُّلُمَاتِ)

وشتان بين ألا تملك عيناً ، أو أن تكون في مكان مظلم ، النتيجة واحدة ، يستوي المبصر مع الأعمى إذا كان المبصر في مكان مظلم ، لأن العين لا ترى إلا من خلال وسيلة وهي الضوء ، إذاً هو لا يرى الحقائق رؤية ذاتية ، ولا يصغي إلى الحق ، وجاءه من إنسان ، ولا ينطق به ، ولو كان النطق به ضرورة .

(فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

الحقيقة أنّ مشيئة الله مرتبطة بأعمال الإنسان .

المقدمات لها نتائج :

قال تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107))

(سورة النحل)

وقال :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6))

(سورة المنافقون)

ما دام هناك فسق ، أو ظلم ، أو كفر ، فهذا الإنسان بعبارة يذكرها العلماء تحصيل حاصل ، فحينما أغلق الباب الخارجي للمسجد فهذا الباب لا معنى له ، ولو كان مفتوحاً ، ما دمت قد أغلقت الباب الخارجي فسواءٌ أغلقته أم لم أغلقه فالمحصلة واحدة ، إذاً الذي جعل شهوته حجاباً بينه وبين الله فهو أصم أبكم أعمى ، هو اختار الشهوة ، إذاً جعل الشهوة حجاباً بينه وبين الله وكأنه أراد الضلالة .

للتقريب : كل بلد لها نظام معيّن ، لو أن بلداً ما نظامها أن الإنسان لا يعيَّن في وظيفة مرموقة إلا بشهادة عليا ، ليس رائجاً في هذا البلد إلا الوظائف مثلاً ، فعندما يُعرض الشاب عن الدراسة باختياره وبإصراره فكأنما اختار أن يكون فقيراً ، أو مشرداً ، أو ليس له عمل ، مادامت القناة الوحيدة الصالحة للوظيفة شهادة عليا ، وما دام الشاب أعرض باختياره وبإصراره عن سلوك طريق العلم ، فكأنه أراد أن يكون بلا عمل ، وأن يكون فقيراً كلاً على الناس ، بالضبط كما يختار إنسان السرقة والجريمة ،

وحينما يقبض عليه ويعدم كأنه اختار أن تنتهي حياته بالإعدام ، اختياره هذا ، كل مقدمة لها نتيجة ، المقدمات لها نتائج ، أنت إذا اخترت المقدمة أوصلتك حتماً إلى النتائج ، هذا من باب البلاغة ،

(مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ)

الإنسان هو الذي شاء الشهوة ، شاء الزنا ، شاء الربا ، شاء السرقة ، شاء أن يخرج عن منهج الله ، وشاء أن يخرج عن مبادئ فطرته ، والنتائج حتمية ، هذه المقدمات لها هذه النتائج فالذي يختار المقدمة هو حكماً اختار معها النتيجة ،

(مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ)

ومن يشاء أن يكون تحت مظلة الله عز وجل ، أن يكون في حركته في الحياة وفق منهج الله ، من شاء أن يطلب العلم ، ومن شاء أن يعمل به ، ومن شاء أن يكون عمله صالحاً يبتغي به وجه الله ، شاء الهداية ، وشاء أن يكون على صراط مستقيم ، هذه الآية تفيد أن في الكون قوانين ، المقدمات لها نتائج.

ما من عقيدة شلّت الأمة وجعلتها في مؤخرة الأمم كعقيدة الجبر :

مرة التقى طبيب بإنسان يدخن ، قال له : أنت ينتهي بك الدخان إلى الجلطة ، أقسم لي بالله أنه بعد ستة أشهر ـ هو طبيب قلب ـ جاءه هذا الإنسان ، وقد أصيب بجلطة في قلبه ، الطبيب لا يعلم الغيب ، لكن يعلم المقدمات والنتائج ، هذا السلوك ينتهي إلى كذا ، أقسم لي طبيب آخر جراح قلب ، قال لي : والله من ثماني سنوات ، وأنا أجري كل يوم عملية قلب ، أقسم بالله ـ مع تأكيد القسم ـ أنه ما أجرى عملية قلب مفتوح إلا لمدخن ، فإذا كان إنسان يبالغ في التدخين ، وقال له الطبيب : أنت اخترت الجلطة ، لأنه هو اختار مقدمة لهذه النتيجة ، هذا المعنى بالذات ، اختار مقدمة ، والمقدمة تنتهي إلى هذه النتيجة ، فهذا معنى قوله تعالى :

(مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(39))

أقول لكم أيها الأخوة ، وأعني نفسي أيضاً ثم إياكم : إياكم أن تتهموا أن الله يجبر عباده على معصيته ، حاشى لله .

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28))

(سورة الأعراف)

ما من عقيدة شلّت الأمة وجعلتها في مؤخرة الأمم كعقيدة الجبر :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيّاك إياك أن تبتل بالماء

***

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف الآية : 29)

آيات من القرآن الكريم عن عظمة الله سبحانه :

ذكرت هذا التعقيد لئلا يتوهم متوهم أن الله قال :

(مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْه)

لماذا أضله ؟ إله عظيم .

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

(سورة سبأ)

إله عظيم :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

إله عظيم يقول :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجد)

إله عظيم يقول :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

إله عظيم يقول :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص)

إله عظيم يقول :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

(سورة الجاثية)

علينا فهم الآيات كما أراد الله عز وجل :

قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة الآية : 148)

وقال :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

وقال :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا (148))

(سورة الأنعام الآية : 148)

لا ينبغي أن نفهم هذه الآيات على غير ما أراد الله عز وجل ،

(مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ)

بمعنى من مشى في أسباب الضلالة فالنتيجة محققة ، ومن مشى في أسباب النجاة والفلاح فالنتيجة محققة ، وفي عالمنا الدنيوي ، في المجتمع المدني ، مواطن مستقيم لا يخالف القوانين ويدفع الضرائب، حر طليق ، مواطن يخالف القوانين ويقترف الجرائم ، في السجن ، في المجتمع المدني ، هل يعقل أن نقول : إن الدولة أرادته أن يكون في السجن ، الدولة لا تفعلها ، نقول له : هو في السجن ، لأنه ارتكب جريمة قتل ، إذاً هو في السجن ، إذاً :

(مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

الآية التالية تبين أن الإيمان في الأصل فطري :

الآن هناك آية تؤكد أن الإيمان في الأصل فطري ، تصور فريقاً من الخبراء من بلد في الماضي كان يؤمن بأنه لا يوجد إله ـ هم ملحدون ـ ركبوا طائرة ، ودخلت في غيمة مكهربة ، فاختل توازنها ، وكادت تسقط ، فإذا بكل هؤلاء الخبراء الملحدون يقولون : يا الله ، معنى ذلك أن الإيمان فطري ، وهذا المعنى ورد في القرآن كثيراً ، أيّ إنسان مهما بدا فاسقاً فاجراً منحرفاً حينما يأتيه الخطر يقول : يا الله، إذاً يقول الله عز وجل :

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40))

(سورة الأنعام)

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ)

أي أرأيتم أنفسكم ، سمعت أنه في بلد مسلم أصابه زلزال ، فالمساجد عقب الزلزال ، الحرم والصحن في الأوقات الخمس ممتلئة ، معنى ذلك أنهم علموا أن هذا الزلزال عقاب لهم على فسقهم ، وانحرافهم ، وفجورهم ، فهناك إيمان فطري ، فهذا الذي يدعي أنه إنسان علماني ، وإنسان موضوعي ، وإنسان

يؤمن بالعلم فقط ، والدين خرافة، والدين ضبابيات ، والدين غيبيات ، والدين عادات وتقاليد ، حينما يشعر أن فيه ورم خبيث ، والتقرير أمامه ، يا رب ، لا إله غيرك ، اختلف وضعه ، ما أجمل أن تكون صحيحاً قوياً معافى ، وأن تقول : يا رب ، هذه بطولتك ، أيّ إنسان كائناً من كان عقب المصيبة يخضع لله لكن هذا خضوع المضطر ، أما إذا كنت حراً وأنت صحيح ، قوي ، غني ، معافى ، شاب ، لا تشكو شيئاً ، يا رب ليس لي غيرك ، فخضوعك لله وأنت قوي ، صحيح ، شاب ، بطولة ، لكن كل إنسان بعد الورم الخبيث ، وبعد تشمع الكبد ، وبعد الفشل الكلوي ، يقول : يا رب ، طبعاً يا رب ، لأنه لا إله غيره ، هذا صبر المكره ، فما أجمل الإنسان أن يعرف الله وهو في الرخاء ، ما أجمله أن تأتي بيته وأنت صحيح معافى .

علينا أن نعرف الله في الرخاء لا بعد الشدة :

والله أيها الأخوة ، أنا اطلعت على إخوة كثيرين ، هم طيبون ، لكن إقبالهم على الله بدأ بعد المصيبة ، على كل حال جيد ، لأنه من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر .

كان أحدهم إنساناً شارداً عن الله شروداً بعيداً ، جاءته أزمة قلبية وهو في ريعان القوة ، والغنى ، والعلاقات ، والاتصالات ، فأُدخل إلى المستشفى في العناية المشددة ، وغلب على يقينه أنه ميت ، ولن يعود إلى البيت ، فناجى ربه ، وقال : يا رب ، أتحب أن ألقاك بلا ثياب ، أعطني مهلة ، فلعلي أتوب إليك ، الله عز وجل أعطاه مهلة ، وذاق طعم القرب ، يقول لي : في ساعة من ساعات المناجاة ، قلت : يا رب ، كل هذه السعادة بسبب هذا المرض الذي ألمَّ بي ؟ وكان سبب توبتي إليك ، لمَ لم يكن هذا المرض قبل عشر سنوات ؟!!

أحياناً الله يتدخل تدخّلاً لصالح العبد ، يكون غافلاً ، شارداً ، ساهياً ، لاهياً ، الدنيا أخذته ، المال يعبده من دون الله ، يعبد شهوته من دون الله ، فإذا جاء ما يحول بينه وبين شهوته يتوب ، وقد قال الله عز وجل :

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ (54))

(سورة سبأ)

حينما يحال بينه وبين شهوته يعلم أن الله حق ، أنا أتمنى على إخوتي الكرام ، وأخاطب نفسي معهم أن نعرفه في الرخاء ، فالموقف مشرف أن تعرفه في الرخاء ، لا أن تعرفه عقب الشدة ، على كلٍ بعد الشدة لو عرفته وتبت إليه جيد جداً ، لكن شتان بين من عرفه في الرخاء ، وبين من عرفه بعد الشدة ،

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ)

أرأيتم أنفسكم ،

(إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

هذا هو الإيمان الفطري .

الإيمان أيها الأخوة ، الإيمان واقع لا محال ، لكن قد يقع بعد فوات الأوان ، ولا قيمة له إطلاقاً ، أنا أؤكد لكم أنه ما من إنسان على وجه الأرض الستة آلاف مليون عند الموت يؤمنون بما جاء به الأنبياء، قولاً واحداً ، ولكن هذا الإيمان لا ينفعهم ، إذاً خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط .

إن كنت مفتقراً إلى الله وأنت في الرخاء تكن أقوى الناس :

قال تعالى :

(بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41))

(بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ)

وحده ، التوحيد فطري مغروس في أعماق الإنسان ، لكن لا يظهر إلا عند الشدة ، أما في الرخاء تقول: زيد وعبيد ، وفلان وعلان ، وحجمي المالي كبير ، وخبرتي المتراكمة ، وأنا ابن عائلة ، وأنا كذا ، هذا كله في الرخاء ، تأتي الشدة ، يا رب ، لا إله غيرك ، فأنت إن كنت مفتقراً إلى الله وأنت في الرخاء تكون أقوى الناس ، إن افتقرت إلى الله وأنت في الرخاء تكون أعلم الناس ، إن افتقرت إلى الله وأنت في الرخاء تكن أغنى الناس ، تكون أحكم الناس إن افتقرت إلى الله وأنت في الرخاء ، فكل إنسان يفتقر إلى الله في الشدة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42))

ثمة أمم فسقت ، وفجرت ، وأشركت ، وكفرت ، بل وأنكرت وجود الله أصلاً ، لأن هذه الأمم مدعوة إلى الله عز وجل ، وخلقت لتعرفه ، وخلقت للجنة ، لم يخلق الله مخلوقاً إلا للسعادة .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (119))

(سورة هود الآية : 119)

هذه الأمم التي أرسل الله إليها البأساء والضراء لأنها شردت عن الله عز وجل ساق لها هذه العلاجات التربوية .

سياسة الله عز وجل مع خلقه أربع مراحل :

كلكم يعلم أيها الأخوة أن الله عز وجل سياسته مع خلقه أربع مراحل ، أول مرحلة هي أجمل مرحلة ، وأسلم مرحلة ، وألطف مرحلة ، يدعوك دعوة بيانية تسمع درساً ، تسمع خطبة ، تقرأ كتاباً ، تسمع

شريطاً ، تسمع موعظة ، تسمع نصيحة ، وأنت صحيح ، معافى ، قوي ، غني ، ليس عندك مشكلة ، هذه الدعوة البيانية ، هذه ألطف دعوة ، وأكمل دعوة ، وأنعم دعوة ، فالموقف الكامل منها أن تستجيب لله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال الآية : 24)

كي تعيش الحياة التي خلقت من أجلها ، كي يحيا قلبك ، كي تحيا نفسك ، كي تحيا بقربك من الله ، فالإنسان لم يستجب ، ما دام لم يستجب يخضعه الله لتربية ، أو لإجراء آخر ، يسوق له شدة ، هذا يسمى التأديب التربوي .

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

في الدعوة البيانية ينبغي أن تستجيب ، وفي التأديب التربوي ينبغي أن تتوب ، ما تاب الإنسان ، ولا استجاب ، فعندنا مرحلة ثالثة لكنها خطيرة ، الإكرام الاستدراجي ، يعطيه الدنيا ، كما تشاء ، أموال ، وصحة ، ومكانة ، وشبكة علاقات ، ما شكر ! بقي آخر حل ، القصم ، الدعوة البيانية ، أكمل موقف منها الاستجابة ، التأديب التربوي أكمل موقف فيه التوبة ، الإكرام الاستدراجي أكمل موقف فيه الشكر، فهو لا استجاب ولم يتب ولم يشكر .

ما دامت الشدائد التي تحيط بنا حوافز إلى الله ومادام هناك بقية حياة فهذه البقية نعمة :

قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

تسمعون عالم غني ، قوي ، متغطرس ، متكبر ، يكيل بمليون مكيال ، وأقوياء ، وأغنياء ، وأذكياء ، وحياتهم مرفهة ،

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

مال ، نساء ، بلاد جميلة خضراء ، غطرسة ، كبر ، هذه الثالثة الإكرام الاستدراجي

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

فنحن ما دمنا في العناية المشددة ، وما دامت الشدائد التي تحيط بنا حوافز إلى الله ، مادام هناك بقية حياة ، بقية خوف من الله ، بقية رحمة ، بقية إنصاف ، بقية صدق ، بقية أمانة ، بقية عفة ، بقية محبة ،

فهذه البقايا نعمة لأن ثمة حياة .

الآن الطبيب ينظر إلى مريض ، يظنه مات ، يمسك النبض ، يدقق ، ليس فيه حركة ، كل واحد منا يضع يده على مكان شريان يشعر بالنبض ، فالطبيب يضع يده على شريان في المعصم ، لا حركة ، قد يكون القلب نبضه ضعيف جداً ، يأتي بمرآة يضعها أمام أنفه ، إذا ظهر عليها بخار ماء فهو يتنفس ، ليس ثمة بخار ماء يأتي بمصباح شديد ، يفتح عينه ، ويضيء المصباح ، إذا كانت الحدقة صغرى فهناك ردود فعل ، لا الحدقة صغرت ، ولا المرآة انطبع عليها بخار الماء ، وليس هناك نبض ، يقول : عظم الله أجركم ، ميت ، هكذا الوضع ،

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)

هذا التأديب التربوي ، الأكمل :

(فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43))

بطولتنا ألا نصل مع الله إلى طريق مسدود :

الزلزال الذي حصل في شرق آسيا ، أيّ طرح أن هذا عقاب من الله ، وتأديب ، وهذه السواحل فيها فسق ، وفجور ، وفيها ثمانمئة ألف غلام للفجور بهم ، وفيها كل أنواع المعاصي التي تحرمها الشرائع الثلاث ، لا يرضى أن يكون هذا الطرح إلا أن يكون اصطدام لوحين مسبب هذه الكارثة ، أيّ طرح توحيدي سماوي مرفوض ، وأي طرح شركي أرضي مقبول ، فلذلك :

(فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43)فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

أنا سمعت أن الذين ـ والعياذ بالله ـ يتعاطون الحشيش يشترون قطعة غالية جداً يأخذها أحدهم فيشعر أنه يحلق في الأجواء ، أي صوت عنيف يطير له ، فجأة هذا الإنسان عندما يكون بعيداً عن الله يكون غنياً وقويّاً ، والأمور كلها بين يديك ، والملذات ، والشهوات تأتيه مصيبة ، ويجد نفسه في قبضة الله عز وجل . نحن بطولتنا أيها الأخوة ، ألا نصل مع الله إلى طريق مسدود .

كل إنسان يموت على نيته :

قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42)فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43)فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

للتوضيح ، وقد ذكرت هذا مراراً ، ما كل من هلك في زلزال آسيا غير مؤمن ، كل إنسان يموت على نيته ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((إن الله تعالى إذا أنزل سطوته على أهل نقمته فوافت آجال قوم صالحين فأهلكوا بهلاكهم ، ثم يبعثون على نياتهم وأعمالهم))

[البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة رضي الله عنها]

هذا موضوع ثانٍ ، التعميم من العمى ، ما كل إنسان أهلك بزلزال ليس مؤمناً ، قد يكون هناك مؤمنون ، قد يكون هناك غير مؤمنين ، مصيبة واحدة لبعضهم عقاب ، ولبعضهم امتحان ، ولبعضهم ترقية .

دائماً دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان :

قال تعالى :

(فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45))

هذا الظلم مرتعه وخيم ، والله عز وجل يقول :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ (12))

(سورة آل عمران الآية : 12)

لكن دائماً دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان ، يخاطب الله نبيه .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ (46))

(سورة يونس الآية : 46)

معنى ذلك حتى النبي الكريم ، وهو سيد الخلق وحبيب الحق ، قد لا يمتع عينيه بنصر الله عز وجل ، نحن مؤمنون وصابرون ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يحفظنا ويحفظ بلادنا من كل مكروه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(13-73): تفسير الآية 46 ، الفكر والجوارح والنعم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-03-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة الأنعام .

حظ السمع والبصر والفكر أدوات معرفة الله عز وجل :

مع الآية السادسة والأربعين ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46))

أيها الأخوة الكرام ، من توفيق الإنسان في الدنيا أن يفهم حكمة ما أودع الله فيه من أجهزة ، أودع فيه عينين ، ولساناً ، وشفتين ، وأذنين ، أودع فيه عقلاً ، أو فكراً ، هذه الأجهزة التي أودعها الله فيه ينبغي أن يعلم لماذا أودعت فيه ؟ ينبغي أن يرى بعينه آيات الله الدالة على عظمته ، وينبغي أن يصغي بأذنيه إلى الحق إذا تلي عليه ، وينبغي أن يُحكم محاكمته لمعرفة سر وجوده ، وغاية وجوده ، هذه الحظوظ ، حظ السمع والبصر والفكر أدوات معرفة الله عز وجل ، ومعرفة الله عز وجل سر السعادة الأبدية .

أيها الأخوة ، نحن في فرصة لا تتكرر لسعادة إلى أبد الآبدين ، لكن الذي غفل عن هويته عن أنه إنسان مخلوق أول أودع الله فيه هذه الأجهزة كي تكون أدوات بين يديه لمعرفة الله عز وجل ، هذا الذي يرى بعينيه ما لا يرضي الله ، ويصغي بأذنيه إلى الباطل ، ويعمل تفكيره في غير ما خلق له .

مثلاً : أنا حينما آتي بآلة تصوير ملوَّنة ، يمكن أن أستخدمها في تصميم أغلفة الكتب والتقاويم ، وأشياء لا تعد ولا تحصى ، ويمكن أن أستخدمها أيضاً فأجمع منها ثروة طائلة ، أما أن أستخدمها في تزوير العملة عندئذٍ ينتهي بي المصير إلى السجن ، أنا حينما أُسجن لأنني استخدمت آلة تصوير ملونة في تزوير العملة أقول : أنا استخدمت الآلة لغير ما صنعت له ، صنعت للتصاميم ، للأشياء الموافقة للقوانين ، أما حينما أستخدم هذه الآلة للتزوير فإنه ينتهي بي المصير إلى السجن .

حينما تعبد الله كأنك تراه فأنت في أعلى درجات العبادة :

الآن السؤال :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد)

عين ؛ والله الذي لا إله إلا هو ، تحار العقول في دقة صنعها ، ذكرت مراراً أن أعلى آلة تصوير على الإطلاق صنعت حتى الآن الرقمية ، وأعلى آلة تصوير يقتنيها مصور محترف في الميليمتر المربع عشرة آلاف مستقبل ضوئي ، بينما في العين التي هي من صنع الله في الميليمتر المربع مئة مليون مستقبل ضوئي ، العين البشرية السليمة تميز بين ثمانية ملايين لون ، لو أن كل لون درج ثمانمئة ألف درجة لميزت العين السليمة بين درجتين ، والحديث عن المطابقة ، وعن أن القرنية تتغذى بالحلول ، والله لا أذكر من دقائق العين إلا واحداً بالمليار ،

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

أيعقل أن تكون هاتان العينان من أجل أن ترى بهما عورات المسلمين ؟ أم من أجل أن ترى بهما دقيق صنع الله عز وجل ! فالله عز وجل زودنا بعينين . شيء آخر ، الذي أعطاك العينين لترى بهما ألا يراك؟

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7))

(سورة البلد)

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

الذي خلق لك العينين ألا يراك ؟ وأعظم إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان ، هذا الإيمان ، أنت حينما تعبد الله كأنك تراه فأنت في أعلى درجات العبادة ، فالله عز وجل يقول :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ)

يعني هذه اللغة التي تفضل الله بها علينا حيث قال الله عز وجل :

(الرَّحْمَنُ (1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2)خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

بكلمة يستجيب الناس لك ، تصوَّر دولة ليس فيها لغة ، فإذا أردت أن أنقل للناس شيئاً ما الوسيلة ؟ لو أردت أن أمنع التجول أحتاج إذا كان عندي سبعة عشر مليون إنسان أحتاج إلى سبعة عشر مليون شرطي ليدفعهم إلى البيوت ، لكن ببلاغ لا يستغرق دقيقة لا ترى أحداً في الطرقات ، ما هي أداة الاتصال بينك وبين الناس ؟ هذه اللغة .

من تكريم الله للإنسان أنه علمه البيان :

من تكريم الله للإنسان أنه علمه البيان ، تعبر عن أفكارك ، تعبر عن مشاعرك ، تطلع على أفكار الآخرين ، على مشاعرهم ، تتعلم الخبرات التي تراكمت عبر الأجيال ، تتعلم العلوم التي كشفتها بقية الأمم عن طريق الترجمة ، فضل الله علينا باللغة فضل كبير .

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4))

(سورة العلق)

الله عز وجل جعل لنا عينين ، وجعل لنا أذنين ، متكلم واحد يسمعه الآن ملايين مملينة ، الملايين المملينة يقفون على ما قال بشكل مباشر ، فقضية اللغة من أدق تعاريفها أنها أداة اتصال بين أفراد النوع ، أداة اتصال ، وأداة تعبير ، وأداة مشاركة ، وأداة يرقى بها الإنسان ، كل إنسان حصَّل العلم جمع علمه في كتاب ، هذه الثقافة تراكمت ، ما قاله الإمام القرطبي قبل ألف عام نقرأه اليوم من خلال اللغة ، ولولا اللغة لما حفظ علم ، ولا انتفع منه إطلاقاً .

إذاً ، هذا الذي أعطانا الفكر ، وأعطانا السمع ، وأعطانا العينين ، من أجل ماذا ؟ من أجل أن نؤمن به، وإذا آمنا به سعدنا بقربه في الدنيا والآخرة ، فأنت حينما تكشف علة وجودك في الدنيا أن الله سبحانه وتعالى خلقك كي تعرفه ، وإن عرفته عرفت كل شيء ، وإن فاتك فَاتك كل شيء ، أنت حينما تعلم أن هذه الحياة الدنيا فرصة ذهبية لا تتكرر لنيل سعادة أبدية لا توصف تعمل لهذه الفرصة .

(أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : } فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ {))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

علينا أن نستعمل الفكر والجوارح فيما خلقت له :

الله عز وجل يقول :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ)

الأصم أبكم ، هذا الطفل ينشأ في بيئة يفهم بعد حين كل شيء ، وينطق بكل شيء ، الإنسان يسمع ويرى ، السمع نافذة على العالم الخارجي ، والرؤية نافذة على العالم الخارجي ، والفكر هو الذي يتلقى هذه الصور وتلك الأصوات ، ويحللها ويفهمها ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

(سورة الإسراء)

الذي أتمنى أن يكون واضحاً أيها الأخوة أنه ينبغي أن تستعمل الجوارح فيما خلقت له ، وينبغي أن تستعمل الفكر الذي أودعه الله فيك فيما خلق له ، في دماغ الإنسان مئة وأربعون مليار خلية سمراء استنادية لم تُعرف وظيفتها بعد ، وعلى سطح الدماغ أربعة عشر مليار خلية قشرية تتمّ فيها عمليات تفوق حد الخيال ، تتم المحاكمة في ناصية الرأس ، وهناك مركز للسمع ، والبصر ، والشم ، والمحاكمة ، والاستنباط ، تتم عمليات فكرية في الدماغ تفوق حد الخيال ، في بعض المقالات العلمية

أنهم فتحوا دماغ إنسان ، وأعطوا منطقة الذاكرة تياراً كهربائياً ضعيفاً جداً فالذكريات التي كانت قبل ثلاثين عاماً تذكرها ، فلما رفعوا شدة التيار انقلبت الذكريات إلى صور أمامه ، ولا يزال الدماغ عاجزاً عن أن يفهم ذاته حتى الآن وهو أعقد جهاز في الإنسان .

أيها الأخوة ، حينما يتفضل الله تعالى علينا بالسمع والبصر ، عندك ذاكرة لا يزيد حجمها على حبة العدس يمكن أن تستوعب ستين مليار صورة خلال عمر معتدل متوسط .

الله سبحانه وتعالى لكرامة الإنسان عنده منحه بعض صفاته :

ذكرت قبل ذلك أن الله سبحانه وتعالى لكرامة الإنسان عنده منحه بعض صفاته ، فالإنسان فرد لا يتكرر ، علامة فرديته أن قزحية عينه لا يمكن أن يشبهه فيها إنسان على وجه الأرض ، لذلك استخدمت هذه الخاصة في الإنسان الآن لما يسمى مكافحة الإرهاب ، فإذا دخلت إلى مطار في بلاد الغرب أول شيء تؤخذ صورة لقزحية العين ، وتوضع على الجواز ، عندئذٍ لا يمكن لهذا الجواز أن يزور ، الآن صنعت أقفال لا تفتح إلا على قزحية العين ، هناك إنسان واحد على الأرض يستطيع فتح هذا القفل ، وهو صاحب القفل ، يضع عينيه عليه ويفتحها ، فأنت فرد في قزحية العين ، لا يمكن أن يشبهك إنسان آخر على وجه الأرض في شكل قزحية العين ، وأنت فرد في نبرة الصوت ، لك نبرة صوت تتميز بها من بين الستة آلاف مليون ، وأنت فرد في رائحة الجلد ، وحديث بعض النساء لنصح بناتهن يوم الزفاف : " والماء أطيب الطيب المفقود " ، لأن لكل جلد رائحة زكية ، فإذا نظفت جلدك فلجلدك رائحة مقبولة ، ورائعة ، لكن بشرط أن تكون نظيفاً ، وعلى أساس هذه الرائحة تعمل الكلاب البوليسية ، لأن الكلب أودع الله فيه حاسة شم تفوق حاسة الإنسان بمليون ضعف ، لذلك إن أعطيته حاجة لامست جلد إنسان مطلوب يبحث عنه من بين مئات الألوف ، ويهتدي إليه بمسافات بعيدة جداً ، فرائحة جلد الإنسان هوية ، ونبرة صوته هوية ، وقزحية عينه هوية، وبصمته هوية .

أحد المجرمين الذي أدمن على الإجرام أجرى عملية ونزع جلد إبهاميه ، وضع مكانهما جلداً من رجليه ، بعد شهرين ظهر على الجلد الذي زُرع خطوط بصمته السابقة .

حدثني أخ محامٍ ، قال لي : في أيّ عَقدٍ مهمٍّ احرص على أن يبصم الطرف الآخر ببصمته على العقد ، قلت له : لماذا ؟ قال : لأن التوقيع يُقلّد ، والادعاء بأن هذا التوقيع ليس توقيعي قائم ، والمحاكمة قد تستمر عشر سنوات ، للتأكد من التوقيع ، بينما بصمة الإنسان لا تقلّد ، عرضوا بصمة على مئة ألف بصمة ، والبصمة فيها تقريباً مئة علامة ، لا يمكن أن تتشابه من البصمتين سبع علامات ، وإن توافقت سبع علامات بين البصمتين فهما لإنسان واحد ، وأنت فرد في بصمتك .

الآن هناك شيء اسمه الزمرة النسيجية ، لذلك الإنسان حينما يزرع كلية ، ويرفضها الجسم هذا لتباعد الزمرتين ، وليس على وجه الأرض إنسان يشبهك في زمرتك النسيجية ، هذه غير الزمرة الدموية ، كل إنسان له زمرة نسيجية .

أنت فرد في بلازما الدم ، السائل التي تسبح فيه الكريات الحمراء ، أنت بهذا أيضاً فرد ، فلكرامتك عند الله منحك صفة الفردية ، وهي صفتك .

لكرامتك عند الله سمح الله لك أن تشرع وأن تبتدع :

إذا قرأنا الحديث الشريف يمكن أن نفهم هذا الحديث في ضوء هذه المعطيات ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبْ الْوَجْهَ ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ))

[البخاري والنسائي عن أبي هريرة]

فأنت المخلوق الأول ، أنت المخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض ، وأن هذه الدنيا دار عمل وليست دار أمل ، ودار تكليف لا دار تشريف ، وأنت فرد حينما سمح الله لك أن تشرع من خلال نصوص قرآنية ظنية الدلالة سمح الله للعلماء الكبار أن يستنبطوا أحكاماً فقهية فرعية من نصوص كلية.

إذاً : لكرامتك عند الله سمح الله لك أن تشرع .

لكرامتك عند الله أيضاً سمح لك أن تبتدع ، الآن توصلوا إلى وردة سوداء ، إلى نبات هجين ، أساساً معظم النباتات التي نأكلها بذورها أجريت عليها تعديلات وراثية ، نأخذ من هذا النبات مقاومته للبرد ، ومن هذا النبات محصوله الغزير ، ومن هذا النبات العطاء المستمر ، نجمعها في نبات واحد ، إذاً سمح للإنسان أن يبدع من خلال الجينات .

من يصدق أن في الإنسان تقريباً ثلاثين ألف جينة ، وكل جينة مؤلفة من حروف في بويضة المرأة وحوين الرجل ، وفي النواة في معلومات مبرمجة ، حروفها تقترب من آلاف الملايين ، تم اكتشاف ثلاثين جيناً حتى الآن ، وهناك تسعة آلاف مرض تعود أسبابها إلى الجينات ، وأن الذي كان يقال في العالم الغربي من أن المنحرف جنسياً له جينات خاصة كلام سقط تحت الأقدام ، وثبت بالبحوث الدقيقة أنه لا علاقة بين الجينات وانحراف الإنسان ، إنما هو من فعله واختياره .

إذاً : السمع ؛ والله لا تزال الأذن من عجائب خلق الله للإنسان ، كيف يفرق الإنسان بين النغم والضجيج ؟ قد تضع تحت باب الغرفة قطعة زجاج ، فإذا فتحت الباب تكاد تخرج من جلدك من انزعاجك من هذا الصوت ، وقد تقف أمام شلال كشلالات نياغارا ، فلا تتأذى بهذا الصوت ، هذا صوت ماء ، خرير مقبول عند الإنسان ، حتى الآن السر في التفريق بين النغم والضجيج مجهول ، ما

في الأرض الآن آلة تكبر الصوت ، وتخمد الصوت كغشاء الطبل ، إن كان الصوت ضعيفاً كبره ، وإن كان قوياً خففه ، وأنت لا تعلم ، غشاء طبل ، وقناة سمعية ، ما الفرق بين أن تأتيك الأصوات وأن تفهمها ؟ لو جلست بين اثنين يتحدثون الفارسية مثلاً ، تأتيك الأصوات فقط ، لكن لو جلست بين اثنين يتحدثون العربية تأتيك الأصوات والمعاني والأفكار والمشاعر ، في أي مكان تفهم الكلام .

بطولة الإنسان أن يستخدم جوارحه لما خلقت له :

هناك شيء دقيق في الأذن ؛ اجلس مع صديق حميم في الغرفة ، وضع على النافذة آلة تسجيل ، وأدر معه حديثاً حميماً عميقاً لساعة ، ثم اسأله : ماذا سمعت من أصوات في الطريق ؟ لا يسمع شيئاً ، مع أن هناك أصوات سيارات ، وبائع وقود سائل ، وصوت ارتطام ، ما هذه الأذن التي تصطفي لك ما أنت بحاجة إليه ، وبقية الأصوات لا تسمعها أبداً ؟ افتح المسجلة ، كل هذه الأصوات التي سجلتها لم تسمعها ، ما هذه الدقة في الصنع ؟ قال تعالى :

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ (88))

(سورة النمل الآية : 88)

وقال :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ (78))

(سورة المؤمنين الآية : 78)

صنعت الأذن كي تتلقى بها الحق ، وصنعت العين كي ترى بها آيات الله الدالة على عظمته ، وقدم لك الدماغ أو الفكر من أجل أن تعرف الله عز وجل ، فكل بطولتك أن تستخدم هذه الجوارح لما خلقت له ، إذاً الآية :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46))

النعم التي أنعم الله علينا بها لا تقدر بثمن :

حينما قال الله عز وجل :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ (26))

(سورة الملك الآية : 26)

من يملك عينيه ؟ لي صديقُ صديقٍ جاء من فرنسا يحمل أعلى شهادة ، وتولى منصباً رفيعاً جداً ، تزوج بامرأة ، وأتى معه بامرأة من فرنسا ، وسكن بأرقى أحياء دمشق ، وكان متألقاً إلى أبعد الحدود ،

فجأة فَقَدَ بصره ، فمن باب المجاملات بقي في بيته شهرين أو ثلاثة يأتيه الموظف بالبريد ، يقرأه له ، ويأخذ توجيهاته ، بعد حين سُرح ، يروي لصديقه ما يلي ، يقول : والله ، أتمنى أن أجلس على الرصيف أتكفف الناس ، وليس علي إلا معطف ، وأن يرد الله إلي بصري ، فالذي يملك العينين فهما نعمتان لا تقدران بثمن ، والذي يملك الأذنين فهما نعمتان لا تقدران بثمن ، والذي يملك عقلاً فهو نعمة.

مرة كنا في حفل في غوطة دمشق ، حفل عيد مولد نبوي ، إنسان فقَدَ عقله ، رفع صوته بالسباب والشتائم ، وسبّ الدين ، وسبّ مَن في المجلس ، ألغى كل هذا الحفل ، فلما انصرفنا ، قلت : يا رب ، ما الحكمة من وجود هذا الإنسان المختل ؟! قلت : من أجل أن نعرف نعمة العقل ، الذي أعطاه الله عز وجل عقلاً يتكلم الكلام المناسب ، يسكت في الوقت المناسب ، يغضب في الوقت المناسب ، يحلم في الوقت المناسب ، يربي أولاده بطريقة حكيمة ، هذه نعمة لا تقدر بثمن ، فالله عز وجل يلفت النظر إلى نعمة السمع والبصر ونعمة العقل .

بالمناسبة ، الدماغ يمكن أن نسميه فكراً ، أما العقل فقد يكون في القلب لا في المضخة الصنوبرية ، لا، في قلب النفس ، لقوله تعالى :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا (179))

(سورة الأعراف الآية : 179)

(انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)

يصدفون أيْ ينصرفون عن الحق إلى غيره .

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق يشكر سواي، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري ، أهل زيادتي أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بالعبد من الأم بولدها .))

[ورد في الأثر]

جهاز المناعة المكتسب في جسمنا فيه ست فرق :

أيها الإنسان ، ما دام الحديث عن آيات الله الدالة على عظمته في خلق الإنسان فهل تعلم أن في جسمك جيشاً بكل ما في الكلمة من معنى ؟ هذا الجيش اسمه جهاز المناعة المكتسب ، فيه ست فرق :

الفرقة الأولى : سلاح الإشارة ، كيف تتواصل ، الفرقة الأولى مع الثانية مع الثالثة مع الرابعة مع الخامسة مع السادسة ، عن طريق فرقة سلاح الإشارة .

الفرقة الثانية : فرقة الاستطلاع أو الاستخبارات ، إذا دخل جرثوم إلى الجسم ذهبت إليه ، وأخذت شفرته الكيماوية ، فقط ، وترجع إلى فرقة ثالثة تصنع فيها الأسلحة في العقد الليمفاوية ، في هذه العقد تصنع الأسلحة ، هذه العقد تملك ذاكرة عجيبة ، فإذا صنعت سلاحاً مضاداً لجرثوم ، وشفي هذا الإنسان عن طريق هذا السلاح المضاد تودع خصائص هذا السلاح في ملف ، فلو عاد الجرثوم بعد سبعين عاماً، الملف جاهز ، ولولا هذا الملف لما كان من جدوى من التلقيح إطلاقاً ، ما التلقيح ؟ نعطي الطفل جرثوم الكوليرا ، العقد الليمفاوية تصنع المصل المضاد لهذا الجرثوم ، ويحفظ في ملف خاص ، فإذا عاد الجرثوم بعد سبعين عاماً ، الملف جاهز والسلاح جاهز ، فالفرقة الأولى إشارة ، والثانية استطلاع، والثالثة تصنيع أسلحة ، والرابعة فرقة المقاتلين .

الفرقة الأولى : سلاح الإشارة ، الفرقة الثانية : سلاح الاستطلاع والاستخبارات، الفرقة الثالثة : مؤسسة معامل الدفاع ، الفرقة الرابعة : المشاة والمقاتلون ، الفرقة الخامسة : فرقة سلاح الهندسة ، لتنظيف أرض المعركة من جثث القتلى .

جهاز المناعة المكتسب يقويه الحب والأمن ويضعفه الخوف والقلق :

أحيانا يحدث ورم داخله سائل أبيض في الجسم ، هذه نتائج المعركة ، الشيء الذي لا يصدق أنه إلى جانب القلب غدة بحجم حبة الحمص اسمها التيموس ، إلى عقدين من الزمن أجمعت كتب الطب أنها غدة لا وظيفة لها ، هذا يدرس في الجامعات ، ثم اكتشف أن هذه الغدة التي اسمها التيموس هي أخطر غدة على الإطلاق في الإنسان ، ما هي هذه الغدة ؟ هي مدرسة حربية ، الفرقة الرابعة فرقة المقاتلين ، عنصر قوي معه سلاح فتاك ، لكنه جاهل، سماها العلماء الغدة التائية الهمجية ، فإذا دخلت إلى هذه المدرسة الحربية تعلمت من هو الصديق ومن هو العدو ، تمكث هذه الكريات في هذه الغدة التيموس سنتين ، تتعرفان إلى كل العناصر الصديقة وإلى كل العناصر العدوة ، ولا بد من امتحان ، ما الامتحان؟ تعطى هذه الكرية عنصر صديق ، فإذا قتلته ترسب وتُقتل ، وإذا لم تقتله تنجح وتتخرج ، ثم تعطى عنصراً عدواً ، فإذا لم تقتله ترسب وتقتل ، وإن قتلته تنجح وتتخرج ، الآن هذا الجيل الأول الذي تلقى التعليم يعلم الأجيال اللاحقة إلى نهاية العمر ، وعندئذٍ تنتهي مهمة هذه المدرسة ، وتغلق أبوابها وتضمر .

في سن الستين ، أو السبعين ، أو الخمسين ، تنشأ حالة اسمها خرف مناعي ، يضعف التعليم ، فتنشأ في الجسم حرب أهلية ، يعني هذه العناصر القوية التي معها سلاح بدل أن تقاتل أعداء الجسم الجراثيم تقاتل العناصر الصديقة ، لذلك الأطباء عدُّوا سبعة أمراض تتأتى من هذه الحرب الأهلية ، منها التهاب المفاصل الحاد ، هذا مرض سببه حرب أهلية في الجسم لضعف التعليم .

أيها الأخوة ، جهاز المناعة المكتسب هذا الجهاز إدارته خارج الجسم ، عناصره في الجسم ست فرق ، لكن في فرقة اكتشفت عام سبعة وستين اسمها فرقة المغاوير ، الكومندس ، هذه الفرقة تستطيع أن تكتشف الخلية السرطانية في وقت مبكر وأن تلتهمها ، هذه الفرقة وفي أحدث بحث عن الخلايا السرطانية في الجسم أن كل إنسان من بني البشر فيه مليارات الخلايا السرطانية ، لكن يوجد على كل خلية قامع يقمعها أن تؤذي صاحبها ، ما الذي يفك القامع عنها ؟ أربعة أشياء : الشدة النفسية ، الخوف، القلق ، الحقد ، لذلك التوحيد صحة ، الموحد لا يخاف ، الموحد لا يحقد ، الموحد لا يقلق .

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (51))

(سورة التوبة الآية : 51)

لذلك هذا الجهاز يقويه الحب والأمن ، ويضعفه الخوف والقلق .

المؤمن واثق من نصر الله ولو تأخر قليلاً :

هذه الخلايا السرطانية على كل خلية قامع يقمعها ، فالشدة النفسية التي تتأتى من الشرك بالله ، والآية :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء)

إن الله عز وجل يقول :

(إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (123))

(سورة هود الآية : 123)

وقال :

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30))

(سورة الشورى)

الشدة النفسية أخطر شيء على جهاز المناعة ، وكم من إنسان تلقى نبأ سيئاً فأصيب بمرض خبيث ، ضعف جهاز المناعة يعني الخلية السرطانية تتحرر من قامعها عن طريق الشدة النفسية ، والشدة النفسية سببها الشرك .

النبي عليه الصلاة والسلام علّمنا ؛ إنسان كل من في الجزيرة ضده ، أهدر دمه ، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، تبعه سراقة ، قال له : يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟ ما هذا الحل ؟! يعني

أنا سأصل ، وسأؤسس كياناً إسلامياً ، وسأحارب أكبر دولة وقتها ، وسأنتصر عليها ، وسوف تأتيني غنائم كسرى إلى المدينة ، ويا سراقة لك سوار كسرى ، فالمؤمن واثق من نصر الله ولو تأخر قليلاً .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139))

(سورة آل عمران)

أنا أقول لكم أيها الأخوة : الآن أخطر شيء يدمرنا أن ننهزم من الداخل ، أن نقنط من رحمة الله ، أن نقول : انتهينا ، أعداؤنا أقوياء جداً وبيدهم كل شيء ونحن انتهينا ، لا إنما نحن ممتحنون ،

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

الذي يفك هذا القامع أيضاً ذرة البترول ، الذي يعمل بمشتقات البترول ولا ينظف يديه كثيراً ، ويأكل بيديه ، فإذا وصل إلى جوفه بعض هذه المواد البترولية ربما هذا يسبب ضعفاً في جهاز المناعة . أيضاً البلاستيك مع الحرارة والحمض والقشط كما يقال ، إما أن يصل إلى جوفك بحركة ميكانيكية عن طريق السكين والكيس ، أو بالحمض مع البلاستيك ، أو بالحرارة مع البلاستيك ، ثم الإشعاع النووي ، أربعة أشياء تضعف القامع التي تقمع الخلية السرطانية .

الحب والأمن من ثمار الإيمان :

أيها الأخوة ، هذا خلق الله ، جهاز المناعة المكتسب ، استمعوا لهذه الحقيقة ، يقويه الحب ، ويقويه الأمن ، والحب والأمن من ثمار الإيمان .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

الأمن لهم وحدهم ، والله الأخطار التي تنتظر المسلمين لا تعد ولا تحصى ، والله التهديدات التي يهدد بها الأقوياء العالم الإسلامي لا تعد ولا تحصى ، والأسلحة التي يملكها أعداؤنا يصعب تصورها من شدة فتكها ، ومع ذلك الله عز وجل يطمئننا أن الأمر كله بيده ،

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84))

(سورة الزخرف)

وقال :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف)

وقال :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (10))

(سورة الفتح الآية : 10)

وقال :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (17))

(سورة الأنفال الآية : 17)

نحن في أمس الحاجة إلى التوحيد وإلى أن نرى أن يد الله تعمل وحدها في الكون :

نحن الآن أيها الأخوة في أمسّ الحاجة إلى التوحيد ، إلى أن نرى أن يد الله تعمل وحدها في الكون :

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام الآية : 59)

ما تسقط من قنبلة يعلمها من باب أولى ، ما دامت ورقة زيتون إذا سقطت يعلمها الصاروخ والقنبلة والزلزال بيده ، سيدنا موسى حينما كان في صندوق دققوا في هذا الكلام :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7))

(سورة القصص الآية : 7)

ما هذا الكلام ؟ لمن هذه القصة ؟ لنا ، صندوق في نهر من يحركه ؟ الله جل جلاله ، من ساقه إلى شاطئ قصر فرعون ؟ من جعله يقف أمام غصن ؟ من ألهم امرأة فرعون أن تأتي إلى شاطئ القصر ؟ من جعل هذا ؟

وجد أحدهم نفسه فجأة في بطن حوت ، في ظلمة بطن الحوت ، وفي ظلمة أعماق البحر ، وفي ظلمة الليل ، في ظلمات ثلاث ، الأمل كم بالنجاة ؟ ولا واحد بالمليار .

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ (88))

(سورة الأنبياء)

القصة انتهت ، جاء القانون الذي قلبها إلى قانون :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الأنبياء)

إن اتقينا ربنا وصبرنا فالتقوى والصبر طريقنا إلى النصر :

فرعون بقوته العسكرية المخيفة ، وبحقده الدفين ، وبلحاقه لموسى وأصحابه والبحر أمامهم ، النجاة احتمالها كم ؟ صفر .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

نحن أيها الأخوة في أمسّ الحاجة إلى الثقة بالله ، ولكن الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، إن اتقينا ربنا وصبرنا فالتقوى والصبر طريقنا إلى النصر ، وإن عصينا وصبرنا فهي الطريق إلى القبر ، الحال مؤلم ، نعصي ونصبر ، ونصبر تجاوزاً مقهورون ، أما حينما نتقي ونصبر هو طريق النصر . الآية أيها الأخوة :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46))

يصدفون عن الحق ، لذلك ما أكثر العبرَ وما أقلّ المعتبرين ، نحن بأمسّ الحاجة في هذه الظروف العصيبة التي يكيد لنا أهل الأرض ، لا ليضعفونا ، بل ليستأصلونا ، أقول لكم بكل صراحة : نحن أمام حرب عالمية ثالثة موجهة ضد المسلمين ، ينبغي أن نستعد بالإيمان ، وبالعمل ، وبالتعاون ، وبالتضامن ، فلعل الله سبحانه وتعالى يحبط مسعاهم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(14-73): تفسير الآيتان 47-48 ، تطبيق الحكم الإسلامي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-03-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون ، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة الأنعام .

تأديب الله تعالى للمؤمن :

مع الآية السابعة والأربعين ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47))

كما يتوهم بعض الجهلة أن المصائب تأتي عشوائياً ، والعوام لهم كلمة ؛ أن الرحمة خاصة والبلاء يعم، وهذا الكلام لا أصل له في الدين ،

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً)

قد يأتي بغتة كما قال عليه الصلاة والسلام ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

أحياناً يأتي البلاء فجأة ، خثرة بالدماغ تسبب شللاً ، ترك منصبه ، وتجارته ، وبيته ، ونشاطاته ، وسفره ، واستمتاعه بالحياة ، انتهى كل شيء ، أحياناً حادث

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً)

هناك عذاب بينك وبين الله ، وهناك عذاب مهين تحت سمع البشر ونظرهم ، ولعل الله أحياناً يكرّم عبده المؤمن بتأديبه بينه وبينه ، بين الله وبين المؤمن ، مثلاً : كيف يؤدَّب المؤمن ؟ بالحجب أحياناً ، له مكانته ، وله سمعته ، وله احترامه بين الناس ، ولكن يصلي فلا يشعر بشيء ، يقرأ القرآن فلا يتأثر ، يذكر الله فلا يبكي ، يُكسر بالتعبير المألوف يُضام ، هذا تأديب بينك وبين الله ، لكن أحياناً الإنسان يُفضح على رؤوس الأشهاد ، يُشهر به ، يصبح قصة :

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (44))

(سورة المؤمنين الآية : 44)

مستحيل أن يهلك من كان مع الله :

لي تشبيه لطيف : الحياة مسرح ، هناك خشبة مسرح ، ومقاعد للمشاهدين ، فالإنسان إذا كان مستقيماً له مع المشاهدين مقعد ، يرى المسرح وما عليه من مشكلات ، ومن أزمات ، ومن فضائح ، ومن قهر، لكن إن لم يكن الإنسان مستقيماً جُرّ إلى خشبة المسرح ، وصار قصة بين الناس ، لذلك بعض العارفين بالله يقول : " اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك ، اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك ، اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك ، اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني منه " .

لذلك :

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يهلك من كان مع الله ، لأنه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (51))

(سورة التوبة الآية : 51)

معية الله تعني الحفظ ، والنصر ، والتأييد ، والتوفيق .

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51))

(سورة غافر)

أدلة من القرآن الكريم تبين أن الله سبحانه وتعالى لن يضيع عملك الصالح :

وقال :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

(سورة الجاثية)

وقال :

(هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)

وقال :

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

(سورة سبأ)

هذه قواعد ، الله عز وجل يقول :

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ (27))

(سورة إبراهيم الآية : 27)

هذا كلام خالق البشر ، في أي مكان كنت ، في أي بلد ، في أي نظام ، بلد متخلف أو متقدم ، بلد قمعي أو غير قمعي ، بلد فقير أو بلد غني ، من أي فئة كنت ، من أي طائفة كنت ، من أي شريحة كنت ، من أي طبقة كنت ، في أول الزمان ، في آخر الزمان ، يجب أن تعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى لن يضيع عملك الصالح .

(وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21))

(سورة الطور)

هذه أكبر ضمانة ، هذه الآيات ،

(أم حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

أدلة من الحياة اليومية عن انتقام الله سبحانه وتعالى من الظالم :

زارني طبيب ، وقصّ علي قصة ملخصها : أن امرأة جاءته مع زوجها تشكو ورماً خبيثاً في صدرها، لكن هذا الورم متقدم جداً في مراحله الأخيرة ، فغضب هذا الطبيب ـ لإخلاصه ـ من زوجها ، قال له: لو جئتني قبل أشهر عديدة ، قبل سنة ، احتمال الشفاء كبير جداً ، الآن وصل إلى أقصاه ، قال لي : قلت له : أنت مجرم في حق زوجتك ، قالها بينه وبين الزوج ، قال له : لا ، نحن عند فلان ، ولنا عنده سنة وزيادة ، ولم يقل : إنه ورم خبيث ، قال : إنه التهاب ، ثم همس في أذني أن طالب الطب يعرف أنه ورم خبيث ، ولكن أراد هذا الإنسان أن يستبقيه عنده ليبتزّ ماله ، فأوهمه أنه التهاب ، ويعطيه أدوية التهاب وكورتيزون ، وهكذا ، قال لي : الزوج فجأة وقع على الأرض ، كأنه طفل ، وناجى ربه ، قال له : يا رب إذا كنت موجوداً فانتقم منه ، ربط انتقامه بوجوده لا بعدله ، موجوداً ، يقسم هذا الطبيب أنه جاءه بعد إحدى عشر شهراً شاب لطيف ، قال لي : دخل العيادة متهالكاً ، قال له : من الأخ ؟ قال له : أنا زميلك فلان ، الطبيب نفسه ، وقد أصيب بورم خبيث في صدره أقسم بالله ، قال لي : بحسب خبرتي الطبية كأن هذا الورم بدأ من إحدى عشر شهراً ، من يوم دعا هذا الزوج عليه ، الله كبير .

أيها الأخوة ، إنسان آخر ذهب إلى مطار دمشق ، أراد أن يظهر براعته في قيادة السيارات ، فكان هناك جرو صغير على طرف الطريق ، وفي أيام الشتاء ، والطريق المعبد أكثر دفئاً من التراب ، ولونه أكثر دكنة من لون التراب ، ويمتص أشعة الشمس أكثر ، فاستطاع هذا السائق الماهر أن يقص

يدي هذا الكلب الصغير دون أن يميته ، ببراعة في القيادة فائقة ، وأطلق ضحكة هستيرية ، يقول الذي معه : في السبت القادم بعد أسبوع ، في المكان نفسه تعطلت مركبته ، ويحتاج إلى تبديل عجلة ، قال لي: رفع المركبة على الرافعة ، وفك العجلة ، ففسدت هذه الرافعة ، فوقعت السيارة على العجلةِ ، والعجلة على يديه ، فهرستا من الرسغ ، فأخذ إلى المستشفى ، ولا بد من قطع يديه ، وقطعت يداه إلى الرسغين ، كما فعل بالجرو قبل أسبوع ، الله كبير .

الأنبياء الكرام ابتلاهم الله عز وجل ولكن ابتلاء الأنبياء ابتلاء كشف :

كلما ازددت معرفة بالله ازددت خوفاً منه ،

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً)

الآن دققوا

(هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)

لا بد من ذكر هذه الحقيقة أيها الأخوة ، كل واحد منا وصل إلى سمعه ألف قصة من فصلها الأخير ، والقصة من فصلها الأخير لا معنى لها إطلاقاً ، فلان دُهس ، فلان انتحر، فلان مرض ، لكن كل واحد منا أيضاً عنده عدة قصص يعرفها من أول فصل حتى آخر فصل ، يُدهش لعدل الله ، يُدهش لحكمته ، يُدهش لقوته ، يُدهش لانتقامه أحياناً .

أنا أنصح نفسي وأنصحكم أيضاً أن تقيس القصص الكثيرة التي تعرفها من فصلها الأخير ، والقصص التي تعرفها من كل فصولها ، كل هذه القصص التي تعرفها من آخر فصل والتي لا معنى لها تُقاس على عدة قصص تعرفها من أول فصل حتى آخر فصل ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)

لكن طبعاً أتمنى عليكم ألا تفهموا كلامي معمماً ، والتعميم من العمى ، الأنبياء الكرام ابتلاهم الله عز وجل ، لكن ابتلاء الأنبياء ابتلاء كشف ، لا تظهر كمالاتهم إلا بالمصائب أحياناً ، بالطائف ظهر من هو النبي ، والمؤمن يُبتلى ليزداد قرباً من الله ، وليزداد رفعة عند الله ، أما الحديث عن القوم الظالمين فموضوع آخر ، أنا إذا ذكرت أن المصائب تنال الظالم ، بمعنى أن هذا الإنسان خرج عن منهج الله ، وتطاول على عباد الله ، وبنى مجده على أنقاض الخلق ، عندئذٍ استحق عقوبة الخالق :

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47)وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48))

(سورة الأنعام)

القرآن الكريم نذير لأن فيه مشاهد من يوم القيامة :

الإمام القرطبي رحمه الله تعالى حينما قرأ قوله تعالى :

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ (37))

(سورة فاطر الآية : 37)

الله تعالى يقول :

(وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

ما النذير ؟ قال : القرآن الكريم هو النذير ، لأن فيه مشاهد من يوم القيامة ، مصير الإنسان إما إلى جنة يدوم نعمها ، أو إلى نار لا ينفذ عذابها ، فالقرآن نذير ، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما ذكر في أحاديثه الصحيحة أن المؤمن يرى مقامه في الجنة عندما يأتيه ملك الموت ، فيقول : لم أرَ شراً قط ، وينسى كل المتاعب التي عاشها في الحياة ، وأن الذي يموت على غير الإيمان ، ويرى مكانه في النار يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا ، فكما أن القرآن بما فيه من مشاهد يوم القيامة يُعد نذيراً، كذلك كلام النبي عليه الصلاة والسلام يعد نذيراً .

شرح أكثر من ذلك ، فقال : سن الأربعين نذير ،

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)

فمن دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة ، والإنسان إذا سافر إلى مكان ومضى ثلثا الوقت تتغير خطته بعد ثلثي الوقت ، يقطع بطاقة العودة ، يشتري الهدايا ، يفكر في العودة ، إذاً من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة ، لذلك من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار .

وقال القرطبي أيضاً : سن الستين نذير ، وصل إلى ما قبل النهاية العظمى ، معترك المنايا بين الستين والسبعين .

أخواننا الكرام ، بربكم ، سؤال محرج ، هل يمكن أن نستيقظ كل يوم كاليوم السابق إلى ما لا نهاية ؟! مستحيل ، هناك بوابة خروج ، أحياناً تأتي من الكبد ، أحياناً من المعدة ، أحياناً من الدماغ ، أحياناً خثرة ، أحياناً فشل كلوي ، أحياناً أزمة قلبية ، أنواع الأمراض لا تعد ولا تحصى ، هذه الأمراض التي سماها النبي مرض الموت ، ويسمى الآن بوابة الخروج ، كيف يخرج الإنسان من الدنيا ؟ بمرض ، أو بحادث ، لذلك الحديث الذي يقسم الظهر :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً ، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِياً ؟ أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً ؟ أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً ؟ أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

المصائب أيضاً من النذير :

سؤال واضح ، كما قلت قبل قليل : مستحيل أن نستيقظ كل يوم كاليوم السابق ، في يوم من الأيام سيكون هناك طارئ جديد في حياتنا ، طارئ على الجسم جديد لم يكن ، يبدأ بمراجعة الطبيب ، بتحاليل، بتصوير ، بعملية جراحية ، بعد هذا ينتهي بنعي ، إذا كان مرض الموت طبعاً ، ولو كان نبيّاً ، ولو كان صالحاً ، هذه بوابة الخروج ، وأيّ مرض آخر غير مرض الموت له دواء ، لكل داء دواء ، كلام واضح ، فصار النذير القرآن الكريم ، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام ، وسن الأربعين ، وسن الستين.

الآن الشيب : " عبدي كبر سنك ، وانحنى ظهرك ، وضعف بصرك ، وشاب شعرك ، فاستحي مني ، فأنا أستحي منك " .

لحكمة بالغةٍ بَالغةٍ بالغَة الإنسان بعد الخمسين أو الستين يشكو من متاعب كثيرة، متاعب في معدته ، متاعب في حركته ، في عظامه ، في مفاصله ، يضعف بصره ، يضع طقم أسنان في فمه ، كأن هذه التبدلات رسائل لطيفة من الله : أن يا عبدي قد اقترب اللقاء بيننا ، فهل أنت مستعد له ؟ تجد الإنسان حينما يأتي الموت وقد عانى من متاعب الحياة ما عانى ، صدِّقوا ما أقول : يشتاق إلى لقاء الله عز وجل ، أما إذا كان في أعلى درجة من الصحة والنشاط ويؤخذ فجأة قد يكون هذا الانتقال صعباً عليه .

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

* * *

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شـنيع

لو كان حبك صادقاً لأطـعته إن المحب لمن يحب مطيـع

* * *

ثم إن المصائب من النذير ، لفت نظر ، الأمور كلها على ما يرام ، فجأة في البيت مشكلة ، مشكلة في الصحة ، في العمل ، مع الابن ، في العلاقات العامة ، مع رئيسه في العمل ، هذه المصيبة أيضاً رسالة من الله ، الآن تستخدم كلمات جديدة ، يقع انفجار يقولون : هذه رسالة وصلت ، الرسالة دائماً شفهية أو كلامية ، الآن هناك مصطلح في الأخبار ، يُعد تفجير بناء رسالة من جهة إلى جهة ، الرسالة وصلت ، إذاً المصيبة أحياناً رسالة من الله ، أن يا عبدي قد قرب اللقاء .

المرسلون يبشرون المؤمن وينذرون غير المؤمن :

من معاني النذير موت الأقارب ،

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

المرسلون يبشرون المؤمن ، وينذرون غير المؤمن ، الآن :

(فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا)

لا تتوهموا أن إيماناً بلا عمل ينفع ، في مئتي موضع في كتاب الله :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ)

أي آمن وطبق ، آمن وانضبط ، آمن وأعطى ، آمن واتقى ، آمن وتحرك ، آمن ووقف موقفاً مشرِّفاً ، ما لم يكن هناك موقف ، وحركة ، والتزام، وانضباط فالإيمان لا قيمة له إطلاقاً ،

(فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ)

أيها الأخوة ، دققوا في هاتين الكلمتين ، والله الذي لا إله إلا هو لا تعدلهما السماوات والأرض ،

(فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

أنت الآن هنا ، وهذا المستقبل ، وهذا الماضي ،

(فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

في المستقبل

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

على ما فات ، لا يخشى مما هو آت ، ولا يحزن على ما فات ، ماذا بقي من سعادة الدنيا ؟ لذلك قال تعالى :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

في الآية الثانية :

(فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

اجمع الآيتين من يتبع هدى الله عز وجل ـ دقق ـ لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت ، في أي وقت كنت ، في أي مكان ، في أي زمان ، أنت في رعاية الله ، وعناية الله ، وحفظ الله ، وتوفيق الله ، ونصر الله ، وتأييد الله .

أريد أن أقول كلمة : أصحاب الأخدود الذين أحرقهم الملك الظالم الذي ادّعى الألوهية انتصروا أم لم ينتصروا ؟ أنا أقول لكم : انتصروا ، مع أنهم حُرقوا ، انتصروا نصراً مبدئياً كما قال عنه العلماء ، نصر مبدئي ، ماتوا على الإيمان ، قد تكون ضعيفاً في عصر معين ، ما بيدك شيء ، والكافر قوي ، ويقهر هذا الضعيف ، لكن أتمنى أن أوضح فكرة ، هذه الدنيا مهما امتدت ، ومهما طالت ، ومهما قوي

الإنسان فيها ، ومهما اغتنى فيها ، ومهما تحكم بأهلها ، ومهما علا شأنه في الأرض فلا بد من أن يموت ، وأن كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، وأن الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، وأن العمر مهما طال فلا بد من نزول القبر .

الدنيا قيمتها أمام الآخرة صفر فهي ليست مقياساً :

الفرق بين الدنيا والأبد فرق بين لا شيء وكل شيء ، إنسان يعيش ستة وثمانين عاماً ، ما شاء الله ! قيمة هذا الأمد الطويل بالنسبة إلى الأبد صفر ، فإذا كان الإنسان في الدنيا لم يأخذ حقه ، كان مقهوراً ، مظلوماً ، أحرق ملك أصحاب الأخدود ، والآن في بلاد المسلمين تأتي قنبلة فتميت مئة شخص ، هذا اسمه نصر مبدئي ، بلد محتل يأتي قصف فيموت إنسان مؤمن مستقيم فرضاً ، عقيدته صحيحة ، مات على الإيمان ، الأكمل أن ننتصر نصراً تقليديّاً فنسترجع الأرض ، ونقهر من احتل أرضنا ، نتمنى ذلك، لكن إن كان الدين مفتوحة أبوابه على مصارعها ، أقوى مثل أصحاب الأخدود ، أثنى الله عليهم ، وقد حُرقوا ، أنا لا أقول لكم أن نستسلم ، لكن أنت حينما ترى أنك ضعيف لا تملك شيئاً ، ماذا تفعل ؟ اجهد أن تقوي المسلمين ، أما إذا قُهرت وكنت على حق فأنت من أهل الجنة ، وأنت منتصر نصراً مبدئياً ، هذا المعنى :

(فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

إذاً : الدنيا قيمتها أمام الآخرة صفر ، لذلك هي أحقر من أن تكون عطاء أو إكراماً لإنسان ، بل هي أحقر من أن تكون عقاباً ، الدليل أن الله يعطيها لمن لا يحب أحياناً ، أعطاها لفرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

وأعطاها لفرعون الذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38))

(سورة القصص)

وأعطاها لقارون الذي قال :

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (78))

(سورة القصص الآية : 78)

وأعطاها أيضاً لسليمان الحكيم ، أعطاها لعبد الرحمن بن عوف ، إذاً : مادامت الدنيا قد أعطيت لمن يحب الله ولمن لا يحب إذاً فهي ليست مقياساً على الإطلاق .

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ]

إذا هان أمر الله علينا هُنّا على الله :

أنت حينما تحكم علاقتك بالله ، وحينما تخطب ود الله ، فأنت عند الله كبير جداً ، ولو كان عملك في المجتمع في الدرجة الدنيا ، قد يكون حاجباً لكن قلامة ظفره تعدل ألف إنسان كبير غني قوي عاصٍ فاسق .

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (13))

(سورة الحجرات الآية : 13)

((أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه ـ أحد أصحابه الفقراء ـ قال : أو مثلي ! قال : نعم ، خامل في الأرض علم في السماء .))

[ورد في الأثر]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[الطبراني عن أبي هريرة]

أنا لا أقول هذا الكلام استسلاماً ، لا ، أقوله تطميناً لمن اختار الله له أن يكون ضعيفاً مستضعفاً ، ما بيدك شيء ، والله الآن لا نملك شيئاً ، جميعاً ، العالم الإسلامي بأكمله بكل إمكاناته ، هذا الواقع لا يملك شيئاً ، نملك أن يزداد إيماننا ، وأن يزداد تعاوننا ، وأن يزداد عطاؤنا ، وأن نربي أولادنا ، وأن نقيم الإسلام في بيوتنا ، وفي أعمالنا ، وأن نؤكد وحدتنا ، وتعاوننا ، وأن نفوت على أعدائنا كل خططهم الجهنمية ، هذا نملكه .

لذلك هذا الوقت عصيب جداً ، أقول وأعيد : إنها حرب عالمية ثالثة معلنة على الإسلام ، هدفها إفقار المسلمين ، ثم إضلالهم ، ثم إفسادهم ، ثم إذلالهم ، ثم إبادتهم ، وهذه حقيقة مُرة أفضل ألف مَرة من الوهم المريح ، والله موجود ، وفعال ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد .

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16))

(سورة هود)

لكن إذا هان أمر الله علينا هُنّا على الله .

لا تستطيع قوة مهما طغت وبغت أن تفسد على الله هدايته لخلقه :

أخوتنا الكرام ، كلمة من القلب إلى القلب ، مستحيل وألف مستحيل أن تستطيع قوة مهما طغت وبغت أن تفسد على الله هدايته لخلقه ، هذا الإسلام شيء لا يكاد يصدق ، كلما قمعته يزداد قوة ، أوضح مثل أنك إذا أردت أن تطفئ النار بالزيت ماذا يحصل ؟ تزداد النار اشتعالاً .

لذلك الآن أكبر دين في العالم في النمو هو الإسلام ، لكن ما الذي حصل ؟ الذي حصل أنه قبل الأحداث الأخيرة كان الغرب قد خطف أبصار أهل الأرض ، عالم غني قوي ، ذكي ، جميل جداً ، جامعات ، قيم ، أقول لكم ، وأنا واقعي : رائعة جداً ، الحرية غير سهلة ، الحرية ، الديمقراطية ، حقوق الإنسان ، العولمة ، العولمة احترام جميع الأديان ، هذه كلها قيم مطروحة هناك ، لذلك الغرب خطف أبصار المسلمين ، وصار الذي معه بطاقة خضراء(green card)

كأنه دخل إلى الجنة ، بعد الأحداث الأخيرة هنا الإنجاز ، بعد الأحداث الأخيرة سقط الغرب كحضارة ، وبقي قوة غاشمة ، أليس كذلك ؟ لم يبقَ على الساحة الآن إلا الإسلام ، على ساحة القيم والمبادئ لم يبقَ إلا الإسلام ، وهذه فرصة لا تعوض ، هذا الوقت وقت المسلمين ، لأن في الإسلام خلاص العالم ، العالم كله محتاج إلى الإسلام ، لأن كل النظم الوضعية أصبحت في الوحل ، ولم تحقق للإنسان لا سعادته ولا سلامته ، فلهذا الأنظار جميعاً تتجه إلى المسلمين ، أما المسلمون أمامهم خيار صعب ، لا يستطيعون أن ينشروا دينهم إلا بشروط ثلاثة ؛ أن يحسنوا فهمه أولاً .

واحد أراد أن يسلم في مصر ، فالتقى بشيخ تقليدي ، أبقاه في أحكام المياه ستة أشهر حتى خرج من جلده ، ورفض الإسلام ، هذا التعقيد غير معقول ، فالتقى بشيخ جليل الإمام محمد عبده ، فقال له : الماء الذي تشربه توضأ منه ، انتهى الأمر .

نحن الآن بحاجة إلى تبسيط الدين ، لا يكون الدين ألغازاً ، وأحاجي ، ومتاهات وأراء ، واجتهادات ، وأدلة ، وأدلة مناقضة حتى يستسلم الإنسان ، ما هذا الدين ؟! الدين كالهواء يجب أن تستنشقه ببساطة ، هذا هو الدين ، الدين لا يستطيع أحد في الأرض أن يحتكره ، لا جماعة ، ولا فئة ، ولا مذهب ، ولا طائفة ، ولا عصر ، ولا مصر ، حاجتنا إلى الدين كحاجتنا إلى الهواء ، هذا الدين ، فلذلك لا بد من تبسيطه ، ولا بد من عقلنته ، ولا بد من تطبيقه .

على المسلمين أن يُحسنوا فهم دينهم وتطبيقه وعرضه حتى ينتصروا :

العالم الذي التقى بالجالية البريطانية الإسلامية ، قال : أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب ، على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما ، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين ، لأن في الإسلام خلاص العالم ، ولكن بشرط ـ الآن دققوا ـ أن يُحسن المسلمون فهم دينهم ، وأن يحسنوا تطبيقه ، وأن يحسنوا عرضه ، هكذا .

مرة كنت في أمريكا ، وجاءني سؤال من أخت كريمة ، قالت لي : أنا طبيبة ، وأنا أضطر أن أصافح الأطباء في المستشفى ، وحينما لا أصافحهم أقع في حرج شديد ، فما الحل ؟ بل ما حكم مصافحة المرأة

للرجل ؟ طبعاً الجواب واضح ، حرام ، لقول النبي :

((إِنِّي لاَ أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

[الترمذي والنسائي عن أميمة بنت رقيقة]

لكن أردت أن أنقل لها هذا الحكم بطريقة أخرى ، قلت لها : الملكة إليزابيث لا يصافحها إلا سبعة رجال ، لعلو مقامها في القانون البريطاني ، وكذلك المرأة المسلمة لا يستطيع مصافحتها إلا سبعة من محارمها بحكم القانون القرآني ، فقبلت هذا الجواب .

أنت أحياناً بحاجة إلى عرض جيد ، مرة قال لي أحدهم : معقول أن شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل؟ ما هذا الظلم ؟ قلت له : ما قولك مليار وثلاثمئة مليون إنسان في الأرض يدخلون في ثاني أكبر عبادة في الإسلام بشهادة امرأة واحدة ، كيف ؟ إذا رأت امرأة مسلمة الهلال ، وأبلغت القاضي الشرعي، وكان في اتفاق بين كل المسلمين في الأرض أن يصوموا في يوم واحد ، يصوم مليار وثلاثمئة مليون في الأرض بشهادة امرأة واحدة .

إنسان ترك مئة مليار مثلاً ، جاءه مولود بعد موته ، ومات من توه ، فإذا قال : واع ، يأخذ المبلغ كله، أو ثلاثة أرباعه ، وإذا لم يصدر منه صوت لا يأخذ شيء ، من التي تشهد أنه خرج منه صوت أو لم يخرج ؟ القابلة ، تتحول مئات الملايين بشهادة امرأة واحدة .

أما جريمة جنسية ، والله عز وجل أعطى المرأة الحياء والخجل لا نكلفها عقود معينة مالية ، قضايا بعيدة عن اهتمامها ، الشرع لما كلفها أن تكون وحدها مسؤولة في الشهادة ، فلما عرضت هذا الكلام صار مقبولاً .

مشكلتنا الآن أن هناك حرباً على الدين ، عندما تقول : تطبيق الحكم الإسلامي ننسى الإسلام كله إلا قطع اليد فقط ، فقط ؟ ننسى الإسلام كله ، العدل ، التضامن ، التعاون ، إلا قطع اليد .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون جميعاً متعاونين ، وأن نكون على قلب واحد وأن نتحرك حركة وفق منهج الله ، فلعل الله أن ينصرنا إن شاء الله عز وجل ،

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(15-73): تفسير الآيتان 49 - 50 ، الطرق التي نتعرف من خلالها إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-04-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة الأنعام .

التفكر في خلق السماوات والأرض أحد أسرع وأوسع الطرق إلى الله :

مع الآية التاسعة والأربعين ، وهي قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49))

في هذه الآية مجموعة علاقات .

المعنى الأول لـ :

(آيَاتِنَا)

أنها آياتنا الكونية الدالة على عظمة الله عز وجل ، والتفكر في خلق السماوات والأرض أحد أسرع الطرق إلى الله ، وأحد أوسع الأبواب إلى الله، والله عز وجل يقول :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

أنت أمام آيات كونية عليك أن تتفكر فيها ، وما ذكر الله في القرآن الكريم ألفاً وثلاثمئة آية كونية إلا لتكون موضوعات للتفكر ، أو لتكون منهجاً يضعه الإنسان أمام عينيه كي يسير على منواله .

كما أنك مكلف أن تتفكر في خلق الله أنت مكلف أيضاً أن تنظر في أفعاله :

لله تعالى آيات تكوينية هي أفعاله ، خلقه آيات ، وأفعاله آيات ، فأحياناً أفعاله تدل على عدله ، وأفعاله تدل على أن كل البشر في قبضته ، وأفعاله تدل على رحمته ، وأفعاله تدل على حكمته ، وأفعاله تدل على قوته ، وأفعاله تدل على غناه ، فأنت بين آيات كونية عليك أن تتفكر فيها ، وبين آيات تكوينية عليك أن تنظر فيها ، قال تعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11))

(سورة الأنعام)

إذاً أنت كما أنك مكلف أن تتفكر في خلق السماوات والأرض مكلف أن تنظر في أفعال الله عز وجل ، فقد يُعز أناساً ، ويُذل أنساناً .

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

(سورة آل عمران)

والله عز وجل :

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (107))

(سورة البروج)

إله في السماء وإله في الأرض ، ما يقع شيء في الكون إلا بعلمه ومن خلاله ، أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى ، فكما أنك مكلف أن تتفكر في خلقه أنت مكلف أن تنظر في أفعاله .

لكن أيها الأخوة ، لا بد من توضيح في هذا الموضوع ، وهو أنه يتناهى إلى سمعك مئات القصص من فصلها الأخير ، وهذه القصص من فصلها الأخير لا تعني شيئاً ، لكن أحياناً بحكم شدة اتصالك بشخص ما ومعرفته في كل أحواله ترى القصة من بدايتها إلى نهايتها ، وكأن عدل الله صارخ فيها ، وكأن رحمته أيضاً واضحة ، وحكمته واضحة ، هذه القصة التي يمكن أن تتفكر فيها ، فالقصة التي تعرف بدايتها ونهايتها فيها دلائل على أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى لا تقدر بثمن ، والقصص كثيرة جداً.

الكون قرآن صامت والقرآن كون ناطق والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي :

أخواننا الكرام ، هناك قصص صارخة ، لدرجة أنك يقشعر جلدك حينما ترى فعل الله في الظالم ، لذلك من هو أغبى إنسان على وجه الأرض ؟ هو الذي يتحرك ولا يُدخِل حساب الله في حساباته ، لا يُدخل انتقام الله ، ولا يُدخل بطش الله ، ولا يُدخل عدل الله في حساباته اليومية ، قصص لا تعد ولا تحصى ، ولو أن الإنسان عنده وقت ليتابع ما يجري لكانت هذه القصص تشفّ عن كتاب وسنة ، لذلك هذا الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ، قال تعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

نحن الآن في التاريخ هؤلاء الذين ناصبوا رسول الله العداء ، ونكلوا بالمؤمنين ، وتفننوا في إيذائهم ، وماتوا ، هم في مزبلة التاريخ ، هؤلاء الذين وقفوا مع رسول الله وكانوا ضعافاً مستضعفين ، وتحملوا كل شيء في سبيل الدعوة أين هم الآن ؟ في أعلى عليين

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

هؤلاء الذين وقفوا كصلاح الدين الأيوبي في وجه الفرنجة بأكملهم ، دول عديدة بجيوشها ، ومكرها ، وقوتها ، استطاع هذا البطل أن يردهم جميعاً .

إذاً أيها الأخوة ، هناك آيات كونية عليك أن تتفكر بها ، وهناك آيات تكوينية هي أفعال الله ، عليك أن تنظر فيها ،

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

وهناك آيات قرآنية عليك أن تتدبرها ، والحقيقة أن هذه الآيات الثلاث هي الطرق التي من خلالها تتعرف إلى الله عز وجل .

البشر رجلان :

يقول الله عز وجل :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

التكذيب أيها الأخوة إما تكذيب لفظي أو تكذيب عملي ، وأنا أقول لكم : إن التكذيب العملي أخطر بكثير من التكذيب اللفظي ، لأن الذي يكذب بلسانه تحاوره ، تأتيه بالدليل ، تقنعه ، أما الذي يعترف بلسانه أنه هناك آخرة ، لكن لا تجد في عمله ما يثبت ذلك إطلاقاً ،

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

علاقات مركبة في هذه الآية ، الإنسان حينما يُكذب بآيات الله ، يجد نفسه في طريق الفسق ، لو أنه آمن بآيات الله لخاف من وعيد الله ، في النهاية البشر على اختلاف انتماءاتهم، على اختلاف ألوانهم ، وأجناسهم ، ومللهم ، ونحلهم ، وطوائفهم ، وألوانهم ، البشر رجلان ؛ رجل آمن بالله ، وآمن أنه مخلوق للجنة فاتقى أن يعصيه ، وبنى حياته على العطاء ، ورجل لم يؤمن بالله ، بل آمن بالدنيا فقط ، حينما لم يؤمن بالله ، ولم يؤمن باليوم الآخر ، وآمن بالدنيا فقط ، يجد نفسه مستغنياً عن طاعة الله .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9))

(سورة الليل)

الحقيقة أن هناك رجلين ، إنسان آمن ، وأطاع ، وأعطى ، وإنسان لم يؤمن ، فاستغنى عن طاعة الله ، وأخذ ، وتكاد هذه الصفة تكون حداً فاصلاً بين المؤمن وغير المؤمن، المؤمن يبني حياته على العطاء ، وغير المؤمن يبني حياته على الأخذ ، واسأل نفسك سؤالاً محرجاً : ما الذي يسعدك ، أن تعطي أم أن تأخذ ؟ إن كان الذي يسعدك أن تأخذ فهذه بادرة ليست طيبة ، أما إذا كان يسعدك أن تعطي فهذه علامة

صدقك وإيمانك باليوم الآخر ،

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ)

تكذيب الآيات يحملهم على الفسق ، والفسق من شأنه العدوان .

الآن تزوج أحدهم امرأة ، المؤمن مستقيم ، له امرأته ، أما غير المؤمن فيتطلع إلى أعراض الآخرين ، فإذا اعتدى على أعراضهم يستحق العذاب من الله عز وجل ، المؤمن يكتفي بماله الحلال ، بينما غير المؤمن يعتدي على أموال الآخرين فيستحق العذاب من الله ، والآية واضحة جداً :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا)

والباء باء السبب ،

(بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

إذاً : المعنى يؤمن بالآيات ، فيستقيم ، فيسلم ، ويسعد ، يكذب بالآيات ، فينحرف ويفسق ، فيعاقب في الدنيا والآخرة ، هذا معنى الآية :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

أربع آيات تحدد مقام النبي صلى الله عليه وسلم :

قال تعالى :

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50))

(سورة الأنعام)

أخواننا الكرام ، هذا النبي الكريم الذي أرسله الله رحمة للعالمين ماذا طرح علينا؟ نفسه ، ماذا قال عن نفسه ؟ قال : أنا أعلم الغيب ؟ لا ، قال : عندي خزائن الله ؟ لا ، قال : أنا أمنح وثائق لدخول الجنة ؟ لا، أمنع من دخول النار ؟ لا ، طرح نفسه نبياً ، مبشراً ، ونذيراً .

أيها الأخوة ، دققوا ، بعد القرآن ليس هناك من كلام ، قال تعالى :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

فأيّ إنسان على وجه الأرض يدعي أنه يعلم الغيب فهو كاذب ، واركل كلامه بقدمك ، لأن سيد الخلق وحبيب الحق قال :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

انتهى الأمر ، قال : لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً ، من ؟ سيد الخلق ، وحبيب الحق ، رسول الله ، سيد ولد آدم ، لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً ، والأبلغ من ذلك :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً (188))

(سورة الأعراف الآية : 188)

(لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي)

فلا أن أملك لكم من باب أولى ، البند الرابع :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15))

(سورة الأنعام)

أربع آيات تحدد مقام النبي ، لا أعلم الغيب ، ولا يملك للناس نفعاً ولا ضراً ، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ، وهو يخاف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم ، وأيّ إنسان يدعي خلاف ذلك أقول لكم بهذه العبارة بالذات : اركل بقدمك كلامه ، أيّ إنسان يدعي أنه يعلم الغيب ، أيّ إنسان يدعي أنه يستطيع أن يفعل شيئاً ينفعك به أو يضرك ، الله عز وجل وضح مقام النبي ، له مقام عند الله لا يعلمه إلا الله ، أما هو فقد طرح نفسه نبيّاً ، رسولاً مُبلّغاً عن الله عز وجل ، أما أن نتوهم أن هذه الشيخ ، أو أن هذا الولي يحل مشكلات الأرض ويمنع الأذى ، وينجب للعقيم ولداً ، وييسّر للإنسان التائه رشداً ، هذه شطحات ما أنزل الله بها من سلطان ، وهذا نوع من الشرك .

لولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر :

أيها الأخوة :

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ)

أيعقل أن يرسل الله لعباده البشر رسولاً ملكاً ؟ لو كان كذلك لقال الناس له : أنت لست بشراً ، نحن نعاني ما نعاني من الشهوات ، أما أنت فلست كذلك ، لم يكن كلامه حجة عليهم بل لكان كلام من أرسل إليهم أقوى من كلامه ، لذلك اسمعوا هذه الحقيقة ، لولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، الشهوات التي أودعت فينا أودعت فيه ، والضعف البشري الذي أودع في الإنسان مودع فيه ، قال :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلَا لِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبطُ بِلَالٍ))

[أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه عن أنس]

هذه حقيقة أيها الأخوة ، فلذلك الآية الكريمة :

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

هل فكر أحدكم لماذا أراد الله أن يكون النبي ضعيفاً ؟ لو أرسل نبياً قوياً ففي العالم أقوياء ، بإشارة ملايين مملينة تتحرك ، بإشارة لو كان النبي كهذا القوي ، وبعثه الله لهؤلاء الناس ليؤمنوا به ، وبرسالته ، لوجدت الخَلق جميعاً آمنوا به إيمان نفاقٍ ، وإيمان خوف ، لا إيمان قناعة ، ولا إيمان رقيّ، لذلك شاءت حكمة الله أن يكون النبي ضعيفاً ، يمشي رسول الله ، ويرى آل ياسر يُعذبون ، ولا يستطيع أن ينقذهم ، يقول :

((صبراً يا آل ياسر ، فإن مصيركم إلى الجنة))

[رواه الطبراني عن عثمان بن عفان]

يقول عنه أهل مكة : إنه مجنون ، هل تستطيع أن تقول عن إنسان قوي الآن : إنه مجنون ؟ أتبقى سليماً ؟ مجنون ، وكذاب ، وشاعر ، وكاهن ، كل التهم ألصقت به ، وكُذب في الطائف ، وسخر منه ، وضُرب .

حكمة الله أن يكون النبي ضعيفاً :

ما حكمة الله أن يكون النبي ضعيفاً ؟ ليكون الإيمان به عظيماً ، آمنت به وليس معه دنيا يعطيك منها شيئاً ، آمنت به ولا يستطيع أن يحميك من أعداء الدين ، هذا الإيمان الحق ، هذا الإيمان الذي لا تشوبه شائبة ، هكذا أراد الله أن يكون أنبياؤه ضعافاً ، ضعيف لا يستطيع أن يدافع عنك ، ولا يستطيع أن يعطيك شيئاً ،

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ)

أنا بشر :

((اللهم إنما أنا بشر ، أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر))

[رواه الطبراني عن ابن الطفيل]

لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، فلذلك الإنسان حينما يؤمن بالله ، ويضبط شهواته وفق منهج الله يكون فوق الملائكة ، الإنسان هو المخلوق الأول ، لكن المشكلة أن هذا الإنسان إما أن يكون فوق الملائكة ، أو يكون دون أحقر حيوان ، الدليل :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7))

(سورة البينة)

على الإطلاق ، هناك آية أخرى :

(أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6))

(سورة البينة)

الإنسان إما أن يسمو ويكون فوق الملائكة وإما أن يسفل فيكون دون الحيوان :

الإنسان إما أن يسمو ويكون فوق الملائكة ، وإما أن يسفل فيكون دون الحيوان ، وهذا الذي يجري في العالم من قتل ، ومن تدمير ، ومن اغتصاب ، ومن نهب للثروات ، ومن سحق للإنسان ، هذا الذي يجري من قِبَل إنسان ما عرف الله ، وما عرف سر وجوده ، ولا غاية وجوده ، يرى أنه إذا بنى مجده على أنقاض الشعوب ، ودمرهم من أجل أن يعيش من حوله في أعلى درجة من الرفاهية ، هؤلاء الطغاة في العالم هم أشقى خَلق الله قاطبة ، لأنهم ما عرفوا سر وجودهم ، ولا غاية وجودهم . شعوب بأكملها تئنّ من ظلم الأقوياء ، والدليل أن الله سبحانه وتعالى حينما قال :

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11)فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12))

(سورة الفجر)

ما قال : طغوا في بلدهم ، طغوا في البلاد ، في كل البلاد .

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ(11)فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(13))

(سورة الفجر)

تتميز عاد بأن الله حينما أهلكها ذكّرها بأن الله أشد منها قوة :

ما أهلك الله قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة ، إلا عاداً حينما أهلكها قال :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً (15))

(سورة فصلت الآية : 15)

تتميز عاد بأن الله حينما أهلكها ذكرها بأن الله أشد منها قوة ، وحينما نستمع إلى غطرسة الأقوياء واستكبارهم واستعلائهم ، ثم يأتي زلزال يتصادم فيه لوحان ، فتكون قوة هذا التصادم تساوي مليون قنبلة ذرية فتعرف من هو الله ، والإنسان مهما يكن قوياً فهو في قبضة الله عز وجل ، لذلك :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6)إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7)الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9)وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11)فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13)إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14))

(سورة الفجر)

وقال :

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128)وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130))

(سورة الشعراء)

وقال :

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38))

(سورة العنكبوت)

وقال :

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50))

(سورة النجم)

معنى ذلك أن هناك عاداً ثانية ، جاء أحدُهم من بلاد بعيدة جداً ، سُئل : أين كنت؟ قال : جئت من عاد الثانية .

انتصر النبي الكريم على بشريته فكان قمة البشر :

إذاً :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49)قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ)

إنه بشر ، يرضى كما يرضى البشر ، ويغضب كما يغضب البشر ، بشريته انتصر عليها فكان قمة البشر ، فأنت إما أن تنهزم أمام بشريتك ، أو أن تنتصر عليها ، إذا تحكمت فيك شهواتك انهزمت أمامها ، وإذا سيطرت على شهواتك انتصرت عليها ، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام في طرحه نفسه على قومه قال :

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

لا تطالبوني بما لا أستطيع ، أنا بشر ، أنا مبلغ ، أنا مبشر ، أنا منذر فقط ، أنا ضعيف ،

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

هناك موعظة تكتب على ظفر : " اتبع لا تبتدع ، اتضع لا ترتفع ، الورع لا يتسع " ،

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

يقول لك المثقف الآن : أنا لا أرى أن هذا الحكم الشرعي يصلح لهذا الزمان ، هو لأنه محور العالم ، هو منظّر ، هو مرجع ، عقله هو الحكم ، فلذلك :

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند ؟

***

من أنت ؟ أنت بشر ضعيف ، هناك خالق عظيم أنزل هذا القرآن على نبيه الكريم،

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

إنسان له عينان حادتان ـ بالبصر يرى كل شيء ـ وإنسان أعمى هل يستويان ؟ هل يستوي الظلام مع النور ؟ هل يستوي من أحيا الله قلبه بالإيمان مع إنسان قلبه ميت بالشهوات ؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

آيات من الذكر الحكيم تبين استحالة الاستواء في المعاملة عند الله بين المحسن والمسيء :

قال تعالى :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35))

(سورة القلم)

وقال :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (61))

(سورة القصص الآية : 61)

وقال :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (21))

(سورة الجاثية الآية : 21)

أخواننا الكرام ، لو أن الله عز وجل عامل المحسن كالمسيء ، والصادق كالكاذب ، والرحيم كالقاسي ، وعامل المنصف كالجاحد ، هذا الاستواء في المعاملة لا يتناقض مع عدل الله فحسب ، بل يتناقض مع وجوده ، يجب أن تؤمن أن الله لا يتخلى عنك ما دمت مؤمناً ، وأقول لكم هذه العبارة أرددها كثيراً : زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، الله عز وجل قال :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً (97))

(سورة النحل الآية : 97)

المؤمن كالحي وغير المؤمن كالميت ويستحيل أن يستويان :

قال سبحانه :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

وقال :

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة)

هل يستوي حيّ مع ميت ؟ إنسان حيوي نشيط ، يتكلم بحديث لطيف ، يؤنس بابتسامة ، جميل الصورة، أنيق الثياب ، حديثه رائع ، أعماله طيبة ، هذا هل يستوي مع جثة هامدة تخاف منها ؟ المؤمن كالحي ، وغير المؤمن كالميت ، هل يستوي بيت معمور مع بيت خرب ؟ هل يستوي حي مع ميت ؟ هل يستوي من كان في نور ساطع ومن كان في ظلمة دامسة ؟ لا يستويان . إذاً :

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(16-73): تفسير الآيات 51-53 ، ابتغوا الرفعة عند الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-04-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة الأنعام .

الذي أغلق سمعه وبصره عن الحق هذا لا سبيل إلى هدايته لأنه قرّر ألا يؤمن :

مع الآية الواحدة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51))

أيها الأخوة الكرام ، لأن الله سبحانه وتعالى قال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

(سورة البقرة)

الذي أغلق سمعه وبصره ، أغلق سمعه عن سماع الحق ، وجعل على بصره غشاوة عن رؤية الحق ، هذا لا سبيل إلى هدايته ، لأنه قرّر أن لا يؤمن ، وقد قال بعض المفكرين : لم أجد أشد صمماً من الذي يريد ألا يسمع .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً (43))

(سورة الرعد الآية : 43)

إذاً : الإنسان حينما يبحث عن الحقيقة ، حينما يحاسب نفسه ، حينما يسأل : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ حينما يبحث عن سر وجوده ، لماذا أنا في الدنيا ؟ ماذا يراد مني ؟ ماذا بعد الموت ؟ ما الذي يرضي الذي خلقني ؟ حينما يبحث الإنسان عن إجابات لأسئلة كبيرة ، هذا أنذره يا محمد ، هذا ينتظر أن يستجيب لك .

آيات تؤكد أنه يستحيل أن تعرف الحقيقة وأنت لا تطلبها :

الذي يبحث عن شهوته فقط هذا جعل على بصره غشاوة وجعل في أذنيه وقراً ، والقرآن كما قال الله عز وجل :

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (44))

(سورة فصلت الآية : 44)

وقال :

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82))

(سورة الإسراء)

وقال :

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198)فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199))

(سورة الشعراء)

إذاً يستحيل أن تعرف الحقيقة وأنت لا تطلبها ، يستحيل أن تضع يدك على الحق وأنت لا تبحث عنه ، وهذا المعنى الدقيق تؤكده آيات كثيرة :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49))

(سورة آل عمران الآية : 49)

قد يقول أحدكم : أنا أؤمن بالآيات أما إذا كنتُ مؤمناً من قبل أنتفع بهذه الآيات ، ما معنى هذا الكلام ؟ معنى هذا الكلام أنه ما لم تتخذ قراراً بمحض اختيارك في البحث عن الحقيقة فلن تنتفع بالحقيقة ، فلذلك أنا أشبه الإنسان الذي لا يفهم الحقيقة بآلة تصوير غالية جداً التقطتَ بها أجمل المناظر ، ولكن هذه الآلة ليس فيها فيلماً يستقبل هذه الصور .

الله عز وجل تولى هداية كل باحث عن الحقيقة :

بعض المسلمين يريد أن يقول : إن هؤلاء الذين اخترعوا هذه المنجزات حتماً هم في الجنة ، من جعلك وصياً على البشر ؟ هو أراد الثروة فقط ، أراد الشهوة فقط ، أراد التفوق في الدنيا فقط ، لماذا تحمِّله ما لا يطلب ؟ لماذا تقحمه فيما لا يريد ، لست وصياً على أحد ، تقييم العباد من شأن خالق العباد ، استرح وأرح ، نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، لذلك يقول الله عز وجل :

(وَأَنْذِرْ بِهِ)

أي بالقرآن ،

(الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ)

قال بعض أصحاب النبي رضوان الله تعالى عليهم : " أوتينا الإيمان قبل القرآن " أي بحثنا عن الحقيقة فوصلنا إليها ، من هذا يتضح أن الله عز وجل حينما قال :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69))

(سورة العنكبوت)

أنت حينما تسأل : يا رب أين الحق ؟ يتولى الله أن يهديك إليه ، هذا الطلب العميق ، هذا الطلب تنطوي عليه ، الله عز وجل تولى هدايتك ، قال تعالى :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

الله عز وجل تولى هداية كل باحث عن الحقيقة ، فلذلك مما يطمئن الإنسان قوله تعالى :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ (23))

(سورة الأنفال الآية : 23)

لا تقلق على البشر ، لو أن إنساناً في أطراف الدنيا طلب الحقيقة لساقه الله إليها ، أو لساقها إليه ، هذه حقيقة مقطوع بها ، لأن الله تولى هداية الخلق ، هو خلقهم ليسعدهم ، خلقهم ليهديهم إليه ، خلقهم ليدفعهم إلى بابه ، خلقهم ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (119))

(سورة هود الآية : 119)

معنى التوحيد :

لا تصغوا إلى من يقول : الله عز وجل خلقنا ليعذبنا ، هذا كلام الشيطان ، هذا كلام مرفوض ، الله عز وجل خلقنا ليسعدنا ، خلقنا ليهدينا إليه .

" إني والإنس والجن في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض علي منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها ، وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها " .

[ورد في الأثر]

إذاً أيها الأخوة ،

(وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ)

هؤلاء يصغون إليك ، هؤلاء يرجى أن يستجيبوا ، هؤلاء يرجى لهم أن ينجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ،

(وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ)

هذا هو التوحيد ، هم يعلمون علم اليقين أن الله وحده هو الذي يحفظهم ، وأنك مهما كنت قوياً ومهما كنت غنياً فلا ينفعك غناك ولا قوتك عند الله عز وجل ، لا ينفعك إلا استقامتك وإتباعك للحق ، لذلك الله عز وجل وحده لا منجى منه إلا إليه .

نعوذ برضاك من سخطك ، لا منجى منه إلا إليه ،

(لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ)

يتولى أمرهم ،

(وَلَا شَفِيعٌ)

يشفع لهم ، لذلك يوم القيامة يأتي الناس فرادى ، أما في الدنيا فيتواطئون ، ويتآمرون ، ويدعمون بعضهم على باطل .

المؤمن وقّاف عند كتاب الله تعالى :

ذكرت اليوم أن بيتين من الشعر يفسران تناقضات العالم اليوم :

قتلُ امرئ في غابة جريمة لا تغتفر

وقتلُ شعب مسلم مسألة فيها نظر

***

الناس يتواطئون مع القوي ، يخافون بطشه ، أو يرجون ما عنده ، فيضعون تحت أقدامهم قناعاتهم ، لكن يوم القيامة يأتي الناس فرادى ، كل إنسان سوف يأتي ربه فرداً ، لا معين ، ولا نصير ، ولا ولي ، وقد ورد في بعض الآثار " أنه قد تقع عين الأم على ولدها يوم القيامة ، تقول : يا بني ، قد جعلت لك بطني وعاءً ، وصدري سقاءً ، وحجري غطاءً ، فهل من حسنة يعود خيرها علي اليوم ؟ يقول : ليتني أستطيع ذلك يا أماه ، إنما أشكو مما أنت منه تشكين " .

لذلك :

(وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ)

هذه النفس اللوامة ، هذه النفس التي تقلق لذنب ألمت به ، هذه النفس التي تحاسب ذاتها ، هذا الذي يتحرك حركة عشوائية ، هو دابة عند الله عز وجل ، أما المؤمن فوقاف عند كتاب الله ، النفس اللوامة تحاسب نفسها حساباً عسيراً ، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً ، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً كان حسابه يوم القيامة عسيراً ، لذلك رأس الحكمة مخافة الله ، كلما ازددت علماً بالله ازددت خوفاً منه ، لأنك تعرف عن عدالته شيئاً كثيراً ، تعرف أنه الحق ، وأنه العدل ، وأن الناس يوم القيامة تسوى حساباتهم ، يؤخذ للمظلوم من الظالم ، ولو يعلم الظالم في الدنيا كم سيأخذ المظلوم من الله لما ظلمه .

مرةً قال أحدهم لشخص : لقد اغتبتني ، قال : ومن أنت حتى أغتابك ؟ من أنت ؟ لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت أبي وأمي ، لأنهم أولى بحسناتي منك .

الظالم لو علم يوم القيامة ما سيأخذ هذا المظلوم من الله لظن أنه سيظلمه في الدنيا .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لو أن شاة قرناء نطحت شاة جلحاء بلا قرون لأُخِذ حقها يوم القيامة ، لو أن إنساناً اصطاد عصفوراً ـ دققوا ـ لغير مأكلة ، للتسلية ، لأن هوايته الصيد ، أتى يوم القيامة له دوي تحت العرش ، يقول : يا رب، سله لمَ قتلني ؟

العبرة أن تكون عند الله مرضياً :

والله أيها الأخوة ، لو يعلم الناس ماذا ينتظرهم من حساب دقيق لعدوا للمليار قبل أن يظلموا مخلوقاً ، شعوب تُقتل بأكملها ، في آخر الزمان ظلم لا يعلمه إلا الله ، أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم :

((تُمْلَأُ الْأَرْضُ جَوْراً وَظُلْماً ، فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً ، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ] .

أيها الأخوة ، هذا الذي يخاف أن يُحشر إلى الله فيسأل ، هذا مظنة خير ، يا محمد، توجّه لهذا الإنسان، وقد قال الله عز وجل :

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9))

(سورة الأعلى)

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو ناراً نفخت بها أضاءت ولكنك تنفخ في رمادِ

***

المؤمن يرى أن الأمر بيد الله وحده ، وأن كل الناس لو أثنوا عليك ولم تكن عند الله مرضياً فلا قيمة لثنائهم ، ولو أن الناس جميعاً غضبوا عليك ولم تكن عند الله مغضوباً لما أثّروا عليك إطلاقاً ، العبرة أن تكون عند الله مرضياً .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر)

سبب نزول الآية التالية :

أيها الأخوة ، الآن في هذه الآية التالية :

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52))

(سورة الأنعام)

زعماء قريش ، سادة قريش ، عليةُ القوم في قريش ، لما رأوا أن الذين حول النبي فقراء ، من دهماء الناس ، ومن سُوقتهم ، من المستضعفين ، وهناك مصطلح جاهلي من الصعاليك ، يعني الإنسان الفقير، إنساناً في الدرجة الدنيا في المجتمع ، لا يأبه له ، لا يفتقد إذا غاب ، ولا يعرف إذا حضر ، أشعث أغبر ذو طمرين ، مدفوع بالأبواب ، لما رأى سادة قريش ، وزعماء قريش ، وكبراء قريش ، الأقوياء ، الأغنياء ، الذين أتاهم الله مالاً ، وجاهاً ، وشأناً ، وقوةً ، رأوا ضعافاً حول النبي من أراذل القوم ، أي من فقرائهم .

(اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ (27))

(سورة هود الآية : 27)

أبوا أن يجلسوا في مجلس النبي ، وقالوا : يا محمد ، إن أردت أن نأتيك فينبغي أن تطرد هؤلاء ، لأننا لا نجتمع وإياهم في مكان واحد ، أو لأن اجتماعنا بهم يزري بنا ، ويذهب هيبتنا ، نحن في مستوى رفيع ، وهم في مستوى وضيع ، فيا محمد ، إن أردت أن نأتيك فاطرد هؤلاء ،

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ)

فلما أبى النبي ذلك ، هؤلاء أرادوا وجه الله عز وجل ، أعطوه حلاً وسطاً ، إن أردت أن نأتي إليك فاجعل لنا وقتاً ولهم وقتاً ، إن خرجنا من عندك فاسمح لهم بالدخول إليك ، النبي عليه الصلاة والسلام لشدة حرصه على هداية الخلق ، ولأنه تصور وهو أحب الخلق جميعاً أن هؤلاء الكبار إذا أسلموا كل أتباعهم سيُسلمون ، فكأنه مال إلى أن يقبل حلهم الوسط ، أن يكون لهؤلاء الكبراء مجلس ولهؤلاء الضعفاء والفقراء مجلس آخر ، لكن جاء العتاب الإلهي .

عتاب الله عز وجل نوعان :

يجب أن نعلم علم اليقين أن عتاب الله عز وجل نوعان ، عتاب لك ، وعتاب عليك ، ما معنى عتاب لك؟

لو أن أباً رأى ابنه يدرس ، ويدرس ، ويدرس حتى وصل في الدراسة إلى درجة أنه لم ينَمْ ، يعتب عليه ، يقول له : يا بني ، ينبغي أن تنام قليلاً ، ينبغي أن تتلطف بجسمك ، هو مطيتك ، هو يعتب عليه أم يعتب له ؟ يعتب له ، وثمة فرق كبير ، أما لو رآه لا يدرس إطلاقاً ، يضيع وقته ، يمشي في الطرقات ، يهمل واجباته المدرسية ، يعتب عليه ، فإذا عتب الله على النبي صلى الله عليه وسلم فهو يعتب له ، فلشدة حرص النبي على هداية قومه ، لحرصه الكبير على أن يأخذ بيدهم إلى الله ، لطمع النبي أن هؤلاء الكبار إذا أسلموا لحِقهم في الإسلام أتباعهم ، من هنا بدا للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقبل العرض الثاني ، ولكن الله عتب له ، وقال : يا محمد دعك منهم ، لا خير فيهم ، اشتغل لهؤلاء الفقراء ، لهؤلاء الذين يريدون وجه الله عز وجل .

لذلك نحن في الدنيا أخواننا الكرام من حركة الحياة ظهرت قيم اصطلح الناس عليها في الدنيا ، الغني يُعظم ولو ارتكب أخطاء كبيرة ، والقوي يُعظم ، والذكي يُعظم ، والوسيم يُعظم ، والصحيح يُعظم ، الذكاء ، والوسامة ، والصحة ، والقوة ، والغنى ، هذه قيم البشر اصطلح الناس على أن يقيّموا بعضهم بها ، ولكن القرآن الكريم لم يعتمد هذه القيم ، اعتمد قيماً أخرى ، قال تعالى :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (11))

(سورة المجادلة الآية : 11)

وقال :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

(سورة النساء)

وقال :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا (132))

(سورة الأنعام الآية : 132)

قيمتان لا ثالث لهما ، قيمة العلم وقيمة العمل ، هذه القيم التي اعتمدها القرآن الكريم في الترجيح بين الخلق ، لذلك ينبغي أن نقول : لا يمكن أن تنهض أمة إلا إذا اعتمدت قيم القرآن ، أما قيم الحسب والنسب ، وقيم المال والغنى ، وقيم القوة والبطش ، فهذه قيم لم يعتمدها القرآن ، ولم يقبلها .

ابتغوا الرفعة عند الله :

قال تعالى :

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

يريدون وجه الله ، يريدون ذاته ، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ، يريدون ما عنده من نعيم مقيم ، يريدون رضوانه ، يريدون قربه ، يريدون أن يرضى عنهم ، هؤلاء لو كانوا بالمقياس الأرضي في الدرجة الدنيا من السلم الاجتماعي هم عند الله في أعلى مكان ، وفي أعلى مرتبة لذلك : ابتغوا الرفعة عند الله .

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

واللهِ مرة كنت في مؤتمر في المغرب ، وهذا المؤتمر في فندق من أرقى الفنادق هناك ، استمعت صباحاً إلى صلاة جهرية ، إلى صلاة فجر من مستخدَم في الفندق ، وقد آتاه الله صوتاً شجياً ، صلى الفجر بصوت مرتفع ، واستمعت إليه ، جاءني خاطر ، قلت : لعل هذا الإنسان الذي لا يؤبه له في هذا الفندق الذي فيه كبراء القوم أن تكون قلامة ظفره عند الله تعدل ألف رجل من كبراء الدنيا .

الفرق بين الكفار والمؤمنين كما وردت في القرآن الكريم :

أخواننا الكرام ، مقاييس الدنيا لا يعبأ الله بها ، لذلك آتى قارون المال وهو لا يحبه ، وآتى فرعون الملك وهو لا يحبه ، فماذا آتى الأنبياء ؟ آتاهم العلم والحكمة .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22))

(سورة القصص)

لذلك يقول الله عز وجل :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر الآية : 9)

والله عز وجل يقول :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

ويقول الله عز وجل :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35))

(سورة القلم)

ويقول :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص)

وقال :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (21))

(سورة الجاثية الآية : 21)

الدنيا مزرعة الآخرة فمن عرف ربه واستقام على منهجه وسعى إلى مرضاته فهو الفائز :

أنا أتمنى أن هذا المؤمن المطيع لله أن تكون معنوياته في أعلى درجة ، هو عبد لله صالح .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139))

(سورة آل عمران)

ينبغي ألا نعجب لا بأموالهم ولا بأولادهم ، هؤلاء الذين شردوا عن الله عز وجل وتغطرسوا ، واستعلوا ، واستكبروا ، ونظروا بازدراء إلى المؤمن ، ينبغي ألا نعبأ لا بقوتهم، ولا بجبروتهم ، ولا بأموالهم ، ولا بما عندهم من إنجازات حضارية ، ينبغي أن نعلم علم اليقين أن هذه الدنيا مزرعة الآخرة ، فمن عرف ربه ، واستقام على منهجه ، وسعى إلى مرضاته فهو الفائز ، قال تعالى :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (71))

(سورة الأحزاب)

وقال :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185))

(سورة آل عمران)

إذاً يا محمد ، أنت اجتهدت لحرصك على هداية الخلق ، اجتهدت أن هؤلاء الكبراء لعلهم يسلمون ، لعلهم يؤمنون ، لأنهم كبراء لعل من حولهم يقلدونهم ، ولكن لا تعبأ بهم ، احرص على هؤلاء الضعاف، على هؤلاء الفقراء ، هم يبتغون وجه الله عز وجل .

دع تقييم الناس لله وحده لا تحاسَبُ عنهم ولا يحاسبون عنك :

أحياناً الغني إن أراد أن يستمع إلى الحق يضيف إلى متعه متعة روحية ، هو لا يغيّر ولا يبدّل ، ولا يدع المعاصي والآثام ، لكن يريد أن يضيف إلى أمجاده أنه في عقد قران ابنته دعا فلاناً ، وألقى كلمة ، قد يكون ماله حراماً ، وقد تكون علاقاته ليست كما ينبغي ، الإنسان ما لم يستجب لله عز وجل ولرسوله فلا شأن لهذا الإنسان ولو كان غنياً أو قوياً .

مرة أقيم عرس في فندق كبير ، وكلف بضع عشرات من الملايين ، وقد وزع الخمر ، وجيء بالراقصات ، إلى ما لا نهاية من المعاصي والآثام ، وعلى بطاقة الدعوة كُتِبَ " الطيبون للطيبات " !!

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

إن عليك إلا البلاغ ، أنت لست مكلفاً أن تحاسبهم ، لأن هناك من يقول : إن هؤلاء الضعاف مظلومون، لجؤوا إليك كي تحل مشكلاتهم ، من يعلم ذلك ؟ قد يأتي إنسان إلى مسجد ، فيقول إنسان خصم له : ما جاء إلا لينتفع ، من قال لك ذلك ؟ أنت شققت على صدره ؟ تعلم الغيب ؟ تعلم ما أخفاه الله عن كل الخلق ؟ لا تكن وصياً على الخلق ، دع تقييم الناس لله وحده ، لا تحاسَبُ عنهم ، ولا يحاسبون عنك ، لا تُحاسَب عنهم لأن الله أمرك أن تقيِّم الناس بالظاهر والله يتولى السرائر .

كلمة فتنة ليست مذمومة لذاتها بل مذمومة لنتائجها :

أيها الأخوة ، قال تعالى :

(مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53))

(سورة الأنعام)

الله عز وجل منح إنساناً صحة وابتلى إنساناً بالمرض ، الصحيح يفتن بصحته والمريض يفتن بمرضه، الصحيح يفتن بصحته فيشكر الله على نعمة الصحة ، والمريض يفتن بمرضه فيصبر ، ابتلى إنساناً بالغنى وإنساناً بالفقر ، كلمة فتنة ليست مذمومة لذاتها ، بل مذمومة لنتائجها ، فتنة أي امتحان ، قال تعالى يخاطب سيدنا موسى :

(وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً (40))

(سورة طه الآية : 40)

امتحنت فنجحت ، فالإنسان ممتحن في شيئين ؛ ممتحن فيما أوتي ، وممتحن فيما زُوِيَ عنه ، إن كان غنياً فهو ممتحن بالغنى ، وإن كان فقيراً فهو ممتحن بالفقر ، وإن كان قوياً فهو ممتحن بالقوة ، وإن كان ضعيفاً فهو ممتحن بالضعف ، فأنت ممتحن فيما زُوِيَ عنك وممتحن فيما أوتيتَ ، ممتحن مرتين ، فلذلك الغني قد ينجح في الامتحان وقد لا ينجح ، والفقير قد ينجح وقد لا ينجح ، فالعبرة ليست في الامتحان بل في النتيجة ، ربما نجح الفقير في امتحان الفقر ولم ينجح الغني في امتحان الغنى ، فاستحق الفقير جنة عرضها السماوات والأرض ، واستحق الغني الذي لم ينجح في امتحان الغنى عذاباً أليماً إلى أبد الآبدين ، فالعبرة ليست في نوع الفتنة بل في نتيجة الفتنة ؛ النجاح ،

(وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)

إذاً نحن ممتحنون فيما زُوِيَ عنا ، وفيما منحنا إياه ، من هنا من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم :

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي عن عَبْدِ اللَّهِ بْن يَزِيدَ الخَطْمِيِّ الأَنْصَارِيِّ] .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(17-73): تفسير الآية 54 ، التوبة النصوح
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-04-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس السابع عشر من دروس سورة الأنعام .

للآية التالية اتصال بآيات سابقة :

مع الآية الرابعة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54))

أيها الأخوة ، لهذه الآية اتصال بآيات سابقة ، حيث قال الله عز وجل في آية سابقة :

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52))

(سورة الأنعام)

لما أبى زعماء قريش أنْ يجلسوا في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين الضعاف الفقراء ، ورأوا في هذا الجلوس المشترك ما يخدش أو ما يقلّل من قيمتهم أبوا على النبي أن يحضروا ما دام هؤلاء الفقراء في مجلسه ، ثم اقترحوا عليه أن يكون لهم يوم وللزعماء يوم ، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم لاجتهاد منه وبطمع أن يسلم هؤلاء الكبار ، ولهم أتباع كثر ، فكأنه فكّر في أن يوافق ، فجاء التوجيه الإلهي :

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

الآية السابقة جاءت لتعزز مكانة هؤلاء الذين استصغرهم زعماء قريش :

طبعاً النبي عليه الصلاة والسلام معصوم في أقواله ، وفي أفعاله ، وفي إقراره ، لكن لحكمة بالغة بالغةٍ بالغة تُرك له هامشٌ ضيق جداً للاجتهاد ، فإن أصاب أقرّه الوحي على ذلك ، وهذا الاجتهاد يمكن أن يكون وسام شرف له ، فرق كبير بين أن تجلس مع من يحبك ومع من يؤمن بك ، وبين أن تجلس مع خصم لدود وقح ، لا يعبأ بك ، ولا برسالتك ، ومع ذلك النبي عليه الصلاة والسلام اختار الأصعب، اختار الأصعب طمعاً في هداية الخلق ، فاجتهاده وسام شرف له ، وإذا عتب الله عليه عتب له ولم

يعتب عليه ، وفرق كبير بين أن يعتب الله له وأن يعتب عليه ، لكن الوحي وحي السماء هو الحق المطلق ، فالله عز وجل نهاه عن أن يجعل لزعماء قريش يوماً ولهؤلاء الفقراء الضعفاء يوماً ، فقال :

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)

لكن في هذه الآية التي بين أيدينا يقول الله عز وجل : هؤلاء الضعاف ، هؤلاء الفقراء ، هؤلاء الذين يبتغون وجه الله ، لعل قلامة ظفرهم تساوي آلافاً مؤلفة من الأقوياء الأغنياء ، جاءت الآية لتعزز مكانة هؤلاء الذين استصغرهم زعماء قريش ، قال :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا)

بآياتنا الكونية ، بآياتنا القرآنية ، بآياتنا التكوينية ، هؤلاء الذين أرادوا أن يعرفوا الله ، هؤلاء الذين أرادوا أن يصلوا إلى الله ، هؤلاء الذين ابتغوا وجه الله ، هؤلاء الذين آمنوا بآيات الله ، آمنوا بعظمته ، آمنوا بعدله ، آمنوا برحمته ، ابتغوا رضوانه ، هدفهم طاعته ، هدفهم نيل رضوانه ، قال :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

هذا وسام شرف لهم ، سلام مِن الله عليكم ، أنت في مكان عليٍّ ، لذلك أيها الأخوة لا تعبأ بمرتبتك الاجتماعية ، فقد تكون في الدرجة الدنيا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ]

لا تظنن أنك لو كنت في الدرجة الدنيا من السلم الاجتماعي ليس لك عند الله شأن، لا ، ربما كانت قلامة ظفر مؤمن مغمور إذا غاب لم يفتقد ، وإذا حضر لم يعرف ، أفضل من ملايين من البشر الشاردين التائهين ،

(فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

لذلك ابتغوا الرفعة عند الله .

الله عز وجل هو السلام وإذا عرفته هداك سبل السلام :

قال تعالى :

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

الذي كان في قمم الحياة الدنيا صار في حضيضها ، والذي كان في حضيضها صار في قممها ،

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

العبرة أن تكون مؤمناً إيماناً صحيحاً ، مستقيماً على أمر الله ، محسناً إلى خلق الله ، ليس عندك مواقف مزدوجة ، سريرتك كعلانيتك ، وسرك كجهرك ، وخلوتك كجلوتك ، ولا تضمر حقداً ، ولا غشاً ، ولا مكراً ، ولا حسداً لأحد ، تأتي الله عز وجل بقلب سليم .

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

لذلك هذه الآية تُسري عن هؤلاء المؤمنين الضعاف ، ترفع من شأنهم ، تعلي قدرهم :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

أنتم في سلام ، أنتم في عين الله ، أنتم في حفظه ، أنتم في توفيقه ، أنتم في محبته ، أنتم في ظلال الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله ،

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

والله عز وجل هو السلام ، ومنه السلام ، ويدعو إلى دار السلام ، وإذا عرفته هداك سبل السلام ، حياة المؤمن لا بد أنْ تكون متميزةً أشد التميز عن حياة غير المؤمن ، هو سلام ، ويدعو إلى السلام ، أنت في سلام معه ، وفي سلام مع خلقه ، وفي سلام مع نفسه ، وفي سلام في بيتك ، وفي سلام في عملك، وفي سلام في كل علاقاتك ، لأن الله إذا كان معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

الله عز وجل لحكمة منه يخاطبنا بقيمنا :

قال تعالى :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

الذات الإلهية لا تحتاج أن تكتب ، الكتابة للبشر ، إنك إن عقدت عقداً شفهياً تشعر بقلق ، فإذا وثقت هذا العقد بنص موقع ومصدق من جهة رسمية تنام مرتاح البال ، لأن من شأن البشر أن ينقضوا عهودهم ، فإذا كنت دقيقاً في معاملتك أبرمت كل عقودك كتابة ، لكن الله عز وجل هل من قوة تجبره على خلاف ما يريد ، إرادته مطلقة ، لكن الله يطمئننا ، هو يخاطبنا على قدر عقولنا ، نحن إذا اشترينا بيتاً ومعنا عقد موثق ، أو حكم محكمة أقوى ، أو في السجلات الرسمية وثيقة خضراء أقوى وأقوى ، هذا شأن البشر ، والله عز وجل لحكمة منه يخاطبنا بقيمنا ، يخاطبنا بما نظنه أقوى ، فلذلك يقول الله عز وجل :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

الحقيقة كلمة

(يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا)

تنقلنا إلى أناس يؤمنون بالغرب ، يؤمنون بالمادة ، يؤمنون بالمال فقط ، يؤمنون بالسلطة فقط ، يؤمنون بالقوة فقط ، هؤلاء ضلوا سواء السبيل ، الله عز وجل موجود وواحد وكامل وبيده كل شيء .

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ (84))

(سورة الزخرف الآية : 84)

وقال :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف)

قال :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

أنت في سلام .

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (51))

(سورة التوبة)

لم يقل : علينا ،

(لَنَا)

تفيد الملكية ، لن يصيبنا في المستقبل إلا ما كتب الله لنا ؛ أي من الخير ، من راحة البال ، من الطمأنينة ، من السعادة ، من البشر .

حال من شرد عن الله عز وجل :

أخواننا الكرام ، هؤلاء الذين شردوا عن الله عز وجل في قلوبهم من الخوف ، ومن القلق ، ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم .

إذا كنت في كل حال معـي فعن حملي زادي أنا في غنـى
فأنتم هو الحق لا غيركـم فيا ليت شعري أنا من أنـا

* * *

كن مع الله تر الله معـــك واترك الكل وحاذر طمعــك
وإذا أعطاك من يمنعـــه ثم من يعطي إذا ما منعــك

* * *

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنـا
ولذ بحمانا واحتمِ بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنـا

وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل واخلص لنا تلق المسرة والهنا

وسلم الأمر لنا في كل ما يكن فما القرب والأبعاد إلا بأمرنـا

* * *

يقف هذا العبد يوم القيامة ، يقول فيا خجلي منه إذا هو قال لي :

أيا عبدنا ما قرأت كتابنـــا

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى

أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً

وتنظر ما به جـاء وعدنـــا

* * *

لذلك أيها الأخوة ، هؤلاء الفقراء الضعاف ، يقول الله لنبيه الكريم :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا)

هؤلاء الذين رفض كفار قريش أن يجلسوا معهم ، هؤلاء الذين ازدراهم زعماء قريش ، هؤلاء الذين استنكف هؤلاء الأعلام في قريش أن يكونوا معهم في مجلس واحد .

مشاعر القهر والحقد والإحباط هذه المشاعر ليست مشاعر المؤمنين :

قال تعالى :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

الله عز وجل رحيم ، وكلمة (رحيم)كلمة واسعة جداً ، تبدأ من أنه يرحمك بصحتك ، بل ويرحمك بزوجتك ، ويرحمك بأولادك ، يرحمك بحرفتك ، بمهنتك ، يرحمك بعلاقاتك ، يرحمك بأن يلقي في قلبك السكينة ، يرحمك بأن يلقي في قلبك الرضا ، يرحمك بأن يلقي في قلبك السعادة ، يرحمك بأن يطمئنك أن الأمر بيده وحده ، مشاعر القهر والحقد والإحباط هذه المشاعر ليست مشاعر المؤمنين .

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

المصلي لا يرى الأقوياء إلا وحوشاً قد قيدت بأزمة بيد الله عز وجل ، فعلاقة الإنسان العاقل المؤمن ليست مع الوحوش بل مع من يملكها ، بدليل أن الله عز وجل يقول :

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

أعراض الإعراض عن الله عز وجل :

علاقتك ليست مع الوحوش ولكن مع من يملكها ، فإذا رضي عنك الذي يملكها أبعدها عنك ، وإذا لم يرضَ عنك الذي يملكها قربها إليك ، هذا هو التوحيد ، التوحيد ليس معه قهر ، ولا إحباط ، ولا قلق ، ولا انسحاق ، ولا شعور باليأس ، كل هذه المشاعر هي أعراض لمرض واحد ، هو إعراض عن الله عز وجل ، أعراض الإعراض ،

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

هذه كتابة ذاتية ، وحيث ما وردت كلمة (على)مع ذات الله عز وجل تفيد الإلزام الذاتي .

(عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (6))

(سورة هود الآية : 6)

حيثما جاءت كلمة (على)مع الذات الإلهية لا تفيد الإلزام الخارجي ، ليس فوق الله أحد ، تفيد الإلزام الذاتي .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

أي أن الله عز وجل ألزم نفسه بهداية الخلق .

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (6))

(سورة هود)

ما شرعت التوبة إلا لأن الإنسان قد يخطئ :

قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

الله عز وجل ألزم نفسه بالاستقامة ، وألزم نفسه برحمة العباد ، وألزم نفسه بكل خير ، فكلمة (على)وكلمة(كتب)، الكتابة الذاتية ، و (على)الإلزام الذاتي ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول في الحديث الصحيح القدسي :

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً ، فَلَا تَظَالَمُوا)).

[مسلم عن أبي ذر]

لكن البشر ليسوا كذلك ، هم يستبدون ، ويطلبون من الدول الضعيفة ألا تستبد ، هم يستبدون بحق النقض في مجالسهم ، ويطلبون من الدول الفقيرة ألا تكون مستبدةً ، نحن لسنا مع الاستبداد قطعاً ، لكن هم مستبدون ،

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً ، فَلَا تَظَالَمُوا))

إذاً معنى :

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

أي كتابة ذاتية ، تطميناً للعباد الذين يتوهمون أن الشيء المكتوب أشد قوة من الشيء الموعود من دون كتابة ، هؤلاء الضعاف ، هؤلاء الذين يبتغون وجه الله ، قد تزلّ قدمهم أحياناً ، المؤمن مذنب تواب :

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي عَنْ أَنَس]

ما شرعت التوبة إلا لأن الإنسان قد يخطئ ، فهؤلاء الذين يؤمنون بآيات الله ، وهؤلاء الذين كتب الله على نفسه الرحمة لهم :

(أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً)

أي عمل عملاً يسوءه في المستقبل ، قد يرضيه في الحال ، الإنسان إذا أقبل على معصية قد يتوهم أنها ستمنحه لذة ، لكن بعد هذه اللذة تكون الكآبة ، ويكون البعد ، ويكون الجفاء من الله عز وجل ، لذلك المؤمن إذا وصل إلى الصلة بالله عز وجل لا يضحي بها بمخالفة تقطعه عن الله عز وجل .

البطولة أن تحترم ذاتك :

إذاً :

(مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً)

أي عملاً يسوءه ، الأعمال الصالحة تسعده ، الأعمال الصالحة كلما تذكرها أقبل على الله ، الأعمال الصالحة تجعله محموداً عند الله ، ومحموداً عند الناس ، ومحموداً عند نفسه ، والأعمال السيئة إن لم يعلم بها الناس تجعل صاحبها ينهار من الداخل ، هذا عذاب الفطرة ، هذا عذاب الضمير ، هذا الشعور بالذنب ، هذا الشعور بالنقص هذا مركب النقص .

لذلك البطولة أن تحترم ذاتك ، قد تستطيع أن تفعل شيئاً لا يرضي الله ، ولا يرضي الناس ، لكن لا أحد يعلم به إطلاقاً ، لكن لفطرتك العالية تشعر بانهدام داخلي .

مرةً في فندق في ألمانيا كُتب على بعض الأسِرّة أنه " إن لم تنم طوال الليل ، وتقلبت قلقاً فاعلم أن العلة ليست في فُرشنا ، إنها وثيرة ، ولكن العلة في ذنوبك ".

أسعد الناس هو الذي ينام وليس في عنقه شيء ، لا حق مادي ولا حق معنوي ، قد يكون بيته متواضعاً، ودخله لا يكفي ، لكن البطولة أن تنام مرتاح البال ، ليس هناك إنسان تعلق حقه بك ، أن تنام ولم تبنِ مجدك على أنقاض الناس ، ولم تبنِ غناك على فقرهم ، ولا حياتك على موتهم ، ولا أمنك على خوفهم ، ولا عزك على ذلهم ، ومعظم الذين يصلون إلى مراكز عالية بسرعة كبيرة في الأعم الأغلب يكون هذا الوصول على حساب قيمهم ، وعلى حساب مبادئهم .

هؤلاء :

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً)

أي عملاً يسوءه ، يسوءه إذا علمه الناس ، ولإيمانهم أن الله مطلع عليهم يسوءهم إذا اطلع الله عليه ، وهو يطلع عليه دائماً ، فإن توهم أن الناس لم يعلموا إطلاقاً يسوءه لأن نفسه قد فطرت فطرة سليمة عالية ، فتحاسبه أشد الحساب . ما معنى بجهالة ؟

الحقيقة أن الإنسان الجاهل لا يعني أنه ليس عنده معلومات ، عنده معلومات كثيرة جداً لكن كلها ليست صحيحة ، هذا هو الجاهل ، يقول الشاعر في الجاهلية :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدَعني أبادرها بما ملكتْ يدي

* * *

البطولة أن تأتي تصوراتك مطابقة لمنهج الله عز وجل ولمقاييس القرآن الكريم :

هناك أناس كثيرون يقولون : أنت الآن شاب ، افعل كل شيء من أجل أن تستمتع بشبابك ، غداً تتوب، هذا الذي يدعو إلى المعصية ، هذا الذي يدعو إلى المتعة ، محرمة كانت أو مشروعة ، هذا جاهل ، هذا الذي يدعو إلى معصية ، أو إلى تفلت ، أو إلى اختلاط، أو إلى ممارسة شهوة محرمة ، هذا جاهل، هو يرى أنه يسعد بذلك ، والحقيقة أن السعادة شيء واللذة شيء آخر ، السعادة نفسية تنبع من الداخل ، يملكها كل إنسان ، متنامية تنتهي إلى الجنة ، بينما اللذة خارجية تأتي من الخارج ، تحتاج إلى أموال ، وإلى وقت ، وإلى جهد ومتناقصة ، وتعقبها كآبة ،

(مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ)

يعني بتصور غير صحيح ، هذا الذي يتوهم أنه كلما استمتع بالملذات المحرمة كان أذكى ، وكان أعقل ، وهناك أناس كثيرون يرون المعصية مغنماً ، والانحراف عن الطريق الصحيح تحرراً ،

والانغماس في الملذات تمتعاً ، وكسب المال الحرام شطارة ، هؤلاء الجهلة ، ليس معنى جاهل أنه لا يعلم ، لا يعلم معلومات غير صحيحة ، إذا توهم الإنسان أنه كلما أكثر الملح في الطعام انخفض ضغطه، هذا جاهل أم عالم ؟ هذا جاهل ، يحب الملح الكثير فيكثر منه ، ويقول : لا ، الملح يسهم في تخفيض الضغط ، مثلاً ، هذا جاهل ، كل إنسان يتوهم أنه إذا غش الناس يزداد ربحه ، لكن بعد حين ينفض الناس عنه ، البطولة أن تأتي تصوراتك مطابقة لمنهج الله عز وجل ، البطولة أن تأتي قيمك قيم القرآن الكريم ، البطولة أن تأتي مقاييس الفوز عندك كما مقاييس القرآن الكريم .

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (71))

(سورة الأحزاب)

وقال :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185))

(سورة آل عمران)

إذاً :

(مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ)

فالبطولة أن تصحح تصوراتك ، وأن تصحح مقاييسك ، وأن تصحح منطلقاتك ، وأن تصحح أهدافك، كي تأتي أهدافك ومنطلقاتك وتصوراتك ومقاييسك وفق منهج الله عز وجل ، وإلا فهذا هو الجهل ، بالتعبير الدارج الجاهل ليس وعاءه فارغاً من المعلومات ، سيتفجر معلومات ، لكن كلها غلط ، كل تصوراته غلط ، مثلاً فتاة جاهلة ، تتوهم كلما تبرجت ، وأظهرت مفاتنها ، وتفلتت ، وصاحبت أي شابٍّ ، ودخلت في أمكنة لا ترضي الله يكون زواجها قريباً ، بينما المؤمنة ترى أنها بقدر استقامتها وطاعتها لله يعدها الله بزوج صالح يملأ حياتها سعادة ، فحينما تبتغي أمراً بمعصية تكون جاهلاً ، ومن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا ، وأقرب مما اتقى .

إذا كانت التوبة علماً وحالاً وعملاً عندئذٍ تكون التوبة نصوحاً :

أخواننا الكرام ، هذا الإنسان الذي زلت قدمه ، وعمل سوءً بجهالة ، أي بتصور خاطئ ، هناك معنى آخر للجهالة .

كان في ظرف ما كان ينوي أن يعصي الله إطلاقاً ، لكن لظرف طارئ ضعفت نفسه فعصى الله ، طبعاً هذا يتضح كيف ؟ إنسان أراد أن يسافر إلى بلد بعيد في الشرق ليرتكب الفاحشة ، وسأل وخطط ، وأخذ العناوين ، ووصل إلى بعض المعلومات ، وأزمع السفر ليرتكب الفاحشة ، هذا لم يفعل السوء

بجهالة ، لكن إنساناً كان في سفر ، وجد في ظرف ، وصار في خلوة ، وضعفت نفسه ، فزلت قدمه ، هذا الثاني غير الأول ، لم يكن ينوي أن يعصي الله عز وجل .

لذلك العلماء يفرقون بين من يعصي الله عن قصد وعمد وتخطيط ، ومن يعصي الله عز وجل عن ضعف وغلبة ، لذلك أن تعصيه استكباراً ، وتخطيطاً ، وعامداً ، ومخططاً شيء ، وأن تعصيه في لحظة ضعف ، ثم تبكي كثيراً ، وتتوب إلى الله عز وجل ، هذا شيء آخر .

إذاً الآية :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

التوبة أيها الأخوة تعني أن هناك علماً ، وحالاً ، وعملاً ، هناك علم أن هذه معصية ، هذه مخالفة ، هذه كبيرة ، هذه صغيرة ، لو طلبت العلم لعرفت المعاصي والآثام ، والفحشاء والمنكر ، والإثم والعدوان ، والكفر والشرك ، والنفاق والإلحاد ، والفجور والذنب ، فلا بد لها من علم ، وإن كنت صادقاً فيما تعلم فلا بد من أن يرافق التائب ندم شديد ، الحال علم وعمل ، أما العمل فينقسم إلى ثلاثة اتجاهات ، أن تعقد العزم في الحاضر على ألا تعود ، وأن تنوي ألا تفعل هذا في المستقبل ، وتنوي أن تصحح ما مضى ، إصلاح لما مضى ، وترك فوري في الحاضر ، وأن تعقد العزم على ألا تفعل هذا الذنب في المستقبل ، فإذا كانت التوبة علماً وحالاً وعملاً ، بعضه يتجه إلى الماضي بالإصلاح ، وبعضه يتجه إلى الحاضر بالإقلاع ، وبعضه يتجه إلى المستقبل بالعزم على ألا تعود ، عندئذٍ تكون التوبة نصوحاً ، والله عز وجل يحب أن نتوب إليه .

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ (27))

(سورة النساء الآية : 27)

الله عز وجل غفور رحيم بعد التوبة والإصلاح :

الله عز وجل أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد ، والعقيم الوالد ، والظمآن الوارد . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي ، وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

قد ورد في الأثر : "أن يا داود ، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لتقطعت أوصالهم من حبي ، هذه إرادتي للمعرضين فكيف للمقبلين ؟ " إذاً :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54))

هذه الآية أيها الأخوة دليل على عكس ما يتوهم معظم الناس ، افعل ما بدا لك ، والله غفور رحيم ، الله عز وجل غفور رحيم بعد التوبة وبعد الإصلاح .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ((119))

(سورة النحل)

المغفرة محو الذنب :

قال تعالى :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50))

(سورة الحجر)

وقال :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54))

(سورة الزمر)

إذاً : هذا الذي يتوهم أن القضية سهلة جداً ، أن تتوب توبة نصوحاً قضية سهلة جداً ، أما أن تتوهم أن الله غفور رحيم من دون توبة ، ومن دون استقامة ، ومن دون ندم ، ومن دون إصلاح لما مضى ، ومن دون ترك للذنب فوراً ، ومن دون أن تعقد العزم على ألا تعود له فهو واهم وخاطئ .

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54))

المغفرة محو الذنب ، والرحمة العطاء ، تخلية وتحلية ، تطهير وتعطير ، مسح الذنب ، ثم العطاء .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(18-73): تفسير الآيتان 55-56 ، للإنسان طريقان لا ثالث لهما عبادة الله أو عبادة الهوى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-04-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة الأنعام .

القرآن الكريم والسنة النبوية قدمتا للإنسان تفسيراً عميقاً لحقيقة الكون والحياة والإنسان :

مع الآية الخامسة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55))

أيها الأخوة الكرام ، الحقيقة أن هذه الآية تبين أن الله سبحانه حينما يبيّن وحدانيته، وحينما يبيّن أن الأمر بيده ، وحينما يبيّن أن سر إرسالك أيها الإنسان إلى الدنيا ، وحينما يبيّن ماذا بعد الموت ، وحينما يبيّن أن هذه الدنيا ممر وليست مقراً ، هذا القرآن الكريم وهذه السنة المطهرة فيها تبيان وتوضيح لسر وجودنا وغاية وجودنا ، فهو بيان إلهي لكل شيء ، هذا القرآن وتلك السنة قد قدمتا للإنسان تفسيراً عميقاً لحقيقة الكون والحياة والإنسان ، ومن أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ وماذا قبل الوجود ؛ وجود الإنسان ؟ وماذا بعد الموت ؟ بعد كل هذه التوضيحات ، فالذي غفل عن ربه ، واتبع هوى نفسه ، صار تقييمه سهلاً ، مع التوضيح يمكن أن تبين ، فالذي يقرأ ما في القرآن وما في السنة يكتشف أين هو من الكتاب والسنة ، الذي يقرأ لماذا أنت في الدنيا ، وهو يسعى لجمع المال فقط ، يكتشف خطأه ، والذي يقرأ عن ثمار الإيمان ، وحينما يبتعد عن الإيمان ، ويعاني ما يعاني يكتشف السبب .

إذاً أنت حينما ترى الوضع الأمثل ، تكتشف حالك ، لذلك التدبر غير التفسير ، أنت حينما تقرأ القرآن قد تبحث عن تفسير الآيات ، لكن التدبر أن تقيّم نفسك في ضوء كل آية ، حينما يذكر الله عز وجل أن المؤمن إذا ذكر الله وجِل قلبه ، فهل يَجِل قلبك إذا ذكرت الله ؟

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ (135))

(سورة آل عمران الآية : 135)

على الإنسان أن يتعلم كي يقيِّم نفسه ويعرف أين هو من الدين :

أنت حينما تقرأ أوصاف المؤمنين هل تفكر أن تقيّم نفسك في ضوء هذه الآيات ؟ ما دام الله يوضح لك صفات المؤمنين وصفات المنافقين وصفات الكافرين ، يبيّن لك حال أهل الجنة وحال أهل النار ، هذه

التوضيحات والتبيينات ينبغي أن تقودك إلى تقييم نفسك ، ومستحيل أن تقول : إنني قرأت القرآن ، ورأيت وصف المؤمنين ، ولا يخطر على بالك لثانية واحدة أن تقيّم نفسك من خلال هذه الآيات ، إذاً السبيل الخطأ سبيل الضلال ، سبيل الإجرام متى يتضح ؟ حينما نفصل الآيات .

بشكل تقريبي : لو أنك لا تتقن اللغة العربية إطلاقاً ، وقُرأ أمامك نص صفحة فيه خمسون غلطة ، لأنك لست متتبعاً لدقائق اللغة تقول : ما شاء الله ، تثني على هذه القراءة ، وعلى القارئ ، وعلى النص، أما حينما تدرس دقائق اللغة العربية تكتشف الأغلاط كلها ، متى استطعت أن تكتشف الأغلاط ؟ حينما أتقنت اللغة العربية ، متى تستطيع أن تكتشف خطأ الإنسان ؟ حينا تتقن أحكام الفقه ، متى تستطيع أن تكتشف الخطأ العقائدي عند الإنسان ؟ حينما تعرف العقيدة السليمة ، متى تستطيع أن تكشف صواب العمل أو خطأه ؟ حينما تعرف الحكم الشرعي في هذا الأمر ، فلذلك قبل كل شيء ينبغي أن تعلم ، ينبغي أن تعلم كي تقيّم نفسك بادئ ذي بدء ، وقالوا : ما لم تحدد المشكلة فلا تستطيع حلها ، أين أنت من الدين ؟ وأنت في أحد أحياء دمشق تدخلها أول مرة ، لا تعرف أين أنت من دمشق ، في شمالها ، في جنوبها ، في شرقها ، في غربها ، في أحيائها الغنية ، الفقيرة ، القديمة التقليدية ، أم الحديثة ، لا تعرف ، أما إذا ذهبت إلى جبل قاسيون ، وأطللت على دمشق كلها ، وعرفت شمالها من جنوبها ، وشرقها من غربها ، ثم نزلت إلى الشام ، إلى دمشق ، تعرف أين أنت منها ، النقطة الدقيقة ينبغي أن تعرف أين أنت من الدين ، لأن معظم الناس يدّعون الإيمان وهم ليسوا مؤمنين ، يدعون القرب من الله وهم بعيدون عن الله عز وجل ، يدعون أنهم على صواب وهم على غير صواب ، والآن هناك كلام شائع ، أن إيماني في قلبي ، الفتاة تفعل كل شيء ، تظهر كل مفاتنها ، لا تصلي ، تبرز كل ما عندها من جمال لمن في الطريق ، وتدعي أن إيمانها بالله كبير ، وأن إيمانها في قلبها ، وأنها لا تؤذي أحداً ، فكل إنسان يفصّل الدين كما يشاء ، هذه مشكلة ، الدين لا يفصّل تفصيلاً ، الدين توقيفي .

حينما يطلع الإنسان يصغر لكنه يصغر ليكبر :

القصة في هذه الآية أنه يجب أن تتعلم كي تعرف من أنت ؟ وهناك كلام يقوله الشباب أحياناً : مع أننا لا نصلي لكن إيماننا أكبر من إيمان من ينتقدنا ، كلام في كلام ، أنت حينما تقرأ كلام الله ، وتقرأ سنة رسول الله ، وتعرف الأحكام الشرعية ، وتطّلع على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى سيرة أصحابه الكرام تعرف من أنت ، والإنسان حينما يطلع يصغر ، لكنه يصغر ليكبر ، لو أن إنساناً عنده آلة حياكة صُنِعَتْ عام 1936، تنسج لوناً واحداً بجهد جهيد ، وادَّعى أنها أعظم آلة في العالم ، لأنه محدود ، لو رأى الآلات الحديثة بخمسة ألوان ، تقدم كمية فَلكية بشكل آلي ، وأنت مرتاح ، لا تقول

عندئذ : إنها أعظم آله ، أنت حينما تطّلع على أفعال الصحابة الكرام ، تطّلع على عمق إيمانهم ، تطّلع على بطولاتهم ، تطّلع على تضحياتهم ، تطّلع على محبتهم للنبي عليه الصلاة والسلام يمكن أن تصغر، لكنك تصغر من أجل أن تكبر .

مرة رجل من كبار أغنياء البلدة الطيبة أراد أن ينشئ مسجداً في حي فقير ، وكله مخالفات ، وليس ثمة مسجد ، فكلّف أحد أخواننا الكرام أن يبحث له عن أرض مناسبة ، وبحث له عن هذه الأرض ، وسعرها مناسب جداً ، ومساحتها مناسبة ، واتجاهها مناسب ، وجاء بهذا المحسن كي يريه إياها على الواقع ، فكتب شيكاً بمليوني ليرة جزءاً من السعر؛ السعر ثلاثة ملايين ونصف ، فالذي باع الأرض مستخدَم في مدرسة ، آذن ، وعنده ثمانية أولاد ، ودخله أربعة آلاف ، وقد ورث هذه الأرض من شهر، أراد أن يبيعها ليشتري بيتاً ، فلما قدم له الشيك بمليوني ليرة سأل : أين بقية المبلغ ؟ فقال له المحسن الكبير الذي يملك مئات الملايين : بقية المبلغ تأخذه عند التنازل في الأوقاف عن هذه الأرض ، قال : لماذا التنازل ؟ قال : لأنها ستكون مسجداً ، انتفض هذا الإنسان وقال له : أنا أبيع أرضاً لتكون مسجداً ، أنا أولى أن أقدمها إلى الله منك ، فقدم مبلغ الشيك ، يقول هذا المحسن الكبير : والله في حياتي ما شعرت أنني صغير كهذا الموقف ، إنسان دخله أربعة آلاف ، وعنده ثمانية أولاد ولا يملك من الدنيا إلا هذه الأرض التي ورثها من شهر ، ويستحي أن يبيعها لتكون مسجداً .

الحكمة من تفصيل الآيات أن تستبين سبيل المجرمين :

أنت حينما تطّلع على أعمال الناس ، على نشاطاتهم ، على صدقهم ، على عباداتهم ، على أعمالهم الصالحة ، على تضحياتهم تصغر ، أمّا المحدود فيتوهّم نفسه كبيراً ، وهو عند الله وعند الناس صغير ، فالعلم ضروري ، العلم يحجمك ، لكن يحجمك حتى يحفزك إلى أن تكون عظيماً ، لذلك اقبل الحقيقة المُرّة فهي أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، لا تعش بأوهام غير صحيحة ، والدعاء أنا دائماً أحرص عليه : اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات ،

(وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)

المجرم يرفض أن يتعلم ، يرفض أن يطّلع على حال المؤمنين ، يرفض أن يرى عقيدتهم ، أن يحاورهم ليفهم عقيدتهم ، يرى أنهم خارج المناقشة وهو يعتد بكفره وانحرافه وجريمته ، لو أنه تنازل واطّلع على أحوالهم ، يقول بعض العارفين بالله : " والله لو يعرف الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف " ، من قال هذا القول ؟ إبراهيم بن الأدهم ، وكان ملكاً ، ترك الملك وتعرف إلى الله ، وصار

من علماء المسلمين ، يجب أن تعلم حال أهل الإيمان ، هل يعقل أن تأتيك رسالة فتمزقها قبل أن تقرأها اطلع على تفسير القرآن ، احضر دروس العلم ، اطلع على السنة النبوية المطهرة ، اطلع على سير الصحابة والأعلام والتابعين ، اطلع على الأحكام الشرعية تعرف أين أنت من هذا الدين العظيم ، أما من دون إطلاع فيمكن أن تتوهم أنك على حق ، إذاً الحكمة من تفصيل الآيات أن تستبين سبيل المجرمين .

الآن أحياناً في دائرة فرضاً ، في معمل ، في مؤسسة ، في مدرسة ، في جامعة ، هناك تناغم على الفساد ، تناغم ، وكأن الفساد شيء طبيعي ، يأتي موظف شديد ملتزم صادق أمين ، لا يقبل المساومة ، لا يقبل أن يقع على شيء غير صحيح ، هذا الإنسان يكشف كل من حوله ويحرجهم ، فأنت حينما تنطق بكلمة الحق تكون قد أديت الأمانة ، وأقول لكم أيها الأخوة : يمكن أن تكون من أكبر الدعاة وأنت لا تتقن كلمتين ، تكون من أكبر الدعاة الصادقين باستقامتك ، وبأمانتك ، وبصدقك ، وبعفتك ، أحياناً الإنسان يوازن بين مؤمن وغير مؤمن ، مؤمن صادق ، هذا يكذب ، المؤمن أمين ، هذا يخون ، المؤمن عفيف ، هذا يرتكب الفواحش ، المؤمن لا يخون ، هذا يخون ، تجد الفرق صارخاً بين المؤمن وغير المؤمن ، وقد قال الله عز وجل :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

سلامتك وسعادتك في صواب عملك وشقاؤك ودمارك بفساد عملك :

قال تعالى :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

أنت حينما تقرأ القرآن ، القرآن يجيبك عن آلاف الأسئلة ، ويعطيك منظومة قيم رائعة ، يعطيك تفسيراً شموليّاً كاملاً عميقاً للكون والحياة والإنسان ، بعيداً عن الدين هناك آلاف الأسئلة التي لا جواب لها ، لماذا الحياة قصيرة ؟ هذا سؤال كبير ، كون عظيم ، آلاف ملايين المجرات ، الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثين مرة ، بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلومتر ، وهناك نجم صغير ببرج العقرب يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما ، حسناً لماذا حياتنا ستون أو سبعون سنة ؟! وقد تكون أكثر من ذلك أو أقل لماذا ؟! لماذا الإعداد للحياة أكثر من الحياة ، حتى الإنسان يستقر ، يتزوج ، يكون له بيت ، دخل معقول لا بد له من ثلاثين سنة أو خمساً وثلاثين مضى ثلثا عمره ، هذا سؤال كبير ، لماذا هناك غني وفقير ؟ لماذا هناك قوي وضعيف ؟ لماذا هناك إنسان تطلق يده في تدمير

الأمم والشعوب ؟ أين الله ؟ يجب أن تعرف ما تفسير هذه الأمور ؟ ما هو القضاء والقدر ؟ وأنّ القدر خيره وشره من الله تعالى ، هل الإنسان مخيّر أم مسيّر ؟ إذا كان مخيّراً ، ماذا ينبغي له أن يفعل ؟ هذه الإجابات عن هذه الأسئلة أهم شيء في الحياة ، لأنها إن صحت صح عملك ، وإن فسدت فسد عملك ، سلامتك وسعادتك في صواب عملك ، شقاؤك ودمارك بفساد عملك ، إذاً قضية حضور درس علم ، سماع خطبة ، قراءة القرآن ، تعلم تفسير الآيات ، ليس شيئاً تفعله على إكراه ، لا ، هو الأصل في الحياة ، لأنك إذا أتقنت هذه العقيدة ، وأتقنت فهم كتاب الله وضحت لك الرؤية ، وسِرتَ في طريق صحيح ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55))

الفرق بين العبادة والعادة :

قال تعالى :

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (56))

أولاً : النبي عليه الصلاة والسلام ما عبد صنماً ، بفطرته ، لكن هذه عادة ، الآن جاء الأمر :

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

هذه عبادة ، إذا أَلِفَ الإنسان أن يصلي ، له أب كريم درّبه على الصلاة ، ألف وهو يصلي بحكم العادة، لا ، ينبغي أن تكون الصلاة عبادة ، لا ينبغي أن تصوم لأن الصيام صحة ينبغي أن تصوم لأن الصيام عبادة ، فمع أن النبي عليه الصلاة والسلام ما عبد صنماً إطلاقاً ، ومع ذلك كان هذا عادة منه بحكم فطرته ، عمل فطري ، لكن الله أراد أن يكون هذا العمل عبادة :

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

مع أنه ما عبد صنماً ، نهاه الله أن يعبد صنماً ليكون هذا الكف عن عبادة الأصنام عبادة وليست عادة ، أحياناً الأخ لا ينتبه ، يقول لك : الصلاة رياضة ، دون أن يشعر يقول لك : الصيام صحة ، الحج تجربة في السفر عميقة جداً، لا ، الصلاة عبادة ، والصيام عبادة ، والحج عبادة ، الآن هناك تزوير ، يقول لك: النبي عبقري ، هو عبقري ، لكنه نبي مرسل يوحى إليه .

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً (56))

هنا ملمح لطيف جداً ،

(قُلْ لَا أَتَّبِعُ)

عبادتكم ، قال تعالى :

(أَهْوَاءَكُمْ)

أنت حينما تعظم صنماً ، وتقِيم معبداً ، ويأتيك الأتباع ، ويقدمون الذبائح والهدايا لهذا الصنم ، وتأخذها أنت بعد ذهابهم إلى بيتك ، فأنت لك مصلحة في هذه العبادة ، هذا هوى، والشيء الغريب أن الأديان الأرضية التي من صنع البشر ما فيها مناهج إطلاقاً ، فيها فقط ولاء ، حركات ، وسكنات ، وتمتمات ، وإيماءات ، هذه عبادتهم .

تسلسل المخلوقات :

أنا حضرت مؤتمراً في واشنطن للأديان ، كلها عبادة ، وليست عقيدة ، فما زادت جميع العبادات عن أن تكون غناء ورقصاً وموسيقى ، هذه العبادات ، عبادات هي نوع من الرقص والموسيقى ، ثم ليس فيها منهج ولا قيد ، لذلك أتباع هذه الديانات كثيرون جداً ، لا كلفة فيها إطلاقاً ، أما في الإسلام فهناك منهج ، ومحرمات ، ومكروهات تنزيهية وتحريمية ، هناك منهج ، لذلك التكليف أيْ عمل ذو كلفة ، يكلف ضبط الشهوات ، لذلك قال تعالى :

(قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ)

عندنا شيء ثان : المخلوقات لها تسلسل ، أدناها الجماد ، شيء له حجم ، طول وعرض وارتفاع ، ويشغل حيزاً ، هذا الجماد ، له حجم ، له أبعاد ثلاثة ، يشغل حيزاً في الفراغ ، النبات أعلى منه ، شيء يشغل حيزاً ، حجم له أبعاد ثلاثة ، لكنه ينمو ، اختلف النبات عن الجماد بالنمو ، الحيوان شيء له حجم، وله وزن ، ويشغل حيزاً ، وله أبعاد ثلاثة، وينمو ، ويتحرك ، اختلف عن النبات ، الإنسان له وزن ، جسم له وزن ، ويشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وينمو ، ويتحرك ، له حجم كالجماد، وينمو كالنبات ، ويتحرك كالحيوان ، ويفكر ، هذه الميزة التي أضيفت إليه ، فصار هناك جماد ، ونبات، وحيوان ، وإنسان ، كل مرتبة فيها خصائص التي قبلها ، وفيها زيادة عما قبلها .

الجماد مسخر للنبات ، النبات يزرع في الأرض ، والنبات مسخر للحيوان يأكله ، وللإنسان ، والحيوان مسخر للإنسان ، والإنسان سُخر له كل شيء ، الآن أيعقل أن يعبد هذا الإنسان الذي هو فوق الكائنات رتبة أن يعبد أقلّها رتبة ، يأتي بحجر ينحته ويعبده من دون الله ؟!

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96))

(سورة الصافات)

أيعقل أن تعبد حجراً نحتّه أنت ؟ مرة قبيلة اسمها وُدٌّ ، لم تجد حجراً تنحته ، فصنعت من التمر صنماً، فلما جاعت أكلته ، فقالت الناس : أكلت وُدٌّ ربّها .

مرة قبيلة صنعت صنماً وعبدته ، فجاء ثعلب فبال على رأسه ، فقال أحد أتباع هذه القبيلة :

أرَبٌّ يبول الثعلبان على رأسه قد ضل من بالت عليه الثعالب

***

حينما يعبد الإنسان مادة يثبت جهله .

لا نعرف نعمة العقيدة السليمة إلا إذا دخلنا إلى بلاد تعبد من دون الله أصناماً آلهة :

أنا كنت في ولاية غرب أمريكا اسمها لوس أنجلوس ، ودعيت إلى زيارة معبد هندوسي ، المعبد كلّف حوالي ستة أو سبعة ملايين دولار ، ورأيت في المعبد صنمين من البرونز ، أما صدر الصنمين فمن الألماس ، هذا البرلنت الموشوري أغلى أنواع الماس ، قدّرت ما على صدر هذا الصنم بعدة ملايين من الدولارات ، ويأتي الأتباع ، ويسجدون انبطاحاً أمام هذا الصنم ، وهم مثقفون ، ويحملون شهادات عليا، لفت نظري على باب المعبد آله لكسر جوز الهند ، سألت : لمَ هذه الآلة ؟ فقيل : لأن الآلهة تحب هذه الفاكهة ، أنا لا أصدق ما أسمع ، هذه الآلهة تحب هذه الفاكهة ، والآن في شرق آسيا يضعون أنفس أنواع الفواكه أمام هذا التمثال ، تمثال بوذا ، وفي المساء تُؤخذ هذه الفواكه إلى البيوت ، وتؤكل ، لكنهم يوهمون الناس أن الآلهة تأكلها ليلاً ، الإنسان حينما يعبد غير الله ينحط عقله ، هل تصدقون أن في بلاد شرق آسيا قبائل تعبد الجرذان ، وعندي مجلة فرنسية رصينة تصور هذه المعابد ، وآلاف الجرذان في المعبد ، الجرذان آلهة هناك ، هناك من يعبد موج البحر ، هناك من يعبد البقر ، الهند فيها تسعمئة مليون نسمة ، البقر يدخل إلى بقالية ، فيأكل الفواكه الغالية جداً ، وصاحب البقالية في نشوة لا تصدق ، لأن الإله دخل إلى دكانه ، وأكل من فاكهته ، وقد يأخذون بول البقر ويضعونه على أثاث البيوت ، وقد يأخذون روث البقر ، ويتعطرون ببول البقر ، فلما قررت بريطانية إعدام ثلاثين مليون بقرة جاء عرضٌ من هذه البلاد أنها تقبل هذه البقر لجوءً دينياً ، هكذا قيل .

تجد شعوباً تعبد الشمس والقمر والحجر والمدر ، هناك بلاد أخرى بعيدة عنا أرقى بلاد في العالم صناعة ، ماذا تعبد ؟ ! تعبد ذكر الرجل ، شيء لا يصدق ، أخ كريم كان هناك ، ودخل إلى معابدهم ، وصور هذه الرموز التي يعبدونها من دون الله ، فشكروا الله عز وجل على أننا نعبد الله تعالى خالق السماوات والأرض ، الأول والآخر ، الظاهر والباطن ، لا نعرف نعمة العقيدة السليمة إلا إذا دخلنا إلى بلاد تعبد من دون الله أصناماً آلهة ، إذاً أيعقل أن يعبد الإنسان وهو قمة المخلوقات أدناها رتبة وهو الحجر ؟

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً (56))

حينما تعبد غير الله وتحافظ على مكاسبك فأنت لا تعبد الله ولكنك تعبد ذاتك :

بصراحة هناك إنسان يعمل في جمع القمامة على دابة قميئة ، هذه الدابة ماتت ، وليس له دخل إطلاقاً، دفنها في مكان ، وبنى أربعة جدران ، وفوقها قبة خضراء ونافذة عليها شمع يشتعل ، وسمى هذا المكان باسم وليّ ، والناس تهافتوا على هذا المقام ، وتسولوا إليه ، وقدموا الذبائح ، والخرفان ، والسمن ، والدجاج ، فعاش صاحب هذا المقام في بحبوحة تفوق حد الخيال ، هل يقبل أن يقول له أحد : إن في هذا المكان حماراً مدفوناً ، يأخذ روحه ، مع أنه دفنه بنفسه ، فقناعة صاحب هذا المكان أن الذي دفن هنا دابة أقوى من قناعة من يحاوره ، لكن المنتفع لا يناقش ،

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ)

إذاً أن تعبد غير الله لما تحقق مصالح ، هذا كلام عميق جداً ، الإنسان يكون في بحبوحة كبيرة من عقيدة فاسدة ، انتبهوا الآن دخلنا إلى لب الموضوع ، أحياناً تأتيك مكاسب لا يعلمها إلا الله إذا كنت على عقيدة فاسدة ، أحياناً توهم الناس أنت بشيء غير صحيح ، هذا الإيهام يجلب لك نفعاً لا حدود له ، أنت لا تعبد الله ولكن تعبد أهواءك ، هذا ملمح ، أناس كثيرون يكتشفون أن الإسلام هو الحق ، وأن هذا الدين هو دين الله عز وجل ، وأن هذا الدين هو الدين الذي ينبغي أن نؤمن به ، ولكنهم يتمسكون بما هم عليه حفاظاً على مكاسبهم ، أنت حينما تعبد غير الله وتحافظ على مكاسبك فأنت لا تعبد الله ولكنك تعبد ذاتك .

(قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56))

إذاً إما أن تتبع إلهاً واحداً أحداً فرداً صمداً لم يلد ولم يولد ، وإما أن تتبع الهوى ، والهوى يتمثل بصنم أحياناً ، يتمثل بإنسان كلما اقتربت منه أغدق عليك من النعم ، فتعبده من دون الله ، وتقره على كل أغلاطه ، حفاظاً على مكاسبك ، لا تتصور الآيات وعلاقتنا بها ، هذه الآيات يمكن أن تشمل كل واحد منا ، أنت حينما ترضي مخلوقاً ، وتعصي خالقاً ، لما عنده من مكاسب ، أو لما يهددك به من متاعب ، أنت إذاً وقعت في الشرك ، أنت حينما تروج فكرة ، لا لأنها صحيحة إلا لأنك تنتفع بها فأنت وقعت تحت طائلة هذه الآية ، أنت حينما تطيع مخلوقاً ، وتعصي خالقاً فقد وقعت تحت طائلة هذه الآية .

هناك طريقان لا ثالث لهما إما أن تعبد الله أو أن تعبد هواك :

أخواننا الكرام ، قضية مهمة جداً في هذه الآية ، أنت حينما تروج فكرة ، أو حينما تتبع رجلاً ، أو حينما تنضم إلى فئة من أجل مصلحة ، أنت تحت طائلة هذه الآية إنك تعبده من دون الله دون أن تشعر، بل إنك تعبد ذاتك ، وتعبد مصالحك ، الآية :

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

طبعاً وقتها كان هناك أصنام ، في عصور لاحقة كان هناك أشخاص ، شخص قوي ، فأنت معه على الحق وعلى الباطل ، كل أعماله عندك مبررة ، وتخضع له ، وتعلق آمالاً كبيرة على إرضائه ، وتخشى من تهديداته ، ولا ترى غيره ، هذه حالة ، والحالة مطبقة ، فأنت حينما تطيع مخلوقاً وتعصي خالقاً ، بل حينما تطيع زوجتك وتعصي ربك ، بل حينما تغش المسلمين ، لماذا غششتهم لأنك رأيت أن المبلغ الذي سيأتيك من غشهم هو أكبر عندك من الله ، ومن طاعة الله ، إذا أنت تحت طائلة هذه الآية ، القرآن لكل زمان ومكان ، اليوم ليس هناك صنم موجود بمكان عبادة ، نعبده من دون الله ، لكن هناك أشخاص، هناك شخص تتوهمه قوياً ودنياك بيده ، وبيده أن يوقع فيك أشد الضرر ، فأنت تنسى الله ، وتعبده من دونه أي تطيعه ، لا تقل : هو إله ، لكن دون أن تشعر تعبده من دون الله ، لذلك :

(قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ)

الحقيقة إما أن تعبد الله ، وإما أن تتبع الهوى ، وسأقول لكم هذه الكلمة ، وهي دقيقة جداً ، قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ (50))

(سورة القصص)

هما طريقان لا ثالث لهما ، إما أنك تعبد الله وحده ، أو أنك تعبد هواك .

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ((50))

(سورة القصص)

الذي يتبع الهوى يغيب عنه أنه لو اتبع الهدى لحصّل الدنيا والآخرة :

أشد الناس ضلالاً من يتبع هواه بغير هدى من الله ، والمعنى المخالف رائع ، أنّ الذي يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه ، اشتهى المرأة فتزوج ، اشتهى المال فتاجر ، اشتهى أن يكون ذا مكانة عليا فطلب العلم ، وعمل الصالحات ، إذاً حاجاتك الأساسية مؤمَّنة بالدين ، من أجل أن تبقى كفرد لك أن تأكل وتشرب ما لذّ وطاب ، ومن أجل أن تبقى كمجموع لك أن تتزوج ، ومن أجل أن يبقى ذكرك في الآفاق ينبغي أن تتفوق ، سبل تحقيق الحاجات الثلاثة الكبرى مؤمّنة بالدين ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، إذاً الذي يتبع الهوى يغيب عنه أنه لو اتبع الهدى لحصّل الدنيا والآخرة، لذلك طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً ، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً ،

(قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

هناك تعليق آخر ، الذين كانوا يعارضون النبي ، وقالوا : نحن لن نؤمن ، حتى إنْ كنت نبياً حقاً .

(إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ (32))

(سورة الأنفال الآية : 32)

هكذا نحن ، هذا تحدٍّ ، الله عز وجل أمره أن يقول لهم :

(قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ (57))

لا أملك ، أنا عبد ، أنا على بينة دققوا في هذه الآية :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّيَ (28))

(سورة هود الآية : 28)

الأمور واضحة جداً ، هناك إله عظيم ، وأسماؤه حسنى ، وصفاته فضلى ، ذات كاملة ، الدنيا مزرعة الآخرة ، الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والشهوات هي حيادية، ونرقى بها إلى الله مرتين ، الأمور واضحة جداً .

حال المؤمن وحال الكافر :

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28))

(سورة هود)

هذا حال المؤمن ، هو على بينة وآتاه الله رحمة من عنده ، وأنا أقول لكم أيها الأخوة : ما الذي يشدكم إلى الدين ؟ لا لأن الدين حق ، هو حق ، لا لأن الدين أعطاك تفسيراً رائعاً ، هو فعل هذا ، لكن لأن الله عاملك معاملة تذوب محبة له من أجلها ، هذا الذي يشدك إلى الدين ، لك معاملة خاصة ، } فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا{ ، أنت موفق ، منصور ، محفوظ ، مسدَّد ، معاتب أحياناً ، أنت قريب ، الله وليك ، والكفار لا مولى لهم ، بربكم هل يمكن أن توازن بين طفل له أب كبير عالم غني مربٍّ ، وله غرفة خاصة ودراسة ، وعناية بصحته ، وبدارسته ، وبتحصيله ، وبهندامه ، وفي طعامه وشرابه ، ومضبوط ضبطاً كاملاً ، وهو ضابط للسانه ، ضابط لحركاته وسكناته ، وابن من إحداثية إلى إحداثية ، من مخفر إلى مخفر ، مرة يسرق ، مرة يرتكب فاحشة ، ينام في الطرقات ، هذا مثل هذا ؟ اسمع إلى الآية الكريمة :

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11))

(سورة محمد)

لك رب يتولاك ، تخاف منه ، تحبه ، تصلي له ، تطيع أمره ، يبشرك ، أحياناً يخوفك ، أحياناً تسأل عالماً ، لا تفعل هذا ، لك مرجع ، معك منهج ، معك كتاب ، معك سنة، معك سيرة صحابة ، معك أحكام فقهية ، فلذلك :

(مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57))

أيها الأخوة الكرام ، نعود إلى هذه الآيات في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(19-73): تفسير الآيتان 58-59 ، أنواع الغيب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-05-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة الأنعام .

خصائص النبي عليه الصلاة والسلام :

مع الآية الثامنة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58))

هم استعجلوا عذاب الله ، وعذاب الله ليس بيد رسول الله ، هذه الآية تبين أن النبي بشر ، وأنه لا يملك نفعاً ولا ضراً لأحد ، بل لا يملك نفعاً ولا ضراً لنفسه ، فلأن لا يملك لغيره نفعاً ولا ضراً من باب أولى ، وهو لا يعلم الغيب ، وهو يخاف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم ، عدة آيات في القرآن الكريم تبين حقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو يعرف الحق ، ويعرف الله ، ويعرف الطريق الموصل إليه ، فبلسانه يهديك إلى الله ، وإن أحببته ارتقيت بمحبته إلى الله ، فحاله يهديك ، لكنه لا يعلم الغيب ، إذا كانت هذه خصائص النبوة ، وقد وصف الله بها نبيه الكريم ، وكان سيد الخلق وحبيب الحق ، وبلغ أعلى درجات الكمال البشري ، هل يستطيع أحد على وجه الأرض كائناً من كان أن يدّعي صفات فوق هذه الصفات ، يكون كاذباً ودجالاً ومحتالاً ، هذه خصائص النبي عليه الصلاة والسلام .

لكن قد يسأل سائل : ما الحكمة أن الله سبحانه وتعالى يجعل أنبيائه معظمهم ضعفاء ؟ أيعقل أن يقف النبي أمام عمار بن ياسر ، وهو يعذب ، ولا يملك أن يوقف العذاب عنه فيقول : صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة ؟!!

الحكمة من جعل الأنبياء ضعفاء :

الحقيقة أن الله أعطى القوة لأناس هم طغاة أحياناً ، لا يحبهم الله أبداً ، طغاة العالم كما ترون وتسمعون يَقتلون ، ويستبيحون الحرمات ، وينهبون الأموال ، ويفعلون كل شيءٍ لا يرضي الله عز وجل ، ومع ذلك هم أقوياء جداً ، يبدو لقصير النظر أنهم يفعلون ما يشاؤون ، ما الحكمة من أن أنبياء الله كانوا ضعفاء ؟! الحكمة أن الإيمان بالنبي القوي إيمان مشبوه ، لأن الأقوياء إذا طلبوا شيئاً فالكل ينفذ من دون تردد ، هؤلاء الناس يستجيبون لنبي قوي ، لا لأنه نبي ، بل لأنه قوي ، يستجيبون له خوفاً أو

طمعاً ، ولكن الله يريد من الإنسان أن يؤمن طواعية من دون ضغط ولا إغراء ، لذلك لحكمة أرادها الله كان النبي ضعيفاً ، وكان الإيمان به منزهاً عن خوف أو عن طمع ، ومنزهاً عن أي غرض ، فالإيمان الحقيقي هو أن تؤمن بإنسان لا يملك لك نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياةً ، ولا رفعةً ولا انخفاضاً .

إذاً لحكمة بالغةٍ بالغة كان النبي صلى الله عليه وسلم ضعيفاً ، تطلبون العذاب بشكل فيه تحدٍّ ، أو تستخفون بهذه الدعوة ، فإن كنت كما تدّعي رسول فلينثر علينا ربك حجارة من السماء ، ائتنا بعذاب الله إن كنت صادقاً ، فكان الرد النبوي المتأدب مع الله ، رد النبي الذي هو عبد لله :

(قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)

لو أملك قوة وأنتم تتحدون خالق السماوات والأرض لعاقبتكم غيرة على هذا الدين ، وتقرباً إلى الله رب العالمين ، وانتهى الأمر بيننا ، ولكنني عبد مثلكم ، لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً ، كما لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ، في صفات تتبدى بالضعف ، قد تغيب عن بعض الناس ، وقد لا أبالغ إذا قلت : إن أكثر مكارم الأخلاق لا تتبدى إلا في حالات الضعف ، وأنت في أشد حالات الضعف ترجو الله ، وتحبه ، وتؤثر طاعته على سلامتك ، لذلك قالوا : الحزن خلاق ، البطولات أحياناً تأتي من ضعف ، التفوق الدراسي أحياناً يأتي من فقر ، ولو علم الناس ما في الضعف أحياناً من إيجابيات قد لا يرونها لتمنوا أن يكونوا ضعافاً .

أوضح مثل : ابن إنسان غني جداً ، لا يحتمل ، لا في سلوكه ، ولا في أخلاقه ، الابن الذي لا سند له ، وأبوه قد توفي ، وهو يتيم ، وليس شيءٌ في يده تجد منه بطولات وتفوق يفوق حد الخيال ، لعل الضعف والفقر سبب كبير من أسباب التفوق .

المفهوم السلبي للقضاء والقدر مفهوم مرفوض :

إذاً الله عز وجل حينما يختار لك أن تكون ضعيفاً في مجتمع الأقوياء ، وحينما يختار لك أن تكون فقيراً في مجتمع الأغنياء ، لكن إياكم ثم إياكم أن تفهموا من هذا الكلام أن ترضى بالضعف ، وأن ترضى بالفقر ، أما حينما تبذل كل ما تملك ، ويصل بك جهدك إلى هذا المستوى ينبغي أن ترضى عن الله عز وجل ، لأن حكمة بالغة أرادها الله عز وجل قد تخفى عنك الآن ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنْ الدُّنْيَا وَهُوَ يَحْمِيهِ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ))

[أحمد من حديث محمود بن لبيد]

((إن الله تعالى يحمي عبده المؤمن كما يحمي الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة))

[البيهقي في شعب الإيمان عن حذيفة]

إذاً العبرة أن ترضى عن الله ، لا تناقض بين أن ترضى عن الله وبين أن تسعى لرفع مستواك الثقافي والعلمي والاقتصادي والمعيشي ، لأنه ليس مطلوباً منك أن تقبل بمقدر عليك ، وأوضح مثل : أنه لو دخل إلى البيت لص هل تقول : سبحان الله ! هذا قضاء الله وقدره ، وتستسلم له ، أم تتحرك ، وتقاوم ، وتقبض عليه ، وتسلمه إلى الجهات المسؤولة ؟

إذاً المفهوم السلبي للقضاء والقدر مفهوم مرفوض ، لكن حينما تبذل كل ما تستطيع ، حينما تسعى إلى أقصى درجة ، ويصل بك السعي إلى هذا المكان ، بعد كل سعيك أصبحت إنساناً ذا دخل محدود ، وبعد كل سعيك أصبحت إنساناً بحسب مبادئك وقيمك ، وأن الإيمان قيد يمنعك أن تنافق ، يمنعك أن تكذب ، يمنعك أن تتسول إلى هدف مشروع بوسيلة غير مشروعة ، إذا انتهى سعيك إلى أن تكون ضعيفاً وذا دخل محدود ، فاعلم علم اليقين أن هذا الذي اختاره الله لك هو أبدع ما يكون ، عبَّرَ عن هذه الحقيقة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى فقال : " ليس بإمكاني أبدع مما أعطاني " .

مرة ثانية أتمنى ألا تفهموا هذا أن ترضى عن واقع بإمكانك أن تغيره ، أو أن ترضى عن دخل بإمكانك أن تحسنه وفق منهج الله ، أو أن ترضى عن مكانة بإمكانك أن ترتقي إلى أعلى منها وفق منهج الله ، فلذلك هذه حقيقة ، الله عز وجل حينما يختار لإنسان ضعفاً ، أو دخلاً محدوداً ، فلحكمة لو كشف الغطاء لاخترت الواقع ، وللإمام علي رضي الله عنه كلمة رائعة يقول : " والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً " ، وله قول آخر ليس أقل منه روعة : " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي " ، لأنه بلغ أعلى سرعة في السير إلى الله عز وجل .

كفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله :

إذاً الآية تشير :

(قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)

أي يكفيك قوةً ألا تكون ظالماً ، يكفيك قوةً أن تكون في طاعة ، وقد قيل مرة : كفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله ، وهذا سماه العلماء النصر المبدئي ، في هذه الحروب الطاحنة التي توجه ضد المسلمين ، لو أن إنساناً في بيت صغير يعرف الله ، ويعبده عبادة متقنة ، ودخله حلال ، وربى أولاده ، وبيته إسلامي ، وعقيدته سليمة ، وجاءته قنبلة فأودت بحياته ، أنت تقول : مسكين ، مات بشظية طائشة، لا ! ما دام مات وهو مؤمن فقد مات وهو موحّد ، فهو المنتصر ، لذلك يقول سيدنا علي رضي الله عنه : " لا أخوض حرباً المنتصر فيها شر من المنهزم " ، أحياناً المنتصر هو الشرير ، أنا لا أدعو إلى الضعف ، ولا أدعو إلى الفقر ، ولا أدعو إلى الاستسلام ، ولكن أدعو إلى الرضا عن الله عز

وجل، أدعو أن ترضى عن الله ، أدعو أن تعلم أن لله حكمة جليلة لو كشفت لرضيت بها ، أدعو إلى أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء ، أدعو إلى أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أنه :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية : 216)

لو بسطنا هذه الحقائق على ما يعانيه المسلمون في العالم كله الآن ، الحقيقة أن كل شيء وقع أراده الله، هذه الأحداث والتداعيات بدأت من الحادي عشر من أيلول ، وقد قامت حروب ضد المسلمين في البقاع كلها .

هناك إقبال على الدين لأن في الإسلام خلاص العالم :

النقطة الأولى أيها الأخوة ، هو أن هذه الحروب ، وهذه المضايقات ، وهذه الحصارات الاقتصادية ، هذا كله يؤدي إلى صحوة ، يؤدي إلى عودة إلى الله ، نحن مقصرون ، وأقول دائماً : هان أمر الله علينا فهنّا على الله ، فلذلك الله عز وجل يعالجنا ، ونحن في العناية المشددة ، وأقول لكم مرة ثانية : إن هناك مكتسبات ما كان يخطر على بال أحد أن تكون ، منها أن الإسلام قفز في العالم كله إلى بؤرة الاهتمام ، وأن العالم كله يراقب هذه الحرب الشعواء على المسلمين ، وهو يسأل : ما الإسلام ؟ هل تصدقون أن هذا الدين الإسلامي في العالم من حيث نموه هو أول دين في العالم ينمو ، والشيء الذي لا يصدق أنه بعد عشرين عاماً تقريباً يتوقع الخبراء أن يكون الإسلام هو الدين الأول في أوروبة ، فهناك إقبال على الدين ، لأن في الإسلام خلاص العالم .

النقطة الدقيقة أيها الأخوة ، أن العالم قبل خمسين عاماً تقريباً كان فيه ثلاث كتل من القيم ، كتل الشرق، وكتل الغرب ، والإسلام ، الشرق تداعى من الداخل ، والغرب بعد الحادي عشر من أيلول سقط كحضارة وبقي كقوة غاشمة ، الآن ليس على الساحة إلا الإسلام مع أننا ضعاف ، ومع أننا مستهدفون ، ومع أن العالم كله يحاربنا ، ولكن في الإسلام خلاص العالم ، هذا يدعونا إلى أن نستفيد من هذه الفرصة الذهبية ، وأن نقدم الإسلام في أبهى حلة ، وأن نطبقه ، وأن نعرضه أحسن عرض على الطرف الآخر ، وكل واحد منا هو مسلم ، هو سفير لهذا الدين ، هذا عن قوله تعالى :

(قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)

الآية التي بعدها :

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59))

أخواننا الكرام ، هذه الآية فيها دلالات كبيرة جداً ، أولاً مفاتح جمع مِفتح على وزن مِفعل ، مِبرد ، آلة الفتح ، أو مفتاح ، ومفاتح جمع مَفتح ، المكان الذي يُفتح ، يعني أداة الفتح اسمها مِفتح ، والخزانة الحديدية اسمها مَفتح ، فجمع مِفتح ، أو مَفتح مفاتح ، أو مفاتيح ، الله عز وجل يقول :

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

لم يقل : مفاتح الغيب عنده ، لو قال : مفاتح الغيب عنده ، أي عنده وعند غيره ، هذه صياغة قصر :

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

الغيب الذي غاب عنك ، هناك غيب الماضي ، وغيب الحاضر ، وغيب المستقبل ، أنت لا تعلم ماذا يجري الآن في حَلَب بالضبط ؟ لا تعلم ، هذا غيب الحاضر .

أنواع الغيب :

قال تعالى :

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ (44))

(سورة آل عمران الآية : 44)

وأنت لا تعلم أيضاً ماذا جرى قبل ألف عام في مكان ما من العالم ، ثم إنك لا تعلم ما سيكون بعد حين، هذا غيب الحاضر والماضي والمستقبل ، غيب إخباري ، غيب الماضي وغيب المستقبل شيء ، وغيب الحاضر شيء آخر ، غيب الماضي وغيب المستقبل بُعده زماني ، أما غيب الحاضر فبُعده مكاني ، الآن ماذا يجري في أحد أحياء حلب ؟ لا ندري ، أما الغيب المطلق ، كما قال العلماء : هو غيب ذو نوعين ، غيب غاب عنك ويعرفه غيرك ، أوضح مثل لهذا أنك أضعت مفتاحاً وإنسان أخذه ، أنت لا تعلم أين هذا المفتاح ؟ غاب عنك مكانه ، لكن الذي أخذه يعلم مكانه ، هذا غيب إضافي ، فهناك غيب غاب عنك ويعلمه غيرك ، هذا غيب ، وهناك غيب غاب عنك ، وغاب عن غيرك ، ولكن الله سمح أن تعلمه بأسباب ، جميع المكتشفات العلمية ، وجميع القوانين التي اكتشفت هي غيب كانت ، لكن الله سبحانه وتعالى قال :

(وَعَلَامَاتٍ (16))

(سورة النحل)

جعل لكل شيء غاب عنك علامة ، أنت لا تعلم أين الماء في باطن الأرض ؟ لكن هناك علامات تقليدية ، يأتون بقضيب رمان ، وهناك علامات حديثة ، هناك وسائل لمعرفة ماذا في باطن الأرض ، وقس على هذا كثيراً ، هناك أشياء غابت عنك وعني ، وشيء غاب عني ولم يغب عنك ، هذا نوع من الغيب ، وهناك غيب غاب عنك وعني ، لكن الله سبحانه وتعالى سمح أن نعرفه ، وجعل لهذه المعرفة

وسائل ، فمن أخذ بها كشف هذا الغيب ، وجميع المخترعات والمكتشفات ، وجميع الومضات الإبداعية في العالم وفي تاريخ البشرية ، من هذا القبيل ، ولكن هناك غيب مطلق يغيب عنا جميعاً ، وليس له وسائل نعرفه ، وقد أراد الله ألا نعرفه ، فأنت بين غيب مضاف ، وغيب مشترك لكن له وسائل ، وبين غيب مطلق لا يعلمه إلا الله .

مصير كل إنسان غيب اختصّ الله به ذاته :

لذلك أيها الأخوة ، أنت حينما تتقن هذه الحقائق لا تدخل نفسك في متاهة تقييم الأشخاص ، مصير كل إنسان لا يعلمه إلا الله ، أن توزع ألقاب الكفر والإيمان على من تشاء وعلى من تحب هذا تطاول على الله ، وهذا سماه العلماء تألياً على الله ، هذا الآن إنسان عاصٍ ، غير مسلم ، وقد يدخل في دين الله ، وقد يكون أفضل منك عند الله في المستقبل .

مصير كل إنسان غيب اختص الله به ذاته ، ولم يسمح لأحد أن يصل إليه ، والصحابة الكرام حينما لم يصلوا إلى مكة في صلح الحديبية وعادوا ، تألموا ألماً لا حدود له لكن الله رد عليهم فقال :

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ (25))

(سورة الفتح الآية : 25)

أي يوجد في مكة أناس آمنوا ولكن كتموا إيمانهم ، ونساء آمنّ بالله وكتمن إيمانهن ، فأنتم إذا وصلتم إلى مكة قتلتموهم وأنتم لا تعلمون ، فشاءت حكمة الله ، وهو يعلم الغيب ، ويعلم أن هذا الإنسان مؤمن، أو سوف يؤمن ، أو أنه قريب من الإيمان ، فأنت حينما تعرف أن هناك غيباً مطلقاً لا يمكن أن تعرفه لا أنت ولا غيرك هذا يجعلك مؤدباً ، وأوضح مثل على ذلك :

((أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا ، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ ، وَغُسِّلَ ، وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ ؟ فَقُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ ؟ فَقَالَ : أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ ـ هذا الهدف ـ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي ، قَالَتْ : فَوَ اللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَداً بَعْدَهُ أَبَداً))

[البخاري عن ابن شهاب]

الله عز وجل لا يسمح لجهة أن تتألّه إلى أمد بعيد :

إذاً هناك غيب يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك ، هذا من شؤون حياتنا الدنيا ، وهناك غيب يغيب عنك وعن غيرك ولكن الله شاء أن تعرفه ، وضع له أسباباً ، وعلامات ، ووسائل عليمة ، فالغرب في هذا الباب تفوقوا علينا كثيراً ، كشفوا القوانين ، ووصلوا إلى المجرات ، وغاصوا في أعماق البحار ، ووصفوا ، وقالوا ، وألفوا ، هذا التفوق ولا شك ، ونحن في حاجة إلى هذا العلم ، لكن هناك شيء استأثر الله به ، الآن ماذا يبنى على هذا الكلام ؟ أنا أقول لكم من دون حرج : إن الذي يتابع مثلاً برامج حول الأبراج يعد في نص كلام رسول الله كافراً :

((مَنْ أَتَى كَاهِناً أَوْ عَرَّافاً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَسَنِ]

من يتابع هذه البرامج للتسلية لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ولا أربعين ليلة :

((مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً))

[مسلم عَنْ صَفِيَّةَ]

ذلك لأنه يتوهم أن جهة تقول له في المستقبل : سوف تكون غنياً أو فقيراً ، من كان يظن أن هذا العملاق الشرقي الذي يملك من القنابل النووية ما يكفي لتدمير القارات الخمس خمس مرات ، كلام دقيق ، الكتلة الشرقية حينما كانت في أوجها ، وحينما كان هناك توازن قوى بين الكتلتين ، وكانت هذه نعمة ما عرفناها وقتها أبداً ، لا يستطيع معسكر أن يحرك غواصة ، يتصدى له المعسكر الثاني ، وهؤلاء الضعاف في العالم محميون بفضل هذا التنافس وهذا التوازن ، وقد قال الله عز وجل :

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ (251))

(سورة البقرة الآية : 251)

إلى آخر الآية ، أما الآن فالقطب واحد ، لا قيم ، ولا مبادئ ، ولا إنسانية ، ولا شيء من هذا القبيل ، يتفننون في إذلال الشعوب الضعيفة ، هذا من نتائج أن أصبح القطب واحداً مكان توازن القوى ، فلذلك هذا العملاق الشرقي الذي يملك من القنابل النووية ما يدمر بها القارات الخمس خمس مرات من كان يصدق أنه سيتداعى من الداخل ؟ ويصبح من أضعف الدول في العالم ، من كان يصدق ؟

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ))

[أحمد في مسنده وأبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة]

لا تقنطوا من روح الله ، الله عز وجل لا يسمح لجهة أن تتألّه إلى أمد بعيد ، لها جولة وجولات ، ولكن لا بد لها من مصير أسود ، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة ، أما نحن كوننا مسلمين :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139))

(سورة آل عمران)

مهام المسلمين اليوم :

قد تقول لي : كيف الخلاص ؟ أقول لك : ليس هناك حل أرضي الآن بحسب المدى المنظور ، لكن كيف أن الله عز وجل أنهى قوة في العالم تعد من أقوى القوى في التاريخ الحديث ، تلاشت من دون حروب ، من دون خسائر ، من الداخل ، فلعل الله سبحانه وتعالى يهيئ لهذا القطب الذي يتفنن في إذلال الشعوب ، وفي استباحة دمائهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، وثرواتهم سبباً لدماره ، على كلٍّ الآية التي تناسبنا الآن :

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

مهمتك أن تعبد الله ، وأن تنتظر الخير منه كي تشكره عليه ، وانتهى الأمر ، وأن نعمل لتخفيف أعباء المسلمين بحمل همومهم ، لتحسين أوضاعهم ، لتزويج شبابهم ، لمعالجة مرضاهم ، لتأمين فرص عمل.

أخواننا الكرام ، من بديهيات العقيدة أن الطرف الآخر إذا أراد إفقارنا ، العبادة الأولى كسب المال الحلال وإنفاقه في مصالح المسلمين ، والطرف الآخر إذا أراد إضلالنا ، العبادة الأولى ترسيخ معالم الدين ، والطرف الآخر إذا أراد إفسادنا ، العبادة الأولى صيانة شباب المسلمين وشابات المسلمين ، والطرف الآخر إذا أراد إذلالنا ، ينبغي أن نضحي بالغالي والرخيص ، والنفس والنفيس .

ما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً :

أيها الأخوة الكرام ، قلت مرةً لبعض الأخوة الكرام في جلسة : استمعوا إلى الأخبار ما شئتم ، وتابعوا دقائق الأخبار ، واستمعوا إلى تحليل الأخبار ، واستمعوا إلى ما بين السطور ، وما بين الكواليس ، ولكن لا تنسوا ثانية واحدة أن الله موجود وأنه بيده كل شيء ، وأن الله قادر على أن يقلب كل هذه الموازنات ، وكل هذه المعادلات في ثانية واحدة ، ولعل الله سبحانه وتعالى يخبئ لنا نصراً من عنده لا نرى أسبابه الآن ، لكن علينا أن نستقيم على أمر الله ، علينا أن نصلح شأننا ، أن نصلح بيوتنا ، علينا أن نربي أولادنا ، علينا أن نتعاون ، ذكرت لكم كيف أن المسلمين في فرقة ، وفي تشتت ، ينبغي أن نتعاون ، وأن نلغي هذه الخلافات فيما بيننا ، ينبغي أن نعد أنفسنا أمة واحدة ، قال تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (10))

(سورة الحجرات الآية : 10)

ما قال : إن جماعة فلان إخوة ، ولا قال : إن المذهب الفلاني إخوة ، قال :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

وأنا أقول ، وأؤكد على هذا القول : ما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً . إذاً :

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

مرة تروي القصص الطريفة أن ملكاً جباراً في العصور القديمة نقم على أحد الناس ، وكان يعمل نجاراً ، بل كان شيخ النجارين ، نقم عليه نقمة ما بعدها نقمة ، وطالبه بشيء لا يستطيع أن يقدمه ، طالبه بمئة كيس نشارة خلال عشر ساعات ، وهذه لا تجتمع لديه في خمس وعشرين سنة ، فإن لم يأتِ بها قتله ، فهم ـ كما يجري الآن أن ذئباً التقى بحمل في حمام ماء وبلاط ، فقال الذئب للحمل : أنت تغبّر عليّ ، قال : تعال كُلني وأرحني ، أين الغبرة ، بلاط وماء فقط ، قال له : أنت تغبّر عليّ ، فقال له : تعال كُلني وأرحني ـ فهذا الملك الجبار الطاغية أراد أن يفتك بهذا النجار ، طالبه بشيء فوق طاقته ، كما يجري معنا الآن ، كلما خرجنا من تهمة تأتي تهمة ثانية ، فهو فهم أنه في قتل محقق صباحاً ، كتب وصية ، وودع أولاده وأقرباءه ، وأنهى كل شيء ، طبعاً في الفجر طرقوا بابه ليقتلوه ، جهز نفسه ، قالوا له : تعال ، فقد مات السلطان ، تعال اصنع تابوتاً له . هذه قصة رمزية ، لكن لها معنى ، تعال اصنع تابوتاً له .

نحن في عهدة الله عز وجل وفي رعايته فعلينا أن نطيع الله :

ذات مرة ـ أيضاً قصة رمزية ـ امرأة متقدمة في السن على مشارف الموت ، التقت بسيدنا نوح عليه السلام ، قالت له : يا نوح ، متى الطوفان ؟ لا تنساني عند الطوفان ، يبدو أن هذا النبي الكريم ـ والقصة رمزية ـ جاء الطوفان ونسيها ، والسفينة في أمواج عاتية تذكر هذه المرأة ، طبعاً أيقن أنها ماتت ، فلما انتهى الطوفان جاءته ، وقالت : يا نوح متى الطوفان ؟ فإذا كان سيدنا نوح نسي فالله لا ينسى ، فنحن في عهدة الله عز وجل ، وفي رعايته ، فعلينا أن نطيع الله ، علينا أن نقدم سبب الحفظ ، الله يحفظ بلادنا .

أخواننا الكرام ، الذي يجري في العراق لا يصدق ، لا أمن ، ولا طعام ، ولا شراب ، ولا كهرباء ، ولا وقود ، ولا شيء إطلاقاً ، قتل يومي ، وترون وتسمعون ، ادعوا الله أن يحفظ بلادنا من الفتن .

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

طبعاً ماذا في البر ؟ تجد بلاداً فقيرة يكاد أهلها يموتون من الجوع ، فجأة يكتشف فيها النفط ، صار عندهم غنى يفوق حد الخيال ، هذا شيء ملموس ، أنا مرة سافرت إلى بلد إفريقي فقير جداً ، لا طعام ، ولا شراب ، ولا كساء ، ولا تعليم ، وهذا الشيء في جنوب السودان ، وسافرت بعد أسبوعين لحكمة

أرادها الله إلى بلد نفطي ، رأيت من ألوان البذخ ما لا يتصور ، وهذا البلد النفطي كان فقيراً كجنوب السودان ، اكتشف النفط فصار هناك غنى ،

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

والآية الكريمة :

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6))

(سورة طه)

أحيانا تكشف ثروات تفوق حد الخيال ، إذاً :

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ)

في الأمر حكمة ، سبحان الله ! هذه البلاد غير المتعلمة الجاهلة المتخلفة عندها ثروات كبيرة جداً ، والبلاد الذكية جداً والمتعلمة جداً ما عندها ثروات ، لو كانت الثروات عندهم لمتنا جميعاً ، لكن الله عز وجل يقيم توازناً ، يعطي هؤلاء المقصرين بعض الثروات ، ويعطي هؤلاء المتفوقين قلة الثروات ، فهؤلاء يعطون إلى هؤلاء ، وهكذا .

كل ما يجري في العالم يعلمه الله مهما كان صغيراً :

الآية الكريمة :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا (13))

(سورة الحجرات الآية : 13)

أما الذي حصل : لتتقاتلوا ، الآية لتعارفوا ، لا لتتقاتلوا ،

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

البحر الآن هناك مليون نوع من السمك ، لا زال البحر فيه عجائب قد لا تصدق ، البحر شيء مذهل ، فيه ملح مثلاً ، لو جفف هذا الملح ووضع على اليابسة في كل أنحاء اليابسة في الخمس القارات لكانت سماكة الملح مئة وتسعة وخمسون متراً ، في الخمس قارات، السماء ينزل منها ثمانية عشر مليار طن في كل ثانية على مدار العام ماء ،

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

ونحن نجد أن الأمطار دون المعدل ، الآن مئة وسبعون ومعدلنا مئتان واثنا عشر ، اكتشفوا سحباً في الفضاء الخارجي يمكن أن تملأ المحيطات الأرضية كلها ستين مرة في أربع وعشرين ساعة بالماء العذب ، لذلك :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21))

(سورة الحجر الآية : 21)

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

لكن هناك ملمح دقيق في الآية :

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

ورقة زيتون أدت مهمتها ، وجاء دور سقوطها ، وسقطت ، كيف سقطت ؟ وكيف اتجهت ؟ وكيف ساقتها الرياح إلى مكان آخر ؟ يعلمها ، ما الحكمة من هذه الآية ؟ ورقة زيتون إذا سقطت لا تقدم ولا تؤخر ، أو أي ورقة ، في الخريف الأوراق كلها تسقط ، ورقة سقطت ، ما الذي حدث ؟ لا شيء أبداً ، هذه يعلمها ، وما يجري في العالم من حروب لا يعلمها الله ؟! وما يجري من عدوانات لا يعلمها الله ؟! ما يعانيه البشر أحياناً من فقر لا يعلمه الله ؟! ما يعانونه من قهر لا يعلمه الله ؟! الله عز وجل أراد أن يخبرنا أنه إذا كان يعلم سقوط ورقة فما قولك فيما فوقها ؟! وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ، إذا كان سقوط ورقة يعلمها ، فكيف بالحادي عشر من أيلول ، مثلاً ، يعلمه ، غزو أفغانستان يعلمه ، غزو العراق يعلمه ، ما يجري في فلسطين يعلمه ، الله عز وجل يقرب لك ، هذا الشيء الذي لا يقدم ولا يؤخر ، وليس له أي معنى ، ولا حكم شرعي ، ولا ظلم فيه ، ورقة تسقط يعلمها ، إذا فكيف بما فوقها ؟!!

خالق هذا الكون لا يعقل أن يدع عباده من دون تصفية حسابات :

قال عليه الصلاة والسلام :

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا ، فَلَمْ تُطْعِمْهَا ، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

علق على هذا الحديث الشريف الصحيح ، فما قولكم فيما فوق الهرة ؟ هرة حُبست ، لم تقتل فماتت جوعاً ، فصاحبة هذه الهرة سوف تدخل النار ، فالذي يبيد الشعوب ، ويقصف البلاد باليورانيوم المخصب ، الذي يبقى تأثيره المؤذي أربعمئة وخمسين ألف عام ، يؤثر في الطعام والشراب والنباتات، وهذا الإنسان الذي أمر بهذا القصف لا يحاسب ؟!

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة الواقعة الآية : 36)

وقال :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون الآية : 115)

لذلك رحم الله ابن القيم الجوزية هو وحده يرى أن الإيمان باليوم الآخر دليله عقلي لا نقلي ، خالق هذا الكون لا يعقل أن يدع عباده من دون تصفية حسابات .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

وقال :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

علامة ضعف الإيمان الشكوى :

لذلك أيها الأخوة ، أقدم لكم بشارة : إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين ، أو إضلالهم ، أو إفسادهم ، أو إذلالهم ، أو إبادتهم ، فأنت ملك ، إذا لم تكن لك علاقة بما يجري الآن من انتهاك للحرمات ، ومن نهب للثروات ، ومن أعمال يندى لها الجبين ، فأنت من الناجين إن شاء الله ، وإنْ لم يكن لك شأن كبير في المجتمع .

قال ملك لوزيره : " من الملك ؟ قال له : أنت ، ملك جبار ، قال له : لا ، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا ، له بيت يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ورزق يكفيه ، إنه إذا عرفنا جهد في استرضائنا ، وإن عرفنا جهدنا في إحراجه " ، فإذا كنت تتمتع بصحة ، ولك دخل يغطي نفقاتك فقط فأنت ملك .

واللهِ كنت قبل يومين في عيادة إنسان أصابه مرض عضال ، وهو في ريعان الشباب ، خرجت من عنده والله الذي لا إله إلا هو ، وقلت : لو أن الله أتم عليك الصحة ، ولا تملك من الدنيا شيئاً إلا رغيف خبز تأكله ظهراً من دون إدام لكنت ملِكاً .

نعمة الصحة لا تعدلها نعمة على الإطلاق ، تأتي بعد الهدى ، الهدى ، فالصحة ، فالكفاية ، لذلك وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي وابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ]

الشيطان حينما يأتي الإنسان ، يقول الله عز وجل :

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ (17))

(سورة الأعراف الآية : 17)

لكن النقطة الدقيقة :

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

(سورة الأعراف)

علامة ضعف الإيمان الشكوى دائماً ، يكون عنده بيت ، وله زوجة وأولاد ، وله دخل ، عنده عدة مشكلات ، دائماً يشكو ، ويتأفف ، ويتبرم ، وهذا الذي يشكو ضعيف الإيمان اشكر ما أعطاك الله أولاً ، وانظر ما الذي ينقصك ثانياً ، قال تعالى :

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

الرطب أيّ شيء فيه حياة ، واليابس ما ليس فيه حياة ، الحي وغير الحي يعلمه الله عز وجل ،

(إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

كل كائن حي ، نبات أو حيوان أو إنسان ، وكل جماد هو في علم الله ، والله عز وجل يبيّن ذلك ، لا تقلق ، إذا كان سقوط ورقة في علم الله فما قولك بما فوق الورقة ؟ زواجك ، صحتك ، مستقبلك ، عملك ، هذه أشياء أهم بكثير ، يبين لك أن سقوط الورقة في علم الله ، ألا يعلم وضعك المادي ؟ ألا يعلم أنك بحاجة إلى زواج ؟ ألا يعلم أنه ليس لك عمل ولا دخل ، ألا يعلم أنك محمل بأعباء كبيرة ؟ أنت حينما تعلم أن الله يعلم تنزاح عنك معظم الهموم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(20-73): تفسير الآية 60 ، النوم رحمة وعبادة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-05-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس العشرين من دروس سورة الأنعام .

النوم من نعم الله العظمى على الإنسان :

مع الآية الستين من هذه السورة ، وهي قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60))

أولاً : من نعم الله العظمى على الإنسان :

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ (23))

(سورة الروم الآية : 33)

النوم يعطي الجسد راحة يستعيد بها نشاطه ، وقد فُسرت حقيقة النوم لأن الأعصاب في الجسم تتباعد وتقارب ، الخلية العصبية هي نواة واستطالة ، تأتي الخلية الثانية نواة واستطالة ، فإذا أراد الإنسان أن ينام ، أو حينما يدركه النوم تتباعد هذه الأعصاب عن بعضها فتنقطع السيالة العصبية ، لكن الأصوات الحادة تجعل السيالة تقفز هذه المسافة بين العصبين فجميع المهدئات تباعد هذه المسافات ، وجميع المنشطات تقرب هذه المسافات ، أما أن ينام الإنسان فترتاح أجهزته وأعصابه فهذه من نعم الله الكبرى.
أنا أعرف شاباً ، أنا أتصور لو يملك أحدنا مئة مليون يدفعها بلا تردد مقابل أن ينام ليلة واحدة ، حار به الأطباء ، لا ينام أبداً .

قد يأتي الأمن عن طريق النوم :

النوم من نعم الله الكبرى ، والحقيقة النوم مرتبط بشكل أو بآخر بحالة الإنسان النفسية ، فالإنسان حينما يقترف جريمة ، أو يقترف إثماً ، أو حينما تحاسبه نفسه حساباً عسيراً ، أو حينما يخرج عن مبادئ فطرته ، يكون بعده عن النوم وكأنه عقاب ، لذلك بعض الفنادق في أوربة كتبت لوحة على كل سرير : " إن لم تستطع أن تنام فالعلة ليست في فُرشنا، إنها وثيرة ، ولكن العلة في ذنوبك " .

الإنسان المؤمن لأنه لم يبن مجده على أنقاض الآخرين ، ولم يبن غناه على فقرهم ، ولم يبن حياته على موتهم ، ولم يبن أمنه على خوفهم ، ولم يبن عزه على ذلهم ، ينام نوماً عميقاً ، والنوم من نعم الله العظمى .

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ (154))

(سورة آل عمران الآية : 154)

هذا الأمن قد يأتي عن طريق النوم ، شيء آخر ، هو أن الله سبحانه وتعالى :

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً (10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (11))

(سورة النبأ)

طاعته لله تكون في الليل أحياناً ، قيامه في الليل ، صلاته في الفجر ، هذا وقت راحة للناس ، إن أردت جواً صافياً لا إزعاج ، ولا اتصال ، ولا هاتف ، ولا بكاء ، ولا صراخ ، ولا ضجيج ، ولا شارع مزدحم ، ولا أبواق سيارات ، إن أردت جواً صافياً فعليك بوقت الفجر ، وبعد العشاء ، لقد ورد في بعض الأحاديث :

((ولو يعلم الناس ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً))

[أخرجه مالك وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة]

الله سبحانه وتعالى جعل النوم نوعاً من الموت المؤقت :

إذاً الآية الكريمة :

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ)

والحقيقة النوم ليس اختيارياً ، هو من خلق الله عز وجل ، إما أن تطلب النوم فلا تجده ، وإما أن يأتيك ضيفاً فيريحك ، النوم يأتي أما إذا طلبته قد لا يأتِ ، لذلك في الصيدليات أدوية تعين على النوم ، مسكنات ، مهدئات ، هذا كله من ضعف الإنسان أمام هذه الحالة ، ضعيف أمام النوم ، قد ينام وهو يقود سيارة فيدمر ، وقد يريد أن ينام فلا ينام ، لذلك قالوا : النوم ضيف إن طلبته أتعبك ، وإن طلبك أراحك. الشيء الذي نتصوره جميعاً أن الإنسان نفس وجسم ، فمادامت النفس في الجسم فهي تفعل ما تريد ، أنت مخير ، تقف ، تمشي ، تجلس ، تأكل ، تشرب ، تخرج من البيت ، تعود إلى البيت ، تقوم بهذا العمل ، لا تقوم بهذا العمل ، لكن الله سبحانه وتعالى جعل النوم نوعاً من الموت المؤقت ،

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ)

ونفسك في جسمك ، وروحك في جسمك وأنت لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فالنوم موت مؤقت ، والموت موت مستمر ، النوم والموت مترابطان ، الآية الكريمة :

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ)

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (55))

(سورة آل عمران الآية : 55)

معنى ذلك لم يمت سيدنا عيسى .

(وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50))

(سورة المؤمنين الآية : 50)

فالنوم عملية قسرية يخلقها الله ، وقد يطمأن الإنسان بالنوم ، وقد يدمر بالنوم ، ولاسيما في أثناء قيادة مركبة ، النوم يعني دمار كامل ، بشكل أو بآخر الإنسان بيد الله عز وجل ، الله رب العالمين طليق الإرادة ، قادر أن يكرمك بالنوم ، وقادر أن يدمرك بالنوم ، وقادر أن تطلبه فلا تجده ، وقادر أنه إذا جاءك يكون لك عوناً على مشقة النهار ، لكن بشكل أو بآخر الإنسان الذي لم يبن مجده على أنقاض الآخرين ، ولم يبن حياته على موتهم ، ولا غناه على فقرهم ، ولا أمنه على خوفهم ، هذا الإنسان ينام ، والنوم مكافئة له .

دقة صنعة الله عز وجل :

إذاً : يمكن أن تكون النفس في الجسم وهي معطلة عن فعل شيء ، لكن أيها الأخوة دققوا في دقة صنعة الله عز وجل ، نحن في النهار نتنفس ، والتنفس عند الأطباء تنفس غير إرادي ، وقد يكون إرادي ، وأنت في يقظتك تقول شهيق زفير ، هذا تنفس إرادي ، لكن إذا خلدت إلى النوم لو أن التنفس إرادي ماذا تفعل ، النوم يعني الموت ، لذلك الله عز وجل رحمة بالعباد يعني يصيب حالات نادرة جداً.

في طبيب بهذا البلد توفي رحمه الله ، كان لا ينام أبداً ، فاخترع دواء في بلاد الغرب غالٍ جداً ، فوق طاقة الغني ، هذا الدواء يمكن أن تنام ، ولكن يجب أن تأخذ حبة كل ساعة في الليل ، تضبط المنبه على الساعة الثانية عشرة تستيقظ تأخذ حبة ، ثم تضبط المنبه على الواحدة ، وعلى الساعة الثانية ، وعلى الثالثة والرابعة والخامسة ، هذا الطبيب اشترى هذا الدواء وجاء ابنه من أمريكا ، وفرح به ، وكان مجهز أربع منبهات معاً ، أربع منبهات إلى جنب أذنه ، المنبهات الأربعة رنت أجراسها فلم يستيقظ ، فاستيقظ أهله فوجوده ميتاً .

لو أن الله أسلم التنفس إلينا النوم يعني الموت ، لو أسلم نبض القلب إلينا النوم يعني الموت ، لو أسلم عمل الكليتين إلينا النوم يعني الموت ، لو أسلم عملية الهضم إلينا النوم يعني الموت ، تأكل وتنام ، والمعدة ، والأمعاء ، والبنكرياس ، والصفراء ، وحركة الأمعاء ، والعصارات ، هذا كله يعمل بانتظام

وأنت نائم ، والقلب ينبض ، والرئتان تتحركان ، فضلاً عن ذلك وأنت نائم وغارق في النوم ما الذي يحصل ؟ يجتمع اللعاب في فمك تصدر إشارة من الفم إلى الدماغ ، الدماغ يأمر لسان المزمار أن يغلق فتحة التنفس ، ويفتح فتحة المريء فتبلع ريقك ، تبلع اللعاب الذي في فمك ، وهذا يتضح لكم عند طبيب الأسنان ، إذا أراد أن يعمل عملاً طويلاً وفمك مفتوح لا بد من أنبوب يسحب اللعاب من فمك ، هذا أيضاً أيها الأخوة من دقة صنع الله ، وأنت نائم مستغرق في النوم وزن العضلات التي فوق الهيكل العظمي ، ووزن العضلات ووزن الهيكل العظمي يضغط على العضلات التي تحت الهيكل العظمي ، هذا الضغط من نتائجه أنه يضيق أوعية الدم ، فتصاب هذه العضلات بما يسمى بنقص التروية فتشعر بخدر في النوم ، وأنت نائم محل الضغط في نقاط التحسس في الضغط ترسل للدماغ إشارة ، الدماغ يأمر الجسم فينقلب على شق آخر ، قال تعالى :

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ (18))

(سورة الكهف الآية : 18)

لولا هذا التقليب لتفسخت عضلاتنا وجلودنا ، لذلك أي إنسان يصاب بالثبات يحتاج إلى من يقلبه ، وإلا اللحم ينزع باليد من جسمه ، والآن في أسِّرة تقلب المريض آلياً ، الله قال :

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

فأنت نائم تُقلب .

بعض الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل :

أنت نائم لسان المزمار يعمل عملاً معقداً جداً ، وأنت نائم القلب يعمل ، وأنت نائم الرئتان تتحركان ، وأنت نائم الكليتان تعملان ، لكن وأنت نائم المثانة تكون بحالة ثبات ، من أجل أن ترتاح ، المثانة تعمل في النهار أضعاف عملها في الليل لئلا تقوم إلى الحمام كل ساعة ، المثانة تنام في الليل معك حتى تنام نوماً عميقاً وطويلاً .

أرأيتم إلى هذه الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل ،

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ)

والإنسان مهما كان متعباً ينام ساعات طويلة فيصبح كالحصان في نشاطه ، الحصان رمز النشاط إذا نام ساعات مريحة ، لذلك من نعمة الله عز وجل على الإنسان أنه ينام ، الآية :

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23))

(سورة الروم)

يقول الأطباء : إن ساعة في أول الليل لا تعدلها ثلاث ساعات في آخر الليل ، لذلك :

((بورك لأمتي في بكورها))

[أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة]

أمة محمد صلى الله عليه وسلم تنام باكراً وتستيقظ باكراً ، لكن الشيء المؤسف أن عالم الغرب في الساعة الرابعة صباحاً الطرقات ممتلئة بالحركة ، لكننا في بلاد الشرق لا ينجز عمل قبل الساعة الحادية عشرة ، المحلات مفتوحة إلى أنصاف الليل في السهر ، وهذا السهر الطويل يتناقض مع التصميم الإلهي ، كان السلف الصالح عقب صلاة العشاء يخلدون إلى النوم ، ويستيقظون ، يعني أنت أحياناً تنام باكراً الساعة التاسعة أو العاشرة ، تستيقظ على صلاة الفجر وكأنك حصان ، ممكن أن تقرأ القرآن ، ممكن أن تصلي قيام الليل ، ممكن أن تذكر الله عز وجل ، ممكن أن تتفكر في خلق السماوات والأرض ، لذلك أراد العالم الغربي أن يعمم ثقافته في الحياة اليومية على الشعوب كلها ، فجعل الليل يقظاناً ، وجعل النهار للنوم والله قال :

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً (10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (11))

(سورة النبأ)

الساعة البيولوجية :

لكن لو فرضنا إنساناً حارساً يجب ألا ينام في الليل ، الله عز وجل سمح للإنسان أن ينام في النهار ، وهذه أيضاً نعمة كبرى ، أحياناً الإنسان يسافر فينام في النهار .

النقطة الدقيقة أيها الأخوة أن في الإنسان ساعة بيولوجية ، هذه الساعة مرتبطة بقعر العين ، ما دام بقعر العين ضوء فهذا الضوء يصل إلى هذه الساعة البيولوجية ، أنت في النهار في عدد من الأجهزة كبير يحتاج أن يعمل عملاً خاصاً ، فالضغط في النهار يرتفع ، نبض القلب يزيد عشر درجات في النهار عنه في الليل ، لو أن إنساناً استيقظ باكراً ، وقاس نبضه يجده ستين نبضة ، في النهار يجده ثمانين ، فأنت بحاجة إلى نبض عال في النهار ، وضغط عال في النهار ، بحاجة إلى أن تعمل هرمونات النمو في الليل لا في النهار ، هرمون النمو يعمل في الليل ، أما هرمون الدرق يعمل في النهار ، الموضوع طويل ، جميع الغدد والأجهزة بدءاً من القلب والرئتين والمعدة والأمعاء وجهاز إفراز الكلية والمثانة ، هذه الأجهزة لها نظام في النهار ونظام في الليل ، الآن بعض المقاسم يتبرمج برمجة نهار وبرمجة ليل ، فالجسم هكذا مبرمج ، مبرمج بعمل في النهار وعمل في الليل ، ما الجهاز الذي يأمر الجسم أن يطبق برنامج النهار ؟ الساعة البيولوجية ، وما الجهاز الذي يأمر الجسم أن يطبق برنامج الليل ؟ الساعة البيولوجية ، هذه الساعة مرتبطة بقعر العين ، فإذا في ضوء بالعين يطبق برنامج النهار ، وإذا ما في ضوء يطبق برنامج الليل .

الإنسان أحياناً يسافر من الشرق الأوسط إلى أمريكا هناك ظاهرة عجيبة ، أول يومين ثلاثة لا ينام بالليل أبداً ، ينام في النهار ، لأن هذه الساعة مبرمجة على دمشق ، فهذا الوقت وقت ليل ، بالنهار تكاد تموت من شدة الرغبة في النوم ، وفي الليل لا تنام أبداً ، حتى مضي ثلاثة أيام أي حتى تبرمج الساعة برمجة جديدة حتى تنام في الليل وتستيقظ في النهار ، فإذا عدت إلى الشام مرة ثانية أيضاً عندك ثلاثة أيام تنام في النهار وتستيقظ في الليل ، هذا متعلق بالساعة البيولوجية .

الإنسان بين حالين :

إذاً قضية النوم قضية من أدق نعم الله عز وجل ،

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ)

لذلك الإنسان بالليل لا يحاسب ، لأنه فقد الإرادة ، النوم موت مؤقت ،

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ)

نوم مؤقت ، والموت نوم دائم ، الله عز وجل طليق الإرادة ، بمعنى أنك في النهار أعطاك حرية الحركة ، أعطاك اختياراً ، أعطاك قوة ، لكنك في الليل لا تملك شيئاً ، فكل ما يجري في الليل لا تحاسب عليه ، لأنه خارج عن إرادتك ، لكن أحياناً الإنسان في الليل يرى رؤى متعلقة بحالاته في النهار ، فمن كان عقله الباطن الذي يتجلى فيما يرى من رؤى ، إذا رأى في الليل هو في طاعة ، وفي عمل صالح فهذه بشارة على أن عقله الباطن منسجم مع عقله الواعي ، وإذا رأى نفسه في معصية كبيرة ، أو في عمل لا يرضِي الله فهذا تحذير من الله أن عقله الباطن لم يرقَ إلى مستوى عقله الظاهر.

الآن :

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ)

الاستيقاظ بعث ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي))

[الترمذي عن أبي هريرة]

كان من الممكن ألا يستيقظ .

أنا وصل إلى علمي أشخاص عديدون من هذا المسجد ، أخلد إلى النوم ، زوجته في أثناء الليل مست يدها يده فرأتها باردة ، فانتفضت مذعورة ، فإذا هو ميت ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا آوى إلى فراشه يقول يا رب :

((إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها ، وَإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها))

[رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

ممكن للإنسان إذا آوى إلى فراشه ألا يستيقظ ، أحد أخواننا من عادته أن يصلي الفجر في المسجد ، قد يصلي وأهله لا يزالون في النوم ، ففي الصباح الساعة التاسعة قالت الأم لابنها : أيقظ أباك كي يأكل طعام الإفطار ، فتح الباب وجده ميتاً .

صديق لي دكتور في الجامعة دخل إلى غرفته ليكتب ، ويؤلف ، استيقظ أهله صباحاً فإذا هو منكب على المكتب ، وقد توفاه الله عز وجل ، لذلك كان يقول عليه الصلاة والسلام :

((إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها ، وَإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها))

أنت بين حالين ، لذلك ممكن لإنسان ينام ولا يستيقظ ، ممكن يستيقظ ولا ينام ، ممكن أن يخرج من البيت ولا يرجع ، ممكن يرجع وما يخرج قائماً ، يخرج بنعش ، ممكن يدخل المسجد ليصلي ، أو ليحضر درساً ، ممكن يدخل ليصلّى عليه .

من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت :

أحد أخواننا قال لي : أحد الأخوة المصلين لطيف المعشر ، كل يوم عقب صلاة الفجر وهو في الطريق إلى البيت يتحفهم بطرفة كل يوم ، قال لي : والله صلينا الفجر معاً ، والعصر صلينا عليه في الجامع نفسه ، وقد توفاه الله وقت صلاة الظهر ، ولا يشكو شيئاً ، لذلك قالوا : من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ،

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام في بعض خطبه :

((إنكم لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولا يجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً))

[ورد في الأثر]

هذه من خطب النبي عليه الصلاة والسلام .

أيها الأخوة الكرام ، الله عز وجل طليق الإرادة ، الإنسان ممكن أن ينام وهو في أشد الحاجة إلى اليقظة ، حدثني صديق قال لي : أنا في طريقي من حمص إلى دمشق أخذتني سنة من النوم ، وأنا أقود مركبتي فوق المئة ، ورأيت مناماً ، لكن الله حفظني ، وهذا من فضل الله عليه ، لكن أحياناً أنا أضرب مثلاً : أبو لهب نزل قوله تعالى :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2)سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (3)وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5))

(سورة المسد)

لو أن أبا لهب ، ذهب إلى النبي منافقاً ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله لألغى الآية ، أليس كذلك ؟ وأنت في قبضة الله بكل شيء .

الرؤى تؤكد أن للإنسان حياة نفسية لا علاقة لها بالجسم إطلاقاً :

قال تعالى :

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا (142))

(سورة البقرة الآية : 142)

الله عز وجل يبين أن هؤلاء الذين سيقولون كذا وكذا ، سفهاء ، لو أنهم فكروا لسكتوا ، لألغوا الآية ، أنت في قبضة الله ، أنت مريد وحر في اختيارك ، لكن أي شيء أراده الله يكون ، فأنت في قبضته ، أكثر شيء يؤكد هذه الحقيقة أنك في النوم ، الآن وأنت نائم قد ترى أنك في مكة المكرمة ، قد ترى أنك في المدينة وأمام مقام النبي ، وتبكي وتناجي النبي ، وكأنك في جنة ، وقد ترى رؤيا تبقى شهراً أو أكثر وأنت مغموس في سعادة لا توصف ، وقد ينام أخوك إلى جانبك ، ويرى نفسه في المنام يتبعه ثعبان كبير ، فيصرخ من شدة الخوف الظروف واحدة ، الغرفة واحدة ، الجو واحد ، الحرارة واحدة ، الفراش واحد إنسان كان كأنه في جنة ، وإنسان كان كأنه في نار ، هذه الرؤى تؤكد أن للإنسان حياة نفسية لا علاقة لها بالجسم إطلاقاً ، والرؤى تبين هذه الحقيقة .

أيها الأخوة الكرام ، كنت أقول دائماً وأكرر : إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين ، أو إضلالهم ، أو إذلالهم ، أو إفسادهم ، أو إبادتهم ، فأنت في سلامة ما بعدها سلامة ، لذلك الإنسان لو كان يشكو من ضيق وضعه الاجتماعي ، يشكو من قلة دخله ، لكن لم يكن طرف في مؤامرة قذرة ينام ملء العين ، العوام يقولون : ينام على ريش نعام ، النوم العميق دليل حسن العلاقة مع الله عز وجل ، بل إن النائم المؤمن له عند الله أجر لأنه ينام ليتقوى على طاعة الله ، فالنوم رحمة والنوم عبادة ، لكن النوم مؤشر أنه أنت على شيء من الطهارة والاستقامة ، لأن الانهيار الداخلي ، والقلق الشديد ، والخوف هذا يلغي النوم في حياة الإنسان .

الإنسان إذا استقام وكان على صلة بالله متينة وعلى ود مع الله عز وجل فنومه عبادة :

حدثني أخ ، القصة جرت في بيروت ، قال لي : سائق سيارة شاب دهس طفلاً بعد الساعة الثانية ليلاً ، وتابع السير ، ولا يمكن أن يُعرف هذا الذي قتل الطفل ، سجل الضبط ضد مجهول ، وانتهى الأمر ، يقول هذا السائق : مضى عليه أكثر من ثلاثين يوماً ما عرف طعم النوم ، إلى أن التقى بطبيب نفسي ،

فالطبيب النفسي أشار عليه أن يدفع دية مجزية لوالده حتى ينام ففعل هذا ، الحادث خطأ ليس قتلاً متعمداً ، والحادث الخطأ يقابله دية.

(وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ (92))

(سورة النساء الآية : 92)

لما دفع هذه الدية استطاع أن ينام ، فالإنسان إذا استقام ، وكان على صلة بالله متينة ، وكان على ود مع الله عز وجل ، فنومه عبادة لأنه لا يستحق أن يتقلب بالفراش ولا ينام ، فأنت في النوم معفى من الحساب ، لكن إن رأيت رؤيا لا ترضِي الله فهذا مؤشر ليس في صالحك ، وإن رأيت رؤيا ترضي الله فهذا مؤشر مبشر لصالحك ، فعلامة أن الإنسان له مع الله علاقة متينة أنه ينام هنيئاً ،

(ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى)

في برنامج كمبيوتري تعطيه تاريخ ولادتك يقول لك بالجواب : عمرك ست وستون سنة ، وثمانية أشهر ، وستة عشر يوماً ، وأربع ساعات ، وخمس دقائق ، وثلاث ثوان ، فأنت يجب أن تعرف أن لك عند الله عمر ، كم ؟ الله أعلم .

لذلك مرة كنت في زيارة مدير ثانوية ، وحدثني عن مشاريعه المستقبلية فقدم طلباً ليعار إلى الجزائر كمدرس معار ، والراتب مضاعف ، قال لي : سأذهب إلى هناك ، وسأمضي خمس سنوات هناك ، ولن آتي إلى دمشق في أثناء العطل الصيفية ، قلت له : لماذا؟ قال لي : أريد أن أقضي صيفاً في فرنسا ، وصيفاً في بريطانيا ، وصيفاً في إسبانيا ، وصيفاً في إيطاليا ، قال لي : بعد أن أعود إلى الشام أقدم استقالتي من العمل التدريسي ، وأحصل على التقاعد والتعويضات ، وأفتح محلاً ، قال لي : أبيع فيه التحف ، هذه لا علاقة لها بالتموين ، ولا تفسد مع مضي الوقت ، وأولادي يجلسون في هذا المحل التجاري ، وأجعله منتدى ، وحدثني !! أنا والله الذي أذكره تحدث عن عشرين سنة قادمة وانتهى اللقاء، وذهبت إلى البيت ، وعندي عمل في مركز المدينة ، أردت أن أعود إلى البيت مشياً على الأقدام ، فإذا بنعوته على الجدران في اليوم نفسه ، لذلك قالوا : من عدا غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت .

الفرق بين النوم والموت أن النائم يستيقظ لكن الميت لا يستيقظ :

كم حالة وفاة يرى أنه سيعيش طويلاً ؟ أحد أصدقاء أحد أقربائي كان مرحاً ورشيقاً ، وصحته جيدة جداً ، وأكله مدروس دراسة دقيقة ، الخبز ، السَّلطات ، المشي ، الروح المرحة ، ففي سهرة قال : أنا أطيل لأموت ، فسألوه : ما السبب ؟ قال لهم : إني رشيق ، ومرح ، وأكلي منتظم ، والرياضة يومية ، يمشي ساعة كل يوم ، وتمرينات سويدية، اللقاء الأسبوعي كل سبت ، السبت الثاني كان مدفوناً تحت الأرض ، الأجل لا أحد يملكه .

مرة أخ دعانا إلى مزرعة خارج دمشق ، قال لي : لك أن تأتي بعشرة أخوة ، فأنا اخترت عشرة أخوة ، كان أخ كريم رئيس محكمة دستورية يجلس هناك ، اخترته أحد المدعوين ، دفناه الخميس ، وخرجنا السبت من دونه ، من يعلم متى سيموت ؟ لذلك :

كل مخلوق يمـــــوت ولا يبقَ إلا ذو الـــــعزة والجبروت

* * *

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

* * *

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حـــــدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنـــازة فاعلم بأنك بعـــــدها محمول

* * *

الإنسان يموت كل يوم بالنوم ، النوم قريب من الموت ، لكن الفرق بين النوم والموت أن النائم يستيقظ ، الميت لا يستيقظ ،

((إنكم لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولا يجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً))

(لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى)

لذلك قالوا : لا علاقة بين العمر وبين الصحة .

سألني أخ كريم : ما جدوى إذاً الصحة أي الرياضة ، والمشي ، والجري ، والدقة في تناول الطعام والشراب ، وكل شيء مدروس ؟ قلت له : مع الإشارة ، لك عند الله سبع وستون عاماً ، إن اعتنيت بصحتك تمضيها واقفاً ومتحركاً ونشيطاً ، وإن لم تعتن بها تمضيها على الفراش ، فالرياضة والاهتمام بالطعام والشراب يكون مدروساً من أجل أن تمضي هذا الوقت الذي لك عند الله وأنت معافى صحيح وتتحرك ، لكن سبحان الله أي إنسان يؤله الرياضة يصاب بخيبة أمل فيها .

طبيب بأمريكا كان يرى أن الجري هو الوقاية الوحيدة للقلب ، يجري في اليوم عشرين كيلومتراً ، وألف مقالات ، وعمل مناظرات ، وندوات في التلفزيون ، وألف كتباً ، يرى أن الجري هو الوقاية الوحيدة للقلب ، فمات وهو يجري في السادسة والأربعين من عمره .

الإيمان الحقيقي هو الذي يدعو إلى التوكل على الله عز وجل :

قال بعضهم : أنا هوايتي الوحيدة أن أمشي في جنائز الرياضيين ، الحقيقة الرياضة ضرورية جداً ، لكن إياك أن تؤلهها ، إياك أن تظن أنك بالرياضة لن تموت ، أو سيتأخر الموت كثيراً ، الأجل ما له علاقة بالصحة أبداً ، لكن بين أن تمضي هذا العمر وأنت نشيط تقف على قدمين ، تتحرك ، أو أن يمضي هذا العمر وأنت طريح الفراش لا سمح الله ولا قدر هذه واحدة .

شيء آخر يمس الموضوع ، أحياناً يكون طبيب مختص بالجهاز الهضمي عنده إحساس عام أنه لن يمرض بجهازه الهضمي ، لأنه طبيب ، اختصاصه ، أستاذ في الجامعة ، يعطي توجيهات للمرضى كل يوم مئات المرات ، الذي ينسى أن الحافظ هو الله ، من أغرب ما أسمع من حين لآخر أن الأطباء الذين يعتمدون على علمهم دون الاعتماد على ربهم في وقاية أجسامهم في الأعم الأغلب يمرضون باختصاصهم ، لأنهم توهموا أن اختصاصهم يحميهم أن يمرضوا في موضوع اختصاصهم ، لذلك ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

مرة زرنا طبيباً في أمريكا في بيته ، بيته شيء يصعب وصفه ، دخلُ الطبيب هناك أعلى دخل في البلاد كلها ، فهو دون الخمسين ، جالس جلسة فيها كآبة ، سألت ؟ فقيل لي : معه احتشاء بقلبه ، طبيب قلب ، عاش بما يسمى جنة ، ومع ذلك يصاب الإنسان باختصاصه ، لا تظنوا أنني أقلل من أن تعتني بصحتك ، وأن تعتني باختصاصك ، لا ، إياك أن تعتقد أن صحتك مرتبطة باختصاصك ، الموت لا علاقة له لا بالاختصاص ولا بالعلم ، والإيمان الحقيقي هو الذي يدعو إلى التوكل على الله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(21-73): تفسير الآيتان 61-62 ، عبد القهر وعبد الشكر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-05-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة الأنعام .

الكون كله مسيّر إلا الإنس والجن :

مع الآية الواحدة والستين ، وهي قوله تعالى :

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61))

(الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

أي أن أمره نافذ .

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21))

(سورة يوسف)

((ما شَاءَ الله كَانَ ، وَما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُن))

[رواه ابن السني عن بريدة]

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (123))

(سورة هود الآية : 123)

لكن قد يسأل سائل : إذا كان أمر الله عز وجل هو النافذ في ملكوت السماوات والأرض ، فلماذا في الأرض كفار يعصونه ؟ ولماذا في الأرض كفار يتحدونه ؟ الإجابة عن هذا السؤال بسيطة ، وهي أن الكون كله مسيّر ، إلا الإنس والجن ، مخلوقات ، لما عُرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال أبين أن يحملنها ، فاستسلموا لله عز وجل ، ورضوا أن يكونوا طائعين من دون تكليف ، ومن دون مسؤولية ، ومن دون حساب ، ومن دون جنة أو نار ، فركب الملك من عقل بلا شهوة ، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل ، وركب الإنسان من كليهما .

الإنسان فيه قبضة من تراب الأرض وفيه نفخة من روح الله :

حينما قال الله عز وجل :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ((72)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

الإنسان قَبِل حمل الأمانة ، قبل أن يكون فيه شيء من المَلَك وشيء من المخلوقات الدنيا من حيث الشهوات ، فيه قبضة من تراب الأرض وفيه نفخة من روح الله ، عنده قيم ، ومبادئ ، وفي كيانه شهوات ، الإنسان مخلوق متميز ، بإمكانه أن يصل إلى ما فوق الملائكة وبإمكانه أن يصل إلى ما دون الحيوان .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7))

(سورة البينة)

قال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6))

(سورة البينة)

الله عز وجل جعل الإنسان مخيراً بين طريقين :

الله عز وجل قاهر ،

(فَوْقَ عِبَادِهِ)

أمره هو النافذ ،

((ما شَاءَ الله كَانَ ، وَما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ))

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

ولكنه خلق نموذجين ، خلق الإنسان ، أعطاه الحرية ، هوية الإنسان أنه مخير ، بإمكانه أن يطيع الله وبإمكانه أن يعصيه ، بإمكانه أن يستجيب لله وبإمكانه ألا يستجيب ، بإمكانه أن يتبع عقله فيطيع ربه وبإمكانه أن يتبع شهوته فيعصي ربه ، بإمكانه أن يسمو وبإمكانه أن يسفل ، بإمكانه أن يستقيم وبإمكانه أن ينحرف ، له أن يصدق وله أن يكذب ، له أن يؤمن وله أن يكفر ، له أن ينصف وله أن يجحد ، هو مخير ، بل إن الله عز وجل أعطى الإنسان شيئاً من صفاته ، والله عز وجل مُريد ، والإنسان أعطاه حرية الاختيار .

أيها الأخوة ، هذا سؤال دقيق ، الذي يعصي ، يعصي لأنه اختار المعصية ، لكن الله يمده بقوة كي يعصي الله بها ، الذي يذهب إلى الملاهي يتحرك بقوة الله ، لكن هوية الإنسان أساسها أنه مخير ، أوضح لكم ذلك :

إنسان عنده صيدلية ، أراد أن يعين موظفاً ليعينه بعد الظهر على إدارة هذه الصيدلية ، أراد أن يختبره، وضع له على الطاولة مجموعة من الأدوية ، بعضها فيتامينات، بعضها مضادات حيوية ، بعضها مقويات ، بعضها مضادات للسموم ، وبيّن له أماكن الأدوية في الصيدلية ، وقال له : ضع كل دواء في مكانه ، الآن هذا الموظف في طور الامتحان ، فلو أمسك دواء السموم ، واتجه إلى خزانة الفيتامينات هل يمنعه ؟ إذا منعه ألغى امتحانه ، نحن في الدنيا مخيرون .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف الآية : 29)

وقال :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

وقال :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة الآية : 148)

الذي يعصي لا يعصي لأن الله ليس قاهراً على عباده ، يعصي لأن الله منحه حرية الاختيار ، وهذه الحرية سوف يدفع ثمنها باهظاً يوم القيامة .

الاختيار أبرز خصائص الإنسان :

أيها الأخوة ، قضية دقيقة جداً ، أنت حينما تختار أن تصلي ، وتنبعث إلى الصلاة يمدك الله بقوة كي تصلي ، وحينما تختار أن تذهب إلى مكان لا يرضي الله يمدك بقوة كي تصل إلى هذا المكان ، لأن الاختيار هو أبرز خصائص الإنسان .

لكن الإنسان وهو مخير ، وهذا أدق ما سأقوله ، الإنسان وهو مخير ، والإنسان يتحرك بخلاف أمر الله لا يمكن أن تكون هذه الحرية على حساب الآخرين ، الله عز وجل ينسق :

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129))

(سورة الأنعام)

الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه ، لك الحرية أن تضرب ، ولكن ليست لك الحرية أن تضرب من تشاء ، هذا الذي أراد أن يضرب يسوقه الله إلى من يكون الضرب في حقه حكمة ، إما ليمتحنه ، أو ليؤدبه ، أو ليحجمه ، أو ليذكره ، أو ليرقى به أحياناً .

إذاً : الله عز وجل ينسق ، قال تعالى :

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (49))

(سورة النساء)

الذي يجري في العالم اليوم ، كل إنسان قوي يأخذ أبعاده ، لكن لا على حساب الآخرين ، كلام دقيق ، وأتمنى أن يكون واضحاً عندكم .

((لَوْ أنّ أوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ ، قامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلاّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

ذلك لأن عطائي كلام ، وأخذي كلام ، كن فيكون ، زل فيزول .

((فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

على الإنسان ألا يخاف إلا من ذنبه :

هناك أقوياء ، وهناك طغاة ، وهناك مجرمون ، وهناك كائنات توقع الأذى في الآخرين ، ولكن ليس إلا الله .

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

هذا الذي يلقي الأمن في قلب المؤمن .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لذلك في الحديث الجامع المانع الموجز المحكم :

((لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه))

[مسند الفردوس عن علي بن أبي طالب]

الجهات القوية في الأرض لا تعد ولا تحصى ، والجهات المجرمة لا تعد ولا تحصى ، والجهات المؤذية لا تعد ولا تحصى ، ولكن ينبغي ألا تخاف من كل هذه الجهات ، ينبغي أن تخاف من ذنبك فقط، فإن أذنبت وصلت إليك ، وسلطت عليك ، وإن كنت طاهراً مستقيماً أبعدها الله عنك .

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الأنبياء)

الأشياء لا يقع تأثيرها إلا عند إرادة الله :

لا يتناقض قول الله عز وجل ،

(وهو الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

لا يتناقض هذا مع وجود من يعصيه ، ومن يتحداه ، ومن يبث الضلال ، ومن يبث الفزع والجزع في قلوب الآخرين ، هو يتحرك بأمر الله ، وعلماء العقيدة أعطوا جواباً موجزاً لهذا الموضوع فقالوا : عندها ، لا بها ، الأشياء لا يقع تأثيرها إلا عند إرادة الله ، لا بقوتها الذاتية ، ولهم تعبير آخر: أراد بمعنى سمح ، لم يأمر ، ولم يرد ، ولم يرضَ ، نهانا عن الزنا ، وأمرنا بالعفة ، فإذا زنى الزاني نقول : أراد بمعنى سمح الله له ، وسمح الله له لأنه مخير ، وقد أضيف سمح الله له بعد أن أصر على أن يفعل هذه الفعلة ، ولم يفعلها مع من يريد فعلها بل مع من أراد الله أن يفعلها معها ، ما في ظلم ، ثم إن الله سبحانه وتعالى لم يأمر بالزنا ، ولم يرضه ، إنسان أراد أن يسرق نقول : أراد أن يسرق ، أصر على السرقة ، حذره الله ، نبهه ، أصر على ذلك سمح له ، سمح له لا أن يسرق ممن يشاء ، بل سمح له أن يسرق ممن يكون أخذ ماله إما تأديباً ، أو تطبيباً ، أو معالجة ، أو امتحاناً ، أو ترقية .

صحابي جليل سُرِق بعض ماله ، قال : " يا رب ، إن كان هذا الذي أخذ المال عن حاجة فبارك له فيه، وإن كان قد أخذه بطراً فاجعله آخر ذنوبه " ، الصحابي امتحن ، ونجح في الامتحان . فيجب أن تعلم أن الله عز وجل حينما قال في آية الكرسي :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (255))

(سورة البقرة)

لا معبود بحق إلا هو ، لا خالق إلا هو ، لا مسير إلا هو ، لا مانع إلا هو ، لا معطي إلا هو ، لا رافع إلا هو ، لا خافض إلا هو ، لا معز إلا هو ، لا مذل إلا هو .

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ (255))

(سورة البقرة)

يملك الكون كله .

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (255))

(سورة البقرة)

يملكها خلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً ، وهذا أوسع أنواع الملك يملكها خلقاً ، ويملكها تصرفاً ، ويملكها مصيراً .

الآية التالية من أوسع الآيات في القرآن الكريم أي لا يقع شيء إلا بإذن الله :

دققوا الآن :

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255))

(سورة البقرة)

معنى يشفع يعني أن يجتمع أي عنصر في الأرض مع أي شيء يحتاج إلى إذن الله عز وجل ، أن يدخل الفيروس إلى جسم الإنسان ، الفيروس دخل إلى جسم الإنسان ، هذا يحتاج إلى موافقة الله عز وجل ، أن تُحرق بالنار تحتاج إلى إذن الله عز وجل ،

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ)

لعلي أقول : ما من آية في كتاب الله أوسع من هذه الآية :

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عنده)

يعني أي شيئين على الإطلاق من الجماد ، أو الحيوان ، أو النبات ، أو الإنسان ، لا يلتقي لص بمن يسرق منه إلا بإذن الله ، لا يلتقي إنسان يؤذي الآخرين مع الذي وقع الأذى عليه إلا بإذن الله ، من أوسع الآيات في القرآن الكريم :

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

يعني لا يقع شيء إلا بإذنه ، لا يلتقي شيئان ، لا يؤثر الدواء ، لا يفعل الجرثوم فعله إلا بإذنه ، ومن باب أولى أن القوي لا يسلط على الضعيف إلا بإذنه ، وأن العدو لا ينال من عدوه إلا بإذنه ،

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

العباد نوعان ؛ عبد يجمع على عباد وعبد يجمع على عبيد :

إذاً

(وهو الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

قهره ، و

(فَوْقَ)

هنا ليست فوقية مكانية بل فوقية العلو ، يعني أمر الخلق بيد الله ، البشر جميعاً في قبضة الله ، الأقوياء في قبضة الله ، الطغاة في قبضة الله .

((أنا الله ، لا إله إلا أنا ، مالك الملوك ، وملك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة ، فساموهم سوء العذاب ، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع ، أكفكم ملوككم))

[رواه الطبراني في الأوسط وفيه وهب بن راشد]

أيها الأخوة ، الموضوع دقيق جداً ، الله عز وجل ،

(الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

ولكن العباد مخيرون ، لا تجد فساداً في الكون إلا من بني البشر ومن الجن فقط ، ما سوى هذين النموذجين الكون كله منصاع لأمر الله عز وجل ،

(وهو الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

أما العباد فنوعان ، عبد يجمع على عباد ، وعبد يجمع على عبيد ، فالعبد الذي يجمع على عبيد هو عبد القهر ، الإنسان مقهور بصحته ، يكون ملك تتجمد قطرة دم في أحد شاريين دماغه ، فيصاب بالشلل ، لو أتى بأطباء أهل الأرض لا ينجو من هذا المرض ، فكل إنسان مقهور بالمرض ، بأي لحظة يفقد الإنسان نطقه ، هذه النقطة التي لا ترى بالعين إذا تجمدت في وعاء من أوعية الدماغ لفقد الإنسان نطقه ، وفي وعاء آخر يفقد رؤيته ، وفي وعاء ثالث يفقد ذاكرته ، وفي وعاء رابع يفقد عقله ، وهذا القلب هناك سكتة قلبية فجأة ، احتشاء بالأربعين ، انتهى ، نام فلم يستيقظ ، فالإنسان مقهور بصحته ، مقهور بأي جهاز من أجهزته ، تارة تنمو الخلايا نمواً عشوائياً ، انتهى ، ألف نوع للسرطان ، في الدم، والدماغ ، وجهاز الهضم ، والعضلات ، والعين ، والجلد ، وتارةً تجمد الدم في بعض أوعية الدماغ ، أو في أي وعاء آخر ، وتارة ضيق في الشريان التاجي ، قطر هذا الشريان ميلي وربع ، إذا ضاق دخل الإنسان في متاعب لا تنتهي ، يحتاج إلى قسطرة ، ويحتاج إلى عملية فتح قلب ، وزرع شريان ،

ومئات الألوف ، وقد لا يتحسن ، وقد يعطب ، الإنسان مقهور ، مقهور في رزقه ، قد يفقد كل ماله بحريق ، قد يفقد كل حريته بطاغية يودعه في السجن ، قد يفقد أولاده بحادث الإنسان مقهور ، مقهور في صحته ، مقهور في رزقه ، وفي أهله ، تكون زوجة في ريعان الشباب ، وهي في أعلى درجة من الجمال ، وضمن طموح زوجها ، ورم خبيث ، تنتهي في ريعان الشباب ، الإنسان مقهور في صحته ، مقهور برزقه ، مقهور بزوجته ، مقهور بأولاده، مقهور بمجتمعه ، قد يقع حادث سير ينقطع عموده الفقري ، فالعبد الذي جمعه عبيد هو عبد القهر ، لذلك الملحد عبد لله ، عبد قهر في قبضة الله عز وجل، ما لم تشعر أنك في قبضة الله فلست عبداً لله ، كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من منامه صباحاً يقول :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي))

[الترمذي عن أبي هريرة]

عبد القهر و عبد الشكر :

الإنسان قد ينام فلا يستيقظ ، وقد يخرج من بيته فلا يعود ، وقد يدخل البيت فلا يخرج منه على قدمين ، بل في نعش ، وقد يسافر ويأتي كبضاعة في نعش ، له أوراق ، وتخليص ، وضرائب ورسوم ، وينتظر توقيع المعاملات ، كان يركب على مقعد الطائرة ، فإذا هو مع حقائب الركاب ، فالعبد الذي جمعه عبيد هو عبد القهر ، أما العبد الذي جمعه عباد فهو عبد الشكر ، هذا العبد الذي عرف الله فأطاعه طواعية ، وأقبل عليه محبة ، وأعطى عباده تقرباً ، هذا عبد الشكر جمعه عباد .

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان الآية : 63)

وقال تعالى :

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46))

(سورة فصلت)

وقال تعالى :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

يوم القيامة يُنشر كتاب الإنسان فكل أعماله وحركاته وسكناته وأفعاله وانحرافه مسجل :

إذاً :

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

(فَوْقَ)

لا تعني فوقية مكانية ، بل تعني فوقية العلو ،

(وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً)

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18))

(سورة ق)

هيأ الله ملكين ، ملكاً يكتب الحسنات ، وملكاً آخر يكتب السيئات ، وجعل ملك الحسنات أميراً على ملك السيئات ، وأنت حينما تسلم في صلاتك تقول : السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله ، ويوم القيامة يُنشر كتاب الإنسان ، كل أعماله ، وكل حركاته، وكل سكناته ، وكل أفعاله ، وكل انحرافه مسجل ، إن أردنا العبارة الحديثة مسجل صورةً وصوتاً وبالألوان .

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14))

(سورة الإسراء)

الآن من أحدث طرق التحقيق في الدول المتقدمة أن هذا الإنسان يصور ؛ مثلاً تصور مركبته وهي تخالف ، يبلغ المخالفة ، فإذا قال : أنا لم أكن في هذا الطريق في هذا التاريخ ، يدخل إلى مكان المحفوظات يُرى صورته ومركبته في أثناء المخالفة ، وعندئذٍ يدفع المخالفة مضاعفة لأنه لم يصدق ، أن تُريه مخالفته هذا شيء مُسكت ،

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

لذلك الإنسان حينما يغفل عن يوم نأتي ربنا فرادى ، أحياناً الإنسان يموت ملايين تشيعه ، ولكنه في الحقيقة يأتي ربه وحده ،

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

أفضل إيمان الرجل أن يعلم أن الله معه وهذه المعية من أرقى مستويات الإيمان :

بالمناسبة أيها الأخوة ، أسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا ، إلا اسم العدل فهذا محقق جزئياً في الدنيا وليس كلياً ، الله عز وجل يكافئ بعض المحسنين لتكون هذه المكافئة تشجيعاً لباقي المحسنين ، ويعاقب بعض المسيئين ليكون هذا العقاب ردعاً لبقية المسيئين ، ولكن عدله التام يتحقق يوم القيامة .

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

(سورة الروم الآية : 27)

وقال تعالى :

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15))

(سورة طه)

نحن في دار ابتلاء ، وقد تجد إنساناً وهو في أعلى درجات الطاعة وفي أدنى درجات السلم الاجتماعي، وقد تجد إنساناً يعصي الله جهاراً ونهاراً وهو في أعلى درجات السلم الاجتماعي .

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

الذي كان لا يؤبه له أشعث أغبر ذي طمرين تراه يوم القيامة في أعلى عليين ، والذي كان في أعلى درجات العلو في الأرض قد تجده يوم القيامة في أسفل السافلين ،

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً)

هؤلاء يحفظون كل الأعمال بشكل واقعي ، لو علمت أن خطك الهاتفي مراقب كيف تتكلم ؟ هل تنطق بكلمة سلاح ؟ مستحيل ، هل تنطق باسم إنسان معادٍ للنظام ؟ مستحيل ، إذا علمت أن هاتفك مراقب ، فإذا علمت أنه

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

عندئذٍ تعلم أن الله معك ، وأفضل إيمان الرجل أن يعلم أن الله معه ، وهذه المعية من أرقى مستويات الإيمان ، أُعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ،

(وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً)

نحن في الدنيا محكوم علينا جميعاً بالموت مع وقف التنفيذ :

أيها الأخوة ، نحن في الدنيا محكوم علينا بالموت جميعاً مع وقف التنفيذ ، كل واحد له أجل ، ولا يدري أحدنا متى الأجل ، قد يكون بعد ساعة ، بعض الأخوة الكرام جاء إلى هذا المسجد ليصلي صلاة الجمعة فمات في القاعة ، وهو يستمع إلى الخطبة ، بعض الأخوة نام فلم يستيقظ .

تروى القصة التالية لعلها رمزية : سيدنا سليمان كان عنده ملك الموت ، وملك الموت صار يحد النظر إلى إنسان من جلسائه ، هذا الإنسان سأل سيدنا سليمان : من هذا الذي يحد النظر فيّ ؟ قال : هو ملك الموت ، فانخلع قلبه خوفاً ، فرجا سليمان الحكيم أن يأخذه إلى بلاد الهند ، على بساط الريح ، " قصة رمزية " ، نقله إلى هناك ، هناك مات ، فالتقى بملك الموت ، قال له : لماذا كنت تحد النظر فيه ، قال :

عجيب أن معي أمر بقبض روحه بالهند ، ما الذي جاء به إلى هنا ؟

الإنسان قد تكون أكفانه نسجت وهو لا يدري ، خِطط ، ومشاريع ، ونوى أن يعمر بيتاً ، ويبني معملاً، يأتي الموت بغتة ، لذلك قال بعض العلماء : الموت سهم متجه إلى كل واحد منا ، ساعة منيته وقت وصول السهم إليه ،

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

أحياناً الإنسان يهرب من الموت ، يصاب بأزمة قلبية ، فكل ظنه أنه سيموت بسبب قلبه ، ويتوقع الموت من قلبه فقط ، يعتني ، يمشي ، يخفف وزنه ، يتناول أطعمة صحية ، يأخذ الدواء بدقة بالغة ، لكنه ينتظر الموت من قلبه ، فإذا الموت يفاجئه بحادث لم يكن في الحسبان .

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11))

(سورة السجدة الآية : 11)

المرض والصحة لا علاقة لهما بالأجل لأن الأجل محدود :

أيها الأخوة :

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ (8))

(سورة الجمعة الآية : 8)

إذا كان الإنسان هارباً من جهة قوية وراءه ، المفاجئة الصاعقة أن يراها أمامه ، وهذا يحدث في الموت ،

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)

بالمناسبة أيها الأخوة ، قضية الموت لا علاقة لها بالصحة إطلاقاً ، لك عند الله وقت لا يزيد ولا ينقص، مثلاً : ثلاث وسبعون سنة ، وسبعة أشهر ، و ثمانية عشر يوماً ، وأربع ساعات ، و ست دقائق، و سبع ثوان ، أما هذا العمر فيمضيه الإنسان إما مستلقياً على فراشه مريضاً مشلولاً ، أو قائماً متحركاً نشيطاً ، هذا بحسب أن يطبق السنة النبوية في حركته اليومية ، المرض والصحة لا علاقة لهما بالأجل ، الأجل محدود ، إذا الله عز وجل يقول :

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

الموت يأتي ، الله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102))

(سورة آل عمران)

الموت بأيدينا حتى لا نموت إلا ونحن مسلمون ، قال علماء التفسير : لا ، معنى الآية الموت ليس بأيديكم ، ولكن احرصوا ألا يأتينكم الموت إلا وأنتم على طاعة لله عز وجل.

والله أيها الأخوة ، ليس على وجه الأرض من إنسان أعقل وأذكى ممن يعد لساعة الموت التي لا بد منها ، وأنا ذكرت لكم ، وأذكر كثيراً هذا المثل : الفرق بين المؤمن وغير المؤمن ، أن المؤمن يتعامل مع النص ، وأن غير المؤمن يتعامل مع الواقع ، هؤلاء الناس الشاردون عن الله عز وجل عايش ، يأكل ، ويشرب ، ويستمتع ، وينام ، ويسهر ، ويتسامر ، ويتنزه ، ويستعلي ، ويستكبر ، ويعصي ، ويغفل ، ولا يصلي ، في الواقع ليس هناك شيء مقلق ، صحته جيدة ، ماله وفير ، زوجته أمامه ، أولاده أمامه ، مركبته جاهزة ، الوقت صيف يعمل نزهات ، الوقت شتاء يكون في أماكن شتوية ، هذا يعيش الواقع ، هذا يصعق بالموت ، يصعق لأنه لم يحسب له حساباً ، لأنه لم يدخله في برنامجه اليومي، المؤمن يتعامل مع النص ، يقرأ القرآن :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ (9))

(سورة المنافقون الآية : 9)

غير المؤمن يتعامل بالواقع والمؤمن يتعامل بالنص :

غير المؤمن يتعامل بالواقع ، والمؤمن يتعامل بالنص ، تماماً كالمثل الشهير ، إنسان أراد أن يسافر إلى حمص في أيام الشتاء القارصة ، رأى لوحة خارج دمشق كتب عليها : " الطريق إلى حمص مغلقة بسبب تراكم الثلوج في النبك " ، أما الطريق في ظاهر دمشق جاف ، والشمس ساطعة ، إن تعاملت مع الواقع تابعت السير ، وإن تعاملت مع النص رجعت من ظاهر دمشق ، الآن : العاقل قرأ اللوحة يرجع، هدفه حمص والطريق مغلق ، أما الدابة فتمشي ، لا تقف إلا عند الثلج ، فالذي يتعامل مع الواقع دابة ، أما الذي يتعامل مع النص إنسان .

أيها الأخوة ، دائماً وأبداً العاقل لا يندم لأنه توقع ما سيكون ، حالة المؤمن حينما يأتيه ملك الموت وهو على طاعة الله ، وقد أنفق ماله في سبيل الله ، وقد ربى أولاده تربية صحيحة ، وقد عامل زوجته معاملة راقية ، وقد أمر أهله بالحجاب ، وقد أقام الإسلام في نفسه ، وفي بيته ، وفي عمله ، وقد بذل الغالي والرخيص في سبيل ربه ، هذا الإنسان حينما يأتيه ملك الموت ينادى :

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27))

(سورة يس)

والثاني الذي غفل عن الله ، إذا جاءه ملك الموت يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا ، من شدة الندم .

(ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62))

(ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ)

هو المولى ، هو الذي يوليك ، هو الذي يربيك ، هو الذي يرعاك ، هو الذي يهديك ، كنت عنده ، جاء بك إلى الدنيا .

هناك موتان وإحياءان :

قال تعالى :

(قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (11))

(سورة غافر الآية : 11)

الموت الأول موت العدم .

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

(سورة الإنسان)

والموت الثاني الموت في نهاية الحياة الدنيا ، والإحياء الأول إحياء الإنسان في الدنيا ، والإحياء الثاني إحياء الإنسان يوم القيامة ،

(ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ)

معنى الحق ، الشيء المستقر ، تقريباً ما يقال في العالم معظمه كذب ، ومعظمه ليس حقيقياً ، أما أي شيءٍ قاله الله عز وجل فهو حق لأنه واقع لا محالة ، لذلك في القرآن إشارات لطيفة مثلاً:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1))

(سورة الفيل)

لم يرَ أحد هذا الذي ذكر الله عز وجل ، لكن الله أراد منا أن نتلقى إخباره وكأننا رأيناها .

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ (1))

(سورة النحل الآية : 1)

معنى ذلك أنه لم يأتِ ، لكن لأن الله وعد به فكأنه أتى .

إذا كان الله مولاك فهذه من نعم الله العظمى عليك :

قال تعالى :

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ (116))

(سورة المائدة الآية : 116)

(قالَ)

فعل ماض ، لم يقع هذا الحدث ، لكن كل شيء وعد الله به أو أخبر به يجب أن تتلقاه وكأنه وقع ،

(ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ)

لذلك :

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ (257))

(سورة البقرة الآية : 257)

وقال :

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11))

(سورة محمد)

إذا كان الله مولاك فهذه من نعم الله العظمى عليك ، ومعنى مولاك يربيك ، ومعنى مولاك يؤدبك ، ومعنى مولاك يحاسبك ، ومعنى مولاك يعجل لك العقوبة في الدنيا أحياناً ، ومعنى مولاك كما ورد في الأثر القدسي :

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

ربنا عز وجل هو أسرع الحاسبين :

إذا رأى الواحد أن الله يعالجه ، ويؤدبه ، ويعاتبه ، ويسوق له بعض الشدائد على أخطائه ، وينتظر منه أن يتوب إليه ، فهذه نعمة لا تعدلها نعمة ، لكن المصاب الكبير أن يعطي الله الإنسان سؤله وهو في معصيته .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

(أَلَا لَهُ الْحُكْمُ)

الأمر له ، لو أن الله قال : ألا الحكم له ، أي له ولغيره ،

(أَلَا لَهُ الْحُكْمُ)

له وحده .

الآن دول ، وقوى ، وحروب ، وخطط ، ومؤامرات ، وكل إنسان يدعي أنه يعمل لصالح الأمة ، وكل إنسان يدعي أنه يعمل لصالح البشرية ، لكن الله سبحانه وتعالى يفصل بينهم يوم القيامة والحكم له وحده،

(أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

وقد سمح الله جل جلاله لذاته العلية أن يوازنها مع عباده ، إنسان يحسب ، حاسب ، والله عز وجل أسرع الحاسبين ، هو تبارك الله أحسن الخالقين ، وأسرع الحاسبين ، فحساب الله عز وجل يكاد يختفي الزمن منه ، أنت الآن أمام حاسوب ، بمستوى رفيع جداً ، حديث جداً ، تعطي الأمر ترى على الشاشة النتيجة فوراً ، يكاد الزمن يختفي ، سرعته عالية جداً ، المعالج قوي جداً ، فإذا كان خالق الأكوان يقول: كن فيكون ، قال علماء التفسير : حتى كن فيكون للتقريب ، لأن كن تحتاج إلى زمن ، كن ثانيتين، حتى كلمة كن للتقريب ، لكن بين الأمر والتنفيذ ليس هناك زمن إطلاقاً ، بين الحساب والنتيجة ليس هناك زمن إطلاقاً ، أحياناً تعطي إنسان مسألة يستغرق حلها ساعات طويلة ، أما ربنا عز وجل فهو أسرع الحاسبين ، فهذا كلام يعرفنا بذات الله جل جلاله ، وهذا يقتضي أن نكون كما أراد الله عز وجل من عبيد الشكر ، لا من عبيد القهر .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(22-73): تفسير الآيات 63-65 ، توافق الإيمان مع الفطرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-05-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة الأنعام .

الإيمان الفطري :

مع الآية الثالثة والستين ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63))

أيها الأخوة الكرام ، أولاً : حقائق الإيمان أودعها الله في جبلة الإنسان ، من أي جنس ، من أي لون ، من أي دين ، من أي مذهب ، من أي اعتقاد ، من أية طائفة ، حينما يدلهمّ الخطب تقول : يا الله ، أي إنسان على وجه الأرض حتى لو كان ملحداً عندما يواجه خطراً ماحقاً يتوجه إلى الله عز وجل ، تكلمت بهذا الكلام لأن طائرة تقلّ خبراء من دولة تؤمن بأنه لا إله ، ودخلت هذه الطائرة في سحابة مكهربة ، وكان وقوعها وشيكاً ، فإذا بهؤلاء الخبراء وقد ملؤوا الدنيا كلاماً بأن الله غير موجود دون أن يشعروا رفعوا أيديهم واستغاثوا بالله عز وجل لينجيهم من هذه الكارثة .

لذلك مفهوم الألوهية مودع في أعماق النفس البشرية ، هذا ما يسمى الإيمان الفطري ، إلى من نتوجه إذا شحت السماء ؟ إلى من نتوجه إذا ادلهمّ الخطب ؟ إلى من يتوجه المريض إذا أصيب بمرض عضال؟ إلى الله وحده ، وينسى كل الذين أشركهم من الله عز وجل .

أيها الأخوة ، ولكن لي تحفظ على هذا الموضوع ، وهو أنه جميل جداً أن تتوجه إلى الله في أثناء الشدة، ولكن الأجمل من ذلك أن تتوجه إليه وأنت في رخاء ، وأنت في بحبوحة ، وأنت في صحة ، وأنت في شبابك ، ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب في مقتبل الحياة يغلي حيوية ونشاطاً ، ومع ذلك يضبط نفسه وفق منهج الله .

لو عدنا إلى أصل فطرتنا لأدركنا جمال الكون :

على كلٍ :

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

الحقيقة أن الكون فيه ظلام وفيه نور ، ولو تعمقنا في حكمة الظلام ، لولا الظلام لما انتفعنا بالنور ، جعل الله الليل سكناً ، وجعل الله النهار معاشاً ، فهذه الحركة والنشاط في النهار أساسها أن أعضاءك وحواسك وعضلاتك وأجهزتك استراحت في الليل ، كأن الله سبحانه وتعالى صمم الليل كي نأوي إلى بيوتنا ، وكي ترتاح أجسامنا ، لكن الحضارة الحديثة جعلت الليل نهاراً ، والنهار ليلاً ، وهذا المرض شاع بين المسلمين ، فلا أحد ينام إلا بعد منتصف الليل ، ولا يستيقظ على صلاة الفجر إلا وهو محطم من شدة التعب ، ولا يستطيع أن يركز إلا في ساعة متأخرة جداً من النهار ، ينام إلى الظهر كي يستطيع أن يركز ، طبيعة الحياة ، والكهرباء ، وما في البيت من ملهيات جعلت الإنسان يبحث عن اليقظة في وقت النوم ، ويبحث عن النوم في وقت اليقظة . ولو تصورنا أننا عدنا إلى أصل فطرتنا ، إلى النوم الباكر ، وإلى الاستيقاظ الباكر لأدركنا جمال الكون :

((وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْواً))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6))

(سورة المزمل)

أيها الأخوة ،

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

هل الأرض إلا بر وبحر ، أنت إما أن تكون في البر أو في البحر ، طبعاً يقاس على البحر أن تكون في الجو ، فالإنسان إما أن يكون في البر ، أو في البحر ، أو في الجو ، الأخطار في الجهات الثلاث واحدة ، لكن الإنسان لجهله يتوهم أنه آمن في البر مع أن البر يزلزل أحياناً فلا يبقى شيء .

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا (74))

(سورة الحجر الآية : 74)

ما من شيء ثابت ، إلا أن يضمن الله لك الثبات ، فالبناء الذي استغرق إنشاؤه سنوات طويلة يصبح أنقاضاً في ثوانٍ ، هذا الزلزال .

الكوارث التي تأتي لها تفسير إلهي :

باخرة من أعظم البواخر صنعت في عام 1912 اسمها التيتانيك ، هذه الباخرة صممت بحيث لا تغرق، جدرانها كلها من طبقتين ، فلو خُرقت الطبقة الخارجية الطبقة الداخلية تحول بين الماء وبين وصوله إلى الداخل ، حتى إنهم كتبوا اجتراءً على الله : هذه الباخرة لا يستطيع القدر إغراقها ، بل إن هذه الباخرة لم تزود بقوارب النجاة لأنها لا تغرق ، وفي أول رحلة لها من أوربة إلى أمريكة ، وعلى متنها نخبة أغنياء أوربة ، وقد قدرت حلي النساء بالمليارات ، هي مدينة عائمة ، وفي طريقها إلى أمريكة ارتطمت بجبل ثلجي قسمها شطرين ، ولم ينجدها أحد ، لأن إشارات النجدة توهموها احتفالات على هذه الباخرة ، ومات عدة آلاف ، فقال بعض القساوسة وقتها : إن غرق هذه السفينة درس بليغ من السماء إلى الأرض ، وزلزال تسونامي أيضاً درس بليغ ، الكوارث التي تأتي لها تفسير إلهي .

على كلٍ أيها الأخوة ، يشير الله عز وجل في هذه الآية إلى أن الإيمان متوافق مع الفطرة ، فأنت في النهاية لا تلتجئ عند الشدة إلا إلى الله ، بل مرةً حدث في بلدنا رياح عاتية حطمت مئات البيوت الزجاجية ، فقال لي أحدهم : الناس على اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم وطوائفهم قالوا : إن المسيء أدبه الله عز وجل ، فهناك إيمان فطري ، وإيمان عقلي ، وإيمان نقلي ، الآية هنا تتحدث عن الإيمان الفطري :

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

الإنسان قد لا ينتبه أنه يتمتع بأجهزة سليمة ، وبحواس سليمة ، وبقدرة على الحركة ، يتمتع بصحته تمتعاً عالياً ، لكنه لو علم أن أي خلل في أعضائه يجعل حياته جحيماً لا يطاق ، فأنت إذا كنت معافىً فينبغي ألا تنسى أن هذا فضل من الله عظيم ،

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

الحقيقة أن الظلمات أنواع ؛ هناك ظلمات حسية ، وظلمات عقلية ، أحياناً تطرح شبهات ، لو أن الإنسان التجأ إلى الله عز وجل لبدد الله له هذه الشبهات ، ولا سيما في هذه الأزمان الشبهات تطرح على هذا الدين ، على هذا القرآن ، على هذا الإسلام ، على المسلمين فالله عز وجل متكفل أن يبدد لك هذه الشبهات ، لو فهمت الظلمات شبهات فالله هو الذي يبددها ، فإذا قرأت القرآن قراءة واعية متأنية ، ورافق هذه القراءة طهارة نفسية لوجدت أن كل سؤال ألقي في خاطرك حار فيه عقلك أجابك الله عليه في القرآن الكريم ، هذا معنى .

لا يحقق شيء على وجه الأرض في ملكوت الله عز وجل إلا بتوفيق الله :

أحياناً الشبهات ظلمات ، القضية غامضة ، القضية تحير ، كيف نوفق بين هذه الآية وهذه الآية ؟ كيف نوفق بين وعود الله في القرآن الكريم وواقع المسلمين ؟ كيف نوفق بين النمو الاقتصادي وتحريم الربا ـ مثلاً ـ ؟ فالطرف الآخر يطرح شبهات دائماً ، وأحياناً هناك ظلمات أخطار ، أخطار في البر ، وأخطار في البحر ، هذه ظلمة ، قد لا تجد ماء لإرواء زرعك ، وقد لا تجد مالاً لشراء البضاعة ، وقد لا تجد دواء لمرض عضال ، فكأن العلماء بيّنوا أن هذه الظلمات بعضها فكري ، بعضها من نوع الشبهات ، وبعضها حسي من نوع المصائب ، هي ظلمات ، وقد رمز الله إلى الذي يعكر صفو الإنسان ، والذي يوقعه في حيرة ، والذي يربكه بالظلمات ، والله وحده ينجيه منها . أحياناً تأتي الآية الكريمة :

(لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58))

(سورة النجم)

الآن يعيش العالم الإسلامي ظلمات ليس لها من دون الله كاشفة ، ولا بد من تدخل إلهي مباشر ، لأنه كحل أرضي يبدو بعيداً جداً ، إذاً :

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

فأينما كنت هناك أخطار ، لذلك قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ (88))

(سورة هود الآية : 88)

وقد قيل : إن هذه الآية من أعمّ الآيات في القرآن الكريم ، فأيّ هدف لا يحقق إلا بتوفيق الله ، إن كان الهدف شخصياً ، أو جماعياً ، عاماً ، أو خاصاً ، لا يحقق شيء على وجه الأرض في ملكوت الله عز وجل إلا بتوفيق الله ، لذلك كان من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام :

((اللَّهُمَّ لا سَهْلَ إلاَّ ما جَعَلْتَهُ سَهْلاً ، وأنْتَ تَجْعَلُ الحَزْنَ إذَا شِئْتَ سَهْلاً))

[رواه الحاكم عن ابن عمر]

مادام الأمر بيد الله فالتعامل مع الله وفق القواعد تعامل علمي :

أنا أتكلم أو أخاطب الشباب ، أنت في مقتبل العمر ، صحتك ، دراستك ، عملك ، حرفتك ، زواجك ، مستقبلك بيد الله عز وجل ، ومادام الأمر بيد الله فالتعامل مع الله وفق القواعد ، تعامل علمي .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (21))

(سورة الجاثية الآية : 21)

أنا أؤكد لكل شاب أنك إذا خطبت ود الله عز وجل ، وأخلصت له ، وضبطت جوارحك وفق منهجه فمستقبل زاهر ينتظرك ، بعيداً عن كل معطيات البيئة ، والعصر ، والأزمات ، والصعوبات ، والعقبات، ليس في الكون إلا الله .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ (84))

(سورة الزخرف)

وقال :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (21))

(سورة الجاثية الآية : 21)

آية ثانية :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

وقال :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

وقال :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص)

لو أن المسلمين توجهوا إلى الله مخلصين لأمدهم الله بعناية وحفظ وتأييد ونصر :

إذاً :

(ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

إما أن تفهمها مشكلات لا حل لها ، أو نوازل مدمرة ، أو شبهات في قلب المؤمن يحار في حلها ، فالله عز وجل ينجيك من كل إشكال في عقيدتك ، أو في تصوراتك ، ومن كل إشكال في حياتك ، أو في بيتك ، ومن كل إشكال في مجتمعك ، لو أن المسلمين توجهوا إلى الله مخلصين لأمدهم الله بعناية وحفظ وتأييد ونصر ، لكنهم وقعوا في الشرك ، تعلقوا بمن في الأرض ولم يتجهوا إلى من في السماء ، اصطلحوا مع من في الأرض ولم يصطلحوا من في السماء ، توهموا أن في الأرض قوى سلامتهم بإرضائها ، وتدميرهم بغضبها ، ونسوا الواحد القهار .

" أنا ملك الملوك ومالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخطة والنقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، وادعوا لهم بالصلاح ، فإن صلاحهم بصلاحكم " .

من أروع ما يفهم في هذا الموضوع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو حديث جامع مانع موجز ، قال :

((لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه))

[مسند الفردوس عن علي بن أبي طالب]

القوى المخيفة في الأرض جبارة ، وعاتية ، وقوية ، وقاسية ، ولا ترحم ، ولكن ينبغي ألا تخاف منها لأن الله عز وجل يبين أن هؤلاء الأقوياء بيد الله عز وجل .

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُون (55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

معنى التوحيد :

اجعل هذا الحديث شعاراً لك :

((لا يخافن العبد إلا ذنبه))

إذا وقع في إشكال،

((ولا يرجون إلا ربه))

كلام جامع مانع فيه كل شي ، بل يمكن أن تضغط علاقتك مع الله كلها في هذا الحديث ،

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه))

((من كان همه الآخرة جمع الله شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له))

[أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس]

" عبدي أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد " .

هذا هو التوحيد ، كم قوة في الأرض طاغية يد الله فوق أيديهم ؟

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا (2))

(سورة فاطر الآية : 2)

وقال :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84))

(سورة الزخرف)

وقال :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف)

هذا هو التوحيد ، ألا ترى مع الله أحداً ، أن ترى أن يد الله تعمل وحدها في الكون ، هؤلاء الذين يتحركون يسمون في الإعلام صُناع القرار هؤلاء ليسوا صُناع القرار ، إنما هم أدوات بيد الله عز وجل.

يتضرع الإنسان إلى الله حينما ييأس من حلٍّ أرضي :

التوحيد مريح أيها الأخوة ، ولا سيما في هذه الأزمات ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، لا يعقل ولا يقبل أن يأمرك الله أن تعبده ثم يسلمك إلى بعض عباده الأقوياء ، قال :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ (123))

(سورة هود الآية : 123)

متى أمرك أن تعبده ؟ بعد أن طمأنك ،

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً)

تضرع حينما تيأس من حل أرضي ، ولحكمة بالغةٍ بالغة من أجل أن يلجئك إليه يغلق لك كل الأمل الأرضي قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2))

(سورة الطلاق)

أنت متى تبحث عن مخرج ؟ إذا رأيت الأبواب كلها مغلقة ، أحياناً تغلق الأبواب كلها في وجه المسلم، لأن هناك ضعفاً بإيمانه ، وهناك شرك خفي يعاني منه ، فحتى يلجئه الله إلى السماء لا بد من أن يقطع أمله من أهل الأرض ، ولكي يقطع أمله من أهل الأرض لا بد من أن يلهم هؤلاء الذين اعتقد أن مصلحته عندهم أن يبعدوه عنهم ،

(تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً)

يمكن أن تدعو الله جهراً ويمكن أن تدعوه وأنت صامت :

أحياناً الدعاء في نفسك :

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (3))

(سورة مريم)

بالمناسبة كفكرة إيجابية ، يمكن أن تدعو الله وأنت صامت ، يمكن أن تدعوه وأنت صامت .

أقسم لي رجل ، كنت في طريقي إلى مدينة في الساحل ، فرأيت مسجداً على الساحل رائعاً صليت فيه، ثم التقيت مع الذي أنشأه ، قال لي : أنا قبل عشرين عاماً أنهيت خدمتي الإلزامية ، وأردت أن أسافر إلى الخليج ، وأنا في الطائرة في ذهابي إلى الخليج ـ أقسم لي بالله لم يحرك شفتيه ـ لكن نادى ربه نداءً خفياً ، قال : يا رب ، إن أكرمتني فسأنشئ مسجداً في هذا المكان ، وقد أكرمه الله عز وجل ، فلما عاد كان لإنشاء هذا المسجد عقبة كبيرة ، المسجد لا ينشأ إلا في منطقة منظمة ، فحدثني عن تفاصيل هذه القصة ، نادى ربه نداءً خفياً ، أنت يمكن أن تنادي الله وأنت ساكت ، أحياناً تكون في موقف الكل ينظر إليك وأنت في أمسّ الحاجة إلى الله ، ليس ضرورياً أن تحرك شفتيك .

مرة الحسن البصري لما قام بأمانة الدعوة إلى الله ، وأمانة التبيين ، فبلغ الحجاج أنه تحدث عن بعض تصرفاته ، وكان الحجاج جباراً وطاغياً ، فقال : يا جبناء ، والله لأروينكم من دمه ، وأمر بقتله ، وجاء بالسياف ، ومد النطع ، القماش الذي يمنع وصول الدم إلى الأثاث ، وجيء بالحسن البصري ، لما دخل على السياف ورأى السياف مستعداً لقتله ، وأدوات القتل جاهزة ، حرك شفتيه ، فإذا بالحجاج يقف له ، ويقول : أهلاً بأبي سعيد ، وما زال يدنيه حتى أجلسه على سريره ، واستفتاه في موضوعات عديدة ، وضيفه ، وأكرمه ، وشيعه إلى باب القصر ، السياف والحاجب صعقا ، تبعه الحاجب قال له : يا أبا سعيد ، لقد جيء بك لغير ما فعل بك !! فماذا قلت ، وأنت داخل ؟! قال : قلت : يا رب ، يا ملاذي عند كربتي ، يا مؤنسي في وحشتي ، اجعل نقمته برداً وسلاماً ، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

كلما تذللت لله رفعك وكلما تكبرت واستنكفت عن عبادته وتأبيت أن تطيعه أذلك :

هذه الفرصة الرائعة لكل واحد منا متاحة ، أن تنادي ربك نداءً خفياً ،

(تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً)

التضرع ؛ هو التذلل ، أنت كلما تضرعت إلى الله عز وجل رفعك ، وزادك عزاً ، وكلما تذللت إلى إنسان زادك ضعةً .

اجـعل لربك كـل عزك يستقر ويثـبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

المؤمن يعتز بالله ، ويحتمي بالله ، ويعتمد على الله ، ويتوكل على الله ، ويلجأ إلى الله ، ويستعيذ بالله ،

(تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً)

يعني تذللاً ، قضية يسمونها بالمنطق معادلة متعاكسة ، كلما تذللت لله رفعك .

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

وكلما تكبرت ، واستنكفت عن عبادته ، وتأبيت أن تطيعه أذلك .

والله هناك قصص أيها الأخوة إنسان يصاب بذل ما بعده ذل ، تهان كرامته ، تنتهك حرماته ، يؤخذ ماله ، يشيع في الناس عنه أسوأ الأخبار .

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ (18))

(سورة الحج الآية : 18)

كأن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أنك تكون في أعلى درجة عند الله حينما تدعوه ،

(تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً)

تدعوه متذللاً ، لذلك لعل النبي عليه الصلاة والسلام استنبط من هذه الآية أن صلاة الاستسقاء ينبغي أن تذهب إلى المصلى بثياب ليست أنيقة ، أنت ضعيف بقدر ما تستطيع بينك وبين الله تذلل ، فإذا ربنا عز وجل يرفع لك ذكرك ، ويعلي قدرك ، ويجعل لك هيبة يهابك الناس بها ، من هاب الله هابه كل شيء ، ومن لم يهب الله أهابه الله من كل شيء ،

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

إذا عاهدت الله عز وجل على شيء فبطولتك أن تنجز هذا العهد :

بربكم هل وقع أحدنا في مأزق ، أو في أزمة ، أو في شبح مصيبة ، أو في شبح مرض ، أو في شبح خسارة ، ودعا الله عز وجل من أعماق أعماق قلبه ، وعاهده أنه إذا فرج الله عنه ليكونن من الشاكرين ؟ ثم قصّر في الوفاء بوعده ، آية تحرك المشاعر :

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102))

(سورة الأعراف)

أنت إذا عاهدت الله عز وجل على شيء بطولتك أن تنجز هذا العهد ، وتحقق هذا الوعد ،

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64))

(سورة الأنعام)

أحياناً الإنسان في ساعة الشدة الشديدة لا يرى إلا الله ، فإذا ارتفعت حرارة ابنه ، وقال له الطبيب : التهاب سحايا خطر ، حياته في خطر ، ودعا الله عز وجل من أعماق أعماقه ، فلما شفي ابنه عزى الشفاء إلى الطبيب ، الطبيب معه بورد ، صار الطبيب معه بورد ، والدواء الذي أتى به أجنبي ، فعاليته عالية جداً ، ونسي أن الله أذن له بالشفاء ، هذا خطأ كبير :

(لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63)قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64))

أيضاً بطولتك بعد الرخاء ، دعوت الله فاستجاب لك ، وأزاح عنك كل كرب فالبطولة أن هذا الشفاء ، وهذا النجاح ، وهذه الإزاحة ينبغي ألا تعزوها إلى مخلوق ، اعزُها إلى الخالق .

لا بدّ من الالتجاء إلى الله عز وجل لأنه من اعتز بغير الله ذلّ :

هذا يذكرني إلى أن السيدة عائشة حينما شاع عنها حديث الإفك ، وشاع عنها أنها زنت ، وهي السيدة الأولى ، وهي الطاهرة ، وهي التي كان النبي يحبها حباً جماً ، وتأخر الوحي في تبرئتها أربعين يوماً كي يعلم الناس أن الوحي ليس بيد رسول الله ، لو كان بيده لجاءت آية التبرئة بعد ساعة من الاتهام ، ولكن جاءت التبرئة بعد أربعين يوماً ، فحينما نزلت آيات التبرئة قال أبوها الصديق لها : قومي إلى رسول الله فاشكريه ، قالت : والله لا أقوم إلا لله ، بحضرة النبي ، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال : " عرفت الحق لأهله " .

أنت حينما يزاح عنك كرب ، تزاح عنك مصيبة ، تزاح عنك ضائقة ، تشفى من مرض عضال ، انتبه إلى ما تقول ، يجب أن تعزو ذلك إلى الله ، وأن تقوم إلى الله شاكراً ، وقد شرع النبي لنا ركعتي الشكر، أو سجود الشكر ، اسجد لله ، وقل : يا رب ، لك الشكر والحمد أن أنقذتني ، أقم علاقة مع الله ، أقم علاقة معه ، اسأله ، استغفره ، تب إليه ، قل : يا رب أقِل عثرتي ، يا رب آمن روعتي ، يا رب اغفر زلتي ، يا رب أعني على نفسي ، لا بد من حوار بينك وبين الله ، لا بد من التجاء إلى الله عز وجل ،

(قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

ورد في بعض الآثار أنه :

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا ، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف له ذلك من نيته إلا جعلت الأرض تحت قدميه ، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

من اعتز بغير الله ذل ، من اعتز بغير الله ضل ، من اعتز بغير الله افتقر ، من اعتز بغير الله انتكس ، كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة .

أخواننا الكرام ، فيما سمعت في بعض السنوات إمام الحرم صلى التراويح ، وفي يوم الختم في ليلة السابع والعشرين دعا دعاءً مطولاً اقترب من ساعة ، وقد خصص في هذا الدعاء دعاء على هؤلاء الذين يغتصبون في فلسطين ، ويقتلون ، ويهدمون ، ويحرقون ، ويقتلعون الأشجار ، ويردمون الآبار ، ويذلون الناس ، دعا عليهم ما يزيد على خمس عشرة دقيقة ، وبكى بكاءً شديداً ، في هذا الوقت بالذات توجهت طائرتان كبيرتان تحملان مئة وخمسة وعشرين ضابط كومندس ، وكل ضابط مكلف بالملايين، يتقن اللغة العربية والعامية واللغة المحلية ، يتقن السلاح الأبيض ، يتقن الصراع الياباني ، يتقن استخدام أدق الأسلحة ، وهؤلاء الضباط الكبار توجهوا إلى جنوب لبنان كي يأخذوا رهائن من المساجد ليلة القدر ، فإذا بالطائرة الأولى تقع على الطائرة الثانية ، وإذا بالطائرتين تقعان على مستعمرة إسرائيلية، والثابت أنه منذ أن تأسست إسرائيل من عام 1948 حتى الآن لم تمنَ بخسارة بشرية تفوق هذه الخسارة ، مئة وخمسة وعشرون ضابطاً .

ربما كانت المصائب نعماً باطنة :

أنت حينما تدعو الله عز وجل صادقاً يستجيب لك ، حتى الصندوق الأسود حينما قرؤوا ما فيه آخر كلمة قالها الطيار الذي في الأعلى ، قال : أنا أسقط ولا أدري لمَ أسقط ، إذاً :

(قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

محور هذا الدرس أن الله سبحانه وتعالى يسوق بعض البلاء لعباده كي يلجؤوا إليه ، كي يقفوا على أبوابه ، يلجئهم إلى العبودية له ، كي يكرمهم ، كي يرحمهم ، كي ينصرهم ، كي يرفع شأنهم ، كي يعطيهم عطاء كبيراً ، كي يدخلهم الجنة ، فدققوا أن هذه المصائب ربما كانت نعماً باطنة ، ثم يقول الله عز وجل :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65))

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

الصواعق ، الصاعقة تدمر كل شيء ، هناك صواعق تأتي على بيت كل من في البيت يُحرق ، من مئتين إلى ثلاثمئة ألف فولت كهرباء ، يُحرق كل شيء ، طبعاً الصواعق دائمة ، أما الشيء الحديث الصواريخ ، هناك صواعق وفي صواريخ ،

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

الزلازل ، ثلاثمئة ألف إنسان ماتوا في زلزال شرق آسيا ، خمسة ملايين إنسان بلا مأوى ، أخبار الزلزال تعرفونها جميعاً ،

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

صواعق وصواريخ ، وزلازل وألغام ، لكن المصيبة التي لا تحتمل ،

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

الإنسان حينما يدع منهج الله ، وحينما لا يعتصم بحبل الله ، يصبح الناس شيعاً وأحزاباً وفرقاً .

لا يمكن أن يرمم ضعفنا إلا بالإيمان بالله :

الله عز وجل قال ـ دققوا في هذه الآية التي هي قانون العداوة والبغضاء ـ :

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (14))

(سورة المائدة الآية : 14)

العداوة لها قانون ، أنا حينما أبتعد عن الله ، وحينما يبتعد فلان عن الله أردنا الدنيا ، والمصالح متضاربة ، والشهوات تتصارع ، والأهداف المادية تتجاذب ، الآن ماذا يجري في العالم ؟ الصراع على الدنيا ، كل ما تسمعونه من كلام متعلق بالمبادئ كذب مصالح ، الإنسان يغطي أحياناً حركته وحربه بكلام كله كذب ، الصراع على الثروات .

إذاً

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً)

كيف يكون الناس شيعاً ؟ إذا ابتعدوا عن الله جميعاً ، ذلك لأن المعركة بين حقين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدد ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تقع معركة بين حقين ، لأن الحق الأول ينطبق على الثاني، الحق هو مستقيم بين نقطتين ، إن أردت أن ترسم مستقيماً آخر يأتي فوقه تماماً ، المعركة بين حقين لا تكون ، والمعركة بين حق وباطل لا تطول لماذا ؟ لأن الله مع الحق ، أما بين باطلين فلا تنتهي ، قد نمضي أعمارنا كلها في حرب مع أعدائنا ، لأننا لسنا كما ينبغي ، وهم ليسوا كما ينبغي ، عندئذٍ الأقوى ينتصر ، والذي يملك سلاح مجدي ينتصر ، مع غياب الإيمان من الذي ينتصر ؟ طائرة تستطيع أن

تهاجم ثمانية أهداف في آن واحد على بعد ستة عشر كيلومتر ، الطائرة المقابلة مداها ثلاثة كيلومتر وتهاجم هدف واحد ، إذاً شيء بديهي جداً أن الذين يملكون الطائرات المتطورة جداً هم المنتصرون ، إذا حذفت الإيمان كان النصر للأقوى ، هذه حقيقة ، وإذا تصارعنا على الدنيا ،

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

لا يمكن أن يرمم ضعفنا إلا بالإيمان بالله ، والله عز وجل ما كلفنا أن نعد العدة المكافئة لأعدائنا ، وهذا من فضل الله علينا ورحمته ، كلفنا أن نعد العدة المتاحة فقط ، وعلى الله الباقي ، الله يرمم ، الأمل كبير والكرة في ملعبنا .

نحتاج إلى أن نكون أقوياء والقوة تحتاج إلى إيمان بالله عز وجل :

قال تعالى :

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ (19))

(سورة الأنفال الآية : 19)

وقال :

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173))

(سورة الصافات)

وقال :

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة الروم)

وقال :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً (55))

(سورة النور الآية : 55)

لكننا حينما تركنا الله ، وابتعدنا عنه ضعفنا ، فأصبحنا لا نملك غير سلاح واحد ، أن نندد ، وأن نشجب ، وأن ندين ، وأن نستنكر ، وأن نشدد على كذا ، وأن نحل الجهة الفلانية المسؤولية ، وأن نحرق العلم ، عندنا غير ذلك ؟ والقوي يسخر منا ، هو يسر بهذا لأننا ضعاف ، أما حينما نكون أقوياء نقول كما قال هارون الرشيد ، قال له : مِن هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى كلب الروم ، ما ترى لا ما تسمع ، وانتهى الأمر .

الإله واحد ، إلههم إلهنا ، وربهم ربنا ، الإله واحد ، والقوانين واحدة ، نحتاج إلى أن نكون أقوياء ، والقوة تحتاج إلى إيمان بالله عز وجل .

حينما يأتي القضاء والقدر من الله مباشرة وقعه يكون أخف بكثير مما لو جاء من إنسان :

أيها الأخوة :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً)

يمكن أن تندرج الحرب الأهلية تحت هذا البند :

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

أيها الأخوة ، أبين لكم مرة ثانية أن بلاء الله عز وجل قد يأتي من السماء ، وقد يأتي من تحت الأرجل من الأرض ، وقد يكون حرباً أهلية ،

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

لكن يبدو أن الإنسان حينما يأتيه قضاء وقدر من الله مباشرة وقعه أخف بكثير مما لو جاءه من إنسان ، والدليل :

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17))

(سورة لقمان)

آية ثانية :

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43))

(سورة الشورى)

اللام لام التوكيد ، قد يأتي المصاب من إنسان ، فأنت بهذه الحالة تحتاج إلى توحيد أعلى ، كي توقن أن هذا الإنسان مسير ، وأن الله سمح له أن يصل إليك ، من أجل ألا تحقد حقداً لا يحتمل أن الله سمح له أن يصل إليك ، لذلك هنا ينبغي أن تصبر على قضاء الله وقدره الذي ساقه على يد فلان ، وأن تغفر لهذا الإنسان إن أمكنك أن تغفر ، أو أن تطالب بحقك إن أردت ، لكن أن تأتي المصيبة من الله مباشرة شيء ، وأن تأتي عن طريق إنسان شيء أصعب .

حينما يشيع الفساد في الأرض يجب أن نُحصن بشيئين بالاستقامة والوعي :

لذلك :

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

إذاً نحن في قبضة الله ، وتحت رحمة الله ، وحينما يشيع الفساد في الأرض قد يبتلى الناس بصراعات داخلية ، وهذا خطر جداً .

بالمناسبة ، أعداء المسلمين يدفعون المبالغ الطائلة لإثارة فتنة داخلية ، ويجب أن نحصن بشيئين بالاستقامة وبالوعي ، بالاستقامة لأنها تبعد عنا كل مصاب إلهي ، وبالوعي لأنه يبعد عنا كل مكر خارجي :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

قال تعالى :

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (14))

(سورة المائدة الآية : 14)

العداوة والبغضاء لها سبب ؛ البعد عن الله عز وجل ، أما إذا اعتصمنا جميعاً بحبل الله تكون المودة والرحمة بين المؤمنين .

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ (63))

(سورة الأنفال)

يمكن أن تكون المودة بين المؤمنين ، والتعاطف ، والتزاور ، والتضامن علامة الإيمان ، أما الخلافات على مستوى المدينة ، والبلدة ، والحي ، والعائلة ، والأسرة ، حتى داخل الأسرة ، الخلافات أساسها ضعف الإيمان ، ونسيان منهج الله عز وجل .

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(23-73): تفسير الآيات 66-70 ، الحق هو الشيء الثابت والمستقر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-06-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة الأنعام .

الفرق بين الخبر والنبأ :

مع الآية السادسة والستين ، وهي قوله تعالى :

(وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66))

لا إكراه في الدين ، النبي صلى الله عليه وسلم مبلّغ .

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21)لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

أيها الأخوة ، ثم يقول الله عز وجل :

(لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67))

ما النبأ ؟ النبأ شيء ، والخبر شيء آخر ، قد يكون الخبر تافهاً ، لكن النبأ شيء مهم ، عظيم ، والدليل:

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1)عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (2))

(سورة النبأ)

رسالة الله إلى البشر هذا نبأ عظيم ، قيام الساعة نبأ عظيم ، محاسبة الطواغيت نبأ عظيم .

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67)أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68))

(سورة ص)

الأمور تتغير لكن في النهاية لا تستقر إلا على الحق :

يختلف النبأ عن الخبر في أن الخبر يتناول أي موضوع ، ولو كان تافهاً ، لكن النبأ يتناول الموضوعات الخطيرة ، أو بتعبير آخر ؛ المصيرية

(لِكُلِّ نَبَإٍ)

الخبر العظيم الموضوع الخطير ، الحدث المصيري ،

(لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ)

هذا الحدث المصيري ، النبأ العظيم ، الخبر الخطير لا بد من أن يستقر في مكان ولا بد من أن يضله زمان ، هو مستقر في زمان مستقر ، وفي مكان مستقر ، الخبر يصبح واقعاً ، النبأ يصبح حقيقة ، الشيء الواقع الذي له زمان ، والذي له مكان ، كان خبراً فأصبح حقيقة ،

(لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ)

هذا معنى .

أما المعنى الآخر فيتضح : لو أن كرةً وضعنا في داخلها قطعة رصاص ودحرجناها ، مهما تدحرجت فلا تستقر إلا وقطعة الرصاص في الأسفل .

الأمور تتغير ، يعلو أناس ، ينخفض أناس ، يعز أناس ، يذل أناس ، يقوى أناس، يضعف أناس ، في النهاية الأمور لا تستقر إلا على الحق .

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ (12))

(سورة آل عمران الآية : 12)

وقال :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة الأعراف)

هؤلاء الذين عارضوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وحاربوه ، ونكلوا بأصحابه ، وسخروا منه ، أين هم الآن ؟ في مزابل التاريخ ، هؤلاء الضعاف ، الفقراء ، المستضعفون ، الذين عُذبوا ، وضُربوا ، وجُلدوا ، وهاجروا ، وفروا بدينهم ، أين هم الآن ؟ في أعلى عليين، الأمور لا تستقر إلا على ما هو صحيح ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

النبأ العظيم لا بد من أن يكون مستقراً ، في مكان يحويه ، وفي زمان يظله ، أو أن الأمور مهما اضطربت ، ومهما اختلفت ، ومهما اعتورها ظروف صعبة ، ففي النهاية لا تستقر إلى على ما هو صحيح .

الباطل له جولات ولكنه في النهاية زهوق :

أحياناً يصدر قانون يمنع شيئاً طبيعياً ، فطرياً ، من حق الإنسان ، يثار حول هذا القانون جدل كبير ، يناقش ، في النهاية يلغى ، الأمور لا تستقر إلا على ما هو صحيح ، ولكن تضطرب ، ولكن لحكمة أرادها الله ، الباطل له جولات ، ولكنه في النهاية زهوق ، هؤلاء الذين بنوا كيانهم على إنكار وجود

الله، وصالوا وجالوا ، واخترعوا القنابل النووية ، وامتلكوا قنابل يمكن أن تفني القارات الخمس ، ما مصيرهم ؟ تداعوا من الداخل ، وبقي الإسلام شامخاً .

مرةً زرت في بلد إسلامي متحفاً ، فإذا ساعة واقفة على رقم معين ، التاسعة وخمس دقائق ، فسألت الذين معي : لمَ هذه الساعة واقفة ؟ قال : هذه الساعة أوقفت مع موت من أراد إلغاء الإسلام في بلده إلغاءه كلياً ، وكان علمانياً ، وحارب المساجد ، والأئمة ، والخطباء ، وألغى المدارس ، وأمر الفتيات بالسفور والتفلت ليقنع الغرب أنه علماني مثلهم ، قلت هذه الكلمة وقتها : ألف طاغية يريدون إلغاء الإسلام يفطسون ، والإسلام باقٍ شامخ كالجبل .

والله قبل سنوات زرت هذا البلد ، الشيء الذي يلفت النظر لا يصدق ، أن تسعين بالمئة من النساء محجبات ، الإسلام لا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يلغيه ، بل إن الله سبحانه وتعالى بيّن وقال :

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ (32))

(سورة التوبة الآية : 32)

بربك لو توجه إنسان إلى الشمس ، ونفخ فلعلها تنطفئ ، أين مكانه الصحيح ؟ في مستشفى المجانين ، ضوء الشمس لا يمكن أن يطفأ بنفخة من رجل ، فكيف بنور الله عز وجل ،

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

وأنا أطمئنكم ، وأطمئن نفسي أن الطغاة في الأرض لا يستطيعون إلغاء هداية الله لخلقه ، يتكلمون ، يهددون ، يتوعدون ، يغلقون ثانويات شرعية ، يبدلون المناهج ، يدنسون المصحف ، لكن نحن السبب في تدنيس المصحف نحن هجرناه ، فلما هجرناه ضعفنا ، فلما ضعفنا تطاولوا علينا ، نحن السبب ، جريمة تعطيل كتاب الله أعظم بكثير من جريمة تدنيسه ، تدنيسه تحصيل حاصل ، أما تعطيله فهو الجريمة .

البطل هو الذي يصل إلى الشيء بعقله قبل أن يصل إلى الشيء واقعاً :

يا أيها الأخوة ،

(لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ)

هذا النبأ يصبح حقيقة ، في الخمسينيات في هذه البلاد مُنِع الدخول إلى المساجد إلا لكبار السن فقط ، ثمانون عاماً فما فوق ، ادخل إلى أي مسجد في بلادنا الآن ، شباب ، الأمر واضح جداً ، أسود أو أبيض ، الألوان الرمادية بدأت تختفي بين هذين اللونين ، إباحي ، وليّ ، عفيف ، زان ، أمين ، خائن ، مستقيم ، منحرف ، يؤمن بالآخرة ، يؤمن بالدنيا ، يؤمن بالقيم يؤمن بالشهوة ، يبيع دينه بعرض قليل ،

يموت من أجل دينه ، هذا كله بفضل الأحداث الأخيرة التي وضعت المسلمين في امتحان صعب ، فإما أن يكونوا مع الله والله يتولى حمايتهم ، وأعداؤهم أقوياء جداً ، يريدون أن يبيدوهم عن آخرهم ،

(لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

هنا التهديد :

(وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4))

(سورة التكاثر)

لذلك البطل هو الذي يصل إلى الشيء بعقله قبل أن يصل إلى الشيء واقعاً ، نحن كمؤمنين بطولتنا أن نؤمن بالموت ، وأن نستعد له قبل أن يأتي ، فإذا جاء فقد جاء ما هو متوقع ، وأنت مستعد له بتوبة نصوح ، وبعمل صالح ، أما الذي يعطل عقله ويفاجأ بالموت يعيش لحظته ، يعيش وقته ، ولا يخطط للمستقبل ،

(وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ (159))

(سورة النساء الآية : 159)

سيعود السيد المسيح ، وسيؤمن المؤمنون به على أنه رسول الله ،

(لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

سوف نعلم أن الله لن يتخلى عن المؤمنين ، وسوف نعلم أن للباطل جولة ثم يضمحل .

الحق هو الشيء الثابت والمستقر أما الباطل فلا بد أن يضمحل :

قال تعالى :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

(سورة الإسراء)

لكن أقول دائماً : إننا أمام امتحانين صعبين ، الأول الله عز وجل يقوي أعداءه ، يقويهم إلى أن يبدو أنهم آلهة الأرض ، دمروا فيدمرون ، اقتلوا فيقتلون ، احتلوا فيحتلون ، إلى أن يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ ثم يظهر آياته ، حتى يقول هؤلاء الجاحدون : لا إله إلا الله .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139))

(سورة آل عمران)

(لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ)

الشيء الباطل :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

(سورة الإسراء)

الزهوق صيغة مبالغة ، يعني أكبر باطل سوف يضمحل ، ومليون باطل سوف يضمحل ، صيغ المبالغة في اللغة تعني النوع أو العدد ، مليون باطل ، اعتقادي ، وسلوكي ، وقولي ، وعملي ، وغربي، وشرقي ، سوف يضمحل ، ثم أكبر باطل لا بد من أن يضمحل ،

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

ومعنى الحق الشيء الثابت والمستقر .

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ (22))

(سورة الجاثية الآية : 22)

أي إن الحق لابس خلق السماوات والأرض .

معنى كلمة (يخوض):

كشاهد على ذلك يشاع في الغرب في كل مكان أن الشاذ في سلوكه الجنسي جيناته مختلفة ، إذاً لا إثم عليه ، إذاً لا تثريب عليه ، هذه فكرة تروق للشاذين ، هم بشر أسوياء ، لكن جيناتهم خاصة ، إلى أن اكتشفت الخارطة الجينية قبل سنوات ، وأعلن كلينتون هذه الخارطة ، وأخطر ما في إعلانه أن الجينات لا علاقة لها بالسلوك إطلاقاً ،

(لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ)

هذا الباطل الذي شاع في الغرب انتهى بالخارطة الجينية ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن يُخلق الإنسان على نحو شاذ ثم يحاسب على شذوذه ، هذا مستحيل .

أيها الأخوة :

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68))

(سورة الأنعام)

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)

يخوض ، خاض ، يعني مشى في الماء ، والماء العكر لا يكشف لك قعره ، عندما يمشي الإنسان بمركبته في بركة ماء يخاف ، لعلها حفرة ، لعلها مفاجأة ، لعلها صخرة ، لا يرى شيئاً ، الماء يحجب عمن يخوض في قعره ، كأن الله عز وجل يريد أن يقول :

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ)

أي يغامرون ، يعالجون موضوعات ليسوا متمكنين منها ، يخوضون ، يمشي في بركة ماء فيها مفاجئات ، قد يكون في هذه البركة حفرة تقضي على من يمشي في الماء ، قد يكون فيها حيوان مؤذٍ ، قد يكون فيها صخرة تعيق حركة المركبة ،

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ)

هذه الصورة المادية تشبه الذي يتحدث عن يوم القيامة ، يتحدث عن القضاء والقدر ، لماذا خلق هذا أعمى ؟ هكذا ، لمَ لم يخلقنا الله من دون شهوة ؟ إذاً لا نعصيه ، يخوض في آياتنا .

الله عز وجل لا يريدنا أن نقاطع الشاردين مقاطعة تامة حتى لا يضلوا :

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)

هذا الذي يتكلم بلا دليل، يتكلم بلا تعليل ، يتكلم من غير علم ، يتكلم من غير هدى ، يتكلم من غير كتاب منير ، يتكلم فيما يتراءى له ، هذا الذي يخوض .

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46))

(سورة المدثر)

كلمة يخوض رائعة ، المتمكن من اللغة يُدرك أبعاد هذه الكلمة ،

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)

تنبيهاً لهم ، تنبيهاً لتطاولهم على الله عز وجل، تنبيهاً لجهلهم ، تنبيهاً لضعف أدلتهم ، تنبيهاً لتسرعهم، الآن في أي جلسة الإنسان يرى نفسه محور العالم ، يصحح ولا يصحح ، يصدق ولا يصدق ، بلا دليل، الشيء الذي يعجبه يقبله وما يتعارض مع شهوته يرفضه ، كم من أشياء في أصل الشرع يقول لك : هذه عادات وتقاليد لم تكن على عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، هكذا من عنده ، بلا دليل .

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتمُ حتى يكون لكم عند

***

من أنتم ؟

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا)

تجد أي إنسان بثقافة ، بإطلاع ضعيف جداً ، لم يقرأ ، لم يبحث ، لم يمحص ، لم يدقق ، يتكلم في القضاء والقدر براحة تامة ، وينفي شيء ، ويثبت شيئاً ، وينفي حكماً شرعيّاً ، وينفي الحجاب في الإسلام ، وينفي بعض الأوامر الشرعية التي وردتنا في الكتاب والسنة ، هكذا ،

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)

أشعرهم أنهم على باطل ، أشعرهم أن هذا الخوض من دون أدلة تطاول على الله عز وجل ، لكن يوجد في الآية ملمح دقيق جداً .

أنا حينما أقاطع الشارد مقاطعة تامة أنى له أن يهتدي ؟ أنا حرمته من الهدى ، فالله عز وجل يريدنا ألا تكون المقاطعة تامة ،

(حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)

لو خاضوا في حديث غيره فاجلس معهم ، بيّن لهم ، وضّح لهم ، اِئتهم بالدليل ، قدم لهم ما في هذا الكتاب العظيم ، إذاً الله عز وجل لا يريدنا أن نقاطع الشاردين مقاطعة تامة .

استدل ثم اعتقد لأن منهج الله كلٌّ لا يتجزأ :

أنا أحياناً يسألني أخ : لي أخت متفلتة قاطعتها كلياً ، قلت له : هذا لمصلحتها ، إن كان هناك صلة بينك وبينها لعلها تستحيي قليلاً ، لعلها تحسب حساباً لك ، لعلها تعتذر ، لعلها تفكر ، لعلها تراجع نفسها، أما حينما تقاطعها مقاطعة تامة فهذا الذي تريده قد حصل .

لذلك أنا لا أرى أن يقاطع الإنسان الطرف الآخر مقاطعة تامة ، والدليل هذه الآية

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)

أي أعرض عنهم مؤقتاً ، أعرض عنهم ماداموا يخوضون في آيات الله عز وجل بغير علم ، ولا هدى، ولا كتاب منير ، من دون دليل ولا تعليل .

الحقيقة الفكر المنهجي رائع جداً ، لا تجلس مع إنسان ، ينفي بلا دليل ، ويقبل بلا دليل ، بعقله الباطن الشيء الذي يحقق مصلحته أو يروي شهوته يقبله ، والشيء الذي يبعده عن مصالحه وعن شهواته يرفضه دون أن يشعر ، أو أنه يعتقد أولاً ثم يبحث عن دليل ثانياً ، وهذا خطأ كبير ، استدل ثم اعتقد ، استدل أولاً ثم اعتقد ، لا أن تعتقد ثم تستدل ، الذي يعتقد ثم يستدل يصنف في علم المنطق انتقائيّاً ، والانتقائي وصمة عار ، ينتقي من الدين ما يعجبه ويرفض ما لا يعجبه ، ومنهج الله كلٌ لا يتجزأ ، لن تقطف ثماره إلا إذا أحطته من كل جوانبه ،

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)

الإعراض موقف ، فرق كبير بين أن تُعرض ، كان عليه الصلاة والسلام إذا غضب أعرض وأشاح ، هناك إنسان إذا غضب يسبّ ، ويشتم ، ويبالغ في الإساءة ، كان عليه الصلاة والسلام إذا غضب أعرض وأشاح ، إعراضه دليل عدم ارتياحه لما يقال .

الآن في جلسة فرضاً إنسان بذيء اللسان ، تكلم بطرفة جنسية ، ينبغي ألا تضحك ، إن ضحكت أقررته على هذا الكلام الفاحش ، ينبغي ألا تضحك ، ينبغي أن تبقى صامتاً ومقطباً ، هذا الإعراض درس بليغ له ، أن هذا الكلام لا يليق في هذا المجلس .

لا تجد فرقاً بين المؤمن وغير المؤمن الآن إلا في العبادات الشعائرية فقط :

(وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

قالوا : الإنسان له حافظة تخزن له المعلومات ، وله حافظة تذكره بما هو مخزن ، وله حافظة تعينه على التخيل ، فيه مستودع ، ومعالج ، وتصور ، هذه الملكات ، لكن ثبت في علم النفس أن الإنسان لا يستطيع أن ينصرف إلى شيئين في وقت واحد ، لو أن الإنسان يتذكر فلا ينسى مستحيل أن ترد فكرة على فكرة ، لا بد من أن تنسى الفكرة الأولى حتى تأتي الثانية ، إذاً هذا نسيان طبيعي ، والدليل : ضع مسجلة على نافذة ، والبيت على الطريق ، واجلس مع صديق حميم ، وأدر معه حديثاً مهماً ، وبعد نصف ساعة افتح المسجلة ، كل الأصوات التي سجلتها أنت لم تسمعها أبداً ، شيء عجيب ، لأنك منصرف إلى موضوع ، والنفس البشرية لا تحتمل أن تنصرف إلى موضوعين معاً ، والذي يوهمك أنه يعالج قضيتين في وقت واحد عند هذا الإنسان ملكة اسمها سرعة الانتقال من موضوع إلى موضوع ، أما في وقت واحد لا تستطيع أن تنصرف إلا إلى شيء واحد .

الإنسان ينسى حتى يُدخل على منطقة المعالجة شيئاً جديداً ، النبي الكريم أو أصحابه الكرام يكونون مع الشاردين ، يخوضون فيما لا يعرفون ، فسواء أعرضوا ، أي خرجوا من المجلس أم تابعوا موضوعاً دون أن يذكروا أنهم مكلفون بالإعراض عن هؤلاء سواء فعلوا أم لم يفعلوا فالله عز وجل يقول :

(فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى)

بعد أن تتذكر ،

(مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

لا بد من أن يتمايز الناس ، ما دام المؤمن مع الطرف الآخر ، مع الشارد بالمقاصف ، بالمتنزهات ، باللقاءات ، بالحفلات ، لا تجد فرقاً بين المؤمن وغير المؤمن الآن إلا في الصلاة فقط ، المؤمن يصلي، أما أن تجد فرقاً صارخاً ، نزهة المؤمن متميزة ، ما فيها اختلاط ، ما فيها أغانٍ ، ما فيها أماكن مزدحمة ، ولا فيها أن تجلس وحولك النساء كاسيات عاريات ، والأغاني تصدح ، والخمور توزع على طاولة أخرى ، هذا ليس مكانك ، فلا بد من التمايز ، المؤمن وليمته من نوع آخر ، إن جلس مع أخوانه فالحديث متميز ، حديث رصين جاد ، يعالج قضايا مهمة ، وأنا أخشى ما أخشاه أن يبقى الفرق بين

المؤمن وغير المؤمن هذه العبادات الشعائرية ، لا ، هناك قيم ، ومبادئ ، وتصورات ، واهتمامات .

يجب أن يكون الفرق بين المؤمن وغير المؤمن صارخاً :

يجب أن يكون الفرق بين المؤمن وغير المؤمن صارخاً ، للتقريب : إنسان درس الطب في بلد غربي، ونال أعلى شهادة هناك ، البورد ، وجاء إلى بلده هذا ، ماذا يرتدي في العيادة ؟ ثوباً أبيض ، ويضع نظارة على عينيه ، وقد يضع ميزان حرارة في صدره ، وقد يضع سماعة حول رقبته استعداداً لقياس نبض القلب ، أما الشكل فهو إنسان يرتدي ثوباً أبيض ونظارة على عينيه ، ميزان حرارة في جيبه ، سماعة على رقبته ، لو جئنا بإنسان أمّي لا يقرأ ولا يكتب ، ألبسناه ثوباً أبيض ، وضعنا على عينيه نظارة ، وفي الأيسر ميزان حرارة ، وعلى قلبه سماعة قلب ، هل صار هذا طبيباً ؟

إن شاء الله لا أبالغ : الفرق بين الصحابة الكرام وبيننا هذا نفس الفرق ، المنظر واحد ، جامع ، صلاة ، وركوع ، وسجود ، وحج ، وعمرة ، لكن أين الثرى من الثريا ؟ واحد كألف ، وألف كأف .

سيدنا خالد يستنجد بسيدنا أبي بكر أن يمده بخمسين ألفاً ، يرسل له القعقاع بن عمرو ! ومعه كتاب ، قرأ الكتاب : والله يا خالد إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم ، ما هذا ؟

تجد ملياراً وثلاثمئة مليون مسلم الآن لا وزن لهم عند الله ، ليس أمرهم بيدهم ، عندهم مواقع مهمة جداً ، عندهم بترول ، عندهم ألماس ، عندهم ذهب ، عندهم عقدة مواصلات ، عندهم كل شيء ، ولغتهم واحدة ، ودينهم واحد ، وإلههم واحد ، وهم ممزقون مشتتون في الأرض ، فواحد كألف وألف كأف ، الحديث الذي في البخاري ، وقد لا تصدقون، افتراضي طبعاً :

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

اثنا عشر ألفاً لم يغلبوا في الأرض ، أما المليار والثلاثمئة مليون ، والله خطيب كبير وعالم جليل في الشام توفي قبل أشهر رحمه الله ، والله من فمه إلى أذني من غير وسيط بيننا قال لي : أنا ذهبت إلى بلد في أوربة ، أصله من هناك ، وألقى كلمة في أضخم جامع هناك ، قال لي : من عشرين إلى ثلاثين ألفاً من التأثر بخطبته جميع المصلين بكوا ، فلما تأثروا كثيراً أخرجوا من جيوبهم زجاجات خمر وشربوها، متأثرين جداً ، ما هذه الخطبة ؟ والله من فمه إلى أذني .

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105))

(سورة الكهف)

مشكلة ، عدد كبير ، والمسلمون كثر ، بعد أن سقطت بغداد ، وأصيب المسلمون بخيبة أمل ، وإحباط لا يوصف ، همّ المجتمع بالشرق الأوسط أن يختار إحدى مغنيتين ، ستة وثمانون مليون اتصال ، في

بلد آخر همه أن يتصل ببرنامج خمسة وستون مليون اتصال في عشرين يوماً ، وهذه المبالغ بالمليارات.

وعود الله عز وجل محققة لذلك يجب أن نعتب على أنفسنا لا على الله عز وجل :

لذلك لا تعتبوا على الله أيها الأخوة ، لا تعتبوا على الله ، اعتبوا على أنفسكم ، وعود الله عز وجل محققة ، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، وإذا لم تستطع أن تغير غيّر نفسك ، أقم الإسلام في نفسك وبيتك وعملك ، وانتهى الأمر ، وأنت لست مكلفاً بأكثر من ذلك ، أنا أطمئنكم ، قال تعالى :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا (286))

(سورة البقرة الآية : 286)

أنت لست مكلفاً إلا أن تقيم الإسلام في نفسك ، وفي بيتك ، وفي عملك ، بيتك مملكتك ، وعملك مملكتك ، ونفسك أنت مكلف بها .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9))

(سورة الشمس)

هذا الذي أمامنا ، والذي أتمناه أيضاً أيها الأخوة في هذه الأيام الصعبة أن نكف عن الكلام وأن نعمل ، وطرق العمل الصالح لا تعد ولا تحصى ، في أصعب الظروف ، في أشد المحن يمكن أن تفعل مليون شيء ، وشيء مسموح به ولا تؤاخذ عليه ، من يؤاخذك لو كنت صادقاً ؟ من يؤاخذك إن كنت أميناً ؟ لو كنت منصفاً ، لو اعتنيت بأولادك ، لو ربيت أسرة طيبة طاهرة ، لو أعنت زوجتك على أن تكون مؤمنة كبيرة ، من يمنعك ؟ من يمنعك أن تتقن عملك ؟ الأشياء الذي نطالب بها بين أيدينا ، لكن الإنسان ما هو مكلف به ، وما هو مطالب به يقصر في تحقيقه ، وما فوق طاقته يبحث عنه ، فتجد المسلم يتساءل : ماذا نفعل ما بيدنا شيء الآن ؟ بيدنا أولادنا ، بيدنا أن نربي أنفسنا ، أن نعود إلى ربنا ونصطلح معه .

البطولة أن ننقل الحق إلى الناس :

هذه الآية تبين علاقتك بالطرف الآخر ، إذا خاضوا في أمور الدين بلا دليل ، بلا وعي ، بلا إدراك ، بلا عمق ، بلا كتاب ، بلا سنة ، بلا نور ، بلا عقل ، أعرض عنهم ، أشعرهم أنهم مخطئون ، لكن لا تعرض عنهم كلياً ، من لهم غيرك ؟ لك أخ ، أخي أنا قاطعته، لم تفعل شيئاً ، لك أخت قاطعتها ، لا ، قاطعتها إن خاضت فيما لا ينبغي ، أما إن تحدثت عن أمور عادية ، أقم معها علاقة لعلها تهتدي

بهديك، كونك تجلس مع إنسان شارد تتذكر أنه يخوض في حديث لا يعنيك تقوم أو تنسى فتقعد ، ليست هذه المشكلة ، البطولة أن تنقل هذا الحق إلى الناس ، لأنه :

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً (32))

(سورة المائدة الآية : 32)

ثم يقول الله تعالى :

(وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69))

هم حينما يخوضون بما لا يعرفون ، حينما يخوضون بأمور عقدية كبيرة جداً بلا دليل ، بلا اهتمام ، بلا وقار ، بلا أدب ، بلا خشوع ، بلا تعظيم لحرمات الله ، حينما يخوضون هذا الخوض الله يطمئن المؤمنين أنكم لن تحاسبون عنهم ،

(وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

كل إنسان يتحمل فعله .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (164))

(سورة الأنعام)

الله عز وجل يطمئنك أنك إذا كنت في مكان ، وتكلم أحد كلاماً لا يليق فقمت عنه فهذا الكلام أنت لست محاسباً عليه ، فقد تجد أحياناً ورعاً في غير محله ، أنت لست محاسباً إذا قيل كلام في حضرتك ، وهذا الكلام لا يرضي الله عز وجل .

المؤمن مكلف أن يذكر من حوله بمعرفة الله عز وجل أولاً وبطاعته ثانياً :

هناك دليل آخر :

(وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

أهم شيء في مثل هذه المجالس أن تذكرهم بالتقوى ، بطاعة الله ، أن تذكرهم بوجود الله ، بوحدانيته ، بكماله ، بأحقية هذا الدين ، هذه طمأنة من الله عز وجل .

الوسوسة أحياناً : واحد يطوف حول الكعبة رأى لوزة ، فرفعها إلى الأعلى ، وصاح بأعلى صوته ، وشوَّش على الحجاج طوافهم ، وسعيهم ، وإقبالهم ، من صاحب هذه اللوزة ؟ فكان سيدنا عمر موجوداً، قال له : كُلْها يا صاحب الورع الكاذب .

تجد إنساناً يسأل سؤالاً ، أنا مؤاخذ إذا ما صلى إنسان ؟ لا ، لست مؤاخذاً ، يخترع ورعاً لا يصدق .

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (63))

(سورة المؤمنين الآية : 63)

هناك تعبير عامي معبر ، يبلع الثور ويغص بالذيل ، يسأل سؤالاً غير معقول ، أنه بقيت حبة سمسم بين أسنانه ، يا ترى أفطر ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ، تجده في البيع يكذب ، ويحتال ، ويدلس ، ويملأ عينيه من الحرام ، وعنده قلق شديد أنه بقيت حبة سمسم ، أكل في السحور وبقيت حبة سمسم بين أسنانه لم ينتبه لها ، يا ترى أفطر أم لم يفطر ؟ حالات بالمجتمع الإسلامي كهذه الحالات ، هذه فيها نوع من الدجل .

إذاً :

(وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

يعني هذا التوجيه أنك مكلف أن تذكر من حولك بطاعة الله عز وجل ، بمعرفته أولاً ، وبطاعته ثانياً .

اللعب عمل عابث لا طائل منه :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70))

أخواننا الكرام ، اللعب عمل عابث لا طائل منه ، الطفل أحياناً قبل أن يبلغ يمسك مركبة صغيرة حجمها بحجم بعض أصابعه ، ويمررها على الأثاث ، ويرافق التمرير صوت بالجهة الصاعدة يرفع صوته ، وبعد ذلك يخفض ، وبعد ذلك يصيبه حادث ، يعيش في عالم السيارة الصغيرة ، فلما صورته وقد أصبح طبيباً ، ومسؤولاً كبيراً ، أطلعته على هذا الفيلم ، لاستصغر نفسه ، كيف كان يلهو بهذا ؟!

اللعب عمل لا جدوى منه إطلاقاً ، عمل عابث لا هدف له ولا جدوى ولا فائدة ، هو قتل للوقت ، والآن في بعض البرامج الكمبيوترية لو أن الإنسان عاش مئتا سنة عنده كل سنة برنامج ، تستهلك الوقت والجهد بلا طائل ، أمة عابثة ، مقهى الانترنت ، ألعاب الكمبيوتر ، الأجانب يتفننون في أن يبيعونا أشياء لا تنفعنا ، فضلاً عن أنها تضرنا ، أحياناً الإباحية بلعب صغيرة ، كلما خلع قطعة عن جسم هذه اللعبة نال درجة ، بعض الألعاب إلى أن ينزع كل ثيابها ، هذه اللعبة أساسها فيها إباحية أو إلحاد ، حتى الألعاب نستوردها كي نفسد عقائدنا ، وكي نفسد ديننا ، للطفل مقبول لكن لغير الأطفال تجده إلى الساعة الثالثة بالليل يلعب النرد ، هذا أليس لعباً ؟ ماذا تفعل ؟

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً)

انظر لمعنى دينهم ، الدين ما تبين به ، ما تميل إليه ، همه الطاولة ، همه النرد ، همه أشياء لا ترضي الله عز وجل ، همه الغيبة والنميمة ، همه يشتري تحفاً ،

(اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً)

اللعب عمل عابث .

اللهو أشد من اللعب لأن اللهو أن تشتغل بالخسيس وتنسى النفيس :

قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16))

(سورة الأنبياء)

وقال :

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا (27))

(سورة ص الآية : 27)

وقال :

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39))

(سورة الدخان)

أما اللهو فهو أشد من اللعب ، اللهو أن تشتغل بالخسيس وتنسى النفيس ، اللهو أن تشتغل عن النفيس بالخسيس ، هؤلاء الذين اتجهوا إلى اللعب وإلى اللهو ، ذر هؤلاء ،

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً)

بشكل صريح ، ادرس حالة أسرة ما فيها همّ كبير ، همّ الأكل ، والشرب ، والسياحة ، والسرور ، والنوم المريح ، والحديث والخوض في فضائح الناس ، والفخر بما تملك ، وبما تعمل ، وبما تتمتع به في الحياة الدنيا ، هؤلاء إذا كان دينهم لعباً ولهواً ذرهم ، لماذا ؟ لأنهم غرتهم الحياة الدنيا ، معنى غرتهم ؛ وجدوها أكبر من حجمها .

لي صديق توفي رحمه الله ، لما كان شاباً كان يعمل موظفاً في محل تجاري في سوق الحميدية ، عنده دعابة لكن خشنة ، كان يكنس المحل ، ويجمع القمامة في علبة ، ويلفّها بورق ثمين ، يضع لها شريطاً، ووردة ، يضعها على طرف المحل ، ويتغافل عنها ، يأتي إنسان فيأخذها ، ويسرع ، يلحقه ، بعد مئة متر يفك الشريط الأحمر والوردة ، بعد مئة متر ثانية يفك الورق ، بعد مئة متر ثالثة يفتح فيجد قمامة المحل ، يلعن ، ويسب ، هذا المثل مع أنه صارخ فهو الدنيا .

أهم شيء في الحياة أن تعرف الله وتعمل صالحاً :

في البدايات المال كل شيء ، المرأة كل شيء ، بمنتصف الحياة شيء لكن ليست كل شيء ، على فراش الموت ليست بشيء ، الشيء أن تعرف الله ، الشيء العمل الصالح .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25))

(سورة الفجر)

لذلك أيها الأخوة ، هؤلاء :

(الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً)

قال لي أحدهم : نكسو بيتاً لإنسان ، قال لي : ستة أشهر لم يعتمد على جهاز التسخين ، تمديده داخلي أم خارجي ، قال لي : داخلي خاف أن يفسد بعد عشرين سنة ، فيضطر إلى تكسير البلاط ، والخارجي ليس أنيقاً ، قال لي : بقينا ستة أشهر دون أن يتخذ قراراً ، ثم اتخذ قراراً أن يجعله داخلياً ، فإذا فسد مدده خارجياً ، وتابعنا العمل ، الأمل في الحياة طويل جداً .

والله أحد أخواننا توفي ، فكنت على القبر ، فتحة القبر البلاطة التي توضع فوقها فيها فرق عشرة سنتيمترات ، وضعوا أحجاراً ، ثم أهالوا التراب ، هذا المصير ، مهما اعتنيت بالبيت ، وانتبهت للفروق الدقيقة ، وحاسبت الذي تعهد كسوة البيت على أخطاء بالمليمترات فالقبر عشرة سنتيمترات ، أحجار وضعت ، وأهيل التراب ، إذاً :

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

لذلك الله عز وجل قال :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5))

(سورة فاطر)

دين الناس في أيام التخلف الديني لعب ولهو لأن الدنيا غرتهم :

لا تراها بحجم أكبر من حجمها ، لا تراها كل شيء ، سيدنا علي قال : " طلقتكِ بالثلاث ، غري غيري يا دنيا " .

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشدة ، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ويبتلي ليجزي))

[أخرجه الديلمي عن ابن عمر]

إذاً دين الناس في أيام التخلف الديني لعب ولهو ، لأن الدنيا غرتهم ، لكن الآية تقول :

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33))

(سورة لقمان)

من هو الغرور ؟ الشيطان ، مثلاً يقول لك : النبي يشفع لنا ، الله عز وجل يقول:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19))

(سورة الزمر)

((يا عباس عم رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، أنقذا نفسيكما من النار ، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

إياك أن تصل مع الله إلى طريق مسدود :

(وَذَكِّرْ بِهِ)

القرآن ، يا محمد ،

(وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ)

أي أن تُحرم ،

(نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ)

أن تُحرم السعادة الأبدية ، أن تُحرم الأبد ، أن تُحرم جنة عرضها السماوات والأرض .

((إن في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري عن أبي هريرة]

(وَذَكِّرْ)

بالقرآن

(أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ)

أن تُحرم هذا العطاء العظيم بسبب اختيارها للدنيا ، لأنها اتخذت دينها لعباً ، ولهواً ، وغرتها الحياة الدنيا ،

(وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ)

لا أحد يواليها ، ولا أحد يشفع لها ، وسوف تلقى عملها ، أنا أقول دائماً هذه الكلمة : إياك أن تصل في علاقتك مع الله إلى طريق مسدود ، كيف ؟

إنسان ارتكب جريمة ، وحكم عليه بالإعدام ، في محكمة الجنايات ، رفع الحكم إلى محكمة النقض فصدق ، ثم رفع إلى القصر فصدق ، ثم كان يوم الإعدام ، ثم سيق هذا المجرم إلى المشنقة ، الآن يحب أن يتجلد ، يحب أن يبكي ، يحب أن يضحك ، أن يهتم ، يحب ألا يهتم ، الحكم قائم ، نقول : هذا المجرم وصل إلى طريق مسدود .

أنا أقول : إياك أن تصل مع الله إلى طريق مسدود ،

(أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا)

لو أن الدنيا بأكملها تملكها وافتديت بها لا تغنيك عن عذاب الله عز وجل .

أخواننا الكرام ، بقية الآية :

(وَذَكِّرْ بِهِ)

بالقرآن

(أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

لا بد من عودة لهذه الآية في الدرس القادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(24-73): تفسير الآيات 70-72 ، الدنيا مزرعة الآخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-06-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون ، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة الأنعام .

اللعب هو كل عمل عابث لا جدوى منه :

مع الآية السبعين ، وهي قوله تعالى :

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70))

أيها الأخوة الكرام ، في هذه الآية مصطلحات كثيرة ومعانٍ دقيقة ، والإنسان في أمسّ الحاجة إليها .

النقطة الأولى في هذه الآية : أن اللعب عمل لا غاية له ، عمل عابث ، شأن الصغار أن يلعبوا ، وكأن الذي خلقهم رسم لهم هذا اللعب لتنمو أجسامهم ، لكن طبيعة اللعب عمل لا هدف له ولا جدوى منه ، وعمل عابث ، هذا الأمر يقودنا إلى شيء في العقيدة ، نحن لماذا خلقنا ؟ لو أن الإنسان غفل عن غاية وجوده يظن أن المال كل شيء ، فكل شيء يفعله من أجل تحصيل المال ، وكل شيء يفعله بالمال يأتي ملك الموت وينهي حياته في ثانية فكل الذي حصَّله تركه وراءه .

إذاً : من دون أن تؤمن أن هناك حياةً أبدية ، من دون أن تؤمن أنك مخلوق للجنة فكل النشاط في الأرض مهما بدا عظيماً ، ما دام قاصراً على الحياة الدنيا فهو لعب ، لو وصلت إلى قمة الغنى ، ثم ماذا ؟ الموت ، لو وصلت إلى قمة السلطة ، ثم ماذا ؟ الموت ، لو انغمست في متع حسية تفوق حد الخيال ، ثم ماذا ؟ الموت ، لو جبت أطراف الدنيا ، واطلعت على القارات الخمس ، ونزلت في أفخر

الفنادق ، وحققت كل الأهداف السياحية في الحياة ، ثم ماذا ؟ الموت ، لو بنيت أجمل قصر ، ثم ماذا ؟ الموت .

الدنيا بأكملها ليست غاية بل هي وسيلة فمن جعلها غاية كان عمله لعباً :

الموضوع دقيق جداً ، ما لم تؤمن أنك مخلوق لغاية ما بعدها غاية ، فكل شيء بعد شيء وسيلة ، بعد الغنى الموت ، بعد القوة الموت ، بعد الصحة الموت ، بعد الوسامة والجمال الموت ، بعد المتع الحسية الموت ، إذاً الدنيا بأكملها بالنسبة للعقلاء ليست غاية ، بل هي وسيلة ، فمن جعلها غاية كان يلعب وكان عمله لعباً ، الذي يؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى :

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ((20))

(سورة الحديد الآية : 20)

هذه حقيقة الدنيا من عند خالق الدنيا ، من عند خالق الكون ، لذلك أيها الأخوة الكرام ، الآية التي تقصم الظهر :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

الدنيا بكل ما فيها ، لو عشت فيها عمر نوح ، ألف سنة ، لو ملكت ثروة قارون ، لو وصلت إلى أعلى منصب فيها ، لو تمتعت بصحة إلى ساعة المغادرة ، لو استمتعت بكل الشهوات الحسية في أعلى درجة من المتعة ، يأتي الموت فينهي كل شيء ، فالموت ينهي قوة القوي ، وضعف الضعيف ، وغنى الغني، وفقر الفقير ، وذكاء الذكي ، ومحدودية المحدود ، ويلغي صحة الصحيح ، ومرض المريض ، الموت يوحد البشر جميعاً .

التكريم أصل الحياة الآخرة :

أيها الأخوة ، الموضوع في هذه الآية دقيق ، أنت حينما تؤمن أنك مخلوق للآخرة تأتي حركاتك في الدنيا متناسقة مع هذا الهدف ، تصور إنساناً جاء إلى باريس ، أو إلى لندن لينال الدكتوراه ، حينما يكون هدفه واضحاً تماماً تأتي حركته اليومية بجزئيات حركته ، بتفاصيل حركاته وسكناته متفقة مع هذا الهدف ، يمكن أن يعمل في هاتين المدينتين مليون عمل لا تتصل بهدف مجيئه لهذه البلدة ، أما لو أن الهدف واضح فأول شيء : يستأجر بيتاً قريباً من الجامعة ، يوفر المال والوقت والجهد ، الشيء الثاني : يصاحب صديقاً يتقن اللغة الفرنسية ، يتعلم منه النطق ، الشيء الثالث : يأكل طعام يعينه على الدراسة ، يشتري مجلة من جنس اختصاصه ، يمكن أن أذكر لك مئة تصرف لهذا الإنسان الذي هدفه واضح ، كل هذه التصرفات نابعة من إيمانه أنه جاء إلى هذه البلدة كي ينال الدكتوراه . لكن إنساناً ذهب إلى هناك ، ونسي الهدف ، مرة بالمسرح ، مرة بالسينما ، مرة في سباق الخيل ، مرة يتنزه في الغابات ، مرة تسقط قدمه بالفواحش والموبقات ، ضائع . نحن في الدنيا ، أنت حينما تعرف أنك فيها لوقت محدود ، وأن هذه الدنيا سماها الله حياة دنيا تهيئة لحياة عليا ، وأن الحياة العليا التي فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر ، وأن أصل الحياة الآخرة هي التكريم :

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا (35))

(سورة ق)

أنها إلى أبد الآبدين ، وأن هذه الحياة ليس فيها مرض ، ولا فقر ، ولا قهر ، ولا اجتياح ، ولا نقص مواد ، ولا نقص مياه ، ولا ابن عاق ، ولا زوجة سيئة ، ولا دخل قليل ، ولا اغتصاب ، ما فيها شيء سيء ،

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

وأنها إلى أبد الآبدين ، وكل يوم تكون فيه أسعد من اليوم الذي سبق ، لكن هذا الثمن الباهظ يدفع في الدنيا ، فأنت حينما تؤمن هذا الإيمان تختار زوجتك لتعينك على هذا الهدف ، تختار حرفتك لتعينك

على هذا الهدف ، تعتني بصحتك لتعينك على هذا الهدف ، تربي أولادك لتكون أعمالهم في صحيفتك يوم القيامة ، يمكن أن ينشأ من هذا الاعتقاد ولا أبالغ مليون تصرف كلها نابعة من إيمانك بالآخرة .

الحياة الدنيا هي مزرعة الآخرة :

لذلك ما اقترن ركنان من أركان الإيمان في القرآن كما اقترن ركن الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، الإيمان بالله يحملك على طاعته ، والإيمان باليوم الآخر يحملك على ألا تؤذي مخلوقاً كائناً من كان ، لذلك أقول لكم : الذي لم يدخل اليوم الآخر في حسابه لم يستقم على أمر الله .

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74))

(سورة المؤمنين الآية :74)

أيها الأخوة ، هذه الحياة الدنيا هي مزرعة الآخرة ، والحياة الدنيا جنة إذا عرفت الله ، لأنه عن طريق الحياة الدنيا تكتسب آلية دخول الجنة بعباداتك ، بطاعاتك ، بإنفاقك ، بتربية أولادك ، بالدعوة إلى الله ، بخدمة الفقراء ، برعاية المساكين ، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، لذلك ربنا عز وجل أمرنا أن نكون مع المؤمنين فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة الآية:119)

الآية هنا تقول :

(وَذَرِ الَّذِينَ)

هؤلاء دعهم ، لا تجلس معهم ، لا تصاحبهم إلا لهدف نبيل ، إن أردت أن تصاحبهم لكي تأخذ بأيديهم إلى الله ، إن أردت أن تصاحبهم من أجل أن تقنعهم بأحقية هذا الدين والشرع ، أما إذا أصروا على ما هم فيه دعك منهم ولا تلتفت إليهم ،

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً)

نصف اللعب عند الصغار ، لكن الكبار يلعبون ، حينما تكون المتعة هدفاً فهذا لعب ، حينما تكون المرأة هدفاً فهو لعب ، حينما تكون الثروة هدفاً لعب ، حينما تكون الدنيا هدفاً لعب ، كلام دقيق ، الدنيا بأكملها، هذه الإنجازات العظيمة التي جاء بها بعض النخب من البشر هي للدنيا وماتوا وتركوها ، وهذه الإنجازات انتفع الناس بها في الدنيا وانتهت ، لذلك يقول الإمام علي رضي الله عنه : " فاعل الخير خير من الخير ـ حتى الإنجازات الخيرية تنتهي يوم القيامة ، ما الذي يبقى ؟ الذي فعلها ، الذي فعلها يسعد بها إلى أبد الآبدين ، وحتى الأعمال الإجرامية التي فعلها بعض الطغاة حينما قصفت مدينتين في اليابان ومات ثلاثمئة ألف في ثوان ـ وفاعل الشر شر من الشر" ، آثار هذا القصف انتهت يوم القيامة لكن الذي فعل هذا الشر سيخلد في عذاب النار إلى أبد الآبدين ، هو شر من الشر .

مفهوم الدين :

لذلك أيها الأخوة ، الآية تقول : الناس رجلان ، مؤمن وغير مؤمن ، المؤمن له أن يلتقي مع غير المؤمن بنية هدايته ، بنية إقناعه ، بنية الأخذ بيده إلى الله ، أما حينما يرى أن الأمل معدوم دعه وشأنه والتفت إلى ربك ،

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ)

معنى دينهم ؛ أنت تدين لهذا الشيء تخضع له ، كل إنسان له دين ، لكن دين الله يعني الخضوع لله ، هذا يحب المرأة ، يقال عنه عند الناس : هو زير النساء ، دينه المرأة ، وهذا دينه المال ، وهذا دينه العلو في الأرض ، وهذا دينه السيطرة ، وهذا دينه المتعة ، كل إنسان الشيء الذي يتوجه إليه حقيقة هو دينه ، فهناك من يتخذ اللهو ديناً ، عنده ميل للمغنيات بحيث أنه يعرف كل أغنية متى ألقيت ، وفي أي مكان ، والفرق الدقيق بين المغنيين والمغنيات ، الأحياء منهم والأموات ، دينه الغناء ، دينه الجنس ، دينه المال ، دينه السيطرة ، دينه العلو في الأرض ، دينه المديح ، دينه أن يظهر أمام الناس بمظهر كبير ، هذا الدين ، والمؤمن دينه الله ، أن يخضعوا لله ، دينه أي الجهة التي يتجه إليها ، لذلك الله عز وجل عدّ هذا ديناً ، والدليل لكم أيها الكفار :

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6))

(سورة الكافرون)

اتجاه الكافر إلى الدنيا هذا دين ، ينطلق من فلسفة

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً)

يعني جعل الدنيا همه .

((من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره ، وفرق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناء في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس]

((يا ابن عمر ، دينك ، دينك ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[مسند الفردوس عن ابن عمر]

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن أنس]

الدين مصير إلى أبد الآبدين فإذا خسرت دينك خسرت الأبد :

أي أن الدين مصير إلى أبد الآبدين ، يمكن أن تخطئ في مليون موضوع إلا إذا أخطأت في الدين معنى ذلك أنك خسرت الأبد ، قد تخسر مالك كله ، وقد تخسر معملك كله ، وقد تخسر أهلك ، لكنك إذا خسرت دينك معنى ذلك أنك خسرت الأبد ، خسرت الذي خلقت من أجله ، خسرت الحياة الأبدية التي خلقت من أجلها ،

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً)

فاللعب عمل لا طائل منه ، الطالب بالصيف يلعب ، لكن ما من طالب أشد حمقاً من الذي يلعب يوم الامتحان ، بدل أن يدرس يلعب . فإذا شغلك اللعب عن هدف كبير ، وعن عمل عظيم فهذا فضلاً عن أنه لعب فهو لهو ، فقد صرفك عن النفيس وهو خسيس .

لو أن إنساناً يغوص في أعماق البحار ، وكل لؤلؤة ثمنها ألوف مؤلفة ، فاشتغل عن أخذ اللؤلؤ بأخذ الأصداف ، ولا قيمة لها إطلاقاً ، فقد اشتغل عن النفيس بالخسيس .

إذاً :

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً)

الصفة الثالثة :

(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

توهمها بحجم أكبر من حجمها ، والشيء الثابت أيها الأخوة أن الإنسان في البدايات الدنيا كبيرة أمامه ، المال ، النساء ، البيت الفخم ، المركبة ، المنصب ، في منتصف العمر يرى هذه الأشياء جيدة ، لكنها ليست كل شيء ، عنده فراغ ، هذا الفراغ ما ملأه المال ، ولا ملأه المنصب ، ولا ملأته الزوجة ، بل

ما ملأته المرأة أصلاً ، لكن قبل أن يغادر الدنيا يرى أن الدنيا ليست بشيء .

((الدُّنْيَا جيفة ، والنَّاسُ كِلاَبُهَا))

((الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له))

[أخرجه أحمد من حديث عائشة وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي بإسناده جيد]

هي هينة على الله ، مر النبي الكريم مع أصحابه ، في أحد طرق المدينة رأى النبي شاة ميتة ، فقال :

((أترون هذه هانت على أهلها ؟ فقالوا : من هوانها ألقوها هنا ، قال : والذي نفسي بيده للدنيا على الله عز وجل أهون من هذه على أهلها))

[رواه البزار عن أنس رضي الله عنهما]

((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافر منها شربة ماء))

[أخرجه الترمذي عن سهل بن سعد]

سيدنا علي يقول : " فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً عليه الصلاة والسلام أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ، فإن قال : أهانه فقد كذب ، وإن قال : أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا " .

الشيطان دائماً مهمته أن يدفع الإنسان ليغتر بالحياة الدنيا :

الإنسان يتوهم أننا عندنا خلوي ، عندنا كمبيوتر ، عندنا اتصالات ، عندنا مركبات، عندنا طائرات ، يرى الحضارة شيئاً ثميناً جداً ، هذه الحضارة لو أنها ثمينة جداً لِمَ يحرمُها الأنبياء من قبل ، الذي بلغت رسالته ما بلغ الليل والنهار ، لم تكن هناك لا أجهزة اتصال ، ولا هواتف محمولة ، ولا كمبيوترات ، ولا فضائيات ، ولا شيء ، أنا لا أقلل من قيمة هذه المنجزات ، لكن الذي يكتفي بها ويعبدها من دون الله ، ويعبد الذين اخترعوها من دون الله بعيد عن حقيقة جوهر الحياة الدنيا.

(اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً)

عمل عابث لا فائدة منه ، إن اقتصرت على الدنيا ورأيت الدنيا محط الرحال ونهاية الآمال فأنت تلعب، كل الحروب هدفها الآن النفط ، الشيء المبطن الحقيقي النفط ، لأن عصب الحياة هو الطاقة ، كل هذه المنجزات لا قيمة لها من دون طاقة ، لكن هؤلاء الطغاة الأقوياء الذين افتعلوا هذه الحروب ، وجلسوا

على منابع النفط ، ماذا قدموا للبشرية ؟ ما قدموا شيئاً ، لكن الأنبياء قدموا كل شيء ، قدموا فضيلة ، قدموا معرفة بالله ، قدموا سعادة ، قدموا سبباً لحياة أبدية لا نهاية لها .

(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

أن تغتر أي أن تظن هذه قطعة ذهب فإذا هي قطعة نحاس ، أن تظن أن هذه ماس فإذا هي في الحقيقة بلور ، أن تظن أن هذا الشيك فيه مبلغ كبير وهو في الحقيقة مزور ، هذا غرور أن تعطي الشيء حجماً لا يملكه ، والشيطان دائماً مهمته أن يدفع الإنسان ليغتر بالحياة الدنيا ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5))

(سورة فاطر)

حدثتكم عن قصة في الدرس الماضي ، عن هذا الذي يضع قمامة المحل التجاري في علبة ، يلفها بورق ثمين ، وشريط أحمر جميل ، يضعها على طرف المحل ، يراها إنسان يمر أمام المحل فيأخذها ، يعجب بها ، يظن بها حلياً غالية الثمن ، بعد مئة متر يفك الشريط ، بعد مئة متر آخر يفك الورق ، بعد مئة متر ثالثة يفتح العلبة فإذا هي قمامة المحل فيسب ويلعن . وهكذا الإنسان حينما يكون على فراش الموت ، يرى أنه خسر كل شيء ، وليس أمامه شيء يسعده إلا حساب دقيق .

بمنظور الآخرة ليس على وجه الأرض أناس أغبى من الطغاة :

قال تعالى :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

كرواية رمزية : أن رجلاً ثرياً توفي في مصر ، أولاده من إشفاقهم عليه رجوا رجلاً فقيراً جداً أن ينام معه في القبر ليؤنس وحشته ، فقبل هذا الفقير ، القصة طبعاً رمزية ، فجاء الملكان فإذا في القبر رجلان ، استغربا ، الحي تحركت رجله فانتبه الملكان ، بدؤوا به ، من شدة فقره جاء بكيس خيش وفتحه من أعلى ليُدخِل رأسه ، ومن الطرفين ليُدخِل يديه ، وربطه بحبل ، هل هناك أفقر من هذا ؟ كيس خيش وحبل ، بدؤوا بالحبل ، من أين أتيت به ؟ قال : من بستان ، قال : كيف دخلت البستان ؟ تعثر في الكلام ، فانهالوا عليه ضرباً حتى فقد صوابه ، وفي الصباح خرج من القبر ، وقال : الله يعين أباكم ، لأنه ضُرِب ضرباً مبرحاً بسبب حبل !

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

والله أيها الأخوة ، بمنظور الآخرة ليس على وجه الأرض أناس أغبى من الطغاة كيف ؟ ستالين قتل خمسين مليوناً ، هؤلاء البشر لا قيمة لهم ، يقتلهم ويقول : هم تحرشوا بنا، الآن كلما تحصل إبادة جماعية يقولون : أطلقوا النار ، إعلامياً تغطى بإطلاق النار ، لكن تأكدوا أيها الأخوة أنه ما من قطرة دم تراق إلا ويتحملها إنسان يوم القيامة ، ويظل المؤمن بخير ما لم يسفك دماً ، الآلاف تموت كل يوم بلا سبب وبلا جريمة .

الإنسان كلما ازداد عقله ازداد خوفه من الله :

لذلك أيها الأخوة ، الإنسان كلما ازداد عقله ازداد خوفه من الله :

((رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللّهِ))

[رواه ابن لال عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

بل إن الله عز وجل حينما قال :

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا (71))

(سورة مريم الآية : 71)

قال علماء التفسير : ورود النار غير دخولها ، ورود النار لا يتأثر من يردها ولا حتى بوهجها ، لكن ليرى عدل الله في الكون ، لأن أسماء الله الحسنى كلها محققة إلا اسم العدل فمحقق جزئياً ، فالله عز وجل يعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين ، ويكافئ بعض المحسنين ردعاً للباقين ، ولكن ختام الحساب يوم القيامة :

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (185))

(سورة آل عمران الآية : 185)

هؤلاء

(الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً)

عمل عابث بلا طائل ، ثم لعب ، ثم لهو يلهو به عن الثمين ،

(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

رأوها كل شيء فاستغنوا بطلبها عن طاعة الله .

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن كما ورد في القرآن الكريم :

الآية الدقيقة جداً في هذا الموضوع :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6))

(سورة الليل)

صدق أنه مخلوق للجنة فاتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء ، المؤمن عجيب أيها الأخوة ، همه الأول أن يعطي لا أن يأخذ ، لأنه يعد نفسه للآخرة ، لأنه يعد عملاً صالحاً يلقى الله به ، تجد عطاءه عجيباً يعطي كل شيء ، يقابله غير المؤمن يأخذ كل شيء ، لأنه أيقن أنه مخلوق للدنيا لا للآخرة .

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9))

(سورة الليل)

لأنه كذب بالحسنى وهي الجنة وآمن بالدنيا استغنى عن طاعة الله ، وبنى حياته على الأخذ ،

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

والأول

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

هذا التقسيم الحقيقي للبشر على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، وطوائفهم ، ومذاهبهم ، وأعراقهم هم رجلان :

(أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

قال :

(وَذَكِّرْ بِهِ)

على من تعود الهاء ؟ بالقرآن .

(فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45))

(سورة ق)

(وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ)

أن تمنع من الهدف الذي خلقت من أجله ، أن تمنع من سعادة الآخرة ، أن تمنع من الأبد ، أن تمنع من جنة عرضها السماوات والأرض ،

(وَذَكِّرْ بِهِ)

القرآن يبين ماذا بعد الموت ؟ يقدم مشاهد من يوم القيامة ،

(وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ)

كسبت بفعلها .

ما من جهة في الكون يمكن أن تنقذك مما أنت فيه يوم القيامة :

بالمناسبة هناك كسبت وهناك اكتسبت ، أنت حينما تأخذ مالك كسبت ، أما حينما تأخذ ما ليس لك اكتسبت .

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (286))

(سورة البقرة الآية : 286)

لكن الجاهل يتوهم أن الذي يكتسبه ظلماً وعدواناً هو كسبه ، وهو عنده صحيح ، وهذا شيء واقع عند الناس ، عمله مبني على إيذاء الناس ، يرتاح لدخله ، عمله مبني على تخويف الناس ، يرتاح لدخله الكبير ، عمله مبني على ابتزاز أموال الناس ، يرتاح لهذا الدخل وكأنه دخل مشروع ، يبني مجده على أنقاض الآخرين ، يبني حياته على موتهم ، يبني غناه على فقرهم ، يبني أمنه على خوفهم ، يبني عزه على ذلهم ، وهو مرتاح ، فربنا عز وجل عدل عن اكتسب بكسب ، لأن هذا الذي يكتسب الآثام والمعاصي والجرائم يتوهم أنه يحقق سعادته في الدنيا .

(وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ)

يوم القيامة ، نحن في الدنيا في علاقات، في اتصالات ، في تجمعات ، هكذا الحياة الدنيا ، مجموع كبير يقف مع إنسان منحرف ، هذا منا ، من جماعتنا ، على خطأ ، في الدنيا في علاقات ، تجمعات ، حينما اعتدي على العراق الدول الغربية في البداية أنكرت ، لكن لما رأت أن النفط أصبح بيد هذه الدولة المحتلة أيدت ، في الدنيا تجمعات ، توافقات ، مظالم عامة ، أما الآخرة دقق :

(وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ)

الولي هو الذي ينصرك عند الأزمة ، لا إله آخر في الآخرة ، جهة قوية ، لجوء سياسي فرضاً ، تعتمد على جهة قوية مناوئة لمن يطالبك ، لا

(لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ)

ما من جهة في الكون يمكن أن تنقذك مما أنت فيه ،

(وَلَا شَفِيعٌ)

أحياناً يكون الإنسان قوياً جداً يلغي لك العقوبة لأنه قوي ، إن لم يكن قوياً بالحد المطلوب يتوسط لك عند واحد قوي ،

(وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ)

الولي من يملك إلغاء العقوبة ، والشفيع من يتوصل إلى من يملك إلغاء العقوبة ، ففي الدنيا هناك أولياء.

الرابح الوحيد من ينجو من عذاب جهنم يوم القيامة :

قال تعالى :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (73))

(سورة الأنفال الآية : 73)

يتعاونون ، هناك بين دول الغرب مشكلات لا تعد ولا تحصى ، لكنهم متعاونون على الشرق ، متفقون على محاربة الإسلام ، على اختلاف قومياتهم واتجاهاتهم ، ففي الدنيا تعاون بين الكفار ، الآخرة

(لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ)

أي يلغي عقابهم الأبدي

(وَلَا شَفِيعٌ)

يتوسط لمن يملك إلغاء عقابهم الأبدي وليس هناك من يقبض مبلغاً يلغي هذه العقوبة.

(وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا)

احتمالات ثلاثة ، قوي ينقذك مما أنت فيه ، أو صديق يتوسط لدى قوي أن يلغي ما أنت فيه من أزمة خطيرة ، أو أن يأخذوا منك مبلغاً من المال تلغى به العقوبة ،

(وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا)

لو تقدم العدل الفدية ، لو تقدم أكبر فدية ،

(لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا)

أي حرموا سعادة الأبد بما كسبوا في الدنيا ، معنى ذلك أن الذي ينجو عند الموت من عذاب جهنم ، أن الذي يموت على الإيمان مستقيماً على أمر الله ، مقبلاً عليه ، مطبقاً لأمره ، هو أعظم إنسان على وجه الأرض ولو كان فقيراً .

((رب أشعث أغبر ذي طمرين ، تنبو عنه أعين الناس ، لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة]

(أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ)

شراب كلمة ممتعة ، لكن من حميم ، ماء يغلي .

(لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6)لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7))

(سورة الغاشية)

(لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

أخواننا الكرام ، الإنسان لا يتمتع بذرة من العقل لو غفل عن المصير ، لو غفل عما ينتظره في المستقبل ، لذلك أكبر مشكلة يعاني منها المسلمون اليوم أنهم يعيشون لحظتهم، هم إمعة ، هم مع الناس، إن أحسن الناس أحسنوا ، وإن أساؤوا أساؤوا ، كل شيء يأتينا من الغرب ، لو دخلوا جحر ضب لدخلناه ، نلغي ديننا ، نلغي قيمنا ، نلغي هويتنا ، نلغي حضارتنا ، نلغي خصوصياتنا أمام تقليد أعدائنا،

(كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

الله أودع فينا الشهوات ، لكن لو نظر الإنسان إلى زوجته وتمتع بجمالها النظرة مشروعة ، أما لو نظر إلى ما لا تحل له اكتسب إثماً ، إذا نظر إلى من تحل له كسب خيراً ، يعني عف نفسه بها عن الحرام ، والله عز وجل سمح له أن ينطلق بهذه القناة النظيفة ، أما لو نظر إلى من لا تحل له وقع في الإثم ، لو أخذ مالاً من كسبه المشروع كسب به ، لو أخذ مالاً ليس له اكتسبه إثماً لذلك ،

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ)

ليس فقط منعوا ، دقق ليس فقط منع ، الإنسان أحياناً يمنعك من خير لكن لا يعذبك ، هنا مشكلتان ، منع الجنة وعذاب جهنم ،

(أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

قديماً كانت تُعبَد الأصنام أما الآن فتُعبَد الشهوات :

الآية الثانية :

(قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71))

(سورة الأنعام)

معقول أن تعبد جهة لا تملك لك نفعاً ولا ضراً ، طبعاً في الجاهلية كانوا يعبدون الأصنام ، معقول حجر منحوت تعبده من دون الله ، معقول قبيلة تصنع من التمر إلهاً فلما جاعت أكلته ، معقول إله تقف أمامه متذللاً ، قطعة حجر ، فيأتي الثعلب فيبول على رأسه ، وتعبده أنت من دون الله ؟! هذا قديماً ، أما حديثاً فتعبَد الشهوات الآن .

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ (43))

(سورة الفرقان الآية : 43)

قلت قبل قليل : فلان يعبد المرأة من دون الله ، فلان يعبد المال ، فلان يعبد السياحة ، يعبد المتعة ، يعبد الشهرة ، يعبد المكانة ، يعبد السيطرة ، هذه آلهة كلها ، أو إنسان قوي يعبده من دون الله لأنه يتوهم أن رضاء هذا الإنسان عنه كل الخير في ذلك ، وأن غضبه فيه كل الشر ، لهذا أنا أقول دائماً : الذي يقول : الله أكبر قبل أن يصلي ، ويطيع مخلوقاً ويعصي خالقاً ، ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة ، من يقول : الله أكبر ، ويطيع زوجته في معصية ما قالها ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة ، من يغش المسلمين من أجل مبلغ يأتيه من هذا الغش ، هو ماذا رأى ؟ رأى أن هذا المبلغ أكبر عنده من طاعة الله ، إذاً ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة .

الشيطان يستخدم سلاح الشهوات :

(قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ)

هنا حالة جديدة ، أن إنساناً وصل إلى الله ، عرف أن الله هو خالقنا ، ومسيرنا ، وأنه لا إله إلا الله ، لكن الشهوات أغرته ، دخل في صراع .

قال :

(كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ)

طبعاً الهوى هو الشهوة ، الميل ، هناك الهوي والهوى ، الهوي هو السقوط ، هوى يهوي هوياً ، سقط يسقط سقوطاً ، هوى يهوى هوىً ، أحب يحب حباً ، فعندنا الهوي وعندنا الهوى ، الهوى من الهوى أي السقوط من الحب أحياناً ، الإنسان يهوى ما لا يحل له فيسقط عند الله ، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله ، الشيطان يستخدم سلاح الشهوات ، وسلاح الشهوات قصير جداً ، وأحقر إنسان ممكن أن يصرف ألف شاب عن دينه بصور إباحية ، بفيلم ، بموقع معين ، فسلاح الشهوة خطير جداً لذلك يستخدمه الشيطان ، الآن الغرب كله يحارب المسلمين ،

أنتم ترون الطائرات ، لا ، والصواريخ ، لا ، وحاملات الطائرات والغواصات ، لا ، يحارب المسلمين بالمرأة فقط .

في الخمسينات لو أن الإنسان شاهد ما يشاهده المسلمون جميعاً في بيوتهم لأدبه أبوه تأديباً لا يوصف ، كل بيوت المسلمين أصبح فيها ملاهٍ عبر هذه الفضائيات ، هذه حرب مركزة ، حرب ، أقوى شيء عند المسلمين دينهم ، فإذا ضاع دينهم عن طريق معاصيهم انتهوا ، وأصبحوا ضعافاً .

فيا أيها الأخوة ،

(قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ)

محتار ، الفتن في أبهى صورة ، الآن الدنيا ترقص أيها الأخوة ترقص ، الشهوات مستعرة ، الفتن في كل مكان.

كل شيء يقربك من الله مشروع وكل شيء يبعدك عنه غير مشروع وهذا أصل الدين :

(لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

ربنا جل جلاله يصف حالة بشرية ، يصف إنساناً يرتكب المعصية ، وهو يعلم أساساً في الفاتحة :

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

(سورة الفاتحة)

من هم المغضوب عليهم ؟ الذين عرفوا وانحرفوا ، من هم الضالون ؟ الذين انحرفوا وما عرفوا ، فالذي يعرف أن لهذا الكون إلهاً ، وأن بعد الحياة الدنيا جنة أو ناراً ، وأن المنهج الإلهي هو الطريق الصحيح لبلوغ الجنة ثم تستهويه الشياطين ، يدعونه إلى الشهوة ، إلى الهوى ، إلى الانحراف ،

(قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا)

كعقيدة هذا الذي تعبده من دون الله لا ينفع ولا يضر .

(وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا)

أي ننتكس ،

(بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى)

الهدى واحد ، والحق واحد ، وطريق السعادة واحد وهو ما عند الله عز وجل ، وما في جهة أخرى تسعد إلا الله .

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

كل شيء يقربك من الله مشروع ، وكل شيء يبعدك عنه غير مشروع ، هذا أصل الدين ،

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى)

والهدى الوحيد ،

(وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

الطاعة طريق إقامة الصلاة والمعصية طريق البعد عن الله :

الآية الأخيرة :

(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72))

(سورة الأنعام)

(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

بعد هذا الشرح ، بعد هذا التوضيح ،

(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ)

طريق إقامة الصلاة أن تطيعه ، الطاعة طريق إقامة الصلاة ، والمعصية طريق البعد عن الله ،

(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

في النهاية نحن سوف نحشر إلى الله ، أحياناً يكون الموظف عنده شيء من الذكاء يتنبأ بمن سيأتي بعد رئيسه في الدائرة ، فيبدأ بالتقرب إليه قبل أن يأتيه ، هذا نوع من الذكاء ، الآن نحن في النهاية سوف نحشر إلى الله ، ينبغي أن تقيم علاقة طيبة معه من الآن ، حتى إذا حشرت إليه رُحّب بك هناك :

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً (71))

(سورة الزمر الآية : 71)

وقال :

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24))

(سورة الرعد)

شيء منطقي جداً ، من باب الذكاء أن المصير إلى الله ، وكثير من الأشخاص عنده حاسة سادسة ، يتقرب إلى الجهة القادمة في وزارته ، في دائرته ، في مؤسسته ، يشعر أنه سيأتي واحد ويتسلّم ، قبل سنتين يقدم له هدايا ، يزوره ، يتفقد صحته ، هذا نوع من الذكاء ، الله عز وجل قال :

(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

قال تعالى :

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

هناك إنسان كان معارضاً ، القصة من عشرين سنة ، فكتب مقالات ضد الذي يعارضه ، الذي يعارضه قوي ، تمكنوا أن يخدرونه ، وأن يأتوا به ، فانتهى مفعول التخدير أمام هذا الذي ينتقده في الصحف ، أو يعارضه في بلد بعيد ، صعق ،

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

فيا أيها الأخوة ، هذا الكلام كلام مصيري ، يتعلق بسلامتنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة ، والعاقبة لمن اتعظ بغيره ، والشقي لا يتعظ إلا بنفسه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(25-73): تفسيرالآية 73 ، الحق ثابت والباطل زاهق لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-06-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون ، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة الأنعام .

الحق هو الشيء الهادف والباطل هو الشيء العابث :

مع الآية الثالثة والسبعين ، وهي قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73))

أيها الأخوة ، الكلمة المفصلية في الآية كلمة

(بِالْحَقِّ)

ما الحق ؟

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي : إن الحق لابس خلق السماوات والأرض ، فكل ما في السماوات والأرض خُلق بالحق ، الحق الشيء الثابت ، والباطل الشيء الزائل .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

(سورة الإسراء)

الحق الشيء الهادف ، والباطل الشيء العابث .

مثل للتقريب : قد يُنشأ سيرك في بلدة ما ، يقوم على أساس خيمة ، ويبقى أسابيع ثم يرتحل ، الهدف ليس علمياً ، ولا تثقيفياً ، وليس فيه هدف كبير ، تكوين قادة للأمة من خلال السيرك مثلاً ؟! شيء عابث ، ألعاب بهلوانية ، حيوانات ضخمة عملاقة ، أعمال تفوق طاقة الإنسان الطبيعي .

الكون العظيم خُلق كي نتعرف من خلاله إلى الله :

لذلك حينما الجامعة تبنى لتبقى يراعى في بناءها الدوام والاستمرار ، وحينما تُنشأ الجامعة تُنشأ لتخرج قادة للأمة ، فهناك شيء ثابت ومستمر ، وشيء طارئ ، وشيء هادف ، وشيء عابث . فالله سبحانه وتعالى قال :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

وهو الحق ، هو أزلي أبدي .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (119))

(سورة هود الآية : 119)

الله عز وجل أزلي أبدي ، ليس قبله شيء ولا بعده شيء ، وهو فوق كل شيء وعلم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون هو الحق .

الآن خلق الخلق ليسعدهم ، هناك هدف من خلق البشر كبير جداً ، خلقوا لجنة عرضها السماوات والأرض فيها :

((ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري عن أبي سعيد]

كل شيء في الكون خلق بالحق ، خلق ليبقى ، وخلق ليسعد ، والذي أراد البقاء والسعادة هو الله ، إذاً الله هو حق أيضاً .

أيها الأخوة ، حينما أذكر أرقاماً كثيرة جداً تتحدث عن عدد المجرات ، بدءاً من مليون مليون مجرة إلى مئتين وثلاثين ألف مليار مجرة ، أحدث رقم اطلعت عليه بموسوعة علمية مئتان وثلاثون ألف مليار ، وهذه المجرة فيها مليارات الكواكب ، والنجوم ، والشموس، والمذنبات ، فهذا الكون العظيم خُلق كي نتعرف من خلاله إلى الله ، الإنسان إذاً مخلوق خلقه الله ليسعده ، لكن هذه السعادة الكبرى التي أعدها للإنسان تحتاج إلى حياة دنيا فيها يدفع ثمن هذه الآخرة .

أحياناً لو أنك أردت أن تصب على نبات صغير الكثير من الماء يسحق النبات ، فالماء الذي ينبغي أن يصب على النبات ينبغي ألا يتناسب مع كرمك ، بل ينبغي أن يتناسب مع قوة احتمال النبات ، الإنسان يأتي في الدنيا ليختار معرفة الله وطاعته والعمل في سبيله ، حتى يهيَّأ في الآخرة لتحمل التجليات الإلهية ، الإنسان هو المخلوق الأول ، والمخلوق المكرم الذي خلق لجنة عرضها السماوات والأرض

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

عظمة الله في خلق السموات والأرض :

أخواننا الكرام ، بعض الأمثلة التي تؤيد كلمة الحق .

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (41))

(سورة فاطر الآية : 41)

الزوال في الآية معناه الانحراف ، فالأرض تدور حول الشمس من مئات ألوف ملايين السنين ، وهذا المسار مغلق ، وسرعتها ثابتة ، وأدق ساعة في الأرض تضبط على حركة النجوم ، الأرض مسارها

إهليلجي ، بيضوي ، والشكل البيضوي له بعدان ، أصغر وأكبر ، والذي يحكم علاقة النجوم بعضها بعضاً قانون الجاذبية ، والكتلة الأكبر تجذب الكتلة الأصغر ، فالجذب يتناسب مع حجم الكتلة ، ومع مربع المسافة بين الكتلتين ، فالأرض حينما تمشي على مسار بيضوي مغلق حول الشمس ، إن اقتربت من القطر الأصغر ازدادت قوة الجذب ، فالاحتمال كبير جداً أن تنجذب الأرض إلى الشمس ، فإذا دخلت في جوف الشمس والحرارة في المركز تقدر بعشرين مليون درجة تبخرت الأرض في ثانية واحدة ، فلئلا تزول الأرض بمعنى لئلا تنحرف الأرض عن مسارها فتنجذب إلى الشمس وتتبخر وتنتهي ،

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

يرفع الله سرعة الأرض ، من هذا الرفع تنشأ قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة فتبقى على مسارها ، فالحق هو الشيء الثابت ،

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

لولا رفع سرعتها ، ولولا أنه نشأ من سرعتها قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة لانجذبت الأرض إلى الشمس ، وانتهت الحياة تبخراً واحتراقاً ، لكن حينما تصل الأرض إلى القطر الأطول ، وسرعتها سريعة كما قلت قبل قليل ، والجاذبية تضعف ، والسرعة العالية ينشأ معها قوة نابذة ، فاحتمال أن تتفلت الأرض من مسارها حول الشمس احتمال كبير ما الذي يحصل ؟ تخفض سرعة الأرض لينشأ من خفض سرعتها قوة نابذة أقل تكافئ القوة الجاذبة الأقل فتبقى على مسارها

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

هذا التسارع ، وذاك التباطؤ بطيئان ، وهذا يؤكد اسم اللطيف ، لأنه لو كان التسارع سريعاً والتباطؤ سريعاً لتهدم كل ما عليها ،

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

آيات باهرات في خلق السماوات والأرض تفوق عظمة هذا الإنسان المخلوق الأول :

الله عز وجل خلق الإنسان :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

الحديث عن دماغ الإنسان ، وعن شعره ، وعن عينيه ، وعن أذنيه ، وعن لسانه، وعن حاسة الشم ، وعن حاسة النطق ، وعن جهاز الهضم ، وعن جهاز الدوران ، وعن جهاز التصفية ، وعن العضلات،

وعن العظام ، وعن الجلد ، وعن الأجهزة المتنوعة فيه كجهاز المناعة المكتسب ، وعن الغدد الصماء ، إلى ما لا ينتهي .

أحياناً يعقد مؤتمر يحضره آلاف الأطباء ، وتلقى في المؤتمر مئات المحاضرات حول القلب فقط ، حول الاكتشافات التي توصل العلماء إليها في شأن القلب ، وفي العينين ، وفي حاسة السمع ، وفي جهاز الهضم ، القضية حول الإنسان قضية معجزة ، ولكن الله عز وجل يقول :

(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (57))

(سورة غافر الآية : 57)

آيات باهرات في خلق السماوات والأرض تفوق عظمة هذا الإنسان المخلوق الأول ، كما قال الله عز وجل :

(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ)

أيها الأخوة ، كتعليق ، عندنا في الفيزياء ظاهرة اسمها الاستطراق ، لو أتيت بأنابيب متعددة الأشكال والأقطار والحجوم والأنواع لكنها متصلة ببعضها البعض ، وصببت فيها الماء لرأيت الماء في مستوى واحد في كل هذه الأنواع من الأواني ، أنبوب رفيع ، أنبوب ثخين ، أنبوب متعرج ، أنبوب حلزوني ، أنبوب أسطواني ، كل هذه الأنابيب على اختلاف أشكالها ، وأنواعها ، وسعتها ، وأقطارها تجد أن الماء في مستوى واحد ، هذه الظاهرة تسمى في الفيزياء ظاهرة الاستطراق ، قال بعض العلماء : هناك استطراق حراري، لو أتيت بقطعة حديد حامية جداً وضعتها في الماء بعد حين الحرارة الزائدة في الحديد تنتقل إلى الماء ، فالماء ترتفع حرارته ، والحديد تنخفض حرارته ، هذا اسمه استطراق حراري.

آيات باهرات لا على الخلق بل على الفناء :

شيء طبيعي جداً أن الإنسان حينما يعرق فالعرق جهاز تكييف عالي المستوى في الإنسان ، هذا الماء يتبخر بفعل الحرارة فيمتص الحرارة التي في جلد الإنسان ، إلا أن الإنسان يتميز بشيء آخر . إنسان واقف على خط الاستواء حرارته سبع وثلاثون ، وإنسان واقف في القطب الشمالي أو الجنوبي حرارته سبع وثلاثون أيضاً ، ثبات الحرارة في الإنسان دليل استثناء من هذا الاستطراق الحراري ، ومع ذلك :

(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ)

الله عز وجل قال :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

الله عز وجل يخلق :

(كُنْ فَيَكُونُ (35))

(سورة مريم)

علماء التفسير قالوا : هذه كلمة

(كُنْ)

للتقريب ، لأن كن تحتاج إلى حركة أو حركتين في علم التجويد ، كن ، حركة ، الحركتين الألف ، أما الفتحة حركة ، كن ، وقت ، لكن الشيء الثابت أنه ليس هناك وقت إطلاقاً بين الأمر والتنفيذ ،

(كُنْ فَيَكُونُ)

زل فيزول ، وهناك آيات باهرات لا على الخلق بل على الفناء .

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1)وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2)وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3)وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4))

(سورة الانفطار)

وقال :

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1)وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2))

(سورة التكوير)

كل شيء يتناقض مع وحي الله باطل والباطل زاهق :

إذاً في خلق الكون آيات دالة على عظمة الله ، وفي إعدام الكون آيات دالة على عظمة الله عز وجل ، إذاً

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

والسماوات والأرض تعبير قرآني عن الكون ، والكون ما سوى الله ، والله عز وجل واجب الوجود ، وما سواه ممكن الوجود ، ممكنُ الوجود ، وممكِن الوجود ، ويجوز الوجهان ، إما على الإعراب أو على الحكاية ، ومعنى ممكِن الوجود أنه ممكن أن يوجد أو ألا يوجد ، وأنه إذا وجد يمكن أن يكون على ما هو عليه أو على خلاف ما هو عليه ،

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

فالحق هو الشيء الثابت والهادف ونقيضه الباطل ، وحينما يقول الله عز وجل :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

زهوقاً صيغة مبالغة لاسم الفاعل ، شديد الزهوق ، أكبر باطل بالأرض يزول ، الجهة الشرقية التي رفعت سبعين عاماً شعار لا إله ، وامتلكت من الأسلحة الفتاكة ما لا يوصف ، وكانت من أقوى الدول

في العالم ، وحملت كل من في بلادها على أن يعتقد بالإلحاد هذا الباطل الكبير كان زهوقاً وانتهى الأمر، ولو كان هناك مليون باطل جزئي، أيضاً هذه الجزئيات في الباطل إلى زهوق ، فالباطل شيء زائل ، والحق شيء ثابت .

للتقريب : لو أنشأنا حائطاً وفق الشاقول لكان البناء مستمراً ، لو أنشأناه بلا شاقول مائلاً ، فهذا الميل سينتهي إلى السقوط ، فكل شيء يتناقض مع وحي الله باطل ، والباطل زاهق ، لذلك :

((الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته))

[أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة ومسلم وأبي سعيد]

الباطل زهوق ، أكبر باطل ، ومليون باطل زهوق ، لكن عند الله امتحانان صعبان ، نحن في أصعب الامتحانات ، الامتحان الأول أن يقوي الكافر ، ويقوي الكافر ، ويقوي الكافر ، ويعطيه كل أبعاده ، حتى يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ نحن في هذا الامتحان الأول الآن ، ثم يظهر الله آياته كامتحان آخر للطرف الآخر حتى يقول الكافر : لا إله إلا الله ، فالباطل زهوق ، فلابد من أن يزهق الباطل ، لكن لكل شيء أوان ، " ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه " .

دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان :

الآية الكريمة :

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ (46))

(سورة يونس الآية : 46)

قد لا يمتع النبي بظهور الحق ،

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

ودورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان ، الإنسان حسبه أن يكون مع الله طائعاً له ، مقبلاً عليه، محسناً إلى عباده ، فإذا مات على هذه الحال فهو المنتصر ولو كان ضعيفاً ، ولو مات قتلاً هو المنتصر ، لأنه مات على الإيمان وله عند الله الجنان .

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ)

بالمناسبة عندنا شيء في اللغة دقيق يحتاج إلى شرح ، هذا الشيء أن الملك ما يملكه الإنسان، وهذا الذي يملك بيتاً ، البيت ملك ، والذي يملكه يقال له : ملك ، والمُلك أن تملك من يملك ، والذي يملك من يملك يقال له : مالك .

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ (26))

(سورة آل عمران الآية : 26)

الملك أن تملك شيئاً يُمَلك ، فأنت ملك لهذا الشيء الذي هو مِلك ، أما المالك أن يملك من يملك .

الفرق بين كلمتي(مالك)و(ملك)في اللغة العربية :

إذا قال الله عز وجل :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

(سورة آل عمران)

أخواننا الكرام ، نُعرج على دقة اللغة العربية ، بين مالك وملك فرق كبير ، وفي قراءة :

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4))

(سورة الفاتحة)

في قراءة مالك يوم الدين ، لكن المالك الذي يملك من يملك ، والشيء الذي يُمَلك هو مِلك ، والشيء الذي يَملكُ ما يُمَلك هو المُلكَ ،

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

أحياناً حركة تغير المعنى رأساً على عقب ، نقول خُطبة بالرفع ، معنى الخُطبة أي أن تعلو على منبر، وأن تلقي على الناس خطاباً ، ارتفاع الخطيب عن مستوى الناس كي يروه جميعاً ، يقال : خُطبة، بالضم ، أما أن تطرق باب أسرة لتخطب فتاتهم يقال لها : خِطبة ، يعني أن الخاطب يأتي منكسراً ، لعله لا يُقبل أو يُقبل ، هو قلق ، ففرق بين الخِطبةِ والخُطبة ، الخِطبة أن تتطرق بيتاً لتخطب فتاتهم ، أما الخُطبة أن تعلو منبراً لتلقي على الناس خطاباً ، فرق دقيق بين البُر والبَر والبر ، البُر هو القمح ، والبَر هو اليابسة ، والبر هو الإحسان ، وأحياناً من أجل حركة واحدة ينتقل الإنسان من الجنة إلى النار، حركة واحدة ، فإذا قال أحدهم :

ولستُ أبالي حين أقتَل مسلماً على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

***

إلى الجنة ، هذا هو الشهيد ، أما إذا قال :

ولستُ أبالي حين أقتُل مسلماً على أي جنبٍ ألقى في الله مصرعي

***

إلى جهنم ، وبئس المصير ، حركة واحدة تنقل الإنسان من الجنة إلى النار .

اللغة العربية هي اللغة الأولى في العالم ولكن ضعف العرب انعكس على لغتهم :

اللغة العربية دقيقة جداً ، حتى أن في اللغة العربية ما يسمى معاني الحروف ، فأية كلمة فيها حرف غين فيها معنى الاستتار ، غاب ، غرب ، غرق ، غيبة ، وأي كلمة فيها الراء فيها معنى التتالي ، جر، مر ، كر ، فر ، وأي كلمة فيها قاف فيها معنى الاصطدام ، طرق ، لصق ، الشيء الغريب أولاً يختفي عن الأنظار ، وضعت الغين ، يتتالى سقوطه ، وضعت الراء يرتطم بالقاع ، وضعت القاف .

اللغة العربية أيها الأخوة بشهادة أعداء المسلمين هي اللغة الأولى في العالم ، ولكن ضعف العرب انعكس على لغتهم ، فأصبحت لغة من الدرجة الثانية ، بينما من حيث التصريف هي اللغة الأولى في العالم ، من منا يصدق أيها الأخوة أن فعل الثلاثي في اللغة العربية كعلم له ستة تقاليب ، علم ، ولمع ، وعمل ، و غيرها ، فالتقاليب الست يجب أن تنطوي على معنى مشترك في اللغة .

ثم إن الأسرة عندنا كبيرة جداً ، عندنا فعل ماض ، فعل مضارع ، فعل أمر ، عندنا اسم فاعل ، اسم مفعول ، اسم مكان ، اسم زمان ، اسم آلة ، صفة مشبهة باسم الفاعل، اسم تفضيل ، عندنا فعل ثلاثي ، ورباعي ، وخماسي ، وسداسي ، وكل وزن له معنى ، وعندنا صيغ مبالغة اسم الفاعل ، عندنا أسرة تتألف من عشرات بل بضع عشرات الكلمات تنتمي إلى جذر واحد ، كتب ، الطاولة مكتب ، وهذا الذي نقرأ منه كتاب ، وأن تكتب على ورقة كاتب ، أما باللغة الأخرى ، كتب write ، والطاولة table ، والكتاب book من ثلاثة اشتقاقات ، أما في لغتنا فكل كلمة لها عدد كبير جداً من الاشتقاقات .

على كلٍ بين كلمة مِلك وبين مُلك ، وبين كلمة مالك ، وبين كلمة ملك ، إذاً الله عز وجل :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

الآية الكريمة :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ)

هناك نقطة دقيقة جداً ، الله عز وجل : مالك كل شيء في الدنيا والآخرة ، لكن في الدنيا مالك الأشياء وفق الأسباب ، في الآخرة مالكها مباشرة ، أنت في الدنيا من أجل أن تأكل تزرع ، من أجل أن تشرب تحفر البئر ، إن أراد الله إكرامك ألهم عبداً ليكرمك ، إن أراد أن يعاقبك ألهم عبداً أن يقسو عليك ، فالمالك الحقيقي هو الله في الدنيا ، لكن على الشبكية ترى أشخاصاً أقوياء بعضهم رحماء ، بعضهم جبابرة ، بعضهم طغاة ، ترى الزلازل ، ترى البراكين ، ترى حروباً أهلية ، فالله عز وجل في الدنيا مالك الملك ، لكن عن طريق الأسباب الله يعطي بسبب ويأخذ بسبب ، أما في الآخرة ليس هناك أسباب عطاء مباشر وعقاب مباشر.

التوحيد صحة جسدية لأنه يُلغي الشدة النفسية التي يعانيها الكافر :

(وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ)

كل شيء أراده الله وقع ، وكل شيء وقع أراده الله ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، هذا شيء مريح جداً ، هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

تصور إنساناً موظفاً في معمل ، أصحاب هذا المعمل عشرة أشخاص ، لو أنهم غير متفقين ، واحد أمره أن يسافر ، والثاني أمره أن يحضر ، والثالث أمره أن يجري هذا الحساب ، فهذا الموظف بين عشرة أوامر متناقضة يتمزق ، وهذا شأن المشرك ، إن أرضى الله أغضب زيداً أو عبيداً ، إن أرضى زيداً أو عبيداً أغضب الله .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء)

لكن شأن المؤمن في الدنيا أنه يوحد الله ، ويعبده ، ويعتقد اعتقاداً جازماً أن الرافع وحده هو الله ، وأن الخافض هو الله ، وأن المعز هو الله ، وأن المذل هو الله ، وأن المعطي هو الله ، وأن المانع هو الله ، لذلك لا ينافق ، ولا يستخذي ، ولا يذل نفسه .

((اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ، فإن الأمور تجري بالمقادير))

[رواه ابن عساكر عن عبد الله بن يسر ، ورواه الطبراني وأبو نعيم من حديث أبي أمامة]

ما هو لك لكَ ، وما ليس لك ليس لك .

((واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا قد كتبه الله عليك جفت الأقلام ورفعت الصحف))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما]

أخواننا الكرام ، التوحيد صحة ، صحة جسدية ، لأنه يلغي الشدة النفسية ، علاقتي مع الله .

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

إذا قرأت القرآن يطمئنك الرحمن لأن القرآن هو القول الثابت :

قال :

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (48))

(سورة الطور الآية : 48)

قال :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (51))

(سورة التوبة الآية : 51)

الآيات المبشرات :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31)نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32))

(سورة فصلت)

أنت إذا قرأت القرآن يطمئنك الرحمن ، والقرآن هو القول الثابت .

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ (27))

(سورة إبراهيم الآية : 27)

ما ينقصنا هذه الأيام هو التوحيد وأن نطبق أمر الله تعالى :

إذا وحدت الله ورأيت أنه :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ (84))

(سورة الزخرف الآية : 84)

ما الذي تنخلع له قلوب البشرية اليوم ؟ أن قوة طاغية قوية جداً تريد أن تعيش وحدها ، تريد أن تبني أمجادها على أنقاض الشعوب ، وأن تبني ثروتها على إفقار الشعوب ، وأن تبني حياتها على موت الشعوب ، وأن تبني عزتها على إذلال الشعوب ، وأن أسلحتها فتاكة وشاملة وأنها لا ترحم ، هذا الكلام وحده يسبب أزمة قاتلة ، قال تعالى :

(مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ (119))

(سورة آل عمران الآية : 119)

التوحيد يلغي الشدة النفسية ، والشدة النفسية قاتلة أيها الأخوة ، ما لم تتأكد ، ما لم توقن أن الذي خلقك لن يسلمك إلى غيره ، وأن شأنك كله معه .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ (123))

(سورة هود الآية : 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله يرجع إليه ، فنحن ينقصنا التوحيد ، وينقصنا أن نطبق أمر الله عز وجل .

ما كلفنا الله تعالى إلا أن نعد للطرف الآخر ما هو متاح بين أيدينا وعندئذٍ يتولى الله الباقي :

قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ (60))

(سورة الأنفال الآية : 60)

يلزمنا أن نؤمن الإيمان الذي يحملنا على طاعته ، ويلزمنا أن نعد لهم القوة المتاحة وليست القوة المكافئة ، هذا هو طريق النصر الآن ، أن نؤمن إيماناً يحملنا على طاعة الله ، وأن نعد عدة تتناسب مع إمكاناتنا ، وما كلفنا الله فوق طاقتنا ، وما كلفنا إلا أن نعد للطرف الآخر ما هو متاح بين أيدينا ، وعندئذٍ يتولى الله الباقي .

(وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ)

زل فيزول ،

(قَوْلُهُ الْحَقُّ)

هناك مليار قول الآن ، أقوال ، ونظريات ، وتحليلات ، وتخيلات ، وترهات ، العالم يضج بالمقولات، لكن القول الحق هو قول الله عز وجل ، أكبر دليل على مصداقية هذا القرآن تحقق الوعد والوعيد، فالذي وعد الله به يتحقق رغم أنف كل البشر ، والذي توعد به يتحقق رغم أنف كل البشر .

كما تعلمون دولة عظمى تتحكم بالعالم ، لما اصطدم لوحان من القاعدة الصخرية في الأرض ، لوح آسيا ولوح أوقيانوسيا ، اقتربا واصطدما ، هذا الاصطدام شكل قوة تفجيرية تكافئ مليون قنبلة ذرية ، في تسونامي قبل ستة أشهر تقريباً ، هذا الاصطدام ولد ضغطاً شكّل موجاً مشى بسرعة مئة كم في الساعة ، فقطع مسافة ألف وستمئة كم في ست عشرة ساعة ، وسرعته عالية جداً ، وصل إلى شواطئ الهند بسرعة سبعين كم ، الموج قادر أن يحمل صخرة وزنها عشرين طنّاً يلقيها إلى مسافة بعيدة ، وهذا الماء الهائج ما ترك شيئاً ، مدن بأكملها ، قرى بأكملها ، الحصيلة تقريباً ثلاثمئة ألف وخمسة ملايين مشرد ، أما الذين كانوا على الشواطئ فهم نخبة أغنياء العالم ، بلغ عدد القتلى منهم تقريباً خمسة وعشرون ألفاً ، وكانوا في منتجعات من فئة العشر نجوم ، ولقد أراهم الله النجوم ظهراً في هذه المنتجعات ، هذا الموج يعطينا فكرة عن عظمة الله عز وجل ، في ثوان مليون قنبلة ذرية .

الله عز وجل هو مسبب الأسباب :

الزلازل التي ترونها في كل مكان فهي دليل قوة الله عز وجل ، فلذلك المؤمن لا يرى إلا الله ،

(وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ)

في آية قرآنية يقول الله عز وجل :

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53))

(سورة الشورى)

قد يسأل سائل : بيد من كانت ثم صارت إليه ؟ الحقيقة هي بيد الله كانت ، لكن بيد الله عن طريق الأسباب في الدنيا ، بيد الله من دون أسباب يوم القيامة ، يعني الله عز وجل يخلق طفلاً عن طريق أمه وأبيه ، شاب وشابة يتزوجان ينجبان طفلاً ، فهذا الطفل من خلقه ؟ الله جل جلاله ، ولكن عن طريق زواج أبيه بأمه ، وهذا الماء عن طريق السحاب المسخر في السماء ، وعن طريق الأمطار ، وهذا النبات عن طريق البذور ، فالله عز وجل مالك الملك في الدنيا عن طريق الأسباب ، هو مسبب الأسباب.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (83)إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (84)فَأَتْبَعَ سَبَباً (85))

(سورة الكهف)

(وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ)

أي يوم القيامة ،

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

الغيب ما غاب عنا ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ،

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

أما نحن فنرى من في المسجد ، لكن لا نرى من في مسجد آخر ، فالمسجد الآخر غيب عنا ، لكنه غيب حاضر ، ومن في مساجد حلب الآن غيب عنا ، ولكنه غيب حاضر ، عندنا غيب ماض .

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ (44))

(سورة آل عمران الآية : 44)

عندنا غيب المستقبل ، غيب المستقبل لا يعلمه إلا الله ، قولاً واحداً .

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ (188))

(سورة الأعراف الآية : 188)

الله عز وجل حكيم :

(وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

الله عز وجل حكيم ، ومعنى حكيم أن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله ، والذي وقع لو لم يقع لكان الله عز وجل ملوماً يوم القيامة ، مثلاً : لو أن أباً عنده ابن ، والابن بالصف الخامس ، قال الابن هذه الكلمة من دون أن يعي ما يقول ، قال له : أريد ألا أدرس ، قال له : كما تريد ، كلمة ، أجابه بكلمة واحدة ، فهذا باليوم الثاني ترك الدراسة ، واستيقظ ظهراً ، ولعب مع أصدقائه المنقطعين عن الدراسة ، وأمضى أوقاته في اللعب واللهو ، فلما كبرت سنه ، أصبح بلا شهادة ، وبلا علم ، وبلا حرفة ، وبلا مصلحة ، وفقير ، وغير متزوج ، وأصدقاؤه أطباء ، ومحامون ، ومهندسون ، لهم بيوت، وزوجات ، وأولاد ، فتألم ألماً لا حدود له ، فقال لأبيه : يوم قلت لك : أريد ألا أدرس لمَ لم تضربني ضرباً مبرحاً ، أنا لا أعرف ، فيا ترى لو أن الأب منعه من هذا الطلب ، وعنفه ، وحمله على الدراسة ، لما كان الأب ملوماً بعد أن كبر ، طبعاً هذا المثل تمهيد لآية دقيقة جداً ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة القصص)

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا)

يوم القيامة ،

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

الذي يقع الآن في العالم الإسلامي لو لم يقع لكان الله ملوماً ، يعني الناس يتمنون أن يعيشوا على سجيتهم ، في بحبوحة ، وفي غنى ، وفي طعام وشراب ، يستمتعون بالشهوات ، دون أن يحاسبوا ، وهذه المصائب الفقر ، والقهر ، والحروب ، والتهديدات ، وضعف الدخل ، وندرة الأعمال ، والبطالة ، وهذا الفساد العريض يحتاج إلى أموال طائلة ، في مليون سؤال ، لكن حينما يصل الإنسان إلى يوم القيامة ، ويكشف الله له ما ساقه له من المتاعب ومن مصائب من أجل أن يعيده إليه لذاب محبة لله عز وجل .

كل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقع وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة :

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

قال تعالى :

(لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134))

(سورة طه)

في آية ثانية :

(وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

إذاً معنى الحكيم الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً ، إذاً كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة .

الإنسان متى لا يكون حكيماً ؟ كإنسان أنا أقول لكم : لا يكون حكيماً إذا جاءه ضبط لا يستطيع إيقافه ، فعمل عملاً غير حكيم ، يقول لك : هناك ضغوط علي ، ضغوط لا أستطيع تحملها ، ومتى يكون غير حكيم ؟ إذا وقع تحت إغراء لا يحتمله ، في الضغط والإغراء لا يكون حكيماً ، أو بالجهل لا يكون حكيماً ، لو أن مزارعاً وضع أربعة أمثال نسب السماد لاحترق الزرع كله ، فعمله غير حكيم لأنه جاهل ، ما عرف أن هذا السماد الكيماوي يحتاج إلى مقادير مدروسة ودقيقة ، فالإنسان لا يكون حكيماً في ثلاث حالات ، إذا كان تحت ضغط شديد ، أو تحت إغراء شديد ، أو بسبب جهل فاضح ، هل يمكن أن تنطبق هذه الصفات على الذات الإلهية ؟ مستحيل ، إذاً كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ،

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

ما قال والشر ، الشر أيها الأخوة ما له وجود ، وجوده سلبي ، ناتج من البعد عن الله عز وجل ، نحن ما عندنا مركبة مشوهة يسوقها إنسان ، لكن مركبة يقودها إنسان مخمور ، نزلت في الوادي ، وأصبحت بوضع لا يحتمل من التشوه ، هذه المركبة بهذا التشوه لا تحتاج إلى معمل ، المعمل يقدم لك مركبة ذات خطوط انسيابية جميلة جداً ، فالمعمل يقدم الشيء الكامل أما هذا السائق المخمور الذي نزل بمركبته في الوادي ، فتشوه منظرها هذا التشوه سلبي وليس إيجابياً ، ما في المعامل قوالب للحديد تصنع هذا الشكل المشوه .

معنى الخبير يزيد على معنى العليم :

النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((والشر ليس إليك))

طعام نفيس جداً بدل أن تضع الملح وضعت السكر ، لا يؤكل الطعام ، أو بدل أن تضع الملح وضعت مسحوق الغسيل ، كمسحوق أبيض ، الأكل لا يؤكل ، هل نقول : هذا المسحوق ، مسحوق الغسيل يعد شراً ، لا ! أسيء استخدامه فقط ، هو مادة أساسية في حياتنا ، والسكر مادة أساسية ، والملح مادة أساسية ، أما حينما تضع الملح في الحلويات بالمعمول بالعيد المعمول لا يؤكل ، انتهى ، فالملح

ضروري ، الخطأ بالاستعمال ، الشر ما هو ؟ سوء تصرف بالإنسان فقط ، خلق الأنثى وخلق الذكر ، وأراد من الأنثى والذكر أن يتزاوجا ، حتى يكونا أسرة يسعد بها وتسعد به ، تنجب له أولاداً يملئون البيت سعادة ، وهي مضمونة المستقبل عنده ، وهو ضامن ولاءها وإخلاصها ، فأصل التصميم ذكر وأنثى زائد زواج ، فقط ، أما الزنا فهذا مخالفة منهج الله عز وجل ، فلما تتجه الفتاة نحو الزنا ، ما دام فيها مسحة جمال فعليها طلب ، فإذا انتهى جمالها أصحبت ملقاة في الطريق كالفأرة الميتة ، انظر إلى فتاة في سنها ، وقد سلكت طريق الحق ، لها أولاد ، ولها بنات ، ولها أصهار ، معززة ، مكرمة ، محترمة من زوجها ، وبناتها ، وأصهارها ، وأولادها ، والشر ليس إليك ، الشر سلبي ، بل إن الشر المطلق لا وجود له في الكون ، إن الشر المطلق يتناقض مع وجود الله ، إما أن تؤمن بشر مطلق ، أو أن تؤمن بإله واحد ، أحد ، فرد ، صمد ، لم يلد ، ولم يولد ، هذه المعاني تملأ القلب طمأنينة، والدعاء اللطيف الرائع للنبي صلى الله عليه وسلم

((والشر ليس إليك))

الشر من صنع أنفسنا ، أوضح مثل مركبة من أغلى الأنواع يقودها إنسان مخمور ، نزل بها في الوادي ، لذلك العقل هو المقود ، والشهوة هي المحرك ، والشرع هو الطريق ، مهمة العقل أن يبقي المركبة بقوة اندفاعها على منهج الله عز وجل ،

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

ما غاب عنا في الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

كل شيء وقع أراده الله ، الإرادة متعلقة بالحكمة المطلقة ، الحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، معنى الخبير يزيد على معنى العليم ، هناك معنى فرعي ، مثلاً : تصنع شيء له حمالة ، فالحمالة أنيقة جداً ، وموصولة وصلاً محكماً بهذا الشيء ، لكن ما فيها دارسة دقيقة جداً تشير إلى قوة تحمل هذه الحمالة ، فإذا ملئت هذه العلبة بحاجات ثقيلة وحملتها انفصلت الحمالة عن هذه العلبة ، نقول : هي أنيقة وجميلة ، وألوانها متناسبة ، وتثبيتها جيد ، لكن ما فيها دراسة دقيقة حول الوزن الذي يمكن أن يوضع في العلبة وبين قوة تماسك الحمالة مع العلبة . أما إنسان أحياناً يمسك ابنه من يده ، ويحمله ، هناك دراسة دقيقة جداً ، هذه العضلات بالكتف قوة متانتها يمكن أن تحمل جسم طفل بأكمله ، أحيانا يكون الأب غاضباً من ابنه يحمله بعنف ، صار وزنه مضاعفاً ، مهما كنت غاضباً ، فما من أب حمل ابنه من يده وملصت يده ، تحدث معنا كثيراً في الحقائب ، أما الابن فلا يحدث معه هكذا ، هناك دراسة دقيقة جداً ، كلمة خبير تعني على التطبيق ، العلم المجرد علم أما مع التطبيق صار خبرة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(26-73): تفسير الآيتان 74-75 ، النعمة والمنعم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-06-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة الأنعام .

الله تعالى يريد أن يخفف عن نبيه محمد العقبات والصعوبات التي ترافق الدعوة إلى الله :

مع الآية الرابعة والسبعين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74))

أيها الأخوة ، (إذ)ظرف زمان ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم العقبات والصعوبات والمشقات التي ترافق الدعوة إلى الله ، فمعركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، والذي يتصدى للدعوة إلى الله يجب أن يوطن نفسه على أن المعركة مع الطرف الآخر معركة حامية وقاسية ومديدة ، وقد قال الله عز وجل :

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ (120))

(سورة هود الآية : 120)

إذاً أراد الله سبحانه وتعالى استنباطاً من تلك الآية أن يذكر النبي صلى الله عليه وسلم بمتاعب وعقبات أبا الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، أي واذكر يا محمد وقت :

(قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

كلمة آباء تنسحب على الأب والجد وأب الجد وجد الجد مهما علوا :

أيها الأخوة ، الأبوة أصل ، فهذا الفرع من هذا الأصل ، وكلمة آباء تنسحب على الأب ، وعلى الجد ، وعلى أب الجد ، وعلى جد الجد ، مهما علوا ، لكن في هذه الآية ملمح ينبغي أن يكون واضحاً عندكم ، الآية الكريمة في البقرة :

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133))

(سورة البقرة)

إسحاق أبو سيدنا يعقوب ، وإبراهيم والد لسيدنا إسحاق ، ولكن جاء سيدنا إسماعيل وهو أخ إسحاق ، وقد أدرجت أسماؤهم على أنهم آباء ، فلذلك القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى ، قد يسمى العم أباً ، وفي بعض الأحاديث الشريفة :

((العم والد))

[أخرجه سعيد ابن منصور في سننه عن عبد الله الوراق]

أيها الأخوة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح . من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ، ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء))

[أخرجه العدني ابن عدي والطبراني عن علي]

آزر كان مشركاً ، وكان من عبّاد الأصنام ، فلا يعقل أن يكون آزر أباً لسيدنا إبراهيم والنبي عليه الصلاة والسلام من نسل إبراهيم ، فلذلك آزر في رأي علماء كثيرين جداً ليس أبا لإبراهيم ولكنه عم إبراهيم .

أيها الأخوة ، هناك نقطة دقيقة جداً ، الله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة الآية : 28)

الذي يعبد غير الله بنص هذه الآية نجس ، إذاً يرجح أو في الأعم الأغلب أن آزر ليس أباً لإبراهيم ، ولكنه عمه .

الله عز وجل عدّ العم أباً :

يقول عليه الصلاة والسلام :

((ما زلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات))

[ورد في الأثر]

من لدن آدم إلى أن ولده أبوه وأمه ، لم يكن من سفاح بل كان من نكاح ، ولم يكن إلا من طاهرات وطاهرين ، إذاً هذا الذي يدعونا أن نعتقد أن آزر ليس أبا إبراهيم إنما هو عمه ، والدليل القطعي على ذلك أن الله عز وجل :

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ)

إذاً إسماعيل ليس أباً ليعقوب ولكنه عم له ، وقد ورد ذكره في الآية على أنه أب لذلك الله عز وجل عد العم أباً ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((العم والد))

أما حينما أخذ عم النبي العباس أسيراً في موقعة بدر فقال عليه الصلاة والسلام :

((ردوا علي أبي))

[ورد في الأثر]

لم يقل عمي ،

((ردوا علي أبي))

تأكيداً لهذه الحقيقة التي أشرت إليها ، طبعاً أراد بأبيه هنا عمه العباس الذي وقع أسيراً .

شيء آخر أيها الأخوة ، عندنا في اللغة كلمة إذا أطلقتها انصرفت إلى معنى ، وإذا قيدتها انصرفت إلى معنى آخر ، تقول : فلان ذو أخلاق ، أطلقتها تعني أخلاقاً فاضلة ، لكن هناك أخلاق ذميمة ، أما الأخلاق التي من نوع آخر فيجب أن تقيدها بكلمة ثانية ، فلان أخلاقه سيئة ، وفلان أخلاقي أو ذو أخلاق ، إذا اكتفينا بكلمة أخلاق تنصرف إلى الأخلاق الفاضلة ، أما إن أردنا الأخلاق السيئة يجب أن نذكر كلمة سيئة ، تطبيقاً لهذه القاعدة :

لو أن إنساناً طرق باب إنسان ، فتح ابنه ، يقول له : أبوك هنا ؟ يقول له : نعم أو لا ، إذا قال : أبوك فقط ، يقصد أباه الحقيقي ، أما إذا كان متبنى عنده يقول له : أبوك محمود هنا ؟ وأحياناً بعض الأصهار يتوددون إلى أهل زوجتهم ، ينادون عمهم أباً ، وأم زوجتهم أماً ، لكن يضطرون أن يقولوا : ماما فلانة، لأنها في الحقيقة ليست أمهم ، فإذا أرادوا تكريم أم زوجتهم نادوها بكلمة أمي ، لكن أضافوا بعد هذه الكلمة الاسم الحقيقي ، كل هذا الكلام لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((ولدت من نكاح ، لا من سفاح))

[الطَّبَرَانِيُّ ، وَالبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الحُوَيْرِثِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ]

((وتقلبت بين أرحام الطاهرين وأرحام الطاهرات))

[ورد في الأثر]

ميزة قريش على بقية القبائل :

آزر كان مشركاً ،

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

كل هذا التفصيل ، وهذه المصطلحات ، وتلك الاستنباطات من أجل أن يثبت نسب النبي الطاهر من لدن آدم عليه السلام إلى أمه وأبيه ، ويجب أن نثبت أن النبي حينما يقول :

((العم والد))

وفي قول آخر :

((والأخ الأكبر والد))

((الأكبر من الأخوة بمنزلة الأب))

[رواه الطبراني عن كليب الجهني]

الخالة أم ، من أجل أن يبين تلك العلاقات المتينة التي أرادها الله أن تكون بين أفراد الأسرة .

أيها الأخوة الكرام ، قريش يعبدون الأصنام لا شك ، لكن في أعماق عقائدهم هذا النبي الكريم أبو الأنبياء ، ما ميزة قريش على بقية القبائل ؟ أنهم حول الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام ، وأن زوجته سعت بين الصفا والمروة فكان نبع زمزم ، وأن الذبيح الذي افتداه الله بكبش عظيم هو سيدنا إسماعيل ، إذاً الأحداث الكبيرة التي رافقت حياة سيدنا إبراهيم كانت في مكة ، إذاً في أعماق العقل الباطن لقريش أنهم يعظمون هذا النبي ، ويعظمون بيت الله الحرام، وتحج إليه القبائل من كل حدب وصوب قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ، لذلك الله عز وجل حينما لم يسمح لأبرهة أن يهدم الكعبة حفاظاً على مكانة قريش ، مع أن جيش أبرهة ليس جيشاً وثنياً إنه جيش يمثل الدين النصراني ، ومع ذلك لم ينتصر على أهل مكة ، ولم يهدم الكعبة حفاظاً على مكانة هذه القبيلة التي سوف تغدو قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم :

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3)الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4))

(سورة قريش)

طبعاً كيف آمنهم من خوف ؟ لأن هذا الذي يفكر أن يعتدي على تجارتهم سيقدم إليهم في موسم الحج ، فلذلك جميع القبائل كانت تهاب قريش حفاظاً على أن يكون طريق الحج سالكاً وآمناً لأفراد قبيلته .

الفرق بين الكافر والمؤمن أن الكافر مع النعمة والمؤمن مع المنعم :

شيء آخر ،

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً)

ما أصل عبادة الأصنام ؟ أصلها أن الإنسان حينما جاءه نفع مادي من الشمس والقمر لم يتجاوز هذه النعمة إلى المنعم ، ولم يتجاوز هذا السبب من المسبب ، فعبد الشمس والقمر ، ولأن الشمس والقمر تغيبان في وقت آخر ، الشمس تغيب ليلاً ، والقمر يغيب نهاراً ، إذاً لا بد من أن يذكروا هذين الكوكبين اللذين منحا البشر الضياء ليلاً ونهاراً برمز يعبدونه ليلاً حتى لا تغيب عنهم قداسة هذا الإله المزعوم ، من هنا كانت الأصنام والأوثان ، والفرق بين الأصنام والأوثان أن الصنم منحوت على شكل معين ،

فالوثن حجر ، والصنم شكل ، شكل من حجر ، فأصل عبادة الأصنام أن الإنسان حينما انتفع بالشمس عبدها وغفل عن أن لها خالقاً أنعم بها علينا.

(لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ (37))

(سورة فصلت الآية : 37)

الشعوب البدائية رأت النعمة فعكفت على عبادتها ، الهند الآن يعبدون البقر من دون الله .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ (5))

(سورة النحل الآية : 5)

شيء واضح جداً ، والإنسان أحياناً المشرك يبقى مع النعمة ولا يخترقها إلى المنعم ، الفرق بين الكافر والمؤمن أن الكافر مع النعمة ، والمؤمن مع المنعم .

(وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً (79))

(سورة الأنعام الآية : 79)

المؤمن يرى أن كل النعم من عند المنعم لذلك يمتلئ قلبه محبة وشكراً للمنعم :

نحن جميعاً كإسقاط على حياتنا اليومية قد تنعم بصحة ، من منحك هذه الصحة ؟ الله جل جلاله ، قد تنعم بزوجة طائعة منيبة ، من منحك إياها ؟ الله جل جلاله .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21))

(سورة الروم)

قد ترزق أولاداً صغاراً يملؤون البيت فرحاً وسروراً وحياةً ونشاطاً ، من منحك هذا ؟ الله عز وجل ، هذا الفرق الواضح الصارخ بين المؤمن ، الذي يرى أن كل النعم من عند المنعم ، لذلك يمتلئ قلبه محبة وشكراً للمنعم .

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه))

[أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك عن ابن عباس]

لو أنه ركب مركبة ، أن الله عز وجل مكنني من شراء مركبة ، لو أنه تزوج ، لو أنه سكن بيتاً ، لو أنه تناول طعاماً طيباً ، لو أنه رأى ابناً لطيفاً جميلاً يضحك بين يديه ، فكل نعمة يراها المؤمن يعزوها إلى الله عز وجل ، وبالشكر تدوم النعم ، بينما أهل الدنيا يعبدون النعمة من دون الله .

لذلك مثلاً لو أن امرأة عالية الجمال أصبحت زوجتك ، فإن رأيت المنعم لم تطعها في معصية الله ، أما إن غفلت عن المنعم فإنك ستطيعها في معصية الله ، لو أنك كنت في وظيفة ذات دخل كبير ، وجاءك توجيه من مدير المؤسسة بعمل لا يرضي الله ، إذا رأيت أن هذا الإنسان هو سيد نعمتك ، ونسيت الله عز وجل تعصي الله وترضيه ، أما إذا رأيت أن هذه الوظيفة منحة من الله عز وجل ، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق لا تطيع أحداً إلا فيما يرضي الله عز وجل ، هذا هو التوحيد .

نحن محاطون بنعم لا تعد ولا تحصى ، أهل الدنيا عبدوا هذه من دون الله ، لذلك الفاتحة نقرأها كل يوم عشرات المرات ، الحَمدُ ، الحمد يعني في نعمة ، كلمة الحَمدُ الآن التأوه ، معناها في نقمة ، البكاء فيه مشكلة ، الحَمدُ يعني في النعمة ، المشكلة بيننا وبين الطرف الآخر أن الحَمدُ عند المسلم لله وعند غير المؤمن لزيد أو عبيد ، لولي النعمة ، لآلهة في الأرض ، لطواغيت في الأرض ، أدق كلمة في الفاتحة الحَمدُ لله ، ليس هناك خلاف على الحمد في النعم ، أهل الدنيا يتمتعون بالصحة وبالجمال أحياناً ، وإن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين ، جميع النعم التي ينعم بها المؤمنون ينعم بها الطرف الآخر أضعافاً مضاعفة ، ومع ذلك يعبدون النعم من دون الله ، بينما المؤمنون يعبدون المنعم ولا يعبدون النعم .

أهم شيء في هذا الدرس أنك حينما تنتفع من نعمة ينبغي أن ترى المنعم :

أيها الأخوة ، الله عز وجل يقول :

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)

هم انتفعوا بالشمس وبالقمر ، ووقفوا عند السبب ، ولم يتجاوزوه إلى المسبب ، فأشركوا ، فجاء التوجيه الإلهي :

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

مرة على صور الأقمار الصناعية قطعة رمادية فوق الشرق الأوسط ، كانت أمطاراً غزيرة ، حدثني أحد الخبراء في الزراعة أن هذه الأمطار سببت مرعى في البادية تقدر قيمته بالمليارات ، لو لم تكن هذه المطر لكان حجم الاستيراد للعلف بالمليارات ،

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

كأن أهم شيء في هذا الدرس أنك حينما تنتفع من نعمة ينبغي أن ترى المنعم ، وحينما تنتفع من سبب ينبغي أن تصل إلى المسبب ، وهذا الفرق كبير بين المؤمن وبين غير المؤمن ، أهل الغرب مع النعمة، وأهل الإيمان مع المنعم .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً)

إله تتأله له ، تخضع له ، تحبه ، تشكره ، تتوكل عليه ، تعطيه وقتك ، تعطيه جهدك ، تعطيه عمرك ، تعطيه شبابك ، تعطيه محبتك ، تعطيه طاعتك ، تعطيه عملك ، أيعقل أن يكون هذا لصنم !

جاء ثعلب فبال على أحد أصنامهم ، فقال أحد الأعراب :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ضل من بالت عليه الثعالب

*** * ***

محبتك ، وطاعتك ، وولاءك ، وإخلاصك لحجر ؟!

أقول لكم أيها الأخوة : لا يليق بك كإنسان خلق الله الكون من أجلك أن تكون لغير الله ، لمجرد أن تكون لغير الله إنك تحتقر نفسك .

تصور حاسوباً صناعيّاً ثمنه خمسون مليوناً بحجم هذه الطاولة ، يمكن أن يقدم لك خدمات وإنجازات تعود عليك بالمليارات ، يمكن أن تستخدمه طاولة ؟! ممكن ؟! إنك إن فعلت هذا احتقرته ، هذا الحاسوب مهيأ ليجعلك من أغنى الأغنياء ، وفيه تعقيدات في تصميمه تحار فيها العقول ، ومع ذلك تستخدمه طاولة ، إن هذا احتقار له ، سند بمليار ليرة ، ظهره فارغ ، أيعقل أن تستخدم ظهره كورقة لتكتب عليها مسودة ، ثم تمزقها ، أين عقلك ؟!!

معنى الضلال :

أيها الأخوة ، الإنسان مخلوق لله : خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك :

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين ، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض

بما قسَمْتُهُ لك فلأُسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي ، وكنتَ عندي مَذْموماً .))

[ورد في الأثر]

((تريد وأريد، ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد .))

[ورد في الأثر]

أيها الأخوة الكرام ،

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

ما هو الضلال ؟ أن تضع هدفاً ثم تبتعد عنه، الإنسان هدفه السعادة ما من إنسان على وجه الأرض من الستة آلاف مليون وزيادة ، أصبحوا ستة مليارات وخمسمئة مليون ، ما من إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى السلامة والسعادة ، وهي هدفه أن يسلم وأن يسعد ، من هو الذي في ضلال مبين ؟ هو الذي مشى في طريق الشقاء ، هو الذي مشى في طريق يتناقض مع علة وجوده وغاية وجوده .

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

أزمة أهل النار وهم في النار :

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

الإيمان ألا ترى مع الله أحداً :

أيها الأخوة ، هذا الكون أيعقل أن لا يكون له صانع ؟ أي أنت في تعاملك اليومي حينما تركب طائرة أو سيارة ، ألا تعتقد أن هناك معامل مساحاتها فلكية ، مرة شاهدت معمل طائرات ، شيء لا يصدق ، المساحات تفوق حد الخيال ، التقنية ، الرافعات ، القطع التي تجمع من معامل عديدة ، أنت حينما تركب

طائرة توقن أن لهذه الطائرة عقولاً صممتها ، ومواد صنعت منها ، وتطبيقات عالية المستوى جمعت بينها .

الإنسان أعقد حالاته تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز ، أليس له خالق حكيم ؟ الناس الآن لا يقولون : أنا أعبد صنماً ، هذه ولت ، الشرك الجلي مستحيل أن يكون في العالم الإسلامي ، أن تجد صنماً يُعبَد في العالم الإسلامي ، مستحيل ، الشرك الجلي انتهى ، بدءاً من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحن أمة التوحيد ، والحمد لله ، ولكن الشيء الخطير هو الشرك الخفي ، الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، أنت حينما تعتمد على مخلوق وتنسى خالقك هذا شرك ، حينما تأخذ بالأسباب وتعتمد عليها فهذا شرك ، حينما ترى أن اللذة هي كل شيء في الحياة هذا شرك ، كأنك أغفلت الجنة ولم تعبأ بها ، ورأيت الدنيا هي الجنة ، الواحد لا يغتر أنه مؤمن ، أو أن هويته في العالم أنه مسلم ، أو معه هوية مكتوب عليها أنه مسلم ، أو ولد من أب وأم مسلمين ، أو ولد ببلد إسلامي ، الإيمان فوق هذا ، الإيمان ألا ترى مع الله أحداً ، الإيمان ألا تعتمد إلا على الله ، ألا ترجو إلا الله ، ألا تتوكل إلا على الله ، الله وحده يرفع ويخفض ، ويعطي ويمنع ، ويعز ويذل ، ويمنح ويمنع .

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ((2)

(سورة فاطر)

الإيمان رؤية حقيقية وموقف :

أيها الأخوة : الإيمان رؤية ، رؤية حقيقية ، ومع هذه الرؤية موقف ، أما من السهل جداً أن تكون مع المؤمنين لكنك لا ترى قوياً إلا الذي تزعم أنه قوي ، وتنسى الله عز وجل ، نحن بامتحان صعب جداً مع العالم الغربي ، نهدد كل يوم .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ((174)

(سورة آل عمران)

ثم أيها الأخوة يقول الله عز وجل :

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75))

(سورة الأنعام)

الحقيقة في ملك وفي ملكوت ، فالله عز وجل مالك الملك ، فالله عز وجل أشار إلى أن إبراهيم رأى ملكوت السماوات والأرض ، رأى من بيده السماوات والأرض ، وهذا فرق آخر ، هذا التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، رأى ملكوت السماوات والأرض ، لذلك الآيات الكونية التي وردت في القرآن الكريم والتي تزيد على ألف وثلاثمئة آية الشيء الذي يلفت النظر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرحها ، ولم يذكر جوانبها ، ولا يوجد حديث عنها إلا ما ندر .

الآيات الكونية تفتقر إلى أحاديث شريفة :

قد يلفت النظر أيضاً أن أي موضوع تعبدي فيه أحاديث تزيد على مئتي حديث ، موضوع البيوع ، موضوع الزواج ، موضع الطلاق ، أحاديث كثيرة جداً ، إلا أن هذا القسم في القرآن الكوني ، الآيات الكونية هذه تفتقر إلى أحاديث شريفة ، والذي يتساءل ما السبب ؟ الذي يمكن أن يكون جواباً مقنعاً أنه إما بتوجيه من الله عز وجل ، أو باجتهاد من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن التوجيه أو الاجتهاد في أعلى درجات الحكمة ، لماذا ؟ لقد رأى ملكوت السماوات والأرض ، لقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ملكوت السماوات والأرض ، قال تعالى :

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(سورة النجم)

في الإسراء والمعراج رأى الحقيقة ، رأى كل شيء ، رأى ما كان وما سيكون ، لكن لو أن النبي صلى الله عليه وسلم شرح هذه الآيات شرحاً عميقاً لرؤيته لملكوت السماوات والأرض لأنكر عليه أصحابه ، ولو شرحها شرحاً مبسطاً في مستوى فهم أصحابه لأنكرنا عليه نحن اليوم ، لذلك هذه الآيات التي تزيد على ألف وثلاثمئة آية تركت للتصور العلمي ، فكلما تقدم العلم كشف عن جانب من هذه الآيات الباهرات التي تدل أن هذا الكلام كلام الله عز وجل ، الشهادة العظمى من الله للعباد أن هذا القرآن كلامه ، الآيات التي تندرج تحت الإعجاز العلمي في القرآن الكريم :

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

أنت مؤمن ، أن تجلس في مجلس مؤمنين القضية سهلة جداً ، ليس هناك مشكلة ، كيف ما قلت لهم يقولون لك : سمعاً وطاعة ، لكن بطولتك أن تجلس في مجلس ينكرون أصل الدين ، يلحدون بالله رب العالمين ، هل معك حجة ؟ قال تعالى :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ (83))

(سورة الأنعام الآية : 83)

أنا لا أتصور مؤمناً ليس معه حجة ، لا أتصور مؤمناً إلا إذا كان عابداً فقط بعيداً عن العلم ، ولكن هناك عابد ، وعالم :

((فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد))

[رواه الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما]

((اغد عالماً ، أو متعلماً ، أو مستمعاً ، أو محباً ، ولا تكن الخامس فتهلك))

[أخرجه البزار الطبراني في الأوسط عن أبي بكرة]

الموضوع الإخباري لا يصلح أن تتحاور به مع الكفار أما الشيء الثابت فهو هذا الكون :

أخواننا الكرام ، العابد مقاومته هشة ، بأقل ضغط ينهار ، وبأقل إغراء ينهار ، لكن المؤمن وقد رأى من آيات ربه لا يتضعضع لا أمام سبائك الذهب اللامعة ، ولا تحت سياط الجلادين اللاذعة ، هذا هو الإيمان ، ومن هؤلاء المؤمنين الواحد كألف ، ومن هؤلاء المعتقدين العباد الألف كأف ، وإذا صلح زمن سابق بالعبّاد فإن هذا الزمن الصعب الذي فيه الشبهات والشهوات لا يصلح إلا بالعلماء ، إن أردت لهذا الدين النمو والتقدم فاطلب العلم ، لأن الطرف الآخر لا يخضع إلا للعلم ، لا يخضع لشيء تؤمن به أنت وحدك .

كنت أقول دائماً للإخوة الكرام : حينما تتحاورون مع الطرف الآخر إياكم ثم إياكم ثم إياكم أن تطرحوا موضوعات إخبارية ، موضوع الملائكة إخباري ، لو قال لك إنسان ملحد: ما الدليل على أن هناك ملائكة ؟ ما معك دليل ، دليلك الوحيد أن الله ذكر الملائكة ، ما الدليل على أن هناك جِنَّاً ؟ ما معك دليل ، الدليل الوحيد أن الله ذكر الجن في القرآن الكريم ، فكل موضوع أخبرك الله به فهذا موضوع إخباري ، هذا الموضوع لا يصلح أن تتحاور به مع الطرف الآخر .

أما الشيء الثابت فهذا الكون ، هذا الكون يخضع له كل أهل الأرض ، القوانين ما لها علاقة بالأديان إطلاقاً ، قوانين الفيزياء والكيمياء والفلك ، قوانين الجسم والحياة والنبات والحيوان ، قوانين يخضع لها كل البشر ، فلذلك هذا الكون هو الثابت الأول لأنه ينطق بوجود إله ، وبكماله ، وبوحدانيته ، وهناك مليون دليل ودليل على أسماء الله الحسنى من الكون .

هذا الماء فيه خاصة لولاها لما كان هذا الدرس ، بل ما كان هذا المسجد ، بل لما كانت هذه المدينة ، بل لما كان هذا العالم .

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (28))

(سورة فاطر الآية : 28)

هذا الماء عنصر من عناصر الكون ، يتمدد بالتسخين ، وينكمش بالتبريد ، لكن عند درجة زائد أربع تنعكس الآية ويتمدد بالتبريد ، ولولا هذه الظاهرة لتجمدت جميع البحار حتى أعماقها ، ولتوقف التبخر ، وتوقف المطر ، ومات النبات ، ومات الحيوان ، ومات الإنسان،

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

أول ثابت في الحوار مع الطرف الآخر هذا الكون والثابت الثاني القرآن الكريم :

هناك أشياء تحرك الصخر ، فإن أردت أن تحاور إنساناً فإياك أن تسمح له أن يطرح عليك قضايا إخبارية ، لأن دليلك الوحيد ذكر الله لها فقط ، هو ليس مؤمناً بالله أصلاً ولا بكتابه ، فأول ثابت في الحوار مع الطرف الآخر هذا الكون ، وكيف أنه ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله ، والثابت الثاني : هذا الكتاب ، القرآن الكريم ، فيه ألف وثلاثمئة آية هي سبق علمي لا يستطيع إنسان على وجه الأرض إلا أن يعتقد أنها كلام الله ، عندما يقول الله :

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45)مِنْ نُطْفَةٍ (46))

(سورة النجم الآيات : 45 - 46)

لا من نطفة وبويضة ، ثم يكتشف العلم مؤخراً أن الذي يحدد كون المولود ذكراً أم أنثى هو الحوين والنطفة وليس البويضة ، يعلم أن هذا كلام الله عز وجل ، يقول الله عز وجل :

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (28))

(سورة الشعراء الآية : 28)

ثم يقول :

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17))

(سورة الرحمن)

ثم يقول :

(بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (40))

(سورة المعارج الآية : 40)

لو درست الفلك لخررت لله ساجداً على هذا التفصيل ، مرة المشرق والمغرب ، ومرة المشرقين والمغربين ، ومرة المشارق والمغارب .

إيمانك بكتاب الله وبسنة رسوله يجب أن يكون كإيمانك بوجودك :

إذاً :

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

الإيمان يا أخوان ليس فيه حل وسط أبداً .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا (15))

(سورة الحجرات الآية : 15)

إيمانك بهذا الكتاب ، وبالذي جاء بهذا الكتاب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالذي أرسل هذا النبي وهذا الكتاب كإيمانك بوجودك ، هذه اليقينيات ، هذا اليقين الذي يولد مناعة قوية جداً .

أنا قلت في بداية الدرس : اللهم أخرجنا من الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات ، الآن الشهوات في أعلى درجة ، مستعرة ، الآن الشهوات والفتن يقظة ، الدنيا كلها تدعو إلى المعصية ، والمؤمن يريد وجه الله عز وجل ، الدنيا كلها مع المعصية والتفلت .

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر ؟ قالوا : يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال: نعم ، وأشدُ ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر ونهيتُم عن المعروف ؟ قالوا : يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، وأشدُّ ، كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

نحن في هذا الزمن ، كل شيء منحرف مقبول ، أما أن تضع فتاة على رأسها قطعة قماش تُمنع من الدخول في المدرسة بفرنسا ، أما أن ترتدي فتاة في أمريكا ثياب سحاقيات ويمنعها المدير لبقية مروءة فيه ، يقيم الأب عليه دعوة ويربح ثلاثين ألف دولار ، أما أن تضع فتاة قطعة قماش على رأسها فممنوع، أليس كذلك ؟

لم يسمح لدولة إسلامية أن تدخل السوق المشتركة إلا إذا قالت : الزنا شيء طبيعي ، لا يسمى جريمة الزنا ، المعروف أصبح منكراً والمنكر أصبح معروفاً ، فلذلك :

(نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

علينا أن نتسلح بالعلم لأنه السلاح الأقوى الآن :

أنا أدعوكم أيها الأخوة لا أن تحضر درس ، قضية سهلة جداً ، أدعوك إلى أن تملك حجة قوية تصمد أمام أكبر الأدمغة بعداً عن الله عز وجل ، أدعوك إلى دليل قطعي يطأطئ له أهل الكفر ، أدعوك إلى أن تملك حجة ، هذا الكون أكبر حجة ، وهذا الكتاب أكبر حجة ، والأحاديث الصحيحة أكبر حجة ، ويكاد الإعجاز العلمي الآن هو المادة الأولى التي تقف في وجه العولمة وفي وجه محاربة الأديان ، فلذلك :

(وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

الشيء المريح للمؤمن أن كل التطورات العلمية في صالح هذا الدين ، شاع في العالم الغربي أن الانحراف الجنسي الشذوذ وراءه جينات خاصة ، هذه فكرة مريحة جداً للشاذين ، لم يعمل شيئاً ، جيناته خاصة ، وهذه الفكرة لماذا شاعت هناك ؟ لأنها تغطي انحراف المنحرفين ، هم أنفسهم في أيام كلينتون ألقى بما يسمى بالقنبلة العلمية ، وهي الخارطة الجينية ، بعد أن ألقيت هذه الخارطة الجينية قال : من الثابت أن الجينات لا علاقة لها بالسلوك ، من يقول لك إن الجينات عند الشاذ خاصة ؟ لا ، الجينات لا علاقة لها بالسلوك لأنه لا يعقل أن يُركب في بعض الناس جينات خاصة ثم يحاسبون على شذوذهم ، مستحيل! فأنت حينما تملك الحجة لكل قضية فأنت مؤمن ، والآن المعركة طويلة وعنيفة بين الإيمان والكفر ، ولا يصلح لهذه المعركة إلا العلم ، لا يصلح لها البساطة والسذاجة ، الله يتولانا بالحفظ ، هناك كلمات لطيفة لكنها لا تعني شيئاً ، ماذا يعني من إنسان يبين لك أن هذا الكون من دون

إله ، اسمحوا لي أن أقول لكم : نحن جميعاً طرف واحد ، بطولتك ليست مع هؤلاء ، بطولتك مع إنسان يريد أن يضل ابنك ، مع إنسانة تريد أن تخرج ابنتك شبه عارية في الطريق ، وراءها فكر أن هذا الحجاب شيء تقليدي ، شيء لا قيمة له ، نحن المشكلة ليست مع بعضنا بعضاً ، الطرف الآخر بيده كل شيء ، بيده الإعلام ، بيده المناهج ، بيده الثقافة ، فما لم تكن لك حجة قوية لإحقاق الحق فالمشكلة كبيرة جداً ، وعلى كل واحد منكم مسؤولية ، هناك أحوال عالية جداً للمؤمنين ، لكن الآن سلاح العلم أقوى سلاح ، حينما يكون في مكان ، في الجامعات ، في المعاهد ، في الوزارات شباب مؤمنون ، متمكنون ، معهم الحجة القوية فالمستقبل لهذا الدين ،

(وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(27-73): تفسيرالآيات 75-80 ، التوحيد ألا تخاف إلا الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-07-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة الأنعام .

الفرق بين المُلك والملكوت :

مع الآية الخامسة والسبعين وما بعدها ، وهي قوله تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75))

فرق كبير بين المُلك والملكوت ، المُلك ما تراه العين ، العين ترى شمساً وقمراً ونجوماً ، وترى جبلاً، وبحراً ، وسهلاً ، وترى حيواناً ، وترى إنساناً ، وترى طائراً ، لكن الملكوت أن ترى ما وراء الطبيعة، أن ترى خالق الكون ، أن ترى أسماءه الحسنى ، أن ترى صفاته العليا ، الملكوت أن تعبر النعمة إلى المنعم ، الخَلق إلى الخالق ، الحكمة إلى الحكيم ، النظام إلى المنظم ، التسيير إلى المسير ، أن ترى أن لهذا الكون إلهاً عظيماً ، بيده كل شيء ، بيده ملكوت كل شيء ، بيده النفع والضر ، والموت والحياة ، بيده أن يرفعك أو أن يخفضك ، أن يعطيك أو أن يمنعك ، أن يعزك أو أن يذلك ، حينما تخرق ما تراه عينك إلى ما يراه عقلك تكون قد رأيت جانباً من الملكوت ، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

والسماوات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون ، والكون ما سوى الله ، والله عز وجل واجب الوجود ، وما سواه ممكن الوجود ، فلذلك مستحيل أن يكون المؤمن في غفلة ، المؤمن يرى ومعه حجة، وفي نهاية هذه الآيات :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ (83))

(سورة الأنعام الآية : 83)

المؤمن مرتبة جمالية مغموس في سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها :

أيها الأخوة ، خروج طفيف على خط الدرس ، هناك عبادة ، وهناك علم ، العابد مقاومته هشة ، جراء أي ضغط يخرق استقامته ، العابد مقاومته هشة ، جراء أي إغراء يفقد اتصاله بالله عز وجل ، لكن العالم لا يصرفه عن هدفه لا سياط الجلادين اللاذعة ولا سبائك الذهب اللامعة .

((والله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية لابن هشام]

المؤمن رجل مبدأ ، المؤمن رجل قيم ثابتة ، المؤمن مرتبة علمية ، ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلّمه ، المؤمن مرتبة جمالية مغموس في سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها ، من أدق الآيات التي تعبر عن هذه الحقيقة :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي (28))

(سورة هود الآية : 28)

الأمور واضحة ، خلق الكون ، خلق السماوات والأرض ، حقيقة الكون ، حقيقة الحياة الدنيا ، حقيقة الإنسان ، الإنسان لماذا هو مكلف ؟ لماذا هو مخير ؟ لماذا أودع فيه الشهوات ؟ لماذا منحه العقل ؟ لماذا فطره فطرة عالية ؟ لماذا أعطاه التكليف ؟ لماذا أعطاه التشريع ؟

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

أيها الأخوة ، المؤمن ينعم بنعمة لا تقدر بثمن ، الأمور واضحة ، فلسفة الحياة ، فلسفة الموت ، ماذا بعد الموت ؟ ماذا قبل الحياة ؟ فلسفة الأرزاق ، فلسفة الحظوظ المختلفة ، كيف وزع الله الحظوظ في الدنيا وكيف سيوزعها في الآخرة ؟ توزيع جزاء لا توزيع ابتلاء ،

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

لا تكفي البينة :

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ (28))

(سورة هود الآية : 28)

هذه الرحمة لو وزنت أموال الدنيا ، لو أن كل ما في الأرض من أموال لك ولم تُمنَح رحمة الله فأنت الخاسر الأكبر .

رحمة الله إذا أتيحت لك فأنت أسعد الناس ولو فقدت كل شيء والعكس صحيح :

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

لو أن هذه الرحمة حجبت عنك لكنت أشقى الناس ولو ملكت كل شيء ، لو أن هذه الرحمة أتيحت لك لكنت أغنى الناس ولو كنت في المنفردة ، المفارقة حادة ، ولو كنت في المنفردة وقد أتيحت لك رحمة الله فأنت أغنى الناس ، تسعد برحمة الله ، ولو فقدت كل شيء ، أهل الكهف لجؤوا إلى الكهف ، ماذا في الكهف ؟ كانوا في القصور فانتقلوا إلى كهف ليعبدوا الله فيه ، رحمة الله إذا أتيحت لك فأنت أسعد

الناس ، ولو فقدت كل شيء .

((إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

رحمة الله إذا حجبت عنك فأنت أشقى الناس ولو ملكت كل شيء .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ (44))

(سورة الأنعام الآية : 44)

خذوا الدنيا ، خذوا الأموال ، خذوا الجمال ، خذوا البترول ، خذوا الثروات ، لكن الذي ملأ الله قلبه بالإيمان ، وأعطاه الحكمة ، وعرف سر وجوده وغاية وجوده ، هذا هو الغني الحقيقي ، الغنى والفقر بعد العرض على الله ، لا يسمى الغني غنياً في الدنيا ولا الفقير فقيراً إلا بعد العرض على الله ،

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

(سورة النساء)

وقال :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً (14))

(سورة القصص الآية : 14)

الغنى الحقيقي :

أخواننا الكرام ، الله أعطى الملك لمن لا يحب ، وأعطاه لمن يحب ، مادام شيئاً واحداً ، إعطاؤه لمن يحب ولمن لا يحب لا يعد دليلاً على قرب الإنسان إلى الله .

أحياناً إنسان غني يتكلم بسذاجة مضحكة ، أنه إذا طاف بلاد الدنيا الله عز وجل يحبه ، ويفتتح مقولة ما أنزل الله بها من سلطان : الله إذا أحب عبده أنظره ملكه ، سيدنا محمد البحر لم يره ، وقبع في أرض صحراوية ، ما فيها شيء .

(بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ (37))

(سورة إبراهيم الآية : 37)

((دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ : هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ؟ قُلْنَا : لاَ ، قَالَ : فَإِنِّي صَائِمٌ))

[مسلم عن عائشة]

الله عز وجل يقول :

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(سورة النجم)

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

أعطى الملك لمن لا يحب ، أعطاه لفرعون ، وأعطى المال لمن لا يحب ، أعطاه لقارون ، لكن أنبياءه العظام ماذا أعطاهم ؟

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

فإذا كان عطاء الله لك من نوع العلم ، من نوع أنك تعرفه ، من نوع أنك تشكره ، من نوع أنك مستقيم على أمره ، من نوع أنك تبتغي رضوانه ، من نوع أن لك عملاً صالحاً تبتغي الله به ، فأنت الغني الحقيقي ، لذلك يروى عن سيدنا الصديق أنه : ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط .

يا رب ماذا فقد من وجدك ، وماذا وجد من فقدك ؟ الذي وجدك لم يفقد شيئاً ، والذي فقدك لم يجد شيئاً، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ إذا كان الله معك سخر لك أعداءك الألداء ليخدموك ، وإذا كان الله عليك سمح لأقرب الناس إليك أن يتطاول عليك .

إذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى

***

كن مع الله ترَ الله معك و اترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعـه ثم من يعطي إذا ما منعـك

***

هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ،

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

المؤمن وحده في شباب دائم والشباب هو التجدد :

أخواننا الكرام ، الأنبياء قمم البشر ، قمم ، والمؤمن الموفق يضع نبي الله محمداً صلى الله عليه وسلم قدوة له ، في موقف سيدنا إبراهيم قدوة ، في موقف سيدنا نوح قدوة ، إنسان دخل السجن مظلوماً سيدنا يوسف قدوة ، إنسان له زوجة سيئة سيدنا نوح قدوة ، إنسان له أب مشرك سيدنا إبراهيم قدوة ، هؤلاء الأنبياء قمم البشر لكن كل نبي يمثل حالة إنسانية ، فإذا كنت مع الله فلك في هذا النبي الكريم قدوة حسنة.

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

نري الفعل مضارع ، يعني أنت في حياتك الدنيا لك رؤية متجددة ، كل يوم ترى رؤية لم ترها البارحة، هذا التجدد في رؤيتك ، وهذا التجدد في معرفتك ، والرقي في صلتك بالله عز وجل هو سر

السعادة في الدنيا ، الدنيا مملة ، لحكمة بالغةٍ بالغة كل شيء في الدنيا يمل ، لو أن لك بيتاً تزيد مساحته على أربعمئة متر ، وثمنه بعشرات الملايين ، بعد أن تسكنه بشهر أو أكثر يصبح شيئاً عادياً ، لو اقتنيت أغلى مركبة ، لو تزوجت أجمل امرأة ، طبيعة الحياة الدنيا متناقصة ، تألفها ، ثم تملها ، لذلك المؤمن وحده في شباب دائم ، والحقيقة أن الشباب هو التجدد ، فالإنسان حينما لا تتجدد حياته يغدو كهلاً ، ثم يغدو شيخاً كبيراً ، العلم يجدد الحياة ، فكلما ازددت علماً ازددت من الله قرباً ، أنت حينما تفهم آية فهماً عميقاً تحس أنك شاب ، وأنك حصلت على كنز ثمين ، لذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطِك شيئاً .

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

يقين ، هناك وهم بالمئة ثلاثون ، وشك بالمئة خمسون ، وظن بالمئة تسعون ، وقطع بالمئة مئة ، حقائق الإيمان يجب أن تكون قطعية عندك ، يقينية ، لو أن البشر ، لو أن الستة آلاف مليون كفروا وأنت بلغت حق اليقين لا تكفر معهم ، الناس أحياناً يؤخذون بالكثرة ، هم مع الناس ، هذا الواقع ، أو هذا الوضع النبي عليه الصلاة والسلام ندد به ونهانا عنه :

((لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا))

[الترمذي عن حذيفة]

المؤمن تحكمه عقيدته وقيمه ومبادئه :

المؤمن لا ينساق وراء معطيات البيئة ، لا ينساق وراء ما تعارف الناس عليه ، المؤمن لا يتأثر بالعادات والتقاليد ، المؤمن تحكمه عقيدته وقيمه ومبادئه ، فلذلك شخصية المسلم فذّة ، يرى ما لا يراه الآخرون ، يسمع ما لا يسمعه الآخرون ، يتحرك بطريقة عجيبة، يبتغي رضوان الله ، لأنه آمن بالآخرة فلا بد من أن تنعكس مقاييسه ، يرى الفوز لا في الأخذ بل في العطاء ، يرى الفوز لا في استهلاك جهد الآخرين بل في بذل الجهد للآخرين ، يرى الفوز لا في الراحة بل في التعب ، لا في الإخلاد إلى النوم بل في اليقظة ، يرى الفوز لا في متع الحياة بل في قيم الحياة ،

(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

مثلاً : مرة جئت من حلب بمركبة عامة ، وصلت إلى شارع العدوي ، والأمطار كأفواه القِرب ، رأيت رجلاً يركض ، يمارس رياضة الركض أو المشي تحت المطر ، قلت : في الشام خمسة ملايين ، كلهم في بيوتهم وراء المدافئ يأكلون ويشربون ، ماذا في عقل هذا الإنسان من قناعات خالف بها أهل

دمشق؟! قناعته بالرياضة والحركة صيانة لقلبه ودعماً لصحته تفوق قناعات الناس جميعاً ، هذا مثل .

أنت حينما تؤمن كل من حولك يرى أن الذكاء في الأخذ وتراه أنت في العطاء ، كل من حولك يرى الذكاء في الراحة وتراه في التعب ، أن تأتي إلى مسجد ، وأن تجلس على ركبتيك ، ليس فيه مقعد وثير، ولا ضيافة ، ولا شيء ، إلا تعريف بكتاب الله عز وجل ، هذا هو الفوز ، لو قبعت في بيتك ، حيث المقعد الوثير ، والزوجة أمامك والأولاد ، وتأكل ما لذ ، وتشتهي ما لذ وطاب ، لا تكون في مقياس أهل الإيمان فالحاً ، الفلاح في أن تتابع فهم كلام الله عز وجل .

إذاً أيها الأخوة ، العطاء العظيم ، الفوز الكبير ، النجاح ، الفلاح ، الذكاء ، التفوق ، العقل أن تعرف الله ، ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتُّك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .

سيدنا إبراهيم رأى ملكوت السماوات والأرض كيف عبر عن هذه الرؤية ؟ قال :

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي (77))

(سورة الشعراء)

الفرق بين الفرق الضالة والفرق المؤمنة :

كنت مرة في بلاد بعيدة ، وأخذني صديق إلى معبد لدين آسيوي ، والمعبد أنفق عليه مبالغ فلكية ، ستة ملايين من عملة هذه البلاد أنفقت على هذا المعمل .

أيها الأخوة ، الأصنام من البرونز ، وصدر الصنم من الماس البرلنت وهذا من أغلى أنواع الماس ، سبحانك يا رب ، يأتي إنسان يحمل شهادة عليا ، يسجد لهذا الصنم انبطاحاً ، قلت : كم كرم الله المسلمين بأنهم يعبدون خالق السماوات والأرض ، كم كرم الله المسلم حينما عرف خالق السماوات والأرض ، ورأيت آلة في مدخل المعبد لكسر جوز الهند، سألتهم : لمَ هذه الآلة هنا ؟ قال : من أجل أن يأكل الآلهة ، يحبون هذه الفاكهة ، أي آلهة ؟ إنسان من البرونز لا ينطق ، ولا يتكلم ، ولا ؟! فهذا الإنسان حينما يعبد صنماً ، حينما يعبد حجراً ، حينما يعبد شمساً وقمراً ، حينما يعبد شخصاً ، حينما يؤلّه شخصاً لا تجد له عقلاً .

أيها الأخوة ، الدين دين التوحيد ، لكن حتى الأديان السماوية حينما تنحرف تؤلّه أشخاصاً ، لذلك ما من فرقة ضالة في العالم الإسلامي إلا وفيها أربع خصائص ، تأليه الأشخاص ، تخفيف التكاليف ، اعتماد النصوص الموضوعة ، والنزعة العدوانية ، وما من فرقة مؤمنة إلا أساسها التوحيد ، وأساسها الاتباع، وأساسها التمسك بدقائق الشريعة ،

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ)

طريق مسدود .

شخص معه مرض عضال ، جاء إلى حجر وقال له : اشفني ، ائتِ إلى طبيب ، ادخل مستشفى ، اسأل متخصصاً بهذا المرض مثلاً ، ماذا ينفع الحجر ؟

(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78))

(سورة الشعراء)

(الَّذِي خَلَقَنِي)

ما قال الذي هو خلقني ، لأنه لا أحد يدّعِي أنه خلق الإنسان أحد ، ولكن عتاة الأرض وطغاة الأرض يدعون أنهم يدلّون على الطريق الصحيح كفرعون ، قال :

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29))

(سورة غافر)

الهدى من الله وحده :

الخلق لم يدّعه أحد ، فسيدنا إبراهيم قال :

(الَّذِي خَلَقَنِي)

لكن :

(فَهُوَ يَهْدِينِ)

يؤكد أن الهدى من الله وحده .

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى (120))

(سورة الأنعام الآية : 71)

وقال :

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79))

(سورة الشعراء)

أيضاً هناك من يقول لك : لحم كتفك من خيري ، يقول لك : أنا معيل أسرة ، أنت معال ولست معيلاً ، أنت معال مع بقية أفراد الأسرة ، الشيء المتنازع عليه أكده بكلمة

(هُوَ)

والشيء المقطوع به لم يؤكده بكلمة

(هُوَ)

قال :

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80))

(سورة الشعراء)

الإنسان قد يذهب إلى طبيب ، وقد يأخذ الدواء ويشفى ، فيتوهم أن الطبيب هو الذي شفاه ، هذا الطبيب عالجه لكن الله هو الذي شفاه ، الشفاء من الله والطبيب يعالج .

إن الطبيب لـه علم يدل به إن كان للناس في آجال تأخير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حار الـطبيب وخانته العقاقير

****

سيدنا إبراهيم بشَّر بقدوم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام :

من أبلغ العبر أن بعض الأطباء يمرضون باختصاصهم ، فإذا توهموا أنهم متمكنون في اختصاصهم ، ولن يصابوا بمرض من اختصاصهم ، لأنهم يأخذون بالأسباب أخذاً مبالغاً به ، فهؤلاء يؤدَّبون بأن يصابوا بأمراض هي من اختصاصهم .

والله التقيت مع طبيب متخصص في القلب في بلاد بعيدة ، وجدته مطمئن أنه لن يُصاب بهذا المرض، وبعد فترة قيل لي : والله أصيب قبل أيام باحتشاء في قلبه وهو في الخامسة والأربعين .

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80)وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81))

(سورة الشعراء)

أيها الأخوة ، هذا من رؤية هذا النبي الكريم .

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً (124))

(سورة البقرة الآية : 124)

إذاً سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء ، وهو نبي من أولي العزم ، ونبينا عليه الصلاة والسلام من نسله ، سيدنا إبراهيم قال :

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ(129))

(سورة البقرة الآية : 139)

سيدنا إبراهيم بشر بهذا النبي الكريم :

((أنا دعوة أبي إبراهيم))

[رواه الطبراني عن العرباض بن سارية]

الآيات التالية عن قصة الهدى وهي منهج لنا :

أيها الأخوة ، الآية الكريمة :

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76))

(سورة الأنعام)

الآن عندنا قصة الهدى ، وقصة الهدى منهج لنا ،

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً)

الكوكب شيء ، والنجم شيء آخر ، النجم ملتهب ، والكوكب منطفئ ، الكوكب إن رأيته منيراً فهو يعكس ضوء نجم ، كالشمس والقمر ، الشمس نجم ، أما القمر فهو كوكب ،

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي)

هنا إشكال كبير ، أيعقل أن يجري على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام كلام شرك ؟ عندنا أسلوب في الحوار اسمه مجاراة الخصم ، هو أسلوب إنكاري ، مثلاً : لو أن فتاة طويلة جداً ، وخطبها خطيب قصير جداً ، فلما رأته قالت لأمها : هذا خطيبي ؟ هي تنكر ذلك أشد الإنكار ، لا تناسب بينهما أبداً ، هذا خطيبي .

سيدنا إبراهيم في رأي بعض العلماء حينما قال :

(هَذَا رَبِّي)

هو يجاري الخصم ، لو سلمنا معكم افتراضاً أن هذا الكوكب إله ، فمن يدير العالم في غيبته ؟ هذا هو المعنى ، هناك من يتهجم ، ويقول : كيف يقول : هذا ربي ؟ هذا كلام فيه ضعف تفكير ،

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ)

جن أي ستر ، والمجنون ستر عن الواقع ، والمِجن يسترك عن ضربة السيف ، والجنة وما فيها من سعادة بإقبال أهل الجنة على الله عز وجل لا يعرفها إلا من ذاقها ، أو ما فيها من جنات تجري من تحتها الأنهار قد تحجب المستمتع فيها عن غيره ، هكذا قال علماء اللغة ،

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ)

أي ستره الليل ،

(رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي)

مجاراة لكم ،

(فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)

من أعبده في النهار ؟ هذا في الليل ، لكن من أعبده في النهار ؟ وإذا أفل في النهار من يدير هذا الكون في النهار ؟

(فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)

أنا أحب إلهاً معي دائماً ، أسأله في أية لحظة ، أدعوه في أي مكان ، أتكل عليه في أي ظرف ، أنا أعبد إلهاً يسمعني إن سألته ، ويجيبني إن دعوته ، ويحفظني إن صدقته .

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64))

(سورة يوسف)

العقل لا يستقيم مع إله من دون الله عز وجل :

سيدنا إبراهيم يحاورهم ، هذا اسمه مجاراة الخصم ، هذا ربي ولنفترض أنه إله ، فمن يدير الكون في النهار ؟

(فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)

تابع معهم الحوار :

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77))

(سورة الأنعام)

أي أن تعبد شمساً ، أو قمراً ، أو كوكباً ، حجراً ، أو مدراً ، أو إلهاً من صنع يديك ، من التمر صنعته، أو من الحجر نحته ، أين عقلك ؟

أخواننا الكرام ، العقل لا يستقيم مع إله من دون الله عز وجل ، لا يقبل ، والذي يعبد إلهاً من دون الله يصف نفسه بالحمق والغباء ، ماذا يفعل معك هذا الإنسان ؟ يقولون : إن طبيب الميكادو ـ الميكادو عند اليابانيين إله ـ طبيبه أسلم ، لأنه رأى هذا الإله في أواخر أيامه مصاباً بأمراض لا تعد ولا تحصى ، كيف تعبد إلهاً معه قرحة ؟ ومعه شلل ؟ ومعه التهاب مفاصل ؟ فالإنسان عندما يفكر لا يستطيع أن يستقيم عقله أن يعبد إلهاً من دون الله ، أما أن تعبد خالق السماوات والأرض فهذا شيء يتناسب مع العقل الراجح ، لذلك :

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً .))

[ورد في الأثر]

المؤمن إذا عزف عن الدنيا لكنه اختار الله عز وجل ، فالذي اختار الله هو أرجح الناس عقلاً ، والذي اختار الآخرة هو أشد الناس طموحاً ، إنسان طموح ! إنسان طموح صار معه مئة مليون ، مئتا مليون ، وبعد ذلك ؟ موت .

الذي يضع كل أمله في الدنيا يغامر ويقامر :

الشيء الذي يحير عقول أهل الدنيا أنهم يمشون في طريق مغلق ، مسدود ، يعمل ليلاً ونهاراً إلى أن يصل إلى ثمرة في الدنيا ، بعد أن يصل إلى هذه الثمرة يأتي ملك الموت ، سمعت عن إنسان بقي يجمع أموالاً ثلاثين عاماً ليشتري بيتاً ، فاشترى بيتاً ـ القصة قديمة جداً في أحد أحياء دمشق المرتفعة ـ هذا البيت له شرفة ، وأنا رأيت هذا البيت ، وله إطلالة على دمشق ، بعد أن جلس في هذه الشرفة ، بعد ثلاثين عاماً وهو يجمع ثمن هذا البيت ، فقال بالحرف الواحد : الآن أمّنتُ مستقبلي ، عاش سبعة أيام بعد هذه الكلمة .

كل إنسان يضع أمله كله في الدنيا فهو يقامر ويغامر ، الإنسان يدفن تحت الأرض خلال دقيقة ، لا يشكو شيئاً ، وهذه الحوادث تكثر الآن ، لا يشكو شيئاً ، بين عشية أو ضحاها صار مرحوماً من أهل القبور ، فهذا الذي يضع كل مكتسباته في الدنيا يغامر ويقامر .

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً ـ مشرقاً ـ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي)

قصْده أنه لا يعقل أن يكون الكوكب إلهاً ، من يدير الكون في النهار ؟ الآن رأى كوكباً أكبر ، القمر كوكب أكبر ،

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ)

ليس هذا إلهاً ، ولا هذا إلهاً ، فكيف تعبد إلهاً يغيب عنك ؟

(قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

أحياناً تحصل في الدنيا ، علقت آمالاً كبيرة على إنسان ، وأوهمك أن بيده كل شيء ، بيده أن ينقذك عند المحنة والشدة ، ومعك رقم هاتفه ، وبإمكانه أن يطال أي إنسان في بلدك ، فإذا لجأت إليه في ساعة حرجة قال لك : أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً ، ألا يصاب الإنسان بإحباط شديد ، إحباط شديد جداً ، لذلك كل من علق أمله بمخلوق وقع في إحباط شديد وقد ورد في الأثر القدسي :

((وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات بين يديه ، وأرسخت الهوى من تحت قدميه ، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني ، وغافر له قبل أن يستغفرني ، ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً))

[ابن عساكر عن كعب بن مالك]

سيدنا إبراهيم يعلمنا أساليب الحوار :

قال تعالى :

(قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ(77)فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(78))

(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً)

الآن في النهار ، كنا في الليل ، وفي النهار تغيب هذه الكواكب والنجوم ، الآن في النهار ،

(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ)

نستنبط أن هناك بحثاً عن الحقيقة ، نستنبط أن هناك تفكراً في ملكوت السماوات والأرض ، نستنبط أن هناك قلقاً يجب أن نعرف من هو الله ؟ من هو الذي خلقني ؟ من هو الذي يطعمني ويسقيني ؟ من هو الذي يشفيني ؟ .

أيها الأخوة ،

(قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ)

الشمس ، وفي النهار

(فَلَمَّا أَفَلَتْ ـ فلما غابت ـ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

كله شرك في شرك ،

(إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

هذا يسمونه أن تُجَاري الخصم ثم تضع الخصم في محنة كبيرة فكرية ، أسلوب من أساليب الحوار ، فسيدنا إبراهيم يعلمنا أساليب الحوار ، أنت أحياناً تجاري خصمك حتى يرتاح ، أنا أسلم لك أن هذا الذي تقوله صحيح ، فكيف نفسر هذه المشكلة ؟ وهذه المشكلة ؟ وكيف نحل هذه المشكلة ؟ ثم يعطي هذا النبي الكريم الكلمة الفاصلة :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79))

أنا لا أعبد شمساً ، ولا قمراً ، ولا نجماً ، ولا حجراً ، ولا مدراً ، ولا بقرةً ، ولا شخصاً أظنه أنه يعطي أو يمنع ، يرفع أو يخفض ، يعز أو يذل ، وما أكثر من يعبد أشخاصاً من دون الله ، وما أكثر من يعامل أشخاصاً كأنهم آلهة ، يطيعهم ويعصي الله ، يرضيهم ويغضب الله عز وجل ، إذا كانت عبادة الأصنام غير موجودة في العالم الإسلامي فعبادة الأشخاص موجودة دون أن تقول : إله ، لكنك تعامله كإله ، ترى أن طاعته أكبر من طاعة الله ، ترى أن رضاه أعظم من رضى الله عز وجل .

الشرك فيما مضى شرك عبادة الأصنام أما الشرك هذه الأيام فهو شرك عبادة الأشخاص :

من أطاع مخلوقاً وعصى خالقاً ما قال : الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة ، الألف مليون مسلم في اليوم الواحد يقولون : الله أكبر ، دقق في هذا الكلام ، إذا أطعت مخلوقاً وعصيت خالقك فأنت ما قلت : الله أكبر ولا مرة ولو رددتها بلسانك ألف مرة ، إذا غششت المسلمين ، وخالفت منهج رب العالمين ، وطمعت في مبلغ كبير من جراء هذا الغش فأنت ما قلت : الله أكبر ولا مرة ولو رددتها بلسانك ألف مرة ، لأنك تتوهم أن هذا المبلغ الكبير الذي نلته من غش المسلمين أكبر عندك من طاعة رب العالمين ، من أطاع زوجته وعصى خالقه ، ما قال : الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى متوهماً أن طاعة الزوجة ورضاءها أفضل عنده من طاعة الله ورضائه .

إذاً إذا كان الشرك فيما مضى شرك عبادة أصنام فإن الشرك في العصور المتأخرة هو شرك عبادة الأشخاص ،

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً)

الطاعة هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ،

(وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً)

مائلاً ، من عبد الله ولم يحبه فما عبده ، ومن أحب الله ولم يعبده فما عبده ، من أطاع الله ولم يحبه فما عبده ، ومن أحب الله ولم يطعه فما عبده

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً)

مائلاً ،

(وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

الذي توهم أن جهة في الأرض لها فعل ، ولها عطاء ، ولها منع ، طبعاً على الشبكية هناك أشخاص في الأرض يعطون ويمنعون ، وأشخاص يرفعون ويخفضون ، وأشخاص إذا رضوا عنك تسعد برضائهم لأنهم أقوياء ، وأشخاص إذا هددوك لا تنام الليل لأنهم أقوياء ، هذا من الشرك .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106))

(سورة يوسف)

الإنسان إذا كان مشركاً يعطيه الله عز وجل مهلة ليتوب فإذا تاب غفر الله له شركه :

قال تعالى :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80))

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ)

يروى أن سيدنا موسى استسقى ربه ، فقال الله له ـ وهو كليم الحق ـ : إن فيكم عاصياً ، أي لا أستجيب لكم لأن فيكم عاصياً ، فقال موسى عليه السلام : فليغادرنا ، لم يغادر أحد ، والمطر انهمرت على قوم موسى ، فقال : يا رب ، من هذا الذي يعصيك ؟ فورد في هذه الآثار : أن عجبت لك يا موسى، أستره وهو عاصٍ لي وأفضحه وهو تائب ، يبدو أنه تاب ، فالإنسان إذا كان مشركاً يعطيه الله عز وجل مهلة ليتوب ، فإذا تاب غفر الله له شركه ،

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ)

الآن دققوا الآن مغزى الدرس كله :

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً)

أي أنا لا أخاف من شيء .

المؤمن لا يخاف إلا الله :

أخواننا الكرام ، الآن هناك قضية في التوحيد مهمة جداً ، عندنا فيروسات للأمراض ، عندنا أقوياء ، عندنا حيوانات مؤذية جداً لدغتها قاتلة كالحية والعقرب ، هناك أشياء مخيفة جداً ، زلازل ، براكين ، حروب أهلية ، حكام ظلَّام ، فالإنسان ينبغي ألا يخاف أم يخاف ؟ قال الله عز وجل على لسان سيدنا إبراهيم :

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً)

أوضح مثلٍ : لو أن وحشاً مخيفاً جائعاً يمكن أن يلتهم الإنسان في دقيقتين مربوط بزمام محكم بيد جهة قوية ، وبينك وبينه مسافة ، لكن هذا الزمام إذا أرخي وصل إليك ، وإذا شد أبعد عنك ، أنت علاقتك مع من ؟ مع الذي بيده الزمام ، وهذا معنى قوله تعالى :

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

المؤمن لا يخاف من الوحوش ، ولا من الأقوياء ، ولا من الظُّلَّام ، ولا من الحيوانات القاتلة ، ولا من الأمراض ، ولا من الفيروسات ، الأخطار لا تعد ولا تحصى ، السيوف المسلطة على الإنسان في الدنيا لا تعد ولا تحصى ، الأخطار كبيرة جداً ، ومتعددة جداً ، ومتنوعة جداً ، لكن المؤمن لا يخاف إلا الله ، ويخاف من هذه الأشياء في حالة أن يسمح الله لها أن تصل إليك ، مثلاً هذا القوي أنا أخافه ولا أخافه ، أنا لا أخافه لأنه بيد الله .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

لكنني أخافه إذا سمح الله له أن يصل إلي ، لذلك من أدق الأحاديث الصحيحة :

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه))

[الفردوس بمأثور الخطاب]

لا تخف من أحد ، خف من نفسك ، خف أن تعصي الله فيستحق هذا الإنسان العاصي التأديب ، فيسمح الله لقوي أن ينال منك .

معنى التوحيد :

أدق ما في الدرس هو :

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

هذا هو التوحيد .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213)وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217)الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218))

(سورة الشعراء)

قال تعالى :

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

في درس آخر إن شاء الله نشرح هذه الآيات المتعلقة بالأمن .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(28-73): تفسير الآيات 79-83 ، الحُجَّة لا تأتي إلا مع الإيمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-07-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة الأنعام .

ليست العبرة أن تُقر أنه إله واحد ولكن العبرة أن ترجو لقاءه :

مع الآية التاسعة والسبعين ، وهي قوله تعالى :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79))

هذا الدين كله دين التوحيد ، وقد لخصه الله عز وجل بكلمات .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً (110))

(سورة الكهف الآية : 110)

هنا نقطة دقيقة جداً ، لا يكفي أن تُقر بالتوحيد ينبغي أن تتحرك ،

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ)

ليست العبرة أن تُقر أنه إله واحد ولكن العبرة أن ترجو لقاءه ،

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

كنت أضرب مثلاً : في النظام العسكري المجند لا يستطيع أن يقابل قائد الفرقة ، مستحيل ، فوقه مراتب كثيرة جداً ، والنظام العسكري يقتضي التسلسل ، لكن لو أن هذا المجند رأى ابن قائد الفرقة على وشك الغرق فألقى بنفسه وأنقذه ، يستطيع أن يقابله ، ويجلسه إلى جنبه ، ويأتيه بالضيافة ،

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

الشرك الجلي والشرك الخفي :

أكثر شكوى تأتيني أنه أحواله ضعفت ، صلاته ما فيها خشوع ، يؤدي الأعمال الصالحة من دون أن يشعر بقرب من الله عز وجل ، لكن هذه الآية هي الرد المفحم :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ)

ومعنى لقاء ربه قد يكون هذا في الدنيا ، اللقاء الاتصال ، في الدنيا الاتصال ، في الآخرة دخول الجنة،

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

هنا :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ)

لا إلى زيد ، ولا إلى عبيد ، ولا إلى فلان ، ولا إلى علان ، ولا إلى الشمس ، ولا إلى القمر ، ولا إلى الحجر ، ولا إلى المدر ، ولا إلى البقر ولا إلى الأصنام ،

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً)

لا يكفي أن توجه وجهك إليه ، ينبغي أن تكون مائلاً إليه ، العبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، ما عبد الله من أطاعه ولم يحبه ، وما عبد الله من أحبه ولم يطعه ،

(وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

مرة ثانية أيها الأخوة ، في العالم الإسلامي ليس مطروحاً الشرك الأكبر وهو الشرك الجلي ، لكن الشرك الخفي موجود في العالم الإسلامي ، هي شهوة خفية ، الشهوة الخفية أنت ألهت شهوتك ، عبدت شهوتك من دون الله ، ولكن شهوة خفية وأعمال لغير الله ، أما إني لست أقول لكم إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ، ولكن شهوة خفية وأعمال لغير الله .

(وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

كلمة إشراك أن تعتمد على غير الله ، أن تعلق الأمل على غير الله ، أن ترجو غير الله ، أن تحب غير الله ، أن تخاف غير الله ، أن تخلص لغير الله ، أن تتجه لغير الله ، أنت حينما تعلم علم اليقين أنه لا رافع ولا خافض ، ولا معطي ولا مانع ، ولا معز ولا مذل إلا الله ، وصلت إلى التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد . الآن :

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80))

قومه حاجوه بالشرك أن هذه أصنام تنفع وتضر .

الحجة لا تأتي مع الشرك بل تأتي فقط مع الإيمان :

أخواننا الكرام ، من المستحيل أن يكون مع الشرك حجة ، الحجة مع الإيمان .

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ (83))

(سورة الأنعام الآية : 83)

لا يمكن أن تقوم للباطل حجة ، الحجة ضعيفة ، واهية ، متمزقة ، لا تقف على قدميها ، وإذا أصغيت إلى حجج أهل الدنيا رأيت شيئاً مضحكاً ، حججهم باطلة وداحضة عند الله عز وجل ، الحجة اليقينية القطعية المقنعة القاطعة لا يملكها إلا المؤمن قولاً واحداً .

بشكل أو بآخر أنا أتمنى لكل واحد منا أن يكون في أعلى درجة من امتلاك الحجة، لكن أقول لكم كلمة لعلها قاسية : ما لم تقم الحجة على المنكرين فإيمانك ليس كافياً ، ما لم تقم الحجة على غير المؤمنين فإيمانك ليس كافياً ، لأن الإيمان في الأصل ليس متداولاً بين المؤمنين ، بين المؤمنين وبين غير المؤمنين .

مرة حضرت مناقشة دكتوراه ، والكتاب ثمانمائة صفحة ، هي أطروحة ، الدكتور المناقش قال له كلمة، قال له : هذا الكتاب لا يصلح إلا للمسلمين ، ولكن جهة أخرى إذا قرأته لها عليه ألف مأخذ ومأخذ ، قال له : إنك لا تصب ماء في وعاء فارغ ، إنك تصب ماء في وعاء ملآن .

أنت ما لم تفكر كيف يفكر هذا الإنسان الآخر ، الآن أكثر شيء مطروح الرأي والرأي الآخر ، وأنت كمؤمن يجب أن تعلم الرأي الأخر ، ويجب أن تملك حجة تدحض الرأي الآخر ، تدحضه بالعلم لا بالصياح والشتم ، هذا ليس من سلوك المؤمنين .

الإنسان حينما لا يعلم من هو الله لا يملك الحجة :

يقول الإمام الغزالي : "ما ناقشني جاهل إلا غلبني ، ولا ناقشت عالماً إلا غلبته "، حجج أهل الدنيا بالصياح والضجيج ، والسّباب والشتائم ، أما الحجة العلمية علم لعلم ، حجة لحجة ، دليل لدليل ، لا يمكن أن تقوم حجة للباطل ، الحق لا يتعدد ، والمؤمن الصادق وحده يملك الحجة ،

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ)

أي حاوروه ، أو ناقشوه ، أو جادلوه ، كلمة حوار كلمة مقبولة ، لكن كلمة جدال غير مقبولة ، حاجه هنا أتوا بحجج واهية ، على الشرك ، على أن هذه الأصنام تنفع وتضر ،

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ)

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28))

(سورة هود)

إنسان معه جوهرة ثمنها مئة مليون أمام إنسان يحمل قطعة من الزجاج ثمنها قروش ، فأنت تعلم ماذا تملك ، والحقيقة أنت حينما لا تعلم من هو ربك ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يدافع عنك ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عنك ، أنت حينما لا تعلم من هو الله لا تملك الحجة .

الآن نحن في العالم الإسلامي نعاني حالة إحباط سببها الغزو ، والتهديد ، والاحتلال ، والاتهام ، والضغوط ، هذا كله واقع لكن المؤمنين الصادقين لا يتأثرون به أبداً .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ((174)

(سورة آل عمران)

الشرّ في النفوس فقط أما في الأفعال فكل شيء وقع أراده الله تعالى :

أخواننا الكرام ، يجب ألا ترى مع الله أحداً ، على الشبكية ملايين القوى الجبارة في الأرض ، ملايين القوى الطاغية ، ملايين القوى الظالمة ، على الشبكية الشر ليس إلا في النفوس ، أما في الأفعال فكل شيء وقع أرداه الله وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، ما دام الشيء وقع فقد أراده الله ، والحقيقة الدقيقة أنه لكل واقع حكمة ، وليس كل موقع حكيماً ، قد يكون الموقع مجرماً ، ولكن لأن فعله وقع فهناك حكمة نعرفها أو لا نعرفها ، نكشفها أو لا نكشفها .

إذاً :

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ)

- بآلهتهم -

(قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ)

إنسان يأكل العسل ، ويأتي إنسان آخر ما ذاق العسل ، ما ذاق إلا الدبس ، فإذا أقسم هذا الإنسان الآخر أنه ما رأى طعماً أطيب من الدبس فهو صادق ، لأنه لم يذق العسل ، أنا لا أقول : المؤمن متكبر ، لا أبداً ، لكن المؤمن ذاق من أحوال القرب ما لم يذقه أهل الدنيا ، شعر بسعادة القرب من الله لم يشعر بها أهل الدنيا ، من هنا قال بعض العلماء : " في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، إنها جنة القرب " ، وقالوا : "ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري ، إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة ، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ " .

ما لم تكن سعيداً بما وهبك الله من نعمة التوحيد ، وما لم تكن محاجاً بالحجة اليقينية بما وهبك الله من الحق العتيد ففي الإيمان خلل .

موضوع الخوف :

الآن موضوع الخوف ، قال :

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ)

أي هذه الأصنام أحجار ، هذه لا تخيف ، والذي يخاف منها عطل عقله ، والحقيقة أحياناً ترى إنساناً في أعلى مرتبة اجتماعية ، قد يكون رئيس وزارة في العالم الغربي ، يذهب إلى فلكي ليتنبأ له ، معنى ذلك أن ضعف الإنسان يحوجه إلى جهة قوية يعتمد عليها وهذا أصل التدين . قال الله تعالى :

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (28))

(سورة النساء)

نحن جميعاً ضعفاء لكن المؤمن قوى ضعفه بالله ، نحن جميعاً فقراء لكن المؤمن قوى فقره بالله عز وجل ، استغنى بالله ، نحن جميعاً جهلاء لكن المؤمن استنار بنور الله ، لذلك حاش يا رب أن نفتقر في غناك ، وأن نضل في هداك ، وأن نضامّ في سلطانك ،

(أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ)

قديماً كانت الأصنام أما الآن فهناك طغاة في العالم ، طغاة ترتعد فرائص الدول منهم ، ليس الأشخاص بل الدول ، طغاة ترتعد فرائص الدول منهم لما عندهم من أسلحة فتاكة ، ولما في قلوبهم من قسوة كالحجر ، لا يعبؤون بالدمار ، مصلحتهم قائمة على الحروب ، هذه الدول القوية أخبرنا الخبراء أن مصالحها لا تتحقق إلا بالحروب ، فالحروب جزء من أنظمتهم ، ودائما عقود الأسلحة عقود إذعان، قد يكون بمئة ضعف ، بألف ضعف ، لذلك مصالحهم لا تقوم إلا على الحروب ، هذه الجهات القوية التي ترتعد منها فرائص الدول أمام المؤمن ،

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ)

بشكل مبسط جداً : وحش مخيف جائع مفترس ، يأكل الإنسان بلقيمات ، لكنه مربوط بزمام بيد جهة قوية حكيمة عادلة رحيمة ، أنت علاقتك مع هذه الجهة ، هذه الجهة لو شاءت لأرخت الزمام ووصل إليك ، ولو شاءت لشدت الزمام وأبعدته عنك ، هذه القصة كلها

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً)

أي إلا أن أعاقب بمشيئة الله عن طريق هذا الوحش ، فهذا الوحش أخافه ولا أخافه ، لا أخافه لأنه لا يملك نفعاً ولا ضراً ، وأخافه إن أراد الله لي التأديب فاستخدمه أداة لذلك .

الفكرة دقيقة ، أنا لا أخاف هذا الطاغية ، لأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ، وأخافه إن شاء الله لي التأديب عن طريقه ، سمح له أن يقترب مني :

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يخافن إلا ربه))

[مسند الفردوس]

لا ينجي المسلم إلا أن تكون عقيدته تحقيقاً لا تقليداً :

الآن :

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)

علم الله متعلق بعدله ، مادام الله يعلم والأمر بيده وهو القوي :

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

وقال :

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ (54))

(سورة الأعراف الآية : 54)

أنا لا أخاف من هؤلاء الشركاء ،

(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً)

وربي يعلم ، أجمل كلمة سمعتها مرة الحمد لله على وجود الله ، الله يعلم ، أحياناً الإنسان يُتَّهَم تهمة باطلة ، أحياناً الذي بيده أمره لا يعلم حجم عمله ، مثلاً : موظف مخلص ، دؤوب ، يعمل بإخلاص ، بجهد كبير ، فتعب كثيراً ، خرج من مكتبه إلى الممشى ليستنشق الهواء ، خرج المدير العام من مكتبه ، ما هذه الفوضى ؟! لأنه لا يعلم ، لا يعلم حقيقتك إلا الله ، فأنت إذا تعلقت بغير الله تصاب بخيبة أمل كبيرة جداً ، هذا الذي تظنه يعلم لا يعلم ، لأنه بشر مثلك ، لا يرى إلا بعينيه ، لا يرى إلا الظاهر ،

(وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)

الآن مثلاً الآية الكريمة :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

(سورة محمد الآية : 19)

ما قال : فقل ، لو قال : فقل ، لقبلت عقيدة المؤمن تقليداً ، ولو قبلت عقيدة الإنسان تقليداً لكانت كل الفرق الضالة ناجية عند الله ، لماذا ؟ لأنهم سمعوا ممن يقف على توجيههم كلاماً فصدقوه ، إلا أن العقيدة لا تقبل إلا تحقيقاً وتدقيقاً ، مدللة بالأدلة ، معللة بالحكم ، فلو أن العقيدة تقبل تقليداً لانتهى الأمر، لكن العقيدة لا تقبل إلا تحقيقاً ، لذلك لا ينجي المسلم أن يكون أبوه مسلماً ، وأمه مسلمة ، لا ينجي المسلم إلا أن تكون عقيدته تحقيقاً ، فالآية :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

لا إله إلا الله الأمر بيده ، هو الرافع ، هو الخافض ، هو المعطي ، هو المانع ، هو المعز ، هو المذل .

كل شيء من الله فإذا جاءك من الله ما تكره فابحث عن ذنبك :

قال تعالى :

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (19))

(سورة محمد الآية : 19)

ما علاقة القسم الثاني بالقسم الأول ؟ أنت حينما يأتيك شيء تكرهه يجب أن توقن أن هذا من فعل الله ، وأن هذا سمح الله به ، وأن هذا أراده الله ، لكن لئلا تتهم الله بالظلم ابحث عن خلل في استقامتك ،

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

بين جزئي الآية تكامل :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

فإذا جاءك من الله ما تكره ، مادام كل شيء من الله

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

كل شيء من الله فإذا جاءك من الله ما تكره فابحث عن ذنبك .

هناك قاعدة في الأمن الجنائي لطيفة : في أية جريمة عندهم قاعدة ابحث عن المرأة ، في الأعم الأغلب وراء كل جريمة امرأة ، ليست هي القاتلة ، لكن هي المسببة في القتل ، أنا أقول لكم : طبقوا هذه القاعدة بشكل آخر ، حينما يأتيك ما لا يرضيك ابحث عن الخطأ ، ابحث عن الذنب ، ابحث عن الخلل ، ابحث عن الظلم .

أمثلة من الحياة العامة عن تأديب الله لعباده :

أحد الأخوة الكرام متفوق جداً في اختصاص نادر ، المعامل الضخمة فيها حواسيب صناعية ، هذا الأخ متخصص بإصلاح الحواسيب الصناعية ، ويتلقى أجراً فلكياً ، فمرة استدعي لإصلاح حاسوب لمعمل ، وطلب مبلغاً كبيراً ، فصاحب المعمل جادله كثيراً ، وساومه كثيراً ، حتى ضاق به ذرعاً ، وقال له : أنا لست بحاجة إليك ، أنت بحاجة إلي ، فإن شئت الأجر فأنا جاهز ، وإلا فاسمح لي ، فصاحب المعمل أذعن له ، الأخ صادق ومؤمن ، يغلب على ظني أنه صالح ، ولا أزكي على الله أحداً، في العادة يستغرق الإصلاح ربع ساعة، نصف ساعة ، ساعة ، أول يوم من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساء ما تبيّن معه شيء ، ثاني يوم بأكمله ، ثالث يوم بأكمله ، رابع يوم ، خامس يوم ، سادس ، سابع

يوم ، ثامن يوم ، ما اكتشف الخلل ، والأجر على الإنجاز لا على الساعات ، على الإنجاز ، ثمانية أيام ضاعت من وقته ، ولم يكشف الخلل ، قال لي : عدت إلى البيت في اليوم الثامن عالجت نفسي فيها خلل ، دقق وبحث حتى وصل إلى هذه الكلمة : أنا لست بحاجة إليك ، أنت بحاجة إلي ، إن قبلت بهذا الأجر فأنا آتيك غداً وإلا فاعذرني ، فيها كبر ، فيها اعتداد ، أقسم بالله العظيم في اليوم التاسع خلال ربع ساعة ، طبعاً استغفر ، ودفع صدقة ، واصطلح مع الله ، أقسم بالله العظيم باليوم التاسع بربع ساعة الخلل انكشف ، والمشكلة حُلت ، تأديب .

أخ ثانٍ عنده معمل ألبسة ، أخ في المسجد علم أن هذا الأخ عنده معمل ألبسة ، واقترب العيد ، فذهب إليه ، وطلب قطعتين لأولاده ، طبعاً شراء ، لكن هذا المعمل يبيع ثلاثين دزينة ، أربعين دزينة ، اعتبر صاحب المعمل أن القطعتين إهانة له ، قال له : أنا لا أبيع بالمفرق ، قال له : لا عليك ، شكراً ، فودعه، وخرج من معمله ، أقسم بالله العظيم ـ وهو بيننا الآن ـ ما دخل إلى معمله إنسان مدة ثلاثة وثلاثين يوماً ، الله أدبه ، هذه الكلمة كبيرة ، إنسان جاء ليشتري وعنده أولاد ، لكل ولد قطعة ، لا يريد ثلاثمئة دزينة يريد ثلاث قطع فقط ، فأنت كبرت نفسك أن تبيعه هذه القطع الله عز وجل أدبه ، يوجد ملايين من هذه القصص . فحينما تعتد بنفسك ، حينما تقول : أنا ، حينما تتحدث عن خبرتك ، حينما تعجبك نفسك ، خطبة رائعة جداً ، نزل الخطيب الله أكبر ، ونسي الفاتحة ، بدأ بالآية فوراً ، الخطبة رائعة جداً ، نسي أن يقرأ الفاتحة ، والخطبة على الإذاعة أيضاً ، فهذا حينما تقول أنا .

إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك :

أخواننا الكرام ، درسان في القرآن ، درس بدر ، ودرس حنين ، وهذان الدرسان ينبغي أن تلحظهما كل ساعة في حياتك ، درس بدر :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ (123))

(سورة آل عمران الآية : 123)

معنى أذلة ؛ مفتقرون إلى الله ، اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي ، والتجأت إلى حولك وقوتك ، يا ذا القوة المتين ، ادع بهذا الدعاء دائماً .

كنت مرة بطرابلس أشهر طبيب نسائي وأعلى سعر يتقاضاه هو ، له زميل طبيب زوجته ولادتها صعبة ، فأرسلها إليه كي يصف حالتها ويتولى توليدها ، قال له : هل هي بحاجة إلى طبيب آخر ؟ قال له : أنا أذكى طبيب بكل المنطقة ، باعتداد ما بعده اعتداد ، يبدو أنه بهذه النفسية ارتكب خطأ لا يرتكبه حلاق ، فأول مرة في تاريخ لبنان الحديث تسحب منه شهادته ، ويغرم بمبلغ يفوق كل ممتلكاته ، لأنه أمات المريضة بخطأ شنيع .

لذلك درس حنين : لن نغلب من قلة ، هذا درس حنين ، هكذا الصحابة قالوا ، خاضوا مع النبي حروباً، بذلوا له أرواحهم ، وأموالهم .

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ (18))

(سورة الفتح الآية : 18)

مع كل هذه الميزات لما قالوا : لن نغلب من قلة ، قال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25))

(سورة التوبة)

هناك درسين درس بدر ودرس حنين ، تقول : الله ، يتولاك ، تقول : أنا ، يتخلى عنك ، كلام واضح ، ناصح ، ناصع ، مبين ، مع كلمة (الله) يتولاك ، مع كلمة (أنا) يتخلى عنك ، في حرفتك ، في دراستك، يا رب ، أنا متقن للحساب أما الجبر فعليك ، مرة قال له : أنا متقن مادة الجبر يا رب فسقط بالجبر ، أحياناً الإنسان تغلق عليه أفكاره .

أقول لكم مرة ثانية : القصص حول هذا الموضوع لا تعد ولا تحصى ، تقول (أنا) يتخلى عنك ، تقول (الله) يتولاك ، أنا لا أريد مجاملات مع الله ، كله بفضل الله ، أريد حقيقة ، هل ترى أنه فضل الله عليك؟ هل ترى أنك من دون الله لا شيء ؟ هل ترى أن الله سمح لك بالصحة ؟ سمح لك بالزواج ؟ سمح لك بكسب المال ؟ سمح لك أن تنطق بالحق ؟ إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك .

السلطان في الآية التالية هو الحُجّة :

أيها الأخوة ، هناك سؤال :

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81))

(سورة الأنعام)

هنا السلطان الحُجَّة ، أنت لا تخاف من أنك أشركت بالله صنماً أو جهة لا تملك شيئاً ، ولا تخاف أنك أشركت الله عز وجل ،

(مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً)

وأنا تدعوني أن أخاف من صنم بلا سلطان ، بلا دليل ، ولا تخاف أنك أشركت بالله ما لم ينزل عليك سلطاناً .

الآن السؤال مرة ثانية : تريدني أن أخاف من صنم ، ليس هناك من حجة أو دليل مقنع على أنه إله ، ولا تخاف أنك جعلت مع خالق السماوات والأرض شريكاً ، ليس هناك سلطان على شركه مع الله عز وجل ،

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

طبعاً إنسان يعتمد على حجر أو على صنم أم إنسان يعتمد على خالق السماوات والأرض ؟!!

أي نوع من أنواع الإيمان له من الله حجة :

قال تعالى :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

أخواننا الكرام ، مرة الحسن البصري سيد التابعين كان عند والي البصرة ، وهو عنده جاء توجيه من يزيد ، إذا نفذه أغضب الله عز وجل ، وقع هذا الوالي في قلق شديد ، إن أغضب يزيد أزاحه من مكانه، وإن أغضب الله أدخله النار ، قال له : ماذا أفعل ؟ ـ اسمعوا هذا الجواب يا أخوان ، هذا الجواب يجب أن يكون شعار كل إنسان ـ قال له : إن الله يمنعك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله .

إذا أخلصت لإنسان من دون الله ، وعبدته من دون الله ، لا يمنع عنك الورم الخبيث ، ولا الأمراض الوبيلة ، ولا حادث مروع ، ولكنك إذا كنت مع الله ، وأراد هذا الشريك الذي يدَّعيه الناس شريكاً لله أراد بك شراً فالله يحميك منه ، إن الله يمنعك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ،

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا)

هذا الذي اعتمد على الله ، وهذا الذي اعتمد على صنم ،

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

جاء الجواب :

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ)

قال العلماء : الظلم هنا الشرك ، لقوله تعالى :

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13))

(سورة لقمان)

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

وحدهم ، لم يقل أولئك الأمن لهم ،

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83))

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا)

على أنك مؤمن متواضع ، أي نوع من أنواع الإيمان له من الله حجة ،

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

فأنت حينما تملك حجة ناصعة واضحة قطعية ، فهذا دليل أنك مؤمن ولله الحمد .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(29-73): تفسير الآيات 83-88 ، قصص الأنبياء دروس لنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-07-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس التاسع والعشرين من دروس سورة الأنعام .

خصائص شخصية المؤمن :

مع الآية الثالثة والثمانين وما بعدها ، وهي قوله تعالى :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83))

من أولى خصائص المؤمن أنه يملك حجة على الطرف الآخر ، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ، ولو اتخذه لعلمه ، شخصية المؤمن شخصية علمية ، وشخصية أخلاقية ، وشخصية جمالية ، شخصية علمية لأنه تتعرف إلى الله ، تتعرف إلى الحقيقة المطلقة ، وشخصية أخلاقية لا سبيل إلى أن يتقرب إلى الله عز وجل إلا بخلق عالٍ :

((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة]

كفرق صارخ بين مؤمن وغير مؤمن الخلق ، هذا الذي قاله ابن القيم : " الإيمان هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق ، زاد عليك في الإيمان " .

الجانب الثالث الجانب الجمالي ، هناك جانب معرفي ، وجانب خلقي ، وجانب جمالي ، على علم ، معه حجة ، على خلق ، من أسعد الناس ، سعادته لا تنبع من الخارج تنبع من داخله ، اللذائذ تأتي من الخارج ، اللذائذ الحسية تحتاج إلى مال ، تحتاج إلى وقت ، تحتاج إلى صحة ، تأتي من الخارج ، من طعام ، من بيت ، من امرأة ، من مركبة ، من مزرعة ، فلذلك المؤمن سعادته من داخله ، يملكها ، وما من واحد من بني البشر إلا ويملك أسباب سعادته ، فلذلك قال تعالى :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

وقصص الأنبياء ليست لأخذ العلم بل للاقتداء ، وقد يبتعد ذهن المؤمن عن قصص الأنبياء السابقين ، لماذا ذكرهم الله في القرآن الكريم ؟ ذكرهم لنا ، ذكرهم ليكونوا قدوة ، وهذا الذي يقول : أنا لست نبياً ، هذا كلام سخيف ، من قال لك : إنك نبي ، لكن أنت مأمور أن تقتدي بالأنبياء ، وفي الحديث الشريف الصحيح :

((إنَّ اللَّهَ تَعالى أمَرَ المُؤْمِنِينَ بمَا أمَرَ بهِ المُرْسَلِينَ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً العقيدة :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ)

هناك من يرى مفارقة بين قول الله عز وجل :

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (285))

(سورة البقرة الآية : 285)

وبين قوله تعالى :

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (253))

(سورة البقرة الآية : 253)

من حيث فحوى الدعوة الرسل جميعاً دعوتهم واحدة .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً العقيدة ، لا إله إلا الله ، السلوك طاعته ،

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

هذا الدين السماوي على اختلاف الشرائع ، هناك دين أرضي .

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6))

(سورة الكافرون)

المؤمن الحق منطلقه التوحيد :

المؤمن في أي مكان في الأرض يخضع لله عز وجل ، منطلقه التوحيد ، حركته العبادة ، الجانب المعرفي التوحيد ، لذلك يكاد يكون الدين توحيداً ، أما كدين يعتقد أتباعه أن الله خلق السماوات والأرض، هذه العقيدة يعتقدها الشيطان أيضاً ، قال :

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76))

(سورة ص)

وقال :

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82))

(سورة ص)

وقال :

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14))

(سورة الأعراف)

أن تعتقد أن لهذا الكون إلهاً وهو رب عزيز ، دون أن ترى أن كل شيء بيده .

أخواننا الكرام ، الفيصل بين المؤمن الذي يستحق نصر الله عز وجل ، وبين المؤمن الذي هو رقم لا معنى له في عداد المؤمنين هو التوحيد ، الموحد لا يرى معطياً إلا الله ، ولا مانعاً إلا الله ، ولا رافعاً إلا الله ، ولا خافضاً إلا الله ، ولا معزاً إلا الله ، ولا مذلاً إلا الله ، لذلك المؤمن الموحد لا ينافق ، لماذا ينافق ؟ هذا الذي ينافق له ليس بيده شيء ، لا يملك لك ضراً ولا نفعاً ، ولا حياتاً ولا موتاً ، ولا رزقاً ، ولا مرضاً ولا صحة ، أنت حينما تؤمن أن الذي يملك نفعك وضرك هو الله ، يملك أن يعطيك أو يمنعك .

أي خلل في السلوك يعزى إلى ضعف التوحيد وأي انضباط يعزى إلى قوة التوحيد :

الحقيقة كلمات التوحيد كلمات سهل فهمها ، أما كواقع تعيشه ؛ مثلاً : لو أن طالباً على مقعد الدراسة كان إلى جانبه طالب آخر ، الأول كان يعمل عملاً بسيطاً بدخل محدود جداً ، والثاني أصبح معه ملايين مملينة ؟ الأول مؤمن ومطيع لله ، والثاني متلفت من أي منهج ، الآن الأول لو قال : ليتني مثل فلان ، يؤكد أنه لا يملك من الإيمان ذرة ، لأن الله عز وجل قال :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (71))

(سورة الأحزاب)

ما رأى أنه فاز فوزاً عظيماً بهذه الطاعة ، رأى أنه محروم ، وهذا المتفلت المنحرف قد أوتي شيئاً ثميناً .

لذلك فهم النص شيء وأن تعيشه شيء آخر ، فرق كبير بين أن تقول : مليار وبين أن تملكها ، بين أن تنطق بها وبين أن تملكها ، فآيات التوحيد قد ننطق بها ، وقد نقول : لا إله إلا الله ، وقد نقول : لا معطي ولا مانع إلا الله ، وقد نقول : لا معز إلا الله ، ولا مذل إلا الله ، ولكن أن تؤمن بكل خلية في جسمك ، وبكل قطرة في دمك أن أهل الأرض أقويائهم وطغاتهم لا يملكون لك شيئاً ، هذه مشكلات المسلمين ، يرون أن الأقوياء بيدهم مصيرنا ، بيدهم أمننا ، بيدهم رفاهيتنا ، بيدهم أن يعذبونا ، هذه مشكلة المشكلات في العالم الإسلامي لذلك :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

أنت حينما تشعر أن أمرك بيد الله ، وصحتك بيد الله ، ورزقك بيد الله ، ومن فوقك بيد الله ، ومن تحتك بيد الله ، ومن حولك بيد الله ، ونجاحك بعملك بيد الله ، أنت حينما تؤمن بهذا لن تنافق ، ولن تكذب ، ولن تعصي خالقاً وتطيع مخلوقاً انتهى الأمر ، لذلك أقول لكم : أي خلل في السلوك يعزى إلى ضعف التوحيد ، وأي انضباط في السلوك يعزى إلى قوة التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

تجد بالمؤمن في توازن ، في أمن ، في رضا ، في أمل ، في تفاؤل ، الدنيا مهما اسودت لا تسحقه ، والأخبار مهما ساءت لا توقعه في اليأس ، يرى أن الله بيده كل شيء ، وأنا أقول دائماً : استمع إلى الأخبار ما شئت ، واقرأ كل التحليلات ، وكوِّن رأياً خاصاً ، ولا تنس ثانية واحدة أن الله موجود ، وأن الأمر بيد الله ، وأن يد الله فوق أيديهم ، وأن الله سبحانه وتعالى يقلب الموازين في يوم واحد ، بل في دقيقة واحدة ، بل في ثانية واحدة .

سرّ ألفة المؤمنين أنهم ينطلقون من مثل عليا :

(نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ)

الأنبياء بحسب مرتبهم درجات ، وبحسب دعوتهم سواء .

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (253))

(سورة البقرة الآية : 253)

هناك رسل من أولي العزم ، وهناك رسل ليسوا من أولي العزم ، وهناك أنبياء ، أما دعوة أهل الحق فهي واحدة .

أخواننا الكرام ، أينما ذهبت في شرق الأرض وغربها ، المؤمن الموصول بالله ، في صفاته ، وفي أخلاقه ، وفي حركته ، وفي تصوراته ، يطابق أي مؤمن آخر ، لذلك أكبر تفسير علمي للأخوة الإيمانية هو التطابق ، التطابق التام بين مفردات خصائص النفس ، أنت الآن لماذا تجلس مع إنسان عشر ساعات ولا تمل ؟ لأن نقاط التشابه بينك وبينه كبيرة جداً ، ولماذا لا تحتمل أن تجلس مع إنسان ربع ساعة ؟ لأن نقاط التشابه قليلة جداً ، النظيف لا يحتمل أن يجلس مع القذر ، ونظيف اللسان لا يحتمل أن يجلس مع بذيء اللسان ، الوفي لا يطيق الخائن ، والصادق لا يطيق الكاذب ، فسرّ ألفة المؤمنين أنهم ينطلقون من مثل عليا أنهم نظيفون من الداخل ، أنهم أعفة ، أنهم صادقون ، أنهم أمناء ، أنهم رحماء ، أنهم عقلاء ، أنهم يحبون الله ورسوله ، لذلك رُبّ أخ لك لم تلده أمك .

الشيء الذي يحير يا أخوان ، قد يسافر إنسان إلى أطراف الدنيا ، في أي مكان يلتقي مع المؤمن كأنه أخوه ، يا رَبّ لا أعرفه ، قد تسافر إلى آخر الدنيا فتلتقي مع إنسان متصل بالله ، لطيف ، منطقي ،

وفي، صادق ، أمين ، عفيف ، فهذه سر ألفة المؤمنين ، وهؤلاء الذين يخرفون ويقولون : الدين عامل تفرقة ، لا ، الدين عامل وحدة ، أما هؤلاء الذين شردوا عن الله عز وجل فقد قال الله عنهم :

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى (14))

(سورة الحشر الآية : 14)

عظمة هذا الدين أن المثل العليا أصبحت واقعية :

قال تعالى :

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84)وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85)وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86))

(سورة الأنعام)

أخواننا الكرام ، دائماً وأبداً المثل العليا تحتاج إلى مثل ، والمشكلة أنك إذا قرأت عن المثل العليا ولم ترَ هذه المثل في إنسان أمامك عندئذٍ لا تحفل بها ، لذلك الآن كلمة السخرية بلا مثاليات ، وكأن كلمة مثالية تهمة ، لماذا ؟ لأن الناس ينطقون بها ولا يفعلونها ، فأصبحت شيئاً ليس واقعياً ، لكن عظمة هذا الدين أن المثل العليا أصبحت واقعية .

امرأة رائعة الجمال ، خطبها كبار الصحابة ، وعند رسول الله صحابي فقير جداً ، معدم ، وفوق فقره الشديد كان دميماً ، وفي بعض الروايات كان أعور العين ، دميماً ، فقيراً ، وفي رواية أنه يعرج ، لا يملك شيئاً من مقومات الجمال ، مع فقر ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أشفق عليه ، قال له : يا جليبيب ، ألا تتزوج ؟ فقال له : من يزوجني يا رسول الله ؟ هو يرى أن زواجه مستحيل ، من سابع المستحيلات أن تقبل به فتاة في الأرض ، فالنبي عليه الصلاة والسلام أقام مجتمعاً فاضلاً ، جاءه بعض الصحابة وأخبره أن ابنته هذه رائعة الجمال مات عنها زوجها ، فقال له : إني أخطب ابنتك ، فطار من الفرح ، ماذا ظن ؟ أن النبي يخطبها لنفسه ، قال له : لا ، ليست لي ، لجليبيب ، إنسان عنده فتاة بارعة الجمال ، قد يخطبها علية القوم ، النبي يريد أن يزوجها لهذا الفقير ، وفي رواية أعور ، وفي رواية دميم ، قال: أريد أن أستأمر أمها ، ما تحمل الصدمة ، فجاء إلى أمها ، وقال : جاء رسول الله يخطب ابنتنا ، ففرحت ، قال : لا ، ليست له ، ولكن لجليبيب ، قالت : والله لا يكون ذلك ، فسمعت البنت الحوار بين أمها وأبيها ، قالت : أنا أوافق ، لأن رسول الله لا يضيعني .

هذا المجتمع ، فُتِحت أقطار الأرض بهذه القيم ، وافقوا ، وافقوا ، لأن البنت وافقت ، ثم ما معه شيء يقيم فيه حياته الزوجية ، بعض الصحابة تبرع له ببعض المبلغ ، بدأ يجهز البيت والحاجات الأساسية

الخشنة جداً ، وفي يوم عرسه نادى داعي الجهاد ، فانخرط في الجهاد ، وبعد المعركة ـ هذا في معركة أحد ـ تفقد النبي أصحابه وسأل عن الذين استشهدوا ، فذكروا أسماءهم ، قال : هل بقي أحد لم تذكروه ؟ قالوا : لم يبقَ أحد ، قال : أين جليبيب ؟ فتفقده بنفسه في أرض المعركة ، فرآه مستشهداً ، حمله على يديه ، وقال الصحابة الكرام : ما زال نهاده ساعدي رسول الله حتى حفر له القبر ودفن ، هذه الفتاة خطبها كبار الصحابة بعد ذلك .

قدوة المؤمن أنبياء الله :

أنا أقول : هاتوا لي مجتمعاً يقيم للحق شأناً كبيراً ولا يقيم للقيم المادية شأناً كبيراً ، أفتح لكم بهم أطراف الدنيا ، الآن المسلمون في إطار إسلامي لكن ليس فيه مضمون إسلامي ، الآن طرق الزواج كلها مغلقة والسبب مطالب الأهل فوق طاقة الشباب يُحمّل الشاب ما لا يحتمل، فصار طريق السفاح أقرب من طريق النكاح ، وهذه الدعارة المتفشية في العالم سببها هذا .

أيها الأخوة الكرام ، ما لم يكن مجتمع المؤمنين مجتمعاً صارخاً بكماله ، بتواضع أفكاره ، بتضحياتهم، بتحكيم قيم الشرع فوق قيم الدنيا فلا سبيل إلى التقدم .

هؤلاء الأنبياء قمم البشر ، وأنا أقول لكم : قل لي من قدوتك في الدنيا أقل لك من أنت ، أنا مؤمن أن المؤمن قدوته أنبياء الله ، وكل نبي له خاصة ، هناك نبي يأكل من عمل يديه سيدنا داود ، فالمحترف لا يرى أنه أقل ممن له تجارة عريضة :

((أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هناك نبي كان أبوه مشركاً ، سيدنا إبراهيم ، عابد صنم ، وثنيّ ، وهناك نبي زوجته كانت سيئة جداً ، سيدنا لوط وسيدنا نوح ، وهناك نبي ابنه سيئ سيدنا نوح ، فكل نبي له ظرف ، فأنت لك أسوة حسنة بهؤلاء الأنبياء .

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ)

بعضهم يكتشف أن الهبة بلا مقابل ، فقد تكون من ألمع الناس وليس ابنك كما تتمنى ، هذا امتحان صعب ، صعب جداً ، ولعل الله أراد من هذا الامتحان أن يجعل من نسلك هذا الابن ، فلعلك تصلحه ، وقد تجد إنساناً ؛ رجلاً صالحاً وزوجته ليست ملتزمة كما ينبغي ، أيضاً لحكمة أرادها الله عز وجل لعلها تصلح معه ، هذه الدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء ، فكلما حدث أمر قد تجد في نبي من هؤلاء الأنبياء العظام قدوة لك ، يُعدّ هذا النبي في سلوكه منهجاً ترسم معالمه فيما بينك وبين نفسك .

الأنبياء جميعاً يجب أن يكونوا منهجاً للبشرية :

سيدنا داود رجح جانب القرب من الله على خدمة الخلق فعوتب ، سيدنا سليمان رجح جانب العمل الصالح على القرب من الله فعوتب ، فكل نبي نموذج ، نحن في حاجة أن ندرس طبيعة هذا النبي الكريم، و ما الذي تفوق فيه ، ومن الذي عوتب من أجله ، لتكون هؤلاء الكوكبة من أعلام أهل الأرض منهجاً للبشرية ، طبعاً نحن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن لا يمنع مثلاً أن تقرأ قصة سيدنا يونس حينما وجد نفسه فجأة في بطن الحوت .

(عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الأنبياء)

درس بليغ ، ويعطي هذا الدرس ثقة بنصر الله لا حدود له ، ممكن لإنسان مؤمن وهو بريء مئة بالمئة أن يدخل السجن لحكمة أرادها الله ، فإذا قرأ في القرآن أن نبياً كريماً عند الله دخل السجن ، هذه القصة تعطيه طمأنينة لا حدود لها ، لأن السجن قد يدخله إنسان بريء ، وقد دخله نبي كريم ، الحديث طويل ، كل نبي بماذا تفوق ؟ نبي كان وسيماً جداً ، سيدنا يوسف ، وكان أعزب ، وكان بعيداً عن أهله ، وكان في قصر العزيز ، وراودته امرأة العزيز ، وهي سيدته ، وليس لصالحها أن يعلم أحد بهذا ، وهو غريب ، وشاب ، ووسيم ، وعبد ، ومأمور ، عدّ علماء التفسير أكثر من عشر استثناءات تدعوه إلى أن يقترف الفاحشة ، ومع ذلك قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23))

(سورة يوسف)

النبي يسعى بكل ما أتاه الله عز وجل لترسيخ الحق دائماً :

الشباب جميعاً من قدوتهم الحقيقي ؟ سيدنا يوسف ، وأصحاب الصناعات من قدوتهم؟ سيدنا داود ، وحينما يشتد الهول ويحتد الخطب ويهدد المؤمنون يأتي قول سيدنا هود :

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

سيدنا إبراهيم كان فتىً ، ومن فتوته كان حريصاً على التوحيد وكسر الأصنام ليعلّم هؤلاء الوثنيين درساً لا ينسى ، قال :

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63)فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64))

(سورة الأنبياء)

تجد النبي يسعى بكل ما أتاه الله عز وجل لترسيخ الحق دائماً .

أنا أتمنى أنك إذا قرأت قصص الأنبياء والمرسلين أن تجعل من كل نبي قدوة لك ، هذا في جهاده ، هذا في صبره ، هذا في صبره على بلاء الله عز وجل كسيدنا أيوب ، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم كمالات الأنبياء جميعاً في شخصه ، فقال الله عز وجل :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

الله عز وجل منح الإنسان نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ونعمة الهدى والرشاد :

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ)

أحياناً هناك شيء غير واضح في الشرع ، فيأتي إنسان لا يطبق هذا الحكم الشرعي حتى يفهم ما الحكمة ، إذاً هو لا يعبد الله ، يعبد ذاته ، فالأمر إذا لم يفهمه لا يطبقه ، القضية سهلة جداً ، قد تأتمر بأمر عدو له لصالحك ، لو لك عدو قال لك : ابتعد عن الملح الزائد ، مثلاً ، فهو يرفع الضغط ، والضغط هو القاتل الصامت ، وأنت على وعي صحي ، فتقتنع بهذه النصيحة ، فتبتعد عن الملح ، فأن تطيع الشيء لوضوح حكمته ، قضية سهلة جداً ، لا تكلف إطلاقاً ، ولكن أن يقال لإنسان له ابن كالبدر، وهو نبي مثله : اذبحه ، هذا الأمر لا يقبل لا على مستوى خلقي ، ولا مستوى على تشريعي ، ولا على أي مستوى ، غير معقول .

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (102))

وقال :

(قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (102))

(سورة الصافات : 102)

الله عز وجل منحك نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، تجده في قضية من الدين يقول :

(وَاضْرِبُوهُنَّ)

مأخذ ، ترك الدين من أجل كلمة واضربوهن ، فهمت تفسيرها ؟ فهمت أبعادها ؟ فهمت حكمتها ؟ أو المرتد يُقتَل ، من قال لك: يُقتَل ؟ يُستتاب ، فتجد شخصاً همه أن يبحث عن المآخذ في هذا الدين ويجعل

هذه المآخذ مبرراً للانصراف عن الدين ، وكل مأخذ تتوهمه مأخذاً هو له كمال ما بعده كمال ، الآن المرأة يؤلمها ألماً شديداً أن تكون شهادتها نصف شهادة الرجل ، وقد غاب عنها أن المسلمين في شتى أقطارهم يعدون مليار وأربعمئة مليون ، لو أنهم متوحدون في عباداتهم ، يمكن لامرأة واحدة بشهادتها الوحيدة أن تدخل مليار وأربعمئة مليون مسلم في ثاني أكبر عبادة بشهادتها وحدها وهي الصوم .

بعض أساليب تشويه الدين :

رجل يملك مليارات ، وأنجب طفلاً ، ومات ، فإذا صرخ قبل أن يموت فهناك مسألة في المواريث ، وإذا لم يصرخ فهناك مسألة أخرى ، وقد يكون الفرق في مئتي مليون ، من هي المرأة التي تشهد وحدها أنه صرخ أم لم يصرخ ؟ القابلة فقط ، يخفون هذا الشأن الكبير للمرأة ، كل قضايا النساء المرأة وحدها تشهد ، وحدها ، بينما في كل قضايا الرجال الحكم الشرعي يحتاج إلى شاهدين ، أما المرأة فتشهد وحدها ، وشهادتها مضاعفة ، أما إذا اتهمت في شرفها فشهادتها بأربع شهادات ، انظر إلى النقاط الإيجابية ، لا يعرفون من الدين إلا أن المرأة شهادتها بنصف شهادة ، في أي موضوع ، في جريمة جنسية ، في علاقة مالية معقدة جداً ، هي اهتماماتها عاطفية ، اهتماماتها بعيدة عن الجرائم ، وعن قضايا المال ، والصرف ، والأسعار ، فلذلك الله في شأن لا يعنيها ، وفي شأن هي بعيدة عنه ، وفي شأن هي فوقه أعفاها من تكون وحدها مسؤولة ، عندما تقول المرأة : عندنا كلمتان ، شهادتها نصف شهادة ، واضربوهن ، تقول : إقامة شرع الله ، هذا الشرع الذي فيه مليار قضية لا نفهم منه إلا قطع اليد فقط ، النكير الغربي يشوه الدين ، إذا تكلم شخص كلمة : أنني أريد أن أطبق شرع الله ، لا يقفز إلى الذهن إلا قطع اليد ، أريد أن أعالج وضع المرأة في الإسلام ، لا يقفز إلا الذهن إلا أن شهادتها نصف شهادة .

(أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى (282))

(سورة البقرة الآية : 282)

هناك كيد ، أما أنت حينما تفهم دينك فهماً عميقاً قضية الأسر فرضاً ، أو العبودية ، اسمع الحق ، أنت صاحب رسالة من السماء ، أنت المسلم .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

(سورة البقرة الآية : 143)

يجب أن تنتشر هذه الرسالة ، الآن دول قوية ثقافتها تفرضها على كل الشعوب وبالقوة ، أليس كذلك ؟ ثقافة القطب الواحد ألا تفرض على كل الشعوب بالقوة وبالضحايا ، وهي من عندهم وليست من السماء، فكيف إذا كان معك وحي السماء ؟!!

نستطيع أن نأخذ من كل نبي شيئاً عظيماً يعيننا على مواجهة الحياة :

الله عز وجل أمرك أن تنشر هذا الدين ، كيف ؟ أن تعرضه على الطرف الآخر ، فإن قبلوه فهم منا ونحن منهم ، ولهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وإن رفضوه نتعايش معهم ، نعفيهم من أن يخوضوا حروبنا ، ونأخذ البدل النقدي منهم فقط ، نحمي لهم أهلهم وأولادهم وأموالهم ، فإن رفضوا إلا أن يقاتلوا ، نحن نحرص على أن نأسرهم لا أن نقاتلهم ، لا يوجد في الإسلام شيء اسمه إبادة ، كان الصحابة الكرام يطعمون أسراهم أطيب الطعام ، ويأكلون أردأه ، وقد خلع النبي قميصه وألبسه لأسير ، الإنسان الأسير حينما تكرمه ، تطعمه ، تطمئنه ، تبالغ في إكرامه ، ينبغي أن يحبك ، وأن يسلم ، قال :

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخوانُكُمْ فِي الدِّينِ (11))

(سورة التوبة الآية : 11)

هذه القصة كلها ، يصبح رقاً وعبودية وسوق نخاسة ، فالكيد على الإسلام كبير جداً.

والله أيها الأخوة ، ما دام هذا الإسلام منهج الله عز وجل فكمال هذا الدين مطلق ، ولكن يتعرض الإسلام إلى تشويهات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا سيما في هذه الأيام ، المسلم متهم سلفاً ما لم تثبت براءته ، ولن تثبت ، ولو ثبتت لا يقر بذلك ، أي حدث عنيف في الأرض فاعله مسلم . تقرأ قصة إبراهيم في طواعيته لله ، في ثقته بالله ، في عبوديته لله ، ولو لم يفهم الحكم ، تقرأ قصة يوسف ، قصة نوح عاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، الآن إذا دعا إنسان إلى الله ولم يجد من يستمع إليه يقول لك : هذا العمل لا جدوى منه ، يترك فوراً ، أو إذا سئل سؤالاً معيناً من جهات معينة يلغي الدرس كله ، يقول لك : لا أريد أن أوجع رأسي ، أين سيدنا نوح ؟

(فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً (14))

(سورة العنكبوت الآية : 14)

ممكن أن تأخذ من كل نبي شيئاً عظيماً يعنيك على مواجهة الحياة .

يجب على الداعية أن يفكر أن يكون له خلفاء لتستمر الدعوة :

هؤلاء الأنبياء :

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ)

سيدنا هارون كان فصيحاً ، وسيدنا موسى كان عنده حبسة :

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27))

(سورة طه)

من هو الرسول ؟ سيدنا موسى ، معنى ذلك ما كل فصيح له مقام عند الله كبير ، نحن أحياناً نتوهم أن كل إنسان فصيح له مكان كبير ، ما هذه الخطبة يا أخي ؟ العبرة بفصاحة القلب ، العبرة بتقوى القلب ، العبرة بطهارة النفس ، فسيدنا هارون كان نبيّاً ، لكن من هو الرسول ؟ الذي معه حبسة ، أي سيدنا موسى عليه السلام :

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27)يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (29)هَارُونَ أَخِي ((30))

(سورة طه)

وزكريا :

(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً (4)وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً (5)يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (6))

(سورة مريم)

يفكر الداعية أن يكون له خلفاء ، أن تكون الدعوة مستمرة ، لمَ الأضواء كلها مسلطة على شخصه فإذا مات انتهت الدعوة ، مادام هو حيّاً فهو بأعلى درجة من التكريم ، لكنه ما فكر أبداً أن تستمر هذه الدعوة من بعده ، هذه مشكلة كبيرة جداً ، لذلك بقدر إخلاصك تهيئ من يخلفك في هذه الدعوة .

كل نبي فيه شيء براق في حياته ينبغي أن يكون منهجاً لنا :

كل نبي فيه شيء براق في حياته ينبغي أن يكون منهجاً لنا ، أحيانا تجد كبار العلماء ماتوا دون الخمسين ، سيدنا الشافعي مات دون الخمسين ، النووي مات دون الخمسين وترك آثاراً لا يعلم خيراتها إلا الله ، ترك مؤلفات لا يعلم آثارها إلا الله ، العمر الزمني أتفه عمر .

أنا أذكر بعض الخواطر حول هؤلاء الأنبياء ، كل نبي فيه شيء صارخ ، يمكن أن يكون منهجاً لنا في حياتنا .

(وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ)

يونس :

(ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ (87))

(سورة الأنبياء الآية : 87)

سيدنا يونس غلب عليه أن قومه لن يهتدوا بدعوته ، فالله أجرى له درساً بليغاً نتعلمه نحن أيضاً ،

(وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)

(وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخوانهمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87))

ألا تتأثر بقوله تعالى :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور الآية : 21)

لو أن إنساناً أنجب أولاداً واعتنى بإيمانهم حتى بلغوا مرتبة عالية ، قد يأتي من ذريتهم ملايين مملينة يوم القيامة ، كل هؤلاء الملايين في صحيفة الأب الذي علم ابنه ، لذلك:

((أفضل كسب الرجل ولده))

[رواه الطبراني عن أبي بردة بن نيار]

التمييز يوم القيامة :

الآن لا يملك المسلمون إلا أولادهم ، لا يملكون شيئاً ، والورقة الرابحة الوحيدة في أيديهم أولادهم ، لذلك كل إنسان يجب أن يبذل قصارى إمكاناته كي يكون ابنه مؤمناً ينفع الناس من بعده ، حتى سيدنا عمر يقول : " أقوم إلى زوجتي وما بي من شهوة إلا رجاء ولد ينفع الناس من بعدي " .

(وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخوانهمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

فإذا هدى الله عز وجل الواحد إلى صراط مستقيم ، فحركته في الحياة وفق منهج الله ، يعرف الحلال والحرام ، يأخذ ما له ويدع ما ليس له ، يضبط لسانه ، يضبط عينيه ، يضبط يده ، يضبط مجلسه ، يضبط أسرته ، يضبط دخله ، يضبط إنفاقه ، هذه نعمة لا تعدلها نعمة .

أيها الأخوة ، لكن نحن الآن في العالم الدراسي الشعبة فيها ستون طالباً ، الكسول والمتفوق لهما اللباس المدرسي نفسه ، لا يرى بالعين من هو المتفوق ، أما عند الامتحان فيكرم المرء أو يهان ، ضمن العام الدراسي الأمور غير واضحة ، لكن بعد الامتحان فلان ناجح بامتياز ، فلان جيد جداً ، جيد ، مقبول ، راسب ، وهناك راسب باستحقاق ، وآخذ الصفر وراسب بجدارة . فالتمييز يوم القيامة .

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55)هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56))

بعد هذا :

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59))

(سورة يس)

ابتعدوا عنهم ،

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

فأنت عندما تقرأ القرآن يجب أن تتغلغل هذه المعاني إلى أعماقك ، الآن قد تجد مؤمناً ضعيفاً موظفاً بيته ستون متراً ، دخله أقل من حاجته بكثير ، لا أحد يأبه له ، ولكن له وزن عند الله كجبل أحد ، لأن النبي الكريم مرة دخل أحد الصحابة الفقراء ، قام وهش له وبش ، وقال : أهلاً بمن خبرني بقدومه جبريل ، قال : أو مثلي ؟ قال : نعم يا أخي ، أنت ، خامل في الأرض علم في السماء .

من كان مؤمناً و مستقيماً فلا ينبغي له أن يذلّ نفسه :

أنت لا تهتم لمرتبتك الاجتماعية ، قد تكون حاجباً ، قد تكون موظفاً من الدرجة الخامسة ، ضارب آلة كاتبة على الوارد والصادر ، لكنك مؤمن ، ومستقيم ، وتحب الله ورسوله ، وبيتك إسلامي ، ودخلك حلال ، ما أكلت حراماً أبداً ، قلامة ظفرك تساوي مليون إنسان يعصي الله ، فأنا أحب إذا كنت مؤمناً ومستقيماً أن تعرف من أنت ، لا تكن هيناً على الناس ، اعرف قدر نفسك ، لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه :

((اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ، فإن الأمور تجري بالمقادير))

[رواه تمام وابن عساكر عن عبد الله بن يسر]

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88))

من يشاء الهداية من عباده يهديه الله عز وجل ، هذا المعنى الدقيق ،

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ)

مبذول ،

(يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

لا تكن جبرياً ، لا تفهمها فهماً ما أراده الله ، حتى يشاء الله أن أهتدي ، الله هداك وانتهى ، مثل الإذاعة تبث ، ومعك جهاز استقبال ، عندما يخطر في بالك تستقبل الإذاعة ، جاهزة ، تكلفك حركة صغيرة ، أخي حتى يبثوا ، البث مستمر ، ما عليك إلا أن تلتقط هذا البث ، الله هداك ، وانتهى الأمر ، نصب لك الكون كله يدل على عظمته ، أرسل له رسلاً ، بعث أنبياء ، أنزل كتباً ، كل أفعاله تدل عليه ، أخي حتى يهديني الله ، سيأتيك وحي حتى يهديك الله ؟ الله هداك ، وانتهى الأمر ، بقي أن تستقبل هذا الهدى، بقي أن تأتمر بما أمر .

دين الله دين توحيد :

أخواننا الكرام ، مرة ثانية ، في هذه الآية عدد كبير من الأنبياء ، لكن أنبياء الله عز وجل لم يُذكروا جميعاً في القرآن الكريم .

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (78))

(سورة غافر الآية : 78)

قد تستمعون إلى بعض الصالحين في بلاد بعيدة كانوا أنبياء ، لكن بعض الأتباع ألهوهم بعد موتهم ، على كلٍ الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم هذه آية فيها عدد كبير منهم ، والعبرة أن تقرأ قصة كل نبي ، وأن تستنبط منها درساً في حياتك يعينك على متابعة الطريق إلى الله عز وجل ،

(وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخوانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

لأن دين الله دين توحيد ، الأمر بيد الله وحده ، يد الله تعمل وحدها .

وفي درس قادم نتابع الآيات إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(30-73): تفسير الآيات 88-90 ، المؤمن مسير ومخير

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-07-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة الأنعام .

من لوازم كمال الله سبحانه هداية خلقه :

مع الآية الثامنة والثمانين ، وهي قوله تعالى :

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88))

أولاً : الله عز وجل حينما قال :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

أي تولى بذاته العلية هداية خلقه ، وكلمة(على) مع لفظ الجلالة تعني أن الله ألزم نفسه إلزاماً ذاتياً أن يهدي عباده ، وحينما تعتقد أن الله لا يهدي عباده ، ولا ينزل على رسله الكتب ، ولا يرسل الأنبياء فإنك لا تعرفه إطلاقاً ، فمن لوازم كماله هداية خلقه .

بشكل مبسط : أب جالس ، ابنه الصغير يقترب من المدفأة ، هل يبقى ساكتاً ؟ يتحرك ، ينبه ، يحذر فإن لم يستجب قام من مجلسه ، وأمسكه ، وأبعده عن المدفأة ، هذا الحد الأدنى من لوازم الأب الرحيم . فمجرد أن تتوهم أن الله يبقي عباده من دون إرشاد ، أو توجيه ، أو تعريف ، أو هداية فأنت لا تعرف الله ، وبعد قليل تأتي الآية الكريمة :

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (91))

(سورة الأنعام الآية : 91)

الله عز وجل لا يبين لك الهدف يبين لك الطريق إلى الهدف :

حينما تقول :

(مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)

أي إنك لا تعرف الله ،

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

آية ثانية :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (9))

(سورة النحل الآية : 9)

قال علماء التفسير : وعلى الله بيان سبيل القصد ، الآن الله عز وجل لا يبين لك الهدف يبين لك الطريق إلى الهدف ،

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

أي على الله بيان سبيل القصد ، الطريق الموصل إلى الهدى .

إذاً : هناك من تسأله : لمَ لا تصلي ؟ لمَ لا تستقيم ؟ يقول لك بسذاجة ما بعدها سذاجة : لم يهدنِي الله بعد ، الجواب : الله عز وجل هداك وانتهى الأمر ، بقي أن تستجيب .

إذاعة تبث برامجها على أمواج الأثير ، ومعك جهاز استقبال ، أنت مكلف أن تحرك مؤشر هذا الجهاز إلى المحطة ، فإن لم تفعل فالذنب ذنبك ، فأنت المقصر ، وأنت المسؤول ، البث مستمر ، بقي أن تتلقى هذا البث .

الهداية مستمرة ، الله عز وجل هداك بهذا الكون ، كل شيء في الكون ينطق بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله ، وهداك بهذا القرآن ، وهداك بالنبي العدنان ، وهداك بالدعاة المخلصين ، وهداك بالمعالجة النفسية ؛ بين ضيق ، بين كآبة ، بين انشرح ، بين تفاؤل ، وهداك بأفعاله ، إن أحسنت دعمك بمكافئة ، وإن أسأت نبهك بعقوبة ، فيهديك بخلقه ، ويهديك بكلامه ، ويهديك بنبيه ، ويهديك بالعلماء الصادقين ، ويهديك نفسياً ، ويهديك بأفعاله ، تقول : حتى الله يهديني ، الله هدايته مستمرة ، بقي أن تستجيب ، والآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال الآية : 24)

الطريق إلى معرفة الله التفكر في خلق الله :

إذاً

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ)

ذلك تعود على شيء سابق ، سيدنا إبراهيم لما رأى قال :

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76))

(سورة الأنعام)

وقال :

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ (77))

(سورة الأنعام الآية : 77)

وقال :

(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي (78))

(سورة الأنعام الآية : 78)

الطريق إلى معرفة الله التفكر في خلق الله ، هذا دليل قوي جداً ،

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

ما الذي يمنع أن يعود فعل يشاء على الإنسان ؟

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

الهداية ، أنت مخير ، لماذا تريد أن تجعل الهداية قضاء وقدراً وألا تجعلها اختياراً ؟ لأنك إن جعلتها قضاء وقدراً توهمت أنك لست مسؤولاً عن عدم الهداية ، أما حينما تجعلها اختياراً فأنت المقصر ،

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

في آيات كثيرة جداً ، على كلٍ لو أن هناك ألف آية يشم منها رائحة الجبر ، وفي آية واحدة محكمة تنطبق بالاختيار ، كل الآيات المتشابهات تحمل على هذه الآية المحكمة ، هذه قاعدة أصولية ، حينما يقول الله عز وجل :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ (148))

(سورة الأنعام الآية : 148)

قال علماء التفسير : هذه الآية أصل في أن الإنسان مخير ، أية آية يشم منها رائحة الجبر تحمل على هذه الآية ، يهدي به من عباده من يشاء الهداية ، تريد أن تهتدي الهدى جاهز ، تريد أن تعصي المعصية جاهزة ، أنت مخير افعل ما تشاء .

في اللحظة التي تتوهم فيها أنك مسير في كل شيء وقعت في خطأ قاتل :

قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا (148))

(سورة البقرة الآية : 148)

وقال :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف الآية : 29)

وقال :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

في اللحظة التي تتوهم فيها أنك مسير في كل شيء وقعت في خطأ قاتل ، عندئذٍ لا معنى لا للجنة ، ولا للنار ، ولا للثواب ، ولا للعقاب ، ولا للأمانة ، ولا للتكليف ، ولا للمسؤولية ، وكل ما في الدين يصبح تمثيلية سمجة .

أحياناً يعلن عن مسابقة ، ويتقدم المئات ، وتؤلف لجان لفحص المتسابقين فحصاً تحريريّاً ، وفحصاً شفهيّاً ، وقدرات ذكاء ، وقدرات عامة ، وخاصة ، والذي سوف يقبل معروف سلفاً قبل إجراء المسابقة، أليست هذه تمثيلية سمجة .

أيعقل أن خالق الأكوان ، مبدع الإنسان ، خلقه كافراً وقدَّر عليه الكفر ؟ وقدر عليه المعصية ، ثم يرسل له الأنبياء والمرسلين ، وينزل الكتب ، ويدعوه إلى الهدى والإيمان، كلام لا معنى له .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيّاك إياك أن تبتل في الماء

***

الإنسان مسير ومخير :

كمال الله عز وجل يفوق الخيال .

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

(سورة سبأ)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

بالمناسبة ، وبكلام مختصر ، أنت مسير ومخير ، أنت مسير في كونك ذكراً أو أنثى ، أحد سألك : ما تحب أن تكون ؟ لا أحد سألك ، أنت مسير في أبيك ، هل اخترت أباك؟ أبداً ، اخترت أمك ؟ لا ، اخترت أنت مولود في دمشق عام 1949 ؟ لا ، لو ولدت في شيكاغو مثلاً ، في ألاسكا ، لو ولدت قبل الإسلام ، في الجاهلية ، كونك ولدت ذكراً أو أنثى ، من فلان وفلانة ، في المكان الفلاني ، في الزمان الفلاني ، الآن شكلك ، قدراتك ، إمكاناتك ، هذه كلها أنت فيها مسير ، ولكن لو كشف الله لك الغطاء لا بد من أن تذوب محبة لله ، لأنه اختار لك أفضل شيء لإيمانك ، وهذا معنى قول النبي الكريم :

((اعملوا فكل ميسر لما خلق له))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس وعن عمران بن حصين]

يسر لك زماناً معيناً ، مكاناً معيناً ، أباً معيناً ، أماً معينة ، جنساً معيناً ، هذا الذي اختاره الله لك هو أقرب شيء لمصلحة آخرتك ، لذلك ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني ، هذه واحدة ، أما حينما كلفك فأنت مخير ، كلفك أن تكون صادقاً ، وأميناً ، وعفيفاً ، وكلفك بالصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، وكلفك بغض البصر ، وكلفك بالنطق بالحق ، ونهاك عن الغيبة ، والنميمة ، والبهتان ، وقول الزور ، ونهاك أن تؤذي إنساناً بكلمة أو بتصرف ، فهناك أوامر ومنهيات ، أنت في هذا النطاق مخير ، بالتعبير الدقيق مخير فيما كلفت به .

هناك تفسير ثانٍ : لو أن إنساناً اختار أن يؤذي المسلمين ، ذكي جداً ، معه وسائل عالية جداً ، وغش المسلمين ، النقطة الدقيقة جداً الله عز وجل رب ، والرب يختلف عن السيد، لو كنت صاحب مؤسسة تجارية وعينت موظفاً ، وكلفت إنساناً أن يراقبه ، يراقب دوامه ، يحصي عليه أخطاءه ، لكن لا يتعاطف معه ، فالمهمة الأولى أن تسجل عليه أخطاء ، فإذا بلغت حداً غير مطلوب فصلته ، لو أن ابنك داوم يوماً بالمؤسسة هل يصبح هدفك أن تسجل أخطاءه ؟ لا ، تعالجه واحدة وَاحدة ، كلما أخطأ تنبهه .

الله تعالى يسيّر عبده ليؤدبه :

الله عز وجل هيأ لك أفضل ما يناسبك ثم خيرك ، الآن لو اخترت اختياراً خاطئاً يسلب منك اختيارك ويسيّرك ليؤدبك .

((إن الله إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه))

[أخرجه الخطيب في التاريخ عن ابن عباس]

هناك تسيير ثان ، التسيير الأول : هيأ لك أفضل ظرف ، وخصائص ، ومواصفات كي تكون من أهل الجنة ، ثم خيرك ، لو أسأت الاختيار يعالجك في الدنيا .

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (30))

(سورة الشورى الآية : 30)

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، وما يغفر الله أكثر))

[رواه ابن عساكر عن البراء]

أنت تقع في التسيير الثاني ، مهما كنت ذكياً ، مهما كنت عاقلاً ، مهما تراكمت خبراتك ، حينما تقتضي حكمة الله تأديبك يأخذ منك لبك ، ويأخذ منك خبرتك ، ويأخذ منك علمك ، وتتورط في عمل تدفع ثمنه باهظاً ، هذا التسيير الثاني .

أول تسيير لصالحك ، ثاني تسيير كي يربيك ، فأذكى الأذكياء يرتكب أكبر حماقة أحياناً ، حينما يرتكب هذه الحماقة يساق له عذاب أليم كي يلفت الله نظره إلى معصية كبيرة .

إذاً الله عز وجل رب العالمين ، تذكر مثلاً ابنك بالمؤسسة ، ليس الموضوع تسجيل أخطائه ، الموضوع محاسبته عن كل خطأ على حدة ، فوراً ، فكلما علا مقامك عند الله جاء التأديب سريعاً ، إذا أحب الله عبده ابتلاه ، وكلما ضعف إيمانك جاء التأديب متأخراً إلى أن تتراكم الذنوب ، فيأتي تأديب قد لا تحتمله .

أنواع المصائب :

إذا أحب الله عبده ابتلاه ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

إذاً مصائب المؤمن مصائب دفع ومصائب رفع ، مصائب العاصي والكافر مصائب قصم أو مصائب ردع ، مصائب الأنبياء مصائب كشف ، ينطوي على حقيقة إنسانية باهرة لا تظهر إلا في الظروف الصعبة ، الأنبياء مصائبهم مصائب كشف ، المؤمنون مصائب دفع أو رفع ، العصاة مصائب تأديب ، الكفار مصائب قصم ، و كل مصيبة تشبه أختها ،

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الإيمان هو التوحيد ، والشرك نقيض التوحيد ، الشرك أن تتجه لغير الله . أوضح مثل أردده كثيراً : ركبت قطاراً من دمشق إلى حلب ، ولك في هذه المدينة مبلغ كبير جداً ، ما عليك إلا أن تذهب إليها لتأخذ المبلغ ، قد ترتكب أخطاء كثيرة في القطار ، قد تقطع بطاقة من الدرجة الأولى ، وتجلس في الدرجة الثالثة ، هذا خطأ كبير ، لكن القطار يمشي باتجاه حلب ، قد تجلس مع شباب ليسوا لبقين وتنزعج منهم انزعاجاً شديداً ، هذا خطأ ثان ، لكن الطريق متجه إلى حلب ، قد تتلوى من الجوع ولا تعلم أن في القطار مطعماً ، هذا خطأ ثالث، لكن القطار يتجه إلى حلب ، قد تجلس بعكس القطار تصاب بالدوار ، هذا خطأ رابع ، لكن القطار متجه إلى حلب ، هذه أخطاء المؤمن ، لكن القطار باتجاهه إلى حلب والقبض جاهز ، أما الخطأ الذي لا يغتفر فأن يكون التوجه إلى حلب والقبض في حلب وأن تركب قطار درعا، القطار فخم لكن ما فيه شيء .

الشرك ذنب لا يُغفَر :

الشرك أن تتجه لغير الله ، لا يستطيع أن يعطيك ، ولا يحميك ، ولا يسعدك ، ولا يحفظك ، ولا يغنيك، ولا يرفعك ، لا يفعل شيء ، فلذلك الشرك ذنب لا يُغفَر ، ليس معنى لا يغفر قسوة لا ، لا يغفر تحصيل حاصل .

إنسان يتلوى من ألم الزائدة الدودية ، الطريق المناسب إلى المستشفى ، ولو اتجه إلى مقصف ، في هذا خطأ كبير ، أخي نحن نرفض أن نعالجه ، لا ، لا ترفض ، المحل الذي يذهب إليه ليس فيه معالجة ، ليس موضوع رفض ، المكان الذي سيذهب إليه فيه مطعم ، فيه أكل ، ليس فيه مستشفى ، وليس فيه فتح بطن ، وليس فيه مخدر ، وليس فيه طبيب جراح ، فإذا قلنا : نحن لا نعالج إنساناً معه التهاب زائدة إذا توجه إلى المقصف ، طبعاً المقصف ما فيه مستشفى ، فأنت حينما تتجه اتجاهاً خاطئاً لا تجد شيئاً ، أما إذا اتجهت إلى الله فعنده كل شيء ، عنده سلامتك ، وعنده سعادتك ، وعنده توفيقك ، وعنده سرورك ، وعنده كل شيء ، لذلك الإنسان في بعض المناجاة يقول : يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

" ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء " . الآن فهمنا معنى قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (48))

(سورة النساء الآية : 48)

ليس قسوة ، هناك تعبير أصولي تحصيل حاصل ، أنت اتجهت إلى لا شيء ، لن تجد شيئاً ، ليس موضوع حرمان ، لا ، موضوع أن هذا المكان الذي اتجهت إليه ليس فيه شيء ،

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

كنت مرة في تركيا ، وحُدثت حديث مهندس كبير جداً يُعد أحد خمسة مهندسين في العالم ، هو الذي أنشأ ثاني أطول جسر في العالم ، جسر اسطنبول المعلق بالحبال ، هذا الجسر ثاني أطول جسر في العالم يصل بين قارة آسيا وأوربا ، ويعبره في اليوم ثلاثمئة ألف سيارة ، المهندس الذي أنشأ هذا الجسر من اليابان ، وفي يوم تدشين الجسر ، وكان بصحبة رئيس الجمهورية ، ألقى هذا المهندس بنفسه في النهر ، طبعاً نزل ميتاً ، ذهبوا إلى غرفته في الفندق ، فإذا ورقة كتب عليها ، " ذقت كل شيء في الحياة فلم أجد لها طعماً ، فأردت أن أذوق طعم الموت " ، هذه القصة نموذجية ، إنسان بلا هدف ، ما له هدف أشرك ، وجد الطريق مسدود ، أموال كثيرة بلا سعادة .

العبرة أن تختار هدفاً أكبر من طاقاتك :

قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

أخواننا الكرام ، حقيقة أتمنى أن تكون واضحة عندكم ، أحياناً الإنسان وهو شاب يطمح بزوجة معينة، ذات شكل معين ، يطمح ببيت نمطه حديث ، ليس فيه جدران أبداً ، مثلاً يطمح بمركبة من مستوى معين ، بوظيفة معينة ، ما دامت هذه الأحلام لم يصل إليها يمكن أن يكون سعيداً تجاوزاً ، متى يبدأ شقاؤه ؟ إذا بلغ هذه الأهداف كلها ، تَعَيَّن بوظيفة ، واشترى بيتاً ، وتزوج ، وعنده هذه المركبة ، أحاط بهم ، بدأ يشعر بالفراغ .

أخواننا الكرام ، أنت مصمم لأهداف لا نهائية ، حينما تختار أهداف نهائية محدودة تشقى بها ، الآن سبب شقاء العالم الغربي أنه وصل إلى قمة الرفاهية ، حياة مملة جداً كل شيء ميسر بأعلى درجة ، نظام صارم مستحيل أن تخالفه ، أنت لا بد أن تسافر ، وأنت بأقصى الغرب ، وبينك وبين الشرق خمس ساعات بالطيران ، ترسل بريداً إلكترونياً أن هيئوا لي جواز سفر بالمطار ، تأتي بعد ساعة تجد الجواز جاهزاً ، ما من مشكلة .

كنت في بلد ، الثلاجة فيها حساسات الكترونية ، كمية البيض لو قلّت البراد فيه إنترنت ، يتصل بالسوبر ماركت ، يعطي رقم البطاقة المالية لصاحب البيت ، يطرق الباب تأتي الكمية الناقصة ، كل نواقص الثلاجة تأتي آلياً للبيت ، حياة لا معنى لها ، تصبح مملة .

لذلك الإنسان بلا هدف كهذا المهندس الذي ألقى بنفسه في النهر ، ليس له هدف في الحياة ، هدفه المال وصل له ، تجلس مع إنسان بلغ كل أهدافه ، الجلسة معه لا تطاق ، كل شيء أمّنه ، ما لها معنى ، السيارة عنده ، والبيت الفخم ، والطعام الطيب ، كله تناوله ، أما إنسان له هدف كبير يبقى شاب في الثامنة والتسعين ، شاب ، ما من إنسان يشيخ مؤمناً ، هدفه الله ، مهما سعى لا يزال أمامه الكثير ، العبرة أن تختار هدفاً أكبر من طاقاتك ، أنت في شباب دائم ، لا تشعر بالفراغ أبداً ، في ذهن المؤمن مشاريع لا يعلمها إلا الله لو كان اليوم مئة ساعة ، كله ممتلئ .

الإنسان مصمم ليعرف الله فإذا وضع هدفاً صغيراً يشقى به :

لذلك أيها الأخوة ، ما لم تختر هدفا كبيراً فأنت شقي ، حينما تختار هدفاً صغيراً إذا بلغته بدأت المتاعب ، بدأ الملل ، بدأ السقم ، بدأ الضجر ، بدأ التأفف ، لذلك العالم الغربي لما بلغوا أهدافهم

انحرفوا ، لا ترضيه زوجته ، يبحث عن متعة أخرى ، وقد تكون شاذة ، أكثر أسباب الشذوذ هو الملل، لأن هدفه المادي حققه ، حينما تذهب إلى الشرق والغرب تجد نموذج إنسان ليس له هدف ، ولا رسالة ، له هدف طبعاً مادي ، قصر فخم جداً ، لا بد من عدة مركبات ، مركبة للعائلة ، للنزهات ، لكل فرد بالأسرة مركبة بحسب رغبته ، قارب سياحي فخم جداً ، هذا مرفوع على عجلات للعطل ، طيران شراعي يمارس فيه هواياته في العطل ، لكن بعد حين كله يمل منه ، لأن الإنسان مصمم ليعرف الله ، فإذا وضع هدفاً صغيراً يشقى به ، أنت حينما تضع هدفاً كبيراً تبقى شاباً طوال حياتك ، معقول من إنسان يبدأ بالتدريس في الثامنة عشر ويموت في الثامنة والتسعين وهو يُدَرِّس ! وكان إذا رأى شاباً يقول له : يا بني أنت تلميذي ، وكان أبوك تلميذي ، وكان جدك تلميذي ، وهو منتصب القامة ، حاد البصر ، مرهف السمع ، أسنانه في فمه ، يقال له : يا سيدي ما هذه الصحة ؟! يقول : يا بني ، حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر ، من عاش تقياً عاش قوياً .

ابحث عن هدف كبير ، أمور الدنيا تأتي وهي راغمة ، والله في حديث قدسي لا يوزن بالدنيا :

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين))

[أخرجه البزار والبيهقي من حديث عمر بن الخطاب وفيه صفوان بن أبي الصفا ذكره ابن حبان]

تجد إنساناً لا هم له إلا أن يشتري بيتاً ، فقط ، أنا لست ضد شراء البيت ، البيت مأوى ، لكن ما له هم ثان إطلاقاً ، لا يفكر بشيء ، يشتري بيتاً ، يكدح ثلاثين أو أربعين سنة ويأخذ بيتاً تقدر مساحته بستين متراً ، شمالي ، قبو ، الله خلقك لهذا ؟

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين))

قد يسكن إنسان بيتاً صغيراً ، وشمالياً ، وقبواً ، لكن يعيش بجنة ، إذا كان لك هدف كبير فأنت في جنة .

أنواع الإحباط :

يقول بعض العلماء : ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة ، فماذا يفعلوا أعدائي بي ؟ بستاني في صدري ، له قول آخر : " من لم يذق طعم الجنة في الدنيا ليس له جنة في الآخرة ، إنما هي جنة القرب " ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

(سورة الرحمن)

(وَلَوْ أَشْرَكُوا)

لو اتجهوا إلى جهة أرضية لانتهوا ،

(لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الإحباط نوعان : إما أن يكون العمل سيئاً ، أو العمل جيد بنيَّة سيئة ، كلاهما إحباط ، قد يكون لك عمل إنساني كبير ، الهدف مادي فقط ، يقول لك مستشفى عمل إنساني ، لكن يصاب الإنسان بالجلطات إذا رأى الفاتورة ، لا يكون معه أزمة قلبية ، يعطونه الفاتورة يظهر معه أزمة قلبية ، إذاً هذا لم يعد عملاً إنسانياً ، هناك أعمال ظاهرها خير ، إنسان أسس مدرسة ، القسط فوق طاقة الإنسان ، قد يكون العمل إنسانياً لكن النية مادية ، الهدف منه مادي إذاً عمله محبط ، أو قد يكون العمل سيئاً ، مثلاً يمكن للإنسان أن يفتح ملهى أحبط الله عمله ، أو يفتح مدرسة ، أو مستشفى بنية الربح فقط ، لا يرحم ، كلاهما عمله محبط ، إما عمل سيء في أصله ، وإما عمل جيد بنية سيئة ، لا عمل له عند الله عز وجل، يلقى الله بلا عمل، يا رب تعلمت العلم ، يقول لك : تعلمت العلم ليقال عنك عالم ، وقد قيل ، خذوه إلى النار ، يا رب قرأت القرآن ، يقول : نعم ، قرأت القرآن ليقال عنك : قارئ وقد قيل ، خذوه إلى النار ، يا رب ، قاتلت في سبيلك ، يقول : نعم ، قاتلت ليقال عنك : شجاع ، وقد قيل ، خذوه إلى النار ، هذا معنى حبط عمله ، يعني عمله فقد قيمته .

أحياناً دواء ثمنه ثلاثة آلاف ، له صلاحية ، مضت هذه المدة ، ما بقي له قيمة ، دخلت الامتحان ما أجبت ولا بكلمة ، الورقة بيضاء ، عدت إلى البيت ، قرأت البحث فهمته ، لكن متى ؟ بعد فوات الأوان، حبط عمله ، يعني سقط عمله ، يعني سقطت قيمة عمله ، فالعمل إما أن يكون سيئاً وإما أن يكون عملاً إنسانياً مقبولاً ولكن النوايا ليست طيبة .

مقام النبوة اتصال دائم بالله أما المؤمن فساعة وساعة :

لذلك أيها الأخوة الآية الدقيقة :

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي (80))

(سورة الإسراء الآية : 80)

أليس القرآن بليغاً وموجزاً ، لمَ لم يقل الله عز وجل : ربي اجعلني صادقاً وانتهى الأمر ؟ لا ، الدخول قد يكون صادقاً ، لكن الخروج ليس صادقاً ، فالبطولة أن تدخل صادقاً وأن تخرج صادقاً ، الصعود للقمة صعب جداً لكن السقوط منها سهل جداً ، الإنسان إذا بلغ القمة بطولته ليس في بلوغها ولكن في البقاء فيها ، لهذا لما فتح عليه الصلاة والسلام مكة دخلها مطأطئ الرأس ، كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره ،

(وَلَوْ أَشْرَكُوا)

اتجهوا لغير الله لسقط عملهم ، إما سقوط حقيقي ، أو سقوط من حيث النوايا .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89))

هؤلاء الأنبياء العظام

(آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ)

المنهج ،

(وَالْحُكْمَ)

شرحه ،

(وَالنُّبُوَّةَ)

الاتصال الدائم بالله عز وجل

((إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا .))

[ابن سعد عن عطاء مرسلاً]

((لو تكونون كما أنتم عندي لصافحتكم الملائكة بأجنحتها))

[البخاري عن حنظلة]

إذاً مقام النبوة اتصال دائم بالله ، نحن كمؤمنين ساعة وساعة ، لكن إياكم ، ثم إياكم ، ثم إياكم أن تفهموا ساعة طاعة وساعة معصية ، معاذ الله ، ساعة إقبال ، وساعة فتور فقط ، الطاعة مستمرة ، لأن أكثر الناس يقول : ساعة لك وساعة لربك ، هذا كلام شيطاني ، يعني اعص الله وصل ، اذهب إلى الملهى وصلِّ قيام الليل ، ساعة لك وساعة لربك ، هذا كلام الشيطان بالضبط .

المؤمن وكيل عن الله :

المؤمن ساعة وساعة ، أي ساعة تألق ساعة فتور ، "إن للنفس إقبالاً وإدباراً ، إن أقبلت فاحملوها على النوافل ، وإن أدبرت فاحملوها على الفرائض " .

ساعة تألق ساعة فتور ، أما الأنبياء اتصال دائم ،

(أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)

الإنسان حينما لا يقيم وزناً للهدى يأتي من يقيم له وزناً ، أنت حينما تزهد بالحق هناك من يرغب فيه ، أي :

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38))

(سورة محمد)

لا تمنّ على الله ، إن مننت عليه يستبدل بك إنساناً آخر ، أنت بعمل صالح لا تزهد به ، لا تهمله ، إن أهملته أقصاك الله عنه وجاء بإنسان آخر ، أنت بنعمة كبيرة ؛ نعمة مجلس العلم ، لا تهملها إن أهملتها يأتي من ينتفع به .

(فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)

هناك استنباط لطيف جداً في هذه الآية : أن المؤمن وكيل عن الله ، كأن الله وكّله أن يعرف الناس به، الله وكّله أن ينصح الناس ، أن يبلغهم الحق ، أن يأخذ بيدهم ، أن يصلح شأنهم ، أن يصلح ذات بينهم ، أن يُعرِّفهم بالخالق ، أن يُعرِّفهم بأحكام الشريعة ،

(فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)

المؤمن الصادق قدوته الأنبياء والمرسلون :

قال تعالى :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90))

(سورة الأنعام)

الأنبياء ، الله ذكر الأنبياء جميعاً تقريباً ،

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ)

أي اجعلهم مثلاً أعلى ، اجعلهم قدوة اقتدِ بهم ، أنا أقول لكم كلمة دقيقة جداً : المؤمن الصادق قدوته الأنبياء والمرسلون ، قدوته في الدرجة الأولى النبي عليه الصلاة والسلام ، في بيته ، في أحواله ، في تواضعه ، في تقشفه ، في محبته لأهله ، في محبته لأولاده ، في صبره على أخوانه ، قدوتك النبي عليه الصلاة والسلام ، والشاب في ريعان الشباب قدوته سيدنا يوسف ، فتاة في ريعان الشباب قدوتها السيدة مريم بعفتها ، وطهارتها ، وسموها ، أب قدوته نبي كان أباً رحيماً ، وهكذا ، فالنبي عليه الصلاة والسلام هو الأول ، وكل نبي له قصة

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ)

هذه هاء السكت ، أي اقتدِ ،

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)

أي علامة أنه نبي لا يسأل أجراً ، علامة أنه متبع للنبي لا يسأل أجراً ، موضوع الأجر موضوع آخر.

مثل أنا أستخدمه للتوضيح : لو أن ملكاً طلب من أستاذ لغة عربية أن يعطي ابنه دروساً ، الملك ماذا يعطي ؟ أقلَّ عطاء أن يعطيه بيتاً وسيارة ، فهذا المعلم أفقه ضيق جداً ، بعدما انتهى الدرس ، قال لهذا

الطالب الذي هو ابن الملك : أين الأجرة ؟ قال له : كم ؟ قال : ألف ليرة ، قال : تفضل ، من ضيق أفقه طلب أجرة . فأنت حينما تعرف الله ، وتقدم عملاً لوجه الله ، ما الذي يهينك ؟ أن تُعطى أجرة .

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ (29))

(سورة هود الآية : 29)

علامة إيمانك ، وعلامة معرفتك بالله وكرمه ، وعلامة معرفتك بالآخرة أن تترفع عن الأجرة .

علامة الصادقين أنهم لا ينتفعون بالدعوة :

والله هذه الآية دقيقة جداً ، علامة الصادقين أنهم لا ينتفعون بالدعوة ،

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)

فدائماً الأجر علامة .

الآن إنسان لا يمكن أن يقدم شيئاً من دون أجر ، مادي ، يظن أنه ذكي لكن الحقيقة أنه غبي ، الذكي الذي لا يسأل أجراً ، الذكي الموفق الفالح الناجح العاقل هو الذي يطلب الأجر من الله ،

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً)

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9))

(سورة الإنسان)

بل الذي يزداد عمله بالثناء ويقلّ بعدم الثناء ، والذي يزداد عمله بالأجر ويقلّ بلا أجر مادي ، وبعيد عن أن يكون وكيلاً عن الله ،

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)

لذلك المجتمع المادي لا يتفهم عمل العلماء .

مرة زارني شخص من ألمانيا ليجري معي دارسة حول علماء دمشق ، فلما عرف أن هناك ثمانية عشر درساً في الأسبوع قال لي : كم تأخذ عليها ؟ قلت له : لا شيء ، اختل توازنه ، لم يدخل في برنامجه إنسان يعطي شيئاً من دون أجر ، لم يدخل في برنامجه أبداً ، مع أن المؤمن يبني حياته على العطاء ، حياته كلها مبنية على العطاء ، أي يأخذ ما يحتاجه فقط ، أما الباقي فلخدمة الخلق .

لذلك الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء عاشوا للناس والأقوياء عاش الناس لهم ، فرق كبير ، الأنبياء ملكوا القلوب والأقوياء ملكوا الرقاب ، فأنت كتابع للنبي يجب أن يكون كمالك رأسمالك ، وأنت كتابع لنبي يجب أن يكون سلاحك لا ما تملك من سلطة بل ما تملك من كمال ، يجب أن تملك القلب لا أن تملك الرقبة ، يجب أن تعيش للناس لا أن يعيش الناس لك ، هذا الحد الأدنى من الإيمان ، لذلك مجتمع الإيمان مجتمع فيه جنة ، كل إنسان يقدم للآخر ما يحتاج ، أما في عالم المادة

لا يمكن أن يقدم لك فكرة ، ولا كلمة ، ولا نصيحة إلا بأجر مسبق ، هذا الإنسان يشبه المعلم الذي طلب من ابن الملك الأجر فوراً ، خسر البيت الفخم والمركبة وأخذ على الدرس ألف ليرة ،

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(31-73): تفسير الآيتان 91-92 ، علينا تقدير الله حقّ قدره

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-07-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة الأنعام .

لا يكفي أن تؤمن بالله بل ينبغي أن تؤمن بالله العظيم

مع الآية الواحدة والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91))

أيها الأخوة الكرام ، النقطة الأولى في هذه الآية : أنه لا يكفي أن تؤمن بالله ، ينبغي أن تؤمن بالله العظيم لأن إبليس آمن بالله ولأن المنافق يذكر الله ، حينما قال عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

الأمر ينصب على الذكر الكثير ، وحينما قال الله عز وجل :

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33))

(سورة الحاقة)

الأمر ينصب على العظيم ، لذلك أنت حينما تنكر أن يرسل الله رسولاً ليرشد العباد إلى طريق سلامتهم وسعادتهم ، أنت حينئذٍ لا تقدر الله حق قدره ، أنت لا تقبل من أب عادي يرى ابنه متجهاً إلى المدفأة ، ولا يتكلم بكلمة ، ولا يتحرك ، ولا يشير .

ينبغي أن نقدر الله حقّ قدره :

أنت حينما تتوهم أن الله خلق الكون وكفى ولم يرسل رسولاً ، أو أن هذا الذي يقول كلاماً لا جدوى منه ، الناس خُلِقوا هكذا بعضهم للجنة وبعضهم للنار ، والأمور كلها مكتوبة مسبقاً ، ولا دخل للإنسان في تغيير مصيره وانتهى كل شيء ، أنت بهذا لا تعبد الله ،

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

إذاً المعنى المخالف : ينبغي أن نقدر الله حق قدره ، لذلك :

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3))

(سورة القدر)

لو أنك عبدت الله ثمانين عاماً ، والثمانون عاماً تساوي ألف شهر ، ثمانون عاماً تعبد الله ولا تقدره ، في ليلة واحدة تقدر الله حق قدره ، هذه الليلة خير لك من ألف شهر ، لذلك هذا الفرق بين العالم والعابد، العابد مقاومته هشة ، أقل ضغط يخرجه من استقامته ، وأقل إغراء يخرجه من استقامته ، وحينما كانت المجتمعات سليمة يمكن إلى حد ما أن ينجو العابد ، لكن والله الذي لا إله إلا هو في هذا الزمن ؛ زمن الشبهات ، زمن الشهوات ، زمن الضلالات ، زمن التفلت ، زمن أن النساء في الطريق كاسيات عاريات ، زمن أن معظم كسب الناس يشوبه الربا ، في هذا الزمن لا يمكن لعابد أن يصمد لا أمام إغراء الدنيا ، ولا أمام ضغوط الطرف الآخر ، لذلك :

((فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

هذا معنى أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما رأى شاباً يتعبد الله وقت العمل قال له : من يطعمك ؟ قال : أخي ، قال : أخوك أعبد منك ، أما حينما شكا له إنسان شريكه طالب العلم ، قال له : لعلك ترزق به ، لأن العابد يبحث عن متعته الروحية ، بينما العالم يبحث عن هداية قومه ، لذلك لمجرد أن تظن أن الله خلق الخلق دون هداية ، دون كتب ، دون رسل ، دون أنبياء ، دون دعاة ، الحق لا يضمحل ، قد ينمو الباطل ، وقد تتسع دوائر الباطل ، أما أن يسيطر الباطل على الساحة فهذا مستحيل ، والخطورة أن يسيطر ، أما إذا بقي للحق بقعة ضوء واحدة ، هذه تتنامى ، ليست العبرة أن يكون الناس في ضلال مبين ، ولكن الخطورة أن تخلو بلدة أو مدينة من أهل الحق ، وأهل الحق متواجدون في كل مكانٍ دائماً، ولكنهم قلة ، ولكنهم في التعتيم ، وليسوا تحت الأضواء ، فابحث عنهم ،

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

العمل الصالح بيد الله يقدره على يد الصادقين :

بالمناسبة لا يستطيع مخلوق أن يقدر الله حق قدره ، بل قيل : لا يعرف الله إلا الله ، حتى سيد الخلق وحبيب الحق لا يعرف الله المعرفة المطلقة ، هو أعلى إنسان عرف الله لكنه لا يعرف الله إلا الله ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حسم هذه المشكلة فقال :

((سبحانك لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك))

[أخرجه مسلم وأبو داود ، الترمذي ، النسائي ، ابن ماجه عن عائشة]

أي يا رب نحن عاجزون أن نعرف قدرك ، لكن نتفاوت فيما بيننا في نسبة هذه المعرفة ، فكلما ازدادت المعرفة ازدادت معها الخشية ، كلما ازدادت هذه المعرفة ازداد معها العمل الصالح ، لأن العمل الصالح من عند الله ، إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك ، أنت ضعيف ، لكن العمل الصالح بيد الله يقدره على يد الصادقين ، فأنت لا تملك إلا أن تكون صادقاً في طلب العمل الصالح ، إن طلبت أن يقدر الله على يديك عملاً صالحاً قدره على يديك وأنت ضعيف ، لذلك ما يجري على أيدي العلماء في التاريخ الإسلامي أقول لكم : لا يتناسب مع قدراتهم بل مع صدقهم في طلب هذا العمل الصالح ، وكلما ازدادت معرفتك بالله عز وجل ، وكلما ازداد إصرارك على طلب مرضاته أجرى الله على يديك الخير ونسبه إليك ، هو من عنده ، لكنه نسبه إليك ،

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)

المعاصي كثيرة ومتدرجة :

بالمناسبة أيها الأخوة ، المعاصي كثيرة ومتدرجة ، وفي مرة من المرات في بعض السور القرآنية رتبت ترتيباً تصاعدياً .

(الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (90))

(سورة النحل الآية : 90)

وقال :

(الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (2))

(سورة المائدة الآية : 2)

وقال :

(الشِّرْكَ (13))

(سورة لقمان الآية : 13)

وقال :

(الْكُفْرِ (74))

(سورة التوبة الآية : 74)

النقطة الدقيقة أن على رأس هذه المعاصي :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169))

(سورة الأعراف)

إن معرفتنا بالله من خلال الكون ومن خلال القرآن يكشف لنا سرّ أفعاله وتصرفاته :

عد للمليون قبل أن تقول على الله ما لا تعلم ، بل إن بعض العلماء قال : العوام لئن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، راجع حساباتك ، اعمل جرداً لتصوراتك ، كيف تظن ؟ هل تظن بالله ظن السوء لا سمح الله ، قال تعالى :

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ (6))

(سورة الفتح الآية : 6)

لا بد في هذه المناسبة من أن أبين أن الله عز وجل يُعرَف من خَلْقه ، من الكون ، من آياته الكونية ، ويعرف من كلامه ، من آياته القرآنية ، ويعرف من أفعاله ، من آياته التكوينية ، لكن إن كانت معرفتك بآياته الكونية ضعيفة ، وإن كانت معرفتك بآياته القرآنية ضعيفة ، وبدأت بآياته التكوينية فهذا حقل كله ألغام ، لأنك تقع في حيرة كبيرة ، ترى شعوباً ناعمة البال ، غنية ، بيدها مقادير أهل الأرض ، وتفعل ما تريد فيما يبدو لك ، وأمرها نافذ في كل مكان ، وهي غارقة في كل أنواع المعاصي والآثام ، وترى مجتمعات إسلامية تعاني ما تعاني ، تعاني من الفقر ، والقهر ، وما إلى ذلك ، لا بد من أن تبدأ بمعرفة الله من الكون ، من آياته الكونية ، فكل ما في الكون ينطق بأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، ثم لا بد بعدها من أن تنتقل إلى آياته القرآنية ، فكل القرآن يعرف بالله عز وجل ، فإذا أتقنت آياته الكونية ، ثم أتقنت آياته القرآنية ، ووصلت إلى آياته التكوينية ، عندئذٍ تكشف لك معرفتك بالله من خلال الكون ومعرفتك بالله من خلال القرآن سر أفعاله وتصرفاته .

للتوضيح : أنت في مسجد ، وهناك عدد محدود من الأشخاص ، وعلى بعض المشاجب معطف ، وإنسان جالس قريب من هذا المعطف ، التفت وراءه ثم قام إلى المعطف ، ومد يده إلى جيب المعطف ، وأخذ عشر ليرات ، ووضعها في جيبه ، لو أن إنساناً صوره هذه الصورة عن ماذا تنبئ ؟ إنسان دنيء أراد أن يسرق عشر ليرات من معطف معلق على مشجب في المسجد ، لو جاء من يقول لك : إن هذا الإنسان الذي قام ومد يده إلى جيب هذا المعطف ، وأخذ عشر ليرات هو الذي بنى المسجد ، وقد كلف بناؤه سبعاً وثلاثين مليون ليرة، وأن سائلاً طلب منه صدقة ، فالتفت فوجده ، فقام إلى معطفه ، وأخذ العشر ليرات ، اختلف الوضع اختلافاً كبيراً جداً .

الدنيا محدودة والعبرة للآخرة :

أنت حينما تقرأ القرآن ، وتقرأ قوله تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ (44))

(سورة الأنعام الآية : 44)

الآية واضحة :

(أبوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

على أموال ، على بلاد جميلة ، على نساء جميلة ، على إعلام ، على أسلحة دمار شامل ، على سيطرة، على قبضة من حديد ، الله عز وجل شاء لهم ذلك ، لكن هذه الدنيا محدودة والعبرة للآخرة ، قال تعالى :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة الأعراف)

قال :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص)

على الإنسان أن يُدخِل الآخرة في حساباته :

الله عز وجل بيَّن لنا في القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود ، لقد أثنى عليهم مع أن الملك أحرقهم ، بمقاييس أهل الأرض لم ينتصروا ، أحرقوا ، وماشطة بنت فرعون ألقى أولادها الخمسة في الزيت المغلي ، ثم ألقاها ، ولم تنتصر ، لكن هذا هو النصر ، لكنها ثبتت على عقيدتها ، ولها الجنة إلى أبد الآبدين ، أما الذي ألقى أولادها وألقاها في الزيت المغلي فقد قال تعالى :

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً (46))

(سورة غافر الآية : 46)

من ستة آلاف عام ، وكل عام ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً .

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

(سورة غافر)

لا يمكن أيها الأخ أن تفلح إن أردت أن توازن بين إنسانين ، بين بلدين ، بين شريكين ، بين مشروعين، بين فئتين ، إلا أن تدخل الآخرة في حساباتك .

مطعم لا يستطيع بيع الخمر لأن صاحبه مؤمن بالله ، إذاً لا يستطيع أن يكون من نوع الخمس نجوم أبداً ، مطعم دخله محدود ، يغطي مصروف صاحبه ، ومطعم أحياناً دخله اليومي مليون ليرة ، لكنه يبيع الخمر ، فإن نظرت إلى الدنيا الفرق كبير ، والبون شاسع بين المطعمين ، وبين الدخلين ، وبين

الأموال المتدفقة على المطعم الثاني ، لكنك إذا أدخلت الآخرة مع المطعمين كان المطعم الذي لا يبيع الخمر ربحه المحدود هو الناجي ، فهذه نصيحة حيثما أردت أن توازن فأدخل الآخرة ، في أعمال دخلها كبير جداً ، بالميزان المادي أعلى ربح بالأرض ربح تاجر المخدرات ، من ليرة إلى مئة ألف ضعف ، مكان زراعة المخدرات ومكان بيعها ، تجار الأسلحة ، هناك تجارة دخلها فلكي ، لكن بميزان الآخرة جريمة ، جريمة كبيرة .

ما لم ندخل الآخرة في حسابات الموازنات فلن نتلقى النتائج الصحيحة :

لذلك ما لم تدخل الآخرة في حسابات الموازنات فلن تتلقى النتائج الصحيحة ،

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا)

لمجرد أن تقول .

مثلاً : بالتعبير الدارج ، طاسات معدودة بأماكن محدودة ، أي أن الله عز وجل قدَّر على هذا الإنسان شرب الخمر ، أجبره على شرب الخمر ، حرمه عليه ، وأجبره على شرب الخمر ، ويوم القيامة يدخله النار ،

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا)

إنما هما قبضتان ، من دون تفسير عميق ، قبضة إلى الجنة ولا أبالي ، وقبضة إلى النار ولا أبالي ، لمجرد أن تقول هذا الكلام من دون تحقيق ، من دون تدقيق فأنت لا تعرف الله .

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ(17))

(سورة سبأ)

وقال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

وقال :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا (57))

(سورة القصص الآية : 57)

هناك من يقول : لا أستقيم ولا أصلي ، أخاف على مستقبلي وعلى مستقبل أولادي ، هناك من يتصنع المعصية ليوهم الناس أنه بعيد عن الدين ،

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)

هؤلاء الذين قالوا بعضهم من أهل الكتاب ، أنتم أهل كتاب ، وأنتم معكم التوراة ، والتوراة كتاب الله ، فلماذا قبلتم التوراة على أنه كتاب الله ، ولا تقبلوا القرآن على أنه كتاب الله ؟ لماذا ؟!

لا يمكن أن يكون مع الشارد عن الله حجة :

مثل هذا الذي يرفض دعوة النبي صلى الله عليه وسلم كمثل مدير بريد تابع لوزير النقل ، رئيس الجمهورية غَيَّر الوزارة وجاء بوزارة جديدة ، فمدير النقل هذا يرفض أن يكون تابعاً للوزير الجديد ، ويصر على أن تكون علاقاته مع الوزير السابق ، ما معنى هذا ؟ هذا استعصاء على رئيس الجمهورية، هذه معصية كبيرة ، لم يعبأ بتشكيل الوزارة الجديدة ، ولا بهذا الوزير الجديد الذي اعتمده رئيس الجمهورية ، فلذلك كما أن هذا النبي الكريم معه التوراة ، وهذا النبي الكريم معه القرآن ، وكما أن هذا النبي الكريم معه معجزة ، وهذا النبي الكريم معه معجزة ، فلماذا آمنت بهذا الكتاب ولم تؤمن بهذا الكتاب والإله واحد ؟ فإذا قلتم :

(مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)

جيد ، أنتم أهل كتاب ، وأنزل عليكم التوراة ، فلماذا تؤمنون بالتوراة ولا تؤمنون بالقرآن ؟ من الإله الذي أنزل التوراة ؟!! أما المشركون عباد الأوثان أهل مكة فقالوا :

(لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ (157))

(سورة الأنعام الآية : 157)

إذاً أيها المشركون ، يا أهل مكة : أنتم تتمنون أن ينزل عليكم الكتاب لتكونوا أهدى من هؤلاء اليهود ، إذاً أنتم مؤمنون أن إلهاً عظيماً ينزل الكتب السماوية ، فلماذا ترفضون هذا الكتاب ؛ الحجة للمؤمنين ؟ لا يمكن أن يكون مع الشارد عن الله حجة ،

(قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ)

أحياناً أنت تقرأ نصّاً تهتدي إلى حل هذه المشكلة ، هذا هدى ، لكن أحياناً يلقي الله في قلبك نوراً يكشف لك الحقيقة ، فهناك هدى بياني ؛ كلام ، طريق السلامة ، طريق السعادة ، طريق السعادة الزوجية ، طريق النجاح في التجارة ، طريق السلامة العامة ، طريق العلاقات الاجتماعية الناجحة .

أخطر شيء في الدين القضية الانتقائية :

الله عز وجل في القرآن والسنة ، في القرآن كلامه ، وفي السنة بيان رسوله المعصوم ، بيَّن الهدى ، أما النور :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ((28))

(سورة الحديد الآية : 28)

وقال :

(قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ)

لا بد من شرح هذه الفكرة ، أحياناً دفتر مجلد بتجليد تقليدي ، الأوراق ثابتة فيه ، ثابتة ومسلسلة ، لكن أحياناً هناك دفاتر فيها نابض ، والأوراق تُضاف وتُحذف ، بإمكانك أن تحذف ورقة أو أن تضيف ورقة .

هؤلاء أهل الكتاب جعلوا كتابهم التوراة قراطيس ، يعني أوراقاً متحركة ، يخفون بعضها ، ويظهرون بعضها الآخر ، هذه قضية اسمها انتقائية ، وأخطر شيء في الدين القضية الانتقائية ، الذي يعجبك تأخذه ، والذي لا يعجبك لا تأخذه ، والحكم الذي يحقق مصالحك تؤمن به ، والحكم الذي لا يحقق مصالحك تنكره أو تخفيه ، إما أن تنكر ، أو أن تخفي ، أو أن تتناسى ، هناك لعب بالكتاب ، وقد يسأل سائل : كيف غيروا ، وطوروا ، وبدلوا ، وحذفوا ، وزورا ؟ نقول : الله عز وجل لم يحفظ التوراة والإنجيل حفظاً تكوينياً ، بل حفظه حفظاً تكليفياً ، نحن عندنا أمر تكليفي ، وعندنا أمر تكويني ، الأمر التكليفي كلام الله ، والأمر التكويني فعله ، الله عز وجل ينهانا عن شيء ومعظم الناس يفعلونه ، فهذا أمر تكليفي يُعصى ؛ تماماً كلوحة ممنوع المرور ، الطريق سالك ، لك أن تمشي في طريق منع المرور فيه ، هناك ثمن طبعاً ، مخالفة ، مبلغ تدفعه ، جزاء ، لكن لو أن هذا الطريق منع بطريقة تكوينية ، وضعت مكعبات من الإسمنت المسلح على عرض الطريق ، هذا فعل وليس أمراً .

الله عز وجل تولى حفظ القرآن بأمر تكويني لا بأمر تكليفي :

الله عز وجل حفظ الكتابين السابقين حفظاً تكليفياً ، والحفظ التكليفي يعصى ، لأن معجزة سيدنا موسى ليست متصلة بالتوراة ، ومعجزة سيدنا عيسى ليست متصلة بالإنجيل ، فالإنجيل كلام الله ، أمر الأنبياء بحفظه ، لكن أتباع الأنبياء لم يحفظوه ، قال تعالى :

(بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ((44))

(سورة المائدة الآية : 44)

بينما القرآن الكريم لأنه آخر الكتب ، ولأنه لكل الأمم والشعوب ، ولأنه رحمة للعالمين ، ولأنه لنهاية الدوران ، فلا بد من أن يتولى الله حفظه ، يتولى حفظه لا بأمر تكليفي بل بأمر تكويني ، هذه قضية

إيمانية ، هذا القرآن الذي بين أيديكم العناية الذي يتلقاها القرآن العقل لا يصدقها ، لماذا ؟ لا نعلم ، لأن الله حفظ هذا القرآن بأمر تكويني .

الذي بين أيديكم هو الكلام نفسه من دون زيادة ، بل إن هناك أبحاثاً كثيرة ترقى إلى مستوى الصحة في الإعجاز الرياضي ، لو أنك بدلت حرفاً مكان حرف لاختل نظام القرآن الرياضي ، حرف واحد ، في القرآن نظام رياضي مدهش ، لو بدلت حرفاً واحداً ، ذلك لأن الله تولى حفظ القرآن بأمر تكويني ، لا بأمر تكليفي ، لأن المعجزة متصلة بالكتاب ، المعجزة في القرآن علمية عقلية ، فإذا لم يحفظ ضاع ، وهذا دليل على أن هذا القرآن كلام الله ، لكن أهل الكتاب جعلوه قراطيس ، يبدون شيئاً منها ويخفون أشياء كثيرة .

(تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام بيَّن كثيراً مما أخفاه اليهود ، معنى ذلك القرآن الذي جاء به من عند الله هم أخفوا كثيراً ، وجعلوه قراطيس ، أبدوا ما راق لهم وأخفوا ما لا يروق لهم ، فجاء النبي فضحهم ، لذلك:

(وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ)

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ (44))

(سورة آل عمران الآية : 44)

جاء القرآن بقصص وقعت قبل آلاف السنين ، وهي مطابقة لما في كتبهم ، وقد أخفوا بعض الآيات عن المسلمين ، وجاء القرآن وأظهر هذه الحقائق التي أخفاها أهل الكتاب إذاً :

(وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ)

معنى اللعب :

في النهاية أنت إذا دخلت في حوار مع إنسان ، أو في جدال مع إنسان ، وتعنت ، وركب رأسه ، ولم يستجب ، ولم يقبل ، ولم يؤمن ، ولم يصدق تقول له الله عز وجل يقول :

(قُلِ اللَّهُ)

هو يعلم كل شيء ، وهناك من يقول : الحمد لله على وجود الله ،

(قُلِ اللَّهُ)

هو الذي يعلم ، وهو الذي يرى ، وهو الذي سيحاسب ، وهو الذي سيفصل بين خلقه يوم القيامة .

(اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (17))

(سورة الحج الآية : 17)

(قُلِ اللَّهُ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ كن معتصماً بالله ، كن مصدقاً لكلام الله ، كن متوكلاً على الله ، لا تعبأ بهم ، لا تهتم لهم ، لا تحذر منهم ،

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

ما معنى خوض ؟

أحياناً يركب الإنسان مركبة في أيام الشتاء ، يقطع شارعاً كبيراً مغطى بالماء ، يمشي بقلق شديد ، لماذا ؟ الماء غطى طبيعة الأرض ، لعل تحت الماء حفرة كبيرة وقع في مطب كبير ، هناك مجهول ، فالذي يخوض في الماء لا يعلم أين القعر ولا يعلم ما في القعر ؟ لعل في القعر صخرة ، لعل في القعر حفرة ، لعل في القعر مثلاً تمساحاً .

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

هم يلعبون ولا يبحثون عن الحقيقة ، الدنيا عندهم :

(لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ (20))

(سورة الحديد الآية : 20)

اللعب العمل العابث ، اللعب العمل الذي لا جدوى منه ، اللعب العمل الذي ليس له أثر مستقبلي ، فلذلك اللعب لا يمكن أن يقف في وجه الوحي ، هذا وحي السماء ،

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

كما قلت : هناك أعمال جادة لها أثر مستقبلي ، هذه تفضي إلى الجنة ، وهناك أعمال عابثة .

خُلق الكون لإسعاد البشر في الدنيا والآخرة :

الله عز وجل :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ (115))

(سورة المؤمنين الآية : 115)

وقال :

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

هم يلعبون ويظنون أن هذا الكون خلق عبثاً ، أو خلق بالباطل ، خلق بالحق لهدف عظيم ، وخلق لإسعاد البشر في الدنيا والآخرة ،

(قُلِ اللَّهُ)

بيده كل شيء وهو :

(أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45))

(سورة هود)

هو يفصل بيننا ، وإذا كنت معه لا تخاف

(ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92))

لن نتحد ولن نتوافق إلا إذا كنا على الحق جميعاً :

أخواننا الكرام ، مثل دقيق جداً أتمنى أن يكون واضحاً عندكم : دائرة لها مركز ، ومن هذا المركز تخرج خطوط كثيرة جداً إلى المحيط ، الخطوط كالأشعة ، فإذا كان أحدنا على أحد هذه الخطوط ، كلما اقترب من المركز ضاقت المسافة بينه وبين الخط الآخر ، كلما ازداد قرباً من المركز المسافة قلت ، لأنه من هذا المركز تنطلق خطوط نحو المحيط ، الخطوط بهذا الشكل ، هنا المركز ، والخطوط تنطلق من هنا ، فكلما ابتعدت عن المركز كانت المسافة أكبر ، وكلما اقتربت من المركز قلّت المسافة ، فإذا وصلت إلى المركز انعدمت المسافة .

نحن لا نتّحد ، ولا نتوافق ، ولا يصدق بعضنا بعضاً إلا إذا كنا جميعاً في مركز الدائرة ، أما إذا كنا على خطوط كلما قلّت المسافة بينك وبين المركز قلّت بينك وبين الخط الآخر ، فنحن متى نتعاون ؟ متى نتحد ؟ إذا كنا على الحق جميعاً ، لذلك قال تعالى :

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (14))

(سورة المائدة)

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ)

فيه الخير الكثير ،

(مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)

يصدق ما في التوراة والإنجيل ، لأن المصدر واحد ، من عند الله ، لأن هذه الكتب الثلاثة من مشكاة واحدة ، من عند الله ،

(وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)

أم القرى مكة ، ومن حولها

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ)

الذي يسعى إلى الآخرة يؤمن بهذا الكتاب ، أما الذي يسعى إلى الدنيا فالقضية دقيقة جداً ، الإنسان أحياناً يكون على كتاب نسخ بكتاب جديد ، لكن مصالحه مع الكتاب السابق ، لو أنه دخل في هذا الدين تعطلت مصالحه التي كانت بها ، فلذلك إن آمنت بالآخرة تؤمن بالقرآن ، أما إن آمنت بمصالحك في الدنيا طبعاً لا تؤمن ، وهذه مشكلة المشكلات .

أحياناً يكون الإنسان متمكناً ، وقد حصل على مكتسبات كثيرة من كتاب نسخ من كتاب جديد ، فعدم إيمانه بالكتاب الجديد لا لأنه ليس قانعاً به ولكن لأنه يحافظ على مكاسبه ، آمن بالدنيا محافظ على مكاسبه ، ولو آمن بالآخرة لآمن بالكتاب الجديد ،

(وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(32-73): تفسير الآية 92 ، القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-08-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثاني والثلاثين من دروس سورة الأنعام .

القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه :

مع الآية الثانية والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92))

أيها الأخوة ، كما يقولون : الشيء بالشيء يذكر ، الآية الأولى من سورة البقرة :

(الم (1)ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

(سورة البقرة)

مطلع سورة البقرة أي كلمة يمكن أن تقف عليها :

(ذَلِكَ الْكِتَابُ)

يعني إذا كان في الأرض كلها كتاب واحد فيه مبادئ سلامتنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة فهو القرآن الكريم ،

(ذَلِكَ الْكِتَابُ)

إن قلت :

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ)

حقاً هو الكتاب الذي فيه مبادئ سلامتنا وسعادتنا ، إن قلت :

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)

أيضاً يصح أن نقف عند كلمة فيه ، أيضاً إذا قلت :

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى)

أيضاً يصح أن نقف عند هذه الكلمة .

أما الآية اليوم :

(وَهَذَا كِتَابٌ)

هذا الذي بين يديكم ، هذا القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ، وسوف أوضح في هذا الدرس إن شاء الله بعضاً من عجائبه .

نزول القرآن الكريم دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا :

أولاً :

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ)

قال علماء العقيدة : إن القرآن الكريم أنزل دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا .

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1))

(سورة القدر)

أما إذا قلت :

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193))

(سورة الشعراء)

عندئذٍ نزل منجماً ، آيةً آية ، مجموعة آيات مع بعضها في مناسبة معينة في ثلاث وعشرين سنة ، إذاً الفرق بين أنزلناه وبين نزل فرق كبير ، أنزلناه بهمزة التعلية ، أي أن الله عز وجل أنزل هذا القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا مرة واحدة ، في ليلة واحدة ، في ليلة مباركة ،

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

أما أن ينزلَ نزلَ ينزلُ القرآن تباعاً منجماً بحسب المناسبات ، نزل في ثلاثة وعشرين عاماً بحسب المناسبات ، وهناك حديث طويل حول حكمة أنه نزل منجماً .

أيها الأخوة ، أما معنى مبارك قد تقول أنت : بارك الله في الطعام ، أي طعام قليل أكله عدد كبير ، وشبعوا ، دخل قليل ، بارك الله به ، انتفعت به انتفاعاً كثيراً ، إذاً بارك الله لك في مالك ، وقد يكون قليلاً تنتفع به كثيراً ، وإذا بارك الله لك في صحتك تنتفع بها كثيراً ، وإذا بارك الله لك في زوجتك تنتفع بها كثيراً ، وإذا بارك الله في أولادك تنتفع بهم كثيراً ، الشيء المبارك هو شيء قليل تنتفع به كثيراً ، هذا تقريب ، كتاب مبارك ، ماذا أقول لكم ؟ الكتب التي في الأرض لا تعد ولا تحصى ، أحياناً تمسك بكتاب علمي في آخر الكتاب ثلاث وثمانون صفحة ، مراجع ومصادر في موضوع واحد ، عدد الكتب التي على سطح الأرض يكاد العقل لا يصدقه ، بعض الإحصاءات في اليوم الواحد يطبع من الكتب ما لا تستطيع أن تقرأه في مئتي عام .

القرآن لكل زمان ومكان وكل حرف فيه يُعدُّ قانوناً :

الله عز وجل قال :

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ)

فيه كل مبادئ سلامتنا ، فيه كل مبادئ سعادتنا ، فيه سلامتنا وسعادتنا في الدنيا ، وفيه فوزنا يوم القيامة ، وفي الجنة إن شاء الله ، فيه قصص الأقوام السابقة ، فيه مشاهد من يوم القيامة ، فيه أمر وفيه نهي ، فيه آيات كونية ، مع أنه كتاب لا يزيد على ستمئة صفحة ، فيه كل الخير ، والذين عكفوا على تفسير هذا القرآن ألّفوا ملايين الصفحات ، ولا تنقضي عجائبه حتى الآن ، وهناك بعض التفاصيل : لو قرأت كتاباً أُلّف قبل ألف عام لا يمكن أن تحتمل الأخطاء العلمية التي فيه ، بعد ألف عام تستصغر المؤلف والكتاب ، أما كتاب ينزله الله قبل ألف وأربعمئة عام ، وقفز العلم قفزة خيالية في الخمسين عاماً الأخيرة ، تطور العلوم من آدم إلى ما قبل خمسين عاماً من كفة ، ومن خمسين عام إلى الآن التطور في كفة ثانية ، ومع ذلك لم يظهر في هذا التطور العملاق في العلوم ، في الفلك ، في الرياضيات ، في الطب ، في الهندسة ، في علم الأجنة ، في التاريخ ، في الجغرافيا ، مع هذا التطور المذهل الذي يعد انفجاراً في المعلومات ، نحن في ثورة المعلومات ، نحن في ثورة الاتصالات ، يعبرون عن التطور السريع بالانفجار ، مع انفجار البحوث العلمية والمكتشفات ، في شتى العلوم والفنون والآداب ، لا تجد في هذا القرآن كلمة واحدة ينفيها العلم الآن .

إذاً معنى :

(مُبَارَكٌ)

أن الخير الذي يأتيك منه في صحتك ، في زواجك ، في تربية أولادك ، في عملك ، في سمعتك ، في مكانتك ، في سلامتك ، في سعادتك ، في معرفة سر خلقك ، في معرفة ماذا بعد الموت ؟ وأين كنت قبل الموت ؟ ولماذا أتى الله بك إلى الدنيا ؟ كم من الحقائق تسعدك وتطمئنك ؟ ونجعلك تضع يدك على سر الوجود وغاية الوجود ، هذا المعنى الأول مبارك ، أي صفحات قليلة فيها خير كثير .

صدقوا أيها الأخوة ، أحياناً تقرأ قصة ، هناك قصة مشهورة حجمها ثمانمئة صفحة تقرأها ، حوادث ، وتحليل ، وعقدة ، وحل ، كلها تلخص في كلمة واحدة ، الإنسان أقوى من أي عقبة توضع أمامه ، أما أن تقرأ الحرف الواحد في القرآن يعد قانوناً الحرف الواحد ، الله عز وجل يبين أن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين .

القرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية لذلك ينبغي أن يغطي كل الحالات البشرية :

أول شيء الأداء المبارك ، أن هذا الكتاب ينفعنا في دنيانا ، وفي أخرانا ، وفي نفوسنا ، وفي أجسامنا ، وفي علاقاتنا ، وفي كل شؤون حياتنا ، المعنى الآخر أن هذا القرآن جاء في عصر محدود جداً ، والمعلومات قليلة جداً ، والحياة بسيطة جداً ، ولكنه استمر إلى أعقد العصور في تاريخ البشرية ، ومع ذلك استمر بقوة ، استمر بجدة ، ما سر ذلك ؟

الحقيقة هناك شيء دقيق جداً من هذه الأشياء الدقيقة أن القرآن فيه ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون، لماذا امتنع النبي عن تفسيرها ؟ ولا حديث يشرح آية كونية ، مع أنه في أي موضوع عبادي أكثر من مئتين في البيوع ، في الموضوعات التشريعية مئات الأحاديث ، من ألهم النبي ذلك ؟ ذلك لأن الله لو سمح للنبي أن يفسر هذا القرآن تفسيراً بسيطاً لطيفاً مألوفاً يستوعبه أصحابه في عصر بسيط جداً من حيث المعلومات لأنكرنا عليه كل هذه التفسيرات ، ولشككنا في نبوته ، ولو أنه فسره تفسيراً عميقاً يتناسب مع أحدث البحوث العلمية الآن لأنكر عليه أصحابه ، فكيف يمكن لكتاب ينزل في عصر ، ويستمر تأثيره إلى عصور متقدمة جداً دون أن تجد خلل في كلمة واحدة .

إذاً معنى :

(مُبَارَكٌ)

المعنى الأول أنه يشمل كل شؤون حياتك ، بدءاً من عقيدتك وانتهاء ببعض التوجيهات في طعامك ، كلوا من ثمره إذا أينع ، فيه تحذير من أن تأكل الثمرة قبل أن تنضج ، بدءاً من عقيدتك إلى توجيهات في شؤون طعامك ، هذا الكتاب المعجز أيها الأخوة هو الذي يستمر بك إلى ما شاء الله .

بالمناسبة ، يتميز هذا الكتاب عن بقية الكتب السماوية ، أن الكتب السماوية إنما أُنزلت لأقوام محدودين، الإنجيل جاء به السيد المسيح ، والتوراة جاء بها سيدنا موسى ، أما القرآن فهو لكل الشعوب ، ولكل الملل والنحل ، ولكل البشر ، إلى نهاية الحياة ، هذا آخر الكتب ، كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، كذلك هذا الكتاب القرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية ، إذاً ينبغي أن يغطي كل الحالات البشرية . مثلاً في القرآن الكريم :

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (28))

(سورة الشعراء الآية : 28)

واضحة ، تأتي آية :

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17))

(سورة الرحمن)

الله عز وجل أحياناً يخاطب الأقوام بأسلوب تحتمله عقولهم :

الآن هناك مشرق واحد ، صار هناك مشرقان ، تأتي آية :

(بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (40))

(سورة المعارج الآية : 40)

هناك معبد في مصر بناه الفراعنة فيه ثلاثمئة وخمس وستون نافذة ، وكل يوم تدخل الشمس من واحدة من هذه النوافذ ، الله عز وجل حينما أهلك بعض الأقوام ذكرهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة ، كل يوم تدخل الشمس إلى هذا المعبد من نافذة واحدة ، زوايا هذه النافذة تتناسب مع أحد أيام السنة ، الشمس في يوم من الأيام لها زاوية شروق ، في اليوم التالي تنتقل هذه الزاوية ، وهكذا .

إذاً :

(رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)

هذه آية ، أي كل يوم في مشرق ،

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ)

هناك أقصى مشرق وأقصى مغرب ، لو أن إنساناً له بيت مرتفع في جهة الشرق يرى بشكل واضح أن الشمس تشرق في الصيف من القسم الجنوبي ، وفي الشتاء من القسم الشمالي ، أو بالعكس ، في الشتاء من القسم الجنوبي ، وفي الصيف من الجهة الشمالية.

إشارات إلى قضايا علمية الآن عُرفت ، أحياناً يخاطب الله الأقوام بأسلوب تحتمله عقولهم ، هناك الآن من يزعم أن الأرض مسطحة ، مع أن الأرض التقطت صورها من القمر كرة ، الآن هناك من يزعم أن الأرض مسطحة ، فكيف إذا قال الله للبشر قبل ألف وأربعمئة عام الأرض كرة ، الآية الثالثة الأرض كرة يكذبون هذا القرآن كله ، لكن :

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (88))

(سورة النمل الآية : 88)

الأرض إذاً تنطلق بدورة حول الشمس .

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ (5))

(سورة الزمر الآية : 5)

لا يتداخل الضوء مع الظلام في شكل هندسي إلا الكرة ، المكعب تداخل ما في الضوء يظهر إذا دار المكعب ، وفي جانبه منبع ضوئي الضوء يظهر فجأة ، ويختفي فجأة ، أما الكرة يتداخل ضوء المنبع الضوئي مع الظلام تداخل عجيب ، تماماً إذا غابت الشمس يتداخل الضياء مع الظلام إلى أن يأتي وقت العشاء فيغيب الشفق الأحمر .

بعد تقدم العلم اكتُشفت حقائق كانت مخبوءة في بعض الآيات :

إذاً الله عز وجل ذكر الأشياء العلمية بطريقة تحتمله العقول ، لكن بعد حين يتقدم العلم فيكشف حقيقة كانت مخبوءة في بعض الآيات تتضح للعيان ، هذا المعنى الجديد المخبوء لا يلغي المعنى الأول ، الأول مقبول كيف ؟ الله عز وجل قال :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

(سورة الطارق)

المعنى البسيط أن هذا الماء الذي في البحار يتبخر ، ويصعد إلى السماء فيرجع أمطاراً واضحة ، يتقدم العلم ويكتشفون أن طبقة اسمها طبقة الأثير كل الأمواج الكهرطيسية المنطلقة إلى الفضاء الخارجي ترتد إلى الأرض من خلال هذه الطبقة ، ولولا هذه الطبقة لما كان هناك إرسال إذاعي إطلاقاً ، ولا لاسلكي ، ولا تلفزيوني ، بفضل هذه الطبقة تنطلق هذه الموجات الكهرطيسية إلى الفضاء الخارجي ثم ترتد إلى الأرض ، إذاً المعنى الآخر :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

ثم يكتشف علماء الفلك أن كل نجم في الكون يدور في مسار مغلق حول نجم آخر ، بمعنى أنه يرجع إلى مكان انطلاقه النسبي ، وكلما تقدم العلم ظهر معنىً جديد لا يلغي المعنى السابق ، من يستطيع أن يصيغ الحقيقة صياغة يفهمها كل عصر بحسب معطياته ، فإذا جاء عصر آخر وتقدم العلم كشف عن معنىً جديد لهذه الآية دون أن يلغي المعنى الأول ، شيء لا يصدق .

إذاً الله عز وجل حينما يخاطب الناس بهذا القرآن الكريم يخاطبهم بطريقة تحتملها عقولهم ، فإذا تقدم العلم كشف معنىً في القرآن مخبوءاً فيه تبدى وقت التقدم العلمي .

أمثلة عن إعجاز الله في الكون كما ورد في بعض الآيات القرآنية :

جميعنا نقرأ الآيات :

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

الآن العلم كشف أن الذي يحدد نوع الجنين ليست البويضة لكنها النطفة ، هناك كروموزوم X أو Y ، أحدهما يحدد نوع الجنين ، الله عز وجل قال :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(سورة الرحمن)

في أثناء صعودهم إلى الفضاء وتصوير البحار وجدوا أن هناك خطاً كل بحرين ، هو خط تمايز لونين، فانتبهوا لهذه الظاهرة ، علماء البحار بحثوا عنها فاكتشفوا في النهاية أن لكل بحر تركيباً وخصائص يتميز بها ، ولا يمكن أن تتداخل مياه البحار فيما بينها ،

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)

مياه البحر الأحمر لها كثافة ، ولها ملوحة ، ولها خصائص ، ولها مكونات ، مع أن البحر الأحمر موصول بالمتوسط ، موصول بالبحر العربي ،

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

عندنا في الأرض مكان فيه أشعة شمس ومكان فيه ضوء ، ضوء وليس أشعة ، السبب أن أشعة الشمس عندما تسلط على ذرات الهواء ذرات الهواء تعكس هذه الأشعة بكل الاتجاهات فتجد في الأرض الضوء لكن ليس هناك شمس .

البيت الشمالي فرضاً فيه ضوء ، ترى الأشياء في البيت بوضوح لكن ليس فيه أشعة شمس ، هذا اسمه انتثار الضوء . لكن لو صعدت في الفضاء الخارجي ووصلت إلى طبقة انعدام الهواء طبقة الهواء سماكتها خمس وستون ألف كم ، بعد هذه المسافة يقول رائد الفضاء : لقد أصبحنا عمياناً لا نرى شيئاً ، أما أن تأتي آية قبل ألف وأربعمئة عام يقول الله عز وجل :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15))

(سورة الحجر)

فكيف هذا القرآن الكريم :

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ)

بكل معاني البركة ، مبارك في أنه يعطيك عطاءات ملايين الصفحات مع أنه بحجم محدود ، مبارك بما أنه يمتد أثره إلى كل العصور .

كلما تقدم العلم اقترب من حقائق القرآن الكريم :

أخواننا الكرام ، عندنا نعمة كبيرة ينعم بها المسلمون ، أنه لا يمكن أي يظهر حدث أو اكتشاف أو شيء ينقض ما في القرآن الكريم ، بالعكس كلما تقدم العلم اقترب من حقائق القرآن الكريم ، وأنا أحذر من أن تثني على القرآن إذا وافق العلم ، بل أؤكد ينبغي أن تثني على العلم إذا وافق القرآن ، إن الأصل هو القرآن ، فكلما اقترب العلم من حقائق القرآن يكون قد اقترب من الحقيقة المطلقة التي جاءت في القرآن الكريم ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام يصف هذا القرآن الكريم أنه لا تنقضي عجائبه .

(مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (31))

(سورة فاطر الآية : 31)

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)

بين يديه التوراة والإنجيل ، والقرآن الكريم يصدق ما في التوراة وما في الإنجيل ، والذين يعلمون حقيقة الإنجيل والقرآن يرون أن هذه الكتب الثلاث تنطلق من مشكاة واحدة .

(وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)

بعضهم يقول : هذا كتاب للعرب وحدهم والدليل هذه الآية ، من قال لك ذلك ؟ ما معنى :

(وَمَنْ حَوْلَهَا)

الآن النقطة ما هو الذي حولها ؟ حولها دائرة ، هذه الدائرة تتسع ، وتتسع ، وتتسع حتى تشمل أهل الأرض ، كما قال الله عز وجل في آية أخرى :

(قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ (123))

(سورة التوبة الآية : 123)

الجهاد لا يقف ، كلما فتحت بلداً بقي عليك أن تفتح البلد الذي يليه ، معنى ذلك أن الجهاد لا يقف إلى يوم القيامة حتى يعم الحق الأرض كلها .

مكة المكرمة تعد الوسط الهندسي للقارات :

الشيء الغريب أنه في مصر في مركز بحوث علمية تابع لجامعة القاهرة اكتُشِف أن مكة المكرمة مركز الأرض ، الوسط الهندسي للأرض . مثلاً لو جئت بمربع ووصلت خطاً بين زاويتيه وخط آخر بين زاويتيه الأخريين يتقاطع الخطان في نقطة ، هذه النقطة اسمها الوسط الهندسي لهذا المربع ، وقد يكون الحجم مكعباً ، لو أخذت النقاط الثمانية ووصلت بينها بخطوط تتقاطع هذه الخطوط في نقطة في مركز هذا المكعب ، هذه النقطة نقول : هي الوسط الهندسي للمكعب ، اكتشف أن مكة المكرمة تقع في الوسط الهندسي للأرض ، الدليل : نحن عندنا عالم قديم وعالم جديد ، العالم القديم عدا أمريكا ، أوروبا ، وإفريقيا ، آسيا ، أستراليا ، هذه القارات الأربع لو أخذنا أبعد نقطة فيها من كل الاتجاهات ، ثم وصلنا أقطاراً من كل نقطتين متقابلتين متباعدتين هذه الأقطار تتقاطع في مكة المكرمة ، مكة المكرمة تبعد عن أي نقطة نائية في القارات الأربع ثمانية آلاف وخمسمئة كم ، لو ضممت العالم الجديد إلى القارات الخمس ضممت أمريكا ، تصبح مكة المكرمة وسط هندسي للعالم كله ، وتبعد عن أي نقطة في العالمين ثلاثة عشر ألفاً وخمسمئة كم ، يعني أم القرى حقيقة هي في الوسط الهندسي للأرض ، والشيء اللطيف أنه لا يقابلها في الطرف الآخر مدينة يقابلها المحيط الهادي ، مدينة واحدة هي مكة المكرمة تعد الوسط

الهندسي للقارات الخمس ، أو للقارات الأربع ، لذلك قال تعالى :

(وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)

من حولها كقوله تعالى :

(قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ)

هذه الدوائر تتسع ، وتتسع ، وتتسع ، في عهد النبوة مكة المكرمة اتسعت إلى أن وصلت إلى الشام ، وإلى المغرب ، وإلى الصين ، ولا يزال الحق يتسع ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام دققوا في هذا الحديث قال :

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

[رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد عن تميم الداري]

أي مكان في الأرض فيه ليل ونهار الحق سيصل إليه ، وأنا سافرت إلى أقصى مدينة في العالم ، في أستراليا المدينة التي تقع في أقصى الجنوب ؛ ملبورن ، وفيها إذاعة إسلامية ، والدروس ، والقرآن ، والشرح ، والتفسير ، والأناشيد ، سبحانك يا رب ،

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

معنى ذلك :

(وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)

ولو ذهبت إلى أقاصي بلاد الغرب ؛ لوس أنجلوس يعقد فيها كل عام مؤتمر إسلامي كبير يضم عشرات الألوف ، يحجز فندق بكل طوابقه الثلاثين لاستقبال زوار هذا المؤتمر من شتى بقاع أمريكا ، وتلقى فيه المحاضرات لأربعة أيام في عيد الشكر عندهم ،

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

(وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ)

الإيمان باليوم الآخر وحده هو الذي يحملك على أن تستقيم :

أيها الأخوة ، هناك ملاحظة ذكرتها في الخطبة اليوم ، هناك من يقول : ما الباعث على أن يأتمر الإنسان لبعض الأوامر ، ما الباعث على أن يلتزم الإنسان ببعض القيم؟ الصدق قيمة ، والأمانة قيمة ، والعفة قيمة ، والورع قيمة ، والعدل قيمة ، والعفو قيمة ، والحلم قيمة ما الذي يدفعك على أن تكون عادلاً ومنصفاً ؟ ما الذي يدفعك إلى أن ترحم من حولك ؟ الحقيقة هناك نظريات ، بعضهم يقول : العقل، الذين يخترعون الأسلحة الفتاكة في العالم ، والتي تبيد الجنس البشري هم أذكياء جداً وعقلاء ، لكن بالمناسبة ما كل ذكي بعاقل ، الذكي ما تفوق بما هو فيه ، في اختصاصه فقط ، أما إذا غفل عن

سر وجوده وغاية وجوده ولم يتعرف إلى ربه فهو مجنون ، مع أنه ذكي ، من هو العاقل ؟ الذي عرف الله ، العاقل الذي عرف سر وجوده ، عرف غاية وجوده ، العاقل الذي ائتمر بالأمر ، وانتهى عما نهى الله عنه ، العاقل الذي اتصل بالله عز وجل ، العاقل هو الذي عمل للآخرة ، إذاً :

(وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

إذاً العقل لا يكفي ، الآن الضمير ، أخي ، عنده ضمير حي ، الضمير الحي أحياناً ينهار أمام إغراء كبير ، أو أمام ضغط كبير ، كما ترون وتسمعون ، تجد شخصاً في أعلى درجة من الفهم والوعي يقول لك : عنده ضمير مسلكي ، بعد هذا وجد أنه مختلس مبالغ فلكية ، أين ضميره المسلكي الذي تحدثنا عنه؟ لا يكفي الضمير ، ولا يكفي العقل ، وهناك مبادئ كثيرة جداً ، أنا الذي أراه وأثق بصوابه معتمداً على ما في القرآن الكريم الإيمان باليوم الآخر وحده هو الذي يحملك على أن تستقيم .

قال له : بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب ، قال : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق وأمين ، ولكن أين الله ؟

الباعث الوحيد على أن تستقيم أن تؤمن أن الله سيسألك يوم القيامة عن كل شيء :

أنت لا تستطيع أن تستقيم على أمر الله إلا إذا خفت من يوم الحساب ، لو أن واحداً ذهب إلى مدينة مجاورة ، وفي نيته أن يشتري أغراضاً كثيرة لبيته ، في طريق الذهاب وجد تفتيشاً يفوق حد الخيال ، لا يسمح ولا بدواء ، كل ما في جيوبه يضعه على الطاولة ، كل حقائبه تفتش حاجة حاجة ، وأكمل إلى المدينة ، فوجد غسالة صغيرة ، يقول لك : لن تعبر هذه ، كلما اشتهى أن يشتري شيئاً يرى المنظر الذي رآه في الذهاب ، يقول : هذه لن تعبر معي ، هذا حال المؤمن ، قبل أن يقول كلمة ، قبل أن ينبس ببنت شفة ، قبل أن يعطي ، قبل أن يمنع ، قبل أن يغضب ، قبل أن يرضى ، قبل أن يصل ، قبل أن يقطع ، يحاول أن يجيب ربه عن سؤال لماذا فعلت كذا ؟

أيها الأخوة ، مرة ثانية : الباعث الوحيد على أن تستقيم ـ وهذا كلام واضح كالشمس ـ أن تؤمن أن الله سيسألك يوم القيامة عن كل شيء .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

وقال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

سوف تُسأل عن كل شيء من دون استثناء ، لذلك الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح .

آيات العفو والمغفرة :

إياك أن تستجيب لمن يقول لك الله غفور رحيم ، اقرأ القرآن في ثماني آيات :

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ((119)

(سورة النحل)

لذلك :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ((49))

(سورة الحجر)

وقال :

(لِمَنْ تَابَ ((82))

(سورة طه الآية : 83)

وقال :

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ((50))

(سورة الحجر)

وقال :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55)أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56))

(سورة الزمر)

كل آيات المغفرة والعفو تعني الذي تاب قبل أن يموت ، أما الذي لم يتب فحالته صعبة جداً .

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ((27))

(سورة الإنسان)

الإنسان يجب ألا يفهم القرآن على غير ما أراد الله عز وجل .

الصلاة هي الركن الوحيد من أركان الإسلام الذي لا يسقط بأي حال :

إذاً :

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

أخواننا الكرام ، أركان الإسلام خمسة ، النطق بشهادة لا إله إلا الله ، وهذه ينطق بها مرة واحدة في العمر ، والصيام يسقط على المسافر والمريض ، والحج يسقط على المريض والفقير ، والزكاة تسقط عن الفقير ، ماذا بقي من أركان الإسلام كفرض متكرر لا يسقط بحال ؟ هو الصلاة .

أخواننا الكرام ، قال بعض العلماء : في الصلاة جانب من النطق بالشهادة ، أنت في القعود الأوسط والأخير تقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وفي الصلاة جانب من الحج ، لأنك تتجه في صلاتك إلى بيت الحرام ، وفي الصلاة جانب من الصيام ، لأنك في الصلاة فضلاً عن أنك تمتنع عن الطعام والشراب ، تمتنع عن الكلام والحركة في غير موضوع الصلاة ، وفي الصلاة جانب من الزكاة ، لأن الوقت أصل في كسب المال ، عندك محل تبيع مثلاً المرطبات في الصيف ، وعليه إقبال شديد ، فإذا أردت أن تصلي في المسجد ينبغي أن تغلق هذا المحل ، إذاً فاتك ربح كثير في وقت الصلاة، فلذلك الوقت أصل في كسب المال ، فأنت حينما تقتطع من وقتك وقتاً لأداء الصلوات كأنك تنفق المال الذي يمكن أن يحصله من وقت الصلاة ، إذاً في الصلاة معنى الزكاة ، وفي الصلاة معنى الحج ، وفي الصلاة معنى الصيام ، وفي الصلاة معنى النطق بالشهادة ، وفي الصلاة معنى الاتصال بالله عز وجل ، إذاً هو الفرض الوحيد الذي لا يسقط بحال .

حينما تؤمن أنه لا بدّ من أن تحاسب حتماً تستقيم :

لذلك :

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ)

هناك أوامر ، وهناك نواهٍ ، فإذا لم يؤمن الواحد بالآخرة حقيقة لا يعبأ بهذه الأوامر ، والدليل :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6))

(سورة الليل)

صدق أنه مخلوق للجنة ، تصديقه هذا حمله على أن يتقي أن يعصي الله ، وحمله على أن يعمل الصالحات تقرباً إلى الله ،

(أَعْطَى)

عملاً صالحاً ،

(وَاتَّقَى)

أن يعصي الله ، لأنه صدق بالحسنى ، هذا الإنسان :

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل)

ييسر إلى ما خُلق له من سلامته في الدنيا وسعادته في الآخرة .

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9))

(سورة الليل)

إذا كذب إنسان بالآخرة فعلاً فما مِن داع ليستقيم ، الآن عملياً دعك من أقوال الناس ، أقوال الناس لا تقدم ولا تؤخر ، يقول لك : أعوذ بالله ، أنا أؤمن بالآخرة ، لماذا تكسب المال الحرام ؟ لماذا تفعل المعاصي والآثام ؟ المؤمن بالآخرة لا يعصي الله ، فأنت حينما تؤمن أنه لا بد من أن تحاسب حتماً تستقيم ، لذلك قال تعالى :

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

هنا معنى يؤمنون به ، يؤمنون بالأمر والنهي ، يأخذون بالأمر ، ويدعون ما نهى الله عنه .

أنت عندما تكون راكباً مركبة ، والإشارة حمراء ، وشرطي واقف إلى جانب الإشارة ، وشرطي آخر على دراجة ، وضابط بسيارة ، أنت مواطن من الدرجة الخامسة ليس لك أي قوة ، ماذا تفعل ؟ ما في مئة مليون إنسان بهذه الصفة في الإشارة الحمراء ، وهناك من يضبطك بمخالفة ولا يرحمك ، وأنت لا تقوى على أن ترد هذه المخالفة ، فأنت إن آمنت بالآخرة لا يمكن أن تعصي الله ، والدليل أن الله عز وجل قال :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

اختار الله من بين أسمائه اسمين فقط ، اختار اسم القدير واسم العليم ، لأنك حينما تعلم أن الله يعلم وسيحاسب وسيعاقب لا يمكن أن تعصيه ، وأنت حينما تعلم أن هذا الشرطي سوف يكتب ضبط ، وسوف تسحب منك الإجازة ، وقد تدفع مبلغاً كبيراً وقد تحجز المركبة ، وأنك ضعيف لا تقوى على فعل شيء ، حينما تعلم أن علم الله يطولك ، وأن قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه .

الحياة لا تصح إلا بالإيمان بالله :

أنا أؤمن ، أؤمن لا بعقل ، ولا بمنطق ، ولا بتربية بيتية ، ولا بضمير حي ، ولا بضمير مسلكي ، ولا بأي شيء آخر ، ليس إلا أن تخاف من الله ، آتي لك بمثل بسيط : لو أن الصيام بأمر من دولة ، فأعطت أمر بالصيام ، كم من إنسان يصوم حقيقة ؟ ولا واحد ، يدخل إلى البيت ويشرب .

الحياة لا تصح إلا بالإيمان بالله ، تجد المؤمن ، قال له : بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها : ماتت ، قال له : ليست لي ، قال له : خذ ثمنها، قال : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق وأمين ، ولكن أين الله ؟ أما أن يأتي إنسان ، ويضع قانون السرعة مئة ، مئة ميل بأمريكا ، ركبت سيارة وجدت فيها صوت جرس ، قلت له : ما هذا الصوت ؟ قال لي : رادارات تكشف السرعة الزائدة ، أنا اشتريت جهازاً يحذرني من الرادار قبل خمسة كيلومترات ، تكون سرعته مئة وثمانين تنزل للمئة ، معنى ذلك أن واضع القانون ذكي ، والمواطن أذكى .

الآن الدول تخترع جهازاً يكشف أجهزة السيارات ، هذه قضية لا تنتهي ، هي حرب بين عقلين ، لأن المشرع أرضي ، ما دام التشريع أرضيّاً فهكذا الأمر ، والله قصص التحايل على القوانين شيء لا تنتهي ، لأن المشرع إنسان والمواطن إنسان ، هذا عاقل وهذا عاقل ، هذا ذكي وهذا أذكى ، فيمكن أن تفرغ كل القوانين من مضمونها ، أما إذا كان التشريع سماويّاً الله معك لا تستطيع ، ولكن أين الله ؟ أنا أرى أنه لا تستقيم الحياة إلا بالإيمان بالله ، ولا أقبل أي تعليل للانضباط إلا أن يكون التعليل أن تؤمن باليوم الآخر الآية الكريمة :

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(33-73): تفسير الآيتان 93-94 ، الإيجاز الغني لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-08-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة الأنعام .

الإنشاء والخبر :

مع الآية الثالثة والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93))

أيها الأخوة الكرام ، بادئ ذي بدء ، قال علماء البلاغة : الكلام العربي خبر وإنشاء ، الخبر هو الكلام الذي يصح أن تقول لقائله : صادق أو كاذب ، يقول لك : سافر أخي ، إن سافر أخوه فهو صادق وإن لم يسافر فهو كاذب ، أما حينما أسألك : ما اسمك ؟ لا يصح أن تقول لي : صادق أو كاذب ، أنا أسألك ، فالسؤال ، والاستفهام ، والنداء ، والتمني ، والترجي ، والتعجب ، هذه كلها أساليب الإنشاء ، لأن أفعال هذه الأساليب لم تقع بعد ، فالشيء الذي لم يقع لا يصح أن يوصف بأنه كذب أو صدق ، أما الشيء الذي وقع فتخبر عنه فإن وقع يكون القائل صادقاً ، وإن لم يقع يكون القائل كاذباً .

قد يأتي الخبر محل الإنشاء والعكس صحيح :

كل الكلام العربي إما أنه خبر أو إنشاء ، لكن أحياناً السياق سياق إنشاء ، فتأتي في القرآن الكريم عبارة بسياق الخبر ، مثلاً : أراد الله عز وجل أن يأمر الوالدات أن يرضعن أولادهن ، لمَ لمْ يقل : يا أيتها الوالدات أرضعن أولادكن ؟ بل قال :

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ (233))

(سورة البقرة الآية : 233)

السياق سياق إنشاء ، أمر ، فالأمر ، والاستفهام ، والنداء ، والتمني ، والترجي هذه أساليب الإنشاء ، فجاءت الآية خبراً :

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ (233))

(سورة البقرة الآية : 233)

الحكمة جاءت أيها الأخوة أنك إذا أمرت إنساناً ألا يتأخر أوقعت في روعه أنه يمكن أنه يتأخر ، لكنك تنهاه عن أن يتأخر ، فأي أمر مبطن باحتمال مخالفته ، لو قال أب لابنه : إياك أن تأتي بعد الساعة التاسعة ، معنى ذلك كأن الأب ألقى في روع ابنه أنه بإمكانه أن يأتي الساعة التاسعة ، لكن الأب يغضب ، فكل أمر فيه بذور مخالفته ، فإذا كان الأمر خطيراً جداً يلغى أسلوب الإنشاء أصلاً ، ويحل محله أسلوب الخبر ، شأن الوالدات أن يرضعن أولادهن ، وهذه قضية لا مساومة عليها ، ولا تقبل غير ذلك ، هذه الحكمة أن يأتي الخبر محل الإنشاء ، أحياناً القضية بالعكس ، الذي يفتري على الله ظالم ، هذا خبر ، الآية هنا :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

هذا سؤال ، استفهام ، والاستفهام إنشاء ، لكن السياق هنا سياق خبر ، معنى ذلك أن الله يريد أن نفكر أن هؤلاء الذين يكذبون هم أشد كذباً ، إن أشد الناس كذباً لا للذي يفتري على البشر كلاماً ما قالوه ، ولكن الذي يفتري على خالق البشر ، هنا السياق يقتضي الخبر ، لكن جاء عن طريق الاستفهام الإنكاري ، أي لن نجد على وجه الأرض إنساناً أشد ظلماً لنفسه ممن يفتري على خالق السماوات والأرض الكذب .

الفرق بين الأمر التكويني والأمر التكليفي :

أحياناً تأتي آية :

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ (27))

(سورة النور الآية : 26)

أي هل هذا من أمر الله التكويني أم التكليفي ؟ وتعلمون أن أمر الله إما أن يكون تكوينياً ، يعني أفعاله ، وإما أن يكون تكليفياً ، يعني أوامره ، عندنا أمر تكويني ، وعندنا أمر تكليفي ، لما اختلف سيدنا موسى مع سيدنا الخضر ، سيدنا الخضر معه الأمر التكويني ، معه حكمة ، أفعال الله عز وجل ، سيدنا موسى معه الأمر التكليفي ، فلما خرق السفينة هذا مخالف للأمر التكليفي ، فاعترض عليه سيدنا موسى ، الآن الله عز وجل حينما قال :

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

ما المقصود بذلك ؟ ، ألا نجد امرأة طيبة تحت رجل سيئ جداً ؟ ثم ألا نجد رجلاً طيباً معه امرأة سيئة جداً ؟ طبعاً ، إذاً هذا الأمر ليس تكوينياً ، لو كان تكوينيّاً لما كانت قوة على وجه الأرض إلا أن يكون الطيبون للطيبات ، ما دام في الحياة إنسان طيب معه امرأة خبيثة ، أو إنسان خبيث معه امرأة طيبة ، إذاً هذا الأمر ليس أمراً تكوينياً ولكنه أمر تكليفي ، يعني اجعلوا الطيبين للطيبات ، تتسرع في قبول هذا

الخاطب ، لا تسأل عن دينه ، لا تسأل عن صلاته ، لا تسأل عن مرجعيته ، لا تسأل عن خوفه من الله، فإذا تزوجها ، وبالغ في إذلالها ، وفي التنكيل بها تقول : قسمة ونصيب ، هذا كلام غلط ، هناك خطأ في اختيار الزوج ، وخطأ في السؤال عنه ، وخطأ في قبول هذا الزوج زوجاً لابنة مؤمنة طاهرة، إذاً الطيبون للطيبات أي احرصوا على أن يكون الطيبون للطيبات ، هذا أمر تكليفي ، وليس أمراً تكوينياً ، كذلك حينما قال الله عز وجل :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً (97))

(سورة آل عمران الآية : 97)

هل هذا أمر تكليفي أم تكويني ، إذا كان أمراً تكوينيّاً لم يكن آمناً بيت الله الحرام في عام ألف وأربعمئة، حيث قُتِل فيه مئات الأشخاص ، قُتِلوا وهم في الحرم ، فإن كان هذا الأمر أمراً تكوينياً فهذا مستحيل أن يقع فيه قتل ، إذاً هذا أمر تكليفي ، أن يا عبادي اجعلوا هذا البيت الحرام آمناً ، أو ينبغي أن يكون آمناً .

الاستفهام الإنكاري أبلغ من النفي :

أريد أن أضع بين أيديكم بعض الحالات البلاغية ، أن القرآن قد يعدل عن أسلوب الخبر إلى أسلوب الإنشاء لحكمة بالغة ، وقد يعدل عن أسلوب الإنشاء إلى أسلوب الخبر لحكمة بالغة ، هنا كأن الله عز وجل يريد أن يؤكد لنا أن أظلم إنسان على وجه الأرض ليس الذي يفتري على بشر كذباً ، بل الذي يفتري على خالق البشر كذباً ، يقول : أنا نبي ، هو ليس بنبي ، يقول : يوحى إليّ ، هو لا يوحى إليه ، يقول :

(سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)

ليس معه شيء ، إذاً الله عز وجل عن طريق الاستفهام الإنكاري ـ مثلاً : لو قلنا لإنسان : كان هنا مبلغ من المال ، هل سرقته ؟ هو ماذا يقول لك ؟ لو قال لك : لا ، كلام ليس بليغاً ، يقول لك : أأنا أسرقه ؟! هو استفهام إنكاري ، أأنا أسرقه؟! أيعقل أن أسرقه ؟! فالاستفهام الإنكاري أبلغ من النفي ـ يقول :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

أي ليس على وجه الأرض إنسان أشد ظلماً لنفسه وللحقيقة ممن يدعي أنه نبي ، وهو ليس كذلك ، أو يدعي أنه يوحى إليه ، وهو ليس كذلك .

بالمناسبة أيها الأخوة ، الإنسان حينما يفتري على الله كذباً ، أو حينما يقول على الله ما لا يعلم ، أو حينما يوهم الناس لمصلحة له إرضاءً لقوي ، أو خوفاً من بطشه يقول بخلاف ما يعلم ، هذا يرتكب

أكبر معصية على الإطلاق ، لأن الله عز وجل حينما صنف المعاصي والآثام صنفها تصنيفاً تصاعدياً ، فذكر الفحشاء والمنكر ، والإثم والعدوان ، والشرك ، والكفر ، ثم جعل على رأس كل هذه المعاصي :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169))

(سورة البقرة الآية : 169)

بل إن الله عز وجل حينما قال :

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ (154))

(سورة آل عمران الآية : 154)

إذاً أخطر شيء أن تتكلم على الله بغير علم ، لذلك قال بعض العلماء : العوام لأن يرتكبوا الكبائر أفضل من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، وأنت لا تشعر ، تقول مثلاً بالتعبير الدارج : الله عز وجل يعطي الحلاوة لمن لا أضراس له أي لمن لا يستحقها ، أليس هذا اعتراضاً على حكمة الله ؟ هناك كلمات يقولها العامة خلاف العقيدة الصحيحة ، وكأن فيها بعض الكفر .

الافتراء هو الكذب المتعمد :

إذاً هنا الآية :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى)

الافتراء قال عنه العلماء : هو الكذب المتعمد ، لم يفترِ على بشر ، لم يفترِ على إنسان ، الإنسان حينما يفتري على إنسان يقع في إثم كبير جداً ، أن تفتري على إنسان قولاً ما قاله ، أن تنقل للناس قول إنسان ما قاله ، هذا افتراء كبير ، وهذا إثم عظيم ، فكيف إذا افتريت على خالق السماوات والأرض ؟ كيف إذا اجترأت على خالق السماوات والأرض ؟ فلذلك الافتراء هو الكذب المتعمد ، ولحكمة بالغة هناك أناس عديدون ادعوا النبوة ، منهم مسيلمة الكذاب ، وطليحة الأسدي ، والأسود العنسي ، هؤلاء ادعوا أنهم أنبياء ، فالواحد قال : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، جاء بقرآن ، وكان ينبغي أن يقول : والزارعات زرعاً ، والحارثات حرثاً ، وكان ينبغي أن يقول : والآكلات أكلاً ، والهاضمات هضماً ، عدد من الرجال ادعوا أنهم من الأنبياء ، لكن الشيء اللطيف أن مسيلمة الكذاب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبض على صحابيين اثنين ، وقال للأول : أتشهد أني رسول الله ؟ الصحابي قال : ما سمعت شيئاً ، فقطع رأسه فوراً ، وسأل الآخر : أتشهد أني رسول الله ؟ الآخر رأى رأساً مقطوعاً بكلمة قالها الأول ، فقال : أشهد أنك رسول الله ، النبي عليه الصلاة والسلام كان مع أصحابه الكرام فقال : أما الأول فقد أعز دين الله فأعزه الله ، الآن هبط قلبنا على الثاني ، قال : وأما الثاني فقد قبل رخصة الله ، أي ما كلفك الله فوق ما تستطيع ، هذا الإسلام العظيم ، في حالة سمح أن

تقول كلمة الكفر ؛ إذا هددت بالقتل ، فقال عليه الصلاة والسلام لعمار : وإن عادوا فعد ، ونزل قرآن أن الذي ينطق بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لا شيء عليه ، البشر درجات ، لكن الأول أراد أن يكون بطلاً ، والثاني أراد أن يكون ناجياً ، فكلاهما مغطى ، لكن الأول موقفه بطولي .

ماشطة بنت فرعون يوم سألها فرعون : ألكِ رب غيري ؟ وأمسك ولدها الأول ، وألقاه بالزيت المغلي، قالت : الله ربي وربك ، ألقى الأول ، وألقى الثاني ، وألقى الثالث ، وألقى الرابع ، لو تسألنا : لو قالت له : أنت ربي ، ونجت من هذا العذاب المحقق ، هل يؤاخذها الله عز وجل ؟ الجواب : لا ، لكنها أرادت أن تكون بطلة ، البطولة مفتوحة ، لو أن أصحاب الأخدود آمنوا بالذي يعذبهم ، وكفروا بالله بلسانهم ، ما كانوا عند الله آثمين ، ولكن الله يريد أن يرينا بعض البطولات من بني البشر .

أسباب أن الأنبياء مطالبون بالمعجزات أما مدّعو النبوة فلا :

أيها الأخوة ، شيء يلفت النظر أن هؤلاء الذين ادعوا النبوة لم يُطالبوا بالمعجزات ، لماذا يطالب الناس النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات ، والآيات كثيرة ؟

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90)أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (91)أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً (92)أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ (93))

(سورة الإسراء)

لماذا يُطالب الأنبياء بالمعجزات ، ولا يطالب مدّعو النبوة بالمعجزات ؟ أليس هذا سؤالاً دقيقاً ؟ الجواب سهل : لأن الذي ادعى النبوة أسقط الصلاة ، والثاني اسقط الزكاة ، فحينما تخفف على الناس يقبلونك على مساوئك ، عندئذٍ لا يطالبونك بالمعجزات ، أقول لكم هذه الحقيقة الدقيقة : الفِرَق الضالة في العالم الإسلامي من بعثة النبي إلى يوم القيامة لها أربعة خصائص ، الخاصة الأولى : تأليه الأشخاص ، أما سيد الخلق وحبيب الحق فقال :

((إنما أنا متبع ولست بمبتدع))

[ورد في الأثر]

خطيب قال للنبي : ما شاء الله ، وشئتَ ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((بئس الخطيب أنت ، أجعلتني لله نداً ، قل ما شاء الله كان ، وما لم يشاء لم يكن))

[ورد في الأثر]

سيد الخلق وحبيب الحق متواضع ، فلذلك الفرق الضالة من خصائصها تأليه الأشخاص ، شخص يكبر، ويكبر ، ويكبر حتى يصبح كلامه تشريعاً ، أما النبي عليه الصلاة والسلام قيل له : مثّل بهؤلاء الذين مثلوا بعمك حمزة ، أجاب إجابة لا أنساها ، قال :

((لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً))

[ورد في الأثر]

ما هذا الخوف من الله عز وجل ؟!!

أعظم صفة بالمؤمن أنه يخاف الله :

أخواننا الكرام ، هناك فرق كبير جداً بين أن توالي ربك ، وبين أن توالي قوياً ، القوي إذا واليته لا يحاسبك ، يهمك أن يكون ولاءك له ، لذلك تفعل بالناس ما تستطيع ، تفعل بالناس كل ما تستطيع من أذى ، أما حينما توالي ربك لا يقبلك ، ولا يتجلى عليك ، ولا يرحمك إلا أن اتقيت أن تعصيه من كل البشر ، أعظم صفة بالمؤمن أنه يخاف الله ، لا يمكن أن يؤذي إنساناً ، أن يبني مجده على أنقاض الناس ، أن يبني حياته على موتهم ، أن يبني عزه على ذلهم ، أن يبني غناه على فقرهم ، مستحيل ، فالذي يوالي خالق السماوات والأرض يحاسبه الله عز وجل لو قتل نملة .

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، قَالَ : فَقَالَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ : لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا ، وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِهَا ، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

((قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا ، وَصِيَامِهَا ، وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا ، وَصَدَقَتِهَا ، وَصَلَاتِهَا ، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[رواه أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

إن كنت ولياً لله فلا تستطيع أن تؤذي نملة فما فوقها ، لذلك الناس يقولون : الذي يخاف الله لا تخف منه ، مقيد ، مقيد بقيود الإيمان ، الفرنجة حينما غزوا القدس ماذا فعلوا ؟ ذبحوا سبعين ألفاً في يومين من المسلمين ، فلما فتح صلاح الدين رحمه الله القدس لم يسفك دماً ، ولم يرق قطرة دم ، بل سمح لهؤلاء أن يبيعوا متاعهم بأسعارها الحقيقة ، وأن يغادروا وهم سالمون ، من قيد صلاح الدين عن أن يفتك بهم كما فتكوا بالمسلمين ؟ الله عز وجل :

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

الفرق صارخ بين من يخاف الله وبين من لا يخافه .

الفرق الضالة في العالم الإسلامي لها أربع خصائص :

أيها الأخوة ، إذاً الفرق الضالة في العالم الإسلامي لها أربع خصائص ، الأولى : تأليه الأشخاص ، والثانية : تخفيف التكاليف ، ما في الدين شيء ، الآن أكثر الديانات الأرضية لها أتباع بمئات الملايين ، ما السبب ؟ ما فيها تكاليف أبداً ، ولاء فقط ، أعلن ولاءك وانتهى الأمر ، مع الولاء عبادات ، تمتمات ، حركات ، سكنات ، رقص ، موسيقا ، غناء ، هذه العبادات تمتمات ، وحركات ، وسكنات ، وإيماءات ، ورقص ، وموسيقا ، وغناء .

والله حضرت مؤتمراً للأديان في واشنطن ، ثماني عشرة ديناً عرضوا على الناس عباداتهم ، صدقوا أيها الأخوة ثماني عشرة ديناً ، العبادات حتماً وحصراً غناء وموسيقا ورقص ، شيء جميل ، لا فيه تكاليف ، ولا محرمات ، ولا أمر بالمعروف ، ولا نهي عن المنكر ، ولا الخنزير حرام ، ولا الخمر حرام ، ولا إطلاق البصر حرام ، ولا غيبة ، ولا نميمة ، ما فيها شيء إطلاقاً ، حركات ، وسكنات ، وتمتمات ، وإيماءات ، وغناء ، ورقص ، وموسيقا ، لذلك الذين ادعوا النبوة لم يطالبوا بالمعجزات ، ما مِن داعٍ ، مؤمنون نحن سلفاً ، أرحتنا من الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة .

أيها الأخوة ، هناك نقطة دقيقة جداً ، نشاط الطرف الآخر ، من بعثة النبي إلى يوم القيامة آية واحدة ، دققوا فيها :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73))

(سورة الإسراء)

أي مسموح لك أن تقيم شعائر الدين ، لكن لا يسمح لك أن يكون اقتصادك إسلامياً ، ولا علاقاتك بالمرأة إسلامياً ، ولا حربك إسلامية ، لك أن تقيم شعائر الدين فقط ، العبادات ما لها قيمة ، شكلية ، فتجد الدول المتفلتة من الدين لها معابد ، ومساجد ، وكنائس ، واحتفالات ، ومؤتمرات ، ومظاهر إسلامية صارخة ، لكن المنهج ليس إسلامياً ، فلذلك :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)

خطة الطرف الآخر الحفاظ على الأطر الإسلامية مع تغيير المضامين :

يا أيها الأخوة ،

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)

طبعت العلاقات عندئذٍ .

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74)إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (75))

(سورة الإسراء)

أيها الأخوة ، أول نقطة : تأليه الأشخاص ، الثانية : تخفيف التكاليف ، إذا خففت التكاليف فلا أحد يسألك عن المعجزات ، الثالثة : اعتماد نصوص موضوعة لم يقلها النبي ، أو اعتماد تأويلات غير صحيحة للقرآن الكريم ، الآن مكر الطرف الآخر إما إلى تأويل غير صحيح لآيات القرآن الكريم ، أو إلى أحاديث موضوعة ما أنزل الله بها من سلطان .

النقطة الرابعة : النزعة العدوانية ، تأليه الأشخاص ، وتخفيف التكاليف والنصوص غير الصحيحة ، والنزعة العدوانية :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)

أقول لكم من القلب إلى القلب : خطة الطرف الآخر الحفاظ على الأطر الإسلامية لكن تغيير المضامين، نمط حياة غربي ، استثمار مال ربوي ، علاقات مع النساء متفلتة ، تحلل ، كل شيء مباح ، أما الصلاة ، والصوم ، والحج ، هذا كله مسموح به ، أما أن تبني مجتمعاً وفق منهج الله فهذا غير مسموح به ، أن تبني حياة اجتماعية على الحجاب ، وعدم الاختلاط ، هذا غير مسموح به في العالم كله، هذا معنى قوله تعالى :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)

أيها الأخوة ، بعد أن سقطت النظم الوضعية لم يبقَ إلا الإسلام ، هناك الآن تفكير من الطرف الآخر أن يقنع المثقفين بقرآن مفرغ من مضمونه ، أي لك أن تسلك أي سلوك إباحي ، وأنت مسلم ، وأنت مؤمن ، مكان فيه رقص ، وفيه دعارة ، وفيه الموبقات كلها ، وخمور ، وفتيات محجبات ، ماذا يقصد من ذلك ؟ شيء طبيعي ، الآن عبارة اجتماعية ، كله عادي ، ملهى ، عادي ، مطعم فيه خمور ، عادي، فحينما يدخل المسلم في كل المجالات المحرمة بزي إسلامي ، أو بزي امرأة مسلمة محجبة ،

هذا اسمه خلط الأوراق ، المقاهي تدار فيها الخمور ، وفيها نساء محجبات ، ما المقصود من ذلك ؟ المقصود أن الدين فرغ من مضمونه ، بقي إطاراً ، إطاراً فلكلورياً فقط .

والله أيها الأخوة ، القلب يعتصر حينما يتلى كتاب الله ، كان هذا قبل عشرين سنة في باريس لا على أنه كتاب مقدس بل على أنه كتاب فلكلوري للشرق الأوسط ، فلكلور ، فلذلك الآن تفريغ الدين من مضمونه هدف الطرف الآخر ، قوى كبيرة تسعى لذلك ، أينما حلوا الاختلاط ، أفلام الجنس ، الإباحية، تفلت المرأة ، نزع الحجاب ، إقامة دور الملاهي ، هذه كلها من أجل تفكيك المجتمع المتماسك ، فلذلك كانوا يجبروننا بالقوة المسلحة على أن نفعل ما يريدون ، لكنهم الآن يجبروننا بالقوة الناعمة ، بالمرأة على أن نريد ما يريدون .

سبب حذف جواب الشرط في الآية التالية :

الآية الكريمة أيها الأخوة :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ)

هذه العبارة فيها نقص بحسب قواعد اللغة ، مثلاً : لو جئتني لأكرمتك ،(لو) شرطية ، فعل الشرط(جئتني) ، جواب الشرط(أكرمتك) ، هكذا اللغة ، فالقرآن الكريم وهو كلام خالق الأكوان ، لماذا حذف جواب الشرط ؟ شيء دقيق جداً ، مثلاً لو قلت لك : لو ترى فلاناً وهو في السجن كيف يُعذَّب ، واضحة ، لو ترى فلاناً وهو في السجن ، هذا فعل الشرط، جواب الشرط : كيف يعذب ؟ أما إذا الذي يعانيه لا يوصف ، ولا تحيط به عبارة ، ولا تحويه إشارة ، أكتفي بفعل الشرط ، ولو ترى فلاناً وهو في السجن ، ما يعانيه تعجز عنه العبارة ، ولا تفي بحقه الإشارة ، هذا المعنى ، يقول الله عز وجل :

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ)

الذين قالوا : أوحي إلينا ولم يوحَ إليهم ، وقالوا ، وافتروا على الله الكذب ، وقالوا :

(سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى)

هؤلاء

(الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ)

شاءت مشيئة الله أن تموتوا ، فإن كنتم آلهة كما تدعون ، وإن كان لكم أنبياء آخرون ، إن كان لكم شركاء لله آخرون ، تفضلوا وخلصوا أنفسكم من هذا العذاب المهين ، فلذلك من السهل أن تضحك أولاً، ولكن البطولة أن تضحك آخراً .

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

الإيجاز الغني :

قال تعالى :

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

أحياناً في اللغة تركيب بلاغي اسمه الإيجاز الغني ، لو قلت لأحد : لقد أصابني همٌ ، الذي أصابني همٌ محدود ، أصابني فقر ، أصابني ضيق ، أصابني مرض ، أما إذا قلت: لقد أصابني ما أصابني ، واسعة جداً ، تحتمل كل شيء ، هذا اسمه الإيجاز الغني ، لذلك الله عز وجل لما قال :

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

جواب(لو) محذوف ، لأن العبارة لا تفي بالحقيقة ، لأن كل أنواع الأساليب عاجزة عن وصف حالة الإنسان حينما يلقى الله عز وجل وقد افترى على الله كذباً وقال :

(أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ)

(الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ)

عذاب الهوان ، هناك عذاب مهين ، وعذاب أليم ، وعذاب عظيم ، كل إنسان يعاقب بعذاب متعلق بنوع معصيته ، فالذي كان متكبراً في الدنيا له عذاب مهين ، والذي كان مستمتعاً فيها له عذاب أليم، والذي ادعى الألوهية له عذاب عظيم ،

(الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

بعض من معاني كلمة (فرادى): قال تعالى :

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94))

كل إنسان له شأن ، له مكانة ، له قصر ، له بيت ، له مركبة ، له طائرة خاصة أحياناً ، الناس مجتمعون حوله ، مثلاً العدوان على بلد إسلامي ، كل الدول الغربية ناصرت العدوان ، يخافون من هذا القطب الواحد ، ليس هناك قيم ، ولا مبادئ ، لا تستمع إلى كلمة حق ، أو إلى كلمة إنصاف ، لكن في

تكتل كبير ، العالم الغربي كله متكتل ضد الإسلام ، والعالم الغربي يرضى أن يباد المسلمون تماماً ، لكن عند الموت قال :

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى)

ليس هناك تكتلات يوم القيامة ، ولا تناصر إعلامي ، ولا تصريحات موافقة ، كل أنواع التناصر والتلازم والتعاون وأن تكون مع الباطل هكذا ينتهي ،

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى)

أحياناً الإنسان يكون له شأن ، بهاتف يحل مليون مشكلة ، في الآخرة لا يوجد مثل هذا ، ليس هناك هاتف أساساً بالآخرة ، ولا تغطية أبداً ،

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى)

ما معك أحد ، ولا زوجتك ، وقد تقع عين الأم على ابنها يوم القيامة ، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعاً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟! قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةُ ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ))

[متفق عليه عن عائشة أم المؤمنين]

أي إذا أخذت إنساناً للإعدام ورأى امرأة متفلتة في ثيابها ، هل يثيره منظرها ؟ مستحيل ،

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى)

قال : يا أم المؤمنين الأمر أفظع من أن يعنيهم ذلك ، وقتها قد تقع عين الأم على ابنها ، تقول : يا بني جعلت لك حضني وطاء ، وبطني وعاء ، وصدري سقاء ، فهل من حسنة يعود علي خيرها ؟ فيقول ابنها : يا أمي ليتني أستطيع ذلك ، إنما أشكو مما أنت منه تشكين ،

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى)

الآن هناك تكتلات في العالم كبيرة جداً ، أوربا كلها متكتلة ، ينطق بها إنسان واحد ، العالم الغربي ، العالم الشرقي ، الصين ، اليابان في تكتلات كثيرة ، وتناصر على الباطل ، أما يوم القيامة ،

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى)

من معاني فرادى أي جئت بعيداً عن كل ما عندك من أموال ، من تجمعات ، من رجال ، من حواشٍ ،

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)

ترك بيته ، ترك مكانه ، ترك مكتبه التجاري ، ترك رصيده بالمصرف ، ترك مكانته الاجتماعية كل هذا تركه .

البطولة أن تبدأ من النهاية :

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ)

أين تجمعكم ؟ أين من يناصركم ؟ أين من يصرح معكم دائماً ؟

(وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ)

تقطعت هذه العلاقات ، تقطعت هذه التحالفات في العراق ، تقطعت هذه العلاقات وهذه التحالفات ، تقطع هذا التواصل ، تقطع هذا التجمع ،

(تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

البطولة أيها الأخوة أن تبدأ من النهاية .

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ (2))

(سورة الملك الآية : 2)

بدأ الله بالموت ، لأن الموت أخطر حدث في حياة الإنسان ، أنت حينما تولد أمام خيارات لا تعد ولا تحصى ، أما عند الموت فأمام خيارين لا ثالث لهما :

((والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[البيهقي في الشعب من حديث الحسن]

ابدأ من النهاية ، هذا البيت سوف تتركه ، هذه المركبة سوف تتركها ، هذه الزوجة الجميلة سوف تتركها ، هذا المال الوفير المنقول وغير المنقول ، هذه المكانة ،

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

أخواننا الكرام ، القرآن شفاء للصدور ، شفاء كل ما يؤلمك من أخبار ، كل ما يؤلمك من غطرسة ، من عدوان ، من استعلاء ، من تكبر ، من تجمع على الباطل ، قال عليه الصلاة والسلام : س

((تُمْلَأُ الْأَرْضُ ظُلْماً وَجَوْراً ، ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً ، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(34-73): تفسير الآيات 95-97 ، الله تعالى عَلَم على الذات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-08-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم ، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة الأنعام .

أفعاله جلّ جلاله تقتضي صفات كثيرة :

مع الآية الخامسة والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ((95))

أيها الأخوة الكرام ، بعد أن بيّن الله جل جلاله ما يتعلق بالتوحيد ؛ توحيد الربوبية والألوهية ، وبعدما بيَّن رسالات الأنبياء ، أراد أن يلفت نظرنا إلى ما به استمرار حياتنا ، لأن الله سبحانه وتعالى منحنا نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، أوجدنا ثم أمدنا بما نحتاج ؛ أمدنا بالهواء ، بالماء ، بالطعام ، بالشراب ، بالمأوى ، بكل ما نحتاج .

الآن بعد التوحيد ، وبعد الرسالات ننتقل إلى النعم التي أسبغها الله علينا ، النعمة الكبرى :

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)

أما كلمة :

(اللَّهَ)

فعَلَم على الذات ، الله عز وجل له أسماء حسنى وصفات فضلى ، هو رحيم ، هو قوي ، هو عليم ، هو خبير ، هو لطيف ، هو قادر ، هو مقتدر ، هو حليم ، هو جبار ، هو متكبر ، تقتضي أفعاله صفات كثيرة ، ففي خلقه حكمة ، وفي خلقه رحمة ، وفي خلقه قوة ، وفي خلقه علم ، وفي خلقه حلم، فأفعاله جل جلاله تقتضي صفات كثيرة ، لأنه الحي القيوم ، هو الخالق وهو القيوم .

أحياناً تنشئ بيتاً وتتركه ، تصنع طائرة وتبيعها ، تصنع مركبة وتصدرها ، تنشئ مشروعاً وتسلمه ، لكن الله سبحانه وتعالى حي قيوم .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

الله عز وجل علم على الذات :

قال تعالى :

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ (54))

(سورة الأعراف الآية : 54)

طائرة مقاتلة تُباع ، لكن الذي اشترها هو الذي يأمرها ، يأمرها أن تقصف ، ألا تقصف ؟ أن تدمر ، ألا تدمر ؟ فالذي صنعها ، صنعها وسلمها ، صنعها وباعها ، لكن لله المثل الأعلى ، الله عز وجل حي قيوم ، أي مصدر حياة الكون ، وهو قيوم عليه .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (123))

(سورة هود الآية : 123)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

إذاً الله عز وجل بتعبير علماء العقيدة علم على الذات ، إن أردت أن تقول : الله رحيم ، غفور ، كريم ، قوي ، حليم ، حكيم ، متكبر ، جبار ، كل هذه الأسماء ، أو تلك الصفات يمكن أن تجمع بالعَلَم على الذات في الله ، فأنت أحياناً يجب أن تقول : بسم الله العليم ، إذا كنت تريد أن تفهم قضية .

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ (79))

(سورة الأنبياء الآية : 79)

أحياناً تجابه عدواً شرساً ، تقول : بسم القوي ، وأحياناً تريد رحمة من الله ، تقول: بسم الرحيم ، أما إذا قلت : بسم الله ، فالله سبحانه وتعالى علَم على الذات ، كل الصفات التي يتصف الله بها جمعت في كلمة الله ، إذاً الله عَلَم على الذات .

الله عز وجل إذا تحدث عن ذاته العلية جاء الحديث بالمفرد :

الله عز وجل ما قال : إن الرحيم فالق الحب والنوى ، رحمنا فهيأ لنا طعاماً ، ما قال : إن الرزاق فالق الحب والنوى ، ما قال : إن القوي فالق الحب والنوى ، ما قال : إن العليم فالق الحب والنوى ، قال :

(إِنَّ اللَّهَ)

لأن فلق الحب والنوى يحتاج إلى إله عظيم ، عليم ، حكيم ، قوي ، مقتدر ، لطيف ، كل صفات الإله عز وجل في خلقه موجودة ، هذا ينقلنا إلى أن الله عز وجل إذا تحدث عن ذاته العلية جاء الحديث بالمفرد .

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

أما إذا تحدث عن أفعاله :

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ (43))

(سورة ق الآية : 43)

وقال :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9))

(سورة الحجر)

الله عز وجل يقول :

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)

كلكم يعلم أن القمح هو الثمرة ، والثمرة نفسها تزرع بأكملها ، فالحب كالقمح والشعير والأرز ، أما النوى فالتمرة لها نواة ، والخوخة لها نواة ، وحب المشمش لها نواة ، يعني لها بزرة ، فإن

(اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)

قضية البذور من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل :

أيها الأخوة ، قضية البذور من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل ، حبة القمح فيها رشيم ، والرشيم كائن حي ، وقد استخرجوا من أهرامات مصر قمحاً مخزناً قبل ستة آلاف عام ، فلما زرع نبت هذا الرشيم ، وهو الجزء الحي من البذرة ، ومن علّم النملة أنها إذا خزنت القمح تأكل الرشيم ؟ لئلا ينبت القمح فيدمر بيوتها ، ومن علّم النملة أيضاً أن بعض البذور لها رشيمان ، تأكل النملة الرشيمين معاً لئلا تنبت ، فالرشيم هو الكائن الحي في البذرة ، لمجرد أن يصيب البذرة رطوبة فلقتا النواة تنشقان عن سويق وجذير ، شعرة خضراء نحو الأعلى ، وأختها نحو الأسفل ، سويق وجذير ، فإن كانت الحبة على صخر من يصدق ذلك ؟ يستطيع هذا الجذير أن يخرق الصخر ، ينتهي الجذير بقلنسوة ، كرة صغيرة جداً تفرز مادة تذيب الصخر ، إذا ذهبت إلى الجبال ترى الصخر قد شق ، وتسللت جذور النبتات في داخله .

الله عز وجل يفلق الحبة أو النواة ،

(فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)

من أين يتغذى السويق والجذير ؟ من الحبة نفسها ، الحبة نفسها تغذي السويق والجذير إلى أن يستطيع الجذير أن يأخذ الغذاء من التربة ، حجم الحبة حبة القمح ، أو حبة الشعير ، أو حبة الأرز ، أو حبة الفاصولياء ، أو حبة البازلاء ، هذه الحبة فيها غذاء يكفي لنمو السويق والجذير إلى أن يستطيع الجذير أن يمتص غذاءه من التربة مباشرة ، ويتجه نحو الأعلى ، طبعاً هناك في النباتات ، وفي علم النباتات

حقائق مذهلة كثيرة جداً ، هذه بعضها ،

(إِنَّ اللَّهَ)

صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى هو الذي يفلق الحب والنوى .

الآن حبة جوز الهند كلها بذرة ، وفي الغرام الواحد من هذه البذور سبعون ألف بذرة ، الغرام الواحد من بعض نبتات الزينة فيه سبعون ألف بذرة ، لو أن بلدنا سوريا يحتاج إلى غرام واحد أن يستورده من هذه البذور ، من سبعين ألف بذرة إلى بذرة واحدة ،

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)

الحديث عن البذور أيها الأخوة شيء لا يصدق ، كل صفات النبات التفصيلية البالغة مئات الألوف مخزونة في الرشيم ، قد لا تنتبهون ، في بلدنا وحده ثلاثمئة نوع من العنب ، القمح عدد أنواع القمح خمسة وأربعون ألفاً ، التفاح مئات الأنواع ، ما معنى أنواع ؟ شيء مبكر ، شيء متأخر ، شيء حلوه كثيف ، شيء للتصدير ، شيء للاستهلاك ، الأنواع منوعة .

النبات من أكبر الآيات الدالة على الله :

أخواننا الكرام ، يكاد النبات يكون أكبر الآيات الدالة على الله ، حتى أنه في بعض سور القرآن كلمة واحدة ، قال تعالى :

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ (99))

(سورة الأنعام الآية : 99)

أنت من أجل أن تصبح نظيفاً ، من أجل أن تستخدم شيئاً ينظف جلدك في الحمام نبات ليفي له سطح ناعم ، والخشن له سطح خشن ، من أجل أن تنظف أسنانك هناك نبات خاص لتنظيف الأسنان ، لتنظيف ما بين الأسنان ، وهناك نبات آخر لتنظيف الأسنان ـ السواك ـ ونبات يمكن أن يكون وعاءً ، كالنحاس تماماً ، ونبات يمكن أن يكون سبحة ، كرات مثقوبة ، ونبات يمكن أن يكون ورقاً ، ونبات يمكن أن يكون بين الجسمين القاسيين ـ مطاط ـ ، ونبات كثافته خفيفة جداً ـ الفلين ـ ، ونبات تصنع منه الأدوية ، ونبات يصنع منه الأثاث ، ونبات تصنع منه النوافذ ، والحديث عن النبات لا ينتهي ، حتى إن الله عز وجل قال :

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

فمعظم حاجات الإنسان مشتقة من النبات ، حتى ثيابنا من القطن والكتان ، حتى أدواتنا من النبات ، حتى طعامنا من النبات ، قد تأكل أنت جزراً ، الجزر جذر، وقد تأكل زهرة ، الزهرة زهر وقد تأكل ورقاً ، وقد تأكل جذعاً ، وقد تأكل أغصاناً ، فلذلك :

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)

أعطانا مثلاً بين أيدينا ، هذه النواة ، وتلك الحبة كيف انشقت عن سويق وجذير ، وكيف أن هذا الغذاء الذي في الحبة أمد السويق والجذير حتى استطاعا أن يأخذا الغذاء مباشرة من الأرض ، والدليل : ضع حبات القمح على قطن مبلل في البيت وانظر ، ضع بعض حبات الفاصولياء على قطن مبلل كيف ينبت السويق وينبت الجذير ؟

(إِنَّ اللَّهَ)

بعلمه ، وبحكمته ، وبقوته ، وبرحمته

(فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)

قد يسأل سائل :

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)

من أجل التناظر ،

(وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)

نقول له :

(وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)

تقابل الحب والنوى

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)

طبعاً هذا الكلام على مستوى فهم الإنسان ، أنت ترى أن الخشب ميت ، هذا خشب جماد ، الحجر جماد ، البلور جماد ، الماء سائل ، لكن هذه النحلة فيها حياة تطير ، نحن نتوهم أن الشيء الذي يطير ، ويتحرك ، ويتنفس ، ويأكل هو الحي .

كل ما في الكون فيه حياة وحركة حتى الجماد :

إذا قال الله عز وجل :

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (88))

(سورة القصص الآية : 88)

معنى ذلك أن كل شيء فيه حياة ، كيف يهلك الرخام ؟ معنى فيه حياة ، لو تعمقنا أكثر وسألنا علماء الذرة لأعلمونا أن كل شيء في الكون مؤلف من ذرات تدور في مسارات حول نواة ، وإن نظام المجرة

كنظام الذرة ، أو إن نظام الذرة كنظام المجرة ، كهارب تدور حول نواة بمسارات متعددة ، وحينما رتبوا عناصر الأرض تبين لهم أن كل عنصر له عدد من الكهارب يدور حول النواة ، وأن بين عنصرين الأول غازي والثاني صلب فرق كهروب واحد ، لذلك الحياة بالمفهوم العميق :

(كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (30))

(سورة الأنبياء الآية : 30)

(و كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ)

إذاً فقد حياته ، فالحجر حي ، الحجر متحرك ، شيء قد يغيب عن الأذهان ، هذا ما يؤكده علماء الذرة، الأجسام الصلبة فيها حياة وفيها حركة ، والماء فيه حياة وفيه حركة ، لكن نحن ألِفنا أن الشيء الذي يتحرك ، ويأكل ، ويشرب هو الحي ، لكن الجماد أيضاً هو الحي ،

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)

أي يخرج نباتاً ينمو من تراب تظنه ميتاً وهو في الحقيقة حي ،

(وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)

لكن حينما نذكر صفات الله عز وجل في الرحيم ، في الودود ، في اللطيف ، في الحكيم ، في الغفور ، في الشكور ، هذه صفات الجمال ، وفي القوي ، وفي الجبار ، وفي المنتقم هذه صفات الجلال ، لذلك قال تعالى :

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78))

(سورة الرحمن)

بقدر ما ينبغي أن تخاف منه بقدر ما ينبغي أن تحبه ، تخافه وتحبه ،

(ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

لكنك في حياتك تحب ولا تخاف ، وقد تخاف ولا تحب ، قد تحب جهة ولا تخافها ، وقد تخاف جهة ولا تحبها ، ولكن الله عز وجل :

(ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

أرحم مخلوق على الإطلاق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

هو الذي خلقك ، هو الذي رباك من خلال أبيك وأمك ، ألقى محبتك في قلبيهما ، قصة رمزية : أحد أنبياء الله مشى في الطريق ، فرأى أماً تخبز خبزها على التنور ، ووضعت ابنها على طرف التنور ، فكلما وضعت رغيفاً في التنور ضمت ابنها وشمته وقبلته ، فقال هذا النبي : يا رب ، ما هذه الرحمة

التي عند الأم ؟ قال : يا عبدي هي رحمتي أودعتها فيها ، فسأريك ـ القصة رمزية طبعاً ـ فلما نزع الله الرحمة من قلب الأم ألقته في التنور .

بعض الحيوانات تربي أولادها ثم تأكلهم ، رحمة البشر من عند الرحمن الرحيم ، بل إن أرحم مخلوق على الإطلاق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله له :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ (159))

(سورة آل عمران الآية : 59)

وقال :

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ (58))

(سورة الكهف الآية : 58)

(فَبِمَا رَحْمَةٍ)

أمر ،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

الله عز وجل رحمن في ذاته رحيم في أفعاله :

أيها الأخوة ، قال عليه الصلاة والسلام ، وقد رأى أماً تقبل ولدها :

((أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةَ وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا : لا وَاللَّهِ ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لا تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِوَلَدِهَا))

[رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي "الصَّحِيحِ" عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنِ الْحُلْوَانِيِّ]

الله عز وجل رحمن رحيم ، لكن كيف أن الأب يمتلئ قلبه رحمة ومحبة لابنه وهو طبيب ، وقد التهبت الزائدة عند ابنه ، كيف يأمر الأب أن يخدر هذا الابن ، وأن يشق بطنه ، وأن تستأصل الزائدة ، وبعد أن ينتهي مفعول المسكن تنشأ آلام لا تحتمل ؟ لأنه عالم ، قال :

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ (45))

(سورة مريم الآية : 45)

بالمفهوم الساذج الأم إن كانت جاهلة تطعم ولدها طعاماً قد يسهم في مرضه ، لكن الأم المتعلمة تحرم ولدها أطيب الطعام إذا كان يسهم في تفاقم مرضه ، فالله عز وجل رحمن رحيم ، رحمن في ذاته رحيم في أفعاله :

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ)

ذلكم الله ، منحك نعمة الإيجاد ، منحك نعمة الإمداد ، منحك نعمة الهدى والرشاد ، أمرك بيده ، جسمك بيده ، دماغك بيده ، قلبك بيده ، شريانك التاجي بيده ، كبدك بيده ، حركتك بيده ، أقرب الناس إليك بيده ، القوي بيده ، الضعيف بيده ، من كان فوقك بيده ، من كان دونك بيده ، وتعبد غيره ؟!

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري؟!))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

((خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله :

(ذَٰلِكُمُ اللَّهُ)

الذي خلقنا ، والذي أمدنا ، والذي هدانا ، والذي يربينا ،

(ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)

إلى أين تنصرفون ؟ إلى أين تتجهون ؟ إلى أين تتوجهون ؟ من تحبون غير الله ؟ على من تعتمدون ؟ على من تتكلون ؟ على من تعلقون الآمال ؟ من تخافون ؟ أيعقل أن تخافوا من غير الله ؟ وأن تعقدوا الأمل على غير الله ! وأن يرجو الإنسان غير الله ! وأن يثق بغير الله ! وأن يكون لغير الله !

أخواننا الكرام ، كلمة دقيقة : إن مما يشينك أن تكون لغير الله ، كم من إنسان محسوب على إنسان آخر؟ كم من إنسان محسوب على هذه الجهة أو على تلك ؟ هو في خدمتها ، ولاءه لها ، وقته لها ، ذكاءه من أجلها ، طلاقة لسانه لها ، وهي جهة أرضية ، أيليق بالإنسان أن يكون لغير الله ؟!!

" خلقت لك ما في السماوات والأرض فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك " .

أيها الأخوة ، قال الله عز وجل في بعض الآثار القدسية : " كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك ، أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد ".

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

إلى أين ذاهب ؟ إلى أين ؟ إلى عبد حقير ، إلى عبد فقير ، إلى عبد لئيم ، إلى عبد يحتال عليك ، إلى عبد يبني مجده على أنقاض ، إلى عبد يأخذ منك ما يريد ثم يركلك بقدمه ، إن لم تكن عبداً لله فأنت عبد لعبد لئيم ، الحمد لله الذي أخرجنا من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، من جور الحكام إلى عدل الإسلام ، هكذا قال بعض صحابة رسول الله ،

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

الحكمة من خلق الليل والنهار :

قال تعالى :

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96))

(سورة الأنعام)

ظلام ، الظلام مخيف ، وفيه رهبة ، يأتي الصباح ترى كل شيء ، تأنس بكل شيء ، تنطلق إلى عملك، الذي صمم هذا الجسم صممه ليعمل ثم ليستريح ، فلا بد من حركة يعقبها سكون ، ولكن لا تسكن إذا كان من حولك متحركاً ، لذلك من الصعب جداً أن تنام في النهار ، لكن حكمة الله اقتضت أن الليل يسكن فيه جميع الخلق ، انعدمت الرؤيا ، فخلد كل إنسان إلى بيته ، لكن الحضارة الغربية جعلت الليل نهاراً والنهار ليلاً ، وساعة نوم في أول الليل تزيد في نفعها عن ساعات طويلة في آخر الليل ، فنحن قلبنا نهارنا ليلاً وليلنا نهاراً ،

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ)

من صمم أن الأرض كرة ؟ وأنها تدور حول نفسها ، وأن الشمس منبع ضوئي ، من صمم شكل الكرة؟ لأن الأرض لو كانت مكعبة لجاء الضوء فجأة ، تستيقظ إلى صلاة الفجر الأشياء كلها في ظلام، يأتي الضوء شيئاً فشيئاً ، وهذا يؤكد اسم اللطيف ، شيئاً فشيئاً إلى أن تشرق الشمس ، فإذا كانت الشمس أمام وجهك كان ضوءها مقبولاً ، تصور الشمس تشرق كما هي في كبد السماء ، لا تحتمل ذلك ، قرص الشمس وهو يغيب أو وهو يشرق لطيف جداً ، تنظر إليها براحة ، هذا اسم اللطيف ،

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ)

الدنيا مضيئة ، أنت نشيط ، ومن يصدق أن في الإنسان ساعة بيولوجية هذه الساعة مربوطة بقعر العين ، فإذا كان الوقت نهاراً تنبهت هذه الساعة ، ومعها برمجة معقدة جداً ، نبض القلب يزداد في النهار عما هو في الليل ، إفراغ المثانة يزداد في النهار عما هو في الليل ، الضغط يزداد في النهار عما هو في الليل ، هرمونات النمو تزداد في الليل عما هو في النهار ، في برنامج معقد جداً لهذه الساعة .

لذلك عندما يذهب الإنسان إلى بلد بعيد تضطرب هذه الساعة ، أنت ذهبت إلى أستراليا مثلاً ، فأنت مبرمج على أن هذا الوقت ظلام ، ففي النهار تشعر بحاجة إلى النوم لا تواجه ، فإذا جاء الليل لا تنام أبداً ، لأن برمجة الساعة البيولوجية على دمشق ، فإلى أن تبرمج برمجة جديدة تحتاج إلى أيام ثلاثة ، كل إنسان يسافر إلى بلد بعيد يصبح نهاره ليلاً وليله نهاراً ، تعاني من شدة الميل إلى النوم في النهار لدرجة أنك لا تستطيع أن تفتح عينيك ، فإذا جاء الليل لا تنام أبداً ، إلى أن يمضي ثلاثة أيام فيعاد برمجة هذه الساعة ، من صمم هذه الساعة البيولوجية ؟ ومن أعطاها هذا البرنامج الدقيق ؟!!

نظرية أينشتاين :

عمل الدماغ ، نبض القلب ، ضغط الدم ، المثانة يتوقف عملها في الليل من أجل أن تنام نوماً مريحاً ، وهذا الصمت الليلي للمثانة في النهار لها برنامج آخر ، فكل أجهزة الجسم لها برنامج نهاري وبرنامج ليلي ، هذا مربوط بالساعة البيولوجية ، والساعة البيولوجية مربوطة بقعر العين ، من أجل أن تعلم هذه العين أن الوقت نهار أو ليل .

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً)

القمر يدور حول الأرض دورة كل شهر ، لو أخذنا نقطة هي مركز القمر ، ونقطة هي مركز الأرض وصلنا بينهما بخط ، كان هذا الخط نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض ، طول هذا الخط نأخذه من نصف قطر القمر مضاف إليه نصف قطر الأرض مضاف إليه المسافة بينهما ، هذا نصف القطر لو ضربناه باثنين كان قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض ، لو ضربنا هذا الرقم بـ (3.14) ، النتيجة هي المحيط ، نحن بحساب بسيط نعرف كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في الشهر ، في السنة نضربه بالعدد (12) ، في ألف سنة × 1000 معنا رقم كبير ، هذا الرقم الكبير عدد الكيلومترات التي يقطعها القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام ، لو قسمنا هذا الرقم على ثواني اليوم (60 × 60 × 24) النتيجة سرعة الضوء الدقيقة وهي(299752)

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5))

(سورة الرحمن)

هذه نظرية أينشتاين ، السرعة المطلقة في الكون هي سرعة الضوء ، وأي جسم سار مع الضوء أصبح ضوءاً وحجمه لا نهائي ، وكتلته صفر

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

من يصدق أن أضخم وأدق ساعة في العالم تضبط على مرور نجم ، فقد تزيد ثانية في العام أو تقل ثانية ، لكن النجم لا يزيد ولا ينقص ؟ بالثواني ،

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً)

نظام رياضي دقيق جداً يدور فيه القمر ، لو أن القمر يدور مع الأرض تماماً ما كان هلالاً وبدراً ، الفارق بسيط ، كل يوم خمسون دقيقة ، وبهذا الفارق القمر يأخذ هذه المنازل من محاق ، إلى هلال ، إلى ربع ، إلى بدر ، من نظم هذا النظام ؟ من قنن هذه القوانين ؟!

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

إعجاز الله في الكون :

قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97))

الكون كم مجرة ؟ والله أيها الأخوة شيء يحير العقول ، بموسوعة علمية حديثة ناطقة ثلاثة آلاف مليار مجرة ، وكل مجرة فيها ملايين الملايين من النجوم ، ودرب التبانة مجرة معتدلة متواضعة ،

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ)

أي خلقت خصيصاً لكم ، الشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض ، وبين الشمس والأرض مئة وستة وخمسون مليون كم ، وهناك نجم صغير في برج العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما ، الأرض والشمس ومئة وستة وخمسون مليون كم ، والشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض ، هذه كلها تدخل مع المسافة في نجم اسمه قلب العقرب ، من أجل أن تعرفوا من هو الله ،

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(35-73): تفسير الآيتان 97-98 ، الآيات الكونية والقرآنية والتكوينية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-08-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس سورة الأنعام .

آيات الله ثلاثة أنواع :

مع الآية السابعة والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97))

أيها الأخوة الكرام ، ينبغي أن نعلم أن كلمة آية تعني علامة ، وتعني دلالة ، وتعني بياناً ، وتعني برهاناً ، وآيات الله ثلاثة أنواع : آيات كونية خلقه ، وآيات قرآنية كلامه، وآيات تكوينية أفعاله ، يمكن أن تعرف الله من آياته التكوينية والكونية والقولية أي القرآن .

لكن لا بد من ملاحظة : وهي أنك إذا بدأت بمعرفة الله من خلال آياته الكونية فالطريق سالك وآمن ، وكلما ازددت تفكراً في خلق السماوات والأرض ازددت تعظيماً لله ومحبة له ، لأن كل ما في الكون ينطق بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله ، فإذا تعمقت بآياته القرآنية تُكشف لك حقائق كثيرة ، والآيات القرآنية تتكامل مع الآيات الكونية ، كيف ؟

دخلت إلى جامعة ، نظرت إلى أبنيتها ، دهشت لعظمة هذه الأبنية ، ولتناسبها مع وظيفتها ، قاعات محاضرات ، مخابر ، جناح لنوم الطلاب ، جناح للأساتذة ، مدرجات حدائق كي يستمتع الطلاب ، هدوء ، مطاعم ، أنت تستنبط أن الذي صمم هذه الجامعة مهندس قدير ومتخصص بالجامعات ، لكن مهما كنت ذكياً ، ومهما أطلت التفكر في هذه الأبنية لا تستطيع أن تعرف النظام الداخلي لهذه الجامعة ، ولن تستطيع أن تعرف عميد هذه الكليات ، من هو رئيس الجامعة ؟ ما نظامها ؟ ما نظام قبول الطلاب فيها ؟ ما نظام النجاح والرسوب؟ لهذا لا بد من كتاب . الأبنية ، والمخابر ، والمدرجات ، والحدائق ، وأبنية الطلاب ، وأبنية المدرسين ، والأجواء المحيط بالجامعة ، هذه كلها تدلك على أن الذي صممها مهندس قدير ، لكن من هو رئيس الجامعة ؟ من هم عمداء الكليات ؟ ما الأنظمة الداخلية ؟ كيف يُقبَل الطلاب؟ كيف يتخرجون ؟ هذا شيء لا يمكن إلا أن تأخذه تلقياً .

لا بدّ من أن تتكامل الآيات الكونية مع الآيات القرآنية :

إذاً ولله المثل الأعلى ، هذا الكون يدل على خالق عظيم ، على رب كريم ، على مُسَيِّر حكيم ، أسماؤه حسنى ، صفاته فضلى ، مليار دليل على رحمته ، وقدرته ، وقوته ، وجبروته ، وحلمه ، ولطفه ، لكن لماذا خلقنا ؟ هذا لا يأتي بالتفكر يأتي بالتلقي ، تقرأ القرآن:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

من الذي خلق الكون ؟ لا بد له من خالق عظيم ، يقول إله القرآن :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (4))

(سورة السجدة)

عَلَم على الذات ، شيء جميل .

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(سورة الإنسان)

إذاً لا بد من أن تتكامل آياته الكونية مع آياته القرآنية ، فالآيات الكونية تدلك على الله عز وجل ، والآيات القرآنية تدلك على سر وجودك ، وعلى غاية وجودك ، وعلى منهجه، إن الله يحب الصادقين ، إن الله يحب المخلصين ، إن الله يحب الطائعين .

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1))

(سورة الهمزة)

وقال :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (279))

(سورة البقرة الآية : 279)

علينا أن نبدأ بآيات الله الكونية ونثني بآياته القرآنية ثم نتفكر في أفعاله :

لا يكفي الكون ، يجب أن نضم مع القرآن الكون ، آياته الكونية وآياته القرآنية ، الآن أفعاله ، لكن أفعاله حقل ألغام ، كيف ؟ لو بدأت بالتفكر في أفعاله يقفز أمامك مليون سؤال وسؤال ، لماذا الفقر ؟ لماذا القهر ؟ لماذا الأقوياء والضعفاء ؟ لماذا اجتياح الدول القوية للدول الضعيفة ؟ لماذا الموت من الجوع في إفريقيا ؟ لماذا شح الأمطار ؟ لو أنك بدأت بآياته التكوينية لقفز إلى ذهنك مليون سؤال ، لذلك أنصح أن تبدأ بآياته الكونية ، وتثني بآياته القرآنية ، ثم تفكر في أفعاله ، أنت حينما ترى أمة قوية متغطرسة ترتكب كل الحماقات ، وكل المحرمات ، وكل الموبقات ، وتستعلي ، وهي قوية ، ويبدو أنها

تفعل ما تقول ، شيء يحير ، تفتح القرآن الكريم :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ (44))

(سورة الأنعام الآية : 44)

واضحة :

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً (44))

(سورة الأنعام الآية : 44)

أنت حينما ترى فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل ، ويستحيي نساءهم ، ويتفنن في تعذيبهم ، وترثي لحال هؤلاء المستضعفين المقهورين ، الذين قُتِل أبناءهم واستُحيت نساءهم ، ثم تقرأ قوله تعالى :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5))

(سورة القصص)

إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق :

إذاً أيها الأخوة ، ابدأ بالتفكر في مخلوقات الله عز وجل ، وإياك ثم إياك أن تتفكر بالخالق :

((تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فتهلكوا))

[رواه ابن حبان عن أبي ذر]

كيف يعلم ما سيكون ؟ تجاوزت الخط الأحمر ، لن تستطيع أن تكشف عدل الله بعقلك إلا بحالة مستحيلة ؛ أن يكون لك علم كعلمه ، ومادام ليس لك علم كعلمه إذاً تؤمن بعدله من خلال كلامه .

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49))

(سورة الكهف)

وقال :

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (49))

(سورة الإسراء)

لا فتيل ، ولا قطمير ، ولا نقير ، ولا حبة من خردل .

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47))

(سورة الأنبياء الآية : 47)

ينبغي أن نبدأ بالتفكر في خلقه أولاً ، ونثني بقرآنه ثانياً ، ثم إذا تفكرنا في أفعاله نعلم أن كل شيء وقع أراده الله ، وأن كل شيء أراده الله وقع ، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وأن حكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، عندئذٍ تستسلم ، فلذلك يقول الله عز وجل :

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ)

أي شيء خلقه الله عز وجل له وظيفتان كبيرتان :

بالمناسبة أيها الأخوة ، وهذا كلام دقيق ، أي شيء خلقه الله عز وجل له وظيفتان كبيرتان ، الوظيفة الأولى : أن تتعرف إلى الله من خلاله ، سواء تفكرت في جسمك ، أم في طعامك ، أم في شرابك ، أم في الجبال ، الوديان ، السهول ، الصحارى ، القفار ، البحار ، البحيرات ، الأنهار ، الينابيع ، النبات ، الأطيار ، الأزهار ، الأسماك ، سواء تفكرت في مخلوقاته أم في ذاتك ، وقد قال الله عز وجل :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ (53))

(سورة فصلت الآية : 53)

فالوظيفة الأولى أن تعرف الله من خلال هذا الذي خلقه لك ، هذه الوظيفة الأولى وقد عبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

((هِلالٌ خَيْرٍ وَرُشْد))

[رواه أبو داود عن قتادة]

يرشدني إلى الله وأنتفع به في دنياي ، الخير النفع المادي .

كنت أضرب مثلاً بشكل متكرر ، أنه إذا كنت فقيراً لا سمح الله ولا قدر فقراً مدقعاً ، ولا يتيح لك دخلك أن تلعق لعقة عسل واحدة ، وقرأت كتاباً عن العسل ، فخشع قبلك لله ، وعظّمته على بديع صنعه، ولم تلعق لعقة واحدة ، أنت حققت الهدف الأكبر من خلق العسل ، لأنك تعرفت إلى الله من خلاله ، ولو أكلت عسلاً ما شاء لك أن تأكل ، ولم تتفكر في هذا الشفاء للناس كما وصفه الله عز وجل فأنت لم تحقق شيئاً من سبب وجود العسل ،

((هِلالٌ خَيْرٍ وَرُشْد))

العالم الغربي حقق الناحية النفعية في كل شيء ، والمؤمنون في العالم حققوا الناحية التعريفية ، والدليل أن الله سخر هذا الكون تسخير تعريف وتكريم ،

((هِلالٌ خَيْرٍ وَرُشْد))

رشد ؛ تعريف ، خير ؛ تكريم ، إن دلك عليه أكرمك بهذا الشيء ، رد فعلك الطبيعي أن تشكره وأن تؤمن به ، أو أن تؤمن أو أن تشكره ، فإذا آمنت به وشكرته حققت الهدف من وجودك ، فإن آمنت به رد فعل التعريف ، وإن شكرته رد فعل التكريم ، حققت الهدف من وجودك ، وإن حققت الهدف من وجودك تتوقف المعالجة .

ينبغي أن تؤمن بالله من خلال آياته وأن تشكره من خلال نعمائه وإحسانه :

قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (147))

(سورة النساء الآية : 147)

انتهى كل شيء ،

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

إذاً أنت بين آيات كونية ، وآيات قرآنية ، وآيات تكوينية ، ابدأ بالكونية ، وثني بالقرآنية فهما متكاملان، إن استوعبت الآيات الكونية والقرآنية أمكنك أن تفهم الآيات التكوينية ، لا تعترض عندئذٍ على الله ، لا تقل : في العالم ظلم ، لا تقل : هناك أقوياء وضعفاء ، كل هذه الأسئلة التي يطرحها أهل الدنيا البعيدون عن الله عز وجل لا تطرحها أنت ، إذاً :

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا)

هنا في وظيفة محدودة ،

(لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

لكن هناك آيات أخرى :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ (13))

(سورة الجاثية الآية : 13)

تسخير تعريف وتكريم ، ينبغي أن تؤمن به من خلال آياته ، وينبغي أن تشكره من خلال نعمائه وإحسانه .

(قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

والحقيقة النجوم ، ماذا نعلم عن النجوم ؟ بعض الإحصاءات أننا لا نستطيع أن نعد بالعين المجردة أكثر من عشرة آلاف نجم فقط ، بينما أحد المجرات في أحدث موسوعة علمية معتمدة تقريباً ثلاثة آلاف مليار مجرة ، وفي كل مجرة مليون مليون نجم ، فالنجوم التي لا نراها لا تعد ولا تحصى ، لذلك قال تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38)وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الجاثية)

الجزء الأخير من القرآن الكريم جزء مكي فيه إرشاد إلى التفكر في الكون :

ذكرت لكم كثيراً أن بعد الأرض عن الشمس مئة وستة وخمسون مليون كم ، وأن الشمس تستوعب مليون وثلاثمئة ألف أرض ، وأن نجم قلب العقرب يستوعب الشمس والأرض مع المسافة بينهما ، والحديث عن النجوم لا ينتهي ، وقد قال الله عز وجل :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (101))

(سورة يونس الآية : 101)

وقال :

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24))

(سورة عبس)

وقال :

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5))

(سورة الطارق)

وقال :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1)وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2))

(سورة الشمس)

وقال :

(وَالْفَجْرِ (1)وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2))

(سورة الفجر)

تقريباً الجزء الأخير من القرآن الكريم جزء مكي فيه إرشاد إلى التفكر في الكون،

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

أي هذا الذي أراد أن يعلم ينتفع من هذه الآيات .

حينما تتخذ قراراً بالبحث عن الحقيقة أي شيء مهما صغر يدلك على الله :

أخواننا الكرام ، هناك آيات عديدة تحير ، قال تعالى مثلاً :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)).

(سورة الزمر)

شيء محير ، يا رب ، أنا إذا فكرت بهذه الآية أؤمن ؟ أم إذا كنت مؤمناً قبلها أنتفع بها ؟ أكثر الآيات :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

وقد قال بعض أصحاب النبي الكريم : أوتينا الإيمان قبل القرآن ، معنى ذلك أنك حينما تتخذ قراراً بالبحث عن الحقيقة أي شيء مهما صغر يدلك على الله ، بعرة تدل على البعير ، وأقدام تدل على المسير ، وماء يدل على الغدير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟

أعرابي راعي إبل قد يهتدي إلى خالق السماوات والأرض من بعرة جمل ، ومن غدير ماء ، ومن أقدام على الرمال ، وإنسان يجلس في أكبر محطة فضائية ، أو في أكبر محطة أرضية تتلقى معلومات عن الفضاء بتلسكوبات هي من أعظم ما في العالم اليوم ، أو هو على مجهر إلكتروني يرى الخلية بتفاصيلها ، إذا أراد هذا الأعرابي راعي الإبل أن يعرف الله ، وليس أمامه إلا ماء وأقدام وبعرة يصل إلى الله ، وإذا لم يرد هذا الذي في أكبر محطة فضائية ، ويرى المجرات العملاقة ، ويرى بالمجهر الإلكتروني النسج الخلوية ، فالأول يعرف الله بلا وسائل ، والثاني لا يعرفه مع كل هذه الوسائل ، بلا وسائل والثاني لا يعرفه مع كل هذه الوسائل ، لأن طلب الحقيقة يشبه الفيلم في آلة التصوير ، فإن لم تطلب الحقيقة قد تلتقط هذه الآلة آلاف الصور الرائعة ، لكن لأن صاحب هذه الآلة لم يطلب الحقيقة ليس فيها فيلم تنطبع عليه هذه الحقائق ، أما الذي يطلب الحقيقة ، ولو كان يملك أصغر آلة أو أقل آلة تعقيداً إنها تنفعه بل ترشده إلى خالقه ،

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

(من نفس واحدة)لها معنيان :

الآية التي تليها :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ(98))

(سورة الأنعام)

(مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

الآن هناك ستة آلاف مليون ، هؤلاء لعلهم قبل خمسين عاماً كانوا ثلاثة آلاف مليون ، وقبل كانوا أقل، وأقل ، وأقل إلى أن نصل إلى إنسان واحد ، كان أصل كل هؤلاء البشر سيدنا آدم ، الستة آلاف مليون أصلهم إنسان واحد هو سيدنا آدم ، هذا معنى .

المعنى الثاني :

(مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

أي جسم بالأرض تصميمه ، تصميم الدماغ ، الأعصاب ، القلب ، الشرايين ، الأذين ، البطين ، الكليتان ، المعدة ، مسار الأعصاب ، مسار الأوعية بدقة بالغة ، كل البشر بتصميم واحد ، وإلا لا

معنى للطب في العالم ، يدرس إنسان الطب في أمريكا ، ويطبق الذي قرأه في الصين ، هذه نعمة كبيرة جداً ، لولا أن بنية البشر واحدة ، وأجهزتهم واحدة ، وخصائصهم واحدة ، وتفاصيل أجهزتهم واحدة، لما أمكن أن يُستَخدم علم في مكان في مكان آخر .

إذاً :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

تجد غير التشريح ، في الفيزيولوجيا كل جهاز له خصائص ، الكلية مثلاً لو أن الضغط ارتفع لها موقف ، الضغط قل لها موقف ، الملح زاد لها موقف ، مصممة على برامج معقدة جداً ، المعدة كذلك مصممة على برامج معقدة جداً ، هناك إقياء ، وأحياناً في حالات معينة عدم قبول الطعام ، وهناك سعال ، وتثاؤب ، وبكاء ، هناك خصائص في الجسم ، القلب له خصائص يتسرع من ثمانين إلى مئة وثمانين ، وهناك أمر يأتي من ذاته ، أمر للثمانين من ذاته ، وأمر للمئة والثمانين يأتيه من الدماغ عن طريق الكظر إلى القلب ، قد يعقد مؤتمر لأمراض القلب يقول لك : أكثر من خمسة وعشرين ألف طبيب حضر من أنحاء العالم ليستمعوا إلى مئات المحاضرات ، حول القلب فقط ، القلب مجهز بجاهزية عالية جداً ، يُسَد أحد شرايينه ، ينشأ شُرينات قد تصل إلى عشرة ، أحياناً مجموع أقطارها تساوي قطر الشريان المنسد ، من صمم ذلك ؟ شيء لا يصدق .

تمشي في الطريق تستمع إلى بوق سيارة ، من يصدق أن في الدماغ جهاز يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين ؟ صوت البوق دخل إلى هذه الأذن قبل هذه الأذن ، التفاضل واحد على(1620) جزءاً من الثانية ، الجهاز بالدماغ يحسب ذلك ، يصدر أمر بالحركة إلى اليمين ، لأن البوق جاء من اليسار ، جهاز بالغ التعقيد .

خصائص النفس واحدة تحب الكمال والنوال والجمال :

إذاً أيها الأخوة ،

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

الآن هذا الجسم بتشريحه ، وبالفيزيولوجيا التي تنطبق عليه ، خصائص الأجهزة ، وخصائص الأنسجة ، أن القرنية تتغذى بالحلول غير القرنية بالشعريات ، تفاصيل طويلة جداً ، هذا الجسم بالغ الدقة مشابه لكل إنسان ، الآن نفس الإنسان النفس الواحدة :

((يا داود ذكر عبادي إحساني إليهم))

[رواه الطبراني عن أبي أمامة]

((جُبلتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، وَبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا))

[رواه البيهقي عن ابن مسعود]

خصائص النفس واحدة تحب الكمال ، تحب النوال ، تحب الجمال ، تحب أن تكون متفوقة ، تجب المحسن ، تكره المسيء ، تحب التعاون ، لها فطرة ، ولها جبلة ، ولها صبغة ، ولها طبع ، من صمم هذا كله ؟ الله عز وجل .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ)

، نحن جميعاً كنا مستقرين في ظهر أبينا آدم ، ثم انتقلنا من نسل إلى نسل ، حتى استقرينا في أجهزة آبائنا ، ثم في أرحام أمهاتنا ، ثم أصبحنا على الأرض مستقرين ، ثم نقلنا إلى المستودع ؛ القبر ، القبر مستودع ، مات ، إلى القبر ،

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ)

والاستقرار أنواع ،

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ)

والاستقرار أنواع كثيرة ، قد تستقر على أرض ، ثم ينقل هذا الإنسان إلى مستودع ليستقر ثانية إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفذ عذابها ،

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) .

هناك معنى آخر لمستودع : أنت في الشام ، وقد يكون غذاؤك مستودعه في درعا ، الخبز الذي تأكله مستودعه هناك ، والفاكهة في المكان الفلاني ، لك مستقر ولك مستودع يمدك بالغذاء ،

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) .

الإيمان بأن الله هو الرزاق يدفعك إلى طاعته :

(قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)

كنت أقول : لو دخلنا إلى بستان في منطقة خارج دمشق ، مزروع بالتفاح مثلاً ، البستان الخامس على اليمين ، الشجرة السابعة ، الغصن الثالث ، التفاحة الرابعة ، هذه لك ، لك أن تأكلها هدية ، ولك أن تأكلها ضيافة ، ولك أن تأكلها شراء ، ولك أن تأكلها لا سمح الله ولا قدر سرقة ، ولك أن تأكلها تسولاً ، طريقة وصولها إليك باختيارك ، أما هي لك ،

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ)

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

(سورة الروم الآية : 40)

أخواننا الكرام ، على رؤوس جبال هملايا في ينابيع ماء ، معنى ذلك أن هناك قمم أعلى منها مستودعات للماء كي يشرب الوعول في هذه الارتفاعات الشاهقة الماء ،

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ)

في بعض البلاد أذكر سبعة آلاف جزيرة ، ثم أنبئت أن الرقم أكبر بكثير ، لكل جزيرة نبع ماء عذب ،

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ)

أيها الأخوة ،

(مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

بُنية ، ووظائف ، وخصائص ،

(فَمُسْتَقَرٌّ)

بكل مرحلة كنا مستقرين في مكان ، وفي النهاية ننتقل إلى المستودع وهو القبر ، ثم لنستقر إما في جنة يدوم نعيمها ، أو نار لا ينفذ عذابها ، لا سمح الله ولا قدر .

الشيء الآخر ، أن المستقر في مكان ، وقد يكون مستودع غذائك في مكان آخر ،

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ)

والرزق لك ، وقد ورد في بعض الأحاديث النبوية قول النبي صلى الله عليه وسلم :

((إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله عباد الله ، وأجملوا في الطلب واستجملوا مهنكم))

[رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة]

لا تقبل حرفة لا ترضي الله ، لأن الذي لك هو لك ولن يكون لغيرك ، والذي ليس لك لن يكون لك ، الإيمان بأن الله هو الرزاق يدفعك إلى طاعته لا إلى معصيته من أجل الرزق ، وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذا الدرس .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(36-73): تفسير الآية 99 ، التفكر في خلق السماوات والأرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-09-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة الأنعام .

التفكر في الكون يدل على أن في الكون إلهاً عظيماً :

مع الآية التاسعة والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99))

أيها الأخوة الكرام ، هذه الآيات الكونية لها مثيلات كثيرات في القرآن الكريم ، تزيد على ألف وثلاثمئة آية ، هدفها التعريف بالله عز وجل ، إن نظرتَ إلى السماوات والأرض :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (73))

(سورة الأنعام الآية : 73)

إن نظرت إلى هذا الطعام الذي تأكله ،

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

فالتفكر في الكون يدل على أن في الكون إلهاً عظيماً ، يأتي الوحي فيذكر أن هذا الله العظيم هو الله الذي خلقكم ، والذي خلق الأكوان ، وخلق الإنسان ، ومتحكم بالحواس ، وما إلى ذلك

(وَهُوَ)

الله عز وجل

(الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

ما من كائن حي إلا وقوامه الماء فالماء قوام حياة الأحياء :

في آية أخرى يقول الله عز وجل :

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ (30))

(سورة الأنبياء الآية : 30)

الماء قوام حياة الأحياء ، وما من كائن حي إلا وقوامه الماء ، أما هذا الماء فالأصل أن الماء في البحار ، ونظرية تشكل البحار لا تزال مُختَلفاً فيها ، على كلٍ ببساطة بالغة : لو أنك وضعت وعاء على موقد ناري ، هذا الماء في الدرجة المئة يتبخر ، معنى تبخر ؛ أي انتقل من حالة مائعة إلى حالة غازية، والأجسام جميعها قد تتحول من وضع غازي إلى مائع إلى صلب ، أو بالعكس ، من صلب إلى مائع إلى غازي ، فالتسخين يقلب العنصر من صلب إلى مائع إلى غازي ، والتبريد يقلب العنصر من غاز إلى مائع إلى صلب.

هذه البحار سائلة ، مساحاتها واسعة جداً تزيد على أربعة أخماس الأرض ، ولهذه المساحة مغزى علمي كبير ، لولا هذه المسطحات المائية لما وجدت ورقة خضراء في اليابسة، الشمس تسلط على هذه المساحات الواسعة من البحار فتتبخر ، أي تنتقل من حالة مائعة إلى حالة غازية ، الغلاف الذي يحيط بالأرض بمسافة خمسة وستين ألف كم ، هذا الهواء من خصائصه أنه يحمل بخار الماء ، لكن هناك خصيصة فرعية لولاها لما كانت الأمطار ، هذا الهواء يحمل بخار الماء بنسبة تتناسب مع حرارته ، فمثلاً هواء حار يحمل كمية بخار ماء كبيرة ، فإذا بردناه يتخلى عن الكمية الكبيرة إلى الكمية التي تناسب الحرارة التي هو فيها .

أول خاصة أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الشمس بحسبان ، بمسافة تكفي لتبخير الماء ، بخار الماء يتصاعد ، يحمله الهواء ، الآن نحتاج إلى رياح ، كيف تكون الرياح ؟ الأرض فيها منطقة باردة ومنطقة حارة ، فالأصل أن الهواء في المنطقة الحارة ممدد مخلخل ، ضغطه منخفض ، وأن الهواء في المنطقة الباردة كثيف ، وضغطه عالٍ ومتماسك ، دائماً فرق الضغطين يجعل الهواء في المنطقة الأكثر ضغطاً يتجه إلى المنطقة الأقل ضغطاً ، لذلك لا بد من أن يتحرك الهواء من القطب إلى خط الاستواء بفعل الفرق بين الضغطين ، الهواء ذو الضغط المرتفع ينتقل إلى المكان الذي فيه ضغط منخفض تماماً، ومع دورة الأرض تكون جهة هذا الهواء شمال شرق ، لذلك هناك هواء ناتج من فرق الضغطيين ، هذا الهواء يحمل بخار الماء ، فإذا وصل إلى منطقة باردة تخلى هذا الهواء عن بخار الماء الزائد فكانت الأمطار ، إذاً :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

هذه القطرة لو لم يكن هناك هواء وسقطت ، سرعتها وتسارعها يقلبها إلى مطرقة ، وزنها اثنا عشر كيلو ، لكن هذه المطرقة مدببة لا تبقي على وجه الأرض إنساناً ، لكن الهواء هو الذي يخفف هذه السرعة ، ويجعله مطراً ، رحمةً ، غيثاً ، نعمة كبرى .

خلق الرياح من آيات الله الدالة على عظمته :

أيها الأخوة ، كلما تعمقت بالعلم عرفت عظمة الله عز وجل ، فإلهنا ، ربنا جل جلاله يقول :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

بحار بمساحات واسعة ، خصيصة في الهواء ، وهي حمل بخار الماء ، خصيصة فرعية ، أن كل درجة حرارة للهواء تحتمل كمية من بخار الماء ، الآن لا بد من أن يساق هذا السحاب أي بخار الماء إلى مناطق الأرض كي ينقلب إلى أمطار فلا بد من رياح ، وخلق الرياح من آيات الله الدالة على عظمته ، خلق الرياح متعلق بالضغط المرتفع والضغط المنخفض ، طبعاً جرب ذلك .

لو أنك دفأت غرفةً ، وشققت الباب ، وأشعلت شمعة ، تجد أن الهواء البارد يدخل إلى الهواء الدافئ ، لأن الهواء البارد مضغوط ، والهواء الحار أقل ضغطاً .

مرةً فيما أذكر كنت في الحج ، أقلعت الطائرة من جدة ، وقد لاحظت أن إقلاعها ليس حاداً بخط مائلٍ نحو الأرض ، لذلك أخذتْ مسافة أطول حتى ارتفعت عن سطح الأرض، أما في دمشق فالإقلاع بخط يشكل مع أرض المطار زاوية أكبر ، فلما سألت أحد الطيارين عن هذا السر ، قال : الهواء في دمشق بارد ، لذلك يحمل الطائرة بمسافة أقل ، تقلع ، أما الهواء في جدة فساخن ، مخلخل ، لا يحمل الطائرة ، تحتاج إلى مسافة أطول كي ترتفع عن الأرض ، فالفرق بين الضغطيين هو السبب ، الرياح تسوق السحاب .

الآن لو أن هذا السحاب يحمل في منطقة دافئة كمية بخار ماء كبيرة ، ثم واجه جبهة باردة يتخلى الهواء عن الكمية الزائدة ، عن النسب الدقيقة في حمل بخار الماء ، لا بد من ذرات تنعقد عليها حبة المطر ، إما الغبار أو أي ذرات أخرى ، هذه الذرات تنقلب إلى حبات مطر لطيفة ، لولا الهواء الذي يوازن سرعتها لوصلت إلى الأرض بوزن يقدر باثني عشر كيلو ، ولأنها صغيرة جداً لثقبت رؤوس الناس ، لكن الهواء يخفف من سرعتها ويجعلها متوازنة .

النبات والبذور من آيات الله الدالة على عظمته :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ)

تنظر إلى الأرض في الشتاء يابسة ، تراب ميت ، فإذا جاءه الماء في الربيع رأيت هذه الأرض اهتزت وربت ، الحشائش، الأزهار ، النباتات ، الشجرة التي في نظرك حطب تزهر ، ثم تورق ، ثم تثمر ، هذه آيات نألفها ، لكن الإنسان إذا ألف الشيء لم يفكر فيه ، هذه الشجرة مصنع .

حدثني أخ مزارع ، قال لي : أحياناً تقدم شجرة التفاح الواحدة أربعين صندوقاً بلا عادم ، بلا صوت ، بلا ضجيج ، بلا تلوث ، معمل قائم بذاته ، يحتاج إلى الماء ، لذلك الله عز وجل يقول :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

الحديث في درس سابق عن أن هذه البذرة التي تأتيها الرطوبة فينشق الرشيم ، وينبت سويقاً وجذيراً ، وما في البذرة من مواد غذائية يكفي لنمو السويق والجذير حتى يتمكن الجذير من امتصاص غذاءه مباشرة .

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

والحقيقة أن هذه الآية دقيقة ولها معانٍ كثيرة ، أحياناً نأكل أوراق النبات ، وأحياناً نأكل جذعه ، وأحياناً نأكل جذره ، وأحياناً نأكل أزهاره ، وأحياناً نأكل ثماره ، فغذاؤنا متنوع ،

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

شيء آخر ، أدويتنا من النباتات ، طعامنا من النبات ، ألبستنا من النبات ، أغذيتنا من النبات ، أثاث بيوتنا من النبات ، نوافذنا من النبات ، أساسات منازلنا من النبات ، لو أردت أن تدرس أنواع النبات ، نبات تنظف به ما بين أسنانك ، ونبات هو كالفرشاة ـ السواك ـ ونبات ليفي لتنظيف جسمك ، ونبات لصنع مسبحة تسبح الله فيها ، ونبات مطاطي لتعامل به المواد الصلبة مع بعضها بعضاً دون أن تتكسر، لا بد من مادة مرنة بين المواد الصلبة ، نبات يُصنع منه الورق ، نبات تصنع منه الأكواز ، مواد تصنع منه العقاقير ، نبات حدودي بين البساتين ، نبات زينة ، نبات جمالي ، نبات يجلب الأوكسجين ، لو أردت أن تعدد أنواع النبات لأمضيت كل العمر ولا تنتهي ، ولكن لو أردت أن تحصي أشكال الأوراق؛ ورق كالخيط تماماً ، أوراق الصنوبر خيوط ، أورق دائرية ، مربعة ، مكسرة ، منتظمة خضراء داكنة، خضراء غير داكنة ، الألوان والأشكال لا تعد ولا تحصى ، لكن الذي يلفت النظر ـ دققوا الآن فيما سأقول ـ إن أعظم معمل صنعه الإنسان لا يرقى إلى مستوى الورقة الخضراء ، تتم فيها تفاعلات لا تصدق ، الورقة تأخذ الفوتون من الشمس ، وتأخذ الآزوت ، وتأخذ المعادن من التربة منحلة بالماء ، ثم تصنعها مادة سائلة يسميه العلماء الكيلوس ، هذه المادة تصنع منها الجذور ، والجذوع ، والفروع ، والأغصان ، والأزهار ، والأوراق ، والثمار ، سائل واحد هذا الكيلوس الصاعد هو الماء الذي أذيبت فيه المعادن في التربة ، لأنه صاعد يحتاج إلى دسامات ، عدم رجوع ، لذلك في الأنابيب الصاعدة تجد دسامات عدم رجوع ، لكن هذه الأنابيب مدعمة بألياف محيطية لئلا تنسحق عند نمو النبات ، لو أن أنبوباً في المركبة انثنى لانقطع الماء عن المحرك واحترق المحرك ، حتى الماء لا ينقطع ليغذي أعالي الشجر ، هذا الأنبوب مدعم بألياف حلزونية من أجل ألا تضيق لمعته مع نمو النبات ، هناك ألياف تمنع أن تضيق اللمعة ، وهناك دسامات تمنع رجوع الماء ، هذه الخاصة الشعرية كل شيء يتحرك نحو

الأسفل ، نحو الجاذبية ، فكيف يصعد الماء من أعماق الأرض إلى أعالي الشجرة ؟ بخاصة شعرية بالغة الدقة :

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ (11))

(سورة لقمان الآية : 11)

التفكر في النبات طريق قصير إلى الله عز وجل وباب واسع تدخل منه على الله عز وجل :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

بعضهم قال:

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

أي نباتاً ككل شيء ، وكل شيء له خصائص ودقائق وأنواع كالنبات ، نباتاً ككل شيء ، أي كل شيء كالنبات ، لكن النبات ظاهر ، النبات تراه ينمو ترى فيه حياة ، لكن هذه الطاولة فيها حياة ، هذه الطاولة ذرات ، وكهارب ، وإلكترونات ، ومسارات ، ونواة، وحركة دائمة ، وحركة الذرات كحركة المجرات، فكأن الله يبين لنا أن النبات شيء ظاهر ، لكن أي شيء آخر هو كالنبات ، فيه حياة ، وتنوع ، وغنى ، ووظائف لا تنتهي ، أنت أحياناً بحاجة إلى خشب يستعمل للنوافذ ، هذه النوافذ معرضة للرياح والشمس ، أي خشب آخر غير هذا النوع الخاص بالنوافذ يلوي إلا خشب خاص كأن الله صممه للنوافذ والأبواب الخارجية ، فلا يلوي ، هذا يسمونه الكندي ، الآن تحتاج إلى خشب لأثاث البيت ، في أثاث خشبي يعيش مئتي سنة ، فيه قطع من الكراسي المصنوعة من خشب الزان يعيش مئات السنين ، خشب تحتاجه للصناعة ، لين وسهل التعامل معه ، الحديث عن الخشب ، عن أنوع الخشب ، عن أنوع النباتات ، عن أنواع الأوراق حديث لا ينتهي .

الآن هناك نبات تأتي الذبابة أو الحشرة تمر بهذا النبات فيقبض عليها إلى أن تموت ، الآن يخترعون أجهزة لقتل الناموس ، هناك نباتات تشبه هذه الأجهزة تماماً ، وعندي صورها ، في نباتات زينة ، المرج الأخضر ، هذا ليس فيه لا زهر ، ولا ثمر ، ولا جذع نبات أخضر ، لماذا صُمِّمَ ؟ ليكون متعة للعين ، هناك هدف جمالي منه ، هذا النبات ليس له وقت تسقط أوراقه ، لا ، نبات دائم الخضرة ، في نبات للمنظر ـ حدائق ـ ، هناك نبات يتحمل الضغط ـ ملاعب ـ ، إن أردت أن يكون الملعب بساطاً أخضر فهناك نبات خاص له، إن أردت أن يكون هذا المكان له منظر أخضر فهناك نبات خاص له ، نبات خيمة ، مظلة، أوراق خضراء دائمة الخضرة ، متراكبة ، ظلها ظليل ، دائرية ، جذعها مستقيم ، أكثر البيوت في اللاذقية أمامها شجرة ، وكأنها مظلة أمام البيت ، هناك نبات فواح الرائحة ، ونبات للزينة فقط ، ونبات داخل البيوت ، هناك آلاف الأنواع من نباتات الصالونات ، وآلاف الأنواع من

النباتات التي تزهر ولها منظر جميل ، وهناك نبات لو أكله الإنسان لمات فوراً ، نبات زينة ، مصمم لا للأكل بل للزينة ، لو فكرت في أنواع النباتات ، هناك نباتات تقيم لك خيمة بأقصر وقت ، أنا أرى التفكر في النبات طريق قصير إلى الله عز وجل ، وباب واسع تدخل منه على الله عز وجل

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

خَضِر تعني الأخضر والغضاضة :

أيها الأخوة ،

(فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً)

طبعاً أخضر ، أي لونه أخضر ، أما خضر يعني شيئين ؛ أنه ذو لون أخضر ، وأنه ذو ملمس ناعم غض ، تعني الأخضر والغضاضة ،

(فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً)

النبات مريح لين فيه نعومة ، وهذا اللون الأخضر ـ سبحان الله ـ أنسب لون للعين ، لذلك قبل عشرين أو ثلاثين سنة بدلت السبورات إلى اللون الأخضر ، ويرتدي الأطباء الثياب الخضراء لطمأنة المريض أنه لن يموت ، سيحيى ، رمز الحياة ، فاللون الأخضر له معنى كبير ، هناك ألوان جميلة لكن صارخة، اللون الأحمر جميل ، لكن بحجم قليل ، لو كان كل شيء أحمر الحياة لا تطاق ، لكن في وردة حمراء ، أحياناً في سقف بيت أحمر ، هذا يعطي المنظر جمال كبير ، أما المساحات الواسعة ، السماء زرقاء ، والبحر أزرق ، والنبات أخضر ، واللونان مريحان .

بالمناسبة ، لو درجنا اللون الأخضر ثمانمئة ألف درجة العين البشرية تستطيع أن تفرق بين درجتين ، لو أن اللون الأخضر وحده درجناه ثمانمئة ألف درجة العين السليمة تفرق بين درجتين .

(فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً)

هل نظرت إلى الرمانة كيف حبها متراكم ؟ كيف أن سطوحها ملساء ؟ كيف أن هناك تناسب بين السطوح ؟!! الذرة ، لو نظرت إلى بعض الفواكه ذات الحبوب المتراكبة ، صنع من ؟ وكل حبة رمان فيها خيط موصول إلى مكان التغذية ، لو نظرت إلى البطيخ شبكة أوعية ، الأوعية أوعية دقيقة جداً لا ترى بالعين تأكلها ، هي البطيخة نفسها ، لكن هذه الثمرة تستمد غذاءها من التربة .

إذاً :

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً)

انظر إلى الرمان ، إلى التين ، الحبة الواحدة كم بزرة فيها ؟ كل بزرة يمكن أن تكون شجرة ، تصميم من ؟ انظر إلى الذرة كل حبة موصولة بخيط ، هذه الخيوط خيوط موصولة بحبات البذور ، تصميم من؟ اختراع من ؟ من هيأ هذه النباتات ؟ نبات تأكله ، نبات تمتع عينك به ، نبات يحميك من اللصوص ـ حدودي ـ نبات تؤثث به بيتك ، نبات تجعل منه النوافذ ، نبات تستخدمه للصناعة ، نبات يصبح ورقاً تكتب عليه ، نبات تنظف به جسمك هذه الليفة وجه خشن ووجه ناعم ، الخشن يأخذ الخشن ، والناعم يأخذ الناعم ، تصميم من ؟!!

فوائد التمر :

(نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ)

قالوا : هذه النخلة أطول الأشجار عمراً ، يزيد عمرها على ستة آلاف عام ، وشجر النخيل الذي أكل منه النبي عليه الصلاة والسلام يأكل منه أهل المدينة اليوم ، هو ذاته ، أطول الأشجار أعماراً أشجار النخيل ، وثمار النخيل صيدلية ، فيه ست وأربعون مادة غذائية ، وهذه المادة الغذائية لا تتلوث .

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً (25))

(سورة مريم)

جاءت هذه الآية مع المخاض ؛ هذا التمر أيها الأخوة فيه مادة ملينة ، لأن التي على وشك الولادة ينبغي أن تكون أمعاؤها فارغة لتسهيل الولادة ، فيه مادة ملينة ، وفيه مادة مهدئة ، وفيه مادة قابضة للأوعية ، لأنها على وشك أن تنفتح عشرة آلاف وعاء شعري مع الولادة فلا بد من مادة قابضة ، ومادة ملينة ، ومادة مهدئة ، ومادة مغذية ، ومادة مقوية للعضلات ، كل هذه المواد في التمر .

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً (25)فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً (26))

(سورة مريم)

التمر أيها الأخوة أسرع مادة سكرية بسيطة أحادية ، تنتقل من الفم إلى الدم بعشر دقائق ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يفطر على تمرات ، هذه التمرات تنتقل إلى الدم وإلى مركز الشبع في الجسم ، يشعر بالشبع ، العشرة دقائق وقت صلاة المغرب ، الآن يجلس على المائدة متوازناً ، وليس جائعاً جوعاً يدفعه إلى أن يأكل فوق طاقته ،

(نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ)

الحب ما لا نواة له ، القمح حب ، أيضاً السنبلة حب متراكب ، البازلاء حب متراكب ، الفول حب متراكب ، حبوب مصفوفة في غلاف أخضر ، الفول ، والبازلاء ، واللوبيا ، والفاصولياء ، والقمح ،

والشعير ، والعدس ، والحمص ، كله حب متراكب ومرصوص أي ما فيه فراغات بينية مثل الرمان تماماً .

النخيل وأنواعه :

(فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ)

الآن النخل

(مِنْ طَلْعِهَا)

الطلع أول تشكل للثمرة ، أي براعم صغيرة ،

(وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا)

هذا الطلع ينشق عن قنوان أي الثمرة ، القنوان ؛ هو البلح مثلاً ، لكن التسلسل هو العذق ، ثم الشماريخ، ثم البلح ، لو درست هذه الأوعية التي ترد إلى هذا النبات .

بالمناسبة ، هندسة المياه تقتضي دائماً الأنبوب الكبير الذي يجري في الشارع قد يكون بقطر ستين سنتمتراً ، في الشارع الفرعي يصبح ثلاثين سنتمتراً ، في شارع فرعي آخر يصبح عشرين سنتمتراً ، كلما صار الشارع فرعيّاً يقل قطر الأنبوب ، للبناء إنش ، لكل بيت نصف إنش ، فتسلسل أقطار الأنابيب هو هندسة المياه ، ولا حلاً ثانيّاً غير ذلك ، لو عملت الأنبوب الرئيسي نصف إنش يموت الناس من عطشهم ، لو عملت في كل بيت خمسة إنش الماء لا يصل للنهاية .

هذا التصميم نفسه في التمر ، وفي البلح ، فتجد الأنابيب التي تغذي العزق كبيرة، قطرها كبير ، والسباطة أقل ، والشماريخ أقل ، ولكل بلحة أنبوب تتغذى منه ، تصميم من ؟ الله خالق السماوات والأرض ، هو الذي يطعمنا .

(وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ (14))

(سورة الأنعام الآية : 14)

(مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ)

أحياناً أشجار نخيل ليست شامخة ، وقد يكون الغصن محملاً بكمية كبيرة ، فينحني إلى الأرض ، فتصبح هذه الشماريخ دانية أي قريبة .

(وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ)

شكل التفاح ، كم نوع من أنواع التفاح ؟ هناك تفاح شتوي ، وتفاح حامض ، وتفاح كولدن ، وتفاح سكري ، أنواع التفاح لا تعد ولا تحصى ، أنواع العنب أكثر من ثلاثمئة نوع ، هناك مخبر في دوما

ثلاثمئة نوع من العنب ؛ عنب أسود ، وعنب أحمر ، وعنب أبيض زيني ، وبلدي ، وعنب سكره جارح، عنب سكره قليل ، عنب رخو ، وعنب قاسي .

أفضل غذاء في العالم غذاء الشرق الأوسط لأنه يعتمد في الدرجة الأولى على زيت الزيتون :

(وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ)

هذه الشجرة المباركة ، أحد أخوتي الكرام كان في أمريكا ، وعثر على دراسة تفيد أن أفضل غذاء في العالم غذاء الشرق الأوسط ، لا لأنهم أغنياء بل لأنهم فقراء ، هذا الغذاء يعتمد في الدرجة الأولى على زيت الزيتون ، وزيت الزيتون الحديث عن فوائده يحتاج إلى ساعات أو إلى شهور ، لكن يكفي أن أعلمكم أن عمر الإنسان من عمر شرايينه ، ولو نجا من كل الأمراض لا ينجو من مرض هو الذي ينهي حياته تصلب الشرايين ، فدواء الشرايين زيت الزيتون ، هو الذي يحافظ على مرونتها إلى أطول مدة ممكنة ، وهذا الزيت يخفض ضغط الدم ، وهذا الزيت يمتص كله ، ولا تبقى ذراته تجول في الدم ، يعني غير مشبع ، الزيوت المهدرجة مشبعة ، وهي خطرة ، حتى السمن المستورد هو في الحقيقة زيوت رخيصة جداً مشبعة ، هذه تبقى عالقة تسبب تضيق الشرايين .

والله أيها الأخوة ، والله لو يعلم الإنسان ما في زيت الزيتون هو الحقيقة إلى أن يكون دواء أقرب منه إلى أن يكون غذاء ، لذلك يعد أفضل غذاء في العالم غذاء الشرق الأوسط ، لأنه يعتمد على زيت الزيتون ، ولأننا فقراء يعتمد غذائنا على البروتين النباتي الحمص والفول ، وهو أسلم وأفضل ألف مرة من البروتين الحيواني ، والدول الغنية التي تأكل لحوم بكثرة كثيرة إصابتها بأمراض القلب ثمانية أضعاف من الدول الفقيرة ، فغذاءها زيت الزيتون ، والبروتين النباتي ، وغذاءها طازج ، العالم كله الآن كل حياته معلبات ، نحن عندنا سوق خضر تأكل خضر طازجة ، ولأننا فقراء نأكل الغذاء بأليافه ، نحن لم يدخل ببرنامجنا كل أكلنا عصير ، لذلك أكبر بلد بالعالم مصاب بسرطان الأمعاء هو اليابان ، يشربون العصير بكمية كبيرة جداً ، نحن نأكل تفاحة وبرتقالة ، يجب أن تأكل الفاكهة كما خلقها الله ، فيها مواد سيليلوزية ، هذه المواد أولاً مواد مالئة ، مواد تمتص الكولسترول الضار ، مواد تسرع مرور الطعام في الأمعاء ، مواد تنظف ثنايا الأمعاء بفضل هذا السليلوز فأعظم غذاء في العالم غذاء الشرق الأوسط ، لأنه يعتمد على الخضار الطازجة ، وعلى زيت الزيتون ، وعلى البروتين النباتي ، وعلى السليلوز هذه المواد المالئة .

أخواننا الكرام ، موضوع زيت الزيتون هذا يجب أن تقرؤوا عنه أبحاثاً كثيرة ، أنا في كتابي " الإعجاز العلمي " لي بحثان مطولان جداً عن زيت الزيتون .

الله عز وجل حقق لنا الهدف الجمالي بالإضافة إلى الفائدة :

(وَالرُّمَّانَ)

بعضهم قال : حمض الرمان مادة مذيبة للكولسترول ، ومادة مذيبة للبقايا التي تتوضع على جدران الشرايين .

(مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ)

الله عز وجل حقق لنا الهدف الجمالي ، صحن فاكهة ، قبل أن تأكل من هذه الفاكهة منظر الأجاص أصفر مع خد أحمر ، الدراق ، العنب البلدي والديراني أو الحلواني ، منظر الفواكه منظر جميل جداً ، فالله عز وجل قال لك : انظر إلى الفاكهة ، منظرها جميل ، وقوامها يتناسب مع أسنانك ، لو كان مثل الصخر ماذا تفعل بها ؟ قوامها يتناسب مع أسنانك ، ومنظرها جميل ، وطعمها طيب ، ورائحتها عطرة، كلها متناسبة ، لو أن الفاكهة مرة لا تأكلها ، طعم ، ورائحة ، ولون ، وقوام ، وحجم ، لو الإجاصة ثمانية كيلو ؟ غير معقول ، الإجاصة لإنسان ، البطيخة حجم عائلي هناك حجم صغير ، وحجم كبير ، وهناك فاكهة للأولاد ، هذه الكرمنتينا سهل تقشيرها، يحبها الطفل جداً ، الآن كل فاكهة لا أبالغ أيها الأخوة أكثر من ثلاثمئة نوع عنب ، مئات أنواع التفاح ، البندورة مئات الأنواع ، شيء للعصير ، وشيء للتصدير ، شيء للأكل ، شيء للطبخ ، كل نوع له صفات خاصة .

(مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ)

تدخل إلى بيت بلاستيكي يزرع البندورة ، كأن الحبة الناضجة تناديه ، تقول لك : تعال خذني ، لأن لونها أحمر داكن والباقي أخضر ، تدخل لحقل بندورة كل يوم ممكن أن تأخذ سحارتين أو ثلاث ، لأن هذه للصيف على مدى أربعة أشهر تعطي كل يوم كمية ، حسناً ما العلامة ؟ لونها أحمر والباقي أخضر كله ، كأنها تنطق : تعال خذني ، أنا استويت ، أنا جاهزة ، هذه العلامات من صممها ؟ عنقود العنب إن أردت أن تقطعه نحو الأسفل يعصر بيدك نحو الأعلى فهناك مفصل ، من صمم هذا ؟ البطيخة ، معقول الذي يجني البطيخ ينبطح أمامها ويدقها ، استوت ، أم لم تستو ، هذه مستحيلة ، الله صنع له علامة حلزون يمسكه ، إذا كسر استوت ، وإذا لم يكسر لم تستو ، علامة أنها نضجت ، تصميم من هذا ؟ هذا الإله الذي خلقنا ، والذي أطعمنا وسقانا .

التفكر في خلق السماوات والأرض هو أعظم عبادة على الإطلاق :

(انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

هذه آيات لقوم يؤمنون ، فإذا ذكرت الله يقفز إلى الذهن هذه الصور كلها ، الفواكه والثمار والمحاصيل، الآن أكثر الفواكه والثمار تنضج تباعاً ، المحاصيل لو أنها تنضج تباعاً عندك خمسة وعشرون دونماً قمحاً ، هل يعقل أن أمسك بالسنابل واحدة واحِدة لأعرف هل استوت ؟ شيء لا يحتمل، المحاصيل تنضج بيوم واحد ، أما الفواكه والثمار فتباعاً ، المحاصيل تخزن لكن ليس لك أن تحتكرها ، لأنها تسوس ، هذا السوس له وظيفة كبيرة جداً ، هذا السوس يشبه نهاية الصلاحية ، إذا خُزِّن القمح ثلاثين سنة فَقَدَ كل صلاحيته ، يأتي السوس ويُعلمكَ أن هذا القمح انتهى ،

(إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

أخواننا الكرام ، التفكر في خلق السماوات والأرض هو أعظم عبادة على الإطلاق ، هذه العبادة تتعرف بها إلى الله عز وجل .

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (91))

(سورة الأنعام الآية : 91)

كل إنسان ، هذه الآيات الكونية عبارة عن رؤوس موضوعات للتفكر في خلق السماوات والأرض .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(37-73): تفسير الآيتان 100-101، دور العقل ودور النقل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-09-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة الأنعام .

المحسوسات والمعقولات :

مع الآية المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ((100)

أيها الأخوة ، لا بد قبل تفسير هذه الآية من إعطاء فكرة سريعة عن إعطاء منهج في الإسلام ، نحن في الإسلام عندنا قضايا حسية ، أداة اليقين فيها الحواس الخمس ، ترى بعينيك الحاجة ، ترى الضوء متألقاً ، ترى المروحة تتحرك ، تستمع إلى الصوت ، تمسك بيد الشيء ، ولكن الأشياء الحسية ظهرت عينها وآثارها ، أداة اليقين بها الحواس الخمس ، ونحن وبقية المخلوقات سواء في هذا الحيز ، هذه دائرة ، الحسيات لها مكان ، لكن المعقولات أساسها شيء غابت ذاته ، أداة اليقين بالمعقولات العقل ، فأي شيء له أثر العقل أداة اليقين به، الحيز الأول حيز المحسوسات ، الحيز الثاني حيز المعقولات . عندنا شيء غابت عينه ، وغابت آثاره ، لا يستطيع العقل إدراكه ، بل أعقل عقلاء الأرض لا يستطيع أن يثبت وجوده ما الذي يؤكد لنا وجوده ؟ الخبر الصادق .

لذلك موضوع الملائكة ، والجن ، وما بعد الموت ، وأصل الخليقة ، والذي لا نراه بأعيننا ، والماضي السحيق ، والمستقبل البعيد ، والذات الإلهية ، وأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، هناك موضوعات كثيرة ، موضوعات إخبارية ، لذلك أنا أنصح الدعاة إلى الله ألا يتورطوا في طرح موضوعات إخبارية مع الذي لن يؤمن بالله أصلاً ، لو قلت له : الجن ، وأنت مؤمن بوجود الجن ، يقول لك : ما الدليل ؟ لو قلت له : الملائكة ، يقول لك : ما الدليل ؟ تقول له : الصراط يوم القيامة ، يقول لك : ما الدليل ؟ تقول له : الحوض الذي سنرده إن شاء الله ، يقول لك : ما الدليل ؟ فأنا أنصح الدعاة إلى الله أن يبتعدوا قدر ما يستطيعون عن قضايا إخبارية ، أما نحن كمؤمنين والله كل خلية في جسمنا ، وكل قطرة في دمنا ، تؤمن بإخبار الله لنا ، أما غير المؤمن بالله لا يمكن أن يُناقش بالقضايا الإخبارية .

العقل والنقل :

إذاً أنت بطولتك الآن أي قضية في الدين ، أو أي مقولة في الدين يجب أن تضعها في موضوعها ، فإن كانت حسية فالحواس الخمس أداة الإيمان بها ، وإن كانت عقلية فالعقل ، بمعنى أنها غابت ذاتها وبقيت آثارها .

الأعرابي ببساطة ما بعدها بساطة قال : الأقدام تدل على المسير ، الذي يمشي غاب عنا ، بقيت آثار أقدامه ، الآن مركبة تمشي على طريق ترابي تحكم أنها كبيرة أو صغيرة من حجم عجلاتها ، ومن آثار عجلاتها ، الأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، والبعرة تدل على البعير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟

إذاً دائماً وأبداً بيّن أن هناك قضية حسية ، وهناك قضية عقلية ، وهناك قضية إخبارية ، لا تناقش إنساناً اهتز أصل الإيمان عنده بقضية إخبارية تريحه وتستريح .

الآن عندنا تسلسل ، أنت حينما تستخدم عقلك ، ويجول جولة في الكون ، ويرى القوة ، ويرى الحكمة، ويرى الجمال ، ويرى القدرة ، ويرى العلم ، ويرى الحلم ، بعقلك يمكن أن تصل إلى الإيمان بالله واحداً ، وموجوداً ، وكاملاً .

الآن ولأن في القرآن دليلاً فيه ، بعقلك يمكن أن تستنبط أن هذا القرآن الكريم كلام الله ، وبعقلك يمكن أن تستنبط أن هذا الذي جاء بالقرآن الكريم هو رسول الله ، فأنت بعقلك وبالدليل العلمي ، لأن ذات الله عز وجل غائبة عنا ، لكن الكون كله يدل عليه ، الكون كله مظهر لأسمائه ، الكون كله تعبير عن صفاته وكمالاته ، لذلك بعقلك تؤمن بالله ، وبعقلك تؤمن بكتابه من خلال الإعجاز العلمي ، وبعقلك تؤمن برسوله ، وانتهى دور العقل ، وجاء دور النقل .

أخواننا الكرام ، مثل دقيق جداً : كيف يتكامل النقل مع العقل ؟ دخلت إلى جامعة، الأبنية ، وقاعات التدريس ، والمخابر ، وسكن الطلاب ، والحدائق ، والنظام ، وإدارة المرور، هذا كله تراه بعينك ، وتستنبط أن هذه الجامعة وراءها عقل مدبر ، وراءها مهندس كبير ، وراءها خبرات متراكمة ، لكن مهما كنت ذكياً ، ومهما تأملت في الأبنية ، وفي البيوت ، وفي المخابر ، وفي قاعات المحاضرات ، هل تستطيع أن تعرف من هو رئيس الجامعة ؟ مستحيل ، من هم عمداء الكليات ؟ ما نظام النجاح والرسوب ؟ ما شروط القبول ؟ هذه أشياء لا بد لها من نظام داخلي للجامعة ، من كتاب .

كل شيء عجز العقل عن إدراكه أخبرنا الله به :

مليون موضوع يمكن أن تعرفها من خلال تفكرك في خلق السماوات والأرض ، ومليون موضوع آخر لا يمكن أن تعرفها إلا من خلال الوحيين ، لذلك الحقيقة الدقيقة أن كل شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به .

أنت عندك ميزان بمحلك التجاري ، ومحلك التجاري يبيع بضائع للاستعمال المنزلي ، وتحتاج لميزان حساس جداً ، لكن من خمسة غرامات إلى خمسة كيلو ، هذا أقصى شيء ، وأحببت أن تزن سيارتك ، هذا الميزان المستخدم في البقالية لا يمكن أن يُستخدم لوزن سيارتك ، ولأن هذا الميزان يعجز عن وزن سيارتك ، الشركة الصانعة محترمة جداً كتبت لك على قطعة معدنية داخل المركبة وزن السيارة .

إذاً هناك أشياء تستنبطها بعقلك ، وأشياء يخبرك الله بها ، فالذي عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، هذا منهج البحث في الإسلام ، تؤمن بالله بعقلك ، وتؤمن بالنبي بعقلك، وتؤمن بالكتاب بعقلك ، ويتوقف العقل ويأتي دور النقل ، يخبرك الله لماذا خلقك ؟ يخبرك الله عن حقيقة الحياة الدنيا ؟ ماذا أعد لك في الآخرة ؟ يخبرك الله عن المنهج الذي ينبغي أن تتبعه لتسلم وتسعد ؟ فهناك جزء في الدين تَفَكُّر ، وجزء إخبار ، تَفَكُّر وإخبار ، تَفَكُّر وتلقٍّ ، تأمل وتلقٍّ .

الآن الموضوع إخباري محض ، موضوع الدرس اليوم إخباري محض ، الله عز وجل علمنا حينما أقسم ، فقال :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38)وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة)

معنى ذلك هناك شيء لا نبصره وهو موجود ، وعند علماء العقيدة ، وعند الفلاسفة أيضاً عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود ، هل في جو الجامع بث إذاعي ؟ نعم ، هل ترونه ؟ لا ، الدليل : ائتِ بمذياع ، وحرك المؤشر ، تستمع إلى قرآن كريم ، أو إلى نشرة أخبار ، معناها هناك بث ، والدليل أن المذياع إن دخل في نفق يتوقف الصوت ، لأن النفق حاجز منع وصول الإشارة إلى المذياع .

إذاً عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود ، كانت الأمراض تأتي من غير سبب ظاهر ، ثم اكتُشِف وجود كائنات دقيقة جداً لا تراها العين سميت بالجراثيم ، لأنها أصل المرض ، فالآية الكريمة :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

على الإنسان أن يستعيذ بالله مما يهتم له ومما لا يهتم له :

أحياناً هناك لفتات لطيفة في القرآن :

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6))

(سورة طه)

من كان يظن قبل مئة عام أن ثمة البترول ، الماس ، مناجم ذهب ، الآن الصراع في الأرض كله على ما تحت الثرى ، لا على ما فوق الثرى ،

(لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

هذه إشارات قرآنية ، لكن يقاس على ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض أدعيته يقول :

((اللهم إني أعوذ بك مما أهتم له ، ومما لا أهتم له))

[ورد في الأثر]

قد يكون الذي لا تهتم له مدمراً ، رجل في الأربعين من العمر وهبه الله شكلاً وسيماً يفوق حد الخيال ، ومالاً لا يحصى ، ومركبات ، ومطاعم ، ومعامل شيء لا يصدق ، دخل إلى الحمام وجد القاطع قد تعطل ، جاء بمن يصلح له هذا القاطع ، قال له : هذا المكان قريب ، قد يأتيه رذاذ فيفسده ، سأرفعه ، قال له : ارفعه ، فلما رفعه أصبح يحتاج إلى كرسي كي يصل إليه ، احتاج مرة أن يحركه فطلب كرسي ، انزاح الكرسي دخل في مقعده ، دخل للمستشفى عشرين يوماً ثم توفي .

الإنسان يهتم لأمراض كثيرة جداً ، يهتم لمصائب كبيرة ،

((ومما لا أتهم له))

فالإنسان يستعيذ بالله مما يهتم له ، ومما لا يهتم له ، وقد يدمر الإنسان على أتفه سبب ، وقد ينصر الله دينه العظيم بخيوط العنكبوت ، رسالة ، أمَة ، لو أنهم دخلوا إلى الغار لقتلوا النبي عليه الصلاة والسلام، لكن الله ألهم عنكبوتاً نسج على مدخل الغار عشاً ، فالله عز وجل من عظمته قد يدمر أكبر قوة مباشرة ، ما من حاجة ، لا تحتاج جيوش ، ولا طائرات ، ولا قصف ، ولا حاملات طائرات ، ولا قنابل عنقودية ، ولا رصد جوي ، ولا أي شيء ، إعصار سبب خسائر بقيمة مئة مليار إلى أن أصبحت دولة متخلفة ، كبنغلادش ، فقر ، ومرض ، ومساعدات ، وأضعف الدول أرسلت مساعدة خمسة وعشرين ألف دولار ، هذه صفعة وليست مساعدة ، الله كبير .

مفارقات حادة في خلق الله عز وجل :

والله أيها الأخوة أقول : الله كبير ، لا أرتوي من هذه الكلمة ، كبير ، يدمر أكبر أمة ، وأقوى أمة على أتفه سبب ، من كان يظن أن هذا المعسكر الشرقي الذي يملك من القنابل الذرية ما بإمكانه أن يدمر خمس قارات تدميراً كاملاً ، تداعى من الداخل ، تقوض من الداخل ، وكما دُمر هذا العملاق الشرقي نسأل الله أن يأتي دور الغربي فلذلك الله عز وجل يقول :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)

أحياناً هناك مفارقات حادة في خلق الله عز وجل ، الفيروس ، الآن هناك كائنات أقل من الفيروس ، جنون البقر سببه كائن أصغر من الفيروس ، وفي الحوت الأزرق الذي يصل وزنه إلى مئة وخمسين طنّاً ، وزن لحمه خمسون طناً ، ووزن عظمه خمسون طنّاً ، وزن دهنه خمسون ، ويستخرج منه تسعون برميل زيت ، ويقف الإنسان في فمه ، وجبته بين الوجبتين أربعة طن ، يرضع وليده ثلاثمئة كيلو كل رضعة ، يستهلك ثلاث رضعات طن حليب ، هذه نعمة الإنسان يحتاج فقط إلى كيلو غرامين حليب ، هو طن ، يقابله فيروس لا يرى بالعين ، الذرة لا ترى بالعين ، يقابلها المجرة ، نجم قلب العقرب يتسمع للشمس والأرض مع المسافة بينهما .

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64))

(سورة غافر)

يهلك أقوى قوى الأرض على أتفه الأسباب ، الآن هناك حمى الطيور ، يمكن أن تميت سبعة ملايين في قارة واحدة ، ذعر ، قال تعالى :

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ (31))

(سورة المدثر الآية : 31)

يمكن أن تميت سبع ملايين بالعدوى ، حمى الطيور ، فالإنسان مهما تفوق فهو قزم عند الله ، لكن الأحمق هو الذي يتأله .

((الْكِبْرِياء رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ))

[رواه مسلم وابن حبان وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة]

((الْكِبْرِياء رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي منهما شيئاً أذقته عذابي ، ولا أبالي))

[أبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة]

أقول لكم من هو الأحمق ؟ الذي يقول : أنا ، من أنت ؟ أنت لا شيء ، قل : الله.

العبادة هي الطاعة الخالصة :

أخواننا الكرام ، لا أفتأ أذكر هذا الدرس ، إن قلت : الله ، تولاك الله ، وإن قلت: أنا ، تخلى الله عنك ، جرب ، قل : هذه خبرتي ، هذه معلوماتي ، أنا ابن فلان ، أنا دخلي جيد جداً ، لو ارتفع البنزين يغطي، قد يذهب الدخل كله ، والله يا أخوان قصة لا أنساها : لي شخص أعرفه معرفة يقينية ، عندهم فتاة مناسبة للزواج ، خطبت ، خطبها مهندس محترم ، صاحب دين ، مقيم بالخليج ، وإذ تُخطب مرة ثانية من قِبل إنسان غني ، فالأم خططت لإلغاء الخطبة الأولى ، فأمرت ابنتها أن تقطع الاتصال الهاتفي ، وأن لا ترد على الرسائل ، وبعدئذ أبلغوا الخاطب ، وقد عقد العقد ، أن لا مصلحة لنا ، طبعاً خطبها هذا الثاني الغني ثم طلقها ، فخُطبت وتزوجت ، ثم طُلقت مرة ثالثة ، والآن هي عانس ، أحياناً الإنسان مهما بدا ذكياً الله يدمره إنسان :

((إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

الآية الكريمة :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)

كلمة شركاء تعني آلهة ، الله عز وجل إله ، والجن آلهة ، قد يتبادر للذهن أنهم عدوا الجن آلهة ، كلمة شركاء ، وكلمة يعبدون الجن ، أي يطيعون الجن ، الحقيقة هي أن العبادة خالص الطاعة ، طاعة خالصة ، محض طاعة ، ومحض محبة ، ومحض استسلام ، ومحض رضا ، إنك إن عبدت الله ينبغي أن تطيعه ، وينبغي أن تحبه ، وينبغي أن تتوكل عليه ، وينبغي أن ترجو ما عنده ، وينبغي أن تخاف منه وحده ، هذه العبادة ، والعوام يستخدمون هذا المعنى ، يقول لك : تزوج امرأة تعبده من دون الله ، أي تطيعه ، فإذا أشرك إنسان بالله ، وعبد غير الله لا يعني هذا أنه يسمي هذا الذي يعبده إلهاً ، لكن لمجرد أن تطيعه فقد عبدته :

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

[رواه الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت]

كن محسوباً على الله ولا تكن محسوباً على جهة أرضية :

أخواننا الكرام ، بالمناسبة لا يليق بالإنسان ، بل يزري به أن يكون لغير الله ، تكفي هذه الكلمة ، لا يليق بك ، ويزري بك أن تكون لغير لله ، أنت لله ، لذلك كن محسوباً على الله ، ولا تكن محسوباً على جهة أرضية ، والذي يحسب على جهة أرضية قيمته من قيمة هذه الجهة ، فإن سقطت سقط معها ،

بالمناسبة الدعوة إلى الله أكبر من أن تكون محسوباً على جهة أرضية أنت لله .

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18))

(سورة الجن)

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)

الجنة فيها معنى الخفاء ، والجن فيه معنى الخفاء ، والترس المِجن فيه معنى الخفاء ، كل شيء يخفي شيئاً فهو من مادة جنن ، الأصل ثلاثي .

(وَخَلَقَهُمْ)

الشيء العجيب :

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد))

[رواه الحكيم البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء]

إذا أنت دعوت إنساناً ، وتكلفت ، وهيأت له طعاماً نفيساً ، وضيافة حارة ، ومقعداً وثيراً ، وابتسامة مشرقة ، بعدما أكل المقبلات ، والعصير ، والطعام النفيس ، والحلويات ، والفواكه ، توجه إلى خادم في البيت ، وقال له : شكراً لهذه الدعوة ، كم يكون موقف هذا الضيف حقيراً ، كل هذا الإكرام من صاحب البيت ، والطعام طعامه ، والإكرام إكرامه ، والكلفة دفعها ، ثم يتوجه هذا الضيف إلى خادم البيت ويظهر له كل امتنانه .

هذا الذي يحدث للناس ، تجده ينسى الله ، إن جاءه خير من إنسان ينسى الله عز وجل ، إن سمح الله لطبيب أن يشفي ابنه ينسى الله ، يقول لك : هذا الطبيب ليس له شبيه ، فهناك شرك واضح جداً .

الشرك الخفي :

أخواننا الكرام ، الآية مخيفة :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106))

(سورة يوسف)

الشرك الخفي أن ترى مع الله أحداً ، نحن بحالة شرك خفي كبيرة جداً ، هناك أناس إذا ابتسم وحيد القرن يرتاح ، إذا ابتسم ، وإذا هدد يقلق ، الآن يفعل حصاراً اقتصادياً ، غداً يرتفع كل شيء ، هناك خوف من غير الله .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174))

(سورة آل عمران)

أخواننا الكرام ، كلمة أقولها لكم بصراحة : لا يمكن أن يأمرك أن تعبده ويسلمك إلى غيره لا تصح .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (123))

(سورة هود الآية : 123)

متى أمرك أن تعبده ؟ بعد أن طمأنك ،

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

وحينما تعتقد أن مع الله جهة تنفع وتضر فهذا نوع من الشرك ، طبعاً هناك أقوياء على الشبكية ، أما على الإدراك العميق فليس إلا الله عز وجل .

نية الكافر شرّ من عمله :

قال تعالى :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى(17))

(سورة الأنفال الآية : 17)

مرة رأيت في محافظة آية ، تقريباً من أضخم قياس قرأته في حياتي :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (10))

(سورة الفتح الآية : 10)

القصة كلها وحوش كاسرة ، مخيفة ، متوحشة ، لكنها مربوطة بأزمة محكمة بيد جهة قوية ، وعليمة ، ورحيمة ، وحكيمة ، وهذا الزمام إن أرخي وصل الوحش إلي فأكلني ، وإن شد الزمام أبعده عني ، أنا علاقتي مع من ؟ مع الوحش أم مع الذي يمسك بالوحش ؟ هذه القصة كلها ، والله وحوش مخيفة ، والله يقول الله عز وجل :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

نية الكافر شر من عمله ، والله يتمنى أعداء الله ألا نأكل ، وألا نشرب ، يتمنون أن نكون خداماً لبضاعتهم ، هذه الحقيقة ، لكن عندما خلقك الله ما أسلمك لغيره حتى طمأنك ، إله يقول:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

وقال :

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ (54))

(سورة الأعراف الآية : 54)

الآن شركة تبيع طائرة ، باعتها ، بعد أن باعتها آمر الطائرة المقاتلة لا الشركة الصانعة بل الشركة التي اشترتها ، قد تأمرها أن تقصف أو لا تقصف ، مع الله عز وجل الأمر خلاف ذلك ،

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

معنى التوحيد :

أحياناً أساليب يرتكبها أعداء الله كبيرة جداً ، كما سمعتم بسجن أبو غريب ، كلاب لا تُطعم لأسبوعين ، فإذا وضعت في مكان مع إنسان تأكله عن آخره ، إنسان تقي ، الكلب لم يفعل له شيئاً ، درس لا ينسى ، العادة يجب أن يأكله بكامله ، ألجمه الله عز وجل ، الأمر بيد الله عز وجل ، ما دمت تعتقد أن الله بيده كل شيء فهذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، لا يمكن أن يأمرك أن تعبده وقد أسلمك إلى غيره ، لا يمكن أن يأمرك أن تعبده ورزقك بيد غيره ، بيده صحتك ، ورزقك ، وأجهزتك ، وأعضاءك ، وأوعيتك ، وكل شيء ، ومن فوقك ، ومن تحتك ، ومن حولك ، أولادك ، زوجتك ، ماذا قال بعض العارفين بالله ؟ قال : أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي ، وأحياناً يجب أن تعرف الزوجة مقامها عند ربها من أخلاق زوجها ، قد تشتكي من زوجها القاسي ، يضربها ، هي لا تطيع الله عز وجل ، المؤمن له هيبة .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)

أنا ألقيت أعتقد بهذا المسجد حوالي عشرين درساً عن الجن ، هناك من يعبد الجن من دون الله ، وهناك خرافات ، وأباطيل ، وأكاذيب ، ودجل ، وترهات ، وابتزاز لأموال الناس ، وانتهاك لأعراض باسم الجن ، الله عز وجل قال:

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (102))

(سورة البقرة الآية : 102)

وقال :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ (22))

(سورة إبراهيم الآية : 120)

معنى الخرق :

يجب أن تؤمن بالله وأنت حر ، ولا يستطيع أحد أن ينال منك إلا أن يشاء الله ،

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ)

أي خلق الذي يعبد الجن ، وخلق الجن ، خلقهم جمع خلق من يعبد الجن وخلق الجن .

(وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ)

انظر الخرق ، سطح أملس جميل مستوٍ جميل خُرق ، التوحيد مريح ، التوحيد يعطي أمن ، التوحيد يعطي طمأنينة ، التوحيد يعطي ثقة بالنفس ، فجاء هؤلاء وخرقوا هذا التوحيد بادعائهم أن الجن يفعلون ما يشاءون ، فلذلك كتابات وخزعبلات ، ويجب أن تقدم الخروف الفلاني لونه أسود ، وابتزاز للأموال لا ينتهي .

أخواننا الكرام ، كيف إذا كان الجدار مطلي وجديد خرقته ، التوحيد خرق بادعائهم أن الجن شركاء لله عز وجل ، هذا هو الخرق ،

(وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ)

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ (30))

(سورة التوبة الآية : 30)

أهل الله ادعوا أن لله ولداً ، والعرب قالوا : إن لله بنات ، والآية :

(وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً (40))

(سورة الإسراء الآية : 40)

بعض العرب قالوا : إن هناك علاقة نسبية بين الله وبين الجن ، كله ادعاء ، والعوام لئن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، الله عز وجل :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (11))

(سورة الشورى الآية : 11)

لا في ذاته ، ولا في أفعاله ، ولا في صفاته .

أحد أكبر أسباب العذاب أن تدعو مع الله إلهاً آخر :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ)

أي اختلقوا ، فكأن التوحيد جسم سليم خرق بالشرك ، أنت تنسجم مع نفسك ، الأمر بيد الله ، والله هو المسيطر ، هو الحاكم ، هو القوي ، هو المدبر ، هو الرازق ، يأتي إنسان يقول لك : لا ، فلان ، صرفك عن خالق السماوات والأرض إلى شخص قد يكون لئيماً ، قد يكون قاسياً ، قد يكون جاهلاً ، قد

يكون قاصر النظر ، فالشرك يعدد ، قال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء)

أحد أكبر أسباب العذاب أن تدعو مع الله إلهاً آخر ،

(وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ)

لذلك

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

الإنسان بحاجة إلى ولد يعينه إذا تقدم به السن ، والمرأة بحاجة إلى بنت تعينها إذا تقدمت بها السن ، لكن هل الإله كالبشر ؟

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

فكيف تتصور له أولاد أو له أبناء وبنات ، وأن هناك علاقة نسبية مع الجن .

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101))

(سورة الأنعام)

طبعاً هذه الآيات تنفي أن يكون لله صاحبة ، أو ولد ، أو شريك ، أو نسب .

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(38-73): تفسير الآية 101، الإنسان فقير إلى الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-09-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة الأنعام .

الله سبحانه وتعالى سمح لذاته العلية أن يوازنها مع خلقه :

مع الآية الواحدة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)

أيها الأخوة ، معنى بديع أنه خلق السماوات والأرض على غير مثال سابق ، الإنسان في كل مخترعاته رأى شيئاً في الطبيعة فقلده ، فإن صنع الغواصة فتقليداً للسمكة ، وإن صنع الطائرة فتقليداً للطائر ، وإن اكتشف العجلة فرأى شجرة تتدحرج فانطلقت من هذه الصورة فكرة العجلة ، فأي شيء تصورته هو مأخوذ من شيء سابق .

إذاً الإنسان حينما يصنع شيئاً ، أو حينما يدعي أنه اخترع شيئاً فلا بد من مثال سابق كان في مخزونه، ومن هنا انبثق هذا الشيء ، فالإنسان مثلاً خلق شيئاً تجاوزاً أقول : من كل شيء ، شيئاً من كل شيء ، لكن خالق السماوات والأرض خلق كل شيء من لا شيء ففرق كبير بين أن تقول : الإنسان صنع شيئاً من كل شيء ، وبين أن تقول : إن الله خلق كل شيء من لا شيء ، إذاً هو

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لكن الله سبحانه وتعالى سمح لذاته العلية أن يوازنها مع خلقه فقال :

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14)

(سورة المؤمنين)

الموازنة بين خلق الإنسان وخلق خالق الأكوان :

الإنسان كيف سماه الله خالقاً ؟ سماه خالقاً مجازاً ، لأنه اخترع آلة تصفية للكلية حجمها بحجم هذه الطاولة ، ويجب أن يستلقي المريض إلى جانبها ثماني ساعات ، ولا تستطيع هذه الآلة مهما دقت وتطورت أن تنقي الدم من حمض البول كلياً ، لا بد من نسبة تبقى ، وهذه النسبة تسبب آلام وشدة نفسية وكآبة ، لكن هذه الكلية التي خلقها الله عز وجل تعمل بصمت ، وبلا ضجيج ، ودون أن تعطلك

عن عملك ، وأنت تعمل ، وأنت تسافر ، وأنت في مكتبك ، وفي معملك ، وفي الطريق ، تمشي الكلية تعمل ، والدم يقطع فيها طريقاً طوله مئة كم ، يقطعه في اليوم خمس مرات دون كلل أو ملل ، واحتياطي الكلية عشرون ضعفاً ، الكلية الواحدة فيها احتياطي عشرة أضعاف حاجة الإنسان إلى التصفية ، فلو وازنت بين كلية صناعية بحجم هذه الطاولة ، ولا تؤدي مهمتها تماماً ، وهي عبء على الإنسان لا بد من أن يستلقي إلى جانبها ساعات طويلة ، ولا بد من أن يدفع كل جلسة تقريباً ثلاثة إلى أربعة آلاف ليرة بأسعار مخفضة ، وفي الأسبوع مرتين أو ثلاثة .

أما الكلية التي أودعها الله في الإنسان فحجمها كحجم البيضة ، تعمل بانتظام ، بصمت ، بلا ضجيج ، بلا صوت ، فلو وازنت بين كلية صناعية وكلية طبيعية لعرفت معنى قوله تعالى :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

لو وازنت بين عين ، هذه العين التي ترى بها رؤية شفافة شفافية تامة ، لأن قرنية العين زودها الله بطريقة متميزة في التغذية ، فقرنية العين طبقة شفافة لا تتغذى عن طريق الشعريات كأي نسيج من جسم الإنسان ، بل تتغذى عن طريق الحلول ، أي التسرب من أجل أن تكون رؤيتك صافية تامة بشفافية تامة ، هذا من تقدير الله عز وجل .

أما الشبكية فتقريباً حجمها ميليمتر وربع ، فيها مئة وثلاثون مليون مخروط وعصية ، بينما بأحدث آلة تصوير رقمية احترافية بالميليمتر مربع لا تزيد مستقبلات الضوء على عشرة آلاف ، أما في شبكية العين ففي الميليمتر المربع مئة مليون مستقبل ضوئي ، من أجل أن تفرق بين ثمانية ملايين لون ، ولو أن اللون الواحد درج إلى ثمانمئة ألف درجة لاستطاعت العين السليمة التفريق بين درجتين

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لو ذهبنا نتحدث عن الموازنة بين خلق الإنسان وخلق خالق الأكوان ، ذاكرة الإنسان لا يزيد حجمها على حبة العدس ، إنسان عاش ستين سنة تقريباً ، في ذاكرته ستون مليار صورة مرتبة ترتيباً دقيقاً ، هناك صور تستدعيها مباشرة ، هناك صور تخزن في مكان بعيد قلمَا تحتاجها ، هناك صور تمحى ، إنسان سافر إلى بلد ، وأخذ رقم هاتف ، وهو لا ينوي التعامل مع هذه الشركة ، الرقم يمحى فوراً ، هناك تثبيت ، وأولويات ، وترتيب ، ثم محو ، لو وازنت بين العين وآلة التصوير .

الفرق بين صنعة الله عز وجل وصنعة الإنسان :

لو وازنت بين هذه الأذن ، ما في الأرض جهاز واحد يكبّر الصوت ويخفضه في آن واحد ، يقوم بمهمتين متناقضتين ، فإذا كان الصوت ضعيفاً فآلية الأذن تكبر هذا الصوت ، وإذا كان الصوت عالياً جداً فآلية الأذن تضعف هذا الصوت

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

أعلى طبيب أسنان مهما تقدمت خبرته فلا بد من أن يخدر المريض كي يقلع سنه، التخدير يريحه من ألم قلع السن ، لكن إدخال إبرة المخدر في اللثة مؤلم جداً ، أما أن تجد طفلاً صغيراً يفاجأ أن سنه مع طعامه ، كيف قلع سنه من دون ألم إطلاقاً ؟ هذا لطف الله عز وجل ، هذا مجال واسع جداً لكي توازن بين صنعة الله عز وجل وصنعة الإنسان .

الحليب في ثدي المرأة جاهز ، ساخن شتاء بارد صيفاً ، معقم ، نسبه تتبدل في أثناء الرضعة الواحدة ، هل بالإمكان أن نصنع حليباً ، نضعه في قارورة ، نعطيه للطفل في البداية 60 % ماء 40 % دسم ، في نهاية الرضعة 60 % دسم 40 % ماء ، فوق طاقة البشر .

الله عز وجل يقول :

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

والله عندي موسوعة من أضخم الموسوعات العلمية مقسمة إلى أجزاء متعلقة بمفردات العلم ، فأحد هذه الأجزاء متعلق بالطيور ، كتبتْ كلمة في المقدمة : إن أرقى طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطير ،

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

الطير يطير ستاً وثمانين ساعة بلا توقف ، نحن أعلى طائرة سبع عشرة ساعة بلا توقف ، ست وثمانون ساعة بلا توقف ، ولا يزال موضوع اهتداء الطيور إلى أهدافها شيء فوق إمكانية العقل البشري ، وضعت عشرات الفرضيات ، ولم تنجح فرضية واحدة ، كيف يهتدي الطير إلى عشه ؟ طير له عش في حي الشيخ محي الدين في بيت بناؤه قديم ، وسافر إلى جنوب إفريقيا بالشتاء ، الآن يعود الطير إلى دمشق ، فلو أخطأ في درجة واحدة في الطيران لجاء في تونس ، لو أخطأ بدرجة أخرى لجاء في بغداد درجة واحدة ينتقل شرقاً أو غرباً ، كيف يهتدي إلى دمشق ؟ ثم إلى الشيخ محي الدين ، ثم إلى هذا البيت ، هل عن طريق معالم الطبيعة ؟ يمشي في الليل عن طريق المغناطيس ؟ وضع الطير في حقل مغناطيسي مخالف لهدفه ، فتابع السير باتجاه الهدف ، يا ترى رحلة ثابتة شمال جنوب ،

جنوب شمال ؟ أخذت الطيور إلى الشرق من بريطانيا إلى الهند ، ووضعت علامات في أرجلها فإذا هي في بريطانيا ، ولا تعرف الطريق سابقاً .

لذلك ما من فرضية وضعت لاهتداء الطيور إلا نقضت ، إلى أن توصل عالم إسلامي إلى أن الله يتولى بذاته هداية الطير إلى هدفه :

مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ

(سورة الملك الآية : 19)

أكبر شيء ثابت في الإيمان هذا الكون :

(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

كلما تقدم العلم ظهرت حقائق مذهلة ، فهذا معنى قوله تعالى :

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

من قال : إن الطفل حينما يولد ، وقد درسنا في الجامعة في علم نفس الطفل أن الطفل لا يزود بأي قدرة ، ولا مهارة ، ولا خبرة في أي شيء ، كل خبراته ، وكل مهاراته ، وكل إمكاناته يكتسبها بعد أن يولد ، إلا منعكساً واحداً بالغ التعقيد ، لولا هذا المنعكس لما كنا في هذا الجامع ، ولا ما كان الجامع أصلاً ، ولما كانت دمشق ، ولما كان العالم ، منعكس بسيط ، آلية معقدة جداً يزود بها الطفل ، ويستخدمها بعد الولادة مباشرة ، منعكس المص ، هل تستطيع وأنت أكبر عالم ، وأكبر مربٍّ أن تقنع طفلاً ولد لتوه ، الآن ، أن يا بني ضع فمك على ثدي أمك ، وأحكم الإغلاق ، وإياك أن يتسرب الهواء في أثناء المص ، عندئذٍ لا يأتي الحليب ، أحكم الإغلاق ، واسحب الهواء يأتيك الحليب ، هل من قوة في الأرض تقنع طفلاً ولد الآن كيف يمسك ثدي أمه ؟ آلية معقدة جداً ، جُبل بها الإنسان بشكل آلي ، وفي حالات نادرة الطفل لا يزود بهذه الآلية فيموت ، ما من طريق إلى حياته .

الحديث عن جسم الإنسان ، وعن خلق الأكوان ، وعن الأطيار ، وعن الأسماك ، وعن النباتات ، وعن البحار ، وعن الجبال ، هذا الكون بين أيديكم كتاب مفتوح ، قرآن صامت ، أكبر شيء ثابت في الإيمان هذا الكون ، بأفعال الله عز وجل تتزلزل ، شعوب مقهورة ، وحروب ، واكتساح ، وجرائم ، وظلم عام ، بأفعال الله لا تستطيع أن تفهمها إلا في ضوء القرآن ، وفي ضوء الكون ، أما الثابت الأول الذي يخضع له كل إنسان في كل مكان هو الكون ، أكبر دعامة لإيمانك هذا الكون ، كتاب مفتوح ينطق بعظمة الله ، ينطق بوحدانيته، ينطق بوجوده ، ينطق بقدرته ، ينطق برحمته ، ينطق بعلمه ، ينطق بعظمته ، هذا الكون هو أقرب طريق إلى الله بالتفكر في خلق السماوات والأرض ، وأوسع باب ندخل منه على الله ،

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الله سبحانه وتعالى سخر هذا الكون تسخير تعريف وتكريم :

لماذا صمم الشعر بلا أعصاب حس ؟ لو كان الشعر فيه عصب حسي لقلت لنا : والله أنا ذاهب للمستشفى لأجري عملية حلاقة ، لا بد من تخدير شامل ، أو يكون كالوحش ، أما أن تزود الأشعار بأعصاب حركة ، كل شعرة فيها وريد ، وشريان ، وعصب حركي ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية ، لكن ما فيها عصب حسي ، ولا في الأظافر عصب حسي ، من صمم الإنسان هكذا ؟

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

من صمم العين فيها مادة مضادة للتجمد ؟ فأي مكان درجته تحت العشرة في المئة في احتمال أن يفقد الإنسان بصره لتجمد ماء العين ، إلا أن الله سبحانه وتعالى أودع في العين مادة مضادة للتجمد ،

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

من صمم أن كل عنصر في الأرض له درجة انصهار خاصة ؟ لو أن كل العناصر ـ المئة والثلاثون ـ فيما أعلم تنصهر بدرجة واحدة لرأيت الكون كله غازاً ، أو سائلاً ، أو صلباً ، أما الطاولة صلبة ، هواء تستنشقه ، ماء سائل تشربه ، مادة طرية كالكوشوك تستعملها ، من الممكن أن يصبح البازلت بخاراً ، غازاً ، نظرياً الآن البراكين هي سائل ، البازلت يحتاج إلى آلاف الدرجات كي ينصهر ، لكن يمكن أن ينصهر بالنهاية ، ويمكن أن يتبخر ، يعني في بازلت غاز ، لكن هذا شيء مستحيل في عالم الأرض ، أما قاعدة عامة : أي عنصر بالتسخين يتمدد ، بالتبريد ينكمش ، معنى بالتسخين أي حركة ذراته تتسارع وتتباعد ، وبالتبريد حركة ذراته تتباطأ وتتقارب ، فأي غاز ممكن أن يصير صلباً ، والدليل الغاز الذي نستعمله ، هو سائل بالقارورة يمكن أن يتجمد ، أي شيء ينتقل من حالة الصلابة إلى الميوعة إلى الغازية ، أما أن تجد في الأرض في آن واحد هواء ، غازات ، ومواد سائلة كالماء ، والسوائل كلها ، ومواد صلبة كالحجارة والحديد .

مرة ثانية أيها الأخوة ، الكون قرآن صامت ، الكون كتاب مفتوح ، الثابت الأول في الإيمان ، أي اعتراض على الدين ، أي نقض لآية في زعم الواهمين ، أي اعتراض على السيرة ، أي اعتراض على حكم فقهي ، يمكن أن يأتي إنسان ذكي ، ويكشف ملمحاً يعده نقصاً في آية أو في حديث ، وهذا شيء موجود ، أما الكون فيخضع له كل العلماء ، لذلك هذا أكبر عالم فيزيائي أينشتاين الذي جاء بالنظرية النسبية ، هذا يقول : كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون ، عليمة هي أعلم ما تكون ، حكيمة هي أحكم ما تكون ، رحيمة هي أرحم ما تكون ، هو إنسان حي ولكنه ميت ، فحياتك في

معرفة الله ، وتحقيق أهدافك في معرفة الله ، وتحقيق الهدف الذي خلقت من أجله هو معرفة الله ، لأن الله سبحانه وتعالى سخر هذا الكون تسخير تعريف وتكريم ، تعريف بذاته ، وبقدرته ، وبأسمائه الحسنى ، وتكريم كي ننتفع به في الدنيا .

أي شيء خلقه الله له وظيفتان ، وظيفة إرشادية ، ووظيفة نفعية ، فإن انتفعت بوظيفته الإرشادية فقد حققت الهدف الأكبر من هذا الشيء ، وإن لم تنتفع بالوظيفة الإرشادية وانتفعت بالوظيفة المادية حققت الهدف الأصغر .

أي شيء خلقه الله له وظيفتان :

أي شيء خلقه الله له وظيفتان ؛ وظيفة إرشادية ، ووظيفة نفعية ، فإن انتفعت بوظيفته الإرشادية فقد حققت الهدف الأكبر من هذا الشيء ، وإن لم تنتفع بالوظيفة الإرشادية وانتفعت بالوظيفة المادية حققت الهدف الأصغر .

العالم الغربي انتفع إلى أعلى درجة بالوظيفة النفعية للأشياء ، أما المؤمن فينبغي أن ينتفع الانتفاع الأكبر بالوظيفة الإرشادية .

للتقريب : إنسان فقير جداً ، لا يملك أن يشتري لعقة عسل ، ولم يذق العسل في حياته ، لكن وجد مقالة في مجلة عن النحل ، وعن عظمة هذه الحشرة ، فدمعت عينيه تعظيماً لله عز وجل ، هذا الإنسان الذي لم يذق طعم العسل حقق الهدف الأكبر من خلق العسل ، مع أنه لم يذقه ، والذي يتفنن في شراء أنواع العسل هذا من الزهر الفلاني ، ولم يفكر في هذا الشيء الذي خلقه الله عز وجل عطل الهدف الأكبر من خلق العسل ، فالتفكر في الكون هو تحقيق للهدف الإرشادي ، فلذلك الله عز وجل قال :

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147)

(سورة النساء)

كل شيء خلقه الله له هدف إرشادي وهدف نفعي ، فالهدف الإرشادي موقفك منه أنك تؤمن بالله ، والهدف النفعي موقفك منه أن تشكر الله ، فأنت إذا آمنت وشكرت حققت الهدف الأكبر من وجودك وعندئذٍ تتوقف المعالجة ،

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

أنت إذا آمنت وشكرت حققت الهدف الأكبر من وجودك .

يا أيها الأخوة الكرام ، مجال الكون واسع جداً ، بالعين المجردة يمكن أن ترى عشرة آلاف نجم بالمراصد طبعاً ، لكن الآن هناك أخبار ـ والله ـ وقع تحت يدي موسوعة علمية ، طبعاً موسوعة موثقة، الرقم الذي سمعته من هذه الموسوعة صوتاً وصورة ، أن هناك ثلاثة آلاف مليار مجرة ، وكل مجرة

فيها ملايين مَلايين الكواكب والنجوم ، لذلك :

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47)

(سورة الذاريات)

آيات التفكر والتعقل في القرآن تقترب من ألف آية :

هذا الإله العظيم ألا يخطب وده ؟ ألا ترجى جنته ؟ ألا تخشى ناره ؟ ألا يطاع أمره ، ألا يجتنب نهيه ؟ إلى أين نذهب ؟

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154)أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155)

(سورة الصافات)

آيات التفكر والتعقل في القرآن تقترب من ألف آية ، والعقل مناط التكليف ، فكر من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذا الإله العظيم هل يحتاج إلى ولد ؟ أنت بحاجة إلى ولد ، لأن :

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26)

(سورة الرحمن)

الإنسان مجبول على حب وجوده ، وعلى حب سلامة وجوده ، وعلى حب كمال وجوده ، وعلى حب استمرار وجوده ، فالإنسان يتصور أنه إذا مات وله ولد يخلفه من بعده يأخذ هذا المال الذي جمعه في عمره المديد ، يتابع ذكرى اسمه ، الآن كل الناس تقريباً إذا جاءه ولد ، والولد جاءه ولد ، يسمي ولد الولد باسم الجد ، أكثر الأطباء يكتب اسمه واسم أبيه، فلان فُلان الفلاني ، لأن الأب يحب أن يستمر ذكره في أحفاده ، أنت بحاجة إلى استمرار ، والموت ينهي الاستمرار ، فلا بد من استمرار عن طريق الأحفاد ، والذي لم يأته ولد يتألم ، مع أن الله سبحانه وتعالى حكيم عليم ، لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع .

والله أيها الأخوة ، للإمام علي كرم الله وجهه كلمتان لا أنساهما ، الأولى : " والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً " ، أي يقينه بحكمة الله ، ويقينه برحمة الله ، ويقينه بعطاء الله، ويقينه بالدار الآخرة قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء ، أما القول الثاني : " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي " ، أي ماشي بأقصى سرعة ، لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي .

الإنسان فقير إلى الله :

إذاً هذا الإله العظيم هل يحتاج إلى ولد ؟! نحن كبشر نحتاج إلى ذرية ، متوهمين أن هذه الذرية تتابع ذكرنا بعد موتنا ، لكن ورد في بعض الآثار القدسية :

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه ؟ ـ لا كذب في الآخرة ـ يقول : يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، فيقول الله له : ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ، يقول لعبد آخر : أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول : يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين ، فيقول الله له : أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

إذاً هذا الإله العظيم لا يحتاج إلى ولد ، لأنه حي باقٍ على الدوام ، والإنسان بحاجة إلى ولد لهدف آخر ، أول هدف استمرار له ، واستمرار لذكره ، لكن الإنسان حينما تتقدم به السن يضعف ، يحتاج إلى ابن قريب منه يعينه على حاجاته في الدنيا ، أو يرعاه في مرضه ، أو في شيخوخته ، وفي افتقاره أحياناً ، الإنسان دائماً يقول لك : أنا عندي خمسة أولاد ، عندما يكبر يقول لك : أنا عند ابني ، كان ابنه عنده فأصبح الأب عند ابنه ، والآية :

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا

(سورة الإسراء الآية : 23)

الأب الشاب ليس بحاجة إلى ابنه ، لكن إذا تقدمت به السن وضعفت قواه توقف دخله ، فهو بحاجة ماسة لأولاده ، إذاً :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)

فالإنسان بحاجة إلى ابنه مرتين ، مرة ليعينه في شيخوخته ، ومرة ليتابع ذكره بعد موته ، هذا شأن الإنسان ، هل هذا شأن الواحد الديان ؟ مستحيل ، لذلك :

(أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ)

شيء آخر ،

(وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ)

الإنسان من أنواع ضعفه ، أحد أنوع ضعفه أنه مفتقر لله في وجوده ، وفي أجهزته ، وفي سمعه وبصره ، وفي نطقه ، وفي عقله، تجد إنساناً فقد ذاكرته ، ذرة من الدم لا ترى بالعين دخلت في وعاء في الدماغ قريب من الذاكرة ، لا يعرف ابنه .

كان ثمة صيدلاني في الشام ، دخل عليه ابنه ، قال له : من أنت ؟ اتصل بأحد الأخوة الكرام ، ولده صديقي ، قال لي : والدي فقد ذاكرته ، خرج من معمله بقي ثلاث ساعات يبحث عن بيته ، ما عرف أين بيته ؟ ذرة من الدم تجمدت في مكان من الدماغ ، بمكان آخر تفقد الحركة ، بمكان ثالث تفقد النطق، بمكان رابع تفقد التوازن ، دقة الإنسان هائلة جداً ، فالإنسان فقير إلى الله .

هناك فقر ثان وهو الافتقار إلى زوجة أو زوج :

لكن هناك فقر ثان ، أيضاً فقير لزوجة ، الحقيقة لا يُستحيا بها ، كل إنسان بحاجة إلى زوجته ، وكل أنثى بحاجة إلى شاب يتزوجها ، شئنا أم أبينا ، هكذا نحن مصممون ، الله عز وجل قال :

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا

(سورة الروم الآية : 21)

فهي تسكن إلى زوجها ، تكمل نقصها القيادي به ، تحتاج إلى رجل يحميها ، ويدافع عنها ، ويطعمها ، يقدم لها كل شيء ، ويحقق لها حاجتها من الرجل ، والرجل بحاجة إلى أنثى يسكن إليها ، أنا ألاحظ هذا الشيء ، عندما ينشأ لأخ خلاف مع زوجته ، وزوجته تذهب إلى بيت أهلها ، بعد شهر شهرين يشعر هذا الشاب أن وضعه غير طبيعي ، فيه اضطراب شديد ، أنه مفتقر إلى زوجته ، لذلك أيها الأخوة هذه كلمة أقولها لكم بصدق : لا أحد يكفر بنعمة الزوجة ، لا لأتفه سبب تخرجها من بيتك ، ولا امرأة تكفر بنعمة الزوج .

والله مرة لي قريبة مستواها المالي يفوق حد الخيال ، قالت مرة لإحدى قريباتها : أتمنى أن يقدم على الزواج مني أي إنسان مهما كان في مهنة متدنية ، بحاجة إلى زوج ، فهل الله عز وجل بحاجة إلى صاحبة ؟ نحن بحاجة ، هكذا الله خلقنا ، نحن بحاجة إلى زوجة ، والزوجة بحاجة إلى زوجها ، وعندما الزوج يبتعد عن زوجته ، ولا يلتفت إليها ، ولا يقدم لها المودة والمحبة تتألم ألماً لا حدود له ، فأنت لست مفتقراً إلى الله فقط ، بل مفتقر إلى طرف آخر يكمل نقصك ، الله عز وجل يصدق عليه هذا ؟ مستحيل ،

(وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

فلذلك :

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (43)

(سورة الإسراء)

نظام الأبوة وحده أكبر دليل على عظمة الله :

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هو خلق الزواج ، هو صمم الرجل أن يكون مفتقراً لزوجة ، هذا من خلقه ، نظام الزواج من خلق الله عز وجل ، أن يكون كل شيء له زوج مفتقر إليه ، هذا القانون من قننه ؟ الله عز وجل ، لا تنطبق عليه.

إذا أمر المعلم فرضاً الطلاب أن يرتدوا ثياباً معينة في العام الدراسي الجديد ، هل هذا الأمر ينطبق عليه ؟ مستحيل . فالله هو الآمر ، هو المقنن ، هو المشرع ، هو البديع ، فهذا النظام نظام الزوجية من إبداع الله عز وجل ، فكيف نعرف الله ؟

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1)وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2)وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3)

(سورة البلد)

نظام الأبوة وحده أكبر دليل على عظمة الله ، هناك إنسان ليس بحاجة إليك ، لكنه يريد أن تكون أنت في سعادة ، هو الأب .

مرة قال لي صاحب معمل أب كريم ، قال لي : أنا أجير عند أولادي ، قال لي : أنا في هذا السن يكفيني عشرة آلاف في الشهر ، أعمل ليل نهار ، وأتحمل مسؤوليات ، من أجل أن أربي أولادي ، وأن أزوجهم ، وأسعى لهم إلى مستقبل مشرق .

من أودع بقلب الآباء هذه المحبة ؟ لذلك قالوا : محبة الآباء للأبناء طبع ، لذلك ما من آية واحدة بالمواريث توصي الآباء بأولادهم ، مستحيل أن يصدر قرار عن وزير الداخلية يقتضي أن على كل مواطن أن يتناول طعام الفطور ، لا معنى له هذا القرار ، لأنك أنت تجوع صباحاً ، تناول الطعام جزء من طبعك ، وكل شيء طبعي لا يحتاج إلى تشريع ، لذلك لا تجد في القرآن ولا في السنة آية توصي الآباء بأولادهم ، لكن آيات كثيرة توصي الأبناء بآبائهم ، رعاية الآباء تكليف يحتاج إلى كلفة إلى جهد ، لأن الشاب مصلحته مع زوجته ليس مع والده ، إذا كان مهتم بوالده بدافع إيمانه ، ودافع محبته لله ، ودافع أمر الله له ، فاهتمام الأبناء بالآباء تكليف بنص القرآن والحديث ، أما أنت لو ذهبت إلى مستشفى الأطفال تشاهد منظراً مذهلاً ، السافرة ، والمؤمنة ، والكافرة ، والفاجرة ، والمثقفة ، والغير مثقفة ، والمحجبة ، والمتفلتة ، الكل يبكي ، والابن بيدهم ، لذلك :

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي

(سورة طه الآية : 39)

المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عز وجل :

طبعاً هناك مثل صارخ أنا أرويه دائماً لأنه واضح جداً ، ورد في الآثار أن سيدنا موسى مر بأم تخبز على التنور ، وابنها وضعته إلى جانب التنور ، وكلما وضعت رغيفاً في هذا الفرن مسكت ابنها ، وضمته ، وشمته ، وقبلته ، فتعجب هذا النبي الكريم من هذه الرحمة التي في قلب الأم ـ هذه القصة رمزية ـ قال : يا رب ، ما هذه الرحمة ؟ فقال الله له : هذه رحمتي أودعتها في قلب أمه وسأنزعها ، فلما نزع الله الرحمة من قلب الأم بكى فألقته في التنور ، وارتاحت منه .

والله لولا أن في قلوب الآباء والأمهات رحمة لقتل الأب ابنه ، وتخلص منه ، الابن عبء ، أما لأن في الأب رحمة فيعمل ليلاً نهاراً من أجل أولاده ، لذلك العقوق أنا أعده أكبر جريمة يقترفها الإنسان إذا عق والده ، كان سبب حياته ، وقلب الأب وقلب الأم ، أنت لا تعرف الله إلا من قلب الأب والأم ، للتقريب فقط ، لا يحتاجك إطلاقاً ، لكن هو حريص عليك رحيم بك ، يتمنى إسعادك .

أيها الأخوة الكرام ،

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

لأنه بديع السماوات نظام الزوجية ، نظام الأبوة ، نظام الولد ، نظام الصاحبة ، من خلق الله عز وجل.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً

(سورة الروم الآية : 21)

يمكن لإنسان أن يخطب فتاة ، يعقد القران ، ويسافر في اليوم الثاني ، وتبكي بالمطار بكاء ما بعده بكاء ، عمر العقد كله يوماً واحداً ، هكذا ، المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عز وجل :

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(39-73): تفسيرالآيتان 103-104 ، من أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-09-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة الأنعام .

طبيعة أجسامنا لا تحتمل أن نرى الله في الدنيا لكن يوم القيامة هناك بشارة قرآنية :

مع الآية الثالثة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103))

طبيعة الجسم البشري لا تحتمل أن يرى الله في الدنيا بعينيه ، لكن يوم القيامة هناك بشارة قرآنية ، يقول الله عز وجل :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

ورد في بعض الأحاديث أن الإنسان إذا نظر إلى وجه الله الكريم في الجنة يغيب من نشوة النظرة خمسين ألف عام ، فنحن كما وعدنا ربنا عز وجل ـ ونسأل الله أن نكون من أهل الجنة ـ يمكن أن نرى الله في الجنة ، لكن طبيعة أجسامنا لا تحتمل أن نرى الله في الدنيا ، سيدنا موسى قال :

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ((143))

(سورة الأعراف)

من لم يكن طالباً لمعرفة الله فهو مشغول عن هذه المعرفة بشهواته :

إن لم نستطع أن نرى الله بأعيننا يمكن أن نراه ببصائرنا ، يمكن أن نراه بعقولنا، فالله عز وجل جعل الكون كله دالاً عليه ، وجعل الكون كله تجسيداً لأسمائه الحسنى ، ومظهراً لصفاته الفضلى ، فكل شيء في الكون يدل على الله ، يدل عليه موجوداً ، ويدل عليه واحداً ، ويدل عليه كاملاً .

لكن الإنسان متى يراه ؟ هذه الأدلة الصارخة ، وعلى رأسها الآيات الكونية ، ثم الآيات التكوينية أفعاله، ثم الآيات القرآنية ، إذا أراد ، إذا طلب ، ما لم يكن طالباً لمعرفة الله فهو مشغول عن هذه

المعرفة بشهواته ، لأن حبك الشيء يعمي ويصم .

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً)

(سورة الأنعام الآية : 24)

إياك أن تتصور أن هذا الـ (جعل) من الله ، هذا يسميه علماء التفسير تحصيل حاصل فأنت حينما تغلق الباب الخارجي لهذا المسجد فالداخلي مغلق حكماً ، ولو أنه مفتوح ، حبك الشيء يعمي ويصم :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

(سورة البقرة)

أيضاً هذا الختم بالتعبير الحديث تحصيل حاصل ، لماذا ؟

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

(سورة البقرة)

أنت حينما تغلق منافذ القلب فالقلب مختوم عليه حكماً ، منفذ القلب السمع والبصر إما أن ترى الآيات بأعينك ، وإما أن تستمع للحق بآذانك ، لا تستمع إلى الحق لأن الشهوة حجاب بينك وبين الحق ، ولا تلقي نظراً إلى الآيات لأن الشهوة حجاب بينك وبين الآيات .

يستحيل لقلب ملوث بالشهوات والشبهات أن يدرك معاني القرآن الكريم :

أيها الأخوة ، هناك آية تقرب المعنى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78)لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79))

(سورة الواقعة)

هذه(لا) نافية ، و(لا) النافية تؤكد أمر الله التكويني ، بينما (لا) الناهية تؤكد أمر الله التكليفي ، فلا يمكن ويستحيل لقلب ملوث بالشهوات وبالشبهات أن يدرك معاني هذا القرآن الكريم . دليل آخر :

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198))

(سورة الشعراء)

إنسان أعجمي فارسي ، فقرأه عليهم باللغة الفارسية :

(فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199))

(سورة الشعراء)

إن أردت الحقيقة فأبسط شيء يدلك على الله :

قال :

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12))

(سورة الحجر)

الآن أنت لو التقيت مع إنسان يتكلم اللغة الكردية مثلاً ، أو اللغة الفارسية ، والله حتى الأرقام لا تعرفها، أنا كنت في إيران ، حتى الأرقام لا أعرفها ، فكنت أمسك بآلة حاسبة وهو يضغط على الأزرار كي أعرف السعر ، لو أن هذا القرآن نزل باللغة الفارسية مثلاً ، وقرئ علينا بالفارسية لا نفهم منه حرفاً .

أحياناً يسافر الإنسان إلى بلد لغته بعيدة عن اللغة الأصلية ، يستمع إلى الأخبار فلا يفهم كلمة ، ولا حرفاً ، قال تعالى :

(فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

إذاً الإنسان يشبه آلة تصوير غالية جداً ، فيها دقة بالغة ، فالذي يريد الحقيقة ففي آلته فيلم ، والذي لا يريدها مهما نقلت الصورة عبر العدسة إلى داخل الآلة لكن ليس فيها فيلم، التقط رغبتك في معرفة الحقيقة ، هذه القطع التي تنطبع عليها الصور .

بشكل أعمق : أنت حينما تطلب الحقيقة هل تصدق أن غديراً يدلك على الله ؟ الماء يدل على الغدير ، والبعرة تدل على البعير ، وآثار قدم تدل على المسير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟

إن أردت الحقيقة فأبسط شيء تعرف الله به ، وإن أبيت الحقيقة لو أنك موظف في محطة (ناسا) الفضائية أكبر محطة فضائية في العالم ، وهناك تلسكوب عدسته استغرق تبريدها أكثر من عشر سنوات ، تبريد العدسة ، وقد ترى المجرات بألوان تأخذ بالألباب ، وقد ترى بهذه المراصد ما لا يصدق، ولو كنت في موقع صحي في مجهر إلكتروني ، ورأيت الخلية ، ورأيت في الجسم أشياء لا يصدقها العقل ، لو استطعت أن ترى الذرة تحوم حول النواة ، ولم تكن مريداً للحقيقة لا تنتفع بها إطلاقاً.

الكون كله عن طريق عقلك يدلك على الله :

هناك قرار داخلي يا أخوان ، إن أردت معرفة الله فكل شيء يدلك عليه ، بدءاً من كأس الماء ، وانتهاء بالمجرات ، طعامك ، شرابك ، ابنك .

مرة عرضنا على أخواننا الطلاب موسوعة علمية عن خلق الإنسان ، أكثر ما يلفت النظر أن الأوعية الدموية التي طولها مئة وخمسون كم عبارة عن خلايا تتجانس ، تتشابه في نموها ، تتواصل ، بالنهاية تصبح أنبوباً مغلقاً ، ويبدأ الدم يسري فيها ، ولو دخلت في تفاصيل الوعاء الدموي طبقات وعضلات ، أحيانا الإنسان يصفر ، كيف يصفر ؟ يوجد في كل الأوعية الدموية عضلات دائرية تضيق لمعته توفيراً للدم من أجل العضلات ، الخائف يصفر لونه ، هناك مرونة بالغة ، الوعاء قلب الوعاء ، معنى قلب ، حينما يأتيه النبض يتوسع فإذا توسع يعود إلى حجمه الطبيعي بمرونته ، صار قلباً ، توسع وضغط .

لذلك الإنسان متى يتعب قلبه ؟ حينما تتصلب شرايينه ، وما هو الدواء الغذائي الأول في تليين الشرايين ؟ زيت الزيتون ، الإنسان أحياناً لو نجا من كل الأمراض الوبيلة يموت بتصلب الشرايين ، وزيت الزيتون يهيئ للإنسان ليونة في الشرايين إلى أقصى وقت ممكن ، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال :

((كلوا الزيت ، وادهنوا به ؛ فإنه من شجرة مباركة))

[رواه الترمذي عن عمر وأحمد في مسنده والترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي أسيد]

هذا ليس من عنده :

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

إذاً أنت ببصرك ، بعين رأسك لا يمكن أن ترى الله ، ولكن الكون كله عن طريق عقلك يدلك على الله، فالمعرفة اليقينية محققة .

تماماً كما لو رأيت دخاناً وراء جدار ، عقلك جهاز دقيق جداً ، له مبادئ ، يقول لك عقلك : لا دخان بلا نار ، فأنت تحكم على أن وراء الجدار ناراً بالمئة مليون ، هذا اليقين العقلي ، أما حينما تلتف وراء الجدار ، وترى النار بأم عينك صار يقيناً حسيّاً ، هذا عين اليقين ، أما إذا اقتربت من النار ، ووصل وهجها إلى وجهك فهذا حق اليقين ، من علم اليقين إلى حق اليقين إلى عين اليقين ، فنحن في الدنيا بعلم اليقين هناك استنباطات تأخذ اليقين المطلق ، وأنت لا ترى الشيء .

العقل أداة معرفة الله عز وجل وهو مناط التكليف :

أنت لاحظ أخواننا الكرام الذين يعملون في تصليح الآلات ، يقول لك : وضعنا الشريط بالمأخذ الكهربائي ، المكواة لم ترتفع حرارتها ، أول احتمال لا توجد كهرباء ، ندير مفتاحاً فيتألق المصباح ، إذاً هناك كهرباء ، إذاً لعل هذا المأخذ فيه خلل ، نأتي بوسيلة ، ببلورة نضعها في المأخذ فتتألق ، إذاً

كان احتمال الخطأ أن ليس هناك كهرباء ، ثم نشأ احتمال آخر وهو خلل في المأخذ ، فلما أثبت المأخذ أنه سليم معنى ذلك أن الخلل في الشريط نأتي بشريط آخر ، فإن لم تعمل المكواة فالمكواة معطلة في أصلها ، نظرت كيف الفكر البشري ؟

الله أعطانا جهازاً له ثلاثة مبادئ ، مبدأ السببية ، مبدأ الغائية ، مبدأ عدم التناقض، أنت لا تفهم شيئاً بلا سبب ، ولا تفهم شيئاً بلا غاية ، ولا تقبل التناقض ، والكون مصمم على مبدأ السببية والغائية وعدم التناقض ، الله عز وجل برمج عقلك وفق الكون ، خلق الكون وفق مبادئ ، وبرمج عقلك وفق مبادئ ، فلذلك العقل أداة معرفة الله عز وجل وهو مناط التكليف ، والآيات التي تتحدث عن العقل تقترب من ألف آية .

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

لكن العقول أيها الأخوة تصل إلى الله ولا تحيط به .

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة الآية : 255)

أنت لاحظ بيتك ، أنت جالس في غرفة ، لكنك محيط بهم ، طبعاً تعرف غرفة النوم ، وغرفة الاستقبال، وغرفة الطعام ، وغرفة الأولاد ، تعرف المطبخ ، والحمام ، والمرافق ، أنت جالس بمكان محدود لكنك أحطت بكل ما في البيت علماً ، وتعرف ما في البيت إما عن طريق الصوت ، أو عن طريق الرائحة ، إذا هناك شيء له رائحة ، فتعرف .

الذي أريد أن أقوله لكم : أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن تحيط به ، هو لا نهائي ،

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

ولكن العقول تصل إليه ، تماماً كما لو ركبت مركبة واتجهت إلى الساحل ، هذه المركبة تصل بها إلى الساحل ، لكنك لن تستطيع أن تمخر بها عباب البحر ، العقل يقف .

لذلك قالوا : لا يعرف الله إلا الله ، والعجز عن إدراك الإدراك إدراك ، وعين العلم به عين الجهل به ، وعين الجهل به عين العلم به .

الله تعالى معنا في كل حركة وسكنة ولا تخفى عليه خافية :

(وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

ما علاقة اللطيف الخبير بالآية ؟ هو موجود ، لو أن إنساناً صاحبك لا تحتمله ، الله معك ، في خلوتك، وفي جلوتك ، وفي سرك ، وفي علانيتك ، الآية الكريمة :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213)وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217)الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218)وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219)إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

(سورة الشعراء)

هو معك ، لكنه لطيف ، معك ويراقبك ، ويعلم ما تقول ، وما تنطق من كلمة إلا هو يعلمها ، ولا تأتيك خاطرة إلا وهو يعلمها .

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24))

(سورة الأنفال)

أقرب شيء لك قلبك ، واللهُ بينك وبين قلبك ، حتى الخواطر مكشوفة عند الله ، لا تخفى عليه خافية .

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18))

(سورة الحاقة)

معنى كلمة خبير :

إذاً الله معنا ، لكنه لطيف ، لطيف وهو معنا .

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4))

(سورة الحديد)

معكم بعلمه ،

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

كلمة خبير الحقيقة تحير ، ما الفرق بينها وبين العليم ؟ والله قضية خبرة شخصية ، أحياناً تصنع آلة وفق أعلى مواصفات علمية ، كلها قوانين بالميكانيك ، والفيزياء ، والكيمياء ، والرياضيات ، لكن على الاستعمال تكتشف بعض الأخطاء ، أن قطعة المحرك هذه ضعيفة ، عدة مركبات كسرت ، فالخبرة أن تعلم صلاحية هذه الأفكار النظرية في أثناء التطبيق ، في أشياء كثيرة تصنع ثم تعدل ، أوضح شيء بالبذور ، ما من شركة زراعية يمكن أن تقول لك: هذه البذرة هكذا مواصفاتها ، تقول لك : ازرعها وأعطنا النتائج ، لا تأخذ خصائص البذور إلا من التجارب ، لكن ما من جهة علمية تستطيع أن تتنبأ بخصائص هذه البذرة ، فالخبرة هي علم مطبق ، أو هي علم قابل للتطبيق من دون ثغرات ، وهناك أشياء لا تعد ولا تحصى في الصناعة ، في الميكانيك ، في الأدوية أحياناً ، خبرة نظرية رائعة ، على التطبيق هذا الدواء يسبب مرضاً جلديّاً ، يسبب حساسية ، هذا الدواء يؤثر على القلب ، هذا الدواء يحدث جلطة .

الآن دقق : ما كان بإمكان الإنسان أن يعلم وهو يصنع الدواء أن هذا الدواء له مضاعفات في القلب خطيرة إلا بعد أن يطرح بالأسواق ، أو يجرب على الفئران سابقاً ، ثم على بني البشر في العالم الثالث لاحقاً ـ وهذه وصمة عارٍ بحق البشرية ـ أن الشركات العملاقة في العالم الغربي الآن تجرب دواء على دول في العالم الثالث ، على أساس دواء مسموح باستيراده ، يرسلون مندوبين ليكتشفوا النتائج ، فإذا كان فيه سلبيات يمنع طرحه للبيع في بلد المنشأ ، فلذلك ليس بإمكان أي شركة أدوية أن تصنع دواء وتتنبأ بالأخطاء الجانبية التي يمكن أن تنتج عنه ، هذه تريد خبرة ، الله هو الخبير ، لذلك قال تعالى :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

أنت دائماً لا حظ نفسك إذا كان ـ لا سمح الله ولا قدر ـ عندك أعراض مرض عضال ، لا يمكن أن تسلم نفسك لطبيب عادي ، إلا لطبيب معه اختصاص من أكبر دولة في العالم بهذا المرض ، دعك من جسمك ، الجسم غالٍ جداً ، جهاز كمبيوتر لا تسلمه لبائع خضار يصلح لك خلله ، تبحث عن وكيل الشركة الصانعة ، فأنت تحب الخبير .

أن تشعر بمعيَّة الله عز وجل هذه أكبر ضمانة لاستقامتك :

والله قال :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

صدق وآمن أن الله وحده هو الخبير بأسباب سلامتك ، وأسباب سعادتك ، وحينما تتوهم أن السعادة بالمعصية فهذا منتهى الجهل ، مستحيل وألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، أو أن تعصيه وتربح ، لكن الله عز وجل يحب أن يمتحن الإنسان ، كل المعاصي تقريباً محببة ، ويبدو أنها تسعد الإنسان إلى حين، لكن السعادة الحقيقية تأتي من الطاعات ، القضية تحتاج إلى إيمان ،

(وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

لذلك ورد في بعض الأحاديث : أن أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان ، ومقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، الحقيقة أن تشعر بمعيَّة الله عز وجل هذه أكبر ضمانة لاستقامتك ، ثم يقول الله عز وجل :

(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104))

(سورة الأنعام)

أخواننا الكرام ، الإنسان بجبلته دائماً يميل إلى أن ينسب أخطاءه لغيره ، أولاً لئلا يختل توازنه ، أو لئلا يكون مداناً عند الناس ، فما من سيئة إلا وتنسب إلى القضاء والقدر ، هكذا الله أراد لي ، نحن

عبيد، ما بيدنا شيء ، هذا ترتيب الله ، ترتيب سيدك ، يرتكب حماقات وأخطاء ، وهناك نغمة ثانية ، كلما ارتكب خطأ يقول : الله يلعن الشيطان ، العن نفسك ، الشيطان لا علاقة له .

لا يستطيع أحد أن يُضل أحداً إلا إذا كان على شاكلته :

قال تعالى :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22))

(سورة إبراهيم)

والله أيها الأخوة ، الذي يرتكب خطأ ، أو معصية ، أو حماقة ، ثم يلعن الشيطان مثله تماماً كإنسان يرتدي أجمل الثياب البيضاء في الصيف ، والثياب مستوردة وغالية جداً ، أناقة ما بعدها أناقة ، ورشاقة ما بعدها رشاقة ، إذا هو يسقط في حفرة فيها مياه آسنة ، مياه المجاري ، سوداء ، يخرج من هذه الحفرة ، ويتجه لتوه إلى المخفر ليشتكي على شخص ما ، فقال له الشرطي وهو يكتب الضبط : هو دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال : لا والله ، حرام ، ما دفعني ، لماذا تشتكي عليه إذاً ؟ لعله شهر في وجهك مسدساً ، وأجبرك على أن تنزل ؟ لا والله لم يفعل هذا ، أيضاً حرام ، هناك ملائكة تحاسبني ، لماذا تشتكي عليه ؟ هل دفعك ؟ لا والله ، لا دفعك ولا أجبرك ، لماذا تشتكي عليه ؟ قال له : قال لي انزل فنزلت ، هذا يحتاج إلى حَجْر السفاهة ، هكذا الشيطان :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

وأنا أيها الأخوة ، أعتقد ومعي أدلة في القرآن كثيرة أن لا أحد يستطيع أن يضل أحداً ، إلا أن الذي يتبين أن زيداً أضل عبيداً ، عبيد عنده استعداد للضلال ، ويرغب في الضلال ، فكان ضلاله بسبب كلمة فلان ، أحياناً طالب في صف يستطيع أن يوسوس للصف كله ، لكن لا يستجب له إلا من كان على شاكلته فاسداً ، الإنسان مخير ،

(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)

النبي مبلِّغ فقط وأنت إما أن تستجيب أو لا تستجيب :

والله الآن يا أخوان ، الحق واضح وضوحاً لا يوصف ، في الخمسينات كان الحق يمثل اللون الأبيض، والباطل اللون الأسود ، وهناك عشرة آلاف لون رمادي بينهما ، فالناس تائهون في هذه الألوان التي بين الأبيض والأسود ، الآن سبحان الله ! إما ولي ، وإما إباحي ، إما مؤمن مستقيم ، وإما ملحد ، الآن الوضع آخذ حالات حادة ، حادة جداً ، إما فتاة تكاد تخرج من كل ثيابها ولا تعبأ بشيء ، أو فتاة لا يبدو منها شيء ، الأولى تبحث عن المتعة الرخيصة ، الأولى متفلتة ، والثانية تبحث عن مرضاة الله عز وجل ، الأمر واضح جداً ، والعالم أصبح صغيراً جداً ، كل شيء واضح مع أن الآن الضلال كبير ، وقوي ، بالمقابل الهدى كبير وقوي ، فلذلك :

(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)

- الآن -

(فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة الآية : 256)

وقال :

(إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23))

(سورة فاطر)

النبي مبلِّغ فقط ، أنت إما أن تستجيب أو لا تستجيب ، وأنت مخير فيما أنت مكلف به ، والله عز وجل لا يتدخل تدخلاً مباشراً في إرادتك ، تماما مثل كرة ، ليس لنا أن نمسكها بيدنا ونضعها في محل معين، ولا أن ندفعها إلى مكان معين ، لمس الكرة ممنوع ، لكن نحن نعمل لها مسطحاً مائلاً ، نرغبها بالإيمان ، إذا كانت معصية يصبح مسطحاً صاعداً، نحن نعمل ظرفاً محيطاً بها يكرهها بالمعصية ، وظرفاً محيطاً بها يحببها بالإيمان ، الله قال :

(اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

(سورة الحجرات الآية : 7)

يشدك إلى الدين معاملة الله لك بعد أن اصطلحت معه :

الله عز وجل لا يتدخل تدخلاً مباشراً في إرادتك ، ممنوع ، لكن أجمل ما في الموضوع أنت حينما تتخذ قراراً صحيحاً يرضي الله ، الله عز وجل يملأ قلبك راحة وطمأنينة، الآن أفعالك تدعمك بالتوفيق، جرب ، اطلب طلباً يرضي الله ، الأمور كلها في خدمتك ، تطلب أن تنفق يأتيك الله بالمال من حيث لا

تحتسب ، تطلب أن تدعو إلى الله يلهمك أن تقول كلاماً مؤثراً ، تطلب أن تعاون الناس يعطيك وسائل المعاونة ، لذلك : " إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق العمل فيك ونسبه إليك " .

الله عز وجل لا يتدخل تدخلاً مباشراً ولكن يحيطك بظروف تدعوك إلى الإيمان ، وأحياناً يخوفك أو يرسل لك عقبات تمنعك أن تعصي الله عز وجل .

رجل كان عليه زكاة مال ما يقارب عشرة آلاف ليرة ، طلبت منه زوجته أن يشتري أثاثاً جديداً للبيت، وأن يدهنه ، ضغطت عليه إلى أن حملته على أن يمتنع عن دفع زكاة ماله ، وأن يصلح البيت بهذا المال ، ارتكب حادث سير مع سيارة ثانية ، أقسم بالله العظيم أن كلفة إصلاح السيارة كانت ما يقارب عشرة آلاف ليرة ، هذا الدرس من الله ، المبلغ الذي لم يدفعه زكاة ماله دفعه لإصلاح مركبته ، وقس على هذا الأمر .

أنا أرى أن الذي يشدك إلى الدين شدّاً قويّاً ليست أفكار الدين ، مع أن أفكار الدين رائعة ، الدين قدم لك فلسفة أولاً عميقة وشاملة ومتناسقة ، ثلاث كلمات ، عميقة وشاملة ومتناسقة ، الإنسان إذا كفر بالله عنده ثغرات في فهمه ، عنده ألف سؤال بلا جواب ، أما المسلم حينما اهتدى إلى الله وقرأ القرآن فعنده فلسفة شاملة ، وكاملة ، وعميقة ، ومتناسقة عن الكون والحياة والإنسان ، عن المصائب ، عن الغنى والفقر ، عن العمر ، عن الإنجاب وعدم الإنجاب ، معه تفسير دقيق ، لكنني متأكد أن الذي يشدك إلى الدين ليست هي أفكار الدين ، مع أنها عميقة ، وشاملة ، وكاملة ، ودقيقة ، ومتناسقة ، لكن الذي يشدك إلى الدين معاملة الله لك بعد أن اصطلحت معه .

الإنسان مخير فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها :

شاب مؤمن يعمل في معمل ، المعمل لوالده ، والمعمل ضخم ، وجيد ، ودخله كبير جداً ، جاءه من يطلب منه قطعة من البلاستيك بعدد كبير ، وأرباحها كبيرة ، طبعاً فرح ووافق ، وكل شيء انتهى ، وهو يخرج قال له : هذه أريد لونها خمري ، قال له : مثلما تريد ولكن ما السبب ؟ قال له : أريد أن أضعها مَسكة لعلبة ويسكي ، قال : والله أعتذر ، ما ترك طريقة يتوسل له بها أن ينفذ هذا العقد ، فلما امتنع وصل إلى والده ، الوالد ليس بمستوى ابنه غضب كثيراً ، قال له : أنت لا علاقة لك ، هذا تزمت، أصرَّ الابن ، أنا لا أفعلها ، هذه تتناقض مع مبدئي ومع ديني ، يقسم بالله العظيم وهو حي يرزق ، وأنا استأذنته أن ألقي قصته على المجموع ، قال لي : والله بعد اثنين وعشرين يوماً جاءني عرض ، أقول : إذا كانت أرباح العرض الأول أربعمئة ألف فأرباحه هنا كانت أربعة وعشرين مليوناً .

((ما ترك عبد لله أمراً لا يتركه إلا لله إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[رواه ابن عساكر عن ابن عمر]

هذا الأخ يمكن في المستقبل أن تأتيه في معصية فيوافق ، ما الذي شده للدين ؟ معاملة الله له ، وأنا أقول لكم كلاماً دقيقاً : ما منا جميعاً واحد يخطب ود الله إلا ويرى بالملموس والمحسوس وفوراً معاملة الله تغيرت ، بصحتك ، ببيتك ، بأولادك ، بعملك ، بتوازنك ، بسعادتك ، براحة نفسك ، بطمأنينتك ، الله موجود ، هو ينتظر من هذا العبد حركة .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

أيها الأخوة ، هذه الآية مضمونها واضح أن الإنسان مخير فمن أبصر فلنفسه ، للتوضيح هناك بث إذاعي ، أنت معك جهاز استقبال ، تفتح وتلتقط البث باختيارك ، أو لا تلتقط البث باختيارك ، أو تضع المؤشر على أغاني ساقطة أيضاً باختيارك ، فالبث موجود ، والاختيار بيدك ، انظر الآية :

(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا)

فأنت مخير ، الأدلة على كل شيء في الدين موجودة ، فأنت إن أردت الدين فالأدلة موجودة ، استقبلها، وإن لم ترد فالأدلة موجودة ، أعرض عنها ، لكن عليها :

(وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

النبي نذير ومبلغ ، لكن ليس علينا بحفيظ .

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21)لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

ليس بحفيظ ، ولا بوكيل ، ولا بمسيطر أنت مخير .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(40-73): تفسير الآيات 105-107 ، الإنسان مُبلَّغ وعليه الاختيار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-11-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الأربعين من دروس سورة الأنعام .

الله عز وجل خلق الأكوان ونوَّرها بالقرآن :

مع الآية الخامسة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105))

أيها الأخوة ، تصريف الشيء : تتابعه ، وتنوعه ، والآيات : العلامات التي تدل على وجود الله ، وعلى كماله ، وعلى وحدانيته ، الله عز وجل :

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ (103))

(سورة الأنعام الآية : 103)

لكن كل شيء في الكون ينطق بوجوده ، ووحدانيته ، وكماله ، الله عز وجل له آيات أي علامات ، له آيات كونية هي خَلْقه ، أينما نظرت وحيثما التفتَّ وجدت العلم ، والقدرة ، والغنى ، والحكمة ، والرحمة، واللطف ، والإبداع .

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (101))

(سورة الأنعام الآية : 101)

خلْقه آياته الكونية ، أما كلامه فآياته القرآنية ، وهذا الكون في كفة وكلام الله في كفة ثانية .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (1))

(سورة الأنعام الآية : 1)

وقال :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف الآية : 1)

خلق الأكوان ونوَّرها بالقرآن ، شُق الطريق ثم وضعت الشاخصات ، هنا منعطف خطر ، هنا تقاطع خطر ، هنا جسر ضيق ، هنا صعود حاد ، هنا ممر زلق ، شق الطريق ، ووضعت الشاخصات ، خلق الكون ، ونوره الله بنوره .

كل شيء يقع في الكون آية تدل على عظمة الله :

إذاً آياته الكونية ، وآياته القرآنية ، أما أفعاله فآياته التكوينية ، أعاصير ، زلازل، حروب أهلية .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ (65))

(سورة الأنعام الآية : 65)

الصواريخ والصواعق .

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ (65))

(سورة الأنعام الآية : 65)

الزلازل والألغام .

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً (65))

(سورة الأنعام الآية : 65)

الطائفية ، تجد المجتمع ممزقاً بالطائفية .

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ (65))

(سورة الأنعام الآية : 65)

هذه آياته التكوينية ، فالآيات هي العلامات الدالة على وجوده ، وعلى وحدانيته ، وعلى كماله ، خلقه آيات ، وأفعاله آيات ، وكلامه آيات :

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ)

ننوعها ، تارة ترى زلزالاً مدمراً ، وتارةً ترى جبلاً شاهقاً ، وتارةً ترى وردةً جميلةً ، وتارة ترى رزقاً وفيراً ومحاصيل ، ننوع الآيات ، وتارةً ترى ضيقاً في النفس ، هذا الضيق من خلق الله عز وجل، من قصّر في العمل ابتلاه الله بالهمّ ، تارةً تجد تيسيراً ، تارةً تجد تعسيراً، كل شيء يقع في الكون آية تدل على عظمة الله ، خلقه آية ، وأفعاله آية ، وكلامه آية ، والتربية النفسية آية ، أحياناً تشعر بانشراح وانطلاق تكاد تطير ، أحياناً تشعر بضيق وشعور بالإحباط تكاد تموت من الضيق ، هذه معالجة ، وتلك معالجة ، الأمور تارةً ميسرة ، والأمور تارةً معسرة ، تارةً هناك تفاهم زوجي رائع ، وتارةً هناك شقاق زوجي مزعج ، تارةً هناك أبناء يخضعون لوالديهم خضوعاً عجيباً ، وتارةً تجد أبناءً يعدون أحد أكبر أسباب شقاء والديهم ،

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ)

الله تعالى له آيات كونية وآيات تكوينية وآيات قرآنية :

يعالجك بمنام مخيف أحياناً ، برؤية ، يعالجك بتيسير ، يعالجك بتعسير ، يعالجك بفقر ، يعالجك بغنى ، يعالج بهمّ ، يعالجك بشبح مصيبة ، يعالجك بحدث كوني كبير ، يعالجك بآية كونية ، يعالجك بآية قرآنية، يعالجك بموعظة ،

(وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ)

ننوعها ونكثرها ، ونجعلها متتابعة ، تجد الله عز وجل في القرآن الكريم يذكر التوحيد مئات المرات ، لو ذكره مرة واحدة وأنت تقرأ القرآن الكريم ومرّت معك آية توحيد في البقرة ، بقيت بهذه الختمة شهرين إلى أن تأتي آية توحيد ثانية في الختمة التالية ، أنت تحتاج إلى تذكير يومي ، فتجد آيات تتكرر في التوحيد ، الإشارة إلى عظمة الكون ، فهناك موضوعات يجب أن تعيشها كل يوم ، إذاً هي تتكرر . تصريف الآيات تكرارها ، تصريف الآيات تتابعها ، تصريف الآيات تنوعها ، تكرير ، تتابع ، تنويع، بين آية علمية وبين آية فعلية .

مرة سافرت إلى الساحل ، جاءت عواصف شديدة جداً أتلفت بعض المنشآت الزراعية ، الشيء العجيب أن بعض الناس هناك على اختلاف اتجاهاتهم أجمعوا بفطرتهم على أن صاحب البيت السيئ قد تلف ماله ، أما المستقيم فنجاه الله .

أحياناً تأتي الآيات بأفعال الله عز وجل ، المستقيم محفوظ ، غير المستقيم يدمر بالفطرة ، فالدروس ما أكثر العظة فيها وما أقلّ المتعظين ، ما أكثر العبر وما أقل المعتبرين .

أيها الأخوة ، أحياناً تجد أن هناك قوة جبارة في الكون ، طاغية ، متغطرسة ، مستعلية ، مستكبرة ، تفعل ما تقول ، تدمر ، تقتل ، يأتي زلزال قوته مليون قنبلة ذرية ، لا يدع شيئاً ، فالله له آيات كونية ، وله آيات تكوينية ، وله آيات قرآنية ، يعالجك نفسياً ، يعالجك بخبر ، يعالجك بإشاعة ، يعالجك بشبح مرض ، يعالجك بشقاق زوجي ، يعالجك بابن عاق ، يعالجك بابن صالح ، الله يصرف الآيات ، لكن بطولتك أن تأتيه باختيارك طائعاً ، وأنت صحيح معافى ، ليس عندك مشكلة ، هذه بطولة ، جئته محباً ، جئته مختاراً ، جئته بمبادرة منك ، ولكن الله رحيم ، لو تلكأنا في العودة إليه يأتي بنا بالسلاسل .

((عجبتُ لأقوامٍ يُسَاقُونَ إلى الجَنّةِ في السلاسلِ وهم كارهون))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة]

من كان ينطوي على نفس لوامة فالله عز وجل يرجئ معالجته :

سألني أحدُهم مداعباً : ما ملخص دعوتك في ثلاثين عاماً ؟ قلت له : كلمتان ، إما أن تأتيه مسرعاً ، أو أن يأتي بك مسرعاً ، لا بد من أن تصل إليه ، صل إليه باختيارك وأنت صحيح معافى ، ما عندك مشكلة أبداً ، هذا دليل محبتك ، دليل رجاحة عقلك ، دليل قوة إرادتك ، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً ، تماماً كما يقول الطبيب لإنسان معه التهاب معدة حاد : لو أنك اتبعت حمية صارمة فسوف تشفى ، أما إذا تساهلت وأكلت ما تشتهي فلا بد من عمل جراحي ، فأنت مخير بين حمية صارمة وعملٍ جراحي ، أيضاً أنت مخير بين أن تأتي ربك طائعاً ، مستسلماً باختيارك ، بمبادرة منك ، وبين أن تأتيه عقب ضيق ، أو شدة ، أو إلجاء ، يقول الله عز وجل :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

إذاً الآية الكريمة :

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ)

صنعوا مركبة فضائية سموها المتحدي ، بعد سبعين ثانية احترقت ، أحيانا يأتي إعصار ، يقولون لك : الخسائر ثلاثون ملياراً ، معظم الأرباح التي جنيت من جهة أخرى ذهبت خسارة هنا ، فإن فكرت في خلقه تصل إليه ، وإن تدبرت كلامه تصل إليه ، إن نظرت في أفعاله تصل إليه ، لكن النصيحة : أرجئ النظر في أفعاله إلى ما بعد النظر في آياته الكونية وآياته القرآنية ، لأنك إذا أقمت جولة في خلقه ، ثم تدبرت كلامه فإيمانك بأسمائه الحسنى من خلال خَلْقه ، وإيمانك بكلامه من خلال تدبره يلقيان ضوءاً كاشفاً على أفعاله ،

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ)

أنت لست نبياً ، أنت إنسان حصَّلت ثقافة عالية جداً ، وخدعتَ بها الناس ، وصرفتَ وجوه الناس إليك، ولست نبياً ، ولا رسولاً ، ولا يوحَى إليك ، من يقول هذا ؟ لا بد من مقدمة ، دائماً الإنسان إذا كان ينطوي على نفس لوامة فالله عز وجل يرجئ معالجته .

حينما يُمنَع الحق من أن ينتشر عندئذٍ يتدخل الله عزّ وجل :

جاء طالب بجلاء عليه علامة صفر في الرياضيات ، فالأب تضايق كثيراً ، لكن نظر إلى ابنه فرآه أشد تضايقاً ، ترك الطعام ، وأحاطت به كآبة عالية ، وفكر في دروس خصوصية ، وفكر أن ينفق ما جمعه في العيد لدروس الأستاذ في الرياضيات ، فلما رأى الأب ابنه بهذا الاهتمام ، وهذا الحزن ، وهذا

الألم ، وتلك الكآبة ، وهذه التضحية كف عنه ، أما إذا نال الصفر ، وبقي مستهتراً يضحك ويلهو فلا بد من معالجة .

إذاً ما دامت نفوس عباده نفوس لوامة هم يرتدعون ، هو يعودون ، هم يتوبون ، هم يراجعون أنفسهم فإن الله يرحمهم ، أما حينما تكون نفوسهم أمارة بالسوء ، وقوة ظالمة تسحق قوة أخرى ، قلة قليلة تملك كل شيء ، وكثرة كثيرة لا تملك شيئاً ، فهذا الذي يملك المال والقوة وكل شيء ، ويعيش حياة خيالية ، لا يسمح لهؤلاء الذين يقهرهم أن يتعرفوا إلى الله ، لذلك حينما يُمنَع الحق من أن ينتشر عندئذٍ الله جل جلاله يتدخل ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((تُمْلَأُ الْأَرْضُ ظُلْماً وَجَوْراً ، ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

تجد في العالم اليوم تسعين في المئة من ثرواته بيد عشرة في المئة من عباده ، هؤلاء العشرة في المئة يعيشون حياة تفوق حد الخيال ، حياة بذخ ، وإسراف ، وغطرسة ، واستعلاء ، وكبر ، وتدمير ، وقصف ، وسحق ، وقتل ، وإبادة ، والإعلام بيدهم ، والقوة بيدهم .

فتاة في بلد غربي بعيد ترتدي ثياب الشاذات ، مدير المدرسة في هذا البلد على شيء قليل من المروءة ، منعها من دخول المدرسة ، فأقام والدها دعوى على مدير المدرسة ، وحكم القاضي له بمبلغ فلكي ، لأن إدارة المدرسة تدخلت في حرية هذه الفتاة ، جيد ، هذه الحرية ، تأتي فتاة في بلد آخر مسلمة تضع على رأسها قطعة قماش ، تنفيذاً لتعاليم دينها الحنيف الذي يأمرها بالحجاب ، قطعة قماش ، وضعتْ بنت في المدرسة الإعدادية قطعة قماش على رأسها تقوم الدنيا ولا تقعد بدءاً من أعلى رجل في ذلك البلد ، الحجاب ممنوع أمّا ثياب الشاذات مسموحة ؟!

تسقط طائرة ، تدفع الدولة التي اتهمت بإسقاطها قريباً من ثلاثمئة مليار دولار دية لركابها ، أما ممرضات يحقن أربعمئة طفل بفيروس الإيدز ، كل دول الغرب تتدخل لإطلاق سراح الممرضات دون محاكمة ، ودون تعويض ، غير معقول أن يحاسَب إنسان ببلد أنه استخدم سلاحاً كيماوياً ، والذين يحاسبونه يستخدمون سلاحاً كيماوياً أيضاً ، القيم مضطربة .

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

* * *

هؤلاء يوم القيامة يؤمرون بأن يسكتوا :

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65))

(سورة يس)

الإنسان المتأله هو الذي لا يعتقد أن هناك إلهاً سيحاسبه :

يا أيها الأخوة ، عندما يصل الأمر إلى هذا المستوى مِن جهة قوية جداً ، متغطرسة ، تقهر الناس ، تلغي حياتهم ، تلغي ثقافتهم ، تلغي دينهم ، تلغي تقاليدهم ، تلغي عاداتهم ، من أجل مصالحها فقط ، عندئذٍ لا بد من تدخل السماء ، مستحيل أن تستطيع قوة طاغية أن تخطط لمستقبلها البعيد ، وأن تنجح خططها على المدى البعيد ، هذا تناقض مع وجود الله ، لا مع عدالته فحسب ، بل مع وجوده ،

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا)

الأقوياء ، الطغاة المنتفعون ، الذين يسحقون البشر ، أو لو سميناهم الطاحنين لأنهم يطحنون المطحونين ، في مثل هذه الحالة لا بد من تدخل الإله ، لذلك :

((تُمْلَأُ الْأَرْضُ ظُلْماً وَجَوْراً ، ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

هم يقولون :

(دَرَسْتَ)

هذا الدين تعبير عن ضعف الإنسان ، الدين أفيون الشعوب ، الدين غيبيات ، هؤلاء أخلاقيون لأنهم فقراء ، لو كانوا أغنياء لما كانوا أخلاقيين ، لو قرأت ما يطرحه الطرف الآخر من أنّ التدين سلوك جاهلي قديم ، سلوك بدائي ، خوف مما رواء الطبيعة ، وجدتَ الإنسان المعاصر إنساناً متألهاً ، والله كأني سمعت مقابلة مع جندي في دولة معتدية جبارة طاغية يقول : أنا الإله ، أنا أنهي حياة أي إنسان ، إن لم أطلق عليه النار أبقيته حياً ، وإذا أطلقت عليه النار أنهيت حياته ، وأمره بيدي ، هذا النمط الجديد إنسان متأله ،

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ)

لا يعتقدون أن هناك إلهاً سيحاسبهم .

إذا أردت الحقيقة فكل شيء يدلك عليها :

قال تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

مشكلة هذا الطاغي أنه لا يدخل الله في حساباته إطلاقاً ،

(وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ)

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48))

(سورة العنكبوت)

إذاً لماذا جعله الله أميّاً ؟ لأن وعاءه فرغه الله من كل ثقافة أرضية ، نبينا يوحَى إليه ، كلمة عبقري ، ومصلح اجتماعي ، الطرف الآخر طرح ذلك عليه ، نبينا نبي معه وحي السماء ، أما قضية عبقري فموضوع آخر ، مصلح اجتماعي موضوع آخر ، إنه نبي يوحَى إليه ،

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

معنى يعلمون : أي أنهم أرادوا أن يعلموا ، لا تستطيع أن تقول كلمة لمن صمم ألا يسمع ، حتى إن بعضهم قال : لن أجد أشد صمماً من الذي يريد ألا يسمع ، المؤمن إذا أراد الحقيقة فكل شيء يدله عليها ، فإذا أعرض عنها لو رأى كل الآيات الدالة على عظمة الله لا يؤمن ، فلذلك هذا التبيان لقوم يعلمون ، لقوم أرادوا الحقيقة ، أرادوا أن يؤمنوا ، أرادوا أن يعرفوا رسالاتهم في الحياة ، أرادوا أن يعرفوا سر وجودهم وغاية وجودهم ، لذلك إذا أردت الحقيقة فكل شيء في خدمتك يدلك عليها .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69))

(سورة العنكبوت)

(وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

لذلك الحكمة من أعطاها لغير أهلها فقد ظلمها ، ومن منعها أهلها فقد ظلمها .

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9))

(سورة الأعلى)

وعاء النبي كله من وحي السماء ولذلك كان أمياً :

ثم يقول الله عز وجل مخاطباً نبيه الكريم :

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106))

أنت يوحَى إليك ، أنت لست دارساً ، ولم تحصل هذا من ثقافة أرضية ، وعاؤك من وحي السماء .

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

لذلك كان أمياً ، ولو كان يقرأ ويكتب ودرس قبل البعثة ، وقال كلاماً رائعاً يُسأل دائماً : هذا الكلام من عندك أم من الوحي ؟ وعاء النبي كله من وحي السماء ،

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

فالمسلم يتبع وحي السماء ، اتبعوا منهجاً لا من صنع البشر ، مناهج البشر أيها الأخوة استجابة لواقعهم، فإذا انتشر الشذوذ في بلد ما يصدر قانون بإباحته ، فالقوانين الأرضية استجابة لحاجات المجتمع أو لواقعه السيئ ، لكن وحي السماء يرفع الناس إلى الكمال ، بين أن يهبط القانون إلى واقع البشر ، وبين أن يرفع وحي السماء البشر إلى مصاف الملائكة فرق كبير ،

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

مرة الحجاج أراد أن يقتل سعيد بن جبير ، فقال له سعيد بن جبير التابعي الجليل: " واللهِ لو علمتُ أن موتي بيدك لعبدتك ، ولكن حياتي بيد الله عز وجل " .

عظمة المؤمن أنه يخضع لله وحده ولا يحنِي رأسه لأحد :

عظمة المؤمن أنه يخضع لله وحده ، وأنه لا يحنِي رأسه لأحد ، يحني رأسه في الركوع لله عز وجل ، وفي السجود كذلك ،

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

فهو المعطي ، وهو المانع ، وهو الرافع ، وهو الخافض ، وهو المعز ، وهو المذل ، وهو الذي يهب الأمن ، وهو الذي يهب النصر ، وهو الذي يضعف الأعداء ، وهو الذي يلقي في قلوبهم الرعب ، أما إذا هان أمر الله علينا نهون على الله ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله]

أما أمته حينما تخلت عن دينها ، وأدارت ظهرها للقرآن ، وأخذت ما عند الغرب من مناهج يومية ، هان أمر الله عليها فهانوا على الله عز وجل ،

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

هؤلاء الذين أشركوا ، وألهوا أنفسهم ، وعبدوا شهواتهم ، وعبدوا جهات أرضية ظنوا أنها تنفعهم أو تضرهم ، مع أن الله عز وجل يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام فيقول :

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

وقال :

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

(سورة الأعراف الآية : 188)

وقال :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية : 188)

وقال :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

وقال :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107))

(سورة الأنعام)

كل المخلوقات مسيرة إلا الإنس والجن فمخيّران :

إنّ الله عز وجل شاءت مشيئته أن نكون أصحاب مشيئة ، لذلك الإنسان مخير بأن يؤمن أو يكفر ، أما لو أن الإنسان في الأصل لم يكن ذا مشيئة ، لم يكن مخيراً ، لا يستطيع أن يكفر ، كل المخلوقات مسيرة إلا الإنس والجن فمخيّران ، فإذا أشرك المشرك لأن الله سمح له أن يختار ، هكذا اختار ، أنت أهم شيء في هويتك أنك مخير ، معنى مخير أنه بإمكانك أن تستقيم أو أن لا تستقيم ، بإمكانك أن تؤمن أو ألاّ تؤمن ، تصدق أو تكذب ، تحسن أو تسيء ، تصلح أو تفسد ، تخلص أو تخون ، أنت مخير ، أنت مخير فيما كلفت ، هذه هويتك .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف الآية : 29)

وقال :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

أنت مخير ، فالذي أشرك ما سبق الله بإشراكه ، لا ، هو في الأساس مخير ، الله سمح له يختار ، تماماً لو أردت أن تفحص إنساناً يدعي أنه على علم بالأدوية ، تعطيه مجموعة أدوية ، تقول : أعِدْها إلى أماكنها ، هنا الفيتامينات ، هنا السموم ، هنا المضادات الحيوية ، الآن أنت تمتحنه ، فهو مخير ، فإذا أمسك بدواء فيتامين ووضعه في محل السموم ، لو منعته لألغيتَ اختياره ، لا بد من أن يتحرك وفق اختياره هو ، فالإنسان مخير ،

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148)

(سورة البقرة الآية : 148)

الإنسان مخير إذاً يدفع ثمن اختياره :

لذلك أيها الأخوة ، الإنسان مخير إذاً يدفع ثمن اختياره :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا)

هذا معنى آخر :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ((148)

(سورة الأنعام)

هذه الآية تنفي الجبر ، أما هذه الآية فتشير إلى أن الله خلقك مختاراً ، فإذا اخترت الإيمان فقد سمح لك أن تختار الإيمان ، وإن اخترت الشرك سمح لك أن تختار الشرك ،

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا َشْرَكُوا)

فليس هناك كافر يسبق الله عز وجل .

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا (59))

(سورة الأنفال الآية : 59)

معنى سبقوا أي أنهم فعلوا شيئاً ما أراده الله ،

(وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

أنت مبلغ فقط .

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (56))

(سورة القصص)

من يشاء الهداية ،

(وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23))

(سورة فاطر)

مبلّغ .

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ (67))

(سورة المائدة الآية : 67)

الداعية مبلّغ ، وكل عالم مبلّغ ، لا يملك أكثر من أن يبلغ ، الأمر بيدك ، إما أن تستجيب أو لا تستجيب،

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(41-73): تفسير الآيات 106-107 ، الإنسان دائماً في قبضة الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-11-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة الأنعام .

الآية التالية موجهة للنبي عليه الصلاة والسلام :

مع الآية السادسة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106))

كأن الآية متوجهة إلى النبي صلى الله عليه وسلم :

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107))

هاتان الآيتان مررنا عليهما سريعاً في الدرس الماضي ، ولا بد من وقفة متأنية عند مضمون هاتين الآيتين .

أولاً : إذا قلت لمن هو في أعلى درجات الاجتهاد : اجتهد ، فهذا الأمر يعني داوم على اجتهادك ، واثبت على اجتهادك ، وتابع اجتهادك .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

(سورة الأحزاب الآية : 1)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)

إذا جاء الأمر للمأمور وهو مطبق له فيتجه الأمر إلى الاستمرار عليه ، ومتابعته ، والثبات عليه ، إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

هذه الآية موجهة للنبي عليه الصلاة والسلام ،

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ)

ما يُطرح في هذه الأيام يتناقض مع نص القرآن الكريم ومع أصل الدين :

أولاً : الرب ربٌ ، والعبد عبدٌ ، الإله مطلق ، الذات الكاملة ، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ، واجب الوجود ، أزلي أبدي ، واحد أحد ، فرد صمد .

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4))

(سورة الإخلاص)

علِم ما كان ، وعلِم ما يكون ، وعلِم ما سيكون ، وعلِم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ؟ هذا الإله العظيم إذا أعطى توجيهات فهي التوجيهات التي لا ريب فيها ، ولا مأخذ عليها ، لا يأتيها الباطل لا من بين يديها ولا من خلفها ، لأن الله مطلق ، وكلامه مطلق، وكمال كلامه مطلق ، وصوابُ توجيهاتِه مطلقٌ ، إذاً :

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ)

أخواننا الكرام ، يقول تعالى في آية أخرى في سورة الحجرات :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (1))

(سورة الحجرات الآية : 1)

كأن الله سبحانه وتعالى أنبأنا عن أنه سوف يأتي زمان كل إنسان يقدم بين يدي الله ، وفي هذه الأيام أيها الأخوة تطرح موضوعات تناقض القرآن الكريم ، ينادى بتعديل قانون الأحوال الشخصية ، ينادى بمساواة المرأة مع الرجل حتى في الميراث ، ينادى برفع كل تحفظ عن حقوق الطفل ، شيء طويل ، لكن كل هذا الذي يطرح يتناقض مع نص القرآن الكريم ، مع أصل الدين ، هناك جرأة في نقض وحي السماء ، وما جاء به سيد الأنبياء .

إذاً هنا الآية :

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ)

للتقريب تصور مريضاً أميّاً لا يقرأ ولا يكتب ، جاهلاً جهلاً مطبقاً ، حدثتْ معه أزمة قلبية ، فزار طبيباً يعد أول طبيب في القلب ، معه أعلى شهادة في العالم ، فأعطاه توجيهات ، فهل يستطيع هذا المريض الأمي الجاهل أن يحاور الطبيب في توجيهاته ؟! البون شاسع جداً ، المريض في جهل مطبق، وعادات سيئة في الطعام والشراب ، ولا يملك أي ثقافة صحية ، يحاور إنساناً في أعلى درجة من العلم.

مجرد أن تفكر في بديل لحكم شرعي فأنت لا تعرف الله :

لذلك أيها الأخوة ، لمجرد أن تفكر في بديل لحكم شرعي فأنت لا تعرف الله ، والدليل :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب الآية : 36)

لاحظ نفسك مع خبير ، مع عالم شهير يعطيك توجيهاً ، وليكن طبيباً ، لا تفكر أن تناقشه ، لماذا ؟ لأنك واثق من علمه ، فكيف بكلامٍ من عند الله ؟ فكيف بوحي السماء ؟ لذلك:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

كنت مرة في مؤتمر في أمريكا في لوس أنجلس فألقى عالم كلاماً قال فيه : هذه البلاد ليس فيها شيء مقدس ، أي شيء مهما بدا مقدساً فهو خاضع للبحث والدرس والنقد ، أما نحن كمسلمين فعندنا مسلّمات، هذا كتاب الله ، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه .

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ (42))

(سورة فصلت الآية : 42)

أريد أن أوضح الفكرة بمثل : ذهب إنسان إلى شخص لإصلاح مركبته ، وفي المكابح قطعة يجب أن تُغيَّر ، فغيّرها بقطعة جديدة ، وثمة قطعة تستند إليها هذه القطعة رماها في الطريق ، قال : هذه لا فائدة منها ، فقال له صاحب المركبة : أرجعها ، قال له : لمَ؟ قال له : لأن الشركة فيها خمسة آلاف مهندس ، وعُمرها مئة عام ، ولا يمكن أن تكون أنت أشد فهماً منه أبداً ، أرجعها ، وما تمكن صاحب المركبة أن يحاوره ، لأن عنده مسلّمات أن شركة عريقة تصنع السيارات من مئة عام ، وخبراتها كلها متراكمة ، وعندها خمسة آلاف مهندس ، وهذا إنسان يعمل في الميكانيك في دمشق لا يمكن أن يكون أشد فهماً من هؤلاء مجتمعين .

الآن لو لم تتمكن أن تأتي بدليل على ما في القرآن فيكفي أن هذا كلام الله ، وأن الذي أنزله هو الخبير، هو العليم ، هو الحكيم ، هو المطلق ، هو الخالق ، هو الرب ، هو الرحيم ، هو الذي خلق الإنسان ، هو الذي يعلم ما يسعده وما يشقيه ، ما يجعله سليماً من كل مصيبة وما يجعله هالكاً .

قيمة الأمر من قيمة الآمر :

إذاً :

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

مَن هو الذي أوحى هذا القرآن ؟ طبعاً الله رب العالمين ، ماذا تعني كلمة رب ؟ رب الذي يربيك ، الذي خلقك ، والذي أمدك ، والذي يربي جسدك ، والذي يربي نفسك ، ربى نفسك بخصائص ، ورباها بالوحي ، ورباها بالمعالجة ، ورباها بأفعاله ، كلمة رب أعتقد أنها أقرب اسم من أسماء الله تعالى للإنسان ، أقرب إنسان إليك من دون استثناء أمك التي ولدتك ، والتي ربتك ، والتي حرصت على سلامتك وسعادتك ، وفي حياة كل واحد منا أمّ ، وأقرب إنسان إلى الإنسان أمه التي أنجبته ، يأتي بعد ذلك أبوه ، الآن أقرب جهة غير أمك إليك الذي خلقك ، الله عز وجل من أسمائه أنه رب العالمين ،

خلقك ، أمدك بالأجهزة ، بالأنسجة ، بالأعضاء ، بالحواس ، بالدماغ ، بالقدرات ، بالمهارات ، أمدك بالهواء ، أمدك بالماء ، أمدك بالطعام ، أمدك بالهواء ، أمدك بالشراب ، أمدك بما في الأرض من جبال، وأنهار ، ووديان ، وأغوار ، وبحيرات ، وبحار، وأطيار ، وأسماك ، وأنواع النباتات .

لذلك :

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ)

لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر ، بل شرف الأمر من شرف الآمر ، فحينما تتبع إنساناً أصدر قراراً فالإنسان يخطئ ويصيب ، وقد تكون له مصلحة في هذا القرار ، ليست هذه المصلحة تابعة لمن يطبق هذا القرار ، بل لمن يصدر هذا القرار ، قد تفرض عليك ضريبة لمصلحة الجهة التي فرضتها ، لكن خالق السماوات والأرض هو الذي خلقك ، وهو الخبير ، لهذا قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (21))

(سورة البقرة الآية : 21)

بالمناسبة أيها الأخوة ، أي قرار من إنسان لأنه إنسان ، ولأنه مثيلك في الإنسانية تستطيع أن تحتال على هذا القرار ، لأن واضع القرار إنسان ، والذي يطبق عليه القرار إنسان مثله ، وبإمكان الإنسان الأذكى أن يحتال على الأقل ذكاء ، لذلك أيّ قانون يصدره أيّ إنسان في الأرض يسهل التحايل عليه ، يصدر قانون بتحديد السرعة في الطرقات في بلد غربي ، وعلى الطرقات محطات تكشف السرعات الزائدة ، جيد ، الإنسان الذي سيطبق عليه القانون قد يكون أذكى من واضع القانون ، يخترع جهازاً يوضع في السيارة قبل عدة كيلومترات من وجود الكاشف ينبهه .

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان :

مرة كنت راكباً سيارة في هذه البلاد ، فإذا بالسائق يخفض سرعته من مئة وثمانين إلى مئة ، ما الذي حصل ؟ قال لي : هناك جهازُ كشفِ السرعة بعد قليل ، والجهاز الذي عندي أنبأني بذلك ، معنى ذلك أن القرار قد انتهى مفعوله ، وهذا القانون الذي وضع لسلامة الركاب في السفر قد ألغي ، لأن المطبق أذكى من الواضع .

أيّ قانون وضعي من السهل جداً التحايل عليه ، أوضح مثل الصيام ، تصور أن الصيام فُرض على المواطنين بقانون ، وليس في الإسلام صيام ، لكن الدولة رأت أن الصيام مفيد جداً للمواطنين ، فأصدرت قانوناً بترك الطعام والشراب من الفجر وحتى الغروب ، كم تستطيع الدولة أن تطبق هذا القانون ؟ لا تستطيع مع واحد ، فإذا دخل إلى بيت الخلاء يشرب، أما المسلم فيدخل إلى الحمام في أيام

الصيف ، ويكاد يموت عطشاً ، والصنبور فيه ماء عذب بارد زلال ولا يستطيع أن يضع في فمه نقطة ماء أبداً .

أرأيت إلى القانون الذي أنزله الله عز وجل ؟ فلا يمكن أن تصلح البشر إلا بوحي السماء ، لأن الذي أصدر القانون معك دائماً ، وبيده كل شيء ، أما في الساعة الثالثة ليلاً الإشارة حمراء ، والكل يتجاوزها ، السبب ؟ ليس هناك شرطي ، لأن واضع القانون يطولك علمه عن طريق الشرطي ، فإذا كنت في الساعة الثالثة ليلاً فلا يوجد شرطي ، إذاً تتجاوز الإشارة ، أما القانون الإلهي فهو معك دائماً ، لا تخفى عليه خافية ، لا تخفى عليه خواطرك .

((إنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِه))

[أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس]

هو معك ، وكل شيء بيده ، لذلك إيمانك أن الذي خلقك معك ، وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان .

لذلك أنا أرى أنه لا يصلح قانون أرضي ، لكن الآن هناك وسائل ضبط عالية جداً وبالتعبير المعاصر (سوبر ماركت) فيها بضائع من دون مبالغة بمئات المليارات ، عند مخرج هذا السوق يدفع الإنسان ثمن البضاعة ، لو أنه لم يدفع ثمنها فعلى كل بضاعة لصاقة فيها مادة ، إن لم يدفع ثمنها فهذه البضاعة تصدِر إشارة ، فينطلق صوت مخيف ، وتغلق الأبواب بشكل آلي ، قلّمَا تحدث سرقة ، هناك ضبط إلكتروني ، يا ترى هؤلاء الذين في السوق من هو الأمين ، ومن هو غير الأمين ؟ لا نعرف ، لأن ثمة ضبطاً إلكترونيّاً ، كأن الأمانة قد ألغِيتْ ، وليس هناك مخالفات ، أما يوم قطعت الكهرباء في بلدة ، سكانها ثمانية عشر مليوناً بأمريكا تمت مئتا ألف سرقة في ليلة واحدة ، حجم السرقات ثلاث مليارات ، لم يكن وقتئذٍ ضبط إلكتروني ، هذه الاستقامة الإلكترونية لا قيمة لها عند الله أبداً .

جوهر الدين :

راعي غنم في أعالي الجبال يلتقي بإنسان يقول له : بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ، يقول له الراعي : ليست لي ، يقول له : خذ ثمنها ، يقول : والله إنني في أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟ أرأيت إلى هذا الراعي ؟ لقد وضع يده على جوهر الدين .

فإذا قلت : أين الله ؟ فأنت مؤمن ، ورب الكعبة أنت مؤمن ، وكذا إذا خفت من الله في خلوتك .

((من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله تعالى إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله))

[رواه الحكيم عن أنس رضي الله عنه]

ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلّط .

إذاً :

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

قد يفرض عليك عدوك تصرفاً أنت لا تحتمل تطبيقه لكنك مرغم عليه ، أما هذا التوجيه الذي يأمرك الله أن تتبعه فهو مِن عند مَن ؟ من عند الرحيم ، من عند الحليم ، من عند الحكيم ، من عند القوي ، من عند الغني ، من عند الرب ، من عند الإله ، من عند من بيده كل شيء .

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

لماذا ؟ عندنا اعتراض في البلاغة ،

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

جملة معترضة ، تقول : قال الله عز وجل ، عز وجل جملة معترضة ، الاعتراض هنا يفسر موجب الاتباع ، لماذا

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

؟ لأنه :

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

لا خالق إلا هو ، لا مربي إلا هو ، لا مسيّر إلا هو ، لا موجود على الحقيقة إلا هو ، لا معطي إلا هو، لا مانع إلا هو ، لا رافع إلا هو ، لا خافض إلا هو ، لا معز إلا هو ، لا مذل إلا هو ، لا محيي إلا هو ، لا مميت إلا هو ، لا رازق إلا هو ، هذا الكلام النطق به سهل جداً ، لكن عقله يحتاج إلى جهد كبير ، ألا ترى مع الله أحداً ، أن ترى أن يد الله تعمل وحدها .

لأنه لا إله إلا هو فينبغي أن تتبع ما أوحي إليك من ربك :

الآن هناك هذه الأزمات ، وهذه الفتن ، وهذه الاجتياحات ، وهذه الحروب ، وهذا التطاول من بعض البشر على بعضهم الآخر ، وهذا الإملاء ، موقف المؤمن الصادق ألاّ يرَى إلا الله ، لا يرَى مع الله أحداً .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (10))

(سورة الفتح الآية : 10)

وقال :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (17))

(سورة الأنفال الآية : 17)

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء]

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أي لا معبود بحق إلا الله ، وما من جهة تستحق العبادة إلا الله . بالمناسبة أيها الأخوة ، أنت كإنسان حينما تكون لغير الله تحتقر نفسك ، لا تعرف قدر نفسك إذا كنت لغير الله :

" عبدي خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك ."

أنت مخلوق لله ، الجماد للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان ، والإنسان لله ، الإنسان لله وحده .

أيها الأخوة الكرام ،

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

لأنه لا إله إلا هو فينبغي أن تتبع ما أوحي إليك من ربك .

كمثل من واقعنا : أنت بحاجة إلى تأشيرة خروج ، وذهبت إلى دائرة الهجرة والجوازات ، وهي مِن أربع طوابق ، قال لك أحدهم : هذه التأشيرة لا يستطيع واحد في هذا البناء كله أن يوافق عليها إلا المدير العام ، هل تبذل ماء وجهك أمام شرطي ؟ أمام كاتب ديوان ؟ أمام موظف ؟ هذه التأشيرة من صلاحية المدير العام وحده ، لذلك لا تسال أحداً ، ولا تبذل ماء وجهك أمام أحد ، ولا ترجو أحداً .

الآن المثل سنكبره : كل قضاياك متعلقة بالله ، فحينما تتضعضع أمام غني ، وتبذل ماء وجهك فقد سقطت من عين الله ، لأن الله خلقك وليس بينك وبينه حجاب ، اسأله ، يعاب من يشكو الرحيم إلى من لا يرحم .

ملك الملوك إذا وهب قم فسألن عن السبب

الله يعطي من يشاء فقف على حدّ الأدب

* * *

المشركون لا تعبأ بهم لأنهم لا يعرفون الله دينهم الدرهم والدينار :

الآن :

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

المشركون لا تعبأ بهم ، لأنهم لا يعرفون الله ، أفُقهم ضيق ، طموحاتهم تنتهي عند الدنيا ، الآخرة ما أدخلوها في حساباتهم أبداً ، يعبدون شهواتهم من دون الله ، دينهم الدرهم والدينار .

سمعت أن عالماً كبيراً من علماء المسلمين له تفسير قيم ، زار بلاداً بعيدة في الغرب ، وجلس في حديقة ، كان إلى جانبه شخص من تلك البلاد ، وهذا العالم لونه يميل إلى السمرة ، فسأله : من أنت ؟ وماذا تعلم ؟ فلما علم هذا الغربي أنه عالم إسلامي قال له : تحب أن أشرح لك الإسلام ؟ قال له : لا مانع ، قال له : كم معي من الوقت ؟ قال له : ساعة ، فهذا العالم شرح له أساسيات العقيدة ، وأساسيات الأحكام ، في خمسين دقيقة ، وترك عشر دقائق للحوار ، فلما انتهى هذا الذي يحاوره ذلك العالم أخرج من جيبه مئة دولار وقال له : أنا هذا الإله الذي أعبده من دون الله ، انتهى الأمر ، هذا الإله الذي أعبده من دون الله .

لذلك حينما يعبد الناس شهواتهم ، وحينما يحققون مصالحهم لا مبادئهم ، وحينما يحتكمون إلى أهوائهم لا إلى عقولهم ، وحينما يعامل الإنسان بحسب قوته ، فإذا كان ضعيفاً سحقوه ، ولا سيما في هذا العصر عصر العولمة التي على وزن حيونة ، عصر المادة ، عصر القهر ، عصر الظلم ، عصر النهب والسلب ، عصر الكذب ، عصر الدجل ، في مثل هذا العصر قال تعالى :

(وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

ولا تعبأ بهم ، هم أحقر مما تلتفت إليهم ، لماذا أتوا إلى بلاد مجاورة ؟ لأن فيها أسلحة كيمائية ، هم استخدموها ، لماذا تأتي إلى بلد بحجة أنه يملك أسلحة كيماوية ، وأنت لما أردت أن تقاوم من يقاومك استخدمت الأسلحة الكيماوية ؟! هؤلاء لا تصغي إليهم ، هؤلاء يقول الله عنهم :

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65))

(سورة يس)

هم أقلّ من أن تخاطبهم ، لأنهم لا يملكون الحجة ، يكيلون بألف مكيال ومكيال .

الكون كله مسير إلا الإنس والجن فهما مخيران :

(وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

هؤلاء الذين أشركوا مع الله آلهة ، هؤلاء الذين أشركوا مصالحهم مع ربهم ، أشركوا شهواتهم مع ربهم ، إياك أن تصغي إليهم .

ما معنى ذلك ؟ إياكم أيها الأخوة أن تفهموا فهماً ما أراده الله ، أن الله عز وجل أجبرهم على الشرك ، سبحانه وتعالى أن يفعل ذلك ، لكن الله أعطاهم الخيار ، هم لم يشركوا عنوة ، بل أشركوا باختيارهم الذي منحه الله لهم ، فيمكنك تقييد إنسان بقيد ، ما عنده خيار ، لكن أنت منحته الاختيار ، معنى

الاختيار أنه بإمكانه أن يكفر أو أن يؤمن ، بإمكانه أن يصدق أو أن يكذب ، بإمكانه أن يستقيم أو أن ينحرف ، بإمكانه أن يرحم أو أن يقسو ، الإنسان فقط والجن مخيرون ، وما سوى ذلك فمسيَّرون ، الكون كله مسير ، المادة كلها مسيرة ، الحيوان كله مسير ، الملك كله مسير ، ليس هناك مخلوقات مخيَّرة إلا الإنس والجن ، معنى مخير أي أنه يفعل ما يريد ، فهذا الذي أشرك ، وهذا الذي كفر ، وهذا الذي قتل ، وهذا الذي زنى ، وهذا الذي سرق ، هؤلاء هل فعلوا هذا تحدياً لله ؟ لا ، هو الذي سمح لهم أن يختاروا .

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59))

(سورة الأنفال)

معنى

(سَبَقُوا)

أي أنهم فعلوا شيئاً ما أراده الله أو أنهم يستطيعون التفلت من عقاب الله ؟ هم في قبضته .

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183))

(سورة الأعراف)

المتانة مقاومة قوى الشد ، والقساوة مقاومة قوى الضغط ، فكأن هذا الإنسان مربوط بحبل متين ، مهما قوي ، مهما تغطرس ، في أية لحظة هو في قبضة الله .

سمعتم عن الغرب كيف تغطرس ، وتأله ، والله مرة سمعت في ندوة جندياً في دولة معتدية ، يقول : أنا الرب ، أنا الإله ، كيف ؟ قال له : أنا أقرر إبقاء هذا الإنسان حياً أو أقتله ، معي صلاحية ، عدّ نفسه إلهاً .

لكن لما وقف سعيد بن جبير أمام الحجاج ، وقال له الحجاج : إنني سأقتلك ، قال له : والله لو آمنت أن قتلي بيدك لعبدتك من دون الله ، ولكن الذي ينهي حياتي هو الله ، وقد يكون هذا الإنهاء على يديك ، لكن الذي ينهي حياتي هو الله .

الكافر لا يمكن أن يفعل شيئاً ما أراده الله فهو في قبضة الله :

أنت حينما تؤمن تكون شجاعاً ، حينما تؤمن لا تنافق ، لا تنهار ، الذي منحك الحياة هو وحده يأخذها منك .

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ (56))

(سورة يونس الآية : 56)

يعطي ويمنع ويرزق ،

لذلك :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا)

هم ما أشركوا عنوة ، ولا تحدياً ، لكنهم أشركوا لأن الله سمح لهم أن يؤمنوا أو أن يشركوا ، سمح لهم أن يكفروا أو أن يؤمنوا ، سمح لهم أن يصدقوا أو أن يكذبوا ، سمح لهم أن يطيعوا أو أن يعصوا، أنت مخير ، أنت أتيت إلى هذا المسجد ، بإمكانك ألا تأتي ، أن تبقى في البيت ، لا سمح الله ولا قدر بإمكانك أن تذهب إلى ملهى في الوقت نفسه ، بإمكانك أن تتزوج وبإمكانك أن تزني ، بإمكانك أن تأكل المال الحرام وبإمكانك أن تأكله حلالاً .

كنت أضرب مثلاً : تفاحة في هذه الشجرة هي لك ، حينما خلقت هي لك ، أما أنت مخير ، يمكن أن تشتريها بمالك ، ويمكن أن تسرقها لا سمح الله ، ويمكن أن تأكلها ضيافة ، ويمكن أن تأكلها هدية ، ويمكن أن تتسولها ، تسول ، هدية ، شراء ، سرقة ، بإمكانك ، هي لك ، لكن وصولها إليك باختيارك ،

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا)

وهذا الذي تسمعه : فعَلْنا ، وتركنا ، وقهرنا ، وقصفنا ، وقتلنا ، الكافر لا يمكن أن يفعل شيئاً ما أراده الله ، هو في قبضة الله ، بل إن خطة الله تستوعب خطته ، هو يخطط ، الذي يفعله بعد التخطيط ضمن خطة الله ، فكرة دقيقة جداً ، الذي يفعله بعد أن يخطط هو بالأصل من خطة الله عز وجل ، لذلك :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

حتى النبي الكريم :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف)

أي إن أنت يا محمد إلا نذير .

(إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ (48))

(سورة الشورى الآية : 48)

وقال :

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107))

(سورة الأنعام)

وقال :

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

النبي مبلّغ فقط والإنسان معه ملك ومعه شيطان :

النبي مبلّغ فقط ، والإنسان معه ملك ومعه شيطان ، معه ملك يلهمه الخير ، ومعه شيطان يوسوس له الشر ، والشيطان والملك لا يستطيعان إجباره على شيء ما أبداً والدليل :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22))

(سورة إبراهيم)

لا الملك له عليك سلطان ، ولا الشيطان له عليك سلطان ، ولا النبي له عليك سلطان ، ولا الداعية له عليك سلطان ، أنت حر ، افعلوا ما شئتم ، افعلوا ما شئتم هذا تهديد ، كل شيء له ثمن ، افعل ما شئت

(إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23))

(سورة فاطر)

أنت تبلغهم والله يحاسبهم ، والإنسان مخير وليس مسيراً ، مخير فيما كلف ، ومسيّر فيما لم يكلف ، والذي سير به هو ما يكلف لصالحه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(42-73): تفسير الآيتان 108-109 ، التبصر والتأني في التعامل مع الطرف الآخر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-11-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة الأنعام .

العبرة أن تكون رحيماً بالمؤمنين :

مع الآية الثامنة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109))

أيها الأخوة الكرام ، على مستوى السبابِ قال تعالى :

(الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

هؤلاء الذين يدعون من دون الله مشركون ، فإذا سببت آلهتهم المزعومة انتقموا منك فسبوا الإله الحقيقي ، من هو الخاسر الأكبر ؟ من ينتمي إلى الإله الحقيقي ، هذا على مستوى السباب ، فكيف على مستوى آخر ؟ أنت حينما تفعل شيئاً فيكيل الطرف الآخر لأمتك أضعافاً مضاعفة ففي النهاية تسببت في آلام لا تنتهي ، لذلك أي عمل يقوم به الإنسان أو المسلم ليس وفق منهج الله ، ويسبّب لهذه الأمة آلاماً لا تنتهي فهو محاسب على ذلك يوم القيامة أشد الحساب ، العبرة أن تكون رحيماً بالمؤمنين ، فكم من مصيبة ألمّت بالمسلمين كانوا في غنى عنها ، لولا أن عملاً غير شرعي ، وغير منهجي ، وليس مغطّى بالحكم الشرعي ، وليس صادراً عن مرجعية حقيقية فُعل بشكل طائش ، فكان سبب دمار هذه الأمة .

الإسلام فيه ضوابط و مبادئ :

هذه قاعدة أيها الأخوة ، في النهاية من يدفع الثمن ؟ إذا كان الذي يدفع الثمن في النهاية أمة الإسلام ، وكان الثمن باهظاً جداً فالذي فعل شيئاً طائشاً غير مدروس ، غير مؤصل ، غير مغطى بالدليل الشرعي فقد سبّب للأمة آلاماً لا يعلمها إلا الله ، وسوف يحاسب عنها يوم القيامة حساباً شديداً ، فقضية

العمل لا بد لها من ضوابط ، الإسلام فيه ضوابط وفيه مبادئ ، الصحابة الكرام يوم كانوا بمكة ، قال تعالى لهم :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (77))

(سورة النساء الآية : 77)

هذا أمر قرآني لكل المسلمين يوم كانوا في مكة أن يكفوا أيدهم عن الطرف الآخر لأنه لو فعلوا ما يتراءى لهم أن هذا صواب لجروا على الدعوة سلبيات هم في غنى عنها .

هذه الآية أيها الأخوة تدعو إلى التبصر وإلى التأني ، والمسلمون كما قال عليه الصلاة والسلام :

((سِلْمُهُمْ وَاحِدَةٌ ، وَحَرْبُهُمْ وَاحِدَةٌ))

[ورد في الأثر]

لا ينبغي أن يبادر أحدهم لا إلى حرب ولا إلى سلم من دون أن يكون مع مجموع المؤمنين ، هذه قضايا مصيرية ، لا يستطيع آحاد المسلمين أن يبتّوا فيها ، آحاد المسلمين لا يستطيعون أن يعطوا حكماً من دون مرجع ، من دون حكم شرعي ، من دون أصل ، وإلا سبّب آحاد المسلمين لمجموع المسلمين آلاماً لا تنتهي ،

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

هذا مشرك يدعي إلهاً زوراً وبهتاناً ، هو ليس إلهاً ، هو مخلوق ، هو صنم ، هو حجر ، لا يقدم ولا يؤخر ، تسبّه ، فيتطاول على الإله الحقيقي ، ويسبُّه .

لذلك كم من عمل غير مدروس ، غير مؤصل ، لا يستند إلى حكم شرعي ، لا يستند إلى إجماع المؤمنين ، هذا العمل سبب هلاك ودمار لمجموع الأمة ، وهذا الشيء ترونه بأم أعينكم ، وتسمعونه بآذانكم ،

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ)

على المؤمن أن يكون عمله وفق منهج الله ووفق ضوابط الشرع :

الحقيقة أن هذا على مستوى السباب ، فكيف الأمرُ على مستوى القتل ؟ وعلى مستوى الدمار ؟ فكيف على مستوى نهب الثروات ؟ فكيف على مستوى احتلال البلاد ؟ كيف على مستوى قهر الإرادة ؟ كيف على مستوى تغيير الثقافة ؟ كيف على مستوى إلغاء العمل الخيري ؟ فكلما رفعت العمل غير المدروس، غير المتفق عليه ، غير الشرعي ، غير المنتمي لأصل ديني صحيح ، وجاءت الآلام تلو الآلام ، والمصائب تِلوَ المصائب ، والقهر بعد القهر ، هذا الذي يحصل بسبب عمل فردي غير مدروس، وغير مخطط له ، ولا يأخذ حكماً شرعياً قويماً ، على مستوى السباب هناك حظر ، فكيف

على مستوى آخر ؟!!

هذا الشيء يعني أن يقف الإنسان وقفة جريئة ، وهذا الشيء لا يعني أن يكون الإنسان جباناً ، ولا يعني أن يكون الإنسان متخاذلاً ، ولا يعني أن يكون الإنسان مستسلماً ، ولكن لا بد من عمل وفق الضوابط الشرعية ، هذا يعني أن يفهم الإنسان قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة ، ينبغي أن تكون دقيقاً جداً في التعامل مع الطرف الآخر ، ينبغي أن تتعامل معه وفق منهج الله ، ينبغي أن تأتمر بما أُمرت ، وتنتهي عما عنه نُهيت ، وألاّ يكون الدافع إرواء الغليل ، ولا بدافع التشفي ، ولا بدافع إحداث شيء يدغدغ مشاعر المسلمين إلى حين ثم يجر عليهم الويلات تلوً الويلات ، العبرة أن يكون عملك وفق منهج الله ، أن يكون عملك وفق ضوابط الشرع ، أن يكون عملك وفق ما يرضي الله عز وجل ، قال الله عز :

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ (190))

(سورة البقرة الآية : 190)

هذا أصل ، قاتل الذي يقاتلك ، أما إذا اعتديت على إنسان لا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد بموضوع القتال فتقلب العالم كله عليك ، عندئذٍ يتهم دينك أنه دين قتل ، ودين جهل ، ودين تخلف ، أنا أتكلم من واقع مؤلم جداً ، كل واحد منا يتمنى أن الذي حصل ليته لم يحصل ، ولكن بعد فوات الأوان ، وهذه الآية أصل في ذلك :

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ)

كل مسلم هو في الحقيقة سفير للمؤمنين :

إن القضية ليست قضية تشفٍّ ، ولا قضية فورة ، ولا قضية اندفاع ، ولا قضية ارتجال ، ولا قضية تصرُّفٍ أرعن ، القضية مصير أمة ، سلامة أمة ، أمن أمة ، حياة أمة ، أما حينما نقصر في فهم دورنا، وفي فهم المنهج الصحيح لتحرُّكِنا نكون قد دفعنا ثمناً باهظاً كانت أمتنا في غنًى عن دفع هذا الثمن الباهظ .

سيدنا خالد حينما انسحب في الوقت المناسب ، وحقن دماء أصحاب رسول الله ، فسمَّاه بعض مَن في المدينة فراراً ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه كرّاراً ، ولم يسمّه فراراً ، لأنه حقن دماء أصحاب رسول الله .

عندما تؤمّن أيضاً مصالح الأمة ، تؤمّن حياتها ، تؤمّن عزتها ، تؤمّن كرامتها بعمل مدروس ، مجمع عليه ، مغطى ، فيه تأصيل ، فيه فتوى مجمع عليها هذا شيء ، وحينما تتحرك حركة غير مدروسة ليس لها مرجعية شيء آخر .

هو مشرك ، محدود ، والدليل غير محدود ، وهو قد عبد إلهاً غير الله ، عبد حجراً ، عبد شمساً أو قمراً ، والآن عبد بشراً ، الآن ما الفرق بين المشركين في قديم الأزمان والمشركين المعاصرين ؟ المشركون في قديم الأزمان عبدوا حجراً ، أو عبدوا مدراً ، أو عبدوا شمساً ، أو قمراً ، الآن عبدوا أشخاصاً ، والآن هناك جهة قوية تُعبَد من دون الله ، جهة قوية يؤلّهها البشر ، فهذا الخضوع لجهة أرضية دليل ضعف التفكير ، ودليل محدودية الأفق ، هذا الذي تعبده من دون الله تسبّه أنت فينتقم منك فيسب الإله العظيم الذي خلق السماوات والأرض ، وربما منع الناس من أن يستزيدوا من هذا الدين العظيم ، بل ثمة أعمال كثيرة كانت متاحة وميسورة فإذا بها تُمنَع منعاً باتاً ، إذا بها تُحظَر على المسلمين ، فأنا لا أدعو إلى عدم الغيرة ، وعدم الاندفاع ، وعدم الجرأة ، ولكن أدعو إلى التبصر ، وأدعو إلى أن تكون سلم المؤمنين واحدة ، وحربهم واحدة ، ينبغي أن يجتمعوا ، والشيء المؤسف أشد الأسف أن الذين شردوا عن الله عز وجل اجتمعوا على رأي واحد ، ورجل واحد ينطق باسمهم ، دول متعددة كثيرة كانت بينها حروب لا تنتهي ، لهم قوميات ، لغات ، وثقافات مختلفة ، لكن مصلحتهم تقتضي أن يجتمعوا فاجتمعوا ، ودخلوا في منظومة واحدة ، وصاروا ينطقون بلسان رجل واحد ، والمسلمون في الأرض مليار وأربعمئة مليون ، إلههم واحد ، ودينهم واحد ، وقرآنهم ومبدؤهم واحد ، ولغتهم واحدة ، ومع ذلك فكلٌ يدعي أنه يمثلهم ، وهم جميعاً في حيرة وفي تمزق ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((أنت على ثغرة من ثغر الدين فلا يؤتين مِن قِبلك))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة]

كل مسلم هو في الحقيقة سفير للمؤمنين ،

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتينّ مِن قِبَلك))

كل مسلم له موقع ، هذا موقع يعد مركزاً حدوديّاً ، أخطر ما يفعله المسلم أن يسمح للعدو أن يخترق بلاد المسلمين من جهته .

المسلمون الآن في أمسّ الحاجة إلى الوعي العميق :

الآن هناك شيء آخر ، هناك كيد كبير جداً للإسلام ، والطرف الآخر أيقن أن المواجهة مستحيلة مع الدين ، فغيّر طريقته في محاربة المسلمين ، فأصبحت الطريقة تفجير الإسلام من الداخل ، وأحياناً

يحدث عملٌ يخرج الإنسانَ من جلده تقززاً واشمئزازاً من هذه الجريمة ، وتنسب إلى المسلمين ، والمسلمون منها براء ، هناك الآن طرف ثالث مهمته أن يثير حرباً أهلية ، فالطرف الأول بريء ، والثاني بريء ، الطرف الثالث يضرب هؤلاء تارةً، وهؤلاء تارةً ، إلى أن تنشب بين الفريقين حرب أهلية ، هذا الذي يحصل ، أينما ذهبوا :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4))

(سورة القصص)

المسلمون الآن في أمسّ الحاجة إلى الوعي العميق ، لأن الطرف الآخر لا يواجههم ، بل يدعي أنه يحترم دينهم ، لكن ماذا يفعل ؟ يحاول أن يصطنع إما فكراً منحرفاً ، أو سلوكاً منحرفاً ، فيأتي أيّ إنسان في القارات الخمس حينما يستمع إلى هذا العمل التي تأباه الفطرة ، وتأباه الإنسانية ، وتأباه القيم السماوية ، يخرج من جلده اشمئزازاً من عمل ينسب دائماً إلى المسلمين ، حتى إنّ كل عمل عنيف في الأرض مرتكبه ـ قبل أن نتابع الخبر ـ مسلم ، فهو متهم أصلاً ما لم يثبت العكس ، وفي الأعم الأغلب يثبت العكس ، وتبقى التهمة هي التهمة ، طبعاً هناك أخطاء كثيرة جداً تراكمت فشكلت هذا الوضع الجديد .

الحل أنك قبل أن تتحرك ينبغي أن يكون لك مرجع ، أن يكون للمسلمين مرجعية، أن يكون هناك علماء مخلصون يعطون الفتوى الصحيحة ، لأن هناك أعمالاً قد تدغدِغ مشاعرَ الإنسان ، لكنها تعود على المسلمين بشرٍّ كبير ، كانوا في غنى عنه .

العلم والخبرة وإتقان العمل من تصميم الله عز وجل :

الحقيقة أن هذه الآية لها معنىً دقيق : إن الإنسان أحياناً يزيّن له عمل ، إن تفوق في هذا العمل على من يعود خيره ؟ على كل الناس ، لو أن الإنسان زين الله له أن يكون أعلى طبيب في جراحة القلب ، وبلغ مستوى رفيعاً في هذا الاختصاص ، على من يعود هذا الاختصاص ؟ على كل المرضى ، واللهُ عز وجل جعل الحياة الاجتماعية مترابطة ، فأنت مقهور أن تعيش في مجتمع ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى مكّنك من إتقان حرفة معينة ، وجعلك محتاجاً إلى مليون حاجة يتقنها غيرك ، فأنت لا تستطيع العيش إلا في مجتمع ، أنت معلّم تحتاج إلى رغيف خبز ، وقصة رغيف الخبز طويلة جداً ، بدءاً من حراثة الأرض ، ومن زراعتها ، ومن تسميدها ، ومن سقياها ، ومن جني المحاصيل ، إنها سلسة طويلة جداً تنتهي برغيف خبز تأكله على مائدة الإفطار ، وأنت بحاجة إلى رغيف خبز ، أنت بحاجة إلى ثياب ترتديها ، وللثياب قصة طويلة جداً ، زراعة القطن ، ثم جني القطن ، ثم حلج القطن ، ثم

غزل القطن ، إلى أن أصبح لك ثياب ترتديها تستر بها عورتك ، فطعامك ، ولباسك ، ومأواك ، وحاجاتك بحاجة إلى غيرك فيها .

لك أولاد بحاجة إلى من يعلّمهم ، لك جسم بحاجة إلى من يصلحه إذا مرض ، لا بد من طبيب ، فالله عز وجل قهرك بأن تعيش في مجتمع ، بمعنى أنه سمح لك أن تتقن اختصاصاً ، وأحاجك إلى مليون مَليون حاجة ، وكل حاجة اختصاص .

الآن : حينما يزين لك اختصاص ، وتقبل عليه ، وتتفوق فيه ، هذا لصالح جميع البشر ، فأنت بالحركة اليومية كل يوم حينما تشعر بحاجة إلى شيء تذهب إلى خبراء فترى العلم والخبرة متراكمة ، وإتقان العمل ، فهذا من تصميم الله عز وجل .

الآن هناك أمم تفوقت في الزراعة ، وأمم تفوقت في الصناعة ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))

(سورة الحجرات)

تقييم العمل من شأن الله وحده :

توزيع الثروات في الأرض ، هذا من أجل تعاون البشر على معرفة الله ، وعلى العمل وفق منهجه ، لكن الناس حينما شردوا عن الله عز وجل كانوا في حال أخرى .

العمل له تقييم عند الله عز وجل ، قد يكون العمل خيراً ، وقد يكون شريراً ، قد يكون العمل أساسه إفساد الأخلاق ، وقد يكون العمل أساسه صون الأخلاق ، قد يعود العمل على الجميع بالخير ، وقد يعود على فرد واحد بالخير ، فتقييم العمل من شأن الله وحده ، هو وحده يقيم العمل ما إذا كان صوباً أو غير صواب . إذاً :

(كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

في النهاية الله وحده هو الذي يقيّم عملك ، وهو يكافئك إن كنت محسناً ، ويعاقبك إن كنت مسيئاً في دار تسوى فيها الحسابات ، والحكَم هو رب الأرض والسماوات .

إنّ الإنسان إذا كان معه جواب لرب العزة في كل شيء يفعله فهو على الطريق الصحيح ، أما إذا فقَدَ الحجة فله عند الله حساب دقيق ،

(ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أيْ بقيمة عملهم ، لذلك قال تعالى :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23))

ضاع عملهم كله .

هناك نقطة دقيقة جداً : أن هذا الكون بسماواته وأرضه ، بكل ما فيه من عجائب هو أكبر آية دالة على عظمة الله ، فالإنسان الجاهل يطلب معجزات ، الكون في حد ذاته معجزة ، فإن طلبت معجزة فإنك لم تعرف عظمة هذا الكون ، لذلك الذي يطلب آية تدل على عظمة الله في خرق القوانين فَاتَهُ أن القوانين نفسها هي معجزات .

الله عز وجل جعل هذه الحياة مبنية على العمل الصالح :

أيها الأخوة ، في الآية الأولى إشارة إلى أن الأمة يزين لها عملها ، وطبعاً شيء طبيعي جداً أن الإنسان لا يقبل على شيء إلا إذا رآه متألقاً ، فحينما يزين الله لكل فرد ، أو لكل أمة شيئاً هذا في الأصل مشروع ، لكن هذا الشيء الذي تفوق فيه الإنسان إما أن يجعله في خدمة الحق ، أو في خدمة الباطل ، إما أن يجعله خيراً ، أو شريراً ، لذلك يحاسب عليه .

تفوّقتَ مثلاً في الأدب ، الأدب إطار تعبيري رائع جداً ، إما أن تستغل هذا الإطار في نشر الحق بين الناس ، أو في نشر الرذيلة ، أو نشر الباطل ، تطبيق هذا التفوق تحاسَب عليه ، غير أنك اخترت أن تكون أديباً ، أو كاتباً ، تفوقتَ في علم من العلوم ، التفوق مسموح به ، ولولا أنه زين لك هذا الاختصاص لما تفوقت فيه ، ولكن كيف استفدتَ من هذا التفوق ؟ في الخير أم في الشر ؟ لذلك الآية الكريمة :

(ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

ما من شيء تتفوق فيه إلا ويمكن أن يوظف في الحق أو في الباطل ، والعبرة أن كل المَلَكات التي ملكك الله إياها ، وكل الخبرات ، وكل المهارات ، وكل القدرات هذه إذا وظفتها في الحق حين تفوقت فيها كثيراً ، أما إذا وظفتها في الباطل ـ والعياذ بالله ـ كانت دركات إلى النار ، لذلك التفوق قيمة مطلقة وحيادية ، إما أن توظف في الحق ، أو أن توظف في الباطل ، فإذا زين الله لك اختصاصاً ونِلته ، وتفوقتَ فيه فأنت محاسب على تطبيقه ، هل سخرت طلاقة اللسان لإقناع الناس بالحق أم لإقناعهم بالباطل ؟ هل وظفت ذكاءك الذي ملكك الله إياه للإيقاع بين الناس أم لرأب الصدع ، وجمع الشمل ؟ هذا كله مطبّق .

إذاً التزيين سر التفوق ، والله عز وجل يزين للإنسان اختصاصاً ليتقرب به إلى الله ، ولينفع به الخلق ، وكل إنسان متفوق تصبح قدرته على العمل الصالح كبيرة جداً ، فهناك أشخاص عاديون جداً ، وأشخاص متفوقون ، المتفوقون الواحد بألف ، الواحد بمئة ألف ، الواحد بمليون أحياناً ، فهذا التفوق

هل يحمله على تعميم الخير على كل الخلق ؟ أم يحمله على جني الأرباح الطائلة لينتفع بها وحده ؟ أو ليبني مجده على أنقاض الآخرين ؟

الحقيقة أن الذكاء حظ كبير جداً ، هؤلاء الذين يصنعون أسلحة فتاكة يدمرون بها الإنسان ، أليسوا متفوقين ؟ وظفوا تفوقهم في اختراع أدوات تدمير الإنسان .

إذاً الله عز وجل جعل هذه الحياة مبنية على العمل الصالح ، والعمل الصالح يحتاج إلى تفوق ، والتفوق حيادي ، يمكن أن يوظف في الحق كما يمكن أن يوظف في الباطل .

كل هذا الكون يدل على الله :

شيء آخر :

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)

كل هذا الكون يدل على الله ، كل حركة ، وكل سكنة ، وكل مخلوق ، وكل طائر، وكل حيوان ، وكل نبات ، وكل جماد ، وكل معدن ، وكل شبه معدن ، كل شيء تقع عينك عليه يدل على الله عز وجل ،

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا)

هذا الكون بوضعه الراهن من دون خرق لنواميسه ، من دون تغيير لقوانينه هو في حد ذاته معجزة ، فكيف إذا طلبت معجزة ؟ معنى ذلك أنك غافل عن عظمة هذا الكون الذي هو في الحقيقة معجزة .

أحياناً تجد جهازاً فيه من التعقيدات ما لا يصدق ، لكن له مأخذ كهربائي ، أنت تريد أن يعمل من دون كهرباء ، هذا شيء مضحك ، تصميمه يحتاج إلى سنوات وسنوات ، وإلى خبرات متراكمة ، وإلى اختصاصات عالية جداً ، وإلى تجارب مضنية ، بعد كل هذا الجهد الجهيد خرج لك هذا الجهاز ليقدم لك خدمات مثلى ، تقول : أنا أريد جهازاً يعمل من دون طاقة ، معنى ذلك أنك ما عرفت قيمة الجهاز ، ولا عرفت دقة صنعه ، ولا الجهد الذي بذل في تصميمه .

إذاً : هذا الذي يطلب معجزة ليؤمن ، وهو يغفل عن كل ما في الكون من آيات دالة على عظمة الله عز وجل هو في الحقيقة بعيد كل البعد عن أن يكون معنياً بهذا الدين ،

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)

الملخص : إن أردت أن تؤمن فكل شيء في الكون يدلك على الله ، بدءاً من لقمة تأكلها ، وإن أردت ألا تؤمن لو أنك في أكبر محطة فضائية ترى المجرات كل يوم بالمناظير والمراصد العملاقة فلن

تؤمن، لو أنك ترى الخلية بمجهر إلكتروني ، وترى عجائب خلق الله في الخلية لا تؤمن ، آلة تصوير مصممة تصميماً رائعاً جداً ، إن أردت الحقيقة فيها فلا بد أن يكون مع الآلة فيلم يلتقط هذه المشاهد الرائعة ، وإن لم ترد الحقيقة فالآلة بلا فيلم مهما التقطت من مشاهد رائعة فلا تختزن ولا تسجل .

لذلك قد يقف إنسان مؤمن أمام آية صغيرة جداً تدله على الله ، ويقف إنسان لا يريد معرفة الله أمام أجهزة عملاقة تريه دقائق عظمة الله عز وجل ومع ذلك لا يؤمن .

إذاً الإيمان يحتاج إلى قرار داخلي أولي ، فإن اتخذت هذا القرار فكل شيء كان في خدمتك ، لأن البعرة تدل على البعير ، والأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟!!

كل شيء في الكون ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله :

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ)

موجودة ، الكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى ، الكون كله تجسيد لأسماء الله الحسنى، كل ما في الكون يدلك على الله ،

(قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ)

بثّها الله عز وجل ، يقول أحدهم : حتى يهديني الله ، الله هداك وانتهى الأمر ، هداك بالكون ، هداك بالكتب ، هداك بالأنبياء ، هداك بالدعاة ، هداك بأفعاله ، هداك بأقواله ، هداك بالمصائب ، هداك بالمواعظ .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ (282))

(سورة البقرة الآية : 282)

لمَ لا تتقوه ؟

(وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ (282))

(سورة البقرة الآية : 282)

كل شيء في الكون ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله ، إذاً

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ)

موجودة ، لكن العبرة أن تبحث عنها ، أن تطلبها ، أن تتخذ قراراً بأن تكون مؤمناً .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69))

(سورة العنكبوت)

لكن إن طلبتم هذه الآيات تعجيزاً فقد قال تعالى :

(وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)

حينما تطلبها تعجيزاً تأتيك ثم لا تؤمن ، فلذلك إذا طلب الإنسانُ خرقاً للنواميس والعادات ، وأتت ولم يؤمن أهلكه الله عز وجل ، لأنه اعتبر هذه الآية هي الحد الفاصل ، فإن لم يؤمن انتهى عند الله عز وجل .

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(43-73): تفسير الآيات 110-112 ، الجدية في طلب الحقيقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-12-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة الأنعام .

شروط الإيمان بالله :

مع الآية العاشرة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(110))

أيها الأخوة ، تبين هذه الآية أن من شروط الإيمان بالله أن يكون الإنسان جاداً في طلب الحقيقة أولاً ، ومخلصاً في طلبها ثانياً ، ومستقيماً على أمرها ثالثاً ، فإذا كان مقيماً على معصية وهو متشبث بها ، إذا كان مُصرّاً على ما يناقض أصل الإيمان فإنه لا تفتح بصيرته ، ولا يرَى الحق ، ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام من أدعيته الشريفة :

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .))

[ورد في الأثر]

هذا الدعاء يبين أن الإنسان أحياناً قد يرى الباطل حقاً ، وقد يرى الحق باطلاً ، قد يرى الباطل حقاً فيتبع الباطل ، وقد الحق باطلاً فيتبع الباطل ، قد يرى الباطل حقاً فيتبعه على أنه حق ، وقد يرى الحق باطلاً فيجتنبه على أنه باطل ، هذه القضية عالجها القرآن في أماكن عديدة :

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198)فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199)كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200))

(سورة الشعراء)

كيف لو أنك أسمعت إنساناً باللغة الأعجمية ، أو باللغة الفارسية ، لا يفهم منك كلمة ، ولا حرفاً ، لذلك الظالم المقيم على انحرافاته ، المتشبث بكفره ، المتشبث بنزواته هذا الإنسان لا يستنير قلبه لمعرفة الله، لذلك قبل أن تطمع بإيمان مؤمن يجب أن تعلم أنه يبحث عن الحقيقة ، يجب أن تعلم أنه مخلص في البحث عنها ، يجب أن تعلم أنه مطبق لما يصل إليه .

معنى الصدق :

إذاً : هؤلاء الذين أشركوا ، والذين عبدوا الأصنام ، والذين كفروا ، والذين أقاموا على كل المعاصي والآثام ،

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ)

وقد جاءهم الحق ، وقد جاءهم الوحي ، وأمامهم سيد الخلق وحبيب الحق ، بكل كمالاته ، بكل سجياه، بكل خصائصه ، ومع ذلك لم يؤمنوا ،

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ)

هذا ينقلنا إلى أنك لن تؤمن إلا إذا أردت أن تؤمن ، إلا إذا بحثت عن الحقيقة ، عندئذٍ أيّ شيء يدلك عليها ، أما إذا لم تبحث عنها ، ولم تجشم نفسك عبء البحث عنها ، ولم تعبأ بها ، أنت لك مصالح ، لك نزوات مقيم عليها ، فأن ينفتح قلبك للحق ، أن يطمئن قلبك للحق ، أن تنشرح للحق ، هذا أبعد ما بين السماء والأرض ،

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا)

قد يقول قائل : لماذا لا يفتح ربنا عز وجل أبصارهم ؟ ولا يفتح بصائرهم للحق؟ حينما جاء الإنسان إلى الدنيا جاء على أنه مخير ، والله عز وجل يقول :

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20))

(سورة الإسراء)

أي أن هذه الدنيا هكذا ، أنت مخير واطلب ما شئت ، لكن الله سبحانه وتعالى لا يتعامل بالتمنيات .

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ (123))

(سورة النساء الآية : 123)

الله يتعامل مع الصدق ، معنى الصدق أنك مصر على الحقيقة مخلص في طلبها ، مستعد أن تلتزم بما تمليه عليك الحقيقة ، أنت قدمت شروط الهداية ، البحث عن الحقيقة ، الإخلاص في طلب الحقيقة ، أنك مستعدة أن تطبقي كل ما تمليه عليك الحقيقة ، إذاً أنت قدمت لله عز وجل شروط الهداية ، لذلك القضية بالصدق ، إن الصدق يهدي إلى الحق ، يهدي إلى الخير ، يهدي إلى معرفة الله ، يجب أن تكون صادقاً، هؤلاء آلهتهم شهواتهم ، وآلهتهم مكانتهم الاجتماعية ، والدين عندهم خارج اهتمامهم ، إذاً : هم يحاولون أن يستفزوا النبي عليه الصلاة والسلام ، أو يطالبونه بمعجزات ليست في يد النبي عليه الصلاة والسلام .

مرةً قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم تخبرنا عن موسى الذي جاء بالعصا ، وبعيسى الذي أحيا الميت ؟ ماذا عندك من معجزات ؟

الكون كله معجزة :

النقطة الدقيقة أن هذا الكون كله معجزة ، هذا الكون صارخ في آياته ، آياته تدل على الله ، تدل على أسمائه الحسنى ، تدل على صفاته الفضلى ، كل شيء بين يديك يدلك على الله ، فالذي يعمى عن الآيات التي لا تعد ولا تحصَى ، ويطالب النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو بشر ، يطالبه بخرق هذه النواميس والعادات هو لا يبحث عن الحقيقة ، بل يتسلى بها ، ويحاول أن يستفز ، وأن يأتي بشيء يحرج النبي عليه الصلاة والسلام .

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ)

مع أن الدعوة جاءتهم ، ومع أن القرآن بين أيديهم ، ومع أن النبي عليه الصلاة والسلام بكل منطقه ، وكماله ، ودعوته ، وفصاحته ، وبيانه ، وشمائله بين أيديهم ، لم ينتفعوا به ، كما لم يؤمنوا به أول مرة،

(وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

المقولة الدقيقة أيها الأخوة أن العبرة في الجامعة لا أن ينجح كل الطلاب ، العبرة في الجامعة أن تأتي النتائج مطابقة للمقدمات ، فحينما لا ينجح طالب لم يدرس فهذا وسام شرف للجامعة ، وحينما ينجح المتفوق فهذا وسام شرف آخر ، فالله عز وجل خلق الإنسان ، ونصب له هذا الكون الذي يشفّ عن أسماء الله الحسنى ، وأنزل على أنبيائه الكتب ، وبعث المرسلين .

شيء آخر ، أفعال الله جل جلاله تنطق بوجوده وبكماله ، فبين آياته الكونية ، إلى آياته التكوينية ، إلى آياته القرآنية ، إلى رسله ، إلى أنبيائه ، إلى الدعاة ، إلى التربية النفسية.

حينما يؤمن الإنسان يحقق مصالحه في الدنيا والآخرة :

قال الله عز وجل :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

لا تجد وسيلة من وسائل الهدى إلا وسخرها الله للإنسان ، فإذا تعامى الإنسان عن كل هذه الآيات ، وطالب النبي أن تكون الصفا ذهباً صرفاً ، أو طالب النبي كما قال أنْ يرقى إلى السماء ، أو طالب النبي عليه الصلاة والسلام أن تفجر الأرض له ينابيع ، هذا الطلب لو أنه حصل ولم يؤمنوا لاستحقوا الهلاك الفوري ، وهذا من سنن الله عز وجل ، إذا طولب الأنبياء بمعجزة ، والأنبياء توسلوا إلى الله أن تكون هذه المعجزة ونزلت ، ولم يؤمنوا استحقوا الهلاك ، فلذلك الله عز وجل بلغ النبي ، هذه المعجزات سهلة ، لكن لو أنها نزلت ولم يؤمن قومك لاستحقوا الهلاك ، فالنبي عليه الصلاة والسلام

خاف على أمته ، ولم يقبل أن تأتي المعجزات فتكون سبب هلاك قومه ،

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

الحديث القدسي الصحيح :

((يا عِبادي ، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ لَمْ يَنْقُصْ ذلكَ منْ مُلْكِي شَيْئاً ؛ يا عِبادي ، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ ، وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ لَمْ يَزِدْ ذلكَ في مُلْكي شَيْئاً ؛ يا عِبادِي ، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ ، وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا في صَعيدٍ وَاحدٍ ، فَسألُونِي ، فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مِنْهُمْ ما سألَ لَمْ يَنْقُصْ ذلكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً إلاَّ كما يَنْقُصُ البَحْرُ أنْ يُغْمَسَ المِخْيَطُ فِيه غَمْسةً وَاحدَةً))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام ، وأدق ما في الحديث :

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

اجعل هذه الفقرة الأخيرة شعاراً لك :

((وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ))

لا تعتب على الظروف ، ولا تعتب على أحد ، ولا تعتب على ما في الأرض من طواغيت ، اعتب على نفسك بحيث أنك إذا سرت إلى الله كان كل شيء في خدمتك ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

أنت حينما تؤمن تحقق مصالحك في الدنيا والآخرة ، أنت حينما تؤمن تحقق السعادة التي خلقت من أجلها ، القضية واضحة .

العاقل لا يندم أبداً :

أيها الأخوة :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (46))

(سورة فصلت الآية : 46)

أنت تعيش حياة محدودة ، إن أمضيتها في طاعة الله استحق الإنسان جنة الله عز وجل ، استحق الأبد ، وإن استمتع في سنوات محدودة ثم جاءه الموت وهو على معصية ، أو على كفر ، أو على شرك ، أو على جريمة يقترفها بحق البشرية دخل النار إلى أبد الآبدين .

أيها الأخوة الكرام ، من شأن العاقل أنه لا يندم أبداً ، والذي يندم ليس عاقلاً ، فلذلك قالوا : " ما كل ذكي بعاقل " ، فقد تحمل أعلى شهادة ، وقد تتفوق بذكاء لمّاح ، ولكن الإنسان الذي لم يعرف الله ، وما عرف سر وجوده ولا غاية وجوده ، لا يعد عاقلاً ، قد يكون ذكياً ، ولكن لا يعد عاقلاً ، المجنون من عصا الله ، المجنون من غفل عن أخطر لحظة في حياته ، إنها مفارقة الدنيا ، وهذه النقلة المخيفة من كل شيء إلى لا شيء فيما يبدو ، ولا إلى لا شيء ، إلى كل شيء سلبي ، من كل شيء إلى لا شيء فيما يبدو ، من بيت قد يكون ثمنه مئة مليون إلى قبر ، من ثروة طائلة إلى قبر ، من مكانة اجتماعية إلى قبر ، من تمتع بكل أنواع الشهوات إلى قبر ، لذلك أعقل عقلاء الأرض هو الذي يعُدّ لهذه الساعة التي لا بد منها.

أقول : لكن أيها الأخوة ، والله ليس على وجه الأرض في الستة آلاف مليون إنسان رجل أغبى ولا أحمق ممن لا يدخل الله في حساباته ، هذا الذي يؤذي عباد الله ، يسفك الدماء ، ينهب الأموال ، يعتدي على الأعراض ، يكذب ، يدجل ، هذا في نظر أهل الحق أغبى أغبياء الأرض ،

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

هم في طغيان ، والطغيان مجاوزة الحق ، وحينما يتصل الإنسان بالله عز وجل فله مقياس ، معه مقياس دقيق لا يستطيع أن يتجاوز حده ولا في قتل نملة ، ولا في ابتسامة ساخرة .

الموت عرس المؤمن :

السيدة عائشة قالت عن أختها قصيرة ، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا ، تَعْنِي قَصِيرَةً ، فَقَالَ : لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

[الترمذي وأبو داود عن عائشة]

لو حاسبنا أنفسنا في سهرة ، في جلسة ، ما الذي تقوله ؟ لو حاسبنا أنفسنا في جوارحنا ، لو حاسبنا أنفسنا في منطقنا ، لو حاسبنا أنفسنا في علاقاتنا ، لو حاسبنا أنفسنا في كسب أموالنا ، لو حاسبنا أنفسنا في إنفاق أموالنا ، لو حاسبنا أنفسنا في غفلتنا عن هذا اليوم ، هذا اليوم أيها الأخوة يأتي على من غفل عنه كالصاعقة ، وهذا اليوم يأتي على من استعد له كيوم عرسه ، الموت عرس المؤمن ، الموت تحفة المؤمن .

مرة ضربت مثلاً ، المثل هكذا : إنسان فقير جداً ، لكن يتمتع بذكاء من أعلى مستوى ، عُرض عليه عرضٌ : إذا جاء بأعلى شهادة في اختصاص معين ، ولتكن الدكتوراه، سيكون في أعلى منصب في بلده ، ولوازم أعلى منصب أن يكون له بيت فخم جداً ، مركبة فارهة ، يتزوج أجمل امرأة بحسب مقاييس العصر ، ذهب إلى بلد غربي وهو فقير ، لا يملك من الدنيا شيئاً ، عمل حارساً ، عمل موظفاً

في مطعم يغسل الصحون ويدرس ، أمضى ثماني سنوات من أصعب ما أمضى في حياته ، دراسة ، ودواماً ، وتحضيراً ، وإتقان لغة ، وكتابة موضوعات ، وحضور محاضرات ، وحراسة في الليل ، وعملاً شاقاً بالمطعم ، إلى أن انتهت الأعوام الثمانية ، وقد نال الشهادة ، وصدّقها ، وقطع تذكرة العودة، وتوجه إلى المطار ، ووصل إلى الطائرة ، ووضع رجله على سلم الطائرة ، أليست هذه اللحظة أسعد أيام حياته ؟ هكذا الموت للمؤمن .

كل الدنيا تعب ، ونصب ، وصبر ، وعبادات ، ودعوة ، وصراع بين الحق والباطل ، وأعداء للدين ، والزوجة ، مسؤولية ، ومشكلات ، والأولاد يحتاجون إلى تربية ، وكسب المال صعب ، والإنفاق أصعب ، ومشكلات لا تعد ولا تحصَى ، نتابع حياتنا ، ساعة تقلق من أنفلونزا الطيور ، ساعة تقلق من تهديدات الأجانب ، ساعة تقلق من ارتفاع الدولار ، ساعة تقلق من أمراض لا تعد ولا تحصَى ، هكذا الحياة .

هذه الحياة دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، لقد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي .

السعادة الحقيقية أن تكون بمقياس القرآن فالحاً وناجحاً وموفقاً ومتفوقاً :

أخواننا الكرام ، المؤمن متوازن ، المؤمن يعاني في الدنيا ما يعاني ، وقد تكون معاناته أشد ، لأن الجاهل كما قيل :

ذو العاقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

***

أنا أضرب مثلاً بطالب يشكو لقريبه صعوبة المدرسة ، وشدة المعلم ، وكثرة الوظائف ، وأبوه قاسٍ جداً ، وأبوه يطمح أن يكون الأول على زملائه ، والمعلم لا يرحم ، والكتب صعبة جداً ، وكلّف بأعمال في البيت ، يشكو لصديق أو لقريبه متاعب لا تنتهي ، هذا الشاب مرشح أن يكون في أعلى مكانة في المجتمع ، وله أب كبير ، وعالم ، وتربوي ، يهيئ له مستقبلاً مشرقاً ، لكن الطريق صعب والدراسة صعبة ، فشكا لقريب له لا يقرأ ولا يكتب ، أُمي ، يستيقظ الظهر ، يمضي الوقت في اللعب ، في لعب النرد ، يسهر إلى ساعة متأخرة ، لا يصلي ، ولا يصوم ، ومن أولاد الأزقة ، قال له : أنا ما عندي مشكلة ، فعلاً ما عنده مشكلة ، هو نفسه مشكلة .

أنت عندما تمشي في طريق الإيمان عندك متاعب كبيرة جداً ، لكن هذه متاعب مقدسة ، متاعب تزكية النفس ، متاعب معرفة الحق ، متاعب الالتزام بالشرع ، متاعب السعي للآخرة ، متاعب أن يكون إيمانك قوياً ، متاعب أن تزكو نفسك ، لا تحقد ، لا تتكبر ، تزكية النفس أعظم عمل في الأرض ، الدليل ثلاث آيات ، أو أربع آيات في القرآن كله :

(أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15))

(سورة الأعلى)

هذا الفلاح ، فأنت لما تكون بمقياس القرآن فالحاً وناجحاً وموفقاً ومتفوقاً ، هذه السعادة الحقيقية . لذلك أيها الأخوة ، أهل الأرض لهم مقاييس ، والله عز وجل في قرآنه مقاييس ، بطولتك أن تكون ناجحاً لا في مقاييس أهل الأرض بل في مقاييس القرآن الكريم ، مقاييس أهل الأرض المال يرفع صاحبه إلى أعلى عليين عند أهل الدنيا ، الغني محترم جداً ، قد يكون مرتكباً لكل المعاصي والآثام ، لكنه محترم ، والناس يهابونه ، والقوي محترم جداً ، لكن عند الله المستقيم هو الذي يرقى عند الله ، المستقيم الصادق ، المخلص ، العابد ، الطائع ، فأنت انظر ، أنت متفوق على مقاييس من ؟ طبعاً إذا كان المقياس هو المال فالأولون في هذا المقياس تجار المخدرات ، لأنها أربح تجارة في الأرض ، من مكان زراعة المخدرات لمكان بيعها تقريباً ألفي ضعف ، من مكان الزراعة إلى مكان البيع .

المؤمن هدفه واضح جداً أن ينجو من عذاب النار وأن يتعرف إلى الله :

أيها الأخوة ، قضايا العقيدة تحتاج إلى تأمل ، الإنسان لا يمشي هكذا بلا تبصر ، قال الله عز وجل :

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26))

(سورة التكوير)

إلى أين أنت سائر ؟ من هو الشقي ؟ الذي يعيش من دون هدف واضح ، مرةً تلو المرة أؤكد هذه الحقيقة ، ثلاثة في المئة من بني البشر لهم أهداف واضحة ، وبقية الناس يعيشون هكذا على هامش الحياة ، أما المؤمن فهدفه واضح جداً ، هدفه أن ينجو من عذاب النار أولاً ، هدفه أن يتعرف إلى الله ، هدفه أن تأتي حركته مطابقة لمنهج الله ، هذا كله أيها الأخوة حول هؤلاء الشاردين الذين يستفزون الأنبياء ، يطلبون المعجزات وهو مقيمون على شهواتهم وانحرافاتهم ونزواتهم ، ومهما بحثوا وقلبوا القرآن فليس في صالحهم ،

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

الآن :

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111))

لو رأى الناس الملائكة في أعينهم ،

(وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى)

استيقظ ميت من قبره وقال عما رآه بعد الموت ،

(وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

هذه المشيئة ليست مشيئة جبر لكنها مشيئة قانون ، فإنه من الممكن أنْ تطبع بطاقة ، وتكتب : " الطبيب فلان " ، وتحمل بورد ، ممكن أنْ تستأجر بيتاً ، وتجعله عيادة ، لكن لا تستطيع أن تنال الشهادة إلا إذا دخلت إلى الجامعة ، قد تفعل تزويراً كل شيء ، وأمامك محاسبة شديدة جداً ، أما أن تكون طبيباً حقاً فلا بد من أن تنتسب إلى كلية الطب .

الطريق الذي رسمه الله للهداية :

الله رسم للهدى طريقاً ،

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

إلا إذا سلكوا الطريق الذي رسمه الله للهداية ، لا يمكن أن يسمح لك أن تعالج المرضى ، وأن تأخذ منهم أتعابك إلا إذا كنت تحمل شهادة جامعية من كلية الطب ، هذا هو الطريق الوحيد ، أما أن تكون لك أفكار في الطب ، تطالع مجلات طبية ، أن ترتدي ثوباً أبيض ، أن تضع النظارات على عينيك ، أن تقتني جهاز فحص للضغط ، هذا كله لا يقدم ولا يؤخر ، ما لم تلتحق بكلية الطب فلا يمكن أن تكون طبيباً ، هذا للتقريب فقط .

الله رسم للهدى طريقاً ، فما لم تسلك هذا الطريق فلا يمكن أن تهتدي ، أمرك أن تتفكر في خلق السماوات والأرض ، أمرك أن تقرأ القرآن ، أمرك أن تتبع سنة النبي العدنان، أمرك أن تكون مع المؤمنين .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة)

ثمة أوامر كثيرة إن طبقتها كنت مؤمناً ونجوت ، أما إن لم تطبقها فلا تنجو ، لذلك الإسلام فيه مظاهر كثيرة جداً ، لو طبق الإنسان هذه المظاهر لا ينجو من عذاب الله ، فلا بد من أن تسلك الطريق التي رسمها الله للهداية ، قال تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

معرفة الطريق إلى الله جزء أساسي من الدين :

أيها الأخوة ،

(مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

الله عز وجل شاءت مشيئته أن يهتدي إليه الصادق ، التواب ،

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)

يجهلون الطريق المفضي إلى الله عز وجل ، مع أنّ معرفة الطريق إلى الله جزء أساسي من الدين ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112))

أيها الأخوة ، هذه الآية لها شرح طويل ، ولكن وطنوا أنفسكم أن هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، في أي عصر ، في أي مصر ، هناك أعداء للحق ، وهناك مؤيدون للحق ، ومرة يتغلب أهل الحق ، ومرة يتغلب أهل الباطل ، ونحن في أسوأ اختبار ، نحن في وقت تغلب أهل الباطل على أهل الحق ، لذلك لهم الكلمة الأولى ، وهم يديرون حرباً لا هوادة فيها بين الحق والباطل ، لذلك وطّن نفسك في شيء طبيعي أراده الله عز وجل ، بطولتك أن تكون جندياً من جنود الحق ، من لم يجاهد ، ومن لم يحدث نفسه بالجهاد مات على شعبة من النفاق ، أقلّ أنواع الجهاد جهاد النفس والهوى ، وبعض أنواع الجهاد أن تُعلّم القرآن ، وأن تدعو إلى الله عز وجل ، وبعض أنواع الجهاد أن تنمي خبراتك ، أن تقدم لأمتك كل خير ، أن تقويها ، أن تخفف من همومها .

القرآن الكريم يثبت للكفار أن من مكرهم ما يزيل الجبال :

إذاً أيها الأخوة ، قضية

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً)

النبي كامل كمالاً مطلقاً ، النبي معصوم ، عنده منطق ، وأدب ، ورحمة ، ومع ذلك له أعداء ، قال له رجل : يا محمد ، والله ما كان على وجه الأرض رجل أبغض إلي منك .

أبو لهب عم النبي عليه الصلاة والسلام قال له : تباً لك ، ألهذا دعوتنا ؟ هذه قضية الحق والباطل ، قد تقول أنت : هذا داعية له أخطاء ، لكن ما بال الأنبياء لهم أعداء ؟

مما يروى حادثة فيها مغزى فقط : سيدنا موسى قال في المناجاة : يا رب ، لا تُبق لي عدواً ، فقال الله: يا موسى ، هذه ليست لي ، أليس هناك أعداء لله عز وجل ؟

إذاً :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)

وشيطان الإنس مقدّم على شيطان الجن ،

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)

إذاً القرآن الكريم يثبت للكفار أن من مكرهم ما يزيل الجبال :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46))

(سورة إبراهيم)

حدثني أخ قال لي : كل خبر تسمعه لا تحتمله ، قتل أبرياء ، قتل مصلين بمسجد، قتل أناس يحتفلون بعرس ، ثمانون قتيلاً ومئتا جريح ، قال لي : اعلم علم اليقين أن هذا من فعل اليهود ، هناك في العراق شيء لا يحتمل ، العمل الذي تخرج من جلدك منه ، ولا ترضَى به ، من يرضى أن يقتل إنساناً في مسجد ؟ من يرضى أن يقتل إنساناً بريئاً في عرس في فندق ، في أنفاق ، من يرضى ؟ من يرضى أن يقتل بريئاً ويلصق هذا بالمسلمين حتى أصبحوا مجرمين ، قتلة ، جهلة ، متخلفين ؟!!

أيها الأخوة ، الفتن الآن كثيرة :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً ، وَيُمْسِي كَافِراً، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِناً ، وَيُصْبِحُ كَافِراً ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا))

[رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهما]

أكثر ما تسمعون أن هذه السيارة مفخّخة ، لا يكون للسائق أي علاقة ، كلّف أن يصل إلى هذا المكان ، وضعت فيها عبوة ناسفة ، ووراءه من يوقت تفجيرها ، أنت ماذا ترى؟ ترى سيارة انفجرت ، وقتلت ثلاثين شخصاً ، وقد يكون راكب السيارة لا علاقة له بالموضوع إطلاقاً ، وهو بريء ،

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

الدين الإسلامي كلما حاربته ازداد قوة :

قال تعالى :

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47))

(سورة إبراهيم)

المسلم يستحيل أن يقتل إنساناً لا علاقة له بالموضوع ، مستحيل أن يقترف جريمة من هذه الجرائم ، لكن الآن كل أنواع الجرائم ألصقت بالمسلمين ، ومع ذلك الدين الأول في النمو هو الدين الإسلامي ، هذا الدين كلما حاربته ازداد قوة .

أقول دائماً : قبل خمسين سنة كان هناك أبيض وأسود ، وهناك مساحة كبيرة جداً رمادية اللون ، الآن المساحة الرمادية اختفت ، الآن هناك أبيض ناصع ، وأسود داكن ، هناك وليٌّ وإباحي ، فتاة مؤمنة طاهرة ملتزمة محجبة همها رضاء الله عز وجل ، وفتاة شبه عارية في الطريق تثير شهوات الشباب ، هذا الوضع الآن . الآن :

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (16))

(سورة الكهف)

الكهف الآن هو المسجد ، الكهف الآن بيتك والمسجد ، عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ؟ قَالَ : أَيَّةُ آيَةٍ ؟ قُلْتُ : قَوْلُهُ تَعَالَى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيراً ، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

((بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً ، وَهَوًى مُتَّبَعاً ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعْ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً ، يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

[الترمذي عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ]

الزمْ أقرباءك ، أصدقاءك ، جيرانك ، أحبابك ، من تثق به ، ودع عنك أمر العامة الفتن كثيرة ، كل شيء ملغم ، كل شيء فيه كذب ، وفيه تزوير ، فلذلك أيها الأخوة :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113))

(سورة الأنعام)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(44-73): تفسير الآيات 112-114 ، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-12-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة الأنعام .

من سنة الله في خلقه الصراع بين الحق والباطل :

مع الآية الثانية عشرة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112)وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113))

أيها الأخوة الكرام ، هناك سؤال كبير يراود بعض المؤمنين : لماذا سمح الله للطرف الآخر أن يتهجموا على الدين ، وأن ينالوا منه ، بل وأن يتطاولوا على نبي المسلمين، بل على كلام رب العالمين؟ أليس الأمر بيد الله ؟ فلماذا يسمح الله لأعداء الحق أن ينالوا من أهل الحق ؟

الإجابة عن هذا السؤال الكبير في هذه الآية ، يبدو أن لله حكمة بالغة بالغة في أن يكون هناك صراع بين الحق والباطل ، هذا من سنة الله في خلقه ، وإذا أردنا أن نستشف الحكمة يبدو أن الحق لا يبدو إلا بالتحديات ، وأن أهل الحق لا يتحركون إلا إذا واجهوا التحديات ، وأن الدور الذي يقوم به أهل الباطل دور إيجابي للحق من دون أن يشعروا ، ومن دون أن يريدوا .

المعركة بين الحق والباطل أرادها الله عز وجل :

أحياناً يكون للطالب قريب ينافسه ، لا شيء يدفع هذا الطالب إلى متابعة الدراسة وإلى التفوق من هذا الذي ينافسه ، ويتمنى أن يكون من المخفقين في دارسته ، إذاً الحكمة البالغة أن الله أراد أن تكون معركة الحق والباطل أزلية أبدية ، هذا قدرنا ، وهذا اختيار الله لنا ، ونحن لا نقوى إلا بالتحدي ، لا نقوى إلا بالمعارضة ، لا نقوى إلا بمن يقلل من قيمة ما تحمل من حق ، الطرف الآخر همه الأول أن يقلل من قيمة الحق ، وأن يجعله عملاً يومياً ، قد يعزى الحق إلى عادات وتقاليد وفلكلور وموروثات ثقافية ورثناها عن الآباء والأجداد .

الحقيقة أن المعركة بين الحق والباطل أرادها الله عز وجل . بشكل بديهي ، أليس بالإمكان أن يخلق الله أهل الباطل في قارة ، وأن يخلق أهل الحق في قارة ؟ لا صدامات ، ولا مماحكات ، ولا تراشق تهم ، كل أناس لهم قارة ، لكن أراد الله عز وجل أن يكون الحق والباطل في مكان واحد ، وفي مدينة واحدة ، وفي حي واحد ، بل وفي أسرة واحدة .

يبدو أن هذه المفارقة بين الحق والباطل تقوي الحق وتصونه عن أن يخطئ ، لو أنك في عمل ، ولك منافس قوي ، هذا المنافس يتصيد أعمالك ، فلوجود هذا المنافس ، لوجود هذا العدو ، لوجود هذا الذي يتربص بك أنت حريص على ضبط أمورك ، قد لا يكون الحرص على هذا الضبط إلا بوجود هذا المنافس ، لذلك ينبغي أن تستسلم لحكمة الله ، أراد الله أن يكون ثمة حق وباطل ، وخير وشر ، ومنصف وجاحد ، ومحسن ومسيء ، وصادق وكاذب ، هذه يمكن أن نسميها الاثنينية ، وفي الحياة يوجد اثنينية ، إنسان صادق لا يكذب وإنسان كاذب لا يصدق ، إنسان رجل مبدأ يضحي بالدنيا من أجل مبدأه وإنسان رجل مصلحة يضحي بكل مبادئه من أجل مصلحته ، إنسان رجل شهواني وإنسان رجل رحماني ، الشهواني يرى أن اقتناص الشهوة مغنماً كبيراً لا يفوته ، والرحماني يرى أن معصية الله هي الطامة الكبرى ولا يسمح أن تقع نفسه في ثنياتها .

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ)

قد تقول : المؤمن يخطئ ويصيب ، لكن هذا النبي المعصوم عصمه الله من أن يخطئ في أقواله ، وأفعاله ، وإقراره ، النبي إنسان قمة في الكمال ، قمة في الإحسان ، قمة في الوضوح ، قمة في الرحمة، قمة في العدل ، قمة في الإنصاف ، ومع ذلك هذا الإنسان الكامل الذي وصل إلى قمة الكمال البشري له عدو من شياطين الإنس والجن .

هناك تناقض كبير بين الحق والباطل فهما لا يجتمعان :

إذاً في الأصل إن كنت ـ لا سمح الله ولا قدر ـ مع الباطل فأنت عدو للحق وأهله ، شئت أم أبيت ، إن كان الإنسان مع أهل الباطل ، أو إن كان الإنسان مبطلاً ، أو يؤمن بشيء غير صحيح ، يؤمن بالشهوة لا بالمبدأ ، يؤمن بالمصلحة لا بالقيمة ، يؤمن بالدنيا لا بالآخرة ، يؤمن بأن الحياة هكذا والقوي هو المتمتع بالحياة ، وأن الحق مع القوي ، وأن القوي تخضع له الرقاب ، وقوله حق ، وعدوانه حق ، وسلمه حق ، إن كان الإنسان مبطلاً يؤمن بالباطل فهو عدو للحق ، والذي مع الحق لا يقبل أهل الباطل، لأن هناك تناقضاً كبيراً بين الحق وبين الباطل ، فهما لا يجتمعان ، تماماً لو قلت : ظلام ونور، لا يجتمعان ، هذان شيئان متناقضان ، وجود أحدهما ينقض الآخر ، لذلك نبي كريم وهو في قمة

كمال البشرية ، ومع ذلك لا بد له من أعداء ،

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً)

هناك قضية ولاء وبراء ، فالمؤمن يوالي المؤمنين ، يوالي منهج السماء ، يوالي الأنبياء والمرسلين ، يوالي قيم الحق ، يوالي قيم الخير ، يوالي السلام ، لا يحب العدوان ، أهل الباطل قد تجمع نخبتهم كبار مفكريهم ، ويسألون : أيهما خير لنا الحرب أم السلم ؟ يأتي الجواب : الحرب ، لذلك تبني دولة غنية كل خططها على الحرب ، فبالحرب تروج بضاعتهم ، وتروج أسلحتهم ، ويكون بيع الأسلحة بعقود إذعان لا بعقود مراضاة للتراضي ، فحينما تبني أمة مجدها على إيقاع الآلام بالشعوب ونهب ثرواتها ، فهذه أمة باطلة ، من يقف معها ؟ أهل الباطل ، الذين يؤثرون مصالحهم على مبادئهم .

لذلك أيها الأخوة ، لا تقلقوا ، هي معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، لكن لحكمة أرادها الله عز وجل في زمن من الأزمان يقوى أهل الحق وتكون الكلمة العليا لهم ، وفي زمن آخر يقوى أهل الباطل وتكون الكلمة العليا لهم ، وهذا مصداق قوله تعالى :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (140))

(سورة آل عمران الآية : 140)

الله عز وجل فطر الإنسان على معرفة الحق وحبّه :

قد تمر البشرية بوقت الكلمة الأولى والعليا لأهل الكفر والشرك والعدوان ، وقد تمر البشرية بأزمان تكون الكلمة العليا لأهل الحق وأهل الأديان .

لذلك حينما ترى أن هذه سنة من سنن الله عز وجل هذا يخفف عليك طرح أسئلة لا تنتهي ، أين الله ؟ الله عز وجل من امتحاناته الصعبة أنه يقوي الكافر ، ويقويه ، ويقويه إلى أن تتوهم أنه يفعل ما يريد ، ولا أحد بإمكانه أن يردعه عن خططه ، بل إن ضعاف الإيمان ينطقون بهذا ، الذي تريده الدولة الفلانية لا بد من أن يقع ، وكأن هذه الدولة جُعلت إلهاً يعبد من دون الله ، فإلى أن يقول ضعاف الإيمان : أين الله ؟ تأتي آية الله الباهرة ، عندها يقول كبار الكفار : لا إله إلا الله ، الله عز وجل كبير ، وله امتحانات صعبة ، وأقول لكم ونحن في هذا الوقت : نمر بأصعب الامتحانات الصعبة التي شاءها الله للمسلمين ، كل قوى الشر تحارب المسلمين ، تسفه دينهم ، تتهمهم بالقتل ، بالتخلف ، بالإرهاب ، بالعدوان ، بالجهل ، بالفقر ، بالفوضى ، يصنعون الفوضى لنا ، ونتهم بها ، يصنعون التفجيرات من الداخل ، ويتهمون هذا الدين العظيم ، لذلك هذه الآية :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)

طبعاً الإنس والجن زمرتان من مخلوقات الله مخيرة ، معنى مخيرة أي مكلفة ، أودعت فيها الشهوات، وضع لها منهج وأمرت أن تسلك هذا المنهج ، لذلك :

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31)فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32))

(سورة الرحمن)

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ)

كلمة يوحي تعني الإعلام بخفاء ،

(بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ)

تعني عناصر الإنس فيما بينها ، أو عناصر الجن فيما بينها ، أو فيما بين الإنس والجن ، ويوحي فيه إعلام بخفاء ، لماذا بخفاء ؟ لأن الباطل لا يمكن أن يعرض تحت ضوء الشمس ، لأن الباطل مرفوض بفطرة الإنسان ، يقبل سراً ، يقبل همساً ، يقبل في أمكنة مظلمة ، يقبل كمؤامرة ، يقبل كتخطيط ، أما أن تنادي بالباطل جهاراً نهاراً فلا تستطيع ، لأن الحق مركز في أصل النفوس ، والله عز وجل فطر الإنسان على معرفة الحق ، وعلى حب الحق :

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ (7))

(سورة الحجرات الآية : 7)

كل القيم الباطلة تعرض عرضاً مزخرفاً :

أيها الأخوة ،

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ)

الإيحاء إذاً إعلام بخفاء ، همساً ، فرادى ، في ضوء خافت ، تحت الأرض ، في أقبية ، هذا الباطل ، دائماً يرافقه مؤامرة الباطل ، لأنه شيء غير مقبول لا بالفطرة ، ولا بالمنطق ، ولا بالأخلاق ، ولا بالشعور الإنسان العام ،

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ)

أي أن الباطل باطل ، لكن الباطل يزين بكلمات منمقة ، فإذا أردت أن تجعل المرأة بشكل فاضح ، أن تخلع معظم ثيابها، وأن تعرض كل مفاتنها في الطريق ، وأمام كل عين ، ماذا تقول ؟ تقول : تحرير المرأة ، تقول : هذه نصف المجتمع ، تقول : هذه من حقها أن تظهر ما عندها ، الشيء الذي ترغبه أنت شهوتك تعرضه عرضاً آخر ، كل القيم الباطلة تعرض عرضاً مزخرفاً ، وحينما تريد إلغاء آية قرآنية ، أو إلغاء حكم شرعي ثابت بالقرآن والسنة ، ومن عند خالق الكون ، ومن عند خالق الإنسان ، تقول : لا بد من تعديل قانون الأحوال الشخصية ، كي تتساوى المرأة بالرجل في الميراث ، مع أن

خالق الكون ، وخالق الإنسان أعطاها حقها وزيادة ، نفقتها على زوجها ، ومهرها من زوجها ، وليس لها إلا أن تربي أولادها ، لذلك أعطاها نصف ما يعطي الرجل ، لأنها ليست مكلفة إطلاقاً بالإنفاق على البيت ، هذه تكفل ، لكن الذي يبرز أنها تأخذ نصف الرجل ، إذاً لا بد من المساواة بينه وبينها في الميراث ، مع أن هذه آية في القرآن الكريم والقرآن الكريم قطعي الثبوت .

على كلٍ ما من دعوة إلى الباطل إلا تغلف بغلاف مزخرف ، فالحرية كلمة رائعة لكن نقصد فيها أن نفعل ما نشتهي من دون قيد أو شرط ، لك أن تفتح محلاً تعرض فيه كل المحرمات ، لك أن تفتح ناديّاً ليليّاً ، هذا من الحرية ، وأن تجلب الراقصات ، وأن تجلب المومسات ، وأن تقول : هذه حرية للإنسان ، له أن يفعل هذا أو هذا ، لك أن تفتح كل هذه الأمراض الوبيلة كالإيدز ، ثم نصرخ : لماذا وصلنا إلى هذه النسبة العالية جداً في مرض الإيدز ؟

الغرور أن تتوهم شيئاً واقعه عكس ما توهمت :

الحقيقة أيها الأخوة ، نحن أمام كلام مزخرف لا يصمد أمام التحقيق الدقيق ، والواقع الذي يفصم الأمر فصماً كاملاً :

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

معنى غرور : أحياناً يرى إنسان علبة ثمينة جداً على الرصيف ، فيتوهم أن فيها عقد ماسٍ ، فينحني ويأخذها ، ويحرص على اقتنائها ، ويسرع في المشي ، ثم يكتشف أن قمامة المحل التجاري وضعت في هذه العلبة ، كيف تكون الصدمة ؟ كنت تتوقع عقد ماسٍ ، فإذا بها قمامة محل تجاري ، هكذا الغرور ، أن تتوهم شيئاً واقعه عكس ما توهمت .

لذلك قد يغر الإنسان ببعض المبادئ الهدامة ، كالاختلاط ، يقول لك : حضارة ، المرأة نصف المجتمع، تعليم مختلط ، علاقات مختلطة ، كل شيء مختلط ، الحقيقة هي دافع شهواني عميق جداً عند الرجال ، لكن يعرض عرضاً لطيفاً أنه بدافع تحرير المرأة ، وإخراجها من بوتقتها ، وإخراجها من عزلتها ، هذا الذي يطرح في الأوساط الشعبية حول ما يسمى بتحرير المرأة ، مع أن الإسلام أعطاها كل حقوقها كاملة .

كلمة :

(غُرُوراً)

غروراً : إظهار ميزات غير صحيحة ، وإخفاء أخطار مخيفة ، أنت حينما تقنع الإنسان بشرب الخمر بأن الخمر تنسيك الهموم ، تجعلك في سعادة ، تجعلك في أحلام ممتعة ، وتخفي أن الخمر قد تصيبه

بتشمع الكبد ، وقد تدمر حياته ، وقد تذهب عقله ، حينما تقنع إنساناً بالدخان ، من حيث النكهة ، وتغفل أمامه ما ينتظر المدخن من أورام خبيثة في الرئة ، وفي بعض أجهزته ، الغرور أن تظهر شيئاً ليس صحيحاً وأن تخفي خطراً حقيقياً ، هذا الغرور ، لذلك قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5))

(سورة فاطر)

أحياناً الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر ، ففي البدايات الإنسان يرى الدنيا كبيرة جداً ، يحلم بالمرأة ، يحلم ببيت له هندسة خاصة ، يحلم بدخل مرتفع ، يحلم بمركبة معينة ، يحلم بأولاد نجباء ، يعيش في الأحلام، لكن بعد حين حينما تحدَّد حياته ، وتصبح محصورة في زوجة معينة ، وبيت معين ، وأولاد معينين يصدم ، لذلك الغرور أن تعطي الشيء حجماً أكبر من حجمه .

رسم الله عز وجل منهجاً في العلاقة بين الأنثى والذكر وهو الذي يعلم أسباب السلامة :

إذا قال طالب لطالب : لا تدرس ، سنقدم للأستاذ هدية قبل الامتحان بيومين فيعطينا الأسئلة ، هذا شيء مريح جداً ، ألغى الدراسة ، أمضى وقته في النوم ، وفي متابعة المسلسلات ، وفي الطريق مع أصحاب السوء ، وفي دور السينما ، فلما جاء الامتحان وطرقا باب المدرس كي يعطيهما الأسئلة صفعهما وطردهما ، الآن صحا .

الغرور أن تعيش في وهم ، أن تعيش في حلم ، أن تعيش في شيء غير صحيح ، الغرور تماماً كأن تكون لك دعوى عند قاض ، ويقول لك أحدهم : هذا القاضي يقبل الهدية ، قدم له هدية ويحكم لك ، فلما أردت أن تقدم له الهدية ردك أصعب رد ، وحكم عليك ، فصحوتَ ، فالبطولة أن تصحو قبل فوات الأوان .

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

لقد رسم الله عز وجل منهجاً في العلاقة بين الأنثى والذكر ، علاقة الزوجين ، فلما يغتر الإنسان بما يقال في الاختلاط ، وفي الانفتاح ، وفي الروح الرياضية بين الذكور والإناث ، وفي الصداقة البريئة ، هذه كلها أوهام ، حينما يكتشف أن امرأته قد خانته بحكم الاختلاط ، وبحكم التواصل بين الذكور والإناث ، وبحكم الانفتاح والحرية ، فعندئذٍ يندم يوم قبل بهذه الأفكار ، لأن تشريع الله عز وجل من عند الخبير ، من عند الخالق .

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45))

(سورة النجم)

وهو الذي يعلم أسباب السلامة ، وأسباب السعادة .

إذاً : كلمة :

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

نحن نغتر بزخارف الباطل ، يعرضون علينا الباطل مزخرفاً ، كلمة حرية ، كلمة حقوق المرأة مثلاً ، كلمة الانفتاح ، كلمة العلمانية ، كلمة الموقف العلمي ، هذه كلمات براقة ولطيفة ، لكن يمرر من خلالها كل أفكار أهل الباطل ، تمرر فيها الإباحية أحياناً ، يمرر فيها الفن ، يكون الإنسان ساقطاً أخلاقياً ، لكن يضفون عليه اسماً آخر ، لذلك هناك أسماء الآن كلها غير صحيحة ، إذا أكل الإنسان مالاً حراماً يسمى عند الناس شاطراً ، والفتاة المتفلتة تفلتاً كلياً من أية قيمة أخلاقية تسمى متفتحة ، والإنسان المنافق الذي يرضي جميع الجهات ، ينافق لكل جهة حتى يصعب عليك أن تكتشف هويته يقال له : لبق مرن ، ومتجاوب مع كل الفئات ، لا هوية له ، المنافق هويته أنه ينافق لكل الجهات مجتمعة في وقت واحد .

البطولة أن تستوعب كلام الله وسنة رسوله لتكون قادراً على تقييم ما يطرحه أهل الباطل :

إذاً :

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

أي أن الله عز وجل يريد أن يمتحننا ، وهذه الدنيا دار ابتلاء ، والله يسمح للطرف الآخر أن يوسوس ويزخرف ، لكن الطرف الآخر لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، وأوضح ما يؤكد هذه الحقيقة قول الله عز وجل :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22))

(سورة إبراهيم)

الإنسان مخيّر ، وأهل الباطل يوسوسون له ، ويقدِّمون له الباطل مزخرفاً ، وأهل الحق يلقون إليه الحق ناصعاً ، وأنت مخير ، فإما أن تستجيب لزخرفة أهل الباطل ، أو أن تستجيب لنداء أهل الحق ،

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

فبهذه الطريقة يتحرك الإنسان ، لكن ما مِن إنسان يضل إنساناً هذا شيء مستحيل ، الله لا يسمح لإنسان أن يضل إنساناً ، لكن يسمح لإنسان أن يزخرف الباطل ، فالذي عنده استعداد للباطل يستجيب لهذه الدعوة المزخرفة البراقة ، لذلك البطولة أن تستوعب كلام الله ، وأن تستوعب سنة رسول الله ، حتى يكون الوحيان الكتاب والسنة مرجعين لك في تقييم ما يطرحه أهل الباطل .

مواقف من كيد أعداء الإسلام للإسلام :

الحقيقة أيها الأخوة ، الآن نحن أمام مطروحات ضلالية لا تنتهي ، وهناك هجمة ـ واللهِ ـ على الإسلام لا يصدقها العقل ، فيما مضى تناولت السنة الآن وصلت إلى القرآن ، وصلت إلى الوحي ، وصلت إلى نبي الإسلام ، فيها تهجم كبير جداً ، هم يلقون هذه الوساوس مزخرفة ، وفيها غرور كبير ، وأخطار الباطل الحقيقية معتم عليها ، وثمة أشياء تبرز أمامنا براقة لتستجيب لها النفس ، هذا من كيد أعداء الإسلام للإسلام .

مثلاً : إذا ألفت قصة لعمل فني ، البطل الإيجابي تسقط عليه كل القيم الأخلاقية ، من نجدة ، من مروءة ، من شهامة ، لكنه يشرب الخمر ، لكنه يجلس مع نساء حاسرات الرؤوس ، وبقية أعضائهن مكشوفة ، هذا الإنسان البطل ما عنده قيود ، ما عنده شيء اسمه حرام ، لكن من جهة أخرى تسقط عليه بعض القيم الأخلاقية ، فالصغير يتعلق به ، الفتاة تتعلق بامرأة متفلتة تماماً ، لكنها سيدة أنيقة ، وسيدة لها مكانة اجتماعية ، هذا أسلوب من أجل تحطيم الحق ، وهذا نوع من الكيل .

الحقيقة قضية أن تهاجم الإسلام مباشرة هذه قضية انتهت ، لأن أعداء الإسلام أيقنوا أنه لا سبيل إلى مواجهة مع الإسلام ، لكنهم أيقنوا أنهم يمكن أن يفجر هذا الدين من داخله ، تصطنع نماذج غير مقبولة، فتقوم بعمل تخرج من جلدك منه وينسب إلى المسلمين ، هذا أكبر تحطيم للحق ، أن تصطنع عملاً لا يرضَى عنه إنسان في الدنيا ، وينسب إلى المسلمين ، فكلما كان في المجتمع موالياً للمسلمين يصنعون فيه عملاً ، فيقتل البريئون قتلاً عنيفاً بلا سبب ، ويُقتل مواطن مسلم بلا سبب ، وينسب هذا إلى المسلمين ، وهذا كيد كبير الآن للمسلمين ، وهذا الكيد لا يتخذ صورة كلام بل هو أفعال لا يحتملها إنسان ، تنسب إلى المسلمين ، حتى يسبّب هذا العمل نقمة عارمة على المسلمين في كل أنحاء العالم ، قال الله عز وجل :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46))

(سورة إبراهيم)

إله عظيم يصف مكر أعداء الحق بأن مكرهم تزول منه الجبال .

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47))

(سورة إبراهيم)

حينما يواجه الدعوة الإسلامية تحدٍّ فهذا التحدي ينشط الدعوة إلى الله :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

قال : إذاً لا يقع شيء في الكون إلا بإرادة الله ، ولا يقع شيء في الكون إلا أن يسمح الله به ، أن يقع بالكون شيء يتناقض مع إرادة الله هذا غير مقبول إطلاقاً ، لا يليق بألوهية الله أن يقع بملكه ما لا يريد إذاً :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

حينما يطلع علينا مؤلف يكتب عن قراءات معاصرة ، ويصف القرآن أنه يبيح السلوك الإباحي ، وهذا كتاب طبع عشر طبعات ، ووجد رواجاً كبيراً في أوساط المثقفين ، لأن المثقف لما يعصي الله يختل توازنه ، فأعاد له الكتاب التوازن ، يمكن وهو في أعلى درجات المعصية والإباحية أن يكون مطبقاً لبعض الآيات ، فلذلك :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

كل كتاب يتهجم على الأديان وعلى دين الإسلام بالذات ، هذا الكتاب سمح الله به ، لأنه يحدث حركة في البلد ، الآن انظر عندما يظهر ، ويتكلم كلاماً غير صحيح ، تقوم الدنيا ولا تقعد ، يتجدد نشاط الدعاة ، يتناولون هذا الكتاب بالنقد الدقيق ، أنت لا تعلم ما الذي يجري ، الذي يجري حينما يواجه الدعوة الإسلامية تحدٍّ فهذا التحدي ينشط الدعوة إلى الله ، ينشط الدعاة ، يشحن الدعاة بشحنة إضافية ، فلا تقلق ، في النهاية النصر لهذا الدين العظيم .

أيها الأخوة الكرام ، الذي يحصل بعد هذه الآية أن

(شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

ليغتر الناس ، فيخفون الأخطار الحقيقة ، ويظهرون المرغبات الواهية التي تغرر بالنفس . الذي يحصل :

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113))

(سورة الأنعام)

كل علاقاتك مع من حولك أساسها إدراك ثم انفعال ثم سلوك :

إذاً هذا امتحان ، والإنسان المؤمن تصور الجنة وما فيها من نعيم مقيم ، وتصور النار وما فيها من عذاب لا يحتمل ، لذلك يوازن بين هذه المتعة الطارئة ، ألا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً ، فيرفض هذا ، وأيّ إنسان يؤمن بالآخرة يرفض هذه الدعوة المزخرفة التي تغر الإنسان ، والتي تخفي أخطار المعصية ، وتبرز متعتها فقط ، والحقيقية الواقعية المعاصي فيها متعة ، والمعاصي محببة للإنسان ، فأهل الباطل يبرزون المتعة فقط ويخفون العواقب ، المتعة تزول وتبقى العواقب ، وجهد الطاعة ينقضي ، ويبقى بعد جهد الطاعة الثواب والجنة ، لذلك هذه الزخارف من القول ، وهذا التغرير

بالناس ، وهذا الباطل المزين ، من يصغي إليه ؟

(الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

الذين همهم الدنيا فقط ، ما دام همه الدنيا ، فهو يعيش للمتعة ، وهذه دعوة إلى المتعة ، دعوة إلى المتعة بشكل مكثف ، فلذلك حينما تعرض الأمور هكذا ، حينما يعرض الباطل ، حينما تعرض المعصية ، حينما تعرض الشهوة ، حينما تعرض المتعة عرضاً مزخرفاً فيه تعتيم على أخطارها المستقبلية ، وفيه إبراز المتعة الآنية ، حينما تعرض هذه المتع بهذه الطريقة لا يستجيب لها إلا من لا يؤمن بالآخرة ، وفي الآية إشارة دقيقة جداً إلى علاقة الإنسان بالمحيط ، وهذه العلاقة بالمحيط مبنية على قانون : إدراك ، انفعال ، سلوك .

أنت تمشي في بستان ، وجدت أفعى ، إذا أدركت أنها أفعى تتحرك ، تضطرب ، فالإدراك أولاً ، والاضطراب ثانياً ، والسلوك ثالثاً ، فإما أن تقتلها ، وإما أن تهرب منها .

إذاً : كل علاقاتك مع من حولك أساسها هذا القانون ، إدراك ، انفعال ، سلوك ، الآن إذا كان هناك إدراك ، ولم يكن هناك انفعال ، فالإدراك غير صحيح .

قال لك شخص ما : على كتفك عقرب ، فبقيت هادئاً تماماً ، والتفت إليه ، وابتسمت ، وشكرته على هذه الملاحظة ، معنى ذلك أنك لم تدرك ماذا قال لك ، لأن من علامة صحة الإدراك الانفعال ، ومن علامة الانفعال أن تقفز ، وأن تخلع معطفك الذي على كتفك ، إذاً هذا قانون ، إدراك ، انفعال ، سلوك ، الله عز وجل قال :

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

هذا الإدراك ، ثم قال :

(وَلِيَرْضَوْهُ)

هذه استجابة نفسية ، انفعال ، الثالثة :

(وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

المؤمن وقاف عند كتاب الله :

إذاً حكمة ربنا من هذا الباطل المزخرف المزين هو ليفرز من يدعي أنه مؤمن ، وليس كذلك من يكون مؤمناً حقاً ، المؤمن الحق لا يضحي بالآخرة أبداً ، لا يضحي بالآخرة من أجل متع رخيصة ، ولا من أجل شهوة عابرة .

أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً الجوع ، فوضع على بطنه حجراً ، وقال :

((يا رب نفس ناعمة طاعمة ، جائعة عارية يوم القيامة .))

[البيهقي وابن عساكر عن جبير بن نفير]

المؤمن الذي أيقن بالآخرة لا يضحِي بها من أجل متعة رخيصة ، هذا هو المقصود من هذا الابتلاء ، الباطل مزين ، فوطّنوا أنفسكم ، كل يوم هناك كتاب ، وكل يوم هناك محاضرة ، وكل يوم هناك ندوة ، وبالإنترنت ، وبالنوادي الثقافية ، هناك دعوة إلى الباطل ، دعوة إلى نبذ أحكام الله عز وجل ، هناك كلام مزين مزخرف رائع ، هذا لقاح لكم ، فوطّنوا أنفسكم على هذا ، نحن في عصر الشبهات ، في عصر الضلالات ، في عصر الكلام المزخرف ، في عصر إخفاء أخطار الباطل وإبراز إيجابيات ليست صحيحة ، بل هي خلّبية .

إذاً : المؤمن وقاف عند كتاب الله ، مرجعيته كلام الله ، مرجعيته سنة رسول الله، أما أهل الباطل فيمرحون ويسرحون بالصحف ، والمجلات ، والندوات ، والمنتديات ، وبالإنترنت ، وبالمؤلفات ، وبالكتيبات ، وبالمحاضرات ، فيها طرح يناقض منهج الله عز وجل ، وهذه الآية توضح ذلك تماماً :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

هاتان الآيتان لخصتا ما يجري الآن في العالم الإسلامي ، والبطولة أن تبقى ثابتاً .

((والله يا عمّ ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

المؤمن عنده ثوابت وعلى رأسها كلام الله :

المؤمن عنده ثوابت ، وعلى رأس هذه الثوابت كلام الله :

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ (27))

(سورة إبراهيم)

هذا كلام خالق الأكوان ، هذا كلام خالق الإنسان ، هذا كلام الخبير ، هذا كلام العليم ، هذا كلام الذي عنده أسباب سعادتنا وسلامتنا ، فينبغي على الإنسان ألا يؤخذ في ما يقرأ من مجلات ومن صحف ، وما يُدعى إليه من ندوات ومحاضرات ، هذه في بعضها الأكثر يدعو إلى مناقضة ما في الكتاب والسنة،

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

أحياناً يتمنى الإنسان أن يكون لانحرافه تغطية إيديولوجية ، فإذا عثر على تغطية إيديولوجية لانحرافه تمسك بها أيّما تمسك ، وسبحان الله ! الشبهات حينما يأتيها غطاء إيديولوجي معين أو فكر معين تجد المنحرفين قد تمسكوا بهذا الغطاء تمسكاً لا حدود له ، أما المؤمن فيتمسك بكتاب الله ، ويتمسك بفهمه فهماً أصولياً ، يتمسك بسنة رسول الله الصحيحة ، يتمسك بإجماع الأمة ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّ أُمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ))

[ابن ماجه عن أنس بن مالك]

الباطل قد يكون غريباً .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيباً وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيباً فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[رواه مسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة]

أناس صالحون في قوم سوء كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم ، فيجب أن نعلم أننا نحن في معركة الحق والباطل ، وهذه معركة أزلية أبدية ، فوطّنوا أنفسكم على وجود طرح لضلالات لا تعد ولا تحصَى ، وعلى تهجم على هذا الدين ، وعلى كتابه الكريم ، وعلى نبيه عليه أتم الصلاة والتسليم ، واعلموا علم اليقين أن هذا كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الإنسان كلما تعمق في فهم كلام الله ازداد إيماناً وازداد قوة على ما يطرح من ضلالات في الساحة التي يعيش فيها .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(45-73): تفسيرالآيتان 114 – 115 ، العمل الصالح - والخبر الصادق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-12-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الرابعة عشرة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا

أيها الإخوة الكرام ، أي إنسان كائناً من كان لا بد له من مرجع يرجع إليه ، لأن الحياة معقدة جداً ، والأمور مشتبهة ، ومقاييس الخير والشر مضطربة ، وصراع بين المصالح والقيم والحاجات والمبادئ، فالإنسان التائه الشارد بحاجة إلى مرجع ، الله عز وجل يقول :

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا)

الخالق المسير ، الرب القوي ، الغني ، العليم ، الخبير ، المحب ، الرحيم ، أيعقل أن تتخذه مرجعاً غيره ؟ أيعقل أن تتخذ حكماً غيره ؟ أيعقل أن تحكم إنساناً جاهلاً ضعيفاً منحازاً محدوداً في مصيرك ؟

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا)

أيها الإخوة :

حين قال الله عز وجل :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *)

(سورة الشعراء)

القلب السليم هو الذي لا يشتهي شهوة لا ترضِي الله ، ولا يقبل خبراً يتناقض مع وحي الله ، ولا يعبد غير الله ، ولا يحتكم إلا لشرع الله .

إخواننا الكرام ، الله عز وجل يقول :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية : 36)

هناك اجتماعات كثيرة ، ولقاءات كثيرة ، ومؤتمرات كثيرة ، حين الحديث عن جدول الأعمال يقال : هذه الموضوعات ليست خاضعة للبحث ، لأنها مسلّم بها ، وكل أمة وكل جهة في عندها خطوط حمر ، وقضايا مسلّم بها لا تخضع للبحث أبداً .

أقول لكم : المؤمن الصادق ، والمؤمنة الصادقة فيما شرع الله ، وفيما حكم الله ، وفيما أنزل الله ، وفيما حكم رسول الله ، وفيما بيّن رسول الله ، ليس له خيار أبداً ، القضايا التي بت فيها الشرع ليست خاضعة للبحث ،

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

حال الناس اليوم كل واحد يرى نفسه مشرعاً ، يقول لك : هذا الحكم لا يصلح لهذا الزمان ، هو مشرّع.

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتمُ حتى يكون لكم عندُ

* * *

ورحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده .

من علامات المؤمن عدم مناقشة حكم الله

من علامات إيمان المؤمن أنه لا يقبل مناقشة فيما شرع الله عز وجل ،

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا)

المشكلة الآن أيها الإخوة ، أن كل شيء في الدين حتى المسلّمات ، حتى الذي فيه آيات محكمات خاضع للبحث ، تؤلف لجان ، تعقد ندوات ، تناقش قوانين نابعة من صلب القرآن ، قوانين الأحوال الشخصية نابغة من الشرع الإسلامي ، هي معرض للنقاش ، ومحل للبحث ، والأصح في هذا الموضوع أنها محل للنقد .

فلذلك أيها الإخوة ، علامة إيمانك أن الذي شرعه الله عز وجل مبدئياً غير قابل للبحث ، لأنك لو كنت مع طبيب يحمل شهادة عليا من بلد بعيد لا تناقشه أبداً ، بل تستسلم له ، فكيف مع خالق السماوات والأرض ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة الحجرات الآية : 1)

لا تقدم اقتراحات ، لا تقدم اعتراضات ، لا تقدم بدائل ، لا تقدم قواعد ، أنت عبد ، فإذا كان سيد الخلق، وحبيب الحق يقول :

(إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الأعراف الآية : 203)

هذا مقام العبودية ، أن تتبع ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام .

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا

أيها الإخوة ، لعظم الموضوع ولخطورته ، ولأنه قد يلغي إيمان المؤمن جاءت الصيغة استفهاماً إنكارياً :

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا)

معقول ؟! .

شاب له أب كبير ، كبير بعلمه ، كبير بآدابه ، كبير بتدينه ، كبير برعايته ، ولهذا الشاب صديق منحرف لا يتابع دراسته ، يتابع رفقاء السوء ، من ملهى إلى ملهى ، أيعقل أن يتخذ هذا الشاب هذا الصديق مرجعاً له ومستشاراً ؟ وينسى أن أباه الذي أغدق عليه من الخيرات ما لا يحصى .

قضية أن تتخذ من دون الله ولياً ، قضية أن تتخذ من دون الله حَكماً ، قضية أن تتخذ من دون الله مرجعاً ، هذا يلغي إيمانك ،

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

لو تابعتم بعض الأخبار في أكثر الاجتماعات ، والمفاوضات واللقاءات ، يقال : هذه القضايا تحتها خط أحمر ، ليست خاضعة للبحث ، وأنتم أيها المؤمنون لكم أن تدرسوا قضية في التجارة ، في الصناعة ، في السكن ، في الزواج ، في الأشياء المباحة ، أما في قضية بت فيها الشرع فممنوع أن تفكر في خيرية هذا الشيء أو في عدم خيريته ، لأنه كما يقول علماء العقيدة : الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، لأنه من عند الخالق ، وكلما نما إيمانك لا تحتاج إلى تعليل ، علة أيّ أمرٍ أنه أمرٌ ، وكلما اتضحت حكمة الأمر ضعفت العبودية فيه ، وكلما خفيت حكمة الأمر ازدادت العبودية فيه .

كمثل واضح وصارخ ، إبراهيم عليه السلام أمر أن يذبح ابنه ، هذا لا يندرج لا في القيم ، ولا المقبولات ، ولا في الأشياء المعقولة إطلاقاً ، قال ابنه إسماعيل :

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

(سورة الصافات الآية : 102)

قدم لنا الله نموذجاً من الاستسلام المطلق لله عز وجل ، لكن الله ما ضيعه ، امتحنه امتحاناً صعباً فنجح.

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم)

أيها الإخوة :

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة الآية : 124)

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

الحياة كلها امتحانات .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

علة وجودك في الأرض الامتحان ، الدليل :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك)

نحن في حالة صعبة ، الضلالات ، والشبهات ، والطرحات ، التي لا تقبل بين أيدي الناس جميعاً ، ولا يعصمك من هذه الضلالات إلا أن تأوي إلى ركن ركين .

سيدنا علي يقول : " يا بني ، الناس ثلاثو ، عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق " .

الناس عالم ومتعلم ، وما سوى ذلك ليسوا من بني البشر .

أيها الإخوة ،

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ)

هذا منهج .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام الآية : 1)

في كفة .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف الآية : 1)

في كفة ثانية ، الكون كله في كفة ، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا والذي :

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت الآية : 42)

في كفة ثانية ، الله عز وجل خلق الأكوان ، ونورها بالقرآن ، معنا وحي السماء .

أيها الإخوة ، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه .

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا

أيها الإخوة ،

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا)

معك منهج ، معك كتاب بين لك سر وجودك وغاية وجودك ، ومن أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ معك كتاب فيه أسباب سلامتك ، وأسباب سعادتك ، وأسباب توفيقك ، معك كتاب إن طبقته فهو :

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء الآية : 9)

معك كتاب إن طبقته فإنه لا يحزن قارئ القرآن ، معك كتاب بين الله فيه كل شيء ، فيه خبر ما قبلكم، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا تنقضي عجائبه .

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ)

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ

بربكم أيها الإخوة ، أقوى معرفة على الإطلاق أن تعرف ابنك ، هل هناك أب من ستة آلاف مليون إنسان يدخل إلى بيته ويقول لأحد أبنائه : ما اسمك ؟ مستحيل ! أسرع معرفة ، وأوضح معرفة ، والمعرفة التي لا تنسَى أبداً أن يعرف الأب ابنه ، ماذا قال الله عز وجل قال ؟ قال :

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة الآية : 146)

أهل الكتاب يعرفون أن هذا الإنسان العظيم ، النبي الكريم هو نبي مرسل ،

(كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

فلمَ لمْ يؤمنوا به ؟ المصالح ، هذا المعنى دقيق جداً :

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

(سورة التوبة الآية : 9)

هو له دنيا ، له مكانة ، له أتباع ، لم يقبل أن يضحي بمكانته ، ولا بأتباعه فيما لو آمن برسول الله e ، وغاب عنه أنه لو آمن برسول الله لرفع الله له ذكره .

حينما قال الله عز وجل :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

ما مِن إنسان يخطب ود الله ، ما من إنسان يضع نفسه بالتعتيم ليظهر الحق إلا رفع الله له ذكره ، لذلك كان بعضهم يقول : " أحب أن أكون ذنباً في الحق ، ولا رأساً في الباطل " ، وحينما تضع نفسك في سبيل خدمة الحق يرفع الله لك ذكرك .

إخواننا الكرام ، أنت بحاجة إلى الطعام والشراب للحفاظ على الفرد ، على ذاتك ، وبحاجة للزواج للحفاظ على النوع ، وأنت بحاجة إلى الذكر ، إلى أن تكون مهماً ذا شأن ، هذا سماه علماء النفس تأكيد الذات ، أن تكون مهماً ، وأن تكون ذا شأن ، وأن يرفع الله لك ذكرك ، في طاعة الله ، هؤلاء الذين خضعوا للحق في عهد النبي ، وكانوا معواناً له على نشر الحق ، ووضعوا أنفسهم في الظل ، ورفعوا ذكر رسول الله ، أين هم الآن ؟ في جنات :

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

إذا كنت معتمراً ألست تقف أمام قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم تحولت عنه إلى قبر سيدنا الصديق ، ثم تتحول عنه إلى قبر سيدنا عمر ، هكذا السنة ، هكذا آداب الزيارة ، إذاً هؤلاء الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم رفعوا الله ذكرهم ، وهؤلاء الذين ناصبوه العداء في مزابل التاريخ ، ما قيمة أبي جهل ؟ هؤلاء الذين ناهضوا الحق ، وصدقوا أيها الإخوة ، إن أشقى إنسان على وجه الأرض هو الذي يقف في خندق معادٍ للحق ، وإذا قال الله عز وجل :

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ)

هما حفصة وعائشة :

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم)

يا رب ، كل هذا من أجل امرأتين ؟ قال علماء التفسير : لا ، ليس من أجل امرأتين ، ولكن من أجل أن يعلم كل إنسان إلى يوم القيامة أنه إذا وقف في خندق معادٍ للحق يجب أن يعلم من هو الطرف الآخر.

أنت الآن في الدنيا قد تجد إنسانًا هزيلا صغيرًا ، لكنه ينتمي إلى الدولة ، تخاف أن تعتدي عليك ، لماذا؟ لأن الدولة كلها وراءه ، أليس كذلك ؟ لا تنظر إليه ، فانظر إلى من وراءه ، فلذلك أعظم الناس من كان جندياً للحق ، وأنا أقول لكم : لا تقلقوا على هذا الدين إنه دين الله ، ولكن اقلقوا ما إذا سمح الله لكم أو لم يسمح أن تكونوا جنوداً له .

إخوانا الكرام ، يجب أن تفكر بشكل جدي أن تقدم شيئاً لله ، أن تلقى الله بعمل ، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، فالتي ربت بناتها تربية إسلامية ، وحجبتهم تلقى الله وهو راضٍ عنها ، وهي في بيتها لم تخرج من بيتها ، الأب الذي يرعى أولاده له طريق إلى الجنة ، وهو في بيته ، الأم التي تربي أولادها ، والتي ترعى زوجها لها طريق إلى الجنة ، وهي في بيتها ، والذي يعمل عملا ، يقدم للمسلمين بضاعة جيدة بسعر معقول له طريق إلى الجنة ، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، الوقت الذي تمضيه في عملك وقت طويل ، ما قولك أن ينقلب عملك إلى عبادة ؟ عملك ، حرفتك ، إذا نصحت المسلمين ، إذا كان عملك في الأصل مشروعاً ، وسلكت به الطرق المشروعة ، ونويت من خلاله كفاية نفسك وأهلك ، وخدمة المسلمين ، ولم يشغلك هذا العمل عن فريضة ، ولا عن واجب ديني، ولا عن عبادة ، انقلب عملك عبادة ، ما قولك وأنت في عيادتك في عبادة ؟ لأن لا تبتز المرضى ولا توهمهم ، ولا تقول كلاماً ليس صحيحاً ، وأنت في مكتب المحاماة أنت في عبادة ، وأنت في دكانك في عبادة ، وأنت وراء طاولة كموظف في عبادة ، يأتي مواطن من مكان بعيد لا تقول له : تعال غداً ، تخدمه ، هذا عبد لله ، فلذلك الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، ما كلف الله الناس جميعاً أن يكونوا دعاة إلى الله ، كل إنسان من ضمن عمله قد يصل للجنة ، إذا أتقن وابتغى به نفع المسلمين .

والله ثمة أخ يعمل في صناعة مواد غذائية للصغار ، يقول : هذا الطفل الصغير الذي أخذ من أبيه عشر ليرات ، أيعقل أن أطعمه بضاعة موادها الأولية فاسدة ؟ مع أن المواد الأولية أحياناً تباع بثلثي قيمتها للمعامل ، لأن فسادها وانتهاء صلاحيتها لا يكشف ، فالمعامل تشتري هذه المواد فينخفض رأس مالها ، ويزداد ربحها ، يقول لي هذا الأخ : والله أنا لا أفعل هذا ، أشتري أعلى المواد ، لأن هذا الصغير أخذ من أبيه عشر ليرات ينبغي أن أطعمه شيئاً ينفعه في صحته ، هذا الإنسان يعبد الله ، وهو في معمله .

إخوانا الكرام ، العمل الصالح بين أيديكم جميعاً ، الكلمة الصادقة ، النصيحة فيها عمل صالح كبير ، فيجب الإنسان أن تلقى الله بعمل ، ودائماً يقول لي أخ : لا أشعر في الصلاة بالتجلي ، فأقول له :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

أضرب مثلا مئات المرات ، جندي غر التحق من يومين بفرقة عسكرية ، وعلى رأس هذه الفرقة رتبة عسكرية عالية جداً ، بحسب النظام العسكري بكل جيوش العالم هذا المجند الغر لا يستطيع أن يقابل قائد هذه الفرقة ، ولا في الأحلام ، قبله عشرات الرتب ، إلا أن هذا الجندي الغر إذا وجد ابن قائد هذه الفرقة يوشك أن يغرق ، وألقى بنفسه وأنقذه ، يستطيع في اليوم التالي أن يدخل عليه من دون إذن ، وأن يرحب به ، وأن يأتي له بضيافة ، وأن يجلس إلى جنبه ،

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

حينما تخدم الإنسان ، حينما تخفف عنه ، حينما تحل كربة من كربه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ...))

[رواه مسلم]

حينما تعالج مريضاً ، حينما تطعم جائعاً ، حينما ترعى أرملة ، حينما ترعى يتيماً ، حينما تتكلم بكلمة الحق ، حينما تأمر بالمعروف ، حينما تنهى عن المنكر ، حينما تربي أولادك فأنت مع الله ، لمَ لا تشعر بالخشوع في الصلاة وأنت في خدمة الخلق ؟ بعضهم قال : يا رب ، لا يحلو الليل إلا بمناجاتك ، ولا يحلو النهار إلا بخدمة عبادة .

والله هؤلاء الذين توجهوا إلى خدمة الخلق هم أسعد الناس ، أحياناً تراهم في عينك متألقين ، لأنهم في خدمة الخلق ، إنسان بلا عمل لا قيمة له إطلاقاً ، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح .

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة الأنعام)

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا

هذا القرآن كلمة الله ، قال بعض العلماء : هذا القرآن 600 صفحة تقريباً ، كل آياته لا تزيد على أن تكون أمراً أو خبراً ، وهذا تقسيم علماء البلاغة للكلام ، خبر وإنشاء ، أنا أخبرك أو آمرك ، الإنشاء أمر ، الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتمني والترجي هذا إنشاء ، أما الإخبار أن تقول : فلان سافر، فلان حضر ، فلان ربح ، فلان خسر ، هذا القرآن لا يزيد على أن يكون خبراً أو أمراً ، فالخبر صدق، والأمر عدل ،

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا)

أي خبر فيه فهو صادق ، لذلك قال الله عز وجل :

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

(سورة المائدة الآية : 116)

جاءت بصيغة الماضي ، هذا كما قال علماء البلاغة من تحقق الوقوع .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

بربكم من رأى هذه الحادثة ؟ ولا واحد ، ولا أنا معكم ، فيكيف يقول الله :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

؟ معنى ذلك أنه ينبغي أن تأخذ خبر الله وكأنك تراه ،

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا)

أمره عدل .

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

(سورة النساء الآية : 11)

هذا هو العدل ، المرأة تأخذ ولا تعطِي ، بينما الرجل يعطي ولا يأخذ ، لذلك الإله العظيم شرع لنا في نظام المواريث :

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

معنى آخر : أخطر شيء في حياتنا علاقتنا مع ربنا ، بعض العلماء قال : هذه العلاقة مع الله عز وجل تنتظمها كلمتان ، يا عبادي منكم الصدق ، ومني العدل ، تتفاوتون عندي بصدقكم ، أما أنا فأعدل بينكم جميعاً ، منكم الصدق ومني العدل ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

سيدنا سعد ابن أبي وقاص ، هو الصحابي الوحيد الذي افتداه النبي بأبيه وأمه ، قال :

((ارْمِ سَعْدٌ ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمّي))

[أخرجه مسلم عن علي]

أن يفتديك النبي بأبيه وأمه شيء كبير جداً ، وكان إذا دخل كان عليه الصلاة والسلام يداعبه كثيراً ، يقول : هذا خالي ، فأروني خالاً مثل خالي .

أما الشيء الذي يلفت النظر أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له مرة بعد وفاة رسول الله: " يا سعد ، لا يغرنك أنك خال رسول الله ، إياك أن تغتر بهذا ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم له .

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب

* * *

إنسان بالتعتيم يكون في الطبقة الدنيا الاجتماعية ، بالدرجة السفلى من السلم الاجتماعي ، إذا كان مستقيماً على أمر الله قلامة ظفره تساوي مليون رجل ، هذا هو الدين ، إنسان عبد حبشي بمقياس

الجاهلية في الدرجة الدنيا في المجتمع القرشي ، يأتي إلى المدينة ، ويخرج عمر لاستقباله **!!!** إنه سيدنا بلال ، يخرج عمر لاستقباله ، ويقول عن سيدنا الصديق : هو سيدنا ، وأعتق سيدنا ، هذا هو الإسلام ، عبد حبشي يقول عنه عملاق الإسلام : " أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا " ، لما افتداه سيدنا الصديق من سيده ، قال له سيده : والله لو دفعت به درهما لبعتكه ، فقال له : والله لو طلبت به مئة ألف لأعطيتكها ، ووضع يده تحت إبطه ، وقال له : هذا أخي حقاً ، هذا الإسلام ، ليس فيه طبقية .

إخواننا الكرام ، أقول هذه كلمة منذ ثلاثين عاماً : لا يضاف على كلمة(مؤمن) ولا كلمة ، مؤمن فقط، أيّ كلمة أخرى تعني نزوات الجاهلية ، أية كلمة أخرى عصبية ، ومن مات على عصبية مات على شأن لا يرضِي الله عز وجل .

((وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيّةٍ ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيّةٍ))

[رواه أبو داود عن جبير بن مطعم]

فلذلك أيها الإخوة .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(46-73): تفسير الآيات 116 - 118 ، دع الخلق لخالقهم ـ الفرق بين موت الدابة وبين ذبحها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-12-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية السادسة عشرة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

ضابط معرفة الحق : نعرف الرجال بالحق

الانطباع الأول قبل التدقيق في كلمات الآية أن الحق لا يقاس بعدد المتبعين له ، قد يكونون أقلية ، وأن الحق لا يتأثر لا باتساع رقعته ، ولا بضعف رقعته ، وقد يكون الواحد الذي عرف الحق ، واستقام على أمر الله جماعة ، وقد تكون الملايين المملينة فرداً ، فالمقياس هو الحق .

سيدنا علي كرم الله وجهه يقول : << نحن نعرف الرجال بالحق ، ولا نعرف الحق بالرجال >> .

الأصل هو الحق ، لكن ثمة ظاهرة استشرت أنّ الإنسان حينما يتوهم أن هذا القول قاله فلان إذاً هو صحيح ، ليس على وجه الأرض إنسان يعد كلامه دليلاً ، وما على وجه الأرض إنسان إلا ويحتاج فيما يدعيه إلى دليل ، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، ديننا دين علم ودين دليل ، لكن واحداً هو سيد الخلق وحبيب الحق كلامه هو الدليل ، لأنه :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

لأن الله عصمه من أن يخطئ في أقواله ، وأفعاله ، وإقراره ، ولأنه مشرع والدليل :

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

لأن الله عصمه ، وجعله مشرعاً ، فكلام النبي صلى الله عليه وسلم هو الدليل ، لكن غير النبي لا يمكن أن يكون كلامه دليلاً ، إلا أن يأتي بالدليل ، ولأن :

((هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن أنس]

ولأن ملايين القضايا في حياة الإنسان لا تعد مصيرية ، كبيتٍ نصحت به فلم يكن جيداً ، أو تجارة نصحت بها فلم تنتفع بها ، فلا مشكلة حينئذ ، لكن الدين مصيري ، الدين مصير صاحبه الأبد ، فإما نعيم مقيم ، أو عذاب لا ينتهي ، لذلك ثمة فرق في حياتك بين ما هو عارض وهو مصيري .

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

إذاً الآية الكريمة :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لا تعبأ بالأكثرية ، لا تعبأ بما يسميه العلماء الخطَّ العريضَ في المجتمع ، لا تكن مقلداً ، لا تكن إمعة ، تقول : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساؤوا أسأت ، لا تكن كذلك ، ولكن كن حراً ، تحرك وفق قناعاتك ، اعتمد الدليل ، لا تقبل شيئاً من دون دليل ، ولا ترفض شيئاً من دون دليل ، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، فإنْ كنت ناقلاً فالصحة ، وإن كنت مدّعياً فالدليل ، هذا الانطباع الأول .

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ)

من هم ؟ البشر ، بنو الإنسان ، الذين كلفهم الله بعبادته ، المخيرون ، الذين أودعت فيهم الشهوات ، الذين سُخرت لهم ما في الأرض والسماوات ، الذين أُعطوا العقل ، أُعطوا الفطرة ، أُعطوا الشهوة ، هؤلاء المكلفون ، هم المعنيون بقوله تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

أيها الإخوة ، لو تصورنا أنبوبًا طويلا ، وله مضخة ، لو أن ثقباً في هذا الأنبوب قريب من المضخة ، واستخدمت المضخة ، فالماء يستسهل الثقب القريب ، ويخرج منه ، ولا يصل إلى آخره ، وهذا شيء طبيعي .

لوازم الاستقامة على أمر الله

إن سبيل الله يحتاج إلى فهم ، يحتاج إلى ترجيح العقل ، يحتاج إلى ضبط الشهوة ، يحتاج إلى صبر ، يحتاج إلى نفس طويل ، يحتاج إلى أن تنقل اهتماماتك إلى ما بعد الموت يحتاج إلى إيمان ، يحتاج إلى إرادة ، لكن طريق الشيطان طريق سهل جداً ، كما ورد في بعض الأحاديث :

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلَاثًا ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِشَهْوَةٍ))

[رواه أحمد عن ابن عباس]

يكفي أن تطلق بصرك ، وأن تسترخي ، وأن تأكل ما تشاء ، وألا تدقق في الحسابات ، أي شيء دخل إلى جيبك فهو لك ، يكفي أخذ مبلغ ضخم بالكذب والاحتيال ، وأن تمارس كل الشهوات من دون قيد أو شرط ، هذا طريق النار ،

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلَاثًا ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِشَهْوَةٍ))

إن سبيل الله يحتاج إلى فهم عميق ، وإلى إيمان دقيق وإلى إرادة ، وإلى ترجيح العقل على الشهوة ، وإلى ترجيح الهدف البعيد على الهدف القريب .

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

إن طريق الشهوة قريب وسريع ، لذلك الذي أهلك الناس أنهم الآن يعيشون لحظتهم ، وفي الإنسان شهوات ، وهذه الشهوات يمكن أن تمتعه دون أن ينظر إلى العواقب .

إخوانا الكرام ، فكرة دقيقة جداً ذكرتها عشرات المرات ، لكن هنا لا بد من ذكرها :

أنت ذاهب إلى حمص في أيام الشتاء الباردة ، فإذا بلوحة لا تزيد على ثلاثين سنتيمتراً ، وعرضها عشرة سنتيمترات ، كتب عليها : " الطريق إلى حمض مغلقة في مدينة النبك بسبب تراكم الثلوج " ، لو قرأ اللوحة ألف إنسان يقصد حمصَ بالذات ، ماذا يفعل ؟ يرجع ، لو أن دابة تمشي أين تقف ؟ عند الثلج ، ما الذي حكم العاقل ؟ النص ، ما الذي حكم الدابة ؟ الواقع .

أقرب مثل لنا :

المدخن متى يدع الدخان ؟ حينما يصاب بمرض خبيث في رئتيه ، فقط ، أو حينما تأتيه جلطة ، أو خثرة ، أو احتشاء ، الآن يوقف الدخان ، ما الذي حكمه الواقع ؟ أما العاقل فيكفي أن يقرأ مضار التدخين ، أو حكم الشرع في التدخين ، فيقلع عنه قبل أن يصاب بأمراض خبيثة .

احفظ هذه القاعدة : إن كان النص هو الذي يحكمك فأنت عاقل ، وإن كان الواقع فأنت دون المستوى المطلوب ، والذي يوقع الناس في شر أعمالهم أنّ الواقع حكمهم ، ولم يحكمهم النص ، على مستوى الصحة ، لا تبتعد كثيراً ، قد يأكل الرجل ما يشتهي بلا مراعاة لسنه ، ولا للدسم ، ولا لنوع الطعام ، ولا يمارس الرياضة ، يعيش هكذا ، فجأة يصاب بخثرة في الدماغ ، تأتيه رسالة من أبعد بلد أن خفف وزنك ، هذا الذي يتحرك بلا قيد ولا شرط ، ولا قاعدة ، ولا هدف ، هذا إنسان يحكمه الواقع ، وقد عطل عقله ، لذلك الآية الكريمة :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ)

من المكلفين

(يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لأن الطريق الجنة محفوف بالمكاره ، وطريق النار محفوف بالشهوات ،

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلَاثًا ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِشَهْوَةٍ))

وإليك هذا المثل :

أنبوب طويل فيه مضخة ، وفيه ثقب إلى جانب المضخة ، هذا الثقب ثقب الشهوات ، فإذا استخدمت المضخة فالماء يختصر الطريق ، ويخرج من الثقب لأنه أهون طريق ، أما إذا كان هذا الثقب مغلقًا ، واستخدمت المضخة يصل الماء إلى نهاية الأنبوب ،

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لماذا ؟ قال تعالى :

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ

وقد تحدث كثيراً على أن هناك وهماً هو أقلّ من الشك ، 30 % ، والشك 50 % ، والظن 90% ، أو 80 % ، لكن القطع 100 % ، فالعلم مقولة مقطوع بصحتها 100 % ، تطابق الواقع ، عليها دليل، فإن لم يكن مقطوعاً بصحتها فهي وهم وشك وظن ،

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

وإن لم تطابق الواقع فهي الجهل ، وإن لم يكن معها دليل فهو التقليد ، والعلم ليس شكاً ، ولا وهماً ، ولا ظناً ، ولا تقليداً ، ولا يناقض الواقع ،

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

الآن هذا الظن أي ظن ؟

(إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

طبيعة الظن ومتعلّقاته

هذا الظن المتعلق بالهوى ، لأن هوى الإنسان وشهوته أمْلت عليه أن تمتّعْ بالحياة ، ودعك من التوبة الآن ، معك وقت طويل تتوب فيه ، ويزيّن الشيطان للإنسان المعصية ، فيستخدم الظن المتعلق بشهوته ، والظن هنا يبرز إيجابيات المتعة ، ويخفي عنك الأخطار الوبيلة من اتباع الشهوة ، وهذا كان الحديث

عنه في درس سابق .

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

(سورة الأنعام الآية : 112)

يظهر الإيجابيات الحسية ، ويعتم على الأخطار المهلكة .

لكنك لو دققت في الآية لوجدت شيئاً آخر ، هذا الشيء الآخر مأخوذ من آية أخرى .

معنى قوله : أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ

حينما تسمع قوله تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ)

ليس معنى ذلك أنه بقي الأقلية ، هذا معنى جديد ، والطرف الآخر أيضاً كثيرون ، فكلمة :

(أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ)

لا تعني أن ما يقابلها قلة ، والدليل :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ)

(سورة الحج الآية : 18)

كلمة :

(كَثِيرٌ)

لا تعني أن الطرف الآخر قليل ، هذا من باب التفاؤل ، كثير وكثير ، لذلك هناك كلمات تكتب على مداخل بعض البلاد ، هذا الكلام : أنه يا من دخلت هذه البلدة مثلك كثير ، فإن كنت صالحاً فمثلك كثير ، وإن كنت فاسداً فمثلك كثير .

مرة صلى أخ كريم من الخليج في جامع في دمشق ألقي فيه درسٌ ، لفت نظري أن هذا الإنسان صالح، سأل عن دروس العلم في الشام ، عن المساجد ، عن العلماء ، عن المكتبات ، قلت : سبحان الله ! يأتي إنسان إلى الشام متوهماً أن فيها فاحشة في بعض الأحياء ، ويأتي إنسان آخر ليطلب العلم في الشام ، يا من دخلت دمشق مثلك كثير ، والذي يأتي للمتعة كثيرون ، والذين يأتون لطلب العلم أيضاً كثيرون ، هذا يرفع معنوياته ، فـ :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لا تعني أن الباقين قلة ، قد يكونون كثر . ثم يقول الله عز وجل :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

(إنْ)هنا نافية .

(إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)

(سورة إبراهيم الآية : 10)

يعني ما

(أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)

و ما

(يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

لذلك قد يكون اتباع الظن في شؤون الدنيا مقبولاً ، لأن الدنيا تنتهي ، لكن اتباع الظن في شؤون الآخرة هو اتباع مدمر مهلك .

مثلاً تنجح من الصف السابع إلى الثامن ، ثم نجحت ، إلا أن الشهادة الثانوية مجموع العلامات تحدد لك مصيرك ، فهناك علامات تكون بها طبيبًا ، وعلامات تكون بها صيدليًّا ، وعلامات تكون بها مهندسًا ، فهذا المستوى الواحد في التعليم الثانوي مصيري ، يحدد لك مصيرك في الحياة ، وهناك كلية عليها إقبال شديد ، أو كلية حاملو الشهادات منها ليس لهم عمل ،

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

أي يكذبون ، يكذبون على أنفسهم .

(قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام الآيات : 23 - 24)

الإنسان في الدنيا يكابر ، ويداهن ، ويحابي ، ويكذب ، لكنه يوم القيامة يكتشف الحقيقة ، وهل من إنسان بلغ كفره كفر فرعون ؟ وهو الذي قال :

(مَاعَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

هذا كفر ، بل هو أشد أنواع الكفر ، لكن بعد قليل قال كفراً أشد ، قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

هو نفسه حينما أدركه الغرق قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس الآية : 90)

إذاً كشف عنه الغطاء فكان بصره حديداً ، لكن :

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة الأنعام)

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

إخواننا الكرام ، هناك حقيقة دقيقة : الناس الذين حولك لا يعرفون عنك إلا ثلث مكنوناتك :

طبيعة مكنونات الإنسان وأثرها في تقييم الناس

أنت ذكر ، ولست أنثى ، هذا معروف ، أنت تحمل شهادة عليا ، مثلاً أنت مهندس ، لك مكتب ، ولك وظيفة ، طويل القامة ، أبيض اللون ، هذا يعرفه الناس عنك ، لكن هناك ثلثا مكنوناتك لا يعرفها أحد ، أما التي معك في البيت فربما عرفتْ الثلث الثاني ، الذي معك في العمل ربما عرف الثلث الثاني ، لكن يبقى ثلث من شخصيتك لا يعلمه إلا الله ، مهما كنت ذكياً ، ومهما كنت باحثاً اجتماعياً ، ومهما كنت محللاً نفسياً ، ومهما كنت ذا نظر ثاقب لا تعرف مِن الذي أمامك إلا الثلث ، وزوجته وأقرباءه الذين معه يوماً بيوم ، جيرانه ، من سافر معه ، من شاركه في الدرهم والدينار يعرفون الثلث الثاني ، أما الثلث الثالث فلا يعلمه إلا الله ، لذلك لا تتسرع وتحكم ، دع تقييم العباد لله عز وجل ، لأن تقييم العباد ليس من شأنك ، من شأن الله وحده ، والإنسان أحياناً كلما ازداد ذكائه أتقن التمثيل ، فقد يخدع الناس لمعظم الوقت وقد يخدع بعض الناس لكل الوقت ، أما أن يستطيع الإنسان أن يخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل ، أما أن يخدع خالقه ، أو أن يخدع نفسه التي بين جنبيه وفلا ولو ثانية واحدة .

(لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

(سورة الحاقة)

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

إذاً :

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ)

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء الآية : 16)

استرح وأرح ، لا تقيّم أحداً ، لا تكفر بالتعيين ، مسموح لك أن تكفر من دون تعيين ، كيف ؟ من قال : إن الله لا يعلم فقد كفر ، ككلام عام ليس فيه مشكلة ، من أنكر فرضية الصلاة فقد كفر ، لكن النبي علمنا صلى الله عليه وسلم أن صحابته الكرام في مرات عديدة لعنوا شارب الخمر ، هكذا مطلقاً ، لكن

مرة جيء للنبي بشارب خمر ، فلعنه الصحابة ، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

((أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا ، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا ، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ : اللَّهُمَّ الْعَنْهُ ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَلْعَنُوهُ ، فَوَ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ))

[البخاري]

فأنت لست مكلفاً أن تقيّم الناس ، هذا ليس من شأنك ، ولا من اختصاصك ، ولا من إمكانك ، ولا يتعلق به علمك ، أنت ترى الظاهر ، أنت تحكم بعلانيته الناس ، أما سرائرهم فينبغي أن تكِلها إلى الله عز وجل .

أضرب هذا المثل دائماً :

ثمة إنسان من أهل الغنى ، وله آلاف الدُّنمات ، جاء من يهمس في أذنه أنك إذا تبرعت من آلاف الدنمات بدنم واحد لينشأ عليه بيت من بيوت الله اضطرت البلدية أن تنظم أرضك ، وأن تجعلها مقاسم ، فإذا كانت مقاسم تضاعف سعرها ، وقد يكون صاحب الأراضي هذا لا يصلي إطلاقاً ، ولم يدخل الدين في حساباته إطلاقاً ، ولم يعرف الله طلاقاً ، ولم يبتغ الجنة إطلاقاً ، لكنها فكرة تجارية ، أنه إذا تبرع بدنم لمسجد تضطر البلدية أن تنظم أرضه إلى مقاسم ، وإذا نظمت إلى مقاسم تضاعف ثمنها ، أما الناس فيقولون : ما شاء الله ! بارك الله به ! محسن كبير ، ماذا يعرفون ؟ لذلك لست مؤهلاً أن تحكم على أحد إلا بحالة مستحيلة ، أن يكون لك علم كعلم الله .

بعض الأمثلة من السيرة مأخوذة : رجل مع رسول الله في القتال ، النبي قال عنه : إنه من أهل النار، هذا من إعلام الله له ، وقد أصيب بجراح ، وجاء بسيفه ، ووضعه على الأرض ، وانحنى عليه حتى قتل نفسه ، أنت لا تعلم هذا الذي يفعل لماذا يفعل ، لذلك :

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ...))

[متفق عليه]

أنا لا أجيب عن أي سؤال متعلق بتقييم شخص ، أقول دائماً : تقييم الأشخاص من شأن الله وحده ، وإياك أيها الإنسان ، ثم إياك ، ثم إياك أن تتورط في تقييم الأشخاص ، لكن أن ترى إنسانًا شارب خمر أمامك ، وتقول : هذا وليّ ، لا ، هذا أيضاً لعب بدين الله ، هذا عاصٍ ، لكنه قد يتوب ، ويسبقك ، وهذا ممكن ، فلا تتكبر على العاصي ، لعل الله يغفر له ، أو لعل الله يحمله على التوبة ، أو يسوق له شدة

يحمله على التوبة ، فيسبق الذي عيره بهذه المعصية ، لذلك من أجمل ما ورد في بعض الأحاديث أنه ورد :

((الذنب شؤم على غير فاعله ؛ إن عيّره ابتلي به ، وإن اغتابه أثم ، وإن رضي به شاركه))

[أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس بن مالك]

ارتكب صديقك معصية ، وأنت عافاك الله منها ، مع أنك عوفيت من هذه المعصية ، ولم تقترفها ، لكن هذا الصديق اقترفها أمامك ، فأنت أمام ثلاثة مزالق ، أن تقول : فلان ارتكب هذا العمل الشنيع ، أين عقله ؟ فقد اغتبته ، أو أن تقول : والله إنه لذكيّ ، وقد حقق بعض أهدافه بطريقة أو بأخرى ، فقد شاركته حينئذ في الإثم ، وإن عيّرته بقولك : أين عقله ، أين دينه ؟ أين ؟ أين ؟ وأنت تظن أنك محصن فقد ابتليت بهذا الذنب مرة ثانية ، لذلك ما قرأت كلمة لنبي كريم تعرض لإغراء النساء كسيدنا يوسف ، قال :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

أرأيت إلى هذا التواضع ، أرأيت إلى هذا الافتقار إلى الله عز وجل ؟

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

إذاً :

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

دع الخلق لخالقهم

أرح واسترح ، لا تقيّم الأشخاص أبداً ، إن رأيت إنسانًا يعصي الله أيضاً فينبغي ألا تنزلق إلى كلام العوام ، وتقول : لعله وليّ ، لا نعرف ، هذا كذب ، ولعب بدين الله ، ويسبب إرباكاً في تقييم النفس ، هذه معصية ، والمعصية معصية ، والطاعة طاعة ، لكن نحن نحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، وأنت لست مكلفاً إطلاقاً أن تسبر أغوار نفسه ، ولا أن تحلل ، من أنت ؟ هل أنت وصي عليه ؟ أنت لست وصيًّا عليه ، ولست وصياً على أحد ، أنت عليك من نفسك ، وعليك أن تطيع الله عز وجل ، وأن تتعرف إليه ، دع الخلق لخالقهم .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ)

هو أعلم منك ، ومن كل الناس ، ومن الخلق أجمعين ،

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

لذلك هذه الخلافات بين الأمم ، والشعوب ، والحضارات ،تارةً يقال : صراع الحضارات ، وتارة يقال: حوار الحضارات ،

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

* * *

وهذا الحوار ، وتلك الخصومات ، وقد ورد في بعض الآيات الكريمة :

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة السجدة الآية : 25)

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

تربص الطرف الآخر بالمسلمين

الآن هناك مشكلة ، ولا بد من تمهيد لها ، وهو :

أن الطرف الآخر المعاندين ، الكفار ، المشركين ، الملحدين يتربصون بالمؤمنين ، كلما نطق مؤمن بكلمة يتصيدون ثغرة في كلامه ، ويكبرونها ، ويقيمون الدنيا ، ولا يقعدونها .

قلت امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

هناك تصيد ، وقنص ، ورغبة أن يبحث الطرف الآخر متوهماً عن ثغرة في الدين فيقيمون الدنيا ، ولا يقعدونها ، والأمثلة لا تعد ولا تحصَى .

إذا قال المسلم : لا إله إلا الله لا ينجو من النقد ، طائرة الصندوق الأسود سجل ربانها كلمة : " توكلنا على الله " ، ثم سقطت ، اعتبروا كلمة " توكلنا على الله " من الطيّار أنه إرهابي ، وأنه هو الذي أسقط الطائرة ، وطائرة مصرية عليها عدد كبير من الخبراء العسكريين ، ترجح الروايات أنها أُسقطت من جهة معادية ، لكن كلمة توكلت على الله لربان الطائرة عدّت سبباً مبرراً أنه هو الذي أسقطها .

فالطرف الآخر دائماً يتهيأ لاقتناص الثغرات ، فيما يقال في جانب الحق ، وهؤلاء المشركون يقولون : كيف تأكلون ما قتلتم أنتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ؟ هم عدوا الموت قتلاً من الله ، وعدوا الذبح قتلاً بأيدينا ، فالذي تذبحونه من البهائم من الأنعام تأكلونه حلالاً طيباً ، أما إذا ماتت الدابة لا تأكلونها ، ما هذا التناقض ؟ والحقيقة أن هناك نقطة دقيقة جداً يفرق بها بين الموت والقتل ، أوضحها بمثل : المصباح الكهربائي ، لو أنك قطعت عنه الكهرباء ينطفئ ، لأنك قطعتَ عنه الطاقة الممدة له فانطفأ ـ

هذا هو الموت ـ أما إذا كسرت هذا المصباح فالطاقة موجودة ، لكنك أتلفت بنية المصباح ـ هذا هو الذبح ـ ، هم لم يفرقوا بين القتل والذبح ، ذلك أن الموت انقطاع الإمداد الإلهي ، فالجسم كامل ، لو كان الإنسان مضطجعًا على ميزان ، ووافته المنية وهو على الميزان لا يقلّ وزنه ولا واحد بالمليون من الغرامات .

الحكمة من تذكية الذبيحة ومضار الصعق الكهربائي

أيها الإخوة الكرام ، النقطة الدقيقة في الموضوع تحتاج إلى تفصيل : ذلك أن في الإنسان جهازاً سأصفه لكم ، ومثله في الحيوان الذي نأكل منه ، إذا رأى الإنسان في البستان أفعى أو ثعبانًا تنطبع صورته على شبكية العين ، هذا إحساس ، ثم تنتقل الصورة إلى الدماغ إدراكاً ، وفي الدماغ مفهومات الثعبان ، حُصلت من دراسة أو من قصة ، أو من مشاهدة ، أو من تجربة ، هذه المفهومات بمجموعها تنبئ أن لدغة الثعبان قاتلة ، فالدماغ يدرك الخطر ، الآن يلتمس ملك الجهاز العصبي ، والجهاز العصبي أوامره كهربائية ، يلتمس من ملكة النظام الهرموني ، الغدة النخامية التي وزنها نصف غرام يلتمس منها عن طريق وسيط اسمه تحت السرير البصري أن تواجه الخطر ، فالغدة النخامية تحت يديها أجهزة أمنية ، تعطي أمراً للكظر الذي فوق الكلية أن يواجه الخطر ، فالكظر يعطي خمسة أوامر، أول أمر إلى القلب ، فيرتفع نبض القلب إلى أن يصل أحياناً إلى 180 نبضة ، والنبض الطبيعي 80 ، فالخائف لو قسنا نبضه لكان 160 ـ 170 ـ ، والأمر الثاني إلى الرئتين فيزداد وجيبهما ، والخائف يلهث ، ثم أمر ثالث إلى الأوعية المحيطة بالجلد ، فتضيق لمعتها ، فيصفر لون الخائف ، كي يذهب الدم الفائض إلى العضلات ، والأمر الرابع للكبد ليطرح كميات من السكر إضافية ، والأمر الخامس إلى الكبد أيضاً ليطرح هرمون التجلط ، فتزداد لزوجة الدم عند الخائف بالضبط ، هكذا يواجه الكظر الخطر ، بأمر من النخامية ، بالتماس من الدماغ ، بمعلومات من العين ، هذه أول فكرة .

الفكرة الثانية : القلب لأنه عضو نبيل ، وخطير ، ومصيري ، لا يمكن أن يتلقى الأمر بالنبض من جهة بعيدة عنه ، كما أنه لا يمكن لمستشفى تجرى فيها عمليات جراحية أن تعتمد على الشبكة العامة ، لو حدث خلل في الشبكة العامة ، وانقطعت الكهرباء والمريض مفتوح قلبه ، وجميع الأجهزة تعمل بالكهرباء ، إذاً يموت المريض فوراً ، فلابد من مولدة خاصة لغرفة العمليات .

الآن : لأن القلب عضو نبيل جداً ، وخطير جداً ، ومصيري جداً ، لا بد من مركز كهربائي ذاتي في القلب يمد القلب بالنبض الكهربائي ، و لو تعطل هذا المركز فهناك مركز احتياطي ثانٍ ، لو أن الثاني تعطل فهناك مركز احتياطي ثالث ، لكن هذه المراكز الثلاثة لا تمد القلب إلا بالنبض النظامي فقط 80

نبضة في الدقيقة ، فقط ، أما إذا كان الإنسان خائفاً ، أو يصعد درجاً ، أو يواجه عدواً ، ما الذي يرفع النبض إلى 130 ؟ إدراك الخطر عن طريق العين ، ثم التماس الدماغ من النخامية ، التصرف ، والنخامية تأمر الكظر ، والكظر يعطي الأوامر ، إذاً الأمر الاستثنائي بالنبض من أين يأتي ؟ من الرأس عن طريق الكظر ، والأمر النظامي بالنبض يأتي من القلب مباشرة ، هذه مقدمة .

الآن نحن أمام دابة نريد أن نذبحها ، النبي عليه الصلاة والسلام من توجيهاته النبوية أنه أمرنا ألا نقطع رأسها ، بل نكتفي أن نقطع أوداجها فقط ، وليس في عهد النبي ، وليس في مكان في الأرض ، ولا بعد مئة عام ، ولا بعد 200 عام ، ولا بعد 500 عام ، ولا بعد 1000 عام ، ولا بعد 1300 عام مراكز تشير إلى حكمة ذبح الدابة ، وبعد 1400 أو أكثر بقليل توصل العلم إلى فهم حكمة توجيه النبي عليه الصلاة والسلام ، هذه الدابة إن قطعنا رأسها كما تفعل معظم المسالخ في العالم ، يعلقونها من أرجلها ، ويقطعون رأسها ، بقي الأمر الذاتي للقلب 80 نبضة ، الثمانون نبضة لا تخرج من الدابة إلا جزاء يسيراً من الدم ، ويبقى الدم في الدابة ، أما لو بقي الرأس موصولاً لجاء الأمر الاستثنائي من الدماغ إلى الكظر ، إلى القلب ، وارتفع النبض إلى 180 نبضة ، والـ180 نبضة كافية لإخراج الدم كله من الدابة ، إذاً هو عليه الصلاة والسلام :

(مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

هذا الحديث وحده من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام ، ذلك لأن الدم وهو في الإنسان الحي طاهر ، لماذا ؟ لأن ثلاثة أجهزة من أدق الأجهزة تصفيه باستمرار ، أول جهاز هو التنفس ، في الدم ثاني أكسيد الكربون الناتج عن احتراق السكر ، هذا الغاز ثاني أكسيد الكربون يتعلق بالكريات الحمراء، فيجعلها سوداء ، ويأتي الدم إلى الرئتين ، فتصفيه من ثاني أكسيد الكربون ، وتأخذ مكانه الأوكسجين فيغدو الدم أحمر ، إذاً الرئتان تصفيان الدم ، والكليتان تصفيات الدم من كل الحموض التي تؤذي الإنسان ، وفي طليعتها حمض البول ، ومئات ملايين الغدد العرقية أيضاً تصفي الدم ، لذلك الدم وهو يجري في الجسم طاهر ، لهذا قال الله تعالى :

(أَوْ دَماً مَسْفُوحاً)

(سورة الأنعام الآية : 145)

المسفوح ألغِيت تصفيته ، فإذا ذبحنا الدابة بصعقة بالكهرباء كما تفعل بعض المسالخ في العالم ، أو إذا علقناها من أرجلها ، وقطعنا رأسها تعطل الأمر الاستثنائي برفع النبض ، وبقي أمر القلب فقط ، فيبقى جزء كبير من دمها فيها ، والأمراض كلها في الدم ، والفضلات كلها في الدم ، حمض البول ، ثاني أكسيد الكربون ، والدم أكبر مرتع للجراثيم ، لذلك الدابة التي تصعق صعقاً ، أو التي يقطع رأسها عند الذبح كلياً ، هذه دابة فيها لترات كبيرة جداً من الدم قد تصل في البقرة إلى 8 كغ تقريباً ، لذلك لو أردنا

أن نشتري لحم من بلاد بعيدة وطلبنا الذبح الشرعي لطالبونا بزيادة في السعر ، لأن كان كل دابة فيها 4 أو 5 أو 8 كغ وزن الدم ، فإذا ذبحت ذبحاً شرعياً ، وارتفع النبض إلى 180 نبضة خرج الدم كله ، لذلك لحم الدابة التي تذبح وفق الطريقة الإسلامية لحم زهري ، فيه طعم طيب ، ليس فيه مواد مؤذية ، ولا فضلات ، ولا حمض بول ، ولا جراثيم ، كله هذا منتَهٍ ، فلذلك الفرق كبير جداً بين الحيوان الذي يموت ودمه فيه ، فلا يؤكل ، وبين الحيوان الذي يذبح ذبحاً ، ويذكّى ، وقد خرج الدم منه .

إذاً هذه هي الثغرة التي توهم المشركون بقولهم : لماذا تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ؟ حينما يموت الحيوان يقطع الله عز وجل عنه الإمداد فتبقى أجهزته كما هي ، ودمه فيه ، إذاً لا يؤكل ، بينما حينما تذكي الحيوان ، أي تذبحه ذبحاً شرعياً عندئذٍ يصبح لحمه طاهراً أزهر من حيث اللون .

لكن مع الأسف الشديد ، والحقيقة لا بد من أن أذكرها أن بلادًا كثيرة لا تؤمن بالله ، قد تشترى منها لحوم إلى بلاد إسلامية ، والذين يشترون اللحوم يشترطون الذبح الإسلامي ، ماذا تفعل المسالخ الكبرى في العالم ؟ تتصل بمركز إسلامي ، وترسل لهم مبلغًا كبيرًا فلكيًّا نظير إعطائهم وثيقة فقط ، وأصحاب المراكز هؤلاء المنتفعون الذين يبتزون أموال الناس بالباطل يوقعون هذه الوثائق ، ولا يذهبون إلى المسالخ إطلاقاً ، ويتم الذبح بطريقة غير شرعية ، وأحياناً يعبرون عن جهلهم وغبائهم حينما يكتبون على علب السمك أن هذا السمك ذبح على الطريق الإسلامية ، وأنا لا أرى لحما يعلو على لحمٍ ذبح في بلاد إسلامية أبداً ، هناك مشكلات كبيرة جداً ، وهناك استثناءات ، وقد لا تكون دقة في الذبح الإسلامي، لكن في الأعم الأغلب هناك انحرافات ، وهناك تجاوزات ليست في صالح من يأكل هذا اللحم .

لذلك هذه الثغرة التي أثارها المشركون : لماذا تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ؟ لأن الله أمرنا أن نذبح الدابة من خلال إرشادِ نبيه صلى الله عليه وسلم ، بل أن نبقي رأسها موصولاً بجسمها كي يعمل الأمر الاستثنائي الذي يصدر من الرأس إلى الكظر إلى القلب ليرفع النبض إلى 180 ، كي يكون هذا النبض السريع سبباً لإخراج الدم كله من الدابة ، عندئذٍ يكون اللحم أزهر اللون ، طيب الطعم ، بعيداً عن كل ما يؤذي الإنسان . الآية جاءت :

(فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنعام)

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ

عندنا شيئان ، عندنا التسمية وعندنا التذكية ، وهناك فرق بين التسمية والتذكية ، التذكية أن تذبح الدابة ذبحاً وفق الطريقة الإسلامية بعدم قطع رأسها ، بل قطع أوداجها فقط ، هذا الذبح الشرعي سماه الفقهاء

التذكية ، لحم مذكّى ، أي مذبوح وفق الشريعة الإسلامية ، بينما التسمية أن تسمي وتكبر الله في أثناء ذبح الخروف ، لكن الآية هنا :

(فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)

وهناك تفصيل لطيف :

حكم أكل ما لم يُذْكر اسم الله عليه عمدا أو نسيانا

قال الإمام مالك رضي الله عنه : ينبغي ألا يأكل من دابة لم يذكر اسم الله عليها ، نسياناً أو عمداً سواء، قال الإمام مالك : " ينبغي ألا تأكل نسياناً أو عمداً " ، هذا مذهب الإمام مالك .

أما مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه " فإنه إذا كان الإنسان ناسياً للتسمية فينبغي أن يأكل ، وسمِّ الله أنت عليها ، وإن كان عامداً فينبغي ألا يأكل " .

أما الإمام الشافعي فقال : " إن لم تذكر اسم الله عليها ناسياً أو عامداً فكل ، لماذا ؟ قال : لأن الذكر رد في بعض الأحاديث :

((فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ))

[متفق عليه]

فالمؤمن يذكر الله في نفسه ، بل أبلغ من ذلك أن المؤمن لا يعقل أن يقدم على ضبع ليذبحه ويأكله ، لا يقبل إلا على حيوان أحله الله لنا ، إذاً يذكر أن هذا حلال ، وهذا حرام ، وهو مؤمن فإيمانه ذكر ، فعند الإمام الشافعي لك أن تأكل إن لم يسمَّ على الدابة عمداً أو نسياناً ، وعند الإمام مالك ينبغي ألا تأكل إن لم يذكر اسم الله عمداً أو نسياً ، والإمام أبو حنيفة فصل ، فإن لم يذكر اسم الله عليها عمداً فينبغي ألا تأكل ، وإن لم يذكر اسم الله عليها نسياناً فلك أن تأكل .

لكن الكلمة الرائعة أن إيمانك هو الذكر ، فإذا لم يذكر اسم الله عليها فاذكر اسم الله عليها وكُلْ ، هذا موضوع غير التذكية ، التذكية شيء آخر ، التذكية قضية دم ، فإذا بقي فيها كانت الدابة مؤذية إذا أكلت منها.

أيها الإخوة ، بقي موضوع أن كل أمر ذي بال لم تسمِ الله فهو أبتر ، أنت أمام كاس ماء ، إذا قلت : بسم الله ، فما معنى بسم الله ؟ من جعل هذا الماء عذباً فراتاً بعد أن كان ملحاً أجاجاً ؟ إذاً تحب الله لهذه نعمة ، كيف تشرب الماء ؟ ثلاثاً ، وأنت قاعد ، إذاً بسم الله تذكرك بنعم الله ، وتذكرك بأمر الله معاً ، إذاً كل أمر ذي بال لم يذكر اسم الله جل جلاله قبله أو لم تسمِّ فهو أبتر .

ثمة خبرة أنا أعرفها ، لكن قرأت عنها ، أن الحيوان الذي سمح الله لنا أن نأكله إذا أوشك أن يموت يمد رأسه ، وكأنه يقول : تعالوا اذبحوني ، وكلوني حلالاً ، بينما الحيوان الذي حرم الله أكله إذا أشرف

على الموت لا يفعل هذا ، لأن هذا الحيوان الذي خلقه الله لنا قال بعض علماء القلوب : إنه حينما يذبح يحقق الهدف من وجوده ، كان في خدمة هذا الإنسان ، لأن الله سخره للإنسان ، فالذين امتنعوا عن أكل اللحوم هؤلاء جانبوا الصواب ، وهناك نباتيون لا يأكلون اللحوم إطلاقاً ، من باب أنه يزايد على النبي صلى الله عليه وسلم ، أنا لا آكل لحماً من حيوان عذب بالذبح ، فهذا الحيوان خلق ليكون طعاماً للإنسان ، فإذا أدى هذه المهمة فقد سعد بتحقيق مهمته ، وهذه اللقطة التي قرأت عنها أن الحيوان الذي سمح الله لنا أن نأكله إذا شارف على الموت يمد رأسه ، وكأن لسان حاله يقول : تعالوا اذبحوني ، وكلوني حلالاً لقطة رائعة .

أيها الإخوة ، كلمة واحدة :

(فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)

إذاً أصول الدين يخاطب بها الناس عامة :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

(سورة البقرة الآية : 31)

أما فروع الدين فيخاطب بها المؤمنون خاصة ، لأنهم على عقد إيماني مع الله ، فآمنوا بالله خالقاً ، ومربياً ، ومسيراً ، آمنوا به موجوداً وواحداً ، وكاملاً ، آمنوا به مشرعاً ، آمنوا بعلمه ، وقدرته ، ورحمته ، وحكمته ، وعدله ، لذلك أقبلوا على تنفيذ أمره .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(47-73): تفسير الآيتان 120 – 121 ، الإثم الخفي أخطر من الإثم الظاهر ـ فوائد التسمية والتزكية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-12-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية العشرين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

الإثم الخفي أخطر من الإثم الظاهر

أيها الإخوة الكرام ، الإثم أن تقع في معصية ، لكن في الآية إشارة إلى أن هذا الإثم منه ما هو ظاهر بيّن ، ومنه ما هو خفي ، ليس جلياً ، ويبدو أن الإثم الخفي أخطر من الإثم الظاهر ، وفي الأعم الأغلب أن الإثم الظاهر التوبة منه قريبة ، لأنه ظاهر ، والإنسان مع تقدمه في السن يخشى أن يحاسب عليه ، فيميل الإنسان بعد حين إلى التوبة منه ، لكن الإثم الباطن خطير جداً ، لأن الإنسان قد لا ينتبه إليه ، ولأن الكبر حجاب ، وأن تحب ذاتك ، وألا تحب أحداً ، أن تبني مجدك على أنقاض الآخرين ، أن تبني غناك على إفقارهم ، أن تبني أمنك على خوفهم ، أن تبني حياتك على موتهم ، أن تكون مع الباطل ، أن تكون مصالحك مع الباطل ، أن تفعل شيئاً ما فُعل من قبل ، بأسماء جديدة ، ومصطلحات جديدة ، وبتغطية جديدة ، لذلك يخشى الله عز وجل علينا إذا تحركنا في مجتمع أن يؤذي بعضنا بعضاً ، فالضلالات اسم باطن ، الخمر خمر ، والزنا زنا ، والسرقة سرقة ، أما الضلالات فإلغاء السنة ، وتوجيه القرآن توجيها ما أراده الله عز وجل ، وإعطاء تأويلات ما أنزل الله بها من سلطان ، وصرف الناس عن الآخرة ، وتعلقهم بالدنيا ، و تعلقهم بالغرب ، وتقليد الأعاجم في كل حركة ، وفي سكنة ، فالضلالات ، والشبهات ، والشهوات ، والتبريرات ، والطرحات ، والخزعبلات ، والترهات هذه تمتلئ بها المطبوعات والمسموعات والمرئيات ، هذا إثم باطن .

ما هو باطن الإثم ؟

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)

حينما تصور الرذيلة بطريقة نعجب بها ، كالعمل الفني ، هذا كله إظهار لمحاسن الرذيلة ، ولأن الذين يعملون بها في قمة السعادة والنشوة ، ثم تأتي الموعظة بكلمة أو كلمتين ، فالذي خُرب في أثناء العمل لا يصحح بكلمة أو كلمتين .

فلذلك أيها الإخوة ، الذي أُريد بنا أن يكون إسلامنا إطارا ، أما المضمون فهو غربي ، في كسب أموالنا ، في استثمار أموالنا ، في علاقاتنا الاجتماعية ، في علاقتنا في اللهو ، وفي المناسبات ، علاقات كلها بعيدة عن منهج الله ، لذلك المشكلة أن الناس في مخالفاتهم قُطعوا عن الله عز وجل ، بقي إسلامهم شكلاً ، وعباداتهم طقوساً ، وعلاقاتهم علاقات تقليدية ، فأي ترويج لفكر يبعد عن الله ، أو أي ترويج لفكر يحبب بالدنيا ، أو أي ترويج لفكر يزهد في الآخرة ، أو أي ترويج لفكر يضعضع مكانة الدين .

حينما تطرح في المدارس أو في الجامعات نظرية داروين ، أنت ماذا فعلت بالصغار ؟ وماذا فعلت بالشباب ؟ وماذا فعلت بالطلاب الجامعيين ؟ أمة مسلمة معها كتاب عظيم ، منهج السماء ، وحي السماء يؤكد أن البشرية بدأت من آدم وحواء ، وهذه النظرية التي تُدرس في كل مراحل التعليم تؤكد أن الحياة نشأت من دون خالق ، بتطور طبيعي ، مع أن الذي يلفت النظر هو أن الأجانب الغربيين كفروا بهذه النظرية ، وأثبتوا عكسها ، ونحن كما يقال : مَلكيون أكثر من المَلِك ، فترويج الباطل ، وترويج نظريات تتناقض مع الوحي ، وترويج أن هناك نقصاً حاداً في المياه في المستقبل ، وأن هناك نقصاً حاداً في الغذاء في المستقبل ، وأن البشرية مقدمة على مجاعة ، من قال لك ذلك ؟

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة الحجر)

فطرح الأفكار ، والممارسات التي تنطلق من شهوة ، ومن مصلحة ، ومن حب للدنيا ، والتجمع لا على أساس ديني على أساس قومي ، أو على أساس طائفي ، أو عرقي ، هذا كله يسبب خلل في بنية الإنسان الفكرية والاجتماعية والنفسية .

لذلك الإثم الظاهر ظاهر ، السرقة سرقة ، القتل قتل ، الخمر خمر ، الزنا زنا ، أما الباطل فأن تصغر الدين عند الناس .

يمكن أن تقدم بعمل فني أن المرأة المسلمة المحجبة جاهلة ، أولادها في الطرقات ، بيتها فوضى ، بيتها غير منتظم ، ليست زوجة صالحة ، ليست أماً صالحة ، هذه المحبة ، أما الفاسقة المتفلتة فأم كاملة، ماذا تفعل في الذين رأوا هذا العمل الفني ؟ كرهوا الدين ، أحبوا هذا النموذج ، يكفي أن تضفي على بطل في عمل فني البطولة والشهامة والمروءة والكرم والغيرة والانتماء إلى المجموع ، وفي بيته بار ، وهو غير مقيد بأي قيد ديني ، هذه مشكلة كبيرة أيها الإخوة .

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)

باطن الإثم ترويج الإثم ، تقليل قيمة الدين ، تقليل قيمة رجال الدين ، هذا شيء يدعو الناس إلى البعد عن الله عز وجل ، مع أن رسالة الأنبياء قائمة على التقريب من الله عز وجل ، والتقريب من القيم التي جاء بها الإسلام ، وتنفير الناس من المعصية والفاحشة ، وما إلى ذلك .

على كلٍ ، كلٌ بحسابه ، وما من إنسان كان سبباً في هداية إنسان إلا كان هذا الهدى ، وتداعيات هذا الهدى إلى يوم القيامة في صحيفة الذي دعا إلى الله ، وما من عمل مشكّك في الدين إلا وكان كل النتائج التي نتجت عن هذا العمل في صحيفة من شكك في هذا الموضوع ، كله بحساب دقيق .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

(سورة الطور)

فباطن الإثم خطير ، باطن الإثم تخطيط ، باطن الإثم تنفير ، باطن الإثم تحبيب بالمعصية ، وبالاختلاط ، وما شاكل ذلك ، تجد في المجتمع عزوفًا شديدًا عن الدين إلا من رحم الله عز وجل ، إلا من كان له فكر حر ونير ، إلا ومن كان تفكيره عميقاً ، ورؤيته بعيدة ، وقد أحيط بجوٍّ ديني عميق ، وله بيئة راقية جداً ، هذا ينقذه الله عز وجل ، ما تفعل بهؤلاء الملايين المملينة التي أعرضت عن الله عز وجل ، وتبعت ما لم ينزل الله به سلطانا ؟

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)

الآن أيها الإخوة الإسلام لا يحارب كدين ، لكنه يفجر من الداخل ، يكفي أن تقدم نماذج من فعلك أنت ، وباصطناع منك ، وتنسبها إلى المسلمين ، فتنشأ النقمة في كل العالم على المسلمين .

إذاً : الدين يحارب بطريقة ذكية الآن ، بطريقة التفجير من الداخل ، بطريقة تقديم نماذج لا يقبلها الإنسان لا فكراً ، ولا خلقاً ، ولا قيمة ، هذه النماذج تبالغ في القتل ، وفي الجريمة ، وينسب هذا كله للمسلمين ، فإذًا الإسلام عند معظم أهل الأرض دين القتل ، ودين التخلف ، ودين الجهل ، ودين الإرهاب .

أيها الإخوة ،

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

(سورة إبراهيم)

أضرب مثلا للتوضيح ، والمثل الذي سأضربه يبين المفارقة الحادة بين ما يبدو وبين الواقع : جلس إنسان في مجلس وحده ، وعلى الحائط معطف ، وهذا الإنسان نظر إلى الخلف ، والباب خلف

باب المسجد ، ثم قام إلى المعطف ، ومد يده ، وأخذ منه ألف ليرة وقعد ، لو صورناه بآلة تصوير خفية بمَ تفسر هذه الصورة ؟ أن إنسانًا اطمأن أن لا أحداً يراقبه بالمسجد ، فقام إلى هذا المعطف ، وأخذ منه ألف ليرة ، فإذا علمت أن هذا الإنسان هو الذي بنى المسجد ، وأنفق على بنائه خمسين مليونًا ، وأن هذا المعطف معطفه ، وأن هذا المال الذي في المعطف ماله ، وأنه حينما التفت إلى مؤخرة المسجد لمح صديقاً فقيراً فقام إلى المعطف ، وأخذ منه ألف ليرة ليعطيه إياها ، ألا تختلف الصورة ؟ .

الإسلام في أعلى مرتبة ، في أعلى مستوى ، والمسلم إنسان شريف ، وطاهر وخيّر ، ويحب السلام ، ويحب البناء لا يحب الهدم ، ويحب الإحسان ، ولا يحب الإساءة ، ويحب حقن الدماء ، ولا يحب سفك الدماء ، ويحب الألفة ، ولا يحب التفرقة ، هذا المسلم ، لأنه كمله خالق الأكوان ، المسلم اتصل بالله عز وجل ، فصار في قلبه رحمة .

أحدهم ذكر لسيدنا عمر أن الناس يخافون شدته ، فقال له : << يا أبا ذر ، والله لو علم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه >> ، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى .

فأنا أريد أن أقف وقفة متأنية عند باطن الإثم ، عند الذي يخطط ليسفه الدين أو ليسفه من يعمل في الحقل الدين ، أو ليسفه المرأة المحجبة ، أو ليسفه العبادات ، أو ليسفه النظام الإسلامي في الاقتصاد ، أتقوم حياة من دون بنك ربوي ؟ من قال لك كذلك ؟ تقوم ، والدول التي في شرق آسيا التي أخذت بالنظام الإسلامي عندها فائض يزيد عن 60 مليار دولار ، ومعظم بنوكها إسلامية ، ومعظم بطاقات الائتمان خالية من الربا ، والتأمين تأمين إسلامي ، من قال لك : إن الإسلام لا يصلح للحياة المعاصرة؟ هذا الفكر الذي يروج يعني الإسلام يراد له أن يكون في المسجد فقط ، في الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، وأحكام الفقه ، والحيض والنفاس ، ليس إلا ، بل يمتد إلى حياتنا ، إلى أعمالنا ، إلى بيوتنا ، إلى كسب أموالنا ، إلى إنفاق أموالنا ، إلى أفراحنا ، إلى أتراحنا ، هذا لا يراد للإسلام أن يكون داخلاً في هذه المجالات ، لأن هذه المجالات تجعل المسلم قويًّا ، تجعل المسلم جريئًا ، تجعله لا ينافق ،

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)

أقول لكم مرة ثانية : في بعض كتب الفقه أبحاث عميقة جداً حول الكبائر الباطنة والكبائر الظاهرة ، والموازنة دقيقة جداً ، فالكبائر الظاهرة التوبة منها سهلة جداً ، لأنها ظاهرة ، ولأنها مشهورة ، ولأنها معروفة ، ولأن نتائجها القريبة واضحة ، لكن الكبائر الباطنة كالكبر ، كسوء النية ، كالمخادعة ، كإضلال الناس بأسلوب أو بآخر ، هذه الكبائر الباطنة أولاً : من الصعب التوبة منها ، وثانياً : قد تمتد في الإنسان كالورم الخبيث ، بلا ألم ، لكن الله عز وجل يتوعد هؤلاء الذين يرتكبون باطن الإثم ،

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ

أيها الإخوة الأكارم ، لمجرد أن تعتقد أن هناك إلهاً عظيماً يحصي عليك أقوالك وأفعالك ، وأنه سيسألك يوم القيامة ، وأنه سوف يعاقبك بعقاب عدل ، هذا الاعتقاد إذا صح منك لا تستطيع أن تقترف إثماً .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْقَاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَةٌ يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ))

[رواه أحمد وإسناده حسن]

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

أما كلمة :

(يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ)

فإنها تدل على أن الإنسان مخير ، وأقول وأكرر : أنه في أية لحظة تتوهم أن الله أجبرك على أعمالك فقد خرجت من العقيدة السليمة ، واعتقدت عقيدة فاسدة هي سبب تأخر المسلمين ، إن الله جل جلاله :

(لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ)

(سورة الأعراف الآية : 28)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

كسب الإنسان دليل اختياره

الإنسان مخير ، لذلك الإثم يكسبه الإنسان باختياره ، يريد أن يفعل إثماً ، يريد أن يعصي ربه ، يريد أن يرتكب جريمة الزنا ، يريد أن يأكل مالاً حراماً ، يريد أن يحتال على الناس ، يريد أن يمارس متعة رخيصة قذرة تخالف منهج الله عز وجل ،

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ)

ثم يقول : الله قدّر علي هذه المعصية ، هذا إنسان يلعب بدين الله .

جيء برجل شارب خمر إلى سيدنا عمر ، قال : << أقيموا عليه الحد ، قال هذا الرجل : والله يا أمير المؤمنين ، إن الله قدّر علي ذلك ، فقال : أقيموا عليه الحد مرتين ، مرة لأنه شرب الخمر ، ومرة لأنه افترى على الله ، قال : ويحك يا هذا ، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >> .

فلذلك :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ)

كل ما تسمعونه من الناس ، أن الله عز وجل أضل زيداً ، وأضل عبيداً ، ولم يسمح لزيد أن يهتدي ، وإذا سألت إنساناً ضالاً : ألا تصلي ؟ يقول لك : حتى يهديني الله ، والإنسان إذا اهتدى يقال : الله هداه ، وإذا ضل فالله ضلّه ، فالإنسان يريد أن يبتعد عن أي مسؤولية ، وأن يعزو كل شيء سلبي إلى الله عز وجل ، وهذا محض الافتراء على الله ، ومحض الكذب ،

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا)

دققوا الآن :

(إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

هذا ظن واهم ،

(وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

أي تكذبون . إذاً هذه الوقفة عند كلمة

(يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ)

طبعاً قد تقول لي : من أين جاءت القوة على المعصية ؟ هي من الله ، لكن لماذا أمد الله هذا العاصي بقوة ؟ لأنه اختار المعصية ، ولأنك كائن مخير في الدنيا ، أنت كائن مخير ، ولأنك كريم عند الله أعطاك الله من صفاته ، ورد في بعض الأحاديث :

((فإنَّ اللَّهُ خَلَقَ آدَمَ على صُورَتِه))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

وحار العلماء في تفسير هذا الحديث ، لكن من بعض المعاني التي تكون موضحة ، أن الله سبحانه وتعالى فرد أعطى هذه الصفة للإنسان ، فلك قزحيتان لا تشبهها قزحية أي إنسان آخر على وجه الأرض ، قزحيتك هويتك ، أعطاك رائحة جلد لا يشبهك فيها أحد ، أعطاك نبرة صوت لا يشبهك فيها أحد ، أعطاك بصمة إصبع لا يشبهك فيها أحد ، أعطاك زمرة نسيجية لا يشبهك فيها أحد ، أعطاك صفات كثيرة ، أنت إذاً فرد ، وأنت مخير ، والله عز وجل مريد ، وجعلك مريداً ، لك أن تأتي إلى هذا الدرس ، ولك ألا تأتي ، لك أن تصلي ، ولك ألا تصلي ، لك أن تصدق ، ولك أن تكذب ، لك أن تأخذ ما ليس لك ، ولك أن تكتفي بما هو لك أنت مخير ، والاختيار بديهي وفطري ، والإنسان أحياناً يأتيه خاطر شيطاني يفكر ؛ أفعل أو لا أفعل ، أحيان يأتيه إلهام ملائكي ، يقول : أفعل أو لا أفعل ، أنت مخير ، لذلك كل شيء تفعله من حيث السبب يعزى إليك ، ومن حيث الفعل يعزى إلى الله ، كيف ؟ للتقريب : غرفة فيها ثريا ، مفتاحها في مكان سري ، وإلى جانبك مفتاح ، وأنت توهمت أن هذا المفتاح يفتح مصابيح هذه الثريا ، التفت إلى هذا المفتاح ، وأقبلت عليه ، وضغطته ، فتألقت الثريا ، في جهة لا تراها ، أنت نفذت اختيارك ، أنت اخترت أن تشعل هذه الثريا ، لكن المفتاح لا علاقة له بها إطلاقاً ، ولا في أي اتصال بينه وبينها ، لكن جهة تراقبك بيدها هذه الثريا ، فلما أردت أن تتألق تألقت لك ، فالفعل من اختيارك ، والتنفيذ من جهة ثانية ، فقيل لك : إياك أن تطفئها ، وإن أطفأتها سأعاقبك ، أردت أن تتحدى هذا الأمر ، والتفت إلى المفتاح ، وضغطته كي تنطفئ فانطفأت ، فالذي أطفأها هو رأى إصرارك على إطفائها ، وتحديك للأمر ، فنفذ مشيئتك ، فالفعل فعل الله ، والكسب كسب الإنسان ، والآية :

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة الآية : 286)

الآن نحن في مصطلحاتنا نقول : فلان المدير رسبه ، مَن وقع قرار الترسيب ؟ المدير ، هو وقعه ، ودخل بالسجلات مع الراسبين ، وفي العام القادم سيأتي واسمه مع الصف السابق ، ليس مع الصف الجديد ، فمن أصدر قرار الترسيب ؟ المدير ، من حيث التنفيذ ، لكن من كان سبب الرسوب ؟ الطالب، من حيث عدم الدراسة ، فإذا قلت : الطالب رسب فهذا كلام صحيح ، لأنه ما درس ، وإذا قلت : الإدارة رسبته ، هذا أيضاً صحيح ، لأن الإدارة نفذت رغبته ، لأنه ما درس ، وما قدم امتحانًا .

(كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة النساء الآية : 78)

فعلاً ، لكن ؛ ما أصابَكم من خير وشر فمن الله .

والشيء الآخر ، من أنفسكم ، لذلك قالوا : الجنة محض فضل ، والنار محض عدل ، هذه قضايا بالقضاء والقدر دقيقة جداً ، أنت حينما تعياها ، أنت حينما تتيقن بها ، وحينما تعرفها معرفة عميقة تتعامل مع الله تعاملاً واضحاً ، الفعل فعل الله ، والكسب كسبك .

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

لكن بعض العلماء وقف عند :

(كَسَبَتْ)

هذا فعل ثلاثي ، كسب ، أما اكتسب فعل رباعي ، فإذا اتخذت قراراً بفعل الخير فهذا القرار ينفذ فوراً، ويكتب لك الأجر فوراً ، والقضية بسيطة جداً ، أما ـ لا سمح الله ولا قدر ـ إذا اتخذت قراراً أن تأخذ ما ليس لك ، أو أن تعتدي على من لا تحل لك ، هذا الفعل اكتسب ، خماسي ، فيه ألف وتاء زيادة على كسب ، معنى ذلك أن الله عز وجل يحذرك ، وينذرك ، ويضع لك عقبات ، ويرسل من ينصحك ، فإذا أصررت على قرارك عندئذٍ ينفذ ،

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

لكن هناك ملمح آخر مهم جداً في الموضوع ، وهو أن الإنسان حينما يريد أن يأخذ ما ليس له ، صاحب المال المعتدى عليه ما ذنبه ؟ الله عز وجل ينسق ، الله عز وجل قال :

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

فالله عز وجل يسوق الظالم لظالم ، يسوق المعتدي على الأموال لمن ماله حرام ، فالاستقامة عين الكرامة ،

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

ثم يقول الله عز وجل :

(وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

(سورة الأنعام)

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ

في الدرس الماضي تحدثت ملياً عن تذكية الذبيحة ، وعن التسمية عليها هنا جاء النهي واضحاً ،

(وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ)

يعني خروجًا عن منهج الله ، وبينت أن التسمية من بعض معانيها أن تتذكر أن هذه النعمة من الله ، ومن بعض معانيها الثانية أن تتحرك مع هذه النعمة وفق منهج الله ، الله عز وجل إن سميت على الدابة ينبغي أن تذبحها وفق توجيه النبي عليه الصلاة والسلام بعدم قطع رأسها ، بل بقطع أوداجها فقط ، وشرحت هذا مفصلاً في درس سابق الحكمة منه أن يخرج الدم كله من جسم الدابة فيكون اللحم طاهراً نقياً شهياً .

معنى التسمية وأبعادها

لذلك تقول : بسم الله قبل أن تلقي درساً ، فإياك أن تشرح نظرية داروين وتقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، درسنا اليوم نظرية داروين ، مثلاً ، هذه البسملة تتناقض مع مضمون الدرس ، إذا سميت على شيء ذي بال معنى ذلك أن هذا الشيء يجب أن تمارسه وفق منهج الله ، إذا قلت : بسم الله الرحمن الرحيم لتشرب فينبغي أن تشرب على ثلاث مرات ، وأن تشرب قاعداً ، إذا قلت : بسم الله الرحمن الرحيم أي أن هذا الماء من أعظم نعم الله عز وجل ، كان ملحاً أجاجاً فصار عذباً فراتاً ، التسمية أن تتذكر نعمة الله ، أنا أشرب هذا الماء بسم الله ، أي بفضل الله ، هو نعمة الله ، هو عطاء الله ، هو تقدير الله ، هو علم الله ، هو غنى الله ، الآن يقال أنه في أزمة مياه بالعالم ، كشف بعض المراصد العملاقة في أوربة بالفضاء الخارجي سحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة باليوم بالماء العذب .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة الحجر)

لذلك ما يسمى بالتقنين ونقص المياه ، ونقص الغذاء ، هذا تقنين تأديب لا تقنين عجز ، لا يليق بالذات الإلهية أن يكون تقنينها تقنين عجز ، تقنينها تقنين تأديب والدليل :

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

(سورة الشورى)

(وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ)

يمكن أن تدخل تذكية الذبيحة في هذه الآية ، تقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، ينبغي أن أذبح هذه الدابة وفق منهج هذه الدابة .

أيها الإخوة ، إذاً نصل إلى أنك إذا سميت على شيء فينبغي أن تذكر أن هذا من نعمة الله عز وجل ، وينبغي أن تمارس هذا الشيء وفق منهج الله ، فإذا ذكرت اسم الله على دابة ينبغي أن تذكر فضل الله عليك بأن أمدك بهذا الطعام ، وينبغي أن تذبحها وفق منهج الله كي تكون مذكاة ،

(وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ)

يعني خروجًا عن منهج الله .

وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ

(وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

الطرف الآخر لا يحلو له شيء في الدنيا إلا أن ينتقد مهج الله ، فيأتي بأدلة واهية ، وبكلام مزخرف ليدحض هذا التوجيه الإلهي ، لذلك حينما تصغي إلى الطرف الآخر في انتقاده لأحكام الدين ، ويقول لك مثلا: قطع اليد عمل همَجي ، في كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة قتل أو سرقة أو اغتصاب ، و65 % من جرائم السرقة تتحول إلى جرائم قتل ، وحينما طبق بلد شرع الله في قطع اليد تمر سنة بأكملها تقطع يد أو يدان فقط ، والأموال والممتلكات آمنة ، هذا منهج الله ، فدائماً الطرف الآخر لا يحلو له شيء إلا أن ينتقد أحكام الشريعة ، بل إن المبالغة عند هؤلاء لمجرد أن تذكر أحكام تطبيق الشريعة في 500 ألف بند بالشريعة لا يقفز إلى ذهنه إلا بند واحد قطع اليد ، وما وجد بهذه الشريعة الغراء التي كلها عدل وإحسان ومصلحة إلا قطع اليد ؟! هذا مكر الشيطان ، الشريعة عدل كلها ، مصلحة كلها ، حكمة كلها ، أية قضية خرجت من العدل إلى الجور ، من المصلحة إلى خلافها ، من الحكمة إلى خلافها ليست من الشريعة ، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُون

(وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

يعني أشركتم جهة مشرعة مع الله عز وجل ، لذلك حينما يطبق الإنسان شرعاً آخر ، شرعاً أرضياً يتناقض مع شريعة الله فقد أشرك ، وبأبسط الحالات إذا كانت المرأة مع زوجها في الغرب ، وكان بإمكانها أن تحتكم في خلافها معه إلى قاض مسلم في مركز إسلامي ، واحتكمت المرأة إلى قاض غربي في المحاكم الغربية ، لأنها تريد أن تخلص زوجها نصف ممتلكاته ، حينما لجأت إلى حكم آخر غير حكم الله فقد أشركت ، لمجرد أن تحكم شرعاً آخر في حياتك فقد أشركت ،

(وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

لذلك الله عز وجل قال :

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 145)

الميتة والدم ولحم الخنزير فسق ، لأن الدم موجود فيها ،

(فَإِنَّهُ رِجْسٌ)

فيه مادة سامة ، وفيه مادة تؤذي جسمك الدم ،

(أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

وهو عمل يتقرب به لا إلى الله ، بل إلى أصنام أو إلى جهة أرضية ، هذا بالإضافة إلى أنه رجس أضيف إليه الفسق .

وفي درس قادم إن شاء الله نتحدث عن آية دقيقة جداً ، وهي قوله تعالى :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأنعام)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(48-73): تفسير الآية 122
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-01-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الثانية والعشرين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ

(أَوَمَنْ)

هذه صيغة استفهام ، والكلام كما تعلمون ، خبر وإنشاء ، أيْ كلام لا يحتمل الكذب ، وكلام يحتمل الكذب ، فإذا سألتك ، فالسؤال ، والاستفهام ، والأمر ، والنهي والتمني ، والترجي ، والنداء ، هذه أساليب الإنشاء ، أي يُطلب إليك شيء تفعله بعد الكلام ، فالعقل لا يقبل أن يُحكم على هذا الكلام بأنه كذب أو صدق ، هذا إنشاء ، أما حينما تخبرني عن شيء فالمخبر قد يكون كاذباً ، وقد يكون صادقاً .

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يستخدم أسلوب الإنشاء ، هنا استفهام :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

هذا استفهام ، ما الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى يستخدم أسلوب الاستفهام ؟

الحكمة من استخدام أسلوب الإنشاء

الحقيقة أنه يمكن أن تملي على إنسان حقيقة ، أن تملي عليه شيئاً ، لكن البطولة أن تجعله يفكر معك ، وأن يتوصل إلى الحقيقة بنفسه ، والشيء الذي تصله بنفسك أعمق أثراً بآلاف المرات من الشيء الذي يُملى عليك ، لذلك هذا الأسلوب يحتاجه الآباء ، يحتاجه المعلمون ، يحتاجه المرشدون ، يحتاجه الموجهون ، يحتاجه الدعاة ، يحتاجه القادة ، بدل أن تملي اطرح سؤالاً ، واجعل المسؤول يفكر معك ، فإذا فكر معك ، وتوصل هو بذاته إلى النتيجة ، وكنت رائعاً في توجيهه .

قال شاب في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بكل جرأة ، بل بكل وقاحة : يا رسول الله ، ائذن لي بالزنا ، كأن تقول لإنسان موكل بحفظ الأمن : ائذن لي أن أقتل فلان ، هذا تحدٍّ ، فالصحابة غضبوا ، قال : دعوه ، تعال يا عبد الله ـ تعلموا من رسول الله أصول الدعوة ـ قال : أتريده لأختك ؟ فاحمر وجه الفتى ، وقال : لا ، قال : ولا الناس يريدونه لأخواتهم ، أتريده لأمك ؟ أتريده لابنتك ؟ لعمتك ؟ لخالتك؟ قال : كفيت ، فلما خرج هذا الشاب قال : والله دخلت على رسول الله وما شيء أحب إلي من الزنا ، وخرجت من عنده وما شيء أبغض إلي من الزنا .

فأنت كأب ، كمعلم ، كموجه ، كمرشد ، أنت مدير مستشفى اجمع الأطباء ، قل لهم : عندنا مشكلة ، كيف نحلها ؟ كيف ؟ عندك حل جاهز ، ومتفوق ، وعلمي ، وإداري ، و صحيح ، أما عندما تعرض المشكلة أمامهم ، وتأخذ أرائهم في حلها ، والآراء تناقش ، ثم يتوصل الجميع إلى الحل الذي أنت تريده، هذا الحل لم يفرض عليهم ، بل نبع من قناعتهم ، عندئذٍ يطبقونه ، هذه الشورى في المصطلح الإسلامي ، في المصطلح المعاصر الديمقراطية ، هذا هو الحوار ، الله عز وجل كان من الممكن أن يقول : المؤمن حي ، والكافر ميت ، انتهى الأمر ، هذا مضمون الآية ، المؤمن حي ، قلبه حي ، والكافر قلبه ميت ، هذا مضمون الآية ، لكن الله عز وجل يقول :

(أوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

والحقيقة أن كلمة ميْت غير كلمة ميّت ، الميّت هو الذي حُكم عليه بالموت ، ونحن جميعاً من دون استثناء حُكم علينا بالموت مع وقف التنفيذ ، وكل واحد منا له وقت محدد طبعاً بالسنة ، وبالشهر ، وباليوم ، وبالساعة ، وبالدقيقة ، وبالثانية بالمكان المعين ، فنحن جميعاً ميتون ، حُكم علينا بالموت مع وقف التنفيذ ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر)

فالذي حكم عليه بالموت ميّت ، والذي مات ميْت ، الآن :

(أوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

بين الحياة المادية والحياة الروحية

الحقيقة أن هذه الآية من أدق الآيات ، لأن الحياة بالمفهوم المادي أن يكون الكائن قادر على تحقيق مهمته ، أنا قادر أن أتحرك ، قادر أن أفكر ، قادر أن أتخذ قرارًا ، قادر أن أذهب إلى عملي ، قادر أن أكسب مالاً ، قادر أن أنفق على أولادي ، قادر أن أربي أولادي ، أنا حي ، الحياة صفة بالكائن تمكنه أن يحقق أهدافه ، لكنها مستويات ، فالذي ينبض قلبه ، والذي يرى بعينيه ، ويسمع بأذنيه ، وينطق

بلسانه ، ورأتاه تخفقان ، وقلبه ينبض هو حي ، هذه حياة مادية ، حياة الجسم ، وكل البشر أحياء مادام قلبهم ينبض ، لكن أراد الله من خلال هذه الآية أن يلفت النظر إلى أن هناك حياة تليق بنا ، حياة تليق بالمخلوق الأول ، تليق بالإنسان المكرم ، تليق بمن قبل حمل الأمانة ، تليق بمن سخر الله له :

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

أراد الله أن يبين الله لنا أن هناك حياة أرقى بكثير من حياة المادة ، أرقى بكثير من أن تأكل ، وتشرب، وتنجب ، وتنام ، وتستمتع .

لو أخذنا مثلا أعلى مستوى بالحياة المادية : بيتًا يصعب وصفه ، من اتساعه ، وجماله ، وإطلالته ، وأثاثه الرائع ، والطعام والشراب ، وكل ما لذ وطاب ، وجميع الأجهزة ، المَركبات بأنواعها ، والطائرة الخاصة بأنواعها ، ما الفرق بين هذا المخلوق الذي يتمتع بأعلى مستويات الحياة ، وبين مخلوق من البهائم ، يأكل ، ويشرب ، وينجب ، ويستمتع بالحشيش كما تستمتع أنت بأعلى أنواع الطعام أيضاً هذه حياة .

فمادامت حياتنا مادية فطبيعة الحياة المادية واحدة ، لكنها على مستويات ، الأغنياء والأقوياء لهم حياة من مستوى أعلى ، لكن تبقى حياة من نوع حياة الكائنات الأخرى ، أما حينما تتعرف إلى الله ، حينما تكتشف سر وجودك ، حينما تكتشف أنك المكرّم في الكون ، وحينما تكتشف أن الكون مسخر لك ، وحينما تكتشف أن الله خلقك لحياة أبدية فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، حينما تكتشف أن في الجنة من النعيم ما لا يوصف ، وحينما تكتشف أن هذه الحياة الأبدية أسبابها بيديك ، ثمنها طاعة الله عز وجل ، وأن هذا المنهج منهج من عند خالق الإنسان ، منهج متناسب مع طاقتك ، مع إمكاناتك تطبق ما فيه ، أما حينما تتصل بأصل الجمال ، حينما تتصل بالقوي ، حينما تتصل بالغني ، حينما تتصل بالرحيم ، حينما تتصل بالحكيم ، وتتخلق بالكمال الإنساني تشعر أنك حي، وأن الناس كما قال الله عز وجل :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية : 21)

إله يصف الناس هكذا :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

(سورة النحل)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

مرة التقيت بمندوب شركة ، وحدثته قليلاً عن الله عز وجل ، فقال لي بالحرف الواحد : هذه الموضوعات لا أهتم لها ، ولا ألقي لها بالاً ، ولا تعنيني لا من قريب ولا من بعيد ، أنا يعنيني أشياء ثلاثة ، امرأة جميلة ، وبيت جميل ، ومركبة جميلة ، وانتهى الأمر ، فما رأيت كلمة تصدق عليه كقوله تعالى :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

تجلس مع إنسان في أجمل قوام ، ويرتدي أغلى الثياب ، ويضع أغلى العطور ، وثيابه مدهشة بجمالها، إذا حدثك بكلمتين تشعر أنه ميت ، فالإنسان قبل أن يتكلم تؤخذ بمظهره ، بقوامه ، بثيابه ، بأناقته ، بحسن اختيار ألوانه ، فإذا حدثك نسيت شكله وثيابه ، فإذا عاملك نسيت كلامه ،

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

قال سيدنا عليّ : << يا بني ، العلم خير من المال ، لأن العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق ، يا بني ، مات خزان المال وهم أحياء ، هم أحياء ميتون >> .

أي لو فحصت جسمه كان الضغط 8 على 12 ، والنبض 70 ، كل التحليلات طبيعية ، هو عند الطبيب يتمتع بأعلى درجة من الصحة ، لكنه عند الله ميت ،

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

<< يا بني ، مات خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة >> .

فالآية تشير إلى نوع للحياة تليق بالإنسان ، تليق بالمخلوق المكرّم ، والدليل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 24)

لذلك هذه الحياة المشتركة بيننا وبين بقية المخلوقات هذه حياة لا تليق بنا ، لكن الإنسان حينما يحمل همّ الأمة ، وحينما يقلق لمصير المسلمين ، وحينما يقوم بكل طاقاته للتخفيف عنهم ، ولتحقيق بعض أهدافهم ، حينما يغار على وضع المسلمين ، يكون عند الله حياً ، وعندئذٍ يقدس في السماوات والأرض، الله عز وجل وصف أهل الشرود عنه حينما يموتون :

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

(سورة الدخان)

ما بكى عليه أحد ، ففرح الناس بموتهم ، لأن كل يوم هناك قرار بالقتل والاغتيال ، وهد البيوت ، وترويع الآمنين ، والحصار ، كل يوم ، فلما أصيب بمرض ينطبق عليه كلام النبي عليه الصلاة والسلام قال رأى جنازة فقال :

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ ، فَقَالُوا : مَا الْمُسْتَرِيحُ ، وَمَا الْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ : الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابّ))

[رواه البخاري عن أبي قتادة بن ربعي]

انتهى من التكليف ، ولا خبر سار .

والله أحياناً يجلس بعض الإخوة في جلسة من تداول الأخبار السيئة والضغوط ، والتهديدات ، وقلق ارتفاع العملة ، ... وقلق الحصار ، وقلق هذا ، والبطالة المقنعة ، وارتفاع مستوى البطالة وغلاء الأسعار ، والحصار ، وما إلى ذلك ، الجالسون لا تقوى أقدامهم على حملهم من شدة الإحباط ، هذه الدنيا :

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

(سورة يس)

فلذلك أيها الإخوة ، هذه الحياة الدنيا متعبة ، حياة كدح ، وحياة بذل جهد ، وحياة قهر أحياناً ، وحياة فقر أحياناً ، فيها فقر ، وقهر ، واجتياح ، وحرب أهلية ، وغلاء أسعار ، وبطالة ، ومشكلات لا تعد ولا تحصى ، أما هؤلاء الذين نتوهّم أنهم في قمة النعيم ، وقد اطمأنوا :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

في ضوء هذه الآية لو أن واحداً في الأرض كان معرضاً عن الله ، وكان بمقياس السعادة سعيداً هذا مستحيل وألف ألف مستحيل ، لأن كلام الله حق :

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت الآية : 42)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

إذاً الله عز وجل يقول :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

بمعرفتنا ، أحييناه بالهدى ، أحييناه بالاتصال بنا ، أحييناه بأنه نقل اهتماماته للآخرة ، أحييناه بأنه يسعى :

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

دقق الآن : كان العلماء يتوهمون قديماً أن العين يخرج منها شعاع فترى الشيء ، هذه نظرية قديمة ، إلى أن جاء عالم مسلم وهو ابن الهيثم ، وكان عالماً بالعين ، فجاء بنظرية معاكسة ، والعلم الآن أثبت

نظريته ، قال : الشيء المرئي يصدر منه ضوء يخترق العين ، الدليل أن الذي يتمتع بعنين حادتي النظر لو أطفأ المصباح كلياً لا يرى شيئاً ، معنى ذلك أن الضوء لا يخرج من العين يدخل إلى العين ، فالضوء وسيط فالإنسان بضوء الشمس يهتدي إلى حقائق الأشياء ، الليل مخيف وكل شيء غير واضح، والنهار مريح كل شيء واضح فيه ، إنسان يمشي في النهار ، هذه حفرة ، وهذه أكمة ، وهذا كلب عقور ، وهذا بستان ، وهذه فاكهة ، وهذه قشرة يُعرض عنها ، ضوء الشمس يريه الأشياء ، لكن في حركة الإنسان في الحياة أكمات ، وشهوات أمامه ، ونساء كاسيات عاريات ، وهناك ألف طريق وطريق لكسب المال الحرام ، ووسائل للغنى السريع ، ووسائل للمتعة الرخيصة ، ماذا يفعل ؟ كأنه في غابة ظلماء ، فحينما يتصل بالله يقذف الله في قلبه نوراً يريه الحق حقاً والباطل باطلاً .

امرأة بارعة الجمال ، السيدة الأولى بالقصر ، زوجها عزيز مصر ، يوسف شاب في ريعان الشباب ، يتقد نشاطاً وقوةً وحيويةً ، وهو عبد مأمور عند هذه السيدة ، وقد عرضت عليه نفسها ، وقالت :

(هَيْتَ لَكَ)

(سورة يوسف الآية : 23)

العوامل التي تدفعه إلى أن يلبي حاجة جسمه أنه شاب ، وأنه أعزب ، وأنه غريب ، وأنه عبد ، وأن التي دعته سيدته ، وليس من صالحها أن تفضحه ، وأن الحاجة عنده موجودة ، ماذا رأى حتى قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ)

(سورة يوسف الآية : 23)

ولو كان مكان هذا الشاب مليون شاب لوجدوا هذا غنيمة لا تفوت ، هذا النور الإلهي ، الآن المجرم لماذا أقدم على هذه الجريمة ؟ لأنه أعمى ، لا يرى ، وليس في قلبه نور ، توهم أنه مال كثير بجهد قليل، ويغتني إلى نهاية الحياة ، بعد عشرين يومًا علقت مشنقته ، وشنق ، ما رأى هذه النتيجة ، رأى الغنى فقط ، فهو أعمى ، لذلك الدعاء الذي ندعو به دائماً :

" اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه " .

الآن الإنسان في ظلمة الحياة ، في تداخل الأمور ، في كثرة الشبهات ، في كثرة الضلالات ، في استعار الشهوات ، في كثرة الشبهات ، في الأيام الصعبة ، في آخر الزمان ، يوم يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر ، في هذا الوقت الصعب ، هو في أمسّ الحاجة إلى نور الله ، يلقى في قلبه فيريه الحق حقاً والباطل باطلاً .

لذلك الله عز وجل ينتظر منا أن نبحث عن حياة أخرى غير الحياة المادة التي يحياها معظم الناس ، الله عز وجل ينتظرنا منا أن بحث عن حياة تليق بنا ، عن حياة تكون وصلة للحياة الآخرة ، أن تكون النعم في الدنيا متصلة بنعم الآخرة ، عن حياة فيها سعادة ، فيها طمأنينة ، فيها أمن ، فيها إقبال على الله ،

لذلك قال تعالى :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

هذا هو التخبط .

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك)

هناك لعبة يلعبها الصغار ، يضعون على عين أحدهم عصابة ، فيمشي كالأعمى ، قد يتعثر ، قد يقع ، قد يصطدم بآنية ، بشيء ، بحائط ، بباب .

الإنسان من دون اتصال بالله أعمى ، قال تعالى :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

وكل إنسان يقترف معصية ، ولا يرى الخالق العظيم فهو أعمى .

الله عز وجل يقول :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ)

في ظلمة الشهوات ، وقد جاءت الظلمات جمعًا ، ظلمة الشهوات ، وظلمة المعاصي ، وظلمة القلق ، وظلمة الخوف ، وظلمة الحقد ، وظلمة الحسد ، وظلمة الشعور بالقهر ، وظلمة الإحباط ، كل مرض نفسي ظلمة ،

(كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أيها الإخوة ، بعد الكشف الدقيق كل شيء تقع عينكم عليه في الحياة ، هذه الطاولة ، هذه الطاولة فيها حركة ، فيها ذرات ، والذرة فيها نواة ، وحول النواة ، وحول النواة مسارات ، وعلى مسار في كهروب، أو كهروبيين ؛ وإلكترون ، وما من شيء تقع العين عليه إلا ويتحرك ، وهذه من مسلّمات علم الذرة ، فالمادة فيها حياة ، لكن هذا الحديد بقساوته ، وبقابليته للأكسدة يؤدي مهمة في حياة الإنسان ، ففيه الحياة ، النحاس ناقل شديد للحرارة ، والكهرباء حياة من نوع آخر ، الألمنيوم خفيف ، إذا احتجنا إلى آلات ذات وزن خفيف نستخدم هذا المعدن ، فكل معدن له خصائص ، ما دام هذا المعدن له خصائص ، ويؤدي مهمة إذاً هناك حياة ، الآن المستوى الأول المادة الجماد فيها حياة ، وهذا المعدن فيه خصائص يؤدي مهمة محددة ، هذا نوع من الحياة ، النبات ينمو ، وما عندنا معدن ينمو ، تحتاج إلى خمسة طنًّا من الحديد لتزرع أقلام الحديد ، لأن المعدن لا ينمو ، أما النبات فينمو ، المعدن له وزن، وله أبعاد ثلاثة ، ويشغل حيزًا فقط ، والنبات له وزن ، وله حجم ، ويشغل أبعادًا ثلاثة ، لكنه

ينمو ، الحيوان له وزن ، ويشغل أبعادًا ثلاثة ، وينمو ، ويتحرك ، الإنسان ، له وزن ، وله أبعاد ثلاثة، ويشغل حيزاً ، وينمو كالنبات ، ويتحرك كالحيوان ، لكنه يفكر ، وقد أودع الله فيه قوة إدراكية ، لذلك طولب بالإيمان ، وطولب في الكشف عن الحقيقة ، وطولب أن يعيش حياة عقلية ، وطولب أن يعيش حياة روحية ، وحمله الله الأمانة ، وكلفه أن يعرفه ، وكلفه أن يطيعه ، صار فيه للحياة مستويات .

لكن أنت كإنسان ، لك من الجماد أنه لك وزن ، وحجم ، وأبعاد ثلاثة ، ولك من النبات النمو ، ولك من غير الإنسان من المخلوقات الحركة ، فإذا اكتفيت بخصائص الجماد والنبات والحيوان فقد هبطت عن مستوى إنسانيتك ، ما لم تفكر ، ما لم تستخدم هذه القوة الإدراكية ، ما لم ترتقِ إلى الله ، ما لم تتعرف إلى الله ، ما لم تستقم على أمره ، ما لم تعرف سر وجودك ، ما لم تعرف غاية وجودك ، ما لم تتحرك نحو الله .

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

(سورة الذاريات الآية : 50)

ما لم تعمل عملا تقدمه بين يديك يوم القيامة ، ما لم تؤمن أنك مخلوق للآخرة ، ما لم تنضبط بمنهج ، الكلمة القاسية فلست من بني البشر .

مرة كان عندنا أستاذ في الجامعة من أشد الأساتذة في علم النفس علماً ، فلما أحيل على التقاعد أقيم له حفل كبير ، وحضرت هذا الحفل ، وألقيت كلمات تكريمية عديدة ، وحينما وقف ، وألقى كلمة فلا زلت أذكر هذه الكلمة ، قال : الإنسان الذي لا يجد فيه حاجة إلى أن يُحِب ، ولا إلى أن يُحَب فليس من بني البشر ، أفلا تحب الله ؟ وقد ذكر وقتها أن أعلى مستويات الحُب أن تحب الله ، ثم أن تحب أنبياءه ، ثم أن تحب أهلك ، زوجتك وأولادك وإخوانك ، فالحب من صفات الإنسان ، فلا تحي حياة لا تليق بك ، لا تحي حياة نباتية ، ولا تحي حياة حيوانية ،

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

الآن الحياة النباتية ، وحياة الجماد .

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون الآية : 4)

الله عز وجل وصف الإنسان في بعض الآيات :

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

ووصفهم :

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

الآية الثالثة :

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية : 5)

(كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف الآية : 176)

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)

(سورة المدثر)

قد يهبط الإنسان عن مستوى إنسانيته حينما لا يبحث عن الحقيقة ، ولا يتعرف إلى الله ، ولا ينضبط بمنهج الله ، ولا يسعى لجنة عرضها السماوات والأرض .

إذاً :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

والوصف الدقيق من قبل الله جل جلاله ،

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

وصف آخر :

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

مقبور بشهواته ، فلذلك عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا ، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن حبان ، والحاكم]

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع قوله تعالى :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ)

(سورة الأنعام)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(49-73): تفسير الآية 123، أجرموا فكان الله لهم بالمرصاد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-01-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الثالثة والعشرين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

حمل الأمانة : مقوماته وآثاره ونتائجه

قبل أن نشرح هذه الآية لا بد من تمهيد ، ذلك أن الله :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

إذاً الكون بأكمله أشفق من حمل الأمانة ، وبقي مطيعاً لله غير مكلف .

(إِنَّمَا أَمْرُهُ)

في الكون كله :

(إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

الكون كله عدا الإنس والجن ليسوا مخيرين ، وليسوا مكلفين ، إذاً لا تجد الفساد إلا في الذين قبلوا حمل الأمانة ، إذاً المخلوقات جميعاً ، وكل ذرة في الكون نفس ، الدليل :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء الآية : 44)

فعدا الإنسان ، وعدا الجن ، هذان الصنفان من المخلوقات قبلا حمل الأمانة ، فلما قبلا حمل الأمانة منحوا حرية الاختيار ، وسخر الكون لهم ، ومنحوا العقل ، والفطرة والشهوة ، والقوة ، بمشيئة الله .

الآن علاقتنا في هذه الآية لا مع المخلوقات ، المخلوقات جميعاً أشفقوا من حمل الأمانة ، واعتذروا عن حملها ، وخافوا منها وأرادوا الطريق السالم ، ليسوا مكلفين ، وليسوا محاسبين ، أما الإنسان فقبل حمل الأمانة ، وهي نفسه التي بين جنبيه ، قال تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

أي أن الذي جعل الله نفسه بين يديه أمانة إما أن يفي بعهده ، وأن يؤدي الأمانة ، وأن يعرف نفسه بربها ، وأن يعرف نفسه بمنهج ربها ، وأن يعرف نفسه بما عند الله عز وجل من ثواب أو عقاب فتزكو نفسه ، وتستأهل دخول الجنة إلى الأبد .

من أين درسنا يبدأ ؟ من أن هذين الصنفين ، ولنَدَع الجن موقتاً ، من أن هذا الإنسان الذي تنطح لحمل الأمانة ، وقال : يا رب أنا لها ، ومنحه الله مقومات التكليف ، منحه الكون ، بل سخر له الكون تسخير تعريف وتكريم ، منحه العقل ، منحه الفطرة ، منحه الشهوة ، منحه الاختيار ، منحه التشريع ، هذه مقومات التكليف .

الآن يمكن أن يعامل على طريقتين ، منحه كل شيء ، أعطاه كل شيء ، والطريقة الأولى أن يدعه لنفسه ، وفي الأعم الأغلب ، هذا الطريق ليس فيه تربية ، ليس فيه معالجة ، في الأعم الأغلب ينتهي معظم الخلائق إلى نار جهنم ، لأنهم آثروا الشهوة على الأمانة .

العاقل يتعامل مع الأمور قبل وقوعها

هناك نقطة دقيقة جداً ، الإنسان فيه شهوات ، حينما يأتي إنسان ليمتعه بهذه الشهوات ، فهي شيء آنيّ بين اليدين ، أما حينما يأتي من يقنعه بالدار الآخرة ، من يقنعه بالجنة والنار ، هذه متى يقطف ثمارها ؟ بعد الموت ، لذلك كانت قوة تأثير الشيطان سببها أنه يستغل الشهوات التي أودعت فيهم ، وهي شيء بين يديهم ، وهم حريصون على هذه الشهوة ، فيأتي الشيطان ، ويلبي هذه الشهوة ، تجد طرق الطاعات روادها قليلون ، لكن طرق الشهوات روادها كثيرون ، لأن الذين يدَعون إلى الشهوات يدَعون إلى مكسب عاجل بين يديك ، أما الذين يدعون إلى جنة عرضها السماوات والأرض فيعِدون الناس أنه بعد الموت هناك سعادة أبدية أو شقاء أبدي .

هذا الكلام ينقلنا إلى فكرة دقيقة ، هي أن الإنسان الغافل الشارد التائه الذي عطل عقله يتعامل مع الواقع ، بينما الإنسان الراشد العاقل ، يتعامل مع النص .

أكاد أضع هذه القصة مرات عديدة بين أيديكم :

أنت تقصد مدينة حمص لقبض مبلغ كبير ، خرجت في أيام الشتاء بمركبتك ، فرأيت على يمين الطريق لوحة وضعتها إدارة المرور تشير إلى أن الطريق إلى حمص مغلقة بسبب تراكم الثلوج في مدينة النبك ، أنت عاقل ، ومليون عاقل رأى هذه اللوحة ، والهدف هو مدينة حمص بالذات ، والطريق مغلقة ، ماذا يفعل ؟ يعود ، هذا الإنسان تعامل مع النص ، فلو أن دابة كانت في هذا الطريق أين تقف ؟ عند الثلج ، ما الذي تحكم بالدابة ؟ الواقع ، مع أي شيء تعاملت الدابة ؟ مع الواقع .

معنى ذلك أنه كلما نما عقلك ، ونمت إرادتك ، ونمى إدراكك تعاملت مع النص ، وكلما ضعف عقلك ، وضعف إدراكك تعاملت مع الواقع ، الناس الآن يعيشون لحظتهم يعيشون متعة آنية ، يطلقون أبصارهم، يأكلون ما ليس لهم ، يغتصبون ، يتحركون حركة عشوائية بدوافع من شهواتهم فقط ، وغفلوا عن ساعة الحساب ، وعن ساعة العقاب ، وعن ساعة مغادرة الدنيا .

لذلك علامة العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه ، أن تصل إليه بإدراكك قبل أن تصل إليه بجسمك .

أروي قصة رمزية كتبها بعض الأدباء ، أن سمكات ثلاثًا : كيّسة ؛ أي ذكية جداً وعاقلة ، وأكيس منها؛ أي أعقل وأذكى ، وعاجزة ، في غدير ، وإلى جانبه نهر ، وبين النهر والغدير وصلة ؛ فتحة ، فمرَّ صيادان بالغدير وأعجبتهما السمكات الثلاث ، وتواعدا أن يرجعا ، ومعهما شباكهما ، ليصيدا ما في من السمك ، فسمع السمكات قولهما ، أما أكيسهن فإنها ارتابت ، وتخوفت ، ولم تعرج على شيء حتى خرجت ، أما السمكة الكيسة فإنها ارتابت ، وتخوفت ، وقالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ثم إنها لم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت ، فارتاحت وأراحت ، وعاشت المستقبل ، وعاشت ما قاله الصيادان ، لأنهما سيرجعان ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك ، هذا سلوك الكيّس ، يعيش المستقبل ، يخطط للمستقبل ، يتوقع ما لم يقع بعد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(سورة النساء الآية : 71)

وأما الأقل عقلاً ، والأقل ذكاء فبقيت في مكانها حتى عادا الصيادان ، فعاشت الواقع ، غدير ، ماءه وفير ، دافئ ، وهي مرتاحة ، ولم تعبأ الكلمة التي قالها الصيادان ، ولم تحملها محمل الجد ، فبقيت تعيش كما هي ، حتى عادا الصيادان ، بسذاجة وغفلة وغباء تظن أنه لها حلاً جاهز ، وهو الخروج من هذا المكان ، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها ، فإذا بالمكان قد سدّ ، قالت : فرطتُ ، وهذه عاقبة التفريط ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، الآن هناك مغامرة ، والنجاة فيها 50% والهلاك 50% ، أما السمكة الأولى فالأولى نجاة 100% لأنها عاشت المستقبل ، عاشت ما ينبغي أن يكون ، وصلت إلى مجيء الصيادين قبل أن يصلا ، وصلت إلى مجيئهما بعقلها ، هذا الكيّس الذكي الموفق يعيش المستقبل .

إن على مستوى الدول المتطورة جداً بالمقياس المادة فقط تعيش لسنة 2025 بالمياه ، بالبترول ، بالمواصلات ، بالتربية ، بالبناء ، بكل شيء ، كل جهدها الآن ينصب على التخطيط إلى عشرين سنة قادمة ، والدول الأقل تطوراً تعيش الواقع ، سياستها ردود فعل ، يأتي حدث مفاجئ فتفكر في حل ، وقد

لا تجد الحل ، كحال المسلمين بها ، لا من باب التشاؤم ، فما هم فيه من محنة هناك من يقول : ليس لها من دون الله كاشفة ، أما الأغبياء فيتغنون بالماضي ، والتغني بالماضي من سلوك الأغبياء .

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمر بن كلثوم

فينبغي أن يعيش المستقبل ، الآن أخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا ، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة ، ومن بلغ الأربعين ، ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار .

وأما العاجزة ، وهي الثالثة ، فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت ، قلق ، وكسل وقعود ، وبعد عن الواقع .

الآن ينطلق الدرس من أن صنفاً هو الإنسان الذي قَبِل حمل الأمانة ، والذي قال : أنا لها يا رب ، ولأنه قبل حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، فهو المخلوق المكرّم، ولأنه قَبِل حمل الأمانة أُعطِي الكون ، وسخر له الكون تسخير تعريف وتكريم ، ولأنه قَبِل حمل الأمانة أعطي العقل ، وهي أعقد أداة في الكون ، ولأنه قَبَل حمل الأمانة أعطي الفطرة التي تنبئه عن خطئه ، ولأنه قبل حمل الأمانة أعطي الشهوة التي تدفعه إلى أهدافه ، ولأنه قبل حمل الأمانة أعطي حرية الاختيار التي تثمن عمله ، ولأنه قبل حمل الأمانة أعطي التشريع الذي هو مقياس إلهي ثالث ، فالحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع .

الآن الإله العظيم صاحب الأسماء الحسنى ، والصفات الفضلى يمكن أن يضع عباده إلى وقت الموت ، الذي يعيش وقته ومصلحته وشهوته يبقى غافلاً إلى أن يفاجأ بالموت ، فيكون الموت صاعقاً له ، هذا طريق .

الطريق الثاني : الحمد لله رب العالمين ، الله رب ، ومن شأن المربي أن يربي ، من شأن المربي أن يعالج ، من شأن المربي أن يؤدب ، من شأن المربي أن يوجه ، من شأن المربي أن يعاقب .

لو دخلنا إلى مسجد وفيه عشرة آلاف مصلٍّ فتأكد أنّ 90% من رواد المسجد انضموا إلى الحق إلى أثر معالجة إلهية لطيفة ، أحياناً يلوح للإنسان شبح مصيبة ، أحياناً يأتيه مرض يتوهم أنه عضال ، أحياناً يضيق عليه بالرزق ، فكل هذه المعالجات عملية لقفت نظر إلى الله ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ)

(سورة القصص الآية 47)

(مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

(سورة طه)

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا)

أي أن المصيبة هي في حقيقتها رسالة ، دقق المصيبة رسالة من الله ، والآن نحن نستخدم هذا الأسلوب ، يكون في تهديدات نعمل مناورة مشتركة مع دولة عظمى ، يكون في تهديد نعمل عرض عسكري مع الأسلحة ، هذه رسالة ، بل إن رسائل الفعل أبلغ من رسائل العقول .

إذاً كان من الممكن وقد أعطينا كل من نستحق من الله من كون ، وعقل ، وفطرة وشهوة ، وحرية ، وتشريع ، وكان من الممكن أن نعالج تباعاً .

التوضيح :

أنت مدير مؤسسة ، وضعت إعلانا في جريدة ، أنت بحاجة إلى موظف يخضع للتدريب والتجريب ستة أشهر ، إن لم تكن مربياً تسجل على هذا الموظف أخطاءه ، فإذا تراكمت بحيث ليس لك مصلحة في قبوله تفصله من عمله ، لو أن هذا الموظف ابنك ، تعالجه كل ساعة ، كل يوم ، هذا السلوك خطأ صوابه كذا ، انتبه .

إذاً الرحمة تقتضي التربية ، والرحمة تقتضي المعالجة ، والرحمة تقضي أن يسوق الله لهؤلاء المقصرين شدائد تعد رسائل لهم لعلهم يرجعون .

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

هل هذا واضح ؟

إذاً من هنا يبدأ الدرس ، الله عز وجل يربيّ الذين قبلوا حمل الأمانة الآن ، لأنه رب العالمين ، ولأنه أرحم الراحمين ، إذاً لا بد من تربية هذا الإنسان ، لو ترك لكان في شقاء وهلاك .

من الممكن لابن يطلب من والده ألا يدرس ، وأن يبقى في البيت ، هل هناك أب يرضى بهذا الطلب ؟ يقنعه ، يضيق عليه ، يعنفه إلى أن يحمله على متابعة العلم لمصلحته .

الآن النبي عليه الصلاة والسلام حينما دعا إلى الله في مكة ، معظم أهل مكة أنكروا هذه الدعوة ورفضوها ، بل تفننوا بالتنكيل في رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه الكرام ، فالله عز وجل كما أنه يقوي معنويات عباده المؤمنين الله جل جلاله ، ويقوي معنويات رسله الكرام ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لشدة ما لقي من الأذى قال :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه عن أنس]

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا

لأن النبي عليه الصلاة والسلام لقي من قومه التكذيب والسخرية والعنت والإخراج من مكة ، فالله عز وجل أراد أن يواسيه ، قال له : يا محمد ، لست وحدك معارضاً ، لست وحدك مكذباً ، لست وحدك مؤتمراً عليه ، لست وحدك منكلاً بك ، هذه معركة الحق والباطل ، وهي معركة أزلية أبدية

(وَكَذَٰلِكَ)

ـ يا محمد ـ

(جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا)

كنت ذكرت في درس سابق أن في الأرض مستويات من البشر متدنية ومستويات متعالية ، أو متفوقة، يجمع المتعالي بكلمة أقوياء ، ويجمع المتفوق بكلمة أنبياء في بالأرض أقوياء وأنبياء ، الأقوياء ملكوا الرقاب ، والأنبياء ملكوا القلوب ، الأقوياء عاش الناس لهم ، والأنبياء عاشوا للناس ، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء أعطوا ، ولم يأخذوا ، الأقوياء يُمدحون في حضرتهم ، الأنبياء يُمدحون في غيبتهم ، لحكمة أرادها الله قال :

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا)

من هو المجرم ؟

(أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا)

المجرمون جمع مجرم ، والمجرم اسم فاعل ، والفعل الثلاثي جرم ، أي قطع ، لحم مجروم مفصول عن العظم ، أجرم ارتكب جرماً ، يعني قتل أو زنا ، أو سرق ، فالمجرم من مادة جرم ـ ج ـ ر ـ م ـ وجرم تعني قطع ، المجرم حينما يقتل يقطع نفسه عن المجتمع ، كانت علاقته بالمجتمع أخذ وعطاء ، فأصبحت أخذاً بلا عطاء ، يقتل ليأخذ الثروة كلها ، هذا مجرم قطع نفسه عن الله بإزهاق نفس بريئة اعتدى عليها ، قطع نفسه عن أهله أصبح في عين أهله مجرماً قطع نفسه عن مجتمعه ، صُنف مع المجرمين ، فالمجرم آثر مصلحته الخاصة على مصلحة المجموع ، آثر أن يبني مجده على أنقاض الآخرين ، آثر أن يبني غناه على إفقارهم ، آثر أن يبني عزه على جهلهم ، آثر أن يبني عزه على ذلهم، آثر أن يبني حياته على موتهم قطع نفسه عن ربه ، وقطع نفسه عن نفسه ، أصبح محتقراً من داخله ، وقطع نفسه عن أسرته وقطع نفسه عن بقية مجتمعه ، وأصبح منبوذاً بعيد عن أن يكون من عامة الناس الذين يأخذون ويعطون .

هذا المجرم البعيد عن الله الذي يريد أن يبني مجده على أنقاض الآخرين يوظف الله جرمه للخير العام، هو أداة مرة بيد الله ، وعصا بيد الله يؤدب بها عباده المقصرين .

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

الهدف البعيد من كل الشدائد والمصائب والمضايقات التي تلمّ بأهل الأرض دعوتهم إلى الله ، إلى الصلح مع الله ، هذا التفسير القرآني للمصائب .

(أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ)

(سورة القلم)

عاقبهم الله عز وجل بأن :

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

(سورة القلم)

صقيع أتلف كل الثمار .

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)

(سورة القلم)

لأنكم ابتعدتم عن الله عز وجل ، وتعلقت نفوسكم بالدنيا ، فبخلتم وحرمتم حق الضعيف ، فعاقبكم الله عز وجل أو رباكم ، أو عالجكم ، أو ضيق عليكم بأن أتلف كل محاصيلكم :

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

المغزى :

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم الآية 33)

كل أنواع العذاب في الدنيا من هذا النوع .

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

(سورة القلم)

كأن الله سبحانه وتعالى يسوق العذاب الأدنى لئلا نصل إلى العذاب الأكبر .

" وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها ، سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه " .

أيها الإخوة ،

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا)

أنواع معالجة الله للمقصِّرين

لآن المعالجة التي يعالج الله بها عباده المقصرين أنواع :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

فالفقر معالجة ، والمرض معالجة ، والخوف معالجة ، والهم معالجة ، والاجتياح معالجة ، والحرب الأهلية معالجة ، والصواريخ ، والألغام ، والقتال ، هذا كله معالجات .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

الصواعق والصواريخ ، والزلازل والألغام .

والثالثة أصعب شيء :

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

هناك فئة من أقوياء جدا لا يرحمون لا ترحم ، تبني مصلحتها على أنقاض الآخرين ، وغناها على فقرهم ، وأمنها على خوفهم ، وعزها على ذلهم ، وحياتها على موتهم ، وهذه من أصعب الأدوية ، أن تتوهم أن مصيرك بيد جهة تبغضك وهي قوية جداً ، ولا تستطيع أن تواجهها ، وتتمنى دمارك وتسعى لذلك ، وهذه محنة المسلمين اليوم .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا)

هذا قانون : حينما يشرد الناس عن الله ، ويبتعدون عن منهج عن الله تضعف نفوسهم ، ويستمرئون الشهوات ، فتأتي القوة الطاغية كي تؤدبهم ، وكأن الطغاة عصي بيد الله .

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ)

وإما أن يرخى لها الزمام ، وإما أن يشد الزمام ، إن أرخي لها وصلت هذه الدابة إلي ونهشتني ، أما إذا شد زمامها أبعدها الله عني ، أنا علاقتي ليست مع الدواب وبل مع من بيده نواصي هذه الدواب ،

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

الآية دقيقة جداً :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ)

في كل مكان أقوياء ، وفي الأعم الأغلب الأقوياء قد لا يكونون رحماء .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا)

وأناس قطعوا نفسهم عن الله بأعمالهم السيئة ، وقطعوا نفسهم عن أنفسهم ، وعن أسرتهم وعن المجتمع، واعتزلوا ، وانعزلوا ، وأصبح همهم تحقيق الشهوات لهم ،

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا)

لكن المجرم حينما يكون قوياً في غفلة من الزمن يتوهم أن هذه القوة قد لا تستمر ، لذلك يبطش ، وضربة الضعيف قوية جداً ، يبطش ، والقوي لا يمكر أبداً ، الضعيف يمكر ، الضعيف الذي أصبح قوياً في غفلة من الزمان يمكر ، وضربته قاسية جداً ، ولكن القوي أصالة لا يمكر ، المكر سلوك الضعفاء ، وقد يكون القوي ضعيفاً في نظر نفسه ، وقد يخشى القوي أن يصبح ضعيفاً ، فضربته لا تحتمل ، وضربته قاسية جداً كما ترون في جوارنا وفيمن حولنا ، حينما يأتي المحتل ، ويشعر أنه طارئ على هذه الأمة فأي اعتراض يقابله بقسوة ما بعدها قسوة ، لأنه في الأصل ليس محقاً في احتلاله ، فشأن الضعفاء الذين صاروا أقوياء في غفلة الزمن أنهم بطاشون بطشاً لا يحتمل .

وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا)

لكن المكر يعود على صاحبه ، المكر ، والخداع والاحتيال صفات خسيسة جداً تعود نتائجها على أصحابها ، لكن الله عز وجل يقول :

(وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

صدقوا أيها الإخوة ، واطمأنوا أن الطغاة في الأرض مصنفون مع الأغبياء ، لأنهم في ثانية واحدة أصبحوا في قبضة الله ، الذي هدم سبعين ألف بيت في غزة بأقل من ثانية أصبح في قبضة الله ، أليس كذلك ؟ لذلك يقول الله عز وجل :

(وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

يجب أن نؤمن أيها الإخوة أنه من آدم إلى يوم القيامة ، وفي جميع القارات لا يراق دم إلا وينبغي أن يتحمله يوم القيامة إنسان ، إلا الدم الذي أريق إقامة لحد من حدود الله ، فيتحمله الله وحده فقط ، أما أن يحقن 400 طفل بفيروس الإيدز ، وتمضي القضية هكذا عند الله ؟ تقصف مدينة ويموت آلاف مؤلفة ،

وتنتهي القضية عند الله ؟ تلقى قنبلة ذرية بهيروشيما فيموت 300 ألف إنسان في ثلاث ثوان ، وتنتهي عند الله ؟ هذا شيء يتناقض مع وجود الله ، يتناقض مع أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، ما من إنسان قُتل من آدم إلى يوم القيامة إلا ويتحمل دمه إنسان يوم القيامة ، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا))

[البخاري عَنْ ابْنِ عُمَرَ]

بربكم أنت كمؤمن أيعقل نملة أن تدوس تمشي أمامك قصداً ؟ مستحيل ، فما قولكم بما فوق النملة ، بشعوب ، بأمم ؟

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر

***

قامت الدنيا ولم تقعد لقتل إنسان في بلدة ، كما تسمعون هو الخبر الأول ، في كل الأخبار الأول لجنة التحقيق .

وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

***

بعد أن أبيد الزنوج في بلاد بعيدة أبيدوا ، ولم يبقَ منهم إلا مليون زنجي واحد هنود حمر ، اختاروا لهم مكاناً نائياً ، لكنه جميل جداً ، ثم ندموا على هذا الاختيار توقعوا أن هذا المكان سيكون منطقة سياحية تدر عليهم أموالاً طائلة ، فأرسلوهم مشياً على الأقدام إلى أقاصي البلاد الصحراوية ، انطلقوا مليون وصلوا خمسين ألفا مشيا ، أيضاً في روسيا المسلمون سيقوا إلى سيبريا ، ومات تسعة أعشارهم في الطريق .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

أيها الإخوة ، مما يخفف الآلام أن الله موجود ، وأن هؤلاء الأقوياء في قبضة الله ، ولهم برنامج زمني، والله عز وجل سينتقم منهم .

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

(سورة إبراهيم)

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال)

أي فعلوا شيئاً ما أراده الله ، أو تفلتوا من عقاب الله ،

(إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

والأدلة بين أيديكم ، ترون كل يوم كيف أن الله قهر عباده بالموت ، يكون ملء السمع والبصر ، فإذا هو خبر على الجدران ، أو خبر في الإذاعات تناقلته وكالات الأنباء ، أين فلان الطاغية الجبار الذي بنى مجده على أنقاض شعب بأكمله ؟ هناك من يدعو له بطول العمر دائماً ، بمعنى آخر طبعاً .

أيها الإخوة ، هذه آية دقيقة جداً :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

إذاً : غباءهم قادهم إلى توهم أنهم إذا مكروا بهؤلاء الضعفاء سيتفلتون من عقاب الله ، لكن غاب عنهم أن الله لهم بالمرصاد ، مكروا بهؤلاء الضعاف فمكر الله بهم ،

(وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(50-73): تفسيرالآية 124 ، معجزة الأنبياء
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-02-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخمسين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الرابعة والعشرين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

الفرق بين معجزات الأنبياء السابقين ومعجزة النبي

أيها الإخوة ، بادئ ذي بدء يجب أن نفرق بين معجزات الأنبياء السابقين ومعجزة سيد المرسلين ، هناك فرق كبير ، فرق لا في الدرجة ، بل في النوع ، بمعنى أن الأنبياء السابقين كانت رسالتهم إلى أقوامهم ليس غير ، لذلك كانت المعجزات حسية ، والسؤال الآن : لماذا المعجزات ؟ لأن الله إذا أرسل نبياً أو رسولاً يجب أن يشهد له أنه رسوله ، وكيف يشهد خالق السماوات والأرض ، ولا تدركه الأبصار للخلق أن هذا الإنسان هو رسوله وهو نبيه ، لا بد من أن يجري على يديه شيئاً لا يستطيعه البشر جميعاً ، لا بد من أن يجري عليه خرقاً لنواميس الكون ، هذا الخرق لنواميس الكون هو المعجزة، فالمعجزة خاصة بالأنبياء والرسل ، وقد أمروا أن يتحدوا الناس بها ، لأنهم معصومون ، لكن بعض التجاوزات التي يبشر الله بها المؤمن أنه مقرب إليه ، يسميها العلماء كرامات ، والكرامات لا ينبغي أن يتحدى بها ، لأن الأولياء ليسوا معصومين ، لذلك الولي الصادق يستحي بكرامته كما تستحي المرأة بشيء لا يليق أن تظهره .

بين خرق النواميس والشيء غير المألوف

أيها الإخوة ، خرق النواميس ، والشيء غير المألوف من غير الأنبياء يسمى كرامات ، والكرامة لا ننكرها ، ولا نذكرها ، إن أنكرناها أنكرنا حقيقة وردت في كتاب الله ، السيدة مريم هل هي نبية ، الأنبياء رجال ، لكنها ولدت ولداً من غير أب ، هذا خرق للنواميس ، لذلك الكرامات لا نرويها إلا إذا كانت مؤصلة بقرآن أو سنة ، أما كل إنسان قال لك : أنا حدث معي كذا وكذا فهذا طريق كله ألغام ، وينتهي بضياع معالم الدين ، لذلك الأولى أن نبتعد عن الكرامات التي ليس لها دليل من نص قطعي

الثبوت والدلالة ، ويجب أن تعتقد أنك لست مكلفاً أن تصدق كل كرامة تروى لك ، الكرامة كأنها أمر صرف شخصي ، لا يصرف إلا لصاحبه فلا ينبغي أن نتحدث عنها ، هذا الدين دين النص الصحيح ، دين العلم ، دين القواعد .

حتى إن العلماء قالوا : لو أن إنساناً رأى النبي عليه الصلاة والسلام ، وأمره بغير أمره في حياته ترد الرؤيا ، ترد الرؤيا ، ويثبت الشرع ، هذا دين ، والدين مصيري ، وإن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم :

((ابن عمر ، دينك ، دينك ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[ورد في الأثر]

خرق العادات والنواميس للأولياء كرامة ، وخرق العادات والنواميس للضُلال ضلالة ، فقد يستعين إنسان بالجن ، ويبدو لك أن بعض النواميس خرقت ، هذه ضلالات ، لكن الذي يعنينا في هذا الدرس المعجزات ، معجزات الأنبياء السابقين كانت لأقوامهم .

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

(سورة الرعد)

إن معجزة نبينا عليه الصلاة والسلام لكل الأمم ، ولكل الشعوب ، وإلى أن تقوم الساعة ، لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولأن كتابه خاتم الكتب ، فالفرق النوعي بين معجزات الأنبياء السابقين ، ومعجزة سيد المرسلين ، هو فرق في النوع ، الأنبياء السابقون بُعثوا لأقوامهم ، ومعجزاتهم حسية .

بعض معجزات الأنبياء

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

أشار إلى البحر فأصبح طريقاً يبساً .

سيدنا إبراهيم :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

سيدنا يونس خرج من بطن الحوت ، سيدنا صالح أخرج الناقة من الجبل ، هذه معجزات حسية ، لكن قال عنها العلماء : كأنها تألق عود الثقاب ، تألقت مرة وانطفأت ، وأصبحت خبراً يصدق أو لا يصدق، لكن بعثة النبي ، ورسالة النبي عليه الصلاة والسلام ، والقرآن الذي جاء به النبي لكل الأمم والشعوب وإلى قيام الساعة ، إذاً لا بد من أن تكون المعجزة مستمرة إلى قيام الساعة ، طبيعتها إذاً معجزة علمية،

وليست حسية ، وهذا لا يعني أننا ننكر أن النبي جاء بمعجزات حسية ، لمن كان حوله ، أما المعجزة الكبرى التي هي مستمرة إلى يوم القيامة هذا القرآن الكريم ، وما فيه من إشارات علمية سبقت العصر بـ 1400عام ، لذلك لما جاءهم بالقرآن وهو كلام خالق الأكوان .

((إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه))

[الجامع الصغير عن أبي سعيد بسند ضعيف]

(قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ)

تمنوا أن يضرب

(عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

تمنوا الخوارق التي وردت في الكتب السماوية السابقة ، في الإنجيل والتوراة .

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً)

(سورة الإسراء)

لأن بلادهم صحراء ، والماء شيء نفيس ،

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا)

(أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

هو بشر ، الأشياء التي خصها الله به يظهرها ، والأشياء التي لم يخصها أنّى لها أن تكون بين يديه ؟

(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا)

فلسفة التفلت واختلال التوازن

أيها الإخوة الكرام ، إذاً هذا الذي لا يعي مضمون الدعوة ، لا يعي عظم المنهج ، لا يعي هذا التشريع، لا يعي هذه الحقائق ، لم يتفكر في خلق السماوات والأرض ، هذا الذي غفل عن جوهر الدين ، وطلب الشكليات ، وطلب خرق العادات ، وتجاوز القوانين ، وطلب معجزات ليست في مقدور النبي عليه الصلاة والسلام ، هذا يسمى التعنت ، هو يريد ألا يؤمن ، لأنه إذا آمن قيده المنهج ، هو يريد أن يبقى متفلتاً من المنهج .

لذلك حينما يعصي الإنسان ربه يختل توازنه ، فإذا اختل توازنه يسعى أن يقلل من قيمة المستقيمين ، أو الصالحين ، أو المؤمنين ، يسعى أن يقلل من قيمة الدين ، يسعى أن يبحث عن ثغرات في الدين كي

يرتاح ، يسعى أن تأتيه أخبار تؤكد صوابه في عمله ، هذا إنسان غير سوي ، اختل توازنه حينما عصا ربه ، لأن تطابق الفطرة مع الشرع تطابق عجيب ، سواء عليك أعصيت أمراً نقل إليك من كتاب أو سنة ، أو خالفت قوانين فطرتك ، فالمؤدّى واحد ، المؤدى كآبة ، المؤدى قلق ، المؤدى اختلال توازن ، فالذي اختل توازنه إما أن يتعلق بعقيدة فاسدة تغطي انحرافه ، كأن يعتقد بمفهومات للشفاعة ساذجة ، أنه اعمل ما تشاء ، فالنبي عليه الصلاة والسلام سوف يسجد يوم القيامة ، ويطيل السجود ، يقول الله له: ارفع يا محمد ، يقول : لا أرفع رأسي حتى تدخل أمتي الجنة ، هذه فكرة مريحة جداً ، افعل ما تشاء، لكن الله حينما يقول :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

أما حينما قال عليه الصلاة والسلام :

((أمّتي أمتي ، فقيل له : لا تدري ماذا أحدثوا بعدك ، فيقول عندئذٍ : سحقاً سحقا))

[الجامع الصغير عن سهل بن سعد]

حينما يقول عليه الصلاة والسلام :

((يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ...))

[مسلم عن أبي هريرة]

هذا الإنسان الذي قال والله :

((لَوْ أنّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عن عائشة]

هذا منهج الله عز وجل ، فالذي يعصي الله يختل توازنه ، وعندئذٍ يتعلق بأوهام ما أنزل الله بها من سلطان ، لذلك في بداية الدرس أقول :

" اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم " .

شيء آخر ، حينما يختل توازن الإنسان بسبب مخالفه لمنهج ربه ، أو لقوانين فطرته ، وهما اسمان لمسمى واحد ، ذلك لأن تطابق الشرع مع الفطرة تطابق تام ، حينما يفعل ذلك يختل توازنه ، عندئذٍ يتعلق بعقائد فاسدة ، ومضحكة ، ولا أصل لها ، ولا تقوم على قوائم ، وهذه العقائد متى يكتشف زيفها؟ بعد فوات الأوان .

تماماً كما لو أن طالباً أقنع زميله أن المدرس في نهاية العام يعطينا الأسئلة بهدية ، لذلك هو يستريح من الدراسة ، فلما طرق باب المدرس ، وطلب منه الأسئلة صفعه على وجهه صفعتين ، وأخرجه مطروداً مخذولاً خائباً ، هذه الفكرة التي صدقها في أول العام سببت له الرسوب .

لذلك هذا العلم لا تقبل شيئاً من دون دليل ، ولا ترفض شيئاً من دون دليل ، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، وإن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .

إخوتنا الكرام ، هناك أشياء كثيرة ليست مصيرية ، بيت تسكنه ، بإمكانك أن تبيعه ، مركبة تركبها بإمكانك أن تستبدلها ، حرفة تمارسها بإمكانك أن تغيرها ، لكن عقيدتك ودينك تتعلق به الآخرة ، يتعلق به الأبد ، يتعلق به السعادة أو الشقاء ، تتعلق به ما بعد الموت ، لذلك الإنسان إذا تعلق بعقائد زائغة ، أو اتهم الصادقين كي ترتاح نفسه ، هذا أسلوب غير علمي .

تماماً كما لو أن طالباً لم يكتب الوظيفة ، يتمنى أن يكون جميع الطلاب لم يكتبوا الوظيفة .

الآن في بعض البلاد بإفريقيا إذا جاءهم زائر يحاولون أن ينقلوا له فيروس الإيدز ، لماذا ؟ بظنهم أنه كلما اتسعت رقعة المصابين بحث الناس عن حل لهذا المرض .

هذه حالة موجودة دائماً ، لذلك الله عز وجل قال :

(وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ)

أحد أقطاب الكفر في مكة قال : بنو عبد مناف نافسونا ، أنفقوا فأنفقنا ذبحوا الإبل فذبحنا الإبل ، فعلوا ففعلنا ، فكيف جاء نبي منهم ؟ إن لم يأتنا وحي كالذي أتى محمداً فلن نؤمن به ، قضية منافسة ، الله عز وجل قال :

(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)

هذه الرسالة تحتاج إلى بطل ، تحتاج إلى قمة البشر ، تحتاج إلى إنسان هو بشر ، وليس كالبشر ، تحتاج إلى إنسان مفعم بمحبة الله ، مفعم بطاعته ، مفعم بتقديره ، مفعم بحرصه على نفع الناس .

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة)

(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)

أحياناً يعمل إنسان ليلاً ونهاراً ويتفوق ، والله عز وجل يتفضل عليه بإكرام من نوع أو بآخر ، الذي كان نائماً ، وكان كسولاً متوانياً ، مرجئاً لكل خططه إذا رأى زميله متألقًا يغار منه ، بل يحسده ، بل يسفهه ، نقول له : أنت أين كنت يوم كان يمضي الليالي على طاولة الدرس ؟ أين كنت ؟ كنت نائمًا ، كنت مع أصدقائك تلعبون النرد ، هو كان يدرس ويتعلم ،

(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)

(لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة الحجرات الآية : 1)

لا تقدم اقتراحات .

أيها الإخوة ، أنا أقول لكم : إن معرفة حقيقية رسول الله جزء لا يتجزأ من الدين ، والدليل :

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

(سورة المؤمنون الآية : 69)

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ الآية : 46)

فحوى دعوة النبي وأبعادها:

التفكر في فحوى دعوة النبي ، وفي شخص النبي ، وفي خُلق النبي ، وفي منهج النبي ، ونحن الآن بأمسّ الحاجة إلى أن نُعرف الطرف الآخر بعظمة هذا النبي ، أناس كثيرون يجهلونه ، لا يعرفونه ، رسموا رسوماً تشوّه حقيقته ، والذي رسم هذه الرسوم سُئل : أتعرفه ؟ قال : لا ، لا أعرفه ، فكيف ترسم هذه الرسوم ، ولا تعرفه ؟ قال : أنا أعرف أتباعه ، لذلك أنا أقول : لو أن الجاليات الإسلامية في العالم طبقت أحكام دينها لكان موقف الغرب منا غير هذا الموقف .

كنت أروي قصة كثيراً أن إمام مسجد نقل من لندن إلى ظاهر لندن ، فاضطر أن يركب مركبة كل يوم مع السائق نفسه ، مرة صعد المركبة أعطى السائق ورقة نقدية كبيرة ، فردّ له السائق التتمة ، وهي تزيد عشرين بنسًا عما يستحق ، وهو إمام مسجد ، قال : لا بد من أن أرد الزيادة ، بعد أن جلس على المقعد قال : إنها شركة عملاقة ، ودخلها فلكي ، والمبلغ يسير جداً لا يقدم ولا يؤخر ، وأنا في أمسّ الحاجة إلى هذا المبلغ ، لكن الذي حصل أنه لما أراد أن ينزل دون أن يشعر مد يده إلى جيبه ، ونقد السائق العشرين بنسًا ، ابتسم السائق ، قال له : ألست إمام هذا المسجد ؟ قال : بلى ، قال : والله حدثت نفسي قبل يومين أن أزورك في المسجد لأتعبد الله عندك ، ولكني أردت أن أمتحنك قبل أن آتي إليك ، فوقع هذا الإمام مغشياً عليه ، فلما صحا من غيبوبته قال : يا رب كدت أبيع الإسلام كله بعشرين بنساً .

لو أن أفراد الجالية الإسلامية في العالم الغربي كانوا وفق منهج ربهم لكان موقف الغرب على عكس ما هو عليه الآن ، لأن أهل الغرب لا يمكن أن يفهموا هذا الدين من تفسير القرطبي ، ولا من فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، ولا من أذكار الإمام النووي ، ولا من كتب الفقه ، ولا من كتب العقيدة ، لا يفهمون هذا الإسلام إلا من هذا المسلم الذي أمامهم فقط ، فإذا كان هذا المسلم مسيئاً ، يدلي

بتصريح كاذب ، كان هذا المسلم زير نساء ، كان هذا المسلم غارقاً في الآثام والمعاصي ، فأنّى لهم أن يحترموا نبينا ؟

لا تبتعد كثيراً ، لو أن شاباً أساء إلى أهله ، مباشرة يسبون الشيخ الذي علمه دون أن تشعر ، شاب في البيت أساء إلى إخوته ، إلى أمه ، إلى أبيه ، مباشرة ينقلون هذه الإساءة إلى من علمه الدين .

إذاً الحقيقة أننا نتحمل جزءاً كبيراً من هذه التحديات والإساءات ، إما لقرآننا العظيم ، حيث دُنس في بلاد بعيدة ، أو لصورة نبينا الكريم حيث شوهت في بلاد الغرب ، نتحمل نحن هذا الإثم ، وشيء آخر لأننا ضعاف ، والضعيف يُتحدى ، ويُستفز ، ويُساء إليه ، لكن لو أننا طبقنا قوله تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال)

لما كان الذي كان .

أيها الإخوة :

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(سورة سبأ)

بين مقياس الدين ومقاييس أهل الدنيا

لكن أهل الأرض لهم مقاييس ، القوة مقياس ، والمال مقياس ، والوسامة مقياس والذكاء مقياس ، والأتباع مقياس ، لكن الإله العظيم يرجح بين خلقه لا بحجمهم المالي ، ولا بوسامتهم ، وبفصاحتهم ، ولا بنسبهم ، بل يرجح مكانتهم بعلمهم وعملهم ، لذلك :

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

إذاً الآية :

(وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

هؤلاء الكبار في نظر الناس بمقاييس الدنيا هم عند الله مجرمون ،

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا)

هؤلاء الكبار بمقاييس الدنيا عند الناس ، إذا عارضوا الحق ، وسفهوا الرسل ، وكانوا في خندق معادٍ لخندق الدين هم عند الله مجرمون ، ولا شأن لهم ، ولا مكانة لهم ،

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ)

عذاب مهين داخلي ، احتقار الذات ، وعذاب شديد ، وعذاب عظيم ، هو عذاب الآخرة .

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

وعذاب الدنيا إذا كان مادياً فهو عذاب شديد ، وإذا كان نفسياً فهو عذاب مهين ،

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(51-73): تفسير الآية 125 ، إن أراد الهدى هيأه له وإن أراد الضلال سمح له به

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-02-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الخامسة والعشرين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

معاني كلمة(يُرِدْ)

أيها الإخوة الكرام ، كلمة

(يُرِدِ)

دقيقة جداً ، هناك من أساء فهمها ، فكل معصية يرتكبها الإنسان تعزى عند الجهلة إلى أن الله أراد له هذه المعصية ، وهذا سوء ظن بالله ، وقد عاب الله على بعض الناس سوء ظنهم به .

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

(سورة الفتح الآية : 6)

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران الآية : 154)

إذاً أحد الأسباب المهلكة سوء الظن بالله ، وحسن الظن بالله ثمن الجنة ، وحسن الظن بالله دليل معرفته، لكن ما معنى كلمة :

(يُرِدِ)

أولاً : أيها الإخوة ، لا يليق ، ولا يقبل في ألوهية الله أن يقع في ملكه ما لا يريد ، لكن الإرادة هنا بمعنى سمح ، عبر العلماء علماء العقيدة عن هذه الحقيقة بأنه أراد ولم يأمر أراد ولم يرضَ ، يعني إذا وقعت جريمة ، أو وقع اختلاس ، أو وقعت جريمة زنا ، لو أن الله سمح لها أن تقع لما وقعت ، لكنه سمح لها لحكمة بالغة مع أنه لم يأمر بالذي وقع ، ولم يرضَ الذي وقع ، لم يأمر ، ولم يرضَ ، ما المعنى الدقيق ؟ الإنسان مخير ، هويته كائن مخير جميع الكائنات مسيرة .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

فالإنسان والجن مخيرون ، وما سوى ذلك مسيرون ، لذلك لا يقع الفساد إلا من كائن مخير ، أودعت في الشهوات ، فتحرك بدافع من شهواته من دون هدى من الله .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

سيارة لها محرك قوي ، وطريق ينبغي أن تبقى عليه ، وفي مقود بيد السائق ، السائق شرب الخمر ، فقَد الوعي ، تفلت منه المقود وقع في الوادي ، هذا الذي حصل تماماً ، السيارة فيها محرك ، المحرك يندفع بها بسرعة عالية ، والطريق واضح المعالم ، لكن الذي يقود هذه المركبة خالف النظام ، وشرب الخمر ، فغاب عن الوعي ، وتفلت منه المقود ، وقع في الوادي .

إذاً ما الشر ؟ الشر كائن متميز ، اصطفاه الله من بين كل الخلائق ،

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

قال : أنا لها يا رب ، لكنه تخاذل في حملها ، واتبع شهوته ، وعمي بصره ، وصمت أذنه فوقع في متاهة وهلاك .

إذاً الله عز وجل أراد بمعنى أن هذا الكائن هويته مخير ، فإذا اختار شيئاً ، وأصر عليه نبهه الله ، لفت نظره ، أسمعه كلاماً ، نصحه إنسان ، قرأ مقالة ، رأى عبرة ، رأى قصة ، أصرّ على هذه الشهوة ، يبدو من الحكمة البالغة أن تخرج هذه الشهوة من نفسه يسمح له أن يقع في هذه الشهوة ، ولكن ليس على حساب أحد ، والكلام دقيق ، الله عز وجل ينسق معنى ينسق ؛ أي :

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

إنّ إنسانًا اختار أن يسرق ، وأصر على هذا الاختيار ، وجاء من يحذره ، بقي مصراً ، وأصبحت هذه الشهوة حجاباً بينه وبين الله لابد من أن تخرج هذه الشهوة يسمح الله أن يسرق ، لكن على من تكون سرقة ماله ؟ حكمة له ، ومعالجة وتنبيهاً وتأديباً ، لذلك الظالم سوط الله ينتقم به ، ثم ينتقم منه ، وأوضح آية :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

إذاً الإنسان مخير ، ولكن لا يستطيع أن يصب اختياره على من يشاء ، مخير لا على حساب أحد ، مخير بتنسيق الله عز وجل .

إذاً معنى أراد أي : لحكمة بالغةٍ بالغةٍ بالغة سمح الله للإنسان الذي منحه حرية الاختبار أن يفعل ما يختار ، أن يفعل ما يختار لا على من يختار ، ولكن على من يختاره الله ، لأن الظالم سوط الله ، ينتقم به ، ثم ينتقم منه ،

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

إذا قلت : أراد الله لهذه السرقة أن تقع ، أي : لأن الذي أراد السرقة إنسان ، وهو مخير ، والاختيار علة تكليفه ، وقد كُلّف ، ومع أنه كُلف أعطي الاختيار ، لكن لا يصبّ اختباره على من يشاء .

قَالَ صلى الله عليه وسلم :

((إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))

[أخرجه الترمذي عن أنس]

يجب أن تعتقد أن ثمة عدالة مطلقة ، وحكمة مطلقة ، فالذي وقع أراده الله ، لهذا قالوا : لكل واقع حكمة ، وقد يكون الموقع مجرماً .

أحداث أيلول وقعت ، وقد سمح الله لها أن تقع ، أي أراد الله أن تقع ، لحكمة بالغةٍ بالغة نعرفها أو قد نعرفها بعد حين ، واجتياح بعض البلاد الإسلامية سمح الله به لحكمة بالغةٍ بالغة ، نعرفها الآن أو بعد حين ، لكن لأن الشيء وقع فقد أراده الله ، وإذا أراد الله شيئاً وقع ، أراد بمعنى سمح ، فإذا كان الذي وقع شراً نقول : سمح ، ولم يأمر به ، سمح ولم يرضَ ، هذا معنى كلمة الإرادة ، الله عز وجل يريد الخير ، لكن يسمح لاختيار الإنسان أن يقع تفريغاً لقلبه من هذه الشهوة ، ليكون قريباً للتوبة من بعدها .

موقف الناس من معنى الهداية

أما الهداية فهذا الموضوع أيها الإخوة خاض فيه الناس كثيراً ، هناك موقفان متطرفان ، تأباهما العقيدة السليمة ، موقف الأول كلما رأيت إنساناً ضالاً تقول لم يأذن الله له بالهدى ، وإذا عاتبت إنساناً ضالاً يقول لك : لم يهدين الله بعد ، لم تأتِ الهداية ، يرتاح من المسؤولية ، بفعل ما يشتهي بأعلى درجة من الاختيار ، وهو يعلم عليم اليقين أنه مخير ، وأنه ما فعل الذي فعله إلا باختياره ، ومع ذلك إذا عاتبته على تقصيره في أداء العبادات ، أو في الطاعات يقول لك : لم يأذن الله لي أن أهتدي ، وهدايتي بيد الله، هذا فهم متطرف ، وفهم جبري ، وما شلّ الأمة الإسلامية في أواخر عصورها إلا بهذه العقيدة الجبرية .

جاؤوا بشارب خمر لسيدنا عمر ، فقيل له : لماذا شربت الخمر ؟ قال : إن الله قدر عليّ ذلك ، أي هو شيء قديم ، والإنسان دائماً يميل إلى أن يعزي خطأه إلى الله .

إنّ الطالب الذي لم يدرس لا ينجح ، لكنه يقول مطمئنًا : إن الله ما أذن لي ، وهذا ترتيب سيدك ، هو أكبر كسول ، لم يدرس ، ولم يداوم ، ولم يقرأ ، في النهاية يقول لك : إن الله لم يأذن لي أن أنجح ، وهكذا .

الصفقة الخاسرة ، والبضاعة الفاسدة يقول صاحبها : لم تُبَعْ ، لمَ لم تقل : لم تحسن شراء البضاعة ، لم تحسن الدراسة في السوق ، لم تدرس التكاليف ، لم تدرس المنافسة ، لم تدرس النوعية ، أهملت البحث في النوعية ، والمنافسة ، والجدوى ، والربح ، والأسعار ، واشتريت متواكلاً على الله ، وبعد هذا تقول: الله ما أذن أن تُجبَر ، هذا ترتيب سيدك ، هذا من الدجل الذي لا يرضي الله عز وجل .

لا يمكن أن يكون القضاء والقدر تفسيراً لكسل الإنسان ، ولتقصيره ، ولعدم أخذ بالأسباب ، إذاً الهدى أول فكرة أساسية ، قال الله تعالى :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

ألزم الله ذاته العلية بهداية الإنسان ، وإن أتت كلمة(على) قبل لفظ الجلالة فمعنى ذلك أن الله ألزم ذاته العلية بها ،

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

هداية العباد على الله عز وجل .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية : 9)

أي : وعلى الله تبيان سبيل القصد ، في هداية إلى الأهداف ، وفي هداية إلى الوسائل ،

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

والأهداف

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

أي وعلى الله بيان سبيل القصد ، الآن :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة الآية : 272)

معنى آخر : معنى ذلك أن أحداً من البشر لا يستطيع أن يهدي واحداً من البشر ، لأن البشر مخيرون ،

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص الآية : 56)

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الأنعام)

أي أن الناس مخيرون ، والنبي وظيفته التبليغ فقط ، لكن هناك آية ثانية :

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة المؤمنون)

إنّ فحوى دعوتك إلى الصراط المستقيم هداية كاملة مطلقة في كمالها لمن اختارها ، فحوى الدعوى هداية صحيحة ، كاملة ، مطلقة ، أما موقف الناس منها فبحسب اختيارهم .

عم النبي عليه الصلاة والسلام عاصره ، أبو بكر رضي الله عنه اختار الهداية على يد النبي e ، أما عمه أبو لهب فلم يختر الهداية ، ما اختار ، والدليل :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

المعنى الأول : أن الهداية كفحوى ، كدلالة ، كبيان ، كتوضيح ، كمعجزات ، كأدلة كآيات كونية ، تكوينية ، قرآنية ، الهداية كمضمون على الله ، الله عز وجل هدى العباد ، أي أبلغ العباد الحقَّ .

أول فكرة : الله تولى إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ونصب الآيات في الكون كل شيء في الكون يدل عليه .

الآن هيأ لك ملكاً يلهمك الخير ، وهيأ لك شيطاناً يحركك ، واحد يدعوك إلى الشر من أجل التحريك ، واحد يدعوك إلى الخير من أجل الخير ، وهناك أشخاص ، ومعالجات و أفعال ، وهموم ، ومصائب ، وأحزان ، كل ما يسلكه الله للإنسان من أجل هدايته ، بدءاً من الكون ، من آياته الكونية ، ومن آياته التكوينية ، أفعاله ، ومن أنبيائه ورسله ، والدعاة الصادقين الذين سمح الله لهم أن ينطقوا بالحق ، ومن أفعاله ، ومن التربية النفسية التي يرسلها الله للإنسان ،

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

الهداية من عند الله .

موقف الناس من الهداية نفسها

الآن موقف الإنسان منها ، إما أن يقبلها ، وإما أن يرفضها ، لأنه مخير ، الآن :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

بعد أن تولى الله هداية الخلق يكون موقف الإنسان من هذه الهداية إما الاستجابة ، أو عدم الاستجابة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 24)

الهداية الأولى هداية البيان والتعريف

أن الله تولى الهداية بنفسه ، تولى نشر الحق ، تولى إنزال الكتب تولى تكليف الأنبياء ، تولى معونة الدعاة إلى الله ، تولى التربية النفسية ، تولى إرسال الأدوية والمصائب ، وكل ألوان الهداية من عند الله، الهداية الأولى هداية البيان والتوضيح ، هذا على الله عز وجل ، الكون ، العقل ، الفطرة ، الكتب السماوية ، الأنبياء ، الرسل ، المصائب التربية النفسية ، الحوادث ، كل شيء تراه عينك من أجل أن تهتدي إلى الله ، هذه على الله تولاها الله عز وجل ، الدليل :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

الهداية الثانية : هداية التوفيق

الآن أنت مخير لك أن تستجيب ، أو ألا تستجيب ، إن استجبت فهناك هداية ثانية .

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ)

(سورة فصلت الآية : 17)

لم يستجيبوا .

(فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت الآية : 17)

فتية أهل الكهف :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الكهف)

الهدى الثاني : هداية التوفيق ، الهدى الأول هداية البيان والتعريف ، والإنسان قبل هذه الهداية ، ويقول: يا رب أعني ، يا رب نوّر قلبي ، يا رب فهمني هذا الكتاب ، يا رب ألهمني العمل الصالح ، بعد أن قبل الإنسان دعوة الله عز وجل من خلال أنبيائه ، أو رسله ، أو كتبه أو الدعاة إلى الله ، قبل الدعوة .

الهداية الثانية هداية التوفيق ، الآن الله عز وجل يختار لك أفضل زوجة تعينك على بلوغ الجنة ، يختار لك أفضل مهنة تعينك على دخول الجنة ، يختار لك مهنة فيها دخل جيد ، لكن فيها وقت معقول تطلب العلم ، هذا كله بتقدير الله عز وجل ، أنت حينما قبلت دعوة الله عز وجل ، الآن الله يوفقك عز وجل كل في شؤونك إلى ما يحقق هدفك ، فأمور المؤمن التفصيلية بدءاً من صحته ، إلى زواجه ، إلى عمله ، إلى مكانته ، هذه كلها معونة من الله عز وجل ، أوضح شيء :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

أي : هدى التوفيق .

تماماً أنت في طريقك إلى مدينة حلب ، والطريق ليس فيه لافتات إطلاقاً ، افتراضاً ، وأنت أمام طريقين متشابهين ، من أين تذهب ؟ يقف رجل أمام هذا المفترق ، تسأله : من أين حلب ؟ يقول لك : من الطريق الأيمن ، تقول له : جزاك الله خيراً ، فما دمتَ قبلت دلالاته يقول لك : انتظر هناك منعطف خطر بعد حين ، وتحويلة بعد 3 كم ، ودورية جمارك ، انتبه بعد حين ، لما قبلتَ دلالاته أعطاك التفاصيل .. إلخ ، لو أنك سألت هذا الإنسان ، وقال لك : الطريق إلى حلب هو الطريق الأيمن ، قلت له: أنت كذاب ، هل وكان الإمكان أن يقدم لك التفاصيل ؟ هذه هي الضلالة :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل : الآية 93)

لأن هذا الإنسان رفض دعوة الله كلياً ، إذاً رفض التوفيق إليها ، رفض التفاصيل ، رفض البيان التفصيلي ، كله وقف ، ما دمت رفضت دعوته أصلاً إذاً لم تجد التفصيل التي تعينك على الهداية ، رفضت طريق الهداية كله أنت .

لذلك هناك هداية بيان ، هذه على الله ، وحتى أطمئنكم ، لو أن في الإنسان مثقال ذرة من خير الله يسمعه عز وجل الحقَّ ، الدليل :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

هذه آية مسكتة ، لو أن في الإنسان واحدًا بالمليار من خير فلا بد من أن يسمعه الله الحق .

إن إنسانًا يعيش في أقصى مدينة في أمريكا ، والمدينة غارقة في الانحلال ، وفي قلب رجلٍ رغبة في

الهداية ، يدخل الجيش ، وينضم إلى القوات الأمريكية الذاهبة إلى الخليج مثلاً ، ويسكن إلى جانب رجل مؤمن ، وطليق باللغة الإنكليزية ، ويتحاوران ، لاهتدى عن طريقه ، ويرجع مسلمًا .

لمجرد أن ينطوي قلبك على طلب للهداية يتولاك الله ،

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

أما لو أن الله أسمعهم :

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

التقيت مرة مع مندوب شركة فحدثته قليلاً عن الله عز وجل ، ما إن بدأت بالحديث ـ هو من هولندا ـ حتى قال لي : هذه الموضوعات لا تعنيني إطلاقاً ، ولا أعبأ بها ، ولا أبالي بها ، لا يعنيني إلا امرأة جميلة ، ومنزل واسع ، وسيارة فارهة ، ما تذوقت في حياتي هذه الآية كما تذوقتها بعد سماعي كلامه :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

إذاً أول هداية : هداية البيان ، المضمون ، الفحوى ، هذه على الله ، أنت مخير ، إن قبلتها زادك هدًى. جاءت هداية ثانية ، اسمها هداية التوفيق ، وإن رفضتها حجبت عنك التفصيلات ، وهذا هو معنى الضلالة .

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل الآية : 93)

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ

عرضنا عليك الحق ، إن قبلته فهناك آلاف النصائح ، وآلاف التوضيحات وآلاف التفسيرات ، وإن رفضته أسكتنا ، لا مجال حينئذ ، لأنه :

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ)

الآن لأن الله عز وجل فطرك ، برمجك ، بالتعبير الحديث(وَلَّفك) جَبَلك على الحق ، فأيّ أمر إلهي يتوافق مع فطرتك ترتاح له .

إن مركبة من (موديل) 2006 ، مصممة أعلى تصميم ، أردت أن تركبَها في الوعر ، حيث الصخور ، والأكمات ، والتراب ، والرمل ، طبعاً ستجد أصواتًا ، وتكسيرًا ، وبطئًا ، فلما نقلتها إلى الطريق المعبد كشفت ميزاتها ، ارتاحت وأراحتك ، فهذه المركبة مصممة للطريق المعبد ، أنت مصمم لتسعد وتطمئن إذا أطعت الله عز وجل ، فإذا عصيته يختل توازنك ، وتصبح عنيفًا ، وغيرَ منطقي ،

تكيل بمئة مكيال ، ردود فعلك قاسية جداً ، أسوأ زوج ، أسوأ عامل ، أسوأ موظف ، أسوأ مدير عام ، عندك خلل في التوازن الداخلي ، لأنه لما عصيت الله عز وجل خَدَشتَ فطرتك ، معك كآبة ، معك سوداوية ، معك سوء ظن ، معك عداوة وبغضاء ، تصرفات حمقاء ، والله الذي نراه في العالم من حمق ، والله يكشفه طفل مسلم ، لكثرة ما في العالم من حمق ، ومن البعد عن الله عز وجل .

إذاً :

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ)

لأن منهج الله عز وجل متوافق مع الفطرة ، والله عز وجل قلبك بيده ، وهذا شيء دقيق جداً ، قال النبي عليه أتم الصلاة والتسليم :

((إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))

[أخرجه الترمذي عن أنس]

لماذا ؟ حينما تختار الخير يملأ الله قلبك طمأنينة ، وسعادة ، وتفاؤلا ، وشجاعة ، وأمناً ، وتدخل في عالم آخر لا تعرفه سابقاً ، فتقول : أنا أسعد الناس .

والله لقد قال لي أحدهم والله بعد أن أدى الحج قال لي : والله ليس في الأرض من هو أسعد مني ، إلا أن يكون أتقى مني .

بشكل آلي ؛ عندما تطيع الله عز وجل تسعد ، وتطمئن ، وتستقر ، وتشعر بالأمن والراحة ، والسكينة ، والطمأنينة ، هذه :

(يَشْرَحْ صَدْرَهُ)

تحصيل حاصل .

وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ)

ذي قال له : ت كذاب لمن يقف على مفترق الطرق ، طبعاً سكت ، ولم يستطيع أن يتكلم ، وكل المعلومات المفيدة أغلقت عنه ، تحذيراً له ـ هنا النقطة الدقيقة ـ لماذا قلوبنا بين أصبعين من أصابع الرحمن ؟ حتى يعيننا على الخير ، وحتى يحذرنا من الشر ، فإذا أردت التوبة تشعر براحة لا توصف ، وإذا أردت عمل لا يرضي الله تشعر بضيق تكاد تتمزق منه ، كأنك إنسان غير طبيعي ، بل يصبح الإنسان شرسا ، وإذا فعل شراً انقطع عن الله ، وعاد فطرته ، التي عذبته بالكآبة ، والضيق ، والوسواس ، وسوء الظن والتشاؤم ، واليائس .

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

معنى :

(يُرِدِ اللَّهُ)

هذا الإنسان أراد ، ولأنه مخير الله سمح له أن يفعل ما يريد ، هذا معنى :

(وَمَنْ يُرِدْ)

الآية دقيقة جداً ، معنى :

(يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ)

أن الإنسان أراد الهدى لما أراد ذلك ، ولأنه مخير ، ولأن الأمر بيد الله سمح الله أن يهتدي ، فلما قبل الهدى أعطاه تفاصيل كثيرة جداً للهداية الثانية ، والإنسان الآخر رفض الهدى فحجب عنه التفاصيل .

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ)

أن الإنسان أراد الضلالة ، لأنه مخير سمح الله له أن يضله .

الآن هناك آية توضح ذلك :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف الآية : 5)

قال العلماء : إذا عُزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، كيف ؟ مثلاً : طالب بالجامعة ، لم يداوم ، لم يؤدِ الامتحان ، جاءه إنذار تلو الإنذار ، عشرة إنذارات ، لم يجب على هذه الإنذارات ، صدر قرار بترقين قيده ، وأرادت الجامعة فصله ، لأنه أصر على ترك الجامعة ، فإرادة الجامعة تجسيد لإرادته ، المعنى دقيق ، معنى :

(يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ)

لأن الإنسان اختار الضلال ، ولأن الفعل بيد الله ، سمح الله له أن يحقق اختياره .

يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

هذه الآية من آيات الإعجاز العلمي ، لأنه ما عرفنا ضيق الصدر مع الصعود في طبقات الجو العليا إلا في العصر الأخير ، قبل 25 عاما أو 30 عاما ، أما 1400 عام فهذه الآية ما معناها ؟ إن الإنسان لما يصعد يشعر بضيق صدر ، وأحياناً يخرج الدم من فمه وأذنيه ، لكن الطائرات التي نركبها تضخ بالهواء ثمانية أمثال حجمها حتى يكون الضغط على ارتفاع 43 ألف قدم مساويا للضغط

في الأرض ، وحينما يفسد جهاز ضغط الهواء يجب أن تهبط هبوطاً اضطرارياً ، ولو فوق البحر وإلا يموت الركاب ،

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

الهداية من الله هداية البيان ، والتوضيح ، والكون ، والعقل ، والفطرة ، والأنبياء ، والرسل ، والكتب، والدعاة ، والمعالجات ، والمصائب ، والمعالجة النفسية والرؤى ، هذه كلها تربية إلهية ، هذه على الله،

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

أنت مخير ، إن اخترت الهدى جاءتك هداية ثانية ، هداية التفاصيل ، والتوفيق ، وإن اختار الإنسان الضلال ، وأصر عليه سمح الله به لأنه مخير ، منعت عنه التفاصيل والوسائل .

الآن هناك هداية ثالثة :

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد)

هدايةُ بيان ، وهدايةُ توفيق ، وهدايةُ جزاء إلى الجنة ، تفضل ،

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُم * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

في الدنيا ، ذاقوا طعمها ، وقد قيل : في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

أيها الإخوة الكرام ، لماذا كانت القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ؟ هذا لصالح الإنسان ، إذا اتخذت قراراً سليماً بالتوبة والاستقامة ، إذا اتخذت قراراً سليماً بالتوبة والاستقامة يمتلئ القلب سعادة ، وطمأنينة ، وثقة ، ورضاً ، وأمناً ، وبشراً ، وإذا اتخذ الإنسان قراراً خاطئاً بارتكاب المعاصي والآثام يمتلئ القلب خوفاً ، وضعفاً ، وتضعضعاً وتشاؤماً وإحباطاً ، فيكافئك الله على القرار الصحيح بسعادة ، ويحذرك الله بعد أن تتخذ القرار الخاطئ بشقاء .

ومعنى :

(يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ)

عرض عليه الحق فرفضه ، حجبت عنه التفاصيل ، ولأنه مخير سمح له أن يفعل ما يريد ، هو مخير،

(كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

إن الإيمان يرفع الإنسان إلى أعلى عليين ، والبعد عن الله عز وجل كأن على الإنسان نجاسات . تصور إنسانا دخل الحمام ، واغتسل ، وتطيب ، وتعطر ، ولبس ثياباً نظيفة ، ومشى في الطريق ، فإذا ببركة مياه آسنة ، مياه مالحة ، مياه سوداء ، وفيها أناس يغوصون ويضحكون ، ويلعبون ، والمياه السوداء عند أنوفهم ، وفوق رؤوسهم ، هم غارقون في ملذاتهم ، هذا الذي اغتسل ، وتطيب ، وتعطر ،

وارتدى أجمل الثياب ، يتمنى أن يكون معهم ؟ .

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود الآية : 28)

الأمور كلها واضحة ، والله واضحة كالشمس الآن .

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

والله أيها الإخوة إن المؤمن ينطوي على سعادة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم ، ينطوي على شعور بالأمن ، شعور بالرضا ، شعوب بالقرب من الله ، ينطوي على شعور أنه في ظل الله ، وأنه في رعاية الله ، وفي حفظ الله ، وفي توفيق الله ، وفي تأييد الله ، وفي نصر الله ، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟

هذه الآية أيها الإخوة من أدق الآيات :

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(52-73): تفسير الآيتان 126 – 127 ، الصراط المستقيم ـ التولي والتخلي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-02-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية السادسة والعشرين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا

على من تعود

(هَذَا)

؟ هذا القرآن ، هذا المنهج ، هذا الصراط المستقيم .

الإنسان أيها الإخوة أودعت فيه الشهوات ، والشهوات تدعوه إلى الحركة ، فإذا كان هناك طريق يمشي عليه سلم ، وإن لم يكن هناك طريق شقي ، ما دام هناك حركة فلحركة تحتاج إلى طريق ، من أين جاءت الحركة ؟ من الشهوات ، يجب أن تأكل حفاظاً على الفرد ، يجب أن تتزوج دون أن تشعر حفاظاً على النوع ، يجب أن تؤكد ذاتك حفاظاً على الِذكر ، فهذه الدوافع الكثيرة في الإنسان تدفعه إلى الحركة ، الحركة تحتاج إلى طريق ، والعقل هو المقود الشهوات ، والدوافع هي المحرك ، والعقل هو المقود ، والله عز وجل رسم لهذا الإنسان الذي قَبل حمل الأمانة ، والذي قال : أنا لها يا رب ، والذي كرمه الله عز وجل بأن سخر له :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

هذا الصراط هو القرآن الكريم منهج الله عز وجل .

أيها الإخوة ،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام الآية : 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف الآية : 1)

الكون كله في كفة ، والقرآن في كفة ثانية ، لذلك الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي .

إذاً :

(وَهَذَا)

القرآن بآيات الكون الدالة على عظمة الله ، الآيات الدالة على الآمر ، بالآيات التشريعية الآيات التي هي المنهج ، بالآيات التاريخية من أجل أن تستنبط الدروس والعبر ، الآيات المستقبلية ما يكون عليها الإنسان بعد الموت ، من أجل أن تبحث ، وتحث الخطى إلى الجنة ، وأن تبتعد عن النار . فالقرآن بآياته الكونية ، والتشريعية ، والإخبارية ، ومشاهد يوم القيامة كلها من أجل أن تكون لك منهجاً قويماً يسير عليه .

حاجة الإنسان إلى منهج

إخواننا الكرام ، لا معنى لوجود الإنسان من دون منتهج يسير عليه ، والمثل الذي يوضح هذه الحقيقة : أن آلة غالية جداً ، نفعها عظيم جداً ، آليتها معقدة جداً ، لو اشتريتها ودفعت ثمنها مبلغاً فلكياً ، ولم ترسل لك الشركة معها تعليمات التشغيل والصيانة ، ما الذي يحصل ؟ إن حركتها واستعملتها من دون تعليمات الصانع أفسدتها ، وخسرت ثمنها ، وإن خفت عليها فلم تستخدمها جمدت ثمنها ، أليست هذه التعليمات على أنها كُتيب صغير أثمن من الآلة ، وأخطر منها ، هذا المعنى أشار إليه القرآن الكريم حينما قال :

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

أيعقل أن يُعلم الإنسان القرآن قبل أن يخلق ؟

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْءَانَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

قال العلماء : هذا الترتيب ليس زمنياً ، بل هو ترتيب رتبي ، بمعنى أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه ، ما الذي ترونه في العالم اليوم ؟ قتل ، تمثيل نهب ، سرقة ، سيطرة ، عدوان ، تفسد أخلاقي ، انحلال ، هذه حركة بدافع الشهوات من دون منهج إلهي ، الذي ترونه وتسمعونه كل يوم ما يجري في العالم من سقوط ، من ظلم من قهر ، من تدمير ، من انحراف ، من انحلال هي حركة من دون منهج ، لذلك ما من مخلوق في الكون يوصف بالفساد إلا المخلوق الذي أودع الله فيه الشهوات ، ومنحه حرية الاختيار ، وأعطاه ميزاناً .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

وأنزل على أنبيائه كتباً ، فتحرك بدافع شهواته ، من دون منهج الله عز وجل ، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف أن الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه .

الإسلام دين الحياة ، الإسلام دين الفطرة ، الإسلام دين الواقع ، الإسلام من أجل أن تحيى حياة مفعمة بالسلامة والسعادة ، من أجل أن تسعد ، الإسلام منهج الخالق إلى جنته .

لذلك هذا القرآن بما فيه من آيات كونية ، وهي 1300 آية تعرف بالله عز وجل وما فيه من آيات تشريعية ، ومن آيات تعاملية ، ومن آيات تعبدية ، ومن ذكر أخبار الأمم والشعوب السابقة ، ومن نقل مشاهد يوم القيامة ، هذا القرآن ، هذا المنهج ، بكلياته وبتفاصيله التي جاءت لها السنة المطهرة :

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة آل عمران الآية : 164)

الحكمة شرح النبي عليه الصلاة والسلام لما في القرآن ، هذا القرآن بكلياته التشريعية والتعريفية ، وتفصيلاته النبوية ، تحت كلمة :

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا)

أيها الإخوة الكرام ، يمكن أن تعيش حياة مديدة ، حياة هانئة ، حياة سعيدة ، حياة فيها حركة هادفة ، حياة فيها سعادة ، فيها أمن ، فيها طمأنينة ، فيها استقرار ، فيها تحقيق أهداف ، فيها رفع ذكر ، يمكن أن تعيش حياة في أعلى مستوى إذا طبقت منهج الله عز وجل ، لذلك الذي يحرص على سلامته وسعادته ، الذي يحرص على مكاسب حياته يستقيم على أمر الله ، إذاً :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سور فصلت الآية : 46)

(وَهَذَا صِرَاطُ)

أيْ طريق ، الصراط هو الطريق ، نحن في الأرض أحياناً يكون هناك في طريق لكنه غير مستقيم ، طريق جبلي ، كله منعطفات حادة ، صراط ، الطريق ممهد ، معنى ممهد أي سوي ، مسوّى ، طريق غير ممهد ، فيه صخور وعقبات ، ووهاد ، وحفر ، واختناقات ، وانجراف ، أما الطريق المسوى الممهد فقد يكون الطريق مسوى ، لكنه غير مستقيم ، وقد يكون الطريق مستقيماً ولكنه ليس مسوى ، طريق الله عز وجل يجمع بين أنه سوي ، وأنه مستقيم ، أحياناً يواجه من يشق الطريق تلة عالية جداً لا يستطيع أن تخترقها ، يدور حولها ، الطريق معبد ، لكنه غير مستقيم ، وأحياناً لا بد من أن يخرق الجبل ، لكن بغير إمكانات ، فالطريق سوي لكن في عقبة كأداء ، هي الجبل ، تحتاج إلى نفق ، والنفق

له تكاليف عالية جداً ، يجب أن نفهم أن الطريق إلى الله يجمع بين أنه مسوى معبد ، وأنه مستقيم .
ويا أيها الإخوة ، في زمن الانعطافات التاريخية كهذا الزمن الأمور واضحة جداً ، الطريق إلى الله سالكة وواضحة ، وطريق الشهوات والمصالح والمنازعات طريق آخر ، لذلك :

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ)

ربك يا محمد ، ودائماً يجب أن نعتقد أن طاعة رسول الله هي عين طاعة الله ، وأن طاعة الله هي عين طاعة رسول الله .

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

(سورة النساء الآية : 80)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ)

(سورة القصص الآية : 50)

أن تستجيب لرسول الله عين استجابتك لله ، وأن تستجيب لله بالتأكيد هي استجابة لرسول الله .

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة التوبة الآية : 62)

بضمير الغائب ، يعني إرضاء رسول الله عين إرضاء الله ، وإرضاء الله عين إرضاء رسول الله .

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ)

لقد نسب الصراط إلى رسول الله ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد عصمه الله من أن يخطئ في أقواله ، وفي أفعاله ، وفي إقراره ، لأن الله سبحانه وتعالى عصم نبيه من أن يقول غير الحق .

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام معصوم ، لأنه معصوم أمرنا الله عز وجل أن نأخذ ما آتانا ، وأن ننتهي عما عنه نهانا . ف

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ)

وكما تعلمون أيها الإخوة أن الخط المستقيم أقصر خط بين نقطتين ، وأنه بين نقطتين لا يمرر إلا خط مستقيم واحد ، ولو رسمت ألف مستقيم بين نقطتين لجأت كلها منطبقة على بعضها بعضاً ، وبين نقطتين ليس هناك إلا خط مستقيم واحد فقط ، أما الخطوط المنحية والمتعرجة فلا تعد ولا تحصى ، لذلك الباطل متعدد ، جاء الباطل جمعاً ، وجاءت الاستقامة على أمر الله مفردة ،

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا)

خط مستقيم واحد ، أما السبل :

(وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

السبل المنحنية جاءت جمعاً .

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 257)

جمع .

(إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة الآية : 257)

مفرد .

قد يقول قائل : لمَ لم يقول الله عز وجل : يخرجهم من الظلمات إلى الأنوار ، أو من الظلمة إلى النور ؟ الحق واحد لا يتعدد ، أما الباطل فلا يعد ولا يحصى ، هناك مليار باطل ، مليار باطل اعتقادي ، مليار باطل سلوكي ، مليار باطل عدواني ، هناك على الأراضي ، و عدوان على الذات ، وعدوان على الممتلكات ، وعدوان على الثروات ، مليار باطل ، لكن الحق واحد .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

بالمناسبة ، يمكن أن تستوعب الحق في عمر معتدل ، وإذا استوعبت الحق كان الحق ميزاناً لك ،

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

فلا أعمارنا جميعاً ، ولا أعمار أهل الأرض تتسع للباطل ، من أجل أن تطلع على المنطلقات العميقة لفرقة باطلة تحتاج إلى سنوات ، تحتاج إلى سنوات كثيرة ، وطريق أن تستوعب الباطل طريق مسدود، وفيه مضيعة وقت ، استوعب الحق واكتفِ به ، الذي استوعبته من الحق هو المقياس .

أنا حينما أمشي على طريق معبد تسلم مركبتي ، أما حينما أهوي بها في أعماق الوديان هناك مليون حالة لتدمير المركبة ، بحسب الصخور ، بحسب العمق ، بحسب فالتدمير منوع ، أما السلامة فواحدة ، السلامة حدية ، أما التدمير فنسبي .

أحيانا حادث سير قد يتلف مقدمة السيارة ، قد يتلف جنبها ، جنبها الأيسر ، سقفها ، عجلاتها ، مصدها، أما السيارة السليمة فلها حالة واحدة ، كما أخرجها المصنع ، فالسلامة حدية ، أما العطب فمنوع تنويعا كثيرا .

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

إذاً من فضل الله علينا أن الصراط الذي هو القرآن ، وصف كما يوصف الطريق المستقيم المسوى ، طريق مستقيم ، والمستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين ، ومسوى يعني أنه معبد ، وسوي إلى الهدف .

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

وهمٌ كبيرٌ في فهم الإسلام

هناك وهم كبير يعيشه المسلمون ، أن التدين يعني أن تصلي ، وأن تصوم ، وأن تحج ، وأن تذكي ، وأن تشهد أنه لا إله إلا الله ، والحقيقة التدين 500 ألف بند ، هذه الخمسة بعضها ، ومنهج الله عز وجل يبدأ من أشد العلاقات التصاقاً بك ، العلاقات الحميمة جداً ، منهج الله عز وجل يبدأ من فراش النوم ، إلى العلاقات الدولية ، هذا هو الإسلام ، منهج ، وأن أعداء الإسلام يريدونه عبادات ليس غير ، أن تصلي ، وأن تصوم ، وان تحج ، وأن تغرق في أحكام الفقه فقط ، أما الشأن العام المنهج العام مستورد من الغرب ، ليس هذا هو التدين ، منهج الله عز وجل يشمل كل مناحي الحياة ، لذلك المنهج الإلهي للتقريب : 500 ألف يند ، والصيام والصلاة والحج والزكاة والنطق بالشهادة خمسة بنود من هذه البنود الـ500 ألف .

فلذلك هذا الإسلام لا نقطف ثماره إلا إذا أخذناه كله ، وأخطر مذهب بالحياة المذهب الانتقائي ، أن تأخذ من الإسلام ما يعجبك ، قضية عمرة ، وركب طائرة ، وطواف سبعة أشواط ، وتسوق من محلات فخمة جداً ، القضية سهلة ، أما قضية ضبط الدخل وفق منهج الله ، ضبط الإنفاق ، ضبط العلاقات فأمر آخر .

أيها الإخوة ، الإسلام منهج متكامل ، إن لم تأخذه كاملاً لا تقطف ثماره أبداً ، لأنه كالعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً ، هذه المشكلة ، يريدون الإسلام صلاة فقط ، وأعمال تؤدى في المساجد ، أما في البيع والشراء ففيه كذب ، وتدليس ، وغش ، وبضاعة محرم أن تبيعها ، بعلاقات اجتماعية منحرفة ، هذا شيء كله مرفوض .

إذاً :

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

أيها الإخوة الكرام ، بقي آية إن شاء الله سأشرحها ، وربما توسعت في شرحها في الدرس القادم :

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأنعام)

منهج الله ضمان لدار السلام ومخالفته وقوع في المخاوف

هذا الذي مشى على طريق الاستقامة ، هذا الذي ضبط حركته وفق منهج الله هذا الذي أدى ما عليه ، هذا الذي ائتمر بما أمر الله ، وانتهى عما عنه الله نهى ماذا له ؟ يتصور الناس أن المسلم محروم ، بسيط ، أفقه محدود ، لم يستمتع بمباهج الحياة ، المسلم ينتظر وعد الله عز وجل لجنة عرضها السماوات والأرض .

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

دار السلام ، والدنيا ليست دار سلام ، قطعاً ، في أفضل الأحوال هناك تقدم بالسن ، ومع تقدم السن ضعف بالذاكرة ، و ضعف بالبصر ، وإصلاح بالأسنان ، وخلل بالعمود الفقري ، والتهاب مفاصل ، وزوجة متعبة ، وأولاد متعبون ، وكساد ، ودخل قليل ، ومصاريف كثيرة ، وضغوط أجنبية ، وحرب أهلية ، واحتلال ، ونهب ثروات ، وقهر ، وجمال ، و دمامة بالحياة ، وذكاء وغباء ، وغنى و فقر ، وصحة و مرض ، هذه الدنيا ليست دار قرار ، إنها دار عمل .

الدنيا دار عمل وتعب

غير معقول أن يصبح مقعد الدراسة سريرا ، الطالب تعب ، يعمل حركة يريد أن ينام ، غير معقول أن يكون أمام الطالب شاشة ، ومذياع ، ومجلات ، وموالح ، وفواكه ، وسندويش مسخن ، هذه ليست مدرسة ! المقعد بالمدرسة مقعد زاوية قائمة خشب ، أما لما يأخذ شهادة عليا يحقق أعلى المراتب ، يشتري بيتا ويخصِّص غرفة جلوس رائعة جداً ، هذه متى وقتها ؟ بعد التخرج .

الآن الناس أرادوا أن يستبقوا الأمر ، وهو في الدنيا يريد المتعة ، يأتي الموت فجأة ينسيه كل متع الدنيا ، الموت يأتي بغتة .

فيا أيها الإخوة ، الإنسان يحب الاستقرار ، أما إذا علم أن الدنيا دار عمل ليست دار أمل ، دار تكليف ليست دار تشريف ، دار سعي وليست دار راحة ، هذا الذي يكون فقيهاً ، هذه الدنيا دار عمل ، لذلك :

((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافر منها شربة ماء))

[رواه الترمذي عن سهل بن سعد]

قد تجد المنحرفين انحرافاً شديداً يتمتعون بثروات طائلة ، من يملك أكبر الثروات ؟ تجار المخدرات ، الذين يبنون هذه الثروات على أنقاض الشباب ، وأنقاض الشابات الدنيا هي أحقر من أن تكون عطاء لإنسان ، أو عقاباً لإنسان .

((رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة]

إذاً الدنيا دار عمل ، فأنت في الدنيا تحتاج إلى ما يقيم صلاحك ، مأوى ، زوجة دخل ، هذا أقصى ما في الدنيا .

((من أصبح منكم آمنا في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا))

[أخرجه البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

هذه الدنيا ، لذلك يتنافسون عليها ، ثم يأتي الموت بغتة ، فالذي جمعوه في عمر مديد يخسرونه في ثانية واحدة .

توفي رجل أقام في بلد نفطي 35 عاماً لم يؤدِ فرض صلاة ، وأقام في بلد الحرمين لم يعتمر ، ولم يحج ، ولم يصل ، وهو في قضاء إجازة في تركيا وافته المنية في الفندق عن 55 سنة ، ترك أربعة آلاف مليون ، جمعها كل يوم بجهد ، بضبط ، خسرها في ثانية واحدة ، هذه الدنيا !

الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

***

أهمية معرفة حقيقة الحياة الدنيا

فيا أيها الإخوة ، من الخطورة بمكان أن تعرف حقيقة الحياة الدنيا ، يجب أن تعرف حقيقة الكون ، وحقيقة الحياة الدنيا ، وحقيقة الإنسان ، هي دار عمل ، لذلك العبرة أن تكون معافىً في جسمك ، لك مأوى تؤوي إليه ، عندك قوت يومك ، لذلك سأل ملِك وزيره / مَن الملك ؟ قال له : أنت ، قال : له لا الملك رجل لا نعرفه ، ولا يعرفنا ، له بيت يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ورزق يكفيه ، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا ، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه ، لذلك حينما تضع يدك على حقيقة الدنيا تكون أسعد الناس بها ، وقد ورد في الأثر إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها ، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها .

" وعزتي وجلالي خلقت لك ما في السماوات وما في الأرض ، ولم أعَي بخلقهن أفيعيني رغيف أسوقه لك كل حين ؟ لي عليك فريضة ، ولك علي رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك ، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي ، وكنت عندي مذموماً ، أنت تريد ، وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد " .

لذلك أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها ، مطلوب أن تتزوج ، وأن يكون لك عمل ، وأن يكون لك دخل ، وأن يكون لك أولاد ، هذا كله مطلوب ، من دون إسراف ولا مخيلة .

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

(سورة الأعراف الآية : 31)

لك هدف كبير ، و حينما تحقق هدفك تسمو عند الله وعند الناس ، إذاً هذا الذي طبق منهج الله ، هذا الذي ائتمر بما أمر الله ، وانتهى عما عنه الله نهى وزجر ، ماذا له عند الله ؟ قال :

معنى السلامة في الدار الآخرة

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ)

لا دمامة فيها أبداً ، ولا تقدم بالسن ، ولا ضعف بصر ، ولا ضعف سمع ، ولا خلل عقلي ، ولا التهاب مفاصل ، ولا شحوم ثلاثية مرتفعة بالدم تمنع من كل الطعام الطيب ، الدنيا هكذا ، ولا زوجة سيئة ، ولا بيتا متداعيا ، ولا فقرًا .

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ :فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[رواه والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة أحمد في مسنده]

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

(سورة ق الآية : 35)

أي شيء تتمناه أمامك ، نحن خلقنا لهذه الجنة ، هذا هو العطاء الإلهي ، لا يليق لعطاء الله أن يكون منقطعاً ، الدنيا منقطعة بالموت ، سبحان من قهر عباده بالموت .

يكون على رأس بلد فيه أكبر مخزون نفطي بالعالم مَلِكٌ فيموت ويدفن بالتراب ، أليست هذه موعظة ؟

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ)

تولاهم في الدنيا ، ضيق عليهم ، شدد عليهم ، ساق لهم بعض الشدائد ، نحن في شدائد لا تعد ولا تحصى ، لكن أرجو الله أن تكون هذه الشدائد كمن كان في العناية المشددة .

بالضبط لو أن مريضا معه ورم خبيث بالأمعاء ، وسأل الطبيب سؤال أديب : ماذا آكل ؟ يقول له : كل ما تشاء ، لأنه لا أمل له ، كل ما تشاء .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية : 44)

لكن مريضا معه التهاب معدة حاد يعطيه الطبيب قائمة محدودة من الطعام ، فإذا تجاوزها أقام عليه الدنيا ، ولا مادة حارة ، ولا مادة مخرشة ، لأن ثمة أملا بالشفاء .

أسأل الله أن نكون نحن المسلمين في عناية الله المشددة ، مع كل هذه الشدة ، مع كل هذه الشدة والضغوط ، وما نعاني ما نعاني أن نكون في عناية مشددة ، لا أن نكون كالذين شردوا عن الله عز وجل فأعطاهم الله الدنيا كما يشتهون .

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ)

لذلك لما يدخل الإنسان الجنة :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

(سورة الزمر الآية : 74)

جئنا إلى الأرض ، وفي الأرض تعرفنا إلى الله ، في الأرض صلينا ، صمنا ، حججنا ، زكينا ، غضضنا بصرنا ، تكلمنا بلسان صادق ، أتينا إلى دروس العلم ، قرأنا القرآن ، طبقنا منهج الله ، تزوجنا ، ولم نزن ، عملنا ولم نسرق ، هذا الذي له مرجع ، له منهج ، له رب ، إنسان سليم وسعيد .

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء)

(سورة الزمر الآية : 74)

لو أن طالب كان بجامعة ، والجامعة بدولة نامية ، بناء قديم ، ومدرسون متعبون جداً ، ومناهج صعبة، ودراسات ، قضى سبع سنوات مات فيها مئة موتة ، ثم نال الدكتوراه ، وصار طبيباً لامعاً ، والله عز وجل أكرمه بدخل واسع ، فكل ما مر أمام الجامعة يقول : لولا هذه الجامعة لما كنت بهذا الحال ، للتقريب ، لولا هذه الجامعة ، الدوام المتعب ، 12 ساعة باليوم ، أساتذة متعبون ، طلبات غير معقولة ، وظائف صعبة ، امتحان قاسٍ ، لولا هذا البناء وهذه الجامعة التي أمضيت فيها سبع سنوات ما كنت بهذا الحال .

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

كنا في الدنيا ، وعرفنا ربنا في الدنيا

(نَتَبَوَّأُ)

- الآن -

(مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

(سورة الزمر)

لذلك إذا رأى الإنسان مكانه في الجنة عندما يأتيه ملك الموت يقول : لم أرَ شراً قط .

" واكربتاه يا أبت ، قال لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه " .

كل بطولة المؤمن أن يكون الموت عنده عرساً ، لا أن يكون أكبر مصيبة .

إخواننا الكرام ، أهل الدنيا قبل الموت إذا كان يشكو أمرا في القلب ينهار انهيارا كليا ، كل دنياه ، وكل ماله انتهى ، أليس كذلك ؟ الذين يملكون المليارات أي شعور أنه في قلبه شيئا ، تسرعا بالنبض ، ينخلع قلبه خوفاً ، لماذا ؟ لأن هذا مؤشر المغادرة ، أما المؤمن فقال تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

فأنت بطولتك أن تجعل من الموت عرساً لا مصيبة .

أوضح مثل ذكرته كثيراً أن واحدا جاءه عرض ، اِئتِ بدكتوراه من البلد الفلاني ، ونجعلك في أعلى منصب ، وأجمل بيت بأرقى حي ، و لك أجمل بيت في أرقى مصيف ، وأجمل بيت في أرقى ساحل ، ودخل فلكي وزوجة جميلة ، وسيارة فارهة ، ويخت ، فقط هات بدكتوراه ، هو فقير ، ذهب إلى هناك اشتغل بالمطاعم لتنظيف الصحون ، واشتغل حارسا ، ودرس 7 سنوات ، مات باليوم مئة موتة ، وأخذ الدكتوراه ، وأخذ الشهادة ، وصدقها ، وقطع تذكرة العودة ، ودخل إلى المطار وقدم الجواز ، وأعطوه بطاقة الصعود إلى الطائرة ، وتوجه إلى الطائرة ، ووضع رجله في سلم الطائرة ، أليست هذه أعظم لحظة في حياته ؟ هذا يوم فاصل ، انقضى عهد التعب والدراسة والحراسة ، وتنظيف الصحون ، وجاء عهد المنصب الرفيع ، والبيت الفخم ، والمركبة الفارهة ، بحسب مقاييس الأرض .

هكذا الموت ، الموت تحفة المؤمن ، الموت عرس المؤمن ، أما بالعكس أهل الدنيا المنحرفون بوادر الموت أكبر مصيبة .

كنت مرة عند طبيب قلب فجاءه هاتف من إنسان يملك مليارات ، قال له : أي مكان بالعالم خذني إليه ، أي مبلغ أدفعه ، قال له : والله لا أمل ، ورم من الدرجة الخامسة ، انتهى .

فأنت كن عاقلا ، وإياك أن تمشي مع الله بطريق مسدود .

ارتكب أحدهم جريمة قتل ، وأخذ إلى السجن ، ثم حوكم بمحكمة الجنايات ، ثم صدر الحكم بإعدامه ، ثم نقض الحكم رُفع الحكم إلى محكمة النقض ، محكمة النقض صدقت النقض إلى محكمة الجنايات ، رُفع الأمر إلى القصر الجمهوري ، فوافق الرئيس على إعدامه ، وسيق إلى المشنقة ، وصل لطريق

مسدود ، إنْ أراد أن يبكي فليبكِ ، سيشنق ، يريد أن يضحك فليضحك ، يحب أن يتوسل فليتوسل ، لا أمل .

يذكر لي بعض الإخوة الكرام مما يشهدون نهاية إنسان أنواعا لكن ، كل هذه المواقف المختلفة تنتهي بالموت .

إن الإنسان مشى إلى طريق مسدود ، فإياك أن تمشي بطريق مسدود ، انتبه ، وكلما بكرت بالتوبة أفضل ، وكل ما عرفت الله وأنت شاب أفضل ، لأن من كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة ، كن واعي ، إياك أن تأخذك الحياة ، الآن الدنيا ترقص بالشهوات ، أينما نظرت ترى المرأة في أبهج صورة ، بكل مكان ، بالطريق بالمجلة بالانترنيت ، بالفضائية ، بكل مكان ، بالكتب ، بالهاتف ، كل شيء فيه ، لكن أين الله عز وجل ؟ لذلك ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب .

((إن الله تعالى يباهي بالشاب العابد الملائكة ، يقول : انظروا إلى عبدي ، ترك شهوته من أجلي))

[رواه ابن السني الديلمي في مسند الفردوس عن طلحة]

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

فيا أيها الإخوة ، نحن في عصر الفتن ، يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسي كافراً ، يمسي مؤمناً ، ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، والدنيا ترقص ، ضغوط ، مناظر دماء ، وقتل ، وتمثيل ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، هكذا الدنيا ، الجانب الأسود لا يحتمل ، والجانب الآخر بأبهى زينة ، وأنت مخير ، فلك أنت تختار .

لكن والله أيها الإخوة :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

جنة في الدنيا وجنة في الآخرة ، وفي الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، هي جنة القرب ، والدليل :

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد)

في الدنيا ، ذاقوا طعمها ، المؤمن يذوق سعادة لا توصف ، والله لا أبالغ ، والله لا أقول ما ليس واقعاً ، المؤمن لأنه استقام على أمر الله ، واصطلح معه ، وأقبل عليه ، وطبق أمره ، وتقرب إليه ، واستقام على أمره ، وخدم خلقه ، والله فيه سعادة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم ، هذا هو المؤمن .

أيها الإخوة الكرام ، هذا الذي مشى على صراط الله المستقيم ، ضبط شهواته ضبط دخله ، ضبط إنفاقه، ضبط علاقاته ، ضبط زواجه ، ضبط بناته ، ضبط أولاده .

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ، لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

كل متاعب الدنيا تنتهي ، الدنيا كلها متاعب ، دخل جيد ، الزوجة سيئة ، الآن الزوجة جيدة ، دخل قليل ، دخل وزوجة ممتازان ، أولاد سيئون ، أولاد جيدون هناك مرض ، ما من إنسان ناجٍ ، كل واحد عنده نقطة ضعف ، لأن الله من محبته لنا ما أرادنا أن نركن إلى الدنيا ، دائماً الإنسان ما ليس في دنياه تمام .

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشدة ، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ويبتلي ليجزي))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

فالبطولة أن تلتزم منهج الله عز وجل ، وأن تنتظر وعد الله عز وجل لك الإكرام .

بين التولي والتخلّي

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ)

تولاهم في الدنيا ضبطهم ، ساق له شبح مصيبة خاف فتاب ، أقول لكم ، ولا أبالغ : لو دخلت إلى مسجد وجدت فيه عشرة آلاف إنسان تأكد أن التسعة آلاف الله عز وجل طبق عليهم معالجة حكيمة فساقهم إليه ، يأتي إنسان به مرض ، أو أحيانا فقر ، أو شدة ، أو يأتي بالإكرام ، الله يعرف كل إنسان أين مفتاحه ، فالله عز وجل :

((كل ميسر لما خلق له))

[رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود عن عمران بن حصين الترمذي عن عمر أحمد عن أبي بكر]

خلق للجنة ، هذا الطريق إلى الجنة قد يكون أساسه خوف ، يخوفه ، هذا الطريق إلى الجنة أساسه مرض ، الإنسان يتألق بعد المرض تألقا غير طبيعي ، المرض كان مفتاح الجنة ، أحيانا الفقر ، فقير تجد ما له غير الله عز وجل ، الله يغنيه بعد هذا ، فأنت لما تؤمن بالله كل شيء أصابك خير ، اقبله ، والله عز وجل قال :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

إذاً :

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

لما تستقيم الله يتولاك ، تقول : الله ، يتولاك ، تقول : أنا ، يتخلى عنك ، الصحابة قالوا في بدر : الله فنصرهم الله .

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية : 123)

هم هم ، وفيهم رسول الله .

في حنين قالوا : نحن كثر :

((لا تغلب اليوم من قلة))

[رواه البيهقي عن أنس رضي الله عنه]

فتخلى الله عنهم :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ)

(سورة التوبة الآية : 25)

تقول : لله يتولاك ، تقول : أنا ابن فلان ، بعلمي ، معي دكتوراه ، باختصاصي ، لي أتباع كثر ، يتخلى عنك .

فهذا الدرس التولي والتخلي ، قل : الله ، ولا تخف

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الجنة : حقيقتها والسبيل إلى دخولها

بقيت فكرة الجنة ، الجنة محض فضل من الله ، والنار محض عدل ، يعني أب قال لابنه انجح ولك هذه الدراجة ، كان ماشي معه بالطريق ، ومر على بائع دراجات ، و رأى أغلى دراجة ، قال له : انجح وسأشتري لك هذه الدراجة ، هذا الابن نجح ، وأخذ الجلاء إلى بائع الدراجات مباشرة قال له أعطني هذه وهذا الجلاء ، يعطيه إياها ؟ أين ثمنها ؟ .

فأنت كل استقامتك بالحياة الدنيا ، وكل جهدك ، وكل اهتمامك أنت دفعت ثمن مفتاح البيت ، البيت ثمنه خمسون مليون ، ثمن مفتاحه عشرة ليرات ، كل عملك هو ثمن المفتاح ، أما هو البيت فضل من الله ، فالجنة فضل ، أنت قدمت سبب دخولها لا ثمنها ، في فرق ، أنت قد يكون معك مفتاح ثمنه عشر ليرات ، والبيت ثمنه خمسون مليونا ، هذا المفتاح سبب دخول البيت ، وثمنه خمسون مليونا لا تملكها ، فالجنة أنت بكل ما فعلت بالدنيا من تفكر ، واستقامة ، وصلاة ، وصيام ، وحج ، وزكاة ، وغض بصر، واستقامة ، دفعت سبب دخول الجنة ، وهي فضل من الله عز وجل ، لذلك ادخلوا جنتي ، واقتسموها بأعمالكم ، درجاتها بحسب عملك ، فإذا قال الله عز وجل :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل الآية : 32)

أنت لك مرتبة في الجنة بحسب عملك ، أما أصل دخولها ففضل من الله ، أنت لم تدفع ثمنها ، دفعت ثمن سببها ، كل أعمالنا في الدنيا هي سبب دخول الجنة ، ولكن الجنة فضل من الله عز وجل ، والعلماء قالوا : الجنة محض فضل ، والنار محض عدل ، يؤكد هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل))

[رواه إسماعيل عن زياد المخزومي عن أبي هريرة]

عملك لا يساوي ثمن الجنة ، بل يساوي ثمن مفتاح الجنة ، واضح تمام ؟ .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(53-73): تفسيرالآيات 127 - 129، شياطين الإنس والجن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-03-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الثامنة والعشرين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

يوم الحشر

أيها الإخوة الكرام ، هناك حدث سيكون يوم القيامة تشير إليه كلمة

(وَيَوْمَ)

يعني في هذا اليوم في يوم الدينونة ، في يوم تسوية الحسابات ، في يوم الجزاء ، في يوم الحساب .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ)

أي يجمعهم ، هؤلاء الناس الذين بغوا ، وطغوا ، وظلموا واستعلوا ، واستكبرا ، وأخذوا ما ليس لهم ، وبنوا مجدهم على أنقاض الآخرين ، وبنوا ثروتهم على إفقار الآخرين ، وبنوا وجودهم على إزهاق أرواح الآخرين ، هؤلاء حسابهم عسير .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

سيدنا عمر بن عبد العزيز كلما دخل إلى مكان عمله يتلو هذه الآية :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء)

هذا الذي أمر بهدم سبعين ألف بيت بغزة ، في ثانية واحدة انتهى ، كان في قبضة الله في ثانية واحدة ، فلذلك :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

هل تريد أن أنبئك من هو المنتصر الحقيقي ، وقد يكون بمقاييس البشر منهزماً ، هو الذي يموت موحداً ، ويموت طائعاً لله عز وجل ، ولو قتل مظلوماً .

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

أفضل ألف مرة أن تكون في العناية المشددة ، شدة ، وضيق ، وحرج ، من أن تُهمل في الدنيا ، ثم تحاسب في الآخرة ، الله عز وجل يعجب من هؤلاء الذين يقترفون الكبائر ويقول الله عنهم :

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

كيف يصبرون ؟ لذلك بعضهم عثر على نص لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول استغنيت به عن 400 ألف حديث ، قال :

((اعمل للجنة بقدر مقامك فيها ، واعمل للدنيا بقدر بقاءك فيها ، واعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واتق النار بقدر صبرك عليها))

[ورد في الأثر]

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا)

ليس هناك تجمعات .

(مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ)

(سورة الأعراف الآية : 48)

في الدنيا تجمعات ، دولة عظمى تعتدي ، ودول العظمى أخرى تخاف منها فتناصرها ، ولا تعبأ بالحق إطلاقاً ، هناك تجمعات في الدنيا ، أما في الآخرة :

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام الآية :94)

(مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ)

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يا معشر الْجِنِّ)

يا معشر الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ

أيها الإخوة ، كلمة معشر أي أناس اجتمعوا في مكان واحد ، في حرفة واحدة من قوم معينين ، تعايشوا ، اجتمعوا وتعايشوا ،

(يا معشر الْجِنِّ)

لذلك جميع المخلوقات مسيرة إلا الإنس والجن ، فهما صنفان مخيَّران ،

(يا معشر الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ)

لأن رئيس الشياطين إبليس اللعين قال :

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

يعني أراد إغواء البشر ، وقال :

(فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الحجر)

فلذلك هذا الشيطان الرجيم إبليس اللعين يريد أعواناً من الإنس ليكونوا أدواته في إضلال البشر ، لذلك قال الله عز وجل في معرض الحديث عن الشياطين :

(شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)

(سورة الأنعام الآية: 112)

ولماذا قدم شياطين الإنس ؟ لأن أذاهم أكبر ، هو منك من بني جنسك ، إنسان يحدثك ، تحدثه ، يقنعك، تقنعه ، شيطان الإنس أخطر من شيطان الجن ، فالشيطان يحتاج إلى معاونين من الإنس ، وكلما كثر المعاونون ازدادت قوة الشيطان وهيمنته .

لكن بالمناسبة أيها الإخوة ، لا بد من التوضيح ؛ لو أن عمل الشيطان سلبي قطعاً لما سمح الله له ، لكن الشيطان دون أن يريد ، ودون أن يشعر يوظف الله شره للخير المطلق.

أوضح مثلٍ : يلقي الشيطان في رُوع الإنسان أن الله من خلقه ؟ فهذا الشاب المؤمن يأتيه هذا الوسواس ينخلع قلبه ، يتألم أشد الألم ، يذهب إلى العلماء ، يلتزم بمجالس العلم ، يطلب العلم إلى أن يصبح مؤمناً قوياً ، من الذي كان سبب قوته ؟ الشيطان ، من دون أن يشعر ، ومن دون أن يريد ، تماماً كهذه الصور التي رسمت ، ماذا فعلت ؟ نبهتنا إلى محبتنا بهذا النبي الكريم أيقظت فينا محبته ، أيقظت فينا الانتماء إليه ، رجعنا إلى السيرة ، والله الذي لا إله إلا هو ولا أبالغ سوف يدخل في دين الله مئات الألوف بل الملايين في المستقبل بسبب هذه الصور .

دائماً وأبداً كل شيء وقع أراده الله ، بمعنى سمح به ، وكل شيء أراده الله وقع وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، ولكل واقع حكمة ، وقد يكون المُوقِع مجرماً، لكن ما دام الذي وقع قد وقع فهناك حكمة لا يعلمها إلا الله .

فالشيطان يريد أن يضل الإنسان ، لكن في أحيان كثيرة يريد أن يضله فيهتدي ، يريد أن يضله فيلجئه إلى مجالس العلم ، يريد أن يضله فيحمله على التوبة ، من دون أن يشعر ومن دون أن يريد ، لذلك :

(يا معشر الْجِنِّ قدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ)

طبعاً هناك من الجن من هو مؤمن ، الحديث اليوم لا عن الجن المؤمنين ، بل عن الجن الكافرين ،

(يا معشر الْجِنِّ قدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ)

بشكل عام الاستكثار مجاوزة الحد ، هناك إنسان يستكثر من المال ، مع أن حاجته إليه لا تزيد على واحد بالمليون من حجم ثروته ، يقاتل من أجل الدرهم والدينار ، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، وغاب عنه أن الكسب شيء ، وأن الرزق شيء آخر ، الكسب ما كتب باسمك من أموال منقولة وغير منقولة ، أما الرزق فهو الذي انتفعت به فقط ، الطعام الذي تأكله ، الثياب التي ترتديها ، البيت الذي تسكنه ، الزوجة التي تعيش معها هذا رزقك ، وهذا الرزق الذي أكلته فني ، والذي لبسته بلي ، ليس لابن آدم إلا ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأبقى ، الذي هو لك وانتفعت به ثلثه الذي يبقى يوم القيامة ، وما سوى ذلك فهو من المستهلكات ، أما الكسب فيعني حجمك المالي ، رصيدك ، أموالك المنقولة وغير المنقولة ، هذه تحاسب عليها حساباً شديداً من أين اكتسبتها ؟ مع أنك لم تنتفع بها لذلك :

((خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرَيْها هَمّا))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((ومن أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

[رواه الديلمي عن أنس رضي الله عنه]

(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

(سورة الملك)

سمعت عن شخص عاش في بلد الحرمين 35 سنة ما صلى فرض صلاة ، ولا حج ولا اعتمر ، وهو في اكتمال الرجولة في الـ55 ، في بلد جميل جداً في أوربا يمضي إجازته احتشى قلبه ، فمات في غرفته في الفندق ، وترك أكثر من أربع مليارات ليرة ، فالإنسان يكون في قبضة الله في ثانية ، قد يكون قويًّا ، قد يكون غنيًّا ، فالذي يقول : أنا ، لا يعرف الله ،

(قدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ)

بالمناسبة أعتقد اعتقاداً جازماً أن أحداً لا يملك أن يضل أحداً ، لكن المُضل يستطيع أن يُضل الضال ، أيْ يرغب في الضلالة ، فيأتي هذا الشيطان فيقنعه بفساد معين فيفعله ، الكلام سيأتي بعد قليل :

وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ

(وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ)

الجن أرادوا أن تكون لهم الغلبة على الإنس ، فاستكثروا من أعوانهم ، وأجروا على يدهم بعض الخوارق من أجل إضلال البشر ، وشعروا أن هؤلاء الذين أعوانهم خاضعون لهم ، تبعاً لهم ، فاستعلوا، أضلوا واستعلوا ، وأما الإنس شهواتهم كلها الدنيئة والخسيسة حققوها بإطار ديني ، وهذا ما يفعله إخوان الشياطين بالموبقات ، والخمور ، والزنا ، يفعلونه باسم إنسان يريد أن يخرج منك الشيطان، ويبتز أموال الناس بالباطل ، وقد ينتهك أعراضهم ، والقصص لا تعد ولا تحصى ، كما أن الجن استكثروا من الجن أكثروا أعوانهم ، وأعوانهم أضلوا البشر ، فشعروا بالقوة والهيمنة والسيطرة ، وحققوا شهوة الأنا ، والإنس استطاعوا أن يحققوا شهواتهم متوهمين أن هذا له إطار ديني .

(وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ)

هناك منافع مشتركة ، الإنسي أعطي شيء من بعض الخوارق ، والجني استعلى ، وحقق هدفه من الإضلال ، والإنسي الضال ازداد ضلالاً .

أيها الإخوة الكرام ، أصل التدين أن تشعر بحاجة إلى قوي يحميك ، هذا أصل التدين ، حتى الديانات الأرضية الوثنية تحقق هذا الهدف ، الإنسان خُلق ضعيفاً ، وخُلق عجولاً .

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

فالإنسان عنده خلل في أصل خلقه ، هذا الضعف لصالحه ، لو أن الله خلقه قوياً لاستغنى بقوته عن فشقي باستغنائه ، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره .

إذاً إنّ الإنسان يحتاج إلى جهة قوية يعتمد عليها ، يلجأ لها ، يتوكل عليها ، يستمد منها ، هذه حاجة فطرية ، وهذه الحاجة هي أصل التدين ، والحاجة إلى الدين كحاجتك إلى الهواء ، لكن بين المسلم وبين غير المسلم أن المسلم وصل إلى الإله الحقيقي ، إلى الخالق الحقيقي ، إلى المسير ، إلى الرب ، إلى القدير ، إلى العليم ، إلى الغني ، إلى الرحيم ، إلى العدل ، بينما غير المسلم توهم الألوهية في شمس ، أو في قمر ، أو في حجر ، أو في مدر أو في بقرة ، أو في أشياء لا تعد ولا تحصى ، قدسها ، وأسبغ عليها القدسية ، والتجأ إليها واحتمى بها متوهماً .

فلذلك أيها الإخوة ، حتى الإنسي حينما يستعين بالجن يشعر بأنه مع قوي ، لأن الجني عنده إمكانات لا يملكها الإنسان ، حينما قال الله عز وجل :

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا)

(سورة الرحمن الآية : 33)

لماذا بدأ الله بالجن ؟ لأنه أقدر على قطع المسافات الشاسعة من الإنس ، إذاً الجن عندهم قدرات واسعة جداً ، الإنس استعانوا بهم فاستعانوا بهم ، فشعروا أنهم مع الأقوياء ، وحققوا شهواتهم في إطار ديني ،

أكثر الذين يتعاملون مع الشياطين لا يصلون إطلاقاً ، وأكثرهم يختلي بالنساء ، ومعظمهم يزني بهن ، ويبتز أموالهن ، والقصص التي بحوزتي لا تعد ولا تحصى ، يحققون شهواتهم بأقذر طريقة ، هم استمتعوا ، الإنس استمتع ، والجن استعلى الجن حقق هدفه واستعلى ، والإنس استمتع ،

(اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ)

أيها الإخوة ، لا تعجب من هؤلاء الذين يعتنقون ديانات وثنية ، هم يحققون حاجة فطرية بشرية . والله كنت مرة في لوس أنجلوس ، وقد أخذني صديق إلى معبد لديانة بشرق آسيا ، البناء يزيد على عشرة ملايين دولار ، الأصنام هناك من البرونز الخالص ، وصدر الصنم من أغلى أنواع الماس ، البرلنت ، ورأيت أناساً يسجدون أمام الأصنام منبطحين على بطونهم ، ويحملون أعلى الشهادات ، الإنسان ضعيف .

لكن أيها الإخوة ، حينما يقع الإنسان في ضيق شديد ينسى الشياطين ، ويذكر الله عز وجل .

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة يونس)

هؤلاء الذين يعبدون من دون الله آلهة عند الشدة الشديدة ينسون هذه الآلهة ، ويلجؤون إلى الله ، وصدقوا أن طائرة كانت تقلّ خبراء من بلد ملحد ، قديماً ، تهاوت من الداخل ، دخلت الطائرة في سحابة مكهربة ، وكانت على وشك السقوط ، فما كان من هؤلاء الخبراء الملحدين إلا قالوا : يا الله .

(قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ *انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِم)

(سورة الأنعام الآيات : 23 - 24)

الإنسان في الدنيا يكذب على نفسه ، يتوهم شيئاً غير صحيح ، لذلك :

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

شيء آخر ، ثمة ذنب لا يغفر ، هو الشرك ، وذنب لا يترك ، هو ما كان بينك وبين العباد ، وذنب يغفر ، وهو ما كان بينك وبين الله ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

(سورة النساء)

يعني أن هناك علاقة سبب بنتيجة ، أنك إذا أشركت لا سمح الله ولا قدر هذا الشرك يحملك على إثم كبير ، الآية :

(وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ)

فيعيش الإنسان عمرًا يحقق فيه هدفه .

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سور فاطر الآية : 37)

وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا

(وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا)

وما مِن إنسان بريء والشيطان أضله ، هذه حقيقة ، ما مِن إنسان بريء كلياً والشيطان نقله إلى الكفر، هو كافر كفراً مبطناً ، فجاء الشيطان ، وحرك كفره .

إن طالبًا بمدرسة في صف فيه خمسون طالبًا ، لا يستطيع هذا الطالب الفاسد إلا إفساد طالب يريد الفساد ، لكن الذي لا يريد الفساد ممتنع عنه .

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر الآية : 42)

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

(سورة آل عمران الآية : 155)

حينما يعصي الإنسان الله يضعف مركزه عند الله ، فيستزله الشيطان ،

(قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا)

أما

معنى : خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

هذه قضية خلافية تحتاج إلى شرح .

يقول الله عز وجل في آية أخرى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

لذلك قال العلماء : وعيد الله يقع أو لا يقع ، أيْ أنّ الله عز وجل يضع إنسان في النار ملايين السنين ، ثم لحكمة بالغةٍ بالغة يخرجه منها ، ورد في بعض الأحاديث أن الإنسان يخرج من النار إذا كان في قلبه مثقال ذرة من خير ، ولا يخلد في النار إلا من شرد عن الله شروداً البعير .

أما القسم الثاني :

(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود الآية : 108)

آيات كثيرة :

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر)

فماذا تعني هذه الآية ؟ مع أهل النار القضية سهلة ، وعيد الله يحقق ، أو يعفو ، ولحكمة بالغة ، لكن الجنة هذا وعد غير الوعيد ، الوعد محقق قطعاً ، فكيف لا يحقق ؟ هذا الكلام فيه إشارة إلى طلاقة الإرادة الإلهية ، كيف ؟

وجدت بيتًا أعجبك ، وثمنه خمسة ملايين ، والثمن غالٍ ، وصاحب البيت قبض الثمن بالتمام والكمال عداً ونقداً ، ووقّع لك العقد ، هلب له فضل عليك ؟ أبداً ، أخذ حقه كاملاً ، وما باع البيت إلا بعد أن أيقن أن ثمنه خير منه ، هذا عندنا قانون في البيع والشراء ، ما مِن إنسان يبيع حاجة إلا وعنده شعور أن ثمنها أغلى منها ، وما مِن إنسان يشتري حاجة إلا بإحساس أنها أثمن من ثمنها ، وإلا لولا هذه الحقيقة لما كان بيع ولا شراء .

لو أنّ إنسانًا وهبك خمسين مليونًا ، وقال لك : لكن لا بد من أن تشتري مفتاحه ، ومفتاحه ثمنه عشر ليرات ، فإذا دفعت ثمن مفتاح البيت هل تشعر أن صاحب البيت الذي وهبك البيت تفضل عليك ، أنت حينما اشتريت البيت بقيمته بالتمام والكمال عداً ونقداً لا تشعر ثانية أن الذي باعك البيت له فضل عليك، قبض ثمنه بالتمام والكمال ، أما حينما يهبك الله الجنة بأعمال محدودة أعمالك الله عليها في الدنيا ، والجنة إلى أبد الآبدين ، أنت لم تدفع ثمن الجنة ، لكن دفعت ثمن سببها ، السبب هو المفتاح ، البيت بخمسين مليونًا ، ودفعت عشر ليرات ، صنعت مفتاحًا له ، ودخلته ، وأصبح ملكك ، لذلك كلمة :

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

لا يتوهم أهل الجنة أنهم دخلوها بثمنها ، بأعمالهم ، لا ، دخلوها بفضل الله ، ولكن ربما اقتسموها بأعمالهم ، ادخلوا الجنة برحمتي ، واقتسموها بأعمالكم ، من هنا النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى هذا المعنى أننا ندخل الجنة برحمة الله ، لا بأعمالنا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ))

[متفق عليه]

فالجنة محض فضل ، والنار محض عدل ، وحينما يقول الله عز وجل :

(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

أي أنكم لم تتملكوها بثمنها ، بل تملكتموها بفضل الله لكم ، أنتم دفعتم ثمن سببها ، ثمن مفتاحها فقط ، هذا معنى :

(إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

وتأكيداً للحقيقة الصارخة من أن الشيطان لا يُضل الإنسان .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

الشيطان كفر حينما يدعي من أضلهم أنه أضلهم .

أوضحُ مثلٍ ذكرته عشرات المرات بإنسان يرتدي ثيابًا جميلة جداً ، غالية جداً ، فاقعة ، فاتحة في الصيف ، ونزل في حفرة فيها مياه سوداء آسنة ، مياه المجاري ، وانطلق إلى المخفر ليشتكي على إنسان ، سأله المحقق : هل هو دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال له : لا والله ، حرام ، قال له : هل أجبرك على أن تنزل بها ؟ قال : لا ، قال له : هل شهر عليك مسدسًا ، وأمرك أن تنزل بها ؟ قال : لا ، فقال له : لماذا تشتكي عليه إذاً ؟ قال : هو قال لي : انزل ، فنزلت !!!

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

دقق :

(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يكون للشيطان علينا سلطان ، لكن الشيطان لا يغوي إلا الضال ، لا يغوي إلا المنحرف ،

(إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

لا أحد يضل أحدًا ، الشيطان يضل الضال ، أو يضل من يرغب في الضلالة ، بالضبط ، يُضل من أراد أن يُضَل .

(كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الحشر)

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يا معشر الْجِنِّ قدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

في النهاية :

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هذا كلام دقيق ، أنت مخيّر ، لو أن إنسانًا مخيَّرًا أراد أن يسرق ، يسمح الله له أن يسرق ، لكن لا على من يختاره هو ، على من يختار الله له ، الله ينسق .

(الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً)

(سورة النور الآية : 3)

المسلم بين إغواء شيطان الإنس وشيطان الجن

والسارق لا يسرق إلا ممن يستحق أن يسرق منه ماله ، هذه حقيقة .

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هناك ظالم ، هناك فاجر ، هناك طاغية ، هناك مجرم يصب جرمه على إنسان ، كي أكون دقيقًا معكم: تسليط هذا المجرم على هذا الإنسان يكون لحكمة بالغة ، قد يكون ابتلاء ، قد يكون رفع درجات ، وقد يكون استحقاق عذاب ، قد يكون عقابًا ، لكن لحكمة بالغة الله يسمح للظالم أن يظلم لمن يُعد ظلمه الظالم له حكمة بالغة .

إذاً في الحياة المادية ليس هنا ك ظلم ، الظلم في النفوس فقط ، وخطة الله تستوعب خطة الكفار ، والكافر يتوهم أنه مطلق ، وقوي ، يقتل ، ويبطش ، ويهدم ، ويستعلي ، لكن خطة الله استوعبت خطته، فهو لا يفعل إلا ما يريد الله عز وجل ، ولا يمكن للكافر أن يسبق الله بمعنى أن يفعل شيئاً ما أراده الله ، أو أن يتفلت من عقاب الله .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية: 84)

ونحن في أمسّ الحاجة إلى التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، والآن نحن بحاجة إلى التوحيد كي نرتاح الأمر بيد الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية : 2)

للتوضيح مرة ثانية : لو أن ظالماً أصاب بظلمه إنسانًا فلا ينبغي أن نقول : هو يستحق ، لا ، قل : تسليط هذا الظالم على هذا الإنسان لحكمة بالغة ، الحكمة أوسع من يستحق لحكمة بالغة ، قد يكون استحقاقاً ، وقد يكون رفع درجات ، وقد يكون ابتلاء ، لكن فيه حكمة ، وقد قال الله عز وجل :

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة الآية : 255)

عنده في ملكه ، معنى الآية دقيق جداً ، لا يمكن لشيء في الكون أن يمس شيئاً في الكون إلا بإذن الله ، وأوسع آية :

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ)

في ملكه

(إِلَّا بِإِذْنِهِ)

فالنار لا تحرق إلا إذا أذن الله ، والأفعى لا تلدغ ، والقنبلة لا تنفجر ، والصاروخ لا يصيب إلا أن يأذن الله .

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

(سورة البقرة)

أيها الإخوة الكرام ، الجن موجودون ، وشياطين الإنس والجن يرتعون ويمرحون .

أضربُ مثلاً أوضح فعل الشيطان ، أنه يكرّه الزوج بزوجته ، ويحبب الزوج بامرأة أخرى لا تحل له، زوجة صديقه ، هذا هو الفساد ، يقول لك أين الشيطان ؟ الشيطان يجري في عروق بالناس .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً)

(سورة مريم)

إنّ الخيانات الزوجة ، الشقاء الأسري ، كراهية الزوجة ، الملل من الزوجة ، هذا من آثار فعل الشيطان ، الشيطان له أكبر دور أن يزهدك بزوجتك ، وأن يحببك بأية امرأة قد تكون من حيث المستوى الجمالي 1% من زوجتك ، والشيطان يحبّب لك تلك المرأة ، ويزهدك بالتي تحل لك ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

أقول لكم كلامًا دقيقًا : علامة أنك على منهج الله ينبغي أن تحب زوجتك ، هي حلالك ، والله يرضى عنكما إذا كان في ود ومحبة ، أما إذا كان بينكما كراهية وملل وسقم وتجهم ، وكلام قاس ، وكل نعومة الزوج ، ولطفه ، ومرحه ، وحديثه العذب مع امرأة لا تحل له فهذا من فعل الشيطان ، طبعاً هذا واحد من أفعاله .

(يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ)

(سورة البقرة الآية : 102)

الشيطان موجود ، والإنسان أحياناً لا يشعر فيكون كلامه شيطانيًا ، ففي جلسة يتكلم الإنسان بالحق ، بالقرآن بالسنة ، أحد الجالسين لا يحلو له إلا أن يطعن في المتكلم ، لأنه شعر بتأثير ، هو عن غير وعي ، وبعقله الباطن يأتي بشبهة ما أنزل الله بها من سلطان ، الشيطان ينطق ، الشيطان يتحرك ، فلذلك الشيطان موجود ، وله أثر كبير .

تروى طرفة ، لكن لها مغزى كبير ، أن الشيطان التقى بطاغية ، فقال له الطاغية : ماذا أفعل ؟ أعطاه الشيطان حلاً للقضاء على خصومه ، قال له : هذا فعلته ، أعطاه حلاً ثانيًا ، فقال له : فعلته ، حلًا ثالثًا ، قال له : فعلته ، رابعًا ، خامسًا ، سادسًا ، سابعًا ، ثامنًا تاسعًا ، عاشرًا ، قال له : كلها فعلتها ، قال له : انتهى ما عندي ، بعدما سكت هذا الشيطان قال له : أنت ماذا تريد أن تفعل ؟ قال له كذا وكذا ، قال له أعوذ بالله خَفِ الله يا رجل .

لذلك قدم الله شياطين الإنس على شياطين الجن .

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

الإله يصف مكر الكافرين بأن الجبال تزول منه ، طبعاً من سابع المستحيلات أن نحرك جبل قاسيون إلى مدينة درعا ، ولكن الله عز وجل وصف كيد الكفار فقال :

(وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

(سورة إبراهيم)

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية : 120)

الكرة في ملعبنا .

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية : 19)

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(54-73): تفسير الآيات 127 - 129، سماع الحق بشارة من الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-03-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

عرض الأمانة على المخلوقات جميعا

أيها الإخوة ، المخلوقات جميعاً ؛ الكون بجماداته ، بكواكبه ، بمجراته بالأرض ، بالسماء ، بالنبات ، بالحيوان ، نفوس ، وقد عرضت عليها الأمانة في عالم الذر .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

بني الإنس وبني الجن هما النوعان من المخلوقات اللذان قبلا حمل الأمانة ، أي أن تكون نفس الإنس الإنسان أمانة بين يديه ، فإذا عرفها بربها وحملها ، على طاعته سلم وسعد في الدنيا والآخرة ، وحقق الهدف من وجوده ، والغاية من وجوده ، أما بقية المخلوقات :

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

فالمخلوقات ليست مكلفة ، وليست معرضة لعذاب أو لنعيم كنعيم الإنسان ، اختارت السلامة ، لذلك ركب الحيوان من شهوة بلا عقل ، ركب الملك من عقل بلا شهوة ، كيلاهما غير مكلف ، لكن الإنسان ركب من عقل وشهوة ، فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته كما ترون على عقله أصبح دون الحيوان ، والله إنّ الإنسان الكافر أحقر عند الله من أحقر حيوان تعرفونه .

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية : 21)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية : 5)

(كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف الآية:176)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون الآية: 4)

الخطاب التكليفي موجَّه إلى من قبل الأمانة

إذاً الخطاب التكليفي لمن قبل حمل الأمانة ، المخلوقات كلها مسيرة من قبل الله مباشرة ، لذلك لا فساد في الكون إلا أن يأتي من الكائنات التي قبلت حمل الأمانة ، ما معنى قبلت حمل الأمانة ؟ يعني أودعت فيها الشهوات ، أعطيت أداة التمييز ، وهي العقل ، أعطيت الفطرة ، أعطيت المنهج ، أعطيت الشهوة ، أعطيت الاختيار ، أعطيت التشريع ، فالإنس والجن الذين قبلوا حمل الأمانة ، وهم معنيون بهذا الدرس.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

كأن الله يريد أن يقول : ليس هناك عقاب إلا بعد التبليغ ، ليس هناك عقاب ، ولا مُساءلة ، ولا محاسبة إلا بعد التبليغ .

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)

من جنسكم ، النبي بشر ، وكل الشهوات التي أودعها الله في البشر أودعها فيه ، ولولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، لأنه انتصر على بشريته كان قدوة البشر .

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)

لو أن الرسول من الملائكة لا يصدقه أحد ، أنت ملك ونحن بشر ، يأتي الرسول من بني البشر ، يشتهي كما نشتهي ، يتألم كما يألم ، يخاف كما نخاف .

وفي الحديث عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[رواه في مسنده والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه عن أنس]

لأنه بشر ، وجرت عليه كل خصائص البشر كان سيد البشر .

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)

اختلف العلماء هل للجن رسل أو ليس لهم ، الأرجح أن رسل الإنس هم رسل الجن ، فالله عز وجل يقول :

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)

(سورة الأحقاف)

العلماء على خلاف فيما بينهم في هذه المسألة ، والراجح أن الرسل اختص بهم الإنس لا الجن ، أما يبلغون دعوتهم عن طريق نفر من الجن يستمعون كلام الرسل ، كما ورد في الآية الكريمة .

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)

قال تعالى :

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

لكن لا بد من تطمين الإخوة الكرام إلى أن الهداية تولاها الله عز وجل ، فقال :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية : 9)

أي على الله بيان سبيل القصد ، القصد هو الجنة ، وسبيلها على الله أن يبينها للناس ، فالهداية على الله، لذلك ودققوا في هذه الآية ، وهذه الآية تحل مشكلات كثيرة :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

بشارة عظيمة : من أسْمعه الله الحق كان فيه خير

إن أيّ إنسان سمع الحق علم الله فيه خيرًا ، وهذه بشارة ، لكن هناك من يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً . مرةً ضربت هذا المثل : ثمة إنسان على طاولته ورقة صغيرة بيضاء مستطيلة ، ظنها ورقة عادية ، فاضطر أن يجمع رقمين طويلين فاستخدمها كمسودة ، جمع الرقمين ، وأخذ الجواب ، ثم مزقها إرباً إرباً ، وألقاها في المهملات ، ثم تبين له أن هذه ليست ورقة إنما هي صكٌّ بمئة مليون دولار ، هو انتفع بها ، لكن نسبة الانتفاع بها ضئيلة ، لأنه استخدمها ورقة مسودة ، أما قيمتها فمبلغ فلكي .

إن هذا مثلُ الذي يتاجر بالدين ، هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ، هذا الذي يظهر تدينه لمآرب مادية ، لذلك قال الإمام الشافعي : " لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين ".

كنت أقول دائماً : ما من عمل يتذبذب بين أن يكون عملاً عظيماً يرقى إلى صنعة الأنبياء ، وبين أن يكون عملاً رخيصاً تافهاً لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة كالدعوة إلى الله ، يكون عملاً عظيماً يرقى إلى صنعة الأنبياء إذا بذلت من أجله الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، ويكون عملاً تافهاً لا يستأهل إلا ابتسامة احتقار حينما ترتزق به .

أيها الإخوة ،

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)

فالله عز وجل تولى الهداية ، وصدقوا أن لو عند الإنسان واحدٌ من مليار من خير فلا بد من أن يسمعه الله الخير .

حدثني أخ كان بأمريكا ، ودخل إلى مسجد بغرب أمريكا ، قال لي : رأيتُ شخصًا من هيأته من أعرق الأسر الأمريكية ، كان لواء في الجيش ، ينظف المسجد ، سأله صديق ضابط كبير في الجيش الأمريكي ، لكنه كان على حاملة طائرات ، ورست في بعض الموانئ العربية الإسلامية ، والتقى بإنسان مثقف ثقافة عالية فأقنعه بالإسلام ، وأسلم ، والآن هو في خدمة هذا المسجد ،

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

اطمئِن ، و دمت قد سمعت الحق فهذه بشارة أن الله علم فيك خيراً ، إلا إذا تاجر الإنسان بالدين ، جاء لمهمة أخرى غير التعلم ، هذه متاجرة بالدين .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَايَاتِي

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ)

التقصي هو التتبع .

(يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ عَايَاتِي)

آيات الله الكونية والتكوينية والقرآنية

الآيات أيها الإخوة العلامات الدالة على الله .

بشكل مبسط جداً : أحياناً ترى لوحة على جانب الطريق تدل على منعطف خطر ، هذه علامة أن هناك منعطفًا خطرًا ، علامة أخرى تدل على تقاطع خطر ، علامة ثانية على اتجاه موحد ، علامة ثلاثة أن

ثمة طريقًا فرعيًّا ، هذه كلها إشارات .

الآية العلامة الدالة على شيء ، الله عز وجل آياته منوعة ، عنده آيات كونية خلقه ، وعنده آيات تكوينية ، أفعاله ، وعنده آيات قرآنية ، أوامره ، آيات تكليفية ، آيات كونية ، آيات تكوينية ، فالرسل :

(يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي)

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ)

(سورة البقرة الآية : 129)

(وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة آل عمران الآية : 164)

فالكتاب القرآن ، والحكمة هي السنة ، والآيات الأولى الكونية :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

الترتيب مختلف من آية وثانية ، اقتراح سيدنا إبراهيم :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 129)

الترتيب الإلهي :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة آل عمران الآية : 164)

التزكية تأتي بعد التفكر في خلق السماوات والأرض ، ويأتي بعدها المنهج .

إذاً :

(يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي)

بعد هذا صلى الله عليه وسلم :

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

[رواه ابن حبان والطبراني ورجال عن تميم الداري]

سافرت إلى بلد في أقصى الشرق ، وفي جنوبي أقصى الشرق ، وفي أقصى مدينة في الشرق ، وفي أقرب مدينة إلى القطب ، في أستراليا فيها إذاعات للقرآن ، ودروس دين ، كأنك في الشام ،

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

الآن بالإنترنت تأتي رسائل من كندا ، من أستراليا ، من إفريقيا ، من جنوب إفريقيا ، خمس قارات تطلع على القرآن والسنة والتفسير ، والعالم كان خمس قارات متباعدة متقاطعة ، فأصبح قارة واحدة ، ثم أصبح بلدًا واحدًا ، ثم أصبح مدينة واحدة ، ثم أصبح بيتًا واحدًا ، ثم غرفة واحدة ، الآن العالم كله في سطح مكتب واحد ، فما يجري في أقصى الدنيا ينتقل إليك خبره مع صورته خلال ثوان ،

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

ولعل الحكمة في أن النبي خاتم الأنبياء لأن الله علم سيكون هناك تواصل ، اتصالات ، ثورة الاتصالات ، من كان يصدق أن تكتب رسالة على جهاز الفاكس فتصبح في أقصى مكان في العالم في ثوان كما هي ؟ هكذا .

إذاً :

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي)

منكم ، ومن جنسكم ، لتقوم الحجة عليكم .

وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

(يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)

أكبر ركنين من أركان الإيمان الإيمانُ بالله واليوم الآخر ، وما من ركنين تلازما في القرآن كركن الإيمان بالله واليوم الآخر ، والحقيقية كلاهما شرط لازم غير كاف .

إنّ العالم الغربي يقول : الله ، على عملتهم ثقتنا بالله ، لكنهم لم يؤمنوا باليوم الآخر ، لذلك بنوا مجدهم على أنقاض الشعوب ، بنوا غناهم على إفقارها ، بنوا أمنهم على هدر أمنها ، والدليل أنهم يقولون : فوضى بناءة ، قتل يومي ، وإفقار يومي ، وفوضى بناءة ، لذلك هؤلاء الذين شردوا عن الله شرود البعير هم الذين لم يعبؤوا بهذه الرسالات .

ضرت مثلا ، وأتمنى أن يكون واضحاً لديكم : لو أن إنسانين أرادا أن يشتريا سيارتين ، الأول اشترى، والثاني تريث ، ثم سَرَتْ إشاعة في البلد أن هناك قرارًا بتخفيض الرسوم إلى النصف ، الذي اشترى يكذّب هذا الخبر دون أن يتحقق ، ودون أن يسأل ، لكن تكذيب الخبر يريحه ، والذي لم يشتر يصدق الخبر دون أن يتحقق ، ودون أن يسأل ، لأن تصديق الخبر يريحه .

معنى ذلك أن الإنسان أحياناً يصدق شيئاً ، ويكذب شيئاً ، ولا علاقة له بواقعية الشيء ، ومصداقية الشيء ، إلا أن هذا الخبر يريحه إذا صدقه ، وذاك يريحه إذا كذبه .

لو تابعنا المثل بإنسان يبيع ويشتري ، ويغش المسلمين في البيع والشراء ، حضر درس علم لداعية علمه وسط ، حدثهم عن الشفاعة بالمعنى الساذج ، أيْ : اعمل ما شئت والنبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لنا يوم القيامة ، هذه فكرة مريحة جداً ، لكن غاب عن هذا الذي علمهم قول النبي صلى الله عليه وسلم قوله :

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ

َ قَالَ :

((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه]

((وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[مسلم]

وغاب عن هذا الذي يعلم الناس مفهوم الشفاعة الساذج أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول يوم القيامة يتبرأ من مثلهم .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا ، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ ، وَيَعْرِفُونِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، فَأَقُولُ : إِنَّهُمْ مِنِّي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ : سُحْقًا ، سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي))

[متفق عليه]

لكن مفهوم الشفاعة الساذج مريح جداً للناس ، كان يأكل أحدُهم الربا لمّا قرأ قوله تعالى :

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية : 130)

يستنبط استنباطًا شيطانيًّا ؛ أن التحريم لا ينطبق على النسب القليلة في الربا ، ينطبق فقط على النسب العالية ، وغاب عنه قوله تعالى :

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

إذاً : الإنسان يميل ليصدّق شيئًا يريحه ، يميل ليكذب شيئًا يزعجه ، أما الذي يريد أن يبني مجده على أنقاض الشعوب ، وغنى شعبه على إفقار الشعوب ، وأمنه على تخويف الشعوب ، هل يكفيه مفهوم الشفاعة الساذج ؟ هذا يحتاج إلى الإلحاد ، ومن لوازم الإلحاد أن ليس هناك إله ، وليس هناك يوم آخر، هذه خرافات ، وهذه شعور ضعف أمام الطبيعية القاسية ...إلخ ، هذا الإلحاد يحتاج إلى إيديولوجيا ، إلى فكر ، تأتي نظرية داروين لتقدم هذه الإيديولوجيا للملحدين ، مع أن هذه النظرية سقطت لا من

علماء من مسلمين ، بل من علماء أجانب ، لأنه ليس فيها فقرة واحدة أثبتها العلم ، يقول داروين نفسه : إن لم تثبت نظريتي المستحاثات فهي باطلة ، المستحاسات التي كشفت بعد 500 مليون عام آثار الحيوانات فيها كالحيوانات الحالية ، الأسماك ، والطيور ، والزاوحف نفسها ، أين الحيوان الانتقالي من مرحلة إلى مرحلة ؟ ليس موجود ، وما وجدوه أبداً ، تزرع قضية الطفرة وأثبت العلم خطأها ، تزرع بالانتخاب الطبيعي ، أثبت العلم خطأه ، هذه النظرية لا يمكن أن تقف على قدمين ، بل هي ساقطة تالفة، وفي كل مناهج دول العالم موجودة ، لماذا ؟ لا لأنها مغلوطة ، بل لأنها مريحة ، لا إله ، ولا آخرة ، فافعل ما تشاء .

تماماً كما لو أنبأ إنسان طالباً أن المدرس يعطي الأسئلة قبل يومين مقابل هدية ، هذه فكرة للكسول ، وهي مريحة جداً ، فترك الدراسة كلياً ، واعتمد على هذه الفكرة ، قبل يومين طرق باب المدرس فصفعه صفعتين أنسته حليب أمه ، وطرده .

إنّ الإنسان يميل إلى تصديق إلى أشياء مريحة ، لكن البطولة أن تكون حارساً على عقله ، ألا تسمح لنظريات مرحة أن تسري إليك .

أيها الإخوة ،

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ

شهادة أعضاء الإنسان على أعماله يوم القيامة

المشكلة أن الإنسان في الدنيا له أبعاض ، يده بعضه ، رجله بعضه ، جلده بعضه ، سمعه بعضه ، بصره بعضه ، الإرادة في الدنيا مسيطرة على أبعاض الإنسان ، طبعاً هناك جزء في الإنسان لا إرادي، ضربات القلب لا إرادية ، الجملة الودية الجملة نظيرة الودية لا إرادية .

مثلاً : لو سئل سؤالا محرجا يحمر وجهه ، ليس بإرادته أن يجعل لونه محمراً ، أحيانا يعرق عرقا باردا ، وحتى جهاز كشف الكذب مبني على التعرق ، فإذا كذب الإنسان واضطرب يتعرق ، لوجود تعرق ، ورفع نبض القلب ، ومظاهر كثيرة جداً ليس له عليها سيطرة ، فهو في الدنيا في بعض المجالات كالتنفس ، والقلب وما إلى ذلك أعمال لا إرادية ، لكن فيما سوى ذلك جعل الله عز وجل الإنسان مسيطراً على أبعاضه ، يريد أن يمشي فيمشي ، تطاوعه رجله ، يريد أن يبطش يَبطش ،

تطاوعه يده ، يريد أن يكذب يكذب ، يطاوعه لسانه ، يريد أن ينظرَ ينظرَ ، تطاوعه عينه ، لكن عند الموت وبعد الموت تنتهي سيطرته على أعضائه ، فتأتي أعضاءه تشهد لله عز وجل عن كل أعماله .

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ)

(سورة فصلت الآية : 21)

فأنت في الدنيا سمح الله أن تكون مهيمناً على أعضائك وأبعاضك ، لكن بعد يوم القيامة هذه السلطة تسحب منك ، وكل أعضائك التي شهدت المعاصي والآثام تشهد ضدك ،

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

الشيء الذي يغر في الحقيقة يغري ، المعصية محببة ، لكن المعصية متعتها آنية ، يأتي بعدها الندم والكآبة ، كل الشهوات المحرمة بعدها في كآبة ، لأن فطرة الإنسان موافقة مع المنهج ، لو أن إنسانًا لا يعرف شيئا عن الدين ، إذا زنا يشعر بكآبة ، هذه كآبة الفطرة ، فالشهوات محببة ، والتناقض بين الطبع والشهوة ثمن الجنة ، والإنسان يميل بطبعه إلى أن ينظر ، وقد أُمِر بغض البصر ، يميل إلى أن يخوض في فضائح الناس ، وقد أُمِر بالصمت ، يميل إلى النوم ، وقد أُمِر بالاستيقاظ ، يميل إلى أخذ المال ، وقد أُمِر بإنفاق المال ، يميل إلى الراحة ، وقد أُمِر بالصلاة ، الصلاة فيها مشقة ، لذلك التناقض بين الطبع وبين التكليف ثمن الجنة ، هؤلاء غرتهم الحياة الدنيا ، ولأن الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر .

قصة وعبرة

مناسبة لطيفة لرواية قصة طريفة :

لي صديق توفي ـ رحمه الله ـ كان شاباً صغيراً في محل بسوق الحمدية ، فكان يجمع قمامة المحل ويضعها في علبة فخمة ، ويلفّها بورق فخم وشريط أحمر مع وردة ، يضعها على الرصيف ، يأتي إنسان فيظن أن فيها ألماسا ، أو فيها شيء ، يأخذها ويسرع ، فيتبعه ، بعد 200 متر يفك الشريط الأحمر ، وفي 100 متر ثانية يفك الورق ، وفي 100 متر الثالثة يفتح العلبة فيجد فيها قمامة المحل ، يتلفظ بكلمات قاسية جداً .

هكذا الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر .

سأقول لكم كلمة دقيقة : لو أخذنا بعض الشهوات ؛ المرأة أو المال ، المال :

المال في أول الحياة شيء كبير ، في منتصف الحياة المال شيء ، وليس كل شيء ، أما على فراش الموت فالمال ليس بشيء ، فالبطولة أن تعرفه على حقيقته قبل الموت ، ألا تكون عبداً للمال ، بل أن يكون المال عبداً لك ، ألا تكون له ، بل أن يكون لك ، ألا يسخر منك ، بل أن تسخره أنت في سبيل النجاح والفلاح .

لذلك أيها الإخوة ،

(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

الدنيا تغر ، قال الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

(سورة فاطر)

اشترى إنسان بيتين في أعلى طابق ، وما كان فيه مصعد ، والبيتان على المفتاح ، لم تعجبه كسوتهما ، أعادهما على الهيكل ، قلع الأبواب ، كسر البلاط ، ألغى كل شيء ، وكساهما على ذوقه سنتين أو ثلاثا، ويومياً يصعد الطوابق الـ12 ، ويصل إلى هناك ، وبعد أن تمت الكسوة على شكل متميز جداً وافته المنية ، الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر .

أيها الإخوة ...

(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

يغر بمالها ، يغر بنسائها ، يغر بمناصبها ، يغر أحياناً بحتفها .

أعرف رجلا ما ترك تحفة ، له أسفار كثيرة ، كل تحفة ليرة ، مليون ليرة ، فلزات عالية جداً ، بيته واسع ، يشتريها ، وكان مغرماً بها ، وكل إنسان يغرم بشيء ، أما حينما يأتي ملك الموت يتخلى عنه هذا الشيء .

اعتقد أيها الأخ الكريم وأنا معكم أنّ كل شيء أحببته في الدنيا إما أن تفارقه ، وإما أن يفارقك .

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

(سورة الأنعام الآية : 127)

ماذا يقابل دار السلام ؟ دار التعب والشقاء ، تصور إنسانا ما عنده مشكلة ، لكن ألا يتقدم في السن ؟ قال لي مرة أستاذ لي جزاه الله خيراً ورحمه الله ، قال لي : سبحان الله ! أنا قبل خمسين سنة أنشط من الآن ، طبعاً هل هناك إنسان يبقى على حاله ؟ هناك التهاب مفاصل ، هناك انزلاق غضروفي ، هناك ارتباك بعمل القلب ، هناك عدم ضبط النظم ، هناك شعور بالتعب ، هناك أمراض لا تعد ولا تحصى ، فالجسم في تراجع ، والإنسان يكون بمنصب رفيع ، فيتقاعد ، يُهمش ، يتمنى أولاده أن يجلسوا مع أصدقائهم من دون أبيهم ، يتهربون منه أحياناً ، هذا شيء يقع ، فالإنسان يُهمش ، وبعد أن يُهمش

يصيبه خرف أحياناً ، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا ، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ ـ الحرية والديمقراطية ـ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عن أبي هريرة]

هل تستطيع أن تستيقظ كل يوم كل اليوم السابق ؟ مستحيل ، في يوم فيه مفاجأة ، هذه اسمها بوابة الخروج ، وكلنا سوف نخرج من الدنيا ، هذا مصير كل إنسان .

فلذلك أيها الإخوة ، الإنسان العاقل يعد لهذه الساعة التي لا بد منها .

(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ)

أبعاضك في الدنيا تحت إمرتك ، لكن بعد الموت تشهد ضدك ، ما من حركة ، ولا سكنة ، ولا ابتسامة إلا وأنت محاسب عليها ، وما يعفو الله أكثر ، أنت تحت المراقبة ، لو قلنا لإنسان : هاتفك مراقب ، يختار كلمات دقيقة جداً ، يبتعد عن كلمة تثير الشبهة ، لا يقول لك : روشيش رشاش ، ينتقي كلمات دقيقة جداً ، لو قلنا له : حركتك مراقبة ، إذا رأى سفارة على اليمين يمشي على اليسار ، يخاف ، فإذا كان الإنسان مراقبا من إنسان لا ينام الليل ، فكيف إذا كنت مراقبا من الواحد الديان ؟ الله عز قال :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(سورة النساء)

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ

(ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

(سورة الأنعام)

لو كانوا يقظين لم يحتاجوا إلى رسل ، ما معنى إرسال الرسل ؟ الناس في غفلة ، فالطالب المجتهد لا يحتاج إلى أستاذ خاص أبداً .

قال لي مرة إنسان : آية تحيرني ، أن الله عز وجل فضل بني إسرائيل على العالمين ، هم في رأيه مجرمون ، وهم كذلك ، قلت له : إذا كان أب عنده ولدان ، ولد متفوق جداً ، وولد مقصر جداً ، الله

يفضل المقصر بأستاذ خاص على المجتهد ، فهل هذا التفضل بأستاذ خاص يعني أنه أفضل منه ؟ أبداً ، لتقصيره خصه بمدرس خاص ، فأحياناً التفضيل لا يقتضي الأفضلية إطلاقاً .

أيها الإخوة ،

(وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ، ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يأخذ الله القرى وهي غافلة ، يأخذها بعد أن ينذرها ، لذلك الآية الكريمة :

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

(سورة الإسراء الآية : 16)

وفي قراءة : أمّرنا مترفيها ، وفي رواية : أمَرنا مترفيها ، أمرناهم بالطاعة ، بلغناهم :

(فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)

(سورة الإسراء الآية: 16)

هناك طرفة ، يبدو أن سيدنا عمر ضبط إنسانا سارقا ، أقسم بالله هذا الإنسان أنها أول مرة ، قال له : كذبت ، إن الله لا يفضح من أول مرة ، فكانت المرة الثامنة .

إخوانا الكرام ، فكرة دقيقة جداً ، الكفر هو الغطاء ، فحينما يكفر الإنسان يعني هل مؤمن ؟ كيف ؟ مؤمن وكذب على الناس ، مؤمن بفطرته ، وغطى إيمانه بادعاء الكفر ، هذا الكلام يؤكده قوله تعالى في الكفار الذين يقولون يوم القيامة :

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

قال تعالى :

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام الآية : 24)

إن في بأعماق الإنسان إيمانًا ، وحينما يكفر الإنسان يغطي شيئا آمن به ، فالذي آمن بالشيء وأعلنه هو المؤمن ، والذي آمن بالشيء وغطاه هو الكافر ، غطى إيمانه بغطاء من الإنكار ، والدليل :

انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِم

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ، انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

الدليل :

طائرة تحمل خبراء من بلد تداعى من الداخل وانتهى ، وكان يرفع شعار لا إله ، إلحاد كامل ، ركاب الطائرة مهندسون كبار ملحدون جميعاً ، خبراء من هذا البلد ، دخلت الطائرة في سحابة مكهربة ،

فكانت على وشك السقوط ، يقسم لي بالله إنسان كان طالباً من دمشق راكب في الطائرة قال لي : كل هؤلاء المهندسين الملحدين صرخوا يا الله .

أحيانا ينتفع الإنسان بالكفر ، كيف ؟ لو أنه حمَّالٌ يستخدم حماره للحمل ، مات الحمار انقطع دخله كلياً، هو خبيث وشيطان ، دفنه في مكان ، وعمر أربعة جدران وقبة خضراء ، وسماه وليا ، والناس تقاطروا عليه ، وتدافعوا ، وجاءوا بالهدايا والخرفان والدجاج والسمن ، واشترى بيتا ، وعاش ببحبوحة مخيفة ، هل مِن قوة في الأرض تقنعه أن هنا حمارا مدفونا ؟ هو دفنه بيده ، هو قناعته أن المدفون حمار أشد من قناعة الذي يناقشه ، ولكنه منتفع .

أحيانا ينتفع الإنسان بالكفر ، ينتفع انتفاعا كبيرا جداً ، لكن هذا المنتفع لا يناقش ، الغبي لا يناقش ، والمنتفع لا يناقش ، والقوي لا يناقش ، وقد يجتمعون بواحد ، لذلك :

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

قال :

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

فطرتك تنطق بوجود الله ، والدليل : الكآبة التي لا يحتملها الكافر .

حدثنا أخ أوقف سيارته ثمنها 11 مليونا على جسر ، وألقى بنفسه ، نزل ميت ، ما الكآبة التي يحس بها الذي يركب مركبة بـ 11 مليون ، غني جداً ، يجب أن يكون معه 200 مليون حتى يتناسب ثمنها مع ثمن السيارة ، ألقى بنفسه من الكآبة .

حينما تستقيم على أمر الله تبحث عن راحتك ، تبحث عن توازن ، تبحث عن أمن ، تبحث عن استقرار، تبحث عن سكينة الله ، تبحث عن رحمة الله .

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

لذلك أيها الإخوة ، حقائق الإيمان مركوزة في أعماق أعماقنا ، والكافر يغطيها معناها الكافر يغطي إيمانه بإنكار قواعد الإيمان ، والدليل الآيتين .

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(55-73): تفسير الآية 131 ، مصائب المؤمن مصائب دفع ورفع - ومصائب الكافر مصائب ردع - ومصائب الأنبياء مصائب كشف
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-03-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والخمسين من سورة الأنعام ، ومع الآية الواحدة والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

من صفات الله الحسنى العدل وعدم الظلم

الله عز وجل أسمائه كلها حسنى ، وصفاته كلها فضلى ، ومن أسمائه العدل ، فالله عز وجل لا يظلم .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت الآية : 40)

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

(سورة النساء)

ولا قطميرًا ، ولا حبة من خردل .

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر الآية : 17)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

عدد كبير جداً من الآيات ينفي نفياً قاطعاً الظلم عن الله عز وجل ، ولكن لن تستطيع إثبات عدل الله بعقلك ، لأن عقلك قاصر عن إدراك عدل الله إلا في حالة واحدة مستحيلة ، أن يكون لك علم كعلم الله ، وقد ورد عدل الله في كلامه .

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

(سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة الآية : 111)

لذلك يُعرف الله عز وجل من خَقه ، ويُعرف من كلامه ، ويُعرف من أفعاله ، الأولى أن تبدأ بمعرفة الله من خلال خلقه ، لأن خلق الله عز وجل كماله مطلق ، ويمكن أن تثني في طريق معرفة الله بكلامه ، كلامه معجز ، أما أفعاله فينبغي أن ترجئها للمرحلة الثالثة ، لأن فهمك لعظمة الله من خلال خلقه ،

وفهمك لعظمة تشريعه ، فمن خلال كلامه يلقي لك ضوءا على أفعاله ، لذلك ابدأ بالتفكر في خلق السماوات والأرض ، وثنّ بتدبر القرآن الكريم ، وبعدئذٍ يمكن أن تستنبط من أفعاله الحكم الكثيرة ، فالكل واقع حكمة ، ولكل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران الآية : 26)

لم يقل : بيدك الخير والشر ،

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

إذاً مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يظلم الله مخلوقاً واحداً من آدم إلى يوم القيامة ، قلت : مخلوقاً من الإنس ، والجن والحيوان ، وما إلى ذلك ، عدله مطلق ، لكننا نرى ظلماً ، هذا الذي نراه من الظلم الشديد موظف للخير المطلق ، فالشر المطلق لا وجود له في الكون ، بل إن الشر المطلق يتناقض مع وجود الله ، والتناقض أن وجود أحدهما يتناقض مع الآخر ، ما دام الله موجوداً فليس في ملك الله شر مطلق ، هناك شر نسبي موظف للخير ، أما شر مطلق فلا ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((وَالشَّرّ لَيْسَ إِلَيْكَ))

[مسلم عن عَلِيّ بن أبي طالِب]

وللتوضيح : مواد أساسية : السكر ، والملح ، ومسحوق الغسيل ، مواد أساسية ، ولها قيمة كبيرة ، ولها نفع عظيم ، لكن لو وضعت مسحوق التنظيف في الطعام لفَسد ، فالفساد من أين أتى ؟ لا من أصل الخلق ، بل من سوء الاستعمال .

الأنثى صمّمت للذكر عن طريق الزواج ، وإنجاب الأولاد ، والمرأة التي يتزوجها الشاب لها مستقبل ، ستغدو أماً ، وجدةً ، ولها أولاد ، ولها أصهار ، أما إذا استمتع بها الإنسان خارج ناطق الزوجية ألقاها كعلبة فارغة بعد أن يقضي وطره منها ، فالخطأ ليس في أصل التصميم ، الخطأ في سوء الاستعمال ، ولأن الإنسان وحده مخير أودع الله فيه الشهوات ، وأعطاه منهجاً ، أعطاه عقلاً ، منحه فطرة ، فإذا تحرك بدافع من شهواته بعيداً عن منهج الله كان الفساد في الأرض ، لذلك قال الله تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم الآية : 41)

كل ما سوى الإنس والجن مسير ، معنى مسير أي لا فساد أبدا .

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

أيها الإخوة ،

(ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

إذاً : إن كان الناس في غفلة الله عز وجل يرسل الله الأنبياء ، ينزل الكتب ، ويلهم الدعاة ، ويضيق بأفعاله ، ويقلل المطر ، وتأتي الجوائح ، فكل ما يزعج الإنسان في حياته الدنيا إنما هو أسلوب من أساليب المعالجة .

تماماً لو أن طبيباً أخبر مريضاً معه التهاب معدة حاد ، يقول له : يمكن أن تشفى بحمية صارمة ، فإن لم تأخذ بهذه الحمية الصارمة فلا بد من عمل جراحي .

لذلك الله عز وجل له دعوة بيانية ، وأنت سليم معافى مرتاح ، يأتيك الحق بمحاضرة ، بتفسير ، بكتيب، بندوة ، بقراءة ، بخطبة ، ينبغي أن تستجيب ، لأن الله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 24)

فإن لم تستجب أخضعك الله لمعالجة أصعب ، قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ))

[ورواه البخاري]

هذا اسمه التأديب التربوي .

أول شيء الدعوة البيانية ، بيان فقط ، خطبة تلقى ، درس يلقى ، كتاب يقرأ ، آية كريمة تقرأها ، حديث شريف تقرأه ، موعظة تسمعها ، ندوة تحضرها ، هذا الهدى البياني ، فإن لم يستجب الإنسان للهدى البياني يخضع لمعالجة تربوية صعبة ، هذه :

((عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ))

في الحالة الأولى أكمل شيء أن تستجيب ، وفي الحالة الثانية أكمل شيء أن تتوب ، فإن لم يستجب ولم يثُب أخضع إلى معالجة قلّمَا تنجح مع معظم الناس ، الإكرام الاستدراجي :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام الآية : 44)

هذا الإكرام الاستدراجي ، فإن لم يشكر جاءه الهدى البياني فلم يستجب ، ثم جاءه التأديب التربوي فلم يتب ، ثم جاءه الإكرام الاستدراجي فلم يشكر ، عندئذٍ لا بد من القصْم ،

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

إذاً أحياناً أنت تنفي الحدث ، يقال : فلان لم يسرق هذا القلم ، قد يكون قد سرق الملايين ، أما هذا القلم المفقود فلم يسرقه ، هذا اسمه نفي الحدث ، أما إذا قلت : ما كان له أن يسرق ، هذا اسمه في اللغة نفي الشأن ، يعني ليس من شأن هذا الإنسان أن يسرق ، ولا من طبيعته ، ولا يرضى بالسرقة ، ولا يحبّذها ، ولا يقرّ فاعلها ، ويتألم منها أشد الألم ، هذا نفي الشأن ، قال الله عز وجل :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت الآية : 40)

الآن ما مِن شيء أقلّ من خيط بين فلقتي نواة التمرة ، هذا هو الفتيل .

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

(سورة النساء)

وما مِن شيء أقلّ من غشاء رقيق جداً يغلف النواة ، هذا هو القطمير ، وما مِن شيء أقلّ من رأس النواة ، وهذا هو النقير ، لا نقير ، ولا قطمير ، ولا فتيل ، ولا حبة من خردل .

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر الآية : 17)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

لا تستطيع أن تدرك عدل الله بعقلك ، هذا مستحيل ، لأن عقلك لم يصل إلى علم الله عز وجل ، ففي شأن العدل ينبغي أن تستسلم ، وكلما ظهر اجتياحات ، وحروب ، ونكبات ، وزلازل ، وأعاصير ، يتزلزل ضعاف الإيمان ، لكن الله سبحانه وتعالى خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض .

لكن بشكل دقيق جداً ، السيارة أصل صنعها من أجل أن تسير ، لماذا تجهز بمكابح ، والمكبح في حقيقته يتناقض مع أصل صنعها ، المكبح يوقف السيارة ، هي سيارة صُمِّمت من أجل أن تسير ، لأن المكابح ضرورية جداً لسلامتها ، لذلك الإنسان خلق للسعادة ، والدليل :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

ومع ذلك تأتي المصائب كي تحقق لهم السعادة ، وقال العلماء :

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان الآية : 20)

النعم الباطنة هي المصائب ، وكنت أقول دائماً : لو دخلت إلى مسجد فرأيت فيه جموعاً غفيرة ، فتأكَّدْ أن عدداً كبيراً جداً قد يصل إلى الثلثين أتوا إلى المسجد بعد معالجة حكيمة من الله عز وجل .

فكل شيء يسوقه الله للإنسان محض فضل ، ومحض عدل ، ومحض رحمة ، أصحاب الجنة الذين بخلوا أن يعطوا حق الفقير لما رأوها قالوا :

(إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

(سورة القلم)

لأن طائفاً طاف عليها فأبادها عن آخرها ، الله عز وجل يقول في نهاية القصة :

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم)

(إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة القلم)

الله عز وجل عقَّب على هذه القصة بقوله :

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

أي أنه يا عبادي كل عذاب أسوقه لكم من هذا القبيل ، من أجل أن تحققوا الهدف من وجودكم ، من أجل أن تحققوا السعادة الأبدية ، من أجل أن تأتوني منيبين تائبين .

((وعزتي وجلالي ـ دققوا في هذا الحديث القدسي ـ وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن إلا أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها ، سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع

1 ـ مصيبة الدفع

أيها الإخوة ، مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع ، لأن الإنسان أحياناً مع إيمانه ، ومع صحة عقيدته، ومع صحة تصوراته ، تضعف همته ، فيأتيه ما يدفعه إلى الله ، لعله يرى شبح مصيبة ، شبح مرض ، شبح فقر ، لعله يقع تحت تهديد عدو ، ليس له ملجأ إلا الله ، لذلك شأن العبد المقصّر الذي

تأتيه مصيبة كي تدفعه إلى الله كشأن ابن ترك يد أمه ، فنبح عليه كلب ، فخاف من هذا الكلب ، وعاد إلى أمه يحتمي بها ، وكل أمْنه مع أمه ، وكل سعادته مع أمه ، وكل حاجاته مقضية مع أمه ، فهو حينما ترك يد أمه جاء من يدفعه إلى أمه .

فالمصائب للمؤمنين مصائب دفع إلى باب الله ، الله عز وجل يُلجئنا إلى بابه ، لذلك من هو الشقي ؟ ـ دققوا ـ هو الذي يكون خارج العناية الإلهية .

تماماً كما لو أن إنسان معه ورم خبيث منتشر في كل أنحاء جسمه ، وسأل طبيبًا بكل لهفة شديدة : ماذا آكل ؟ وما الذي تمنعني عن أن آكله ؟ يقول له : كل ما تشاء ، لأنه لا أمل في الشفاء ، كلْ ما تشاء ، أما الذي معه التهاب معدة فيقيم عليه الطبيب الدنيا ولا يقعدها لو أكل قطعة من مواد تسبب زيادة هذه القرحة ، يعطيه حمية صارمة ، ويشدد عليه ، ويعنّفه .

لذلك لمجرد أن تكون ضمن العناية الإلهية فأبشرْ ، لمجرد أن تُتابَع ، لأنه إذا أحب الله عبده عجل له بالعقوبة .

أحياناً تتراكم الذنوب إلى أن يستحق الإنسان ضربة قاضية ، وأحياناً لأن هذا الإنسان فيه خير كبير يُتابع .

لو أن مدير مؤسسة جاءه موظف فقال له : أنت لك ستة أشهر تجريبية ، فبدأ المدير يحصي عليه أخطاءه فقط ، تأخر اليوم ، غاب كثيراً ، لم يحسن التصرف ، لا يملك خبرة ، همّ المدير أن يحصي عليه أغلاطه حتى إذا تراكمت صرفه ، أما لو الابن عند أبيه في مؤسسة هل يحاسبه كل دقيقة ، وكل ساعة ، وعند كل خطأ ؟ لا ، لأنه ابنه ، ورحمته به تقتضي أن يدرّبه لا أن يحصي عليه أخطاءه .

لذلك حينما تشعر أن الله يتابعك كثيراً ، ويحاسبك كثيراً فأبشرْ فأنت في العناية المشددة ، أنت لست ممن لا خير فيهم .

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

لا تعبأ ما دام الله يتابع ، وإذا أحب الله عبده ابتلاه ، فإن شكر اجتباه ، فإن صبر اجتباه ، فإن شكره اقتناه ، إذا أحبك الله عز وجل يعالجك ، قبل أن يكون العلاج مستحيلاً ، قبل أن نصل إلى شفير القبر ،

((وعزتي وجلالي ـ مرة ثانية ـ لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها ، سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

إن الذي يصل إلى شفير القبر سليماً معافىً فقد حقق أكبر مكسب يناله الإنسان ، لذلك قال تعالى :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

(سورة الزمر)

هو في الجنة الآن ، في متعة ما بعدها متعة ، في نعيم مقيم .

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

(سورة ق الآية : 35)

ينظرون إلى وجه الله الكريم ، يغيبون خمسين ألف عام من نشوة النظرة ، وهذا تكريم عظيم .

(وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر)

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)

نحن جئنا إلى الأرض وهناك عالجنا الله عز وجل ، وضيّق علينا ، وشدّد علينا ، وعجّل لنا بالعقوبة ، وابتلانا ببعض المصائب حتى أصبحنا مؤهلين لهذا المقام في الجنة .

سؤال دقيق : لو أن ابنًا في الصف الخامس ـ المثل افتراضي ـ قال لأبيه : لا أحب أن أدرس ، فالأب على هذه الكلمة فقط قال له : دع المدرسة ، هو طفل صغير لا يعرف حقيقة الدراسة ، ولا علاقتها بمستقبله ، ترك الدراسة ، نام إلى الظهر ، رافق رفقاء السوء ، دخل إلى السينما ، لعب النرد والطاولة مع أصدقائه إلى أن كبر ، فرأى نفسه بلا شهادة ، ولا وظيفة ، ولا بيت ، ولا زواج ، ولا شيء ، تألم ألماً شديداً من أبيه ، فقال لأبيه : يا أبتِ ، يوم قلت لك : لا أحب أن أدرس ، لمَ لم تضربني ؟ لمَ لم تعنفني ؟ لمَ لم تحملني بالشدة إلى أن أدرس ؟ أنا لا أعرف مستقبلي ، أرأيت إلى هذا المثل ؟ .

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

(سورة القصص الآية : 47)

ومعنى رسول هنا المصائب :

(فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

(سورة طه)

الدليل :

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا)

مصيبة ، الله أبدلها برسالة ، لأن المصيبة رسالة ، رسالة عملية ،

(لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

فإذا كان الإنسان ضمن العناية المشددة ففيه خير كثير ، وفيه أمل كبير ، وله مستقبل زاهر ، العبرة أن ترضى عن الله ، هذه مصيبة الدفع .

2 - مصيبة الرفع

لكن للمؤمن مصيبة من نوع ثان ، هي مصيبة الرفع .

للتوضيح : عندك شاحنة ، ونقل الطنّ الواجد بها بخمسين ألف ليرة ، وشاحنتك تتسع عشرين طنًّا ، وأنت قبلت طنًّا واحدً ، أنت جيد ، السرعة جيدة ، لكن قبلت بعمل بسيط ، ولم تكن طموحاً لعمل عظيم، فهناك مصائب ترفع لك طاقتك في استيعاب الأعمال الصالحة ، هذه مصيبة رفع ، الأولى مصيبة دفع ، بسرعة بطيئة ، والثانية فيها حمولة خفيفة ، يمكن أنت تطعم جائعاً ، لكنك إذا طلبت العلم ، وهديت إنساناً ، والإنسان هدى عشرة ، والعشرة هدوا مئة يمكن أن تأتي يوم القيامة وثمة مليون إنسان سلكوا طريق الحق بسببك .

فأحيتناً تأتي المصائب من أجل أن تدفعك إلى باب الله ، والآية الدقيقة جداً :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

إخوتنا الكرام ، الآية الدقيقة :

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

فإذا كان الإنسان غنياً ، أو كان قوياً ، أو كان وسيماً ، أو حياته ناجحة جداً يقول :

(رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

الجواب الإلهي :

(كَلَّا)

(سورة الفجر الآية : 15)

كلا يا عبادي ، ليس عطائي إكراماً في الدنيا ، ولا منعي حرماناً ، عطائي ابتلاء وحرماني دواء ، كما أنّ المريض ليس مُهانًا عند الله ، بالعكس هو في أعلى درجات القرب من الله .

إذا وجد الأب الطبيب ابنه يشكو زائدة ملتهبة ، ولا بد من عمل جراحي ، يخدّره ، ويفتح بطنه ، العمل على الشبكية مؤلم جداً ، فتح بطن ، ودم يسيل ، وتخدير ، وآلام ، وخياطة ، لكن أليست هذه رحمة كبيرة جداً ؟

أيها الإخوة ، هناك مصيبة الدفع ومصيبة الرفع ، هذه مصائب المؤمنين ، لأن فيهم خيراً كثيراً ، لذلك هناك حديث في هذا الموضع :

عَنْ سَعْدٍ قَالَ : قُلْتُ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بَلَاءً ؟ قالَ : الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ ، فَالْأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

[رواه الترمذي وقال : حسن صحيح وابن ماجه]

هذه مصائب المؤمنين حينما تأتي :

(قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

(سورة البقرة)

بهذه المصيبة .

(أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

مصائب العصاة والشاردين ردع وقصم

لكن هناك مصائب أخرى تصيب العصاة ، والشاردين ، والمنافقين ، والمشركين والكفار ، تلك عقوبات وليست دفعاً ولا رفعاً ، هذه المصائب تنتظم على شكلين ، مصيبة ردع ، أو مصيبة قمع ، أو قصم ، الردع لأنّ الانحراف شديد جداً يحتاج إلى مصيبة قد لا تحتمل :

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

(سورة البقرة الآية : 286)

أحياناً مرض شديد في القلب ، ومرض في الجهاز الهضمي ، أدوية الجهاز الهضمي تؤذي القلب ، أدوية القلب تؤذي الجهاز الهضمي ، أحيانا مرض مع فقر ، أحيانا مرض مع فقر مع فضيحة ، أحياناً علاقات خارجية سيئة جداً ، وعلاقات داخلية أسوأ ، الله عز وجل عنده أدوية كثيرة جداً ، وفي كل بلد له أدوية ، في بلاد تتمتع بحريات عالية جداً ، هناك أدوية من نوع ثانٍ ، وبلاد تتمتع بضغوط شديدة فيها أدوية من نوع ثانٍ ، على كلٍ أينما ذهبت في ملك الله فهناك دواء مناسب لك ، والبطولة ألاّ تصل مع الله إلى دواء مرّ .

مرة أراد أخ أن يداعبني بلسانه فقال لي : ما ملخَّص دَعْوَتك في 30 سنة ؟ قلت له كلمتين والله ما لي غيرها : إمّا أنْ تأتيَ ركضا ، أو يُؤْتَى بك ركضا ، لا ثالث لهما ، إمّا أنْ تأتيَ الله طائعاً بمبادرة منك ،

باختيار منك ، وأنت صحيح معافى ، فإذا لم ترد ذلك فعند الله أدوية تدفعك دفعاً إلى بابه ، والدليل يا محمد :

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

(سورة المدثر)

أحياناً حينما لا تستطيع الأم تربية ابنها يقول لها الأب : دعيه إلي ، عندي أدوية أشد قسوة من هذه الأدوية ، فإما أن تأتيه طائعاً مختاراً تائباً ، وهو يقبلك ، ويفرح بك .

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، ومن الظمآن الوارد))

[رواه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

وهذا الأعرابي الذي ركب ناقته ، وعليها طعامه وشرابه ، وجلس ليستريح فلما استيقظ لم يجد الناقة ، أيقن أنه هالك لا محالة ، بالصحراء ، فبكى ، وبكى ، وبكى ، حتى أدركته سنة من النوم ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي ، وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم]

أيها الإخوة ، الله ينتظرنا ، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إلي ، يا داود هذه إرادتي في المعرضين فكيف بالمقبلين ؟

إذا قال العبد : يا رب وهو راكع يقول الله له : لبيك يا عبدي ، فإذا قال ، يا رب وهو ساجد يقول الله له: لبيك يا عبدي ، فإذا قال ، يا رب وهو عاص يقول الله له : لبيك ، ثم لبيك ، ثم لبيك .

والأب يعرف هذا المعنى ، الابن المستقيم المهذب وضعه طبيعي في البيت ، أما الابن المنحرف الشارد حينما يعود إلى أبيه تائباً يمتلئ قلب الأب رحمة وفرحاً لا يوصف .

لذلك ما أمرنا إلا لأن يتوب علينا ، وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا ، وما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا ، فالمؤمن له مصائب دفع ورفع ، أما الكافر فمصيبته فمصيبة ردع قاسية جداً ، فالبطولة ألا تصل مع الله إلى طريق مسدود .

مثلاً : ارتكب إنسان جريمة قتل ، ألقي القبض عليه بعد شهر ، سِيق إلى محكمة الجزاء والجنايات ، حُكم عليه بالإعدام ، رُفع الأمر إلى محكمة التمييز ، النقض ، صُدق الحكم ، رفع إلى القصر ، صدق رئيس الجمهورية هذا الحكم ، سِيق إلى المشنقة ، صبيحة أحد الأيام وقف على منصة الشنق نقول له :

الآن وصلت إلى طريق مسدود ، إن شئت أن تبكي فابكِ ، لا بد من أن تُعدم ، إن شئت أن تضحك فاضحك ، لا بد من أن تُعدم ، إن شئت أن تترجى فترجَّ ، لا لد من أن تُعدم ، إن شئت أن تتماسك فتماسك ، لا بد من أن تُعدم .

فالبطولة ألا أصل مع الله إلى طريق مسدود ، وألا تنطبق عليّ الآية الكريمة :

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار)

(سورة البقرة)

مصيبة الكافر والعاصي والمنافق والمنحرف والمجرم ردع أولاً ، إذا كانت ردعا يكون فيه بقية خير ، فإن لم يكن فيه بقية خير كانت قصما ، أما الأنبياء فمصائبهم مصائب كشف ، ينطوي على كمال صعب تصوره .

النبي عليه الصلاة والسلام مشى على قدمين 80 كيلومترًا ، طرق وعرة ، الآن إنشاء هذه الطرق إلى الطائف كلف المتعهدين بتفكيك الآلات كلها ، ونقلها إلى موقع العمل قطعة قطْعة ، ثم تركيبها ، من شدة وعورة الطرق ، يقطع هذه المسافة على قدميه ليصل إلى أهل الطائف فيكذبونه ، يستهزؤون به ، ويسخرون منه ، ويستخفون به ، ثم يدفعون أولادهم لضربه وإيذائه ، وسال الدم من قدميه الشريفتين .

إذا أخذت دكتوراه ، وما قيل لك : دكتور تغضب ، لكنّ النبي عليه الصلاة والسلام ضُرب ، وسال الدم منه ، وقال :

((يا رب ، إن إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا رب المستضعفين إلى من تكلني ؟ إلى صديق يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

الآن أراد الله أن يظهر كماله ف أرسل له ملك الجبال ، وقال : يا محمد ، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين ، فقد مكنه الله أن ينتقم ، مكنه أن يبيدهم عن آخرهم ، مكنه أن يلغي وجودهم ، قال ، لا يا أخي ، اللهم اهدي قومي ، قومه ، ما تخلى عنهم ، ودعا لهم بالهداية ، واعتذر عنهم ، إنهم لا يعلمون ، واستبشر أن يخرج الله من أصلابهم من يوحده ، هذا الكمال البشري هو الكمال الأول في الأرض لا يظهر بالأحوال العادية .

قد تجد إنسانا يقول لزوجته ، أنا معجب بك في أشد الأحوال ، أما حينما تغدو مريضة ، مقعدة ، يتحمل شهرا ، شهرين ، بعد هذا يتبرم ، مرض الزوجة أحياناً يكشف حب الزوج لها ، وهناك أزواج يتفانون في العناية بزوجاتهم المريضات ، وهناك أزواج يريدها صحيحة لائقة ، براقة ، فإذا أصابها مرض تخلى عنها .

والله أعرف زوجين ، الاثنان بأعلى درجة علمية ، أصيب الزوج بمرض خبيث ، فتركته الزوجة لتبحث عن زوج آخر صحيح .

أيها الإخوة ، مصائب الأنبياء مصائب كشف ، لأن ثمة كمالا لا يظهر إلا لحالات نادرة ، لأن الله سبحانه وتعالى يعطي عطاء عن بينة ، ليهلك من هلك على بينة ، ويحيى من حيي على بينة .

أيها الإخوة ، المصائب كالمكابح للمركبة ، تتناقض في ظاهرها مع أصل صنعها لكنها ضمان لسلامتها ، بالمصائب ملايين مملينة يعودون إلى الله ، ويصطلحون معه ، وإذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض : أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ، كلمة أن هنئوا فلاناً لا تليق إلا بمن اصطلح مع الله ، ولا يليق بك أن تكون لغير الله ، إنك إن كنت لغير الله تحتقر نفسك ، أحياناً ترفض آلاف الأشياء ، ازدراءً لها ترفض وظيفة دخلها قليل ، ترفض زوجة غير مستقيمة ، ترفض بيتا صغيرا وشماليا ، لكنك إذا رفضت الحق تحتقر نفسك .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة الآية : 130)

فأنت لله ، ولا يليق بك أن تكون لغير الله ، لا يليق بك أن تكون لإنسان ، أو لجهة أو لجماعة ، أنت لله.

" خلقت لك ما في السماوات وما في الأرض ولم أعيَ بخلقهن ، أفيعيني رغيف أسوقه لك كل حين ، لي عليك فريضة ، ولك علي رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك ، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي ، وكنت عندي مذموماً ، أنت تريد ، وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلمي فيما أريد أتعبتك في تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد " .

[ورد في الأثر]

المصائب محكّ الرجال

أيها الإخوة ، المصائب محك الرجال ، والحزن خلاق ، والنعيم لا يأتي بشيء ، فإذا كان الرجل ببحبوحة ، وعنده بيت جميل جداً ، وهو مغرم بأن ينغمس بمياه فاترة يسترخي بها ، متى يصير طبيباً ، أو تاجراً ، أو إنساناً مهماً ؟ المتع الحسية لا تقدم ولا تؤخر ، بل تفسد الأخلاق ، لكن المصائب تكون محك الرجال .

والله الذي لا إله إلا هو ، وأنا أعني ما أقول : لو أن الله كشف يوم القيامة لكل المؤمنين ما ساق لهم من شدائد يقول لك : اجتياح ، يقول لك : احتلال ، قصف ، لو أن الله كشف للمؤمنين ما ساق لهم من شدائد إذا لذابوا كالشمعة محبة لله ، فهذا الدين ليس دين الله ، الله عز وجل غني عن تعذيبنا .

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ)

(سورة النساء الآية: 147)

ما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بالتوبة

ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بالتوبة .

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 165)

((ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، وما يغفر الله أكثر))

[رواه ابن عساكر عن البراء]

حينما تفهم حقيقة المصيبة على أنها رحمة من الله معالجة إلهية ، وقد تكون قاسية ، ولكن حينما تكتشف نتائجها يوم القيامة :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

(سورة فاطر الآية : 34)

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر الآية : 74)

الآن ، لولا أنّ الأرض ومتاعب الأرض ، الأرض فيها متاعب ، وأقلّ متاعبها تقدم بالسن ، كل الطاقات تتراجع ، الحواس تتراجع ، الصحة تتراجع ، الجمال يتراجع ، هناك تناقص في الحياة الدنيا ، وهموم ، وزوجة ، و بلاء من الله أحياناً ، و هناك زوج بلاء من الله ، و هناك أولاد عتاة عاقون ، و فضائح ، وفقر ، وقهر ، وحرب ، وسجون ، وأمراض ، الآن أكبر سيفٍ سيفُ المرض ، وأكبر مرض الآن منتشر هو الورم الخبيث ، طبعاً هناك أخطاء كثيرة جداً في حياتنا ، في غذائنا ، في طعامنا ، في بيئتنا ، في تلوث الحواء ، في المواد البلاستيكية ، في الإشعاع النووي ، في المبيدات الحشرية ، في الهرمونات التي نستخدمها ، في حياتنا أمراض ، وقهر ، واجتياح ، انظروا ماذا يحصل في بلاد مجاورة ، شيء لا يحتمل .

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

لكن الإنسان خضع لمعالجة إلهية وقاسية ، لكن كانت لصالحه ، فإذا نجا من عذاب الآخرة ف هو السعيد الأول ، لذلك :

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

(سورة مريم الآية : 71)

ما من البشر أحد إلا وسَيَرِد النار ، لماذا ؟ ولو كان مؤمناً ، العلماء قالوا : ورود النار غير دخولها ، الذي يرد النار لا يتأثر بوهجها ، ولكن ليرى المؤمن مكانه في النار لو لك يكن مؤمناً ، كي تتضاعف سعادته في الدنيا ، وليرى المؤمن عدل الله عز وجل ، هؤلاء الطغاة أين مصيرهم ؟ فلذلك إذا ورد الإنسان النار لا أقول : دخلها ، إذا ورد النار تتضاعف سعادته في الجنة ، ويرى عدل الله عز وجل ، فالبطولة أن تكون مع الله ، وأن تستسلم له ، قال إنسان يطوف حول الكعبة : يا رب ، هل أنت راضٍ عني ، وكان وراءه الشافعي ، قال له : يا هذا ، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ قال : عجيب أمرك من أنت ؟ قال له : أنا محمد بن إدريس ، قال له : كيف أرضى عن الله وأنا أتمنى رضاه؟ ما هذا الكلام ؟ فقال له الإمام الشافعي : إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، لقوله تعالى :

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

(سورة البينة الآية : 8)

هل أنت راضٍ عن الله ؟ عن أنك بهذا الشكل ، بهذه الإمكانات ، من أم وأب معينين ، ببلد معين ، بوضع معين ، ببيئة معينة ، بدخل معين ، هل أنت راض عن الله ؟ تأكد أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان ، لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع ، لذلك يقول الإمام علي كرم الله وجهه : << والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً >> ، لأنّ يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء .

وله كلمة رائعة جداً يقول : << والله لو علمت أن غداً أجلي كما قدرت أن أزيد في عملي >> ، لأنه يمشي إلى الله بأعلى سرعة .

إخواننا الكرام ، درسنا اليوم :

(ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

كيف يصحو الغافل ؟ برسالة من الله ، ما هي الرسالة ؟ المصيبة .

الآن هناك مصطلح جديد في الأخبار ، أحيانا يقام عرض عسكري فيقولون : هذه رسالة وجهت إلى بلد آخر ، أحيانا مناورات مشتركة ، هذه رسالة ، الآن هناك رسائل كثيرة جداً ، حتى إن حرب دولة في شرق آسيا عدت رسالة إلى العالم الثالث ، وحتى حينما قصفت دولة في أوربا قيل : هذه رسالة إلى أوربا ، أحيانا هناك أعمال على شكل رسائل ، ولا تنسوا هذه الآية :

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

عدل مطلق ، المصيبة

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(لَقَالُوا)

يوم القيامة

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا)

بدل المصيبة ، ، فالمصيبة رسول ،

(فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

إخواننا الكرام ، رجاء أسأل الله عز وجل أنْ يسلمكم جميعاً ، ويحفظ إيمانكم وصحتكم وأهلكم وأولادكم وأموالكم ، لكن إن جاء شيء تكرهه فاتهم نفسك أولاً .

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ـ هكذا الحديث القدسي الصحيح ـ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

لو أن كل إنسان طلب مليار دولار ، أو قصرا ، وطائرة خاصة ، ويختا ، ومئة سيارة ، قال :

((مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

ذلك لأن عطائي كلام ، وأخذي كلام .

((إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[مسلم]

اتهم نفسك ، الله عز وجل غني عن تعذيبنا ، والآية الدقيقة :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

هل في الأرض أب واحد ابنه نظيف ومرتب والأول في الدراسة ، ومعاملته لإخوته راقية جداً يصفعه بلا سبب ؟! لو كان الأب وحشا لا يفعلها ، ابن مهذب مستقيم ، أديب مجتهد يُضرب ؟! مستحيل أن

يأتي شيء بلا سبب ، قد يكون السبب غير مادي ، قد يكون اعتزازا ، أو كبراً ، أو ترفعاً ، أو شركاً خفياً ، الله عز وجل يؤدب ، الله عز وجل حكيم ، ونحن نستسلم لحكمته ، ولرحمته ، ولعدله ، فما علينا إلا أن نسأل الله العافية ، أيضاً كل الحديث عن المصائب إياكم ، ثم إياكم ، ثم إياكم أن تتمنوا مصيبة ، النبي علمنا قال : يا رب ، لكن عافيتك أوسع لي ، سلوا الله العافية ، والبطولة ألا أصل مع الله لمعالجة.

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

(سورة النساء)

إذا كانت بضاعة الإنسان كلها نظامية ، ومسعرة ، ما عنده مخالفة ، وعنده فواتير ، ومر ضابط جمرك هل تتحرك شعرة ؟ أبداً ، أما إذا كانت كل البضاعة مهربة ، بلا فواتير ، ومر ضابط جمرك ينهار ،

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)

فإذا استقام الإنسان فقد وعده الله عز وجل بالسلامة .

إخواننا الكرام ، لما أردف النبي الكريم وراءه سيدنا معاذا ، قال له : يا معاذ ، القصة معروفة عندكم ، آخر فقرة فيها :

((ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه ؟ قال : ألا يعذبهم))

[الصحيحين عن معاذ]

اطمئنوا ، استقم ، واطمئن إلى أن الله لا يتخلى عنك ، تب إلى الله واطمئن .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

والإعلام الغربي يريد أن يحطم المسلمين ، لأنه كانت قوة عسكرية سابقاً نجبر بها على أن نفعل ما يريدون ، الآن ليس هناك قوة عسكرية ، بل هناك قوة إعلامية نصل بها إلى أن نريد ما يريدون ، فالإعلام وراءه خبراء ، وعلماء نفس ، تسمع الأخبار فتكاد لا تقف على رجليك من شدة القلق ، لأنه واحدا احتكر لقاح أنفلونزا الطيور فحدثتْ مبالغة في الإعلام مخيفة ، أرض فيها ستة مليارات إنسان مات حتى الآن 129 شخصا ، هذا وباء هذا ؟! لكن المبالغة في الإعلام هدفها تحقيق مصالح مادية ، فالمؤمن له مرجعية لا يتأثر بما يسمع تأثراً يصرفه عن إيمانه بالله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(56-73): تفسير الآية 132 ، قيمة اليوم بعمله ـ ولكل عمل درجة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-03-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس والخمسين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الثانية والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

درجات العمل ومراتبه

أيها الإخوة ، الإنسان حينما يضع درجات ليقيّم أو ليقوّم الذين يعملون معه تأتي هذه الدرجات محدودة، ففي أيّ بلد تقريباً هناك عشر مراتب للموظفين ، ولكل مرتبة ثلاث درجات ، مجموع المراتب والدرجات ثلاثون ، وهو ناتج عشرة في ثلاثة ، وهناك مليونا موظف لا بد من أن يقيّموا وفق هذه المراتب والدرجات .

لكن الآن في الأرض ستة آلاف مليون ، لكل إنسان درجة تختلف عن الثانية ، الإله قُدرته لا محدودة ، مطلق في قدرته وفي تقوميه ، ومعرفة العمل والدوافع ، والخلفيات ، والتضحيات ، والظروف ، والضغوط ، لذلك تقييم الأشخاص من شأن الله وحده ، وأنت ـ أيها الإنسان ـ لا تستطيع تقييم الأشخاص لأن العلم محدود ، والمقاييس محدودة .

مثلاً : أنا حينما أستخدم ميزان حرارة أستطيع أن أقول : الدرجة 20 ونصف ، وإذا كان البصر حاداً أقول لك : عشرون وثلاثة أرباع ، لكني لا أستطيع أن أفرق بين واحد على ألف من الدرجة زيادة أو نقصًا .

بالمناسبة ، البعوضة ترى الأشياء لا بأشكالها ولا بأحجامها ولا بصورها ، بل ترى الأشياء بحرارتها، وحساسية جهازها جهاز استقبال حراري ، واحد على ألف من الدرجة المئوية .

إذاً : الإنسان محدود ، قد يأتي إنسان بدكتوراه في الفيزياء النووية ، ويأتي إنسان بدكتوراه في الموسيقا ، يُعيَّنون بمرتبة واحدة ، مع أن هناك بوناً شاسعاً بين الاختصاصين .

ولكل درجات مما عملوا

إذاً ربنا عز وجل يقول :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

أعمالك ، حجمها ظروفها ، صعوباتها ، عوائقها ، صوارفها ، نواياها ، أهدافها يعلمها الله وحده ، لذلك أرح نفسك من تقييم الناس ، والنبي عليه الصلاة والسلام علّمنا وأدّبنا ، وصحابته تأدّبوا بهذا الأدب ، والأكمل أن تقول : أحسبه صالحاً ، ولا أزكّي على الله أحداً .

لما ولّى سيدنا الصديق سيدنا عمر بعده قال : يا رب ، هذا عِلمي به ، فإنْ بدّل أو غيّر فلا علم لي بالغيب .

تقييم الأشخاص ليس من اختصاص البشر

لو أنك أعفيت نفسك من تقييم الأشخاص لأرحت واسترحت ، وكلما أُسأل عن تقييم إنسان أقول لهم : تقييم الأشخاص مِن شأن الله وحده ، نحن نرى الظاهر ، إنسان يملك ألف دنمٍ جاء من يهمس في أذنه : لو قدمت خمس دنمات لبناء مسجد فتضطر البلدية أن تنظّم هذه المساحة ، وإذا نظمتها إلى مقاسم ارتفع السعر عشرة أضعاف ، فيأتي هذا الذي لا يصلي ، ولا يتعرف إلى الدين إطلاقاً ، ويقدم خمسة دنمات فيبنى عليها مسجد ، والناس يعجبون بسخائه وبكرمه ، وأريحيته وصلاحه وتقواه ، من يعرف الحقيقة؟ الله جل جلاله ، لذلك قالوا : يمكن أن تخدع بعض الناس لبعض الوقت ، ويمكن أن تخدع بعض الناس لكل الوقت ، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل وألف ألف مستحيل ، بل إن الله سبحانه وتعالى تولى كشف الحقائق .

إنّ العالم الغربي عالم غني قوي ذكي ، طرح قيمًا رائعة جداً ، حقيقة رائعة ، حرية ، ديمقراطية ، حقوق الإنسان ، حق المقاضاة ، العولمة ، احترام جميع الأديان ، تكافؤ الفرص ، لكن الله سبحانه وتعالى وضع الغرب في ظرف صعب فكشفهم على حقيقتهم ، فأصبحوا أكثر قسوة من الدول التي توصف بأنها قاسية ، إذاً :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران الآية : 179)

مستحيل وألف ألف مستحيل ألاّ تمتحن ، سُئل الإمام الشافعي : أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء ؟ فقال : هذا الإمام الكبير لن تمكّن قبل أن تبتلى .

إذاً : تستطيع أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت ، بعض الناس لكل الوقت ، أما أن تخدعهم جميعاً لكل الوقت فهذا مستحيل ، أما المستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تخدع نفسك ثانيةً واحدة .

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

ومستحيل أن تخدع الله .

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء الآية : 142)

إذاً أنت لك عند الله ملف ، نحن كبشر لا نرى إلا الظاهر ، نرى إنسانًا يصلي ، ونرى إنسانًا لا يصلي، نرى إنسانًا يرتكب معصية فنقول : هذا عاصٍ ، لكن الله سبحانه وتعالى :

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

سَعة اطلاَّع الله على خلْقِه ، وقصور المخلوق

يعلم ما خفي عنك ، ويعلم ما خفي عن صاحبه .

هناك شيء معلن ، وشيء أكتمه عن غيري ، هذا سرّي ، أعلمه أنا ، لكن لم أعلِم به أحدًا ، لكن هناك شيء لا أعلمه لا أنا ولا غيري ، هو الذي خفِيَ عليّ ، لذلك فإن الله علِم ما كان ، وعلِم ما يكون ، وعلِم سيكون ، وعلِم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

أيها الإخوة ، الإنسان عند الله مكشوف ، فإذا علم أن الله يعلم لعلها تتحجّم نفسه ، وتتهيب أن تعصي الله عز وجل ، وفي بعض الآيات :

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة الآية : 97)

وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان ، اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

إذاً :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

في الامتحان عندنا مئة درجة ، لكن مستحيل أن نضع السلم من مليون درجة ، نقول له : أنت نجحت ، وأخذت ستمئة وثمانية وسبعين ألف وسبعمئة واثنين وخمسين درجة ، ما عندنا إمكانية أن نقسّم الأفكار والأدلة والشواهد ، وحل المسائل إلى مليون درجة ، في كل الجامعات مئة درجة ، أما الله عز وجل :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

كل واحد منا له عند الله درجة ، وفي تقييم دقيق لأعماله .

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء)

الإنسان مخلوق ليعمل للجنة

النقطة الدقيقة أنك جئت إلى الدنيا من أجل أن تعمل عملاً يؤهلك للجنة ، فأنت في الأصل مخلوق للجنة، مخلوق لجنة أبدية عرضها السماوات والأرض ، مخلوق لنعيم مقيم ، مخلوق لدار لا نغص فيها ولا تعب ، ولا مرض ، ولا فقر ، ولا وسيم ودميم ، ولا قوي وضعيف ، ولا ظالم ومظلوم ، ولا حاكم ومحكوم ، مخلوق لجنة ، لك ما تشاء فيها ، لمجرد أن يخطر في بالك شيء تجده أمامك .

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

أيها الإخوة ، أنت حينما تؤمن أنك مخلوق للجنة ، وأن هذه الدنيا ممر ، وليست مقراً ، هي دار عمل ، وليست دار جزاء ، هي دار تكليف لا دار تشريف ، هي دار سعي لا دار عطاء .

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشدة ، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ويبتلي ليجزي))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

حينما تعلم أنك مخلوق للجنة ترى أنه يجب عليك أنْ تعمل عملاً صالحاً في الدنيا ، لذلك البشر على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، ودياناتهم ومذاهبهم ، واتجاهاتهم ، وآرائهم ، وتياراتهم ليسوا عند الله إلا رجلين فقط ، أو نموذجين :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

إنه تقسيم رائع ، بخلاف تقسيم البشر : دول الشمال ، ودول الجنوب ، والعرق الآري ، والعرق الأنجلوسكسوني ، والعرق السامي ، والدول المختلفة والمتقدمة ، والدول البحرية والداخلية ، الدول النامية ، والدول المتقدمة ، قسّم العالم إلى مليون قسم ، هم عند الله قسمان :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

صدق أنه مخلوق للجنة ، صدق أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء ، أو :

(وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

لم يؤمن إلا بالدنيا ، فاستغنى عن طاعة الله ، وبنى حياته على الأخذ .

فندق خمس نجوم لا بد من أن يباع فيه الخمر ، ما من مشكلة إطلاقاً ، لأن الآخرة ما أدخلها في حساباته إطلاقاً ، بل يدخل الدنيا في حسابه بالمقاييس الأرضية من له مطعم متواضع بأطراف دمشق ، الطعام جيد ، والسعر معتدل ، والدخل محدود جداً لا يكاد يكفي حاجة صاحب المطعم ، ومطعم غلته في اليوم عشرة ملايين ليرة ، لكنه يقدم المشروبات والراقصات والمغنيين ، والدخل كبير فلكي ، ولا سيما في الصيف ، والدليل أن طريقاً محدوداً فيه تسعون ملهى ، و الأرباح طائلة .

حقيقة الموازنة الموازنة بالآخرة

أيها الإخوة ، النقطة الدقيقة أنه يُنتظر من العاقل ألا يوازن بين شيئين ، ولا بين شخصين ، ولا بين عملين ، ولا بين تجارتين ، ولا بين وظيفتين إلا إذا ضم الآخرة إلى كلٍ منهما .

إذاً الله عز وجل قال :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح ، أنت تقييم وفق عملك الصالح ، جئت إلى الدنيا من أجل العمل الصالح ، الدليل القطعي الإنسان حينما جاءه ملك الموت :

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون الآية : 99)

لم يقل : أرجعوني لأتمم البناء ، لأتمم الصفقة ، لأتمم الدراسة ،

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

الذي تندم عليه هو أهم شيء كنت فيه .

إذاً الآية الكريمة :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

أنت جئت إلى الدنيا من أجل العمل الصالح ، ليكون العمل الصالح ثمن جنة عرضها السماوات والأرض ، فإذا كان عمل إنسان حظه قليل من الآخرة ، لكن من هو الذي خسر الخسارة العظمى ؟ الذي ليس له عمل في الدنيا ، بعض العلماء أشار إلى لفتة لطيفة جداً أنه :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[أخرجه مسلم]

فكيف الذي يموت ، وليس له عمل إطلاقاً ، كيف الذي يموت وأثقال الأعمال السيئة في عنقه ؟ إخواننا الكرام ، يجب على الإنسان أن يفكر في مصيره ، أما الذي يعيش وقته ، ، ولا يفكر فيما سيكون فهو إنسان بعيد بُعْد الأرض عن السماء عن أن يكون فالحاً .

الآن : أنت في الدنيا من أجل العمل الصالح ، كيف ؟ لو أن جهة رفيعة المستوى وعددتك بأن تكون رئيس جامعة ـ المثل افتراضي ـ ولك بيت بأرقى أحياء دمشق ، وتركب أفخر مركبة ، وتقترن بأجمل زوجة ، ولك في مكان جميل قصر ، بشرط أن تأتي بالدكتوراه من بلد معين ، أنت ذهبت إلى هذا البلد، لك هدف واحد ، هو أن تنال الدكتوراه من هذا البلد ، لذلك تختار آلاف الوسائل التي تعينك على بلوغ هذا الهدف .

أنت حينما تعرف الله ، وتؤمن بالله يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن علة وجودك في الدنيا أن تعمل عملاً صالحاً تستحق به دخول الجنة .

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

صدقوا أيها الإخوة أنّ العمل الصالح ليس داخلاً في حياة معظم الناس ، يقول أحدهم ، أنا مشغول ، دعني في همومي ، كل حركته في الحياة لمصلحته ، لبيته ، لدخله ، لرفاه ، لنعيمه ، لاستمتاعه بالحياة، يعتذر بلطف بالغ ، معه أموال طائلة يطلب منه قرض يقول لك ، ما عندي نقدٌ ، يطلب منه خدمة ، يطلب منه أن يتصل بإنسان وهو صديقه لتحل مشكلة إنسان مظلوم عنده ، يقول لك : لا أبذل ماء وجهي أمام أحد ، معظم الناس العمل الصالح ليس داخلاً في برنامجهم ، دخل ببرنامجه متعه ، وبيته ، ومكاسبه ، وشأنه ، ومكانته ، وتألقه ، ودخله ، واستمتاعه بالحياة ، لكن لم يدخل في حسابه أن يقدم عملاً لله عز وجل ، مع أن هذا الذي لا يعمل صالحاً كالذي يذهب إلى بلد بعيد لينال دكتوراه ، وسوف ينتظره في بلده كل شيء ، فذهب ولم يدرس .

ذهب أحدهم إلى الحج ، ورجع محمَّلاً ببضائع تمول أكبر محل تجاري ، ما ترك أداة ما اشتراها ، بعدما وصل المطار قال : يا الله نسيت أن أحج .

هذا وضع الذي يأتي إلى الدنيا ويغادرها ، وليس له عمل صالح ، ميت ، لا قيمة له .

(صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام الآية : 124)

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

(سورة الكهف)

احفظ هذه العبارة : حجمك عند الله بحجم معملك الصالح .

معنى العمل الصالح

ما معنى العمل الصالح ؟ العمل الصالح معناه ما كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وهذا لا يعلمه أحد إلا الله ، قضية النية لا يعلمها أحد إلا الله .

بالمناسبة أنت لك صفات ، ثلاثون بالمئة من هذه الصفات يعلمها مَن حولك ، كونك رجلا ولست أنثى، كونك مهندسا ، ولست جاهلاً ، كونك طبيبا ، كونك طويل القامة ، لونك أسمر ، كونك ألمعيا ، هناك صفات يعلمها مَن حولك ، هذه تساوي من شخصيتك 30 % فقط ، و30 % أو 33 % أخرى يعلمها من يحتكّ بك ، زوجتك ، أولادك ، شريكك ، من يجاورك ، من تسافر معه ، من تعامله بالدرهم والدينار ، و33 % ثالثة لا يعلمها أحد إلا الله ، 33 يعلمها من حولك ، و33 يعلمها من كان على صلة متينة معك ، و 33 الثالثة لا يعلمها أحد إلا الله ، وقضية النيات من القسم الثالث ، هذا سر بينك وبين الله ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((إنَّمَا الأعْمالُ بالنِّيَّاتِ))

[متفق عليه عن عمر بن الخطاب]

يقيم العمل حرصاً بالنية .

((ونية المؤمن خير من عمله))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

((ونية الفاجر شر من عمله))

[رواه العسكري في الأمثال عن نواس بن سمعان]

كل ما فعل من شرور يتمنى أن يفعل أكثر .

بالمناسبة أيها الإخوة ، هناك حقيقة مذهلة قالها سيدنا علي : << فاعل الخير خير من الخير ، وفاعل الشر شر من الشر >>، كيف ؟

إن الإنسان الذي ألقى قنبلة على هيروشيما من ستين سنة أو سبعين سنة ، وانتهت بها الحرب العالمية، هؤلاء الذين ماتوا في ثلاث ثوانٍ 300 ألف ، لو استمر الزمان مضى خمس وخمسون ثانية ، كلهم ميتون ، فوقت هذا الشر الذي وقع ينتهي ، أما هذا الذي أراد أن يميت 300 ألف إنسان في ثانية هذا يعذب بهذا العمل إلى أبد الآبدين ، ففاعل الشر شر من الشر .

إنسان أنشأ مدرسة ، أنشأ ميتما ، أنشأ مستشفى ، هذه تعمل بانتظام من ثلاث وثمانين سنة ، لكن يوم القيامة تنتهي الحياة ، وينتهي المستشفى ، وينتهي الميتم ، وينتهي التعليم ، وينتهي كل شيء ، أما هذا الذي قدم العمل لله عز وجل فهو خير من الخير ، << فاعل الشر شر من الشر ، وفاعل الخير خير من الخير >> .

شروط العمل الصالح :

1 ـ الإخـــلاص :

أيها الإخوة ، العمل ينبغي أن يكون خالصاً ، وابتغي به وجه الله .

قال لي مرة أحدهم : كيف أرقى بنيتي ؟ قلت له : سؤالك تماماً كما لو سألت طبيبا وقلت له : من فضلك أريد منك معلومة واحدة ، قال لك : تفضل ، قلت له : كيف تكتب وصفة للمريض ؟ قال له : وصفة ؟! هذه الوصفة محصلة دراسة 33 سنة ، وشهادة ثانوية بتفوق ، وسبع سنوات في كلية الطب ، بعد هذا بعثة إلى بلد بعيد عشر سنوات أخر حتى حصل على بورد ، حتى قدر أنْ يكتب وصفة ، فيريد أخونا أنْ يتعلمها في خمس دقائق .

كيف تكون نيتي عالية ؟ هذه النية العالية محصلة إيمانك ، استقامتك ، جهادك ، ضبط أعضائك ، ضبط جوارحك ، ضبط بيتك ، محصلة إيمانك وعملك ، ومعرفتك بالله عز وجل ترتقي بها ، لذلك العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله

2 ـ موافـقة السنــة :

وصواباً ما وافق السنة ، إذاً ليس مقبول عند الله أن نجري (يانصيب خيريا) ، أو حفلة غنائية ساهرة يرصد ريعها للأيتام ، العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وصواباً ما وافق السنة .

قيمة العمل بامتداد أمَدِه

إخواننا الكرام ، العمل يقيم بامتداد أمده ، لك عمل أطعمت جائعًا ، خلال ربع ساعة شعر بالشبع ، الله يجزيك الخير ، أكل الساعة التاسعة ، الساعة الثانية جاع ، انتهى العمل ، يريد أن يأكل مرة ثانية ، عالجت مريضا من مرض فشفي ، جاءه مرض ثان ، فالعمل يقيم بامتداد أمده ، هناك عمل قصير ، وهناك أعمال يموت أصحابها ، ويمضي بعد موتهم السنوات ، والعقود ، والحقب ، والقرون ، وأعمالهم باقية ، فإذا كنت بطل فاعمل عملا يستمر بعد موتك .

والله مرة افتتح مسجد في منطقة في الغرب ، سبحان الله ! الذي أنشأ هذا المسجد له وجه كالبدر من شدة فرحه ، ودعى علماء دمشق إلى حفل افتتاحه ، وألقيت كلمات واسعة ، ولما انتهى الحفل خرجت

من هذا المسجد ، فإذا على الضفة المقابلة له ملهى ، كل أنواع الموبقات في هذا الملهى ، تصورت كيف يقف يوم القيامة الذي أنشأ هذا المسجد بين يدي الله عز وجل ، وكيف يقف هذا الذي أنشأ الملهى بين يدي الله عز وجل ، الذي أنشأ الملهى بعد أسبوع من افتتاحه مات ، ولا تزال الموبقات في هذا المكان ، أعظم عمل صالح أن يستمر العمل ونحن تحت أطباق الثرى .

أحياناً أسمع درسا لعالم جليل في إذاعات العالم العربي ، وقد توفاه الله ، والحق مستمر ، هذه الصدقة الجارية :

((إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[أخرجه مسلم]

مرة توفي أحد علماء دمشق الأجلاء المخلصين ، والتعزية بجامع الأموي ، بعد أن انتهت التعزية قام ابنه ، وألقى خطبة كأبيه تماماً ، فقلت : والله ما مات الأب ، هذا الابن صدقة جارية ، ولد ينفع الناس من بعده .

لذلك العمل يقيم بامتداد أمده .

قيمة العمل باتِّساع رقعته

لكن هناك عمل تتسع رقعته ، قد تذهب إلى أطراف الشرق ، إلى استراليا ، هناك دعوة إسلامية ، إلى أمريكة هناك دعوة إسلامية ، الإسلام انتشر في القارات الخمس ، جاء بالإسلام رجل واحد ، لكن الله عز وجل جعل هذا الإسلام تتسع رقعته ، ويمتد أمده .

زارنا ضيف مرة من بلد بعيد في عطلة رسمية بمناسبة عيد المولد ، فمرافقه من أحد إخواننا قال له : الوضع غير طبيعي بالبلد ؟ قال له : عندنا عطلة رسمية ، قال له : ما المناسبة ؟ قال له : عندنا رجل عظيم هو نبي هذه الأمة : قال له : من أي سنة توفي ؟ قال له : من 1500 ، فكاد يصعق ، من 1500 عام ؟! وتعطلون يوم ميلاده ؟! شيء غير معقول ، إذاً العمل قيمته بامتداد أمده .

إخواننا الكرام ، العمل يُقيم أو يُقوم كلاهما صحيح بامتداد التأثير ، بامتداد الأمد ، يستمر مئة عام ، مئتي عام ، أف عام ، ألفي عام ، هذا عمل عظيم ، وهناك أعمال جليلة قام بها أحد العلماء ، وأثرها مستمر ، وقد تستمر بعد موتهم ، وهناك أعمال تتسع رقعتها ، تشمل بلادا عديدة .

أحياناً دعوة إلى الله تتسع لمعظم البلاد ، نقول : امتدد أمدها ، واتسعت رقعتها ، لكن هناك أعمال فيها قوة تأثير ، وأحياناً يتأثر الإنسان بطعامه ، يكون كتاب التغذية قوي جداً ، مقتنع جداً ، كل تأثير الكتاب متعلق بالغذاء فقط ، أما دعوة تغيير تفكيرك ، تصوراتك ، ومبادئك ، وقيمك ، وحركتك بالحياة ، لها علاقة بزواجك ، وبعملك ، وباختصاصك ، وبخدمتك للناس ، تتغلل بأعماقك حتى تظهر آثارها بكل

نشاطاتها ، بكل أوقاتك ، وبكل أحوالك ، وبكل أعمارك هذه دعوة تأثيرها قوي جداً ، هناك تأثير أحادي، و هناك تأثير أحادي عميق ، وتأثير عام ضعيف ، لكن هناك تأثير عميق جداً وشمولي ، هذه دعوة النبي عليه الصلاة والسلام .

شمولية الأحكام الشرعية لجميع نواحي الحياة

تجد المؤمن بدءاً من فراش الزوجية ، وحتى العلاقات الدولية يحكمها منهج الله ، كل دقيقة عنده حكم شرعي ، إذا استفزه إنسان :

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

(سورة آل عمران الآية : 134)

إذا بغى عليه إنسان :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

(سورة الشورى)

في كل حركة من حركاتك ، في كل سكنة من سكناتك ، في كل لحظة من لحظاتك ، في كل أحوالك ، في كل أطوارك ، في ليلك ونهارك ، في سفرك وإقامتك ، في غناك وفقرك ، قبل الزواج وبعد الزواج، في المرض والصحة ، في الغنى والفقر ، المنهج تأثيره متغلغل في الأعماق يصل إلى مستوى الشمول.

تنوّع الأعمال الصالحة

هناك أعمال صالحة أيضاً متنوعة ، هناك إنسان يؤلف القلوب ، وإنسان يؤلف الكتب ، و هناك إنسان يجمع بين تأليف القلوب وتأليف الكتب ، وإن كان تأليف الكتب تأثيره أطول أمداً ، وتأليف القلوب أعمق أثراً ، وأقلّ أمداً .

الإمام الغزالي كما يقال : كان في مجلسه 400 عمامة ، لكن بعد أن توفاه الله انتهى الدرس ، ماذا بقي؟ كتاب الإحياء ، الإحياء كتاب عظيم .

إذاً قضية امتداد الأمد ، واتساع الرقعة ، وعمق التأثير ، وتنوع التأثير ، هذا شيء مطلوب للمؤمن .

العمل الصالح بين العقبات والمعوقات والصوارف

أيها الإخوة ، أحياناً يكون هناك عمل صالح ، لكن ليس أمامه عقبات ، ولا معوقات ، العمل الخيري عمل عظيم دائماً ، أما الطرف الآخر الآن انتبه لهذا العمل ، صار عليه تدقيق كبير ، صار صاحبه

متهما سلفاً ، فظهرت معوقات ، وأحياناً تكون القوة لغير المؤمنين ، وصار أداء الشعائر صعبا جداً ، وأداء العبادات صعبا جداً ، وأيّ دعوة متهمة ، وكلما كثرت المعوقات كبر الأجر .

أحيانا هناك صوارف ، هناك مئة نشاط يصرفك عن الدين ، الحياة الآن بأبهى زينة ، فتن يقظة ، شهوات مستعرة ، كل شيء جميل ، كل شيء يدعو إلى المعصية ، كل شيء يدعو إلى المتعة ، مئة قناة للفجور ، و هناك أشياء تسلي الإنسان ، كالمسرحيات ، ودور لهو ، ومسابقات ، وألعاب ، وشاشة، وصوارف عن الدين لا يعلمها إلا الله ، فإذا كان هناك عقبات كثيرة ، ولأن الإنسان أخذ موقفا دينيا يتّهم، وصار أمنه في خطر .

هناك صوارف عديدة جداً ، معنى ذلك أنّ العمل عظيم وكبير .

إذاً : العمل يقيّم بقدر العقبات التي توضع أمامه ، وبقدر الصوارف التي تزل قدم الإنسان بها ، فينصرف عن هذا العمل ، وأحياناً العمل يزداد أجره إذا قلّ المعين عليه .

((اشتقت لأحبابي ـ هكذا قال عليه الصلاة والسلام ـ قالوا : أو لسنا أحبابك ؟ قال : لا ، أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر ، أجرهم كأجر سبعين ، قالوا : منا أم منهم ؟ قال : بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

[ورد في الأثر]

إذا أنفق الإنسان الآن ماله ، يقولون له : مجنون ، أو عملَ عملا صالحا ، فكلما اشتدت العقبات ، و تنوعت الصوارف ، وقلّ المعين على العمل يزداد العمل الصالح ، وكلما امتد أثره ، وامتد أمده تزداد قيمته ، وكلما اتسعت رقعته تزداد قيمته ، وكلما تعمق أثره تزداد قيمته ، وكلما تنوعت آثاره تزداد قيمته ، وكلما كان شمولياً شمل الحياة كلها تزداد قيمته .

أحيانًا يعلمك إنسان ال تجويد ، الذي علم التجويد على العين والرأس ، وفضل علينا ، لكن أتقنت لبنة ببناء مئة طابق ، أتقنت لبنة واحدة من هذا البناء ، هو عمل عظيم ، لكنه محدود ، أما أنْ يدلك إنسان على الله أحياناً ، فتنعكس مقاييسك مئة درجة ، كنت تحب الأخذ فأصبحت تحب العطاء ، كنت تحب الشهوة فأصبحت تحب الحقيقة ، كنت تأخذ فأصبحت تعطي ، كنت تغضب فأصبحت تحلم ، كنت تمضي الوقت بلا طائل فأصبح الوقت عندك ثميناً جداً ، كنت عصبي المزاج فأصبحت حليماً ، وتزداد قيمة الأعمال الصالحة عند فساد المجتمعات ، واضطراب الأحوال ، كل يوم تهديد ، وكل يوم ضغط ، وساعة ارتفع الدولار ، وساعة نزل ، وساعة حصار اقتصادي ، كل يومين تهديد وضغط ، وحينما يجور الأمراء ، وحينما يتجبر الأقوياء ، وحينما يترف الأغنياء ، وحينما يداهن العلماء ، وحينما تشيع الفاحشة ، فما بقي للزوج شيء من زوجته ، كل مفاتنها للناس ، عمومي ، وحينما يظهر المنكر ، وحينما يختفي المعروف تزداد قيمة العمل الصالح .

((كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ، ولم تنهوا عن منكر ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده ، وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده ، وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ، ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، والذي نفسي بيده ، وأشد منه سيكون ، يقول الله تعالى : بي حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران))

[أخرجه ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة]

في بلد إسلامي ، لكن هذا شيء قديم ، الآن له وضع آخر رائع جداً ، أعطي أعلى وسام لأكبر امرأة تدير بيوت الدعارة ، لأنه حققت للبلد دخلاً كبيراً جداً ،

((كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا ؟))

فمثل هذه الأوقات : عند فساد المجتمعات ، ، واضطراب الأحوال ، وجور الأمراء ، وتجبر الأقوياء ، وترف الأغنياء ، ومداهنة العلماء ، حينما تشيع الفاحشة ، ويظهر المنكر ، ويختفي المعروف ، حينما تكون العبادة في الهرج كهجرة إلي .

حينما يؤتمن الخائن ، ويخوّن الأمين ، يكذب الصادق ، ويصدق الكذوب ، حينما يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ، ولا يستطيع أن يغيّر ، إن سكت استباحوه ، وإن تكلم قتلوه ، في مثل هذه الأوقات الذي يقبض على دينه كالقابض على الجمر تزداد قيمة العمل الصالح .

أيها الإخوة الكرام ، " ربّ عمر اتسعت آماده ، وقلّت أمداده ، وربّ عمر قليلة آماده ، وكثيرة أمداده ، ومن بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من المنن ما لا يدخل تحت دائرة العبارة ، ولا تلحقه ومضة الإشارة " .

بصراحة : أنت فتحت محلك التجاري ، داومت 12 ساعة ، الغلة مئة ليرة ، وهناك رجلٌ فتح ساعة الغلة فكانت مليون ليرة ، فقيمة المحل لا بالدوام بل بالغلة ، فهناك عمر قصير ، وهذا الإمام الشافعي عاش دون الخمسين ، وهذا الإمام النووي دون الخمسين ، ترك رياض الصالحين ، وما من بيت في العالم الإسلامي ليس فيه رياض الصالحين ، ترك الأذكار ، ترك كتابا في الفقه من أعلى ما يكون ، وشرح صحيح مسلم ، وكل عالم ترك آثارا علمية ينتفع منها المسلمون لألف عام قادمة .

كنت مرة في قرية ازرع ألتقي مع الطلاب الصغار فسألتهم عن ابن القيم الذي يعد علماء المسلمين الآن عالة على كتبه ، وولد في ازرع ، و قرية نوى فيها الإمام النووي ، وهناك علماء كبار تركوا آثارا لا يعلمها إلا الله .

أيها الإخوة ، ورد في بعض الأدعية :

((لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علما ، ولا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قرباً))

[ورد في الأثر]

الخلاصة

أنه :

ـ يجب أن تعلم أن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح .

ـ والعمل الصالح يقيم بادئ ذي بدء بنيته .

ـ ثم يقيم بامتداد أمده .

ـ ثم باتساع رقعته .

ـ ثم بعقم تأثيره .

ـ ثم بتنوع تأثيره .

ـ ثم إذا استمر بعد الموت فهذا من أعظم الأعمال الصالحة .

لسيدنا علي كلمة يقول : << إنه ليس شيء شر من الشر إلا العقاب ، وإنه ليس شيء خير من الخير إلا الثواب ، وكل شيء في الدنيا سماعه خير من عيانه ، وكل شيء في الآخرة عيانه أعظم من سماعه، فليكفكم من العيان السماع ، ومن الغيب الخبر ، واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا ، فكم من منقوص رابح ، وكم من مزيد خاسر ، واعلموا أن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه ، وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم ، ذروا ما قلّ لِما كثر ، وما ضاق لِما اتسع ، وقد تكفل لكم بالرزق ، وأُمرتم بالعمل ، فلا يكن المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم ، فبادروا بالعمل ، وخافوا بغتة الأجل ، ومما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته ـ دققوا ـ علم علمه ونشره ، أو ولد صالح تركه ، أو مصحف ورثه ، أو مسجد بناه ، أو بيت لابن السبيل أو نهر أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته >>.

يجب أن يدخل العمل الصالح في برنامجنا اليومي ، اسأل نفسك مساء : ماذا فعلت من أعمال صالحة ؟ قيمة اليوم بعمله ، هو وعاء العمل ، وأنت مخلوق للعمل ، والعمل الصالح ثمن الجنة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(57-73): تفسير الآيتان 133 - 134
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-03-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الثالثة والثلاثين بعد المئة وما بعدها بآيتين ، يقول الله عز وجل :

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)

اسم الله الأعظم

أيها الإخوة الكرام ، يعتقد بعضهم أن كلمة(الرب)اسم الله الأعظم ، لذلك جاءت في بعض المصاحف ملونة بلون مغاير ، وبعضهم يعتقد أن اسم (الرحمن)و (الرحيم)هما اسم الله الأعظم الذي إذا دعوت به أُجبت ، وإذا دعي الله به استجاب ، وبعضهم يقول : لكل حالة أنت فيها هناك اسم الله الأعظم ، فإذا كنت في ضيق مادي فاسم الله الأعظم في الضيق المادي هو (المغني)وإذا كنت ـ لا سمح الله ولا قدر ـ في مشكلة صحية فاسم الله الأعظم في هذه الحالة هو(الشافي)، وإذا كنت في وضع لك أعداء كبار وحاقدون ، ويتمنون فناءك فاسم الله الأعظم (القدير)و (الناصر)لذلك كل حالة أنت فيها هناك اسم من أسماء الله الحسنى يكون مع هذه الحالة اسم الله الأعظم ، وأسماء الله كلها حسنى ، وصفاته كلها فضلى ، لأنه ذات كاملة ، ولا يُقبل ولا يُعقل أن يكون كمال الله إلا كمال مطلقاً ، ولكن عقولنا قاصرة عن فهم بعض أفعاله .

لو أن طفلاً صغيراً رأى أباً يؤدب ابنه ، يقول : إنه ظالم ، أما حينما يعلم أن هذا الابن له مكانة عند أبيه لا يعلمها إلا الله ، لكنه رأى في يد حاجة أخذها من رفيقه من دون إذن فلابد من إحداث خبرة مؤلمة عند هذا الطفل حتى يرتدع عن أخذ ما ليس له ، لا يعرف حكمة الأب في تأديب ابنه إلى الأب ، أما الطفل الصغير صديق الطفل الذي يُؤدب فيظن أن الأب ظالمٌ .

لذلك عقولنا قاصرة عن أن نفهم حكمة الله ، وأحياناً لا نمكن أن نفهم لعقلنا حكمة الله إلا بحالة مستحيلة إلا أن يكون لنا علم كعلم الله .

طرق معرفة الله

لذلك هناك طرق ثلاثة يمكن أن تكون سبباً في معرفة الله

الطريق الأول : الآيات التكوينية

آياته الكونية ، وهذا الطريق أسلم طريق ، لأنك كلما زدت الآيات تفكراً ازددت معرفة بالله عز وجل ، ودائماً أقول : إن التفكر في خلق السماوات والأرض هو أقصر طريق إلى الله ، وأوسع باب ندخل منه على الله لأنه يضعك وجهاً لوجه أمام عظمة الله .

لذلك استأذن عليه الصلاة والسلام مرة زوجته عائشة في أن يقوم الليل ، وهذا أدب رفيع ، فصلّى وبكى حتى بلّ لحبته ، ثم صلى وبكى حتى بلّ الأرض ، فجاءه بلال يؤذنه لصلاة الفجر فرآه يبكي ، فقال له : يا رسول الله ، مالك تبكي ، وقد غفر الله لك ما تقدم لك من ذنبك وما تأخر ؟ يقول عليه الصلاة والسلام لبلال : كيف لا أبكي ، وقد أنزل عليّ الليلة :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ *الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

قال عليه الصلاة والسلام :

((الويل لمن لم يتفكر بهذه الآية))

[ابن حبان]

هذا أسلم طريق لمعرفة الله التفكر في خلق السماوات والأرض .

الطريق الثاني : تدبُّر القرآن

هناك طريق آخر لا يقلّ عنه أهمية ، إنه تدبر القرآن الكريم ، لأن الكون خلقه ، والقرآن الكريم كلامه، الطريق الثاني والآمن والرائع :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

تدبر آيات القرآن الكريم .

الطريق الثالث : أفعال الله عزوجل

هذا الطريق لا بد من أن نسلكه ، ولكن يجب أن يأتي بعد الطريق الأول والثاني ، إنه طريق أفعاله ، فأفعاله أيضاً يمكن أن تقدم لها تعريفاً بذاته العلية ، ولكن لا بد من أن تفهم حكمته بعد فهمه كلامه ، وبعد فهم كونه .

إذا ذهبت إلى بلد غربي وجدت الغنى الذي لا يصدق ، وجدت البلاد الجميلة ، المساحات الخضراء ، القوة ، النظام ، ووجدت الفسق والفجور ، وكل الانحرافات التي تهبط بالإنسان إلى أدنى مستوى ، إذا قرأت القرآن الكريم ، وقال الله لك :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

إذاً هؤلاء بحسب هذه الآية خارج العناية المشددة الإلهية ، أما إذا وجدت بلداً مسلماً فيه صلاة ، وصيام، وعمل ، وأعمال صالحة ، وإنفاق ، لكن وجدت مشكلات لا تعد ولا تحصى ، لعل هؤلاء المسلمين في العناية المشددة ، ولعل الله سيرحمهم ، وتؤكد هذه المعاني آية كريمة :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

إذاً إذا قرأت القرآن الكريم يمكن أن تفهم حكمة الجليل ، ليكن فهم أفعال الله بعد التفكر في آياته الكونية، وبعد تدبر آياته القرآنية ، يأتي القرآن ليبين لك :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

الموازين المقلوبة في العالم وحكمة الله في ذلك

لا شك أنه ما من مسلم على وجه الأرض إلا ويتألم أشد الألم من الحرب العالمية الثالثة التي أُعلنت على المسلمين ، في كل بقاع الأرض ، ولا شك أن الكيل بألف مكيال ومكيال يكاد الإنسان يخرج من جلده .

فتاة تضع على رأسها قطعة قماش في فرنسا تنفيذاً لأمر إلهي ودين سماوي يدين به ثلث سكان الأرض، تقوم الدنيا ولا تقعد ، بينما فتاة أخرى في بلاد بعيدة ترتدي ثياب الشاذات ، والمدير يفصلها ووالد الفتاة يقيم دعوى على المدير ، ويحكم له القاضي بمبلغ كبير قال : لأن إدارة المدرسة اعتدت على حُريتها .

حينما تسقط طائرة ، وتتهم جهة عربية بإسقاطها تدفع هذه الجهة مليارين و700 مليون تعويضات لـ 270 راكب ، كل راكب تعويضه 500 مليون ل.س ، عشرة ملايين دولار ، أما ممرضات في ليبيا يحقن 400 طفل بفيروس الإيدز تضع أوربا كل ثقلها لتبرئة الممرضات ومنع عقابهم .

بلد إسلامي يريد أن يجري مفاعلاً نووياً لأهداف سلمية ، تقوم الدنيا ولا تقعد العالم كله يقوم ضدها ، بينما أعداءنا عندهم مئتا رأس نووي ، يهددون أمن المنطقة لا أحد يحاسبه ، يعني في مفارقات لا تحتمل ، لكن بعد حين ترون إن أمد الله بأعماركم ، وأمد الله أعماركم سوف ترون الحكمة البالغة من هذا الذي يجري الآن .

إخواننا الكرام ، كان الإسلام في زاوية النسيان في العالم ، معتماً عليه ، فقفز الآن إلى بؤرة الاهتمام ، وجعل الله عز وجل هذا الدين ورقة رابحة بيد من بيده الأمور بعد أن كان ورقة خاسرة ، وهناك من يلمس النتائج الإيجابية التي كانت بعد 11 من أيلول .

الحضارة الغربية بريق وخِداع

شيء آخر ، هو أن الحضارة الغربية في الحقبة الأخيرة خطفت أبصار أهل الأرض ، لأن الغربيين يتمتعون بذكاء وقوة ، وبلادهم جميلة ، وهم أقوياء ، وأذكياء وأغنياء ، وخطفوا أبصار أهل الأرض ، ونافسوا الدين ، وطرحوا قيماً رائعة جداً ، طرحوا قيمة الحرية ، والديمقراطية ، و حقوق الإنسان ، وتكافؤ الفرص ، والعولمة بالمفهوم الأصلي احترام جميع الأديان ، لكنهم بعد الأحداث الأخيرة سقطوا كحضارة ، وأصبحوا كقوة غاشمة ولم يبقَ من منهج يستوعب قضايا الإنسان ، ويحل مشكلات الإنسان إلا الإسلام ، لذلك الخطر الذي يتهددهم لا في الجاليات الإسلامية في بلادهم التي تتنامى ، ولكن في اتساع رقعة المسلمين بين شعوبهم الأصلية ، والإسلام اليوم أول دين ينمو في العالم ، وكلاما زدته حرباً ازداد قوة .

وأنا أقول لكم دائماً : المؤمن يحترم قرار الله عز وجل ، كان من الممكن أن يكون الكفار في كوكب ، والمؤمنون في كوكب ، وكان من الممكن أن يكون الكفار في قارة والمؤمنون في قارة ، وكان من الممكن أن يكون الكفار في حقبة زمنية والمؤمنون في حقبة أخرى ، ولكن شاءت حكمة الله أن يجتمع

المؤمنون مع غير المؤمنين في كل البلاد ، وأن تكون بينهم معركة أزلية أبدية هي معركة الحق والباطل ، ذلك أن الحق لا يقوى إلا بالتحدي ، وأن أهل الحق لا يستحقون دخول الجنة إلا بالتضحيات والبذل ، وأن أهل الباطل هم عباد الله أيضاً ، الله عز وجل أدخلهم في هدايته ، أدخلهم في عنايته ، فضيق عليهما أحياناً ، لذلك

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

إذا قلت لكم : إن كتاباً أُلف من قبل مؤلف في شرق آسيا ، واتهم بيت النبي أنه بيت دعارة ، هو سلمان رشدي ، بسبب هذا الكتاب أسلم 20 ألف بريطاني ، الغربيون يقرؤون ، وأنا أؤكد لكم واللهِ عقب هذه الصور التي شوهت مكانة النبي عليه الصلاة والسلام والله سيدخل في الإسلام مئات الألوف بسبب هذه الصور ، وهذا شيء يجب أن يكون واضحًا عندكم ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

ورُبَّ ضارة نافعة .

أيها الإخوة ، بيتان من الشعر رائعان جداً :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حســـــود

لولا اشتعال النار فيمـا جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

***

قد يكون الإنسان مستقيمًا ، لكن في التعتيم ، فيأتي من يتهمه بتهم باطلة ، فينهض الآخرون للدفاع عنه، فإذا به يتألق ، لذلك أخطر شيء في حياة الأمة أن تهزم من داخلها ، من الداخل يجب أن تكون معنوياتكم عالية جداً ، الآية الكريمة :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

(سورة غافر الآية: 51)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

أكثر أسماء الله لصوقًا بالمسلم اسم (الربّ)

إذاً يقول الله عز وجل :

(وَرَبُّكَ)

ألصق اسم من أسماء الله الحسنى بالإنسان اسم الرب ، ألصق إنسان في حياة الطفل أمه ، لأنها تربيه تعتني به ، تعتني بجسمه، تعتني بطعامه ، تعتني بأخلاقه ، تعتني بنومه، تعتني بحركته ، تعتني في نزهته ، تعتني به ، لذلك كلمة أم كلمة محببة ، وكلمة رب كلمة محببة ، رب العالمين هو الذي يرعاك، هو الذي يمدك بما تحتاج ، هو الذي يعاقبك أحياناً ، هو الذي يكرمك أحياناً ، هو الذي ينصرك أحياناً هو الذي يرزقك أحياناً ، هو رب العالمين ، مربي .

قال الله عز وجل :

(وَرَبُّكَ)

أيها الإنسان ، وأكبر شرف يناله الإنسان أن ينتسب إلى الله عز وجل .

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر الآية: 53)

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ

(وَرَبُّكَ)

يا محمد ، من ربك ؟

(الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

أحياناً تجد الغني قاسياً ، ينفق مئات الألوف في اليوم الواحد ، ويحاسب من عنده في المعمل على ليرة أو ليرتين ، إنها قسوة بالغة ، لكن الله سبحانه وتعالى أسمائه كلها حسنى .

للتوضيح : أنت أحياناً تحب إنساناً حباً لا حدود له ، لكنك لا تقدره تقديراً عالياً ، أحيانا أقرباء الرجل الذين أحسنوا إليه ، وليكن والداه يحبهم من أعماق أعماق قلبه ، لكنه قد حصل علماً عالياً جداً ، ويجد أن أباه ليس في المستوى الذي يتمنى أن يكون فيه ، غير متعلم أحياناً ، فالإنسان أحياناً يحب إنساناً حباً جما ، لكن لا يقدّر علمه ، وأحيانًا تقدّر علم أستاذ جامعي ، لكنك لا تحبه ، فقد تقدر ولا تحب ، وقد تحب ولا تقدر ، ولكنك مع الذات الإلهية ، ولله المثل الأعلى ، بقدر ما تحبه تعظمه .

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

بقدر ما هو عظيم ، بقدر ما هو كريم ، هنا :

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

إذا اغتنى الإنسان يستغني عن الناس ويتكبر ، ويبتعد عنهم ، لكن الله عز وجل مع أنه غني عن عباده:

((لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ ، وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ لَمْ يَنْقُصْ ذلكَ منْ مُلْكِي شَيْئاً ؛ يا عِبادي ، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ ، وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ لَمْ يَزِدْ ذلكَ في مُلْكي شَيْئا ؛ يا عِبادِي ، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ ، وَجِنَّكُمْ كانُوا في صَعيدٍ وَاحدٍ وسألُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مِنْهُمْ ما سألَ لَمْ يَنْقُصْ ذلكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً إلاَّ كما يَنْقُصُ البَحْرُ ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ))

[رواه مسلم وغيره ، عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

ذلك لأن عطاء الله كلام وأخْذه كلام .

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

بالمناسبة ، أرحم الخلق بالخلق قاطبة هو سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام ، حينما بالغ أهل الطائف في إيذائه ، وبالغوا في التنديد به وفي تكذيبه ، وفي السخرية من دعوته ، بل بالغوا في إيذائه الجسدي ، وأغروا صبيانهم أن يضربوه ، وجاءه ملك الجبال ، وقال : يا محمد ، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين ، ماذا قال ؟ مكنه الله أن ينتقم منهم ، وأن يكون انتقامه منهم إبادة كاملة ، قال : لا يا أخي ، اللهم اهدي قومي إنهم لا يعلمون ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده ، لم يتخلَ عن قومه ، واعتذر عنهم ، ودعا لهم ، وانتظر أن ينجبوا أولاداً صالحين هذا مقام النبوة .

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

فسيد الخلق أرحم الخلق بالخلق ، نحن أحياناً نرحم أولادنا ، وإذا علا مقام أحدنا يرحم من حوله ، كلما علا مقامك تتسع دائرة رحمتك ، لكنك لا تحب أعداءك قولاً واحداً ، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام وسعت رحمته كل الخلق ، يحب كل بني البشر ، يتمنى لهم الخير ، لذلك قال الله عنه دققوا :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

تنكير ، رحمة .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

كل هذه الرحمة التي تتمتع بها إنما هي جزء يسير من رحمة الله ،

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

عندك قطعة أرض محدودة ، أما الأراضي كلها فعند فلان ،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف الآية : 58)

لذلك عبر النبي عن هذه الرحمة حينما رأى أماً تقبل ابنها ، وهي على طرف التنور ، كلما وضعت رغيفاً في التنور ضمته وقبلته وشمته ، فقال عليه الصلاة والسلام فيما ورد في بعض الآثار : أتلقي هذه المرأة بولدها إلى النار ؟ قالوا : معاذ الله ، قال : والذي نفس محمد بيده لله أرحم بعبده من هذه بولدها .

ما من علاقة في الأرض تفوق رحمة الأم بابنها ، ورحمة الله تفوق رحمة الأم بابنها هذه قصة رمزية.

القصة الرمزية الثانية : أن أحد أنبياء الله رأى امرأة على التنور ، تقبل ابنها وتضمه ، وتشمه كلما وضعت رغيفاً ، قال : يا رب ، ما هذه الرحمة ؟ قال : هي رحمتي أودعتها في قلب أمه وسأنزعها ، فلما نزع الله الرحمة من قلبه أمه ، وبكى ألقته في التنور انتهت الرحمة .

هل في عالم الحيوان حيوانات تأكل أولادها ؟ والعياذ بالله الآن في بعض الآباء والأمهات والعياذ بالله لهم قلوب قاسية على أبنائها ، إهمال شديد ، عدم اكتراث بعمله بزواجه ، يلقيه إلى قارعة الطريق ، ويتبع شهوته وحظوظه من الدنيا .

كلما اقتربت من الله كنت أرحماً بالخلق .

بالمناسبة ، إذا كان للرحمة مؤشر وللإيمان مؤشر ، دققوا : مؤشرا الرحمة والإيمان يتحركان معاً ، كلما ازدادت رحمتك ، وكلما زاد إيمانك زاد رحمتك ، والويل لمن قلبه قاسٍ .

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الزمر الآية : 22)

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي))

[رواه الديلمي عن أبو بكر رضي الله عنه]

رأت امرأة بغيّ كلباً يأكل الثرى من العطش ، نزلت بئراً وملئت خفها ماءاً وسقت الكلب فغفر الله لها .

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي))

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

وكلما اتصلت بالله تخلقت بكمالاته ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تتصل بالرحيم وتكون قاسياً ، وأن تتصل بالعدل وتكون ظالماً .

إخواننا الكرام ، الإسلام قضية مصيرية ، هل يكذب مؤمن ؟ مستحيل ، مؤمن يقسو ؟ يأخذ ما ليس له؟ يظلم ؟ مستحيل ، لكن هناك مؤمن عصبي المزاج .

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب))

[رواه أحمد وهو منقطع بين الأعمش وأبي أمامة]

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يخون المؤمن ، أن يكذب ، أن يغش ، أن يحتال أن يتكبر ، الإيمان طهر قلبه من كل الآثام والأضغان والأحقاد ،

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

بقدر ما هو غني بقدر ما هو رحيم .

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ

لا قوة مع قوة الله :

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)

من أنتم ؟ هذا الذي يعاند الحق ، هذا الذي يكون في خندق معادٍ للحق ، هذا الذي يتأبى على الله أن يعبده ، هذا الذي يتحدى الإله ، هذا الذي يكذب على الناس هو بثانية واحدة يصبح خبراً بعد أن كان رجلاً ، وهذا الرجل القوي الذي ما رحم إنساناً في تاريخ حياته أليس في ثانية واحدة انتهى ؟ ولم يمت بعد ، فالإنسان في قبضة الله ، من أنت ؟ من أنت حتى تقول أنا ؟ .

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ)

(سورة النساء الآية : 133)

الإنسان كله ، كل مكانته ، وكل قوته ، وكل جبروته ، وكل عظمته ثمنه خثرة من الدم لا تزيد على عشر مكرونات في أحد شرايين الدماغ ، ينتهي ، قد يكون ملكا ، انتهى الإنسان بسكتة قلبية ، بسكتة دماغية ، باحتشاء ، بتشمع كبد ، بفشل كلوي ، بفقر دم لا مصنع مات به ملك ، لأن معامل كريات الدم الحمراء كفت عن صناعة الكريات انتهى ، فقر دم لا مصنع ، الذي يقول : أنا ، هو أحمق ، من أنت ؟ أنت لا شيء ، كنت لا شيئا فأصبحت به خير شيء في الورى قد طبعك .

إذاً أيها الإخوة ، من أنتم ؟ نحن أحياناً نرى أن جهة في الأرض قوية جداً عندها قنابل ذرية ، وطائرات ، وأقمار صناعية ، ترصد كل حركة في الأرض ، وعندها أسلحة جرثومية وأسلحة كيماوية، وأسلحة تعطل الاتصالات ، وأسلحة تعطل الطاقات ، وعندها أسلحة تميت البشر وتبقي الحجر ، هذه موجودة ، وتتحدى العالم كله .

إنّ قوة زلزال تسونامي تجاوزت مليون قنبلة ذرية ، مليون رقم دقيق ، وأخذ من مجمع علمي في العالم الغربي ، زلزال تسونامي قوته تساوي مليون قنبلة ذرية ، فالله عنده كن فيكون ، زل فيزول .

كيف أن هناك رافعات كهربائية أساسها المغناطيس ، تحمل عشرين طنا ، وما من قوة تسحب قطعة منها ، أما العامل على هذه الرافعة فهو في مكان إذا ضغطه عشر الميلي متر وقطع الكهرباء عن هذه الرافعة كل شيء سقط فيها ، الله عنده هذه الكبسة .

هذا العالم الشرقي كان يملك قنابل ذرية كافية لتدمير خمس قارات ، الله عز وجل هو القوي .

((أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي ، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن هم عصوني جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ، وادعوا لهم بالصلاح ، فإن صلاحهم بصلاحكم ، ولكن توبوا إليَّ أعطفهم عليكم))

[ورد في الأثر]

يروى أن ملكا كان ظالما جداً ، وحقد على شيخ النجارين ، وهو مثل النقابات الآن شيخ النجارين يعني أعلى نجار ، مسؤول عن هذه الحرفة فأراد أن يقتله ، يريد مبررا طلب منه مئة كيس نشارة ، وأمهله إلى للصباح ، ولا يجمع في خمس سنوات ، أيقن أنه مقتول فكتب وصية ، وأنجز كل أعماله ، وودع أولاده ، مقتول 100 % وبعد أذان الفجر طرقوا بابه ، فقبّل أولاده ، وانطلق معهم ليقتلوه ، قال له : تعال واصنع التابوت ، مات الملك .

((أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي ، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة))

كلما ازددت تواضعا زادك الله عزاً ، كلما ازددت طاعة لله زادك الله قوة ، كيف وأن الله عز وجل أخبرك أنه يدافع عنك .

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج الآية : 38)

وإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا ربّ ، ماذا فقد من وجدك ، ماذا وجد من فقدك ؟

أيها الإخوة ، يقول أحد العلماء : ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري ، إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة ، فماذا يفعل أعدائي بي ؟

في الدنيا جنة فمن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

هناك حالات في القرآن الكريم الموت محقق بالمئة مليار ، فرعون بجبروته ، وقوته ، وحقده ، وأسلحته ، وجماعته ، يتبع شرذمة معهم سيدنا موسى .

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ)

(سورة الشعراء الآية: 61)

رأوا فرعون أمامهم ، والبحر أمامهم ، كم احتمال النجاة ؟ ولا واحد بالمليار .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء الآية: 61)

فصار البحر طريقاً يبساً ، فلما تبعهم فرعون غرق ، وعندي صورة لفرعون جاءتني بالبريد الالكتروني ، والله الذي لا إله إلا هو تقشعر منها الأبدان ، هذا الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

هذا الذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

أين هو ؟ والآن موجود بمتحف مصر .

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس الآية : 92)

يده هكذا ، بذلوا كل المحاولات كي تكون مستقيمة فلم يستطيعوا ، هكذا ، في أثناء الغرق مات على هذه الحالة ، والملح في فمه .

البطولة أن تعرف الله في الوقت المناسب

أيها الإخوة ، البطولة أن تعرف الله قبل فوت الأوان ، فكل إنسان يعيش واقعه فقط ، ولا يعبأ بالنصوص ، ولا بالوعد والوعيد يكون كالدابة ، وكل إنسان يأخذ كلام الله مأخذ الجد ، ويتفاعل معه ، ويتكيف معه يكون إنسان عاقل جداً .

مرة سألوا في الصحيفة طالبا نال الدرجة الأولى في الشهادة الثانوية : ما أسباب نجاحك وتفوقك ؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي ولا ثانية طوال العام الدراسي .

ونحن جميعاً نتزوج ، ونتاجر ، ونؤسس معمل ، ونأخذ دكتوراه ، لكن يجب ألا تغادرك لحظة الموت، هذه اللحظة تحاسب بها عن كل شيء .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

فالبطولة أن تؤمن بهذا الحدث الخطير أخطر حدث بحياتنا مغادرة الدنيا ، من بيت 140 متر لقبر ، من غرفة نوم ، وملاءات ، وأناقة ، وغرفة طعام ، وضيوف ، ومركبة فجأة بباب صغير ، انظر إلى القبر هذا هو المصير .

اشترى عالم جليل من علماء دمشق قبرا قبل سنوات من وفاته ، يزور القبر كل يوم خميس ، هنا المصير ، هذا مفهوم الموت ليس معناه أن تثبط معنوياتك أبداً ، لكنه واقع ، من أجل أن تتأقلم من منهج الله ، لك أن تكون بأعلى درجة في عملك ، في اختصاصك ، في حرفتك ، في دراستك ، لكن الموت يجعلك تمشي وفق منهج الله ، والموت يسرع الخطى إلى الله .

يقول سيدنا علي : << والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً >> ، لأن يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء .

يقول سيدنا علي : << والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي >>.

هذه البطولة ، وأنت حي ، وأنت قوي ، وأنت صحيح ، اعمل لآخرتك ، وأصلح دنياك .

(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة الأنعام الآية: 134)

إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآت

نحن جميعاً من دون استثناء أين نحن بعد مئة عام ؟ تحت التراب ، كلنا والذين كانوا قبلنا كان لهم هموم كهمومنا ، وطموحات كطموحاتنا وماتوا ، وانتهى .

قرأت مقالة عن رجل من أهل الفن بمصر يخاف من الموت خوفاً لا حدود له ، ما ركب طائرة في حياته ، ولا تناول طعاماً قبل أن ينام ، إلا الفواكه ، وما تناول إلا اللحم الأبيض ، السمك أو الدجاج ، و اعتنى بالرياضة وبصحته ، بعدها مات ، حسب أنه لا يموت ثم مات ،

(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

أين تذهب ؟ .

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)

(سورة التكوير)

مصيرنا إلى الله جميعاً ، قال الله عز وجل :

(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

معنى معجزين أي لن تستطيعوا التفلت من الحساب ، مهما كان الإنسان كبيراً دقق في هذه الآية :

(أَيْنَمَا تَكُونُوا)

(سورة النساء الآية : 78)

في أي مكان ، وفي أي مكانة .

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

(سورة النساء)

مرة قرأت مقالة عن إنسان حكم دولة بآسيا ، طائرته الخاصة فيها زيادات بـ 200 مليون دولار ، الزيادات فقط ، سيارته أيضاً تكتب عليها مقالات ، كل شيء في سيارته ، بأي مكان جميل في له قصر ، 86 قصر في العالم جاهزة لاستقباله كل 24 ساعة ، التدفئة ، والتكييف ، والطعام ، بعد هذا مات ،

(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ)

ما دام الموت محققاً فتأقلم معه من الآن ، تكييف معه ، وأعلى درجة بالذكاء هو التكييف ، التكييف مع الموت أعلى درجة بالذكاء .

والله مرة شيعت جنازة ، وأنا على القبر حينما وضع الميت في القبر والله الذي لا إله إلا هو ما وجدت على سطح الأرض إنساناً أعقل ممن يعد لهذه الساعة التي لا بد منها ، هذه البطولة .

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

أي لن تستطيعوا أن تتفلتوا من قبضة الله ، أنت في قبضة الله ، وسوف تأتي يوم القيامة فرداً ، لا هناك جماعات ، ولا هناك خمسون ألف اتصال أن هذا اتركوه ، هو من جماعتنا ، لا يوجد مثل هذا أبداً .

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام الآية : 94)

وفي آية :

(مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ)

(سورة الأعراف الآية : 48)

هناك تجمعات بالعالم ، الآن مثلاً دولة قوية جداً تعتدي ، كل الدول تناصرها ، على الظلم تناصرها من أجل مصالحها ، أوربا تجمع ، وآسيا تجمع ، وكل العالم فيه تجمعات ، هذا التجمع ينتهي يوم القيامة ،

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

إذاً :

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

لا تستطيعون التفلت من قبضة الله ، ولا من عقابه .

مرة كنا في مؤتمر في بلاد بعيدة ، والمؤتمر من تقاليده أن آخر يوم يجلس الضيوف ، وكنا 11 ضيفاً في لوس أنجلوس ، ويلقي كل ضيف كلمة في دقيقة واحدة ، ألقينا عشر محاضرات ، أما يوم الوداع هذا فالكلمة في دقيقة واحدة ، فكان إلى جانبي مندوب دولة أعانها الله على أن تنجو من محنتها ـ العراق ـ قال : والله أصاب المسلمين في هذا البلد من القهر ، والخوف ما لم يصب به المسلمون مجتمعين في مئة عام ، وبكى ، ثم قال : ولكننا والله التقينا في سلم الإيمان ما لم نستطع أن نلتقي به ولا في 300 عام ، فقلت بعده أنا : إذاً خطة الله استوعبت خطة الأقوياء ، ووظفتها لصالح المجتمع البشري .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(58-73): تفسير الآية 135، للإنسان مكان ومكانة لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-04-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ، مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الخامسة والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

معنى : اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ :

أيها الإخوة ، الله عزوجل يأمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول لقومه : قُل يا قومي ، والقوم كما تعلمون هم الجماعة ، وعادة تطلق هذه الكلمة على جماعة الرجال ، لأنهم مكلفون بالمهمات الجسيمة دون أن تنجرف مع من يقول : إن المجتمع الإسلامي مجتمع ذكوري .

النبي عليه الصلاة والسلام حينما يفتح مكة ، وحينما تدعوه بيوتاتها العريقة إلى أن ينام عندهم ضيفاً ، يقول : انصبوا لي بيتاً عند قبر خديجة ، ونصب لواء النصر أمام قبرها ليعلم العالم كله أن هذه المرأة التي في القبر شريكته في النصر .

الرجل والمرأة متكاملان في المجتمع :

لكن بعض المسلمين الذين هم ضعاف الإيمان ، ومعلوماتهم محدودة ينجرفون مع الطرف الآخر ليتهموا الإسلام بأنه مجتمع ذكوري ، وإذا ذُكر الإسلام لا يقفز إلى أذهان هؤلاء إلا أم المرأة ناقصة عقل ودين ، وإلا أن شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل .

وقد سُئلت مرة هذا السؤال من امرأة تحتل منصباً رفيعاً على الهاتف ، قلت لها : مليار و300 مليون مسلم يدخلون في ثاني أكبر عبادة في الإسلام بشهادة امرأة واحدة ، ما قولكم ؟ فإذا رأت امرأة الهلال ، وكان الاتفاق بين المسلمين أن يصوموا جميعاً برؤية واحد منهم كفت امرأة واحدة بشهادتها أن تدخل جميع المسلمين في ثاني أكبر عبادة في الإسلام .

وقد تلد امرأة من رجل ولداً ويموت ، إذا بكى قبل أن يموت هناك مسألة ، وإذا مات ، ولم يبكِ مسألة ثانية ، وقد يكون الفرق بمئات الملايين ، لو أن الرجل غني كبير ، من الذي يحسم هذا الأمر ؟ القابلة ،

بشهادة امرأة واحدة تتجه مئات الملايين من جهة إلى جهة إذا ، قالت ، إنه بكى قبل أن يموت ، أو لم يبكِ ، حالات رائعة جداً ، لكن ضعاف المؤمنين وضعاف الثقافة الإسلامية الفقهية ينجرفون مع من يتهم الإسلام أنه مجتمع ذكوري .

ألم يستشر النبي عليه الصلاة والسلام أم سلمة في صلح الحديبية ؟ ألم يستجب لمشورتها ؟ وتنجح مشورتها ، ألم يقل الله عز وجل :

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

(سورة الطلاق الآية : 6)

يعني تأمرها وتأمرك ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام :

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي قلت : من هذه يا جبريل ؟ قال : هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلهم))

(ورد في الأثر)

امرأة تنازع رسول الله دخول الجنة ؟! لذلك إن أردت أن تعرف عظمة هذا الدين اجهد في معرفته ، اجلس في مجالس العلم ، اقرأ الكتب الصحيحة .

لذلك القوم هم الجماعة ، وعادت تطلق هذه الكلمة على الرجال ، لأنهم مكلفون بالمهمات العويصة الصعبة ، لأنه :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

(سورة آل عمران الآية: 36)

الرجل والمرأة شتى في الخصائص الفكرية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والجسمية :

بمعنى أن خصائص الرجل الفكرية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والجسمية ، كمال مطلق للمهمة التي أنيطت به ، وأن خصائص المرأة الفكرية ، والنفسية ، والاجتماعية ، كمال مطلق للمهمة التي أنيطت بها ، المرأة والرجل متكاملان ، وليسا متشابهين .

((عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى علي بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي تقول : يا رسول الله ، أكل شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبرت سني ، وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات :

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله)))

(ابن ماجه بسند صحيح)

هناك أدوار متكاملة بين المرأة والرجل ، لذلك :

(قُلْ يَا قَوْمِ)

هم الجماعة ، وتطلق على جماعة الرجال ، لأن القيامة بالمهمات الصعبة من اختصاص الرجال .

(رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)

قال الله تعالى :

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)

(سورة آل عمران الآية : 35)

فأنجبت سيدنا عيسى ، المرأة أحياناً قد تنجب داعية كبيراً ، وقد تنجب عالماً كبيراً ، وقد تنجب مصلحاً اجتماعياً ، كل أعمال ابنها في صحيفتها ، وحينما تقرأ القرآن تجد كلمة قوم ، وتفهم منها أن المقصود بها الرجال ، الدليل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ)

(سورة الحجرات الآية : 11)

معنى كلمة القوم ودلالتها ولوازمها :

فالقوم جماعة الذكور ، والنساء جماعة الإناث ، قال بعضهم : سمي القوم قوماً لأنهم مكلفون بمهمات صعبة ، عليهم الجهاد ، عليهم الكسب ، عليهم العمل القوامة ، الإشراف ، أما المرأة دينها أربعة فصول، إذا صلت خمسها ، وصامت شهرها وحفظت نفسها ، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها ، الرجل أمامه مهمات صعبة ، كسب الرزق من أصعب الأشياء ولا سيما في هذه الأيام ، فالرجل له مهمات ، وعليه الجهاد ، وعلى المرأة ما يرتقي إلى مستوى الجهاد قال عليه الصلاة والسلام :

((انصرفي أيتها المرأة ، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل الجهاد في سبيل الله))

[عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

إذاً القِوامة :

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

(سورة النساء الآية : 34)

معنى قوامون ؛ يعني بينه وبين زوجته درجة واحدة ، بالتعبير العسكري عميد ولواء فقط ، ليس لواء ومجند ، درجة واحدة ، والدليل :

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

(سورة البقرة الآية : 228)

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة البقرة الآية : 228)

هذه حقائق الدين تؤخذ من كتاب الله ، أما من ممارسات شاذة يمارسها أناس جهلاء لا يعرفون حقيقة دينهم هذا شيء آخر ،

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

للإنسان مكان :

أنت كائن تشغل حيزاً ، أنت الآن جالس على الأرض ، أعتقد أن ثمة مساحة تقدر بـ 40 سم بـ 40 أنت جالس عليها ، هذا مكانك في الجامع ، ولك مكان في البيت ، ولك مكان في السرير ، ولك مكان في العمل ، ولك مكان في المدرسة ، فالمكان هو الحيز الذي يشغله الإنسان ، لكن بالمناسبة الجماد شيء ، يشغل حيزاً أيضاً ، الآن هذا الكأس أضعه هنا يشغل حيزاً ، الجماد شيء يشغل حيزاً في الفراغ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، الحيوان شيء يشغل حيزاً .

((طوبى لمن له فيها مربض شاة))

من أحاديث قيام الساعة ، الذي له في دمشق مربض شاة طوبى له ، لأن الشام كما قال سيد الأنام :

((هي خير بلاد المسلمين للمسلمين يومئذٍ))

(ورد في الأثر)

إياك أن تفهم أنها خير البلاد بأسعارها الرخيصة ، وأسعار بيوتها الرخيصة ، لا وبفرص العمل بها ، لا ، هذه مقاييس أخرى ، بمقياس أن هذه البلدة فيها إيمان في أعلى مستوى .

((رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي ، فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع حتى ظننت أنه قد هوي به ، فعمد به إلى الشام ، وإني أولت أن الفتن إذا وقعت أن الإيمان بالشام))

[رواه الطبراني عن أبي أمامة]

فعليكم بالشام في آخر الزمان ، وهناك أحاديث كثيرة جداً من هذه الأحاديث :

((الداخل إليها برضائي ، والخارج منها بسخطي))

(ورد في الأثر)

إذاً :

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

أنت لك مكان ، الجماد له مكان والحيوان ، والنبات له مكان ، النبات شيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن وينمو ، الحيوان شيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، وينمو ويتحرك ، والإنسان شيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، وينمو ويتحرك

ويفكر ، ما لم تفكر فلست من بني البشر ، تنتمي إليهم بالشكل ، لكن ما لم تفكر ، ما لم تبحث عن الحقيقة ، ما لم تتعرف إلى ربك ، ما لم تسعَ لمرضاته ، فلست من هذا الصنف الذي أكرمه الله أيما إكرام .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

إذاً أنت لك مكان ، لك مكان في المسجد ، لك مكان في البيت ، لك مكان في العمل ، لك مكان في المركبة العامة ، لك مكان .

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

كل إنسان مسؤول أمام الله بحسب مكانه :

كل إنسان له مكان وله إمكانات ، هذا المكان يعطيك إمكانية معينة ، فالمعلم له مكان في الصف ، وإمكانيته خمسين طالبًا ، أما المدير فله مكان في الإدارة ، وإمكانيته أن يدير ثلاثين شعبة ، المدرسة بأكملها ، مدير التربية له مكان في مديرية التربية ، مكتب المدير ، لكن يدير محافظة بأكملها ، وزير التربية له مكان في الوزارة ، لكنه يدير التعليم في كل البلاد ، هل هذه الفكرة واضحة ؟

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

لك مكان ، ومع هذا المكان إمكانات ، والله عزوجل ـ دققوا في هذا الكلام ـ كلما ارتفعت مكانتك ، في مجتمعك ازدادت مسؤوليتك عند الله ، فإذا كنت معلماً ، وفي الكتاب نظرية داروين التي تصدم العقيدة الإسلامية في أصلها فأنت لست مؤاخذا ، لكن الذي بيده المناهج هو الذي يحاسب ، فكلما ارتفعت مكانتك عند الناس ازدادت مسؤوليتك عند الله .

إذاً قد يترنم أحيانًا الإنسان بكلمة : أنا مسؤول كبير ، ولو دقق في معناها لارتعدت فرائصه من الخوف ، مسؤول كبير ، سوف تُسأل عن كل شيء من دون استثناء .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

سيدنا عمر قال : << والله لو تعثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها >> ، لو تعثرت هو في المدينة ، وفي العراق حفرة في الطريق لم تردم فتعثرت بها بغلة لحاسبني الله عنها ، لمَ لمْ تصلح الطريق لها يا عمر ، لأن معك إمكانيات .

سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، رأته يبكي ، قالت له : << مالك تبكي ؟ قال : دعيني وشأني يا فاطمة ، فلما ألحت عليه قال : ويحك يا فاطمة ، إني وليت أمر هذه الأمة ، فرأيت الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وللعيال الكثير والرزق القليل ، وابن السبيل ، والمسجون والمحبوس ، والمظلوم ، فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن خصمي دونهم رسول الله ، فخفت ألا تثبت حجتي فلهذا أبكي >> .

لذلك بطولتك أنا أعني ما أقول ، افعل ما تشاء ، لكن بطولتك تقتضي أن تهيأ جواباً للواحد القهار يوم القيامة ، عن كل عمل تعمله ، عن كل عطاء ، عن كل منع ، عن كل صلة ، عن كل قطيعة ، عن كل غضب ، عن كل رضى .

مرة استنصحني موظف بالتموين كبير قال لي : ماذا افعل ؟ أنا فاجأته بنصيحة غير متوقعة مني إطلاقاً ، قلت له : بالغ في كتابة الضبوط ، وزج الناس في السجون ، قال : هكذا تقول أنت ؟! قلت : نعم ، لكنك إذا كنت بطلاً هيئ لله عزوجل يوم القيامة جواباً عن كل ضبط تكتبه ، البطولة أن تهيئ الجواب .

يقول لي أحياناً أحد الإخوة : لي الحق أن أهب أحد أولادي ؟ أقول له : لك الحق ، هذا من حق الأب ، لكن أحياناً يهب الأب ابناً من زوجة جديدة يتملق لها ، لفارق السن الكبير الذي بينه وبينها ، يتملق بأن يكتب لأحد أولاها من زوج آخر بيت ، وقد يحرم زوجته القديمة التي عاشت معه السراء والضراء ، هنا تحاسب ، أما الذي عنده بنت فاتها قطار الزواج ، وأخذ لها بيت بحياته ، والبيت تتميز به عن كل أخواتها ، كل أخواتها متزوجات ولهن أزواج أغنياء ، هذه فاتها قطار الزواج ، لئلا تكون خادمة عند أخيها ، لئلا تُظلم عند أخيها الأب هيأ لها بيتاً تسكنه عزيزة كريمة ، معه جواب لله عزوجل . لذلك :

(يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

أنت لك مكان ومع هذا المكان إمكانيات فأحياناً الإنسان ـ دققوا ـ بجرة قلم يحق حقاً ، ويبطل باطلاً ، يقر معروفاً ، ويزيل منكراً ، يقرب مخلصاً نافعاً ، ناصحاً مخلصاً ويبعد فاجراً منافقاً ، بتوقيع .

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

((البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل كما شئت ، كما تدين تدان))

[الجامع الصغير عن أبى قلابة بسند ضعيف]

أيها الإخوة ، شيء آخر ،

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ)

الآن نحن سبحان الله لجهل في معظم المسلمين يستوردون مشكلات من الماضي ، والجواب الحاسم :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

تسخير الإمكانات للخلق بإخلاص من غير غش وخداع :

أنت اعمل على مكانتك الله أقامك طبيب ، إياك أن تضع المال قبلة لك ، إياك أن توهم المرضى بأن مرضهم كبير ، ويحتاج إلى تحليلات كثيرة ، أنت محامٍ إياك أن توهم موكلك أن القضية تحتاج إلى سنوات وسنوات ، وقد تخسر هذا البيت ، لكنني إذا أكرمتني أعطيتني ما أريد آخذه لك من خصمك ، والأمر ليس كذلك ، إن كنت مدرساً إياك أن تجري امتحان صعب جداً ، وتعطي الطلاب أصفارا كي يلجئوا إليك بدرس خاص ، كل إنسان عنده إمكانات ، إمكانيات علمية ، مالية ، إدارية أحياناً ،

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

إخوانا البطولة أن تضحك آخراً ، الناس أحياناً يرقصون في الدنيا ، تأتيهم الدنيا والدنيا خضرة نضرة، لكن سمها في دسمها ، البطولة لا أن تغتر في مظاهر الدنيا البطولة أن تضحك آخراً ، لا أن تضحك أولاً ، والدليل :

أن الطفل حينما يولد كل من حوله يضحك ، وهو يبكي وحده ، فإذا وافته المنية كل من حوله يبكي ، فإذا كان بطلاً يضحك وحده .

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

البطولة من يضحك آخراً ، قال تعالى :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

أما في الدنيا :

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

(سورة المؤمنون)

أيها الإخوة :

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

ظهور الفائز والخاسر يوم القيامة :

هذه سوف تعلمون فيها تهديد ، غداً نرى من الرابح ، غداً نرى من الفالح ، غداً نرى من الناجح غداً نرى من الذكي ، غداً نرى من العاقل .

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشدة ، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ويبتلي ليجزي))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

الآن :

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

الطفل أحياناً بالفطرة يعلم أن المكان الواحد لا يتسع لشخصين ، فإن أراد أن يجلس مكان أخيه أول عمل يقوم به ينزله من على الكرسي ، كل واحد له مكانة ، بعد هذا قال الله عزوجل :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام الآية : 132)

للإنسان مكانة في الدنيا :

عند الدولة ثلاثون درجة ، عشر مراتب ، وكل مرتبة ثلاث درجات ، المليون موظف يجب أن تكون في أحد هذه المراتب ، كل واحد له مرتبة ، لكن الله عزوجل إذا كان في الأرض ستة مليون آلاف إنسان فعنده ستة آلاف مليون مرتبة .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

عملك يقيم بأدق التفاصيل ، الله عزوجل يقدر عملك ، يقدر حجم عملك ، يقدر مقدار التضحية من أجل أنك فعلت هذا ، يقدر مقدار التعب والجهد ، يقدر مقدار إغراء الصوارف ، يقدر مقدار العقبات الكأداء التي أمامك .

(وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

(سورة المزمل الآية : 20)

لذلك كل إنسان له عند الله مرتبة .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

الشيء الواحد له موقع واحد ، امسك بقارورة ، واغمسها بالماء كي تمتلئ ، هل يدخل الماء ؟ لا ، لا يدخل حتى يخرج الهواء ، ففقاعات الهواء تخرج أولاً ، ثم يدخل الماء ثانياً ، لذلك :

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ)

(سورة النساء الآية : 78)

في أي مكان كنت ، وفي أي مكانة كنت ، لو كنت رئيس وزارة ، وهدمت سبعين ألف بيت ، بثانية تغدو في قبضة الله ، ثانية واحدة ، وللآن ما مات بعد ، وأناس يقولون : الله يطيل عمره ، لا أعلم والله، في أية مكانة كنت ، وفي مكان كنت الإنسان في قبضة الله ، بثانية يلغى كل شيء .

بالمناسبة ، نحن كلنا سوف نموت ، لكن حياتك ، ومكانتك ، وطلاقة لسانك وهيمنتك ، وحجمك المالي، ومعارفك ، وشبكة علاقتك ، وقوة شخصيتك منوطة بقطر شريانك الأبهر ميلي وربع ، كل قيمتك منوطة بسيولة دمك ، فإذا تجمد الدم في بعض شرايين المخ فقطت الذاكرة كلها ، كل مكانتك منوطة بنمو خلاياك ، فإذا تفلت النمو بأي مكان انتهى الإنسان ، لا تقل أنا ، قل الله .

(قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ)

من هو الفائز ، من هو الناجح ، يقول الله عزوجل لنا في القرآن الكريم :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

لو أردت أن تستخدم كلمة :

(قَدْ أَفْلَحَ)

الآن هناك أراضٍ تضاعف ثمنها خمسة أضعاف ، أخذ أرضا بمليونين صار ثمنها عشرة ملايين ، هل تقول لصاحبها : هنيئاً لك ؟ طبعاً جاءت أرباح فجأة من دون تعب ، يا ترى قد أفلح الرابحون ، قد أفلح المتزوجون ، قد أفلح أصحاب المناصب العليا ، الله قال :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

فقط .

وقال :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

الذي حصله الإنسان في عمر مديد يمكن أن يخسره في ثانية واحدة ، يكون شخصاً مهماً فإذا به خبر ، أربعة أيام بعد هذا يعتم عليه ، لم يعد هناك ولا خبر ، أين الصولة ، والدولة ، والقوة ، والسلطة ، والطغيان ، والقهر ، والقتل والهدم ، إلى أين ؟

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

أيها الإخوة الكرام :

(قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

الظالم غير مفلح أبدا :

أولاً : لا يفلحون الذين ظلموا أنفسهم فلم يعرفوها بربها ، ولم يحملوها على طاعته ، ولم يتقربوا من الله عزوجل بالعمل الصالح ، هؤلاء ظلموا أنفسهم ، وأشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه .

للتقريب :

لو أعطينا إنسانا شيكا بمليون دولار ، 52 مليون ليرة ، والشيك موضوع على ظهره ، يظهر ورقة بيضاء ، فأنت اضطررت أن تجري عملية حسابية بسيطة ، رقمين برقمين ، ضربتهم على هذه الورقة البيضاء ، فلما انتهت مزقته ، وألقيته في المهملات ، وهذا الشيك لا يعوض ، ومئة مليون دولار ، أنت انتفعت بالشك ، استخدمته كورقة ، لكن بين أن تستخدمه كورقة وأن تستخدمه كقيمة نقدية مئة مليون دولار كم تشعر بالخسارة ؟ كم تشعر بالندم ؟

هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ، هذا الذي يتاجر في الدين ، هذا الذي يستخدم الدين للدنيا ، الإمام الشافعي يقول : " والله لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين " ، الدين دين ، " إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم " .

((يا ابن عمر " دينك " دينك " إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[روي عن ابن عمر]

لا تتبع الرخص والفتاوى الشاذة :

إخواننا الكرام ، أنا ألاحظ ملاحظة عجيبة أن معظم الناس يتكئون على فتوى ، فتوى من أحد علماء مصر بالسماح بإيداع المال بالبنوك بفائدة وسماها عائدة ، ومرة أنا سُئلت سؤالا على الهواء في إذاعة بدولة مجاورة : ما قولك في هذه الفتوى ؟ قلت : لا تجد عالماً من علماء المسلمين يفتي بهذه الفتوى ، فلذلك العبرة لا أن تتكئ على فتوى ، لو أنك التقيت مع سيد الخلق ، وحبيب الحق ، وسألته سؤالاً وكنت طليق اللسان ، أوتيت حجة وبرهان أوتيت لحناً في القول ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَإِنّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمَا عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقّ أَخِيهِ شَيْئا فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النّار))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْه]

إنك لا تنجو من عذاب الله لو انتزعت فتوى من فم سيد الخلق ، إذاً لا ينجينا إلا أن نطيع الله عزوجل .

اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ تهديد ووعيد :

أيها الإخوة .

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

يا من عارضتم النبي ، يا من تآمرتم على قتله ، ثم أخرجتموه ، ثم نكلتم بأصحابه ، يا من تفننتم بإيذائه.

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

هناك يوم آخر تسوى في الحسابات ، والله الذي لا إله إلا هو لولا أن هناك يوماً آخر تسوى فيه الحسابات ، ويؤخذ للمظلوم من الظالم لكانت الحياة لا تطاق ،هناك طغاة ، 10 % من سكان الأرض يملكون 90% من ثرواتها ، 10% والـ90 % يأكلون الفتات ، مع القهر ، والسيطرة ، والكذب ، والدجل ، والتهديد ، والوعيد ، والمفارقات حادة ، دولة عندها مئتا رأس نووي لا تُساءل ، ولا تُحاسب، تهدد بها أمن المنطقة ، دولة ثانية بأهداف سلمية تقوم الدنيا ولا تقعد ، والحديث عن الخيار العسكري ، من قال ، إن السلاح النووي يجب ألا يمتلكه المسلمون ؟

قيا أيها الإخوة ، هذا الذي يتجبر ، ويكيل بمكايل عديدة جداً ، ويبني مجده على أنقاض الآخرين ، يبني غناه على فقرهم ، يبني عزه على ذلهم ، يبني حياته على موتهم هذا قال الله عنهم :

(قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

الظلم ظلمات يوم القيامة .

والله سمعت قصة ، وليس من عادتي أن أروي مناماً إطلاقاً ، لكن ديننا دين حقائق ، دين نصوص ، دين أدلة ، لكن المنام سأرويه تجاوزاً ، لأنه يستأنس به ، امرأة عندها أولاد ، وتربي أولادها من زوجها من زوجة مطلقة ، إذا سقتهم الحليب تسقي أولادها كأس حليب كامل الدسم ، وتسقي أولاد زوجها نصف كأس حليب ممزوج بالماء ، لها قريب يحبها حباً جما ، توفيت ، يراها في المنام أنها تحترق ، أقسم بالله رآها أكثر من 8 سنوات وهي تحترق ، إلى أن قالت له مرة ، وكانت بحالة طيبة ،

يا بني لقد فُرج عني بسبب ، قالت له ، الحليب فقط ، فسأل ، دقق ، بحث إلى أن وصل إلى هذه القصة.

من السهل أن تطعمي ابنك حليباً كامل الدسم ، وابن زوجك نصف كأس حليب ممزوج بالماء ،

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

صحابي خاض مع النبي معارك ، وتوفاه الله ، فجاء ليصلي عليه النبي قال :

((أعليه دين قالوا : نعم ، قال : صلوا على صاحبكم))

(أبو داود عن جابر)

كم من إنسان بهذه البلدة مغتصب مالا ، ولا يدفع الدين ، أعتقد أنه ما مِن تاجر إلا عنده مبلغ فلكي ديونا ميتة ، اشتريت بضاعة ، وبعتها وربحت ، يماطل ، بعد هذا يمل صاحب الدين ، لذلك قالوا : الدين هالك إلا ما رده الله ، وكم من إنسان يأكل أموال الناس بالباطل ؟ كم من إنسان يعتدي على أعراض الآخرين ؟ كم من إنسان يوقع بين الناس كي يقوى عليهم ، فالله عزوجل كبير .

والله أيها الإخوة ، حينما تعرف عدل الله عزوجل يمكن أن ترتعد مفاصلك .

هناك قاضٍ في العهد الأموي طرق بابه ، وجاء خادمه يقول : إن في الباب رجلاً قدم لك هذا الطبق من الرطب ، والقاضي معروف بالمدينة ، أنه يحب الرطب في بواكيره ، والفاكهة بأولها غالية جداً ، عشرة أضعاف ثمنها ، فقال : من قدمه ؟ قال : رجل في الباب ، قال : صفه لي وصفه قال له : كيت وكيت ، فعرفه أحد المتخاصمين عنده ، قال له : رد الطبق ، بعد أيام قابل الخليفة ، وطلب إعفاءه من هذا المنصب ، قال له : لمَ ؟ قال له : والله طرق بابي إنسان ، وقدم لي طبق من الرطب ، فلما علمت أن الذي قدمه أحد المتخاصمين عندي رددته ، لكني في اليوم التالي تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم هذا الطبق ، إذاً أنا لست عادلاً ، أعفيني من هذا المنصب .

هكذا الحساب يوم القيامة .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

اقرأ الآية .

أعرابي لا يقرأ ولا يكتب جاء النبي الكريم ، قال له : عظني ولا تطل ، يريد كلمة مختصرة ، فتلا عليه قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

قال : كُفيت ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقه الرجل .

حينما تشعر أن الله سيحاسبك عن كل شيء ، وأكبر وهم أيها الإخوة أن الإنسان يتوهم بجهله بأصول الدين أنه إذا ذهب إلى بيت الله الحرام يعود من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإذا صام رمضان إيماناً

واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، ويغيب عنه كثيراً أن هذه الذنوب التي تغفر في الحج وفي العمرة ، وفي الصيام والقيام ، وبعد التوبة ما كان بينك وبين الله فقط ، أما ما كان بينك وبين العباد لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة ، لذلك قال تعالى :

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

(سورة الأحقاف الآية : 31)

(مِنْ)، يغفر لكم بعض ذنوبكم ، ماذا يملك الإنسان ؟ أغلى شيء يملكه حياته ، فالشهيد قدم حياته في سبيل الله ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم عن ابن عمرو]

تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ

بقي شيء واحد أيها الإخوة في هذه الآية ، وهو أنه حينما قال الله عزوجل :

(قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ)

تكون له ، يقول الله عزوجل :

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة الآية : 286)

فالخير يعبر عنه بله ، والشهر يعبر عنه بعليه .

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية : 51)

ليس علينا ، لذلك الذي عرف الله ، وعرف الطريق إليه ، وتقرب إليه بالأعمال الصالحة له عاقبة الدار .

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

استخدم عقلك قبل فوات الأوان :

فالبطولة ما سيكون ، لذلك ما هو العقل ؟ أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه ، والمثل الذي أرويه كثيراً :

أن إنسانا سافر إلى حمص ، وجد لوحة صغيرة لا تزيد على هذه الورقة : الطريق إلى حمص في الشتاء مغلق في النبك بسبب تراكم الثلوج ، هذه الورقة تجعله يعود إلى رشده ، أما الدابة إذا مشت على هذا الطريق فلا تقف إلا عند الثلج ، ما الذي حكم الإنسان العاقل ؟ عقله والنص ، ما الذي حكم الدابة ؟ الواقع .

فالإنسان دائماً يندم عند الموت :

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

الموت معروف ، والقرآن بين يديك ، والأحاديث كثيرة ، لمَ لم تستخدم عقلك لمعرفة الحق من الباطل، لذلك الإنسان يوم القيامة يرى مكانه في النار ، فيصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا من شدة الندم ، وفي بعض الآثار بالجامع الصغير :

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى ، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

(الجامع الصغير عن جابر بسند ضعيف)

فلئلا نندم أتمنى على كل أخ كريم إن رأى أن الله يتابعه فليفرح .

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبد المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

(ورد في الأثر)

الخيارات بين أيدينا :

والخيارات بين أيدينا ، طريق الحق واضح والباطل واضح ، الخير واضح والشر واضح ، وكان قبل خمسين سنة في أبيض وأسود ورمادي بينهما ، الآن اختفى الرمادي ، في أبيض وأسود ، مؤمن أو كافر ، فتاة محجبة حافظة لكتاب الله ، أو متفلتة محسن أو مسيء ، منصف أو ظالم ، رحيم أو قاسي ، مخلص أو خائن ، الآن هناك حالات والدليل :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(59-73): تفسير الآيتان 136 – 137 ، الكيل بمكيالين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-04-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة الأنعام ومع الآية السادسة والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

نموذج من تناقضات المشركين : الكيل بمكيالين :

أيها الإخوة الكرام ، يرينا الله عزوجل نموذجاً من تناقضت أهل الشرك والكفر ، يرينا الله عزوجل نموذجاً من الكيل بمكاييل عديدة ، لأن الله عزوجل حينما قُسم البشر في قرآنه إلى مؤمنين وإلى غير مؤمنين ، المؤمنون منضبطون بمنهج الله ، محسنون للخلق ، يسعدون في دنياهم وأخراهم ، بينما الشاردون الكفار المشركون العصاة ، هؤلاء تفلتوا من منهج الله ، وأساءوا إلى الخلق ، فشفوا في الدنيا والآخرة ، من صور فسادهم وانحرافهم وتناقضهم والمفارقات في سلوكهم ، أن هؤلاء الشرفاء

(جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ)

معنى : ذرأ

(ذَرَأَ)

أي خلق

(ذَرَأَ)

أي بث

(ذَرَأَ)

أي نشر ، مما خلق الله ، من أي شيء خلقه ؟ قال :

(مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ)

ما هو الحرث ؟

ما هو الحرث ؟ هو النبات ، والنبات في النهاية هي الثروة الأولى في العالم القديم ، إذاً هو المال والمال قوام الحياة ، فهذا المال جعل المشركين جزءاً منه لله وجزءاً منه للأصنام ، فبزعمهم ما كان لله يعطى للفقراء والمساكين ، وما كان لشركائهم الأصنام يعطى لمن يخدمون الأصنام ، ومن يقومون على رعاية أبنيتها ، وحاجات هذه الأصنام ، ومن يزور هذه الأصنام ، من الخدم والحجاب ، وما إلى ذلك ، هم قسموا أموالهم ، وقسموا أنعامهم ، و المال زراعة أو أنعام ، هذا وضع يعبر عنه في الوقت القديم :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ)

الحرث بالضبط النبات ، ولأن النبات ينقلب في النهاية إلى مال ، يعني جعلوا مما ذرأ الله لهم من أموال الناتجة عن الزراعة ، كأن تقول مثلاً رعينا الغيث ، الغيث هو المطر ، الغيث لا يرعى ، لكن الغيث يسبب إنبات النبات ، والنبات هو الذي رعيناه ، هذا يسمونه مجازًا عقليًّا ، وهو التعبير عن الشيء بسببه ، أو التعبير عن الشيء بنتيجته ، أو التعبير عن الكل بالجزء ، أو الجزء بالكل .

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 19)

الأصابع لا تدخل ، إصبع واحدة ، عُبر عن الجزء بالكل ، عُبر عن المكان بمن على المكان .

(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ)

(سورة يوسف الآية : 82)

القرية لا تُسأل ، اجتمع مجلس الوزراء ، يعني الكراسي فقط ، المقصود من على الكرسي من الوزراء، هذا مجاز عقلي ببحث بالبلاغة ، نعبر عن الشيء ببعضه ، أو عن الشيء بكله ، أو عن المكان ، أو عن الزمان بمن في المكان ومن في الزمان ... إلخ .

إذاً :

(وَجَعَلُوا)

هم ، وهم شرعوا ، هم قالوا ، هم بينوا .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا)

خلق

(مِنْ الْحَرْثِ)

أي من الأموال التي حُصلت من الزراعة ، والحرث مكان النبات معنى آخر ، لكن الذي يعني هنا الحرث هو النبات .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ)

الأنعام من أثمن الأموال القدماء ،

(الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا)

نصيبًا لله يعطى للفقراء والمساكين ، ونصيبًا للأصنام يعطى لمن يخدم هذه الأصنام .

الآن :

(فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ)

كيف ؟ جعلوا أرضاً للفقراء والمساكين وأرضاً للأصنام ، فإذا شحت المياه سقوا بالماء القليل الأرض التي للأصنام ، ولم يسقوا الأرض التي لله ، وإذا قالوا هذه الأنعام نصفها لله ونصفها لشركائهم ، فإذا ماتت دابة من التي لشركائهم عوضها من الذي لله ، فأخذوها من هنا ، وضموها إلى هنا ، فما كان لله يصل إلى شركائهم ، وما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، هذه تناقضاتهم ، هذا الكيل بمكيالين ، طبعاً بزعمهم .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ)

الأصل شركاؤهم ، فأي تلف يصيب الزرع وأي تلف يصيب الأنعام يؤخذ ما يقابلها من الذي لله ، وأي تلف لله من الذي لله لا يعوض ، أي تلف من المال أو من الأنعام للذي لله لا يعوض .

من إسقاطات هذه الآية اليوم :

1 - التحايل على الزكاة :

أيها الإخوة ، هذا الوضع كيف يسقط اليوم ؟ عند الإنسان ديون ميتة ، ولا أمل أن يحصلها فيقلبها إلى الزكاة ، هذه واقعة ، ديون تجارية عادية ، والذين عليهم الديون لا يدفعون ، وهم أغنياء ، فبحركة بسيطة يحيلها كلها إلى الزكاة ، فصارت الزكاة حلاً للمشاكل ، تحل به كل المشاكل ، أحياناً بضاعة كاسدة لا يحتاجها الفقير أبداً توزع زكاة ، أو ثياب فاضحة ، لا تلبسها المرأة الفقيرة ، أو أشياء لا يحتاجها الإنسان كثيراً ، فكل شيء كاسد عندهم هذا يحوّل إلى الزكاة ، وأغرب من ذلك ـ وصدقوا أيها الإخوة ـ أنه جاءنا مرة أحذية كل فردة برقم ، مستحيل أن تستخدم ، 40 ـ و43 ، فلما سُئلت بعد حين : إن شاء الله استلمتم البضاعة ؟ قلت : وضعتها في المكان المناسب ، والله في الحاوية ، في المكان

المناسب ، أحياناً الثياب العتيقة غير المقبولة توزع زكاة ، وجميع البضاعة الكاسدة التي عفا عليها الزمان ، والذي مضى شكلها توزع زكاة .

على كلٍ هذا من إسقاطات هذه الآية على واقع المسلمين اليوم ، يجب أن يحل بالزكاة كل مشاكل التجارة والصناعة ، ويريد أن يكرم موظفًا نشيطًا فيعطيه من الزكاة ، هذا موظف عندك يستحق تعويضات من المصاريف لا من الزكاة ، يحل مشاكله في علاقاته مع من حوله بمال الزكاة ، يحل مشاكله مع الديون بمال الزكاة ، فما كان لله هذا يصل إلى كل هموم التاجر ، أما أن يدفع زيادة على الزكاة قرش واحد لا يدفعه ، مع أن الله عزوجل يقول :

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ)

(سورة البقرة الآية: 177)

إيتاء الأموال على حب الله ، أو على حب المال إما بإخلاص شديد ، أو بتعلق شديد بالمال على

(ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ)

لذلك ورد في بعض الأحاديث :

((إنّ في المالِ حَقّاً سِوَى الزكاةِ))

[الترمذي عن فَاطِمَة بنْت قَيس]

على كلٍ الزكاة فريضة ، وتحل بها مشكلات المسلمين ، وفي بعض الإحصائيات أن زكاة بعض أموال الأغنياء تحل بها مشكلات أهل الأرض ، وكأن نظام الزكاة نظام من عند الخالق ، فلو حسبت الدخل القومي للأمة ، ولو حسبت ما يستحقه الفقراء من هذه الأموال هذه الأموال تكفي لا لإطعام الفقراء ، بل لإنشاء مشاريع تستوعب كل الطاقات العاطلة الفقيرة .

الحقيقة أن الزكاة من أكبر أهدافها لا أن تمد الفقير بطعام يوم أو بألف ليرة ، هدف الزكاة أن تغني الفقير مدى العمر ، وتهيئ له عملا ، وأعظم أسلوب في إنفاق الزكاة أن يغدو قابض الزكاة بعد حين دافعَ زكاة .

وصدقوا أيها الإخوة أن أخًا طلب قرضاً من محسن ، المحسن استجاب له ، والقرض بسيط جداً ، اشترى دراجة كي يوزع أكياس نايلون على بعض المحلات في الريف ، والله بعد حين رد القرض ، ودفع زكاة ماله .

الزكاة مهمتها أن تغني الإنسان على مذهب طوال عام ، أو على مذهب آخر طوال العمر ، معنى طوال العمر أي أن تهيئ له عملاً ، آلة ، مركبة ، مكان بيع ، هكذا الزكاة ، توزع كي يحول قابض الزكاة إلى دافع الزكاة ، أما أن تحل بالزكاة مشكلات التجار ، أن تحول الديون الميتة إلى فقرات من

الزكاة ، أما أن تنفق كل البضائع الكاسدة والتي لا تشترى ، ولا تباع ، حتى لو أنك حولت بعض الألبسة إلى الزكاة هناك ضوابط ، تسجل هذه الألبسة بسعر السوق ، أو سعر الكلفة أيهما أقل ، فهذه القطعة من الثياب كلفتها ألف ليرة ، قبل سنتين أو ثلاثة كان مبيعها 1500 مضى شكلها ، ومضى رغبة الناس بها ، الآن لو عرضتها للبيع لا يدفع لك إلا 300 ليرة ثمن هذه القطعة ، فأنا أقول لإخواننا التجار إياك ثم إياك ثم إياك أن تسجلها على الله بألف ليرة بكلفتها ، يجب أن تسجلها بسعر السوق بـ300 فقط .

لذلك حينما تقييم بضاعتك كي تدفع عنها الزكاة تقيمها بكلفتها أو بسعر السوق أيهما أكثر ؟ بمعنى أنه عندك بضاعة موادها الدولية اشتريتها قبل ارتفاع سعر الدولار فتباع في السوق الآن بعد ارتفاع الدولار بزيادة بالمئة 30 ، فإذا دفعت منها زكاة مالك يجب أن تسجل على الله بسعر كلفتها أو بسعر السوق أيهما أكثر ، أما إذا أخذت منها من هذه البضاعة قسماً لدفع الزكاة يجب أن تسجلها بسعر كلفتها أو سعر السوق أيهما أقل ، يعني لصالح الفقير .

طبعاً هذا الموضوع علاقته بحياتنا ، فباب الزكاة يمكن أن يستوعب كل مشكلاتنا .

2 – دفع الفوائد الربوية للضرائب :

الآن إذا وضع ماله في مؤسسة ربوية ، وإيداع المال في هذه المؤسسات حرام بالأساس ، لكن يتجاهل أن الإيداع حرام فيأتي بهذه الفوائد ليدفعها ضرائب ، متوهماً أنها ظالمة ، أنت حينما دفعت هذه الفوائد ضرائب معنى ذلك أنك أخذتها ، وانتفعت بها ، ولو لم يكن لك حساب في هذا المصرف الربوي لا بد من أن تدفع الضرائب شئت أم أبيت ، فإذا أخذت هذه الفوائد ، ودفعتها ضرائب معنى ذلك أنك قبضتها وانتفعت بها .

هناك مخالفات أيها الإخوة ، ففي أكثر المؤسسات يعطون ربحًا ثابتًا ، التاجر يعطي ربحًا ثابتًا ، ويقول لك : هذا خير لي ، الألف مثلاً نعطي عليها مئة ليرة في السنة ، في الشهر عشر ليرات فرضاً ، والمستثمر أيضاً ظالم ، لا يقبل خسارة أبداً ، يجب أن يستعيد ماله كما سلمه تماماً ، فالمستثمر لا يعرف الله ، ويتقي الله ، والمستثمر عنده المال أيضاً مهما بلغت أرباحه يعطي النسبة الثابتة التي هي أقرب شيء إلى الربا .

لذلك إذا عمل إنسان في التجارة ، ولم يكن متفقهاً في حقائق الدين الفقهية يقع في الحرام شاء أما أبى .

فهؤلاء المشركون تتلف دابة من مال الله لا تعوض ، تتلف زراعة من مال الله لا تسقى ، يتلف مال لله لا يعوض ، يتلف مال للشركاء يؤخذ من مال الله ، تتلف الأنعام للشركاء تؤخذ أنعام بدلاً منها من الله ، تسقى أرض للشركاء ، ولا تسقى أرض لله ، إذاً الآية دقيقة جداً :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

إذا كان الإنسان منصفاً ارتقى عند الله ، فإن لم يكن كذلك سقط من عين الله ، طبعاً هذه قسمة كما ورد في القرآن الكريم ، ثم يقول الله عزوجل :

(وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأنعام)

أي شركاؤهم الذين أشركوهم مع الله .؟

3 – عبادة لغير الله من نوع آخر : طاعة غير الله في معصية الله :

إخوانا الكرام ، كإسقاط على واقعنا ، هناك من يعبد غير الله ، فإذا واجهته بهذه الحقيقة أرعد وأزبد ، أنا أعبد غير الله ؟ أنا لا أقول لك : إنك جعلته إلهاً ، وصليت له ، لكنك تعامله كإله ، تستجيب لأمره ، ولو كان فيما يغضب الله ، ونحن كوننا مسلمين نقول في العيد : الله أكبر ، وفي الصلوات ، هذه الكلمة الأولى تفتتح بها الصلوات ، لكن في الواقع حينما ترضي مخلوقاً ، وتعصي خالقاً ما الذي رأيته ؟ رأيت أن إرضاء هذا المخلوق أكبر عندك من إرضاء الله ، إذاً أنت لم تقل : الله أكبر ولا مرة ولو رددتها بلسانك ألف مرة ، أنت حينما تطيع زوجتك في معصية ، ولا تطيع الله عزوجل فيها معنى ذلك أنك توهمت أن إرضاء الزوجة أهم عندك من إرضاء الله ، أطعتها وعصيت الله .

طُلب لذلك مِن صحابي جليل نفقةُ أهله ، وهو لا يملكها ، وهو لا يأخذ مالاً حراماً لينفقه على أهله ، فقال لزوجته : اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أضحي بهن من أجلك .

الله أكبر ، من هنا قال الله عزوجل :

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ)

(سورة التغابن الآية : 14)

هذه كما قال علماء التفسير : عداوة مآل ، ليست عداوة حال ، الزوجة محبوبة أما إذا ضغطت على زوجها من أجل أن تتباهى على قريناتها فكسب زوجها مالاً حراماً إرضاء لزوجته ، وحينما يحاسبه الله

يوم القيامة حساباً عسيرا يرى أن كل هذا الشقاء الذي شقي به بسبب زوجته فتكون عدوة له في نهاية المطاف :

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ)

والابن إذا أعطيته ما يشتهي ، وسمحت له أن يذهب إلى حيث يشاء ، وأن يفعل ما يشاء ، أو البنت حينما تطلق لها حريتها ، ولا تعلمها أمر دينها فإذا استحقت دخول النهار تقول يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي :

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ)

إذاً :

(وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ)

لكن بربكم ، والكلام دقيق لو أن إنساناً جاهيلاً أخذ ابنته التي كالوردة ، وفي عمر الزهور ، عمرها أربع سنوات ، أخذها بعيداً في الصحراء ، وحفر لها حفرة ، وألقاها في الحفرة ، وردم فوقها الرمال ، وهي تقول : أبي أبي ، هل من جريمة أكبر من هذه الجريمة ؟ قال تعالى :

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير)

لكن صدقوا ، والله إن الإنسان إذا ربى ابنته ، وأرخى لها العنان ، ولم يسألها لا أين ذهبت ، ولا من أين أقبلت ، لا على علاقاتها ، ولا على اتصالاتها ، ولا على هندامها ، ولا على إبراز مفاتنها ، ولا على أصدقاءها الذين يتصلون بها ، ويعد هذا حضارة ، وروحاً رياضية وتربية رائعة ، فحينما تفيق هذه الفتات ، وتنحرف ، وتقع في الفاحشة بسبب عدم اهتمام أبيها بها ، أو بسبب تفلتها على علم أبيها هذه والله جريمة أكبر بكثير مِن وأدها ، وهي صغيرة ، الدليل ، لولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، قال تعالى :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة الآية : 191)

حينما تسمح لابنتك أن تفتن بالشباب ، وأن تقيم علاقة معهم وتعد هذا رقياً في علاقتك بها ، وأنت أعطيتها حريتها ، وأنت لا تسألها عن شيء فتزل قدمها فتألف المعاصي والآثام ، وقد يفتضح أمرها بالنهاية أنت الذي ورطها ، وأنت الذي سببت لها هذا الضياع ، لذلك قال تعالى ، ودققوا في هذه الآية ، وهذه الآية من أدق الآيات ، قال تعالى :

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

(سورة النور الآية : 33)

بربكم هل في العالم الإسلامي كله أب يمكن أن يجبر ابنته على البغاء ، أو الزنا ؟ مستحيل ! ما معنى الآية ؟ معنى الآية أنه كلما جاء خاطب عضلتها ، بحثت عن عيوبه ، وضخمت العيوب ، ورفضت الخاطب ، وأنت مرتاح مع زوجتك ، ولا تعبأ ببناتك ولا بمستقبل بناتك ، تضع العراقيل تلوى العراقيل أمام زواجهن ، ولا تعبأ بمن يخطبها ، هذا فقير ، أنت لما خطبت أمها ألم تكن فقيراً ؟ يريد الأب الآن أن يوازن بينه وبين صهره ، أنت عمرك 56 سنة ، وحصلت أموال طائلة ، وساكن بالشام ، وبيت كبير، ومركبتك إلى جانبك تريد خاطب لابنتك أيضاً عنده بيت ملك بالشام ، وعنده سيارة ، وعنده دخل كبير ، من أجل أن تتباهى به .

خطب أحدهم فتاة ، الأب واعٍ جداً ، قال له : عندك بيت يا بني ؟ قال له : عندي ، هات ورقة الطابو ، كل شيء بالدليل ، فجاء له بورقة الطابو ، تمام ، ماذا تعمل ؟ قال له عندي معمل ، لك ؟ قال له : لي ، ائتني بالترخيص ، جاء بالترخيص ، عندك سيارة ؟ عندي ، ائتني برخصتها ، كل شيء باسمه ، فوافق، وعد هذا الزواج ناجحًا جداً ، ومرة وهو في محله التجاري يأتي خطيب ابنته ، وعنده أصدقاءه ، فعرّفهم عليه على أنه خطيب ابنته ، أحدهم احمر وجهه ، أحد أصحابه ، قال له : هذا ليس بمسلم ، هو من دين آخر ، طبعاً لا يجوز في الشريعة ، قال له : أنت لست مسلماً ؟ قال له : أنت لم تسألني عن ديني أبداً ، الآن الأب يريد الغنى والمال ، أما قضية الدين فهي قضية ثانوية جداً .

لذلك مرة كنت أمشي في أحد أسواق دمشق ، واستوقفني أحد التجار ، ودعاني إلى مكتبه ، وجلست عنده دقائق ، سألني عن شاب خطب ابنته ، وهو على مستوى كبير من الغنى والشكل ، كل صفات الدنيا متوافرة فيه ، قال لي : لكن ليس فيه دين أبداً ، ما قولك ؟ قلت له : أنت تقرأ القرآن الكريم ، قال لي : نعم ، بعد أن تنتهي من قراءته ماذا تقول ؟ قال لي : أقول : صدق الله العظيم ، ما معنى صدق الله العظيم ؟ أي أنت مصدق لله فيما يقوله ، الله عزوجل قال :

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 221)

والله ـ طبعاً ـ جاملني ، وغادرت مكتبه ، وسمعت بعد حين أنه زوج ابنته لهذا الشاب لأنه غني ، وعنده كل وسائل الراحة الدنيوية ، ثم بلغني أنه بعد حين كانت معه في مصيف قريب من دمشق واختلفا ، فتح باب المركبة ، وركلها بقدمه ، وعاد وحده إلى الشام ، وتم الطلاق بينهما .

حينما يقول الله عزوجل :

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ)

يعني أنه فقير ، ليس هناك عبد مملوك الآن ، هناك شعوب مستعبدة ، أما الأفراد فلا يوجد ،

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

لذلك إخواننا الكرام ، نحن حينما نبتغي أن نزوج فتياتنا لإنسان مؤمن اطمأن ، إن كان فقيراً فسيغنيه الله عزوجل ، لذلك قالوا : زوج ابنتك للمؤمن ، إن أحبها أكرمها ، وإن لم يحبها لم يظلمها ، يعطيها حقها ، لأنه يخاف الله عزوجل .

وشيء آخر :

((النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته))

[رواه أبو عمر التوقاني عن عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر]

الزواج رق ، فالمؤمن يخاف الله ، وإذا كان المؤمن فقيراً يغنيه الله ، وإذا كان المؤمن فقيراً ، ووالد الفتاة ميسور الحال ، ما الذي يمنع أن تعين هذا الشاب ؟ ما الذي يمنع لماذا تريد أن تضع أموالك في الأولاد الذكور فقط ؟ البنات لهم عند الله حق كبير ، ما الذي يمنع أن تخصص بيتاً متواضعاً لابنتك ؟ فإذا جاء خاطب عُرض عليه البيت مع الفتاة ، إذاً يأخذها بلا تردد ، أنت بهذه الطريقة أعنت الشباب .

إخواننا الكرام ، الآن أنا أقول لكم ، وكلامي دقيق وواضح : ما من عمل أعظم عند الله الآن في زمن الفتن ، في زمن النساء الكاسيات العاريات ، في زمن الفضائيات ، في زمن الإنترنت ، في زمن المجلات ، في الزمن الذي لم يبقَ للزوج من مفاتن امرأته شيء ، كله في الطريق ، في هذا الزمن الصعب الذي يسهم في تزويج الشباب ، في التساهل معهم ، في تأمين المأوى لهم ، في التخفيف من النفقات ، هذا إنسان يقوم بعمل بطولي .

نحن أيها الإخوة معنا أرقام والله أنا متأكد منها ، لكن والله لن أستطيع البوح بها ، لأنكم لا تصدقون هذا الرقم ، عدد بيوت الدعارة في دمشق لا يصدق ، فالعلاقة بين الذكر والأنثى إما أن تكون بقناة نظيفة هي النكاح ، فإن وضعت العراقيل ، وابتغينا المظاهر ، وأصررنا على نفقات معينة ، وعلى حفلات معينة ، وعلى وسائل معينة ، كانت فوق طاقة الشباب فبارت سوق الزواج ، وراجت سوق الزنا ، فإما أن يكون نكاح ، أو أن يكون سفاح ، الدليل ، الدليل من عند سيد المرسلين ، قال :

((إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

إخواننا الكرام ، حينما تكون النساء محجبات ، والفتن نائمة ، والمرأة بأثوابها السابغة وهي ملكة ، وحينما لا نرى في الطريق شيئاً لا يثير ، ولا في الشاشة شيئاً يثير ولا في الانترنيت شيئاً يثير ، ولا في أي شيء شيئاً يثير يمكن أن نتساهل في بعض حاجات الزواج ، أما في زمن النساء الكاسيات العاريات ، المائلات المميلات ، في زمن أن طرق الحرام مفتوحة على مصاريعها ، لا بد من أن نعظم الحلال ، ولا بد من أن نتساهل فلذلك نحن على خطر ، على خطر أن تحول مدن بأكملها إلى بيوت دعارة ، لأن طرق الزواج مغلقة ، في نفقات باهظة ، لازم يقدم ألماس لأن الذهب مفلح ، أما قرية في

غوطة دمشق تتخذ قرارًا أن المهر خاتم وساعة فقط ، وغرفة واحدة ، إن لم نفعل ذلك نحن أمام خطر انحلال المجتمع ، والذي أعرفه والله أيها الإخوة من انحرافات في بنية المجتمع المسلمة لا تصدق بسبب وضع العراقيل ، الذي جاء بهذا الموضوع :

(وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ)

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

حينما تضع العراقيل ، وهذا ما عجبك دخله ، وهذا طلب يسكنها بالريف ، وهذا مدخل بيتهم ليس مقدر تجد أشياء عجيبة جداً ، الأب مرتاح جداً ، ليس عنده مشكلة ، بيته جاهز ، زوجته أمامه ، طعامه جاهز ، ثيابه جاهزة ، أما هذه الفتاة المؤمنة المحجبة الحافظة لكتاب الله تنتظر شاب مؤمن يسعدها ، وتحقق هدفها في الحياة من خلاله ، لأنه ثبت في علم النفس أن دافع الأمومة أكبر دافع في الجنس البشري ، فالفتاة تريد أن تكون أماً فقط ، لا أن تكون خادمة عند أخيها ، وعند زوجة أخيها الظالمة .

والله حدثني أخ عنده أخت كبيرة بالسن ، وزوجته شابة ، مرة وهو جالس طبعاً يبالغ في تكريم زوجته، ويبالغ في إهانة أخته ، مرة ركلها بقدمه أمام زوجته ، قال لها : هاتِ كأس ماء ، وزوجته جالسة ، وهي في سن ابنتها ، سافر إلى حلب ، في الطريق قطعت رجله التي ركل بها أخته من أعلى الفخذ في حادث سيارة ، الله كبير ، لذلك الذي عنده أخوات بنات وعانسات إكرامهن قربٌ إلى الله ، وتوقيرهم إكرام ، وتأمين حاجاتهم ، والله لا يعلم إلا الله كم ينال هذا الشاب عند الله من أجر عظيم .

إخواننا قصة ذكرتها كثيراً لكم ، لكن من المناسب أن تكون أمامكم ، امرأة عندها عرج 8 سنتيمترات بين الرجل والثانية ، هذه قصة طريفة ، اشترت حذاء خاصا متوازنا ، فلما لبست هذا الحذاء توازنت ، وكل ثيابها نازلة إلى الأرض ، فخطبت ، وأعجب بها الخاطبون ، متى كشفت ؟ يوم العرس ، فالحماية لا يمكن أن تبقيها ، لقد احتالت عليهم ، وأمرت ابنها بتطليقها ، الابن شهم ، مع أن ثمة خطأ كبير في البنت ، لكن ما أراد أن يكسر خاطرها ، قال لها : والله لا أطلقها ، وأنا راضٍ بها ، والله القصة رويت لي ممن أثق بهم ، في سنوات معودة بلغت ثروته مئات الملايين ، هو يعمل في التجارة ، لكنها كانت تجارة متواضعة جداً ، فجزاء هذه الفتاة التي لم يكسر خاطرها ، ولا خيب ظنها ، أكرمه الله إكراماً لا حدود له .

الدنيا بطولات كلها ، فأنا أقول لكم : الآن نحن بحاجة إلى أن نتحرك ، لا أن نصمت ، لا أن نتكلم فقط، أنا أتمنى أن يقدم الآباء كل التسهيلات للشباب ، وأتمنى من ألياء الشباب أن يقدموا كل التسهيلات لأولادهم ، هذا الذي كان أبوه قبل خمسين سنة عصاميًّا الآن ليس هناك عصامي ، يحتاج الابن إلى معونة من والده ، يحتاج إلى دفعة للأمام ، أنا أصرح بأعلى صوتي : لا بد من حل مشكلات الشباب ، لأن الورقة الرابحة بأيدينا هي الشباب ، ولأن مستقبل أمتنا في الشباب .

قتل الولد خشية الفقر : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ

(وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ)

إن كانوا فقراء قال هؤلاء الأولاد عبء عليكم ، وإن كانوا أغنياء هؤلاء الأولاد يقاسموكم أموالكم ، وإن كانوا بنات فضيحة وعار ، من قال إن الفتاة فضيحة وعار ؟ والله الذي لا إله إلا هو أنا أقتضي برسول الله جاءته فاطمة فضمها وشمها وقال :

((ريحانة أشمها وعلى الله رزقها))

إن محبة البنت لأبيها عجيبة ، محبة وولاء ، واحترام ، وتقدير ، وخدمة في أعلى مستوى ، فإكرام البنت أحد أكبر القربات إلى الله ، ومن جاءه بنت فأحسن تربيتها فله الجنة ، الجنة التي عرضها السماوات والأرض ، الجنة إلى أبد الآبدين ، بسبب أنك ربيت فتاة مؤمنة طائعة ، ثم زوجتها لشاب مؤمن يحفظ لها دينها ، هذه الحياة ، الأبوة رسالة ، هنا :

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

كلما جاء خاطب نخلق له مشكلة ، وهناك نموذج ـ والعياذ بالله ـ إذا تزوجت ابنته يطلق امرأته ، وقد طلقت المرأة لأن البنت تزوجت من دون رضا أبيها ، أب متعنت ، فأنا أقول : الأب الكامل يهتم بتزويج بناته قبل كل شيء ، طبعاً هؤلاء المشركون زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم ، قيل : إن كانوا فقراء خوفوهم من أنهم يأتون بعبء فوق عبئهم المادي ، وإن كانوا أغنياء الأولاد يقاسمونهم المال ، وإن كانت فتاة بكلام شركي خاطئ تجلب لهم العار ، ربِّها ، أحسن تربيتها .

الآن الآية الكريمة :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

(سورة الإسراء الآية: 31)

صدقوا أيها الإخوة منذ خمس وثلاثين في الدعوة ما أفتيت بإسقاط جنين أبداً ، أنا قناعتي أنه لمجرد أن تلقح البيضة بدأت الحياة ، لذلك أنت حينما تجهض امرأة كأنك قتلت نفساً يغير حق ، أما كلامي دائماً لكل من يسألني حول إسقاط الجنين لأن الأولاد كُثر ، والوقت صعب ، والدخل محدود ، والبيت صغير، أقول لهم : لعل هذا الذي تريد أن تتخلص منه يكون داعية كبيراً ، يكون عالماً جليلاً ، يكون مصلحاً اجتماعياً ، يكون قائداً فذاً ، هذا هدية من الله ، لذلك الآية :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

لا تقتل ابنك لفقر متوقع بعيد ، الآن البيت بمليونين ، هذا إذا كبر بعد عشرين سنة صار ثمن البيت 8 ملايين ، إذاً يلجأ إلى الإجهاض ، والإجهاض قتل النفس :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ)

أصر أحدهم على أن يسقط الجنين أول سنة ، وثاني سنة ، السنة الثالثة حملت زوجته جاءت بثلاثة توائم ، ما استفاد شيئًا .

أيها الإخوة ، نعيد الآية ثانية :

(وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ)

مفعول به ،

(أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ)

شركاؤهم الذين أشركوهم مع الله عزوجل زينوا لهم قتل أولادهم ، التزيين يحتاج إلى قوة كبيرة ، لأن محبة الولد متغلغلة في أعماق النفس ، فأن تدفع أباً لقتل ابنه أو لوأد ابنته يحتاج إلى تزيين من أعلى مستوى ، كيف زينوا لهم قتل أولادهم ؟ أنتم فقراء ، فإذا أنجبتم أولاداً تضيفون هماً إلى همكم ، هذا الفقر الواقع .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ)

(سورة الأنعام الآية : 151)

(مِنْ إِمْلَاقٍ)

من فقر واقع .

(نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 151)

أما الأغنياء فأنتم في بحبوحة ، فالأولاد يحتاجون إلى زواج ، وإلى بيوت ، وإلى معامل وإلى سيارات، دعك من هذا ، واكتف بزوجتك ، وربِّ كلباً ، إن كان غنيًّا يخوفه الشريك الذي أشركه مع الله بفقر متوقع ، قال :

(نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

إذا كان الفقر واقعاً :

(نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

وإذا كان الفقر متوقعاً :

(نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً)

(سورة الإسراء)

الإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله :

إخواننا الكرام ، الإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله ، أنا سافرت إلى جنوب السودان ، وكان الوفد الذي كنت فيه أول وفد عربي يزور جنوب السودان من 40 عامًا ، الذي رأيته بعيني شيء لا يصدق ، أطفال عراة من الفقر ، جائعون ، جهلاء ، قال لي بعض من كان في الوفد : إنهم يأكلون كل شيء إلا السيارة ، ويأكلون كل شيء في الماء إلا الباخرة ، وكل شيء في الجو إلا الطائرة ، من الفقر، فقلت في نفسي هذه الكلمة ، والحرب الأهلية استمرت 40 سنة ، 20 مرحلة ، و20 ثانية ، قلت في نفسي : والله لو جاءني خاطر أن هؤلاء الصغار مسلمون أم مسيحيون لاحتقرت نفسي ، إنهم عباد لله ، والإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله ، والإنسان ملعون لو أنهى حياة إنسان .

((لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يسفك دماً))

(البخاري عن ابن عمر)

ملعون إذا أدخل على قلبه الخوف ، ملعون إذا ابتز ماله ، ملعون إذا غشه ، الإنسان بنيان الله ، أنت حينما تعرف أن الإنسان هو المخلوق الأول ، وأنه بنيان الله تعد للمليون قبل أن تؤذي هذا الإنسان ، قبل أن تحتال عليه ، قبل أن تغشه .

والله أخٌ من إخواننا عنده معمل حلويات للصغار ، يقول لي كلمة تأثرت لها كثيراً ، قال لي : هذا الطفل يأخذ من أبيه عشر ليرات للمدرسة يشتري بها قطعة حلويات تناسب سنه ، هل يعقل أن أشتري المواد الغذائية التي انتهى مفعولها ، وأصبح ممنوعاً بيعها ؟ أما عن طريق المعامل تباع ، وتُستهلك ، ولا أحد يسأل على ذلك ، معقول أن أطعم هؤلاء الصغار مواد غذائية انتهت مدة صلاحيتها ؟ قال لي : والله أشتري المواد من أعلى مستوى ، حتى إذا أطعمت هذا الصغير قطعت حلويات بعشر ليرات يأكل غذاء نافعاً لجسمه ، قال لي : والله يرزقني رزقاً كبيراً .

هؤلاء عباد الله ، فإنسان إذا مؤمن يعد للمليون قبل أن يغش مؤمناً ، ومسلماً أو كافراً

((من غش فليس منا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

وقال في رواية :

((من غشنا فليس منا))

[أخرج الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود]

إذاً :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

عامل الناس كما تحب أن يعاملوك :

فهؤلاء المشركون الذين أشركوا مع الله آلهة زينوا له مقتل أولادهم ، وكالوا لهم بمكيالين ، والشيء التالف من مال الله لا يعوض ، والشيء التالف من مال الأصنام يؤخذ من مال الله ، والإنسان المؤمن منطقي ، والمؤمن يكيل بمكيال واحد ، أحاديث كثيرة ، لكن تجمعها قاعدة فقهية : " عامل الناس كما تحب أن يعاملوك " ، كيف تحب من أهل صهرك أن يعاملوا ابنتك ؟ عامل الصهر كما تحب ، دائماً عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ، كيف تحب أن يعاملك موظف وأنت أمام طاولته ؟ أن يقول لك تعال بعد غد ، والأمر ينتهي بثانية ، أم تحب أن ينجز لك عملك ؟ هذه قاعدة لو طبقناها لحلت كل مشكلاتنا عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ، عامل زوجة ابنك كما تتمنى أن تعامل ابنتك في بيت زوجها ، عامل شريكك كما تحب أن يعاملك ، عامل جارك كما تحب أن يعاملك ، عامل أولادك كما تحب أن يعاملك أبوك ، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك .

فلذلك هذا الدرس يبين خللا كبيرًا في حياة المشركين ، في تفكيرهم ، في معتقداتهم في سلوكهم ، في مكاييلهم ، والله عزوجل قدم لنا صورة .

لذلك إخواننا الكرام ، ما لم يكن هناك بون شاسع بين المؤمن وغير المؤمن فهذا الدين لا يؤتي ثماره ، نحن نتوهم أن المؤمن يصلي ، لا يكفي ، الصلاة عبادة ، وفرض على المؤمن أن يصوم ، وأن يحج ، وأن يأتي بعمرة ، ويدفع زكاة ماله ، لا ، الدين وأنا أعني ما أقول ، هكذا الرقم 500 ألف بند ، والصوم والصلاة والحج والزكاة خمسة بنود ، في العلاقة بالزوجة ، العلاقة بالأولاد ، بكسب الأموال ، بإنفاق الأموال ، بحمل هموم المسلمين ، بتكوين علاقات طيبة مع الآخرين ، الدين منهج كامل ، فنحن حينما فهمناه عبادات شعائرية تراجعنا ، فإذا فهمناه : أن ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام ، هذا قول قاله أحد العلماء ، والنبي الكريم يقول :

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر ، واعتكافي في مسجدي هذا))

(الطبراني في الأوسط عن ابن عمر)

أن تقدم خدمة لأخ ، أن تسهم في تزويج شاب بفتاة .

((من أفضل الشفاعة أن تشفع بين اثنين في النكاح))

[أخرجه ابن ماجة عن أبي هريرة]

أنت كمؤمن تقصي أخواتك المؤمنات من أقربائك ، هذه في سن الزواج ، هذه محجبة حافظة لكتاب الله، لك رفقاء شباب يبحثون عن زوجات دلهم على هذه القريبة ، لك أجر كبير ، حتى في الأثر :

((من مشى بتزويج رجل بامرأة كانت له بكل خطوة خطاها ، وبكل كلمة قالها عبادة سنة قام ليلها ، وصام نهارها))

(ورد في الأثر)

((من أفضل الشفاعة أن تشفع بين اثنين في النكاح))

(ورد في الأثر)

ولا سيما في زمن الفتن ، قال أحدهم : أنا من أنصار الزواج المبكر ، قال له صاحبه : بعد كم ساعة ؟ فهمها بالساعات .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(60-73): تفسير الآيات 138 – 140، عشر قواعد أصولية متعلقة بالحلال والحرام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-04-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الستين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ)

الحرث وهو المال :

(وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

منزلة الحلال والحرام في الدين :

أيها الإخوة الكرام ، قضية الحلال والحرام أخطر قضية في الدين ، وقبل أن نمضي في الحديث عن معاني هذه الآيات لا بد توضيح عن بعض ملابسات الحلال والحرام .

أيها الإخوة ، الحلال والحرام هو قيام الإسلام ، ودليل الإيمان ، لو ألغيت المنهج فماذا بقي من الدين ؟ لو ألغيت افعل ولا تفعل ماذا بقي من الدين ؟ لو ألغيت الالتزام ماذا بقي الدين ؟ الحلال والحرام هو قيام الإسلام ، ودليل الإيمان ، هو ميزان الصدق عند الواحد الديان ، ميزان الصدق عند الله أن يجدك حيث أمرك ، وأن يفتقدك حيث نهاك ، فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل إلا بمقتضى الأمر والنهي ، حينما قال الله عزوجل :

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

(سورة النمل الآية: 19)

العمل الذي يرضي الله إذا كان خالصاً لوجه الله ، وابتغيت به وجه الله وكان وفق السنة ، لذلك قال بعض العلماء : ما كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله وصواباً ما وافق السنة .

أيها الإخوة ، لا إيمان بلا عمل .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال الآية : 72)

أصل العبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية ، لذلك لا التزام بأمر آمر ، ولا انتهاء عن نهي ناهٍ ، ماذا بقي من الدين ؟ الإنسان إن لم يلتزم بأمر الله ، ولم ينتهِ عما عنه نهى ليس فيه دين إطلاقاً ، كل المظاهر التي يعبر عنها الناس من أنهم ينتمون إلى هذا الدين ، وليسوا عند الحلال والحرام ليست بشيء ، لذلك إذا رأيت الرجل يطير في الهواء ، أو يمشي على وجه الماء ولم يكن عند الأمر والنهي فلا تعبأ به ، وأدق تعريف للولي في القرآن :

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

(سورة يونس)

هذا تعريف الولي البسيط الواضح :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

أيها الإخوة ، هناك بعض الحقائق المتعلقة بالحلال والحرام :

قواعد متعلقة بالحلال والحرام :

القاعدة الأولى : التحريم والتحليل من شأن الله وحده :

أن الحلال والحرام من شأن الله وحده ، ما في جهة مخولة أن تحرم أو أن تحلل ، التحريم والتحليل من شأن الله وحده ، هذه من خصائص الذات الإلهية هو يحرم ، وهو يحلل ، وأي تشريع أرضي تحليله وتحريمه ليس بشيء أمام تحليل الله وتحريمه ، هذه القاعدة الأولى .

القاعدة الثانية : الأصل في الأشياء الإباحة :

أن الأصل في الأشياء الإباحة .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

(سورة البقرة الآية : 29)

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الجاثية)

الأصل في الأشياء أنها مباحة ، ولا يحرم شيء إلا بدليل قطعي في ثبوته ، وقطعي في دلالته ، هذا الدين .

((ابن عمر دينك دينك ، إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذين استقاموا))

[عن ابن عمر]

أول حقيقة : التحليل والتحريم من شأن الله وحده ، لذلك كان كبار العلماء إن سُئلوا عن شيء لم يرد به نص يقولون : الأولى ألا تفعلوه ، أنا لا أرتاح له ، لا يعطون كلمة حلال أو حرام ، الآن أي إنسان مهما قلّ شأنه يقول لك : حرام ، وبلا دليل ، أو حلال ، التحليل والتحريم من شأن الله وحده .

القاعدة الثانية : أن الأصل في الأشياء الإباحة ، ولا يُحرم شيء إلا بالدليل القطعي في ثبوته والقطعي في دلالته .

القاعدة الثالثة : تحليل الحرام وتحريم الحلال مِن أكبر الكبائر :

عندنا قاعدة أخرى ، وهي : أن تحليل الحرام ، وتحريم الحلال من أكبر الكبائر الله عزوجل رتب ترتيباً تصاعدياً ، فذكر الفحشاء والمنكر ، والإثم والعدوان ، وذكر الشرك وذكر الكفر ، وجعل على رأس المعاصي كلها :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

مرة كان بعض الصحابة في سفر ، وقد استيقظ أحدهم وقد أصابته جنابة ، احتلم ، فسأل ؟ فأشاروا عليه أن يغتسل ، والجو بارد فمات ، فالنبي عليه الصلاة والسلام على غير عادته قال :

((قتلوه قتلهم الله))

(أبو داود عن جابر)

أن تقول : حرام ، أن تقول : حلال .

بالمناسبة أيها الإخوة ، أي إنسان يستطيع أن يحرم ، القضية سهلة جداً تكلفك كلمة ، أن تقول : حرام ، لكن البطولة أن تعطي الرخصة مع الدليل ، لأن التحريم يحسنه كل إنسان ولو كان جاهلاً .

والشيء الثاني : أن الإنسان أحياناً يأخذ بكل الرخص ، فإذا سُئل أعطى بالعزائم ، وهذا خطأ كبير ، الإنسان إذا كان يأخذ بالرخص ينبغي أن تعطي الرخص ، لكن الأكمل أن تأخذ نفسك بالعزائم ، وإذا استفتيت أن تعطر الرخص .

إذاً تحريم الحلال ، وتحليل الحرام من أكبر الكبائر ، لذلك أحياناً يفتي الإنسان بلا علم ، وهو محاسب عند الله أشد الحساب ، لكن الذي سوف يعاقب أشد العقاب هو الذي يفتي بخلاف ما يعلم ، الأول جاهل، أما الثاني فمجرم ، الذي يفتي بخلاف ما يعلم ، يعلم الحكم الشرعي ، ولمصلحة راجحة ، لمصلحة شخصية ، لتثبيت مركز ، لإرضاء قوي يفتي بخلاف ما يعلم .

القاعدة الرابعة : الحلال طيب والحرام خبيث :

الحلال طيب ، والحرام خبيث الحلال تحلو به النفوس ، والحرام يحرم الإنسان من سعادته ، وما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، فلا حرمان أبداً ، لكن لما يتزوج الإنسان الناس يفرح الناس ، ويهللون ويقدمون له الهدايا ، ويباركون ، وهو يجلس مع زوجته آمناً ، مطمئناً ، لا حرج ، ولا قلق ولا خوف ، لأن هذا وفق منهج الله ، وقد يصلي قيام الليل ، وقد يبكي في الصلاة ، أما إذا ابتغى علاقة غير مشروعة فقد طرد من رحمة الله ، ولعن من قِبَل الله ، وحجب عن الله ، وكان عمله سراً ، ويخاف أن يفتضح ، وهناك من يؤاخذه ، وقد يسقط من عين الناس ، وكل الخير في الحلال ، وكل الشر في الحرام ، الله عزوجل قال :

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 5)

الهدى الذين هم عليه رفع شأنهم ، وأعلى قدرهم ، وجعلهم نجوماً في المجتمع ، سُئل الحسن البصري بمَ نلت هذا المقام ؟ قال : باستغنائي عن دنيا الناس ، وحاجتهم إلى علمي .

مرة كان الحسن البصري عند والي البصرة ليزيد ، فجاء توجيه من يزيد بن معاوية ، يبدو في هذا التوجيه إيقاع ظلم في فئة معينة ، فقلق هذا الوالي قلقاً شديداً وعنده إمام جليل هو الحسن البصري ، قال: يا إمام ماذا افعل ؟ إن لم أحقق مراد يزيد غضب ، وعزلني ، وإن حققت مراده حُجبت عن الله ، ماذا افعل ؟ وقع في حرج شديد ، فقال له كلمة يجب أن تكون لكل واحد منا شعاراً ، قال له : إن الله يمنعك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله .

إذاً ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة ، لا حرمان في الإسلام ، الحلال طيب، أنت حينما تكسب مالاً حلالاً تكون رافع الرأس ، لا تستحي أما حينما يكون الغش ، أو الاحتيال ، أو الكذب ، أو التدليس ، ويكتشف الأمر ، تصغر من عين الناس ، بل تسقط من عين الله ، الحلال تحلو به النفس ، الحلال طيب ، الحلال معه أمن ، معه طمأنينة ، معه راحة نفسية ، معه عز .

إخواننا الكرام ، هناك قانون للعز ، وقانون للذل ، أنت حينما تستقيم على أمر الله تشعر بعزة ما بعدها عزة ، وحينما ينحرف الإنسان يشعر بصغار ما بعده صغار .

القاعدة الخامسة : في الحلال ما يغني عن الحرام :

كل شيء أودعه الله عزوجل فيك من شهوات أعطاك قنوات نظيفة يمكن أن تأخذ هذا الشيء من هذه القنوات ، أؤكد لكم بيقين قطعي أن الإسلام دين الفطرة ، والإنسان حينما يستقيم على أمر الله يعيش حياة طيبة وعده الله بها ، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية : 97)

والحياة الطيبة لا يعرفها إلا من ذاقها ، ليس شرطاً أن تكون غنياً ، لكن في قلب المؤمن من الطمأنينة والثقة بالله ، والتفاؤل ، والشعور بالتألق عند الله عزوجل ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم ، فالحلال يغني عن الحرام بكل الشهوات .

مرة قال لي أحدُ الزملاء في العمل : أنا كنت في جاهلية ثم اهتديت إلى الله ، وتبت من كل المعاصي والآثام التي كنت أعملها ، أقسم لي بالله أن ساعة مع زوجة صالحة مؤمنة طاهرة لا تعدلها متع الأرض من الفسق والفجور والشعور بالسقوط من عين الله .

مع المعاصي سقوط ، مع المعاصي شقاء ، مع المعاصي خجل من الله الذي يراقبك .

القاعدة السادسة : ما أدى إلى حرام فهو حرام :

الشيء الذي يؤدي إلى حرام فهو حرام ، هذه قاعدة أصيلة ، قال تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة الآية : 2)

أنت أجّرت بيتاً ، الرقم غير معقول ، الرقم يفوق أجرة غرفة في أفخر فندق ، هناك مشكلة ، أنت قدمت البيت لهذه المعصية الكبيرة ، وهذا قدم الأداة ، وهذا قدم التغطية ، لذلك ما أدى إلى حرام فهو حرام ، والأصل في هذا :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

الزنا محرم ، كل مقدمات الزنا محرمة ، الخلوة محرمة ، إطلاق البصر محرم ، صحبة الأراذل محرمة ، أي شيء يقرب من معصية فهو معصية ، ما حُرم فعله حُرم استماعه ، وحرم النظر إليه ، لذلك من شهد معصية فأنكرها كان كمن غاب عنها ، ومن غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها .

القاعدة السابعة : التحايل على الحرام حرام :

شيء آخر ، التحايل على الحرام حرام ، وبهذا يمكن أن نقيم الحيل الشرعية ، أنا لا آكل الربا ، جيد ، آتي بكيس من الأرز أضعه في محلي التجاري ، وقد يبقى في المحل عشر سنوات ، كل من جاءني ليأخذ قرضاً ربوياً أبيعه هذا الكيس ديناً ، بألف ومئتين ، ثم يبيعني إياه نقداً بألف ، أنا أعطيت ألفًا ، سجلت ألفًا ومئتين ، بيع العينة حرام ، هذا احتيال ، لذلك هؤلاء الأشخاص الذين يطبقون الحيل الشرعية كأنهم يرون أن الله ينطوي عليهم ، ولا تخفى على الله خافية ، وآلاف الحيل الشرعية من هذا الباب ، حتى إن المرابحة التي يقوم بها كل من له صلة ببنك إسلامي ، في معظم وجوهها هي قرض ربوي عن طريق بضاعة ، على كلٍ بعض أنواع المرابحة صحيح ، أما معظم الأساليب التي يستخدمها الناس يعتمدون على الحيل الشرعية ، فالتحايل على الحرام حرام .

القاعدة الثامنة : أن النية الحسنة لا تبرر الحرام :

شيء آخر ، النية الحسنة لا تبرر الحرام .

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

(سورة النمل الآية : 19)

متى يرضى الله عن عملك الصالح ؟ إذا كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وصواباً ما وافق السنة ، فقد يكون العمل مخالفاً للسنة ، كأن نقيم حفلاً غنائياً ، ونيتنا في هذا الحفل أن نقدم ريع هذا الحفل إلى الأيتام ، هذا أيضاً محرم ، النية حسنة ، لكن ينبغي أن يكون العمل وفق السنة .

الآن : العمل وفق السنة ، النية ليست حسنة ، العمل مرفوض ، لا يقبل عند الله عمل إلا إذا كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وصواباً ما وافق السنة .

من طلب الدنيا حلالاً تعففاً عن المسألة ، وسعياً على عياله ، وتعطفاً على جاره ، لقي ربه ووجه كالقمر ليلة البدر .

القاعدة التاسعة : اتقاء الشبهات أولى :

((إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وَإنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُما مُشْتَبهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاس ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ اسْتَبرأ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرَام ، كالرَّاعي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى ، يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، ألاَ وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً ، ألاَ وَإنَّ حِمَى اللَّهِ تَعالى مَحَارِمُهُ))

[متفق عليه]

ثمة نهر عميق خطير له شاطئ مائل زلق ، وله شاطئ جاف مستوٍ ، فالمشي على الشاطئ المستوي الجاف آمن ، أما المشي على الشاطئ المائل الزلق فخطير ، الشبهات تشبه المشي على الشاطئ المائل الزلق ، والمحكمات تشبه المشي على الشاطئ الجاف المستوي .

لذلك الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس .

((لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن عطية السعدي]

الشبهات فيها وجه شرعي ، وفيها وجه غير شرعي ، ابتعد عنها ، ونم ناعم البال ، الوَرِع يتقي الشبهات .

((إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وَإنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاس ، فَمَنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ اسْتَبرأ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرَام ، كالرَّاعي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، ألاَ وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً ، ألاَ وَإنَّ حِمَى اللَّهِ تَعالى مَحَارِمُهُ))

القاعدة العاشرة : الحرام حرام على الجميع :

ليس في الإسلام استثناءات أبداً ، الحرام حرام ، في كل مكان ، وفي كل زمان ، ومع كل إنسان ، لأن هناك من يتوهم أن الحرام في هذا البلد حرام ، لكنه في بلد آخر حلال ، والحقيقة أن هناك خطورة كبيرة على العقيدة حينما تعتقد بنسبية الأخلاق والتعاملات ، يقول لك بعضهم : أنت الذي تراه حراماً في الشرق هو في الغرب شيء طبيعي جداً ، ولا شيء فيه ، الحرام حرام في كل مكان ، والحرام حرام في كل زمان ، والحرام حرام مع كل إنسان ، هذه حقيقة يجب أن تكون واضحة ، لذلك هناك إسلام جغرافي ، وأحياناً تكون المرأة في بلدها محجبة ، فإذا صعدت إلى سلم الطائرة خلعت الحجاب وسفرت، وأبرزت كل مفاتنها ، الحجاب حجاب في بلدها ، وفي أي بلد آخر .

أخطر موضوعات الحلال والحرام : المرأة وكسب المال :

أيها الإخوة ، لخطورة الحلال والحرام ، ولأن تسعة أعشار الأحكام الشرعية متعلقة بالحلال والحرام ، بل إن الحلال والحرام في مجمله لا يزيد على موضوعين كبيرين ، كسب المال والعلاقة مع النساء ، كسب المال يأخذ خمسة أعشار الأحكام الشرعية ، والعلاقة مع النساء تأخذ أربعة أعشار الأحكام الشرعية ، فمن سدّ هاتين الثغرتين ، قضية المال والنساء فقد كان في حصن حصين.

تابع الفضائح في التاريخ الحديث ، في كل بلاد الأرض ، كل الفضائح لا تزيد على نوعين ، فضيحة مالية ، وفضيحة جنسية ، لذلك الأحكام المتعلقة بالمرأة وكسب المال تسعة أعشار الأحكام الشرعية .

الآن : أهل الدنيا يشرعون ، ويحللون ، ويحرمون ، لكن أريد أن أقدم لكم حقيقة دقيقة ذكرتها كثيراً ، لكن هنا لا بد من ذكرها مرة ثانية :

العلاقة بين الأمر ونتائجه علاقة علمية وعلاقة وضعية :

هناك علاقة بين الأمر ونتائجه ، علاقة علمية ، وعلاقة وضعية ، أحياناً يؤمر الابن أن يخرج من هذا الباب ، البيت له بابان خارجيان ، الأب رأى أن يقفل الأول ، وأن يحصر الخروج والدخول من الباب الثاني ، فالابن عنّ له أن يخرج من الباب الأول ، وقع في مخالفة وضعها الأب ، هو الذي وضعها ، وقد يعاقب الابن على هذا السلوك ، هذا موضوع .

لكن الإنسان حينما يضع يديه على مدفأة ، وهي مشتعلة تحترق ، نقول : العلاقة بين احتراق اليد وبين الأمر والنهي علاقة علمية .

يجب أن تعلم علم اليقين أن العلاقة بين الأمر الإلهي ونتيجته ، وأن العلاقة بين النهي ونتيجته علاقة علمية ، وكنت أضرب مثلا للتوضيح :

إذا كان ثمة تيار كهربائي 8000 فولت ، ووضع وزير الكهرباء لوحة كتب عليها : " ممنوع الاقتراب من التيار ، خطر الموت " ، وهناك إنسان واقف إلى جانب هذا التيار ، أراد أن يقترب ، لكنه خائف من الشرطي ، تلفت يمنة ويسرة ، الموضوع ليس موضوع شرطي ، موضوع أن هذا التيار 8000 فولت يجعل من اقترب منه قطعة فحم في ثانية ، فقضيتك ليست مع الشرطي والدولة ، قضيتك مع خصائص هذا التيار .

فأنت حينما تفهم أن أمر الله إن طبقته ينتهي إلى السلامة والسعادة ، وأن النهي إن لم تنتهِ عنه وصلت إلى الشقاء والهلاك ، عندئذٍ تكون فقيهاً في الدين ، ودائماً وأبداً أقول : اللوحة التي كتب عليها : " ممنوع التجاوز حقل ألغام " ، هذه اللوحة ليست حداً لحريتك ، بل هي ضمان لسلامتك ، وبالتعبير الدقيق : إذا كنت مفرطاً في حب ذاتك ، إذا كنت مفرطاً في أنانيتك في حب وجودك ، في حب سلامة وجودك ، في حب كمال وجودك ، في حب استمرار وجودك فأطع الله ، لأن طاعة الله سلامة لك ، ولأن العمل الصالح رقي لك ، لذلك أزمة أهل النار في النار أزمة علم :

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

إذاً يتضح أن الحلال والحرام من شأن الله وحده ، وأن هذه القواعد قواعد أصولية متعلقة بالحلال والحرام ، أما الناس الشاردون عن الله فهم يحللون وهم يحرمون .

هنا ملمح دقيق : هو أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى على الرُماة الذين عصوه في أحد ، صلى عليهم ، كيف يصلي على عاصٍ ؟ قال علماء السيرة : صلى عليهم لأنهم عصوا أمراً تنظيمياً ، ولم يعصوا أمراً تشريعياً ، الأمر الإلهي أمر تشرعي ، والحلال له نتائج خطيرة ، الحلال إذا أخذت به هناك سلامة وسعادة ، والحرام إذا أخذته هناك شقاء وهلاك .

لا حرام إلا ما حرم الله : وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ

الآن :

(وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ)

الأنعام البقر والغنم والإبل ، وما شاكل ذلك ، والشياه .

(هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ)

الحرث الأموال ، وقد تكون الأراضي .

(حِجْرٌ)

هذه الدابة لله ، ممنوع أن تركب ، ممنوع أن تحلب ، ممنوع أن ينتفع بها ، هكذا شرعوا .

والله أيها الإخوة هناك من التشريعات في الأرض الشيء الذي لا يمكن أن يُقبَل ، إذا مات الرجل في بلاد الهند فلا بد من أن يحرق بعد أن يموت ، ولا بد من أن تتمدد زوجته إلى جانبه ، وتحرق معه ، طبعاً هذه من تقاليد الهند وعاداتهم ، ما هذا التشريع ؟!

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام الآية : 164)

إذا انتهى أجل إنسان فما ذنب الثاني ، والعالم أحياناً كلما تحرر من تقليد غير محتمل يقع في تقليد أشد غرابة من الأول ، لأنه في ضياع ، أن منهج الله من عند الخبير .

بالمناسبة ، عندك جهاز غالي الثمن ، عظيم النفع ، معقد التركيب ، أصابه عطب هل تعطيه لإنسان تحبه وهو جاهل ؟ لا تعطيه لإصلاحه إلا للجهة الخبيرة ، والجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها .

(وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ)

حجر أي ممنوع أن تركب ، أو أن تحلب ، أو أن ينتفع بها .

لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ

(لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ)

لذلك لا يمكن أن يكون التشريع من البشر ، لأنه إذا كان من البشر الإنسان يحابي نفسه ، يجر المنفعة إلى نفسه ، وما مِن تشريع أرضي إلا يعطي الذي نظم هذا التشريع ميزات تفوق حد الخيال ، ويحرم الطرف الآخر كل حقوقه الأساسية ، لذلك التشريع من شأن الله وحده ، لأنه إله ، والكل عباده ، أما إذا كنت عبداً ، وبيدك التشريع تشرع لصالحك ، ولا تأبه للطرف الآخر .

تقاليد الناس لا أساس لها من الصحة :

(وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

ومعظم تقاليد العالم وعاداتهم ما لها أساس من الصحة ، وفي عصور الجاهلية كانت المرأة تورث كالسلعة تماماً ، يرث الزوجة ابن الأب الأكبر ، تصير زوجة أبيه ملكه ، هو الوارث لها ، وهناك تشريعات ليس للمرأة فيها شيء ، الثروة للأولاد الذكور فقط ، وهذه تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان .

لذلك حينما التقى ربعي برستم قال له : << ... إن الله بعثنا لنخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام >> .

بالمناسبة أيها الإخوة ، الآية التي قبلها والتي تشير إلى أن الشركاء يوحون إلى شركائهم أن يقتلوا أولادهم أيضاً في جهل كبير جداً ، وبُعدٌ كبير عن فهم حقيقة الابن ، فالابن إذا علمته ، وهذبته ، وقومته، وحليته بالخلق الكريم ، كان الابن أكبر نعمة للأب ، فهذا الذي يقتل ابنه ما فهم على الله حكمته ، وقد يكون الأب في رحابة كسب ابنه .

كنت في عقد قران ، أحد علماء دمشق الأجلاء توفاه الله عزوجل ، وابنه من طلاب العلم ، ألقى كلمة رائعة جداً في مناسبة عقد زواج ، وأنا أستمع لهذه الكلمة قلت : ما مات الأب ما دام قد خلف طالب علم يلقي كلاماً رصيناً ، وبعلم غزير ، فلما ألقيت كلمة قلت : خير كسب الرجل ولده .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

(سورة الطور)

بالمناسبة والآيات التي قبل الآية التي بدأت بها تتعلق بقتل الأولاد ، وتحدثت في درس سابق على أن القتل قتلان ، إما أن تقتل جسمه كوأد البنات في الجاهلية تماماً ، أو أن تدعه من دون علم ولا أدب ، ولا تربية ، ولا تعليم ، فهو عبء عليك .

ليست الكثافة السكانية من أسباب التأخر والخسران :

بالمناسبة أيها الإخوة ، هذا بحث اقتصادي ، كان يظن أن الكثافة السكانية مع الأوراق الخاسرة للأمة ، لذلك الصين بدأ بتحديد النسل ، وألزمت المجتمع عندها بولد واحد ، والذي حصل أن كل أسرة كانت تكتفي بولد ذكر ، فإن جاءت أنثى لا تسمح لها أن تعيش ، أما الذكر فيسمح له أن يعيش ، لأنه ولد وحيد ، فمع مضي عشرون أو ثلاثون عامًا ، وأنا أتابع هذا الموضوع من قديم نشأت أزمة زواج ، هناك خمسون مليون شاب ليس له زوجة ، فظهرت عصابات لخطف الفتيات في سن الزواج .

لكن الآن الصين نفسها لها رأي آخر ، الكثافة السكانية أكبر مورد بشري ، لكن بشرط أن تعلم هذا الإنسان ، وأن تطلق يده ، وبالمصطلحات الاقتصادية : هناك ثروات طبيعية ، وموارد بشرية ، وتقنية عالية ، الموارد أنواع ، لكن أحد أهم هذه الموارد الموارد البشرية .

الآن على مستوى أسرة ، لما يأتي الإنسانَ ولدٌ ، ويربيه تربية عالية هذا أكبر معوان له ، أحيانا تجد إنسان في سن متأخرة ، وأصابته بعض الأمراض ، له أولاد يحفون به بأعلى درجة من الخدمة ، فهذا الذي يقتل ابنه إما قتلاً مادياً كالوأد ، أو يقتله قتلاً من نوع آخر ، أن يهمل تربيته ، على كلٍ هذا الابن يمكن أن يكون أكبر معوان لأبيه ، إذاً :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

(سورة الأنعام الآية :151)

(إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً)

(سورة الإسراء)

ثم يقول الله عزوجل :

(وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

(سورة الأنعام)

هناك أحكام ما أنزل الله بها من سلطان ، تموت الدابة التي لهم فيأخذون بدلاً عنها من التي لله عزوجل، وكل أحكامهم أساسها مصلحتهم ، وأساسها رغبتهم ، ومآربهم المادية .

إذاً نعود ونقول : التشريع يجب أن يكون لله وحده :

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا

(وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

ادّعوا أن ما في بطون هذه الأنعام من اللبن ، ومن الأجنة إذا نزلت حية فهي للذكور منهم فقط ، ولا تأكل النساء من ذلك شيئاً ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء وهذا يدل على الظلم في القسمة ، إن نزل حياً للذكور فقط ، وإن نزل ميتاً للذكور والإناث معاً ، شيء غير منطقي ، وغير معقول ، الله عزوجل يقول :

جزاء مدّعي التحليل والتحريم :

(سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

أي سيجزيهم على كذبهم وافتراءهم بما يليق عقاباً للكاذبين ، لأنه سبحانه وتعالى حكيم في أفعاله ، وأقواله ، وشرعه ، وقدره ، عليم بما يفعلون من خير وشر ، وإنه سيجازيهم على ما فعلوا أتم الجزاء ، وأكمله ، ثم يقول الله عزوجل :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

(سورة الأنعام)

قاتلُ الأولادِ وأدًا أو تجهيلاً خاسر :

قد حرف تحقيق

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)

مرة ثانية : القتل قتلان : إما أن يقتل الابن بإبقائه جاهلاً ، لأن الله عزوجل يقول :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة الآية : 191)

أو أن يوأد البنت كما فعل الجاهليون قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام .

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)

لأنه ما فهم على الله حكمته من إنجاب الولد ، هذا الولد امتداد للذكر ، هذا الولد امتداد للعمل الصالح .

إخواننا الكرام ، الإنسان قد يتزوج ، وقد ينجب أولاداً ، فإذا اعتنى بتربية أولاده كل أعمال أولاده ـ دققوا ـ إلى يوم القيامة في صحيفته ، كل أعمال ذريته ، والدليل :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

(سورة الطور)

ألحقنا بهم أعمال ذريتهم ، لذلك خير كسب الرجل ولده ، الولد امتداد ، وما أقوله دائماً : هو أنه لم يبقَ في أيدي المسلمين من ورقة رابحة إلا أولادهم ، أولادهم هم المستقبل ، وقد ذكرت أن الابن إذا ترك للشاشة فإن 51 % مما يعرض على الشاشة عنف ، و37 % جنس ، والباقي سحر ، ودجل ، وكذب ، إذا تركت ابنك للشاشة صنعته الشاشة إنساناً غير سوي شهواني ، لا يعبأ بشيء من قيم الأرض ، الأبوة مسؤولية كبيرة جداً ، والذي ينجب ولداً سوف يحاسب عليه حساباً دقيقاً .

تربية الولد تحتاج إلى جهد عظيم :

أيها الإخوة ، تربية الولد تحتاج إلى جهد ، وقبل خمسين أو مئة عام إذا كانت تربية الولد تحتاج إلى جهد قليل فهي الآن تحتاج إلى جهد كثير ، لماذا ؟ لكثرة الصوارف عن الحق ، لكثرة المغريات ، لكثرة الفتن ، لكثرة النساء الكاسيات العاريات ، لكثرة الكذب ، لكثرة التزوير ، نحن في عصر استعاذ منه النبي عليه الصلاة والسلام فقال :

((كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ، ولم تنهوا عن منكر ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده ، وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، والذي نفسي بيده ، وأشد منه سيكون ، قالوا وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ، ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، والذي نفسي بيده ، وأشد منه سيكون ، يقول الله تعالى : بي حلفت ، لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران))

[أخرجه ابن أبي الدنيا ، ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة]

تبدلت القيم ، وفي عصر معين يوصف من أكل المال الحرام بأنه شاطر ، وتوصف المرأة المتفلتة كلياً بأنها حضارية .

اكتشف أحدهم بعد زواجه أن امرأته ليست عذراء فغضب ، فقالت له : أنت متخلف ، أنت لست حضارياً ، الحضارة تعني أن تكون زانية ، ألا تكون عذراء .

فلذلك :

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ؟))

وهذا قد حصل ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((اشتقت لأحبابي ، قالوا : أولسنا أحبابك ؟ قال : أنتم أصحابي ، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان ، القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر ، أجرهم كأجر سبعين قالوا : منا أم منهم ؟ قال : بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

[ورد في الأثر]

الآية هنا :

(قَدْ خَسِرَ)

قد حرف تحقيق .

(الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ)

ومرة ثانية : القتل قتلان ، ولأن الله عزوجل يقول :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

فإذا فتن ابنك بالدنيا ، وترك الصلاة ، وعاقر الخمر ـ لا سمح الله ولا قدر ـ وكان متفلتاً إباحياً ليته مات في سن صغيرة ، ونجا من عقاب الله إلى أبد الآبدين ، فالأب الذي أهمله ، وأطلق يده ، ولم يعبأ بدينه ، ولم يسأل عن صلاته ، ولا عن عقيدته ، ولا عن أصدقائه ، هو أب محاسب عنه ، فكما أنك بالابن ترقى إلى أعلى عليين فيمكن للإنسان بابن أهمل تربيته أن يحاسب أشد الحساب .

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا)

قد يعيش في كنف ابنه آباء كثيرون ، يقول لك الإنسان ، وهو شاب : أنا عندي أربعة أولاد ، أما حينما تتقدم به السن :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا)

(سورة الإسراء الآية : 23)

والله أنا عند ابني ، كان عنده أولاده فأصبح عند ابنه ، لذلك يشتد بر الوالدين إذا كان أبوك عندك في البيت ، أما الأب البعيد فإرضاءه سهل جداً ، أحيانا يكون للأب بيت مستقل ، فأنت تزوره من حين لآخر ، وتسأل عن راحته ، وتسأل عن صحته ، وعن حاجاته ، أما إذا كان معك في البيت ، وقد تقدمت به السن ، وضعفت ذاكرته ، وأصبح عاجزًا عن كل شيء ، ويتدخل في كل شيء ، وأصبح يشكوك إلى زواره ، فقد تضجر أنت ، الآية تقول :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)

هو عندك في البيت ، وكبير في السن ، وفي ذاكرته ضعف ، وفيه سلوك غير مقبول ، فالبطولة أن تكون باراً به في هذه السن ، أما الأب الشاب المنضبط القوي الغني فليس بحاجة لك ، إرضاءه سهل جداً ، انظر الآية في الحالات الصعبة .

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً)

(سورة الإسراء)

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا)

أيْ جهلاً بقيمة الابن .

الابن الصالح ثروة عظيمة :

والله أيها الإخوة ، أنا ما أُسأل سؤالا أو فتوى عن الإجهاض ، ولو بعد أيام من انقطاع الدورة إلا وأقول للسائل : هذا هدية من الله ، قد يكون هذا الابن الذي تريد إلغاء وجوده ، قد يكون أفضل كل أولادك ، وقد يكون علماً من أعلام الأمة ، وقد يكون مصلحًا اجتماعيًّا كبيرًا ، وقد يكون عالمًا ، وقد يكون قائدًا شجاعًا ، وقد يكون إنسانًا عظيمًا ، وقد يكون غنيًا كبيرًا ، فأنت حينما تريد إنهاء حياة مخلوق ، ولو في بطن أمه ، يعدّ الإجهاض جرماً ، وتترتّب عليه أحكام شرعية ، هناك دية لمن يسقط جنيناً ، لأنه ما عرف قيمة الابن ، الابن أكبر ثروة ، وأكبر عطاء إلهي ، والابن يمتّن العلاقة بين الزوجين ، وفي قوله تعالى :

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية : 21)

قال علماء التفسير : هو الابن .

إذاً :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمْ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ)

حرم نفسه الابن .

لي قريب سافر إلى أمريكا ليزور أخاه هناك ، وهناك جار لأخيه ملاصق له ، بينهما صداقة ، قال له : تعال نزور هذا الصديق ، قال لي : أنا شاهدت ألبسة صغيرة على الشرفة قد نُشِرت ، فلما سألته عن أولاده قال لي : ما عندي أولاد ، قال له : وتلك الألبسة ؟ قال : هي للكلاب لا للأولاد ، حرم نفسه باختياره الابن الصالح ، الابن الصالح ثروة كبيرة جداً .

فلذلك أيها الإخوة ، المؤمن له نمط من السعادة يتميز بها ، لأنه وفق منهج الله ووفق سنن الله عزوجل.

شيء آخر ، حينما قال عليه الصلاة والسلام :

((أفضل كسب الرجل ولده))

[أخرجه الطبراني عن أبي برزة بن نيار]

أشار إلى قيمة الأولاد ، بل إن المرأة التي ربت أولادها بعد وفاة زوجها قال عنها النبي الكريم إنها تنازع النبي دخول الجنة .

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي قلت : من هذه يا جبريل ؟ قال : هي امرأة مات زوجها ، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلهم))

[ورد في الأثر]

صورة حيّة للاعتناء بالأولاد :

إخواننا الكرام ، هل تصدقون أن امرأة في عهد النبي الكريم خطبها النبي زوجة له فاعتذرت ، هل هذا مقبول ؟ يمكن أن يتاح لامرأة أن تكون زوجة سيد الأنبياء والمرسلين ، وأن تكون زوجة سيد ولد آدم ، وأن تكون بالتعبير المعاصر السيدة الأولى ، ممكن ترفض ؟ اعتذرت ، فلما سألها النبي ، قالت : يا رسول الله ، لي خمسة أولاد ، أخاف إن قمت بحقهم أن أقصر في حقك ، فأحاسب عند الله ، وأخاف إن قمت بحقك أن أقصر بحقهم ، هكذا ربى النبي ، امرأة تعتذر عن أن تكون السيدة الأولى في المجتمع ، وتعتذر عن أن تكون زوجة رسول الله لأن الله سيسألها .

لذلك في بعض الآثار ورد : أن البنت حينما لا يربيها أبوها تربية صالحة ، أو يعضلها عن الزواج ، لا يهتم بزواجها إطلاقاً ، وكلما جاء خاطب رده أبشع رد ، وكأنه يتمنى أن تكون له لكبره في السن ، هذه الفتاة قد تقف يوم القيامة أمام ربها إذا زلت قدمها بسبب عضل أبيها ، تقول : يا رب ، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي ، لأنه كان سبب شقائي .

الابن الصالح ذخر لأبيه في الكِبر والعجز :

دققوا أيها الإخوة ، كلمة أقولها كثيراً : كل أب يحترم في الثقافة الإسلامية ، وفي ثقافة مجتمعنا ، لكن ما كل أب يُحب ، هذا مقياس دقيق ، هناك أولاد ينتظرون موت أبيهم بفارغ الصبر ، فإذا جاؤوا بطبيب، وقال لهم : عرضية ، يتألمون ألما شديدا ، هم يتمنونها قاضية ، لا عرضية .

وفي تتمة الآية :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا)

أي جهلاً بقيمة الولد ، وأثر عمل الولد في صحائف أبيه ، وكيف أن الولد يسعد أباه ، ويعينه إذا تقدمت به السن وكيف أن كل أعمال الأولاد في صحيفة الآباء الصالحين .

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا)

والقتل كما قلت نوعان : إما أن تنهي وجوده كما فعل الجاهليون .

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير)

وإما أن تهمل دينه وعقيدته وأخلاقه وسلوكه ، وأهملت دنياه أيضاً .

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمْ اللَّهُ)

حرموا شيئا أساسيا في حياتهم .

(افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ)

لذلك العالم الغربي في إحصائية دقيقة نسبة سكان أوربا إلى سكان العالم في عام 85 - 15 % ، في عام 2002 - 10 % ، في عام 2020 - 5 % توقعاتهم كأنها قطعة ثلج تحت أشعة الشمس ، هم يتضاءلون ، لأنهم قتلوا أولادهم سفهاً ، وجدوا الابن عبئا على الأب .

(افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ)

إذا قالوا : هذا الذي أمرنا به هذا افتراء على الله ، كذباً ، وعدواناً .

(قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

فلذلك الذي عنده بنت ـ دققوا في كلامي ـ الذي عنده بنت واحدة يمكن إذا رباها تربية صالحة أن تكون سبب دخوله الجنة إلى أبد الآبدين ، بنت واحدة صالحة ، والحديث بنتان ، فبعد أن انتهى النبي من ذكر الحديث قال له : وواحدة ؟ قال له : وواحدة ، فلا تقللوا من قيمة تربية الأولاد ، اعتنوا بأولادكم ، اعتنوا بدينهم ، بعقيدتهم ، بأخلاقهم ، من أصدقاءهم اعتنوا بدراستهم .

لي قريبة لم ينجح ابنها في الشهادة الثانوية ، أصرت عليه فلم ينجح ، حملته على أن يعيد العام ، أعاده فما نجح ، حملته مرة ثالثة على أن يعيد العام ، عاد الشهادة مرة ثالثة فما نجح للمرة الرابعة ، والآن هو طبيب .

أحيانا يقول الأب لأي سبب تافه : ابني ليس أهلا للدراسة ، إياك أن تتساهل مع ابنك إذا ترك الدراسة ، العصر عصر علم ، والآن الأمي لا مكان له بالمجتمع ، فلو طلبت مستخدما فهو يحتاج إلى شهادة ، والمستخدم أقلّ مرتبة ممكنة .

علموا أولادكم اللغات الأجنبية ، الإنسان الذي معه لغة يمكن أن يحقق مصالح كبيرة جداً ، وإهمال اللغة ، وإهمال الدراسة ، صار أو أنه صار عبئًا ، وهو بطال ، لا عنده بيت ، ولا حرفة ، ولا شهادة ،

ولا مورد رزق ، بدأ يصير عبئًا على والديه ، وإذا كان منحرفا ـ والعياذ بالله ـ سبّب شقاء أبيه وأمه ، أما إذا علمته وربيته ، وهذبته ، كان دعماً لك ، وكان في ميزان الأرباح والخسائر ، فلذلك ربوا أولادكم ، وعلموهم ، وأدبوهم ، فإنهم خلقوا لزمن غير زمنهم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(61-73): تفسير الآية 141 ، القدرة الإلهية التي اختصت بها ذاته العلية في خلق كل شيء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-05-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الواحد والستين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الواحدة والأربعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

مقدمة بيانية في إعمال العقل والنقل لإدراك قوله : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ :

أيها الإخوة ، لا بد من تقديم دقيق لمعنى قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي)

إذا فكر الإنسان في خلق السماوات والأرض يهتدي إلى أن هذا الكون لا بد له من خالق ، ولا بد له من مربٍّ ، ولا بد له من مسير ، لا بد له من خالق من أسمائه الحكيم ، العليم ، القوي ، الرحيم فهذا العقل إذا أعملته في خلق السماوات والأرض يقول لك : لا بد من خالق عظيم ، من هو هذا الخالق ؟ يأتي القرآن الكريم وهو وحي رب العالمين يقول :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة السجدة الآية : 4)

الجهة التي أيقنت يقيناً أنها وراء هذا الكون هي الله ، لذلك العقل والنقل يتكاملان ، أنت بالعقل ، ومن خلال الكون تؤمن بالله يقيناً ، وبالعقل ومن خلال القرآن الكريم تؤمن بالنبي يقيناً ، وبالعقل ومن خلال إعجاز القرآن الكريم تؤمن بأن القرآن الكريم كلامه يقيناً ، انتهى دور العقل .

جاء دور النقل ، النقل يقول لك : الذي خلق السماوات والأرض هو الله ، أسماؤه حسنى ، عليم ، حكيم، رحيم ، ودود ، سميع ، مجيب ، حليم ، غفور ، والنقل يؤكد لك أن هذا الإنسان الذي جاء به بهذا القرآن هو رسوله ، وأن آيات الإعجاز العلم في القرآن الكريم تؤكد أن هذا الكلام كلامه ، العقل انتهى دوره ، فهو حصان ركبته إلى قصر السلطان ، ينبغي أن تدخل وحدك ، أخبرك الله بعد أن آمنت به وبرسوله وبكتابه ، أن الجهة التي خلقت السماوات والأرض هي الله ، وأن الكون مسخر للإنسان

تسخير تعريف وتكريم ، وأن الإنسان هو المخلوق المكرّم المكلّف .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

وأن الحياة الدنيا دار عمل ، وليست دار أمل ، الحياة الدنيا دار تكليف ، وليست دار تشريف ، الحياة الدنيا ممر وليست مقر ، وأن بعد الحياة الدنيا هناك موت ، وبرزخ ، ثم يوم القيامة ، وفي يوم القيامة جنة يدوم نعيمها ، أو نار لا ينفذ عذابها ، هذا كله بالنقل ، العقل استنبط يقيناً أنه لا بد لهذا الكون من خالق ، ولا بد لهذا الكون من مربٍ ، ولا بد لهذا الكون من مسير ، واستنبط العقل أن الإله العظيم الذي خلق الكون قطعاً ، عليم ، وحكيم ، وقوي وغني ، ورحيم ، وودود ، النقل أخبرك بالماضي السحيق أن البشرية بدأت من آدم ، والنقل أخبرك أن الله سبحانه وتعالى لم يدع خلقه من دون رسالات ، وأن الرسل كثيرون .

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

(سورة غافر الآية : 78)

وأخبرك أن سلامتك بطاعة الله ، وسعادتك بالقرب منه ، وأخبرك أن هذه الدنيا دار امتحان .

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشدة ، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

أرأيت أن النقل والعقل يتكاملان ويتعاونان ، وأنك بالكون تؤمن ، وبالشرع تعبد ، ولمجرد أن تؤمن بالله جل جلاله تشعر بحاجة قوية إلى أن تمتثل أمرع ، تبحث عن أمره لذلك التفكر في خلق السماوات والأرض جانب ، ومعرفة منهج الله الأمر ، والنهي ، والفرض والواجب ، والمباح ، والسنة ، والكراهية التحريمية ، والتنزيهية ، والحرام ، ينبغي أن تعرفه لأنك بالكون تعرفه وبالشرع تعبده .

هذه مقدمه لقوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي)

أيْ الذي فكرت في خلقه ، والذي فكرت في صنعه ، والذي فكرت في حكمته ، والذي فكرت في رحمته ، والذي فكرت في قدرته ، والذي فكرت في غناه

(وَهُوَ الَّذِي)

التفكر في خَلق الكون باب لمعرفة عظمة الله :

إخواننا الكرام ، مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وعاشرة أؤكد لكم أنكم إذا تفكرتم في خلق السماوات والأرض تقفون وجهاً لوجه أمام عظمة الله ، وأن التفكر في خلق السماوات والأرض أوسع باب ندخل منه على الله ، وأقصر طريق إلى الله ، وهذه الآيات تبين هذا الذي يحيط بنا من كل ما نحتاج من كل طعام وشراب .

إخواننا الكرام ، العالم الغربي ينتفع من الكون بإحدى وظيفتيه ، الكون مسخر للإنسان تسخير تعريف وتكريم ، تماماً كما لو أن صديقاً لك اخترع هاتفاً فيه ميزات لا تعد ولا تحصى ، وقدمه لك هدية ، فأنت حيال هذه الهدية تعتريك مشاعر متعددة ، أبرز هذه المشاعر يعتريك تعظيم لهذا المخترع ، ويعتريك امتنان لأنه قدم لك هدية .

فالله عزوجل يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

الإيمان والشكر مقابل التسخير والتعريف :

وكأن علة وجودنا أن نؤمن ثم نشكر ، وكأن الإنسان الذي آمن بالله ، ثم شكره حقق الهدف من وجوده، رد فعل التعريف أن تؤمن ، ورد فعل التكريم أن تشكر ، فإذا آمنت وشكرت توقفت المعالجة الإلهية .

جاء طالب بجلاء مع تفوق ، وجاء بهندام نظيف وأنيق ، وجاء بطاعة لوالديه ولإخوته وأمه ، لا يمكن لأب أن ينتهره ، ولا أن يضربه ، ما دام قد حقق التفوق العلمي والخُلق القويم فقد حقق الهدف من كونه أنه الابن البار لهذا الأب .

إذاً : يجب أن تعلم علم اليقين أنك إذا آمنت ، وشكرت فالإله العظيم ليس له في هذه الحال سلطان عليك ألزم نفسه بالكمال ، هو مطلق ، طليق الإرادة ، يفعل ما يشاء ، ولا أحد يمكن أن يعترض عليه ، لا يُسأل عما يفعل لأنه كامل ، لأنه قوي وكامل ، والله عزوجل ألزم نفسه بالاستقامة ، فأنت إذا آمنت وشكرت ليس لله عليك من سلطان .

(أَتُرِيدُونَ)

حينما تعصون الله :

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)

(سورة النساء)

أب طبيب ابنه أمامه ، يأكل باعتدال ، يأكل الطعام الصحي ، الأب مع أنه طبيب ، وطبيب هضمي وجراح ، ما له علاقة الأب بابنه علاقة طب ، ولا علاقة عملية جراحية ، ولا علاقة أدوية أنه طعام الابن ، أما إذا أكل طعاماً غير مناسب ، مسموماً ، وحدث معه إقياءات ساعتئذٍ لأن الأب رحيم وعليم يتدخل ، ويلزمه بحمية تامة ، وأدوية ، وحقنة ، وما شاكل ذلك .

إذاً الله عزوجل ليس له على عباده سلطان إذا هم آمنوا وشكروا ، آمنوا واتقوا ، إذا هم استقاموا ، لأن النبي الكريم حينما أردف معاذ بن جبل وراءه قال له :

((يَا مُعَاذ ، هَلْ تَدْرِي مَاحَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ ؟ قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : إنَّ حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أنْ لاَ يُعَذِّبَهُم))

[متفق عليه عن معاذ]

وأنا أطمئنكم : ما من واحد منا ، وأنا معكم إذا استقامت سيرتنا ، وصحت عقيدتنا ، وكثر عملنا الصالح ، وخفنا الله عزوجل أنشأ الله عزوجل لنا حقاً عليه ألا يعذبنا ، بصرف النظر عن الأوضاع العامة ، والضغوط والأزمات ، هذه كلها لا تصدق على من سلك طريق الإيمان وعبد الواحد الديان ، وحمل هم الأمة ، وكان في خدمتها ، فالله عزوجل يعامله معاملة خاصة ، لك حق على الله ، الدليل :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية : 21)

هذا شيء مستحيل ، وألف ألف مستحيل .

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

يا أيها المؤمن لا تقلق إنه دين الله :

أنا أريد أن أطمئن المؤمنين ، لا تقلقوا إنه دين الله ، لما جاء أبرهة لهدم الكعبة التقى بأبي طالب ، صُعق أبرهة حينما سأل أبو طالب أبرهة مئتي ناقة التي احتجزها ، قال : جئت لأهدم كعبتكم ، إنها

دينكم ، إنها مقدساتكم ، وتسألني عن مئتي ناقة لك ؟! كنت كبيراً في عيني ! قال له : إن للبيت رباً يحميه ، وأنا رب هذه الإبل ، أعطني إبلي .

أنا أقدم لكم نموذجاً لله عزوجل ، لا تقلقوا عليه ، واللهِ لو اجتمع أهل الأرض كلما ازداد هجوهم ازداد الدين قوة ، وكلما زاد عداونهم ازداد الدين متانة ، والدين وضعه عجيب ، الذي يكافح الدين كمن يطفئ النار بالزيت ، فيزداد لهيبها ، هل علم الدانمركيون أن هذه الرسوم أججت المليار والنصف مليون ، وأن محبة النبي متوغل في أعماقهم ، وأنهم وضعوا تحت أقدامهم المليارات من الأرباح ، لأن الذين صنعوا هذه البضاعة شوهوا صورة النبي .

وصدقوا أيها الإخوة ، إن أمد الله في أعمارنا جميعاً فسوف ترون أن هذه الهجمة الشرسة سوف تزيد الإسلام قوة ، وتزيد المؤمنين إيماناً .

معنى قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ :

إذاً : هذا الذي فكرت في خلقه يقول لك :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ)

أنشأ يعني صنع على غير مثال سابق ، الإنسان يصنع العجلة ، وقد رأى شجرة تتدحرج ، الإنسان يصنع غواصة ، وقد رأى السمكة ، يصنع طائرة ، وقد رأى الطائر ، ما من شيء اخترعه الإنسان إلا كان على مثل سابق ، والإنسان صنع شيئاً من كل شيء ، لكن الله جل جلاله :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

(سورة الشورى الآية : 11)

وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، صنع كل شيء من لا شيء ، وعلى غير مثال سابق ، هؤلاء الذين يصممون أشكال السيارات ، يأتي عام خطوط منحنية ، بعد حين زوايا قائمة ، بعد حين النوافذ صغيرة كالقديم جداً ، بعد حين كبيرة جداً ، الإبداع محدود ، وأكثر الصناعات يصنعون شكلاً جديداً ، وبعدها يعودون لشكل قديم ، لأن الإنسان طاقته في الإبداع محدودة .

كل ما على الأرض من جنات تقريب للجنة إلى أذهان الناس :

لذلك :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ)

يعني ليس هناك شيء ، كان الله ، ولم يكن معه شيء ، من صمم الإنسان يأكل ؟ وأن الطعام نبات ، وأن النبات له بزر ، والنبات يحتاج إلى ماء ، والماء يحتاج إلى مطر ، والمطر يحتاج إلى بحر ، والبحر يحتاج إلى شمس ، من صمم هذه القوانين ؟ مليار قانون ، من صمم قانون أن الماء يدفع الأشياء نحو الأعلى ؟ لولا هذا القانون ما كان في ملاحة في الأرض ، كان البحر حواجز بين القارات ، من صمم أن الإنسان يتنفس ؟ من صمم أن الإنسان ينطق ؟ ينام ؟ يتزوج ؟ ينجب ؟ كل شيء ترونه من إبداع الله عزوجل على غير مثال سابق .

لو أن الإنسان لا يأكل لا ترى على وجه الأرض شيئاً ، لا داعي لذلك ، تضع طاولة في بيتك سنوات وسنوات وسَنوات لا تجوع ، ولا تعطش ، ولا ترغب أن تتزوج ، كالجماد ، لكن الإنسان أودع الله فيه الشهوات ، إذاً تجد المزارع والأبنية والمعامل ، والإنسان ومن أجل أن يأكل يحتاج إلى أن يعمل ، واللهُ عزوجل حين وصف الأنبياء بأنهم :

(يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ)

(سورة الفرقان الآية : 7)

إذاً : هذا معنى قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ)

كان من الممكن أن تكون الأرض كلها صحارى ، والله على كل شيء قدير ، لكن أوصاف الجنة كيف تعرفها ؟ لابد من أمثلة تقرب لك معاني الجنة ، تدخل إلى بستان في أيام الربيع ، الطقس لطيف ، والأرض خضراء ، والأشجار بيضاء ، والأزاهير ، والعصافير ، تشعر بطاقة جمال كبيرة جداً ، فإذا قال الله لك :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً)

(سورة الكهف)

كلمة الجنة تحتاج إلى مرتكز ، فلو ذكر لك اسم معين لا تراه إطلاقاً لا يمكن أن تفهمه ، ولو أن إنسان فرضاً ما رأى البحر ، ولا رأى صورته ، ولا سمع عن أخباره شيئاً ، وقيل له : بحر ، فهو عنده كلام ما له معنى ، كلمة بحر مقطع صوتي ، لا معنى له ، أما إذا ركب البحر ، وهاج البحر وماج ، وكاد أن يغرق ، ونظر إلى الأفق الممتد بالماء ، وقرأ كلمة بحر تقفز إلى ذهنه تلك الصور .

كنت أضرب مثلا طريفًا بإنسان يحمل شهادة عليا من دولة كبيرة جداً ، وجامعات راقية ، ودكتوراه دولة ، وعُين بالجامعة أستاذًا بلا كرسي ، هذا منصب بالجامعة ، ويعطونه كرسيًّا يجلس عليه ، ليس من دون كرسي ، لكن كلمة أستاذ بكرسي ، مثلاً الكيمياء العضوية لها كرسي ، الفيزياء النووية لها كرسي ، كل مادة لها أستاذ رئيس ، ومعه معاونين ، فالمعاون أستاذ بلا كرسي ، أما رئيس هذه المادة

فهو أستاذ بكرسي ، فإذا كان الإنسان أستاذًا بلا كرسي ، ويحمل شهادة عالية جداً أعلى من الذي يملك الكرسي ، وسمع كلمة كرسي في الطريق تأتيه الخواطر ساعتين أو ثلاثًا ، هو أولى بهذا المنصب ، شهادته من بلد غربي ، جامعة محترمة جداً ، معه دكتوراه دولة ، هذا الذي على كرسي يحتل منصب أستاذ ذي كرسي ، ولا يحمل هذه الشهادة ، كل هذه المعاني والخواطر ، والآلام ، والشعور بالظلم ، سببتها كلمة كرسي ، يكون عند حلاق فيسمع كلمة كرسي ، عنده كرسيان ، وعليه طلب ، يلزمه كرسي ثالث ، والمالية تغير الضريبة بعد ذلك ، يريد موظفًا ، تشتري كرسيًا ثالثًا ، ويبقى على اثنين ، يفكر ساعة وساعتين في موضوع الكرسي الثالث .

يسمع كلمة كرسي رجل تعبان ، آخ على كرسي أرتاح عليه قليلاً ، دار في السوق كثيرًا .

يسمع كلمة كرسي رجل كلفته زوجته أن يأتي بكرسي حمام ، يقول : يا ترى آخذه من بلاستيك ، آخذه من الخشب ، كل واحد فهم الكرسي على حسب مشاكله .

الآن لو لم يكن في الأرض جمال فالجنة لا معنى لها إطلاقاً ، ما معنى جنات ؟ أنت رأيت بستانًا في الربيع ، عصافير ، وأزاهير ، وأرض خضراء ، ونبتات رائعة ، وجدول رقراق ، وأصوات العصافير، هذا الجمال في الدنيا يمكن أن تفهم من خلاله ما في الجنة من جمال ، لذلك قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ)

جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ :

البستان فيه أشجار ، أشجار مرتفعة لها جذع ، وأحياناً نباتات ليس لها جذع ، لكنها مرتفعة كالعنب ، كالكروم ، وهناك عنب سطحي ، وعنب يرتفع بمساعدة صاحب البستان .

قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ)

المشمش يحمله شجر مرتفع ، أما البطيخ فتراه على الأرض ، لو عكسنا الآية ، شجرة تحمل بطيخة 18 كغ إذا وقعت على شخص واحد تميته ، لكن البطيخ على الأرض ، والبطيخ ينقل من مكان إلى مكان ، هو ماء مجمد ، و97 % من البطيخ ماء ، و2 ونصف ما في البطيخ طعام ، يحتاج إلى قشر سميك ، يحمل خمسة أطنان بالسيارة كله فوق بعضه ، والشكل البيضوي ، هو أقسى غلاف يتحمله الضغط ، فيه تصميم .

مثلاً : موسم الفواكه في الصيف متدرج ، لو نضجت الفواكه في يوم واحد كان شيئًا لا يحتمل ، لكننا نبدأ ببعض الفواكه الخضراء ، ثم الكرز ، ثم الأجاص ، ثم التفاح ، هكذا بالتسلسل ، الآن الفاكهة الواحدة يمتد جنيها أشهراً .

حدثني أخ قال لي : والله ضمنت حقل بطيخ ، خلال تسعين يوم يحمل كل يوم شاحنة ، فالبطيخ ينضج خلال تسعين يومًا ، هذا لا يخزن بالصوامع ، هذا يؤكل كفواكه ، حكمة مطلقة .

إذاً :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ)

يعني أشجارًا باسقة ، وتحمل ثمارًا رائعة .

وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ والنَّخْلَ :

(وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ)

نباتات سطحية ، الباذنجان ، القثاء ، الخضراوات ، وبعض المنتجات الأخرى كلها ليست معروشة ، ليست متسلقة .

(وَالنَّخْلَ)

من فوائد النخيل والتمر :

النخل أطول الأشجار عمراً ، يعمر أكثر من ستة آلاف عام ، ونخل المدينة الذي أكل منه النبي عليه الصلاة والسلام يأكل منه أهل المدينة الآن ، والنخلة نفسها ، والتمرة فيها 76 مادة غذائية ، فيها معادن، فيها أشباه معادن ، فيها فيتامينات ، فيها سكريات ، فيها مواد هاضمة ، مواد مهدئة ، مواد مسكنة ، مواد قابضة للأوعية ، سبحان الله .

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً)

(سورة مريم)

في التمر مادة مفيدة لمن كانت على وشك الولادة ، فيها مادة قابضة للأوعية لئلا يقع النزيف ، وفيها مادة ملينة كي يكون ما في الأمعاء سهلاً كي يتسع المكان لنزول الولد ، وفيها مادة مهدئة مسكنة ، وفيها 76 مادة غذائية ، وإذا أكل الإنسان مئة تمرة يأخذ نصف حاجته من كل المعادن ، والتمر لا يتلوث إطلاقاً ، لأن تركيز السكر في التمر يمتص ماء أي جرثوم يقف عليه .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ)

النخلة عالية ، وتصبح أوراقها سلماً ، لأن الإنسان يحتاج إلى حبل يربط نفسه به ، ويصعد إلى أعلى النخلة ، ما هذا التصميم ؟ وفي بعض الآثار : أن النخلة أشبه شيء بالإنسان ، إذا قطع رأسها ماتت ، والنخلة معمرة .

(وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ)

الزروع :

الزرع : مثل الباذنجان ، والقثاء ، والبصل ، فهي أنواع منوعة من الخضراوات ، والشيء الدقيق أن الشتاء فيه خضروات ، والصيف فيه خضراوات ، والآن لما استطاعوا أن يستخدموا الزراعة المحمية صار هناك خضراوات على مدى العام ، وهناك الآن بحوث علمية رصينة عميقة تبين أن الأولى أن يتبع الإنسان تخطيط الله عزوجل ، لأن يعني الله عزوجل جعل لكل منتج من الخضراوات موسمًا ، ونحن في الزراعة المحمية جعلناه على مدى العام ، من زاوية أن هذه المادة متوافرة على مدى العام ، ومن زاوية ثانية بدأت تظهر إصابات لم تكن من قبل ، ولما صنعوا بزرًا هجينًا ، ولكي يربحوا أربحاً طائلة جعلوا ثمرة ، هذا البزر تعود إلى أصل سيئ كي يبيعوا الناس كل عام صار ، فهناك بحوث تبين أضرار البذور المعدلة وراثياً ، وقد قال الله عزوجل :

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)

(سورة النساء الآية : 119)

إنّ ارتفاع نسب الأمراض بسبب خطأ في حياتنا .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ)

مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ :

من يستطيع يصف لي طعم التفاح دون أن يأكل التفاح ؟ وفرق التفاح عن الأجاص ، والأجاص عن السفرجل ، والسفرجل عن المشمش كله حلو ، كل هذه الفواكه ذات طعم حلو ، هل عندك إمكان في اللغة أن تصف لي طعم المشمش دون أن تقول مشمش ؟

(مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ)

النوع الواحد : العنب 300 دورة .

أحد إخواننا الكرام أخبرني أن القمح 45 ألف نوع ، كل أنواع الفواكه بمئات الأنواع ، نوع حامض ، نوع حلو ، نوع كبير ، نوع صغير ، نوع له صفة صناعية ، نوع استهلاكية ، هذا كله من تصميم الله عزوجل .

(مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ)

زيت الزيتون : المادة النافعة المباركة :

حدثني طبيب أن الإنسان لو لم يمت بجلطة ولا بسكتة قلبية ، ولا بسكتة دماغية ، ولا بتشمع كبد ، ولا بفشل كلوي ، ولا بورم خبيث ، نجى من كل الأمراض كيف يموت ؟ لو أن إنساناً نجا من كل الأمراض كيف يموت ؟ قال : يموت بتصلب الشرايين ، لأن القلب حينما ينبض يتجاوب الشريان مرن مع هذا النبض ، فيتوسع ، ولأنه مرن يعود إلى ما كان عليه ، فصار شريان قلب كاملا ، ضع يدك على جبينك تشعر بالنبض ، ضع يدك على يد أخرى تشعر بالنبض ، ضع يدك في مكان في الرجل تشعر بالنبض ، الشرايين قلوب ، في قلب مركزي هو القلب ، وكل قطعة من الشريان قلب لأنها مرنة، مع تقدم السن الشريان يتصلب ، فيتعب القلب ، هذا آخر مرض يموت فيه الإنسان .

بالمناسبة زيت الزيتون هو الغذاء الوحيد الذي يطيل أمد مرونة الأوعية الدموية ، والله لو تعلمون أيها الإخوة ما في زيت الزيتون من الصفات التي مرت معنا ، والتي قال عنها العلماء : إنها تفوق حد الخيال ، تخفض الضغط ، ترفع نسب الكلسترول الحميد ، وتقلل نسب الكلسترول الضار ، تعين على الهضم ، تعين على إذابة الشحوم ، شحوم الزيت غير مشبعة سهلة الهضم ، في حديث عن زيت الزيتون ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال :

((ائتدموا بالزيت ، وادهنوا به ، فإنه يخرج من شجرة مباركة))

[أخرجه ابن ماجة والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر]

وهو دهن ، وأثمن مادة دهنية على الإطلاق زيت الزيتون ، لذلك :

(وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ)

ماذا عن الرمّان ؟

الرمان ، الآن هناك أبحاث أن الرمان مادة مذيبة للترسبات التي تكون على أوعية القلب ، وأنا أقول لكم كلمة : كلوا كل شيء ، لأن في كل شيء مادة وقائية أو علاجية للجسم ، هناك طبيب يقول : كُلّ كلَ شيء ، بعض أنواع الخضار ، الملوخية مثلاً ترمم الغشاء المخاطي لجهاز الهضم ، زيت الزيتون يمد

أمد مرونة الشرايين ، بعض الأغذية تقوي الخلايا الفسفورية ، القمح ماذا نفعل نحن بالقمح ؟ نأخذ لبه نشاء صرفًا ، وندع للدواب قشرة القمح ، النخالة ، النخالة فيها ستة معادن ، وسبع فيتامينات ، وكل حاجة الإنسان متوافرة بالنخالة ، والنخالة لا تسبب الإمساك ، وهناك خمسون مرض يأتي من الإمساك، وأول بدعة ابتدعها الصحابة بعد وفاة رسول الله نخل الدقيق ، بلا قشرة ؟

إنه عالم قائم بذاته ، 14 % من وزن القمحة قشر ، في الروشين ، و غلالة داخلية ، وقشرة خارجية ، وفيتامينات البوتاسيوم ، والمغنيزيوم ، والصوديوم ، والكالسيوم ، كلها معادن أساسية جداً ، وقلما يأكل إنسان الخبز بقشره ويصاب بالإمساك ، لذلك :

(وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِه)

هناك رمان حامض ، ورمان حلو ، ورمان وسط بينهما .

التوجيه الإلهي فيه النفع والصحة :

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ)

التوجيه الإلهي :

(إِذَا أَثْمَرَ)

هناك خطأ أن تأكل الفاكهة الفجة

زكاة الزروع :

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)

يوم تقطف الثمار ، وتحصد المحاصيل ادفعوا زكاة هذه المحاصيل ، وهي في الأراضي المروية ، الزكاة عشر ، وفي الأرضي البعل خمس ، والمذهب الحنفي يرجح أن الزكاة تجب على كل ما أنتجته الأرض حتى النحل .

مرة سألني أخ ، قال لي : هل على النحل زكاة ؟ قلت له : نعم ، قال لي : فإن لم يدفع المسلم زكاة العسل ؟ قلت له : قراد النحل جاهز ، القراد حشرة تأكل الخلايا ، تدفع فبها ونعمت ، لا تدفع فهناك آلاف الأمراض ، وآلاف الآفات الزراعية تذهب بالمحصول ، محصول التفاح مثلاً بمنطقة اشتهرت بالتفاح ، ممكن أن يزول كلياً بستة ثوان بدرجة حرارة ست تحت الصفر ، فينتهي المحصول .

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة القلم)

نحن في قبضة الله ، يكون المحصول ثمنه مليارات فينتهي ويتلاشى بستة ثوانٍ بست درجات تحت الصفر .

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)

مر على بلاد الشام جائحة جراد قديمة جداً ، أكل الجراد لحاء الشجر ، لم يبقِ ولم يذر ، ففي أثناء جمع الجراد من البساتين وجدوا بستانا كأنه جنة غناء ما فيه ولا جرادة ، شيء لا يصدق ، فجاءوا بكيس من الجراد ، وألقوه في البستان فتطاير ، وخرج بعيداً عنه ، فلما سُئل صاحب البستان ، قال : أنا أزكي عن مالي .

الوقت لا يتسع لقصص لا تعد ولا تحصى عن كل فلاح أكرمه الله بدفع زكاة محاصيله بالتمام والكمال، الله عزوجل يضاعف المحاصيل ، ويحفظ له الزرع من كل آفة ، ومن كل بلاء .

الملمح الدقيق من قوله : كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ :

الملمح الذي يفهم من هذه الآية :

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ)

يبدو أن الفواكه الناضجة أفضل للإنسان من الفواكه الفجة .

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ)

أما الحصاد فهو القطع عند أبي حنيفة كما قلت لكم ، قطع سنابل القمح حصاد ، والشعير وما إلى ذلك، وقطف الثمار حصاد ، بالمعنى اللغوي ، الحصاد هو القطع ، فقطعنا الثمار ، أو حصدنا الغلال سيان ، لكن رحمة الله ، عندك بستان فيه أنواع من الفواكه ، لك أن تأكل قبل أن يبدأ الحساب ، يوم تقطف هذه الفواكه جميعاً ، وتنزلها إلى السوق ، هنا يوم وقت الحساب الدقيق للزكاة ، هناك تسامح ، ما تأكله أنت وأهلك وضيوفك من هذا البستان قبل الجني الكامل للبستان هذا لا يدخل في حساب الزكاة ،

(وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)

قال تعالى :

معنى : وَلَا تُسْرِفُوا

الإسراف نوعان : إسراف زيادة وإسراف نقص :

ومن أدق ما تعنيه كلمة

(وَلَا تُسْرِفُوا)

أن الإسراف نوعان : إسراف زيادة وإسراف نقص ، الإسراف مجاوزة الحد زيادة أو نقصانا ، فإذا أعطيت الفقير أقل مما يستحق فأنت مسرف على نفسك ، إن أعطيته أكثر مما ينبغي ، وأبقيت أهلك بلا طعام وبلا شراب فأنت مسرف

(وَلَا تُسْرِفُوا)

لا في الزيادة ولا في النقصان ، لا في مجاوزة الحد ولا في الإنفاق دون الحد .

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

في كل شيء ، لا تسرفوا هنا في دفع زكاة هذه المحاصيل ، وتلك الثمار زيادة أو نقصاناً ، كما أنه لا يحب المسرف في كل شيء ، حتى في المباحات ، وكل شيء مع الإسراف ينقلب إلى ضرر ، نحن علاقتنا مع الإسراف كالملح في الطعام ، إن زاد عن حده انقلب إلى ضده .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(62-73): تفسير الآيات 142- 144 ، الأنعام من نعم الله علينا ـ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-05-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني والستين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الثانية والأربعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

أيها الإخوة ، الآية التي قبلها :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

الشكر في مقابل عظيم نعم الله :

جاءت آية اليوم معطوفة عليها :

(وَمِنْ الْأَنْعَامِ)

يعني اذكروا نعم الله عليكم .

في الأثر : قال داود عليه السلام :

((يا رب ! أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك ؟ قال : يا داود ! أحب عبادي إلى نقي القلب ، ونقي الكفين ، لا يأتي إلى أحد سوءا ولا يمشي بالنميمة ، تزول الجبال ولا يزول أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي ، قال : يا رب ! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال ؛ ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي))

[رواه وابن عساكر ، عن ابن عباس]

أي ذكرهم بآلائي كي يعظموني ، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني .

إذاً لا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله ، يوم القيامة :

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

هو آمن بالله ، لكنه ما آمن به عظيماً .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

(سورة الأحزاب)

المنافق يذكر الله ، لكن قليلاً ، فالتركيز في قوله الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

على كلمة :

(كَثِيرًا)

والتركيز في قوله تعالى :

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

ذكرهم بآلائي كي يعظموني ، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ، وببلائي كي يخافوني .

الوضع الصحي السوي للمؤمن أنه بقدر ما يعظمه يخافه ، وبقدر ما يخافه يحبه ويعظمه من آلائه ، ويحبه من نعمائه ، ويخافه من بلائه ، عزوجل وقد ورد في الحديث الشريف :

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه))

[أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك عن ابن عباس]

إذا استيقظ الإنسان صحيح الجسم فهذه نعمة كبيرة ، إذا مشى قوته فيه ، إذا رأى ، إذا سمع ، في ببيته زوجة ، وأولاد ، يملك ما ينفق عليهم ، الله مكنه من كسب الرزق بخبرة يتقنها ، فأنت دائماً وأبداً اذكر ما عندك ، ولا تذكر ما لا تملك ، الإنسان الموفق والمؤمن مشغول بشكر نِعَم الله عزوجل .

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم الآية : 7)

هناك أشخاص سوداويون ، متشائمون ، لا يتحدثون إلا بما ينقصهم ، وكل نِعَم الله الذي أسبغها عليهم لا يعبئون بها ، هذا من لؤم الإنسان ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت .

تصور إنسانًا دخل إلى الحمام ، ماذا قال عليه الصلاة والسلام عقب قضاء حاجته ؟ قال :

((الحَمْدُ لِلَّه الَّذي أَذَاقَنِي لَذَّتَهُ))

[رواه ابن السني والطبراني أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها]

الطعام له لذة :

((وأبْقَى فِيَّ قُوَّتَهُ ، وَدَفَعَ عَنِّي أَذَاهُ))

هناك إنسان يعيش على السيروم ، سمح لك أن تذوق طعم الطعام ، وسمح للطعام أن يقويك ، والفضلات خرجت ببساطة ، هذه نعمة ، كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول :

((الحمد لله الذي رد إلي نفسي))

[رواه ابن السني عن جابر]

يعني سمح لي أن أعيش يوماً جديداً .

((وَعافِنِي فِي بَدَنِي))

[رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة]

وقفت ذهبت إلى الوضوء ، توضأت ، عدت إلى غرفتك ، صليت الفجر ، قرأت تتكلم ، تقرأ ، تقف ، تركع ، تسجد ، تقعد ، هذه نِعَم .

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوها

لذلك أيها الإخوة ، دققوا في هذا الذي يقوله الله عزوجل :

(وَإِنْ تَعُدُّوا)

هو يُتوقع :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

الآية :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ)

(سورة إبراهيم الآية : 34)

يعني لو أمضيت كل عمرك في تعداد بركات نعمة واحدة لا تنتهي :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

إذا كنتم عاجزين عن إحصاء بركات نعمة واحدة ، فلأن تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى .

إذاً الله قال عزوجل :

معنى : وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً

(وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً)

الناقة تحمل ، تحمل بيتك الذي هو خيمة ، وأثاثها ، وحاجاتك ، وأوانيك تحملها على الناقة ، الآن تحملها بسيارة ، هذا الوقود السائل من أودع فيه تلك القوة ؟ أنا أضرب لكم مثل :

اجعل مركبة في طريق صاعدة ، وحاول أن تدعها متراً واحد لا تستطيع ، مركبة وزنها طنَّان ، وبطريق صاعدة ، لا تستطيع لا أنت ولا عشرة أشخاص أن تدفعوها ، ما بالها تنطلق بطريق صاعد صعوداً حاداً وعلى متنها خمسة رجال ؟! ما هذا الوقود السائل الذي ينفجر فيعطي هذه القوة ؟ لأن الله عزوجل قال :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

هذه الشاحنة التي تحمل عشرين طنًّا في طريق صاعدة ، ما هذا القوة التي تدفع هذه الأطنان في طريق صاعدة ؟

هذا شيء خطر في بالي مرة ، مركبة بمنحدر ، وتعطل محركها في هذا المنحدر ، عشرة رجال بكل قوتهم لن يستطيعوا دفعها بعكس المنحدر نحو الأعلى ، ما هذا الوقود السائل الذي ينفجر ، فيدفع هذه المركبة بأوزانها الكبيرة ؟

أحيانا شاحنات تحمل ستين طنًّا ، والطريق صاعد ، ما هذا الوقود السائل الذي يدفع هذه المركبة ؟

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

إذاً :

(وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا)

أثاثك من الصوف ، من شعر الغنم ، ومن وبر الجمل ، تصنع الأثاث منه ، يعني نحن أخذنا بالصناعة، لكن كل هذه الصناعات التي أمامكم لها مصادر طبيعية ، الألبسة أكثرها قطن وصوف ، فالله عزوجل يبين أن هذه الأنعام مذللة .

أحد إخوتنا في غوطة دمشق عنده بقرة أصابها الجنون ، فقتلت أول رجل ، وثاني رجل ، واضطر أن يطلق عليها النار حتى يقتلها ، ثمنها سبعون ألفًا ، من جعل هذه البقرة مذللة ؟ من جعل هذا الجمل مذللا؟ العقرب غير مذلل ، لو رأيته تخرج من جلدك ، صغير الأفعى غير مذلل ، أما الغنم فمذلل ، البقر مذلل ، الإبل مذلل ، قال تعالى :

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس)

إذاً :

(وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً)

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ)

(سورة النحل الآية : 7)

وتحمل أثقالكم بطريقة رائعة ، هي حينما تجلس على الأرض تجلس جلسة نظامية ، فإذا حملت عليها وهي منخفضة سهل جداً أن تحمل عليها وهي جالسة ، لو أنها تجلس على جنبها كالدواب الأخرى يكون التحميل مستحيلا ، تجلس جلسة نظامية ، ولها ثفينات ، الثفينات مكان متقرن في أرجلها وفي أيديها ، وكأنه قواعد لاستقرارها على الأرض ، فإذا حملت عليها ما تشاء دعوتها فقامت ،

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ)

الآن هناك بواخر تحمل مليون طن ، وطائرات عملاقة تحمل ألف راكب ، حديثة جداً ، وهناك طائرات شحن ، فهذه الطاقة التي أودعها الله في الأرض .

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

(سورة يس)

الشجر الأخضر إحدى نظريات تشكل البترول ، أنه في عصور مطيرة جداً ، هذه الغابات العملاقة دُفنت تحت سطح الأرض فشكلت البترول ، لأن الملمح :

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

الله عزوجل يقول :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

قال :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

فعُزي خلق الطائرة إلى الله ، من ألهم هذا العالم أن يصنع مركبة تطير بالجو ؟ من أودع في الأرض الوقود المناسب لهذه الطائرة ؟ القرآن نزل في قوم يعيشون في الصحراء ، عندهم خيل ، وبغال ، وحمير ، وإبل ، لكن في قوله تعالى :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

هذا كلام رب العالمين .

أنت حينما ترى طائرة عملاقة تحمل ألف راكب ، أو ترى سفينة تحمل مليون طن ، أو ترى شاحنة تحمل ستين طنًّا ، وتنطلق بهذا الوقود السائل ، أو بالطاقة النووية ، حاملات الطائرات شيء لا يصدق، مئة طائرة لها أماكن تحت سطحها ، فيها 7000 إنسان يعيشون ، وكأنها في مدينة ، والعمل بالطاقة الذرية ، الحاملات شيء أغرب من الخيال ، من أودع في الأرض هذه الطاقات ؟ الله جل جلاله ، من أودع البترول في داخل الأرض ؟ الله جل جلاله ، ولحكمة بالغةٍ بالغة الشعوب المتفوقة في الصناعة ليس عندها بترول ، والشعوب النائمة عندها بترول ، ولو كان البترول عند هؤلاء لمات هؤلاء من الجوع ، أناس ضعيفو الهمة في التصنيع والعمل والنشاط عندهم ثروات باطنية ، وأناس يملكون الطاقة والصناعة الدقيقة والتقنية ليس عندهم بترول ، فالله عزوجل لحكمة بالغةٍ بالغة وزع هذه الثروات ، وفي قوله تعالى :

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

الآن دققوا :

(وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

(سورة طه)

هذه الآية إشارة إلى أن باطن الأرض فيه ثروات كبيرة جداً ، قال تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة الحجر)

قرأت مقالة عن سحابة في الفضاء الخارجي يمكن أن تملأ محيطات الأرض 60 مرة في اليوم الواحد بالمياه العذبة ،

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

إذا أعطى أدهش .

مرة طبيب حدثني وهو عضو في حوض دمشق ، قال لي دمشق مهددة بالجفاف الجفاف الذي يدعو إلى أن تُهجر ، والله الحديث الذي حدثني إياه لم أستطع أن أقف بعدها ، وفي العام نفسه هطل في دمشق 350 مم مكعبًا ، الذي أذكره أن مياه نبع منين وصل إلى القابون ، وأن 30 نبع في الغوطة من 30 سنة غارت ، عادت فتفجرت ، وأن عين الصاحب عادت فتفجرت ، فتقنين الله لا يمكن إلا أن يكون تقنين تأديب لا تقنين عجز .

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ)

(سورة الشورى)

إذاً :

(وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً)

تحمل عليها أثقالك ، والآن تحمل على المركبات أثقالك ، تحمل أطنانًا ، تحمل بضائع ، تحمل مئات الأطنان ، إن في المركبات الأرضية ، أو في الطائرات ، أو في البواخر .

معنى : وَفَرْشًا

(وَفَرْشًا)

تأكلوا من لحمها ، وتنتفع من جلدها ، كل الصناعات الجلدية من أين تؤخذ ؟ من جلود الأنعام ، وتشرب من لبنها ، ومشتقات الألبان شيء لا يصدق ، الجبن السمن ، اللبن ، القشدة ، أنواع المشتقات وصناعتها الغذائية لا تعد ولا تحصى ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا شرب لبناً يقول :

((اللهم زدنا منه))

[ورد في الأثر]

إذاً تنتفع من لحمها ، وتنتفع من أمعائها ، وتنتفع بجلدها ، وتنتفع بصوفها ، الآن الخيوط الصناعية . أيها الإخوة حتى الآن لا يمكن أن تحل محل الخيط الطبيعي ، الآن بدؤوا يصنعون خيطًا يشبه خيط الصوف ، خيط الصوف مفرغ من الداخل ، كم هو دقيق من داخله وهو مفرَّغ ، فلذلك ننتفع بأوبارها ، وننتفع بأشعارها ، وننتفع بصوفها ، وننتفع بجلدها ، وننتفع بلبنها ، وحليبها ، وكل مشتقات الألبان ، وننتفع بها فتحملنا ، وتحمل أثقالنا ، هذه الأنعام :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

(سورة النحل الآية : 5)

أحياناً تدعو إنسانًا له مكانة إلى طعام ، وباسم عرف هذه الوليمة هو ضيف الشرف ، هذه الدعوة من أجله ، هذا الطعام من أجله ، هذا الإكرام من أجله ، قد يُطرق بابك فيأتيك ضيف على غير موعد ، ومن دون دعوى ، تدعوه ليجلس ويأكل ، نقول هذه المائدة صنعت خصيصى لضيف الشرف ، أما هذا فأكل عرضاً ، هذا معنى كلمة :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

خصيصى لكم ، حليبها غذاء كامل ، أوبارها ، أشعارها ، صوفها جلدها ، عظمها ، كل ما فيها ننتفع به ، كل ما في الأنعام ننتفع به :

(وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا)

لأثاثكم ، وبيوتكم .

نكتة قرآنية رائعة : التركيز على كلمة (كلوا):

(كُلُوا)

أيها الإخوة ، والآية السابقة :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا)

لمَ التركيز على ؟

(كُلُوا)

الآية الأولى :

(كُلُوا)

والآية الثانية :

(وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا)

لأن أهل الكتاب حرموا ما أحله الله ، هذا الذي خلقه الله عزوجل لنا من يحرمه ؟ التحريم الإلهي والتحليل الإلهي لحكمة بالغةٍ بالغة ، لأن الجهة الصانعة هي التي تحلل وتحرم ، لكن الناس يحللون أو يحرمون تحليلاً أو تحريماً مزاجيًّا ، لذلك ردّ الله عزوجل علة من حرم هذا اللحم وهذه الأنعام :

(كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ)

فهذا رزق الله عزوجل .

التحليل والتحريم من شأن الله وحدَه : وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ :

الشيطان يحرم عليك ما أحله الله ، ويحلل لك ما حرمه الله ، لذلك الحلال والحرام من شأن الله وحده ، ليس من شأن البشر لا أن يحللوا ولا أن يحرموا ، وقد قال الله عزوجل :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

وهم أهلُ قرآن ،

(إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

وقد مر بي أن السلف الصالح يتحرجون أشد التحرج أن يقولوا : حرام أو حلال بهذه البساطة ، الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والأشياء لا تحرم إلا بنص قطعي الثبوت ، وقطعي الدلالة ، الأشياء الأصل فيها الإباحة ، ولا يحرم شيء إلا بالنص الثابت قطعي الدلالة ، لذلك هناك من : يقول هذا حرام ، والله أسمع كلمات حرام من آلاف من يعملون في الحقل الديني بلا دليل ، شيء ما أعجبه حرام ، الحلال والحرام من شأن الله وحده ، هو الذي يحلل ، وهو الذي يحرم ، والحلال الذي يحله الله نسعد به ، والحرام الذي حرمه الله لو أخذناه يحرمنا من السعادة .

مثلاً : قال تعالى عن رجال الدين من الكتابيين :

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)

(سورة الحديد الآية : 27)

هذا من ابتداعهم ، هم حين كتبوها على أنفسهم ظنوا من أجل مرضاة الله تعالى لأنها فوق طاقتهم ، ولأنها ليست من عند خالق الأكوان ، قال :

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

(سورة الحديد الآية : 27)

أما النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((أشدكم خشية لله أنا ، أنام وأقوم ، أصوم وأقطر ، أتزوج النساء ، آكل اللحم هذه سنتي ، فمن رغب عنها فليس من أمتي))

[البخاري عن عائشة]

إخواننا الكرام ، البطولات في الدين ليست سلبية ، إيجابية ، ليست البطولة أن تصوم صوماً مستمراً ، لكن البطولة أن تعمل عملاً عظيماً .

كنت أقول دائماً : أمتنا مع أننا والله هؤلاء الذين يموتون في سبيل الله ، والله نصغر أمامهم ، ولكننا في النهاية فقدناهم ، طاقة شابة ، مؤمنة ، مستنيرة ، ورعة ، معطاءة مضحية ، فقدناهم ، كما أن أمتنا في أمسّ الحاجة إلى من يموت في سبيل الله ، هي أيضاً في أمسّ الحاجة إلى من يعيش في سبيل الله ، ويقدم لها الخير .

(وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

لشيطان يحلل ويحرم ، يحرم الحلال ، ويحلل الحرام ، من أجل أن يحجبك عن الواحد الديان .

أيها الإخوة ، أنت حينما تأخذ ما أحله الله لك تزداد قرباً من الله .

مثلاً : إنسان اشتهى المرأة فتزوج ، قارب أهله في ليل ، وقام لصلاة الفجر ، وقد يبكي في الصلاة ، لأن هذا وفق منهج الله ، ما فعل شيئاً ، أما لو أقام علاقة خارج الزواج مع أية امرأة يُحجب عن الله ، الله عزوجل أودع فينا الشهوات ، وجعل لهذه الشهوات قنوات نظيفة .

أساليب الشيطان في إضلال الناس :

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

الشيطان يدعوك إلى الكفر ، فإن كنت على إيمانك دعاك إلى الشرك ، فإن كنت على التوحيد دعاك إلى البدع ، فإذا كنت على سنة دعاك إلى الكبائر ، فإذا كنت على طاعة دعاك إلى الصغائر ، فإذا كنت على ورع بقي معه ورقتان دعاك إلى المباحات ، التوسع في المباحات ، فإذا كنت زاهداً بقي معه ورقة أخيرة ، دعاك إلى التحريش بين المؤمنين ، هذه الخصومات ، وتراشق التهم ، وكلُ يدعي وصلاً بليلى، هذه آخر ورقة رابحة بيد الشيطان .

وَمِنْ الْأَنْعَامِ

(وَمِنْ الْأَنْعَامِ)

هي الإبل ، والبقر ، والغنم ، التي تحمل يسمى ما على ظهرها حمولة ، والتي لا تحمل ، إما لضعف بنيتها ، أو لصغر سنها ، أو لأنها مؤهلة كالغنم لشيء آخر .

أيها الإخوة ، كلمة :

(كُلُوا)

مع التكرار تفيد أن الشيطان يحرم عليكم ما أحل الله عليكم ، ودائماً الخبيث يقدم لك شيئاً منطقياً ليمرر أشياء غير منطقية ،

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

في التحريم والتحليل ، زوجتك بحمق فاضح تحلف عليها يميناً ، بل يمين طلاق ألا تزور أهلها ، لمَ تحرم ما أحل الله لك ، ولها أن تزور أهلها ؟ والله هناك حماقات بالطلاق شيء لا يحتمل ، لأتفه الأسباب يحرم شيئاً أحله الله ، فالعبرة من هذا أن التحليل والتحريم من شأن الله وحده .

ثم يقول الله عزوجل :

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ

الضأن معروف ، الذكر كبش ، والأنثى نعجة ، والمعز أيضاً ، فيه ذكر هو التيس ، وأنثى ، والبقر تطلق على الذكر والأنثى ، الذكر ثور ، والأنثى ثورة ، هذا في اللغة طبعاً ، لذلك :

(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ)

ذكر وأنثى ، سبحان الله ! شيء دقيق جداً ، أنثى الضأن لحمها قاسٍ ، لأنها أعدت للإنجاب ، والذكر لحمه طري جداً ، على عكس الوضع البشري .

ليس هناك تحريم مزاجي : قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنْثَيَيْنِ

(مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنْثَيَيْنِ)

تحريم مزاجي ، نبئونا ، هذا اسمه استفهام تقريري ، استفهام تقريري ، نبئونا المحرم الذكر أم الأنثى؟ وهناك تقاليد ، وسخافات ، وترهات ، وضلالات في الحياة الجاهلية لا يمكن أن تقبل في شؤون طعامهم وشؤون شرابهم ، وصيدهم ، واستقسامهم بالأزلام ، وما إلى ذلك .

(قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

دائماً وأبداً أذكر لكم أن هناك علاقة بين الحلال وثماره ، والحرام وثماره ، ودائماً وأبداً ما دام التشريع إلهياً فالعلاقة بين الحلال وثماره علاقة علمية ، بمعنى أنها علاقة سبب بنتيجة ، والعلاقة بين الحرام

ونتائجه علاقة علمية أي أنها علاقة سبب بنتيجة .

نكتة ولطيفة في كلمة(أزواج):

أيها الإخوة ، هناك لفت نظر لطيف جداً بما يتعلق بكلمة الأزواج ، الزوج يطلق على الشيء معه ما يقارنه ، شيء معه ، شيء ملازم له دائماً ، يطلق عليه الزوج ، تقول : زوج حذاء ، ونحن في أعرافنا نأخذ الزوج على الاثنين ، هذا خطأ ، إلا أنه إذا لم يكن هناك فارق بين الاثنين بحيث لا يتم الانتفاع بأحدهما إلا مع الآخر ، ولكن لا تميزهما عن الآخر كالجوربين ، جوربين متماثلين 100 % ، لكن لا يستعمل الجوربين إلا مثنى ، معه ما يلازمه دائماً ، ولا يختلف عنه ، فكلمة زوج تطلق على الاثنين معاً .

أما الذكر والأنثى من بني البشر فكلمة زوج لا على الاثنين معاً ، تطلق على الواحد ، والدليل :

(اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

(سورة البقرة الآية : 35)

إذا هناك شيء يلازمه ، شيء آخر مختلف عنه ، فالزوج تطلق على الواحد ، أما إذا كان شيئًا يلازم شيئًا آخر ، ولا يختلف عنه تطلق الزوج على القطعتين معاً ، واضح ؟ هذا الدليل الأول .

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

(سورة النجم)

مادام هناك تكامل ، بتعبير آخر ، إذا كان ثمة تكامل بين شيئين يستعملان معاً يقال لكل واحد منهما : زوج ، الذكر غير الأنثى ، بنيته غير بنية الأنثى ، وظيفته غير وظيفة الأنثى ، إذاً الزوج تطلق على الواحد منهما ،

(اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

أما إذا قلت أنا : اشتريت زوج جوارب ، الزوج تطلق على القطعتين معاً لأنهما متلازمان ، ولكن لا يختلف الواحد منهما عن الآخر .

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ

طبعاً الذكر الضأن غير الأنثى ، وذكر البقرة غير الأنثى ، وذكر الإبل غير الأنثى ، هناك جمل وناقة، الإبل ، البقرة ذكر وأنثى ، الزوج ثور ، والزوجة ثورة .

أيها الإخوة ، الضأن ذكره الكبش ، وأنثاه النعجة ، المعز اثنين ، ذكره التيس والأنثى عنزة ، البقر زوج ، ذكره الثور وأنثاه الثورة ، الإبل زوج ذكره الجمل ، والأنثى الناقة .

(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)

فيا أيها الذين تحرمون وتحللون أيهما حرام

(آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

تحريم البشر وتحليله مزاجي ، لا ضابط له ، والاستفهام كما تعلمون قد يحمل على معناه الحقيقي ، تقول له : ما اسمك ؟ أو كم الساعة ؟ هذا استفهام حقيقي ، لكن الاستفهام يخرجن مقصده الحقيقي إلى مقاصد بلاغية كثيرة ، هناك استفهام إنكاري ، هناك استفهام تقريري ، هذا الاستفهام تقريري يعني أنتم تحرمون وتحللون تحريماً مزاجياً ، وليس تحريماً شرعياً ، إلا أن التحليل والتحريم هو بيد الله جل جلاله .

(وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنعام)

أيها الإخوة ، ذكرت لكم سابقاً أن الله رتب المعاصي ترتيباً تصاعدياً ، فذكر الفحشاء والمنكر ، وذكر الإثم والعدوان ، وذكر الشرك ، وذكر الكفر ، وجعل على رأس هذه المعاصي والآثام :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

وبعض الأئمة يقول : لأن يرتكب العوام الكبائر أهون أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، لذلك في قضية التحريم والتحليل

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

وكلما قلّ علم الإنسان سارع وحرم ، أو سارع وحلل .

بالمناسبة التحريم يحسنه كل إنسان ، ولو كان جاهلاً ، يقول : حرام ، أغرب شيء يتصل بي إنسان يقول لي : قالوا لي : هذا حرام ، من قال لك ؟ شخص بأي درجة من العلم قد يكون جاهلا ، يقول : حرام ، أكثر شيء يعاني منه من يُسأل عن بعض الأحكام أن أي إنسان يعمل في الحقل الديني من دون علم ، من دون دليل يحرم فالتحريم سهل ، ويحسنه كل إنسان ، ولكن البطولة أن تعطي الرخصة مع الدليل .

وشيء آخر : هناك مرض أنا أراه من أخطر الأمراض أن الإنسان يأخذ نفسه بالرخص فإذا سُئل أفتى بالعزائم ، لكن بعض الأئمة الكرام كابني حنبل أخذ نفسه بالعزائم ، فإذا سُئل أفتى بالرخص . لا تكلف الناس مالا يطيقون ، أفتِ الناس بالرخص ، وخذ أنت بالعزائم ، لا العكس .

الأصل في الأشياء الإباحة وعدم التحريم :

مرة ثانية : الأصل في الأشياء الإباحة ، ولا يحرم شيء إلا بالدليل قطعي الثبوت وقطعي الدلالة ، وينبغي أن نعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما عصاه الرماة في أحد صلى عليهم ، هم عصوه ، قال علماء السيرة : إنهم عصوا رسول الله في أمر تنظيمي ، ولم يعصوه في أمر تشريعي ، فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله .

أحياناً يكون للإنسان دعوة فرضاً ، عنده إخوان كثر ، واثقون من علمه ، يحرم بتسرع ، هذا التحريم لا يجوز ، يجب أن تحلل ما أحله الله ، وأن تحرم ما حرمه الله .

مرة النبي عليه الصلاة والسلام أرسل سرية ، وأمّر عليها أنصارياً ، قرأت أنه ذو دعابة ، يحب الطرف ، فلما سار بأصحابه قال : أضرموا ناراً عظيمة ، أضرموا ناراً عظيمة قال : اقتحموها ، ما هذا الأمر ؟ فلما تعجبوا ، قال : ألست أميركم ؟ قالوا : بلى ، قال : أليس طاعتي طاعة رسول الله ، قالوا : بلى ، قال : اقتحموها ، ترددوا ، قال بعضهم : كيف نقتحمها وقد آمن بالله فراراً منها ؟ فلما عرضوا هذا على النبي صلى الله عليه وسلم قال عليه الصلاة والسلام :

((لو اقتحمتموها لازلتم فيها إلى يوم القيامة إنما الطاعة في معروف))

[أخرجه مسلم عن علي في باب وجوب الطاعة]

والدليل أن الله سبحانه وتعالى حينما قال في كتابه العزيز :

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

(سورة الممتحنة الآية: 12)

الآن لو قلت : ولا يعصينك ، أي شيء قاله مخالفته معصية ، أما حينما قال الله عزوجل :

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

كرهت امرأة زوجها كراهية لا تحتمل ، فلما ذكرت هذا للنبي عليه الصلاة والسلام قالت : يا رسول الله ، إني أكره الكفر بعد الإيمان ، يعني إذا جلست معه أتضايق إلى درجة أنني على مشارف الكفر ، لا أحبه ، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال : لو تراجعيه ـ دققوا في فقه الصحابيات ـ لو تراجعيه ، قالت: يا رسول الله ، أفتأمرني ؟ قال : لا ، إنما أنا شفيع ، قالت : لا أحبه ، فقال عليه الصلاة والسلام : طلقها تطليقة ، وردي له الحديقة ، هذه المخالعة .

النبي الكريم ما وضع مكانته ومقامه العالي في شأن شخصي ، فقدر طاعتك لله تتحرج عن أن تحرم بسرعة ، أو أن تحلل بسرعة ، تريث .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ)

(سورة الحجرات الآية : 6)

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة النمل)

قبل أن تحرم زوجة على نفسك ، وقبل أن تمنعها من أهلها ، وقبل أن تطلق الأيمان التي لا تحتمل ، تريث ، تكون زوجته ، وهو زوجها ، ومباحة له ، وكل شيء ميسر ، يحلف يمينًا غير معقولة ، فالذي يفتي له بأن هذا اليمين يمين قسمي يشك في علمه ، والذي يقول له : طلّقت يتألم منه ، أنت كنت في غنى عن كل هذا ، لذلك الطلاق كما قال ابن عباس : << أيرتكب أحدكم أحموقته ثم يقول : يا ابن عباس ، يا ابن عباس >> .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(63-73): تفسير الآية 145 ، منع الله فائدة ـ منع الله تأديب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-05-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والستين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الخامسة والأربعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(ىقُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

التحليل والتحريم بيد الله وحده :

أول حقيقة أن التحريم والتحليل بيد الله وحده ، وأن الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بدليل قطعي في ثبوته وقطعي في دلالته ، وأن الأصل في العقائد والعبادات الحظر ، فلا تشرع عبادة ولا تضاف عقيدة إلا بدليل قطعي الثبوت وقطعي الدلالة والتحريم والتحليل من شأن الله ، لذلك هذا المتسرع بالتحريم ، أو المتسرع بالتحليل ، هو إنسان يفتري على الله ، والله عزوجل يقول :

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لذلك كان السلف الصالح من العلماء يتحرجون كثيراً أن يقولوا : حرام ، بشكل متسرع ، يقول : لا أرتاح له ، ينبغي تركه ، الأولى تركه ، أما إذا كان هناك نص واضح يحرم فالقضية واضحة جداً .

ما أسهلَ التحريم عن جهل وما أصعب الحكم بالدليل !!!

شيء آخر : أن كل إنسان يستطيع التحريم ولو كان جاهلاً ، لأن التحريم لا يكلف إلا أن تقول حرام ، بينما لا يستطيع إلا العالم الكبير المتعمق أن يعطي رخصة بالتحليل مع الدليل ، وعود نفسك :

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن أنس السجزي عن أبي هريرة]

وسيدنا عمر يقول لابنه عبد الله ابن عمر :

((دينك دينكَ ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[ورد في الأثر]

والنصيحة الدقيقة أن الدين مصيري ، هو مستقبل الحياة الأبدية ، متعلق لفهمك للدين وتطبيقك له ، لذلك لا تقبل شيئاً إلا بالدليل ، ولا ترفض شيئاً إلا بالدليل ، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، لكن قبل أن نمضي في شرح هذه الآية هناك أصلان كبيران للتحليل والتحريم ، وجدا في آية قرآنية ، الله عزوجل :

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)

(سورة الأعراف الآية : 157)

فأي شيء تنتفع به بميزان الشرع ، وبميزان القرآن والسنة الأصل فيه أنه حلال ، وأي شيء خبيث يفسد عليك سلامتك وسعادتك بميزان القرآن والسنة والشرع هو حرام ، فالحرام ما كان خبيثاً ، والحلال ما كان طيباً ، أي شيء تطيب النفس به فهو حلال ، وأي شيء خبيث يحرم النفس السعادة فهو حرام ، لعل حرام بأن النفس إذا اقترفت هذا الشيء تحرم من السعادة ، لأن الله سبحانه وتعالى في الأصل خلق عبادهم ليسعدهم ، فأسباب سلامتهم ، وأسباب سعادتهم منوطة بمنهج الله عزوجل فالله عزوجل قال :

(وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ)

لكن هناك آيات فيها تفاصيل .

هذه الآية موضوع هذا الدرس :

الحلال والحرام من الأطعمة :

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ)

طبعاً هنا محرمات الأطعمة ، آية اليوم متعلقة بمحرمات الأطعمة ، وقرأت نشرات كثيرة ببساطةٍ بالغة أن هذا الشراب حرام ، وأن هذا حرام ، وهذا الجبن حرام بتسرع ، أنا أتمنى ألا نسارع إلى التحريم إلا بدليل قطعي ، وألا نسارع إلى التحليل إلا بدليل قطعي .

لا تقبل حكما إلا بالدليل

هناك شيء آخر ينبغي أن أنوه إليه : إنسان اتصل بي هاتفياً ، وقال لي : دعيت إلى بيت ، وقدموا لي الخمر بلا كحول ، فأبيت أن أشربها ورعاً ، فقالوا لي : إنني أبحتها في درس ، مع أنني ذكرت أنه لا ينبغي أن تشربها ، وأتيت بالدليل ، الإمام مالك حرم خنزير البحر ، هو سمك ، والأصل أنه حلال ،

لكن حرمه مِن اسمه ، فإذا كان إمام كبير حرم سمكاً يسمى خنزير البحر لاسمه ، هل يليق بمسلم أن يشرب شراباً ولو افترضنا أنه ما فيه كحول اسمه بيرة مثلاً ؟

فأحياناً قد ينقل إليكم فتاوى لا أصل لها ، الطرف الآخر من باب الإحراج يقول : شيخك أحله في درس عام ، مثلاً ، ما الدليل ؟ قل له أين الدليل ؟ أين الشريط ؟ أين الشاهد ؟ لأنه يفترى على علماء كثيرين فتاوى والله ما قالوها إطلاقاً ، لكن الطرف الآخر ما عنده قيد ، الطرف الآخر دابة فلتانة ، تقول ما تشاء .

أيضاً أن تقبل كلاماً منقولاً من دون دليل هذا مرفوض .

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

أنا لا أتكلم الآن عن حكمها ، إلا أنه لأن الدين عظيم فإياكم أن تأخذوه نقلاً سريعاً من دون دليل ، لولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، وأنا أتمنى على كل طالب علم ألا يقبل ، ولا مني شيئاً إلا بالدليل ، وألا يفرض شيئاً ولو رفضه كبار الأشخاص إلا بالدليل ، لأن الدليل يجعلك فقيهاً ، من دون دليل تكون تابعاً أعمى ، عود نفسك أن تسأل عن الدليل ، إذا كان في تحريم ، في تحليل ما الدليل ؟ وأنت إذا أكثرت من معرفة الدليل نمى عندك ما يسمى بالفقه المنهجي ، لأن هذا دين ، والدين متعلق بالآخرة ، متعلق بالمصير ، متعلق بجنة يدوم نعيمها أو بنار لا ينفذ عذابها ، وأنا لست مع من يحرم تسرعاً ، أيضاً على شبهة ، على مقالة قرأها على كلمة سمعها ، حرام ، لا ، لا التحريم ينبغي أن يكون متسرعاً ، ولا التحليل ينبغي أن يكون متسرعاً لأن كبار العلماء السابقين الأعلام كانوا يتورعون عن أن يقولوا عن شيء : هو محرم ، وليس هناك دليل قطعي على تحريمه ، لكن يقول لك : يغلب على ظني أنني لا أحب أن أفعله .

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لا تبنى الأحكام على الحالات النادرة والشاذة :

لعل هذا ينقلني إلى موضوع جانبي :

لو فرضنا أن إنسانًا وقع في خطر ، طفل خُطف مثلاً في الطريق ، في طريقه إلى المدرسة ، هل هذا يمنع أن أرسل أولادي إلى المدرسة ، هذه حالة نادرة ، إذا كان هناك خطر لا يزيد على 1 % هذا لا ينبغي أن يتخذ مبدأ ، هذا واضح ، وإذا كان هناك حادثة ذُكرت ، وقد تكون غير صحيحة ، وقد تكون غير واقعية ، وقد يكون فيها مبالغة كبيرة ، لا ينبغي أن أبني حركاتي في الحياة على حالات نادرة جداً،

تقع أو لا تقع ، وإن وقعت بنسبة ضئيلة جداً ، أوضح من ذلك ركوب الطائرة في احتمال أن تسقط ، هل يمنعني هذا الاحتمال ألا أركب الطائرة ، يمكن أن يموت الإنسان في الطريق ، أو في مركبة ، أو في بيته ، فأنا لا أبني منهج الإسلام على حالات نادرة جداً لا تقع .

التوفيق بين آية الأنعام وآية المائدة :

الآية :

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

بعضهم يتساءل : هذه الآية حددت أربعة أشياء محرمة ميتة .

(دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

وفي آية أخرى في سورة المائدة :

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ)

(سورة المائدة الآية : 3)

كيف نوفق بين هاتين الآيتين ؟ آية تحدد المحرمات من الأطعمة بأربعة أصناف فقط ، وآية بالعشرة ، العلماء قالوا : هؤلاء الذين يجدون تناقضاً بين الآيتين ما عرفوا ما الإيجاز والإطناب ، وما عرفوا الإجمال والتفصيل ، من أساليب اللغة الإيجاز والإطناب ، والإيجاز والتفصيل ، فالله عزوجل في مواطن في القرآن يوجز ، وفي مواطن يفصل ، فالمنخنقة داخلة في الميتة .

(وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ)

داخلة في الميتة ، وهي كلها حيوانات ماتت بطرق ، إما بوخز ، أو بتردٍّ ، أو بنطح .

(وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

و

(وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ)

تبقى المحرمات في أصولها .

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً)

واحد

(أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا)

اثنان .

(أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ)

ثلاثة .

(فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الإخوة ، إذاً هناك إيجاز شديد :

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)

علاقة المحرَّم بالنتيجة علاقة علمية :

ماذا نستنبط ؟ نستنبط استنباطًا دقيقًا جداً ، وهو أن الشيء المحرم علاقته بنتائجه علاقة علمية ، الشيء المحرم خبيث ، تخبث به النفس ، يضر النفس ، يحجبها عن سلامتها وعن سعادتها وأن الشيء الحلال ، تطيب به النفس ، وتحلو به النفس ، تسمو به النفس تسعد به النفس ، هذا أش أنواع الإيجاز ، كل أنواع الطيبات حلال ، وكل أنواع الخبائث حرام هذا إيجاز شديد جداً ، التفصيل أوسع .

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

هذا أوسع .

والأوسع والأوسعُ :

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ)

هذه أوسع .

كما ذكرت لكم في دروس سابقة أن كل أنواع الكسب الحلال تنتظمها كلمتان :(منفعة متبادلة) وأن كل أنواع الكسب الحرام تنتظمها كلمتان : (منفعة بنيت على مضرة)الآن نحن في هذا الدين العظيم القرآن هو المصدر الأول للتشريع ، وكلام النبي الصحيح هو المصدر الثاني ، لأن الله عزوجل يقول :

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

(سورة النور الآية : 54)

ما قال : أطيعوا الله ورسوله .

وفي آيات أخرى :

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(سورة الأنفال الآية : 46)

أما في هذه الآية ملمح دقيق :

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

استقلالاً .

هناك من يتوهم أن أي شيء جاء به النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن في كتاب الله فهو باطل ، لا ، يقول الله عزوجل :

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

تشريعنا يأتي من كتاب الله ، ومن سنة رسول الله ، النبي الكريم مشرّع ، وقد عصمه الله من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره ، فالذي جاء به النبي إذا ثبت أنه كلامه الصحيح ، فمن رده فقد كفر .

إذاً : القرآن هو المصدر الأول ، وكلام النبي العدنان هو المصدر الثاني .

الآن هناك تفصيل :

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً)

تفصيل الميتة هي :

(الْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ)

إلا إذا أسرعتم ، و

(ذَكَّيْتُمْ)

لماذا الدم المسفوح خاصة ؟

أما الدم ففيه كل عوامل المرض ، وهو أفضل مستنبت للجراثيم ، لكن الدم هنا وصف أنه مسفوح ، الدم الذي في الجسم يدور ويجري دم طاهر ، لماذا ؟ لأن هناك ثلاث مصافي تصفيه ، المصفاة الأولى الكليتان ، وإفراز الكليتين هي الشوائب الضارة التي في الدم ، الدم يمر في الكلية في اليوم خمس مرات، والطريق في الكلية يزيد عن مئة كم ، في بالكلية مليون نفرون هذه الكلية تفي الدم من حمض البول ، ومن الشوائب ، من الأملاح الزائدة ، من السموم ، كل شيء مؤذي في الدم تطرحه الكلية ، إذاً الدم الذي يجول في الأوعية هذا الدم طاهر ، لأن هناك مصافٍ ثلاث ، المصفاة الأولى الكليتان ، المصفاة الثانية الرئتان ، هذا الزفير النفس الذي تطرحه في ثاني أوكسيد الكربون ، وثاني أوكسيد الكربون ناتج عن احتراق السكر بالأوكسجين ، المحصلة ثاني أوكسيد الكربون ، لذلك ينقى الدم بالرئتين ، وينقى بالكليتين ، وينقى بالغدد العرقية ، في بالإنسان ملايين مملينة من الغدد العرقية ، والعرق فيه حمض البول ، لذلك الاغتسال واجب شرعي ، وأقلّ اغتسال كل أسبوع مرة ، والأولى كل

يوم مرة ، لأنك حينما تغتسل تزيل عن جلدك مفرزات الغدد العرقية ، فما دام الدم يجري في الجسم فهو طاهر ، أما إذا سفح تعطلت تصفيته ، وازدادت فيه الجراثيم ، والدم أكبر مستنبت للجراثيم .

الحكمة من التذكية الشرعية :

ذكرتُ تذكية الذبيحة في الدروس السابقة ، وأن القلب مهمته بعد الذبح إخراج كل الدم من العروق ، فإذا ذبح وفق الطريقة الإسلامية بأن قطعت أوداج الدابة ، وبقي رأسها موصولاً ، الرأس الموصول يحقق الأمر الاستثنائي بضربات القلب ، القلب ينبض بأمر ذاتي 80 ضربة ، أما بأمر استثنائي يأتيه من الرأس عن طريق الغدة النخامية إلى الكظر ، ثم إلى القلب يرتفع النبض إلى 180 نبضة ، إذاً اللحم المذكى هو اللحم الذي خرج منه الدم كلياً ، بينما اللحم الغير المذكى هو اللحم الذي بقي الدم فيه ، والدم نجس تعطلت تصفيته .

قال بعض علماء : هناك معنى آخر مخالف ، الدم المحرم هو الدم المسفوح ، ودم الإنسان في جسمه وهو يجري دم طاهر ، يجري في تصفية الكليتين ، والرئتين ، والغدد العرقية .

إخراج الكبد والطحال من جملة الدم المحرم :

وبعضهم قال : هذا الدم في الجسم يتجمع ، ويتماسك إلى أن يصبح جهازاً ، الكبد دم ، الطحال دم ، فهذا الذي تجمع وشكل عضواً في الجسم لا يقبل إلا الدم الطاهر ، لذلك النبي الكريم قال :

((أحلت لنا مَيْتتان : السمك والجراد ، ودمان : الكَبد والطحال))

[رواه الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن ابن عمر]

كيف أن البطيخ ماء مجمد من دون براد ، ماء مجمد ، لأنه 97 % من قوام البطيخ الأحمر ماء 3 % ، كل هذه الألياف ، والأطعمة الحلوة ، كذلك الكبد دم ، الكبد أكبر مستودع للدم ، أكبر مستودع للسكر ، للشحوم الثلاثية ، لكل البروتينات ، هو مستودع غذائي ، ومستودع للدم ، وكل شيء يأتي الدم من الأمعاء ، والطعام مصيره إلى الكبد هو المستودع والخزان ، والكبد يقوم بـ 500 وظيفة ، والكبد أخطر أعضاء الجسم ، والنبي قال :

((أحلّ لكم دمان : الكَبد والطحال))

إذاً : الدم المسفوح مستثنى منه الدم الذي يجري في العروق ، وهو ليس طعاماً يؤكل ، لكن تنويهًا بأن الدم الذي في العروق طاهر ، لأنه في تصفية .

أما التنويه الثاني فالدم المسفوح هو المحرم ، الدم المجمد على شكل عضو كالكبد والطحال هذا حلال أكله ، وهو استثناء من النبي الكريم ، والنبي مشرّع .

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً)

إخراج السمك والجراد من جملة الميتة المحرمة والحكمة في ذلك :

الآن نحن نأكل السمك الميت ، كيف نأكله ؟ قال السمك له حالة استثنائية ، السمك حينما تصطاده ويخرج من الماء ينتقل كل دمه إلى غلاصيمه ، وكأنه ذُبح تماماً ، من علم النبي هذا الاستثناء ؟ السمك حينما تصطاده ينتقل دمه كل إلى غلاصيمه ، وكأن السمكة ذُبحت ، وخرج كل دمها ، وقلما تجد في لحم السمك نقطة دم ، أبداً ، والجراد ليس فيه دم إطلاقاً ، هذا موضوع ثانٍ ، بلا دم إطلاقاً ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانَ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنُ عُمَرَ]

الجراد ليس فيه دم أصلاً ، والحوت أي السمك حينما يصطاد ينتقل دمه إلى غلاصيمه .

((وَأَمَّا الدَّمَانِ ، فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ))

هذا استثناء ، إذاً هنا النبي مشرع ، إذاً كأن القرآن أعطاك الكليات ، أما التفاصيل جاءت في السنة ، الاستثناءات جاءت في السنة .

أيها الإخوة ، نتابع هذه الآية :

معنى قوله : فَإِنَّهُ رِجْسٌ

(فَإِنَّهُ رِجْسٌ)

أريد أن أوضح لكم بمثل بسيط :

كل بيت يحتاج إلى مكنسة لكنس الغبار ، والقاذورات ، والأوساخ ، هل يمكن أن تؤكل المكنسة ؟ لا تؤكل ، مهمة هذه تنظيف البيت من القاذورات ، هذا أصل الفكرة .

كيف أن الإنسان يستمتع أشد الاستمتاع باللحم المشوي الطازج ، ويراه سيد الطعام ، الخنزير مشكلته أن سيد الطعام عنده الفطائس ، واللحوم المتفسخة ، فهو مغرم بأكل الجرذان ، بأكل الخنازير الميتة ، بأكل الجيف ، هذه مهمته ، مصمم من الداخل بعصارات هاضمة فعالة جداً ، فالخنزير له فائدة ، لكن لا أن نأكله ، تماماً كالمكنسة لها فائدة بالبيت ، لكن لا لكي نأكلها .

مرة قال لي إنسان : كيف الصلاة في القطب ؟ والله سؤال يحيّر ! ستة أشهر ليل ، يريد أن يقول لي : نصوم ستة أشهر ، أو نصوم ستة أشهر مستمرة ، النهار هناك ستة أشهر ، في دائرة معينة في القطب يستمر الليل ستة أشهر ، والنهار ستة أشهر ، الأرض تدور بمحور مائل ، فالشمس تأتي إلى هنا فقط ، فإلى أن يصبح المحور هكذا عندنا ستة أشهر ، الدائرة القطبية ليل دامس ، وستة أشهر نهار ، كيف الصلاة هناك ؟ وكيف الصوم ؟ فمرة أجبت عن هذا السؤال :

قلت له : صعد أحدهم إلى سقيفة البيت ، والارتفاع متر وعشرة ، هكذا حتى ظهره ، قال لي : كيف أقف في هذا المكان يا أستاذ ؟ هذا المكان ليس للوقوف ، هذا المكان لوضع الأشياء التي لا نستخدمها في حياتنا ، مصمم لحاجات لا تستعملها توضع في هذا المكان ، فإذا صعدت إلى هذا المكان سقفه لا يحتمل ، من قال لك : إن هذا المكان من أجل أن تسكن فيه ؟

فلذلك قضية لحم الخنزير ، لماذا خلقه الله عزوجل ؟ خلقه الله عزوجل لأهداف رائعة جداً ، أحيانا تموت قطة في الفلاة ، يموت كلب ، يموت حمار أحياناً ، من دون خنزير تبقى المنطقة لـ 200 متر لا تحتمل رائحتها ، هذا الخنزير مغرم أشد الغرام باللحم الجيف والفطائس ، يأتي الأوربيون يربونه في مزارع ، ويحبون أكله تماماً .

لي صديق كان معي على مقعد الدراسة ، انتهى به الأمر إلى أن يدرس في الاتحاد السوفيتي قديماً ، درس الطب ، وصار عميد كلية الطب ، حدثني مرة أن بعض المواد التي درسها أثر أخلاق الحيوان الذي نأكله في أخلاقنا .

الخنزير يأتي أنثاه أمام الناس ، لا يستحي ، لها طباع الحيوانات ، الجمل لا يسمح لأحد أن يراه مع أنثاه ، السمك كذلك ، وهناك دراسات لطيفة جداً كل حيوان كيف وضعه مع أنثاه ، أشد أنواع الحيوانات إباحية وتفلتاً هو الخنزير ، أساساً نحن نستخدم كلمة خنزير للذي لا دين فيه ، أو لرجل لا يغار على عرضه ، أو يرضى الفاحشة في أهله ، أو لديوث ، نقول له : أنت مثل الخنزير ، وإذا كان أشد من ذلك مثل الخنزير الموقس ، هذا الخنزير مهمته أن يأكل الجيف والفطائس ، وكل حيوان ميت ، ومغرم بتناول الجرذان ، طعامه المفضل الجرذان ، هذا ليس لكي نأكله .

لكن هناك كلام آخر ، كلام من دون تفاصيل إطلاقاً ، لاحظ نفسك لو دخلت إلى عيادة طبيب يحمل شهادة عالية جداً من بلد كبير في الطب ، لا تفكر أبداً أن تطالبه بالتعليل إطلاقاً دون أن تشعر ، شهادته العالية ، وسمعته الطيبة تجعلانك تخضع له من دون تعليل .

لذلك مرة ذهب إنسان إلى بلاد الغرب ، إلى أمريكا بالذات ، هو عالم شرق أوسطي مسلم ، يحمل دكتوراه في الشريعة ، ذهب إلى بلاد أمريكة ، و التقى بعالم أمريكي ، هداه الله إلى الإسلام ، جرى الحديث عن لحم الخنزير ، فهذا العالم الشرق أوسطي أراد أن يعرض له رأيه في تحريم لحم الخنزير ،

الدودة الشريطية ، وتأثر الإنسان بطباع هذا الحيوان ، وما إلى ذلك بعد ساعة من الشرح ابتسم هذا العالم الغربي قال له : كان يكفيك أن تقول لي : إن الله حرمه ، هذا هو الإيمان .

لذلك مرة في موضوع التعدد ، في ندوة في إذاعة بريطانية حول التعدد ، من ضمن الندوة جرى اتصال مع أستاذة في جامعة القاهرة ، لأنها دكتورة ، وأنثى سألوها عن التعدد ، فأجابت إجابة ما رأيت إجابة أعمق منها ، قالت : كيف أدلي برأي في التعدد ، وقد سمح الله به ؟ من أنا حتى أدلي برأي ، لأن الله عزوجل قال :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية : 36)

إذا كنت مؤمناً ، إذا كنت ترى أن هذا الكون يدل على الله ، وفيه من آيات الله ما لا يوصف ، وهذا الإله أنزل لنا كتاباً فيه أدلة قطعية على أن هذا كلامه ، وقال لك :

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ)

سمعاً وطاعة يا رب ، لذلك قال له : كان يكفيك أن تقول لي : إن الله حرمه ، من هنا تعد علة أي أمر أنه أمر فقط ، أمر على العين والرأس .

في التعامل اليومي أحياناً رئيس جمهورية ، أو ملك ، لقوته في شخصيته وحرصه على مصالح الأمة لا أحد يناقش قراراته ، هكذا لنطبق مثلاً ، التطبيق هو الهم الأول ، أما المناقشة فلا تكون إلا لإنسان موثوق به ، دائماً هكذا .

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً

إذاً :

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ)

طبعاً هذه محرمات الأطعمة فقط ، لا تتوهم أن كل المحرمات أربعة ، هذه محرمات الأطعمة فقط .

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً)

تفاصيل الميتة :

(وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ)

(أَوْ دَمًا)

والتفصيل مستثنى منه الدم الذي يجري في العروق لأنه طاهر ، ومستثنى الدم الذي شكل عضواً في الجسم كالكبد والطحال ، أما الدم المسفوح فهو نجس .

لي صديق ذهب إلى بلاد في شرق آسيا بعيدة ليشتري اللحم ، فلما طلب أن يذبح على الطريقة الإسلامية رفعوا السعر ، قال لهم : لماذا ؟ قال : هذه الدابة فيها 8 كغ دم ، فإذا أمرت أن تذبح وفق الطريقة التي تطلبها الدم كله يخرج منها نخسر نحن .

لذلك الآن في العالم الغربي شيء لا يحتمل ، الدم يجمد ، ويوضع في الأمعاء ، ويؤكل كأكلة نفيسة جداً ، الدم عندنا محرم ، لأن كل عوامل المرض في الدم ، كل أسباب المرض في الدم ، والدليل : أن كل مستنبت للجراثيم هو الدم ، بالمخابر كيف يستنبتون الجراثيم ؟ بالدم ، لذلك الدم محرم ، ماذا أقول لكم ؟ .

البقر صممه الله عزوجل حيواناً نباتياً ، في بريطانيا أطعموه مسحوق الجيف ، وأطعموه الدم المجفف فجن البقر ، وجنون البقر من جنون البشر ، اضطروا أن يحرقوا 3 ملايين بقرة ثمنها 33 مليار جنيه إسترليني ، وكنت أقول دائماً : جنون البقر من جنون البشر ، ومن علامات قيام الساعة أن الإنسان المتأله يغير خلق الله ، يغيرون خلق الله ، والآن مع الأسف الشديد يطعمون الدجاج أحياناً دمًا مجففًا ، يطعمونه طحين الجيف أحياناً ، هذا كله مخالف يجب أن تطعمه طعاماً الذي صممه الله له .

لذلك الأمراض التي تستشري ، وارتفاع نسب السرطانات ما الذي يدريك أن معظمها يأتي من مخالفة أصل تصميم الله عزوجل .

أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ

يعني أنه شيء خبيث ، كيف أن النجس خبيث .

أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

أحياناً الطعام طيب ومذبوح وفق الطريقة الإسلامية ، لكن قُدم بشكل شركي ، كالدابة التي تُذبح على الأنصاب ، أو تُذبح تأليهاً لإنسان على أقدام إنسان ، هذه دابة ما أهل بها وجه الله عزوجل .

أحيانا يكون الإنسان في جلسة في طعام على معصية ، على ظلم ، على تجاوز حدود ، أيضاً الطعام الذي يرافقه الفسق والفجور ينبغي ألا تأكله ولو كان في الأصل حلالاً ، رحمة الله عزوجل واسعة ، قال :

الكليات الخمس : الدين – النفس – العقل – العرض – المال :

نحن عندنا أولويات ، أول شيء في الأولويات الدين ، بعده الحياة ، بعده العقل ، العرض ، المال ، هذه مقاصد الشريعة الإسلامية ، فالإنسان يضحي بحياته من أجل دينه هذا الشهيد ، ويضحي بماله من أجل عرضه لو إنسان قُطاع طريق أوقفوه وخيروه بين أن يدفع مئة ألف أو أن يغتصبوا امرأته أمامه ، كمثل افتراضي ، وكان ضعيفًا ، ولا يملك شيئًا ينبغي أن يدفع المئة ألف ليضحي بماله من أجل عرضه، يضحي بماله من أجل عقله ، يضحي بحياته من أجل دينه ، هذه المقاصد الشرعية الخمس .

الضرورات تبيح المحظورات : فَمَنْ اضْطُرَّ

(فَمَنْ اضْطُرَّ)

تناول لحم الخنزير حرام ، لكن الحياة أولى ، فإذا كاد إنسان أن يموت من الجوع يقيناً لا توهماً ، وبينه وبين الموت شعرة ، وأمامه لحم خنزير فبإمكانه أن يأكل .

الضرورات تُقدَّر بقدَرها :

لكن الضرورة تقدر بقدرها :

(فَمَنْ اضْطُرَّ)

حفاظاً على حياته .

(غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ)

(غَيْرَ بَاغٍ)

يعني ما أكل فوق حاجته .

(وَلَا عَادٍ)

عاد إلى هذا الأكل بلا ضرورة ، كلاهما محرم ، والإنسان متى يضطر إلى أن يأكل ؟ إذا افتقد الطعام الشرعي أو الطعام موجود ، لكن أُجبر على أكله وإلا يفقد حياته .

أنا أذكر مرة أني قرأت في التاريخ عن سلطان غاشم ، طاغية ، غير مسلم ، أراد إذلال العلماء ، فجمعهم في مكان أمام جمهور كبير من الناس ، وجاء بلحم الخنزير ، وأمرهم أن يأكلوا ، طبعاً بعضهم أكل ، هو مغطى بالفتوى :

(فَمَنْ اضْطُرَّ)

وإلا فهناك قتل ، لكن عالمًا كبيرًا جداً ، وهو من أكبر علماء البلد ، مشهور بالورع والتقى ، ولشدة مكانته في الناس خادم هذا الطاغية قدم له لحم ضأنٍ ، وهمس في أذنه : يا سيدي كل ولا تخف ، هو لحم ضأنٍ ، فلم يأكل ، وقتله السلطان ، قال له : يا بني ، هذا عند الناس لحم خنزير ، أنا سأضحي بحياتي حفاظاً على مكانة العلم ، اللحم ضأن ، لكن لشدة حفاظه على مكانة العلم رفض أن يأكل ، وقتله السلطان . لذلك :

(فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ)

طبعاً هذا الكلام يذكرني بقصة ، سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أرسل سرية ، صحابيان جليلان وقعا بأسر مسيلمة الكذاب ، جاء بهما بين من حوله من المقربين ، وقال للأول : أتشهد أني رسول الله ، وجاء بالقرآن ، قال : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، قال له : أتشهد أني رسول الله؟ قال له : والله ما سمعت شيئاً ، فقطع رأسه ، جاء دور الثاني ، قال له : أتشهد أني رسول الله ؟ قال: أشهد أنك رسول الله ، الآن بلغ النبي الخبر ، فماذا قال ؟ قال : أما الأول فقد أعز دين الله فأعزه الله ، نحن هبط قلبنا الآن على الثاني ، قال : وأما الثاني فقد قبل رخصة الله .

أرأيت إلى عظمة هذا الدين ؟ ما كلفك فوق ما تطيق ، هناك حد أدنى أنت ناجٍ به ، وأنت معافى عند الله ، والله قبلك ، الحد الأدنى أن تقول : أشهد أنك رسول الله ، لأن ثمة قتلاً ، والحد الأعلى أن تقول : ما سمعت شيئاً .

كنت مرة في تركيا ، وألقيت هذا الدرس على جمع غفير ، وقلت : أما الأول فقد أعطاه الله مليونًا ، وأما الثاني فقد أعطاه الله مليون ليرة تركي ، للتوضيح ، الحد الأدنى له أجر ، والأقصى له أجر .

هناك في ين كثيرة فيها تفاوت ، يمكن أن تأخذ الأجر الأكبر ، ولك أن تأخذ الأجر الأصغر ، سيدنا الصديق أعطى كل ماله ، قال : أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ؟ قال : له ورسوله ، وإنسان أعطى نصف ماله ، سيدنا عمر ، وإنسان بخل بماله .

(فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

((إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه))

[رواه أحمد في مسنده والبيهقي ، عن ابن عمر الطبراني ، عن ابن عباس وعن ابن مسعود]

هناك يتفلسف ، يقول : أنا بالسفر لا أقصر ، هذا سفر ، لست منزعجا ، النبي قصر ، وهو أورع منك.

((إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه))

((أشدكم لله خشية أنا ، أنام وأقوم ، أصوم وأفطر ، أتزوج النساء ، هذه سنتي فمن رغب عنها فليس من أمتي))

[البخاري عن عائشة]

لا تزاود على رسول الله ، هو سيد الخلق ، سيد ولد آدم ، أخشانا لله ، أقربنا إلى الله ، أشدنا ورعاً ، فالذي سمح به خذه ولا تخاف ، والذي نهانا عنه ابتعد عنه ، أما أن تزاود هذا من شيم المنافقين .

قال تعالى :

(فَمَنْ اضْطُرَّ)

حفاظاً على حياته ، من الهلاك لأنه لم يجد طعاماً يأكله ، أو حفاظاً على حياته لأن إنساناً أجبره على أن يأكل هذا اللحم وإلا يُقتل .

والله بالمقابل حدثني أخ وفد إلى بلد بعيد ، والطعام لحم خنزير ، والذي يقدم الطعام من بلادنا ، فلما جاء هذا الوفد ، فطبخ لهم طعاماً شرعياً ، لحم ضأن ، بعض أعضاء الوفد أبى إلا أن يأكل لحم الخنزير ، ليثبت أنه لا يعبأ بدينه ، هذا موضوع ثانٍي ، بالعكس ، هناك من قدم لك الطعام الشرعي ، وهو يعلم أن الخنزير محرم في دينك ، فجاء باللحم الضأن وطبخه ، وقدمه لهذا الوفد ، إلا أن واحداً منهم يأبى إلا أن يأكل لحم الخنزير .

(فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذا تحريم ما يؤذينا .

التحريم التربوي :

عندنا تحريم آخر تحريم تربوي ، الشيء المحرم لا يؤذي ، لكنه عقاب من الله عزوجل ، قال تعالى :

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

(سورة الأنعام)

أحيانا ابنك يخالف بعض القواعد الأساسية ، أو لا يدرس ، تحرمه المصروف ، مباح له أن يأخذ منك مبلغا من المال يصرفه ، تمنعه ما لا يضره ، لكن تمنعه عقاباً له ، التحريم الأول تحريم منع ضرر ، العلة أو العلاقة بين المحرم والنتائج علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، أما القسم الثاني فتحريم تأديب . مثلاً : أن يذهب الابن مع أهله إلى النزهة هذا شيء طبيعي ، وشيء مباح ، وشيء حلال ، لماذا يعاقب الأب أحياناً ابنه بحرمانه من الذهاب إلى النزهة ، النزهة مباحة ، مع أمه وأبيه ، لكن يعاقبه بشيء سمح له به . الإبل والنعم والبط والإوز هي ذو ظفر

(كُلَّ ذِي ظُفُرٍ)

حرم على اليهود لا لأنه خبيث ، لكن تحريم حرمان ، وتحريم تأديب ، وتحريم عقاب ، أحياناً تقلّ الأمطار ، هذا تقنين ، هل هذا التقنين الذي من عند الله تقين عجز أم تقنين تأديب ؟ تأديب .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر الآية : 21)

فتقنين الله عزوجل تأديب ، هذا التحريم بالذات على اليهود تحريم تأديب وعقاب لا تحريم منع إيذاء ، التحريم الأصلي هو تحريم الخبائث ، أما هذا تحريم فتأديب ، وفي آية أخرى :

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء الآيات : 160 - 161)

فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ:

الآن من حق الطالب أن يتمتع بالدفء ، أحيانا يكون الصف شرسًا جداً ، يعاقب بنزع المدفأة بالشتاء ، هذا يقع أحياناً ، نقول : هذا منع تأديب ، لا منع شيء ضار ، المدفأة ليست ضارة في الصف ، مفيدة ، ولها ضرورة أساسية .

إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا

شيء آخر : الشحوم كلها كانت محرمة .

(إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا)

شحوم الأمعاء ، أو ما جاء في الظهر ،

(أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ)

ليّة الخروف مرتبطة بعجب الذنب .

علة تحريم هذا النوع التأديب :

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

فالتحريم الذي جاء على بني إسرائيل تحريم عقاب وتأديب ، الأشياء المحرمة نافعة ، لذلك قال الله عزوجل في آيات كثيرة :

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

(سورة البقرة الآية :57)

الشيء الذي تطيب به النفس ، وتحلو به النفس هو طيب وحلال .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(64-73): تفسير الآيات 147 - 149 ، الدعوة البيانية – القضاء والقدر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-05-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع والستين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية السابعة والأربعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

معنى الآية :

في هذه الآية عدة معانٍ :

أن رحمة الله تقتضي ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فإذا الإنسان تخلى عن تدينه ، وتخلى عن معرفة ربه ، ورفض الانصياع لأمر ربه ، هذا حكمه حكم المجرم ، كعظمة لم يبقَ عليها لحم إطلاقاً ، لم يبقَ عنده خير يلقى الله عليه ، فهو كالمجرم ، جُرم لحمه عن عظمه ، أو جُرد من كل خير ، هذا الإنسان الشارد التائه ، الغارق في شهوته ، المتعلق بالدنيا ، الذي لا يبالي أكان ماله حراماً أو حلالاً ، ولا يبالي أكانت علاقته مشروعة أو غير مشروعة ، هذا الإنسان تقتضي رحمة الله أن يعالجه ، ويسوق له من الشدائد ما يعود بها إلى الله .

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

أنواع دعوة الله للعباد وأكمل المواقف لكل دعوة :

1 - الدعوة البيانية :

بالمناسبة ، أيها الإخوة الله عزوجل لطيف يسلك في هداية خلقه مراحل ، أول مرحلة ؛ لطيفة ، وسهلة، وواضحة ، وسليمة ، وأنت في صحتك ، وأنت في قوتك ، وأنت في شبابك ، وأنت في غناك ، ما عندك مشكلة ، فيك تقصير ، وشرود ، وغفلة عن الله ، الله عزوجل يدعوك إليه دعوة بيانية بالكلام، كهذا الدرس دعوة بيانية ، هذه الدعوة البيانية تحفظ لك كرامتك ، واستقرارك ، وراحتك النفسية ، وأنت صحيح ، وقوي وغني ، وعندك زوجة ، وأولاد ، ولك عمل ، ولك دخل ، تأتيك دعوة لطيفة جداً بلسان

عربي مبين ، بآية ، بحديث ، بقصة ، بحكم فقهي ، بموعظة ... إلخ ، الأولى أن تستجيب لله في هذه الدعوة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 24)

أكمل موقف تقفه من دعوة الله البيانية أن تستجيب ، وأنت في صحتك ، وفي قوتك ، وفي أوج نشاطك، وفي مكانتك ، وفي كرامتك ، اسمها دعوة بيانية ، يعني محاضرة ، كتاب ، خطبة ، درس ، ندوة .

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ)

أي لم يستجيبوا لك طبعاً ،

(رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ)

2 – المعالجة : المصائب والشدائد

الآن يخضعك إلى معالجة أقسى .

قال طبيب لمريض معه قرحة : هناك طريقان ، إما أن تسلك حمية قاسية جداً وتشفى ، أو لا بد من عملية جراحية يجب أن تستأصل قسم مصاب من المعدة ، فأنت بالخيار ، هناك معالجة سلمية لطيفة تعتمد على الحمية ، وهناك معالجة جراحية .

فالذي لا يستجيب لدعوة الله البيانية يخضعه الله لمعالجة من نوع آخر .

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

((عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل))

[رواه أحمد والبخاري وأبو داود عن أبي هريرة]

الآن تأتي المصائب والشدائد من أجل أن تلجئ الإنسان الشارد الغافل إلى باب الله تعالى .

مرة أخ من باب المداعبة قال لي : ما ملخص هذه الدعوة التي أمضيت فيها ثلاثين عاماً ؟ قلت له : كلمتان ، لا ثالث لهما ، بالتعبير الدارج : إما أن تأتيه طائعاً ، أو أن يأتي بك قسراً ، إمّا أن تأتيه ركضًا، وإمّا أن يأتي بك ركضًا .

أحد إخوة المسجد عنده مؤسسة صناعية ناجحة جداً ، وفي السبعينات كان رواج مذهل ، جمع أرباحًا طائلة ، قال لي بالحرف الواحد : هيأت مبلغ نصف مليون ليرة ، يعني كان الدولار بثلاث ليرات ، وأردت أن أذهب إلى أمريكا لأستمتع بالحياة من دون زوجتي ، فهمكم كفاية ، وذهب إلى هناك ، شاب،

ونجاحه بالعمل كبير جداً ، دخله فلكي ، شعر بالآم في ظهره ، ذهب إلى طبيب قال له : سرطان بالنخاع الشوكي ، قطع رحلته ، وعاد إلى الشام من جامع إلى جامع .

فإما أن تأتيه طائعاً ، أو أن يأتي بك قسراً ، فالتكذيب :

(رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ)

لكن هناك طريق سلمي بالدعوة البيانية ، وهناك طريق قسري ، على كلٍ الذي يستجيب لله عقب مصيبة إنسان موفق جداً ، إلا أن الذي يأتيه قبل المصيبة إنسان راقٍ جداً ، إنسان بأعلى درجة من الكرامة ، عرف حق الله عليه فأتاه طائعاً .

لذلك هناك فرق بين عبيد وعباد ، العبيد جمع عبد ، والعباد جمع عبد ، لكن العبيد جمع عبد القهر ، بينما العباد جمع عبد الشكر ، بين أن تأتي المصيبة القاسية ، مرض عضال لا تنام الليل ، قيام لليل ، دعاء ، وبين أن تكون صحيحاً ، قوياً ، معافىً ، وأن تبحث عن الله ، وأن تطلب رضاه ، وأنت قوي ، غني ، معافى .

فأول دعوةٍ دعوةٌ بيانية فقط ، خطبة ، شريط ، محاضرة ، ندوة ، أي شيء دعوة بيانية ، أو أن يخضع الإنسان للتأديب التربوي .

قال رجل : يا رسول الله ، عظني ، ولا تطل ، قال :

((قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[رواه مسلم عن سفيان بن عبد الله]

قال له أريد أخف من ذلك ، قال له : إذاً فاستعد للبلاء .

إن لم تقبل أن تتبع حمية قاسية فاستعد للعملية الجراحية .

فأول دعوةٍ دعوةٌ بيانية ، أكمل موقف فيها الاستجابة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

أما مع انتفاء الاستجابة :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

الموقف الثاني أكمل ، موقف التوبة ، وإذا ما تاب فهناك إجراء ثالث ، هو خطير ، لكنه سهل .

3 – الإكرام الاستدراجي :

الإكرام الاستدراجي : صحة ، ومال ، ودخل ، ومعاصٍ ، هذا شيء مشاهد ، ضغطه 8 ـ 12 ـ نبضه ـ 80 ـ كل التحاليل جيدة ، وعنده كل يوم معصيتان أو ثلاث ، ماذا حصل ؟ أريد أن أستمتع بشبابي ، هذا الثالث إكرام استدراجي .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية : 44)

أكمل موقف في المرحلة الثالثة الإكرام الاستدراجي أن تشكر ، وأن تعود إلى الله وأنت خجل من هذا الإكرام ، فإن لم تعد ، ولم تخجل .

4 – القصم :

بقي القصم

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ)

أحياناً تطلب الأم من ابنها أن يدرس فيرفض ، يقول لها الأب : دعيه لي ، أنا أدبره ، وهذه الآية واضحة ، قال له يا محمد :

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً)

(سورة المدثر)

إخواننا الكرام ، أغبى إنسان على وجه الأرض الذي لا يدخل الله في حساباته ، الله يرخي الحبل ، لدرجة أنك تتوهم أن كل شيء تمام .

ركب أحدهم سيارته ، وزوجته إلى جانبه ، فأصيب بأزمة قلبية حادة ، من كرم الله عزوجل أن صديقه وراءه صدفة ، حمله ، وأخذه إلى المستشفى على العناية المشددة ، حينما شعر أنه على وشك الموت قال : أعطوني المسجلة ، وشريط كاسيت ، المحل الفلاني أخذه اغتصابًا من حق أخيه الصغير ، المحل الفلاني ، البيت الفلاني ، كل شيء اغتصبه من إخوته ذكره في هذا الشريط ، يبدو أن الجلطة خرج منها بسلام ، قال : أين الشريط ؟ كسره ، بعد ثمانية أشهر جاءت القاضية ، وكانت نهايته بها .

أول صحوة صحاها رئيس وزراء العدو من خثرة في الدماغ قال : تابعوا اغتيال قادة المنظمات الفلسطينية ، أو كلمة قالها بعد الصحوة ، بعد يومين كانت القاضية .

الله أحيانا يحدِث إنذارًا مبكرًا ، فهل تستفيد ؟

أول معالجة إلهية الدعوة البيانية ، وأنت صحيح ، قوي ، ما عندك مشكلة ، الأجهزة تعمل بانتظام ، وبيتك منتظم ، بيتك ، زوجتك أولادك .

ثاني معالجة تأديب تربوي ، بالأولى استجابة ، بالثانية توبة .

الثالثة شكر .

الرابعة : قصم .

إذاً :

المعالجة رحمة من الله تعالى :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

الآن سأضرب مثلا : أب طبيب ؟ طبيب عالم ، وأب رحيم شعر أن عند ابنه التهاب زائدة ، وهذه إن لم يسارع إلى استئصالها قد تنتهي بالموت ، فتقتضي رحمة هذا الأب العالم أن يضع ابنه على منصة العمليات ، وأن يخدره ، وأن يفتح بطنه ، والدم يسيل ، وأن يستأصل الزائدة ، وأن يخيط الجرح ، وبعد أن ينتهي مفعول المخدر تبدأ آلام الطفل ، لكن هذا قمة الرحمة والعلم .

يقول لي أحدهم : المسلمون وضعهم صعب جداً ، ومهما دعوا فلا يستجاب لهم ، مرة كان جوابي : هم في عملية جراحية ، ولم تنتهِ بعد ، فلو أن البطن مفتوح ، والأحشاء خارج البطن ، والعملية معقدة جداً ، وقال ابن هذا المريض : ارحموا ، كيف أرحمه مما أنا فيه أرحمه ، هذه العملية هي رحمة الطب .

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

أحياناً تدخل اليد الإلهية بمصيبة هي سبب نجاة الإنسان في الدنيا .

شعور الإنسان في أثناء المعالجة :

والله هناك أخ له أخ أكبر منه شارد عن الله شرودًا كبيرًا ، غارق في كل المعاصي والآثام ، وغني ، وله شبكة علاقات ، أصيب بأزمة قلبية ، أخذوه إلى المستشفى في العناية المشددة ، يقول لي : أنا أناجي ربي ، يا رب ، أنا تحب أن ألقاك عارياً ، أعطني مهلة أن أرتدي ثوباً ألقاك به ، يقصد أنه لو أن الله عزوجل أمهله يتوب ، الله عزوجل أمهله ، فأصبح يزورني كل يوم تقريباً ، قال لي : البارحة ناجيت ربي قلت له : يا رب ، كل هذه السعادة من الرجوع إليك لمَ لمْ تأتنِي هذه الأزمة قبل عشر سنوات ؟

الإنسان في أثناء المصيبة يشعر بحالة قرب من الله كبيرة جداً ، فلما يدخلك الله عزوجل في عنايته فافرح ، لأنك ضمن عنايته ، والذي عنده ابن منغولي تركه ، الذي عنده ابن ذكي ، ولكنه مقصر يعاقبه كل يوم ، المعاقبة دليل وجود الأمل .

هناك رجل معه التهاب معدة ، أقام الطبيب عليه النكير ، أعطاه أكلتين فقط ، الحليب والتفاح ، وأي شيء آخر يتفاقم مرضك ، وعنّفه ، ورفع صوته عليه ، جاءه بعد دقائق مريض معه سرطان من الدرجة الخامسة ، قال له : ماذا آكل ؟ قال له : كل ما شئت ، أنت ليس عليك مشكلة ، كلْ ، لأنه ميئوس منك ، فحينما يكون الإنسان في عناية مشددة ، في متابعة إلهية ، هذا من فضل الله علينا جميعاً، لذلك :

((وعزتي وجلالي ، لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقما في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت ، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

لذلك أكبر إنجاز لك في الدنيا أن نصل إلى القبر ونحن سالمون .

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

والله أيها الإخوة ، إن لم يذب الإنسان يوم القيامة محبة لله على ما ساقه له من شدائد .

لي قريب أظنه صالحاً ، ولا أزكي على الله أحداً ، عاش حياته كلها بالأمراض في جهازه الهضمي ، مرة في ساعة مناجاة بكى ، قال : يا رب ، أنا ما ارتحت يومًا ، قال : وقع في قلبه ، أن يا عبدي ، لولاها لما كنت في هذا المقام ، لولا هذه الشدائد التي سقتها إليك والتي طهرتك من ذنوبك ، ومن عيوبك لما كنت في هذا الحال معي .

لذلك المؤمن دائماً راضٍ عن الله ، راضٍ عن كل شيء ساقه الله له ، لأنه يعلم علم اليقين أنه محض فضل ، ومحض علم ، ومحض حكمة .

الآن ننتقل إلى آية أخرى ، لكن في موضوع القضاء والقدر :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148)قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأنعام)

القضاء والقدر :

هذه الآية أصل في القضاء والقدر :

إخواننا الكرام ، هذه آية أصل في نفي الجبر ، وحينما نعتقد عقيدة الجبر يلغى الدين ، ويلغى الثواب والعقاب ، وتلغى الجنة والنار ، ويلغى التكليف ، ويلغى حمل الأمانة ، وتصبح الحياة تمثيلية سمجة ، أنت هل ترضى أن تُجرى مسابقة تقدم لها آلاف الناس والناجح معروف قبل إعلان المسابقة ، والراسب معروف سلفاً ؟ تقول : هذه تمثيلية ، إذاً : أيعقل أن يُخلق الإنسان في الأصل كافراً ؟ وأن يأتي إلى الدنيا ليحقق مشيئة الله بالكفر ، ثم يعاقبه الله إلى أبد الآبدين بالنار ، هل ترضى ؟ .

أثر عقيدة الجبر السيئ في المسلمين :

لذلك أيها الإخوة ، ما شلّ المسلمين ولا أخّرهم إلا عقيدة الجبر ، يكون الإنسان غارقًا في المعاصي ، ترتيب سيدك يقول ، ترتيب سيديك ، الله ما هداه ، مَن أطلعك على الغيب ؟ من ؟ لمَ لا تصلي يا أخي ؟ الله ما هداني بعد ، حتى الله يهديني ، يا رب إن سيئاتنا من قضائك ، بالدعاء ، إن سيئاتنا من قضائك ، ما لنا ذنب أبداً ، أنت قدرت علينا هذه السيئات ، ماذا نفعل ؟

هناك عقائد جبرية شلت هذه الأمة شللا كاملا ، لذلك هذه العقيدة فاسدة أن تعتقد أن الله أجبرك على المعاصي ، وأنه ألقاك في اليم مكتوفاً مقيدًا ، هو ألقاك ، وقال : إيّاك إياكَ أن تبتلّ ، ما هذا الكلام ، لذلك قال الله عزوجل :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

قال :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

الإنسان :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

لكن الأصل في موضوع الاختيار هذه الآية :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)

هذا القول كذب ، والدليل :

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

هذا قول كذب ، كذب على الله .

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

الأصل في الإنسان الاختيار :

أيها الإخوة ، الله خيرنا فيما كلفنا ، كلفك أن تصلي وأنت مخير ، كلفك أن تصوم وأنت مخير ، أليس هناك أناس يصومون ، وأناس لا يصومون ، يصلون أو لا يصلون يصدقون أو يكذبون ، يتقنون أو لا يتقنون ، يخلصون أو يخونون ، يرحمون أو لا يرحمون ، لقد خيرك الله عزوجل فيما كلفك ، والأدلة كثيرة جداً .

يقول الإمام الحسن : " لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجز في القدرة " .

سيدنا علي سُئل : << أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ قال الإمام علي : << ويحك يل هذا ، لو كان قضاء لازما و قدراً حاسماً ، إذاً لبطل الوعد والوعيد ، ولانتفى الثواب والعقاب ، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، و كلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً >>.

جوانب من تسيير الإنسان :

في الثانية التي تتوهم فيها أنك مسير في كل شيء ، طبعاً أنت مسير في أشياء كثيرة ، أنت مسير فيما كنت ذكراً أو أنثى ، أحد استشارك ؟ ماذا تحب ذكر أم أنثى ؟ ما أحد استشارك ، وأنت مسير في أمك وأبيك .

قال لي أحدهم : أمي تغلبني كثيرا ، قلت له : طلقها ، قال : أطلقها !!! أمك قدرك ، الله سيرك في كونك ذكراً أو أنثى ، وسيرك في أمك وأبيك ، سيرك في المولد ، لو أتيت قبل مئتي سنة هناك ترتيب ثانٍ .

لو أنّ إنسانا أنهضناه من قبره ، وقلنا له : هناك قرص فيه 7700 كتاب ، أنا عندي قرص مدمج فيه 7700 كتاب ، تبحث في هذه الكتب في 13 ثانية ، كل كتب التفسير ، كل كتب الحديث ، كل كتب الفقه ، كل كتب السيرة ، كل كتب المعاجم واللغة والتاريخ 7700 كتاب ، أربع جدران للسقف ، لو أنهضت إنسانا من قبره ، وقلت له : عندنا قرص فيه كل هذه الكتب ، ومضبوطة بالشكل ، تختار الحرف ، تكبره ، تصغره ، وفيه200 حرف ، تختار الألوان ، كله باختيارك ، شيء لا يصدق ، فكل إنسان ولد في عصر ، لذلك مثلاً هناك نص قبل خمسين سنة لأحد الأدباء ، قال :

يا ليت آباءنا استغنوا عن التــجارة وعن ذل البيع والشــراء

وعن ترويج السلعة بالأقسام والأيمان فما العيش إلا عيش الموظف

***

قبل خمسين سنة كان الموظف أغنى إنسان ، والتجارة كلها ذل وهوان ، الآن هناك فتوى ببلد عربي أنه تجوز الزكاة على كل الموظفين عدا الوزراء فقط ، اختلف الوضع اختلافا كليا ، تصور أن رسالة من الشام إلى البصرة ، أو من المدينة إلى البصرة تحتاج شهرا ، الآن تخاطب العالم كله بأقل من ثانية في تطور غريب ، وكل عصر له سلبياته وإيجابياته .

إذاً أنت مسير في كونك ذكراً أو أنثى ، مسير في أمك وأبيك ، مسير في عصرك واحد ، أنت ولدت في الشام حيث :

((سلّ عمود الإسلام من تحت رأسي فأوحشني ، ثم رميت ببصري فإذا هو قد غرز في وسط الشام))

[رواه ابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها]

وغيرك ولد في بلد غارق في الانحلال والإباحية ، فرق كبير جداً .

أنت مسير في قدراتك العامة ، هناك إنسان وسيم ، وإنسان غير وسيم ، إنسان عنده اتقاد ذهني كبير جداً ، وإنسان أقل اتقادًا .

مرة حدثنا داعية توفي ـ رحمه الله ـ يلقي درس بالجامع ، ألقى درسًا ، وصلى العشاء ، قال : إن هناك فسادا عريضا في البلد ، تأتي البنت الساعة الواحدة ليلا ، أين كانت ؟ عند الحبيب ، الكل صلى على الحبيب ، قاموا ليصلوا قرأ آية كريمة :

(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

(سورة الشعراء)

قالوا : آمين بعدها .

الجوانب المسير فيها الإنسان هي أكملُ شيء :

فلذلك قضية أنت مسير في كونك ذكراً أو أنثى ، مسير في أمك وأبيك ، مسير في مدينتك ، وفي زمن ولادتك ، مسير في قدراتك العامة ، لكن يجب أن تعلموا علم اليقين أن هذا الذي سيرك الله به ليس في إمكانك أبدع مما أعطاك ، هو أكمل شيء لك ، وسره ادخر ليوم القيامة ، يكشف الله لك عن سره يجب أن تذوب محبة له ، يجب أن تذوب محبة له على أنه أقامك بهذا الوضع ، بهذا الشكل ، بهذه القدرات ، بهذه الوسامة ، بهؤلاء الأهل ، بهذه المدينة ، إنسان يأتي من أب فقير جداً يشتهي أن يأكل .

مرة في أحد الأحياء الفقيرة شاهدت طفلا أتى بعلبة سردين ، وثقبها ، وربطها بخيط ، وملأها ترابا ، وجعلها سيارة ، طفل آخر (ريموت كنترول) وألعاب ، وكمبيوترات ، وغرفة خاصة له ، هذا غير هذا، لكن لأن الدنيا موقتة ، والآخرة دار جزاء .

فالبطولة أن تقف الموقف الكامل من أي شيء اختاره الله لك ، لو أن اثنين ، أحدهم يتمنى أن يأكل لقمة لحم في الشهر ، والثاني تخم من اللحم ، وماتا ، لو أن الفقير نجح بامتحان الفقر ، فكان أديباً وصابراً ، وعفيفاً ، ومتجملاً ، وعزيز النفس ، مع أن دخله قليل جداً ، والغني كبر ، وغطرسة ، واستعلاء ، وارتكاب للمعاصي والآثام ، لو أن اثنين عاشوا ستين سنة ، أو ثمانين سنة ، وماتوا ، الآن هم في أبد إلى ما لا نهاية ، تقول : مليار مليار ، مليار ، مليار ليوم القيامة ، الأبد أطول ، فإذا خسر الثمانين سنة، وربح الأبد ألا يكون أكبر رابح ؟ والذي ربح الثمانين سنة ، وخسر الأبد يكون أكبر خاسر .

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية : 15)

أكبر خسارة أن تخسر الآخرة ، لذلك لما يسوق الله للإنسان الشدائد من أجل أن يتوب ويتوب ، ويأتيه ملك الموت ، ويرى مكانه في الجنة ، يعرق عرق الخجل من الله عزوجل .

وبعضهم قال : يصيح صيحة ويقول : لم أرَ شراً قط ، ينسى كل الخير ، وإذا غرق الإنسان ـ والعياذ بالله ـ في نعيم الدنيا ، ثم جاءه ملك الموت كيف يكون ؟

أحد الطغاة ببلد إسلامي بالشمال قبل يومين من وفاته يقول : حريق ، أين مدير الإطفاء ؟ ويسبه ، عاش ثلاثة أيام في جو الحريق .

لذلك البطولة في النهاية ، والبطولة بالخاتمة ، والبطولة بالعاقبة ، والبطولة بعد الموت ، والغنى والفقر بعد العرض على الله ، والوسامة والدمامة بعد العرض على الله ، إذا كانت المرأة جميلة ، وتفلتت ، وعرضت مفاتنها على الناس ، ولم تعبأ لا بدين ، ولا بقيمة ، وامرأة جمالها دون الوسط ، لكنها مطيعة لله ، هذه تكون يوم القيامة ملكة من ملكات الجمال ، لأن ثمة تسوية حسابات .

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشدة ، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ويبتلي ليجزي))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

هذه الدنيا فانية : " وتغر ، تضر ، وتمر " .

هذا المثل ضربته لكم كثيراً :

أعرف رجلاً توفي ـ رحمه الله ـ كان يعمل موظفًا بسيطا جداً ، وهو شاب في محل بالحمدية ، وكان ذا دعابة ، فكان يكنس المحل ، يضع في علبة أنيقة القمامة يغلفها بغلاف هدايا فخم جداً ، وشريط أحمر مع عقدة ، ويضعها على الرصيف ، يأتي إنسان ساذج يظنها علبة ألماس ، يحملها ويركض ، هو لحق به ، بعد 200 متر يفتح الشريط ، 200 ثانية يفتح الغلاف ، 200 ثالثة يفتح العلبة ، تخرج قمامة المحل ، يسب ، ويقول كلاما سيئا جداً ، هكذا الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

ما من واحد ما دخل بيتاً فخماً جداً من بيوت دمشق ، وصاحبه توفاه الله ، أنت وازن هذا الجبصين ، والرخام الأونكس ، والثريات ، وصاحبه بباب صغير ، هو مات ، هو نقى هذه الأشياء كلها ، ؟ الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر .

لذلك :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

والخرص أشد أنواع الكذب .

إخواننا الكرام ، أوضح مثل تعرفونه كثيراً ، وذكرته كثيراً :

إن إنسانا جاء سيدنا عمر ، وهو شارب خمر ، قال : أقيموا عليه الحد ، قال له : والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليّ ذلك ، الله قدر عليه ؟! الآن العوام يقولون : طاسات معدودة ، بأماكن محدودة ، هذه آية لما حديث ؟ كلام لا معنى له إطلاقاً ، فقال سيدنا عمر : أقيموا عليه الحد مرتين ، مرة لأنه شرب الخمر ، ومرة لأنه افترى على الله ، قال له : ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار .

بين الآيات المحكمات والمتشابهات :

إخواننا الكرام ، هناك قضية أصولية دقيقة ، الآيات المحكمات ، وهذه محكمة ما معنى محكمة ؟ يعني لها معنى واحد ، لا يختلف على معناها اثنان ، لا تحتاج إلى تفسير ولا إلى زمخشري ، ولا إلى قرطبي ، ولا تحتاج إلى خلاف بين العلماء ، ولا بين الفقهاء قضية محكمة ، يعني لها معنى واحد ، لا يختلف عليه اثنان ، الآية المتشابهة :

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية : 130)

التحريم على الأضعاف المضاعفة أم على النسب القليلة ؟ هذه آية متشابهة ، هناك آيات متشابهة كثيرة، العلماء قالوا : الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلّت ، كيف ؟ لو أن هناك مئة آية من نوع :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 8)

آية يُشتبه عليك معناها ، لعل الله أضله ؟ يشاء الإنسان أن يضل يضله الله ؟ تحتمل هكذا وهكذا ، الآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمات مهما قلّت .

مثلا : القمح مادة خطيرة في حياة الإنسان ، افتح المعجم " خطيرة " ، تعني قنبلة ؟ لغما ؟ ولكن تعني أنها مادة أساسية في حياتنا ، كلمة متشابهة ، خطيرة كلمة متشابهة ، بعد قليل قلت : القمح مادة أساسية، ما معنى خطيرة إذاً ؟ أساسية .

فلو عندنا مئة آية متشابهة وآية واحدة محكمة ، الآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمات مهما قلت ، وهذه الآية محكمة في نفي الجبر :

وجه الإعجاز العلمي في الآية :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)

إخواننا الكرام ، في هذه الآية إعجاز علمي ، هذه الآية ومثيلتها .

رجل سفيه قلنا له : أنت سفيه ، وسوف تقول هذا الكلام ، بلغناه أنك سفيه ، وستقول كذا وكذا ، لو كان عنده ذرة ذكاء ماذا يفعل ؟ لا يتكلم ، ظهر أن كلامنا غير صحيح ، أليس كذلك ؟

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

(سورة البقرة الآية : 142)

إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه :

والآية نزلت ، وقُرأت ، وعُممت ، والسفهاء الذي قاله الله في حقهم قالوه ، لو سكتوا لأبطلوا القرآن ، بعضهم قال : الله عزوجل طليق الإرادة ، أعطاك حرية الاختيار ، لكن في أية لحظة يأخذ منك حرية الاختيار ، طليق الإرادة ، لكن لو أن رجلا يتمتع بذكاء عال جداً ، وحكمة عالية جداً ، وهو يؤذي الناس ، كيف يعاقبه الله ؟ يأخذ حكمته مؤقتاً ، يأخذ ذكاءه ، ويرتكب حماقة ما بعدها حماقة .

((إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه))

[أخرجه الخطيب في التاريخ عن ابن عباس]

مع الله ليس هناك ذكي ، أحيانا يكون الإنسان بأعلى درجة ، يرتكب حماقة لا يفعلها مجنون ، ما من إنسان مقطوع عن الله إلا يُلهم الحماقة من أجل أن أطمئنكم ، وهذه الحكمة من صفات المؤمنين .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

تأكد أنه مستحيل أن تكون مقطوعا عن الله إلا وترتكب حماقة يترفع عنها المجنون .

(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

(سورة الحشر)

دائماً حينما يعتد القوي بقوته ، وينسى ربه يكون غروره طريق إلى دماره ، والضعيف حينما يتجه إلى الله يلهمه الله الحكمة ، والموقف السليم ، بحيث يصبح قوياً بعد ذلك ، القوة فيها بذور الضعف ، والضعف فيه بذور القوة .

إذاً :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

قالوا ذلك ، معنى ذلك أن هؤلاء حمقى أولاً وأغبياء ، ولو فكروا لسكتوا ، فإذا سكتوا أبطلوا هذا القرآن الكريم .

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ *)

(سورة المسد)

والآية بلغت أبا لهب ، لو ذهب إلى النبي ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله نفاقاً ، أبطل السورة كلها ، إذاً الله عزوجل طليق الإرادة ، إن أعطاك حرية الاختيار في أية ثانية يأخذ منك هذه الحرية ، ومع الله لا ينفع الذكاء .

((إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه))

((وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدّ مِنكَ الجَدُّ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

الجد هو العقل والذكاء والحظ ، الذكي والعاقل مع الله لا يجديه عقله ، بل تجديه استقامته فقط .

لذلك قالوا : ما كل ذكي بعاقل ، الذكي معه اختصاص نادر ، يحتاج إلى طاقات فكرية عالية جداً ، لكن لأنه لا يعرف الله ولا يصلي ، وما فكر فيما بعد الموت يعد مجنوناً ، لذلك المجنون من عصا الله .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

الآن كل واحد يقول : ترتيب سيدك ، وهو تارك الصلاة ، منحرف ، عنده ملهى ، هكذا الله قدر عليه ، هكذا الله قدر عليه ، يفتح ملهى وهو لا علاقة له ! الله أجبره ! طاسات معدودة بأماكن محدودة ، هذا كلام العوام كله ، هذا كلام كفر .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

لا تعترض فتطرد .

(وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)

قال : هذا كلام كذب ، لكن دائماً الكافر يعزو أخطاءه إلى الله سابقاً ولاحقاً ، وملة الكفر واحدة ، قال تعالى :

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا)

هل سمعتم بربكم أن إنسانا أخذ الأولى في الجامعة ، وقال : هكذا الله قدر علي ، أنا ما درست أبداً ، لكن هكذا قدر الله علي ، لا أحد يقول هذا الكلام أبداً ، كل شيء إيجابي يعزى إلى ذات الإنسان ، أما السلبيات ، أخطاءه ومعاصيه ، آثامه ، طلق زوجته تعسفاً ، ليس هناك نصيب ، أنت مجرم بطلاقها ، يأتي مريض إلى الإسعاف ، طبيب قاعد مع ممرضة يتسلى ، لا يريد أن يقوم على الإسعاف ، يموت ، سبحان الله ! مات بأجله ، هذا كله كلام دجل ، يحاسب هذا الطبيب كقاتل ، نحن دائماً نعزو أخطاءنا إلى الله ، وإيجابياتنا نعزوها إلى أنفسنا ، هذا الكافر ، لا يناقش الكافر .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)

هذا قانون ، ملة الكفر واحدة :

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا

الآن هناك شيء ، يقول لك : أنا لست قانعا بالدين ، لأنه هو مرجع ، هو مشرع ، لست قانعا بالحجاب، هذا ما كان سابقاً ، هذا من عهد العثمانيين فقط ، لست قانعا بهذه ، قال :

يقولون هذا عندنا ليس جائز فمن أنتمُ حتى يكون لكم عندُ ؟

***

أنت مشرع ؟ أنت إنسان ، أنت مشرع ؟ أنت نبي ؟ لذلك من علامات آخر الزمان :

((إذا رَأيْتَ شُحّا مُطاعاً ، وَهَوًى مُتّبَعاً))

الشح المطاع المادية المقيتة ، إن أنفق المال أنفقه إسرافاً وتبذيراً ، وإن منعه منعه بخلاً وتقتيراً

((وَهَوًى مُتّبَعاً))

الجنس .

((وَإعْجَابَ كُلّ ذِي رَأيٍ برَأيهِ))

الكبر ، كل واحد هو المشرع ، غير مقتنع ، يقول لك : ما دخلت في عقلي ، وما هذا العقل ؟ هو كل شيء يقيمه ، يقبل أو يرفض .

((إذا رَأيْتَ شُحّا مُطاعاً ، وَهَوًى مُتّبَعاً ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإعْجَابَ كُلّ ذِي رَأيٍ برَأيهِ ، فالزم بيتك ، وأمسك لسانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، فَعَلَيْكَ بخَاصّةِ نَفْسِكَ وَدَع الْعَوَامّ))

نحن في زمن صعب ، فيه أهواء ، وضلالات ، وفسق ، وفجور ، وكذب ، وضلالات كبيرة جداً .

((إذا رَأيْتَ شُحّا مُطاعاً ، وَهَوًى مُتّبَعاً ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإعْجَابَ كُلّ ذِي رَأيٍ برَأيهِ ، فالزم بيتك ، وأمسك لسانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، فَعَلَيْكَ بخَاصّةِ نَفْسِكَ وَدَع الْعَوَامّ))

قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ

برامج الفضائيات والإذاعات كلها على الكواكب والتنجيم ، وحظك هذا الأسبوع ، وهذا من برج الثور، وستأتي لك قبضة ، ولك صاحب يريد أن يعاديك ، كله كذب ، لا أساس له من الصحة .

لآن هناك صرعة جديدة ، أنه سعادتك مربوطة بحروف اسمك ؟ الدين لا علاقة له ، استقامتك ، طهرك ، عفافك ، ورعك ، لا قيمة لها ، عندك ثلاثة حروف فيها شقاء ، وهذه خاصة بالزواج ، يرى حروف خطيبته وحروفه ، إذا ما اتفقوا لا يتزوجها ، صاحبة دين ، محجبة ، حافظة للقرآن ، ما لها قيمة ، لا سعادة معها ، حروف اسمها لا تتناسب مع حروف اسمه ، دورات ، كلام دجل بدجل بكذب بافتراء ، لا أساس له من الصحة ، عصر ضلالات .

(قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأنعام)

فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ

إخوانا الكرام ، الله عزوجل بالغة ، والمؤمن معه حجة بالغة :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 83)

والمؤمن له من هذه الآية نصيب معه حجة قوية .

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

كيف الآية ؟ هذه آية متشابهة ، يقول لك أحدهم : الله ما شاء ، ماذا نفعل نحن ؟ هو لا يريد ، الله عزوجل جعلك المخلوق المكلف ، وحرية الاختيار ، أودع فيك الشهوات ، أعطاك العقل ، أعطاك الفطرة ، أعطاك الشهوة ، أعطاك الحرية ، أعطاك المنهج ، وقال لك : تحرك ، الكون يدلك على الله ، والحوادث تدلك على الله ، وابنك الذي من صلبك يدلك على الله ، كنت مثله صغيراً ، أنت كنت من ذرة ماء ، من ماء مهين أيضاً ، تستحي به لو كان على ثيابك ، أعطاك كل شيء ، أعطاك الأنبياء ، والرسل ، والكتب ، والدعاة ، رباك بخلقه ، رباك بأفعاله ، رباك تربية نفسية خاصة ، رباك بالدعوة إليه ، فأنت مخير ، لذلك لما يغلط الإنسان ، ويعزو خطأه إلى الله يرتكب حماقة كبيرة جداً .

معنى : فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ

الآن : لو أن الله عزوجل أرادك أن تكون مسيراً كبقية المخلوقات ، الكون كله مسير إلا الإنس والجن، الكون كله الجماد ، والحيوان ، والنبات ، والملك مسير ، غير مكلف ، غير معاتب ، غير محاسب ، ما عنده جنة أو نار إلا الإنس والجن ، أودع فيهم الشهوات ، أعطاهم حرية الاختيار ، أعطاهم عقلاً وفطرة ومنهجاً ، هم أخطؤوا ، يا عبادي لو أردتكم أن تؤمنوا إيماناً قسرياً لهديتكم جميعاً .

الآن إذا أحب رئيس الجامعة أن ينجح كل الطلاب يعطي أمرا : اطبعوا على الأوراق الإجابة التامة ، وضعوا مئة على مئة بالأحمر ، واكتب اسمك ، واطبع ، ألا يستطيع رئيس الجامعة أن ينجح جميع الطلاب ، إذا أعطاهم أوراق طُبع عليها الإجابة التامة ، والعلامة مئة بالمئة ، طبعاً هذا النجاح ما علامته ؟ لا قيمة له إطلاقاً ، لا عند صاحبه ، ولا عند المجتمع ، ولا عند الجامعة .

أيها الإخوة ، الإنسان هو المخلوق المكرم ، كرمه الله بحرية الاختيار ، والله عزوجل لا يريدنا أن نقبل عليه قسراً ، نريد أن نأتيه طائعين مختارين ، بمبادرة منا ، لذلك :

(فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

الهدى القسري لا يسعدنا .

لماذا كان الأنبياء ضعفاء ؟

لو أن إنساناً معه مسدس ، قال لرجل : هات هذه الحاجة أو أقتلك ، يعطيه إياها ، لما قدم له هذه الحاجة هل يشعر الذي هُدد أنه قدم عملا طيبًا ؟ هو مقهور ، هل يرقى بهذا العمل ؟ إطلاقاً ، يمتلئ حقد أساساً ، أما حينما يأتي إنسان ، ويقدم لك شيئا لوجه الله يتألق عند الله ، فأنت لا ترقى إلا إذا كنت مخيراً ، لا ترقى إلا إذا جئت طائعاً ، لا ترقى إلا إذا جئت بمبادرة منك ، لا ترقى إلا إذا كنت على حب .

مثلاً : لماذا الأنبياء ما كانوا أقوياء ؟ مثلاً ، الآن هناك أقوياء يعطون توجيهًا تجد مئة مليون نفذوا الأمر ، لماذا كان النبي ضعيفًا ؟ وقد رأى أحد أصحابه يُعذب أمامه فلم يستطيع أن يفعل له شيئاً ،

((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))

[السيرة النبوية]

والنبي تخفى بغار ثور ، وهاجر خفية ، ودمه مهدور ، لماذا كان النبي ضعيفا ؟ ما عنده شيء يعطيه، لو كان قويا هل تستطيع أن تقول عنه : مجنون وتنام في بيتك مطمئنا ، وقلت عنه : مجنون ، وكاهن ، وساحر ، هل تستطيع أن تقول عن قوي : مجنون ، وتنام في بيتك ؟ لا تستطيع ، لماذا كان النبي ضعيفا ؟ حتى يكون الإيمان به عظيما ، لا مغانم ، ولا تهديدات ، لذلك الإيمان بالنبي له أعلى قيمة ، ما عنده شيء يعطينا إياه .

((لا أملِكُ لَكُمْ مِنَ الله ضَرّا وَلاَ نَفْعا))

[الترمذي عَنْ أبي هُريرَة]

لا أعلم الغيب .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الزمر)

هذه البطولة ، إنسان معه مبدأ ، معه حق ، ضعيف ، محارب ، مضطهد خائف .

((لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ، وأخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه عن أنس]

المطلوب الهدى الطوعي لا الهدى القسري :

ما عنده شيء ، كان إذا أراد أن يصلي الليل لا تتسع غرفته لنوم زوجته وصلاته ، لا تكفي ، الآن لك 480 متر ، وإطلالة ، لا تتسع غرفته ، وهو سيد الخلق لصلاته ونوم زوجته ، ضعيف ، لكن الإيمان

به عظيم جداً ، والآن إذا مشيت مستقيما كل الناس ليسوا معك ، معظم الناس ضدك أساساً ، نحن عند أعدائنا إرهابيون ، تحجب زوجتك إرهابي ، تصلي إرهابي ، تترك لحية إرهابي ، العالم كله يحارب الدين حربا عالمية ثالثة معلنة على الإسلام .

الآن لا مغانم إطلاقاً ، بالعكس ، الحياة كلها تصبح مغارم ، ليست مغانم ، لكن البطولة الآن ، أنت مع الحق ، لا تعبأ بالدنيا كلها ، ترون العالم كله منحازًا للباطل ، أوضح مثل ما يجري في فلسطين ، يريدون ديمقراطية ، هذه ديمقراطية ، يريدون انتخابات مع إشراف من قبلهم ، هذه إشراف من قبلهم ، نجحت فئة تؤمن بالله ، العالم كله يحاربها ، أي بنك يحول لها يحاربونه ، الآن هناك أزمة تحويل ، العالم كله ضد الدين ، لذلك الإيمان الآن غالٍ جداً ، لا تنتظر مغنمًا ، وبالعكس عليك مغارم كثيرة ، لكن الله مع المؤمنين ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ لذلك :

(فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

الهدى القسري سهل على الله عزوجل ، الله يريدنا أن نأتيه مختارين طائعين ، يريد أن نحبه ، لا أن ننصاع قسراً له ، لذلك أعطانا حرية الاختيار ، وقال :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة الآية : 256)

الآن الإنسان يكفر ، ويشتم الإله أحياناً ، وجسمه تمام صحيح ، مع أن الله عزوجل قادر أن يصبح جثة هامدة بكلمة ، نحن تحت رحمة الله كلنا ، لذلك الإيمان الآن ثمين جداً ، أنت تؤمن من غير مغانم ، بل هناك مغارم ، معنى ذلك أن الإيمان يرقى بك إلى أعلى عليين .

هذه معنى الآية :

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

لكن هذه الهداية لا قيمة لها لا عنده ولا عندنا ، ولا عند أصحابها .

واحد قُدمت له الأسئلة ، هو أمي لا يقرأ ، ولا يكتب ، قدمت له أسئلة مطبوعة ، عوض أن تكتب اسمك ابصم ، هذه دكتوراه مثلاً ، ما هذه الشهادة ؟ قيمتها في الوحل ، ما دام أميا لا يقرأ ولا يكتب ومعه دكتوراه !!! ، معنى ذلك :

(فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(65-73): تفسير الآية 150، العقيدة توحيد والسلوك طاعة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-06-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والستين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

كذب المشركين في شركهم وانعدام الدليل على شركهم :

أيها الإخوة ، الآية السابقة فيها إشارة إلى أنهم حينما قالوا :

(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا)

(سورة الأنعام الآية : 148)

إلى أن هذا كذب ، ولماذا هو كذب ؟ أين البرهان ؟

(قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

إنكم تكذبون أشد أنواع الكذب ، والحقيقة أن منهج البحث في الإسلام إن كنت ناقلاً فالصحة ، مدعياً فالدليل ، هل عندكم دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يجبر عباده على المعصية ؟

(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

ما عندكم دليل ، عندكم شهادة ؟ هل شهد أحد لكم هذه الشهادة ؟ في الآية التي تلي هذه الآية إن كنتم لا تعلمون هل معكم شهداء على ما تقولون ؟ .

أحياناً يأتي الإنسان ببينة للقاضي ، إن لم يكن معه بينة يأتِ بشاهد ، البينة إيصال ، فهل هناك أحد شاهدك قد أعطيته هذا المبلغ ؟ إما أن تأتي بدليل من إيصال أو سند أو بشاهدين .

ففي الآية الأولى كلامهم ليس له دليل

(قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا)

ما دليلكم على أن الله قدر عليكم اختياركم ؟ ما الدليل على أن الله قدر عليكم أعمالكم ؟ أنتم مخيرون ، ما عندكم من دليل ، هذا أشد أنواع الكذب .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

منهج البحث العلمي : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا

إخوتنا الكرام ، كأن الله يعلمنا طريقة البحث ، كأن الله يعلمنا الأدلة ، كيف نفكر يعني العلم حقيقة مقطوع بها ، ماذا يعني أنه مقطوع بها ؟ يقابلها الوهم ، يقابلها الظن يقابلها الشك ، يقابلها غلبة الظن ، أما القطع 100 % ، الوهم 30 % ، مدى صحة المعلومات بالوهم 30 % ، بالشك 50 % ، بالظن 80 % بغلبة الظن 90% ، أما القطع 100 % ، الأمور العلمية المقطوع بها ، لا يختلف عليها اثنان في الأرض ، المعادن تتمدد بالحرارة ، الملح يرفع الضغط ، في حياتنا مسلّمات علمية مقطوع بها ، أتمنى على كل أخ كريم أن تكون عقيدته وتصوراته عن الله ، وعن الكون ، وعن الحياة الدنيا ، وعن اليوم الآخر من النوع المقطوع بها ، يقينيات ، لا تتعامل مع الظنيات أبداً ،

(إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

تكذبون أشد أنواع الكذب .

إذاً حقيقة مقطوع بها ، ليست وهماً ولا شكاً ، ولا ظناً ، ولا غلبة ظن ، إنما هي يقين .

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

(سورة التكاثر)

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر)

لمَ سمِّيَ الموت يقيناً ؟ لأن كل الحقائق التي جاء بها الأنبياء يراها الإنسان أيّ إنسان رأيَ العين يوم القيامة .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق الآية : 22)

من منكم يصدق أن فرعون مسلم ؟ أسلم عند الغرق ، لكن :

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

خيارنا مع الإيمان خيار وقت :

تصور ستة آلاف مليون إنسان تتوزعهم مئات الاتجاهات ، والعقائد ، والأديان والمذاهب ، والطوائف، والملل ، والنحل ، الستة آلاف مليون عند الموت يكشفون الحقائق التي جاء بها الأنبياء ، إذاً خيارنا مع الإيمان خيار وقت .

عرضت صورة في ندوة سابقة لفرعون ، وقد رممت يداه في فرنسا ، صورة مخيفة ، الإيمان هو الخُلق ، وقلت هذا الذي قال وقتها :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

هذا الذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

هو نفسه حينما أدركه الغرق قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

إذاً : خيارك مع الإيمان خيار وقت ، كل بطولتك أن تؤمن قبل فوات الأوان ، تصور أقطاب الكفر في العالم ، أقطاب الإلحاد ، أقطاب الطغاة ، المجرمين ، سوف يؤمنون بما جاء به الأنبياء ، ولكن عند الموت ،

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

بطولتك أن تؤمن قبل فوات الأوان ، أن تؤمن وأنت قوي .

((اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك))

[أخرجه الحاكم ، والبيهقي ، عن ابن عباس]

أخطر نقطة قلتها الآن : أن خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط ، والدليل : فرعون وكل هؤلاء الطغاة في العالم عندما يأتيهم الموت يكشفون الحقيقة التي جاء بها الأنبياء ، لذلك :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

هذا ظن ،

(وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ)

أين الدليل ؟

إخواننا الكرام ، لولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، إن كنت ناقلاً فالصحة ، أو مدعياً فالدليل ، فالعلم حقيقة مقطوع بها ، ليست وهماً ، ولا شكاً ، ولا ظناً ، ولا غلبة ظن ، إنما هي اليقين القطعي ، وينبغي أن تكون عقائدنا وتصوراتنا عن الله عزوجل ، وعن الحياة ، وعن الدار الآخرة من اليقينيات ، لا بد من مراجعة التصورات ،

(قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا)

إذاً العلم حقيقة مقطوع بها ، ليست وهماً ، ولا شكاً ، ولا ظناً ، ولا غلبة ظن ، بل هي يقينية ، تطابق الواقع ، فإن لم تطابق الواقع كانت جهلاً .

أوضح مثل لهذا وأنت راكب مركبتك ، على لوحة البيانات تألق ضوء أحمر ، لو توهمت أن هذا الضوء تزييني كي يسلّيك في الطريق ، وتابعت السير احترق المحرك ، وتوقفت المركبة ، وتكلفت ما يزيد على خمسين ألفًا لإصلاح المحرك ، وتعطلت الرحلة ، وتعطل الهدف ، لو فهمت أن هذا التألق تألق تحذيري ، إن أدركت أن هذا تألق تحذيري أوقفت المركبة ، وأضفت الزيت ، وسلم المحرك ، وتابعت الرحلة وحققت الهدف ، البطولة لا في الحدث ، بل في فهم الحدث .

لذلك : من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر ، العلم حقيقة مقطوع بها ، تطابق الواقع عليها دليل .

التقليد ليس علما عليه دليل :

الآن دققوا ، إذا نفي الدليل أصبحت هذه الحقيقة تقليداً ، تقليد من دون دليل ، لو قلدت الموحد ، الله عزوجل لا يقبل من ذلك ، لو كان التقليد صحيحاً ، لماذا ؟ لو قيل الله بالعقيدة التقليد لكانت كل الفرق الضالة مقبولة عند الله ، ما حجتهم ؟ يا رب سمعنا من يقول كذا فقلنا مثلهم ، يقول لك الله : لا ، أنا قلت لك :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية : 19)

لم أقل لك فقل ، بل قلت :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

إخواننا الكرام ، لا تُقبل عقيدة المسلم إلا يقيناً ، إلا عن بحث ، ودرس ، ودليل ، فالتقليد في العقائد غير مقبول ، ولو أن العقيدة صحيحة ، لأنك إذا قلدت في العقيدة يأتي إنسان آخر يعطيك عقيدة مناقضة لها أيضاً تصدقها ، هذه واحدة .

العلم مطابقة الحقيقة للواقع :

لو ألغينا الواقع كانت الحقيقة جهلاً ، العلم مقولة تطابق الواقع عليها دليل ، مطابقة الواقع هو العلم ، وعدم مطابقة الواقع هو الجهل ، الشمس كُسفت ، ابن رسول الله إبراهيم توفي ، فتوهم الصحابة أن كسوف الشمس لموت إبراهيم ، بلغ ذلك النبي ، وقف فيهم خطيباً ، وقال : هذا وهم ، لأنه غير مطابق للواقع ، قال :

((إنما الشمسُ والقمرُ آياتان من آيات اللَّه ، لا يُخْسَفَان لِمَوْتِ أحَدٍ من خلقه))

[البخاري عن ابن عباس]

هذا هو العلم ، العلم مقولة مقطوع بها ، تطابق الواقع ، عليها دليل .

(قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

ادعاءكم ظن ، وليس علماً ،

(وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

تكذبون كذباً خطيراً .

أعظم المعاصي القولُ على الله بغير علمٍ :

لذلك أيها الإخوة ، رتّب ربنا عزوجل رتب المعاصي والآثام تريبًا تصاعديًا ، فبدأ بالفحشاء والمنكر ، والإثم والعدوان ، والشرك ، والكفر ، وجعل على رأس هذه القائمة :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

((يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[عن ابن عمر]

((خذ الدين عن الذين استقاموا))

في عقيدتهم ،

((ولا تأخذ عن الذين مالوا))

اتصل بي إنسان ، قال لي : الله عزوجل لم يكتب لي الهداية بعد ، قلت : هذا كذب ، الله عزوجل هدانا جميعاً ، بقي أن نقبل الهدى ، بقي أن نستقبله ، هذه كلمة خطيرة ، يدّعيها كل إنسان ، لا يصلي ويكذب، ويأكل المال الحرام ، ويعتدي على أعراض الناس ، بدليل أن الله لم يكتب له بعد الهداية .

هناك كلمات يقولها العوام خطيرة جداً ، ليس لها أساس من الصحة ، الله لم يهدِه ، لماذا لم يهدِه ؟ هذا كلام لا معنى له إطلاقاً ، ولا أصل .

والله مرة دعا إنسان فقال : يا رب ، إن سيئاتنا من قضائك ، نحن لا علاقة لنا ، سيئاتنا هي من قضائك وقدرك ، أجبرتنا عليها ، الخطأ في العقيدة خطير جداً ، الخطأ في العقيدة مدمر ، الخطأ في العقيدة ينعكس انحرافًا في السلوك .

تماماً لو قال طالب لآخر : لا تدرس ، المدرس قُبيل الامتحان بيومين بهدية معينة يعطيك الأسئلة ، الفكرة لا أساس لها من الصحة ، ما درس إطلاقاً ، وعنده باكلوريا ، شهادة ثانوية ، مصيره متعلق بهذه الشهادة ، طرق باب المدرس قبل الامتحان بيوم أو بيومين ، فتلقى صفعتين على وجهه ، وركله بقدمه، فكرة خطيرة منعتك أن تدرس ، مفهوم الشفاعة الساذج يمنعك أن تستقيم ، الاعتماد على مفهوم الشفاعة الساذج يمنعك أن تستقيم .

الآن :

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأنعام)

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ

أنتم مخيرون ، لو أن القضية قضية إيمان قسري كانت قضية سهلة جداً ، لكن الله خلقنا لإيمان طوعي، خلقنا لإيمان أساسه الحب ، خلقنا لإيمان أساسه الحرية .

ذكرت في درس سابق لماذا كان النبي ضعيفاً ؟ ما معنى ضعيف ؟ يعني لا يملك لأصحابه نفعاً ولا ضرا ، يرى عمار بن ياسر يعذب ، نبي هذه الأمة سيد الخلق ، لا يستطيع إنقاذه ،

((صبراً آل ياسر ، إن موعدكم الجنة))

ليس معه شيء يغري الناس به ، وليس معه شيء يخيف الناس به ، ولك أن تقول عنه : مجنون ، وتنام في البيت آمناً ، ولك أن تقول عنه : شاعر ، وكاهن ، ومخرف ، وتنام مرتاح البال ، لكن لن تستطيع أن تقول حرفاً لقوي ، لا تنام البيت ، إذاً جعله الله بهذا من أجل يكون الإيمان به حقيقياً ،

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

ليس معكم علم أن الله أجبركم على أعمالكم .

ومرةً بعد مرةٍ أقول : إن عقيدة الجبر شلّت العالم الإسلامي ، عقيدة الجبر أن الله سبحانه وتعالى خلقنا هكذا ، لا حيلة لنا .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

***

هذا الفهم للعقيدة للقضاء والقدر فهمٌ يشلّ حركة الأمة .

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ

اليوم :

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ)

ليس عندكم دليل ، معكم شهود ؟ لك على فلان مئة ألف ليرة ، ليس معك إيصال ، معك شهود شهدوا لك يوم أعطيته إياها ؟ فعندنا دليلان قويان ، إما دليل بينة ، أو دليل شهودي .

(قُلْ هَلُمَّ)

يعني : تعالوا أحضروا ، وهلمَّ في لغة الحجازيين لغة قريش ، هلم تصلح للمفرد والمفردة ، والمثنى ذكريين أو أنثيين ، وجمع الذكور والإناث ، هلم زيد ، هلم هند ، هلم البنتين ... إلخ .

لكن في لغة تميم هلمّ يا رجل ، هلمِ يا امرأة ، هلما يا رجلين ، وهكذا ، هلم تعالوا ، تعالوا أحضروا

(شُهَدَاءَكُمْ)

من باب الطرفة يسألني أحيانا شخص سؤالا فأقول له : والله الفتوى أنه حرام ، يقول لي : هناك إمام مسجد قال : ما فيها شيء ، قلت له : لا مانع ، لكن يوم القيامة كيف تلاقيه ؟ يمكن أن لا تلاقيه ، الآن احمل السلاح وامشِ أمام مخفر ، ألقوا القبض عليك ، قلتَ : فلان قال لي : مسموح ، أين هو ائتوا به .

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ)

قالوا لكم : إن الله أجبركم على أعمالكم بالقضاء والقدر ، وأنك غير مسؤول ، وأن الله خلقك هكذا .

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا)

أنتم في الآيات السابقة تحللون وتحرمون بلا دليل ، ولا علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير ، الآن ليس معكم دليل على أن الله أجبركم هذا ، وليس معكم شهود على أن هذا التحليل بلغكم عن الله .

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ)

وقد يأتي هؤلاء المنافقون بشهود مزورين ، قال الله له : يا محمد ، وإن جاءوك بشهود فلا تقبل شهادتهم .

ذكرت مرة نصًا لإنسان أظنه صالحاً ، ولا أزكي على الله أحدا ، يعيش ظروف مجتمعاتنا ، وله منصب رفيع ، ذكرت له أن سيدنا عمر جاءته رسالة من أحد الولاة ، أن يا أمير المؤمنين : إن أناساً قد

اغتصبوا مالاً ليس لهم ، ليس أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسّهم بالعذاب ، فإن أذنت لي فعلت ، فقال سيدنا عمر : يا سبحان الله !!! أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا لك حصن من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البينة ، فإن جاؤوا بالبينة فخذهم بالبينة ، إن أقمتم عليهم البينة فخذهم بالبينة ، فإن لم تقم البينة فادعهم إلى الإقرار ، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم ، وإن لم يقروا فادعوهم إلى اليمين ، فإن حلفوا فأطلق سراحهم ، وايم الله لأن يلقوا الله بخيانتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم ، قال لي هذا الأخ : لكن لو طبقنا هذه القاعدة الآن كل هؤلاء المتهمون بالسرقة يحلفون ، فقد سألوا كذابًا : أتحلف ؟ قال : جاء الفرج .

خرج ليأتي بشاهد بالمحكمة ، قال له : ائتني بشاهدين ، معه شاهد ، الثاني ليس معه ، وهناك شهود بالأجرة ، فجاء بشاهد ، فاتفق معه على خمسة آلاف ليرة ، القاضي قال له : قف وضع يدك على هذا المصحف ، قال له : لحظة ، سحب المتهم إلى خارج القاعة ، قال له : هناك يمين ، قال له : ماذا ؟ قال له : أريد عشرة آلاف .

قال عزوجل :

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ)

يعني يا محمد ، هم كاذبون ، ينبغي أن تفضح شهودهم ، لأنهم كاذبون ،

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

الإنسان على أحد طريقين :

ـ الآن دقق ـ الآن أنت على أحد طريقين لا ثالث لهما ، كيف أن الإنسان عند الموت يقول النبي الكريم:

((والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي]

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك الآية : 2)

بدأ بالموت ، لأن الموت خطير جداً ، لا سمح الله ولا قدر الإنسان عند الموت أمام خيارين ، إما إلى جنة يدوم نعيمها ، أو إلى نار لا ينفذ عذابها ، أما حينما يولد فأمامه مئة ألف خيار ، أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى ، أما عند الموت فهو أمام خيارين ، والإنسان في الدنيا أمام خيارين ، إما أن يتبع الحق، أو يتبع الهوى ، الدليل :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

أنت في كل دقيقة ، وفي كل ساعة ، وفي كل حين ، وفي كل يوم ، وفي كل أسبوع ، وفي كل شهر ، وفي كل عام ، إما أنك مع الحق ، والحق طريق سالك إلى الجنة ، وإما مع الهوى .

(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة ص الآية : 26)

طُرق الباب ، إما أن تستجيب ، واحد طلب منك مساعدة ، وأنت قادر عليها ، إن استجبت فأنت مع الحق ، وإن اعتذرت لبخل ، أو لحرص ، أو لقلة رغبة بالخير فأنت مع الهوى .

سيدنا عمر أمسك تفاحة فقال : أكلتها ذهبت ، أطعمتها بقيت .

إذاً :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

متى يؤمن الإنسان ؟ وكيف يؤمن ؟

أيها الإخوة ، القسم الأخير من هذه الآية دقيق جداً ، الإنسان متى يؤمن ؟ إذا آمن بآيات الله ، الآيات الدالة على وجود الله ، ووحدانيته ، وكماله ، فإن لم يؤمن بآيات الله فهو غير مؤمن بعظمة الله ، قد يكون مؤمنًا بوجود الله ، كإبليس ، قال :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية : 82)

يمكن أن تؤمن بوجوده ، والعالم كله يؤمن بالله ، أساساً الذين ينتهكون حُرمات الأمم والشعوب ، ويقتلون ، ويقصفون ، وينهبون الثروات ، ويدمرون الشعوب والأمم بقنابل فتاكة على عملتهم : " ثقتنا بالله " ،

كلٌ يدعي وصلا بليلى

***

ثقتهم بالله على الدولار ، فأن تؤمن أن هناك إلهًا قضية سهلة جداً ، وهذا إيمان إبليسي ، قال :

(فَبِعِزَّتِكَ)

أن تؤمن بوجود إله خالق قضية سهلة جداً في العالم كله ، حتى التي ترقص تقول : الله وفقني في هذه الرقصة ، إنها كلمات مضحكة تصدر عن العصاة ، فالإيمان بالله من دون تعظيم قاسم مشترك لكل البشر ، إلا في فئة قليلة جداً مشوّهة في عقولها ، هم الملحدون ، فئة قليلة جداً ، أما معظم البشر فمؤمنون بالله .

حدثني أخ أن مجموعة خبراء من دولة انهارت قبل عقدين من الزمن كانت تؤمن أنه لا إله ، دولة كبيرة عملاقة ملحدة ، زعيمة الإلحاد في العالم ، خمسة خبراء من هذا البلد الملحد ركبوا طائرة ، وتوجهوا إلى بلد آخر في مهمة عليهم أن يؤدوها ، دخلت الطائرة في سحابة مكهربة ، وكادت تسقط ، فإذا بهؤلاء الخمسة الملحدون يقولون : يا الله .

إنّ الإنسان عند الشدة يؤمن بالله ، ولو كان ملحداً ، قضية الإيمان بالله قضية لا تقدم ولا تؤخر ، لكن البطولة :

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

لو آمن بالله العظيم لما عصاه ، دائماً الذي يعصي الله لضعف تعظيم الله عنده ، من أين جاء ضعف التعظيم ؟ من عدم الإيمان بآياته ، الشمس والقمر ، والنجوم والليل والنهار ، والطعام والشراب شيء مذهل ، بقرة تأكل الحشيش فتعطيك الحليب ، مواد غذائية وسكريات ، ودسم ، وبروتين ، فسفور ، ومعادن ، غذاء كامل لك ، تصنع منه مشتقات الحليب .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

(سورة النحل الآية : 5)

هذا النبات ، هذه الأشجار ، هذه الفواكه ، هذه الثمار ، هذا القمح ، بعض الخضراوات الخمس غرامات تعطي خمسة أطنان ، مليون ضعف ، الخمس غرامات من بذر البندورة تعطي خمسة أطنان ، فمن أودع في هذه البذرة هذه القوة ؟ الله عزوجل .

أنت أمام آيات مذهلة ، في طعامك ، وشرابك وفي خلقك ، وفي تكوينك ، وفي ما حولك ، وفي من فوقك ، ومن تحتك .

لذلك الآيات واضحة جداً ، إذاً الذي يُكذب بآيات الله لا يعظم الله ، وبالتالي لا يطيعه ، ماذا يطيع ؟ هواه ، معادلة دقيقة جداً ، معادلة رياضية ، لن يفكر في آيات الله ، قال تعالى :

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

لا طريق للإيمان بالله إلا بآياته ، لا طريق للإيمان بالله إلا بآياته الكونية وآياته التكوينية ، أفعاله ، وآياته القرآنية ، هذه طرق معرفة الله عزوجل ، فالذي كذب بآياته الكونية لم يعبأ بها ، وكذب بآياته التكوينية ولم يعبأ بها ، وكذب بآياته القرآنية ، ولم يعبأ بها ، إذاً : لا يؤمن بالله العظيم ، إذاً : لا يتبع الحق يتبع الهوى ، معادلة رياضية واضحة :

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

قال الله عزوجل :

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف)

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

أي وجدناه غافلاً .

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ)

(سورة لقمان الآية : 15)

اتبع أهل الحق .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف الآية : 28)

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

بربكم لو أنك سألت إنسانًا شاردًا عن الله تائهًا ، واستنصحته ، ينصحك بالمعصية ، وينصحك بأخذ قرض ربوي ، وينصحك بالزواج من فتاة شاردة متفلتة ، ينصحك بأكل المال الحرام ، يقول لك : كن شاطرًا ، الآن الذي يأكل المال الحرام شاطر ، والفتاة التي تعرض كل مفاتنها على الناس متحضرة ، والمنافق الذي يتلون مئة لون ولون لبق مرن ، حضاري ، مصطلحات جديدة ، شيء بشع جداً ، له اسم براق .

فرضاً أن تحتل فلسطين ، وأن تغتصب هذه البلاد ، وأن يشرد أهلها في الآفاق ، هذه القضية الكبيرة اسمها أزمة الشرق الأوسط ، لا اغتصاب ، ولا طرد شعب من أرضه ، لا ، اسمها أزمة الشرق الأوسط ، والذي يرتكب جرائم اسمه أصولي ، المصطلحات فيها خبث ما بعده خبث ، هذا يتبع أصول الدين ، معنى الدين قتل ، الدين إرهاب ، الدين تخلف ، الدين قهر ، الدين جريمة ، أصولي ، وهكذا.....

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسالة فيها نظر

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

كل إنسان كذب بالآيات أي لم يعبأ بها لم يؤمن بها ، لم يلتفت إليها ، لم يعرها بالاً ، هذا يتبع هواه ، فأنت أيها المؤمن :

(لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

أثر الإيمان باليوم الآخر على سلوك الإنسان :

شيء آخر ، إخواننا الكرام ، صدقوا ولا أبالغ أن الذي يؤمن باليوم الآخر تنعكس كل موازينه ، كيف ؟ إنّ الإنسان يتوهم الذكاء بالأخذ ، إن آمنت باليوم الآخر تر أن الذكاء كل الذكاء في العطاء لا في الأخذ، الذي لم يؤمن باليوم الآخر يرى أن الاستمتاع بالشهوات هو الذكاء ، هو العقل ، لكن الذي يؤمن بالآخرة يرى أن البعد عن كل ما حرم الله هو الذكاء .

إخواننا الكرام ، كلمة دقيقة : إن لم تنعكس موازينك 180 درجة فلن تكون مؤمناً باليوم الآخر ، والدليل أنه لا يستطيع إنسان في العالم الإسلامي أن ينكر بلسانه اليوم الآخر ، لكن لا تجد في سلوك الناس ما ينبئ بهذا ، كم من محل تجاري مغتصب ؟ كم من شركة مغتصبة ؟ كم من دَين لا يؤدى ؟ والله الذي لا إله إلا هو لو أيقنت أن هذه الحقوق التي عليك لا بد من أن تؤدى يوم القيامة لكنت إنساناً آخر .

قال رجل لآخر لقد اغتبتني ، قال له : من أنت حتى أغتابك ؟ من حضرتك ؟ لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت أبي وأمي ، لأنهم أولى بحسناتي منك .

هو يوقن أنه إذا اغتاب زيداً أو عبيداً فإن سيئات زيد أو عبيد سوف يتحملها يوم القيامة .

إخواننا الكرام ، بشكل صريح وبلا مواربة ، قضية الإيمان باليوم الآخر هذا إيمان فلكلوري ، إيمان لفظي ، لكن لو آمنت باليوم الآخر والله لا تستطيع أن تأكل قرشًا حرامًا ، لا تستطيع أن تكذب بكلمة واحدة ، لكن من ضعف الإيمان باليوم الآخر تفعل ذلك .

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

مستحيل وألف ، ألف ، ألف ، ألف مستحيل أن تعصي الإله وأنت مؤمن أن علمه يطولك ، وقدرته تطولك ، المثل أذكره مئات المرات :

أنت مواطن راكب سيارة ، الإشارة حمراء ، والشرطي واقف ، وشرطي على دراجة ، وضابط مرور بسيارة ، وأنت مواطن من الدرجة الخامسة ، يس لك ميزة ، تمشي على الأحمر ؟ مستحيل ، مستحيل وألف ، ألف ، ألف مستحيل ، لماذا ؟ لأنك موقن أن واضع نظام المرور علمه يطولك عن طريق هذا الشرطي ، وقدرته تطولك بسحب الإجازة ، وسحب المركبة ، لأنه عندك يقين قطعي أن واضع نظام السير علمه يطولك ، وقدرته تطولك ، لا يمكن أن تعصيه ، مستحيل ، إلا واحد مجنون ، أو في حالتين، تعصيه الساعة الثالثة بالليل ، لأن علم واضع القانون لا يطولك علمه الساعة الثالثة ، ما في

شرطي لأنه ، أو أن تكون أقوى من وضع القانون ، لا تسأل ، أما مواطن عادي ، وعلمه يطولك فلا يمكن أن تعصيه .

الآية :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

ـ دققوا الآن ـ :

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌوَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

هل تساءلتم مرة : لماذا اختار الله من أسمائه العلم والقدرة فقط ؟ إذا علمت أن علمه يطولك ، وقدرته تطولك لا يمكن أن تعصيه :

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

إن علمت أن علمه يطولك ، وأن قدرته تطوك فلا يمكن أن تعصيه .

فلذلك إذا آمنت بالله واليوم الآخر مستحيل أن تأكل المال الحرام ، مستحيل أن تعتدي على أعرض الناس ، مستحيل أن تكذب ، مستحيل أن تظلم ، فامتحن إيمانك باليوم الآخر من استقامتك ، لا من إقرارك ، الإقرار سهل جداً ، امتحن إيمانك باليوم الآخر من استقامتك ، ما دامت الاستقامة ليست متقنة أو تامة معنى ذلك أن إيمانك بهذا اليوم ليس قوياً .

إذاً :

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنْ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

ماذا أقول لكم ؟

واحد خيرك بين جوهرة ، أنا رأيت جوهرة باستنبول بمتحف توبي كبي ، ثمنها 150 مليون دولار ، لو وضعوا أمامك هذه الجوهرة ، ووضعوا أمامها زجاجة كبيرة ثمنها عشرون ليرة ، وقيل لك : اختَر، فأنت أخذت القياس الأكبر ، أنت عدلت عن الجوهرة بهذه الزجاجة ، كم خسارتك ؟ .

معنى يعدلون فلان يعدل في حكمه ، يعني حكمه عادل ، لكن يعدل بكذا يعني استبدل طاعة الله بطاعة مخلوق .

إخواننا الكرام ، بشكل دقيق جداً : حينما تعصي إلهك ، وتطيع إنسانًا كائنًا من كان ، إنسانًا قويًا ، إنسانًا تعلق عليه آمالًا كبيرة في الدنيا ، أنت لا تعرف الله ، لأنك استغنيت عن الآخرة ، وعن حياة الأبد، وعن إرضاء خالق الأكوان ، بعرض من الدنيا قليل ،

(وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

الآن يكون الرجل في منصب فيه شبهة في تسلم هذا المنصب ، يعدل به الآخرة كلها أحياناً ، أحيانًا صفقة فيها مادة محرمة ، يقول لك : حط بالخرج ، فرصة لا تعوض ، معنى ذلك أنه يعدل بطاعة الله ، لذلك نحن في أيام الأعياد نقول : الله أكبر ، أنا أقول دائماً ، من أطاع مخلوقاً ، وعصى خالقاً فهو ما قال : الله أكبر ولا مرة ، ولو لفظها ألف مرة ، لأنه رأى في أعماقه أن طاعة هذا المخلوق أكبر عنده من طاعته الله ، الآن من أطاع زوجته وعصى ربه ، هو رأى أن طاعة الزوجة أكبر من طاعة الله ، من غش المسلمين رأى أن هذا المال الذي جاءه من غشهم أكبر عنده من طاعة الله ، لذلك :

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

يعني يعدل دريهمات تأتيه من صفقة محرمة ، يعدل بشهادة كاذبة .

اغتنمْ ما دمت حيًّا !!!

أيها الإخوة ، هذا كلام الله منهج كامل ، وهناك توضيح ، ونحن أحياء ، القلب ينبض كل شيء يصحح، كل ذنب يغفر ، كل مشكلة تحل ، أما حينما يقف هذا القلب لا تحل ولا مشكلة ، فالبطولة أن تعرف الله وأنت حي ، لا أن يعرفه الإنسان عند الموت ، وعند دنو الموت .

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

(سورة الأنعام الآية : 158)

وكل إنسان يعتدي على الناس إن بلسانه ، أو بما يملك من قوة لأخذ أموالهم ظلماً وعدواناً ، أو لانتهاك أعراضهم ، هو إنسان ليس مؤمناً بالآخرة ، ولو قال : أنا مؤمن بها .

التكذيب العملي سلك وليس طبعا :

أحياناً تزور طبيبًا ، وتكتشف أنه لا يناسب اختصاصه ، بعيد عن مرضك ، فيعالجك ، وتصافحه ، وتثني عليه ، وتعامله بأعلى درجة من المودة ، لكن لأنك لم تستر الوصفة معنى ذلك لست قانعاً به ، فهو التكذيب سلوك ، التكذيب ليس طبعًا ،هو سلوك ، لمجرد أنك لم تشتر وصفته لست قانعاً بعلمه ، مع

أنك احترمته إلى أقصى درجة ، وبجلته ، وأثنيت على علمه ، القضية سهلة باللسان ، لكن لعدم شراء الوصفة معنى ذلك أنك لم تعتقد أنه على علم أنت بحاجة إليه ، مقياسك السلوك ، وليس الإقرار ، السلوك هو الذي يحدد مكانك عند الله ، قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام الآية : 132)

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)

(سورة الإسراء)

فالعمل هو الذي يعول عليه ، أما الاعتقاد فمثل رجلٍ معه مرض جلدي ، وعلاجه الوحيد التعرض لأشعة الشمس ، وهو جالس بغرفة قميئة مظلمة كلها رطوبة ، ويقول بفصاحة ما بعدها فصاحة : يا لها من شمس ساطعة !! يا لها من شمس عظيمة !!! يا لها من أشعة شافية !!! وهو قاعد بغرفة قميئة مظلمة، فيها رطوبة كل هذا الكلام لا قيمة له ، ما لم يتعرض إلى أشعة الشمس فكلامه لا جدوى منه .

ملخص القرآن : قُل إنّما أنا بشَرٌ مثلُكم يُوحَى إليَّ

لذلك الله عزوجل لخص قرآنه كله بكلمتين :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

الآن

(يُوحَى إِلَيَّ)

القرآن كله :

(أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف الآية : 110)

هناك مئات الآلهة الآن في الأرض ، كلها آلهة خلبية ، ليس هناك غلا معبود واحد بحقٍّ .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية : 10)

الفعال واحد ، الأمر بيد واحد .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية : 123)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

أمرنا بيده لا بيد أعداءنا .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

الآن :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

هذه الآية لخصت كتاب الله كله ، الدين كله توحيد وطاعة ، العقيدة توحيد والسلوك طاعة ، لذلك قالوا: التوحيد نهاية العلم ، والتقوى نهاية العمل .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(66-73): تفسير الآية 151 ، التوحيد والشرك الخفي لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-06-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس والستين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الواحد والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

مقدمة حول دائرة المحرمات :

أيها الإخوة الكرام ، آيات كثيرة سبقت هذه الآية تتحدث عن المحرمات من الطعام والشراب ، وهذه القائمة الثانية من المحرمات ، والتي تتحدث عن محرمات الاعتقاد والسلوك ، الطعام والشراب قوام حياة الجسد ، من الطعام ما هو محرم كلحم الخنزير والدم ، ومنه ما هو حلال ، والمحرمات من الاعتقاد والسلوك هذه تعيق قوام الحياة الروحية ، أنت لك حياتان ، حياة الجسد ، وحياة الروح ، أو حياة النفس ، الجسد قوامه الطعام والشراب ، والنفس قوامها أن تعرف الله ، وأن تبتعد عن الشرك به ، فكما أن هناك محرمات تفسد صحتك هناك محرمات تفسد سعادتك .

المحرمات الاعتقادية : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ

فالآن ننتقل إلى زمرة جديدة من المحرمات متعلقة بحياة النفس ، وسلامتها وثقتها وسعادتها ، وإقبالها على ربها .

الفرق بين : تعالوا واقبلوا :

لكن كلمة :

(قُلْ تَعَالَوْا)

كأن كلمة أقبلوا تعني شيئاً ، وكلمة تعالوا تعني شيئاً آخر ، كأن كلمة أقبلوا تعني حركة أفقية ، أو كلمة تعالوا تعني حركة شاقولية ، أقبلوا من جهة إلى جهة أرضية ، أما تعالوا من الأرض إلى السماء .

أيها الإخوة ، أقبل على أمر الله من أجل أن تعلو .

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 5)

الهدى رفعهم ، الهدى سما بهم ، الهدى طهره قلوبهم ، الهدى أسعدهم ،

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(على) تفيد العلو ، لكن :

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الزمر)

(في)، هو في كآبة ، أو في السجن ، على كلِ شيء هو في شيء ، الإنسان إما أن يكون طليقاً ، فإذا عرف الله أصبح حراً ، وإما أن يكون عبداً لشهوة ، عبداً للدرهم والدينار ، عبداً للفرج ، عبداً للبطن ، عبداً للخميصة ، إما أن تكون عبداً لله ، أو أن تكون عبداً لعبد حقير ، إما أن تكون عبداً لله ، أو أن تكون عبداً لشهوة مهلكة مشقية في الدنيا والآخرة ، لذلك المؤمن حر .

أيها الإخوة الكرام ، لا يليق بك كإنسان أن تكون لغير الله ، لمجرد أن تكون لغير الله ، لمجرد أن تجير لغير الله ، لمجرد أن تكون محسوباً على غير الله ، لمجرد أن تكون خطيئة لإنسان ، أو نزوة لإنسان ، لمجرد أن تحقق مصلحة لفلان فأنت محتقر نفسك ، لا يليق بك أن تكون لغير الله ، لا يجدر بك أن تكون لغير الله .

لذلك قال بعض الصحابة الكرام: << الحمد لله الذي أخرجنا من جور الحكام إلى عدل الإسلام >> ، المؤمن حر ، المؤمن لا يخضع إلا لله ، ولاءه لله ، محبته لله ، ثقته بالله ، يدع لله ، يُقبل لله ، يمنع لله ، أمله لله عزوجل :

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

إذاً بين أن أقول لك : أقبل ، وبين أن أقول لك : تعال فرق كبير ، فإذا طبقت هذا الأمر سمت نفسك ، وكنت إنساناً ، واستجبت لله الواحد الديان ، وكنت حراً ،

(قُلْ تَعَالَوْا)

ضعف تشريع الإنسان : وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا

أيها الإخوة ، الإنسان إذا شرع فهو مساوٍ لك ، أنت إنسان وهو إنسان ، إذا شرع الإنسان فهو مساوٍ لك، لا بد من أن ينتفع من هذا التشريع ، ولا بد من أن ينتفع على حساب الآخرين ، ينتفع هو أو فئة ما، وتتأذى شرائح كثيرة من هذا التشريع ، دون أن يشعر ، ولو أنه بعقله الباطن حينما يشرع يعطي نفسه ما لا يستحق ، ويأخذ نصيب من يستحق دون أن يشعر ، لأن له مصالح ، لأن له أهواء ، لأن فيه ضعفاً .

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

لذلك أيّ تشريع أرضي فيه محاباة ، وفيه ظلم ، أيّ تشريع أرضي ، أما إذا شرع الخالق ، الرب ، الإله ، تشريعه كله لصالحك ، كله لسلامتك ، وكله لسعادتك ، لذلك إذا كان المشرع بشراً يحابي نفسه ، ويحرم غيره حقّه ، وإذا كان بشراً ففي أثناء التشريع تغيب عنه قضايا كثيرة ، فإذا وضع التشريع في حيز التطبيق ظهرت الثغرات ، من هنا كان التعديل يصدر قانونًا ، تظهر الثغرات ، يعدل التعديل الأول ، يُعدل أولاً ، ثم يُعدل ثانياً ، ثم يُعدل ثالثاً ، ثم يُعدل رابعاً ، ثم يلغى ، ويصدر تشريع آخر .

الآن هناك موضوع آخر غير أن المشرّع كان من بني البشر يحابي نفسه ، ويظلم غيره دون أن يشعر، وبعقله الباطن ، هو تغيب عنه قضايا كثير .

مرة على سبيل المثال من أجل عدم ارتفاع أسعار المركبات ارتفاعاً جنونياً صدر قانون بمنع بيع المراكب إلا بين الأقارب ، القصد أنه ألا تزيد الأسعار عن الحد المعقول ، نشأت مشكلة كبيرة جداً ، صار زواج السيارة ، يعقد زواجًا صوريًّا ليبيع هذه السيارة ، ثم يموت فجأة هذا الذي اشترى ، وزوجته ترث ملايين مملينة من ثروته ، كنا في حال فأصبحنا في حال آخر ، عُدل ، ثم عُدل ، ثم ألغي، ولو دخلنا في هذا المجال لرأينا العجب العجاب لأن المشرع لا يحيط بكل الجهات ، بكل الظروف ، بكل الأبعاد لا يحيط بها المشرع أولاً يحابي نفسه ، وثانياً يظلم غيره ، وثالثاً تغيب عنه قضايا لا تظهر إلا بالتطبيق لذلك التشريع يجب أن يكون من حق الله تعالى ، لأن الله عزوجل هو الخبير .

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

تشريعات لا تعد ولا تحصى صدرت ، ثم عُدلت ، ثم عُدلت ، ثم عُدلت ثم ألغيت قد يحرم التشريع شيئاً أباحه الله لك في أصل الحياة ، هذا التحريم يتحايل الناس عليه إلى أن يخرج المشرع من جلده ، فيبيحه، كل هذا من قصور إدراك المشرع ، لأنه بشر ،

(وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا)

لذلك إذا أقبلت على تشريع البشر ربما تفلت من هذا التشريع ، كأوضح مثل :

أنت في شهر رمضان ، وإن كان الشهر في أيام الحر الشديد الذي لا يحتمل واليوم 17 ساعة ، والحرارة 45 ، وعند الساعة 12 تكاد تموت من العطش ، ودخلت إلى بيتك ، والباب مقفل ، والنوافذ مقفلة ، والماء عذب فرات بارد من الصنبور مباشرة ، أو من الثلاجة ، ولا تستطيع أن تضع قطرة ماء في فمك ، هذا هو التشريع الإلهي .

أما التشريع البشري فممنوع عليك أن تستخدم الجوال في أثناء قيادة المركبة ، مادام هناك شرطي لا تستخدمه ، أو تقول : دعني قليلاً ، الشرطي أمامي ، أما إذا كنت في سفر وحدك فتستخدمه ، لأن واضع القانون لا ينالك علمه ، ولا تنالك قدرته ، أما إذا حرم الله شيئاً فالمؤمن بالله لا يمكن أن يعصي الله في هذا الشيء .

مثال واقعي عن ضعف تشريع الإنسان :

مرة بلد بعيد كأمريكا بسبب موضوعي محض أرادت أن تحرم الخمر ، الآن لا يحضرني التفاصيل ، 300 شخص أعدموا ، و طبعت خمسة مليارات نشرة ، والأرقام التي ذكرت في هذا الموضوع تكاد لا تصدق ، وفي النهاية لم تستطع الحكومة تحريم الخمر ، بُنيت بواخر لتهريب الخمور ، بنيت بواخر لها أماكن سرية لتهريب الخمور ، ثم أطلق الخمر .

يقول الله عزوجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

(سورة المائدة الآية : 90)

تجد المسلمين يمتنعون عنه بشكل غير طبيعي ، تقريباً في العالم الإسلامي المليار والنصف يمتنعون عن شرب الخمر ، لأن آية في كتاب الله تحرمه ، وانتهى الأمر .

من يستطيع أن يراقبك وأنت في البيت ؟ من يستطيع أن يراقب صاحب المخبز وهو في المخبز ؟ يعني الخوف من الله أكبر رادع .

سيدنا عبد الله بن عمر لقي راعياً قال له : << بعني هذه الشاة ، وخذ ثمنها فقال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب ، قال : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟ .

كنت مرة في أمريكا ، وأنا مع أحد الإخوة الكرام في مركبته ، فسمعت صوتاً عجيباً ، سألته : ما هذا الصوت ؟ قال لي : هذا صوت يشعرني أن جهاز الرادار الذي يراقب السرعات اقترب ، فأنا بعدما

أسمع هذه الإشارات أخفض السرعة ، فإذا تجاوزته عدت إلى سرعتي العالية ، معنى ذلك أن الدولة حينما وضعت هذا القانون ، ونصبت أجهزة لكشف السرعات الزائدة الإنسان قد يكون المشرَّع له أذكى من المشرِّع ، اخترع هذا الجهاز ، مادام هناك صوت يخفض السرعة إلى المئة ، فإذا تجاوز هذا الكاشف عاد إلى ما كان عليه .

التشريع الأرض معركة بين عقلين ، عقل المشرع وعقل المشرع له ، والإنسان قد يكون أذكى من المشرع ، والحديث عن التحايلات التي يستخدمها الإنسان في تجاوز حدود القانون لا تعد ولا تحصى ، ما دام القضية أرضية واضع التشريع إنسان له عقل ، والمشرع له إنسان له عقل ويمكن أن تخرق هذه التشريعات بألف سبب وسبب .

لذلك بين أن تقول : أقبلوا ، حركة أفقية ، وبين أن تقول : تعالوا ، خالق الأكوان هو العليم ، هو الحكيم، هو الخبير :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

تشريعه فيه كمال مطلق ، فيه علم مطلق ، فيه حكمة مطلقة ، ولما ترك الإنسان الوحي السماوي ، ووضع تشريعاً من عنده فهذه نتيجة التشريعات البشرية كما تُرَى .

يمكن أن تقتل 25 إنسانًا بما فيهم الرضع ، وبحسب تشريعات الأرض تقول : صدر من هذا البيت إطلاق رصاص ، فرددنا عليه بهذا القصف ، أما لو كنت تؤمن بالله فلا تستطيع أن تدوس نملة ، أنا أعني ما أقول ، ولا أبالغ ، لا تستطيع أن دوس نملة ظلماً ، لذلك لا تصلح الحياة إلا بالتشريع الإلهي ، لا تصلح أبداً ، لأن كل قيد يضعه المشرع البشري يتحايل عليه ، وقصص التحايل على التشريع الأرض لا تعد ولا تحصى ، وكلما وضع المشرع قيداً يخترق ، يوضع قيد آخر يخترق ، قيد رابع يخترق ، قيد خامس يخترق ، ينشأ ما يسمى بالروتين ، شيء لا يحتمل يعيق التقدم .

من أجل أن تأخذ شيئًا بسيطًا جداً تحتاج إلى وثائق ، وإلى براءات ذمة ، وإلى حسن سلوك ، و يمكن أن يزور ، فالطريق مع التشريع الأرض طريق مسدود ، لكنك إذا كنت خاضعاً لتشريع السماوات والأرض تشعر أنه معك .

مثل آخر : لو كان مع شخص التهاب كبد وبائي ، هذا مرض قاتل ، حتى الآن ليس له دواء ، ودخل إلى الحمام ، ولم يغسل يديه جيداً ، وكان موظفًا في مطعم ، يستطيع أن ينقل هذا المرض إلى 300 إنسان من رواد هذا المطعم ، لان معه التهاب كبد وبائي ، ودخل إلى الحمام ، ولم يغسل يديه جيداً ، فعلق بين أظافره وأصابعه شيء من آثار مفرزاته ، فإذا استخدم يديه في صنع طبق من الطعام يمكن أن يؤذي 300 زبون من زبائن هذا المطعم بمرض قاتل ، أما المؤمن فيخاف من الله .

أنا بدأت بمثل بسيط جداً ، يخاف المؤمن أن يدوس نملة ، يخاف أن يؤذي إنساناً .

أما بائع مواد تموينية ، لو وجد فأرة في علبة الزيت يسحبها ، ويتابع بيع الزيت ، مَن الذي يمنعه من ذلك ؟ إيمانه ، إذا كان مؤمنًا فلا يمكن أن يفعلها ، يخرج الفأرة ، ويستخدم الزيت لصناعة الصابون ، أما أن يبيعه للناس فمستحيل وألف ألف مستحيل .

يمكن أن يستورد إنسان ضعيف النفس طعام للكلاب ، ويضع لصاقات جديدة ، فإذا هو طعام للبشر ، والله الذي أسمعه عن مخالفات يفعلها بعض البائعين شيء لا يصدق ، الإيمان هو القيد .

((الإيمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن))

[أخرجه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة]

في الأعم الأغلب القوي لا يسأل ، يبالغ في الإساءة للآخرين ، متوهماً أن الله لا يعلم ، فإذا بمصيبة تمحقه دون أن يشعر ، أما المؤمن فما دام مقيداً بالشرع فهو في ظل الله ، وفي رعايته ، وفي حمايته .

أيها الإخوة ، ما من تشريع إلا ويحابي المشرع ، وما من تشريع إلا ويظلم المشرَّع له أحياناً .

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُم

المحرمات كأكل لحم الخنزير ، وأكل الدم هذه تؤذي جسم الإنسان ، وتفسد عليه صحته ، وتفسد عليه استقامة حياته ، ولكن المحرمات هذه من نوع آخر ، تفسد عليه سعادته .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)

(سورة آل عمران الآية : 151)

صار خائفًا ، صار قلقًا ، صار حزينً .

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

المحرَّمات التي تحرم النفس السعادة :

1 – الشرك بالله :

هذه محرمات من نوع آخر ، الشرك محرم ، وكل محرم في القرآن والسنة يقابله أمر واجب ، أنت منهيٌّ أن تشرك ، ومأمور أن توحّد ، منهي أن تكذب ، ومأمور أن تصدق ، منهي أن تظلم ، ومأمور أن تعدل ، إذاً كل محرم يقابله أمر وواجب ، وكل واجب يقابله محرم ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان مرة يردف وراءه سيدنا معاذ بن جبل فقال له :

((هل تَدْري مَا حَقّ الله عَلَى الْعِبَادِ ؟ قالَ : قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أعْلَمُ ، قالَ : فَإنّ حَقّ الله عَلَى الْعِبَادِ أنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئا ، ثُمّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمّ قالَ : يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ : لَبّيْكَ رَسولَ اللّهِ وَسَعْدَيْكَ ، قالَ : هَلْ تَدْري مَا حَقّ الْعِبَادِ عَلَى الله إذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ قالَ : قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أعْلَمُ ، قالَ : أنْ لاَ يُعَذّبَهُمْ))

[البخاري عن أبي هريرة]

سأله ثانية وثالثة ، ثم قال : يا معاذ :

((حَقّ الله عَلَى الْعِبَادِ أنْ يَعْبُدُوهُ))

هذا الأمر والواجب ، يقابله :

((وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئا))

فكل أمر يقابله نهي ، وكل نهي يقابله أمر ، بعد قليل قال : يا معاذ :

((مَا حَقّ الْعِبَادِ عَلَى الله إذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ قالَ : قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أعْلَمُ ، قالَ : أنْ لاَ يُعَذّبَهُمْ))

فحينما تعبد الله ، ولا تشرك به شيئاً أنشأ الله لك حقاً عليه ، أنه يحميك ، فاطمئنوا ، ما دمت على استقامة على أمر الله فأنت في ظل الله في الدنيا والآخرة ، لأن الله عزوجل خالق الكائنات يدافع عنك .

(إنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج الآية : 38)

إذا كنت مستقيماً على أمر الله كما قال الله عزوجل :

(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

(سورة مريم)

هذه المودة التي تحصل بينك وبين خالق السماوات والأرض لا تقدر بثمن .

فحوى دعوة الأنبياء : التوحيد ونبذ الشرك :

إخواننا الكرام ، الآن دخلنا في المحرم الأول الذي يحرم النفس سعادتها ، أن تشرك بالله ، هذا الموضوع هو الدين كمله ، بل فحوى دعوة الأنبياء جميعاً التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، والتوحيد نهاية العلم ، والتقوى نهاية العمل .

(وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلَّا نُوحِي إلَيْهِ أنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أنَا فَاعْبُدُون)

(سورة الأنبياء)

الله عزوجل لخص دعوة الأنبياء جميعاً فقال :

(وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلَّا نُوحِي إلَيْهِ أنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أنَا فَاعْبُدُون)

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً التوحيد والعبادة ، فالتوحيد نهاية العلم ، والعبادة نهاية العمل ، ما التوحيد ؟ ألا ترى مع الله أحداً ، التوحيد أن ترى أن الله بيده كل شيء ، وأنه :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية : 123)

وأنه :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

وأنه :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

وأنه :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

وأن الأمر كله عائد إليه ، والتوحيد ألا ترجو غير الله ، وألا تثق إلا بالله ، وألا تطلب إلا من الله ، وألا تخاف إلا من الله ، وألا تحب إلا الله ، والحب في الله فرع من محبة الله ، التوحيد أن تخلص الوجهة إلى الله ، أن تقبل على الله ، أن تأتمر بأمر الله ، ألا تخشى غير الله ، ألا تأخذك في الله لومة لائم .

بين أن فهم الآيات وعيشها فرق كبير

أيها الإخوة الكرام ، هذه الكلمات واضحة جداً ، لكن أن تفهمها شيء ، وأن تعيشها شيء آخر ، كيف ؟ لو أن إنسانًا مؤمنًا بالله الواحد الديان ، ومستقيمًا على أمره ، ولحكمة أرادها الله دخله محدود جداً ، وفقير ، وله صديق في سنه عقيدته فاسدة ، واستقامته منحرفة ، ويأكل المال الحرام ، وهو غني جداً ، الآن الصديق الأول الفقير إذا تمنى أن يكون مكان صديقه المنحرف ما عاش الآية الكريمة :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سور الأحزاب)

وفرق كبير بين أن تعيش الآية وأن تفهما ، الآية معناها واضح جداً ، وسهل ، و فهمه سهل جداً ، لكن أن تعيش هذه الآية شيء آخر ، أن تعيشها ، أن ترى أنك غني بمعرفتك بالله ، أن ترى أنك قوي بعبادتك لله ، أن ترى أنك سعيد بإقبالك على الله فهمه وأن هذا الذي يغوص في ملذات الحياة فهمه ومعه مال وفير ما ذاق طعم القرب من الله ، لمجرد أن تقول : ليتني كنت مكانه فأنت لن تعش هذه الآية .

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

(سورة القصص الآيات : 79 - 80)

فلمجرد أن تتمنى أن تكون مكان العاصي ببيته الفخم ، وبدخله الوافر ، وبوسامته ، وبأناقته على معاصيه فأنت لا تعرف الله ، لذلك المؤمن يشعر بغنى لا يوصف ، السبب أنه وصل إلى الحقيقة العظمى في الكون .

" ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء " .

أيها الإخوة ، ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((ذنب لا يغفر ، وذنب لا يترك ، وذنب يغفر : فأما الذي لا يغفر فالشرك بالله وأما الذي يغفر فذنب العبد بينه وبين الله عز وجل ، وأما الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا))

[رواه الطبراني عن سلمان]

حقوق العباد مبنية على المشاححة ، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة ،

((فأما الذي لا يغفر فالشرك))

حديثنا عن الشرك :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

كيف هو الشرك ؟

ما هو الشرك ؟

هناك مثل ضربته كثيراً :

لك دين على إنسان ، ووعدك أن يسدده لك يوم الأحد فرضاً ، الساعة 12 ، وهناك قطار من دمشق إلى حلب ، يصل الساعة 11 ، ركبت هذا القطار ، لكنك لم تركبه سابقاً ، خبراتك محدودة جداً ، فقطعت بطاقة من الدرجة الأولى ، وجلست في مقطورة من الدرجة الثالثة دون أن تشعر ، جلست مع أناس سيئي الخلق ، أتعبوك طوال الطريق بمزاحهم الرخيص ، وبصياحهم المرتفع ، وبخصوماتهم السخيفة ، تعبت منهم كثيراً ، ثم إنك جلست بعكس اتجاه القطار ، فأصبت بالدوار ، هذه خطيئة ثالثة ، ثم إنك تتلوى من الجوع ، ولم تعلم أن في القطار مقطورة فيها مطعم ، قطعت بطاقة من الدرجة الأولى، وجلست في مقطورة من الدرجة الثالثة ، وكان من نصيبك شباب مراهقون متعبون صخابون ، وجلست بعكس اتجاه القطار فأصبت بالدوار ، وكنت تتلوى من الجوع ، وفي القطار مقطورة فيها

طعام ولا تعلم ، كل هذه الأخطاء مغفورة ، لأن في النهاية ستكون في حلب الساعة 11 ، وسوف تقبض المبلغ الكبير ، لكن ثمة خطأ لا يغتفر ، أن تركب بدل قطار حلب قطار مدينة درعا ، ولو كان فخماً ، ولو كان مريحاً ، ولو كان مكيفاً ، لكن لا شيء من ورائه ، الطريق مسدود ، ولا قبض للثمن .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

(سورة النساء الآية : 48)

إذا اتجهت إلى غيره فهذا هو الشرك ، غيره ليس عنده شيء .

سيد الخلق وحبيب الحق قال :

(إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية : 188)

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام الآية : 50)

لمجرد أن تتجه إلى جهة أرضية ، إنسان قوي ، جماعة ، فئة ، اتجهت إلى جهة أرضية فقد وقعت في ذنب لا يغفر ، إنه الشرك .

((إذا سألت فسأل اللَّه ، وإذا استعنت فاستعَنْ باللَّه))

[رواه الترمذي عن ابن عباس]

ينبغي أن تعطي لله ، وأن تمنع لله ، وأن ترضى لله ، وأن تغضب لله ، وأن تصل لله ، وأن تقطع لله ، هذا هو التوحيد ، إن وحدت فأنت إنسان رباني ، وإن لم توحّد فأنت إنسان شهواني ، بين أن تكون ربانياً ، وبين أن تكون شهوانياً البونُ شاسع .

والله أيها الإخوة ، لو وحدنا كأمة الإسلام ، وعلمنا أن النصر بيد الله الواحد الديان ، وأن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يرفعنا ليس في الأرض جهة تستطيع أن تمنعه من ذلك ، لكننا بدافع من الشرك أحياناً نظن أن إرضاء الجهة الفلانية تسلمنا ، وإرضاء الجهة العلانية تنفعنا ، فما دمنا نتوجه إلى غير الله فالطريق مسدود ، على مستوى جماعي ، وعلى مستوى فردي ، أنت حينما تقول : يا رب ، إني تبرأت من حولي وقتي وعلمي ، والتجأت إلى حولك وقوتك وعلمك ، يا ذا القوة المتين ، أنت وصلت بالله ، وجاءك التوفيق ، وجاءك المدد ، وجاءتك الحكمة ، وجاءك العون ، وجاءك التأييد ، وجاءك النصر .

دروس من مواقف الصحابة في الإخلاص :

1 – درس حنين :

سوف أذكر لكم حادثة من وقع فيها ؟ نخبة الخلق ، صحابة رسول الله ، ومن كان معهم ؟ سيد الخلق ، وحبيب الحق ، قال عليه الصلاة والسلام :

((إن الله اختارني ، واختار لي أصحابي))

[رواه الطبراني عن عويمر بن ساعدة]

فنحن نعتقد اعتقاداً جازماً أن خير الخلق جميعاً هو رسول الله ، سيد ولد آدم حبيب الله ، ومعه أصحابه وقعوا في شرك خفي ، قالوا في حنين :

((لن نغلب اليوم من قلة))

[أخرجه الترمذي]

اعتدُّوا بكثرتهم ،

((لن نغلب اليوم من قلة))

قال الله عزوجل :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

هذا درس حنين ، إذا أدب الله صحابة رسوله فمن نحن حتى لا نؤدب ؟ نحن نعتمد على الجهة الفلانية، والعلانية ، ونرجو رضاء الجهة الفلانية ، ونتقرب إلى الجهة العلانية ، ما دمنا نتجه إلى من في الأرض فنحن في متاهة ما بعدها متاهة .

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

هذا درس حنين .

2 – درس بدر :

الآن درس بدر :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية : 123)

ضعاف ، مفتقرون إلى الله ، فالله عزوجل تجلى عليكم ، وأمدكم بنصر ، قلة قليلة فقيرة ، 300 صحابي تنتصر على أبطال قريش ، وصناديد قريش الأغنياء الأقوياء ، هكذا ، لذلك :

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة الآية : 249)

بالتوحيد تسقط جميع الأوهام وتتبدد جميع شكوك :

إخواننا الكرام : المسلمون حينما يتوهمون أن أعداءهم عندهم سلاح لا يقابل فهم واهمون ، أعدائهم بشر ، وقلوبهم بيد الله عزوجل ، ماذا أقول لكم ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ، لمجرد أن نخلص لله عزوجل ، وأن نعد لأعدائنا العدة التي نستطيعها ليس العدة التي تكافئ قوة العدو :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ)

الآن دقق :

(وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

هذا كلام خالق الأكوان ، هل يمكن دول الأرض مجتمعة بكل قوتها العلمية والعسكرية والتقنية أن تنقل جبل قاسيون إلى درعا ؟ هذا جبل قاسيون ، قوى الأرض ، دول العالم ، المعسكر الشرقي والغربي ، الدول الغنية والمتفوقة ، والتي تملك من الأسلحة ما لا يوصف ، هل تستطيع نقل قاسيون ؟ الله عزوجل يقول في القرآن :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

معنى ذلك أن مكرهم عند الله . يقول الله عزوجل في آية ثانية :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية : 120)

البوارج ، حاملات الطائرات ، القنابل العنقودية ، القنابل الحارقة والخارقة القنابل التي تسمى ذكية ، قنابل الانشطارية ، القنابل التي تلغي الاتصالات ، الآن هناك قنابل تلغي الاتصالات ، انتهت الحرب لتقليدية ، هناك قنابل تفني البشر ، وتبقي الحجر ، عشرون ألفا ماتوا بقنبلة واحدة ، والأبنية كما هي ، هذه الأسلحة الفتاكة ، هذه الأقمار الصناعية ، هذا الرصد ، من القمر الصناعي يمكن أن يصور إنسان مضجع على الأرض ، وبيده كتاب ، يمكن أن يقرأ عنوان الكتاب ، تقنية عالية جداً ، قال الله عزوجل :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

الكرة في ملعبنا .

(لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر الآية : 53)

ولا تيأسوا ، والله عزوجل يمتحننا ، ونحن في العناية المشددة ، لكن ينتظر منا أن نعود إليه ، وأن نصطلح معه ، وأن نقبل عليه ، وأن نتوب إليه ، الأمر بيد الله عزوجل ، القوة الشرقية التي تهاوت من الداخل كانت تملك من الأسلحة النووية ما يمكنها من أن تدمر القارات الخمس خمس مرات ، ومع ذلك تداعت من الداخل ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ؟

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

إيّاكم وإيمان إبليس !!!

إخواننا الكرام ، الدين كله توحيد ، والمشكلة ليست في أن تؤمن بأن الله خالق السماوات والأرض ، هذا إيمان إبليسي ، إبليس قال :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية : 82)

إبليس قال :

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

إبليس قال :

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

ليس مطلوباً أن تقول : الله خلق السماوات والأرض ، الأجانب الذين يكتبون على عملتهم الخضراء : ثقتنا بالله ، ماذا يفعلون في الأرض ؟ يفسدون في الأرض .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(سورة الفجر)

هؤلاء قوم عاد الأولى والثانية ، الثانية موجودة الآن :

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

زلزال تسونامي وحده يساوي مليون قنبلة ذرية ، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ)

لا تيأسوا ، لا تشعروا بالإحباط أبداً ، الكرة في ملعبنا .

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية : 19)

أيها الإخوة :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

ما هو الحد الأدنى من الشرك ؟!

أتحبون أن تروا الحد الأدنى من الشرك ، لأنه :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

حينما يعتزون بمالهم .

قال لي مرة شخص : الدراهم مراهم ، طبعاً هذه لا آية ولا حديث ، سبحان الله ! إنسان والله أظنه صالحاً ، ولا أزكي على الله أحداً ، لكن الله أدبه ، دخل المنفردة 64 يومًا ، وفي هذه الأيام كلها في كل يوم يقول ، الدراهم مراهم ؟ تفضل حل مشكلتك ، تفضل حلها بالدراهم ، لا تحل بالدراهم ، إذا اعتمدت على مالك فقد أشركت ، إذا اعتمدت على ذكائك فقد أشركت .

بالمناسبة الله عزوجل يحجب عن القوي الحكمة يرتكب حماقات هي سبب دماره ، يحجب عن القوي الحكمة .

قبل أسابيع قال بعض القادة الغربيين : ارتكبنا أخطاء لا تغفر ، أخطاء ارتكبت في العراق شيء يترفع عنها أطفال صغار .

حينما تكون مع الله تلهم الحكمة ، وحينما يكون الإنسان منقطعاً عن الله يلهم الحمق ، يرتكب أخطاء قاتلة مدمرة ، لأنه حجب عن الله عزوجل ، إذاً حينما تؤمن بالله يحفظك الله عزوجل ، يلهمك الحكمة ، يقوي عزيمتك ، يشعرك أنه معك .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

سيدنا يونس ، لا أعتقد أن إنسانًا مصيبته كهذه المصيبة ، أن تجد نفسك فجأة في بطن حوت أزرق وزنه 150 طنًّا ، وكل الإنسان بفمه لقمة صغيرة ، يكون الواحد وزنه 170 كغ ، بفم الحوت الأزرق لقمة صغيرة ، وبإمكانه أن يقف في فمه على رجليه ، في ظلمة الليل ، وفي ظلمة البحر ، وفي ظلمة بطن الحوت ، ونبي كريم دخل بطنه ليس إنسانًا عاديًا .

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

أحيانا يكون معك هاتف محمول ، وليس هناك تغطية ، مشكلة كبيرة جداً ، تكون في أمسّ الحاجة إلى استخدامه ، يقول لك : خارج التغطية ، أما سيدنا يونس فكان في تغطية ،

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

أروع ما في الآية أن الله قلب هذه القصة إلى قانون قال :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

لا تخف ولا تحزن ، لا تيأس .

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

(سورة يوسف)

لا تقل : متى ؟ كن له كما يريد ، يكن لك كما تريد ، كن له كما يريد ، ولا تعلمه بما يصلحك .

((مَنْ شَغَلَهُ القُرْآنُ عن ذِكْرى ، مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السّائِلِين))

[أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد]

" عبدي أنت تريد ، وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد " .

الآن :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

الحد الأدنى من الشرك ، كلام سيدنا علي رضي الله عنه قال : << الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء >> .

إذا كنت في مكان في ليل ، وهناك نملة صغيرة جداً تمشي على صخرة ، وأنت لا تراها ، هل تسمع صوتها ؟ الشرك الخفي أخفى في الإنسان من دبيب النملة السمراء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، وأدناه أن ترضى على جور ، وأن تبغض على عدل .

نصحك إنسان بأدب جم ، انزعجت ، انزعاجك الشديد دليل أنك ألهت نفسك ، عبدت ذاتك ، كيف يتجرأ وينصحني وأنا لي مقام كبير بالمجتمع ؟ كيف يقول لي : هذا التصرف خلاف كتاب الله ؟

أسحقه، أدمره ، أنت مشرك بهذه الحالة ، إذا أبغضت من نصحني ، ورفضت نصيحة لأنني أتوهم أنني لا أخطئ ، وهذا هو شرك .

أو إنسان في سلوكه ثغرة كبيرة جداً ، قدم لك شيئا تحبه ، تتعامى عن أخطائه ، لاحظوا الناس إذا أحسنت له لأحدهم يتعامى عن كل أخطائك ، وإذا أسأت إنسان له يتعامى عن كل ميزاتك ، ليس هناك إنصاف أبداً ، هذا الذي لا يحتمل النصيحة مشرك ، وهذا الذي يرضى عن إنسان غير مستقيم ، لكنه ينتفع منه مشرك ، الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء ، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، وأدناه أن تبغض على العدل ، و أن ترضى على الجور .

لذلك المؤمن لا تأخذه في الله لومة لائم ، والمؤمن الصادق قد يوالي من أساء إليه إذا كان مؤمناً ، وقد يتبرأ ممن أحسن إليه إذا كان مسيئاً ، يؤمن بالله .

لا تعتمد إلا على الله :

إخواننا الكرام ، إذا أردت أن تضغط الدين كله في كلمات فاقرأ قوله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

في اللحظة التي تعتمد فيها على علمك ، أو على قوتك ، أو على مالك ، أو على أسرتك ، أو على نسبك فأنت مشرك .

اعتمد أحد أغنياء اليهود على ماله فدخل إلى خزانته ، وأغلق الباب ، وصاح فلم ينتبه إليه أحد ، لأنه كثير الأسفار ، ففي النهاية قبل أن يموت جرح إصبعه ، وكتب على الحائط : " أغنى إنسان يموت جوعاً " ، كان يقرض الحكومة البريطانية .

إذا اعتمد الإنسان على ماله ضل ، وإذا اعتمد على قوته ضعف ، أما إذا اعتمد على الله يفلح .

حاجة المسلمين إلى درس بدر وحنين :

أريد أن أقول لكم أيها الإخوة : إن درس بدر وحنين تحتاجونه كل ساعة في اليوم كل يوم وكل ساعة ، تقول : أنا ، أنا مركزي قوي ، أنا حصلت أموالا طائلة بجهدي ، أنا معي معارف كثيرة ، معي هواتفهم، أي إنسان تطاول علي أتصل بأحدهم ، لمجرد أن تقع بهذا الوهم يتولى الله تأديبك ، فلا تجد معك أحداً ، وهذا التأديب من الله تأديب نافع جداً ، لمجرد أن تعتمد على جهة أرضية ، وأن تثق بها ،

وأن تنسى الله فقد وقعت في الشرك .

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

إياك أن تشرك ، إياك أن تظن أن هذه الجهة القوية المتغطرسة في إرضائها سلامتك ، وفي إغضابها شقاءك ، لا ، في إرضاء الله سلامتك ، وفي معصية الله هلاكك .

مشكلتنا في الشرك الخفي :

مشكلتنا أيها الإخوة في الشرك ، مشكلتنا ليس عندنا شرك جلي ، لو زرت العالم الإسلامي كله لا تجد من يقول : بوذا إله ، إطلاقاً ، لكن هناك شرك خفي ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((أما إني لست أقول لكم : إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ، ولكن شهوة خفية وأعمال لغير الله ، أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي))

[ابن ماجه عن شداد بن أوس]

الشرك الجلي غير موجود في عالم المسلمين ، وما مِن إنسان يقول : هذا الصنم إله ، وفي بلاد أخرى في آسيا تعبد آلهة من دون الله ، أصناماً آلهة ، لكن في عالمنا الإسلامي ليس هناك من يعتقد أن في الأرض إلهاً بالمعنى الذي عند الوثنين ، لكن عندنا شرك خفي .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي ، أما إني لست أقول لكم : إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ، ولكن شهوة خفية ، وأعمال لغيرالله))

أن ترضي فلانا ، أن تتملق فلانا ، أن تغض عن أخطاء فلان لأنه قوي ، ألا تنصحه ، أن تنتفع منه ، وأن تثني عليه ، هذا شرك .

نتائج الشرك :

1 – الخوف :

الآن أول رد فعل طبيعي ، أو أول نتيجة لازمة للشرك ، اسمعوا الآن ، أول نتيجة لازمة للشرك الخفي الخوف :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

الأمن من حق المؤمنين فقط .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

الأمن لهم وحدهم ، والله الذي لا إله إلا هو في بقلب المؤمن من الأمن ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ أية جهة تستطيع أن تنال منك ، عندك خوف ، وعندك أمن ، في التوحيد أمن ، في الشرك خوف ، لذلك :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

عذاب نفسي :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر الهموم))

[رواه َعليّ بْن مُحَمَّد، والحسين بْن عَبْد الرحمن عن ابن مسعود]

((اعمل لوجه واحد يكفك الهموم كلها))

[أخرجه ابن عدي والديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

إخواننا الكرام ، ديننا العظيم يضغط كله في كلمة واحد التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(67-73): تفسير تتمة الآية 151 ، بر الوالدين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-06-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع والستين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية التي بدأنا بها في الدرس الماضي ، وهي الآية الواحدة والخمسون بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

تذكير :

أيها الإخوة الكرام ، في الدرس الماضي بينت لكم كلمة :

(تَعَالَوْا)

وبينت أن المحرمات على نوعين ، محرمات في المطاعم ، وهي تفسد الجسم ، ومحرمات في الاعتقادات ، وفي المعاملات ، وهي تفسد النفس ، وهذه الآية متعلقة بالمحرمات في الاعتقادات وفي العلاقات .

أيها الإخوة ، وكان الحديث أيضاً عن الشرك بالله ، هذا في الدرس الماضي ، وننتقل اليوم إلى موضوع :

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

مقدمة في بر الوالدين :

أيها الإخوة ، بادئ ذي بدء كان من الممكن أن نأتي جميعاً إلى الدنيا دفعة واحدة ، وأن نغادرها دفعة واحدة ، لأن كل ما سوى الله ممكن ، ممكن أن نكون ، وممكن ألا نكون ، وإذا كنا يمكن أن نكون على ما نحن عليه ، ويمكن أن نكون على خلاف ما نحن عليه ، يمكن أن لا يكون هناك آباء وأمهات إطلاقاً، البشر جميعاً يُخلقون دفعة واحدة على وجه الأرض ، معنى ذلك أن الدرس ألغي ، و ألغي معنى قوله تعالى :

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

ولكن كما يقال : حكمة الله بليغة ، أراد الله أن نكون من أب وأم ، هذا الدرس علاقتك بالأب والأم ، أولاً بشكل مجمل ينبغي أن تكون العلاقة بينك وبين أبيك ، وبينك وبين أمك علاقة إحسان ، لا علاقة ندية ، أنت لك في التعامل التجاري علاقة ندية ، وقد تقيم علاقة مع أخيك علاقة ندية ، وهناك العلاقات لا تعد ولا تحصى ، إلا أن العلاقة بينك وبين أبيك أمك ينبغي أن تكون علاقة إحسان ، إحسان منك إليهم ، لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يحبك ، ومحبة الله عزوجل سبقت محبتك له ، لماذا ؟ لقوله تعالى:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة الآية : 54)

لأنه أحبنا خلقنا ، ولأنه خلقنا أحبنا ، هذا الحب جُسد ، وترجم بمحبة الآباء والأمهات لأولادهم ، ولا يزال قلب الأب وقلب الأم آية دالة على عظمة الله ، تتمنى أن تمرض لتصح ، تتمنى أن تجوع هي لتأكل ، تتمنى أن تخاف هي لتطمئن ، تتمنى أن تقدم لك كل شيء ، ومن دون أن تطمعك منك بشيء .

حقائق مهمة في نظام الأُبُوَّة :

الحقيقة الأولى : الأبوة آية من آيات الله :

كيف أن الكون آية من آية الله الدالة على عظمته ، كيف أن الشمس والقمر آيتان ، والليل والنهار آيتان، قلب الأم ، وقلب الأب آية ، وفي الأعم الأغلب أن الإنسان لا يعرف قيمة الأب إلا إذا أصبح أباً ، ولا تعرف المرأة قيمة الأم إلا إذا أصبحت أماً ، كيف أن المحبة والحرص والعطف والحنان من أجل أن يسعد ابنها .

أيها الإخوة ، إن صح أن الكون يدل عليه يصح أيضاً أن قلب الأم ، وقلب الأب يدل على الله ، هذا الملمح في قوله تعالى :

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

(سورة البلد)

نظام الأبوة يدلك على الله ،

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

حينما يكون ابنه كما يتمنى الأب يشعر بسعادة لا يوصف ، وهذا معنى قوله تعالى :

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)

(سورة الفرقان)

فقلب الأب وقلب الأم إلا حالات قليلة جداً وشاذة ، وهي في آخر الزمان تتفاقم ، هناك آباء ليسوا كما ينبغي ، لكن في الأعم الأغلب أي أب في كل القارات ، وفي كل العصور الأب أب ، والابن ابن .

إذاً : أول نقطة أن الله سبحانه وتعالى حينما خلقنا أحبنا ، أو أحبنا فخلقنا والليل :

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

محبة الله تجسدت ، أو ظهرت ، أو ترجمت في محبة الأم لابنها ، أو محبة الأب لابنه .

أيها الإخوة ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه الآية : 39)

إذا ألقيت عليك محبة مني ، هذا الذي ألقيت محبتك في قلبه يقدم حياته من أجلك ، لذلك ورد أن نبياً من أنبياء الله الصالحين رأى أمًّا وهي تخبز الخبز ، وكلما وضعت رغيفاً في التنور أمسكت ابنها ، وضمته وشمته ، فتعجب هذا النبي من هذا الحب ، ومن هذه الرحمة ، فقال : يا رب ، ما هذه الرحمة ؟! فكان الجواب الإلهي : أن يا عبدي ، هذه رحمتي أودعتها في قلب أمه وسأنزعها ، والقصة رمزية طبعاً ، فلما نزعت الرحمة من قلب الأم ، وبكى ابنها ألقته في التنور .

عندنا أمثلة على بعض الحيوانات ، بعض القطط تأكل أولادها إذا جاعت ، مع أنها تعطف عليهم عطفاً لا حدود له في مرحلة ما ، وبعد هذه المرحلة تأكل أولادها .

إذاً : إن رأيت أمك أو أباك يرحمانك ، ويعطفان عليك فاعلم علم اليقين أن هذه رحمة الله .

الحقيقة الثانية : محبة الأباء للأبناء طبع :

النقطة الدقيقة الثانية : أنك لم تجد في القرآن كله آية إلا آية واحدة متعلقة بالمواريث ، لكن بشكل عام لن تجد في القرآن الكريم كله آية توصي الآباء بأبنائهم ، لماذا ؟ لأن محبة الآباء لأبنائهم ، ومحبة الأمهات لأبنائهم طبع مركب في أصل خلقهم ، وهل سمعت في الأرض أن رئيس وزراء يصدر مرسوماً تشريعياً يحض المواطنين على تناول طعام الإفطار ؟ هذا كلام لا معنى له إطلاقاً ، لأن الحاجة إلى الطعام طبع في الإنسان ، لا تحتاج لا إلى قانون ، ولا إلى مرسوم ، ولا إلى أمر ، ولا إلى تفتيش ، كل واحد منا يستيقظ ، ويقول : أين الطعام ؟ ولأن محبة الآباء ومحبة الأمهات لأبنائهم طبع مركب في أصل وجودهم ، الدليل : اذهب إلى مستشفى الأطفال ، المثقفة تبكي ، والجاهلة تبكي ، والبدوية تبكي ، والمتفلتة من منهج الله تبكي ، والملتزمة تبكي ، والمحجبة تبكي ، إن كان ابنها مريضاً، كل أمهات الأرض عدا قلة قليلة جداً شاذة لا علاقة لها بهذا الحكم .

إذاً : محبة الآباء والأمهات إلى أولادهم طبع في أصل تركيبهم ، لكن بر الأبناء لآبائهم تكليف ، هكذا شاءت حكمة الله تكليف ، لما يتزوج الابن مصلحته مع زوجته وأولاده ، فإذا بر أباه فمن باب التكليف ، فمصلحته ليست مع أمه ، مصلحته مع زوجته الشابة ، أمه في سن الثمانين ، أمه عبء عليه بالميزان المادي ، لذلك في العالم الغربي الآباء والأمهات في مأوى العجزة ، لكن في العالم الإسلامي لأن برّ الأبناء بآبائهم وأمهاتهم تكليف ديني تجد أن المتقدم في السن في بلاد المسلمين في حالة نتميز بها عن كل أنحاء العالم ، بل إنه في البلاد الإسلامية عار وأيّ عار أن يدفع الابن أباه إلى مأوى العجزة ، الأب في هذه السن لا يتمنى أن يأكل ، ولا أن يشرب ، يتمنى أن يكون بين أولاده ، يتمنى أن يراهم ، عنده حاجة ، لذلك حينما قال الله عزوجل :

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

لو فتحنا المعاجم في اللغة عند(أحسن) إلى ، ليس في اللغة أحسن(بـ) بل أحسن إلى ، أما في القرآن ففعل أحسن تعد بالباء ، وهذه الباء تفيد الإلصاق ، يعني إحسانك لأبيك لا ينبغي أن يكون عن طريق السائق ، أو عن طريق الموظف إلى أو عن طريق ابنك ، ينبغي أن يكون عن طريقك شخصياً مباشرة، يجب أن تذهب أنت إليه لتقدم له الحاجة التي طلبها منك ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

يجب أن يكون إحسانك لهم لصيقاً ، لا عن طرق سائق أو عن طريق موظف في المكتب ، خذ أبي إلى نزهة ، فأنا مشغول ، خذ أمي إلى نزهة ، أنا مشغول ، لا ،

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

مشاعر الأب هي مشاعر الحب ، مشاعر العطف سعادته أن يكون عند ابنه ، لا أن يكون في مأوى العجزة ، فلو أن الخدمة في مأوى العجزة بالتعبير الفندقي خمس نجوم ، وخدمة الابن لأبيه الفقير نجمة واحدة ، أو نجمة مطموسة لتمنى أن يكون مع أولاده ، أو مع أحفاده ، من أن يكون في مأوى العجزة .

لذلك امرأة غنية جداً لها أولاد شباب ، تخاصموا على من تكون عنده ، وأصغوا إلى صوت زوجاتهم ، وكل زوجة تأففت ، لذلك وضعوها في مأوى العجزة من فئة الخمس نجوم ، فلما علمت إلى أين آلت أتت بكاتب العدل ، وكتبت كل ما تملك من أموال منقولة وغير منقولة بمئات الملايين إلى الجمعيات الخيرية عقاباً لهم على موقفهم .

فلذلك أيها الإخوة ، محبة الآباء والأمهات لأبنائهم طبع ، وأي أب ، وأيّة أم على اختلاف المشارب والاتجاهات ، والالتزام ، وعدم الالتزام ، والثقافة وعدم الثقافة واحدة ، لأنها طبع ، كيف أن كل إنسان يشعر بالجوع ويأكل ، أي إنسان ، أخي هذا مثقف لا يأكل ، لا ، يأكل هذا جاهل يأكل كثير ، لا ، كل إنسان يأكل ، مثقف أو غير مثقف ، ملتزم أن غير ملتزم ، الله عزوجل أودع في إنسان حاجة إلى

الطعام ، كذلك أودع في قلب الآباء والأمهات محبة لأولادهم ، ولو فكرت الآن تجد رجلا مصروفه بضعة آلاف هو وزوجته ، لكن كل سعيه ليدير معملا ، يدير مؤسسة ، يتحمل المشاق ، الظروف الصعبة ، البيع الضعيف ، الضرائب الكثيرة ، صعوبة التخليص ، كل هذه المتاعب من أجل أولاده ، هو عندهم يخدمهم دون أن يشعروا .

لذلك أيها الإخوة ، محبة الآباء للأبناء طبع مركب في أصل وجودهم ، بينما خدمة الأبناء لآبائهم وأمهاتهم تكليف ، مصلحته مع زوجته ، لذلك من علامات قيام الساعة الإنسان يعق أباه ويبر صديقه ، يعق أمه ويسيخ أمام زوجته ، هذه حالة واضحة ، أكثر الأمهات تشتكي أحياناً من جفاء ابنها ، مصلحة ابنها مع زوجته لا مع أمه .

لذلك الملخص أن محبة الآباء لأبنائهم ، ومحبة الأمهات لأبنائهم طبع مركب في أصل وجودهم ، بينما بر الأبناء لآبائهم وأمهاتهم تكليف .

لا بد من ملاحظة : تكاد تكون رحمة الأب بابنه أجرها قليل ، لأنها طبع ، ليست كسبية ، أما إذا اهتم بأخلاقه وبدينه فهذا هو العمل الصالح ، أما أن يهتم بطعامه ، وشرابه ، ومدرسته ، وتحصيله ، فأيّ أبٍ في الدنيا يهتم بذلك ، ويكاد يكون الأجر قليل جداً ، لأنه شيء مركب في أصل تكوينه ، وأنت تشعر أنك عملت عملا عظيمًا ، فهل إذا صليت وبكيت بكاء شديداً لأنك تناولت طعام الغذاء ؟! مستحيل ! لأن تناول الطعام طبع ، أما حينما تؤثر أباك على شيء فأنت في أمسّ الحاجة إليه ، وتقدمه له تبكي في الصلاة ، لأن هذا تكليف ، وأنت قمت بالتكليف ، وأديت الأمانة .

الحقيقة الثالثة : نظام الأبوة طريق إلى معرفة الله :

أيها الإخوة ، إذاً : أراد الله أن يكون وجودنا في الدنيا عن طريق آباءنا وأمهاتنا ، وهناك نقطة دقيقة جداً : أنت من نظام الأبوة تعرف الله ، يمكن لمخلوق يتمنى سعادتك ، يتمنى سلامتك يتمنى ، أن تكون صحيحاً ، يتمنى أن تكون غنياً ، يتمنى أن تكون متفاهماً مع زوجتك ، يتمنى أن يكون لك أولاد أبرار ، هذا حال الأب والأم ، إن دخلت الأم على أبيها ضاحكة فكأنه في جنة ، وإن دخلت البنت على أبيها باكية من زوجها فكأنه في جحيم ، هذا شعور الأب والأم ، كذلك لا تقرّ عين الأب وعين الأم إلا إذا كان الابن والبنت سعداء ، ولا يريد الأب من أبنائه شيئاً ، أحياناً يكون الأب مكتفيًا ، وضعه المادي جيد، ليس بحاجة إلى أولاده ، لكن عنده حاجة لأولاده ، لكن عنده حاجة إلى سلامتهم وسعادتهم .

الحقيقة الرابعة : علاقتك الابن مع الوالدين إحسان محض :

شيء آخر ، نحن عندنا في اللغة حرف عطف ، حرف العطف يقضي المشاركة ، وليس مقبولا في اللغة أن تقول : اشتريت أرضاً مساحتها ألف دنم وملعقة ، لا تناسب بينهما ، تقول : اشتريت أرضاً وبيتاً ، أرضاً ودكاناً ، أرضاً ومزرعة ، بيتاً ومركبة ، لابد في العطف من التناسب ، الآن فإذا قال الله عزوجل :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

(سورة الإسراء الآية : 23)

إنّ أعلى عمل تقوم به أن تعبد الله ، بل إن سر وجودك في الأرض أن تعبد الله ، بل إن علة وجودك في الأرض أن تعبد الله .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

فإذا بالإحسان إلى الوالدين يرتفع إلى مستوى عبادة الله ،

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

إذاً علاقتك مع أبيك وأمك ينبغي أن تكون إحساناً محضاً ، وكل ابن يشكو لي أباه ، لي كلمة أرددها من ثلاثين عامًا : أدِّ الذي عليك ، واطلب من الله الذي لك ، لا تربط برّك بأبيك بموقفه منك .

الحقيقة الخامسة : بطولة الأب في محبة أبنائه له :

لكن أقول لكم حقيقة لعلها من أدق حقائق هذا اللقاء وهذا الدرس : كل أب محترم في بيئتنا ، وفي ثقافتنا ، وفي ثقافة المؤمنين ، الأب محترم ، محسن أو مسيء ، منصف أو ظالم ، الأب محترم ، كل أب محترم ، لكن الأب الذي يحبه الله هو الأب المحبوب ، فرق كبير بين أن يحترم ابنك ، وبين أن يحبك ، إن أحبك فأنت محسن إليه .

((رحم الله والدا أعان ولده على بره))

[أخرجه أبو الشيخ <ابن حبان> في الثواب عن علي]

بطولتك كأب لا أن يقدم لك ابنك آيات التبجيل والاحترام ، والخضوع ، ويقبل يدك صباحاً ومساء ، بطولتك كأب أن يذوب قلب ابنك محبة لك ، وأن يتمنى بقاءك ، أن يتمنى حياتك ، لا أن يستعجل موتك، لا إن إذا جاء الطبيب ، وقال له : قضية عرضية يتألم أشد الألم ، يريدها قاضية ، لذلك الأب البخيل يكره الأبناء بقاءه ، ويتمنون موته ، وكذا الأب القاسي ، علامتك أبوتك أنك إذا دخلت إلى البيت كان البيت عيداً ، وإذا خرجت من البيت كان مأساة ، أما الأب الظالم فإذا خرج من البيت صار البيت

عيداً ، وإذا دخل إلى البيت ارتبك البيت ، وكلٌّ آوى إلى غرفته ، وابتعد عن أبيه ، فبطولتك لا أن تُحترم ، فكلّ أب محترم ، بطولتك أن تُحب .

((أفضل كسب الرجل ولده))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي برزة بن نيار]

أعظم عمل أن يكون ابنك استمراراً لك ، لذلك قال الله تعالى :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور الآية : 21)

كل أعمال ذريتك في صحيفتك يوم القيامة ، لذلك كل واحد منكم متاح له أن يصل إلى الجنة عن طريق تربية أولاده ، كل واحد منكم بإمكانه أن يصل إلى الجنة فقط عن طريق تربية أولاده .

الحقيقة السادسة : على الأبناء الإحسان إلى الوالدين لا عبادتهما :

لكن حينما قال الله عزوجل :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

تبيّن أن هناك فرقًا كبيرًا بين العبادة وبين الإحسان ، والعبادة طاعة .

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

[أخرجه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري]

وأحد أكبر الصحابة الكرام سيدنا سعد ابن أبي وقاص ، تقول له أمه : يا سعد ، إما أن تكفر بمحمد ، وإما أن أدع الطعام حتى أموت ، قال : يا أمي ، لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد ، فكل إن شئتِ أو لا تأكلي ، ثم أكلت بعد لك ، ليس هناك مساومات في الدين ،

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

لكن لو أمر بمعصية فلا ينبغي أن تنفجر عليه ، قال :

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

(سورة لقمان الآية : 15)

حتى لو أمرك بمعصية ، حتى لو أمرك بالشرك ينبغي أن تكون متلطفاً معه برفضك ، لذلك زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : أن أمي مشركة أفأصلها ؟ قال : صليها ، فأنت مكلف أن تبر أمك وأباك ، مؤمنين ، غير مؤمنين ، منصفين ، غير منصفين ، قاسيين رحيمين ، أدِ الذي عليك واطلب من الله الذي لك .

أيها الإخوة ، إذاً العبادة شيء والإحسان شيء آخر ، أمرك أن تطلق زوجتك وزوجتك مؤمنة ، محجبة ، صادقة ، تحبك ، وتؤدي واجبها تجاهك ، أريد أن أطلقها لا أقدر لأن أبي أمرني

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

وكل واحد يطلب مني هذا الطلب أن ينفذ أمر والده بتطليق زوجته يحتج أن سيدنا عمر أمر ابنه أن يطلق زوجته ، فطلقها ، أقول له بجوابي على هذا السؤال : إن كان أبوك عمر فطلقها ، أبوك ما له عمر ، لا يمكن أن يأمر عمر ابنه بتطليق زوجته إلا لحكمة بالغةٍ بالغة .

فلذلك تطلق ، أوامر الأمهات أحياناً والآباء في القسوة على الزوجات كثيرة جداً فإن كانت زوجتك صالحة فعاملها بأرقى معاملة ولو أن الأب أو الأم غضبت عليك ، لا غضب لها في هذا المعنى ، لكن ليس من الحكمة أن تبالغ في مدح زوجتك أمام أمك أو أمام أبيك لئلا تُتهم أنك مستسلم لها ، ليس من الحكمة ، كيفها يا بني ؟ والله ما شي الحال نصيب هذا ، هذه منتهى الحكمة ، أما أن تبالغ في مدحها ليلاً نهاراً ، يظنان أنك همت بها ، وليس عيباً أن تهيم بزوجتك ولكن قلب الأم أحياناً لا يحتمل ، أنت لها في الأصل ، فإذا بامرأة تأخذ قلبك منها .

إذاً العبادة شيء ، والإحسان شيء آخر ، من تكريم الأب في القرآن الكريم أنه لا يجوز أن يُقتل الابن أمام أبيه ، ولو كان مجرماً ، الدليل أن سيدنا نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما أغرق الله ابنه قال :

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

(سورة هود)

لأن قلب الأب لا يتحمل ، لا قلب الأب ، ولا قلب الأم ، لذلك مرة بجنين دخل جندي إسرائيلي إلى بيت ليقتل الابن الشاب ، ولما علم الأب أنه لا بد من قتله رجا الجندي أن يقتله خارج البيت ، وأبى الجندي إلا أن يقتله أمام أبيه ، وهو يتناول طعام الإفطار ، وأطلق عليه رصاصة فأرداه قتيلاً أمام أمه وأبيه وأخته ، أخته ملتزمة ومحامية ، وكلما سمعتُ هذه القصة أدعو لها أن يقبل اجتهادها ، ماذا فعلت؟ في اليوم التالي ارتدت ثيابًا يصعب أن توصف ، فاضحة ، ثيابًا ضيقة ، وقصيرة ، وضيقة ، وعطور ، وأمسكت بمحفظة ، وانتقلت من جنين إلى تل أبيب إلى حيفا ، ودخلت إلى مطعم ، وفجرت مَن في المطعم ، وكان في المطعم قائد البحرية وأولاده وأحفاده ، لأن الأخت لم تحتمل أن يُقتل أخوها أمامها ، هناك قواعد ، لذلك :

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ)

وأنا أدعو لها دائماً أن يقبل الله اجتهادها ، لأنها لم تستطع أن تتحمل هذا القهر .

أيها الإخوة ، فليس من البر أن يقول لك أبوك : طلق زوجتك ، أو لو أمرك بمعصية ، البر شيء ، والعبادة شيء آخر ، العبادة لله ، والبر للوالدين ، البر أن تطعم أباك وأمك ، أن تهيئ لهما الظروف ، في الشتاء يحتاجون إلى معاطف ، إلى تدفئة ، إلى طعام ، أما أن يقلبا حياتك جحيماً فهذا غير مقبول

منهما ، أن يقلبا حياتك جحيماً من أجل نزوة عندهما فهذا شيء غير مقبول أبداً ، لأن أكثر الأبناء والله أيها الإخوة ، وأنا لا أنطلق من فراغ ، أنطلق من قصص واقعية ، هو متفاهم مع زوجته 100 % ، إلا أن تدخل الأب والأم أحال البيت جحيماً لا يطاق ، إذاً :

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

لكن الرد ينبغي أن يكون لطيفاً ومهذباً ، وفيه تسديد وتقريب ، قال الله عزوجل :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)

(سورة الإسراء الآية : 23)

الحقيقة السابعة : الإحسان إلى الوالدين عند حاجتهما لذلك في الكبر :

من السهل جداً أن تبر أباك الشاب ، القوي ، الغني ، ليس بحاجة إليك ، بحاجة إلى مودتك ، إلى سلام، إلى زيارة فقط ، لكن لا سمح الله ولا قدر أب مُقعد في البيت ، وهو عندك في البيت ، وله طلبات كثيرة، والإنسان مع تقدمه في السن قد يصاب بالتخلف الفكري الخرف ، لكن أنا أسأل الله لي ولكم أننا إذا كنا في طاعة الله ألا نخرف ، لأنه من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال :

((بادروا بالأعمال سبعا : هل تنتظرون إلا فقرا منسيا ؟ أو غنى مطغيا ؟ أو مرضا مفسدا ؟ أو هرما مفندا))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة]

الهرم يقابله خرف أحياناً ، فكلما جاء ضيف يقول هذا الأب أو الأم : لا يطعمونني ، يفضحهم ، والقصة يعيدها مليون مرة ، ويتدخل تدخلا لا يحتمل ، لذلك البطولة لا أن تبر أباك وهو صحيح ، قوي شاب ، غني ، البطولة أن تبر أباك وهو عندك في البيت ، واسأل أيّ أب الآن : كم ولدًا عندك ؟ يقول لك : عندي خمسة أولاد ، لكن اسأله وهو في الخامسة والثمانين أين هو ساكن ؟ عند ابني ، كان أولاده عنده فأصبح عندهم ،

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ)

كبير في السن ، طلباته صعبه ، أدويته كثيرة ، حاجاته غير معقولة ، له أسئلة كثيرة ، تعليقات ، والذي نشأ عليه في الثلاثينات يجب أن يلتزم به مَن هم في التسعينات ، هذا لا يصح ، علموا أولادكم ، وأدبوهم فإنهم خلقوا لزمن غير زمنكم ، وكثير من الآباء مع تقدمهم في السن الذي نشأ عليه في العشرينات يريد أن يلزم ابنه أن يطبقه بعد ثمانين سنة ، هذا شيء غير معقول ، فكلما وجدت أبًا مرنًا أعطى أولاده حرية في شؤون لا علاقة لها بالدين إطلاقاً فهذا جيد ، الآن أكثر المشكلات بين الأم وبين

زوجة الابن أنه يجب على الزوجة أن تنفذ تعليمات الأم التي نشأت عليها قبل عشرين أو خمسين عامًا، هناك معطيات جديدة ، وأساليب بالحياة جديدة ، وأكلات معينة ، وترتيب معين ، لذلك كل ما كان الأب والأم ظلمها خفيفاً على أولادهما ازدادت محبة الأبناء للآباء .

إذاً :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)

لذلك أحياناً يكون الأب عند أحد أولاده ، الأبناء الآخرون يتمتعون بحرية ، وبرضا الأب ، لأنه ليس بينهما احتكاك أبداً ، أما الابن الذي عنده أبوه فهو في مشكلات كثيرة معه ، في طعامه ، وشرابه ، وضيوفه ، وغرفته ، لذلك البطولة أن تحتمل ، وأنا أؤكد لكم أن الابن البار بأبيه يمكن أن ينال عند الله مكانة كبيرة جداً .

أنا أذكر أن أخًا ظهر في إصبع رجل أبيه سواد ، فعرضوه على طبيب فقال : لا بد من قطع إصبعه فوراً ، له خمسة أولاد ، الأربعة أولاد قالوا : قضاء وقدر ، ماذا نفعل ؟ حسبنا الله ونعم الوكيل ، إلا أن ولده لم يرضَ أن تقطع إصبع أبيه وتألم ، ورجا الطبيب حتى علا صوته ، الطبيب احترمه ، قال له : والله هناك حل ، لكن هذا نجاحه بالمئة عشرة ، قال له : ما الحل ؟ قال له : ستة أشهر صباحاً ، وظهراً، ومساء يحتاج إلى أدوية وتطهير بالماء ، ومواد معينة ، قال له : أنا أقوم بذلك ، فالابن بيته بالمزرعة ، والأب في المهاجرين بالجادة الخامسة ، والابن موظف ، فكان يستيقظ باكراً جداً ، ويذهب إلى أبيه الساعة السابعة ، ويؤدي الواجب بتنظيف إصبع رجل أبيه ، والظهر يأتي ، والمساء يأتي ، وبعد ستة أشهر شفي الأب ، ولم يحتج إلى قطع إصبعه ، والابن والله شيء لا يصدق ، مع أن دخله محدود ، ووضعه صعب فتح الله عليه ، شيء لا يصدق ، وأنا لا أعرف واحدًا بار بوالديه إلا الله أغناه، أغناه وأكرمه .

((ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه))

[أخرجه الترمذي عن أنس]

والذي عق أباه عقه أولاده ، والذي بر أباه بره أولاده ، والقضية دين ، فكما تعامل أباك في الأعم الأغلب يعاملك أبناءك .

إذاً :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

(سورة الإسراء الآية : 23)

ما معنى أف ؟ اسم فعل مضارع ، أتضجر ، إذا قال لك : بس ، اسم فعل أمر اكتفِ ، حي على الصلاة اسم فعل أمر أقبل ، عندنا في اللغة أسماء أفعال ، لا هو اسم ، ولا هو فعل ، الصيغة اسم ، المعنى فعل ، عندنا اسم فعل ماضي ، وعندنا اسم فعل مضارع ، وعندنا اسم فعل أمر ، فحي على الصلاة أقبل ، اسم فعل أمر ، أف ، اسم فعل مضارع ، أتضجر ، زفير مسموع ، لو أن في السلوك سلوكا أقلّ من أف لقاله الله ، لا أقل منه ، أف ، الزفير مسموع ، أنت متضجر ، بعض العلماء حملوا على أف أكثر من ثلاثين حالة .

((ما بر أباه من شد طرفه إليه))

[رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ، وابن مردويه ، عن عائشة]

هذه مثل أف ، أو من أغلق الباب بعنف أمام أبيه ، من مشى قبل أبيه ، لا تمشِ أمامه ، ولا تجلس قبله، ولا تستسب له ، لا تسبب أن يسب الأب من أجلك .

((فلا تَمْشِ أمامَهُ ، ولا تَسْتَسِبَّ لَهُ ، وَلا تَجْلِسْ قبْلَه))

[رواه ابن السني، عن أبي هريرة رضي الله عنه]

لذلك :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

(وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً)

(سورة الإسراء)

وأنا أقول دائماً للأبناء الذين امتحنهم الله بمرض آبائهم : الأب فاكهة مولية ، فإذا قمت بواجبك خير قيام متعك الله في حياتك .

أيها الإخوة ، الآية الكريمة :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

أيضاً العطف يقتضي التشابه ، يعني كيف أن الشرك ، النهي عن الشرك والأمر بالإحسان للوالدين ، لكن دائماً أحب أن أفرق ، أن الإحسان شيء والطاعة شيء آخر ، وإذا رفضت أمراً لأبيك فينبغي أن ترفضه بلطف ، وبتواضع ، وبابتسامة ، وبرجاء ،

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

فكل عملك مع الأب إحسان ، وكذا مع الأم .

والفرق بين إكرامك لأبيك أو أمك ، وبين إكرام الأب لابنه فرق كبير ، أنت تكرمهما ، وتتمنى في حال المرض العضال أن يخفف عنهما ، أليس كذلك ؟ ولو في قلبك تكرمهما ، لكن في أعماقك تتمنى أن يخفف الله عنهما ، وهناك أبناء غير مهذبين يسمعون هذه الكلمة لآبائهم ، لكن أباك وأمك حينما كانا يكرمانك يتمنون حياتك ، وفرق كبير بين هذا وذاك .

وقد ورد أن صحابياً جليلاً كان يجلس أمام النبي عليه الصلاة والسلام وعنده ابن جميل الصورة ، كان يضعه على كتفيه ، ابنه على كتفيه أمام النبي الكريم ، النبي إنسان عظيم ، أُعجب بهذه المحبة ، فسأله مداعباً : أتحبه ؟ الصحابي الكريم بأعلى درجات الأدب قال : يا رسول الله ، أحبك الله كما أحبه ، أحبه حباً شديداً ، بعد يومين غاب الصحابي عن مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فتفقده ، وسأل عنه، فقيل له : لقد مات ابنه ، فاستدعاه ، وعزاه ، وقال له : قال يا فلان ، أيهما أحب إليك أن تمتع به عمرك ؟ يعني أن يكبر ، وهو ظلك ، ورفيق حياتك ، ومتفوق بالدراسة ، وبار بك ، ومحسن ، وفهيم ، ونجيب ومعك دائماً إلى أن تغادر الدنيا ؟ أيهما أحب إليك أن تمتع به عمرك ، أو أن يسبقك إلى الجنة ؟ فأيهما أحب إليك ؟ قال : بل الثانية ، قال : هي لك ، أرأيت إلى حكمة النبي عليه الصلاة والسلام كيف عالج هذه الحالة ؟ .

طلبٌ وأمنية :

إذاً :

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

والذي أتمناه عليكم أن ينقلب هذا الدرس إلى سلوك ، أنت حينما تبر أمك وأباك فأنت في أعلى رجات القرب من الله ، لأنهما سبب وجودك ، فالذي كان سبب وجودك ينبغي أن يكون ولاءك لهما .

إذاً بر الآباء والأمهات عمل عظيم ، بل من أرقى الطاعات لله عزوجل ، والقصص الكثيرة التي تروى عن أناس نجحوا نجاحاً باهراً في الدنيا بفضل دعاء والديهم لهم ، والأب لا يملك إلا أن يدعو لك بالتوفيق ، والنصر ، والتأييد ، والقصص مرة ثانية التي تتحدث عن بر الأبناء ، وعن توفيق الله لهم ، وعن حفظهم له لا تعد ولا تحصى .

ورد في بعض الآثار القدسية :

((أن الله يسأل عبدين من عباده يوم القيامة ، أن يا عبدي ، أعطيتك مالا فماذا صنعت فيه ؟ قال: يا رب ، أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي أنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين ، فقال : عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك ، ولما سأل الثاني قال : يا عبدي ، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال : لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي فقال : إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم))

[ورد في الأثر]

ما معنى هذا الكلام ؟ حينما يتوهم الابن أن بر أبيه بمعصية الله فهو مخطئ ، وأن الأب حينما يتوهم أن خدمة ابنه بمعصية الله مخطئ الابن

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(68-73): تفسير تتمة الآية 151 ، أحسنوا تربية أولادكم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-06-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثامن والستين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الواحدة والخمسون بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ :

أيها الإخوة ، القسم الثالث من هذه الآية في قوله تعالى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

الإنسان له أصول وله فروع :

الحقيقة في القسم الذي سبق هذا القسم :

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

الإنسان له أصول وله فروع ، وأخطر علاقاته بعد علاقته بربه ، علاقته بأصوله وفروعه ، أخطر علاقة بعد علاقته بربه الذي خلقه الذي منحه نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، أخطر علاقة بعد علاقة الإنسان بربه علاقته بأصوله ، وعلاقته بفروعه ، فأصوله هم سبب مجيئه ، وفروعه ثمرته ، يسعد بهم أو يشقى بهم ، طبعاً بالدرجة الثالثة تأتي علاقته بأهله زوجته ، ثم بإخوته وأخواته ، يبدو أن نظام التكافل في الإسلام أساسه أسري ، لأن كل إنسان لا بد من أنه أتى من أب وأم، وأنجب أولاداً ، فينبغي أن تكون علاقته بالذي كان سبب وجوده علاقة إحسان ، الله عز وجل منحك نعمة الإيجاد ، وأبوك وأمك كانا سبب وجودك ، لذلك :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

(سورة الإسراء الآية : 23)

رفع الله بر الوالدين إلى مستوى عبادته ، لكن العبادة شيء ، والبر شيء آخر ، العبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، لكن العلاقة بالأم والأب علاقة إحسان ، لا طاعة عبادة لأنه :

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت]

أما العلاقة بالأبناء فهي أخطر علاقة بعد علاقتك بالله ، لماذا ؟ لأن أمك وأباك قدر لك ، لا تستطيع أن تصلحهما على التأكيد ، لكن تستطيع أن تحسن إليهما ، قد يكون الأب سيئاً ، وقد تكون الأم سيئة ، أدِ الذي عليك ، واطلب من الله الذي لك ، لكن علاقتك بأولادك علاقتك بمصيرك في الدنيا والآخرة ، لأنك تسعد بسعادتهم ، وتشقى بشقائهم ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أفضل كسب الرجل ولده))

[أحرجه الطبراني في الكبير عن أبي برزة بن نيار]

ابنك امتداد لك :

إن الإنسان يفنى ، لكن الإنسان مع أنه يفنى فُطر وجُبل على وجوده ، وعلى حب سلامة وجوده ، وعلى حب كمال وجوده ـ الآن دققوا ـ وعلى حب استمرار وجوده ، فالإنسان يدرك أنه سيموت ، يتمنى أن يكون له ذرية ، يحيى اسمه من بعده من خلالها ، وأكثر الأسر في العالم الإسلامي حينما ينجب الابن ابناً يسمى باسم أبيه تخليداً لذكره ، فالإنسان يحقق استمرار وجوده من خلال أولاده ، لذلك ترابط الأب مع الابن ترابط عجيب ، الأب يسعد بسعادة أولاده ، ويشقى بشقائهم ، كيف أن الله عز وجل قال :

(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)

(سورة طه)

في قواعد اللغة الأصل : فتشقيا ، لكن القرآن بليغ ، شقاء الزوج شقاء حكمي لزوجته ، كذلك شقاء الابن شقاء حكمي للأب والأم .

والله أيها الإخوة ، تأتيني اتصالات هاتفية من أم لمحت من ابنها انحرافاً ، أقسم لكم بالله تكاد هذه الأم تموت من الألم ، أو لمحت من ابنها زغياً في العقيدة ، أو ميلاً إلى ترك الدين ، أشعر أنها تكاد تموت من الألم .

لا يمكن أن تسعد إلا إذا كان ابنك كما تتمنى ، لا يمكن أن تسعد إلا إذا كان ابنك امتداداً لك ، ليس معنى هذا أن ينشأ كما نشأت ، أدبوا أولادكم وعلموهم ، فإنهم خلقوا لزمن غير زمنكم .

الآن هناك كمبيوتر ، ومعطيات جديدة ، والأب العاقل كلما ازداد عقله يتفاعل مع المعطيات الجديدة ، فلا يلزم ابنه أن ينشأ على طرق جديدة عفا عليها الزمان ، لكن لا يمكن أن تسعد ولك أولاد منحرفون ، لا يمكن لك أن تسعد ولك أولاد زاغت عقيدتهم ، وشكوا في دينهم ، لا يمكن أن تسعد وللأولاد سمعة سيئة ، شيء يقلق ، ولا يعرف هذا إلا الآباء والأمهات ، يهتز كيانهم ، يتزلزل كيانهم ، يتمنى أن يموت ، وأن لا يرى أن ابنه أنكر هذا الدين ، أو قد ترك الصلاة ، أو ترك الحج ، أو ترك الصيام ، يتمنى أن يموت ، ويرى ابنه لا يعبأ بالقيم الإسلامية .

فلذلك أيها الإخوة ، لا يمكن أن تسعد والابن منحرف عن منهج أبيه ، أو عن منهج الإسلام إن صح التعبير .

هذا الذي دعا بعض العلماء ، وقد كنت في مؤتمر في لوس أنجلوس بأمريكا ، إلى أن يقول : إن لم تضمن أن يكون ابن ابن ابنك مسلماً فلا يجوز أن تبقى في هذه البلاد .

والله أيها الإخوة ، عُقِد مؤتمر طبي في دمشق ، أكثر المؤتمرين من أمريكا وهم من هذه البلدة الطيبة ، وألقيت فيهم كلمة بمناسبة عقد زواج بنت أحد هؤلاء الأطباء ، وقلت هذه الكلمة التي قالها بعض العلماء في مؤتمر في أمريكا : إن لم تضمن أن يكون ابن ابن ابنك مسلماً فلا يجوز أن تبقى في هذه البلاد ، بعد انتهاء الكلمة تقدم مني أحد الأطباء ، والله دمعته على خده ، وقال : ابن ابْن ابني ؟! قلت له : نعم ، قال : ابني ليس مسلماً .

والله مرة في المؤتمر نفسه تقدمت مني امرأة محجبة ، وقالت لي : إنني أخت فلان ، وفلان صديقي ، وفلان صديقي ، قلت لها : أهلاً وسهلاً ، أجهشت بالبكاء ، قلت : خير إن شاء الله ؟ قالت : بنتي تحب الرقص ، وابني ملحد .

والله أيها الإخوة ، من خلال زياراتي وسفرياتي ألتقي ببعض الإخوة المؤمنين الكرام الذين أقاموا في بلاد بعيدة ، والله يكاد قلبهم يتقطع حينما يرون أولادهم ليسوا على ما ينبغي أن يكونوا عليه ، قال لي أحدهم في أستراليا : كلما قلت لابني : يا بني ، هذا عيب يقول له : وأي عيب ! ما معنى عيب ؟! حرام، وأي حرام ؟! لا يجوز ، وأيّ لا يجوز ؟! ما عنده لا حرام ولا حلال ، يعبدون شهوتهم من دون الله .

فلذلك إن سافرت إلى بلاد الشرق والغرب ، والتقيت بالجاليات الإسلامية رأيتَ حياتهم ناعمة جداً ، دخل فلكي ، بيوت جميلة ، مركبات فارهة ، كل الحاجات التي تريدها تأتيك بالهاتف ، لكن إذا ذكرت لهم أولادهم تحس أن القلب يتقطع من شدة الألم .

لذلك كما ينبغي أن تكون مع من كانا سبب وجودك محسناً ، ينبغي أن تكون مع ذريتك مربياً ، كي تسعد بهم في الدنيا ، ولحكمة أرادها الله عز وجل جعل مكافئة الآباء الذين ربوا أولادهم تربية صالحة ، هذه المكافئة يأخذون أقساطًا منها في الدنيا ، فقال تعالى في الدعاء القرآني :

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)

(سورة الفرقان)

مرة قلت لهم في بلاد أمريكا في محاضرة ألقيتها في بعض المؤتمرات ، قلت لهم هكذا : لو بلغت منصباً كمنصب كلينتون ، وجمعت ثروة كأناسيس ، وهو من أغنى أغنياء أمريكا ، وحصلت مرتبة علمية ، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس .

لذلك هذا الدرس متعلق بالأبناء ، كيف أن الدرس الذي مضى بفضل الله عز وجل كان موضوعه الآباء ، اليوم الدرس متعلق بالأبناء ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أفضل كسب الرجل ولده))

علم صناعة قادة الأمة :

وإليكم حقيقة هي ملخص علم مستحدث اسمه علم صناعة القادة الأمة فيها عشرون مليونًا ، ما الذي يحركها ، ويقودها من مستوى إلى مستوى ؟ ما الذي يحل مشكلاتها ؟ ما الذي يرسخ بعض المبادئ فيها ؟ النخبة ، هؤلاء النخبة هم القادة ، سمهم إن شئت نجوم المجتمع ، أناس متفوقون في العلم ، في الجامعات ، في القيادة العسكرية ، في القيادة السياسية ، في الدعوة إلى الله ، هؤلاء اسمهم قادة المجتمع، هناك قائد اقتصادي ، وقائد سياسي ، وقائد عسكري ، وقائد ديني ، هذا العلم المستحدث اسمه علم صناعة القادة .

زارنا ضيف إلى الشام متخصص في علم صناعة القادة ، وله اسم كبير في الخليج ، الشيء الذي أبلغنا إياه ، ويكاد لا يصدق أن صناعة القيادة في الصغار تبدأ من السنة الأولى ، وتنتهي في السنة السابعة ، وقال بالحرف الواحدة : وبعد هذه السن العوض في سلامتكم .

كل جهدك ينبغي أن يتركز من السنة الأولى ، وحتى السابعة ، لأن معظم القيم ، ، معظم المبادئ ، معظم العادات ، معظم أساليب الحياة ، معظم أساليب النظافة ، أساليب الترتيب ، كل شيء تطمح أن يكون في ابنك لا يركز فيه إلا في هذه السنوات السبع الأولى ، وبعد هذا شيء لا يصدق .

كنت مرة في مؤتمر في ماليزيا ، معنا صديق أحد رؤساء الوفود العربية ، دخلت عليه مرتين أو ثلاثًا إلى غرفته ، شيء عجيب ، منظمة تنظيمًا جيدا ، تمنيت أن أرى حاجة في غير مكانها ، وعمره سبعون سنة ، غرفته مرتبة ترتيبًا يفوق حد الخيال ، سألته : قال لي : هذا تعودناه في المدرسة الداخلية في السنة الخامسة ، فلا يمكن أن يلقي ثيابه هكذا ، يخلعها فينظمها ، ويعلقها ، لا تجد في غرفته حاجة في غير مكانها ، مع أنه مسافر ، وما عنده ضيوف ، بينما إذا دخلت غرفًا أخرى وجدتَها لا تحتمل من الفوضى ، كل ما تطمح إليه من مبادئ ، من قيم ، من أساليب حياة ، حتى النظافة ، حتى الترتيب ،

حتى الأناقة ، حتى التجمل ، حتى العناية بالصحة ، حتى طريقة الأكل ، أكثر الناس الذين يعانون من أوزان زائدة جداً ، لأن هناك خطأ في طعامهم في السن المبكرة .

يا أيها الآباء اعتنوا بأبنائكم :

فلذلك أيها الإخوة ، أنا أخاطب الشباب الآن ، أخاطب الشباب ، إن لم يعتنوا بأولادهم عانوا الكثير ، وأقسم لكم بالله إنه لم يبقَ في أيدينا من ورقة رابحة إلا أبناؤنا الوحيدة ، ولم يبقَ بأيدينا ورقة أخرى ، اعتنِ بابنك ، ائتِ به إلى المسجد ، أنا أتألم أشد الألم من أب وجد ابنه قد تعثر في الدراسة فأخرجه منها، جعلته جاهلاً ، هذا سوف يعمل ليلاً نهاراً ، ولا يحصل طعامه ، يُستغل .

أنا أتمنى أن تهتم بتربية ابنك ، بتحصيله الدراسة في الدرجة الأولى ، لأنه كلما تقدم الزمان تعقدت الأمور ، ولا مجال لإنسان غير مثقف ثقافة عالية ، أو لا يتقن حرفة عالية ، أبداً ، الآن بمسابقات تعيين الحُجّاب الآذن يجب أن يحمل شهادة كفاءة ، حاجب من أجل التنظيف ، لا بد من شهادة ، لأنه لسبب تافه أن تخرج ابنك من المدرسة ، وأن تجعله يعمل بسن مبكرة ، ألا تحب أن يكون ابنك شيئاً مرموقاً في الحياة ؟ أنا أدعوكم من أعماق أعماقي إلى أن تعتنوا بأولادكم وبناتكم ، والله هناك أعمال أراها من شباب مؤمنين متفوقين لا تصدق .

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ

لذلك الدرس اليوم للأولاد ، يجب أن تجعل عنايتك بأولادك في أولى اهتماماتك :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ)

القتل بالمعنى الواسع :

كلمة(قتل) قد تأخذ معنى محدود جداً ، وقد تأخذ معنى واسعًا جداً ، المعنى المحدود كان الجاهليون قبل الإسلام يأتون ببناتهم إلى ظاهر مكان خيامهم ، ويحفرون بالرمل حفرة ، والفتاة كالوردة في ريعان طفولتها وتألقها ، توضع في هذه الحفرة ، ويُهَال عليها الرمل إلى أن تموت ، لذلك هذه الحادثة تقطع القلب ، حتى إن الله عز وجل يقول :

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير)

أما النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءته فاطمة الزهراء ، ضمها وشمها وقال :

((ريحانة أشمها وعلى الله رزقها))

[ورد في الأثر]

هذا موقف النبي الكريم ، لذلك :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ)

المعنى الضيق جداً أن العرب في الجاهلية كان يئدون بناتهم ، أما خوف الفقر أو خوف العار ، الآن المعنى أوسع بكثير أنت حينما لا تعبأ بدين ابنك ، تريد منه أن يكسب المال فقط ، ولا تعبأ لا بدينه ، ولا بتوجيهه ، أنت بمعنى أو بآخر قتلته ، أو فتنته ، والله عز وجل يبين أن :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة الآية : 191)

فتاة ترتدي ما تشتهي ، ثيابًا فاضحة ، تثير غرائز الشباب ، تستمع إلى كلمات مؤذية جداً ، وقد تُستدرج فتقع بالفاحشة ، ويعلم الأب ، ما الذي يحصل ؟ والله حينما تؤتى بالأب ليأخذ ابنته من قسم الشرطة لأنها ضُبطت في بيت الدعارة ، ما الذي يحصل له ؟ يكاد يموت .

لذلك حينما يموت الطفل هناك حديث لطيف جداً ، أن النبي عليه الصلاة والسلام رأى صحابياً من أصحابه الذين يحبهم ، وقد وضع ابنه على كتفيه أمام النبي الكريم النبي هكذا ، النبي لفت نظره هذا الحب ، فسأله مداعباً أتحبه ؟ فقال هذا الصحابي الجليل : أحبك الله كما أحبه ، وبعد أيام افتقده النبي ، سأل عنه فإذا ابنه قد مات ، هذا الذي كان يضعه على كتفيه ، فاستدعاه النبي الكريم ، وعزاه ، وقال له: يا فلان ، أيهما أحب إليك أن تمتع به عمرك ؟ يكبر معك دائماً ، بار ، ذكي ، حصل شهادات عليا ، أديب ، زواجه ناجح ، عمله ناجح ، كظلك تماماً لا يفارقك لحظة ، دائماً بخدمتك ، قال له : أيهما أحب إليك أن تمتع به عمرك ، أو أن يسبقك إلى الجنة ، فأي أبوابها فتحها لك ؟ قال : بل الثانية ، فقال : هو لك .

إذا مات ابن الرجل وهو صغير فلا مشكلة ، دخل إلى الجنة ، لأنه قبل التكليف ، أما المشكلة فأن يكبر ابنه ، وقد اعتنق الإلحاد ، أن يكبر ابنه ، وقد ألف الزنا ، أي يكبر ابنه ، وهو يحتال على الناس ، أن يكبر ابنه ، وهو ولد عاق ، يهم أن يضرب أباه ، هذه المشكلة .

لذلك الآلام التي تنبع من قلوب الآباء والأمهات حينما لا يربون أبناءهم تربية إسلامية صحيحة لا تحتمل .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ)

القتل بالمعنى الضيق هو الوأد ، وبالمعنى الواسع أن تدله على عمل فيه فساد ، أماكن موبوءة ، محلات تجارية كل روادها من النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات ، أنت لا تهتم بأخلاقه أبداً،

أتيح له عمل في هذا المحل ، هذا المحل يقضي على دينه ، هذا المحل قد يجره إلى الزنا ، هذا المحل قد يجره إلى رفقاء السوء ، فأنت حينما لا تعبأ بدين ابنك ، ولا باستقامته ، ولا بمصيره فأنت قد قتلته بالمعنى الواسع ، لأن الله عز وجل قال :

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)

(سورة عبس)

يعني مات ، هو حي ، قوي ، شديد ، عتيد ، نبضه جيد ، ضغطه جيد ، لكنه عند الله قُتل ،

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)

(سورة البروج)

قد يأخذ القتل معنى المادي الضيق هو الوأد ، وقد يأخذ معنىً آخر ، فحينما لا تهتم إلا بدخل كبير يأتي به ابنك فهذا أمرٌ خطير .

الآن هناك مَن يدفع ابنته للتسول ، وإن لم تأتِ مساءاً بمبلغ يضربها ، وقد تزل قدمها في أثناء التسول، هذا الذي يحصل ، فهذا الذي يهمل أولاده وبناته كأنه بمعنى موسع قتلهم وهم أحياء .

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

أحياناً يقنعونك أن ابنك لابد له من دورة في اللغة الإنكليزية ، وأن ترسله إلى بريطانيا ، فكرة جيدة جداً ، وأنا أدعوكم جميعاً إلى تعلم اللغة الإنكليزية ، ولا يمكن أن نتعامل مع الغرب إلا بإتقان لغتهم ، وقد كنت في مؤتمر في القاهرة قبل شهر ، والذي قاله أحد المؤتمرين : لا يمكن أن تعيش أمة وحدها الآن ، الحياة متواصلة متداخلة ، العالم كله أصبح غرفة واحدة ، ولا يمكن أن تحسن التعامل مع الطرف الآخر إلا بإتقان لغتهم .

عقب الرسوم التي رسمها الرسام الدانماركي ، والتي شوه فيها صور رسول الله عليه الصلاة والسلام، ذهب علماء ثلاثة إلى بلاد الغرب ليجروا بعض المحاضرات حول عظمة هذا النبي الكريم ، عالمان تكلما بالعربية ، وأبدعا والله ، لكن هناك مترجم ترجم كلمة كلمةً ، والثالث تكلم بطلاقة ما بعدها طلاقة بالإنجليزية ، تأثير الثالث أقوى من الأول والثاني بكثير .

فلذلك أيها الإخوة ، علموا أولادكم اللغة الإنكليزية ، سأل أحدهم شيخًا قال له : سيدي هل تعلم اللغة الإنكليزية حرام ؟ قال له : NO .

لكن ما الذي يحصل ؟ يرسل ابنه إلى بريطانيا وحده ، يلحقه بأي أسرة فيها تفلت شديد ، يعود وقد زنا، وألِف الزنا ، أتقن اللغة الإنكليزية ، وصار زانيًا ، هذه مشكلة .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ)

أنا أريد واحدًا لغته قوية حتى يرسل لي مراسلات ، وأخلاقه ؟ ودينه ؟ وآخرته ؟ واستقامته ؟ .

هذه الآية دقيقة جداً ، كأن الله عز وجل وصف أن الذي يهمل تربية ابنه كأنه قتله ، والله قال :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ)

الإملاق هو الفقر .

عندنا :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

(سورة الإسراء الآية : 31)

(خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

الفقر المتوقع ، أما :

(مِنْ إِمْلَاقٍ)

فهو الفقر الواقع ، فعندنا فقر واقع ،

(مِنْ إِمْلَاقٍ)

وعندنا فقر متوقع ، الفقر الواقع :

(نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

أحيانا يضع إنسان ابنته في محل تجاري ، شابة في مقتبل حياتها مثلاً ، لا أحارب عمل المرأة ، من حقها أن تعمل ، لكن وفق الضوابط الإسلامية ، لكن ليس أي عمل صالح للمرأة ، هناك عمل فيه اختلاط ، فتاة شابة في ريعان الشباب بين شباب ، ومع الرجال ساعات طويلة ، فيها حديث ، ومغازلة، وتعليقات ، وكلمات ملغومة ، وطرف جنسية مثلاً ، وهي فتاة ، وأجمل ما في الفتاة أنوثتها ، وبراءتها، أما حينما تختلط تفقد أنوثتها ، وتفقد براءتها ، من أجل تحصيل مبلغ بسيط جداً ، لكنك ضحيت بأثمن ما تملكه الفتاة ،

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ)

أنا ألاحظ كيف كان يجب أن يعلم ابنته بوظيفة ، بين رجال ، تناسب ، ما تناسب ، بمكان لا يليق ، يليق ، يجب أن يعينها ، بمكان بعيد بالمحافظات الشمالية الشرقية ، وحدها من دون محرم ، هذا لا يصح ، الفتاة وحدها مطموع بها ، وهناك قصص والله انتهت إلى سمعي لا تصدق ، كيف ترسل ابنتك وحدها إلى أماكن بعيدة ؟ تنام في غرفة وحدها ، وحولها ذئاب ،

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ)

درس خاص مع مدرس شاب ، أحيانا هناك حسن ظن ، هذا ليس حسن ظن ، البنت شابة بالحادي عشر ، والمدرس شاب ، ووحدهم بغرفة ، أريدها أن تأخذ علامات عالية بالبكلوريا ،

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ)

أنا أتكلم من واقع ، أنا لا أتكلم من فراغ ، أتكلم من قصص تحصل في هذه البلدة تحت ظل درس خاص ، وظيفة بمكان ناءٍ ، مثلاً ، أحياناً وظيفة فيها اختلاط شديد ، وظيفة في هيئة لا تقدم النافع للناس في برامجها ، تجد فتاة في ريعان الصبا ، والشاب أحياناً كذلك ،

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ)

وأحياناً من أجل تأمين دخل إضافي نؤجر غرفة بالبيت لإنسان ، وفي البيت نساء ، وأنت تغيب عن البيت كثيرًا ، والأم مشغولة عند الجارة ، بقي في البيت البنات وهذا المستأجر وحدهم ، والخلوة خطيرة جداً .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ)

بدافع تأمين دخل إضافي ، تأمين دخل للفتاة ، تأمين دخل للشاب ، لا يهمك نوع العمل ، ملابسات العمل ، ظروف العمل ، الجو العام بالعمل ، هذا خطأ كبير ، هذا توجيه لنا ، والله معي آلاف القصص، ترفع إلي بحكم عملي بالدعوة ، شيء لا يحتمل ، في المعامل مشكلات ، في الدوائر مشكلات ، في الرحلات مشكلات ، رحلة لشباب وشابات لمدة ثلاثة أيام ، مثلاً ، هل تعلم ما سيكون في هذه الرحلة ؟ هذه ابنتك ، وهي أغلى شيء تملكه ، أنا آتي بأمثلة من واقع الحياة ، ومن واقع ما يعرض في بعض مواقع المعلوماتية ابنتك من واقع الصحافة السورية في دمشق ، مِن جرائم ، كل هذا بسبب عدم اهتمام الآباء ، المهم أن تأتي بدخل ، المهم أن توظف .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

إخواننا الكرام ، قال الله عز وجل :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ)

(سورة الروم الآية : 40)

الرزق ضمنه الله عز وجل ، لكن في حدود حكمته البالغة ، قد يكون الرزق محدودًا ، وقد يكون الرزق كبيرًا ، لكن الله عز وجل ما دام قد خلق لنا فماً لنأكل به رزقنا ، والفعل ماضي ، أنت تماماً لو أرسلت ابنك إلى مكان بعيد ، وأرسلت له حوالة بمصروفه لسنواته الأربع مجتمعة حتى يطمئن ،

(نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

وأناس كثيرون يجهضون نساءهم بدافع أن الدخل محدود ، والله أنا 35 سنة ما أفتيت مرة بالإجهاض، ولو كان ضمن الفتوى الضعيفة في أربعين يومًا ، لأن هذا هدية من الله ، وقد يكون هذا المولود أعظم أولادك وأقربهم إلى الله ، وقد يكون عالمًا كبيرًا ، أو داعية كبيرًا ، فإياك أن تفعل هذا ، والآية الكريمة:

(نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

الإنسان أعظم الموارد :

الآن إخواننا الكرام ، هناك بحث دقيق جداً في علم الاقتصاد ثبت أنه عندنا موارد ، عندنا موارد طبيعية ، بلاد فيها بترول ، فيها فوسفات ، فيها ذهب ، فيها ثروات طبيعية ، هذه موارد طبيعية ، أحياناً عندك معبر مائي استراتيجي ، مثل قناة السويس ، هذا مورد أيضاً ، الموارد أنواع ، لكن ثبت الآن أن أعظم هذه الموارد الإنسان ، لذلك الصين بعدما قننت الإنجاب ، وألزمت بولد واحد الآن وجدوا أنه أكبر مورد بشري هو الإنسان ، لذلك عدلوا سياستهم ، وسمحوا بولدين أو أكثر .

إخواننا الكرام ، إلا أن الإنسان كمورد بشري إما أن يكون عبئًا عليك ، أو أن يكون مع أوراقك الرابحة ، بشرط أن تعلمه ، وأن تطلق يديه ، يكون فيه الإبداع الكبير ، أما إذا كان إنسانًا جاهلا ، وقيدته صار عبئًا عليك ، لذلك الآن العالم الغربي يحارب المسلمين في موضوع الإنجاب ، لأن العالم الغربي تناقص سكانه سنوياً ، والإحصائية الدقيقة بالنسبة إلى سكان العالم في عام 1996 كانوا 15 % في عام 2004 كانوا 10 % متوقع عام 2020 يكونوا 5 % ، لذلك النمو السكاني في العالم الإسلامي خاصة ، والدول النامية عامة يعد أكبر خطر استراتيجي على العالم الغربي ، لذلك اخترعوا لنا مؤتمر السكان ، هذه المؤتمرات عقدت بتوجيه منظر للسياسة الغربية ، أراد أن يخفض الإنجاب في العالم الإسلامي ، إذاً مؤتمر السكان يحرص لا على زواج تقليدي بين رجل وامرأة ، لأنه بين رجل وامرأة هناك إنجاب ، وولد ، أما بين امرأة وامرأة فليس بينهما ولد ، وكذا بين رجل ورجل ، لذلك التشجيع الآن الأول للزواج الشاذ ، هذه أمرٌ أول .

الشيء الثاني : السماح بالإجهاض من دون قيد ، أو شرط ، بتوصيات هذه المؤتمرات تتوجه طالبة في الحادي عشر إلى مستشفى حكومي ، وتجري عملية إجهاض دون أن تُساءَل : من أين هذا الولد ؟ هذا أهم توصية بمؤتمرات السكان ، الإجهاض الآمن غير المسؤول ، رفع سن الزواج إلى الأربعين ، والسماح للشباب بالممارسات الجنسية في بيوت آبائهم ، وأي أب يعترض يسجن ، شيء لا يصدق ، وتكاد تخرج من جلدك ، هذه مؤتمرات السكان ، أنا ألقيت كلمة في القاهرة بهذا الموضوع ، هذا الرد على النمو السكاني في العالم الإسلامي بخاصة ، وفي العالم النامي عامة .

فلذلك الأولاد طاقة بشرية ، فإذا علمت ابنك ، وربيته فهو أكبر ذخر للأمة ، الآن البشرية بحاجة إلى طاقة بشرية .

لي قريب سافر إلى أمريكا لزيارة أخيه ، فإلى جانب بيت أخيه في أمريكا بيت ، لاحظ الأخ الزائر أن بيت الجار فيه ثياب صغار ، توقع أن عنده أولادًا ، بعد أيام حدثتْ بينهما زيارة ، فسأله : كم ولدًا عندك؟ قال له : ما عندي أولاد ، قال له : عجيب ، أنا لاحظت ثياب صغار ، قال له : هذه ثياب الكلب.

ففي العالم الغربي انكماش شديد للإنجاب ، لذلك هذا الذي أتته خثرة دماغية ، والذي لم يمت إلى الآن، قال : غلبناهم بالصواريخ ، وغلبونا بغرف النوم .

إذاً المورد البشري طاقة كبيرة جداً ، لكن بشرطين : أن تعلمه ، وأن تطلق يده .

أيها الإخوة الكرام :

نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

قبل أن توافق ابنتك على وظيفة هل تعلم ملابسات هذه الوظيفة ؟ هل تعلم أخطار هذه الوظيفة ؟ أنا مع عمل المرأة ، من حقها أن تعمل ، وفي الضوابط الإسلامية ، لكن هناك أعمال لا ترضى أنت عنها إطلاقاً ، ولا يرضى عنها أي إنسان .

إذاً :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ)

الرزق بيد الله عز وجل ، ولا ينال ما عند الله بمعصية الله .

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد لما رجا ، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أنس]

لا بد من الثقة بالله :

نحن أيها الإخوة ينقصنا أن نثق بالله ، الآن قبل ما يزوج ابنته يتوقع أن تطلق بعد ما تزوجت ، لو طلقها زوجها تحتاج إلى وظيفة ، يتوقعون الطلاق قبل الزواج ، يتوقعون أن إخوتها يتخلون عنها ، وليس لهم دلائل على ذلك ، العبرة أن تأتي بالمال ، لعل الأمثلة غلبت على الفتيات ، لكن الذكور لهم مثل هذا ، بأي عمل العبرة أن يأتيه بالمال .

لذلك مرة سرق ابن بيضة ، وجاء بها إلى أمه فقبّلته ، وأكبرته على عمله ، فاستمرأ السرقة ، إلى أن حُكم عليه بالإعدام ، طبعاً أموره تفاقمت ، والقصة وقعت في الشام ، وهناك شاعر أنشد قصيدة ، هذا قبل أن يشنق طلب أمه ، فجاءوا له بأمه ، فقال : يا أمي ، مدِّي لسانك كي أقبّله قبل أن أموت ، فإذا به يقطع لسانها ، ويقول : لو لم يكن هذا اللسان مشجعاً لي بالجرائم ما فقدت حياتي .

فالأم أحياناً يكذب ابنها فتدافع عنه ، يأتي بشيء ليس له فتقول : صار ذكيا ، هذه أم مجرمة .

والله مرة امرأة من كندا أسلمت ، زوجها صديق لي ، قال لي : وهي ماشية مع ابنها في كندا ، أعطته قطعة سكر ، لها غلاف ، غلاف شفاف صغير ، أكلها ، بعد 300 م قالت له : أين وضعت الورقة ؟ قال لها : رميتها ، رجعت معه 300 م ، قالت له : خذها ، وضعها في الحاوية .

فالأم والأب لهم دور كبير جداً في تربية الأولاد ، نحن المشكلة الأولى نحتاج إلى مال ، إذاً ندفع أولادنا إلى أعمال فيها مشكلات .

والله حكي لي أخ عن صديق له ، الأب كان مسافر ، والأم بعثت بابنها للعمل في محل تجاري ، لكن غير مضمون الأخلاق ، افترسه ، ألف الانحراف والشذوذ طوال حياته ، التقيت مع الشاب 26 سنة بهذا الشذوذ ، سببه أن الأم أرسلت ابنها إلى محل تجاري ليعمل هناك من دون بحث ، من دون تمحيص ، من دون دراسة .

فأنا أتيت بأمثلة كثيرة للشباب والشابات ، الآباء حينما يهملون تربية أولادهم ، ويحرصون على أعمالهم تدر عليهم بالمال الوفير ، تنطبق عليهم هذه الآية :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

أما الآية الثانية :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً)

(سورة الإسراء)

الابن والبنت سبب لدخول الجنة :

إخواننا الكرام ، الذي عنده بنت ، واسمعوا ما أقول ، يمكن أن تكون هذه البنت سبباً وحيداً في دخولك الجنة ، والذي عنده ابن ورباه تربية عالية ، أتى به إلى المسجد ، تصابى له ، أكرمه ، لكن هناك أب بالبيت مخيف ، جبار ، كلامه قاسٍ ، ضرب ، وكلام بذيء ، وسباب ، لماذا هذا الكلام ؟ صار الجو متوترًا ، وهناك أب يدخل إلى البيت يصبح البيت عيدا ، يضع أولاده في حضنه ، يقبلهم ، يداعبهم ، يركبون على ظهره ، هكذا النبي كان يفعل ، لا آتي بشيء من عندي ، كان يمتطي الحسن والحسين على ظهر النبي .

((من كان له صبي فليتصاب له))

[أخرجه ابن عساكر عن معاوية]

كان يخطب عليه الصلاة والسلام فدخل ابن بنته ، وتعثر ، ونزل من على المنبر ، وحمله ، وتابع الخطبة ، حمله على يده ، علمنا ، كان إذا مر في الطريق قال : السلام عليكم يا صبيان ، كان يجري معهم أحياناً ، يتسابق معهم ، هذه عظمة النبي الكريم ، هذا ابن يريد مودة ، يريد محبة ، يريد قلبًا كبيرًا، يريد عطفًا ، يريد إكرامًا ، لذلك الذين يفرحون الصغار لهم مكان بالجنة خاص ، أنت لست قانعًا باللعبة ، لكن هذه اللعبة عند ابنك عالم قائم بذاته ، لا ينام الليل من فرحه ، لعبة صغيرة ، هناك أناس يهتمون باللعب ، والنبي سمح باللعب ، وهي مستثناة من التماثيل ، هذه التحف ائتِ بها إلى البيت .

والله لي صديق أنجب سبع بنات ، كلما تأتي بنت يقيم حفلاً تكريميًا لأمها ، وهدايا ، وأساور ، حتى يشعر أن البنت عندي غالية ، جاءه سبع بنات ، وما أنجب الذكور .

إخواننا الكرام ، الدرس الماضي كان عن الآباء ، والدرس الحالي عن الأبناء تسعد بأبنائك ، وتشقى بهم ، اعتنوا بأولادكم ، وأولادنا الورقة الرابحة الوحيدة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(69-73): تفسير تتمة الآية 151، القتل بغير الحق
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-06-30

بسم الله الرحمن الرحيم

ثلاثة دروس من الآية :

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع والستين من دروس سورة الأنعام ، ولا زلنا مع الآية الواحدة والخمسين بعد المئة ، وقد أخذنا منها دروسًا ثلاثة .

الآية :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً)

الدرس الأول : الشرك :

كان الدرس الأول لهذه الآية عن الشرك بالله الجلي والخفي .

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

الدرس الثاني : بر الوالدين :

كان الدرس الثاني عن بر الوالدين .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

الدرس الثالث : رعاية الأولاد وتربيتهم :

وكان الدرس الثالث عن رعاية الأولاد وعن تربيتهم ، واليوم ننتقل إلى الدرس الرابع من هذه الآية ، وقوله تعالى :

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

دع بينك وبين الفواحش هامش أمان : وَلَا تَقْرَبُوا

أيها الإخوة الكرام ، النقطة الدقيقة الأولى هي قوله تعالى :

(وَلَا تَقْرَبُوا)

وهذا كلام خالق الأكوان ، الخبير ، العليم ، الصانع ، المبدع ، الخالق ، المربي ، المسيّر ، ينهانا لا عن أن تقترف الفواحش ، لا ، ينهانا عن أن نقترب منها ، فإذا قال الخبير : لا تقرب .

إنسان يحمل دكتوراه في الكهرباء فصمم خط توتر عالي ، يضع لوحات بعيدة عن الخط ، يقال للمواطنين : لا تقربوا ، التوتر عالٍ ، لأن هذا الخط فيه قوة جذب ، في ما علمت سابقاً أنه ثمانية أمتار، لو دخل إنسان إلى حرم الأمتار الثمانية جذبه التيار ، وأصبح فحمة سوداء ، فلابد من إعلانٍ على الشكل التالي : ممنوع الاقتراب إلى التيار ، أما إذا كتب أحد الجهلة : ممنوع مس التيار يكون أحمق ، لأنه يموت قبل أن يمسه .

فإذا قال خالق الأكوان ، ورب الأرض والسماوات ، خالق البشر ، الخبير ، العليم

(لَا تَقْرَبُوا)

أي دع بينك وبين الفواحش هامش أمان .

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة الآية : 187)

أنا أؤكد لكم أن ألف إنسان وقع في الفاحشة 90 % حينما وقعوا في الفاحشة لم يكونوا أصلاً يرغبون أن يقعوا في الفاحشة ، لكن لأنهم اقتربوا منها ، فكان هذا القرب آخذًا بيدهم إلى الفاحشة ، تماماً كصخرة مستقرة في أعلى الجبل ، إذا أردت أن تدفعها إلى منحدر الجبل فلن تستقر إلا في قعر الوادي، أما أن تقول : أنا أدفعها من أجل أن أبعدها عن قمة الجبل 100 م فقط ، لا تستقر إلا في قعر الوادي ، هذا كلام الخبير .

لذلك ورد في الأناجيل للسيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام : أنه ليس الشريف الذي لا يقترف الخطيئة ، بل هو الذي يهرب من أسباب الخطيئة ، إذاً :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

(سورة الإسراء الآية : 32)

إطلاق البصر :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

صحبة الأراذل :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

الخلوة بأجنبية :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

إراءة القصص الإباحية :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

متابعة المسلسلات الماجنة ، فأيّ شيء تقترب منه ، هذه الشهوة قوية جداً تجذبك إليها .

يقال كلام طويل حول كلمة :

(لَا تَقْرَبُوا)

يعني دع بينك وبين الفاحشة هامش أمان ، الفاحشة معصية ، لكن هناك معصية إذا انتشرت لا تعد فضيحة ، لكن يبدو أن الفواحش إذا انتشرت بين الناس تعد فضيحة، شيء تستحي به ، الإباحية ، والانحلال خلقي ، والزنا ، والخيانة الزوجية ، وأكل المال الحرام ، والسرقة ، هذه كلها فواحش ، بمعنى أنها إذا انتشر خبرها كان فضيحة ،

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ)

إذاً كأن الخالق يبين أن لبعض الشهوات قوة جذب كبيرة ، فالبطولة أن تبتعد عنها وأن تبقي بينك وبينها هامش أمان .

مال اليتيم :

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

(سورة الإسراء الآية : 34)

الحسم ليس بالحسابات والصناديق ، ضع مالك في صندوق ، ومال اليتيم في صندوق ، وهناك حسابات، أما مالك اختلط مع مال اليتيم ، والحسم في الحسابات ، إذاً أنت اقتربت من مال اليتيم ، فإذا

أنفقت نفقة لك ، ولم تسجلها ظننت أنك أفقتها على مال اليتيم ، فتحسبها من مال اليتيم ، فأنت اقتربت من مال اليتيم .

لذلك دقق في كل آية فيها نهي ، ومع النهي اقتراب ، أيّ دع بينك وبين هذه المعصية هامش أمان .

كنت أصف هذه المنطقة الخطرة التي فيها خط أحمر كأنها شاطئ نهر عميق مخيف ، الشاطئ مائل زلق ، وفي له شاطئ مستوٍ جاف ، فإذا سرت على الشاطئ المستوي الجاف فأنت في بر الأمان ، أما إذا سرت على الشاطئ المنزلق المائل فأنت في مظنة السقوط ، لذلك هناك أماكن لا تصلح للمؤمنين ، ولو كان مطعمًا ، أ و مقصفًا ، هذا المكان لا يصلح للمؤمنين ، نساء كاسيات عاريات ، وأغنيات تصدح ، ولعب النرد ، ونظرات مشبوهة ، هذا المكان إذا حضرت فيه فكأنك اقتربت من المحرمات ،

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ)

كلمة :

(لَا تَقْرَبُوا)

يعني دع بينك وبين المعصية ، ولا سيما التي إذا انتشرت أصبحت فضيحة ، دع بينك وبينها هامش أمان ، صحبة الأراذل أنت خرقت هذه المنطقة المحرمة ، الخلوة بالمرأة الأجنبية خرقت هذه المنطقة الآمنة ، فكل الأشياء التي تُقرب إلى الزنا ، ينبغي أن تبتعد عنها ، ينبغي أن تبتعد عن كب أسباب الزنا ، لذلك لم نجد في القرآن الكريم كلمة لا تزنوا ، لكن هناك آية :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

هذا المعنى الأول .

الفواحش الظاهرة والباطنة :

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

الزنا فاحشة ظاهرة ، والسرقة فاحشة ظاهرة ، وشرب الخمر فاحشة ظاهرة ، فإذا جلست على طاولة تدار فيها الخمر قد يقول لك صديقك : ذق جرعة واحدة ، وتأكد أنها ممتعة ، مثلاً ، فأنت إذا اقتربت ربما زلت قدمك ، لذلك البطل الذي يبتعد عن أسباب المعاصي والآثام ، بل يبتعد عن أسباب الفواحش ،

(مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

وهناك معاصٍ ظاهرة لا يختلف عليها اثنان ، وهي في كل الشرائع السماوية ، الزنا فاحشة ظاهرة ، والسرقة فاحشة ظاهرة ، وشرب الخمر فاحشة ظاهرة ، والعدوان ، والسرقة والنهب ... إلخ .

لكن :

(وَمَا بَطَنَ)

هناك فواحش لا تقلّ خطراً عن الفواحش الظاهرة ، وهي أخطر من الفواحش الظاهرة ، لأن الفواحش الظاهرة ظاهرة ، يمكن أن تتوب منها ، أما الفواحش الباطنة كالكبر ، كالاستعلاء ، كالحقد ، كالتعالي ، كالغطرسة ، كالشعور بالفوقية ، أو أن يشعر الإنسان ولو كان مستقيماً أن الناس هَلَكَى ، هو وحده الناجي ، هذا الشعور في القرآن الكريم ، وعند خالق الأكوان فاحشة باطنة ، وأسهل ألف مرة أن تتوب من الفاحشة الظاهرة من أن تتوب من الفاحش الباطنة ، لأن الذي يقترف الفواحش الباطنة يظنها كمالات ، ويظنها سموًّا وترفّعًا .

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)

(سورة الأنعام الآية : 120)

أحياناً ترى إنسانًا مستقيمًا ، لكن لا يعاشَر ، متكبر ، متعجرف ، هو محور العالم ، وأيّ إنسان آخر دونه ، أو أحياناً ينتمي الإنسان إلى جماعة ، يُسقط عليها من الكمالات ما لا يوصف ، وأيّ إنسان ليس من هذه الجماعة يحتقره ، هذه فاحشة باطنة.

لذلك كلما تأدبت مع الله كلما تواضعت ، فالله عز وجل يقول :

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

الفواحش الباطنة أخطر ، كبائر القلوب أكبر من كبائر الجوارح ، الفاحشة الظاهرة ما تقترفه الجوارح ، العين تزني ، وزناها النظر ، الأذن تزني ، وزناها سماع ما لا يحل لك سماعه ، اليد ترتكب فاحشة باللمس ، أو بالضرب ، والرجل ترتكب فاحشة بالسير إلى المحرمات ، واللسان يرتكب فاحشة بذكر العورات ، فالفواحش الظاهرة تقترفها الجوارح ، بينما الفواحش الباطنة يقترفها القلب .

قد تجد إنسانًا وديعاً متواضعاً مطواعاً للآخرين ، متسامحًا ، منصفًا ، يعترف بالخطأ بسهولة ، يعتذر ، يطلب العفو ، يقدم كل ما عنده للآخرين ، ترتاح له ، وهناك إنسان متكبر ، جعل نفسه محور العالم ، كل إنسان يصغره ، يحقره ، يزدريه ، يبني مجده على أنقاض الناس ، يبني غناه على فقرهم ، لذلك نعوذ بالله من الفواحش الباطنة ، الذي يرتكب الفواحش الباطنة لا يُحتمل ، ولا يُحب .

كنت أقول دائماً : إنك قد تكون أباً ، وفي ثقافة المسلمين أن الأب محترم ، لكن بطولة الأب لا أن يكون محترماً فحسب ، بل أن يكون محبوباً ، وقد تكون مدير مؤسسة ، مدير مستشفى ، مدير ثانوية ، عميد كلية ، معك صلاحيات ، لك مكانة ، لك صلاحيات لك أن تمارسها ، لكن بقسوة ، بعنف ، بكبر ، باستعلاء ، بتوبيخ قاسٍ ، لا تُحب ، فالبطولة لا أن تكون قوياً ، بل أن تكون محبوباً ، لذلك من أدق ما وصف الله ذاته :

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

بقدر ما هو كريم بقدر ما هو جليل ، وهذه بطولة أن تكون محبوباً بقدر ما تكون مرغوباً ، فلذلك :

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

فضائح الناس جنسية أو مالية :

أقول لكم بصراحة : إن كل فضائح أهل الأرض من آدم إلى يوم القيامة مبعثها نوعان من الخطأ ، خطأ في كسب المال ، كالسرقة ، والاختلاس ، فاتورة مزورة ، مبلغ وهمي ، أو فضيحة جنسية ، فضيحة مالية أو فضيحة جنسية ، وبطولة المؤمن أنه أغلق هاتين الثغرتين ، لذلك هذا واضح في حساباتك .

أنا أقول لكم : كل إنسان حساباته تثير حوله جدلاً كثيراً ، وضح الحسابات ، بيّن ، وكل إنسان يثير شبهة حول علاقته بامرأة .

لا بد مِن وضوح في كلِّ شيء :

النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق ، وحبيب الحق ، وفوق الشبهات ، ومع ذلك فقد روى البخاري ومسلم عَنْ صَفِيَّة بِنْتِ حُيَيٍّ قَالَتْ :

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا ، فَحَدَّثْتُهُ ، ثُمَّ قُمْتُ لِأَنْقَلِبَ ، فَقَامَ مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي ، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ ، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلَى رِسْلِكُمَا ، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ ، فَقَالَا :

سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ !! قالَ : إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا))

[متفق عليه]

وضح ، بيّن اكتب عقدًا ، صدق هذا العقد ، اكتب وصلا ، صدق هذا الوصل ، لا تكن تحت رحمة حلف اليمين ، الآن هناك آلاف القضايا في المحاكم بغير سند ولا وصل ، ولا شهود ، ولا يمين حاسمة، لك مع إنسان 200 ألف ، هذا الإنسان دِينه رقيق ، فإذا حلف لم يأخذ منك شيئاً ، سماها القاضي يمينًا حاسمة ، ذهب حقك كله ، خذ إيصالا دائماً ، كن في بَر الأمان .

مرة سيدنا معاوية بن أبي سفيان سأل أكبر دهاة العرب سيدنا عمرو بن العاص قال له : يا عمر ، ماذا بلغ من دهائك ؟ قال له : والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه ، قال له : لست بداهية ، أما أنا والله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه ، أنت تدخل وتحسن الخروج ، أنا لا أدخل أصلاً . هذه بطولة في الإنسان ، حساباته دقيقة ، مصدقة ، أمّا حسابات غير واضحة متفرقات 100 ألف ، كيف متفرقات مئة ألف ؟ ما هذه متفرقات ؟ أين الإيصال ؟ أنا أنصح إخوتي الكرام بعلاقاتكم التجارية، بعلاقاتكم المالية ، أي اتفاق شفهي ثبته .

ثمة قصة أرويها : في أيام ضعف التعليم الخاص ، فالمدارس أصبحت قيمتها متدنية جداً ، في مدرسة على وشك الإغلاق بيعت بثمنٍ بخس ، مبلغ بسيط جداً ، اتفق اثنان على شراء المدرسة ، فدفع الأول مبلغًا بسيطًا جداً ، ودفع الثاني مبلغاً مساوياً له ، واستمر العمل ، بعد شهر أو شهرين أو ثلاثة أرسل مبلغ بسيط من الأرباح ، فرح به ، مبلغ ثانٍ ، مبلغ ثالث ، ثلاثة مبالغ تساوي رأس ماله ، بعد هذا ما دفع ، التعليم صعد ، صدقوا فروغ المدرسة من بضع عشرات من الآلاف إلى بضعة ملايين صار ، فلما طالبه قال له : أنا أخذتهم قرضًا منك ، وقد سددته لك ، هو شريكه في الأساس ، من غير وثيقة ، ولا عقد ، دائماً حصن نفسك بإيصال وبعقد مصدق .

لذلك النقطة الدقيقة :

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

(وَمَا بَطَنَ)

الكبر ، الاستعلاء ، الشعور بالفوقية ، أنه أنت لا تخطئ ، ومن حولك يخطئ ، وأيّ إنسان أراد أن يظهر تحطمه ، تبخس مكانه .

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

إخوانا الكرام ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا))

[البخاري]

الفرق بين القتل والموت :

سأوضح لكم الفرق بين القتل والموت :

أحياناً بلورة الكهرباء ، إذا حطمتها تنطفئ ، لماذا تنطفئ ؟ لأنك حينما حطمتها أفسدت الخصائص التي بإمكانها أن تستقبل التيار الكهربائي ، البلورة مفرغة من الهواء ، وفيها سلك رفيع جداً موصول بالتيار الكهربائي ، أنت حينما حطمتها ، وقطعت السلك لم تعد صالحة لاستقبال الكهرباء ،(هذا هو القتل) أما الموت فانقطاع التيار الكهربائي عن البلورة ، سُحبت الروح ، فالموت انقطاع الإمداد ، هذا موت ، أما تحطيم العضوية فهذا قتل ، لذلك :

((لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا))

خطورة القتل وعاقبته الوخيمة :

وسوف تعلمون علم اليقين أنه ما من قطرة دم تراق في الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا ويتحملها إنسان يوم القيامة ، يمكن أن تقصف بيتًا فيه عرس ، مات 125 ، مدنيون لا علاقة لهم بالأحداث إطلاقاً ، فالذي قصفهم أخطأ خطأ كبيرًا ، لكنه يستطيع أن يقول : لقد صدر من هذا البيت إطلاق نار فقصفناه ، غطى نفسه في الإعلام ، أما عند الواحد الديان فسوف يحاسب عن كل قطرة دم ، حينما تهدم بيتاً فوق أصحابه ، ويموت عدد كبير ، كل واحد مات منهم سوف يحمل دمه من أمر بالقصف . والله أيها الإخوة ، لو نطلع على عدل الله المطلق والله لارتدعت فرائصنا قبل أن ندوس على نملة ، لا أن تقتل إنساناً .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا))

[أخرجه أحمد في مسنده والبخاري ومسلم وابن ماجة عن أبي هريرة في صحيح البخاري]

وصدقوا أيها الإخوة ، أنني لا أستطيع أن أتصور إنسانًا يأمر بقتل أناس مدنيين لم يقترفوا ذنباً ، كيف ينام في الليل ، كيف يأتيه النوم ؟ لكن هؤلاء تبدلت أحاسيسهم ، انطمست فطرهم .

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ)

النفس مطلقة ، هناك كائن مخلوق ممنوع أن تقتله ، و مخلوقات سمح لك النبي أن تقتلها كالحية ، والعقرب ، لكن الحية والعقرب تُقتل إذا خرجت من مخبئها ، لأن مكانها تحت الأرض ، ولها مهمة دقيقة جداً ، والحديث عن مهمات الحيوانات التي تعيش تحت الأرض حديث يطول ، لولا هذه الحيوانات لما كانت زراعة ، لأن تهوية التربة شيء أساسي في الزراعة ، والله عز وجل خلق هذه الكائنات كي تحدث أنفاقاً في التربة فتهوي التربية ، لكن أما تقتلها في مكانها الطبيعي ، فهذا خطأ كبير، أما إذا خرجت عن منطقتها التي سمح الله لها أن تقيم فيه فهذا ذنب ارتكبه هذا المخلوق . لذلك القتل لا يختص بالإنسان ، القتل يُعمم على كل مخلوق ينبغي ألا تقتله ،

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

من بالحق ؟ القاتل يقتل ، من يتحمل دم المقتول بحد ؟ الله جل جلاله ، الله عز وجل يتحمل كل دم أهرق تنفيذاً لحد شرعي ، فالمقتول إذا كان قاتلاً من يتحمل دم القاتل حينما يُقتل ؟ الله جل جلاله ، لذلك الحديث مرة ثانية :

((لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا))

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

تعاهد قلبك :

إخواننا الكرام ، قضية ما ظهر وما بطن ، الداخل شيء خطير جداً ، سيدنا عمر رضي الله عنه يقول : تعاهد قلبك ، قد يكون إنسان بالظاهر شيء رائع ، طليق اللسان جميل الصورة ، ويدع ، لطيف ، ذكي اجتماعياً ، أما إذا كان في الداخل حقد ، ومؤامرة ، وكيد وازدواجية ، ومعايير متنوعة يستخدمها ، هذا عنده كبائر باطنة ، وعنده فواحش باطنة ، فلذلك مشكلته صعبة جداً .

والإنسان بالمناسبة بقدر اتصاله بالله يطهر قلبه من كبائر الباطن ، القسوة من كبائر الباطن ، من فواحش الباطن ، القسوة ، وأقسى القلوب أبعدها عن الله عز وجل .

((وإن أبعد الناس من اللَّه القلب القاسي))

[رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما]

فالقسوة ترافق الانقطاع عن الله ، والرحمة توافق الاتصال بالله ، في آية أنا أعدها معادلة رياضية ، كيف ؟

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

يعني يا محمد بسبب اتصالك بنا استقرت في قلبك رحمة منا ، اشتققتها من اتصالك بنا هذه الرحمة انعكست ليناً عندك ، هذا اللين جعل الناس يلتفون حولك ، أرأيت القانون ؟ اتصال ، رحمة ، لين ، التفاف ، فإذا كنت منقطعاً عنا امتلئ القلب قسوة ، وترجمت القسوة غلظة فانفضى الناس من حولك ، المعادلة ، اتصال ، رحمة ، لين ، التفاف ، انقطاع قسوة ، غلظة انفضاض .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

الاتصال بالله والقسوة تناقضان لا يجتمعان :

أحياناً تركب مركبة تجد عدادين ، عداد السرعة ، وعداد دورة المحرك ، في الأعم الأغلب المؤشران يتحركان معاً ، إلا إذا كانت السيارة واقفة وقوفا تاما ، وفصلت المحرك عن العجلات ، وضغطت على البنزين يتحرك مؤشر دوران المحرك ، أما في أثناء السير في الأعم الأغلب المؤشران يتحركان معاً . أنا أقول لكم إذا كان للرحمة مؤشر ، وللإيمان مؤشر يتحركان معاً ، عداد الإيمان مع عداد الرحمة يتحركان معاً ، وأنا لا أصدق إنسانًا موصولاً بالله قاسيًا ، لا أصدق إنسانًا موصولاً بالله لا يرحم ، لا أصدق إنسانًا موصولاً بالله يقسو ، أبداً .

مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ :

النبي عليه الصلاة والسلام أرسل خادمه بحاجة وغاب كثيراً ، والنبي بشر أخذه من الغضب الشريف ما أخذه ، فلما عاد هذا الغلام قال له :

((لولا القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

[رواه ابن سعد عن أم سلمة]

معه كان سواك عليه الصلاة والسلام :

((لولا القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

في قلبه رحمة ، هؤلاء الذين أمر بقتلهم بعد فتح مكة ، عفا عنهم في الأعم الأغلب ، لمجرد أنهم رجوا، واستسمحوا منهم عفا عنهم ، علامة المؤمن أنه رحيم ، يرحم .

((مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ))

[رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي))

[رواه أبو الشيخ والديلمي عن أبي بكر ، حديث قدسي]

((ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))

[أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك عن ابن عمر]

ماذا أقول لكم ؟ يمكن أن يكلفوا امرأةً تدرس بمدرسة ، القضية رُفعت إلي قبل أيام ، والدوام من الساعة السادسة صباحاً ، وحتى ساعة متأخرة بعد الظهر ، والمعاش أربعة آلاف ليرة ، وليس هناك أعمال ، يمكن لامرأة أن تأتي بها من البيت الساعة السادسة صباحاً إلى ساعة متأخرة بعد الظهر ، و26 يوم دوام ، والراتب أربعة آلاف ؟! يقول لك : قبلت ، طبعاً تقبل ، لأنه مضطرة ، لكن هذا حقها ؟! لا يرحمها .

والله يا هناك رواتب بالخمسة آلاف ، أجور المواصلات 1200 ، كم بقي له ؟ 3800 ، يا ترى كهرباء ؟! وقود سائل للشتاء ؟! معالجة أبنائه ؟! يقبل ، ليس هناك رحمة ، ويفتخر رب العمل أن أسعاره متدنية ، والناس يقبلون عليه ، لأنه من البطالة .

((ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))

إِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُم

إخواننا الكرام ، ما دام الموضوع فُتح ، نحن إلى ماذا نصبو ؟ إلى أن ننتصر على هؤلاء الأعداء المتغطرسين ، المتكبرين ، الذين يتفننون بإذلال الشعب الفلسطيني ، أليس كذلك ؟ يتفننون ، بكبسة زر دمروا المولدات الكهربائية ، كلفت 150 مليون دولار ، تصور مليون إنسان بغزة لا

كهرباء ولا ماء ولا وقود ، كل الأغذية المحفوظة فسدت ، كل الأعمال انتهت ، كل النشاطات توقفت ، كل الصناعات توقفت ، هم فقراء ، وعلى فقرهم دُمروا ، كبسة زر ، طيران ، والجسور هُدمت ، أليست هذه قسوة ما بعدها قسوة ؟

((ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))

لذلك قال النبي الكريم ـ دققوا الآن ـ :

((فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُم))

[رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ والحافظ أبو بكر البرقاني ، عن مصعب ، عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ]

كيف ؟ إنما تنصرون على أعدائكم الأقوياء ، الجبابرة ، الذين يملكون أسلحة متنوعة . أضرب مثلاً للتقريب : أنت عندك طائرة تكتشف الهدف بعد 7 كم ، ويمكن أن يظهر على الرادار ، وأن ترسل قذيفة تسقط الطائرة ، هدف واحد على 7 كم ، وإذا بطائرة تكتشف الأهداف بعد 220 كم ، و18 هدف معاً ، يمكن أن ترسل 18 قذيفة تسقط 18 طائرة ، على بعد 220 كم هذه الأسلحة الحديثة. فلذلك :

((فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُم))

متى ننتصر على عدو متغطرس قوي يملك أسلحة فتاكة ؟ إذا نصرت الضعيف عندك ، هذا الضعيف ينبغي أن تطعمه إن كان جائعاً ، ينبغي أن تكسوه إن كان عارياً ، ينبغي أن تعالجه إن كان مريضاً ، ينبغي أن تؤويه إن كان مشرداً ، ينبغي أن تنصفه إن كان مظلوماً ، ينبغي أن تعلمه إن كان جاهلاً ، فإذا نصرت من هو أضعف منك ، وبإمكانك ألا تنصره ، وبإمكانك أن تسحقه ، لا يستطيع أن ينتقدك ، إذا نصرت منهو أضعف منك كافأك الله بأن ينصرك على من هو أقوى منك ، والله الذي لا إله إلا هو ما دام هناك ظلم في المجتمع ، زوج يظلم زوجته ، يتفنن بإهانتها أمام أولادها ، يتفنن بإذلالها ، يتفنن بضربها وحش ، زوجة مظلومة ، عامل مظلوم ، إنسان مظلوم ، موظف مظلوم .

((فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُم))

هؤلاء الضعفاء حينما تنصرهم يتماسك المجتمع ، المجتمع لا يُخرق ، يصبح سداً منيعاً .

من معاني القتل : فتنة الناس عن دينهم :

فلذلك أيها الإخوة ،

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

أريد أنوه بمعنى أن الله عز وجل في آية أخرى قال :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة الآية : 191)

إذا فتنت الشباب ، إذا فتنت شاباً كان مؤمناً ، مصلياً ، صالحاً ، فتنته بفلم مثلاً ، إذا فتنت فتاةً ، إذا أفسدت مجتمعاً ،

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

هذه الموءودة إذا سئلت .

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير)

بنت صغيرة ماتت إلى الجنة ، لكن قتلها ظلم شديد ، أما إذا أطلقت لابنتك العنان ، وارتدت من الثياب ما تشاء ، وفتنت كل من في الطريق ، وأنت أبوها من رواد المساجد ، تقول : بنت تحب أن تعيش وقتها ، تعيش شبابها ، لا أحب أن أعقدها ، لا يحب أن يعقدها ، لكن يحب أن يعقد الناس ، هذه فتنها ،

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

لأنه لو وأدها كالجاهليين كان مصيرها إلى الجنة ، أما حينما أطلقها ، وجعلها تفسد كل من حولها كان مصيرها إلى النار ، لذلك ورد في بعض الآثار : أن فتاةً أفسدها أبوها تقف يوم القيامة أمام رب العزة وتقول : يا رب ، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي .

والله أيها الإخوة ، فضلاً عن ذلك ، هناك فتاة طاهرات ، محجبات ، مؤمنات حافظات لكتاب الله ، الأب لا يزوجهن تعنتاً ، وهذا الذي يعضل ابنته عن الزواج وقع في إثم كبير ، وفي معصية كبيرة .

إِلَّا بِالْحَقِّ

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

بالحق القاتل يقتل ، لكن بالحق سمح الله لنا أن نأكل الأنعام ، لكن كيف تقتلها بالحق ؟ كمَن ذبح شاة أمام أختها ، فرآه النبي ، فغضب غضباً شديداً فقال :

((هلا حجبتها عن أختها ؟ أتريد أن تميتها مرتين))

[ورد في الأثر]

((وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمُ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَه))

[رَوَاهُ مُسلِمٌ عن أبي يعلى شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنه]

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

وجوب تحرِّي الحلال والسؤال عن الحرام :

لذلك يسأل المؤمن عن الحلال والحرام ، الحرام يحجبك عن الله ، والحلال ، بجعلك قريباً من الله عز وجل .

إذاً بعد أن تؤمن بالله ينبغي أن تتحرى الحلال والحرام ، أنت بالكون تعرف الله ، وبالشرع تعبد الله ، نحن عندنا مشكلة ، أن معظم المسلمين يتوهمون أن الإسلام صوم وصلاة ، وحج ، وزكاة ، وعمرة ، يصوم رمضان ، ويصلي الخمسة أوقات ، والإسلام في واد ، وهو في واد ، إذا لم تعتقد ، والله لا أبالغ أن الإسلام500 ألف بند يبدأ من فراش الزوجية ، وينتهي بالعلاقات الدولية ، كسب أموالك ، معاملتك لمن دونك ، إخلاصك في عملك ، إخلاصك للمسلمين ، نفع المسلمين .

الدين في جميع نواحي الحياة :

يمكن أن تكون صاحب معمل لمواد غذائية للأطفال ، يمكن أن تشتري مواد انتهت صلاحيتها بثلثي قيمتا ، ولا تحاسب ، تحاسب إذا عرضتها للبيع ، والصلاحية منتهية ، أما إذا جئت بها إلى المعمل ، وأدخلتها في الآلات ، فالمادة التي انتهت مفعولها ضاعت هذه المخالفة بجعلها بضمن التصنيع ، يمكن أن تشتري مواد أولية انتهى مفعولها ، وانتهت صلاحيتها ، بثلثي قيمتها ، وتربح أرباحاً طائلة ، هل تظن أن الله لا يحاسبك ، مستحيل ، صدقوا أيها الإخوة أن الدين ليس في المسجد ، أنت هنا في المسجد من أجل أن تأخذ تعليمات الصانع .

أحياناً هناك شركات يأتي الموظف الساعة الثامنة ، يتلقى التعليمات وينطلق ، الدين في بيتك ، في دكانك ، في مكتبك التجاري ، في مخبر تحليل الدم ، يمكن أن تتفق مع طبيب ، يعطيك 8 تحاليل ، مطلوب فقط أول واحد ، وقيمة السبعة مناصفة ، هل تظن أنك تنجو من عذاب الله ؟ أنت محامٍ تقول للموكل : القضية سهلة جداً ، خذها مني ، وعندك إمكان أن تؤجل الدعاوى 8 سنوات ، وبعد هذا تفاجئه ، بالنهاية أن القاضي انحاز إلى خصمك ، ماذا تفعل ؟ أنت لم تدفع كثيرًا ، هل تظن أنك تنجو من عذاب الله ؟ يمكن أن تدرس ، وتضع أسئلة فوق طاقة الطلاب ، والكل أصفار ، هم يحتاجون الآن إذاً إلى درس خصوصي ، وأنت جاهز للدرس الخصوصي ، هل يمكن أن تنجو من عذاب الله ؟ يمكن

لطبيب زارك في المستشفى الحكومي ، والدواء مجاني ، تقول له : لا بد من دواء آخر غير هذا الدواء، تعال إلى العيادة ، هو فقير ، يمكن أن تهرب دواء إلى بلد مجاور ثمنه 13 ليرة يرجع بـ300 ليرة ؟ هو الدواء مدعوم ، لأن الدخل قليل ، تجمع الأدوية ، وتأخذها لبلد مجاور تأتيك بشكل تهريب دواء مهرب بـ300 ليرة ، وتنجو من عذاب الله ؟ أين الدين ؟

الدين بعيادتك ، بمخبرك ، بمكتب الهندسة بالبقالية ، بالزراعة ، يمكن أن تأتي بهرمون مسرطن ، يكبر الثمرة ، يعطي ألوانًا زاهية ، هذا كله مسرطن ، ممنوع بالعالم كله ، يأتي تهريب يضعه الفلاح ، يقول لك : تزداد الغلة ، أين الدين ؟ يمكن أن يكون الواحد عاملا بمطعم ، ومعه وباء كبدي قاتل ، إذا لم ينظف يديه تماماً يمكن أن يسبب هذا الوباء القاتل لـ 300 من رواد المطعم ، أين الدين ؟ هذا الدين ، الدين بالمطعم ، لو فرضنا صاحب محل بقالية وجد فارة في الزيت ، له أن يبيع الزيت ثاني يوم ، يسحبها ويبيع ، أما المؤمن فستحيل .

أنا أقول : إن الحياة لا تنتظم إلا بالإيمان ، وعندنا مشكلات لا تعد ولا تحصى ، كلها ناتجة عن ضعف مراقبة الله للبشر ، فأقول : الدين ليس في المسجد ، الدين في عملك ، وفي بيتك ، وفي تربية أولادك ، وفي صدقك في التعامل ، أنت حينما تستقيم النبي عليه الصلاة والسلام ضغط الاستقامة كلها بكلمة واحدة ، قال :

((أطب مطعمك))

[رواه الطبراني عن ابن عباس]

الواحد يكثر السمن البلدي ؟ يكثر اللحم في الكل ؟ لا ، اكسب مالاً حلالاً ، لأنك مستقيم في تعاملك ، المال الحلال إذا اشتريت به طعاماً هذا الطعام هو الطيب .

والله زرت والد صديق لي من سنوات عديدة ، الآن توفي رحمه الله ، فهو عمره 96 سنة ، قال لي بالحرف الواحد : أنا البارحة أجريت تحليلات كاملة للدم والبول ، قال لي : كله طبيعي ، 96 سنة ! كله طبيعي ، قال لي : والله لم آكل قرشًا حرامًا في حياتي ، ولا أعرف الحرام .

الله موجود ، استقيموا ، اصدق في التعامل ، الله عز وجل لا يضيعنا أبدا ، يرزقنا ، لكن أنت مرتاح . لذلك :

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

هنا سؤال : لمَ لم يقل الله عز وجل : ذلك وصاكم بها ؟ لأنه جمع :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ)

بها ، جمع ، لأنه قال :

(بِهِ)

لأن منهج الله موضوع واحد ، أن تخافه ، فإذا خفته طبقت أمره تماماً ،

(ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

ماذا نفهم من هذا الربط ؟

(ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ)

هذا منهج ، هذا نقل ،

(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

عقل ، منهج الله عز وجل يتطابق مع العقل 100 % ، لأن المنهج وحيه ، والعقل مقياس أودعه الله فينا ، تطابق العقل مع النقل حتمي ، فإذا تعارضا فلعدم حدية أحدهما ،

(ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(70-73): تفسير الآيتان 152 - 153 ، الحرص على مال اليتيم ـ العدل والوفاء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-07-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السبعين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الثانية والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

الحكمة في قوله : وَلَا تَقْرَبُوا

الله عز وجل لم يقل : ولا تأكلوا مال اليتيم قال :

(وَلَا تَقْرَبُوا)

وفرق كبير بين أن يقول الله عز وجل : ولا تأكلوا ، وبين أن يقول :

(وَلَا تَقْرَبُوا)

أيّ لا تفكر أن تأكل ماله ، لا تسمح لخاطر يرد إليك أن تأكل ماله ، لا تخلط مالك بماله ، والحَكَم هو الحساب ، اجعل ماله في مكان ، واجعل مالك في مكان ، لا تقترب من أن تأكل ماله ، لعظم حق اليتيم على المجتمع ، لأن اليتيم من فقد أباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ، كلنا أيتام ، فقد أباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال .

لا تَدَعْ ورثك فقراء عالة :

أيها الإخوة ، لكن هنا مفروض أن اليتم هنا له مال ، وكأن في هذا الكلام الإلهي إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون هناك مال لليتيم يكون سبب قوام حياته ، فليحرص الأب على أن يدع لأولاده مالاً ، فالذي أراد أن يهب كل ماله نهاه النبي عن ذلك ، قال له : إذاً شطره ، قال : كثير ، قال : ثلثه ، قال : كثير ، بل قال : والثلث كثير ، رجح العلماء أن يكون الربع ، لذلك لا يجوز أن يوصي الإنسان بأكثر من ثلث ماله ، والأكمل الربع لغير ورثته ، الورثة هم أولى بهذا الإرث .

إنّ الإنسان قد يعبد الله ستين عاماً ، ثم يضر ورثته بالوصية ، ثم تجب له النار ، وأحياناً الأهل يسكنون في بيت من مئة متر ، ليس عندهم غير هذا البيت ، يوصي بثلث ماله إلى لفقراء ، ماله هو البيت ، وثلث المال يعني بيع البيت ، لذلك يجب ألا تكون الوصية ضارة بالورثة ،

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ)

لذلك :

(وَلَا تَقْرَبُوا)

أبلغ من : لا تأكلوا .

إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

هل معنى ذلك أن نبتعد كل البعد عن مال اليتيم ؟ لا ، قال تعالى :

(إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

فينبغي أن ترعى مال اليتيم وكأنه مالك ، ينبغي أن تثمر مال اليتيم وكأنه مالك ، لأن اليتيم في بعض الآيات الأخرى يوجهنا الله عز وجل إلى أن ننفق على اليتيم ، لا من أصل ماله ، بل من ريع ماله .

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

(سورة النساء الآية : 5)

فرق كبير بين ، وارزقوهم منه ، وبين :

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

وفي بعض الآثار النبوية :

((اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة))

[رواه الطبراني في الأوسط عن أنس]

أي لئلا تأكلها الزكاة ، إذاً الأكمل أن ننفق على اليتيم من ريع ماله لا من أصل ماله ، كيف نقرب مال اليتيم ؟ قال :

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

أحسن اسم تفضيل ، لو أن الآية لا تقربوا مال اليتيم إلا بالحسنى ، لا ،

(إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

إذا كان هناك عشر طرق لاستثمار مال اليتيم فينبغي أن تختار من هذه الطرق العشرة أفضلها ،

(إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

لا تجعل مالك دون ماله :

لذلك هناك توجيه : ولا تجعل مالك دون ماله ، أقول لكم بالضبط أن بعض التجار إن كان معه مال اليتيم في صفقات غير معروفة ، غير واضحة ، يضع مال اليتيم فيها ، فيجعل هذا المال تجربة مسبقة لماله ، فإن خسرت قال : ليس هناك نصيب ، سبحان الله ! أما إن ربحت ربحاً كبيراً أنزل ماله ، فكأنه جعل مال اليتيم حقل تجارب لماله ، ولا تجعل مالك دون ماله ، مالك لا تضعه إلا في صفقات رابحة ، ربحها يغلب على اليقين ، لكن مال اليتيم يمكن أن تجس به السوق ، وأن تكتشف به بعض الصفقات المجهولة ، هذا ممنوع ، ولا تجعل مالك دون ماله .

إذاً :

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

إن كان هناك عدة وسائل لاستثمار المال ينبغي أن تكون الوسيلة الفضلى لاستثمار مال اليتيم هي التي تأخذ بها .

أكل الفقير مِن مال اليتيم بالمعروف :

شيء آخر ، الله عز وجل يقول في آيات أخرى توضح بعض أفكار هذا الموضوع ، الأفكار الأخرى أن الله سبحانه وتعالى يبين أنك إذا أكلت من مال اليتيم فكل بالمعروف ، قال تعالى :

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء الآية : 6)

كيف فسر العلماء الأكل بالمعروف ؟ أنت إنسان فقير ، وفي بيتك يتيم يلوذ بك ، وأنت تاجر ، هناك تجار دخلهم لا يغطي مصروفهم ، يجب أن تأخذ ربحك من اليتيم ربح المثل ، أو قدر الحاجة أيّهما أقلّ ، كلام دقيق جداً ، اليتيم وضع بين يديك مليون ليرة ، ربح هذا المبلغ كان مئتي ألف ، بحسب العرف لك منها مئة ، للجهد النصف ، أنت مصروفك بالشهر أو بالسنة 120 ألفًا مثلاً ، يجب أن تأخذ المئة ألف ، مع أن حاجتك 120 ألفًا ، يجب أن تأخذ أجر المثل ، الجهد نصف الربح ، لو فرضنا أنه وضع بين يديك عشرة ملايين ، ربحت 400 ألف ، أنت حاجتك 120 ألفًا يجب أن تأخذ الـ120 ألفًا ، أجر المثل ، أو حاجتك ، أيّهما أقلّ ، هذا معنى :

(وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)

أيها الإخوة ، موازين دقيقة جداً ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون)

اليتيم مكسور ، اليتيم فقد الأب ، اليتيم فقد المعيل ، اليتيم فقد المشرف .

والله مرة زرت دارًا للأيتام مستواها يفوق حد الخيال ، من أناقة البناء ، وأناقة الأثاث ، وتوافر الحاجات ، وأنفس طعام ، والحدائق ، والصفوف ، وقاعات المطالعة والمهاجع ، تأملت في هذه الدار ، ووجدت فيها شيئاً لا يصدق ، فلما سألت بعض المشرفين قالوا لي : معظم الطلاب متخلفون دراسياً ، عندئذٍ قلت في نفسي : لا شيء يحل محل الأب والأم ، لو أنفقت مليارات ، لا شيء يحل محل الأب والأم ، فاليتيم فقد الأب ، فقد المعيل ، فقد المشرف ، فقد الموجه ، فقد المحب .

دفع مال اليتيم له إذا بلغ الرشد :

لذلك يجب أن نرعى مصالحه إلى أقصى حد ، طبعاً اليتامى حينما يأنس الإنسان منهم رشداً ينبغي أن يدفع إليهم أموالهم .

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)

(سورة النساء الآية : 6)

ما معنى رشداً ؟ يعني اليتيم هو الذي فقد أباه قبل أن يستطيع أن يبلغ مبلغ الرجال ، اليتيم إذا بلغ مبلغ الرجال ، وأصبح قادراً على أن ينجب مثله لم يعد يتيمًا ، فلا يقل شاب تزوج في 18 ، وبعد 9 أشهر جاءه مولود ، لا يقل : أخي أنا يتيم ، لا لم تعد يتيمًا ، ما دمت قد تزوجت ، وأنجبت فأنت الآن لست يتيمتاً ، لذلك :

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)

تحريم إيتاء السفهاء أموالهم :

يلحق بهذا الموضوع أن السفهاء ينبغي ألا يُسمح لهم بإدارة أموالهم ، لأنهم حمقى في إدارة أموالهم ، ولأنهم يتلفون أموالهم ، والمجتمع في أشد الحاجة إلى هذه الأموال ، المجتمع وأهل هؤلاء السفهاء .

مرة ذكرت أن الإنسان مسك مئة ألف ليرة ، وأحرقها ، هذا يسمى سفيهاً ، ومركوز في أعماق الإنسان أن الوقت أثمن من المال ، والدليل : أن الإنسان يُجري عملية ، وقد تكلفه ثمن بيته متوهماً أنها تمد له بالعمر بضع سنين ، إذاً الوقت أثمن ، فالذي يتلف ماله يعد سفيهاً ، والذي يتلف وقته يعد أشد سفاهة من الذي يتلف ماله ، إذاً السفه عدم الحكمة في إتلاف المال ، والسفيه أيضاً ممنوع أن يتصرف بماله .

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

بينت لكم أنه ينبغي أن ينفق على اليتيم لا من أصل ماله ، بل من ريع ماله ، بدليل قول الله عز وجل :

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

يعني ارزقوهم من مال استثمر من مال اليتيم ، أما لو أن الآية : وارزقوهم منها ، من أموالهم ، أي من أصل أموالهم .

وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

أيها الإخوة الكرام ،

(وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)

وفي آية أخرى :

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

(سورة النساء الآية : 9)

المشكلة أيها الإخوة ، لو تصورنا أن مجتمعاً يرعى الأيتام رعاية تامة ، ما الذي يحصل ؟ الموت لا يعد أكبر مصيبة ، يموت الأب ، وهو مطمئن إلى أن أولاده ، في المدارس يتابعون تعليمهم ، هناك من يرسلهم في بعثات ، يعودون إلى بلدهم ، لهم أعمال ، يتزوجون ، كلما اعتنينا بالأيتام أصبح موت الأب أقلّ إيلاماً مما لو لم يكن هناك عناية بالأيتام .

أنا أسمع أحياناً عن جهات تعتني باليتامى عناية فائقة ، لذلك المجتمع متوازن ومستقر ، ويمكن أن يبذل الآباء الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، لأنهم مطمئنون على أولادهم من بعدهم ، لأن مسؤولية الزوج كما قيل : الزواج مجبنة مبخلة مشغلة ، فالإنسان حينما يكون منتميًا إلى جماعة ، والجماعة تعتني بالأيتام ، واليتيم مستقبله مضمون ، هذه نعمة كبرى ، وربما كان الإنسان أكثر إقداماً في بذل الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس حينما يطمئن إلى أن أولاده من بعده ، أن هناك من يراعهم، من ينفق عليهم ، من يستثمر مالهم ، دون أن يأكل مالهم .

قصة الخضر مع الغلامين اليتيمين فيها عبر وحِكَمٌ :

أيها الإخوة ، القصة التي وردت في سورة الكهف :

(حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا)

(سورة الكهف الآية : 77)

هذه القرية تمثل اللؤم الشديد .

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)

(سورة الكهف الآية : 77)

فأقامه الخضر ، استطعموهم ، وكانوا بخلاء ، ضنوا عليهم لا بل المال ، بل ضنوا عليهم بالقوت ، الآن لو أن إنسانًا طلب منك ألف ليرة شيء ، وإن طلب منك أن يأكل وجبة على باب الدار شيء آخر ، **(حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)** على كلٍ العناية بإنشاء الجدار بإلهام من الله ، لأن تحت الجدار كنزًا ليتيم ، قال تعالى :

(وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً)

(سورة الكهف الآية : 82)

هنا الشاهد ، أنا أقول لكم : أي إنسان عاش صالحاً ، وكسب المال الحلال أنفقه في وجوهه يتولى الله عز وجل أولاده من بعده ،

(وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا)

يعني قرية لئيمة بخيلة امتنعت عن إطعام نبي كريم ، وسيدنا الخضر معه ، ومع ذلك سيدنا الخضر وجد جدارًا يريد أن ينقض ، هذه صورة أدبية ، يعني انظر بهذا الجدار إنسان ، وحذف الإنسان ، وبقيت بعض لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية ،

(يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)

(لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ)

(سورة الكهف الآية : 77)

لكن الشهد هنا

(وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا)

لذلك ورد أن الله عز وجل يقول لعبد يوم القيامة :

((عبدي ، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول : يا رب ، لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، فيقول الله له : إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ، ويقول لعبد آخر : عبدي ، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول : يا رب ، أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي أنك خير حافظاً ، وأنت أرحم الراحمين ، فقال عبدي : أنا الحافظ لأولادك من بعد))

[ورد في الأثر]

هذا الكلام أيها الإخوة ، كل واحد منا إذا كسب المال الحلال ، وأنفقه في وجه حلال ، وكان صالحاً ، مكافأة له على صلاحه ، وعلى استقامته ، وعلى كسب المال الحلال وإنفاقه في الوجوه الصحيحة ، الله عز وجل يحفظ له أولاده من بعده .

مثلاً : يسافر إنسان ، ومن أدعية السفر :

((اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

ما في الكون جهة معك في السفر إلا جهة واحدة هي الله عز وجل ، ومع أهلك في الحضر ، إذاً أنت الرفيق في السفر ، والخليفة في الأهل والمال والولد .

لذلك حينما يكون الإنسان مع الله يلقي الله في قلبه الأمن والطمأنينة .

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ

أيها الإخوة ،

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)

الكيل هو قياس الحجوم ، الكيل أساسه الحجوم ، والميزان أساسه الكثافة ، قطعة حديد لها وزن كبير ، وقطعة إسفنج لها وزن خفيف ، فالوزن يقيس كثافة الشيء ، طبعاً الماء الكثافة واحدة ، الزئبق من أشد المعادن كثافة ، الآن الإسمنت ، في الصناديق الحديدية يضعون الإسمنت ، الإسمنت له كثافة عالية جداً، فالبوزن نقيس الكثافة ، وبالكيل نقيس الحجوم ، والقماش يقاس بالأمتار ، والذهب بالقراريط ، وكل شيء له قياس يتناسب مع طبيعته ، لذلك ميزان الصائغ لو أن المروحة توجهت نحو إحدى كفتيه لرجحت ، وهناك ميزات تزن شاحنات ، 60 طنًّا ، طبعاً لو مشى فوق هذا الميزان إنسان لا يتحرك الميزان ، وهناك موازين إلكترونية تزن ورقة بواحد من مئة من الغرام ، تكتب عليها كلمة ترجح الكفة، وزن الحبر ، وهناك ميزان يزن سبعين طنًّا ، والإنسان كلما ازداد إيمانه دق ميزانه .

إذاً :

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)

مثلاً : أنت يمكن في أثناء كيل القماش إن كنت تشتري القماش يشكل خط منحني على المتر ، ترخيه ، وإن كنت تبيع تشده حتى يتمزق ، هذا كيل غير صحيح ، تكون بضاعة غالية جداً ، حطب منقوع بالماء ، أحياناً الورق الذي تبيع به مادة غالية جداً ، ورق سميك وثخين ، وله وزن ، أكثر شيء أن العبوات أحياناً تباع بثمن محتواها ، والمحتوى قد يكون غاليًا جداً ، لذلك أساليب الكيل ، وأساليب البيع، والوزن ، ورجحان الكفة والمواد المغلفة ، والمواد التي هي مواد تعبئة ، فيها خلافات كبيرة جداً .

لذلك :

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

من أجل أن تعلموا علم اليقين أن كل شيء كلفنا الله به ضمن إمكاناتنا ، وضمن وسعنا ، وضمن ما نستطيع ، والوسع لا تقدره أنت ، بل يقدره الخالق ، أن تقول أنت هذا ليس بوسعي ، هذا فوق طاقتي ،

أين أذهب بعيوني ؟ كل الذين يخالفون منهج الله يزعمون أن الشرع لا يطبق الآن ، بل يصعب تطبيقه، جواب الله عز وجل :

(لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

فعظمة المؤمن أنه لا ينطق إلا بالحق ، ولو أنه سُئل عن أقرب الناس إليه ، لا يغش أحداً ، لذلك حتى المؤمن حينما يطلب منه تزكية إنسان يقول : أحسبه صالحاً ، ولا أزكي على الله أحداً ، فالإيمان مرتبة عالية جداً ، لا يكذب ، مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يكذب ، شهادته صادقة ، وميزانه دقيق ، وحساباته دقيقة ، ولا يجامل ، ولا يحابي ، ولا يأخذ ما ليس له ،

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)

ليس عندنا إنصاف في الأحكام :

مثلاً : أن يرى النبي الكريم صهره بين الأسرى ، زوج زينب ، هو جاء مع المشركين ليقاتل رسول الله وأصحابه ، في أثناء استعراض الأسرى نظر إليه النبي الكريم فقال : والله ما ذممناه صهراً ، أرأيت العدل ؟ كصهر أنت ممتاز ، هو الآن مشرك ، وجاء ليقاتل ، لكن ما نسي النبي بعض إيجابياته ، قال : والله ما ذممناه صهراً .

عندك إمكان إن جاء ذكر إنسان ، وأنت غاضب عليه كثيراً أن تذكر بعض إيجابياته ، تستطيع أن تفعلها ؟ نحن إذا أخطأ إنسان ينتهي ، يكون خاطبًا ، تقيًّا ، شابًا نقيًّا ، ورعًا ، مؤمنًا ، عصاميًا ، ورعًا جداً ، حينما ينشأ مشكلة ، ويفسخ العقد ، يصاب بالصرع ، يصبح معه أمراض ، يصبح خبيثًا كذابًا ، ليس هناك إنصاف أبداً ، لذلك :

((أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية ، وكلمة العدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأن أعطي من حرمين ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرةً))

[ورد في الأثر]

وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)

لك زوج بنت ، ابنتك غالية عليك ، كلامها عندها صادق ، هل خطر في بالك مرة لو أنها جاءت غاضبة على زوجها أن تتصل بزوجها تسأله : لعل ابنتي قد أزعجتك ؟ فقط سؤال ، تكون عندئذٍ

منصفًا.

نحن أيها الإخوة يُسحق الناس من عدم الإنصاف ، بنت في البيت ، زوجة ابن في البيت ، البنت تستيقظ ظهراً ، المسكينة تعبانة ، تتأخر زوجة الابن للساعة التاسعة تقوم عليها الدنيا ولا تقعد ، ليس هناك مكيال واحد ، البنت لها مكيال ، وزوجة الابن لها مكيال .

يكون في المحل صانع وابن ، حمّلنا الصانع بضاعة ، لم يعد يستطيع الحمل ، يقول له : أنت شاب ، الابن حمل قطعة واحدة يقول له : بابا انتبه ظهرك ، ما هذا التناقض ؟ ليس هناك عدل ، هناك تناقضات .

هناك طُرَف كثيرة جداً : إنسان اشترى لزوجته غسالة جيدة ، دعت له الحماة ليلا ونهارًا ، فلما اشترى ابنها لزوجته غسالة مشابهة لتلك أقامت عليه الدنيا ، لماذا كنت راضية على صهرك الذي أتى لابنتكِ بآلة جديدة ، ولم تكونِي راضية على ابنك لأنه أراح زوجته من بعض الأعباء ؟ ليس هناك إنصاف ، نحن بعيدون عن الله ، يجب أن تنصف الناس من نفسك ، هناك خطأ مِن قِبلك لا تعترف ، لأنك أنت قوي ، هل عندك إمكان أن تقول للزوجة : أنا أخطأت لأنك وسامحيني ؟ هل عندك هذا الإمكان ؟ هذه البطولة ، الرجوع للحق فضيلة ،

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)

أحياناً نمدح زيادة عن الحق ، وأحياناً نذم زيادة عن الحق ، من غير إنصاف ، لذلك الموضوعية والعلم يلتقيان في هذه النقطة ، أنت حينما تكون موضوعيًا فأنت أخلاقي ، وحينما تكون موضوعيًا فأنت علمي ، متى يلتقي العلم بالأخلاق ؟ هناك قيمة اسمها الموضوعية ، حتى بين الدعاة ، لا نعرف قيمة بعضنا أبداً ، نذم ونبالغ ، نمدح ونبالغ ، لذلك ورد :

((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا ، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا))

[أخرجه الترمذي والبيهقي ، عن أبي هريرة الطبراني في الكبير عن ابن عمر]

يجب أن ننصف في أحكامنا ، قال : والله ما ذممناه صهراً ، النبي الكريم يستعرض أسير جاء ليقاتله ، ولتقتل أصحابه ، لكنه تذكر أنه كان زوجاً مثالياً ، فقال : والله ما ذممناه صهراً .

النبي سأل عن صحابي في بعض المعارك ، قال له أحدهم : يا رسول الله ، شغله بستانه عن الجهاد معك ، فقام أحدهم وقال : لا والله يا رسول الله ، لقد تخلف عنك أناس ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك ، فابتسم النبي ، وسر بهذا الموقف .

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)

أعطي الحكم الدقيق ، كن موضوعياً ، أحبب باعتدال وأبغض باعتدال ، أما الحب المبالغ به ، والبغض المبالغ به ليس من صفات المؤمنين .

((لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله))

[متفق عليه]

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا)

لا يخلو المسلمون من أصحاب الإنصاف :

أنا أذكر قصة أعتز بهذا الأخ ، أخ والده من أهل الغنى أنشأ له معملا في مصر ، يقود مركبته ، اصطدمت مركبته بمركبة تمشي أمامه ، أصابته غفلة بسيطة ، في المركبة التي أمامه وقد اصطدم بها، وقريباً منه جداً إنسان متقدم في السن فأصابه بهذه الصدمة فمات ، اتصل بمدير المعمل التنفيذي ، قال له : ليس هناك مشكلة ، تعالَ بعد ساعة إلى المكان الفلاني ، قسم شرطة ، جاء بعد ساعة كان كل شيء منتهيًا ، الضبط يقول : إن السيارة التي أمامه هي التي صدمته ، إذاً ما عليه شيء ، فهذا الشاب قال له: هذا لم يحدث ، الذي حدث هو العكس ، أنا اصطدمت به ، وكنت سبباً في موت هذا الإنسان ، قال له الضابط : عجيب ، من أنت ؟ أنا خلصتك ، قال له : لكني لا أنجو من عذاب الله ، أنا أريد ألا تخلصني أنت ، قال له : والله ما مر معي بتاريخي أن إنسانًا في ضبط أنهيت له المشكلة ، وخلصته ، ويحب أن يوقع نفسه فيها ، قال له : اكتب الذي حصل ، أنا اصطدمت به ، وكانت هذه الصدمة سبب وفاة هذا الإنسان الكبير في السن ، ودفع الدية ، وعين أولاده بالمعمل .

إذا كان المسلم بهذا المستوى عندئذٍ نتوقع أن ننتصر ، هكذا المسلم ، المال تحت قدمه عندك إمكان تحكي الحق ؟ .

والله هناك قصة أرويها والله لا أشبع منها ، أحد إخوتنا الأكارم زوج ابنته لرجل في جدة ، له والد محترم جداً ، يقطع مسافة لعلها بين مكة وجدة ، في الطريق ظهرت مركبة من طريق فرْعي ، مركبة شاحنة صغيرة ، فيها إنسان وزوجته وولدان ، فلما رأى مركبة من طريق فرعي خفف السرعة ، بقيت واقفة ، لما رآها بقيت واقفة تابع السير ، ورفع السرعة ، بعد أن اقترب منها انطلقت إلى عرض الطريق فاصدمها ، وماتت الزوجة والولدان ، جاءت الشرطة دية المقتول في حادث في الحج 200 ألف ريال ، دية المقتول بحادث بغير الحج 100 ألف ، ثلاثة ماتوا ضرب 200 - 600 ضرب 15 عشرة ملايين ، عشرة ملايين ترتب على سائق السيارة ، فالبدوي لما جاءت الشرطة ، قال : والله الحق عليّ ، ما له علاقة هو ، خسر عشرة ملايين .

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)

أقسم بالله هذه القصة عندي أبلغ من كل حضارة الغرب ، كل تسمعونه كذب ، كله كذب ، يهدمون بيتًا بريئًا ، أسرة مدنية يقول لك : أطلقوا الرصاص منه ، تغطت ، صدر إطلاق رصاص منه ، قال له : والله الحق عليّ ، ليس له علاقة ، خسر عشرة ملايين ، عندك إمكان أن تقول الحق ، ولو خسرت ؟ إذا كنت كذلك فأبشر ، لأنك مؤمن ورب الكعبة ، الضبط أنهى له المشكلة ، لكن وجد أن الله عز وجل لن يسامحه .

لذلك :

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)

تقول هذا للقضاء ، لا ، هذا لك ، الحجر ضج بالشكوى إلى الله ، قال : يا رب ، عبدتك خمسين عاماً ، وتضعني أوس كنيف ، فقيل للحجر : تأدب يا حجر ، إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم ، فمكان الحجر في الكنيف في بيت الخلاء أشرف ألف مرة من أن يكون الحجر في مجلس قاض ظالم .

وفي تعليق أن النبي الكريم يقول :

((قاضيان في النار ، وقاض في الجنة: قاض عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ، وقاض عرف الحق فجار متعمدا ، أو قضى بغير علم ، فهما في النار))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن بريدة]

لما سأل زعيم بريطانيا عقب الحرب العالمية الثانية وزراءه وزيرًا وزيرا : كيف الصناعة عندك يا سيد فلان ؟ قال له : المعامل كلها قد خُربت ، كيف الزراعة عندك يا مستر فلان ؟ قال له : الحقول محروقة ، كيف الخزانة عندك يا سيد فلان ؟ قال له : الخزانة خاوية ، كيف العدل عندك يا سيد فلان ؟ قال له : العدل بخير ، قال له : كلنا إذاً بخير ، إذا كان العدل بخير فكلنا إذاً بخير .

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)

كل واحد منكم قاضٍ ، قاضٍ بين ولديه أحياناً ، بين بنتيه ، بين الابن والبنت ، بين الصهر والبنت ، صحيح هذا الكلام ؟ أنت قاضٍ ، قاض بالمحل التجاري يمكن أن تبيع حاجة وفيها خلل ، يقول لك : فيها خلل ، لا منك ، أنت فتحتها انتهى خربت ، فتحها فوجدها لا تعمل ، انتهى منك .

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

ولو كان على ابنك .

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[مُتَّفَقٌ عَلَيهِ]

هذا الإسلام ، كان عمر إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته ، وقال : << إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير ، إن رأوكم وقعتم وقعوا ، ويم الله لأوتين واحد وقع فيما نهيت الناس

عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >> ، فصارت القرابة من عمر مصيبة ، مصيبة أن تكون قريبًا من عمر ، العقاب مضاعف ، هذا هو الإسلام .

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا)

أحد الصحابة في أثناء الهجرة ألقي القبض عليه ، قال لمن ألقى القبض عليه : والله إن أطلقتموني فلن أحاربكم ، فأطلقوا سراحه ، ذكر هذا للنبي الكريم ، فرح به ، بعد عدة سنوات في غزوة الصحابي من شدة فرحه بالإسلام انخرط بالغزوة ، قال له : ارجع ، ألم تعاهدهم ؟ ارجع ، هذا الدين .

شهد الله حينما يضيع المسلمون عهودهم يسقطون من عين الله .

((لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له))

[رواه أحمد أبو يعلى والبيهقي الطبراني عن أنس و ابن عمر]

ثمة طالبان على مقعد الدراسة ، كبرا وصار أحدهم تاجرًا متواضعًا جداً ، والثاني تاجر أبنية كبيرًا جداً ، فاضطر الأول أن يرجو الثاني عند زواجه أن يؤجره بيتاً ، قال له : ما عندي ، أنا عندي بيوت للبيع فقط ، فلما ألح عليه أصرّ على اعتذاره ، بعد حين التقى به ثانية ، قال له : والله أنا مضطر ، وعهد الله إن أجرتني بيتاً ، وطلبته مني أعطيك إياه في أيام ثلاثة ، رق له ، وعنده بيت في بعض أحياء دمشق الغالية ، لم يبَع ، أجّره إياه ، بعد هذا ارتفعت الأسعار ، إلى أن أصبح ثمن البيت قريبًا من المليون ليرة ، التقى معه صاحب البيت ، وقال له : أنت وعدتني ثلاثة أيام ، أنا سأعطيك ستة أشهر ، أريد البيت ، قال له : حاضر ، ثاني يوم طُرق باب صاحب البيت ، قال له : هذا المفتاح ، صُعق ، لم يصدق ، جاء إلى البيت ، وفتح فوجده فارغا ، منظفًا ، مرتبًا ، جاهزًا للسكن ، لما أغلق الباب فتح باب الجيران ، سألوه كم أعطيته تعويضًا مقابل إخلاء البيت ؟ قال لهم : لم أعطِه شيئاً ، هو عاهدني أن يخرج وخرج ، فقالوا له : باع كل أثاث بيته بأبخس الأثمان ، وسكن فندق متواضع ، هكذا المسلم ؟! قال له : عهد الله إن أجرتني هذا البيت أسلمه إياك خلال ثلاثة أيام ، قال له : معك ستة أشهر ، قال له : أنا قلت لك : ثلاثة أيام ، باع الأثاث كله بأبخس الأثمان ، وسكن مع زوجته وأولاده بفندق من فنادق الدرجة العاشرة ، هذا الإنسان يبدو استيقظ عنده الشعور الإنساني ، فزاره بالفندق ، قال له : هذا البيت ترجع إليه ، بسعر ما كان يوم سكنته ، وكل شيء دفعته أجرة من ثمن البيت والأثاث عليّ .

كان في الشام 800 ألف شقة مغلقة لا تؤجر ، لانعدام الثقة ، إنسان جالس مع أصدقائه ، قال : أنا زواجي سوف يفشل ، لأنه ما عندي بيت ، عندي بيت على الهيكل ، ولا أستطيع كساءه ، أحد أصدقائه قال له : أنا عندي بيت جاهز ، اسكنه ريثما تكسو بيتك ، قال له : كثر الله خيرك ، سكنه ، تركه سنة ، سنتين ، ثلاثًا ، طرق بابه ، قال له : ماذا حصل معك ؟ قال له : من زمن كسوت بيتي وأجرته ، قال له: وهذا البيت ؟ قال له : أنا مستأجر عندك ، ما دفعت ؟! قال له : أدفع إن شئت ، قال له : أنا ما

أجرتك إياه ، أنا أعرتك إياه إعارة ، قال له : لا ، أنا مستأجر ، هذه المحاكم أمامك ، فأحد إخواننا الكرام محترم جداً دخل وسيط زاره بالبيت ، قال له : يا رجل ، أنت أستاذ ديانة ، الصلاة باطلة بالبيت، قال له صلِّ في الجامع .

قيمتك بعهدك :

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة الأنعام)

الحق لا يتعدد : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

الحق واحد ، الحق لا يتعدد ، والحق يصل إلى الله ، إن سرت على طريق الحق فالمآل إلى الله ، إقبالاً، وعبادةً ، و سلامة ، وسعادةً ، وجنة عرضها السماوات والأرض ،

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ)

وبين نقطتين مليون خط منحن ومنكسر ، هذا الباطل ، الباطل يتعدد .

لذلك :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ)

جمع ،

(فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ)

جمع .

(إِلَى النُّورِ)

(سورة المائدة الآية : 16)

مفرد ، الحق لا يتعدد ، والحرب بين حقين لا تكون ، وبين حق وباطل لا تطول ، وبين باطلين لا تنتهي .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(71-73): تفسير الآيات 154 - 158 ، مضمون الكتب السماوية واحد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-07-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والسبعين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الرابعة والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

خصائص (ثمّ)في اللغة العربية :

إخواننا الكرام ؛ ثم من أدوات العطف ، وثم تنفرد أنها للترتيب ، قد نقول : دَرسَ ثم نجح ، فالدراسة قبل النجاح ، لكن هنا ترتيب آخر ، لأن التوراة نزلت قبل القرآن ، وفي التوراة الوصايا العشر ، وهي منطبقة تماماً على هذه الوصايا العشر التي في سورة الأنعام ، فما معنى ثم هنا ؟ قال العلماء : إما أن تُستخدم لترتيب الأفعال ، أو أن تُستخدم في ترتيب الأخبار .

فقد يقول عالم أمضى في التعليم ثمانين عاماً يشاهد طالباً له يقول : يا بني ، أنت طالبي ، ثم كان أبوك تلميذي ، ثم كان جدك تلميذي ، فثم هنا لا تعني الترتيب الزمني ، بل تعني ترتيب الأخبار .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَاب

لذلك :

(ثُمَّ آتَيْنَا)

قبل ما في القرآن الكريم من وصايا ،

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

الشواهد على هذا الترتيب الإخباري شواهد كثيرة .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)

(سورة الأعراف الآية : 11)

حينما أمر الله الملائكة السجود لأدم قبل أن يخلق كل الخلق ، هذا ترتيب إخباري ، فأنت قد تُرتب الأخبار بالأحدث فالأقدم فالأقدم ، وبأيّة طريقة تعتمدها ، يقال : هذا ترتيب إخباري ، ولا يعني أنه ترتيب زمني ، إذاً :

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

معنى كلمة كتاب :

إخوانا الكرام ، كلمة :

(الْكِتَابَ)

إذا أُطلقت تعني القرآن الكريم ، لأنه كتاب خاتم ، كتاب يستوعب الكتب السابقة ، كتاب يهيمن على الكتب السابقة ، كتاب فيه مضامين الكتب السابقة ، فحيثما قلنا في القرآن الكريم : الكتاب ، أي القرآن الكريم ، أما إذا قلنا :

(آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

أي التوارة ، إذا قلنا : آتينا المسيح الكتاب أي الإنجيل ، إذا أضيف الكتاب إلى نبي فهو الكتاب الذي نزل على هذا النبي ،

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

وثم كما تعلمون أنها لترتيب الأخبار .

قد يقول إنسان لابنه : اعتنيت بك يا بني في التعليم العالي ، أدخلتك أهم الفروع في الجامعة ، ودفعت لك أقساطاً كثيرة ، ثم اعتنيت بك في التعليم الثانوي ، ثم اعتنيت بك في التعليم الإعدادي ، ثم في التعليم الابتدائي ، فهذه ثم تعني ترتيب الأخبار لا ترتيب الأفعال ، بالأفعال الابتدائي ، ثم الإعدادي ، ثم الثانوي ، ثم الجامعي ، أما بالأخبار فالعكس .

أيها الإخوة ،

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ

إذا قلنا : كتاب من عند الخالق ، أيّ هو تام وكامل ، الكامل هو الذي لا نقص فيه ، والتام هو الكتاب الذي لا يستدرك عليه ، أو الكامل صفة نوع ، والتام صفة عدد ، أيّ أن عدد القضايا التي عالجها

الكتاب تام عدداً ، وأنّ طريقة المعالجة كاملة نوعاً .

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا)

لكن :

(عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ)

وهذه حقيقة دقيقة جداً ، المنحرف ، والفاسق ، والفاجر يقرأ القرآن وهو عمى عليه .

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء)

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

لو كان القرآن باللغة الفارسية ، وقرأه النبي على قريش باللغة الفارسية ، لا يفهمون منه ولا حرفاً ، قال :

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الشعراء)

إذاً : فهم كلام الله يحتاج إلى أن تكون مستقيماً ، ومنيباً ، ومستنيراً ، لذلك قال الصحابة الكرام : << أوتينا الإيمان قبل القرآن >> .

لذلك هذا الكتاب الذي أنزل على سيدنا موسى هو كتاب تام ، وكامل ، لكن لا على كل الناس ،

(عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ)

فإذا أنكرت قلبك ، وأنت تقرأ القرآن فاعلم أن في السلوك خللاً ، أو أن في العقيدة شبهات ، أو أن في الإقبال ضعفاً ، لذلك بقدر إقبالك ، وبقدر إيمانك ، وبقدر استقامتك ، يكون فهمك لكلام الله ، الله عز وجل عزيز ، وكلامه عزيز ، ليس سهلاً أن تناله ، يحتاج إلى فهم ، يحتاج إلى صفاء ، يحتاج إلى إخلاص ، لذلك قد تكون قراءة القرآن مسعدة إلى درجة تفوق حد الخيال .

((ليس منا من لم يتغنَ بالقرآن))

[ورد في الأثر]

سعادة المؤمن بتلاوة القرآن وفهمه :

وأنا أؤكد لكم أن سعاد المؤمن بتلاوة القرآن ، أو بسماع القرآن يفوق متعة أشد الناس تعلقاً بأغنية ، أو بنشيد ، لأن القرآن الكريم كلام الله ، وتلاوته وفهمه ، والعمل به وتدبره من أسباب سعادة الإنسان .

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ)

وأنت كن قريباً من الله ، اعمل عملاً بطولياً ، واجلس واقرأ القرآن ، تشعر أن له حلاوة ، وأنك منطلق بتلاوته ، وقد تدمع عيناك ، وقد تشعر لوجل في قلبك ، وقد يقشعر جلدك ، وقد تعيش سعادة لا توصف، ويأتي إنسان آخر ، ويقرأ الصفحات نفسها فلا يشعر بشيء .

إذاً :

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا)

معنى : وَتَفْصِيلًا

لو دخلنا في دقائق هذه الكلمة : هناك ألبسة جاهزة وألبسة تفصيل .

إذاً :

(تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا)

التوراة يتناسب مع تطور الحياة وقت نزوله ، مع المشكلات التي يعانيها الإنسان ، كأنه تفصيل لمن أُنزل الكتاب إليهم ، لكن نحن في حياتنا قد تشتري ثوبا لابنك الصغير تفصيلا ، فإذا تقدم في السن يحتاج ثوبا آخر ، لأن الأجسام تنمو ، لكن القرآن الكريم لأنه الكتاب الخاتم ، ولأنه الكتاب المهيمن ، ولأنه لا كتاب بعده ففيه كل القضايا التي استجدت في هذا العصر ، هذا العصر عصر متميز ، حيث وصلت البشرية إلى قمة تقدمها ، وإلى تعقيدات لم تكن من قبل ، وإلى شبهات ، وإلى ضلالات ، وإلى طرحات ، فهذه التعقيدات ، وهذه المنجزات ، وهذه الفتن اليقظة ، الكتاب الخاتم ينبغي أن يغطي كل هذه المشكلات ، وأن يضع لها الحلول ، والدليل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

(سورة النساء الآية : 59)

تنازعتم مع علماءكم ، أو مع أمرائكم ، لأن أولي الأمر هم العلماء والأمراء ، العلماء يعلمون الأمر ، والأمراء ينفذون الأمر ، هم متكاملون ،

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

مع علمائكم ، أو مع أمراءكم :

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ)

(سورة النساء الآية : 59)

ردوه إلى القرآن الكريم ، معنى ذلك أن في القرآن الكريم حلاً لأية مشكلة ، ومستحيل وألف ألف ألفِ مستحيل أن تنشأ مشكلة في هذا العصر ، وليس في منهج الله حل لها ، لأن الله عز وجل أحالنا عند المنازعة مع أمرائنا ومع علمائنا ، إلى كتابه ، وإلى سنة رسوله ، فلا بد من أن نجد في الكتاب والسنة

حلاً لهذه المشكلة ، هو كلام معجز .

((إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه))

[رواه ابن الضريس ، عن شهر بن حوشب]

إذاً :

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا)

أي كاملا من حيث المضمون ، كاملا من حيث الشكل ، كاملا من حيث طريقة المعالجة ، كاملا من حيث عدد القضايا التي عالجها .

(وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ)

هل هناك عبارة أوضح من هذه العبارة ؟

(وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ)

هذا التوراة ، فكيف بالقرآن الكريم ؟ الكتاب الخاتم ، والكتاب المهيمن ، والكتاب الذي يغطي المرحلة الأخيرة من حياة البشرية ، وهي أعقد مرحلة ، وأصعب مرحلة لكثرة الشبهات ، وكثرة الطرحات ، وكثرة الضلالات ، وكثرة الفتن ، وكثرة ما يستجد .

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

إخواننا الكرام ، الذي عاش مع سيدنا موسى ، وقرأ التوراة كما أنزلها الله عز وجل ، أو عاش بعد سيدنا موسى ، وعمل بالتوارة التي أنزلها الله على رسوله ، ومات فهو في الجنة ، أما الذي عاش في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أشار الإنجيل في آيات كثيرة إلى ظهور النبي عليه الصلاة والسلام :

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

(سورة الصف)

فإذا عاش الذي آمن بالإنجيل إلى زمن النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد أمر الله أتباع الأنبياء السابقين الذين أدركوا نبوة سيد المرسلين أن يؤمنوا به ، فلذلك الذين يعيشون مع الأنبياء ، ويؤمنون بالكتب التي أنزلت كما أنزلت ، ويموتون فمصيرهم إلى الجنة .

هناك قضية في بعض القرى في مصر ، أسرة فقيرة جداً ، تريد أن تشعل التنور ، فلم تجد إلا كتباً قديمة ، مر أحد الرهبان بهذا التنور ، فإذا بالكتب كتب مقدسة ، فأنقذ بعضها ، بعض الكتب المقدسة

فيها تفاصيل طويلة جداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف أن قومه ائتمروا على قتله ، أو إخراجه ، وفيها تفاصيل أيضاً تؤكد ما في القرآن الكريم عن سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام ، هذا الكتاب ترجم إلى اللغة اللاتينية ، ولما اطلع عليه بعض رجال الدين أوقفوا التبشير في العالم الإسلامي، هذه وثائق دقيقة جداً ، والآن الكتاب في طور ترجمته إلى اللغة العربية .

التوراة والإنجيل والقرآن من مشكاة واحدة :

التوراة والإنجيل والقرآن من مصدر واحد ، من مشكاة واحدة ، هذا الكتاب إن شاء الله بعد حين يكون بين أيدي الناس في الأسواق ، تفاصيل في الإنجيل عن رسول الله تفاصيل دقيقة جداً ، لا بد من أن تكون من عند الله ، لأن هذه التفاصيل وردت في الإنجيل قبل أن يأتي النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن رواية القرآن للسيد المسيح أتت في هذا الكتاب أيضاً مطابقة تماماً لما في القرآن الكريم .

إذاً : الذي يؤمن بنبي سابق ، وبكتاب أنزل عليه ، ويموت يموت فهو في الجنة ، لأنه دين الله ، ونبي الله ، وكتاب الله ، أما الذي يدرك النبي عليه الصلاة والسلام فينبغي أن يؤمن به ، بتوجيه من الله عز وجل ، والدليل أن الله ذكر في آخر كتاب أتى قبل كتاب القرآن الكريم إشارات طويلة إلى نبوة النبي عليه الصلاة والسلام .

القيم ثابتة :

أيها الإخوة ، لكن نحن لأن الأجسام تنمو فنحتاج إلى ألبسة من حين لآخر بقياسات مختلفة ، هذا في شأن المادة ، أما في شأن القيم فالقيم ثابتة ، يعني الصغير ينبغي أن يصدق والكبير ، القوي ، والضعيف ، والفقير ، والغني ، لذلك القيم ثابتة في كل الأديان السماوية ، وفي كل الكتب المقدسة ، القيم ثابتة ، ولو تعمقتم أيها الإخوة في الكتب السماوية السابقة كما نزلت لوجدتم أن الخمر محرم فيها ، وأن لحم الخنزير محرم ، فلا يعقل أن يحرم شيء على أمة ، ويباح لأمة ، فنحن فينا أخطاء ، وتغيرات، وتبديلات ، أما الحقيقة الدقيقة أن القيم ثابتة في الكتب الثلاثة ، والذين يتعمقون كثيراً في الكتب السماوية السابقة يجدون تطابقا عجيبا جداً بين ما في الإنجيل والتوراة ، وبين ما في القرآن الكريم .

مرة كنت في أستراليا ، وسُئلت عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنا في كنيسة ، قلت : هي موجودة في الإنجيل ، يقول السيد المسيح : أنا الطريق ، والحق والحياة ، فكل غصن لا يثبت فيّ يقطع ، ويلقى في النار .

في أحد مؤتمرات الخطاب الديني دُعيت لإلقاء كلمة لأمثل الدين الإسلامي ، حدثتهم عن موضوعات كثيرة ، فجاء هذا السؤال ، قلت : هذه في الإنجيل ، أنا الطريق والحق والحياة ، فكل غصن لا يثبت فيّ يقطع ويلقى في النار .

أريد من هذا الكلام المختصر أنك إذا تعمقت في فهم الكتب السماوية كما نزلت لوجدت التطابق العجيب ، لأنها كلها تأتي من مشكاة واحدة ، من عند الله عز وجل .

أيها الإخوة ، ثم يقول عز وجل :

(وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ)

التوراة كما قال الله عنه :

(آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم)

الهدى الهدف الواضح ، منارة المنارة هي الهدى .

كنت أذكر أن إنسانا صمم الجسر الأول في اسطنبول الذي يربط آسيا بأوربا ، وفي أثناء افتتاح هذا الجسر ، وفي أثناء قص الشريط الحريري المفاجأة أن الذي صمم هذا الجسر ألقى بنفسه في البوسفور ، ومات ، ذهبوا إلى فندقه في اسطنبول فإذا ورقة كتبها بخط يديه ، قال : أنا ذقت كل شيء في الحياة ، هو خامس مهندس في العالم ، وسيم الصورة ، غني ، فلم أجد لها طعماً ، فأردت أن أذوق طعم الموت.

الحياة من دون هدف حياة تافهة :

أيها الإخوة ، والله الذي لا إله إلا هو حياة الإنسان من دون هدف والله تافهة وفيها ملل ، ولو عاشرت أناساً بلغوا قمم النجاح في جمع الأموال ، وفي سكنى البيوت الفخمة وركوب المركبات الفارهة ، واختيار الزوجات الجميلات ، والله لوجدت عنده من الملل والإحباط ، كل شيء يُمل ما سوى الله ، يُمل، شاءت حكمة الله أن تكون الدنيا ذات أثر محدود متناقص ، لكنك إذا عرفت الله سعدتَ .

بشكل مختصر : أنت مصمم لأن تسعى لهدف كبير ، نفسك لا نهائية ، لا يملؤها إلا معرفة الله ، لا يملؤها إلا العمل للآخرة ، فإذا اكتفيت بهدف أرضي ، وحصلته بدأت المتاعب ، بدأ الملل ، بدأ السأم ، بدأ الضجر ، بدأ الانحراف .

لي تفسير خاص : أن الانحراف في العالم الغربي الشذوذ ، لا لأن هذه العلاقة أكثر متعة من المرأة ، لا ، لأنهم ملوا الشيء الطبيعي ، قضية ملل ، وسأم ، وضجر ، فانتقلوا إلى الشذوذ .

فلذلك أنت من دون هدف حياتك تافهة ، وحياتك مملة ، وسعادة إن صح التعبير متناقصة ، تجد إنسانا في خريف عمره محققا نجاحات كبيرة ، شعر بتفاهة الحياة ، أنا لا أنسى أن الذي حصل أكبر ثروة في

العالم " بيل غيت " صاحب ميكرو سوفت ، قبل أيام تبرع بـ 90 % من ثروته من أعمال الخير في إفريقيا ، واعتزل العمل التجاري ليدير أعمال الخير ، لأنه إنسان ، والإنسان الذي ليس عمل صالح تافه ، المال لا ينتهي .

إخواننا الكرام ، الدنيا لها سقف ، ومهما كنت غنياً ، فكم تأكل من الطعام ؟ كم ترتدي من الثياب ؟ ترتدي ثياباً واحدا في وقت واحد ، وتنام على سرير واحد ، وتأكل بقدر حاجتك .

مرة سألت إنسانا يعمل في قصر ، قلت له : ماذا يأكل مَن في هذا القصر ؟ قال لي : الفول ، وهو طعام كما نأكله نحن ، الدنيا لها سقف ، أما الآخرة فليس سقف ، أنت لمجرد أن تختار هدفاً أرضياً ، وتصل إليه يبدأ الشقاء ، والملل ، والسأم ، والضجر ، لكن لمجرد أن تختار الله عز وجل يكون لك هدف ، الإله لا نهائي ، لذلك تجد إنسانا مؤمنًا في 95 من عمره شابًا ، وأنا أعني ما أقول ، شاب لا يشعر بالملل ، أهدافه كبيرة جداً .

كان يمر بعض العلماء على المقاهي حيث يلعب الناس فيها النرد ، ويقول : يا سبحان الله ! لو أن الوقت يُشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم ، تجد المؤمن عنده طموحات ، عنده مشاريع ، ما في وقته دقيقة إلا وهي مشغولة بعمل صالح .

إخواننا الكرام ، إنسان بلاد هدف تافه ، والله لقد سافرت مرة إلى أمريكا ، إلى فلوريدا ، هذه باعتبار خط الاستواء منتجع المتقدمين في السن ، تقريباً المتقدمون في السن ي بأمريكا يقيمون في هذه الولاية ، وهي دافئة ، وجميلة جداً ، والله ترى إنسانا أتفه من التافه ، ما له همّ أبداً ، ما عنده أي هدف في الحياة، إلا أنه يأكل ، ويستريح ، ويستلقي ، ترى المؤمن بطلا ، عنده أعمال ، عنده طموحات ، عنده مهمات ، يسعى لنشر الحق ، يسعى لتوضيح الحقائق ، يسعى لخدمة الفقراء والمساكين .

إخواننا الكرام ، الأناس الذين يعملون في الخير أقسم بالله هم أسعد الناس ، وقد يأخذ هذا العمل من وقتهم قسطًا لا حدود له ، معظم وقتهم بالعمل ، وفي الجهد ، وهم أسعد الناس ، لذلك أنا أتمنى أن يكون للواحد من الإخوة المستمعين هدف واضح .

الآية الكريمة :

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى)

منارة كبيرة ،

(وَرَحْمَةً)

سعادة .

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

هدفي واضح وضوح الشمس :

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

(سورة هود الآية : 28)

شعورك أنك أنت مستقيم ، أنت إنسان حر ، أنت لا تباع ولا تشترى ، لا تُجير إنسانا ، لا تحسب على إنسان ، أنت لله ، نظيف في علاقاتك ، نظيف في حسابات ، نظيف في كسب مالك ، نظيف في إنفاق مالك ، في بيتك ، ما في عندك شيء تستحي به ، ولا شيء سر وشيء علن ، هذا إنسان في سعادة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم ، بسبب أنه طبق تعليمات الصانع .

إذاً :

(قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

(فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

أحياناً يكون للشاب دراسات عالية جداً ، له استيعاب للقرآن ، للسنة ، له استقامته ، له أوراده صباحاً ، له غض بصره ، تجده إذا جلس بين شباب تافهين يحتقرهم ، ليس كبراً ، لا والله ، لكن كلامهم سخيف، ومزاحهم رخيص ، وتعليقاتهم مخجلة ، واهتماماتهم قذرة ، وعلاقاتهم شائنة ، فيترفع ، ليس كبراً ، لكن سمواً ، فإذا اقتربت من الله سمت نفسك ، وتركت سفاسف الأمور ، وتعلقت بمعالي الأمور .

هل من المعقول أن يطلق الرصاص بين زمرتين في دمشق تعصباً لفريق إيطالي أو فرنسي ؟! وتأتي الشرطة ؟! أنت كمسلم بكيانك ، بعقيدتك ، بإيمانك بأهدافك ، تنحاز لفريق ؟! والله سخافات هذا العصر ـ شهد الله ـ لا تحتمل .

إذاً :

(قَالَ يَا قَوْمِ)

دققوا في الآية :

(أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

إذاً :

(وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

توقن أن المصير لله ، وأن النهاية عند الله .

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ *ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

ماذا أعددت لله عز وجل ؟ أرأيتم إلى الذين يقصفون ؟ ويهدمون ، ويذلون ويقتلون ، والله يوم تكشف الحقائق هم أغبى أهل الأرض ، يوم تكشف الحقائق ، هم الأغبياء لأنهم ما أدخلوا الله في حساباتهم ، هم في عمى .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة طه)

كنت أعمى في الدنيا .

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

(سورة الأنعام)

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَك

القرآن الكريم :

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ)

يعني أن هذا القرآن عظيم الخير .

(هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء الآية : 9)

(فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(ورة البقرة)

هذا كلام خالق الأرض والسماوات ، والله الذي لا إله لا هو ما من مأساة على وجه الأرض إلا بسبب مخالفة منهج الله ، أية مأساة ، كبيرة ، أو صغيرة ، مادية ، أو معنوية أو معنوية ، فردية ، أو جماعية، دولية ، حروب ، اجتياحات ، كل هذا الذي ترونه لبشر ابتعدوا عن الله ، نشأت بينهم العدواة والبغضاء.

معنى البركة :

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ)

مبارك يعني عظيم الخير ، يا ترى بصحتنا ، لو اتبعت توجيهات القرآن في الصحة لعشت صحيحاً ، لو اتبعت توجيهات القرآن في علاقتك بزوجتك لكنت أسعد زوج ، لو اتبعت توجيهات القرآن في تربية أولادك لكنت أعظم أب ، لو اتبعت توجيهات القرآن في تجارتك لكنت أعظم تاجر ،

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ)

فيه خبر من قبلنا ، فيه تطمين لنا ، فيه بشارة لنا ، ألا تكفي هذه الآية ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية : 97)

بشارة :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية : 51)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

والله الذي لا إله إلا هو لولا القرآن الكريم لكانت الحياة لا تُعاش الآن ، متابعة الأخبار وحدها تسبب أزمة قلبية ، لا تحتمل ، عدو قوي جداً ، وحاقد جداً ، ويتمنى فناء هذه الأمة ، ويتفنن بإذلالها ، لولا التوحيد ، التوحيد شيء عظيم جداً يبعدك عن الحقد ، وعن الألم ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والعقل لا يقبل ، ولا يصدق أن الله لا يعلم ما يجري ، مستحيل ، ليس إلهاً إذاً ، إله ، ما دام يعلم :

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام الآية : 59)

إذا سقط صاروخ أبلغ ، الورقة إن سقطت يعلمها ، والصاروخ ؟ والألف صاروخ ؟ إذاً الله يعلم ، والذي يتوهم أن الله لا يقدر زلزال تسونامي بقوة مليون قنبلة ذرية بساعات 300 ألف قتيل 500 ألف مشرد ، دول بأكملها ، جزر اختفت ، في جزيرة أزيحت 30 كم .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

الله يعلم ما يجري ويعنيه ذلك :

شيء آخر ، الله عز وجل إذا توهمت أنه لا يعنيه ما يجري ، لا ، هذا كفر

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا)

دققوا :

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس الآية : 24)

إذاً الله يعلم ، ما يجري ، وقادر على كل شيء ، ويعنيه ما يجري ، ولكن الذي يجري وفق خطة الله ، لحكمة بالغةٍ بالغةٍ بالغة ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها .

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ)

أحيانا يقال لك : بركة ، قد يكون المعاش خمسة آلاف ليرة ، تعيش أسرة به أجمل معيشة ، وهذا كلام معقول ، لأن العلماء قالوا : هناك رزق إيجابي ، ورزق سلبي ، ما هو الرزق السلبي ؟ ألف نفقة مرهقة وكبيرة ، وكان من الممكن ألا تكون ، نفقات الأطباء ، والمستشفايات ، والمصادرات ، والغرامات ، ألف نفقة إذا أعفاك الله منها ، وسلمك منها دخلك عشر أضعاف صار ، المشكلة أحياناً الدخل ينفق كله بأشياء متعبة ، ارتفاع حرارة مفاجئ يقول لك : تصوير ، إيكو ، مرنان ، دفعت خمسة آلاف ، لو ما حصل هذا الشيء إطلاقاً فكأنه جاءك خمسة آلاف ، ووفرتها ، كلمة(مبارك) إذا استقام الإنسان قد يكفيه دخله المحدود ، وإذا ما استقام فالملايين لا تكفي ، معنى مبارك : الشيء القليل ينتج عنه خير كثير .

600 صفحة ، تربية ، وتاريخ ، وإعجاز علمي ، ومشاهد من يوم القيامة وتطمين ، وأحكام شرعية ، هذا الكتاب ، ولا تمل من قراءته ، والله أي شيء آخر غير القرآن تملّ منه ، تسمع الشريط مرة مرتين ثلاثا تخرج من جلدك منه ، القرآن تسمعه 35 سنة ، 40 سنة الآيات نفسها ، كلما سمعته انبثقت المعاني أمامك ، وكأنك تسمعه أول مرة .

يقول بعضهم : صليت في الحرم في رمضان ، أو في العمرة ، وسمعت آيات كأنني أسمعها أول مرة في حياتي ، وأنا أذوب تعظيماً لهذا القرآن .

فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

يعني اتبعوا أحكامه ، واتقوا أن تعصوا الله .

(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

ورحمة الله أكبر عطاء إلهي ، هي صحة ، وهي سمعة ، وهي راحة ، وهي سكينة ، وهي توفيق ، وهي نصر ، وتأييد ، أرأيتم إلى هذه الأمة الإسلامية والله لو أنها طبقت هذا الكتاب لا تستطيع جهة بالأرض أن تنال منها :

((لن ـ لتأبيد النفي ـ لن تغلب أمتي من اثني عشر ألف من قلة))

[ورد في الأثر]

مليار و500 مليون ، ليست كلمتهم هي العليا ، وليس أمرهم بيدهم ، وهم متفرجون ، ألا ترون إلى أنهم متفرجون ؟ لا يستطيعون أن يفعلون شيئاً ، هذا من ضعف الإيمان ، من البعد عن الله ، من الحرص على الدنيا ، من الخوف ، من القلق .

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

مستحيل وألف ألف ألفِ مستحيل أن تكون ملتزماً تماماً ، مطبقاً لهذا الكتاب ، مصطلحاً مع الله ، مقبلاً عليه وقافاً عن حدوده ، وأن يستطيع كافر أن منك .

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

فإذا كان لهم علينا ألف سبيل وسبيل ، يكون إسلامنا فلكلوريا فقط ، وإطارا وأقواسا إسلامية ، والله شيء جميل ، زخرفة إسلامية ، منظر إسلامي ، حفل إسلامي مشاعر إسلامية ، خلفية إسلامية ، أرضية إسلامية ، لكن ليس هناك إسلام ، هناك مظاهر فقط ، لذلك الله كلما نظهر بخلاف ما عندنا يتخلى عنا الله عز وجل .

(وَهَذَا كِتَابٌ)

ما معنى كتاب ؟ شيء لنفاسته يكتب ، يمكن أن تجلس بجلسة يكون الكلام فيها فارغا ، ولا معنى له ، وسخيف ، وباللغة العامية ، هل تكتب شيئًا في دفتر ؟ مستحيل ، أما حكمة ، فتكتبها ، لأنها تلخص تجارب كثيرة ، تكتبها كلها .

(وَهَذَا كِتَابٌ)

كلام لنفاسته يُكتب ، وكلام لنفاسته يُحفظ ، الله عز وجل سمّى هذا الكتاب قرآناً وكتاباً ، يكتب في السطور ، ويحفظ في الصدور .

أيها الإخوة الكرام ، القرآن جاء على معاد على طموح البشريات ، وحضاراتها وارتقائها بالعقول ، لذلك لا بد من أن يواجه القرآن كل هذه التحديات .

أحياناً يصنعون لنا كتابا مقدسا ، صُنع هذا الكتاب ، هو في 12 جزءاً ، صدر حتى الآن جزءان ، موجود بالانترنيت ، و وزّع بالكويت ، من آيات هذا الكتاب الفرقان : أن يا محمد ، أأنت أضللت عبادي ؟ يقول محمد : يا رب لقد ضللت فأضللتهم .

مثلاً : يأتون بأناس يصطنعون آيات ، وكأنها قرآن : والطاحنون والطاحنات ، والعاجنون والعاجنات ، ومودع في أعماق أعماقك أن هذا كلام الله ، وما سواه لا يستحق إلاّ الضحك والسخرية ، على من نزل هذا القرآن ؟ على إنسان أمّي ، وعاءه فارغ ونظيف ، إلا من الوحي ، والأمية في حق النبي وحده وسام شرف ، لأن الله أفرغ جعبته من كل ثقافة أرضية ، وجعل كل ما في جعبته وحياً يوحى إليه.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

لكن نحن أميتنا وصمة عار ، نحن ما عندنا وحي ، نحن يجب أن نتعلم ، نحن إنما العلم بالتعلم ، أما النبي :

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

(سورة النجم)

الله عز وجل تولى تعليم النبي ، إذاً أميته وسام شرف له ، لكن نحن إن لم نتعلم من أناس مثلنا لا نتعلم.

مِن موجبات الرحمة : اتباع القرآن :

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

هذه(لعل) للرجاء ، أنت عليك أن تبلغ ، على الإنسان أن يسعى ، وليس عليه إدراك النجاح ، الإدراك ليس عليه ، أنا عليّ أن أسعى ، أنا أُبلغ ، أُوضح ، أُبين ، والإنسان حر أن يستجيب أو لا يستجيب .

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

قال :

(أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)

(سورة الأنعام)

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ

أيّ لئلا تقولوا يوم القيامة :

(إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا)

يا رب ، أنت أنزلت على اليهود التوارة ، وعلى النصارى الإنجيل ؟ وهؤلاء بلغات لا نعرفها ، هم ضيعوها أيضاً ،

(أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)

وما أتيح لنا أن نقرأ التوارة والإنجيل .

(أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)

(سورة الأنعام)

أحيانا يقول الإنسان لأبيه : لو وضعتني بالمدرسة الفلانية لنجحت ، لكن أنت استرخصت ، مثلاً ، لو دفعت ثمن دروس خاصة لكنت الأول ، في العام الثاني جلب له عشرة مدرسين خاصين ، لكنه رسب ، فهو كذاب .

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

(أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ)

كلام واضح كالشمس .

(وَهُدًى)

هدف مُنوّر .

(وَرَحْمَةٌ)

سعادة .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ)

معنى : صَدَفَ :

صدف ؛ من الأفعال الدقيقة ، هذا الفعل وحده يكون لازمًا ، ومتعديًا ، صدف عن الحق ، انصرف عنه ، أما صدف أخاف عن الحق ، يعني أضله فصدف ، الفعل الثلاثي يأتي لازمًا ، ويأتي متعديًا ، صدف يعني صرف .

قد يكون لك أخ مثلاً التزم بجامع ، واستقام ، وغض بصره ، وأدى الصلوات ، وصلى قيام الليل ، ما لك همّ إلا أن تصرفه عن هذا المسجد ، فتفلت بعدها ، انبسطت الآن ؟ كان ملتزما ، كان يصلي ، كان يقرأ القرآن حتى زهده بهذا الجامع ، وبهذا الشيخ ، وماذا تريد من الدين ؟ ويأتيك وجع رأس منه كثير، ويأخذون اسمك وأنت داخل ، مثلاً ، فترك ، وتفلت في الملاهي ، يأتي الساعة الثانية بالليل ، ويضرب أباه أحياناً ، هذا أعجبك ؟ كان ملتزما ، كان منضبطا .

إذاً:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا)

إما صرف نفسه عن الحق ، أو صرف غيره .

جزاء من صد عن سبيل الله :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا)

يعني لا تجد إنساناً أشد ظلماً لنفسه

(مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ)

نفسه

(عَنْهَا)

انصرف إلى جهة ثانية ، أو انصرف ، وصرف غيره إلى جهة ثانية .

(سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)

أمام الإنسان متاعب وعذابات ، وآلام ، إحباط ، وخيبة أمل ، لا يعلمها إلا الله .

في عهد النبي كان لرجل جارٌ وصّاه بزوجته ، فخانه بها ، فلما بلغ النبي الخبر قال : خان صاحبه ، والكلب قتله ، الكلب قتله ، والكلب خير منه .

أحيانا يعمل الإنسان عملا فيسقط من عين الله ، ومن عين الناس ، يلعنه الله ، والملائكة ، والناس أجمعون .

(سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)

أيها الإخوة ،

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

(سورة الأنعام)

هذه أخطر آية ، صدف عن آيات الله ، التفت للدنيا ، إلى المتع ، إلى النساء إلى جمع المال ، إلى الملهيات ، إلى السفر ، السفر المنحرف ، وبعد ذلك موت .

مِن مَشاهد يوم القيامة :

1 – هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلَائِكَةُ

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلَائِكَةُ)

ملائكة الموت .

((بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

[رواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا]

كلام دقيق ، والحديث هذا والله يقصم الظهر :

((بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

((هل تنتظرون إلا فقراً منسياً))

الآن دُخول لا تعد ولا تحصى في بلاد مجاورة انتهت فوراً ، أليس كذلك ؟ انتهى كل شيء ، انتهت السياحة ، انتهت الصناعة ، انتهت المواصلات ، أليس كذلك ؟

مثلاً : أحياناً ينتهي الدخل فجأة .

((هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غناً مطغياً))

بعد أن اغتنى يريد أن يعصي الله ، والله أخت كريمة اتصلت بي على الهاتف وقالت لي : زوجها اغتنى ، وهو في بلد آخر ، قال لها : تعالي إلي ، وإن لم ترتدِي البنطال والبطن مكشوف لا أستقبلك ، وهي محجبة حجابا كاملا ، بعد ما اغتنى يريدها كالمومسات ، طبعاً هي رفضت طلبه .

((هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غناً مطغياً ، أو مرضاً مفسداً))

ورم بمقتبل حياته ، انهار ،

((أو مرضاً مفسداً))

((أو هرماً مفنداً))

كبر بالسن ، يعيد القصة مئة مرة ، وصار حشريا ، وما أحد يحبه ، وإذا جلس ليتكلم ينصرف أهله من غرفته .

هذه حالة ، أقسم لي بالله أحد إخوتنا الكرام أن أمه توضع على سرير ، وتقيّد يداها ورجلاها بالسرير ، قلت له : لماذا ؟ قال لي : لأنها إذا كانت يداها طليقتين عرّت نفسها تماماً ، وأكلت من غائطها ، هذا هرم مفند .

والله في كل مرض بالشيخوخة يدع الحليم حيران ، وهناك إنسان أحياناً يفقد حركته ، أقرب الناس له يسمعه :(الله يخفف عنك) فلذلك سلوا الله العافية

((بادروا بالأعمال الصالحة ، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غناً مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال))

من أجل الحرية تُرتكب كل الجرائم ، جندي يدخل بيتا بالليل فيغتصب فتاة مع ثلاثة ، ويقتلونها ، ويقتلون إخوتها وأمها وأباها ، ويحرقون البيت ، هذه الحرية ، جئنا من أجل حريتكم ، هذا دجال ، أو الدجال .

((فشر غائب ينتظر ، أو الساعة ، والساعة أدهى وأمر))

يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ، ولا يستطيع أن يغير ، إن تكلم قتلوه ، وإن سكت استباحوه، موت كعقاص الغنم ، لا يدري القاتل لمَ يَقتل ، ولا المقتول فيمَ قُتل ، اسمعوا الحديث مرة ثانية :

((بادروا بالأعمال الصالحة ، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غناً مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة ، والساعة أدهى وأمر))

تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً ، أسير واحد دُمرت غزة ولبنان ، وعشرة آلاف أسير بلا ثمن ، هذا يحتمل ؟

((والساعة أدهى وأمر))

هذا الحديث يقصم الظهر ، يمكن لإنسان لا يصاب بأحد هذه البنود ؟ قد يفتقر فجأة ، وقد يغتني غناً مطغياً ، وقد يصاب بمرض خبيث .

((أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال))

((وَاذَا كان أمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاَءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ ، فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ من ظَهْرِهَا ، إِذَا كان أمَرَاؤُكمُ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُم سُمَحَاءَكم وَأُمُورُكُم شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا))

[رواه أَحْمَدُ بنُ سَعِيدٍ الأَشْقَرُ، عن أبي عُثْمانَ النَّهْدِيّ ، عن أبي هُرَيْرَةَ]

أيها الإخوة ،

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلَائِكَةُ)

ملك الموت .

والله أيها الإخوة ، حينما يأتي ملك الموت ، ولم يكن الإنسان مستعداً له والله تأتيه آلام لا يعلمها إلا الله، من بيت فخم إلى قبر ، قد يكون للرجل أقرباء أغنياء ، فإذا ذهب إلى التعزية يقول : مساحة البيت 400 م ، رخام ! أين صاحبه ؟ بمقبرة باب صغير ، من اختار الرخام ؟ من اختار هذه الثريات ؟ السجاد 400 ، الجبصين ؟ من اختاره ؟ صاحبه ، أين هو ؟ بباب صغير في القبر ، نقلة مذهلة ، لذلك أعقل إنسان على وجه الأرض هو الذي يعد لهذه الساعة التي لا بد منها .

2 – أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ)

يعني يأتي أمر ربك ، لذلك من أدعية النبي الكريم :

((اللَّهُمَّ إني أعُوذُ بكَ من َفجْأةِ نِقْمَتِكَ))

[رواه مسلم ، عن ابن عمر رضي]

كما حدث :

((وَتَحَوُّلِ عافيتك ، وَجَمِيعِ سُخْطِكَ))

أحيانا يأتي المرض فجأة ، خثرة بالدماغ انشل ، كان ملء السمع والبصر ، ورم فبرك بالأرض ، قال طبيب لمريض : أنت معك ورم خبيث ، تعيش تقريباً أربعة أشهر فرتب أمورك ، مات ثاني يوم ، وما تحمل ، قال له : تعيش أربعة أشهر ما تحمل ، الله يعافينا جميعا .

(أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ)

يعني يأتي أمر الله عز وجل .

3 – أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ

(أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ)

أحيانا يضعف بصره ، يبدل أسنانه ، يزرع بعض الأسنان ، يكون له مفصل اصطناعي ، أمراض مفاصل ، كبد ، شحوم ثلاثية ، احتشاء أحياناً ، انسداد شريان ، هذه كلها علامات أنه يا عبدي أن اللقاء اقترب اللقاء ، فهل أنت مستعد ؟ إشارات لطيفة .

(أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ)

الآن

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا)

الإيمان بالغيب هو المحكّ :

إخواننا الكرام ، الإيمان هو بالغيب :

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

الإيمان بالغيب ، أما الشهود فليس إيماناً ، لذلك فرعون لما أدركه الغرق قال :

(قَالَ آمَنْتُ)

(سورة يونس الآية : 90)

هذا آمن ، آمن شهوداً ، هذا ما له قيمة أبداً ، البطولة أن تؤمن بالغيب .

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

(قُلْ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(72-73): تفسير الآيات 159- 163 ، التفرق شرخ صفوف الأمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-07-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني والسبعين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية التاسعة والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

الإسلام دين التوحيد ونبذ التفرقة :

الحقيقة أن هذا الدين العظيم إنما أنزله الله على نبيه الكريم ليوحدنا ، لا ليفرقنا ، ليؤلف قلوبنا لا ليوقع بيننا العداوة والبغضاء ، فأيّ إنسان يحقق حقيقة هذا الدين بأن يجمع الناس دون أن يفرقهم ، أن يقرب بينهم دون أن يباعد بينهم ، هذا الإنسان يتحرك وفق منهج الله ، والذي يريد أن يجعل هذا الدين طوائف، وشيعاً ، وأحزاباً ، وفئات ، وتيارات ، واتجاهات ، بحيث تغدو وحدة الأمة ممزقة ، بحيث يكون الشرخ كبيرا بين شرائحها ، كل إنسان يفرق ، ولا يجمع ، يوقع بين الناس العداوة والبغضاء ، يُحزب ، ويتعصب ، وينحاز انحياز أعمى ، هذا الإنسان يتحرك بخلاف منهج الله ،

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ)

دين الله واحد .

الصراط واحد :

أيها الإخوة ، يقول الله عز وجل :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

صراط واحد ، الحق واحد ، الخط بين نقطتين واحد ، لو رسمنا خطاً آخر يأتي فوقه تماماً ، يجب أن نؤمن أن هذا الدين الأصل فيه أن يكون واحداً ، أن يكون جامعاً ، أن يكون أصلاً ، فأيّ إنسان جعله دينين ، أو طائفتين ، أو اتجاهين ، أوقع شرخاً في صفوف الأمة ، قال :

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ)

صارت أديانا .

بالمناسبة أيها الإخوة ، لمجرد أن نضيف على الدين صار أديانًا ، هذا أضاف على الدين في العبادات، هذا أضاف في المعلومات ، هذا أحل الربا ، هذا أحل الاختلاط ، هذا أحل ترك الصلوات ، فكل إنسان يعطي رأيا بخلاف ما في الكتاب والسنة فيجعل من هذا الدين أديانًا ، واتجاهات ، وشيعًا ، وأحزابًا ، وطوائف ، هذا ليس على منهج رسول الله .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا

معنى الشيع :

ما معنى شيعًا ؟ أو ما معنى تشيع ؟ بالمعنى اللغوي ؛ أن يجتمع أناس على فكرة ما ، خيرة أو شريرة.

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

(سورة الصافات)

على الخير ، فهو اجتماع الناس على شيء ، حقا كان أو باطلا ، خيرا كان أو شرا ، يقال : هذه شيعة فلان ، فالدين ينبغي أن يكون شيعة واحدة ، ولاء واحدًا ، اتجاهًا واحدًا .

أيها الإخوة ، هكذا أصل الدين ، وهكذا جاء به النبي الكريم ، وهكذا أراده رب العالمين ، ولكن حينما نجعل من الدين أداة تفرقة فقد خالفنا مقاصده .

جاءني سؤال قال صاحبه : إنني شافعية ، امرأة متقدمة في السن ، بالثمانين ، إنني شافعية ، وزوجي حنفي ، هل يجوز ذلك ؟ يا لطيف ! صار المذهب دينا ، إن لمس يدي هل تصح صلاتي ؟ قلت لها : يجب أن يطلقكِ فورًا !.

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا)

بقدر ما تستطيع اجمع ولا تفرق ، ابحث عن القواسم المشتركة ، ابحث عن الذي يجمعنا ، لا الذي يفرقنا ، هذا يرضي الله عنا ، أما أن تجد الشيع ، والأحزاب ، والاتجاهات ، وجماعة فلان ، وجماعة فلان ، وفلان على حق ، وفلان على الباطل ، وفلان ضئيع ، وفلان متقدم ، أينما جلست سمعت المماحكات ، وتبادل التهم ، والتقييم الشيطاني ، هذا الذي فرق الأمة ، هذا الذي جعل وحدتها مجزأة ، هذا الذي جعل شملها ممزقًا .

أيها الإخوة ، آية دقيقة جدًا يجب أن لا تغيب عن أذهاننا إطلاقًا

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا)

نظرية : << فرِّق تَسُدْ >> :

ماذا فعل فرعون ؟ :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

(سورة القصص الآية : 4)

فرق تسد ، ماذا يفعل الأعداء بنا ؟ أينما حلوا ، يفرقوننا إلى شيع ، في العراق ، في أيّ مكان ، سنة ، وشيعة ، وعرب ، وأكراد ، ألا ترون ذلك ؟ مصلحة العدو أن يفرقنا ، ونحن قوتنا في وحدتنا ، قوتنا في تضامنا ، قوتنا في اجتماعنا .

لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ

هؤلاء ليسوا على منهجك يا محمد ، ليسوا على دعوتك ، ليسوا على ما تتمنى ، ليسوا على ما ترضي الله ، تفرقة الأمة أكبر جريمة ، هل تصدقون أن الأوس والخزرج في مناسبة محدودة لم تُعَدْ مرة ثانية؛ أن بعضهم ذكّرهم بالخلاف فيما بينهم قبل مجيء رسول الله ، فكادت تنشب بينهم مواجهة ، فبلغ ذلك النبي ، فقال : أتفعلون هكذا وأنا بين أظهركم ؟ ثم نزل قوله تعالى يبيّن أن هؤلاء كفروا :

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة آل عمران الآية : 101)

إنها مرحلة التماسك والتضامن :

بماذا وصف الله عز وجل التفرقة في القرآن الكريم ؟ بأنها كفر ، لذلك أيها الإخوة ، ما من مرحلة في حياة المسلمين هم في أمس الحاجة إلى وحدتهم ، وتضامنهم وتماسكهم ، وإزالة الفرقة بينهم كهذه المرحلة ، وأقول دائماً : إن أعدائنا وضعونا في سلة واحدة ، فينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد .

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

أي لست منهم وليسوا منك .

الدعوة إلى العصبية والتفرقة من الكبائر :

بالمناسبة حينما يقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((ليس منا من دعا إلى عصبية))

[أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم وحسنه السيوطي]

((من فرق فليس منا))

[أخرجه الطبراني عن معقل بن يسار وحسنه السيوطي]

أحاديث كثيرة تبدأ بـ : ليس منا ، عدّ علماء الحديث أن هذه العبارة تعني أن الذي يفعل ما ذكر النبي في مقدمة فعله أنه ليس منا أنها من أكبر الكبائر ، إذا قال عليه الصلاة والسلام :

((ليس منا من دعا إلى عصبية))

فالدعوة إلى العصبية من أكبر الكبائر ، لذلك أيها الإخوة ، أقول دائماً : لا يجوز أن يضاف على كلمة مؤمن ولا كلمة ، أية كلمة تضاف على كلمة مؤمن دعوة إلى العصبية ، أحياناً كزلة لسان يقول لك : طالب علم أجنبي ، إن كان من بلد آخر يوصف بأنه طالب علم أجنبي ، المؤمن صفة جامعة شاملة .

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

الحق لا يتعدد :

الآن :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

معنى ذلك أن هناك نقطتين وبينهما خط ، ولا يمكن أن يمر خط آخر بينهما ، هذا هو الحق ، أما الباطل فخط منحنٍ ، وباطل آخر خط أشد انحناء ، باطل ثالث أشد انحناء ... يمكن أن يمر بين الخطيين مليون خط منحنٍ ، ومليون خط منكسر ، وكل هذه الخطوط باطلة ، والحق لا يتعدد .

هناك معنى آخر :

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة الآية : 257)

النور مفرد ، والظلمات جمع .

(يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 257)

فهناك الشيطان ، أو دعوة النبي ،

(يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

الحق واحد وموحّد ، وأصل جامع ، إذاً : هذا الدين جاء ليجمع لا ليفرق ، جاء ليوحد المصدر التشريعي مصدر الأمر والنهي في الأفعال الأساسية ، جاء هذا الدين ليوحد القلوب .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية : 10)

ما لم تشعر بأخوتك للمؤمن فلست مؤمناً ، وما لم يكن انتماءك لمجموع المؤمنين فلست مؤمناً ، أن تنتمي إلى فقاعة صغيرة ، إلى جماعة صغيرة ، وترى أنها وحدها على حق ، وما سواها على باطل ، هذا هو التعصب ، هذا هو الأفق الضيق ، هذا الذي لا يرى أحداً مثله .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ)

(سورة النساء الآية : 49)

هذا الذي يزكي نفسه ، ولا يرى أحداً مثله ، ويزدري كل من حوله ، ويعلو وحده ، ويبني مجده على أنقاض الآخرين ، هذا ليس من الدين في شيء ، ما أخر المسلمين إلا تفرقهم ، ولا جعل أعداءهم يطمعون فيهم إلا مِن فرقتهم ، وليس مع سلاحهم من عدو أمضى من إثارة الفرقة بينهم ، ومع العدو ورقة وحيدة رابحة إثارة الفتن الطائفية .

يقول بعض زعماء العالم الغربي بالحرف الواحد : " أنا لا يعنيني أن يكون العالم 200 دولة ، أتمناه 5000 دولة ، والله يتمنون في كل بلد إسلامي كل محافظة دولة ، كل محافظة يتمنونها دولة مستقلة ، وهذا ما يفعلونه في العراق ، قد تنتهي هذه الحرب الأهلية بتقسيم العراق ، وهذا من خططهم ، وهذه ورقة رابحة وحيدة .

بالمناسبة أيها الإخوة ، إذا كانت فئة من المسلمين حققت نصراً رائعاً فينبغي أن تعتز بهذا النصر إن كنت مؤمناً ، ولو لم يكن قد جرى على مَن هم على شاكلتك ، لأن الله عز وجل يقول :

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

أثبت الله للصحابة الكرام فرحهم بنصر الروم ، بين المسلمين وبين الروم الذين هم أهل الكتاب ، والقواسم مشتركة كثيرة جداً ، أليس كذلك ؟ أنا أُذكّر بالقرآن .

التفرقة في الدين مخالفة لمنهج الله :

أيها الإخوة ، الذي يفرق في الدين يتناقض مع منهج الله ، ومع وحي السماء ، والتفرقة تأتي من اتباع الهوى .

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

الهوى يفرق ، والدين يجمع ، الآخرة تجمع ، والدنيا تفرق ، لا تفرقة بين المؤمنين إلا بسبب الأهواء أو الدنيا ، يتنافسون على الدنيا فيتفرقون ، أو يتنافسون بالبدع التي أضافوها على الدين فيتفرقون .

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

الدين كالماء أصلاً وأهمية :

ما هو العنصر الأساسي في حياة الكائنات الحية ؟ العنصر الأساسي في حياة الكائنات الحية الماء .

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

(سورة الأنبياء الآية : 30)

لماذا جلت حكمته جعل الماء لا لون له ، ولا رائحة له ، ولا طعم له ؟ هذه صفات الماء ، الماء كعنصر أساسي هو قاسم مشترك لكل الكائنات الحية ، فإذا كان للماء لون خرج عن صفته ، أو للماء طعم ، أو له رائحة ، لم يعد ماء ، لذلك لأن الدين لنا كالماء ، لأن الدين لنا كالهواء ، ينبغي أن يكون الماء صافياً حتى يسمى ماء .

هذا هو واقع المسلمين للأسف :

أما في الدين كذا ، وفي الدين كذا ، وأكثر المسلمين حتى في بلاد المهجر هذا المسجد للجماعة الفلانية، وهذا المسجد لجماعة فلان ، وهذا المسجد لمن يأتي من شرق آسيا ، ولا يقبلون واحدا يأتي من الشرق الأوسط ، وهذا مسجد لمن يأتي من بلاد الحرمين ، وهذا المسجد لمن يأتي من بلاد الشام ، أرأيتم إلى التفرق في الشرق الأوسط ؟ لو ذهبت إلى أقصى البلاد وجدت التفرقة على أشدها هناك ، وقد يصل الأمر إلى الاقتتال في المسجد على وقت الإفطار وعلى جهة القبلة ، وعلى بدء الصوم ، هؤلاء مسلمون ؟ الأقليات في كل أنحاء العالم يتعاونون ، لأنهم أقلية ، إلا الأقليات الإسلامية ، أينما ذهبت وجدت الفرقة والتعصب يمزقهم .

أنا متألم جداً أيها الإخوة ، متألم من واقع المسلمين ، فُرّقنا ، شُتتنا ، كل جماعة تتهم الجماعة الأخرى، إلى متى هذه الفرقة ؟

إلامَ الـخلفُ بينكم إلامَ وهذه الضجة الكبرى علامَ

وفيم يكيد بعضكم لبعض فـــيم وإلى متى

***

أيها الإخوة ، الماء لا لون له ، ولا طعم له ، ولا رائحة ، وهو القاسم المشترك بين كل الكائنات الحية، ولأن الدين حاجتنا إليه كحاجتنا إلى الماء ، يجب أن يكون صافياً لا لون له ، ولا طعم له ، ولا رائحة.

سألني مرة واحد : ما تقول في التصوف ؟ قلت له : التصوف إن كان وفق الكتاب والسنة فعلى العين

والرأس ، لكن إذا كان كذلك هو الإسلام فلماذا نحدث مصطلحًا جديدًا ؟ إذا كان كلنا بالتصوف كما في الكتاب والسنة ، توحيدا ، وتزكية ، واستقامة ، وبذلا ، وتضحية ، والتزاما ، إذا كان التصوف مطابقًا للكتاب والسنة فهو إذاً الإسلام ، فعلامَ نحدث مصطلحاً جديداً يثير الفرقة بين المسلمين ؟ الأصل عندنا الكتاب والسنة .

((تركت فيكم شيئي ما إن تمسكتم لهما فلن تضلوا بعدي أبدا : كتاب الله وسنة رسوله))

[أحمد]

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

إطلاقاً ، ما فيه ذرة إيمان ، ما فيه ذرة من منهج رسول الله ، ما فيه ذرة من غيرته على المسلمين ، ما فيه ذرة من إخلاص .

من خصائص الدعوة الخالصة :

1 – الاتباع لا الابتداع :

أنا مضطر أن أقول : هناك دعوة إلى الله خالصة ، من خصائصها الاتباع لا الابتداع ، اتبع لا تبتدع .

2 – التعاون لا التنافس :

ومن خصائص الدعوة إلى الله الخالصة التعاون .

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة الآية : 2)

لا التنافس .

3 – الاعتراف بفضل الآخرين :

ومن خصائص الدعوة إلى الله الخالصة الاعتراف بفضل الآخرين ، وقد كان بعض الشيوخ في هذه البلدة الطيبة قبل خمسين عاما ، كل شيخ يأخذ نخبة من إخوانه إلى بقية الشيوخ ليعرفهم عليهم ، نحن من أسرة واحدة ، دعوتنا واحدة ، وما لم نكن كذلك فلا يرضى الله عنا ، أنت لك أم ، ليس معنى ذلك أن أيّ أم أخرى فاسدة ، لك أم تنتمي إليها ، هذا لا يمنع أن تكون معظم الأمهات أمهات ملتزمات ، حريصات على أولادهم ، وأحياناً يبرمج الإنسان أنه غير هذه الجماعة ، هذا لا يجوز ، وما سوى ذلك

ضلال بضلال ، يحصل عندهم كبر واستعلاء ، ورغبة بأن يبحث عن أخطاء الآخرين ، يصبح همه الأول القنص ، وكلما عثر على غلطة تمسك بها ، وكبرها ، وأشاعها بين الناس .

إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ

قال :

(إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ)

هؤلاء جاؤوا ليفرقوا لا ليجمعوا ، ليشقوا الصفوف لا ليرصوا الصفوف ، يجعلوا الأمة مشرذمة لا موحدة .

(إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ)

هذا تهديد كبير ، هذا الذي يشق صفوف المسلمين ، يفرق ولا يوحد ، يتهم من دون دليل ، يسيء الظن بأخيه المؤمن ، من ساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه .

والله سافرت إلى بلد يعيد شرقاً ، هالني أن في هذه المدينة التي يعد فيها المسلمون أكثر من 700 ألف، كل طرف يتهم الطرف الآخر بالفسق والفجور تهديد والاختلاس ، معقول ؟! أنا لا أتكلم من فراغ أيها الإخوة ، أنا أتكلم من واقع مرير ، والعدو يتمنى هذا الواقع ، ويكرس هذا الواقع ، ويعمق هذا الواقع ، كيف ؟ يستطيع أن يسيطر على كل هؤلاء المتفرقين .

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ)

ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

(ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

يريهم نتائج أعمالهم ، ثم يقول الله عز وجل :

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(سورة الأنعام)

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا

الحسنة لعلكم تتوهمون أنها مؤنث حسن ، هنا لا ، تقول عالم وعلامة ، علامة مؤنث ؟ فهامة مؤنث ؟ بحاثة مؤنث ؟ هذه تاء المبالغة

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ)

العظيمة

(فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)

المِثل مذكر ، بحسب قواعد اللغة فله عشرة أمثالها ، لكن في القرآن :

(فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)

إذًا : ارتبطت العشر بالحسنة لا بالمثل ، فمِن العمل العظيم أن تقدم شيئاً للأمة ، أن تقدم علماً ، أن تقدم إحساناً ، أن تؤلف القلوي ، أن تلبي حاجات الآخرين :

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة الآية : 245)

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا

أيها الإخوة ،

(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا)

الآن مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ رَبِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحِيمٌ ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشَرَةً إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةً ، أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا هَالِكٌ))

[أحمد]

قال شُراح الحديث : يرتفع ثواب الحسنة من عشرة أمثال إلى سَبْعِمِائَةٍ مثل إلى مليون مثل ، بحسب نية صاحبها .

((نية المؤمن خير من عمله))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

ونية الكافر شر من عمله ، كل شيء فعله يتمنى أكثر من ذلك ، كل شيء فعله الكافر يتمنى أكثر من ذلك ، لا بد من أن نكفر بالكفر ، أرأيت إلى الكفر ماذا فعل ؟

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون)

الكفر بالكفر قبل الإيمان بالله :

هذا الذي يهدم ، لا يدع شيئاً صالحاً للحياة ، بلا سبب ، والذين يُنكل بهم لا علاقة لهم بالموضوع إطلاقاً ، ألا ترون كل يوم ؟ لذلك هذا هو الكفر ، ما لم نكفر بالكفر لم نؤمن بالله .

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

(سورة البقرة الآية : 256)

لن يكون الإيمان صحيحاً إلا إذا كفرنا بادئ ذي بدء بالطاغوت .

((فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشَرَةً إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ))

((وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً))

تنبيه مهم :

لكن هناك تحفظ ،

((وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا))

لأنه لم يستطع ، تبقى سيئة أما

((فَلَمْ يَعْمَلْهَا))

غلب عليه خوف الله كتبت له حسنة ، وقد يهم الإنسان بسيئة فلا يستطيع أن يعملها ، ما له أجر ، بل عليه وزر ، لأن نية الكافر شر من عمله ، قال :

((فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةً ، أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ ـ إن تاب منها ، أو ندم عليها ـ))

وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا هَالِكٌ))

والله عز وجل يقول آية لو تأملناها لاقشعرت جلودنا :

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

فأيّ إنسان طرق بابك ، أيّ إنسان طلب منك حاجة ، أيّ كائن حي ، هذه المرأة البغي التي رأت كلباً كاد أن يلهث من العطش ، فسقته فشكر الله لها فغفر لها ، لك أجر في البهائم ، في الكلاب ، في القطط، في أي كائن حي يمكن أن تعينه ، أو أن تعالجه إن كان مريضاً ، أو أن تطعمه إن كان جائعاً .

هناك أناس أيها الإخوة يسعدون أيما سعادة إذا أطعموا البهائم ، يطعمون الطيور أحياناً ، هو في قمة السعادة ، والآية التي تؤكد هذا المعنى :

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

والله مرة أمسكت مجموعة سنابل نبتت من حبة قمح واحدة ، عددتها فإذا هي 35 سنبلة ، عددت حبات سنبلة واحدة فإذا هي خمسون حبة ، ضربت خمسة بـ17 1350 حبة من حبة واحدة ،

(وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

أيها الإخوة ،

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

لا تقوم الحياة إلا بالدين :

هذا الدين تقوم به الحياة ، ومستحيل أن تصلح الحياة بنظام الردع ، من يكون مع هذا العامل في الساعة الثانية ليلاً وهو يعجن العجين ، إن لم ينظف يديه ؟ من يكون مع هذا البائع إن رأى في الزيت فأرة فأخرجها ، وباع الزيت للناس ؟ من يكون معه ؟ .

قال عبد الله بن عمر لأحد الرعاة ممتحنا : << بعني هذه الشاة ، وخذ ثمنها ، فقال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها : ماتت ؤأو أكلها الذئب ، قال : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟ >> .

لا تستقيم الحياة إلا بالإيمان ، إلا بهذا الدين ، الدين يردع ، ويخلق في الإنسان وازعا .

أوضح مثل لذلك : رمضان في أيام الصيف ، تدخل إلى البيت الساعة الثانية ظهراً ، تكاد تموت من العطش ، وأنت في البيت وحدك ، والنوافذ مغلقة ، وفي الثلاجة ماء بارد ، لا تستطيع أن تضع في فمك قطرة واحدة ، هذا الدين ، لذلك ما من أداة قمع أو ردع أو انضباط كالدين .

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

يعني إلى طريق يصل إلى الله ، الله عز وجل عنده الأمن ، عنده السلامة ، عنده السعادة ، عنده الجنة، عنده كل شيء ، عنده التوفيق ، عنده الحفظ ، عنده التأييد ، عنده النصر .

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

هذا الصراط المستقيم دين فيه عقائد ، أعطاك تفسيراً عميقاً جداً للكون ، والحياة ، والإنسان ، وللدنيا ، وللآخرة ، هذا الدين أعطاك فوق العقائد عبادات ، أدوات اتصال بالله عز وجل ، من صلاة وصوم وحج وزكاة ، هذا الدين أعطاك منهجا في المعاملات ، والبيع ، والشراء ، والزواج ، والطلاق ، وما إلى ذلك ، هذا الدين أعطاك آدابا ، هذا الدين أعطاك مُثلا عليا ، النبي وأصحابه ، أعطاك عقائد أعطاك

عبادات ، أعطاك معاملات ، أعطاك آدابا ، أعطاك مثلا عليا .

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا)

هذا الدين قيم .

معنى : قِيَمًا

المعنى الأول :

فيه قيم عالية جداً .

((أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ـ والآن هناك جاهلية أشد ـ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ))

[أحمد عن أم سلمة]

فيه قيم عالية جداً ، والإيمان هو الخلق ، فمن واد عليك في الخلق زاد عليك بالإيمان .

المعنى الثاني :

يعني ديناً فيه قوام حياتنا ، وفيه قيم رفيعة ، وهذا الدين من القوام أن يقوم فيصلح حياة الناس ، من هو القائم على هذه الأسرة ؟ الأب ، يعنيه صلاحها ، يعنيه تأمين حاجاتها ، يعنيه تربية أولاده ، القيام ، ومن القيمة ، ومن القوام ،

(دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ

لأن إبراهيم نبي عظيم وهو أبو الأنبياء ، وهو كبير عند اليهود والنصارى وقريش ، هم من نسبه ، قريش من نسب سيدنا إبراهيم ، وهو قاسم مشترك بين قريش واليهود والنصارى .

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)

لذلك اليهود قالت : إبراهيم يهودي ، والنصارى قالت : إبراهيم نصراني ، فالله عز وجل أجابهم ، وقال :

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً)

(سورة آل عمران الآية : 67)

بالمناسبة : كلمة إسلام بالمفهوم الواسع تعني الاستسلام لمنهج الله ، لذلك ما من نبي ذُكِر في القرآن الكريم من دون استثناء إلا وصف بأنه مسلم ، فالإسلام بالمفهوم الواسع هو أن تستسلم لمنهج الله ، أن تخضع له ، والإنسان عند الموت لا بد من أن يكون مسلماً ، والدليل أكفر كفار الأرض حينما أدركه الغرق قال :

(وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

لذلك :

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)

يعني مال عن كل انحراف ، وفساد ، ومجون ، وانحلال ، وسقوط ، وزنا ، وخمور ، وملاهٍ ، ونفاق، وكذب ، ومؤامرات ، هذا البحر من الانحلال والانحراف كان هذا النبي الكريم بعيداً عنه ، مال عنه ، وابتعد عنه .

كان موحداً ، ثم يقول الله عز وجل : قل يا محمد :

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

أهمية الصلاة في الإسلام ومنزلتها فيه :

((الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين))

[رواه البيهقي عن ابن عمر والديلمي عن علي]

الصلاة غرة الطاعات ، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات ، الصلاة الفرض الوحيد الذي لا يسقط بحال ، الشهادة تنطق بها مرة ، والصيام يسقط عن المريض أو المسافر ، والحج يسقط عن الفقير والمريض ، والزكاة تسقط عن الفقير ، ماذا بقي ؟ الفرض الوحيد المتكرر الشهادة مرة واحدة ، الذي لا يسقط بحال هو الصلاة ، لذلك أول ما يسأل المرء يوم القيامة عن دينه الصلاة ، فإن صحت صح عمله .

وجوب الإخلاص في العبادات والنسك :

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي)

كل عباداتي ، حجه ، وصومه ، وكل عباداته .

(وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

لذلك اختصر النبي الدين كله بكلمتين أو بحرفين ، قال :

((اللهم أنا بك وإليك))

[ورد في الأثر]

قائم بك ، وقصدي أنت ، إلهي أنت مقصودي ، ورضاك مطلوبي .

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

هذا هو الرباني ، الرباني الذي يأتمر بما أمر رب العالمين ، وينتهي عما عنه رب العالمين ، الرباني هو الذي تلمح في حياته إقبالاً واتصالاً ، واستسلاماً ، وتوكلاً ، ومحبة ، وتضحية ، وفداء ، وإنفاقاً .

(لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة الأنعام)

صورة المسلمين في أعين أعدائهم وسببُ ذلك :

أيها الإخوة ، هذا منهج الله عز وجل ، والله الذي لا إله إلا هو لشدة ما أرى من تباين بين حقيقة هذا الدين ، الواحد ، الموحد ، الذي يجمع ولا يفرق ، الذي يؤلف ولا يباعد الذي هو قوام حياتنا ، وقوام استقامتنا ، وقوام سلامتنا ، وقوام سعادتنا ، هذا الذي ترونه الآن مما يجري على ساحة بلاد المسلمين بسبب تركنا لهذا الدين ، وإن البغاث بأرضكم يستنسر ، كل كلامهم أننا متخلفون ، أننا إرهابيون ، أننا قتلة ، أننا فقراء ، أننا جهلاء ، لأننا تركنا هذا الدين .

كيف الطريق إلى النصر ؟

الحل الأمثل في الدين كما لو أن مدينة تشرب ماء ملوثا ، فشت فيها الأمراض والأوبئة ، والقائمون على هذه المدينة أناس فهموا أنه لا بد من إنشاء مستشفيات ، واستخدام أطباء ، وشراء أدوية ، كل هذا العمل لا يجدي ، أوقف الماء الملوث قبل كل شيء ، والآن مهما سعينا ، ومهما تحركنا كي نرد قوة الأقوياء فلن نستطيع ، لكن نستطيع إذا اصطلحنا مع الله أولاً ، واستسلمنا لمنهجه ، وأقمنا الدين في

بيوتنا ، وفي أعمالنا ، وبعدئذٍ نعد لأعدائنا القوة المتاحة ، فالنصر عندئذٍ حتمي هذه سنة الله في خلقه آيتان :

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

الشرط الأول ، الشرط الثاني :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

أنصركم إذا آمنتم بي الإيمان الذي يحملكم على طاعتي ، ثم أعدتم العدة المتاحة فقط ، والباقي عليّ ، ولا في سبيل آخر ، ولا سبيل آخر ، هذه والله ما أعتقد به ، وألقى الله به ، ما من سبيل آخر ، أما على ما نحن عليه من تفلت ، نساء كاسيات عاريات ، بنوك ، ربا ملاهٍ ، نواد ليلية ، اختلاط ، مناسبات ، عرس مختلط ، تصوير ، كل المعاصي والآثام ، ويا رب انصرنا ، ويا رب بدد جمعهم ، يا رب ، اجعل تدميرهم في تدبيرهم ، ادع ما شئت ، فعند الله قوانين ، وسنن ، ولما غزو العراق كل جامع في العالم الإسلامي صلى ، ودعا بالقنوت ، فهل وجدنا ثمرة ؟ لا والله ، لذلك الحل الوحيد ، الصلح مع الله أولاً ، ثم أن تعد لهؤلاء ما تستطيع ، يا طالب ادرس ، يا صانع عمق خبرتك ، حسن بضاعتك ، اجعلها في متناول الجميع ، يا أستاذ جامعي تابع دراستك ، علم طلابك ، يمكن أن تفعل مليون شيء في هذه الظروف الصعبة لتقوية الأمة ، وحينما نأخذ بالجهاد ، والجهاد كما ترون حجّم أكبر قوة بالشرق الأوسط ، ألم يحجمها ؟ بإمكانات متواضعة جداً حجمها ، بالإخلاص .

لذلك أيها الإخوة ، الطريق سالك إلى النصر ، والكرة في ملعبنا ، والنصر بأيدينا إن عرفنا سنة الله عز وجل ، كل واحد يطبق الإسلام في بيته ، ابحث في أهله في خطأ ؟ في خروج لا يليق بمؤمنة ، في كسب مال حرام ، في علاقة مشبوهة ، في شيء لا يرضي الله في احتفال في فسق وفجور ، ليبحث كل منا .

سيدنا صلاح الدين واجه 27 دولة أوربية ، وانتصر عليها ، نصراً عزيزاً لأنه طبق منهج الله ، بدأ بالتعليم ، هذا حيّ المدارس كله من نتائج صلاح الدين الأيوبي ، بدأ بتعليم جيل مؤمن ، أزال كل المنكرات ، وأعد العدة المناسبة ، وانتصر ، هذا الذي أمامنا ، ولا سبيل آخر إلا إليه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(73-73): تفسير الآيتان 164- 165، ابتغاء الله وحده - امتحان الله لنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-07-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والسبعين ، ولعله الدرس الأخير من سورة الأنعام ، ومع الآية الرابعة والستين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا

1 - معنى الربّ ولوازمه :

أيها الإخوة ،

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا)

الرب هو المربي ، ولعل أقرب اسم من أسماء الله الحسنى إلى الإنسان اسم الرب ، لأنه يربيه ، لأنه يمده بما يحتاج ، لأنه يربي نفسه ، لأنه يربي إيمانه ، لأنه يعالجه ، لأنه يسوق له من الشدائد أحياناً ما يحمله على التوبة ، ويسوق له من الخيرات ما يحمله على الشكر ، ويلقي في قلبه السكينة ليشعر أنه بإيمانه أسعد الناس ، ويلقي في قلبه الرضا .

لذلك الخيرات التي تتأتى من رب الأرض والسماوات ، لا يعلمها إلا الله ، لذلك في كل صلاة الحمد لله رب العالمين ، هو الذي أوجدك من عدم ، هو الذي أوجد محبتك في قلب أمك وأبيك ، هو الذي خلقك على نحو يقربك إليه ، هو الذي يسرك لما خلقت له من معرفته .

2 - معنى : قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا

الآن السؤال الصيغة استفهام إنكاري

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا)

؟! هل من المعقول أن تتجه لمخلوق تتلمس أن يربيك ؟ أو أن تتجه لمخلوق تعتمد عليه أو أن تتجه لمخلوق تعلق الآمال عليك ؟ أو أن تتجه لمخلوق تخاف منه ؟ ترجو ما عنده ؟ تخشى بطشه ؟ وتنسى ربك ؟

متى يكون الاستفهام إنكارياً ؟ لأنه ولا واحد بالمليار يمكن أن تصدق أن يكون مخلوق حادث لئيم ضعيف الإمكانات أن تتخذه رباً ،

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا)

هل هذا معقول ؟ أي مخلوق له مسحة من عقل ، أي إنسان فيه ذرة عقل لا يمكن أن يوازن بين خالق السماوات والأرض ، صاحب الأسماء والصافة الفضلى ، وبين مخلق ضعيف ، أيعقل أن يوازن مخلوق بخالق ؟ تعتمد على مخلوق يموت ، تعتمد مخلوق ضعيف ، تعتمد على مخلق لا يملك لك :

(ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)

(سورة الفرقان)

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

كل شيء في الكون الله ربه ، ولو كان جماداً ، لأن الذي يمد الجماد للحركة بحركة الذرات ، فتكون هذه المادة حديدية ، وهذه نحاس ، وهذه صخرة ، وهذا ماء ، وهذا نبات ، الذي يمد كل المخلوقات بالحياة هو الله واهب الحياة لكل المخلوقات .

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التغابن)

وأمره كن فيكون .

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الزمر الآية : 63)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود الآية : 123)

أتتخذ إلهاً آخر غيره ؟

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

هل يمكن أن يوازن عندك خالق مع مخلوق ، فتدع الخالق وتعبد المخلوق ؟ الذي يشرك هو لا يقول : أنا أعبد فلاناً لأنه إله ، لا ، هو يقول : أنا أطيع فلاناً ، لكنه يعامله كما يعامل الإله ، يعصي الله ، ويطيعه ، إنه يتوهم أن إرضاء هذا القوي أعظم من إرضاء الله ، لذلك يؤثر رضاه على سخط الله ، من

هنا يقول عليه الصلاة والسلام :

((من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤونة الناس))

[أخرجه الترمذي وأبو نعيم في الحلية عن عائشة]

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

الرب الممد ، يمد المخلوق بما يحتاج ، بعض الحيوانات تحتاج إلى وبر ، بعضها إلى صوف ، بعضها إلى ريش ، بعضها إلى زعانف في البحر ، بعضها إلى أرجل ، بعضها إلى أجنحة ، بعضها إلى أجهزة خاصة ، بعضها إلى بعض الأعضاء التي يستعين بها كالكنغر ، فكل مخلوق أمده الله بأجهزة وخصائص تناسبه ، وتحقق مصالحه في الدنيا ، والله عز وجل كن فيكون ، زل فيزول .

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

معنى : أَبْغِي

أيها الإخوة ،

(أَبْغِي)

أي أطلب ، والإنسان في عنده طلب داخلي ، أيام يعلق الأمل على مخلوق ، وكأن لسانه حاله يقول : أعطني .

أحيانا يخاف من مخلوق ، وكأن لسان حاله يقول : نجني ، لكن المؤمن لا يخاف إلا الله ، ولا يرجو غير الله ، ولا يتكل إلا على الله ، ولا يعطي قلبه إلا لله ، ولا يكون محسوباً على جهة أرضية ، المؤمن محسوب على الله ، ولا يليق بالمؤمن أن يكون لغير الله ، هو إن كان لغير الله يحتقر نفسه .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة الآية : 130)

أيها الإخوة ، الآية تقول :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا)

هذا استفهام إنكاري ، يعني أيعقل أن تتخذ من دون الله رباً ؟ أيقبل عقلك أن تخاف من مخلوق ، وألا تخاف من الخالق ؟ أيقبل عقلك أن ترضي مخلوقاً وتعصي خالقاً ؟

وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

معنى كل شيء ، هذا الذي تعامله كإله هو في قبضة الله ، والله ربه قد يلهمه أن يسيء لك ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((لو كنت متخذا من أمتي خليلا دون ربي لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخي وصاحبي))

[أخرجه أحمد و البخاري ومسلم عن ابن عباس]

لا يوازن خالق مع مخلوق ، لا يوازن رب السماوات والأرض مع سيد في عملك .

الآن :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

رب هذه الطاولة ، هذا خشب فيه ذرات ، هناك الكترونات ، ونواة ، وحركة دائمة ، كل شيء يتحرك.

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

يتجلى على هذه المادة فتكون خشباً ، يتجلى على هذه المادة فتكون حجراً ، يتجلى على الماء فهو ماء ، الهواء هواء ، كل المخلوقات من خصصها بخصائصها ؟ الله جل جلاله ، ثم هو يمدها ، النبات ينمو ، والحيوان ينمو ويتحرك ، والإنسان ينمو ويتحرك ، ويفكر الجماد ذراته تدور حول بعضها .

معنى : وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا

أما معنى قوله تعالى :

(وَلَا تَكْسِبُ)

في القرآن أيها الإخوة ، كسب واكتسب ، كسب فعل ثلاثي يدل على الخير .

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة)

العمل الشرير هو من اكتساب الإنسان ، من اكتسابه ، والعمل الخير من كسبه ، أنت تريد ، أنت تختار، والله عز وجل يحقق اختيارك ، الخير أو الشرير ، لكن الاختيار الخير يقال له : كسب .

أنت جالس ، وأذن المؤذن ، فقلت : يا رب ، فوقفت لأصلي ، فأمدك الله بقوة فتحقق اختيارك الخير ، ولما يصرّ إنسان على فعل معصية ، أو على كسب مال حرام ، أو على ابتزاز إنسان ، أو على اعتداء على عرض ، حينما يصر الله عز وجل لأنه جعله مخيراً يسمح له أن يفعل هذا ، لكن الشيء الخير يعبر عنه بفعل الثلاثي ، أما الشيء غير الخير الشرير يعبر عنه بالفعل الرباعي ، كسب ، اكتسب الخماسي ، والزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى ، فإذا كسب الإنسان الخير يسجل له فوراً ، أما الشر اكتسب خمس أحرف ، إن فعل الشر فملك الشمال يُمنع أن يكتب عليه هذا الشر ، لعله يندم ،

لعله يتوب ، لعله يصلح ، فإذا فعل الشر ولم يندم ، ولم تتب ، وأصر عليه ، وتباهى به ، وافتخر به يقول له : اكتب ، اكتسب في مراحل عديدة ، أما أيّ فعل خير يسجَّل لك ، أما فعل الشر فينتظرك الله عز وجل ، هل تتوب ، هل تندم ، هل تصلح ما أفسدت ، هل تعتذر ، هل تستغفر ، هل تدفع صدقة ، فإذا فعلت الشر ـ لا سمح الله ـ ولم تندم ، ولم تتب ، وأصررت عليه ، بل وافتخرت به يقول لملك الشمال : اكتب ،

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

أنت تحاسب على كسبك ، بل إنك لا تملك إلا كسبك ، والكسب هو الانبعاث ، أنا قمت لأصلي ، أعانني الله على أن أصلي ، أنا نهضت لأعاون هذا المسكين أعانني الله على معاونته ، هذه كسب ، أما اكتسب قام ليزني ، قام ليسرق ، قام ليوقع بين اثنين ، قام ليرفع دعوى كيدية على إنسان ، الآن اكتسب.

الآية هنا تحير :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا)

هنا كسب عليها ، وهي هنا جاءت للشر ، قال بعض المفسرين : من كثرةِ ما ألِف هذا الشر صار فعله سهلاً عليه ، وكأنه خير .

هناك أشخاص يبنون رزقهم على إيذاء الناس ، وعلى ابتزازهم ، وعلى إلقاء الرعب فيهم ، يبدو أنه بعد حين تنطمس فطرته ، فيفعل هذه الشرور دون أن يحاسب نفسه ، وكأنه يفعل الخير ، هذا معنى جديد ، إذا أبدلنا فعل كسب باكتسب ، تركنا اكتسب واستعملنا كسب ، وأتينا بحرف جر بمعنى عليه ، أي هو عمل شرير ، فالمعنى أن هذا الإنسان من كثرة ما فعل الشر ألِفه ، وأصبح فعله عليه هيناً وكأنه فعل خير ،

(وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا)

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

الحقيقة أن الوزر هو الحمل الشاق ، لا يسمى حمل هذه الورقة وزراً ، الحمل الشاق مئة كيلو ، ينوء بحمله الإنسان .

أحيانا يقترف الإنسان جرائم ، وهو قوي ، ولا أحد يحاسبه ، لكن هو يحمّل نفسه يوم القيامة ما لا يحتمل ، لذلك قال الله عز وجل :

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

هؤلاء الذين يقصفون ، يبيدون البشر ، يدمرون كل شيء ، بل يدمرون كل المنشآت ، يقتلون الأطفال، النساء ، الضعاف ، يستخدمون آلة من أعتى الآلات لقتل طفل بريء ، وكأنها بطولة ، لو جاء ملاكم من الطراز الأول فأمسك طفلاً صغيراً ، هل تصفق له ؟ يكون الذي صفق له أحمق ؟ لأن هذا ملاكم ، هذا يصفق له إذا انتصر على ملاكم آخر ، جيش وطيران ، وأسلحة ، وأسلحة حارقة خارقة ، وقنابل عنقودية ، وذكية ، على طفل ، على امرأة ، على بيت للسكن ، لا على قلعة ، ولا على الطرف الثاني الذي معه سلاح ، ولا وتسمى هذا بطولة ، هذا الشيء من مفارقات الحياة .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

الوازرة الحاملة ، تزر تحمل ، الوازرة الحاملة لا تحمل نفس حمولة نفس أخرى ، أبداً .

(كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

(سورة الطور)

حتى لو جاء الابن من الزنا فلا علاقة له بسبب مجيئه إطلاقاً ، لذلك من أصعب العادات الجاهلية هي الأخذ بالثأر ، قتيل قُتل في قرية يجب أن يُقتل إنسان من قبيلة القاتل ، هذا الذي قتل اختفى ، أقرباء القاتل ما ذنبهم ؟ .

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير)

لا يجوز تحميل البريء أثر جناية المتهم :

والله أيها الإخوة ، لو أن هذه الآية :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

طُبقت ما كان في مشكلة في العالم ، الآن يأخذون رهائن ، الإنسان لا علاقة له ، أحيانا يحاسب الأب عن ابنه ، وتحاسب الزوجة عن زوجها ، وأعداؤنا يأخذون الرهائن أحياناً ، والمطلوب يأخذون رهينة مكانه .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

والله اتصل بي أخ من محافظة ، قال لي : هناك جريمة قتل حصلت ، وأهل القاتل تعاونوا معنا تعاونا مذهلا ، تعاونوا للإمساك بالقاتل ، والقتل ظُلم ، وبدأ بسرقة ، وانتهى بجريمة قتل ، فقال لي : كل أهل القاتل اختفوا من القرية خوفاً من الانتقام ، والذي سألني من وجهاء القرية ، قلت له : ينبغي أن ترجعهم

إلى بيوتهم ، وأن تطمئنهم ، وأن تشكرهم على تعاونهم معك ، هم لا علاقة لهم بالجريمة إطلاقاً ، هذا هو الإسلام .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

أنجبت امرأة فتاة ، يطلقها ! كون الجنين ذكرا أم انثنى ليس من المرأة ، من الذكر .

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ)

(سورة النجم)

أي حمّلها ما لا تحمل ، ملايين التصرفات ، إنسان بريء يعاقب ، لذلك : يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ، ولا يستطيع أن يغير ، إن سكت استباحوه ، وإن تكلم قتلوه .

أيها الإخوة ،

(وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

لكن الوازرة ؛ الحاملة ، والوزر الحمل الثقيل ، ومنه الوزير ، يحمل أعباء كبيرة جداً ، فالذي يرى أن الوزارة مغانم فهو جاهل .

أحيانا الإنسان يقول لك : أنا مسؤول كبير ، لو عرف معنى مسؤول لسقط مغشياً عليه ، سوف يحاسب عن كل كلمة ، وعن كل إشارة .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

قال تعالى :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

كان الوحي صعباً على النبي الكريم ، لأن صفة ملائكية في سيدنا جبريل تريد أن تلتقي بصفة بشرية ، ومن السهل أن تلتقي مع إنسان من بني البشر ، لوجود قواسم مشتركة كبيرة جداً ، لكن تصور مخلوقا ملائكيا يملأ الأفق كله سوف ينزل على النبي الكريم ، فكان أول الوحي يشعر بضغط شديد ، لو أن رجلَ النبي عليه الصلاة والسلام فوق رجلَ أحد أصحابه لكادت هذه الرجل تنسحق ، لو أنه ركب دابة تئن الدابة .

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)

(سورة المزمل)

إن صفة ملائكية تلتقي مع صفة بشرية ، فلابد من تفاعل هاتين الصفتين ، لكن بعد حين ألِف النبي الوحي ، فإن انقطع عنه الوحي تألم ألماً شديداً .

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

(سورة الضحى)

أيها الإخوة ، الإنسان في الدنيا يحمل مسؤولية كبيرة ، يحمل أمانة التكليف ، أن الله جعل نفسه أمانة بين يديه ، محاسب عن كل حركة وسكنة ، محاسب عن اتصاله وانقطاعه ، وعطائه ومنعه ، وابتسامته، أحيانا تسأل عن امرأة يقال لك : لا نعرف ، ما تكلم ولا كلمة ، لكن هذه :

((إن قذف المحصنة ليهدم عمل مائة سنة))

[أخرجه البزار الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك عن حذيفة]

متى يحمل الإنسان وزر غيره ؟

تحاسب على هذه العملية ، لا يتكلم ، لكن عبر عن كل شيء يحاسب عليه ، لكن متى تزر الوازرة وزر أخرى ؟ قال عزوجل :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

لكن متى تحمل هذه النفس ذنوب الآخرين ؟ إذا دلتهم على الشر ، إذا أغوتهم به ، لذلك يقول الله عز وجل :

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

(سورة يس الآية : 12)

أنا أحمل وزر الآخرين إذا أسهمت في إضلالهم ، إذا عميت عنهم الحقيقة ، إذا غششتهم ، علمت موظفا عندك على الغش ، ثم تركك ، وصار أكبر غشاش ، كل أعماله السيئة حتى الموت في صحيفة من دله على الغش ، دللته على معصية ، زينت له المعصية ، زينت له أكل المال الحرام ، أقنعته أن هذه الدنيا هي كل شيء ، تمتع بها إلى أقصى درجة ، ولا تعبأ بشيء ، كله معاصيه في صحيفة الأول.

إذاً في الأصل :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

لكن لو أن الأخرى ضلت بسبب الأولى فكل ذنوب الأخرى في صحيفة الأول .

متى يكسب الإنسان أجر غيره ؟

الآن في معنى معاكس :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور الآية : 21)

كل أعمالهم ذريتهم الطيبة ألحقت بالوالدين ، لأنهما ربيا أولادهما على الخير ، لذلك أكبر تجارة في الدنيا ابنك .

في الدنيا تجارات ، شركات ضخمة عملاقة ، مبيعاتها اليومية خمسة ملايين ، هناك شركة بأوربا فائضها النقدي 100 مليار ، لا تجد له استثماراً ، هناك أشخاص يملكون 100 مليار دولار ، هناك تجارات رابحة ، لكن والله إن أعظم تجارة أن تربي ابناً لك صالحاً ، وأن يكون من بعدك استمراراً لك، فكل أعماله ، وأولاد أولاده إلى يوم القيامة في صحيفتك .

اسمعوا الآية :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

إذاً الأصل :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

لكن أنت إذا كنت السبب في إضلال إنسان فإنك تزر نفسك أوزار الآخرين ، وفي المعنى المعاكس : أنت إذا عملت أعمالاً صالحة ، وربيت من حولك على العمل الصالح كل أعمالهم الصالحة في صحيفتك .

ثم يقول الله عز وجل :

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الأنعام)

معنى الخلافة في الأرض :

الخلافة إخواننا الكرام ، فلان خليفة فلان ، يعني أتى بعده ، أو هذه خليفة زمان ، يرى المحل شغله إنسان ، كبر في السن ، أو توفي ، له ورثة باعوا المحل ، شغله إنسان آخر ، جاء بعده إنسان آخر ، قف أمام سوق مشهور ، كسوق الحمدية تأكد أن كل خمسين سنة هناك طقم جديد لأصحاب المحلات ، هكذا سنة الله في خلقه ، يموت الأب فيبيع الورثة البيت ، والمحل ، والسيارة ، يأتي إنسان ويشتري البيت فيحسنه ، هناك خلائف .

معنى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ

المعنى الزماني :

بمعنى أن بعضكم يخلف بعضاً في البيوت والسيارات ، والمكاتب التجارية ، والشركات ، كل فترة في طقم جديد ، هذا معنى ، هذا المعنى الزماني .

المعنى المكاني :

إنسان يحتل منصبا معينا ، ثم يُعزل ، ويحل محله آخر ، هذا استخلاف مكاني ، الأول زماني ، وهذا مكاني ، عُزل فحل محله فلان .

المعنى الدقيق للآية :

لكن يبدو أن هذه الآية لا تعني أن يخلف إنسان إنساناً ، بل تعني شيئا آخر ، تعني أن يخلف الإنسان ما أوكله الله به ، تخلف الله في عباده ، أمرَك أن تكون عادلاً ، وجعلك حاكما ، جعلك قاضيا ، جعلك وزيرا ، يجب أن تكون خليفة الله في أرضه ، بمعنى أن تحكم بالعدل ، ينبغي أن تخلف الله بأن ترحم خلقه .

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي))

[رواه الشيخ والديلمي عن أبي بكر]

هذا المعنى دقيق جداً ، لا أن تخلف أخاك بالإنسانية ، خلافة زمانية أو مكانية لا ، أن تخلف الله في خلقه ، الله عز وجل قال :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود الآية : 61)

يعني أمركم أن تستعمروا ، أي أن تجعلوها معمرة ، لذلك الإنسان خليفة الله في الأرض .

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة الآية : 30)

الله عدل ، فإذا كان العبد الفقير عدلا فقد خلف الله في الأرض ، الله رحيم ، فإذا كان العبد رحيما فقد خلف الله في خلقه .

إخواننا الكرام ، الآن في معنى دقيق جداً في قوله تعالى :

(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)

أولاً : الكون كله عدا الإنسان والجن منفعل بأمر الله ، الكون كله جماد ونبات ، وحيوان ، من دون استثناء منفعل كله بأمر الله ، كن فيكون ، زل فيزول ، أي كن مسيراً ، المخلوقات كلها مسيرة إلا الإنسان :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

الإنسان مخير ، تكريماً له جعل الله عز وجل بعض الأشياء تنفعل له ، أنا أرفع يدي ، أمرتها فأتمرت، شربت الماء فارتويت ، أكلت الطعام فشبعت ، حركت رجلي فانتقلت من مكان إلى مكان ، فالله عز وجل كرم الإنسان أن أبعاضه جعلها بإمرته ، لكن قلبك ليس بأمرك ، التنفس ليس بأمرك ، القلب والرئتين ، وعمل الكبد ، والبنكرياس ، والهضم ، هذا بأمره ، لكن بأمرك الأوامر الإرادية ، تتحرك ، ترفع يدك ، تتكلم ، تمشي ، تنام تستيقظ ، تكسر ، تضرب ، تدفع ، تقدم صدقة ، تسلب مالا ، كله باختيارك ، فالله عز وجل سمح لك أن تفعل أشياء كثيرة كما تريد ، هذه أول ميزة للإنسان .

الله عز وجل قال :

(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)

الآن أعطاك مواهب أنت لا تقدر أن تفتح صدرا بالمنشار ، وتزيل الأغشية عن القلب ، وتفتح البطين، وتضع دساما جديدا ، وعملية معقدة ي سبع ساعات ، هذا فعلُ جراح القلب ، والمساء عادي جداً ، فتح بطنين أو ثلاثة وهو مرتاح ، وتأتي قابليته على الأكل ، كيف يأكل ؟ وكله دم ، والإنسان مثل الميت أمامه ، بعد هذا يعمل صعقة للقلب ، إما أن يتحرك ، أو عظّم الله أجركم ، أنت ما عندك إمكانية أن تكون جراح قلب ، أنت عندك إمكانية أن تصلح سيارة ، لا سمح الله ولا قدر تشعر في قلبك بشيء غير طبيعي ، تأتي إلى الطبيب بكل أدب ، ويقول لك : يلزمك عملية ، تعالج معالجة عادية ؟ يجب دخول المستشفى ؟ لا تعرف ، أنت بدرجة عالية جداً من الأدب ، الآن أنت أمام الطبيب ، الله رفعه عنك بموهبته ، مكنه من علم جراحة القلب ، فهو الآن أعلم منك ، هذا الطبيب عنده سيارة لها صوت بالمحرك غريب ، يأتي مصلّح السيارات للمعالجة ، فيقول : يجب أن نغيره ؟ الآن بالعكس ، الطبيب الجراح يقف أمام خبير بشؤون المركبة بكل أدب ، وينتظر منه كلمة ، المحرك سليم ، أم

عُطب؟ كم يكلف ؟ أنت ليس لك مثلاً أن تصنع ثيابا ، أما الخياط فالثياب سهلة عليه جداً ، كل واحد سمح الله له أن يتفوق في شيء .

فنحن في تبادل ، أنت أحياناً تحتاج إلى طبيب ، والطبيب يحتاج أن تعطي ابنه دروس رياضيات ، فلما يكون ابنه ضعيفا بالرياضيات هو بحاجة إلى دروس ، لما تشعر بقضية في قلبك فأنت بحاجة إليه ،

(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)

الإنسان مرة فاضل ومرة مفضول :

كل إنسان مفضل ومفضول ، بكل قضية ، مرة يكون مفضلا ، ومرة يكون مفضولا ، هناك عدالة ، لكن العلماء يقولون : المجموع ثابت ، أنت ما جعلك صاحب شركة ، جعل محاسب بشركة ، معاشك محدود ، صاحب الشركة أعلى منك في الدخل ، لكن أنت أكثر راحة في البال منه إذا حدثت مشكلة في الشركة ، أنت لا علاقة لك ، إذا كان في بضاعة إشكال ، وضرائب ، أنت لا علاقة لك ، احترق المستودع ، أنت مرتاح ، لا تشعر ، فالمحاسب دخله قليل ، ودخل صاحب الشركة أكثر ، لكن في الأزمات الصعبة نعكس الآية .

الله أعطى كل مئة درجة موزعين ، عنده زوجة ممتازة ، أخذ من العشرة ثماني درجات على الزوجة، عنده ولد سيء أخذ واحدا عليه ، والثاني عنده زوجة سيئة جداً علامتها واحد ، عنده أولاد نجباء ثمانية، فوزع الدخل مع الصحة ، مع راحة البال ، مع النشاط ، مع السمعة ، مع الذكاء ، يخرج كل واحد بعشر درجات من الله ، أو مئة درجة ، هذا يسمونه المجموع ثابت .

(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)

فأنت مرة مفضل ومرة مفضول .

عندك مجاري مسدودة ، تبحث عن رجل عمله في المجاري لتُصلح ، تقول : هل نكسر البلاط ؟ طمئني ، هو مرح بهذا الموضوع ، يقول لك : أنا مهندس المجاري ، هو يقول لك : الأمر يحتاج إلى تكسير البلاط ، أو لا يحتاج ، إذا سدت المجاري تأتي إليه ، وإذا سدت شرايينك تأتي إلى الطبيب ، كله سُد .

(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)

المعنى الدقيق جداً : أنت دائماً مفضل ومفضول .

كل إنسان ممتَحن فيما فضله الله به :

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

الطبيب موثوق ، ومُصدق ، وأنت لا تستطيع أن تناقشه .

أقسم لي بالله طبيب ، قال لي : أستطيع أن أُبيع بيت الرجل وهو لا يشعر ، لكن يخاف من الله فلا يفعلها ، هل يمكن للمحامي أن يقول : إن الدعوى رابحة ، وأنت عندك يقين بالمئة مليون أنها لن تربح ، لكن أين ثماني سنوات ؟ بعد هذا تبلغه الخبر السيئ مرة واحدة ، تكون أخذت منه 500 ألف ليرة ، أنت باعتبار أن الله فضلك عليه بالخبرة صار عندك إمكان للامتحان ، إما أن تكون صادقا ، أو كاذبا .

هل يحتاج المريض إلى إيكو أو لا يحتاج ؟ الله يعلم ، أنت كلفت مريضا بصورة شعاعية غالية جداً ، والجهاز عندك بالعيادة ، امتحنك الله عز وجل .

تأتي بسؤال صعب جداً ، يأخذ معظم الطلاب أصفارا ، يجب أخذ الدروس الخصوصية عندك ، الأصل أن يكون السؤال معتدلا ، أما أنت فقد افتعلت سؤالا صعبا ؟ حتى يحتاج كل الآباء منك درسا خصوصيا ، رفعك الله فتستغل هذه الخبرة ، وتبتز أموال الناس ، أم أن تكون صادقاً معهم ؟ هذا معنى دقيق جداً .

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

كل واحد منا ممتحن فيما أتاه الله ، إن جعله ذكيا فهو ممتحَن بذكائه ، هل يستخدم ذكاءه في الإيقاع بين الناس أو ابتزاز أموالهم ، وإن جعله محدودا ، هل تكون هذه المحدودية يرافقها استقامة على أمر الله عز وجل ، وإن جعله قويا هل تأخذه العزة بالإثم فيسحق من يعارضه ، أم يكون وقافاً عند كتاب الله ؟ .

سأل سيدنا عمر رجلا : أتحبني ؟ قال له : لا أحبك ، قال له : وهل يمنعك بغضي لي من أن تعطيني حقي ؟ قال له : لا والله ، محبتي أو عدم محبتي لا علاقة لها بإعطائك حقك .

أيها الإخوة ، هذه الآية مهمة جداً ، أنك ممتحن فيما آتاك الله ، جعلك قويا فأنت ممتحن ، هناك أقوياء بالأرض ، لهم حساب دقيق جداً ، أعطاك مالا ، امتحنك بالمال ، أعطاك صحة ، امتحنك بالصحة ، أعطاك طلاقة لسان تقنع الناس بالحق أم بالباطل ؟ هناك أدباء معهم أدب رفيع جداً يستخدمونه لإضلال الناس ، لإثارة شهواتهم ، امتحنك بالأدب ، وامتحنك بالرسم ، هل ترسم صور نساء عاريات ، أم صورا طبيعية ، يسبح الإنسان ربه إذا رآها ، أعطاك مثلاً شكلا جميلا ، هل تغري بهذا الشكل الفتيات، أو كلما رأيت نفسك في المرأة تقول : الحمد لله كما حسنت خلقي فحسن خُلقي يا رب ، امتحنك بشكل ، امتحنك بذكاء ، بطلاقة لسان ، امتحنك بالمال ، امتحنك بالقوة ، امتحنك بزوجة صالحة طيبة ، هل تتفنن في إذلالها ، هذه امرأة مقطوعة ، أم تخاف الله فيها ، امتحنك ببيت مطل على مدرسة ، مدرسة

بنات ، تجلس طوال النهار ، وتطّلع عليهم من فوق ، أم تغض بصرك ، وتضع البلور مثلاً ، امتحنك بكل شيء ، أنت ممتحن بكل دقيقة فيما آتاك ، بماذا ميزك ؟ امتحنك فيما آتاك ، بدءاً من شكل وسيم ، كيف تستخدم هذا الجمال الذي وهبك الله إياه ؟ امتحنك بطلاقة لسانك ، امتحنك بمالك ، امتحنك بمنصب رفيع .

بهذه الطريقة الله عز وجل قهرنا أن نكون مع بعضنا ، تصور رغيف الخبز كم يحتاج من إنسان ؟ أرض ، وحراسة ، وزراعة ، وبزار ، وتسميد ، وسقي ، وحصاد ودراسة ، وطحين ، وخبز ، وتأخذ الخبز جاهزا ، لا تعلم كيف يصنع الخبز ، لكن مكنك من التعليم ، تعلم أولادا ، لكن ما عندك إمكانية أن تصنع الخبز ، فامتحنك الله عز وجل ، منحك ميزة جعلك دائماً مفضلاً أو مفضولاً عليه ، امتحنك حينما جعلك مفضلاً ، وامتحنك حينما كنت مفضولاً على غيرك .

أيها الإخوة ، يبدو أن هذا هو الدرس الأخير من دروس سورة الأنعام .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الأنعام 006 - الدرس(01-73): تفسير الآية 1 1

سورة الأنعام 006 - الدرس(02-73): تفسير الآيات 2- 6 12

سورة الأنعام 006 - الدرس(03-73): تفسير الآيات 7- 12 25

سورة الأنعام 006 - الدرس(04-73): تفسير الآيات 13- 16 35

سورة الأنعام 006 - الدرس(05-73): تفسير الآيات 17- 18 47

سورة الأنعام 006 - الدرس(06-73): تفسير الآيات 19- 24 57

سورة الأنعام 006 - الدرس(07-73): تفسير الآيات 25- 26 70

سورة الأنعام 006 - الدرس(08-73): تفسير الآيات 27- 31 82

سورة الأنعام 006 - الدرس(09-73): تفسير الآيات 31- 32 96

سورة الأنعام 006 - الدرس(10-73): تفسير الآيات 32- 35 108

سورة الأنعام 006 - الدرس(11-73): تفسير الآيات36-38 120

سورة الأنعام 006 - الدرس(12-73): تفسير الآيات 39- 45 131

سورة الأنعام 006 - الدرس(13-73): تفسير الآية 46 142

سورة الأنعام 006 - الدرس(14-73): تفسير الآيات 47- 48 154

سورة الأنعام 006 - الدرس(15-73): تفسير الآيات 49- 50 165

سورة الأنعام 006 - الدرس(16-73): تفسير الآيات 51- 53 175

سورة الأنعام 006 - الدرس(17-73): تفسير الآية 54..... 186
سورة الأنعام 006 - الدرس(18-73): تفسير الآيات 55- 56 197
سورة الأنعام 006 - الدرس(19-73): تفسير الآيات 58- 59 208
سورة الأنعام 006 - الدرس(20-73): تفسير الآية 60 121
سورة الأنعام 006 - الدرس(21-73): تفسير الآيات 61- 62 232
سورة الأنعام 006 - الدرس(22-73): تفسير الآيات 63- 65 247
سورة الأنعام 006 - الدرس(23-73): تفسير الآيات 66- 70 262
سورة الأنعام 006 - الدرس(24-73): تفسير الآيات 70- 72 278
سورة الأنعام 006 - الدرس(25-73): تفسير الآية 73..... 295
سورة الأنعام 006 - الدرس(26-73): تفسير الآيات 74- 75 310
سورة الأنعام 006 - الدرس(27-73): تفسير الآيات 75- 80 325
سورة الأنعام 006 - الدرس(28-73): تفسير الآيات 79- 83 340
سورة الأنعام 006 - الدرس(29-73): تفسير الآيات 83- 88 351
سورة الأنعام 006 - الدرس(30-73): تفسير الآيات 88- 90 365
سورة الأنعام 006 - الدرس(31-73): تفسير الآيات 91- 92 379
سورة الأنعام 006 - الدرس(32-73): تفسير الآية 92 391
سورة الأنعام 006 - الدرس(33-73): تفسير الآيات 93- 94 405
سورة الأنعام 006 - الدرس(34-73): تفسير الآيات 95- 97 417

سورة الأنعام 006 - الدرس(35-73): تفسير الآيات 97- 98 428
سورة الأنعام 006 - الدرس(36-73): تفسير الآيات 99 438
سورة الأنعام 006 - الدرس(37-73): تفسير الآيات 100- 101 449
سورة الأنعام 006 - الدرس(38-73): تفسير الآية 101 460
سورة الأنعام 006 - الدرس(39-73): تفسير الآيات 103- 104 471
سورة الأنعام 006 - الدرس(40-73): تفسير الآيات 105- 107 482
سورة الأنعام 006 - الدرس(41-73): تفسير الآيات 106- 107 493
سورة الأنعام 006 - الدرس(42-73): تفسير الآيات 108- 109 504
سورة الأنعام 006 - الدرس(43-73): تفسير الآيات110- 112 514
سورة الأنعام 006 - الدرس(44-73): تفسير الآيات 112- 114 526
سورة الأنعام 006 - الدرس(45-73): تفسير الآيات 114- 115 538
سورة الأنعام 006 - الدرس(46-73): تفسير الآيات 116- 118 548
سورة الأنعام 006 - الدرس(47-73): تفسير الآيات 120- 121 563
سورة الأنعام 006 - الدرس(48-73): تفسير الآية 122 574
سورة الأنعام 006 - الدرس(49-73): تفسير الآية 123 583
سورة الأنعام 006 - الدرس(50-73): تفسير الآية 124 594
سورة الأنعام 006 - الدرس(51-73): تفسير الآية 125..... 602
سورة الأنعام 006 - الدرس(52-73): تفسير الآيتان 126 – 127 614

سورة الأنعام 006 - الدرس(53-73): تفسير الآيات 127 - 129..... 629
سورة الأنعام 006 - الدرس(54-73): تفسير الآيات 127 - 129..... 642
سورة الأنعام 006 - الدرس(55-73): تفسير الآية 131..... 655
سورة الأنعام 006 - الدرس(56-73): تفسير الآية 132..... 671
سورة الأنعام 006 - الدرس(57-73): تفسير الآيات 133 - 134..... 684
سورة الأنعام 006 - الدرس(58-73): تفسير الآية 135..... 698
سورة الأنعام 006 - الدرس(59-73): تفسير الآيات 136 - 137..... 712
سورة الأنعام 006 - الدرس(60-73): تفسير الآيات 138 - 140..... 727
سورة الأنعام 006 - الدرس(61-73): تفسير الآية 141..... 745
سورة الأنعام 006 - الدرس(62-73): تفسير الآيات 142 - 144..... 758
سورة الأنعام 006 - الدرس(63-73): تفسير الآيات 145..... 772
سورة الأنعام 006 - الدرس(64-73): تفسير الآيات 147 - 149..... 787
سورة الأنعام 006 - الدرس(65-73): تفسير الآية 150..... 805
سورة الأنعام 006 - الدرس(66-73): تفسير الآية 151..... 821
سورة الأنعام 006 - الدرس(67-73): تفسير تتمة الآية 151..... 839
سورة الأنعام 006 - الدرس(68-73): تفسير تتمة الآية 151..... 852
سورة الأنعام 006 - الدرس(69-73): تفسير تتمة الآية 151..... 865
سورة الأنعام 006 - الدرس(70-73): تفسير الآيات 152 - 153..... 881

سورة الأنعام 006 - الدرس(71-73): تفسير الآيات 154 - 158..... 894

سورة الأنعام 006 - الدرس(72-73): تفسير الآيات 159 - 163..... 914

سورة الأنعام 006 - الدرس(73-73): تفسير الآيات 164 - 165..... 929

الفهرس.....943

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

التفسير الكبير

تفسير سورة الأعراف

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(01-60): تفسير الآية 1، مقدمة عن السورة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-11-24

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لسورة الأعراف

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الأول من سورة الأعراف ، والأولى أن نقف وقفة متأنية عند مضامين هذه السورة :

ـ هذه السورة مكية ، إلا أنها أطول السور المكية على الإطلاق .

ـ وهذه السورة المكية الطويلة تضمنت قصص الأنبياء بشكل مفصل .

ـ وكما تعلمون أن السور المكية تركز دائماً على عقيدة التوحيد ، والإيمان الحقيقي هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، ألا ترى مع الله أحداً ، أن تعلم علم اليقين أن يد الله تعمل في الخفاء ، وأنه :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

وأنه :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف :26)

وأنه :

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية : 2)

وأنه :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ)

(سورة هود الآية : 123)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

يعني أن أمره متوافق توافقاً تاماً مع خلقه .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر:62)

السور المكية في الأصل تركز على التوحيد ، لأنك إذا آمنت بالله خالقاً ، هذا شأن الوثنيين .

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر الآية : 3)

فأن تؤمن بالله خالقاً شأن الوثنيين أيضاً ، بل إن إبليس آمن بالله ، قال :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية : 81)

وقال :

(خَلَقْتَنِي)

(سورة الأعراف الآية : 12)

وقال :

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف :14)

لذلك هذه السورة الأعراف أطول سورة مكية ، عرضت لقصص الأنبياء بشكل تفصيلي ، ومهمتها كشأن كل السور المكية أن تركز على التوحيد ، الإيمان هو التوحيد ، وبالتوحيد تخلص ، بالتوحيد تستقيم ، وتركز أيضاً على البعث والجزاء ، فإنه ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن كركن الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، إذا آمنت بالله هو معك ، ويراقبك ، وإذا آمنت باليوم الآخر هو سيحاسبك ، ولمجرد أن تؤمن أن الله يعلم وسيحاسب ، وسيعاقب تستقيم على أمره .

فالسور المكية أيضاً تركز على الإيمان باليوم الآخر ، بيوم الجزاء ، بيوم الدينونة بيوم تسوية الحسابات، بيوم الواقعة الرافعة الخافضة ، وتركز أيضاً على الوحي ، ديننا الإسلامي دين وحي ، التلقي من الله ، الوحي كيان مستقل عن رسول الله ، لا يملك أن يجلبه ، ولا أن يوقفه ، ولا أن يصرفه، فديننا دين توحيد ، ودين إيمان باليوم الآخر ، ودين تركيز على الوحي والرسالة ، هذا شأن السور المكية ، والأعراف من أطول السور المكية .

من إعجاز القرآن في سورة الأعراف

شيء آخر : في هذه السورة الطويلة ، بل هي تعد من أطول السور المكية في هذه السورة إشارة إلى إعجاز القرآن .

1 – ما هي المعجزة ؟

أيها الإخوة الكرام ، كلكم يعلم أن كل نبي معه معجزة ، ما المعجزة ؟ إنسان يقول : أنا رسول الله ، ومعه منهج افعل ولا تفعل ، والكفار ألفوا الحركة من دون منهج ، من دون قيد أو شرط ، من دون حسبان لحساب أو جزاء ، فلذلك حينما يأتي إنسان ويقول : أنا رسول الله موقف هؤلاء المعرضين الشاردين هو التكذيب .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية : 43)

2 – المعجزة شهادة الله لأنبيائه :

فكيف يشهد الله لأنبيائه ورسله أنهم أنبياءه ورسله ؟ لا بد من أن يشهد لهم شهادة الله لهم بالمعجزات ، فيُجري على أيديهم خوارق للنواميس ، لا يستطيعها إلا خالق الأكوان .

صور مِن بعض معجزات الأنبياء

1 ـ معجزة موسى عليه السلام :

سيدنا موسى :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف: 107)

سيدنا عيسى أحيا الميت .

2 ـ معجزة إبراهيم عليه السلام :

سيدنا إبراهيم لم تستطع النار أن تحرقه . هذه معجزات إثبات للناس أن هؤلاء الرجال أنبياءه ، أو شهادة الله للبشر أن هؤلاء الأنبياء والرسل هم أنبياءه ورسله ، إلا أن المشكلة أن الأنبياء السابقين هو أنبياء لأقوامهم فقط ، كل نبي له قوم .

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

(سورة الرعد :7)

لذلك المعجزات كانت حسية ، أي مادية ،

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف: 108)

معجزات حسية كتألق عود الثقاب ، تألقت مرة واحدة وانطفأت ، وأصبحت خبراً يصدقه من يصدقه ، ويكذبه من يكذبه ، إلا أن بعثة النبي عليه الصلاة والسلام لكل الأمم والشعوب ، بل هو :

(رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

(سورة الأنبياء: 107)

فلا يمكن أن تكون معجزته حسية منقطعة خبراً يصدق أو يكذب ، لا بد من أن تكون معجزته مستمرة إلى نهاية الحياة .

3 ـ معجزة النبي عليه الصلاة والسلام :

لذلك كانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم معجزة علمية ، في القرآن الكريم 1300 آية تتحدث عن الكون ، بل فيها سبق علمي إشارات قرآنية إلى قوانين ، وإلى حقائق اكتشفت بعد 1400 عام ، قبل أن يرتاد الإنسان الفضاء ، ماذا يعلم ماذا في الفضاء ؟ هو في الأرض ، لما ارتاد الفضاء ، وتجاوز طبقة الهواء ، وانعدم تناثر الضوء صاح الرائد الفضائي : لقد أصبحنا عمياً لا نرى شيئاً ، ثم نفتح القرآن الكريم لنجد آية تقول :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر :15)

أما أن تصل بحوث علم الجنين بعد ألف عام وزيادة إلى أن نوع الجنين لا علاقة للبويضة به إطلاقاً ، الذي يحدد نوع الجنين النطفة فقط ، وتأتي آية لتقول :

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

(سورة النجم: 46)

أن يكتشف العلم أن كل شيء مؤلف من ذرات وفيها نواة ، وفيها كهارب ، وفيها مدارات ، وكل شيء يدور في الكون ، الصخر ، الحجر ، الخشب ، كل شيء ، أما أن نقرأ قوله تعالى:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس :40)

الحديث طويل ، 1300 آية في القرآن الكريم فيها سبق علمي ، هي أدلة قاطعة يقيناً 100 % أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن ، ففي هذه السورة إشارات كثيرة إلى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

ذلك أنك تؤمن بالله بواسطة عقلك من خلال الكون ، فالكون مظهر لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، وتؤمن بالقرآن من خلال إعجازه .

أنت راكب طائرة(777) ، أحدث طائرة في العالم ، أو قبل أحدث طائرة على ارتفاع 40 ألف قدم ، على مقعد وثير ، الجو مكيف ومدفأ ، تتناول كل الأطعمة النفيسة ، والشربات النفيسة أمام قنوات عديدة جداً تتابع الأخبار ، وكل شيء على ما يرام ، وتفتح القرآن الكريم لتقرأ قوله تعالى :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)

(سورة النحل الآية : 8)

وأنت تركب طائرة .

(وَزِينَةً)

أما حينما تتابع الآية :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل :8)

يقشعر جلدك ، دخلت الطائرة في كلمة :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

ودخل القطار ، ودخلت السيارة ، ودخلت الحوامة .

أما أن تشاهد على موقع معلوماتي وردة جورية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وردة جورية بأوراقها الحمراء الداكنة ، بوريقاتها الخضراء الزاهية ، بكأسها الأزرق في الوسط ، ثم يكتب تحت هذه الصورة صورة انفجار لنجم يبعد عنا 3000 سنة ضوئية ، اسم هذا النجم عين القط ، يبعد عنا 3000 سنة ضوئية ، والأربع سنوات ضوئية لو أردنا أن نصل إلى هذا النجم بمركبة أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون عام 300 سنة ضوئية ، ثم تفتح القرآن الكريم لتقرأ قوله تعالى :

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

(سورة الرحمن: 37)

إذاً : في هذه السورة سورة الأعراف تركيز على إعجاز القرآن الكريم ، وأنت تؤمن بأن هذا الكتاب كلام الله يقيناً من خلال إعجازه ، والآن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة أقوى علم يرد به على من يشكك بالدين ، يقيناً ، وعقلاً ، وفطرة ، وبديهة ، هذه الإشارات العلمية في القرآن الكريم لا يمكن أن تكون إلا من عند خالق الأكوان ، وكأن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم هو أن تقتنع أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن .

سورة الأعراف بيان لتكريم الإنسان

شيء آخر ، في هذه السورة سورة الأعراف بيان إلى أن الإنسان مكرم .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء:70)

الإنسان مكرم ، والإنسان هو المخلوق الأول تفضيلا .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

الإنسان مكرم ، والإنسان هو المخلوق الأول ، والإنسان هو المخلوق المكلف .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات :56)

والعبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

سورة الأعراف بيان لأزلية الصراع الثنائي بين الحق والباطل

وفي هذه السورة تبين أن حكمة الله وإرادته شاءت أن يكون في العالم حق وباطل مؤمن وكافر ، محسن ومسيء ، منصف وجاحد ، مخلص وخائن ، هذه المفارقة ، أو هذه الاثنينية في الحياة تقتضي صراعاً بين الحق والباطل ، وكنت أقول دائماً : كان من الممكن أن يكون الطرف الآخر في كوكب آخر ، إذاً : ليس هناك مشكلة ، وكان من الممكن أن يكون الطرف الآخر في قارة أخرى ، وكان من الممكن أن يكون الطرف الآخر في حقبة أخرى ، ولكن شاءت حكمة الله أن يجتمع المؤمنون مع الكافرين ، أهل الحق مع أهل الباطل ، أهل الدنيا مع أهل الآخرة ، أهل العقل مع أهل الشهوة ، أهل القيم مع أهل المصالح ، أهل المبادئ مع أهل الغرائز .

آدم طرف الحق وإبليس طرف الباطل

إذاً : لا بد من معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، لا بد ، لذلك يعلمنا ربنا جل جلاله درساً بليغاً في هذه السورة ، حينما مثل إبليس طرف الباطل ، طرف الإغواء ، طرف المعصية ، طرف الشهوة ، طرف الإباء تأبي طاعة الله عز وجل ، ويمثل آدم عليه السلام طرف الإيمان والتقوى والقرب والطاعة ، وكيف استطاع إبليس مستغلاً فطرة آدم السليمة وطيبه ، فاستطاع أن يخرجه من الجنة ؟ هذا درس بليغ لنا .

إذاً : وطنوا أنفسكم أن الشيطان عدو مبين ، لذلك ينبغي أن نحذره ، هذا أيضاً من مضامين سورة الأعراف .

سورة الأعراف تقسم الناس إلى أهل الشقاء وأهل السعادة وأهل الأعراف

ومضمون آخر في هذه السورة وهو : أن المصير الخلائق يوم القيامة مؤمنون وكافرون ، الكافرون ضحكوا أولاً ثم بكوا كثيراً ، وشقوا إلى أبد الآبدين ، وخسروا أنفسهم وأهليهم ، أما المؤمنون فتكلفوا طاعة الله عز وجل ، وهي ذات كلفة ، ومنه التكليف .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعاتك 41)

هؤلاء المؤمنون استقاموا على أمر الله عز وجل ، وبذلوا الغالي والرخيص والنفس والنفيس حتى استحقوا جنة الله عز وجل التي فيها :

((ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري عن أنس]

استحقوا الجنة ، فلذلك هناك مؤمنون وكافرون .

وتنفرد هذه السورة بأن هناك زمرة ثالثة ، هم الأعراف ، وسميت السورة باسمهم ، سورة الأعراف ، ولها بحث طويل يأتي في مكانه من دروس هذه السورة إن شاء الله تعالى .

سورة الأعراف مملوءة بقصص الأنبياء

1 – الرسل مبلّغون :

وهي أول سورة مكية تبين مقام النبوات ذكرت قصة سيدنا نوح ، وهود وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، بالتفصيل ، وكيف أن الأنبياء قمم البشر ، وأن الله اصطفاهم على علم ، اصطفاهم ليكونوا مبلغين للبشر ، مبلغين بألسنتهم ، ومبلغين بأفعالهم فالنبي عليه الصلاة والسلام مثلاً أقواله تشريع ، وأفعاله تشريع ، وإقراره تشريع ، هو قدوة لنا .

2 – ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب :

بالمناسبة : هناك قاعدة جليلة أنه ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض ، مثل ذلك الوضوء ، الصلاة لا تتم إلا به ، ولأن الصلاة فرض ، ولأنها لا تتم إلا بالوضوء ، فالوضوء فرض ، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة ، لذلك إذا قال الله عز وجل :

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

أنه لا بد من أن تعلم ما الذي آتانا ، ما الذي أتى به رسول الله ، ما لا يتم تنفيذ هذه الآية ، وهي :

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)

هذه الآية لا تطبق ، ولا تصبح موضع التطبيق إلا إذا عرفت ما الذي آتانا ، إذاً كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، وكل أمر لا يتم تطبيقه إلا بشيء الشيء الثاني أصبح واجباً ، إذاً : يجب علينا جميعاً ، بل مفروض علينا جميعاً سنة النبي القولية ،

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)

كيف آخذه إن لم أعلم ماذا آتاني ، وعن أي شيء نهاني ؟ .

3 – الرسل قدوة للبشر :

الآن للنبي رسالة ثانية ، الثانية :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب الآية : 21)

كيف يكون النبي أسوة حسنة إن لم نعرف سيرته العملية ، حياته في بيته ، مع زوجاته ، مع أولاده ، مع جيرانه ، مع أصحابه ، مع إخوانه ، في سلمه ، في حربه ، في إقبال الدنيا ، في إدبار الدنيا ، في انتصاره ، في عدم انتصاره .

إذاً ومعرفة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فرض عين على كل مسلم ، فلذلك هذه السورة جاءت بقصص الأنبياء ، نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى .

4 – العلم لا يؤخذ من العلماء :

بالمناسبة أيها الإخوة ، لو كان من الممكن أن يتعلم الإنسان من كتاب فقط فلا داعي إطلاقاً لإرسال الأنبياء إطلاقاً ، لو كان من الممكن أن يتعلم الجيل من دون معلمين فلا داعي أن نفتح المدارس ، نوزع

كتبًا فقط ، لكن العلم لا يؤخذ إلا عن معلم متحقق ورع ، لذلك لا بد من إرسال الأنبياء ، والأنبياء الذين ذُكروا في القرآن الكريم عددهم محدود .

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

(سورة غافر الآية : 78)

قرأت في بعض الكتب أن العدد التقريبي بالآلاف ، لكن نحن في كتابنا الكريم ذُكرت قصص بعض الأنبياء .

إذاً الأنبياء قدوة ، والأنبياء لهم مهمتان مهمة التبليغ ، ومهمة القدوة ، ولعلي أرى مهمة القدوة أعظم بكثير من مهمة التبليغ ، سهل جداً أن تتكلم بالفضائل ، لكن البطولة العظمى أن تتمثل هذه الفضائل ، أن تكون حليماً ، البطولة أن تواجه بلدة ناصبتك العداء عشرين عاماً ، ونكلت بأصحابك ، وتفننت في حربهم ، وفي إزعاجهم ، وفي هجائهم ، وفي التنكيل بهم ، ثم تنتصر على هذه البلدة مكة ، ومعك عشرة آلاف سيف متوهج ، هذه السيوف رهن إشارتك ، ويكفي أن تعطيهم إشارة ليبيدوا هؤلاء حرب إبادة ، تقول لهم :

((ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[السيرة النبوية لابن هشام]

هذه البطولة ، أن يذهب إلى الطائف ليهدي أهلها إلى سواء السبيل ، يكذبونه يسخرون منه ، يتلذذون في تعذيبه ، وتأتيه ملك الجبال ، ويقول : يا محمد ، أنا طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين ، فيقول : لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي ، فإنهم لا يعلمون ، ما تخلى عنهم ، قال : قومي ، ودعا لهم بالهدى ، واعتذر عنهم ، فإنهم لا يعلمون ، ورجا الله أن يخرج من أصلابهم من يوحده ، هذا هو الكمال .

لذلك الأنبياء والمرسلون يعلموننا بكمالاتهم أضعاف ما يعلموننا بألسنتهم ، لذلك قال بعضهم : إن دلالة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم على فهمه لكتاب الله أبلغ من دلالة كلماته ، لأن الكمال يؤول أما السلوك حدي ، السلوك لا يؤول ، هكذا فعل مع جاره وهكذا .

إذاً : في هذه السورة الكريمة إشارة أيضاً إلى أن الأنبياء هم قمم البشر ، وقد اصطفاهم الله على علم :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : 33)

اصطفاهم على علم .

في سورة الأعراف صورة للمتاجرة بالعلم

شيء آخر ، في هذه السورة أيضاً شرح لإنسان تاجر بهذا العلم ، اشترى به ثمناً قليلاً ، وصدقوا أيها الإخوة ، ما من مثل يقفز إلى ذهني كهذا المثل :

لو أنك وجدت على الطاولة ورقة مستطيلة بيضاء ، وظننتها ورقة من سخط المتاع ، كتبت عليها بعض الكلمات ثم مزقتها ، ثم اكتشفت أنها شيك بمئة مليار دولار ، فلما مزقتها خسرت المبلغ كله ، كم هو الندم ؟.

هذا الذي يتاجر بالدين ، هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ، هذا الذي يتقرب إلى الناس باتجاه ديني كاذب .

لذلك يقول الإمام الشافعي : " لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين " .

لذلك :

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف الآية : 176)

إذاً : في هذه السورة أيضاً إشارة إلى من يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً .

الأعراف تثبيت للتوحيد ابتداء وانتهاء

آخر موضوع في هذه السورة ، أن هذه السورة تثبت أخيراً التوحيد ، وأنه ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، بدأت بالتوحيد ، وانتهت بالتوحيد ، وأن التوحيد نهاية العلم وأن التقوى نهاية العمل ، و أنه يمكن أن نضغط رسالات الأنبياء جميعاً بكلمتين :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء: 25)

وحد اعتقاداً ، وأطع ربك سلوكاً ، هذا هو الدين كله .

أيها الإخوة الكرام ، الآية الأولى في هذه السورة سورة الأعراف :

(المص)

الحروف المقطعة

شيء يلفت النظر ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، لاَ أَقُولُ : آلم حَرْفٌ ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْف ، ولامٌ حَرْفٌ ، وَمِيمٌ حَرْفٌ))

[رواه الترمذي والدارامي عن ابن مسعود]

هذه الحروف أيها الإخوة ، تختلف عن بقية الحروف ، بقية الحروف حروف بناء ليس لها كيان إطلاقاً، الباء ما لها معنى ، أما أكلتُ بالملعقة ، لها معنى ، الحرف كلمة ليس لها معنى إطلاقاً إلا إذا اقترنت مع غيرها ، من ، ما لها معنى ، أما ذهبت من دمشق إلى حلب ، فالحروف البناء ، والحروف بمعنى الأدوات ، ليس لها معنًى تستقلّ به ، إلا أن معانيها من ارتباطها من بقية الكلمات ، إلا أن هذه الحروف الأربعة عشر حرفاً ، التي افتتحت بها بعض سور القرآن ، هذه حروف لها كيان مستقل .

مثلاً : لماذا قرأ النبي عليه الصلاة والسلام ؟ :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

لماذا قرأ ؟

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

(سورة الشرح)

أما حينما قرأ البقرة قال :

(الم)

(سورة البقرة)

أولاً : هي حروف مقطعة ، ثانياً : تسكن ، ألف : سكون ، لام ، ميم ، ثالثاً ينبغي أن نفصل فيما بينها ، ألف ، لام ، ميم ، حروف مقطعة ، تُسكن ، نقف عليها ، نفصل بينها وبين الحروف التي بجانبها .

طبيعة الحروف المقطّعة

1 – الله عزوجل هو الذي علم النبي النطق بالقرآن :

شيء آخر ، هذه الحروف هي مسميات وأسماء ، تتميز هذه الحروف بأنها مسميات وأسماء ، كيف ؟ مسميات ، با ، أو كتب ، ك ، مسمى ، ت ، مسمى ، با ، مسمى كتب ، أما الأسماء : كاف ، ك ، ا ، ف ، كاف مفتوحة هذا اسمها ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، صار الحرف له مسمى ، يعني صوته ، وله اسم ، ألف ، باء ، جيم ، دال ، تاء ظاء ، عين ، غين ، قاف ، كاف ، من الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ

(الم)

وأن يقرأ في سورة أخرى :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

(أَلَمْ)

نطق بالمسميات ، أما :

(الم)

فقد نطق بالأسماء .

الشيء الذي يلفت النظر أن النبي أُميّ ، وأميته وحده وسام شرف له ، لأن الذي تولى تعليمه هو الله ، العلم المطلق ، أما نحن فلو كنا أميين أميتنا وصمة عار بحقنا نحن ليس عندنا وحي نتعلم منه ، ولما تلقى الوحي من الله ، ولما تولى الله تعليمه كان أعلم العلماء ، فقد تأخذ بعض الأحاديث ، تدرسها ، تحللها ، تنال دكتوراه ، أنت دكتور ، لأنك درست بعض الأحاديث ، فكيف بصاحب الأحاديث ؟ العلماء في الأرض عالة على علمه .

فلذلك من علّم النبي أن يقرأ :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

ومن علمه أن يقرأ في البقرة

(الم)

2 – استنباط لطيف :

لذلك هناك استنباط أول في قوله تعالى :

يعني عليك :

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)

(سورة القيامة: 18)

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ)

يعني قرأه جبريل عليك ،

(فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)

لذلك استنبط أن القرآن لا يؤخذ إلا بالتلقي ، والقرآن فضلاً عن هذا الكتاب الذي فيه آيات القرآن ، القرآن نقل لنا جمعاً عن جمعٍ من رسول الله إلى اليوم ، فهو منقول بالتواتر ، والتواتر ما رواه جمع

غفير ، عن الجمع الغفير من نزول هذا القرآن عن رسول الله ، عن جبريل ، عن الله ، فهذا الكتاب الذي بين أيديكم هو الذي أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالتمام والكمال ، وهذه قضية إيمانية .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر:9)

3 – الحروف المقطّعة في القرآن نصف حرف اللغة العربية :

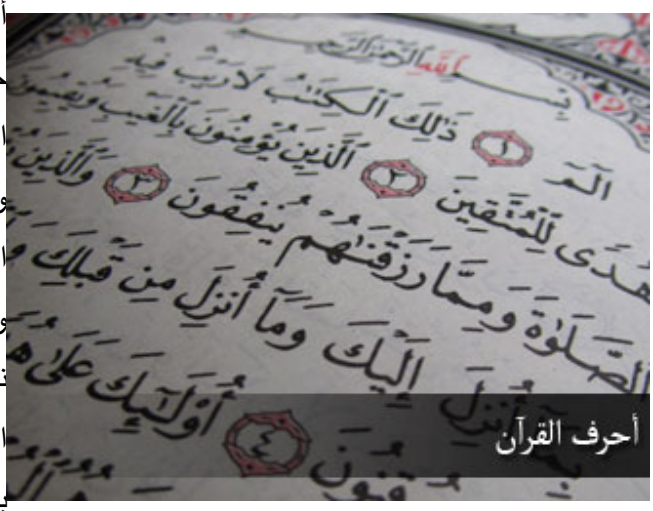

أيها الإخوة ، شيء آخر : هذه الحروف حروف المعجم 28 حرفاً ، الحروف المقطعة 14 حرفاً ، نصف الحروف بالتمام والكمال ، والحروف لها صفات في علم التجويد الهمس ، والتفخيم ، والترقيق ، والصفير ... إلخ .

نصف خصائص الحروف في هذه الحروف الـ14 ، بعض الآيات أو بعض السور تبدأ بحرف واحد :

(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)

(سورة ق: 1)

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

(سورة ص)

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

(سورة القلم)

بعض الحروف المقطعة حرفان ، حاء ، ميم ، بعض هذه الحروف ثلاثة حروف ،

(الم)

بعض هذه الحروف أربعة حروف كسورة الأعراف :

(المص)

بعض هذه الحروف خمسة .

(كهيعص)

(سورة مريم الآية : 1)

4 – المعنى الراجح للحروف المقطّعة :

مجموع الحروف أربعة عشر ، التفسير السهل والمريح أن الله أعلم بمراده والتفسير الآخر ، كما يقال : الرأي والرأي الآخر ، والتفسير الآخر أنها أوائل أسماء الله الحسنى ، ألف : الله ، لام : لطيف ، ميم : محمود .

وبعضهم قال : إنها أوائل أسماء رسول الله لأنه جاء بعدها في الأعم الأغلب كاف الخطاب .

(طه)

(سورة طه)

يا طاهر من الذنوب ، يا هادياً إلى علام الغيوب .

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ)

(سورة طه الآية : 2)

المرجح أنها أوائل أسماء رسول الله ، لأن كل هذه الحروف يأتي بعدها كاف الخطاب .

بعضهم قال وهو ورأي وجيه : أن هذه الحروف بين أيديكم ، وأنها قوام لغتكم ، وهذا القرآن يتحداكم ، المادة الأولية عندكم ، بين أيديكم ، وهذا القرآن لن تستطيعوا أن تأتوا بسورة منه ، بل ولا بآية ، هذا هو التحدي ، المادة الأولية بين أيديكم ، هي حروف ، إذاً لك أن تقول الله أعلم بمراده .

إخواننا الكرام ، تصوروا لو أن النبي فسره لانتهى القرآن ، وهو سيد الخلق ، لأن لا يعرف الله إلا الله، ولا يعرف كلام الله إلا الله ، نجتهد نحن جميعاً .

لذلك القرآن ليس ملك أحد ، فالذي قال : الله أعلم بمراده معه الحق ، ومعها وجهة نظر ، الذي قال : أوائل أسماء الله الحسنى مقبول ، والذي قال : أوائل أسماء النبي لوجوب كاف الخطاب ، والذي قال : هذا القرآن المعجز من هذه الحروف ، فأتوا بمثله إن استطعتم لا تستطيعون .

وبعض علماء القلوب قال : ألف من أقصى الحلق ، واللام من وسطه ، والميم من الشفتين ، يعني هذه الحروف تغطي كل مخارج الحروف ، من أقصى الحلق ، إلى أوسط الفم ، إلى الشفتين ، والصاد لأن في هذه السورة قصص الأنبياء ، كلٌ يدلو بدلوه ، وكلام الله معجز ، لك أن تختار من هذه التفسيرات ما يروق لك .

أيها الإخوة الكرام ، في درس قادم إن شاء الله نتابع تفسير الآية التي تلي هذه الآية .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(02-60): تفسير الآيتان 2 - 3 ، مخاطبة الله لمقام النبوة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-12-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثانية ، وهي قوله تعالى :

(كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأعراف: 2)

الله محمود على الخلق وإنزال الكتب :

أيها الإخوة ،

(كِتَابٌ)

أي القرآن الكريم

(أُنزِلَ إِلَيْكَ)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام الآية : 1)

الكون .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف الآية : 1)

القرآن .

1 – لا بد للخلق من منهج يسيرون عليه :

الكون في كفة والقرآن في كفة ، الله عز وجل خلق السماوات والأرض ونور السماوات والأرض بالهدى .

للتقريب : يُشق الطريق ، ثم توضع الشاخصات ، هنا منعطف ، هنا تقاطع ، هنا منحدر ، هنا طريق ذات اتجاه واحدة ، يشق الطريق أولاً ، وتوضع الشاخصات ثانياً .

لذلك :

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور الآية : 35)

خلق السماوات والأرض ، وهداية الله نور السماوات والأرض ، وفي درس سبق بينت لكم أن الله سبحانه وتعالى قا

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

والترتيب ليس الترتيب زمنياً ، إنما هو ترتيب رتبي ، بمعنى أنه لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه ، من دون منهج يَشقى ويُشقي ، في شهوات يندفع من خلالها ، هذا الاندفاع من دون منهج يسير عليه يسبب شقاء للبشر .

2 – بين المنهج الإلهي السماوي والأنظمة الأرضية الوضعية :

لذلك :

(كِتَابٌ أُنزِلَ)

إذا سمعت كلمة أنزل أي من الأعلى ، الأرض فيها مبادئ وفيها اتجاهات ، وفيها فلسفات ، وفيها تصورات ، وفيها مذاهب ، وفيها اتجاهات ، لكن هذا الكتاب أنزل من أعلى ، من عند خالق السماوات والأرض ، كلمة أنزل يعني ليس من صنع البشر ، ليس من ثقافة البشر ، ليس من تصورات البشر ، ليس من معطيات البشر ليس من اختراع البشر ، هذا من إله البشر ، من خالق السماوات والأرض .

(كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ)

يا محمد .

أيها الإخوة ، من نعم الله الكبرى أنك تتبع منهجاً ليس من نِدٍّ لك ، ليس من مُساوٍ بك ، حينما تتبع منهجاً من صنع إنسان مثلك هذا المنهج يحابي مصالحه ، يحابي حظوظه ، يحابي حاجاته ، لذلك إذا وضع الإنسان التشريع حابى نفسه ، إذا وضع الإنسان التشريع كان نظره قاصراً ، إذا وضع الإنسان التشريع رأى من زاوية واحدة .

3 – الأصل في الأنظمة الأرضية النقص :

لذلك ما من تشريع أرضي إلا ويعدل ، ثم يعدل ، ثم يعدل ، ثم يلغى ، أبداً ، لأن الإنسان ليس مؤهلاً أن يشرع ، لأن علمه قاصر ، وأهواءه تتحكم فيه ، يأتي التشريع منعكساً لضعفه في النظر ، ولضعفه في النفس .

لذلك من نعم الله الكبرى على المسلمين أن التشريع ليس من بعضهم ، ليس من صنع فئة منهم ، ليس من صنع طرف آخر ، التشريع من عند خالق السماوات والأرض ،

(كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ)

معنى : فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ

شيء آخر ،

(فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ)

الحرج ؛ الضيق ، يا محمد لا تضق ، ولا تُحرج بهذا الكتاب ، ما المعنى ؟

المعنى الأول للنهي (فلا يكن ...) :

هناك لفتة رائعة جداً لهذه الآية ، أن النهي لا يتوجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام بعدم الحرج ، لكن النهي كما يرى بعض المفسرين يتوجه إلى الحرج بألا يدخل على قلب محمد .

((قلب العبد بين إصبعين من أصابع الرحمن))

[أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو]

أحياناً يمتلئ قلبُ الإنسان أمناً ، وقد لا يملك أسباب الأمن ، وقد يمتلئ قلبه خوفاً ، وقد يملك أسباب الأمن .

للتوضيح : إنسان سافر ، والعجلة الاحتياط ليست صالحة ، طول الطريق هو في هلع وخوف شديد ، فلو فسدت عجلة تدور لتوقف عن السير ، لو أن ابنه في الليل أصلح العجلة الاحتياط ، ولم يخبره هذا الذي يقود مركبته في النهار ، وعنده عجلة احتياط فاسدة بزعمه ، والابن أصلحها ، ولم يبلغ أباه يمتلئ قلبه قلقا وخوفا ، ومعه أسباب الأمن ، ولو أن هذه العجلة فاسدة ، لكن الذي يقود المركبة لا يعلم يمتلئ قلبه أمنا ، ومعه أسباب الخوف .

إذاً : الخوف والأمن يلقى في قلب الإنسان ، لذلك قال تعالى :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام:82)

فحينما يتوجه الإنسان إلى الله عز وجل لا يسمح الله للقلق ، والخوف أن يتسرب إلى قلب المؤمن ، في قلب المؤمن من الأمن ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم ، والآية واضحة جداً :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

تطابق الفطرة مع منهج الله :

لذلك من نعم الله العظمى أن الله سبحانه وتعالى جعل فطرة الإنسان متطابقة تطابقاً تاماً مع منهج الله ، فأنت حينما تطيع الله تصطلح مع نفسك ، حينما تطيع الله يلقى في قلبك من الأمن ما لو وزع على أهل بلدٍ لكفاهم ، حينما تطيع الله تلقى في قلبك السكينة ، وحينما تطيع الله تعطى الحكمة .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

حينما تطيع الله تعطى الصبر ، تعطى الرضا . أيها الإخوة الكرام ،

(كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ)

ينهى الله الحرج ، والضيق ، والقلق ، والخوف ، والألم ، أن تتسرب إلى قلبه صلى الله عليه وسلم . لذلك قد يعيش إنسانان في ظروف واحدة ، وصعوبات واحدة ، وعقبات واحدة ، وصوارف واحدة ، ومشكلات واحدة ، الأول مؤمن قلبه ممتلئ طمأنينة ، ورضا ، وسعادة وإقبال ، وتفاؤل ، والثاني يمتلئ قلبه بالضيق ، والقلق ، والخوف ، والحقد ، والتشاؤم .

جهازُ المناعة أخطر جهاز في الجسم :

بالمناسبة ، أخطر جهاز يعمل بأجسامنا جهاز المناعة المكتسب ، هذا الجهاز أوكل الله إليه القضاء على معظم الأمراض السرطانية والجرثومية ، وهذا الجهاز يقويه الإحساس بالأمن ، يقويه الحب ، يقويه الود ، وهذا الجهاز يضعفه الخوف ، والقلق ، والحقد فأنت حينما تتعرف إلى الله وتتصل به ترتفع معنوياتك .

لذلك بشكل علمي بحت المؤمن أبعد عن الأمراض من غير المؤمن ، لأن جهازه المناعي بأعلى درجة بسبب الحب الذي في قلبه ، والأمن الذي ينعم به ، والطمأنينة التي يرتاح بها ، والتوازن الذي ينعم به .

لذلك :

(فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ)

بعض العلماء يقول : هذا نهي للحرج أن يتسرب إلى قلب النبي عليه الصلاة والسلام ، أنت مطمئن ، وهذه السعادة النفسية أيها الإخوة والله لا تقدر بثمن .

المعنى الثاني للنهي (فلا يكن ...) :

هناك معنى آخر ، النبي بشر ، لولا أنه بشر ، تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم)

(سورة فصلت الآية : 6)

((لقد أوذيت في الله ، وما يؤذى أحد ، وأخفت في الله ، وما يخاف أحد ، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال))

[أخرجه أحمد ، والترمذي وابن ماجة وابن حبان ، عن أنس]

هو بشر ، يشتهي ، ويخاف ، ويرغب ، ويتمنى ، لأنه بشر ، ولأنه انتصر على بشريته كان سيد البشر .

أيها الإخوة ، لأنه بشر يتألم أشد الألم إذا اتُهم بأنه ساحر ، هو ليس بساحر ، لأنه بشر يتألم أشد الألم إذا اتُهم بأنه مجنون .

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم: 2)

هو بشر ، ولأنه بشر يتألم أشد الألم إذا اتهم بأنه كاهن ، اتُهم أنه ساحر ، وأنه كاهن ، وأنه مجنون ، لكن السؤال :

لماذا أثبت الله في القرآن الاتهامات الظالمة التي اتُهم بها النبيُّ ؟

يا رب ، هذا نبيك ، هذا سيد الخلق ، هذا حبيب الحق ، هذا سيد ولد آدم ، هذا صفوتك من خلقك ، فكيف تثبت في القرآن الكريم الاتهامات الظالمة التي اتُهم بها ؟ كنا نتوقع أن هذه التهم الظالمة الجاحدة أن لا تُذكر في كتاب الله ، كتاب الله يتلى إلى يوم القيامة ، نتعبد الله بقراءاته .

قال بعض العلماء : الحكمة من هذا أن كل من دعا إلى الله ، إلى نهاية الحياة سيلاقي متاعب كثيرة ، لأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أسوة للمؤمنين ، أسوة للعلماء ، أسوة للدعاة إلى الله ، هذا سيد الخلق ، وحبيب الحق كُذب ، وعورض ، واتُهم ، اتُهم بأنه مجنون ، وبأنه ساحر ، وبأنه كاهن ، وهو فوق هذه الشبهات كلها :

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

إذاً : كأن هذه التهم التي أثبتها الله في القرآن الذي نتعبد الله بتلاوته إلى يوم القيامة هي تسلية ، وتعزية، ومواساة ، وتطييب قلب لكل من دعا إلى الله بعده ، ولاقى من المتاعب ما لاقى .

ولا يغيب عن أذهانكم أن إرادة الله شاءت أن يجتمع المؤمنون وغير المؤمنين في هذه الأرض ، واجتماع المؤمنين وغير المؤمنين ينتج عنه معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، فليوطِّن المؤمن نفسه أنه في معركة ، معركة الحق والباطل ، معركة الخير والشر معركة الظلم والعدل ، معركة الرحمة والقسوة .

لذلك هذه الآيات التي تثبت التهم الظالمة التي اتُهم بها النبي عليه الصلاة والسلام هي تسلية لكل مؤمن من بعده :

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

المعنى الثالث للنهي (فلا يكن ...) :

هناك معنى ثالث : أن الله سبحانه وتعالى يطيّب قلبَ نبيّه ، مع أنهم اتهموك لكنك عندي من المقربين ، لا حرج عليك ، مع أنهم اتهموك إنك من منأى عن كل هذه التهم ، وأنت فوق كل هذه التهم ، وأنت النبي الأول ، وأنت الرسول الأول ، وأنت الحبيب الأول ، وأنت المقرب الذي بلغ مرتبة عند الله لم يبلغها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب حين بلغ سدرة المنتهى .

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم: 10)

موقف البشر مع رسالات الله قسمان : مؤمن وكافر :

أيها الإخوة ،

(كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ)

كأن الله سبحانه وتعالى يشير في هذه الآية الثانية من سورة الأعراف أن البشر حينما تأتيهم رسالات السماء ينقسمون ، ينقسمون على فريقين ، فريق يؤمن بها ، وفريق يكفر بها ، فريق يتلقاها بالقبول والرضا ، وفريق يتلقاها بالمعارضة والتكذيب ، هكذا شأن الحياة ، بالحياة اثنينية ، فيها حق وفيها باطل، فيها خير وفيها شر ، فيها جمال وفيها قبح ، فيها عدل وفيها جور ، فيها إحسان وفيها إساءة ، فيها رحمة وفيها قسوة ، كل الصفات السلبية صفات أهل الكفر والضلال ، وكل الصفات الإيجابية صفات أهل الإيمان والإسلام .

لذلك كيف أننا في الأحداث التي تحيط بنا أحياناً ينشأ حدث عظيم ينقسم به المجتمع كما ترون ، وكذلك الناس حينما تأتيهم رسالات الله ينقسمون إلى مؤمنين وإلى كافرين ، والدليل :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية: 43)

يكذبونه ، ذلك بأن الطرف الآخر يتحرك بلا ضابط ، بلا منهج ، بلا تعليمات بلا توجيهات ، بلا قيم ، بلا مبادئ ، تحركه شهوته ، دابة متفلتة ، تبحث عن إرواء شهواتها بأي طريقة ، بأي ثمن ، بأي أسلوب ، بلا رادع من قيمة أو مبدأ ، أو حياء ، أو خجل ، هكذا العالم اليوم ، انقسم إلى قسمين مؤمن وكافر ، مقسط وظالم ، القاسط هو الظالم ، أما المقسط فهو العادل ، وقد انقسم العالم اليوم إلى مثل هذا.

لذلك المؤمن يتلقى هذه الرسالة بالقبول والإيمان ، والتصديق ، والبكاء ، والسعادة بينما غير المؤمن يتلقى هذه الرسالة بالتكذيب ، والسخرية ، والمعارضة ، والرد ، لذلك يقول الله عز وجل :

(كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ)

من ؟ الكافرين المكذبين ، الساخرين ، المعارضين

(لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

معنى ذكرى :

ما معنى ذكرى ؟

إذا ذهبت إلى بلد من البلدان ، وليكن إلى بلد ساحلي ، ورأيت صخرة مشهورة في هذا البلد ، ولتكن صخرة الروشة في بيروت ، رأيتها بأم عينك ، بعد بضع سنوات رأيت صورة لهذه الصخرة ، تقول : نعم كنت في هذا المكان ، ما معنى ذكرى ؟ إنه شيء رأيته ، شيء تعرفه ، لكن هذه الصورة ذكرتك به، شيء رأيته ، شيء تعرفه ، لكن هذه الصورة ذكرتك به .

فلذلك الله عز وجل حينما خلق النفوس قبل أن تصور ، خلقها في عالم الأزل خلقها في عالم الذر ، هذه النفوس التي خلقها ماذا قال لها ؟

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

(سورة الأعراف الآية :172)

هذا عالم الأزل ، هذا عالم الذر ، كل المخلوقات كانت نفوساً مجردة من صورها ،

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

هذا العهد جاء في العقل ، وجاء في الفطرة ، وجاء في رسالات السماء ، فأنت مؤمن في أصل خلقك ، أنت مؤمن في أصل فطرتك ، أنت مؤمن بحسب مبادئ عقلك ، أنت مؤمن بحسب ما أودع الله فيك من خصائص ، أنت مؤمن فإذا جاءتك الدعوة إلى الله تتذكر .

لذلك أينما قرأت في القرآن الكريم كلمة وذكرى تعني أنك مؤمن بالفطرة ، مؤمن بحسب مبادئ العقل، مؤمن بهذا العهد الذي عاهدت الله عليه في عالم الأزل ، أنت مؤمن ، فإذا جاءتك الرسالة ، أو جاءك الهدى تتذكر العهد الذي قطعته على نفسك في عالم الأزل .

إذاً :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

أيها الإخوة ، إذاً :

(لِتُنْذِرَ بِهِ)

المكذبين ، الشاردين ، الذين اختاروا الشهوة ولم يختاروا الآخرة ، اختاروا حظوظ الدنيا ، ولم يختاروا:

(مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر :55)

اختاروا العاجلة ، وكفروا بالآجلة ، اختاروا الحياة الدنيا ، وكفروا بالحياة الآخرة لهؤلاء تنذرهم من مغبة كفرهم ، تنذرهم من مغبة تقصيرهم ، تنذرهم من مغبة معصيتهم تنذرهم من مغبة انحرافهم عن الطريق الصحيح ، بينما الطرف الآخر المؤمنون أنت تذكرهم بما عرفوا في عالم الأزل ، تذكرهم بما أخذ الله عليهم من عهد حينما خلقهم في عالم الذر .

إذاً :

(لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

معنى الرسالة :

إخواننا الكرام ، ماذا تعني كلمة الرسالة ؟ يعني هناك مرسل هو الله جل جلاله هناك مرسل إليه هو النبي عليه الصلاة والسلام ، هناك مرسل إليهم هم البشر ، هناك موضوع الرسالة هو الكتاب ، وهناك

مرسِل ، وهناك مرسَل ، وهناك مرسل إليه ، موضوع الرسالة هو هذا القرآن ، منهج الله عز وجل ، خاتم الكتب ، دستور حياتنا ، طريق سلامتنا ، طريق سعادتنا ، لذلك الآن جاء التوجيه :

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة الأعراف: 3)

دعوة قرآنية إلى اتباع المنهج القرآني :

1 – هذا مثل من الواقع فاعقلوه ، ولله المثل الأعلى :

يشكل مبسط تبسيط كبير :

عندك آلة غالية جداً ، عظيمة النفع ، معقدة التركيب ، معك كُتيب صغير فيه تعليمات التشغيل والصيانة ، فأنت بدافع من حرصك على هذه الآلة ، وعلى سلامتها ، وعلى حسن مردودها تقرأ الكتاب، وتنفذ ما في هذا الكتاب ، أنت أعقد آلة في الكون ، ولهذه الآلة البالغة التعقيد صانع حكيم ، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة ، فأنت بدافعٍ من حبك لذاتك ، وحبك لسلامتك ، وحبك لكمال وجودك ، وحبك لاستمرار وجودك تنفذ تعليمات الصانع ، انظر إلى سلوكك إن اقتنيت مركبة جديدة ، تقرأ كيف تستخدم المكابح ؟ كيف تستخدم الماسحات ؟ كيف تستخدم ؟ كيف تملأ مستودع البنزين ؟ بشكل فطري وطبيعي حينما تشتري آلة ، وتحرص على سلامتها ، وحسن أداءها ، تتبع تعليمات الصانع .

لذلك جاء التوجيه الإلهي : أيها المؤمنون

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

طبق .

(خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم الآية : 12)

هذا من عند الخبير .

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر: 14)

2 – الأوامر والنواهي الإلهية هي ضمان للسلامة وليست حدودا للحريات :

أنت حينما تمشي في حقل ، ثم تفاجَأ بلوحة كتب عليها : " حقل ألغام ، ممنوع التجاوز " ، لا تشعر بحقد على من وضعها ، بل تشعر بالامتنان ، لأن هذه اللوحة ليست حداً لحريتك ، بل هي ضمان لسلامتك .

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)

فنحن ربنا خلقنا .

(لَهُ الْخَلْقُ)

دقق :

(وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 21)

مَن هي الجهة التي تستحق وحدها أن تطاع ؟ الله جل جلاله ، لا معبود بحق إلا هو .

لذلك :

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

لسلامتكم ، لسعادتكم ، لأمنكم ، لنمائكم ، لتوفيقكم ، لنصركم ،

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

لكن لا يعقل أن يكون الله هو الخالق ، وتتبع منهج آخرين من أهل الأرض .

((إني والإنس والجن ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي ، إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري ، أهل مودتي ، أهل شكري ، أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[ورد في الأثر القدسي]

لذلك :

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا)

3 – هذا هو المنهج الإلهي فلماذا نستورد مناهج المخلوقين ؟!

ينبغي ألا نستورد مناهج من أماكن أخرى ، من ثقافات أخرى ، ثقافات مادية ، ثقافات جمالية ، ثقافات ملحدة ، ثقافات نفعية ، ثقافات الأرض لا تعد ولا تحصى ، كلها باطلة إلا منهج الله عز وجل ،

(وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)

أيْ تذكروا قليلاً العهد الذي بينكم وبين ربكم في عالم الأزل .

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

4 – لا شقاء ولا ضلال في اتباع منهج الله :

لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه .

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

اجمع الآيتين ، من يتبع هدى الله عز وجل لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت ، فماذا بقي من السعادة ؟ لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت .

أيها الإخوة ، الحقيقة أن آدم عليه السلام وهو في الجنة أعطاه الله درساً بليغاً ، وأنت حينما تربي ابنك ينبغي أن تعطيه درساً بليغاً ، ينبغي ألا تعتني بجسمه فحسب ، ينبغي أن تعتني بجسمه ونفسه وعقله وإيمانه ، وسر وجوده ، أن تبين له سر وجوده ، وغاية وجوده لذلك ،

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

5 – منهج الله سماوي عُلْويّ ، لا شرقي ولا غربيّ :

أيها الإخوة ، لكن البشر شأنهم أنهم يلزمون مَن حولهم إذا كانوا أقوياء باتباع منهجهم هذا الذي ترونه في العالم شرقاً وغرباً ، الشرق يفرض المنهج المبني على تقديس المجموع فيما سبق ، وجهة أخرى تدعو إلى مبدأ يعتمد على تقديس الفرد ، أما ربنا عز وجل فمنهجه لا شرقي ولا غربي ، ولكنه علوي،

لا يجوز أن تقال الإسلام يتطابق مع المنهج الفلاني ، أو مع المنهج الفلاني ، الإسلام نسيج وحده ، الإسلام من عند خالق السماوات والأرض الإسلام علوي .

أيها الإخوة الكرام ، مع أن الإنسان أودع الله فيه فطرة تتوافق مع منهج الله توافقاً تاماً ، ومع ذلك منّ الله على البشر برسالات السماء من حين إلى آخر ، فكلما ضعف تمسك الناس بالهدى بمنهج الله عز وجل ، جاءت رسالة جديدة ، إلا الذي ينبغي أن يكون واضحاً تماماً هو أن كل جيل ينبغي أن ينقل إلى الجيل الآخر معالم الهدى .

لذلك ما لم تبنَ مناهج التربية على وحي السماء ، وعلى الهدى الذي جاء به الأنبياء فهناك خطر كبير ، خطر الفساد في الأرض ، خطر الشقاء ، فساد وشقاء .

لكن قد تشير بعض الحقائق إلى أن الأجيال ينبغي أن تتوارث نقل الهدى من جيل إلى جيل بمثل في جسم الإنسان :

من الإعجاز في خَلق الإنسان :

1 – في جسمِك مدرسة حربية وأنت لا تدري !!!

هناك غدة صغيرة جداً لا تزيد على حبة الحمص ، إلى جانب القلب ، كتب الطب من مئة عام أجمعت على أن هذه الغدة لا وظيفة لها إطلاقاً ، بسبب أنها تضمر بعد سنتين وتتلاشى كلياً ، وهناك دراسات من عقد واحد من الزمن تؤكد أن هذه الغدة أخطر غدة على الإطلاق ، إنها مدرسة حربية ، تدخلها الكريات البيضاء المقاتلة ، وتتعلم فيها من هو الصديق ومن هو العدو ، الكريات البيضاء خمس فرق ، فرقة استطلاع ، وفرقة تصنيع السلاح وفرقة المشاة المحاربين ، وفرقة الخدمات ، وفرقة المغاوير ، الحديث عن الفرقة الثالثة فقط فرقة المقاتلين ، هذه الكريات البيضاء المقاتلة معها سلاح فتاك ، لكنها جاهلة ، سماها العلماء الخلية التائية الهمجية ، تدخل هذه إلى هذه الكلية الحربية وقد كبرت هذه الكلية آلاف المرات بدت وكأنها مدرج ، وهذه الخلايا التائية الهمجية تجلس على مقاعدها في هذا المدرّج ، أمّا كيف تُعلم هذه الكريات الهمجية مَن هو الصديق والعدو فهذا لا يعلمه إلا الله .

تمضي هذه الكريات البيضاء في هذه المدرسة الحربية سنتين كاملتين ، تتعلم من هو الصديق ، ومن هو العدو ، ثم ينتهي العامان الدراسيان بامتحانين ، الامتحان الأول تعطى الخلية التي كانت همجية فأصبحت مثقفة تعطى عنصرًا عدوًّا ، فإذا قتلته تنجح وتتخرج ، وإذا لم تقتله ترسب وتقتل ، الامتحان الآخر تعطى عنصرًا صديقًا ، فإن قتلته ترسب وتقتل ، وإن لم تقتله تنجح وتتخرج .

الآن مجموع الكريات البيضاء المقاتلة تتخرج بعد سنتين من هذه الكلية ، وتغلق الكلية أبوابها ، وتضمر وتتلاشى ، الآن الجيل المتخرج من هذه الكلية يتولى تعليم الأجيال اللاحقة ، إلى نهاية الحياة ، كل جيل يعلم الجيل القادم .

2 – تعلَّم نقل العلم مِن نظامِ جسمك :

ذكّرتني هذه الحقيقة العلمية بأن البشر ينبغي أن يكونوا كذلك ، أن ينقلوا إلى أجيالهم اللاحقة الهدى الإلهي ، مع التربية التي تناسب هذا الهدى .

بعد ستين سنة يضعف التعليم في جسم الإنسان ، فيصاب الإنسان بشيء اسمه خرف المناعي ، التعليم ضعيف ، في جندي معه سلاح فتاك وجاهل فقد يضرب الصديق ، وقد يقتل الموالي ، لذلك ينشأ في جسم الإنسان بعد سن الستين حرب أهلية ، من خصائص هذه الحرب الأهلية : التهاب المفاصل الرثوي، الذي معه التهاب مفاصل عنده حرب أهلية ، فالعناصر القوية في الجسم تضرب عناصر المفاصل ، وهناك سبعة أمراض خطيرة هي من نتائج الحرب الأهلية بين فرق المقاتلين المدججة بالسلاح ، وهم جهلة ، لأن التعليم كان ضعيفًا ، هذه الحالة اسمها الخرف المناعي .

فلذلك الأمة مسؤولة أن تنقل رسالات السماء إلى الأجيال الصاعدة .

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

(سورة العلق)

3 – التعليم صنعةُ الأنبياء :

أيها الإخوة الكرام ، لا بد من التنويه بأن التعليم صنعة الأنبياء .

((وإنما بعثت معلما))

[أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر]

((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))

[أخرجه ابن سعد البخاري ، والحاكم ، والبيهقي ، عن أبي هريرة]

وإلى درس آخر إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(03-60): تفسير الآيات 4 - 7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-12-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة ، وهي قوله تعالى :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

(سورة الأعراف:4)

مسائل لغوية متعلقة بالآية : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ

1 -(كَم) الاستفهامية ، و(كَم) الخبرية :

أيها الإخوة ، نحتاج أحياناً لشرح الآيات إلى بعض قواعد اللغة ، كم في اللغة على نوعين ، تأتي كم استفهامية ، وتأتي كم تكثيرية ، أو خبرية ، فإذا سألتُ : كم كتاباً قرأتَ ؟ يقول لي : خمسة كتب ، هذه كم استفهامية ، أما إذا كان الذي أمامي قد قرأ كتباً لا تعد ولا تحصى ، يقول لي : كم كتابٍ قرأتُ ، هذه كم خبرية ، أو تكثيرية ، إذا كان الشيء يعدّ يذكر العدد ، فإن كان لا يعدّ تأتي كم التكثيرية أو كم الخبرية .

فالله عز وجل لأنه رب العالمين ، لأنه خلق الإنسان ليسعده في الدنيا والآخرة ، فإذا ضل الإنسان عن طريق سعادته ، وسلامته ساق الله له من الشدائد ما يحمله على التوبة .

وقد بينت في دروس سابقة كيف أن الله سبحانه وتعالى يتوب على عباده ليتوب عليهم ، أن يسوق لهم بعض الشدائد ليحملهم بها على التوبة ، أو يتوبون فيتوب عليهم أي يقبل توبتهم .

2 - المجاز في قوله : مِن قريةٍ :

إذاً

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ)

وعندنا في اللغة أيضاً ما يسمى في المجاز ، فأحياناً يقول الله عز وجل :

(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ)

(سورة يوسف الآية : 82)

القرية مكان ، والقرية جماد ، والقرية غير عاقلة ، والقرية لا تجيب ، أي اسأل أهل القرية ، ونقول أحياناً في بلاغاتنا اليومية : اجتمع مجلس الوزراء ، المجلس هو الكرسي ، هل يعقل أن تجتمع مقاعد الوزراء وتتخذ قرارات ؟! المقصود بالمجلس مَن على الكرسي ، هذا اسمه مجاز عقلي ، قد يعبر عن صاحب المكان بالمكان ، وقد يعبر عن الكل بالجزء ، وقد يعبر عن الجزء بالكل .

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ)

(سورة البقرة الآية : 19)

لا تدخل .

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 19)

ذكر الكل وأراد الإصبع الواحد ، الكل يحل محل الجزء ، والجزء يحل محل الكل ، والمكان محل السكان ، وهكذا ، هذا اسمه مجاز عقلي ، والكناية فرع من المجاز العقلي .

مثلاً :

وإذا المنية أنشبتْ أظفارها

المنية ليس لها أظافر .

ألفيتَ كلَّ تميمة لا تنفع

شُبهت المنية بإنسان ، وحذف الإنسان ، وبقي بعض لوزامه ، أو شُبهت المنية بوحش ، وحذف الوحش ، وبقي بعض لوازمه ، وهو إنشاب الأظافر ، هذا بحث في البلاغة يطول في المجاز العقلي والكناية .

إذاً :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ)

أي كم من أهل قرية أهلكناها .

فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ

1 – ملمحٌ لطيف في الآية :

أيها الإخوة ، في القرآن ملمح دقيق جداً ، أهلكناها وانتهى الأمر ، قال :

(فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

أي لم تهلك بعد ، كيف نوفق في الآية بين :

(أَهْلَكْنَاهَا)

والفعل ماضي ؟ ثم يقول الله عز وجل

(فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

هناك ملمح دقيق جداً في هذه الآية ، حينما ترى مصيبة قد وقعت سأوضح لك الحقيقة بالمثل التالي : هناك موظف حامت حوله الشبهات ، صار حوله لغط كثير ، هناك من يقول : يأخذ مالاً ليس له ، أو إنه يشترط على أية موافقة مبلغًا من المال ، صار حوله لغط ، و تساؤلات ، وهمس ، وغمر ، ولمز ، الإدارة العامة أجرت تحقيقاً سرياً ، أرسلت له من يدفع له المال ، فقبله ، أرسلت له من يطالبه بمخالفة للقانون ، فاشرط مبلغ من المال ، بعد غمز ، ولمز ، وتحقيقات ، وإشارات ، ولغط ، وبعد وفضيحة شاعت ، وبعد تحقيقات دقيقة ومتأنية ، ومديدة ، حتى اجتمعت الأمور ، والمعلومات الدقيقة على أنه ليس مستقيماً ، واجتمع مجلس الإدارة ، وطرح أمر هذا الموظف ، وكان من يدافع عنه ، ومعلوماته غير دقيقة ، والذي أدلى بالمعلومات الدقيقة ، وبالأدلة الدقيقة أيضاً ، فاتخِذ قرارٌ بالأكثرية بكف يده عن العمل ، وكلف أمين السر بكتابة مسودة لهذا القرار ، والقرار وقعت مسودته ، ثم كتب على الكمبيوتر ، ثم وقعت النسخة الأخيرة ، وعممت على كل الدوائر ، وبعدها صدر القرار بكف يده عن العمل .

الآن دقق ، هل كفُّ اليد عن العمل قرار طارئ ؟ لا ، إنه مدروس ، هل هو قرار صدر فجأة ؟ لا ، بل كان قبْله في دراسة طويلة .

هذا الكلام أسوقه كي تؤمن معي أن كل مصيبة وقعت ، ليست هذه المصيبة ارتجالية ، ولا مزاجية ، ولا طارئا ، بل هي مصيبة وقعت لحكمة بالغة ، وبعد دراسة وافية ، وبعد تعنت الإنسان ، وبعد استكباره عن أن يتوب ، وبعد مباهاته بهذا العمل السيئ ، وبعد إجراءات كثيرة تنبيهية ، وبعد تحذيرات، وبعد أعمال عديدة لحمله على أن يكون صالحاً فلم يصلح ، فاتخذ هذا القرار .

2 – كل مصيبة بقدَر ولحكمة :

إياك أن تظن أن مصيبة كبيرة نزلت بإنسان ، قضية فجائية ، أو قضية مزاجية ، أو قضية طارئة ، الأمر أعقد من هذا بكثير .

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا)

ترى مجتمعا غارقًا في الربا ، غارقا في الزنا ، غارقا في الكذب ، غارقا في النفاق ، غارقا في القسوة، غارقا في الظلم ، يجب أن تعتقد أن هذا المجتمع هالك عند الله ، لكن متى يأتي الإجراء الذي يجسد هذا الهلاك ؟ لا نعلم .

الفكرة دقيقة جداً ، حينما يشرد الإنسان عن الله ، وحينما يبتعد الإنسان عن ربه ، وعن منهج ربه ، وحينما يبني مجده على أنقاض الناس ، حينما يبني حياته على موتهم ، حينما يبني عزه على ذلهم ، حينما يبني غناه على فقرهم ، حينما تأخذه العزة بالإثم ، حينما ينصح فلا يقبل ، تقدم له المعلومات الدقيقة التي لصالحه ، فيرفضها حينما يركب رأسه ، عندئذٍ يصدر قرار من الله عز وجل بإهلاكه ، مع وقف التنفيذ ، يأتي التنفيذ بحكمة بالغة وبتقدير كبير .

لذلك :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا)

بعد أن صدر القرار بإهلاكها ، الآن بعد حين جاء تنفيذ هذا القرار .

لذلك إخواننا الكرام ، من أدق الأدعية :

((اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمك ، عدلٌ فيّ قضاؤك))

[أحمد عن ابن عمر]

((أعوذ بنور وجهك التي أشرقت له السماوات والأرض ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تحل بي غضبك ، أو أن تنزل بي سخطك ، أعوذ بك من فجأة نقمتك ، وتحول عافيتك ، وجميع سخط ، لك العتبى حتى ترضى))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

فجأة خثرة بالدماغ ، شلل ، هذه ليست جاءت فجأة ، أنت توهمتها فجأة ، بل للمعاصي ، والآثام ، أحياناً طبعاً ، نحن لا نحكم إلا على الظاهر .

3 – المصيبة إمّا ردعٌ أو رفعٌ أو دفعٌ أو كشفٌ أو قصمٌ :

إن المصائب أنواع ، لئلا يتوهم أحدكم أن الإنسان إذا أصابته خثرة فهو عاصٍ ، لا ، المعاصي أنواع، هناك مصيبة دفع ، هذه مصائب المؤمنين ، يدفعه إلى بابه ، هناك مصيبة رفع ، هذه مصائب المتقين ، ليرفع درجته عند الله ، هناك مصائب ردعٍ للعصاة والمذنبين ، هناك مصائب القصم للمجرمين ، مصائب الأنبياء كشفٌ ، فإنهم ينطوون على كمال لا يظهر إلا في ظروف صعبة .

يذهب النبي عليه الصلاة والسلام إلى الطائف مشياً على قدميه ليدعو أهلها إلى الإسلام ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ليهديهم إلى سواء السبيل ، فيكذبونه ، ويسخرون منه ، يغرون أبناءهم كي يؤذوه، فيسيل الدم من قدمه الشريفة ، فيأتيه ملك الجبال ليمكّنه من أن ينتقم منهم ، فيقول : لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، هذه مصيبة ، ولكنها مصيبة كشف .

الأنبياء مصائبهم مصائب كشف لكمالهم ، والمؤمنون مصائبهم دفع إلى بابه ، ورفع في مقاماتهم ، بينما العصاة والمذنبون مصائبهم ردع ، إن كان فيهم بقية خير ، أو قصم إذا كانوا قد شردوا عن الله شرود البعير .

لكن أحياناً قد يأتي مرض مفاجئ ، أحياناً إذا كان صاحب هذا المرض غارقًا في المعاصي والآثام ، والفسق ، والفجور ، والزنا ، نقول : هذا الذي جاء من الله هو فجأة نقمته وتحول عافيته ، سبقه تحذيرات ، وإنذارات ، ودعوة صامتة ، وتأديب تربوي ، وسبقه إكرام استدراجي ، وسبقته محاولات ، والله عز وجل حلم عليه ، وأمده ، وحذره ، فلما أصر على معصيته ، ونسي ربه ، وشرد عنه شرود البعير جاءت المصيبة .

إذاً : أخطر شيء في الإنسان أن يكون قد صدر قرار من الله بإهلاكه ، مع وقف التنفيذ ، هذا فجأة قد يكون حادث سير أحياناً يشله نصفين ، قد يكون مصيبة تودي بماله كله ، على كلٍ نعوذ بالله من فجاءة نقمته ، وتحول عافيته ، وجميع سخطه ، وله العتبى حتى يرضى لكن عافيته أوسع لنا ، قل هذا الدعاء: اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمُك ، عدل فيّ قضاؤك ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له نور السماوات والأرض ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي سخطك ، أو أن تحل علي غضبك ، أعوذ بك من فجأة نقمتك وتحول عافيتك ، وجميع سخط ، ولك العتبة حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي .

((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ـ أعترف يعني ـ وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت))

[البخاري عن شداد بن أوس]

4 – فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا

إذاً :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا)

بياتاً في الليل .

إنّ الإنسان يأوي إلى فراشه ، يستقر في سريره ، السرير دافئ ، والبيت مريح ، وقد تناول طعام العشاء ، وكل شيء على ما يرام ، فجأة زلزال يجعل عالي المدينة سافلها .

والله سمعت عن إنسان في مدينة عربية أصابها زلزال ، من شدة الخوف الذي ملئ قلوب أهل البيت ، خرجت الأم ، وحملت وليدها الصغير على صدرها ، وانطلقت إلى الشارع من شدة الخوف نظرت إلى وليدها فإذا هو حذاء زوجها .

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

(سورة الحج: 2)

أحياناً نستمع إلى الزلازل ، إعصار تسونامي ، ساحل من أجمل سواحل العالم ، يرتاده كبار أغنياء العالم في عيد الميلاد ، البرد شديد بأوربا ، وثلوج ، وكذا في أمريكا ، فيأتون إلى منتجعات من نوع العشر نجوم ، لكنهم رأوا فيها نجوم الظهر ، فقد أتوا إلى بلاد الزنا ، والشذوذ ، والتعري ، إنهم أغنياء العالم ، فجاءهم زلزال تسونامي على قدرهم ، وأمامنا مشاهد كثرة ، فقد تجد جزيرة كلها نوادي للعُراة تغرق كلياً .

على كلٍ :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا)

((يا رب ، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي لأحد بسوء أحبني ، وأحب من أحبني ، وحببني إلى خلقي قال : يا ربي إنك تعلم إني أحبك ، وأحبك من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

[رواه وابن عساكر ، عن ابن عباس]

يجب أن تذهب إلى المستشفى أحياناً ، هذا بلا رجل ، هذا معه مرض جلدي مخيف ، هذا معه فشل كلوي ، هذا معه تشمع كبد ، هذا معه خثرة بالدماغ ، أنت صحيح معافى ، يا رب أتم علينا الصحة . فأحياناً المصائب مفيدة جداً ، تحدث قوة ردع المصائب ، وأحياناً النعم تحدث محبة لله عز وجل ، وأحياناً الآيات الكونية تحدث شعور بالتعظيم ، فكأن المؤمن يجب أن يعظم ربه أولاً ، وأن يخافه ثانياً ، وأن يحب ثالثاً .

5 – القرية مكان مثالي للمعيشة :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا)

هنا إشارة إلى أن القرية هي المكان المثالي للمعيشة ، وبعض رؤساء الدول الكبرى في أوربا جمع عددا كبيرا من العلماء في منتجع ، وأقاموا فيه شهراً ليجيبوا عن سؤال واحد : لماذا انتشر العنف في العالم ؟ طبعاً الإجابات طويلة ، وأنا ذكرت بعضها في دروس سابقة ، لكن أشاروا عليه بأن التجمعات

السكانية الكبيرة يضعف فيها الضبط الاجتماعي ، أما التجمعات القليلة فالضبط أشد بكثير ، فلذلك اقترحوا عليه ألا تزيد مدينة على 200 ألف إنسان ، أما 18 مليونا فشيء مرعب !!! ففي مثل هذه المدينة وحشة ، وأعمال عنف ، وجرائم ، واحتيالات ما لا سبيل إلى وصفه .

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا)

هو نائم

(أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

في وقت القيلولة ، يعني تأتي المصيبة فجأة ، يأتي المرض فجأة ، يأتي الزلزال فجأة .

6 – لا أحد يتوقع توقيت المصيبة والهلاك فاحذروا نقمة الله :

بالمناسبة : سبحان الله ! لحكمة أرادها الله أن الإنسان الذي وصل إلى القمر ، والذي وصلت مركباته إلى المشتري ، والذي نقل الصورة عبر القارات الملونة ، نقل الصوت ، اخترع الغواصات ، اخترع الطائرات ، البوارج ، اخترع أسلحة فتاكة ، لا يستطيع أن يتنبأ بالزلزال ، ولا قبل ثانية واحدة ، مع كل علمه ، بينما الدواب تتنبأ بالزلازل قبل عشرين دقيقة ، لذلك قلما تصاب دابة بأخطار الزلازل ، قبل عشرين دقيقة تنطلق بعيدة عن مكان الزلزال ، وفي بلدة واحدة في زلزال تسونامي رأوا الحيوانات تعدو مسرعة فقلدتها فنجت .

فقد تأتي المصيبة ليلاً ، وقد تأتي عصراً وقت القيلولة ، لذلك إذا رأى الإنسان أن الله يمده بالنعم وهو يعصيه فليحذره ، لا سمح الله ولا قدر أنْ تصيبه مصيبةٌ .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج:12)

وترون رأي العين الزلازل ، والفيضانات ، والصواعق ، والحروب الأهلية :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

هذه الصواعق ، ومعها الصواريخ .

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

هذه الزلازل ، ومعها الألغام .

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

[أخرجه الحكيم وابن لال عن ابن مسعود]

7 – طاعة الله وقاية من العذاب :

لذلك أنت حينما تطيع الله فأنت في ظل الله ، في رعاية الله ، في توفيق الله ، في حفظ الله ، في ذمة الله.

((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي ، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح))

((ابن آدم لا تعجز عن ركعتين قبل شروق الشمس وقبل غروبها ، أكفيك ما بينهما))

إنسان صلى الفجر في جماعة ، وصلى قيام الليل ، وقرأ قرآن ، وذكر الله ، هذا في النهار في حصن حصين ، في توفيق ، في سداد ، في حكمة ، له هيبة

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة الأعراف :5)

الإنسان على نفسه بصيرة ، والإقرارُ سيد الأدلة :

ما معنى هذه الآية ؟ معنى هذه الآية أن الإنسان :

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة :15)

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام)

هذا ذكرني بإنسان كان يتولى الدعاية بالدخان في الشاشات الغربية ، شاب في ريعان الشباب ، يرتدي الكوبوي ، ويركب على حصان ، ويدخن ويقول : تعال إلى حيث النكهة ، هي نكهة الخمر ، لأن معظم الدخان منقوع في الخمر ، هذا قبل أن يموت قال : كنت أكذب عليكم ، الدخان قتلني .

لذلك :

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

عند الموت تنكشف كل الحقائق :

أنا أؤكد لكم أن أي إنسان على وجه الأرض من دون استثناء ، من أي دين ، من أي ملة ، من أي طائفة ، من أي مذهب ، ولو كان ملحدا ، عند الموت تنكشف له الحقائق التي جاء بها الأنبياء ، فيقول :

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

أليس من دليل أقوى من هذا الدليل ؟ لما أدرك فرعونَ الغرقُ قال :

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس :90)

أي إنسان من الستة آلاف مليون حينما يأتيه الموت يكتشف الحقيقة التي جاء بها الأنبياء ، لذلك :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق الآية : 22)

النبي عليه الصلاة والسلام خاطب كفار قريش وهم قتلى فقال :

((يا فلان ـ بأسمائهم واحداً واحداً ـ يا فلان ، يا فلان ، يا فلان ، يا فلان ، يا عتبة بن ربيعة يا صفوان بن أمية ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً))

[أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه]

لقد كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس .

إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تكون في خندق معادٍ للدين ، لأنك إذا وقعت في هذا الخندق هل تعلم من هو الطرف الآخر ؟ الله رب العالمين ، لذلك الله عز وجل توعد إنسانين بحرب منه ، الوعيد الأول في القرآن الكريم ، والثاني في السنة ، الأول :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة الآية : 279)

آكلوا الربا ، وبالسنة :

((من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب))

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

إذاً :

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

لكن متى ؟ بعد فوات الأوان .

خيارك مع الإيمان خيارُ وقت فقط :

إخواننا الكرام ، خيارك مع مليون موضوع خيار قبول أو رفض ، مع مليون إلا أن خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط ، إما أن تؤمن في الوقت المناسب ، وتنتفع بإيمانك أو أن تؤمن بعد فوات الأوان .

مَن هو أكفر كفار الأرض ؟ فرعون ، الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات:24)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص:38)

عندما أدركه الغرق قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

لذلك البطولة أن تضحك أخيراً لا أن تضحك أولاً ، ثم تبكي كثيراً ، من ضحك أخيراً ضحك كثيراً .

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

(سورة الانشقاق:9)

أما الأول فـ :

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

(سورة الانشقاق:13)

كان فاسقا ، قويا ، غنيا ، يدخل إلى بيته فيضحك ضحك الحيوانات أحياناً ، لكن المؤمن يخاف في الدنيا ، فيضحكه الله في الآخرة .

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين:34)

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا

ما هو البأسُ ؟

ما هو البأس ؟ هو قوة لا تقاوم .

مثلاً : الرشح مرض طارئ لأسبوع ، أحياناً كسر عظم فيُجبر ، هناك مئات الأمراض شفاؤها مضمون وسريع ، أما الورم الخبيث فهذا مرض قاضٍ ، فهناك أورام ، واحتشاء ، وخثرات بالدماغ ،

وفشل كلوي ، وتشمع كبد .

فلذلك هذا هو البأس ، فهو قوة مدمرة لا تقابل ، ولا تقاوم ، زلزال تسونامي خلّف خمسة ملايين متشرد، و ثلاثمئة ألف قتيل ، ولا في عشر سنوات يمكن أن تقف هذه البلاد على قدميها ، هذا بأس ، فإما كوارث طبيعية ، أو أمراض وبيلة ، أو حروب أهلية كما تسمعون كل يوم .

أقسم لي إنسان التقى بي قبل أيام ، قال لي : بيني وبين أهلي عشرة كيلو مترات ، ومن أشهر مديدة لم أرَهم ، فلو ذهبت إليهم لكنت مقتولاً حتماً ، اشكروا الله عز وجل ، واسألوا الله أن يديم نعم الأمن والسلامة ، وأن يجعل هذا الأمن والسلامة في كل بلاد المسلمين .

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ

1 – لا تستطيع خداع كل الناس لكل الوقت :

هذه الفطرة تستطيع أن توهم بعض الناس لأمد طويل بشيء ما ، وبإمكانك أن توهم كل الناس لأمد قصير بشيء ما ، أما أن توهمهم جميعاً لأمد طويل فهذا مستحيل ، أما أن تخدع نفسك ، أو أن تخدع ، أو أن تخدع ربك ولو لثانية واحدة فهذا من رابع المستحيلات ،

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

2 – الإنسان ثلاثة أثلاث :

إخواننا الكرام ، الإنسان فيه ثلاثة أثلاث ، فيه ثلث يعرفه جميع الناس ، مهندس طبيب ، معلم ، طويل، أبيض ، متزوج ، من سكان دمشق مثلاً ، وثلث ثانٍ لا يعرفه إلا أقرب الناس إليه ، زوجته ، وأولاده ، وجيرانه ، وشريكه في العمل ومن سافر معه ، ومن حاككه بالدرهم والدينار ، أما الثلث الثالث فلا يعله إلا الله ، والمشكلة دائماً في هذا الثلث .

قد يخطب الرجلُ بنتا فتجده ملاكًا ، سبحان الله ! تقول لك : مَلَك ! بعد حين أصبح وحشًا ، كيف انقلب من مَلَك إلى وحش ؟ هذا من الثلث الثالث .

لذلك إذا أراد الإنسان أن يمدح إنساناً فليقل : أظنه صالحاً ، ولا أزكي على الله أحداً سيدنا الصديق لمّا ولى سيدَنَا عمر ، قال : << هذا علمي به ، يا رب ، لو سألتني : لمَ وليته ؟ أقول : يا رب ، وليت عليهم أرحمهم ، هذا علمي به ، فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب >> .

كن متأدباً مع الله ، فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب .

لذلك ورد :

((أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما))

[رواه الترمذي والبيهقي ، عن أبي هريرة الطبراني]

أيها الإخوة الكرام ،

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة الأعراف:6)

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ

شبهة مدفوعة في نص هذه الآية :

التوفيق بين آيات إثبات السؤال وآيات عدم إثبات السؤال :

أحياناً يتوهم الإنسان أن في القرآن تناقضا ، يأتيك بقوله تعالى :

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً)

(سورة المعارج:10)

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

(سورة القصص:78)

مرة سألني أخ عن هذه الآية ، قلت له : إنسان عليه مخالفة سير ، ثم ارتكب جريمة قتل ، حكم عليه بالإعدام ، وهو ذاهب ليعدم يقول أحدهم : عليه مخالفة سير ، لا يحاسبوه عليها ، هذه هو معفى منها ، لأنه سيعدمونه .

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

(سورة الرحمن:39)

لكن الله عز وجل يقول : أنا سوف أسأل الذين أرسلت إليهم رسلي ، هل استجابوا ؟ هل صدقوا ؟ هل آمنوا ؟ هل كذبوا ؟ وسأسأل الرسل : هل بلغتموهم ؟ هل طبقتم ما تقولون ؟ المتكلم له حساب ، تكلمت، هل أنت مطبق لما قلت ؟ ألا تستحي مني ؟ ألا تستحي أن تقول شيئاً أنت لا تفعله ؟.

(كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف:3)

فالمتكلم يُسأل له حساب ، والمستمع يُسأل ، هل طبقت الذي سمعت ، أم ماذا كنت تعمل ؟ .

أيها الإخوة الكرام ، الكفار في عهد النبي كانوا كفاراً ، وكانوا وقحين ، فلو رأوا في القرآن تناقضاً لما سكتوا ، ولكنهم كانوا عرباً ، وكانت لغتهم عربية ويعرفون آثار العربية .

بين السبب والفاعل :

حتى أوضح لكم هذا أضرب مثلاً :

أحياناً تقول : هذا الطالب رسب في صفه ، ماذا تريد أن تقول ؟ كان كسولاً فاستحق الرسوب ، والذي جعله يرسب كسله فقط ، لو قلت بعد حين : إن إدارة المدرسة رسبته في الصف ، ماذا تقصد ؟ اتخاذ القرار بترسيبه ، إعطاءه جلاء الراسب ، هذا قرار يحتاج إلى منفذ ، فإذا عزوت الرسوب إلى الطالب فهو السبب ، وإذا عزوته إلى الإدارة فهي الفاعلة ، ولا تناقض بين الأمرين ، أنت قد تقول : هناك تناقض يا أخي ، فمرة قلت : الطالب رسب ، مرة قلت : الأستاذ رسبه ، لا تناقض أبداً ، إذا عزوت الرسوب إلى الطالب ، أي بسبب كسله رسب ، وإذا عزوت الرسوب إلى المدير ، معنى ذلك أنه اتخذ قراراً بترسيبه .

أحياناً تعزى المصيبة إلى الإنسان .

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم)

(سورة الشورى الآية : 30)

أنتم السبب ، وفي آية :

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)

(سورة النساء الآية : 79)

من الله فعلاً ، لكن من الإنسان سببا ، فإذا كان الرجل عربيًا يتقن هذه اللغة فما عنده مشكلة أبداً ، هناك تنوع في العبارة ، أحياناً نقصد الفاعل ، وأحياناً نقصد المتسبب ، أما كفار قريش فلو رأوا تناقضاً لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها على النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول لك : أخذ بنتا عمرها 13 سنة ، هذا شيء ضمن العادات والتقاليد هناك ، ليس معنى هذا أنه تزوجها في هذه السن ، كان كبراء الأمة الناس يتقربون إليهم بتزوج بناتهم ، هو لم يقاربها إلا بعد أن بلغت ، لو كان في هذا الزواج مأخذا لأقام المشركون الدنيا ولم يقعدوها عليه ، فقد تكون بعيدًا عن العادات والتقاليد .

الآن مثلاً : من يستطيع أن يخاطب إنسانا كبيرا ، ويقول عنه : إنه جرثومة ؟ لا تستطيع ، أما أن يأتي شاعر كبير كأبي تمام ليخاطب المعتصم من أكبر خلفاء بني العباس ويقول له : أنت جرثومة الدين والإسلام والحسب

***

معنى الجرثومة وقتها أصل الشيء ، ما الآن الجرثومة معناها أصل المرض ، أي أنك علة المرض ، فالكلمة لها معاني عديدة .

حينما قال عليه الصلاة والسلام :

((اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك))

[أخرجه البخاري من حديث ابن عباس]

العصابة جماعة الخير كان معناها سابقاً ، الآن المعنى : مجموعة لصوص وعصابة ، اختلف المعنى ، استعمار ، كلمة رائعة :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود الآية : 61)

أما الآن فهناك قوى غاشمة تنهب الثروات ، تقتل الناس ، كلمة استعمار بغيضة الآن ، أما أصلها فرائع ، فالإنسان لضعفه باللغة ، ولعدم اهتمامه بتطور الألفاظ قد لا يفهم بعض الآيات ، وقد يرى فيها بعض التناقض .

(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)

(سورة الأعراف:7)

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ

أعمالهم ، الآن أحدث طريقة في التحقيق أن تريه الصورة ، فتسكته :

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى* قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه:46)

الله معنا .

(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية : 4)

ومع المؤمنين بالتوفيق ، والنصر ، والتأييد ، والحفظ .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(04-60): تفسير الآيتان 8-9 ، ميزان الحق العلم والعمل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-12-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة ، وهي قوله تعالى :

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8))

الإيمان بالله واليوم الآخر ركنان متلازمان :

أيها الإخوة ، ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن كركن الإيمان بالله واليوم الآخر ، فالإيمان بالله عز وجل هو أصل كل أنواع الإيمان ، لكن ما لم تؤمن أن الله يعلم ، وسيحاسب ، وسيعاقب لن تستقيم على أمره .

وقد وردت في القرآن الكريم آية هي أصل في الاستقامة :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق الآية : 12)

اللام لام التعليل .

(أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

حينما تعلم أن علم الله يطولك ، وأن قدرته تطولك ، وأنه يعلم ، وسيحاسب وسيعاقب ، وأنه في اليوم الآخر تسوى فيه الحسابات ، يؤخذ للضعيف من القوي ، وللفقير من الغني ، وللمظلوم من الظالم ، هذا اليوم حينما تؤمن به تنزاح عن صدرك هموم كالجبال .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46)فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47))

(سورة إبراهيم)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ

1 – الميزان الشرعي :

أيها الإخوة ، هناك موازين في الأرض ، هناك آلاف الموازين ، لكن الله عنده ميزان ، البطولة ، والذكاء ، والتوفيق ، والتألق ، والفلاح ، والنجاح أن يكون ميزانك وفق ميزان الله ، والحمق ، والغباء، وضيق الأفق ، والجهل أن تتوهم أن ميزانك الذي هو بعيد عن ميزان الله يكفي .

مثلاً : حينما تعتقد أن المال هو كل شيء ، وأنك بالمال تصل إلى كل شيء ، وأن المال قيمة ثابتة في كل العصور ، وأن الذي معه المال معه كل شيء ، ودنياه جنة ، وأن الذي فقَد المال ما ذاق شيئاً من طعم الحياة ، ودينا جهنم ، حينما تعتقد كذلك فهذا الإنسان هو أغبى الخلق ، لأنه اعتمد ميزاناً ما أقره الله عز وجل .

2 – ميزان العلم والعمل :

الله عز وجل اعتمد ميزانين ، اعتمد ميزان العلم ، وميزان العمل ، فقال :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر الآية : 9)

وقال :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة الآية : 11)

هذا العلم ، وميزان العمل :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام الآية : 132)

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح ، أما موازين الأرض ، القوي معظّم ومبجّل ، والناس ينصرفون إليه ، وينصرفون عن الضعيف ، والغني مبجل ، ومعظم ، والناس ينصرفون إليه ، وينصرفون عن الفقير ، والإنسان الوسيم مبجّل ومعظّم ، وينصرف الناس إليه ، وينصرفون عن الدميم .

الأحنف بن قيس كان قصير القامة ، أسمر اللون ، أحنف الرجل ، مائل الذقن غائر العينين ، ناتئ الوجنتين ، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب ، وكان مع ذلك سيد قومه ، كان إذا غضب غضبَ لغضبته مئة ألف سيف ، لا يسألونه فيما غضب ، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

3 – من السعادة موافقة ميزان الشرع :

حينما تأتي موازينك مطابقة لموازين خالق السماوات والأرض فأنت أسعد الناس ، أنت الموفق ، أنت الذكي ، أنت العاقل ، أنت الفالح ، أنت الناجح ، أما إذا اعتمدت ميزاناً ساقطاً عند الله عز وجل فلا تعجبك أموالهم ، ولا أولادهم .

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية : 5)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون الآية : 4)

4 – تقييم النفس والناس بميزان الشرع :

أيها الإخوة ، البطولة أن يكون ميزانك في تقييم نفسك ، وتقييم من حولك مطابقاً لميزان الله ، أما إذا كان ميزانك أرضياً ، وشركياً ، ودنيوياً فهي الطامة الكبرى .

لذلك البطولة أن تأتي يوم القيامة وفق موازين الله ناجحاً .

من هو الغني بميزان أهل الأرض ؟ من كان عنده أموال طائلة ، من هو الغني بميزان الله ؟ من كان له عمل صالح .

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24))

(سورة القصص)

لما سقى للفتاتين سيدنا موسى قال :

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

أنا مفتقر للعمل الصالح ، لذلك قال سيدنا علي : << الغنى والفقر بعد العرض على الله >> .

إذاً : الله عز وجل اعتمد ميزانين فقط ، اعتمد ميزان العلم ، واعتمد ميزان العمل العلم :

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

والعمل :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

وأنت في الحياة الدنيا اعتمد هذين الميزانين ، في تقييم نفسك ، إذا كنت مؤمناً يجب أن تتمتع بمعنويات عالية جداً ، والمال لا تعبأ به ، إن لم يستوِ عندك التبر والتراب فلست مؤمناً .

((والله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

ابحث عن ميزان الله يوم القيامة ، أنت بقدر استقامتك على أمره ، وبقدر خدمتك لخلقه ترقى عند الله ، أما عند الناس بقدر ولاءك للأقوياء ، ومدحك لهم ، وانبطاحك أمامهم ترقى عندهم ، لذلك المؤمن يعتز بإيمانه ، ولا يعبأ بأهل الدنيا :

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26))

(سورة الدخان)

(كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59))

(سورة الشعراء)

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29))

(سورة الدخان)

أيها الإخوة ، هذا شيء مهم جداً ، أن تعتمد على ميزان الله في تقييم نفسك ، وفي تقييم خاطب ابنتك .

((إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه))

[رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم ، عن أبي هريرة]

وفي تقييم شريكك عنده خبرات عالية جداً لكن دينه رقيق ، هذا يدخلك في المال الحرام ، أنت بحاجة ماسة إلى ميزان دقيق جداً تزين به كل شيء .

5 - ميزان الله هو عين العدل :

هذا الميزان يوم القيامة هو عين الحق ، لا بد من أن أوضح :

فرق بين أن يكون الميزان عادلاً ، وبين أن يكون عين العدل ، فرق كبير ، لا بد من مثل :

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

(سورة التوبة الآية : 28)

لم يقل : نجسون ، لأن الإناء إذا كان نجساً يُطهر ، أما النجس فهو عين النجاسة ، لا تطهر أبداً ، الفرق بين الصفة والمصدر كبير .

ولله المثل الأعلى : ميزان الله عز وجل ليس عادلاً ، إنما هو عين العدل ، هو العدل ، لذلك بعض العلماء قال : " الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع " ، الشرع هو الميزان على كل شيء، مهما طرح مع المعصية من فلسفات ، ومرغبات ، وزخارف لفظية ، ومنطلقات نظرية ، وتطبيقات عملية ، والاختلاط حضارة ، والاختلاط يعمل تهذيب للمشاعر ، الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، ابحث عن ميزان الله .

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ)

ما معنى ؟

معنى : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

الحقيقة أن العمل له وزن .

1 – مثال تقريب لمعنى الآية :

هذا مثل للتقريب : إذا أنشأت(سيركًا) نصبته في بعض المصايف ، وجاءك دخل وفير ، إذا كنت في دولة إسلامية مضطهدة ، وتمكنت أن تخترع القنبلة النووية ، فأصبحت هذه الدولة قوية ، منيعة ، مرهوبة الجانب ، هل هذا الذي أنشأ سيركاً كالذي اخترع قنبلة يرفع بها شأن المسلمين ، مثلاً ؟ أي

العملين أثقل في الوزن ؟ العمل الثاني ، في هذه الظروف الصعبة أنا أتكلم ، أنت تنشئ جامعة لتخريج قادة للأمة ، أو أن تنشئ ملهى ليليا ؟ بينهما فرق كبير جداً .

2 – كل عمل له عند الله وزن :

فكل عمل له عند الله وزن ، تطعم إنسانًا عمل صالح ، أم أن تدله على الله عمل أعظم ، فكل عمل له وزن ، بر الصديق عمل طيب ، لكن بر الوالدين عمل أطيب ، أن تعتني بأولاد أصدقائك لباقة وذوق ، لكن أن تربي أولادك الذين ليس لهم إلا أنت عمل أعظم ، كل عمل نعمله له عند الله وزن ، العمل يوزن بنيته ، قد يبتغي الإنسان من عمله أن ينتزع إعجاب الآخرين .

((من طلب العلم ليجاري به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار))

[أخرجه الترمذي عن كعب من مالك]

كل عمل له ميزان ، أولاً بنيته ، ثانياً بحجمه ، ثالثاً بعمقه ، رابعاً بديمومته خامساً باتساع رقعته . العمل له وزن ، هناك إنسان تطعمه وجبة واحدة ، وهناك إنسان تهيئ له عملا يعيش منه طوال حياته ، هناك إنسان يغض بصره عن الحرام ، لكن هناك إنسان يأخذ بيد زوجته إلى الله فيجعلها مؤمنة كبيرة .

3 – النية والعقبات والصوارف تحدّد وزن العمل :

الملخص كل عمل يعمله له وزن ، فتحت حانوتك ، نويت أن تربح من أجل أن تقتني سيارة ، وأن تذهب إلى المصيف يوم الجمعة ، وأن يرتدي أولادك ثياباً جديدة تتباهى بهم ، أو من أجل أن تسكن بيتا له إطلالة جميلة ، ومساحته واسعة ، فيه تزينات رائعة ، وقد تفتح حانوتك من أجل أن تخدم المسلمين ، وأن تعطيهم بضاعة جيدةً بسعر معتدل ، الفرق كبير ، كل عمل له وزن ، وزن بنيته ، وزن بقدر العقبات الموضوعة أمامه ، وزن بقدر الصوارف التي تصرف عنه ، وزن بقدر التضحية من أجله ، وزن بقدر المتاعب التي حصلها الإنسان من هذا العمل ، وزن بقدر المعارضين له ، كل عمل له وزن .

إذاً أيها الإخوة :

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة الأنبياء الآية : 47)

الميزان بكِفّتيه لا بكفة واحدة :

هنا تعليق لطيف : كل إنسان له ميزان ، وكل عمل له ميزان ، معالجة المرضى هذا عمل طبي ، له ميزان ، بين أن تعالجه ، وتعتني به عناية فائقة ، وأن تسأله كل ساعتين عن صحته إذا كان من الأغنياء الميسورين ، وتنتظر أن تأتيك منه مكافئة مجزية ، أن يضع لك في الصحيفة ثناء على علمك ، وعلى عمليتك الجراحية ، وبين أن تعتني بإنسان فقير جداً في مستشفى عام ، لا أحد ينتبه إليه فتعتني به وكأنه في أرقى مستشفى ، هذا وزن ، وهذا وزن ، كل عمل له وزن ، وكل إنسان له وزن .

مثلٌ إلهي لوزن الناس :

الذي تجاوز الخمسين لما يراهق كالمراهقين الصغار :

((أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد))

[ورد في الأثر]

الشاب إذا أخطأ فهو خطأ ، لكن الشاب غير محصن ، حوله نساء كاسيات عاريات ، زلّت عينه ، أخذته عينه إلى منظر لا يليق به ، فتاب واسترجع ، هذا شيء ، والذي عمره خمسون سنة ، وعنده زوجة وأولاد ، عنده خمس بنات ، وزوجهم كلهم ، وهو مراهق ؟! يتحرش بالسكرتيرة ، هذه مشكلة كبيرة جداً ، هذا له وزن ، وهذا له وزن ، كل عمل له وزن وكل إنسان له وزن .

ورد في بعض الآثار :

((أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد))

[ورد في الأثر]

أول حياته ، كتلة حماس ، شهوات مستعرة ، آمال ، طموحات ، وهو يغض بصره عن محارم الله ، إن الله يباهي به الملائكة ، يقول : انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي.

أيها الإخوة ،

((وأحب المتواضعين ، وحبي للغني المتواضع أشد))

[ورد في الأثر]

غني جلس مع عماله ، أكل معهم ، سألهم عن صحتهم ، عن أولادهم ، عن مشكلاتهم ، آنسهم ، طيب قلبهم ، جبر خاطرهم ، هذا غني بإمكانه

يتقوقع ببرجه العاجي عنده سكرتير ، وسكرتار ، وسكرتور ، ممكن ، ولا أحد بإمكانه أن يصل إليه ، لا اتصال هاتفي التلفون مغلق لأنه ، أو رقم خاص ، لا تعرف رقمه ، بين مدير معمل غني قاعد مع عماله يؤنسهم ، يتلطف معهم ، يحل مشكلاتهم .

((وأحب المتواضعين ، وحبي للغني المتواضع أشد ، وأحب الكرماء ، وحبي للفقير الكريم أشد))

عنده برتقال قدمه لك .

((أحب الكرماء ، وحبي للفقير الكريم أشد))

الآن :

((وأبغض ثلاثاً وبغضي لثلاث أشد ، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد))

والله أنا لا أتكلم من فراغ ، والله تأتيني شكاوى من نساء مؤمنات طاهرات ، يشتكين على أزواجهن 60 ، 65 ، 70 ، 58 ، مراهق ، هذه نكسة كبيرة جداً .

((أبغض العصاة ، وبغضي للشيخ العاصي أشد ، أبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد))

على ماذا ؟

((وأبغض البخلاء ، وبغضي للغني البخيل أشد))

كل إنسان له ميزان ، وكل عمل له ميزان .

صدقوا أيها الإخوة ، موازين الدولة عندها عشر مراتب ، وكل مرتبة ثلاث درجات ، مليونًا موظف في ثلاثين درجة ، والله عز وجل يقول :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

إذا كان لله ستة آلاف مليون إنسان فعنده ستة آلاف مليون ملف ، كل واحد له درجة ، بحسب وضعه ، بحسب شبابه ، بحسب سنه ، بحسب حجمه المالي .

دعا الخطيب إلى التبرع لصندوق العافية ، دفع أحدُهم ألف ، ومعه مئة مليون وآخر دفع خمسين ليرة ومعه مئة ليرة ، شاب صغير ، رُبّ درهم سبق ألف درهم ، درهم تنفقه في إخلاص خير من مئة ألف درهم ينفق في رياء ، درهم تنفقه في حياتك خير من مئة درهم ينفق بعد مماتك .

مرة ثانية : كل عمل له وزن ، له ميزان ، وكل إنسان له ميزان ، والموازين عند الله هي الحق المطلق:

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ)

لا نقول : الوزن عادل ، الوزن يومئذٍ عين العدل ، لا نقول : الوزن محق ، الوزن يومئذٍ عين الحق ، هو الأصل .

أحياناً يكون مثلاً صنجات في البلدية ، هذه مدروسة على الميلي غرام ، فأي صنجة عند بائع مزورة تُفحص على الأولى ، أو أمتار ، هناك متر بالبلدية على معشار الميلي هذا المتر ، فإذا شككنا بمتر ناقص سنتيمترين نأخذه إلى المتر الأصلي ، والأصلي هو الميزان ، هو المقياس ، يكل المقاييس الدولة عندها موازين ، ومقاييس ، وأطوال ، وعبواة ، ومكاييل نظامية ، هذه المكاييل والعبواة والأوزان والأطوال هي الأصل في تقييم كل ميزان آخر .

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ

إذا زيّن أحدُهم بيته ، هذا ليس حراماً ، لكن وزن العمل يوم القيامة ضعيف جداً ، إنسان ضحى بحياته من أجل الحق ، هذا شهيد ، هذا له بهذا العمل وزن كبير جداً .

العبرة أن كل عمل له وزن .

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

لكن إنسانا وضعنا في ميزانه بيته ، وبيته جيد جداً ، ومركبته ، ورحلاته ، وسفرياته ، ونزهاته ، ما له وزن يوم الآخرة ، الآخرة ما لها وزن ، أما الوزن بالآخرة : يا رب أنا خدمت عبادك ، أخلصت لهم ما غششتهم ، ما ابتززت أموالهم ، ما ألقيت في قلبهم الرعب ، أنا كنت محسناً لهم ، عرفتهم عليك ، دعوتهم إليك ، مسكتهم بكتابك ، حببتهم بسنة نبيك ، أطعمت الفقراء ، كسوة العراة ، دللت عليك ، خدمت عبادك ، في الليل ناجيتك يا رب ، صليت الصلوات بأوقاتها ، أقبلت عليك ، تواضعت للخلق ، كنت في خدمة خلقك ، هذه أعمال لها وزن كبير .

لعلي استطعت أن أوصل لكم الفكرة ، الأعمال لها وزن ، هذه الأعمال توضع في ميزان الإنسان يوم القيامة ، فإن كانت أعمال جليلة :

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

طبعاً هناك وزن ثقيل ، وفي دم ثقيل طبعاً ، الفرق بينهما كبير جداً .

إنسان يحمل ثلاث دكتورات ، يعد مرجع أول في بلاده في الذرة مثلاً ، إنسان يحمل أربع شهادات في الطب مثلاً ، إنسان أسس جامعة كبيرة ، إنسان له مئة مؤلف له وزن .

مرة كنت في مسجد ، وهناك رجلان يصليان ، فلما انتهيا من صلاتهما أنا هرعت إلى أحدهما ، وسلمت عليه سلاماً في أعلى درجة من الأدب والود ، صديقي الذي معي ما فهم ماذا فعلت ، إنسانان يرتديان ثوبا أبيض في الصيف ، ومتقدمان في السن ، فلما هرعت إلى أحدهما ، وسلمت عليه بأدب جم

ما فهم صديقي من هما ، هذا الأول كان عميد كليتنا في الأدب العربي ، كان أعلم علماء المنطقة بالنحو، أنا درست على يديه أربع سنوات ، أنا أعرف حجمه العلمي ، ومؤلفاته ، ومكانته العلمية ، أما هو فيبدو إنسانا عاديا ، بخريف العمر لبس ثوبا أبيض ، ويصلي المغرب في الجامع .

فكل إنسان له وزن ، لأن عمله كبير ، إنجازه كبير ، فلذلك :

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

اسأل نفسك كل يوم : ماذا فعلتُ ؟

كل يوم اسأل نفسك : ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت لآخرتك ؟ لون أن الله سألك يوم القيامة عبدي ماذا فعلت من أجلي ؟ ماذا فعلت ؟

بلا تحفظ معظم أعمال الناس من أجل دنياهم ، من أجل دخل يتمتع بالحياة ، يعيش مع الناس كواحد منهم ، لا يعنيه لا هداية أمة ، ولا حل مشكلة ، ولا معرفة بالله عز وجل ، فهذا الذي :

(ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أي أنه ناجح ، والنجاح ممتع جداً ، ولا شيء يسعد كالنجاح ،

(فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

يجب أن تحاسب نفسك كل يوم ، أو يجب أن نحاسب أنفسنا كل يوم ، اليوم ماذا فعلت ؟ هل تصدقت ؟ هل دعوت إلى الله ؟ هل أمرت بالمعروف ؟ هل نهيت عن منكر ؟ هل أطعمت حيواناً جائعاً ، هل رعيت أولادك ؟ هل كنت باراً بوالديك ؟ هل زرت فقيراً ؟ هل عدت مريضاً ؟ هل تصدقت على مسكين ؟ هل نشرت حقاً ؟ هل رددت باطلاً ؟ ماذا فعلت ؟ .

مستويات الموازين :

أيها الإخوة ، الموازين لها مستويات هناك ميزان يستعمل لوزن السيارات يمكن لو وضعت عليه مئة كيلو ذهب لا يتحرك إطلاقاً ، صمِّم لأربعين طنًّا ، ثلاثون طنًّا ومئة كيلو لا تفعل فيه شيئًا ، ولا

يحركونه أبداً ، لكن هناك ميزان لو وزنت به ورقة ، وكتبت عليها كلمة محمد ترجح الكفة لوزن الحبر فقط ، وهناك ميزان لو وضعت يديك فوقه ، وحركتها عشرة ميلي تتغير الكفة ، لأن الهواء ضغط على الكفة ، هذه موازين حساسة جداً ، وكلما ارتقى الإنسان تكون موازينه حساسة .

النبي رأى تمرة على السرير فقال :

((والله يا عائشة ، لولا أني أخاف أنها من تمر الصدقة لأكلتها))

[مسند أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

اشتهى تمرة موجودة على السرير ، يبدو أنه طبق صدقة ، لعلها وقعت من هذا الطبق ، قال :

((والله يا عائشة ، لولا أني أخاف أنها من تمر الصدقة لأكلتها))

هناك إنسان عنده ميزان حساس ، لدرجة أنه لو لم يرحب بفلان ترحيباً كافياً لألقى اللوم على نفسِه ، الذي عنده ميزان حساس ذنبه كأنه جبل جاثم على صدره ، والذي ما عنده ميزان حساس جريمته كالذبابة .

صدقوا أيها الإخوة ، والله بميزان دقيق لم أرَ أشد غباء من الطغاة ، يقتلون آلاف ملايين ، كيف ينامون؟! كيف سيواجهون الله عز وجل ؟! شعوب تموت من الجوع ، وهم يستغلون ثرواتهم ، ينهبون أموالهم ، ينهبون بترولهم ، يقهرونهم ، يميتون ، ساعة سلاح فسفوري ، ومرة قنبلة ذكية ، ومرة عنقودية ، ومرة خارقة وحارقة ، ومرة قنبلة توجه بالليزر ، ومرة قنبلة نابالم حارقة ، ومرة طائرة ، ومرة قنبلة تلغي الاتصالات ، مرة قنبلة تبيد البشر وتبقي الحجر ، في موازين دقيقة :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

والله لا تغرق قطرة دم من آدم إلى يوم القيامة إلا وسيتحملها إنسان يوم القيامة ، لا قتل شعوب بأكملها.

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة في نظر

***

شعب بأكمله يباد إبادة ، ويقال : نتابع بقلق ما يجري هناك ، يتابعون بقلق هذا العمل ، ويقولون : هذا العمل غير مقبول ، غير مقبول فقط ، أو يستنكرون ، هذا كلام مضحك :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

يأتي على القاضي العدل يوم القيامة ، أي قاضٍ ؟ العدل ، ساعة يتمنى فيها أن لو لم يقضِ بين اثنين في تمرة :

((يأتي على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى فيها أن لو لم يقضِ بين اثنين في تمرة))

[أحد عن عائشة]

حقوق العباد ، قاضي يحكم بحسب المبلغ الذي قبضه ؟ أخذه من أحد الخصمين ؟ .

زيادة حساسية الميزان بزيادة الإيمان :

هناك موازين حساسة ، وموازين غير حساسة ، وكلما ازداد إيمانك يدق ميزانك ، تحاسب على النظرة، تحاسب على الهمسة ، على تألق الوجه مع إنسان عاصٍ له مكانة ، سلمت عليه باهتمام ، واحترام ، وتعظيم ، وتبجيل ، والذين حولك رأوك مهتماً به أشد الاهتمام ، وهو غارق في المعاصي والآثام ، وقد تسلم على مؤمن طيب ، ورع ، مستقيم ، لكنه فقير ، بسلام متعجل ، ما سحب النبي يده من صحابي سلم عليه إلا كان النبي آخر من يسحب يده من يد الصحابي ، والله أعطاك ميزان هو العقل ، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ، وأعطاك ميزان الفطرة ، إذا أخطأت تشعر بانقباض ، أعطاك ميزان العقل وأعطاك ميزان الفطرة ، ما في إنسان يرتكب خطأ كبير إلا يشعر بألم .

كتب على سرير بألمانيا بفندق : إن تقلبت طوال الليل ولم تنم فالعلة ليست في فرشنا ، إنها وثيرة ، ومريحة ، ولكن العلة في ذنوبك .

الصلاة ميزان :

الإنسان أحياناً لا ينام الليل ، يرتكب خطأ ، وليس مداناً في الأرض إطلاقاً ، لكنه لا ينام الليل ، والصلاة ميزان ، العمل الطيب تستطيع بعده أن تتصل بالله عز وجل ، لكن العمل السيئ قد لا تستطيع بعده أن تقبل على الله ، المؤمن عنده حساسية فائقة جداً ، تكون صلاته ميزانًا ، هذا لمَ سخرت منه ؟ لمَ دخلت هذه المرأة إلى المحل التجاري ، وأدرت معها حديثاً لطيفاً ؟ وملأت عينيك من محاسنها ، والظهر أذن تفضل صل ، إذا ملأت عينيك من محاسنها ، وأدرت معها حديثاً عاطفياً ، وأذن الظهر تشعر حالك في حجاب صار بينك وبين الله ، لأنك ما كنت مع الموقف الكامل .

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

(سورة القصص الآية : 23)

كلمة واحدة ، الآنسات ماذا يفعلن هنا ؟ خير إن شاء الله ، لا ،

(مَا خَطْبُكُمَا)

هي ماذا قالت له ؟

(لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ)

(سورة القصص الآية : 23)

لو وقفت هنا ، طيب لمَ ؟ قال :

(وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23))

(سورة القصص)

مباشرة ، أعطته الجواب بأقلّ كلام .

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32))

(سورة الأحزاب)

فلذلك الصلاة ميزان ، وأقول لك هي من أدق الموازين ، وحينما تعمل عملاً طيباً تقف بين يدي الله مقبلاً ، إذا لم تستح بعملك أمام الله فافعل ما تشاء ، الصلاة ميزان .

والعقل ميزان .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7)أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8))

(سورة الرحمن)

احذروا ازدواجية الموازين والمعايير !!!

لماذا لما تشتري القماش تكليه بخط منحنٍ مع المتر ؟ أما إذا بعته تشده حتى يتمزق ، لماذا ؟ عندك ميزان مزدوج ، لماذا تعامل زوجة ابنك بميزان وابنتك بميزان ، البنت ذنبها مغفور ، أما زوجة الابن ذنبها غير مغفور أبداً ، لماذا تعامل هذا الموظف الذي في سن ابنك تماماً ، لماذا تعامل هذا الموظف بميزان وابنك بميزان ؟ تحمله أول ثوب ، والثاني ، والخامس ، لم يعد يستطيع أن يحمل ، فتقول له : أنت شاب ، ثم يحمل ابنك أول ثوب والثاني فتقول له : بابا ظهرك ، وأمام الصانع ، عندك ميزانان .

أمثلة واقعية من ازدواجية المكاييل :

الحقيقة ليست فقط الدول القوية المتغطرسة عندها مكيالان ، بل ثلاثة أرباعنا معنا مكيالان ، تكيل لكل إنسان بمكيال ، فإذا كان عندك بضاعة فهي أفضل بضاعة في الأرض ، إذا قال لك زبون : عندك بضاعة ، وهي ليست عندك ، تقول له : ماذا تريد من هذه ؟ قد تكون أحسن من بضاعتك ، لكن أنت عندك ميزانان ، البضاعة ما عندك ، إذاً تبخس فيها ، لو أردت أن أضرب أمثلة لا تنتهي الدروس

بأمثلة من يكيل بمكيالين .

قصة طريفة ، أن امرأة زوج ابنتها أتى بغسالة من أرقى مستوى ، فدعت له ، وأثنت عليه بشكل غير طبيعي ، من غرائب الصدف في اليوم نفسه ابنها أتى لزوجته بغسالة أيضاً من نفس المستوى فغضبت عليه ، هذه مثل القردة قاعدة في البيت ، بنفس اليوم مكيالان .

حينما تكيل بمكيالين تسقط من عين الله ، ولأن تسقط من السماء إلى الأرض أهون من أن تسقط من عين الله ، لا تكل بمكيالين ، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك .

الخطأ في الوزن لا يتكرر ، أما الخطأ في الميزان فلا يصحح :

إخوانا الكرام ، مرة ثانية الخطأ في الوزن لا يتكرر ، أما الخطأ في الميزان فلا يصحح ، اجتهد ألا تخطئ في الميزان ، الميزان غير صحيح لو استخدمته مليون مرة كل هذه الأوزان غير صحيحة ، أما حينما تتوهم أن الكيلو كيلوين فهذا خطأ في الوزن لا يتكرر ، فالخطأ في الميزان لا يصحح ، والخطأ في الوزن لا يتكرر .

الآن :

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9))

(سورة الأعراف)

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ

أعماله كلها دنيوية ، أعماله كلها لصالحه ، لرفاهه ، لزيادة ثروته ، لاستعلائه على الناس :

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ)

الخسارة يوم القيامة أكبر خسارة على الإطلاق :

أكبر خسارة لا أن تخسر مالك كله ، ولا أن تخسر بيتك ، ولا تجارتك ، ولا وكالة سحبت من يدك ، ولا منصب عُزلت منه ، أكبر خسارة أن تخسر نفسك يوم القيامة .

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

تفسير سورة الأعراف لفضيلة الدكتور محمد راتب النا

(سورة الزمر الآية : 15)

هذه أكبر خسارة :

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ)

لذلك بالقارعة :

(أَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7)وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8)فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(9))

(سورة القارعة)

يتجه إلى الهاوية إلى النار .

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10)نَارٌ حَامِيَةٌ (11))

(سورة القارعة)

كل عمل له وزن ، يوزن بنيته ، بحجمه ، بعمق تأثيره ، بامتداد أمده ، باتساع رقعته ، بالعقبات التي أمامه ، بالصوارف التي تصرف عنه ، وهناك آلاف الموازين للعمل الواحد ، وكل عمل له وزن ، وكل إنسان له وزن :

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ)

الله هو الحق .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(05-60): تفسير الآية 10، تمكين الإنسان في الأرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-12-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية العاشرة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ(10))

معنى التمكين في جسم الإنسان : وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ

التمكين أيها الإخوة ، أن تكون في مكان مكين ، وأن لا يستطيع أحد أن ينال منك ، التمكين له معنى ضيق ، وله معنى واسع .

مِن مظاهر التمكين في جسم الإنسان

1 – الوقوف والمشي على القدمين :

كيف تمشي على قدمين ؟ من جعل لك هيكلاً عظمياً ، هذا الهيكل كيف أصبح متيناً ؟ هو مِن الكلس ، من جعل هذا المعدن له أملاح مذابة في بعض الأطعمة ؟ ثم ترسب في العظام ، فجعل لك هيكلاً عظمياً متيناً قد يحمل 500 كيلو ، عظم عنق الفخذ يتحمل 250 كيلو ، فالعظمان نصف طن ، كيف مكنك بهذا الهيكل العظمي ؟ لولا هذا الهيكل العظمي لكان الإنسان أشياء مرنة ملقاة في الأرض ، يقف على قدمين ؟ من ربط العظام بالعضلات ؟ العضلات المحركة ، من جعلك إنساناً كاملاً ؟

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

من جعلك تمشي على قدمين ؟ لولا جهاز بالغ الدقة في الأذن ، جهاز التوازن لما أمكنك أن تمشي على قدمين ، لاحتجت إلى مساحة واسعة جداً ، لكانت القدمان كبيرتين ، ويصبح المشي أشغالاً شاقة ، كيف مكنك الله في الأرض ؟ كيف جعلك قائماً ، متحركاً ، مدركاً سميعاً ، بصيراً ، ناطقاً .

2 – العمل غير الإرادي للعضلات :

أيها الإخوة ، من أراحك من عضلات كثيرة تعمل عملاً لا إرادي ؟ القلب يعمل بشكل لا إرادي ، لو أن القلب نبضه بإرادتك لكنت بين خيارين ، الموت أو إلغاء النوم ، مَن جعل التنفس لا إرادي ؟ هل تصدق أنه من الأمراض النادرة أن يتعطل مركز التنبيه النوبي للرئتين عندئذٍ بعد تطور شديد جداً اكتشف دواء ، أنت محتاج إليه في كل ساعة في الليل ، تنام الساعة الحادية عشرة تستيقظ الساعة الثانية عشرة لأخذ حبة ، وإلا يموت الإنسان .

3 – النوم براحة مع عمل الأجهزة بانتظام :

من جعلك تنام ملء عينيك ؟ والرئتان تعملان ، من جعلك تنام ملء عينيك والقلب ينبض ؟ من جعلك تنام ملء عينيك ومجموعة أجهزة تعمل بنظام ليلي ، وبنظام نهاري ، في النهار يرتفع الضغط ويزداد النبض ، وتنشط الكليتان ، وتنشط أجهزة الإفراز ، في الليل من أجل أن تبقى مستريحاً بعض الأجهزة التي مهمتها إفراز الفضلات والسوائل الضارة كالكليتين تهجع وتنام معك ، من مكنك أن تنام ؟ الله جل جلاله .

4 – عدم وجود الأعصاب في شعر الرأس :

من جعل هذا الشعر تاجا للإنسان ، لكن بلا أعصاب حس ، لو جعل فيه أعصاب الحس لكانت الحلاقة عملية جراحية ، تحتاج إلى تخدير تام .

5 – الساعة البيولوجية في الجسم :

أيها الإخوة ، الساعة البيولوجية ساعة مرتبطة بقعر العين ، فإذا كان في قعر العين ضياء تأمر عشرات الأجهزة ببرامج خاصة في النهار ، فإذا اختفى الضوء من قعر العين الساعة البيولوجية تأمر أجهزة عديدة أن تعمل بنظام ليلي ، هذه يد مَن ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

التمكين بالخلق ، مَن الذي هيأ جيشاً بكل هذه الكلمة من معنى في جسمك ؟

6 – جهاز المناعة :

فرقة استطلاع لو دخل جرثوم إلى الجسم ، فرقة استطلاع تذهب إليه ، وتأخذ تركيبه الكيماوي وشفرته ، وفرقة تصنيع سلاح ، هذه الفرقة حينما تتسلم تركيب هذا الجرثوم تصنع له سلاحاً مضاداً قاتلاً ، من هيأ فرقة ثالثة للقتال ؟ عناصر قتال ، كريات بيضاء ، من هيأ فرقة خدمات ؟ من هيأ فرقة مغامرين ؟ هؤلاء متميزون يلتهمون الخلية السرطانية في وقت مبكر .

جهاز المناعة المكتسب جيش بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، من هيأ العناصر المقاتلة هذه جهالة ، ومعها سلاح فتاك ، من علماها العناصر الصديقة والعدوة ؟ غدة صغير توهمها الأطباء أنه لا فائدة لها، هي التيموس ، هي مدرسة حربية تدخل إليها الكريات البيضاء ، وتبقى سنتين على مقاعد كالمدرجات في الجامعة ، هذه الكرية البيضاء سماها العلماء الخلية التائية الهمجية ، فإذا تخرجت أصبح اسمها الخلية التائية المثقفة ، تعرف من هو الصديق ، ومن هو العدو .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

7 – الحواس :

أنت عندك حواس تطلعك على العالم الخارجي ، فالعين تغطي مساحة كبيرة ، لكنك إذا خلدت إلى النوم العين تقف عند الجدران ، لو سمعت حركة في الليل مَن الذي يسيطر على كل البيت ؟ الأذن ، ولو دخلت فأرة تحت السرير ، وماتت لا تراها ، ولا تسمعها ما الذي يكشفها لك ؟ حاسة ثالثة الشم .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ *وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد)

لو أن العين وفيها ماء يتجمد في الدرجة صفر كل مَن سكن في القطب يفقد بصره ، فمَن أودع في ماء العين مادة مضادة للتجمد ؟ إنه الله جل جلاله ، مَن جعل في شبكية العين 130 مليون عصية ومخروط، من أجل أن ترى الأشياء بدقة بالغة ، فالعين البشرية تفرق بين 8 ملايين لون ، من جعل القرنية شفافة شفافية تامة ؟ من أجل أن تكون الرؤية صافية ، فكيف تتغذى القرنية ؟ عن طريق الحلول والتسرب ، الخلية الأولى تأخذ غذائها وغذاء دارتها .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

مَن جعل لك هذا اللسان ؟ تنطق ، من علمك اللغة ؟

(الرَّحْمَنُ (1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2)خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

تستمع فتفهم ، تتكلم فتعبر ، لكن كيف تنتقل المعرفة من إنسان إلى آخر ؟ من عالم إلى متعلم ؟ من جيل إلى جيل ؟ عن طريق اللغة المكتوبة .

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4))

(سورة العلق)

هناك نص أمامك ، الإمام القرطبي ألف التفسير وانتقل إلى رحمة الله ، مضى على موته ألف عام ، والناس ينتفعون من تفسيره ، كيف يمكن للغة أن تكون مكتوبة ، وأن تقرأ ؟ مَن نقل الثقافات من أمة إلى أمة ؟ عن طريق الترجمة .

((12)يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

8 – لو تعلم كيف مكّن لعمل القلب !!!

هذا القلب بعد أسابيع عدة جزء من العلقة ينبض ، ثم يكون القلب ، ويبقى ينبض وينبض حتى الموت ، عضلة القلب أحد أكبر الآيات الدالة على عظمة الله ، تنقبض وتتمدد ، وبين الانقباض والتمدد تستريح ، وهذه الراحة تجعلها مؤهلة كي تتابع الانقباض والانبساط .

من جعل هذه الشرايين مرنة ؟ وكأنها قلوب ، فإذا نبض القلب توسعت الشرايين ، فإذا عادت إلى حجمها الطبيعي بفعل مرونتها كانت قلباً آخر ، من جعل أنبوب الأوعية أنبوباً مغلقاً ؟ طوله أربعون ألف كيلومتر ، كل واحد عنده أوعية دموية لو وصلت مع بعضها بعضاً لدارت حول الأرض أربعين ألف كم .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ)

9 – إنك تأكل ما تشتهي ! ولكن غاب عنك كيف تهضم ذلك :

الهضم عملية معقدة جداً ، أسنان ، ولعاب ، ومريء ، المريء عبارة عن عضلات حلقية ، لو أمسكنا بإنسان ، وعلقناه من رجليه ، وأطعمناه لقمة تمشي عكس الجاذبية ، لو سقينا إنسانا معلقا من رجليه ماء لصعد الماء نحو الأعلى حتى المعدة ، مَن صمم المريء ؟

10 – وأنت نائم سيجتمع اللعابُ في فمك ، فهل فكّرت في ذلك ؟

وأنت نائم يتجمع اللعاب في فمك ، فتنطلق إشارة إلى الدماغ ، لقد كثر اللعاب وأنت نائم وغارق بالنوم، الدماغ يقظ ، يعطي أمر للبلعوم ، لسان المزمار ، فيفتح طريق المريء ويغلق طريق الرئتين ، من ؟ فعل من ؟ .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

جهاز المناعة المكتسب آية ، القلب والأوعية آية جهاز الهضم آية .

11 – كيف مُكِّن للحرارة أن تتولّد في الجسم ؟

كيف تتولد الحرارة في جسمك ؟ من احتراق ، كيف يحترق السكر بدرجة 37 ، مستحيل ، ضع ملعقة سكر في كفك لا تحترق ، عن مادة بسيطة الأنسولين يحترق السكر ، يولد الطاقة ، من فضلات السكر المحترق ثاني أوكسيد الكربون ، الإنسان في زفيره يصدر ثاني أوكسيد الكربون ، ثاني أوكسيد الكربون الغاز الأول للنباتات ، النبات يأخذ منك ثاني أوكسيد الكربون ويعطيك الأوكسجين ، من جعل هذا التوازن في الأرض ؟ من ؟ .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

12 – وماذا عن المشيمة ؟

ما هي المشيمة ؟ قرص لحم ، يقوم بأعمال يعجز عنها الأطباء ، تجتمع في المشيمة دورة دم الأم ، ودورة دم الجنين ، وكل دم له زمرة وأنت لو أعطيت إنساناً دماً من غير زمرته لمات فوراً بما يسمى انحلال الدم ، فكيف يجتمع دم الأم وله زمرة مع دم الجنين وله زمرة في قرص لحمي هو المشيمة ؟ لأن بينهما غشاء ، هذا الغشاء سماه الأطباء الغشاء العاقل ، يقوم بأعمال العقل لا يصدقها ، الغشاء العاقل يأخذ الأوكسجين من دم الأم يطرحه في دم الجنين ، قام مقام جهاز التنفس ، وليس في الرحم تنفس ، يأخذ السكر من دم الأم ، ويطرحه في دم الجنين ، صار بحاجة إلى أنسولين ، صار للغشاء العاقل جهاز هضم وجهاز تنفس ، الآن يأخذ الأنسولين من البنكرياس فيطرحه في دم الجنين ، بنكرياس في الغشاء العاقل ، الآن صار هناك أوكسجين وسكر وأنسولين تحترق ، فتتولد طاقة عند الجنين فيأخذ الحرارة ، الآن الغشاء العاقل يمنع ـ هو حارس مرور ـ أيّ مواد سامة من دم الأم إلى دم الجنين ، حجر صحي ، الآن ينقل الجهاز العاقل كل عوامل مناعة الأم إلى دم جنينها ، فكل التحصينات

التي تتمتع بها الأم تنتقل إلى الجنين ، المناعة التي تكتسبها الأم من أمراض أصيبت بها أو من لقاحات تلقتها المحصلة من في مناعة ضد مئات الأمراض ، عوامل المناعة ينقلها الغشاء العاقل إلى الجنين ، يد من ؟ فعل مَن ؟ علم مَن ؟ حكمة مَن ؟

الآن الغشاء العاقل يعلم ، وليس على وجه الأرض إنسان يمكن أن يعلم كم يحتاج هذا الجنين من السكر ، والأوكسجين ، والمواد البروتينية ، والمواد الشحمية ، والدسمة والمواد المعدنية ، وأشباه المعادن ، والفيتامينات ، يعلم هذا الغشاء العاقل ما يحتاجه الجنين .

الآن ينفذ هذه الحاجة ، يأخذ هذه المواد من دم الأم يطرحها في دم الجنين ، فصار الغشاء العاقل جهاز هضم بأكمله ، قدرة من ؟

الآن الجنين قد يحتاج إلى مادة لا تأكلها أمه ، من الذي أوحى إلى الأم أن تشتهي طعاماً معيناً ؟ شهوة الأم لطعام في أثناء الحمل هي تعبير عن حاجة جنينها إلى مواد هذا الطعام ، قدرة من ؟ .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

13 – ماذا تعلم عن الولادة ؟

والولادة شيء بالغ التعقيد ، الولادة أوامر هرمونية تجعل عظم الحوض في المرأة يتباعد ، من أمر الرحم أن تكون تقلصاته لطيفة متنامية حتى لا يموت الجنين .

ومن أمر الرحم بعد الولادة أن ينقبض انقباضاً شديداً حتى وكأنه صخرة لإغلاق عشرات ألوف الأوعية المقطوعة .

من جعل الأم الحامل تختزن كمية دم استثنائية تكافئ الدم الذي تخسره في الولادة تقدير من ؟ .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

إخواننا الكرام ، والله لو أمضينا أعمارنا كلها معرفة خصائص خلق الإنسان لما كفت والله .

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

14 – هل تعلم شيئًا عن السائل الأمينوسي ؟!!

هذه الجمجمة من صممها فيها مفاصل ثابتة ؟ أي ضربة يتلقاها الطفل أو وقع على الأرض ، هذه المفاصل الثابتة على شكل خطوط منكسرة متداخلة هذه تمتص الصدمة فتبقى الجمجمة سليمة ، قدرة من ؟

من جعل سائلاً بين الجمجمة وبين الدماغ ؟ هذا السائل يوزع الصدمة على كامل مساحة الدماغ ، والمركبات الفضائية قلدت هذا النظام ، الدماغ ضمن سائل .

من جعل في الرحم سائل الأمينوسي في غشاء يغشى الطفل ، وغشاء ثان وغشاء ثالث ، قال الله عز وجل :

(فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)

(سورة الزمر الآية : 6)

بين الذي يلي الطفل هذا الغشاء ممتلئ بسائل اسمه السائل الأمينوسي ، هذا السائل يغذي الجنين ، ويسهل حركته ، وهو دافئ في الشتاء ، تدفئة مركزية ، هذا السائل يسهل الحركة ، ويغذي الجنين ، ثم يعقم الجنين ، مادة معقمة ، ومادة مسهلة ، مثل الزيت تماماً ومادة مغذية ، ثم هي تعقم المجرى عند الولادة ، تصميم من ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

15 – قد جاءك عنصر الحياة ، إنه الماء ، فما علمُك به ؟

أيها الإخوة ، الماء ، في هذا الماء خاصة ، لولا هذه الخاصة لما كان هذا الدرس ، ولما كانت آسيا ، ولما كان على وجه الأرض كائن حي هي الخاصة ، هذا الماء بدرجة زائد أربع تنعكس آليته من الانكماش إلى التمدد ، لذلك تتجمد البحار فتنكمش فتزداد كثافتها ، فتغوص في أعماق البحار ، بعد حين تتجمد البحار كلها ينعدم التبخر ، تنعدم المطر ، يموت النبات ، يموت الحيوان ، يموت الإنسان ، لولا أن الماء في الدرجة زائد أربع تنعكس آليته من الانكماش إلى التمدد لما كانت حياة على وجه الأرض قدرة من ؟ علم من ؟ حكمة من ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

16 – ما علاقتك بالشمس ؟

أيها الإخوة ، هذه الشمس مصدر حرارة ، مصدر تعقيم ، هذه الشمس مصدر أساسي في حياة الإنسان.

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت الآية : 37)

لذلك أيها الإخوة ، يقول الله عز وجل :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

17 – كيف تحفظ المعلومات ؟

من أعطاك ذاكرة ؟ لولا هذه الذاكرة تحفظ المعلومات الدقيقة .

بالمناسبة أيها الإخوة ، ما من خليفة في الجسم البشري إلا ولها عمر ، أقصر عمر خلية الأمعاء الدقيقة، عمر الخلية 48 ساعة ، كل 48 ساعة تتبدل خلايا الأمعاء الدقيقة ، تتبدل تبدلا كاملا ، وأقصر عمر للخلايا خمس سنوات ، فكل شيء بجسمك بعد خمس سنوات يتبدل ، عدا الدماغ ، لو تبدل الدماغ ، الأخ ماذا يعمل ؟ والله كنت طبيبًا ونسيت معلوماتي كلها ، لو أن خلايا الدماغ تتبدل فقدت كل خبراتك ، من الذي قرر أن خلايا الدماغ لا تتبدل ؟ الله جل جلاله ، القلب والدماغ لا يتبدل .

مَن مكنك ؟ من أعطاك ذاكرة ، حجم الذاكرة بالدماغ لا يزيد على حبة العدس ، تحتوي سبعين مليار صورة ، في عمر ستين سنة ، من أعطاك هوية ؟ لك نبرة صوت خاصة ، لك رائحة جلد خاصة ، لك زمرة نسيجية خاصة ، لك قزحية خاصة ، لك نطفة خاصة ، ما في إنسان نطفته كنطفة إنسان آخر .

18 – وماذا عن رَّحم المرأة ؟

من جعل في المرأة جهازًا يستقبل هذه النطفة ، ويحفظ تركيبها عنده ، فإذا جاءت نطفة ثانية فهي من الزنى ، واحتمال أن تصاب المرأة بسرطان الرحم قائم ، ولو توفي الزوج من جعل هذا الجهاز يقبل نطفة جديدة بعد أربعة أشهر ؟ هذا تصميم من ؟

أيها الإخوة ،

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

19 – جهاز التعرُّق :

مكنك ، من جعل الجلد يتعرق ؟ جهاز تكييف وتبريد ، يتعرق في حر الجو ، فيبخر العرق ، ويأخذ معه الحرارة ، في عندك مئات ملايين الغدد العرقية ، التعرق جهاز تبريد كامل ، تصميم من ؟ .

تستنشق الهواء من الأنف ، الأنف فيه سطوح متداخلة ، يمر الهواء ، في أثناء المرور في أيام الشتاء الهواء درجته صفر ، ينتقل من صفر إلى 38 حينما يدخل في هذه السطوح المتداخلة ، وفيها الأوعية

الدموية في هذا المكان ، فيها عضلات موسعة ، في البرد يحمر أنف الإنسان ، وهذا يعني أن في الأوعية عضلات تتوسع ، تأتي كمية دم حارة تسخن الهواء الداخل للداخل ، من جعل السطوح فيها مادة مخاطية ؟ حتى إذا تعلقت ذرات تصفيها ؟ من جعل في الأنف شعيرات ؟ حتى إذا كان ذرة الغبار ماشية في الفراغ تلتقطها ، هذا تصميم من ؟ تسخين ولصق ، مادة لاصقة للمواد الضارة ، ثم مواد لاقطة ، وشعيرات بالأنف تصميم من ؟ الله جل جلاله .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ)

20 – العمل الآلي :

أعطيناكم ذاكرة ، ثم إن الإنسان لما يألف عملا ينتقل العمل إلى القيادة الآلية ، فيمكنك كل يوم أن تنتقل من عملك إلى بيتك ، تقود مركبتك قيادة آلية ، وتقوم بعملية معقدة ، وأنت تحاكي إنسان ، تدير معه حديث مهم ، أكثر أعمالك اليومية تنتقل لمركز القيادة الآلية ، تقوم بها من دون تفكير .

أحيانا يجعل الطيار نظام الطائرة بقيادة آلية ، فيجلس مع الركاب ، فيخاف الركاب أحياناً ، والله عز وجل جعل لك مئات الأعمال تقوم بها آلياً دون أن تشعر .

أحياناً إنسان بيده دخينة مشتعلة فتمس يدك ، فترفع يدك هكذا ، من صمم الفعل المنعكس لما تشعر اليد بالحرارة ، الشعور بالحرارة لا يصل إلى الدماغ حتى يقرر ، تكون اليد قد احترقت إلى حين أن يؤخذ أمر من النخاع الشوكي مباشرة ، هذه اسمه الفعل المنعكس .

21 – منعكس المص عند الطفل :

الطفل ولد الآن مثلا ، وعنده منعكس ، لو لم يكن هذا المنعكس لما كان إنسان على وجه الأرض ، إنه منعكس المص ، الآن ولد ، وفي أثناء تنظيفه دون أن تشعر الممرضة تصل يدها إلى شفته فيمصها مباشرة ، من علّمه يمص ، ويحكم شفتيه على حلمة ثدي أمه ، ويسحب هواء ، هل ثمة قوة في الأرض تعلمه ذلك ؟ لولا هذا المنعكس لما كانت حياة ، مَن علّمه آلية معقدة في مص الحليب ؟ إنه الله جل جلاله .

22 – ثقب البوتال في القلب :

مَن جعل بين الأذينين ثقبا اسمه بوتال ، الدم ينتقل من أذين إلى أذين ، ولا هواء في الرحم ، إلى أن يولد تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب ، فينتقل الدم إلى الرئتين ، هذه يد من ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ)

والله أيها الإخوة ، جسمك فقط لو تفكرت في دقائقه لوجدتَ العجب العجاب .

23 – هل تعلم ما في شعرك أيها الإنسان ؟

في رأس الإنسان 300 ألف شعرة ، بكل شعرة وريد ، وشريان ، وعضلة ، وعصب ، وغدة دهنية وغدة صبغية ، مَن جعل الرجل يفقد شعره أحياناً ؟ لكن المرأة لو تفقد شعرها كلياً لكانت طامة كبرى .

24 – كيف ينجب الرجل ولو كان في التسعين ؟

مَن جعل الرجل ينجب إلى التسعين ؟ أما المرأة في عندها بيوض محدودة تنتهي بسن اليأس ، لو واحدة بالتسعين حاملة مثلاً ، تصور واحدة حاملة بالتسعين ، من صمم حملَ المرأة محدودًا ؟ بالـ40 ـ بالـ45 ـ ، والرجل ينجب ولدًا ، وهو في التسعين ، هذا تصميم من ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

والله أيها الإخوة ، أمامكم آيات تدل على عظمة الله عز وجل لا تعد ولا تحصى ، من جسمك :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

25 – كيف تنتقل البويضة ؟

تنتقل البويضة من المبيض إلى الرحم عن طريق قناة اسمها قناة فالوب ، هذه البويضة كرة لا أرجلَ لها ، كيف تنتقل ؟ كيف تمشي ؟ بقناة فالوب ، التي فيها أهداب صغيرة تتحرك ، هذه الحركة تنقلها من مكان إلى آخر ، لولا هذه الأهداب لما كان إنسان على وجه الأرض ، بأهداب في جدر قناة فالوب تنقل البويضة من المبيض إلى الرحم ، والإنسان في اللقاء الزوجي يخرج منه من 250 مليون حوين لـ400 مليون ، وتحتاج البويضة إلى حوين واحد ، هذا تصميم من ؟

أيها الإخوة ، جسمك وحده يمكن أن تخشع لله ، يمكن أن تخر ساجداً لله ، جسمك وحده .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

26 – جهاز التوازن :

إنسان منتصب القامة ، لأن فيه جهاز توازن فوق الأذنين ، وهو جهاز التوازن معقد جداً ، ثلاث أقواس فيها سائل ، وأهداب ، لما الإنسان يميل السائل يبقى بشكل أفقي فيمس الأهداب ، فالإنسان يعلم

أنه مال ، ولولا قنوات التوازن التي لا تملكها دراجة في الأرض لما كان إنسان يمشي على الأرض ، فلا تقف مائلا ، ولا تستطيع ذاك ، لأنك بغير توازن ، ومساحة القدمين لا تكفي لأن يبقى قائماً ، ما هذه الأجهزة المعقدة ؟

27 – جهاز حساب تفاضل الأصوات في الأذن :

أنت تمشي في الطريق ، فسمعت بوق سيارة ، أنت تملك جهازا بالغ التعقيد يحسب تفاضل وصول الصوتين للأذنين ، والتفاضل بينهما واحد على 1620 جزءا من الثانية ، يكتشف هذا الجهاز أن المركبة من على اليمين ، فيعطيك أمرا لتتحرك نحو اليسار .

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ

1 – هل تعلم أن هناك أسبابًا كثيرة يعيش من ورائها الإنسان ؟!

كم من إنسان يعيش بسبب الحرّ في الأرض ؟ التكييف ، والمرطبات ، معمل الثلوج ، المكيفات ، لو أردت أن تعدد الحِرف التي يعيش منها الملايين بسبب الحر ، الحر أحد أسباب المعيشة ، فهناك إنسان مهندس تكييف ، تأتي موجة حر فتباع مكيفات بعدد كبير جداً ، هذا مهندس تكييف ، والتكييف يحتاج إلى صيانة ، ويحتاج إلى أدوات ثقب ، ويحتاج إلى موظفين ، فكم من إنسان يعمل في التكييف ، أو كم من إنسان يعمل في الأرض بسبب الحر فقط ؟

كم من إنسان يعمل في الأرض بسبب البرد ؟ المدافئ ، والوقود السائل ، والتدفئة المركزية ، الثياب الصوفية ، والمعاطف الثقيلة والألبسة الداخلية الصوفية ، كم من إنسان يعيش في الأرض بسبب البرد .

كم من إنسان يعيش بالأرض بسبب طول الشعر .

كم من إنسان يعيش في الأرض بسبب المرض ، كم من طبيب في الأرض ؟ كم من مستشفى ؟ كم من دواء ؟ كم هي كليات طب ؟ كم جامعة ؟ كم من كتاب مؤلف ؟ معنى :

(مَعَايِشَ)

أيْ أسباب للرزق .

تأتي حشرة فتبيد محصولا بأكمله ، كم مِن إنسان يعيش على وجود حشرات زراعية ؟ مهندس زراعي، مبيدات ، مضخات ، تجد أمما تعيش على حشرة .

لو أردت أن تعدد المصالح ، والمهن ، والحرف ، والاختصاصات التي يعيش منها الإنسان لما استطعت إحصاءها .

جعلك تتقن عملا ، والإتقان يتنامى ، لأن الدماغ ثابت ، والخبرات تتراكم فيه .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

ألا تشكرون ؟

أيها الإخوة ، ضَعف البصر : كم من إنسان يعيش على النظارات في الأرض ؟

ضعف السمع : كم من إنسان يعيش على تقوية السمع ؟

كسر العظام : كم من إنسان يعيش على تجبير العظام ؟

إنّ جسم الإنسان أحد أسباب وجود آلاف المهن والحرف لصيانتها .

أنت تحتاج إلى مأوى ، ويقال إن هناك أكثر من مئة حرفة متعلقة بالبناء ، لأنك لا يمكنك أنْ تنام في العراء ، تبرد ، تحتاج إلى مأوى ، المهندسون ، مواد البناء ، والتخطيط شيء لا ينتهي ، الأبنية ، المستشفيات ، الطفل لا يعلم شيئاً .

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً)

(سورة النحل الآية : 78)

كم من إنسان يعيش بالتعليم في الأرض ، التعليم ، والمدارس ، والمناهج ، والكتب والمفتشون ، وتطوير المناهج ، والبعثات ، والجامعات ، لأن الطفل لا يعلم شيئاً ، بينما معظم الحيوانات تعرف كل شيء منذ الولادة ، لأن الإنسان مكرم عند الله ، جعل له طفولة مديدة ، وجعل الأب والأم يتولون تربيته.

كم مِن إنسان عايش على الحر ، على البرد ، على المرض ، على الصحة ، على الجهل .

(لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

يأتي الجيش أولاً ، ثانياً : التربية والتعليم ، أكبر وزارة فيها موظفون التربية والتعليم ، يأتي بعد ذلك الجيش .

العدوان : الإنسان أحيانا يعتدي ، كم من إنسان يعيش على صد العدوان ؟ معامل الأسلحة كما ترون كل يوم ، هذا معنى كلمة معايش :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

وجوب شكر اللهِ على النعم :

ألا تشكر ، الله عز وجل يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

أنت حينما تشكر ، وحينما تؤمن فقد حققت الهدف من وجودك ، لماذا ؟ لأن هذا الكون مسخر لك تسخيرين ، تسخير تعريف وتسخير تكريم ، رد فعل التعريف أن تؤمن ، ورد فعل التكريم أن تشكر ، فإذا آمنت ، وشكرت فقد حققت الهدف من وجودك ، لك رسالة أن تؤمن ، وأن تشكر ، لأن الله سبحانه وتعالى منحك نعمة الإيجاد ، ومنحك نعمة الإمداد ، ومنحك نعمة الهدى والرشاد .

فلذلك أيها الإخوة ،

(قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

أنت نعمة من نعم الله ، وجودك نعمة منحك الإيجاد ، منحك الإمداد ، منحك الهدى والرشاد ، لو أن العناصر بالأرض تنصهر بدرجة واحدة ، ما الذي يحصل ؟ الكون كله إما غاز أو سائل أو صلب ، وهناك خشب وحديد ، وماء ، وهواء تستنشقه ، ومادة لزجة ، ومادة لينة ، ومادة قاسية ، وهناك متانة، وقساوة .

أنت تضطر أحياناً أن تجعل سورًا على رصيف حجري ، كيف يتعامل الحديد مع الحجر ؟ هناك معدن اسمه الرصاص ، هذا المعدن له خاصة عجيبة ، بالتبريد يتمدد ، فتحفر حفرة في قطعة الحجر ، يوضع الحديد ويصبّ الرصاص ، يتمدد بالتبريد ، أصبحت قطعة الحديد مع قطعة الحجر كتلة واحدة .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

استنباطات من لفظ معايش :

1 – الأصلُ تداولُ الكتلة النقدية بين الناس :

أيها الإخوة الكرام ، الحقيقة أن الله عز وجل أراد لهذه الكتلة النقدية أن تكون متداولة بين أيدي الأمة ، فجعل معايش ، أنت عندك أرض أتت آفة زراعية ، تحتاج لمهندس وإلى دواء ، وإلى آلات رش ، فكأن الكتلة النقدية ممنوع تحتكرها وحدك ، فكل إنسان منتج يجب أن تكون نفقاته من الثلث إلى النصف من أرباحه ، إذاً : توزعت هذه الثروة بين أكبر شريحة في المجتمع ، هذه المعايش .

2 – تمكين الناس من صنائعهم وحِرفهم :

كلمة معايش دقيقة جداً ، كل هؤلاء الناس ، كل واحد منهم مكّنه الله عز وجل من إتقان صنعة ، أحيانا تجد طيارا شابا صغيرا ، يقود طائرة عملاقةً مِن طابقين فيها 600 راكب في بالليل ، هل تستطيع أن تحلّ محله ؟ أو تجلس بمقعد القيادة ، وتطير من بلد إلى بلد بالليل ، وتهبط بالمطار بسلام ؟ هذه خبرات عالية جداً ، أن طيارا يقود طيارة .

تجد جراح قلب يشق الصدر و هو مرتاح ، يأتي بصاروخ فيقصّ العظم ، يصل إلى القلب فيبرده ، ويوقفه عن النبض ، يوصل الدم بقلب كهربائي ، يعمل بكفاءة عالية جداً ، يفتح البطين فيصل إلى الدسام ، يضع دساما جديدا ، والعملية تستغرق سبع ساعات ، بعد ذلك يحدث صعقة للقلب فيعمل من جديد !!!

كل أعمال الجراحين بالقلب ، لو أن القلب سكنته ولن يعمل مرة أخرى لم توجد عملية قلب إطلاقاً ، لو كان التصميم أن القلب لو أوقفته عن النبض لا يعمل مرة ثانية لما كان هناك عمل جراحي إطلاقاً ، أما القلب فهو مصمم بالتبريد ليسكن ويكف عن النبض ، ويتحول الدم إلى قلب صناعي ، لما تنتهي تحدِث له صعقة فيعمل ، إذا لم يعمل فقل : عظّم الله أجركم .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

حدثني طبيب قلب قال لي : هناك شريان في القلب من أمتن الشرايين ليس له وظيفة ، إلا أنه قطعة غيار عند العملية الجراحية ، يأخذونه ويضعونه مكان الشريان المسدود ، هذا تصميم مَن ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

تجد هذا جراح قلب ، هذا طبيب هضمية ، هذا مهندس معماري ، هذا مهندس بترول ، هذا يكتشف البترول ، وفي بقاع البحر ينزلون اسطوانات داخلها اسطوانات ، يصبونها بإسمنت فيتفاعل مع الماء ويجمد وهو بالماء ، يصبح هناك أنبوب ، فيأتون بمنصة كبيرة ، والله مثل الشياطين ، طبعاً هناك آبار بترولية في قاع المحيطات ، منصة كبيرة ، ومدينة ، وطائرة هليوكوبتر تهبط عليها ، ومكاتب ، بالبحر.

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

الآن تركب طائرة فيها 400 راكب على ارتفاع 40 ألف قدم ، وأنت قاعد مرتاح ، تكييف ، مشروبات ، شاي وقهوة ، وطعام ساخن ومجلات ، وترى الفضائيات كلها أمامك ، ما هذا ! .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

خاتمة :

الحديث عن المعايش حديث لا ينتهي ، والحديث عن التمكين حديث لا ينتهي ، أنت ممكّن في الأرض، وأنت هيأ الله لك أن تعيش عن طريق حرفة تحترفها ، ولولا أن الإنسان يحتاج إلى أن يأكل ويشرب لما رأيت على وجه الأرض شيئاً .

إذاً : أيها الإخوة ، نلخص ما في هذا الدرس بقوله تعالى في الآية العاشرة :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

إذاً : أنت المخلوق الأول ، وقد مكانك الله في الأرض ، وجعل لك سبلاً كي تكتسب رزقك ، وفي هذه السبل تُمتحن ، تصدق أم تكذب ؟ تنصح أم تغش ، ترحم أو تقسو ، أنت من خلال عملك تمتحن .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(06-60): تفسير الآية 11، قصة الخلق وسبب وجود الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-01-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الحادية عشرة ، وهي قوله تعالى :

معالجة القرآن الكريم لمسألة الخَلق :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

1 – كل سورة تعالج قضية الخَلق من زاوية محددة :

أيها الإخوة الكرام ، هذه الآية والتي تليها تعالج مسألة الخَلق ، وقد تقدمت هذه المسألة في سورة البقرة، وعولجت في سبعة مواضع من القرآن الكريم ، في سورة البقرة والأعراف ، والحج ، والإسراء ، والكهف ، وطه ، وص ، ولكن في كل سورة تعالج هذه المسألة من زاوية ، هناك من يتوهم أن في القرآن تكراراً ، والحقيقة لو تتبعت الموضوعات المتكرر في القرآن الكريم لوجدت أن كل رواية في كل سورة لها زاوية خاصة ، فهذا من إعجاز القرآن الكريم ، وفوق ذلك هناك قضايا أساسية جداً في العقيدة ، القرآن الكريم من أسلوبه الحكيم أنه يأتي بها في أماكن كثيرة كي تترسخ .

لا يعقل أن يقول الأب لابنه في كبر عمره : اجتهد مرة واحدة ، هذا الكلام يقوله له كل يوم ، وفي كل مناسبة ، وعقب كل حادثة ، وإبان كل تصرف ، يا بني انتبه ، اجتهد .

2 – تكرار القصص في القرآن لفائدة بلاغية :

أولاً : التكرار في القرآن الكريم له تفسير بلاغي ، أن كل رواية أتت على الموضوع من زاوية ، وبمعنى آخر أن التكرار من مهمته القصوى البلاغية أن يؤكد المعنى الذي هو أساسي .

الموضوعات الأساسية والموضوعات الثانوية :الموضوعات الأساسية والموضوعات الثانوية :

كلكم يعلم أيها الإخوة أن في حياتنا موضوعات أساسية ، وهناك موضوعات ثانوية ، بتعبير آخر هناك موضوع مصيري ، فالإنسان مثلاً صحته موضوع مصيري ، لأن خللاً في قلبه ينهي حياته ، الصحة موضوع خطير ، لأنه قد ينهي حياة الإنسان ، الإيمان موضوع خطير ، قد ينهي سعادته .

فالموضوعات الخطيرة التي لها أثر مستقبلي ، أو الموضوعات المصيرية ، هذه موضوعات يعتني بها القرآن كثيراً ، لذلك في حياتنا موضوعات برأي الفقهاء فرائض ، تتوقف سعادتنا على تحقيقها ، بل تتوقف سعادتنا وسلامتنا على تحقيقها ، إذاً هي فرائض ، وهناك موضوعات تحت باب المحرمات ، هذه سبب شقائنا وهلاكنا في الدنيا والآخرة ، إذاً على طرفي الأحكام الفرائض والمحرمات ، بينهما في الوسط المباحات ، وهو موضوع حيادي ، طريقة جلوسك في البيت ، على الأرض ، على الكرسي ، على فراش معين ، ألوان ثيابك ، هناك ملايين الموضوعات حيادية ، ليس لها أثر إيجابي ولا سلبي في إيمانك .

لذلك الأنبياء والمرسلون عليهم صلوات رب العالمين الموضوعات التي لها أثر إيجابي أو سلبي في علاقتك بالله عز وجل جاء ذكروها بشكل واضح ، والأشياء التي سُكت عنها هي الأشياء التي ليس لها أثر إيجابي ولا سلبي في حياتك الإيمانية .

لذلك الأنبياء ما من شيء يقرب إلى الله عز وجل إلا وأتوا على ذكره ، وما من شيء يبعد عن الله عز وجل إلا أتوا على ذكره ، والذي أُغفل ذكره هناك حكمة من ذكره لا تقل عن حكمة التي ذكره الله عز وجل ، وهذا معنى قوله تعالى :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

(سورة المائدة الآية : 3)

الإتمام عددي ، والإكمال نوعي ، أي أن مجموع القضايا التي عالجها القرآن الكريم والسنة المطهرة تامة عدداً ، وأن طريقة المعالجة التي عالجها القرآن الكريم في القضايا التي عرضها كاملة نوعاً ، فهذا الدين توقيفي ، لا يضاف عليه ، ولا يحذف منه ، لأنه من عند الخالق ، الخالق الذات الكاملة ، من عند الحكمة المطلقة ، والرحمة المطلقة ، والعلم المطلق ، والعدل المطلق .

إذاً : الدين لا يضاف عليه ، ولا يحذف منه ، وهو عند بعض المشككين تراث ، الدين ليس تراثاً ، الدين وحي ، وحي من السماء والمعصوم بينه ، وحي من عند الله ، والنبي الكريم بيّنَ دقائق هذا الوحي ، أما الحضارة والثقافة والتراث فهذه أشياء أرضية ، أما أن يوصف الدين بأنه تراث فلا ، الدين وحي ، ووحي السماء هو خطاب السماء للأرض ، هذا الخطاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،

لكن الذي يقول : لا بد من تجديد الدين ، الدين لا يجدد ، الدين توقيفي ، لعل الخطاب الديني يجدد ، الخطاب ، الخطاب الدعوي يجدد ، وإذا أصررنا على أن هناك تجديد بالدين فهو كما يلي :

أن ننزع عن الدين كلما علق به من ما ليس منه .

لذلك يقولون : الأشياء الأصل فيها الإباحية ، ولا يحرم شيء إلا بالدليل القطعي الثبوت والدلالة ، بينما العبادات والعقائد الأصل فيها الحظر ، ولا يضاف على العقائد والعبادات أشياء إلا بالدليل قطعي الثبوت والدلالة .

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[أخرجه الحاكم عن أنس ، السجزي عن أبي هريرة]

((يا ابن عمر دينك ، دينك ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[عن ابن عمر]

حقيقة معترف بها عند الجميع : الله هو الخالق :

أيها الإخوة الكرام ، قصة الخَلق وردت في القرآن الكريم ، في سور عديدة وفي مواضع عديدة ، ومن زوايا عديدة ، ولكن يعنينا من هذه القصة أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 21)

الجهة الوحيدة المستحقة للعبادة هي الجهة الخبيرة بالخلق كلِّهم :

من هي الجهة الوحيدة في الكون التي تستحق العبادة ؟ إنها الجهة الخبيرة ، قال تعالى :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

فالإنسان حينما يتوجه إلى الله يكون عاقلاً ، أما إذا توجه إلى غير الله يكون غير عاقل لأنه قد قيل : أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً .

لكن أنت في حياتك اليومية إذا اقتنيت آلة بالغة التعقيد ، غالية الثمن ، عظيمة النفع ، وأصابها عطب أو عطل ، لا يمكن أن تذهب إلى من تحبه ، تذهب إلى من هو الخبير في إصلاحها ، وفي صيانتها ، وفي معرفة أسباب سلامتها ، وحسن مردودها .

إذاً الله عز وجل بخاطبنا ويقول :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ)

من معاني هذه الكلمة أنه ينبغي أن تستمعوا إلى بيان الله عز وجل ، ينبغي أن تنصاعوا لأمره ، ينبغي أن تطبقوا تعليماته ، لأنها تعليمات الخبير ، تعليمات الخالق ، تعليمات الرب ، تعليمات أسباب سلامتنا وسعادتنا .

(ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ)

بعضهم يقول : المخلوقات كلها خلقت في عالم الذر ، استناداً لقوله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

هذا عالم الذر ، النفوس مجردة من الصور ، في عالم الذر بعض ما في هذا العالم قبل حمل الأمانة ، وبعض من في هذا العالم أشفق من حمل هذه الأمانة ، لأننا بشر لأننا من صنف الإنسان نحن حتماً قبلنا حمل الأمانة .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ)

في الحياة الدنيا هي عالم الصور ، فالحصان أخذ صورة ، والشمس لها صورة ، والقمر له صورة ، والإنسان له صورة ، وأنواع النباتات لها صورة ، والحيوانات لها صور .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ)

في عالم الذر ، عالم النفوس المجردة ، وفي عام الدنيا علم الصور .

الأمانة والإنسان :

أيها الإخوة الكرام ، الإنسان قبل حمل الأمانة ، ما الأمانة ؟ الأمانة في رأي العلماء ، بل في رأي جمهور العلماء نفسك التي بين جنبيك ، هذه أمرها بيدك ، مصيرها إليك كُلفت حملها ، أي كُلفت أن تعرفها بربها ، كُلفت أن تحملها على طاعته ، كُلفت أن تزكيها كُلفت أن تأهلها للجنة ، كُلفت أن تسمو بها ، لذلك الذي يؤكد هذا المعنى قال تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

(قَدْ أَفْلَحَ)

الفلاح هو النجاح ، هو التفوق ، هو الفلاح ، هو تحقيق الهدف ، والإنسان يحب النجاح ، والناجح سعيد جداً ، الناجح هو الذي يحقق الهدف .

متى يتحقق هدفُ الإنسان ؟

من هنا يمكن أن أقول : متى تحقق الهدف ؟ الجواب إذا صح عملك ، ومتى يصح عملك؟ إذا عرفت سبب وجودك في الدنيا ، كلام دقيق ، الآن الناس في ضياع ، هناك من يتوهم أنه يعيش ليأكل ، أو يعيش ليستمتع ، أو يأكل ليعيش ، أو يعيش ليعرف الله عز وجل ، اسأل نفسك هذا السؤال سؤال دقيق وخطير ، وسؤال فلسفي ، لماذا أنت في الدنيا ؟ يعني أنت سافرت إلى بلد وسألتنا ماذا أفعل ؟ نقول لك : سؤالك عجيب ، لماذا جئت لهذا البلد ؟ إن جئت طالب علم فالطريق

واضح إلى المعاهد والجامعات ، إن جئت تاجراً فالطريق واضح إلى المعامل والمؤسسات ، إن جئت سائحاً فالطريق واضح إلى المقاصف والمتنزهات ، فلا تصح حركتك في مكان ما إلا إذا علمت لماذا أنت في هذا المكان بالضبط ، هذا معنى فرعي .

حينما تعلم لماذا أنت في الدنيا أن تعرف الله ، أن تستقيم على أمره ، أن تتقرب إليه بالأعمال الصالحة ، الآن ما دام الهدف واضح جداً تختار له ملايين الوسائل التي تعينك على بلوغ الهدف ، ولأضرب على هذا مثلاً :

أنت في باريس تحمل شهادة ثانوية ، وقد أرسلت لبعثة لنيل الدكتوراه ، هذا الهدف ، كل حركاتك ، وسكناتك ، ونشاطاتك ، واهتماماتك متعلقة بهذا الهدف ، الآن أنت مضطر أن تستأجر بيت ، الهدف وهو الدراسة يُحتم عليك أن تختار بيتاً إلى جانب الجامعة يوفر لك المال والجهد والوقت ، إذاً : اختيار البيت متعلق بالهدف ، الآن تشتري مجلة متصلة باختصاصك ، من أجل أن تحقق الهدف ، تصاحب طالباً يتقن اللغة المحلية ، كي يعينك على الحديث بهذه اللغة ، تأكل طعاماً يعينك على الدراسة ، تحتاج إلى دخل تعمل عملاً بوقت قصير جداً حتى يتيح لك هذا العمل وقتاً كافياً للدراسة ، كلامي دقيق جداً .

حينما تعرف لماذا أنت في الدنيا ، من أجل أن تعرف الله ، ومن أجل أن تستقيم على أمره ، ومن أجل أن تتقرب إليه ، ومن أجل أن يكون إعدادك لنفسك تمهيداً وثمناً لدخول الجنة .

فيا أيها الإخوة ، ولا أبالغ إذا قلت : إن الذين يعرفون أهدافهم في الحياة الدنيا لا يزيدون بحسب الإحصاءات الرسمية على 3 % ممن يعرف هدفه ، الآن يختار آلاف الوسائل لتحقيق الهدف ، أما الذي لا يعرف هدفه فهذا هو الإمعة ، والإمعة ؛ هو مع الناس ، إن أحسن الناس ، ومع الناس إن أساءوا ، هو تابع لصرعات الأزياء ، تابع للمفاهيم السائدة ، تابع للكلام المطروح ، تابع للإعلام ، تابع لكل مؤثرات البيئة ، هذا على هامش الحياة .

الحكمة من خلق البشر هي العبادة :

أما المؤمن حينما يعمل عقله ، ويقرأ كتاب ربه ، ويعرف سر وجوده ، فيكتشف أنه مخلوق للعبادة .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون ((56)

(سورة الذاريات)

وأن العبادة سر وجوده ، وأن الإنسان يرقى إلى أعلى مقام حينما يكون عبداً لله ، فلما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى قال تعالى :

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10))

(سورة النجم)

وحينما جاءته الرسالة ، وهي أعلى مهمة ينالها إنسان لقول النبي الكريم :

((سَلُوا اللّه لِي الوَسِيلَة ، فإنها مَنْزِلَة في الجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبادِ اللّه وأرْجُو أنْ أكُونَ أنا هُو))

[رواه مسلم عبد الله بن عمرو بن العاص]

هذا المقام هو العبودية :

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19))

(سورة الجن)

إذاً العبودية سر وجودنا ، وغاية وجودنا ، والعبودية خضوع لله خالص ، ومحبة لله خالصة ، وحرية خالصة ، وطاعة خالصة ، وعمل صالح خالص ، وتضحية خالصة فالعبودية علة وجودنا ، وغاية وجودنا ، قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون)

هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، فيها جانب معرفي ، وجانب سلوكي ، وجانب جمالي ، تعرفه فتطيعه ، فتسعد بقربه في الدنيا والآخرة ، في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، تعرفه فتعبده فتسلم ، وتسعد بقربه في الدنيا والآخرة .

العبادة بين المفهوم الضيق والمفهوم الواسع :

أيها الإخوة ، هذه العبادة ، لكن الذين يفهمون العبادة فهماً ضيقاً يتوهمونها صلاةً فقط ، وصياماً وحجاً وزكاة ، العبادة منهج كامل يغطي كل حياتك ، وكل أطوار حياتك ، وكل شؤون حياتك ، وكل اهتماماتك ، يبدأ من الفراش الزوجية ، إلى العلاقات الدولية ، أكاد أقول : المنهج التعبدي في القرآن الكريم وفي السنة فيه مئات ألوف الموضوعات .

مرة ثانية : من أخص خصوصياتك من فراش الزوجية ، وينتهي بأضخم العلاقات بين الأمم العلاقات الدولية ، هذه العبادة ، أما نصلي ، ونصوم ، ونحج ، وانتهى الأمر ، وبيوتنا كسب أموالنا ، إنفاق أموالنا ، علاقاتنا المالية ، والنسائية ، وأفراحنا ، وأتراحنا ، وسفرنا وفق المنهج العربي ، وعلى التقليد الغربي ، هذا هو ليس الإسلام .

فلذلك حينما طبقنا ظاهر الإسلام خسرنا قيمة الإسلام ، وخسرنا ثمار الإسلام وخسرنا وعود الواحد الديان .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

الله عز وجل كلفنا أن نعبده ، أو كلفنا حمل الأمانة .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

كلفنا حمل الأمانة ، والأمانة هي النفس البشرية .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

مِن مقومات حمل الأمانة :

الآن مع موضوع من لوازم هذا الموضوع ، ما كلفنا الله حمل الأمانة إلا وأعطانا مقوماتها ، ما مقومات حمل الأمانة ؟

1 - الكون :

أعطاك الكون ، الدليل :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

تسخير تعريف وتكريم ، الكون مسخر للإنسان ، وأنت أيها الإنسان علمت أو لم تعلم أكرم المخلوقات على الله ، أنت المخلوق الأول رتبة ، لأنك قبلت حمل الأمانة .

(سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

تسخير تعريف ، وتسخير تكريم ، تسخير التعريف يقتضي أن تؤمن به ، وتسخر التكريم يقتضي أن تشكره ، فإذا آمنت به وشكرته حققت الهدف من وجودك ، قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

فإذا شكرتم وآمنتم ، أو آمنتم وشكرتم فقد حققتم علة وجودكم ، وحققتم الغاية من وجودكم ، أما عامة الناس وهذا شيء مؤلم جداً فتغطيهم آية كريمة :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

متى يسعد الإنسانُ ؟

1 – السعادة والسلامة مطلبان أساسيان لجميع الخَلق :

موضوع ثان أيها الإخوة ، من لوازم هذا الموضوع ، متى يسعد الإنسان ؟ لأن السلامة والسعادة مطلبان أساسيان لكل الخلق ، على وجه الأرض ستة آلاف مليون ، أنا متأكد أنه ما منهم واحد إلا وهو يتمنى السلامة والسعادة .

2 – الشقاء سببُه الجهلُ :

فلماذا الشقاء ؟ قالوا : الشقاء بسبب الجهل ، والدليل أن علة وجود الناس في النار الجهل :

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

والجهل أعد أعداء الإنسان ، نحن كأمة من أعداءنا ؟ إياكم أن تظنوا أعداءنا هؤلاء الأعداء التقليديون ، الذين نصفهم بالغدر والبطش ، والغطرسة ، والتدمير ، والإبادة والإفساد ، والاستغلال ، نحن أعداء أنفسنا .أؤكد لكم مرة ثانية أن مصيرنا ليس بيدهم ، بيدنا .

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية : 19)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية : 11)

من شأن الأعداء أن يعتدوا ، من شأن الأعداء أن يستغلوا ، أن ينهبوا الثروات أن يفرقوا ، أن يشتتوا ، هذا شأنهم ، لكن قوتهم أتت من ضعفنا ، من جهلنا ، من تفرقنا .

3– السعادة تأتي م، تحقيق الهدف :

أيها الإخوة ، أضرب لكم مثلا بسيطا : أنت طالب جامعي في السنة الأخيرة وفي اختصاص جيد جداً ، عليك طلب بأهم مادة بالاختصاص ، وامتحانك بعد يومين ، ولك أصدقاء تحبهم حباً جماً ، أخذوك عنوة قبل الامتحان بيومين إلى الساحل ، ونزلت بأفخر فندق ، وتناولت أطيب الطعام ، واستمتعت بأجمل المناظر ، كل شروط السرور محققة ، أصدقاء تحبهم ، مكان جميل ، إطلالة جميلة ، طعام طيب ، لماذا تشعر بانقباض شديد ؟ لأن هذه الحركة لا تحقق هدفك ، لو جلست في غرفة قميئة ذات رطوبة عالية ، والإضاءة خافتة ، ومعك الكتاب المقرر ، وقرأته واستوعبته ، وشعرت أنك جاهز لأداء امتحان في هذه المادة يأتي شعور بالفرح لا يوصف ، وأنت في غرفة قميئة ذات رطوبة عالية والإضاءة خافتة، لا مناظر أبداً ، والجدران ليست مطلية ، أنت مسرور ، إذاً : سعادة تأتي من تحقيق الهدف في دليل آخر :

التاجر إذا كان له بيع كثيف ، وإقبال شديد على البضاعة ، يمضي 12 ساعة لا يجلس ، ولا يأكل ، وهو في نشوة السعادة ، إذا انعدم البيع ، وما إنسان يقول لك : عندك مال ، وقاعد على مقعد وثير ، ومشروبات ، وقهوة ، وشاي ، وصحف ، ومجلات ، وأصدقاء تشعر بانقباض شديد ، لأن هذا المحل

لا يحقق هدفه ، أما إذا حقق هدفه يغدو هذا المكان الضيق في سوق مزدحم ، في ظروف صعبة ، لا تدفئة ، ولا تكييف ، ولا الجلوس مريح ، ولا طعام ، وأنت في قمة السعادة .

لذلك نحن لا تصلح حركتنا في الحياة إلا إذا عرفنا سر وجودنا ، كما أنه لا نسعد إلا إذا جاءت حركتنا مطابقة لهدفنا .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

ولكن حينما كلفنا الله أن نحمل الأمانة أو أن نعبده ، فهما معنيان يصبان في خانة واحدة ، حينما كلفنا حمل الأمانة ، أو حينما كلفنا أن نعبده ، أعطانا المقومات ، أعطانا الكون كما قلت قبل قليل ، سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض ، تسخير تعريف وتكريم ، إذاً : التفكر في خلق السماوات والأرض أحد بنود العبادة .

2 ـ العقـل :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

الآن البند الثاني : أعطاك عقلاً ، العقل ميزان.

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7))

(سورة الرحمن)

هذا العقل إذا أعملته أعطاك النتائج ، تماماً : عندك بيت ثمنه خمسون مليونًا ، ودُفع لك ثمنه بالعملة الصعبة ، وفي الجيب الأيمن جهاز إلكتروني يكشف العملة المزورة ، وفي الجيب الأيسر فيها أرقام العملة المزورة ، في الجيب الأول جهاز إلكتروني ، وفي الثاني أرقام أوراق العملة المزورة ، وأنت قبضت ثمن هذا البيت بالعملة الصعبة ، لم تستخدم الجهاز الأول الإلكتروني ، ولم تدقق في أرقام العملة التي في بجيبك ، وكان المبلغ كله عملة مزورة ، من هو الخاسر ؟ أنت ، أنت السبب ، معك عقل باليمين ، ومعك منهج قرآني باليسار ، فلا عقلك استخدمت ، ولا القرآن الكريم استخدمت ، فشقي الإنسان .

الله عز وجل قال لك : افعل ولا تفعل ، تحب أنْ تحكم عقلك ، العقل ينطبق مع النقل ، لأن العقل مقياس أودعه الله فينا ، والنقل كلامه ، فمعك عقل لو أعملته بتجرد من دون انحياز ، من دون أسلوب تغطية ، تبرير ، تسويغ ، لهداك عقلك إلى الله عز وجل ، لأن الآيات التي تتحدث عن العقل ، وعن التفكر ، وعن العلم تقترب من ألف آية ، أعطاك القرآن فيه الحلال والحرام .

فلذلك الشقاء بسبب جهل الإنسان ، وعدم استخدام العقل والنقل معاً ، والعقل والنقل متطابقان والحمد لله.

3 ـ الفطرة :

أعطاك فطرة ، لو أنك لم تعمل عقلك كما أنه لم تقرأ كتابك ، أعطاك بنية نفسية جبلة ، فطرة تكشف لك الخطأ ذاتياً .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

((الحَلالَ بَيِّنٌ ، وَالحَرَامَ بَيِّنٌ))

[متفق عليه]

((والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس))

[أخرجه البخاري ، و مسلم والترمذي عن النواس بن سمعان]

هل هناك إنسان يغش الحليب أمام الشاري ؟ يقول له : لحظة لأصب عليه الماء ، مستحيل ، بالفطرة تعلم أن هذا العمل غير صحيح أبداً .

فلذلك أعطاك كوناً ، أعطاك عقلاً ، أعطاك فطرة .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا)

حينما تفجر أنها فجرت ، وألهمها حين تتقي أنها اتقت ،

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

4 ـ الشـهـوة :

الآن : أعطاك شهوة هي ثمن الجنة ، ما أودع الله بالإنسان الشهوات إلا ليرقى بها مرتين ، مرة صابراً، ومرة شاكراً إلى رب الأرض والسماوات ، هذا الميل نحو المال نحو المرأة ، نحو العلو في الأرض ، أودع فيك الشهوات ، قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية : 14)

أعطاك الشهوات لترقى بها ، وهي حيادية ، وما من شهوة أودعها الله فيك إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، فلا حرمان بالإسلام ، وما من شهوة أودعها الله فيك إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

لكن المحرمات ليست قيوداً لحريتك ، بل هي ضمان لسلامتك ، المحرمات تاماً كلوحة كتب عليها : حقل ألغام ممنوع التجاوز ، لا تشعر بحقد أبداً على من وضع اللوحة ، بل تشكره من أعماق أعماقك ، لأنه ضمن لك بهذه اللوحة سلامتك ، كما لو وضعت لوحة أمام تيار توتر عال : " ممنوع الاقتراب خطر الموت " ، اللوحة رحيمة ، اللوحة فيها علم ، فيها حكمة ، فيها رحمة ، فيها قيادة حكيمة للمواطنين ، ممنوع الاقتراب خطر الموت ، لذلك أودع فيك الشهوات لترقى بها صابراً ، أو شاكراً إلى رب الأرض والسماوات .

أعطاك كوناً سخره لك تسخير تعريف وتكريم ، رد فعل التعريف أن تؤمن ، ورد فعل التكريم أن تشكر، أعطاك عقلاً كي تتأكد به من صحة النقل ، وكي تفهم به النقل ، دون أن تلغي النقل بعقلك ، العقل ليس حكماً على النقل ، ولكن من تأكد من صحة النقل قبل النقل ولفهم النقل بعد النقل ، أعطاك الفطرة تكشف لك الخطأ ذاتياً .

الآن في أرقى الطائرات ما فيها عدادات أبداً ، فيها لوحات عاتمة ، إذا حدث خلل يظهر على الشاشة ، أن خللاً في المكان الفلاني .

وأنت عندك شاشة ، حينما تخطئ تشعر أنك تخطئ ، وحينما تصيب تشعر أن مصيب ، لذلك متوافقة توافق تاماً مع منهج الله عز وجل ، سواء عليك أأطعت أمر الله عز وجل أم استجبت لنداء الفطرة ، الأمر سيان ، لأن منهج الله متوافق تماماً مع فطرتك ، فأي شيء أمرك الله به نفسك تتوق إلى تطبيقه دون أن تشعر أعطاك كوناً ، وعقلاً ، وفطرة وشهوة .

5 ـ حـرية الاختيار :

أعطاك حرية ، أنت حر .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة الآية : 148)

ما لم تكن حراً لا يثمن عملك ، ما لم تكن حراً فلا يمكن أن ترقى إلى الله عز وجل ، أنت حر فيما كلفت به ، لكن الذي لست حراً فيه ما إن كنت ذكراً أو أنثى ، ومن أبوك وأمك ، وفي أي مكان ولدت ، وفي أي زمان ولدت ، هذه لمصلحتك ، ومحض خير لك ، وليس في إمكانك أبدع مما أعطاك .

إذاً : أعطاك حرية الاختيار ليثمن عملك ، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، أنت حر ، مخير ، وأية آية يُشم منها رائحة الجبر يجب أن تحملها على الآية المحكمة التي أصل في الاختيار .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

هذه الآية أصل في أنك مخير ، وأنه لا يقول بالجبر إلا مشرك ، لا يقول في الجبر فيما كلفنا إلا مشرك.

إذاً : أعطاك كوناً ، وعقلاً ، وفطرة ، أعطاك شهوة ، أعطاك اختياراً .

المنهج الإلهي :

وفضلاً عن كل ذلك أعطاك منهجاً ، لو أن الأمور التبست عليك ، هناك منهج ، وكتاب ، وسنة ، كتاب عقائد ، كتاب سيرة ، كتاب أحكام فقهية ، افعل ولا تفعل ، هذا المنهج قال عنه العلماء : الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، والشريعة عدل كلها ، والشريعة رحمة كلها ، والشريعة حكمة كلها ، والشريعة مصلحة كلها ، فأية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة ، ومن العدل إلى الجور ، ومن الحكمة إلى خلافها ، ليست من الشريعة ، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

إذاً : نحن قد خلقنا ربنا ، ولأنه خلقنا أمرنا أن نعبده .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

وقد ورد في كتاب مدارج السالكين لابن القين رحمه الله تعالى أثر قدسي :

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري))

[أخرجه الحكيم البيهقي عن أبي الدرداء]

((خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

أيها الإخوة الكرام ، الآية الكريمة :

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)

لأن جنس البشر أعلى صنف عند الله ، رُكب الملك من عقب بلا شهوة ، ورُكب الحيوان من شهوة بلا عقل ، ورُكب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهواته على عقله أصبح دون الحيوان .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7))

(سورة البينة)

إذاً :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(07-60): تفسير الآيات 11 – 13 ، تسلسل الإيمان بالله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-01-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثانية عشرة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

تذكير للفائدة والتقرير :

1 – مسألة الخَلق :

وفي الدرس السابق بينت لكم قصة الخلق بفضل الله عز وجل ، وكيف أن الإنسان خُلق في عالم الذر ، بل خُلقت جميع المخلوقات في عالم الذر ، قبل أن تكون صوراً .

2 – حملُ الإنسان للأمانة :

وعُرضت عليها الأمانة ، حيث قال الله عز وجل :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

3 – العبادة أصل خلق الإنسان وثمن للجنة :

ولما حمل الإنسان الأمانة كُلف أن يزكي نفسه عن طريق تعريفها بالله ، وحملها على طاعته ، والتقرب إليه من أجل أن تكون هذه المعرفة ، وهذه الطاعة ، وهذا التقرب ثمناً لجنة عرضها السماوات والأرض ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، إلى أبد الآبدين ، فنحن في الأصل مخلوقون للجنة .

الناس قسمان : عامل للجنة وعامل للنار :

وقد انقسم البشر قسمين في ضوء هذه الحقيقة ، فقال الله تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات)

أي أن الجنة ثمنها الانضباط ، أن تعرف الله ، وأن تنضبط بمنهجه ، وعلى هذا قال تعالى :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

صدق أنه مخلوق للجنة ، والحسنى هي الجنة ، بني على هذا التصديق أنه اتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء .

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل)

إذاً كل شؤون حياته في اتجاه سعادته الأبدية .

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

الصنف الثاني كذب بالجنة ، وآمن أنه مخلوق للدنيا ، بُني على هذا التكذيب أنه استغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ وكل شؤون حياته باتجاه شقائه .

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

قصة الخلق حينما قال الله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب)

لم يكن ظلوماً جهولاً حينما قبل حمل الأمانة ، ولكن حينما خان الأمانة ولم يؤدِ الأمانة ،

(كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

4 – مقوّمات حمل الأمانة :

وذكرت في الدرس الماضي أن الإنسان حينما قبل حمل الأمانة سخر الله له :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

الكـون :

وأعطاه مقومات التكليف ، وذكرت أن أبرز مقومات التكليف هذا الكون الذي سخر له ، وكان التسخير تسخير تعريف وتكريم .

لذلك رد فعل التعريف أن تؤمن ، ورد فعل التكريم أن تشكر ، وأنت حينما تؤمن وتشكر حققت الهدف من وجودك ، قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

العقـل :

ثم أعطاه العقل ، كأداة لمعرفة الله وهو مناط المسؤولية والمحاسبة ، وهو ميزان :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

والعقل مهمته التأكد من صحة النقل ، ثم فهم النقل ، ولن يكون العقل حكماً على النقل .

الفطرة :

ثم أعطاه فطرة سليمة تكشف له خطأه ذاتياً .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

الاختيـار :

ثم أعطاه اختياراً ليثمن عمله :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

الشهـوة :

ثم أعطاه شهوة كقوة دافعة ، وهي حيادية ، يمكن أن تكون قوة نافعة ودافعة ، ويمكن أن تكون قوة مدمرة .

الشــرع :

ثم أعطاه الشرع ، وأنزل الله على أنبيائه الكتب ليكون الشرع ميزاناً على ميزاني العقل والفطرة . ذكرت هذا في درس سابق ، وأنتقل اليوم إلى تسلسل الإيمان بالله .

تسلسل الإيمان وثوابته :

الثابت الأول : الكون :

أيها الإخوة ، هناك الكون يعد الثابت الأول ، لا يختلف عليه اثنان في الأرض ستة آلاف مليون إنسان هذا الكون بين أيديهم ، وتحت سمعهم وبصرهم ، فيه شمس ، وقمر ونجوم ، ومجرات ، وأرض ، وجبال ، وسهول ، وينابيع ، وأنهار ، وبحار ، وبحيرات ، ونبات ، مليون نبع من النبات ، وأطيار ، وأسماك ، وحيوانات ، ومعادن ، وأشباه معادن ، هذا الكون هو الثابت الأول في الإيمان ، كل أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى يمكن أن يشفَّ الكون عنها .

1 – كل أسماء الله وصفاته يشفّ عنها الكون :

كل أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، يمكن أن تراها في الكون ، يمكن أن ترى في الكون علمَه ، يمكن أن ترى في الكون حكمته ، يمكن أن ترى في الكون لطفه ، يمكن أن ترى في الكون رحمته ، يمكن أن ترى في الكون عدله ، يمكن أن ترى في الكون قوته ، يمكن أن ترى في الكون بطشه ، كل أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى يمكن أن يشف الكون عنها ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

2 – مبادئ العقل : السببية ـ الغائية ـ عدم التناقض :

وعقلك بني على مبادئ ثلاث مبدأ السببية ، مبدأ الغائية ، مبدأ عدم التناقض والكون أنظمته الأساسية لكل شيء سبب ، ولكل شيء غاية ، والتناقض لا وجود له في الكون ، مبادئ عقلك مطابقة تطابقاً تاماً مع مبادئ الخلق .

لذلك هذا العقل إذا أعملته في الكون يمكن أن تتعرف إلى الله من خلاله ، إذاً : العقل أداة معرفة الله .

3 – الكون لغة عالمية :

أيها الإخوة ، ثم أن هذا الكون لغته عالمية ، العربي يقرأ ما فيه ، والأعجمي يقرأ ما فيه ، وأهل أوربا يقرؤوا ما فيه ، هذا قاسم مشترك ، لذلك قال بعضهم : الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ، فأكبر ثابت من ثوابت الإيمان هذا الكون الذي يشف عن وجود الله ، وعن كماله ، وعن وحدانيته ، وعن أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى ، لكن العقل سأوضح لكم مهمته :

أنت دخلت إلى جامعة ، عقلك وحده ، تجد منشآت تتناسب تناسباً رائعاً مع حقيقة الجامعة ، مدرجات ، فيها عزل صوت ، فيها تدفئة ، فيها شاشات عارضة ، فيها تهوية ، فيها مقاعد مريحة ، فيها مكتبة ، وحدائق ، وسكن للطلاب ، وسكن للأساتذة ، وإدارة جامعة ، ومخابر ، أنت بعقلك يمكن أن تكتشف أن وراء هذا البناء تخطيطا ، وأدمغة ، ونظاما ، وخبرات متراكمة ، لكن مهما كنت ذكياً ، مهما كنت حصيفاً فلا يمكن أن تعرف ما اسم رئيس الجامعة ، لا يمكن أن تعرف ما اسم عمداء الكليات ، لا يمكن أن تعرف ما الكليات التي في الجامعة ، لا يمكن أن تعرف نظام القبول ، أو نظام النجاح والرسوب ، هذه المعلومات لا يمكن أن تكتشفها بعقلك ، لا بد من كتيب ، هذا الكتيب يتكامل مع عقلك ، هذا تمهيد .

الله عز وجل جعل هذا الكون ينطق بوجوده ، بعلمه ، بقوته ، برحمته ، بعدله بلطفه ، بجماله ، لكن لماذا خلقك الله ؟ أنزل كتاباً هو القرآن الكريم ، قال لك فيه :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

لماذا الحياة القصيرة ؟ لماذا الحياة أربعون عاما ، خمسون ، ستون ؟ قال لك في كتابه :

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

(سورة الضحى)

لماذا يأتي الأنبياء ؟ يأتي الأنبياء ليبينوا للناس علة وجودنا ، وطريق سلامتنا وسعادتنا .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

فصار الكتاب يكمل العقل ، ما عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به ، هذا الكتاب لعل قائلاً يقول : إنه كلام إنسان عبقري بليغ في اللغة ، أعطاك مع الكتاب شهادة الإله العظيم على أنه كلامه ، أكبر دليل على أن هذا الكتاب كلام الله إعجازه ، يعني قبل 1400 عام نزل هذا الكتاب .

صور من حقائق كونية :

1 – ظاهرة تناثر الضوء :

وقبل عشرين عام تقريباً صعد الإنسان إلى القمر ، وفي أثناء الصعود تجاوز طبقة الهواء ، وهي تزيد عن 65 ألف كم ، فلما تجاوز رواد الفضاء طبقة الهواء صاح أحدهم بأعلى صوته : لقد أصبحنا عميا ، التفسير العلمي أن الهواء مع الشمس يشكل ظاهرة ضوئية اسمها التناثر ، أي أن أشعة الشمس إذا سلطت على طبقات الهواء عكست هذه الذرات أشعة الشمس على ذرات أخرى لم تصلها أشعة الشمس، فصار في الأرض مكان فيه أشعة شمس ومكان فيه ضياء الشمس ، وجود الضياء من دون أشعة هذه ظاهرة اسمها تناثر الضوء ، فلما تجاوزنا طبقة الهواء ألغي التناثر ، فصار الفضاء ظلاماً دامساً كالليل الأليل ، فصاح رائد الفضاء : لقد أصبحنا عمياً ، افتح القرآن :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر)

لا يمكن أن يكون هذا الكلام كلام بشر ، مستحيل ، لأن الحقيقة التي كشفت بعد 1400 عام ذكرها القرآن قبل 1400 عام .

2 – الوردة الجورية :

أكبر وكالة فضاء (ناسا) تعرض صورة لوردة جورية ، وردة جورية ، أوراق حمراء داكنة ، حولها وريقات خضراء زاهية ، في الوسط كاس أزرق ، كتب تحته صورة لانفجار نجم اسمه عين القط ، يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، تفتح القرآن :

(انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

3 – الحاجز بين البحرين :

يكتشف رواد الفضاء من سفينة الفضاء أن بين كل بحرين خطا ، والخط تباين لونين ، هذا المنظر يثير الفضول عند علماء البحار ، يتابعون هذه الظاهرة ، فإذا بعد التحقيق والبحث ، والدرس ، والتجريب تبين لكل واحد ماءه ، لكل بحر كثافته ، لكل بحر ملوحته ولا يمكن أن تختلط مياه البحار مع بعضها

بعضا ، حتى في بعض الصور لمكان التقاء البحار كباب المندب ، أو كقناة السويس ، أو كمضيق جبل طارق ، أو كمضيق بنما ، أو بمضيق البوسفور هناك جدار بين البحرين ، تفتح القرآن الكريم :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

4 – النطفة هي التي تحدد جنس المولود وليس البويضة :

بعد تطور علم الأجنة إلى أعلى مستوى تبين أن الذي يحدد كون المولود ذكراً أو أنثى هي النطفة وليس البويضة ، تفتح القرآن الكريم :

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

(سورة النجم)

5 – كل شيء في الكون يدور :

بعد اكتشاف علم الذرة أن كل شيء في الكون يدور حتى الخشب ، حتى الصخر أي شيء في الكون مؤلف من ذرات ، والذرة من نواة ، وكهارب ، ومسارات .

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

6 – أدنى الأرض : غور فلسطين :

بعد اكتشاف أشعة الليزر تبين أن أعمق نقطة في الأرض هي غور فلسطين والآية الكريمة :

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة الروم)

في أدنى الأرض باكتشاف أشعة الليزر تبين أن أعمق نقطة في الأرض غور فلسطين ، وتؤكد روايات التاريخ أن المعركة التي تمت بين الفرس والروم كانت في غور فلسطين .

7 – وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ :

تركب طائرة أحدث طائرة 777 ، وأنت على مقعد وثير ، والجو لطيف ، ومكيف ، وشراب متنوع ، وأطعمة فاخرة ، ومجلات ، وصحف ، وقنوات ، تفتح القرآن الكريم فتقرأ قوله تعالى :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)

(سورة النحل الآية : 8)

كم هي المسافة بين الحمار والطائرة ؟

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل الآية : 8)

لأنه كلام خالق الأكوان :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

الطائرة ، والباخرة ، والقطار ، والسيارة .

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

8 – الحكمة من تذكية الحيوان وعدم قطع رأسه :

النبي عليه الصلاة والسلام يعطي أمراً تشريعياً بعدم جواز قطع رأس الدابة حينما تذبح ، قال : اقطعوا أوداجها فقط ، هذا التوجيه لا يمكن أن يفسر في مكان في العالم ، ما الفرق بين قطع رأسها وقطع أوعيتها الدموية ؟ لا أحد يعلم ، لا في عهد النبي ، ولا بعد مئة عام ، ولا بعد مئتي عام ، ولا بعد 500 عام ، ولا بعد ألف عام ، ولا بعد 1400 عام هناك جهة في الأرض تفسر ما سر هذا التوجيه ، الآن انكشفت الحقيقة ، لأن القلب أخطر عضو في الجسم ، ولأن القلب عليه مدار الحياة ، لا يمكن أن يكون تحت رحمة الشبكة العامة الكهربائية ، لا بد له من مولد ذاتي في مركز كهربائي ذاتي ، وهذا المركز إذا تعطل في مركز ثان ، وإذا تعطل الثاني في مركز ثالث ، احتياطيان ، وأن هذا المركز الكهربائي يعطي أمر بالنبض النظامي 80 نبضة بالدقيقة فقط ، والإنسان بحاجة أحياناً إذا هاجمه عدو أن يسرع ، أو إذا واجه حيواناً مخيفاً ، أو ثعباناً في بستان بحاجة إلى جهد أعلى من 80 نبضة ، لكن العين بإدراك الخطر تنقل صورة الخطر إلى الدماغ ، والدماغ عنده مفهومات الثعبان ، مفهومات الثعبان تنبئ الدماغ أن هذا لدغته قاتلة ، فالدماغ ملك الجهاز العصبي يعطي التماسا لملكة الجهاز الهرموني ، الغدة النخامية ، تعطي أمر لوزير داخليتها ..... فيعطي أمرا إلى القلب ليرفع النبض إلى 180 نبضة ، وأمرا إلى الرئتين ليزداد الوجيب ، فالخائف قلبه ينبض سريعاً ، ورئتاه تخفقان سريعاً ، وأمرا إلى الأوعية المحيطية بتضييق اللمعة فيصفر الخائف ، وأمرا إلى الكبد بإطلاق كمية سكر استثنائية ، فالخائف سكره عالٍ ، وأمرًا إلى هرمون التجلط بإطلاق كمية إضافية فدم الخائف لزج . هذه الدابة إذا ذبحنها ، وقطعنا رأسها يبقى القلب يعمل 80 نبضة ، الثمانون نبضة تخرج ربع الدم

فقط، أما إذا أبقينا الرأس موصولا بالجسم يعمل الجهاز الاستثنائي ، فالخروف أدرك الخطر ، ارتفع النبض 180 نبضة حيث يخرج الدم كله من جسم الدابة ، تجد اللحم الذي ذُبح وفق الطريقة الإسلامية أزهر اللون ، شهي المنظر ، طيب الطعم ، أما إذا ذُبح بقطع رأس الدابة يبقى أربعة أخماس الدم في الدابة ، يصبح لون اللحم أزرق ، ومؤذيًا ، واللحم بؤرة جراثيم ، ليس هذا من علم النبي ، ولا من تجربة النبي ، ولا من ثقافة النبي ، ولا من معطيات بيئة النبي :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

فالكون أكبر ثابت من ثوابت الإيمان .

الثابت الثاني : القرآن :

يليه في المصداقية القرآن الكريم ، كلام الله ، الكون خلقه ، والقرآن كلامه ، ولكن هذا القرآن معه شهادة من الله أنه كلامه .

لكل نبيٍّ معجزة :

إخواننا الكرام ، كل نبي معه معجزة ، والمعجزة في حقيقتها شهادة الله للبشر أن هذا الإنسان رسول رب البشر ، علامة ، إلا أن الأنبياء السابقين كانوا لأقوامهم ، فالمعجزة حسية ، سيدنا موسى ألقى عصاه :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

سيدنا عيسى أحيى الميت ، وهذا شيء فوق طاقة البشر ، سيدنا إبراهيم أُلقي في النار فلم تحرقه ، هذه معجزات ، لكن هؤلاء الأنبياء لأقوامهم فقط ، أما النبي عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، هو لكل البشر أجمعين ، هو رحمة للعالمين ، هو إلى نهاية الدوران ، هو حتى قيام الساعة ، إذاً كتابه خاتم الكتب ، لا بد من أن تكون شهادة الله للخلق من أن هذا القرآن كلامه مستمرة ، المعجزة الحسية كتألق عود الثقاب يتألق مرة ، ثم ينطفئ فتصبح خبراً تصدقه أو لا تصدقه ، بينما إعجاز القرآن شهادة الله المستمرة .

في القرآن 1300 آية كونية ، سدس القرآن شهادة على خمسة أسداسه أنه كلام الله ، السدس شهادة من الله .

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)

(سورة يس الآية : 38)

الآن ثبت أن الشمس تجري ، يعني حقائق لا تنتهي ، والإعجاز يحتاج إلى سنوات ، والآن المادة الأولى في الدعوة إلى الله الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

الثابت الثالث : السُّنة :

لكن القرآن كلي ، يحتاج إلى من يفسره لنا ، فيأتي النبي الكريم ليبين للناس ما نزل إليهم ، فبيان النبي الكريم هو شرح ، وتوضيح لمجمل القرآن الكريم ، وكأن سنة النبي هي تفسير لكلام الله ، فعندنا كون الثابت الأول في الإيمان ، وكتاب فيه كل شيء ، وإنسان سيشرح هذا الكتاب ، دليل أن الله موجود ، وواحد ، وكامل الكون ، ودليل أن هذا القرآن كلام الله إعجازه ، ودليل أن النبي رسول الله هو القرآن .

لا زلنا في العقل ، لكن بعد هذه المرحلة يأتي دور النقل ، أي شيء عجز العقل عن إدراكه أخبر الله به، صار عندنا في ديننا معقولات ، ومسموعات ، وعندنا تفكر ، ونقل ، وعندنا عقل ونقل ، وعندنا أبحاث يتولاها العقل ، وعندنا أخبار تتلقفها الأذن .

1 – إخبار الله بوجود الملائكة والجن والنار والجنة :

الآن القسم الآخر من الدين الله أخبرنا أن هناك ملائكة .

(لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

(سورة التحريم)

ما الدليل ؟ ليس عندنا دليل حسي ، بل هناك دليل إخباري ، هو إخبار الله لك .

أنت دخلت إلى بيت ، صاحب البيت كل ذرة في دمك ، وكل خلية في جسمك تؤمن أنه صادق ، وهناك خزانة مغلقة ، سألته : ما في هذه الخزانة ؟ قال لك : كتب قديمة ، الدليل الخبر فقط ، لكن لو فتحت الخزانة ترى بعينك ، وتدرك بعقلك أن هذه كتب قديمة ، أما هو فما فتحها لك ، لكنه أخبرك .

فأخبرنا الله عن وجود الملائكة ، وعن وجود الجن ، وأن هناك حياة بعد الموت فيها جنة وفيها نار ، فيها نار لا ينفذ عذابها ، وفيها جنة يدوم نعيمها إلى أبد الآبدين .

2 – إخبار الله بالماضي السحيق :

أخبرنا عن الماضي السحيق ، كيف خُلق الإنسان ، آدم وحواء ، وكيف كانا في الجنة ، فالشيطان أخرجهما من الجنة ، وأخبرنا عن الأقوام السابقة عن عاد وثمود وأصحاب الأيكة ، وقوم موسى

وهارون ، ففي ماضي سحيق ، في مستقبل بعيد ، في حديث عن الذات الإلهية .

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة البقرة الآية : 255)

هذا الدين العظيم فيه معقولات ، ومخبرات ، عقل ، و نقل ، الذي عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

أيها الإخوة الكرام ،

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)

لأن الإنسان قبل حمل الأمانة كان أعلى المخلوقات ، لأنه قبل حمل الأمانة صار أعلى المخلوقات على الإطلاق ، فالملائكة دونه ، هنا السجود يعني خذوا أمري من آدم ، المعنى الدقيق للسجود أن نأخذ الأمر أمر الله عز وجل من آدم ، السجود هو الخضوع ، أنت حينما يأتيك أحياناً إنسان عادي معه أمر من الملك ، فإذا أطعت هذا الإنسان العادي هي في الحقيقة ليست طاعة له ، ولكنها طاعة للملِك ، فهنا السجود الخضوع يعني أيها الملائكة أنتم أشفقتم من حمل الأمانة ، لكن آدم قبلها ، وحملها ، فكان أعلى المخلوقات ، وسوف أُنفذ له أمري ، وأنتم عليكم أن تأخذوا أمرني من خلاله :

(اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ)

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

معصية إبليس بعدم السجود معصية كبرياء وعظمة :

قال الله عز وجل :

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

(سورة الحجر)

لكن إبليس رفض أن يسجد ، قال :

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف الآية : 12)

الآن بدأت معصية الكِبْر ، المعاصي نوعان : معصية كبر ، ومعصية غلبة ، وأفضل ألف مَرة أن تقع في الغلبة من أن تقع في الكبر ، لأن الكبر يتناقض مع العبودية لله ، لذلك الذي يعصي الله غلبة ترجى

له التوبة ، وهو قريب من التوبة ، وربما معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

أي عصى :

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

(سورة الكهف الآية : 50)

لم يسجد ، هو طبعاً ليس من الملائكة ، لكن قبل أن يؤمر كان متفوقاً ، حتى ظُن أنه فوق الملائكة ، لكنه أبت نفسه أن يسجد استكباراً ، وعلواً في الأرض :

(إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ)

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

الآن أيها الإخوة ، قال الله عز وجل :

(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

إبليس أوّل مَن سن قاعدة : أَنَا خَيْرٌ :

أنت أمام قضيب مستقيم ، وأمام خطاف يستخدم للحمل ، خطاف منحني هكذا أيهما أفضل ؟ كلام ليس له معنى ، حينما تحتاج إلى قضيب مستقيم القضيب المستقيم أفضل ، وحينما تحتاج إلى خطاف تحمل به الأشياء فالانحناء أفضل ، فأن تقول : أيهما أفضل الطين أم النار هذا كلام لا معنى له ، كل صفة تؤدي مهمتها ، أيهما أفضل سيارة سياحية أم سيارة شاحنة ؟ كلام مضحك ، ماذا تريد أن تستخدم هذه السيارة ، لنقل الركاب ؟ السياحية أفضل ، لنقل البضاعة ؟ الشاحنة أفضل ، فكل صفة لا يمكن أن تكون مفضلة إلا بحسب مهمتها ، لكن أنا أفاضل بين شاحنتين ، أو بين سيارتين لنقل الركاب ، أما أنا أفاضل بين مركبة مهمتها نقل الركاب ، ومركبة مهمتها نقل البضائع فهذا غير مقبول .

قال :

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

لا ، الجن لهم مهمات تخطي المسافات ، والحدود ، والسدود ، وسرعة الحركة ، والإنس لهم مهمة ، أعطي كل مخلوق الصفات التي تؤهله لتحقيق هدفه .

طبعاً قال القرآن على لسان إبليس :

(قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً)

(سورة الإسراء)

إذاً : جاء التوضيح :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ)

(سورة ص الآية : 74)

بين المنع والامتناع :

الله عز وجل يقول :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ)

ما الذي منعك أن تسجد ؟

والحقيقة هنا نحتاج إلى وقفة متأنية ، عندنا :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ)

و:

(مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ)

هذا يتوضح في الفرق بين المنع و الامتناع .

أحياناً تريد أن تأكل تأتي قوة قاهرة تشهر عليك سلاحاً ، فلا تأكل ، أنت الآن مُنعت أن تأكل ، لكن الأكل أمامك ، وهممت أن تأكل ، فجاء طبيب تثق بعلمه ، وأخبرك أن هذا الطعام يؤذي مرضك ، ويؤخر شفاءك ، الآن لم تمنع من أن تأكل ، ولكنك أُقنعت ألا تأكل ، فامتنعت ، الفرق كبير بين أن تُمنع بالقوة ، وبين أن تمتنع اختياراً .

دقة القرآن الكريم شيء عجيب :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ)

هل هناك قوة قاهرة منعتك أن تسجد ؟ وهناك آية ثانية توضح هذا المعنى :

(مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ)

من الذي أقنعك ألا تسجد ؟

الفرق بين :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ)

و :

(مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ)

هو الفرق بين أن تقهر ، وبين أن تقتنع ، فيبدو أن إبليس اقتنع أن النار خير من الطين ، فقال :

(قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ)

(سورة الحجر الآية : 33)

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

هذا ما ترتب عن المعصية :

1 – الهبوط من الجنة :

أيها الإخوة ، لما رفض إبليس أن يسجد :

(قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

(سورة الأعراف)

2 – معنى الهبوط :

الهبوط له معنيان ، هبوط مكاني ، الطائرة هبطت على المطار الفلاني ، هذا هبوط مكاني ، وإنسان كان مديرًا عاما بمؤسسة ، وباعتبار المؤسسة فخمة جداً مكتبه الفخم في الطابق الأول ، فهبطت مكانته، ووظفوه رئيس دائرة في الطابق العاشر ، نقول : هبطت مكانته ، لكن كان هو تحت ، فصار فوق ، لا ، مكانته هبطت هنا ، كان مكتبه في الطابق الأول ، لأنه مدير عام ، أصبح رئيس فرع في الطابق العاشر ، هو لم يصعد تحت ولكنه هبط ، هبطت مكانته ، هبطت سلطته ، هبط دخله .

لذلك :

(قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا)

كنت مرشحاً أن تكون من أهل الجنة حيث فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، لكنك الآن تكبرت ، وأبيت أن تطيع الله ، وتوهمت أن النار خير من الطين ، فتستحق الآن أن تهبط منها

(فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنْ الصَّاغِرِينَ)

قيسوا على هذه الآية أوضاع البشر ، هذا الذي يأبى أن يطيع الله ، يتكبر أن يصلي ، يتكبر أن يسجد لله ، ترون أنتم في المناسبات الدينية المسئولون كلهم يسجدون ، هذا وسام شرف لهم ، أليس كذلك ؟ للأرض .

قال :

(إِنَّكَ مِنْ الصَّاغِرِينَ)

أما الذي يأبى أن يسجد لله فهو صغير عند الله ، تتكبر على من ؟ على خالق السماوات والأرض ، مع أن العلاقة مع الله كلما ازددت تواضعاً له وخضوعاً له أعزك الله ، أنا لا أتصور على وجه الأرض إنسان أعز الله كسيدنا محمد .

هل من المعقول لإنسان ليس مسلماً يؤلف كتابا ، يدرس تاريخ البشرية ، ويبحث من هؤلاء البشر على عظماء البشر ، عظماء البشر في كل القرون ، وفي كل القارات ، وفي كل الثقافات ، ويختار من بين هؤلاء العظام القادة العباقرة ألف إنسان ، ثم يصطفي من هذه الألف مئة ، ثم يجعل محمد بن عبد الله على رأس هذه المئة .

مرة ذكرت أقوالا لمفكري الغرب في هذا النبي الكريم ، رفعه الله عند المسلمين وعند غير المسلمين .

أيها الإخوة الكرام ، قال تعالى :

(إِنَّكَ مِنْ الصَّاغِرِينَ)

لأنك استنكفت أن تسجد تنفيذاً لأمر الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(08-60): تفسير الآيات 14 - 19 ، لماذا حقد إبليس على آدم ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-02-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثامن من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة عشرة ، وهي قوله تعالى :

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

أمنيةُ الشيطان : التأخيرُ إلى يومِ القيامة :

1 – هذا ما يفعله الحقد :

حينما عصى إبليس ربه ، وأبى أن يسجد لآدم ، وكان عند الله من الصاغرين ، كفعل أي مشرك حقد على آدم حقداً شديداً .

لذلك تمنى على الله أن يؤخر أجله إلى يوم القيامة ، حتى ينتقم من آدم وذريته من بعده ، فعلة أنه طلب من الله عز وجل أي يؤخر أجله إلى يوم القيامة كي ينتقم من آدم ، ومن ذريته جميعاً .

2 – المؤمنُ لا يحقد :

وهذا الموضوع يوقفنا عند نقطة : أن المؤمن موحد يرى أن الله عز وجل هو الفعال ، لذلك لا يحقد على بني البشر ، ذلك أن الله عز وجل يقول :

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

(سورة لقمان)

الصبر يحتاج إلى إيمان ، وإلى إرادة ، لكن آية أخرى تلفت النظر :

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

(سورة الشورى)

فائدة جليلة :

اللام لام التوكيل ، وهناك لام المزحلقة ، وهما توكيدان ، فما الفرق بين الآيتين ؟ سأوضح لكم بمثل : لو أن أباً عنده ابن يحبه حباً جماً ، وقع من الشرفة فنزل ميتاً ، ليس هناك في بني البشر من يحقد عليه، هذا قضاء وقدر من الله مباشرة ، أما حينما ـ لا سمح الله ولا قدر ـ يدهس سائق ابنه فهناك إنسان يمكن أن يصب جام غضبه عليه ، يمكن أن يحقد عليه ، لذلك جاء الصبر .

إذا كان قضاء الله وقدره على يد إنسان يحتاج إلى صبر أشد ، وإلى إيمان أشد ، وإلى إرادة اشد ، لذلك قال :

(وَلَمَنْ صَبَرَ)

يعني على قضاء الله وقدره ،

(وَغَفَرَ)

لمن أجري القضاء على يديه ،

(إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

فإبليس حينما كان عند الله من الصاغرين ، وكان كما تروي بعض الكتب متفوقاً قبل أن يؤمر بالسجود، فحينما طرده الله من رحمته حقد على آدم ، لذلك قال :

(فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الحجر)

والله عز وجل قال له :

(قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

(سورة الأعراف)

3 – الغاية من طلب إبليس التأخير شفاءُ الغليل من ذرية آدم :

هو طلب الإمهال ليشفي غليله من بني آدم ، لأن آدم حينما توهم إبليس جاء له بالصغار والذلة .

لذلك دققوا الآن ، الفاسد يتمنى أن يكون جميع الناس فاسدين ، والمنحرف يتمنى أن يكون جميع الناس منحرفين ، والضال يتمنى أن يكون جميع الناس ضالين .

فلذلك قد ينتقل الإنسان من حالة الضلال إلى الإضلال ، من حالة الفساد إلى حالة الإفساد ، من حالة الانحراف إلى الدعوة إلى الانحراف ، من حالة التكذيب إلى الدعوة إلى التكذيب ، هذا شأن المنحرف ، المنحرف الذي خرج عن منهج الله ، وعصى الله اختل توازنه النفسي ، وضعه غير طبيعي ، وضعه

النفسي غير سوي ، مريض ، المرض الأكبر أن توازنه اختل ، وأيّ إنسان يعصي الواحد الديان يختل توازنه ، لأن فطرة الإنسان مطبقة انطباقاً تاماً على منهج الرحمن ، الفطرة كالمنهج ، فالمجرد أن تعصي الله خرجت عن منهج الله ، أو خرجت عن فطرتك ، اختل التوازن ، وحينما يختل توازن الإنسان يحاول أن يستعيده ، فكيف يستعيده ؟ دعك من إبليس ، الله عز وجل قال :

(شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)

(سورة الأنعام الآية : 112)

هناك شيطان من الإنس ، فلما ينحرف الإنسان ، يقصر ، يترك الصلاة ، يكذب ، يحلف يميناً كاذباً ، يأكل مالاً حراماً ، يقبل دخلاً مشبوهاً ، يقصر في واجباته ، يقصر في عباداته ، يبني مجده على أنقاض الآخرين ، يبني حياته على موتهم ، يبني غناه على فقرهم يبني أمنه على خوفهم ، يبني عزه على ذلهم، اختل توازنه ، كيف يستعيد هذا التوازن ؟

كيف يستعيد الإنسانُ توازنه بعد اختلاله بالانحراف ؟

هناك طريق واحدة سليمة وصحيحة ورائعة وبطولية ، أن يتوب إلى الله ، يستعيد توازنه فوراً ، أن يصطلح مع الله ، أن يقبل على الله ، أن يفتح مع الله صفحة جديدة ، هذا الطريق السليم ، الرجعة الرائعة ، لكن الذي خرج عن منهج الله ، وضل ضلالاً مبيناً ، وقصر في واجباته ، وأساء لخلقه ، وبنى مجده على أنقاض الآخرين ، هذا إنسان اختل توازنه ، وقد يحاول أن يستعيد هذا التوازن بمعاصٍ جديدة ، ماذا يفعل ؟ يطعن بالصالحين .

كل إنسان عاصٍ لا يصدق إنساناً نظيفاً ، يقول لك : له أهداف ، أنت تعرف الظاهر ، لأنه لما يتهم الناس جميعاً يرتاح ، يقول لك : قضية عامة ، لذلك العقل الباطل للإنسان حينما يرى إنساناً صالحاً ، منضبطاً ، سعيداً لا يصدقه ، له دخل آخر لا نعرف ، الله أعلم ، رأساً يتهمه ، بلا دليل ، بلا شيء مؤشر ، فالطعن بالصالحين من صفات الذين اختل توازنهم ، حتى الأنبياء المعصومون قيل لهم : تريد أن تتفضل علينا ، تريد أن تكون عالياً في الأرض تريد أن تستغلنا ، حتى الأنبياء ما نجو من اتهام المنحرفين .

لذلك تروي بعض القصص للعبرة فقط : أن سيدنا موسى قال في المناجاة : يا رب ، لا تبقِ لي عدواً ، قال : يا موسى هذه ليست لي ، هناك أعداء لله عز وجل .

فأنت اطمئن ، حينما تستقيم على أمر الله ، حينما تسعد بالله ، حينما تفتح مع الله صفحة جديدة ، حينما يكون باطنك كظاهرك ، وعلانيتك كسريرتك ، وخلوتك كجلوتك ، وحينما تقول : أنا أسعد الناس فهناك

من يشكك فيما تقول ، هناك في من يطعن ، هناك في من يقلل أهميتك ، هذا شيء طبيعي ، حتى قيل : لا بد للمؤمن من كافر يقاتله ، ومنافق يبغضه ، ومؤمن يحسده ، ونفس ترديه ، وشيطان يغويه .

إذاً : الطريق غير الصحيح لاستعادة التوازن الطعن بالصالحين ، لذلك في أي جلسة ، المتكلمون ، المقصرون ، الذين لا يعبدون الله يَدعون كل الشرائح ، وكل الأطياف ، ويركزون على الدعاة إلى الله ، بلا سبب ، وبلا ذنب ، وبلا دليل ، لكنهم إذا طعنوا فيهم يرتاحون .

مرة سألت طالبا : أين وظيفتك ؟ فقال لي : لسنا كاتبين لها يا أستاذ ، قلت له : أنت كم طالبا ؟ .

أحياناً تكون امرأة مصابة بالإيدز فتغوي 37 شابا ، كي يتوسع هذا المرض .

المنحرف يريد أن يكون الناس جميعاً منحرفين ، والمقصر يتمنى أن يكون الناس جميعاً مقصرين ، والذي يغش المسلمين يقول : الكل يغش ، ولا أستثني أحداً ، لكن حكمة الله جل جلاله يجعل الله في كل مكان ، في كل دائرة ، في كل مؤسسة ، في كل مستشفى ، في كل معمل ، في كل جامعة ، في كل مدرسة ، في كل سلك إنسان مستقيم ، هذا المستقيم هو حجة على غير المستقيم .

والله خلال تجربة مديدة ما رأيت مكاناً ، ولا مؤسسة ، ولا عملاً ، ولا دائرة إلا وفيها إنسان مستقيم يعد شاهداً وحجة على غير المسلم .

إذاً : إما أن تستعيد هذا التوازن بالتوبة إلى الله ، والصلح معه ، وإما أن تستعيد هذا التوازن بأن تطعن بالصالحين ، وإما أن تستعيد هذا التوازن بإفساد الصالحين ، وأن تجر الناس إلى معصية الله ، تجرهم إلى الفساد ، تزين لهم الدنيا ، تزين لهم المعاصي والآثام ، أو أن تتعلق بعقيدة زائغة ، أن النبي الكريم يشفع لنا ، إذاً : افعلوا ما تشاءون ، يتعلق الإنسان بعقيدة زائغة غير صحيحة ، الشفاعة حق ، لكن لمن مات موحداً ، لا لمن ارتكب كل المعاصي والآثام .

((يا فاطمة بنت محمد ، يا عباس عمر رسول الله ، أنقذا نفسيكما من النار أنا لا أغني عنكما من الله شيئا ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[ورد في الأثر]

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

أيها الإخوة الكرام ، إذاً : حينما يعصي الإنسان يختل توازنه ، فيبحث عن استعادة هذا التوازن إما أن يتوب إلى الله ، وهذا أسلم طريق ، أو أن يطعن بالصالحين ، أو أن يتعلق بعقيدة زائغة ، أو أن يفسد الصالحين .

ذهب إنسان إلى بيت الله الحرام ، وتاب هناك ، وكان يشرب الخمر قبل الحج ، له أصدقاء ، عاد من الحج تائباً ، يقول لي : مرة قال له صديق غني : كم كلفتك هذه الحجة ؟ قال له : مثلاً قصة قديمة

كلفتني خمسين ألفا ، قال له : خذ هذه الخمسين واشرب الخمر ، ثم حج ثانية وتب ، لماذا ؟ الفاسد يحب أن يفسد ، العاصي يحب أن يدعو الناس إلى المعصية .

إذاً : إما أن تفسد ، وإما أن تطعن بالصالحين ، وإما أن تتعلق بعقيدة زائغة ، وإما أن تتوب إلى الله ، أما كل إنسان يعصي الله يختل توازنه .

مِن سنن الله في خَلقه : الموت :

لكن إبليس حينما قال :

(أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

نسي أن لله في خلقه سننا ومن أبرز هذه السنن :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران الآية : 185 ـ الأنبياء : 35)

إذاً طلبه الذي طلبه ، وتمنياته الذي حلم بها ، أن يبقى إلى يوم القيامة لم تحقق لكن الله عز وجل في سورة الحجر قال له :

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

يعني هذا الوقت لا تعلمه أنت ، نعلمه نحن ، وهناك حكمة بالغةٌ بالغة من أنّ أجلَ الإنسان لا يعرفه ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((أكثروا ذكر هادم اللذات ، مفرق الأحباب ، مشتت الجماعات))

[ورواه الديلمي عن أنس]

((عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والحاكم و البيهقي عن سهل بن سعد]

((من عد غدا من أجله فقد أساء صحبة الموت))

[أخرجه البيهقي ، عن أنس]

الذي يقول مثلاً : أنا غداً أفعل كذا ، إذاً أنت أيها الإنسان لا تعرف ما الموت يأتي بغتة .

حدثني إنسان والله عن عشرين سنة قادمة ، خططه ، وسفره ، وعودته ، وإحالته على المعاش ، وإنشاء محل تجاري ، وقد كبر أبناءه ، ونوع البضاعة ، ولماذا اختار هذه البضاعة ، ثم رأيت نعيه في اليوم نفسه .

لذلك قال له :

(فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنْظَرِينَ)

وفي سورة أخرى :

(إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

عندنا ، لا عندك إبليس .

أيها الإخوة ، كلكم يعلم أن هناك نفختين ، لذلك قال تعالى :

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

(سورة الزمر)

حينما يبعث الناس الذين هم في القبور ، لذلك قال الله عز وجل :

(فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

قال :

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(سورة الأعراف)

الإنسان مخيَّرٌ :

أيها الإخوة ، الإغواء الإغراء بالمعصية ، لمن نسب إبليس معصيته ؟ إلى الله هؤلاء الجبريون الذين يتوهمون أن الله أجبرهم على المعصية ، ولو أن الله أجبر عباده على المعصية لبطل الثواب ، وبطل العقاب ، وانتهى الوعد والوعيد .

يا أمير المؤمنين ، أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ قال : << ويحك ، لو كان قضاءاً لازماً وقدراً حاتماً إذاً لبطل الوعد والوعيد ، ولانتفى الثواب والعقاب ، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً >> .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

القرآن ينطق بأن الإنسان مخير ، بل :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

هذه الآية أصل في أن الإنسان مخير ، ولا يقول إنسان : إنه مقهور على معصية الله إلا مشرك :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

ودائماً المنحرف والمقصر والعاصي يميل إلى أن يعزو خطأه ومعصيته إلى الله ، يقول : الله ما هداني، الله كتب علي الشقاء ، ما بيدي ، من قال الأمر ليس بيدك ؟ النبي عليه الصلاة والسلام يبين أن الإنسان مخير ، والقرآن الكريم يبين ذلك .

لذلك سيدنا عمر جيء له بشارب خمر ، فقال : أقيموا عليه الحد ، قال : والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر علي ذلك ، فقال : أقيموا عليه الحد مرتين ، مرة لأنه شرب الخمر ، ومرة لأنه افترى على الله ، قال : ويحك يا هذا ، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار .

إبليس قال :

(فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي)

وكل كلمة تسمعها أن الله أضل فلاناً يجب أن تقف عندها ، يعني إذا في بالقرآن آيات ـ دققوا ـ إذا في بالقرآن آيات يُعزى فيها الإضلال إلى الله :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 8 ـ النحل : 93)

الإضلال الجزائي والإضلال الحكمي والإضلال عن الشركاء :

يجب أن تقف عندها وقفة متأنية :

1 – الإضلال الجزائي :

إذا عُزي الإضلال إلى الله ـ دققوا ـ فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف الآية : 5)

يؤكد هذا المعنى هذا المثل :

طالب في الجامعة لم يداوم ، ولم يقتنِ الكتب ، ولم يقدم الامتحان ، جاءه إنذار وثان ، وثالث ، ورابع ، وخامس ، لم يستجب ، صدر قرار بترقين قيده من الجامعة ، هل هذا القرار قهر له ؟ لا ، إنه تجسيد لرغبته . إذا عُزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري.

2 – الإضلال الحكمي :

وقد يُعزى الإضلال إلى الله ، ونقصد به الإضلال الحكمي .

إنسان رفض الدين كلياً ، إذاً رفض معه كل توجيهات الخالق ، رفض معه كل أسباب سلامته ، كل أسباب سعادته ، كل أسباب رزقه ، كل أسباب نجاحه ، كل أسباب توفيقه .

(إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء الآية : 9)

أنت حينما ترفض منهج الله معنى ذلك أنك رفضت كل ما عند الله ، هذا اسمه الإضلال الحكمي .

إنسان في طريقه إلى حمص ، وليس هناك لوحة بيانية للطريق ، وهناك طريقان ، ما عرف أين طريق حمص ، رأى رجلا واقفا قال له : بالله عليك من أين حمص ؟ قال له : من هذا الطريق ، قال له: بارك الله بك ، لما قبل هذه النصيحة قال له : بعد فترة في تحويلة انتبه لها ، وجسر ضيق ... حكى له عشرة تفصيلات دقيقة جداً ، لما قبلت هذا التوجيه استفدت من مئات التوصيات ، والنصائح ، والتعليمات .

لو سأل هذا الإنسانَ رجلٌ آخر : من أين حمص ؟ قال له : من هنا ، قال له : أنت كذاب ، هل يقدر هذا الإنسان أن يذكر له التفصيلات ، هذا المسافر ضل ، ما الذي جعله يضل ؟ أنه رفض مشورة هذا الإنسان ونصيحته .

حينما يرفض الإنسان الدين يخسر كل توجيهات الخالق ، يخسر كل تعليمات الصانع ، يخسر كل أسباب سلامته ، يخسر كل أسباب سعادته إذا رفض الدين ، هذا الإضلال إذا عُزي إلى الله يعني الإضلال الحكمي ، الأول الإضلال الجزائي .

3 – الإضلال عن الشركاء :

لكن هناك إضلال ثالث ، شيء رائع جداً ، الله عز وجل لأنه يحب عباده يضلهم عن شركائه ، واحد اعتمد على ماله ، من اعتمد على ماله قلّ ، اعتمد على ماله وقال : الدراهم مراهم ، والله وضعه

بمأزق، المال لا يفعل شيئاً ، أعطاه درسا في التوحيد ، أبعده عن الشرك ، أضله عن أن يتوهم أن المال تحل به كل المشكلات ، هذا الإضلال عن الشركاء .

إنسان اعتمد على عقله ، قال : من اعتمد على عقله ضل ، نسي المنهج ، نسي الوحي ، نسي الكتاب ، نسي السنة ، جمع طرح ، قال لك : الاختلاط ضرورة ، يهذب المشاعر ، إذا كان في المدرسة بنات وذكور تجد الذكور يتنعمون كثير ، مثلاً ، يحسنون صورتهم أمام الفتيات ، خرج بفكرة خلاف القرآن والسنة ، اعتمد على عقله فضل ، الأول اعتمد على ماله قل .

فهذا إضلال عن الشركاء ، فالصحابة الكرام هم قمم البشر ، كانوا في حنين اثني عشر ألفا ،

((ولا يُغلَبُ اثنا عشرَ ألفاً مِنْ قِلة))

[أخرجه البيهقي من رواية الربيع بن أنس]

ومع ذلك لما قالوا في حنين :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

إذاً : حينما ترى آية في القرآن تعزى فيها الضلالة إلى الله فهي من نوع الإضلال الجزائي ، أو الإضلال الحكمي ، أن من معنى الإضلال عن الشركاء ، لذلك قالوا : في القرآن آيات محكمة هن أم الكتاب ، وآيات متشابهة ، الآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمات مهما قلت .

مثلاً : أنا أقول : القمح مادة خطيرة في حياتنا ، خطيرة ؟ يعني قنبلة هو متفجرات ؟ وقد يكون مادة أساسية ، لكن كلمة (خطيرة) تحتمل أنه مادة متفجرة أو مادة أساسية ، بعد حين قلت : القمح مادة أساسية ، ما معنى خطيرة إذاً ؟ أساسية .

فالآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمات مهما قلّت ، فأية آية فيها إضلال :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

معنى ذلك أنه إضلال جزائي ، أو إضلال حكمي .

فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ

قال :

(فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ)

1 – بين الوقوف والقعود والاضطجاع :

الإنسان يقف ، وإذا كان واقفا حمل كل وزنه ، لأن الوقوف متعب ، أما إذا جلس فيحمل نصف وزنه ، ما دام ظهره قائما ، أما إذا اضطجع ارتاح من حمل وزنه ، الجاذبية تجذبه ، وهو مضطجع جميعاً ، وهذه أكثر الحالات راحة ، حالة أن يكون مضطجعاً ، وأصعب حالة أن يكون واقفاً ، أما حالة القعود فحالة وسط .

عندنا في الآلات استعداد ، أحيانا الآلة واقفة ، لكنها في حالة استعداد ، أو مغلقة تعمل ، فالوقوف يعمل الإنسان ، الاضطجاع مغلق ، أما القعود فهو استعداد ، لأن الوقوف من القعود سهل جداً ، أما الوقوف من الاضطجاع فصعب .

لذلك الشيطان إبليس اللعين قال له :

(لَأَقْعُدَنَّ)

قال الله :

(وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ)

(سورة التوبة الآية : 5)

لا تناموا ، إذا كان عدوك نملة فلا تنام له ، لا تنام له ، أي كن يقظاً ، هذا الشيطان قال :

(لَأَقْعُدَنَّ)

أنا مستعد ، أنا قاعد ، و في أية لحظة أكون واقفاً .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ)

لذرية آدم .

(صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

لما يختار إنسان الضلال يكون الشيطان بعيدا عنه ، لأنه حقق هدف الشيطان .

يروى من باب الطرفة أن رجلاً سأل الشيطان : ماذا أفعل ؟ عنده مشكلة ، قال له : افعل كذا ، قال له : فعلته ، افعل كذا قال : فعلته ، عرض عليه عشر حالات ، كلها فعلها ، قال له : لم يعد عندي ، بعد هذا قال له : ماذا تريد أن تفعل ؟ قال له : كذا وكذا ، قال له : اتق الله يا رجل .

الشيطان جاهز بكل الطرق والتلبيسات :

(لَأَقْعُدَنَّ)

الشيطان جاهز ، أولاً : يغريك بالكفر ، فإن لم يستطع أغراك بالشرك ، إن وجدك على توحيد أغراك بالكبائر ، إن وجدك على طاعة أغراك بالصغائر ، إن وجدك على ورع أغراك بالشبهات ، إن وجدك على يقين الآن يغريك بالتحرش بين المؤمنين ، فإن لم يستطع فآخر ورقة رابحة يغريك بالمباحات .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

أما المنحرف ، العاصي ، الفاجر ، شارب الخمر ، المجرم ، الشيطان لا يحتاجه ، لأنه يحقق كل أهدافه من دون جهد ، يقول لك الفاسق : أنا مرتاح ، يقول لك المؤمن : بعدما تبت إلى الله عندي وساوس صعبة ، شيء طبيعي جداً .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

الشيطان قاعد على الطريق المستقيم إلى الرحمن ، أما طريق الغواية ما في شياطين .

مرة سألني رجل أن هؤلاء الأجانب ما عندهم صحون ، الصحون فيها مضمون إباحي ، هم إباحيون ، حياتهم اليومية مضمون الصحون .

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

الجهات التي يأتي منها الشيطان :

1 - مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

(بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

الآخرة ، الشيطان هدفه الأول أن يشكك بالآخرة ، التشكيك بالآخرة ، أو أن تأتي بمفهوم للشفاعة ساذج، هذا اليوم يوم الدين يوم عصيب .

(عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

(سورة المدثر)

الشيطان عنده أقوال ، يقول لك : من هنا إلى يوم الله يفرجها الله ، عنده أساليب كثيرة كي يشكك من هذا اليوم الخطير

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

أو إذا كانت أنماط الحياة المعاصرة فيها اختلاط ، فيها فجور ، فيها غناء ، فيها مسلسلات ، فيها أفلام إباحية ، فيها نوادٍ ليلية هذه الحياة حياة راقية ، هذا مجتمع مخملي ، راق ، هو مجتمع الجنفيص وليس المخملي ، يزين لك الحياة الدنيا الفسق ، والفجور ، وأماكن اللهو ، السياحة ، السفر ، الانغماس في الملذات ، يقول لك روح رياضية ، والآن هناك كلمة مشهورة (الأمر عادي) تجلس مع صديق زوجها على انفراد في البيت ،(عادي) ، عادي ، يعني أنه حلال ؟! ما معنى كلمة عادي ؟ ما لها معنى ، ترتكب جميع المعاصي والوضع عادي ، طبيعي ، تظهر كل مفاتنها والطبيعي عادي ، كله عادي .

لذلك الشيطان يقول :

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

بين أيديهم الآخرة ، يظن :

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا)

(سورة المؤمنين الآية : 37)

والجنة هي في الدنيا ، الغني في جنة ، والفقير في جهنم ، أو الأشياء المستحدثة التي فيها فسق وفجور يرحب بها كثيراً ، مهرجانات الأعمال الفنية الساقطة يهتم بها كثيراً ، كل المعاصي والآثام المعاصرة يحفل بها ويعتني بها ، ويبين أنها حضارة ورقي ، ورقص الباليه شيء راق جداً مثلاً ، أو الفنون الجميلة حيث الصور عارية تماماً ، فن جميل ، يا أخي ، إن الله جميل يحب الجمال ، فكل شيء بين أيدي الحياة المعاصرة لو صادم الشريعة والحقيقة يحفل به .

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

2 – وَمِنْ خَلْفِهِمْ

خلفه ذرية ، يرتكب المعاصي من أجل ذريته .

يا أهلي يا ولدي ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حل وحرم ، فأنفقته في حله وفي غير حله ، فالهناء لكم والتبعة علي .

أندم الناس غني دخل ورثته بماله الجنة ، ودخل هو بماله النار ، ترك لهم مالاً يرثونه حلالاً ، هم أنفقوه في طاعة الله ، فدخل ورثته بمال أبيهم الجنة ، ودخل الأب بماله الغير مشروع النار .

لذلك مرة قرأت أربعة أدعية مؤثرة جداً :

اللهم إني أعوذ بك أي يكون أحد أسعد بما علمتني مني .

أنت تشرح حديثا شرحا دقيقا مع الأدلة ، مع التحليلات العميقة ، مع اللغة الناصعة ، لكنك لست مطبقاً له ، فيأتي إنسان بسيط أخذ المعنى ، وطبقه ، وسعد به ، اللهم إني أعوذ بك أي يكون أحد أسعد بما علمتني مني .

اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك .

يوم الجمعة ثياب بيضاء بالصيف ، أو بالشتاء ألوان مرتبة تمام ، ومعطر بالمسك ، هذا عطر العود غال ، وذاهب إلى الجامع ، لكن أين كان الخميس في الليل ؟ لا نعرف ، اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك .

اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحد سواك .

كلمة حق قيلت بالباطل ، كلمة حق أريد بها باطل .

وآخر دعاء :

اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك .

أي أكون قصة .

للتقريب : يمكن أن يكون في مسرحية ، خشبة مسرح ، فيها مقاعد للمشاهدين ، فالإنسان إذا كان له مقعد مع المشاهدين يرى ما على المسرح ، أما إن لم يكن مستقيماً سيجر إلى خشبة المسرح ، وسيعاقب أشد العقاب ، ثم يكون قصة للمشاهدين قال الله تعالى :

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة المؤمنون الآية : 44)

إذاً :

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

الآخرة والمستجدات التي تتصادم مع الدين .

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

الأولاد من أجل أولاده يكسب المال الحرام يطعمهم الطعام الحرام ، أو ما قبل الإسلام ، نعتني كثيراً بالفراعنة ، بالذين جاءوا قبل الإسلام بكثير نراهم هم التاريخ .

3 – وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يأتيك من باب الطاعات ، فيقول لك : الصلاة غير صحيحة ، إذاً لا تصلي ، يقول لك : هذه ليست صلاة ، الصلاة بكاء ولا تبكي ، لا تصلي ، أنت لست مطبقا لكلام الشيخ ، فلا تذهب ، ناصحك ، كمثل مريض ، قال له : أنت مريض ، لا تستحي أن تذهب إلى الطبيب ، أنا أذهب إليه كي أشفى ، دائماً يمنعك عن مجلس علم ، ويقول لك : يأخذون اسمك ، مثلاً ، يمنعك عن مجلس علم ، يمنعك عن طاعة، عن أداء عبادة ، عن عمل صالح عن دفع صدقة ، يخوفك دائماً ، هذه :

(عَنْ أَيْمَانِهِمْ)

أو يدخلك بالوسواس ، الوضوء ما صح ، توضأ مرة ثانية ، مرة ثالثة ، مرة رابعة ، تشعر ببلل خفيف فالوضوء ما صح ، يدخلك بالوساوس المتسلطة ، هذه :

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

4 – وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

المعاصي والآثام ، وأكبر شيء من صفات المنحرفين :

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ

دائماً يتبرم ، دائماً يشكو ، دائماً يسخط ، كل شيء لا يعجبه ، يكون عنده بيت ، وعنده مركبة ، وعنده زوجة ، وعنده أولاد ، وله دخل ، السخط ، والتأفف والنقد من صفات التائهين عن الله عز وجل .

كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت ،

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

أيها الإخوة ، النبي عليه الصلاة والسلام كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت .

الآن الله عز وجل يقول :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم الآية : 34)

قال رجل لإنسان : خذ هذه الليرة وعدّها ، لا تُعَد ، المعنى أن النعمة الواحدة لو أمضيت كل حياتك في سبيل إحصاء بركاتها لا تستطيع ، ودائماً الإنسان عاجز عن شكر النعمة ، فلأن يكون عاجزاً عن شكرها من باب أولى .

بربك لو أنجبت مولوداً مباركاً ، وجاءتك مئة هدية ، إحصاء هذه الهدايا يتم في ربع ساعة ، أمّا تأدية ما يقابلها فتحتاج إلى وقت ، وإلى مال ، ونفقات كبيرة .

نحن عاجزون عن إحصاء النعمة الواحدة ، فلأن نكون عاجزين عن شكر النعم كلها من باب أولى .

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأعراف)

والتي بعدها :

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأعراف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(09-60): تفسير الآيات 18- 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-02-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة عشرة ، وهي قوله تعالى :

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأعراف)

وقبلها :

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأعراف)

خطة الشيطان :

1 – إن ربك لبالمرصاد :

أيها الإخوة ، بلغ الغرور للشيطان أنه رسم خطة ، وظن أن هذه الخطة ستنجح ، وهذا يذكرنا بقوله :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا)

(سورة الأنفال الآية : 59)

أي أن الذين كفروا حسبوا أن يفعلوا شيئاً ما أراده الله ، أو أن يتفلتوا من عقاب الله .

أيها الإخوة ، لمجرد أن تتوهم أنك تستطيع أن تفعل ما تشاء فأنت لا تملك من الإيمان شيئاً ، إبليس توهم أنه سيرسم خطة ينتقم بها من آدم الذي أبى أن يسجد له ، وصار من الصاغرين ، وينبغي أن ينتقم منه ومن ذريته إلى يوم القيامة ، فلذلك قال الله له :

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا)

ماذا تذكرنا كلمة :

(اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا)

المؤمن محمود عند الله ، وعند الخلق ، وعند نفسه ، وغير المؤمن مذموم عند الله ، وعند الخلق ، وعند نفسه .

2 – إياكم وانهيار الإنسان الداخلي :

وقد لا ننتبه من انهيار الإنسان من داخله ، لأن فطرة الإنسان متطابقة مع الشرع تاماً تطابقا ، فإذا بنى مجده على أنقاض الآخرين يختل توازنه ، وتنهار نفسه ، ويحتقر ذاته ، وقد يكون عند الناس ، لكن الأعمال السيئة تدرك بالفطرة ، والفطرة تعذب صاحبها ، فهؤلاء الذين اصطلحوا مع فطرهم ، واصطلحوا مع ربهم ، بمعنويات عالية جداً ، لأنهم انتصروا مع أنفسهم ، لكن هؤلاء الذين بنوا مجدهم على أنقاض الآخرين ، وبنوا حياتهم على موتهم ، وأمنهم على خوفهم ، هؤلاء سقطوا من الداخل ، هذا اسمه انهيار داخلي ، أو اختلال توازن داخلي ، أو احتقار الذات ، قد يكون عند الناس عظيماً مبجلاً محترماً ، لكنه في الحقيقة يحتقر ذاته .

قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا

أيها الإخوة ،

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا)

الاحترام والسمعة الطيبة من صفات المسلم :

يقابل هذا المعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام من أسمائه محمود ، أي محمود عند الله ، ومحمود عند الناس ، ومحمود بين أهله ، ومحمود عند نفسه ، احترام المرء لذاته لا يقدر بثمن ، أن تكون مستقيماً وصادقاً ووفياً ، ومنصفاً ، وعزيز النفس ، ولو كنت في المرتبة الدنيا من المجتمع ، ولو كنت مستخدماً، الذي يطيع الله عز وجل يشعر بعزة .

يروى أن سيدنا الحسن مشى مشية فيها زهو ، فقيل له : يا ابن رسول الله ، ما هذا ؟ قال : هذا عز الطاعة .

المؤمن عزيز ، فإبليس لأنه كاد لآدم ولبنيه من بعده ، وقرر أن يغويهم أجمعين انتقاماً من آدم الذي لا علاقة له بصغاره ، هو أبى أن يسجد ، فكان عند الله من الصاغرين ، أراد أن ينتقم من آدم ومن ذريته أجمعين فقال :

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

والآية شرحت في اللقاء السابق .

تمهيد للآية :

1 – بين العقل والذكاء :

أيها الإخوة ، هذا يقودنا إلى موضوع دقيق ، هو أن الإنسان عنده ذكاء ، وعنده عقل ، والعقل شيء ، وقد يظن الناس أنهما شيء واحد ، لأنه قيل : ما كل ذكي بعاقل ، فقد تملك دماغ بمستوى عالٍ جداً ، وهذا المستوى يقاس الآن في علم النفس بعلامات ، معظم الناس يحتلون درجة مئة ، والعباقرة 140 ، والأغبياء في الثمانين ، بالحد الوسط مئة ، هناك عباقرة ، هناك قادة ، هناك نجوم ، هناك متفوقون ، هؤلاء ذكاؤهم بأعلى مستوى ، لكن ما كل ذكي بعاقل ، قد تتقن عملاً ، قد تبرع في كشف شيء ، قد تخترع شيئاً ، قد تملك ذاكرة قوية جداً ، قد تملك ملاحظة قوية جداً ، قد تملك قوة محاكمة كبيرة جداً ، لكن لأنك لم تعرف ربك ، ولم تعرف سر وجودك ، ولم تعرف غاية وجودك ، ولم تستقم على أمر ربك ، ولم تتقرب إليه ، ولم تضع الآخرة نصب عينيك ، ولم تعمل للجنة ، فأنت لست عاقلاً ، الإنسان يكون عاقلاً إذا عرف سر وجوده ، وغاية وجوده ، يكون عاقلاً إذا عرف ربه .

2 – ذكاءٌ إبليسيٌّ :

فإبليس في أكثر الكتب تشهد له بالذكاء ، بمعنى أنه بارع جداً في إضلال البشر ، هذا الذي يخترع سلاحا فتاكا ، وليكن سلاحا جرثوميا ، أو سلاحا كيماويا ، وآثار السلاح مخيفة ، لا شك أنه ذكي جداً ، لكنه ليس عاقلاً ، لأنه كان أداة لهدم المجتمعات ، وإنزال المصائب ببني البشر ، هذه كلمة دقيقة : ما كل ذكي بعاقل ، العاقل من عرف الله .

ولما مشى النبي عليه الصلاة والسلام ، ورأى مع أصحابه مجنوناً ، وسأل من هذا ؟ طبعاً سألهم سؤال العارف ، قالوا : مجنون ، قال : لا ، هذا مبتلى ، المجنون من عصى الله .

3 – إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا

أيها الإخوة ،

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا)

ثم قال لنا في سورة أخرى :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

صحيح هو الشيطان يتمنى إغواء بني آدم ، لكن الله طمئننا .

(ِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الإسراء الآية : 65)

اطمئنوا .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

الشيطان ليس له علينا سلطان ، والشيطان ليس له على عباد الله سلطان ، والشيطان يحترق بكلمة واحدة ، (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا)

(سورة الأعراف)

تملك أن تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فينتهي دور الشيطان ، لذلك قال الله تعالى :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

كائن قوي ، ومعك سلاح فتاك ، ولا يملك مثل هذا السلاح ، عن بُعد شديد تصوب نحوه فتقتله ، انتهى الأمر ، هكذا الشيطان . أيها الإخوة ، لكن حينما قال :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف الآية : 28)

4 – إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ

الشيطان كيده ضعيف ، والمرأة كيدها عظيم ، لأنك بحاجة إليها ، ولأن جزء من كيانك متعلق بها ، لذلك تعرف كيف تُضعف من تعلق بها ، ولا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا كان حراً من كل الشهوات ، لا أقول : أن لا يقبل عليها بالحلال ، لا ، ليس هذا هو المعنى ، لكن :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

تعس عبد الفرج ، وبالمقابل سعد عبد الله ، عبد الله حر ، يتزوج ، ويُكرم بزوجة ، تسره إن نظر إليها، وتطيعه إن أمرها ، وتحفظه إن عاب عنها ، ولكن ليس عبداً لها .

صحابية ضغطت على زوجها من أجل حاجة دنيوية ، فقال زوجها الصحابي الجليل : << اعلم أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداها على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهم من أجلك >> .

فلذلك :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

وبالمقابل :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ

ثم يقول الله عز وجل :

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأعراف)

1 – ما هي الجنة المقصودة في هذه الآية ؟

أية جنة هذه ؟ هناك من يظن أنها جنة الآخرة ، جنة الآخرة من خصائصها أن من دخلها لا يخرج منها ، والدليل :

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر)

وجنة الآخرة تأتي بعد التكليف ، لا قبل التكليف ، وكلمة جنة يعني مكان محجوب عن الآخرين ، منها المِجنّ .

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ)

(سورة الأنعام الآية : 76)

والمجن هو الترس ، والجنة لا يطلع من كان خارجها على ما فيها ، فأي مكان جميل محاط بأسوار هو جنة ، على كلٍ أكثر المفسرين على أن الجنة التي كان فيها آدم عليه السلام هي جنة في الأرض ، والذي يتوهم أن البلاء كله من حواء التي أغرته بأكل التفاحة من الشجرة فاستحق هو وزوجته أن يخرجا هذا كلام مضحك ، لأن الله عز وجل يقول :

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة الآية : 30)

أنت أيها الإنسان مخلوق في الأرض ، وما كان آدم في الجنة إلا ليتلقى درساً بليغاً له ولذريته من بعده، الدرس البليغ :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً)

(سورة فاطر الآية : 6)

درس بليغ ، قد يكون في الأرض كذب ، لأن الشيطان قاسمهما :

(وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)

(سورة الأعراف)

كان كاذباً بهذا القسم ، فدرس كبير أن الشيطان عدو للإنسان ، ودرس آخر أن هناك شيء اسمه الكذب، وكذب الشيطان عليهم .

2 – الأرض موطن الامتحان :

على كلٍ أيها الإخوة ، أريد أن أبين أن الله سبحانه وتعالى جاء بآدم إلى الأرض ليمتحن فيها ، ومعه أوامر ونواهٍ ، افعل ولا تفعل ، مهمة الشيطان أن يوسوس لك ، وأن يغريك بالذي أمرت أن تفعله ألا تفعله ، ومهمة الشيطان أن يوسوس لك ، وأن يغريك بالذي نهيت على فعله أن تفعله ، هذه بشكل دقيق وموجز مهمة الشيطان أن يبعدك عن طاعة الله وأن يقربك من معصية الله ، أن يغريك بالدنيا ، وأن يزهدك بالآخرة ، أن تسير بعكس منهج الله ، أن تتفلت من منظومة القيم التي أرادها الله لك ، وقد يقول بعضهم ما معنى قوله :

(يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)

(سورة ق)

قال بعض المفسرين : إن الجنة تتسع لبني البشر جميعاً لو أنهم جميعاً آمنوا ، وأن النار تتسع لبني البشر جميعاً لو أنهم كفروا .

أحيانا يدعو إنسان مئة شخص ، ويهيئ مكانا لتسعين ، متوقعاً أن البعض لا يأتي ، لو أنهم جاءوا جميعاً ، وفاجئوه لم يكن مستعدا .

لكن الله سبحانه وتعالى يطمئننا أن الجنة تتسع لكل الخلق ، لو أنهم عرفوه ، وأن النار تستوعب كل الخلق لو كفروا .

أمرٌ ونهي لآدم وحواء :

1 – الأمر : فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا

أيها الإخوة ، الذي يلفت النظر ، قال تعالى : * فَكُلَا مِنْ * ـ من الجنة ـ * حَيْثُ شِئْتُمَا * ، يعني يا آدم ويا حواء كلا من الجنة

(حَيْثُ شِئْتُمَا)

هناك مئة نوع ، ألف نوع ، عشرة آلاف نوع ، مليون نوع ،

(فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا)

2 – النهي : وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

أما المحرم :

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

ونسبة الحلال إلى الحرام ملايين الأضعاف ، أو نسبة الحرام إلى الحلال واحد بالمليون ، كم نوعا من الشراب المباح في حياتنا ؟ والله أكثر من مئة نوع تقريباً ، وهناك أكثر مئة نوع من الشراب محرم الخمر ، كم نوعًا من اللحم أبيح لنا ؟ والله مئات الأنواع ، المحرم لحم الخنزير ، ودائماً نسبة الحلال إلى الحرام أضعاف ، مئات الأضعاف ، ألوف الأضعاف ، بل ملايين الأضعاف ، الحرام في الأرض هو امتحان من الله .

وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ

الآن :

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ)

1 – هامش الأمان :

قد يُظن أنه أمِرا أن يأكلا من حيث شاءا ، ولا يأكلا من هذه الشجرة ، الآية ليست كذلك :

(وَلَا تَقْرَبَا)

أيْ يجب أن تدع بينك وبين المعصية هامش أمان ،

(وَلَا تَقْرَبَا)

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

(سورة الإسراء الآية : 32)

في الدنيا ، الزنا محرم ، لكن مقدماته محرمة أيضاً ، أن تتنزه في طرقات فيها غاديات ورائحات ، كما أن الزنا محرم أسبابه محرمة ، إطلاق البصر محرم ، التنزه في الطرقات ، فيها ملاحظة شديدة ، الحديث عن النساء ، صحبة الأراذل ، إطلاق البصر ، عدم التفريق بين الأولاد في المضاجع ، الاختلاط ، أن تقرأ قصة ماجنة ، أن تشاهد عملاً إباحياً ، كل المقدمات التي تقود إلى الزنا محرمة ، لأنه ما لا يكون الحرام إلا به فهو حرام ، ما يتوصل به إلى معصية فهو معصية ، من هنا جاءت الآية دقيقة :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

فالله عز وجل نهى آدم عن أن يقترب من الشجرة .

تماماً لو كتب وزير الكهرباء على بُعدٍ كافٍ من تيار التوتر العالي لوحة : " ممنوع الاقتراب " ، والتيار له مسافة معينة إذا دخل فيها الإنسان جذبه ، وأصبح فحمة ، فالإعلان الحكيم لا يكون : ممنوع مس التيار ، الإعلان الحكيم : " ممنوع الاقتراب من التيار " .

2 – الشريف من يفرّ من أسباب المعصية :

(وَلَا تَقْرَبَا)

لذلك من هو الشريف ؟ لا الذي يهرب من الخطيئة ، لكنه الذي يهرب من أسباب الخطيئة ، كجلسة لا تليق أن يكون فيها ، أو مكان لا يجوز أن يكون فيه نزهة ليست منضبطة ، حفل ليس منضبطاً ، لقاء مختلط ليس منضبطاً ، لا الحديث منضبط ، ولا الثياب منضبطة ، تجارة فيها شبهات كثيرة ، فإذا شاركت تاجراً لا يقدم عنده الأمر ولا يؤخر لا ينبغي أن تكون معه .

(وَلَا تَقْرَبَا)

أعطاك الاحتياط ، لذلك قال تعالى :

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة الآية : 187)

يجب أن تبقي بينك وبين كل معصية هامش أمان ، كأن المعصية نهر عميق وله شاطئان ، شاطئ زلق مائل ، وشاطئ مستوٍ جاف ، فالمشي على الشاطئ المستوي الجاف فيه أمان واطمئنان ، بينما المشي على الشاطئ المائل الزلق هناك احتمال كبير جداً أن يسقط الإنسان في النهر .

لذلك :

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ)

(وَلَا تَقْرَبَا)

إذاً : المؤمن يهرب من أسباب الخطيئة ، المؤمن يدع بينه وبين الخطيئة هامش أمان .

3 – وجوب الابتعاد عن الشبهات :

المؤمن يبتعد عن الشبهات .

((الحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ))

[متفق عليه عن النعمان بن بشير]

فمن ترك الشبهات فقد حصن نفسه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام .

أيها الإخوة ،

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ)

أيضاً قال تعالى :

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

(سورة الحج الآية : 30)

حتى في العقائد تجلس مع أناس عقائدهم زائغة ، ولا تستطيع أن تقنعهم ، ولا تملك الحجج القوية على ذلك ، فزينوا لك الباطل ، والانحراف ، والتفلت ، وإنكار الوجود الإلهي أن إن لم تكن قوياً تستطيع أن تدحض افتراءاتهم ينبغي أن تبتعد عنهم ، والمقياس في ذلك لعبة شد الحبل ، إن جلست معهم ومعك من القوة النفسية ، والحجة العقلية ، والأدلة الشرعية ما تشدهم إليك اجلس معهم لا مانع ، أما إذا كنت أضعف ممن تقنعهم بل أقنعوك ، إذا كنت أضعف ممن أن تجرهم إليك فجروك إليهم ، إذا كنت أضعف من أن تأتيهم بالأدلة فجاءوك بأدلة مضادة ، إذاً ولا تقربهم .

المؤمن يحتاج إلى حمية ، فقد يخاف على عقيدته من الشبهات ، وقد يخاف على سلوكه من الشهوات ، الشهوات لها مشكلة ، والشبهات لها مشكلة ، الشبهات عقدية والشهوات سلوكية .

(وَلَا تَقْرَبَا)

نحن أمام درس بليغ يتلقاه سيدنا آدم من ربه ، أولاً الحلال لا يعد ولا يحصى ، والحرام محدود .

ثانياً : العقائد أخطر شيء في حياة الإنسان ، فإن لم تكن متمكناً بأدلة عقلية ونصّيّة ، وإن لم تملك قوة نفسية فابتعد إلى أن تقوى .

فلذلك كما قلت قبل قليل : لعبة شد الحبل ميزان في أن تلتقي مع الآخرين ، وأن لا تلتقي ، إن شددتهم إليك فالتقي معهم ، وإن شدوك إليهم ابتعد عنهم .

ليست هذه الجنة بجنة الآخرة :

أيها الإخوة ،

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

يعني الجنة التي في الأرض ، لكن كان لهما طبيعة خاصة ، وقد يكون الإنسان له جسم وله نفس ، فإن كانت نفسه غلافاً لجسمه تستمتع بكل شيء من دون عبء .

للتقريب : إذا نظرت إلى تفاحة وصلتك لذتها ، أنت في الدنيا تأكل تفاحة ، تشتريها ، تغسلها ، تقشرها، تقطعها ، تأكلها ، تعضها أولاً ، تمضغها قبل أن تبلع اللقمة يضغط اللسان على اللقمة إلى سقف الحلق ، هناك أعصاب الذوق تشعر بطعمها ، لكنها دخلت إلى جوفك أصبحت عبئًا عليك .

أحيانا يأكل الإنسان أكثر من حاجته ، وهناك طعام غير جيد ، لكن هذا تحليل ظني .

لكن في الجنة كيف أن شعلة الشمعة محيطة بالفتيل ، في الجنة النفس محيطة بالجسد ، يمكن أن تأكل مليون تفاحة ، وأن تأكل في مليون وليمة دون أن تحس بالتخمة ، لأن النفس خارجية ، والنفس اتصلت اتصالا مباشرا مع هذه الأشياء الطيبة ، فاستمتعت بها دون أن يكون هناك جهاز هضم ، وفضلات ، وخروج ، وبول ، كل هذه المتاعب ليست في الجنة .

فالشيطان جاء دوره ، وعندنا دليل آخر ، إذا كانت هذه جنة الآخرة فكيف يكون الشيطان فيها ؟ أيضاً مستحيل ، جنة الآخرة تأتي بعد التكليف ، جنة الآخرة من دخلها لا يخرج منها ، أو لا يُخرج منا ، جنة الآخرة ليس فيها مكان للشياطين .

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)

(سورة الأعراف)

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ

1 – معنى الوسوسة :

أيها الإخوة ، وسوس أي همس سراً ، مزيناً أو مغوياً ، الواحد لو فرضنا اقترب من شخص قريباً جداً

، وشده إليه ، وأمسكه من ذقنه ، وأدار أذنه إلى فمه ، وقال له : اجتهد ، هذا كلام مضحك ، الاجتهاد لا يحتاج إلى همس ، قل هذه الكلمة بصوت مرتفع ، لماذا الهمس ؟ للمعصية ، لاختلاس الأموال ، لتلقي الأموال الباطلة ، بالإشارات درج مفتوح فقط ، الشيء الحرام لا يتم علانية ، يتم سراً ، هذا معنى وسوس ، والوسوسة فعل ثنائي مضعف ،(وس وسَ)(زل زلَ)(قل قلَ)(عس عسَ)

وسوس يعني ألقى في أذنه همساً مغرياً إياه بالمعصية الوسوسة لا تكون إلا بالشر .

2 – بين إلهام الملك ووسوسة الشيطان :

لذلك كمصطلح الملك يُلهم ، والشيطان يوسوس ، والحقيقة أنك مخير ، وأحياناً تأخذ وضعاً سكونياً ، يقال لك : تحرك ، إما أن تستجيب للملك فتأتي إلى المسجد ، وإما أن تستجيب إلى الشيطان فتذهب إلى الملهى ، تحرك فقط ، ليس هناك إسلام سكوني ، وكأن إلهام الملك ووسوسة الشيطان من أجل أن تتحرك .

الطالب في الامتحان لا يكتب ، يقول له المراقب : انتهينا ، إما أن تكتب أو اخرج ، وضع صعب جداً، أصعب وضع أنه لا يكتب ولا يخرج ، لا حرب ، ولا سلم ، هذا من أصعب الأوضاع .

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

(سورة طه)

فالشيطان وسوس ، همس مغرياً إياه بالمعصية ، والوسوسة بالشر ، إذاً أمُّنا حواء لم تكن السبب إخراجنا من الجنة لئلا تتهم ظلماً ، البشر في الأرض كلهم يتهمون أمنا حواء بأنها السبب ، الآية :

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا)

هي ضحية أيضاً

(فَوَسْوَسَ)

لا وسوست له :

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا)

هذه الآية واضحة ، فأمّنا حواء بريئة من هذه التهمة .

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا)

3 – تبعات الوقوع في المعصية :

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا)

أن يدخلا التفاحة إلى جوفهما ، إذا دخلت صارت في المريء ، وفي المعدة ، حيث الهضم ، والمرارة، والبنكرياس ، والأمعاء الدقيقة ، والأمعاء الغليظة ، والفضلات ، والخروج ، والروائح ، والحمامات ، هنا اختلف الوضع ، كان آدم وزوجته حواء يستمتعان بالجنة من دون أعباء ، من دون متاعب إطلاقاً ، فلما أكلا من هذه الشجرة انعكست خصائص فأصبحت النفس في الداخل ، والجسم في الخارج .

الإنسان بين طبيعة الحياة الأرضية وطبيعة الحياة الأخروية :

مثلاً : الإنسان في الجنة ، لو فرضنا الأرض كلها جنة ، ابنه في أمريكا ، خطر في باله ابنه ، فاطلع فرآه أين هو جالس ، أما لما تكون النفس داخل الجسم يحتاج أن يأخذ الفيزا ، وقد تستغرق شهرا أو شهرين ، ويركب طائرة عشرين ساعة ، وهناك وقفة في المطارات ، أصبح جسمه هو الأصل ، في الجنة النفس هي الأصل ، قال :

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

(سورة الصافات)

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

(سورة الصافات)

نظرة ، بالجنة أنت كلك أعين ، كلك آذان ، كلك مشاعر ، كلك أحاسيس ، أنت بالجنة تأكل ما تشاء ، وبأكبر كمية تشاء ، دون أن يكون الأكل عبئاً عليك .

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ)

لما وسوس لهما ، وأقنعهما بأكل التفاحة دخلت التفاحة إلى الجوف ، والنفس أصبحت في الداخل ، والجسم بالخارج ، وصار الطعام عبئًا ، وصار يحتاج إلى سعي ، أنت في الجنة لا تجوع فيها :

(وَلَا تَضْحَى)

(سورة طه)

في الدنيا جوع ، ويريد الإنسان أن يأكل ، إذاً : ينبغي أن يعمل ، ينبغي أن يخرج من البيت الساعة الخامسة صباحاً ، هناك عمل ، هناك جهد ، هناك مؤسسات ، هناك شركات ، هناك دوام ، هناك تأخر، هناك عقاب ، هناك عمل ثماني ساعات ، من أجل أن تأكل ، وأن تسكن في بيت ، وأن تتزوج ، أما نظام الجنة فنظام آخر ، نظام :

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

(سورة ق الآية : 35)

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا)

(سورة الإنسان الآية : 14)

نظام الجنة كل شيء بين يديك ، بل أغرب من ذلك على الخاطر ، كل شيء خطر في بالك تجده أمامك .

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

أما في الدنيا :

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق)

لا تستطيع أن تدخل بيت ، مفتاحه معك ، وهناك زوجة في البيت ، وعندك ولدان إلا بعد أربعين سنة من العمل ، والدراسة ، والتأسيس ، واشتريت بيتًا خمسين مترا ، شماليا ، لأن الحياة معقدة ، لذلك في الدنيا الكدح ، والجهد ، والمجاهد ، والتكليف .

لما أكل سيدنا آدم من التفاحة انعكست المقاييس ، كان الإنسان كما سيكون في الجنة ، كان الإنسان في جنة الأرض كما سيكون في جنة الآخرة ، فلما أكل التفاحة هو مخلوق للدنيا ، لا خطأ أبداً ، لكن الدرس أن الله علّم الإنسان أن الشيطان عدو له .

لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا

أيها الإخوة ، ليس في الجنة عورات ، لأنه لا خلاف لمنهج الله ، وفي الدنيا عورات ، العورة فتحة ، المشكلة لا في الفتحة بل بما يخرج من الفتحة ، هذه عورة أساسها نظام الدنيا الذي يختلف عن نظام الآخرة .

ذكاء الشيطان في الوسوسة :

دائماً هناك نقطة دقيقة ؛ أن الشيطان حينما يغوي بني آدم يغويه بذكاء ، فالشيطان وسوس لهما

(لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ)

إن أردت أن تكون ملكاً ، وأن تكون خالداً في هذه الجنة فكُلْ من هذه الشجرة ، وليس هناك تجربة سابقة لآدم بالكذب ، آدم ما صدق أن مخلوقاً من مخلوقات الله يقسم كذباً ، أول يمين كذب في تاريخ البشر يمين إبليس :

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ

(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

(سورة الأعراف)

أقسم لهما أنكما إذا أردتما أن تخلدا في الجنة فكلا من هذه الشجرة .

(إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ)

أحياناً يقول لك : أخوك ناصحك ، افعل هذه المعصية ، استمتع بالحياة ، الدنيا مؤقتة .

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

***

ناصحك بقوله :

(إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ)

(فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ

1 – معنى : دلاّهُما :

يعني دليت الشيء ؛ أنزلته ، دلاّهما ؛ أي أسقطهما في المعصية ، واسأل كل إنسان تورط في معصية ، تأتيه موجة كآبة بعد المعصية لا يحتملها ، لأن الإنسان حينما يعصي الله يحس بكآبة ، بجفاء ، ببعد .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ)

إذاً : دلاّهما أنزلهما بالمعصية .

2 – بغرور :

بغرور يعني مرة تلوى المرة ، إلى أن استجاب هذا الإنسان ، وكل المعاصي والآثام تبدأ بالوسوسة ، والإلحاح ، والتزيين ، والإغراء ، والتحميس .

فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا

(فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا)

كما قلت : لقد اختلف الوضع ، كانا بنظام فأصبحا بنظام آخر ، كانا بنظام يشبه نظام الجنة ، فلما أكلا من هذه الشجرة انعكست هذه الآية فأصبحا بنظام يشبه نظام الدنيا .

1 – ما هي السوءة ؟

(بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا)

والسوءة سميت سوءة لأن منظرها يسيء لصاحبها ، لو أن الإنسان كُشفت سوأته يتألم أشد الألم ، لذلك من بعض أنواع العقاب الذي لا يحتمل أن يجرد الإنسان من ثيابه ، كما فعل من جاءوا إلى العراق من أجل الديمقراطية ، في سجن(أبو غريب) من أشد أنواع العقوبات أن يُعرى الإنسان من ثيابه .

2 - الأصل في المؤمن السترُ وفي الكافر التعرّي :

لذلك دائماً أهل الإيمان يدعون لمزيد من الستر ، وأهل الكفران يدعون إلى التعري ، التعري يرافق الفسقة والفجار ، والتستر يرافق المؤمنين الأطهار . لما

(بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا)

أصبحا مضطرين أن يخصفا ، أن يأخذا شيئاً ، أن يقطعان شيئاً ليسترا بهما شيئاً لا يليق أن يظهر .

(وَطَفِقَا)

بدآ

(يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ

وجاء النداء الإلهي :

(وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)

الدرس الخالد والقاعدة المطردة : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ

هذا هو الدرس الخالد للبشرية إلى يوم القيامة ، أنت بين وسوسة الشيطان ، وإلهام الملك ، الملك يقول لك : لما أُمرت أن تفعله افعل ، ولما نُهيت ألا تفعله لا تفعل ، ويقول لك الشيطان : لما أُمرت أن تفعله لا تفعل ، لا تصلي ، لا تحضر الدرس ، إنه كلام مُعاد ، اجلس ، اجلس ، تابع المسلسل الفلاني ، لما أُمرت أن تفعله يقول لك : لا تفعل ، ولما نُهيت أن تفعله يقول لك : افعل ، هذه مهمة الشيطان .

فالله عز وجل عاتبهما وقال :

(أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(سورة الأعراف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(10-60): تفسير الآيات 23 - 25
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-03-02

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس العاشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثالثة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

حقائق مهمة مستنبطة من الآية :

الحقيقة الأولى : العاصي لله ظالمٌ لنفسِه :

أيها الإخوة ، الحقيقة الأولى أن الإنسان حينما يعصي ربه هو في الحقيقة يظلم نفسه ، يحرمها من السعادة ، يحرمها من القرب ، يحرمها من التوفيق ، يحرمها من النجاح يحرمها من الأمن ، يحرمها من الحكمة ، يحرمها من الرضا ، يحرمها من تحقيق الهدف الذي خُلقت من أجله .

الحقيقة الثانية : العاصي لله خاسرٌ :

الذي يعصي الله خاسر ، ومستحيل ألف ألفِ ألف مستحيل أن تعصيه وأن تربح ، ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر :

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا)

أيْ يا عبادي :

((أنا خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن قدرت على يده الخير ، وويل لمن قدرت على يده الشر))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس]

الحقيقة الثالثة : الإنسان خَلَقه الله الخبير الحكيم :

الإنسان الذي خلقه هو الخبير ، هو الصانع الحكيم ، هو الجهة الوحيدة التي تنبغي أن تتبع تعليماتها ، أنت حينما تقتني آلة غالية الثمن ، عظيمة النفع ، دقيقة الصنع ، ومعها تعليمات الصانع ، أنت انطلاقاً من حبك لذاتك ، من حرصك على سلامتك ، من حرصك على سعادتك تطيع تعليمات الصانع .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سورة فصلت الآية : 46)

الحقيقة الرابعة : الخطأ من طبيعة البشر :

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

كأن الله سبحانه وتعالى حينما ركب الإنسان من عقل وشهوة طبيعي جداً أن يخطئ ، ولكن العار لا أن تخطئ العار أن تبقى مخطئاً ، ليس العار أن تكون جاهلاً ، ولكن العار أن تبقى جاهلاً .

الحقيقة الخامسة : التوبة النصوح تمحو الذنب :

إذاً : حينما أودع الله فينا الشهوات أودعها كي نسمو بها إلى رب الأرض والسماوات ، فلو زلت القدم فالصلح حاصل ، والتوبة ممكنة ، والعفو ممكن ، والمغفرة ممكنة ، والرجوع إلى الله ممكن .

عَنْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[أخرجه الترمذي]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر الآية : 53)

للتقريب : عند إنسان مركبة غالية جداً ، والمركبات بأربعين مليونًا ، أمسك مطرقة ، وكسر بلورها ، وثمنه مئة ألف ، مَن ضرّ ؟ مَن أغضب ؟ مَن استفز ؟ ضر نفسه ، وأغضب نفسه ، وخسر نفسه .

الحقيقة السادسة : أوامر الشرع ليست قيداً للحرية :

حينما تؤمن أن أوامر الشرع ليست قيداً لحريتك ، ولكنها ضمان لسلامتك ، العلاقة بين الأمر والنهي علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، الأمر نفسه في نتائجه والنهي نفسه في نتائجه ، فإذا وضعت لك الحكومة لوحة أمام خط التوتر العالي ممنوع الاقتراب ـ دقق ـ من هو الأحمق ؟ الذي يريد أن يعصي التعليمات ، وهو يتأكد ليس هناك شرطي يراقبه ، التيار يعاقبك ، التيار يجعل المقترب منه فحمة سوداء بعد دقيقة ، وحينما تقول : هل أحد يراني ؟ تكون حمق ، لأن التيار نفسه يعاقب .

لو كنتَ تقود مركبة شاحنة تحمل مئة طن ، وصلت إلى جسر كُتب عليه : " الحمولة القسوة عشرة أطنان " ، الأحمق يتلفت ، هل هناك شرطة ؟ لا ، الموضوع أعمق من هذا ، الجسر سوف يخسف بك، بعد قليل تكون في النهر .

حينما تؤمن أن العلاقة بين الأمر ونتائجه علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة تأتمر انطلاقاً من مصلحتك ، تأتمر انطلاقاً من حبك لسلامتك ، تأتمر انطلاقاً من حبك لسعادتك ، من حبك لكمالك ، من حبك لطمأنينتك لذلك :

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة البقرة)

هذا الفهم للدين ، فحينما ترى الأوامر والنواهي ليست قيداً لحريتك ، ولكنها ضمان لسلامتك تكون فقيهاً .

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا

أيها الإخوة ،

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا)

لكن لولا أن رحمة الله تمثلت في أنه تواب ، وفي أنه رحيم ، وفي أنه غفار الذنوب ، لكان وضع الناس صعب جداً ، لذلك قال العلماء : " ما أمرك أن تتوب إلا ليتوب عليك ، وما أمرك أن تستغفر إلا ليغفر لك ، وما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك " .

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء الآية : 27)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

(سورة البقرة الآية : 222)

أيها الإخوة ،

(قالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا)

لمجرد أن تعترف لله ، يا رب لقد ظلمت نفسي ، يا رب اغفر لي ، يا رب سامحني ، يا رب اغفر زلتي ، يا رب ، استر عورتي ، يا رب ارحم ضعفي ، يا رب أقلّ عثرتي ، يا رب اغفر زلتي ، يقول العبد : يا رب لقد تبت إليك ، ويقول الله : عبدي ، لقد قبلت .

(وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

الله غفور ، ورحيم ، وتواب ، ورؤوف ، ويحبنا ، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية :

((يا داود ، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إلي ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين))

[ورد في الأثر]

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

(قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

1 – معنى الهبوط :

أيها الإخوة ،

(اهْبِطُوا)

هذه واو الجمع ، آدم وحواء وإبليس ،

(اهْبِطُوا)

هنا الهبوط انتقال من مرحلة عليا إلى مرحلة دنيا .

2 – طبيعة النفس في الجنة :

سيدنا آدم كان في الجنة يأكل ما يشتهي من دون أن يدخل الطعام إلى جوفه ، يستمتع بكل ما في الجنة من دون أن يتأذى بها ، أما في الأرض حينما أصبح جسمه محيطاً بنفسه فلا يستمتع بالشيء إلا إذا أدخله إلى جوفه ، وإذا أدخله إلى جوفه فهناك جهاز هضم ، وفضلات ، وبراز ، وإذا شرب فهناك بول، لوجود دخول إلى الجسم ، وهناك نظام آخر ، نظام الجنة النفس محيطة بالجسم ، يمكن أن تأكل مليار تفاحة ، وأن تستمتع بطعمها دون أن تتأذى .

لذلك طبيعة الجنة من طبيعة خاصة ، وطبيعة الدنيا طبيعة خاصة .

(اهْبِطُوا)

كنت في حال :

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ)

(سورة ق : الآية 35)

في الجنة لمجرد أن تطلب شيئاً فهو أمامك ،

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

(سورة الحاقة)

أما حينما عصى آدم ربه ، وأكل من التفاحة بدت لهما سوآتهما .

إذاً : الآية الكريمة :

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

3 – الإنسان مخلوق للعيش على الأرض :

(اهْبِطُوا)

من حالة ، لكن لئلا تتوهموا أن الإنسان مخلوق في الأصل للجنة ، ولولا معصيته لما كان في الدنيا ، هذا وهم غير صحيح ، قال تعالى :

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة الآية : 30)

الإنسان مخلوق للدنيا ، ولكن حينما خلقه في الدنيا ، وكلفه حمل الأمانة ، أعطاه درساً بليغاً له ولذريته من بعده .

4 – طبيعة العيش على الأرض مقتضية للصراع :

حينما قال الله عز وجل قال :

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

دلّ على أن في الأرض صراعا ، وأنّ في الأرض حقًّا وباطلا ، وخيرا وشرًّا ، وجريمة ، وإحسانًا ، ورحمة وقسوة ، عدلا وجورا ، ومؤمنا وكافرا ، ومنافقا ، ومنتفعا بالدنيا ، ومؤمنا بالآخرة ، وإنسانا يتعلق بالقيم ، وإنسانا يتعلق بالمصلحة .

التصريحات دائماً : مصلحتنا فوق كل شيء ، في المصلحة غدر ، و نقض عهد ، وعدوان ، وحرب استباقية ، وجرائم تحت غطاء المصالحة ، أما المؤمن فهو إنسانُ مبدأٍ ، إنسان قيم ، إنسان أهداف نبيلة، والكافر إنسان مصلحة ، إنسان حاجة ، إنسان ابتزاز .

إذاً : كلمة :

(بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

أي أنه لا بد من صراع في الأرض ، وكان من الممكن أن يعيش الطرف الآخر في كوكب آخر ، فلا حروب ، ولا صراعات ، ولا بدر ، ولا أحد ، ولا الخندق ، ولا فتح مكة ، كان من الممكن أن يعيش الكفار في كوكب آخر ، وكان من الممكن أن يعيشوا في قارة أخرى ، أو كان من الممكن أن يعيشوا في حقبة أخرى ، ولكن شاءت حكمة الله البالغة أنه أرادنا الله أن نعيش معاً على أرض واحدة ، مؤمن وكافر ، مستقيم ومنحرف ، رجل مبدأ ، رجل مصلحة ، صادق ، وكاذب ، هذا الاجتماع بين الطرف الأول والطرف الآخر من نتيجته الحتمية صراع مستمر .

إذاً : معركة الحق والباطل ـ دققوا ـ معركة أزلية أرادها الله ، لأن الحق لا ينمو إلا بالتحدي ، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالتضحية ، فقد أعطانا الله فرصة أن نضحي ، وأن نصارع ، وأن نتحمل العدوان ، والكفران ، والمعارضة ، والتآمر .

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(سورة التوبة الآية : 71)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(سورة الأنفال الآية : 73)

وطّنوا أنفسكم أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، وأن هذه المعركة قدرنا ، والله عز وجل معنا ، ولن يترنا أعمالنا ، وهو يؤيدنا ، وينصرنا .

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ)

(سورة محمد الآية : 4)

كي نمتحن ، دخول هذا الصراع ثمن الجنة ، والذين وقفوا مع النبي عليه الصلاة والسلام ، والذين وقفوا ضده ، ما المصير ؟ النبي انتصر ، وأصحابه انتصروا ، وأصحابه في أعلى عليين ، والذين ناصبوه العداء في مزبلة التاريخ .

إذا ذكرنا أبا بكر نقول : رضي الله عنه ، إنه سيدنا ، إذا ذكرنا عمر : رضي الله عنه ، سيدنا ، وإذا ذكرنا عدو الله أبا جهل نقول : لعنه الله .

5 – إيَّاك أنْ تكون في خندق مُعادٍ للحق :

القضية واضحة جداً ، لذلك عد للمليار قبل أن تكون في خندق معادٍ للحق ، إن كنت في خندق معادٍ للحق فهل تعلم من الطرف الآخر ؟ الله عز وجل ، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ قَالَ :

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ...))

[البخاري]

إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تكون في خندق مناهض للحق .

ما الدرس الذي تلقاه آدم ويجب أن تأخذه ذريته من بهده ؟ أن تجربة آدم عليه السلام في الجنة من أجل أن يعرف نتائج المعصية ، ومن أجل أن يعرف ما أعد الله له بعد الدنيا من جنة ، هذا نموذج ، والمعصية سبب الشقاء .

لذلك الدرس البليغ معنى الطاعة الجنة ، معنى المعصية الخروج منها ، معنى العداوة :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة فاطر)

هذا الدرس لآدم عليه السلام ولأمته من بعده إلى يوم القيامة .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)

وفي آية أخرى :

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً)

(سورة طه الآية : 123)

فائدة : بين (اهْبِطَا)و(اهْبِطُوا) :

الآية

(اهْبِطَا)

موجهة لآدم عليه السلام ولأمنا حواء ، أما الآية :

(اهْبِطُوا)

موجهة إلى آدم عليه السلام وإلى أمنا حواء ، وإلى إبليس معاً ، لكن هذا الصراع ليس أبدياً ، الآن كم ملة في الأرض ؟ وكم دينا ، وكم طائفة ، وكم اتجاها ، وكم تيارا ، وكم عقيدة ، بالآلاف ، وكل فئة ، وكل طائفة ، وكل مذهب ، وكل دين يتوهم أنه على حق ، وأن الذين حوله على باطل ، من الذي يحكم بينهم في النهاية ؟ الله جل جلاله .

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة البقرة الآية : 113)

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

6 – كل شيء يُكشَف عند الموت :

الصراع ليس مستمراً ، الإنسان حينما يقترب من الموت تنكشف له الحقائق ، ينكشف له ما جاء به الأنبياء .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

أؤكد لكم أن كل إنسان على وجه الأرض من أي دين ، من أي مذهب ، من أي اتجاه ، من أي طائفة ، حتى لو كان ملحداً ، حتى لو كان مجوسياً ، أي إنسان عند الموت تكشف له الحقائق ، أوضح دليل ، أكفر كفار الأرض الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

حينما أدركه الغرق قال :

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سور يونس الآية : 90)

إذاً : خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط ، لا خيار قبول أو رفض ، إما أن نؤمن الآن ، ونحن في بحبوحة ، وأن ننتفع من إيماننا ، وإما أن نؤمن بعد فوات الأوان .

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ)

وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ

هناك أرض ، وعمر مديد ، وصيف وشتاء ، وربيع وخريف ، وطفولة وفتوة ، وشباب وكهولة ، وشيخوخة ، ثم الموت ، وهناك خير ، وشر ، وعمل صالح ، وعمل سيئ ، وحق وباطل ، وإخلاص وخيانة ، وعدوان وإحسان .

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ)

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

(سور الإسراء الآية : 84)

اعملوا ما شئتم .

(قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

إذاً : الصراع مِن قدر الله ، وهذا قدرنا ، هذه مشيئة الله لنا ، أحياناً الصراع بين أخوين ، أو بين زوجين ، الزوجة تريد الدنيا ، والزوج يريد الآخرة ، بين شريكين ، بين صاحبين ، بين أسرتين ، بين عشريتين بين قبيلتين ، بين شعبين ، بين أمتين ، بين حضارتين ، هناك صراع .

(قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

إلى حين الموت ، والموت يفصل بين الناس يوم القيامة ، والله عز وجل يفصل بين الناس يوم القيامة .

المعركة بين الحق والباطل بثمن باهظ :

أيها الإخوة ، هل هذه المعركة التي بين الحق والباطل معركة بثمن ، لا بلا ثمن ، بل بثمن فلكي ، بثمن باهظ ، حينما تأتي إلى الدنيا ، وتتجه نحو الحق ، وتتحمل عداوات الناس ، تتحول المكر ، والدهاء ، تتحول أحياناً الظلم ، لأنك مؤمن ، ماذا فعل أصحاب الأخدود ؟ ليس لهم ذنب إلا أنهم قالوا : ربنا الله ، فقط ، والآن المؤمنون في الأرض ما ذنبهم ؟ والله ولا ذنب لهم إلا أنهم مؤمنون ، يقول لك : تطهير عرقي في البوسنة والهرسك ، تطهير عرقي ، مكافحة الإرهاب ، أيّ إرهاب هذا ؟ والله الإرهاب الذي نراه ممن يحاربون الإرهاب يفوق حد الخيال ، يمكن أن تكون نتائج حرب مليون قتيل ، وسلاح فسفوري ، وسلاح كيماوي وسلاح دمار شامل ، ولا شيء عليهم ، أما إذا دافع الإنسان عن نفسه تقوم الدنيا ولا تقعد ، عشرون ألف أسير ، ودُمر بلد بأكمله ، هذا الحق والباطل واضح جداً ، الآن الباطل قوي جداً ، المعركة أزلية أبدية ، هذه قدرنا .

لكن اسمعوا الجواب : هذه المعركة لها ثمن باهظ ، لها ثمن فلكي ، جنة عرضها السماوات والأرض ، إلى أبد الآبدين ، هذا هو الثمن ، لذلك :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

الله عز وجل يوضح قال فيها ، أي في الدنيا :

(قالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

(سورة الأعراف)

فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ

1 – الموت مصير كل حي :

الموت مصير كل حي ، هناك إنسان يولد فيفرح الأهل به فرحاً كبيراً ، الحمد لله انه سليم ، مرة قال لي أحدهم : إذا جاءك مولود سليم معه مليون ليرة ، قلت له : كيف ؟ قال لي : ابن ابنتي جاء الشريان محل الوريد في القلب ، العملية تكلف 400 ألف ليرة ، والمستشفى 300 ألف والنقل إلى بيروت 50 ألفا ، قال لي : دفعت 750 ألف خلال ساعة ، لكنه حين يأتي سليما ، الآن يربى ، ينظف ، ويفرح به الأهل ، وحين تخرجوا أسنانه يفرحون ، يدخل الحضانة ، كل ما جاء ضيف ينادون ليقرا الفاتحة ، دخل الابتدائي ، ثم الإعدادي ، ثم الثانوي ، أخذ شهادة ثانوية ، دخل الجامعة ، أخذ الجامعة ، نريد وظيفة ، الآن الهم الوظيفة ، أربع سنوات في الجامعة والمقرر صعب ، والأستاذ أسئلته غير متوقعة ، وهذا متآمر ... وإلخ ، يلقي تهم على الأساتذة جزافاً أنه هو مقصر ، يتخرج ليظهر موضوع العمل ، يجد عملا مناسبا ، يريد زوجة ، هذه طويلة ، وهذه قصيرة ، وهذه مدخل البيت غير مقدر ، وهذه الأم صعبة ، متاهة طويلة عريضة ، تزوج فما أنجب ، هل السبب منه أم منها ؟ الله يعلم ، ثم أنجب طفل الأنبوب ، الآن تبدأ أعراض في جسمه على أن يُعلّق نعيُه .

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

(سورة الانشقاق)

هذا طريق إجباري لكل الناس ، لذلك :

(فِيهَا تَحْيَوْنَ)

ما هو الموت ؟ بوابة خروج ، إذا كنت بالمطار في بوابة ـ كيت ـ من هنا تخرج من هذا البلد بوابة 23 ، الله عنده كثير بوابات ، بوابة السرطان ، بوابة حادث سير ، بوابة خثرة بالدماغ كلها بوابات ، هذا مرض الموت بوابة .

(فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

تصور رجلا في النعش ، أذن المؤذن ، فتح النعش وحُمل ، وُضع في حفرة ، والله مرة حضرت تشييع جنازة المتوفى ـ رحمه الله ـ أعرف عنه قصصا على نظافته ، وعلى أناقته ، على أناقة بيته ، وجمال بيته ، وأناقة أجهزته ، وفرشه ، شيء يفوق حد الخيال ، البلاطة التي يسد بها القبر أقلّ من الفتحة بعشرة سنتيمترات ، فوضعوا أحجارا بشكل عشوائي ، وأهالوا التراب ، وقد نزل فوقه كيلوين من التراب ، سبحان الله .

أعرف رجلاً ثانيا ما شاء الله له معامل ، ومؤسسات ، وأموال منقولة ، وغير منقولة ، وبيت بأرقى أحياء دمشق ثمنه 110 ملايين ، وبيت بالمصيف ، وبيت على البحر ، وكل سنة رحلة في العالم ، فتح القبر بأيام مطيرة ، خرج منه مياه سوداء ، فلتت مياه المجاري عليه ، ابنه مهندس ، سألوه ، فقال : ضعوه ، ماذا نفعل ؟ يقول لي مدير معمله : ما أكلت أسبوعا ، هنا وضعوا معلمي ؟ .

(فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ)

2 – الحياة زمن مؤقت :

لذلك البطولة أن تعد للقبر ، هذا البيت مؤقت مهما اعتنيت به البيت موقت ، مهما اعتنيت به ، اسأل كم من إنسان كسا البيت لسنتين ، وما سكن فيه ، والبناء بأرقى أحياء دمشق في سبعة طوابق ، ولا سكن واحد بالبيت ، كلهم مات قبل استلام البيت ، البيوت كلها فارغة ، البيت الواحد بمئة مليون .

(فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

كل بطولتك أن تعد للقاء الله ، العمل الصالح ، الاستقامة ، الصلة بالله ، خدمة الناس ، الإخلاص ، إنفاق المال ، تربية الأولاد ، نشر الحق ، هذا كل بطولتك ، وأنت الغني الحقيقي .

إخواننا الكرام ، الغنى غنى العمل الصالح ، فقط ، هذا الغنى الحقيقي ، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح .

والله كنت مرة بحلب فأطلعوني على أرقى أحياء حلب ، والحقيقة أن هناك أبنية يصعب وصفها ، مهندسون أجانب ، والقصة في السنوات 74 قديمة جداً ، رأينا بيتا كل الرخام فيه أونكس ، هذا أرقى أنواع الرخام ، القصة لما كانت الليرة السورية 3 ليرات تساوي دولارا ، فصاحب هذا البيت صاحب ذوق رفيع المستوى جداً ، فتوفي في الثانية والأربعين ، في وقت مبكر بمرض عضال ، ولحكمة أرادها الله كان طويل جداً ، والقبر كان أقصر من قامته ، فلما وضع في أرض القبر دفعه الحفار في صدره حتى صار مائلا ، لا إله إلا الله ، من قصرِ الآن يساوي 700 مليون ، صاحب هذا القصر كان القبر أقصر من طول قامته ، فكان بوضع خاص .

الموت عبرة ، الموت أكبر عبرة لنا جميعاً ، فأنت كطالب علم ، لك أن تنال شهادة ، وأن تعمل ، وأن تتزوج ، لكن لا تنسى أن الله ينتظر عملك الصالح ، وأن البطولة أن تلقى الله ، وأنت مستقيم على أمره، وأنت محسن إلى خلقه ، وأن مالك حلال .

(فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

لذلك :

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّات))

[رواه مُحَمَّدِ بْن عَمْرٍو عَنْ أبـي سَلَمَة عَنْ أبـي هُرَيْرَة]

مفرق الأحباب ، مشتت الجماعات .

((عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي ، والحاكم ، والبيهقي ، عن علي]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ ، يَعْنِي الْمَوْتَ))

[أخرجه ابن ماجه]

ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود والتزود بسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور .

3 – هل لك جواب عن سؤال الله ؟

قبل أن تتكلم قبل أن تغضب ، قبل أن ترضى ، قبل أن تبتسم ، قبل أن تتجهم قبل أن تعطي ، قبل أن تمنع ، قبل أن تصل ، قبل أن تقطع ، هل هذا العمل يرضي الله ، لو أن الله سألني لماذا طلقتاها ؟ معك جواب ؟ لماذا أعطيت ابن فلانة التي هي زوجتك بيتاً ، ولم تعطِ ابن الزوجة الثانية ؟

" إن الرجل ليعبد الله ستين سنة ثم يضر بالوصية فتجب له النار " .

قبل أن تخص الذكور بمالك وتحرم البنات ، هل معك لله جواب ؟ قبل أن تخرج شريكك من الشركة ، وله حق فيها مثلك ، لكن المحل باسمك ، أنت أقوى منه ، فأخرجته وضايقته ، وأهنته ، قال لك : نفك الشركة ، أعطيته ، والمحل بقي لك ، قبل أن تفعل هذا هل هيأت لله جوابا ؟ قبل أن تطلق هذه المسكينة التي قبلت بك فقيراً ، وعاشت معك على المر والحلو ، فلما تضخمت مكانتك ، وازداد مالك أهملتها ، وتزوجت غيرها ، ولم تعبأ بها ، هل هذا جزاء الإنسان ؟ هل عندك جواب عن كل شيء تفعله ؟ هذا المبلغ الذي أخذته هل يرضى الله عنه ، هل أخذته حلالاً .

إخواننا الكرام :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْقَاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَةٌ يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

هناك رجل في مصر غني جداً وتوفي ، سمع أولاده من بعض العلماء أن أول ليلة هي أصعب ليلة ، فرَجَوْا إنسانا فقيرا يموت من الجوع ، قالوا له : خذ عشر جنيهات ، ونمْ معه أول ليلة ، مبلغ كبير له ـ طبعاً القصة رمزية لا تصدقوها ـ جاء منكر ونكير فوجدوا اثنين ، سمع صوتا فحركوا رجله ، هذا حي، وليس ميتا ، تعال نبدأ فيه ، أجلسوه ، مِن شدة فقره كان لابسا كيس خيش ، فتحه من فوق ليخرج رأسه منه ، ومن أطرافه نبقت يديه ، وربطه بحبل بدؤوا بالحبل : مِن أين أتيت به ؟ قال لهم : من بستان ، تركوا البستان ، كيف دخلت البستان ؟ ما عرف كيف يجيب ، الآن كيف دخل ، بعدها الحبل ، بعدها كيس الخيش ، هذا بعد التحقيق والقتل والضرب صباحاً خرج من القبر ، وقال : الله يعين أباكم .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الآية أوضح :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ *وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

هذه الآية تكفي ، جاء أعرابي إلى النبي الكريم فقال له : عظني ، ولا تطل ، فتلا عليه هذه الآية ، فقال كفيت ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقه الرجل ، أصبح فقيهاً .

أعرابي راعي غنم بسيط ، ثقافته محدودة ، ما عنده كمبيوتر ، ولا عنده مكتبة ضخمة ، ولا حضر مؤتمرات إطلاقاً ، وثقافته محدودة ، قال له ابن سيدنا عمر : بعني هذه الشاة ، وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال له : قل لصاحبها : ماتت ، أمرٌ سهل جداً ، قال ليست لي ، قال له : خذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال له : خذ ثمنها ، قال له : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب ، فصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟ هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين ، وهذا هو الفقيه .

إذا قلت : أين الله فأنت مؤمن وربِّ الكعبة ، لما تؤدي الحقوق ، تقوم بواجباتك ، تأخذ الذي لك فقط ، أنت مؤمن ورب الكعبة ، أما الآن فهناك مظاهر دينية صارخة ، وأكل مال حرام مخيف ، هذه المشكلة.

في درس قادم إن شاء الله نتابع قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(11-60): تفسير الآية 26 ، أنواع السوءات وأنواع اللباس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-03-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السادسة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

نداءٌ عامٌّ إلى البشرية : يَا بَنِي آدَمَ

درسٌ بليغ لآدم عليه السلام وذريته : عداوة إبليس :

أيها الإخوة ،

(يَا بَنِي آدَمَ)

كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يذكرنا بالدرس البليغ الذي تلقاه آدم ، أراد أنه يذكرنا بدرس سيدنا آدم مع الشيطان ، وكيف أن هذا الدرس أراده الله لآدم ولذريته من بعده .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً)

(سورة فاطر الآية : 6)

كيف أن هذا الدرس أشار إلى أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية قال :

(اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

(سورة الأعراف الآية : 24)

درس بليغ في الأرض حق وباطل ، خير وشر ، جمال وقبح ، عدل وجور إحسان وإساءة ، أهل الدنيا القبابلة مع القوة ، والإساءة ، والدنيا ، وكفروا بالآخرة ، وأهل الإيمان مع الكمال ، والإحسان وآمنوا بالآخرة .

الله عز وجل في قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ)

يذكرنا بالدرس البليغ الذي تلقاه آدم من ربه ، لأن آدم عليه السلام كان في جنة برأي معظم العلماء في الدنيا ، لأن جنة الآخرة تأتي بعد التكليف ، بينما جنة الدنيا الذي كان فيها آدم كانت قبل التكليف ، لأن جنة الدنيا يمكن أن يخرج منها المرء ، لكن جنة الآخرة :

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر)

إذاً : قوله تعالى :

(يَابَنِي آدَمَ)

أي أراد الله عز وجل منا من خلال الخطاب :

(يَا بَنِي آدَمَ)

أن يذكرنا بالدرس البليغ الذي تلقاه قبل أن يأتي به إلى الدنيا ، ليكون في الدنيا هذه الاثنينية ، الحق والبطل ، الخير والشر ، الإحسان والإساءة ، الصدق والكذب .

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ

1 – معنى : أَنزَلْنَا

أنزلنا أي ؛ أنزلنا المطر من السماء ، وهذا المطر الذي نزل من السماء ، ومن بعض أنواع النباتات ما صنعت منه الخيوط ، ومن الخيوط ما صنعت به النسج ، ومن النسج كان لباسنا .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا)

2 – أولُ معصية كانت بنزع الثياب :

أول معصية عُصيت في عالم البشر هو نزع الثياب .

(يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا)

(سورة الأعراف الآية : 27)

3 – إبليس يسعى دائما إلى كشف العورات ، والمنهج الإلهي يدعو إلى الستر :

إذاً : عندنا شيء اسمه ستر للعورات ، وكشف للعورات ، إبليس ومن لفّ لفّه وأتباعه إلى يوم القيامة مع كشف العورات ، والوحي الإلهي ، والإرادة الإلهية ، والمنهج الإلهي ، مع ستر العورة .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ)

لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ

1 – ما هي السوءة ؟

أيها الإخوة ، الحقيقة السوءة هي العورة المغلظة ، واللباس يواري السوءة ، وهذا اللباس أراده الله عز وجل ، لأنه صنع من مواد هي من خَلق الله عز وجل .

2 – أشياء خلقها الله للإنسان خاصة :

أحياناً تدرك يقيناً أنّ هذا الشيء خُلق من أجل هذا الشيء ، أحياناً تجد نباتا أخضر ، لا يزهر ولا يثمر، هو فقط من أجل أن ترى منظراً أخضر اللون ، هناك شجرة من أجل أن تكون ظلاً ، أوراق دائمة ، أوراق منمنمة ، كثيفة ، مطبقة ، على شكل دائرة ، والجذع مستقيم ، تدرك أنه هذه الشجرة إنما صممت من أجل أن تكون ظلاً للإنسان ، لو جُلت جولة فكرية في خَلق الله عز وجل لوجدت أن الشيء قد تفهمه بوظيفته ، وهناك أشياء خلقها الله خصيصى للإنسان ، هذا باب كبير في التفكر .

الماء :

لماذا هذا الماء فيه خاصة يتميز بها ، أنك إذا بردته إلى درجة زائد أربع يزداد حجمه فتقلّ كثافته ، فيطفو ، لولا هذه الخاصة لما كان هذا الدرس ، ولما كانت حياة على سطح الأرض .

مادة مضادة لتجمد العين :

لماذا في ماء العين مادة مضادة للتجمد ؟ لولا هذه الخاصة كل إنسان دخل في جو تحت الصفر يفقد بصره .

أنت تشعر أحياناً أن هذا الشيء خُلق خصيصى لهذا الشيء ، لذلك النباتات التي تحاك منها الخيطان ، القطن ، الكتان ، هذه النباتات مصممة كي تصنع قماشاً نرتديه ، اللؤلؤ من أجل أن يكون زينة للنساء ، اللحم من أجل أن يأكله الإنسان طرياً .

حينما تجول بفكرك في هذا الكون الواسع ترى أن كل شيء له سبب ، وله غاية ، وأن العقل يرفض التناقض ، وهذا هو التفكير الصحيح .

إذاً : حينما قال الله عز وجل :

(يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ)

المطر من السماء ، فأنبت نباتاً ، من أنواع النبات القطن ، والكتان ، وما شاكل ذلك ، هذا النبات تصنع منه الخيوط ، والخيوط تكون نسيجاً ، والنسيج يصبح ثياباً نرتديها ، فنستر به سوآتنا .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ)

لكن إبليس كما وصفه الله عز وجل :

(يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا)

البشر بين التعرّي والستر :

لذلك العالم الآن عالم مقسوم قسمين ، عالم التعري وعالم الحجاب ، المسلم المرأة محجبة الرجل ثيابه فيها ستر ، فيها حشمة لا يظهر فخذه للناس ، قد تزور بلد أوربي تلتقي مع مدير عام يرتدي بنطال قصير إلى أعلى الفخذ ، طبيعي جداً ، النمط الغربي نمط تعرية ، والمنهج الإلهي منهج ستر ، لأن في التعرية إثارة ، ومع الإثارة فاحشة ، ومع الفاحشة فساد ، ومع الفساد ضياع ، ومع الضياع شقاء ، وبعد الموت جهنم ، وقد بدأتْ أول معصية عُصي بها الله في الأرض بكشف العورة .

لذلك الآباء المربون الذين يحرصون على سلامة أخلاق أولادهم قد لا يخلع أحدُهم ثيابه أمام ابنه ، وهذا الأصح ، والأولى ، والأوجب ، لا يمكن لأب مؤمن طاهر أن ينزع ثيابه أمام أولاده أبداً ، الله أمرنا بالستر ، المرأة المسلمة مستورة ، مفاتنها لزوجها ، ولمحارمها لا لكل الناس .

ورأيتم كم من الفساد استشرى في الأرض حينما تعرت المرأة ، كم محطة فضائية بُنيت على عرض المرأة عارية ؟ كم موقع في الانترنيت إباحي ؟ أساسه عرض المرأة عارية ؟ كم في الطريق من فساد من فتاة تبرز كل مفاتنها للناس ؟ لذلك الستر والتعري صفتان تخصان المؤمنين الستر ، والتعري لغير المؤمنين .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ)

صدقوا أيها الإخوة أنّ المرأة التي ترتدي ثياباً محشومة واللهِ كأنها ملكة ، وأنت حينما ترى امرأة ترتدي ثياباً محتشمة كأنها أختك لا تفكر بشيء آخر ، أما حينما تبرز المرأة مفاتنها تنتقل من أنها امرأة إلى أنها متعة ، وفي هذا امتهان للمرأة

الآن هناك مسيرات في العالم الغربي أساس المسيرة احتجاج واعتراض واستنكار ، أن أي سلعة مهما كانت قليلة الشأن تروَّج عن طريق امرأة شبه عارية ، هذا من فعل إبليس ، التعري أول معصية ارتكبت في الأرض ، والمؤمن أبرز ما فيه الستر ، والصون والاحتشام .

فائدة في قوله : أَنْزَلْنَا

لكن هناك من قال : كلمة أنزلنا أي شيء نزل من السماء هو الخير ، وقد يكون في الإنسان دافع نحو السماء ، ودافع نحو الأرض ، الشرور تتأتى من أن يستجيب الإنسان لنداء الشهوة ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، لذلك الثياب تستر العورات قال تعالى :

(يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

وَرِيشًا

الريش هو ما يكسو جلد الطائر ، والريش جميل ، وكان بعض الملوك يضعون ريشة على تاجهم ، والعوام استنبطوا من هذا أنه فلان (مرَيّش) ، يعني أنه يملك أن يشتري التحسينات ، الترف ، الأشياء الجميلة ، التي لا يحتاجها الفقراء ، فالريش معناه زينة ، والله عز وجل حينما قال :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل ،)

فكأن الزينة حاجة في الإنسان ، الإنسان يسكن في بيت ، لكن يستمتع في بيت مطلي بطلاء لطيف ، فيه ألوان جميلة .

هناك إنسان يرتدي ثيابا تستر عورته ، لكنه فوق ذلك يحبها ثياباً جميلة ، بألوان أنيقة ، وبألوان متناسبة ، فكأن الله سبحانه وتعالى أودع فينا حب الشيء الجميل ، وقد قالوا : الإنسان فطر على حب الجمال ، والكمال ، والنوال ، النوال ، وهو العطاء ، فكلّ واحد منا دون استثناء يحب الشيء الجميل ، يحب البيت الجميل ، يحب الثياب الجميلة ، يحب الأداة الجميلة ، يحب الآلة إذا كانت جميلة ، لذلك الآن قضية الجمال واضحة جداً في العالم ، فأيّ شيء له مظهر جميل ، هذا شيء ليس منافياً للفطرة ، لكن العالم الغربي بالغ بتجميل الحياة ، حتى أصبحت حياته مهوى للقلوب ، ونحن قصرنا كثيراً ، فلم نعبأ بتجميل بلادنا حتى نفر منها أبناءنا ، والجمال لا يحتاج إلى أموال طائلة ، بل يحتاج إلى ذوق ، وجنة المؤمن داره ، وأحياناً يكون الطلاء بسيطا ، ورخيصا جداً ، لكنه طلاء بلون زاهٍ ، والأثاث متناسب مع لون الطلاء ، وكل شيء في الغرفة مشتق من لون موحد .

مرة دخلت إلى صالة للأفراح وللتعزية ، لفت نظري تناسق ألوان عجيب ، فالإنسان يرتاح .

من قال لك : إن الإنسان ينبغي ألا تكون حياته جميلة ؟ كن متأنقاً في ثيابك ، اختر ألواناً تناسبك ، اختر أدوات فيها مسحة جمالية ، هذه حاجة أساسية ، لا تنتقد الآخرين إذا أرادوا أن يكون الشيء جميلاً، هذه فطرة ، لكن ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة ، الجمال في البيت ، في المدخل ، في غرفة الضيوف ، في التناسق ، في الأزهار ، لكن أن تصل إلى الجمال عن طريق المعاصي والآثام فهذا لا يجوز .

المرأة جميلة ، لكن الله سبحانه وتعالى جعل لك لهذا الجمال طريقاً شرعياً ، أن تتزوج فقط ، والبيت جميل ، لكن جعل لك لهذا البيت الجميل طريقاً واحداً ؛ أن تعمل عملاً شريفاً ، وأن تكسب رزقاً حلالاً ، وأن تشتري بيتاً جميلاً ، أما أن تكون متعتك بالجمال على حساب دينك ، وعلى حساب مبادئك ، فهنا الخطأ ، وقد رسب من يفعل هذا بالامتحان .

إذاً :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

كل شيء خلقه لنا يحقق هدفاً وظيفياً وهدفاً جمالياً :

إذاً : الحاجات التي خلقها الله عز وجل تحقق هدفا وظيفيا ، وهدفا جماليا ، وأيُّ شيء الله عز وجل خلقه ، فالتفاحة فضلاً على أنها مغذية ، وفيها مواد سكرية ، وفيها معادن ، وفيها فيتامينات ، فضلاً على كل خصائصها ، وفضلاً على رائحتها الطيبة ، وطعمها الطيب ، ومنظرها الجميل ، أحياناً هناك لوحات فنية فيها فواكه ، تفاحة جميلة جداً ، الموز جميل ، الأجاص جميل ، العنب جميل ، الله عز وجل علمنا أن كل شيء خلقه لنا يحقق هدفاً وظيفياً وهدفاً جمالياً .

فلذلك الجمال مطلوب ، والمؤمن جميل ، ويحب الجمال ، لكن يحب وفق منهج الله ، ولا يحيد عن منهج الله قيد أنملة .

كان عليه الصلاة والسلام إذا مشى يُعرف بطيب الرائحة .

كان عليه الصلاة والسلام يرتدي أجمل ثيابه في المناسبات والأعياد .

كان عليه الصلاة والسلام له ثياب يرتديها إذا لقي الوفود ، وفي خطبة الجمعة .

أنا أتمنى ، وهذه مناسبة ألاّ نبتعد عن الجمال ، ألا نجعل بلادنا ليست جميلة ، تجد الطرقات ليست جميلة ، لأن الانتماء فردي ، البيوت جميلة جداً ، أما الطرقات فغير جميلة ، ليس هناك انتماء جماعي، أن هذا الشيء يخرش منظره ، قد يضع أشياء لا يحتاجها في الشرفة ، ومنظر الشرفة فيها أشياء قديمة

مكسورة ، معطوبة ، لا يهمه ذلك ، البيت جميل من الداخل ، فيه أناقة ، وجمال ، لكن الشرفة هذه للناس ، يضع فيها أشياء ليست مقبولة ذوقاً .

إذاً :

(قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

إنسان بلمسات خفيفة يجعل بيته جنة بلمسات خفيفة ، مسمار عليه شريط ، منظره غير لائق ، يقلع المسمار ، ويضع مكان الثقب معجون فصار المنظر جميلا ، والأشياء الدقيقة يمكن أن تطفي على الإنسان شعوراً بالجمال .

أنا لست مع أن نكون أتقياء ، وبلادنا غير جميلة ، بيوتنا غير جميلة ، تدخل إلى صيدلية أحياناً فيها أناقة ، وفيها نظافة ، وفيها نظام يلفت النظر ، وصيدلية أخرى الأدوية فوق بعضها ، الغبار ، يا لطيف شيء لا يحتمل ، فالنظافة من الإيمان ، والأناقة من الإيمان والأشياء الجميلة من الإيمان ، وهذه آية قرآنية :

(قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

المعنى الواسع للسوءات : السوءات الأخلاقية :

لكن هناك سوءات أخرى ، هناك سوءات فكرية ، إنسان جاهل ، هناك سوءات أخلاقية ، كالكاذب ، والمخادع ، والمنافق ، والمستكبر .

صدقوا أيها الإخوة كما أنك تتقزز من منظر قبيح ، من ثياب قذرة ، من ثياب متنافرة في ألوانها ، كما أنك تتقزز من مركبة لم يفكر صاحبها أن يغسلها من سَنة ، كما أنك تتقزز من بيت فيه حاجات غير منسقة غير مرتبة ، قبيحة المنظر ، فوضى ، ليس هناك نظام ، ولا ترتيب ، المؤمن يتقزز من كلمة بذيئة ، من مزاح رخيص ، من مزاح جنسي ، من كِبر ، من استعلاء ، من نفاق ، من إنسان ذي وجهين ، هذه سوءات ثانية ، والله لا أبالغ لعل السوءات الثانية أشد إيلاماً للنفس من السوآت الأولى .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ)

والإنسان أيها الإخوة من دون ثياب منظره يدعو للتقزز ، ولحكمة بالغةٍ بالغة قد أنزل الله علينا هذه الثياب ، بالتعبير العامي الدارج : " الإنسان نصفه عروق ، ونصفه خروق " ، كلام يقوله عوام الناس، فالله عز وجل قال :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

هناك أشياء جمالية ، البيت بيت ، والبيت دافئ ، لكن ما فيه جمال ، فيه مدفأة غير منظفة ، مثلاً ، فيه صحن يؤدي الوظيفة ، لكن أكل عليه الدهر وشرب ، منظره مقزز ،

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

لكن الكذب سوءة ، النفاق سوءة ، الكبر سوءة ، المزاح الرخيص سوءة ، المزاح الجنسي سوءة ، الوقاحة سوءة ، هذه سوءات النفس ، لباس التقوى يواري سوءات النفس ، وسوءات الجسد تسترها الثياب ، وسوءات النفس تسترها التقوى ، تجد المؤمن بأدبه ، بتواضعه ، بطريقة جلوسه ، بطريقة حركته ، بطرقة كلامه ، بحركاته ، بسكناته ، مؤدب ، يمشي بأدب خافض الطرف ، لا يستعلي على الناس ، لا يحرج من حوله ، لا يحمِّر الوجوه ، لا يصطاد في الماء العكر ، ليس قناصاً ، هذا جمال الأخلاق ، كما أن المؤمن قد يكون حسن الصورة وأفعاله أيضاً جميلة ، لذلك :

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس

***

كما أن هناك جسما جميلا ، هناك فعل جميل ، كما أن هناك بيتا جميلا هناك بطولة جميلة .

والله أيها الإخوة ، البطولات التي نقرأ عنها في التاريخ القديم والحديث تبقى طرباً من قراءتها أسابيع ، لذلك قالوا : إن في الإنشاد إرشاداً ، وإن في الإرشاد إنشاداً ، أحياناً تطرب لفكرة جميلة ، لتحليل جميل، لعقيدة صحيحة ، تطرب لتفسير آية رائع فالجمال جمال النفوس أحياناً .

لذلك :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

كل فعل الله عز وجل فيه أداء لوظيفة أساسية ، وأداء لوظيفة جمالية .

أنت ما مهمتك أيها الإنسان ؟ إذا قدمت شيئاً قدمه بغلاف جميل ، إذا أردت أن تنصح إنساناً فانصحه بكلام جميل ، بكلام لطيف ، بكلام متواضع .

اللباس الحسن ليس من الكِبر :

يجب أن يكون الجمال منهجاً في حياتنا ، جمال الشكل والنظافة ، والأناقة ، والانسجام ، وجمال الأفعال ، والمؤمن جميل ، لأن الله جميل يحب الجمال .

يا رسول الله ، إن أحدنا يحب اللباس الحسنة ، هل هذا من الكبر ؟ قال :

((لا ، الكبر : من بطر الحق وغمط الناس))

[أخرجه أبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

الكبر أن ترفض الحق ، وأن تبخس الناس أشيائهم هذا كبر ، أما أن يكون بيتك جميلا ، مرة ثالثة ، ورابعة ، وخامسة : أنا لا أقصد بالجمال الذي يحتاج إلى ملايين مملينة .

والله مرة دخلت بيتا في الغوطة ، لفت نظري جمال بسيط جداً ، كل أصص النباتات بحجم واحد ، مطلية باللون الأخضر ، بقياس واحد ، هذا شيء جمالي ، طلاء بسيط جداً ، لكن بلون لطيف ، ما مِن حاجة غير مهمة في البيت كل شيء أساسي .

أحيانا ستار لطيف ، ألوان الستار تنسجم مع الأثاث ، وأحيانا السجادة ، الطقم أخضر ، والسجادة خمري ، فلا تناسب ، وأحيانا السجادة من لون الطقم تقريباً تعطي جمالا ، الجمال مطلوب ، مطلوب عند كل الناس ، وأنت بإمكانك أن تتنامى أذواقك ، حتى يكون البيت جميلا ، قد يكون خمسين مترا ، لكن فيه جمال ، قد يكون مركبة قديمة جداً ، لكن فيها جمال فيها أناقة ، هذا من قوله تعالى :

(وَرِيشًا)

والنقلة الثانية : كما أن هناك سوءة في الجسد عورة مغلظة ، منظرها قبيح ، هناك سوءة في النفس ، سوءة الجسد تسترها الثياب ، وسوءة النفس تسترها التقوى ، الاتصال بالله ، وطاعة الله ، واقتباس الكمال الإلهي ، أن تكون رحيماً ، أن تكون متواضعاً ، أن تكون حليماً ، أن تكون لطيفاً ، أن تكون شفوقاً ، أن تكون منصفاً أن تكون عدلاً ، والبطولات لا تنسى .

ذَلِكَ خَيْرٌ : كلُّ شيء أنزله الله من السماء فيه خير :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

كل شيء نزل من السماء هو الخير ، مثلاً الله عز وجل يقول :

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)

(سورة الزمر الآية : 6)

أيضاً المطر نزل من السماء ، والأرض أنبتت ذلك العشب ، والحيوان أكل هذا العشب ، فنمَا جسمه وتكاثر ، فكأن هذه الأنعام أنزلت علينا من السماء ، هذا المعنى الثاني :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)

(سورة الحديد الآية : 25)

إذاً : الكتاب ميزان ، الكتاب منهج ، الكتاب فيه افعل ولا تفعل ، افعل الخير ، ولا تفعل الشر ، افعل العدل ولا تفعل الظلم ، وهذا الكتاب نزل من السماء .

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

(سورة الحديد الآية : 25)

المنافع بأس الحديد ، لأنه ينفع الناس في صون القيم ، والسيف من الحديد ، والأسلحة كلها الآن من الحديد ، لكن شتان بين أن يكون السلاح لصون القيم ، أو أن يكون السلاح لصون الكفر والعدوان ، الآن نحن في عصر استثنائي ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: نعم والذي نفسي بيده ، وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه يا رسول الله ؟ قال : كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا ورأيتم المنكر معروفا ؟ قالوا وكائن يا رسول الله ؟ قال : نعم وأشد منه سيكون ، قال : كيف بكم إذا أصبح المعروف))

[رواه أبو أمامه عن النبي عليه الصلاة والسلام]

السلاح في تاريخ البشرية يدعم الحق ، يدعم الهدى ، الآن السلاح يدعم الكفر ، يدعم الفساد ، يدعم الإباحية ، موت كعقاص الغنم لا يدري القاتل لمَ يقتل ، ولا المقتول فيما قتل ، يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير ، إن تكلم قتلوه ، وإن سكت استباحوه .

لذلك :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)

بالعدل ، لينفذ أمر الله ، ودعماً لهذا الأمر الإلهي ، ودعماً لهذا الوحي السماوي ، ودعماً لهذا الحق الذي هو من عند الله ،

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

البأس أن يكون سلاحاً ، تدافع به عن الحق ، وعن نفسك .

أيها الإخوة الكرام ، لا زلنا في :

(أَنْزَلْنَا)

كل شيء نزل من السماء فيه خير كبير ، فيه نعمة كبيرة ، وكل شيء جاءنا من البشر فيه شر كبير ، لذلك قال تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

سوءات الحس تواريها الثياب ، وسوءات القيم تواريها التقوى ، ولعل سوءات القيم أشد قبحاً من سوآت الحس .

تربية الأولاد على جمال الظاهر والباطن :

أيها الإخوة ، الله عز وجل يقول :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)

(سورة الأعراف الآية : 32)

هذه الأشياء الجميلة مِن نِعم الله الكبرى ، والله مرة دخلت مدرسة شرعية ، والله فيها لمسات جمالية ، شيء يحير العقول ، الدخول للمدرسة شيء محبب .

حدثني أخ مقيم ببلاد بعيدة ، من شدة أناقة المدرسة وجمال أبهائها ، وتأمين الحاجات التي ترضي الطلاب ، الطفل في يوم العيد يبكي ، تطوق نفسه للذهاب إلى المدرسة يجب أن تكون هكذا مدارسنا ، وهكذا مساجدنا ، وهكذا بيوتنا ، العنصر الجمالي نحن مقصرون جداً فيه .

تجد قرية أنيقة ، شوارعها ، حدائقها ، الأشجار تحف بها ، لأن أهل هذه البلدة يوم الجمعة جميعاً يعملون في تنظيفها ، وفي تجميلها ، وفي تزينها .

المساحات الجمالية ، شيء يلفت النظر ، قد تدخل إلى مسجد ، والله في قرية دخلت من يومين مسجدها رأيتُ شيئا جميلا جداً ، الأناقة ، والسجاد ، والثريات والتدفئة ، شيء جميل جداً ، المكان الجميل يستهوي ، الآن ماذا فعل أهل الدنيا ؟ أنشؤوا فنادق بخمس نجوم ، جميلة جداً ، لكن فيها الخمور ، وفيها الزنا ، وفيها المعاصي والآثام ، وفيها الحفلات الراقصة ، وفيها النوادي الليلية ، من ربط الجمال بالكفر والمعصية ؟ هم نحن لما نربطه بالإيمان والطاعة ؟ ماذا ينقصنا ؟ من هذا الذي ربط الجمال بالكفر والمعصية ؟ نحن يجب أن نربطه بالإيمان والطاعة ، والبوادر طيبة جداً .

قد تدخل معهدا فيه نظام ، فيه أناقة ، فيه لوحات .

دخلت مرة إلى ثانوية في تركيا أقسم لكم بالله كأنها فندق خمس نجوم ، شيء محبب ، اللوحات الفنية ، النظافة ، الأناقة ، النبتات .

أنا أتمنى أن نقيم مسحة جمالية في بيوتنا ، لأن البيت الجميل يستهوي الأولاد ، والبيت غير جميل ، ما فيه نظام ، فيه فوضى ، فيه تنازع بين الأم والأب ، الأولاد يهربون منه إلى الطريق ، إلى أصدقائهم ، فقدتَ ابنك بهذه الطريقة ، اجعل البيت شيء يجذب الأولاد إليه .

خاتمة :

أيها الإخوة ، الأشياء الجميلة والأنيقة هي من الإيمان ، وأيضاً من الحضارة أن تجد حديقة ببلد متطور نظيفة بشكل غير معقول ، وما مِن إنسان يمكن أن يؤذي الحديقة ، تجد حديقة ببلد متخلف ، حينما

أنشأت رائعة جداً ، بعد حين أصبحت مكانا للقمامة ، هذا شيء غير معقول إطلاقاً ، فنحن يجب أن نربي أبناءنا أنه يعتني بالأشياء العامة بالحديقة يعتني بالمركبة العامة ، ما يكتب ، أيام تجد خط مكتوب على الحيطان ، يكون الحائط حجر ما عاد له حل ، يريد نحت مرة ثانية ، ففي تصرف غير جمالي ، غير مقبول إطلاقاً بسبب ضعف التربية ، وضعف القيم والوازع .

لذلك أنا ركزت في هذه الآية على كلمة :

(وَرِيشًا)

نحن إذا كانت بيوتنا جميلة جمال الانسجام ، لا جمال الفخامة والغلاء ، بل جمال انسجام ، أحيانا طلاء البيت رخيص ، لكن بلون زاهٍ ، يحدث راحة نفسية ، الأثاث المتناسب يحدث راحة نفسية ، ولما تكون بيوتنا غير جميلة إطلاقاً ، وفيها خصومات ، يهرب الطفل من البيت ، ويجد الطريق أجمل ، فقعد مع رفاقه ، ودخل المطعم ، فخسرناه ، فاترك ابنك عندك ، خصِّص له غرفة خاصة ، خصِّص له مساحات جمالية ، خصِّص له منظرا طبيعيا صغيرا ، لوحة ، آية قرآنية مثلاً ، أنا أتمنى أن نربط الإيمان بالجمال الإيمان جميل ، الإيمان أجمل شيء بحياتك أنك مؤمن ، صادق ، أمين ، متواضع ، وأضِف لإيمانك ، ورحمتك ، وإنصافك ، وعدلك ، وفصاحتك أضِف مكانا جميلا ، عندك محل تجاري اتركه جميلا ، اترك مكتبك جميلا ، اترك الصيدلية جميلة ، الجمال يجذب الغرب ، انتبه لهذه الناحية ، أي مكان تذهب إليه ، تجد طريقا عاما ما له لون أبداً ، كان في الشتاء ففي أيام مطر ، ومسّ الطينُ الحيطانَ ، تجد منظرا لا يحتمل ، هذا من المفروض أن نكافحه .

لذلك أنا ألحّ في هذا الدرس أن نعتني بالجمال ، حتى نجذب الناس إلينا ، حتى نري الناس أن الإسلام جميل ، وأهله عندهم أذواق رفيعة جداً .

إذاً :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

هناك سوءة جسمية سترها بالثياب ، وسوءة نفسية سترها بالتقوى .

تكلم أحدُهم كلاما بذيئًا جداً ، ويرتدي ثيابا أنيقة جداً ، قال له شخص ، إمّا أن تتكلّم مثل لباسك ، أو تلبس مثل كلامِك ، إما أن تنطق بكلام جميل كهذه الثياب ، أو أن ترتدي ثيابا كهذا الكلام ، الانسجام مطلوب بهذه الحياة .

الآية دقيقة جداً ، فيها أنواع السوءات ، وأنواع اللباس ، وفيها إشارة إلى أن الريش له هدف جمالي فقط، الآن كل شيء تراه عينك من خَلق الله جميل ، الفواكه كلها جميلة ، الأشجار جميلة ، الجمال جزء من خَلق الله عز وجل .

انظر إلى السماء قبل الغروب فيها الشفق الأحمر ، انظر إلى البحر كيف ألوانه متدرجة ، انظر إلى الأخضر ، لماذا خلق الله أشياء جميلة جداً ؟ كي تكون مرتكزاً لأوصاف الجنة ، هناك أماكن فيها غابات ، فيها إطلالة على بحر ، فيها أشجار جميلة .

كم نوعا من الأزهار ؟ والله هناك مئات ألوف من أنواع النباتات هدفها فقط إمتاع العين فقط ، ألوف مؤلفة من النباتات الجميلة من أجل أن تستمتع بها .

إنّ الجمال في الإسلام منضبط بمنهج الله ، ما في مثلاً نريد أن نعلم طلاب الفنون الجميلة يرسموا امرأة عارية ، هذا مرفوض في ديننا ، لأن المرأة لها أحكام خاصة ، المرأة زوجة مقدسة ، المرأة نبت مقدسة ، لا يصح أن تكون المرأة سلعة رخيصة ، أو مظهر جمالي فقط ، المرأة يجب أن تصن بالثياب، أما جمالها لزوجها ، لمحارمها ، وليس لكل الناس .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(12-60): تفسير الآية 27 ، عدم سيطرة الشيطان على الإنسان وبعض خصائص الجن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-03-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الكريمة السابعة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

أنواع الموضوعات من حيث وسائل إدراكها :

أيها الإخوة ، موضوع الجن موضوع إخباري ، هناك موضوعات حسية ، أداة اليقين بها الحواس الخمس ، إذا ظهرت عينه وآثاره ، سبيل اليقين به الحواس الخمس ، أو استطالاتها ، كالمراصد والمجاهر .

أما الشيء الذي غابت عينه ، وبقيت آثاره فهذه موضوعات عقلية ، سبيل اليقين بها العقل ، في الدين موضوعات ثالثة ، موضوعات إخبارية ، لا سبيل لا إلى الحواس ، ولا إلى العقل كي يوقن بها ، إنها موضوعات إخبارية .

الكون ينطق بوجود الإله :

حينما تفكر في خلق السماوات والأرض والسماوات والأرض فالشيء الأول الثابت في طريق الإيمان أن هذا الكون ينطق بوجود إله ، واحد ، وكامل ، وكمال الخلق يدل على كمال الوجود ، كمال الخلق يدل على كمال التصرف أيضاً ، هذا الإله العظيم من كماله أن يرسل للعباد رسلاً ، وأن ينزل كتباً ، وان يعرفهم بأنفسهم ، وبالمهمة التي أنيطت بهم ، أما الذي جاء بهذا الكتاب يقول : أنا رسول الله ، الكتاب يحتاج إلى شهادة من الله عز وجل لعباده أنه كلامه ، إعجاز القرآن شهادة الله له بأنه كلامه ، ووقوع الوعد والوعيد شهادة أخرى من الله لعباده أنه كلامه .

دور العقل والنقل في الإيمان :

إذاً : الذي جاء بهذا الكتاب هو رسوله ، آمنا بالله موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، عن طريق الكون ، وآمنا بقرآنه على أنه كلامه القديم من خلال الإعجاز ، ووقوع الوعد والوعيد ، وآمنا برسوله من خلال قرآنه .

ثلاثة أسباب عقلية للإيمان ، بقي السبب الآخر ، الإله العظيم والكون يشهد له وكتابه وإعجاز القرآن يشهد له ، ونبيه ببيانه ، وهو المعصوم يشهد له ، الآن انتهى دور العقل ، وجاء دور النقل ، دور النقل لا سبيل إلا لتصديق كلام الله أو كلام النبي ، الخبر الصادق ، عن طريق النقل عرفنا أن هناك عالماً هو عالم الجن .

مسائل في الإيمان تتعلق بالأخبار الشرعية والنقول الصحيحة :

الإيمان بالجن تصديقي لا تحقيقي ، الإيمان بوجود الله وأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى إيمان تحقيقي، والإيمان بالقرآن الكريم من خلال إعجازه ، ووقوع الوعد والوعيد تحقيقي ، والإيمان برسوله الكريم من خلال قرآنه تحقيقي ، انتهى دور العقل وبدأ دور النقل .

الآن أخبرنا الله أن هناك حياة أبدية خُلقنا من أجلها ، أخبرنا الله أن الله عز وجل سيحاسبنا عن كل شيء ، أخبرنا أن هناك أنبياء كثر جاءوا قبل النبي عليه الصلاة والسلام .

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ)

(سورة غافر الآية : 78)

أخبرنا أنه بعد الموت هناك برزخ إلى يوم القيامة ، أخبرنا أن هناك جنة يدوم نعيمها ، وهناك نار لا ينفذ عذابها ، هذه كلها إخباريات ، وأخبرنا أنه حينما :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

وفي آيات أخرى : حملها الإنس والجن :

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

(سورة الرحمن الآية : 33)

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

موضوع الجن إخباري :

إذاً : موضوع الجن بكل تفاصيله موضوع إخباري ، لا عقلي ، ولا حسي ، ولا استنباطي ، موضوع إخباري ، تؤمن بالجن إيماناً قطعياً حينما تؤمن بأن هذا الإله العظيم من خلال الكون كماله مطلق ، وأن النبي الكريم من خلال قرآنه لا ينطق عن الهوى ، إيماننا بالجن إيمان إخباري .

هذه حقيقة أولى أيها الإخوة ، لكن أنا أن أنصح أي إنسان أراد أن يدعو إلى الله أن يمتنع عن طرح الموضوعات الإخبارية لمن كان إيمانه بالله مهزوزاً ، ما معك دليل لا حسي ، ولا عقلي ، معك دليل إخباري ، الإيمان بالملائكة ، الإيمان بالجن ، الإيمان بالحوض ، الإيمان بالصراط ، الإيمان بأصل العالم .

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الكهف الآية : 51)

الله أخبرنا ببداية البشر من آدم وحواء ، الإيمان بما بعد الموت ، هذه كلها قضايا إخبارية ، إلا أن ابن القيم وحده اعتقد وأنا معه في هذا الاعتقاد أن الإيمان باليوم الآخر دليله عقلي ، وتفاصيله نقلية ، لأنه لا يعقل لكمال الله المطلق أن يكون في الأرض أقوياء طغاة ، وضعفاء مظلومون ، وتنتهي الحياة ، أغنياء وفقراء ، أعمارهم مديدة ، وأعمار قصيرة ، أصحاء ومرضى ، وتنتهي الحياة ، هذا مستحيل ، لا يتناسب مع كمال الخلق الذي يشير إلى كمال الخالق .

أيها الإخوة ، إذاً موضوع الجن بقضه وقضيضه ، بكل تفاصيله موضوع إخباري ، الإيمان به عن طريق الخبر الصادق .

موقف الناس من موضوع الجن :

الآن الناس حيال هذا الموضوع ، فريقان ، فريقا ومنهم معظم المسلمين الذين لم يطلبوا العلم ، أعطى الجن قوى رهيبة ، أعطاه علم الغيب ، أعطاه إسعاد الإنسان ، أعطاه إضلاله ، أعطاه قوى خارقة ، هذا كله باطل .

وهناك أناس آخرون ماديون أنكروا وجود الجن ، والحقيقة وسط بين طرفين ، وأنا مضطر في هذه الآيات المتعلقة بالجن أن أوضح بعض الحقائق .

حقائق متعلقة بموضوع الجن :

1 – الجن موجودون حقيقة :

أولاً : الجن موجودون ، نحن مؤمنون بكتاب الله .

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ)

(سورة الجن الآية : 1)

2 – منهم الصالحون ومنهم دون ذلك :

الجن ورد ذكرهم في القرآن الكريم في آيات كثيرة ، وهم متنوعون ، منهم صالحون ، ومنهم طالحون.

(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً)

(سورة الجن)

هناك جن صالحون مؤمنون ، وهناك جن ضالون مضلون ، فاسدون مفسدون لكن النبي لم يرهم ، أُخبر أنه حضر مجلسه نفر من الجن ، لم يرهم ، الآن ومنهم كذّابون وسفهاء ، ومنهم ساذجون .

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً)

(سورة الجن)

كانوا يكذبون .

(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

(سورة الجن)

منهم من يكذب ، ومنهم من يصدق الكذب ، وتصديق الكذب نوع من الساذجة هذا كله قرآن . في موضوع الجن لا يستطيع واحد منا أن يتكلم برأيه ، لأنه موضوع إخباري ، ولا نستطيع أيضاً أن نزيد على الإخباريات ، ولا أن ننقص منها .

3 – الجن عندهم استعداد للهداية :

الجن عندهم استعداد للهداية .

(فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ)

(سورة الجن الآية : 1)

إذاً : الجن عندهم استعداد للهداية .

(وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً)

(سورة الجن)

هذه آية كريمة .

(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ)

(سورة الجن الآية : 14)

إذاً : عندهم استعداد للهداية .

4 – لن ينتفع الإنس إطلاقاً إذا لاذوا بالجن :

الآن الحقيقة الخطيرة ، وهي أخطر حقيقة لهذا الدرس : لن ينتفع الإنس إطلاقاً إذا لاذوا بالجن .

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)

(سورة الجن)

لا يمكن أن تنتفع من الجن ، إلا أن تزداد مرضاً ، وقلقاً ، وخوفاً ، وسقوطاً من عين نفسك ، ومن عين الله .

5 – الجن لا يعلمون الغيب :

الدليل الآخر ، أو الحقيقة الخطيرة الأخرى أنهم لا يعلمون الغيب ، الله عز وجل روى لنا قصة عن سيدنا سليمان ، وقد كلف الجن بأعمال شاقة ، ومات هذا النبي الكريم ، وما دل الجن على موته :

(مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

(سورة سبأ)

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)

سيدنا سليمان :

(مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ)

(سورة سبأ الآية : 14)

إخواننا الكرام ، الحقائق هذه يمكن أن تركل بها مليون قصة لا أصل لها ، الجن لا يعلمون الغيب ، بل سيد الخلق وحبيب الحق لا يعلم الغيب :

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

(سورة الأعراف الآية : 188)

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً)

(سورة الجن الآية : 21)

سيد الخلق ، وحبيب الحق ، بل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ، بل :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

(سورة الحاقة)

لذلك الجن لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

هذا القرآن ، وهذه الحقائق ، في ضوء هذه الحقائق يمكن أن تركل بقدمك مليون قصة لا أصل لها ، ولا واقع لها ، ولا مؤدى لها .

شيوع الأساطير والخرافات بين المسلمين :

والله لولا أنني أعلم علم اليقين أن مساحات شاسعة من بلاد المسلمين يؤمنون بخرافات ، وأساطير ، وترهات ، وخزعبلات ، ودجل وابتزاز لما ذكرت هذا الموضوع ، ومنهم مثقَّفون ، ومن يحمل شهادة عليا ، والذين يعملون في هذا الحقل يبتزون أموال الناس ، وفي حالات كثيرة ينتهكون أعراضهم إن كنَّ نساء ، يبتزون أموال الناس ، وينتهكون أعراضهم ، وأنت حينما تتصور أن جنياً اقترب منك بوسوسة أو بتزيين شهوة ، أو بإثارة فتنة ، يكفيك أن تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويحترق الجني .

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

(سورة الأعراف الآية : 200)

انتهى الأمر .

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

معك سلاح فتاك ؛ أن تستعيذ بالله ، لست محتاجا لمن يقول لك : أريد ديكا أسود بالذات ، أريد خروفًا بكذا صفة ، وأريد ألف ليرة ، وأنا أخرجه لك ، يكتب لك كلمات ما لها معنى إطلاقاً ، ويتكلم كلاما ما له معنى إطلاقاً ، وإذا كان المستجير امرأة اعتدى على عرضها ، هذا يقع كل يوم ، وعندي قصص ،

وموثقة ، كفانا خرافات ، وكفانا خزعبلات ، وكفانا أوهاما ، وكفانا أخطاء ، وكفانا عقائد زائغة وباطلة.

الآية الأصل في هذا الموضوع :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)

لا يعلم الغيب ، ولا يقدر أن يفعل معك شيئاً .

أيها الإخوة ، لذلك علامة عقلك ، وعلامة سلامة عقيدتك ، وعلامة الإيماني الأصيل أن تركل كل هذه القصص ، وتلك المحاولات ، وتلك الأباطيل والخزعبلات والكذب ، والدجل بقدمك ، ولا تعبأ بذلك .

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر الآية : 42)

وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ

تكفيك هذه الآية ، كن عبداً لله ، ولن تستطيع الجن بأكملهم أن ينالوا منك :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة الآية : 102)

هناك في أمراض نفسية ، ووساوس متسلطة ، وخوف ، وقلق وهلع ، وجن ، ابتزاز .

أيها الإخوة الكرام ، أما الآية التي نحن بصددها فإن الله عز وجل خلق آدم ، وخلق حواء ، وهم مكلفون أن يعبدوا الله عز وجل ، لو أنه خلقهم في الأرض مباشرة فلا جنة في الأرض ، لو أنه خلقهم كما نحن عليه ، سيدنا آدم ، والسيدة حواء يفتقران إلى خبرة متعلقة بالشيطان ، لذلك كان الدرس البليغ لسيدنا آدم ولحواء ، ولذرية آدم من بعده إلى يوم القيامة .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً)

(سورة فاطر الآية : 6)

الشيطان يكرهك بزوجتك ، ويزين لك امرأة أجنبية لا تحل لك ، لها زوج ، ولها أولاد ، والقصص في هذا الموضوع لا تعد ولا تحصى ، الشيطان يخوفك أن تنفق مالك .

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

الشيطان يزين لك المعصية .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

دائماً يشكو ، بيت ، ومركبة ، وزوجة ، وأولاد ، ودخل كبير ،

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

والمؤمن يشكر على قطعة خبز يأكلها قبل أن ينام ، يا رب لك الحمد ، يشكر الله على صحته ، على أن آواه في بيت ، وكم ممن لا مأوى له ، و نحن جميعاً ينبغي أن نشكر الله على نعمة الأمن في بلادنا ، لأنكم ترون ماذا يجري حولنا .

لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ

أيها الإخوة الكرام ،

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

تقدُّم ، ومجتمع الحضارات ، والمرأة نصف المجتمع ، والعولمة ، دين جديد هذا ، هذه حيونة ،

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

نعود إلى الآراميين ، نعود إلى أقوام الوثنية ، إلى مصر الفراعنة ، ونغفل الإسلام منهج الله في الأرض

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

وضوءك ما صح ، ما شعرت ببلل ؟ وساوس متسلطة ، والله مئات بل ألوف يبقى في الحمام خمس ساعات ، يعيد الوضوء خمس مرات ، يعيد الصلاة سبع مرات ، توسوس .

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يمنعه من فعل الخير خوف رياء ، يقول : بدليل أنك ترائي للناس بهذا العمل ، إذاً لا تفعل هذا الخير ، والله عشرات بل بضع عشرات من الإخوة بسذاجة عجيبة توقف عن فعل الخير قال لئلا يكون مرائياً ، من قال لك ذلك ؟ هذه :

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

لما قصفت أفغانستان في رمضان هذا وحيد القرن سألوه : معقول أن تقصفها في رمضان ؟ هذا شهر مقدس ، قال : غزوة بدر كانت في رمضان أيضاً ، الشيطان داخل في أمور ديننا بشكل دقيق جداً .

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يأتيك من الجانب الإسلامي أن الفاتحة فيها 14 شدة ، نقصتها واحدة ، الصلاة باطلة ، راحت الصلاة، تجد الإنسان المؤمن الطيب البسيط يقع بوساوس متسلطة تسحقه ، من خلق الله ؟ هذه يموت منها ، أنا جوابي : أي خاطر يزعجك فهو ليس منك ، اطمئن ، هذا من الشيطان ، ولا تعبأ به ، ولن تحاسب عليه، لأنك انزعجت منه ، لو كان منك لما انزعجت منه ، لروجته وارتحت إليه ، لذلك يمكن أن تنسى كل هذه الخطرات التي لا تعجبك .

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ

شيء آخر : الله عز وجل لا يحاسب إلا على العمل ، اطمئن ، مهما جاءتك الخواطر التي لا ترضيك لن تحاسب ، لا تحاسب إلا على عملك فقط ، لا على خواطرك .

1 – معركة الحق والباطل أزلية :

أيها الإخوة ،

(يَا بَنِي آدَمَ)

أدخل آدم عليه السلام الجنة جنة الأرض ، وكان وضعه في جنة الأرض كوضعه في جنة السماء ، فلا عورة ، ولا تناول طعام إلى داخل الجسم ، النفس محيطة بالجسم ، كلها أعين ، كلها آذان ، يكفي أن يخطر في بالها شيء تكون عنده ، هذا وضع الجنة ، فلما أكل من الشجرة صار هناك أجهزة ، وهضم، وفضلات ، وبول ، وبراز ، وجهد ، وحدود ، هذه التفاحة لا تستطيع أن تكملها .

لذلك أراد الله عز وجل أن يكون آدم في الجنة يتلقى درساً بليغاً أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية .

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

(سورة الأعراف الآية : 25)

هذه العداوة التي في الأرض أرادها الله وسمح بها لحكمة بالغةٍ بالغة ، لأن الحق لا ينمو إلا بالتحدي ، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية .

درسين ، معركة الحق والباطل ، معركة أزلية أبدية .

2– معركة الحق والباطل أزلية :

الدرس الثاني :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)

الفرق بين جنة الأرض وجنة السماء :

الآن جنة آدم التي في الأرض كانت قبل التكليف ، لكن جنة السماء التي وعد بها المتقون تكون بعد التكليف ، ولا يمكن لإبليس أن يدخلها ، ولا يمكن لمن دخلها أن يخرج منها ، هذا الفرق الدقيق ، لذلك الآن هناك تكليف ، افعل ولا تفعل ، وعندك خبرة ، عندك خبرة لإبليس كيف أنه أغرى آدم بمعصية الله فبدت العورة .

أيّة معصية لله من نتائجها عورة مادية وأخلاقية :

هذا قانون ، أيّة معصية لله من نتائجها عورة ، فإذا أكلت مال حرام أنت متهم عند الناس أنك لص لا سمح الله ولا قدر ، هذه عورة ، هناك عوارت مادية ، وسوءة ، وعورة مغلظة ، الفخذ عورة ، لكن هناك عورات نفسية ، الخيانة عورة ، لماذا الخائن يكاد يموت دناءة ؟ خان أمته ، فالخيانة عورة الفخذ عورة ، الغش عورة ، أية معصية لله عز وجل ينتج عنها عروة تسوءك ، وحينما عصا آدم ربه بدت عورته .

في الدرس قبل الماضي :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

(سورة الأعراف)

امتحن فقط ، أما إذا امتحن ولم ينجح فإنها تعطي معنى آخر ، تعطي النتيجة السلبية للامتحان ، فلان فُتن ، إن قلت : فلان فُتن ونجح في الفتنة ، امتحن ونجح في الامتحان .

سيدنا موسى افتتن ونجح بالامتحان ، انضم إلى صاحب الحق مع أنه مضطهد ، ولم ينضم إلى القوي، من جماعة فرعون ، لذلك لما فُتن ونجح بالامتحان استحق تكريم الله عز وجل ، لكن إذا قلنا : فلان فُتن، وما كملنا ، إذا وقفنا عند فُتن يعني فُتن ولم ينجح ، وقد قال الله عز وجل :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة الآية : 191)

بصراحة أب جاهلي قلبه كالصخر متوحش ، يأتي بفتاة كالملائكة ، جميلة ، عفوية ، يحفر لها حفرة في الرمل ، ويدسها بالتراب ، ويهيل عليها التراب ، هذا قلب متوحش ، في بعض الأخبار عن الرسول أنه بكى النبي عليه الصلاة والسلام ، أن الذي يطلق لابنته العنان ، ترتدي الثياب الضيقة ، والشفافة ، والفاضحة ، والقصير ، والطويل والماكياج ، والشعر ، وتفتن الشباب في الطرقات ، وتدعو الناس إلى الانحراف الأخلاقي قال تعالى :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

الذي يئد ابنته مجرم في نظرنا ، وهذا الذي يسمح لابنته أن تفتن من في الطريق ، وأن تثير غرائزهم، وأن تشعرهم بالإحباط ، وبينه وبين الزواج عشرون عاما تريه كل مفاتنها ، ولا يستطيع أن يكلمها بكلمة ،

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

أيها الإخوة ، رحمة الله عز وجل أنه أعطانا الدرس البليغ ثم ، بعث بنا إلى الدنيا ثم كلفنا ، جاء الدرس قبل التكليف ، وحذرنا من الشيطان ، وحذرنا أيضاً من الخصومات لأنها منفذ للشيطان .

والحقيقة الدقيقة أن كل مخالفة لأمر الله تظهر عورة الإنسان ، بل أنت حينما تعمل عملاً صالحاً وتتيه به تنكشف عورتك ، قال :

رقصت الفضيلة تيهاً بفضلها فانكشفت عورتها

حتى لو حدثت إنسانا : أنا فعلت كذا ، فلان لحمه من خيري ، انكشفت عورتك مننت عليه ، الاستعلاء، والمن ، والإيذاء باللسان عورات كلها .

وصدقوني أيها الإخوة ، أن الإنسان أحياناً تنكشف عورته عند الطبيب فيموت خجلاً ، لكن حينما يعصي الله عز وجل ، ويأتي يوم القيامة ، وقابل إحسان الله بالإساءة إلى خلقه .

ورد في بعض الآثار في الجامع الصغير : إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول : يا رب ، لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى ، وإنه لا يعلم ما فيها من شدة العذاب .

لذلك العورة عورتان ، عورة مادية وهي السوءة ، وعورة أخلاقية وهي المعصية والإثم .

(يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

الإنسان لا يرى الجن :

المعاصي تري السوءات ، ولكن الشياطين نحن لا نراهم ، يقول لك دخل ، جلس هنا ، رأيته ، كله

خلط الإنسان لا يرى الجن ، والنبي كذلك ما علم أن الجن حضرت مجلسه إلا بعد أن أخبره الله ،

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

أما المؤمنون فوليّهم الله ، أما الذين لا يؤمنون فأوليائهم الطاغوت ، واحد يزين الزنا ، واحد يزين الربا ، واحد يزين الاختلاط ، واحد يدفع إلى الخصومة الزوجية ، كل جني موكل بمعصية ، إذاً ، فهم عدد كبير ، أما الله عز وجل فهو ولي الذين أمنوا .

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

(سورة آل عمران الآية : 155)

حينما يخطئ الإنسان يأتيه الشيطان ، وحينما لا ينظف بيته يأتيه الذباب ، ويأتيه البعوض ، الشيطان يبحث عن معصية ،

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

الشيطان يدعوك ، وليس له عليك سلطان :

أيها الإخوة ، الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، إلا أل يدعوك ، لذلك أنا أضرب هذا المثل كثيراً وهو مناسب لنعيده :

إنسان توجه إلى قسم شرطة ليشتكي على إنسان ، يرتدي ثيابا بيضاء جميلة جداً ، نزل في حفرة مياه آسنة سوداء ، منظره لا يحتمل ، المحقق قال له : على من تشتكي ؟ قال له : على فلان ، قال له : دفعك إلى الحفرة ؟ قال له : لا والله حرام ، أنا لا أحب أن أظلمه قال له : شهر عليك مسدس ، وأمرك أن تزل لها ؟ قال له : لا والله ، أيضاً لم يفعل ذلك ، قال له : حملك وأنزلك ؟ قال له : لا والله ، لمَ تشتكي عليه ؟ قال لي : انزل ، فنزلت ، هذا يحتاج إلى مستشفى مجانين .

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

أيها الإخوة ، نتابع الآيات في درس قادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(13-60): تفسير الآيات 28 - 30 ، الفاحشة ـ الزيادة في القبح ـ الزنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-04-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة ، مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا

1 – معنى الفاحشة :

أيها الإخوة ، ما معنى كلمة فاحشة ؟ كلمة فاحشة تنصرف إلى فعلٍ قبيح ، فعلٍ يسبب لفاعله العار ، فعل يجعل صاحبه مضغة في الأفواه ، شيء تستقذره النفس ، شيء تنكره الفطرة السليمة ، شيء يشيع بين الناس كخبر يتعلق الناس بترويجه لغرابته .

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)

جاء في بعض المعاجم هي الزيادة في القبح ، وبعض العلماء صرَف كلمة فاحشة إلى الزنا ، لأن أية معصية ينتهي أثرها بانتهائها ، إلا الزنا فيستمر أثرها بعد انتهائها ، هناك ولد ، وجنين إسقاطه مشكلة ، وإبقاءه مشكلة ، وولادته مشكلة ، ونسبَه مشكلة ، ومكانته الاجتماعية مشكلة ، يبدو أن الفاحشة في الأعم الأغلب تنصرف إلى الزنا ، والله سبحانه وتعالي يقول :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

(سورة الإسراء)

2 – وجوبُ الابتعاد عن مقدِّمات الفاحشة :

والتوجيه الإلهي دقيق جداً ، إذ هو ينهى عن القرب من الزنا ، لا عن الزنا ، يبدو أن هذه المعصية لها مقدمات ، وكأن المقدمات منطقة خطيرة ، فإذا دخلت فيها جذبتك إلى نهايتها .

تماماً : كتيار كهربائي عالي التوتر ، فيه 8 أمتار ، أيّ كائن حيّ دخل في هذه الأمتار الثمانية قبل أن يصل إليه يجذبه ويحرقه .

يبدو أن هذه المعصية كبيرة ، أو يبدو أن هذه الجريمة تسمى في القانون جريمة الزنا ، يبدو أن الزنا له قوة جذب كبيرة ، فحينما تتساهل وتدخل المنطقة التي ينبغي أن تبتعد عنها تصل إلى نهاية الفاحشة شئت أم أبيت .

تماماً : كصخرة في رأس جبل مستقرة ، فإذا دفعتها وفي نيتك أن تجعلها تنحدر في المنحدر عشرة أمتار لن تستقر إلا في قعر الوادي ، أنت مخير أن تبقيها في مكانها الآمن أو أن تدفعها ، فإذا دفعتها فلن تستقر إلا في نهاية الوادي .

لذلك أقول لكم هذه الكلمة الدقيقة ، وتؤكدها دراسات علم النفس : إن الإنسان حينما يقع في الفاحشة 90 % ممن وقعوا في هذه الفاحشة ما كانوا يتصورون أن يصلوا إلى نهايتها ، ولكن لأنهم اقتربوا من حرمها .

((الحَلالَ بَيِّنٌ وَإنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ))

[متفق عليه]

صحبة الأراذل طريق إلى الزنا ، صحبة الزناة طريق إلى الزنا ، مطالعة قصة إباحية طريق إلى الزنا، مشاهدة عمل فني إباحي طريق إلى الزنا ، مطالعة موقع إباحية في الإنترنت طريق إلى الزنا ، إطلاق البصر في الطريق طريق إلى الزنا ، لقول الله عز وجل :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور الآية : 30)

كأن الآية رسمت طريق حفظ الفرج وغض البصر ، وأؤكد لكم أيها الإخوة بشكل قاطع أنه ما من تكليف كلفنا الله به ، وما من معصية نهانا عنها إلا وفي وسع الإنسان أن يأخذ بالتكليف ، ويبتعد عن ما نهاه عنه الله ، لقوله تعالى :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

إنّ الله لا يعذب قلبا بشهوة تركها صاحبها في سبيل الله ، وإذا سألني شاب : بماذا تنصحني ؟ أقول للشاب : أنصحك أن يكون النبي الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم سيدنا يوسف قدوة لك ، لأنه قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف الآية : 23)

لأنه كان شاباً جميل الصورة ، وكان بعيداً عن أهله ، وكان في قصر ملك ، والتي أمرته بالزنا سيدته، ولم تفضح أمره ، وقد عدّ العلماء عشرة أسباب تدعوه إلى أن تزلّ قدمه ، ومع ذلك قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

لما صار عزيز مصر رأته خادمة في موكبه فقالت : سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، وسبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيته !!!

والآن كل الفضائح في الأرض من زمرتين فضيحة جنسية ، أو فضيحة مالية ، فإذا تمكنت أن تسد هاتين الثغرتين فأنت في حصن ، ولا يستطيع أحد في الأرض أن ينال منك ، محصن من أن تأكل مالاً حراماً ، ومحصن من أن تتهم بامرأة ، إن لم تخلو بها كيف تتهم ؟ .

3 – إيّاكم والخلوة بالأجنبية :

لذلك أيها الإخوة ، الخلوة مع المرأة أجنبية ، النبي قال كلام دقيق قال :

((لا يخلون رجل بامرأة))

[أخرجه أحمد والترمذي والحاكم ، عن عمر]

ما قال : ما خلا كافر ، ما قال : ما خلا فاسق

((لا يخلون رجل))

أيّ رجل من دون استثناء بامرأة ، حتى إن بعض دراسات علم نفس الجنس تؤكد أن الإنسان حينما يستثار من قبل امرأة في خلوة تعطل محاكمته .

ألم يقع في حماقة ما بعدها حماقة رئيس أكبر دولة في العالم ، لأنه كان في خلوة ، وأعلى منصب جمهوري في الأرض اضطر أن يبكي أمام رجال الدين معترفاً بذنبه ، وقد نشر على الإنترنت أكثر من 3000 صفحة في تفاصيل سقوطه .

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)

ولا يزني إلا الجاهل الدنيء . سيدنا يوسف قال :

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

4 – كل شهوة لها قناة نظيفة تسري من خلالها :

النقطة الدقيق أيها الإخوة ، أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، لا تقلق ، وسبحان من لا ينسى من فضله أحدا .

((ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب))

[أخرجه أبو المظفر السمعاني ، عن سلمان]

إن الله ليباهي الملائكة بالشاب التائب ، يقول : انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي ، بماذا ترقى إلى الله ؟ غض البصر يرقى بك إلى الله ، ضبط الأذن عن سماع الأغاني يرقى بك إلى الله ، ضبط اللسان عن أن تتفوه بكلمة فاحشة يرقى بك إلى الله ، أن تصاحب المؤمنين صحبتهم ترقى بك إلى الله .

((لا تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أخرجه أحمد ، وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد]

أن تبتعد عن كل عمل فني فيه مشاهد مثيرة هذا يرقى بك إلى الله ، أن تلقي من يدك كل قصة مثيرة ألقها في الأرض ، أنت إنسان طاهر ، وهذه الشهوة التي أودعها الله فيك لن تحرم منها ، ولكن في الحلال .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف أن الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه ، كإنسان يتزوج ، وقد يكون اللقاء الزوجي ، وقد يستيقظ لصلاة الليل ، وقد يبكي في الصلاة ، ما فعل شيئاً خلاف المنهج ـ دقق في هذا الكلام ـ ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، الزواج شيء رائع جداً ، امرأة تحل لك ، امرأة مصيرها لك ، معك ، سوف يثمر هذا الحب طفلاً يملأ البيت سعادة ، يكبر ، يكون معك دائماً ، يكون في عونك ، البنت في قلبها عطف وحنان على أبيها لا يوصف ، الزواج الشرعي فيه مستقبل ووفاء ، وسعادة ، وطمأنينة ، وراحة نفسية ، ومكانة اجتماعية .

لما يخطب الإنسان يأتي إلى بيت أهل مخطوبته ، خطب ، وكتب الكتاب ، يبقى إلى الساعة الثالثة أحياناً ، لا أحد يتكلم ولا كلمة ، هي زوجته ، وحقه ، ويوم العرس يزمرون في الطريق ، أتستحيون ؟ لا ، لا نستحي ، هذا عرس ، وحلال .

أؤكد لكم مرة ثانية أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

أؤكد للإخوة الشباب وللأخوات الشابات أن مرة زار بيتي إنسان متقدم في السن ، قدمت له ضيافة قطعة حلوى ، أول قطعة وضعها في فمه ، قال دعاء والله أنا أعرفه ، لكن شعرت بقشعريرة ، قال : سبحان من قسم لنا هذا ، ولا ينسى من فضله أحدا .

أنا أقول للإخوة الشباب : غض بصرك ، واضبط لسانك ، واضبط أذنك واطلب العلم ، وائتِ إلى المسجد ، وأتقن عملك ، ولن ينساك الله من فضله ، لأنه في كتاب الجامع الصغير حديث إن قرأته اقشعر جلدك ، الحديث ضمن مجموعة أحاديث تزيد على عشرين حديثًا ، حق الرجل على ابنه ، حق الأب على ولده ، حق الابن على أبيه ، حق المسلم على المسلم ، حق الجار على الجار ، أما هذا الحديث :

((حق المسلم على الله أن يعينه إذا طلب العفاف))

عندي قصص كثيرة ، لا تعد ولا تحصى عن شاب طلب العفاف ، إحدى هذه القصص لعلي ذكرتها سبقاً :

اضطر شاب أن يرافق أمه إلى فريضة الحج ، حج وهو في الـ18 من عمره ، فلما عاد عنده مكتبة في حي متواضع ، يبدو أن فتاة متفلتة ساقطة وقفت أمام محله وغمزته ، وأشارت إليه أن اتبعني ، فتبعها ، وهو في الطريق أجرى محاكمة ، قال : يا رب أنا حججت بيتك الحرام ، وأين أنا ذاهب الآن ؟ فخاف من الله ورجع ، يقسم بالله العظيم أنه في اليوم التالي وقف أمام محله التجاري رجل وقور من وجهاء الحي ، قال له : يا بني ، هل أنت متزوج ؟ قال : لا ، يا عم ، قال له : عندي فتاة تناسبك تماماً ، أرسل أمك إلينا ، هو توهم أنه فيها عيب كبير حتى عرضها أبوها ، هكذا نحن ، وهذا من أفكارنا الجاهلية ، لكن القرآن قال :

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

(سورة القصص الآية : 27)

ما الذي يمنع تكون أبا ، وعندك بنت مناسبة صالحة مستقيمة ، أن تعرضها على شاب مؤمن ؟ قال له: تعال انظر إليها ، أعجبتني أخلاقك ، وعندي بنت تناسبك ، لذلك ورد في الأثر :

" من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل خطوة خطاها ، وبكل كلمة قالها عبادة سنة قام ليلها ، وصام نهارها " .

والآن ما من عمل أعظم من أن تهيئ لشاب مؤمن شابة مؤمنة ، تسره إن نظر إليها ، وتحفظه إن غاب عنها ، وتطيعه إن أمرها .

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

(سورة النور الآية : 26)

لا تقل : لا علاقة لي ، لا تقل : امش بجنازة ، ولا تمش بزواج ، هذا كلام الشيطان ، والرحمن ماذا يقول ؟ :

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ)

(سورة النور الآية : 32)

هذا أمر إلهي ، كن وسيطا ، ولا مانع ، تحمل بعض المتاعب ، تأتيك بعض المتاعب طبعاً ، الزوجان المتفاهمان يغيب الزوج عنك خمس سنوات مسرور هو وهي ، يتشاجران فيأتي عندك ، لماذا في هذه الخمس سنوات لم تشكرني ، لما تشاجر معها جاء ، وقال : أخي أنت كنت الواسطة ، لذلك :

((المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم))

[أخرجه الترمذي عن ابن عمر]

تحمل ، أنت تعيش بعمل صالح ، لذلك إخواننا الكرام ، ما مِن شيء الآن يعلو باسم الأعمال الصالحة على تزويج الشباب ، وتحصينهم من هذا الفساد الذي يعم الأرض .

هل تصدقون أن نصف نساء في بلدنا الطيب سوريا من دون زواج ، وهذه وصمة عار بحق الأمة ، وهذه مشكلة كبيرة .

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً

أيها الإخوة ، الآية الكريمة :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)

الفاحشة هي الزنا ، أو المعصية التي لها آثار مستقبلية ، والزنا في ولد ، وقال بعض العلماء : الفاحشة هي معصية عليها حد ، كالجلد أو قطع اليد ، أو ما شاكل ذلك ، أو الفاحشة الكبائر ، أو الفاحشة كان العرب في جاهلية يطوفون عراة ، لأنهم ارتكبوا المعاصي بثيابهم ، إذا ينبغي أن يطوفوا طاهرين من دون ثياب ، فارتكبوا معصية أكبر ، هذا حمق ، وهذه الجاهلية .

أيها الإخوة ، لكن آية تحير :

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ)

(سورة الأحزاب الآية : 30)

هل يعقل أن تنهى امرأة زوجها رسول الله عن أن تزني ؟! لكن أعجبني تفسير أن زوجات النبي عليه الصلاة والسلام حينما يحمِّلْنَه ما لا يطيق من أمور الدنيا فكأنهن ارتكبن فاحشة .

لكِ زوج مؤمن ، طاهر ، مستقيم ، يده نظيفة ، دخله حلال ، لا تحملينه فوق طاقته ، لا تضطريه أن يأكل مال حرام .

الصحابية كانت الكريمة تقول لزوجها قبل أن يغادر البيت : اتق الله لنا ، نحن بك نصبر على الجوع ، ولا نصبر على الحرام ، الآن تضغط عليه ، وتضغط عليه إلى أن يأكل المال الحرام .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ)

(سورة التغابن الآية : 14)

عداوة مآل ، يوم القيامة يستحق النار بسبب زوجته ، ضغطت عليه إلى أن أكل المال الحرام ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة))

[رواه أحمد والحاكم والبيهقي عن عائشة]

((أعظم النساء بركة وأقلهن مهرا))

[الجامع الصغير عن عائشة]

مبدأ التقليد الأعمى : قالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا

إذاً هؤلاء :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا)

هكذا الناس ، انظر هذا الكلام الجديد المعاصر : هكذا الناس ، ضع رأسك بين الرؤوس وقل : يا قطاع الرؤوس ، الله يهدينا ، الله يصلحنا ، ماذا نفعل ؟ هذه بلوى عامة ، الله يتوب علينا ، نحن بعد أربعين أو خمسين سنة نحج ونتوب ، هذا كلام الناس ، والله إنّ الغربيين لو دخلوا جحر ضب لدخلناه .

نحن كنا صغارا في التعليم إذا ارتكب الطالب مخالفة أكبر عقاب يُحلق شعرُه قليلا ، الآن يُحلق على الصفر ، أنا أتفاجئ في الأخبار بشخص محترم جداً حلق شعرَه على الصفر كله ، لماذا ؟! لأنه :

((لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ ، لَدَخَلْتُمْ فِيه))

[أخرجه الحاكم عن ابن عباس]

يلبس الشباب اليوم سروالا كاحتا ، هو جديد ، لكنه كاحت ، أو البنطال فيه ثقوب ، والله مرة أخت كريمة أرسلت لي ابنها لقضية ، لما دخل على غرفتي ببنطال فيه عدة ثقوب ، رق قلبي له ، وكتبت عندي أن سأؤمن له بنطالا جديدا ، ثم علمتُ أنها موضة جديدة .

ذهبت إلى أستراليا ، ودعانا أخ على طعام الإفطار ، فجاء ابنه ، والأخ بحالة موسرة جداً ، وابنه يلبس كل بنطالا له ثقوب كثيرة .

((لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ))

أنا خائف من الأيام القادمة ، تكون البنطال من نوع آخر .

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا)

هكذا الموضة ، هكذا الأزياء السَّنة ، نحن تحت رحمة يهودي بفرنسا ، يقصر نقصر ، يطيل نطيل ، يحدِث شقة نساوي شقة ، ضيق نضيّق ، نحن تحت رحمته .

هذه طرفة ، إياكم أن تأخذوها على جديتها ، أن امرأة في القاهرة رأت شيخاً أزهرياً ، قالت له بجهل كبير : يا سيدي ، هل النبي الكريم له حق أن يقول : النساء ناقصات عقل ودين ؟ فأَحَبَّ أن يجاريها ، قال لها : والله ليس له حق ، لكن هذه ليست لكم ، هي للصحابيات ، أنتن لا عقل لكنّ ولا دين .

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا)

هكذا الموضة ، هكذا الناس ، هكذا العرف ، هكذا التقاليد ، هكذا الإنسان ، لابد أن تكون زوجته شبه عارية ، تضيف الضيوف بنفسها .

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)

بميزان الشرع شيء يستحي به ، شيء له آثار سيئة .

وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا)

لذلك قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : " لأن يرتكب العوام الكبائر أهون على الله أن يقولوا على الله ما لا يعلمون " .

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

أولاً :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا)

هذا تقليد ، والتقليد مرفوض في الإسلام ، إلا ما كان صالحاً ، لكن حتى في العقيدة التقليد مرفوض ولو كان صحيحاً ، لأن الله لو قَبِلَ من إنسان عقيدته تقليداً لكان كل أهل الفرق الضالة عند الله مقبولين ماذا فعلوا ؟ وجدوا مَن هو أكبر منهم ، قال هكذا ، فقالوا مثله ، الآية الكريمة :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية : 19)

لا تقبل عقيدة المسلم تقليداً إطلاقاً ، ولو أنها صحيحة ، لأنه لا ميزان لها ، التقليد لا قيمة له ، أما في السلوك ، فمن قلد عالماً لقي الله سالماً ، لا مانع ، رأيت كلامه لطيفا مثلاً ، عفيفا ، دقيقا في معاملته ، مواعيده دقيقة ، فقلّدته ، هذا جيد ، لكن عندك مقياس ، من قلّد عالماً لقي الله سالماً ، هذه مقولة ، وليست آية ولا حديثاً ، لكن إنسان أعجبك منه بشاشته للضيف ، هذا جيد ، أعجبك منه إكرامه للضيف، أعجبك منه تواضعه ، لا مانع ، أما في العقائد التقليد فمرفوض ،

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

المعاصي مرتبة في القرآن ترتيبا تصاعديا :

هذا افتراء على الله ، ولأن ترتكب الكبائر أهون من أن تقول على الله ما لا تعلم .

لذلك المعاصي في القرآن الكريم مرتبة ترتيبا تصاعديا ، الفحشاء والمنكر ، الإثم والعدوان ، الشرك ، الكفر .

(أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

هذا ترتيب تصاعدي ، وأكبر شيء تفعله أن توهم الناس أنه هذا الشيء مباح ، ويمكن أن يقول لك واحد : لك أن تدخل بيتا ليس فيه إلا امرأة ، وليست قريبة لي ، ولا من محارمك ، تجلس عندها ، وتأكل ، وتشرب ، وتنام ، ، ويأتي بروايات ضعيفة ، ماذا بقي ؟ هذه خلوة بأجنبية .

(أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

لذلك :

((ابن عمر ، دينك ، دينك ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة عن ابن عمر]

الدين مصيري ، الدين متعلق بالآخرة ، الدين متعلق بالأبد .

(سورة الزمر الآية : 15)

الآية دقيقة جداً :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا)

فردّ الله عليهم بقوله :

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

لكن الله جل جلاله بماذا أمر ؟

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة الأعراف)

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ

الإسلام قائم على العدل :

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)

بالعدل ، الإسلام جاء بالعدل ، وفي آخر الزمان كما قال عليه الصلاة والسلام :

((تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً ، فيأتي أخي عيسى فيملئها قسطاً وعدلاً))

موت كعقاص الغنم ، لا يدري القاتل لمَ يقتل ؟ ولا المقتول فيمَ قتل ؟ كما ترون القتل عشوائي ، معدل القتلى كل يوم في بلد مجاور 59 إنسانا يومياً ، لا ذنب له ، كان بعمله ، كان بسوق مزدحم ، سيارة مفخخة ، إلى متى هذا القتل ؟ موت كعقاص الغنم ، لا يدري القاتل لمَ يقتل ؟ ولا المقتول فيمَ قتل ؟

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)

بالعدل .

لذلك أحد الأعراب قال للنبي الكريم : اعدل يا محمد ، فابتسم عليه الصلاة والسلام وقال :

((ويلك ! من يعدل إذا لم أعدل))

[أخرجه مسلم عن أبي سعيد]

وقيمة العدل أعظم قيمة ، وأسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا ، إلا اسم العدل محقق جزئياً ، لأن هذه الدار دار ابتلاء ليست دار جزاء ، لذلك :

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

(سورة مريم الآية : 71)

ورود النار غير دخولها ، الذي يرد النار يوم القيامة من المؤمنين لا يتأثر بوهجها ، ليرى عدل الله ، ليرى هؤلاء الذين قتلوا الشعوب ، ليرى هؤلاء الذين ألقوا قنبلة ذرية على هيروشيما فقتلوا 300 ألف بثلاث ثوانٍ ، الآن القتل جماعي ، يقال : مقبرة جماعية ، قصف جوي ، قنابل النابالم ، يورانيوم مخضب أثره لـ4500 سنة ، ماذا أقول لكم ؟ والله البشرية الآن بوضع من الإجرام لا يمكن أن يتصوره إنسان ، أنا أقول الآن : العالم القوي متطور جداً ، لكنه وحشي ، والعالم الثالث الضعيف حضاري ، لكنه غير متطور .

وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

1 – معنى الوجه :

الوجه أيها الإخوة ذات الإنسان ، أشرف شيء فيه .

2 – تحريم الضرب على الوجه :

لذلك هناك أحاديث تنهى عن ضرب الوجه ، لأنه مكان كرامة الإنسان ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((اتقوا الوجه))

[أبو داود]

عند الضرورة القصوى التأديب يكون بالضرب على الكتف ، أما على الوجه ففيه إهانة كبيرة .

بالمناسبة : الجماد للنبات ، النبات للحيوان ، الحيوان للإنسان ، فلِمَن الإنسان ؟ لله .

" خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك " .

الإنسان مخلوق لله ، وأي إنسان يجير بالتعبير المصري لإنسان آخر فقد احتقر نفسه .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة الآية : 130)

أنت لله ، كن حراً ، كن عبداً لله ، فعبد الله حر ، ولا تكن تابعاً لجهة أرضية ، كن حراً ، وكن منصفاً ، القسط هو العدل .

وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ

1 – معنى : مَسْجِد :

المسجد بالمعنى الواسع أيّ مكان على الإطلاق يعدّ مسجداً ، مكان السجود ، أنت فلاح بالحقل ، دخل وقت الظهر تؤذن وتصلي ، فهذا المكان مسجد ، أنت بالمعمل ، وليس هناك مسجد قريب ، ودخل وقت العصر ، تتوضأ ، وتصلي في أرض المعمل ، أنت بمكتب ، أنت مريض ، قبلة المريض جهة راحته ، أنت خائف ، قبلة الخائف جهة أمْنه ، أي مكان تصلي فيه فهو مسجد ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((أعطيت جوامع الكلم))

[أخرجه أبو يعلى في مسنده عن عمر]

لذلك علمونا في الجامعة أن أفصح كلام بعد كلام الله كلام رسول الله .

((أعطيت جوامع الكلم))

((ونصرت بالرعب))

[متفق عليه]

أي بالهيبة .

واسمحوا لي بهذه الكلمة المؤلمة : أمّا أمّته مِن بعده فحينما لم تطبق منهجه هزمت بالرعب ، وفي بعض الأحاديث :

((نصرت بالرعب مسيرة شهر))

[متفق عليه]

الشهر تقريباً ألف كيلومتر ، العدو بعد ألف كيلومتر كيانه مهزوز خوفاً من المسلمين ، أما لما تركنا سنته من بعده هُزمنا بالرعب مسيرة عام ، يخرج تصريح بآخر الدنيا لا ننام الليل ، لذلك :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية : 151)

حينما يشرك الإنسان يخاف ، الخوف من صفات المشركين .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

((أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا))

كثير من الأجانب أسلموا لأنهم رأوا فلاحا يصلي ، ليس هناك كنيسة ، توضأ من الجدول المائي وصلى ، توضأ وصلى بالمعمل ، بمكتبه ، بأي مكان ، في بيتك .

((أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون))

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

2 – وضع الوجه على الأرض سجودا لله وذلاً له :

مكان الشرف ضعه في الأرض تواضعاً لله ، الجماد لك مسخر ، والنبات لك مسخر ، والحيوان لك مسخر ، وأنت المخلوق المكرَّم الذي سخر لك ما في السماوات ، وما في الأرض ، الكواكب مسخرة لك ، وأنت المخلوق المكرم تضع جبهتك على الأرض تواضعاً لله ، وعبودية له ، أنت بهذا في أعلى مقام ، لذلك أعلى مقام وصله النبي سدرة المنتهى ، في هذه السدرة :

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

الإنسان إمّا بين عبودية القهر وعبودية الشكر والإيمان :

لذلك العبيد نوعان ، عبيد قهر ، كأهل الأرض كلهم ، من دون استثناء كل واحد منا مقهور ، كيف ؟ خثرة في الدماغ لا ترى بالعين تغلق شريانا يفقد الإنسان بذلك حركته ، عافانا الله جميعاً من الشلل ، خثرة أخرى بمكان آخر تفقده بصره ، بمكان تفقده ذاكرته ، الإنسان تحت رحمة الله ، فهو مقهور ، هذا عبد القهر ، عبد القهر جمعه عبيد .

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت)

أما عبد الإيمان والشكر جمعه عباد .

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان الآية : 63)

فرق كبير بين عبيد القهر ، وبين عباد الشكر ، كن عبداً لله شاكراً ، ائته طائعاً ، ائته بمبادرة منك ، تعرّف إليه ، وأنت صحيح معافى ، وأنت شاب ، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة .

3 – المعنى الضيق للمسجد< :

المعنى الضيق : أن المكان الذي خصص حرصاً للسجود هو المسجد ، عندنا مسجد بالمعنى الواسع ، وهو أيّ مكان في الأرض سجدت فيه ، ولو دخلت إلى كنيسة ، واضطررت أن تصلي فيها فمكان سجودك في الكنيسة مسجد .

(وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

أما إذا دخلت إلى بيت من بيوت الله :

((إن بيوتي في أرضي المساجد ، وإن زواري فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ، ثم زارني في بيتي ، فحق على المزور أن يكرم زائره))

[رواه الطبراني عن ابن مسعود]

4 – المسجد مكان الأمن والحكمة والراحة :

بصراحة هل قدّم لكم أحدٌ كأسا من الشاي الآن ؟ لا شاي ، ولا قهوة ، ولا فواكه ولا ... ولا كراسي ، لكن إن شاء الله تمنحون الحكمة .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

تمنحون الرضا ، أن ترضوا عن الله ، تمنحون الأمن .

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

تمنحون معرفة الله عز وجل ، عطاء الله كبير ، كبير جداً ، إذا كنت في بيته .

((إن بيوتي في أرضي المساجد ، وإن زواري فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ، ثم زارني في بيتي ، فحق على المزور أن يكرم زائره))

يكرمك بنعمة الأمن فلا تقلق ، يكرمك بنعمة التفاؤل .

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية : 51)

يكرمك بنعمة الحكمة :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

يكرمك بنعمة السكينة تتنزل على قلبك ، إن الله يعطي الصحة والذكاء ، والمال ، والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

هناك فراغ بالنفس لا يملأه المال ، ولا تملأه الزوجة الجميلة ، ولا يملأه المنصب الرفيع ، لا يملأه إلا الإيمان بالله ، ومعرفته ، وطاعته ، والإقبال عليه .

لذلك رأى هارون الرشيد مرة غيمةً ، أيْ سحابة فقال : اذهبي أينما شئتِ ، فإنه يأتيني خراجك .

الحقيقة أيها الإنسان اذهب أينما شئت ، لا بد من أن ترجع إلى الله في وقت ما ، فالبطولة أن ترجع إليه وأنت شاب .

وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ

القلب عبادته الإخلاص ، والجوارح عبادتها أداء العبادات ، فاعبد الله مخلصاً .

(لَهُ الدِّينَ)

أيها الإخوة ،

(وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ)

أيْ لا تعتمد لا على زيد ، ولا على عبيد ثم تقول : يا رب ، اعتمد على الله وحده ، لا تنظر إلى الأسباب ، اعتمد على مسبب الأسباب ، إياك أن تتلبس بشرك خفي ، ثم تدعو الله .

((أنا أغنى الأغنياء عن الشرك))

[أخرجه مالك عن أبي هريرة]

(وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

(فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأعراف)

فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمْ الضَّلَالَةُ

أنواع الهداية :

لئلا نقع في سوء ظن ، وحسن الظن بالله ثمن الجنة قال علماء التفسير : الهداية أربعة أنواع ، هداية الوحي ، وهداية التوفيق ، أول هداية هدايةُ المصالح ، وهداية الوحي وهداية التوفيق ، والهداية الأخيرة دخول الجنة ، المقصود هنا بالهداية الثالثة ، هداية التوفيق .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الكهف)

هداية التوفيق :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

لذلك هداية الوحي لجميع الناس ، القرآن بين أيدينا ، كلام النبي بين أيدينا ، الخطباء والدعاة ليلاً نهاراً يتكلمون ، هذه هداية الوحي للجميع ، أما حينما تأخذ قراراً بطاعة الله ـ دقق ـ الآن تستحق هداية ثالثة ، هداية التوفيق ، يعينك على طاعته ، يعينك على العمل الصالح ، يهب لك بعض المال كي تنفقه في سبيل الله ، يطلق لسانك في ذكر الله ، هداية التوفيق الثالثة .

1 – هداية المصالح :

أول هداية لكل البشر ، إذا اختل توازن الشخص يصحح فوراً ، هذه هداية ، إذا أكل أكلةً سامة يتقيؤها الإنسان ، إذا انكسر العظم يلتحم بعد فترة ، هداية المصالح مؤمَّنة لكل البشر ، حتى الكفار ، هدانا الله إلى مصالحنا ، إذا أكل أكلة سامة لها رائحة كريهة تعافها نفسك ، من برمجك على أن تعاف أكلة فاسدة؟ الله عز وجل ، من جعل الطعام إذا فسد له رائحة كريهة جداً ؟ الله عز وجل ، من جعل اللحم إذا فسد له رائحة لا تحتمل ؟ الله عز وجل ، هذا الكلام يتكلم فيه سنوات ، الله هداك إلى مصالحك ، من قال : إن القلب إذا أوقفناه لإجراء عمليه قلب مفتوح بعد أن يقف وقوفاً تاماً ، ونضع له دساما جديدا

نعطيه صعقة فيعمل ، لو لم يعمل لانتهت عمليات القلب كلياً ، من أعطى لكل مرض أعراضا ؟ الله عز وجل ، لو لا الأعراض لم يكن هناك ما طب أساساً ، هذا موضوع طويل جداً ، هداية المصالح ، هل يمكنك أن توقف ميتا ؟ لا يقف ، أما الإنسان الحي فيقف ، مع أن للميت أرجلا ، لكن قاعدة الاستناد ضيقة جداً ، لكن في الحي توازن ، في بالأذن جهاز توازن ، هداك إلى مصالحك ، هذه الهداية الأولى.

2 – هداية الوحي :

الهداية الثانية : هداية وحي ، هناك قرآن وسنة ودعاة .

3 – هداية التوفيق :

الثالثة : أنت حينما تقبل الهدى ، حينما تتخذ قراراً بأن تؤمن ، وأن تستقيم على أمر الله تأتي المعونة .

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

(سورة الحجرات الآية : 7)

هذه هداية المعونة ، الله قال :

(فَرِيقًا هَدَى)

الذي قبل الله أعانه ، ودله على أهل الحق ، وجمعه مع أهل الحق ، أعانه على طاعته ، أعانه على غض البصر ، أعانه على الصدق ، أعانه على إلغاء الغناء من حياته كلياً ، أعانه على اختيار زوجة صالحة ، ولو لم تكن جميلة جداً ، قبل بها إرضاء لله ، هذا أعانه الله .

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(فَرِيقًا هَدَى)

أعطاه هداية التوفيق ، والذي رفض الهدى :

(وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

يمشي مع الشيطان ، الشيطان يزين له المعاصي ، يخوفه أن ينفق ماله ، يفرق بينه وبين زوجته ، لماذا حقت

(عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ)

؟ لأنهم :

(اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

لما يقع الإنسان في معصية ، ويعلم أنها معصية ، ويخاف الله عز وجل توبته سهلة جداً ، لكن أكبر أنواع المعاصي من يعصي الله ، ويتوهم أنه على حق ، يقول لك : هذا هو الأمر الصحيح .

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

من الناس من لا يدري ، ولا يدري أنه لا يدري ، فهذا شيطان فاحذروه وأخطر إنسان في الحياة نصف المتعلم ، لا هو عالم فيفيد بعلمه ، ولا هو جاهل فيتعلم ، هو نصف العالم .

(فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(14-60): تفسير الآيتان 31 - 32 ، الزينة - خذوا زينتكم عند كل مسجد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-04-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الواحدة والثلاثين، وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

مقدمة بين يدي الآية :

1 – الكونُ مسخَّر للإنسان :

أيها الإخوة ، الإنسان كما تعلمون هو المخلوق الأول رتبة ، لأنه حمل الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض ، لذلك سخر الله له :

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

2 – العلمُ هو غذاءُ الجانب العقلي في الإنسان :

هذا الإنسان فيه جانب عقلي ، الجانب العقلي غذاءه العلم ، وفيه جانب نفسي قلبي غذاءه الحب ، وفيه جانب مادي غذاءه الطعام والشراب .

لذلك يقال : إن الإنتاج العقلي والشعوري للبشرية لا يزيد على علم وفلسفة وفن ، العلم ما هو كائن ، العلوم ، فيزياء ، المادة والطاقة ، وتحولاتهما ، كيمياء ، رياضيات ، فلك ، علوم طبيعية ، نبات ، حيوان ، طب ، جيولوجيا ، علم طبقات الأرض ، تاريخ ، جغرافيا ، والعلوم لا تعد ولا تحصى ، هي في الحقيقة دراسة الظواهر ، الظواهر النفسية علم نفس ، الظواهر الاجتماعية علم اجتماع ، الظواهر المادية علوم ، فيزياء ، وكيمياء ، وما شاكل ذلك .

3 – تعريفُ العلم :

تعريف العلم بشكل جامع مانع : علاقة ثابتة بين متغيرين ، فهو قانون ، وحقيقة مطّردة تطابق الواقع عليها دليل ، إن لم تطابق الواقع فليست علماً ، بل هي جهل ، وإن افتقرت إلى الدليل ، فهي تقليد ، وإن لم تكن قطعية فهي ظن ، ووهم ، وشك .

إذاً : علاقة بين متغيرين مقطوع بها تطابق الواقع عليها دليل .

4 – تعريفُ الفلسفة :

أما الفلسفة ما يجب أن يكون ، العلم ما هو كائن ، الفلسفة ما يجب أن يكون ، وقد يؤكد الفلاسفة هناك فلسفة الوجود ، وجود الله عز وجل ، وفلسفة المعرفة ، وفلسفة القيم .

5 – تعريفُ الفنِّ :

أما الفن فهو كل ما هو ممتع ، بدءاً من الشعر ، الشعر أدب ، والأدب فن ، وقال العلماء عن الشعر : " حَسَنه حسن ، وقبيحُه قبيح " ، والنبي عليه الصلاة والسلام ورد عنه كما أنه قَالَ :

((إنَّ مِنْ الْبَيَان لَسِحْرًا))

[البخاري عن ابن عمر]

هناك فنون مقبولة في الدين ، وفنون مرفوضة ، فنون مسموح بها ، وفنون محرمة ، الخط فن ، الشعر فن ، الأدب فن ، رسم النباتات ما فيه شيء ، رسم الكائنات الحية في عليه إشكال ، الفن بعضه سمح به الشرع ، بعضه حرمه الشرع .

الآن هذه المقدمة من أجل كلمة :

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ)

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ

1 – الجانب الجمالي في شخصية الإنسان :

عند كل إنسان حاجة جمالية ، الإنسان يروق له البيت الجميل ، يحتاج إلى الجمال ، يروق له الطريق النظيف ، النبي الكريم أمَرنا أن نميط الأذى عن الطريق ، يروقه البيت الجميل :

((فنظفوا أفنيتكم ، ولا تشبهوا باليهود))

[أخرجه الترمذي عن سعد]

يروقه المركبة الجديدة :

(لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل الآية : 8)

تروقه الثياب الجميلة .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ))

[أبو داود عن أبي الدرداء]

تروقه الحديقة ، قال الله عز وجل :

(حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ)

(سورة النمل الآية : 60)

بل :

((إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَال))

[رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه]

2 – كل حاجة جمالية لها قناة نظيفة تسري من خلالها :

والحاجة إلى الجمال حاجة أساسية ، لكن ما مِن حاجة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قنوات نظيفة ، إذا جمّل إنسان بيته ، وجنة المؤمن داره ، جمّل بيته ، جمّل ثيابه ، نظّف مركبته ، فرضاً ، عنده محل تجاري نظيف ، مطلي ، الحاجات في أماكنها ، فيه نظام ، فنحن نحب الجمال ، نحب الكمال، نحب النوال ، هذه فطرتنا .

لكن الشيء المؤلم لماذا الطرف الآخر يعتنون جداً بمدنهم ، وحدائقهم ، وأبنيتهم ومؤسساتهم ، ودور عبادتهم ، والمسلمون مقصرون في هذا ، الفوضى والقبح منفران ، والنظام والجمال والأناقة مسعدان .

أنا لا أقول : الجمال بالشيء الغالي ، لكن يمكن أن تطلي الغرفة طلاء لطيفًا مريحًا هادئا رخيصا جداً، يمكن أن تشتري أثاثا متناسبا مع الطلاء ، فالحاجة الجمالية حاجة أساسية جداً .

أحيانا إذا سافر الإنسان نزل في فندق من خمس نجوم ، يدفع عشرة أضعاف الأجور ، أو عشرين ضعفا مقابل النظافة والجمال ، أليس كذلك ؟ لكن فيه معاصٍ وآثام يقابل ذلك .

المعاني المستنبطة من قوله : خُذُوا زِينَتَكُمْ

على كلِ الآية الكريمة :

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

المعاني التي يمكن أن نستنبطها من هذه الآية :

المعنى الأول : الاغتسالُ ولُبسُ الثياب النظيفة المتناسبة :

أن ترتدي ثياباً جديدة نظيفة إذا أتيت إلى بيت من بيوت الله ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان له ثياب يرتديها في المناسبات ، وفي المسجد ، وحينما يلتقي الوفود ، وكل إنسان مؤمن ، والمؤمن سفير الإسلام ، يمثل الدين ، إذا دُعي إلى حفل إذا جاء إلى المسجد ، وكان ثيابه نظيفة ، أقول : نظيفة ، أقول: ألوانها معقولة فقط ، أنا لا أطالبك بأكثر من ذلك ، أنت مسلم ، أحياناً تناسب الألوان ، والألوان الهادئة ، والثياب التي ليس فيها تقليد للغرب ، الآن هناك من يشتري ثيابا فيها صور ، فيها كلمات بالإنكليزية ، لو يعلم الذي اشترى هذه الثياب ما تعني هذه الكلمات لخرج من جلده خجلاً .

((لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس]

ثياب نظيفة ، اغتسل ولو مدًّا بدينار .

((اغتسلوا يوم الجمعة ، ولو كأسا بدينار))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن أنس ابن أبي شيبة عن أبي هريرة]

غسل الجمعة واجب ، أنا أريد أن أقول باختصار : لماذا كان الجانب الجمالي ضعيفًا في حياة المسلمين؟ مع أنهم أتباع سيد الخلق ، وحبيب الحق ، وكان يُعرف بريح المسك ، وكان يعتني بثيابه ، وكان يقول :

((إِنَّكُمْ قادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ))

[أبو داود عن أبي الدرداء]

على كلِ ، من معاني هذه الآية أنت تأتي بيوت الله بزينة ، قالوا : الزينة الثياب النظيفة .

والله حدثني أخ قال لي : أنا مغرم بحضور الدروس في المساجد ، حضر درسًا ، وفي نهاية الدرس أقيمت الصلاة ، فلما سجد شم رائحة من جورب الذي أمامه خرج منها من جلده ، قال لي : والله ما عدت آتي إلى هذا المسجد من شدة انزعاجي .

فلما يكون الإنسان نظيفا معطَّرًا ، اغتسل ، قلّم أظافره ، رَجّلّ شعره ، اعتنى بهندامه ، فهذا من العبادة:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

هذا معنى .

المعنى الثاني : التستُّر وعجم التعرِّي :

المعنى الثاني : كان الناس قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام يطوفون بالبيت عُراةً ، فحُملت هذه الآية على أن نرتدي ثيابًا تستر عوراتنا ، دائماً البشر فريقان ، فريق يبالغ في الستر ، وهم المؤمنون ، وفريق آخر يبالغ في التعري وهم الفسَقة ، والشيطان يأمر بالتعرّي .

(يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا)

(سورة الأعراف الآية : 27)

فكلما اقتربت من أهل الإيمان كانت الثياب سابغة ، وساترة ، فحملوا هذه الآية أن ترتدي ثياباً فضلاً عن أنها نظيفة معقولة ، وأن ترتدي ثياباً تستر عورة الإنسان .

المعنى الثالث : الزينةُ ما فوق الستر :

وقال بعض العلماء : " الزينة ما فوق الستر " .

قد تكون غرفةُ الإنسان مطلية طلاء جيدًا ، نظيفة ، وجميلة ، لكن زيّنها بمنظر طبيعي ، زينها بآية ، بخطاط كبير ، زينها بزهور طبيعية ، أو غير طبيعية ، زينها بزاوية جمالية ، الزينة عند بعض علماء التفسير تزيد على قوام الشيء .

قد يكون الإنسان نظيفًا ، وقد اغتسل ، ويرتدي ثيابا جميلة ، إذا كان خاطبا يضع وردة حمراء مثلاً ، هذه الوردة زيادة ، أحيان يضع عطرًا ، الزينة تزيد على قوام الشيء .

المعنى الرابع : الزينةُ هي الطيبُ :

وبعضهم قال : " الزينة هي الطيب " ، وطيب الرجال له رائحة ، وليس له لون ، بينما طيب النساء له لون وليس له رائحة ، لأن المرأة إذا تعطرت وخرجت من بيتها ، ولفتت النظر برائحتها الفواحة تلعنها الملائكة حتى تعود .

الحدُّ الأدنى في فهم هذه الآية :

لكن الحد الأدنى من فهم هذه الآية : أن ترتدي ثياباً لا تؤذي بها أحداً في المسجد ، فالقصاب له ثياب خاصة ، يرتديها في أثناء العمل ، الدابة فيها دم ، فيها دهن ، والدهن له رائحة ، والحداد له ثياب خاصة ، ثياب زرقاء ، وعليها رائحة الفحم ، وكل حرفة لها ثياب ، لا ينبغي أن تأتي بهذه الثياب إلى المسجد ، لأن هذه الثياب تؤذي من حولك ، فالحد الأدنى في الفهم لهذه الآية : أن ترتدي ثياباً لا تؤذي مصلياً ، أن تكون نظيفة ، وأن تكون ساترة ، وأن تكون إلى حد ما جميلة .

أيها الإخوة ،

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

تفسيرُ علماءِ القلوبِ لهذه الآية :

بعض علماء القلوب فسروا هذه الآية تفسيراً آخر ، أحيانا يزور إنسان قريبه ، ومعه هدية ، هذه الهدية إذا زار قريبه المريض ، وقدمها له ، كأنه معه شيء جميل ، معه هدية ، بعضهم قال : أنت أردت أن تأتي إلى المسجد فهل عملت عملاً صالحاً لوجه الله ؟ هل أطعمت جائعاً ؟ هل كسوت عارياً ؟ هل رعيت يتيماً ؟ هل دللت إنساناً ؟ هل أنفقت من مالك ؟ هل جئت إلى بيت من بيوت الله ومعك هدية ، معك زينة ؟ الإنسان يفتخر بالهدية ، إذا دخل بيتًا ومعه هدية حملها وأساريره منطلقة ، حملها وعنده ثقة بنفسه ، معه هدية ، هذا أيضاً معنى آخر ، فائتِ بهدية إلى الله ، وهدية الله أن تكون في خدمة خلقه.

((الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[أخرجه أبو يعلى ، والبزار عن أنس ، والطبراني عن ابن مسعود]

والعمل الصالح قرض حسن لله عز وجل .

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ)

(سورة البقرة الآية : 245)

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

إخواننا الكرام ، الإنسان حجمه عند الله بحجم عمله الصالح ، يسلم بالاستقامة ، لكن لا يسعد إلا بالقرب من الله ، والإنسان إذا اقترب من الله ، اقترب من الرحيم ، اقترب من العليم ، اقترب من الحكيم، اقترب من الجميل ، المؤمن جميل ، جميل بأفعاله ، بكلامه قيل للعباس : << أيّكما أكبر أنت أم رسول الله ؟ عمه أكبر منه سنًّا ، فقال لهم : هو أكبر مني ، وأنا ولدت قبله >> .

الجمال يعم البدن والخُلق والمعاملات :

نحن مِن ضعف تفكرنا نظن الجميل في الصورة فقط ، قد يكون الكلام جميلا ، جمال الرجل فصاحته، وأحيانا يكون الاعتذار جميلا ، وأحياناً يكون في المشي جمال ، وهناك مشي مع الكِبْر ، وهناك جلسة على المقعد بأدب ، إنسان يجلس ويباعد بين رجليه هكذا ، أو يضع رجل فوق رجل استعلاءً ، هناك جلسة جميلة ، وحركة جميلة ، ومشي جميل ، واستقبال جميل ، ووداع جميل ، وإغلاق باب بنعومة .

أحيانا يركب الإنسانُ سيارة عامة ، ويسمك الباب ويغلقه بقوة ، فيخرج صاحب المركبة من جلده من ، أغلقه بهدوء ، بهدوء ، وأحيانا هناك مشي مع جلبة لا تحتمل .

دخل رجل ليصلي مع النبي الكريم ليلحق معه الركعة الأولى فأحدث جلبة في المسجد فقال له :

((زادك الله حرصاً ولا تعد))

[أخرجه أحمد و البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي بكرة]

قد يكون الإنسان ساكنا في بيت في طابق ثالث ، أحب أن يصلي قيام الليل ، يجب أن يوقظ البناية كلها بالحركة والضجيج .

كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته لف ثوبه ، لئلا يوقظ أهله بحفيف ثوبه .

لذلك هناك حركة جميلة ، وكلام جميل ، واستقبال جميل ، يأتيك ضيف تقول له : تفضل هل هناك موضوع معين ؟ أهلاً وسهلاً نورت ، أنا مشتاق إليك ، استقبال جميل ، ووداع جميل ، وإقامة مأدبة مع جمال ، والنبي عليه الصلاة والسلام ما ذم طعاماً قط ، وما مدح طعاماً قط ، رحب بالضيف فقط .

النبي عليه الصلاة والسلام قمة الجمال الأدبي :

الجمال واسع جداً ، المؤمن قمة في الجمال ، قمة في الأدب ، ما هذا الأدب يا رسول الله ؟ قال :

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[أخرجه ابن السمعاني ، عن ابن مسعود]

قمة من الحياء ، كان أشد حياء من العذراء التي في خدرها .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِهَا مِنْ الْمَحِيضِ فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ قَالَ:

((خُذِي فِرْصَةً مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا ، قَالَتْ : كَيْفَ أَتَطَهَّرُ ؟ قَالَ : تَطَهَّرِي بِهَا ، قَالَتْ : كَيْفَ ؟ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ ! تَطَهَّرِي ، فَاجْتَبَذْتُهَا إِلَيَّ فَقُلْتُ : تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ))

[متفق عليه]

احمر وجهه صلى الله عليه وسلم ، وخجل ، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها .

هناك موقف جميل ، الموضوع واسع جداً ، أنا أؤكد لكم أن المؤمن قمة في الجمال ، قمة في الأدب ، قمة في الاعتذار ، قمة في الحديث ، يستمع ، وتراه يصغي للحديث بقلبه وبسمعه ، ولعله أدرى به .

أحياناً يشكو لك إنسان أن ابنه سيء ، فتقول أنت عن ابنك : والله عندي ابن الله يرضى عليه لا مثيل له، هذا الموطن موطن مواساة ، لا موطن افتخار عليه بابنك .

((عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَيِّدِيِّ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ ، سَاعَةً وَسَاعَةً ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[رواه مسلم]

منتهى الأدب ، الجمال واسع جداً ، وأعظم جمال جَمال الروح ، أعظم جمال التواضع ، أعظم جمال الحكمة ، أعظم الجمال العطف على الآخرين ، من علامات نبوة النبي عليه الصلاة والسلام أنه من رآه بديهة هابه ، ومن عامله أحبه .

قَالَ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ :

((أَتَبِيعُنِي جَمَلَكَ هَذَا يَا جَابِرُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَلْ أَهَبُهُ لَكَ ، قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ بِعْنِيهِ ، قَالَ: قُلْتُ : فَسُمْنِي بِهِ ، قَالَ : قَدْ قُلْتُ ، أَخَذْتُهُ بِدِرْهَمٍ ، قَالَ : قُلْتُ : لَا ، إِذًا يَغْبُنُنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : فَبِدِرْهَمَيْنِ ، قَالَ : قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَلَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ الْأُوقِيَّةَ ، قَالَ : قُلْتُ : فَقَدْ رَضِيتُ ، قَالَ : قَدْ رَضِيتَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قُلْتُ : هُوَ لَكَ ، قَالَ : قَدْ أَخَذْتُهُ))

[أخرجه أحمد عن جابر]

((من كان له صبي فليتصابَ له))

[أخرجه ابن عساكر عن معاوية]

صلى طفلٌ في أول صف ، يجب أن يبقى في الصف الأول ، ولا أسمح لأحد أن يؤخر طفلا إلى الصف الثاني ، هؤلاء أحباب الله ، يدخل الإنسان بيته فيصبح عيدًا ، وهناك إنسان يخرج من بيته فيصبح عيدًا ، في الحالتين عيدٌ ، لكن البطولة في الدخول .

كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً .

كان يقول عليه الصلاة والسلام :

((أكرموا النساء ، فوالله ما أكرمهن إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم ، يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لئيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

كان عليه الصلاة والسلام يقول :

((فإنهن المؤنسات الغاليات))

[أخرجه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر]

كان عليه الصلاة والسلام إذا دخلت السيدة فاطمة وقف لها ، سيد الخلق ، وابنته وقف لها ، رحب بها، جاءته السيدة فاطمة فتاة ، بعد الولادة ضمها ، وشمها ، وقال : ريحانة أشمها وعلى الله رزقها .

الآن إذا أنجبت بنت يطلقها ، أو قال لها : إذا أنجبتِ بنتًا ثانية أطلقك ، حلف يمين طلاق ، مسكينة قطع قلبها ، فأنجبت ابنتين فلم تطلق .

والله الموقف الكامل يملؤك سعادة وكمالا ، تكون في البيت محبوبًا ، تحب أهلك ، تحب أولادك ، محسن ، تعيش نغصًا ، وعداوة ، وبغضاء ، وتراشق تهم ، وسباب ، وتكسير زجاج ، وخبط أبواب ، ومسبات دين ، البيت كتلة من الشقاء ، ومن البعد عن الله ، كن قريبًا من الله ، يصبح دخولك عيدًا .

كان عليه الصلاة والسلام تسأله السيدة عائشة عن حبه لها ؟ يقول لها : كعقدة الحبل .

معظم الشباب الآن إذا أحب يمزح مع زوجته يقول لها : أريد أن أطلقك ، أو أريد أن أتزوج امرأة ثانية، لا مزح له إلا بهذين الموضوعين المزعجين ، فهو قليل ذوق ، يجب أن تشعر بالطمأنينة .

حكت له السيدة عائشة عن أبي زرع وأم زرع ، كان طويل ، وممتع جداً ، وكان يصغي لها ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق ، يحمل أكبر دعوة في الأرض ، يصغي لها ، لكنها قالت لها بعد أن انتهت القصة : غير أنه طلقها ، فقال لها : أنا لك لأبي زرع لأم زرع ، غير أني لا أطلقك ، هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام .

كلمة جمال واسعة جداً ، يمكن أن يكون جمال الجسم لما تغتسل ، رائحته الطيبة .

امرأة في الجاهلية من أعلام الجاهلية ، نصحت ابنتها قبل الزفاف فقالت لها : والماء أطيب الطيب المفقود .

إذا ما عندك عطر إطلاقاً فاغتسل ، ثبت أن لكل واحد رائحة عطرة لجلده ، ويتميز بها ، للتأكد لك ابن صغير ، إذا تحمم ضمه وشمه ، فيه رائحة جميلة جداً ، الجلد له رائحة جميلة ، والماء أطيب الطيب المفقود ، بدءاً من أن تكون نظيفاً مروراً بنظافة الثياب ، ثم بأناقة الثياب ، ثم بنظافة البيت ، وجمال البيت .

أنا لا أقول أبداً : بيت غال ، يمكن أن يكون بيتك متواضعا جداً ، والفرش متواضع جداً ، لكن فيه لمسات جمالية ، فيه تناسق ، فيه ذوق ، وفضلاً عن بيته مركبته ، يغسلها ، أحياناً محله التجاري .

والله مرة كنت بمحل تغير زيت السيارة غير معقول ، كأنك جالس بصالة في فندق ، وهو محل تغير زيت ، الآن ببعض البلاد معامل فيها مناطق جميلة جداً ، فيها نظافة ، فيها أناقة ، لأن الإنسان يعيش عمرا واحدا .

أنا أدعو إلى أن يكون الجمال عنصرًا أساسيًا في حياتنا ، لكن أهل الفسق والفجور لا يفهمون الجمال إلا جمال المرأة المتبذلة ، وإلا أن يغوص في حمأة الجنس ، يقول لك : إن الله جميل يحب الجمال ، هذا الكلام كلمة حق أريد بها باطل .

أيها الإخوة ،

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا)

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا

1 – لابد من الاعتدال حتى في المباحات :

هذا أمر إباحة ،

(وَلَا تُسْرِفُوا)

ثبت الآن أن الإنسان مبرمج ، مصمم على الاعتدال ، إذا كان معتدل أجهزته تكفيه مدى الحياة ، كل أعضائه ، وأجهزته ، وحواسه ، يمكن أن تكون معه إلى آخر أيامه ، بشرط الاعتدال في الطعام والشراب ، وحتى في المباحات ، ففيها اعتدال ، لأنّ الإسراف في المباح له مضاعفات خطيرة .

مرة أن هذه المادة الفلانية التي تحلي بها الطعام من دون أن يكون لها حريرات مسرطنة ، فردوا على هذا الكلام : أي شيء إذا أسرفت به مسرطن ، أي شيء ، كأن هذا الإنسان بأجهزته وأعضائه وحواسه مصمم على الاعتدال ، فإذا بالغ ، وإذا أسرف وقع في شر عمله .

2– بين الإسراف والتبذير :

أيها الإخوة ، الإسراف في المباحات ، والتبذير في المعاصي والآثام ، أيُّ مال أنفقته في حرام فأنت مبذر ، مضطر أن أقول هذا الكلام : شراء الدخان تبذير ، ليس إسرافاً .

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

(سورة الإسراء)

أيُّ شيء محرم شراءه تبذير ، أما أيّ شيء حلال الأخذ منه أكبر من الحد المعقول إسراف ، والإسراف في المباحات والتبذير في المعاصي والآثام . شيء آخر ، مقولة لطيفة : لو أنفقت مثل أحد ذهباً في حلٍ لما كنت مسرفاً .

رجلٌ من أهل الغنى أقام عقد قران لابنته ، وأنا حضرت هذا العقد ، دعا ألف إنسان ، واتفق مع مطعم لتقديم الطعام ، كل إنسان كلف ألف ليرة ، المبلغ مليون ، وهناك أناس حضروا ، وانتقدوه انتقادا شديدا، أنا تريثت ، ثم علمت أن هذا الطعام لم تذهب حبة رز هباء ، وضع في المعلبات ، وفي الأواني ، وأصلح شأنه ، أضيف له اللحم ، ووزع على معاهد ، وعلى مياتم ، وأكل منه حوالي عشرين يوما ، ودفع مليون ليرة لتزويج الشباب فوق المبلغ ، فقالوا : لو أنفق مثل أحد ذهباً لما كنت مسرفاً ، ولو أنفقت درهما واحداً في حرام لكنت مسرفاً ، وبالأصح كنت مبذرا .

لذلك الإسلام دين الفطرة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((أشدكم لله خشية أنا ـ سيد الخلق ـ أنام وأقوم ، أصوم وأفطر ، أتزوج النساء آكل اللحم ، هذه سنتي ، فمن رغب عنها فليس من أمتي))

[البخاري عن عائشة]

إسلامنا وسطي ، إسلامنا دين الفطرة

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

ولا تسرفوا في أي شيء .

3 – الغرق في المباحات وقوعٌ في حبائل الشيطان :

إخواننا الكرام ، لابد من تعليق : إذا غرق الإنسان في المباحات فقد وقع في حبائل الشيطان ، كيف ؟ الشيطان دائماً يزين للإنسان والعياذ بالله الكفر ، فإن رآه على إيمان زين له الشرك ، فإن رآه على توحيد زين له الكبائر ، إن رآه على طاعة زين له الصغائر ، إن رآه على ورع زين له البدع ، إن رآه على سنة زين له التحريش بين المؤمنين ، هذا الشيخ لا يفهم ، اتركه ، فإن رآه على استقامة آخر ورقة

بيد الشيطان ليصرف الإنسان عن عبادة الرحمن المباحات ، يغرقه في المباحات ، ثم يأتي الموت فجأة، عندئذٍ يضطر أن يقول :

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

تصور بيتًا تسكنه مستأجراً ، ونظام الإيجار في بلد ما أن المستأجر يطرد في أية ثانية ، من دون إنذار، ولا يسمح له بأخذ شيء من هذا البيت ، اشترى الثريات ، السجاد ، يخرج بثيابه ، الساعة الثالثة والنصف بالليل ، لو كان في بلد هكذا نظام الإيجار فيه ، هل من العقل أن يفرش هذا البيت ، الثريات ، السجاد ، الأثاث ، أجهزة الكهرباء ، وبأي لحظة يكون خارج البيت ؟ ولا يسمح له بأخذ شيء ؟ هذا مجنون ، وعنده بيت على الهيكل ، لكنه بعيد ، دخلك كبير ؟ اكسُ هذا البيت ، رمم هذا البيت ، افرش هذا البيت ، اطل هذا البيت ، فلذلك الذي يضع كل البيض كله في سلة واحدة مغامر ومقامر .

إذاً : إحدى أوراق الشيطان أن نغرق في المباحات .

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

المسرف ضيع عليه الآخرة ، إن أسرف في المباحات انشغل بها عن الطاعات ، وإذا فعل المحرمات حجبته عن قيوم الأرض والسماوات .

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

الأصل في الأشياء الإباحة : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

1 – الأصل في الأشياء الإباحة :

هذه الفواكه كم ثمنها ؟ الله خلقها لك ، لمَ لا تشتريها ؟ تملك ثمنها ، وأولادك تواقون إليها ، لمَ لا تشتريها ؟ أخي عندهم أكل ، الأكل قوت ، أما هذه فهي فاكهة ، وقد قال الله عنها :

(وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ)

(سورة الواقعة)

(لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ)

(سورة يس)

الشيء الجميل خلقه الله جميلا ، وسمح بالتعامل معه ، إذاً : لا تقل : أنا لا أتزوج ، من أنت ؟ الزواج سنة ، الأنبياء تزوجوا ، وهو شيء لا يعيق هدفك الأخروي .

أيها الإخوة ، مرة ثانية :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ)

2 – البطولة في العمل الصالح لا في الامتناع عن المباح :

البطولة لا أن تمتنع عن المباحات بل أن تعمل الصالحات ، وهناك فرق كبير بين أن تمتنع عن المباحات فتشعر بالحرمان الدائم ، وبين أن تفعل الصالحات فتتألق عند الله عز وجل ، هذا المفهوم الإيجابي للإيمان ، الزهد أن تزهد في الآخرة ، الزهد المحرم أن تزهد في الآخرة ، أما الذي يسعى للآخرة فهذا طموح .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لهم ولغيرهم .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ)

(سورة البقرة الآية : 126)

3 – نِعم الدنيا المادية لجميع الناس ، ونعم الآخرة للمؤمنين خاصة :

هناك كفار تتفننوا في الطعام والشراب ، عندهم بيوت فخمة جداً ، مركبات فخمة جداً ، يتزوجون نساء جميلات جداً ، عندهم أذواق في النزهات ، وفي السهرات ، وفي الحفلات .

لذلك الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك عادل ، الآخرة وعد صادق ، لذلك قال تعالى :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

لهم وحدهم يوم القيامة ، أما في الدنيا لهم ولغيرهم .

لذلك الله أعطى فرعون الملك وهو لا يحبه وبالتالي أعطى سليمان الملك وهو يحبه .

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

(سورة ص الآية : 35)

ما دام الله قد أعطى المُلْكَ لمن يحب ، ولمن لا يحب ، إذاً ليس المُلْكُ مقياساً ، أعطى المال لقارون وهو لا يحبه ، أعطاه لعبد الرحمن بن عوف ، وهو يحبه ، إذاً : المال ليس مقياساً ، لا يعد الفقير أقلَّ قيمة عند الله ، ولا الغني أكبر قيمة ، سيدنا عبد الرحمن بن عوف قال : ماذا أفعل إذا كنت أنفق مئة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء ، ماذا أفعل ؟ كان تاجرً قال : والله ما استقليت رحباً ، ولا بعت ديناً، تعلموا هذا الدرس ، ولا بعت ديناً ،

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

الآن الطلاب في أثناء العام الدراسي كلهم دارسون ، الامتحان لم يأتِ بعد ، كلهم مثل بعضهم ، يتمتعون بكل الميزات ، أما عند الامتحان فيكرم المرء أو يهان .

4 – الطيبات من الرزق معها طاعة لله ، وسعادة بالعيش :

هناك رأي آخر ، الآية دقيقة ، يعني هذه الطيبات من الرزق معها طاعة لله ، معها إقبال على الله ، معها سرور إيماني ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((من أصبح منكم آمنا في سربه))

[رواه البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

هذا أمن الإيمان ، أنت مستقيم على أمر الله ، وعندك شعور أن الله يحبك ، وأنك لم تعصه ، وأنك تحب عباده المؤمنين ، وأنك في خدمتهم ، ولم تبنِ مجدك على أنقاض الآخرين ، ولا بنيت أمنك على إخافتهم ، ولا غناك على فقرهم ، ولا حياتك على موتهم ، ولا عزك على ذلهم ، عندك إحساس أن الله يحبك ، هذا الإحساس مريح جداً ، هذا إذا ضم إلى ما سمح الله لك من طعام وشراب ، وصحة وزواج، يكون هذه الحالة نادرة مخالفة للمؤمنين ، مؤمن جمع بين الراحة النفسية والنعم التي أنعم الله بها عليك .

(قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

في الدنيا يمتاز على أهل الدنيا الذين انغمسوا في هذه المتع أنهم موصولون بالله عز وجل ، فصلة المؤمن سعادة من الداخل ، ومتعة من الخارج .

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(15-60): تفسير الآية 33 ، تحريم الزنا والخمر والسرقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-04-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثالثة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

بين يدي الآية :

1 – الفائدة من أسلوب الحصر :

أيها الإخوة الكرام ، بادئ ذي بدء : كلمة إنما في اللغة العربية أداة قصر وحصر ، يعني أن الذي حرمه الله ما سيأتي بعد إنما ، ولا شيء محرم غيره ، والتحريم والتحليل من شأن الله وحده ، وليس من شأن البشر ، لذلك قل يا محمد لهم :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي)

ما الذي حرمه ؟ ما سيأتي بعد إنما .

2 – ما هي الفواحش ؟

أولاً : الفواحش ، الفاحشة العمل القبيح ، الفاحشة ، الفاحشة العمل المشين ، الفاحشة العمل المخزي ، العمل الذي يعد فضيحةً ، العمل الذي يتجاوز أثره إلى غير الفاعل ، الإنسان قد يشرب الخمر فيؤذي نفسه ، لكن حينما يزني يؤذي فتاة معه ، فينقل فتاةً من فتاةٍ شريفة إلى فتاةٍ زانيةٍ سقطت من عين ، الله ومن عين نفسها .

3 – الفواحش كلّها محرَّمة :

لذلك الفواحش محرمة ، لماذا ؟ هنا السر ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى شرع نظام الأبوة والبنوة ، وأقدس علاقة بين شخصين علاقة الأب بالابن والدليل ، قال الله عز وجل :

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ *وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

(سورة البلد)

4 – الزنا يلغي نظام الأبوة :

نظام الأبوة والبنوة يدل على الله ، وأيّ إنسان سعادته بسعادة أبنائه ، لا يريد من ابنه شيئاً إلا أن يكون سعيداً ، لذلك :

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة]

نظام الأبوة أودع الله في الآباء محبة الأبناء بطبعهم ، وأودع الله في الأمهات محبة الأبناء ، فحينما يعلم الإنسان أن هذا ابنه يتفانى بخدمته ، يتفانى بتيسير حاجاته ، يتفانى بإسعاده ، يجوع ويطعمه ، يعرى ويكسوه ، هذا النظام قائم على حفظ الأنساب ، ماذا تفعل الفاحشة ؟ تختلط الأنساب بها ، لا تعرف لا الابن من .

الآن مع مثل بسيط : تجد امرأة متدينة وملتزمة ومحجبة ، وعندها أولاد ، وعندها من زوجها أولاد من غيرها ، قسوتها على الآخرين عجيبة، ورحمتها بأولادها عجيبة .

إن ذلك نظام رسخه الله في طبع البشر ، أن الأب والأم يندفعون بشكل عجيب إلى الحفاظ على سلامة أبنائهم ، ومستقبل أبنائهم ، وصحة أبنائهم ، وغذاء أبنائهم ، وكساء أبنائهم ، وتحصين أبنائهم ، وأخلاق أبنائهم ، هكذا صمم الله الخليقة ، ماذا يفعل الزنا ؟ يلغي الأبوة ، يلغي البنوة ، يلغي هذه العاطفة المقدسة التي أودعها الله في الإنسان .

الإنسان متى يعمل ؟ متى يتفانى في خدمة ابنه ؟ إذا كان موقناً أنه ابنه ، ومتى يكون موقناً أنه ابنه ؟ إذا كانت زوجته التي عنده أنجبت له هذا الولد .

لذلك اخطر شيء في الزنا أنه يلغي نظام الأبوة والبنوة .

هناك طرفة ذكرتها كثيراً لكنها معبرة كثيراً ، أن شابا في بلاد الغرب أحب فتاة ، فاستأذن والده في الزواج منها ، قال له : لا يا بني ، إنها أختك ، وأمك لا تدري ، فلما أعجب بامرأة ثانية قال له الكلام نفسه ، والثالثة كذلك ، فشكا إلى أمه ، فقالت له : تزوج أين شئت ، أنت لست ابنه ، وهو لا يدري .

الفواحش تلغي النسب ، تلغي ما أودعه الله في الآباء من محبة للأبناء .

والله سمعت قصة أن امرأة ملتزمة تؤدي عباداتها كاملة ، ولا أقرها على عملها ، ترعى أولادها رعاية مثالية ، لكن بنت زوجها من غيرها تقسو عليها قسوة يصعب شرحها ، هي هي .

حينما تكون الفواحش ، وتختلط الأنساب يلغَى النظام الذي رسمه الله للبشر ، لذلك تجد قسوة في العالم الغربي تفوق حد الخيال ، لأن عدد اللقطاء يزيد على عدد الأولاد الشرعيين ، اللقيط لا أب له ، ما استقى من أبيه الرحمة ، ما استقى من أمه الرحمة .

إن الوقوع في الفواحش يعني إلغاءَ نظام الأبوة ، ونظام البنوة ، وإلغاء هذه العاطفة المقدسة التي أودعها الله في الآباء ، وهذه العاطفة المقدسة التي أودعها الله في الأمهات .

إن الفاحشة عمل قبيح ، وهو العمل الذي يعد فضيحة ، والعمل الذي يستحي به ، والعمل الذي يتجاوز أثره فاعله إلى غير فاعله .

قال العلماء : الفاحشة هي الزنا ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، ليس في الإسلام حرمان ، ولكن في الإسلام تنظيم ، وفي الإسلام نظافة ، وطهر ، وعفاف ، وأنساب واضحة ، هذا أب لفلان ، وهذا ابن فلان ، وهذا ابن فلانة ، وهذه أم فلان ، هذا الانضباط في الأنساب يفعّل العواطف المقدسة التي أودعها الله في الآباء وفي الأمهات .

لذلك الفواحش تتناقض مع نظام الأسرة ، بينما الاستقامة ، والزواج الذي شرعه الله لنا هذا يؤكد النظام الإلهي الذي نظمه للبشر عن طريق أن الأب أودع فيه في طبعه محبة أولاده ، الابن مكلف تكليفاً أن

يبر أباه ، لذلك هناك آيات كثيرة جداً توصي الأبناء بآبائهم ، وليس في القرآن إلا آية واحدة متعلقة بالمواريث ، وليس في القرآن غير هذه الآية التي توصي الآباء بالأولاد ، لأنه طبع في الإنسان . لذلك :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

هناك فواحش معلنة ، وفواحش غير معلنة ، كلاهما محرم ، وحينما يبتعد الإنسان عن الله يخاف على سمعته ، فقد يقترف الفواحش من دون أن يعلم أحد بها ، والقرآن الكريم بين لنا أن الله يعلم كل شيء ، ولا تخفى على الله خافية .

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

فالفواحش الأعمال القبيحة المخزية التي تصنف مع الفضائح ، التي يتجاوز أثرها فاعلها إلى إنسان آخر ، والفاحشة هي الزنا ، وهذه محرمة في الإسلام ، وفي كل الأديان ، وفي كل الشرائع ، لأنها تسبب اختلاطاً في الأنساب ، وإلغاءً لما أودعه الله في قلوب الآباء والأبناء من تعاطف ، ومحبة ، ومأثرة ، وما شاكل ذلك .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

((من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله تعالى إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله))

[رواه الحكيم عن أنس رضي الله عنه]

وقد ورد في الحديث الشريف عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجة]

لذلك :

(مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

وعلامة إخلاصك لله عز وجل أن يستوي عملك في سرك وفي جهرك ، في خلوتك وفي جلوتك ، أمام الناس ووحدك في البيت .

((من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله تعالى إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله))

وعلامة إخلاصك أن يستوي عملك في سرك وفي جهرك ، في خلوتك وفي جلوتك ، في ظاهرك وباطنك .

إذاً أول شيء :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ)

، لأنها تلغي الأنساب ، فيولد لقيط لا أب له .

بين اللقيط وصحيح النسب :

إخواننا الكرام ، الطفل لكرامة الإنسان عند الله جعل طفولته مديدة ، لأنه يستقي من أبيه وأمه العطف ، والحنان ، والرحمة ، ينشأ على محبة أمه وأبيه ، ينشأ بعلاقات إنسانية راقية جداً ، أما اللقيط فلا أبَ له، ولا أم له ، لذلك لو أن اللقيط كبر ، وتسلم منصب تراه قاسياً قسوة لا حدود لها ، لا يرحم ، يتشفى أحياناً من المجتمع ، يتشفى ، يبالغ في إيذائه ، نظام ربنا عز وجل ، ومنهج ربنا عز وجل أساسه نظام الأسرة ، ونظام الأسرة أساسها حفظ الأنساب ، وحفظ الأنساب يتناقض معها الزنا ، الزنا علاقة بلا نسب ، علاقة مشبوهة ، علاقة سرية ، لذلك حتى عقد الزواج إن لم يكن بعلم ولي الفتاة فهو عقد زنا .

((لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل))

[أخرجه البيهقي عن عمران وعن عائشة]

ما الفرق بين الزواج الذي يعلن ويشهر وبين الزنا ؟ العلاقة واحدة ، لكن الأولى وفق الحكم الشرعي ، والثانية بخلاف الحكم الشرعي .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

لذلك بطولتك في أن تخشى الله في سرك ، في خلوتك ، في بيتك ، في غرفتك الله عز وجل قال :

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

(سورة غافر الآية : 19)

أنت في غرفتك ، ولغرفتك نافذة على بيت الجيران ، وقد خرجت امرأة من الشرفة في ثياب متبذلة ، من الذي يضبط لك هذه المخالفة ؟ لو أنك ملأتَ عينيك من محاسنها ، وهي لا تدري ولا تعلم ، وأنت في غرفة أقل إضاءة من الطريق ، ترى كل شيء ، قال تعالى :

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

لذلك ضبط الأنساب أساس البعد عن الزنا ، تعد أكبر جريمة في المجتمعات الحديثة هي الزنا ، إلى أنه يصبح في نهاية المطاف شيئاً عادياً جداً .

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً))

[ورد في الأثر]

حدثني أخ من بلاد بعيدة جداً ، قال لي : والله الأب المتزمت المتمسك بالتقاليد والعادات والتراث ، المتزمت الذي يعد في مجتمعاتهم أصولياً ، إذا رأى ابنته تتزين قبل أن تخرج يحذرها من الحمل فقط ، هكذا أصبح الوضع .

نحن في نعمة كبيرة أيها الإخوة ، لا يزال المجتمع الإسلامي منضبط ، لا يزال هناك أسر ، قلّمَا يتناهى إليك ما يسمى بالخيانة الزوجية ، أما إذا كان هناك خيانة زوجية وحمل سفاح ، وابن زنا ولقيط فالمشكلة كبيرة .

لذلك أول شيء جاء في هذه الآية :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ)

الزنا عمل قبيح ، مخزٍ ، يعد فضيحة ، يستحي به ، له رائحة نتنة ، يتجاوز أثره فاعله إلى غيره .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

هناك فاحشة معلنة في الغربي .

إن كثيرًا من الأشخاص المهمين جداً في مؤتمر صحفي على عشر محطات فضائية ، امرأة كان ترشح أن تكون ملكة بريطانيا ، قالت في لقاء صحفي : أنا زنيت عشر مرات مع فلان ، ومع فلان ، بشكل طبيعي جداً ، كأن الواحد عندنا قال : أنا أكلت الأكلة الفلانية ، أكلت في المطعم الفلاني ، بهذه البساطة، هذا هو البعد عن الله عز وجل ، نحن في نعمة كبيرة ، نحن عندنا بقية حياء ، نقية خجل ، بقية خوف من الله ، بقية انضباط ، بقية تماسك أسري ، بقية أسرى نظيفة ، أدام الله علينا هذه النعم .

أيها الإخوة الكرام ،

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ)

وَالْإِثْمَ

1 – الإثمُ هو الخمرُ :

الإثم كما قال العلماء : " كل كبيرة يقام عليها حد " .

وقال بعضهم : " الإثم هو الخمر والميسر " ، فالذي يشرب الخمر يقول لك : أنا لا أؤذي أحد ، هذا صحيح ، إنك لا تؤذي أحداً ، ولكنك آذيت نفسك ، لماذا ؟ .

العلة العميقة في تحريم الإثم أن الله أودع في الإنسان عقلاً ، والعقل مناط التكليف ، والعقل أثمن جهاز وضعه الله فينا .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

2 – لك عقلٌ فحافظ عليه :

هذا العقل يعطل بالخمر ، فكما أن الإنسان ينبغي أن يتحرك وفق نظلم الأسرة ينبغي أن يرعى أولاده ، أن يعتني بهم ، أن يؤمن لهم الطعام والشراب ، والمأوى والكساء والتعليم ، والتهذيب ، والتوجيه ، وأن يعتني بكل الطوارئ التي تطرأ عليهم ، كما أن الإنسان ينبغي أن يكون حفظ النسب أساساً لنظام الأبوة والبنوة ، واستمراراً للحياة ، ينبغي ألا يعطل عقله عن أن يدير شؤونه ، بتعطيل العقل تضيع ، لذلك الذي يقول : أنا أحتسي كؤوس الخمر كي أنسى الهموم ، نقول له : لا ، أنت حينما تبتعد عن الخمر تملك عقلاً ، هذا العقل يمكن أن يحل لك المشكلات .

((إنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ على العَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ))

[رواه أبو داود عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

أن تستخدموا عقولكم لحل مشكلاتكم ،

((إنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ على العَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ))

قال :

((فإذَا غَلَبَكَ أمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ))

[رواه أبي داود ، عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

3 – لا تحتجّ بالقدر بعد التقصير والإهمال :

هذا الأمر أيها الإخوة أتمنى أوضحه فيما يلي :

لو أن في الحمام مأخذا كهربائيا مكشوفا ، والتيار 220 فولطًا ، وإذا مشى طفل في الحمام ورجله على البلاط ، والبلاط فيه ماء ، ودون أن يشعر طفل ولمست رجله المأخذ الكهربائي يموت فوراً ، الآن إذا كان عند إنسان مأخذ كهربائي في الحمام مكشوف ، الشريط مكشوف أيضاً ، وطفله صغير ، والحمام فيه ماء ، ودخل الطفل بلا شيء في قدمه ، ومس التيار مات ، لما يقول الأب : سبحان الله ! هذا مات بأجله ، لا ، هذا جزاء التقصير ، إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تعزو أخطاءك إلى القضاء والقدر .

أنا أقول لكم هذا الكلام الدقيق ، قال لك الطبيب : ابتعد عن الملح كلياً ، لأن ضغطك مرتفع ، والضغط قاتل صامت ، وأنت قلت : كل ملح ، وتوكّل على الله ، والشافي الله ، ولا تخف ، ولا يضر مع اسمه شيء ، وحدثت خثرة في الدماغ على أثر ارتفاع الضغط ، وفقد الإنسان الحركة ، لا تقل : هذا قضاء وقدر ، تقول : هذا جزاء التقصير ، أما حينما تأخذ بكل القواعد الصحية ، وحينما تنصاع لكل التعليمات التي تأتيك عن طريق الطبيب ، ويأتي شيء من الله فهذا هو القضاء والقدر .

حينما لا تدرس ، ولا تنجح ، لا تقل : قسمة ونصيب ، الله لم يكتب لي أن أنجح ، سبحان الله ! لا تقل هذا ، قل : أنا ما نجحت لأني ما درست ، أما لما تدرس أعلى دراسة ، ويوم الامتحان ينشأ ظرف طارئ في صحتك يمنعك من أداء الامتحان ، وقلت : حسبي الله ونعم الوكيل ، فكلامك صحيح . أنا أتمنى أن أجل أن ننهض ، أن نتقدم ، ألا نعزو أخطاءنا إلى القضاء والقدر ، هناك أنظمة وقوانين ، الله عز وجل لم يغيّر لك القوانين من أجلك ، هناك قوانين للصحة ، وقوانين للسلامة ، من نام على سطح ووقع من على السطح فقد وقع آثماً ، ومن كان جمله حرونًا فلا يركبه ، فلما ركبه أحدهم ، ودقت عنقه لم يصلِّ النبي عليه ، أو تنزل من المركبة وهي تمشي ، وتضطرب فتقع ، وتأتي رجلك تحت الدولاب ، وتقول : هكذا كتب الله عليّ ، لماذا نزلت والمركبة تمشي ؟ القضاء والقدر شيء، وجزاء التقصير شيء آخر ، لا ينبغي أن نعزو أخطاءنا إلى القضاء والقدر إطلاقاً ـ دققوا ـ :

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ)

(سورة النور الآية : 11)

خذوا العبرة من حادثة الإفك :

الإفك ، حديث الإفك ، اتهام السيدة عائشة ، زوجة رسول الله ، المصونة الحصان ، العفيفة ، الطاهرة ، اتهمت بأثمن ما تملكه امرأة .

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

(سورة النور الآية : 11)

هذا التسيير الإلهي ، قال :

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور الآية : 11)

إذاً التوحيد لا يعفي من المسؤولية ، طبيب بالإسعاف يدير حديثًا مع ممرضة ، وجاءه إنسان مصاب ، وقال لهم : انتظروا ، فمات المريض ، سبحان الله ! مات بأجَله ، لا ، لم يمت بأجله ، مات بسبب تقصير الطبيب المسعف ، ويحاسب على ذلك .

أكثر شيء يؤلمني الخلط ، والتقصير ، والإهمال ، والتسيب ، وعدم إتقان العمل ، وربطه بالقضاء والقدر .

ركّب رجلٌ صحنًا ، وموضوع الصحن موضوع ثان ، لكن ركب صحنًا ، وضع له برغيًّا واحدا ، جاءت موجة رياح فوقع الصحن فوق ابنة صديقه ، فماتت ، لا تقل لي : قضاء وقدر ، وسبحان الله ماتت وهي بعمر الورود ، لا تقل هذا الكلام ، هذا الذي ركب هذا الصحن ينبغي أن يحاسب حساباً عسيراً ، لأنه أهمل عمله .

ما دمنا نربط كل شيء بالقضاء والقدر ، نغطي بالقضاء كل أغلاطنا فلن نتقدم قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ))

[أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم عن ابن عمرو]

لمَ تطبب ، ولم تكن مختصًا ، وتعطي دواء ، والدواء من آثاره صدمة مفاجئة ، ولا تتأكد أن المريض يتحمل هذه الصدمة ، وتأتيه صدمة ، ويموت ، لا تقل : مات بأجله ، هذا ترتيب سيدك ، وماذا نعمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه مشكلات العالم الإسلامي ، خلط الأوراق ، القضاء والقدر شيء ، وجزاء التقصير شيء آخر ، الكسل الذي يؤدي إلى الرسوب شيء ، وأن إنسانًا يوم الامتحان جاءه مرض عضال مفاجئ منعه من أداء الامتحان شيء آخر .

لذلك لما يؤدي الإنسان ما عليه ، ثم يستقبل أيّ قضاء من الله وقدر بنفس طيبة ، يقول : أنا أديت الذي علي ، الذي جاءني فيه حكمة بالغة ، وأؤكد لكم أنك إذا أديت الذي عليك لا يأتي القضاء والقدر إلا لصالحك ، عندئذٍ أقول لكم :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

صدقوا أيها الإخوة ، في التعليمات القانونية لا بد من فحص الزوجين ، عملياً الفحص شكلي ، قد يكون الفحص ، لو أجري الفحص للزوجين كان هذا الزواج سيؤدي إلى أولاد عندهم أمراض في الدم خطيرة جداً ، في بعض البلاد 8 آلاف حالة ، في بلد أربع حالات فقط مع الوعي الصحي ، من دون وعي صحي ، من دون انضباط بقواعد العلم 8 آلاف حالة ، هذا الطفل الذي يولد كسيحاً على الكرسي ، يكلف معاينة كل شهر ، يجب أن يضخ دم له 8 ساعات على جهاز ، فوق طاقة الإنسان ، يكلف من 200 لـ300 ألف كل سنة ، المبالغ التي تنفق على أمراض ناتجة من عدم الفحص الدقيق قبل الزواج فوق طاقة الإنسان .

الحياة فيها علم ، والدين الإسلامي دين علم ، ودين قواعد ، ودين مسؤولية ودين مبادئ ، فلذلك الذي حرمه الله :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ)

لأنه يعطل العقل ، وإذا تعطل العقل تعطلت إدارة الحياة ، إنسان سكران ، غارق بالسكر . الآن :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ)

الخمر والخمر تعطل العقل ، نحن بحاجة إلى حفظ أنساب حتى نفعّل نظام الأبوة ، كل أب له ابن ، وحياته كلها في خدمة أولاده ، بل هم زاده إلى الله ، بل هم جنته وناره ، وأولاده امتداد له ، وأولاده وجوده المستمر .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ)

الفواحش تلغي نظام الأبوة ، يصبح هناك لقطاء ، وإنسان حاقد ، ما استقى الرحمة من أمه وأبيه .

(وَالْإِثْمَ)

هو الخمر ، تعطل العقل ، الذي أنيط به إدارة الحياة العقل ، يتعطل بالخمر .

وَالْبَغْيَ

(وَالْبَغْيَ)

1 – ما هو البغي ؟

وهو العدوان ، والعمل الذي يصل إلى الآخرين ، هناك عدوان على العِرض ، وعلى النفس ، وعلى المال ، وأوضح شيء المال .

2 – من آثار البغي السيئة :

مثلاً : زرع إنسان أرضًا واشتغل فيها سنة ، وباع المحصول ، وقبض الثمن ، هذا الثمن جهد ثمانية أشهر دوامًا مديدًا ، وجهدا عضليا كبيرا ، وجهدا علميا في الزراعة ، وجهدا آخر في الوقاية من الحشرات ، وجهدا تسويقيا ، جمع المال ، في الطريق لقيه أحدهم معه سلاح ، قال له : أعطني ما في هذه المحفظة ، ما الذي حصل ؟ هذا القوي بهذا السلاح اعتدى على كسب هذا الرجل .

كلما اعتدي على كسب الإنسان ضعفت قيمة العمل ، والعمل أساس التقدم ، أساس البناء ، فحينما يعتدى على الأعراض ، وعلى الأموال ، وعلى الأنفس تعمّ الفوضى ، لعن الله من قال الفوضى البناءة ، أي فوضى بناءة ؟ هذا الذي يجري حولنا ، لا أمن إطلاقاً ، ولا استقرار ، ولا بيت ، ولا أسرة ، ولا ابن .

لذلك أيها الإخوة ، حينما يعتدى على الأموال والأعراض والأشخاص يفتقد الأمن ، وتوقفت الأعمال ، ودائماً مع الفوضى كساد ، وسرقة ، ونهب ، وضعف للأعمال ، والعمل أساس التقدم .

هذه مِن آثار الزنا والخمر والبغي :

باختلاط الأنساب ألغي نظام الأبوة والبنوة .

الشيء الثاني :

(وَالْإِثْمَ)

هو الخمر ، ألغي العقل الذي يدير الحياة .

الآن :

(وَالْبَغْيَ)

ألغي الكسب المشروع ، ولم يعُد للعمل قيمة ، وكل البلاد التي طبقت نظام إلغاء الملكية أخفقت إخفاقاً كبيراً ، وفي النهاية رجعت إلى نظام الملكية .

المجتمعات التي بقيت سبعين عاماً تنادي بإلغاء الملكية لم يحصل لها تقدم أبداً ، بل كانت في تخلف شديد ، فلما ثبت أن هذا النظام لا يمكن أن ينمي قدرات الإنسان عادوا إلى نظام آخر .

على كلٍ :

(وَالْبَغْيَ)

هو العدوان ، والحقيقة أن الأشياء المحرمة أشياء دقيقة جداً ، الأولى تحريم الزنا ، والثانية تحريم الخمر ، والثالثة تحريم العدوان ، الحياة لا تستقر إلا بالبعد عن الزنا ، فتكون الأسر نظيفة ، وبالبعد عن الخمر فتكون العقول نشطة ، وبالبعد عن العدوان فتنمو المكاسب .

إنّ أيّ إنسان تقول له : هذا الجهد لك ، هذا الربح لك ، يعمل ليلاً نهاراً ، حينما يكون في الشيء ثمرة يمكن أن تقطفها فقد تتفانى في خدمة عملك .

أذكر مرة أن معملا تعطلت فيه آلة في الساعة الثانية ليلاً ، صاحب المعمل أتى بمن يصلح عطب هذه الآلة الساعة الثالثة ليلاً ، حتى لا يعطل العمل والإنتاج ، إذا كان الشيء يعود ثمرته لك تتفانى بخدمته .

إذاً : قضية التحريم وراءها أبعاد كبيرة جداً ، وعميقة جداً ، وبعيدة جداً .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

هناك بغي بالحق ، وهذا مثل بسيط : ربان السفينة عنده خبرات عالية جداً ، لكنه تقاعد ، وركب سفينة ، فيها ربان مبتدئ ، والأمواج متلاطمة ، وخطر الغرق قائم ، فاستولى على قيادة السفينة لينجو أهلها من الغرق ، هو أخذ هذا المنصب القيادي بغير حق ، أخذه بحق هنا حفاظاً على سلامة السفينة ، هناك حالات نادرة جداً ، قال له سيدنا يوسف :

(اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

قد ترى أن الذي يدير هذه الدفة غير صالح ، فيه مشكلات كبيرة جداً ، فإن أخذت عنه ربما أنقذت المركبة من الغرق ، هذا تعليق على كلمة :

(وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا

1 – لا تستقر حياةٌ بالشرك :

الآن :

(وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

الحياة مع الشرك حياة مشتتة ، حياة فيها صراعات ، هناك أقوياء كثر ، وكل قوي له اتجاهات ، وكل قوي له أتباع ، وكل قوي له أشخاص ، وكل قوي له إعلام ، وتجد صراعات الحياة عجيبة ، لأن الناس تفرقوا عن الله عز وجل ، ما اعتصموا بحبل الله .

2 – أساس الحياة التوحيد والإخلاص :

فلذلك الشرك من أخطر الآفات الاعتقادية ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، ونهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى ، والتوحيد :

((اعمل لوجه واحد يكفيك الوجوه كلها))

[أخرجه ابن عدي ، والديلمي عن أنس]

((من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها))

التوحيد :

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

هذا التوحيد ، التوحيد مسعد ، التوحيد مريح ، التوحيد فيه شعور بالأمن ، علاقتك بالله ، أمرك بيده ، بيتك بيده ، أهلك بيده ، أولادك بيده ، من هو أقوى منك بيده ، من هو أضعف منك بيده ، الأمراض بيده ، تتجه إليه مخلصاً .

لذلك بعد أن يلغى الزنا ، ينضبط الإنسان ، يفعّل نظام الأبوة ، كل إنسان يعتني بأولاده ، هناك بيوت نظيفة ، وحينما تلغى الخمر تكون العقول نشطة بإدارة الحياة ، وحينما يلغى العدوان يصير العمل مقدسًا ، وإلغاء البغي لصون العمل ، وإلغاء الإثم لصوم العقل ، وإلغاء الفحش لصون الأنساب ، وإيجاد مجتمع طاهر ، نظيف ، الأولاد معروفون ، يتلقون أكبر عناية من آبائهم ، العقل نشيط ، الشيء الآخر أنه لا عدوان ، فإذا كان كسب الرجل له ينمو العمل .

3 – ما هو التوحيد ؟

التوحيد ألا تتجه لغير الله ، وألا تتكل إلا على الله ، التوحيد يعني أنه لا رافع ، ولا خافض إلا الله ، ولا معطي ولا مانع إلا الله ، ولا رازق إلا الله ، ولا معز إلا الله ، ولا مذل إلا الله ، فأنت بالتوحيد كإنسان يريد تأشيرة سفر إلى بلد معين ، لكن بنظام الهجرة والجوازات هذا البلد لا يحق إلا للمدير العام بإدارة الهجرة والجوازات أن يعطي الموافقة ، وبناء الهجرة عشرة طوابق ، وفيه ألف موظف ، هل يعقل أن تبذل ماء وجهك لأحد الموظفين ، ما بيده شيء ، الأمر منوط برئيس المركز ، حينما تعلم أن أمرك بيد الله وحده لا تتذلل إنسان ، ولا تخضع لإنسان .

((اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ؛ فإن الأمور تجري بالمقادير))

[أخرجه ابن عساكر عن عبد الله بن بسر]

وشرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه غناه عن الناس ، التوحيد ينمي شخصيتك التوحيد يمنحك الأمن ، التوحيد يمنحك الوضوح ، التوحيد يمنحك الجرأة ، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ، ولا تقرب أجلاً ، هذا هو التوحيد .

لذلك :

(وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

لكن أخطر شيء أن تستقي معلومات غير صحيحة عن الله عز وجل ، يقول لك قائل :

((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

والله شيء جميل ، ما شاء الله على هذا الحديث ، هو حديث صحيح ، له تفسير دقيق ، لكن يُفهم هذا الحديث فهم ساذج ، افعل ما شئت من الكبائر ، عندئذٍ تنالك شفاعة رسول الله ، هذا الفهم الساذج مدمر للحياة ، لذلك :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

إذا صح أن المعاصي ركبت تركيباً تصاعدياً ، بدأنا بالفاحشة ، ثم بالخمر ، ثم بالعدوان ، ثم بالشرك ، يأتي على رأس هذه المعاصي والآثام :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

لذلك لأن يرتكب العوام الفواحش والكبائر أفضل أن يقولوا

(عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(16-60): تفسير الآية 34 ، لكل أمة طاغية نهاية محرقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-04-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

معاني الآية وأبعادُها :

لهذه الآية أبعاد كثيرة ، ومعاني دقيقة وخطيرة .

1 – معنى الأمّة :

أولاً : من هي الأمة ؟ جمعٌ كبير من البشر ، لهم صفات مشتركة ، بينهم قواسم مشتركة ، الأمر الذي حدا بعلماء النفس إلى وضع علم جديد اسمه علم نفس الأمة ، معظم الأمم لها خصائص مشتركة .

مثلاً : الله عز وجل وصف اليهود فقال :

(يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ)

(سورة البقرة الآية : 96)

أمّة تؤكد العمل ، أمة تحرص على المال ، أمة غارقة في الشهوات ، أمةٌ أمة مبدأ ، أمةٌ أمة خير ، الأمم بين أفرادها قواسم مشتركة .

خصائص أمةِ الإسلام :

لكن الله سبحانه وتعالى خص الأمة العربية والإسلامية بهذه الآية حينما قال :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

لكن هذه الخيرية لها علتها :

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

فإن لم نأمر بالمعروف ، ولم ننهَ عن المنكر ، ولم نؤمن بالله الإيمان الذي يحملنا على طاعته ، نحن كأية أمة خلقها الله ، لا نملك أية ميزة على بقية الأمم ، وهذا معنى قوله تعالى يخاطب من ادعى أنهم أبناء الله وأحباءه :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية : 18)

وإذا قال المسلمون في آخر الزمان : نحن الأمة المختارة ، نحن أمة سيد الأنبياء والمرسلين ، الجواب الإلهي جاهز :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

2 – لكل أمّةٍ أجلٌ تقف عنده :

لذلك أيها الإخوة ، الآية الكريمة :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ)

لكل تجمعٍ كبير صفات مشتركة ، هذه الأمة كبرت ، وقويت ، وسيطرت لها أجل ، هذه الأمة ارتقت في مدارج الفضائل ، لكن لها أجل ،

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

وفي قوم عاد عبرة لمَن يعتبر !!!

مثلاً الله عز وجل ضرب مثلاً للأمم الطاغية ، المتجبرة ، المستكبرة ، التي تنتهك الأعراض ، وتنهب الثروات ، وتظلم العباد ، وتقتل ، وتسفك الدماء ، هذه الأمم الطاغية المستكبرة ، المتجبرة ، ضرب الله لنا مثلاً عنها .

قوم عاد قال تعالى عنهم :

(لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

تفوق في شتى المجالات ، قال :

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

تفوّق وغطرسة .

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

(سورة الشعراء)

تفوق عمراني مذهل .

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء)

وصناعي .

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

وعسكري .

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت)

وعلمي ، تفوق عمراني ، وصناعي ، وعسكري ، وعلمي ، وغطرسة ، بل تفوق في شتى الميادين .

أيها الإخوة ، لو أردنا أن تضغط حركتهم في الحياة فهما كلمتان :

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

الطغيان قصف ، والإفساد ، أفلام .

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

لم يطغوا في بلدهم ، بل في البلاد في شتى البلاد .

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

لعاد ، ولمن كانت على شاكلة عاد ، كيف أهلكهم الله ؟

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ *سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

أيها الإخوة ، ما أهلك الله قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة إلا عاداً حينما أهلكها قال :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

ما كان فوق عاد إلا الله ، ومع ذلك أهلكها الله ، وفي هذا إشارة لطيفة حينما قال الله عز وجل :

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى)

(سورة النجم)

إشارة لطيفة إلى أن هناك عاداً ثانية ، والعالم يعاني منها ما يعاني ، وصفات عاد الثانية تنطبق على صفات عاد الأولى .

إذاً : الأمم الطاغية لها أجل ، لذلك اسمعوا هذه الكلمات الدقيقة : أية أمة قوية جداً لم يكن فوقها إلا الله قوية جداً ، متغطرسة ، لها نفوذ في كل البلاد ، خططت لتبني مجدها على أنقاض الشعوب ، وتبني حريتها على تقييد الشعوب ، وتبني ثقافتها على إزالة ثقافات الشعوب ، وتبني أمنها على إخافة الشعوب، وتبني قوتها على إضعاف الشعوب ، وتبني غناها على إفقار الشعوب ، هذه الأمة القوية ، نجاح خططها على المدى البعيد لا يتناقض مع عدل الله فحسب ، بل مع وجوده ، لأن :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

بالتعبير الدارج كل أمة لها عشرة أيام .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ : كلمة تدعو إلى التفاؤل :

لذلك أيها الإخوة ، هذا يدعو إلى التفاؤل ، هذا يبعدنا عن الشعور بالإحباط ، والشعور بالقهر ، والشعور باليأس ، والقهر ، واليأس ، والقهر ، والإحباط ليست من صفات المؤمنين .

أين هم الرومان ؟ أين هم المغول ؟ أين هم اليونان ؟ أين هم الفراعنة ؟ وأين هو المعسكر الشرقي ؟ والقطب الواحد ؟ لعل الله سبحانه وتعالى يهيئ له خطة قد لا يسر بها الأصدقاء .

3 – معنى : لكل أمّةٍ أجلٌ :

أيها الإخوة ، معنى :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

أي لم يَدُم لهم ذلك ، وما مِن شيء يستمر ،

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

من ألا تيئس ، من أجل ألا تشعر بالإحباط ، من أجل ألا تستسلم ، من أجل ألا تضعف معنوياتك .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

الله عز وجل له سياسة ، يمدهم ، ويقويهم ، ويفعلون ما يريدون ، ويقولون ويتبجحون ، ويتغطرسون، ويهددون ، ويتوعدون ، إلى أن يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ وقد قالها ضعاف الإيمان ، يمد اللهُ القويَّ ، يعطيه قوة ، يفعل ما يقول ، يفرض ثقافته على بقية الشعوب ، يفرض إرادته على بقية

الشعوب ، يقصف ، يدمر ، حتى يقول ضعيف الإيمان : أين الله ، ثم يظهر آياته ، حتى يقول الكافر : لا إله إلا الله ، هناك امتحانان صعبان امتحان يوصلان المؤمن الضعيف إلى أن يقول : أين الله ، وامتحان آخر يوصل الكافر إلى أن يقول : لا إله إلا الله .

أيها الإخوة ، الله عز وجل يمدهم ، يمدهم ويقويهم ، ويتوهم ضعف الإيمان أنهم يفعلون ما يريدون ، ولكنه يأخذهم فجأة :

(أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

ويجعلهم أحاديث .

سُنَّةُ الله مع الطغاة والظالمين :

لذلك أيها الإخوة ، دققوا في هذه الآية ، هذه الآية ترسم سياسة الله مع الطغاة :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص الآية : 4)

علا علواً كبيراً وقال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

وقال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

لأنه رأى رؤية في ما ترويه الكتب أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه ، فأمر يذبح أبناء بني إسرائيل جميعاً ، وأي قابلة لا تخبر عن مولود ذكرٍ تقتل ، القضية سهلة ، لكن الطفل الذي سيقضي على مُلكه رباه هو في قصره ، وهذا مِن حكم الله العظمى ، إذاً :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص الآية : 4)

السياسة الواضحة له :

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

(سورة القصص الآية : 4)

الفتن الطائفية ، أنت كردي ، أنت آشوري ، أنت عربي ، أنت سني ، أنت شيعي الورقة الرابحة في أيدي الطغاة الفتن الطائفية ، ولا يستطيع المسلمون إسقاط هذه الورقة إلا بوعي ، وتقارب ، ومحبة ،

إذاً :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

لماذا ؟ الآن دققوا كلام رب العالمين :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ*وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

إذاً الله عز وجل يسلط الكافر على المؤمن المقصر ، فإذا عاد المؤمن المقصر إلى الله قواه ، وعالج به الكافر ، هذه سياسة الله .

هذه آية أصل في الموضوع أعيدها ثانية :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ)

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

إذاً :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

لابد من اتخاذ الأسباب :

ولكن :

(وَقُلِ اعْمَلُوا)

(سورة التوبة الآية : 105)

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

والله عز وجل لن يطالبنا بالقوة المكافئة ، هذا فوق إمكاناتنا ، ولكنه طالبنا بالقوة المتاحة .

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

ويجب أن يكون عدوكم عدواً لله .

أيها الإخوة ، لماذا ينتقم الله من الطغاة ؟ ينتقم منهم لتحقيق السلامة بين البشر ، لئلا ييأس البشر ، لمعالجة البشر ، الظالم سوط الله ، ينتقم به ثم ينتقم منه .

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

أيها الإخوة ، سأقول كلمة دققوا فيها : لو أراد خصوم الطغاة أن ينتقموا منهم لما استطاعوا أن ينتقموا منهم كما ينتقم الله منهم .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

لو أراد خصوم الطغاة أن ينتقموا من الطغاة بكل ما أوتوا من قوة لا يستطيعون أن ينتقموا معشار انتقام الله منهم .

إذا رأيت فساداً ، أو طغياناً فلا تيأس ، واقرأ قوله تعالى ،

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

الحكمة في تسليط الظالم والمصائب على الناس :

لكن النقطة الدقيقة ، وهذا بعلم الله عز وجل هناك شريحة اجتماعية واسعة جداً لا يمكن أن تلجأ إلى الله ، ولا أن تصطلح معه ، ولا أن تقبل عليه ، ولا أن تلتزم منهجه إلا إذا عضك الظالم ، فالظلم لهم دور كبير جداً ، هم يعضون المؤمنين ، والمؤمنون يلجئون إلى الله ، يلوذون بالله ، يحتمون بالله ، يقبلون على الله ، يلجئون إلى المساجد .

عقب زلزال في تركيا أقسم لي أحد الإخوة في اسطنبول أن المساجد في الصلوات الخمس لا تتسع للمصلين ، من شدة الخوف .

فهذه المصائب لها دور كبير جداً في هداية البشر ، ولا أبالغ أن معظم الناس أتوا إلى الله ، وفروا إليه في التعبير القرآني ، وأقبلوا عليه ، واصطلحوا معه عقب تدبير إلهي حكيم ، والبطولة أن تأتيه طائعاً ، البطولة أن تأتيه بعد الدعوة البيانية .

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

أكمل شيء أن تستمع إلى درس ، إلى خطبة ، أن تقرأ كتابا ، أن تقرأ آية ، أن تشرح آية ، تهتم ، تتعظ، تستقيم ، تلتزم ، هذا أكمل إنسان .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

هناك معالجة أصعب ، التأديب التربوي :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

إن لم تُجدِ الدعوة البيانية أخضعك الله للتأديب التربوي ، وهذا أصعب ، كالتهاب معدة حاد ، بالحمية الشديدة تشفى ، لم تلتزم بالحمية إذاً لابد من عملية جراحية ، العملية أصعب ، فيها تخدير ، وفيها فتح بطن ، أما لو التزمت حمية شديدة فلا حاجة للعملية ، فإما أن تأتيه طائعاً مستجيباً ، متمسكاً ، ملتزماً ، أو لا بد من تأديب تربوي ، فإن لم تتب عقب الشدة فهناك طريقة ثالثة هي الإكرام الاستدراجي ، تأتي الدنيا ، وأنت لست على طاعة الله ، تأتي الدنيا من أوسع أبوابها :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام الآية : 44)

إذاً دعوة بيانية ، تأديب تربوي ، إكرام استدراجي ، وقصمٌ :

(أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

أيها الإخوة ، إذاً هناك شريحة من البشر كبيرة جداً لا سبيل إلى أن تعرف الله ، وأن تصطلح معه إلا عن طريق الشدة ، لذلك :

أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي ، وتضيقي ، وتكدري على أوليائي حتى يحبوا لقاءي .

شهد الله أن المؤمن إذا عرف الله يرى أنه إذا أخضعه لشدة هو في العناية المشددة ، ضمن الإمكان ، في إمكان أن تهتدي ، فالله وضعك ضمن ظرف صعب .

لذلك بالضبط دققوا في هذا المثل : إنسان معه مرض خبيث في الدرجة الخامسة ، ولا أمل بشفائه ، بقي له أشهر ، وسأل الطبيب : ماذا آكل ؟ يقول له : كل ما شئت ، أما إنسان معه التهاب معدة ، وبحمية خلال أربعة أيام ينجو ، فالطبيب يقيم عليه النكير لو أكل شيئاً يؤذيه معدته ، فإذا تشدد فهناك أمل ، التشدد فيه خير ، وبقية خير ، وإمكان إصلاح ، وإمكان شفاء ، وإمكان توبة .

لذلك إذا أحب الله عبده ابتلاه ، إذا أحب الله عبده عجل له بالعقوبة ، وحينما تعامل معاملة شديدة من قِبل الله دقق فيما سأقول ، فأنت في العناية المشددة .

لكن النبي علمنا أن نقول : لكن عافيتك أوسع لنا يا رب ، والبطولة أن تأتيه طائعاً ، وأنت صحيح معافى .

أيها الإخوة ، الحقيقة التي يجب أن نؤمن بها أن هؤلاء الطغاة إن لم يضيقوا على المؤمنين ، إن لم يهددوا المؤمنين ، إن لم يقطعوا عنهم بعض الإمدادات ، إن لم يحاصروهم ، هؤلاء فقد لا يتعرفون إلى طريق الحق ، قد لا يلجئون إلى الله .

لذلك هذه الشدة حينما يكتشف الإنسان يوم القيامة حكمتها يجب أن يذوب محبة لله عز وجل كما تذوب الشمعة إذا اشتعل فتيلها .

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

مرة ثانية : الآية التي تنتظم هذا الدرس :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

كلُّ شيءٍ وقع بإرادةِ وحكمة الله :

أيها الإخوة ، يجب أن تعلم علم اليقين أن كل الذي وقع أراده الله ، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، هذا هو الإيمان ، لو أن شدة أصابة المسلمين بعدها خير ، الآن نخبة قليلة من الناس يكتشفون الإيجابيات من وراء الأحداث الأخيرة في العالم ، هذه الإيجابيات على رأسها أن العالم انقسم إلى قسمين ، المنطقة الرمادية في العالم اختفت ، هناك أبيض وأسود ، مؤمنون وغير مؤمنين ، صادقون وكاذبون ، مخلصون وخائنون ، العالم أخذ الوضع الحاد ، أبيض وأسود ، هذه موحلة كبيرة جداً ، الإسلام قفز إلى بؤرة الاهتمام ، الإسلام وحّد المسلمين ، هذه الشدائد توحد .

اكتشافُ إيجابيات الأحداث الأخيرة :

لو أنّ إنسانا عنده تأمل عميق ، وتحليل دقيق لاكتشف أن هناك إيجابيات في الأحداث الأخيرة لا يعلمها إلا الله مثلاً :

إن صح أن هناك ساحة عليها المبادئ والقيم في الأرض ، كانت قبل خمسين عاما كتلة الشرق بمبادئه وقيمه ، والتركيز على المجموع ، وقيم الغرب بمبادئه وقيمه ، والتركيز على الفرد ، والإسلام وحي من السماء ، منهج إلهي ، الشرق تداعى من الداخل ، بقي على ساحة المبادئ والقيم الإسلام والغرب ،

الغرب قوي جداً ، وغني جداً ، وذكي جداً ، وطرح قيم رائعة جداً ، والحق يقال ، طرح قيمة الحرية ، والديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، وتكافؤ الفرص ، وحق المقاضاة ، والحريات بكل أنواعها ، والعولمة، واحترام جميع الأديان ، قبل 11 أيلول ، فخطف أبصار أهل الأرض ، وصار الذي معه بطاقة خضراء ، كأنه دخل الجنة ، وتمنى البشر جميعاً أن يعيشوا في بلاد الغرب ، ولكن الله سبحانه وتعالى ما كان ليغش البشر فأظهر حقيقة الغرب .

والله قبل 20 ـ أو 30 عاما قلة قليلة جداً من المثقفين في العالم الإسلامي يكشفون حقيقة الغرب ، الآن أطفالنا كشفوا حقيقة الغرب ، الآن لا يمكن أن تحترم هذه الحضارة ، قد تخاف منها ، هي قوة غاشمة ، ولكنها ليست حضارة راقية أبداً ، لم يبقَ على ساحة المبادئ والقيم إلا الإسلام ، وهذا أكبر مكسب تحقق للمسلمين في الحقبة الأخيرة .

الألم وسيلة للسعادة :

أيها الإخوة ، يبدو أن الألم وسيلة للسعادة ، لذلك من أسماء الله الضار ، وممنوع أن تقول : اسم الله الضار ، اسم الضار يذكر مع النافع ، الضار النافع ، فهو يضر لينفع ، ممنوع أن تقول : الله الخافض ، يجب أن تقول : الله الخافض الرافع ، يخفض ليرفع ، ممنوع أن تقول : الله مذل ، قل : الله مذل معز ، يذل ليعز ، ممنوع أن تقول : الله مانع ، يمنع ليعطي ، وربما كان المنع عين العطاء .

واللهِ لو كُشف للإنسان يوم القيامة حكمة ما ساقه الله إليك لصعقتَ ، كان دخله محدودا ، وولدا يتيما ، عنده مشكلة صحية ، لم يوفق في زواجه ، لو يُكشف للإنسان يوم القيامة الحكم التي وراء ما ساقه الله من قضاء وقدر أقول : والله إن لم يذب كالشمعة محبة لله ففي هذا الدين خلل .

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشدة ، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ويبتلي ليجزي))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

إذاً : الألم وسيلة للسعادة ، كم من إنسان عظيم له بصمات كبيرة جداً على الثقافة البشرية ، نشأ يتيماً ، نشأ فقيراً ، نشأ مضطهداً ، لذلك قالوا : الحزن خلاّق ، الحزن يورث التفوق أحياناً ، أما النعيم فلا يورث شيئاً ، تلاحظون أن طفلا ينشأ في أسرة غنية جداً لا يدرس ولا يتفوق ، ولا يلتزم بشيء ، مائع، ضائع ، وهكذا ، النعيم أفسده ، وقد تجد بطولات من الفقراء ، يسمون عند الناس عصاميين ، بطولات كبيرة جداً ، لأنّ الحزن خلاق .

يجب أن تعتقد أنك لست مخيراً في أمك وأبيك ، ولا في كونك ذكراً أو أنثى ، ولا في مكان ولادتك ، ولا في زمن ولادتك ، ولا في قدراتك ، وقد أكد علماء التوحيد أن هذا الذي لم تكن مخيراً به محض خير لك ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ، بل ليس في إمكانك أبدع مما أعطاك .

إذاً : الألم وسيلة للسعادة ، والضرر طريق للنفع ، والخفض طريق للرفع ، والإذلال أحياناً طريق إلى العز ، والمنع أحياناً طريق عين العطاء .

لذلك المؤمن عقب مشكلة ، عقب شبح مصيبة ، عقب خطر ، يلجأ إلى بيت الله الحرام معتمراً أو حاجاً، فيصطلح مع الله ، أو يأتي إلى المسجد ليصلي في المسجد ، وليذكر الله فيه ، أو يلجأ إلى تلاوة القرآن ، أو يحاول أن يسترضي الله بالأعمال الصالحة ، والبذل والتضحية .

لذلك حينما تفهم على الله حكمته من الشدائد تنقلب الشدائد إلى رغائب ، والبطولة أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن كل شيء يفعله الله لخير ، أنت لا يستقيم إيمانك حينما تتوهم أن الله لا يعلم ما يجري في الأرض .

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام الآية : 59)

ينزل صاروخ ، معقول ورقة يعلمها وصاروخ لا يعلمه ؟! مستحيل ، وأنت لا يستقيم إيمانك حينما تتوهم أن الله لا يقدر أن يردع الطغاة ، كن فيكون ، زل فيزول .

زلزال آسيا ، يساوي مليون قنبلة ذرية ، الأمر بيد الله عز وجل .

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً)

(سورة يس الآية : 29)

لكن الله يمهل ولا يهمل .

من تدبير الله تعالى : تسخيرُ الأعداء لخدمة الدين :

شيء آخر : الطغاة مهما كانوا ظالمين ، ومهما كانوا فاجرين ، ومهما كانوا مفسدين ـ دققوا فيما سأقول ـ لا بد من أن يسخرهم الله لخدمة دينه من دون أن يشعروا ، ومن دون أن يريدوا ، وبلا أجر وبلا ثواب .

أقول لكم وأنا أعني ما أقول : أكبر جهة لها الفضل في صحوة المسلمين أعداء المسلمين ، يدفعونهم إلى التوبة ، يدفعونهم إلى الصلح مع الله ، يدفعونهم إلى طلب العلم ، لو أن الحياة فيها رخاء شديد ، وفيها تفلت ، وفيها شهوات ، وفيها تجارة رائجة ، تجد أن الأماكن التي فيها رخاء شديد هذا الرخاء أكبر حجاب عن الله عز وجل ، والأماكن التي فيها شدة فيها قلق ، وفيها ضغوط ، تجد المساجد ممتلئة،

الناس منيبة ، الناس يصلون الليل ، يقرؤون القرآن ، ويتعاونون ، والله هناك بطولات في هذه البلدة لا يعلمها إلا الله ، من الشباب ، من الشابات ، بذل ، تضحية ، لا تنظر إلى الطرف الآخر المتفلت ، هناك بيوت تنطوي على أولياء في هذه البلدة .

((رأيت عمود الإسلام قد سُل من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو بالشام))

[أحمد]

((رأيت ليلة أسري بي عمودا أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة ، قلت : ما تحملون ؟ قالوا : عمود الإسلام ، أمرنا أن نضعه بالشام ، وبينا أنا نائم رأيت عمود الكتاب اختلس من تحت وسادتي فظننت أن الله تخلى من أهل الأرض فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع بين يدي حتى وضع بالشام))

[رواه الطبراني عن عبد الله بن حوالة]

والله أنا سافرت كثيراً شرقاً وغرباً ، والله كلما أعود إلى هذه البلدة أرى مصداق قول النبي فيها .

((رأيت عمود الإسلام قد سُل من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو بالشام))

النقطة الدقيقة : نقول نحن للطاغية أحياناً : لو علمت ما سبّبت للمسلمين من عودة إلى الله ، ومن رخاء من تعامل المسلمين مع الله من دون أن تشعر ، ومن دون أن تريد لندمت أشد الندم ، الطرف الآخر دائماً هو الذي يدفعنا إلى باب الله ، يسوقنا إلى بابه .

((عجبت لأقوام يساقون إلى الجنة في السلاسل))

[أخرجه الطبراني عن أبي أمامة أبو نعيم ، عن أبي هريرة]

هذا كله يكشف يوم القيامة ، ترى أن الله بيده كل شيء ، وأن هؤلاء الطغاة وظفهم للخير المطلق ، ما مِن مكان فيه شدة إلا وفيه عودة إلى الله ، وتوبة ، وصلح معه ، وهذا شيء واضح جداً .

لا أحد يستطيع إفسادَ هداية الله لخَلقه :

لذلك أيها الإخوة ، أطمئنكم أن قوى الأرض مجتمعة لا تستطيع أن تفسد على الله هدايته لخلقه ، أبداً ، الدليل :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 36)

ماذا علينا أن نفعل ؟

إذاً : الكرة في ملعبنا ، والله ينتظرنا .

((ولو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إلي ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين))

[ورد في الأثر]

الله ينتظرنا ، والأمر بيده فقط ، وليس إلا الله ، ولا إله إلا الله ، ولا رافع إلا الله ولا خافض إلا الله ، ولا معطي إلا الله ، ولا مانع إلا الله ، ولا معز إلا الله ، ولا مذل إلا الله وهذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، وما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليه ، الآن الحل :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية : 120)

كل خططهم ، وأسلحتهم ، وحاملات طائراتهم ، وصواريخهم العابرة للقارات ، وأقمارهم الصناعية ، وأموال بأيديهم ، ومناطق نفوذ ، وثروات بين أيديهم ، كل هذا الحجم الكبير ،

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

ولكن إن تعصوا ، وتصبروا ما بعد المعصية والقهر إلا القبر ، لكن بعد الطاعة والصبر في النصر ، فأنت مؤهل أن تنتصر بطاعتك لله ، وبصبرك على الشدة التي ساقها الله لك .

لذلك أيها الإخوة ، الآية الدقيقة جداً :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية : 11)

إن لم نغير فلا يغيّر الله ، وإن غيرنا يغيّر الله ، والكرة في ملعبنا ، والأمر في يدنا ، وخلاصنا لا بأيدي أعدائنا ، أبداً ، والإنسان ضعيف الإيمان هكذا يتوهم ، أن خلاصنا بيد أعدائنا ، خلاصنا بأيدينا .

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية : 19)

وليس في الكون إلا الله ، ولا إله إلا الله ، هذه كلمة التوحيد .

أيها الإخوة ، وكل إنسان الآن الله فردا ، شركة ، مؤسسة ، جماعة يقيمون على ظلم أو على خطأ فلها نهاية ، إلا المؤمن الصادق المستقيم فخطه البياني صاعد صعودا مستمرا ، إلا الذي أن يؤمن ، وبنى مجده على أنقاض الآخرين ، بنى حياته على موت الآخرين ، وبنى عزه على إذلال الآخرين ، وبنى أمنه على إخافة الآخرين ، وبنى غناه على فقرهم ، هذا له نهاية تأتي الآية :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

آية مطمئنة ، آية يطرب لها المؤمن ،

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

في بعض الدول بالشرق تداعت من الداخل ، عندها قنابل نووية يمكن أن تبيد الخمس قارات خمس مرات ، بلا أي حرب خارجية تداعت من الداخل .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

لو كان عمره سبعين سنة فهو زهوق ، لو كان يملك سلاحا نوويا فهو زهوق .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

هذا هو الإيمان ، الإيمان ليس إلا الله ، الإيمان لا إله إلا الله .

خاتمة :

أيها الإخوة ، آية قصيرة لكن مدلولاتها كبيرة ، آية قصيرة تفرح الإنسان آية قصيرة تذهب عنه اليأس، والإحباط ، والتطامن ، لا تقولوا انتهينا ، لم ننتهِ ، نحن عند الله في مكان قوي ، والله لن يترنا أعمالنا ، والله معنا ، ولكن ينبغي أن نصطلح معه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(17-60): تفسير الآيات 34 – 36 ، أرسل الله تعالى الرسل من جنس البشر حتى تكون لهم حجة عليهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-06-22

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والثلاثين، وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

أيها الإخوة ، بعد أن بين الله لنا في الآيات السابقة أنه أحل لنا الطيبات ، وحرم علينا الخبائث ، وأعطانا منهجاً يضمن لنا سلامتنا كأفراد وكمجتمع ، ثم طمئننا أن الأمة الطاغية لها أجل .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

(سورة الأعراف الآية : 34)

بعد كل هذا خاطب بني آدم عامة ، والقرآن أحياناً يخاطب المؤمنين بفروع الدين ، ولكنه يخاطب الناس جميعاً بأصول الدين ، خاطب ربنا جل جلاله في هذه الآية بني آدم :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)

تقتضي رحمة الله عز وجل ألاّ يدع عباده من دون توجيهات ، لأن الله سبحانه وتعالى خلق :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

هذا الذي منحه الله لك أيها الإنسان لتهتدي إليه :

أعطاه الكون ينطق بكل جزئياته بوجود الله ووحدانيته وكماله ، أعطاه العقل كأداة معرفته ، وجعل مبادئه متوافقة مع خصائص الكون ، أعطاه الفطرة ، وجعلها مقياساً يكشف بها خطأه ، أودع فيه الشهوات لتكون دافعاً له إلى رب الأرض والسماوات ، منحه حرية الاختيار ليثمن عمله ، أعطاه الوقت غلاف عمله ، وفضلاً عن كل ذلك ، فضلاً عن أن العقل كافٍ لمعرفة الله ، وعن أن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، وعن أن الفطرة كافية لمعرفة الخطأ ، وعن أن الشهوة دافعة إلى

الله عز وجل ، وعن أن الحرية تُثمن عمله فضلاً عن كل ذلك أرسل الأنبياء ، وأرسل المرسلين ، هؤلاء من فضل الله على البشر .

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران الآية : 164)

للتقريب : منح أب ابنه كل شيء ، وضعه في أرقى مدرسة ، وهيأ له كل الأجواء المناسبة من أجل أن ينال الدراجات العالية ، وفضلاً عن كل ذلك هيأ له أستاذاً خاصاً يأتيه إلى البيت .

من رحمة الله بعباده : يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ

لذلك :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ)

أولاً : الله عز وجل رحيم ، تقتضي رحمته أن يبعث الأنبياء ، وأن يرسل المرسلين تنبيهاً ، وإرشاداً ، وتوجيهاً ، للتقريب مرة ثانية :

أب جالس في غرفته ، والمدفأة مشتعلة ، وله ابن صغير ، واقترب من المدفأة هل في الأرض كلها أب يبقى ساكتاً ؟ أو يبقى جالساً ؟ مستحيل ألاّ يسديَ إليه توجيهًا ، إما بصوت أو بحركة ليبتعد ابنه عن المدفأة ، لئلا يحترق .

لذلك أنت في الصلاة تقول : الحمد لله رب العالمين ، تقتضي رحمة الله عز وجل أن يبعث الأنبياء ، وأن يرسل المرسلين .

وأحياناً شيء طبيعي جداً أن الناس يتفلتون من منهج الله ، ويألفون الانغماس في الشهوات ، لا يعجبهم أن يقيدوا بمنهج ، المنهج يزعجهم ، يقيد حركتهم ، هم غارقون في ملذاتهم ، غارقون في شهواتهم ، غارقون في تحقيق مصالحهم ، فإذا جاء منهج إلهي الذي يحدد لهم حركته في الأعم الأغلب يكذبون الرسول .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية : 43)

لكل رسول معجزة تشهد لرسالته :

لذلك لا بد لهذا الإله العظيم من أن يؤيد رسوله الكريم بشهادة منه عن طريق المعجزات ، فكل نبي معه معجزة فيها خرق للمعجزات ، هذا الخرق شهادة الله للناس أن هذا الإنسان رسول الله ، فسيدنا موسى :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

وسيدنا عيسى أحيا الميت ، وسيدنا إبراهيم أُلقي في النار فلم يحترق ، ولكل نبي معجزة .

القرآن بإعجازه شهادة للرسول بصدق نبوته :

إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولأنه لكل البشر أجمعين ، ولأن كتابه خاتم الكتب ، فلا يمكن أن تكون معجزته حسية ، بمعنى أنها وقعت وانتهت ، وأصبحت خبراً يصدقه من يصدقه ، ويكذبه من يكذبه ، لا بد من أن تكون معجزة النبي لأنه خاتم الأنبياء ، ولأنه خاتم الرسل ، ولأن كتابه خاتم الكتب من أن تكون مستمرة .

لذلك كان في القرآن الكريم 1300 آية تتحدث عن الكون ، وفي هذه الآيات إشارات فيها سبق علمي ، فالحقائق التي اكتشفت حديثاً أشار القرآن إليها من 1400 عام وهي دليل قطعي على أن القرآن كلام الله .

إذاً : رحمة الله تقتضي أنه إذا أرسل رسولاً ، أو بعث نبياً معه شهادة من الله الشهادة :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

الشهوات حيادية ومقوم من مقومات التكليف :

فقصة النبوة والأنبياء تعني رحمة الله عز وجل ، تعني أن هذا الإنسان زوده الله بالشهوات ، الشهوات حيادية ، وبإمكانك أن تتحول بالشهوات 180 درجة ، أودع في الإنسان حب المرأة .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

(سورة آل عمران)

فهذه الشهوات الحركة فيها واسعة جداً ، إلا أن منهج الله أعطاك مساحة مسموحاً بها ، وهناك مساحات محرمة ، المرأة زوجة فقط ، المال مِن كسب مشروع ، أنت تكون عالياً في الأرض بوسائل مشروعة ، أن تكون في خدمة الخلق .

أيها الإخوة ، هذا الذي أقوله يعني أن الإنسان حينما يتحرك بدافع شهواته وفق منهج ربه لا يشعر بالحرمان إطلاقاً .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف : الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه .

إرسال الرسل لفائدة الناس :

(يَا بَنِي آدَمَ)

هؤلاء الرسل لصالحكم من أجل سلامتكم ، من أجل سعادتكم معهم تعليمات الصانع ، الخبير ، الحكيم ، العليم ، الرؤوف ، الرحيم ، تعليمات الصانع من أجل سلامتكم ، من أجل سعادتكم .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء الآية : 9)

للطريق الأمثل ، يهديهم بالقرآن :

(سُبُلَ السَّلَامِ)

(سورة المائدة الآية : 16)

يهديك القرآن إلى سلام مع نفسك ، إلى سلام مع ربك ، إلى سلام مع البشر ، مع الخلق ، مع من حولك، مع من فوقك ، مع من دونك ، مع كل المخلوقات ، المؤمن بعد أن اهتدى إلى الله اصطلح مع الخلق ، أصبح متناغماً مع الخلق .

لذلك :

الرسل بشرٌ كسائر البشر :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)

يعني أنهم بشر ، لولا أن الأنبياء بشر تجري عليهم كل خصائص البشر لما كانوا سادة البشر ، النبي يأكل ويشرب .

(لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

(سورة الفرقان الآية : 20)

هم بحاجة إلى الطعام والشراب ، وبحاجة إلى حركة في الأسواق ، ليكسبوا ثمن الطعام والشراب ، لولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر ، لما كان سيد البشر النبي يشتهي ، ويرضى ، ويغضب.

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ))

[رواه مسلم عن أنس]

لذلك بعض الجهلة تمنوا ، وقد ذكرهم الله عز وجل أن يكون النبي ملكاً ، قال :

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

فلو جاء الرسول ملكاً فماذا تقولون له دائماً إن أمركم بغض البصر ؟ لا ، نحن بشر ، أنت ملك ، نحن لا نستطيع ذلك ، أنت من طينة أخرى ، أنت فُطرت على الكمال ، نحن بشر عندنا شهوات ، لذلك :

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

لو أن الذين دُعوا إلى الله عز وجل ملائكة لكان أنبيائهم ملائكة ، ولو أن الذين دُعوا إلى الله بشراً لكان الأنبياء بشراً .

إذاً كلمة :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)

أُعيد هذه المقولة مرات عديدة : لولا أن النبي بشر ، تجري عليه كل خصائص البشر ، لما كان سيد البشر ، تقتضي بشريته أن يشتهي كما نشتهي ، وأن يحب كما نحب ، وأن يغضب كما يغضب ، وأن يرضى كما نرضى إلا أنه بصدقه مع ربه ، وبإرادته الصلبة ، انتصر على بشريته ، فكان سيد البشر ، لذلك :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

لولا أن التكليف في وسع البشر لما كان هناك تفوق لأحد .

من الممكن أن نعطي طالباً الأسئلة ، ويأتي بالعلامة التامة ، ونقيم له حفلا تكريميا ، وبقية الطلاب جاءتهم أسئلة من معلومات لم يدرسوها إطلاقاً ، ثم نوبخهم ، لولا أن هناك تكافؤ فرص ، لولا أن المنهج دُرّس بإتقان ، والطلاب متكافئون في القدرات ، والسؤال معقول ، لما كان هناك للتفوق مجال إطلاقاً .

إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ

لولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، لذلك كان قدوة لنا ، النبي قدوة لنا ، فهذا الذي يقول هو نبي ، لا يا أخي .

((وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

[أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة]

مقام الطبيب الجراح كبير ، لكن أي ممرض إن أراد أن يعطي حقنة للمريض لا بد من أن يعقمها كالطبيب .

هناك أشياء شاملة وكاملة ، على كل الأطراف أن يطبقوها ، الإنسان هو الذي صنع هذه السيارة ، كل الشركات العملاقة لها أصحاب ، لو أن صاحب المركبة قاد مركبة من اختراعه ، يجب أن يعرف كيف يوقفها ، وكيف يحركها ، كأي سائق آخر .

لذلك الاستقامة أيها الإخوة حدية ، التفاوت لا بالاستقامة ، التفاوت بالعمل الصالح .

((وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

وأي خلل في الاستقامة تُحجب عن الله ، ولو لم تكن نبياً ، ولو أنك من عامة المؤمنين ، إذا كان في الاستقامة خلل تُحجب عن الله عز وجل ، ومنهج الأنبياء لا للأنبياء ، بل لعامة المؤمنين .

فلذلك :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)

من جلدتكم ، من بني البشر ، من جبلة واحدة ، من نفس واحدة ، من خصائص واحدة ، من شهوات واحدة ، من مخاوف واحدة .

هذا بعض ما عاناه النبي عليه الصلاة والسلام في حياته :

عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[رواه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان]

في بدر بدأ النبي يدعو ربه حتى انخلع الرداء عن منكبيه ، خاف أن يكون الاستعداد قليلاً ، خاف أن يكون الأخذ بالأسباب ضعيفاً ، نصر الله عز وجل لا يتنزل إلا على مَن طبّق منهج الله عز وجل ، ومنهج الله في الحرب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

فلذلك :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)

من جلدتكم ، بشر .

تزوج النبي عليه الصلاة والسلام زوجات عديدات ، هناك زوجات أتعبنه ، وصبر ، وجاع ، أذاقه الله الفقر ، كان يدخل بيته أحياناً فيسأل : هل عندكم طعام ؟ يقولون : لا ، يقول : فإني صائم ، وهو سيد الخلق ، أذاقه الفقر فكان قدوة لنا ، وأذاقه الغنى ، لمن هذا الوادي ؟ قال : هو لك ، وادٍ من الغنم ، قال: أتهزأ بي ؟ قال : لا والله هو لك ، قال : أشهد أنك رسول الله ، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، أذاقه الفقر ، وأذاقه الغنى ، في الفقر كان المثل الأعلى ، وفي الغنى كان المثل الأعلى ، ثم أذاقه النصر ، فدخل مكة فاتحاً ، مطأطأ الرأس متواضعاً ، حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل ، ما دخلها متغطرساً ، ولا مستبيحاً للمدينة ، ولا متشفياً من أعدائه .

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[رواه : ابن أبي شيبة عن أبي سلمة]

((ما ترون إني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم))

[رواه ابن أبي شيبة عن أبي سلمة]

قال :

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

أذاقه النصر فعفى ، وأذاقه القهر في الطائف ، كذبه أهل الطائف ، وسخروا منه وأمروا صبيانه أن ينالوا منه ، فقال : يا رب إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبة حتى ترضى ، أذاقه موت الولد ، فقال :

((إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلاَ نَقُولُ إلاَّ ما يُرْضِي رَبَّنا ، وَإنَّا بِفِرَاقِكَ يا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه]

أذاقه أن ابنتيه طلقتا ، فصبر ، أذاقه الهجرة ، إنسان يقتلع من جذوره ، وينتقل إلى مكان جديد ، لولا أن النبي أذاقه الله كل شيء فكان في كل موقف المثل العلى لما كان سيد الأنبياء والمرسلين .

البطولة أن تنجح في الامتحان :

لذلك أقول لكم أيها الإخوة كلمة دقيقة جداً يحتاجها كل واحد منا : ليست البطولة ألا تمتحن ، لا بد من أن تمتحن ، ولكن البطولة أن تنجح في الامتحان ، قد تمتحن بالفقر ، وقد تمتحن بالغنى ، وقد تمتحن بالصحة ، وقد تمتحن بالمرض ، لا سمح الله ، وقد تمتحن بالقوة ، وقد تمتحن بالضعف ، وقد تمتحن بالوسامة ، وقد تمتحن بالدمامة ، وقد تمتحن بتألق الذكاء ، وقد تمتحن بالمحدودية ، وقد تمتحن بطلاقة اللسان ، وقد تمتحن بعيب اللسان ، البطولة لا أن تنجو من امتحان ، لكن البطولة أن تنجح بالامتحان .

الإمام الشافعي سُئل : أندعو الله بالامتحان أم بالتمكين ؟ فقال : " لن تمكن قبل أن تبتلى " .

صدقوا أيها الإخوة ، لا يمكن أن يرقى الإنسان عند الله إلا بعد الامتحان ، الله عز وجل عنده امتحانات لا تعد ولا تحصى ، الله عز وجل قادر أن يحجم كل إنسان ، أو أن يعيده إلى حجمه الحقيقي ، أنا مستقيم ، أنا نزيه ، أنا لا آكل مالا حراما إطلاقاً ، يتبجح ، ويحكي ، هو لا يأكل على مستوى ألف ليرة، يأتي برقم يسيخ ، يقول لك : ماذا نفعل ؟ بلوى عامة ، إياك أن تظن أن الله لا يمتحنك .

لابد من الابتلاء :

هناك كثير من الأشخاص يتوهم أحدهم نفسه بمستوى عالٍ ، الله بلطف بالغ يحجمه ، لست كما تقول ، لست كما تدعي ، ليست محبتك لي كما تظن ، بالرخاء والصحة الطيبة ، والدخل الكبير ، والزوجة ، والأولاد ، والمركبة ، يقول لك : الله تفضل بمرض خفيف يحتمل ، لا يا رب ماذا فعلت لك أنا ؟

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنين)

لا يمكن أن ينجو أحد من امتحان .

لذلك يقول الإمام علي رضي الله عنه : << الرضا بمكروه الرضاء ارفع درجات اليقين >> .

ما مِن إنسان يمتحن مركبة في طريق نازل إطلاقاً ، إلا بطريق صاعد " الرضا بمكروه الرضاء أرفع درجات اليقين " .

الله عز وجل امتحن الصحابة في الخندق ، صحابة كرام ، ومجاهدون مع رسول الله ، سيد الأنام ، ومقربون من رسول الله ، وهم فَدَوْه بأرواحهم وأنفسهم ، في الخندق ليس موضوع معركة ، بل موضوع إبادة ، وموضوع استئصال ، عشرة آلاف مقاتل أرادوا أن يستأصلوا الإسلام كله ، حتى قال بعض من كان مع النبي الكريم : << أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ، لم يقل رسول الله ، قال : صاحبكم ، قال تعالى :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

(سورة الأحزاب)

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ {30})

مرة ثانية ، الإمام الشافعي رحم ه الله تعالى سُئل : أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال : لن تمكن قبل أن تبتلى .

وطن نفسك ، فإن أنواع البلاء لا تعد ولا تحصى ، ونحن الآن كمسلمين في أشد أنواع البلاء ، ما البلاء الذي نحن نحاط به ؟ الله قوى أعداءنا ، قواهم ، ثم قواهم ، ثم قواهم ، وهم يتفننون بإفقارنا ، وإضلالنا، وإفسادنا ، وإذلالنا ، وإبادتنا ، بلادنا مستباحة لهم ، ثرواتنا ملكهم ، حياة شبابنا لا تساوي عندهم شيئاً ، مليون قتيل في العراق ، أربعة ملايين مشرد ، مليون معاق ، كله بلا ثمن ، فلو وقع واحد من جنودهم أسيراً لقامت الدنيا ولم تقعد ، هذا ابتلاء صعب جداً .

لذلك الله أحياناً ـ وهذا أشد أنواع الابتلاء ـ يقوي الأعداء إلى درجة أن يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ والله هناك آلاف من الناس تركوا الصلاة ، أين الله ؟ ما مِن خبر سار ، نحن في أشد أنواع الابتلاء ، والبطولة أن تصمد .

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

فالمؤمن ثابت على منهج الله في السراء ، وفي الضراء ، وفي الصحة والمرض ، وفي القوة والضعف، وفي إقبال الدنيا وإدبارها ، وقبل الزواج ، وبعد الزواج ، وقبل نيل الشهادة العليا ، وبعد نيل الشهادة العليا ، عاهدنا الله على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، هذا المؤمن ، وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ ، ولا تصدقوا أن الله يتخلى عنا أبداً .

(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

هذه الآية بشارة ،

(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ {6})

والله مستحيل وألف ألف ألف ألف مستحيل أن تستطيع قوة في الأرض طاغية أن تخطط لأمجادها ورخاءها على أنقاض الشعوب ، أن توفر لشعوبها دخولاً فلكية على حساب إفقار الشعوب ، وأن توفر لثقافتها ديمومة وتألقاً على حساب محو ثقافات الشعوب ، وأن تجعل شعوبها في أعلى مستوى على حساب قهر الشعوب ، والله الذي لا إله إلا هو نجاح خطط هذه الدول الكبرى الطاغية على المدى البعيد ، يتناقض مع رجل الأرض ، مستحيل وألف ألف مستحيل ، اطمأن ، لو أن قوى الأرض اجتمعت على أن تفسد على الله هدايته لخلقه لا تستطيع .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 35)

في بلاد أراد المستعمرون إلغاء الهوية الإسلامية كلياً ، ألغوا اللغة العربية ، منحوا الشعب بأكمله جنسية الدولة الحاكمة ، المساجد أُغلقت ، كل ما تستطيع أن تفعله أنها أُخرجت من هذه البلاد ، والآن عامرة بالمساجد والإيمان ، وهي تحب العلماء ورجال الدين حباً يفوق حد الخيال . هذا دين الله ، لولا أنه دين الله لانتهى من

ألف سنة ، هذا دين الله ، وما مِن قوة في الأرض تستطيع أو جهة في الأرض أن تلغي التعليم الشرعي، أن تلغي التدين ، هذا الدين من أنواع عظمته أنك إذا قمعته يزداد قوة ، وحينما تكشف الحقائق يوم القيامة ترى أن هؤلاء الذين حاربوا الدين لهم فضل على الدين ، لكن بلا أجر إطلاقاً ، لأنهم ساهموا في تقوية الإيمان ، وبجمع المؤمنين ، وفي الصحوة ، لولا الطرف الآخر لبقينا نائمين ، لكن الطرف الآخر أيقظنا ، ونبهنا ، وعرفنا بما ينوي أن يُفعل بنا .

رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي

أيها الإخوة ،

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى)

1 – آيات الله قرآنية وكونية وتكوينية :

هذه آيات ، آيات الكون ، وآيات التكوين ، وآيات القرآن ، الآيات الكونية خلقه ، والآيات التكوينية أفعاله ، والآيات القرآنية كلامه .

2 – فَمَنِ اتَّقَى

(فَمَنِ اتَّقَى)

من اتقى غضب الله عز وجل بطاعته ، من اتقى بطش الله عز وجل ، بالإنابة إليه ، من اتقى عقاب الله عز وجل ، بالالتزام منهجه

3 – وَأَصْلَحَ

(فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ)

أصلح عمله ، كان عمله فاسداً فأصبح صالحاً ، كان مقصر في أداء الواجبات أدى الواجبات بالتمام والكمال ، كان مقصر في أداء العبادات أدى العبادات بالتمام والكمال ، كان مقصر في حق زوجته أدى واجبه تجاه زوجته ، كان مقصراً في حق أولاده أدى واجبه تجاه أولاده ، كان مقصراً في حق جيرانه أدى واجبه تجاه جيرانه تجاه جسمه ، أكل باعتدال تجاه نفسه عرفها بربها ، حملها على طاعته .

(فَمَنِ اتَّقَى)

اتقى المصائب ، اتقى الكفر ، اتقى الشرك ، اتقى تبذير المال اتقى القهر ،

(فَمَنِ اتَّقَى)

غضب الله بطاعته ، الله عز وجل هو الجهة الوحيد بالكون ، لا ملجأ منه إلا إليه ، فر منه إليه ، الجأ منه إليه .

(فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ)

أحياناً يكون في البئر ماء ، الأولى ألا نردمها ، والأولى ألا نرمي فيها الأقذار ، بل الأولى أن نقيم لها سوراً عالياً ، والأولى أن نأخذ مائها بمحركات ، وأن نوصله للبيوت .

4 – فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ

لا خوف عليهم في الدنيا ، ولا يحزنون على فراقها .

أنت في لحظة ، هذه اللحظة الحامية ، هناك مستقبل وهناك ماضٍ ، المستقبل مغطى بـ :

(فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

والماضي مغطى بـ :

(وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

يا رب ، ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

وسيدنا الصديق رضي الله عنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط .

(فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، من دون الهدى الإلهي هناك مليون سؤال لا جواب لها ، هناك ضياع عند الناس ، لماذا الحياة قصيرة ؟ عند الطبيب سنوات الممارسة أقلُّ من الدراسة بكثير ، لماذا هناك فقر وغنى ؟ لماذا هناك مرض وصحة ؟ لماذا هناك قهر في العالم ؟ لماذا هناك اجتياح ؟ لماذا هناك دول طاغية ؟ ودول مسحوقة ضعيفة ، لماذا ؟ من دون إيمان بالله عز وجل ينشأ مليون سؤال ، والقرآن قدم لك تفسيرا عميقا ، دقيقا ، متناسقا للكون والحياة والإنسان ، كل تساؤل كبير عند أهل الدنيا في القرآن الكريم جوابه الواضح جداً .

(فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة الأعراف)

وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

1 – لابد من إدخال الموت في الحسابات اليوميمة :

هؤلاء الذين ما أدخلوا الموت في حساباتهم ، وهذا حال معظم الناس ، يعيش لحظته ، مع أن هناك موتًا، وانتقالا من بيت 400 متر إلى قبر ، إنه انتقال مفاجئ من زوجة وأولاد وأصدقاء وأتباع وخدم وحشم إلى قبر ! سبحان من قهر عباده بالموت .

حينما يعيش الإنسان المستقبل يكون عاقلاً ، ودائماً الأغبياء يعيشون الماضي ، نتغنى بالماضي ، والأقلُّ غباء يعيشون الحاضر ، ردود فعل ، نفاجئ بفعل لم نعلم عنه شيئاً ، يُخطط لنا ، نفاجئ به ، نستنكر ، نندد ، نشجب ، لكن العقلاء يعيشون المستقبل ، وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا ، ماذا أعددت لهذه المغادرة ؟ ماذا أعددت للقبر ؟ أعددت عملاً صالحاً ؟ أعددت استقامة ؟ أعددت تربية لأولادك ؟ أعددت ضبطاً لشهواتك ؟ أعددت ضبطاً لدخلك ولإنفاقك ؟ أعددت علاقات اجتماعية منهجية وفق منهج الله ؟ ماذا أعددت ؟ لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ ، يَعْنِي الْمَوْتَ))

[الترمذي]

((أكثروا ذكر هادم اللذات ، مفرق الأحباب ، مشتت الجماعات))

((عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن جابر أبو نعيم ، عن علي عن جبريل مخاطب النبي عليه الصلاة والسلام]

2 – وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

ما أدخلوا الموت في حساباتهم ،

(وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا)

كم دعوى الآن في قصر العدل كيدية ، فيها اغتصاب دين ، اغتصاب شركة ، اغتصاب مال ، وكم وُكّل لهذا المغتصب فيعطيه الأدلة القانونية لمتابعة اغتصاب هذا البيت .

والله أيها الإخوة ، ولا أبالغ : معظم الناس ما أدخلوا الله في حساباتهم أبداً

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(18-60): تفسير الآيات 37 - 39 ، ظلم الإنسان لنفسه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-06-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

أشدُّ أنواع الظلم الافتراءُ على الله : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

أيها الإخوة ، هذه الآية تشير إلى أن أشد أنواع الظلم لا أن تبيد الشعوب ، ولا أن تنهب الثروات ، ولا أن تقتل الملايين ، أشد أنواع الظلم ، أن تظلم تنفسك ، ألا تعرفها بالله أن تخسر الآخرة ، أن تخسر الأبد .

1 – فَمَنْ أَظْلَمُ

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

استفهام تقريري ، أيْ : ليس على وجه الأرض إنسان أشد ظلماً لنفسه ممن خسر الآخرة ، كما أن الآية الكريمة :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

ليس على وجه الأرض إنسان أفضل عند الله :

(مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

2 – المفتري على الله مستغنٍ عن تشريعه ، مقدِّمٌ لآرائه :

دقق ، أحيانا يتصور الإنسان أن الدين لا يصلح لهذا العصر ، تَصور من عند نفسه ، وهو وهمٌ كبير ، وبناءً على هذا الوهم الكبير استغنى عن طاعة الله ، أو أحياناً يقدم آراء وتعديلات للأحكام الشرعية حيث يتوافق الشرع مع كل سلوك غير منضبط في الحياة ، كأن يقول : هذه لا تصلح لهذا الزمان ، وهذا الحجاب بدعة لم يكن من قبل ، ظهر في العهد العثماني ، وهذه الفرائض لا يمكن أن تكون مطبقة الآن ، القصد منها أن هذا الإسلام جاء في وقت التشريعات لذلك الوقت .

فكل إنسان يتصور الدين تصورًا خلاف حقيقته ، أو يقدم اقتراحات ، أو تعديلات أو إلغاء لبعض الأحكام ، أو تعديل لبعض الحكام ، أو يكذب بآيات الله فقد افترى على الله .

عندنا ثلاث حالات ، إنسان تصور الدين أنه لا يصلح لهذا الزمان ، هذا التصور حجبه عن حقيقة الدين ، منعه أن يعبد الله ، يتصور أن المرأة نصف المجتمع ، يجب أن تكون في كل مكان ، وفي أبهى زينة ، هذا من حقها ، رأس مالها جمالها ، من حقها أن تبدي كل مفاتنها كي تشعر بثقة بالنفس ، والربا؟ مستحيل أن تجمد الأموال ، لا بد من أن تستثمر بفائدة ، ويقدم لك أن ثمة تضخمًا نقديًا ، وحينما أتقاضى فائدة كبيرة جداً فأنا ألغي التضخم فقط ، ويقول لك : هناك قرض استهلاكي ، وقرض استثماري ، والاستثماري لا علاقة له بالأحكام ، كل إنسان يقدم تصورات للدين ، لعقائد الدين ، لأحكام الدين ، لأوامر الدين من عند نفسه ، أو يكذب بالآيات ، أو يخترع ، أو يتصور ، فهذا إنسان ليس على وجه الأرض من هو أظلم منه لنفسه ، لأنه خسر الأبد .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

لذلك الله عز وجل رتب المعاصي والآثام ترتيباً تصاعدياً ، فقال عن الإثم والعدوان ، والفحشاء والمنكر ، وعن الشرك ، وعن الكفر ، وجعل على رأس هذه المعاصي الكبيرة :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

3 – أوهام الناس غالبها غير صحيحة :

صدقوا أيها الإخوة أن أربعة أخماس ما يتوهمه الناس عن الدين غير صحيح ، يعيشون في خرافات ، وعقائد ما أنزل الله بها من سلطان ، إن وجدوا ضالاً قالوا : الله كاتب ذلك عليه ، الله ابتلاه بالضلال ، إن وجدوا شارب خمر قالوا : طاسات معدودة بأماكن محدودة ، فلان لا يصلي ، الله ما هداه بعد حتى تأتيه هداية من السماء ، فهناك تصورات ، وآراء ، وتعديلات ، وتكذيب أحياناً ، وبدائل غير صحيحة .

فلذلك الله عز وجل يبين أنه لن تجد على وجه الأرض إنساناً أشد ظلماً لنفسه

(مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا)

يكفي أن تتوهم افعل كل المعاصي والآثام ، ويوم القيامة يسجد النبي تحت العرش يقول له : أرفع ، قال : لا أرفع حتى تشفعني بأمتي ، يقول له : ارفع ، واشفع تشفع ، الحديث له أصل ، إلا أنه فهمه خاطئ ، يعني افعل ما شئت والنبي يشفع لك ، اقرأ القرآن :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي

[متفق عليه]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[الترغيب والترهيب]

4 – أخطرُ شيء العقائد الزائغة :

أخطر شيء أن تعتقد عقيدة زائغة ، هذه تشلُّك ، وتثبِّط عزيمتك ، ويكفي تعتقد أن مسير في كل شيء، وما لك اختيار أبداً ، وهذا الذي كفر أراده الله أن يكفر ، فلما جاء إلى الدنيا كفر تحقيقاً لإرادة الله في الآخرة إلى جهنم وبئس المصير .

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

إخواننا الكرام ، لابد من أن تجري مسحاً دقيقاً لتصوراتك عن الدين ، عن القضاء والقدر ، عن الاختيار ، عن حقيقة الشهوة ، عن حقيقة المنهج الإلهي .

5 – وجوب معرفة المعلوم من الدين بالضرورة :

لذلك العلم فريضة على كل مسلم ، فهناك علم يجب أن تعلمه بالضرورة ، شئت أم بيت ، أحببت أم كرهت ، ولو تحمل شهادة في العالم ، العلم الذي يبغي أن يعلم بالضرورة يكسب معلومات عن مظلة قد

تجهل شكلها ، بيضوية ، دائرية ، مربعة ، مستطيلة ، قد تجهل عدد حبالها ، قد تجهل لونها ، قد تجهل من أي خيط صنعت حبالها ، ولكنك إذا جهلت حقيقة واحدة ، طريقة فتحها تنزل ميتاً ، فطريقة فتح المظلة معلومة يجب أن تعلم بالضرورة ، وفي الدين عقائد ، مجموعة أوامر ، مجموعة نواهٍ ، يجب أن تعلم بالضرورة ، ومعرفتها فرض عين على كل مسلم ، كقائد السيارة ، قد لا يعلم بأية طريقة صنعت ، وهذه المكابح من أية مادة صنعت ، لكن لا بد من أن يتعلم كيف يوقف السيارة ، أو يرتكب حادثًا مروعا ، كيف يوقفها ؟ كيف ينعقد بها يمنة أو يسرى ؟ كيف يدير محركها ؟ هذه معلومات لا بد من أن تعلم بالضرورة .

لذلك طلب العلم حتم واجب على كل مسلم ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ، أي على كل شخص مسلم ، ذكراً كان أم أنثى .

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

أي لن تجد على وجه الأرض إنساناً أشد ظلماً لنفسه ممن خسر الأبد بسبب تصور غير صحيح عن الدين .

(مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا)

إنّ أخطر تصور أن تتوهم أن أحكام الدين صالحة لعصر النبي والعصور الثلاثة التي من بعده فقط ، أما هذا العصر ففيه معطيات جديدة ، لا بد من الاختلاط ، لا بد من إيداع المال بالبنوك ، لا بد من أن نفعل ما نشاء ، فكل توهم لا يطابق الحقيقة مرفوض ، الجماعة رحمة ، فإذا عاش الإنسان وحده يتصور تصورا مضحكا ، يتصور تصورا مخزيا ، يخترع فتاوى من عنده .

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أخرجه أحمد عن النعمان بن بشير]

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا)

هناك أمثلة كثيرة جداً في كسب المال ، يقول لك : لا بد من أن نغش ، ما السبب ؟ أنا عندي عيال ، والناس مالهم حرام أساساً ، أنا آخذ مالاً حراماً ، ليس حلالاً ، وهذه بلوى عامة ، ماذا أفعل ؟ فكل إنسان لما ينحرف يخترع أفكارا مضحكة حتى يتوازن ، أما إذا كان مع جماعة ، مع مرجعية إسلامية صحيحة ، مع رجل يثق بعلمه ، وبورعه ، مع إنسان يقدم له الدليل بكل قضية ، هذه محرمة ، وهذا الدليل ، هذه حلال ، وهذا الدليل فإنه يسلم تصوُّره ، فلذلك لا بد من طلب العلم ، وطلب العلم حتم واجب على كل مسلم .

6 – ما هي آياتُ الله ؟

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ)

ما آيات الله ؟ آيات الله شيء مدهش ، الله أكبر ، ما هذه الظاهرة ؟ هذه آية ، قد تكون آية ، قد تكون الآية آية كونية ، الأرض لو أُلقيت في جوف الشمس لتبخرت في ثانية واحدة ، الأرض بمحيطاتها ، بقطبيها ، ببحارها ، بجبالها ، ببراكينها ، بكل ما فيها تتبخر في ثانية واحدة الشمس تستوعب مليون و300 ألف أرض ، تصور كرة وكرة كبيرة ، إذا قلنا : يجب أن تتسع هذه الكرة الكبيرة إلى مليون و300 ألف كرة صغيرة ، كم ينبغي أن يكون حجم الكرة الصغيرة ، أو لو عكست الآية فقلت : أريد كرة تتسع لمليون و300 ألف مرة من هذه الكرة ، كم حجم الشمس ؟ وبينهما 156 مليون كيلومتر ، ونجم صغير في برج بعيد يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما ، هذه آية ، الله أكبر ، وهي شيء مدهش .

من أجل أن تصل لأقرب نجم ملتهب خمسين مليون عام بمركبة أرضية ، أربع سنوات ضوئية ، والنجم الذي بُعده مليار مليون سنة .

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

الله أكبر ، شيء مدهش ، لذلك أيها الإخوة ، التكذيب بالآيات أنْ لا يعبأ المرء بهذه الآيات الصارخة .

الشمس والقمر من آيات الله عز وجل .

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الشورى الآية : 29)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت الآية :37)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية : 21)

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

(سورة الروم الآية : 23)

الذي عنده حاسوب يسأل البرنامج القرآني : أعطني الآيات التي تبدأ بقوله تعالى : ومن آياته ، اجعلها لك منهجاً في التفكر .

فلذلك هذا الذي خسر الآخرة ، وهو أشد الناس ظلماً لنفسه بسبب أنه كذب بآيات الله .

7 – المؤمن مأخوذ بآيات الله ، وغير المؤمن مأخوذ بالاختراعات :

قد تجد الإنسان المعاصر مأخوذا بالمركبات ، يقول : هذه من نوع 500 ، ما هذا الكلام ؟! هذه سرعتها 500 ، هذه ثمنها فرضاً مبلغ فلكي ، هذه فيها كمبيوتر كامل ، هذه فيها كل شيء آلي ، ثم بعد ذلك يقرأ عن الجبال بحثا فلا يعبأ به ، أنا أرى المؤمن مأخوذا بآيات الله ، وغير مؤمن مأخوذ بمخترعات البشر ، تجده خبير بكل التفاصيل ، بكل الأشكال ، بكل خصائص المركبة ، لو أنه قدم فحصا يأخذ المرتبة الأولى ، وفي الشهادات العامة يأخذ صفرا ، وفي الممثلين والممثلات عنده معلومات ، لكنه في طريق غير صحيح .

لذلك :

(كَذَّبَ بِآيَاتِه)

أي : لم يعبأ بآياته الدالة على عظمته ، البعوضة آية ، الذبابة آية العين آية ، في الميليمتر مربع مئة مليون مستقبل ضوئي ، وفي العين مادة مضادة للتجمد ، هذا الماء آية ، الجبال آية ، البحار آية ، الأسماك آية ، الأطيار آية ، النباتات آية ، هناك نبات للأخشاب ، نبات للأدوية ، نبات للأصبغة ، نبات للثمار ، نبات نأكل جذوره ، نبات نأكل أوراقه ، نبات نأكل أزهاره ، نبات نأكل ثماره ، هناك أشجار للزينة كأنها مظلة ، هناك أشجار حدودية ، وأشجار مثمرة ، لو درست موضوع النباتات لم تستطع إنهاءَه .

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية : 99)

من أوسع الآيات الدالة على عظمة الله ، حقل البطيخ يا ترى هذه نضجت أم لم تنضج ، معقول أن تنبطح إلى جانبها ، وأن تضربها لتسمع رنتها ؟! الله جعل حلزونا تمسكه بإصبعيك ، فإن انكسر فالبطيخة ناضجة ، وإن بقي طرياً فالبطيخة لم تنضج بعد ، الله جعل لك علامة ، تدخل إلى حقل الطماطم ، أحياناً يمكن أن يكون فرضاً خمسة أطنان ، وهناك مئة حبة حمراء داكنة ، والباقي خضراء، كأن هذه الحبات الحمراء تقول لك : تعال اقطفني ، أنا مجهزة كي تأكلني ، أعطاك علامة ، كل شيء عند النضج له لون خاص .

لما تكون مؤمنا تكون مأخوذا بآيات الله ، مأخوذا بالوردة ، ما هذه الرائحة ؟ ما هذا التنوع ؟ وتكون مأخوذ من مخلوقات الله ، وغير المؤمن مأخوذ بالمخترعات .

والله مرة بلغني عن شخص معجب بهذه المركبة المعينة إعجابا لا حدود له ، تمنى أن تمشي فوقه ، أحمق .

المؤمن مأخوذ بآيات الله ، فهذا كذب بآياته ، الله له آيات كونية ، وله آيات قرآنية والدليل :

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)

(سورة فصلت الآية : 2)

هذه آيات قرآنية ، وهناك آيات كونية ، و آيات تكوينية ، الزلازل من آيات الله الدالة على عظمته ، البراكين ، الأمطار حينما تزداد عن حدها المعقول تصبح نكبة كبيرة جداً ، الرياح قد تقتلع مدينة بأكملها ، نحن ما رأينا الأعاصير ، هناك أعاصير سرعتها 1200 كيلومتر .

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ)

(سورة المدثر)

مرة أصاب دمشق رياح عاتية سرعتها 125 كيلومتر ، أبنية كثيرة هدمت ، جدران كثيرة وقعت ، السرعة 125 كيلومتر ، وهناك أعاصير سرعتها 1200 كيلومتر ، لذلك الله عز وجل خَلْقه آيات ، وكلامه آيات ، وأفعاله آيات ، الذي ظلم نفسه ، وخسر الآخرة من شأنه ، ومن صفاته أنه يكذب بآيات الله ، تحدثه عن الجبال فيقول لك : أخي هذه موضوعات معروفة ، ما أسعار الدولار اليوم ؟ كل شيء متعلق بالله جاهل به ، كل آية تلفت النظر إلى عظمة الله ، إلى قدرته ، إلى حكمته ، إلى رحمته ، إلى جماله لا يعبأ به .

والله أحيانا يقف الإنسان أمام فراشة فيسجد لله على الألوان الرائعة ، أو أمام عصفور ، أو أمام ورود معينة ، تناسق ألوان مذهل .

أنا أرى أن المؤمن مأخوذ ومندهش بآيات الله الكونية ، وبآيات الله التكوينية ، وبآيات الله القرآنية ، والذي خسر الآخرة ، وكان ظالماً لنفسه أشد أنواع الظلم يكذب بآيات الله ، لا يعبأ بها .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ)

8 – أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ

كيف ؟ هو كذب به كلياً ، سؤال : إذا ركب الإنسان طائرة أراد أن يهبط منها وهي في أعالي الجو ، طبعاً بالمظلة ، هو قال : ليس بحاجة للمظلة ،هذا قانون السقوط ، ألا يسقط بالمظلة ؟ أنا كافر به ، هذا خرافي ، فألقى بنفسه ، لما كذب بقانون السقوط عطله ، هو نافذ فيه ، صدقت به أم لم تصدق ، أكبرته أم احتقرته ، القانون نافذ فيك ، ينزل ميتا ، فإذا كذبت القرآن فإن قوانينه سارية عليك .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً)

(سورة الإسراء)

هو كذب بهذا القرآن بأكمله ، قال : هذا ليس كلام الله ، وانكب على الدنيا ، ونجح ، صار يحمل اسما كبيرا ، أو جمع ثروة طائلة ، أنا كذبت ، وأنا غني ، لكن وضعك جاء في القرآن .

يقول لك : يا أخي هذه أوربة ، وصلوا إلى القمر ، صنعوا آلات كالمعجزات ، طائرة بـ 860 راكبا ، كأنها فندق ، كل شي فيها ، تحلق على ارتفاع خمسين ألف قدم ، فيها رفاه الأرض .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام الآية : 44)

هو كذب ، لكن وضعه موجود في القرآن ، الله عز وجل قال :

(كُلّاً نُمِدُّ)

(سورة الإسراء الآية : 20)

الآية الأولى :

(مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا)

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)

(سورة الإسراء)

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً)

(سورة الإسراء)

اطلب الدنيا تَنَلْها ، لكن :

(وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

(سورة البقرة الآية : 200)

لما ينجح الإنسان في الحياة ، وهو مكذب بالقرآن يظن أن القرآن تعطل ، القرآن صحيح ، لكن القرآن أشار إلى هذه الحالات ، إن أردت الدنيا فلك الدنيا ، إن أردت الآخرة فلك الآخرة ، الآن إن أحسنت إدارة الدنيا ملكتها ، كما يفعل أعداءنا ، دعك من عدوانهم ، انظر إلى معاملتهم لشعوبهم ، في ضمان صحي كامل ، أكبر عملية تُجرى مجاناً ، في حرية حقيقية يعاملوا شعوبهم معاملة تفوق حد الخيال ، لما أحسنوا إدارة شعوبهم كانوا أقوياء ، وملكوا الأرض ، وفرضوا ثقافتهم وإباحيتهم على بقية الشعوب، الدنيا لها نظام آخر .

كيف نحن ؟ هذه الساعة هذه ساعة رقمية ، وهناك ساعة بيانية بعقارب ، هذه نظام ، وهذه نظام ، لا توازن ساعة رقمية بساعة بيانية أبداً ، كل نوع له خصائص ، الدنيا لها قوانين ، والآخرة لها قوانين ، الدنيا تصلح بالكفر والعدل ، ولا تصلح بالإيمان والظلم ، الآخرة تسوى فيها الحسابات ، لا تصلح إلا بالإيمان والاستقامة والعمل الصالح ، حتى ما يختل توازن الإنسان في الدنيا ، الذين ملكوا الأرض

كفار، لكنهم أحسنوا إدارتها ، فلما أحسنوا إدارتها تفوقوا فملكوا الدنيا ، عندئذٍ فرضوا كل ما يريدون على بقية الشعوب ، فنحن فينا خطأ ، مسلم ؟ على عيني ، مؤمن ؟ ممتاز ، لكن ما لم تتفوق فلا يحترم دينك .

ماذا قدمت للمجتمع المسلم ؟

بصراحة المجتمع الإسلامي فيه بطالة كبيرة جداً ، لا نُحترم ، فيه عنوسة كبيرة جداً ، العنوسة في بعض المجتمعات 50% ، البطالة في بعض المجتمعات 60% ، فيها بطالة مقنعة ، إن أعطيت إنسانا ثلاث آلاف ليرة في الشهر فهذا بطال ، لأنها لا تكفيه ، يحتاج إلى 20 ألفا كي يحقق الحد الأدنى من كرامته .

فلذلك ما لم نحل مشكلات الشباب ، ما لم نهيئ مساكن للشباب ، ما لم نهيئ فرص عمل للشباب ، ما لم نهيئ زواجا للشابات ، ما لم نخفض نسبة العنوسة ، ما لم نخفض نسبة البطالة فلا نحترم في العالم ، ولا يُحترَم ديننا ، هذه حقيقة مرة ، وهي عندي أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، لا تكن إنسانا سلبيا، يا أخي الدين عظيم ، البارحة صليت وبكيت ، بارك الله ، شيء رائع جداً ، لكن ماذا قدمت لهذه الأمة ؟ ماذا قدمت ؟ قدمت شيئًا جيدا ؟ أضخم قطر إسلامي فيه 250 مليون مسلم عن طريق التجار فقط ، لو ما رأوا من هؤلاء التجار الاستقامة ، والصدق ، والنزاهة ، والخدمة لما أسلموا ، أنت ماذا قدمت ؟ يكفي أن تكون صادقاً فأنت أكبر داعية ، يكفي أن تكون أميناً فأنت أكبر داعية ، يكفي أن تكون عفيفاً فأنت أكبر داعية ، فهل قدمت شيئًا ؟

إخواننا الكرام ، الحقيقية التي أتمنى أن تكون واضحة لديكم ، اسأل نفسك كل يوم : ماذا قدمت للمسلمين ؟ أما إذا كانت كل اهتمامك في مصالحك ، كل اهتمامك ينصب في بيتك ، ولا يعنيك من أمر الناس شيئاً فلا وزن لك عند الله .

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

(سورة الكهف)

هم :

(صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام الآية : 124)

ماذا قدمت للأمة ؟ أتمنى أن تسحب الهمم ، أتقن عملك تكون قد قدمت شيئا للأمة .

أعرف رجلا عبقريا في الحواسيب الصناعية ، فكل حاسوب صناعي وراءه معمل ضخم ، وخمسمئة عامل ، وأحيانا تتعطل لوحة إدارة الحاسوب ، إصلاحها مليون ليرة ، وتعطيل المعمل أسبوعين تقريباً،

الله وفقه إلى إصلاح هذه اللوحة ، يتقاضى عشرة آلاف على إصلاح اللوحة كل يومين ، كم خدمة قدم للأمة ؟ كم معملا لما تعطلت هذه اللوحة ؟ كان تتعطل شهرا ، وفي ذهاب اللوحة إلى بلاد بعيدة جداً ، والدفع قريب من مليون ليرة .

أتقن عملك تكن قد قدمت شيء للأمة شيئا كبيرا جداً ، أتقن دراستك ، كن طبيبا لامعا ، كن صناعيا كبيرا ، هيئ فرص عمل للناس .

قال لي أخ : أنا أريد أن ألغي المعمل ، أن أصفي المعمل ، قلت له : لماذا ؟ قال لي : لأنه لم يصبح لي فيه أرباح ، المصاريف تساوي الأرباح تماماً ، قلت له : كم عاملا عندك ؟ قال لي : ثمانون ، قلت له : هذا أكبر ربح ، أنت فاتح ثمانين بيتًا ، أنت أمَّنتَ فرص عمل لثمانين أسرة ، كل بيت فيه ستة أولاد وزوجة ، بارك الله به ، تابع عمله ، وما ترك .

عندما تفهم الدين عطاء ، أنت ماذا فعلت ؟ طالب تفوق ، تاجر ، ائتِ بالبضاعة الجيدة ، وليكن سعرها معتدلا ، فأنت مع النبيين ، التاجر الصدوق مع النبيين ، وإندونيسيا فتحت عن طريق التجار ، أنت صناعي ، قدم صناعة متقنة بسعر معتدل ، هيئ فرص عمل للشباب .

ذهب أحدهم إلى بلاد الغرب ، إلى ألمانيا بالذات ، لإنشاء معمل كبير ، صُعق حينما وجد أنه ليس هناك من شروط إطلاقاً ، إلا تعهدين : أن يتعهد بتأمين فرص عمل ، وعدم تلويث البيئة ، وقدموا له كل دنم أرض بأجرة مارك واحد بالشهر ، اطلب مئة دنم ، الدنم بمارك ، وأسس عملا ، وقدم تعهدا بعدم تلويث البيئة ، وقدم تعهدا بتأمين فرص عمل للمواطنين .

إذاً : أحيانا التعقيدات تشل اقتصاد الأمة ، يقول لك : شيء شبه مستحيل أن آخذ ترخيصا مثلاً ، هذا من تخلف الشعوب الأخرى .

فلذلك اسأل نفسك : ماذا قدمت لهذه الأمة ، هل قدمت علما ؟ هل قدمت أولادا عندهم وعي كبير وملتزمين ؟ صاروا أطباء ، صاروا قضاة ، صاروا محامين ، صاروا مهندسين ، ما غشوا ، أدوا عملهم بالتمام والكمال .

لذلك أيها الإخوة ،

(أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ)

الكتاب مطبق ، آمنت به أم لم تؤمن ، قوانينه مطبقة ، آمنت بها أم لم تؤمن ،

(يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ)

إذا أتقنوا الدنيا تفوقوا فيها وملكوها .

الآية الكريمة :

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

(سورة الأنبياء)

قال بعضهم : الصالحون بإدارتها ، الصالحون باستغلال ثرواتها ، الصالحون بتقديم الخدمات للأمة ، فحينما تقول : أنا أقدم شيئا معنى ذلك أنك مسلم حقيقي ، لكن لا تقدم شيئا أبداً فهذه مشكلة كبيرة .

لا ينفع شيءٌ من الدنيا أمام قضاء الله : أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ

(حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا)

أنت كنت تظن أن المال إله ، وأن فلانا بيده كل شيء ، بيده أن يرفعك ، أو أن يخفضك ، بيده أن يعزك ، أو أن يذلك ، أين هو ؟ .

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام الآية : 94)

قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا

(قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا)

هنا إضلال توحيدي ، الذين كان يعبدهم في الدنيا ضلوا عنهم في الآخرة ، الآن الإنسان بسذاجة مضحكة يسأل شخصًا معلوماته محدودة عن قضية متعلقة بمعصية كبيرة ، يقول له : ما فيها شيء ، يقول لك : أفتى لي ، لا تنفذ .

((وَلَعَلّ بَعْضكُمْ أنْ يكونَ أَلْحَنَ بحِجّتِهِ مِنْ بَعْض، فإن قضَيْتُ لأحَدٍ مِنْكُمْ بشَيءٍ مِنْ حَقّ أخِيهِ، فإنّما أقْطعُ لَهُ قطعة مِنْ النّار))

[البخاري]

لو أنك انتزعت من فم النبي عليه الصلاة والسلام فتوى ، ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله .

وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ

(قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ)

كانوا كافرين بالله عز وجل ، مؤمنين بهؤلاء الشركاء .

إخواننا الكرام ، الآية :

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

الذين هم صالحون بإدارتها ، وخدمة البشر ، عندئذٍ يتملكونها ، وهذا في القرآن ، فإذا تملك إنسان الأرض ، وهو ليس مؤمناً هذا ورد في القرآن .

إذاً :

(أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ)

(قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا

للتقريب : إنسان أغراه إنسان آخر أن يرتكب جريمة ، وقال له : لن تُكتشف ، وأنا أضمن لك أن تعيش بحبوحة كبيرة بهذه الثروة الطائلة ، فاستجاب له ، وارتكب الجريمة ، وألقي القبض عليه ، وأودع في السجن ، هذا الذي أغراه أيضاً دخل السجن ، فالتقيا معاً ، أنا متأكد بالـ100 مليون أن كلا مِن صاحبه يلعن الآخر ، لولا أنك أغريتني لما فعلت هذه الجريمة .

قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ

الآن :

(حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ)

والذي قَبل الضلال أضل غيره أيضاً ، صار هناك ثلاث حالات ، إنسان أغرى بجريمة ، وإنسان ارتكبها ، والذي ارتكبها أغرى إنسانا آخر بمثلها ، فهناك ثلاث فئات في النار .

(حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ)

لِكُلٍّ ضِعْفٌ

1 – المقلَّد له ضِعفٌ من العذاب :

قال الله عز وجل :

(لِكُلٍّ ضِعْفٌ)

لماذا ضعف ؟ إن إنسانا له عمل قيادي ، معلم ، ارتكب خطأ على مرأى ممن معه ، فالذين معه وجدوا هذا الخطأ مستساغا ، فقلدوه ، فهو يحمل إثم خطئه ، ومن قلده ، كل إنسان يمكن أن يُقلَّد عذابه مضاعف .

سيدنا عمر إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته ، وقال : << إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير ، إن رأوكم وقعتم وقعوا ، وايم الله ، لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >> ، فصارت القرابة من عمر مصيبة .

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ)

(سورة الأحزاب الآية : 30)

الآن معلم عقابه مرتين ، خطأه وخطأ الطلاب الذين قلدوه ، الأب عقابه مرتين خطأه وخطأ أولاده ، الأم عقاب مرتين ، الأم متفلتة ، وابنتها أمها تفلتت مثلها ، لها عقاب مضاعف ، كل إنسان قيادي ولو كان عريف صف في أقل من هذه القيادة ؟ إذا أخطأ فعذابه مضاعف ، أمٌّ كذبت على زوجها أمام ابنتها، لما ابنتها تزوجت أيضاً كذبت على زوجها ، يضاعف لها العذاب ضعفين ، كل إنسان له منصب قيادي وأخطأ يتحمل خطأه وخطأ الذي قلده ، فالله عز وجل قال :

(لِكُلٍّ ضِعْفٌ)

لا تغلبوا أنفسكم ، كل إنسان قُلد له عذاب الضعف ،

(وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ)

(وَقَالَتْ أُولَـاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

(سورة الأعراف)

في النهاية لا أحد يضل أحدا :

في النهاية لا أحد يضل أحدا ، الذي توهم أن فلانا أضله عنده استعداد ، وعنده رغبة ، أحيانا صف فيه خمسون طالبا ، وفيه طالب سيئ جداً ، يغري رفاقه بالذهاب إلى السينما ، وعدم الدوام في اليوم التالي، من يستجيب له ؟ بعضهم ، الذي استجاب عنده استعداد ليغيب ، واستعداد ليكذب ، واستعداد ليدخل إلى السينما .

لذلك لا أحد يضل أحدا .

(وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ)

نحن لسنا محاسبين عنكم ، إنكم أردتم أن تكونوا مثلنا

(فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ)

خاتمة :

أيها الإخوة الكرام ، الموضوع دقيق جداً ، أنه أكبر خسارة على الإطلاق أن تخسر الآخرة ، وأشد أنواع الظلم أن تخسر الآخرة ، ظلم النفس ، وأشد أنواع الحمق أن تخسر الآخرة ، لذلك ما من إنسان يضل إنسانا ، وكل إنسان في الظاهر قلده إنسان آخر له عذاب الضعف .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(19-60): تفسير الآيات 40 ـ 43 ، عندما يرضى الله عن عباده يفتح لهم أبواب السماء ـ دخول الجنة برحمة من الله تعالى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-07-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الأربعين ، وهي قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا

أيها الإخوة ،

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

الآيات كما مر معنا في الدرس السابق هي الآيات الكونية ، خَلقه ، والآيات التكوينية ، أفعالُه ، والآيات القرآنية ، كلامُه ، ويضيف بعض المفسرين : معجزات الأنبياء .

1 – الفرق بين المعجزة والإعجاز :

وفرق كبير بين المعجزة والإعجاز ، المعجزة خرق للنواميس والقوانين ، أما الإعجاز فإشارة مبكرة لقضية علمية تكتشف بعد مئات السنين ، الفرق واضح بين الإعجاز ، والمعجزة ، المعجزة البحر أصبح طريقاً يبساً ، المعجزة يُلقى إنسان في النار فلا يحترق ، المعجزة عصا تلقى على الأرض .

(فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

المعجزة انشقاق القمر ، هذه معجزات ، هي خرق للنواميس والعادات ، هي شهادة الله لأنبيائه ولرسله أن هذا الإنسان رسول الله ، أما الإعجاز فحينما تأتي إشارة إلى قضية علمية في القرآن الكريم اكتشفت في عام 2000 فإذا هي مطابقةٌ مطابقةً تامة لأحدث بحوث العلم هذا إعجاز ، الإعجاز وفق القوانين ، أما سبق علمي ، إشارة مسبقة إلى حقيقة علمية لم تكن معروفة وقت نزول الوحي ، بعد 1400 عام

اكتشف العلماء هذه الحقيقة ، فكانت الآية القرآنية دليلاً على أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن .

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

لأنهم لو صدقوا عليهم أن يطبقوا ، كنهم أَلِفوا التفلت ، ألفوا الحركة بلا ضابط ، بلا أمر ، بلا نهي ، بلا رادع ، بلا قيمة ، بلا مبدأ ، وهذا شأن الإنسان الذي تفلت من منهج الله ، كدابة شاردة .

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية : 5)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون الآية : 24)

2 – آيات الله طريق إلى الإيمان :

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

طريق الإيمان بالله الطريق إلى آياته القرآنية ، والتكوينية ، والكونية ، ومعجزاتهما ، هذا هو الطريق ، قال تعالى :

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

لآن الله عز وجل لا تدركه الأبصار ، إذاً : العقول من خلال خلقه تصل إليه .

وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا)

أبوا أن يؤمنوا بها استكباراً .

1 – إبليس رأسُ العاصين المستكبرين :

لذلك : هناك معاصي الاستكبار ، على رأس العاصين استكباراً إبليس اللعين .

(لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ)

(سورة الحجر الآية : 33)

(مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

(أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

(سورة البقرة الآية : 34)

2 – معصية الاستكبار والإباء إثمها أكبر :

معصية استكبار ، معصية التأبي ، هذه المعصية إثمها مليون ضعف عن إثم معصية الغلبة .

أحيانا يُغلب الإنسانُ على أمره ، تغلبه شهوته ، فيفعلها ، ويبكي بكاء مراً ندماً على فعلته ، هذه معصية ، وهذه معصية ، لكن الأولى معصية الاستكبار ، معصية التأبي ، معصية التألق ، أما المعصية الثانية فهي معصية الغلبة والانكسار .

لذلك قال بعض العارفين : " رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً"، الآن :

((لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر))

ما الذي أكبر من الذنب ؟ قال :

((العجب العجب))

[أخرجه البزار وابن حبان عن أبي سعيد]

أن تعجب بنفسك ، فلذلك مرة قال لي شخص : أنا لا ألتفت إلى النساء إطلاقاً ، ولا ألقي لهن بالاً ، أنا فوق هذا ، أنا انتقدته في نفسي ، أيهما أعظم عند الله أنت أم سيدنا يوسف ؟ ماذا قال ؟ قال :

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف الآية : 33)

ألا أنبئكم بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا حول عن معصيته إلا به ، ولا قوة على طاعته إلا به ، ألا تقرؤوا الفاتحة كل يوم ؟

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

استعن على طاعة الله بالله ، ألم يقل إبراهيم أبو الأنبياء :

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

(سورة إبراهيم الآية : 35)

لذلك أي إنسان يستقيم ، ويأخذه العجب باستقامته تزل قدمه ، وقد يرتكب حماقة ومعصية لا يرتكبها أقلّ منه ، فإذا كنت طائعاً لله فاسجد لله شكراً على أنك تطيعه .

لذلك :

((الذنب شؤم على غير فاعله))

[أخرجه الديلمي عن أنس]

لك صديق ارتكب ذنبا ، أنت ما ارتكبت ذنبا ، قال : هو :

((شؤم على غير فاعله إن رضيه فقد شاركه في الإثم ، وإن ذكره فقد اغتابه وإن عيره ابتلي به))

[أخرجه الديلمي عن أنس]

ينبغي إذا ارتكب أخوك ذنباً ألا تفضحه ، وألا تعيره ، وألا تقره ، لذلك :

((من غاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها ، ومن شهد معصية فأنكرها كان كم غاب عنها))

[ورد في الأثر]

لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء)

معنى تفتَّح السماء :

إذا فتحت أمامك أبواب السماء ما معنى ذلك ؟ يعني تجلى الله على قلبك بالسكينة ، والسكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء ، وتشقى بفقدها لو ملكت كل شيء ، فإذا كنت في بطن حوت ، وفي ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وفي ظلمات ثلاث يتجلى الله عليك بالسكينة فأنت في جنة ، لذلك عاش السكينة النبيُّ عليه الصلاة والسلام وهو في الغار ، وعاش السكينة سيدُنا يونس وهو في بطن الحوت ، وعاش السكينة سيدُنا إبراهيم وهو في النار ، وعاش السكينة أهلُ الكهف وهم في الكهف ، السكينة إذا نزلها الله عليك سعدت بها ولو فقدت كل شيء ، وتشقى بفقدها لو ملكت كل شيء ، إن فتحت لك أبواب السماء نزل على قلبك السكينة ، وإن فتحت لك أبواب السماء نزل على قلبك الأمن .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

وإذا فتحت لك أبواب السماء آتاك الله الحكمة .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

وإذا فتحت لك أبواب السماء آتاك الله الرضا .

وإذا فتحت لك أبواب السماء آتاك الله التفاؤل .

إن فتحت لك أبواب السماء فلا يضل عقلك ، ولا تشقى نفسك .

إن فتحت لك أبواب السماء فلا تهاب إلا الله ، ولا تخش إلا الله ، ولا تأخذك في الله لومة لائم .

إذا فتحت لك أبواب السماء آتاك الله بصراً نافذاً ، وقولاً سديداً ، وحكمة رائعة ، وإدراكاً عميقاً .

إذا فتحت لك أبواب السماء ملكت نفسك ولا تملكك ، وتحكمت بهواك ، ولم يتحكم بك .

إذا فتحت لك أبواب السماء قلّت مساكين أهل الدنيا ، جاؤوا إلى الدنيا وخرجوا منها ، ولم يذوقوا أطيب مات فيها ، فاتتهم جنة القرب ، في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

إذا فتحت لك أبواب السماء ذكرك الله وأنت تذكره ، وذكر الله لك أبلغ من ذكرك له .

لذلك :

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا)

لو لم يكن هناك نتائج خطيرة جداً ماحقة ساحقة مهلكة من التكذيب فكذب ما شئت ، لكن :

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء)

المؤمن بعين الله ، المؤمن بتوفيق الله ، المؤمن بتأييد الله ، بحفظ الله ، ملائكة يحفظونه من أمر الله بأمر من الله ، مسدد ، معان ، موفق ، ينصره الله ، يكشف له الحقيقة ، يلقي في قلبه نوراً .

إذا فتحت لك أبواب السماء يهبك زوجة صالحة تعينك على أمر دينك ، إن فتحت لك أبواب السماء ألقى الله محبتك في قلوب الخلق ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي)

(سورة طه الآية : 39)

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء)

في الدنيا ،

(وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ)

حُرم من نعيم الدنيا ونعيم الآخرة .

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

حُرم من جنة الدنيا ، ومن جنة الآخرة .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

(سورة طه)

أحيانا يخالف الإنسان القانون ، المخالفة جزاءها خمسون ليرة ، يقول لك : ليست مشكلة ، لا ، أحيانا هناك مخالفة بعدها إعدام ، هذه مشكلة ، الله عز وجل يبين :

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

الكونية والتكوينية والقرآنية والإعجازية ،

(وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء)

فلا حكمة ، ولا رحمة ، ولا توفيق ، ولا نصر ، ولا تأييد ، ولا تطمين ، ولا استخلاف .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ

(لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى)

متى ؟ قال : القضية سهلة جداً

(حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ)

من ستة أطنان ،

(فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)

بثقب الإبرة إذا دخل الجمل

(فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)

يدخلون الجنة ، هذا اسمه شرط تعجيزي ، مستحيل وألف ألفُ ألف مستحيل أن يدخل هؤلاء الجنة ، لأنهم :

(كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا)

وقال بعض المفسرين : الجمل هو الحبل الثخين ، حبل سفينة ضخمة ، وهناك حبال قطرها عشرة سانتيمترات ، هذا يدخل في ثقب إبرة ؟ .

بالمناسبة ، الذي استخدم الإبرة والخيط الإبرة لها ثقب ، متى يدخلها الخيط ؟ إذا كان قطره أقلَّ من ثقب الإبرة ، هذا واحد ، وإذا كان متماسكاً صلباً ، وإذا كان مؤنفاً له رأس مؤنف ، فإذا قطعت الخيط بالمقص لا يدخل ، لا بد من برمه وتكوين رأس مؤنف له ، يجب أن يكون الخيط بقطر أقلَّ من ثقب الإبرة ، ويجب أن يكون الخيط متماسكا صلبا ، ويجب أن يكون له رأس مؤنف حتى يدخل ، أما الجمل إن كان جملا بمعناه الحقيقي ، أو الجمل بالمعنى المجازي فمستحيل وألف ألفِ ألف مستحيل أن يدخل في ثقب الإبرة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ

لماذا أجرم ؟ لأنه كذب ، لما كذب بآيات الله كذب بوجود الله ، كذب بعدل الله ، كذب بالحساب ، وبالموت ، لما كذب بالحساب بعد الموت ، كذب باليوم الآخر ، كذب بالمسائلة الإلهية ، كذب بالعذاب ، فلا داعي له أن يستقيم ، فصار يأخذ ما ليس له ، ويأكل أموال الناس بالباطل ، وينتهك أعراضهم ، ويقتلهم أحياناً ، كما ترون ، القتل سهل ، يقول لك : دمرنا البناء فمات 60 شخصا ، كيف ؟ صدر إطلاق رصاص منه ، كلام كله بكذب ، لأنه ليس عندهم إله يحاسب ، ولما كفر بالله ، كفر باليوم الآخر فلا داعي له أن يستقيم ، ولا داعي له أن يخاف من الله ، شيء دقيق ، وترابط دقيق جداً ، لما كذب بالآيات الدالة على عظمة الله ، وعلى كماله ، وعلى عدله ، وعلى يوم الحساب والدينونة ، لما كذب بالله واليوم الآخر لماذا يستقيم ؟ استغنى عن طاعة الله ، ووجد نفسه قويا ، إذاً : يجب أن يأخذ ما ليس له .

الجاهلية الثانية :

الآن نحن في الجاهلية الثانية ، قال الله تعالى :

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب الآية : 33)

هذه إشارة إلى جاهلية ثانية ، ففي الجاهلية الثانية القوي يسحق الضعيف ، والغني يأكل الفقير ، والذكي يحتال على غير الذكي ، والعلاقات علاقات مجتمع الغاب ، ليست علاقة إنسان مع إنسان ، بل علاقة مجتمع الغاب .

إنّ كل إنسان يرى من حقه أن يفترس الآخرين ، وكل إنسان قد يكون فريسة وضحية ، هذا مجتمع الغاب ، هذا مجتمع الجاهلية الثانية ، هذا مجتمع يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه ، مما يرى ، ولا يستطيع أن يغير ، إن تكلم قتلوه ، وإن سكت استباحوه ، هذا المجتمع مجتمع يلعنه الله .

دقق أيها الأخ ،

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

لما كذب بآيات الله ، لما كذب بعدل الله ، لما كذب باليوم الآخر ، لما كذب بالحساب ، لما كذب بالنار ، استغنى عن طاعة الله ، هو قوي يجب أن يأخذ كل شيء ، هذا منطق هذا العصر .

نحن والله أيها الإخوة ، نعيش مع مجتمعات متطورة ، ولكنها متوحشة ، ونحن إن شاء الله مجتمع غير متطور ، لكننا متحضرون بهذا الدين ، عندنا رحمة ، عندنا تماسك أسري ، عندنا خوف من الله .

التكذيب بآيات الله يفضي إلى الإجرام :

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

إن كذبت بآيات الله في الأعم الأغلب ينبغي أن تكون مجرماً ، فالإنسان بشكل دقيق جداً لا يستقيم إلا إذا خاف الله ، إذا ما خافه لا يستقيم ، وكل شيء آخر يقال من بواعث عن الاستقامة ، أنا أراها غير صحيحة ، ضمير مسلكي ، تربية بيتيه ، تربية بيتيه بالسلام والترحيب ، أما إذا كان لا يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر يأكلها إسرافاً وتبذيراً .

أيها الإخوة ،

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

هؤلاء المجرمون قال :

(لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

(سورة الأعراف)

هذا جزاء المجرمين :

فراش وثير ، الناعم ، اللين بجهنم ،

(لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ)

الغطاء الذي فوقهم

(غَوَاشٍ)

أي جهنم ، جهنم تغشاهم من تحتهم ، ومن فوقهم ، ومن أمام ، ومن خلف ، ومن ميمنة وميسرة ، ومن فوق وتحت .

الآية :

(لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ)

من تحتهم جنهم تحرقهم ، ومن فوقهم النار تلسعهم ، من تحتهم ومن فوقهم ، لكن في آيات أخرى ومن أمامهم ومن خلفهم ، وعن يمينهم وشمالهم ، ومن فوقهم ومن تحتهم .

الآية :

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

(سورة التوبة الآية : 49)

أحيانا ينشب حريق يتجه باتجاه معاكس ، إذا هرب الرجل من الحريق وجد أمامه حريقا ، صعد إلى الطابق الثاني وجد أمامه حريق ، نزل إلى القبو فوجد الحريق ، عن يمينه حريق ، عن يساره حريق ، هذا وصف .

(لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

هم ظلموا أنفسهم حينما غفلوا عن ربهم ، لما غفلوا عن ربهم ظلموا أنفسهم ، ولما تفلتوا من منهجه ظلموا أنفسهم ، ولما أساءوا لخلقه ظلموا أنفسهم ،

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

ظلم نفسه بأنه ما عرّفها بربها ، وظلم نفسه بأنه ما حملها على طاعته ، وظلم نفسه بأنه آذى الخلق ، وظلم نفسه بأنه بنى مجده على أنقاض الآخرين ، بنى عزه على إذلالهم ، وبنى غناه على فقرهم ، قال:

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة الأعراف)

الطرف المقابل للمجرمين : إنهم المؤمنون :

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ)

الطرف الآخر ،

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أولاً : نجوا من النار ، أحياناً إذا حدث زلزال ، وبيتك نجا من الزلزال فأنت في مكسب كبير جداً ، إذا داهمك مستعمر لا سمح الله ولا قدر ، وقام باعتقال عشوائي إلى السجن ، ونجوت من هذا الاعتقال فأنت في خير كبير ، لكن الله عز وجل يقول :

1 – المؤمنون ناجون من النار مُنَعَّمون في الجنة :

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

ليس فقط نجو امن النار ،

(أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

هناك فرق بين أن تنجو فقط وأن تكون في نعيم مقيم .

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة الآية : 19 - 24)

(نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

(سورة التوبة الآية : 21)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ...))

[متفق عليه]

نظام الجنة أن كل ما تطلبه تراه أمامك .

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

(سورة ق)

نظام الجنة أنك تستمتع استمتاعا متناميا ، وهذا معنى الخلود في الجنة ، فلو ذهب إنسان إلى بستان ، وبقي فيه ساعتين أو ثلاثا يملّ بعد هذا ، أما إذا بدّل ، وتنامي لا يمل .

إذاً : هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لم ينجوا من النار ، وأدخلوا الجنة ، كانت النجاة من النار مكسبا كبيرا ، وفوق هذا المكسب الكبير جداً دخلوا جنة عرضها السماوات والأرض ،

(لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا)

2 – أعظم نعيم في الآخرة النظر إلى وجه الله الكريم :

لكن ما الذي فوق الجنة ؟ فوق الجنة النظرُ إلى وجه الله الكريم .

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ)

(سورة القيامة)

متألقة .

(إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(سورة القيامة)

في بعض الآثار : أن أهل الجنة إذا نظروا إلى وجه الله الكريم يغيبون خمسين ألف عام من نشوة النظرة ، هذه فوق :

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة التغابن الآية : 9)

فوق :

(وَحُورٌ عِينٌ)

(سورة الواقعة)

فوق :

(وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ)

(سورة الواقعة)

فوق :

(مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ)

(سورة محمد الآية : 15)

3 – رضوان الله على أهل الجنة :

فوق كل أوصاف الجنة هناك نظر إلى وجه الله الكريم ، وفوق ذلك :

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة التوبة الآية : 72)

لما يرحب الله بك ، ويحتفل بك .

إذًا في الجنة بساتين تجري من تحتها الأنهار ، فيها :

((مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ...))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فيها حور عين .

مرة صحابي جليل طالبته زوجته بشيء ليس في قدرته ، فقال : << اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لا لو أطلّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك >> .

فوق ذلك نظر لوجه الله الكريم .

فوق ذلك :

(وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ)

دخلت بيتا مثلاً فيه طعام ، فيه شراب ، فيه مقبلات ، فيه ورود ، فيه رياحين فيه ، أشياء لطيفة جداً ، وصاحب البيت جميل الصورة ، لم تستطع أن تصرف عينك عنه ، وفوق ذلك قال لك : يا أهلاً وسهلاً، أخ كريم ، وعزيز ، ونحن بانتظارك ، وقد نورت البيت بمجيئك ، فكنتَ في استمتاع مادي ، ونظر إلى جمال ، ثم ترحيب من صاحب البيت .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

4 – توهُّمٌ غيرُ صحيحٍ مدفوعٌ بقوله : لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا

لكن أحيانا يتوهم إنسان بوسوسة من إبليس أن هذه أشياء صعبة ، الاستقامة صعبة ، الله عز وجل أراد أن يبدِّد هذا الوهم فقال :

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)

ما مِن أمرٍ أمرك الله به إلا وكان ضمن وسعك .

وجاءت هذه الجملة اعتراضية :

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

5 – الإيمان مقرون بالعمل الصالح دائمًا :

آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بقلوبهم ، والإيمان إقرار بالقلب ، وعمل بالجوارح .

وكلمة :

(آمَنُواْ وَعَمِلُوا)

وردت 200 مرة في القرآن الكريم ، الدين إيمان وعمل صالح ، عقيدة وسلوك ، منطلقات نظرية ، وتطبيقات عملية .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

اعتراض .

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)

فلا تقل : لا أقدر ، إذا قلت : لا أقدر فأنت لا تعلم ، بل إنك تقدر في أي زمان ومكان ، وبأي ظرف ، وبأي بيئة ، وبأي معطيات ، أن تعبد الله ، لا تقل ، لا أقدر ، فإنه :

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)

لذلك أحياناً يتوهم الإنسان بهمته الضعيفة ، ووسعه الخائر ، وعزيمته الضعيفة أنه لا يقدر ، هذا وهم ، لكن الإله العظيم هو الذي خلق الإنسان ، فلا يمكن أن يكلفه شيئاً لا يستطيعه أبداً ،

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

أنت في الدنيا كمثل إنسان دخل إلى سوق يشتري مركبة ، معه 700 - 800 ألف ليرة ، في بحث بالمعرض كله عن سيارة بهذا المستوى ، هذه إمكانيته ، لكن هناك مركبة ثمنها 8 ملايين ، و 24 مليونا ، هذه فكّر فيها .

هناك متعٌ محرَّمة لا تفكر فيها أبداً ، أنا أفكر في الزواج فقط ، أفكر بعمل مشروع ، فما دمت مؤمنا ، ومعك منهج فكلّ تفكيرك وخواطرك ضمن المباح ، ضمن المسموح به ، ضمن المشروع ، أما لو تطلعت إلى ما يفعله العصاة والمجرمون طبعاً لا تستطيع ، أنت فكر بما هو مسموح لك ، كن مع المؤمنين ، أحط نفسك بجو إيماني ، تجد نفسَك متألقًا .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

6 – نِعَم الدنيا مصحوبة بقلقين : قلق مفارقتك وقلق مفارقتها لك :

المشكلة أن نِعم الدنيا معها قلق عميق ، أحدهم دخْله جيد ، يا ترى الشركة التي أنا وكيلها في هذه البلد، هل تبقى ؟ أم يأتي إنسان أقوى مني فيأخذها مني ، هناك قلق ، كل نِعَم الدنيا معها قلق ، معها قلقين ، القلق الأول أن تفارقك هذه النعمة ، وهناك أشخاص كثيرون كان أحدهم غنيا ثم افتقر ، كان وكيل شركة فسُحبت هذه الوكالة منه ، كان عنده ميزات ثم نحي عنها ، فكل نِعم الدنيا معها قلق عميق ، قلق أن تفارقك هذه النعمة ، و قلق آخر أن تفارقها أنت .

أحياناً يصل الإنسان إلى قمة نجاحه ، ثم يأتيه هاجس الموت ، بعدما وصل لهذا المستوى ، يمكن أن يموت فجأة .

مرة حدثني صديق زاروا أخا مريضًا ، الأخ يشعر بتعب غير معقول بعد تزيين البيت زينه ، واعتنى به ، بذل مهجة فؤاده فيه ، لما مرضَ مرضًا خطيرا زاره أصدقاءه ، قال لهم : ممكن أن تتزوج زوجتي بعدما أموت ، ويأتي إلى هذا البيت ، يأخذه على طبق من فضة ؟! .

إنّ نِعم الدنيا أيها الإخوة معها قلقان ، قلق أن تفارقك ، وقلق ثانٍ أن تفارقها ، لذلك قال النبي الكريم :

((اللَّهُمَّ مَتِّعْنا بأسْماعنا وأبْصَارنا وَقُوَّتِنا ما أحْيَيْتَنا))

[رواه الترمذي عن ابن عمر]

يا رب ما تفارقني هذه النعم .

7 – حظوظ الدنيا موزّعة توزيعَ ابتلاء ، وحظوظ الآخرة موزّعة توزيعَ جزاء :

أيها الإخوة ، حظوظ الدنيا موزعة توزيع ابتلاء ، قد يكون الفقير أقرب إلى الله من الغني ، حظوظ الدنيا موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء ، لكنها سوف توزع في الآخرة توزيع جزاء .

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

(سور ة الإسراء)

قال : أهل الجنة :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ

1 – ليست قلوب أهل الجنة كقلوب أهل الجنة :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ)

أحيانا هناك اجتهادات ، حتى بين الدعاة ، هذا اجتهاده بتأليف الكتب ، هذا اجتهاده بتأليف القلوب ، هذا اجتهاده بالتفسير ، هذا بالحديث ، هذا بالسيرة ، هذا آخذ اجتهاد متشدد ، هذا اتجاه وسطي ، في الدنيا يختلفون ، لكن لأنهم جميعاً في الدنيا يختلفون ، لأنهم جميعاً مؤمنون يوم القيامة ينزع ما بينهم من غلٍّ، هذه بشارة .

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ)

2 – لولا هداية الله لن نهتدِي أبدا :

لولا أن هدانا الله ما كنا لنهتدي ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ))

[متفق عليه]

الجنة للتقريب : بيت ثمنه مئة مليون ، كلفوك أن تأتي بثمن المفتاح فقط ، أنت حينما دفعت ثمن المفتاح 20 ليرة ، لا معنى لذلك ، لأن البيت تملكته بقوتك ، ومالك ، لكنك دفعت ثمن مفتاحه فقط ، لذلك :

((ادخلوا الجنة برحمتي ، واقتسموها بأعمالكم))

[ورد في الأثر]

إذاً :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

عملك يساوي ثمن مفتاح الجنة ، أما هي فمن فضل الله عز وجل ، الجنة محض فضل ، والنار محض عدل .

إذا قال أب لابنه : اجتهد ، ونل الدرجة الأولى ، ولك هذه الدراجة الثمينة جداً ، رآها في محل ، هذا الابن أخذ الدرجة الأولى ، وأخذ الجلاء ، وتوجه مباشرة إلى البائع ، وقال : أعطني هذا الجلاء ، اذهب وهات ثمنها ، يدفع ثمنها والدك ، هذا الجلاء ليس ثمن الدراجة ، هذا سبب وضعه أبوك من أجل أن يشتريها لك ، فهذا الجلاء ليس ثمن الدراجة ، هذا الجلاء سبب تملك الدراجة ، هناك فرق بين سبب وثمن .

هذا معنى :

((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، قالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قالَ : لَا وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ))

فضل ، لكن سببها الطاعة ، وأداء العبادات ، أنت قدمت السبب ، لكن ما قدمت الثمن ، الجنة مض فضل ، أنت قدمت عملا صالحًا هو سبب دخولك ، لذلك :

((ادخلوا الجنة برحمتي ، واقتسموها بأعمالكم))

اقتسام أماكن الجنة بالأعمال :

(وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

أي أنّ اقتسام أماكن الجنة بأعمالكم ، أما هي في الأصل فمحض فضل ، والنار محض عدل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(20-60): تفسير الآيات 44 - 51 ، في الآخرة يتحقق اسم العدل كاملاً ، في الجنة المؤمن تتضاعف سعادته - والكافر في النار تتضاعف آلامه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-07-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس العشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة والأربعين ، وهي قوله تعالى :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

أسماء الله الحسنى محققة كاملة في الدنيا إلا اسم العدل فمحقق كاملا في الآخرة :

أيها الإخوة ، أسماء الله تعالى كلها حسنى ، وكلها محققة في الدنيا ، اسم الرحيم تراه في خلق الله ، كيف ترحم الأم ابنها ، والعجماوات كيف ترحم أبناءها ، اسم الحكيم ، اسم اللطيف ، اسم القوي ، اسم القدير ، اسم الجبار ، كل أسماء الله الحسنى محققة في الدنيا إلا اسم العدل ، محقق في الدنيا جزئياً ، ويحقق تحققاً كاملاً يوم القيامة ، الدليل :

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

(سورة الروم الآية : 27)

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

(سورة طه)

الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء :

إذاً : الله عز وجل في الدنيا يعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين ، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين ، لكن الدنيا ليست دار جزاء ، إنما دار عمل ، ليست دار تكليف إنما هي دار تشريف .

من الممكن لإنسان يعاني ما يعاني وهو على طاعة الله ، ويموت ، ويمكن لإنسان يفعل كل الجرائم ويموت دون أن يصاب بشيء .

إياكم أن تتوهموا أن الدنيا دار جزاء ، إنها دار ابتلاء ، إنها دار عمل ، إنها دار كدح ، أما الآخرة فهي دار جزاء ، ودار تكريم ، ودار إعطاء العبد الذي أطاع الله كل ما يشتهي .

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

(سورة ق الآية : 35)

لذلك ، النقطة الدقيقة جداً : أن اسم العدل ليس محققاً كلياً في الدنيا ، محقق تحقيقاً جزئياً ، أي أن الله يكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين ، ويعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين ، ولكن الحساب الختامي يوم القيامة :

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران الآية : 185)

لذلك :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ـ لأنهم وقت ـ ولم يحزن لشدة ـ لأنهم وقت ـ ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سببا ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

هذه حال المؤمن حين يرى أعداءه في النار :

إن المؤمن حينما يرى أصحاب المال في النار ، حينما يرى الطغاة في النار ، حينما يرى العصاة في النار ، حينما يرى المجرمين في النار ، حينما يرى الذين بنوا مجدهم على أنقاض الناس في النار ، حينما يرى الذين بنوا غناهم على إفقار الناس ، بنوا عزهم على إذلال الناس ، بنوا قوتهم على إضعاف الناس ، حينما يراهم في النار تتحقق سعادته التامة ، لماذا ؟ لأنه كان يعيش وعداً ووعيداً ، فأصبح الوعد والوعيد حقيقة ، كان يعيش وعداً ووعيداً ، فإذا بالوعد يتحقق ، وبالوعيد يتحقق .

إنَّ الكافر أيضاً حينما يرى المؤمن الذي كان يحتقره ، وكان يزدريه ، وكان يراه محدوداً ، وكان يراه ضيق الأفق ، وكان يراه مغفلاً ، وكان يراه متزمتاً ، وكان يراه يعيش في أوهام ، إذًا بهذا المؤمن الذي كان يزدريه في الدنيا في الجنة تتضاعف آلامه في النار ، وحينما يرى المؤمنُ الكبراءَ ، كبراء المجرمين ، الذين ملكوا الأرض ، وتصدروا الشاشات ، وتبجحوا ، وتوعدوا ، واستكبروا ، وتغطرسوا، وعاشوا في نعيم لا يوصف حينما يراهم في النار ، ويكون وعيد الله لهم قد تحقق ، وأصبح واقعاً ، عندئذٍ ما الذي يحصل ؟ تتضاعف سعادة المؤمن بتحقق وعيد الله ، ويتضاعف عذاب الكافر بتحقق وعد الله للمؤمن .

إنّ المؤمن إذا رأى الكبراء في الدنيا الذين حاربوا الدين ، ووقفوا في خندق معادٍ للدين ، هذا المؤمن حينما يرى أعداء الله في الأزلّين ، في نار جهنم يحمد قراره في الإيمان ، يحمد استقامته ، يحمد إيمانه،

يحمد علمه ، يحمد ورعه ، يحمد خوفه من الله ، وتتضاعف سعادته ، وحينما يرى الكافر الذي كان يزدريهم ، هم في نعيم مقيم يضاعف عذابه في الآخرة .

إذاً :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا)

حين تراءى الفريقان .

وهناك آية أخرى تبين ذلك :

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ)

(سورة الحديد الآية : 31)

لو دخل زائر عيادةَ طبيب ، للتقريب ، ورأى العيادة ممتلئة ، وكل مريض يجب أن يدفع ألفي ليرة ، ووعددُ المرضى خمسون ، بألفين ، 100 ألف ليرة كل يوم ، ذهب هذا الزائرُ فسأل الطبيب ، هل مِن طريق أن أعمل مثلك ، وافتح عيادة ، هو لا يقرأ ولا يكتب ، اذهب وارجع إلى المدارس ، وادخل الابتدائي ، والإعدادي ، والثانوي ، واحصل على 230 نقطة ، وادخل كلية الطب ، وخذ الدبلوم ، والماجستير ، والدكتوراه ، وسافر إلى بلاد بعيدة ، واجلس ثماني سنوات ، وحصّل على البورد ، وافتح عيادة ،

(قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ)

(فَالْتَمِسُوا نُوراً)

(سورة الحديد الآية : 13)

شيء مضحك ، إنسان ما قدم شيئًا يتمنى ممن بذل حياته في سبيل شيئًا ؛ أن يكون مثله :

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ)

هذا شيء بدأ في الدنيا ،

(فَالْتَمِسُوا نُورًا)

(فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ)

(سورة الحديد الآية : 13)

السور للمؤمنين

(فِيهِ الرَّحْمَةُ)

(وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)

(سورة الحديد)

(يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ)

(سورة الحديد الآية : 14)

كنا بحي واحد ، كنا بمدينة واحدة ، كنا بسوق واحد .

(قالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ)

(سورة الحديد الآية : 14)

فتنتم بالدنيا ، بمالها ، بنسائها ، بمناصبها ، فتنتم بزخرفة الحياة الدنيا ، كانت موازينكم مادية ، تعبدون العملة من دون الله ، تعبدون الدرهم والدينار ، كنتم عبد الخميصة كانت كنتم عبد الفرج ، كنتم عبد البطن ، كنتم عبيد شهواتكم ،

(قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا)

(قالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ)

(وَتَرَبَّصْتُمْ)

(سورة الحديد الآية : 14)

بالمؤمنين ، المؤمن الذي استقام ، والتحق بالمسجد ، وطلب العلم ، هذا يجب أن تدمر آخرته ، وضع العام ضد الدين ، ينتظرون أن تقع المصيبة بالمؤمن ، وهو في حفظ الله ،

(وَتَرَبَّصْتُمْ)

تنتظرون أن يدمر المؤمن كي ترتاحوا ، تنتظرون أن هذه الفتاة المحجبة لن تتزوج ، إلا إذا سفرت ، وتفلتت ، فكل إنسان منحرف يتربص بالمؤمن ، يتمنى أن يقع ، يتمنى أن يدمر ، يتمنى أن يُحبط ،

(وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ)

في الدنيا ،

(وَتَرَبَّصْتُمْ)

(وَارْتَبْتُمْ)

(سورة الحديد الآية : 14)

بالآخرة .

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسارة عليكما

****

(وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ)

(سورة الحديد الآية : 14)

المال شيء كبير جداً عندكم ، والمرأة شيء كبير ، والبيت الفخم ، والمركبة الفارهة ، والأموال الطائلة، والسفر ، والسياحة ، هذا كان دينكم .

(حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

(سورة الحديد)

الشيطان قال لك : الله لا يحاسبك ، من أنت أمامه ؟ لن تحاسب .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

ولكنكم فتنتم أنفسكم في الدنيا ، وتربصتم بالمؤمنين ، وارتبتم بوعد الله ووعيده

(وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ)

عاش بالأمنيات ،

(حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

وقال لهم الشيطان : لن تحاسبوا ، الله غفور رحيم .

(فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة الحديد)

إذاً : في الجنة ، أو في الآخرة المؤمن تتضاعف سعادته ، لأنه يرى مصير الكفار المجرمين ، المنحرفين ، العصاة ، الذين تفننوا في قتل البشر ، وفي إذلال البشر ، وفي إفقار البشر ، وفي إضلال البشر ، واستعلوا ، وتغطرسوا .

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ)

الكافر لما رأى المؤمنين في الجنة تضاعف شقاءه في النار ، أنا كنت أظنهم جهلاء ، كنت أظنهم أغبياء، الحقيقة هم الأذكياء .

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

كانوا يتغامزون .

(وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ)

(سورة المطففين)

كانوا يزدرون المؤمنين .

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

1 – لعنةُ الله على الكافرين نوعٌ من العذاب :

(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

اللعنة هي البعد ، يعني الله عز وجل أكبر عقاب يعاقب به الإنسان أن الله يلعنه .

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

الله أبعدهم عن ذاته العلية ، أبعدهم عن جنته ، أبعدهم عن رحمته ، أبعدهم إلى النظر إلى وجهه الكريم، أبعدهم عن رضوانه .

2 – الوعدُ أصبح واقعا :

أيها الإخوة ، النقطة الدقيقة أن الذي كان وعداً أصبح واقعاً ، وأن الذي كان وعيداً أصبح واقعاً ، أنت في الدنيا أمام إنسان مُرابٍ لا يعبأ ، يزدري آية الربا ، ثم يقول : من قال : إن الله سيحاسبني ؟ أموالي تضاعفت أضعاف مضاعفة ، هذا المرابي الوقح ، المستعلي ، الذي يتباهى بأنه يعصي الله ، وأمواله تزيد ، حينما تدمر أمواله كلها يحصل للمؤمنين توازن ، أن هذا الوعد للمؤمنين بالرزق .

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 276)

وأن وعيد الكفار بالمحق :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة الآية : 276)

بشكل عام حتى في الدنيا تحقُّقُ الوعد والوعيد يريح المؤمن ، ويتعب الكافر ، أنت من ؟ أنت إنسان تعلقتَ بوعد الله ، دققوا :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

هل يستويان ؟ إنسان وعده خالق السماوات والأرض بالجنة ، وإنسان أوعده الله بالنار ، هل يستويان ؟.

لذلك أيها الإخوة ،

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

من هم الظالمون ؟

1 – الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ

من هم الظالمون ؟ قال :

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ)

(سورة الأعراف)

أخ له أخ آخر ، التحق بجامع ، يخوِّفه ، يحذّره ، يتهم رواد المساجد بتهم باطلة ، ما لها أصل أبداً ،

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ)

هم بالأصل صدوا أنفسهم عن سبيل الله ، ولم يكتفوا أنهم صدوا أنفسهم ، صدوا غيرهم عن سبيل الله ، سبحان الله ! تجد غير المؤمن همُّه الأول أن يبعِد الناس عن الدين ، إن التحق بمسجد يخوفه ، وإن أدى زكاة ماله يخوفه من الفقر ، وإن وصل رحمه : عليك من نفسك ، وإن عملَ عمل صالح ، أي حركة يتحركها المؤمن ابتغاء مرضاة الله ، الكافر وغير المؤمن ، يخوفه ، يحذره ، يسفه له عمله ويعظم له عمل أهل الدنيا .

2 – وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

شيء غير واضح ، جهة قوية تحتل بلادا من أجل ثرواتها فقط ، تدَّعي أن فيها أسلحة دمار شامل ، تدّعي أنها جاءت من أجل الحرية والديمقراطية ، الشيء المعلن عندهم غير حقيقي ، فيه كذب ، فيه دجل ، الشيء المعلن غير حقيقي .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

لذلك أهل الدنيا حتى فرعون ماذا قال ؟

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

(سورة غافر)

يذبِّح بني إسرائيل ، يذبح أبناءَهم ، ويستحيي نساءَهم ، قال :

(وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

الكذب قديم ، والدجل قديم ، والتزوير قديم ، يعلن شيئًا ، ويخفي شيئاً آخر ، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا : هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة]

كل شيء معلن يفعل عكسه ، فلذلك مَن هم الظالمون ؟

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)

ويصدون الآخرين ، يصدون أنفسهم ، ويصدون غيرهم ، فهو ضال مضل ، فاسد مفسد .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

الأمور ليست واضحة ، كل أهدافهم القذرة والخسيسة تغطى بكلمات براقة ، والمنافق مَرِنٌ ، والفتاة المتبذلة متحضِّرة ، والذي يأكل المال الحرام ذكي ، والغارق في الشهوات يعيش وقته ، ويلبّي حاجاته الأساسية .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

الحياة مُرّة ، التعبير عنها براق ، مثلاً ، أرض مغتصبة شُرِّد شعبها ، يقول لك : أزمة الشرق الأوسط ، ليس فيه معنى اغتصاب ، إنسان يدافع عن دينه ، يقول لك : أصولي ، هذه المصطلحات مدروسة دراسة عميقة جداً ، تؤدي معنى معاكس لواقعها .

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ)

3 – وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ

لأنه كفر بالآخرة استغنى عن طاعة الله ، لأنه كفر بالآخرة فعل كل شيء محرم ، لأنه كفر بالآخرة بنى حياته على الأخذ .

لذلك الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء عاشوا للناس ، والأقوياء عاش الناس لهم ، الأنبياء ملكوا القلوب ، والأقوياء ملكوا الرقاب ،

(وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ)

آية أخرى :

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

(سورة الأعراف)

بين أهل الجنة وأهل النار حجابٌ : وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ

بين أهل الجنة والنار حجاب ، لكن هذا الحجاب من جهة المؤمنين حجاب رحمة ، ومن جهة أهل النار حجاب عذاب ، هذا الحجاب لا يمنع الرؤية ، حتى تتضاعف السعادة للمؤمنين ، ويتضاعف الشقاء للمجرمين .

وَعَلَى الأعْرَافِ رِجَالٌ

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأعْرَافِ رِجَالٌ)

الأعراف جَمعُ عُرف ، هو عرف الديك ، أعلى مكان في الديك ، يبدو أن بين الجنة والنار مكانا مرتفعا جداً عليه رجال .

(وَعَلَى الأعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ)

يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ

يرون أصحاب الجنة بسيماهم ، سِمة الطهر ، سِمة العفاف ، سِمة النور ، سِمة الجمال ، سِمة الرضا ، سِمة المحبة ، وأنت في الدنيا ، المؤمن لو لم تكلمه من أدبه ، من إشراق وجهه ، من تواضعه ، من معاملته الطيبة ، من صدقه ، من أمانته ، من عفافه ، من إنصافه تعرفه مؤمناً ، والكذوب له سمة ، والجبار ، والخسيس ، والدنيء تعرفه غير مسلم ، في سيماهم .

في الآخرة قال :

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأعْرَافِ رِجَالٌ)

يعني مكانا مرتفعا مشرفا على أهل الجنة وعلى أهل النار .

وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ

(يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ)

أن هنيئاً لكم لم يدخلوها ،

(وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

هناك إنسان حضر احتفالا ، قدمت جائزة ثمينة جداً للأول ، قال له : هنيئاً لك ، لكن لم يتح له ذلك .

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأعراف)

ما صفاتُ أصحاب الأعراف :

من هم أصحاب الأعراف ؟ الله عز وجل قال :

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

(سورة القارعة)

إلى الجنة .

(وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ)

(سورة القارعة)

إلى النار .

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ)

(سورة القارعة)

لكن أصحاب الأعراف تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، لو أن الحسنات غلبت لكانوا من أهل الجنة ، لو أن السيئات غلبت لكانوا من أهل النار ، أما أصحاب الأعراف فتساوت حسناتهم وسيئاتهم ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، في تجارته كان مستقيما ، أما في بيته وعلاقاته الاجتماعية فما كان مستقيما ، أو في بيته مستقيم أما تجارته ففيها ربا ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، مع زوجته لطيف جداً ، ومع أي امرأة لطيف ، ما عنده موانع ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، لا يصوم إلا أنه يحب الخير ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، هؤلاء يجلسون على مكان مشرف على أهل الجنة وعلى أهل النار ، فإن اتجهوا إلى أصحاب الجنة ،

(أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ)

قسراً ،

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

الشيء الثالث :

(نَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ)

في جهنم كبراء غير كبراء : مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

في جنهم كبراء :

(أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا)

(سورة الأنعام الآية : 123)

هناك أشخاص عاديين بجهنم ، وفي أشخاص كبراء ، كانوا كبار المجرمين في الدنيا .

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

هذا الكبير في النار كان حوله تجمع كبير جداً ، وأحلاف ، وتنظيمات ، وأحزاب ، وتعاون ، وتواطؤ ، وإمكانيات ، هؤلاء الكبراء في النار ، كانوا قد جمعوا الناس حولهم ، فأصحاب الأعراف نادوا هؤلاء الرجال ، لأنهم :

(يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

في الدنيا أحلاف ، أوربة كلها مع الدولة المعتدية الكبرى من أجل البترول ، قبولها لجرائم القطب الأول دليل التملك ، دليل الخوف ، وسقطت مصداقيتها .

في الدنيا أحلاف ، وتجمعات ، وأحزاب ، وقوائم ، وتكتلات ، أما في الآخرة :

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام الآية : 94)

كل هذه التجمعات لا تغنيهم ، لذلك :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

أين جمعكم في الدنيا ؟

أحياناً يُعاقب الإنسان ، يقول لك : جاءني مئة تلفون من أجله ، هناك ضغوط ، وتكتلات ، وتجمعات ، ووساطات ، وأحلاف ، وأحزاب ، وطوائف في الدنيا أما في الآخرة فلا شيء من هذا القبيل ،

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 94)

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

(أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)

(سورة الأعراف)

أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ

كنتم تحتقرون المؤمنين ، كنتم تزدرونهم ، كنتم تظنون أنهم محدودون في التفكير ، أنهم مغفلون ، أنهم متزمتون ، أنهم ضيقو الأفق ، أنهم يتعلقون بالأوهام ، بالغيبيات ، بما وراء الطبيعة ، بكتاب ليس من عند الله ، توهموه من عند الله .

(أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

إن أصحاب الأعراف الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم لأنهم تمنوا أن يكونوا في الجنة مع أصحاب الجنة ، ولأنهم ازدروا أهل النار الآن رجحت حسناتهم .

إن الإنسان غير الملتزم أحياناً له أخ ملتزم ، وأخ غير ملتزم ، يقول لك : والله الملتزم أشرف وأقوى ، وأنا أحبه أكثر ، والثاني ليس ملتزما ، لكن والله أحتقره ، لأنه عظّم المؤمن ، المستقيم الأخلاقي ، هذه ميزة .

ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ

الله عز وجل أكرم أهل الأعراف فقال :

(ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

إذاً : هم أناس تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، حينما

(نَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

فقالوا

(أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

ثم هؤلاء أصحاب الأعراف :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ)

كبراء أهل النار .

مثلاً : الذي سبب حربا عالمية ثالثة انتهت بخمسين مليون قتيل ، ومئة مليون مصاب ، من هؤلاء الكبراء ، الذي أمر بإلقاء قنبلة على هيروشيما ونكزاكي ، وقتل 300 ألف في ثلاث ثوانٍ ، هؤلاء

كبراء ، الذي قاد حرب عالمية ثانية ، الذي قاد حروبا خلفت المآسي ، مليون قتيل ، وأربعة ملايين مشرد ، ومليون معاق ، هؤلاء الذين يتخذون قرارات ، هؤلاء كبراء أهل النار ، يقال لهم :

(مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

(أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة الأعراف)

جوابا على طلبات أهل النار : إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ

انتهى التكليف ، انتهى العمل الصالح ، انتهى التسامح ، انتهى العفو ،

(قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)

أنت في الدنيا قد تعين إنسانا منحرفا ، قد يكون قريبك ، طلب منك مساعدة فتلبّيه ، أما في الآخرة فلا تكليف ، هناك بوادر ، هناك أوامر ،

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)

ما صفات هؤلاء الكافرين المحرومين ؟

مَن هم ؟ قال :

(الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

(سورة الأعراف)

والله حضرت مؤتمرا للعبادات في واشنطن ، المؤتمر غريب ، عبادات فقط ، لا محاضرات ، ولا إلقاء كلمات ، 18 دينا في الأرض ، كل دين عرض عباداته ، صدقوني ولا أبالغ فقط الدين الإسلامي الأذان فقط خشعت له الأبصار ، وبعضهم بكى ، ثم جاء طبيب فقرأ صفحة من كتاب الله من سورة آل عمران، وجاء طبيب آخر شرح هذه الصفحة في 8 دقائق ، وبيَّن كل الدين ، وبقية الأديان من دون استثناء رقص وغناء وموسيقى .

1 – الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا)

ما هو اللهو واللعب ؟

ما هو اللهو ؟ أن تنشغل بالخسيس عن النفيس ، عندك كتاب مقرر ، الفحص بعد أسبوع ، يبنى على نجاحك تعيينك بمنصب له دخل جيد ، تتزوج ، تشتري بيتا ، تنجب أولادا ، تركت الكتاب المقرر ، وأخذت كتاب قصة إباحية ، أمضيت فيها الأيام الأربعة ، اشتغلت عن النفيس بالخسيس ، غصت في أعماق البحر ، تركت اللؤلؤ ، وجئت بالأصداف ، أمضيت الوقت كله في لعب النرد ، كان من الممكن أن تحضر مجلس علم ، لكنك اشتغلت عن النفيس بالخسيس ، هذا هو اللهو .

أما اللعب فإذا عملت عملاً لا جدوى منه إطلاقاً ، تابعت مثلاً لاعبا معينا ، تابعت شيئا ما فيه نفعٌ ولا ضر .

فلذلك اللهو واللعب ، اللهو اشتغلت بشيء خسيس عن شيء نفيس ، واللعب لم تحقق هدفاً لا إيجابياً ولا سلبياً ، يقول لك : نمضي الوقت ، أو نقتل الوقت .

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

2 – وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

الدنيا كبيرة جداً عند أهل الدنيا ، ويعني يعبد المال من دون الله يعبد المرأة من دون الله ، قال لي واحد: لا أستطيع أن أغض بصري لو ونش لا يغيرني لا يمسكني عن امرأة ، لا أقدر .

(اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

رأوها بحجم أكبر من حجمها .

هناك قصة وقعت في الشام لموظف في سوق الحميدية ، يجمع قمامة المحل ويضعها بعلبة فخمة جداً ، يغلفها بورق غالٍ جداً ، يضع عليها شريطا حريريا لماعا جداً ، يضعها على الرصيف ، فيأتي إنسان يظن فيها الماس ، يحملها ، ويمضي سريعاً ، يتبعه ، بعد 200 متر يفك الشريط ، 200 متر يفك الورق ، 200 متر يفك العلبة ، فتخرج قمامة المحل فيسب ويلعن ، هكذا الدنيا ، تكتشف الحقيقة عند الموت ، المال لا قيمة له .

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

(سورة الدخان)

القيمة بما بعد الموت ، الغنى والفقر بعد العرض على الله .

فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا)

معنى ننساهم أي أبعدناهم عن المعالجة ، فإذا عالج الله شخصا كلما أخطأ ساق له شدة ، يشكر الله عز وجل ، لأنه ضمن العناية المشددة ، وإذا كان الله يتابعك فاشكر الله ، معنى ذلك أنك قابل للشفاء ، معنى ذلك أنك دخلت في سلم المعالجة ، لكن من هؤلاء الأشقياء ؟ الذين أوتوا الدنيا من أوسع أبوابها ، وهم في أشد أنواع المعصية .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ {51})

وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ

جحدوا آيات الله الكونية ، الكون ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال والأنهار ، وجحدوا آياته التكوينية ، أفعاله ، كالزلازل ، والبراكين ، وجحدوا معجزات الأنبياء ، ما صدقوها ، ولم يعبئوا بها ، وجحدوا آياته القرآنية .

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ {51})

خاتمة :

أيها الإخوة الكرام ، هذه الآيات التي شُرحت في هذا اللقاء الطيب من أجل أن تعرف ماذا ينتظر المؤمنين يوم القيامة ، فالمؤمن حينما يتحقق اسمه الله (العدل) تتضاعف سعادته ، والكافر حينما يلقى الوعيد الذي وعده الله عز وجل تتضاعف آلامه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(21-60): تفسير الآيتان 52 - 53 ، القرآن آياته محكمة ومفصلة ـ لا قيمة للإقرار بانتهاء التكليف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-07-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثانية والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ

1 – لا حُجّة للناس بعد إنزال آيات الكتاب :

يعني أيها البشر ، لا عذر لكم يوم القيامة ، فلماذا هذا الجحود ؟ وهذا الكفر ؟ وهذا الإنكار ، ليس معكم الحجة ، لا عذر لكم يوم القيامة ، لأننا جئناكم بكتاب .

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت الآية : 42)

كتاب من عند خالق السماوات والأرض .

(أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)

(سورة هود الآية : 1)

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ)

كتاب ، بلغتنا ، فيه تفصيل كل شيء ،

(فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ)

2 – لا حُجّة للناس بعد آيات الله الكونية :

أيها الإخوة ، لو أنهم قالوا يوم القيامة : الكتاب طارئ ، أيْ شيء لم يكن من قبل ، والنبي طارئ ، الجواب : آيات الله الكونية بين أيديكم ، هي كتاب يقرأه كل إنسان ، من أي جنس ، من أي لون ، الكون كتاب يقرأه البشر جميعاً ، والقرآن كتاب ، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم منهج ، فإذا قلتم : القرآن

شيء طارئ ، والنبي لم يكن من قبل ، هذا الكون هو الثابت الأول الذي تقام فيه الحجة ، قال الله عز وجل :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن الآية : 7)

كل شيء في الكون ينطق بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

مَن منا يصدق أن تظهر طائرة من أعلى مستوى إثر انفجار في مستودع للحديد ، من منا يصدق أن قاموساً من أعلى مستوى يظهر بعد انفجار في مطبعة ، لا أحد يقبل ، هذا نظام رائع ، هذا تسيير ، هذه حكمة ، هذه رحمة ، هذه قوة ، هذه قدرة ، لذلك القرآن حجة عليكم ، والنبي عليه الصلاة والسلام حجة عليكم ، والكون والعقل حجة عليكم .

لذلك كلمة :

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ)

أي لا عذر لكم في شيء من هذا الجحود ، الكتاب مفصل .

لذلك الله عز وجل بين في هذا الكتاب ما ينبغي أن تعتقده ، أعطاك تصوراً دقيقاً عميقاً ، صحيحاً ، متناسقاً ، عن الكون ، والحياة ، والإنسان ، وعن الدار الدنيا ، والدار الآخرة .

إذاً : بيّن الله جل جلاله في الكتاب ما ينبغي أن تعتقده ، وبيّن أيضاً ما تعتقد به بالمنهج ، ففيه عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وبيّن أيضاً ماذا بعد الموت ، بعده الدار الآخرة ، بيّن العقائد ، وبيّن العبادات ، وبيّن المعاملات ، وبيّن الدار الآخرة ،

(عَلَى عِلْمٍ)

أي بطريقة مسهبة ، واضحة ، بليغة ، عميقة ، فيه صور للدار الآخرة ، فيه قصص الأمم السابقة ، فيه آيات كونية ، فيه آيات تكوينية ، فيه دلائل ، فيه توجيهات ، فيه مواعظ .

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى)

هُدًى

كيف أن الإنسان في الظلام إذا رأى بصيص ضوء يهتدي به ، منارات على الطريق إلى الله ، العلم نور ، في القرآن بيّن كل شيء ، الذي قال :

جئت من أين ؟ و لكني أتيت فرأيت قدامي طريق فمشيت

كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ، لســت أدري

لا ، المؤمن يدري .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

إذاً : المؤمن يعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى خلقه للدار الآخرة ، خلقه ليسعده ، خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض ، خلقه ليكون من عباده المقربين .

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

إذاً :

(هُدًى)

أي منارة يهتدي بها الإنسان .

وَرَحْمَةٌ

(وَرَحْمَةٌ)

سعادة ، الإسلام ليس معلومات ، وتصورات ، وحقائق ، ونصوص ، وأفكار ، الإسلام قرب من الله ، الإسلام سكينة ، الإسلام سعادة والإسلام رضا ، الإسلام توفيق .

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

1 - لا ينتفع بالقرآن إلا المؤمن :

(هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

لكن لمن ؟ لمن أراد الإيمان ، ما لم تتخذ هذا القرار ، أن تؤمن ، أن تعرف الله ، أن تعرف الحقيقة كل هذا لا يقدم ، ولا يؤخر .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الروم)

لمن أراد الإيمان ، النبي أراد الإيمان ، إمكاناته ، وقدراته ، تشبه آلة تصوير غالية جداً ، متقنة جداً ، متطورة جداً ، فالذي أراد أن يؤمن ففي هذه الآلة فيلم ، كل شيء ينطبع على هذا الفيلم ، والذي ما أراد أن يؤمن ، مع أن آلته رائعة جداً ، لكن ما فيها فيلم .

لذلك هناك من يعمل في محطات فضائية ، وليس مؤمناً ، هناك من يعمل في مجهر إلكتروني يرى الخلية وليس مؤمناً .

إن أردت الإيمان فإنّ الأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، والبعرة تدل على البعير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات ثجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟

فالعبرة أن تؤمن ، العبرة أن تكون على الصراط المستقيم ،

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم كِتَابٍ)

حجتهم داحضة ، لا عذر لهم ، الحجة قائمة عليهم ،

(فَصَّلْنَاهُ)

أخبار الأمم السابقة ، مشاهد من يوم القيامة ، أحكام شرعية ، توجيهات ، آيات كونية ،

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ)

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)

(سورة الأنعام الآية : 115)

أي أن هذا القرآن من دفته إلى دفته ، لا يزيد على أن يكون خبراً أو أمراً ، فالخبر صادق ، والأمر عادل ،

(وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً)

أو يا عبادي منكم الصدق ، ومنكم العدل .

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

سيدنا سعد بن معاذ الذي قال له النبي :

((ارْمِ سَعْدُ! فِدَاكَ أبي وَأمِّي))

[أخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص]

هذا خالي ، أروني خالاً مثل خالي ، قال له عمر رضي الله عن عمر : << يا سعد ، لا يغرنّك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخَلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له >> .

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

هدى دلالة ، ورحمة سعادة .

أحيانا يدرك الإنسان معاني دقيقة ، لكنه شقي ، فالقرآن دلالة وسعادة ،

(هُدًى وَرَحْمَةً)

لمن ؟ لمن أراد أن يؤمن .

لذلك الله عز وجل في أول سورة من سورة القرآن الكريم وهي سورة البقرة بعد الفاتحة قال :

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

2 ـ المتَّبعُ للشهوات لا ينتفع بالقرآن :

لكن الذي أراد الدنيا أراد شهواتها ، أراد العلو في الأرض .

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

الذي أراد الدنيا ، أراد حظوظه من الدنيا ، أراد شهوات الدنيا ، قال :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً)

(سورة محمد الآية : 16)

قال لي أحدُهم : أنا ذهبت إلى فرنسا ، وليس هناك من معصية إلا اقترفتها ، عدا القتل ، عدت إلى الشام ، لي قريب يحضر هذه المجالس ، أخذني مرتين أو ثلاثا بضغط شديد ، أقسم لي بالله ، والله ما فهمت كلمة واحدة ، قال لي : أنا لست معك ، أنا في وادٍ آخر ، في أجواء ثانية ، فإذا ما أراد الإنسان الهدى لا يفهم شيئاً ، حتى القرآن لأنه :

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصلت الآية : 44)

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء)

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

(سورة الشعراء)

لو أن هذا القرآن نزل على إنسان أعجمي ، فجاء إلى مكة من بلاد العجم ، وقرأه باللغة الأعجمية ، لا أحد يفهمه ، قرأه عليهم ،

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

(فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

دقق الآن :

(سورة الحجر)

إذا كان الإنسان غارقا في الشهوات ، والزنا ، والخمور ، لا يفهم شيئاً ، إلا أنه كتاب تقليدي ، تراثي ، لا يصلح لهذا العصر ، غيبيات .

لذلك أيها الإخوة ، هذا القرآن يحتاج إلى إيمان ، يحتاج إلى استقامة ، يحتاج إلى طهر .

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

(سورة الواقعة)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(سورة محمد الآية : 16)

هذا اسمه طبع حكمي ، لأنه مشغول بشهوته ، وشهوته حجاب كثيف ، حبك الشيء يعمي ويصم ، مشغول بشهوته ،

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة محمد)

أيها الإخوة ،

(هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

(سورة فصلت)

3 ـ الانتفاع بحسب التفاعل والاهتمام :

أحياناً يلقي المدرس درسا ، فيتفاعل طالب تفاعلا مذهلا ، يحفظه كلمة كلمة ، وطالب لا يذكر ولا كلمة ، بعضهم قال : أحياناً في أيام الشتاء القارصة ، تكاد أصابعُ الإنسان تسقط من البرد ، ينفخ في يديه ، فلعل هذا النفخ يدفئ يديه ، وأحياناً تمسك كأس شاي حار تنفخ فيه لعله يبرد ، النفخة نفخة ، لكن مرة استخدمتها لتحمية يديك ، ومرة استخدمتها لتبريد الكأس .

هناك درس يُلقى ، إنسان يذوب محبة لله ، إنسان يمر عليه كسنة ، دقيقة الألم ساعة ، وساعة اللذة دقيقة ، هذا شيء واضح .

أحيانا محاضرة ، الذي يعنيه موضوع المحاضرة يقول لك : والله ما شعرت بالوقت ، تمر الساعة كلمح البصر ، والذي لا تعنيه موضوعات المحاضرة تمر هذه الساعة كسنة ، الفعل واحد ، أما ردود الأفعال فمتنوعة .

مثل آخر : إنسان في مسجد ، والمسجد ليس فيه أحد ، له باب ، فالتفت هذا الإنسان إلى الباب ، ثم قام إلى معطف معلق ، وسحب منه ألف ليرة ، نحن صورناه ، إنسان التفت إلى الباب ، اطمأن ، وقام إلى معطف ، وسحب منه ألف ليرة ، وصورناه ، هو سارق ، فإذا علمنا أن هذا الإنسان هو الذي بنى المسجد ، وكلفه خمسون مليونا نجزم أنه ليس بسارق ، بل هو متصدِّق .

كنت بمدينة في الشمال ، فيها مسجد كلف 150 مليونا ، بناه شخصٌ واحد .

فإذا علمنا هذا الإنسان الذي بنى المسجد بأن هذا المعطف معطفه ، وقد لمح فقيراً فقام ليعطيه هذه الألف ليرة ، اختلف التفسير ، اختلف اختلافا كبيرا جداً .

فهناك من يتهم الإسلام أنه دين الإرهاب ، دين القتل ، هو دين السلام والله ، دين الرحمة ، دين الإنصاف .

لما فتح الفرنجة القدس ذبحوا سبعين ألف إنسان في يومين ، ولما فتحها صلاح الدين ما أراق قطرة دم واحدة ، لذلك قال المؤرخون : " ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب المسلمين " .

أيها الإخوة ، إنسان رأى ليرة ذهبية في الطريق ، فانكب وأخذها ، ووضعها في جيبه ، أيضاً صورناه، سألنا واحد فسر هذه الصورة ـ دقق الآن ـ لو أراد أن يأخذها وقع في سيئة كبيرة ، لو التقطها وأراد أن يبحث عن صاحبها وقع في عمل عظيم .

الصورة نفسها ، والكلام نفسه ، القرآن نفسه ، المحاضرة نفسها ، الخطبة نفسها ، الإلقاء نفسه ، الآيات نفسها ، إنسان يذوب محبة لله عز وجل ، ويندفع لطاعته ، وإنسان لا يرى في الدين شيئاً ، يقول لك : ضبابي ، شعور بالضعف يرافق الإنسان فتدين ، أنت متدين ، لأنك ضعيف ، لأنك فقير ، لأنك خائف ، عندك عقدة .

أساساً المتفلتون إذا رأوا إنسانا متمسكا بدينه يقولون : معقّد ، هذا شيء طبيعي ، الدين واحد ، لذلك الإنسان مخير ، يمكن أن تفهم الدين فهما حضاريا ، أن ترى الدين هو المنهج الوحيد ، الذي يصلح للبشرية ، ويمكن أن تفهم الدين فهم آخر .

أنا قبل يومين ذكرت : أن الزوج إما إنساني متدين ، أو عنصري كيف ؟ إذا توهم أن له ما ليس لزوجته ، مع أن الله عز وجل يقول :

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة البقرة الآية : 228)

الآن : إذا عامل زوجة ابنه لا كما يتمنى أن تعامل ابنته إذا تزوجت ، فهو عنصري إذا عامل موظفاً عنده في المحل من سن ابنه معاملة لا يرضاها لابنه ، فهو عنصري ، أنت موظف ، فإذا عاملت المراجع الذي أمامك على الطاولة معاملة لا ترضاها لو كنت مكانه فأنت عنصري ، فإما أن تكون

متدينا منصفا ، أو أن تكون عنصريا .

أيها الإخوة ،

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأعراف)

هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ

1 – معنى : تَأْوِيلَهُ :

القرآن بين أيدينا ، ماذا ننتظر ، التأويل ، ما التأويل ؟ وقوع الوعد والوعيد .

2 – ماذا ينتظر المؤمن و غيرُ المؤمن ؟

شاب مؤمن مستقيم ، طاهر عفيف ، صادق أمين ، يغض بصره ، هذا ماذا ينتظر من الله ؟ الحياة طيبة .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية : 97)

ماذا ينتظر هذا الشاب إذا آمن بالله ، واستقام على أمره ؟ ينتظر كل خير ، ينتظر حيةً طيبة ، فإذا عاش الحياة الطيبة فقد جاء تأويل الآية .

إنسان أعرض عن الله ، أراد المال من أي طريق ، أراد الشهوات ، أراد انتهاك الأعراض ، أراد نهب الثروات ، هذا ماذا ينتظر من الله ؟ التأويل ، وقوع الوعيد ، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية : 124)

حينما يعيش معيشة الضنك فقد جاء تأويل الآية ، المرابي أمواله تزداد ، هذا ماذا ينتظر ؟ تأويل آية الربا :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة الآية : 276)

حينما يخسر ماله كله يقول : جاء تأويل الآية ، المتصدق ماذا ينتظر ؟

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

(سورة البقرة الآية : 276)

حينما يزداد ماله أتت تأويل الآية ،

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

أنت حينما تطبق آية في القرآن يجب أن تنتظر تأويل الآية ، ما هو التأويل ؟ قد يكون في الدنيا .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة جاثية)

أنت مؤمن لك حياة مستقرة ، لك عند الله طمأنينة ، لك عند الله شعور بالأمن شعور بالسعادة ، توفيق ، رزق حلال وفير ، زوجة صالحة تسرك إن نظرت إليها ، تحفظك إذا غبت عنها ، تطيعها إن أمرتها ، أولاد أبرار ، أنت حينما تستقيم على أمر الله يجب أن تنتظر من الله كل خير ، الدليل :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(سورة التوبة الآية : 51)

أيها الإخوة ، قضية التأويل رائعة جداً .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ)

أحياناً تتصدق ، ويأتيك الخير من كل مكان ، وأحياناً يرابي الإنسان فيُمحَق ماله ، إذا ضاعف الله له رزقه يكون قد جاء تأويل الصدقة ، وإذا محق الله ماله فقد جاءه تأويل آية الربا .

3 – لا يستوي المؤمن وغيرُ المؤمن في الدنيا والآخرة :

لذلك هذه الآية أنا أخاطب بها الشباب :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

والله الذي لا إله إلا هو أن يستوي عند الله المحسن والمسيء ، المستقيم والمنحرف ، الصادق والكاذب، الأمين والخائن ، من متع عينيه بمحاسن النساء ، ومن غض بصره ؟ والله أن يستوي هؤلاء مع هؤلاء هذا لا يتناقض مع عدل الله فحسب ، بل مع وجوده ، مستحيل ، اطمئن ، المؤمن واثق من الله عز وجل .

(لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لنا)

أنت تعامل الخالق ، بيده كل شيء ، بيده كل أمرك ، صحتك بيده أهلك بيده ، من حولك بيده ، من دونك بيده ، من فوقك بيده ، قوى الشر بيده ، الأقوياء بيده لذلك قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

أين الثرى من الثريا ؟ هل قطعة لحم مشوية ، وأنت جائع جداً ، كقطعة لحم متفسخة رائحتها على بعد خمسين مترا ؟ تخرج من جلدك منها .

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

حينما أقف أمام الحجرة النبوية الشريفة ، السنة أن نقف أمام مقام رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ثم أمام مقام سيدينا الصديق ، أقول : هؤلاء الذين عارضوه ، أين هم ؟ أبو جهل ، في مزبلة التاريخ ، هؤلاء الذين صدقوه ، وقاموا معه ، أين هم ؟ في أعلى عليين ، شيء واضح جداً ، بطولتك أن تكون مع الحق ، أنت تكون في خندق الحق ، وأكبر إنسان أحمق من وضع نفسه في خندق معادٍ للحق .

يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ)

الأصل معرفة الحقيقة قبل الموت :

بعض الأمثلة : لي قريب له قريب مدمن على الدخان ، إلى أن أصيب بسرطان في الرئة ، دخل المستشفى ، فزاره قريبه ، قال له : سوف أحاسب هذه الدخينة حساباً عسيراً ، لكنه خرج من المستشفى ميتاً ، ما تمكن من حاسبها حسابا عسيرا .

أقول لكم وأنا واثق من قولي : ما من إنسان على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا ويعرف الحقيقة عند الموت ، فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

الذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

يوم أدركه الغرق قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس الآية : 90)

الآن انتهى التكليف ، الإقرار ما له قيمة ، هؤلاء الذي عارضوا الدين

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ)

أيقنوا .

لذلك مرة واحد مات لدقائق ، تصور تكلم عن شعوره ، وقف قلبه دقائق ، ارتفع إلى السماء ، كان في حادث سير ، ارتفع إلى السماء ، وجاء المنقذون ، وهو يراهم رأي العين ، هذا الإنسان لما تكلم عن الذي حصل له ، وأيقن أنما جاء به الأنبياء هو الصواب ، جاب أنحاء العالم ، وجمع حالات مشابهة ، حوالي 70 حالة من كل البلاد ، من كل الفئات ، من كل الأديان ، حينما يأتي ملكُ الموت تنكشف الحقيقة التي جاء بها الأنبياء ، الدليل :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق الآية : 22)

هؤلاء الذين رفضوا ، وكفروا ، وانحرفوا ، وفجروا .

يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء)

من شفعاءُهم ؟ الذين أشركوهم مع الله في الدنيا ، إنسان منحرف الأخلاق له إنسان قوي كان معه يعاونه ، ما له غير القوي ، القوي في جهنم ، أين تريد أن تستخدمه شفيعا ؟ قال :

(مِن شُفَعَاء)

ممكن ؟

فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ

1 – لا ينفع شركاءُ الكافرين يوم القيامة :

(فَيَشْفَعُواْ لَنَا)

الله رد عليهم قال :

(وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)

يعني وقود جهنم .

(أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

(سورة الأنبياء)

أنتم وإياهم ، شفعاءهم الذين علقوا الآمال عليهم معهم في النار .

شيء دقيق ، أصعب شيء في الحياة أن تندم ، والعاقل لا يندم ، أصعب شيء أن تخسر الآخرة ، أن تخسر الحياة الأبدية .

صدقوا أيها الإخوة ، لو كنت في الدنيا في أدنى منزلة ، ضارب آلة كاتبة ، أو كنت حاجبا ، وكنت مؤمناً ومستقيماً فقلامة ظفرك تساوي العالم الغربي كله ، فإذا أقبل الإنسان على الدنيا ، وبنى مجده على أنقاض الآخرين ، بنى حياته على موتهم ، بنى صحته على مرضهم ، بنى غناه على فقرهم ، بنى أمنه على خوفهم ، بنى عزه على ذلهم ، هذا الإنسان حينما يحاسب عن عمله عملاً عملاً سوف يعلم ما ينتظره ، لذلك يترنم الإنسان أحيانا ويقول لك : أنا حجمي المالي كبير ، إذا كان غنيا ، أو أنا مسؤول كبير ، لا يعلم ما مسؤول كبير ، حينما يعلم أبعاد هذه الكلمة ترتعد مفاصله .

يقول سيدنا عمر : << والله لو تعثرت بغلة في العراق ، هو بالمدينة ، بغلة وليس إنسان ، بالعراق لحاسبني الله عنها ، لمَ لم تصلح الطريق لها يا عمر ؟ >> ، هذه هي المسؤولية .

سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه فاطمة بنت عبد الملك فرأته يبكي ، قالت : مالك تبكي ؟ قال : " دعيني وشأني ، فلما ألحت عليه قال : ويحكي يا فاطمة ، إني وليت أمر هذه الأمة ، فرأيت الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذي العيال الكثير ، والرزق القليل ، والمأسور ، والمظلم ، وابن السبيل ، فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً ، وأن خصمي دونهم رسول الله ، فخفت ألا تثبت حجتي فلهذا أبكي " .

سيدنا عمر سأل أحد الولاة ، قال له : << ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال : أقطع يده، هذا الحكم الشرعي ، قال له : إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك ، قال له : إن الله قد استخلفنا عن خلقه ، لنسد جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفر لهم حرفتهم ، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيانهم شكرها ، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل ، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً ، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية >> .

2 – خيار الإنسان مع الإيمان خيارُ وقت :

خيارك مع الإيمان خيار وقت ، انتبه ، أنت خيارك مع مليون موضوع خيار قبول أو رفض ، تعرض عليك فتاة كي تتزوجها ، لا تعجبك أخلاقها فترفضها ، يعرض عليك بيت تسكنه ، وهو صغير ، فترفضه ، تجارة ليست رابحة ، ترفضها ، لك بمليون موضوع خيار قبول أو رفض ، إلا مع الإيمان خيارك خيار وقت ، إما أن تؤمن الآن ، أو لا بد من أن تؤمن بعد فوات الأوان ، لأنه أكبر كفار الأرض فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

والذي قال :

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف الآية : 51)

هذا عند الموت قال :

(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

الإيمان حاصل ، لكن فاتك العمل الصالح ، فاتتك طاعة الله عز وجل ، ولست التوبة حتى إذا :

(أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

(سورة النساء الآية : 18)

أيها الإخوة ، يبحثون عن شفعاء ، شفعاءهم في النار ،

(مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)

وقود جهنم .

(أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

(سورة الأنبياء)

أنتم لها واردون معهم ، كفرد في عصابة وقع في قبضة العدالة ، أراد أن يتصل برئيس العصابة ، فقال له : أنا معك في السجن ، أراد من رئيس العصابة أن يشفع له ، قال له : أنا معك في السجن .

لذلك هؤلاء الذين كفروا ، ورفضوا حينما بحثوا عن شفعاء ليس معهم إلا من أشركوهم مع الله ،

(مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)

أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

طرحوا طرحا آخر :

(أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)

رد الله عليهم :

(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

(سورة الأنعام)

يجب أن تخاف بالنص لا بعينك :

الكافر شأنه شأن حسي ، يخاف بعينه فقط ، وكم من إنسان يأتيه العقابُ فيتوب ، وقد حدثني أخ قال لي: والله عقِب زلزال تركيا المساجد في صلاة الظهر ممتلئة ، الصحن ، الطريق ، مضى على الزلزال شهر اطمأن الناس ، بقي صف واحد ، أكثر الناس يخاف بعيونه فقط ، يخاف عند مجيء المرض ، لكن البطولة أن تخاف بالنص ، أن تخاف بالخبر الصادق .

كما أقول دائماً : سافر أحدهم إلى حمص في الشتاء ، وله مبلغ ضخم في حمص ، لوحة فيها خمس كلمات : الطريق إلى حمص مغلق بسبب تراكم الثلوج في النبك ، يرجع ، حكمه النص ، أما الدابة فيحكمها الثلج ، تسير حتى الثلج ، فإذا حكمك النص فأنت عاقل ، أما إذا حكم الإنسان الواقع فهو دابة .

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ

نقطة ثانية :

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)

أن الدين حالة من حالات ، كما يقول مَن افترى على الدين ، الدين أحكامه جيدة وقتَها ، هو لمجتمع الصحراء ، أما الآن فلا يصلح ، هذا افترى ، اتهم الدين باتهامات غير صالحة ، حاول أن يبحث عن نقائص الدعاة إلى الله ، اختراعها اختراعا حتى يصرف نفسه عنهم ، وحتى يصرف الناس عنهم ، فكل شيء افتراه ، كل شيء تصوره ، كل شيء اتهم به الدين :

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)

توهم أن الأستاذ بهدية ثمينة قبل الفحص يعطيه الأسئلة ، ما درس ، ارتاح ، قضى الوقت كله في الملاهي ، ومع أصدقائه في اللعب ، قبل الفحص بيومين ، طرق باب الأستاذ ، طلب منه الأسئلة ، ومعه هدية ، فدفعه صفعتين ، كل شيء خطط له انتهى ، أستاذ نزيه لا يعطي الأسئلة .

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)

لا شركاء يشفع لهم ، وأفكارهم التي اخترعوها ، وافتروا بها على الدين أصبحت غير صحيحة ، وقد لقوا مصيرهم المشئوم .

(وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {28})

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(22-60): تفسير الآية 54 ، تبارك الله أحسن الخالقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-07-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ

1 – لا خلاف بين ا لناس في ربوبيةِ الله :

أيها الإخوة الكرام ، في عالم الإيمان هناك ربوبية ، أي أن الله خلق وأمد ، خلقنا وأمدنا بكل ما نحتاج، هذا مفهوم الألوهية ، ولكن حينما يكلفنا أن نعبده هذا مقام الألوهية مقام الربوبية شيء ، ومقام الألوهية شيء آخر ، لا أحد في الأرض ينكر مقام الربوبية ، والدليل :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

(سورة لقمان الآية : 25)

كافر ، مؤمن ، وثني ، عبّاد الأوثان ، يقرّون أن الله خلق السماوات والأرض ، وهم يعترفون بأنهم ما يعبدون الأصنام إلا ليقربوهم إلى الله زلفى ، فحول مقام الربوبية لا خلاف ، لأن أصل مقام الربوبية ، العطاء ، فهو خلقني ، ومنحنا نعمة الإيجاد ، ومنحنا نعمة الإيجاد ، ومنحنا نعمة الإمداد ، هذا أصل مقام الربوبية ، فلا أحد في الأرض إلا ويعترف أن له رباً خلقه ، وأمده ، لكن حينما أمره ألا يكذب ، ألا يسرق ، ألا يقتل ، هنا الخلاف ، مقام الإلوهية يقتضي افعل ولا تفعل ، يقتضي الطاعة ، والإنسان يميل إلى أن يعيش من دون قيد أو شرط :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية : 43)

إنكار الرسالة ، إنكار المنهج ، إنكار الأمر ، إنكار النهي هو موضوع الخلاف ، مقام الربوبية لا خلاف فيه بين كل البشر ، لكن مقام الإلوهية ، مقام الأمر ، والنهي والرسالات ، والحرام ، والحلال ،

والوعد ، والوعيد ، هنا المشكلة .

أيها الإخوة ، من البديهيات أن أحداً في الكون لم يدع أنه خلق السماوات والأرض ، لكن مناهج الأرض تتناقض مع مناهج السماء .

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

إنسان يعبد شمساً ، أو قمراً ، أو حجراً ، أو مدراً ، أو بقراً ، أو موجاً ، فالعبادات لأنه التدين حاجة فطرية ، السبب ، أن الإنسان خلق ضعيفاً يحتاج إلى حجة قوية يحتمي بها تدعمه ، يلجا إليها ، يستعين بها ، تطمئنه ، حتى الذين اتبعوا الديانات الأرضية الوثنية هم يلبّون حاجة عندهم فطرية ، وهي الحاجة إلى قوي .

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

خلق ضعيفاً ، إذاً : هو بحاجة إلى قوي ، لذلك لم يدّع أحد أنه خلق السماوات والأرض ، ولكن أعداداً لا تحصى ادّعت أنها مشرعة ، والإنسان إذا شرع أولاً فإنّ عِلْمه قاصر ، فإن كان موضوعياً تجلب نفسه لذاتها الخير ، وتبعد عنها المحاسبة ، فالإنسان ليس مشرعًا .

فلذلك أيها الإخوة ، كأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

نفسه للتقريب :

تقول الأم لابنها : يا بني ، لا تتأخر عن الساعة التاسعة ، فإنّ أباك يغضب أشد الغضب إذا تأخرت ، أليس ينفق عليك ؟ أليس يؤويك ؟ أليس يكرمك ؟.

2 – العلاقة بين الربوبية والألوهية :

هنا ربط بين مقام الربوبية ومقام الألوهية ، ينبغي أن تطيع الذي خلقك ، الذي منحك نعمة الإيجاد ، الذي منحك نعمة الإمداد ، الذي منحك نعمة الهدى والرشاد ، ينبغي أن تطيعه .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 21)

عندنا مقام الربوبية لا خلاف فيه ، مقام الإلوهية هنا الخلاف متعلق بالضبط والتكليف ، وافعل ولا تفعل ، والأمر ، والنهي ، والحلال ، والحرام ، والوعد ، والوعيد .

الآن الآية الكريمة في البقرة :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

يعني ينبغي أن تطيع الذي منحك نعمة الإيجاد ، فلذلك قبول التكاليف يتناسب مع فضل الله عليك ، من هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تطيعها ؟ إنها الجهة التي منحتك الوجود ، منحتك السمع والبصر ، منحتك الشعور ، منحتك العقل ، منحتك الزوجة والأولاد ، منحتك مباهج الدنيا .

قبل هذه الآيات فصل الله كثيراً في خلق الإنسان ، الآن يفصل الله في خلق السماوات والأرض ، الظرف الذي يوجد فيه الإنسان ، تصور إنسانا تزوج ، اشترى بيتا ، وأثث البيت ، وهيأ كل ما يحتاج فيه ، فهذا البيت بغرفة ، بغرفة النوم ، بغرفة الاستقبال ، بغرفة الجلوس ، بمرافقه ، هذا ظرف وجود الزوجين . فالله عز وجل في آيات سابقة فسر في خلق الإنسان ، والآن يفصّل في خلق الأكوان .

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

لذلك :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

1 – معنى السماء :

السماء ؛ كل ما علاك فهو سماء ، وكل ما أقلك فهو أرض ، لكن الذي يلفت النظر أن الله ذكر السماء بالجمع ، والأرض مفردا ، لكن في آية يقول :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)

(سورة الطلاق الآية : 12)

وجمع أرض أراضين ، ولكن كلمة أراضين ثقيلة على اللسان ، فجاءت السماوات جمعاً ، وجاءت الأرض فرداً ، لكن هذا لا يمنع أن يكون هناك سماوات لا تعد ولا تحصى ، لأن كلمة سبع سماوات السبع في اللغة لا تعني الكم تعني التكثير ، والأراضين لا الكم تعني التكثير .

2 – سقوط نظرية التطور لداروين :

الآن الإنسان لرعونته ، وجهله تصور بداية العالم ، فقال أناس : الكائنات الحية بدأت بمخلوق وحيد الخلية ، هذا المخلوق تطور ، وتطور ، وتطور ، من البر إلى البحر ، ثم إلى البر ، ثم أصبح قرداً ، ثم أصبح إنساناً ، هذه نظرية داروين ، وكل جهة تتصور بداية العالم ، لكن الله عز وجل ينفي كل هذه

التصورات فقال :

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الكهف الآية : 51)

للتقريب : اشترى أحدهم محلا بأحد أسواق دمشق ، بعدما اشتراه بعشرين سنة تزوج ، وأنجب ولدا ، وكبر الولد ، وجالس الابن مع أبيه في سهرة ، قال : أنا اشتريت محلا في زماني فرضاً بخمسة آلاف ليرة ، قال له ابنه : غلط يا أبي ، أنت أخذته بعشرة ، نظر إليه وقال له : أنت كنت معي وقتها ؟ أنت كنت ؟

(مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الكهف الآية : 51)

هذا التنطع ، هذه الرعونة في الفهم .

كتعليق : لا تفاجؤون به أنني أيقنت أخيراً بنظرية داروين ، لكنها معكوسة ، كان إنسان فأصبح قرداً ، يعني مسخ الإنسان قرداً مسخ قرداً وخنزيراً ، القرد يعبد شهوة البطن ، والخنزير يعبد شهوة الفرج ، إذا شهوة البطن استغرقت الإنسان فهو قرد ، وإذا شهوة الفرج استغرقت الإنسان فهو خنزير .

لذلك حينما ورد في بعض الآيات أن هؤلاء مسخوا قردة وخنازير أنا أتصور أنهم بقوا على شكل البشر ، لكن عبدوا شهواتهم من دون الله ، يؤكد هذا المعنى قول النبي الكريم :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار وَالدِّرْهَمِ))

[رواه البخاري وابن ماجه]

تعس عبد البطن ، تعس عبد الفرج .

خلقُ البشرية بدأ بآدم عليه السلام :

أيها الإخوة ، إذاً : يجب أن تلقى عن الله شرح بداية الخلق ، من سيدنا آدم بدأت البشرية بنبي عظيم .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ ، وَلَا فَخْرَ ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي ...))

[أخرجه الترمذي]

البشرية بدأت بنبي كريم ، وأم كريمة ، آدم وحواء .

صدقوا أيها الإخوة ، أن نظرية داروين ساقطة كلياً ، ليس عند المسلمين ، بل عند أنصار هذه النظرية، لأن داروين نفسه تنبأ أنها غير صحيحة ، قال : إن لم يثبت العلم غير ذلك فإنها باطلة ، والعلم نقض كل ما جاء به داروين ، أما العجب العجيب فهو تمسك العالم كله بهذه النظرية ، لا لأنها صحيحة، لكن لأنها مريحة ، ما م، إله ، ولا مسؤولية ، ولا وعد ، ولا في وعيد .

أقص عليكم هذه القصة : يريد إنسان أن يشتري مركبة ، ولم يشترِ ، وإنسان يريد أن يشتري فاشترى، نحن أمام اثنين ، واحد اشترى ، والثاني لم يشترِ ، سَرَت إشاعة أن هناك تخفيضًا في الرسوم 50 % الذي لم يشترِ يصدق هذه الإشاعة من دون دليل ، من دون تحقيق من دون بحث ، ومن دون درس ، لأن هذه الإشاعة مريحة له ، والذي اشترى ، وتورط يكذب هذه الإشاعة ، من دون بحث ، ومن دون دليل ، ومن دون درس ، لأن تكذيبها مريح له .

فالإنسان أحياناً بعقله الباطن يعتقد بأشياء غير صحيحة ، لأنها مريحة ، ويرفض أشياء صحيحة لأنها متعبة ، ومكلفة ، وسوف يحاسب عليها .

لذلك يجب أن نأخذ عن الله بداية الخلق .

(مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)

إذاً أيها الإخوة ، طرأ على هذا الكون بقواه ونواميسه ، الكون أولاً ، والإنسان ثانياً ، الله خلق الأرض، وهيأها لخليفته في الأرض .

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة الآية : 30)

معنى : خَلَقَ

ما معنى خلق ؟ خلق ؛ يعني خلق مخلوقاً كان معدوماً .

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

خلق مخلوقاً كان معدوماً ، وبرأه على غير مثال سابق ، هذا هو الخلق ، فإذا قلنا : الله خالق السماوات والأرض ، أي كان الله ولم يكن معه شيء ، خلق السماوات والأرض بعد أن كان الكون معدوماً وبرأه، وصوره على غير مثال سابق ، أما الإنسان فقد سمح الله لذاته العلية ، وهو الخالق أن يوازن ذاته العلية مع صفة للمخلوق أن يتصف بها ، قال :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنين)

تسمية الإنسان خالقا مجازاً :

الذي يصنع هذا الكأس من رمل له وسائل ، له معامل ، الله عز وجل سمح للإنسان إذا صنع شيئاً لم يكن من قبل ، أن يسميه خالقاً ، وسمح لذاته العلية أن يوازنها مع مخلوقاته ، فقال :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

الكُلية بحجم البيضة ، فيها طريق طوله 100 كم ، يمر الدم به في اليوم خمس مرات بلا صوت ، بلا نفقة ، بلا إزعاج ، بلا تعطيل ، أما الكُلية التي صنعها الإنسان بحجم نصف الطاولة ، يجب أن تستلقي على السرير ستة ساعات في الأسبوع ثلاث مرات ، حتى تصفي هذه الكلية الصناعية دم الإنسان ، شتان بين كلية طبيعية ، فيها عشر احتياطات لحاجة الإنسان وبين كلية صناعية ، شتان بين العين ، الذي فيها بالميل متر مربع مئة مليون مستقبل ضوئي بينما في أعلى آلة تصوير احترافية رقمية في عشرة آلاف ، الله سمح لنا أن نوازن بين صنعته وصنعة البشر ، حينما قال :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

أيها الإخوة ، وردة طبيعية ، ووردة صناعية ، المسافة كبيرة جداً ، لا يوازن بينهما ، وردة طبيعية ، ووردة صناعية ، امرأة في أحسن تقويم ، وإنسان امرأة في محل لبيع الألبسة ، هل توازن هذه بتلك ؟ هذه كائن مخلوق ، له فكر ، له إحساس ، له مشاعر ، في حياة ، في إشراق ، وتلك جماد ، حينما قال الله عز وجل :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

أي سمح لذاته العلية أن يطلق على صنعة الإنسان أنه خالق .

الفرق بين خلق الله ونسبة الخلق للعبد :

لكن الفرق بينهما : أن الله جل جلاله خلق شيئاً كان معدوماً ، خلق كل شيء من لا شيء ، وعلى غير مثال سابق ، الإنسان خلق شيئاً من كل شيء ، وعلى مثال سابق ، هذا الفرق ، الله عز وجل خلق كل شيء من لا شيء ، وعلى غير مثال سابق ، بينما الإنسان إذا سميناه مجازاً خالق صنع شيئاً من كل شيء ، وعلى مثال سابق ، فالغواصة تقليد للسمكة ، والطائرة تقليد للطير ، والذي اخترع العجلة تقليد لشجرة تنحدر في واد ، ما من شيء اخترعه الإنسان إلا وهو على مثال سابق ، حتى لو تخيل الإنسان مخلوقات بالمريخ تصور كالإنسان ، مع تعديلات طفيفة ، ما في عند الإنسان شيء إلا يبني عليه من شيء آخر .

إذاً : الله عز وجل يخلق كل شيء من لا شيء ، وعلى غير مثال سابق ، والإنسان يصنع شيئاً من كل شيء ، ووفق مثال سابق .

حينما صنع الإنسان هذا الكأس ما كان بإمكانه أن يصنع كأسا ذكرا وكأسا أنثى ، وبعد فترة يأتينا مليون كأس من هذين الكأسين ، الكأس كما هو يبقى مئة سنة كما هو ، أما الله عز وجل فجعل الذكر والأنثى .

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)

(سورة الذاريات الآية : 49)

تصور أنه الله عز وجل خلق كميات كبيرة جداً من الفواكه ، والثمار ، والمحاصيل ، والبشر أكلوها وانتهوا ، وماتوا ، من صمم نظام البذور ؟ تأكل تينة كم بذرة فيها ؟ فيها ملايين ، وكل بذرة شجرة ، تأكل خيارة ، كم بذرة ؟ فيها كل بذرة شجرة ، نظام البذور نظام التلقيح ، نظام الزوجية ، دقق ، الفرق بين إنسان صنع كأسا ، والله عز وجل خلق إنسان ذكرا ، وخلقه أنثى ، وأودع في قلب الرجل حب المرأة ، وأودع في قلب المرأة حب الرجل ، وصار بينهما زواج وإنجاب .

فلذلك لو ذهبت تفكر في صنعة الله الواحد الديان ، وبين صنعة الإنسان تجد فروقاً تفوق حد الخيال .

أيها الإخوة ،

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

السماء كل ما علاك فهو سماء .

أحياناً ينظر الإنسان إلى الكرة الأرضية ، يجد أستراليا هنا ، فإذا سافرت إلى أستراليا ، ترى السماء تحت ؟ انظر إلى الكرة الأرضية مجسمة تجد أستراليا هنا ، الاتجاه نحو الأسفل ، أنا سافرت لأستراليا السماء نحو الأعلى ، ما هي السماء ؟ العلماء قالوا : كل ما علاك فهو سماء ، السماء الجهة المناقضة لمركز الأرض ، وكل ما كان مركز باتجاه الأرض فهو أرض ، الأرض ما كان باتجاه مركز الأرض، والسماء ما كان مناقضاً لمركز الأرض .

أيها الإخوة ، قال بعض العلماء : في كل مجرة مليون مجموعة شمسية ، المجموعة الشمسية التي نحن فيها قطرها الأطول الأكبر 13 ساعة ، بين الأرض والشمس 8 دقائق ، بين الأرض والقمر ثانية واحدة ، ونجوم بُعدها عنا مليار سنة ضوئية ، المجموعة الشمسية كلها 13 ساعة ، عرضها ثلاث ساعات ، الأرض والقمر ثانية ضوئية الأرض ، والشمس 8 دقائق ، أما المجموعة الشمسية فكلها على درب التبانة نقطة ، فكل مجرة فيها مليون مجموعة شمسية ، وبكل مجموعة شمسية فيها أرض ، كوكب منطفئ ، يتلقى نوره من كوكب ملتهب .

لو أن العلوم في المستقبل كشفت أن هناك كائنات حية على كواكب أخرى شيء طبيعي جداً ، لأن الله سبحانه وتعالى قال :

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ)

(سورة الشورى الآية : 29)

إذاً كل ما علاك فهو سماء ، وكل ما أقلّك فهو أرض .

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

هل تصدقون أيها الإخوة أن كلمة يوم وردت في القرآن الكريم 365 مرة ، بعدد أيام العام ، وهذا من الإحكام الحسابي ، وعندنا آية في القرآن الكريم تفصيلية لخلق السماوات والأرض ، وعندنا سبع آيات إجمالية ، الآيات التي وردت فيها أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثماني آيات ، لكن واحدة من هذه الآيات فيها تفصيل :

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سور فصلت)

بحسب الآية 8 أيام ، يومين بأربعة ، بيومين ، لكن في بحث طويل أن هناك يومين مشتركين ، بين خلق السماوات وخلق الأرض ، فهذا التفصيل ينتهي إلى ستة أيام أيضاً .

لذلك أيها الإخوة ، خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام ، وخلق السماوات في يومين ، وفي الأخير خلق السماوات والأرض في يومين ، فاليومان مشتركان في الآيتين ، إذاً : أربعة باثنين ستة .

هناك تعليقات وخواطر إيمانية : أن اليوم هو الدور ، لأن الشمس خلقت بعد خلق السماوات والأرض ، الشمس في دورة الأرض حول الشمس يتحدد الليل والنهار ، والفصول الأربعة ، في دورة الأرض حول نفسها ليل ونهار ، وفي دورتها حول الشمس الفصول الأربعة ، كأن الفصول أحد أسباب أقوات الأرض ، تبدل الفصول من شتاء ماطر ، إلى ربيع مزهر ، إلى صيف تنضج به المحاصيل ، إلى خريف تسقط به الأوراق ، وكأن اليومين الليل والنهار ، وعندنا اليوم هو الدور ، الليل والنهار ، والفصول الأربعة ، أو أن الله خلق الأرض في أطوار ، وفي أدوار ، وفي مراحل لحكمة باللغةٍ بالغة .

الآن أيها الإخوة ،

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

ستة أيام ، أنت لما تريد أن تصنع لبنا رائبا ، تسكب الحليب المغلي في أوعية ، تضع في كل وعاء شيئًا من اللبن ، وانتهى الأمر ، بعد عشر ساعات ينقلب هذا الحليب لبناً رائباً :

(سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ)

(سورة النحل)

العملية تمت بوقت قصير ، أما نضج وتحول الحليب إلى لبن تم بوقت طويل ، فمعنى ذلك الله عز وجل :

(إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

أما نظام السببية والغائية فيحتاج إلى وقت ، الله عز وجل

(كُنْ فَيَكُونُ)

وانتهى كل شيء ، لكن لو أن إنسانا أراد أن يشيد بناء ، والأموال كلها جاهزة ، هل يقدر إنسان بثانية يصنع بناء ؟ لا يقدر ، هناك مدة الحفر ، ومدة صب الإسمنت ، ومدة جفاف الإسمنت ، طبيعة خلق الدنيا فيها أسباب ، وفيها أزمنة ، لذلك اعتبر الزمن البعد الرابع للأشياء ، للتقريب :

في صنعة المخلوق لابد من عامل الزمن :

سأل أحدهم : كم يحتاج البناء إلى عامل ؟ قال له: مئة عامل ، متى ينتهي ؟ بعد ستة أشهر ، نأتي بمئتين ، معناها ثلاث أشهر ، نأتي بأربعمئة ، معناها شهر ونصفق ، نأتي بثمانمئة معناها عشرين يوما، نأتي بألف وستمئة معناها عشرة أيام ، نأتي بثلاثة آلاف وستمئة معناها خمسة أيام ، هل معقول أن تمشي بهذه السلسلة ؟ مستحيل ، لا بد من وقت لحفر الأرض ، لا بد من وقت لصب الإسمنت ، لا بد من وثقت لجفاف الإسمنت ، في صنعة الإنسان لا بد من الوقت ، وقت المعالجة ، أما عند الواحد الديان فإنه

(كُنْ فَيَكُونُ)

فالله عز وجل خلق الأرض على نواميس ، وجعل لكل شيء وقتا ، فلكل شيء زمن نضج ، أنت مضطر إلى كمية للمحاصيل ، هل هناك الآن طريقة بعد ساعة تقطف فيها الثمار ؟ لا ، بل لا بد من خمسة أشهر حتى ينبت الحب ، فتصميم الله للأرض والخلق كل شيء له زمن .

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ

إذاً : لما يقول الله :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

فليس معنى ذلك أن معالجة الله للخلق كالإنسان ، لا ، الله :

(كُنْ فَيَكُونُ)

خلق ، لكنه جعل أنظمة تحتاج إلى وقت ، الفكرة دقيقة جداً ، عند الله ليس هناك معالجة ،

(كُنْ فَيَكُونُ)

إنسان وضع كمية لبن بأوعية الحليب ، فقط ، أما نظام البكتريا ، ونظام التخمر يحتاج إلى عشر ساعات حتى ينقلب هذا الحليب إلى لبن ، فإذا قلنا :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

ليس معنى ذلك أن الله يعالج خلقه كما يعالج الإنسان صنعته ، لا .

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

(سورة الشورى الآية : 11)

وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، الدليل أن الله عز وجل قال :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)

(سورة ق)

ما مسنا من تعب ، الله ما عنده معالجة ،

(كُنْ فَيَكُونُ)

أما الإنسان لو أراد أن يصل إلى حَلَب يحتاج خمس ساعات ، بالطائرة ساعة ، لا بد في وقت ، الوقت هو البعد الرابع للأشياء ، لكن الله عز وجل أراد أن يعلمنا ، فجعل لكل شيء قدرًا ، ولكل شيء وقتا ، ولكل شيء فترة ، فيا أيها الإنسان لا تستعجل .

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

معنى استوى على العرش أي تم كل شيء ، الإمام مالك سئل : ما الاستواء ؟ قال : " الاستواء معلوم ، و الكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة " . نحن غير مسموح لنا أبداً أن نتفكر في الله .

((تفكروا في مخلوقات الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[أخرجه برموز السيوطي ، أبو الشيخ عن ابن عباس]

مسموح لنا أن نتفكر في مخلوقات الله لا في ذات الله عز وجل .

لذلك الآيات القليلة جداً المتعلقة بذات الله أكمل موقف منها أن تفوض معناها إلى الله .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية : 10)

أنا يا رب أفوضك بمعنى أن يدك فوق أيديهم .

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

(سورة الفجر الآية : 22)

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

أيها الإخوة ، الآيات القليلة التي تتحدث عن ذات الله أكمل موقف في تفسيرها التفويض ، وقد يليه التأويل ، يد الله قدرته ،

(وَجَاء رَبُّكَ)

جاء أمره .

(سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(سورة الحج)

أي عليم بكل شيء ، أما التجسيد فعقيدة فاسدة ، والتعطيل عقيدة فاسدة ، أربع كلمات ، تفويض وتأويل مقبولان ، أما التجسيد والتعطيل فمرفوضان .

(اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

المعنى المألوف ،

(قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ)

العرش سرير الملك ، أما العرش الذي أراده الله في هذه الآية الله أعلم به ، لعله الكون بأكمله ، كان الله ولم يكن معه شيء ، فخلق الخلق ، لعل العرش تمام التمكن ، تمام كل شيء ، لذلك جاء خلق السماوات والأرض في ستة أيام ليعلمنا الله الصبر .

مرة هارون الرشيد رأى سحابة فقال : " اذهبي أين ما شئت فإنه يأتني خراجك " .

وأنا أقول : أي إنسان شرد عن الله سوف تعود إلى الدين عاجلاً أو آجلاً ، فلا تكن عجولا ، استخدم أسلوب النفَس الطويل ، الله عز وجل علمنا درساً لا ينسى ، أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام لا عن عجز ، ولا عن تعب ، ولا عن لغوب ، ولكن ليعلمنا أن لكل شيء قدر .

أيها الإخوة ،

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

الإنسان مكلف أن يعبده ، مكلف بالعمل ، العمل حركة ، والحركة تحتاج إلى جهد ، وبذل الجهد يحتاج إلى راحة ، لذلك الله خلق الليل والنهار ، جعل النهار معاشاً ، وقت حركة وعمل وكسب ، وجعل الليل لباساً ، وقت راحة واسترخاء ، ولكن البشر عكسوا الآية ، جعلوا النهار للنوم ، والليل للعمل ، هذه من مفارقات الحياة .

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

ما مِن شكل يتداخل فيه الليل والنهار إلا الكرة ، لو كانت مكعبا الضوء يأتي فجأة ، أي شكل هندسي حروف ، الضوء يأتي فجأة ، والظلام يأتي فجأة إلا الكرة ، الكرة تدور أمام منبع ضوئي ، ففي منطقة بالكرة فيها تداخل الليل والنهار ، الآن نحن في ليل ، وفي النهار نهار ، لكن بين الفجر وطلوع الشمس منطقة تداخل ، وبين المغرب والعشاء منطقة تداخل ، هذا معنى :

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

الليل للراحة ، والنهار للعمل ، ثم إنّ النهار يتناسب مع طاقة الإنسان ، لو كان النهار سنة ، والليل سنة، تعمل وتنام ، تعمل وتنام ، كل واحد يعمل بوقت ، لا أحد ينام ، أما :

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً)

(سورة النبأ)

والآية الكريمة :

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة القصص)

والليل والنهار في قوله تعالى :

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

دليل على كروية الأرض .

(يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ

ليس السببُ خالقًا للنتيجة :

خلق ، لكن أمر الخلق بيد الله ، جعل لكل نتيجة سبب ، ولكن الله في أية لحظة من قدرته أن يعطل الأسباب ، أن يخلق نتائج بلا أسباب ، أو أن توجد الأسباب ولا نتائج .

يمكن أن يأتي السيد المسيح من دون أب ، ألغي السبب ، ويمكن أن يكون شابان زوج وزوجة في ريعان الشباب ولا ينجبان ، شاب وشابة لا ينجبان ، ونبي كريم يأتي من دون أب ، معنى ؛

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

إياك أن تتوهم أن السبب خالق النتيجة ، السبب يأتي قبل النتيجة ، بأي لحظة الله يعطل الأسباب ، وأن يخلق نتائج بلا أسباب ، فالأمر بيد الله عز وجل .

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ {54})

تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

والله عز وجل سمح لذاته العلية أن يوازنها مع مخلوقاته ، قال :

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

وقال :

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

(سورة الأنعام)

الآية إذاً :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

الطائرة بيعت من دولة إلى دولة ، الدولة التي اشترت الطائرة تستخدمها كما تشاء ، تقصف ، تهدم بها منازل ، تشن غارات ، الشركة الصانعة انتهت مسؤوليتها ، هذا في عالم الأرض ، أما الله عز وجل فأيّ شيء خلقه بيده .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

أمام الشبكية لكل نتيجة سبب ، لكن في الحقيقة السبب لا يخلق النتيجة ، ولكن يأتي قبلها ، لأن الله في أية لحظة يعطل السبب ، ألقي إبراهيم عليه السلام في النار ، النار تُحرق ، والله تعالى عطّلها .

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً)

لو ما قال :

(وَسَلَاماً)

(سورة الأنبياء الآية : 69)

لمات من البرد ، لو ما قال :

(عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

لانتهى مفعول النار إلى الأبد

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

خاتمة :

في الأخير :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

بلا تعب ،

(وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ)

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

تبارك عطاءه ، وتبارك خيره ، وتبارك فضله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(23-60): تفسير الآيتان 55 - 56 ، الدعاء وطريقة المناجاة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-08-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

الدعاء :

1 – الدعاءُ عبادة :

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

أيها الإخوة ، النبي عليه الصلاة والسلام في حديث صحيح قال :

((العبادة هي الدعاء))

((والدعاء مخ العبادة))

[أخرجه الترمذي عن أنس]

والدعاء هو العبادة ، على اختلاف الروايات .

2 – لماذا كان الدعاء عبادة ؟

أيها الإخوة ، لماذا الدعاء عبادة ؟ لأن الإنسان بفطرته لا يدعو جهة لا يؤمن بوجودها ، فلا أحد يدخل إلى بيت فارغ ، ويخاطب جهة ليست موجودة ، يتهم بعقله ، أنت لا تدعو جهة لا تؤمن بوجودها ، وأنت لا تدعو جهة لا تسمعك ، وأنت لا تدعو جهة ليست قادرة على تحقيق ما تطلب منها ، وأنت لا تدعو جهة تسمعك وقادرة ، ولكنها لا تريد أن ترحمك ، لا تدعوها ، أعدائك ، لمجرد أن تدعو الله عز وجل حكماً أنت مؤمن بوجوده ، ومؤمن بأنه يسمعك ، ومؤمن أنه قادر على أن يلبيك ، ومؤمن بأنه

يحب أن يلبيك ، خلقك ليرحمك .

لذلك يقول الله عز وجل :

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

(سورة الفرقان الآية : 77)

علامة المؤمن أنه يدعو الله عز وجل .

3 – ضعفُ الإنسان يضطره إلى الدعاء :

لكن هناك تمهيد لا بد منه ، أراد الله عز وجل لحكمة بالغة بالغةٍ بالغة ، أن يكون الإنسان ضعيفا .

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

هذا ضعف في أصل خلقه ، والإنسان كما قال تعالى :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً *إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

لماذا خلقه الله هلوعاً ، جزوعاً ، منوعاً ، ضعيفاً ؟ لأنه لو خلقه قوياً لاستغنى بقوته عن الله عز وجل ، فشقي باستغنائه ، خلقه ضعيفاً ليفتقر بضعفه فيسعد بافتقاره ، خلقنا ضعفاء ، وساق لنا بعض المصائب كي نتعرف إليه ، ونتصل به ، ونسعد بقربه ، ونذوق طعم القرب منه .

4 – علة الدعاء الاتصالُ بالله :

هذه النقطة دقيقة جداً ، علة الدعاء أن تتصل به ، هناك نخبة من البشر يتصلون بالله عز وجل من دون مشكلة ، من دون مصيبة ، من دون ابتلاء ، هؤلاء الأنبياء والمرسلون ، وكبار العلماء ، الصدقون ، الصحابة الكرام ، لكن عامة المسلمين يحتاجون إلى بواعث ، إلى دوافع ، إلى محفزات ، أحياناً يضعف الإنسان أمام مشكلة ، ليس له إلا الله ، يدعو الله عز وجل فيستجيب له ، فتزاد عقيدته بالله ، يدعو الله فيستجيب له ، ويذوق طعم القرب منه ، فيلزم هذا الباب ، فكم مِن مشكلة سببت قرباً من الله ، وكم من مشكلة سببت عودة إليه ؟ وكم من مشكلة سببت قرباً منه ، كم من مشكلة سببت أن الإنسان بعد أن يعرف الله يزهد فيما سواه .

هناك قصة رمزية يرويها بعض العلماء : أن شاباً أحب فتاةً وخطبها ، اشترط عليه والدها ، وهو له عمل في الدعوة أن يلزم دروسه ، فلما لزم دروسه ذاق طعم القرب ، وشعر بسعادة الإيمان ، فنسي المخطوبة ، فبعثت له برسالة :

أين أنت ؟ قال : يا وصال كنت سبب الاتصال .

أحيانا تأتي مشكلة خلاصك فيها ، ساق الله لك مشكلة ، وأنت ضعيف ، أنت في الأساس ضعيف ،

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

هذا الضعف في أصل ضعفه ، لمصلحته ليلتجأ إلى ربه .

حينما تصيب الإنسان مشكلة ، ويرى الأبواب كلها مغلقة ، لكن باب السماء مفتوح ، يتوجه إلى الله .

لذلك ورد في بعض الأحاديث الصحيحة :

((يَنْزِلُ رَبّنَا كُلّ لَيْلَةٍ إلى السّمَاءِ الدّنْيَا حَتّى يَبْقى ثُلثُ اللّيْلِ الآخر ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعْطِيَهُ ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فأَغْفِرَ لَه ؟ حتى ينفجر الفجر))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

القصد من الدعاء الحقيقي أن تتصل بالله ، وأن تذوق طعم القرب منه ، وأن ترى ألوهيته ، الأمر كله بيده .

5 – الدعاء يقوي العقيدة :

أجمل كلمة قرأتها عن الدعاء أنه يقوي العقيدة ، أنت ضعيف ، والأمور صعبة جداً ، وهناك مشكلة كبيرة جداً لا تحل ، قمت في الليل ، وركعت ركعتين ، وتوجهت إلى الله عز وجل ، وقلت : يا رب ، ليس لي سواك ، في اليوم التالي شعرتَ بتبدل جذري ، الذي كان مصراً على منعك تساهل معك ، ما الذي حصل ؟ تشعر أن الله بيده كل شيء ، تشعر بيده مَن هم دونك ، مَن هم فوقك ، بيده الأقوياء ، بيده الجبابرة .

سيدنا موسى لمَ لم يقتله فرعون ؟ لمَ هابه ، وأجرى معه مناظرة ؟ وجاء بالسحرة ، الأمر بيد الله عز وجل .

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

يا رسول الله ، لقد رأونا ، في الغار ، قال له :

((يَا أبا بَكْرٍ مَا ظَنّكَ باثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا ؟))

[متفق عليه]

أنا الذي أراه ، وأرجو أن أكون على صواب : أن الهدف من الدعاء أن تتصل بالله ، المشكلة التي ساقها الله إليك باعث ، سبب ، وسيلة ، أما الهدف فأن تقترب منه ، أن تدعوه ، فإن دعوته أجابك ، وإن استغفرته غفر لك ، وإن تبت إليه قبلك ، وإن تضاءلت أمامه رفعك .

لذلك أيها الإخوة ، الإنسان خُلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه ، فيسعد بافتقاره ، ولو خُلق قوياً لاستغنى بقوته، فشقي باستغنائه ، خُلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه ، فيسعد بافتقاره ، ولم يُخلق قوياً لئلا يستغني عن الله بقوته، فيشقى باستغنائه ،

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

لذلك الباعث الديني من ضعف الإنسان ، حتى الذين آمنوا بآلهة ما أنزل الله بها من سلطان ، الآلهة الذين اخترعها الناس ، هم يلبون حاجة عندهم ، حاجة الضعف عندهم ، الإنسان ضعيف ، يخاف من مرض عضال ، يخاف من فقر ، يخاف من مشكلة في بيته ، يخاف من علاقة سيئة مع زوجته ، يخاف من علاقة سيئة في عمله ،

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

هو ضعيف ليقوى بالله ، فقير ليغتني بالله ، جاهل ليستنير بنور الله ، هذه علة الدعاء أن تتصل به .

المثل الواضح : أب عنده ابن ، وجاء فصل الشتاء ، والبرد شديد ، وهذا الابن ليس عنده معطف ، هل هناك أب حكيم عاقل رحيم قوي غني لا يعطي ابنه هذا المعطف إلا إذا سأله ، لا ، كمال الأب يقتضي أن يعطيه المعطف ، سأله أم لم يسأله ، ولكن حينما يؤخر شراء المعطف يأتي الابن ، ويسأل أباه هذا المعطف ، يقول له : حباً وكرامة يا بني ، أنت ابني ، أنت غالٍ علي ، فنشأت علاقة .

6 – عدمُ إجابة الدعاء لحكمة بالغةٍ :

العطاء عطاء ، والمنع منع ، أدق من ذلك الله عز وجل يتصرف بحكمته ورحمته ، وعدله ، أحيانا هناك خطة إلهية ، مهما دعونا فلن يستجاب لنا ، لا ، لأنه لا يحبنا ، ولكن تماماً كإنسان مفتوح بطنه بعمل جراحي ، العملية طويلة ، تحتاج إلى عشر ساعات ، والمرض خطير ، والطبيب ماهر ومحسن ومتفوق ، فجاء أولاد هذا الأب المريض الملقى على سرير العمليات يرجون الطبيب أن ينهي الأمر ، لا بد من أن تأخذ العملية أمدها .

نحن ندعو الله كثيراً ، فإن لم يستجب فنحن في عناية مشددة ، نحن في عمل جراحي صعب جداً إلى أن تنتهي العملية ، فلا تيئسوا ، ولا تقطنوا من روح الله ، وتفاءلوا ، وكان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل الحسن .

7 – شأن العبد الافتقار ، وشأنُ الواحدِ القهار القوةُ والكرمُ :

لكن الله عز وجل يقول :

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا)

العبد عبد ، والرب رب ، شأن العبد الافتقار ، وشأن الواحد القهار القوة والكرم .

لذلك هذا المتأله المستكبر هذا حُجب عن الله ، ورُبّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ، ومعصية إبليس استكباره ، ومعصية آدم ضعفه .

(فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

(سورة طه)

ما إبليس قال :

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف الآية : 12)

ما كنت لأسجد له .

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف الآية : 12)

فرق كبير بين معصية الاستكبار ، وبين معصية الضعف .

لذلك أيها الإخوة ، الدعاء يُقبل إذا أظهرت ضعفك أمام الله ، وهناك علاقة دقيقة جداً ، فكلما أظهرت ضعفك أمام الله ، كلما أظهرت افتقارك إليه كلما رفعك ، وما من مخلوق فيما أعلم على وجه الأرض أكثر افتقاراً إلى الله من رسول الله ، وما من مخلوق رفع الله ذكره وأعزه في الدنيا والآخرة كرسول الله ، العلاقة عكسية ، كلما ازددت خضوعاً لله ، كلما مرغت جبهتك في أعتاب الله كلما قلت : يا رب ، أنا عبد ضعيف .

اسمحوا لي أن أقول لكم هذا النص : نور الدين الشهيد الذي واجه المغول ، مرة سجد قبل معركة ، وقال : يا رب ، مَن هو الكلب نور الدين حتى تنصره ؟ انصر دينك يا رب .

كلما ازددت افتقاراً إليه غمرك بالعطاء ، كلما رفع ذكرك أعزك ، وألقى عليك الهيبة ، وكلما قلت : أنا وأنا يتخلى عنكَ .

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

(سورة القصص الآية : 79)

قارون :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص الآية : 78)

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص الآية : 81)

جرب قل : أنا ، يتخلى الله عنك ، قل : الله ، يتولاك .

درسان بليغان من سيرة الصحابة : درس حُنين ، ودرسُ بَدْرٍ :

الصحابة الكرام ، وهم نخبة الخلق في بدر ، وعلى رأسهم النبي عليه الصلاة والسلام افتقروا إلى الله .

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية : 123)

مفتقرون ضعفاء ، وفي حنين ، أقوى قوة في الجزيرة فتحت مكة ، ودانت الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، بعد حنين قالوا في أنفسهم ، وهم الصحابة الكرام :

((لن يهزم اثنا عشر ألفا من قلة))

[أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك عن ابن عباس]

قال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

درس بليغ ، درس حنين ودرس بدر ، ببدر قالوا : الله ، فتولاهم الله ، بحنين قالوا : نحن كثر ، فتتخلى الله عنهم ، جرب بعملك ، بزواجك ، ادخل إلى البيت قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، اخرج من البيت قل : أعوذ بالله من أن أضل أو أُضل ، أو أذل أو أُذل ، أو أن أجهل أو أن يجهل علي ، الله يتولاك ، يسدد خطاك ، ينطقك بالصواب ، يلهمك الحكمة ، يلقي عليك هيبة ، يهابك الناس ، قل : أنا متفوق ، عندي خبرات متراكمة ، الناس كلهم يحبونني ، تجد استخفافاً من الناس ، وتخلياً من الناس ، فيصعقك ، لأنك قلت أنا .

أيها الإخوة ، لذلك الدعاء يحتاج إلى خضوع ، إلى تضرع ، إلى افتقار ، أنت حينما تفتقر للواحد الديان يرفعك في أعلى عليين ، يمنحك الحكمة ، يمنحك الهيبة ، يمنحك الوقار ، يمنحك القوة ، يمنحك العلم ، يمنحك النجاح ، التفوق ، اخضع ، تذلل .

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

وما لي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت فأي باب أقرع

***

لا تعتمد على أحد ، اعتمد على الله .

((لو كنت متخذ من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي ، لكن أخ وصاحب في الله))

معنى : ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا

لذلك :

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا)

يعني أظهر ضعفك ، أظهر افتقارك إليه ، تذلل بين يديه ، مرغ جبهتك في أعتابه ، قل : يا رب ، أنا جاهل علمني ، أنا ضعيف قوني ، أنا فقير أغنني يا رب ، أنا لست حكيماً ألهمني الحكمة .

سيدنا يوسف نبي عظيم قمة في مجتمعه ، قال :

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

حتى استقامته وعفته ما نسبها إليه ،

(وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ)

شأن العبد الخضوع ، وشأن الله العطاء ، بقدر ما تخضع يرفع شأنك ، ألم تقرأ قوله تعالى :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

وهذه الآية تنسحب على كل المؤمنين ، بقدر استقامته ، وطاعتك وإخلاصك يرفع الله لك شانك ، يلقي محبتك في قلوب الخلق ، إذا أحبك الله ألقى محبتك في قلوب الخلق وإذا ابغض الله عبداً ألقى بغضه في قلوب الخلق ، لا أحد يحبه ، إذا أحب الله عبداً كتب له القبول عند الخلق .

لذلك

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا)

أظهر ضعفك ، أظهر تذللك ، مرغ جبينك في أعتابه .

8 – لا ترفع صوتك بالدعاء :

أيها الإخوة ، لكن

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)

رفع الصوت بالدعاء التفاصح بالدعاء ، الكلمات المنمقة بالدعاء ، الدعاء الطويل ، ساعة أحياناً .

حدثني أحد العلماء : كان في حفل بدأ المتكلم بالدعاء ، خمس دقائق ، عشر دقائق ربع ساعة ، قام نام ، فاق وقال له : أين وصل ؟ هذا عدوان ، رفع الصوت عدوان والإطالة عدوان ، عدوان في الدعاء .

9 – حقّك في الدعاء محفوظ :

أيها الإخوة ، يجب أن تتأكد أنك إن دعوته ، أو لم تدعه لا يفعل معك إلا الأصلح ، فإذا كان الأصلح لك أن يستجيب لك استجاب لك ، وإذا كان الأصلح لك ألا يستجيب لا يستجيب ، لكنك حقك في الدعاء محفوظ .

دقق ، إذا كان الأصلح لك وهو الحكيم الخبير ، أن يستجيب لك استجاب لك ، إذا كان الأصلح لك ألا يستجيب لا يستجيب لك ، ولك أجر الدعاء ، ويقربك لكن مضمون الدعاء لا يتحقق .

لذلك الله عز وجل لا يفعل إلا الأصلح لك ، دعوته أم لم تدعُه .

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية : 216)

لأن الله علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون قد يكون طموح الإنسان أن يكون ذا دخل غير محدود ، والله عز وجل شاءت حكمته أن يكون ذا دخل محدود ، يوم القيامة حينما يكشف الله لك عن الذي ساقه إليك ، عن الظروف التي وضعك فيها ، لماذا أنت من فلان ومن فلانة ؟ لماذا جئت في هذا العصر ؟ ولم تكن في عصر الصحابة ؟ لمَ كنت من ريف أو من مدينة ؟ لمَ كنت وسيماً أو لست وسيماً ؟ لمَ كنت حاد الذكاء أو أقلّ من ذلك ؟ حينما يكشف الله لك ما ساقه لك في الدنيا يجب أن تذوب كالشمعة شكراً لله على ما ساقه له .

لذلك مشكلة البشر مع خالقهم يوم القيامة في كلمة واحدة :

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس الآية : 10)

أيها الإخوة ،

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا)

تذلل ،

(وَخُفْيَةً)

يا رب ، لا نسألك رد القضاء ، نتحمل ، ولكن نسألك اللطف به ، هذا تطاول على الله ، هذا الدعاء مرفوض ، لم يَرد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يا رب ، اصرف عني هذا البلاء كله ، أنت الكريم يا رب .

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)

بصوت منخفض .

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

(سورة مريم)

كنت في بلد إسلامي ، ودخلت إلى أضخم مسجد في إفريقيا ، الذي أشاد هذا المسجد يقترب من الحرم النبوي ، الذي أشاد هذا المسجد استقبلني ، وقال لي : كنت في سجن الفرنسيين وقت الاستعمار ، ورأيت التعذيب بعيني ، أقسم لي بالله ، قال لي : لم أحرك شفتاي ، لكنني أضمرت ، إذا أنجاني الله من هذا البلاء سأبني له أضخم مسجد ،

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

أنت لا تحتاج إلى صوت مرتفع ، أحيانا تجد الدعاء بالمنبر ، ادعوه همساً ، ادعوه سراً ، لا تحرك شفتيك ،

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا)

أحيانا تكون في ظرف لا تستطيع أن تتكلم ، فقل بقلبك : يا رب نجيني ، يا رب ، ليس لي إلا أنت .

لما جاء الحجاج بالحسن البصري ليقطع رأسه لما دخل ، رأى السياف واقفًا واضح وضوح الشمس جاء ليقتل ، حرك شفتيه ، لم يفهم أحد ما قال ، فإذا بالحجاج يقف له جاء ليقتله وقف له ؟! يقول : أهلاً بابي سعيد ، أنت سيد العلماء ، وما زال يقربه من مجلسه حتى أجلسه على سريره واستفتاه ، وأكرمه ، وعطره ، وضيفه ، وشيعه إلى باب القصر السياف صُعق ، لماذا جيء بي ؟! جيء به لأقتله ، الحاجب صُعق ، تبعه الحاجب قال : يا أبا سعيد ، ماذا قلت بربك ؟ قال له : قلت : يا ملاذي عند كربتي ، يا مؤنسي في وحشتي ، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً ، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم .

لا تحتاج إلى صوت مرتفع ، ولا إلى فصاحة ، ولا إلى سجع ، ولا إلى كلمات رنانة .

هناك إخوة كثر يقولون : ما الدعاء المرغوب ؟ قل : ادعوه باللغة العامية ، يا رب ما لي غيرك ، يقبله منك يريد الله يقربك ، يريد قلبك ، يريد التفاتك ، يريد تضرعك ، يريد تذللك يريد قربك .

لذلك أيها الإخوة ،

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)

بلا فصاحة زائدة ، والمتنطعون المتفيقهون الذين يدعون دعاء بصوت عالٍ جداً بتنسق ، بسجع ، هذا مصنوع ما فيه حرارة الدعاء والإخلاص .

10 – حظُّك من الدعاء الاتصالُ لا الإجابةُ :

أيها الإخوة ، حظك من الدعاء ـ دقق ـ حظك من الدعاء ليس الإجابة ، ولكن الاتصال ، الإجابة محققة أو غير محقق ، إن كان تحقيقها لصالحك فهي محققة ، وإن لم يكن تحقيقها لصالحك فهي ليست محققة،

هي محققة من دون دعاء ، ولا تحقق مع الدعاء الدعاء وسيلة للاتصال عز وجل ، ولأن تذوق طعم القرب منه ، وحلاوة المناجاة له ، لكن الذي يفعله الله هو الأصلح له ، أعجبك أم لم يعجبك ، وسوف يعجبك .

معنى : إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

لكن :

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

هذه الآية تحمل على معنيين :

المعنى الأول :

(لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

في الدعاء ، بالإطالة ورفع الصوت .

المعنى الثاني :

ولكنه أيضاً :

(لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

على إخوانهم ، وعلى المؤمنين ، أيّ إنسان يعتدي لا يلهم الدعاء ، هناك حجاب عن الله ، عدوانه يبعده عن الله عز وجل ، والمعتدي لا يستطيع أن يدعو الله لوجود حجاب كبير .

صورٌ مِن العدوان في الدعاء :

1 – إطالةُ الدعاء : :

إخواننا الكرام ، أحياناً الدعاء فيه عدوان بالإطالة ، من أدعية النبي :

((اللهم أنا بك وإليك ، اللهم ارزقني طيباً واستعملني صالحاً ، اللهم اهديني واهدي بي))

الدعاء مختصر ، العدوان بالدعاء بالإطالة ، أو برفع الصوت .

2 – العدوانُ من حيث المضمونُ :

لكن هناك عدوان في مضمون الدعاء ، مثلاً : يا رب ، يا عزيز ، مليون ليرة إنكليز ، يريد مالا .

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة يونس)

اطلب الهداية ، اطلب الإيمان ، اطلب عملا صالحا ، اطلب أن يجعلك الله عليماً ، أن يجعلك داعية ، اطلب زوجة صالحة ، يا رب امرأة جميلة ، اطلبها صالحة .

لذلك هناك عدوان في مضمون الدعاء ، طبعاً الأنبياء قمم في الكمال ، لكن ليعلّمنا الله من بعض الآيات :

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة هود)

أحيانا يقال : يا رب انتقم منه ، الله ينصر دينه بالقوي ، من دون أن يشعر ، صدقوا أيها الإخوة ، ولا أبالغ ما مِن قوي على وجه الأرض طاغية من آدم إلى يوم القيامة ، إلا ويوظفه الله لخدمة المؤمنين ، لكن خدمة سلبية ، وليست إيجابية ، لخدمة أهل الإيمان ، من دون أن يشعر ، ومن دون أن يريد ، ومن دون أجر ولا ثواب ، هذا له دور ، دوره أن يشد الناس إلى الله ، شدته ، وغلظته ، وطغيانه ، وجبروته يلجئ الناس إلى باب الله .

لذلك مرة سُئل تيمورلنك : مَن أنت ؟ والله أجاب إجابة رائعة ، قال : " أنا غضب الرب " ، الإنسان يغضب يكسر ، يرفع صوته ، يخبط الباب ، إذا غضب الواحدُ الديان يرسل طاغية ، إن حسنت لم يقبل، إن أسأت لم يغفر ، إن رأى خيراً كتمه ، عن رأى شراً أذاعه ، وما مِن إنسان يطغى إلا ويسوق الناس إلى باب الله ، تجد البلاد الغنية جداً مستغنية عن الله ، وبلاد فيها مشكلات كثيرة ، تجد المساجد ممتلئة ، الحجاب منتشر ، الشباب في المساجد ، هل تعلم ما السبب ؟ شدة شديدة جداً ، هذا القوي لو يعلم أنه موظف عند الله لخدمة المؤمنين لا يصدق ، وبلا أجر ، وبلا ثواب ، وبوزر وعقاب .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص الآية : 4)

هذا الدليل :

(عَلَا فِي الْأَرْضِ)

ولمجرد أن قيل له : سيأتي طفل من بني إسرائيل يقضي على ملكه ، القضية سهلة جداً ، أي طفل يجب أن يقتل ، والمولّدة التي لا تبلغ عن طفل ذكر تُقتَل مكانه .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

دقق الآن :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

اصطلح مع الله فقط ، اصطلح مع الله يغير الله لك كل شيء .

وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا

الآية التي بعدها :

(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا)

هل بإمكانك أن تلغي إشراق الشمس ؟ لا ، بزوغ القمر ؟ لا ، نظام الليل والنهار ؟ لا ، خصائص المعادن ؟ لا ، هذه لا تأتمر بأمرك ، لكنك مخير فيما كلفت ، بإمكانك أن تصدق أو أن تكذب ، أن تخلص أو أن تخون ، أن تحسن أو أن تسيء ، أن تنصف أو أن تجحد ، بإمكانك .

فلذلك أيها الإخوة ، ما دام هذا بإمكانك إياك أن تفسد في منهج الله ، تزوجت زوجة ، إياك أن تسمح لها أن تبرز مفاتنها في الطريق ، أنت أفسدتها ، لما سمحت لها أن تخرج هكذا انتبهت إلى مفاتنها ، فأصبحت تظهرها لا لك بل لمن لا يستحقها ، بل للأجنبي ، بل للذئاب ، أنت أفسدتها ، ربيت أولاداً ربهم على طاعة الله ، لا على منهج استوردناه من الغرب .

(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ)

الآن موضوع ثانٍ ، أول آية :

(تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)

هنا

(خَوْفًا وَطَمَعًا)

خوفاً من صفات جبروته ، ومن صفات جلاله .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

جبار منتقم ، ينتقم من العصاة ، ادعو ربك أن تنجو من صفات جبروته ، من صفات جلاله ، من صفات قدرته ، واطمع في صفات غفرانه ورحمته ، خوفاً من صفات جلاله ، وطمعاً بصفات كماله ، خوفاً من جبروته ، وطمعاً برحمته .

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ)

هنا الآن محط الشاهد هنا .

إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ

(إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

ما عند الله لا تناله بالدعاء ، بل بالعمل بالإحسان ، أحسن إحسانك يقربك من رحمة الله .

1 – معنى : قريب :

قريب صيغة مبالغة على وزن فعيل بمعنى مفعول ، كقتيل يعني مقتول يعني

(إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

مقتربة ، أو مقربة من المحسنين ، إحسانك يقربك منها ، وهي مقتربة من إحسانك ـ كلام دقيق ـ هي اسم مفعول .

(إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ)

مقتربة منك ، من إحسانك ، إحسان مقرب ، الإحسان اسم فاعل ، اسم المفعول رحمة الله ، رحمة الله عطاءه ، رحمة الله الصحة ، رحمة الله زوجة صالحة ، سمعة طيبة من رحمة الله ، أولاد أبرار من رحمة الله ، رزق وفير من رحمة الله ، عمر مديد في طاعة الله من رحمة الله ، سكينة من رحمة الله ، حكمة من رحمة الله ، أمنٌ من رحمة الله ، سعادة من رحمة الله ، فعطاء الله في الدنيا والآخرة المادي والمعنوي مجموع بكلمة رحمة الله .

(إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ)

توفيقه ، تأييده ، حفظه ، نصره ، ألقى في قلبك السكينة ، ألقى في قلبك الأمن ، ألقى في قلبك السعادة، ألقى عليك الهيبة ، خافك فمن حولك ، كلها من رحمة الله ، لك سمعة عطرة ، لسانك على كل فم ، ذكرك على كل لسان ، برحمة الله ، هي قريب يعني مقتربة ، بمعنى فعيل ، قريب على وزن فعيل ، كأن تقول : جريح ، أي مجروح ، مقتربة ، من أي شيء ؟

(مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

2 – الإحسانُ عامٌّ : مِّنَ الْمُحْسِنِينَ :

أحسن ، أحسن إلى زوجتك ، إلى أولادك ، إلى زبائنك ، إلى مرضاك ، إلى موكليك أيها المحامي ، إلى صاحب البناء أيها المهندس ، راقب الصب ، لا تهمل واجبك ، بائع أعط الناس بضاعة تقبلها أنت، تأكلها أنت إياك أن تسيء للناس ، إحسانك يحقق أهدافك من الدعاء ، الدعاء حظك منه القرب من الله ، أما مضمون الدعاء فلا يكون بالدعاء ، بل يكون بإحسانك للخلق .

((إنَّ اللَّهَ تَعالى كَتَبَ الإحْسانَ على كُلِّ شَيْءٍ ، فإذا قَتَلْتُمْ فأحْسِنُوا القِتْلَةَ وَإذا ذَبَحْتُمْ فأحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[رواه شداد بن أوس عند مسلم]

تقول رجل صبور ، وامرأة صبور ، رجل معطار يستخدم العطر كثيراً وامرأة معطار ، رجل قتيل ، وامرأة قتيل .

(إنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قريبٌ)

للذكر والأنثى ، اللغة هكذا ، أما إذا لم تقل : امرأة قتيلة ، مع كلمة امرأة لا تذكر ولا تؤنث ، امرأة هي المؤنث ، امرأة قتيل ، الآن يقولون النائب فلانة ، القاضي فلانة .

(إنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قريبٌ إنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قريب)

هذه قضية لغوية ،

(مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

المحسن إحسانه يقرّبه من الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(24-60): تفسير الآيتان 57 - 58 ، الفرق بين الرياح والريح - والبلد الطيب يستحق رحمة الله تعالى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-08-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السابعة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

لابد لهذا الكون من خالق :

أيها الإخوة ، في العقل البشري مبادئ ثلاثة ، من هذه المبادئ مبدأ السببية ، مبدأ الغائية ، مبدأ عدم التناقض ، فالعقل إذا جال جولة في الكون يرجع بحقيقة ، وهي أن هذا الكون لا بد له من خالق ، لأن فيه حكمة ، والحكمة تدل على الحكيم ، وفيه قدرة ، والقدرة تدل على القدير ، وفيه علم ، والعلم يدل على العليم . فالإنسان إذا فكر في ملكوت السماوات والأرض ، ونفذ قوله تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ *الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

يستنبط أنه لا بد لهذا الكون من خالق ، من هو هذا الخالق ؟ يأتي الجواب في القرآن الكريم :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة السجدة الآية : 4)

أنت استنبطتَ ، ووصلت إلى أن لهذا الكون خالقاً ، فمَن هو الخالق ؟ الجواب أتي في الكتاب ، فالكون والقرآن يتكاملان ، القرآن يقول لك : القوة التي حكمت أنها وراء هذا الكون القوة العليمة ، القوة الحكيمة ، القوة الرحيمة ، هي الله :

(اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ

1 – هُوَ الَّذِي

الآن :

(وَهُوَ)

تعود على الله ، والله

(هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)

وهو الذي مد الأرض ، وهو الذي خلقكم ،

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(وَهُوَ الَّذِي)

العقل وصل إلى حقيقة قطعية ، أنه لا بد من هذا الكون من خالق ، ومن مربٍّ ، ومن مسيّر ، ون خلال هذا الكون يتضح أن الخالق قدير ، وعليم ، وحكيم ، ورحيم ، وقوي ، تأتي الآية الكريمة ، هل عرفت من هذه القوة التي خلقت فأبدعت ؟ إنها الله .

(وَهُوَ)

تعود على الله ، علم على الذات .

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)

2 – يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ

هذه الرياح هي الهواء ، والحقيقية أيها الإخوة أن هناك آيات كبيرة جداً وإحدى أكبر هذه الآيات الهواء، الهواء إذا تحرك بسرعة تفوق المئة متر وقد تصل إلى ألف .

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ)

(سورة المدثر)

والأعاصير ، كيف أهلك الله عاد :

(بريح صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)

(سورة الحاقة)

في بعض البلاد سرعة الأعاصير تقترب من ألف كيلومتر ، هذه السرعة تدمر كل شيء ، هذا الهواء، فإذا كان متحركاً حركةً لطيفة كان من نعيم الدنيا ، هو النسيم العليل ، أحياناً تهب نسمات تبدل الهواء ،

تجعله منعشاً ، تلطف الحرارة ، تجعلها مقبولة ، فبين أن يكون النسيم العليل من نعم الله الكبرى ، وبين أن يكون هواء إذا أسرع يدمر كل شيء ، هذا الهواء له خصائص ، أنت تمشي من خلاله ، ولا تحس به ، لكنه موجود ، والدليل أنه موجود يحمل طائرة وزنها سابقاً 350 طنًّا ، اركب طائرة ، هذه الطائرة فيها 400 راكب ، طبقتان ، فيها وقود 150 طنًّا ، ووزنها 150 ، ووزن الركاب مع حاجاتهم 50 ، من يحملها ؟ الهواء ، الهواء لطيف ، وقوي ، ووسيط ، ولولا الهواء لما سمعتم صوتي ، الدليل : رواد الفضاء على القمر ليس هناك هواء ، يتحادثون باللاسلكي ، يكون إلى جانبه ، بينه وبينه عشرة سنتيمترات .

فالهواء وسيط ، تحب أن تدفئ الغرفة تدفئ الهواء ، تحب تبرد الغرفة تبرد الهواء ، الهواء شفاف ، وجوده لطيف ، موجود وغير موجود ، تمشي في خلاله ، بل هناك ملمح في القرآن الكريم في قوله تعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة الروم الآية : 42)

الإنسان يتصور أنه يمشي على الأرض ، لا ، في الأرض ، في الأرض يعني تحت الطاولة ، أما على الطاولة فهنا ، الإنسان يمشي في السراديب ؟ لا ، في المناجم ؟ لا ، يمشي على الأرض ، ولكن لأن الهواء جزء من الأرض قال الله تعالى :

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ)

معنى جزء أي يدور معها ، 65 ألف كم ، سمكُ طبقة الهواء ، 65 ألف كم ، يدور معها ، وقد يقول قائل : ولو يكن يدور معها ، لو بقي سابتاً ، وهي تدور لكانت سرعة الرياح على وجه الأرض 1600 كم بالساعة ، هذه السرعة لا تبقِ على وجه الأرض شيئاً ، مستحيل أن يبقى بناء ، لأن سرعة الأرض حول نفسها 1600 كم بالساعة ، محيطها 40 ألف ، قسمه على 24 ساعة ، الأرض تدور حول نفسها دورة كل 24 ساعة ، محيطها 40 ألف كم ، سرعتها وهي تدور حول الأرض 1600 كم بالساعة ، لو أن الأرض تتحرك والهواء ثابت لدمر كل شيء ، هل ينتبه الإنسان لهذه النعمة ؟ أن الهواء يدور مع الأرض .

أحيانا لا تكون رياح إطلاقاً ، تركب مركبة فتسرع ، لما تمد يدك من النافذة تحس بتيار من الرياح مخيف ، والهواء واقف ، لكنك تحركت ، وكذلك الأرض ، إن تحركت والهواء ثابت لكانت سرعة الرياح العاتية على سطح الأرض 1600 كم بالساعة ،

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ)

الهواء شفاف ، والهواء لطيف ، والهواء لا تراه بعينك ، وتمشي خلاله ، وهو يحمل طائرة ، الآن هناك طائرة تقل 900 راكب ، مدينة ، يحملها الهواء .

أحياناً تركب طائرة حديثة جداً ، تنظر إلى الخلف ، فتراها كمدينة ، مسافة طويلة جداً ، و المقاعد عشرة صفوف ، ومطابخ ، وحمامات ، وأول طابق ، وثاني طابق ، كلها في الجو ، ما الذي يحملها ؟ الهواء ، فالهواء شفاف ، لطيف ، لا يحس بوجوده ، تمشي خلاله ، إلا أنه إذا تحرك حركة لطيفة أنعشك ، وقلت : يا أخي هذه نسمات لا تقدر بثمن .

بين الرياح والريح :

أحيان تسافر إلى مكان مرتفع ، تجد في وقت العصر نسمات لطيفة جداً ، وأحيانًا تجلس على سطح البحر ، أو على شاطئ البحر تشعر بنسمات لطيفة جداً ، أما إذا أسرعت هذه النسمات انقلبت إلى رياح، أما إذا زادت سرعتها أصبحت ريحاً ، الرياح تجلب الأمطار ، أما الريح تدمر كل شيء .

العلاقة بين الماء والهواء :

لذلك الهواء وسيط ، أنت حينما توقد المدفأة ماذا تسخن ؟ تسخن الهواء ، وحينما تُعمل المكيف ماذا تبرد ؟ الهواء ، وأنت حينما تتكلم ، عبر ماذا تنتقل الأمواج الصوتية ؟ عبر الهواء ، فالهواء من آيات الله الدالة على عظمته ، لكن عظمة الله عز وجل تتبدى في علاقة بين الماء والهواء ، لولا هذه العلاقة لما كان هذا الدرس ، ولما كانت هذه المدينة ، ولما كان إنسان على وجه الأرض ، فهناك علاقة بين الماء والهواء ، الماء سائل كثافته وحدة ، وحدة الكثافة هو الماء ، أي شيء كثافته أقلّ يطفو ، أي شيء كثافته أكبر يرسب بالماء ، فلتر ماء يساوي كغ تقريباً ، الكثافة واحد ، الإسفنج كثافته قليلة جداً ، والحديد كثافته كثيرة جداً .

لذلك قطعة معدنية مهما دقت تسقط ، قطعة فلين مهما كبرت تطفو ، للكثافة ، الماء وضعه العام سائل، أما إذا سخنته يصبح بخاراً ، وإذا بردته يصبح جليداً ، فينتقل من حالة السيولة إلى الغازية بالتسخين ، ومن السيولة إلى الصلب بالتبريد .

الهواء يحمل بخار الماء ، لكن عظمة خلق الله عز وجل أن الهواء يحمل من بخار الماء بمستوى الحرارة ، بكل درجة حرارة يحمل كمية من بخار الماء .

للتقريب : يحمل بدرجة 30 ، والمتر المكعب من الهواء خمس غرامات بخار ماء ، في درجة أربعين يحمل سبعة ، وفي درجة عشر يحمل خمسة ، أو ثلاثة .

لهذا السبب تنزل الأمطار :

الآن من خصيصة الهواء التي تحمل بخار الماء تكون الأمطار ، أشعة الشمس تسلط على البحار ، البحار مساحات من الماء واسعة جداً ، ولو أن الخمس قارات تساوي خمسة أمثال الماء لما كانت الأمطار ، لحكمة أرادها الله أربعة أخماس الكرة محيطات ، والخُمس بر وأرض ، فتسلط على مسطح مائي كبير أشعة الشمس فيتبخر الماء ، هذا البخار يحمله الهواء ، فعندنا هواء يحمل بخار الماء ، وهذا الهواء فيه بخار ماء ، الدليل أن هناك موازين رطوبة ، يقول لك : الرطوبة 29 ، الهواء حامل لبخار الماء ، لكنك لا تراه ، لكن أحياناً يحمل 90 ، فيصبح سحابا ، فلما تكون كثافة بخار الماء عالية تراه سحاباً ، وإذا كانت قليلة لا تراه ، لكنْ أيّ هواء يحمل بخار الماء .

الدليل : ائتِ بإبريق ماء بارد جداً تجد ذرات من الماء قد علقت على جداره الخارجي ، بخار الماء في الهواء لما جاءته البرودة تكثف فأصبح ماء .

إنّ غرفة حارة ترى على البلّور طبقة من ذرات الماء الصغيرة ، إذاً : كل هواء فيه بخار ماء ، أما إذا زادت نسبته إلى درجة عالية جداً فيصير سحابا .

الآن المتر المكعب من الهواء يحمل كذا غرام من الماء ، على شكل بخار ماء هذا منطلق الدرس ، هذا الهواء يحمل بخار الماء ، في مكان حمله الحرارة أربعون ، لو أن هذا الهواء المحمل بالماء انتقل إلى مكان بارد النسبة هناك تختلف ، المكان عشرة ، الهواء بدرجة عشر لا يحمل إلا غراما واحدا ، عنده أربع غرامات زيادة يتخلى عنها ، فتصبح مطرا .

الهواء في المنطقة الحارة مثلاً يحمل خمس غرامات في المتر المكعب ، ولما يساق السحاب إلى منطقة باردة الدرجة عشر صار هناك اختلال في النسبة ، يجب أن يتخلى الهواء عن النسب الزائدة ، الآن دخلنا في الآية .

حركة الهواء نعمة :

الله عز وجل يقول :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ)

كيف تمشي الرياح ؟ الآن الرياح ساكنة هنا ، ومع سكون الرياح يشعر الإنسان بضيق ، ومع حركة الرياح يشعر بنشاط ، لكن لماذا يشعر بالضيق ؟ هو يتنفس فيعطي غاز الفحم ، وغاز الفحم غاز سام ، فلو أن الإنسان جلس تحت لحاف محكم ، بعد ساعة يمكن أن يفارق الحياة ، لأنه أخذ الأوكسجين ،

وطرح غاز الفحم ، فصار الهواء تحت اللحاف كله غاز فحم ، يقول لك : ضاقت نفسي ، لذلك تجديد الهواء مهم جداً ، ولو أنه مبرد ، هواء بارد مشبع بغاز الفحم تضيق النفس به .

ادخل إلى صف في الشتاء ، فيه ستون طالبا تشعر بضيق ، إلى أن تفتح النوافذ ويتبدل الهواء ، فيأتي هواء مشبع بالأوكسجين .

كيف يتحرك الهواء ؟

إخواننا الكرام ، أدق ما في الموضوع أن هذا الهواء الذي يحمل السحاب كيف يتحرك ؟ الهواء في المنطقة الحارة ممدد ، أو مخلخل ، أو كثافته قليلة ، أسماء لمسمى واحد ، ممدّد ، أو مخلخل ، أو كثافته قليلة ، أنا ألاحظ هذا في الطيران ، إذا كنت في جدة مثلاً الطائرة تصعد بزاوية صغيرة في مسافة طويلة جداً حتى تحلق بالجو ، الهواء حار جداً مخلخل ، لا يحملها كما ينبغي ، الهواء في المنطقة الباردة ضغطه مكثف عالٍ يحمل الطائرة .

لذلك الهواء في الحر مخلخل ، ممدد ، ضغطه خفيف ، الهواء في القطبين كثيف وضغطه عالٍ جداً .

هناك قانون : أن الهواء في الضغط المرتفع يتحرك إلى الضغط المنخفض ، عندك غرفة في بيتك ، أشعل مدفأة شتاءً ، إلى أن ترتفع الحرارة حتى 30 ، الحرارة بالغرفة 30 ، وفي خارجها 10 ، معنى ذلك أن الهواء في خارجها مضغوط كثيف ، وكثافته عالية ، والهواء بداخلها الحرارة عالية ، الهواء مخلخل ، ممدد ، كثافته قليلة .

ضع شمعة أمام الباب حتى ترى لهبة الشمعة اتجهت نحو الداخل ، اعكس الآية ، ضع الشمعة في الغرفة لترى اللهيب اتجه نحو الداخل أيضاً ، فينشأ تيار .

لذلك حينما تتعرض الأرض لأشعة الشمس لها حرارة معينة ، والماء له حرارة ، من تباين حرارتين تتباين كثافة الهوائيين ، الهواء الذي على سطح الأرض ، والذي على سطح البحر ، ينشأ نسيم ، أيّ مكان في الأرض ، في الساحل هناك هواء ، جاء من أن الماء استيعابه للحرارة أقلّ ، واليابسة أكثر ، في البحر الدرجة أقل ، اختلف الضغط فتحرك الهواء ، من مكان إلى مكان ، كل هذا الكلام لأشرح لكم قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ)

الهواء في القطبين كثيف جداً ، ضغطه عال جداً ، والهواء في خط الاستواء مخلخل جداً ، ممدد جداً ، ضغطه منخفض جداً ، ينشأ تيار هواء ، من القطب إلى خط الاستواء ، الأرض تدور ، يصبح الاتجاه

مائلا ، يقول لك : ريح غربية ، الرياح الغربية هي رياح القطب متجهة إلى خط الاستواء ، لكن في أثناء دورة الأرض اتجهت نحو الشرق ، فأصبحت رياحا غربية .

هذا معنى قول الله عز وجل :

بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ

البشرى : حينما تكون الأرض قاحلة ما فيها مطر ، ويموت كل شيء ، الأشجار خشب ، الأرض بُنية اللون .

(فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

(سورة الحج)

ما الذي حصل ؟ الذي حصل أن بذور النباتات كامنة في الأرض وكأنها ميتة .

في أهرامات فرعون وجدوا قمحا مخزّنا من ستة آلاف عام ، زُرع هذا القمح ، فنبت ، معنى ذلك أن الرشيم كائن حي ، هذا الرشيم عاش ستة آلاف سنة ، فلما أصابته الرطوبة والماء والهواء نبت .

لذلك في هذه الآية الكريمة يصف الله الأرض الميتة :

(فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

الله الذي آمنتَ به من خلال التفكر :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)

بين تقنين المخلوق وتقدير الخالق :

الرزق في السماء ، لكن يجب أن تعلموا علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى حينما يقنن تقنينه تقنين تأديب ، لا تقنين عجز ، أما الإنسان حينما فإنه يقنن فإن تقنينه تقنين عجز ، أما الرحمن إذا قنن فتقنينه تأديب .

(وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأعراف الآية : 96)

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة الآية : 66)

فالتقنين الإلهي تقنين تأديب ، بينما تقنين البشر تقنين عجز ، تقنين تأديب لقوله تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة الحجر)

الذي قرأت عنه أن سحابة اكتشفت في الفضاء الخارجي عن طريق المراصد العملاقة ، هذه السحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم بالمياه العذبة ، الله هو المعطي ، فلا يسأل ، أما إذا قنن فإن تقنينه تأديب .

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا)

إذا كانت الرياح مدمرة فإن اسمها ريح .

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

أما الهواء إذا تحرك حركة خيرة ، وجلب الأمطار فنسميه رياحا ، أما إذا جاءت الأعاصير فنسميها ريحا .

رحمة الله تعالى بالخَلق من جهة نعمة الماءِ :

الله عز وجل يرحمنا ، فتجد الماء أصل الرزق ، والينابيع تمتلئ ، والأنهار تجري ، وينابيع ماء الشرب تمتلئ ، تمتلئ فتعطينا ماء عذاباً فراتاً طوال العام ، فبالماء نسقي الزرع ، بالماء نتطهر ، الماء تشربه .

أتمنى أن نفكر جادين بموضوعين : الماء والهواء ، من أقرب الموضوعات إلينا ، وفيها دقائق ، وإن ستة عشر مليار طن تسقط من السماء كل ثانية ، على مستوى الأرض طبعاً كل ثانية ، هذا عطاء الله ، ولو أخذنا ملح البحر ، وجففناه ، وفرشناه على سطح اليابسة ، بالقارات الخمس بما فيها الجبال ، والوديان ، والصحارى لكان ارتفاع الملح 86 مترا ، بأي مكان في الأرض ، ملح البحار إذا جمع من البحار ، وجفف ، وفرش على اليابسة على الخمس قارات لكان ارتفاعه 86 مترا .

رحمة الله تقتضي إنزال المطر ، والله عز وجل ثبّت ملايين القوانين ، قوانين الدوران ثابتة ، قوانين الإنبات ثابتة ، قوانين البذور ثابتة ، قوانين خصائص المعادن ثابتة ، إلا أنه حرك الرزق والصحة ، حركهما من أجل أن يؤدبنا بها .

فوائد حركة الرياح :

1 – تغيير الهواء وتجديده :

الآن تحريك الرياح منعش ، كان هناك غاز فحم فجاء مكانه أوكسجين ، أول شيء منعش ، فيه نفَس ، قد نحتاج نحن إلى ربع طاقة التكييف من دون أشخاص ، وكل واحد يبث هواء ساخنا ، هو الزفير ، في الشتاء قد يكون الرجل الواحد مدفأة ، وأحيانا لا يكون في الصف مدفأة ، لكن فيه كثافة عالية جداً ، من نفَس الطلاب تجد الصف معتدل الحرارة ، أول صفة للرياح أنها تجدد هواء الغرفة ، الذي كان مثقلا بغاز الفحم ، الغاز السام القاتل ، فصار مثقلا بالأوكسجين .

2 – تلقيحُ النباتات :

شيء ثان : بحركة الرياح تلقح النباتات .

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ)

(سورة الحجر الآية : 22)

النباتات مذكر وأنثى ، في المذكر عناصر التذكير ، وهي حبوب الطلع ، هذا الطلع ينتقل عبر الهواء إلى المؤنث فتعقد الثمرات ، الرياح لواقح .

تساعد الرياح النحل ، النحل له مهمة التلقيح أيضاً ، وتحريك الرياح بالسحاب المثقل بالرياح ينقل الأمطار من مكان إلى مكان ، إذاً : الرياح متعلقة بالرزق ، متعلقة بالانتعاش ، وعدم التسمم ، متعلقة بخيرات لا يعلمها إلا الله ، أصل الرياح تتحرك ، وقد يقال لك : الجو جامد ، الإنسان يحس بضيق شديد ، أما إذا تحرك الهواء انتعشت النفوس .

حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ

1 – حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا

(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا)

أقلّت أيْ حملت ، الرياح تحمل السحاب ، إلهنا وربنا قال :

2 – سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ

(سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ)

الأشجار خشب ، الأرض بُنية اللون ، بعد الأمطار امش بطريق في الربيع ، أنواع الأزهار لا تعد ولا تحصى ، أين البذور ؟ الأشجار أزهرت ، ثم أورقت ، ثم أثمرت ، المسطحات الأرضية أصبحت خضراء ، على أطراف السواقي الأزهار والرياحين ، كلها طبيعية ، ترى جنة ، هذه النباتات أين كانت؟ كانت بذوراً كامنة ميتة ، فجاء الماء فأحياها .

(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ)

ساقه الله

(لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ)

ساقه لبلاد عديدة كلها ميتة .

فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُل الثَّمَرَاتِ

(فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُل الثَّمَرَاتِ)

أحياناً يقال لك : كيلو المشمش بخمسين ليرة ، أحيانا بسبعين ، وإذا ساق الله عز وجل أمطارا غزيرة يكون بخمس ليرات ، لأنه يكثر ، وأحياناً يكون محصولنا من القمح ستة ملايين طن ، أحياناً 600 ألف طن أقلّ من مليون ، فالله عز وجل بيده الرزق .

(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ)

السحاب لفظٌ مذكر ، وهو اسم جنس ، لأننا لا نقول : سقناها .

قياسٌ لإثبات البعث : كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى

(سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُل الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى)

تجد تربة مدفن من مدافن المدينة ، كيف أنك إذا صببت الماء على التراب حار جاف ، ما فيه حياة أبداً، بعد أسابيع اخضر ، أنبت الحشيش ، أنبت الأزهار ، أين كانت هذه ؟ وكذلك الله عز وجل حينما يأتي يوم القيامة هذه النفوس المدفونة بباطن الأرض .

(وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً)

(سورة نوح)

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُل الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

كما أن الماء ينبت النبات فيوم القيامة ينبت الإنسان ، أين بذرته ؟ ذرة ، في عجُز الإنسان آخر نقطة في عموده الفقري نقطةٌ اسمها عجب الذنب ، هذه تبقى حية في الميت ، هذه البذرة يوم القيامة تنبت ، ورجع الإنسان ليحاسب ، لماذا أكلت المال الحرام ؟ لماذا هدمت البيوت يا فلان ؟ أمد الله بعمره حتى الآن ، 3 سنوات ما كان ليموت ، وقد هدم سبعين بيتا ، لماذا هدمت البيوت ؟ لماذا نهبت الثروات ؟ لماذا قهرت البشر ؟ لماذا ظلمت ؟ لماذا قتلت ؟ لماذا نهبت ؟ ذرة صغيرة ، آخر ذرة بالعمود الفقري تبقى حية ، ومنها ينبت الإنسان ، حتى لو غرق في البحر ، حتى لو سقط من طائرة ، حتى لو احترق ، هذه الذرة عجب الذنب لا تموت ، ومنها ينبت الإنسان .

(وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)

(فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

أحياناً تأتي موجة حر عالية جداً ، 47 درجة ، أصبحنا مثل الخليج ، هل فكر أحدكم ما حكمة ذلك ؟ الله عز وجل حينما قال :

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

(سورة الواقعة)

ثم يقول :

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً)

(سورة الواقعة الآية : 73)

تذكرك بماذا ؟ موجة الحر الـ47 في دمشق بماذا تذكر ؟ بجهنم ،

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً)

جهنم :

(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(سورة البقرة الآية : 24)

أعتقد أن في البراكين ترون بعض الصور ، سيل أسود ، هذه صخور بازلت أقسى أنواع الصخور من شدة حرارة 2000 درجة أصبحت سائل جهنم .

(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

الدرجات بالآلاف ، وليست 47 بالآلاف ، حتى يكون الحجر وقوداً للنار .

لذلك :

(كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

(سورة الأعراف)

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ

بلاد فيها مؤمنون ، فيها صادقون ، فيها موحدون ، فيها محسنون ، ما فيها تفلت ، ما فيها عُري ، ما فيها شرب خمور ، تجد المكان إذا كان فيه أنهار من أول الطريق إلى آخره على الصفين الملاهي ، ماذا في بالملاهي ؟ خمور ، ومغنون ، وراقصات وحرام ، وأوكار للزنا ، بلد فيها ملاه تنتهك فيها الحرمات ، ترتكب فيها المعاصي والآثام ، هذا بلد ليس طيباً ، قال :

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا)

وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا

أي قليلا ، ولا ينتفع به ، يقال لك : موجة صقيع استمرت تسع ثوانٍ ، الحد الأدنى ست ثوان ، دون الست ثوان النبات لا يصقع ، وإذا أتت موجة صقيع على منطقة واسعة جداً يموت البرعم كله .

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة القلم)

تسع ثوان فقط تنهي كل شيء ، أصحاب الجنة أقسموا :

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ)

(سورة القلم)

أي لا يعطون أحد من الفقراء ،

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

العلمُ كالماء : كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ

العلم كالماء ، الماء أحياناً يصيب أرض خصبة ، ينبت الزرع والزيتون والفواكه ، والثمار ، والمحاصيل ، وهناك أرض تحبس الماء ، لكنها لا تنبت ، ينتفع بهذا الماء غيرها ، وهناك أرض تبلع الماء ، وتستهلكه ، ولا تنبت شيئاً ، فالإنسان أحيانا ينتفع بالعلم ، وهناك إنسان ينقله ، فيقدّم خدمة ، وهناك إنسان لا ينتفع به ، ولا ينقله .

(كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(25-60): تفسير الآيات 59 - 62 ، معاناة النبي في نشر هذا الدين العظيم ـ كل الرسالات السماوية واحدة ومتكاملة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-08-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية التاسعة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ

1 – قصصُ الأنبياء تثبت قلبَ النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الإخوة ، هذه الآية مهمتها أن تخفف عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يعانيه من تكذيب ومعارضة ، وقد قال الله عز وجل :

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود الآية : 120)

قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في نصف هذه الآية يزداد ثبوتاً بسماع قصة نبي دونه ، لست وحدك يا محمد الذي يُكذب ، لست وحدك يا محمد الذي يعاني ما يعاني ، لأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، وطّنوا أنفسكم على ذلك ، كان من الممكن أن يكون الكفار في كوكب آخر ، وكان من الممكن أن يكونوا في قارة أخرى ، وكان من الممكن أن يكونوا في حقبة أخرى ، ولكن شاءت حكمة الله أن نجتمع معاً في كل زمان ومكان ، وهذا الاجتماع يقتضي معركة أزلية أبدية من آدم إلى يوم القيامة .

2 – لابد من الابتلاء في الدعوة إلى الله :

حينما يوطن الإنسانُ نفسَه على واقع يقبله ، ويتعامل معه ، ومعركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، يا محمد لست بدعاً من الرسل ، لست وحدك الذي تُكذب ، لست وحدك الذي تؤذى ،

قال عليه الصلاة والسلام : عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان]

((قال : يا رسول الله إني أحبك ، قال : انظر ما تقول ، قال : والله إني أحبك قال : انظر ما تقول ، قال : والله إني أحبك ، قال : إن كنت صادقاً فيما تقول للفقرُ أقرب إليك من شرك نعليك))

[ورد في الأثر]

هناك ابتلاء وامتحان .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ)

(سورة البقرة الآية : 214)

مستحيل وألف ألف مستحيل ألا تمتحن ، أو ألا تبتلا . قيل للشافعي : " يا إمام ، أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال : لن تمكن قبل أن تبتلى " . قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

يا محمد لست :

(بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف الآية : 9)

لست وحدك الذي تُكذَّب ، لست وحدك الذي تُعارَض ، لست وحدك الذي يُنكل بك ، هذه سنة الله في الخلق . فاتني أن أقول لكم : لماذا أراد الله أن نكون معاً ، في كل زمان ، وفي كل مكان ؟ لماذا أراد أن يكون أهل الحق مع أهل الباطل في كل مكان ؟ على مستوى الأسرة ، على مستوى الحي ، على مستوى الدائرة ، على مستوى المستشفى ، على مستوى المدرسة ، أناس مع الحق في أعلى درجة من الكمال ، أناس في أدنى درجة من السخف والاستهزاء والتنكيل ، هذه سنة الله في الأرض ، الحكمة منها أن الحق لا يقوى إلا بالتحدي ، وأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالتضحيات .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

يجب أن تؤمن أن الابتلاء أحد سنن الله في الأرض ، أنت ممتحن .

3 – الإنسانُ ممتَحَنٌ في كل شيءٍ :

بالمناسبة : أنت ممتحن فيما أعطاك الله ، أعطاك صحة ممتحن بها ، أعطاك مال ممتحن به ، أعطاك مكانة ممتحن بها ، أعطاك علم ممتحن به ، وممتحن أيضاً فيما زوي عنك ، كنت تتمنى أن تكون ذا دخل غير محدود ، فدخلك محدود ، هذا امتحان ثانٍ ، كنت تتمنى أن تكون لك زوجة على نمط آخر ، فكانت على نمط لا يرضيك ، هذا امتحان ثانٍ ، أنت ممتحن فيما أعطيت ، ممتحن فيما زُوِيَ عنك .

لذلك من أدق أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ اللَّهُمَّ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ]

يا رب ، أعني على توظيفي في مرضاتك ، قال تعالى :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص الآية : 77)

ابتغ بالمال الدار الآخرة ، ابتغ بوسامتك الدار الآخرة ، ابتغ بفصاحتك الدار الآخرة ، ابتغ بعلمك الدار الآخرة ، ابتغ بغناك الدار الآخرة ، ابتغ بوجاهتك الدار الآخرة ،

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

لذلك :

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ اللَّهُمَّ ، وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ]

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[مسلم]

يا محمد لا تحزن ، لا تحزن ، لا تضجر ، لا تيأس .

(مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف الآية : 9)

الأنبياء السابقون كُذبوا ، وأوذوا ، وسُخر منهم ، وكلما مر عليه ملأ من قومهم سخروا منه ، والآن المؤمن يُسخر منه ، محدود ، جامد ، متزمت ، لا يتحرك ، لا يطلع على ما في الدنيا من مباهج ، يخاف من المرأة أن يختلط بها .

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

الكافر يضحك قليلاً ، وسيبكي كثيراً ، أما المؤمن فقد يبكي قليلاً ، ولكن سيضحك كثيراً ، حينما يولد الإنسان كل من حوله يضحك ، وهو يبكي وحده ، أما إذا وافته المنية فكل من حوله يبكي ، فإذا كان بطلاً يضحك وحده .

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

(سورة يس)

لذلك :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)

فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ

قال بعض علماء البلاغة :

(لَقَدْ)

تقترب من القسم ،

(لَقَدْ)

حرف تحقيق ، كأن تقول : والله لقد زرتك ، أو لقد زرتك ، تقترب من القسم .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ)

علّة وجود الإنسان عبادةُ الله وحْدَه :

علة وجودنا أن نعبد الله من الجهة التي ينبغي أن نعبدها ؟ الجهة التي خلقت ، والجهة التي صورت ، والجهة التي أبدعت ، والجهة التي ترزق ، والجهة التي تحي وتميت ، هذه الجهة ينبغي أن تعبدها .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

لا إله بحق ، ولا رافع ، ولا خافض ، ولا معز ، ولا مذل ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا رازق ، ولا جبار إلا الله ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية : 2)

يا رب ، ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد مَن فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

صحتك ، أجهزتك ، حواسك ، زوجتك ، أولادك ، رزقك ، دخلك ، مَن هم أقوى منك ، من هم أضعف منك ، من هم كانوا على شاكلتك ، كل أمورك بيد الله . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه]

((اعمل لوجه واحد يكفِك الوجوه كلها))

[أخرجه ابن عدي والديلمي عن أنس]

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

((لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه))

[مسند الفردوس عن علي بن أبي طالب]

هذا التوحيد ، التوحيد أن توحد وجهتك إلى الله ، التوحيد أن تتوكل على الله التوحيد أن ترضي الله ، التوحيد أن تتقي سخط الله ، التوحيد أن تتعامل مع الله وحده .

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

حينما يتخذ الإنسان إلهاً آخر الآن سيرضي هذا الإله الآخر ، سواء كان رجلا قويا ، رجلا غنيا ، قد يتخذ شهوته إلهاً ، إذا كان يحب زوجته ، وكانت فاسقة ويرضيها من أجل أن تبقى عليه راضية فقد اتخذها إلهاً ، إذا أراد أن يرضي ابنه في معصية الله اتخذه إلهاً ، إذا أراد أن يرضي من فوقه ، وخاف أن يصوم في رمضان فأفطر أمامه اتخذه إلهاً . لذلك أيها الإخوة ، الذي يتخذ من دون الله إلهاً أمامه عذاب عظيم ، لأنه سوف يخرج عن منهج الله ، وسوف يرضي هذا الإله الذي اتخذه إلهاً ، ولئلا تقعوا في حيرة ، كأن يقول إنسان لإنسان : أنت إله ، لكن يعامله كإله ، إذا أمره بمعصية ينفذ أمره فوراً ، إذا أبعده عن عمل خير ينفذ أمره فوراً ، أنا لا أقول : في عالم المسلمين من يقول : هذا إله ، لكن العبرة أنه يُعامل كإله ويُطاع في معصية .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ)

العبادة طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ،

(اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

سيدنا عمر كان له مظهر لم يكن يُرضي بعض ولاة الشام ، قال له أحدُهم : يا أمير المؤمنين ، أهكذا تقدم عليهم هكذا ؟ قال له : << يا أبا عبيدة ، والله لو قالها غيرك لنكلت به ، نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ومهما ابتغينا العزة بغير الله أزلنا الله >> . انظروا إلى المسلمين اليوم ، يبتغون العزة بغير الله ، بعلاقات طيبة مع أعدائهم ، بتطبيع العلاقات ، بالخضوع والانبطاح ، هؤلاء حينما يفعلون هذا يزدادون عند الله ذلاً ومهانة ، ومهما ابتغينا العزة بغير الله أذلنا الله .

عداوة الكفار لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام :

أيها الإخوة ، لماذا العداوة التي صُبت على النبي عليه الصلاة والسلام ؟

بالمناسبة ، كلما ارتقيت في سلم النجاح ازداد الخصوم ، حتى في بعض الأقوال أنه " لا بد للمؤمن من مؤمن يحسده ، ومن منافق يبغضه ، ومن كافر يقاتله ، ومن نفس ترديه ، ومن شيطان يغويه " . الأنبياء جميعاً كان لهم مكان محدد ، وزمان محدد ، لكل قوم نبي ، زمان محدد مكان محدد ، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام أُرسل إلى كل الأمكنة ، هو :

(رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

(سورة الأنبياء)

أُرسل إلى كل الأزمنة ، إلى نهاية الدوران ، لا شك أنه سيد الأنبياء والمرسلين ورسالته تشمل الأمم أجمعين ، والأزمنة كلها ، فلذلك كان التكذيب . بالمناسبة : لماذا أوذي النبي في الطائف ؟ لأنه قدوة لنا، قدوة للدعاة إلى يوم القيامة ، أي إنسان دعا إلى الله ، هناك من عارضه ، هناك من انتقده ، هناك من مكر به ، هناك أقوياء عليه ، لك في النبي أسوة حسنة ، ذهب إلى الطائف وكُذب ، وسُخر منه ، وأغري الصبيان بأن يضربوه ، وضربوه ، وسال الدم من قدمه الشريف ، قال :

((يا رب ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

مَن أنت أمام النبي عليه الصلاة والسلام ؟ لما قال :

((يا رب ، إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا رب المستضعفين إلى من تكلني ؟ إلى صديق يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

هذا الدعاء يصلح لكل مسلم الآن ، لكل مسلم ، لأن الذي يعانيه المسلمون شيء لا يحتمل ، إن كان هناك من خط بياني فهم في الحضيض الآن ، العالم كله يتّهمهم بالإرهاب وبالجهل وبالتخلف ، العالم متفق على التنكيل بهم ، متفق على إفقارهم ، متفق على إضلالهم متفق على إذلالهم ، متفق على إفسادهم ، متفق على إبادتهم . دعاء النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف يصلح لكل مسلم الآن ، ولكن أراد الله أن يمكنه من أن ينتقم منهم ، فجاءه ملك الجبال قال :

((إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن عائشة]

الْأَخْشَبَيْنِ : أي الجبلين ، هنا البطولة ، لم ينتقم منهم ، قال :

((بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

لم يتخلَ عنهم ، ودعا لهم ، واعتذر عنهم ، إنهم لا يعلمون ، وتمنى على الله أن ينجبوا ذرية صالحة ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده . الخط البياني في النهاية ، جاء الإسراء والمعراج ، قال تعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

(سورة الإسراء الآية : 1)

لو أن شخصا ضعيفا في حفظ القرآن الكريم أيّ كلمتين تناسبان هذه الآية ؟ أنا أعتقد :

(إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الأحقاف)

لأنه نقله من مكة إلى بيت المقدس ، أسرى به ، وعرج به إلى السماوات العُلا حتى بلغ سدرة المنتهى، إذاً :

(إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

لكن الآية ليست كذلك ، قال تعالى :

(إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

(سورة الإسراء الآية : 1)

يا محمد سمعنا دعاءك في الطائف ، سمعنا تضرعك ، سمعنا أنك قلت : إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، سمعنا دعائك في الطائف ، وهذا هو التكريم ، أنت سيد الأنبياء والمرسلين .

العبرة بالنتائج والخواتيم :

لذلك أيها الإخوة ، ما من محنة تصيب المؤمن إلا ووراءها منحة من الله ، وما من شدة تصيب المؤمن إلا ووراءها شدة إلى الله .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

العبرة بالنتائج ، هؤلاء الأقوياء الأشداء المسيطرون في عهد النبي زعماء قريش ، سادة قريش ، كبراء قريش ، علية القوم ، الأغنياء ، الأقوياء ، الذين تفننوا في التنكيل بأصحاب النبي ، أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ ، قل : أبو جهل ، ماذا تقول بعدها : الله يرضى عنه ؟! دمره الله ، لعنه الله ، قل : سيدنا الصديق ، رضي الله عنه وأرضاه ، سيدنا عمر ، هؤلاء الذين وقفوا مع الحق هم في أعلى عليين، الحياة هكذا ، إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تقف في خندق معاد لدين الله ، كن مع الحق ، كن ذنباً لأهل الحق ، ولا تكن رأساً لأهل الباطل ، أهل الحق ما عندهم أذناب أبداً ، لكن هذا تعبير مستخدم الآن، ولا تكن رأساً لأهل الباطل .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية : 10)

سيدنا بلال عبد حبشي ، قال له سيده لسيدنا الصديق : والله لو دفعت به درهماً لبعتُكَه ، قال له : << والله لو طلبت به مئة ألف درهم لدفعتها لك >> . اشتراه ، ووضع يده تحت إبطه ، قال : << هذا أخي حقاً >> ، كان الصحابة الكرام إذا ذكروا الصديق يقولون : << هو سيدنا ، وأعتق سيدَنا >> ، أيْ بلالاً ، هذا الإسلام ، الإسلام ما فيه فروق طبقية أبداً ، الإسلام ما فيه تمايز ، ما فيه عنصرية . أيها الإخوة ، إذاً النبي أوذي في الطائف ، لأنه قدوة للدعاة من بعده إلى يوم القيامة . السيدة عائشة السيدة الأولى ، المصون ، العفيفة ، الطاهرة ، اتهمت في أقدس ما تملكه امرأة ، لماذا اتهمت ؟ لتكون أسوة لكل مؤمنة إلى يوم القيامة بريئة وطاهرة واتهمت الله عز وجل جعل من الصحابة نماذج تحتذى .

قصص الأنبياء نماذج وقوانين :

الآن قصص الأنبياء لمن ؟ للأنبياء ؟ ماتوا ، لمَ يقول جل جلاله :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

1 – قصة سيدنا يونس :

سيدنا يونس وجد نفسه في بطن حوت ، وإذا كانت الأسعار غالية ، عندك مشكلة ، عندك كساد ، هل تساوي هذه أن تجد نفسك في بطن حوت في الليل في أعماق البحر ؟ هل من مصيبة أكبر من أن تجد نفسك في بطن حوت ؟ الحوت وجبته المعتدلة أربعة أطنان ، أنت لقمة واحدة ، يرضع وليده 300 كغ في اليوم 3 مرات ، طن من حليب كل يوم ، يفتح فمه فيجمع 4 أطنان بين الظهر والعصر ، نبي كريم وجد نفسه في بطن حوت :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

(سورة الأنبياء الآية : 88)

هذه القصة وانتهت ، الآن قلبت إلى قانون :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

في أي عصر ، في أي مصر ، في أي مكان ، في أي زمان ، بأي خطر

(وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ)

لمن هذه القصة ؟ لنا .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء)

2 – قصة سيدنا موسى :

بالمعطيات الأرضية ، فرعون بجبروته ، بطغيانه ، بأسلحته الفتاكة ، بحقده ، بتألهه ، يتبع نبياً كريماً، وشرذمة من بني إسرائيل ، هل هناك أمل بالنجاة ، إلى أن وصلوا إلى البحر ، البحر أمامهم ، وفرعون وراءهم ، لا أمل ، الأمل صفر :

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

الله على كل شيء قدير ،

(وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

أيها الإخوة ، إذاً : قصص الأنبياء أيضاً تثبيت للمؤمنين .

3 – قصة سيدنا يوسف :

سيدنا يوسف قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف الآية : 23)

جعله عزيز مصر ، وكل الأنبياء والمرسلين قصصهم درس لنا . بالمناسبة : كل قصة من القصص المتكررة عولجت في القرآن الكريم ، وهي قصص متعددة ، وكلّ مكان من زاوية ، وكل مكان لهدف ، نجمع ما قيل في سيدنا موسى في كل السور تجد القصة متكاملة ، نجمع ما قيل في سيدنا نوح من كل الصور قصص متكاملة ، إلا قصة واحدة عولجت في سورة واحدة هي قصة سيدنا يوسف ، لأن مغزاها التوحيد ، فإخوة يوسف أرادوا به كيداً ، وضعوه في غيابات الجب ، واحتمال الموت 99 % ، فالذي حصل أنه صار عزيز مصر ، وخضعوا له ، وخروا له سجداً ، قال :

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)

(سورة يوسف الآية : 100)

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ)

(سورة يوسف الآية : 90)

سورة يوسف فيها آية واحدة هي المغزى ، دققوا في هذه الآية :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

أنت تريد وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد ، عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك ، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك وما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد .

(قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الأعراف)

قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

1 – مَن هم الملأ ؟

من هم الملأ ؟ الملأ علية القوم ، سادة القوم ، أو الذين يملؤون عينك مهابة شخصية مرموقة ، شكل ، منطق ، هدوء ، وقار

(قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ)

أي سادة القوم ، أو الذين يملؤون العين وقاراً ومكانة .

2 – تهمة قديمة : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

(إِنَّا لَنَرَاكَ)

يا نوح

(فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

ضلال اسم جنس ، كل الذي قلته من الضلالات ، هكذا اتهام .

يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

قالوا :

(إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ)

اسم جنس .،

1 – الردّ : يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ

قال :

(يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ)

لو قال لك واحد: أعندك خبز ؟ قلت له : والله ما عندي كسرة خبز ، أنت حينما نفيت الجزء ماذا أردت من ذلك ؟ أن تنفي الكل ، يقول لك : أعندك رغيف ؟ تقول له : ما عندي كسرة خبز .

(إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ)

ولا ضلالة واحدة ، أنا يوحى إلي ، هذا كلام رب العالمين .

2 – النبيّ نبيٌّ يوحى إليه : وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ

بالمناسبة : أعداء المسلمين بمكر خبيث يوهموننا أن نبينا محمد عبقري ، مصلح اجتماعي كبير ، رجل فذ ، لا ، نبينا نبي يوحى إليه ، النبي عليه الصلاة والسلام لا يُطرح في مجتمع المسلمين على أنه

عبقري ، ولا على أنه مصلح ، هو نبي هذه الأمة ، يتلقى وحياً من السماء ، لذلك الإسلام ليس كما يفهمه أعداء الإسلام ، أنه منتج أرضي للتراث ، لا ، ليس تراثًا ، الإسلام وحي السماء ، الوحي لا علاقة له بالبشر . الدليل : لما اتهمت السيدة عائشة رضي الله عنها ، لو أن الوحي من عند النبي بعد دقيقة تأتي آية التبرئة ، أربعون يوما بغير إثبات ، ولا نفي ، حتى يعلمنا الله أن هذا الوحي مستقل عن النبي الكريم ، لا يملك له استدعاءاً ولا رداً . فلذلك :

(وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

هذا الإله العظيم الذي يربيكم ، الذي يعتني بكم ، الذي يمدكم بالهواء بالماء ، بالطعام ، بالشراب ، بما تشتهون ، بالمعادن ، بأشباه المعادن ،

(وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

1 – معنى : أُبَلِّغُكُمْ

(أُبَلِّغُكُمْ)

بلغ ، سافر من دمشق فبلغ حلب ، وصلها بالتمام والكمال ، البلاغ بيان كامل ، بيان شامل ، بيان واضح ،

(أُبَلِّغُكُمْ)

كلنا إذا وقفنا أمام قبر أن النبي ماذا نقول ؟ أشهد أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت في الله حق الجهاد ، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد .

2 – أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي)

لماذا جاءت جمعاً ؟ لمَ لمْ يقل أبلغكم رسالة ربي ، إشارة إلى أن جميع الرسالات واحدة ، يعني جئت برسالة سبقها رسالات ، لذلك :

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة الآية : 285)

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

فحوى دعوة الأنبياء واحدة ، ملخصة بكلمتين :

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل العبادة .

3 – وَأَنصَحُ لَكُمْ

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ)

أنصح لكم في كل شيء ، في حياتكم ، في شؤون حياتكم ، رسالة مطولة . والله لا أبالغ ، هذا الذي يتوهم أن الإسلام صوم ، وصلاة ، وحج وزكاة ، هذا إنسان واهم ، الإسلام ولا أبالغ 500 ألف بند ، يبدأ من فراش الزوجية ، وينتهي بالعلاقات الدولية ، منهج كامل ، أما حينما ظنه المسلمون عبادات شعائرية صار حالهم إلى ما آل إليه ، الإسلام ليس في المسجد ، بل في بيتك ، في كسب مالك ، في إنفاق مالك ، في علاقاتك مع النساء ، في نزهاتك ، في أفراحك ، في أتراحك ، في سفرك ، في حلك ، في ترحالك ، الإسلام منهج كامل .

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

4 – وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

إخواننا الكرام ، مرة ثانية أستخدم هذا المثل الطويل : قال لك طفل: معي مبلغ عظيم ، والده مدرس ، عقب أيام العيد قال لك : معي مبلغ عظيم ، أنت تقول : 200 ليرة ، مسؤول كبير بالبنتاغون يقول لك : أعددنا لحرب العراق مبلغاً عظيماً ، تقدره 200 مليار دولار ، فإذا قال ملك الملوك :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

من 200 ليرة إلى 200 مليار ، ضرب خمسين ، الآن أقلّ من خمسين ، فإذا قال خالق السماوات والأرض :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

يعني أنّ أعظم فضل على الإنسان أن يعرف الله . ابن آدم اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .

رتبة العلم أعلى الرتب :

في دمشق ثانوية ضخمة جداً ، وأضخم ثانوية كانت كأنها جامعة قديماً ، كتب في مكان مرتفع من مدخلها : " رتبة العلم أعلى الرتب " ، وما مِن رتبة عند الله أعلى من العلم ، قال تعالى :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر الآية : 9)

قال تعالى :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة الآية : 11)

قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام الآية : 132)

القرآن اعتمد قيمتين فقط : قيمة العلم ، وقيمة العمل ، وأما القيم الأخرى فلم يعبأ بها القرآن ، الوسامة، والذكاء ، والغنى ، والقوة ، هذه قيم أغفلها القرآن الكريم .

((رب أشعث أغبر ذي طمرين ، مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة]

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ* خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

(سورة الواقعة)

الذين كانوا في الأرض في القمم ، قد تجدهم يوم القيامة في الحضيض ، والذين كانوا في الحضيض في المقياس الاجتماعي موظف بسيط ، لكنه مستقيم ، قد تجده يوم القيامة في القمم :

(خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

تماماً كهذه القلابة ، التي فيها مقاعد متتالية تارةً تكون في الأسفل ، ثم في الأعلى ،

(خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

هكذا الحياة . لذلك :

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر]

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

الله عز وجل في بعض الآيات الكريمة يقول :

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

(سورة الشورى الآية : 13)

الدين واحد ، أما الشرائع فمختلفة ، بحسب العصور والتطورات والأنصار وشريعتنا .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(26-60): تفسير الآيات 65 ـ 72 ، صفات عاد الأولى تنطبق على صفات عاد الثانية ـ للذكر معانٍ عديدة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-08-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والستين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

قومُ عاد :

1 – قومُ عاد مَثَلٌ للذين من بعدِهم :

أول شيء قوم عاد ضرب الله مثلاً بهم للأمم الطاغية الباغية المستكبرة المعتدية .

2 – قومُ عاد تفوّقوا في المجالات الدنيوية :

لذلك لو حللنا مجموعة الصفات التي وصفوا بها في القرآن الكريم لأخذنا العجبُ العجاب ، هؤلاء القوم تفوقوا في شتى المجالات ، قال تعالى :

(لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

وهؤلاء القوم كانوا متغطرسين .

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

وهؤلاء القوم تفوقوا في البنيان ، قال تعالى :

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

(سورة الشعراء)

وهؤلاء القوم بظاهر الآية تفوقوا في الصناعة :

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء)

وهؤلاء القوم تفوقوا في الناحية العسكرية ، قال تعالى :

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

وهؤلاء القوم تفوقوا في الناحية العلمية ، قال عزوجل :

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت)

تفوقوا في شتى المجالات ، تغطرسوا ، استكبروا ، تفوقوا في العمران ، في الصناعة ، في الحرب ، في العلم .

3 – قومُ عاد قوم طاغون معتدون مفسدون :

وهؤلاء القوم ماذا فعلوا ؟ قال :

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

لم يقل : طغوا في بلدهم ، بل

(فِي الْبِلَادِ)

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(سورة الفجر)

بالطغيان يحاربون ، وينتهكون الحرمات ، ويقتلون الأبرياء ، و ينشرون الفساد في الأرض .

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

من معاني : وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى)

(سورة النجم)

من معاني هذه الآية : أن هناك عادا ثانية ، ويعاني العالم منها ما يعاني اليوم ، وإن صفات عاد الأولى تنطبق انطباقاً تاماً على صفات عاد الثانية . لذلك كان المصير واحدا :

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

لكن الشيء الذي يلفت النظر أن الله جل جلاله ما ذكر أنه أهلك قوماً إلا وذكّرهم أنه أهلك أشد من هو أشد منهم قوة ، إلا عاداً حينما أهلكها قال :

(هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

فبنص هذه الآية لم يكن فوق عاد إلا الله ، وهذه عبرة ما بعدها عبرة .

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ

أيها الإخوة ، يقول الله عز وجل :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ)

1 – إعراب

(أخاهم):ماذا تعني (أخاهم)؟

(أخاهم)مفعول به بفعل محذوف تقديره : وإلى عاد أرسلنا أخاهم ، إذاً : هو مفعول به بفعل محذوف تقديره أرسلنا .

2 – معنى

(أخاهم):ما معنى أخاهم ؟ أي من جنسهم ، هم بشر ، وهودٌ بشر ، وأن لغته كلغتهم ، وهذه نعمة كبيرة ، واللغة أكبر حاجز بين شخصين .

(أَخَاهُمْ هُوداً)

أي من جنسهم ، هو بشر تجري عليه كل خصائص البشر ، وهو نبي لهم ، ولغته من لغتهم ، هم يأنسون به ، لماذا ؟ لأنهم يعرفون عنه كل شيء .

أنت مثلاً لك أخ ، أنت كبير في السن ، وهو صغير ، تعرفه من ولادته إلى الآن ، لا يغيب عنك شيء منه .

فأخوهم من جنسهم ، وهو بشر ، ولغته كلغتهم ، يعرفون عنه كل شيء .

إذا قال لك رجلٌ غريب : تعال اذهب معي إلى هذا المسجد فإنك تخاف منه ، لا تعرفه ، أما لو قال لك أخوك ذلك فأنت مطمئن إليه .

معنى (أخاهم) أنه من جنسهم ، لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان صالحاً لهدايتهم ، هم يشتهون ، وهو يشتهي كما يشتهون ، هم يخافون ، وهو يخاف كما يخافون ، هم يبحثون عن السلامة والسعادة ، وهو يبحث عن السلامة والسعادة ، هو من جنسهم ، ويتكلم بلسان قومه ، لغته كلغتهم ، ولأنهم يعرفون عنه كل شيء فما توجسوا منه خيفة ، ولم يخافوا منه ، بل أنسوا به .

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ

أما معنى :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ)

الأخوّة أخوَّتان ، أخوة قريبة ، وأخوة بعيدة .

دخل على معاوية بن أبي سفيان حاجبه ، قال : أخوك في الباب ، يطلب أن يلتقي بك ، ومعاوية لا ليس له أخ ، قال له : أدخله ، دخل ، قال له : أنت أخي ؟ قال له : نعم ، أنا أخوك من آدم ، هذه أخوة بعيدة .

كل واحد من بني البشر أخ لأي واحد ، لأب واحد هو آدم ، ولأم واحدة هي حواء ، فكل إنسان على وجه الأرض في القارات الخمس هو أخوك من أبيك البعيد وأمك البعيدة .

ثم أعطى معاوية هذا الرجلَ مبلغا من المال فرآه يسيراً ، فعاتبه ، قال له معاوية : لو أعطيت كل أخ لي من أبي آدم لما وصلك شيء ، فهذا أخ بعيد ، أما الأخ القريب فمن أخ لأب وأم مباشرة .

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ)

1 – علة وجود الإنسان عبادة الله :

الدين كله مضغوط بكلمة العبادة ، بل إنّ علة وجودك على وجه الأرض أن تعبد الله .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون)

(سورة الذاريات)

هذه علة وجودك .

2 – ما هي العبادةُ ؟

والعبادة كما أقول دائماً : هي طاعة ، لكنها ليست قسرية ، بل هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، فما عبَد الله من أطاعه ولم يحبه ، وما عبد الله من أطاعه قسراً ، وما عبد الله من أحبه ولم يطعه، هي طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

(اعْبُدُواْ اللّهَ)

أكبر وهم توهمه المسلمون أنهم ظنوا أن العبادة أداءُ العبادة الشعائرية ، ولكن حقيقة العبادة هي أن تطيع الله جل جلاله في كل مفردات منهجه ، وقد تصل هذه المفردات إلى 500 ألف نوع ، في طعامك وشرابك ، في صحوك ونومك ، في سفرك ، في حلك وترحالك ، في زواجك وطلاقك ، في أفراحك ومسراتك وأحزانك ، في قوتك وضعفك ، في فقرك وغناك ، وأنت مع زوجتك ، وأنت مع أولادك ، بل إن هذا المنهج منهج تفصيلي ، يبدأ من الفراش الزوجية ، ويستمر إلى أن ينتهي بالعلاقات الدولية .

(اعْبُدُواْ اللّهَ)

أنواع العبادات :

1 – عبادةُ الهوية :

هناك عبادة الفرد ، عبادة الهوية ، الغني عبادته الأولى إنفاق المال ، والقوي عبادته الأولى إحقاق الحق ، والعالِم عبادته الأولى تعليم العلم ، والمرأة عبادتها الأولى رعاية زوجها وأولادها ، هذه عبادة الهوية .

2 – عبادةُ الظرف :

هناك عبادة الظرف ، عندك قريب مريض ، العبادة الأولى العناية بالمريض ، عندك ضيف ، العبادة الأولى إكرام الضيف ، عندك ابن في أسبوع الامتحان ، العبادة الأولى رعاية هذا الابن ، وتهيئة الجو المناسب له .

3 – عبادة الوقت :

هناك عبادة الوقت ، وقت الفجر وقت ذكر ، وصلاة ، وعبادة ، وتلاوة ، وقت النهار وقت العمل ، وقت العيد وقت سرور وبهجة ، في كل وقت عبادة لله ، وكل ظرف له عبادة ، وكل شخص له عبادة .

4 – عبادة العصر :

وهناك عبادة العصر ، إذا أراد أعداء المسلمين إفقارنا فكسب المال الحلال ، واستخراج الثروات ، وإنشاء السدود ، وتطوير الصناعات ، والبحث عن دخل كبير تحل به مشكلات المسلمين هي العبادة الأولى .

إن أرادوا إضلالنا فترسيخ معالم الدين ، وتوضيح قيم الدين ، والرد على المفترين ، وتوضيح بعض الشبهات هي العبادة الأولى .

إن أرادوا إفسادنا فرعاية الشباب والشابات ، وتهيئة مناشط إسلامية لهم ، وصيانة أخلاقهم هي العبادة الأولى .

إن أرادوا إذلالنا ، فبذل الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس أول عبادة ، هذه عبادة العصر .

فالعبادة أوسع مفهوم في الدين ، تدور معك حيثما كنت ، أينما سافرت ، وفي أي سن كنت ، في سن الشباب ، في سن الكهولة ، في سن الشيخوخة ، متزوجا كنت أو غير متزوج ، عاملا كنت أو غير عامل ، موظفا كنت ، أو طبيبا ، أو مهندسا ، فما من إنسان إلا وهناك مئات الأحكام الشرعية التي ينبغي أن يفعلها حتى يعبد الله عز وجل . إذاً :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ)

لماذا نعبد الله ؟

لماذا نعبد الله ؟ لأنه الخالق .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 21)

مَن الجهة التي تستحق أن تعبدها ؟ الجهة الصانعة ، لأنها خبيرة في صنعتها .

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر الآية : 14)

الله وحده يعلم وسائل سلامتك وسعادتك ،

قال تعالى :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد الآية : 28)

هذا قانون .

قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سورة فصلت الآية : 46)

وفي آيات كثيرة قال عزوجل :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية : 97)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

فلذلك الله عز وجل بيّن كل شيء ، فعبادته هي علة وجودنا ، وغاية وجودنا ، العبادة هي أن تعرفه فتطيعه ، فتسعد بقربه في الدنيا والآخرة ، فهو تعالى خلقك ليسعدك .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

لابد أن تعبد الله وحدَه ، و لا تعبد معه غيرَه :

(اعْبُدُواْ اللّهَ)

وحده ، لذلك هناك من يعبد إنساناً ، ولئلا تعجبوا فهو لا يقول : هو إله ، يقول : فلان ، لكن يعامله كإله ، يعصي الله ويطيعه ، يترك فرضاً دينياً ويقول : فلان ، لكن يعامله كإله ، يعصي الله ويطيعه ، يترك فرضاً دينياً إرضاءً له ، أو تملقاً له .

فالعبادة لها شكل ، أن تقول : بوذا إله ، هذه عبادة ظاهرها شرك أكبر ، لكن أن ترضي إنساناً ، وتغضب خالق الأكوان فهذه عبادة من نوع ثانٍ ، هذه عبادة ضمنية ، فأنت حينما تطيع مخلوقاً وتعصي خالقك تكون بهذا قد عبدته من دون الله . لذلك :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

واللهُ عز وجل أكد هذا المعنى فقال :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية الآية : 23)

هناك من يعبد المرأة من دون الله ، هناك من يعبد الدرهم والدينار من دون الله ، هناك من يعبد الطعام والشراب من دون الله ، هناك من يعبد السياحة من دون الله ، فالشهوات آلهة تُعبَد من دون الله .

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

1 – معنى

(مِن)في هذه الآية :

(مِن)تفيد استغراق أفراد النوع ، للتوضيح : لو قلت لأحدِهم : هل معك مال لأشترك معك في مشروع يحتاج إلى مليونين ؟ فإذا قال : ما عندي مال ، فالمعروف أنه ما عنده المليون الذي طلبته لهذا المشروع ، ما عنده المال الكافي ، أما إذا قلت له : ما عندي من مال ، أي ما عندي ولا ليرة ، فـ (من)تفيد استغراق أفراد النوع .

إذا دخلت إلى صف ، وقلت : لكم عندي هدية ، فإنك تشمل بقولك هذا الحاضرين فقط ، أمّا إذا قلت : ما من طالب في هذا الصف إلا وله عندي هدية ، فإن الغائبين يشملهم كلامُك ، فـ (من)تفيد استغراق النوع .

2 – مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

الإله هو المسيِّر ، وما في جهة في الأرض مهما بدت لك قوية يمكن أن تفعل شيئاً .

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية : 17)

الله وحده هو الفعال ، فعال لما يريد . الله :

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

3 – التوحيد ينجي صاحبَه :

ولا يعد الإيمان إيماناً منجياً إلا بالتوحيد ، وهو ألاّ ترى مع الله أحداً ، ألاّ ترى فاعلاً إلا الله ، ألاّ ترى معطياً إلا الله ، ألاّ ترى مانعاً إلا الله ، ألاّ ترى مُعِزًّا إلا الله ، ألاّ ترى مذلاً إلا الله ، ألاّ ترى خافضاً إلا الله ، ألاّ ترى ضاراً إلا الله ، ألاّ ترى نافعاً إلا الله ، هذا هو التوحيد ، ألاّ ترى مع الله أحداً ، أن تعلم أن يد الله تعمل وحده ، ولا أحد معه إطلاقاً .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف)

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

مرة ذكرت أنّ طائرة دخلت في سحابة مكهربة ، وهي على وشك السقوط ، وفيها خبراء من دولة ، شعار هذه الدولة(لا إله)وقد تداعت من الداخل ، هؤلاء الملحدون دون أن يشعروا توجهوا إلى الله يلجؤون إليه بالدعاء ، الإيمان شيء فطري في كيان الإنسان ، لكن وهو في غنى وقوة يستغني عن الله.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

ليس في الكون إلا الله ، لا فعال إلا الله ، لا رزاق إلا الله ، لا معطي إلا الله ، لا مانع إلا الله ، لا معز إلا الله ، لا مذل إلا الله ، لا موفق إلا الله ، كل شيء حينما تعلم أنه بيد الله تتجه إلى الله وحده ، ولا تتجه إلى سواه .

4 – الشركُ لا يغفره الله :

لذلك :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ)

(سورة النساء الآية : 48)

لماذا ؟ لو أن لك في حمص مبلغا ضخما جداً يُقدَّرُ بخمسة ملايين ليرة ، وركبت قطار حمص ، وقطعت بطاقة من الدرجة الأولى ، لكنك ركبت في جهة من الدرجة الثالثة ، أليس هذا خطأ كبيرا ؟ لكن القطار متحرك نحو حمص ، وسوف تصل إليها ، سواء ركبتَ في الدرجة الأولى أو الثالثة ، مع أنك دفعت مبلغا كبيرا ، وركبتَ في جهةٍ متواضعة جداً ، وجلست بعكس سير القطار ، فأصبتَ بالدوار، هذا خطأ ثانٍ ، وجلست أمام شباب غير منضبطين فأزعجوك كثيراً ، هذا خطأ ثالث ، لكن القطار في طريقه إلى حمص ، والمبلغ سوف تأخذه ، ثم تلوى بطنُك من الجوع ، ولا تعلم أن هناك

مطعما صغيرا ، فأمضيت ساعتين أو ثلاثا وأنت جائع جوعاً شديداً ، هذا خطأ رابع ، لكن القطار في طريقه إلى حمص ، والمبلغ سوف تأخذه ، يمكن أن ترتكب أخطاء كثيرة تغتفر ، أما لو أخطأت فركبت قطار مدينة درعا ، واتجهت نحو الجنوب ، ولو كانت درجة القطار فخمة جداً ومريحة ومكيفة ، وفيها نوافذ رائعة ، وفيها خدمة عالية ، لكن سفرك لا تجني منه خمسة ملايين ليرة ، لأنك اتجهت إلى لا شيء .

الآن اتجهْ إلى الله ، هناك أخطاء يغفرها الله لك ، هناك تقصير يسامحك الله عنه ، هناك زلة يقيلك الله من هذه العثرة ، هناك تقصير في العبادة يسامحك الله عنه ، هناك عدوان فتستسمح منه فيعفو عنك ، لكن لو أنك كفرت بالله ـ لا سمح الله ـ وتوجهت إلى إنسان ما عنده شيء ، ليس الموضوع أن الله عاقبك، وأنه لم يغفر لك ، لا ، هذا يسمونه تحصيل حاصل ، لكنك توجهت إلى لا شيء .

أحدُهم كان يعاني آلاما شديدة جداً ، فتوجه إلى أرقى مستشفى فيه عناية الأطباء ، ومخابر تحليل ، وتصوير ، وحالات تخدير ، وعناية مشددة ، وتحليل دقيق ، أما وأنت في حالة مرضية شديدة تتوجه إلى مستودع خشب ، لا فيه طبيب ، ولا مستشفى ، ولا غرفة عمليات ، ولا مسكّنات فهذا جنون ، لذلك:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ)

لا لأنه يعاقبك ، أنت حينما اتجهت إلى غيره فغيرهُ ما عنده شيء ، هو مفلس مثلك ، فلو أن فقيرا يتلوى من الجوع فتوجه إلى أفقر منه لقال له : ما عندي شيء أعطيك إياه ، فخاب ظنه فيه . فلذلك :

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

هو المسير ، بيده الأمر ، دقق : بيده الخلق والأمر ، كل شيء خلقه أمره بيده ،

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ)

5 – أَفَلاَ تَتَّقُونَ

ألا تتقون سخطه ، ألا تتقون ناره ، ألا تتقون المعيشة الضنك التي توعد الله بها المعرضين ؟ أفلا تتقون النار التي توعد بها الكفار والمجرمين ؟

(أَفَلاَ تَتَّقُونَ)

أيها الإخوة ،

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

1 – قَالَ الْمَلأُ

الملأ شخصيات كبيرة ، الوجهاء ، علية القوم ، بكل مجتمع فيه أكابر ، وقد يكون هؤلاء الأكابر :

(أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا)

(سورة الأنعام الآية : 123)

شخصيات مهمة مرموقة ، قوية ، غنية ، حولها مجموعات كبيرة .

2 – الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ)

معنى ذلك هناك ملأ ليسوا كفاراً ، هناك إنسان مِلْء السمع والبصر ، لكنه مؤمن ، مِلْء السمع والبصر ، لكنه متواضع ، مِلْء السمع والبصر ، لكنه سخي ، مِلْء السمع والبصر ، ولكنه يصغي إلى الحق ، مِلْء السمع والبصر ، ولكنه يعطي من ماله .

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ)

هذه إشارة إلى أن هناك ملأ مؤمنين ، الله عز وجل أعطى الملك لمن لا يحب ، وأعطاه لمن يحب ، إذاً: لا علاقة له بالتقييم ، أعطى الملك لفرعون وهو لا يحبه ، أعطاه لنبي كريم سيدنا هو سليمان وهو يحبه ، أعطى المال لقارون وهو لا يحبه ، أعطى المال لسيدنا عثمان بن عفان وهو يحبه ، فما دام الشيء الواحد يعطى لمن يحب ولمن لا يحب إذاً ليس مقياساً للتقييم بتاتاً .

3 – إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ من الْكَاذِبِينَ

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ)

السفاهة هي الأعمال العابثة ، تقول : فلان سفيه .

بالمناسبة ، المؤمن قد يُتَّهم بأنه أبله ، لكنه أبله عند مَن ؟ عند البُله ، لما يمتنع المؤمن عن دخل كبير فيه شبهة يتهمه المنحرفون بالجنون ، لكنه عند العقلاء عاقل جداً ، وعند البلهاء أبله ، فلا تعبأ إذا كنت عند البلهاء أبلهَ ، لا تعبأ بهذا الكلام ، وقالوا عن النبي : إنه مجنون ، والمجنون من عصا الله ، والله عز وجل أخرسهم ، فقال له :

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

أنت العاقل ، لذلك قد يضحك الإنسان أولاً ، والذي يضحك أولاً يبكي كثيراً ، لكن البطولة أن تضحك أخيراً .

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

مثلاً : هناك شريكان ، أحد الشريكين تمنى أن يستخدم بضاعة محرمة أو ممنوعة في القوانين ، كالتهريب ، لكنّ الشريك الآخر رفض ، فحلت الشركة ، الذي أراد أن يعمل ببضاعة غير نظامية جاءته ملايين مملينة ، فاتهم هذا الشريك بالغباء والحمق ، ثم ألقي القبض على الشريك الأول ، وأخذت كل أمواله ، وأودع في السجن ، من هو الفهيم ؟ ومن هو الأذكى والأعقل والأنجح ؟ فأنت مع الله في تفوق حقيقي ، والآية الكريمة :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

(سورة آل عمران الآية : 185)

يقول لك أحدُهم : أرضي الدنم فيها بخمسة آلاف ليرة ، فصار ثمن الدنم خمسة ملايين ، يكاد يذوب ، أخذها بخمسة آلاف ، الآن الدنم بخمسة ملايين ، يكاد يذوب ، ليس هذا هو الفوز ، الفوز :

(فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران الآية : 185)

الدنيا تغر وتضر ، وتمر ،

(وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ من الْكَاذِبِينَ)

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ

أنا لست سفيهاً ، لكنني رسول ، أنا معي وحي ، معي منهج ، معي منهج خالق الأكوان .

(لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)

(سورة الأعراف)

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أ

أنصحكم ، وأنا أمين على مستقبلكم الأخروي .

(أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة الأعراف)

أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُم

النبيُّ بشرٌ كباقي البشر :

أي من غير المعقول أن يرسل خالق السماوات والأرض لهؤلاء البشر الشاردين التائهين رسولاً يبين لهم ، يشرح لهم ، يهديهم ، يدلهم إلى طريق والسعادة والسلامة .

هل يعظم على أب إن رأى ابنه شارداً أن ينصحه ؟ هل يعظم على أب يمتلئ قلبه رحمة إن رأى ابنه على مشارف السقوط في دراسته أن يعظه ؟

(أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ)

من بني جلدتكم ، تعرفونه ، تعرفون ماضيه ، تعرفون أمانته وصدقه ، وعفافه ونسبه ، يتكلم بلغتكم ، وهو بشر ، يشعر بما تشعرون ، ويتألم لما تألمون ،

(أَوَ عَجِبْتُمْ)

لذلك ؟

من معاني الذِّكر :

المعنى الأول :

(أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ)

القرآن هو من الذكر .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)

(سورة الحجر الآية : 9)

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

(سورة النحل الآية : 43)

أهل القرآن .

المعنى الثاني :

والذكر هو الصيت والسمعة .

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

المعنى الثالث :

والذكر هو المكانة .

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

(سورة ص)

المعنى الرابع :

والذكر هو كل الكتب السماوية .

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ)

(سورة الأنبياء)

المعنى الخامس :

والذكر هو التسبيح .

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

(سورة النور الآية : 36)

المعنى السادس :

والذكر هو الخير العميم .

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

المعنى السابع :

ذكر الله لك منحك الأمن ، منحك السكينة ، منحك الرضى ، منحك السعادة ، منحك التوفيق ، منحك الآخرة ، الخير العميم .

(أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُم)

ما هو القصد من الذكر ؟ لينذركم :

الذكر أولاً ، ثم يأتي الإنذار ، وبعده الالتزام ، وبعد الالتزام الفوز بسعادة الدنيا والآخرة ، فالإنذار ليس القصد منه أن يزعجكم .

إذا شعر الإنسان بألم في بعض أسنانه فليس القصد من هذا الألم أن يتألم الإنسان ، القصد أن يبادر إلى الطبيب كي يعالج هذا الخلل الطارئ ، فيكسب هذه السن ، الألم أحياناً ليس هدفاً في حدّ ذاته ، الألم وسيلة لهدف كبير .

وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ

(أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُم وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ)

1 – ذكرُ آلاء الله طريقُ الفلاح :

هل تصدقون أن ذكر آلاء الله طريق الفلاح ؟

((يا رب ، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني ، وأحب من أحبني ، وحببني إلى خلقك ، قال : يا رب إنك تعلم إني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي))

[ورد في الأثر]

ذكرهم بآلائي كي يعظموني ، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني .

2 – لابد من اجتماع التعظيم والمحبة والخوف في قلب المؤمن :

إذاً : الحالة الطبيعية أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لخلق الله عن طريق آياته الكونية ، وأن يكون في قلبه محبة له عن طريق النعم التي منّ الله بها علينا ، وأن يكون في قلبه خوف من البلايا التي يصيب الله بها بعض خلقه ، فالحالة الصحية للقلب تعظيم ، ومحبة ، وخوف .

3 – وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً

(لِيُنذِرَكُم وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

كان عليه الصلاة والسلام إذا نظر في المرآة قال :

((اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي))

[الجامع الصغير بسند صحيح عن ابن مسعود]

إذا نظر أحدهم في المرآة فوجد نفسه كاملا ، له عينان ، له أذنان ، له شعر ، له أسنان ، في أجهزة سليمة ، يمشي على قدمين ، فهذه نعمة كبيرة جداً ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ يقول :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي ، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي ، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

(فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

الآن ردَّ عليه القومُ :

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

(سورة الأعراف)

قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

1 – قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ

هناك آلهة متعددة ، كاللات والعزى ، كيف جعلتَه إلها واحدا ؟

قد لا تصدقون أنه صدر كتاب لإنسان أحمق قال فيه : آلهة قريش ديمقراطيون !!! لأنهم قبل بعضُهم بعضا ، أما إله محمد فقمعي ، لأنه(لا إله إلا الله)لم يقبل معه إلها آخر ، حماقات ما بعدها حماقات .

2 – التوحيد راحة ما بعدها راحة :

(قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ)

شيء مريح جداً أن يكون لك إله واحد .

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه عن ابن مسعود بسند صحيح]

((اعمل لوجه واحد يكفيك الوجوه كلها))

[أخرجه ابن عدي والديلمي عن أنس بسند فيه ضعف]

شيء رائع جداً ، إنه إله واحد ، علاقتك معه ، فلا تمزق عندك ، ولا تبعثر ، ولا تشرذم ، ولا قلق .

دقق : إذا كان الرجل موظفا في شركة ملكٌ لخمسة أولاد ، وكلهم شركاء ، هذا يعطي أمرا ، والثاني يعطي أمرا معاكسا ، يتمزق الموظف ، لو أن لهذه الشركة مديرا واحدا فعلاقته مع واحد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

التوحيد مريح جداً ، لا يحتاج الرجل إلى أن ينافق ، ولا إلى أن يكذب ، ولا إلى أن يخاف أبداً ، علاقته مع واحد يرضيه ، فإذا رضي الله عنه حلت كلت كل مشكلاته .

((مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ))

[الترمذي عن عائشة]

3 – الاحتجاج بالتقاليد والعادات البالية : وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

(وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)

(سورة الزخرف)

هذه التقاليد والعادات البالية ،

(قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

أين هي النار ؟ هي خبر ، لكنه صادق ، الشهوات محسوسة ، ترى بيتاً جميلاً ، ترى طعاماً نفيساً ، ترى امرأة جميلة ، ترى مركبة فارهة ، الشهوات محسوسة ملموسة ، أما الآخرة فخبرٌ .

4 – الجاهل يحكمه الواقع : فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

الآن أنت ذاهب إلى حمص بالسيارة ، ولك خمسة ملايين ، وصلت إلى منطقة دوما في ظاهر دمشق ، فوجدت لوحة مكتوب عليها خمس كلمات : الطريق إلى حمص مغلقة بسبب تراكم الثلوج في منطقة النبك ، هل تكمل السير ؟ خمس كلمات أوقفتك ، وعطفت ورجعت ، وإذا كان الدابة ماشية أين تقف ؟ عند الثلج ، ما الذي حكم العاقل ؟ النص ، ما الذي حكم الدابة ؟ الواقع ، لا تقل : أنا واقعي ، الواقعي ليس واقعياً ، أما العاقل فيحكمه النص .

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

(قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم

إنها أسماء لا معنى لها إطلاقاً ، وإذا قلت : الله خالق السماوات والأرض ، إذا قلت : الله قوي ، فقوته ظاهرة ، المسمى موجود ، الله رحيم ، رحمته ظاهرة ، الله حكيم ، حكمته ظاهرة ، وأحيانا تضفي على إنسان تافه جداً صفات غير موجودة إطلاقاً ، فإذا تضعضع إنسان إلى مخلوق فقير ، ورجا منه العطاء يكون أحمق ، كمن وقف عند إله من تمر ، وتذلل أمامه ليحل له مشكلته .

والله مرة ذهبت إلى منطقة في ظاهر لوس أنجلوس فيها معبد وثني ، دخلنا المعبد فإذا بصنمين كبيرين من البرونز والماس ، وهذا الماس غالٍ جداً ، قدرت بمليون دولار ، والناس ينبطحون أمامهما انبطاحا كاملا ، بعضهم مثقفون ، يتوجهون بكلام إلى البرونز ؟! والله شيء مضحك ، وفي مدخل المعبد وجدت كسّارة جوز هند ، فقلت : ما هذه ؟ قيل لي : الآلهة تحب جوز هند ، هذا الصنم يأكل جوز الهند ؟ الهند مليئة بهذا الشكل ، البوذا عنده من الفواكه شيء نفيس جداً ، وقد تدخل بقرة إلى محل تجاري فتأكل من أنفس أنواع الفاكهة ، وصاحب المحل في غاية السعادة ، لأن الإله دخل إلى دكانه ، وأكل الفواكه ، إنه شيء مضحك حقًّا !!!

(قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ)

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(27-60): تفسير الآيات 73 - 79 ، قصة سيدنا صالح مع قومه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-11-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثالثة والسبعين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا

أيها الإخوة ، قصص الأنبياء دروس لنا بليغة ، هم أهلكهم الله ، وانتهى أمرهم فلماذا ذُكروا في القرآن الكريم ؟ لتكون قصتهم عبرة لنا .

أيها الإخوة ،

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)

1 – أَخَاهُمْ صَالِحًا :

ما معنى(أخاهم)؟ ولمَ قال الله :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)

أي : كما أرسل إلى عاد أخاهم هوداً ، أرسل إلى ثمود أخاهم صالحا ، أخاهم أي ؛ نشأ بينهم ، يعرفون صدقه ، يعرفون استقامته ، يعرفون نظافته ، يعرفون إخلاصه ، هو بينهم ، لو أن إنساناً غريباً جاءهم لشكُّوا فيه ، لكنه مِن جِلدتهم ، من بيئتهم ، من ظروفهم ، يعرف كل شأنهم .

لذلك لو أنه من الممكن أن يكون النبي ملِكاً لكان ملكاً ، ولكن لا بد من أن يكون النبي بشراً ، ولولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر ، لما كان سيد البشر ، والأنبياء قمم البشر ، ولأنهم انتصروا على بشريتهم كانوا أنبياء .

فيا أيها الإخوة ، كلمة

(أَخَاهُمْ)

أي أن الأنبياء من قومهم ، هم مستقيمون في قومهم ، صادقون في قومهم ، أمناء في قومهم ، أعفة في قومهم ، قومهم يعرفون أخلاقهم ، يعرفون استقامتهم ، يعرفون تميزهم ، يعرفون أنهم لا يبتغون شيئاً من الدنيا .

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)

2 – المعنى التطبيقي :

الآن المعنى التطبيقي لنا يعني أنه إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تدعو إلى الله ولست نظيفاً ، ولست مستقيماً ، ولست صادقاً ، ولست أميناً ، لأن الناس لا يصدقونك ، ولو أتيتهم بالحقائق كفلق الصبح ، لأن الطريق الذي يمكن أن يكون سبباً لإصغاء الناس إليك هو أن تكون مستقيما .

هل يعقل أن النبي عليه الصلاة والسلام ، مع أنه جاء بدِين رفضوه ، أن يضعوا عنده أموالهم ! إنها ثقة في أمانته ! كان يسمى الأمين ، كان يسمى الصادق ، كان يسمى العفيف .

فلذلك كما أن الله سبحانه وتعالى يرسل إلى القوم إنساناً مصطفىً ، قمة في الاستقامة ، لتكون استقامته شفيعٌ له أن يصغي الناسُ إليه ، وهذا درس لنا جميعاً ، إن أردت أن تدعو إلى الله فاحرص على أن تكون مستقيماً .

لذلك قالوا : القدوة قبل الدعوة ، والإحسان قبل البيان ، والأصول قبل الفروع ، والمضامين لا العناوين، والمبادئ لا الأشخاص ، والتربية لا التعرية ، والتدرج لا الطفرة ، وهكذا .

إذاً : إذا فكرت أن تنطق بالحق فيجب أن تَلفت نظر الناس إلى استقامتك ، إلى نزاهتك ، إلى حبك للخير .

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ)

خلاصة دعوة الأنبياء : اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

البلاغة في الإيجاز ، هل يمكن أن تضغط رسالات الأنبياء جميعاً بجملة واحدة ؟ هذه جملة :

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود الآية : 61)

قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ)

هذه(مِن) تفيد استغراق كل أفراد الأنبياء والرسل .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

لابد من التوحيد فكرا وعقيدة وتصورًا :

لذلك قالوا : نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل التقوى ، إن وحدت واتقيت حققت الهدف من وجودك ، التوحيد هو الفكر ، والعقيدة ، والتصور ، والعبادة ، والسلوك .

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ)

(سورة الفتح الآية : 29)

منطلق فكري ، سلوك يومي .

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

على الشبكية آلاف الآلهة ، فيتوهم الناس لضعف إيمانهم أن مصير المسلمين بيد فلان ، وأن هذه القوة الطاغية تريد أن تنهي الدعوة الإسلامية ، تريد أن تنهي العمل الخيري ، هذا الوهم من الشرك .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

المؤمن الصادق لا يرى مع الله أحدا ، يؤمن بكل جوارحه ، بل بكل خلية من جسمه ، بل بكل قطرة في دمه أنه لا إله إلا الله ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا خافض ، ولا رافع ، ولا معز ، ولا مذل إلا الله.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه]

((اعمل لوجه واحد يكفِك الهموم كلها))

[أخرجه ابن عدي ، والديلمي ، عن أنس]

كلُّ شيء بيد الله :

إذاً :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

هناك قوى ، وهناك دول ، وجيوش ، وأناس أقوياء ، وهناك أناس بطاشون ، هناك أناس ظالمون ، لكن هناك رب عظيم .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

مِن أبلغ ما قاله أحد الأنبياء :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا)

(سورة هود الآية : 55)

يتحداهم .

(ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود الآية : 55)

تصور وحوشا كاسرة مربوطة بأزمَّة محكمة ، بيد جهة ، قوية ، رحيمة ، عادلة ، علاقتك مع من ؟ هل مع الوحوش ؟ لا ، مع مَن يمسكها ، مع مَن إطلاقها بيده ، وحبسها عنك بيده ، كن مع الله يحبسها عنك ، لو نسيت الله ، وتجاوزت الحدود سلطها عليك .

لذلك من أبلغ ما قيل : لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه .

بالتعبير اليومي المألوف : لا إله إلا الله ، والله كبير ، هذا هو الإيمان ، وفي اللحظة التي تفكر هذا التفكير أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله تكون موحِّدًا :

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

ذكرت من قبل أن من مئة عام تقريباً كان هناك جهة في الأرض ترفع شعار (لا إله) ، وهي قوية جداً ، بل إنها تملك من القنابل النووية ما يكفي لتدمير القارات الخمس ، ومع ذلك تداعت من الداخل ، وانتهت ، لأن :

(الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

زهوقا صيغة مبالغة ، فالباطل مهما كان باطلاً فهو زهوق ، ومهما كان متعدداً كان زهوقا .

(قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)

قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

1 – النبي معه منهج :

النبي يأتي إلى قومه ، ويقول لهم : أنا رسول الله ، معه منهج ، افعل ولا تفعل ، في هذا المنهج حرام ومكروه كراهة تحريمية ، ومكروه كراهة تنزيهية ، ومباح ومستحب ، فيه سنة وواجب وفرض ، هذا منهج الله عز وجل .

لذلك المؤمن ميزته الأولى أنه منضبط بمنهج الله عز وجل ، والنبي يقول وكذلك الرسول : أنا رسول الله ، لأن معه منهجاً يُكذّب .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية : 43)

2 – معجزة النبي شهادة الله لرسوله بأحقية رسالته :

لا بد من أن يشهد الله له أنه رسوله ، كيف يشهد له ؟ من هنا كانت المعجزة معجزة سيدنا موسى : سيدنا موسى ألقى عصاه :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

(فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا)

(سورة طه الآية : 77)

معجزة سيدنا إبراهيم :

سيدنا إبراهيم لم تحرقه النار ، فهذه هي المعجزات ، قال تعالى :

(قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)

معجزة سيدنا صالح ناقة تخرج من صخرة :

سيدنا صالح معه بينة ، ما هذه البينة ؟ البينة هي الدليل على صدق رسالة الرسول في إبلاغه عن الله عز وجل .

أحياناً يأتيك رجل يقول لك : أعطني مئة ألف ، أنا مبعوث من فلان ، تقول له : معك دليل ؟ فيعطيك كتابا منه بتوقيعه ، وفيه رقم هاتف ، فاتصل به ، فالكتاب والتوقيع والهاتف دليل على أن هذه الرسالة صادقة .

لذلك الله عز وجل ، حينما يرسل رسولاً يعطيه بينة ، ما البينة التي زود الله بها هذا النبي الكريم ؟ أثناء الحوار ، هم يعتزون بآلتهم ، وهو يقول : لا إله إلا الله .

(اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ)

(سورة هود الآية : 56)

بيده كل شيء ، فاتفقوا معه على أنهم يستنجدون بآلهتهم ، وهو يسأل ربه ، فأية جهة استجابت لهؤلاء أو له فمعنى ذلك أن الذي أجاب أتباعه هو الإله الحقيقي ، فدعوا آلهتهم فلم يستجيبوا لهم ، احبطوا ، قالوا له : إن كنت رسولاً حقاً ، وأنت صادق ، كانت أمامهم صخرة ، قالوا له : اجعل هذه الصخرة عن طريق ربك تنشق ، وأن تخرج منها ناقة ، هذا غير معقول ! جبل صخري أصم ينشق ، وتخرج ناقة ، فدعا ربه أن يا رب هكذا طلبوا ، وأنت على كل شيء قدير ، وهؤلاء علقوا إيمانهم بك على هذه المعجزة ، وأكدوا له إن خرجت الناقة من الجبل فنحن نؤمن بإلهك ، فدعا ربه ، وقال : يا رب ، هم يزعمون أنهم إن رأوا هذه الناقة خرجت من الجبل سوف يؤمنون ، فالذي حصل أن هذه الصخرة التي أمامهم انشقت ، وخرجت منها ناقة عظيمة عُشراء ، أي حامل في الشهر العاشر ، وبراء ، وَبَرُها كثيف ، وجنينها يتحرك في بطنها ، عُشراء ، وبراء أي كثيرة الوبر ، يتحرك جنينها بين جنبيها ، ثم أخذها المخاض فولدت فصيلاً ، وليدا مفطوما ، لا يحتاج إلى حليبها ، والفصيل الذي تم فطامه .

لذلك سمى الله هذه الناقة :

(نَاقَةُ اللّهِ)

بحجمها ، بخصائصها ، بوليدها ، بمخاضها ، بولادتها ، بوبرها ، بحملها ، لكن لا بد من امتحان .

من عظيم شأن هذه الناقة

هناك بعض الينابيع لهؤلاء القوم ، شرط أن هذه الناقة لها شِرب يوم ، ولكم شرب يوم ، تشرب كل الماء في يوم ، وتروي الكتب أن كل هذا الماء الذي تشربه يصبح لبناً تعطيهم إياه ، الآن إذا اشترط عليك أحدُهم بكل لتر من الماء لترٌ من الحليب لم يستطع ذلك ، لتر الحليب غالٍ ، كل الماء التي تشربه الناقة يغدو لبناً تعطيه لهؤلاء القوم ، فهي ناقة وغذاء ، وهي آية من لله ، وينتفعون بها .

هكذا كان جزاء هذه الناقة !!!

لذلك أيها الإخوة ، هذه الناقة كانت آية دالة على الله ، كانت تحدياً لهؤلاء الذين كفروا ، تروي الكتب : أنه كانت هناك امرأتان لهما نياق ، وناقة الله تغلب نياق المرأتين في المرعى ، فأحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه " أحيمر ثمود " ليقتلها ، فقتل الناقة .

استنباطٌ لطيفٌ :

الحقيقة أنه حين قتلها أقرّ بنو هذا النبي الكريم بقتلها ، من هنا يستنبط كما قال سيدنا عمر : أنه لو ائتمر أهل بلدة على قتل واحد لقتلتهم به جميعاً ، قال :

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة الشعراء الآية : 157)

الذي عقرها شخصٌ واحد ، لكن هذا الواحد مثلهم ، لكن هذا الواحد عبّر عنهم ، لكن هذا الواحد هو يعمل برضاهم .

الآن يقول لك : الشعب ما له علاقة ، الحكام الظالمون ، الآن انتخبوا انتخابات حرة ، والشعب حينما انتخبهم ، الدول الكبرى العظيمة الطاغية ، التي تتفنن بإذلال الشعوب هؤلاء انتخبوا انتخاباً ، لو أن الشعب ما أراد منهم هذه الأعمال لحجب عنهم الثقة .

لذلك المجتمعات التي فيها ديمقراطية هؤلاء الذي انتخبوا هؤلاء الظلام شركاء معهم في الجريمة ، أنتم انتخبتموهم ، هم يفعلون بقوتهم .

فرصة لمن أراد التوبة :

أيها الإخوة ، من تفاصيل هذه القصة أن ابنها الفصيل طلع على جبل ، وخار بثلاثة أصوات ، كأن الله سبحانه وتعالى بعد ارتكاب جريمتهم ، وبعد فعلتهم النكراء ، وبعد إقرارهم بقتل الناقة ، وبعد اقتراحهم بأنك يا نبي الله إن أخرجت الناقة من الجبل فنحن نؤمن بك ، لكنهم نقضوا وعدهم ، ونقضوا عهدهم ، وتمنوا أن يعقروا الناقة ، وأرسلوا من يعقرها ، ومع كل ذلك فقد أتاح الله لهم فرصة ليتوبوا ، فابن هذه الناقة الفصيل صاح بهم صيحات ثلاثا ، فانتبه سيدنا صالح ، وقال : يا قوم أدركوا صيحات هذا الفصيل ، لعل الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، لكنهم لم يفعلوا ، وكان التصور لو أنهم ندموا على فعلتهم ، وأسعفوا هذا الفصيل ، لعل الله يغفر لهم ، لكنهم أصروا على جريمتهم ، وأقروا عقر الناقة ، وقتلها واستراحوا منها ، ونقضوا عهودهم ، ومواثيقهم ، لذلك قال تعالى :

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

(سورة الأعراف)

وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ

الآن الله عز وجل يذكرهم بنعمه :

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

1 – حضارة عمرانية كبيرة :

كانوا يسكنون في السهول ، وكانت أعمارهم طويلة ، فحفروا الجبال ، هذا في الأردن ، في البتراء ، أنا ذهبت إلى هناك .

والله أيها الإخوة ، الذي يراه السائح يكاد لا يصدق ، قصر بأبعاد دقيقة جداً ، بخطوط مستقيمة ، بأبعاد متساوية ، كلها محفورة في جبل له مدخل ، وأعمدة ، وتيجان أعمدة ، أبواب مدينة بأكملها محفورة بالجبل ، بيت من عدة غرف ، كلها نُحتت من الصخر ، لذلك : ما أهلك الله قوماً إلا وذكّرهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة .

هؤلاء على أنهم في عصور سابقة ، أما أن تملك قدرة على حفر الجبال فهذا شيء كبير ، فهذا جبل قاسيون تفضل واحفر صالة كبيرة كهذا المسجد تماماً ، بأبعاد بالميليمتر ، وبخطوط مستقيمة ، واجعل له مدخلا كبيرا ، كله من الصخر من دون أن تضع عليه شيئاً ، وإذا أتيح لأحدٍ أن يذهب إلى البتراء لرأى العجب العجاب ، وما أهلك الله قوماً إلا وذكّرهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة ، يقول الله عز وجل :

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ)

(سورة الأعراف الآية : 61)

2 – العبرة بقوم نوح :

هم رأوا تجربة نوح ، كيف أن الله أهلكهم ، وإن كانت هذه التجربة بعيدة ، هم رأوا ما حل بعاد بعد أن كفروا ربهم ، نوح ، عاد ، ثمود ، بالتسلسل ، واليوم نرى نحن بلاداً انحرفت انحرافاً شديداً فأصابتها

جائحة ، من زلزال ، أو من مشكلة ، أو من اجتياح ، أو من عدوان ، والبلاد الأخرى غارقة في المعاصي والآثام ، ولا تتعظ بما يجري في الأرض .

أيها الإخوة ، لذلك :

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ

1 ـ المستكبر المترَف كافرٌ بنصِّ القرآن :

عندنا مستكبرون ، وعندنا مستضعفون ، والمترفون مستكبرون ، والمترفون في آيات ثمانٍ في القرآن الكريم كفّار ، وحينما يُلغي الإنسان الآخرة فليس بين يديه إلا الدنيا يعبدها من دون الله ، يعبد الدرهم والدينا ، يعبر المرأة من دون الله ، يعبد شهوته ، يتخذ من شهواته آلهة ، هذا شيء طبيعي جداً ، وهذه نماذج متعددة متكررة .

دولة جبارة قوية ، تتحكم فيها مصالحها ، لا تتخذ قيمة ، ولا مبدأ ، ولا رحمة ولا إنصافاً ، ولا عدلاً ، تبني مجدها على أنقاض الشعوب ، تبني عزها على إذلالهم ، تبني غناها على إفقارهم ، تبني ثقافتها على محو ثقافتهم ، تبني قوتها على إضعافهم ، هذه الدول الطاغية تركب رأسها ، وترتكب حماقات تلو حماقات ، إلى أن يأتي أجلها .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

(سورة الأعراف الآية : 34)

فلذلك قال تعالى :

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ)

2– المؤمن الفقير خير من كل مستكبر :

سبحان الله !!! أحيانا يكون الإنسان فقيرا ، أو بوظيفة متواضعة جداً ، لكنه مؤمن يعرف الله ، ويخافه، ويتقرب إليه ، ويؤدي العبادات ، وواثق من الله عز وجل ، هذا عند أهل الناس مستضعف ، بل فقير ،

وقد تلتقي بإنسان مستكبر ، حجمه المالي كبير ، يده طولى تراه لا يعبأ بكل هذه القيم والمبادئ ، ثم يفاجأ أن الذي على صواب هو هذا المستضعف .

فهؤلاء الذين استكبروا من استكبارهم وغطرستهم وكبرهم :

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

النجاح أن تعرف الله قبل فوات الأوان ، أن تعرف الله والمؤمنون ضعفاء .

لآن مع الامتحان الصعب ، الطرف الآخر قوي جداً ، غارق في الرذائل ، في كل أنواع الشذوذ ، في زنا المحارم ، في تبادل الزوجات ، في المساكنة غير الشرعية ، وما من شيء في حياتهم محرَّم ، وما من شيء في كسب أموالهم محرَّم ، وبلادهم جميلة وغنية ، ويتحكمون بالعالم ، ويتصدرون الشاشات ، ويصرحون ، ويكذبون ، ويقتلون ، ويقصفون الضعاف ، فيحسون بالإحباط .

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ)

3– المؤمن يصدِّق كل ما أخبر الله به :

بكل جرأة ، وبكل يقين :

(قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ

إخواننا الكرام ، أن تخرج ناقة من جبل صخري ، وأن تشرب ماء البلدة في يوم ، وأن تعطي كل هذا الماء لبناً لهم ، هذه ناقة استثنائية ، هذه معجزة ، هذه ناقة الله ، ومعها وليد جنين في الشهر العاشر ، ويأتيها المخاض ، وتلد هذا الفصيل .

لذلك الشيء الذي يلفت النظر أن الله عز وجل حينما يقول :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

(سورة البقرة)

يا رب نحن نؤمن بالآية ، أنت في هذه الآية عكست المعنى ، أنت تؤمن بهذا إن كنت في الأصل مؤمناً ، معنى هذه الآية أن الإنسان حينما يتخذ قراراً بالإيمان فإن كل شيء يدله على الله .

(فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة الأعراف)

فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ

1 – من دأبِ الكفار تحدِّي العذاب :

عصوا أمر ربهم :

(وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

أي : إن كنت رسولاً صادقاً فأتنا بما تعدنا ، ولا أجد في الأرض من هو أغبى مما يتحدى الله عز وجل ، الإنسان في قبضة الله .

(فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ)

2 – المشارك في القتل بالإقرار كالقاتل :

عقروا بواو الجماعة ، معنى ذلك أنهم جميعاً أقروا قتلها ، وما حاسبوا قاتلها ، ولا أرضوا فصيلها ، ولا ندموا ، ولا اعتذروا ، ولا تابوا ، بل تحدوا ،

(فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ)

أي أقروا قتلها .

(وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ)

بوقاحة ما بعدها وقاحة :

(يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

الردّ الإلهي : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ

جاء الرد الإلهي :

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

(سورة الأعراف)

1 – معنى : جَاثِمِينَ :

الواقف بقي واقفا ، والنائم بقي نائما ، حالتهم جمدت ، معنى جاثمين أن كل واحد بقي على الحالة التي جاء فيها بلاء الله عز وجل .

عبرةٌ لمَن يعتبر !!!

في إيطالية جبل فيه جوف ، هذا الجبل بركاني ، خرج منه حمم ، ورماد بركاني غطى بلدة كانت غارقة في المعاصي والآثام ، غطاها ثمانية أمتار ، ومع مضي السنوات والحقب هذا الرماد أصبح صخراً ، ونسي الناس من تحت الرماد ، في العصور الحديثة في أثناء التنقيب وجدوا صخرا ، لما نقروا رأوا جوفًا ، حقنوا تجويف الصخر بالجبصين السائل ، ثم كسروا هذا الصخر ، فإذا امرأة تجمع حليها من الخزانة ، وإذا أناس يأكلون على المائدة ، وإذا كلب أصابه الهلع ، لما حقنوا الفراغات بالجبصين السائل ثم أزاحوا القالب عن شكله الذي حقنوه بالجبصين ظهرت حالة البلدة ، كان الوقت بعد الظهر في أثناء الغداء ، كل إنسان كما هو ، حتى فزع الرجال ، وفزع النساء ، قسم منهم في القصور، وقسم في البيوت ، وقسم في الطرقات ، هناك من يأكل ، هناك يجمع الأموال :

(فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

هناك بحوث وفي صور ، وتحقيقات مطولة عن هذا البركان ، هذا قذف بالرماد البركاني حتى غطى هذه المدينة مقدار ثمانية أمتار ، ومع مضي الأيام أصبح صخراً ، فغطى الرماد الإنسان حتى ذاب ، وهو مِن لحم ودم ، بقي الفراغ ، حقن هذا الفراغ ، والله في هذه صور ظهرت ملامح الرجل وهو مذعور ، مع ملامح كلب إلى جانبه ، هذا معنى قوله تعالى :

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

2 – هذا مصير كلِّ ظالمٍ :

هذا المصير ، والذي أقوله لكم : تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً ، ويأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً عدلاً .
والله بلغ الظلم في الأرض أن البشر بالمئات ، بل بالألوف ، بل بالملايين يُقتلون ، ولا تهتز لواحد من الأقوياء شعرة أبدا ، مليون قتيل ، مليون معاق ، أربعة ملايين مشرد .
قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر
يقول لك : أزمة الشرق الأوسط ، أيها الإخوة ، هذه قصص للموعظة .

وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)

(سورة الأعراف)

ارجعْ قبل أن فوات الأوان :

أذكر مرة كنت في العمرة ، لي صديق ذكر لي هذه القصة الواقعية ، بدوي من أطراف جُدّة ، لما توسعت جُدّة اقتربت من أرضه ، فارتفع سعرها ، باعها بثمن بخس دون أن يعلم ، اشتراها مكتب عقاري خبيث جداً منه بأبخس الأثمان ، أنشأ فوقها بناء من عشرة طوابق ، وأصحاب هذا المشروع شركاء ثلاثة ، فالأول وقع من فوق الطابق العاشر إلى الأرض فنزل ميتاً ، والثاني دُهس بسيارة ، انتبه الثالث ، فبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر حتى عثر عليه ، أعطاه ثلاثة أمثال حصته ، أعطاه الثمن الحقيقي ، فقال له هذا البدوي : أنت لحقت نفسك .

ما دام القلب ينبض فلنلحق بأنفسنا ، الذي عنده مخالفة ، الذي عنده تقصير ، الذي عنده بدخله حرام ، الذي عنده ظلم لإنسان ، أكل حق إنسان ، ما دام القلب ينبض فهو في بحبوحة .

لذلك :

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

هذا التفلت ، والمرأة التي هي كاسية عارية ، هذا الفساد إن لم يوضع حد له فهناك مشكلة كبيرة جداً مع الله ، نسأل الله أن يردنا إليه رداً جميلاً .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(28-60): تفسير الآيات 80 - 84 ، البعد عن الله يؤدي إلى الانحراف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-12-07

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لتفسير الآية :

أيها الإخوة الكرام مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثمانين ، وما بعدها ، الله عز وجل يقول :

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

معنى الشفع والوتر :

أولاً من أدق معاني الشفع والوتر ، أن الوتر هو الله ، لأنه واحد أحد فرد صمد :

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

(سورة الإخلاص)

صمد بمعنى أنه لا يحتاج إلى واحد ، لا يحتاج إلى أي شيء ، بل يحتاجه كل شيء ، واحد لا شريك له ، وأحد لا مثل له .

(مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً)

(سورة الجن)

شأن الله عز وجل الأحدية ، وشأن الخلق الزوجية .

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)

(سورة الذاريات الآية : 49)

مبدأ الافتقار في عالم المخلوقات :

الذرة في النواة إيجابية ، والكهارب سلبية ، وأي شيء يخطر في بالك بدءًا من الجماد وانتهاءً بالإنسان، زوجان ذكر وأنثى ، أو إيجابي وسلبي ، شأن مخلوقاته أن كل مخلوق مفتقر إلى مخلوق آخر، فالرجل مفتقر إلى المرأة ، والمرأة إلى الرجل ، والصديق إلى صديقه ، والزميل إلى زميله ، وكل مخلوق يفتقر إلى مخلوق آخر .

الافتقار أنواع ، هناك افتقار جنسي ، فالذكر مفتقر إلى الأنثى ، والأنثى مفتقرة إلى الذكر ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان حاجات ثلاث ، أودع فيه حاجة إلى الطعام والشراب تحقيقاً لبقاء الفرد ، وأودع فيه حاجة إلى الجنس تحقيقاً لبقاء النوع ، وأودع فيه حاجة إلى تأكيد الذات تحقيقاً لبقاء الذكر ، فالإنسان يبحث عن الطعام والشراب ، فإذا أكل وشرب بحث عن الطرف الآخر ، فإذا كان مؤمنا تزوج ، وإذا كان غير مؤمن يزني ، فإذا أمن الاثنتين بحث عن الرفعة ، والقوة ، والتفوق ، والعلو ، وتأكيد الذات .

افتقار الرجل إلى المرأة و افتقار المرأة إلى الرجل :

لو أخذنا الشهوة الثانية ، الشهوة إلى الآخر ، الله عز وجل رسم منهجا ، فالأنثى خلقت خصيصى للذكر ، والذكر خلق خصيصى للأنثى ، خصائص الرجل الفكرية والنفسية والاجتماعية والجسمية كمال مطلق للمهمة التي أنيطت به ، وخصائص الأنثى الجسمية والنفسية والاجتماعية والفكرية كمال مطلق للمهمة التي أنيطت بها ، هما متكاملان ، إذاً : هما شفع .

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

(سورة الفجر)

لكن هذه العلاقة مع المرأة قد تأخذ شكلاً مشروعاً ، هو الزواج ، وقد تأخذ شيئاً غير مشروع ، هو الزنا ، فالزنا خروج عن الشرع ، وقد أودع الله في الإنسان هذه الحاجة ، فالمؤمن الذي يخاف الله عز وجل ما عنده قناة لإرواء هذه الحاجة إلا الزواج ، وغير المؤمن فعنده قناة أخرى ، هي الزنا .

إن الزنا خروج عن منهج الله ، ومعصية كبيرة ، بل تسمى جريمة الزنا ، وفيها ضياع أنساب ، واختلاط أنساب ، وفيها سقوط المرأة الزانية ، وسقوط الزاني ، والمجتمع ينكر الزنا ، والشرع ينكر الزنا ، وأي شيء أنكره الشرع تنكره الفطر السليمة .

في تاريخ البشرية يقولون : فضيحة أخلاقية ، في الدول الإباحية ، في الدول التي لا تلتزم بأي منهج ، فضيحة جنسية ، أو فضيحة مالية ، وفي تاريخ البشرية الفضائح الكبرى نوعان : فضائح مالية ؛ سرقة، واختلاس ، ونهب ، وتزوير ، أو فضائح جنسية ، والذي يقع على رأس البيت الأبيض تورط مع موظفة ، فعرضوا في الإنترنت 2800 صفحة تفاصيل هذه العلاقة الآثمة .

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ

1 – الخروج عن منهج الله في الشهوة شذوذ وانحراف :

لكن حينما تسلك هذه الشهوة طريقاً آخر ، غير الطريق الذي رسم لهذه الشهوة فهذا مباح ، والله عزوجل رسم لهذه الشهوة طريق الزواج ، وغير المؤمن خالف المنهج فزنى ، لكن في الأصل المرأة للرجل ، والرجل للمرأة ، أما الشاذ فخالف المنهج والفطرة معاً ، وسلك طريقاً لا يؤدي إلى الولد ، طريق قذر ، فالله عز وجل سمّى هذا الانحراف فاحشة ، أول من أتى بهذه الفاحشة قوم لوط .

فلسفة الشهوة عند الغرب :

ولكن أيها الإخوة ، أتمنى عليكم أن تنتبهوا إلي ، في العالم الغربي الإنسان يخترع أفكارا كي يرتاح بها المنحرفون ، يقولون : هذا الشاذ في جيناته هذا الشذوذ ، لا ذنب له ، هذا مركوز في أصل تكوينه ، وفي أصل خلقه ، والله الذي لا إله إلا هو لو قطعت المؤمن مليار قطعة على أن يصدق أن الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان شذوذاً ، ثم يحاسبه على هذا العمل الشنيع ، ثم يضعه في جهنم ، والله ما من مؤمن مستعد لو قطعته مليار قطعة أن يصدق ذلك ، لكن هذا منطق الغرب !

نظرية داروين بين الحقيقة العلمية وفلسفة الراحة الوهمية :

أحيانا الإنسان يسمع تفسيرا ، أو طرحا فيصدقه ، لا لأنه صحيح ، بل لأنه مريح ، فنظرية داروين مثلاً لا يمكن أن يصدقها أحد في الأرض ، لأن داروين نفسه قال : " إن لم يثبت العلم هذه النظرية فهي باطلة " ، داروين اعتقد أنه الفأرة تأتي من الخرق البالية مع القمح ، وأن الضفدع يأتي من الوحل ، فالوحل يصنع ضفدعا ، هذا شيء مضحك الآن ، العلم لم يكذّب هذا ، بل يستهزئ به ، وتوقع أن المخلوقات تطورت من حيوانات أو مخلوقات أحادية الخليلة ، حتى الإنسان عنده تطور طبيعي عبر ملايين السنين ، إذاً : لا بد من كائن مرحلي وحيد خلية ، سمكة بعدها زاحف ، بعدها قرد ، بعدها إنسان .

مع التفاصيل :

فتحوا الأحافير فوجدوا صورَ الحيوانات التي طمرت برماد بركاني ، وأصبح هيكلها مطبوعًا على الحجار ، هذه اسمها أحافير ، وجودوا مئات ، بل ألوف المخلوقات قبل 530 مليون سنة كما هي الآن،

فالنظرية باطلة كلياً ، مَن أبطلها ؟ علماء الغرب ، ومع ذلك العالم كله الآن يؤمن بها ، ليس لأنها صحيحة ، بل لأنها مريحة ، ما مِن إله ، هذا الشعب اسحقه ، انهب الثروات ، هذه مريحة جداً لأعداء الدين ، ما من إله يحاسب أبداً ، ولا يوم آخر ، ولا آدم ، هناك قرد فقط !!!

أنا هذه النظرية صدقتها حديثاً ، لكن صدقتها معكوسة ، كان المحلوق إنسانًا فصار قردًا الآن ، صار إنسانًا ماديًّا ، القرد رمز المادية ، لما قال الله عز وجل :

(وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ)

(سورة المائدة الآية : 60)

أنا أتصور المسخ هكذا ، إنسان إلهه المال ، هذا قرد ، وإنسان إلهه الجنس ، هذا خنزير .

النظرية باطلة كلياً ، لكن لأنها مريحة تمسك العالم بها ، الآن يقول الناس الشاذين ، وللملايين في العالم الغربي : إن الشذوذ أصله في جسم الشاذ ، وهذا أمرٌ مريحٌ جداً .

أنا زرت مدينة بأمريكا ، لوس أنجلوس ، 75% من سكانها شاذون ، صدقوا في يوم بأكمله ما لمحت طفلا ، من أين يأتي طفل ؟!

الشذوذ انحراف الفطرة ، الزنا انحراف شرعي ، الله أمر بالزواج ، لكن الزواج رجل مع امرأة ، والزنا رجل مع امرأة ، لكن هذا وفق منهج الله ، هذا بخلاف منهج الله ، أما الشذوذ فتوجُّه إلى مكان قذر ، إلى مكان ليس فيه حرث ولا نسل ، الشذوذ تحطيم الشاذ .

لهذا أيها الإخوة ، الشذوذ عقابه القتل ، مع أنه مطروح في العالم الآن آلاف الأفكار أن الشاذ إنسان سويّ ، لكن جيناته شاذة ، لذلك بكل بساطة يقول وزير الصحة البريطاني : " أنا شاذ " ، قالها في مؤتمر صحفي ، وهناك وزير إيطالي قال : " أنا شاذ " ، وسفير أمريكا في بوخارست لما تسلم أوراق اعتماده من الخارجية الأمريكية أقيم له حفل في الخارجية ، فكان هو حاضر مع شريكه الشاذ ، عوض زوجته ، والآن يعطون في أمريكا ميزات الزوجة للشريك الجنسي ، وفي كندا مَن كان له شريك جنسي كندي يستحق الجنسية الكندية ، شيء مخيف ، نحن في نعمة كبيرة جداً في بلادنا .

حدثني أخ من أستراليا ، هو رئيس الجالية ، في أثناء وداعي في المطار والله بكى ، قال لي : بلغ إخواني في الشام أن مزابل الشام خير من جنات أستراليا ، قلت : لمَ ؟ قال لي : احتمال أن ترى ابنك يضع حلقة في أذنه اليمنى بالـ 50% ، معناه أنه شاذ ، أو أن تكون في اليسرى ، بمعنى آخر ، فهناك شاذ إيجابي ، وشاذ سلبي ، أو في الأذنين معاً أسوأ وأسوأ ، بل إن أستراليا تعد ملجأ للشواذ في العالم ، وفي بلاد في أوربا الشواذ أشخاص محترمون ومديرو شركات ، رؤساء بنوك ، قضاة لهم شريك جنسي ، وفي دول عديدة الآن يعقد عقد زواج مثلي ، والآن بدأت تكثر هذه البلاد ، فأصبح الزواج المثلي مشروعاً ، أرأيتم إلى هذا المجتمع البشري ؟! .

لكن المفاجأة التي يصعب أن تصدق أن الرئيس الأمريكي كلنتون قبل نهاية ولايته ألقى قنبلة علمية ، حيث أعلن الخارطة الجينية ، فقال ، سبحانك يا رب ! الحق أبلج ، قال : ليس هناك من علاقة بين الجينات والسلوك ، لا لأسباب دينية ، ولا إسلامية ، ولا غير إسلامية ، قضية علم ، لا علاقة أبداً بين الجينات والسلوك ، هذا انحراف وشذوذ ، لكن يبدو أن الإنسان لو نشأ عليه يتأصل فيه ، ويقول لك : لا أستطيع تركه ، لأنه ألِفه ، أما أن يكون في تركيب أصل الإنسان شذوذ فهذا مستحيل ، وألف ألف ألف مستحيل ، إله عظيم ، رحيم ، عادل ، يخلقك شاذًّا ويحاسبك ؟ مستحيل .

2 – مرض الإيدز خرج من رحم هؤلاء الشاذين :

هؤلاء القوم قوم لوط ، لكن ببلاد الغرب لهم تجمعات ، ونوادٍ ، ومنتجعات خاصة بهم ، هم لهم شعار خاص بهم ، ويطالبون بحقوقهم ، وقد أخذوها ، ما معنى ذلك ؟ كما قال عليه الصلاة والسلام ، وهذا الحديث من دلائل نبوة النبي ، قال :

((لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن عبد الرحمن بن عمر]

حتى يفتخروا :

((إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ))

[أخرجه ابن ماجه عن عبد الرحمن بن عمر]

بالمناسبة مرض الإيدز من أسبابه الأولى الشذوذ .

((لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ))

والآن المصابون بمرض الإيدز يقتربون من مئة مليون في العالم ، وكل ثلاث ثوانٍ يموت شخص واحد به ، وحتى الآن ما من علاج له ، ولا مصل مضاد ، وأغرب من ذلك لو دفعنا الملايين ، بل المليارات للبحث عن مصل مضاد فإنه يكفي أن هذا الفيروس يغيِّر شكله ، فإذا غيّر شكله ذهبت كل هذه الأموال أدراج الرياح ، لا أمل ، وأغرب من ذلك أن هذا الفيروس له دور حضانة ستة أشهر ، فإذا فحص الإنسان دمه ، ومعه مرض الإيدز ، لكن أقلّ من ستة أشهر لا يظهر في الفحص ، احتمال أن يكون الدم ملوثا بهذا الفيروس ، والفحص سليم ليس إيجابيًا ، هذا بلاء من الله ، لذلك قال تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

(سورة الروم الآية : 41)

هذه الأمراض التي انتشرت في العالم :

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

زلزال تسونامي ، لما جاء في جنوب شرق آسيا ، هذه السواحل من أجمل السواحل في العالم ، والشتاء في أيام البرد والثلج في النصف الكرة الشمالي جو لطيف دافئ حار ، مياه ساخنة ، مناظر جميلة ، غابات ، 400 ألف طفل معدّ للدعارة هناك ، ولهم صور موزعة في أنحاء أوربا ، يختار السائح الطفل قبل أن يأتي برقم معين ، أين أنتم ؟ العالم وصل إلى فساد يفوق حد الخيال .

رئيس دولة كبرى في شرق آسيا يفتخر في خطابه أنه ما عنده فتاة عذراء ، سياحة الجنس ، نحن نعيش في نعمة كبيرة ، وعندما فساد أيضاً ، لكن نحن نعيش ببقية مروءة ، ببقية طهارة ، ببقية أدب ، ببقية حياء ، ببقية استقامة ، بأسر منضبطة .

على كلٍ هذه المعصية الكبرى بدأها قوم لوط ، الرد العلمي أن الخارطة الجينية تؤكد أنه لا علاقة بين الجينات وبين السلوك ، هذه أنا سميتها قنبلة ألقاها كلنتون قبل انتهاء ولايته ، حيث قال : لا علاقة للجينات بالسلوك .

الزواج هو الطريق الطبيعي لتلبية الشهوة :

هذا شرع الله عز وجل ، الله ينهى عن معصية ، فهل هو ركبنا فينا ؟ الله ركب فيك الشهوة ، هذا صحيح ، لكن الشهوة حيادية ، هذا شيء دقيق جداً ، الله ركّب فيك شهوة الأنثى ، تصور أسرة الآن بشاب نظيف ، طاهر ، عفيف ، ما عرف امرأة قبل الزواج ، تزوج زوجة طاهرة وفية عفيفة ، أنجبت له أولادا كالأقمار ، امتلأ البيت سعادة ، تربى الأولاد ، فهذا طبيب ، هذا مهندس ، الوالد محترم ، الوالدة محترمة ، جاءه أصهار ، الزواج كله خير ، والله الزواج قطعة من الجنة ، هذا منهج الله عز وجل ، و الشهوة بنزين ، لكن وضع في المستودع المحكم ، وسال في الأنبوب المحكم ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ، ولد حركة نافعة .

إذا أخذت أهلك في نزهة بسيارتك ، ما الذي يحدث في السيارة ؟ انفجارات ، لكن سائل بمكان محكم ، بأنبوب محكم ، الانفجار بوقت معين ، بزمن معين ، فصار حركة .

ائت بصفيحة البنزين ، وصبها على المركبة ، وأعطيها كبريت ، تحرق المركبة ومن فيها ، البنزين هو هو ، والشهوة هي هي ، تجد أسرة زوجة وفية ، صادقة ، تحبها وتحبك ، تحصنها وتحصنك ، ترعاها وترعاك ، وأنجبت لك أطفالاً كالورود في البيت ، هذا هو الزواج .

مرة صديقي حدثني ، قال لي : طرق بابي الساعة الرابعة صبحا ، فتحت فلم أجد أحدًا ، لما نظرت إلى الأسفل فإذا بكيس يتحرك ، جنين ولد لتوه ، وضعوه أمام بيتي ، وقرعوا الجرس وهربوا ، أنا فكرت ، إنسان يتزوج ، هذه ليست عقد طبعاً ، بعدها كتابة الكتاب ، بعدها عرس ، بعدها يأتي الخبر السار الذي ينتشر في الآفاق ، المرأة حامل ، الحمد لله ، الآن نستعد لهذا المولود ، السرير الخاص ، والألبسة الخاصة ، والعطورات الخاصة ، يستعد لهذا الضيف الجديد أشهرا مديدة ، يولد هذا الجنين ، الاتصالات ، المباركات ، جاءنا صبي أو بنت ، والبنت مقدسة ، تجد الحفل ، والتبريكات ، والهدايا ، والورود ، هذا الزواج المشروع ، أما إذا كان الزنا فإن الطفل يوضع في كيس أمام الباب ، ويطرق الباب ويهرب أهل الطفل .

والله في الشام حادثة ، صلى أحدُهم الصبح ، وجاء إلى البيت ، وجد خربشة في الحاوية ، صوت ، الفضول دفعه إلى أن ينظر ، هو ظن هرة تنقب في الحاوية ، لا ليست هرة ، هناك كيس يتحرك ، فتحه فإذا طفل مولود لتوه ، أخذه إلى الحاضنة فوراً ، القصة إلى هنا ، وضعه عند الحاضنة ، وكبر ورباه ، أنا أكملتها بخيالي ، وضعه في الحاضنة حتى تجاوز الخطر ، رباه ، جاء له بمربية ، وأرضعه بحليب قوارير ، وكبر ، أدخله إلى الروضة ، ثم الابتدائي ، ثم الإعدادي ، ثم الثانوي ، أدخله جامعة ، أدخله الطب ، أخذ دكتوراه في الطب ، بعثه إلى أمريكا فحصّل على بورد ، زوجه ابنته ، هيأ له بيتا ، هيأ له سيارة ، وعيادة ، أين كان ؟ في الحاوية ، هذا المتبنى يسير بسيارته الفارهة ، لقي عمه سيد نعمته ، قال له : الله يرضى عليك أوصلني إلى البيت ، تردد ثانية واحدة ، يكون في هذه الثانية بحق هذا الإنسان مجرما ، فقط لأنه تردد .

منحك نعمة الإيجاد ، نعمة الإمداد ، نعمة الهدى والرشاد ، الآن نقول لك : تعال واحضر الدرس فقط، لا أن تقتل نفسك ، الآن الطلبات خفيفة جداً ، فقط اسمع الدرس ، غض بصرك ، اضبط لسانك ، حرر دخلك ، ارحم من حولك ، فقط ، الذي تردد في بذل حياته هبط مقامه في الجنة .

((وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه))

[السيرة النبوية]

3 – وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ

لذلك أيها الإخوة ، قال تعالى :

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ)

سبحان الله ! قد يسأل سائل ، لماذا الشذوذ ؟ سؤال محرج ، أهو أمتع من المرأة ؟ لا أبداً ، لكن الإنسان إن لم يكن له هدف في الحياة فإنه يمل الشيء الطبيعي ، هذا تفسيري لما يجري في الغرب ، الشيء

الطبيعي مُمَل ، يبحث عن شيء جديد ، لأنه لا هدف له ، كل شيء يمل ، فجعلوا مكان الزواج الزنا ، وبعد الزنا الشذوذ ، وبعد الشذوذ مع البهائم أحياناً ، وهناك انحرافات لا يعلمها إلا الله ، سببها أنه إنسان بلا هدف ، وأية شهوة يستوعبها ، ثم يمل منها ، أما المؤمن فهدفه الله عز وجل ، وهذه الشهوة يأخذ منها بالمساحة المتاحة فقط ، فيسعد بأهله ، وتسعد زوجته به .

4 – مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ

إذاً :

(مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

(إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)

(سورة الأعراف)

مرة ثانية ، الإنسان إذا لم يكن له هدف في الحياة فهو أقلّ منزلة من الحيوان .

أذكر قصة مشهورة ، أن بين أوربا وآسيا مدينة على الطرف الأول آسيا ، والطرف الثاني أوربا ، أنشئ جسرٌ ، وهو ثاني أطول جسر في العالم ، يعبره 300 ألف سيارة يوميا ، فالذي صمم هذا الجسر المعلق بين قارتين ، وهو ثاني أطول جسر ، الأطول في سان فرانسيسكو الأطول ، هذا في استنبول ، المهندس الذي صمم هذا الجسر ألقى نفسه من أعلى الجسر ، شيء عجيب ، خامس مهندس في العالم ، دخل فلكي ، شاب وسيم الصورة ، ذهبوا إلى غرفته في الفندق ، كتب ورقة فيها : " ذقت كل شيء في الحياة ، فلم أجد له طعماً ، فأردت أن أذوق طعم الموت " ، فالحياة من دون هدف مملة ، فيها سأم .

والله سافرت إلى بلاد كثيرة ، تجد الناس قد ملّوا ، وكل شيء مؤمَّن ، ما عندهم مشكلة ، واستراليا قارة بأكملها 18 مليون ، قارة بأكملها فيها رفاه يفوق حد الخيال ، وفيها ملل ، وسأم ، كل شيء مؤمَّن، لكن ليس لهم هدف ، وقد تجد شخصًا في بلاد إسلامية يعاني ما يعاني ، يعاني مليون مشكلة ، له هدف، يقنع إنسانا في الدين فيفرح ، يعمل عملا صالحا فيفرح ، حياته متجددة .

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ

هناك عاصٍ ، وهناك مسرف ، ويبدو أن الإسراف معصية كبيرة جداً .

(وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

(سورة الأعراف)

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ

طبعاً المؤمن طاهر ، المؤمن نظيف ، علاقاته نظيفة ، سره كجهره ، ظاهره كباطنه ، خلوته كجلوته ، واضح .

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

(سورة الأعراف)

سيدنا لوط امرأته تعاطفت مع قومه ، لذلك حينما يتعاطف الإنسان مع عاصٍ ، ويتغافل عن معصيته ، بل يثني عليه فكأنه وقع في المعصية نفسها ، فمن غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها ، ومن شهد معصية فأنكرها كان كمن غاب عنها .

لو سمعت قصة بكندا أن فلانا تمكن أن يسرق بنكا ، وجمع أموالا طائلة ، وما استطاعت الحكمة أن تكتشفه ، وعاش حياة بحبوحة كبيرة ، قلت : والله دبّر أمره ، فأنت شريكه في هذه الجريمة .

فمن غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها ، ومن شهد منكراً فأنكره كان كمن غاب عنه .

هذه المرأة ما لها مصلحة أن يكون زوجها منحرفا ، ليس في صالحها إطلاقاً ، ومع ذلك لأن امرأته تعاطفت مع قومها :

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

وقفة متأنية عند الآية : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ

هناك سؤال يتوارد كثيراً ، ما معنى قوله تعالى :

(وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ)

أو بالعكس :

(الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً)

(سورة النور الآية : 3)

ما من امرأة لم تزن وزوجها زانٍ ؟ ما معنى الآية ؟ لما يبلغونها أنه كان زير نساء ، ما من مشكلة ، تريد أن تتزوجه ، حينما تساهلت في هذه الجريمة التي ارتكبها وقبلته زانياً ، فهي في حكم الزانية .

أنت مثلاً تعرف رجلاً أمواله كلها حرام ، وشاركته ، أمواله كلها حرام ؟ ليس ثمة مشكلة ، فأنت مثله، الحلال ما له قيمة عندك ، ما دام أنك قبلت أن تشارك سارقًا ، فالسرقة لا قيمة لها عندك إطلاقاً ، أنت وإن لم تسرق ففي حكم السارق ، الفكرة واضحة . إذاً :

(إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ

قصص الأقوام السابقة هدفنا أن نتعظ بها ، وما من قوم إلا أهلكهم الله عز وجل بذنوبهم .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

هلاك الأمم له أسباب :

هلاك الأمم له أسباب ، وأسبابه كثيرة ، من أسبابه :

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة الآية : 79)

من أسبابه :

((كانوا إذا سَرقَ فيهم الشَّريفُ تَركُوه ، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين]

فوضى الجنس ، أحد أسباب هلاك الأمم ، فوضى المال أحد أسباب هلاك الأمم ، عدم التناصح أحد أسباب هلاك الأمم . فيا أيها الإخوة الكرام ، هذه القصص ليست للمتعة ، لكن للموعظة ، لأن ما من قوم انحرفوا عن منهج الله عز وجل ، وأصروا على هذا الانحراف إلا أهلكهم الله عز وجل ، والأمة الإسلامية لأن أمر الله هان عليها هانت على الله .

خاتمة :

القصة بشكل مختصر :

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

أصابتها غبار هذه المعصية أنها رضيت بها .

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأعراف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(29-60): تفسير الآية 85 ، الأنبياء ملكوا المنهج ، والأمر والنهي ، أنواع الغش والبخس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-01-11

بسم الله الرحمن الرحيم

رحمة الله تقتضي هداية خَلقه :

أيها الإخوة الأكارم ، مع الدرس التاسع والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والثمانين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

أولاً : تقتضي رحمة الله وحكمته أنه تولى هداية خلقه .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

تقتضي رحمة الله وحكمته ، ولأنه تولى خلقه بذاته العلية هداية خلقه أن يرسل إلى كل قوم نبياً أو رسولاً يبين لهم .

لكن في المألوف أن هذا الرسول أو النبي معه منهج ، معه نظام ، معه أوامر ، معه نواهي ، فإذا جاءت هذه النواهي على خلاف شهوات الناس يرفضون هذه الدعوة ويكذبون هذه الرسالة ، ويسفهون هذه التعليمات ، فما الذي ينبغي أن يكون ؟ لا بد من أن يبين الله لهؤلاء الناس أن هذا الإنسان رسوله أو نبيه عن طريق المعجزات .

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ

1 - مَدْيَنَ

الآن :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

مَدْين هي قبيلة تقطن قرب معان ، وهم أصحاب الأيكة ، وقد أرسل الله لهم نبياً كريماً هو سيدنا شعيب.

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ)

2 ـ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا

عاش معهم تربى فيهم ، رأوا عفته ، رأوا صدقه ، رأوا أمانته ، رأوا كماله ، ألِفوه وألِفهم ، هو منهم ، لئلا تكون الحواجز بين الدعوة والمدعوين .

مثلاً : لو أن أخوك دعاك إلى هذا الدرس هل تقلق ؟ هل تشك فيه ؟ هل تخاف ؟ أبداً ، لأن الأخ ليس بينك وبينه حواجز .

لو أن إنساناً من الطريق أمسكك بيدك ، وقال : تعال معي ، وأنت في نيتك أن تأخذه إلى هذا المجلس هل يقبل ؟ لا يقبل ، يخاف ، إلى أين ؟

لذلك الحكمة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى جعل الأنبياء يعيشون مع أقوامهم ، وجعل أقوامهم يرون بأعينهم كمالهم .

كان النبي عليه الصلاة والسلام يسمى عند قومه قبل البعثة الأمينَ ، وحتى بعد البعثة كانت أمانات قومه تودع عندهم ، هم لم يؤمنوا به كنبي ، لكنهم آمنوا بكماله ، آمنوا بعفته ، آمنوا بأمانته ، آمنوا بصدقه . إذاً :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

كمالُ الخَلق يدل على كمال التصور :

دائماً وأبداً كمال الخلق يدل على كمال التصور ، في هذا الكون كمال مطلق ، الكون معجز ، هذا الكون يشفّ عن إله عظيم ، عن مربٍّ حكيم ، عن مقتدر ، عن قوي ، عن غني ، هذا الكمال كمال الذات الإلهية لا بد من أن يكون معها كمال في التصرف .

للتقريب : إنسان يحمل أعلى شهادة ، وملتزم ، وحضر دروس علم خمسين عاما ، وهو مفكر ، وباحث ، وله مؤلفات ، هذا الإنسان بهذه الثقافة ، بهذا الوعي ، بهذا النضج هل يعقل أن يرتكب حماقة؟ مستحيل ، هل يعقل أن يقول كلمة زائدة ؟ مستحيل ، وقد تجلس مع إنسان أياما مديدة في سفر لا تسمع كلمة ليست في مكانها ، ولا تعليقا لا يرضي .

كمال الخلق يدل على كمال التصرف ، فمن كمال التصرف للذات الإلهية أنه أرسل إلى عباده أنبياء ورسلاً .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

3 ـ قَالَ يَا قَوْمِ

الأنبياء بماذا جاؤوا .

(قَالَ)

لا معه سلاح ، ولا قنبلة ذرية ، ولا أقمار صناعية ، ولا كمبيوتر ، هذا الإنجاز الحضاري لا يحتاجه الأنبياء ، الأنبياء كلمتهم طارت في الآفاق .

(مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

(سورة إبراهيم)

الأنبياء جاؤوا بالكلمة أيها الإخوة ، وللكلمة فعل لا يصدق إن كانت صادقة ، لذلك مع الكذب ، والدجل، والتزوير كفَر الناس بالكلمة ، الآن الكلمة سقطت ، لأنه كلام كثير لا يعني شيئاً ، كلام كثير ليس فيه مصداقية ، كلام كثير ليس فيه فعل ، كلام كثير لا ينفّذ ، الكلمة إن لم تنفذ تفقد مصداقيتها وقيمتها .

لذلك الأنبياء العظام جاءوا بالكلمة فقط ، كلمة قلبت العالم من عالم شارد عن الله إلى عالم مؤمن :

(مثلاً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

(بِإِذْنِ رَبِّهَا)

(سورة إبراهيم الآية : 25)

والباطل أيضاً يعتمد الكلمة .

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)

(سورة إبراهيم)

فالحق ينتشر بالكلمة الصادقة ، والباطل ينتشر بالكلمة المغرية :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ)

ما كل نبيٍّ ذُكِر في القرآن :

بالمناسبة : ما كل الأنبياء ذُكروا في القرآن الكريم .

(مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

(سورة غافر الآية : 78)

ما كل الأنبياء ذُكروا في القرآن الكريم ، وما كل أحوال الأنبياء ذُكرت في القرآن الكريم ، لحكمة بالغةٍ بالغة ، عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها ، لكن هناك رغبة عند بعض المفسرين أن يتقصوا أخبار القصص وتفاصيلها وجزئياتها التي وردت في القرآن الكريم ، هذا منهج غير صحيح ، لأن الله سبحانه وتعالى ذكر أشياء ، ولم يذكر أشياء أخرى ، فالحكمة من ذكر الذي ذكره حكمة كاملة ، والحكمة التي من عدم ذكر الذي لم يذكره حكمة كاملة ، لأن الله سبحانه وتعالى أراد من هؤلاء القمم قمم البشر أن يكونوا نماذج نقتدي بها ، أما التفاصيل إذا كثرت ألقت في روعنا أن هذه النماذج وقعت ، ولم تقع مرة ثانية .

فلذلك أيها الإخوة ، لا تبحث عن أشياء سكت عنها القرآن ، إنك إن فعلت هذا أفسدت على الله حكمته من هذه القصص .

إذاً : لحكمة بالغة لم يذكر الله عز وجل ما المعجزة التي جاء بها شعيب .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

4 ـ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ

أرأيت إلى هذه الكلمة :

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

هذه الكلمة ضغطت بها دعوات الأنبياء جميعاً .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

العقيدة ، بالتعبير المعاصر المنطلق النظري :

(فَاعْبُدُونِ)

عبادة الله الذي بيده الأمرُ :

العبادة ، السلوك ، بالتعبير المعاصر التطبيق العملي ، الإنسان عقل يدرك ، وإدراك ، وحركة ، عمل، وعقيدة .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

في أية لحظة تتوهم أن مصيرك بيد غير الله فهذا نوع من الشرك ، لأن الذي خلقك هو الذي يتصرف بك .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

الذي خلقك أمرك بيده .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

الذي خلقك مصيرك إليه .

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)

(سورة الشورى)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

فلذلك كلمة :

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

إن رأيت على شبكية العين أقوياء فهم بيد الله وقبضة الله .

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ)

(سورة هود الآية : 55 - 56)

الدابّة هي أيّ شيء يدب على وجه الأرض .

(مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده ، وهذا هو التوحيد .

(مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية : 2)

مشكلات المسلمين نابعة من ضعف التوحيد :

أيها الإخوة ، الدين كله توحيد ، وكل مشكلات المسلمين ، بل مشكلات المؤمن من ضعف التوحيد ، من ضعف التوحيد يسأل غير الله ، من ضعف التوحيد يخاف من غير الله ، من ضعف التوحيد يرجو غير الله ، من ضعف التوحيد يتوهم أن جهة في الأرض يمكن أن ترفعه ، وأن جهة أخرى يمكن أن تخفضه ، وأن جهة ثالثة يمكن أن تعطيه ، وأن جهة رابعة يمكن أن تحرمه ، أما التوحيد فأن تعتقد لا معطي إلا الله ، ولا مانع إلا الله ، ولا رافع إلا الله ، ولا خافض إلا الله ولا معز إلا الله ، ولا مذل إلا الله ، ولا مسعد إلا الله ، ولا مشقي إلا الله ، هذا هو التوحيد ، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، التوحيد أن تعلم علم اليقين أن مصيرك بيد الله ، وأنك في قبضة الله ، وفي أية ثانية أنت في قبضته ، التوحيد ألا ترى مع الله أحدا ، التوحيد أن ترى أن يد الله تعمل وحدها .

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية : 17)

أيها الإخوة ،

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ)

التوفيق والسعادة والنجاة في طاعة الله تعالى :

أي أطيعوه ، وكل السعادة في طاعته ، كل السلامة في طاعته ، كل التوفيق في طاعته ، كل النجاح في طاعته ، كل التفوق في طاعته .

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح .

مرة دخلت جامعا في محافظة ، والله رأيت لوحة بحجم فلكي كبير ، كتبت عليها آية قرآنية ، حينما تقرؤها تشعر بخدر في جسمك .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية : 10)

مهما رأيت يداً قوية تخاف منها فاعلم علم اليقين أن يد الله فوقها .

للتقريب : وحوش كاسرة ، جائعة ، مفترسة أنيابها حادة ، وأنت ضعيف ، إلا أن هذه الوحوش مربوطة بأزمة محكمة بيد جهة عادلة ، رحيمة ، منصفة ، حكيمة تحبك ، هل تخاف منها ؟ تخاف منها

إذا اقتضت حكمتها أن ترخي أحد الأزمّة ، فالوحش المربوط بهذا الزمام يصل إليك ، أما إذا كنت تتحرك وفق مشيئة هذه الجهة هي بعيدة عنك ، هذا هو الدين .

والله الذي لا إله إلا هو أكاد ألخص مشكلات المسلمين بمثل بسيط : المسلمون انحرفوا ، وتفلتوا من منهج الله ، لم يطبقوا سنة رسول الله ، هان أمر الله عليهم فقيض الله لهم قوة جبارة ، ليس في الإمكان إزاحتها ، إلا بحالة واحدة ؛ أن يعودوا إلى استقامتهم ، فتنزاح من تلقاء نفسها ، هذا ملخص الملخص .

(وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية : 19)

فالعبادة هي الطاعة ، والتوحيد هو الدين ، والدين كله توحيد وعبادة .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ)

قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

إما أن البينة هي سيدنا شعيب ، ببيانه ، وحججه ، وفي الأعم الأغلب ومعه معجزة ، هي خرق للعادات ، وللنواميس تؤكد أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسله .

(قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

دائماً عندنا عقيدة ، ومنهج ، ينبغي أن تعتقد أن الله موجود وكامل ، وواحد ، وأسماءه حسنى ، وصفاته فضلى ، وأن هناك قضاءً وقدراً ، وأن هناك ملائكة وهناك كتباً ، وهناك أنبياء ، ومرسلين ، هذه عقائد ، لا تكذب هو منهج ، أقم الصلاة هو منهج ، آتي الزكاة هو منهج ، لا تغتب أحداً هو منهج ، فهناك عقائد ، و منهج ، فأنت بالكون تعرفه ، وبالشرع تعبده الآن المنهج :

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

عقيدة :

فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ

(فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا)

منهج .

آتي بمثل : أنت بحاجة إلى غرة نوم ، مثلاً بحاجة إلى سرير واحد ، رأيت غرفة نوم بسريرين ، هو مصنّع ، قلت له : أريد سريرا واحدًا ، الغرفة ثمنها 150 ألفًا ، قال لك : أخصم لك ألفين ، هو نفسه ،

لو جئته بعد عام الغرفة فيها سرير واحد ، قلت له : أريد سريرين ، قال لك : فيها زيادة 25 ألفًا ، لماذا بالحسم ألفان ؟ و بالإضافة 25 ألفًا ؟ هذا بخس .

كل شيء تعرضه ما له قيمة ، كل شيء تطلبه غال جداً ، الباعة يبخسون الناس أشياءهم .

مرة حدثني أخ بينه وبين صديقه سيارة ، يريدان التصفية ، التخاصص ، ذهبا إلى تاجر للسيارات أعطاهم سعرًا شرائه لها أربعين ألفًا ، ذهبا ليشتريا مثلها فطلبوا 80 ألفًا ، من نفس المستوى تماماً ، العرض 40 ، الشراء 80 ، هذا بخس ، وش ، والله الذي لا إله إلا هو هناك أنواع من الغش لا يعلمها إلا الله ، كل شيء إذا عرضته يدفع لك ثمن بخس ، فإذا طلبته تدفع الثمن الفاحش .

إذاً : ليس هناك إنصاف ، وأقول لكم من أعماق أعماقي : دينك ليس هنا ، دينك في محلك التجاري ، في عملك ، إذا أحب أن يستلم قماش كيلاً يشد القماش حتى يتمزق ، وأما إذا أحب أن يشتري القماش يشكله بخط منحنٍ عنده ، الشراء خط منحني ، أما في البيع كاد القماش يتمزق من شدة الشد ، هذا بخس.

أحيانًا يبيعك حاجة غالية جداً كالهيل ، بورق ثقيل جداً مع نشاء ، صار ثمن الكيس أضعافًا مضاعفة ، أحياناً عبوة الفاكهة خشب ، يكون سعره الكيلو مئة ليرة ، 4 كيلو 400 ليرة دفع ، 400 ليرة ثمن العبوة هي ثمنها 20 ليرة العبوة خشب منقوع بالماء ، وثقيل ، أنواع الغش لا تعد ولا تحصى ، يبدو أن الإنسان يبخس الناس أشياءهم ، يتلاعب بالسعر ، بالمواصفات يأتي بقماش من بلد متخلف جداً ، يضع عليه شريطًا ذهبيًا بالمكواة ، يصبح مصنوعًا في أرقى بلد في أوربا ، يبيع القماش بثلاثة أضعاف ، هو يبخس الناس أموالهم ، وإذا اشترى يبخسهم أشياءهم .

لذلك في سياق سور جزء عمّ ، في سياق الجزء الثلاثين ، كل السور تبدأ بالقسَم :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

(سورة الفجر)

إلا في سورة قد يظن أنها مقحمة إقحامًا :

(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ)

(سورة المطففين)

على خلاف السياق كله ، قال علماء التفسير : إذا كان التطفيف في البيع والشراء يسبب الهلاك ، فكيف التطفيف في الإيمان بالله ؟

وصدقوا أيها الإخوة ، دينكم ليس في المسجد ، دينكم في المحل التجاري ، في الصيدلية يمكن أن تبيع دواء انتهى مفعوله ؟ جاء طفل يشتريه فيحك التاريخ بالشفرة ، ثمنه 800 ليرة ، أنا أرى أنك إن فعلت

هذا ألغيت عباداتك كلها ، حينما تحتال ، وتغش في الوزن ، والكيل والمساحة ، والعدد ، والنوعية ، والمواصفات ، ومنشأ البضاعة ، أنواع الغش لا تعد ولا تحصى ، أحيانًا الـ200 الغرام بالمطعم 150، وأحياناً اللحم بحسب ما اشتريته هو من نوع آخر ، غش مرتين ، مرة بالوزن ، مرة بالنوع ، ما دام الإنسان هكذا ليعتقد اعتقاداً جازماً أن الطريق إلى الله ليس سالكاً ، وألغى عباداته .

(فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا)

وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا

أحياناً الماء يفسد ، أنا عشت في هذه البلدة ، وأعلم علم اليقين كان الناس يشربون من ماء نهر يزيد ، كان الورع بحيث يخاف أي إنسان أن يلقي فيه شيئاً ، الآن مياه نهر يزيد سوداء ، إفساد الماء إفساد ، إفساد الهواء إفساد ، مادة مسرطنة إفساد ، هناك هرمون نباتي مسرطن إفساد ، هناك مواد حافظة مسرطنة ، توضع بكميات مضاعفة ، مسموح أن تضع 3 بالألف ، لكن يضعون 6 بالألف ، وهو مسرطن ، حينما ترى أن هناك إلهاً عظيماً سيحاسبك لا تفعل مثل هذا .

صدقوا أيها الإخوة ، هناك مواد غذائية تضاف لها مواد كيماوية مسرطنة ، يفتح لونها ، تزداد بياضاً ، يرتفع سعرها على حساب صحة الناس ، هناك أدوية زراعية جهازية مسرطنة تُشترى تهريباً من أجل أن يبتعد الدبور عن العنب ، هذا الدواء ممنوع استيراده ، ممنوع بيعه ، يدخل تهريباً ، ويرش به العنب، فالدبور لا يقترب إطلاقاً ، لكن الناس يموتون ، الذي يفكر بغش المسلمين أو غير المسلمين بكل بساطة فقد ألغى عباداته كلها ، وألغى صلاته ، وألغى صيامه ، وألغى حجه ، و ألغى زكاته ، وهو مسلم !!!

أحياناً هناك شيء تبيعه مؤذٍ ، لكن له عمولة عالية ، وهناك شيء تبيعه غير مؤذٍ ، لكن بلا عمولة ، حينما تختار الشيء الذي له عمولة ، وتؤذي به إنساناً عبداً لله ، فأنت بهذا قد خنت الأمانة ، وألغيت عباداتك كلها ، هذا إيمانك ، فدينك ليس في المسجد ، في محلك التجاري ، في المواد التي تقدمها للناس.

الموظف في مطعم مصاب بالتهاب كبد وبائي ، ودخل إلى الحمام ، وما غسل يديه جيداً قد ينقل هذا المرض الخطير العضال المميت إلى 300 آكل .

لذلك الآن :

(فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

فالعبارة : الدين سلوك ، الدين معاملة ، الدين انضباط ، الدين صدق ، الدين أمانة الدين ورع ، الدين إنصاف ، الدين نصيحة ، الدين استقامة ، هذا الدين ، فإن لم تكن كذلك ولا أبالغ وسامحوني مجيئك للمسجد لا يقدم ولا يؤخر .

كنت في ألمانيا موظف كبير في السفارة ، قال لي : كنت في الشام ، وأنا ركبت سيارة أجرة ، وسائق السيارة يستمع إلى درسك ، قلت له : شيء جميل ، قال لي : قدمت له مئة ليرة أخذها كلها ، أنا قلت له: أغلق الإذاعة أحسن ، إذا كان هذا هو السلوك أغلق الإذاعة .

إذا لم يكن الإنسان مستقيما فلا ينضم للمؤمنين إطلاقاً ، يقوم بحركات وسكانات اسمها الصلاة ، يقوم برحلة اسمها الحج ، يقوم بنظام غذائي صارم اسمه الصيام ، وهذا إذا ما استقمت .

والله أيها الإخوة ، كلمة من القلب إلى القلب ، أنواع الغش المتاحة للناس .

أيها الإخوة ،

(وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ)

كلمة أشياء عامة جداً ، أي شيء حتى لو كان معنويًا .

أحياناً يكون البيت المراد بيعُه في الطابق الخامس ، حتى يقنعَ الوسيطُ الإنسانَ بشرائه يصعد معه ، عند كل طابق يقف معه دقيقتين ، يقص عليه قصة ليرتاح ، في كل طابق وقفة ، يصل إلى فوق مرتاحًا.

أقسم لي بالله وسيط عقاري ، قال له : أريد البيت اتجاه القبلة ، قال له : سنصلي العشاء ، صلى باتجاه الشمال حتى أقنع هذا الإنسان أن هذا البيت باتجاه الجنوب ، هناك غش لا يعلمه إلا الله ، وأساليب الغش والله يحار لفهمها الناس ، وهو يصلي في الجامع ، هذه الصلاة لا قيمة لها ، هذه الصلاة التي ليس قبلها استقامة لا شأن لها إطلاقاً .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال :

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى ، هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

يقول لك : أنا أخذت الزيتون وعصرته أمامي ، يكون مستودع للزيت النباتي على السقيفة ، فيعصره نصف عصرة ، ويفتح المفتاح قليلاً ، ويأخذ زيته نصفه نباتي ، يقول لك : أنا وقفت أمامه ، لا مجال أن يكذب عليّ .

ألوان الغش لا يعلمها إلا الله ، وهذا المال الذي يأتي من الغش يدمره الله عز وجل ، الله عنده أساليب لتدمير المال لا يعلمها إلا هو .

أيها الإخوة ، الذي أتمناه في الدرس ، أنت مسلم تصلي يجب أن تكون مستقيماً استقامة تامة .

حدثني أخ يعمل بلف المحركات ، قال : يأتيني محرك قبل أن أعرف الله ، ما فيه شيء ، فيه شريط خارجي مقطوع ألحمه في ثانية ، الأجرة خمسة آلاف ، يأتي بعد يومين يشغله حسب الشرط 5000 ، يأخذها ، قال لي : بعدما عرفت الله ، أطلب منه 25 ليرة ، الشرط خمسة آلاف ، ما فيها شيء ، فيها شريط خارجي مقطوع ولحمته .

لما تعرف الله تستقيم استقامة تامة ، لما تعرفه يحاسبك ، لما تعرف صحتك بيده .

والله مرة حدثني أخ قال لي : جاء إنسان معه سيارة جديدة ، كان بدولة خليجية فيها مشكلة ، الذي رآه ذكي ، عرف أنه لا يعلم شيئاً في مكانيك السيارة ، أعطاه وصفًا يكلف عشرة آلاف ، وإصلاحها يحتاج إلى دقيقة واحدة ، كم يوما ؟ ثلاث أيام ، جاره من إخواننا ، أخذ السيارة وأخبر أهله ، ذهب إلى منطقة الزبداني أول يوم ، و ثاني يوم إلى طريق المطار ، ثالث يوم على منطقة أخرى ، وفي رابع يوم جاء صاحب السيارة فأعطاه إيّاها ، أخذ عشرة آلاف ، فجاره عاتبه ، قال له : هكذا الشغل ، لكن ابنه دخلت نثرة فولاذ في قرنية عينه بمخرطة ، تكلفه أربعين ألفًا ، بعد جمعتين العملية أجراها في لبنان ، الله كبير.

إياك ، ثم إياك أن تفهم الدين عبادات شعائرية ، الدين استقامة ، الدين بحقلك الزراعي ، الدين بمكتبك التجاري ، الدين بمكتب المحاماة ، الدين بالمكتب الهندسي ، الدين بالعيادة ، الدين بالدكان .

وقعت فأرة في علبة الزيت ، تباع ثاني يوم بيعًا عاديًا ، تُنزَع بالملقط ، ويباع الزيت ، والمؤمن مستحيل أن يبيعها ، وإذا ما راقبت الله عز وجل بينك وبينه لا تصح صلاتك ، لان حجابا بينك وبين الله.

توسعت في هذا الموضوع ، لأن العالم الآن يعاني من الغش بشيء لا يصدق ، في بخس لأموال الناس، إذا أعطيت مادة سيئة بسعر مرتفع فأنت بخست الناس أموالهم .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ)

بضاعتهم ، على ألبستهم ، أي شيء .

(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

خاتمة :

إذا كنتم مؤمنين فهناك إله يعلم ما تفعلونه ، وسيحاسب ، وسيعاقب ، فالأولى أن تستقيم ، الأولى أن تنجو من الله باستقامتك ، إذا كنت مؤمنًا أن هناك حسابًا :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

ينبغي أن تستقيم .

حينما تؤمن أنه :

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

ينبغي أن تستقيم ، وحينما تؤمن أن لكل سيئة عقابًا ، ولكل حسنة ثوابًا ينبغي أن تستقيم ، وحينما تؤمن أنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ينبغي أن تستقيم .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(30-60): تفسير الآيات 86 - 93
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-01-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السادسة والثمانين ، وهي قوله تعالى :

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

مقدمة للآية :

1 ـ هما طريقان لا ثالث لهما :

أيها الإخوة الكرام ، هناك طريق إلى الله ، وهناك طريق إلى جهنم ، طريق إلى الجنة ، وطريق إلى جهنم ، طريق إلى الله ، وطريق إلى الشيطان ، لكن الطرائق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ، المنهج واحد ، أما سبل الوصول إلى الله فمتعددة ، يمكن أن تصل إلى الله بإنفاق مالك ، أو بضبط تربية أولادك ، أو بإحسانك ، أو بطاعتك ، أو بعباداتك ، أو بصيامك ، أو بوسائل لا تعد ولا تحصى ، المنهج الإلهي واحد ، والحق لا يتعدد .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

2 ـ الحق واحد ، والباطل متعدِّد :

الحق لا يتعدد ، الحق واحد ، لكن الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، أما الباطل فمتعدد ، هناك مليون باطل ، باطل اعتقادي ، باطل شهواني ، باطل كيدي ، باطل قهر ، باطل اختلاس ، باطل كذب ، باطل انغماس في الشهوات ، الباطل متعدد ، مذاهب ، وفرق ، وملل ، ونحل ، واتجاهات ، وتيارات ، وطوائف ، ومذاهب ، لا تعد ولا تحصى ، كما أنه لا يمر بين نقطتين إلا خط مستقيم واحد ، ولكن يمر بين نقطتين ملايين الخطوط المنحنية والمنكسرة ، فالباطل متعدد ، والحق واحد .

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ)

جمع .

(إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة الآية : 257)

مفرد .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ)

(وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

إذاً : الحق واحد ، والباطل متعدد ، لكن الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، أنواع الأعمال الصالحة ، إنسان يتقرب بإنفاق ماله ، إنسان يتقرب ببذل وقته ، إنسان يتقرب ببذل علمه ، إنسان يتقرب ببذل جاهه ، إنسان يصلح بين اثنين ، إنسان يصلح بين زوجين ، إنسان يزوج الشباب ، إنسان يبني المساجد ، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، هذه الحقيقة الأولى ،الحق واحد ، والباطل متعدد .

إلا أن طرق الوصول إلى الله لا تعد ولا تحصى ، كما أن طرق الوصول إلى النار لا تعد ولا تحصى، الربا ، والزنا ، والدعارة ، والاختلاس ، والسرقة ، والقهر ، والظلم ، والقتل ، والاستبداد ، الطرق الموصلة إلى النار لا تعد ولا تحصى ، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، إلا أن الحق واحد لا يتعدد ، والباطل متعدد ، هذه أول فكرة .

3 ـ الشيطان لا يترك مَن يسير على صراط مستقيم :

حينما قال الله عز وجل في هذه السورة بالذات على لسان الشيطان :

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(سورة الأعراف)

ما دام الإنسان يمشي في طرق الباطل ، في طرق الشهوات ، في طرق الانغماس في الدنيا ، ما دام في طريق يؤدي به إلى النار فالشيطان يتركه ، لأنه يحقق هدفه ، ما دام الإنسان يمشي في طرق تنتهي به إلى النار فالشيطان يتركه ، هذا مضمون ، أما حينما يبدأ الإنسان السير إلى الله ، يصطلح مع الله ، يتوب إليه ، يُقبل عليه ، يقلع عن الذنوب كلها ، يبدأ دور الشيطان مع هذا الإنسان .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

والصراط مستقيم ، والحق صراط مستقيم ، والمستقيم أقرب خطر بين نقطتين .

4 - في كل عصرٍ ضلالاتٌ يروِّجها الشيطانُ :

ماذا يفعل هذا الشيطان ؟ قال :

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الأعراف)

في هذا العصر ضلالات يستخدمها الشيطان كأوراق رابحة ، من هذه الضلالات موضوع الجينات ، أن المنحرف له جينات خاصة ، إذاً : ليس ذنبه ، فإذا كان الإنسان منحرفًا أو شاذًّا فبتركيبه الجيني خصوصية ، من هذا المنطلق غير الصحيح ، ومن هذا الوهم أُعطِي المنحرفون والشاذّون حقوقهم المدنية ، هذه ضلالة من ضلالات العصر ، فالشيطان يروج لهذه الضلالات .

نظرية داروين التي تنفي وجود الخالق ، وتبين أن هذا الكون كان بهذا الشكل محض صدفة ، وبدأ من مخلوق وحيد الخلية ، ثم تطور ، وهناك قفزة نوعية بين المادة والخلية الحية ، وأن الخرق البالية تنتج فأرة ، وأن الوحل ينتج ضفدعاً ، وأن اللحم المتفسخ ينتج دوداً ، هذا في كتاب أصل الأنواع لداروين ، العلم أثبت عكسه ، وأثبت بطلانه ، داروين إذاً يروج لها ، الشيطان يروج لهذه النظرية ، لأنها تلغي المسؤولية ، تلغي وجود الإله ، تلغي الجنة والنار ، تلغي الحساب والعذاب ، تلغي المنهج ، تلغي افعل ولا تفعل :

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

كل إنسان منحرف يقول : في جيناته انحراف ، لكن حينما اكتشفت الخارطة الجينية ، وكان اكتشافها قفزة نوعية في العلم ، أثبتت هذه الخارطة أنه لا علاقة للجينات بالسلوك ، فكل هذا الذي كان يتوهمه الناس أصبح باطلاً .

إذاً :

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

أروّج لهم ضلالات العصر ، وشهوات العصر ، وفي بكل عصر ضلالات ، وشهوات ، وشبهات ، وأنا أقول في أول كل درس : أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم .

هناك مقولة : أنك ما دمت الأقوى فأنت على حق ، فالقوي على حق ، ولو سحق الشعوب ، ولو أباد الشعوب ، ولو بنى مجده على أنقاض الشعوب ، ولو محا ثقافة الشعوب ، ولو أباد الشعوب ، ما دام يملك قنبلة نووية إذاً هو يدمر بها كل شيء ، هذه أيضاً من ضلالات العصر .

القوة تصنع الحق ، لكن المناهج الإلهية تؤكد عكس ذلك ، الحق يصنع القوة ، أنت قوي لأنك على حق، لكن في عالم المادة أنت على حق لأنك قوي ، هذه أيضاً من ضلالات العصر ، ومِن هذه

الضلالات العنصرية ، لك ما ليس لغيرك ، لك حق الفيتو ؛ الاعتراض ، أما بقية دول العالم فلا تملك هذا الحق ، لك أن تمتلك أسلحة الدمار الشامل ، لكن لا تسمح لأي جهة أن تمتلك هذا السلاح ، العنصرية أن تتوهم أن ما لك ليس لغيرك ، وما على غيرك ليس عليك ، يمكن لك أن تضع في السجن كما يفعل الصهاينة بعشرين ألف أسير ، أما إذا أُخذ أسير واحد يدمر بلد عربي بأكمله ، من أجل أسير واحد ، لك ما ليس لغيرك ، وعلى غيرك ما ليس عليك ، هذه من ضلالات العصر ، وتسمى الآن العنصرية .

فالجينات أنواع الانحراف ، والشذوذ تفسر تفسيراً يريح المنحرف ، أن هناك خصوصية في جيناته ، والعلم أثبت عكس ذلك ، لا علاقة للجينات بالسلوك ، الأخلاق نسبية ، ما هو محرم في بيئة مقبول في بيئة أخرى ، والمعنى أنْ ليس هناك قيم ثابتة ، كل بلد له عادات وتقاليد ، وتراث وموروثات ، فكل شيء هنا محرم ، هنا كمقبول ومباح ، هذه الفكرة ميعت القيم ، فأصبح المجتمع بلا قيم .

أيها الإخوة ، الفتن الطائفية من هذه الضلالات ، نستورد مشكلات من التاريخ ، ونجعلها أصلاً في الدين ، ونسفك الدماء من أجلها ، هذا من ترويج الشيطان ، بل إن كل طاغية يستخدم سلاح الفتن الطائفية .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

وطغاة العصر يقول بعض وزرائهم : أنا لا يعجبني أن يكون العالم مئتي دولة ، أتمناه خمسة آلاف دولة ، الفتن الطائفية من ضلالات العصر ، العنصرية من ضلالات العصر ، التطهير العرقي يقتل الرجُلُ لأنه من هذا العرق فقط ، ولم يسفك دماً ، ولم ينهب مالاً ، ولم ينتهك عرضاً ، موت كعقاص الغنم لا يدري القاتل لم يقتل ، ولا المقتول فيما قُتل ، هذا أيضاً من ضلالات العصر .

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

من هذه الضلالات ، من أجل الحفاظ على أسعار اللحوم يعدم عشرين مليون رأس غنم في أسترالية ، للحفاظ على مستوى السعر ، بينما شعوب بأكملها تموت من الجوع .

أحياناً تُتلفت كميات من الزبدة يساوي حجمها حجم أهرامات مصر حفاظاً على السعر المرتفع ، ومحصول البرتقال أتلف بأكمله ، لكن لما تسلل الجنود ليأكلوا منه مجاناً في العام القادم سُمم هذا المحصول ، ورشّ بالسموم ، الشيطان يروج لهذه الضلالات وتلك الشهوات .

الضعفاء يسحقون ، يُقتلون ، تنهب ثرواتهم ، تؤخذ أموالهم ، يُعتقل شبابهم ، هذا أيضاً من ضلالات العصر .

وهناك الشهوات ، الجنس الآن في العالم إلهٌ يعبد من دون الله ، وهناك 800 محطة فضائية ، 400 محطةٍ منها إباحية ، و8 مليارات موقع بالإنترنت 23 مليونًا موقع إباحي ، وهناك تجارة الرقيق منتشرة في العالم .

إذاً :

(ثم لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

5 ـ الفتن والاختلافات والدعوة إلى الجاهلية أساليب الشيطان :

ما في التاريخ من فتن يأتي مَن يحيي هذه الفتن ، ويركز عليها ، وتعد أصلا في الدين ، ويقتتل الناس من جراء هذه الفتن ، فتن عرقية ، فتن طائفية ، فتن مذهبية ، هذا أيضاً من فعل الشيطان .

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

أو إحياء التراث الوثني ، وتجاهل الإسلام ، يكون قبل الإسلام حياة وثنية ، وآلهة متعددة ، إحياء التراث الوثني ، تمجيد ما قبل الإسلام من أصنام ، ومن عادات ، ومن تقاليد ، أيضاً هذا من وسوسة الشيطان .

(ثم لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

أما :

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

فمثلاً التحريش بين المؤمنين هذا من فعل الشيطان ، والمسلمون جماعات ومذاهب وطوائف وفرق .

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

الغرق في الجزئيات ونسيان المقاصد والكليات ، نختلف على صلاة التراويح ، وفي بعض البلاد يتقاتلون ، وهي سنة ، ووحدة المسلمين فرض ، نختلف على تسمية الأشياء ، ما تعريف صلاة التهجد وصلاة قيام الليل ، نختلف ونقتتل ، نختلف على التشهد ، بحركات متتابعة أم بحركة واحدة ، نختلف على أشياء تعد من الدرجة المئة في سلم الأولويات ، ومع ذلك نختلف ونقتتل أحياناً .

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

الدعوة إلى الذات لا إلى الله ، دعوة إلى الذات أساسها الابتداع ، أساسها التنافس ، أساسها إلغاء الآخر.

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

الاهتمام بالمظاهر ، تجد المؤتمر إسلاميا ، والوفود من شتى بقاع الأرض ، والصحفيات يرتدين ثيابا فاضحة ، ولا شيء عليهن ، الالتزام منعدم فيه ، الاهتمام بالمظاهر ، وإلغاء السنة ، والاكتفاء بالقرآن .

(ثم لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

ألم يقل الله عز وجل :

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

(ثم لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

شبهات العصر ، وشهوات العصر .

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

العادات والتقاليد ما قبل الإسلام ، يروج لها ، ويحتفى بها ، وتقدس .

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

هذه القضايا الخلافية تضخم ، وتروج ، وتصبح موضوعاً للصراع .

6 ـ شبهات التأويل :

الدعوة إلى الاكتفاء بالقرآن ، أو اللعب بتأويله ، وأعداء المسلمين بوسوسة من الشيطان اخترقوا المسلمين في ثلاث قضايا ، القضية الأولى اللعب بالتأويل .

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية : 130)

يقول الشيطان : إذا كان الربا ضعفاً واحداً فلا شيء فيه ، لأن النهي عن أضعاف مضاعفة .

أيها الإخوة ، نسبية النص ، هذه شبهة كبيرة ، أن هذا النص لا يصلح لهذا العصر ، لكنه يصلح لعصور الصحراء ، فلا بد من قراءته قراءة جديدة ، لا بد من قراءته تمهيداً لإلغائه ، أو تمهيداً لإخراجه عن مضمونه ، أو تحييداً له عن واقع الحياة ، فقد كان الدين كيانا واضحا صلبا ، واضح المعالم ، صار كياناً مرناً ، هذه المروة ازدادت ، فصار لزجا ، ثم صار سائلا ، والسائل يتغير شكله ، ويبقى حجمه ثابتاً ، الآن الدين غاز ، لا له شكل ثابت ، ولا حجم ثابت ، ترتكب أكبر المحرمات والمعاصي والآثام والمظهر ديني ، والإطار يدني ، وكل شيء فيه تسامح ، إلى أن فَقَد الدين محتواه ومضمونه .

أيها الإخوة ، هذا :

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

أما :

(عَنْ شَمَائِلِهِمْ)

ترويج الخمر ، قيم روحية ، ومشروبات روحية ، الخمر سمي بأسماء كثيرة ، الاختلاط والتعري والزنا ، وأكل الربا ، نحن أمة اقرأ (سابقاً) ، الآن أمة ارقص ، بدل اقرأ ارقص ، اختيار ملكات جمال حضارة .

أيها الإخوة ، هذه الآية دقيقة جداً ،

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

معه الملايين ويشكو ، الشكوى جزء من حياته ، يشكو الدخل ، لا يعجبه والحياة لا ترضيه ، وزوجته لا يتهم بها ، وهكذا .

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ

أيها الإخوة ، هذا تمهيد لدرسنا ، أما الدرس فيقول الله :

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ)

لا تأخذوا دورَ الشيطان في تثبيطِ الناس عن العمل الصالح :

كلما وجدتم طريقاً إلى الله ، الصدقة طريق إلى الله ، تنهون الآخرين عن الصدقة ، حضور مجلس العلم طريق إلى الله ، دعك من هذا المجلس ، اهتم بشيء آخر ، اهتم بدراستك ، طريق بناء مسجد ، المساجد كثيرة ، طريق إطعام الجياع ، لهم رب يتولى شأنهم ، كلما رأيت إنساناً تحرك نحو عمل صالح تنهاه عن هذا العمل ، إياكم ، ثم إياكم ، ثم إياكم أن تأخذوا دور الشيطان في تخويف الإنسان من إنفاق ماله ، أو من حضور مجلس علم ، أو من طاعة ، أو من اختيار عمل شريف ، يقول لك : الدخل لا يكفي ، هذا العمل دخله كبير ، دعك من هذه الوسوسة ، لا تكن متزمتاً .

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ)

أي : بكل طريق يؤدي إلى الحق ، إلى طاعة الله ، إلى إنفاق المال ، إلى إتقان العمل ، إلى غض البصر ، إلى ترك الاختلاط ، إلى تلاوة القرآن ، إلى حفظ القرآن ... هذه الطرق التي تفضي إلى الله عز وجل ، الذين شردوا عن الله ينهون سالكيها عن بلوغ أهدافهم .

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ)

إذاً : هذا الذي يفعل هذا شاء أم أبى ، أعجبه أو لم يعجبه ، رضي أم غضب ، هو شيطان ، لأنه أخذ دور الشيطان .

أحياناً يقوم بعمل معين ، مَن الذي فعله ؟ هناك دراسة تحليلية ، الذي انتفع به هو الذي فعله ، مثلاً : الخلاف بين المسلمين ، من ينتفع به ، الشيطان وحده ، لأن الشيطان ينتفع به وحده ، إذاً : كل إنسان يشق صفوف المسلمين ، يفرقهم ، يشرذمهم ، يثير العداوة والبغضاء بينهم هو إذاً شيطان ، ما دام المنتفع الأول من هذه الخلافات هو الشيطان ، إذاً : الشيطان هو الذي يدفع بالناس إلى هذه التفرقة .

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ)

أي تخوفون مَن يسلكه ، إياك أن تحضر مجلس علم ، ما الخطر ؟ يؤخذ اسمك ، وإذا أخذوا اسمي ! ما مِن شيء إطلاقاً ، درس مرخص ، درس نظامي ، درس فيه دعوة إلى الأخلاق ، درس يدعو إلى السلم، دعوة إلى المحبة ، دعوة إلى التعاون .

(تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

طريق إلى الله تصد عنه ، طريق إلى الدنيا إلى الشهوة ، إلى المعصية ، إلى النار تروج له .

وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً

(وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً)

أحكام الدين تفرغ من مضمونها .

مثلاً : لما حرم الله على اليهود الصيد يوم السبت ، ماذا فعلوا ؟ صنعوا بحيرات ، وجمعوا فيها الأسماك ، وأقفلوها مساء السبت ، واصطادوها يوم الأحد ، هذه هي الحيل الشرعية .

(وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً)

دائماً هناك احتيال على تطبيق الشريعة ، لذلك الآية الكريمة :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

(سورة الإسراء الآية : 73)

هذه الفتنة بدأت من عهد النبي عليه الصلاة والسلام :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

الإسلام مقبول كإطار ، مسجد ، مؤتمر ، مؤلفات ، دروس ، أما تطبيق منهج الإسلام الحقيقي فهذا ينبغي أن يغيّر ، لأنه لا يتناسب مع روح العصر ، ،تحريم الربا مشكلة كبيرة ، وإلغاء الاختلاط مشكلة أكبر .

فلذلك أيها الإخوة ، الصد عن سبيل الله أن يبتغي الإنسان الأمور بشكل معوج ، وكلّ أمر له طريق معوج ، هذا غير صحيح ، للتقريب :

هذه المرأة يجب أن تحج ، ما معها محرم ، تكتب عقد زواج صوريًّا ، هذا طريق معوج للحج ، لا يرضي الله ، الله عز وجل لا يعبد إلا وفق ما شرع ، أو أن أسلك طريقًا ملتويا كي أصل لهدف معنى ذلك أن الذي يفعل هذا ليس مخلصاً .

وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ

ثم يقول الله عز وجل :

(وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ)

قد يكون الإنسان ضعيفا ، الله عز وجل يقويه ، والمسلمون كانوا قلة ، لكنهم كانوا في أعلى درجات القرب من الله ، وفتحوا العالم ، الآن مليار و500 مليون ، ربع سكان الأرض التي فيها ستة آلاف مليون ، المسلمون مليار و500 مليون ، وهم يملكون ثروات طائلة كثيرة ، لا تقدر بثمن ، أكبر احتياطي نفط في العالم ببلاد المسلمين ، وفي العراق بالذات ، وأرخص نفط في استخراجه هو نفط العراق 450 مليار برميل الاحتياطي البعيد الأمد ، يملكون ثروات كبيرة ، وموقعا استراتيجيا ، أمة واحدة ، إله واحد ، نبي واحد ، قرآن واحد ، آمال واحدة ، آلام واحدة ، والحدود بينهم والسدود ، بينما الذين خاضوا حروبا لـ200 عام في أوربة ، أوربة الآن كلها بلد واحد .

كنت مرة في مدينة في ألمانيا ، فجأة قيل لي : هذه هولندا ، صعقت ، أين الحدود ! أين اللوحات ! أين الجوازات ! لا شيء ، ولا لوحة ، ولا إشارة ، ولا عبارة ، كيف عرفتم ؟ قال : من لون لوحات السيارة ، كانت بيضاء ، فأصبحت صفراء ، لأنهم اتحدوا ، اقتصاد واحد ، عملة واحدة ، ناطق واحد ينطق باسمهم جميعاً ، ونحن إذا أتوا إلينا يقولون : سُنة ، وشيعة ، وأكراد ، وآشوريون ، وعرب ، أعوذ بالله :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

لذلك :

(وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

أيها الإخوة الكرام ، الله عز وجل يرينا آياته إن شاء الله ، في الطرف الآخر الذي طغى وبغى ، ونسي المبتدا والمنتهى ، هم قلقون جداً لفتح الحدود بين غزة ومصر ، لماذا ، لأن الموت المحقق للنساء والأطفال لم يقع ، إذا هم قلقون ، ما الذي يقلقهم ؟ إبادتنا ، هذا الذي يريحهم .

الآن :

(وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

(سورة الأعراف)

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا

أناس آمنوا بالله ، وأناس لم يؤمنوا ، الذين لم يؤمنوا قد يكونون أقوياء وأغنياء وأذكياء ، وناصية العالم بيدهم ، الأموال بيدهم ، الأقمار بيدهم ، التحالفات بيدهم ، الإعلام بيدهم ، أناس آمنوا وهم ضعاف ، أناس لم يؤمنوا وهم أقوياء .

(وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا)

أيها الضعيف اصبر ، وأيها القوي اصبر ، فسوف ترى النتائج ، الصبر الأول صبر رجاء ، والصبر الثاني صبر تهديد ، أيها الضعيف اصبر ، وأيها القوي اصبر ، سوف ترى .

حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

(فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

أنتم أيها الإخوة ، لو قرأتم التاريخ لا تتصورون حجم المعركة بين قريش وبين المسلمين .

أيها الإخوة .

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

هناك تناقض صارخ بين المؤمن المستقيم و غير المؤمن ، وهذه معركة أزلية أبدية بين الحق ، والباطل أرادها الله عز وجل لحكمة بالغة ، لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي ، ولأن أهل الحق لا يستحقون العطاء الأبدي السرمدي إلا بالبذل والتضحية .

أيها الإخوة الكرام .

(قَالَ الْمَلَأُ)

يعني وجهاء القوم ، كبراء القوم ، الأغنياء الأقوياء ، المتبوعون .

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ)

إنكم إذاً لخاسرون ، جاء أمر الله .

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

(سورة الأعراف)

المعالجة الربانية للناس :

(الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِين * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ)

(سورة الأعراف)

الله عز وجل أرسل نبياً كريماً ، ونصحهم ، وبين لهم ، وعالجهم ، وأدبهم ، وأصروا على كفرهم ، وانتهى الأمر .

لذلك هذه القصص أيها الإخوة ، ما ذُكرت في كتاب الله إلا لكي تكون لنا دروساً نستفيد منها في حياتنا، هؤلاء الذين جاؤوا إلى الدنيا ، وما عرفوا رهم ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم هلكوا في الدنيا ، وفي الآخرة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(31-60): تفسير الآيات 94- 96 ، عقاب الله تعالى للشاردين أن يأخذهم بالبأساء والضراء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-02-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ

1 – معنى القرية :

أنا لا أعتقد أن هناك آية في كتاب الله تنطبق على حال المسلمين اليوم كهذه الآية القرية هي البلدة التي تجمع فيها مصالح سكانها ، فيها مواد ، فيها سلع ، فيها متاجر ، فيها محكمة ، فيها قاضٍ ، فيها حاكم .

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ)

2 – التأديب والمعالجة الربانية للمكذبين :

يعني العبارة شمولية ، أية قرية أرسل الله لها رسولاً فكذبوه ، لما كذبوه خضعوا لمعالجة تربوية ، والمربي يختلف في موقفه عن غير المربي ، غير المربي إن وجد مَن لا يستجيب له يدعه وشأنه ، لكن المربي لا بد بسبب رحمته التي في قلبه من معالجة هذا الذي يربيه .

إذاً : إلهنا وربنا رب العالمين ، يربينا جميعاً ، فإذا كذبنا أنبياءه ، لم نستجب لهم ، لم نطبق ، تلبسنا بالمعاصي ، أكلنا المال الحرام ، اعتدينا على أعراض بعضنا بعضاً ، إذا غفلنا عن ربنا ، ولم نؤدِّ واجب العبودية له ، ضحينا بآخرتنا ، سرنا في طريق الهاوية ، لا يعقل ولا يقبل من رب كريم رحيم أن يدعنا وشأننا ، هذا كلام دقيق .

أنت تمشي في الطريق ، ترى شباباً ثلاثة ، الأول ابنك ، والثاني ابن أخيك ، والثالث صديق ابن أخيك ، لو رأيتهم في حالة لا ترضي ، يدخنون فرضاً ، فإنك تغضب ، وتتألم أشد الألم بسبب رحمتك بابنك ، وتقول لابن أخيك : هكذا رباك أبوك ؟! أما أعلى درجة من الغضب ، أعلى درجة من الألم ، أعلى درجة من القلق فهي على ابنك ، لأنه جزء منك ، لأنه امتدادك ، لأنه قدرك ، الغضب 50% يهبط على ابن أخيك ، الأب مسؤول ، والده هو المسؤول ، أما صديق ابن أخيك فتقول له : انصرف ، وهذا شيء طبيعي جداً .

كأن الألم والحرص والرأفة متناسبة مع القرب ، أقرب جهة إلى العبد ربه ، هو الذي خلقه ، هو الذي يربيه ، لا تعجبوا إذا شرد الواحد من الناس عن الله أن يدعه الله وشروده ، لا تصدقوا إذا خرج العبد عن منهج الله أن يدَعه الله وخروجه ، لا ، لا بد من معالجة .

طرق المعالجة الربانية للشاردين :

1 ـ الدعوة البيانية :

دائماً وأبداً أذكركم بأن الله سبحانه وتعالى من رحمته يبدأ مع عبده بما يسمى بمرحلة سلمية ، هي الهدى البياني ، يسمعك خطبة ، يسمعك درسا ، تقرأ كتابا ، تسمع ندوة ، تسمع محاضرة ، توضح هذه المحاضرة سر وجودك ، وغاية وجودك ، فأنت إن استجبت فهذا أسلم طريق ، أكمل طريق ، وأكثرهم راحة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 24)

أرقى علاقة مع الله أنه إذا دعاك إليه تستجيب له ببساطة ، القرآن واضح كالشمس ، خلقك الله ليسعدك في الدنيا والآخرة ، خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض ، قال لك : افعل ولا تفعل ، وأيّ أمر إلهي علاقته بنتائجه علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة .

حينما تؤمن أن الأشياء التي حرمها الله عليك ما حرمها عليك تضيقاً عليك ، ولا حداً لحريتك ، ولكنها ضمان لسلامتك ، تماماً لو رأيت لوحة كتب عليها : حقل ألغام ، ممنوع التجاوز ، أنت لا تحقد على واضع هذه اللوحة ، بالعكس يمتلئ قلبك امتناناً منه ، لأنه حرص على سلامتك فنبهك ، ففي اللحظة التي تعتقد أن المحرمات ، وأن الأشياء التي نهى الله عنها ، لم ينهَ عنها تقييداً لحريتك ، ولا لجعل حياتك متعبة ، ولكنه نهاك عنها ضماناً لسلامتك ، ها هو الفقه ، أن ترى هذه الأوامر لصالحك .

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

إخوتنا الكرام ، الإنسان بفطرته يحب أن يكون فائزاً ، الفوز كل الفوز ، والنجاح كل النجاح ، التفوق كل التفوق ، الفلاح كل الفلاح ، العقل كل العقل ، الذكاء كل الذكاء، في طاعة الله ، لا تحب أحداً ، أحب نفسك ، إنك مجبول على حب وجودك ، وعلى حب سلامة وجودك ، وعلى حب كمال وجودك، وعلى حب استمرار وجودك ، سلامة وجودك في طاعة الله ، وكمال وجودك في طاعة الله ، واستمرار وجودك في جنة عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين في طاعة الله .

أيها الإخوة ، الموضوع دقيق ، الله عز وجل أرحم بنا من أنفسنا ، خلقنا ليسعدنا ، خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، فإذا لم نستجب ، لم ننصع له ، لم نخضع ، لم نفكر ، لم ننضبط ، لم نلتزم ، أيقبل من رب رحيم أن يدع هذا العبد وشأنه ؟

أضرب لكم مثلا أرجو أن يكون واضحاً : هناك ابن في الصف الخامس قال لأبيه مرة : لا أحب الدراسة ، قال له : دعها ، في اليوم الثاني لم يذهب إلى المدرسة ، فلا دوام ، ولا استيقاظ باكراً ، ولا وظائف ، ولا أستاذ ، ولا ضرب إذا ما كتب الوظيفة ، بل نام إلى لظهر ، ما هذه الحياة ، إنها مريحة جداً ! خرج من البيت ، عاشر رفقاء السوء ، تصور أنه في سعادة كبيرة جداً ، فلا أعباء ، ولا مسؤولية ، ولا عقاب ، ولا محاسبة ، ولا وظائف ، ولا استيقاظ باكرا ، لما كبر وجد نفسه بلا وظيفة ، ولا تجارة ، ولا طب ، ولا هندسة ، ولا زوجة ، ولا بيت ، فهو إنسان شارد ضائع ، فحقد على أبيه ، جاءه ، وقال له : يا أبتِ ، يوم سألتك : لا أحب الدراسة لمَ لم تضربني ضرباً مبرحاً ؟ لمَ سمحت لي أن أدع الدراسة ؟

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا)

يوم القيامة

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة القصص)

المصائب رسائل عملية ربانية مفهومة المقصد :

دققوا في كلمة :

(لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

سمّى الله المصيبة التي ساقها الله لعباده التائهين سماها رسولا من الله ، رسالة عملية ، ففي اللحظة التي تفهم بها أن المصائب رسائل من الله ، تجمع مالاً حراماً ، هذا المال يدمر ، فتدمير المال رسالة من الله أن يا عبدي تُب ، لقد أخطأت .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص)

أحببت امرأة لشكلها ، ولجمالها ، ولم تعبأ بدينها الرقيق ، فأذاقك الله بهذا الزواج ألوان الشقاء ، ألوان الشقاء التي أذاقك الله من خلال هذا الزواج رسالة من الله ، وفي اللحظة التي تفهم أن معاملة الله لك رسائل عندئذٍ أنت فقيه .

إذاً : لا تنتظر من الرحيم أنك إذا سرت في طريق الهاوية أن يدعك وشأنك ، قال تعالى :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ)

(سورة الأنعام الآية : 147)

ماذا تقتضي رحمته الواسعة ؟

(فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

تقتضي رحمته الواسعة ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، الذين مشوا في طريق الهلاك ، وحينما تفقه حقيقة كمال الله عز وجل تشعر أن الله حينما يضيق على الإنسان فمن أجل أن يرده إليه ، والله عزوجل ثبّت ملايين القوانين ، الكون ثابت ، دورة الأفلاك ، خصائص المواد ، قوانين الفيزياء ، الكيمياء ، قوانين الفلك ، الحركة ، لكنه حرك الرزق والصحة ، هما بيد الله ، وهناك أمراض لا حل لها حتى الآن ، الورم الخبيث شيء مخيف ، الفشل الكلوي شيء مخيف ، تشمع الكبد ، خثرة في الدماغ ، كلها أمراض وبيلة ، الله سبحانه وتعالى إن رأى عباده شردوا عنه ، وساروا في طريق الشهوة ، بل ساروا في طريق الهاوية ، وساروا في طريق ينتهي بهم إلى النار ، أيعقل ويقبل من رب العزة ، من الرحمن الرحيم أن يدعنا وشأننا ؟ أبداً ، هذه الآية :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ)

أرسلنا نبياً إلى قرية فكذبته ، لم تستجب له ، لم تعبأ برسالته .

(إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)

3 – إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ

يقول لك : 15 ألف بيت بلاستيكي أُتلف في الصقيع الماضي ، وهي حقول كان من الممكن أن تنتج ستة ملايين طن من القمح ، لكن لم تنتج حبة واحدة .

(إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ)

نقص في المواد ، زلزال ، بركان ، والزلزال له تفسير علمي ؛ اضطراب في القشرة الأرضية ، لكن مَن هو مسبب الأسباب ؟ رب العالمين ، الجفاف ، سنوات عجاف ، النبات يموت ، الحيوان يموت ، الإنسان يهاجر .

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)

4 – وَالضَّرَّاءِ

الضراء الأمراض ، الضراء مصيبة تصيب الإنسان ذاته ، قد تكون ببتر عضو ، أو فقد بصر ، أو قطع رجل أحياناً ، أو شلل ، هذه الضراء ، والبأساء جفاف .

من السنن الكونية الجارية على الشاردين :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

هذه الصواعق ، والآن والصواريخ .

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

الزلازل ، والألغام .أما أخطر شيء :

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً)

(سورة الأنعام الآية : 65)

الطائفية

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص الآية : 4)

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

أيها الإخوة ، هذه الآية تفسر ما يجري في العالم الإسلامي ، المسلمون مليار و500 مليون شردوا عن الله ، انبهروا بالغرب ، آثروا الشهوة على طاعة الله ، أكلوا المال الحرام اعتدوا على أراض بعضهم ، لم يعبؤوا بمنهج الله ، لم يطبقوا منهج الله ، تعلقوا بالغناء ، وتركوا القرآن ، كنا أمة اقرأ ، الآن الأمة أمة الرقص ، لما شردوا عن الله عز وجل ، لما هان أمر الله عليهم هانوا على الله ، خمس دول إسلامية محتلة ، ثرواتها نهبت ، شبابها قتلوا ، أمرها ليس بيدها ، يتفنن أعداء الأمم بإذلال شبابها ، واعتقالهم ، وهدم بيوتهم ، وكما تسمعون وترون ، أين الله ؟ هذا فعل الله ، لحكمة بالغة عرفها من عرفها ، وجهلها مَن جهلها .

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)

البأساء مصائب كبيرة تصيب زراعتهم ، أو ثرواتهم ، ثرواتهم تنهب ، أرضهم تجف فيها الينابيع ، تنقطع فيها الأمطار ، آفات زراعية تبيد كل شيء .

(وَالضَّرَّاءِ)

الأمراض ، والهموم ، والمتاعب ، والقهر ، والفقر ، والمرض ، لماذا يا رب ؟ كلام خالق السماوات والأرض قال :

(لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

5 – لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُون

من أجل أن تسجد في الليل ، وتقول : يا رب ، لقد تبت إليك ، سامحني ، يا رب ، ليس لي إلا أنت ، يا رب ، أستغفرك من ذنب وقعت فيه ، من أجل أن نتضرع .

صدقوا أيها الإخوة ، والله الذي لا إله إلا هو لو تضرعنا إلى الله كما ينبغي لأزيحت عنا كل المصائب، لماذا ؟ لأن الله عز وجل يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

ببساطة إذا كان الطفل أولا في صفه ، مهذبا ، أخلاقه عالية ، نظيفا ، أنيقا ، مهما كان الأب سيئاً أيعقل أن يضربه ؟ لمَ تضربني يا أبتِ ؟ ماذا فعلت حتى تضربني ؟ الأب لا يفعلها ، دقق :

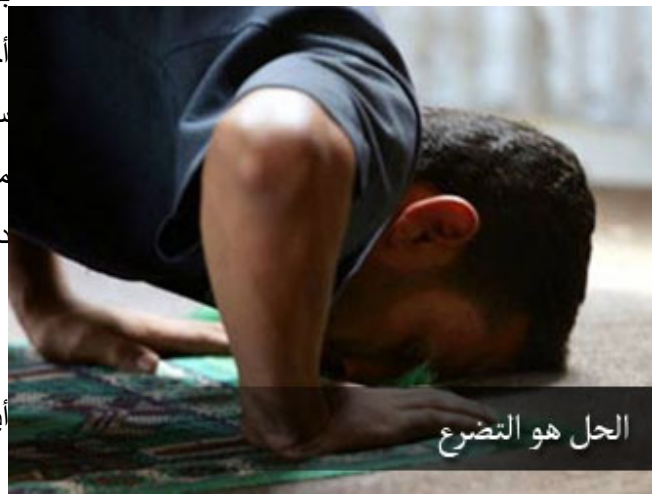

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

أيها الإخوة ، آية دقيقة جداً :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ)

هذه الدعوة البيانية ، نبي كريم ، معه معجزة ، قال لك : أنا رسول كريم ، هذا تكليفه ، هذا منهجه ، افعل ولا تفعل ، هذا حرام ، وهذا حلال ، إن استجبت فشيء رائع ، ووقفت أرقى موقف ، استجبت لدعوة الله البيانية .

أحياناً يقول لك الطبيب : معك التهاب معدة حاد ، هذا المرض قد ينقلب إلى قرحة خطيرة ، والقرحة قد تنتهي بثقب المعدة ، وعندئذٍ تحتاج إلى عمليه جراحية كبيرة ، لكن من الممكن أن تشفى شفاء تاماً عن طريق حمية صارمة ، فأنت إنسان مثقف وعاقل ، أقنعك الطبيب بحمية صارمة ، طبقت الحمية الصارمة ، شفيت معدتك ، الطبيب تكلم كلاما فقط ، وأنت استجبت له ، فإن لم تستجب له فلا بد من عمل جراحي ، يقول لك : أنت السبب ، أنا عرضت عليك الحمية الصارمة فرفضت ، ادفع الثمن ، لا بد من عمل جراحي .

2 ـ التأديب التربوي :

الآن المرحلة الثالثة ، الثانية التأديب التربوي ، التأديب التربوي أكمل موقف فيه التوبة إلى الله . إخواننا الكرام ، الآيات دقيقة جداً ، ونحن في أشد الحاجة إلى فهمها فهماً صحيحاً ، لأن الحل في هذه الآيات :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ)

هناك معنى ضمني ، لم يستجيبوا ، لم يتوبوا ، لم يقبلوا ، رفضوا :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)

إرسال النبي دعوة بيانية ، لكن البأساء والضراء تأديب تربوي ، الدعوة البيانية أكمل موقف فيها الاستجابة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

أما التأديب التربوي فأكمل موقف فيه التوبة :

(إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ)

بأموال ، بحقول ، بزراعتهم ، بمصانعهم ، بعدوان ، باجتياح ، بأخذ أموال ، فقد نُقِلت مليارات من الشرق إلى الغرب في العشرين السنة الماضية .

(إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)

أمراض ، الإيدز ، لماذا ؟

(لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

إذا تضرعوا ، واصطلحوا مع الله ، وتابوا أزيحت هذه المصائب .

إن أمة ـ دققوا ـ انحرفت ، فقيض الله لها عدواً كبيراً ، يتفنن في قهرها ، في حالة واحدة إذا عادت إلى الله ، واستقامت على أمره ، أزاح الله عنها هذا الكابوس :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

3 ـ الإكرام الاستدراجي :

في المرحلة الثانية في التأديب التربوي لم تكن هناك توبة ، هناك مرحلة ثالثة ، والمرحلة الثالثة خطيرة، أنا سميتها الإكرام الاستدراجي .

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة الأعراف)

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ

1 – ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا

أمطار غزيرة ، دخل وفير ، غلاّت كبيرة ، رفاه ، بيوت ، سفر ، فنادق ، نساء كاسيات عاريات ، حفلات مختلطة ، ولائم :

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا)

فهموا الدنيا هكذا ، يوم لك ويوم عليك ، فهموا الدنيا أنها للقوي ، للذكي ، لمن يملك المال ، الجنة في الدنيا للأقوياء ، لأصحاب الأموال ، أنت قوي ، إذاً : أنت على حق ، الحق للقوة .

قال تعالى :

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ)

2 – وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاء

هذه طبيعة الحياة ، وأحيانا الإنسان يرفض أن يكون التأديب الإلهي تأديباً إلهياً ، يراه حظاً سيئاً ، يقول لك : قلب لي الدهر ظهر المجن ، القدر سخر مني ، هذا كلام لا معنى له .

(قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ)

هذه المرحلة الثالثة ، الإكرام الاستدراجي ، وأكمل موقف فيه الشكر لله عز وجل .

إن عشرين مليون رأس غنم يطلق عليها الرصاص في بلد مشهور لتصدير الأغنام حفاظاً على السعر المرتفع ، والشعوب تموت من الجوع !!!

أحياناً تتلف محاصيل الحمضيات بألوف الأطنان حفاظاً على السعر المرتفع !!!

أحياناً تتلف مشتقات الحليب ، بحجم يساوي أهرامات مصر ، حفاظاً على السعر المرتفع ، والشعوب تموت من الجوع !!!

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا)

أيْ : وسّع الله عليهم في الدنيا ، هذا اسمه استدراج ، أخطر شيء الاستدراج ، إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك ، وأنت تعصيه فاحذره ، فإنّ مطبًا كبيرًا أمامك .

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ)

هذا شيء طبيعي ، والحياة هكذا ، وقد يرفض الإنسان البعيد عن الله أن يعدّ المصيبة من الله تأديباً له ، بل يقول : هذا حظي ، هكذا الدنيا ، حينما ترفض ما جاء به القرآن .

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا)

الله قال :

(قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 165)

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

3 – فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

(قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

فجأة ، تجد يقول لك : أعاصير سببت خسائر ثلاثين مليار دولار ، حرائق غابات ، جفاف أحرق الأخضر واليابس :

(فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

في المرحلة الثالثة كان من الممكن أن يشكروا ربهم على هذه النعم ، لكنهم جحدوا بها ، وكفروها .

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص الآية : 78)

لا يعزو الفضل إلى الله أبداً ، يعزو الفضل إلى نفسه .

(فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

أيها الإخوة ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأعراف)

طبعاً قبل أن نتابع هناك آية متعلقة بهذا الموضوع ، هنا الآية :

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

في آية أخرى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام الآية : 44)

1 – الإيمان والتقوى سببان لـ : بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ :

الآن :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا)

ما قال آمنوا ، نحن الآن والحمد لله مؤمنون ، لكن بعضنا لا يتقي الله عز وجل :

(آمَنُوا وَاتَّقَوْا)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هل من آية أوضح من هذه الآية ؟ آمن واتق ، هل تصدقون أن حل مشكلات العالم الإسلامي بكلمتين في آية .

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية : 120)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

(سورة إبراهيم)

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

انتهى كل شيء .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

سؤال : إذا شرد الناس عن الله ، وأنت واحد ، ما علاقتك بهذا الموضوع ؟ اسمع إلى هذا الجواب : عظمة هذا الدين أنه للمجموع ، لكن لو أن الفرد وحده طبقه لقطف ثماره ، وله معاملة خاصة . دققوا في كلامي : الناس شردوا عن الله ، لم يستجيبوا له ، لا تنظروا إلى هذا الجمع الغفير ، رواد المساجد في الشام مجتمعون يوم الجمعة ، في كل مساجدها ، لا يزيدون عن 500 ألف إنسان ، سكان دمشق 5 ملايين ونصف مليون ، أي العشر ، المجموع في شرود عن الله عز وجل .

المستقيم في زمن الشاردين له معاملة خاصة :

لو أن الناس شردوا ، لم يستجيبوا ، غارقون في شهواتهم ، في كسب الأموال الحرام ، في الاعتداء على الأعراض ، في الانغماس في المتع الرخيصة ، وأنت واحد ، لو طبقت كلمة الله فلك من الله معاملة خاصة .

أطمئنك أيها الشاب ، هناك فساد عام ، لكن الله عز وجل لا يأخذ واحداً بذنب غيره .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام الآية : 164)

أنت مستقيم ، لك حفظ من الله ، لك مستقبل مريح ، لك زوجة تسعدك إن شاء الله ، لك بيت يؤويك ، لك دخل يكفيك ، لك سمعة طيبة .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت)

لك معاملة خاصة .

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

أعرابي قال للنبي الكريم : يا رسول الله عظني ولا تطل ، فتلا عليه هذه الآية ، قال : كُفيت ، تكفيك هذه الآية :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

وعودٌ ربّانية عظيمة للمتقين :

أنا أخاطب الشباب ، أنا أعلم علم اليقين أن كل شاب منكم بحاجة ماسة إلى عمل ، وإلى بيت ، وإلى زوجة ، أليس كذلك ؟ كل شاب منكم بحاجة إلى عمل يدرُّ عليه مبلغاً يغطي حاجاته ، وإلى بيت يسكنه، وإلى زوجة يسعد بها ، الحل ـ دقق ـ أقسم لكم بالله العظيم لزوالُ الكون أهون على الله من ألا تحقق هذه الآية .

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

أنا أعتمد على كلام الإله ، كلام الإله هو أكبر ضمان لكم .

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

دققوا :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية : 21)

هذا ظنك بالله عز وجل ؟ شاب مؤمن ، مستقيم ، عفيف ، يغض بصره ، يضبط لسانه ، يخدم الناس ، دخله حلال ، يؤدي صلواته كاملة ، هل هذا يعامَل كما يعامَل فاسق ؟ هل هذا ظنك بالله عز وجل ؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص)

أما الآية الدقيقة جداً :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

(سورة الجاثية الآية : 21)

دعك من الآخرة ، الآخرة حق ، في الدنيا ، وأنت في الدنيا ، شاب مؤمن ، له زوجة صالحة إن شاء الله ، له دخل يغطي حاجاته ، له بيت يؤويه ، له سمعة طيبة ، يسعده الله عز وجل ، هذه الآية شعار كل شاب :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

(وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية الآية : 21)

تفاءلوا ، والله مع الإيمان بالله لا ألم ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا قلق ، ولا يأس ، ولا إحباط ، الإحباط الذي يعم المسلمين من ضعف إيمانهم ، الله موجود ، وما سلّمك إلى أحد ، كيف يقول لك : اعبدني ؟ وأمْرُنا بيد آخر ؟ هذا مستحيل !.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

أنا متحرق على شاب مؤمن بالله ، علاقته مع الله طيبة ، يتقي الله ، يضبط جوارحه يضبط يده ، يضبط حركته ، يضبط دخله ، يسعى لمرضاة الله ، له جامع يؤويه ، له مرجع ديني يستشيره ، يحب أن يخدم أمته ، هذا الشاب والله لزوال الكون أهون على الله مِن ألاّ يرى نتيجة عمله توفيقًا في الدنيا .

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود الآية : 88)

هذه آية وحيدة بالقرآن ، لا ينجح شيء في الأرض إلا بتوفيق الله :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

كما قدمت قبل قليل : لو أن شاباً واحداً آمن واتقى لفتح الله عليه خير الدنيا والآخرة ، لأنه لا إله إلا الله، لا رافع ، ولا خافض ، ولا معز ، ولا مذل ، ولا معطي ، ولا مانع إلا الله .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

2 – وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

سألوا مرة تيمور لنك ، طاغية كبير ، أجاب إجابة توحيدية ، قال : أنا غضب الرب ، إنسان يغضب فيرفع صوته ، يدفع الباب بعنف ، إذا غضب رب الأرباب يبعث تيمور لنك ، هذا غضب الرب .

لذلك ورد في الآثار القدسية :

((أنا مالك الملوك وملك الملوك قلوب الملوك بيدي ، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد إذا عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، وادعوا لهم بالصلاح ، فإن صلاحهم بصلاحكم))

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

مرة الحجاج كما يروى سأل إنسانا ليحرجه ، قال له : بمَ تقيم الحجاج ؟ إذا قال له : مؤمن كبير ، يقول له : أنت أكبر منافق ، إذا قال له : أنت مجرم يقتله ، ماذا يقول له ؟ قال له : ذنوبنا تجسدت بالحجاج ، أنت ذنوبنا .

يروى أن بالجزائر فيما أذكر بعدما احتلت ، وقف قائد كبير فرنسي جاء بعالم مشهور له بالصلاح ، قال له في قرآنكم :

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

قال له : ها نحن لنا عليكم ألف سبيل وسبيل ، أين الآية ؟ قال له : صدق الله العظيم ، نحن قصرنا مع ربنا ، فكنت أنت العلاج ، هذا الواقع .

أيها الإخوة ، أرجو الله سبحانه وتعالى في درس قادم أن نتابع هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(32-60): تفسيرالآيات 96- 100، المؤمن يفقه حكمة المصيبة كي يرجع إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-02-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني والثلاثين من سورة الأعراف ، ومع الآية السادسة والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

1 – كلُّ مصيبةٍ بكسبِ الإنسان :

أيها الإخوة ، يتضح من خلال هذه الآية أن ما أصاب الناس من مصيبة :

(فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

ولا بد من مؤمن من أن يفقه حكمة المصيبة ، الله سبحانه وتعالى يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تأتي مصيبة بلا سبب ، وبلا حكمة ، وبلا مبرر ، وبلا خطأ مِن الذي أصابته ، لأن الله عز وجل في آية واضحة قطعية الدلالة يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

فليس صعباً أن تتهم نفسك ، وأن تصدق ربك . لذلك :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

أما حينما تأتي الضائقة ، يأتي الجفاف ، تأتي المصائب ، تأتي الزلازل ، وإن كان لهذه الظواهر أسباب علمية ، فهذا لا يمنع أن يكون الله عز وجل مسبِّبَ الأسباب .

إنّ العوارض التي تطرأ على أهل الأرض لحكمة بالغةٍ بالغة ، والدليل هذه الآية :

2 – لابد من الإيمان والتقوى والعمل الصالح :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا)

لا يكفي أن تؤمن ، لا بد من أن تتقي .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة محمد الآية : 12)

الإيمان وحده من دون عمل لا قيمة له إطلاقاً :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

3 – تقتير الله لحكمةٍ لا لعجزٍ منه :

أحياناً في بلدة يهطل فيها من المطر في الليلة الواحدة ما يهطل في الشام في سنتين ، فالله إذا أعطى أدهش .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة الحجر)

فإذا قنّن الله عز وجل فتقنينه تقنين تأديب لا تقنين عجز :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

اكتشف في الفضاء الخارجي سحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم والليلة بالمياه العذبة .

إن الله عز وجل ثبت ملايين القوانين ، وحرّك قانون الرزق والصحة ، فالصحة متبدلة ، فهناك أمراض ، كذلك الرزق متبدل ، في سنوات مطيرة ، وفي سنوات جدباء .

فالله عز وجل يبين أن نربط بينما نعانيه من ضائقة ، وبين استقامتنا وتقوانا وصلاحنا ، وطاعتنا لله عز وجل .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

1 – البركة مفهوم إسلامي :

أما البركات فهو موضوع يذكرنا بهذه الآية ، البركة ، البركة مفهوم إسلامي واضح جداً ، لكن في

عصر المادة ، وعصر البُعد عن الله يضعف هذا المفهوم .

2 – الرزق السلبي بركة من الله :

الإنسان عنده رزق إيجابي ، وعنده رزق سلبي ، فإذا منّ الله على عبده بالعافية التامة ، عاش عمراً مديداً بلا أمراض وبيلة ، بلا أمراض عضالة ، بلا أمراض تجعل حياة الإنسان جحيماً ، بلا أمراض تكلف مئات الألوف بل بعض الملايين من المال ، كفشل كلوي ، وخثره بالدماغ ، وشلل ، وتشمع كبد ، أمراض لا تعد ولا تحصى ، وأيّ مرضٍ من هذه الأمراض يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق . حينما تؤمن وتستقيم يعافي الله بدنك ، وتكون قد وقّرت مبالغ طائلة ينبغي أن تدفعها شئت أم أبيت ، قضايا الطب ، والعمليات الجراحية ، والتصوير ، والمرنان ، لا اختيار لك فيها ، يقول لك : تحتاج قسطرة ، تكلفتها أربعون ألفَ ليرة ، مع استند 125 ، ثلاثة أوعية مغلقة ، تحتاج حوالي 400 ألف ليرة ، لا خيار لك .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا)

هناك رزق سلبي ؛ أن يعافيك الله ، أن يعافيك ، ويعافي أهلك معك ، وأولادك ، فقد تجد أسرة تنعم بالصحة التامة ، في بيت متواضع ، لكن فيه طمأنينة ، فيه حب ، فيه ود ، الأكل متواضع ، لكن فيه محبة ، فانتبه للرزق السلبي .

3 – راحة البال بركة من الله :

وإذا أنعم الله عليك براحة البال فهذا لا يقدّر بثمن الله قال :

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

(سورة محمد)

صلاح البال ، تنام قرير العين ، تنام ملء جفونك ، لأنك وأنت نائم لم يتعلق عليك حق ، فما أكلت حقاً، ما آذيت إنساناً ، ما أضللت مخلوقاً ، ما كنت سبب شقاء أسرة ، ما بنيت مجدك على أنقاض الناس ، ما بنيت غناك على إفقارهم ، ما بنيت عزك على إذلالهم ، ما بنيت أمنك على إخافتهم ، ما بثثت الرعب في قلوب الناس ، ولا ابتززت أموالهم ، ولا انتهكت أعراضهم ، ولا فرّقت بينهم ، ولا أورثت بينهم العداوة والبغضاء ، وكنت إنسانا معطاء ، إنسانا مصدر أمن للناس ، مصدر سلام .

4 – محبة الناس لك بركة من الله :

إذا كان اسمك عطرًا ، يملأ القلوب محبة الناس ، فهذه نعمة كبيرة جداً ، نعمة أن الناس يحبونك ، قال تعالى :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه الآية : 39)

إذا الله أحب عبداً ألقى محبته في قلوب الخلق ، فمحبة الناس ، وثقة الناس ، وراحة البال ، والشعور بالأمن ، والشعور بالطمأنينة بركة من الله ، فإذا كان البيت متماسكا ، فيه حب ، الزوجة صالحة ، ودودة ، الأولاد أبرار ، هذه الأرزاق تقدر بالمليارات ، أن تجلس في بيتك في راحة .

5 – الرفق في المعيشة بركة من الله :

قد يُمنع المريض من تناول الطعام ، فيعطى (السيروم)، بعد شهر يرى أنه إذا أكل الطعام مباشرة كأنه في الجنة ، أن تأكل ما تشتهي ، أن تشرب ما تشتهي ، أن تنام قرير العين ، آمنا في سربك ، معافىً في جسمك ، هذه كلها أرزاق سلبية ، وهي مهمة جداً ، لذلك :

((الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة))

[رواه الطبراني عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه]

إن تجارة فيها مغامرة ، فيها مصادرة ، فيها تهريب مادة محرمة ، أو الوثيقة مزورة ، تدخل تحت طائلة القوانين والمساءَلة ، والقلق ، والخوف ، والرشوة .

((الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة))

الله عز وجل يبارك لك في مالك ، وأنا لا أبالغ والله ، هناك أشخاص كثيرون دخْلهم محدود ، لكن ما عندهم مشكلة ، يأكلون ، ويشربون ، ويتمتعون ، لكن من غير بذخ ، ولا إتلاف للمال ، ولا هدر ، ولا استعلاء على الناس ، بل فيهم تواضع .

6 – الحياة الطيبة السعيدة بركة من الله :

اطلب الحياة الطيبة ، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية : 97)

المؤمن في رعاية الله ، في حفظ الله ، في توفيق الله ، في تجليات الله ، في سكينة الله ، المؤمن يتلقى من الله أرزاقا لا تعد ولا تحصى ، الرضا رزق ؛ أن ترضى عن الله ، يا رب لك الحمد ، من أعماقك ، الصبر رزق ، الحكمة رزق ، الطمأنينة رزق ، الإحساس بالأمن رزق ، فحينما تكون مع الله فأمامك أرزاق لا تعد ولا تحصى ، والفهمُ لكتاب الله ، ومعرفة ما سيكون الإنسان عليه بعد الموت ، يعدّ العدة لنزول القبر ، تعلم هاتين الكلمين ، هناك رزق إيجاب ، الدخل الشهري ، ورزق السلب ، إذا الله عافاك، هيأ لك زوجة صالحة ، ليست مشاكسة ، هيأ لك أولادا أبرارا ، صحتهم جيدة ، سمعتهم طيبة ، هيأ لك ودًّا ، النبي الكريم يقول :

((الحمد الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

هناك ود ، وأولاد أبرار ، وحولك أقارب محبّون ، لك سمعة طيبة ، تنام مطمئنا قرير العين ، هذه كلها أرزاق :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

أمطار غزيرة ، خيرات وفيرة ، أسعار متدينة ، سخاء ، سرور ، الله عز وجل ما خلقنا ليعذبنا .

إذا أنشأنا ثانوية من أجل أن نعلّم الطلاب ، أن نربيهم ، أن نعلمهم الحكمة والعلم ، والفهم ، والدين ، فإذا أساء طالب إساءة بالغة وعاقبناه ، إذا قال طالب : إنما أنشأت هذه المدرسة كي تعذبنا ، هذا كلام مضحك هذا ، هذه حالة طارئة ، الله عز وجل قال :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

خلقنا ليسعدنا لا ليعذبنا ، خلقنا ليرحمنا لا ليقسوا علينا ، خلقنا ليحب بعضنا بعضاً جعلنا شعوباً وقبائل، لا لنتقاتل .

(لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

هذا أصل الخلق ، أما الناس لبُعدهم عن الله انحرفوا ، إذاً :

(لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

7 – البلدة الطيبة وطيبة أهلها بركة من الله :

تأتينا خيرات السماء ، والأرض تنبت النبات الطيب ، ومع النبات الطيب .

(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

(سورة سبأ)

مع النبات الطيب راحة نفسية ، مع النبات الطيب ثقة بالله ، مع النبات الطيب رضا عن الله ، مع النبات الطيب ود بين الناس .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

(سورة مريم)

وداً بينهم وبينه ، وودا فيما بينهم .

والله أيها الإخوة ، أنا أرى من علامات الإيمان أن يكون الود بين المؤمنين ، وكلما رأيتُ وداً بين المؤمنين أزداد ثقة بإخواني ، ولا سمح الله ولا قدر لو رأيتهم متشاكسين متحاسدين ، والله أتألم ألماً لا حدود له ، معنى ذلك هناك ضعف في الإيمان كبير جداً .

أيها الإخوة ، إذاً : يجب أن تنتبه إلى الرزق السلبي ، معك مأوى ، مثلاً إنسان له زوجة صالحة فهي نعمة لا ينتبه لها ، لأنه يغيب شهرا عن البيت وهو يعلم علم اليقين أن له زوجة عفيفة أطهر من ماء السماء ، هذه نعمة لا تقدر بثمن ، وربما يكتشف أن لها اتصالات ، وعلاقات مشبوهة ، إنسان دخل بيته في غيابه ، يصبح كالمرجل ، هناك مليون نعمة ينعم بها المؤمنون ، وقد لا ينتبهون إليها ، الذي عنده زوجة صالحة ، الذي عنده أولاد أبرار ، محترم ، يخجلون منه ، يخدموه ، الذي عنده أصهار طيبون ، كل هذه نعم لا تقدَّر بثمن ، فحينما تصطلح مع الله يتولاك ، ويختار لك أفضل شيء ، أفضل زواج ، أفضل أولاد ، أفضل عمل ، عملا مريحا ، دخلا معقولا بوقت معقول ، وسمعة طيبة .

هذه البركة ، لكن بكل الآلات الحاسبة ، حينما أشتري آلة حاسبة هل أبحث عن زر للبركة ؟ هناك جمع ، وضرب ، وطرح ، وتقسيم ، ونسبة مئوية ، وذاكرة ... لكن ليس فيها زر للبركة ، وإذا بارك الله لك بوقتك تفعل في هذا الوقت المحدودِ المستحيلَ ، إذا بارك الله لك بمالك ، والله تفعل في هذا المال الشيءَ المدهشَ ، إذا بارك الله بصحتك تعيش حياة مديدة ، وأنت معافىً في جسمك ، لا تشكو شيئاً ، الله عنده عطاء كبير ، إذا رحِمك رفعك .

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

إذا رحمك طمأنك ، إذا رحمك منحك نعمة الأمن ، إذا رحمك منحك الكفاية ، فخذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هما ، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر .

8 – البركة في الوقت القليل :

إذاً : البركة تعني أن يبارك الله لك : بوقتك ، تجد علماء كبارا تركوا مؤلفات يكاد العقل لا يصدقها ، 380 مؤلفا ، متى كتبها ؟ متى قرأ ؟ متى تعلم ؟ متى ألف ؟ متى نقح ؟ متى درس ؟

ثمَّة عالم في الجزائر عاش أقلَّ من خمسين سنة ، وزنه أقلّ من خمسين كيلوًا ، ينام أقلَّ من ساعتين ، استطاع أن يبثَّ روح المقاومة في الشعب الجزائري ، وأن يواجه فرنسا بأكملها ، الآن لو ذهبت إلى الجزائر لم تجد كلمة تعلو على كلمة هذا العالم العامل ، المجاهد ، الواعي ، الوسطي ، الذي جمع وما فرقّ ، قال : مَن قبل ما عندنا فهو أخونا ، ومن لم يقبل فهو أخونا ، وما كفّر أحدًا .

الإسلام الآن يحتاج إلى وسطية ، يحتاج إلى إسلام كما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام .

8 – بركة الزكاة ولو نقصَ المال في الظاهر :

أيها الإخوة ، الآن لاحظ المفارقة ، معك ألف ليرة ، زكاة هذا الألف 25 ليرة ، نقص من ألف ليرة 25 ، ماذا يسمى هذا العمل ؟ زكاة ، الزكاة النمو ، يا أخي المبلغ نقص ، كيف نما ؟ بقدرة قادر .

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

(سورة التوبة الآية : 103)

ينمو المال ، وقد نقص ! يبارك الله فيه .

((ما نَقصَ مال من صدقة))

[أخرجه مسلم والترمذي ومالك في الموطأ عن أبي هريرة]

((أنفق بلالُ ، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))

[أخرجه الطبراني عن بلال رضي الله عنه]

عبدي أنفق أُنفق عليك ، المال لما ينقص يسمى المال الناقص زكاة ، أديت زكاته فنما .

9 – مالُ الربا ممحوق البركة ولو زاد في الظاهر :

أقرض قرضاً ربوياً ، أقرضت ألفا فرجعت 1050 ، قال تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

الزيادة بخلاف منهج الله تمحق ، والنقص وفق منهج الله زيادة ، والزيادة بمعصية الله تعني المحق ، والنقص بطاعة الله تعني الزيادة .

10 – الزوجة الصالحة بركة :

أنا أركز على كلمة بركة ، أحيانا يبارك لك بزوجتك . والله لا أنسى مرة عزّيت صديقاً لي بوفاة والدته، كان عمرها ثمانين عامًا ، والده في سن التسعين ، بكي الزوج بكاء غير معقول ، أردت أن

أسليه قليلاً ، أن أخفف عنه ، قال لي : والله منذ 55 سنة ما نمت يومًا غضبان عليها . التقيت بعالم قرآن كريم عالم جليل ، قال لي : أنا عندي 38 حفيدا ، 13 طبيبا ، ما شاء الله ! أساسه زواج ، زوجة مباركة ، أنجبت أولادا أبرارا ، وبنات طائعات وأصهارا مؤمنين .

الدين جميل ، والحياة جميلة بالدين ، حياة فيها بركة ، فيها محبة ، فيها موآثرة ، فيها ود .

11 – الجار الصالح بركة :

الأمير عبد القادر الجزائري كان ساكنا بالشام ، وله جار افتقر ، فاضطر أن يبيع بيته ، عرض البيت للبيع ، دفع له أحدهم 300 ليرة ذهبية ليشتريه ، فغضب ، قال : والله لا أبيع جيرة الأمير بهذا المبلغ ، خناك إنسان ابن حلال بلّغ هذا الأمير الخبرَ ، فاستدعاه ، قال له : هذه 300 ليرة ذهبية ، وأنت جارنا ، لا تبع بيتك ، هكذا كان الناس .

الآن من أين ينزعج الجار ؟ والعياذ بالله حياة شقاء ، الإنسان متحفز دائماً ، في كل لحظة قنص ، وغدر ، وشيء مريب ، أعصابنا كلها متوترة ، مِن بُعدنا عن الله عز وجل ، فلا راحة نفسية ، الشراء معركة ، البيع معركة ، المبيع مزوَّر ، أو أنّ مفعول المادة منتهٍ ، لكن مع المودة والحب تنحل كل المشكلات .

قال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

الله له منهج تطبقه ، أنت آلة معقدة جداً تعقيد إعجاز ، ولهذه الآلة صانع حكيم ، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة ، إن أخذت منهج الله بارك الله لك في حياتك ، وإن لم تأخذ منهج الله رفضته، وأخذت منهج الشيطان دمرك الله .

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب الآية : 71)

أنا أحياناً أحب أن أستفز بعض الناس ، أقول لأحدهم : لا تحب أحدًا أحبب نفسك ، وأطع الله ، لا تحب أحدا ، لو أنك انطلقت من حب ذاتك ، من أنانية مفرطة فعليك بطاعة الله ، أنت آلة معقدة ، أوامر الله عز وجل ليست حداً لحريتك ، لكنها ضمان لسلامتك .

أنا أقول لك كلمة : لا مصيبة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل ، والجهل أعدى أعداء الإنسان ، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

والآن هناك أعداء تقليديون ، يقول لك : الاستعمار ، الكيان الصهيوني ، هؤلاء أعداء تقليديون ، لكن عندنا أعداء أخطر منهم ، جهلنا ، تخاذلنا ، نزاعاتنا الداخلية ، هؤلاء أعداء أشد ضرراً من أعدائنا التقليدين . لذلك الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

منهج الله ضمان للسلامة وليس تقييدا للحريات :

قضية منهج الله ليس الموضوع موضوع جبروت ، يجب أن تطيعيني يا عبدي وإلا سأسحقك ، ليس هذا المعنى إطلاقاً ، الله عز وجل رحمن رحيم ، رب كريم ، أعطاك تعليمات لسلامتك .

قد تجد خط توتر عالٍ ، ممنوع الاقتراب ، خطر الموت ، يا ترى مَن وضع هذه اللوحة وضعها ليتسلط عليك ؟ ليقيد حريتك ؟ ليقهرك ؟ لا والله ، وضعها من أجلك ، سلامةً لك ، فحينما تفهم أن هذه الأوامر والنواهي إنما وضعت من أجل سلامتك تكون فقيها ، ليس من أجل تقييد حريتك ، لكنها ضمان لسلامتك .

لا يستوي الصالح والطالح :

شيء آخر ، أنت كمعلم ، أعطيت وظيفة متعِبة للطلاب ، في اليوم التالي جاء الطلاب المجتهدون ، وقد كتبوها في أربع ساعات ، وطلاب ما كتبوا ، فإن لم تعاقب الذي لم يكتب فلا أحد يكتب في اليوم التالي ، هل هذا الكلام صحيح ؟ وحينما تسوي بين الفاسد والصالح ، والمجتهد والكسول ألغيتَ الاجتهاد ، ويتوهم المجتهد أنه أحمق ، تعب ، واستوى مع من لم يتعب .

فالله عز وجل من لوازم تربيته ، من لوازم حكمته ، أن يعامل كل مخلوق بحسب عمله إنْ تستقيم تسلم، إنْ تبذل من وقتك ، من مالك ، من علمك تسعد ، إنْ تنضبط تكن في بحبوحة ، إنْ تتفلت تكن في ضياع .

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 5)

الهدى رفعهم .

(أُولَئِكَ فِي)

كآبة أو سجن :

(ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

(سورة إبراهيم)

لا بد من أن يعاقب الفاسد ، وإلا لا أحد يستقيم ، أنت حينما تستقيم ، وتلمس لمس اليد نتائج استقامتك تزداد ثقتك بنفسك ، الحمد لله يا رب أن ناديتني إليك ، الحمد لله أن أعتني على طاعتك ، الحمد لله إذا وفقتني إلى لخضوع إلى أمرك ، أما لو فسد إنسان ، وانحرف ، وبغى وطغى ، ولم يصبه شيء ، يزهد الناس في طاعة الله ، الله عز وجل كبير ، الله عز وجل خلقنا ليرحمنا ، لذلك ابحث عن رحمته ، ابحث عن منهجه .

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ

الآن :

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة الأعراف)

نخبة أغنياء العالم يقضون عيد الميلاد في جنوب شرق آسيا ، بلاد جميلة ، شواطئ دافئة ، نباتات عملاقة ، جو جنوب الأرض في الشتاء رائع جداً ، بلاد دافئة ، مياه البحر دافئة ، أشجار باسطة أوراقها ، منتجعات بعشر نجوم ، جاءهم زلزال تسونامي فأراهم النجوم ظهراً ، قوته مليون قنبلة ذرية:

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ)

نحن تحت رحمة الله عز وجل ، ما مِن شيء ثابت ، الثابت طاعة الله عز وجل ، والثابت حفظ الله :

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ)

أحيانا الزلزال ليلاً .

(أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأعراف)

أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون

بالمناسبة في أي لحظة الشمس تشرق وتغرب ، في أي لحظة ليل و نهار ، الأرض نصفها ليل ونصفها نهار ، لذلك قد يأتي البلاء ليلاً ، وقد يأتي نهاراً ، والآية الكريمة :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس الآية : 24)

والله الآن هناك مدن جميلة ، فيها تزيينات ، فيها بذخ ، فيها لوحات جمالية .

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً)

(سورة يونس الآية : 24)

يعني أتاها ليلاً على قوم ، ونهاراً على قوم .

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس الآية : 24)

نحن الآن نرى رأي العين إعصارا جعل بلدة بأكملها أنقاضاً ، في تركيا زلزال الصورة الحقيقية موعظة كبيرة جداً ، مركز الزلزال بإزميت ، بالتاء ـ غير إزمير ، اللسان الطويل ـ هنا المركز ، الصورة نشرتها إذاعة بريطانية ، كل الأبنية أنقاض على الأرض ، الأبنية تفتت تفتُّتا عجيبًا ، أعلى ارتفاع خمسون سنتيمترا ، المدينة كلها ركام ، ومسجد ومعهد شرعي لم يمس بأذى في وسط الأنقاض، هذه الصورة عرضتها الإذاعة البريطانية ، والمصورة أيضاً صورتها ، وأنا عرضتها في الجامع مرة.

الله عز وجل له آيات :

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

(أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

(سورة الأعراف)

فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ

الله عز وجل لا يمكر ، لكن مكره لصالح عباده .

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة آل عمران)

يمكر بنا كي يعيدنا إليه ، يمكر بنا كي نقبل عليه ، يمكر بنا كي نلجأ إليه ، يمكر بنا كي نصطلح معه ، يمكر بنا كي ندخل الجنة ، لذلك المؤمنون يوم القيامة لهم كلمة واحدة :

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

والله في هذه المنطقة المباركة الله ، قال مباركة ، الدليل :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)

(سورة الإسراء الآية : 1)

الأقصى وبلاد الشام بقعة مباركة :

نحن حول الأقصى ، بنص الآية بلاد مباركة ، فيها شدة ، فيها ضغوط ، فيها عدوان خارجي ، فيها ضغوط خارجية ، فيها حصار أحياناً ، أليس كذلك ؟ والله الذي لا إله إلا هو لو كشف الغطاء لوجدتم أن

إقبال الناس على الدين ، واصطلاحهم مع الله رب العالمين بسبب هذه الضغوط ، ولو ذهبت إلى بلاد فيها الرخاء ، فيها الأمن ، ما عندها مشكلة ، تجد الجفاف الروحي ، التصحر الروحي ، البعد عن الله ، ما أحد يقبل على المساجد ، ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك ، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء ، بلدة مباركة ، نحن في رعاية الله إن شاء الله .

عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُولُ :

((بَيْنَا أَنَا فِي مَنَامِي أَتَتْنِي الْمَلَائِكَةُ ، فَحَمَلَتْ عَمُودَ الْكِتَابِ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي ، فَعَمَدَتْ بِهِ إِلَى الشَّامِ ، أَلَا فَالْإِيمَانُ حَيْثُ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ))

[أخرجه أحمد]

عليكم بالشام في آخر الزمان ، بلدة مباركة ، المساجد مليئة ، هذه ظاهرة طيبة جداً ، الدعاة كثر ، توجيه سليم إن شاء الله ، إيمان بالله .

ألقيت البارحة محاضرة في الجامعة ، المدرج كله محجبات ، والله شيء لا يصدق ، الله عز وجل أراد بنا خيرًا .

(أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

الله يرخي الحبل ، لكنك في قبضته بلحظة واحدة ، فجأة سكتة دماغية .

اللهم إنا نعوذ بك من فجأة نقمة ، وتحول عافيتك ، وجميع سخطك ، أما المؤمن :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت)

مَن كان مع الله كان اللهُ معه :

أيها الإخوة الكرام ، نحن بحاجة إلى قرب من الله ، إلى صلح مع الله ، إلى مناجاة لله ، إلى إقبال على الله ، إلى توبة نصوح ، إلى عمل صالح ، إلى حضور مجالس علم ، إلى خدمة المؤمنين ، هذه كلها أعمال يتألق بها المؤمن .

والله الذي لا إله إلا هو أقول : أيها المؤمن ، إن لم تقل أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحد أتقى مني فهو أسعد مخلوق ، معنى ذلك في الإيمان خلل ، أنت مع الله ، مع القوي ، مع الغني ، مع الرحيم ، مع من بيده كل شيء ، إلهي أنت مقصودي ، ورضاك مطلوبي ، مع الله ما لا حزن ، ولا يأس ، ولا إحباط ، ولا خنوع ، ولا نفاق ، ولا ذل ، ولا تشاؤم ، ولا سوداوية ، أنت مؤمن .

أنا والله لا أصدق مؤمنًا بمرض نفسي ، المرض النفسي يتناقض مع الإيمان ، الله معك ، ادعُه :

((يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا ، حين يبقى ثُلثُ الليلِ الآخِرُ ، فيقول : من يَدعُوني فأستجيبَ له ؟ مَن يَسْألني فأُعْطِيَهُ ؟ مَن يَسْتَغْفِرُني فأَغْفِرَ لَهُ ، حتى يَنْفجِرَ الفَجْرُ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك عن أبي هريرة]

((ولو يعلمون ما في العَتَمة والصبح لأتوهما ولو حَبْوا))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك عن أبي هريرة]

أيها الإخوة ،

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ

البشر يخلف بعضهم بعضا :

ثمة إنسان يعمل بمنصب ، بعد إنسان كان في هذا المنصب ، إنسان يسكن بيتًا بعد إنسان كان في هذا البيت ، إنسان يكون أميرًا بعد إنسان كان أميرًا ، لو أنها استمرت له ما وصلت إليك ، الله جعل البشر خلائف .

سوق الحميدية مثلاً ، كل خمسين سنة أصحاب للمحلات جدد ، يكبر صاحب المحل ، أولاده يحلون محله ، يختلفون فيبيعون المحل ، يأتي شخص جديد ، والبيوت هكذا ، كل خمسين سنة تقريباً أصحاب بيوت جدد ، أصحاب محلات جدد ، انظر إلى الآية ما أدقها

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ)

لا تفرح بالدنيا ، افرح برضوان الله عليك .

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

(سورة القصص الآية : 79)

قيل له :

(لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص)

أيها الإخوة ، الإنسان قد يصل للقمة ، طريق صعب ، طويل ، وعر ، فيه أكمات ، وحفر ، وغبار ، وحر ، إلى أن وصل إلى القمة ، السقوط طريقه مبلط مع الصابون ، بدقيقة تصبح تحت ، البطولة أن تبقى في القمة ، لا أن تسقط .

قد يرث الإنسان الأرض مِن بعد مَن تركها له ، بطولتك أن تتقي الله ، بطولتك أن تخشى الله ، بطولتك أن تعدل ، لذلك :

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

أيها الإخوة الكرام :

(فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

أنت في قبضة الله ، وتحت رحمته ، وأمره نافذ فيك ، والدعاء :

اللهم إني عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، عدلٌ فيّ قضاؤك ، ماض فيّ حكمك .

هذا هو التوجه إلى الله ، وهذه الطاعة لله ، تعطيك طمأنينة ، وأمناً ، وسعادة ، وراحة ورضىً يفتقده معظم الناس ، وإن لم يكن هناك ظرف كبير بين أهل الإيمان ، وأهل الكفران ففي الإيمان خلل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(33-60): تفسير الآيتان 101 - 102، كيف يكون المؤمن ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-03-14

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الواحدة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)

1 – الأصل في الأمر القرآني الوجوبُ ، والأصل في النهي التحريمُ :

أيها الإخوة ، كلكم يعلم أن هذا القرآن كلام الله ، فيه أوامر ، وكل أمر يقتضي الوجوب ، افعل ، وفيه نواهٍ ، وكل نهي يقتضي الترك ، يجب أن تأتمر بما أمر الله ، وتنتهي عما عنه نهى الله ، فكر دائماً أن كل آية تقرأها لا بد من أن يكون لك منها موقف ، لأن هذا الكلام كلام الله ، كلام الخبير ، كلام الخالق، كلام رب العالمين ، ولا يمكن أن يقول الله كلاماً ليس لك منه موقف .

النقطة الدقيقة : أيّ آية تقرأها فلا بد من أن يكون لك منها موقف .

2 – الأمر القرآني بالتفكّر في الكون :

الآن نستعرض آيات الأمر التي تقتضي أن تأتمر ، وآيات النهي التي تقتضي أن تنتهي ، وآيات تصف الجنة ، وما فيها من نعيم مقيم ، موقفك منها أن تسعى إلى دخول الجنة ، أن تحفزك هذه المشاهد على أن تستقيم على أمر الله ، وأن تعمل عملاً يؤهلك إلى دخول الجنة ، والمشاهد التي تصف أهل النار وأحوالهم موقفك من هذه الآيات أن ترتدع عن أن تعمل عملاً لا يقربك من الله ، والآيات المتعلقة بالكون :

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

(سورة الطارق)

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

(سورة الفجر)

3 – التفكر في مصير الأقوام الماضية :

آيات الكون تقتضي أن تتفكر فيها ، والآيات المتعلقة بالأمم السابقة ، عاد ، وثمود وقوم لوط ، وقوم سيدنا موسى ، وقوم سيدنا إبراهيم ، آيات تتحدث عن الأقوام السابقة ، وكيف كذبت أنبياءها ، ورسولها فاستحقت الهلاك من الله عز وجل ، هذه الآيات تقتضي منا أن نتعظ ، والسعيد دائماً يتعظ بغيره ، والشقي يتعظ بنفسه .

4 – لابد للمستقيم من الابتلاء :

أحياناً يعاني الإنسان ما يعاني حينما يصطلح مع الله ، يعاني مَن معارضة مِن قِبل أقرب الناس إليه ، يعاني من استنكار بعض الناس لاتجاهه ، لأن الناس ألِفوا التفلت ، ألِفوا أن يأكلوا المال الحرام ، ألِفوا الاختلاط الآثم ، ألِفوا النفاق والدجل ، فحينما يأتي الإنسان ، ويستقيم على أمر الله ، ويتماسك ، وينضبط ، ويكون عفيفًا أمينًا صادقًا ، هذا الإنسان خطرٌ على مَن حوله ، مِن أين جاء الخطر ؟ أنه يكشفه ، المستقيم يكشف المنحرف ، والورع يكشف المتفلت ، والأمين يكشف الخائن ، والصادق يكشف الكاذب .

5 – خمسة أعداء يقفون في طريق المؤمن :

حينما يسلك الإنسان طريق الإيمان يرى الصعوبات ، بل إن لكل إنسان أعداء كثيرين ، يمكن أن نصنفهم في خمس جمل ، لا بد للمؤمن ـ لا سمح الله ولا قدر ـ مِن مؤمن يحسده ، لأن هناك مؤمنا مقصرا ، ومؤمنا مجتهدا ، المجتهد تألق ، لما تألق أصابه من الغيرة ما أصابه ، بدأ يتكلم كلاما لا يليق بأخيه ، فلابد من مؤمن يحسده ، ومن منافق يبغضه ، ومن كافر يقاتله ، ومن نفس ترديه ، ومن شيطان يغويه ، فهذه خمسة أطراف يمكن أن تسبب لك بعض المتاعب ، مؤمن ، منافق ، كافر ، نفس أمارة بالسوء ، شيطان ينتظر هذا الإنسان .

6 – الشيطان لا يترك باب الإضلال إلا سلكه :

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(سورة الأعراف)

لمجرد أن يصطلحوا معك ، وأن يسلكوا طريق الإيمان ، أنا سوف أزعجهم :

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

من المفارقات التي تلفت النظر أن الإنسان يكون متفلتا غارقا في المعاصي والآثام ، يأتي إلى البيت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، لا يصلي ، يأكل المال الحرام ، لا أحد يتكلم ، فإذا اصطلح مع الله ، وغض بصره ، وضبط لسانه ، وصلى الصلوات الخمس ، وانضم إلى جامع ، أقرب الناس إليه يقيمون عليه النكير ، لما كان منحرفاً ، لما كان ضالاً مضلاً ، لما كان له صويحبات كان الأب ساكتا ، وكذا الإخوة ساكتون !

النقطة الدقيقة أن الذي يعاني ما يعاني حينما سلك طريق الإيمان ، بل يعاني من هذه الآية بالذات :

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

المستقبل ، والحداثة ، والكمبيوتر ، والإنترنيت ، والفضائيات ، عصر علم ، عصر تألق ، المرأة نصف المجتمع ، عصر الاختلاط ، من حق المرأة أن تعرض كل مفاتنها ، هذا حقها ، ينبغي أن تعيش وقتها ، أفكار تشجع على المعاصي والآثام ، هذه :

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

إذا كان تاريخ لأمة قبل الإسلام فإننا نشيد بهذا التاريخ ، نشيد بالفرعونية ، نعتم على الإسلام ، هذا من فعل الشيطان أيضاً :

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

دائماً المؤمن يتعرض لوسوسة الشيطان ، يوسوس له بالكفر ، إن رآه على إيمان يوسوس له بالشرك ، إن رآه على توحيد يوسوس له بارتكاب الكبائر ، إن رآه على طاعة يوسوس له بارتكاب الصغائر ، إذا وجدع قمة في الورع بقي مع الشيطان ورقتان رابحتان ، التحريش بين المؤمنين ، المؤمنون أطياف

الآن ، هذا الطيف يتهم هذا الطيف ، وهذا الطيف يكفّر هذا الطيف ، وهذا الطيف يبدّع هذا الطيف ، وهذا الطيف يحتقر هذا الطيف ، هذه الخصومات بين المؤمنين ، وتراشق التهم من فعل الشيطان ، أما آخر ورقة فيغريه بالمباحات ، يضيع وقته كله بتحسين حياته ، وبيته ، ومركبته ، ودخله ، وتجارته ، ويفوته خير كثير من الأعمال الصالحة .

مثلاً : مَن منا يصدق أنه رقم لمركبة ، لأنه رقم واحد ثمنه 56 مليونًا ضرب 13 ، مقابل أن رقم مركبتك واحد ، ما هذا المكسب العظيم ؟! أنت ماذا قدمت للأمة ؟ ماذا يعني الواحد أو الألف أو مئة ألف ؟ قيم فارغة ما لها معنى إطلاقاً .

إن آخر ورقة رابحة بيد الشيطان يغري بها الناس أن يقول لك : منظر طبيعي ، تجريدي ، ثمن اللوحة 30 مليونا ، والناس يموتون من الجوع ، هو يقتني لوحات فنية ، ويعتني بهذه اللوحات ، وكأنها دين جديد له ، هذا مِن فعل الشيطان .

في بعض البلاد تم إعدام عشرين مليون رأس غنم ، ودفنت تحت الأرض حفاظاً على أسعار اللحم المرتفعة ، وشعوب تموت من الجوع ، وتم إتلاف محاصيل تكفي لقارة ، محاصيل حمضيات ، محاصيل البن ، إنتاج الألبان ، ومرة ألقي في البحر من مشتقات الألبان ما يساوي حجمه أهرامات مصر ، حفاظاً على الأسعار .

نعيش في عصر حماقات ، في عصر قسوة ، في عصر ثقافة إجرامية ، قلب الإنسان كالصخر ، همه ذاته ، همه أن يأكل وحده .

الأرض فيها قسم شمالي ، وهو فوق خط الاستواء ، وقسم جنوبي تحت خط الاستواء ، كم تتصورون نسبة سكان القسم الشمالي إلى القسم الجنوبي ؟ 20% ، 20% من سكان الأرض يسكنون فوق خط الاستواء ، هؤلاء الـ 20 % ماذا يملكون ؟ يملكون 80% من ثروات الأرض لذلك أُحدث مصطلح جديد اسمه دول الشمال ، ودول الجنوب ، دول الشمال غنية جداً ، ودول الجنوب فقيرة جداً .

وهذا الذي يجري في العالم من حروب ، واجتياحات ، ونهب ثروات ، وقتل شعوب ، رقم مليون قتيل عادي جداً بالعراق ، وخمسة ملايين مشرد ، ولا أحد يعترض ، والعالم كله ساكت .

7 ـ معركة الحق والباطل أزلية ، ولحكمة بالغة :

فلذلك حينما تعاني ما تعاني من استقامتك ، وانضباطك ، ومبادئك ، وقيمك ، تأتي قصص الأنبياء السابقين لتخفف عنا ، لست وحدك ، هذا شأن أهل الحق .

إن المعركة بين الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، لماذا ؟ لأنه كان من الممكن أن يكون أهل الباطل في كوكب آخر ، ما سوى الله كل شيء ممكن ، وكان من الممكن أن يكون أهل الباطل في قارة أخرى، أو في حقبة أخرى ، وانتهى كل الصراع ، لا كانت غزو بدر ، ولا غزوة أُحد ولا الخندق ، ولا القادسية .

أنا أعجبتني كلمة ! لن أقول : استعمار ، إن شاء الله ، أقول : استدمار ، الإعمار شيء إيجابي ، الله قال :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود الآية : 61)

يجب أن نقول : استدمار ، أو استخراب ، لأن هذا الاستعمار يؤدي إلى الدمار والخراب . فلذلك قرار إلهي عظيم حكيم ، هذا القرار بنوده أن نعيش معاً في كل مكان ، في كل مكان أهل حق وأهل باطل ، مؤمن وغير مؤمن ، إنسان دينه المال ، وإنسان دينه دين الله عز وجل ، إنسان صاحب مبدأ ، وإنسان صاحب مصلحة ، إنسان شهواني ، وإنسان رحماني .

والآن سبحان الله ! الأحداث الأخيرة انقسم العالم بسببها قسمين ، كان سابقاً الأبيض هو الحق ، أبيض ناصع ، و أسود داكن هو الباطل ، ومساحة كبيرة جداً بين الأبيض والأسود لون رمادي ، سبحان الله ! الآن التطورات الأخيرة أفرزت لونين فقط ، أبيض أو أسود ، مؤمن وغير مؤمن ، ولي وإباحي ، منصف وظالم ، شهواني ورحماني ، هذا واقع العالم اليوم ، قوى الشر ، وقوى الخير ، قوى إنسانية ، وقوى عنصرية ، هذا الوضع المؤلم المأساوي الله عز وجل رب العالمين ، يشجعنا أن نصبر ، يخبرنا أن هذا شأن الإنسان حينما يبتعد عن الله ، فلا تقلق .

إذا كان طبيب جِلدية ، وجاءك مريضٌ معه مرض جلدي مخيف ، جلده كله قروح ، هل تحقد عليه ؟ أنت طبيب ، وهذا مريض .

المؤمن الراقي لا يحقد ، لكن يعالِج ، من هنا جاءت بعض القصص لتخفف عن المؤمنين ، وعن أنبياء الله ، وعن رسله ما يعانونه من صراع بين الحق والباطل .

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا

قال تعالى :

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا)

1 – قصص الأنبياء تخفيف عن النبي والمسلمين جميعا :

هذه القصص تخفف عنك يا محمد ، لست وحدك المكذَّب ، لست وحدك المعارَض ، لست وحدك من يأتمر عليه ، الأنبياء السابقون ، المؤمنون السابقون ائتمروا عليهم ، فاعتقد اعتقاداً جازماً أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية وهذا قدَرُه ، ولحكمة بالغةٍ عرفها مَن عرفها ، وجهلها مَن جهلها نحن نعيش معركة الحق والباطل .

أنا أقول دائماً : هناك حرب عالمية ثالثة معلنة على المسلمين في القارات الخمس ، جهاراً ونهاراً ، وفي أعماق هؤلاء الأقوياء شعور أنه إذا أبيد المسلمون إبادة كاملة فهذا منتهى آمالهم ، نحن نخاف من الله ، نحن لا نعتقد أن القوة تصنع الحق ، هم يعتقدون أنك قوي ، إذاً : أنت على حق .

عندهم مثل شائع جداً : " القوة تصنع الحق " ، أما عند أهل الإيمان فالحق يصنع القوة ، وهما حقيقتان متعاكستان ، ليست القوة هي التي تصنع الحق ، ولكن الحق يصنع القوة ، أنت قوي عند الله ، لأنك على حق ، أما الطرف الآخر فهو قوي ، لأنه يملك سلاحاً نووياً .

الأولاد هم الورقة الرابحة عند المسلمين ، فعلينا تعليمهم مقتضيات العصر العلمية :

لذلك قلت مرة : يمكن أن نواجه القنبلة الذرية بقنبلة الذُرّية ، أولادنا أهمّ ورقة رابحة في أيدينا ، الأب العاقل المؤمن الذي يحمل همَّ الأمة ، الذي يتمنى أن يفعل شيئاً إيجابياً لهذه الأمة يربي أولاده ، يربيهم على الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والبذل ، والعطاء ، وأن يكون ابنك إيجابياً ، أن يحمل همّ أمته ، أن يسهم في حل مشكلاتها ، والله الذي لا إله إلا هو ليس هناك من طريق إلى أن تستعيد هذه الأمة دورها القيادي ، وتألقها التاريخي ، في عصورها الذهبية إلا أن نعتني بأولادنا ، وكل أب يجب أن يعلم علم اليقين أنه يكون في أعلى درجات القرب من الله حينما يقدم للأمة ابناً مؤمناً متعلماً ، فاعتنوا بأولادكم .

صدقوا ، ولا أبالغ ، قلت مرة كلمة لمت نفسي عليها ، لكنني مؤمن بها : إن لم تعلم ابنك اللغة الأجنبية الآن فأنت في حقه مجرم ، حتى يكون قويا ، حتى يفهم ماذا يجري في العالم ، حتى يكون أكبر داعم لأمته ، يجب أن يتقن لغة الطرف الآخر .

سافرت إلى بلد في شمال إفريقيا ، اللغة الرسمية اللغة الأجنبية ، لغة الخطاب لغة فرنسية ، الذين يتقنون هذه اللغة يتحكمون بكل مقدرات الأمة ، وهم أبعد الناس عن الدين ، أما المسلم الطاهر العفيف الأمين الصادق فلا يتكلم اللغة الفرنسية ، أنا أتكلم كلاما دقيقا ، عندك ابن ، وكلّ شيء فاتك أيها الأب تلافاه في أولادك ، فاتك أن تتقن اللغة الإنكليزية ؟ علم ابنك هذه اللغة ، اجعل ابنك عصرياً .

الذي لا يستخدم الكمبيوتر يعد أمّياً ، فالكمبيوتر رفع الدقة من واحد إلى مليون ، وخفض الجهد من مليون إلى واحد ، تطور من دراجة إلى روز رايز ، انخفض سعره من روز رايز إلى دراجة ، وهو لغة العصر ، مَن منا يصدق ؟

حينما أسافر يكون معي كمبيوتر صغير فيه برنامج يحوي 5555 عنوانا ، لماذا قلت : عنوان ؟ قد يكون العنوان في أربعين جزءا ، 5555 ، كتب تفاسير ، كتب أحاديث ، كتب تاريخ ، كتب لغة ، كتب فقه .

يجب على الإنسان أن يستخدم كل إنجازات هذا العصر لصالح الدعوة إلى الله ، وأنا أضعكم أمام مسؤولياتكم ، الذي عنده ابن أرجو الله أن يكون هذا الابن علماً من أعلام المسلمين ، طبيبا ناجحا ، طبيبا منضبطا ، أقلّ عملية جراحية تكلف ملايين خارج البلاد ، لو أن الطبيب درس هناك ، وعاد إلى بلده ، فكلّ علم أمريكا صار عندنا ، هل تصدقون أن خمسة آلاف طبيب في ولاية واحدة ، وهناك بيت من أصل سوري الأولاد معهم بورد كلهم ، خمسة آلاف طبيب يخدمون الطرف الآخر ، ونحن في أمسّ الحاجة إليهم .

نكون أو لا نكون في ربح معركة العقول :

الآن يجب أن تنتبه أن معركتنا مع الطرف الآخر معركة نكون أو لا نكون ، فيجب أن نحمل همّ هذه الأمة ، يجب أن ننتمي إليها ، يجب أن ننتمي إلى المجموع ، يمكن أن ألخص لكم ماذا يعني الانتماء إلى الفرد .

هناك مثل صارخ جداً : إنسان مضطجع تحت شجرة تفاح ، قد قُطفت جميعها ، إلا أن الذي قطفها غابت عن ناظره تفاحة كبيرة جداً ، صفراء لها خد أحمر ، اشتهاها ، لكنها بعيدة ، معه منشار شجر فقطع الشجرة ، وأكل التفاحة ، هذا اسمه انتماء للفرد ، يضحي بمصلحة الأمة من أجل حاجته الشخصية ، أما للمجموع فنتفانى في خدمة هذه الأمة ، في صون ثرواتها ، في صون أموالها .

الآن معركة علم ، الحرب كانت بين ساعدين ، ثم بين سلاحين أبيضين ، ثم بين بندقيتين ، ثم بين مدفعين ، ثم بين مدرعتين ، الآن الحرب بين عقلين ، فلا بد من أن نتحرك ، والله عز وجل معنا :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

فنحن لئلا نقع في الإحباط الله عز وجل قص على نبينا عليه الصلاة والسلام في قرآنه الكريم قصص الأمم السابقة ، المعارض هو َهو عبر التاريخ ، والمُوالي هوَ هو عبر التاريخ ، والمحسن هُو هو ، والمسيء هوَ هو ، والظالم هُو هو ، حتى إنهم قالوا : التاريخ يعيد نفسه .

لذلك الله عز وجل قال :

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود الآية : 120)

فإذا كان قلب سيد الخلق ، وحبيب الحق يزداد ثبوتاً بسماع قصة نبي دونه فلأن نزداد نحن إيماناً بسماع قصة سيد الأنبياء من باب أولى ، قال له : يا محمد :

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا)

2 ـ لستَ وحدك أيها النبي المكذَّبَ والمعارَضَ والمحاصَرَ فلا تحزن :

لا تحزن ، لست وحدك الذي عورض ، لست وحدك الذي كُذب ، لست وحدك الذي أُخرج من بلاده ، لست وحدك الذي حوصر ، وحصار عزة شيء مؤلم جداً ، لكن لماذا لا نذكر أن الله عز وجل سمح للكفار أن يحاصروا حبيبه سنوات ثلاثًا حتى أكل أصحابه أوراق الشجر ، أنا وجهت كلمة لأهل غزة بدأتها بهذا : أن سيد الخلق وحبيب الحق حوصر ، ففي الخندق :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب)

في الهجرة أهدِر دم رسول الله ، ووُضِعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، تبعه سراقة ليأخذ المئة ناقة ، قال له : يا سراقة ! والله شيء لا يصدق ، قال له : كيف بك إذا لبستَ سواري كسرى ؟ ما هذا الكلام ؟! أنا سأصِل ، وسأسوس دولة في المدينة ، وسأحارب أقوى دولتين ، وستأتيني الغنائم ، ولك يا سراقة سوار كسرى ، ألم يقع هذا ؟ في عهد عمر جاءت كنوز كسرى ، فقال : أين سراقة ؟ أعطاه سوار كسرى ، وقال : بخن بخن ! أعيرابي من بني مدلج يلبس سوار كسرى .

الله هو هو ، إله الصحابة إلهنا ، الذي نصرهم ينصرنا ، لا تقلقوا ، ولا تحزنوا ، لا تقلق على هذا الدين إنه دين الله ، ولكن اقلق ما إذا سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون جندياً له .

3 ـ عليك بخدمة الخَلق حتى نستغني عن غيرنا :

والله أيها الإخوة ، أتمنى أن الواحد منا يخرج من ذاته ، يخرج إلى عمل عظيم ، إلى عمل يكون بصمة له ، إن لم يكن لك بصمة في هذه الحياة فأنت زائد عليها ، ماذا قدمت لأمتك ؟ أنت طالب ؟ ادرس ، تكفينا أن تكون الأول في اختصاصك .

أحياناً نأتي بخبير يأخذ مليون ليرة في شهر ، أنت لو وظفت خريجي الجامعة كل واحد أعطيته 25 ألف ، 25 ألف ضرب 400 ، ضرب عشرة ، أربعون إنسانا يفتحون بيوتًا ويتزوجون ، مكان خبير واحد ، وعندنا خبراء من بلدنا ، ونكون قد استغنينا عن كل خبرة أجنبية .

تعمير محرك طيارة واحد يكلف خمسة ملايين دولار ، أربع محركات بعشرين مليون ، مليار ليرة سورية ، ألف مليون ، لتعمير محرك وتجديده ، المليار كم يساوي من أطنان القمح ؟ وأطنان قطن ؟ وأطنان الأرز ؟ أضعكم أمام مسؤولياتكم .

الآن المعركة لا ترحم ، هناك قوي ، وضعيف ، القوي الآن يأكل الضعيف ، وهناك عالِم وجاهل ، العالم يستغل الجاهل :

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

والله أيها الإخوة ، كل واحد منا بإمكانه أن يكون شيئاً مذكورا ، أتقن عملك ، طور مصلحتك ، خفض السعر ، انفع الأمة ، وحينما تتقرب إلى الله بخدمة أمتك يرفعك الله إلى أعلى عليين ، تقرب إلى الله بخدمة أمتك ، زوج شابا ، عندك بيت أعطه لشاب مؤمن بأجرة تتناسب مع دخله ، دخله 8000 ، أعطه إياها بألـ2000 في الشهر ، يخطب فتاة ، يتزوج ، أنت ساهمت ببناء أسرة .

هناك كلمة تقولها أصحاب الديانات الأخرى : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، هذه كلمة السيد المسيح، وهي رائعة جداً ، ما كل ربح يعد مالاً .

4 ـ اللهَ اللهَ في الفقراء والضعفاء :

أحد الإخوة الكرام عنده معمل ، قال لي : ما ربحت إطلاقاً ، قررت أن أصفي الشركة ، سألته : كم عاملا عندك ؟ قال لي : 80 ، قلت له : أنت فتحت 80 بيتا ، إذا كان في كل بيت خمسة أشخاص بين زوج وزوجة وثلاث أولاد ، 80 ضرب خمسة 400 ، 400 إنسان يأكلون من هذا المعمل ، قلت له : ألا تعتقد معي أن استمرار هذا المعمل هو أكبر ربح لك عند الله ولو ما ربحت ؟ هذا عمل عظيم ، لأنك هيأت فرصة عمل ، ولما تفكر في الآخر ، تفكر في الفقير ، النبي الكريم يقول :

((فإنما تُرزقُونَ وتُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي عن أبي الدرداء]

هذا الفقير إذا أطعمته إن كان جائعاً ، أو كسوته إن كان عارياً ، أو علمته إن كان جاهلاً ، أو آويته إن كان مشرداً ، أو أنصفته إن كان مظلوماً ، أو أغنيته إن كان فقيراً ، الآن الله عز وجل يكافئك مكافئة من جنس عملك ، فينصرك على من هو أقوى منك ، وأضعف منك ، بإمكانك أن تسحقه ، أن تهمله ، أن تهمشه ، أن تعاقبه ، أن تفتري عليه ، لأنه ضعيف .

أحد إخواننا الأطباء يقول لي : أنا أذهب إلى مستشفى عام ، كل المرضى فقراء جداً لا يقدر الواحد أن يتصل بإنسان ، لأنه فقير ضعيف ، قال لي : أنا أعاملهم وكأنهم في أرقى مستشفى في دمشق ، أهتم بصحتهم ، وبالتحاليل ، بالمرنان ، بالتصوير ، قال لي : أعيش في جنة .

بطولتك أن تخدم إنسانا لا يملك أن يسألك سؤالاً ، هذه البطولة ، فأنت من أجل أن تعرف نفسك قريبًا من الله عز وجل قدمت خدمات لأفراد هذه الأمة ، هذه أمتنا ، هذه بلادنا ، لما تخرج من ذاتك لخدمة الآخر تكون عند الله كبير جداً ، فاحمل همّ أمتك .

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)

أيها الإخوة ، هؤلاء الضالين الشاردين ، قال :

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

(سورة الأعراف)

هل تحافظ أيها المسلم على عهدك مع الله ؟

إذا عاهدت الله عز وجل على الاستقامة هل تذكر هذا العهد دائماً ؟ فقد يذهب الإنسان إلى بيت الله الحرام ، وعند الحجر الأسود يقول : يا رب ، عهداً على طاعتك ، هل تحافظ على هذا العهد ؟ هل بعد أن تعود إلى بلدك كلما اقتربت من معصية تذكر هذا العهد .

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم)

هذه الآية ألا تهزك ؟

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

سيدنا أيوب :

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

(سورة ص الآية : 44)

هؤلاء أنبياء عظام ، فحينما تعاهد الله يجب أن تكون وفياً بهذا العهد .

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ :

((بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم]

أنت تعامل الله ، أخذت قرارًا مصيريا مثلاً ، أنت مؤمن ، في السراء طائع ، في الضراء طائع وراضٍ ، قبل الزواج طائع وراضٍ ، بعد الزواج طائع وراضٍ ، في حالة الغنى شاكر وراضٍ ، في الفقر راضٍ ، في الصحة راضٍ ، في المرض راضٍ ، هذا هو المؤمن .

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

أحد الصحابة أسلم ، ودخل في غزوة ، وانتصر النبي فيها ، ووزعت بعض الغنائم قال : ما هذا ! أنا ما على هذا أسلمت ، أنا أسلمت على الذبح ، وفي غزو ثانية استشهد ، حمله النبي وبكى ، وأثنى عليه ثناء كبيراً .

أنت عاهدت خالق السماوات والأرض ، عاهدت مَن بيده كل شيء ، فأنت راضٍ ، تزوجت أو ما تزوجت ، سكنت بيتًا أو ما سكنت ، اشتغلت أو ما اشتغلت ، أكلت أو ما أكلت ، تعامل خالق الأكوان .

والله أيها الإخوة ، لزوال الكون أهون على الله مِن ألاّ يحقق الله وعده للمؤمنين .

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

أنا أخاطب الشباب ، أنت بحاجة إلى دخل ، وإلى عمل ، وإلى بيت ، وإلى زوجة ، استقم تماماً ، وانتظر طل خير . عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اسْتَقِيمُوا ، وَلَنْ تُحْصُوا ...))

[أخرجه ابن ماجه وأحمد]

وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ

(وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

لا تكن فاسقاً ، كن مؤمناً . هذا الدرس مقدمة لقصة سيدنا موسى مع فرعون ، وهي أطول هذه القصص في هذه السورة ، إن شاء الله نبدأ بها في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(34-60): تفسير الآيات 103 - 115، قصة سيدنا موسى مع فرعون

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-04-04

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثالثة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

1 ـ الأنبياء قدوة للبشر :

أيها الإخوة ، في القرآن الكريم قصص الأنبياء ، هؤلاء الأنبياء قمم البشر ، وقد تخلقوا بالكمال البشري ، وهم في الحقيقة قدوة لنا نحن البشر ، هؤلاء الأنبياء لا يغفلون عن الله لحظة ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ ، وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ))

[متفق عليه]

هؤلاء الذين عرفوا الحقيقة ، عرفوا ربهم ، عرفوا سر وجودهم ، عرفوا غاية وجودهم ، استناروا بنور ربهم ، حملوا هموم البشر ، نقلوا رسالة الله لخلقه .

2 ـ قصصُ الأنبياء فيها دروسٌ وعِبرٌ :

الله عز وجل يقص علينا قصصهم لتكون هذه القصص عبرة لنا :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة يوسف الآية : 111)

بل إن الله سبحانه وتعالى لعل في رواية قصصهم موعظة لأنبيائه أنفسهم ، الآية الكريمة :

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود الآية : 120)

فإذا كان قلب سيد الخلق ، وحبيب الحق ، يزداد ثبوتاً بسماع قصة نبي دونه فلأن يمتلئ قلبنا إيماناً بسماع قصة سيد الأنبياء من باب أولى .

أنت مؤمن ، الحياة فيها صعوبات ، فيها مصائب ، فيها ابتلاء ، فيها قهر ، فيها فقر ، فيها مرض ، فإذا قرأت قصة سيدنا يونس ، حينما وجد نفسه فجأة في بطن حوت ، هل من مصيبة أكبر من هذه المصيبة ؟ الأمل معدوم ، لا أمل بمعطيات الواقع ولا بواحد من المليار ، وهو في بطن الحوت :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

في ظلمة بطن الحوت ، وفي ظلمة الليل ، وفي ظلمة البحر :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

لكن أنت مؤمن ، الذي يعطيك صعقة إيمانية التعقيبُ :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

هذه لسيدنا يونس ، ولكل مؤمن ، فلا تقلق ، ولا تحزن ، كن مع الله ولا تُبَال ، كن مع الله ترَ الله معك، اسأل الله حاجتك ، توسل إليه بعمل صالح ، بصدقة ، ناجِه في الليل ، اعرض أمامه مشكلتك ، ليكن الحوار بينك وبين الله عز وجل ، لتكن المناجاة بينك وبينه ، اشكُ له ما تعاني ، اسأله مِلْحَ طعامك ، اسأله شسع نعلك إذا انقطع ، هذه كله أحاديث شريفة ، اسأله حاجتك كلها .

قصص الأنبياء ليست لأخذ العلم ، ولكن للإقتداء ، إياك أن تقرأ قصة نبي على أنها قصة ، لا ، هي درس لك ، توجيه لك ، منهج لك ، طريق إلى الله .

فيا أيها الإخوة :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى)

الآن نحن أمام قصة طويلة جداً ، لكن هذه القصة فيها من المواعظ والدروس والاستنباطات ، والحقائق والقوانين والقواعد ما يملأ حياتنا أمناً وطمأنينة ، واستنارة وطريقاً ترسمه هذه القصص إلى الله عز وجل ، بعد أن حدث الله عز وجل عن الأنبياء السابقين جاء دور سيدنا موسى مع قومه :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى)

1 ـ الحقُّ قديمٌ ، كلما انطمس بعث الله نبيًّا ليظهره مِن جديد :

كأنه شيء كان تحت الأرض ثم بعثناه ، ماذا نفهم من هذا التصوير ؟ نفهم أن الحق قديم ، وأن الحق جاء به آدم عليه السلام ، وأنه تمر على البشرية حقب تنطمس فيه الحق ، ثم يأتي النبي فيظهره ، ثم تنطمس الحقائق ، فيأتي نبي آخر فيظهره ، هذا ما يفهم من كلمة بعثنا ، الحق قديم ، والحق مركز في فطر الإنسان ، والحق جاء به الأنبياء .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى)

كلما تاه البشر ، كلما غلبوا مصالحهم على مبادئهم ، كلما غلبوا شهواتهم على مبادئهم ، كلما انجذبوا إلى الأرض ، وأعرضوا عن السماء تأتي رسالة نبي لتوقظهم ، لترشدهم ، لتنبههم ، لعلهم ينتبهون إلى سر وجودهم .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا)

2 ـ معنى الآيات :

الآيات العلامات ، الله عز وجل أعطانا قوة إدراكية ، فإذا بعث إلينا نبياً معه أدلة ، معه علامات ، معه أشياء نيرة ، واضحة ، بينة .

الآيات الكونية :

أيها الإخوة ، لا شك أنكم تعلمون أن الآيات أنواع ثلاث ، آيات كونية ، هذا الكون هو الثابت الأول ، الكون كله ينطق بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله ، فكل شيء في الكون يدلك على الله ، وكل شيء في الكون ينطق بوجود الله ، وكل شيء في الكون ينطق بكمال الله ، وكل شيء في الكون ينطق بوحدانية الله ، الكون من آيات الله الخلقية ، آياته الكونية .

الآيات التكوينية :

أو آياته الخلقية ، لكن أفعاله ، أفعاله آيات أخر ، لكنها آيات تكوينية ، حينما نجّى الله سيدنا موسى من فرعون فهذه آية كبيرة :

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

كيف نجّى الله عز وجل سيدنا موسى ؟ كيف نجّى سيدنا إبراهيم ؟ كيف نجّى سيدنا محمد في الهجرة ، نجّاه في الغار ، ونجّاه في الطائف ، ونجّاه في الهجرة ، ونجّاه في معركة الخندق ، فهذه القصص دروس لنا .

الذي أتمناه ثانية : ألا تقرأ قصة في القرآن على أنها قصة ، إنها درس بليغ ، إنها رسالة من الله ، فهناك آيات كونية ، هي خَلق الله ، هناك آيات تكوينية هي أفعاله .

وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ

أنتقل إلى موضوع يخص كل واحد منكم ، ما من الإخوة الحاضرين المستمعين واحد إلا وله مع الله أيام ، قال تعالى :

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم الآية : 5)

مرة كان في أزمة شديدة جداً ، الله عز وجل فرّجها عنه ، أو شبح مصيبة مخيف ألمّ به ، الله عز وجل صرفه عنه ، أو عدو قوي عنيد حاقد ، الله عز وجل نصره عليه .

أحيانا أن تنجو من مصيبة ، أن يستجيب الله لك دعاءك ، أن يرحمك ، أن يوفقك ، أن يعطيك ، أن يزوجك ، أن يطلق لسانك في الدعوة إلى الله ، هذه من أيام الله ، قال تعالى :

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

وأنت أيها الأخ المؤمن ، إذا كان لك علاقات مع الله رائعة ، علاقات توفيق ، علاقات تأييد ، علاقات نصر ، علاقات اتصال ، علاقات حميمة مع الله عز وجل ، هذه الأيام اذكرها .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

مرة أحد الملوك في الأندلس هو ابن عباد ، كان يمشي في حديقة قصره ، فرأى بركة ماء ، وقد أثرت فيها الرياح ، فكأن سطح الماء سلسلة ، فقال وهو شاعر :

صَنَعَ الريحُ من الماءِ زَرَد

* * *

يعني كالسلاسل ، فلم يستطيع إكمال البيت ، فسمع جارية وراءه تقول :

أيُّ درعٍ لقتالٍ لو جمدْ

* * *

فأعجب بهذه الجارية ، وتزوجها ، وأكرمها إكراما ما بعدها إكرام ، أكرمها إكراماً يفوق حد الخيال ، مرة حنّت إلى حياتها الفقيرة ، فأحبّت أن تمشي في الطين ، فجاء لها بالمسك والعنبر ، وخلطه بماء

الزهر ، وقال لها : هذا هو الطين ، دوسي فيه ، ثم عُزل عن ملكه ، ودخل السجن ، وفي ساعة علاقة سيئة بينه وبينها قالت له : ما رأيت منك خير قط ! فعاتبها ، وقال لها : ولا يوم الطين ؟!

أحياناً الأمور ليست كما ينبغي ، فتتضايق ، ذكّر نفسك بأيام الله ، يوم وفقك في الدراسة ، وفقك في الزواج ، عرّفك بذاته العلية ، ساقك إلى أهل الحق ، وما مِن إنسان ما له أيام مع الله ، فالإنسان البطل لا ينسى هذه الأيام ، من باب الوفاء :

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

إذاً : الله عز وجل له آيات كونية ، وله آيات تكوينية ، وله آيات قرآنية ، فخَلقه آية ، وأفعاله آية ، وكلامه آية ، وهذه الآيات هي الطرائق إلى الله عز وجل ، بما أن أصل الدين معرفة الله ، الله تعرفه من خَلقه ، ومن أفعاله ، ومن كلامه .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

معنى الملأ :

ما معنى كلمة

(وَمَلَئِهِ)

؟ بعضهم قال : الملأ الرجال الذين يملؤون العين ، شكل ، جسم ، ذكاء ، فصاحة ، بيان ، منطق ، قوة شخصية ، هؤلاء الملأ ، فمن معاني كلمة ملأ أنهم يملؤون العين والسمع ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، إن تطلع عليهم يملؤون عينك مهابة .

دخل إنسان يملأ العين على أبي حنيفة ، وكان يلقي درساً ، ويبدو أن في رجل أبي حنيفة ألماً ، فاضطر أن يمدها ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ما رؤي ماداً رجليه قط ، لكن المعذور معذور ، فدخل إنسان عظيم الهيئة ، عريض المنكبين ، يرتدي جبة وعمامة ، وجلس في الدرس ، فاستحيا منه ، ورفع رجله ، والحديث كان عن صلاة الصبح ، وشرح أبو حنيفة المسألة ، وبعد نهاية الشرح سأله هذا الإنسان الذي يملأ العين والسمع ، قال له : ماذا نفعل إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ قال له : عندئذ يمد أبو حنيفة رجله .

الأصل أن الملأ رجال يملؤون العين والسمع .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا)

فَظَلَمُوا بِهَا

1 – الحديث عن الدنيا تكون الآذان له مصغية :

حينما تستمع لآية كونية ، ولا تعبأ بها ، وكانت هذه الآية مهيئة كي تنقلك من الظلمات إلى النور ، كانت هذه الآية مهيئة أن تأخذ بيدك إلى الله ، كانت هذه الآية كفيلة أن تهتدي بهدي الله عز وجل ، فإذا لم تعبأ بها فأنت ظالم .

لاحظ الناس في عصور التخلف ، إذا تكلمت في الدنيا تجد الآذان مصغية ، يرهفون السمع ، يحاورونك، تتألق عيونهم ، تتورد وجناتهم ، وإن حدَّثتهم في أمر الدين رأيتَهم ينامون ، ويتثاءبون ، ويعتذرون ، هذه مشكلة كبيرة جداً :

(فَظَلَمُوا بِهَا)

أمور التجارة ، والبيع والشراء ، وأسعار العملات ، والبيوت ، والشركات ، والبنوك الإسلامية ، آذان لها مصغية .

2 – الحديث عن الله واليوم الآخر لا يلقى له آذانا مصغية :

فإذا جاء الحديث عن الله عز وجل ، وعن رسله ، وعن جنته ، وعن الدار الآخرة ، كأن هذا الموضوع لا يعني أحدًا ، فالظلم في هذه الآية أنه لم يعطِها حقَّها .

تصور شيكًا بمئة مليون دولار موضوع على الطاولة على ظهره ، يبدو للعين ورقة بيضاء ، فأنت اضطررت أن تكتب عملية حسابية : 7 × 9 ، كم ناتج عملية ؟ أجريتَ على هذه الورقة المستطيلة عملية حسابية ، ثم مزقته ، ثم اكتشفت بعد حين أن هذا شيك بمئة مليون دولار ، وكان يحل لك كل مشاكلك ، تشتري به بيتًا ، ومركبة ، وبيتًا بالمصيف ، ومعملا ، كم تندم ؟ لا تنسَ هذا المثل في معنى قوله تعالى :

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً)

(سورة التوبة الآية : 9)

3 – كلمة لها مدلول الظلم : ماذا قال آنفاً ؟

تسمع درسَ علم ، درسًا في الإعجاز العلمي ، درسا في تفسير القرآن الكريم ، ماذا قال آنفاً ؟ يقول

لك: والله الخطبة رائعة ، ماذا قال ؟ والله لا أتذكر شيئًا فلا تؤاخذني ، قال : خطبة رائعة ، لكن ما تذكر منها شيئًا ، لأنه ليس مع الخطيب ، ولا مع المدرس ، مع همومه ، مع شهواته ، هذه معنى :

(فَظَلَمُوا بِهَا)

كلام الحق يجب أن يهز أعماقك ، القرآن يجب أن يقشعر جلدك منه .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

هؤلاء الذين تركوا منهج الله ، ولم يعبؤوا بآيات الله .

مرة كنت في أمريكا ، وألقيتُ درسًا بمدينة اسمها توليدو ، بعد نهاية الدرس قال لي رجل : أنا فلان ، أخي فلان ، أنا أعرف أخاه الطبيب ، قال لي : هل تعلم كم قطعت من المسافات حتى آتي لأستمع لهذا الدرس ؟ قلت له : كم ؟ قال لي : 600 ميلا ، أي ألف كيلومتر ، نحن في الشام في نعمة كبيرة ، نسمع دروس العلم ، والتفسير ، والحديث ، والسيرة ، وأسماء الله الحسنى بكل يسرٍ ، أقسم لي بالله أنه قطع 600 ميلاً ليستمع لهذا الدرس ، فإذا كان في بلد الإنسان دروس متوافرة ، ويسهل عليه أن يحضر الدرس ، ويستمع للدرس ، ويكتب بعض الفقرات بالدرس ، فهذه نِعم كبيرة جداً لا يعرفها إلا مَن فقدها.

(وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

1 – فرعون مدَّعي الألوهية والربوبية :

فرعون ادعى الألوهية ، وقال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

وكان في عصر فرعون يعتقدون أن للخير إلهًا ، وللشر إلهًا ، وللشمس إلهًا ، وللقمر إلهًا ، ولليل إلهًا ، وللنهار إلهًا ، فهي آلهة متعددة ، وفرعون قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

وقال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

2 – الله إلهٌ واحد ، وهو ربُّ العالمين :

رب الخير والشر ، والسماء والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والإنس والجن :

(إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الإله الواحد .

حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ

(حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة الأعراف)

رسُلُ الله لا تقول إلا الحقَّ :

لا يليق برسول الله الذي أرسله الله لهداية خلقه أن يتكلم بغير الحق :

(حَقِيقٌ)

لا يليق لرسول الله أن لا يقول إلا الحق .

أذكر لكم قصة سريعة ؛ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال قبيل موقعة بدر :

((لا تقتلوا عمي العباس))

[ورد في الأثر]

عمه العباس كان في مكة ، وأحد الصحابة ، و الصحابة غير معصومين ، قال : << أحدُنا يقتل أباه وأخاه ، وينهانا النبي عن قتل عمه ؟ >> ، فوقع في نفسه شيء ، ثم تبين أن عمه العباس كان مسلماً ، وأنه كان عينَه في مكة ، فما مِن أمر يحدث إلا وينقل إلى النبي عن طريق عمه العباس ، فإدارة النبي كانت إدارة ذكية جداً ، له عيون ، وأن عمه كتم إيمانه وإسلامه ، فعمه إن لم يخرج مع المشركين ليلقى محمداً وأصحابه في بدر كشف نفسه ، وانتهت مهمته ، وانتهى دوره ، وإن قال النبي الكريم : عمي لقد أسلم ، لانتقل الخبر إلى قريش ، وانكشفت الحقيقة ، وتنتهي مهمته ، وينتهي دوره ، وإن سكت النبي الكريم وهو عند أصحابه مشرك ، وهم في حرب ، واحتمال كبير أن يُقتل ، فالنبي عليه الصلاة

والسلام لحكمة بالغةٍ لا يستطيع إلا أن يقول هذه الكلمات :

((لا تقتلوا عمي العباس))

فقط ، فهذا الصحابي ظن في نفسه شيئاً ، بعد أن كشفت الحقيقة يقول هذا الصحابي : << والله ظللت أتصدق عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله >> .

رسول يتحزب لأقربائه ؟ هذا مستحيل ! إذا أكرم الله عز وجل إنسان بالدعوة إلى الله ، مع أنه غير معصوم ، لكن من الممكن أن يتكلم كلامًا لمصلحته .

النبي الكريم لما مات ابنه إبراهيم الصحابة من باب محبتهم للنبي توهموا ، وقد كسفت الشمس ، أن الشمس كسفت لموت إبراهيم ، فأيّ إنسان إذا كانت له دعوة متواضعة ، وأحد التلامذة ظن أن هذا الحدث الكبير من أجل شيخه ، فهل يبقى الشيخ ساكتًا ؟ ويقول : إنها مفيدة جداً ، ولا يتكلم بشيء ، لأنها تدعم مركزه ، لا ، لقد وقف النبي عليه الصلاة والسلام خطيباً ، وقال :

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن المغيرة بن شعبة]

لابد أن تكون رجلا علميًّا ، لا تعش في الوهم ، المؤمن أمين على هذه الدعوة ، لا يفلسف شيئًا لمصلحته ولا يوهم ، ولا يبالغ ، ولا يبرز شخصه ، المؤمن الصادق في التعتيم يبرز حقيقة هذا الدين ، وحقيقة هذا النبي الكريم .

(فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الإله واحد ، رب العوالم كلها .

(حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

لا يليق بنبي كريم أرسله الله لهداية الخلق أن يقول كلاماً لمصلحته .

طرفة : مرة أردت أن اشتري ستارة لغرفة الضيوف ، فسألت أحد الباعة ، قال لي : يا أستاذ ، يجب أن نقطع من الثوب ضعف عرض الحائط ، زائد متر ، حتى تأتي الستارة مثنات تكون جميلة جداً ، أقنعي بعد شبهِ محاضرة ، عرض الحائط ثلاثة أمتار ، ضرب اثنين ، ستة ، زائد متر واحد سبعة ، أنا اخترت ثوبًا ، لما قاسه وجده أقلّ من الضعف ، خمسة أمتار ، قال لي : هذا المطرز بهذا القياس أحلى، فوراً أعطاني حقيقة ثانية ، هو ينطق عن الهوى لمصلحته ، أعجبني هذا الثوب ، لكنه أعطى قاعدة أخرى ، ما دام مطرزا فهو بهذا القياس أجمل .

صدقوا أيها الإخوة ، إن تسعة أعشار كلام الناس عن هوى ، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقد قال الله في حقّه :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

(قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

1 – قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُم

معي دليل ، معي بينة ، معي آية ، معي معجزة .

2 – فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

يبدو أن هؤلاء القوم ظلمهم فرعون ، ذبح أبناءَهم ، واستحيا نساءَهم .

فيما تروي بعض الروايات أن إنسان رأى أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملك فرعون ، فأُخبر بهذه الرؤيا ، أو بهذا المنام ، وفرعون جبار ، طاغية ، سفاح ، فأمر أن يقتل أبناء بني إسرائيل ، وأية قابلة لا تخبر عن ولادة طفل ذكر تُقتل مكانه ، المشكلة هذا حلها عند فرعون ، أما هذا الطفل الذي سيقضي على ملكه فإنه رباه في قصره ، أنت تريد ، والله يريد ، والله يفعل ما يريد .

((ابن آدم ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، ابن آدم ، إذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

مع الله عز وجل ليس هناك إنسان ذكي إطلاقاً ، بل يُؤتَى الحذِرُ من مَأمَنِه ، وكما قيل : عرفت الله من نقض العزائم .

(فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

الحقيقة أن فرعون يغُد مدّعِيًّا أنه هناك آلهة ، أو أنه هو إله ، قال :

(قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

إنسان يقتل بلا حساب ، وقتل الإنسان أهون عليه من قتل ذبابة ، لمَ لم يقتل سيدنا موسى ؟ لأن فرعون بيد الله عز وجل ، هذا هو الإيمان والتوحيد ، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ حتى إن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ، ولا تقرّب أجلاً ، قال فرعون :

(قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

المعجزة الأولى لموسى : فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ

سيدنا موسى :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

1 – قصة عصا موسى :

لكن لحكمة بالغةٍ بالغة في المناجاة قال الله عز وجل لسيدنا موسى :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

(سورة طه)

ألا يعلم اللهُ ما بيمينه ؟ إنه سؤال عجيب ، الجواب :

(هِيَ عَصَايَ)

(سورة طه الآية : 18)

لكن يبدو أن هذا النبي الكريم الذي ناجى ربه وأنِسَ بهذه المناجاة ، فأراد أن يفتعل معاني فرعية ليتابع المناجاة ، قال :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ)

(أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

(سورة طه الآية : 18)

فخجل ، وقال : لعلي أطلت ، لعلي أجبت إجابة ما أرادها الله ، قال :

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

(سورة طه)

إذا سمح الله عز وجل لي أن أتابع وأقول لي : ما هذه المآرب يا موسى ؟ كلام دقيق جداً :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

الحقيقة لحكمة بالغةٍ الله عز وجل أراد أن يلفت نظره ، هذه التي بيدك ما هي ؟ عصا من خشب ، من خشب يبس ، أصلها نبات ، انتقال النبات ، وأن تعود هذه العصا غصناً نضراً مورقاً مزهراً معجزة ، فما قولك إذا انتقلت من الجماد ، إلى النبات ، إلى الحيوان ؟

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

انتبه ، هذه التي بيدك عصا ، وهي جماد ، ومستحيل أن تعود غصنا مزهرا مورقًا ، لكنه بعد قليل سوف تكون حية تسعى :

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

(قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)

(سورة طه)

2 – التجربة الأولى للعصا : التحوُّلُ إلى حية صغيرة أمام موسى :

هذه أول تجربة ، الله جعلها له حية صغيرة ، حتى لا يخاف .

(قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)

(سورة طه)

حينما قابل فرعون يكون واثق من نفسه ، ولو أن الله قال له : حينما تقابل فرعون ألق العصا تكن ثعباناً ، لكن ما معه تجربة ، فطمأنه ، صار إلقاء تدريبيا ، فاطمأن ، هذه العصا الجامدة أصبحت حية تسعى .

3 – التجربة الثانية للعصا : التحوُّلُ إلى ثعبان كبير أمام فرعون :

أمام فرعون قال له :

(إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

بعض المستشرقين قال : إن في القرآن تناقضًا ، مرة يقول : حية ، ومرة يقول : ثعبان ، لكن هي حية على انفراد فيما بينه وبين الله ، حتى لا يخاف لأنه بشر ، تصور رجلاً أُلقِي أمامه عصا فإذا هي ثعبان بطول 12 مترا ، لكن المرة الثانية وثق من نفسه :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

المعجزة الثانية لموسى : وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ

وسيدنا كان موسى أسمر اللون ، قال تعالى :

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

مرة قال سيدنا علي : << والله ، والله ، مرتين ، لحفر بئرين بإبرتين ، مستحيل وكنس أرض الحجاز في عاصف بريشتين ، أيضاً مستحيل ، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين ، أيضاً مستحيل ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين ، أيضاً مستحيل .

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

وفي رواية : كأنها كوكب دري تتألق تضيء .

الحقيقة بهاتين الآيتين هزّ كيان فرعون ، فرعون إله ، فرعون قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

فرعون قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

بهاتين المعجزتين هز كيانه ، فصغر فرعون ، وانكمش ، وتطامن ، وحُجِّم ، وحوْل فرعون منافقون .

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ

(قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

(سورة الأعراف)

أي أنت يا فرعون إله ، وتبقى إلهنا ، وهذا ساحر :

(إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

(سورة الأعراف)

بعضهم قال : هذا كلام فرعون :

(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

متى كان يقول ملك جبار :

(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

ضعُف ، وتحجّم ، وصغُر :

(قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

تابع فرعون :

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ

القضية أكبر بكثير ، ليست موضوع سحر ، القضية تحتاج لإعداد كبير ، القضية لا تحتمل حلاً آنياً .

(قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

(سورة الأعراف)

عمِّم على كل البلاد أن يأتوك بالسحرة المتفوقين الكبار :

(أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ

(يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

(سورة الأعراف)

الحقيقة أنه هو الساحر ، ويعلم علم اليقين أن هذا الذي رآه ليس سحراً ، بل ثعبان مبين حقيقي ، هذا من النفاق ، والمنافق هو هوَ .

(يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

السحرة في موعد التحدي مع نبي الله موسى :

1 – وصولُ السحرة إلى مكان التحدي :

(وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

(سورة الأعراف)

أي جاءوا فرعونَ ، ووصلوا إلى قصره .

2 – طلب السحرة أجرا من فرعون عند الغلبة والنصر :

(قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

فرعون ضعف مركزه ، وتزعزعت مكانته ، وانهزّ ، وتطامن ، تحجّم ، صغُر ، عرف أن هذا الإله المدعي الألوهية جاء من يهز كيانه :

(قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً)

أرادوا أن يستغلوا ضعف فرعون :

(إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

3 – تشجيع فرعون السحرة بالمكافآت المغرية :

(قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

(سورة الأعراف)

بلا تردد ، وفوق الأجر :

(وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)

(سورة الأعراف)

نتابع تتمة القصة في الدرس القادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(35-60): تفسير الآيات 115 - 126، هزيمة فرعون أمام سيدنا موسى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-04-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة عشرة بعد المئة ، ونحن في قصة سيدنا موسى مع فرعون ، ولعل هذه القصة في هذه السورة من أطول قصص سيدنا موسى مع فرعون :

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ

(قَالُوا ـ أي السحرة ـ يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)

(سورة الأعراف)

1 – كل الخصائص الفنية للقصة متوفرة في قصص القرآن :

كلكم يعلم أن القصة فيها شخصيات رئيسية ، وشخصيات ثانوية ، الرئيسية فرعون وسيدنا موسى ، والثانوية السحرة ، وفيها سرد ، وفيها حوار ، وفيها تحليل ، وفيها بداية ، وفيها عقدة ، وفيها نهاية ، وفيها مغزى ، وفيها حبكة ، بعض الذين درسوا القصة في القرآن أكدوا أن كل خصائص القصة الفنية التي هي أرقى فن في الأدب متوافرة في قصة القرآن الكريم .

الآن هؤلاء السحرة الذين استعان بهم فرعون ، وطلبوا منه العطاء ، وعدهم بعطاء جزيل ، وأن يكونوا من المقربين ، لأن كيانَه كإلهٍ تزلزل .

2 – فائدة في تأخير قولهم : نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ)

لو أن الآية : وإما أن نكون الملقين فهناك معنى آخر .

(وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)

لكن هناك معنى آخر ، هذا الضمير يسمى ضمير التأكيد ، كأن رغبتهم أن يبدؤوا هم ، عزتهم دفعتهم إلى أن يبدؤوا ، ولكن العقل يقتضي أن يتأخروا .

في أكثر الاحتفالات آخر كلمة لأعلى مرتبة ، آخر كلمة هي الختام ، والحفل يقيَّم من الكلمة الأخيرة ، والكلمة الأخيرة تتلافى نقص الكلمة الأولى .

هم كانوا في صراع بين أن يبدؤوا تحقيقاً لعزتهم ، وبين أن يتأخروا مراعاة للحكمة ، لكن عبارتهم :

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ)

يعني أنت أولاً ألق عصاك .

(وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ

(قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأعراف)

1 – سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

لما رأى رغبتهم أن يبدؤوا هم .

(قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا)

هناك روايات في بعض الكتب تؤكد أنهم جاؤوا بأنابيب ، ولوّنوها على شكل ثعبان ، ووضعوا فيها الزئبق ، والزئبق معدن سائل رجاج ، وأنه يتمدد بالحرارة ، ومع التمدد يتحرك ، ووضعوا هذه الأنابيب فوق سطح ساخن ، فالذي يراها من بعيد يرى ثعابين تتحرك .

(قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ)

السحر له ترجمة معاصرة اسمها التنويم المغناطيسي ، ولا ينوم إلا ضعاف الشخصية .

2 – السحر توهُّم الأشياء :

حدثني أخ كان في الهند قال لي : تجمّع الناس حول ساحر ، معه ربطة حبال ، ألقاها في الفضاء ، فعلقت ، معه غلام أمره أن يصعد ، فصعد ، إلى أن غاب عن الأنظار ، أمره أن ينزل فلم ينزل ، فغضب الساحر ، ولحقه ومعه سكين ، بعد حين وقع رأسه ، ووقعت أعضاءه عضواً عضواً ، مع هذا الجمع الغفير سائح غربي ، معه آلة تصوير سينمائية ، فصور ، في أثناء التحميض لم يجد شيئاً ، هذا معنى قوله تعالى :

(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ)

أحياناً في علم النفس يضعون بقعة حبر على ورقة ، هناك مَن يفهمها نجمة ، هناك من يفهما أخطبوطًا، فكل إنسان يسقِط ما عنده على هذه البقعة ، هذا اسمه التنويم المغناطيسي ، والمصطلح القرآني :

(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ)

وفي آية ثانية :

(يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

(سورة طه)

توهموا ، وكم من إنسان توهم شيئاً ليس موجوداً ، توهم رؤية لا أصل لها ، توهم كلاماً لم يسمعه ، هذه قضية متعلقة بعلم النفس ، لكن هؤلاء السحرة عندهم براعة كبيرة ، فحينما ألقوا رأى الناس ثعباناً ضخماً كالعثبان الحقيقي يتحرك ، ويتلوى :

(قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)

قال فرعون :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

وقال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

3 – احذوا الطرف الآخر ، فإنه ليس غبيًّا :

استعان بمهرة السحرة ، فلابد أنهم سيأتون بشيء عظيم ، فالطرف الآخر ليس سهلاً ، الطرف الآخر قد يكون ذكياً جداً ، وقد يكون مثقفاً ثقافة عالية ، وقد يوهم الناس بشيء ، لذلك يجب على المؤمن أن يتسلح بالعلم ، فلو كان علمه ضعيفا فإن الطرف الآخر يقنعه بالكفر أحياناً ، ويقنعه أن هذا الدين ليس لصالح البشرية ، والمذاهب الأرضية لماذا رفضت الدين ؟ الدين فيه قيود ، وهي الحقيقية ليست قيوداً ، لكنها حدود لسلامة الإنسان ، فإن لم تكن متسلحاً بالعلم فقد تقع في شباكهم .

لي رأي : لا تعد مؤمناً الإيمان المنجي إلا إذا استطعت أن تدحض كل الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام ، والشبهات كثيرة جداً ، ولحكمة بالغة بالغةٍ سمح الله للطرف الآخر أن يطرحوا شبهاتهم ، هذا امتحان لنا ، فالإنسان ضعيف الإيمان يتزلزل .

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب)

الله عز وجل من محبته لنا ، من رحمته بنا ، لا يسمح لنا أن يكون الإيمان الذي نحن عليه إيماناً ساذجاً يتزلزل لأية شبهة ، أنا أقول لكم : في عصر لا يكفي أن تكون مؤمناً إيماناً تقليدياً ، الإيمان التقليدي لا يصمد أمام شبهات الغرب ، لا يصمد إلا إيمان متين ، إيمان أساسه البحث والدرس ، والتأمل ، إيمان أساسه التحقق لا التقليد ، الدليل أن الله عز وجل قال :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية : 19)

ما قال لك : فقل ، قال :

(فَاعْلَمْ)

(قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ)

بثوا فيهم الرهبة :

(وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)

أنا أقول لكم كإسقاط لهذه الآية على واقعنا : الغرب الذي شرد عن الله ليس شيئاً سهلاً ، عنده إمكانية كبيرة جداً أن يقنع الناس بشيء ليس صحيحاً ، هناك وسائل النشر ، فأحياناً يصور الطرف الآخر بآلة تصوير خاصة ، على وجهه غبرة ، والبطل الإيجابي يصور بآلة تعطيه ضياء ، وهناك وسائل الإعلام، والصحافة قوة كبيرة جداً ، وهي الآن بيد من ؟ بيد الطرف الآخر .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

(سورة الأعراف)

الفرق بين السحر وبين المعجزة :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

هذا الثعبان الكبير أكل كل هذه الثعابين التي صنعها السحرة ، التي ما كانت ثعابين حقيقية :

(فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

1 – ليس في الإسلام ضعف :

الحقيقة : يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا يمكن ، بل يستحيل ، وألف ألف ألف مستحيل أن يكون في الدين ضعف يتيح للطرف الآخر أن ينتصر .

(فَوَقَعَ الْحَقُّ)

2 – الله هو الحقّ :

الله عز وجل اسمه الحق ، ولأنه حق فلا بد من أن يحق الحق ، وأنت أيها المؤمن إذا كنت على الحق فلا تخف ، لابد من أن ينصرك الله ، وإذا كنت على باطل فلا بد من أن يخذل ربنا جل جلاله هذا المبطل ، لذلك قالوا : قد تخدع معظم الناس لبعض الوقت ، وقد تخدع بعض الناس لكل الوقت ، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل .

ذكرت البارحة قصة : أن إنسانا في بلد عربي بعيد عن بلدنا ، والحمد لله ، استطاع أن يستورد أغذية ليست صالحة لبني البشر ، هي مصممة للحيوانات ، لكن في مستودع كبير نزع اللصاقة ، ووضع لصاقة أخرى ، فحقق أرباحا كبيرة جداً ، العمال المكلفون بتبديل اللصاقات نسوا علبة واحدة أن يغيروا لصاقتها ، فوصلت إلى الجهات المسؤولة ، فلما وصلت دُمر هذا الإنسان ، هذه جريمة ، والله عز وجل مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يسمح لك أن تغش الناس إلى ما لا نهاية ، تغش الناس إلى حين ، لأنه لا بد من أن يهلك الإنسان عن بينة ، وأن يحيى عن بينة .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هذه هي النتيجة : فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ

(فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

(سورة الأعراف)

مرة ثانية : الحق هو الذي سينتصر ، من آدم إلى يوم القيامة ، ولكن انتصار الحق عمره أطول من أعمار البشر ، أحياناً يأتي رمضان في شهر آب ، إلى أن يأتي مرة ثانية بعد 36 سنة ، لو أن شخصًا عاش عشرين سنة لا يبلغه ، فقد يراه في الصيف ، ولا يسمح له العمر القصير أن يدركه مرة ثانية ، الآن تبدل الحق والباطل بدورة الحق والباطل ، وأحياناً الله عز وجل يجعل أهل الحق هم الأقوياء ، وأحياناً لحكمة بالغة يجعل الطرف الآخر قويًّا ، قال تعالى :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية : 140)

لو كان أهل الحق بيدهم القوة دائماً يظهر النفاق ، وإذا كانت القوة بيد أهل الباطل بشكل مستمر كان اليأس ، الله عز وجل قال :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

نحن جميعاً هكذا ، وشاءت حكمة الله أن نكون في عصر الباطلُ فيه قوي جداً ، معه الإعلام ، معه المال ، معه التحالفات ، معه الأقمار ، يغير الحقائق كما يتمنى ، يوهم الناس بشيء غير صحيح ، يتهم المسلمين بكل التهم ، أنا أرى البطولة الآن أن تصبر ، والبطولة أن تلتزم .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[الترمذي]

الآن أينما تحركت رأيتَ المعاصي على قارعة الطريق ، ففي الطريق نساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، والصحف فيها نساء شبه عاريات ، وكذا في المجلات كذلك ، وفي الإنترنت كذلك ، وفي الفضائيات كذلك ، وفي الجامعة كذلك ، وفي الدوائر كذلك ، كل شيء يدعو إلى المعصية ، حتى لو اشتريت علبة لمسح الحذاء ترى عليها صورة امرأة شبه عارية ، وهذا احتقار للمرأة ، وقد ثارت مظاهرات في العالم الغربي احتجاجًا على هذا الامتهان للمرأة ، فلا تروَّج سلعة إلا بامرأة شبه عارية .

(فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

هؤلاء السحرة الذين أتى بهم فرعون ليدعموه ، ليبطلوا عصا موسى التي أصبحت ثعباناً مبيناً صغروا، هو يفعل شيئاً فيه إيهام ، أوهم الناس أنه ثعبان بأنبوب مطاطي ، طلاءه متقن ، فيه زئبق ، الزئبق معدن رجاج ، على سطح ساخن ، تمدد الزئبق ، وتحرك ، حرك معه الأنبوب ، فتوهم الناس أنه ثعبان ، أما حينما ألقى سيدنا موسى عصاه كانت ثعبانا حقيقيا 100% ، والساحر يعلم أن هذا فوق طاقته ، أن هذا الإنسان ليس ساحراً ، لذلك قالوا :

(إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

(سورة الشعراء)

هو نبي مرسل .

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

(سورة الأعراف)

الخضوع لإرادة الله : وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ

هذا اسمه حرق المراحل ، هناك صحابي صلى ركعتين ، واستشهد ، وبين إسلامه واستشهاده ركعتان فقط ، وهو من أهل الجنة ، حرق المراحل ، هؤلاء سحرة دجالون أفاكون ، جاءوا ليدحضوا معجزة سيدنا موسى ، فإذا هم يرون حقيقة هذا الذي حصل ، هذا ليس سحراً ، ولكنه معجزة ، وهذا الإنسان رسول الله .

مرة صفوان بن أمية جلس مع رجل أُسِر ابنه في غزوة بدر ، فحقد على الإسلام حقداً كثيراً ، في ساعة ألم قال له : " والله يا صفوان ، لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها ، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت منى بعدي ، لذهبت وقتلت محمداً ، وأرحكتم منه " ، صفوان استغلها ، وكان غنيًّا ، قال له : أما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت ، وأما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر ، فاذهب لِما أردتَ، أعطاه الضوء الأخضر ، قلق على أولاده وعلى ديونه ؟ ديونك أنا أدفعها عنك ، بلغت ما بلغت، وأولادك أولادي ما امتد بهم العمر فاذهب لِما أردت ، سقى سيفه سماً ، وركب ناقته ، وتوجه إلى المدينة ، ما الحجة في دخولها ؟ جاء ليفدي ابنه ، ابنه أسير ، فلما وصل إلى المدينة رآه سيدنا عمر ، قال : هذا عدو الله عمير بن وهب ، جاء يريد شراً ، فقيَّده بحمالة سيفه ، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له : هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً ، سيدنا النبي رقيق رفيق ، قال له : دعه يا عمر ، وأطلقه ، قال له : اقترب يا عمير ، فاقترب ، قال له : سلّم علينا ، قال له : عمتَ صباحاً ، قال له : قل: السلام عليكم ، قال له : هذا سلامنا ، بكل غلظة وفظاظة ، قال له : ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال له : جئت أفدي ابني قال له : وهذه السيف التي على عاتقك ؟ قال له : قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال له : ألم تقل لصفوان : لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها ، ولولا أولاد صغار أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمد ، وأرحتكم منه ، قال : أشهد أنك رسول الله ، هذا القول بينه وبين صفوان كان في الفلاة ، ولم يطلع عليه أحد ، قال له : هذا الذي كان بيني وبين صفوان لم يطلع عليه أحد ، وأنت رسول الله ، وتوضأ ، ونطق بالشهادة ، وأسلم .

أما صفوان فكان في غاية الفرح ، لأن أخبارا سارة سوف تأتي ، ما كان يومَها فضائيات ، ووكالات أنباء ، والخبر يتناقل في ثوان ، فكان الناس يذهبون إلى ظاهر المدينة ينتظرون الركبان ، كان كل يوم يخرج إلى ظاهر مكة ، حتى يسمع الخبر السار بقتل محمد ، فجاءه الخبر الذي سحقه ؛ قد أسلم عمير .

هذا ما حدَثَ للسحرة :

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

الحقيقة لمعَتْ أمامهم .

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

كان أصحاب النبي يطعمون الأسرة أطيب الطعام ، ويأكلون أردأه ، الإسلام ما انتشر بسهولة ، انتشر بجهد كبير ، انتشر بالالتزام صارم .

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

أتى بهم فرعون حتى يدعموه ، لكنهم خيَّبوا ظنَّه ، سجدوا لله .

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

والله أيها الإخوة ، حينما تعرف الله ، وتعرف الحقيقة ، وتعرف سر وجودك ، وغاية وجودك ، والله هذا اليوم هو يوم عيد ، والله الذي لا إله إلا هو لا تسخو نفسي أن أقول لإنسان : هنيئاً لك ببيت سيتركه، بزوجة سيغادرها أو تغادره ، الآن كل واحد له زوجة ، فله احتمالان لا ثالث لهما : إما أن يموت قبلها ، وإما أن تموت قبله ، فأحبب من الدنيا ما شئت ، فإنك نفارقها .

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

أنا أقول : هنيئاً لمن عرف الله ، هنيئاً لمن عرف سر وجوده ، هنيئاً لمن عمل للآخرة .

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

(سورة الأعراف)

فرعون اختل توازنه ، هو تزعزع بسيدنا موسى ، لما ألقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبين ، وجمع الناس ، في يوم الزينة ، يوم عيد ، جمع الناس جميعاً ، وكان هناك طرفان : سيدنا موسى والسحرة ، ألقى السحرة عصيهم :

(يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

أما سيدنا موسى فألقى عصاه :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

فرعون اختل توازنه ، هو تلقى ضربة قاسمة ، وهي ضربة ثانية .

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

الآن فرعون لا يخيف ، لكن لو كنتم في عهد فرعون ، فقد يكون الواحد أمام قوي ينهي وجوده ، دائماً القصة يجب أن تعيش أحداثها ، فرعون كان من الأقوياء ، إذا نظر إلى بإنسان يموت من الخوف ، لأن الطاغية مخيف .

الحسن البصري أدى أمانة العلم ، وبيّن الحق ، فقال الحجاج لجلسائه : " يا جبناء ، لأروينكم من دمه"، القضية بسيطة جداً ، أمر بقتله ، وانتهى الأمر ، جاء بالسياف ، السياف جاهز ، مدّ النطع ، مدة لئلا يصاب أثاث الغرفة ، كان الطغاة أو الأقوياء يقتلون خصومهم أمامهم ، ففي قطع الرأس دم ، هذا الدم سيفسد الأثاث الفخم ، فكان هناك رداء كبير جداً يسمى النطع ، فأمر بقتله ، فجاء بالسياف ، وجاء بالنطع ، ومدّه ، أرسل إليه ، وجاءوا به ليقتل ، فلما دخل إلى مجلس الحجاج ، ورأى السياف واقفا ، والنطع قد مُدَّ ، حرّك شفتيه بكلمات ، فإذا بالحجاج يقول له : أهلاً بأبي سعيد ، أنت سيد العلماء ، وما زال يدنيه من مجلسه حتى أجلسه على سريره ، وسأله ، وضيَّفه ، وعطَّره ، وشيّعه إلى باب القصر ، هناك شخصان صعقا ، هما الحاجب والسيّاف ، تبعه الحاجب ، قال له : يا أبا سعيد ! لقد جيء بك لغير ما فعل بك ، فماذا قلت لربك وأنت داخل ؟ قال له : قلت : يا رب ، يا ملاذي عندي عند كربتي ، يا مؤنسي في وحشتي ، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم .

إخواننا الكرام ، الإنسان إذا عرف الله كانت الدنيا لا شيء أمامه .

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

اسمعوا التهديدات :

هذه هي حلولُ المُفلِسِين : لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأعراف)

يقطع يده اليمنى ، ورجله اليسرى .

(ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

بعدها يَصلبهم .

اسمعوا جواب السحرة ، وما رأوا قوته ، ولا رأوا بطشه ، ولا رأوا طغيانه ، ولا رأوا لحياتهم معنًى إذا كانوا أعواناً له .

جواب المؤمن بالله : إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ

(قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

(سورة الأعراف)

القصة وردت في أماكن عديدة ، ففي بعض الأماكن :

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

هذا هو الإيمان ، فلذلك حينما تعرف الله لا ترى شيئاً في الدنيا له قيمة ، بل تصغر الدنيا في عينيك ، وتنتقل من قلبك إلى يديك ، والله الذي لا إله إلا هو إن لم يستوِ عندك التبر والتراب ، وهما الذهب والتراب أمام رضوان الله ففي بالإيمان خلل .

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا

(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا)

هذه آية كبيرة ، قديماً خرق القوانين آية ، وأنا قناعتي أن القوانين نفسها آية ، الشمس آية ، القمر آية ، الماء العذب الفرات آية ، البحر الملح الأجاج آية ، خلق ابنك آية ، بويضة كذرة الملح لا ترى بالعين آية ، ضع لعاباً على إصبعك ، ومس كمية ملح قليلة ، بأقلّ مسٍّ ، لترى طبقة من ذرات الملح ، البويضة إحدى هذه الذرات ، من الصعب أن تتصور حجمها ، والحوين المنوي أصغر منها بكثير ، بويضة ملقحة تصبح بعد تسعة أشهر طفلا له جمجمة ، ودماغ فيه 140 مليار خلية ، و300 ألف شعرة ، وعينان ، وقرنية ، وقزحية ، وجسم بلوري ، وماء زجاجي ، وشبكية ، والعصب البصري ، 900 ألف عصب ، و1500 كيلومتر من الأوعية الدموية ، وقلب يضخ في اليوم 8 أمتار مكعبة ، هذه ليست آية ؟ ابنك آية ، الماء آية ، الشمس آية ، النبات آية ، البقرة آية ، الدجاجة آية .

(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

هذا الشهيد حينما يقتل ، مع أول قطرة دم يضاء نور يملأ السماء والأرض عند استشهاده ، الشهادة شيء كبير جداً ، في رواية أنه قتلهم جميعاً ، لكن دخلوا إلى الجنة ، فيا بُنَي ، ما خير بعده النار بخير ، وما شر بعده الجنة بشر ، وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية .

مهما كنت تملك من ثروات ، إذا انتهت بك الحياة إلى جهنم ـ لا سمح الله ولا قدر ـ فلا قيمة لكل هذه الدنيا ، مهما تكن معذباً في الدنيا ، إذا انتهت بك الحياة إلى الجنة ينبغي أن تقول : لم أرَ شراً قط .

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها ، سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

إذا أوصلنا الله عز وجل إلى القبر طاهرين سالمين فهذا أكبر مكسب يحققه إنسان في الدنيا ، لذلك المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ، ويرى مقامه عند الله يقول : لم أرَ شراً قط ، والآخر حينما يرى مكانه في النار ، يقول : لم أرَ خيراً قط ، وقد يصيح الذي استحق النار صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا.

رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ

(رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

هؤلاء السحرة حرقوا المراحل ، وأنا أعتقد أن بين إيمانهم وموتهم لحظات ، هم استحقوا الجنة ، فكل واحد منا يفكر في المصير ، له عمل طيب ، له موقف .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(36-60): تفسير الآيات 117 - 129 ، تتمة قصة سيدنا موسى مع فرعون والسحرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-04-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السادسة عشرة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

1 – ما هو الإفك ؟

الإفك هو قلب الحقائق ، الإفك هو الكذب .

2 – فرعون إنسان من عدم ويصير إلى عدم :

هم يدعّمون إنساناً ضعيفاً سبقه عدم ، وينتهي إلى عدم ، وهو يدّعي الألوهية ، قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

وقال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

3 – إيهام السحرةِ الناس بسحرهم :

هؤلاء السحرة أرادوا بحيل أن يوهموا الناس أن هذه الأنابيب المطلية على شكل ثعابين ، وقد وضع بها الزئبق ، وقد وضعت فوق سطح ساخن ، فالزئبق تمدد ، وهو معدن رجراج ، وتحركت هذه الأنابيب ليوهموا الناس أنها ثعابين كما فعلوا أمام فرعون .

موسى عليه السلام يبطل بعصاه سحرَ الساحر :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

ثعبان حقيقي ، لذلك هم الآن يكذّبون ، ويقلبون الحقائق .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

سبحان الله ! ثعبان فغر فاه ، والتقم هذه الأنابيب كلها .

إذا أراد الله شيئا هيَّأ له أسبابَه :

هناك درس تلقاه فرعون ، وهو أن الذي أخبره أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على مُلكه الله عز وجل من بديع حكمته أنه يعطل كل الأسباب ، فالطفل الذي سيقضي على ملكه ربّاه في قصره ، وألقى محبته في قلب امرأة فرعون .

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة القصص)

أنت تريد ، وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد .

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

أيها الإخوة ، حينما تعلم علم اليقين أن الله :

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

وأنه :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

وأنه :

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة الآية : 255)

وأنه بيده ملكوت السماوات والأرض ، حينما تؤمن هذا الإيمان تكون قد قطعت شوطاً واسعاً في طريق الإيمان ، هذا كلام يصعب أن يُفهم .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ)

(سورة القصص الآية : 7)

أيتها الأم ، إذا خفتِ على هذا الجنين ، على هذا الطفل الصغير فألقيه من الشرفة ، هذا كلام غريب !

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص الآية : 7)

موت محقّق .

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

هذان أمران ، ونهيان ، وبشارتان :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ)

سوف نحفظه لا إكراماً لك فحسب بل لأن الله أوكله بمهمة الدعوة إليه ، هو في حفظ الله .

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور الآية : 48)

لكن الله عز وجل لحكمة بالغة ينجّي نبيه ، ومع نبيه دعوة ، ودين ، والإسلام كله انتصر بخيوط العنكبوت ، من عظمة الله ، وقد تكون النجاة بأصغر الأسباب ، وأحياناً يدمر الله أعداءه بأتفه الأسباب ، الله عز وجل يقول :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

هذا العبد الفقير ، سأخاطب الشباب ، ومعظم الذين أمامي من الشباب ، أما المتقدمون في السن فهم شباب أيضاً ، لماذا ؟ أنت لمجرد أن تؤمن بالله العظيم فأنت شاب حتى الموت ، أنت شاب في الـ96 ، لأن الهدف كبير ، ومن معاني الشيخوخة حينما تحقق أهدافك المادية تنتهي ، ومعظم الناس همه الأول أن يشتري بيتًا ، وأن يتزوج ، وأن يأكل ، ويشرب ، ويفرح ، فإذا حقق هذه الأهداف انتهى ، إنها حياة مملة ، وكل شيء فيها يُمَلّ ، ولحكمة بالغةٍ ما سمح الله أن يمدك بمتعة مستمرة في الدنيا إطلاقاً ، إنها متعة متناقصة ، وقد تعقبها كآبة ، أما إذا توجهت إلى الله تألقت ، لذلك أنا أخاطب الشباب ، قياساً على هذين الأمرين ، والنهيين ، والبشارتين .

ما مِن آيةٍ تخصّ الأنبياء إلا وللمؤمن نصيب منها :

أريد أن أؤكد لكم أنه ما من آية تخص الأنبياء الكرام ، أو نبينا عليه الصلاة والسلام إلا ولك منها أيها المؤمن نصيب ، أنا أقول للشباب : ما دمت مستقيماً ، ما دمت موحداً ، ما دمت ملتزماً ، ما دمت صادقاً ، ما دمت أميناً ، ما دمت مخلصاً ، ما دمت تطلب العلم فلا تخَف ، مهما ساءت الأخبار ، ومهما

قيل : المستقبل مظلم ، لا ، المستقبل مشرق ، ومهما قيل : إن هناك مؤامرة على المسلمين ، بل على مستوى الأرض ، هذا كلام :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

إن إخوة يوسف أقوياء ، أشداء ، أرادوا له أن يموت ، وضعوه في البئر ، ما الذي حصل ؟ أنه أصبح عزيز مصر ، دخلوا عليه وهم صاغرون .

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا)

(سورة يوسف الآية : 90)

سيدنا موسى ، سيدنا إبراهيم ، فإذا كان الله معك فمن عليك ظ وإذا كان عليك فمن معك ؟ واللهِ عندي قصص واقعية في هذا العصر لا تعد ولا تحصى عن شاب اتقى الله فهيأ له عملا ، وزوجة صالحة ، وبيتا ، وأهلا ، وأولادا أطهارا ، لك عنده حق ، دقق ، هذا الإله العظيم خالق السماوات والأرض أنشأ لك حقاً عليه ، فعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ ، فَقَالَ : يَا مُعَاذُ ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[أخرجه البخاري ومسلم]

لا تقلق ، العالم الغربي ، ينهب ثرواتنا ، ويبيئسّنا بمجاعة عالمية ، ونقص مواد غذائية ، سوف يكون هناك اضطرابات من أجل غلاء الأسعار ، الله موجود ، أنا أدعوكم للكسب ، وللأخذ بالأسباب ، لكن لا تسمح لإنسان بعيد عن الله أن يوقعك في اليأس ، لك عند الله حق .

والله مرة دخل بيتي إنسان ، وقال كلمة والله أعرفها ، وأرددها مئات المرات ، لكنني بكيت منها ، قدمت له قطعة حلوى ، أخذ لقمة أولى منها ، ووضعها في فمه ، وقال : سبحان مَن قسم لنا هذا ، ولا ينسى من فضله أحدا .

وأنتِ أيتها الفتاة المؤمنة المحجبة الطاهرة لا ينساك الله ، إياك أن تتوهمي أن التفلت أحد أسباب زواجك ، قد تتزوجين مع التفلت ، لكن يأتي زوج يريك النجوم ظهراً ، فلا بد من الحجاب والاستقامة والعمل الصالح ، وأن تتعرفي إلى الله عز وجل الذي يقول :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

جنة في الدنيا ، وجنة في الآخرة ، رغم أنف التهديدات بالحصار ، وبالحرب ، وبالضغط .

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

أقول هذا الكلام : إن هناك الآن حالة إحباط عند المسلمين ، العالم كله يهاجمه ، العالم كله يهدده ، وادعاءات ، لكن علاقتنا بالله ، والذي خلقنا لا يسْلمنا إلى أحدٍ ، لأنه إلهنا ، وربنا ، دقق في هذه الآية :

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

عليك أن تطيعه ، وانتظر الخير ، وبعدها اشكره على هذا الخير ، علق أملك بالله ، اتق الله ، اعقد الأمل على الله ، توكل على الله ، عليك أن تستقيم على أمره ، وعلى الله الباقي ، يا رب طالبتني بالطاعة فأنا أطيعك ، طالبتني بضبط اللسان فأنا أضبط لساني ، طالبتني بالصدق فأنا أصدق إن شاء الله ، طالبتني أن أكون أميناً فأنا أمين إن شاء الله ، هذا الذي عليك ، والباقي على الله .

هذا الإيمان يعطي راحة للنفس ، أما القلق ، وسماع التهديدات ، وتارةً الحصار ، وتارةً الهجوم ، وتارةً العزل ، وتارةً نقص مواد ، وتارةً ارتفاع أسعار ، هذه الأخبار فوق طاقتنا ، يجب أن نوحد أنْ لا إله إلا الله .

الإنسان عزيز بمَن ينتمي إليه :

بشكل أو بآخر أنت مع مَن ؟ مع خالق السماوات والأرض ، فقد يكون سائق وزير يمشي بكبرياء ، ولسانه طويل ، ويهدد ، ويتوعد ، وقد يكون موظفًا في الخارجية ، يقول لك : عينًا فلان في الخارجية ، أنت مَن ؟ أنت مستخدم بالوزارة ، يعدّ نفسه جزءا منها ، عينا فلانًا سفيرًا ، مَن أنت ؟ الإنسان ينتمي أو يعتز إلى مَن ينتمي إليه ، أنت كمؤمن أنت مع من ؟ مع خالق السماوات والأرض ، مع الذي منحك نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد .

كن مع الله تـر الله مــعك و اترك الكل وحاذر طمـــعك
وإذا أعطاك مـــن يمنعه ثم من يعطي إذا مـــا منعك

***

أطع أمرنا نرفع لأمرك حجبنا فإننا مــنحنا بالرضا من أحبنا
ولذ بحمـــانا واحتمِ بجنابنا لنحميك ممـــا فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلقَ المــسرة والهنا
وسلم الأمر إلينا في كل ما يكن فما القرب و الإبعاد إلا بأمــرنا
فيا خجلي مـــنه إذا هو قال لي يـــا عبدنا هل قرأت كتابنا
أمـا تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمــعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً و تنظر مـــا به جاء وعدنا

***

الأبيات طويلة ، لكن أيها الإخوة ، المسلمون اليوم في أمسَّ الحاجة إلى التوحيد ، فإنه لا إله إلا الله ، والله كبير ، لذلك كلمة :

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ)

(سورة طه الآية : 72)

من هؤلاء السحرة هل هي قليلة ؟ ماذا رأوا ؟

أحيانا مواطن في دولة نامية يخاف من مُساعد ، قال له : أعطني هويتك ، يخاف ، لكن السحرة خاطبوا فرعون :

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ)

بالتعبير الدمشقي : يدك وما تعطيك .

(إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

الرجوع إلى الله ، وعنده تحتكم الخصومُ :

سمعت قصة تأثرت لها كثيراً ، لعلي رويتها من قبل ، لما ذهبت إلى تركيا أعطوني كتابا فقرأته ، فيه قصة مؤثرة ، هي لعالم جليل من العلماء الورعين الأتقياء العاملين المخلصين ، ألف كتابا صغيرا عن حرمة التشبه بغير المؤمنين ، أخذ الكتاب موافقة على التأليف ، وموافقة على الطبع ، وموافقة على النشر ، وكما تعلمون كمال أتاتورك منع اللباس الإسلامي كلياً ، وأمر باللباس الغربي ، حتى القبعة أمر بنزعها ، فإذا الكتاب في الأسواق ، هذا الكتاب يحرم من تقليد الأجانب ، أُخِذ هذا العالِم وأودع في السجن ، هذا العالم معه منطق ، معه حجة ، أنا ألفت الكتاب سابقاً ، والكتاب مرخص في التأليف ، والطبع ، والنشر ، والتداول ، أين الذنب ؟ بدأ بكتابة مذكرة ، راوي القصة صديقه في السجن ، أنه كتب 80 صفحة ، ومعه أدلة قوية ، أين الذنب ؟ نحن في العالم كله ممنوع أن تعمل القوانين بمفعول رجعي ، وهذا كتاب قديم ، ومؤلف سابقاً ، وله تراخيص ، فأين الذنب ؟ يقول رفيقه في السجن : في أحد الأيام استيقظ هذا الإنسان بحال عجيب ، بحال من السرور والإشراق ، وجهه متهلل ، يكاد يرقص من الفرح ، قال له صديقه : ما القصة ؟ قال له : رأيت رسول الله في النوم ، وقال لي : أنت ضيفنا

غداً، أمسك الأوراق ومزقها ، 80 صفحة ، يصبح بحاجة إليها ، ثاني يوم أُعدم شنقًا ، لكن انظر إلى الحقيقية ، انظر إلى الظاهر .

هؤلاء السحرة قتلوا ثاني يوم ، قتلهم فرعون ، إلى أين ؟ .

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران)

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

المشكلة أن الناس المقصرين يرون الموت أكبر مصيبة ، والله أيها الإخوة قرأت تقريباً ، ودرست سيرة سبعين صحابيًّا ، في هذه السِّيَر كلها قاسم مشترك واحد بينهم جميعاً ، أنهم كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند لقاء ربهم .

وا كربتاه يا أبتِ ، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، غداً نلقى الأحبة محمد وصحبه .

مَن واجه هؤلاء السحرة ؟ لم يواجهوا مساعدا ، واجهوا فرعون :

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

نقطة دقيقة : مرة وزير الدفاع الصهيوني اسمه موشي ديان ، دخل بعض الفدائيين ، وعملوا عملا هز إسرائيل ، فكان في جلسة برلمانية ، فالنواب تهجموا على هذا الوزير ، أين عملك ؟ أين جيشك ؟ قال له كلمة رائعة ، قال : أنا أقصى ما أملك أن أهدد الإنسان بالموت ، بأن أقتله ، فإذا جاء ليموت ماذا أفعل به ؟!

(فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ)

(سورة طه الآية : 71)

جاء الفرج ، وهذا مقصدنا .

(إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

حينما يزهد الإنسان في الدنيا يكون قويا جداً ، وحينما يعلق أمله بالآخرة يصبح إنساناً فذاً .

أيها الإخوة ، لما قال سيدنا موسى : أنا رسول الله ، هذه نسبة كلامية ، تقول : محمد مجتهد ، مجتهد خبر ، محمد مبتدأ ، نسبة كلامية نصية ، أما إذا ذهبت إلى مدرسته ، وسألت عن علامته ، وكان الأول صارت نسبة أخرى واقعية .

فسيدنا موسى قال : أنا رسول الله .

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ

وهذا الثعبان أكل كل سحر السحرة ، وأنابيب الثعابين المتوهمة ، وعرف فرعون أنه إنسان آخر فذ ، لا أنه إنسان طبيعي .

تروى قصة ، أن رجلا يعمل حمَّالاً على حمار ، هذا الحمار مات ، فأصبح بلا دخل إطلاقاً ، هو ذكي جداً ، فخطر في باله فكرة جهنمية ، بنى أربعة أسوار ، وقبة خضراء ، وسمّى هذا الحمار باسم ولي ، سماه الشيخ زنكي ، وجاء الناس ، وتباركوا بهذا الولي ، وقدموا الذبائح ، وقدموا الدجاج ، والسمن ، هذا عاش في بحبوحة تفوق حد الخيال ، أنا أقول : هل هناك قوة في الأرض يمكن أن تقنعه أن الذي دفِن تحت هذه القبة حمار ؟ هو دفنه بيده ، بل قناعته أنه حمار أكبر ممن يحاوره ، لكن المنتفع لا يناقش ، والقوي لا يناقش ، والغبي لا يناقش ، وقد يجتمعون في شخص واحد .

فرعون عرف نفسه إنسانا عاديا ، ويمرض ، ومرة سمعت طبيبا من نيكادو الذي يدعي الألوهية أنه أسلم ، معه في جسمه خمسون علة ، وهو إله ، بزعمه !!! أين الإله ؟ كل إنسان يعرف نفسه .

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

فلذلك تطابق عند السحرة دعوى هذا الإنسان العظيم مع الواقع ، هذه ليست قضية سحر ، إنه ثعبان حقيقي ، أكل كلّ حبالهم وعصيَّهم .

لا يقف الباطلُ أمام الحق : فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

أيها الإخوة ، ما الذي حصل ، قال :

(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

فرعون أوهم الناس أنه إله ، وهو ربهم الأعلى ، وليس لهم مِن إله غيره ، هذا الوهم تتضعضع :

(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الواقع أقوى من الفكر النظري :

لذلك أقوى شيء في الدين أن يكون الدين واقعياً ، الآن يقال : مثاليات ، أحلام ، خيالات ، أما إذا ركل إنسان بقدمه الملايين ، وقبل بدخل محدود ، لكنه نظيف ، وعاش معك ، فهذا أقوى من مليون محاضرة ، دائماً الواقع أقوى من الفكر النظري .

لماذا أحتفل بالقصص ؟ القصة حقيقة مع البرهان عليها ، حقيقة لكن معها برهان ، بل أحتفل بقصة معاصرة بالذات ، لماذا ؟ هذا الذي يعيش معنا ، يتحمل الضغوط التي نتحملها ، وهو واقع تحت قوة الإغراءات التي نقع تحتها ، يستمع إلى الأخبار التي نستمع إليها ، ومع ذلك وضع الدنيا تحت قدمه .

إن أكبر قصة مؤثرة لإنسان يعيش معنا ، واتقى الله ، وركل بقدمه الدنيا من أجل الدين ، فملك الدنيا والدين معاً ، لذلك اعمل لوجه واحد يكفيك الوجوه كلها .

((من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله هم دنياه))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمر]

(فَوَقَعَ الْحَقُّ)

فَوَقَعَ الْحَقُّ : إسقاط على واقعنا اليوم :

والآن أيها الإخوة أنا أسلط هذه القصة على واقعنا ، الحق الآن ظاهر، إذا كان قبل خمسين سنة حق ناصع لونه أبيض ، وباطل داكن لونه أسود ، و بينهما مساحة كبيرة جداً لونها رمادي ، فهذا شيء يحيّر ، حق مع باطل ، باطل مع حق ، بنسب متفاوتة ، الآن عندنا ظاهرة جديدة ، حق أو باطل ، إمّا إنسان ولي أو إباحي ، إمّا أكبر محسن أو أكبر مجرم ، إمّا أكبر صادق أو أكبر كذاب ، إمّا أكبر رحيم أو أكبر مجرم ، العالم انقسم قسمين : قسم يؤمن بالله ، لكنه ضعيف الآن ، وأنت ضعيف ، وهذا سر قوتك ، والقسم الآخر قوي جداً ، معه 90% من ثروات الأرض ، معه الإعلام ، معه المال ، معه كل شيء ، يتكلم كما يشاء ، يوزع التهم على من يشاء ، يتهم من يشاء أنه إرهابي ، هم يفعلون كل شيء ، هذا الواقع الآن ، العالم انقسم قسمين : أناس إنسانيون ، وأناس عنصريون ، أناس مع وحي السماء ، وأناس مع مصالح الأرض ، أناس مع الدنيا ، وأناس مع الآخرة ، أناس صادقون ، وأناس كاذبون ، أناس أمناء ، وأناس خائنون .

المشكلة أيها الإخوة أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال :

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر ؟ قالوا : يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، وأشدُ ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر ، ونهيُتم عن المعروف قالوا : يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، وأشدُّ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكرا والمنكرَ معروفا))

[زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

فرعون صغُر ، دعواه أنه رب الناس ، ربهم الأعلى ، وما من إله غيره سقطت كلها ، لأن السحرة قالوا :

(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ

(فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

(سورة الأعراف)

ودائماً المؤمن قوي ، والآخر ضعيف وصغير ، وسيدنا موسى ما غلب السحرة ، بل غلب مَن يدعم السحرة ، فرعون أمامه ، وفي رواية أن الثعبان بعدما أكل كل ما أمامه مِن أنابيب ، ومن عصِيّ ، ومن حبال ، توجَّه نحو فرعون ، وفغر فاه ، فقطع قلب فرعون ، أين : أنا ربكم الأعلى ؟ هذا الشاعر المشهور الذي ادعى النبوة ، المتنبي ، قال :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

في طريقه من البصرة إلى حلب لحقه عدو ، فهرب منه ، قال له غلامه : ويحك ، ألم تقل : الخيل والليل ؟ فقال له : قتلتني قتلك الله ، ورجع فقاتل حتى قُتِل .

الادعاء سهل :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

تقطع قلبُه من الثعبان :

(فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

لا إله إلا الله .

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

(سورة الأعراف)

روعة تعبير القرآن : وَأُلْقِيَ

دقق في كلمة

(وَأُلْقِيَ)

، كأن شيئاً دفعهم نحو الأرض ، ما هذا الشيء ؟ قال بعض المحللين : إنها دهشتهم ، هم سحرة ، هذا ليس ساحرا ، هذا رسول ! فانبهروا .

أنا أذكر قصة سمعتها قبل أسابيع ، صحفية بريطانية خُطفت ، الذين خطفوها هويتهم إسلامية ، فهي تحقد على الإسلام كثيرا ، وعلى هذا العمل العنيف ، فحينما أسرت تفننت في إحراجهم ، طلبت دخانا

فقدموه لها ، والأكل النادر جاءوا به ، أكرموها تكريما عجيبا ، بل استفزتهم بخلع ملابسها أمامهم ، فغضوا أبصارهم عنها ، و القصة طويلة ، لم تدع شيئاً يستفزهم إلا وفعلته ، وكانوا لها بأعلى درجة من الإكرام ، بحسب تعليمات النبي ، كان الصحابة الكرام يأكلون أردأ الطعام ، ويطعمون أسراهم أطيب الطعام ، الأسير إنسان ، لما أطلق سراحها عقدت مؤتمر صحفياً ، هي انبهرت ، في بذهنها أن هؤلاء إرهابيون ، قتلة ، جهلة ، متخلفون ، رأتهم كالملائكة ، أول كلمة قالتها في المؤتمر الصحفي : أشهد أن لا إله إلا الله أن محمداً رسول الله ، والآن هي أكبر داعية في بريطانيا .

هناك انبهار ، هؤلاء السحرة انبهروا ، ليست قضية سحر ، هذا رسول من الله ، هذا فعل الإله ، فعل الخالق ، دعك من هذا الاستثناء ، دعك من خرق العادات ، هذا الكون ألا توقن أن وراءه إله عظيم ، الشمس آية عظيمة ! عمرها خمسة آلاف مليون سنة ، وستبقى أيضاً خمسة آلاف مليون أخرى ، فاطمئِنوا ، لسان اللهب طوله مليون كيلومتر ، القمر آية ؟ الليل والنهار ، البحار ، الأسماك ، الأطيار ، النبات ، الطعام ، الشراب ، الهواء ، هذه آيات ، والحقيقية كلما تقدم الإنسان فالكون بوضعه الراهن أكبر معجزة ، وقديماً الذي يُظَن معجزة هو خرق النواميس والقوانين ، الكون بوضعه الراهن أكبر معجزة .

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

مَن ألقاهم ؟ انبهارُهم .

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

ماذا قال فرعون ؟

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

حتى لا يتوهم أنهم آمنوا بفرعون قالوا :

(آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

(سورة الأعراف)

موسى أنا ربيته

(رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

يعني ليست أنت يا فرعون ، هذا كلام دقيق جداً :

(آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

سبيل الطغاة عند الشعور بالخطر هو التهديد بالقتل :

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

ماذا عنده فرعون ؟ قال :

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأعراف)

شيء صعب جداً ، يد يمين ، ورجل يسار

(ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

(قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

(سورة الأعراف)

قال فرعون :

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(وَرَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

ما هو ذنبنا ؟ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا

(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

(سورة الأعراف)

ما الذنب الذي ارتكبناه :

(إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا)

فلان ذنبه أنه صادق ، هذا اسمه في اللغة تأكيد المدح بما يشبه الذم .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلولٌ من قراع الكتائب

فلان بخيل إلا أنه لئيم ، هذا تأكيد الذم بما يشبه المديح ، قال النبي عن نفسه :

((أنا أفصح العرب قال ، بيْدَ أني من قريش))

[ورد في الأثر]

قريش أفصح قبيلة ، هذا تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو أسلوب بلاغي قرآني ، قال تعالى :

(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

لابد من الصبر حتى نلقى الله عزوجل :

إخوانا الكرام ، في كلمة : بدأت الحرب بالإنسان ، ثم أصبحت بين آلتين ، ثم بين عقلين ، ثم انتهت بالإنسان ، وهناك كلمة قالها مسئول كبير في دولة كبرى هي قطب العالم اليوم ، قال : ماذا نفعل بحاملات الطائرات ، والصواريخ العابرة للقارات ، لا تجرؤ دولة في العالم أن تحاربهم ، ولكن ماذا نفعل بهذا الإنسان الذي أراد أن يموت ؟ وأن يهز كياننا ؟

كل ما يملك فرعون على السحرة أنه سيقتلهم ، فإذا قُتلوا انقلبوا إلى رحمة الله .

((أعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

(سورة التوبة الآية : 52)

إما الشهادة أو النصر ، وكلاهما شيء رائع جداً ، المؤمن أحد أسباب قوته أنه مؤمن بالآخرة ، مؤمن بحياة أبدية ، مؤمن بجنة عرضها السماوات والأرض أعدها الله له ، لا يعيش للدنيا ، آماله ليست في الدنيا ، بل للآخرة ، هذا أحد أكبر أسباب قوته .

مرة حاكم من التتار أراد أن يذل العلماء ، فجاء بلحم خنزير أمام ملأ كبير ، وجمع الناس ، وأمرهم أن يأكلوا منه ، كل واحد على حسب قوة إيمانه وضعفه ، بعضهم مضطر ، وأكثرهم أكل ، إلا أكبر عالم رفض أن يأكل ، فجاء من يهمس في أذنه ، أن هذا اللحم من أجلك ليس خنزيراً ، كل ولا تخف ، قال له : هو عند الناس خنزير ، فإذا أكلته سقط العلم ، ولم يأكله وقتِل ، وأبقى أملا في الناس .

هناك إنسان يجهر بكلمة الحق ، فتكلم .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ

كلّ منتفع بفكر فرعون يحاسَب حسابَه :

هنا نقطة دقيقة ، كل واحد منتفع بفرعون سيحاسب مثله ، الدليل :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص)

وهؤلاء المنتفعون بقربهم من هارون في مكاسب كبيرة ، فإذا ظهر الحق أنه ليس إلهاً ضاعت مكاسبهم ، لذلك :

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)

(سورة الأعراف)

هم استفزوه ، القوي معه جماعة ، معه من حوله ، هؤلاء جميعاً منتفعون وسيحاسبون طبعاً :

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)

طمأنهم ، لكن الذي حصل .

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا

(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

والآن أيها الإخوة ، والله أتمنى أن تكون هذه الآية في قلوبنا جميعاً :

شعار المؤمنين : اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا

(اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا)

لا تخافوا ، الله موجود ، الله كبير ، بيده كل شيء ، ولن يتخلى عن المؤمنين ، لكن يؤدبنا ، نحن معنا التهاب معدة حاد ، الأمل في الشفاء كبير جداً ، أما الطرف الآخر فمعه ورم خبيث منتشر ، قال له : كل ما شئت ، أما نحن فعلينا تشديد جداً ، كل شِدّة وراءها شَدّة إلى الله ، ومحنة وراءها مِنحة من الله .

إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

هؤلاء صناديد قريش ، الأقوياء ، الأغنياء ، الغارقون في شرب الخمر ، وأكل الربا ، الذين أرادوا قتل النبي ، وأخرجوه من مكة ، مَن تبع النبي ؟ الضعاف ، الشباب الصغار ، الفقراء ، تقول الآن : سيدنا بلال رضي الله عنه ، وتقول : أبو لهب لعنه الله ، أليس كذلك ؟

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد)

كن مع الله ترَ الله معك ، كن مع الله ولا تخَف .

التفسير التوحيدي للمصائب غير مقبول عند الناس :

أيها الإخوة ، عندنا حالة صعبة جداً ، التفسير التوحيدي للمصائب غير مقبول .

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

(سورة الزمر الآية : 45)

(وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا)

(سورة غافر الآية : 12)

(قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

وفي درس آخر إن شاء الله نقف عند هذه الآية ملياً .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(37-60): تفسير الآيتان 130 - 131، تأتي المصائب تأديباً من الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-04-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم ... مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة الأعراف .

نسبة المصائب إلى النعم قليلة لذلك يؤرخ بها :

مع الآية الثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

أيها الأخوة ، السنة هي العام ، والسنوات جمع سنة ، والسنين والسنون جمع آخر ، عندنا جمع مذكر سالم ، وجمع مؤنث سالم ، وجمع تكسير ، لكن هنا السنين المصائب لماذا ؟ السنوات الاعتيادية تتابع ، لكن في يوم خطير يؤرخ به .

التاريخ المعاصر يقول لك : الحادي عشر من أيلول هذا يوم قبله في سياسة ، وبعده في سياسة ، الأصل أن النعم تترا على الإنسان ، لكن المصائب نسبتها إلى النعم قليلة جداً ، إذاً يؤرخ بها ، هذا معنى

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ)

لأن الله عز وجل ثبت وحرّك ، ثبت ملايين ملايين القوانين ، قانون الدوران ، قانون السقوط ، قانون الجاذبية ، قانون التميع ، قانون الانصهار ، ثبت ملايين القوانين ، ثبت حركة الأفلاك ، ثبت خصائص المواد ، ثبت خصائص النفس الإنسانية .

الله عز وجل ثبت بعض القوانين و حرك بعضها لحكمة منه :

طبيب درس بأمريكا ، يعمل بعقد عمل في الخليج ، عنده مريض من الهند ، الدواء صنع الصين ، لولا أن البنية التشريحية للإنسان واحدة ، مكان الشريان ، مكان الوريد مكان العصب ، لولا أن البنية التشريحية للإنسان موحدة ، ولولا أن الوظائف الفيزيولوجية موحدة ما كان في طب أساساً .

لو تتبعنا هذا الأمر ، القلب من أجل أن يجري عملية قلب مفتوح نحتاج إلى أن نوقفه ، نوقفه بالتبريد ، يقف ، نجري هذه العملية ، نرقع شرياناً ، نزرع شرياناً ، نرقع دساماً ، نزرع دساماً ، وننتهي بعد سبع

ساعات ، نعطيه صعقة كهربائية يتحرك ، لو لم يتحرك ، لو أن القلب مصمم أنك إذا بردته لا يتحرك ألغيت عمليات القلب كلها ، لو أن العظم لا يلتئم ألغيت عمليات جبر العظام .

فالإنسان في أصل خلقه يعني :

(فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

عنده صيانة ذاتية ، سمعت بحياتك أن إنساناً كُسر معه عمود في سيارته ، فذهب إلى من يصلحه له قال له : تلتئم وحدها ؟ مستحيل !.

الله عز وجل حرك الصحة والرزق ليكون التأديب عن طريقهما :

إذاً الله ثبت القوانين ، والخصائص ، البذور هي هي ، تزرع جوزاً تحمل جوزاً تزرع فستقاً تحمل فستقاً ، لو أن الحديد يغير خصائصه ، ننشئ بناء ثلاثين طابقاً ، غيّر خصائصه الحديد ، من حالة إلى حالة وقع البناء ، ما الذي يمنحك الأمن ؟ بناء لن يتزعزع ، إلا إذا شاء الله طبعاً ، يوجد قوانين ثابتة ، خصائص المعادن ، خصائص المواد ، خصائص أشباه المعادن ، قوانين الدوران ، قوانين الأفلاك ، قوانين الفيزياء ، قوانين الكيمياء ، قوانين الضوء قوانين الحركة ، كل هذه القوانين ثابتة ، ثبات سرمدي أبدي ، لذلك المحصلة استقرار ، عدننا قوانين ، عندنا مقدمات ، عندنا نتائج .

لكن الله عز وجل لأنه رب العالمين حرك أشياء بحياة الإنسان ، حرك له صحته ، وحرك له رزقه ، فالصحة غير ثابتة ، يكون في أعلى درجات نشاطه تنمو بعض الخلايا نمواً عشوائياً ، انتهت حياته ، فالله عز وجل حرك الصحة وحرك الرزق ، ليكون التأديب عن طريقهما .

التهطال والجفاف يوزع من الله عز وجل على البلاد تربية وتأديباً :

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ)

أمطار غزيرة جداً ، محاصيل وفيرة ، نحن بلدنا الطيب في عنا تقريباً ستة ملايين طن كل سنة ، وحاجتنا إلى مليون طن ، عنا ستة أضعاف حاجتنا ، مع أن المطر الذي يهطل من السماء لا تختلف من عام إلى عام على مستوى الأرض وهذه حقيقة من أدق الحقائق ، بعد وضع مقاييس للمطر في أنحاء العالم لو جمعنا الأمطار التي هطلت في كل البلاد نفاجأ بأنه ما من عام أمطر من عام ، كما قال سيد الأنام :

((ما من عام أمطر من عام))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عباس]

لكن الله يوزع التهطال والجفاف على البلاد تربية وتأديباً ، ودائماً وأبداً تقنين الله عز وجل تقنين تأديب، لا تقنين عجز ، الدليل :

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة الآية : 66)

القرآن الكريم منهج من الله تعالى علينا تطبيق أوامره لا أن نقدسه ظاهرياً فقط :

نحن كمسلمين ولو أننا أقمنا القرآن الكريم ، طبعاً ممكن نقرأه ، ممكن نتبارك به ، ممكن أن نضعه في مقدمة مركبتنا ، أو ممكن أن نضع آيات في صدر محلاتنا :

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

(سورة الفتح)

لكن هذا العرض ، وهذا التقديس الظاهري ، وهذه الطبعات الرائعة الملونة هذه لا تقدم ولا تؤخر ، لأن القرآن منهج .

شخص مريض وزار طبيباً وصف له أدوية ، جاء بهذه الورقة التي عليها خط الطبيب اعتنى بها ، جعل لها برواز ، وعلقها في غرفته ، قال : يا له من طبيب ! أدويته ناجحة جداً لكن ما اشترى الدواء ، ولا استعمله ، العناية بهذه الورقة ، وتغليفها ، ووضع إطار لها ، هل يشفي صاحبها ؟ هذا حال المسلمين اليوم .

القرآن نقرأه ، نضعه في مكان مقدس في بيتنا ، في الصدر ، في مكان مرتفع ، لكن القرآن يجب أن يُعمل به :

((رب تالٍ للقرآن ، والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

الشدائد التي تصيب الإنسان رسائل من الله تعالى ليرجع إليه و يتوب :

إذاً :

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ)

لأن الله رب العالمين ، الله يؤدبنا ، يربينا ، لو أن الناس شردوا عن الله والله تركهم ، لكان معظم الناس من أهل النار ، لكن الله عز وجل يسوق الشدائد ، يضيق على عباده ، يقلل الأمطار .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

هذه الصواعق ، وحديثاً الصواريخ .

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

الزلازل ، وحديثاً الألغام .

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً)

(سورة الأنعام الآية : 65)

الحروب الأهلية .

(وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

الله عز وجل رب العالمين ، يسوق لعباده الشدائد حتى يرجعوا إليه ، حتى يتوبوا إليه ، حتى يصطلحوا معه ، حتى تكون هذه الشدائد رسالة من الله لهم .

اطمئنان المستقيم و خوف الظالم في البلاد العادلة الطيبة :

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ)

أحياناً الإنتاج الزراعي بكم هائل الأسعار تنخفض ، من أسماء الله الحسنى المسعر ، الله هو المسعر ، وأحياناً تقل هذه المحاصيل الأسعار ترتفع .

لذلك دخل مرة على عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي وفد ، تقدمهم غلام صغير فلما رآه غضب ، فتوجه إلى حاجبه وقال : ما شاء أحد أن يدخل عليّ حتى دخل ، حتى الصبيان ! فهذا الصبي الصغير كان فصيحاً ، قال له : أصلح الله الأمير ، إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك ، ولكنه شرفني ، أصابتنا سنة أذابت الشحم ، في عظم ، في لحم ، في شحم أول سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم (بالتعبير الدارج جلدة وعظمة) ، وسنة دقت العظم جفاف ، سنوات عجاف ، وبيدكم فضول أموال ، فإن كانت لعباده فعلامَ تحبسونها عنهم ؟ نحن عباده ، وإن كانت لكم تصدقوا بها علينا ، وإن كانت لنا نحن أحق بها ، فقال هذا الخليفة : والله ما ترك لنا هذا الغلام في واحدة عذراً ، فصاحة ما بعدها فصاحة .

أنا مرة ذكرت غلاماً صغيراً ، رسم منهج دولة ، أطفال في أحد أزقة المدينة يلعبون رأوا سيدنا عمر ، كان ذا هيبة كبيرة ، تفرقوا إلا واحداً منهم ، لفت نظره ، لما وصل إليه قال : أيها الغلام لمَ لم تهرب مع من هرب ؟ قال له : أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك ولست مذنباً فأخشى عقابك ، والطريق يسعني ويسعك .

البلاد الطيبة المباركة يجب أن يطمئن المستقيم ، وأن يخاف المذنب ، فأنت لست ظالماً فأخشى ظلمك ، وأنا لست مذنباً فأخشى عقابك ، والطريق يسعني ويسعك .

أصناف المصائب :

أيها الأخوة الكرام ،

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ)

المصائب يمكن أن تصنف خمسة أصناف ، صنفان للمؤمنين ، وصنفان للعتاة والمجرمين ، وصنف للأنبياء المرسلين ، أما صنفا المصائب التي تصيب المؤمنين مصائب الدفع ، سرعة بطيئة ، في تكاسل، في تواني ، في إهمال ، فتأتي مصيبة تدفعك إلى باب الله ، وأحياناً ترضى بعمل صالح قليل مع أن إمكانياتك أن تعمل عملاً صالحاً كبيراً ، المصائب الأولى مصائب دفع ، أما الثانية رفع ، فالله عز وجل يسوق للمؤمنين بعض المصائب ليدفعهم إلى بابه ، أو ليرفع مستوى أعمالهم الصالحة ، الآية قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

لأن الله يحبنا ، لأن الله يريد أن يرحمنا ، لأن الله يريد أن يتوب علينا ، لأن الله يريد أن يطهرنا ، لأن الله خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، يريد أن يؤهلنا إليها ، يسوق لنا هذه المصائب .

((وعزتي وجلالي لا أقبض نفس عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو اقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، أو خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت ، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

تتابع المصائب على المؤمن من أجل تطهيره :

أقسم لكم بالله أن المؤمن الذي تأتيه المصائب متتابعة من أجل تطهيره معنى ذلك أن الله يحبه . كنت مرة بتركيا بمتحف توبي كبي ، في ألماسة بحجم البيضة ، قالوا : إن ثمنها يزيد عن 150 مليون دولار ، القصة من عشرين سنة ، الآن أغلى بكثير ، 150 مليون ، والألماس أصله فحم ، لو أتينا

بفحمة بحجم هذه الألماسة كم هذه ثمنها ؟ ليرة ما في ، والألماس أصله فحم من شدة الضغط أصبح ألماساً ، الآن في ألماس صناعي ، فحم مضغوط يسمونه زيركون ، فالفحم على الضغط الشديد ، وعلى المعالجة الشديدة ، وعلى الحرارة الشديدة ، صار ألماساً .

وأنت أيها المؤمن كلما أخطأت يأتي التأديب ، أحد إخوانا عنده معمل ألبسة متواضع ، أخ كريم علم أن عنده معمل ألبسة ، قال نشتري من عنده على العيد ، عنده أولاد ودخله محدود قال له : أريد لهذا الولد، انزعج صاحب المعمل ، يبيع جمله هو ، يبيع مئتي دزينة ، ثلاثمئة دزينة كيف قطعة قطعتين ؟! قال له: أنا لا أبيع مفرق ، قال له : لا تؤاخذني بكل أدب انسحب ، أقسم لي بالله : 33 يوماً ما دخل لمعمله إنسان ، تكبرت أن تبيعه ؟ قطعة واحدة أو قطعتين ؟ بعد هذا الدرس يبيع قطعة واحدة ، وبكل احترام ، الله يؤدب .

كلمة غلط ، كلمة قاسية ، يؤدب ، إنسان خبير بالكمبيوتر للمعامل ، القصة طويلة لكن ملخصها طلب سعراً من معمل ، ضغط عليه كثيراً ، قال له : هذا سعري ، أنا ما لي بحاجة لك ، أنت بحاجة لي ، تحب سأعمل ، أقسم بالله العادة ساعة ، ساعتين ، يوم ، أول يوم ثماني ساعات ما بيّن معه الخلل ، ثاني يوم ثماني ساعات ، ثالث يوم ، رابع يوم ، خامس يوم ، سادس يوم ، سابع يوم ، ثامن يوم ، قام وقف ، طلب إجازة يوم ، راجع نفسه ، أين الخطأ ؟ تذكر أنه قال له : أنا ما لي بحاجة لك ، أنت بحاجة لي ، فاستغفر الله ، ودفع صدقة ، وباليوم العاشر ربع ساعة حلت القضية .

بطولة الإنسان أن يكون له مكانة عند الله عز وجل :

الله يؤدب ، لو أنك تفهم على الله الكلمة الغلط وراءها في تأديب ، تصرف غلط في تأديب ، ابتسامة بغير محلها في تأديب ، استخفاف بإنسان في تأديب ، الله كبير ، فالله يربينا فالمربى غالي ، يصير ألماساً ، متواضعاً ، أديباً ، واقعياً ، أحكامه موضوعية ، ما فيها شطح ، ما فيها مبالغة ، يقدم واجباته بالتمام والكمال ، يرعى حق الصغير ، يحترم الكبير ، يحترم الفقير .

زرت مرة بيت أحد إخوانا توفي رحمه الله ، غرفة الضيوف عنده ما مرّ معي غرفة صغيرة جداً ، كراسي ، والمسافات الفارغة قليلة جداً ، خجل ، قلت له : تخجل ! سيد الخلق وحبيب الحق كانت غرفته لا تتسع لصلاته ونوم زوجته ، ومن أنت ؟ ارتاح سبحان الله .

ألقيت محاضرة بحي فقير جداً ، ذكرت أثراً للنبي الكريم ، دخل أحد الصحابة وقف له قال له : أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه ، هو فقير جداً الصحابي ، قال له : أومثلي ؟! قال له : نعم يا أخي ، خامل في الأرض علم في السماء .

يا إخوان ! بطولتك أن يكون لك مكانة عند الله .

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر]

والرفعة عند الله بيدك ، باستقامتك ، بإخلاصك ، بصدقك ، بأمانتك ، بتواضعك ، بخدمة الخلق .

بطولة الإنسان أن يعرف ربه في الرخاء قبل الشدة :

أيها الأخوة ،

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ)

لماذا ؟ هنا السؤال ،

(لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

يعني يوجد ماء بأرضك ، حفرت بئراً في ماء ، لكن أحياناً يغور هذا الماء ، يا رب أمطرنا ، يكون بيدك أسباب ، بين يديك ، أنت مرتاح ، عندك بيت ، عندك مركبة ، كله ميسر ، لكن أحياناً هذه الأسباب التي بين يديك تختفي فتبحث عن مسبب الأسباب .

أحياناً الإنسان يكون غارقاً بالنعم ، لكن ينسى أن يعزوها إلى الله ، لكن بساعة من ساعات الغفلة يفتقد بعض النعم .

والله أيها الأخوة ، صديق صديقي درس في فرنسا ، اختصاص نادر ، وتعين ببلدنا بمرتبة عالية جداً دون وزير بقليل ، وبيت بأرقى أحياء دمشق ، ومركبة ، وشباب ، وهو شاب وسيم ، أموره كلها كما تمنى ، فقد بصره ، راعوه شهر ، يرسلون له البريد إلى البيت ، وموظف كبير يقرأ له المعاملة ، يقول له موافق ، لست موافقاً ، بعدها سرحوه ، زاره مرة صديقي ، قال له : والله أتمنى أن أتسول في الطريق وليس في ملكي إلا هذا المعطف ، وأن يرد الله لي بصري .

يكون في أسباب بين يديك ، تفقد واحدة تتذكر الله عز وجل ، ليتك تذكره والدنيا بين يديك ، ليتك تذكره وأنت معافى ، وأنت شاب ، وقوي ، المشكلة نحن جميعاً من دون استثناء عند الشدة نذكره .

من أغرب ما سمعت في بلاد عاشت سبعين سنة ترفع شعار لا إله فقط ، نحن لا إله إلا الله ، هم لا إله، ملحدون ، في عدد من خبراء هذا البلد ملحدون أيضاً ، كانوا على متن طائرة ، دخلت هذه الطائرة في سحابة مكهربة ، فاضطربت اضطراباً شديداً كانت على وشك السقوط يقسم لي أحد الركاب ، كان في طريقه من دمشق إلى موسكو ، يقسم لي بالله أن هؤلاء الخبراء الملحدين رفعوا أيديهم إلى السماء ، ودعوا ربهم ، راكب طائرة مرتاح واضطربت ، يا رب ، ما في غيرك .

ما في مانع الإنسان عند الشدة يقول يا رب ، لكن البطل يقول يا رب وهو قوي وهو صحيح ، وهو غني ، وهو في ريعان الشباب ، لا يوجد عنده ولا مشكلة ، كل شخص عند الشدة ما له إلا الله عز وجل، لكن البطولة أن تعرفه في الرخاء .

ورد في بعض الآثار :

((ابن آدم اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة))

من عزا المصائب التأديبية من الله إلى الدين فهذا شأن إبليس :

أيها الأخوة ،

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

الآن :

(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

هذا شأن الغافل عن الله ، كل إمكانياته إيجابية يقول : أنا درست ، تعبت ، بنيت نفسي ، تحديت الزمن، انتصرت على واقعي المر ، بذلت جهوداً جبارة ، دربت نفسي على العطاء ، كل ما عنده معه شهادة علمية عالية ، أو تجارة رائجة ، أو عنده زوجة وأولاد ، بتعبي ، وكدي ، وعرق جبيني ، الله عز وجل يرسل له مصيبة ، لماذا الخيرات كلها تنسبها إلى ذاتك ، وإذا الله عز وجل أدبك تأديباً بسيطاً تعد تدينك سبب هذه المشكلة ؟ هذا موقف غير صحيح .

(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ)

هذا جهدي .

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص الآية : 78)

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ)

لو ما كنت بهذا السلوك هذه المشكلة لم تأتِ ، لأنني كنت ملتزماً فجاءتني هذه المشكلة ، معقول أن تعزو المصائب التأديبية من الله إلى تدينك ؟ هذا شأن إبليس .

(أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ)

معنى

(يَطَّيَّرُوا)

العرب في الجاهلية من جهلهم يمسك أحدهم طيراً ، ثم يحفزه ، فإن طار عن يمينه معنى ذلك هذا المشروع جيد ، ويقدم عليه ، وإن طار عن شماله هذا المشروع سيئ ويبتعد عنه ، كلام مضحك ، غير علمي ، ما له معنى إطلاقاً ، هذا اسمه التطير ، يعني التشاؤم ، إن طار عن يمينه يتفاءل ، وإن طار عن شماله يتشاءم .

كل أنواع التشاؤم لا أصل له و لكن الله يعاقب كل إنسان على عمله :

الآن في خرافات لا يعلمها إلا الله ، رقمه 13 يتشاءم ، اليوم الأربعاء يتشاءم ، لا طيرة ، ولا هامة ، كل أنواع التشاؤم خرافات ، أخذ صفقة ، قبل التوقيع دخل إنسان يقول لك فقست ، قدمه شؤم ، غير صحيح هذا الكلام ، ارتكب معصية كبيرة فعاقبه الله عقاباً كبيراً ، يقول من الزوجة قدمها نحس ، لا غير صحيح هذا الكلام ، هذه كلمات الجهلاء ، خيرك منك ، لا من زوجتك ، وشرك منك ، لا من رقم محلك ، كل أنواع التشاؤم ما لها أصل أبداً ، لا يوجد إلا الله عز وجل .

(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ)

كل الخير الذي هو فيه يعزوه إلى ذكائه ، وخبرته ، وجهده ، واجتهاده ، ودأبه ، فإن جاءت مشكلة يعزوها إلى تدينه ، لو ما كنت هكذا ما كان صار معي هذا الشيء ، سألوا عني طلعت مستقيماً ، ملتزماً، لا يريدون ملتزماً .

من عزا أخطاءه إلى السحر و الشعوذة فهو إنسان جاهل و لو كان مثقفاً :

(أَلَا إِنَّمَا مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ)

ما في إلا الله ، ويعاملك على عملك ،

(أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

فالله عز وجل قال :

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة الآية : 102)

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

في آية أوضح من هذه الآية ؟

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

هذه آية ثانية :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الإسراء الآية : 65)

والله أيها الأخوة ، مع الأسف الشديد مثقفون ، ومثقفات ، يعزون أخطاءهم إلى السحر والشعوذة ، هذا موقف ،

(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ)

نستحقها بجهدنا ، وتعبنا ، وعرق جبيننا ، ودأبنا ،

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ)

بما قدمت أيديهم ،

(يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ)

يعني أحياناً يكون ابن صالح جداً ينصح والده بعمل خيري ، الآن أي مشكلة تأتي إلى هذا البيت أنت ورطتني ، لو لم تنصحني ما كان صار معنا شيء ، ينتظروه على واحدة أي مشكلة تأتي بسبب نصيحتك ، تورطنا ، هذا خطأ كبير ،

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ)

ما في إلا الله ، لا إله إلا الله ، لا معطي ، ولا مانع ، ولا خافض ، ولا رافع ، ولا معز ، ولا مذل إلا الله ،

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

الفعل فعل الله والاختيار اختيار الإنسان :

تروي الروايات أن الأمطار في عهد سيدنا موسى حبست أمداً طويلاً ، فخرج مع قومه للاستسقاء ، فدعوا ربهم كثيراً ولم يمطروا ، كان كليم الله ، ناجى ربه ، فسمع من الله أن فيكم عاصياً ، فقال سيدنا موسى لأصحابه : من كان عاصياً لله فليغادرنا ، ما أحد غادر والأمطار انهمرت كأفواه القرب ، سيدنا موسى سأل ربه ، قال له : يا رب من هذا العاصي ؟ الذي كان عاصياً ، ورد في بعض الروايات عجبت لك يا موسى أستره وهو عاصٍ وأفضحه وهو تائب ؟.

إخوانا الكرام :

((الخير بيدي ، والشر بيدي ، فطوبى لمن قدرت على يده الخير ، والويل لمن قدرت على يده الشر))

[ورد في الأثر]

الفعل فعل الله ، والاختيار اختيار الإنسان ، الإنسان يختار الله عز وجل يقلب اختياره إلى فعل ، فالفاعل هو الله ، أما العمل يقيّم من خلالك ، أنت الذي اخترته .

أفعال الإنسان من كسبه و الله عز وجل لا يجبر أحداً على فعله :

لذلك :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة)

يعني الله عز وجل لا يجبر أحداً على فعله ، ولو أجبر الناس على أفعالهم لما أجبرهم إلا على الهدى ، ولكن أفعال الإنسان من كسبه .

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة الآية : 286)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(38-60): تفسير الآيات 133 - 136
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-05-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة الأعراف .

تكبر وعناد الكفار في قبول الحق :

مع الآية الثانية والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى في سياق سيدنا موسى مع فرعون والسحرة :

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

هذا اسمه العناد في قبول الحق ، هذا اسمه التأبي ، معصية التأبي ، والعناد ، والكبر والرفض ، من أكبر المعاصي ، الشيطان ، قال :

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف الآية : 12)

أبى أن يسجد .

(أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

(سورة البقرة)

عدم سجوده بدافع الكبر ، ودافع التأبي ، ودافع العناد .

الفرق بين معصية العناد و معصية الغلبة :

أما سيدنا آدم أكل من الشجرة قال :

(فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

(سورة طه)

الفرق كبير جداً بين معصية العناد والتأبي والكبر ، وبين معصية الغلبة .

لذلك ورد في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام : أن شارب خمر لعنه بعض الصحابة فقال عليه الصلاة والسلام : لا تلعنوه إنه يحب الله ورسوله .

مغلوب على أمره ، يعني هذا درس لنا ، قد تجد إنساناً عاصياً لكن يبكي في الليل من معصيته ، يتألم أشد الألم ، يذوب خجلاً من الله عز وجل ، في ساعة غفلة غلبته شهوته ، هذه معصية ، ولكن صاحبها أقرب إلى الله ألف مرة من إنسان يعصي الله كبراً وإباءً واستعلاءً .

أشد الناس صمماً من يرفض الاستماع لهذا الدين العظيم :

لذلك قال علماء القلوب : ربما معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ، هنا في استهزاء ، أين الاستهزاء ؟

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ)

هي عندهم ليست بآية ، هي عندهم نوع من السحر ، والدليل :

(لِتَسْحَرَنَا بِهَا)

قالوا كلمة آية استهزاءً ، يعني على حدّ زعمك ، أنت تدعي أن معك آيات ، مهما تأتي به من آية لتسحرنا بها

(فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

لذلك قال بعض الحكماء : لم أجد أشدّ صمماً من الذي يريد ألا يسمع ، في إنسان له موقف ، وبالمناسبة: هل تعتقد أن إنساناً عاقلاً تأتيه رسالة يمزقها ولا يقرأها ؟ اقرأها ، مزقها بعد قراءتها ، يتأبى أن يقرأها ، في حالات كثيرة ، يرفض أن يستمع إلى شريط ، يرفض أن يأتي إلى مسجد ، يرفض أن يتابع حديثاً عن الله عز وجل ، ما دام الحديث في الدنيا جالس ، فإذا ما جعلت موضوع الحديث عن الآخرة ، وعن هذا الدين العظيم اعتذر .

من انطوى على واحد بالمليون من الخير أسمعه الله الحق :

أذكر مرة التقيت مع مندوب شركة ، حدثناه بكلمات معدودة عن خالق السماوات والأرض ، لم يسمح لنا أن نتابع الحديث ، قال : هذه الموضوعات لا تهمني أبداً ، ولا أعبأ بها ولا ألقي لها بالاً ، أنا يعنيني في الحياة كلها امرأة جميلة ، ومركبة فارهة ، وبيت كبير ، فقط أغلق ، بحياتي ما تذوقت الآية الكريمة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

ما فيهم خير ، أنا أطمئنكم ، إذا شخص ينطوي على واحد بالمليون من الخير الله عز وجل يسمعه الحق ، الدليل :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

أما إذا أسمعهم وهم رافضون للحق :

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

هؤلاء النماذج لا تعبأ بهم ، لا تهتم بهم ، لا تلقي لهم بالاً ، مرةً كنت في بلد بعيد في استراليا ، كنت على الهواء في برنامج إذاعي ، فجاء سؤال ، هو في الحقيقة ليس بسؤال ، تعليق خبيث جداً أن هذا الدين الإسلامي دين القتل ، ودين الجهل ، ودين الإرهاب ، ودين الجريمة ومتى قيل هذا الكلام ؟ قبل نهاية البرنامج بدقيقة ، فقلت له : هذه التهم الكبيرة التي ذكرتها نحتاج إلى تفنيدها ساعات ، ولكن أجيبك إجابة مختصرة موجزة ، ما ضرّ السحاب نبح الكلاب ، وما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلام بحجر، ولو تحول الناس إلى كناسين ليثيروا الغبار على هذا الدين ما أثاروه إلا على أنفسهم ،

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

من أراد أن يُقوِّد الإسلام خذله الله و زاد الإسلام قوة :

أيها الأخوة ، هذه النماذج موجودة ، لا تعبأ بها .

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)

(سورة الأعلى)

لا تلقي الحكمة لغير أهلها فتظلمها ، ولا تمنعها أهلها فتظلمهم ،

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)

هؤلاء دعك منهم ،

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

هذا الذي رسم رسوماً أراد تشويه سمعة النبي عليه الصلاة والسلام ، والله الذي لا إله إلا هو يعني أريد أن أرسم لكم حقيقته ، إنسان بأعلى درجات الغباء ، وأعلى درجات الحمق ، وأعلى درجات المحدودية ، توهم أنه ببصقة واحدة يطفئ الشمس ، لسان اللهب طوله مليون كم ، الحرارة هناك في مركز الشمس عشرون مليون درجة ، حرارة سطحها ستة آلاف درجة ، توهم أنه ببصقة واحدة يطفئ الشمس ، فتوجه نحو الشمس وهي في كبد السماء ، وجعل وجهه موازياً لقبة السماء وبكل عزم أخرج من فمه بصقة ارتفعت ثلاثين سم ثم ارتدت إلى وجهه ، وبين وجهه وبين الشمس 156 مليون كم .

إله عظيم ، نبي كريم ، دين قويم ، قرآن كريم ، هذه ثوابت ، لولا أن هذا الإسلام دين الله لانتهى من ألف عام ، هذا الإسلام كلما أردت أن تقوضه يزداد قوة .

أكبر خطأ يرتكبه الإنسان أن يكون في خندق معادٍ لهذا الدين :

دخلت مرة إلى متحف في بلد إسلامي ، رأيت ساعة قد ثبتت على التاسعة والخمس دقائق ، سألت ، حكم هذا البلد في مطلع عصر النهضة إنسان أراد إلغاء الإسلام ، لغى الحرف العربي كلياً ، منع ارتداء الزي الإسلامي ، أراد أن يقطع كل صلة بين هذا البلد وبين الإسلام أراده بلداً غربياً ، إباحياً ، متفلتاً ، فلما رأيت أن هذا الإنسان قد مات ، وأن الإسلام في هذا البلد في أعلى درجات القوة ، قلت سبحان الله! يأتي إنسان أحياناً ليلغي الإسلام ، هكذا قلت بالضبط فيغطس والإسلام باقٍ إلى يوم القيامة ، ما ضرّ السحاب نبح الكلاب ، وما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلام بحجر ، ولو تحول الناس إلى كناسين ليثيروا الغبار على هذا الدين ما أثاروه إلا على أنفسهم .

لذلك صناديد قريش ، زعماء قريش ، أغنياء قريش ، أقوياء قريش ، الذين دانت لهم الجزيرة العربية، أين هم الآن ؟ في مزبلة التاريخ ، والشباب الضعاف ، سيدنا بلال عبد حبشي سيدنا صهيب ، هؤلاء الصحابة الضعاف الفقراء ، الذين وقفوا مع النبي أين هم الآن ؟ في أعلى عليين ، في لوحة الشرف عند الله عز وجل .

لذلك أكبر خطأ يرتكبه الإنسان أن يكون في خندق معادٍ لهذا الدين .

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر الآية : 51)

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

خلاص العالم في الإسلام إن أحسن المسلمون فهمه و تطبيقه :

أقول لكم أيها الأخوة : لا تقلقوا على هذا الدين إنه دين الله ، ولكن اقلقوا ما إذا سمح الله لكم أو لم يسمح أن تكونوا جنوداً له ، ولا تقلق على هذا الدين ، ولو كان الباطل قوياً ، لكن الخطورة أن ينفرد الباطل بالساحة ، لو في بقعة ضوء صغيرة هذه تتنامى .

أيها الأخوة ، حرب عالمية ثالثة معلنة على الإسلام ، لكن الإسلام ينمو نمواً عجيباً أينما ذهبت ، الخلاص في الإسلام ، حتى إن بعض المفكرين الكبار الذي هداه الله إلى الإسلام قال : أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما ، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين ، لا لأنهم أقوياء ولكن لأن خلاص العالم

في الإسلام ، لكن الشرط أن نحسن فهم هذا الدين ، وأن نحسن تطبيق هذا الدين ، وأن نحسن عرض هذا الدين .

سخرية آل فرعون من موسى و قومه :

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ)

كلمة آية ؛ من قبلهم نوع من السخرية ،

(و مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ)

على حدّ زعمك ،

(لِتَسْحَرَنَا بِهَا)

لأنك ساحر ، ألم يروا السحرة المحترفين ؟ أولم يروا كبار السحرة ؟ أو لم يروا هؤلاء السحرة الذين وعدهم فرعون بعطاء جزيل ، وتقريب شديد كيف خروا لله ساجدين ؟.

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

(سورة الأعراف)

وكيف أنهم قالوا لفرعون ، وما أدراكم ما فرعون :

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

(سورة الأعراف)

الكافر علينا ألا نلقي له بالاً لأنه يبحث عن المكاسب فقط :

أولم يروا هؤلاء السحرة المحترفين كيف خضعوا لرب العالمين ؟ لكن الكافر لا يعترف ،

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

هذا موقف معاند مثل هذا النموذج لا تلقي له بالاً ، ولا تعبأ به ، لأنه يبحث عن مكاسب ، لا عن الحقائق يعني لا بد من شرح :

قصة أرويها كثيراً : شخص يعمل على حمار لنقل حاجات الناس ، ليس له في الدنيا إلا هذا الحمار ، مات الحمار ، انقطع رزقه فجأة ، دفنه في مكان ، وأنشأ فوق قبره أربعة جدران وقبة خضراء وعمل على النافذة شموع ، وسماه اسم ولي كبير ، وأوهم الناس أنه ولي كبير فجاء الناس من أطراف البلاد ، يتبركون بهذا الولي ، ويقدمون له الأضاحي ، والحاجات الثمينة فهذا عاش ببحبوحة أنسته كل أيام الفقر، عاش بحبوحة لا توصف ، هل بإمكانك أن تقنعه أن تحت هذا البناء حمار مدفون ؟ يخرج

بروحك ، مع أن قناعته أن تحت هذا المكان مدفون حمار أكبر من قناعتك أنت ، لأنه دفنه بيده .

لكن المنتفع لا يناقش ، خذوها قاعدة ، المنتفع بفكر معين لا يناقش ، والذي يناقشه يعد أحمقاً ، والقوي لا يناقش ، والغبي لا يناقش ، وقد يجتمعون بواحد ، لا تحاور مثل هذا الإنسان ، منتفع ، هذا منتفع بهذه الفكرة التي روجها بين الناس ، المنتفع لا يناقش ، والقوي لا يناقش ، والغبي لا يناقش ، وقد يجتمعون بواحد ، لذلك مثل هذا الإنسان دعه ، لا تلقي له بالاً لا تلتفت إليه ،

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

من آمن بالله أم لم يؤمن به حكم الله نافذ فيه :

أيها الأخوة الكرام ، لو مثلت الدين بقوانين مادية ، قانون السقوط ، المظلي لماذا يصل إلى الأرض سالماً ؟ لأنه تأدب مع قوانين السقوط ، نزل بمظلة ، والمظلة مساحتها كبيرة جداً ، وقماشها أصم ، من أجل أن تقاوم الهواء ، فإذا قاومت الهواء نزلت بسرعة معتدلة إلى أن يصل إلى الأرض ، فإذا إنسان قال أنا هذا القانون لا أعتد به ، ولا أؤمن به ، هذا دجل ، هذا كذب ، هذا قانون من مخلفات الماضي ، وسأنزل بلا مظلة ـ دقق ـ هل يستطيع هذا الإنسان الأحمق أن يوقف عمل القانون به ؟ ينزل ميتاً ، أنت سواء آمنت بهذا القانون أو لم تؤمن حكمه نافذ فيك ، فكرة دقيقة جداً ، سواء آمنت بهذا أم لم تؤمن به سيان ، حكم هذا القانون نافذ فيك أمنت به أو لم تؤمن .

من عرف الحقيقة بعد فوات الأوان خسر الدنيا و الآخرة :

لذلك :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

رفض الدين ، إذا رفضت الدين هل ستموت أم لا ؟ هناك موت ، هناك قبر ، هناك حساب ، لكن بين أن تصحو قبل فوات الأوان ، وبين أن تصحو بعد فوات الأوان ، أن تصحو بعد فوات الأوان خسارة ما بعدها خسارة .

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

متى عرف الحقيقة ؟ بعد فوات الأوان .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

الناس على اختلاف نحلهم و مللهم يقرون بما جاء به الأنبياء بعد فوات الأوان :

أخوانا الكرام ، صدقوا ، على الأرض يوجد ستة آلاف مليون إنسان ، هؤلاء جميعاً على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وأديانهم ، ومذاهبهم ، وطوائفهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، هؤلاء جميعاً عند الموت يقرون بما جاء به الأنبياء ، ولكن بعد فوات الأوان .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر)

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

من يكشف الحقيقة عند الموت يصيبه ندم لو وزع على أهل بلد لكفاهم :

أيها الأخوة ، لئلا نعرف الحقيقة بعد فوات الأوان ينبغي أن نعرفها الآن قبل فوات الأوان ، هذا كلام الله ، هذا كلام خالق السماوات والأرض :

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام خاطب قتلى الكفار في بدر ، واحداً واحداً بأسمائهم يا فلان ، يا فلان، يا عتبة بن ربيعة ، واحداً واحداً :

((أليسَ قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقّا ، فإني قد وجدتُ ما وَعَدني رَبي حقّا ؟ فسمعَ عمرُ بن الخطَّاب قولَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسولَ الله ، كيف يَسمعونَ ؟ أو أنَّى يُجيبون ، وقد جَيّفُوا ؟ قال : والذي نَفسي بيدِهِ ، ما أنتُم بأسمعَ لما أقولُ منهم ، ولكنهم لا يَقْدرُونَ أن يُجيبوا))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك]

والله أيها الأخوة ، الإنسان حينما يكشف الحقيقة عند الموت يصيبه ندم لو وزع على أهل بلد لكفاهم ، والله يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا .

أنا أعرف إنساناً كان تاجراً متألقاً جداً ، لكن بعيد عن الدين بعد الأرض عن السماء غارق في كل المعاصي والآثام ، أصابه مرض في الدم ، ظنه مرضاً عارضاً ، لكن بعد أشهر علم أنه مرض خبيث، فأصبحت تأتيه موجات هستيرية ، يقول لا أريد أن أموت ، تأتيه نوبة ، إلى أن وافته المنية ، يقسم لي

أحد جيرانه وهو في الطابق الرابع أنه عندما جاءه ملك الموت صاح صيحة ما بقي في البناء كله واحد إلا وسمعها ، يصعق الإنسان .

المؤمن حينما يرى مقامه في الجنة ينسى كل متاعبه :

لذلك المؤمن حينما يرى مقامه في الجنة ، يقول : لم أرَ شراً قط ، لا بد من فكرة : العز بن عبد السلام، هذا العالم الكبير ، الذي قال عنه الظاهر بيبرس : والله ما استقر ملكي حتى مات العز بن عبد السلام ، هذا له فتوى معينة من الصعب تطبيقها ، فجاء من تعنيهم هذه الفتوى ليقتلوه ، طرقوا بابه ، أمراء كبار ، أمراء المماليك ، أقوياء جداً ، طرقوا بابه فتح ابنه عبد اللطيف الباب فهم كل شيء ، أبوه مقتول لا محالة ، فانطلق إليه خائفاً ، وقال : يا أبتِ انجُ بنفسك ، بكى العز بن عبد السلام ، قال : والله يا بني ، أبوك أحقر من أن يموت في سبيل الله ، ما هذا المقام ؟! نزل إليهم ، وقعت من أيديهم السيوف لهيبته ، وباعهم ، هم عبيد كانوا ، وباعهم في السوق .

النتيجة مرّ معي حديث ، في الآثار القدسية :

((وعزتي وجلالي (دققوا في الحديث) لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها ، سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت ، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

يا ترى الله يسمح لنا أن نعاني ما نعاني في الدنيا ، ولكن بشرط إذا وصلنا إلى شفير القبر أن نكون أصحاء عند الله ، شيء ليس سهلاً ، وعدنا الله بجنة عرضها السماوات والأرض فإذا كان الله عز وجل عالجنا في الدنيا ، في ضائقة أحياناً ، في جفاف ، في غلاء أسعار ، في حرب عالمية ثالثة معلنة علينا، نحن قصرنا كثيراً ، غفلنا كثيراً ، هان أمر الله علينا كثيراً ، لم نرعَ حق بعضنا بعضاً ، لم نؤدِ العبادات كما أرادها الله عز وجل ، لم نقف الموقف الكامل في كل أحوالنا ، إذاً الله يعالجنا ، هل يتألم الإنسان ؟ نحن إن شاء الله في العناية المشددة ، نحن كإنسان معه التهاب معدة حاد ، شفاؤه مضمون لكن يحتاج إلى حمية صعبة جداً ، أفضل ألف مرة من إنسان معه ورم خبيث ، منتشر في كل أنحاء جسمه ، والطبيب سمح له أن يأكل شيء ، لأنه ميؤوس منه .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية : 44)

من رحمة الله عز وجل بعباده ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين :

أيها الأخوة الكرام ،

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

من رحمة الله بالمعاندين :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

يعني تقتضي رحمته ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، قال :

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ)

(سورة الأعراف)

وصل الماء إلى أفواههم ، فإذا جلسوا غرقوا ، الماء رحمة ، وأحياناً نقمة

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ)

أكل كل شيء ،

(وَالْقُمَّلَ)

غير القَمل ،

(الْقُمَّلَ)

حشرة تصيب النباتات ، أتلفت كل نباتاتهم ،

(وَالضَّفَادِعَ)

في أي مكان ضفادع ،

(وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ)

لكن الحكمة أن هذه المصائب لم تكن عامة ، على قوم فرعون خاصة ، وبنو إسرائيل نجوا منها ، أحياناً تجد زلزالاً ، دمر كل شيء إلا مسجداً ، ومعهداً شرعياً ، آية .

بعض المحطات الإخبارية عرضت هذه الصورة في إزميت بلد الزلزال في تركيا كل المساحة الكاملة للزلزال ركام ، إلا جامع مع مئذنته الطويلة ، والمعهد الشرعي لم يصب بأذى ، هذه الصورة تركت أثراً في العالم كبير جداً .

المصيبة تصيب أناساً و تترك آخرين لحكمة أرادها الله تعالى :

إخوانا الكرام ، المصيبة حينما تأتي ، حينما تعم البشر جميعاً ، لم تعد مصيبة ذات معنى ، أما حينما تأتي تصيب أناساً ، وتبتعد عن أناسٍ صار في معنى .

مثلاً هبت عاصفة هوجاء ، أتلفت ألف بيت زراعي ، يعني معظم الناس رأوا أن الصالحين سلمت بيوتهم ، منطقة جفت آبارهم ، في مزرعة واحدة كانت تستقبل الرعاة ليسقوا أغنامهم من هذه المزرعة، هي الوحيدة لم يجف بئرها ، يعني الله عز وجل يعلمنا ، أن هذا الإنسان استقام ، مرة جاءت موجة جراد ، أحرقت كل شيء القصة من خمسين سنة في الشام ما بقي شيء ، لحاء الشجر أكلوه ، رجل وقور توفي رحمه الله ، دخل إلى بستان كالجنة ، أين الجراد ؟! شيء يلفت النظر ، فجاء بكمية جراد كبيرة بكيس ، وأطلقه في البستان ، خلال ثواني تطاير وغادر البستان ، قيل له : ماذا تفعل أنت حتى نجا بستانك من الجراد ؟ فأجاب : عندي دواء ، قيل له : ما الدواء ؟ قال : أنا أزكي عن مالي .

((ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

الفرق الشاسع بين المؤمن و غير المؤمن :

لما تأتي مصيبة تصيب أناساً ، وينجو منها آخرون معنى هذا أن هناك مغزى ، فهذا الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، أصابت قوم فرعون ونجا منها بنو إسرائيل كانوا مع سيدنا موسى ، لما نجوا منها فهم فرعون ومن حوله أن هذا الإنسان نبي مرسل .

مرة حدثني طبيب ، قال لي : جاءنا مريض معه ورم خبيث منتشر في كل أنحاء جسمه ، قال لي : عجيب لهذا المريض ! كلما دخلنا عليه يقول : اشهد لمن زاره أنني راض عن الله ، يا رب لك الحمد ، قال لي : إذا قرع الجرس يتدافع الممرضون لخدمته ، الأطباء كذلك ، قال لي : أمضينا أسبوعين كأن هذه الغرفة فيها جنة ، مريض ورم خبيث ! لا صاح ، ولا تشكى بالعكس منير ، راضٍ عن الله ، قال لي : عجيب ، ترك أثراً بالمستشفى ، حتى الذين دينهم ضعيف اعتقدوا بالإسلام ، ما هذا الإيمان ، ما شكا ، آلام لا يحتمل ، ما رفع صوته ، يا رب لك الحمد ، كلما زاره إنسان يقول له : اشهد أنني راض عن الله ، يا رب لك الحمد ، ثم توفاه الله .

قال لي : لحكمة بالغة بالغة بالغةٍ جاءنا مريض معه المرض نفسه ، ورم خبيث منتشر في كل أمعائه ، ما ترك نبي إلا وسبه ، يسب الدين ، يسب الأنبياء ، يقرع الجرس لا يلبيه أحد ، غرفة موحشة ،

مظلمة ، مخيفة ، ومات ، الله أطلع أهل المستشفى على مريضين بالمرض نفسه ، الآلام نفسها ، لكن المؤمن صابر ، والثاني كافر .

نجاة المؤمن من المصائب التي يرسلها الله :

أيها الأخوة ، الله أرسل مصائب ، لكن هذه المصائب نجا منها المؤمنون ، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

تجد شخصاً يعاني من أمراض نفسية ، عنده عقد ، عنده يأس ، عنده إحباط ، يتهم كل إنسان ، يشكو من كل شيء ، تجلس مع مؤمن بالبلد نفسه ، بالظرف نفسه ، بالصعوبات نفسها ، بالضغوط نفسها ، بالتقشف نفسه ، بالحرمان نفسه ، راضٍ عن الله ، ما قصته هذا الثاني ؟ مسرور راضٍ عن الله ، متفائل، واثق بالله عز وجل ، الفرق بين المؤمن وغير المؤمن فرق كبير كثير ، إياكم أن تتوهموا أن الفرق بالصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، البنية النفسية مختلفة ، يرى أن الله يعمل وحده ، علاقته بالله عز وجل ، الله خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض .

مرة قال لي شخص أراد أن ينتقض كلاماً أقوله دائماً : إن المؤمن سعيد بالدنيا ، قال لي : كيف سعيد ؟ والله لا يختلف عن غيره إطلاقاً ، هكذا أقسم بالله ، وأنا بجلسة فيها أربعين خمسين شخصاً ، قلت له : إذا شخص عنده ثمانية أولاد ، ودخله أربعة آلاف ليرة ، لا يكفوه أربعة أيام ، وبيته بالأجرة ، وعليه دعوى إخلاء ، ومريض ، كيف وضعه هذا ؟ قال لي : صعب جداً ، قلت له : عنده عم ما عنده أولاد ، ومالك خمسمئة مليون ليرة ، ومات بحادث فجأة ، الخمسمئة مليون لمن ؟ لهذا الفقير ، وريثه الوحيد هو ، لكن حتى قبض المبلغ خلال سنة ، وثائق ، وبراءات ذمة ، ومعاملة معقدة ، ومعاملة المواريث ، لماذا في هذا العام قبل أن يقبض قرشاً واحداً هو أسعد الناس ، ما قبض شيئاً ، لكن صار معه خمسمئة مليون ، دخل بالوعد ، موعود بخمسمئة مليون ، كلما رأى سيارة فارهة جداً سأشتري مثل هذه السيارة، وكلما رأى بيتاً رائعاً سأشتري مثل هذا البيت ، الله قال :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

من أسباب سعادة المؤمن وعده بالجنة

وهذا الوعد يمتص كل متاعب الدنيا :

المؤمن لأن الله وعده بالجنة ، وعده بجنة عرضها السماوات والأرض .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

(سورة فصلت)

لأن الله وعده هذا الوعد فهو راضٍ عن الله ، وهذا الوعد بالجنة يمتص كل متاعب الدنيا ، واضح تمام؟.

فلذلك أحد أسباب سعادة المؤمن وعده بالجنة ، وأمرك مع الله والله رحيم ، وعادل وحكيم ، لا يتخلى عنك ، هو يدافع عنك ، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا ربي ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ .

علاقة الإنسان مع الله تعالى لأن بيده كل شيء :

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

(سورة الأعراف)

سيدنا موسى اجتهد لما خرج من البحر ، يا رب أرجعه بحراً لئلا يلحقنا ، فالله عز وجل حكيم ، أبقاه طريقاً يبساً حتى أغرى فرعون أن يتبع موسى ، فلما أغراه وتبعه ، ووصل إلى منتصف البحر رجع البحر بحراً ،

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

الله هو القوي ، والناس كلهم في قبضته ، والأقوياء في قبضته ، والطغاة في قبضته لكن الطغاة عصي بيد الله ، علاقتك ليست معهم ، ولكن مع من يملكهم وهو الله ، هذا معنى قوله أحد الأنبياء الكرام سيدنا هود :

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(39-60): تفسير الآيات 134 - 137
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-05-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة الأعراف .

الشدائد التي يسوقها الله عز وجل لعباده من أجل أن يدفعهم إلى بابه :

مع الآية الرابعة والثلاثين بعد المئة ، الآية الكريمة :

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة الأعراف)

الله عز وجل هو الخبير ، خبير بنفوس عباده ، شريحة كبيرة ، وقسم كبير من عباده لا يقوده إلى الحق، يبيح الحق ، بل قد يقوده إلى الحق ، وإلى الإنابة ، وإلى التوبة ، شدة تصيبه ويبدو أن الله سبحانه وتعالى هذا أسلوبه في كل أنواع الشدائد ، من أجل أن يسوقهم إلى بابه فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

فحينما ابتلاهم الله بالقمل ، والدم ، والضفادع ، هذه المسائل الكبيرة ، وحينما نجا منها بنو إسرائيل شيء واضح ، لو أن هذا البلاء عمّ الكل ، لما كان له معنى ، أما حينما ينجو المؤمن ، معنى ذلك أن هذا تأديب من الله .

عدم معاملة المسيء كالمحسن :

الآن نستخدم هذه الفكرة بواقعنا ، أنت حينما ترى إنساناً مستقيماً ، يعيش حياة طيبة راضية ، متوازن، راضٍ عن الله ، سعيد ، موفق ، سعيد في بيته ، في عمله ، له سمعة طيبة أتمّ الله عليه الصحة ، له ما يكفيه ، تجد إنساناً آخر منحرفاً ، من مشكلة إلى مشكلة ، من مطب إلى طب ، من مصيبة إلى مصيبة ، من ضجر إلى ضجر ، من إحباط إلى إحباط ، شيء واضح جداً ، اعمل موازنة بين هذا وذاك ،

تكتشف الحقيقة ، والدليل الله عز وجل أعاننا على هذه الموازنة قال :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

أي من سابع المستحيلات أن يُعامل المحسن كالمسيء ، المستقيم كالمنحرف ، الصادق كالكاذب ، العفيف كالإباحي ، المنصف كالجاحد ، مستحيل .

الهدى يرفع الإنسان و الضلال يرديه :

هناك أدلة صارخة في كل عصر ، وفي كل مصر ، المستقيم ناجح ، المستقيم سعيد ، المستقيم متوازن، المستقيم موفق ، المستقيم مسدد ، المستقيم راضٍ ، المستقيم متألق ، والمنحرف من مشكلة إلى مشكلة.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 5)

الهدى رفعهم .

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الأحقاف)

الضلال أرداهم إما في كآبة ، أو في إحباط ، أو في سجن ، الآية لها إسقاطات كبيرة جداً ، فرعون ، الطاغية الأكبر ، الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

حينما رأى نفسه محاطاً بمصائب تلوى مصائب ، وكوارث تلوى كوارث ، ومحن تلوى محن ، وسيدنا موسى وأتباعه في منجاة منها ، شيء واضح تمام .

مرة ثانية : حينما يأتي زلزل ، ويدمر كل شيء ، في بلد مجاور ، وينشر الإعلام الغربي صورة في مركز الزلزال لمسجد بمئذنته الشامخة ، والمعهد الشرعي الذي إلى جانب المسجد ، لم يتأثر بالزلزال ، مع أنه اسأل المهندس : البناء ذي القاعدة الضيقة ، والامتداد الطويل يجب أن يقع أول بناء ، إشارة هذه، أنا سميتها رسالة من الله .

المؤمن يقوى بالله و يستمد منه الحكمة :

أيها الأخوة ، لما وقع عليهم المصاب الذي أصابهم به ، الآن

(قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ)

في إله عندهم ، فرعون رب ، إله فرعون عندهم ، رأوا أن الإله فرعون ليس فعالاً ليس بيده شيء ، لكن إله موسى هو الفعال .

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

أنت لاحظ المؤمن معه قوة كبيرة ، معه الدعاء ، معه القدرة الإلهية ، معه العلم الإلهي ، معه الحكمة الإلهية ، معه الرحمة الإلهية ، في مؤمن ضعيف لكن يستعين بالله .

طفل صغير إذا أبوه أغنى الأغنياء نقول هذا الطفل غني بغنى أبيه ، إذا أبوه قوي جداً يحتل منصباً رفيعاً جداً ، هذا الطفل الصغير يشعر بقيمته بين أقرانه أبي فلان .

فالمؤمن يتقوى بالله ، يستغني بالله ، يعلم بالله ، يستمد من ربه الحكمة ، فأنت قوي بالله ، عليم بالله ، حكيم بالله ، كبير عند الله ، فهذا الدرس بليغ لنا جميعاً .

الله مصدر الجمال فإذا مُنح الإنسان منه الرضا كان أسعد الناس :

الآن آيتين :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية : 124)

لا يمكن أن تجد على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إنساناً سعيداً وهو معرض عن الله ، غني يوجد ، بيت أربعمئة متر يوجد ، مركبة ثمنها اثنتي عشرة مليوناً موجودة ، كل شيء موجود ، أفخر طعام ، أفخر مركبة ، أفخر أثاث ، لكن لا يوجد سعادة ،

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

إياكم أن تفهموا أن معيشة الضنك الفقر ، لا أبداً ، وإياكم أن تفهموا أيضاً أن الحياة الطيبة هي الغنى ، لا أبداً ، قد تكون أسعد الناس بدخل محدود ، وقد تكون أسعد الناس بأصغر بيت ، وقد تكون أسعد الناس بأخشن طعام ، لأن الله مصدر الجمال ، فإذا منحك منه الرضا كنت أسعد الناس .

من كان مع الله كان الله معه :

لن أبالغ إذا قلت الآن ، وقد تكون في المنفردة وأنت أسعد الناس ، لأن يونس عليه السلام كان في بطن الحوت :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

إبراهيم كان في النار ، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كان في الغار .

((فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدَمْيه أبْصَرَنَا تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ، يعني أنت أيها الأخ ، كن ما شئت ، كن أفقر إنسان ، كن أضعف إنسان ، في التعتيم ، كن بأي صفة تريدها ، إذا كنت مع الله كان الله معك ، وإذا كنت مع الله ناصرك ، وإذا كنت مع الله مدافعاً عنك ، وإذا كنت مع الله كان اتصالك بالله مسعداً .

أي إنسان أحياناً يقيم علاقة لطيفة مع شخص قوي ، يشعر بزهو ، يشعر بأمن أنه أنا معي رقم هاتفه ، بأي لحظة أتصل به ، إذا كان شخص مع الله ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ،

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

(سورة طه)

من التزم منهج الله عز وجل عامله الله معاملة تختلف عن معاملة الإنسان الفاسق :

أيها الأخوة ، لأن هذه المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومه معاً ، ونجا منها بني إسرائيل ، أصبح درساً واضحاً ، فتأكد أيها المؤمن مليار بالمئة أنك إذا كنت مع الله شعرت بالقوة ، وشعرت بالأمن ، وشعرت أن الله لا ينساك ، ولا يتخلى عنك ، وأنت بهذه المعية قوي وموفق ، ومنتصر ، ومتفوق ، وأنت الفالح ، وأنت الناجح ، اسمعوا الآيات :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

شاب مؤمن يخاف من الله ، يغض بصره عن محارم الله ، لا يكذب ، يصدق ، يحسن ، بار بوالديه ، وفيٌّ لإخوانه ، ملتزم بمنهج الله ، يتقيد بالشرع ، يخاف أن يعصي الله ، هذا الشاب هل يعقل أن يعامل في الدنيا كما يعامل الفاسق ـ دققوا ـ أنا قلت في الدنيا ، بالآخرة شيء بديهي ، في الدنيا ، الدليل :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

يعني صحته ، زواجه ، زوجته ، أولاده ، بيته ، عمله ، حتى في نزهاته ، له نزهات خاصة ، نظيفة ، رائعة ، متواضعة لكن نظيفة ، اختلاط لا يوجد ، انحراف لا يوجد .

الفرق بين المؤمن و غير المؤمن ليس بالصلاة و الصيام و إنما بالتصورات و القيم :

أيها الأخوة ، أكاد أقول أحد أكبر أسباب الإيمان بالله أن ترى حياة المؤمن ، وحياة غير المؤمن ، في آية دقيقة جداً :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق)

أين التتمة ؟ عجيبة الآية ،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

يعني هذا الإنسان انظر إلى بيته ، انظر إلى مزاحه ، انظر إلى كلامه ، انظر إلى مواعيده ، انظر إلى إتقان عمله ، تراه متفلتاً ، مقصراً ، متجاوزاً ، ظالماً ، مهملاً .

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

(سورة العلق)

أكاد أقول لكم أكبر ما يدعم المؤمنين سلوك غير المؤمنين ، الصنعة البديهة ، صادق كاذب ، عنده حياء وخجل ، عنده تفلت ووقاحة ، أمين خائن ، رحيم قاسٍ ، إن لم يكن هناك فرق صارخ بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن ، الإيمان ليس له معنى ، فرق ليس بالصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، لا ، فرق بالسلوك ، فرق بالتصورات ، فرق بالمبادئ ، فرق بالقيم ، فرق بكل شيء .

من ترك منهج الله و سنة نبيه هزمه الله تعالى بالرعب :

لذلك :

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ)

أين فرعون ؟ أين ألوهية فرعون ؟ أين ؟.

(ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

بلاء لا يرفع إلا بالصلح مع الله ، والإنابة إليه ، والآن كلام مؤلم المسلمين في بلاء شديد ، في ضغوط فوق طاقتهم ، في مستقبل لا يرضي أبداً .

((يوشكُ الأُمَمُ أنْ تَدَاعَى عليكم كما تَدَاعَى الأكَلَةُ إلى قصْعَتِها (الآن شيء واقع) فقال قائل : من قِلَّة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير))

[أخرجه أبو داود عن ثوبان]

مليار وخمسمئة مليون .

((ولكنَّكم غُثاء كَغُثَاءِ السَّيْلِ))

[أخرجه أبو داود عن ثوبان]

ما في وزن .

((ولَيَنْزِعَنَّ الله مِنْ صدور عدوِّكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ في قُلوبكم الوَهْنَ ، قيل : وما الوْهنُ يا رسول الله ؟ قال : حُبُّ الدُّنيا ، وكراهيَةُ الموتِ))

[أخرجه أبو داود عن ثوبان]

والله كأنه معنا الآن ، كأنه يعيش معنا ،

((حُبُّ الدُّنيا ، وكراهيَةُ الموتِ))

ليس لنا هيبة إطلاقاً ، قال عليه الصلاة والسلام :

((نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهر))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله]

أمته حينما تركت سنته من بعده ، هُزمت في الرعب مسيرة عام .

كل شيء يأتي بالقسر لا قيمة له إطلاقاً :

إذاً المفارقة أن هذا البلاء نزل على فرعون وقومه ، ولم ينزل على سيدنا موسى والذين آمنوا معه ، هذه المفارقة هي رسالة من الله .

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

(سورة الأعراف)

والإنسان حينما لا يؤمن الإيمان الصحيح ، حينما لا يبحث عن ربه بحثاً ملياً ، حينما يؤمن تحت الضغط ، إذا رفع الضغط يعود كما كان .

(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

(سورة الأنعام)

كل شيء يأتي بالقسر لا قيمة له ، إنسان وهو معافى ، صحيح ، شاب في مقتبل حياته تعرف إلى الله ، حضر مجالس علم ، أتى إلى بيوت الله ، تعلم القرآن ، قرأ القرآن ، تعلم السنة ، حفظها ، طبقها ، غض بصره عن محارم الله ، حلل دخله من كل شبهة ، أنت حينما تفعل هذا تكون في طريق الإيمان ، إذاً أنت في حماية الرحمن .

الآن إذا أتت شدة لا تتغير ، ولا تتبدل ، اسمعوا هذه الآية :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

(سورة الأحزاب)

من عاهد الله و رسوله في السراء و الضراء لا يتغير :

ثم يقول الله عز وجل :

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

عاهدنا رسول الله في السراء وفي الضراء ، صدقوا ، أقول لكم هذا الكلام : باستقامته ، وطاعته ، ومحبته ، وإقباله ، لا يتأثر لا قبل الزواج ، ولا بعد الزواج ، ولا قبل الغنى ، ولا بعد الغنى ، ولا قبل المرض ، ولا بعد المرض ، ولا قبل التألق ، ولا بعد التألق لا يتغير .

دخل عليه الصلاة والسلام مكة مطأطئ الرأس ، حتى كادت ذؤابة عمامته أن تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل .

المصائب لا تصيب إلا من يستحقها :

إذاً المصائب لا تأتي بشكل جماعي ، لا تصيب إلا من يستحقها ، الدليل :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

أوضح فكرة أن سيدنا يونس وجد نفسه في بطن حوت بالمعايير الواقعية ، الأمل بالنجاة كم ؟ لأن الحوت وجبته المعتدلة أربعة طن ، فسيدنا يونس لقمة واحدة ، في ظلمة الليل وفي ظلمة البحر ، وفي ظلمة بطن الحوت ، حالة نادرة جداً ، حالة شبه مستحيلة ، الحالة الأمل فيها صفر ، صفر مكعب ،

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

إذاً قانون ، أنت مؤمن ، بأي مكان ، بأي زمان ، بأي عصر ، بأي مصر ، بأي بلد ، بأي مدينة ، غني ، فقير ، شحيح ، مريض ، قوي ، ضعيف ، صغير ، كبير ، أبداً هذه الآية لك :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

لكل شيء حقيقة :

لذلك :

كن عن همومك معرضـا وكل الهموم إلى القضـا

وابشر بخـــير عاجل تنسى به مــا قد مضى

فلرب أمر مسخط فـــي عواقبه رضـــــا

*** * ***

ولربما ضــاق المضيق ولربما اتسع الفضـــا

الله يفعل مـــا يشاء فلا تكن متعرضـــا

الله عودك الـــجميل فقف على ما قد مضى

*** * ***

دقق ، لو أن هذه المصائب التي ألمت بفرعون وقومه أصابت سيدنا موسى وأتباعه ما قال فرعون هذا الكلام ، في فرق ، العوام لهم كلام ما له معنى ، بل بعيد عن الحكمة ، لأن البلاء يعم ، لا ، البلاء خاص ، والرحمة خاصة ، ما معنى ؟

(تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ)

(سورة الفيل)

يعني كل حجر عليه اسم من سيصيبه ، لذلك لا يوجد بالقاموس الإسلامي رصاصة طائشة ، هذه بالمفهوم الدنيوي ، أما بالتوحيد لا يوجد شيء طائش ، الدليل :

((لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه))

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

((فلا تَقُل : لو أنِّي فعلتُ لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاءَ فعَل ، فإن لو تفتحُ عَمَلَ الشيطان))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

الإيمان الذي يأتي تحت الشدة لا قيمة له :

الآن نستنبط ، والله الذي لا إله إلا هو لو تفرغ أحدنا ، وتتبع أحوال من حوله الذي أنفق على أهله ، وكان باراً بوالديه ، وكان محسناً لأبناء رحمه أغناه الله ، والذي عفا عن الحرام قبل الزواج رزقه الله زوجة صالحة ، تسره إن نظر إليها ، وتحفظه إذا غاب عنها ، وتطيعه إن أمرها ، ولود ودود ، والذي له تجارب قبل الزواج ، له خبرات مع النساء قبل الزواج يأتي زواجه كقطعة من العذاب ، الزوجة ما في حل وسط ، إما أنها إحدى حسنات الدنيا ، أو إنها إحدى المصائب التي يسوقها الله إلى بعض عباده.

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

لأن الإيمان الذي يأتي تحت الشدة لا قيمة له ، ما دام في شدة ، في إيمان ، رفعت الشدة زال الإيمان ، كالذين ركبوا السفينة ، فلما أوشكت على الغرق دعوا الله مخلصين ، فلما نجاهم إلى البر

(إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

شيء طبيعي ، لا تعبأ بإيمان جاءك عن طريق الشدة ، اعبأ بإيمان وأنت صحيح شاب ، معافى ، ما في عندك ولا مشكلة ، تعرفت إلى الله .

أنا معجب إعجاباً كبيراً بشاب ما عنده مشكلة ، متفوق في دروسه ، صحته طيبة ، له مكانة عند أهله ، التزم بدرس علم ، تتبع أمر الله ، قرأ القرآن ، درس ما فيه ، انتظم بمنهج الله ، ائتمر بما أمر الله ، وانتهى عما عنه نهى الله ، هذا الشاب بدايته محرقة بالاستقامة ، له نهاية مشرقة ، من كانت له بداية محرقة ، كانت له نهاية مشرقة ، أما كل شيء يأتي تحت الضغط ، والجبر ، والإكراه ، ما دام في ضغط ، في التزام ، يزول هذا الضغط ، يعود الإنسان إلى ما كان عليه .

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

(سورة الأعراف)

العاصي بعد زوال الشدة عنه يعود إلى ما كان عليه :

شخص راكب مركبته ، في أحد شوارع دمشق ، وقف عند الإشارة في الحجاز ، إذ بأزمة قلبية تصيبه، فانكفأ على مقود السيارة ، وزوجته إلى جانبه ، فصرخت ، ومن حكم الله أن صديقه وراءه

صدفة ، فحمله إلى مركبته ، وأخذه إلى المستشفى ، وضعوه بالعناية المشددة أيقن أنه على وشك مغادرة الدنيا ، فطلب مسجلة ، وشريطاً ، وقال ، هو كان أخ أكبر واغتصب أموال كل الأخوة الصغار، البيت الفلاني لأخي فلان ، والمحل الفلاني لأخي ، والأرض الفلانية لأخي ، بعد أن اغتصب كل الثروة ، وقعوا على وكالة عامة ، واغتصب كل أموالهم ، أعطاهم النذر اليسير ، واغتصب كل هذه الأموال ، حينما كان في العناية المشددة ، شعر أنه على وشك المغادرة ، طلب آلة تسجيل مع كاسيت ، مع شريط ، بعد عدة يوم أعطوه مميعاً للدم ، شعر بنشاط طلب الشريط وكسره ، جاءته الثانية بعد ثمانية أشهر ، وكانت القاضية ، اعتبروا ، جاءته الثانية بعد ثمانية أشهر ، وكانت القاضية ، الله أعطاه رسالة ، لكن الله عز وجل يبعث رسالة واحدة وليس مئة رسالة ، بعث رسالة ، لو أنه تاب ، تاب الله عليه .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

على الشدة آمنوا ، على الرخاء انتكثوا ،

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

نظرت إلى القانون ؟

(فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)

وذكرت لكم أن سيدنا موسى تمنى على الله أن يرجع البحر بحراً ، لئلا يتبعهم فرعون ، وتصور أن يبقى فرعون في الضفة الأخرى يبقى عندئذٍ فرعون ، أما الله عز وجل أبقى البحر طريقاً يبساً حتى أغرى فرعون أن يهبط إليه .

استدراج الإنسان المنحرف الضال المعتمد على قوته من قِبل الله عز وجل :

الله عز وجل يستدرج الإنسان مهما يكون ذكياً ، مع الله لا يوجد ذكي ، يؤتى الحذر من مأمنه ، يستدرج الإنسان المنحرف الضال ، العاصي ، وهو في قمة ذكائه ، وفي بعض الأدعية : " واجعل تدميره في تدبيره " يجمع ، يطرح ، يقسم ، يخطط ، يعمل عمل نهايته في هذا العمل ، " اجعل تدميرهم في تدبيرهم " ، مع الله لا يوجد ذكي .

أحياناً يكون إنسان مختص باختصاص نادر جداً ، عنده وهم أنه لن يصاب بمرض من اختصاصه ، معظم الذين يعتدون بأموالهم ، يصابون بمصائب لا تحل بالمال .

شخص قال : الدارهم مراهم ، هذه ليست آية ولا حديث ، الدراهم مراهم ، تحل بها أية مشكلة ، أقسم لي بالله بقي في المنفردة أربعة و ستين يوماً وبلا سبب ، بلا سبب مقنع ، وبلا تهمة ظاهرة ، وفي هذه

الأيام الـ64 يأتي خاطر في اليوم عشرة مرات ، الدراهم مراهم ؟ تفضل حلها .

إياك أن تعتمد على مالك ، ولا على قوتك ، ولا على جاهك ، ولا على صحتك ، قال شخص : أنا لن أموت بسرعة ، سألوه : قال : أنا وزني خفيف ، رشيق ، أكلي معتدل ، كل طعامي صحي ، أمشي كل يوم ، وما عندي هموم ، روحي مرحه ، وكلامه علمي صحيح ، هذا الكلام المفروض يعيش مئة سنة ، قال السبت ، السبت الثاني كان تحت التراب .

إياك أن تعتد بشيء ، لا بصحتك ، ولا بعلمك ، ولا بمالك ، ولا تقول ابني ، قد يذهب إلى بلاد بعيدة ، ويتجنس ، ويمنّ عليك باتصال بالسنة مرة ، وضعت كل ما تملك من أجله لا تعلق على أحد أملاً .

((لو كنتُ متخذا من أمَّتي خليلا لاتَّخذتُ أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي))

[أخرجه البخاري عن عبد الله بن عباس]

العاقل من اعتمد عليه في كل أموره :

علق أملك بالله ، وثقتك بالله ، ولا تخاف إلا الله ، الشرك الجلي أن تخاف مما سوى الله ، وأن تطيع ما سوى الله ، وأن تتأمل ما عند غير الله ، هذا الشرك الجلي .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

لا يوجد ذكي عند الله عز وجل ، وغطرسة القتل عنده شيء ممتع ، هذه السنة الثالثة والنصف ، ولم يمت بعد ، وأمد الله في عمره ، والله كبير ، أغنى الأغنياء في بريطانيا ، كان يقرض الدولة ، خزانته للمال غرفة فدخل إلى الخزانة ، وأغلق الباب خطأ ، وصاح ، لم يسمعه أحد ، إلى أن مات جوعاً ، فجرح يده وكتب على الحائط أغنى إنسان يموت جوعاً .

التيتانك ، الباخرة التي كما قيل عنها لا يستطيع القدر إغراقها ، غرقت في أول رحلة .

المركبة المتحدي في أول رحلة بعد سبعين ثانية أصبحت كرة من اللهب ، والثانية بعد عشر سنوات كولومبيا ، في العودة أصبحت كرة من اللهب .

لا تقل أنا ، لا تعتمد لا على مالك ، ولا على علمك ، ولا على قوتك ، اعتمد على الله .

الصحابة الكرام هم نخبة البشر ، لقول البشر :

((إن الله تبارك وتعالى اختارني واختار بي أصحابا))

[أخرجه الحاكم عن عويم بن ساعدة]

بحنين قالوا :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عبس]

اعتمدوا لا على نصر الله لهم ، قضية داخلية ، غير معلنة ، اعتمدوا على عددهم قال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

من قال أنا تخلى الله عنه و من قال الله تولاه الله برحمته :

أيها الأخوة ، درسان بليغان جداً ، إذا قلت أنا تخلى الله عنك ، وإذا قلت الله تولاك ملخص الملخص ، تقول أنا بعلمي ، باختصاصي ، بمالي .

إنسان جمع أموالاً طائلة بالملايين المملينة (القصة من خمسين سنة) عنده دار سينما ، والأفلام فيها إثارة شديدة ، والشباب أقبلوا عليها ، وجمع أموالاً طائلة ، أصابه مرض خبيث ، رآه ابن أخته(وهو شاب بمقتبل حياته) يبكي ، خفف عنه ، قال له : أنا جمعت أموالاً طائلة حتى أتمتع بحياة مديدة ، ها قد عاجلني المرض ، وأنا سوف أموت ، لأني جمعت هذه الأموال على حساب أخلاق الشباب ، دمرت الشباب .

فالله عز وجل كبير ، وعقابه شديد .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

إذاً تقول الله يتولاك ، تقول أنا يتخلى عنك ، الصحابة قالوا الله في بدر الله نصرهم بحنين قالوا :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود عن ابن عباس]

وفيهم رسول الله ، الله خذلهم ، قانون .

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)

(سورة الأعراف)

من عاد إلى الله و اصطلح معه تولاه الله بنصره :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

لعل الله عز وجل ينتظر منا أن نكون كهؤلاء المستضعفين ، أن نعود إلى الله ، وأن نصطلح معه ، وأن نتوب إليه ، وأن نقيم الإسلام في بيوتنا ، وفي أعمالنا ، وفي منازلنا ، وفي أنفسنا ، لعل الله سبحانه وتعالى يمكننا كهؤلاء :

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)

يعني الشرق الأوسط .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)

(سورة الإسراء الآية : 1)

هذه بلاد الرسالات السماوية ، هذه بلاد الأنبياء ، بلاد الخير ، بلاد الرحمة ، بلاد الحياء ، بلاد العجل، بلاد الإنصاف ، الآن تشتعل ناراً ، قدمنا للعالم نوراً ، فأعادوه إلينا ناراً كما رأيتم .

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا)

من طبق أمر الله و صبر تولى الله توفيقه و نصره :

إخوانا الكرام ، بشكل واضح جلي ، محنة المسلمين تحل بكلمتين ، لا ثالث لهما الأولى والثانية معاً :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية : 120)

وهذه الآية تطبق جماعياً أو فردياً ، أنت بضائقة ، اصبر ، اصبر وطبق أمر الله انظر كيف الله عز وجل يتولى توفيقك ، اصبر والتزم ، اصبر وأطع ، أما اصبر واعص ما بعد الصبر والمعصية إلا القبر فقط ما في شيء ثاني ، لكن بعد الطاعة والنصر والتوفيق .

(الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى)

الكلمة الحسنى أن الله ينصر من ينصره

(عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)

كل شيء مدمر ، الفراعنة بمصر أين هم ؟ انظر إلى آثارهم ، لهم إنجازات مذهلة .

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه القصة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول – سورة الأعراف 007 - الدرس(40-60): تفسير الآيات 138 - 141، الجهل والعلم متعارضان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-05-23

بسم الله الرحمن الرحيم

إغراق فرعون موسى الطاغية الجبار بقدرة الله تعالى في البحر :

أيها الأكارم ... مع الدرس الأربعون من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

الحقيقة أن كلمة

(يَعْكُفُونَ)

أي يستمرون ، يداومون ، يثبتون ، هؤلاء بنو إسرائيل رأوا بأعينهم كيف أن البحر أصبح طريقاً يبساً، وهذا فوق طاقة كل البشر ، وبنو إسرائيل حينما كانوا مع سيدنا موسى ، وكان فرعون وراءهم بقوته ، وطغيانه ، وحقده وقسوته .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء الآية : 61)

فرعون الذي كان يذبح أبناء بني إسرائيل ، ويستحيي نساءهم ، وكان طاغية جباراً في الأرض ، ويدعي أنه إله ، وقال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

وقال :

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

فرعون الذي كان في أذهان الناس من سابع المستحيلات أن يُدمر ، فالله عز وجل استدرجه إلى البحر، ولما كان في منتصف البحر على طريق يبس ، عاد البحر بحراً ، فأغرق الله فرعون .

الحكمة من نجاة جثة فرعون و قذفها إلى الشاطئ :

لكن لحكمة بالغةٍ بالغة بالغة نجا الله جثته ، فقذفتها الأمواج إلى الشاطئ ، ولو لم يكن ذلك ، لما صدقوا أن الله أهلكه ، لأنه عندهم إله ، قد يقولون رفع إلى السماء ، لكن الله سبحانه وتعالى يقول :

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس الآية : 92)

والحقيقة فرعون موسى ، جثته محنطة ، وقد نقل إلى باريس كي تُرمم هذه الجثة من بعض الفطور التي أصابتها .

وأحد أكبر الملحدين بأمريكا ، حينما التقى بفتاة مسلمة محجبة حجاباً تاماً ، حجابها لفت نظره ، فعكف على قراءة القرآن ، ولما وصل إلى هذه الآية

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

عدّها من أخطاء القرآن فاتصل بصديقه موريس بوكاي ، ينبئه ، وقد ألّف كتاباً عن أحقية القرآن قال له : هذه الآية تفضل ، كيف تفهمها ؟ قال : المعني بهذه الآية رممت جثته بيدي ، هو مدير المشرحة كان .

جبار ، طاغية ، يدعي الألوهية ، يُقتل أبناء بني إسرائيل ، ويستحيي نساءهم والبحر كان بحراً فأصبح طريقاً يبساً ، ونجى الله بني إسرائيل ، وأهلك فرعون ، فلما جاوزوا البحر

(يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

الله فوق كل الخلق يجعل و لا يُجعل :

لذلك أيها الأخوة ، قضية الإيمان قضية دقيقة جداً ، يجب أن تؤمن أن الخالق لا يُجعل ،

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً)

من هو الجاعل ؟ الإنسان ، ما عرفوا من هو الله ، الله يجعل ولا يُجعل ، الله يخلق ، ولا يُخلق ، الله فوق كل الخلق .

فلما قالوا هذا الكلام صُعق سيدنا موسى

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

الإله الذي نجاكم من فرعون ، الإله الذي قلب البحر طريقاً يبساً ، الإله الذي أنقذكم ، الإله الذي خلصكم ، الإله الذي أكرمكم ، الإله الذي نجاكم ، تبحثون عن إله آخر ؟ طبعاً تطبيقات هذه الآية في حياتنا .

إنسان يكون ابنه على خطر الموت ، يأخذه لطبيب ، فإذا شُفي على يد هذا الطبيب ، ينسى أن الله هو الذي شفاه ، ويعزو شفاءه للطبيب ، الطبيب إنسان .

إن الطبيب له علم يدل به إن كان للناس في الآجال تخير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقير

* * *

ضعف التوحيد وراء هذه الكلمة ،

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

هل تعرف من هو الله ؟ معقول قطعة من الحجر تُصنعها أنت ، تنحت الرأس ، ترى الأنف طويلاً تُقصره ، ترى الرأس كبيراً تصغره ، هذا إله ؟! تنحته بيدك ؟! بل إن بعض القبائل ، كان ربها من التمر فلما جاعت أكلته ، بعض الوثنيين إلهه الصنم جاء ثعلب وبال على رأسه ، فكر ، قال : أرب يبول الثعلبان برأسه ، لقد ضلّ من بالت عليه الثعالب .

مَنْ ضعف توحيده علّق أمله بغير الله تعالى :

إخوانا الكرام ، يوجد بآسيا معابد كبيرة جداً ، ما الإله الذين يعبدونه من دون الله ؟ الجرذ ، في اليابان ماذا يعبدون ؟ ذكر الرجل ، في الهند ماذا يعبدون ؟ البقر .

أيها الأخوة الكرام ، اشكروا الله عز وجل على أنه حررنا من هذه الأكاذيب ، هناك من يعبد ذكر الرجل ، هناك من يعبد الجرذ ، هناك من يعبد الحجر ، هناك من يعبد النار ، هناك من يعبد موج البحر، ونحن المسلمون شرفنا الله بأن نعبد الإله العظيم ، خالق السماوات والأرض يا موسى

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

قد ترون هذا شنيعاً ، ولكن أي إنسان يعلق أمله بإنسان قوي يطيعه ويعصي الله لا يختلف كثيراً عن بني إسرائيل ، إي إنسان لا يرى أن الله بيده كل شيء ، لا يرى أن الله هو الفعال .

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام الآية : 59)

هذا هو التوحيد ، الإنسان من ضعف توحيده يعلق الأمل بغير الله .

المشرك من أطاع مخلوقاً و عصى خالقاً :

لا تستغربوا هذه الآية ، أنهم قالوا :

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

وآلاف المسلمين ، ومئات ألوف المسلمين قال الله عنهم :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الذي يخاف إنساناً ويعصي خالقاً مشرك ، الذي يغش المسلمين ماذا رأى ؟ أن المبلغ الكبير الذي سيحصّله من غشهم أكبر عنده من الله ، الذي يطيع مخلوقاً ويعصي خالقه مشرك .

أيها الأخوة ، الشرك الجلي في المسلمين قليل ، يعني لا يوجد مسلم يقول الجبل إله هذا لا يوجد ، لكن الذي يضع كل ثقته بإنسان وينسى الواحد الديان ، الذي يخاف من إنسان ويعصي الله .

قصة في بلد إسلامي آخر ، في شدة على أهل الدين ، موظف كبير ، صام رمضان أول يوم يصوم بحياته ، ما كان يصوم رمضان ، فالتقى مع مديره في الشركة ، أو في الوزارة قال له : صائم ؟ قال له: لا لست صائماً ، فجاؤوا له بضيافة فأفطر ، خاف أن يرى من فوقه أنه صائم ، هو يعبد هذا الإنسان من دون الله ،

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

لمجرد أن ترى أن القوة بيد غير الله ، ما لم ترَ أن الله وحده هو الرافع ، وهو الخافض ، وهو المعطي، وهو المانع ، وهو المعز ، وهو المذل ، وهو الذي يرزق ، وهو الذي يقنن ، هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

الإيمان حقيقة مقطوع بصحتها يؤيدها الواقع :

أيها الأخوة ، لو وقفنا وقفة متأنية عند هذه الظاهرة ، ما العلم ؟ العلم بتعريف موجز الوصف المطابق للواقع ، المقياس والواقع ، للتوضيح :

تألق المصباح في لوحة البيانات في السيارة ، تألق المصباح الأحمر في لوحة البيانات إذا ظننت أن هذا التألق تزييني ، فهو الجهل بعينه ، وإذا علمت أن هذا التألق تحذيري فهو العلم هو في الحقيقة تألق تحذيري ، نسبة الزيت قلّت في المحرك ، فلئلا يحترق المحرك ، تألق هذا الضوء يعني قف ، وأضف الزيت ، فهمك للتألق على أنه تزيين هو الجهل بعينه ، وفهمك للتألق على أنه تحذير هو العلم بعينه ، فالعلم الوصف المطابق للواقع .

هذا شرح موجز ، الأوسع هي علاقة على شكل قانون مقطوع بصحتها ، أحياناً يقول لك : بالـ% 80 متأكد ، بالـ% 80 ظن ، بالـ% 50 شك ، بالـ% 30 وهم ، فالعلم ليس وهماً ، ولا شكاً ، ولا ظناً ، العلم يقيني ، قطعي الدلالة ، فالمقولة العلمية ، المقولة على شكل قانون ، الشيء الأول أنها مقطوع بصحتها ، والشيء الثاني تطابق الواقع ، والشيء الثالث عليها دليل ، إن ألغيت الدليل فالقضية تقليدياً ، ولا يقبل في عقيدة المسلم تقليداً ، لا يقبل في عقيدة المسلم اعتقاداً تقليدياً ، لا بد من اعتقاد مبني على البحث والدرس والدليل :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية : 19)

ما قال فقل ، هنا

(فَاعْلَمْ)

ولو أن الله قبل عقيدة تقليدية لكانت كل الفرق الضالة ناجية عند الله ، لو أن الله يقبل عقيدة تقليدية لكانت كل الفرق الضالة ناجية عند الله ، لأنها قلدت من تزعّم هذا الاتجاه المعين ، ولقّنهم كلاماً فصدقوه .

لذلك في العقيدة لا تقبل العقيدة إلا عن علم ، وعن قناعة ، وعن بحث ، وعن درس وعن دليل ، والدليل على ذلك :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

إذاً الإيمان حقيقة مقطوع بصحتها ، يؤيدها الواقع عليها دليل ، لو ألغيت الدليل لكان الكلام تقليداً ولو كان صحيحاً ، لو ألغيت الواقع لكان الكلام جهلاً .

الفرق بين الجهل و عدم العلم :

الآن في موضوع دقيق جداً هل هناك بين الجهل وبين عدم العلم فرق كبير جداً ؟ تصور وعاء ، وعاء الجاهل ممتلئ تعليمات مغلوطة ، أما وعاء غير العالم فارغ ، فعدم العلم شيء ، والجهل شيء آخر ،

الجاهل يملك آلاف المعلومات غير الصحيحة ، آلاف القوانين الخاطئة ، آلاف التصورات الهامة ، ممتلئ بالمعلومات لكنها كلها غلط ، مثلاً للتوضيح :

كلما أكثر الإنسان من ملح الطعام ينخفض ضغطه ، هذه معلومة غير صحيحة بالعكس مدمرة ، وقد تكون قاتلة ، كلما زدت الملح انخفض الضغط ، بالعكس هي ، كلما ازداد الملح ارتفع الضغط ، الضغط القاتل الصامت ، تصور إنسان عنده هذه القناعة ، وفي إنسان آخر كلما كان وزنه أثقل يقول لك صحته أطيب ، لا ، هذا كلام مضحك ، لأن الوزن الزائد من الأمراض الوبيلة ، فإذا شخص كل معلوماته خطأ ، قال أحد الشعراء الجاهليين :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

* * *

يقول لك شخص : بقدر ما تستطيع استمتع بالحياة هذه معلومة غلط ، أي بقدر ما تقدر دمر نفسك ، بقدر ما تقدر أهلك نفسك ، فالجهل أن تمتلئ بالمعلومات الغير صحيحة ، أن تمتلئ بالقواعد التالفة ، أن تمتلئ بالتصورات الواهمة ، هذا جاهل اسمه .

شخص يظن أنه كلما ظنّ أنه كسب مالاً غير مشروع يعد شاكراً ، والجاهل الثاني يقول لك دبر حاله ، والله رجل ، الاثنين أجهل من بعضهم ، كلمة جاهل يعني يتكلم ، معه شهادات عليا أحياناً ، يتفلسف عشر ساعات ، يلقي عليك محاضرة باللغة الفصحى وهو جاهل معنى جاهل يعني معلوماته غلط ، تصوراته غلط ، معنى جاهل متصور أن هذه الدنيا كل شيء يقول لك الغني هو بالجنة عايش ، ما هي الجنة ؟ أن تكون غنياً ، هذا جهل ، بالعالم الغربي عندهم مقولة ، مايت مكرايت ، يعني أنت قوي أنت على حق ، من هو صاحب الحق ؟ القوي فقط ، كما يفعلون ، ما دمت قوياً افعل ما تشاء ، دمر ، اقتل، أنت على حق ، لأنك قوي ، هذه المقولة تنتهي إلى النار ، إلى جهنم ، في إله يحاسب .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

(سورة إبراهيم الآية : 42)

هذا هو الجهل بعينه ، وإذا علمت أن الله ليس بغافل ، وسوف يحاسب ، وسوف يعاقب فأنت العالم .

إقناع الإنسان الغير متعلم أهون ألف مرة من إقناع الإنسان الجاهل :

أنا أقول لك كلاماً دقيقاً : احذروا الجاهل ، الجاهل معه دكتوراه أحياناً الجاهل بأعلى مكان يكون أحياناً، متكلم فصيح ، طليق اللسان ، له مؤلفات كثيرة .

ألف كتاب في لبنان أن إله محمد قمعي ، لأنه ما قبل معه إلهاً آخر ، أليس لا إله إلا الله ؟ أما آلهة قريش كانوا ديمقراطيين ، لأنه كل إله قبل معه إلهاً آخر ، هناك اللات ، و العزى ، في كتب كلها

جهل، يعني الجهل متفشي ، والجهلاء دكاترة وأصحاب شهادات عليا ، وتنظيرهم مادي ، والدنيا هي كل شيء ، والقوي صاحب الحق ، أما الغير العالم إنسان إناؤه فارغ .

لذلك أهون ألف مرة أن تقنع إنساناً لا يعلم ، من أن تقنع إنساناً جاهلاً ، أي معه معلومات خاطئة ، مشكلتك مع الإنسان الجاهل عندك مهمتين ، عندك مهمتان كبيرتان ، الأولى أن تنزع من تصوره هذه المعلومة ، والثانية أن تعطيه البديل ، مهمة مزدوجة أن تنتزع منه هذه المعلومة ، ثم أن تعطيه البديل ، أما الغير متعلم ، أو الغير جاهل ، أو الغير عالم ، إناؤه فارغ .

تجد أحياناً سهل جداً تقنع إنسان أجنبي بالإسلام ، عن أن تقنع شخصاً منافقاً بالإسلام الصحيح .

الجاهل هو الإنسان الذي ابتعد عن منهج الله وعن القيم التي جاء بها الدين :

أيها الأخوة الكرام ، الأمي ، أو غير المتعلم ، أو غير العالم إقناعه سهل بالدين ، لأن وعاءه فارغ .

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

* * *

أما الذي عنده معلومات خاطئة ، الذي عنده قناعة أنه افعل ما تشاء والنبي يشفع لك مشكلة ، يرتكب المعاصي وهو مطمئن .

((شفاعتي لأهل الكبائر مِنّ أمَّتي))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك]

مرتاح ، شيء مريح جداً ، هذا جاهل ، جاهل يعني معه معلومات ، وحافظ أحاديث وآيات كثيرة ، يقول لك : لماذا الربا حرام ؟ اسمعوا الآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية : 130)

الله نهى عن الأضعاف المضاعفة فقط ، أما عن نسب معقولة ما نهى عنه ، ألا تستقيم ؟ أنا موقن بالله، الله قال :

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر)

إذا أيقنت انتهى ، هذا جاهل ، الجاهل معه معلومات ، ومعه أدلة أحياناً ، ومتكلم وفصيح ، ومعه شهادات عليا ، وهو عند الله جاهل ، الجاهل الذي ابتعد عن منهج الله ، ابتعد عن القيم التي جاء بها الدين ، ابتعد عن المبادئ .

من ابتعد عن تعليمات الصانع خسر الدنيا و الآخرة :

فيا أيها الأخوة ، ماذا قال ؟

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ)

رأوا البحر أصبح طريقاً ، رأوا كيف فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

كيف غرق ،

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ـ ماذا قال سيدنا موسى ؟ ـ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

رأوا تجارب رائعة جداً ،

(إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

الذين يعكفون على أصنام لهم

(مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ)

يعني هالكون ، أشقياء ، ابتعدوا عن منهج الله ، ابتعدوا عن تعليمات الصانع ، ابتعدوا عن الخير ، ابتعدوا عن الآخرة ، خسروا الآخرة .

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية : 15)

الحق ثابت لا يتبدل أو يتغير و الباطل زائل لا محالة :

إخوانا الكرام ، الحق ثابت ، معنى حق أي مستقر ، الحق لا يتعدد ، والحق ثابت ، الله عز وجل قال :

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

(سورة إبراهيم الآية : 37)

القول الثابت القرآن الكريم ، لأنه كلام رب العالمين ، لأن هذا القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الحق ثابت لا يتغير ، ولا يتبدل ، يعني كم فرقة ضالة أتت في تاريخ المسلمين ؟

أين هي الآن ؟ تلاشت ، لأنها باطلة ، والإسلام بقرآنه ، وسنة نبيه هو الشامخ ، هو كالطود ، الحق ثابت ، والباطل زائل .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

والباطل الذي طرح شعار لا إله بقي سبعين عاماً ، وكان من أقوى الكيانات في الأرض ، يملك من القنابل النووية ما تدمر القارات الخمس ، ومع ذلك لأنه كان باطلاً ، كان زهوقاً :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

العالم المادي لم يحقق للإنسان السلامة والسعادة لذلك اتجه نحو الإسلام :

الآن أي طرح باطل ، أي فلسفة باطلة ، أي عقيدة باطلة ، أي قوة باطلة ، أي كيان باطل ، إلى زوال،

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

ما الذي يبقى ؟ الحق ، الآن بالخمسينات كم مذهب وضعي انتشر وذاع وتألق ثم تلاشى ولم يبقَ إلا الدين ؟

في بعض البلاد الغربية يدخل في اليوم الواحد خمسون ألف إنسان من أصل أوربا ، في بلد واحد ، يومياً في الإسلام ، لأنه المذاهب الوضعية لم تحقق للإنسان كل حاجاته ، حققت له حاجات الجسد ، رفاه يفوق حدّ الخيال ، مواصلات ، اتصالات ، مخترعات ، بيوت جميلة ، حدائق ، مركبات ، كل شيء من الدرجة الأولى ، أما الإنسان هناك فراغ لا تملؤه المادة يملؤه الإيمان .

لذلك العالم الغربي يدخل في الإسلام بشكل عجيب ، في أمريكا ، في استراليا ، في أوربا ، لأن العالم المادي ما حقق للإنسان السلامة والسعادة ، حقق له رفاهاً .

أحياناً الإنسان يضجر من هذه الأجهزة المرفهة ، والمركبات ، والطائرات ، يريد أن يبكي ، يريد أن يتصل بالله ، يريد أن يطمئن إلى آخرته ، يريد أن يستقر .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت)

الإسلام هو الدين الأول في العالم :

أيها الأخوة ، قال تعالى :

(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)

(سورة الرعد الآية : 17)

الإسلام هو الدين الأول في العالم ، مع أن حرباً عالمية ثالثة معلنة عليه ، ومع ذلك هو الدين الأول الذي ينمو .

أيها الأخوة ، ماذا قال سيدنا موسى ؟ قال :

(إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ)

هالكون

(وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

باطل يعني زائل ، أعمالهم إلى دمار ، حضارتهم إلى دمار .

الإنسان بقبضة الله عز وجل فعليه ألا يعبد غيره سبحانه :

(قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

أي معقول أن تتخذ إلهاً غير الله ؟ الذي خلق السماوات والأرض ، الذي بيده حياتك وموتك ، الذي بيده رزقك ، الذي بيده أجهزتك ، الذي بيده زوجتك ، وأولادك ، ومن حولك ومن فوقك ، ومن تحتك .

القلب بيد من ؟ الأوعية الدموية بيد من ؟ الإنسان بلمحة يصبح مشلولاً ، خثرة دم لا تُرى بالعين تتجمد في أحد أوعية الدماغ ، يفقد الإنسان حركته ، أو يفقد بصره ، أو يفقد سمعه ، أو يفقد ذاكرته ، بثانية ، من أنت ؟ كل قيمتك ، وقدرتك ، وهيمنتك ، وشخصيتك منوطة بسيولة دمك ، منوطة بنمو خلاياك .

فلذلك أيها الأخوة ، أنت في قبضة الله ، وجسمك بفضل الله يتمتع بالصحة الجيدة كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من فراشه يقول :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي ، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي ، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

(قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً)

أي معقول أن تعبد إنساناً من دون الله ؟ معقول أن تعبد شخصاً من دون الله ؟ معقول أن تعبد المال ؟.
شخص قال مرة : الدارهم مراهم ، يقصد أنه بالمال تحل كل مشكلاته ، فالله عز وجل أدبه بمشكلة لا تحلّ بالمال .

بقوة الله أصبحت حكيماً ، حكمتك من حكمة الله ، أصبحت غنياً غناك من غنى الله عز وجل .

(قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

كأنهم نسوا ما فعل بهم فرعون .

(وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

(سورة الأعراف)

على كل إنسان أن يذكر نعم الله الكبرى عليه :

الله عز وجل في بعض الآيات يقول :

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ)

(سورة إبراهيم الآية : 5)

هذا درس بليغ ، وتوجيه حكيم ، يعني لا يوجد شخص من إخوتنا الكرام إلا له مع الله تجربة ، مرة دعاه فاستجاب له ، هيأ له زوجة صالحة ، هيأ له عملاً ، نجح بشهادة ، يتقن حرفة كان في أمامه شبح مرض فأنقذه الله منه ، فإذا أنقذك الله من شبح مرض ، أو هيأ لك وظيفة تدر عليك دخلاً تغطي حاجاتك، أو هيأ لك زوجة ، وأولاداً ، أو هيأ لك إيماناً ، هيأ لك مكاناً في مجلس علم ، هذه نعم الله الكبرى تذكرها ،

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ)

على كل إنسان أن يعود نفسه أن يتذكر أيام الله عز وجل :

لذلك

(وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

عود نفسك أن تتذكر أيام الله ، عود نفسك أن تتذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرمك بوالديك ، أكرمك بصحة ، أكرمك بخلق تام ، كان عليه الصلاة والسلام إذا وقف أمام المرآة يقول :

((اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي))

[الجامع الصغير بسند صحيح عن ابن مسعود]

حواسك سليمة ، أعضاؤك سليمة ، قوامك مقبول ، قوتك جيدة ، لك سمعة طيبة ، تربيت في بلد طيب دلّك على أهل الحق ، هذه كلها أيام الله ، أنا أستنبطها من هذه الآية .

(وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

تذكر نعمة الله عليك ، يعني الإنسان أحياناً يمر بإنسان مصاب ، هناك أمراض وبيلة ، هناك مصائب لا تحتمل ، هناك شيء فوق طاقة البشر :

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

دخلت إلى بيتك لك مأوى ، الحمد لله الذي آواني ، وكم من لا مأوى له ، لك زوجة والزوجة نعمة كبيرة ، لا تكفر هذه النعمة ، أيتها المرأة لك زوج ، والزوج نعمة كبيرة ، لا تكفري هذه النعمة ، لك أولاد ، الإنسان يكون معه ملايين مملينة ما عنده أولاد ، إذا رأى طفلاً صغيراً يموت من الألم ، عندك أولاد ، يملؤون البيت فرحة ، اعتن بهم ، اشكر الله عليهم ، إذا الله عز وجل منحك صحة ، منحك إيماناً ، منحك سمعة طيبة ، منحك مأوى صغير ، منحك زوجة .

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبه ، مُعافى في جَسَدِهِ ، عندهُ قوتُ يومِه ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن محصن]

نعمة الأمن نعمة ثمينة لا تقدر بثمن :

أنا أحاول من خلال هذه الآيات أن أسقطها على واقعنا ، نحن نشكو أشياء كثيرة لكن هل ترى ماذا يحدث حولنا ؟ من إراقة دماء يومياً مئة قتيل ، مئتي جريح يومياً لا يوجد أمن إطلاقاً ، نعمة الأمن التي عندنا نعمة كبيرة جداً ، نعمة وجود أسر سليمة ، معافاة ، أي عندنا ميزات كبيرة جداً ، في إنسان سبحان الله ، كما قال الله عز وجل :

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

بأي مكان في العالم ما في ماء إلا بالمال ، عندك بالشام تفتح الصنبور تجد ماء بارداً عذباً ، زلالاً ، مجاناً ، هذه نعمة كبيرة ، نعمة الماء ، نعمة أنه أنت لك بيت ، لك مأوى ، لك زوجة ، لك أولاد ، لك عمل ، لك دخل ، هذه نعم كبيرة .

ذلك التوجيه النبوي : انظر إلى من هو أدنى منك ، ذلك أحرى ألا تحتقر نعمة الله عليك .

أما في شأن الدين إياك أن تنظر إلى من هو أدنى منك ، في شأن الدين انظر إلى من هو فوقك في الإيمان ، من أجل أن تتحمس ، من أجل أن يكون هذا النظر باعثاً على مضاعفة الجهد ، في شأن الدنيا انظر إلى من هو أدنى منك ، في شأن الآخرة انظر إلى من هو فوقك .

له كلمة سيدنا عمر : من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط .

يسكن في بيت دافئ في الشتاء ، بارد في الصيف ، مساحته معقولة ، عنده غرفة نوم ، عنده غرفة جلوس ، عنده مطبخ ، عنده زوجة ، عنده أولاد ، يدخل إلى بيت 450 متراً التحف بالملايين ، الأجهزة ، خمسة أو ستة مركبات ، يجد ما عنده شيء هو ، من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط .

بطولة الإنسان أن ينقل اهتماماته من الدنيا إلى الآخرة :

أنت عاشر من هو أدنى منك ، تجد نفسك بنعم كبيرة ، والحياة مؤقتة ، أي لا يوجد إنسان يموت ويأخذ معه شيئاً ، أحياناً شخص بحكم علاقاته الاجتماعية يعزي إنساناً ساكن ببيت غالٍ كثيراً ، أنا أفكر في هذا البيت ، من اختار هذا الأثاث ؟ المرحوم ، من اختار هذا الجبصين ؟ المرحوم ، من اختار هذا البلاط الرخامي ؟ المرحوم ، من اختار هذه التزينات ؟ المرحوم ، أين المرحوم ؟ بالقبر المرحوم .

البطولة أن تؤمن بالآخرة ، أن تنقل اهتماماتك إلى الآخرة .

أيها الأخوة ، آيات اليوم :

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ *إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(41-60): تفسير الآيات 142 - 144، استعداد سيدنا موسى للقاء الله بعد مشقة كبيرة مع فرعون

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-06-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ الصادق الوعد الأمين اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

إغراق آل فرعون عبرة لمن جاء بعدهم :

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثانية والأربعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

أيها الأخوة ، بعد أن نجى الله بني إسرائيل من فرعون الذي كان يقتّل أبناءهم ويستحيي نساءهم ، بعد أن نجاهم منه بمعجزة ، حينما تبعهم بالبحر ، فلما خرج موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مع قومه إلى الضفة الثانية ، عاد البحر بحراً ، وأغرق الله آل فرعون ودمرهم ، وأصبح عبرة لكل طاغية .

بعد أن نجى الله قوم موسى من فرعون ، الذي تفنن في سفك دمائهم ، واستحياء نسائهم ، وإذلالهم ، الآن جاء طور آخر ، هذا الطور هو مجيء التشريع ، فقال تعالى :

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

الإجمال والتفصيل إن جاءا في آية واحدة حُلّ الإشكال :

أيها الأخوة ،

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى)

أي هناك وقت ، ومكان لإلقاء الكتاب على موسى الذي فيه منهج الله ، وفيه التعريف لماذا خلق الإنسان في هذه الدنيا ؟ ولكن قد يقول قائل هناك آية يقول الله عز وجل :

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

(سورة البقرة الآية : 51)

وفي هذه الآية :

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ)

قال بعض علماء التفسير هناك إجمال ، وهناك تفصيل ، ففي الآية الأولى

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

هذه آية طابعها الإجمال ، وفي الآية الثانية

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ)

هذه آية فيها تفصيل ، فإذا جاء الإجمال والتفصيل معاً في آية واحدة حُل الإشكال ،

(فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

لكن أحياناً تأتي آيات من نوع آخر يبدو أن هناك تناقض بينها ، من هذه الآيات :

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)

(سورة فصلت)

في يومين ، وفي أربعة أيام .

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)

(سورة فصلت)

كم يوم أصبحوا ؟ ثمانية ، وفي معظم آيات القرآن الكريم :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

(سورة هود الآية : 7)

فقال هذا إجمال وتفصيل .

كلام الله كلام معجز وأي إشكال في القرآن الكريم على الإنسان أن يسأل عنه أهل الذكر :

قد يفهم هذا الإجمال والتفصيل معاً بالتداخل ، فقد تقول مثلاً وصلت إلى حمص في ساعتين ، وإلى حماة في ثلاث ساعات ، ماذا نفهم ؟ أن الزمن الذي استغرقته بالوصول إلى حمص داخل في حماة ، وصلت إلى حمص في ساعتين ، وإلى حماة في ثلاث ساعات ، هناك تداخل ، على كلٍ إن هذا الموضوع حينما نؤمن أن كلام الله كلام معجز وأن فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، أي إشكال يبدو لك في القرآن الكريم هناك إجابة مقنعة مئة بالمئة ، ولكن قال تعالى :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

أهل الذكر أهل القرآن ، هناك ملمح آخر في قوله تعالى :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس الآية : 39)

إذاً أنت ليس مسموح لك أن تتساءل ، أو أن تحكم قبل أن تسأل ،

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

هناك إشكالات كثيرة جداً ، تبدو في الظاهر إشكالات ، يبدو في الظاهر مفارقات ، هي في الحقيقة آيات محكمات ولها شرح وتفصيل ، وتعليل رائع جداً .

ما من شيء عظيم يفوق أن تعرف الله عز وجل :

أيها الأخوة ، الموضوع الدقيق الذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى قال

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً)

لقاء بين سيدنا موسى وبين ربه .

الإنسان أحياناً يعتز بلقاء مع ملك ، يعتز بلقاء مع إنسان كبير ، مع عالم جليل ، أما هنا اللقاء مع خالق السماوات والأرض ، أنا أذكر هذا المثل كثيراً كي أضع الحقيقة كاملة بين أيديكم :

الطفل الصغير إذا قال مرة : معي مبلغ عظيم ، كم تظنه ؟ طفل والده معلم ، وجاء العيد ، وانتهى العيد، وقال لأخيه الكبير معي مبلغ عظيم ، أنا أقدره بمئتي ليرة ، كلمة عظيم من طفل تعني 200 ، فإذا قال مسؤول كبير في دولة عظمى تزمع أن تشن حرباً على بلد نفطي : أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً ، الكلمة نفسها ، ما دامت هذه الكلمة صدرت من مسؤول كبير في دولة عظمى 200 مليون ، لا ، 200 مليار دولار ، كلمة عظيم من هذا الإنسان نقدرها بمئتي مليار ، الكلمة واحدة .

فإذا قال ملك الملوك ، ومالك الملوك ، فإذا قال قيوم السماوات والأرض ، فإذا قال خالقنا ، وربنا ، ومسيرنا :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

هل هناك من شيء عظيم يفوق أن تعرف الله .

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

الإله العظيم الطريق إليه سهل جداً :

لذلك

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً)

أحياناً رمضان فرصة للقاء مع الله ، للقاء مع الله في الصلوات الخمس ، في صلاة الفجر ، في صلاة التراويح ، الحج فرصة للقاء مع الله عز وجل ، الصلوات الخمس فرصة للقاء مع الله عز وجل ، والآية التي تنظم هذه اللقاءات :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

(سورة الكهف الآية : 110)

يعني يستطيع مجند غر ، التحق لتوه في قطعة عسكرية تنتمي إلى لواء كبير أو إلى فرقة كبيرة ، مؤلفة من ثلاثة ألوية ، على رأس هذه الفرقة ، لواء أركان حرب ، هل يستطيع هذا المجند الغر أن يقابل هذا اللواء الذي يرأس ألوية ثلاثة ؟ في كل أنظمة العالم ، وفي كل جيوش العالم هذا الجندي الغر، لا يستطيع مقابلة هذا اللواء الكبير ، لأن أمامه عريف ، على التسلسل يقابل العريف ، ثم عريف أول ، ثم مساعد ، ثم مساعد أول ، ثم ملازم ، ثم ملازم أول ، ثم نقيب ، ثم رائد ، ثم مقدم ، ثم عقيد ، ثم عميد ، ثم لواء ، بعدها في عماد ، هل يستطيع هذا الجندي أن يقابل أعلى رتبة مباشرة ؟ لا يستطيع ، إلا في حالة واحدة ، أن يكون ابن هذا اللواء الكبير يسبح وكان على وشك الغرق فألقى هذا الجندي بنفسه وأنقذه ، يدخل عليه من دون استئذان ، ويكرمه أعظم تكريم ، وقد يجلس إلى جانبه وقد يضيفه بنفسه ، أليس كذلك ؟ هذا المثل ضعوه بين أيديكم ،

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

أسعد إنسان من تجلى الله على قلبه بالأمن و الاستقرار :

أتحب أن تبكي في الصلاة ؟ أتحب أن يتجلى الله على قلبك ؟ أتحب أن تشعر أن الله يحبك ؟ أتحب أن تحس بالأمن ؟ أتحب أن تحس بالاستقرار ؟ أتحب أن تحس أن الله راضٍ عنك ؟ كل هذه المشاعر ثمنها العمل الصالح ،

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

ثمنها أن ترحم عباد الله ، ثمنها أن تنصحهم ولا تغشهم ، ثمنها ألا تبتز أموالهم ، ثمنها ألا تلقي الرعب في قلوبهم ، ثمنها أن ترحمهم ، أن تقدم لهم كل مساعدة ، إنهم عباد الله .

لذلك أيها الأخوة ، إن أردت ميقات الله عز وجل ، إن أردت خلوة مع الله ، إن أردت إقبالاً على الله ، إن أردت أن تستمد من الله العون ، والتوفيق ، والنصر ، والتأييد ، وأن يسعدك ، إن أردت أن تقول ليس في الأرض من هو أسعد مني ، إن أردت أن تشعر أنك متفوق ، وأن الله يحبك ، وأن كل من في الأرض بيد الله عز وجل ، وأنت مع الله ، كل من في الأرض من أقوياء بيد الله ، وأنت مع الله ، وإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك .

كل إنسان بحاجة إلى شحنة روحية و خلوة مع الله عز وجل :

لذلك أيها الأخوة ،

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً)

سيدنا موسى استخلف أخاه هارون في قومه ، هو ذهب إلى المناجاة ، ذهب إلى الخلوة مع الله ، ذهب إلى ما يشبه غار حراء ، وأنا أقول لكم أيها الأخوة : كل مؤمن يحتاج إلى غار حراء ، أحياناً غرفته إذا جلس في هذه الغرفة ، وقرأ القرآن هذا يشبه غار حراء ، إذا ذكر الواحد الديان ، هذا يشبه غار حراء، إذا ذكر الله باسمه ، أو بما دعا به النبي عليه الصلاة والسلام ، يعني لا بد لك من أن تشحن شحنة روحية .

وهذا الهاتف الجوال أكبر دليل على ذلك ، إن لم تشحنه تنطفئ الشاشة ، ويصمت وينتهي عمله .

وهذا المؤمن إن لم يشحن عندنا شحنات يومية ، خمس شحنات يومية ، الصلوات الخمس ، هذه الشحن بسيطة تكفي للصلاة التي تليها ، عندنا شحنة أطول شحنة أسبوعية ؛ شحنة خطبة الجمعة ، إذا أنت استطعت أن تدرك ركعتي الجمعة مع الإمام إياك أن تتوهم أنك أديت صلاة الجمعة ، لأن الله عز وجل حينما قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة الآية : 9)

قال علماء التفسير : ذكر الله هي الخطبة ، هذه عبادة تعليمية ، هذه العبادة التعليمية من خصائص هذا الدين العظيم ،

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

بل إن الذي يأتي مبكراً كأنه قدم جملاً (ناقة) والذي يأتي بعده كأنه قدم بقرة ، والذي يأتي بعده كأنه قدم شاة ، والذي يأتي بعده كأنه قدم دجاجة ، والذي يأتي بعده كأنه قدم بيضة ، هذا كله قبل أن يصعد الخطيب إلى المنبر قال : فإذا صعد الخطيب المنبر طوت الصحف ، يقول لك أنا لحقت ركعة الحمد لله،

شيء مضحك ! عبادة تعليمية أرادك الله أن تستمع إلى خطبة ، إلى موضوع ، موضوع متعلق بآخرتك بسلامتك ، بسعادتك ، بتألقك ، بالتوفيق ، بالنصر ، بالتأييد .

استخلاف سيدنا موسى لأخيه هارون في قومه :

لذلك أيها الأخوة ،

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً)

هو هيأ نفسه تهيئة كبيرة ، هيأ نفسه بالذكر ، هيأ نفسه بالتنقية من كل شيء ، من كل شائبة ، استخلف أخاه هارون ، و هارون رسول أيضاً ، والدليل لما التقى سيدنا موسى وهارون مع فرعون :

(فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ)

(سورة طه الآية : 47)

سيدنا هارون رسول ، سيدنا موسى أيضاً رسول ، فسيدنا موسى استخلف أخاه هارون

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي)

وكلتك بقومي ، بعد أن نجاهم الله عز وجل من فرعون .

(وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

إذا قلت للصالح أصلح ، أي داوم على إصلاحك ، نبي كريم هو صالح ، صالح من الصالحين الكبار ،

(وَأَصْلِحْ)

يعني اسلك سبيل الصلاح الذي عُهد منك . أما

(وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

كأن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه أن هناك مشكلة سوف تنشأ مع بني إسرائيل ، وأخوك مسؤول عنكم، فقال له :

(وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

تناسي قوم فرعون المعجزات الدالة على عظمة الله وطلبهم بأن يُجعل لهم إلهاً :

لكن الذي حصل أن سيدنا موسى ذهب إلى المناجاة (ولها حديث طويل بعد قليل)واستخلف أخاه هارون في قومه ، فلما نجا الله بني إسرائيل من فرعون الذي قتّل أبناءهم واستحيا نساءهم ، قدموا على قوم يعبدون العجل من دون الله .

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

(سورة الأعراف الآية : 138)

هذه الآيات الصارخة الدالة على عظمة الله ، كيف أن الله أغرق فرعون ، وما أدراك ما فرعون ، بقوته ، بجبروته ، بمن حوله ، بأسلحته ، دمره كمعجزة ، كيف أن الله جعل البحر طريقاً يبساً ، كيف أن عصا سيدنا موسى ألقاها :

(فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

كيف أن هذا الثعبان أكل كل ما صنعه السحرة والمفسدون ، كيف يتناسى هؤلاء كل هذه المعجزات ، ويقولون لسيدنا هارون :

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

إن لم ترحم من حولك لست مؤهلاً أن تقودهم :

بالمناسبة : انظر إلى الكلام ما أدقه ،

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ)

أنت أخي ، ما معنى أنت أخي ؟ قال فيها تحنن ، أنت ابني تقول أحياناً ، أنا ابنك يا أبتِ ، هذا كلام فيه تحنن ، فسيدنا هارون رسول ، وأخ لسيدنا موسى ، علاقة القرابة تبدو قوية جداً ، بدأ بأخوته ،

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي)

أن تنوب عني بإشراف عليم ،

(اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي)

ماذا تعني كلمة قومي ؟ فيها انتماء .

حينما جاء ملك الجبال النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف وقال له : أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين ، ماذا قال النبي الكريم ؟

((اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون))

ما الذي يحدث الآن ؟ إنسان يسافر لبلد غربي ويعود وقد انسلخ من أمته متخلفون ! كأنه هو من طينة أخرى ، كأنه صار من ذهب وهؤلاء من طين ، هذا الانسلاخ من بعض شباب المسلمين إذا سافروا إلى الغرب ينعتقون من دينهم ، ومن أمتهم ، ومن واقعهم ، ويستعلون عليه ، سيد الخلق وحبيب الحق ، قال:

((اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون))

دقق في هذا الكلام :

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ)

يعني أنت أخي وشريكي في الرسالة ، قال له :

(اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ)

في قومي ، هم عزيزون عليّ ، وما لم يكن الذين حولك عزيزين عليك أنت لست مؤهلاً أن تقودهم ، أساس القيادة تحتاج إلى حب ، أساس القيادة تحتاج إلى رحمة ، إن لم ترحم من حولك أنت لست مؤهلاً أن تقودهم ، أنا أقول هذا الكلام لأي منصب قيادي ، أنت معلم إن لم تحب طلابك لن تعلمهم ، أنت مدير مستشفى إن لم تحب الأطباء والممرضين ، وتراهم أسرة واحدة لن تحسن قيادتهم ، الأساس هو الرحمة ، الأساس هو الحب ،

(اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي)

قومي عزيزون عليّ .

التشريع الإلهي لا يزيد عن كلمتين ؛ افعل أو لا تفعل :

أما سيدنا موسى هو الآن يعد نفسه للقاء الله عز وجل .

بالمناسبة : سوف يأتي في هذا الميقات تشريع إلهي ، وينبغي أن نعلم علم اليقين أن التشريع الإلهي لا بد من كلمتين ، افعل ، فعل أمر ، ولا تفعل فعل مسبوق بنهي ، فالقرآن الكريم من دفته إلى دفته ، الأوامر والنواهي لا تزيد عن افعل ، ولا تفعل .

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

(سورة لأنعام الآية : 72)

افعل .

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات الآية : 12)

لا تفعل ، منهج الله عز وجل لا يزيد عن كلمتين ، افعل ، ولا تفعل ، ويجب أن توقن وأن تعلم علم اليقين أن كل شيء أمرك الله أن تفعله أنت قادر على أن تفعله ، وتستطيع أن تفعله .

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

وأن كل شيء نهاك الله عنه أنت قادر على أن تنتهي عنه ، وباستطاعتك أن تبتعد عنه ، لقوله تعالى :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

لذلك أي دعوة من أي مؤمن أنا لا أستطيع ، نقول له : لا ، الاستطاعة لست أنت الذي تحددها ، الذي يحددها هو الله عز وجل ،

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

دعوة النبي الكريم موسى إلى لقاء ربه :

أيها الأخوة :

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأعراف)

نحن الآن مع حالة متميزة جداً لهذا النبي الكريم ، الآن هذا النبي الكريم مدعو للقاء الله ،

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا)

الميقات هو الحقيقة ، كل فعل له مكان ، وله زمان ، مكان الفعل ميقات ، وزمان الفعل ميقات ، في مواقيت الحج الأمكنة التي يبدأ منها الإحرام ، ميقات أهل الشام ، ميقات أهل العراق ، ميقات أهل اليمن، هذه مواقيت ، يعني أماكن ، و هناك للصلاة أماكن أي أزمنة ، صلاة الفجر بين طلوع الفجر وشروق الشمس ، صلاة الظهر بعد أن تنحرف الشمس عن كبد السماء ، صلاة العصر إذا كان الظل مثلين ، صلاة المغرب عندما تغيب الشمس ، صلاة العشاء عند غياب الشفق الأحمر ، هذه مواقيت .

المواقيت الزمانية و المواقيت المكانية :

إذاً هناك مواقيت مكانية ، ومواقيت زمانية ، أي عندنا عبادات الأصل فيها الميقات الزماني ، كالصلوات الخمس ، ورمضان ، لك أن تصلي في أي مكان ، ولك أن تصوم في أي مكان ، أما الميقات ميقات الصيام ميقات زماني ، حينما ترى هلال رمضان .

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)

(سورة البقرة الآية : 185)

ففي الصوم الميقات الزماني هو الأصل ، وفي الصلاة الميقات الزماني هو الأصل ، أما في الحج لا بد من أن تذهب إلى الحرمين الشريفين ، لا بد من أن تذهب إلى جبل عرفات .

((الحج عرفة))

[أخرجه مسدد بن مسرهد عن عبد الله بن عباس]

هناك ميقات مكاني .

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً :

الآن تمهيد :

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا)

جاء ليلتقي مع الله عز وجل

(وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ)

الله عز وجل قال :

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً)

(سورة الشورى الآية : 51)

بالقرآن الكريم عندنا قاعدة ،

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً)

عن طريق سيدنا جبريل ،

(أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)

يسمع صوتاً ولا يرى شيئاً ،

(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً)

(فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ)

(سورة الشورى الآية : 51)

أيها الأخوة ، سيدنا موسى كلمه ربه من وراء حجاب ، الحالة التي إحدى حالات ثلاث هي الحالة الثانية ، سيدنا موسى كلمه ربه من وراء حجاب ، يعني يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً .

طموح سيدنا موسى في أن يرى ذات الله عز وجل :

أيها الأخوة ، الله عز وجل حينما كلمه سيدنا موسى تاقت نفسه إلى أكثر من تكريم الله له ، أي كان طموحاً ، تاقت نفسه إلى أكثر من تكريم الله له ، تاقت نفسه إلى أن يرى الله

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ)

يعني الله عز وجل من الثابت أن شيئاً في الكون لا يستطيع تحمل رؤية الله ، فسيدنا موسى طمع ، ما طمع أن يرى ذات الله عز وجل ، أن يرى الله من دون تفاصيل ، فقال يا موسى إنك

(لَنْ تَرَانِي)

هذه لن على التأبيد ، ما دمت في الدنيا ، ما دمت في هذه الحياة الدنيا ، ما دام لك جسم لن تستطيع رؤيتي ، والدليل :

(وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ)

يعني أي شيء قوي متماسك ، جبل ، صخر ،

(وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً)

جبل عملاق كبير ، صخور ،

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً)

يعني سويت قممه بقواعده ، كان جبل صار أرضاً مستوية .

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

صعق ، إن هذا الجبل حينما تجلى ربه أصبح دكاً فكيف بالذات الإلهية ، جبل عظيم عملاق مرتفع ، صخور ، لما تجلى الله على الجبل جعله دكا ، فسيدنا موسى صعق

(وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

استرسال سيدنا موسى بحديثه مع الله تعالى لأن سعادته كانت لا توصف :

لما سيدنا موسى قال الله له :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

(سورة طه)

يعني كان من الممكن أن يقول هي عصاي ، لكن طمع بمؤانسة الله له .

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

(سورة طه الآية : 18)

هو سألك ما هي ؟ قال :

(هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

ارتاح ، قال له :

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

(سورة طه الآية : 18)

فاستحى ، قال له :

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

(سورة طه)

أي إذا الله عز وجل يريد أن يتابع الحوار يقول يا موسى ما هذه المآرب ؟

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

أيضاً باللقاء طمع هذا النبي الكريم أكثر من أن يقول له يا رب هي عصاي ، فاسترسل في الحديث ، يبدو أن الإنسان إذا اتصل بالله عز وجل ذاق سعادة لا توصف ، لأنه كلما خلقه الله عز وجل من أشياء جميلة هي مسحة من جمال الله عز وجل .

((إن الله جميل يحب الجمال))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود]

أي أجمل شيء بالحياة أن تنعقد صلتك بالله عز وجل ، أجمل شيء بالحياة أن تبكي في الصلاة ، أجمل شيء في الحياة أن تبكي أثناء الطواف ، أثناء السعي .

أعظم ما في هذا الدين الاتصال بالله عز وجل :

أيها الأخوة :

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لـــما وليت عنا لغيرنا
و لــو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا
ولـــو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولو نسمت من قربنا لك نسمـــة لمت غريباً و اشتياقاً لقربنـــا

***

أعظم ما في هذا الدين الاتصال بالله ، أما كدين ، كثقافة ، كمعلومات ، كأفكار ، كنصوص ، كأدلة ، شيء جيد ، لكن لا يروي الغليل ، لا يروى غليلك إلا إذا اتصلت بالله عز وجل ، فلما رأى أن الجبل قد دكّ ،

(وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

لأنه لم يتصور أن هذا الجبل الكبير لأن الله تجلى عليه أصبح على مستوى الأرض .

الجنة ثمنها في الدنيا طاعة الله عز وجل :

الآن هناك شيء يحتاج إلى تفصيل ، يعني أنت تستيقظ في الليل والظلام دامس تمشي في الغرفة ، إذا شيء أقل منك تدوسه ، وتكسره ، وإذا شيء أكبر منك كالحائط يكسرك ، إما أن تكسر أو أن تُكسر ، ما دام لا يوجد ضوء .

لذلك يضعون إضاءة خافتة لا تفسد عليك النوم ، لكن لو استيقظت ترى الطريق هذه الإضاءة الخافتة لا تحتمل التيار العالي ، يوضع لها محول صغير ، هذا المحول يوفق بين التيار الشديد ، وبين الإضاءة الخافتة .

هكذا قال بعض العلماء : لذلك الملك هو المحول ، يتلقى من الله الوحي ، ويقدمه للنبي ملطفاً ، محتملاً.

فالله عز وجل كلم موسى من وراء حجاب ، وأنزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل ، هذه بعض الحقائق المتعلقة بعمل الملائكة ، الملائكة أقرب إلينا من رؤية الله عز وجل ، شيء فوق طاقة البشر .

لذلك في الدنيا لن نرى الله ، إنك

(لَنْ تَرَانِي)

لن على التأبيد ، على تأبيد الدنيا لكن في الآخرة :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(سورة القيامة)

وفي بعض الآثار أن المؤمن إذا نظر إلى وجه الله الكريم يغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة ،

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

هذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض والتي فيها :

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذه الجنة ثمنها في الدنيا طاعة الله عز وجل .

الله عز وجل اصطفى سيدنا موسى مرتين مرة بالكلام و مرة بالرسالة :

أيها الأخوة ، سيدنا موسى لما رأى الذي رآه

(وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

أي لن أسألك مرة ثانية مثل هذا السؤال ، فالله عز وجل تحبباً به أراه أن هذا الجبل دُك دكاً حينما تجلى الله عليه ، أنت من لحم ودم . إذاً

(فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ)

لن أسالك مثل هذا السؤال مرة ثانية

(وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

الآن الله عز وجل طَيَب قلبه ، طمع إلى شيء فوق ما هو فيه ، طمع فوق أن الله كلمه ، طمع أن يرى الله ، كأن الله عز وجل يقول له :

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

الرسل جميعاً اصطفاهم الله عز وجل برسالة ، لكنك يا موسى اصطفيتك مرتين مرة بالرسالة ، ومرة بالكلام .

من قبل حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه :

(إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

هذه آية دقيقة جداً ، أي نحن جميعاً لأننا من بني البشر فقد قبلنا حمل الأمانة ، والذي قبل حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، هذا التسخير هذا يعني أن المسخر له أكرم عند الله من المسخر ، مهمتنا شيئان فقط .

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

العبادة

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

مهمتك أن تعبده ، وعلى الله الباقي مهمتك أن تعبده وإذا عبدته جاءك الخير من كل مكان .

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه الحاكم عن ثوبان]

الخير ، فنحن كبني البشر عندنا مهمتان ، أن نعبده ، وحينما نعبده يأتي الخير بعدها نشكره ، سيدنا موسى ، قال :

(إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

هذه نصيحة قرآنية

(فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ)

نفذ الأوامر

(وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

فنحن لأننا من بني البشر الله عز وجل كرمنا ، وميزنا وسخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، فعلينا أن نعبده وأن نشكره .

أيها الأخوة ، هذه القصة لها دلالات كبيرة جداً أن الإنسان يسعد أيما سعادة إذا اتصل بالله عز وجل ، نحن متاح لنا أن نصلي خمس صلوات ، متاح لك أن تصوم رمضان ، متاح لك أن تشكره ، متاح لك أن تقرأ القرآن ، متاح لك أن تتصل به ، وأسباب هذا الاتصال الاستقامة على أمر الله أولاً ، والأعمال الصالحة ثانياً .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(42-60): تفسير الآيات 145 - 147، العفو طريق الإنسان للتواصل و الرحمة و المودة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-06-20

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتابة تطمين للمؤمنين :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والأربعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

أولاً أيها الأخوة ، الكتابة تطمين للمؤمنين لأن الله لا يكتب ، ولكن الإنسان بحسب معطياته الأرضية الشيء المكتوب أثبت ، إذا في عقد أقوى ، إذا في وعد خطي أشد تأثيراً .

فلذلك الله عز وجل تمشياً مع عقلية الإنسان استخدم كلمة

(وَكَتَبْنَا لَهُ)

والحقيقة الله عز وجل لا يكتب ، لكنه الآمر الأعلى ، والكتابة تعزى أحياناً إلى من يباشرها ، وهو الملك ، أو من يتوسط بين الله وبين الملائكة ، أو تعزى إلى الآمر الأعلى ، على كلٍ الكتابة من أجل تطمين المؤمنين .

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

(سورة الأنعام الآية : 45)

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)

(سورة المجادلة الآية : 21)

كلمة كتب تفيد التطمين تفيد شيئاً ثابتاً ، لا يعدل ، لا يبدل ، لا يلغى ، لا يطور ، يعني ثبات أمر الله عز وجل أراد الله أن يعبر عن ثباته بكلمة

(وَكَتَبْنَا)

منهج الله عز وجل منهج تقريب من ذاته العلية :

أيها الأخوة ، الكتابة على الألواح ، ما كان في ورق ، عظم اللوح يُكتب عليه ، الجلد يُكتب عليه ، أي شيء مسطح يُكتب عليه فالمكتوب عليه هو الألواح .

(وَكَتَبْنَا لَهُ)

الهاء على من تعود ؟ على سيدنا موسى ،

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

أي كل شيء يقربك إلى الله مهما بدا صغيراً يكتبه الله ، وأي شيء يبعدك عن الله مهما بدا صغيراً ينهاك الله عنه ، لأن منهجه منهج تقريب من ذاته العلية ، فالذي يقربك يُكتب والذي يباعدك يُكتب ، لكن هذا الذي يتوهم أن القرآن فيه كل شيء هذه مبالغة لا طائل منها يعني العلم ميكانيك التربة في القرآن ، هذا شيء من اختصاص الخبراء في الدنيا ، أما الله عز وجل جعل القرآن كتاب هداية ، فأي شيء يقربك من الله تجد نصاً له في القرآن ، أو في السنة ، وأي شيء يبعدك عن الله تجد له أثراً في القرآن والسنة .

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

تحتاجه أيها الإنسان ، حينما جعلك الله في الأرض خليفة أنت بحاجة إلى منهج ، بحاجة إلى عقيدة ، بحاجة إلى أن تعلم من أنت ؟ ما سر وجودك ؟ ما غاية وجودك ؟ ما الذي ينبغي أن تفعله ؟ ما الحرام ؟ ما الحلال ؟ ما الخير ؟ ما الشر ؟ ما الجمال ؟ ما القبح ؟

الموعظة تذكير بتشريع سابق و ليست تشريعاً جديداً :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

يحتاجه الإنسان ، ليكون خليفة الله في الأرض ، كتبنا له موعظة تذكير لشيء سابق .

(وَعِظْهُمْ)

(سورة النساء الآية : 63)

ذكرهم .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم الآية : 5)

ذكرهم بنعم الله .

(وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)

(سورة النساء)

فالموعظة ليست تشريعاً جديداً ، ولكنها تذكير بتشريع سابق .

التناقض بين الطبع و التكليف ثمن الجنة :

(وَكَتَبْنَا)

لسيدنا موسى

(فِي الْأَلْوَاحِ)

في الأمكنة التي تكتب عليها الكلمات

(مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

يحتاجه الإنسان الذي جعله الله خليفته في الأرض

(مَوْعِظَةً)

تذكيراً بوحي السماء ، تذكيراً بكتاب الله عز وجل ، وتفصيلاً لكل شيء ، وفي ديننا والحمد لله الكليات في القرآن الكريم ، والتفاصيل في السنة المطهرة ، فالله عز وجل جعل نبيه مبيناً لما في القرآن .

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل الآية : 44)

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)

الإنسان له طبع ، ومعه تكليف ، مثلاً الطبع مرتبط بالجسم والجسم يميل إلى الراحة ، إلى الاسترخاء ، إلى النوم ، النوم المديد ، إلى أن يتمتع الإنسان بدفء الفراش في أيام الشتاء ، أما التكليف أن تستيقظ ، وأنت في نشوة النوم ، وأن تنزع عنك الغطاء وأن تتجه إلى الحمام ، وأن تتوضأ بالماء البارد كي تصلي الفجر ، فالتكليف يتناقض مع الطبع الجسم يميل إلى النوم ، والتكليف يأمرك أن تستيقظ . الإنسان لأن الله أودع فيه حبّ المرأة في طبعه ، ميله إلى أن يملأ عينه من محاسن النساء ، والتكليف أن يغض البصر .

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية : 30)

الموقف يتناقض مع الطبع ، الطبع يقتضي أن تأخذ المال ، المال قوام الحياة .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ و الفِضَّةِ)

(سورة آل عمران الآية : 14)

والتكليف يأمرك أن تعطي المال ، أن تنفق المال ، الطبع يقتضي أن تخوض في فضائح الناس ، والتكليف يدعوك إلى أن تصمت ، هذا التناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنة .

ممانعة النفس تحتاج إلى قوة إرادة :

لذلك :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)

لأن هناك ممانعة من النفس ، النفس تميل إلى الراحة ، إلى النوم ، إلى جمع الأموال ، إلى استغلال الآخرين ، إلى العلو عليهم ، إلى الترفع عنهم ، والتكليف يأمرك أن تكون واحداً من الناس . دخل أعرابي على النبي صلى الله عليه وسلم ما عرفه ، فقال : أيكم محمد ؟ ولا ميزة ، لا ثياب خاصة، ولا مكان خاص ، ولا جلسة خاصة ، ولا شيء تحته يجلس عليه أبداً ، مثله مثل أصحابه . فلذلك :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

يحتاجه الإنسان الذي جعله الله خليفته في الأرض ،

(مَوْعِظَةً)

تذكيراً لحكم شرعي ،

(وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)

لأنه في ممانعة ، في صراع ، في دعوة إلى الأرض ، دعوة إلى الشهوة ، إلى الراحة ، إلى استغلال الآخرين ، إلى جمع الأموال ، إلى الاستمتاع بالحياة ، وفي دعوة من الله إلى أن تنتصر على نفسك . لذلك التناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنة ، ممانعة النفس تحتاج إلى قوة إرادة .

الشهوة تحقق لذة آنية تعقبها كآبة والسعادة التي تتأتى من الطاعة تحقق سعادة مستمرة:

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

يعني الشهوة تحقق لذة للإنسان ، ما قال لك إن الشهوات لا يحبها الإنسان ، الشهوة محببة ، شيء طبيعي ، كل الشهوات التي أودعها الله فينا محببة إلى الإنسان ، الشهوة تقدم لك لذة آنية ، متناقصة يعقبها كآبة ، لكن تقدم لك لذة آنية متناقصة تتبعها كآبة ، هؤلاء الذين يُنشؤون المقاصف ، مع الخمور ، مع الراقصات ، مع المغنين تجد خمسين مركبة أمام مدخل هذه المقاصف ، ماذا يوجد في الداخل ؟ يوجد امرأة تغني وأخرى ترقص وهناك خمر ، و لحم ، و أكل ، هذه لذائذ كلها ، لكن طاعة الله عز وجل تعطيك سعادة متنامية ولا تنتهي بالموت ، تستمر حتى في القبر ، إلى أن تصل بك إلى جنة عرضها السماوات والأرض . لذلك

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)

في عندك ممانعة ، في عندك نفس قد تكون أمارة بالسوء أو أقل شيء ترتاح من دون أن تعمل صالحاً، ولحكمة بالغةٍ بالغة جعل الله الأعمال الصالحة تحتاج إلى وقت ، وإلى جهد ، وإلى مال ، وإلى إرادة قوية ،

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

أولاً : الله عز وجل حينما نهاك أن تأكل المال الحرام ، نهى مليار وخمسمئة مليون مسلم ألا يأخذوا المال الحرام ، الأمر لصالحك ، كم من المسلمين حولت لهم مبلغاً خطأ ردوه إليك ؟ لولا الأمر بتبرئة الذمة لما ردّ إليك المبلغ ، فإذا أمرك أن تكون أميناً أمر كل من حولك أن يكونوا أمناء معك ، إذا أمرك أن تكون مستقيماً أمر كل من حولك أن يكونوا مستقيمون معك .

إذاً الشهوة تحقق لذة آنية ، متناقصة ، تعقبها كآبة ، بينما السعادة التي تتأتى من الطاعة تحقق سعادة مستمرة متنامية تنتهي بك إلى الجنة .

العفو طريق الإنسان للتواصل و الرحمة و المودة :

إذاً

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

ما معنى بأحسنها ؟ الله عز وجل قال :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى)

ما دام في توجيه بالعفو أنت مكلف أن تأخذ من الأمرين أحسنهما ،

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

هذا حقك لكن :

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا)

(سورة التغابن الآية : 14)

(هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

(سورة المائدة الآية : 8)

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

هذه واحدة ، يعني أنت انتصرت على خصمك ولك أن تؤدبه تأديباً دقيقاً ، ولكن الله عز وجل يحنن قلبك عليه يقول لك :

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا)

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ)

(سورة البقرة الآية : 178)

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

إذاً الأحسن أن تعفو لا أن تأخذ حقك الذي شرعه الله لك ، يعني مثلاً :

قاتل قتل ، ولي المقتول من حقه أن يطلب إنزال عقوبة الموت بالقاتل ، هذا حقه ، لكن ولي المقتول لو عفا عن هذا القاتل يكون أسيره طوال حياته ، بعفوه بقي حياً ، صار في تقارب بين القبيلتين ، لا أحد يفكر أن ينتقم ، أي العفو هو أقرب للتقوى ، أقرب للمودة ، أقرب للتواصل ، أقرب للتراحم ، فالله عز وجل قال :

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

العدل و الإحسان :

الآن الله عز وجل قال :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

(سورة النحل الآية : 90)

العدل أمر ، وأمر قسري ، لكن الله أمرك أن تأخذ بالإحسان ، هناك قضايا لا تحل بالعدل ، تحل بالإحسان ، الشيء الذي لا يسعه العدل يسعه الإحسان .

فالانتصار وأخذ الحق مقبول ، والعفو مكرمة كبيرة ، يعني بكل شيء لك أن تأكل وأن تشرب ، أما الإفراط في الطعام والشراب له مضاعفات كبيرة جداً ، خذ من شهوة الطعام أحسن وضع فيه ، الاعتدال .

أحد الأدباء يقول : لي صديق كان من أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه ، فكان خارجاً عن سلطان بطنه ، فلا يشتهي مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد .

أي خذ الوضع المعتدل ، هذا في الطعام ، في العلاقة بالمرأة سمح الله لك بالزواج اكتفِ بزوجتك ، ولا تنظر إلى غيرها ، هذا الأمر الحسن ، أما أحياناً ضمن الحلال أربعة ، أربعة ترفاً ، يحتاج إلى مصروف كبير ، وهناك متاعب ، وخصومات ، ويخسر أولاده أحياناً .

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

من طبع الإنسان أن يستطلع ، أما التجسس تطرف ،

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

((مِنْ حُسْنِ إسلام المرءِ تِرْكهُ ما لا يَعنِيه))

[أخرجه زيادات رزين عن الحسين بن علي بن أبي طالب]

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[أخرجه البزار عن أنس بن مالك]

((أحْبِبْ حبيبَك هَوْنا مَّا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

(يَأْخُذُوا بأَحْسَنِهَا)

((وأبْغِضْ بغيضَك هَوْنا مَا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

اصنع المعروف مع أهله ، ومع غير أهله ، إن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله،

(وَأْمُرْ قوْمَكَ يَأْخُذُوا بأَحْسَنِهَا)

كلما ارتقى الإنسان أحبّ بعقله وكره بعقله :

الآن أنت أحببت إنساناً ، لا تظلم من لم تحب ، سيدنا عمر قال لشخص : والله لا أحبك ، قال له : أو يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ قال له : لا والله ، قال له : إذاً إنما يأسف على الحب النساء ، يعني أحبت إنساناً لا تظلم غيره من أجله ، أحياناً إنسان يتزوج امرأتين ، أحب الثانية كثيراً ، أهمل الأولى ، لم يعد يأتيها إلى البيت ، إذا دخل متجهماً ، بنظرات قاسية ، بكلام قاسٍ ، محبة الثانية جعلتك بحق الأولى ظالماً ،

(وَأْمُرْ قوْمَكَ يَأْخُذُوا بأَحْسَنِهَا)

أحسن ما في التعدد العدل ، لا تظلم الناس لصالح من تحب ، ولا تظلم من لم تحب ، بكل شيء خذ الوضع المعتدل ، الوضع الوسطي ، الوضع الذي كان عليه النبي وأصحابه قال :

((ما بال أقوام يقولون كذا و كذا لكني أصلي و أنام ، أصوم وأفطر ، و أتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن أنس]

لذلك هذا الموضوع ينقلنا إلى ما يسمى بالحب العقلي ، يعني قيام الليل يحتاج إلى جهد ، صلاة الفجر في المسجد تحتاج إلى جهد ، غض البصر يحتاج إلى جهد ، فالإنسان يحب غض البصر مع أنه يتناقض مع طبعه ، يحب صلاة الفجر في المسجد مع أن الصلاة في هذا الوقت تتناقض مع طبع جسمه (الخلود إلى الراحة)

لذلك هذا وضع معتدل ، وضع بين ترك الصلاة كلياً ، وبين أن يصليها في البيت دائماً خذ الوضع المعتدل .

إنسان أحياناً يكون معه أمراض معينة ، هناك أكلات يحبها كثيراً لكنها تؤذي جسمه يكرهها بعقله ، ويحبها بحسه ، والإنسان كلما ارتقى يحب بعقله ، ويكره بعقله .

طالب معلق آمالاً كبيرة أن يكون الأول على القطر مثلاً ، يُدعى إلى سهرة يرفضها السهرة محببة ، أصدقاؤه يحبهم ، هناك طعام لذيذ ، هناك طرف ، جو لطيف ، هذا محبب بطبعه لكنه يعيقه عن الدرجة الأولى ، يعتذر ، فأحب الدراسة بعقله ، لكنه يحب السهر مع أصدقائه بحسه ، بل يكره السهر مع أصدقائه بعقله ، كلما ارتقى الإنسان أحب بعقله ، وكره بعقله .

الآن على مستوى الغذاء ، هناك أكلات رائعة جداً ، لكنها تسبب متاعب في القلب والأوعية كثيرة جداً، فالإنسان كلما كان عقله راجحاً يكره هذه الأكلات بعقله ، يحبها بحسه ويكرهها بعقله .

الأعمال الصالحة تحتاج إلى جهد كبير ، المؤمن يحب الأعمال الصالحة بعقله ، وقد تكون متعبة كثيراً تتعب جسمه ، لكنها محببة إليه بعقله ، هذا معنى

(يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

من صبر على ما أصابه كان الله معه :

الآن الله عز وجل قال :

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

(سورة لقمان)

لكن في آية :

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

(سورة الشورى)

هذه اللام لام مزحلقة ، لام التوكيد ، لماذا ؟ قال : إذا القدر أتى من الله مباشرة يحتاج إلى صبر ، إنسان ابنه على الشرفة وقع فنزل ميتاً ، هذا قضاء وقدر ، هل يستطيع أن يقاضي إنساناً ؟ ابنه ، وفي بيت والده ، وابنه أخطأ ، أما لو أن سائقاً دهس ابنه ومات ، أمامه إنسان يقاضيه ، هناك إنسان تمّ إزهاق روحه على يد إنسان ، إذا جاء القدر على يد إنسان فأنت تحتاج إلى توحيد عالٍ جداً ، انتهى أجله على يد فلان ، فبدل أن تبطش ، تستسلم ، تأخذ حقك منه لكن من دون أن تحقد ،

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

هذا معنى

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

لك دَيْن عند إنسان ، استحق الدين ، لك أن تقيم دعوى عليه ، ويحجز على بيته وعلى محله التجاري ، لكن الله عز وجل قال لك :

(وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ)

(سورة البقرة الآية : 280)

هذا شيء آخر ، إذاً انتظار المعسر

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

حتى بعض العلماء قال : كيف لا أشكر الذي ظلمني ، لأنه جعل الله بجانبي ، الله عز وجل مع المظلوم دائماً قال : كيف لا أشكر من ظلمني ، لأن هذا الذي ظلمني جعل الله بجانبي ، بل بعضهم قال : لو يعلم الظالم كيف أن الله سيكون مع من ظلمه لضن عليه بظلمه ، فالله عز وجل أصبح معه كان معه ، وأيده ، ونصره .

ورود النار شيء ودخولها شيء آخر لأن دخولها عقاباً و ورودها إطلاعاً :

الآن :

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

الله عز وجل قال ، يخاطب المؤمنين :

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

(سورة مريم الآية : 71)

ورود النار غير دخولها ، ورودها أن يطلع على النار ، وعلى أهلها من دون أن يتأثر بوهجها .

أنا أضرب مثلاً : مرة كنا في معرض للثعابين ، وقفت أمام ثعبان يزيد طوله عن اثني عشر متراً ، وبيني وبينه أربعة سنتيمتر (بلور ستة ميلي بيننا) ، لا تتأثر ولا تخاف منه أبداً لأنه محجوز .

فالمؤمن أحياناً يرد النار ، يردها ليرى مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً ، لتزداد سعادته في الجنة ، لذلك الله قال للمؤمنين :

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

يوم القيامة يتطلع المؤمنون على النار ،

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

ورود النار شيء ، ودخولها شيء آخر دخولها عقاباً ، أما ورودها إطلاعاً ، أما المؤمن ، قال :

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

سأوريكم مصيرهم ، هؤلاء الطغاة .

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

هؤلاء الذين يدمرون الشعوب ، ينهبون الثروات ، يقتلون الملايين ، أي خمسة ملايين ، مليون قتيل ، مليون معاق ، وخمسة مشردون ، من أجل تهمة باطلة لا وجود لها ، يقول أسلحة دمار شامل ، لا يوجد شيء من هذه الأسلحة ، مليون قتيل ، مليون معاق ، خمسة ملايين مشرد ،

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

سأوريكم حسابي لهم العسير .

دار الفاسقين في الدنيا يراها المؤمن قاعاً صفصفاً و في الآخرة نار جهنم :

لذلك ورود النار نوع من رؤية المؤمنين لدار الفاسقين ، وأحياناً ترى الدار في الدنيا ، ترى بلاداً أصابها زلزال دُمرت عن آخرها ، هناك بلدة بالمغرب يرتادها السياح ، ولا يسمح لأبناء البلدة أن يدخلوا إلى المرافق العامة ، نوادي عُراة ، وفسق ، وفجور ، فيها فندق ثلاثين طابقاً(هولدي إن)أصابها زلزال ثلاثين طابقاً أصبحت تحت الأرض ، بقي آخر طابق عليه كلمة هولدي إن ، الشاهدة هذه شاهدة هذا القبر .

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

أي منتجعات سواحل آسيا ، شيء لا يوصف ، من فئة العشر نجوم ، تستقطب أغنياء أغنياء العالم ، الشركة فيها عشرين مديراً ، المدير العام يقضي عطلة الميلاد و رأس السنة في هذه السواحل والمنتجعات من فئة العشر نجوم ، وقد أرى الله هؤلاء رواد هذه المنتجعات النجوم ظهراً ، مات 25 ألف بزلزال تسونامي ، هؤلاء نخبة نخبة أغنياء العالم ، كيف أن الله استدرجهم .

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

أحياناً ترى زلزالاً ، طوفاناً ، بركاناً .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

هذا في أماكن زلزال تسونامي رئيس وزارة ببلد يلقي خطاباً ويفتخر أنه ليس في شعبه فتاة عذراء أبداً، لأنه بلد يعيش على الدعارة ، لا يوجد فتاة عذراء .

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

هناك آيات ، وهناك عبر ، و زلازل ، و براكين ، و فيضانات ، و أعاصير ، الإعصار يقول لك خسارة ثلاثين ملياراً .

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

دارين ، دار في الدنيا (يراها المؤمن قاعاً صفصفاً) ودار في الآخرة جهنم .

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

ما أعظم العبر ، وما أقل المعتبرين .

من تكبر ظلم نفسه فالله عز وجل له أن يتكبر لأن وجوده لا يتعلق بجهة ثانية :

ثم يقول الله عز وجل :

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

(سورة الأعراف)

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ)

الله له آيات ثلاث ، آيات كونية (خلقه) وآيات تكوينية (أفعاله) وآيات قرآنية (كلامه) هذا المتكبر لا يصغي إلى آيات الله ، متكبر .

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

من الذي له حق أن يتكبر ؟ الله وحده ، لأنه صمد ، وجوده ذاتي ، وجوده لا يتعلق بجهة ثانية ، أما أنت وجودك متعلق بإمداد الله لك ، في أي لحظة موت مفاجئ ، فكل إنسان وجوده ليس ذاتياً لا يحق له أن يتكبر ، فإذا تكبر ظلم نفسه .

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا)

كبراً ، واستعلاءً ، مأخوذ بصناعات البشر ، ولا يؤخذ بآيات الله الدالة على عظمته ، يقول لك الآلة الفلانية ، المركبة الفلانية ، اليخت الفلاني ، الطائرة الفلانية ، الحاسوب الفلاني ، الجوال الفلاني ، مأخوذ في صنع البشر ، ويتعامى عن دقائق خلق الله عز وجل .

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا)

مرة المتنبي قال : أي عظيم أتقي ، وأي مكان أرتقي ، وكل ما خلق الله وما لم يخلق محتقر في نظري، كشعرة من مرفقي .

لما سمي المتنبي ؟ ادعى النبوة ، قال :

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

(سورة الشعراء)

قال :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

خرج عليه أحد أعدائه فولى هارباً ، فقال له غلامه : ألست القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني .

كلام فارغ ، قال له : قتلتني قتلك الله .

اتباع الكفار سبيل الغي لأنه يوفر لهم كل طموحاتهم الشهوانية :

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً)

يقول أحدهم : صعب الدين ، الدين ينهاك أن تأخذ المال الحرام ، كل حياته بالحرام ، الدين يأمره بغض البصر هو يعيش مع النساء الكاسيات العاريات ، الدين صعب عليه ، دخله حرام ، وعلاقاته مع النساء حرام ، وكلامه في كذب ، وفي استغلال ، وفي دجل ، وفي استعلاء ، فالدين لا يناسبه ، الدين قيود بالنسبة له ، قال :

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً)

لا يتناسب مع طموحاتهم الشهوانية .

(وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ)

رائع جداً ، حرية ، اختلاط ، الربا حلال ، الاختلاط حلال ، تقريباً معاصي لا يعلمها إلا الله في هذه الخلوات تتم ، و لا يوجد أي قيد ، ولا أي شرط ، لا يوجد قيد أبداً ، كل شيء مباح ، فهذا سبيل الغي أريح ، العلمانية والله أريح من الدين ، الدين كله قيود ، العلماني ما في إله ، المؤمن هذه حرام ، وهذه حلال ، هذه لا ترضي الله ، هذه أحاسب عنها يوم القيامة .

(وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ)

الغي يعجبهم ، العلمانية تعجبهم ، الفكر الذي ينحي الدين جانباً يعجبهم ، يا أخي ! الدين كله قيود .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

يعني سبيل الغي يطلق العنان لشهواتهم ، والإيمان يحرمهم من طموحاتهم الشهوانية .

لذلك هذا الذي يتكبر بغير الحق ، هو عبد ، قلبه بيد الله ، نمو خلاياه بيد الله ، قطر شريانه التاجي بيد الله ، حركاته بيد الله ، سكناته بيد الله ، هو في قبضة الله ، ويتكبر ، الكبر حمق ، الكبر غباء ، الرب رب ، والعبد عبد ، من شأن العبد التواضع ، من شأن الله عز وجل أنه العلي الأعلى ، بيده مقاييد السماوات والأرض .

أيها الأخوة ، الإيمان بنظرهم يحرمهم شهواتهم ، بينما الغي يوفر لهم كل طموحاتهم الشهوانية .

من ابتغى بعمله الدنيا فعمله لا وزن له يوم القيامة :

أيها الأخوة :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

معنى إحباط العمل قد يكون للعمل صورة رائعة ، لأن الإنسان ابتغى منه الدنيا ، ابتغى منه السمعة ، هذا العمل لا وزن له يوم القيامة .

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

(سورة الفرقان)

هذا معنى إحباط العمل ، لو كان عمل صورته رائعة ، مستشفى مثلاً ، ميتماً ، القصد أنه إنسان اجتماعي ، معطاء ، فهمه للحياة عميق ، يقدم الخير للمجتمع ، ولا يلتفت إلى الله إطلاقاً ، ولا يبتغي بهذا العمل وجه الله عز وجل ، هذا حبط عمله ، وقد يكون العمل سيئاً .

بعض البلاد المحتلة أنشؤوا دار قمار ، لها دخل كبير ، أنتم تجاهدون عدواً شرساً تنشؤون دار قمار ؟ كي تعطوا الله حجة لعدم نصرتكم على أعدائكم .

من لم يبتغ بعمله وجه الله عز وجل فعمله سيئ :

لذلك إما العمل سيء ، أو العمل ظاهره حسن لكن ليس وراءه إخلاص لله إطلاقاً قال :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أعمالهم)

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

(هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قال معنى حبط ؛ انتفخ ، وتورم ، من علة ومرض ، قال :

أعيدها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

* * *

من كثرة القتل انتفخت رجليه ، هذا ليس سمناً ، هذا ضرب ، فالمحبط عمله ، عمله كبر ، كبر أصبح ورماً خبيثاً ، انتفخ وتورم من علة ومرض ، وتوهم حاله أنه إنسان عظيم ، ماذا فعل هتلر ؟ أنهى حياة خمسين مليون ألماني ، نتائج الحرب العالمية الثانية ، يظن عمله عظيم يقول لك : أتينا من أجل الحرية، خمسة ملايين بعضهم مشرد ، وبعضهم مات ، وبعضهم معاق من أجل الحرية ، أي حرية هذه ؟.

من أحبط عمله فعمله فاسد أو في ظاهره صالح ولكن لم يبتغ به وجه الله إطلاقاً :

إذاً حبط عمله ؛ كبر هذا العمل من مرض ، كبر من علة ، لذلك قال تعالى :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

إحباط العمل إما أنه فاسد ، أو أنه في ظاهره صالح ، ولكن لم يبتغَ به وجه الله إطلاقاً لذلك قال تعالى :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)

(سورة النور)

أيها الأخوة ، هذه الآيات الثلاث :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ * سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(43-60): تفسير الآيات 138 - 153 ، اتخاذ قوم موسى غيابه سبباً لكفرهم وشركهم بالله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-07-04

بسم الله الرحمن الرحيم

اتخاذ قوم فرعون العجل إلهاً و عبادته من دون الله :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والأربعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)

قوم موسى رأوا بأعينهم كيف أن البحر أصبح طريقاً يبساً ، رأوا بأعينهم هذا الطاغية الذي ما كان أحد يصدق أن يموت ، وقد أهلكه الله عز وجل ، قوم موسى رأوا هذا النبي الكريم ينزع :

(يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

يضرب :

(عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

هؤلاء ما الذي فعلوه ؟

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ)

وعبدوه من دون الله ، هذا كلام يحتاج إلى تعليق .

الشرك الخفي و الشرك الجلي :

أحياناً إنسان يعبد إنسان دون أن يشعر ، يطيعه ويعصي الله ، يعلق عليه الآمال ، يتوكل عليه ، يعطيه كل حبه ، وكل ولائه ، ولا يعبأ بمنهج ربه ، هذا نوع آخر ، ألا ترى إلى الشمس ، إلى القمر ، إلى النجوم ، إلى الأمطار ، إلى خلق الإنسان .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

إلى طعام الإنسان ، إلى شراب الإنسان ، إلى الماء العذب الزلال ، ألا ترى هذه الآيات الدالة على عظمة الله ؟ فكيف تطيع إنساناً وتعصي خالقك ؟ كيف تطيع مخلوقاً ضعيفاً وتعصي خالق السماوات والأرض ؟ الصورة اختلفت أما حقيقة الشرك واحدة .

لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراك بالله أما إني لست أقول يعبدون شمساً و لا قمراً و لا وثناً و لكن أعمالاً لغير الله و شهوة خفية))

[أحمد و ابن ماجه عن شداد بن أوس]

هذا المعنى تؤكده الآية الكريمة :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الشرك الجلي لا وجود له في العالم الإسلامي ، ولكن الشرك الخفي أن تطيع مخلوقاً وتعصي خالقك ، أن تطيع زوجتك ، وتعلق عليها كل الآمال ، وتكسب المال الحرام إرضاءً لها هذا شرك .

عظمة الله عز وجل تظهر في الكون بواقعه الحالي أكثر مما تظهر بخرق نواميسه :

على كلٍ هم رأوا المعجزات الحسية ونحن نرى الآيات الكونية ، الكون لا نهاية له ، آلاف مليارات المجرات ، وكل مجرة ملايين ملايين الكواكب ، وخلق الإنسان آية ، وخلق النبات آية ، وخلق الحيوان آية ، نزول الأمطار آية ، الماء آية ، الهواء آية ، نحن محاطون بآيات لا تعدّ ولا تحصى ، والحقيقة أن عظمة الله عز وجل قد تتبدى في الكون بواقعه الحالي أكثر مما تتبدى بخرق نواميسه ، لكن من ضعف الفهم قديماً كانت المعجزة خرق النواميس ، لكن الآن خلق الإنسان .

تمشي في الطريق تستمع إلى بوق مركبة تنزاح نحو اليسار ، هل تدري ما الذي حصل ؟ أودع الله في دماغك جهازاً دقيقاً جداً ، يحسب هذا الجهاز تفاضل وصول الصوت إلى الأذنين ، الصوت من هنا هذه أقرب ، وهذه أبعد ، التفاضل واحد على ألف وستمئة و خمسين جزءاً من الثانية ، هذا الجهاز من أجل أن تعرف جهة الصوت ،

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

من أجل أن ترى البعد الثالث .

حاسة الشم عشرين مليون عصب شمي ، ينتهي كل عصب بسبعة أهداب ، الهدب مغطى بمادة تتفاعل مع الرائحة ، ينشأ شكل هندسي ، رمز الرائحة ، يشحن للدماغ ، هذا الرمز يعرض على الذاكرة الشمية، عشرة آلاف بند ، حيث ما يطابق الرمزان تكتشف أنه يوجد بالطعام المادة الفلانية .

أتحسب أنك جرم صغير

*** * ***

عبادة اليهود للأوثان التي لا منهج معها و لا يُنتفع بعبادتها :

أنا بدأت أن قوم موسى رأوا العصا التي ألقاها فأصبحت

(هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

رأوا يد سيدنا موسى نزعها فإذا هي كالكوكب الدري ، رأوا العصا ضُرب بها البحر أصبحت طريقاً يبساً ، ثم عبدوا العجل من دون الله ، ونحن معنا آيات ناصعات ، بينات ، واضحات ، كل شيء واضح، ومع ذلك :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

هذا الذي يغتصب بيتاً لا يرى أنه سيحاسب ؟ هذا الذي يأكل المال الحرام لا يرى أنه هناك إله عظيم سوف يحاسبه على ذلك ؟ المشكلة واحدة ، الصورة مختلفة .

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ)

هو ذهب إلى المناجاة ، ولعله أمضى أربعين ليلة ظنوه لا يرجع ، وكأن الدين مرتبط بسيدنا موسى ، فإذا غاب مديداً تحللوا من عبادات الله عز وجل .

لذلك ماذا قال الصديق ؟ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، الرسالة مستمرة ، الرسالة هذا المنهج الذي جاء به النبي الكريم مستمر .

لكن أيها الأخوة ، نقطة دقيقة جداً الآن ، الإنسان حينما يعبد عجلاً من ذهب صنعه الإنسان ، هذا العجل عنده منهج ؟ لا يوجد شيء ، له أمر ؟ له نهي ؟ لا ، الذين عبدوا الشمس معها منهج ؟ الذين عبدوا البقر في الهند ، البقرة معها منهج ؟ هل هناك أوامر ؟ هل هناك نواهٍ ؟ هل هناك وسائل للتقرب من الله ؟ هناك وسائل للبعد عنه ، معاصي تبعدك عنه ، في أسباب سلامتك ، في أسباب سعادتك ، هذا العجل ماذا يفعل ؟.

الله عز وجل مع الإنسان أينما كان يحاسبه على كل تصرف صدر عنه :

لذلك بالمناسبة : قد يعجب الإنسان يقول تسعمئة مليون بوذي ، لماذا عبادات الأديان الأرضية الوضعية أتباعها كثر ، أعتقد في سبب ، والسبب واضح ، لأنه ما في منهج ، القضية سهلة ، افعل ما شئت ، أعلن ولاءك وافعل ما شئت ، إذا عبد الإنسان شيئاً دون الله عز وجل هذا الشيء ما له منهج ،

بالإسلام في أمر ، في افعل و لا تفعل ، في حرام ، في حلال ، في واجب ، في سنة ، في فرض ، في مندوب ، في شيء لا يجوز ، في شيء مستقبح ، في شيء مستحسن ، في شيء يغضب الله ، المسلم أمام منظومة لا تنتهي من الأوامر والنواهي .

وأساساً تخلف المسلمون حينما فهموا أن الدين عبادات شعائرية فقط ، كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، وما أكثر الأوامر في القرآن الكريم ، وما أكثر الأوامر في السنة المطهرة ، أنت أمام منهج .

فلذلك عبادة الأوثان سهلة جداً ، عبادة البقر سهلة جداً ، الحجر ، الشمس ، القمر هذه الجوامد لا منهج معها ، لا تنتفع بعبادتها ، وأحياناً أضيف على ذلك : وأن تعبد إنساناً ليس معك ، تعلن ولاءك له ، وتفعل ما تشاء ، تأخذ من الأموال ما تشاء ، وتظلم ما تشاء ، ليس معك هو .

لذلك من السهل بمكان أن تعبد إنساناً ليس معك ، تتلقي به وتكون في أعلى درجات الأدب والمحبة والولاء ، مرتاح ، تبتعد عنه تكون وحشاً مع الناس ، عبادة الأشخاص سهلة جداً ، أما أن تعبد الله هو معك ، لو حلفت يميناً كاذبة سقطت من عينه ، لو كذبت سقطت من عينه ، لو ظلمت هرة سقطت من عينه ، لو قتلت مخلوقاً لا يحق لك أن تقتله سقطت من عينه ، الفرق كبير جداً بين أن تعبد مادة ، حجر، شمس ، قمر ، بقرة ، نار ، وبين أن تعبد خالق السماوات والأرض .

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية : 4)

معك يحاسبك .

الله عز وجل مُطلع على نوايا كل إنسان :

لذلك لا يمكن لأمر شرعه إنسان أن ينفذ مئة بالمئة ، هذا الأمر ينفذ مادام هذا الإنسان يطولك علمه ، أوضح مثل قانون السير ، ما دام في النهار كله واضع الأحزمة أما الساعة الثالثة بالليل ، لما الإنسان يضع قانون هذا القانون يطبق حينما يكون واضع القانون يطولك علمه ، أو تطولك قدرته ، أما إذا كنت مع الله والله بأي لحظة معك ، أوضح مثل :

بشهر رمضان ، في شهر آب ، والحر لا يحتمل (الحرارة خمس و أربعون)والعطش يكاد لا يحتمل تدخل لبيت ، للمطبخ ، تفتح الثلاجة ، في ماء بارد تستطيع أن تضع نقطة ماء في فمك ؟ لا تستطع ، لأن الله معه ، عظمة الدين شيء لا يصدق ، بينما بالأنظمة الوضعية ما دام واضع القانون ليس معك تستطيع أن تفعل كل شيء ، فرق كبير بين أن تطيع خالقاً معك ، مطلع على نواياك .

كلمة أقولها : مريض مخدر في مثلاً حاجة ثمنها 150 ألف توضع في أحد شرايين قلبه ، هي متفاوتة بالأسعار ، هناك قسم غالٍ جداً ، هناك قسم رخيص جداً ، إن وضعت الرخيص وهو مخدر ، وتمّ وضع هذا النابض في أحد أوعية القلب ، وانتهت العملية وخيطت وانتهى الأمر يستطيع المريض أن يكشف الخطأ ؟ ما في قوة تكشفه إلا الله ، وضعت نوع سيئاً جداً وسجلت بالفاتورة نوع غالٍ جداً .

الحياة لا تستقيم إلا بالإيمان بالله :

هناك أخطاء لا يمكن حتى بالقانون نكشفها، إن قال لك الطبيب: أريد عشرة تحاليل تستطيع أن تناقشه؟ لا تستطيع، من يراقبه ؟ الله عز وجل ، أقول لكم كلمة أخرى : الحياة لا تستقيم إلا بالإيمان بالله ، ما دام واضع القانون إنسان ، والإنسان المواطن قد يكون أذكى من واضع القانون .

مرة كنت بأمريكا ، واضعين أجهزة لكشف السرعات الزائدة ، كنت بمركبة سمعت صوتاً جديداً لم يكن ، ما هذا الصوت ؟ قال لي : هذا الصوت جهاز اشتريناه ينبهنا عن قرب جهاز وضع لكشف السرعات الزائدة ، معناها التغت العملية ، جهاز وضع بالمركبة ، ينبه السائق إلى أن الجهاز الذي سيكشف السرعة الزائدة اقترب ، انتبه ، انتهى إذاً .

إذا إنسان واضع قانون المواطن قد يكون أذكى منه ، فكل شيء يوضع يأتي مواطن يستطيع أن يحتال ويلغي مفعوله ، لذلك الآن الضبط بالعالم الغربي إلكتروني ، ضبط بالغ الدقة قطع الكهرباء بليلة واحدة تمت 200 ألف سرقة ، مجموع المسروقات 30 مليار دولار ، لأن الضبط إلكتروني ، ما في كهرباء ما بقي في ضبط .

لذلك تدخل سوق كبير في العالم الغربي ، أنا أقول ما في أمن ، إن لم تدفع ثمن السلعة اللصاقة التي على السلعة فيها مادة إن لم يؤشر عليها أنها دفعت تصدر صوتاً أمام قوس تغلق الأبواب آلياً ، من هو الأمين في هذا السوق ؟ ضبط عجيب ، لذلك كلما كان الضبط إلكتروني كان الأجر لا شيء ، لا يوجد أجر .

ربط اليهود الدين بوجود سيدنا موسى عليه السلام :

القصة أنه

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ)

غاب عنهم في المناجاة فربطوا الدين بوجوده ، فلما غاب عنهم عبدوا هذا العجل ،

(مِنْ حُلِيِّهِمْ)

من قطع ذهبية كانت معهم في تعبير لطيف أنه ذهب يشبه الإنسان ، بطيء الكسر ، سريع الالتئام .

(عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ)

يبدو أن هذا الذي صنع العجل لو نفخت في مكان في هذا العجل لأصدر صوتاً كصوت العجل ،

(لَهُ خُوَارٌ)

طبعاً العجل جسد لكن ما فيه روح تصور إنسان يرى في بعض المحلات لبيع الأقمشة تمثال لامرأة من شمع ، والمرأة الحقيقية ، كم هي المسافة ؟ أحياناً وردة بلاستيك بينها و بين والوردة الحقيقية فرق كبير في حياة .

(عِجْلاً جَسَداً)

يعني جثة ما فيها روح ،

(لَهُ خُوَارٌ)

قال تعالى :

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً)

سبيل السلامة ، سبيل السعادة ، سبيل القرب من الله ، سبيل الأمن ، سبيل الحكمة ، سبيل الراحة النفسية ، سبيل الرضا ، سبيل التفوق ، سبيل التفاؤل ، سبيل قوة الشخصية .

(وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)

كانوا ظالمين لأنفسهم ، سبحان الله الإنسان مع الله ، الله يحفظ ، الله يلهم ، الله ينعم ، الله يدافع عنه ، الله يقويك ، الله ينصرك ، الله يوفقك ، الله يوفقك بزواجك ، بعملك ، بصحتك ، بسمعتك .

المؤمن وقاف عند كتاب الله و سنة رسوله و الكافر لا مولى له :

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

(سورة محمد)

مثل واضح جداً ، لكنه مؤلم : تصور ابن له أب محترم ، أب مربٍ ، أب عالم وغني ، اعتنى بتربيته عناية صار شخصية فذة ، علماً ، وأدباً ، وديناً ، وسلوكاً ، تابعه متابعة دقيقة جداً ، تابع له صحته ، دراسته ، دينه صلاته ، أناقته ، ثيابه ، كلامه ، حتى أوقات فراغه ، صرفها فيما ينفعه ، هذا الابن للتقريب كالألماسة ، إذا ابن يتيم مات أبوه ، ومتشرد ، كل يوم بمخفر ، وكل يوم بمأوى أحداث ، وفي فاحشة ، وفي سرقات ، وكلامه بذيء ، وثيابه رثة ، وحركاته مؤلمة ، في موازنة بين هذا الطفل ، والذي له أب يرعاه ، وبين هذا الطفل المشرد ؟

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

مسكين الكافر ليس له مولى ، أحياناً يكون تدميره في تدبيره ، أما المؤمن وقاف عند كتاب الله .

سائق تكسي أشارت له امرأة ، أين ؟ قالت له : خذني إلى أي مكان تريد ، عد هذا مغنماً كبيراً ، قضى حاجته ، وأخذ رسالة منها ، ظنها مبلغاً من المال كبير ، فتحه : مرحباً بك في نادي الإيدز .

يكون تدميره في تدبيره ، قد يعد المغرم مغنى ، لذلك النبي الكريم في أدعيته الشريفة يقول :

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

الذي يرى أنه لا يكلمهم ، مرة بعض القبائل صنعت إلهاً من تمر ، فلما جاعت أكلته مرة في صنم جاء الذي يعبده رأى ثعلباناً قد بال على رأسه ، فقال : أرب يبول الثعلبان برأسه ! معقول ؟! لقد ضل من بالت عليه الثعابين .

العاقل من شكر الله عز وجل على نعمة الهدى :

والله يا أخوان هناك معلومات يصعب تصديقها ، في قبائل في آسيا تعبد الجرذان عندي تحقيق مطور مع الصور ، بناء فخم ، حجر منحوت ، والآلهة في هذا البناء هم الجرذان والأتباع يأتون ، يقفون على ظهورهم ، وعلى رؤوسهم ، يقدمون لهم الحليب ، والطعام الطيب ، هناك من يعبد ذكر الرجل في اليابان ، هناك من يعبد موج البحر ، اشكروا الله عز وجل ، نعبد الله ، نعبد خالق السماوات والأرض ، نعبد الذي معنا في كل حين ، نعبد الذي بيده كل شيء ، نعبد الذي بيده أعداؤنا ، والأقوياء ، نعبد الذي يسمعنا ، من يستجيب لنا ، من ينصرنا ، من يرحمنا .

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)

أنتم طبعاً وجدتم مفارقة حادة أن أشخاصاً رأوا البحر أصبح طريقاً ، رأوا فرعون غرق أمامهم ، رأوا آيات وأدلة ، ومع ذلك يعبدون عجلاً من الذهب ،

(لَهُ خُوَارٌ)

لاشك أنكم مندهشون لهذه المفارقة الحادة ، والله الذي لا إله إلا هو في كل عصر إنسان يؤذي الناس ، يبتز أموالهم ، ولا يعلم أن الله سيحاسبه حساباً عسيراً .

أذكر قصة ، طالب من طلابي خاله صاحب دار سينما ، سينما مستواها منحط جداً تستقطب الشباب ، الصائعين ، المنحرفين ، الشاردين ، بنى ثروة كبيرة جداً على حساب أخلاق الشباب ، بالأربعينات جاءه المرض الخبيث ، قال لي : كنت في زيارته صار يبكي أمامي ، قال لي : جمعت هذا المال الكبير حتى أستمتع به في حياتي ها قد عاجلني المرض ، ولم أستمتع به .

الله كبير ، أغبى إنسان الذي لا يدخل الله في حساباته ، لا تعجبوا بهذه المفارقة الحادة نعيش مفارقات أكثر منها حدة ، اغتصاب بيت ؟ ما في آخرة ؟ ما في يوم حساب ؟ تطليق زوجة تطليقاً تعسفياً ، كتبت له البيت ثم طلقها ، ظلم ما في عليه حساب ، والله في ظلم بالعالم الإسلامي بالبيوت ، بالطبقة الدنيا في ظلم لا يعلمه إلا الله ، وكل واحد يظلم الناس يظن أنه لن يحاسب .

العاقل من أدرك خطأه قبل فوات الأوان :

(وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(سورة الأعراف)

يبدو هناك قسم من هؤلاء كانوا في غفلة ، فلما أدركوا الخطأ ، خطأ كبير .

(وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ)

شعروا بخطئهم الفادح ، شعروا بهذا الانحراف الخطير إله عظيم أراكم على يد نبيه معجزات ، وتعبدون

(عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ)

(وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

على كلِ جيد أن الإنسان بعد الخطأ أدرك الخطأ ، الآن سيدنا موسى :

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأعراف)

سيدنا موسى نبي كريم ، من أولي العزم ، ذهب لمناجاة الله عز وجل ، وهو كليم الله ، ذهب أربعين ليلة ، في هذه الليالي الأربعين انحرف قومه انحرافاً شديداً ورجعوا وثنيين .

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً)

أيضاً نفهم شيئاً ، هل تحمل هم المسلمين ؟ هل يؤلمك تقصيرهم ؟ هل يؤلمك انحرافهم ؟ هل يؤلمك انغماسهم في الملذات ؟ هل تتألم لهم ؟ هل تسعى لهدايتهم ؟ هل تقلق على مستقبلهم ؟ كلما كانت اهتماماتك واسعة تشمل قطاعاً كبيراً من الناس كلما كنت أقرب من الله عز وجل .

(غَضْبَانَ أَسِفاً)

الآن كأنه في شعور ، مادام دخلك وفيراً ، وصحتك جيدة ، وبيتك جيد ، مركبتك جيدة ، ما لك وللناس، لا يخطر في باله يعين إنساناً ، يأخذ بيد إنسان ، يهدي إنساناً ، أقول لكم أيها الأخوة : الدعوة إلى الله(أنا أقول كلاماً معه أدلة) فرض عين على كل مسلم ، الكفاية وضع آخر ، فرض الكفاية هو التبحر ، والتفرغ ، والتعمق ، وأن تملك أدلة وأجوبة ورد على كل شبهة ، هذا فرض الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الكل ، بكل بلد مجموع من العلماء الكبار ، هؤلاء فرض كفاية ، أما كل واحد من الأخوة الكرام فرض عين أن يكون داعية في حدود ما يعلم ، ومع من يعرف ، سمعت آية ، سمعت حديثاً ، سمعت قصة ، تأثرت .

((بلّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

تبلغ من ؟ زوجتك ، أخوك ، ابنك ، عمك ، ابن عمك ، خالك ، ابن خالك ، زميلك بالوظيفة ، جارك ، كنا بندوة ، بسهرة ، بنزهة ، ماذا سمعت يوم الجمعة ؟ عود نفسك تكتب نقاطاً أساسية يوم الجمعة ، أن تجعل هذه النقاط محور حديث طوال الأسبوع ، زرت أختك ، جالس صهرك ، وابن أختك ، وأختك ، وسمعت تفسير آية تأثرت بها ، بلغهم ، اكتب عندك هذه النقاط التي تحب ؟ وزع شريطاً ، ليس هدية ، إعارة ، حتى يسمعه ، سمعه أعطه شريطاً آخر .

والله في أخ من إخوانا لا يحسن الدعوة إلى الله ، أمن مئة شريط ، ووزعهم على أقربائه ، وتابعهم ، أربعة ، خمسة ، عشرة ، صاروا بالجامع من أقربائه ، لما الإنسان يصدق الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم ، في حدود ما تعلم ، ومع من تعرف ، يعني أقرباؤك أصدقاؤك ، جيرانك ، زملاؤك .

غضب سيدنا موسى الشديد بسبب تنكر قومه لعبادة الله عز وجل :

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ)

يعني وجدتم غيابي طويلاً فعبدتم إلهاً آخر .

(أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ)

أخوه نبي كريم ، لكن غضبه كان شديداً .

(يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي)

يبدو أن سيدنا موسى عاش مع أخيه أمداً طويلاً في رعاية الأم ، يبدو أن الأب كان متوفى في وقت مبكر جداً .

(قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي)

اسمع مني .

(وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

أنا دعوتهم ، منعتهم ، حذرتهم ، ما تركت طريقاً إلا سلكته ، لكنهم أصروا على أن يعبدوا العجل فلما بالغت في الإصرار

(وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي)

(قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي)

ـ أنا واحد ـ

(وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ)

خلافي معك ، وخلافك معي أمام هؤلاء الذين تنكروا لهذه الدعوة يشمتون بنا .

أنا أقول أيها الأخوة الدعاء :

((اللهم إنا نعوذ بك من شماتة الأعداء ، ومن السلب بعد العطاء ، ومن عضال الداء))

خروج سيدنا موسى عن طوره بسبب شدة إيمانه و ألمه من قومه :

(قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

أنا لم أقصر ، يبدو أن سيدنا موسى سكت عنه الغضب ، أحياناً الإنسان من شدة إيمانه ، من شدة حرصه ، من شدة غيرته ، من شدة ألمه ، قد يخرج عن طوره

(وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ)

في آية أخرى :

(لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي)

(سورة طه الآية : 94)

من أين جره ؟ من لحيته .

(وَلَا بِرَأْسِي)

(سورة طه الآية : 94)

(إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

سيدنا موسى عاد إلى نفسه ، قال :

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة الأعراف)

يعني كل واحد منا إذا أخطأ ينبغي أن يستغفر الله ، وأن يرجع إليه ، ليس لنا إلا الله .

من أراد أمراً فليتدبر عاقبته :

لكن الله عز وجل يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ)

(سورة الأعراف)

أين عقلك ؟ أين إيمانك ؟ من أراد أمراً فليتدبر عاقبته ، يعني الإنسان لأن يسقط من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله ، مؤمن مريض ممكن ، فقير ممكن ، زواجه غير ناجح ممكن ، ما رزقه الله بالأولاد ممكن ، كله ممكن ، لكن تعصي الله ؟ تأخذ ما ليس لك ؟ تحلف يميناً كاذباً ؟.

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

يعني المؤمن أكبر عطاء له أن الله يعزه ، ويرفع قدره ، وأي عمل فيه شرك معه ظلم .

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)

(سورة الزمر الآية : 65)

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية : 151)

غضب الله عز وجل شديد و مدمر :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ)

يعني غضب الله شيء مدمر .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

والله أروي قصة كثيراً لكنها مؤثرة : إنسان راكب مركبته إلى المطار موظف هناك لكن موظف رفيع المستوى ، أراد أن يعرض خبراته الدقيقة في القيادة على من إلى جانبه ، فهناك جرو صغير في أيام الشتاء الزفت الأسود أكثر دفئاً من التراب لأنه يمتص أشعة الشمس ، فهذا الجرو جالس على طرف الطريق ، فاستطاع قائد هذه السيارة بمهارة بالغة أن يقص يديه فقط دون أن يدهسه كله ، وأطلق ضحكة هستيرية ، يقسم لي بالله من كان إلى جانبه ، في السبت القادم بعد أسبوع ، في المكان نفسه إحدى العجلات أصبحت بحاجة إلى إصلاح ، وقف ، عنده رافعة ، رفع المركبة ، وحرر العجلة ، فالرافعة فاسدة انكسرت وقعت المركبة فوق العجلة بشكل أفقي ، والعجلة فوق رسغيه فهرستا ، إلى أن

وصل إلى المستشفى اسودت يداه وقطعتا ، يقسم بالله أنه بالسبت الماضي قطع يدي جرو صغير ، وفي السبت الذي تلاه قطعت يداه من الرسغين ،

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

والله أيها الأخوة ، هناك آلاف القصص لكن نحن مشكلتنا القصة نعرفها من آخر فصل ما لها معنى ، الذي راكب إلى جانبه قال لي : أمامي دهس ، أو سحق يدي جرو صغير وضحك ، في السبت القادم قطعت يداه ،

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

التوبة النصوح أساس مغفرة الله عز وجل للإنسان :

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الأعراف)

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا)

إنسان عمل سيئاً ، تاب ، وأصلح ، وعقد العزم على توبة نصوح

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

أعتقد أنه في أكثر من ثماني آيات في القرآن الشرط في التوبة :

(مِنْ بَعْدِهَا)

من بعد التوبة ، وبعد الإصلاح ، وبعد العمل الصالح

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(44-60): تفسير الآيات 154 - 156، تأديب الله لقوم موسى لما عبدوا العجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-07-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الأنبياء قمم البشر تجري عليهم كل خصائص البشر :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

أيها الأخوة ، أولاً سيدنا موسى نبي من أولي العزم ، لكنه بشر ، يغضب كما يغضب البشر ، ولولا أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، هو يغضب ، ويتألم ، ويفرح ، ويخاف ، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((لقد أُخِفْتُ في الله ما لم يُخَفْ أحدٌ ، وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد ، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة ، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

فالأنبياء قمم البشر ، لكنهم بشر ، ولأنهم بشر ، ولأنه تجري عليهم كل خصائص البشر كانوا سادة البشر .

على كل إنسان أن يسلك المنهج الذي جاء به الأنبياء :

سيدنا موسى نبي كريم ، ورسول من أولي العزم ، ومع ذلك الله عز وجل يقول :

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)

شُبه الغضب بإنسان ، يصيح اقتل ، اضرب ، اشتم ، الإنسان أحياناً يغضب تأتيه خواطر ، وأحياناً تأتيه خواطر من نوع آخر ، فكأن الغضب نزوع إلى موقف عملي إثر استفزاز ، فكأن الغضب إنسان بدأ يكلم سيدنا موسى ، افعل ، افعل ، افعل ، ثم سكت الغضب ، هدأ الغضب .

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)

إذاً هم بشر ، وهم قمم البشر ، والمنهج الذي جاؤوا به يصلح للبشر ، وينبغي على كل إنسان أن يسلك هذا المنهج ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

أيها الأخوة ، الآية الدقيقة :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود الآية : 112)

للتقريب : ممرض بأقل درجة ، وجراح قلب بأعلى درجة ، إذا أراد الممرض أو جراح القلب أن يعطي المريض حقنة لا بد من التعقيم ، الإجراءات واحدة ، مقام هذا غير مقام هذا ، عظم المكان ليس له علاقة بالاستقامة ، الممرض إذا أراد أن يعطي حقنة لابدّ من تعقيمها ولابدّ من تعقيم المنشار ، ولابدّ من تعقيم الإبرة ، ولابدّ من تعقيم المكان ، هناك إجراءات لابدّ منها .

علامة كمال الإيمان أن تغضب لله وأن ترضى لله :

لذلك :

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)

لما رأى قومه يعبدون العجل من دون الله .

(عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ)

(سورة الأعراف الآية : 148)

لما رأى قومهم وقد أراهم الله الآيات ، كيف أصبح البحر طريقاً يبساً ، وكيف أصبحت العصا ثعباناً :

(تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

(سورة الأعراف)

كل هذه المعجزات رأوها رأي العين ، وبعد ذلك يعبدون عجلاً من دون الله ، هو كان بالميقات ، كان في لقاء مع الله ، كان في مناجاة ، وبقي في المناجاة أربعين يوماً ، هم استغلوا غيابه ، ورأوا أناساً يعبدون من دون الله فقالوا :

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

(سورة الأعراف الآية : 138)

الآن غضب :

(وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ)

(سورة الأعراف الآية : 150)

كان في حالة غضب شديد ، هذا غضب لله ، علامة كمال الإيمان أن تغضب لله وأن ترضى لله ، وأن تصل لله ، وأن تعطي لله ، أن تغضب وأن ترضى ، وأن تعطي وأن تمنع وأن تصل وأن تقطع .

الألواح التي كانت في جعبة سيدنا موسى منسوخ عليها توجيهات الله عز وجل :

سيدنا موسى أخذه الغضب الشريف ، أخذه غضب الغيرة على هذا الدين ، أخذه الغضب على المؤمنين الذين تاهوا وعبدوا صنماً من دون الله ، هنا سكت عنه الغضب

(أَخَذَ الْأَلْوَاحَ)

التي ألقاها ، الألواح التي ألقاها من شدة الغضب أخذها ، هذه الألواح ماذا فيها ؟ قال :

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا)

الألواح منسوخ عليها توجيهات الله عز وجل ، منسوخ عليها تعليمات الصانع ، منسوخ عليها منهج ، افعل ولا تفعل ، منسوخ عليها طريق السلامة ، منسوخ عليها طريق السعادة ، هذه

(الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا)

وقد نسخ عليها ، النسخة بمعنى منسوخ ، كغرفة ؛ مغروف ، فعلة ؛ بمعنى اسم المفعول .

فهذه الألواح نُسخ عليها مناهج الله عز وجل ، وتعليمات الصانع ، والتوجيهات ، وطريق السلامة والسعادة ، لما غضب ألقاها ، فلما سكت عنه الغضب حملها والله وأخذها .

ما فيها ؟ قال :

(وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ)

كلمة الرحمة كلمة جامعة مانعة يعني الله عز وجل خلقنا ليرحمنا .

الرحمة كلمة جامعة مانعة فالله عز وجل خلقنا ليرحمنا :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

ماذا تعني الرحمة ؟ كلمة واسعة جداً ، يا ترى راحة نفسية ؟ راحة نفسية ، ثقة بالله ؟ ثقة بالله ، طمأنينة ؟ طمأنينة ، سعادة ؟ سعادة ، رؤية صحيحة ؟ رؤية صحيحة شجاعة ؟ شجاعة ، كرم ؟ كرم ، مكانة علية ؟ مكانة علية ، صحة ؟ صحة ، زواج موفق ؟ زواج موفق ، أولاد أبرار ؟ أولاد أبرار ، كلمة الرحمة شيء جامع مانع ، تشمل كل شيء ، كل شيء ، الله عز وجل تفضل بها علينا ، أحياناً الأمطار رحمة ، النبات رحمة ، الجو اللطيف رحمة ، أحياناً التوفيق بالتجارة رحمة ، التوفيق بعمل

رحمة ، التوفيق بشهادة عالية تخدم بها المسلمين رحمة ، تحقيق أهدافك رحمة ، كلمة واسعة .

هذه الرحمة أيها الأخوة ، تسعد بها ولو فقدت كل شيء ، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء ، بل إنك مخلوق للرحمة ، للتقريب :

طالب ما كتب وظيفته ، الذنب تكرر ، المعلم ضربه ، فقال : هذه المدرسة أُنشئت لضربنا ، هذه المدرسة أُنشئت لتعليمنا ، كي نكون قادة للأمة ، كي نكون علماء ، كي نعيش حياة مريحة ، كي نسهم في بناء الأمة ، هذه أهداف المدرسة ، أما هذا الطالب أفقه ضيق جداً ، ولما تلقى ضرباً من أستاذه تأديباً على تقصيره قام اتهم المدرسة بأنها بنيت ، وأسست لضرب الطلاب .

على المسلمين مراجعة حساباتهم قبل كل شيء :

عوام المسلمين لهم كلمات هي الكفر بعينه ، يقول : سبحان الله ! الله خلقنا للعذاب ، ويقول سبحان الله أيضاً ، سبحان الله ! لا يوجد أحد مرتاح ، هكذا طلع معك ؟ سبحان الله ! الله يعطي الحلاوة للذي ليس له أضراس .

والله أيها الأخوة ، هناك كلمات للعوام هي الكفر بعينه ، فلان شرب خمراً ، سبحان الله ! هكذا قدّر الله عليه ، هو ما له علاقة أبداً ، الله كتب عليه يشرب الخمر ، اسمعوا ماذا حكى الناس ، قال : طاسات معدودة بأماكن معدودة .

يا أخي الكريم يجب أن تراجعوا كل مصطلحاتكم ، والله مئات المصطلحات ، مئات التعبيرات ، مئات الكلمات والله هي الكفر بعينه .

الأم : مسكينة هذه البنت ما لها حظ ، هي طاهرة ، نقية ، عفيفة ، لكن لا حظ لها ، هذا الكلام غير صحيح .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

هذا قانون للتيسير والتعسير ، لذلك نحن بحاجة إلى مراجعة حساباتنا ، إلى مراجعة مصطلحاتنا ، إلى مراجعة عباراتنا التي نرددها دائماً ، إنسان مرتكب معصية كبيرة ، الله عتره ما هذا الكلام ؟! .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

أو فلان الله كاتب عليه الشقاء ، الله يعافينا ، وكله سبحان الله ، يحكي كلمات الكفر وقبلها سبحان الله .

الأوامر و النواهي في منهج الله تعالى غرضها الوصول إلى رحمة الله و جنته :

فهنا :

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا)

منهج كي تصل إلى رحمة الله ، نسخ عليها منهج تفصيلي كي تصل إلى رحمة الله ، عندنا في الإسلام هناك صلاة خمس مرات يومياً ، شحنة روحية ، يوم الجمعة هناك درس تعليمي ، الخطبة ، يوجد بالشهر دورة تكثيفية ، ثلاثين يوماً رمضان صيام ، هناك حج بيت الله الحرام ، يوجد غض بصره ، ضبط لسان ، صدق ، أمانة ، استقامة ، عدم غش ، منهج تفصيلي يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية ، هذا المنهج افعل ولا تفعل ، أمر ونهي ، مجموع هذه الأوامر وتلك النواهي من أجل أن تصل إلى رحمة الله ، من أجل أن تصل إلى الجنة ، وتقول :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

(سورة الزمر الآية : 74)

في الأرض جاءنا وحي السماء ، وجاء المنهج وطبقنا ، والنتيجة جنة عرضها السماوات والأرض .

مخافة الله عز وجل أكبر صفة يتمتع بها المؤمن :

إذاً

(وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى)

أي منهج يصل بك إلى الهدى ، والهدى رحمة الله ، منهج تفصيلي ، أحكام شرعية ، تفاصيل ملخصها افعل ولا تفعل ، أمر ونهي ، تؤدي بك هذه إلى رحمة الله ، لمن هذا ؟ لا لكل الناس أبداً

(لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

ما الفرق للذين يرهبون ربهم ، أو

(لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

تماماً الفرق بين نعبدك يا رب ، أو إياك نعبد ، حينما يأتي المفعول قبل الفعل صار في صيغة القصر والحصر إذا قلنا :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

أي يا رب لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك ، أما إذا قلنا يا رب نعبدك ، وقد نعبد غيرك ، هنا

(لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

أي لا يخافون إلا الله ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، إذا كان الله معك فمن عليك ، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ،

(لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

يخاف من الله .

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

يرهبون ، عرفوا عظمته ، عرفوا قدرته ، عرفوا غناه ، عرفوا رحمته ، عرفوا عدله ، عدله الدقيق ، فلذلك يخافونه ، أكبر صفة في المؤمن أنه يخاف الله ، و للعوام كلمة صحيحة(هذه المرة صحيحة) إذا شخص لا يخاف الله خاف منه ، لأنه وحش ، أعظم شيء بالمؤمن أنه مقيد .

((الإِيمانُ قَيَّدَ الفَتْكَ))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

لا يستطيع ، إذاً

(هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

الله عز وجل لا يعذب أحبابه أبداً :

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)

(سورة نوح)

بالمناسبة : المؤمن الله عنده كبير ، يضحي بكل شيء ولا يضحي بطاعته ، الناس في آخر الزمان هان أمر الله عليهم فهانوا على الله ، لا يدقق المال حلال حرام ، يقول ماشي لا تدقق ، ما هذه لا تدقق هل هي آية أم حديث ؟ لا تدقق ، حرام ، حلال ، هذه الجلسة يجوز أن نجلس بها لا يجوز ، هذه الحرفة ترضي الله ، لا ترضي الله ، فيها معاصي ، فيها آثام ، المادة محرمة شرعاً يقول عليها طلب ، أنا أبيع طاولات زهر ، قلت له : لكن حرام ، عليها طلب كثير أستاذ لا أقدر ، عليها طلب كثير ، المهم أن يربح المال .

إذاً هان أمر الله عليهم فهانوا على الله ، قد عصيتك ولم تعاقبني ، قال وقع في قلبه أن عاقبتك ولم تدر، الله عز وجل يعاقب المسلمين ، وضعهم صعب جداً ، وضعهم لا يرضي .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

ردّ الله عليهم :

(فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية : 18)

معنى ذلك أنهم ليسوا أحبابه ، لأن الله لو قبل دعواهم لما عذبهم ، فاستنبط الإمام الشافعي إن الله لا يعذب أحبابه أبداً .

ذهاب سيدنا موسى مع سبعين رجلاً من قومه للاستغفار و الاعتذار من الله تعالى :

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

(سورة الأعراف)

نحن عندنا ميقاتين ، الميقات الأول ميقات المناجاة مع الله أربعين يوماً ، هذا الأول أما لما عبد قوم موسى العجل صار في ميقات ثانٍ للاعتذار والاستغفار ، سيدنا موسى اختار من قومه سبعين رجلاً يمثلوا كل أطياف قومه .

(وَاخْتَارَ مُوسَى)

من قومه

(سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا)

اختار موسى من قومه ، فجاءت

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ)

قومه في الأساس مجرور بحرف جر محذوف ، من قومه ، أما هنا نصب بنزع الخافض .

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا)

هذا الميقات الثاني ، أول ميقات ، ميقات المناجاة ، تمّ خلاله عبادة العجل ، الميقات الثاني سيدنا موسى مع نخبة من قومه من أجل الاعتذار والاستغفار ، لكن الله سبحانه وتعالى لحكمة بالغة أصابهم برجفة ، أي زلزال عنيف .

الله عز وجل متكفل أن يمتحن كل إنسان و يضعه في حجمه الطبيعي :

(فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ)

سيدنا موسى وقع بحرج شديد ، يعني هو أخذهم للمناجاة أخذهم للاستغفار ، أخذهم للصلح مع الله ، فإذا ماتوا فكأنه أخذهم ليقتلهم ، وقع بحرج .

(فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ)

لو أردت أن تهلكهم كنت قد أهلكتهم قبل هذا الميقات ، فإذا قتلوا وأهلكتنا الآن ماذا يقول الناس عني ؟ إنني أخذتهم ليموتوا .

(رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ)

وأنا معهم .

(أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا)

يبدو أن هؤلاء النخبة لم ينصاعوا لعبادة العجل فذهبوا للمناجاة ، أو لميقات ثانٍ كي يستغفروا لأقوامهم.

(لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)

ماذا تعني كلمة فتنة ؟ امتحان فقط ، أنت لك أن تتوهم نفسك في أي حجم ، لك أن تتبجح ، لك أن تقول لكن الله متكفل أن يمتحنك ، وأن يضعك في حجمك الحقيقي ، مثل بسيط :

شاب يسمع أمه كلمات معسولة تفوق حدّ الخيال ، إن شاء الله حينما أتزوج سأكون أنا وزوجتي في خدمتك ، أنت أمنا ، أنت بركتنا ، أنت ، أنت ، أنت ، أسمعها كلاماً معسولاً ، لما تزوج انحاز لزوجته، قال لها : كل البلاء منك .

المشكلة أحياناً الإنسان يعطي نفسه حجماً كبيراً ، أنا لا آكل قرشاً حراماً ، طبعاً عرضوا عليك مئة ليرة ، لا تأخذها ، وألف لا تأخذها ، وخمسة آلاف لا تأخذهم ، جاءك مليون ، يا أخي أصبحت هذه بلوى عامة ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، أنا عندي أولاد ، اختلف الوضع ، كلامك باطل ، الله عز وجل يعرف بالضبط من أنت ، إذا تبجحت زيادة ، أعطيت نفسك حجماً كبيراً ، الله فقط يحجمك ، يضعك بظرف صعب ، صعب جداً .

الله عز وجل رحمة بالإنسان يريه من هو :

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)

إنسان تجده صاحب دين ، وورع ، ومستقيم ، يقبل عمل بشركة ، يجد فيها اختلاط ، يطيب له الاختلاط ، صار يصلي صلاة و يقطع صلاة ، مشغول بعد ذلك ترك الصلاة ، بعد ذلك صار له صاحبات من هذه الشركة ، أين ورعك القديم ؟ ورعك ادعاء كنت تدعي هذا ، الله وضعك بوضع

صعب كشفك على حقيقتك .

بمعمل الاسمنت يصنعوا طبخات ، كل طبخة يصبوا منها مكعبات ، هناك جهاز بسيط جداً مكعب يمسك من الأعلى ، ومن الأسفل في كفة ، توضع في هذه الكفة أوزان متدرجة بأي وزن يكسر هذه مقاومته .

وكل مؤمن له وزن يكسر فيه ، كلما كان إيمانك أقوى يصبح الوزن عالٍ جداً ، أما الأنبياء :

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)

وكل شخص لا بد من أن يفتن .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

هو موظف ، دخله محدود ، وله جامع ، وله شيخ ، وكل أموره تمام ، عملَ عملاً تجارياً ، و هناك مادة رائجة جداً لكنها محرمة ، ماذا نفعل ؟ مضطرين .

مرة قال لي شخص : نحن عنا مطعم درجة أولى ، لكن المشكلة نبيع الخمر ، إن شاء الله برقبة شريكي أنا ما لي علاقة ، قلت له : ألا تأخذ نصف الربح ؟ قال لي : بلى ، لكن هو الذي أراد هذا ، قلت له : لماذا وافقت ؟ .

الإنسان أحياناً يدعي مكانة لنفسه ، يدعي حجم إيمان معين ، فربنا عز وجل رحمة به يحجمه ، يريه من هو ، هذه الفتنة

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

المؤمن القوي الصادق لا تضعفه سبائك الذهب اللامعة ولا سياط الجلادين اللاذعة :

بصراحة إخوانا الكرام ، هناك بالحياة ضغوط ، و مغريات ، المؤمن القوي الصادق لا تضعفه سبائك الذهب اللامعة ، ولا سياط الجلادين اللاذعة ، المؤمن رقم صعب ، الآن أي إنسان يغير قناعته برقم ، وليكن مئة مليون انتهى عند الله ، إذا في رقم يغيرك انتهيت ، والله المؤمن لو يعطوه ألف مليون وهو

فقير على أن يقول كلاماً بخلاف قناعته لا يتكلم ، الصحابة كانوا من هذا النوع ، كان الواحد بمليون ، الآن المليون بأف وليس بواحد ، بأف ، كلمة أف شيء تافه لا قيمة له إطلاقاً ، تأفف ، المليون بأف ، وكان الواحد بألف ، كن رجل مبدأ ، الله موجود ، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ، ولا تقرب أجلاً .

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ)

الإنسان عند الله مكشوف ، لكن يدعي دعوة ، فربنا عز وجل يفتنه ، أي يمتحنه ، بعد الفتنة ينجح أو لا ينجح .

أذكر إنسان حدثني عن قصة ، ذهب مع صديقه ليشتريا سيارتين من ألمانيا ، ويأتيان بها إلى الشام ليتاجرا بالسيارات ، قال لي : نزلنا بفندق ببولونيا ، الساعة الثانية عشرة طُرق بابي وباب صديقي ، من امرأتين موميستين ، قال لي : أنا ما فتحت خفت من الله ، شريكه فتح ، طرق الباب من امرأة وأنت مسافر وحدك طبعاً هذه فتنة ، شخص قال :

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الحشر)

والله يا أخوان أبلغني أنه بعدما عادوا إلى الشام أحدهما عمله في صعود ، هذا الورع في توفيق ، في بحبوحة ، والثاني اضطر أن يسلم محله التجاري ، واشتغل صانعاً ، شخصهكذا وشخص هكذا ، الله فتن الاثنين ، أحدهما نجح ، والآخر لم ينجح .

استغفار قوم موسى عن خطئهم الناجم عن عبادة الأصنام :

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا)

والإنسان عنده رغبة بالمعصية ، لكن ما كان في ظرف مناسب ، جاء الظرف ، الظرف قلب رغبته إلى واقع ، فكان ضالاً ، والثاني عنده رغبة بالطاعة جاءه ظرف صعب قال : معاذ الله ، الله قلب ورعه إلى واقع .

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا)

أنت ربنا ، أنت ناصرنا .

(أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا)

اغفر لنا ماذا ؟ الخطأ الكبير الناتج عن عبادة الأصنام .

(وَارْحَمْنَا)

استنبط العلماء أن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع .

(فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

الله عز وجل سمح لذاته العلية أن توازن مع بعض خلقه

الله عز وجل سمح لذاته العلية أن توازن مع بعض خلقه ، قال :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

إنسان عالم كبير صنع كلية صناعية ، جيد ، صنعها من كل شيء ، صنعها من مئات القوانين التي قننها الله عز وجل ، صنعها من تقدم العلم المذهل ، لكن هذه الكلية الصناعية بحجم هذه الطاولة ، ومن أجل أن تصفي الدم يجب أن يجلس المريض إلى جانبها ثماني ساعات ، أو ست ساعات ، بالأسبوع ثلاث مرات ، وازن مع الكلية الطبيعية ، حجمها بحجم البيضة ، تعمل بصمت ، لا تشعر بوجودها ، تصفي الدم باليوم خمس مرات ، كل كلية في احتياطي عشرة أضعاف حاجتك ، الاثنتين عشرين ضعفاً، بلا صوت ، بلا نفقات ، لا تجمد نفسك ثماني ساعات بالأسبوع ثلاث مرات ، وازن بين كلية صناعية ، وكلية طبيعية ، وازن بين وردة بلاستيك ووردة طبيعية .

الله سمح لذاته العلية أن توازن مع بعض خلقه قال :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

الله عز وجل ستير يُخفي عن الناس نقائصك إن تبت إليه :

هناك :

(أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

(سورة الأنعام)

هناك :

(خَيْرُ الْوَارِثِينَ)

(سورة الأنبياء)

هنا

(خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

أحياناً إنسان يعفو عنك ، كلما لمحك أنا فضلت عليك يقول لك ، الله يجزيك الخير ، غفر ، لكن منّ بغفرانه ، أما الله عز وجل :

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنؤوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ، وإذا تاب العبد توبة نصوحة أنسى الله حافظيه ، والملائكة ، وبقاع الأرض كلها خطاياه ، وذنوبه))

[ورد في الأثر]

(وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

والله عز وجل ستير ، يُخفي عن الناس نقائصك ، ويظهر محاسنك ، يوجد أشخاص يكون يتعامل معك بمئة ميزة ، يجد في خطأ يشيع الخطأ ، قناص ، لئيم ، فضاح ، أما ربنا الله عز وجل ستير .

إنسان ضُبط يسرق في عهد سيدنا عمر ، فجاء ليقيم عليه الحد ، فأقسم بالله أنها أول مرة ، قال له : كذبت ، إن الله لا يفضح من أول مرة ، فلما شدد عليه ، قال له : هذه المرة الثامنة ، ثامن مرة ، الله عز وجل ستير ، الإنسان يغلط يعطيه فرصة ، يبقى مستوراً .

فلذلك الإنسان لا يطمع بستر الله عز وجل إلى مالا نهاية ، ليس كل مرة تسلم الجرة ، مرة هناك فضيحة . إذاً

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ـ امتحانك ـ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

الحسنة في الدنيا لها معنيان معنى لغوي و معنى شرعي و المقصود هنا حسنة الشرع :

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف)

الحسنة في الدنيا لها معنيان ، لها معنى لغوي ، شيء تستحسنه ، ولها معنى شرعي الشيء الذي حسنة الشرع ، إنفاق المال حسنة في الشرع ، أما إنفاق المال بنظر البخيل حمق فهناك معنى لغوي للحسنة ، كل شيء تحبه أنت ، وقد تحب المعاصي لا سمح الله ، أما البطولة بالمعنى الشرعي الحسن ما حسنه الشرع .

تكون نائماً في الشتاء ، والفراش وثير ، ودافئ ، فالحسنة عندك أن تبقى نائماً ، أما الحسنة بالشرع أن تستيقظ كي تصلي الفجر في وقته .

الحسنة بالشرع لها معنى ، وباللغة لها معنى ، المقصود هنا حسنة الشرع .

رحمة الله عز وجل في الدنيا لكل الخلق و في الآخرة للمؤمنين فقط :

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً)

أي يا رب أجري على أيدينا عملاً صالحاً ، أعنا على طاعتك ، أعنا على العمل الصالح ، أعنا على خدمة خلقك ، هذه حسنة الدنيا .

(وَفِي الْآخِرَةِ)

لكن هناك تعليق دقيق للعلماء : أن الحسنة في الدنيا لغوية للمؤمن والكافر ، للقريب والبعيد ، للمستقيم والمنحرف ، للمؤمن والملحد ، الملحد يأكل ، ويشرب ويتنفس ، في عنده دماغ ، ومعدة ، وأمعاء ، ورئتين ، وقلب ، وأوعية ، ويشتري بيتاً ويسكن ويتزوج ، مليون حسنة للكافر في الدنيا ، الحسنة في الدنيا بمعناها اللغوي للمؤمن والكافر معاً .

((ولو كانت الدنيا تَعْدِلُ عند الله جَناح بعوضة ما سَقى كافراً منها شَربة ماءٍ))

[أخرجه مسلم وأبو داود عن جابر بن عبد الله]

لكن الآية دقيقة :

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ)

رجعنا إليك يا رب ، الآن :

(قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ)

إياك أن تقول فلان لا بد من أن يعذبه الله ، هذا تألي على الله ،

(عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

لكن في الآخرة ليست لكل الناس ، رحمة الله في الدنيا لكل الناس .

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 126)

سيدنا إبراهيم :

(مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة البقرة الآية : 126)

الله ماذا قال له ؟

(وَمَنْ كَفَرَ)

(سورة البقرة الآية : 126)

الكفار غارقون بالنعم ، بيوت وسيارات ، وطعام نفيس ، واختلاطات ، وسفر وسياحة ، رحمتي في الدنيا لكل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، أما رحمتي في الآخرة للمؤمنين فقط .

العاقل من يسعى لعمل يفضي به إلى الجنة :

(قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا ـ بالآخرة ـ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

كلام دقيق ، الرحمة في الدنيا لكل الخلق ، مؤمن ، كافر ، مستقيم ، عاصي ، ملحد ، يأكل ، ويشرب ، ويتنفس ، ويتزوج ، وساكن ببيت ، ودخله فلكي ، ويتفلسف على الناس ، هكذا ، رحمة الله في الدنيا لكل الخلق ، أما في الآخرة

(فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

لذلك :

((إن الدنيا عرض حاضر أكل منها البر والفاجر ، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر))

[أخرجه الطبراني عن شداد بن أوس]

نعم الله في الآخرة للمؤمنين فقط ، أنت الآن في الدنيا مثلك مثل غيرك ، تجد شارعاً فيه مئة بيت ، بيوت فيها معاصي ، وفيها آثام ، في خيانة زوجية ، فيها استقامة ، وفيها غناء ، وفيها رقص ، وفيها تفلت ، بيوت ، والكل عندهم سياراتهم ، ولهم دخلهم ، ولهم مكانتهم ، ويعطيك بطاقة ، والكل مثل بعض الآن ، متى التمايز ؟ يوم القيامة .

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يس)

ابتعدوا عنهم ، فالبطولة من يسعى لعمل يفضي به إلى الجنة .

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ)

أي رجعنا إليك يا رب

(قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا)

(وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

في الدنيا ، أما في الآخرة

(فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(45-60): تفسير الآية 157 ، الفطرة السليمة تنبئ صاحبها عن خطئه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-07-25

بسم الله الرحمن الرحيم

من آمن بالله موجوداً ولم يستقم على أمره لا قيمة لإيمانه إطلاقاً :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السابعة والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أيها الأخوة الكرام ، يجب أن نعلم علم اليقين أن هناك دائرة كل من لم يؤمن بالله أصلاً بوجوده خارج هذه الدائرة ، أما الذي آمن بالله أي إيمان ضمن هذه الدائرة ، لكن الذي آمن بالله موجوداً ، ولم يستقم على أمره لن ينتفع بإيمانه إطلاقاً ، وهذا الإيمان لا قيمة له إطلاقاً ولا يقدم ، ولا يؤخر ، وليس له أي ثمار ، لأن إبليس آمن بالله ، قال ربي :

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

وإبليس قال :

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

(خَلَقْتَنِي)

آمن به خلقاً ، وإبليس آمن باليوم الآخر قال :

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

من انتفع بإيمانه ازداد تألقاً و توفيقاً بأعماله :

الإيمان الذي يحملك على طاعة الله تكون ضمن دائرة ثانية داخل الدائرة الكبرى ، صار هناك دائرة كبرى ، الذي لم يؤمن بالله أصلاً خارج هذه الدائرة ، والذي آمن به بشكل أو بآخر ضمن هذه الدائرة ، لكن لم ينتفع بإيمانه ، أما الذي حمله إيمانه على طاعة الله هذا في الدائرة الثانية ، التي هي داخل الأولى، هذا انتفع بإيمانه ، إيمانه أعطاه ثماراً يانعة ، أعطاه سعادة ، أعطاه سلامة ، أعطاه حكمة ، أعطاه قرباً ، أعطاه رضا ، أعطاه تألقاً ، أعطاه تفاؤلاً ، أعطاه توفيقاً بأعماله .

في مركز هذه الدائرة الأنبياء والمرسلون ، هؤلاء قمم البشر ، هؤلاء المعصومون قبل النبوة وبعدها ، هؤلاء الذين لا ينقطعون عن الله إطلاقاً ، هؤلاء الذين أحوالهم بإقبال مستمر وبيقظة مستمرة .

لذلك حينما مرّ الصديق رضي الله عنه بصحابي رآه يبكي ، اسمه حنظلة ، قال له الصديق : يا حنظلة مالك تبكي ؟ قال : نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين ، فإذا عافسنا الأهل ننسى ، من تواضع الصديق قال له : أنا كذلك يا أخي ، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حدثاه عن هذه الحالة ، فقال : أما نحن معاشر الأنبياء ، فتنام أعيننا ولا تنام قلوبنا ، اتصال مستمر ، أما أنتم يا أخي كمؤمنين فساعة وساعة .

إياكم أن تتوهموا أنها ساعة طاعة ، وساعة معصية ، لا مستحيل ، ساعة تألق ، ساعة فتور ، الاستقامة هي هي ، عند الناس ، عند العوام كلام أنه ساعة لك وساعة لربك ، لك يعني تعصي الله ؟! هذا كلام مرفوض ، ساعة تألق ، وساعة فتور .

أما أنتم يا أخي فساعة وساعة ، دقق : لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ، ولزارتكم في بيوتكم .

معنى ذلك وأنت في المسجد لك حال مع الله ، تحس بطمأنينة ، تحس الدين عظيم ، تحس الآخرة أبدية، تحس العلم له قيمة ، الطاعة لها قيمة ، وأنت في المسجد في تألق ، في حال هذا الحال يعطيك قوة صمود ، يعطيك هذا الحال تفاؤلاً ، يعطيك سعادة ، يعطيك رؤية صائبة .

لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ، ولزارتكم في بيوتكم .

من كان مع الله كان الله معه :

أنت أيها المؤمن لك قالٌ ، ولك حال ، لك علم تقوله ، ولك مشاعر تحسها ، حتماً مشاعر المؤمن مسعدة ، المؤمن يرى أن أمره كله بيد الله ، المؤمن يرى أنه لا إله إلا الله ، المؤمن يرى أن الله :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

المؤمن يرى أن كل شيء بيد الله ، وأن الله عادل ، ورحيم ، وغني ، وقوي ، بيده كل شيء ، وأنت عبد من عبيده ، أمرك أن تطيعه فأطعته ، الذي عليك انتهى ، بقي ما وعدك به من عطاء ، من خير ، حالة المؤمن عجيبة .

عجبت لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، إن أصابته سراء شكر فكان ذلك له خير ، وإن أصابته ضراء صبر فكان ذلك له خير ، وليس ذلك لغير المؤمن .

يعني تصور مجنداً ملتحق بقطعة عسكرية ، وقائد الجيش والده ، ممن يخاف ؟ أكبر رتبة والده بإمكانه أن يأمره ، وأن ينهاه .

فأنت حينما تكون مع الله الأمر بيده ، صحتك بيده ، زواجك بيده ، عملك بيده ، رزقك بيده ، طلاقة لسانك بيده ، زوجتك بيده ، أهلك بيده ، من حولك بيده ، من أعلى منك بيده ، الأقل منك بيده ، الحالة هذه حالة مسعدة ، أنت مع الله ، كن مع الله ولا تبالي ، كن مع الله ترى الله معك ، أنت مع خالق الكون.

إذا شخص يعمل شرطياً مع وزير ، يمشي بالعرض ، يقول أنا عنده ، بهذه الحالة يعد نفسه وزيراً ، هو شرطي .

الله ولي الذين آمنوا يؤيدهم بالحفظ و الغنى و الدعم :

لذلك أنت حينما تكون مع الله تشعر بالقوة ، تحس بالغنى ، تحس بالحفظ ، تحس بالدعم ، تحس أن الله يدافع عنك ، الله وليك .

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة الآية : 257)

يعني الله عز وجل خالق السماوات والأرض ، بيده الأعداء ، بيده الأقوياء ، بيده الطغاة ، بيده الأغنياء، بيده هذه الأسلحة الفتاكة كلها ، لا تتحرك إلا بأمر منه ، هذا الإيمان الإيمان مريح جداً ، يعني إن لم تقل أنا أسعد إنسان بالأرض لست مؤمناً ، أنت مع من ؟ مع خالق السماوات والأرض ، مع من بيده كل شيء ، مع من إليه مصير كل شيء ، مع من

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

مع الذي قال :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

فهذا الذي أتمنى أن يكون واضحاً ، هؤلاء الأنبياء قمم البشر ، أنت كمؤمن تتمتع بخصائص كبيرة جداً.

فحوى دعوة الأنبياء واحدة و هي الإيمان بالله تعالى :

لذلك الله عز وجل جعل لهؤلاء البشر قمماً ، مرجعيات ، فالأنبياء تتفاوت مراتبهم .

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة البقرة الآية : 253)

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة الآية : 285)

الدعوة واحدة .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

من لوازم معرفة الله تعالى أن يبحث الإنسان عن أمره و نهيه :

الآية التي تبدأ في قوله تعالى :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ)

المؤمن متبع ، قال : اتبع لا تبتدع ، اتضع لا ترتفع ، الورع لا يتسع ، المؤمن متبع ، سيد الأنبياء والمرسلين متبع .

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الأنعام الآية : 50)

شأن العبد أنه متبع ، وشأن الرب أنه مُتَّبَع ، اتبع ، الآية الكريمة :

(الَّذِينَ)

من هم المؤمنون الصادقون ؟ الذين يتبعون النبي الرسول الأمي ، لذلك أنت دون أن تشعر ، بعد أن تعرف الله ، تسأل عن منهجه ، ما الذي يرضيه ؟ كيف أتقرب منه ؟ ما الحلال ؟ ما الحرام ؟ من لوازم معرفتك بالله أنك تبحث عن منهجه كي تتقرب إليه بما أمر ، وكي تنتهي عما عنه نهى وزجر .

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ)

أنت كمؤمن منهج الله عز وجل ، والله لا أبالغ لو دخلت بالتفاصيل في خمسمئة ألف بند ، تصلي لكن النظر له أحكام ، السماع له أحكام ، السماع له أحكام ، الزواج له أحكام ، الطلاق له أحكام ، التجارة

لها أحكام ، السفر له أحكام ، أنت أمام منهج كامل ملخصه افعل ولا تفعل ، لمجرد أنك عرفت الله لابدّ من أن تبحث عن أمره ونهيه .

الناس صنفان لا ثالث لهما :

لذلك من خصائص المؤمنين

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ)

بشكل أو بآخر البشر جميعاً على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، وطوائفهم ، ومذاهبهم ، هم متبع أو غير متبع ، مطيع أو عاصٍ ، مقبل أو مدبر ، مؤمن أو كافر ، لا ثالث لهذين الصنفين .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

صدق أنه مخلوق للجنة فاتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء .

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ)

المؤمن دأبه أن يسأل ، ما الحلال ؟ ما الحرام ؟ هل يجوز أن أفعل هذا ؟ هل هذا الدخل فيه شبهة ؟ هل هذه الحرفة ترضي الله ؟ هل هذا الموقف يرضي ؟ السفر يجوز ؟ دائماً وأبداً المؤمن له مرجع ، يسأل مرجعه عن الذي يرضي الله في عمله .

الرسول الكريم أميته وسام شرف له لأن الله تعالى تولى تعليمه :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ)

نحن جميعاً من دون استثناء أميتنا وصمة عار ، إذا كنا أميين كيف نتلقى العلم ؟ العلم باللغة ، واللغة تحتاج إلى دراسة ، وإنما العلم بالتعلم ، أما أمية النبي صلى الله عليه وسلم وحده هي وسام شرف له ، لأن الله سبحانه وتعالى فرغ نفسه الطاهرة من كل ثقافة أرضية ، فرغه من كل ثقافة أرضية وملأها حقائق من عند الله مباشرة .

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

(سورة النجم)

الله عز وجل ، على اختلاف المفسرين في معنى هذه الآية ، لكن الذي علمه هو الله ، خالق السماوات والأرض تولى تعليمه ، وهو أمي ، يأتي بآخر الزمان دكتور في الجامعة يأخذ بعض الأحاديث يشرحها (دكتوراه) يصبح دكتوراً لأنه فهم كلام رسول الله .

يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء

* * *

أميته وسام شرف له ، لأن وعاءه ما فيه أي ثقافة أرضية ، لو معه شهادة عليا لو درس بالصين ، درس بأثينا فرضاً ، ورجع جاءه الوحي ، بدأ يتكلم ، كلما تكلم كلمة يسأل هذه من عندك أم من الوحي؟.

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة العنكبوت)

أمية الرسول الكريم وسام شرف له و أميتنا وصمة عار بحقنا :

إذاً أميته وسام شرف له ، لأن الله تولى تعليمه ، مثلاً : لو جاء طبيب من أعلى اختصاص في العالم جراح قلب ، جاء من بلد بعيد ، ويحمل أعلى شهادة ، وفوق ذلك أجرى ألفي عملية ، وكلها ناجحة ، وجاء لمطار دمشق ، هو لا يتكلم العربية إطلاقاً ، هل أميته باللغة العربية تعني أنه جاهل ؟ كلامي دقيق ؟ هذا الطبيب الذي يحمل أعلى شهادة في الطب ، وهو جراح كبير ، وله مؤلفات ، وأستاذ في الجامعة ، لكنه لا يتقن العربية إطلاقاً ، فجاء إلى مطار دمشق ، احتاج إلى مترجم ، هذا الطبيب الذي يحمل أعلى شهادة لأنه أمي في اللغة العربية ، هل يعد جاهلاً ؟ لا .

النبي عليه الصلاة والسلام ما تلقى معرفة من بني البشر إطلاقاً ، ما تلقى معرفة من الأرض ، تلقاها من السماء .

لذلك

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ)

أميته وحده وسام شرف له ، وأميتنا جميعاً وصمة عار ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((إنما العلم بالتعلم))

[أخرجه الطبراني عن معاوية]

أنت إن لم تكن أمياً ، إن كنت أمياً من يعلمك ؟ معناها جاهل .

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ)

يعني بعض أحبار اليهود اتبعوا النبي الأمي .

قصة الحصين بن سلام :

الحقيقة هناك قصة مناسبة جداً لهذا الدرس ، الحصين بن سلامة ، كان عبداً لله عز وجل ، نفّذ أمر الله كله ، وكان كلما قرأ التوارة وقف طويلاً عند الأخبار التي تبشر بظهور نبي في مكة

(يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ)

اسم النبي ، وأوصاف النبي التفصيلية ، وأحوال النبي ، كل هذا في التوراة والإنجيل .

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

(سورة الصف الآية : 6)

((أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشر بي أخي عيسى))

[أخرجه أبو يعلى عن شداد بن أوس]

يقول الحصين بن سلام ، لك أن تقول سلاّم وسلام كلاهما جائز ، يقول هذا الحبر اليهودي الكبير ، من كبار رجال الدين اليهود : لما سمعت بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت أتحرى عن اسمه ، وعن نسبه ، وعن صفاته ، وزمانه ، ومكانه ، وبينما هو مسطور عندنا في الكتب حتى استيقنت من نبوته ، استقين من نبوة هذا النبي الكريم .

هناك أوصاف ثانوية كثيرة جاءت في التوراة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حتى استقينت من نبوته ، إلى أن كان اليوم الذي خرج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قاصداً المدينة للهجرة ، فلما بلغ يثرب ، ونزل بقباء ، أقبل رجل علينا ، وجعل ينادي بالناس معلماً فقدومه ، وكنت ساعتئذٍ في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وكانت عمتي خالدة بنت الحارث جالسة تحت الشجرة ، فما إن سمعت الخبر حتى هتفت الله أكبر ، الله أكبر ، وأنا على رأس النخلة .

قالت لي عمتي حينما سمعت التكبير : خيبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما فعلت شيئاً فوق ذلك ، أنت يهودي ، ما هذا التكبير ! فقلت لها : أي عمة ، إنه والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، وقد بُعث بما بُعث ، لأن الرسالات واحدة ، المشكاة واحدة ، النور واحد ، المصدر واحد ، الهدف واحد ، قال تعالى :

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة الآية : 275)

إسلام الحصين بن سلام :

في مضمون الدعوة ،

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة البقرة)

فسكتت ، وقالت : أهو النبي الذين كنتم تخبروننا أنه يُبعث مصدقاً لما قبله ، ومتمماً لرسالات ربه ؟ فقلت : نعم ، قالت : كذلك إذاً ، هذا هو ، ثم مضيت من توي لرسول الله ، من كبار أحبار اليهود ، عبد الله بن سلام كما سماه النبي ، واسمه الحصين بن سلام .

مضيت من توي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت الناس يزدحمون على بابه فزاحمتهم ، حتى صرت قريباً منه ، فكان أول ما سمعت ما يقوله : أيها الناس :

((يا أيُّها الناس ، أفْشُوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن سلام]

هذا أول حديث سمعه منه ، الآن يقول عبد الله بن سلام : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قيل: قد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله ، قدم رسول الله ثلاثاً ، فجئت في الناس لأنظر ، فلما تبينت وجهه ، عرفت من وجهه أنه ليس بوجه كذّاب ، فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال :

((يا أيُّها الناس ، أفْشُوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام))

هذا أول حديث سمعه عبد الله بن سلام ، من رسول سيد الأنام ، قال : فجعلت أتفرس فيه وأتملّى منه ، هو درس بالتوراة أوصافه الدقيقة التفصيلية ، أيقنت أن وجهه ليس بوجه كذّاب ومن تكريم الله للمؤمن أحياناً أن يزوده بفراسة .

((اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمن))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

ثم دنوت منه ، وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

تغيير اسم الحصين من قِبل النبي الكريم و إسلامه مع أهله :

التفت النبي عليه الصلاة والسلام إلى الحصين وقال : ما اسمك ؟ قلت : الحصين بن سلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : بل عبد الله بن سلام ، كان عليه الصلاة والسلام يبدل أسماء أصحابه ، ما اسمك ؟ قال : الحصين بن سلام ، قال : بل عبد الله بن سلام ، ما اسمك ؟ زيد الخيل ، قال له : بل زيد الخير ، هناك إنسان اسمه حرة ، فكان عليه الصلاة والسلام ينادي أصحابه بأحب أسمائهم إليهم .

أيها الأخوة ، قال : نعم عبد الله بن سلاّم ، يعني ما دمت قد سميتني بهذا الاسم انتهى نعم عبد الله بن سلاّم ، والذي بعثك بالحق ما أحبّ أن يكون لي اسماً آخر بعد اليوم ، أحد كبار أحبار اليهود ، طالب الحق لا يتردد .

قال : ثم انصرفت من عند رسول الله إلى بيتي ، أول شيء دعوت زوجتي وأولادي إلى الإسلام ، فأسلموا جميعاً ، وأسلمت معهم عمتي خالدة ، التي قالت له : خيبك الله وكانت شيخة كبيرة ، ثم إني قلت لهم : اكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود حتى آذن لكم ، راسم خطة ، اكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود حتى آذن لكم ، قالوا : نعم .

اليهود قوم بهتان وباطل و أهل غدر وفجور بوصف الحصين بن سلام :

يقول : ثم رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قلت له : يا رسول الله إن اليهود قوم بهتان وباطل ، وإني أحبّ أن تدعو وجوههم إليك ، النخبة ، الزعماء ، رجال الدين الكبار ، وأن تسترني عندك في حجرة من حجراتك ، أنا مختبئ عندك ، ثم تسألهم عن منزلتي عندهم ، قبل أن يعلموا بإسلامي ، ثم تدعوهم إلى الإسلام أيضاً ، فالنبي الكريم وافق قال له : إنهم إن علموا بإسلامي عابوني ، ورموني بكل ناقصة ، وبهتوني .

أدخله النبي عليه الصلاة والسلام في بعض حجراته ، ثم دعاهم إليه ، وأخذ يحضهم على الإسلام ، يحبب لهم الإيمان ، يذكرهم بما عرفوه في كتبهم من أمره ، فجعلوا يجادلونه بالباطل ويمارونه بالحق ، وأنا أسمع ، فلما يئس من إيمانهم قال لهم : ما منزلة الحصين بن سلاّم فيكم ؟ اسمعوا ، قالوا : الحصين بن سلام ؟ هو سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وابن حبرنا ، وعالمنا وابن عالمنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : أرأيتم إن أسلم أتسلمون ؟ قالوا : حاشا لله ، ما كان له أن يسلم ، أعاذه الله أن يسلم ، فخرجت إليهم من الحجرة ، وقلت : يا معشر اليهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به محمد ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وتجدونه مكتوباً عندكم في التوارة باسمه وصفته ، وإني أشهد أنه رسول الله ، وقد آمنت به وصدقته ، وأنا أعرفه ، فقالوا : كذبت والله ، إنك لشرنا وابن شرنا ، وجاهلنا وابن جاهلنا ، ولم يتركوا عيباً إلا عابوني به ، فقلت للنبي عليه الصلاة والسلام : ألم أقل لك يا رسول الله إن اليهود قوم بهتان وباطل ؟ وإنهم أهل غدر وفجور ؟ هو يعرفهم .

وسيدنا عبد الله بن سلاّم أكبر حبر يهودي صار من أكبر الصحابة ، ورفع الله مقامه عنده .

المعروف تعرفه الفطر السليمة ابتداءً من دون تعليم :

إذاً الله عز وجل يقول :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَه)

هذا النبي الأمي ، يجدون اسمه ، وصفاته التفصيلية ،

(مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ)

ما مهمة النبي الكريم ؟

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

ما المعروف ؟ يا أخوان تسمية رائعة ، الشيء التي تعرفه الفطر السليمة ابتداءً من دون تعليم ، ائتِ بإنسان من الصحراء ، قل له فلان أمه جائعة ، اشترى طعاماً وأكله وحده ، يقول لك : مجرم ، أي إنسان .

النبي جاء بالمعروف ، ما تعرفه الفطر السليمة ابتداءً من دون تعليم ، الآن ببريطانيا في المحلفين ، جريمة يأتون بعشرة أشخاص من الطريق ، من عامة الناس من دون استثناء ، قد يكون طبيباً ، قد يكون عاملاً ، قد يكون حاجباً ، قد يكون عامل تنظيفات ، يعرضون على هؤلاء المحلفين أحداث الجريمة ، على الفطرة معظمهم ينطق بالحكم الصحيح ، عند الناس فطرة سليمة ، هناك شيء غير مقبول ، شيء مقبول ، أحياناً تؤلف كتاباً لا أحد يعترض ، معناها مقبول الكتاب ، إذا في خطأ تسمع ضجيجاً ، انتقادات ، تعليقات ، مقالة ، بصحيفة .

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

كل شيء تعرفه الفطر السليمة ابتداءً فهو المعروف .

تبدل القيم في آخر الزمان :

(وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ)

ولا تنسوا أن هذه الأمة العظيمة سنقول سابقاً ، أن هذه الأمة قال الله عنها :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

علية خيريتكم :

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

أما وضعها الأخير يقول عليه الصلاة والسلام :

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

الصحابة صعقوا :

((يا رسول الله ، وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، وأشدُ ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر ، ونهيُتم عن المعروف ؟ قالوا : يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، وأشدُّ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكرا والمنكرَ معروفا))

والله الآن هناك أعمال يا أخوان قبيحة ، حقيرة ، دنيئة ، الناس يتباهون بها ، أعمال البطولة ، والجرأة، والشجاعة ، والنجدة ، والإنفاق ، والبذل يُتهم أصحابها بأنهم مجانين .

لذلك مشكلة كبيرة جداً ، تبدلت القيم .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

هذا أهجى بيت قالته العرب ، هو شعار كل إنسان الآن :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

تحريم أشياء كثيرة على اليهود عقاباً من الله عز وجل :

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

أي شيء تعرفه ابتداءً من دون تعليم ، معروف ، وأي شيء تنكره ابتداءً منكر ، وقد يعرف هذا الحيوان ، القطة إن خطفت قطعة لحم تأكلها بعيداً عنك تعرف ذنبها ، أما إذا قدمت لها قطعة لحم تأكلها أمامك ، تدرك أن أول عمل غلط ، ينبغي أن تهرب ، العمل الثاني صح ، تأكلها أمامك .

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ)

كم نوع من الطعام مسموح به ؟ كم نوع ؟ أنواع لا تعد ولا تحصى ، حرم الله علينا لحم الخنزير ، وكم نوع من الشراب مباح لك ؟ والله هناك مئة نوع ، حرم الخمر .

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ)

الطيبات تطيب نفسك به ، مرة قال لي شخص (له جاهلية كبيرة جداً): أنا كنت شارداً عن الله ، وكنت منحرف الأخلاق ، ثم تزوجت ، قال لي : والله ربع ساعة مع الزوجة تعدل آلاف النساء الفاسقات ، هذه زوجة طاهرة ، عفيفة ، هي لك ، أم أولادك ، تنجب لك أولاداً يملؤون البيت فرحة .

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ)

ما تطيب نفسك به .

(وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)

ما تخبث نفسك به .

(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)

فالله عز وجل قال :

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)

(سورة النساء الآية : 160)

كان هناك عقاباً من الله في تحريم أشياء كثيرة على اليهود ، قال :

(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ)

المتاعب التي عانوها ما كانت قبلهم عقاباً من الله عز وجل .

(وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

الأمر الإلهي العلاقة بينه وبين النتائج التي تنتج عنه علاقة علمية :

إخوانا الكرام ، أهم فكرة بالموضوع أن الأمر الإلهي العلاقة بينه وبين النتائج التي تنتج عنه علاقة علمية ، يعني علاقة سبب بنتيجة ، شيء طبيعي ، وأوضح مثل :

لما إنسان يقترب من تيار توتره عالٍ يحترق ، يصبح فحمة ، المواطن إذا رأى بلاغاً أنه ممنوع الاقتراب ، ليس الموضوع موضوع شرطي يحاسبك ، التيار يحاسبك ، الموضوع ليس موضوع مخالفة تكتب عليك ، لا ، أخطر بكثير ، التيار نفسه خصائصه ضمن 8 أمتار يصبح الإنسان فحمة ، هذا العلاقة بين الأمر والنهي والنتيجة علاقة علمية ، مثلاً :

هذا باب ، وهناك باب ثانٍ ، لو ظهر تعليمات في هذا المسجد هذا الباب لا أحد يخرج منه ، لو شخص خرج ، ما في علاقة علمية بين اللوم الذي سيصيبه ، وبين خروجه ، باب أساساً هُيئ للخروج ، لكن في تعليمات معينة لا تخرج منه ، نقول هذه العلاقة بين عدم الخروج من الباب ، واللوم الذي سيتحمله من خرج علاقة وضعية ، نحن وضعناها .

أحياناً جاءت فترة القانون يمنع إخراج الدولارات ، إذا الشخص المبلغ مبلغه وسافر فيه يسجن ، لا يوجد علاقة علمية ، بين السجن ، الإنسان السارق يسجن ، القاتل يسجن ، لكن هذا معه المال ماله ، لكن في تعليمات ، في قانون وضعي ، جعل خروج الإنسان بمال له عقاب .

نحن دائماً الأسباب والنتائج إما العلاقة بينها علاقة علمية ، أو علاقة وضعية ، أكثر القوانين علاقة وضعية ، إلا أن الأوامر الإلهية ، والنواهي الإلهية ، العلاقة بينها وبين النتائج علاقة علمية ، مثل آخر: معك شاحنة فيها عشرين طناً ، وصلت إلى جسر مكتوب عليه : الحمولة القصوى عشرة طن ، إذا سائق أحمق وفي شرطة ، ليس موضوع شرطة ، الشرطة ما لها دخل ، الجسر لا يتحمل عشرة طن ، سينهار ، ستسقط في النهر ، أي شرطة ؟ الفكرة واضحة ؟.

معرفة الإنسان الحق و الباطل و الحلال و الحرام بفطرته :

العلاقة بين الأمر ونتائجه ، والنهي والنتائج علاقة علمية ، يعني علاقة سبب بنتيجة

(وَيُحِلُّ لَهُمُ)

كل شيء تطيب أنفسهم به .

شخص تزوج ، زوجته حلاله ، سهر معها ، ونام ، وقام صلى قيام الليل ، مرتاح ، كله وفق المنهج ، لا يحس حاله غلط ، زوجته هذه ، أم أولاده ، لكن لو شخص أسمع فتاة كلمة بالطريق نابية يحس حاله انحجب عن الله ، هذه لا تحل له ، الكلمة النابية فيها عقاب .

فأنت تعرف بالفطرة الحق والباطل ، الحلال والحرام بالفطرة ،

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

تعرفه النفوس البشرية ابتداءً من دون تعليم .

مثلاً : طفل صغير وجد قلماً أعجبه فوضعه في جيبه ، صاحب القلم رفع إصبعه ضاع قلمي ، الأستاذ فتش الطلاب ، عثر عليه بجيب هذا الطفل ، يحس هذا الطفل بآلام لا توصف ، لماذا تألم ؟ هو مفطور فطرة ، هذه الفطرة أنبأته أن عمله غلط .

بالمناسبة هناك فندق بألمانيا مكتوب عليه : إن لم تنم هذه الليلة فالعلة ليست في فرشنا إنها وثيرة ، مريحة ، لكن العلة في ذنوبك إنها كثيرة .

العقاب الذاتي أكبر عقاب للإنسان :

الآن أي إنسان يغلط ، يؤذي إنساناً ، يبتز مال إنسان ، تجده شقياً ، تحاسبه نفسه ، تعاقبه نفسه ، أكبر عقاب العقاب الذاتي ، هناك حالة اسمها احتقار الذات ، قد تكون قوياً جداً وغنياً جداً ولا أحد يجرؤ أن يقول لك كلمة ، أما حينما تعلم أنت بفطرتك أنك تبني مجدك على أنقاض الناس ، تبني عزك على إذلالهم ، مالك على إفقارهم تسقط من عين نفسك ، هذا اسمه احتقار الذات ، الشعور بالذنب ، الشعور بالنقص ، هذه الفطرة ، الفطرة تحاسب ، هذه الفطر السليمة تعرف المعروف ، وتعرف المنكر ، عرفته ابتداءً ، وأنكرته ابتداءً ، من دون تعليم ، كل واحد منا .

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

الإنسان يعلم علم اليقين الخطأ من الصواب ابتداءً من دون تعليم ، هذه الفطرة .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(46-60): تفسير الآيات 158 - 162، تيه قوم سيدنا موسى في الصحراء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-08-01

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدنا محمد بُعث إلى الناس عامة بينما باقي الأنبياء أرسلهم الله إلى أقوامهم فقط :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

أيها الأخوة ، الحقيقة الأولى في هذه الآية : أن كل أنبياء الله جلّ جلاله أرسلهم الله إلى أقوامهم ، إلا أن النبي وحده هو خاتم الرسل ، وخاتم الأنبياء ، ورسالته خاتمة الرسالات وكتابه خاتم الكتب ، أرسله الله لكل البشر أجمعين ، من دون استثناء ، والدليل أن القرآن الكريم يخاطب الناس في مئتي و ست عشرة آية يقول ،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)

يخاطب الناس جميعاً ، يخاطب الأمم جميعاً ، الشعوب جميعاً ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أعطيتُ خمساً لم يُعْطهُنَّ أحد قبلي : كان كلُّ نَبيّ يُبْعَثُ إلى قومِهِ خَاصَّة ، وبعثتُ إلى كُلِّ أحمرَ وأسودَ))

[البخاري و مسلم عن جابر]

يعني إلى كل الشعوب على اختلاف ألوانها ، وأجناسها ، وأعراقها ، وطوائفها .

((وأحِلَّتْ لِيَ الغنائمُ ، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ طيِّبَة وطهورا ومسجداً ـ في أي مكان تصلي ـ فأيُّمَا رَجُل أدرَكَتْهُ الصلاة صلّى حيث كان ، ونُصِرْتُ بالرعب على العدوِّ بين يَدَيْ مَسِيرةِ شَهْر))

لكن أمته من بعده حينما تركت سنته هُزمت بالرعب مسيرة عام .

((ونُصِرْتُ بالرعب على العدوِّ بين يَدَيْ مَسِيرةِ شَهْر ، وأعطيت الشفاعة))

وفي رواية ثانية :

((أعطيتُ خَمْسا لم يُعْطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي : نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهر وجُعلتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطَهورا ، فأيُّمَا رَجُل من أمَّتي أدركته الصلاة فليصلّ ، وأحِلّت ليَ الغنائمُ ، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي ، وأعْطِيتُ الشفاعة ، وكان النبيُّ يبعثُ إلى قومهِ خاصة ، وبعثتُ إلى الناس عامة))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

هذا معنى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)

معجزة النبي الكريم معجزة مستمرة لأنها لكل الأمم والشعوب :

أيها الأخوة ، لأنه بُعث إلى الناس عامة ، إذاً ينبغي أن تكون معجزته مستمرة ، لأن كل معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية ، كتألق عود الثقاب ، تألقت وانطفأت ، وأصبحت خبراً يصدقه من يصدقه ، ويكذبه من يكذبه .

إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام لأنه لكل الأمم والشعوب ، ولنهاية الدوران ، وحتى نهاية الساعة ، إذاً ينبغي أن تكون المعجزة (وهي شهادة الله لأنه رسوله) مستمرة ، ولن تكون مستمرة إن كانت حسية، ينبغي أن تكون عقلية .

لذلك الإعجاز العلمي في القرآن هو المعجزة المستمرة ، بمعنى أن القرآن الكريم أشار إلى حقائق كُشفت بعد ألف و أربعمئة عام ، والحديث عن هذا حديث طويل له وقت آخر إن شاء الله .

الله عز وجل خلق هذا الكون و أرسل الرسول الكريم :

إذاً :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً)

رسول من ؟ رسول جهة أرضية ؟ .

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

والسماوات والأرض هي الكون ، والكون ما سوى الله ، أي ثلاثة آلاف مليار مجرة ، أحدث الأرقام ، ثلاثة آلاف مليار مجرة ، في كل مجرة مليون مليون كوكب ونجم ، الذي خلق هذا الكون هو الذي أرسل هذا الرسول .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ولم يدع أحد أنه خلق السماوات والأرض .

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أنت أحياناً تستمع إلى صوت ، من هذا الصوت تعرف من القائل ، إذا قال لك : هناك وزير عينته ، و قررت أن أقيله فهذا رئيس وزارة ، من كلام المتكلم تعرف من هو .

الذي يقول لك : الله الذي خلق السماوات والأرض ، هل ادعى أحد أنه خلق السماوات والأرض ؟ سبحانه وتعالى . إذاً :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

من الإله ؟ الذي

(يُحْيِي وَيُمِيتُ)

حياتك بيده ، استمرار حياتك بيده ، سلامة حياتك بيده ، كمال حياتك بيده ، من حولك بيده ، من فوقك بيده ، من تحتك بيده ، الرزق بيده ، نجاح الزواج بيده ، النجاح بالعمل بيده ، راحتك النفسية بيده ، القلق بيده ، الحزن بيده ، الفرح بيده .

الإنسان مخلوق لحياة عليا فعليه أن يؤمن بالله خالقاً و مسيراً و رباً :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ)

آمن به خالقاً ، آمن به رباً ، آمن به مسيراً ، آمن به موجوداً ، آمن به واحداً ، آمن به كاملاً ، آمن بأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، آمن أن كماله كمال مطلق ، آمن أنه ذات كاملة ، آمن أنه خلقك ليسعدك ، آمن أن كل مصيبة لها حكمة بالغة لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع ، آمن أن هذه الحياة دنيا ، وليست عليا ، وأنك أيها الإنسان مخلوق لحياة عليا ، فيها :

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ)

آمن به عدل ، رحيم ، غفور ، كريم ، لطيف ، رؤوف ، جبار ، آمن به يقصم الجبابرة ، آمن به ينتقم من الظالمين ، آمن به :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية : 123)

آمن به :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ)

والله أنا آمنت أن الله خلق السماوات والأرض ، فقط ؟ هل عرفت أسماءه الحسنى ؟ هل عرفت صفاته الفضلى ؟ هل عرفت رحمته ؟ هل عرفت حكمته ؟ هل عرفت رأفته ؟ هل عرفت لطفه ؟ هل عرفت قوته ؟ هل عرفت غناه ؟ .

دخول الجنة بحاجة إلى من العمل :

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

هل تعرفت لرسول الله ؟.

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

(سورة المؤمنون الآية : 69)

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ الآية : 46)

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ)

أقول لك مثلاً : يا أخي كن طبيباً ، كلمة كن طبيباً تنام تستيقظ تجد نفسك طبيباً ؟ أما في ثلاث و ثلاثين سنة دراسة ، ومعك مجموع عالٍ جداً ، وسبع سنوات دراسة ، وكل يوم عشر ساعات دراسة ، علوم عامة ، فيزياء ، وكيمياء ، ورياضيات ، وطبيعيات ، والعام الثاني تشريح ، العام الثالث فيزيولوجيا ، الرابع علم الأمراض ، علم الأدوية ، وبعدها فحوصات ، وتطبيقات ، وتدريبات ، بعدها إجازة في الطب ، سبع سنوات ، وخمس فوقهم ، وترجع بالرابعة و الأربعين و الخامسة و الأربعين معك بورد ، تكتب جانب اسمك الدكتور فلان .

تحتاج مرتبة تحصل بها على الجنة إلى أبد الآبدين من دون جهد ؟ من دون أن تحضر درس علم ؟ من دون مطالعة كتاب ؟ من دون سؤال وجواب ؟ معظم الناس مرتاحون يوزع ألقاباً على الناس ، يتوهم أنه مؤمن ، وله خمسين معصية .

سِلْعَةَ اللَّهِ غالية :

أيها الأخوة ،

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ)

يوجد جهد ، سلعة الله غالية ، جنة تريدها بلا عمل ؟ بالأمل ؟ بالدعاء ؟ بركعتين ؟ بليرتين ، وتعيش كما تريد ، وكما تشتهي ، لا يوجد انضباط لا بكسب المال ، ولا بإنفاقه ، ولا مع النساء ، وتريد جنة عرضها السماوات والأرض ؟ .

((ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غالية))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

أضرب مثلاً أعيده كثيراً : دخلت لأرقى محل للسجاد ، تريد سجادة ، أراك صاحب المحل ، أريد أثقل، الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، أطلعك على مئة سجادة ، تريد أثقل ، أخذك إلى محل ثانٍ أعلى ، أراك السجاد الأصلي ، ثمن كل واحدة مليونان ، ثلاثة ملايين ، أعجبتك واحدة قلت له : تأخذ ثمنها خمس ليرات ؟ تخرج من المحل سالماً ؟ ثلاثة ملايين تريدها بخمس ليرات ؟!.

والله الجنة أعظم ، تريد حياة أبدية بالجنة ، ولست مستعداً أن تحضر درس علم ، أما مسلسل يمنع التجول ، أوقات المسلسل أربع ساعات ، أما درس العلم ساعة ، تعرف ربك فيه ، وضع المسلمين وضع متعب جداً ، وضع مؤلم جداً .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

رسول من ؟ دولة عظمى الأولى بالعالم ، تجد سفيرها محترم احتراماً مذهلاً ، سفير الدولة العظمى ، السفير يأخذ مكانته من دولته ، من قوة دولته ، من هيمنة دولته ، ورسول الله رسول من ؟ رسول خالق السماوات والأرض .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً)

من هو الله ؟

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ولم يدع أحد أنه خلق السماوات والأرض .

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ)

آمن به خالقاً ، ومسيراً ، وممداً ، آمن به موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، آمن بأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى .

أمية النبي وسام شرف له لأن الله تولى تعليمه :

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ)

أميته وسام شرف ، لأن الله تولى تعليمه ولأن وعاء النبي عليه الصلاة والسلام ما أراد الله أن يكون به من ثقافات الأرض ، كله من وحي السماء ، لو أن النبي درس بالمراكز العلمية بحياته ، في عهده ، يقال له : يا رسول الله ، هذا من الوحي أم من عندك ؟ .

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة العنكبوت)

وعاء النبي عليه الصلاة والسلام ممتلئ من وحي السماء فقط .

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

وعاء النبي ممتلئ من وحي السماء ، لذلك أمية النبي وسام شرف له ، لأن الله تولى تعليمه .

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

(سورة النجم)

من آمن بالله و رسوله هُدي إلى سرّ وجوده و غاية وجوده :

أما نحن إن كنا أميين فأميتنا وصمة عار بحقنا ، لا يوجد طريق إلى العلم إلا بالتعلم لو شخص ما تعلم جاهل ، أما النبي وحده ، يأخذ بعض العلماء بعض أحاديثه ، يدرسونها ، يُمنح درجة دكتوراه بامتياز ، لأنه شرح بعض أحاديث رسول الله .

يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء

* * *

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

(لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

إلى سرّ وجودكم ، إلى علة وجودكم ، إلى أنكم خلقتم لجنة عرضها السماوات والأرض .

(لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

إلى سلامتكم ، وسعادتكم .

العاقل لا يعمم لأن التعميم من العمى :

أيها الأخوة ، الشيء اللطيف بالقرآن ما يسمى الآن بالموضوعية ، يعني هناك من يعمم ، والتعميم من العمى ، قال تعالى :

(وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

(سورة الأعراف)

يعرفون الحقيقة ، يتبعون الحق ، منصفون ، من أهل العدل والإنصاف ، كلمة من لا تعمم ، لا تقل كل أهل هذه البلدة فسقة ، إياك أن تقول ، لا تقل كل الأغنياء بخلاء ، إياك أن تقول هذا ، هذا كلام إنسان أعمى ، قل بعضهم ، بعضهم في أعلى درجة من السخاء والتواضع قل بعض أهل مدينة ما انحرفوا ، والبعض الآخر بأعلى درجة من الانضباط ، إياك أن تعمم التعميم من العمى .

انتشار اليهود في بلاد الأرض و الحكمة من عدم وجود وطن لهم :

انظر إلى دقة القرآن :

(وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

ثم يقول الله عز وجل :

(وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة الأعراف)

يعني نسل سيدنا يعقوب ، جاء أحد عشر كوكباً ، والمتكلم اثني عشر .

(يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

(سورة يوسف)

فسيدنا يعقوب نسله ، معنى الأسباط ، أي ابن الولد .

(وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً)

تقول جاء امرأتان اثنتان ، وجاء رجلان اثنان ، فاثنتان مؤنث ، بعضهم قال : لأن كل جمعٍ مؤنثٍ ، وبعضهم قال : السبط هو القبيلة والقبيلة مؤنثة ، كل سبط صار أمة ، اثني عشر ولداً ، كل ولد صار أمة ، وانتشروا في بلاد الأرض ولحكمة بالغةٍ بالغة ليس لهم وطن .

رحلة اليهود في التيه :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ)

يبدو أن الحديث الآن عن رحلة اليهود في التيه ، الآن تاهوا في الصحراء ، في أثناء هذا التيه شعروا بحاجة كبرى إلى الماء عطشوا .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ)

أي طلبوا السقيا ، الحاجة الأولى الهواء لكن لحكمة بالغةٍ بالغة الهواء ليس ملك أحد ، لو كان يُملك في فواتير ، كنا قد هلكنا ، يرفع السعر ، نريد أن نستنشق الهواء ، ما في هواء ، نختنق ساعتئذٍ ، الهواء لا يُملك ، لا يوجد باللغة استهوى ، يوجد استطعم ، طلب الطعام ، استسقى ، طلب السقيا ، لكن ما في استهوى ، فطلب الهواء الحاجة الأولى ، طلب الماء السقيا الحاجة الثانية ، طلب الطعام الحاجة الثالثة .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا)

(سورة الكهف الآية : 77)

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ)

بالمناسبة : أي فعل سبقه ألف ، وسين وتاء ، على وزن استفعل صار للطلب ، استغفر طلب المغفرة ، استودع طلب الوديعة ، استقام طلب الاستقامة ، استرحم طلب الرحمة ، استسقى طلب السقيا ، استطعم طلب الطعام ، إلا أن فعل استهوى ورد في القرآن الكريم ، لا بمعنى طلب الهواء ، ولكن بمعنى أن تكون على هوى الشيطان ، الآية الكريمة :

(قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ)

(سورة الأنعام الآية : 71)

(اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ)

طلبت منه أن يكون على هواها ، الشيطان يوسوس بالمعاصي والآثام .

(فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام الآية : 71)

تساوي الماء لكل سبط من أسباط اليهود حتى لا يتنازعوا :

إذاً :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ)

يعني انفجرت

(مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً)

لكل سبط عين ، يبدو أنهم متشاكسون ، فكل واحد له عين خاصة ، وهناك استنباط آخر : أن كمية الماء من كل عين مساوية للثانية ، حتى لا يختاروا هذه لي ، وهذه لك ، حتى لا يكون هناك تنازع ،

الكميات متساوية ، وكل سبط له عين .

لكن هناك ملمح آخر دقيق : لما سيدنا موسى ضرب البحر بعصاه ، أصبح طريقاً يبساً ، ضرب اليبس بعصاه أصبح ماء زلالاً ، ضربة واحدة تحول الماء إلى صخر ، والصخر إلى ماء هذا من طلاقة القدرة الإلهية ، عمل واحد يحول الصخر إلى ماء .

(أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ)

(سورة الشعراء الآية : 63)

فأصبح الطريق يبساً .

(اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً)

يعني كن فيكون عمل واحد .

الآن الماء قلته بلاء ، وكثرته بلاء ، التسونامي ماء ، أحرق الأخضر واليابس الفيضانات تدمر كل شيء ، الريح منعش ، وهناك رياح مميتة .

إكرام الله عز وجل اليهود في رحلتهم بعدما تاهوا في صحراء سيناء :

إذاً :

(فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ)

أما الآية الثانية :

(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)

(سورة الشعراء)

هذه عصا واحدة ، والضرب واحد ، ضُربت المياه بالعصا فأصبحت طريقاً يبساً وضربت بالصخر العصا فأصبح ينابيع شتى .

الله عز وجل أكرمهم بهذه الرحلة ، جعل لكل سبط عيناً ، ولكل سبط غمامة سحابة تظللهم من أشعة الشمس ، ولكل سبط نقيباً ، وكل مجموعة لهم نقيب ، والتبليغ تسلسلي ، في نظام .

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)

قال المن مادة بيضاء حلوة الطعام ، والسلوى طائر من رتبة الدجاجيات ، واحدته سلوات ، وهو السماني أو السمان المعنى واحد ، هذا طير لا يربيه أحد ، يأتي مهاجراً .

(وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)

يعني حاجاتهم كلها ، ماء ، غمام ، منّ وسلوى ، ظل ظليل ، وماء وفير ، وطعام طيب .

لذلك قال : لُبيت حاجاتهم قدراً لا كسباً ، الآن شخص حتى يشتري الطعام يكون له حرفة ، وله دخل ، حتى يرتاح له بيت ، دافع ثمنه ، فكل مقتنيات الإنسان كسبية ، أما هؤلاء في هذه الرحلة الماء من قدر الله لهم ، والغمام من قدر الله لهم ، والطعام من قدر الله لهم ، في حلويات أعتقد تصنع في بعض الأقطار اسمها المن والسلوى .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

أيها الأخوة ، هذه التفاصيل إشارة إلى رحلة اليهود في صحراء سيناء حينما تاهوا الله عز وجل أدبهم لأنهم عبدوا العجل ، ثم أكرمهم بالماء ، والطعام ، والظل الظليل .

عدم تطبيق اليهود الأمر الإلهي بأن يسكنوا مصر و يخضعوا لله و يطلبوا المغفرة :

الآن :

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

لما ضجروا من أنفس طعام ، ومن أطيب إكرام ، قال الله لهم :

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف)

اسكنوا أية قرية ، أية مدينة .

(وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ)

فيها طعام لكم ، منوع كما تشتهون .

(وَقُولُوا حِطَّةٌ)

يعني اخضعوا لله عز وجل ، واطلبوا المغفرة .

(وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

نزول العذاب الأليم باليهود نتيجة آثامهم و معاصيهم :

لم يفعلوا .

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

(سورة البقرة الآية : 93)

نحن في نهاية الصلاة يقول بعض المسلمين في بعض المساجد : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، أما لسان حال المسلمين اليوم ،

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

لم يقولوا حطة ، ولم يدخلوا الباب سجداً ، ولم يستغفروا ، فقال تعالى :

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)

(سورة الأعراف)

ما طبقوا الأمر الإلهي .

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً)

الرجز هو العذاب ، عندنا رِجزٌ ، رَجزٌ ، ورُجزٌ ، معنى بالكسر ، والفتح ، والضم ، يعني كلمة مثلثة ، الرجز ؛ المآثم والمعاصي ، وتنجو إذا تركت المآثم والمعاصي من الرجز الذي هو العذاب ، بالكسر العذاب ، بالضم الآثام والمعاصي ، فحينما يبتعد الإنسان عن الآثام والمعاصي ينجو من العذاب .

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ)

أي لم يطبقوا الأمر الإلهي .

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً ـ أي عذاباً ـ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)

الدين الإسلامي لكل الأمم و الشعوب :

أيها الأخوة ، أريد أن أؤكد لكم أن كل قصص القرآن الكريم هي لمن ؟ هي لنا ، لأن سيدنا موسى وقومه مضوا إلى دار القرار ، لكن المعني بهذه القصة نحن ، فهناك استنباطات كثيرة ، يقع في أول هذه الاستنباطات أن هذا الدين لكل الأمم والشعوب ، وأن هذا الدين خاتم رسالات السماء ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والرسل ، وأن بعثته خاتمة البعثات ، وأن كتابه خاتم الكتب ، وأن إعجاز القرآن الكريم هو الدليل ، والشهادة من الله على أنه كلامه .

أمثلة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم :

1 - الهواء و الأعاصير :

حينما يصعد رائد فضاء إلى طبقات الجو العليا ، باتجاه القمر ، ويقطع 65 ألف كم طبقة الهواء ، طبقة الهواء المحيطة بالأرض سمكها 65 ألف كم ، النقطة الدقيقة أن الله عز وجل حينما قال :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة الروم الآية : 42)

بربكم تمشون على الأرض أم في الأرض ؟ على ، في يعني بالسراديب ، بالأنفاق ، الآية :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

ما وجه الإعجاز في هذه الآية ؟ قال : لأن الهواء جزء من الأرض ، 65 ألف كم طبقة الهواء .

تصور الهواء ثابت والأرض تدور ، ما الذي يحصل ؟ يصبح أعاصير سرعتها ألف و ستمئة كم بالساعة ، هناك أعاصير بالعالم الغربي بأمريكا تدمر كل شيء ، مدينة بأكملها .

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ)

(سورة المدثر)

وقد تشاهدون في الأخبار بعض الأعاصير ، البيوت كلها تحطمت ، السرعة ثمانمئة كم فإذا كان ألف و ستمئة لا يبقى على وجه الأرض شيء ، إذا كان الهواء ثابت والأرض تدور ، أما الهواء جزء من الأرض .

لذلك قال تعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

تمشي أنت بين فوق طبقة الهواء 65 ألف كم وعلى سطح الأرض ، لكن الإجمالي تمشي أنت في الأرض ، لا على الأرض .

2 – الظلام في الفضاء الخارجي :

أيها الأخوة ، رائد الفضاء حينما صعد إلى الفضاء الخارجي صاح فجأة لقد أصبحنا عمياً ، لا نرى شيئاً ، كان في أكبر عالم فضاء من مصر في القاعدة التي انطلقت منها مركبة الرواد ، ما الذي حصل؟ لما قطع هذا الرائد طبقة الهواء انعدم تناثر الضوء ، فدخل في الظلام الدامس ، نحن في الأرض عندنا أشعة شمس ، و هواء ، والهواء ذرات ، فحينما تسلط أشعة الشمس على ذرات الهواء بعض ذرات

الهواء تعكس أشعة الشمس على ذرات أخرى ، صار في بالأرض مكان أشعة الشمس ، ومكان فيه ضوء شمس ، رائد الفضاء لما تجاوز الـ65 ألف كم دخل بالفضاء الخارجي ، ما عاد في هواء ، ما عاد في انتشار ضوء ، ما عاد في ضوء أبداً دخل في ظلام دامس فقال : لقد أصبحنا عمياً ، هذا متى كان ؟ كان قبل عشرين سنة ، مع إرسال أول مركبة إلى الفضاء ، صاح رائد الفضاء : لقد أصبحنا عمياً .

الآن افتح كتاب الله واقرأ هذه الآية :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر)

هذا إعجاز القرآن .

3 ـ الوردة الجورية :

قد تعجب لوردة عرضتها وكالة الفضاء في موقعها في الانترنيت ، وردة جورية ، لو تأملتها ملياً لا تشك لثانية واحدة أنها وردة جورية بأوراقها الحمراء الداكنة ، وبوريقاتها الخضراء الزاهية ، وبكأسها الأزرق في الوسط ، لكن كُتب تحت هذه الوردة : صورة انفجار نجم اسمه عين القط ، يبعد عن الأرض ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، وردة عرضتها بعض البرامج التلفزيونية ، افتح القرآن :

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

4 ـ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ :

تركب طائرة على ارتفاع أربعين ، خمسين ألف قدم ، بأعلى درجات الفخامة بالدرجة الأولى ، طعام ، وشراب ، ومسليات ، وفواكه ، وعصائر ، وصحف ، ومجلات ، ومقعد وثير ، وتكييف ، وانترنيت ، وفضائيات ، وقنوات ، تفتح القرآن تقرأ قوله تعالى :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)

(سورة النحل الآية : 8)

الطائرة 777 .

(وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل الآية : 8)

هذا كلام الله عز وجل ، هذه داخلة بالطائرة ، والمركبة ، والقطار السريع ، والحوامة والباخرة ، واليخت دخل فيها .

خاتمة :

الإعجاز هناك في إشارات إلى حقائق لم تكن معروفة وقت نزول الوحي ، لكن بعد ألف و أربعمئة عام تمت معرفته .

أيها الأخوة الكرام ، الآيات التي شرحت اليوم هي قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(47-60): تفسير الآيات 163 - 166، ابتكار الحيل الشرعية للخروج عن منهج الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-08-08

بسم الله الرحمن الرحيم

من أدلة أن سيدنا محمداً هو رسول الله أنه جاء بأنباء ما كان يعرفها لا هو ولا قومه :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثالثة والستين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

أيها الأخوة ، الله جل جلاله يأمر نبيه أن يسأل أهل الكتاب .

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ)

هو لم يقرأ ولم يكتب ، وما اتصل بالمراكز العلمية في العالم ، ولا يعلم شيئاً عن قصص الأمم الغائبة، من أنبأه بهذا الحديث ؟ لذلك الله عز وجل يقول :

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ)

(سورة هود الآية : 49)

من أنباء الغيب ، هذه الأنباء غابت عنك ، وما دمنا قد أوحيناها إليك وأنت تذكرها لقومك فأنت رسولنا

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ)

(مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ)

(سورة هود الآية : 49)

أي من أدلة أن هذا الإنسان محمد بن عبد الله ، رسول الله ، أنه جاء بأنباء ما كان يعرفها لا هو ولا قومه ،

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ)

أمية النبي عليه الصلاة والسلام وسام شرف له لأن الله تولى تعليمه :

آية ثانية :

(وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)

(سورة القصص الآية : 45)

أنت ما كنت مع أهل مدين ، من أين أتتك هذه الحقائق تتلوها على قومك ؟ .

آية ثالثة :

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

(سورة آل عمران)

دليل ثالث .

آية رابعة ، أنت أمي لم تقرأ ولم تكتب ، وعاؤك ممتلئ من الله مباشرة :

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

(سورة النجم)

أمية النبي عليه الصلاة والسلام وسام شرف له ، لأن الله تولى تعليمه ، يعني إنسان يفتخر له أستاذ بروفسور ، يحمل أعلى شهادة في العالم ، تتلمذ على يده ، يتيح بهذه النسبة لأستاذه فكيف إذا كان الذي علم النبي الكريم خالق السماوات والأرض ،

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

دعوة النبي الكريم دعوة نقية خالصة لأنها من وحي السماء :

الله عز وجل شاءت حكمته أن يكون أميناً ، لئلا يكون في وعائه الثقافي إلا وحي السماء ، تبقى دعوته نقية خالصة من وحي السماء ، لذلك :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة العنكبوت)

لذلك اسألهم يا محمد ، اسأل أهل الكتاب ، كدليل على نبوتك ، وكدليل على رسالتك ، وكدليل على صدقك ،

(وَاسْأَلْهُمْ)

الإسراء و المعراج مكافأة من الله عز وجل للنبي الكريم على صبره في الطائف :

أيها الأخوة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((لَقَد رَأَيتُني في الحِجْر ـ في الكعبة ـ وَقُرَيشٌ تَسألُني عن مَسْرَايَ ؟ ـ عن أحداث الإسراء ـ فسألَتْني عن أشياءَ من بَيتِ المقدس لم أُثبِتْهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

أحياناً تزور صديقك أنت منشغل بالحديث معه ، تقول لك زوجتك ما لون قماش الأثاث ؟ والله لا أعلم! أنت منشغل بموضوع مهم تسألك عشرات الأسئلة لا تستطيع أن تجيب عنها إطلاقاً ، لأنك منغمس في موضوع خطير ، في لقاء حميم ، تعالج موضوعاً دقيقاً ، ما انتبهت لا إلى الأثاث ، ولا إلى الجدران ، ولا إلى الستائر ، تقول والله لا أعلم .

فالنبي عليه الصلاة والسلام جاء إسراءه ومعراجه مكافأة من الله عز وجل على صبره على قومه في الطائف ، قال تعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

(سورة الإسراء)

عدم تخلي النبي الكريم عن قومه بل دعوته لهم بأن يخرج الله من أصلابهم من يوحده :

لما قال النبي الكريم في الطائف :

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين ، إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجهمني ، أم إلى قريب ملكته أمري ؟ إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

فأراد الله سبحانه وتعالى أن يمتحنه ، مكنه أن ينتقم منهم ، أرسل له ملك الجبال قال :

((يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين قال : لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي))

[الدر المنثور في التفسير بالمأثور]

ما تخلى عنهم ، ودعا لهم ، واعتذر عنهم ، فإنهم لا يعلمون ، ورجا الله أن يخرج من أصلابهم من يوحده .

((اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده))

سؤال قريش النبي الكريم في حِجر الكعبة عن معالم بيت المقدس :

لما سئل وهو في حجر الكعبة عن معالم بيت المقدس ، وقد أسرى الله به إليه قال :

((وَقُرَيشٌ تَسألني عن مَسْرَايَ ؟ فسألَتْني عن أشياءَ من بَيتِ المقدس لم أثبتْهَا ـ أي لم أتذكرها ـ فكُربْت كُرْبَة ما كُرب مثلها قطُّ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

ألم تذهب إلى هناك ؟ حدثنا عن بيت المقدس ، وقع بحرج شديد ، قال :

((قال : فرَفَعهُ الله لي))

يراه رأي العين .

((أنْظرُ إليه ، ما يَسألُوني عن شيءٍ إلا أنْبَأتُهم بهِ ، وقد رَأيتُني في جماعةٍ من الأنبياء ، فإذا موسى قائم يصلي ، فإذا رجل ضَرْبٌ ـ نوع خاص ، متميز ـ جَعْدٌ كأنَّه من رجال شَنُوءة ، ـ قوم شنوءة قوم أشداء ـ وإذا عيسى بنُ مريمَ قائم يُصلّي ، أقرب الناس به شَبها عُروَةُ بنُ مسعودٍ الثقفيُّ ، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يُصلّي ، أشْبهُ النَّاس به : صَاحِبُكم ـ أي النبي عليه الصلاة والسلام يشبه سيدنا إبراهيم ـ فحَانَتِ الصلاةُ فأمَمتُهُم ـ صلى بهم إماماً ـ فحَانَتِ الصلاةُ فأمَمتُهُم ، فلمَّا فرَغْتُ من الصلاةِ قال قائلٌ : يا مُحَمَّدُ هذا مالكٌ خَازنُ النَّار ، فسَلِّمْ عليه ، فالتَفَتُّ إليه ، فبَدَأني بالسلام))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

يعني الله عز وجل أخبره .

أحد أكبر أدلة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام أنه جاء بأخبار الأمم والشعوب السابقة :

أحد أكبر أدلة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام أنه جاء بأخبار الأمم والشعوب السابقة ، أنى له أن يعرفها لولا أن هناك وحياً يأتيه ، أنى له أن يعرفها لولا أن الله أخبره بها ، لكن السؤال :

(وَاسْأَلْهُمْ)

قال : سؤال للتقرير ، والتقريع ، والتوبيخ ، يعني أنتم يا أهل الكتاب لماذا تنكرون نبوة النبي الكريم ؟ وأوصاكم في كتبكم ، وها قد جاءكم بأخبار الأمم السابقة ، هي عندكم في التوراة هو لم يقرأ التوراة ، إذاً هذه الأخبار السابقة تعد دليلاً على نبوته صلى الله عليه وسلم وعلى رسالته .

(وَاسْأَلْهُمْ)

ما السؤال ؟ قال :

(عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ)

معنى حاضرة البحر ؛ أي قريبة من البحر ، طبعاً ليست بيت المقدس ، بعض العلماء قالوا : أيلة ، ومدين ، وطبرية ، لأن هذه المدن قريبة من البحر .

الحكمة من إغفال الله تفاصيل بعض القصص في القرآن الكريم :

بالمناسبة أيها الأخوة ، هناك ظاهرة في قصص القرآن أن الله جلّ جلاله يُغفل التفاصيل ، ويُغفل الجزئيات ، كم عدد فتية أهل الكهف ؟

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً)

(سورة الكهف الآية : 22)

ما الحكمة من أن القرآن الكريم في قصصه يغفل التفاصيل ؟ يغفل الجزئيات ؟

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً)

(سورة الكهف)

من هو ذو القرنين ؟ عاش في آسيا ؟ في جنوب آسيا ؟ في أوربا ؟ في الجزيرة ؟ متى ؟ متى ظهر ؟ في أي عام ظهر ؟ في أي أرض جلس ؟ مع من تحارب ؟ ما في تفاصيل ، ما الحكمة ؟ أقول لكم : الحكمة البالغة أن الله سبحانه وتعالى ما أراد من هذه القصص أن تكون قصصاً مع تفاصيل ، وجزئيات، وأسماء ، وزمان ، ومكان ، معنى أنها وقعت ولن تقع مرة ثانية ، الله ما أراد تاريخاً ، ما أرادها سيراً ذاتية ، ولا أرادها سيراً موضوعية ، أرادها قوانين مستمرة ، أرادها نماذج بشرية ، تقع في كل مكان .

قصص القرآن الكريم نموذج متكرر و حقائق مستمرة لا تاريخ و قصة وقعت وانتهت :

لذلك أنا أقول : حيث ما سكت القرآن الكريم عن بعض التفاصيل ينبغي ألا تسال عنها لأنك لو سألت عنها أفسدت على الله حكمته ، أضرب مثلاً :

أستاذ في جامعة أديب ، وأستاذ اقتصاد ، ألقى محاضرة على طلاب السنة الأولى عن عوامل نجاح التجارة ، فساق هذه الأفكار والحقائق بشكل قصة ، قال : لي صديق ، اشترى محلاً تجارياً في مركز المدينة ، بمكان تزاحم الأقدام (يوجد بمركز المدينة محل مئة مليون فروغ ، بينما في مكان آخر بلا فروغ ، إطلاقاً ، الفرق تزاحم الأقدام) فقال هذا الأستاذ : لي صديق اشترى محلاً تجارياً بمركز المدينة ، واختار بضاعة أساسية ، ما اختار حوض أسماك ، بضاعة غير أساسية ، إذا في ارتفاع أسعار ، في أزمات معيشية ، يقف عمله ، اختار بضاعة أساسية واختار البضاعة من أفضل الأنواع ، وضع لها سعراً معتدلاً ، ولم يبع ديناً ، وعامل الناس معاملة طيبة ، موقع المحل ، نوع البضاعة ،

مستوى البضاعة ، عدم البيع ديناً ، المعاملة الطيبة فهذا الصديق ربح أرباحاً جيدة ، واشترى بيتاً ، وتزوج ، واشترى مركبة ، وعاش حياة محترمة جداً .

فقام طالب و قال له : أستاذ هذا صديقك أبيض أم أسمر ؟ ما لها علاقة بالموضوع ! ما درجة قرابتك منك ؟ ما اسمه ؟ أين يسكن ؟ رقم هاتفه إذا ممكن ؟ هذا الطالب ما فهم مغزى المحاضرة ، أراد المدرس أن يقول من أجل أن تنجح تجارتك ينبغي أن تختار مكاناً ، و مكان ازدحام الأقدام بالمركز ، وأن تختار بضاعة يحتاجها الناس كثيراً ، وأن تختار مستوى البضاعة في أعلى مستوى ، وان تضع لها سعراً معقولاً ، وألا تبيع ديناً ، وأن تكون طيباً في معاملتك ، أراد المدرس أن يقول هذه الحقائق ، فلما سأل أحد الطلاب عن اسم هذا الشخص ، أبيض لما أسمر ، وعلاقتك معه أستاذ ، وأين بيته ؟ ورقم تلفونه ؟ هو ما فهم القصة إطلاقاً .

لذلك قالوا ينبغي أن تسكت حيث سكت القرآن ، ما جاء بتفاصيل ، جاء بالمغزى لذلك أراد الله من قصص القرآن الكريم أن تكون نموذجاً متكرراً ، وأن تكون حقائق مستمرة ، لا أن تكون تاريخاً ، وقصة وقعت ولن تقع .

وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ : هذه الآية وحدها تملأ النفوس ثقة بالله عز وجل :

أوضح مثل لهذا قصة سيدنا يونس حينما التقمه الحوت :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

(سورة الأنبياء)

هذه هي القصة ، انتهت ، جاء التعقيب من قِبل الله عز وجل ليجعل هذه القصة قانوناً ساري المفعول في كل مكان و زمان ، فقال تعالى بعد القصة :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

2008 - 2020 ، بأوربا ، بالشرق الأوسط ، وأنت على الباخرة ، وأنت في الطائرة ، وأنت في ضيق ، وأنت في مرض ، وأنت في دولة فيها حصار ،

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

هذه الآية وحدها ينبغي أن تملأ نفوسكم جميعاً وأنا معكم ثقة بالله عز وجل ، هل من مصيبة أكبر من أن ترى نفسك لقمة في فم حوت ، في ظلمة فم الحوت ، وفي ظلمة الليل ، وفي ظلمة البحر .

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ)

أي على البحر ، أو قريبة منه ، وما في تفاصيل ، لأن الله أراد المغزى ، سيدنا يوسف ، يقول لك شخص : يا ترى بعدما جعله الله عزيز مصر هل تزوج زليخة بعد ذلك ؟ والله لا أعرف ، أنا ما كنت وقتها ، لا أعرف ، ولازم ما أعرف ، أنا أعرف هناك إنسان دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال :

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

(سورة المائدة)

بطاعته لله كان عبداً فصار ملكاً ، امرأة خادمة ، جارية ، لما رأته في مركبه قالت : سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعتك ، وسبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيته .

إذاً :

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ)

ما في تفاصيل ، فهمتم عدم ذكر التفاصيل ؟ أراد الله لقصصه أن تكون حقائق ، وقوانين ، ومبادئ ، وسنن ، ونماذج متكررة ، أما التفاصيل توحي إليك أن هذا تاريخ ، أنها قصة وقعت ولن تقع مرة ثانية، تقع كل يوم ،

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

تقع كل يوم .

تحريم العمل عن أهل الكتاب يوم السبت :

ما قصة هذه القرية ؟.

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً)

هؤلاء أهل الكتاب حُرم عليهم أن يعملوا يوم السبت ، وهذا التحريم ساري المفعول حتى الآن ، يكون في مؤتمرات ، مندوب هذه الدولة مراعاة لأحكام دينه لا يقبل أن يقوم بأي نشاط يوم السبت ، إذا في مؤتمر ، معروف ، أما هم يعتدون يوم السبت ، يهدمون بيوتاً يوم السبت ، ويذبحون ، ويقتلون ، ويعملون كل المبيقات يوم السبت ، هذه ما لها علاقة بالدين .

(إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ)

لكن حَرم عليهم العمل يوم السبت ، وسبحان الله لحكمة بالغة ، ولامتحان صعب ،

(إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً)

البحر ممتلئ بالحيتان ، ممنوع أن تصيدوا ،

(وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ)

أحد ، اثنين ، ثلاثاء ، أربعاء ، خميس ، جمعة ، ما في أحد ، الامتحان صعب ، امتحان إنسان ادعى أنه يحب الله كثيراً .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

(سورة المائدة الآية : 18)

يقول لك شخص : لو تقطعني إرباً إرباً لا آكل قرشاً حراماً ، ما في شغل ، طرق باب وظيفة لا يوجد، هنا لا يوجد شواغر ، هنا انتهت ، هنا فات الأوان ، يأتي عمل بدخل فلكي بمكان محرم ، يتماسك ، يتماسك ، بعدها يقول لك ماذا أفعل ؟ أنا عندي أولاد ، معناها أنت دعواك غير صحيحة ، أما وضعك بظرف صعب ، أحياناً الله عز وجل يغلق أمام أبواب الحلال ، ينفتح دخل كبير فلكي من عمل محرم ، فأنت تدعي وصلاً بليلى ، لكن ليلى تعرف أنك لا تحبها ، تحب مصلحتك ، وضعك بهذا الوضع الصعب بعدئذٍ كفرت بليلى ، وفعلت ما يغضبها وانتهى الأمر هذا الواقع .

الحيل الشرعية فيها جانب إيجابي ولها مئات الجوانب السلبية :

(إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

لمعت أمامهم فكرة ، عملوا أحواضاً مفتوحة من جهة واحدة ، هذه الحيتان يوم السبت تدخل في هذه الأحواض ، إذا دخلت أغلقوا الأحواض ، صادوها يوم الأحد ، هذه حيلة شرعية .

وصدقوا أيها الأخوة ، أقسم لكم بالله إن الذي يفعل مثل هذه الحيل الشرعية كأنه يستهزئ بالله عز وجل.

يريد أن يسكن مع زوجة أخيه ، هي امرأة أجنبية ، سهلة ، نأتي ببنت ترضع من عند الجيران ، نعمل عقد زواج بيني وبينها ، بنت ترضع عمرها سنة ، ترضعها زوجة أخي ، نصيغ عقد زواج بين الرجل وبين هذه الرضيعة ، تصبح أمها التي أرضعتها حماتي ، أطلق البنت الرضيعة الحماة محرمة على التأبيد ، حلها .

آتي زكاة مالي أضعها في رغيف ، أقدمه للفقير ، هو ظن فقط رغيف ، بعدما أخذ قال له : تهبه لي بخمسمئة ليرة ؟ رغيف ثمنه خمسمئة ؟ فيه اثني عشر ألفاً في وسطه ، يرجعهم يضحكون على أنفسهم.

الحيل الشرعية يا أخوانا كثيرة جداً ، لكن لها وجه إيجابي ، إذا كان أخوك له مكانته ، وعزيز النفس ، وصعب يقبل صدقة ، هو عنده كبرياء ، وعنده عزة نفس عالية ، إذا عملت حيلة أنه وجدنا هذا المبلغ ، والآن سنضعه عندك أمانة حتى الله يفرجها ونجتمع بصاحبه ، إذا انتفعت منه ما في مانع ، ونحن حتى يأتي صاحبه نؤمنه لك ، القصة كلها ما لها أصل ، عملت حيلة حتى تساعد أخاك ، وتحافظ له على كرامته ما في مانع ، فيها جانب إيجابي ، ولها مئات الجوانب السلبية ، الحيل الشرعية هذا وضعها .

من جمع مالاً حراماً حوسب عليه لأنه استحل ما حرم الله :

أيها الأخوة ، هذا هو الوضع الدقيق قال :

(إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ)

الحيتان جمع حوت ، والعمل يوم السبت عندهم محرم كي ينقطعوا للعبادة ، نحن عندنا يوم الجمعة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ)

(سورة الجمعة الآية : 9)

لكن قال : لأنهم اعتدوا في السبت ، واصطادوا الحيتان التي حُرمت عليهم يوم السبت بحيلة أدخلوها إلى أحواض مغلقة ، أغلقوا الأحواض ، واصطادوها يوم الأحد ، لأنهم استحلوا ما حرم الله عليهم ، حرم الله عليهم ما هو حلال لهم ، كلام دقيق ، يعني عقاب من جنس العمل ، هم استحلوا ما حرم الله عليهم ، فالله عاقبهم لأنه حرم عليهم ما أحلّ لهم ، هذا اسمه عند العلماء تحريم تأديب ، لا تحريم شرعي ، والدليل :

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)

(سورة النساء الآية : 160)

مثلاً : شخص خطر في باله أن ينشئ دار سينما ، وأتى بأفلام مثيرة جداً ، وفاضحة والشباب أقبلوا عليه ، وجمع أموالاً طائلة ، جمع هذه الأموال كي يعيش حياة مستقرة ، منعمة ، مرفهة ، فجاءه مرض خبيث وهو في الأربعين ، فله ابن أخت هو تلميذ عندي ، قال لي : دخلت على خالي رأيته يبكي ، قال له : جمعت ملايين مملينة من هذه الدار ، وأنا الآن سأغادر الدنيا ولم أنتفع بهذا المال إطلاقاً ، لأنه اختار حرفة مبنية على إفساد الشباب ، على انحرافهم .

لذلك أقول لكم يا أيها الأخوة ، أنا لا أرى أغبى ممن يجعل رزقه من طريق محرم .

مرة شخص عنده دار قمار ، على فراش الموت أهله طلبوا له داعية من الدعاة ، قال له : معي ثمانمئة مليون جمعتها من القمار ، هذه قصة قبل عشرين سنة ، ثلاثين سنة ، ثمانمئة مليون ماذا أفعل ؟ هذا الداعية أنا لا أوافقه على كلامه ، لكن هذا الذي قاله ، قال له : والله لو أنفقتها جميعاً لا تنجو من عذاب الله ، فات الأوان .

فلذلك الإنسان إذا جمع مالاً حراماً لا يستمتع به بل يحاسب عليه .

على الإنسان أن يصلح بين الناس و لا يستمع لكلام المثبطين :

أيها الأخوة :

(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

(سورة الأعراف)

هناك قول قيل ، إذا أنت ألقيت كلمة ووجهتها إلى أناس معينين ، فأنت اسمك متكلم ، هناك ثلاث شرائح ، شريحة تؤيدك ، وشريحة تعارضك ، لذلك :

(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً)

فأجاب الواعظون :

(مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

إنسان وعظ ، الموعوظ يخطئ ، يرتكب هذه الحيل الشرعية ، فمن ذلك أنه كان في بني إسرائيل أناس منصفون ، ومؤمنون ، وورعون ، هؤلاء المؤمنون الورعون نصحوهم ، وعظوهم ، ما معنى وعظه؟ هناك فرق كبير بين أن تقول صل ، وأنت مسلم من أب مسلم وأم مسلمة ، وتعلم علم اليقين أن الصلاة فرض ، إذا قلت له صل ، أنت الآن واعظ لماذا ؟ لأنك تأمر الناس بشيء يعرفون أنه فرض ، ولكن لا يفعلونه ، أما قد تدخل إلى جامعة ، تسمع درس علم مثلاً الفقه المقارن ، موضوع جديد عليك ، إذا ألقي عليك موضوع لا تعرفه هذا تعليم ، أما إذا ألقي عليك كلام يذكرك بالمحرمات التي لا تعبأ بها أنت أحياناً هذا اسمه وعظ ، الوعظ أنا أُذكّر من حولي بشيء يعرفونه محرم ، لكنهم يقترفونه .

فهؤلاء الشرائح الثلاث ، يرون أن هؤلاء لا جدوى منهم ، وأحياناً إنسان يقول لا أحد فيه خير ، ادخل إلى بيتك وارتاح ، دعك من الناس ، هذا موقف ؟ هناك أناس آخرون عندهم طموح كبير ، يحكي ، حكى أمام مئة هناك أربعة استفادوا ، وأربعة تابوا إلى الله ، فالذين وعظوا لما جاءهم اللوم ؟

(لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

على الإنسان ألا يتأخر في نصيحة الآخرين لأنه من قال هلك الناس فهو أهلكهم :

شخص مغنٍّ أقلق أبا حنيفة رحمه الله تعالى سنوات طويلة بغنائه ، وعوده ، وآلته الموسيقية ، ويغني ويقول : أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ، ثم افتقد الصوت ، سأل عنه ، قالوا : في السجن ، ذهب بحجمه الكبير ، وبمكانته الكبيرة إلى صاحب الشرطة ، وأفرج عنه أركبه خلفه ، قال له : يا فتى هل أضعناك؟ فتاب إلى الله ، وقد يمكن ألا يتوب ، لكنه تاب .

فأنت حاول أن تصلح الناس ، لكن لا تسمع كلام المثبطين ، الناس ما فيها خير ، قال : من قال هلك الناس فهو أهلكهم ، والله هناك آلاف القصص من إنسان انحرافه شديد ، إلى إنسان تاب إلى الله عز وجل قال :

(لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

قال المعذرة إبداء سبب المخالفة ، والمُعذر من يأتي بعذر صادق ، والمُعذّر من يأتي بعذر كاذب .

في بعض المعارك جاء المنافقون ، يعتذرون إلى رسول الله ، قال جاء المُعذّرون سوف يختلق أعذاراً كاذبة غير صحيحة ، والنبي جاملهم ، قبل منهم أعذارهم وانتهى ، جاء سيدنا كعب قال : والله أوتيت جدلاً ، عنده قوة إقناع ، عنده أسلوب قوي جداً ، والله أستطيع أن أخرج من سخطه ، لكنني خفت إن خرجت من سخطه أن يُسخطه الله عليّ ، بحجة محبوكة تماماً أخشى من الله أن يسخطه عليّ ، قال : فأجمعت صدقه ، أخذ قراراً أن يصدقه ، لما وصل إليه كان النبي غاضباً ، قال له : والله يا رسول الله تخلفت عنك ولا عذر لي ، ما كنت أنشط ولا أقوى يوماً من يوم تخلفت فيه عنك ، ولكنه تقصير ، تكلم الحقيقة ، فالنبي بليغ قال : أما هذا فقد صدق ، وجاء الأمر الإلهي بمقاطعة هؤلاء الثلاثة الذين هم مؤمنون لكنهم قصروا خمساً و خمسين يوماً ، ثم تاب الله عليهم .

فلذلك : المُعذّر الذي يأتي بعذر كاذب ، والمُعذر الذي يأتي بعذر صادق ، والمَعذرة إبداء سبب التأخير.

(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

من لم ينتبه لإنذارات الله تعالى تأتيه البطشة الإلهية من حيث لا يعلم :

قال :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

(سورة الأعراف)

شخص راكب مركبته في دمشق في طلعة الحجاز ، وصل إلى الشارة الضوئية ، فإذا به يصاب بأزمة قلبية حادة ، زوجته إلى جانبه ، فصرخت لحكمة بالغةٍ بالغة كان صديقه بمركبة خلفه صدفة ، خرج من مركبته وحمله وانطلق به إلى المستشفى ، إلى العناية المشددة ، وهو على وشك الموت ، أعطوه إسعافات ، أعطوه مميعات للدم ، لكن وهو في هذه الحالة شعر أنه على وشك الموت ، طلب مسجلة ، وفيها شريط وقال ، هو كان أخ أكبر ومغتصب أموال إخوته جميعاً : المحل الفلاني لأخي فلان ، البيت الفلاني لأخي فلان ، الأرض الفلانية لأخي فلان ، في هذا الشريط ذكر جميع الأموال التي اغتصبها من إخوته القُصر ، لأنه أيقن بالموت ، لما أعطوه مميع رجع طبيعياً ما فيه شيء ، أين الشريط ؟ كسره، وانتهى الأمر ، وافته المنية بعد ثمانية اشهر .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ)

الله ذكره ، صدق أيها الأخ يعمل لك إنذاراً ، أحياناً رؤية مخيفة ، تُقدم على مشروع لا يرضي الله ، رؤية مخيفة ، أو إنسان ينصحك ، إياك .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ـ جاءت البطشة الإلهية ـ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

عقاب الله عز وجل لمن لم يطبق فحوى الموعظة ونجاة الواعظين :

انتبه أنت حينما ترى رؤية واضحة جداً ، فيها تحذير ، حينما يأتيك أخ كريم ينصحك هذا العمل لا يرضي الله ، هذا الاختصاص لا يناسب مكانتك الإيمانية ، هذا العمل لزوجتك لا يناسب ، زوجتك مؤمنة ، ملتزمة ، محجبة ، هذا المكان لا يليق بها إطلاقاً ، هذا السفر لا يناسبك ، هذا الاحتفال لا يجوز ، هذه الحرفة لا ترضي الله ، فإذا إنسان نصحك ، وأنت استجبت تكون من السعداء ، أما إذا ركب الإنسان رأسه تنطبق عليه هذه الآية :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ)

أي عاقبنا هذا الذي ذُكّر فلم يذكر ، وأنجينا الواعظين ، عاقبنا الموعظين الذين لم يطبقوا فحوى الموعظة ، وأنجينا الواعظين ، لكن هؤلاء الذي قالوا :

(لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً)

قال : هؤلاء لهم وجهة نظر ، ينجون إذاً .

أحياناً تقول لشخص يرتكب المعاصي والآثام ، تقول له : هذه الأعمال تنتهي معك بمرض الإيدز ، لكن إن شاء الله يلتقي له دواء ، هذا استهزاء ، لعلك تجد دواء إذا الله بعثه لك ، إذا شخص ما أحب أن يدرس ، هناك أعمال كثيرة جداً ، في مسح أحذية إذا كنت تريد لا يوجد مشكلة .

أحياناً هناك موعظة فيها سخرية ، فقال هؤلاء ، لما أنت تسمع شخصاً لا تغلب حالك ما في أمل ، قد تستفزه في هذا الكلام .

على كلٍ قال العلماء : قدموا يوماً للواعظين ، قال : هم وعظوا بطريقة غير مباشرة ،

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ)

الشيطان يُعري والرحمن يستر :

((بَدَأَ الإسلامُ غريباً ، وسَيَعُودُ غريباً كما بدَأ ، فطُوبَى للغرباءِ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

من الغرباء ؟ قال :

((وهم الذين يُصْلحون ما أفسد الناسُ))

[أخرجه الترمذي عن عمر بن عوف]

ثم يقول الله عز وجل :

(فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

(سورة الأعراف)

القرد مكشوف العورة صح هذا الكلام ؟ ثياب قصيرة ، ضيقة ، فتحات ، مثل القرد القرد ماشي من دون ثياب ، مكشوف العورة ، دائماً الشيطان يُعري ، والرحمن يستر .

(يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا)

(سورة الأعراف الآية : 27)

الشيطان عمله الأول التعرية .

تحذير الله تعالى الإنسان من المعصية فلما لم يسمع مسَخه قرداً بأنانيته وشهوانيته:

طبعاً أهل الضلال يظنون التعري حضارة ، أن هذه البنت يجب أن تظهر مفاتنها ، من حقها أن تثير الشباب ، أنا أقول الآن : هناك عبادة للفتيات المؤمنات والله الذي لا إله إلا هو حينما أرى فتاة محجبة ، ثياب سابغة ، لا تشف عن جسمها ولا تظهر خطوط جسمها ، ثيابها فضفاضة ، ثخينة ، ألوانها معتدلة، غير فاضحة ، والله أراها قديسة ، هذه فتاة تعبد الله بعبادة اسمها إعفاف الشباب ، مفاتنها لمن يحل له أن يراها ، لزوجها لمحارمها ، أما هذا الشاب بينه وبين الزواج عشرين سنة قادمة ، تظهر له كل ما عندها من مفاتن ماذا يفعل ؟ يوجد أسئلة تأتيني ، والله بالمئات كل أسبوع ، من هذا التفلت ، هذه الفتاة التي تبرز كل مفاتنها لمن لا تحل له هذه تعصي الله في أشد خصوصياتها ، أما التي تتحجب ، لعل الله سبحانه وتعالى يهيئ لها زوجاً يعرف قيمتها ويكرمها ، قال :

(فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

القرد مكشوف العورة ، وهمه بطنه ، والخنزير همه فرجه ، فإذا مسخ الإنسان إلى قرد ، أو إلى خنزير ، أنا بتصوري ولا أصر على هذا التصور أنه معنى الإنسان مسخ قرداً يبقى بشكل إنسان لكن همه بطنه ، والثاني همه فرجه ، فكل شخص همه بطنه وفرجه فهو قرد على خنزير ، فقط .

لذلك لا يوجد حيوان يقبل أن يلتقي مع أنثاه إلا الخنزير أمام الخنازير البقية ، فلذلك :

(فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(48-60): تفسير الآيات 169 - 171، الإنسان يختار العرض الأدنى فيرتاح - وفي ظنه أنه أدى الواجب كاملاً
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-08-15

بسم الله الرحمن الرحيم

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية التاسعة والستين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

علماء اللغة يقولون : الخلف بتسكين اللام ، خلف في الفساد ، والخلَف بفتح اللام خلَف في الخير ، الإنسان يُدعى له ، ويُقال : خير خلف لخير سلف ، وحينما قال الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور الآية : 55)

وهذه وعود الله عز وجل ، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين .

إضاعة الصلاة تفريغها من مضمونها و ليس تركها :

لكن الذي حصل كما قال الله عز وجل :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ)

من بعد هؤلاء المؤمنين ، الصادقين ، الملتزمين ، الورعين :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

(سورة مريم الآية : 59)

وقد أجمع العلماء : على أن إضاعة الصلاة لا يعني تركها ، ولكن يعني تفريغها من مضمونها .

((ليس كل مصل يصلي))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم الآية : 59)

وقد لقي المسلمون ذلك الغي ،

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

ما تركوها .

(أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

(سورة التوبة الآية : 45)

معنى ذلك أنهم يصلون ، وينافقون .

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)

(سورة النساء الآية : 142)

من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يحقق من الصلاة غايتها :

آيات كثيرة تبين أن إضاعة الصلاة لا يعني تركها ، ولكن يعني تفريغها من مضمونها ، لأن الصلاة في الأصل :

(تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

فمن لم تنهه صلاته

(عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

معنى ذلك لم يحقق من الصلاة غايتها ، ولم يحقق من الصلاة مقصدها الذي أراده الله منها . فلذلك

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

بتسكين اللام ، في الفساد

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، الشهوات سلم نرقى بها ، أو دركات نهوي بها .

الشهوة حيادية فهي سلم نرقى بها أو دركات نهوي بها :

لذلك أيها الأخوة ، هؤلاء اتبعوا الشهوات ، أية شهوة ؟ الشهوة المحرمة ، لأن هناك شهوات أودعها الله فينا سمح لنا أن نمارسها ، والدليل :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

لو أن الإنسان اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه ، لك أن تأكل الطعام ، لك أن تتزوج ، لك أن تنام وترتاح ، لك أن تمتع نظرك بجمال الطبيعة ، لك أن تنجب أولاداً يسعدوك في دنياك وفي أخراك .

لذلك قضية الشهوة حيادية ، سلم نرقى بها ، أو دركات نهوي بها .

إذاً هنا الآية :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

الإسلام في البدايات تألق تألقاً مذهلاً ، العصر الذهبي عصر النبي عليه الصلاة والسلام ، وعصر الصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين ، وبعدئذٍ دخلوا على الإسلام ، أضيف على الدين ما ليس منه ، فُهم الدين فهماً ما أراده الله عز وجل ، اتخذ الناس الدين وسيلة لمكاسب دنيوية ، فصار في مشكلات ، ونرجو الله عز وجل أن يعيدنا إلى الدين الحق الذي أراده الله .

لن يُمكن الله للمسلمين دينهم حتى يفهمونه فهماً صحيحاً و يطبقونه تطبيقاً دقيقاً :

لكن كتعليق دقيق : حينما قال الله عز وجل :

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

أي دين وعد بتمكينه ؟ أي دين ؟ الدين الذي يرتضيه ، فإن لم نمكن في الأرض نحن معنى ذلك أن فهمنا للدين لم يرضِ الله عز وجل ، فالبطولة أن نفهم الدين فهماً صحيحاً ، وأن نطبقه تطبيقاً دقيقاً ، وأن نخلص في تطبيقه حتى نستحق أن يُمكن الله لنا ديننا . إذاً

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

الخلف بتسكين اللام خلف فاسد ، والخلف بفتح اللام خلف صالح .

(وَرِثُوا الْكِتَابَ)

هذا القرآن بين أيدينا ، هو الكلام الذي نزل على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، عن طريق جبريل ، الكتاب هو هو ، لم يكن فيه زيادة ، ولا نقصان ، هو هو ، كيف فتح به الصحابة أطراف

الدنيا؟ وكيف تألقوا ؟ وكيف سطروا آيات المجد والكتاب هو هو بين أيدينا ، له طبعات رائعة ، يطبع طبعاً ، وتراه على الشاشة ، وتسمعه تلاوة بالقراءات العشر ، وكل هذا الاعتناء بالقرآن ، وأمة المسلمين متخلفة ، معنى ذلك أن فهمنا لهذا القرآن لم يكن كما ينبغي .

فهم الناس لكتاب الله عز وجل ليس كما ينبغي :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ)

هنا الكتاب التوارة ، لكن أحياناً يمكن أن نقيس ، كيف نقيس ؟ حينما قال قوم موسى :

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

(سورة المائدة الآية : 18)

بماذا أجابهم الله عز وجل ؟ أجابهم الله بقوله تعالى :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(سورة المائدة الآية : 18)

معنى الله عز وجل ما قبل ادعاءهم ، لو قبل ادعاءهم لما عذبهم ، كلام دقيق .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

فكان الرد الإلهي :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية : 18)

ألا أستطيع أن أقيس على هذه الآية ، إذا قال المسلمون : نحن أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، نحن أمة مرحومة ، الرد الإلهي بالضبط :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

الآية هنا تتحدث عن أهل الكتاب ،

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ـ التوراة ـ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

تجد بعض المسلمين يا أخي الله قال في كتابه الكريم :

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

(سورة القصص الآية : 77)

هذه حافظها تمام الآية ، كل آية فيها مكسب ، هينة ، سهلة يتمسك فيها ، أما في آيات فيها ردع قوي لمن يأكل المال الحرام ، يقول لك : نحن نرجو رحمة الله ، نحن عبيد إحسان ولم نكن عبيد امتحان . سهل جداً أن تأخذ من كتاب الله ما يعجبك ، وأن تأخذ الأشياء اللطيفة ، يقول لك : أنا عملت 18

عمرة، والله العمرة سهلة ، تركب الطائرة ، تذهب إلى مكة والمدينة ، تنزل بفندق ، وتتمتع ، وتعمل سبع مرات طواف ، وسعي ، وينتهي الأمر ، خفيفة العمرة ، لكن غض البصر ليس خفيفاً ، عدم الاختلاط ليس خفيفاً ، أن تتحر الحلال في دخلك هذا كله يحتاج إلى إيمان قوي .

المسلم الحق من يطبق الدين بحذافيره لا الأشياء اللطيفة فيه فقط :

لذلك يمكن أن تأخذ من الدين الأشياء اللطيفة ، تعمل مولد ، المولد جيد جداً ، تعمل دعوة تأتي بمنشدين ، تدعو عالماً أو عالمين ، يلقوا الكلمات ، تستقبل الناس ، وتودعهم ، شيء جميل والله ، تعمل احتفالاً دينياً ، تعمل سهرة أسبوعية ، يوجد أشياء بالدين لطيفة ، ومريحة ، وخفيفة ، لا تكلف شيئاً ، هذه

(عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

في أشياء لطيفة ، وخفيفة ، ولا تكلفك انضباطاً ، ولا جهداً ، ولا مجاهدة ، ولا مشقة ، ولا بذلاً ، ولا تضحية ،

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

لذلك الآية الكريمة :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

بالدين ، وبالقرآن ، وبالإسلام ، في أشياء خفيفة ، فيها وجاهة ، فيها متعة ، وفيها مكانة اجتماعية ، وفيها أشياء فيها مجاهدة ، وفيها بذل ، وفيها تضحية .

ضعف المسلمين نتيجة تأخرهم عن تطبيق منهج الله عز وجل :

لذلك المسلمون مع تأخرهم ، ومع تخلفهم ، ومع تأخرهم عن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

نحن نقيس أنفسنا على أهل الكتاب الذين وصفهم الله عز وجل

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

الأشياء الدنيوية مثلاً أوضح آية :

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

الله عز وجل خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، يقول لك : أنا أحب أن أتمتع بالدنيا ، لا عليّ إن تمتعت في الدنيا .

لهذا أيها الأخوة ، هذا مرض أصاب أهل الكتاب ، وهذا مرض أصابنا ، لذلك قال بعض العلماء : الشيطان يأتي الإنسان ليوسوس له بالكفر ، فإن رآه على إيمان وسوس له بالشرك ، إن رآه على توحيد وسوس له بالكبيرة ، إن رآه على طاعة وسوس له بالصغيرة ، إن رآه على ورع لم يستطع حمله على الكفر ، ولا على الشرك ، ولا على اقتراف الكبيرة ، ولا على اقتراف الصغيرة ، بقي معه ورقتان ، الورقة الأولى هي التحريش بين المؤمنين ، يوزع تهماً على الحلقات الدينية ، وعلى الجماعات الإسلامية ، هو مرتاح لا يقدم شيئاً ، فقط يوزع تهماً ، ويتهم ، ويُنصب نفسه وصياً على المسلمين ، ويحرش بينهم ، وقد يحدث فتنة بين علمائهم .

أستاذ ، العالم الفلاني هكذا أفتى ، أنت ما رأيك ؟ أنا بالمناسبة ، أي إنسان يسألني عن فتوى ، وينسبها إلى عالم لا أجيبه ، لئلا تقع فتنة ، اسألني سؤالاً عادياً أجيبك عنه ، أما فلان الفلاني ، العالم الفلاني قال كذا ، أنت ما رأيك ؟ إن خالفته ، نقل له هذه المخالفة ، نشبت مشكلة بين العلماء ، وإن وافقته ولم يكن على حق ، تلافياً للفتنة ، وقعت في الخطأ .

فلذلك هؤلاء الذين يحدثون الفتن هم ليسوا على ما يرضي الله عز وجل

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

البر الحقيقي أن يكون إيمانك صحيحاً وأنت منضبط :

فضلاً عن ذلك

(وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)

وهذا تألي على الله ، هذه المرأة التي قالت لأحد صحابة رسول الله ، وقد توفاه الله ، قالت له على مسمع رسول الله : هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لو سكت لكان كلامها صحيحاً ، قال لها : ومن أدراك أن الله أكرمه ؟ قولي أرجو الله أن يكرمه ، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم . هؤلاء

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

لو أنه في وقت ممكن أعدد أنواعاً كثيرة من مظاهر الدين ، ومن نشاطات الدين ليس فيها جهد كبير ، بالعكس فيها متعة ، فيها وجاهة ، فيها مكانة ، فيها رفع قيمة ، هذه القضية سهلة ، أما البر الحقيقي أن يكون إيمانك صحيحاً وأنت منضبط ، وأن تبذل ، في تألي على الله ،

(وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)

التمنيات بضائع الحمقى فالإنسان يتمنى وهذا التمني لا قيمة له عند الله عز وجل :

إخوانا الكرام ، لو فتحتم كتاب الله عز وجل ، أو تتبعتم هذه الآية :

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النحل)

تطلب مغفرة بلا ثمن ؟ .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الحجر)

وبعدها :

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

(سورة الحجر)

في هذا ، إن لم تتب يوجد عذاب .

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

(سورة الزمر)

لا تتصور المغفرة بلا ثمن ، هكذا ! يا رب اغفر لي ، وتعيد الكرة ثانية في المعاصي والآثام ، لا تتصور أن القضية بهذه البساطة .

((ألا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غالية ، ألا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجنَّةُ))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

فالإنسان يتمنى ، وهذا التمني لا قيمة له عند الله عز وجل ، فقد قال الله عز وجل :

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء الآية : 123)

والتمنيات بضائع الحمقى ، والأحمق يتمنى ، والمؤمن يسعى ، فرق كبير بين السعي وبين التمني .

علة خيريتنا الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

(وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)

إذاً الآية الكريمة :

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

يعني أنتم لا قيمة لكم عندي إطلاقاً إن لم تلتزموا ، الدليل حينما قال الله عز وجل :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

قال العلماء : علة الخيرية هو الإيمان بالله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإذا لم نتناهَ عن المنكر فقدنا خيريتنا ، والله عز وجل حينما أهلك بني إسرائيل ماذا قال ؟ قال :

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة الآية : 79)

فأنت حينما تجد أمة ليس فيها تناهٍ عن المنكر ، تقترف المعاصي ، والناس يجاملون بعضهم بعضاً .

لذلك حينما أرسل الله الملائكة لإهلاك قرية ، الملائكة قالوا : يا رب إن فيها صالحاً قال : به فابدؤوا ، لمَ يا رب ؟! قال : لأن وجهه لم يكن يتمعر إذا رأى منكراً .

بالمناسبة : الرحمة خاصة ، والبلاء عام ، هذه المقولة تحتاج إلى توضيح ، عندما يكون هناك حريق ببيت ، بشارع ، ولم يهب كل سكان البيوت في هذا الشارع لإطفاء الحريق فالحريق سوف يصل إليهم واحداً واحداً .

فلذلك ما لم نأمر بالمعروف ، وما لم ننهَ عن المنكر ، فالفساد سوف يعم الأرض .

مظهر المسلمين الآن تغطية المعاصي والآثام بأشياء فلكلورية إسلامية :

إذاً

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

ويدعون مجاهدة النفس والهوى ، يدعون البذل والتضحية ، إنفاق المال ، إحقاق الحق ، يدعون النصح العام ، يدعون الأشياء الشاقة المتعبة و

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

والله سمعت شخصاً عنده مسبح مختلط ، عمل مولد ، ودعا الناس ، وجاء من يتكلم في هذا المولد ، والأمر طبيعي جداً ، مسبح مختلط ، وعمل مولد ، وأتى بمنشدين ، وهناك إنسان ألقى كلمة ، واستقبل

المدعوين ، وودعهم ، إنسان صالح جداً ! وعمله مسبح مختلط ، نساء ورجال يسبحون في ثياب السباحة طبعاً .

فهذه التغطية ، تغطية الأشياء ، المعاصي والآثام بأشياء فلكلورية إسلامية ، هذا شيء لا يُقدم ولا يؤخر ، هذا الآن مظهر المسلمين ، تجد الآن أسرتان عريقتان ، العرس مختلط ، أين التدين ؟ أين الالتزام ؟ وبعدها الدعوة : الطيبون للطيبات ، أي طيبون وطيبات ؟ إذا ما في التزام إطلاقاً ، فما معنى الطيبون للطيبات ؟ في مظاهر ،

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

المظاهر دينية ، يقول لك : بعقد قران دعيت فلاناً ، وألقى كلمة ، ودعيت فلاناً وألقى كلمة ، هل أنت مطبق لهذا المنهج ؟ هل أنت مطبق لهؤلاء الذين قالوا كلمات في حفلة ابنتك ؟ لا ، يريد سمعة أنا دعوت فلاناً ، والدكتور فلان حضر ، وألقى كلمة ، وكان حفلاً رائعاً ، وأنت لست رائعاً .

من أراد الجنة عليه أن يُلزم نفسه بطاعة الله عز وجل :

أيها الأخوة ، كلمة :

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

الأشياء اللطيفة ، الخفيفة التي لا تكلف إلا عملاً لطيفاً ، وفي وجاهة ، ومكانة ، فهذا شأن المسلمين اليوم ، تجد سافرة : أنا اليوم صائمة ، 27 رجب ، لا أقدر ، ما شاء الله ! تجد تناقضاً عجيباً ، الأشياء الخفيفة ، صيام 15 شعبان ، 27 رجب لا يكلف شيئاً ، الدنيا شتاء ، والنهار قصير ، وصائمة ، والسفور ؟ وكل مفاتن المرأة ظاهرة ، لا تقدر ، هكذا الموضة .

الآية دقيقة جداً :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ)

منه الأشياء الخفيفة ، اللطيفة ،

(عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

والأشياء التي ما فعلوها ، وقصروا فيها ، ما بذلوا ، وما ضحوا ، وما ألزموا أنفسهم بطاعة الله ، ولا حملوا أنفسهم على البذل والتضحية

(وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)

نوع من السذاجة أن تتوقع أن تنال الجنة بلا عمل .

يروى أن إنساناً أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، توفي والده ، بعد أن دفن ، يبدو فقيراً جداً رأى شاباً يقرأ القرآن في المقابر ، أعطاه عشرة قروش ، والقصة قديمة ، أن يقرأ له ، فهذا الشاب امتلأ منه غيظاً ، عشرة قروش ! فبدأ قوله تعالى :

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)

(سورة الحاقة)

فهذا الشاب غلى ، الآن يغير الآية :

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ)

(سورة الحاقة)

ازداد غلياناً ، الآن يغيرها :

(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)

(سورة الحاقة)

فقال له : ما لقيت بالقرآن غير هذه الآيات ؟ قال له : تريد الجنة بعشرة قروش ؟

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ)

الجنة تحتاج إلى عمل وتعب :

يتابعون المكاسب ، أين يوجد احتفال ، أين يوجد سهرة ، أين يوجد جلسة لطيفة ، عشاء ، يتابعون ، والله الدين حلو ! ، أنت لم تطبق منه شيئاً ، لكن أحبّ فيه العزائم ، واللقاءات ، والاحتفالات ، بالعيد بيته مرتب ، وحلويات ، وضيوف ، تجد في عمله لا يوجد استقامة ، بكسب ماله لا يوجد استقامة ، بإنفاق ماله لا يوجد استقامة ، بعلاقاته لا يوجد استقامة ، بناته لسن كما ينبغي أن يكن في حجابهن :

(وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

يعني تريد جنة عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين بجهد يسير ، بركيعات تركعها ، بدريهمات تدفعها ، وانتهى الأمر .

والله أيها الأخوة ، ليست من باب التصعيد ، والمشقة ، ولكن لا تتوقعوا جنة من دون امتحان ، والدليل:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

ممكن ؟ من دون امتحان ، من دون ابتلاء ، من دون صعوبة توضع أمامك ، وعليك أن تجتازها ، تتمنى جنة عرضها السماوات والأرض بلا تعب ، هناك إنسان الآن يستطيع أن يقول أنا دكتور وما معه ابتدائي ؟ ابتدائية ، وإعدادية ، وثانوية ، ولسانس ، ودبلوم عام ، ودبلوم خاص ، ماجستير ، ودكتوراه ، ثلاث و ثلاثون سنة ، قراءة ، ودوام ، وتأليف ، حتى أضيف على اسمه دال فقط ، بالدنيا ، وكلمة مؤمن ، يعني أنت لك مرتبة علمية ، لك مرتبة أخلاقية ، لك مرتبة جمالية في انضباط ، في مجموعة قيم .

الدين النصيحة و لو كان لغير المسلم :

إخوانا الكرام ، لا تتصورا الفرق بين المؤمن ، وغير المؤمن العبادات ، لا ، الأمر أعمق بكثير . مرة أخ استشارني بمصلحة معينة ، والله أنا لا أعلم ، اذهب إلى السوق الفلاني واسأل باعة هذه المصلحة ، استنصحهم ، قال لي : سوق ، سألت أصحاب هذه المصلحة دكاناً دكاناً ، على اليمن واليسار واحداً واحداً ، جميعهم من دون استثناء نصحوه ألا يقدم على هذا العمل ، متعبة ، وما فيها أرباح ، ولها متاعب ، يعني جعلوا هذه المصلحة سبب إفلاس الإنسان أنا ما أعجبني كلامهم ، قلت له : أعرف إنساناً مؤمناً سألته ؟ سميت اسمه ؟ قال لي : كان محله مغلقاً ، قلت له : اذهب غداً ، ذهب غداً إليه ، العجب العجاب ! قال له : والله مصلحة فيها الربح الكثير ، والمواد الأولية وطنية ، لا تحتاج إلى استيراد ، وسهل عملها أنا أعاونك ، المؤمن متميز .

((الدِّينُ النصيحة))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

قال له : هذه المصلحة جيدة جداً ، أرباحها جيدة ، موادها الأولية متوافرة ، عليها طلب مستمر ، وأنا أعاونك ، فالفرق بينك وبين غير المؤمن صارخاً ، المؤمن نصوح.

والله إنسان غير مسلم دخل لمحل معمل حلويات ، قال لصاحب المحل : أتعلمني صنع هذه الحلويات ؟ نوع واحد ، قال له : تكرم ، صنع أمامه طبخة ، ما اكتفى ، قال له : اكتب بعدما انتهى قال له : اصنع طبخة ثانية أمامي ، بحسب ما كتب ، صنعها نجح ، يقسم لي بالله خلال ثلاثين عاماً يأتي من القامشلي للشام ومعه هدية ، قال له : كل الخير الذي أكرمني الله به عن طريقك ، مسلم ! ألا تنصح ؟ ولو كان غير مسلم ، عمل جسراً .

أنا أريد أن أقول كلمة : إذا كنت مؤمناً متميزاً بكل مواقفك ، متواضعاً ، نصوحاً ، تقدم كل خبراتك للآخرين ، وقافاً عند كتاب الله ، منصفاً ، ورعاً ، يعني إذا لم يعشقك الناس ففي الإيمان خلل ، أما مؤمن يصلي ، لا يكفي أن يصلي ، يكون صادقاً ، أميناً ، عفيفاً ، يخدم الناس ، يقدم لهم كل ما

يطلبون، في خدمة الناس ، يحمل همّ المسلمين .

المباحات إحدى وسائل الشيطان لاستهلاك الإنسان :

أيها الأخوة ، ثم يقول الله عز وجل :

(أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ)

يعني نحن مسلمون ، ما في ميثاق ؟ الله عز وجل أخذ علينا ميثاقاً غليظاً أن نعبده ، أن نطيعه ، أن نحسن للخلق .

(أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

لذلك لما الشيطان يوسوس للإنسان بالكفر ، ثم بالشرك ، ثم بالكبيرة ، ثم بالصغيرة ، ثم بالتحريش بين المؤمنين ، معه ورقة رابحة ، آخر ورقة ، ورقة المباحات ، يغرق نفسه بالمباحات ، يعتني بحياته عناية فائقة ، بمزرعته ، ببيته ، بكل أموره ، لدرجة أن وقته كله في تهيئة جو مريح لنفسه ، ثم يفاجئه الموت .

المباحات أيضاً إحدى وسائل الشيطان لاستهلاك الإنسان ، يستهلك الإنسان بالمباحات استهلاكاً رخيصاً ، ثم يفاجأ بالموت .

(أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

العوام لئن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون .

الله تعالى جعل المعاصي متصاعدة و على رأسها أن يقول الإنسان على الله ما لا يعلم :

بالمناسبة الإنسان أحياناً يرتكب بعض الأخطاء ، لكن هذه الأخطاء حينما يرتكبها قد لا تسبب فتنة بالبلد ، يخطئ مع ربه ، أما حينما يتكلم على الله ما لا يعلم ، يعطي فكرة سيئة جداً عن حقيقة هذا الدين، فالله جعل المعاصي متصاعدة ، الفحشاء ، والمنكر ، والإثم ، والعدوان ، الشرك ، الكفر ، وعلى رأس هذه المعاصي والآثام :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

لذلك : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذي استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا .

(أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا و العاقل من أعدّ لهذه الساعة عدتها :

الآخرة أبد ، ما في نهاية ، والدنيا محدودة ، وعطاء الله إن كان مقتصراً على الدنيا ليس عطاءً ، هذا العطاء لا يليق بكرم الله أن يعطيك عطاء ثم يأخذه عند الموت ، كل شيء حصلته في الدنيا تخسره في ثانية واحدة ، يضع السماعة ، يقول لك : لا يوجد نبض ، يأتي بمصباح ، يفتح العين يضيء المصباح الحدقة لا تصغر ، يأتي بمرآة يضعها أمام الذي على فراش الموت ، ما في بخار ، لا في بخار على المرآة ، والحدقة ما صغرت بالمصباح ، والنبض ما في ، يقول : عظم الله أجركم ، خالص ، خالص يعني انتهى كل شيء ، أملاكه المنقولة والغير المنقولة ، وبيته ، ومركبته ، ومقتنياته ، وشركته ، بلمحة تخسر كل شيء ، بثانية ، في نبض هذا البيت لك ، وقف النبض ليس لك ، للورثة ، ما دام الموت بهذه البساطة بلمحة يكون الإنسان ميتاً ، بلمحة يكون شخص له مكانته ، وله هيمنته ، فجأة صار جثة هامدة .

مرة كنت بالطائرة في محطة بالانتظار ، رأيت نعشاً نازلاً مع البضاعة ، كان إنسان له مقعد ، الآن صار بضاعة ، صار أوراق تخليص ، كان إنساناً راكباً ، له محل ، له هوية ، معه جواز سفر صار بضاعة معه أوراق تخليص .

أيها الأخوة ، البطولة أن تتوقع ما سيكون ، أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا ماذا أعددت له ؟ الذكاء، النجاح ، التفوق ، أن تعد لهذه الساعة عدتها ، كيف تلقى الله عز وجل ؟

أنا قرأت تاريخ سبعين صحابي ، لفت نظري أنهم ما منهم واحد إلا كان في أسعد لحظات حياته عند لقاء ربه .

على الإنسان أن يستقيم على أمر الله قبل أن يصلي :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

(سورة الأعراف)

الدعاة إلى الله يحملون الناس على أن يتمسكوا بالكتاب ،

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

((الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

المصلحون مهمتهم تمسك الناس بالكتاب ، وإقامة الصلاة ، يعني تعمل فتتصل ، تدفع ثمن اتصالك تمسكاً بالكتاب .

(يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

يعني أنت لا تستطيع أن تصلي الصلاة التي أرادها الله إذا في بدخلك حرام ، إذا في عدوان بعملك ، إذا في تقصير ببيتك ، إذا في عدم أداء لواجباتك .

(يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ)

يحملون الناس على الاستقامة بأمر الله وفق كتاب الله ، ووفق سنة رسوله ، وبعدئذٍ يدعونهم إلى الصلاة ، فالصلاة تحتاج إلى إقامة ، إقامة الصلاة بالمعنى الواسع أن تستقيم على أمر الله قبل أن تصلي:

(وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

الصالح قد يهلك ، أما المصلح الله ينجيه ، المصلح الذي يصلح غيره ، صالح في ذاته مصلح لغيره .

من قصّر في العمل ابتلاه الله بالهم :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة الأعراف)

(نَتَقْنَا)

أي نزعنا ، نزع الجبل من مكانه ، ورفعه وكان كالمظلة ، هكذا ورد في القرآن الكريم .

(كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

والإنسان أحياناً يقول عندي هموم كالجبال تسحقني ، سواء كان المعنى الظاهري أو المعنى المجازي ، أحياناً من قصّر في العمل ابتلاه الله بالهم ، فالهموم تسحق .

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)

بعزيمة ، بإرادة قوية ، بإتقان ،

(وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ)

من خير .

من تاب إلى ربه توبة نصوحة عاش حياة ملؤها السعادة :

لذلك أنت حينما تبحث عن حكم العبادات ، وعن حكم الأعمال الصالحة ، تزداد تمسكاً بها ، الإنسان منطقي يحب الخير لنفسه ، فإذا علم أن الذي يفعله من طاعات سيؤدي به إلى جنة عرضها السماوات والأرض يسعد بها .

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

الله عز وجل يسوق بعض الشدائد وكأنها جبال جاثمة على صدره ، يقول كدت أسحق من هذه الهموم ، أما إذا تاب العبد إلى ربه توبة نصوحة ، عاش حياة ملؤها السعادة .

((إذا تاب العبد توبة نصوحة ، أنسى الله حافظيه ، والملائكة ، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

[رواه أبو العباس الهمذاني مرسلا]

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

لذلك :

((علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف))

[أخرجه الحارث عن أبي هريرة]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(49-60): تفسيرالآيات 172 - 174، الأمانة نفسك التي بين جنبيك ـ والإنسان قبل حملها في عالم الذر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-10-31

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى خلق الخلائق كلها قبل عالم الصور :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثانية والسبعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

أيها الأخوة الكرام ، هذه قصة الإنسان ، الله سبحانه وتعالى خلق الخلائق كلها قبل عالم الصور ، خلقها في عالم الذر ، والآية التي توضح هذه الحقيقة هي قوله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

هذه الآية ، والآية التي هي موضوع الدرس تتكاملان لتكونا قصة هذا الإنسان .

القضايا ثلاثة أنواع ؛ إخبارية عقلية و حسية :

1 – دائرة المحسوسات أداة اليقين بها الحواس الخمس :

بادئ ذي بدء : بنص الآية التي تلوتها قبل قليل

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)

السماوات ، والأرض ، والجبال تعبير عن كل الخلائق ، الخلائق خلقت قبل عالم الصور ، أنت لك صورة ، وأنا لي صورة ، والحصان له صورة ، والشمس لها صورة ، هذا العالم اسمه عالم الصور ، وكنا قبل هذا العالم في عالم الذر .

ولكن القضايا الإخبارية ، لابد من أن يكون واضح لديكم أن هناك قضايا عقلية ، وأن هناك قضايا حسية ، وأن هناك قضايا إخبارية ، كل أمور الدين ، كل حقائق الدين ، كل أفكار الدين لابدّ من أن تتوزع بين دائرة المحسوسات ، ودائرة المعقولات ، ودائرة الإخباريات ، فأنا بحواسي الخمس أرى أن هذا كأس ماء ، وبحواسي الخمس أرى أن هذا مكبر للصوت ، وأن هذا الضوء متألق ، وأن هذه طاولة، هذه معرفة حسية ، أدواتها الحواس الخمس ، أو استطالته ، الميكروسكوب استطالة للعين ، ترى بالميكروسكوب دقائق الأشياء ، والتليسكوب استطالة أيضاً للعين ترى به الكواكب البعيدة ، فكل شيء يُرى ، أو يُسمع ، أو يُلمس ، أو يُشم ، هذه أشياء مادية أداة اليقين بها الحواس الخمس ، هذه قضية سهلة ، الحواس الخمس أو استطالتها .

لكن هناك قضايا عقلية ، القضايا الأولى الحسية شيء ظهرت عينه ، أداة اليقين به الحواس الخمس ، هذا الكأس أمامي له وزن ، من بلور صافٍ ، فيها ماء ، هذه معرفة حسية أداتها الحواس ، المس أو استطالتها وهذه ليست موضع خلاف إطلاقاً .

لكن الموضوعات الثانية موضوعات حسية ، يا ترى في أسلاك الكهرباء في هذا المسجد هل تسري فيها الكهرباء ؟ الجواب نعم ، قطعاً ، والدليل : هذه آثار الكهرباء ، تألق المصابيح ، تكبير الصوت ، عمل المكيفات ، هذه كلها من آثار الكهرباء ، فالكهرباء غابت عنا ذاتها بقيت آثارها ، هذه معرفة عقلية، أيضاً هذه المعرفة ليست موضع خلاف إطلاقاً ، هناك عقل يستدل بالأثر على المؤثر ، وبالنظام على المنظم ، وبالخلق على الخالق ، وبالحكمة على الحكيم ، وبالجمال على الجميل ، وبالقوة على القوي .

فالشيء إذا غابت عينه وبقيت آثاره دليل اليقين به العقل ، لذلك العقل أصل من أصول المعرفة ، هذا الكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، ذات الله لا نراها .

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام الآية : 103)

2 – دائرة المعقولات أداة اليقين بها العقل :

لكن كل هذا الكون أثر من آثار خالق السماوات والأرض ، فنحن نتعرف إلى الخالق من خلال خلقه ، وإلى الصانع من خلال صنعته ، وإلى المسير من خلال تسييره ، وإلى الحكيم من خلال حكمته ، وإلى الجميل من خلال جمال الكون ، هذه المعرفة الثانية المعرفة العقلية ذات الشيء غابت عنا بقيت آثاره ، البعرة تدل على البعير ، والأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟ هذه المعرفة العقلية ، أداتها العقل ، طريقها التفكر .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

هذه المعرفة العقلية ، المعرفة العقلية لابدّ من شيء مادي ، من هذا الشيء المادي أنتقل إلى صانعه ، هل صنعته متقنة ؟ هل صنعته جميلة ؟ هل صنعته محكمة ؟ وهكذا .

وهذا الموضوع الثاني أيضاً ليس موضع خلاف إطلاقاً .

3 – دائرة الإخباريات أداة اليقين بها الخبر الصادق :

إلا أن الموضوع الثالث ؛ الدائرة الثالثة التي نحن بصددها ، هذه دائرة لا تخضع للعقل أبداً ، العقل يحتاج إلى شيء مادي يدرسه ، يلاحظه ، يحلله ، يفحصه ، يختبره ، ثم يحكم على صانعه ، هذا العقل، أما الموضوع الثالث ، الدائرة الثالثة موضوع آخر ، العقل لا دور به إطلاقاً ، والحواس الخمس لا دور لها إطلاقاً ، الموضوع الثالث جهة أخبرتنا ، نسميه موضوع إخباري ، أو سمعي فقط .

لذلك هذا الموضوع الثالث تنطلق قيمته من المُخبر ، من هو المُخبر ؟ إذا الله عز وجل أحد أكبر مصادر المعرفة إخبار الله لنا ، الله أخبرنا أنه خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، أخبرنا أن بعد الموت إما في جنة يدوم نعيمها ، أو في نار لا ينفذ عذابها ، أخبرنا أنه لابدّ من أن نتصل به كي نسعد بقربه ، أمرنا بالصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، نحن في الدين عندنا جانب كبير ، جانب إخباري، هذا لا يخضع للعقل أبداً ، وأنصح أخوتنا الشباب ألا تحاوروا أحداً في الموضوع الثالث ، إلا إذا كان مؤمناً بالله ، إن كان ليس مؤمناً تقول له : الملائكة ، يقول لك : أين هي ؟ ما الدليل ؟ لا يوجد دليل معك ، دليل ، معك دليل لك ، كمؤمن ، الله أخبرك ، بل إن الذي أخبرك الله به ينبغي أن تأخذه وكأنك تراه .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

من منكم رأى هذه الحادثة ؟ ولا واحد ، وأنا معكم ، لكن من المخبر ؟ هو الله عز وجل ، نحن في هذه الآيات لا تخضع للعقل أبداً ، ولا أتمنى عليكم أن تطرحوا أسئلة حولها موضوع إخباري لا يخضع للعقل أبداً ، لا للتحليل ، ولا للدرس ، ولا للسؤال .

قبول الإنسان حمل الأمانة و رفض جميع الخلائق ذلك :

أخبرنا ربنا أنه خلقنا في عالم قبل عالم الصور ، وأنه عرض علينا ، وأن معظم المخلوقات أشفقن منها، وأن الإنسان قال أنا لها ، وحملها ، وأنه إذا أدى الأمانة ، لم يكن ظلوماً جهولاً ، أما إذا خان الأمانة :

(كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

موضوع إخباري ، خلقنا الله عز وجل في عالم الذر ، قبل أن نكون في عالم الصور وعرض علينا الأمانة ، وجميع الخلائق أبى أن يحملها ، وخاف منها ، وحملها الإنسان .

من حمل الأمانة و أدى ما له و ما عليه دخل الجنة :

الآن لأنك إنسان بحسب هذه الآيات أنت خُلقت في عالم الذر مع بقية المخلوقات ، فلما عرض الله الأمانة على هذه المخلوقات

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

ولأنك إنسان إذاً أنت قبلت حمل الأمانة ، يجب أن تعرف نفسك ، الإنسان أعلى المخلوقات إطلاقاً . للتقريب : أب عنده عشرة أولاد ، غني كبير ، قال : كل واحد منكم له راتب شهري ، ومركبة ، وبيت، وزوجة ، أما الذي يقبل أن يذهب إلى بلاد بعيدة ، ويأتي بالدكتوراه في إدارة الأعمال أمنحه هذا المعمل كله ، هناك عرض ، تسع أخوة خافوا ، أريح أن يبقى في بلده ، وله راتب شهري خمسين ألفاً ، وله زوجة وأولاد ، وسيارة ، أما هذا الأخ العاشر كان طموحاً ، قال أنا لها ، أرسله أبوه ، إن أتى بالدكتوراه تَمَلّك المعمل كله ، وإن لم يأتِ بها كل أخوته أفضل منه لذلك :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

أعلى من الملائكة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

من هنا قال الإمام علي رضي الله عنه : رُكب الملك من عقل بلا شهوة ، ورُكب الحيوان من شهوة بلا عقل ، و رُكب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان .

خيروه بين أن يكون طياراً ، تأخذ بالشهر خمسمئة ألف مثلاً ، و بين أن تكون سائق سيارة على الأرض ، على الأرض القضية سهلة تعطلت تبلغ صاحبها ، تذهب إلى بيتك ، لكن بالطائرة ما في تبلغ صاحبها ، وقد مات جميع ركابها ، خمسمئة ألف مقابل احتمال الموت ، أما على الأرض الاحتمال أقل.

دائرة المرئيات و دائرة المسموعات و دائرة الخواطر :

لذلك الإنسان حينما قبل حمل الأمانة ، فإن لم يحملها أمامه النار ، خالداً فيها أبداً وإن حملها أمامه الجنة .

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

ما لا عين رأت ، هذه دائمة ، ولا أذن سمعت ، أوسع بكثير ، أنت زرت القاهرة ، وعمان ، وبيروت، وباريس ، فقط ، يوجد هنولولو ، هذه أنت ما زرتها ، لكن تسمع عنها ، يوجد موزنبيق ، هناك دول ، دائرة المرئيات أقل دائرة ، المسموعات أكبر بكثير ، أما الخواطر لا تنتهي ، قد تقول تصور إنساناً طوله للقمر ، خاطر هذا ، ما له أي ضابط ، فهناك دائرة اسمها دائرة المرئيات .

((أعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عين رأتْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

وهناك دائرة أكبر اسمها دائرة المسموعات ، ولا أذن سمعت ، و دائرة لا تنتهي دائرة الخواطر ، ولا خطر على قلب بشر ، فإذا الإنسان حمل الأمانة ، وأداها كما أراد الله ، كان فوق الملائكة ، فوق بكثير، من هنا يُعد الإنسان أكبر مغامر ، إما إلى جنة يدوم نعيمها ، أو إلى نار لا ينفذ عذابها ، فلذلك رأى النبي عليه الصلاة والسلام جنازة فقال :

((مستريح ، أو مُسْتَراح منه ، فقالوا : يا رسول الله ما المستريحُ ، وما المستَراح منه ؟ فقال : العبد المؤمنُ يستريح من نَصَب الدنيا ، والعبد الفاجرُ يستريح منه العبادُ ، والبلادُ ، والشجر ، والدواب))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ومالك عن أبي قتادة]

الآن العالم كله ينتظر بفارغ الصبر نهاية ولاية بوش .

((يستريح منه العبادُ والبلادُ ، والشجر والدواب))

هذه المشكلة .

الأمانة التي قبلت حملها هي نفسك التي بين جنبيك :

أيها الأخوة ، لأنك من بني البشر أنت في عالم الذر ، قبلت حمل الأمانة ، لأنك من بني البشر ، ولأنك من بني البشر أنت مهيأ أن تكون فوق الملائكة ، كلام دقيق هذا كلام في صميم العقيدة ، لأنك إنسان أنت مهيأ أن تكون أعلى مخلوق . الآن ما هي الأمانة ؟

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ)

ما هي الأمانة ؟ إياكم أن تفهموا الأمانة فهم محدود جداً ، إنسان أودع معك شيء كأمانة ، ثم طلبه منك، لا ، القضية عميقة جداً الأمانة في إجماع العلماء نفسك التي بين جنبيك ، سلمها الله لك ، أودع فيها الشهوات ، تشتهي المال ، هذه جماد ، لم تقبل حمل الأمانة ، هذه الطاولة لا تشتهي ، طاولة أنثى ، لا تشتهي تأكل ، اتركها مئة سنة تبقى بمحلها ، ما في حركة ، أما أنت تشتهي أنثى ، تشتهي مالاً ، تشتهي أن تكون كبيراً في نظر الناس ، بمنصب رفيع ، تشتهي زوجة جميلة ، تشتهي بيتاً مريحاً ، تشتهي أموالاً طائلة ، أموالاً منقولة وغير منقولة ، تشتهي المتعة ، أودع فيك الشهوات ، إله .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبنين وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية : 14)

العقل ميزان الإنسان ليرقى إلى رب السماوات و الأرض :

أودع فيك الشهوات ، أعطاك عقلاً ، هذا العقل ميزان دقيق .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

معك ميزان ، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ، أودع فيك الشهوات لترقى فيها إلى رب الأرض والسماوات ، تشتهي المرأة ، وقد أمرك الله أن تغض البصر عنها فتغض البصر عنها وتقول : يا رب احفظني من أن أُفتن .

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف الآية : 33)

أودع فيك شهوة المال ، وهناك دخل حرام ، و دخل حلال ، امتحنك الله .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنين)

بالشهوات ترقى إلى الله صابراً و شاكراً :

أنت ترقى مرتين ، ترقى مرة حينما تقول إن أخاف الله رب العالمين ، ترقى صابراً وترقى شاكراً ، تزوجت الله هيأ لك زوجة صالحة جميلة ، فإذا ملأت عينيك من محاسنها ، لك أجر ، هذه هدية من الله ، ترقى إلى الله هنا شاكراً ، وإذا مرت امرأة لا تحل لك ترقى إلى الله صابراً ، ترقى بالشهوة مرتين ، لك معاش محدود ، اشتريت الطعام ، والشراب ، أكلت أنت وأولادك ، يا رب لك الحمد ، وهناك طريق غير مشروع ممكن تهرب مخدرات ، تربح ألف ضعف ، من مكان زراعتها إلى مكان بيعها يوجد ألف ضعف ، يقول لك : أغنى الأغنياء في العالم تجار مخدرات ، امتحنك ، المال محبب ، إما أن تكسبه حلالاً لكن لا يكون كثيراً جداً هناك جهد ، أو أن تكسبه حراماً ترقى مرتين ، إن قلت هذه الصفقة مشبوهة ، إني أخاف الله رب العالمين ترقى إلى الله صابراً ، وإذا كان صفقة مشروعة وربحت منها ربحاً معقولاً ، وأنفقت هذا المال على نفسك وأهلك ترقى إلى الله شاكراً ، أودع فيك حب المال وحب النساء ،

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبنيين)

الأولاد ،

(وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

والسيارة ،

(وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ)

وقتها ، الآن يقابلها سيارة ،

(وَالْأَنْعَامِ)

مزرعة

(وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أودع فينا الشهوات .

الله عز وجل زود الإنسان بمجموعة من المقومات لمعرفة الطريق الصحيح منها :

1 ـ الفطرة :

أعطاك عقلاً ، ميزاناً

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

أعطاك فطرة عظيمة برمجك برمجة ، جبلك جبلة بطريقة أنك تكتشف خطأك بذاتك ، آتي بمثل دقيق : دخلت إلى البيت الساعة الواحدة ، قالت لك والدتك : ماما أنا رأسي يؤلمني أريد أسبرين ، تقول لها : الساعة الواحدة كله مغلق ، قالت : خير إن شاء الله ، لكنك تعلم علم اليقين أن الصيدليات مناوبة ، هي لم تحرجك سكتت ، تريد أن تنام لا تستطيع ، أمك يؤلمها رأسها أنت صرفتها عن هذا الطلب ، لم تتكلم شيئاً ، بعدها شعرت أن الوالدة غالية ، نهضت ، فرضاً ليس أسبرين دواء ثانٍ ، أول صيدلية ، الثانية ، الثالثة ، درت عليهم كلهم لا يوجد هذا الدواء ، الوالدة بالمرتين الدواء لم تستخدمه ، لكن أول مرة تنام غير مرتاح ، المرة الثانية بعد جولة ساعة تنام مرتاحاً ، أنت أديت الذي عليك ، واضح تمام ؟.

الفطرة دقيقة جداً ، شخص دهس طفلاً الساعة الثانية بالليل ، وتابع سيره ، والضبط كُتب ضد مجهول، يقول لي قريبه : أكثر من أربعين يوماً ما تمكن من النوم .

برمجك برمجة إذا أخطأت تشعر بكآبة ، تشعر بالذنب ، تشعر بالخطأ ، تشعر أنك صغير ، لو لم يعلم أحد بهذا الخطأ ، برمجة داخلية هذه فطرة ، أعطاك عقلاً ، مقياس مادي ، أعطاك فطرة ، مقياس نفسي، أعطاك شهوات قوة دافعة ، وأعطاك حرية اختيار .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

2 - الشهوة :

أعطاك شهوة ، عقل ، فطرة ، حرية ، أعطاك منهجاً (شرع) في حلال ، في حرام ، الزواج له طريقة في الإسلام ، المال له طريقة في الكسب ، خالفوا الناس ربهم بالأرض كلها ، خالفوه فخسروا أموالهم كلها ، والله درس الأزمة المالية بالعالم والله درس بليغ من الله ، الله عز وجل أظهر آياته .

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 286)

3 - العقل :

أعطاك منهجاً ، معك منهج ، ومعك عقل ، ومعك فطرة ، ومعك شهوة ، الشهوة كالمحرك قوة دافعة ، مُسرع يريد أن يأكل جوعان ، يريد أن يشتري بيتاً ويتزوج ، أعطاك شهوات ، قوة دافعة ، أعطاك عقلاً ميزان دقيق ، أعطاك فطرة ميزان نفسي آخر ، معك ميزانين العقل والفطرة ، معك شهوة .

4 ـ حرية الاختيار :

أعطاك حرية ، قيمة عملك أنك حر ،

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

5 ـ الشرع :

أعطاك شرعاً ، للتقريب :

هذه السيارة فيها محرك هو الشهوة ، قوة اندفاع ، وفيها مقود هو العقل ، وفيها طريق هو الشرع ، مهمة العقل أن يستخدم هذا المقود ليبقي المركبة وهي مندفعة على الطريق ، الطريق هو الشرع ، والمحرك هو الشهوة ، والطريق هو الشرع .

مثل آخر : يوجد بالجيب اليمين جهاز كشف العملات المزورة ، هذا يتحسس بالمعادن ، العملات فيها معدن ، تضعه على الجهاز يظهر لون برتقالي ، معناها عملة صحيحة ، إذا ورق فقط من دون معجونة خاصة يظهر لون آخر ، فمعك جهاز كشف العملات المزيفة ، معك بالجيب الثاني قائمة بأرقام العملات المزيفة ، هذا الشرع ، باليسار في شرع ، باليمين في عقل ، فأنت بعت بيتك بعملة صعبة ، لا استخدمت الجهاز ، ولا قرأت أرقام العملات ، ظهر المبلغ كله مزور الخطأ خطأك ، معل عقل ، ومعك شرع ، واضح تمام ؟.

فلما قال لك احمل الأمانة ، الأمانة نفسك التي بين جنبيك ، أعطاك عقلاً ، أعطاك فطرة ، أعطاك شهوة ، أعطاك إرادة ، أعطاك شرعاً ، الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع .

الإنسان الظلوم الجهول من خان حمل الأمانة :

أيها الأخوة الكرام ،

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

الآية الآن دقيقة :

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

إذا ابن كان طموحاً هل يقال له ظلوم جهول ؟ لا ، بالعكس ، لذلك يمكن أن تقرأ الآية بصيغة الاستفهام،

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

؟ ما كان ظلوماً جهولاً ، كان طموحاً ، فلما قبل حملها وخانها ،

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

هذه الآية تُقرأ لمن أدى الأمانة بطريقة استفهامية ، وتقرأ لمن خان الأمانة بطريقة تقريبية

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

؟ لا ما كان ظلوماً جهولاً لما قبل حملها ، لكن إذا خان الأمانة

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

لذلك ورد في الجامع الصغير حديث لا يرتقي إلى مستوى الصحاح يقول :

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم عن جابر بن عبد الله]

من عرّف نفسه بربها و حملها على طاعته سلم و سعد في الدنيا و الآخرة :

والله أيها الأخوة ، هؤلاء البشر الذين يقتلون ، يسفكون الدماء ، هؤلاء الطغاة ، الذين يقهرون الشعوب، يقتلون بالمئات ، بالآلاف ، الذين ألقوا على هيروشيما قنبلة ذرية قتلت ثلاثمئة ألف بأربع ثوان ، هؤلاء المجرمون في العالم ، لو رأيتهم يوم القيامة ، وقد أصابهم ألم لا سبيل إلى وصفهم ، قال تعالى :

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

فلذلك لأنك إنسان أنت المخلوق الأول ، ولأنك مخلوق أول أودع الله فيك الشهوات لترقى بها صابراً ، أو شاكراً ، إلى رب الأرض والسماوات ، ولأنك إنسان أُعطيت حرية الاختيار ،

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

ولأنك إنسان أُعطيت فطرة تكشف لك فطرتك ، ولأنك إنسان أُعطيت شرعاً ضابطاً لميزاني العقل والفطرة ، معك ميزانين ، لكن الميزانان قد يلعب بهما ، عندنا ميزان مضبوط جداً هو ميزان الشرع ، الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع .

فلذلك :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

من هنا الأمانة هي نفسك التي بين جنبيك .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

أفلح بالقرآن وردت أربع مرات ، نجح نجاحاً عظيماً ، قلت أفلح يعني نجح ، وتفوق وسلم ، وسعد ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

يعني أكبر هدف لك أن تزكي نفسك من أمراض تعد سبب هلاك الإنسان في الآخرة ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

لا يوجد عنده حقد ، لا يوجد عنده ظلم ، لا يوجد عنده أكل حقوق ، لا يوجد اعتداء على الأعراض ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

الذي أبقاها جاهلة ، وسمح لها أن تفعل المعاصي والآثام ، ولم يردعها

(وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

أما إذا عرفها بربها ، وحملها على طاعته ، وحملها على إتباع منهج نبيه ، فسمت نفسه على الله ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

الله سبحانه وتعالى أخذ من سيدنا آدم ذريته كلها في عالم الذر :

آية اليوم :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

أودع الله في سيدنا آدم نفوس الخلائق كلها إلى يوم القيامة ، كل البشر أودعت نفوسهم في سيدنا آدم ، فالله عز وجل أخذ ، المأخوذ منه سيدنا آدم ، المأخوذ نفوس البشر من آدم إلى يوم القيامة ، الآن كل إنسان آخذ ومأخوذ ، في ظهره أولاده ، هو يؤخذ منه أولاده ، وأولاده يأخذون من أبيهم ، يأخذ ويؤخذ.

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

بادئ ذي بدء أودع الله في ظهر سيدنا آدم الخلائق

(البشرية كلها)

من آدم إلى يوم القيامة ، لكن هناك صنفان من المخلوقات سيدنا آدم أُخذ منه ، ولم يؤخذ من أحد ، وآخر إنسان قبل يوم القيامة لم يؤخذ منه بل أخذ من أبيه فقط ، هناك إنسان أخذ من أبيه ولم يؤخذ منه ،

هذا آخر واحد ، أول واحد أُخذ منه ولم يؤخذ من أحد ، أما بقية البشر آخذ ومأخوذ ، يعني الملخص أن الله سبحانه وتعالى أخذ من سيدنا آدم ذريته كلها ، في عالم الذر .

تسخير ما في السماوات و ما في الأرض لمن قبل حمل الأمانة :

وقال :

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

يعني أودع في فطرنا الإيمان بالله ، كل واحد مودع في فطرته الإيمان بالله ، هذا الإيمان الفطري أعظم إيمان ، وعقله مبرمج على مبدأ السببية والغائية وعدم التناقض ، قوانين عقله تدعوه أن يؤمن بالله ، وقوانين فطرته تدعوه أن يؤمن بالله ، هذا الميثاق .

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

أخذهم دفعة واحدة

(وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

أنتم قبلتم حمل الأمانة ، ولأنكم قبلتم حمل الأمانة سخر الله لهذا الإنسان :

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

ولأنه قبل حمل الأمانة أعطاه عقلاً ، وفطرة ، وشهوة ، وحرية ، وشرعاً .

(وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

أنتم قبلتم حمل الأمانة ، ولأنكم قبلتم حمل الأمانة سخرت لكم

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

لكم ، ولأنكم قبلتم حمل الأمانة ، أودعت فيكم الشهوات ، ولأنكم قبلتم حمل الأمانة أعطيتكم العقل وهو أداة معرفة الله ، ولأنكم قبلتم حمل الأمانة أعطيتكم الشهوات ، أعطيتكم الاختيار ، أعطيتكم الفطرة ، أعطيتكم الشرع .

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

قد يقول واحد منكم : أنا لا أتذكر ، لأنك أنت مجبول على الإيمان بالله ، هذه الأمانة ، الله منحك إياها ، أنت مجبول في فطرتك على أن تؤمن بالله ، ولأن عقلك مبرمج على الإيمان بالله ، يعني العقل والفطرة هما الميثاق الذي منحك الله إياه فيما بينك وبينه .

العقل و الفطرة كافيان لمعرفة الله واتباع أوامره :

(قالُوا بَلَى شَهِدْنَا)

هذه الشهادة لئلا

(تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

قال تعالى ، يوم القيامة يقول هذا الكافر :

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ *انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام)

(أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)

تقليد لا يوجد ، أودع الله فيك عقلاً و فطرة كافيان لمعرفة الله ، لو كان الأب منحرفاً ، لو كان الأب كافراً .

(أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)

التقليد مرفوض ، الله منحك عقلاً ومنحك فطرة .

(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

هذه الآية ، مع آية :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

هاتان الآيتان تتكاملان ، وتتحدث الآية الأولى والثانية عن قصة الإنسان حينما خلقه الله في عالم الذر، وعرض عليه الأمانة ، وقبل حملها ، ولذلك استحق أن يكون فوق الملائكة إذا أداها ، واستحق أن يكون دون الحيوان إذا خانها .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(50-60): تفسير الآيتان 175 - 176، إخفاء شرح بعض الآيات حكمة من الله - وكل شيء في الكون هو آية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-11-07

بسم الله الرحمن الرحيم

القصة في القرآن أراد الله أن تكون نموذجاً بشرياً متكرراً فأغفل كثيراً من جزئياتها :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والسبعين بعد المئة .

أيها الأخوة ، الله عز وجل يقول :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

من هو ؟ هناك روايات عديدة أنها قصة فلان ، أو فلان ، أو فلان ، ولكن السؤال لماذا أغفل الله قصة صاحب هذه القصة ؟.

العلماء قالوا : هذا الذي يريد أن يسأل عن جزئيات القصة في القرآن يريد أن يفسد على الله هدايته لخلقه ، لماذا ؟ لأن الله عز وجل ما أراد القصة في القرآن أن تكون قصة تتوهم أنها وقعت أو لم تقع مرة ثانية ، القصة في القرآن أراد الله أن تكون نموذجاً بشرياً ، لأنه أرادها نموذجاً بشرياً متكرراً ، في كل زمان ومكان ، أغفل كثيراً من جزئياتها .

البحث عن تفاصيل القصص في القرآن يفسد على الله حكمته من رواية هذه القصص :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ)

(سورة الكهف الآية : 83)

من هو ؟ العبرة :

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً)

(سورة الكهف)

أي أيها الإنسان إذا مكنت في الأرض تحرك وفق الأسباب ، فأية قصة في كتاب الله تمثل نموذجاً بشرياً متكرراً ، تجده في كل زمان ومكان ، هذه حكمة الله عز وجل ، من إغفال الجزئيات في القرآن الكريم .

مرة ثانية : من أراد أن يسأل ، وأن يدقق ، وأن يبحث في الإسرائيليات عن تفاصيل ما في القرآن في قصص ، كأنه يريد أن يفسد على الله حكمته من رواية هذه القصة .

للتقريب : أستاذ جامعي كبير متخصص في علم الاقتصاد ، أراد أن يعرض على طلابه درساً شائقاً في عوامل نجاح التجارة قال :

لي صديق ، اشترى محلاً تجارياً في مركز المدينة ، في مكان تزاحم الأقدام ، واختار بضاعة أساسية في حياة الناس ، واختار من أنواع هذه البضاعة أفضل أنواعها ، وكان السعر معتدلاً ، ولم يبع ديناً ، وكانت معاملته للآخرين معاملة طيبة ، نجح ، وربح ، وعاش في بحبوحة .

فسأله طالب : هذا الذي تعرفه أبيض أم أسمر ؟ هو صديق لك أم قريب لك ؟ ما اسمه ؟ كل هذه التفاصيل لا علاقة لها بمغزى القصة إطلاقاً ، مغزى القصة أنك إذا أردت أن تنجح بالتجارة ينبغي أن تختار مكاناً في مركز المدينة ، عند تزاحم الأقدام ، وأن تختار بضاعة أساسية في حياة الإنسان ، وأن تختار أفضل أنواعها ، وأن تجعل لها سعراً معتدلاً يستطيعه الإنسان المتوسط ، وأن لا تبع ديناً ، وأن تعامل الناس معاملة طيبة ، عندئذٍ تنجح في التجارة .

أما اسم هذا الصديق ، أهو قريب أم صديق ؟ ما لونه ؟ ما طوله ؟ جزئيات هي عبء على القصة ، وهي ليست خدمة القصة .

القصة في القرآن تعد نموذجاً فذاً في القصة الحديثة :

في علم القصة الفنية ، القصة من الفنون المعاصرة ، وكأن الأدب في العصر الحديث أدب قصة ، هذه القصة لها خصائص قيمة ، طبعاً لها موضوع ، لها أحداث ، لها شخصيات ، فيها سرد ، فيها تحليل ، فيها حوار ، فيها عقدة ، فيها حل ، هذه خصائص القصة .

الآن الجزئيات إما أن تكون في خدمة القصة ، أو أن تكون عبئاً عليها ، إما أنها في خدمتها ، أو أن تكون عبئاً عليها ، والناس في حديثهم ، هناك من يأتي بتفاصيل مملة لا تقدم ولا تؤخر ، قال لك : أنا قابلت الوزير ، حتى قابلته ساعة ، وجاء فلان ودخل من دون إذن ، يأتي بتفاصيل ! أنا أريد أنك قابلته، ماذا قلت له ؟ وماذا قال لك ؟ أما عشرين ثلاثين جزئية قبل أن تقابله لا تعنيني ، تعنيك أنت ، أنا لا تعنيني ، هذه التفاصيل عبء على القصة .

فلذلك هناك من درس القصة في القرآن في ضوء الشروط الفنية للقصة الحديثة فإذا بالقصة في القرآن تعد نموذجاً فذاً في القصة الحديثة .

الآيات الدالة على عظمة الله محيطة بالإنسان إحاطة الجلد بالجسم :

لذلك الله عز وجل أغفل صاحب هذه القصة ،

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا)

هذه سورة ، أنا أسلخ الجلد عن جسم الدابة ، الدابة تُذبح ثم تُسلخ ، الجلد محيط بالدابة ، إحاطة كاملة ، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا أن الآيات الدالة على عظمة الله ، على وجود الله ، على كمال الله ، على وحدانية الله ، محيطة بالإنسان إحاطة الجلد بالجسم ، كأس الماء آية ، الخشب آية ، الضوء آية ، الهواء آية ، الطعام آية ، الولادة آية ، المرأة آية ، الرجل آية ، الذكر والأنثى في كل شيء آية .

أين ما تحركت ، أين ما توجهت ، كيف ما فعلت ، أين ما أقمت ، الآيات الدالة على عظمة الله محيطة بك ، استيقظت أشرقت الشمس ، الشمس آية ، جاء المطر ، المطر آية ، هبّ الريح ، الريح آية ، شربت كأس ماء الماء آية ، جلست إلى طعام الفطور الخبز آية ، الجبن آية الحليب آية ، تناولت طعام الغداء ، الخضراوات آية ، اللحوم آية ، يعني أين ما تحركت استنشقت الهواء ، سمعت صوتاً ، شممت رائحة ، رأيت شيئاً ، تحسست شيئاً ، أية حركة ، وأية سكنة في حياتك هي آيات دالة على عظمة الله .

الآيات الدالة على عظمة الله و وجوده و وحدانيته لا تنتهي :

إنسان يمشي في الطريق ، سمع بوق مركبة ، فانحرف نحو اليسار ، آية ، كيف عرفت وأنت لم ترَ البوق أن البوق من جهة اليمين ؟ يعني المركبة من جهة اليمين ، كيف عرفت ؟ هناك جهاز بالغ التعقيد في الدماغ ، حينما تستمع إلى الصوت ، الصوت يدخل إلى الأذنين معاً ، لكن قد يدخل إلى أذن قبل الأخرى ، الصوت من هنا يدخل إلى هذه قبل هذه ، المسافة والفرق بينهما واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية ، هذا الجهاز يكتشف أن الصوت جاء من جهة اليمين ، إذاً المركبة من على يمينك ، ومن ورائك ، فالدماغ أعطى أمراً أن تنتقل إلى الطرف الأيسر ، هذه آية .

وأنت نائم ، غارق في النوم يتجمع اللعاب في فمك ، تذهب رسالة من الفم إلى الدماغ اللعاب ازداد ، يأتي أمر من الدماغ إلى البلعوم يغلق القصبة الهوائية ، ويفتح المريء ، من أجل أن تبتلع اللعاب الذي في فمك وأنت نائم ، وأنت نائم تتقلب يمنة ويسرة ، وزن الهيكل العظمي مع ما فوقه من عضلات يضغط على ما تحته من عضلات ، الله أودع بالإنسان مراكز الإحساس بالضغط هذه المراكز ترسل إشارة إلى الدماغ ، انضغطنا ، صار في ضغط ، يعني فتحة الأوعية ضاقت ، لمعة الأوعية ضاقت ، الدم قلّ مروره في الوعاء ، صار في حالة اسمها التنميل ، أي الخضران ، هذه المراكز ترسل إشارة إلى الدماغ ، الدماغ يأمر العضلات وأنت غارق في النوم أن تتقلب نحو اليمين .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف الآية : 18)

وكل إنسان لا يتقلب في الليل يتفسخ جلده ، ولحمه ، لذلك حالة مرضية اسمها السبات تحتاج الآن إلى سرير خاص ، السرير يقلب ، وأنت نائم هناك آيات .

الحديث عن الآيات لا ينتهي ، لكن الآيات الدالة على عظمة الله ، بل على وجوده بل على كماله ، بل على وحدانيته ، محيطة بك ، كما يحيط جلدك بك ، هذا معنى

(فَانْسَلَخَ مِنْهَا)

آيات الله الكونية و التكوينية و القرآنية دليل للإنسان على عظمة المولى سبحانه :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا)

آيات كونية ، آيات تكوينية ، آيات قرآنية ، آيات تدل على لطف الله ، أي لا يوجد طبيب أسنان يستطيع أن يقلع سن لطفل إلا مع ألم ، حتى لو أعطاه حقنة مخدر ، غرز الإبرة في لثته مؤلم جداً ، أما الله عز وجل حينما يُقلع سن أحد الصغار يراه مع الطعام ، كيف خُلع السن ؟ وكيف لا يوجد ألم إطلاقاً ؟ لطيف الله عز وجل .

الله معنا لكنه لطيف ، يعني اللطف له آيات ، الجمال انظر إلى وردة ، انظر إلى فراشة ، انظر إلى عصفور ، هناك ألوان تأخذ بالألباب ، اسم الجميل يتجلى الله به على بعض الأماكن ، وعلى بعض الأشخاص ، وعلى بعض الكائنات ، وعلى بعض النباتات ، اسم الجميل تراه رأي العين ، اسم الحكيم ، اسم القدير ، اسم الغني ، اسم الرحيم ، اسم اللطيف ، الآيات الكونية والتكوينية ، الكونية خلقه ، والتكوينية أفعاله ، والقرآنية كلامه ، الآيات الكونية والتكوينية والقرآنية محيطة بك كما يحيط بك جلدك.

من عَرَّف نفسه بسرّ وجودها و غاية وجودها حقق النجاح المطلق :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا)

وتعقيب على الآيات السابقة حينما قال الله عز وجل :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

الأمانة نفسك التي بين جنبيك ، قال تعالى بحقها :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

(قَدْ أَفْلَحَ)

يعني حقق النجاح المطلق ، عرف سرّ وجوده ، وغاية وجوده .

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

(سورة الأعلى)

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

الأمانة نفسك التي بين جنبيك .

الإيمان أصل في فطرة الإنسان :

أما الآية الثانية :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

(سورة الأعراف الآية : 172)

هذا الميثاق الذي أخذه الله علينا ، قد يقول شخص : ما نذكره ، مودع فيك ، هذا الميثاق هو الفطرة ، أنت مؤمن بالفطرة ، الأصل أنك مؤمن ، حتى الذي يُقال له كافر هو مؤمن بشيء فالإيمان أصل في الفطرة .

لذلك الإنسان لو لم تأته رسالات ، يحاسب على عقله الكافي لمعرفة الله ، وعلى فطرته الكافية لمعرفة خطئه ، أي إنسان لو لم يتلقَ تعليماً ، لو نشأ في جزيرة ، ما سمعه كلمة من إنسان ، عقله وفطرته يحاسب عليهما ، عقله يدله على الله ، وفطرته تدله على خطئه ، الأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، والبعرة تدل على البعير ، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟.

إيمانك بالله إيمان فطري ، والبشر جميعاً باستثناء قلة قليلة مكابرة تتوهم أن الإله غير موجود ، البشر جميعاً مؤمنون بالفطرة .

من تجاهل الآيات الدالة على عظمة الخالق وقع في يد الشيطان :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا)

سلخ جلد الدابة شيء ليس سهلاً الجلد مرتبط بالجسم ارتباطاً كاملاً .

(فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

الإنسان حينما يتجاهل الآيات الدالة على عظمة الله ، يكون قد قدّم للشيطان فرصة ذهبية .

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

(سورة آل عمران الآية : 155)

أي :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

الشيطان لا يقترب من الإنسان ، إلا بسبب من الإنسان ،

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

أوضح مثل :

صف فيه طلاب مجتهدون ، وهناك طالب سيء جداً ، هذا الطالب السيئ يغري من بترك المدرسة ؟ يغري طالباً آخر عنده رغبة في ترك المدرسة ، لا يستطيع طالب فاسد أن يفسد إلا طالباً عنده رغبة في الفساد . لذلك الشيطان :

(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر الآية : 42)

أيها الأخوة ، من الخطأ الشائع والفادح أن تظن أن الشيطان أضلّ إنساناً .

(رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

(سورة ق)

لا أحد يضل أحداً .

المؤمن آياته كونية وتكوينية وقرآنية والآخر مأخوذ بصنع البشر :

لذلك

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا)

لما انسلخ منها ، تجاهلها ، لم يعبأ بها ، لم يفكر فيها أصلاً ، تجد الآن إنساناً كل شيء من صنعة خالق الأكوان يدهشه ، هذا مؤمن ، الشمس عنده آية كبيرة ، القمر آية كبيرة ، خلق الإنسان آية ، البعوضة آية ، النحلة آية ، العسل آية ، النبات آية ، المياه آية ، البحار آية ، وهناك إنسان لا يعبأ بكل هذه الآيات، يعبأ بسيارة معينة ، بماركة معينة ، بشكل معين ، مأخوذ بصنعة الإنسان ، وقد نسي الواحد الديان ، فالمؤمن آياته كونية وتكوينية وقرآنية ، والآخر مأخوذ بصنع البشر ، متقدمون جداً ، هذا الإنسان الذي اخترع الطائرة ، أحياناً هناك شيء مدهش ! طائرة على ارتفاع خمسين ألف قدم ، تتسع لأربعمئة راكب ، والآن يوجد ثمانمئة راكب ، و هناك ألف راكب تطير بسرعة ألف كم ، وأنت نائم ، كأنك في البيت ، كأنك في بيت فخم جداً ، ماذا أعطى الله الإنسان حتى صنع هذه الطائرة ؟ أعطاه عقلاً، من خالق هذا العقل ؟ هو الله عز وجل .

المخترعات الحديثة المذهلة التي تلفت النظر دليل على عظمة الله عز وجل :

صدقوا أيها الأخوة ، لو الإنسان تعمق حتى الأشياء التي صنعها الإنسان وتلفت النظر هي دليل على عظمة الله عز وجل .

تصور مدينة محلقة في الجو ، الطائرة مدينة ، بمقاعدها ، بخدماتها ، بجوها المعتدل ، بكل حاجاتك المؤمنة بالطائرة ونائم أيضاً نوماً عميقاً وأنت في الطائرة ، هذا فعل من ؟ القرود صنعت طائرة ؟ معناها الإنسان متميز ، الله عز وجل منحه العقل ، فالعقل أثمن عطاء إلهي ، لما استخدموه في الدنيا ، نقلوا الصوت والصورة ، اخترع الجوال ، اخترع الطائرة ، غاص في أعماق البحار ، وصل إلى القمر.

أنا رأيي حتى المخترعات الحديثة المذهلة التي تلفت النظر يمكن أن تكون دليلاً على عظمة الله عز وجل .

هناك رأي آخر ، لما قال الله عز وجل :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

قال :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

معنى ذلك أن الله عزا خلق الطائرة لا إلى الإنسان بل إلى الله ، الإنسان سبق ، فالله عز وجل ألقى في روعه فكرة الطائرة .

عدم اقتراب الشيطان من الإنسان إلا بسبب من الإنسان :

إذاً الشيطان لا يمكن أن يقترب من الإنسان إلا بسبب من الإنسان ،

(فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ)

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

(سورة آل عمران الآية : 155)

أما المؤمنون

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

(فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ)

الشيطان حينما يأتي الإنسان يأتيه من أربع جهات :

الشيطان حينما يأتي الإنسان يأتيه من أربع جهات ، يأتيه من عن يمينه ، و عن شماله ، ومن أمامه ، ومن ورائه ، من أمامه أحد أكبر وسوسات الشياطين التقدم ، عصر علم ، المرأة نصف المجتمع ، عصر حرية ، الشهوة أساسية في حياة الإنسان ، يجب أن يأخذ الإنسان حظوظه من شهواته ، طروحات متعلقة بالعصر .

ومن وساوس الشيطان ، هذه الأمة ليست إسلامية فرعونية ، يتجاوز الإسلام إلى أقوام عاشوا قبل مئات السنين ، هؤلاء الأقوام ليس لهم دين ، القضية سهلة جداً ، الانتماء سهل أما الانتماء إلى الدين هناك منهج ، هناك افعل ولا تفعل ، إما أن يأتي الشيطان الإنسان من بين أيديهم ، أو من خلفهم ، إما الحداثة ، والعصرنة ، والتقدم ، وعصر الكومبيوتر ، وعصر الفضائيات ، وهذه فضائيات حضارة ، أو أن يأتي الإنسان من ورائه ، هؤلاء آراميون ، هؤلاء فراعنة .

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

أحياناً نقطة ضعف الإنسان عن يمينه ، الصلاة ما صحت ، الوضوء ما صحّ ، يدخله في الوسوسة .

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

المعاصي .

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

الطريق إلى الله وطريق التذلل إلى الله محمي من الشيطان :

لكن في جهتين لم يردا في هذه الآية ، الطريق إلى الله محمي من الشيطان ، وطريق التذلل إلى الله محمي من الشيطان ، نحو الأعلى الطريق إلى الله ، ونحو الأسفل التواضع ، هاتان الجهتان محميتان .

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

من صفات من مشى مع الشيطان دائماً يذم حياته ، يكون صحته طيبة ، له بيت ، له زوجة ، له أولاد، دخله يكافئ مصروفه ، دائماً يتشكى ، الشكوى من علامات الإنسان البعيد عن الله عز وجل ، المؤمن يرى ما عنده ، عنده إيمان ، عرف الله ، عرف دين الله ، عرف آخرته ، عرف منهج الله عز وجل .

الشهوة حيادية ؛ سلم نرقى بها أو دركات نهوي بها :

إذاً

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

غوى ؛ انحرف ، هو أراد أن يكون من الغاوين ، والسبب أنه اشتهى الدنيا ، وآثرها على الآخرة ، والآيات التي أحاطه الله بها لم يعبأ بها ، انسلخ منها ،

(فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

لكن الرحمن ماذا أراد من الإنسان ؟ قال :

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الأعراف)

يعني الدنيا حيادية ، الشهوة حيادية ، يمكن أن تكون سلماً ترقى بها إلى أعلى عليين ، والشهوة نفسها يمكن أن تكون دركات تهوي بها إلى أسفل سافلين ، المال حيادي ، إن كسبته من حلال وأنفقته في حلال من نعم الله الكبرى ، والمال أكبر نقمة إن كسبته من حرام وأنفقته في حرام ، أحد أسباب دخول النار ، المال نفسه كصفيحة البنزين ، إن وضعت في المستودعات المحكمة ، وسالت في الأنابيب المحكمة ، وانفجرت في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ولدت حركة نافعة ، أما إذا صُبت على المركبة ، وأصابتها شرارة أحرقت المركبة ومن فيها هذه الشهوة ، سبب لرقيك ، وسبب لدمارك ، حيادية ، أنت مخير .

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)

الشهوات هذه ،

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ)

أودع فيك شهوات ، هي حيادية ، لكن الحركة فيها يمكن أن تمثل بـ180درجة ، مسموح لك مئة درجة امرأة ؟ زواج فقط ، يعني الذي يجري بأي مكان حرام يجري في غرفة الزوجين ، لكن هنا الطريقة ترضي الله ، هذه زوجتك ، و هناك إنجاب أولاد ، والأولاد قد يكونوا صالحين في المجتمع وفي للمرأة مستقبل عندك ، هذه زوجة ، وأم ، وبعد بضع سنوات ستكون جدة ، وستكون كبيرة العائلة، المرأة المتزوجة لها شأن كبير ، أما لو امرأة انحرفت ما دام فيها مسحة جمال هناك من يسأل عنها ثم تلقى على قارعة الطريق .

أيها الأخوة ، الشهوة مرة ثانية حيادية ، سلم نرقى بها أو دركات نهوي بها .

من اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه:

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)

هو لماذا تغافل عن آيات الله ؟ من أجل شهواته ، الشهوة نفسها لها قنوات نظيفة ، الله عز وجل قال :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف أنه من اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه ، اشتهيت المرأة هناك قناة نظيفة رسمها الله عز وجل ، الزواج ، اشتهيت المال ، اعمل في الكسب المشروع ، اعمل في التجارة ، تعيّن في وظيفة ولو دخلها قليل ، لكن النفقات الأساسية مغطاة .

أيها الأخوة ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل الله لها قناة نظيفة تسري خلالها .

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)

أي الشهوة كالمحرك ، لو ما في شهوات ما في حركة أبداً ، صدقوا أيها الأخوة ، لولا الشهوات لما رأيتم شيئاً على وجه الأرض ، هذه الطاولة ما في شهوات ، لا تتحرك ، دعها في هذا المكان مليون عام ، لا تشتهي طاولة مؤنثة ، ولا تأكل لا تشتهي شيئاً ، لولا الشهوات لما رأيت شيئاً في الأرض ، جامعات ، ومعامل ، وصناعة طائرات ، وصناعة أسلحة ، ومصالح ، لأنه يوجد شهوات ، الشهوة محرك ، والعقل مقود ، والشرع طريق ، تصور مركبة بلا محرك ، ليست مركبة ، ليست سيارة ، هذه وقافة ، تصور مركبة بلا مقود ، تتدمر فوراً ، طريق فيه منعطفات تمشي في طريق مستقيم على الوادي ، هناك محرك الشهوة ، مقود العقل ، و هناك طريق هو الشرع .

الشهوة لم يودعها الله في الإنسان إلا ليسمو بها :

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ)

مال للأكل ، للنساء ، مال لشيء لا يرضي الله عز وجل ، اتبع هواه ، اتبع شهوته .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

لكن بالمناسبة ممكن أن تتنعم بكل الشهوات التي أودعها الله فيك من قنواتها النظيفة ، مثل ضربته كثيراً :

التقيت بعالم جليل ، قال لي : عندي ثمانية و ثلاثون حفيداً ، ثلاثة عشر حفيداً حفاظ كتاب الله ، وعشرة أطباء ، قلت : هذا الكم الكبير عنده أولاد ، عنده بنات ، والأولاد جلبوا له الكنائن ، والبنات جلبوا له الأصهار ، صار في رأس هذا الهرم ، هناك أولاد مع كنائن ، وبنات مع أصهار ، عنده ثمانية و ثلاثون حفيداً ، كل هذا الكم الكبير أساسه علاقة جنسية ، أليس كذلك ؟ وفي أي بيت دعارة هناك علاقة جنسية ، سقوط إلى الهاوية ، سقوط من عين الله ، من عين الناس ، زاني والزنا جريمة .

الشهوة سلم ترقى بها ، أو دركات تهوي بها ، لما أودع الله فيك الشهوات أرادك أن تسمو بها .

الحرمان غير موجود في الإسلام بل التنظيم و القيم و الطهارة :

والله أيها الأخوة ، هناك أناس صالحون ، تزوج ، تجد زواجه مباركاً ، عاش حياة مديدة في سعادة كبيرة ، أولاد أبرار ، بنات عندهم محبة لآبائهم تفوق حدّ الخيال ، أحفاد ملؤوا البيت سعادة ، هناك حياة أساسها إنسان اشتهى المرأة فتزوج ، شهوة ، الله عز وجل أراد من الشهوات التي أودعها فينا أن نرقى إليه ، والشيطان أراد من الشهوات أن نهوي بها إلى أسفل سافلين ، وكل الشهوات التي تراها بعينك المؤمن متاحة له من طريق نظيف ، بالإسلام لا يوجد حرمان ، لكن في تنظيم ، في قيم ، في طهارة ،

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

قال لي إنسان مرة (زميل عمل) : أنا عشت مرة منحرفاً ، ثم تزوجت ، أقسم لي بالله ، قال لي : ساعة مع زوجة أشعر بطهر ، أشعر براحة نفسية ، أشعر بسعادة لا توصف ولا مليون ساعة مع امرأة لا تجوز لك أن تجلس معها ، طريق الجنة طريق مريح .

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ)

الآن ائتِ بحمار ، ضع على ظهره كتاب فيزياء ، وكتاب كيمياء ، وكتاب رياضيات ، وكتاب فلك ، وكتاب ديني ، امش معه ساعتين ، اسأله سؤالاً بالفيزياء هل يجاوبك ؟ حمار ! مثل آخر :

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

يعني يبحث عن شهوته فقط ، بسبب ، أو بغير سبب ، بحاجة أو بغير حاجة ،

(إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

الكلب من خصائصه يتنفس بسرعة ، ولسانه يخرج من فمه أثناء التنفس ، قال تعالى :

(ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

كذب بآيات الله الدالة على عظمته ، وانسلخ منها ، فالشيطان جاهز ، هذا صيد ثمين أتبعه الشيطان ، حمله على الزنا ، على أكل المال الحرام .

الغفلة عن الله عز وجل تولد المشاكل و المعاصي :

قبل أشهر إنسان بأعلى مكانة في بلد عربي ، أعلى مكانة ، يملك 23 مليار أعجبته فنانة ، اقترن بها ، ثم تركته ، وأنفق عليها الملايين ، فاشتهى أن يقتلها ، كلف إنساناً أعطاه مليونين من الدولارات ، والأمر كُشف ، والآن هو بالسجن ، إنسان بأعلى مكانة ، بأعلى مرتبة ، بأعلى ثروة ، من أعمدة البلد ، بالسجن ، وضع القيد في يديه ، وسيق إلى السجن ، بصراحة بالتعبير العامي ، لما الإنسان ينقطع عن الله يرتكب حماقة لا يرتكبها طفل .

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد)

الآن كل مشاكل البشر ساعة غفلة عن الله ، يسرق ، بعد يومين ثلاثة أصبح في السجن .

أخوانا الكرام ، أنت بحاجة إلى نور إلهي ، في نبي بدأ بكسب المال الحرام ؟ .

أيها الأخوة ،

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(51-60): تفسير الآيتان 178 - 179، هداية الله إلى خلقه بكونه - وبكلامه ، ومعجزاته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-11-14

بسم الله الرحمن الرحيم

هداية الله عز وجل على أربعة أنواع :

1 - هداية الدلالة :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والسبعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

هذه الآية تشير إلى حقيقة دقيقة وعميقة وخطيرة في القضاء والقدر ، ما لم يكن الإنسان مخيراً لا يُثمّن عمله ، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، لكن حينما تعزى الهداية إلى الله هداية الدلالة ، الله عزّ وجل هدى عباده جميعاً هداية دلالة ، دلّهم عليه ، هذا الكون ينطق كل شيء فيه بوجود الله ، وبكماله ، وبوحدانيته ، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، دلّك عليه بالكون ، دلّك عليه بالفطرة ، دلّك عليه بالعقل، دلّك عليه بالأنبياء والرسل ، دلّك عليه بالكتب .

الله عز وجل هدى عباده جميعاً في كل ما تقع أعينهم عليه :

إذاً الله عز وجل هدى عباده جميعاً ؛ مؤمنهم ، وكافرهم ، هداهم جميعاً إليه ، هذه الهداية هداية الدلالة.

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت الآية : 17)

لأنهم في الأصل مخيرون ، والاختيار أحد خصائص الإنسان .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

الآيات التي تؤكد أن الإنسان مخير لا تعد ولا تحصى ، بل إن الأصل في كل هذه الآيات قوله تعالى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

إذاً الله عز وجل هدى كل الخلق إليه ، هداهم بخلقه ، هداهم بأفعاله ، هداهم بكلامه ، هداهم بالفطرة ، هداهم بالعقل ، هداهم في كل ما تقع أعينهم عليه ، فالإنسان مخير ، إما أن يستجيب لهذا الهدى الدلالي، وإما لا يستجيب ،

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

2 ـ هداية التوفيق :

إذا عُزي الهدى إلى الله هو الهدى الدلالي ، هداهم هداية دلالة ، لكن :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الإسراء)

هذا الهدى الثاني هدى التوفيق ، أنت حينما تختار طريق الحق ، حينما تختار الجنة ، حينما تختار طاعة الله عز وجل ، حينما تختار العمل الصالح ، حينما تختار أن تكون عبداً لله ، تأتيك هداية ثانية ، هداية توفيق ، الله عز وجل يشرح لك صدرك لهذا الدين العظيم ، الله عز وجل يسوقك لهذا الهدف الذي اخترته ، يُمكّنك من العمل الصالح ، يطلق لسانك في الدعوة إلى الله ، هو يختار لك زوجة صالحة، تعينك على أمور دينك ، يختار لك عملاً شريفاً نظيفاً طاهراً ، أنت حينما تختار طاعة الله ، تأتيك هداية ثانية هداية التوفيق ،

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)

(سورة محمد الآية : 17)

عندنا هداية أولى وثانية .

3 ـ هداية المصالح :

بل إن العلماء قالوا : هناك أربع هدايات ، هداك إلى مصالحك ، كيف ؟

الإنسان أودع الله في أذنه جهاز توازن ، فإذا مال لا يتابع الميل ، يعدل وقفته ، الجهاز دقيق جداً ، هو

التوازن ، ولولا هذا التوازن ما مشى إنسان على قدميه .

هداك بالعين ترى ما حولك ، فأنت في غرفة ترى كل شيء فيها ، لكن سمعت صوتاً الصوت يغطي كل البيت ، يقول لك : هناك حركة في البيت ، فالصوت هداية .

وأحياناً يوجد شيء متفسخ ليس له صوت ، ولا تراه ، يوجد رائحة ، هداك بالصور وبالأصوات ، وبالروائح ، أعطاك حواساً خمس ، أعطاك عقلاً ، هيأ لك أجهزة ، تعينك على أمر دنياك ، يوجد تقيؤ ، التقيؤ معنى ذلك أن الطعام سام ، يوجد قلب يعمل بانتظام وأنت لا تدري ، هداك لآلاف الخصائص ، بالأجهزة ، بالأعضاء ، بالأنسجة .

وأنت نائم أودع بالجسم مراكز إحساس بالضغط ، فإذا كان وزن الهيكل العظمي مع ما فوقه من عضلات ضاغطاً على ما تحته من عضلات ، مراكز الضغط وأنت نائم تعطي إشارة إلى الدماغ ، فالدماغ وأنت نائم يصدر أمراً بأن يقلبك ذات اليمين وذات الشمال ، والنائم يتقلب .

وحينما يزداد اللعاب في فمك تذهب رسالة إلى الدماغ ، والدماغ يعطي أمراً بأن لسان المزمار يغلق القصبة الهوائية ، ويفتح المريء ، من أجل أن تبتلع اللعاب .

هداك لأجهزة بالغة التعقيد ، هداك للقلب الذي يعمل بانتظام ، الهضم الذي يعمل بانتظام ، هداك إلى طعامك وشرابك ، خلق لك كائنات من أجل غذائك ، خلق لك النباتات ، هداك إلى مصالحك ، هذه الهداية الأولى ، والهداية الأولى يشترك فيها الخلق جميعاً ، إنسان ، وحيوان ، ونبات .

الله عز وجل هدى كل شيء إلى مصالحه :

النبات حينما لا يسقى ، لو أنه استهلك ماء الجذر لمات فوراً ، من علمه أن يستهلك ماء الأوراق ، أول ماء يستهلكه حينما لا يسقى يستهلك ماء الأوراق ، وبعد ماء الأوراق يستهلك ماء الأغصان ، وبعد ماء الأغصان يستهلك ماء الفروع ، وبعد ماء الفروع يستهلك ماء الجذع ، وآخر ماء يستهلكه ماء الجذر ، هدى النبات إلى أن يبقى إلى أمد طويل بلا ماء من أجل ألا تخسر هذه الشجرة أيها الإنسان ، هدى النبات .

هدى الحيوان ، الحيوان يقوم بأشياء مذهلة ، هناك طائر اسمه البطريق ، يعيش في القطب الجنوبي يتجمع عشرة آلاف بطريق بمكان ، يصبح تزواج ، والبيضة التي تلدها الأنثى يأخذها الذكر يضعها على قدميه ، ويغطي القدمين بالريش ، من أجل أن تكون في دفء عميم ، ويبقى واقفاً لا يتناول طعاماً ولا شراباً لمدة أربعة أشهر حفاظاً على هذه البيضة ، وفي حوصلته وجبة غذائية ثمينة لهذا المولود الذي يخرج بعد فقص البيضة ، يفتح فمه ، ويضع هذه الوجبة في فمه .

هدى الحيوانات إلى مصالحها ، هدى النبات ، هدى كل شيء ، الحديث عن الهداية الأولى هداية المصالح حديث لا ينتهي ، أول هداية هدى المخلوقات إلى مصالحها ، ثم هدى المكلفين من المخلوقات الإنس والجن إليه ، إذاً أول هدايةٍ هداية المصالح ، والهداية الثانية هداية الدلالة ، والهداية الثالثة هداية التوفيق .

4 ـ هداية إلى رسله :

الهداية الرابعة :

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد)

هداية إلى رسله ، فالله عز وجل تولى بذاته العلية هداية الخلق ، قال تعالى :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

وحيث ما جاءت على مع لفظ الجلالة معنى ذلك أن الله تولى بذاته العلية هداية الخلق

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية : 9)

أي وعلى الله تبيان الطريق الموصل إليه .

الحق واحد لا يتعدد :

إذاً الآية الكريمة :

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي)

لا يوجد هداية أخرى إلا هداية الله ، فإن لم تكن على الحق فأنت على الباطل قطعاً ، لا يوجد هدايات متعددة ، أنت على أحدها ، الحق واحد لا يتعدد ، والدليل :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

فالحق لا يتعدد ، لذلك قالوا : إن المعركة بين حقين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدد ، والمعركة بين حق وباطل لا تطول لأن الله مع الحق ، أما المعركة بين باطلين لا تنتهي ، الحق واحد .

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة الآية : 257)

ما قال الله عز وجل يخرجهم من الظلمات إلى الأنوار ،

(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

وما قال يخرجهم من الظلمة إلى النور ، الباطل متعدد ، الباطل لا يعد ولا يحصى ، كما أنه بين نقطتين لا يمر إلا خط مستقيم واحد ، لكن بين النقطتين يمر آلاف ، بل مئات ، بل ألوف الألوف من الخطوط المنحنية والمنكسرة ، فالباطل كثير .

بطولة الإنسان أن يستوعب الحق الذي لا يتعدد أبداً :

لذلك أعمار البشر جميعاً لا تكفي لاستيعاب الباطل ، الباطل كثير ، لكن عمر الإنسان وحده يستوعب الحق .

فلذلك إذا أنت وفقت إلى استيعاب الحق ، كان هذا الحق مقياساً لك ، فالبطولة أن تستوعب منهج الله ، أن تستوعب منهج السماء ، أو تستوعب الحق الذي لا يتعدد أبداً .

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي)

لا يوجد هداية أخرى .

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

الطاقات في الإنسان من خلق الله وتوجيهها بيد الإنسان :

أيها الأخوة ،

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي)

لكن لو شخص توهم أن الله سبحانه وتعالى هدى زيداً ، وأضلّ عبيداً ، مشكلة ، أقول : الإنسان حركته اليومية ، هي أفعال ، مشى إلى المسجد في عضلات ، في أرجل ، وضع يده على كتف يتيم وربت على كتفه تحبباً له ، هناك حالة ثانية ضرب إنساناً ، هناك حالة ثالثة أعطى إنساناً مال كصدقة ، في حركة ، في عضلات ، في سير ، في بطش .

النقطة الدقيقة أن الإنسان عنده طاقة ، الحركة طاقة ، بالمناسبة الكون كله مادة وطاقة ، وقد تتحول الطاقة إلى مادة ، هناك مركبة وزنها طن ، بصفيحة البنزين تنتقل إلى مسافة 200 كم ، هذا فعل ، ما أصله ؟ صفيحة البنزين ، الطاقة تحولت إلى فعل ، عندنا بالكون طاقة ، و عندنا فعل ، الله عز وجل أودع في الإنسان طاقات ، هذه الطاقات من خلق الله ، أما توجيه هذه الطاقات بيد من ؟ بيد الإنسان ،

قام ليصلي ، الله أمده بالطاقة ، لكن هو أراد أن يصلي ، فأمده الله بالطاقة ، فالفعل فعل الله ، والإرادة إرادة الإنسان ، ضرب إنساناً ، هذا فعل سيء ، هو اختار الضرب ، الله أمده بهذه الطاقة .

لذلك حينما يقولوا علماء العقيدة : الأفعال أفعال الله عز وجل كلامهم صحيح والبواعث إلى الأفعال من قبل الإنسان كلام غير صحيح ، لو قلنا : إن مدير الثانوية اتخذ قراراً بترسيب طالب في صفه ، قرار المدير ، لكن لماذا أمر أن يرسب هذا الطالب في صفه ؟ لأن الطالب كسول ، بالامتحان ما جمع علامات كافية ، فصار السبب من الإنسان ، والفعل من الله .

فإذا عزوت الأفعال إلى الله فأنت على صواب ، وإذا عزوت البواعث إلى الإنسان أنت على صواب ، فالفعل هو توجيه الطاقة إلى إحداث شيء ، فالطاقة أودعها الله فينا هي فعله ، والانبعاث إلى توجيه هذه الطاقة لفعل شيء من قبل الإنسان ، فالإنسان محاسب ومسؤول ، هو انبعث إلى الخير فيثاب على هذا الانبعاث والفعل فعل الله ، وانبعث إلى الشر فيعاقب على هذا الانبعاث ، والفعل فعل الله ، هذا المعنى دقيق جداً إذا الله عز وجل قال :

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الزمر الآية : 62)

صح ، لأن الفعل فعله ، و إذا قال :

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة الآية : 286)

أيضاً صواب ، الفعل الانبعاث له من قبل الإنسان إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

الإضلال الجزائي و الضلال الاختياري :

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ)

إذا عُزي الإضلال إلى الله ماذا يحدث ؟ يعني أن هذا الإضلال جزائي مبني على ضلال اختياري .

مدير شؤون الطلاب بالجامعة أصدر قراراً بترقيم قيد هذا الطالب ، وطرده من الجامعة ، الفعل فعل مدير شؤون الطلاب في الجامعة ، نقول له : لماذا ؟ يقول لك : لم يداوم ولا ساعة ، ولم يقدم أي امتحان ، وجاءه إنذار ، تلو إنذار ، تلو إنذار ، فلم يستجب ، فرغبة هذا الطالب ألا يدرس ، أصرّ على أن لا يدرس ، صمم ألا يدرس ، هذا اختياره ، فجاء ترقيم القيد تنفيذاً لاختياره ، فإذا قلت إن مدير شؤون الطلاب هو الذي أمر بطرد هذا الطالب الكلام صحيح ، وإذا قلت إن الطالب الكسول الذي لم يلتحق بالجامعة ، ولم يؤدِ هذا الامتحان هو السبب في هذا الطرد ، أيضاً صحيح ، هذا المعنى الدقيق .

الانبعاث من الإنسان ، والفعل من الله عز وجل ، أنت في ضوء هذه الحقيقة تفهم من مئات الآيات الفعل فعل الله ، والكسب كسب الإنسان ،

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سورة فصلت الآية : 46)

أما فعل العمل الصالح فعل الله ، وفعل الإساءة فعل الإنسان .

الله عز وجل خلق الإنسان ليسعده :

أيها الأخوة ، من الإنسان الإرادة ، ومن الله أن يمدك باختيارك ،

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

وقد يقول الله عز وجل :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

(سورة الأنعام)

هل يستقيم إيماننا جميعاً إذا توهمنا أن الله خلق لجهنم أشخاصاً معينين ؟ مستحيل وألف ألف ألف مستحيل ، خلقنا ليسعدنا .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

ماذا نفعل في هذه الآية ؟

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا)

أي بثثنا ، ذرأ بثّ ونشر ، أي خلق

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ)

يعني معقول مواطن ، ولد بريء ، يؤخذ إلى أماكن يدرب على الجريمة من قبل الدولة وبعد أن يرتكب جريمة نسوقه إلى السجن ، هذا مخلوق للسجن ، هذا لا ترضاه أنت لإنسان ، لا ترضاه لعاقل ، إلا أن هذه اللام قال عنها العلماء : لام المآل ؟ .

لام المآل و لام التعليل :

خلق ربنا عز وجل

(كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

مخيرين ، مؤهلين للهداية ، أو لعدم الهداية ، مؤهلين للطاعة ، أو للمعصية ، فالذي حصل أن كثيراً من الإنس والجن عصوا ، فهذه اللام ليست لام التعليل هي لام المآل ، توضح بهذا المثل :

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَنَاً)

(سورة القصص الآية : 8)

أي معقول إنسان يلتقط طفلاً ليكون عدوه ؟ الآية معناها هذا الطفل في النهاية هو الذي قضى على ملك فرعون ، اسمها لام المآل ، أعتقد واضحة ، لام التعليل شيء ، مثلاً لام التعليل :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

هذه لام التعليل ، علة وجودنا في الأرض العبادة ، خلقنا كي نعبده فإذا عبدناه سعدنا بقربه في الدنيا والآخرة ، خلقنا ليرحمنا ، خلقنا ليسعدنا ، خلقنا ليكرمنا .

لذلك

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

هذه اللام لام التعليل ، علة وجودنا ، أما حينما يقول الله عز وجل

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَنَاً)

معنى ذلك هو التقطه .

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة القصص)

لماذا التقطوه ؟

(عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا)

ما الذي كان في المآل ؟ أنه كان عدواً له واضحة ؟ إذاً هذه الآية لا تفهم على معنىً ما أراده الله عز وجل .

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ)

ذرأنا خلقاً كثيراً من الجن والإنس ، في المآل والنهاية كثير منهم عصوا ، وخانوا الأمانة ، واستحقوها،

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

الإنسان إذا أحبّ شيئاً لا يرى غيره :

سؤال آخر :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

هناك سؤال آخر ، وسؤال دقيق : إذا كان يا رب قلب هذا الإنسان لا يفقه ، وأذنه لا تسمع ، وعينه لا تبصر ، ما ذنبه ؟ الجواب :

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

[أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء]

الإنسان إذا أحبّ شيئاً لا يرى غيره ، إذا أحبّ شيئاً لا يسمع كلاماً آخر يرفضه ، إذا أحب شيئاً يملأ هذا الشيء عقله .

إذاً

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

هذا من خصائص الإنسان إذا أحبّ الشيء تعلق به ، ولا يلتفت لا إلى أية نصيحة ، ولا إلى أي تحذير، ولا إلى أي تفسير لهذا الشيء .

إذاً من شأن الإنسان أنه إذا أحبّ شيئاً أقبل عليه .

إذاً

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

من كان مع الله قذف الله في قلبه نوراً يفرق به بين الحق والباطل :

لذلك المؤمن له ميزة كبيرة جداً ، ما هذه الميزة ؟ أن الله سبحانه وتعالى حينما يتصل به المؤمن يلقي في قلبه النور ، يريه الحق حقاً ، والباطل باطلاً ، هذه نعمة كبرى .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية : 28)

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

(سورة الأنفال الآية : 29)

تفرق به بين الحق والباطل ، فلذلك أنت حينما تكون مع الله أنت مستنير ، ترى الحق حقاً فتتبعه ، وترى الباطل باطلاً فتجتنبه ، أنت حينما تكون مع الله ترى حقائق الأشياء ولا ترى صورها .

يجوز تجد ترى جامعة بناؤها متواضع جداً ، على الشبكية بناء متواضع ، في بعض البلاد النامية الجامعات بناؤها ضعيف ، لكن هذا البناء الضعيف أحياناً في الشتاء الجو بارد ، غير مدفأ ، بالصيف

غير مكيف ، وهناك اختصاص طلاب ، هذه الجامعة ماذا تخرج ؟ علماء ، أطباء مهندسون ، قادة للأمة ، وهناك دور قمار تكلفة الصالة ثلاثمئة مليون تزيينات ، على الشبكية الملاهي فخمة جداً ، وجميلة جداً ، والجامعات على الشبكية بناء متواضع جداً ، هذه صور الأشياء ، أما حقائقها الجامعة تخرج قادة للأمة والملاهي تخرج منتحرين .

هناك شخص دخل إلى دار القمار فخسر كل ما يملك من الدولارات في أمريكا ، يملك اثنان ونصف مليون دولار ، فجاء إلى البيت معه مسدس ، أطلق على زوجته وأولاده الخمسة ثم انتحر ، وهكذا .

فالبناء فخم ، البناء جميل جداً ، تزيينات رائعة ، فأنت حينما تكون مع الله يقذف الله في قلبك نوره ، يريك الحق حقاً والباطل باطلاً .

من شرد عن منهج الله عز وجل خسر الدنيا و الآخرة :

أيها الأخوة ، إذاً هؤلاء الذين شردوا عن الله

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)

أي انقطاعهم عن الله عز وجل جعلهم يتجهون إلى شهواتهم بقوة ، والإنسان حينما يتجه من أجل شهوته إلى جهة ما لا يرى شيئاً ، وقد ورد :

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

[أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء]

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

(سورة البقرة)

إذاً

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)

هذه من بعدهم عن الله ، وأن تكون لهم

(أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا)

هذا أيضاً من بعدهم عن الله ، وأن تكون

(لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

إذاً من بعدهم عن الله ، لو أنهم أقبلوا على الله لقذف الله في قلبهم النور ، ومن أدعية النبي عليه الصلاة والسلام :

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

يعني أي إنسان يرتكب معصية يتخيل أنها تسعده ، لو كان مؤمناً يعلم علم اليقين أنها تسخطه ، مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر .

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

هذا من نتيجة بعدهم عن الله وإقبالهم على الشهوة .

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

الأنعام حينما تخطئ لا تعد عاصية بينما الإنسان يعد عاصياً لأن معه منهج السماء :

الله عز وجل يقول :

(أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)

لماذا هم أضل ؟ .

أخوانا الكرام ، الحيوان يتحرك بغريزته فقط ، قد يقوم بأعمال مذهلة ، لكن هذا فعل غريزته ، الإنسان الله أعطاه فكراً ، أعطاه عقلاً ، أعطاه اختياراً ، فالحيوان لا يثاب على تفوقه ولا يعاقب على إساءته ، لا يوجد عنده تكليف ولا التزام ، فإذا تحرك بدافع من غريزته لا يوجد مشكلة عنده ، لا يعد ضالاً ، أما الإنسان إذا تحرك بدافع من شهوته فقط معه تكليف ، معه شرع ، معه وحي ، معه عقل ، معه فطرة ، هذا الإنسان أضل من الأنعام ، الأنعام تحركت بغرائزها ، لا تحاسب ، أنت إذا أقدمت هرة على خطف قطعة لحم هل تعد سارقة مثلاً ؟ لا هي تعد جائعة علاقتها مع اللحم علاقة غريزة فقط ، لا يوجد عندها حرام وحلال .

فالأنعام حينما تخطئ لا تعد عاصية ، لأنها ما معها تكليف ، أما الإنسان إذا تحرك بقضاء شهوته بلا منهج ، لو اعتدى على أعراض الناس ، أو اعتدى على ممتلكاتهم ، معه تكليف ، معه عقل ، معه شرع، معه منهج ، معه فطرة ، معه افعل ولا تفعل ،

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ)

شخص أعطي عملة مزورة فقبلها ، لا يوجد عنده معرفة دقيقة بالعملات المزورة ، الثاني معه جهاز إلكتروني يكشف له العملة المزورة ، ومعه بالجيب الثاني أرقام العملات المزورة ، وقبض ثمن بيته بعملة صعبة ، لم يستخدم الجهاز ، ولم يقرأ أرقام العملات ، هو أضل من الأنعام ، الأول أخطأ لكن ما عنده أجهزة ، لو كان معه جهاز إلكتروني في جيبه الأيمن يكشف له العملة المزورة ، معه أرقام العملات المزورة للكشف في جيبه الأيسر ، وقبض ثمن بيته عملة مزورة الذي معه أجهزة هو أضل ، أما الأول ما عنده معلومات ، أخذها بعفوية وسذاجة .

إذاً هذا معنى قوله تعالى :

(أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ)

تحركوا بلا عقل ، تحركوا بلا فطرة ، تحركوا بلا منهج ، تحركوا بلا تبصر ، بلا تأمل ، لم يسأل ، تحرك بشهوته .

أكبر مرض يصيب الإنسان أن يكون غافلاً عن الله عز وجل :

الإنسان حينما يعصي الله عز وجل همه أن يمتع نفسه ، حلال ، حرام ، يجوز ، لا يجوز ، يوجد عقاب وراءها ، يوجد ثواب ، همه المتعة واللذة ، فهذا الإنسان حينما يتخلى عن عقله وعن فطرته ، وعن وحي السماء ، وعن منهج الله ، وعن القرآن ، ويتحرك بشهوته فقط هو دون الحيوان . الإمام علي رضي الله عنه يقول : ركب الملك من عقل بلا شهوة ، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما ، فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان .

إذاً

(أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

وأكبر مرض يصيب الإنسان أن يكون غافلاً عن الله عز وجل ، لذلك يقابل الغفلة اليقظة ، المؤمن يقظ.

((المؤمن كيس فطن حذر))

[رواه الديلمي والقضاعي عن أنس رفعه وهو ضعيف]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(52-60): تفسير الآية 180، الدعاء بأسماء الله الحسنى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-11-21

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جلّ جلاله ذاتٌ كاملة كل شيء في الكون ينطق بوجوده ووحدانيته وكماله :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثمانين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أولاً أيها الأخوة ، الله جلّ جلاله ذاتٌ كاملة ، كل شيء في الكون ، أو يكاد ينطق بوجوده ، ووحدانيته، وكماله ، والله عز وجل يصف نفسه فيقول :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

أول حقيقة : لا يمكن لإنسان وليكن قوياً أن نقول عليه اسمه قوي ، لأن قوته ليست ذاتية ، هي قوة محدثة ، لم تكن منه ، هناك إله قوام ، وفي أية لحظة يسلبه هذه القوة ، فنقول فلان يتصف بالقوة ، ما سوى الله يتصف بالقوة ، بالكرم ، بالحلم ، أما أن تقول اسمه الحليم ، هذا لله وحده ، لأن أسماء الله الحسنى قديمة قدم الله عز وجل .

(وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

(سورة النساء)

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)

(سورة الكهف)

أسماؤه أزلية أبدية ، أما صفات الإنسان صفات محدثة طارئة ، الله عز وجل منحه قوة يقول أنا قوي ، في أية لحظة لو تجمدت قطرة دم في أحد أوعية الدماغ فقد ذاكرته ، أو فقد عقله ، يودع في مستشفى المجانين ، لا يوجد قوي إلا الله عز وجل ، قوة الإنسان مستمدة من قوة الله .

لذلك نقول فلان يتصف بالقوة ، يتصف بالكرم ، لكن الله سبحانه وتعالى من أسمائه الكريم ، من أسمائه القوي ، من أسمائه الحكيم ، هذه أول حقيقة .

الإنسان مفطور على حبّ الجمال و الكمال والنوال عند الله :

أيها الأخوة ، النفس البشرية جبلت على حبّ الكمال ، ولا تحب إلا الكامل ، من خصائص النفس البشرية أنها جبلت على حب الكمال ، والجمال ، والنوال ، تحب الكامل ولو لم يكن لك علاقة به ، سمعت عن إنسان صاحب مروءة ، صاحب كرم ، تبقى أياماً وأنت تتحدث عنه دون أن تشعر ، مع أن كرمه لم يصل إليك ، أنت في الأصل مجبول على حبّ الكمال وعلى حبّ النوال ، أصابك خيره ، أعطاك مالاً ، أعطاك مكانة ، أعطاك وظيفة ، زوجك ابنته ، تحب من أسدى إليك معروفاً ، والإنسان مفطور على حبّ الجمال ، وأصل الكمال و الجمال والنوال عند الله .

من تعلق بجهة أرضية احتقر نفسه :

لذلك أيها الأخوة ، حقيقة أراها من أخطر الحقائق ، أي إنسان لمجرد أن يتعلق بجهة أرضية يكون قد احتقر نفسه ، أنت مخلوق لله ، أنت مخلوق لمعرفة الله ، فحينما تتجه إلى إنسان كائن من كان ، طبعاً عدا محبة النبي ، لأن محبة النبي في الأصل من محبة الله .

النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((لَوْ كُنْت مُتَّخِذًا مِنْ الْعِبَادِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ صُحْبَةٌ وَإِخَاءٌ إيمَانٌ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا عِنْدَهُ))

[روى البخاري والبيهقي عن ابن عباس]

لذلك أنت حينما تتجه إلى مخلوق وقعت في خطأ كبير لأنك مخلوق لله عز وجل .

((خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب ، وخلقت من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك ، لي عليك فريضة ، ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك ، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك لأسلطن عليك الدنيا ، تركض فيها ركض الوحش في البرية ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً ، أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد ، ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته ، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه ، وقطعت أسباب السماء بين يديه ، وما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي ، أعرف ذلك من نيته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا))

[ورد في الأثر]

إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك ، ويا رب ماذا فقد من وجدك ، وماذا وجد من فقدك .

فــليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

ولــيت الذي بينك وبيني عامر وبيني وبين العالمين خـراب

إذا صحّ منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

*** * ***

من عرف الله عرف كل شيء ومن فاتته معرفة الله فاته كل شيء :

إن عرفت الله عرفت كل شيء ، وإن فاتتك معرفة الله فاتك كل شيء ، والله جلّ جلاله أحب إليك من كل شيء ، لذلك ورد في بعض الآثار :

((يا داود لو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إليّ ، هذه إرادتي في المعرضين فكيف بالمؤمنين ؟))

يا رب قلت لسيدنا موسى :

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ)

(سورة طه الآية : 43)

فرعون طاغية ، الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

والذي ذبح أبناء بني إسرائيل ، واستحيا نساءهم ، هذا الطاغية المجرم الذي ادعى الألوهية تقول يا رب لنبيك الكريم موسى عليه الصلاة والسلام :

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه)

فقال بعض العارفين يناجي رب العالمين : إذا كانت رحمتك بمن قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

فكيف لمن قال : سبحان ربي الأعلى ؟ وإذا كانت رحمتك بمن قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فكيف رحمتك بمن قال : لا إله إلا الله ؟.

محبة الله عز وجل شيء أساسي في الدين :

أيها الأخوة ،

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

أن تحب الله شيء أساسي في الدين ، لأن الله سبحانه وتعالى قال عن المؤمنين :

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة الآية 54)

والعبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة يقينية ، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية ، فما عبد الله من أطاعه ولم يحبه ، وما عبد الله من أحبه ولم يطيعه .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

* * *

الله عز وجل ذات كاملة ، أسماؤه حسنى ، وصفاته فضلى ، من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه ، فأي إنسان لا يطيع الله عز وجل يجب أن يعلم علم اليقين أن هناك نقصاً في معرفته ، حملته على هذه المعصية .

أسماء الله كلها حسنى و بأعلى درجة من الكمال المطلق :

لذلك الله عز وجل يقول :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

الحسنى مؤنث الأحسن ، الأحسن هذا الموقف الأحسن ، فهذه الصفة الحسنى ، فالحسنى مؤنث أحسن، والأحسن اسم تفضيل ، لغتنا العربية فيها مشتقات ، فيها فعل ماض ، فعل مضارع ، أحسن فعل ماض، يحسن فعل مضارع ، أحسن فعل أمر ، محسن اسم فاعل ، محسنون جمع ، هناك اسم فاعل محسن إليه، اسم مفعول ، اسم مكان ، اسم زمان ، اسم آلة ، صفة مشبهة باسم الفاعل ، اسم تفضيل ، الحسنى اسم تفضيل ، أسماء الله كلها حسنى ، أي بأعلى درجة من الكمال المطلق .

لو أن قاضياً حكم ألف حكمٍ في حياته القضائية ، و هناك أحكام ليست عادلة ، هو عند الناس عادل لأن الأحكام على بني البشر في الأعم الأغلب .

ولكن الخلاف يطلق ، ولو أن عصفوراً في كونه من آدم إلى يوم القيامة ظُلم هذا يتناقض مع اسم الله العدل ، العدل المطلق ، الله عز وجل أسماؤه حسنى وصفاته فضلى .

العقيدة أخطر شيء في الإسلام :

لذلك أيها الأخوة ، لابدّ من التنويه إلى أن الإسلام يمكن أن يكون كالمثلث مقسم إلى أربعة أقسام ، القسم الأعلى العقيدة ، وأخطر شيء في الإسلام العقيدة ، فإن صحت صحّ العمل وإن فسدت فسد العمل ، وما من شيء تعتقده إلا وله انعكاس على سلوكك ، فلذلك إن اعتقدت خطأ فهناك سلوك خطأ ، ولو أن الاعتقاد لا علاقة له بالسلوك نقول لك اعتقد ما شئت ، ولكن لأن كل عقيدة لها منعكس في السلوك ، فمن صحت عقيدته صحّ عمله ، ومن صحّ عمله سلم وسعد في الدنيا والآخرة ، أخطر شيء العقيدة . العقيدة أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبقضائه وقدره ، هذه أركان الإيمان ، أن تؤمن بالله موجداً واحداً كاملاً ، أن تؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، فالعقيدة إيمان بالله ، بالملائكة ، بالكتاب ، بالأنبياء ، بالقضاء والقدر ، باليوم الآخر ، أهم شيء في العقيدة الإيمان بالله ، وأهم شيء بالإيمان بالله الإيمان بأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، هذا أهم باب في الدين ، أن تعرف الله .

((ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

الإيمان بالله يعطي الإنسان العزة :

إن عرفتني عرفت كل شيء ، الله عز وجل يقول :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

للتقريب :

شاب طالب علم ، وجد فتاة دينة ، صالحة ، من أسرة صالحة مناسبة جداً له ، له دخل معقول لكن يحتاج إلى بيت ، والبيت مشكلة كبيرة ، وعدم وجود البيت قد يحول بينه وبين الزواج منها ، بلغه أن هناك محسن كبير عنده بيت مناسب جداً خصصه لطالب علم ، وهو طالب علم ، لما جاءته هذه المعلومة ماذا فعل ؟ طلب عنوانه ، لما جاءته هذه المعلومة التي تحل بها مشكلته الأساسية ، توجه إليه، لما علم هذا الشاب أن هذا المحسن عنده بيت مناسب ، ويريد أن يقدمه هدية لطالب علم ، وهو طالب علم ، يريد الزواج من فتاة مؤمنة ، عندئذٍ يتجه هذا الطالب إلى هذا المحسن ، لماذا اتجه إليه ؟ لأنه

عرفه أنه محسن ، وعنده بيت ، وقد خصص لهذا الطالب .

أنت حينما تعرف الله تتجه إليه ، حينما تعرف أنه هو الفعال ، فعال لما يريد لا تتجه لغيره ، لا تتذلل أمام غيره ، لا تتضعضع أمام غيره ، لا تنبطح أمام غيره ، لا تنافق لغيره ، لا تستخذي لغيره ، الإيمان بالله يعطيك العزة .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

* * *

لأن هذا الطالب عرف أن هذا المحسن عنده بيت لطالب علم بحث عنه ، فأنت إذا عرفت الله توجهت إليه ، إن عرفت رحمته توجهت إليه ، إن عرفت قدرته اعتززت به ، إن عرفت عدله خفت أن تقتل نملة ، إن عرفت غناه تفتدي به ، تترفع عن أموال الناس ، إن عرفت لطفه تحبه .

التعرف على أسماء الله الحسنى يفيد الإنسان في الاهتداء إلى الله تعالى :

لذلك

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

ومن فضل الله عز وجل أن الله عز وجل أكرمني بشرح أسماء الله الحسنى في مجموعتين ، مجموعة قديمة كانت صوتاً ، ومجموعة جديدة هي بالضبط 200 حلقة ، كل اسم له حلقتان ، هناك مقدمتان ، و99 اسماً ضرب اثنان ، المجموع 200 هذه موجودة ، أين ما أردت تجدها أمامك ، في الموقع ، في الانترنيت ، في أي مكان ، أنا أتمنى أن تجهد أن تستمع لكل هذه الأشرطة ، إن عرفت الله عرفت كل شيء ، هناك مجموعة قديمة صوت ، وهناك مجموعة حديثة صوت وصورة .

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

أنا أشهد الله أنني سمعت مئات القصص عن أناس ليس لهم أي صلة بالدين ، سمعوا هذه الأشرطة فمشوا بطريق رائع إلى الله عز وجل .

أقسام الإسلام :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

هذا المعنى الأول ، فمعناها مثلث أول قسم بالمثلث العقيدة ، العقيدة أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر ، خيره وشره .

أركان الإيمان أن تؤمن بالله موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، وأهم ما في الإيمان بالله أن تعرفه ، وكيف تعرفه ؟ تعرف أسماءه الحسنى ، وصفاته الفضلى .

القسم الثاني : قسم العبادات ، هناك صلاة ، وصوم ، وحج ، وزكاة ، وهناك نطق بالشهادة .

والقسم الثالث : المعاملات ، الديون ، والحوالات ، والكفالات ، أحكام الزواج ، أحكام الطلاق ، الشرع.

القسم الرابع : هو الآداب .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا : للآية عدة معان منها :

1 ـ من عرف الله عز وجل توجه إليه و أطاعه فذاق طعم القرب و المحبة :

أيها الأخوة ، المعنى الأول :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه ، أي إذا عرفت الله توجهت إليه ، وإن توجهت إليه وأذاقك طعم القرب تطيعه ، تعرفه ، تطيعه ، تسعد بقربه في الدنيا والآخرة .

2 ـ الله عز وجل كامل كمالاً مطلقاً فإذا اشتققت منه الرحمة ورحمت عباده أحبك و وفقك :

أيها الأخوة ، المعنى الثاني :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

الله عز وجل كامل كمالاً مطلقاً ، ما الذي يقربك إليه ؟ هو رحيم فإذا اشتققت منه الرحمة ورحمت عباده يحبك ، أي تقرب إليه بكمال مشتق من كماله ، هو عدل إن أنصفت في أحكامك يحبك الله ، هو لطيف لا يكون الرفق في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه ، هو لطيف يحبك أن تكون لطيفاً ، هو حليم يحبك أن تكون حليماً ، هو قوي يحبك أن تكون قوياً بطاعة الله .

(خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم الآية : 12)

هو محسن ، يحبك أن تكون محسناً .

أقصر الطرق إلى الله أن تشتق منه كمالاً تتقرب به إليه :

أيها الأخوة ،

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

إذاً هذه الآية الكريمة الرائعة بينت الطريق إلى الله ، أحد أقصر الطرق إلى الله أن تشتق منه كمالاً ، تتقرب به إليه ، أقوى دليل : إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي .

((الرَّاحِمُونَ يرحمهم الرحمن ، ارحَمُوا مَن في الأرض ، يرحمْكم من في السماءِ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

الله عز وجل عدل ، بعدلك بين أولادك تتقرب إلى الله ، بعدلك بين بناتك تتقرب إلى الله ، بأداء الحقوق كاملة تتقرب إلى الله ، بعدم حرمان البنات من أموالك تتقرب إلى الله ، بإنصافك مع موظفك تتقرب إلى الله ، بإنصافك مع أصدقائك تتقرب إلى الله ، كلام دقيق ، من أشد الوسائل فعالية في الوصول إلى الله أن تتقرب إليه بكمال مشتق من كماله ، الله عز وجل غني .

فحينما يراك مستغنياً عن الناس ، عزيز النفس ، لا تبذل ماء وجهك للبشر ، يغنيك الله عز وجل ، الله عز وجل يحب المتوكلين فإذا توكلت عليه قربك منه ، الله عز وجل صبور هو يصبر على عباده فإذا صبرت على أولادك ، أو على من حولك ، أو على منهم دونك ، يحبك الله عز وجل .

من عرف الله زهد فيما سواه :

أول حقيقة : من أجل أن تتجه إليه ينبغي أن تعرفه ، من أجل أن ترى أن معرفته شيء ثمين جداً لا يقدر بثمن ينبغي أن تعرفه .

لو في ورقة على طاولتك طويلة ، بيضاء ، فأنت ظننتها ورقة عادية ، كتبت عليها بعض العمليات الحسابية ثم مزقتها ، ووضعتها في سلة المهملات ، ثم اكتشفت أنها شك بمئة مليون ، وحينما مزقته ضاعت علينا هذه الغنيمة ، بماذا تشعر ؟.

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً)

(سورة التوبة الآية : 9)

إن عرفته قدمت له كل حياتك ، وكل مالك ، وكل وقتك ، وكل خبرتك ، إن عرفته لم تجد شيئاً في الدنيا أعظم من أن تتصل به ، المشكلة أن تعرفه ، وطريق معرفته أن تعرف أسماءه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، إن عرفت أسماءه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، توجهت إليه واستغنيت به عن الناس ، من عرف الله زهد فيما سواه ، من عرف الله ما تعلق بإنسان تعلق بالواحد الديان ، من عرف الله لا يعبأ

بالخلق ، لطيف مؤدب ، لكن لا يعبأ بهم .

صحابي امرأته يحبها ، وتحبه ، لكنها طالبته بما لا يستطيع ، فلما ألحت عليه ، قال : اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن ، أهون من أضحي بهن من أجلك .

الذي عرف الله لو وضعت له الملايين المملينة ، على أن يعصيه مستحيل .

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

سيدنا الصديق يطالبه سيدنا خالد بمدد ، خمسون ألفاً ، أرسل له شخصاً ، لكنه يعرف الله " القعقاع بن عمر" ، لما وصل ، قال له : أين المدد ؟ قال له : أنا ، واحد ؟! قال له : واحد ، معه كتاب ، يا خالد ! والذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم .

من غشّ المسلمين ألغى صلاته وصيامه وحجه وزكاته :

نحن مليار وخمسمئة مليون ، مليار وخمسمئة مليون ربع سكان الأرض ، أفقر الشعوب نحن ، لا نملك شيئاً ، ليس لنا أن نصل إلى حقنا ، لا وزن لنا ، للطرف الآخر علينا ألف سبيل وسبيل ، لأننا ما عرفنا الله ، عرفنا أركان الإسلام ، هناك جوامع ، هناك صلوات ، لكن لا يوجد استقامة ، لا يوجد إنسان وقاف عند حدود الله ، المؤمن يركل الملايين بقدمه إذا كان فيها شبهة ، هناك قصص لا تعد ولا تحصى عن تقصير الناس ، لا تكفي الصلاة وحدها ، حينما تغش المسلمين تلغي كل عباداتك ، هل تعلم ذلك ؟ حينما تأخذ ما ليس لك تلغي كل عباداتك ، ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام.

حينما تأخذ ما ليس لك ، حينما تحرم بناتك من الإرث .

((إن الرجل ليعبد الله ستين سنة ثم يضر في الوصية فتجب له النار))

[ورد في الأثر]

أين ؟ يصلي فقط ، ولكن المال للذكور ، لكن حينما ينفذ أمر الله ، أحكام الله في الميراث ، ويعطي البنات هذا المال للأصهار هذه عنده جريمة ، فتجب له النار ، بنص الحديث الشريف ، كل صلاته بعمره ذهبت أدراج الرياح ، صلاته ، وصيامه ، وحجه ، والله معظم الناس يحرمون البنات ، والبنت يمكن أغلى شيء على أبيها ، البنت غالية جداً ، لكن لا أحد يعرف قيمة هذا الشرع العظيم .

حينما تغش المسلمين أنت لا تعرف الله ، حينما تأخذ ما ليس لك أنت لا تعرف الله ، حينما تظلم زوجتك أنت لا تعرف الله ، ممكن تأخذ شهادة عليا ، وتكون طليق اللسان ، ومتكلماً ومعك أدلة

وبراهين ، أما حينما تنتهك حرمات الله أنت لا تعرفه ، حينما تأخذ ما ليس لك أنت لا تعرفه .

السيدة عائشة قالت مرة : قولوا لفلان إنه أبطل جهاده مع رسول الله .

يقول لك شخص : انصحني ، تعطيه بضاعة كاسدة ، هذه أجمل شيء ، أما أنت خنت الأمانة ، القصص التي أعرفها عن أخطاء المسلمين في بيعهم وشرائهم ، في غشهم ببعض المواد ، والله لا تعد ولا تحصى ، والله هناك من يضع في المواد الغذائية مواداً مسرطنة ، يتغير لونها ، يرتفع سعرها ، مسرطنة ، هناك من يرش بعض المواد بمادة مهربة ، ممنوع استخدامها في هذا البلد ، وأي صيدلية تبيع هذه المادة تغلق ، يأتي بها تهريب ، ويرش بها بعض الفواكه حتى لا تأكلها العصافير ، هي مادة مسرطنة ، ومادة جهازية تدخل في الداخل ، من أجل أن يزداد ربحك تؤذي المسلمين ؟ المعلبات مسموح بمادة اسمها بنزوات الصوديوم بـثلاثة بالمئة يضعون عشرة بالمئة ضمان لسلامة الغذاء ، مادة مسرطنة ، هذا الذي يؤذي المسلمين لا يعرف الله أبداً ، أقول لكم مرة ثانية : ألغى صلاته ، وصيامه ، وحجه ، وزكاته .

علامة معرفة الإنسان بربه الاستقامة على أمره :

هل تعرف الله ؟ أن تعرف الله يأتي على القاضي العدل يوم القيامة ساعة أي قاضي ؟ العدل ، يتمنى بها لو لم يقض بين اثنين بتمرة ، علامة معرفتك بالله الاستقامة على أمره وهذا الدين العظيم لن تقطف منه شيئاً إلا إذا استقمت على أمر الله .

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

أول معنى إن عرفته أقبلت عليه ، إن عرفت رحمته ، عدله ، غناه ، قدرته ، لطفه ، قوته ، بطشه أحياناً ، إن عرفت أسماءه الحسنى أقبلت عليه

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

أي اتجهوا إليه ، اطلبوا منه ،

(بِهَا)

أي بعد معرفتكم به .

المعنى الثاني : إنكم إن أردت التقرب إليه تقربوا بكمال مشتق من كماله ، الله رحيم يرحم هذا الإنسان، يرحم هذه الدابة ، ارحم هذا الموظف الذي عندك .

قال لي مرة شخص : عندي شاب فهيم جداً وذكي ، لكن طلب مني ساعة ، يغادر المحل قبل ساعة ، حتى يلتحق بمدرسة داخلية ليأخذ كفاءة ، قال لي : ما وافقت له ، هذا إذا تعلم أخسره سأدعه هكذا ، هذا

واضع لابنه مليون ليرة دروس خاصة حتى يصبح طبيباً ، أما هذا اليتيم خليه جاهلاً ، أنا والله بحسب ما أفهم ألغى كل عباداته ، يا أخوان الدين ما فيه مزح إطلاقاً بالدين الله كبير ، وكلهم عباده ، إياك ثم إياك ثم إياك أن تظلم نملة .

((دَخَلَت امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ : ربطتها ، فلم تُطْعِمها ، ولم تَدَعْها تأكُل مِن خَشاشِ الأرض))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر]

إن عرفت الله ترتعد مفاصلك ، لو ظلمت إنساناً ، لو اغتبت إنساناً ، لو أعطيت إنساناً شيئاً لا يستحقه إما أقل أو أكثر .

عدل الله عز وجل لا يمكن لعقل الإنسان القاصر أن يثبته :

أيها الأخوة ، إن عرفت الله عرفت كل شيء ، إن عرفت الله أطعته ، إن عرفت استقمت على أمره ، إن عرفت الله أعطيت كل ذي حق حقه ، إن عرفت الله كنت عادلاً ، إن عرفت الله كنت رحيماً ، إن عرفت الله كنت لطيفاً ، كنت منصفاً ، كنت محسناً ،

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

الآن مع التطاول على الدين صار هناك تطاولاً أن الله ليس عادلاً ، هذا الطفل لماذا يولد أعمى ؟ أنت إله ؟ هل تعلم حكمة الله في هذا ؟ الله خلق البشر لحياة أبدية ، قد يكون هذا الطفل بأعلى مقام في الجنة، أنت إله تحاسب الله عز وجل ؟ أنت عبد ، صار هناك تطاولاً .

(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

لماذا الحروب ؟ لماذا الاجتياح ؟ لماذا الفيضانات ؟ لماذا البراكين ؟ عدل الله عز وجل لا يمكن لعقلك القاصر أن يثبته ، إلا بحالة مستحيلة أن يكون لك علم كعلمه ، لكن الله أخبرك قال :

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

(سورة النساء)

لا فتيل ، ولا :

(قِطْمِيرٍ)

(سورة فاطر)

ولا نقير ، ولا حبة من خردل .

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر الآية : 17)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت الآية : 40)

كل هذه الآيات أنت لا تصدقها ؟ لكن عقلك القاصر لا يستطيع أن يكشف حكمة الله يقول لك دول غنية قوية كافرة ، تمتع بها بكل شيء ، والدول الفقيرة مظلومة ، واجتياحات الحياة كلها فترة محدودة ، وهناك أبد ، إذا شخص خسر هذه الدنيا وربح الأبد ما الذي حصل ؟.

من أنكر وجود الله عز وجل و حكمته كفر دون أن يشعر :

أيها الأخوة ،

(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

كل إنسان ينكر حكمة الله ، ينكر عدله ، ينكر حكمته ، أحياناً هناك كلمات هي الكفر بعينه ، دون أن تشعر ، يقول لك شخص : الله يعطي الحلاوة لمن ليس له أضراس ، ما هذا الكلام ؟ أنت بهذا أنكرت وجود الله ، أنت حينما تعظم الله ، تعظم أفعاله ، تحسن الظن به ، تعتقد بكماله ، بحكمته ، تعتقد أن ليس في الإمكان أبدع مما كان ، تعتقد أنه يوم القيامة حينما يكشف لعباده عن حكمته من وراء أفعاله تذوب نفسك محبة له أنت قاصر ، أقول هذا الكلام وقد قلته كثيراً :

أنا ماشٍ في الطريق شخص خرج من محله التجاري ، قال لي : هذا الإنسان جاء إلى محله التجاري ، في سوق مدحت باشا ، وسمع إطلاق رصاص ، مدّ رأسه فجاءت رصاصة فاستقرت في عموده الفقري ، فشُلّ فوراً ، قال لي : ما ذنبه ؟ إذا شخص فتح محله التجاري يكون مجرماً ؟ قلت له : لا ، كأنه يعترض على الله عز وجل

(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

أنا قلت لا أعلم ، أنا أعلم أن الله عادل ورحيم ، والله بعد عشرين يوماً أحد الأخوة الكرام حدثني قصة عرضية ، قال لي : فوقنا هناك جار مغتصب بيتاً لأولاد أخيه الأيتام ، والاغتصاب مضى عليه ثمان سنوات ، هم يلحون في طلب البيت ، بيتهم وهو متمسك به ، لا يعطيهم إياه ، فلما يئسوا احتكموا إلى أحد علماء دمشق الشيخ حسين الخطاب رحمه الله كان شيخ قراء الشام ، فاستدعاه ، وحاول أن يقنعه لكي يعطي أولاد أخيه البيت ، وكان وقحاً ، قال : لن أعطيهم البيت ، قال لهم الشيخ حسين : يا بني هذا عمكم ، لا تشتكوا عليه للقضاء اشكوه إلى الله ، هذا الكلام الساعة التاسعة مساءً ، هو نفسه الساعة التاسعة صباحاً سمع إطلاق رصاص مدّ رأسه جاءت رصاصة شُلّ فوراً .

أنا ما كنت أعلم ما القصة ، قال لي شخص : هناك رجل جاء لمحله التجاري وفتح محله التجاري وما عمل شيئاً ، سمع صوت رصاص مدّ رأسه شُلّ ، أحرجني ، أنا لا أعلم ، أنا عبد فقير ، أما لما الله عز وجل ساق الأخ الكريم ، قال لي : هو له محل بمدحت باشا ، هو لا يعلم الذي اعترض قبل عشرين

يوماً ، قال لي : جارنا ساكن فوقنا ، واغتصب بيتاً لأولاد أخيه الأيتام ورفض أن يعطيهم حقهم .
قال لي أخ كريم من يومين : شخص على وشك أن يحرم أولاد أخوته حقهم ، يأتي المحامي يقول لهم : طولوا بالكم ، يقول له : بعد فترة ، بعد فترة ، لكن يبدو بعد سنة أخبر المحامي فجأة قال له : مشي المعاملة ، قال له : ماذا حصل ؟ قال له : سمعت اليوم درساً بالقدس عن هذه القصة نفسها ، فبادر مباشرة إلى إعطاء البيت لأولاد أخيه الأيتام .
أخوانا الكرام ، الله عز وجل عادل ، وكبير ، اعرفوه ، استقيموا على أمره ، تسعدوا بقربه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(53-60): تفسير الآيات 181 - 184، السلوك الإيجابي يعكس إيجابية صحيحة وصادقة وموضوعية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-11-28

بسم الله الرحمن الرحيم

توزيع الكمالات البشرية بين خلق الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الواحدة والثمانين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

أيها الأخوة ، الله عز وجل قبل آيات عدة يقول :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

(سورة الأعراف الآية : 179)

إذاً هناك كثيرون شردوا عن الله عز وجل فاستحقوا النار ، وهذا لا يعني أن كل البشر كذلك ،

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

أما كلمة

(أُمَّةٌ)

الكمال البشري من شأنه أنه متعدد ، في شجاعة ، في كرم ، في حكمة ، في حلم ، في لطف ، في قوة، في إباء ، في رحمة ، الكمال البشري متنوع ، ولحكمة بالغةٍ بالغة أن كل واحد من بني البشر ممن آمن بالله تفوق بكمال من هذه الكمالات ، يغلب على صفات إنسان أنه كريم ، إنسان آخر أنه شجاع ، إنسان آخر أنه حليم ، إنسان آخر أنه يحب خدمة الخلق ، فهذه الكمالات البشرية موزعة بين خلق الله عز وجل .

كمال النبي عليه الصلاة والسلام كمال شمولي :

لذلك

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ)

الأمة تجتمع فيها كل الكمالات ، هذا شيء واقع ، بحياتنا أستاذ جامعي كبير ، داعية كبير ، مثلاً محسن كبير ، عالم كبير ، قائد كبير ، إنسان مكّنه الله من مقارعة الأعداء ، سيدنا صلاح الدين ، سيدنا

خالد ، إنسان مكنه الله من إقامة العدل ، سيدنا عمر ، فكل إنسان له كمال تفوق به ، مجموع هذه الكمالات يشكل أمة ، إلا أن إبراهيم عليه السلام كان أمة وحده .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

(سورة النحل الآية : 120)

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام أمة وحده ، فلذلك النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده ، بينما أمته معصومة بمجموعها .

((أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ))

[أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك]

والنبي عليه الصلاة والسلام كماله شمولي .

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

شجاعته ، وحلمه ، ورحمته ، ورقته ، ولطفه ، وهذه الصفات كلها مجتمعة في شخص النبي عليه الصلاة والسلام ، هو معصوم بمفرده ، وكل الكمالات البشرية محققة فيه بمفرده ، بينما أمته معصومة بمجموعها ، والكمالات موزعة فيها ، هذا شيء واقع ، طبيب ، مهندس ، محامي ، اختصاصات ، محسن كبير ، داعية كبير ، قائد شجاع ، فكل كمال في النبي موجود فيه ، وكل كمال في أمة محمد موجود فيه ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا)

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

طبعاً نبهت وقتها أن

(ذَرَأْنَا)

لا تعني أننا خلقنا لجهنم ، هذه اللام لام المآل ، خلقنا خلقاً كثيرين ، منهم شردوا عن الله عز وجل فاستحقوا النار فاللام لام المآل ، ليست لام التعليل ، خلق كثير عرفوا الله عز وجل فاستحقوا الجنة .

الله عز وجل خلق الإنسان ليسعده :

إذاً :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

خلق الله الخلائق ، خلقها جميعها ليسعدها .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

الحكمة من المصائب :

قد تقول ما حكمة المصائب ؟ المصائب حكمتها تماماً كحكمة المكبح في السيارة ، السيارة صنعت من أجل أن تسير ، والمكبح عقدياً يتناقض مع علة صنعها ، لكنه أكبر ضمان لسلامتها .

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

المتفوق داعية إلى الله بعمله لا بلسانه :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

يعني الله عز وجل حينما أكرم المؤمنين بهذه الكمالات ، هذه الكمالات مشاعر داخلية تنعكس سلوكاً خارجياً ، فالقلب الرحيم رحيم ، لكن سلوكه رحيم ، قلب الحليم حليم لكن حركته فيها حلم ، فصار الكمالات البشرية قدوة وأسوة لمن حولهم .

أب ما سمع أولاده منه كلمة بذيئة ، أبلغ الظن أن أولاده ينضبطون في كلامهم ، أب كلما دخل وقت الظهر توضأ وصلى أمام أولاده ، فالأب أسوة في صدقه ، في حكمته ، في ضبط لسانه ، في عبادته ، في معاملته ، في كرمه ، في رحمته ، فهؤلاء المؤمنون الذين شرفهم الله عز وجل بكمال بشري هم في الحقيقة دعاة صامتون ، دون أن يشعروا ، فالمتفوق داعية لكن لا بلسانه بل بعمله .

والدليل أن في بعض الأحاديث الشريفة حديثاً يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام :

((استقيموا يستقم بكم))

[أخرجه الطبراني عن سمرة بن جندب]

يكفي أن تكون أميناً فأمانتك دعوة إلى الأمانة ، يكفي أن تكون صادقاً صدقك دعوة إلى الصدق ، يكفي أن تكون مؤدياً لعباداتك ، أداؤك لعبادتك في المكان العام دعوة لأداء العبادات ، فأنت يمكن أن تكون داعية كبيراً بلسانك ، ويمكن أن تكون داعية كبيراً بعملك .

هؤلاء التجار التسعة الذين ذهبوا إلى إندونيسيا ، فيها ثلاث عشرة ألف جزيرة ، هؤلاء التجار التسعة أغلب الظن أنهم ما تكلموا كثيراً ، لكنهم فعلوا كثيراً ، فإذا بأكبر قطر إسلامي يعد 250 مليوناً كل مسلم عن طريق هؤلاء التجار .

لذلك حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((التَّاجِرُ الأمينُ الصَّدُوقُ مع النَّبيِّينَ))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

الصين فيها 80 مليون ، زرت مسجداً في بكين عمره 1200 عام ، والذي بنى المسجد مدفون في صحن المسجد ، قلت : إنسان دخل إلى الصين ، الآن دعوته شملت 80 مليون إنسان .

الأسوة الحسنة طريقة مذهلة في التعليم :

النقطة الدقيقة : أن كمال الإنسان كماله بأخلاقه ، بعفته ، باستقامته ، بأمانته ، بصدقه ، برحمته ، بإنصافه ، بحلمه ، هذه الأخلاق الراقية جعلت منه أسوة حسنة لمن حوله ، أنا أتصور أباً مؤمناً بلا جهد أولاده كذلك ، يرون أباهم ، يرون أدبه ، يرون حكمته ، يرون رحمته ، يرون سخاءه ، كرمه ، نحن عندنا طريقة للتعليم مذهلة الأسوة ، بلا كلام ، بلا إلقاء خطابات ، بلا توجيه نصائح ، بلا توجيه مواعظ ، بلا زجر ، لا ، كن كاملاً في البيت ، كمالك يعد أسوة لأولادك ، المعلم الكامل أسوة ، مدير المؤسسة الكامل عادل بين الموظفين ، متواضع لهم ، يحترمهم ، يسأل عن أحوالهم ، يلبي حاجاتهم ، يرحمهم ، لو أن أحد كبار الموظفين عُين رئيس دائرة في الأعم الأغلب سيقلد مديره العام ، برحمته ، وإنصافه .

كمال الإنسان يجعله قدوة أمام الآخرين :

لذلك هناك طريق سالك وسهل طريق الأسوة الحسنة ، سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته وقال : إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا ، ويم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه ، إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني ، فصارت القرابة من عمر مصيبة .

الآن أنت حينما تكون كاملاً ، زوج ناجح ، أب ناجح ، أب رحيم ، كلامك رحيم ، قلبك ممتلئ رحمة لأولادك ، لك أجران ، أجر أنك كنت كاملاً ، وأجر أن من حولك اقتدوا بك ، فأنت تثاب على كمالك ، وعلى كمال الذي قلدك ، ولا سمح الله ولا قدر أب مدخن ، أو معلم مدخن ، يتحمل إثم التدخين هو ،

ومن قلده من طلابه ، بشكل أو بآخر أي خطأ من إنسان له منصب قيادي العقاب مضاعف ، عقاب خطئه ، وخطأ من قلده ، وأي موقف كامل لإنسان له منصب قيادي ، معنى منصب قيادي الأب منصبه قيادي بالبيت ، والأم ، والمعلم ، مدير الدائرة ، مدير المستشفى ، مدير الجامعة ، مدير المعمل ، أي إنسان مكنه الله من أن يدير جمع من الأشخاص منصبه قيادي ، فكمالاته لها أجر مضاعف ، وسيئاته عليه منها وزر مضاعف ، وزره ووزر من قلده .

الله عز وجل يقول :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ)

وهو صامت ، لذلك أنا أقول هناك الآن دعوة صامتة ، لا تحتاج إلى ضجيج ، ولا إلى رفع صوت ، ولا إلى زجر ، ولا إلى خطابة مفوهة ، كن مستقيماً استقامتك دعوة ، وكن أميناً أمانتك دعوة ، وكن صادقاً صدقك دعوة ، وكن حليماً حلمك دعوة ، وكن متفوقاً التفوق دعوة .

الحق الشيء الثابت والهادف والباطل الشيء الزائل والعابث :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ)

ما الحق ؟ كلمة ترد في القرآن كثيراً ، الله عز وجل هو الحق ، لكن ما معنى :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

(سورة التغابن : 3)

معنى

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي أن الحق لابس خلق السماوات والأرض ، الحق معناه الشيء الثابت والهادف ، يقابله الباطل الشيء الزائل والعابث ، مثلاً :

قد ينصب سيرك في بلد ما ، السيرك أسبوعي ، وفيه ألعاب بهلوانية ، فيه فيل ووحوش ، قضية تسلية، أولاً مؤقت ، هذا المخيم الكبير لأسبوعين فقط ، وهذا السيرك لا يقدم علماً عميقاً ، ولا يقدم فكراً دقيقاً ، ولا يقدم علماً رائعاً ، يقدم ألعاب تسلي الإنسان فقط .

فالشيء الباطل الشيء الزائل ، والشيء الباطل الشيء العابث ، أحياناً تبنى جامعة هذه تبنى لتكون إلى مئات السنين ، هناك جامعة يقول لك من 1500 عمرها ، الآن 2000 ، من 500 عام ، هذه الجامعة بنيت لتبقى ، هذه الجامعة هدفها تزويد الأمة بقادة ، بأطباء بمهندسين ، بقضاة ، بعلماء ، بعلماء فلك ، علماء ذرة ، فالهدف كبير ، الهدف راقٍ ، الهدف نبيل ، فالحق الشيء الثابت والشيء الهادف ، والباطل الشيء الزائل ، الإلحاد باطل .

لذلك الدولة العملاقة التي قامت على الإلحاد بقيت سبعين عاماً ثم زالت ، أصبحت أفكارها في الوحل ، الباطل مهما يكن قوياً زائل ، لقول تعالى :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

مهما يكن متعدداً كم فرقة ضالة طرأت على التاريخ الإسلامي ، أين هي الآن ؟ الذي بقي هو الحق ، الذي بقي من تمسك بالقرآن ، وسنة النبي العدنان .

تناقض تأليه الأشخاص مع منهج الله عز وجل :

لذلك أيها الأخوة ، أريد أن أبين أن الفرق الضالة تجمعها خصائص ، من هذه الخصائص أنها تؤله الأشخاص ، تأليه الأشخاص يتناقض مع منهج الله .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الكهف الآية : 110)

دخل أعرابي على مجلس النبي قال : أيكم محمد ؟ ما له مكان خاص ، ولا هيئة خاصة ، ولا حرفة خاصة ، أيكم محمد ؟ الفرق الضالة من شأنها أنها تؤله الأشخاص ، وتخفف التكاليف ، هذه الفرقة ألغت الصلاة ، هذه الفرقة ألغت الصيام ، هذه ألغت الزكاة ، تؤله الأشخاص ، وتخفف التكاليف ، وتعتمد على نصوص موضوعة لا أصل لها .

مرة أهدي إليّ كتاب ، فيه أحاديث مختارة ، أول حديث روى الديلمي عن ابن عباس أنه قال : ليس من مات فاستراح بميت ، إنما الميت ميت الأحياء ، قلت : هذا ليس حديثاً ، قلت له : هذا كلام المتنبي ، قال : لعل النبي أخذه منه ، قلت له : جاء بعد النبي .

اعتماد الفرق الضالة على الأحاديث الموضوعة و تخفيف التكاليف :

الفرق الضالة تعتمد على أحاديث موضوعة ، وعلى تأويلات ضالة ، وعلى قصص هزيلة ، تالفة ، والصفة الثانية أنها تخفف التكاليف ، الآن الانتماء سهل جداً ، الانتماء سهل أما تطبيق المنهج صعب ، يكفي أن تقول أنا مع فلان ، سهلة ، هل أنت مستقيم ؟ هل أنت صادق ؟ هل أنت أمين ؟ هل أنت وقاف عند حدود الله ؟ .

لذلك الديانات الأرضية في آسيا تعد 90 مليون ، ما فيها منهج ، تأليه بوذا فقط .

مرة زرت معبداً في أمريكا لديانة أرضية آسيوية ، وجدت صنماً من البرونز ، صدقوا أيها الأخوة أن صدره فيه حبات ألماس بمئات الملايين ، برونز أسود صدره كله حبات ألماس موشورية برلنت

بالملايين ، رأيت بعض الأتباع ينبطحون بأجسادهم انبطاحاً كاملاً ، وهم مثقفون ، ورأيت كسارة جوز هند بمدخل المعبد ، سألت ؟ قال : الآلة تحب جوز الهند ، والله زيارة لا أنساها بأمريكا بلوس أنجلوس، كيف يحب هذا الصنم من البرونز والألماس جوز الهند ؟ شيء غير معقول ؟ .

فكل شيء أرضي ، الانتماء سهل ، لأنه لا يوجد منهج ، لا يوجد افعل ولا تفعل ، يكفي أن تعلن انتماءك لهذا المنهج ، القضية سهلة جداً ، لكن الإسلام فيه منهج ، فيه أحكام ، فيه أوامر ، فيه نواهٍ ، فيه محرمات ، فيه عبادات ، فيه هدف ، فيه التزام .

من هنا الآية الكريمة :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ)

في حق

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

الفرق الضالة كلها تؤله الأشخاص ، وتخفف التكاليف ، وتعتمد على نصوص موضوعة ، وضعيفة ، وقصص تالفة وذات نزعة عدوانية ، هذه الصفات الأربع تتصف بها كل الفرق الضالة .

عظمة الدين الإسلامي :

أما الكتاب والسنة ، سيد الخلق وحبيب الحق قال :

(إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

دقق لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً ، سيد الخلق ، لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً ، والأبلغ من ذلك :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية : 188)

الأبلغ من ذلك قل لا أعلم الغيب .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الزمر)

هذا من ؟ سيد الخلق ، حبيب الحق ، سيد ولد آدم ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فلا أملك لكم نفعاً ولا ضراً ، لا أعلم الغيب ،

(أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

أيها الأخوة ، أرأيتم إلى عظمة هذا الدين ؟ .

كل شيء مبني على العدوان والكذب والدجل زاهق لا محالة :

إذاً

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

الحق الشيء الثابت والهادف ، الدين حق ، أما هناك آلاف النشاطات العابثة والزائلة لا قيمة لها إطلاقاً، هي الباطل ، الباطل زائل يعني جدار أنشأناه بلا شاقول مائل ، لأنه أنشئ بلا شاقول هذا مصيره إلى الوقوع ، أما الجدار الذي أنشئ وفق مبادئ صحيحة هذا من شأنه البقاء ، فالحق باقٍ والباطل زائل .

الذين رفعوا شعار لا إله ، عندهم قنابل ذرية ، قنابل نووية ، يحكمون تقريباً ثلث العالم ، كل هذه القوة، وكل هذه الغطرسة ، وكل ، وكل ، تلاشت ، وانتهى الأمر

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

والقوة الثانية التي أرادت الهيمنة على العالم لا بالحق بل بالباطل أيضاً زائلة ، والذين احتلوا هذه البلاد الفرنجة بقوا فيها تسعين عاماً ، وبعدها خرجوا إذاً

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

كل شيء مبني على العدوان والكذب والدجل هذا زاهق لا محالة .

من كان متفوقاً تفوق من حوله :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

التركيز اليوم على أنك إذا كنت متفوقاً تفوق من حولك ، إذا كنت صادقاً صدق من حولك ، إذا كنت أميناً كان أميناً من حولك ، فالكمال وحده دعوة إلى الله ، أنت لا تحتاج إلى قدرة على الخطابة ، والنصوص واضعها ، تجد أباً صالحاً ، أولاده صالحون .

هناك نقطة دقيقة : إنسان أميّ لا يقرأ ولا يكتب ، اشترى مكيفاً ، فتح مفتاح التشغيل ، جاءه الهواء البارد ، تمتع به ، شخص معه دكتوراه بالتكييف من أرقى بلاد العالم ، اشترى مكيفاً ، وضعه بغرفته ، فتح التشغيل جاءه الهواء البارد ، فقال بعضهم : الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، يستطيع إنسان أميّ أن ينتفع بالمكيف انتفاعاً تاماً ، كما ينتفع به من يحمل دكتوراه بالتكييف ، القصد من هذا المثل إنسان يصدق ، لا قرأ عن فلسفة الصدق ، ولا عن نتائج الصدق ، ولا عن الأدلة عن الصدق ، إنسان يلقي محاضرة عشر صفحات ، الأدلة ، الآيات ، الأحاديث ، القصص ، التحليل ، تحليل نفسي ، تحليل اجتماعي ، تحليل لغوي ، يزيدك علماً من أجل أن تكون صادقاً ، يأتي إنسان يصدق بالفطرة

يقطف كل ثمار الصدق ، احفظوا هذه القاعدة الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به .

الموقف الكامل لا يحتاج إلى ثقافة عالية و تعمق وفلسفة يحتاج لقلب رحيم :

أجدادنا ، قد يكون ثقافتهم محدودة ، لكن الأب صالح ، يصلي صلواته الخمس ، صادق ، أمين ، رحيم، الأب هذا انتفع من حوله وانتفع هو بكماله من دون تحليل إيديولوجي للصدق ، أنا لست مع الجهل معاذ الله ، هذا الدين لكل الخلق ، إنسان غير متعلم ، متعلم ، ثقافته عالية جداً ، ابن ريف ، ابن مدينة ، فقير ، غني ، ذكاؤه متقد ، محدود الذكاء ، هذا الدين لكل البشر ، أي إنسان طبق منهج الله قطف ثماره كاملة ، عن وعي أو عن غير وعي ، عن علم أو عن غير علم ، أي إنسان طبق منهج الله ، قطف ثماره كاملة .

قصة أرويها كثيراً لكن جاءتني الآن خاطرة أن أرويها لكم : إنسان يعمل خطيب وإمام مسجد رأى النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له النبي في الرؤيا : قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنة ، جاره بقال إنسان بسيط جداً ، فهذا الذي يخطب على المنبر ، وإمام تأثرَ تأثراً سلبياً جداً ، هذه الرؤيا كان من الممكن أن تكون لي ، لماذا لهذا البقال ؟ طرق بابه ، قال له : لك عندي بشارة ، لن أقولها لك إلا إذا أخبرتني ماذا فعلت مع ربك ؟ فامتنع ، فبعد إلحاح شديد قال له : تزوجت إنسانة ، بالشهر الخامس من زواجي كان حملها في الشهر التاسع ، واضح في خطأ مرتكب ، قال له : بإمكاني أن أسحقها ، وأن أفضحها ، وأن أطلقها ، والشرع معي ، وأهلها معي ، والمجتمع معي ، والقانون معي ، والمحكمة معي، لكن أردت أن أعينها على التوبة ، جاء لها بمن يولدها ، ولدت ، وحمل الجنين المولود تحت عباءته ، وتوجه إلى جامع الورد في دمشق ، وبقي واقفاً أمام الباب حتى نوى الإمام الصلاة ، قال : الله أكبر ، دخل ووضعه إلى جانب الباب والتحق بالمصلين ، فلما انتهت الصلاة بكى هذا الصغير ، تحلق المصلون حوله ، وتأخر هو حتى يكتمل تحلق المصلين حوله ، ثم اقترب ، قال : ما القصة ؟ قال : تعال انظر ! جنين مولود لقيط ، قال : أنا أكفله ، فأخذه ، ودفعه إلى أمه من أجل أن تربيه ، فاستحق هذا الإنسان أن يبشره النبي الكريم أنه رفيقه في الجنة .

أحياناً الموقف الكامل لا يحتاج إلى ثقافة عالية ، وتعمق ، وفلسفة ، يحتاج لقلب رحيم ، هذه بإمكاني أن أحملها على التوبة لي فيها أجر كبير جداً .

فيا أيها الأخوة ، لمجرد أن تكون كاملاً فأنت داعية ، لا بلسانك ولكن بفعلك ، أنت أب معلم ، عندك محل تجاري ، عندك خمسة موظفين ، أنت الآن منصبك قيادي ، كلامك منضبط ، ما عندك كلمات بذيئة ، علمتهم الانضباط بالكلام ، امرأة متفلتة غضضت عنها البصر ، علمتها غضّ البصر .

لذلك الآية الكريمة :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

من لم يعبأ بكلام الله و أفعاله و خلقه سيتعرض لعقاب الله و تأديبه حتى يعترف بذنبه :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

هناك آيات كونية ، وهناك آيات قرآنية ، وهناك آيات تكوينية ، لم يعبأ لا بأفعال الله ، ولا بخلقه ، ولا بكلامه .

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ)

الآن درج تنتقل من طابق أول لطابق خامس ، درجة درجة ، وتنتقل من خامس لأول درجة درجة ، فالله عز وجل وصف استدراج من شرد عنه استدراج أنه يعترف بذنبه مرة تلوى مرة ، بالنهاية والله يا ربنا ما كنا بك مشركين ،

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ)

تجد الإنسان العاصي متعند ، متكبر ، متغطرس ، ضربة تلوى ضربة ، ضربة تلوى ضربة ، يقول لك أنا إنسان سيء جداً ، هذه متى قالها ؟ بعد أن عاقبه الله ، وأجرى عليه كل ألوان التأديب حتى اعترف بذنبه .

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

الكونية والتكوينية والقرآنية :

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

إنسان مع إنسان قد تستدرجه يبقى صاحياً ، أي يفسد عليك استدراجك له ، يقول لك : انتبهت له ، يقول له : تغديت به قبل أن يتعشى بي ، إنسان مع إنسان يقدر ، أما الإنسان مع خالق الأكوان لا يقدر ،

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

أي أمهلهم .

تأخير العقاب و المكافأة يعطي الإنسان الاختيار :

أخوانا الكرام فكرة دقيقة : لو شخص مع أول معصية الله قصمه ، الكل يستقيم لا عن محبة لله ، لو شخص مع أول عمل صالح الله كافأه ، الكل يعمل أعمالاً صالحة تصبح بعقلية تجارية ، لكن ممكن أن تطيعه لأمد طويل وأنت أنت ، لا يوجد شيء ، دخل محدود ، بيت متواضع ، صحة وسط ، وأنت صائم و تصلي ، ممكن شخص يعصي الله عز وجل بكل أنواع المعاصي وضغطه 8 ـ 12 نظامي ، ونبضه 80 نبضة ، وصحته عمل تحليلاً لكل شيء درجة أولى مثل البغل طبعاً ، ممكن تعصيه إلى أمد طويل وأنت بأعلى نوع قوة ، ممكن تطيعه ، تأخير العقاب ، والمكافأة تعطي اختيار ، صار في اختيار.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ :

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

تجدهم يتغطرسون ، ويدمرون شعوباً ، ويقصفون مدناً ، ويتعالون على الله عز وجل ، وهم مرتاحون،

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

لذلك :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

(سورة الطارق)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

هذه معنى

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

بطولة الإنسان أن يبتغي الرفعة عند الله عز وجل :

لو شخص على أول غلطة الله عاقبه التغى الاختيار ، نظر فقد بصره ، الكل يغمضون أعينهم ، انتهى، مثلاً دفع صدقة ليرة يأتيه عشرة ، الكل يدفعون صدقة ، لا ، ممكن تطيعه لأمد طويل ، لا يوجد شيء ، لأنك تريد الآخرة ، ممكن لا سمح الله تعصيه بكل أنواع المعاصي لا يوجد شيء ، بيت ، وسيارة ، ودخل ، وولائم ، وسفر ، و ذهاب و إياب ، لا يوجد شيء ، يقول له أين الله ؟ ، ممكن تطيعه لأمد

طويل لا يوجد شيء أبداً ، في راحة نفسية فقط ، كم مؤمن صادق فقير ؟ موظف درجة عاشرة ، ضارب آلة كاتبة ، لكن من بيته لعمله مستقيم ، صادق ، أمين ، صلواته الخمس يؤديها ، يحب الله عز وجل ، له درس علم يحضره ، هذا قلامة ظفره تساوي مليون شخص ، لكن بالدنيا ليست مبينة الأمور، يبين مواطن عادي ، لذلك :

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب لو أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

ممكن أن يكون الشخص من الدرجة العاشرة اجتماعياً ، موظف ، حاجب ، وهناك مدير عام ، وسكرتير ، وبالنهاية الله لا يحبه ، وهذا الحاجب غالٍ على الله ، فأنت بطولتك أن تبتغي الرفعة عند الله:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب لو أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

كن ابن من شئت ، غني ، فقير ، من أرقى عوائل دمشق ، عائلة لا أحد يعرفها مغمورة ، أنت عبد لله عز وجل ، هذه كلها عنعنات جاهلية .

أنا والله لي كلمة يا أخوان لا يضاف على كلمة مسلم ولا كلمة ، مسلم ، انتهى ، تحبه غنياً متواضعاً ، تحبه فقيراً ، تحبه مثقفاً ثقافة عالية ، سخر ثقافته للدعوة ، تحبه غير متعلم ، لكن على الفطرة ، صادق، أمين ، كريم ، تحب إنساناً أحياناً على الفطرة ، مادام مسلم الإسلام صبغوه بالكمال ، فأنا أقول لا يضاف على كلمة مسلم ولا كلمة .

بطولة الإنسان أن يكون متواضعاً لا تهمه المراتب الدنيوية :

أيها الأخوة ،

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

مع الله لا يوجد ذكي ، يؤتى الحذر من مأمنه .

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

المتانة صفة لمقاومة قوى الشد ، يعني عندنا أمتن شيء بالدنيا الفولاذ المضفور ، الجسور العملاقة تعلق بحبال فولاذية ، المصاعد بحبال فولاذية ، التل فريك بحبال فولاذية ، هذا أمتن شيء ، وأقسى شيء مقاومة قوى الضغط الألماس ، المتانة مقاومة قوى الشد ، والقساوة مقاومة قوى الضغط ، فهنا الإنسان مربوط بحبل مهما كان قوياً لا يستطيع أن يفلت منه ، مهما كان ذكياً في قبضة الله ، بثانية

بأعلى درجة من القوة ، بثانية أصبح مشلولاً وهذه السنة الرابعة ، أو أكثر ، كم سنة صار له ؟ والله يمد بعمره .

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

بطولتك أن تعرف الله ، تصبح متواضعاً ، تصبح أديباً ، لا يهمك المراتب الدنيوية ، ساكن بأقل مستوى ، لكن لك عند الله مكانة كبيرة .

من آمن إيماناً حقيقياً تبدلت مقاييسه و له عند الله مكانة كبيرة :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

كن إنساناً عادياً ، أقل من عادي لكن الله يحبك ، وإذا أحبك الله أحبك كل شيء ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ لا تهتم بالدنيا ، هذه عرض زائل ، يأكل منه البر والفاجر ، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك عادل ، كن من أهل الآخرة ، اعمل عملاً صالحاً ، اطلب العلم ، ادعُ إلى الله ، أما بيتك خارج دمشق ، خير إن شاء الله !. مرة دخلت لبيت انحرج صاحبه كثيراً ، صغير جداً ، قلت له هون عليك ، سيد الخلق وحبيب الحق كانت غرفته لا تتسع لصلاته ونوم زوجته .

((لو كانت الدنيا تزن عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة ، ما أعطى كافراً منها شربة ماء))

[أخرجه ابن أبي شيبة عن رجل من بني فهم]

إذا آمنت إيماناً حقيقياً تتبدل كل مقاييسك ، مقياسك العمل الصالح ، مقياسك عبادتك ، مقياسك محبتك لله عز وجل ، مقياسك حبك للخير ، و خدمة الخلق .

إذاً آيات اليوم :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

علم ، وحكمة ، وأمانة ، وصدق ، وطلاقة لسان ، ودعوة ، وبيان ،

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(54-60): تفسيرالآيات 185 - 187
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-12-19

بسم الله الرحمن الرحيم

بحث علمي لتقريب عظمة الكون من أذهاننا :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والثمانين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

أخوتنا الكرام ، بحث علمي لتقريب عظمة الكون من أذهاننا ، هذا الجامع الذي نحن فيه جامع النابلسي، لو قدرنا مساحته بألف متر ، وقدرنا مساحة الجامع الأموي بعشرة آلاف ، إذاً الجامع الأموي يكبر هذا الجامع بعشرة أضعاف ، لو قسنا الجامع الأموي للمسجد النبوي في المدينة مساحته ثلاثمئة ألف متر مربع ، إذاً يكبر الحرم النبوي الجامع الأموي بثلاثمئة ضعف ، المدينة المنورة بأكملها تكبر المسجد النبوي بألف و ستمئة و سبعة و ستين ضعفاً ، الجامع النابلسي ، للجامع الأموي ، للمسجد النبوي ، للمدينة المنورة .

الآن الجزيرة العربية مساحتها ثلاثة ملايين كم مربع ، تكبر مساحة المدينة بستة آلاف ومئتي مرة .

الآن قارة آسيا بلاد الحجاز في آسيا ، قارة آسيا تكبر الجزيرة بأربع عشرة مرة .

الآن الأرض أكبر من مساحة آسيا بإحدى عشرة مرة ، الآن ما مساحة هذا الجامع بالنسبة إلى الأرض؟.

التفكر في ملكوت السماوات و الأرض أمر إلهي :

أحياناً الأرقام وحدها لا تكفي ، لكن الموازنات والمقارنات تعطي صورة دقيقة ، جامع النابلسي ألف متر ، الأموي عشرة آلاف متر ، الحرم النبوي ، المدينة ، الحجاز ، آسيا ، الأرض ، يعني الآن الأرض خمس قارات ومحيطات ، الخمس قارات يساووا خمس مساحتها ، وأربعة أخماس مساحتها بحار ، ومحيطها 40 ألف قدم .

الآن لو انتقلنا إلى المجموعة الشمسية ، المشتري ، المشتري أكبر من الأرض بألف وثلاثمئة مرة ، كلمة جامع النابلسي ، الجامع الأموي ، الحرم النبوي ، الحجاز ، آسيا ، الأرض ، الأرض عالمنا ، كوكبنا ، يعني من دمشق إلى حلب خمس ساعات ، مسافات شاسعة ، قارة آسيا ، أمريكا ، أوربا ، إفريقيا ، أوقيانوسيا ، القارات كلها خمس ، والبحار أربعة أخماس ، الأرض كلها إذا قيست بمساحة المشتري فهو أكبر منها بألف وثلاثمئة مرة .

الآن الشمس أكبر من الأرض ، بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، يعني جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض ، جوف الشمس ، الشمس تصويرها عند الكسوف تظهر ألسنة من اللهب ، هذه الألسنة طولها مليون كم ، بإمكان هذا اللسان من اللهب أن يلف المجموعة الشمسية بأكملها ، كوكباً كوكباً ، الزهرة ، وعطارد ، والمشتري ، والأرض ، لسان اللهب الذي يصدر عن الشمس يمكن أن يطوق جميع المجموعة الشمسية .

إعراض الكفار عن دين الله عز وجل بالرغم من آياته الواضحة :

الآن نحن أمام الشمس ، تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، الآية الكريمة :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أمر إلهي .

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

الشعرى اليمانية قال الله عنها :

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

(سورة النجم)

الشعرى اليمانية ألمع نجم في السماء ، أشد النجوم لمعاناً ، تكبر شمسنا بثماني مرات ، شمسنا تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، الشعرى اليمانية تكبر شمسنا بثماني مرات .

الآن حجم الأرض بالنسبة إلى الشعرى اليمانية ، الشعرى اليمانية أكبر من الأرض بعشرة ملايين مرة،

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

هناك نجم أكبر من شمسنا بخمسمئة واثنتي عشرة مرة ، نمشي بالصعود نحن حتى نفهم قوله تعالى :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذا بولوكس أكبر من شمسنا بخمسمئة واثنتي عشرة مرة ، وأكبر من أرضنا بستمئة وثلاثة وستين مليون مرة

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

الكون هو الثابت الأول :

الكون أيها الأخوة ، هو الثابت الأول ، هناك نجم اسمه السماك الرامح ، هذا النجم أكبر من شمسنا بثلاثين ألف مرة ، وأكبر من أرضنا بأربعين مليون مرة ، كون لا نهاية له ، إذا كان هذا هو المخلوق فما أعظم الخالق .

هناك نجم اسمه رجل الجوزاء ، أكبر من شمسنا بثلاثمئة وثلاث وأربعين ألف مرة ، وأكبر من أرضنا بأربعمئة بليون مرة ، بليون ، البليون ألف مليون ، والتريليون ألف بليون ، المليون ستة أصفار ، والبليون تسعة ، التريليون اثنا عشر ، التريليون مليون ، البليون ألف مليون ، رجل الجوزاء أكبر من شمسنا بثلاثمئة وثلاث وأربعين مرة ، أكبر من أرضنا بأربعة بليون مرة .

هناك نجم اسمه بيت الجوزاء ، أكبر من شمسنا بمئتين وأربع وسبعين مليون مرة ، يعني الشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، هذا النجم بيت الجوزاء أكبر من شمسنا بمئتين وأربع وسبعين مليون مرة ، وأكبر من أرضنا بثلاثمئة وخمس وخمسين تريليون مرة .

هل هذا الإله العظيم يعصى ؟ ألا يخطب وده ؟ ألا ترجى جنته ؟.

تعصي الإله ونت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لـمن يحب يطيع

* * *

خلق الشمس متناسبة مع حجم الكواكب يدل على عظمة الخالق :

الآن قلب العقرب سمعتم مني كثيراً عن قلب العقرب ، قلب العقرب أكبر من شمسنا بثلاثمئة وثلاث وأربعين مليون مرة ، ويبعد عنا ستمئة سنة ضوئية ، للتقريب : بيننا وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية ، لو أردنا أن نصل لهذا النجم بمركبة أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون ، أما لو أردنا

أن نصل إلى قلب العقرب يبعد عنا ستمئة سنة ضوئية ، وكما تعلمون يقطع الضوء في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كم ، بالدقيقة ضرب ستين ، بالساعة ضرب ستين ، باليوم ضرب أربع و عشرين ، بالسنة ضرب 365 ، ضرب ستمئة سنة ضوئية .

أيها الأخوة ، يبعد عنا ستة آلاف مليون مليون كم قلب العقرب ، يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما ، لو حلّ قلب العقرب محل الشمس لبلع عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، كلهم صاروا داخله ، لو وضعنا قلب العقرب مكان الشمس لابتلع عطارد والزهرة والأرض والمريخ معاً .

قلب العقرب أكبر من الشمس كما قلت قبل قليل ، بثلاثمئة وثلاث وأربعين مليون مرة ، فجامع النابلسي ما حجمه ؟! أنت ما حجمك أنت كواحد ؟ لكن الإنسان شيء عظيم .

قال قلب العقرب أشد إشعاعاً من الشمس بعشرة آلاف مرة ، طول إشعاع قلب العقرب عشرة آلاف مليون ضعف .

الآن هناك نجم نجيريوس ، هذا النجم يبعد عنا خمسة آلاف سنة ضوئية ، من أجل خطأ بثانية ضوئية واحدة المركبة كلفت 24 مليار إذا ذكرتم ، ثانية ضوئية ، رحلة إلى القمر المركبة قطعت ثانية ضوئية (360 ألف كم) هذا النجم يبعد عنا خمسة آلاف سنة ضوئية ، أكبر من الشمس بتسعة آلاف مليون مرة، لو حلّ هذا النجم نجيريوس محل الشمس لابتلع عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، تقريباً بحجم المجموعة الشمسية ،

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لو أن ضوء الشمس أراد أن يبث حول محيط هذا الكوكب لاحتاج إلى ثمان ساعات ، ضوء الشمس يصل إلينا بثمان دقائق ، بين الأرض والشمس 154 مليون كم ، يقطعها الضوء بثمان دقائق ، أما هذا النجم نجيريوس لو أراد الضوء أن يلف حوله لاحتاج إلى ثماني ساعات ، والسرعة ثلاثمئة ألف كم بالثانية .

الآن لو في طريق حول محيط الأرض ، محيط الأرض أربعون ألف كم ، لو شخص مشى كل ساعة خمسة كم ، يحتاج الإنسان كي يلف الأرض إلى عام بأكمله ، مشي ، لو أراد أن يمشي حول الشمس افتراضاً يحتاج إلى مئة و أربع سنوات ، لو أراد أن يمشي حول هذا النجم لاحتاج إلى مئتين و سبع عشرة سنة ، هذه كلها أرقام دقيقة جداً .

الكون لا محدود هذه معرفة الإنسان فكيف بخالق الإنسان ؟!

الآن مجرتنا في أحد الليالي الغير المقمرة ، لو استلقيت على سطح البيت ، ونظرت إلى السماء ترى سحابة من النجوم ، هذه السحابة هي النجوم هي درب التبان ، لها اسم آخر درب التبابنة ، هذه مجرتنا، هي مجرة متواضعة جداً ، هذه المجرة تحوي بلايين النجوم والشموس .

هذا الكلام أسوقه لكم قبل أن تعصي الله ، هل تعلم من تعصي ؟ قبل أن تستعين بإنسان ، هل تعلم من الذي أشركت معه ؟.

قال مجرتنا درب التبابنة طولها مئة ألف سنة ضوئية ، كيف ؟ يعني طولها بالكيلو مترات تسعمئة مليون مليون كم ، نجومها أربعمئة بليون نجم تقريباً ، من ثلاثمئة إلى أربعمئة بليون نجم ، هذه مجرة متواضعة جداً ، اسمها درب التبابنة .

في السماء الدنيا :

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)

(سورة الملك الآية : 5)

في سماء الدنيا بلايين المجرات ، بلايين لا ملايين المجرات ، وكل مجرة فيها ملايين النجوم ، قطر المجرات في السماء الدنيا ثلاثون ألف سنة ضوئية ، بين كل مجرتين 3 مليون سنة ضوئية ، الآن في حدود معرفتنا بالكون قطر الكون 156 بليون سنة ضوئية ، القطر ، هذا هو الموجود الكون ، والكون لا محدود ، هذه معرفة الإنسان ، فكيف بخالق الإنسان ؟.

الكون أكبر ثابت للإيمان :

أيها الأخوة الكرام ، الكون أكبر ثابت للإيمان ، الكون يقرأه كل الناس ، يقرأه العربي والأعجمي ، وأي إنسان ، الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، وكل أمر إلهي في القرآن يقتضي الوجوب ، كل أمر قرآني يقتضي الوجوب ، الله عز وجل يقول :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

أيها الأخوة ، الآية الخامسة والثمانين بعد المئة من سورة الأعراف :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذا هو الكون ، هذا النبي الذي جاءنا ، سيدنا محمد رسول خالق هذا الكون ، أنت إذا سرت مع الله سرت مع خالق هذا الكون ، أنت إذا استعنت بالله استعنت بخالق هذا الكون ، أنت إذا عرفت الله عرفت خالق هذا الكون .

التركيز في الإيمان لا على أن تؤمن إيماناً إبليساً أن تؤمن بالله العظيم :

أيها الأخوة :

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ *إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

الحقيقة آمن بالله ، لكن ما آمن به عظيماً ، إبليس آمن بالله ، قال :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية : 82)

قال :

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

قال :

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

آمن بيوم البعث ، وآمن بالله خالقاً ، آمن به رباً ، آمن به عزيزاً ، لكنه ما آمن بالله العظيم ، فالتركيز في الإيمان لا على أن تؤمن إيماناً إبليساً أن تؤمن بالله العظيم ،

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ *إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

أصل الدين معرفة الله :

أصل الدين معرفة الله ، لا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر على من اجترأت ، كلما ازداد تعظيم الله في قلبك ازددت له طاعة ، ازددت له خشوعاً ، ازددت له إخلاصاً ، كلما عرفت الله زهدت فيما

سواه ، كلما زادت معرفتك بالله زاد استغناؤك عن الناس ، كلما زادت معرفتك بالله زادت عزتك ، كلما زادت معرفتك بالله زاد غناك ، أن تعرف الله قضية سهلة ؟.

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

والله أيها الأخوة الكرام مجموع الآيات التي تتحدث عن الكون تقترب من ألف آية والآية الأصل في هذا الموضوع :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

التفكر من أرقى العبادات :

لذلك التفكر من أرقى العبادات ، تعرفه ، إن عرفته تعد للمليار قبل أن تعصيه ، تعد للمليار قبل أن تأخذ ما ليس لك ، تعد للمليار قبل أن تؤذي مخلوقاً ، هذا الذي يجري في الأرض قتل ، وتدمير ، وإذلال ، ونهب ثروات ، لأنهم ما عرفوا لله ، والله لو عرف الإنسان ربه والله الذي لا إله إلا هو لا يستطيع أن يدوس على نملة ، والله ! ، إله سيحاسب حساباً دقيقاً .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

سيدنا رسول الله في بيته وجد تمرة على السرير ، قال : والله يا عائشة لولا أني أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها .

الآن يلف مليون تمرة ، مليون مليون يلفها ، عادي ومرتاح ويجد نفسه شاطراً ، والله أيها الأخوة لو عرفنا ربنا معرفة تليق بمعرفته لا تستطيع أن تأخذ قرشاً بالحرام ، ولا أن تظلم إنساناً ، ولا مخلوقاً ،

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قالت السيدة عائشة للنبي الكريم عن زوجته صفية : قصيرة ، قال لها : يا عائشة لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته ، فقط قالت قصيرة .

المعاصي بكلامنا ، المعاصي بنظرنا ، بسمعنا ، بمشاهدتنا ، بمتابعاتنا ، المعاصي بمجالسنا ، هذا الوضع هو الذي سبب أن يأتي عدو غاشم يتفنن في نهب ثرواتنا ، وقتل شبابنا ، وانتهاك حرماتنا .

التفكر في الكون طريق لمعرفة الله و تعظيمه :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

التفكر في الكون طريق لمعرفة الله ، التفكر في الكون طريق إلى تعظيم الله ، التفكر في الكون طريق لخشية الله ، التفكر في الكون طريق لسعادة الدارين ، من هو الله ؟ من هو الذي تعصيه ؟ من هو الذي لا تعبأ بأمره ؟ من هو الذي تؤذي عباده ؟ .

قال له : يا بن السوداء ، خطأ ، غضب النبي أشد الغضب ، قال له : أنت امرؤ فيك جاهلية ، إذا كنت تعرف الله لا تجرؤ أن تنتقص من إنسان .

((بنو آدم وآدم من تراب))

[أخرجه البزار عن الحذيفة بن اليمان]

العنعنات الجاهلية ، أنا فلان ، أنا ابن فلان ، أن من المدينة الفلانية ، هذه كلها عنعنات جاهلية ، سببها الجهل .

دخل على النبي شخص قال له : أهلاً بمن خبرني به جبريل ، قال له : أومثلي ؟! قال له : نعم يا أخي، خامل في الأرض علم في السماء ، ابتغوا الرفعة عند الله .

والله أيها الأخوة بإمكانك أن تكون من أسرة عادية جداً ، ما أحد يعرفك ، في التعتيم ، في الظل ، وتكون عند الله علماً ، ابحث عن مكانة عند الله .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

النقلة المفاجئة من المجرات إلى البعوضة :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)

هذه المجرات ، هذه البعوضة مئة عين برأسها ، ثمانية و أربعون سناً بفمها ، ثلاثة قلوب بصدرها ، قلب مركزي وقلب لكل جناح ، بكل قلب أذينان ، وبطينان ، ودسامان ، معها جهاز استقبال حراري(رادار) حساسيته واحد على ألف من الدرجة المئوية ، معها جهاز تحليل دم ، معها جهاز تمييع، ومعها جهاز تخدير ، يوجد بخرطومها ستة سكاكين ، بأرجلها مخالب ، ومحاجم ، بعوضة ! .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يستحي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة الآية : 26)

نقلة مفاجئة من المجرات إلى البعوضة .

خلق الله عز وجل خلق متقن :

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك الآية : 3)

كل خلق الله متقن ،

(وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)

إلا أتقنه ، إلا كمله .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورة طه)

هذا الصوص بالبيضة كيف يخرج ؟ ينمو له نتوء على منقاره ، نتوء مؤنف ، كالإبرة تماماً يكسر بهذه الإبرة البيضة ويخرج ، هذا النتوء انتهت وظيفته ، يضمر ، يد من ؟ صنعة من ؟ .

بالحليب لا يوجد حديد ، الطفل بسنتين يأخذ غذاءه ، أودع الله في طحال الوليد كمية حديد تكفيه عامين، يد من ؟ تقدير من ؟.

أنت بدولة بشمال الأرض ، ولتكن في فلندا 69 تحت الصفر ، تضع قبعة ، قفازات ، جوارب صوف، ألبسة صوف ، معطف صوف ، والعين هل تستطيع أن تغطيها بالصوف ؟ تمشي في الطريق ، والعين فيها ماء ، والماء يتجمد بدرجة صفر ، والحرارة 69 تحت الصفر ، أودع الله في ماء العين مادة مضادة للتجمد .

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(سورة لقمان الآية : 11)

أخطر حدث ينتظر كل واحد منا الموت ومغادرة الدنيا فالعاقل من تكيف مع هذا الوضع :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ)

النقلة من بيت صالونات ، غرف ضيوف ، استقبال ، جلوس ، طعام ، شرفات ، حدائق ، سيارات ، مكاتب ، إلى قبر ، قبر مظلم ، هذه النقلة من فكر فيها ؟.

كل مخـــــلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والـــــــجبروت

* * *

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

* * *

وكل ابن أنثى وإن طـالت سلامته يوماً على آلـــــة حدباء محمول
فإذا حملـــــت إلى القبور جنازة فـــــاعلم بأنك بعدها محمول

* * *

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ)

علمونا في الجامعة أن الذكاء هو التكيف ، أن تتكيف مع المحيط ، أخطر حدث ينتظر كل واحد منا الموت ومغادرة الدنيا .

زرت مدير مدرسة ، حدثني عن مشاريعه ، قال لي : سفر إلى الجزائر ، إقامة خمس سنوات ، لن آتي إلى سوريا في الصيف ، صيفية بفرنسا ، صيفية ببريطانيا ، صيفية بإسبانيا ، صيفية بإيطاليا ، قال لي: أرجع و أشتري محلاً لبيع التحف ، قال لي : ليس لهذه الصنعة علاقة بالتموين ، فازات كريستال ، أعمل المحل منتدى فكرياً ، مثل هافانا ، هو دارس فلسفة وأنا أسمع له ، أقسم لكم بالله الحديث يمتد لعشرين سنة قادمة ، وانتهى اللقاء ، وذهبت إلى البيت ومساء في الطريق إلى البيت قرأت نعوته ، في اليوم نفسه ، من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ، إذا قلت أنا غداً أدفع فاتورة الهاتف ، معنى ذلك أنك لا تعرف الموت ، الموت يأتي بغتة ، كان شخصاً صار خبراً .

(وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

كل هذه الحقائق ، كل هذه المجرات ، كل هذه الكوكب ، كل هذه الشموس ، كل هذه الحظوظ ، كل هذه المسافات تدل على إله عظيم ،

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

الآية هنا :

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري :

لذلك الله عز وجل يقول :

(مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الأعراف)

إذا عُزي الإضلال إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، قياساً على قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف الآية : 5)

رفضوا الدين ، رفض كل شيء متعلق بالروحانيات ، بالآخرة ، الدنيا همه ، أكبر همه ، ومبلغ علمه ، رفض الدين ، إذاً هذا الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري

(مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

من بحث عن الحقيقة بعيداً عن معرفة الله عز وجل فهو ضال :

الهدى عند الله وحده ، فالذي يطلب الهدى من غير الله فهو ضال ، أي بحث عن الحقيقة بعيداً عن معرفة الله ، ومعرفة منهجه ، ومعرفة سرّ وجودك أيها الإنسان ، فالإنسان في ضلال .

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

متى تقع ؟

(قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

يوم الدينونة ، يوم المحاسبة .

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة المطففين)

يوم الجزاء ، يوم العقاب ، يوم أن يقتص من المظلوم للظالم ، للضعيف من القوي

(لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا)

لست مهتماً بها ،

(حَفِيٌّ)

مهتم بها ،

(قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

اقتران ركني الإيمان بالله و اليوم الآخر في القرآن الكريم :

لذلك ما من ركنين من أركان الإيمان اقترنا في القرآن كركني الإيمان بالله واليوم الآخر ، الإيمان بالله أن تعرف سرّ وجودك ، والإيمان باليوم الآخر من أجل ألا تعتدي على إنسان .

قال أعرابي للنبي الكريم : عظني ولا تطل ، قال له :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

قال : كفيت .

هذا الراعي الذي امتحنه سيدنا عبد الله بن عمر ، قال له : بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ، قال له : ليست لي ، قال : قل لصاحبها ماتت وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال له : خذ ثمنها ، قال له : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق أمين ولكن أين الله .

هذا الراعي على ضعف ثقافته الإسلامية وضع يده على جوهر الدين ، في الوقت الذي تقول فيه أين الله ؟ أنت مؤمن ورب الكعبة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(55-60): تفسير الآية 188 ، النفع والضر بيد الله وحده

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-01-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الكاذب من ادعى معرفته بالغيب وأنه يملك للآخرين نفعاً أو ضراً :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الخامس والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والثمانين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

أيها الأخوة ، هذه الآية لها دلالات كبيرة جداً ، ذلك أن الله يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يبين للناس أنه رسول هذه الأمة ، وأنه نبي هذه الأمة ، ومع أنه سيد ولد آدم ، ومع أنه سيد الأنبياء والمرسلين ، ومع أنه حبيب الحق ، وسيد الخلق ، لا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً .

ماذا أراد الله من هذه الآية ؟ أي إنسان من آدم إلى يوم القيامة يدعي أنه يملك للآخرين نفعاً أو ضراً فهو كاذب ، وأي إنسان من آدم إلى يوم القيامة يدعي أنه يعلم الغيب فهو كاذب ، هذا مقام النبي عليه الصلاة والسلام ، مقام النبي وهو فوق كل المقامات ، وهو رسول فوق كل الرسل ، ومع ذلك لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فلأن لا يملك لغيره من باب أولى وهو لا يعلم الغيب .

النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب و لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً :

هل تصدقون أن هذه الآية وحدها يمكن أن تنفي نفياً قاطعاً ملايين القصص التي لا أصل لها ؟ هذا الدين دين الله ، هناك مبادئ في هذا القرآن الكريم ، أي إنسان يدّعي أنه يعلم الغيب ، أي إنسان يدّعي أنه يقدم لك شيئاً ، يستطيع أن ينفعك ، أو أن يضرك ، فهو كاذب ، هذا هو أعلى مقام في بني البشر ، هناك أخطاء كبيرة جداً يقع بها الناس ، مثلاً :

إنسان يسأل شخصاً يعمل في الحقل الديني (إمام مسجد ، خطيب مسجد)سؤالاً يعطيه فتوى ، يظن هذا السائل أن هذه الفتوى تعفيه من المسؤولية ، ولو علم مقولة النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح :

((ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر]

لو كنت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، وانتزعت من فمه الشريف فتوى منه وهو المعصوم لصالحك ، ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله .

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنا نفعاً ولا ضراً :

(وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)

(سورة الفرقان الآية : 3)

لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

التوحيد أن تتجه إلى الله وحده بمعية رسول الله :

النبي عليه الصلاة والسلام يخاف أن يقع في خطأ ، حينما تعرف ما معنى مقام النبوة والرسالة ، مقام الطاعة ، مقام الخضوع ، مقام الاتباع ، لا مقام أن للنبي مقام ، أن للنبي إرادة مستقلة عن إرادة الله ، ينفع ويضر ، ويعطي ، ويمنع ، لا ، هذا الدين دين التوحيد .

سيدنا الصديق من أقرب الناس لرسول الله ، من أشدهم حباً له ، من أشدهم طاعة لتوجيهاته ، لما توفي النبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال ؟ قال : من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، أراد أن يؤكد التوحيد ، الله وحده ينفع ويضر ، الله وحده يعلم الغيب ، الله وحده ينفع ، الله وحده يُعلي ، الله وحده يخفض ، هو المانع ، هو المعلي ، هو الخافض ، هو المعز ، هو المذل ، هو الرزاق ، التوحيد أن تتجه إلى الله وحده بمعية رسول الله .

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

التوحيد أن تعبد الله وحده ، أن تعقد الأمل على الله وحده ، التوحيد أن تثق بالله وحده ، التوحيد أن تطيع الله وحده ، وأن تطيع رسوله أيضاً لأنه أمرك أن تطيع رسوله .

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

التوحيد أن توقن أن طاعة رسول الله هي عين طاعة رسول الله ، وأن طاعة الله هي عين طاعة رسول الله .

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً :

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة التوبة الآية : 62)

بضمير المفرد ، فلذلك آية دقيقة جداً ، وآية فاصلة ترد بها مليون قصة لا أصل لها ، مليون شطحة ، مليون بدعة ، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، التوحيد أن تعلم علم اليقين أنه وحده هو الرافع ، وحده هو الخافض ، وحده هو المعز ، وحده هو المذل ، وحده هو المانع ، ولكن لأن النبي عليه الصلاة والسلام معصوم ، ولأن الله سبحانه وتعالى أمرك أن تطيعه .

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

(سورة المائدة الآية : 92)

استقلالاً ، أطيعوا الله ورسوله لها معنى ، أما

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أي أنك تطيع رسول الله لكن الذي يعطي ويمنع هو الله ، والذي يرفع ويخفض هو الله ، والذي يعز ويذل هو الله ، والذي يحيي ويميت هو الله .

قال أحد الخطباء أمام رسول الله : ما شاء الله وشئت يا رسول الله ، قال : بئس الخطيب أنت ، جعلتني لله نداً ، قل ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن ، فقط ، بئس الخطيب أنت جعلتني لله نداً .

إعلام الله عز وجل نبيه ببعض الغيب :

الله عز وجل يبين مقام العبودية الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام في قمة هذا المقام

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

أنا لا أملك النفع لكم ، ولا لنفسي ، لا أملك الضر لكم ولا لنفسي ، ولا أعلم الغيب ، إلا إذا أعلمني الله هذا الغيب .

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

أحاديث قيام الساعة لا تعني أن النبي يعلم الغيب ، ولكن تعني أن الله سبحانه وتعالى أعلم نبيه ببعض عالم الغيب ، هذه عقيدة ، هذا هو التوحيد .

فلذلك هؤلاء الدجاجلة ، والمشعوذون ، والكذابون ، والذين يسحرون الناس ، ويسلبون عقولهم ، ويربطونهم بذواتهم ، أساساً ليس هناك على وجه الأرض فرقة ضالة إلا ولها هذه الخصائص ، تأليه

الأشخاص ، شيخ يعلم الغيب ! إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق لا يعلم الغيب أنى له أن يعلم الغيب ؟ شيخ ينفع ويضر ! مستحيل ! إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فلأن لا يملك أي إنسان النفع والضر من باب أولى ، هذه العقيدة ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، أنا لا أتصور على وجه الأرض إنساناً أشد حباً لرسول الله من الصديق ، ومع ذلك الصديق موحد ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

التوحيد يلغي دور المشعوذين والمتسكعين الذين يبتزون أموال الناس بالباطل :

هذا التوحيد يلغي دور المشعوذين ، والدجاجلة ، والمتسكعين ، الذين يبتزون أموال الناس بالباطل ، فضلاً عن السحرة والمنجمين وما إلى ذلك ، أنت مؤمن ، الله وحده يعلم ، الله وحده قادر ، وأنت ذائب في محبة رسول الله ، أحبه ما شئت ، قدره ما شئت ، تمثل أخلاقه ما شئت ، بالغ في محبته ما شئت ، الباب مفتوح هنا ، أما أن تعتقد أن له إرادة مستقلة عن إرادة الله ؟ ينفع ويضر ؟ مستحيل ! .

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

طبعاً من باب أولى فلأن لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً من باب أولى .

مثل للتوضيح : يقول لي شخص : أرجوك أن تؤمن لي عملاً لابني ، أقول له : هل لديك فرصة عمل لابني أنا ؟ إذا كنت أنا لا أملك لنفسي أن أؤمن عملاً لابني ، من باب أني لا أستطيع أن أؤمن عملاً لابنك ، طبيعي جداً .

هذا هو مقام النبوة ، مقام العبودية لله .

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

(سورة الجن الآية : 19)

وحينما بلغ :

(سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)

(سورة النجم)

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

هذه نقطة دقيقة جداً ، هذه الآية فاصلة ، هذه الآية مركزية ، هذه الآية بإمكانك أن تعتمد عليها ، لنفي ملايين القصص الباطلة التي لا أصل لها .

العاقل من ابتعد عن المشكلات التي تسبب شرخاً بين الفئات الإسلامية :

شيء آخر ، الشيء بالشيء يذكر :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

كن واقعياً ، هناك من ينبش في التاريخ لعداوة قديمة بين فئتين ، ويجلبها ، ويثيرها الآن ، هؤلاء الآن سبقوا أمرهم إلى الله ،

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ)

وفر وقتك

(وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هذا الذي يستورد من التاريخ المشكلات ويثيرها الآن لإيقاع شرخ بين الفئات الإسلامية ، آن الأوان أن ننتهي من هذا ، هذا التاريخ دعه للاختصاصيين ، أما أن تقحم نفسك في رواية تاريخية لم تثبت ، ولم تقع .

المشكلة الكبرى أن أكبر كتاب تاريخ بين أيدينا تاريخ الطبري ، يقول المؤلف في مقدمته : أنا أدرجت في هذا الكتاب كل ما وصل إلى سمعي من حق أو باطل ، من رواية صحيحة أو غير صحيحة ، وأيها القارئ محص أنت ، هذه المقدمة يجب أن تكتب في كل صفحة في هذا الكتاب ، أعداء الدين ينقبون في هذا الكتاب ، ويأتون بروايات غير معقولة ، هو المؤلف صرح بهذا .

ولم يتح بالمناسبة للتاريخ الإسلامي رجال ثقات محققون كما أتيح لعلم الحديث ، فلذلك أكثر أعداء الدين يأتون بروايات باطلة لا أصل لها ، من وضع الزنادقة في التاريخ الإسلامي ليشوهوا صورة الإسلام في عصر ازدهاره .

على كل إنسان ألا يقبل أية رواية تتناقض مع الفطرة والعقل و كمال الصحابة :

يجب أن تسأل من لم يأخذ العلم عن الرجال فهو ينتقل من محال إلى محال ، لا تستطيع أيها الطالب طالب العلم لمعلوماتك المحدودة أن تكتفي بالكتاب ، في الكتاب الغث والثمين ، في الكتاب الحق والباطل ، أي كتاب مؤلف فيه صح وفيه خطأ ، فيه غث وفيه ثمين ، فيه ثغرات ، فهؤلاء أعداء الدين يتصيدون هذه الثغرات ، ويجمعونها ، ويقولون هذا هو الدين ، غير صحيح هذا الكلام ، اعتقد اعتقاداً جازماً أنه لم يتح للتاريخ الإسلامي رجال ثقات ، علماء كبار دققوا ومحصوا في رواياتهم كما أتيح للحديث الشريف ، إذاً لا تقبل أية رواية ، تتناقض مع الفطرة ، ومع العقل ، ومع كمال الصحابة الكرام.

لماذا عزل سيدنا عمر سيدنا خالد ؟ قيل : هناك عداوات في الجاهلية قديمة فلما تملك السلطة شفى حقده من هذا الصحابي الجليل فعزله ، هكذا بعض الروايات ، اركلها بقدمك ، يا أمير المؤمنين لِمَ عزلتني (سيدنا خالد)؟ قال له : والله إني أحبك ، قال له : لمَ عزلتني ؟ قال له : والله إني أحبك ، قال له: لمَ عزلتني ؟ قال له : والله ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك ، لكثرة ما أبليت في سبيل الله ، حفاظاً على التوحيد عزلتك ، قال الناس خالد أية معركة يقودها ينتصر ، أراد عملاق الإسلام عمر أن يبين للأمة أن الناصر هو الله ، وأن سيدنا خالد على علو مقامه عبد لله ، فعزله والنصر استمر .

التاريخ يحتاج إلى تمحيص و تدقيق و مراجعة كثيرة لمعظم الروايات التاريخية :

لا تستطيع أن تفهم التاريخ إلا إذا كنت في مستوى أبطاله ، بعضهم من يفسر أنه عزله خوفاً منه ، يعمل عليه انقلاب ، إياك أن تفهم التاريخ تاريخ الصحابة بمنطق العصر ، حسن الظن بالله ، وبأنبياء الله ، وبأصحاب رسول الله من الإيمان ، نحتاج إلى تمحيص كثير ، نحتاج إلى مراجعة كثيرة لمعظم الروايات التاريخية ، وحسبكم أن أكبر مؤلف كتاب تاريخ الطبري يقول : أنا أدرجت في هذا الكتاب الغث والثمين ، والصحيح وغير الصحيح ، وأيها القارئ محص أنت ، كان هناك ثقة بطلاب العلم ، جمع لك في هذا الكتاب كل ما وقعت يده عليه ، أما الآن يقول لك بالطبري موجودة هذه ؟ اقرأ مقدمة الطبري . لذلك :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

والله هناك آلاف القصص لا أصل لها إطلاقاً ، من وضع الزنادقة .

الإنسان حينما يكتفي بالنقل من دون تدقيق ، من دون تمحيص ، من دون بحث ، من دون درس ، من دون أن تأخذ العلم على أيدي علماء كبار لن تستفيد شيئاً .

أيضاً ورد في بعض الكتب أن امرأة وضيئة حسناء صلت بين الصحابة ، فصلى بعضهم وراءها ، ليرى محاسنها أثناء ركوعها وسجودها ، وبعضهم صلى أمامها ، فنزل قوله تعالى :

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

(سورة الحجر)

هذه أخلاق صحابة هذه ؟ هل يجوز أن تصلي امرأة بين الصحابة ؟ إذا صلت امرأة في الصف فالصلاة باطلة ، ممنوع أن تحاذي امرأة في الصلاة ، فكيف أن تصلي وراءها ؟ وصفوف النساء في آخر المسجد دائماً .

يعني حينما نصل إلى مثل هذه الروايات نرى الصحابة أشخاصاً عاديين جداً ، وأقل من عاديين .

رواية ثانية : أراد سيدنا علي أن يخطب فتاة رفع ثوبها إلى الأعلى ، معقول ؟! هل يجرؤ خطيب الآن أن يفعلها ؟ أما أبيها ، قالت له : لولا أنك أمير المؤمنين لسملت عينيك .

ما هذه الروايات يا أخوان ؟ صدقوا والله الذي لا إله إلا هو الصحابة الكرام في مستوى رائع جداً ، والله المؤمن العادي الآن في مستوى رفيع .

الله عز وجل عطاؤه نعمة وأخذه نعمة :

أيها الأخوة الكرام ،

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

إذا الله عز وجل مكني من شيء وانتفعت ، هذا من فضل الله عز وجل ، وأحياناً الله عز وجل لحكمة بالغة يمنعني من شيء ، أنا أتوهم ذلك ضر ، هو في الحقيقة منع ، منع رحمة بنا ، إن الله ليحمي صفيه من الدنيا ، كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام ، أحياناً الله عز وجل يعطيني ، فهذا الخير من الله ، الله مكني منه ، وأحياناً الله عز وجل يمنعني من شيء ، أما الكلمة الرائعة ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك ، وإذا كشفت لك حكمة المنع عاد المنع عين العطاء ، فالمؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام :

((عَجَبا لأمر المؤمن ! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر ، فكان خيراً له))

[أخرجه مسلم عن صهيب الرومي]

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ)

أو ما اقتضت حكمته من ضر ، وهذا الضر في ظاهره ضر ، أما هو نعمة باطنة ، نعمة باطنة من نعم الله عز وجل ، عطاؤه نعمة وأخذه نعمة .

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ)

مثلاً يقول لك عرضوا عليّ أرضاً (25 دنم) بخمسة و عشرين ألف ليرة ، اليوم ثمن الدنم خمسة ملايين ، لو أن هذا الذي عُرض عليه الأرض يعلم الغيب يوافق على الشراء فوراً ، لا أحد يعلم الغيب، التجار لهم كلمة لطيفة يقول لك : تاجر ومنجم لا يوجد ، لو أنك تعلم ما سيكون بعد حين ، الذي اشترى فرضاً بمئة مليون حديد ، الطن بتسعة و ستين ألفاً على أمل أن يبيعه بمئة ألف ، اليوم بستة و عشرين ألفاً طن الحديد ، لو كان يعلم الغيب لما فعل ، هذا خسر أربعة أخماس ماله .

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

إنسان يموت أثناء السفر لا يسافر ، يعني للتعبير عن حقيقة التوحيد .

يروى أن فرعون رأى أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه ، فأمر بقتل أبناء بني إسرائيل جميعاً .

(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 4)

أما الطفل الذي سيقضي على ملكه رباه في قصره ، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد .

مهمة النبي عليه الصلاة والسلام نذير و بشير و الإنسان مخير :

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الآن الله عز وجل حدد لك مهمة النبي نذير وبشير .

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص الآية : 56)

الإنسان مخير .

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة الآية : 272)

لست مسؤولاً إن لم يؤمنوا كما أنك لا تستطيع أن تهديهم ،

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

أي أنت لست مسؤولاً إن لم يهتدوا ،

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

أنت لا تستطيع هداية عمك قل يا عم لا إله إلا الله ، أبداً ما قالها

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد)

عمه ،

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الشورى)

لا ينتفع من سنة النبي إلا من أراد الآخرة و سعى لها :

أيها الأخوة ،

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

يعني ما من قضية مهما دقت تقربكم من الله إلا بينتها لكم ، وما من قضية مهما دقت تبعدكم عن الله إلا بينتها لكم ، هذه مهمتي ، أما هناك قضايا ، ملايين القضايا لا تقرب ولا تبعد ، هل يعقل أن يعرف النبي الجهاز الهضمي للضفدع مثلاً ؟ ليس له علاقة فيها ، هناك من يضم علماً مطلقاً ، العلم المطلق علم الله عز وجل ، أما النبي الكريم أي جزئية مهما دقت تقرب من الله يبينها ، أية جزئية مهما دقت تبعد عن الله يبينها .

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

لكن لمن ؟

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

لمن أراد الإيمان ، أما الذي لم يرد الإيمان لا يصغي إلى أقوال النبي الكريم .

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

(سورة الأحزاب الآية : 21)

إنسان ليس له علاقة بالعلم إطلاقاً ، ولا طلب العلم ، ولا قرأ ، ولا كتب ، لو وقف أمام مكتبة هل تعنيه الكتب ؟ إطلاقاً ، لا يقف أمامها أصلاً ، لكن طالب دكتوراه مرّ أمام مكتبة ، فيها كتب متعلقة باختصاصه ، يقف ، يدخل ، الكتاب الفلاني ، الكتاب الفلاني ، لا ينتفع من سنة النبي إلا من أراد الآخرة .

من أراد الإيمان بالله عزّ وجل كل شيء في الكون يدله عليه :

لذلك

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة البقرة)

يؤمنون بالغيب ، فلذلك هناك فكرة دقيقة جداً ، هذه الفكرة أن الله عز وجل يقول :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

عجيب ! أنا أتصور أنتم بهذه الآية تؤمنون ،

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

كأنه فيما يبدو القضية معكوسة ، ليست معكوسة ، هذا هو الأصل ، الذي اتخذ قراراً أن يؤمن أي شيء يدله على الله ، والذي اتخذ قراراً ألا يؤمن لو كان يعمل في مرصد فلكي يرى المجرات بعينيه ، أو في مجهر إلكتروني يرى الخلية بعينيه ، لا يؤمن .

حينما تتخذ قراراً أن تؤمن كل شيء في الكون يدلك على الله ، وحينما تتخذ قراراً داخلياً بعدم الإيمان لو رأيت الآيات صارخات ، واضحات ، جليات لا تؤمن ، يعني الذي أراد الإيمان يشبه آلة تصوير ، فيها فيلم ، فكل هذه المناظر طبعت على هذا الفيلم ، أما الذي لم يرد الإيمان يشبه آلة تصوير لكن بلا فيلم ، كل هذه اللقطات لأنه ما أراد الإيمان لا تنطبع على قلبه ، هذا السؤال المشهور أن هؤلاء علماء الغرب الذين تفوقوا في العلوم لماذا هم غير مؤمنين ؟ إنهم ما أراد الإيمان أصلاً ، أرادوا الشهادة ، أرادوا الشهرة ، أرادوا التألق الاجتماعي ، أرادوا الثروة الطائلة ، وقد حصلوها ، أما هذا العلم إن أردته لله عندئذٍ تكشف لك الحقائق ، حقائق الدين الدقيقة .

خيار الإنسان مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض بل هو خيار وقت :

كل الذين يأتيهم ملك الموت يرون الحقيقة التي جاء بها الأنبياء ، أكبر دليل على ذلك أن فرعون عندما بدأ يغرق آمن بالذي جاء به سيدنا موسى ، لكنه آمن بعد فوات الأوان ، الآية الكريمة :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

جميع الحقائق التي جاء بها الأنبياء الذين يأتيهم ملك الموت ، يرونها ناصعة جلية واضحة ، ولكن بعد فوات الأوان .

لذلك أيها الأخوة ، خيارك مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض ، بل هو خيار وقت لماذا ؟ إما أن تؤمن في الوقت المناسب ، فتنتفع بإيمانك ، أو أن تؤمن بعد فوات الوقت المناسب ولن تنتفع بهذا الإيمان .

(لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

(سورة الأنعام الآية : 158)

فأنت خيارك مع الإيمان خيار وقت ، إما أن تؤمن في الوقت المناسب ، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان ، الآية الكريمة دقيقة جداً ، وبإمكانك أن تعتمدها في كل قصة وردت في الكتب تتناقض مع كمال الله ، تتناقض مع رحمته ، تتناقض مع علمه ، تتناقض مع كمال الأنبياء ، تتناقض مع كمال سيد الأنبياء والمرسلين ، تتناقض مع الصحابة الكرام ، هذه القصص من وضع الزنادقة .

على الإنسان ألا يقبل شيئاً في الدين من دون دليل من كتاب الله أو سنة رسوله :

قال بعض واضعي الحديث : وضعت فيكم مئة ألف حديث ، حرمت فيها الحلال وحللت فيها الحرام ، من أجل التيئيس .

كل الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم .

حديث للتيئيس وضعه الزنادقة ، هذا الدين علم .

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[مسلم عن ابن سيرين]

((ابن عمر ، دينك دِينك ، إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

لا تقبل شيئاً في الدين من دون دليل من كتاب الله ، أو مما صحّ من سنة رسول الله ولا ترفض شيئاً في الدين إذا كان معه دليل من كتاب الله ، ومما صحّ من كتاب رسول الله ، أما أن تقرأ أي كتاب ، أن تستمع إلى أي إنسان ، أقول لك كما قال النبي الكريم لابن عمر :

((ابن عمر ، دينك دِينك ، إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذين استقاموا ـ استقاموا في عقيدتهم ـ ولا تأخذ عن الذين مالوا ـ مالوا منحرفين ـ))

[كنز العمال عن ابن عمر]

هذه الآية يمكن أن تنفي بها مليون قصة باطلة ، فيها باطل ، فيها انحراف ، فيها موازين خاطئة .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً : هذه الآية ميزان أي إنسان على وجه الأرض :

لذلك أقول لكم أيها الأخوة ، لأن تخطئ في الوزن أفضل ألف مرة من أن تخطئ في الميزان ، الخطأ في الميزان لا يصحح ، إذا الميزان غلط هذه مشكلة ، أما الخطأ في الوزن لا يتكرر ، يعني ممكن ميزان دقيق جداً لكن ما انتبه البائع ظن الكيلو كيلو و نصف ، هذا خطأ في الوزن لا يتكرر ، أما إذا أصل الميزان خطأ يعني في كفة فيها مئة غرام زائد ، لو استخدمنا مليون مرة المليون مرة غير

صحيح، لأن تخطئ في الوزن أفضل ألف مرة من أن تخطئ في الميزان .

هذه الآية ميزان أي إنسان على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة مهما لمع نجمه إذا أوهمك أنه يعلم الغيب قل له أنت كذاب أشر ، لأن هذا لم ينله رسول الله ، قال : لا أعلم الغيب .

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ)

أي إنسان يقول لك : أنا أملك أن أنفعك أو أن أضرك ، قل له : الذي يملك النفع والضر هو الله ، الذي يملك الموت والحياة هو الله ، الذي يملك الرزق هو الله ، هذه الآية أصل في التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، هذه الآية يمكن أن تكون آية مركزية ، آية فاصلة ، آية يمكن أن تنفي بها مليون قصة .

والآية التي ذكرتها من باب الشيء بالشيء يذكر :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أي رواية تاريخية لقوم مضوا ، وقعت أو لم تقع هذا ليس من شأننا ، أنا معي كتاب ، معي منهج ، معي منهج تفصيلي ، عليّ أن أعرف الله وأن أتبع هذا المنهج وانتهى الأمر ، لا تقحم قضية تاريخية تستوردها من التاريخ ، وتسهم في شقّ صفوف المسلمين ، التاريخ دعه لخبرائه ،

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هناك من المسلمين من يحرص على الغوص في أعماق التاريخ ليقرأه قراءة مغلوطة حتى يقيم شرخاً في العالم الإسلامي ، هذا خطأ كبير .

هاتان الآيتان تنفي بهما ملايين القصص التي ربما أعاقت الطريق إلى الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(56-60): تفسير الآيات 189 - 191، التوحيد نقيض الشرك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-01-09

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرك نوعان ؛ خفي و جلي :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس السادس والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية التاسعة والثمانين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

الحقيقة الأولى في هذه الآية هي حقيقة التوحيد ، والتوحيد نقيض الشرك ، والشرك نوعان ، شرك جلي كأن ينحت قوم صنماً ، ويطلقون عليه اسماً ، ويضعونه في معابدهم ، ويعبدونه من دون الله هذا الشرك شرك جلي ، والله سبحانه وتعالى تفضل على المؤمنين وانتهت حياتهم من الشرك الجلي . في العالم الإسلامي هذا ليس وارداً إطلاقاً ، ولكن الشرك الخطير هو الشرك الخفي .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

من وقع في شرك خفي أدبه الله عز وجل حتى يبقى موحداً :

الشرك الخفي قلّ ما ينجو منه المؤمنون ، حتى إن الصحابة الكرام في حنين وقعوا بنوع خفيف جداً من الشرك الخفي ، حينما قالوا :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

لمجرد أن تعتمد على ذاتك ، وأن تنسى الله ، لمجرد أن تعتمد على ذكائك ، أو على خبرتك ، أو على نسبك ، أو على مالك ، وقعت في شرك خفي ، والله عز وجل يراك ، فإذا وقع الإنسان في شرك خفي أدبه الله عز وجل ، أدبه حتى يبقى موحداً ، التوحيد هو الدين ، أرأيت إلى الدين الإسلامي الذي هو أصل الأديان كلها ؟ قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

الرسالات السماوية جمعت في هذه الآية :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

فنحن في هذه الآية حديثنا عن الشرك الخفي ، قد يعتمد الإنسان على ماله ، كيف يؤدب ؟ يؤدب بمصيبة لا يحلها المال .

مرة شخص أنا أظنه صالحاً ، ولا أزكي على الله أحداً ، قال في مجلس : الدراهم مراهم تحل بها جميع المشكلات ، هو من أهل اليسار ، فابتلي بمشكلة أودعته في المنفردة ستين يوماً ، تفضل حلها .

التوحيد أن تعتمد على الله و تخلص الوجهة له :

حينما تعتمد على مالك ، أو على نسبك ، أو على أهلك ، أو على أبيك ، أو على قوي ، أو على صديق، أو على ذكاء ، أو على عقل ، التوحيد أن تعتمد على الله ، التوحيد أن ترى أن الله وحده هو الرافع ، وهو الخافض ، وهو المعطي ، وهو المانع ، وهو الضار ، وهو النافع ، وهو المعز ، وهو المذل ، أن تخلص الوجهة إلى الله ، وأنا أستخدم هذا المثل لأنه مناسب جداً لشرح هذه الآية .

بلدنا الطيب عاصمته دمشق ، وهناك ثاني أكبر مدينة بعدها ألا و هي حلب ، وهناك قطار بين دمشق وحلب ، إنسان له مبلغ كبير في حلب وقد وعد أن يقبضه مثلاً يوم الاثنين الساعة الحادية عشرة ، يوجد قطار من دمشق إلى حلب ، يصل الساعة العاشرة ، قطع تذكرة من الدرجة الأولى ، وأخطأ وجلس في عربة من الدرجة الثالثة ، أليس هذا خطأ ؟ خطأ ، دفع قيمة الدرجة الأولى وجلس في الدرجة الثالثة ، لكن القطار متجه إلى حلب ، أخطأ خطأ ثانياً ، جلس مع ركاب شباب متفلتون أزعجوه إزعاجاً شديداً ، هذا خطأ ثانٍ ، لكن القطار متوجه إلى حلب ، جلس عكس اتجاه القطار أصيب بالدوار هذا خطأ ثالث ، لكن القطار متجه إلى حلب ، الآن تلوى من الجوع ولا يعلم أن في القطار عربة مطعم ، هذا خطأ رابع، لكن القطار متجه إلى حلب ، أما في خطأ لا يغفر أن تركب خطأ قطار درعا المتجه نحو الجنوب، هذا القطار لا يوجد معه مبلغ تقبضه ، القطار مريح جداً ، ودرجة أولى ، ولوحدك في الغرفة، مقاعد وثيرة ، لكن انتهى كل شيء ، تعطلت الغاية ، ألغي الهدف .

من أشرك بالله عز وجل انتهى و أصبح طريق المغفرة عنده مسدوداً :

الإنسان مع التوحيد قد يخطئ ، لكن الله يغفر له ، أما إذا أشرك انتهى عند الله ، لذلك :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

(سورة النساء الآية : 48)

طريق المغفرة أصبح مسدوداً ، لأنك توجهت إلى غير الله ، اعتمدت على مالك ، أو على وجاهتك ، أو على أسرتك ، أو على ذكائك ، صحابة رسول الله هم قمم البشر ، حينما وقعوا في الشرك الخفي أدبهم ربهم وفيهم رسول الله .

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

التولي و التخلي :

لذلك درس ينبغي ألا ينسى ، درس التوحيد ، تقول الله ، يتولاك الله جلّ جلاله ، يتولاك بالتوفيق ، يتولاك بالحفظ ، يتولاك بالتأييد ، يتولاك بالنصر ، يتولاك بالقول السديد ، يتولاك بالفكر الرشيد ، يتولاك بالمنطق الصحيح ، يتولاك فيهبك مكانة ، يتولاك فيهبك حكمة ، يتولاك فيهبك أمناً ، يتولاك فيهبك عطاء ، يتولاك فيهبك سعادة ، يتولاك فيهبك سكينة .

أما إذا قلت أنا ونسيت الله عز وجل ، قال له : يا رب ، عنده امتحانان هندسة وجبر قال له : أنا يا رب جيد بالجبر ، فالجبر عليّ والهندسة عليك ، فلم ينجح بالهندسة ، ولم ينجح بالجبر ، قال له العام القادم : يا رب الجبر والهندسة عليك .

لا تقل أنا ، لا تقل عندي خبرات متراكمة ، حينما يقع الإنسان في الشرك الخفي يرتكب حماقة لا يرتكبها الصغار .

قال أبو حنيفة النعمان لطفل يمشي في الطريق أمام حفرة: إياك يا غلام أن تقع ، فقال : بل إياك يا أمام أن تقع ، إني أن وقعت وقعت وحدي ، وإنك أنت إذا سقطت سقط معك العالم .

حينما تعتمد على ذكائك ، أو على خبرتك ، أو على شهادتك ، أو على أسرتك ، أو على علمك ، تعلم واجتهد ، وقل يا رب ، الحل الأمثل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

الحل الأمثل أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

سهل جداً أن تكون متطرفاً ، سهل جداً أن تكون كالعالم الغربي يأخذون بالأسباب أخذاً رائعاً ويعتمدون عليها ، وينسون ربهم ، ويؤلهونها ، وسهل جداً أن تكون كأهل المشرق لا يأخذون بها إطلاقاً ، وقعوا

بالمعصية ، أما البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء عندك سفر ، راجع المركبة ، العجلات ، المكبح ، كل دقائق العجلة ، الأجهزة ، العدادات ، الوقود ، تراجع كل شيء ، ثم تتجه إلى الله ثم تقول : يا رب أنت المُسلِّم ، أنت الحافظ ، نحن المسلمون في أمس الحاجة إلى هذا الدرس .

ابنه مريض يبحث عن أمهر طبيب ، ينفذ تعليمات الطبيب بحذافيرها ، يعطيه الدواء في الوقت المناسب ، ومن أعماق أعماق أعماقه يقول : يا رب أنت الشافي ، أخذت بالأسباب .

النبي عليه الصلاة والسلام كان من الممكن في الهجرة أن ينتقل على البراق ، بلمح البصر من مكة إلى المدينة ، لكن أراد أن يعلمنا كيف نحيا ، اتجه نحو الساحل ، ليضلل المطاردين ، وقبع في غار ثور أياماً ثلاثة ، كي يخف الطلب عليه ، وهيأ من يأتيه بالأخبار ، وهيأ من يأتيه بالزاد والطعام ، وهيأ من يمحو الآثار ، استأجر دليلاً غلب فيه الخبرة على الولاء ، ولم يدع لثغرة احتمالاً ، أغلق كل الثغرات ، فلما وصلوا إليه قال أبو بكر : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا ، الآن جاء دور التوكل على الله ، أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، وقال :

((يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

الإيمان بالله شرط غير كاف للنصر فعلينا ربطه بإعداد العدة المتاحة :

الله عز وجل قال :

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

أنت مؤمن ورب الكعبة ، مؤمن بالله موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، مؤمن بأنه خالق ورب ، ومسير ، مؤمن بأنه صاحب الأسماء الحسنى ، والصفات الفضلى ، لا يكفي ، هذا حال المسلمين ، يجب أن تعد لهم ، فوجئنا أعدوا لهم الصواريخ ، والمدافع المضادة للدروع ، والألغام حتى قال أحد رجالاتهم : يا رب أعددنا ما نستطيع ، بقي أن تنصرنا ، أعدوا لهم ، هم أعدوا لنا من مئتي عام ، أعدوا لنا أنواعاً من الأسلحة ، ساعة قنبلة عنقودية ، تأتي كالمظلة بدائرة قطرها 150 م ، كل من في هذه الدائرة يصاب ، قنبلة انشطارية ، قنبلة حارقة وخارقة ، قنبلة تركب أشعة الليزر ، قنبلة تلغي الاتصالات ، قنبلة تلغي الطاقات ، قنبلة تفني البشر وتدع الحجر ألقيت في بغداد قبل سقوطها ، أعدوا أنواعاً من القنابل ، أقمار صناعية ، قصف خارجي ونحن نائمون ، نائمون في ضوء الشمس ، وهم يعملون من مئتي عام في الظلام ، والذي يعمل في الظلام يغلب من ينام في ضوء الشمس ، إذا كان الوحي شمساً نحن نائمون

في ضوء الشمس ، سوقوا لباطلهم أروع تسويق ، تسمع كلمات رنانة الحرية ، ديمقراطية ، حقوق إنسان ، حقوق حيوان .

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

أعدوا لنا ونحن نائمون ، منشغلون ببعضنا بعضاً ، الذي أعدوه لنا في المئتي عام السابقة تظهر آثاره اليوم ، أخطاء متراكمة ، ونرجو الله أن نصحو من غفلتنا ، وأن نعود إلى رشدنا ، وأن نتبع منهج ربنا، ليس مسموحاً الآن أن تنطق بكلمة خلافية ، وضعنا جميعاً في سلة واحدة ، وينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد .

الشرك الخفي أخطر شيء يصيب المسلمين بالشلل :

أيها الأخوة الكرام ، أخطر شيء يصيب المسلمين بالشلل الشرك الخفي ، أن نظن أن زيداً أو عبيداً ينصرنا .

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 119)

بأي موضوع صغير جداً كان لهذا الذي انتخب رأي فيه إلا بهذا الموضوع ، سكت

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

الحل عند الله عز وجل ، والله عز وجل ممكن فئة قليلة جائعة ، محاصرة ، معذبة ، أن تقف في وجه أعتى جيش في المنطقة ، أليس كذلك ؟ اليوم هو الرابع عشر ، ولم يستطع جيش العدو أن يحقق هدفاً واحداً ، أما هو جيش جبان قتل أطفال ونساء فقط .

لذلك هذا الذي حدث أنا أسميه جرعة منعشة ، الأمر بيد الله عز وجل ، كن مع الله فأنت أقوى الأقوياء، كن مع الله ، نحتاج إلى تجديد إيمان ، إلى صلح مع الله ، إلى بيت مسلم فيه تعاون ، ما سمعت كلمة لا تليق بالله عز وجل ، سبعة أولاد ماتوا ، لك الحمد يا رب ، الحمد لله إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ .

أيها الأخوة ، أنا أرى أن هذا درساً بليغاً لنا ، درس في التوحيد ، هذا الجيش هزم سبعة جيوش بست ساعات ، والآن مع فئة مؤمنة ، اليوم الرابع عشر ، ما تمكن من تحقيق شيء ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟.

النصر من عند الله و ثمنه نصر دينه :

أيها الأخوة ، درسنا اليوم درس توحيد ، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، الأمر بيد الله ، دقق :

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 126)

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 160)

ثمن النصر :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد الآية : 7)

انصر دينه ، ثمن هذا النصر :

((هل تُنصَرون وتُرزَقون إلا بضعفائكم ؟))

[أخرجه البخاري والنسائي عن سعد بن أبي وقاص]

أزل المنكرات ، أزل الظلم ، أطعم الجائع ، اكسُ العاري ، علّم الجاهل ، عالج المريض ، انتصر للمظلوم ، إذا نصرت من هو أضعف منك فالله عز وجل يكافئك فينصرك على من هو أقوى منك .

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

ما كلفك ربنا جل جلاله أن تعد لهم القوة المكافئة ، هذا فوق طاقتنا ، إنما أمرك أن تعد العدة المستطاعة فقط .

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

النفوس جبلت على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها :

فيا أيها الأخوة ، درسنا اليوم درس توحيد ، لأن هذه الآية :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

أينما سافرت لي كلمة أرددها : الإنسان هو الإنسان ، أين ما سافرت ، شرقاً وغرباً ، وشمالاً ، وجنوباً، الإنسان هو الإنسان ، خصائصه واحدة .

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم ، فإن النفوس جبلت على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

هذه الفطرة ،

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

نحن جميعاً نحب الكمال ، ونحب الجمال ، ونحب النوال ، والله هو أصل الكمال ، وأصل الجمال ، وأصل النوال ، و الإنسان فطر على حبّ وجوده ، وعلى حبّ سلامة وجوده ، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

أي إنسان يمكن أن تستعبده بالبر ، بالإحسان ، بالبر يستعبد الحر .

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم ، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

الذي يعادي الدين لو رأى مسلماً صادقاً ، مؤمناً ، عفيفاً ، رحيماً ، متواضعاً ، عالماً ، حكيماً ، يقبل الدين الإسلامي .

تكلمت قبل قليل : هم عندهم أسوأ بضاعة ، لكنهم سوقوها أروع تسويق ، وعندنا أفضل بضاعة ، وكنا أسوأ مسوقين لها ، هذا الإنسان الغربي ، لا يمكن أن يقرأ تفسير القرطبي ولا فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، يرى الإسلام من خلال مسلم يعيش معه ، فإذا أدلى هذا المسلم بتصريح كاذب لم يسقط هذا المسلم ، سقط عنده الإسلام ، هذه المشكلة .

والله الذي لا إله إلا هو لو أن مسلمي الجاليات في العالم الغربي طبقوا دينهم فقط لكان موقف الغرب من المسلمين غير هذا الموقف .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

مرة رجل من أمريكا هداه الله إلى الإسلام وحج بيت الله الحرام ، هو في مِنى أحيان تعقد منتديات ، ألقى كلمة قال : أنا أنتمي إلى أقوى دولة في العالم ، فإذا أقنعتمونا بإسلامكم كانت قوتنا لكم .

الناس رجلان لا ثالث لهما :

أيها الأخوة ، الشعوب واحدة ، هذه تقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

يعني الناس رجلان ، إنسان عرف الله ، فانضبط بمنهجه ، وأحسن إلى خلقه ، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة ، وإنسان غفل عن الله ، وتفلت من منهجه ، وأساء إلى خلقه ، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، أين ما ذهبت ، أين ما سافرت الإنسان هو الإنسان ، الأب هو الأب ، الأم هي الأم ، الغني هو الغني ، الفقير هو الفقير .

التخلق بأخلاق الصحابة الكرام أساس انتشار الإسلام في العالم :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

أنا أقول لكم : لو عندك موظف ، وهو يعادي الدين أشد العداء ، لو رآك صادقاً ، أميناً ، عفيفاً ، منصفاً ، رحيماً ، لأحب دينك ، المشكلة أن عالماً يقول : يستطيع المسلمون أن ينشروا دينهم بالسرعة التي انتشر بها الإسلام سابقاً بعدة عقود من الزمن ، الإسلام وصل إلى الصين ، وإلى مشارف باريس ، يستطيع المسلمون أن ينشروا دينهم بالسرعة التي انتشر بها من قبل بشرط واحد أن يتخلقوا بأخلاق الصحابة .

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

أقسم لكم بالله هذا الذي يعادي المسلمين ، يفعل ما يفعل ، لو جُمع بمسلم صادق لأخذ فكرة أخرى عن الدين .

حدثني أخ قال لي : كنت في أمريكا بمسجد ، رجل هيئته من وجهاء البلد فسأله ، فإذا هو أدميرال في البحرية ، برتبة عالية جداً متقاعد ، كان بمهمة في الخليج بحاملة طائرات ، سكن إلى جانبه رجل مسلم مثقف ثقافة عالية ، أقنعه بالإسلام ، فأسلم ، ماذا يفعل بالجامع ؟ ينظف المسجد ، الطرف الآخر ليس معقداً ، يحتاج إلى مسلم واعٍ ، مسلم صادق أمين .

الطرف الآخر يحتاج إلى مسلم واعٍ صادق و أمين حتى يتبع ديننا :

بإمكانك أن تكون أكبر داعية وأنت صامت ، صدقك دعوة ، أمانتك دعوة ، إتقانك دعوة ، تواضعك دعوة ، إنصافك دعوة ، هل تحبون قصة تكمن بها مشكلات المسلمين ، رويتها ألف مرة :

إمام مسجد بلندن نُقل لظاهر لندن ، اضطر أن يركب مركبة كل يوم مع السائق نفسه يصعد المركبة ، أعطى السائق ورقة نقدية كبيرة ، ردّ له التتمة ، جلس في المقعد وعد التتمة فإذا هي تزيد عشرين بنساً عما يستحق ، هو إمام مسجد قال : لابدّ من ردّ الزيادة حينما أنزل ، قال : إنها شركة عملاقة(جاء

الشيطان)ودخلها فلكي ، وهذا المبلغ يسير ، وأنا بحاجة إليه ، لا عليّ أن آخذه ، الذي حصل لما أراد أن يغادر المركبة دون أن يشعر مدّ يده وأعطى السائق عشرين بنساً ، ابتسم السائق قال له : ألست إمام هذا المسجد ؟ قال : بلى ، قال : والله أردت أن آتي إليك قبل يومين لأتعبد الله عندك ، ولكنني أردت أن أمتحنك قبل أن آتي إليك ، وقع هذا الإمام مغشياً عليه ، وغاب عن الوعي ، لأنه تصور عظم الجريمة التي كاد يقترفها ، لو أبقى المبلغ في جيبه ، فلما صحا من غفوته قال : يا رب كدت أبيع الإسلام كله بعشرين بنساً .

والله ملايين مملينة من المسلمين يبيعون إسلامهم بدراهم معدودات ، يمين كاذب ببضاعة مغشوشة ، لا تنتظر أن يعجب الناس بإسلامك إذا كنت كاذباً أبداً .

ببعض البلاد الغربية إذا إنسان ليس له دخل ، يكتب كتاباً أنا ليس لي دخل ، يُعطى رقماً يكفي عشرة أشخاص مجاناً ، ولابنه هناك تعويض ، يسافر كل سنة لبلده حتى يتواصل مع أهله ، وهناك تأمين صحي ، وبيت مجاني ، وكهرباء ، وماء ، بكتاب ! .

بعض أفراد الجالية اكتشف أنه إذا طلق زوجته يتقاضى هو راتباً ، وتتقاضى هي راتباً ، هو بيت وهي بيت ، يطلقها تطليقاً شكلياً ، هم يرون هذا الكذب ، هل يعقل أن يحترموا ديننا ؟.

أقسم لكم بالله من يكذب ، أو يحتال على غير مسلم كأنه ارتكب جريمة بحق دينه لأنه عندئذٍ بهذا العمل يقنع الطرف الآخر أنه على حق ، نحن سيئون .

أساساً رسام الدنمرك لما عوتب ، قال : كنت أظن محمداً كأتباعه ، هذه المشكلة ، أنت رسول ، رسول لهذا الدين ، أنت سفير هذا الدين ، أنت جميع الناس ينظرون إليك على أنك تمثل هذا الدين .

النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرجال :

فيا أيها الأخوة ، الدرس حول التوحيد :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

من خصائص واحدة أين ما ذهبت .

(وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

إنسانة ، لها تفكير ، لها مشاعر ، تحب كما تحب ، تكره كما تكره ، ترقى كما ترقى ، تقصر كما تقصر ،

(مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

من خصائص واحدة .

((النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرجال))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عائشة أم المؤمنين]

(مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)

الزوج يكمل نقصه العاطفي بزوجته فيسكن إليها ، والزوجة تكمل نقصها القيادي به ، فتسكن إليه ، الذكر والأنثى ليسا متشابهين ، بل هما متكاملان .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

خصائص واحدة ، الإنسان هو الإنسان في أي زمان ومكان ،

(وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الروم الآية : 22)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت الآية : 37)

دقق :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية : 21)

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا)

يعني دخل بها ، بالمصطلح الشرعي ،

(حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً)

الحمل في بدايته خفيف جداً .

(فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ)

لما صار سبعة أشهر ، ثمانية أشهر ، تسعة أشهر انتفخ بطنها .

من عزا توفيقه إلى أسباب أرضية و نسي الله عز وجل فهو إنسان مشرك :

(فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

وهذا شأن أي إنسان في الأرض ، راكب طائرة ، دخلت في سحابة مكهربة ، على متن الطائرة عشرة مهندسين ملحدين ، القصة قديمة حدثني بها طيار ، فلما دخلت هذه الطائرة بغيمة مكهربة واضطربت ، وكادت تقع ، هؤلاء الملحدون دعوا ربهم و قالوا : يا رب .

أي إنسان عند المصيبة يقول يا رب مسلم ، غير مسلم ، كافر ، ملحد ، منافق ، فاجر أبداً ، عند المصيبة : يا رب ، بعد أن ينجو يقول الطيار ماهر ، بعد أن يشفى ابنه ، الطبيب رائع معه بورد ، بعد

ذلك أدوية أجنبية أخذتها له ، صار الدواء الأجنبي سبب شفائه ، أو طبيب معه بورد ، أو طبيب ماهر ، أو طيار رائع ، نسي الله عز وجل ، هذا شأن البشر ، وأنت في المصيبة يا الله ، فإذا أزيحت عنك تعزو نجاتك ، وتوفيقك إلى أسباب أرضية وتنسى الله عز وجل .

من أطاع مخلوقاً و عصى خالقاً فقد أشرك بالله تعالى :

يا أيها الأخوة ، هذه مشكلة المسلمون اليوم ، أقسم لي بالله رجل : صار زلزال بدولة إسلامية أنا أكبرها كثيراً ، أقسم لي بالله المصلون في الصلوات الخمس ملؤوا الحرم ، والصحن ، والرصيف عند الزلزال ، فلما انتهى الزلزال رجع الصف واحد ، لا يوجد بلد إسلامي تأتيه مصيبة جائحة إلا و يتضاعف المصلون أضعافاً مضاعفة ، بعد أن تنزاح عنهم عاد إلى ما كان عليه هذه مشكلة ، هذا مرض ، هذا من خصائص المسلم المقصر .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

هذا معنى قوله تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ،

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

(سورة الأعراف)

إنسان ضعيف مثلك ، مفتقر إلى الله مثلك ، تعبده من دون الله ؟ تطيعه في معصية ؟ بمجرد أن تطيع إنساناً وتعصي ربك فأنت لا تعرف الله ، أنت واقع لا سمح الله ولا قدر في شرك ، ترى أن طاعته أكبر من طاعة الله ، لمجرد أن تطيع مخلوقاً مهما كان كبيراً ، أكبر من طاعة الله فأطعته وعصيت الله فأنت مشرك . لذلك لو قلت الله أكبر أنت كاذب بها ، هذا الذي يطيع مخلوقاً ، ويعصي خالقاً ما قال الله أكبر ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة . أيها الأخوة الكرام ، الآية الكريمة محور هذا الدرس :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(57-60): تفسير الآيات 191 - 196، التوحيد هو أساس العقيدة السليمة - والتوحيد هو من فحوى القرآن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-01-16

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الواحدة والتسعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)

أيها الأخوة ، لا شك أن فحوى هذه الآيات متعلق بالتوحيد ، ولابدّ من أن أردد لآلاف المرات أن ديننا دين توحيد ، وأن التوحيد هو الدين كله ، بل إن التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً ، والدليل قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً :

أيها الأخوة ، التوحيد كفكرة سهل ، إدراك فكرة التوحيد سهل جداً ، أما أن تعيش التوحيد هذا يحتاج إلى جهد كبير ، أن تعيشه لا أن تفهمه ، الفرق بين أن تفهم الفكرة ، وبين أن تعيشها سأوضحه بالمثل التالي :

طالبان على مقعد الدراسة ، الأول مؤمن ، مستقيم ، طاهر ، عفيف ، دخله حلال ، كبر وتزوج ، وعنده بيت متواضع ، وصديقه الثاني غير منضبط ، إيمانه ضعيف جداً ، متفلت ، معظم دخله من المال الحرام ، له دخل فلكي ، بيت فخم ، ومركبات ، وسفر ، وإقامة ، وثياب غالية ، وطعام نفيس ، الأول إذا قرأ قوله تعالى :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

الآية واضحة تمام ، لكن لمجرد أن يقول صديقي الغني هنيئاً له ، هو ما عاش هذه الآية ، فهم معناها لكن ما عاشها .

مرة ثانية : ديننا دين التوحيد ، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، أن ترى يد الله تعمل وحدها ، أن ترى أن كل شيء وقع أراده الله ، وأن كل شيء أراده الله وقع ، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

التوحيد أن ترى أن الله عز وجل بيده كل شيء :

التوحيد أن ترى أن :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية : 190)

التوحيد أن ترى لأنه :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية : 17)

التوحيد أن ترى :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

التوحيد أن ترى :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

التوحيد أن ترى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

التوحيد أن ترى أن الله سبحانه وتعالى :

(إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة غافر)

عدم استطاعة الكافر فعل شيء إلا بإرادة الله عز وجل :

هو الرافع وحده ، هو الخافض وحده ، هو المعز وحده ، هو المذل وحده ، التوحيد أن ترى أنه لا إله إلا الله ، ولا معبود بحق إلا الله ، التوحيد أن ترى أن :

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

التوحيد أن تؤمن أن الكافر مهما يكن قوياً لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا سمح الله له به لحكمة بالغةٍ بالغةٍ بالغة ، عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها .

التوحيد أن ترى أنه بيده :

(الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

أحياناً دوله عظمى تصنع طائرة وتبيعها ، الدولة المالكة للطائرة قد تقصف بها مدينة نقول صنعت في هذا البلد لكن أمرها لمن اشتراها أما عند الله :

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

التوحيد كفكرة سهل جداً ، أما التوحيد أن تعيشه ، ترى بعينك قوى الطغيان تقصف ، وتضرب ، وتهدم ، وتتبجح ، وتتغطرس ، وتستعلي ، وتكذب ، وأن ترى أن الله عز وجل سمح بهذا كله لحكمة سوف نراها إن شاء الله فيما بعد .

إيجابيات الأحداث التي مرت بالمسلمين تحتاج إلى أناس متعمقين في الفهم :

والله أيها الأخوة ، إن سلبيات الأحداث يعرفها جميع الناس ، ولا تحتاج إلى بطولة في إدراكها ، صار قصف ، هدموا المنازل ، قتلوا الأبرياء ، قتلوا الأطفال ، سلبيات الأحداث معروفة عند الجميع ، يكفي أن ترى الصورة ، وانتهى الأمر ، لكن إيجابيات الأحداث تحتاج إلى أناس متعمقين في الفهم .

مثلاً قبل عشر سنوات غير مسموح بالعالم الإسلامي أن تقول كلمة جهاد ، غير مسموح بالعالم الإسلامي بأكمله ، حتى مرة ملك في خطابه قال : جهاد ! يأتي شخص من أطراف الدنيا ليسأله ماذا أردت من هذه الكلمة ؟ فاضطر أن يقيم حفلاً مفتعلاً ويقول : الجهاد جهاد النفس والهوى ، أما الآن تستمع إلى القادة يتحدثون عن الجهاد ، هذا إنجاز كبير ، الجهاد دخل في حياتنا اليومية ، الجهاد رأينا آثاره ، قلب موازين القوى كلها .

فئة مؤمنة طاهرة مستقيمة ، هذه الفئة تستحق أن نقبل رأسها ، ويديها ، وأن نقبل الأرض التي تطؤها قدماها ، هذه الفئة أربكت أقوى جيش في المنطقة ، بل أربكت رابع جيش في العالم ، إحدى و عشرون يوماً لم يتحقق أي هدف ، هم فقراء ، جائعون ، محاصرون لسنتين .

إذا دخل الإيمان تتغير جميع المعادلات كلها ، هذا التوحيد ، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، أن ترى أن

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

هناك حكمة كبيرة ، والله أيها الأخوة أنا مؤمن هكذا أقول دائماً ، بكل ذرة من دمي ، بكل قطرة من دمي ، وبكل خلية في جسمي ، أن الله لا يسمح للطغاة في الأرض أن يكونوا طغاة إلا ويوظف طغيانهم لخدمة دينه والمؤمنين ، من دون أن يشعروا ، ومن دون أن يريدوا ، وبلا أجر ، وبلا ثواب . أنا أتمنى عليكم أن تدعوا السلبيات ، أن تفكروا في الإيجابيات ، ما الذي حدث بالعالم الإسلامي ؟ ما هذه الوحدة التي جمعتنا ؟! ما هذا الذوبان في بوتقة واحدة ؟! ما هذا الإيمان الذي تحرك ؟! ما هذا البذل الذي كان ؟! شيء لا يصدق ! .

الأحداث تكشف المحسن من المسيء :

أيها الأخوة :

(الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ)

(سورة النور الآية : 11)

الإفك أن تتهم السيدة عائشة زوجة رسول الله بأثمن شيء تملكه امرأة ، عفتها ، جاء القرآن :

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

(سورة النور الآية : 11)

لأنه حديث الإفك فرز المؤمنين ، ظهر المؤمنون الصادقون الذين ظنوا بأنفسهم خيراً ، وظهر المنافقون الذي روجوا هذه الأخبار .

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ)

(سورة آل عمرن الآية : 179)

قياساً على ذلك ليذر الدول على ما هي عليه :

(حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

الفتن تفرز الناس إلى قسمين ؛ مؤمن و مجرم :

نعوذ بالله من الفتن ، لكن إذا جاءت الفتنة يجب ألا نذمها ، لأنها تكشف المنافقين وتكشف الكاذبين ، ويفرز الناس إلى قسمين ، والآن أقولها صراحة اللون الرمادي في الأرض اختفى ، بقي الأبيض والأسود ، وليّ أو مجرم ، مجرم ، مؤمن ، مستقيم ، طاهر ، عفيف ، ورع ، يضبط حواسه ، وجوارحه ، ودخله ، وبيته ، وزوجته ، وبناته ، وإنسان مجرم متفلت ، هذا الذي حصل ، يعني كيف جمعتنا هذه الآلام ، وكيف وصلت إلى أعماقنا ، وكيف وحدتنا ، وكيف كُشف أعداؤنا ، كيف أصبحوا

في مزبلة التاريخ ، والله لمئة عام قادم ، بل لمئتي عام قادمة لا يستطيعون أن يقولوا كلمة عن حضارتهم ، حتى الغرب الذي سكت عنهم .

الساكت عن الحق شيطان أخرس :

الله عز وجل ذكر أن قوم صالح عقروا الناقة :

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة الشمس الآية : 14)

بالجمع .

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

(سورة الشمس)

قال

(فَعَقَرُوهَا)

والذي عقرها واحد ، لأنهم سكتوا جميعاً عدّ الله سكوتهم مشاركة في الجريمة .

مرة سيدنا عمر ، قام أحدهم يمدحه قال : والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله ، يا لطيف ! فأحدّ فيهم النظر ، فخافوا ، فقال أحدهم : لا والله ، لقد رأينا من هو خير منك ، قال : من هو ؟ قال : الصدّيق ، أمامه عشرون ، واحد منهم قال الصدّيق خير منك ، فقال : كذبتم جميعاً ، ما تكلموا ، كذبوا بسكوتهم ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

هل سمعتم تنديداً من الدول العظمى ؟ دعك من أمريكا ، بريطانيا ، أستراليا ، فرنسا ، سويسرا ، هل سمعتم استنكاراً ؟ تنديداً ؟ من أجل أسير واحد يأتي رئيس أمريكي سابق إلى بلادنا ويزور أسرة هذا الأسير ، وأحد عشر ألفاً و ثمانمئة أسير لنا عندهم ما خطر في باله أن يطيب خاطرهم بكلمة ، ما لم نكفر بالطاغوت لن نؤمن بالله ، والدليل :

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

(سورة البقرة الآية : 256)

الله عز وجل يعلم و يقدر و يعنيه ما يجري في العالم من أحداث :

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، التوحيد أن تؤمن أن الذي وقع وراءه حكمة بالغة عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها ، بمنطق البشر الذي شرد عن الله هذا مات ، أما عند الله :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران)

لذلك أيها الأخوة ، نحن في آيات التوحيد ، ينبغي أن تكون موحداً ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، والتوحيد كفكرة إدراكها سهل جداً ، أما أن تعيشه ، أن تكون موقناً أن الله بيده كل شيء ، وأنه لا يستقيم إيمانك إن توهمت أن الله لا يعلم ما يجري ، ولا يستقيم إيمانك إن توهمت أن الله لا يقدر، ولا يستقيم إيمانك إذا توهمت أن الله لا يعنيه ما يجري ، يعلم ، ويقدر ويعنيه ، وسمح للذي وقع .

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

(سورة الأنفال الآية : 42)

من اعتمد على غير الله فقد احتقر نفسه :

لذلك أنت حينما تعتمد على قوي من أجل أن يحميك فقد أشركت ، حينما تتنازل لقوي من أجل أن تكف شره عنك فقد أشركت ، هذا الذي حصل ، هؤلاء الذين قعدوا عن نصرة دينهم ، ماذا فعلوا ؟ خافوا من الأقوياء فآثروا السلام .

فلذلك الآية الكريمة :

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

يعني أقوى إنسان بالأرض لو تجمدت في أحد أوعية دماغه قطرة دم لا تزيد عن رأس دبوس يصاب بالشلل هذا القوي يعبد من دون الله ؟.

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

هذا مخلوق ، وحياته بيد الله واستمرار حياته بيد الله ، وإمداد مكونات حياته بيد الله ، هذا لا يعبد من دون الله ، وأنت أيها المؤمن لمجرد أن تجير لمخلوق تُحسب عليه ، تنتمي إليه ، وتنسى ربك ، فقد احتقرت نفسك أنت لله ، لا تكن خطيئة إنسان قوي ،

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

(سورة النحل الآية : 17)

(لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

مخلوق .

من تنازل لقوي و اعتمد عليه فقد أشرك بالله عز وجل :

الإنسان مهما كان عظيماً ، عظمته ، وهيبته ، وكيانه ، منوط بسيولة دمه فإذا تجمد الدم في عروقه مات فوراً ، يقول لك : مات بجلطة مفاجئة ، احتشاء بعضلة القلب ، سكتة قلبية ، وإذا نمت خلاياه نمواً عشوائياً يقول لك : ورم خبيث ، ليس له دواء ، وإذا توقف قلبه مات فوراً ، فالإنسان ضعيف ، بثانية يكون شخصاً فيصبح خبراً ، الآن النعوات بالطريق أصحابها أشخاص ، أحدهم طبيب ، و الآخر مهندس ، و الثالث عميد أسرتهم ، والرابع له رتبة عسكرية عالية ، لما أصبح اسمه على النعوة صار خبراً ، مساء يكون مدفوناً وانتهى الأمر ، طويت صفحته .

فهذا الذي يموت يعبد من دون الله ؟ هذا الذي يُخلق ولا يَخلق ، يعبد من دون الله ؟.

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

أي إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق وسيد ولد آدم يقول لنا :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا)

(سورة الأعراف الآية : 188)

وفي آية ثانية :

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

لا لنفسه ولا لغيره ، وهو سيد الخلق وحبيب الحق ، وفي آية ثالثة :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة هود الآية : 31)

هذا الإنسان ، لذلك لما توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام سيدنا الصديق أحب أصدقائه إليه ، قال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

(وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

إذا إنسان له أتباع كُثر ، وكان قوياً بيده كل شيء ، وتوفاه الله ، أتباعه ماذا يستطيعون أن يقدموا له ؟ برقية تعزية ، باقة ورد ، هذا كل شيء ، بيد من حياتك ؟ بيد من موتك ؟ بيد من رفعتك ؟ بيد من سلامتك ؟ بيد من سعادتك ؟ بيد من شقاؤك ؟ بيد من رزقك ؟ .

الاعتماد على غير الله مذلة :

أيها الأخوة ، لا زلنا في آيات التوحيد .

(وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)

طبعاً هؤلاء الشركاء إما أن يكونوا من بني البشر ، شخص قوي علقت الآمال عليه ، أو من الحجر "صنم" ، المعنى واحد .

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة الصافات)

إذاً

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)

لما سيدنا إبراهيم كسر الأصنام وضع الفأس في عنق أحدها ، أو أكبرهم :

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنبياء)

أخوانا الكرام ، بأي عصر هناك مجموعة أوهام يجب أن تتحرر منها ، الآن أحد أكبر هذه الأوهام الإعلام ، أحياناً يوحي لك المعركة ملتهبة ، والعكس هو الصحيح ، فبطولتك أيها المؤمن ألا تكون ضحية الإعلام ، الإعلام خبيث جداً ، تعتيم على خسائر العدو ، تعتيم غير معقول .

لذلك :

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الأعراف)

شخص يخاف كما تخاف ، ويجوع كما تجوع ، ويعرى كما تعرى ، ويعطش كما تعطش ، ويتمنى أن تدوم حياته طويلاً كما تتمنى ، هو مثلك ، لا يليق بك أن تكون لإنسان ، أنت للواحد الديان ، أنت لله ، لمجرد أن تكون لإنسان فقد احتقرت نفسك ، أنت لله .

((خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))

[ورد في الأثر]

الشرك الخفي أخطر شيء يقع به الإنسان :

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)

قد تحمل على أنهم من بني البشر ، أحياناً إنسان يعتمد على قريب له قوي ، أو على قريب له غني ، أو على إنسان بيده الحول والطول ، يعبده من دون الله ويصاب ، وأخطر شيء أن تقع في الشرك الخفي ، الشرك الخفي كما قال الله عز وجل :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

هذا هو الشرك الخفي ، الصحابة الكرام على علو قدرهم ، وعلى رفعة شأنهم وعلى أنهم نخبة البشر ، في حنين نظروا إلى العدد عشرة آلاف صحابي ، فقالوا :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

اعتمدوا على عددهم فلم ينتصروا ، فقال الله عز وجل :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

التولي و التخلي :

أنت أيها المؤمن في حاجة ماسة إلى هذا الدرس درس بدر ، ودرس حنين ، في درس بدر قال الصحابة : الله ، فتولاهم الله ، وفي حنين قالوا : نحن ، فتخلى الله عنهم .

فأنت أيها المؤمن بين التولي والتخلي ، تقول أنا ومع التفصيل ، أنا معي شهادة عليا ، مرة طبيب أخ كريم ببلد عربي شقيق ، حدثني بهذه القصة ، زوجته حامل ، ويحتاج إلى عمل معقد قليلاً للولادة ، فاستشار صديقاً له متخصص بالأمراض النسائية ، فأعطاه توجيهات ، فقال له : هل من الأفضل أن أرى طبيباً آخر كي أستأنس ؟ قال له : أنا أقوى وأعلم إنسان في هذه المنطقة ، والباقون جهلة ، بغطرسة واستعلاء ما بعده استعلاء ، القصة طويلة لكن ملخصها أن هذا الطبيب الذي أشرك مع الله عز وجل وصف نفسه بأنه أعلم العلماء ، ارتكب خطأ في الولادة أدى إلى وفاة المرأة ، يترفع عنه طالب طب ، ولأول مرة في تاريخ هذا البلد العربي سُحبت شهادة طبيب وأصبح بلا شهادة عقاباً له .

تقول أنا الله يؤدبك ، قل الله ، ادرس ، تفوق ، لكن قل بفضل الله ، الله أكرمني ، سمح لي ، مكني ، وفقني ، انسب الفضل إلى الله ، هذه الحقيقة ، فإذا أُعجبت بنفسك ، بعلمك ، بمالك ، قال : الدرهم مراهم ، هذه آية أم حديث ؟ حديث باطل .

والله صديق لي ، قال : الدراهم مراهم تحل بها كل المشكلات ، وجد نفسه فجأة بالمنفردة ، ثلاثة و ستون يوماً ، تفضل حلها بالدراهم ، معك دراهم ، الله يؤدب ، انتبهوا ، إياك أن تشرك نفسك مع الله ، لا تقول أنا أحمل شهادة عليا ، أنا من أعرق أسرة ، كلما قلت أنا تخلى الله عنك ، وكلما قلت الله تولاك بالرعاية والحفظ .

على الإنسان ألا يعلق آماله على إنسان مثله بل يتوكل على الواحد الديان :

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)

كن مع الله .

(فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ)

أحياناً تعلق آمالاً كبيرة على صديق لك قوي بمنصب رفيع ، تدخل عليه ، لا يقول لك تفضل اجلس ، ويعتذر عن خدمتك ، لأنك وضعت ثقتك بغير الله ، هذا هو الشرك الخفي ، لا تعتمد على مالك ، ولا على جاهك ، ولا على نسبك ، ولا على حسبك ، ولا على أسرتك ، ولا على أولادك .

أعرف شخصاً عنده شاب بذل من أجله الغالي والرخيص ، حتى جعله يحمل أعلى شهادة ، وسافر إلى بلاد بعيدة ، تزوج امرأة ونسي والده ، ولا يتصل به بالسنوات مرة ، اعتمد عليه فتخلى عنه .

((لو كنت مُتَّخِذًا مِنْ الْعِبَادِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ صُحْبَةٌ وَإِخَاءٌ إيمَانٌ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا عِنْدَهُ))

[الطبري عن بعض آل أبي سعيد بن المعلى]

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

فإذا كان هؤلاء الشركاء أشخاصاً اعتمدت عليهم ، أو على وعدهم ، ومشكلة المسلمين الأولى أنهم اعتمدوا على القوى الكبيرة في الأرض ليحموهم ، لينصروهم ، فأمروا عصاهم الغليظة أن تدمرهم ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تشرك بالله وتفوز ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن توحده وتخسر .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)

أحد الولاة وصل إلى بيت الله الحرام قال : أريد عالماً جليلاً ألتقي به ، فالتقى مع عالم ، قال له : سلني حاجتك ، قال له : والله إني أستحي وأنا في بيت الله أن أسال غير الله ، فالتقى به خارج بيت الله الحرام، قال له : سلني حاجتك ؟ قال له : والله ما سألتها من يملكها ، أأسألها من لا يملكها ؟ قال له : ما حاجتك؟ قال له : أنقذني من النار وأدخلني الجنة ، قال له : هذه ليست لي ، قال له : إذاً ليست لي عندك حاجة.

بين سيدنا عمر و جبلة بن الأيهم :

أنت حينما توحد يعزك الله ، حينما توحد لا تتضعضع أمام قوي أو غني ، أنت حينما توحد لا تنبطح ، لا تركع ، لا تسجد له ، أنت حينما توحد لا تساوم على مبادئك ، كلمة لا .

سيدنا عمر جاءه ملك اسمه جبلة ، أعلن إسلامه ، ورحب به عمر ، أثناء طوافه حول الكعبة بدوي داس طرف ردائه ، فانخلع رداؤه عن كتفه ، فضربه ضربة هشمت أنفه ، شكاه إلى عمر ، استدعاه عمر ، وجرى حواراً بينهما ، قال له : أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟ دقق ملك ، إنسان بالمصطلح المعاصر من الدهماء ، من سوقة الناس ، من الطبقة الدنيا ، من هؤلاء الضعاف الفقراء ، قال له ، أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟ قال : لست ممن ينكر شيأً أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيديا ، قال له : أرض الفتى ، سيدنا عمر ، لابدّ من إرضائه ، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه ، أو يهشمن الآن أنفك ، يخاطب ملك ، حق ، وتنال ما فعلته كفك ، طبعاً تعجب أشد العجب ، قال له : كيف ذاك يا أمير ؟ هو سوقة وأنا عرش وتاج ، كيف ترى أن يخر النجم أرضاً ؟ قال له : نزوات الجاهلية ، ورياح العنجهية قد دفناها ، أقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساوى الناس أحراراً وعبيداً ، قال : كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز ، أنا مرتد إذا أكرهتني ، قال عنق المرتد بالسيف تحز ، عالم نبنيه كل صدع فيه يداوى ، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى .

من وحّد الله عز وجل أكد مكانته الإنسانية :

أنت حينما توحد لا تخاف في الله لومة لائم ، أنت حينما توحد تقول لا بملء فمك ، بقاموسك يوجد كلمة لا ، تقولها بملء فمك ، أما إن لم تكن موحداً يقذف الله الخوف في قلبك ، تقول نعم لكل شيء ، للباطل ، أنت حينما توحد تؤكد مكانتك الإنسانية ، أنت لست لغير الله ، أنت لله .

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أما إذا فهمنا هذه الشركيات ، ليست بشراً بل حجراً ، تأتي هذه الآية :

(أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ)

(سورة الأعراف)

الصنم يتحرك ؟ لك أن تعتقد أن هذا الشيء الذي أُشرك مع الله إنسان قوي ، دولة طاغية قوية ، تلتمس رضاها مع تنازلات لا تحتمل ، أو أنه صنم كما كان العرب قبل الإسلام .

الإيمان اعتماد على الله وتوكل عليه واتصال به :

أيها الأخوة الكرام :

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

(سورة الأعراف)

الإيمان اعتماد على الله ، الإيمان توكل على الله ، الإيمان اتصال بالله ، الإيمان طاعة لله ، الإيمان أن تعتز بالله .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

*** * ***

لا أنسى أن الحسن البصري كان عند والي البصرة ، هذا التوحيد ، فجاءه توجيه من الخليفة ، لو نفذه لغضب الله عز وجل ، ولو لم ينفذه لأغضب الخليفة ، هذا الوالي وقع بما يسمى بيحص بيص ، ماذا يفعل ؟ فاستنجد بالحسن البصري ، قال له : ماذا أفعل ؟ قال له كلمة والله أيها الأخوة تعد منهجاً ، قال له : إن الله يمنعك من يزيد ، لكن يزيد لا يمنعك من الله .

الله يمنعك من أقوى الأقوياء ، لكن أقوى الأقوياء لا يستطيع أن يمنعك من ورم خبيث ، إن الله يمنعك من يزيد ، لكن يزيد لا يمنعك من الله .

وفي درس إن شاء الله نتابع هذا الدرس .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(58-60): تفسير الآيات 196 - 199، الولاء لله وحده

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-01-23

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل كامل كمالاً مطلقاً و من لوازم كماله المطلق أنه كامل التصرف :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السادسة والتسعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

معنى الولي في الأصل الذي يليك ، ومعنى الولي هو أقرب الناس إليك ، ومعنى الولي هو الذي يتولى أمرك ، فلن تقبل ولياً إلا إذا كان أقوى منك ، وأعلم منك ، لأنه عندئذٍ قادر على أن ينفعك بعلمه ، وأن ينفعك بقدرته .

والحقيقة أن الولي الحقيقي هو الله جلّ جلاله ،

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ)

هذا الإله العظيم خلق الخلق ، ولم يدعهم من دون إرشاد ، من دون توجيه ، من دون منهج .

بشكل مبسط : الدولة حينما تشق طريقاً ، بعد أن يشق الطريق ، توضع الشاخصات هنا منحدر خطر ، هنا تقاطع خطر ، هنا طريق ضيق ، هنا جسر يتسع لمركبة واحدة ، هنا منطقة انزلاق ، هذه الشاخصات هي توجيهات ، وتحذيرات ، وإرشادات .

فهذا الكون ينم عن إله عظيم ، كماله مطلق ، وكمال الخلق يدل على كمال التصرف ، فكما أن في الكون إعجازاً ، وعظمة ، وقوة ، وعلماً ، حكمة ، وغنىً ، هذا الإله العظيم الكامل الكمال المطلق ، من لوازم كماله المطلق أن يكون كامل التصرف .

إذاً يخلق الخلق ، ولا يعلمون لماذا خلقوا ، لا يعلمون ماذا أُعدّ لهم بعد الموت ؟ لا يعلمون ما الحلال وما الحرام ؟ وما الخير وما الشر ؟ وما الحسن وما القبح ؟

الولي الحقيقي هو الله جلّ جلاله :

لذلك من هو وليك ؟ هو الخالق الذي خلقك ، من هو وليك ؟ هو الخبير ، بما يسعدك وما يشقيك ، من هو وليك ؟ هو الذي أمرك بيده ، رزقك بيده ، حياتك بيده ، موتك بيده ، سعادتك بيده ، تفوقك بيده ، من حولك بيده ، من هو أقوى منك بيده ، من هو أضعف منك بيده ، من هو الولي ؟ القوي ، من هو الولي ؟ الغني ، من هو الولي ؟ الحكيم ، القدير ، العليم .

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ)

الكتاب منهج .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام الآية : 1)

الكون .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف)

وكأن الكون كله في كفة ، والكتاب في كفة ثانية ، خلق الكون ونوره بهذا الكتاب ، الكتاب نور ، أنشئت الجامعة ومعها كتاب يتحدث عن كلياتها ، وعن اختصاصاتها ، وعن شروط القبول فيها ، وعن وسائل النجاح فيها ، وعن كل شيء ، في بناء ، في كتاب ، في كون ، وفي منهج.

لذلك من هو الذي ينبغي أن يكون وليك ؟ هو الله ، لأنه الخالق .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 21)

من هو الولي ؟ هو الخبير .

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

من هو الولي ؟ هو العليم ، هو الحكيم ، من هو الولي ؟ هو القدير على كل شيء .

التوحيد نهاية العلم والعبادة نهاية العمل :

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ)

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، أي أن المسافة بين كلام الله ، وبين كلام المخلوقين كالمسافة بين الخالق والمخلوق .

القوة : أقوى الأقوياء في قبضة الله ، من هو القوي حقيقة ؟ هو الله ، من هو الغني حقيقة ؟ هو الله ، من هو الحكيم حقيقة ؟ هو الله ، من هو المعز ؟ هو الله ، من هو المذل ؟ هو الله ، من هو المعطي ؟ هو الله ، من هو المانع ؟ هو الله ، من هو الرافع ؟ هو الله ، من هو الخافض ؟ هو الله ، أيعقل أن تتخذ إنساناً ولياً ؟ لمجرد أن تجير لإنسان احتقرت نفسك ، أنت لله لمجرد أن تكون محسوباً على إنسان أنت بهذا تحتقر نفسك .

الجماد للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان ، والإنسان لمن ؟ لله الواحد الديان ، لمجرد أن تكون تابعاً لجهة أرضية ، وتنسى أن الله وحده هو الولي فهذا منتهى الجهل .

لذلك قالوا : التوحيد نهاية العلم ، والعبادة نهاية العمل ، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً والعبادة ألا تطيع مع الله أحداً ، فالتوحيد نهاية العلم ، والعبادة نهاية العمل .

من عرف الله زهد فيما سواه :

أيها الأخوة ، أنت ضعيف لكنك تتقوى بالله فقد ورد :

((ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أبواب السماء والأرض دونه فإن دعاني لم أجبه وإن سألني لم أعطه وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السموات رزقه فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبته وإن استغفرني غفرت له))

[كنز العمال عن علي]

إذا أردت أن تكون أقوى الناس ، أقوى الناس قاطبة ، فتوكل على الله ، إن أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك ، إن أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله .

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

إذا كنت صالحاً يتولاك الله .

بالمناسبة : متى يتولاك ؟ إذا آمنت به ، آمنت به خالقاً ، وربا ، ومسيراً ، إذا آمنت به موجوداً ، ووحداً ، وكاملاً ، إذا آمنت بأسمائه الحسنى لأنه القوي ، والغني ، والحكيم ، والعليم ، والقدير ، والمغني ، والرزاق ، حينما تؤمن به تزهد عما سواه ، من عرف الله زهد فيما سواه ومن أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه .

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ)

هو ولي النبي ، وهو ولي كل مؤمن ، تأتي في آخر الزمان ، بعام ألفان و ثمانية ، بعام عشرة آلاف ، قبل مئة سنة ، قبل خمسمئة ، في الشام ، في الحجاز ، في أي مكان في الأرض ، الله هو الولي .

أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون :

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة يونس)

من هم أولياء الله ؟ ولي الله الذي اتخذ الله وليه ، ومتى تتخذه وليك ؟ إذا أطعته .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنـا منحنا بالرضا من أحبنا

ولـذ بحمانا واحتمِ بجانبنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

هل تصدقون أنه ما من عصر كثر فيه الأشرار كهذا العصر ؟ البشر وحوش ، لا في رحمة ، ولا في خلق ، ولا في أي شعور ، وحش كاسر ، دابة متفلتة ، تبحث عن مصالحها ، عن الأموال الطائلة ، يصنعون من غذاء الفقراء وقوداً للطائرات ، فارتفعت الأسعار عشرة أضعاف ، فول الصويا ، الذرة ، الشعير ، غذاء الفقراء يصنع في بعض البلاد في أمريكا الجنوبية وقوداً للطائرات ، زعماء أوربا يرون خلال عشرين يوماً جرائم بربرية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، يتفقون على أن يمنعوا الأسلحة فقط ، أما أن يندوا بكلمة ؟ بكلمة لا تقدم ولا تؤخر ، أن يتحدثوا عن هذه الجرائم ، أبداً .

((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَمْتَلِئَ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا قَالَ ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَؤُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا))

[أحمد عن أبي سعيد الخدري]

التولي و التخلي :

أيها الأخوة ، الإنسان ضعيف ، يحتاج إلى ولي قوي ، يحتمي به ، يلوذ به ، يعتمد عليه ، يلجأ إليه ، الإنسان فقير يحتاج إلى غني ، والإنسان جاهل يحتاج إلى العليم ، كمالك في ضعفك ، كمالك في الافتقار إلى الله ، وقوتك في التوكل عليه ، مثلان من السيرة النبوية :

أصحاب النبي وهم نخبة البشر ، في بدر افتقروا إلى الله :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية : 123)

فتولاهم الله ، ببدر افتقروا إلى الله ،

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

ما اجتمع في الجزيرة عشرة آلاف مقاتل إلا في حنين ، عشرة آلاف صحابي ، وقتها عدد فلكي ، فقالوا في أنفسهم :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

فقال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

الملخص أنت بحاجة إلى هذين الدرسين ، درس بدر ، ودرس حنين ، في بدر قال الصحابة الله ، فتولاهم ، وحفظهم ، ونصرهم ، ووفقهم ، وأذلّ عدوهم ، هم ، هم ، وعلى رأسهم سيد الخلق وحبيب الحق ، في حنين قالوا في أنفسهم :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

فتخلى الله عنهم ، فأنت بين التولي وبين التخلي ، يتولاك إذا قلت الله ، ويتخلى عنك إذا قلت أنا .

من اعتمد على غير الله فقد أشرك :

أحد أنواع الشرك الشرك الخفي ، ليس في العالم الإسلامي اليوم شرك جلي ، ولكن ما أكثر الشرك الخفي ، من اعتمد على ماله فقد أشرك ، من اعتمد على ابنه فقد أشرك ، من اعتمد على صحته فقد أشرك ، من اعتمد على وظيفته فقد أشرك ، الذي يقول أمطرنا بنوء كذا وكذا ، يسمع بالأخبار منخفض جوي متمركز فوق قبرص ، باتجاه الشرق الأوسط ، تأتي الأمطار وفيرة ، يقول لك : المنخفض .

((من قال : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا وكذا : فذلك كافر بي ، مؤمن بالكواكب ، مُطِرْنا بفضل الله ورحمته : فذلك مؤمن بي ، كافر بالكوكب))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ومالك عن زيد بن خالد الجهني]

أنت حينما ترى يد الله تعمل وحدها ، أنت حينما ترى أن كل ما يجري بعلمه ، أن كل ما يجري بحكمته ، برحمته ، بعدله ، ترتاح نفسك .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

كن صالحاً حتى يتولاك كن صالحاً لعطاء الله ، كن صالحاً لتطبيق منهج الله ، كن صالحاً لدخول الجنة، هذا الذي يستجيب لله يعد نفسه لجنة عرضها السماوات و الأرض .

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد ، و الظمآن الوارد ، والعقيم الوالد))

[ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

(سورة الأعراف)

أولاً قد لا يرغبون بنصركم ، هكذا لا يوجد داع لأن يعاونك ، لا يوجد داع لينصرك ، قد لا يرغبون بنصركم ، وإذا أعلنوا عن رغبتهم بالنصر في باطنهم لا يريدون ذلك النصر ، لا يرغبون ولا يريدون، وقد لا يقدرون ، ليس عندهم أسباب النصر .

دولة صغير جداً حينما تستنجد بدولة أصغر منها ، ما بيدها شيء ، أما حينما تستنجد بأقوى دولة في العالم يمكن أن يكون هناك أمل .

فهذا الإنسان الذي تشركه مع الله ، قد يكون ضعيفاً ، هو في قبضة الله ، هو خائف ، هو فقير ، هو في حيرة ، وقد يكون قوياً لكن لا يريد أن يعاونك ، مودته ظاهرة ليست حقيقية ، وقد لا يسخو أن يعاونك ، إذاً

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ)

من كان مع الله كان الله معه :

الأنبياء :

(آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

(سورة هود)

إلى الله ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ، يعني مثلان أضعهما بين أيديكم ، أول مثل سيدنا موسى ومعه أتباعه ، مستضعفون ، ملاحقون ، مضطهدون ، تبعهم فرعون بقوته ، وبأسلحته ، وقياساً على اليوم بطائراته ، وبقنابله العنقودية ، والفسفورية ، ببوارجه ، بمدرعاته ، بأسلحته ، بأقماره الصناعية ، بحقده الدفين ، بقلبه القاسي ، بعنجهيته ، بوحشيته ، أمامهم البحر ، وراءهم فرعون ، وفي كل عصر في فرعون ، وراءهم فرعون بكل صفات التوحش ، من حقد ، من قوة ، من قسوة ، بكل أنواع الأسلحة ، من أجل أن يبيدهم ، والبحر أمامه ، بكل حسابات الأرض الأمل بالنجاة معدوم .

(أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء)

هذا الواقع ، هذا الطرح الموضوعي ، هذه الحسابات الأرضية ، قال :

(كَلَّا)

(سورة الشعراء الآية : 62)

ما قال لا ، لا يعني نفي ، أما كلا ردع ، إياكم أن تقولوا هذا .

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

وإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك .

النصر الذي أكرمنا الله به جرعة منعشة لنا :

أيها الأخوة ، أتمنى عليكم ألا تقرؤوا هذا الكلام على أنه قصة ، إنها حقيقة يجب أن نعيشها ، قل الله يتولاك ، ليس بعيداً عنا ، عشرة آلاف مقاتل ، بأسلحة بدائية ، من صنعهم ، يواجهون جيشاً يعد رابع جيش في العالم ، يملك كل أنواع الأسلحة التي جُربت ، والتي لم تُجرب ، كل أنواع الطائرات ، مئات ألوف الأطنان ألقيت عليهم ، قصف من الجو ، ومن البحر ، ومن البر ، وبعد مضي 22 يوماً لم يستطع العدو أن يحقق شيئاً من أهدافه ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا عليك فمن معك ، أليس هذا النصر الذي أكرمنا الله به يعد جرعة منعشة لنا ؟ لا تنسوا ربكم بيده كل شيء ، بيده كل شيء ، بيده وحده قلب كل المعادلات .

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ)

قد لا يريدون ، وقد لا يستطيعون ، لعلهم أرادوا لكنهم لا يستطيعون ، والدليل :

(وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

فإذا كانوا عاجزين عن نصر أنفسهم فهم عن نصركم أعجز .

لذلك في إنسان من ألمانيا قرأ هذه الآية ، حينما قال الله عز وجل يخاطب نبيه :

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية : 67)

فلما نزلت هذه الآية صرف حراسه ، هذه المرأة قالت : يمكن أن يكذب المرء على كل الناس ، أما أن يكذب على نفسه ، مستحيل ، فلما صرف حراسه ، وعرض نفسه للموت لأنه صدق ربه .

وأنا أقول لكم أيها الأخوة : إذا كنت معه فهو معك ، لا تخف ، لك مستقبل كبير ، إذا كنت مطيعاً له فلا تخف ، إن كنت معتمداً عليه فلا تخف ، إن كنت محباً له فلا تخف ، إن كنت مطبقاً لمنهجه فلا تخف .

أيها الأخوة ، أحد أسباب إسلام هذه المرأة أن النبي حينما أُنزلت عليه هذه الآية صرف حراسه .

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

أقول لكم : زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، إلهنا هو ، إله الصحابة إلهنا ، إله المسلمين الذي نصرهم سابقاً إلهنا ، وعوده قائمة ، والكرة في ملعبنا ، أعطانا جرعة منعشة .

هذا البلد المعتدي ، المستعمر استعمار استيطاني ، هذا البلد كان عنده مشكلة واحدة من خمسين عاماً ، قضية الأمن ، الآن هناك مشكلة أكبر ، قضية البقاء ، كانوا في الأمن فأصبحوا في البقاء ، وهم لا يزالون أقوى قوة في المنطقة ، كان الحسم بيدهم فقدوا الحسم ، بدؤوا يخططون أربعة أيام ، يومان ، أول يوم ثمانمئة هدف ، يخططون ليومين ، ثلاثة ، أقسى شيء أربعة أيام ، إذا كان في ذيول سبعة أيام، مضى أول يوم ، والثاني ، والثالث ، والرابع ، لم ترفع راية بيضاء ، حتى تطوعوا في اليوم الثاني و العشرين هم وأوقفوا إطلاق النار من جانب واحد .

مرة ثالثة هي جرعة منعشة لنا ، لا يوجد إلا الله عز وجل .

كل إنسان مكلف و محاسب على عمله :

أيها الأخوة ، الشيء الثاني :

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

أحياناً إنسان في حبه الشيء يعمي ويصم ، هو في قبر شهواته .

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور)

(سورة فاطر)

(أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ)

(سورة النحل الآية : 21)

أحياناً الطبيب يستدعى ليكشف عن المريض ، يضع يده على شريانه ، لا يوجد نبض ، يأتي بمرآة يضعها أمام أنفه ، لا يوجد بخار ، يأتي بمصباح يضعه في عينيه الحدقة لا تتحرك ، عظم الله أجركم انتهى ، لا في نبض ، ولا في بخار ماء على المرأة ، ولا في تحرك حدقة ، إذاً ميت . فالكافر ميت ،

(أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

لماذا ؟ الأنعام غير مكلفة ، أما الإنسان مكلف .

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنفقون الآية : 4)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية : 5)

النبي الكريم بشر مثلنا فمن عرفه قدم نفسه فداء له :

أيها الأخوة ،

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

مرة كنت في مسجد وهناك إنسان قصير القامة ، منحي الظهر ، بالثمانين من عمره ، أنا هرعت إليه وسلمت عليه سلاماً في أعلى درجات الأدب ، كان معي صديقي ، قال لي : من هذا ؟ قلت له أنت لا تعرفه ، هذا كان عميد كليتنا ، وهو من أعلم علماء المنطقة بالنحو ، فأنا متأثر بتدريسه لأربع سنوات ، لكن منظره بالمسجد إنسان كبير بالسن ، قد يكون إنساناً عادياً جداً ، في سن متأخرة ، فأحياناً ترى مؤمناً ماذا ترى به ؟ إنسان مثلك ، يأكل ويشرب ، هل رأيت علمه ؟ هل رأيت محبته لله ؟ هل رأيت عقيدته ؟ هل رأيت مبادئه ؟ قيمه ؟ ماذا رأيت منه ؟ الأنبياء أنفسهم بشر مثلنا .

((إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر))

[أحمد و مسلم عن أنس]

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف الآية : 110)

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد ، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة ، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

النبي بشر ، رأوا بشريته ، ولم يروا نبوته ، رأوا بشريته ولم يروا علمه .

سراقة لماذا أراد قتل النبي ؟ من أجل مئة ناقة ، فلما عرف النبي أقسم لكم بالله ، ماذا أقول ؟ مستعد أن يقدم نفسه فداء للنبي ، ما كان يعرفه .

وأنت لو عرفت الله ، لكنت إنساناً آخر ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تحبه ثم لا تطيعه .

الندم الذي يصيب الإنسان الغافل عن الله عز وجل عندما يأتيه ملك الموت :

لذلك حالة الندم التي تصيب الإنسان حينما يأتيه ملك الموت ، وقد أمضى حياته في المعاصي والآثام ، هذه الحالة تكاد تبيده .

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى ، وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم عن جابر بن عبد الله]

وحينما تكتشف في لمح البصر أنك خسرت الآخرة ، أن الله خلق الإنسان لجنة عرضها السماوات والأرض .

((أعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

أعد له جنة مهما تصورت عظمتها فهي أعظم ، هذه الجنة إلى أبد الآبدين خسرها في حياته الدنيا لبضع سنين ، أمضاها في المعاصي والآثام .

لذلك

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

المؤمن حقيقته في داخله ، بإيمانه ، بورعه ، بمحبته ، باستقامته ، بإدراكه للحقائق ، لماذا خلقه الله ؟ من أين جاء ؟ ماذا بعد الموت ؟ ما سرّ وجوده ؟ ما غاية وجوده ؟ .

الإنسان لله فعليه ألا يكون لسواه :

أيها الأخوة ،

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

ضعاف ، هل يعقل أن تتعلق بالضعيف ؟ بالجاهل ؟ بمن يخيب ظنك ؟ أنتم انظروا بالتاريخ المعاصر، أي دولة علقت كل آمالها بدولة عظمى خيبت ظنها ، واستغلتها ، ثم طرحتها جانباً ، أنت لله لا تكن لسواه .

((خلقت لك ما في السماوات وما في الأرض ولم أعيَ بخلقهن ، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين ، لي عليك فريضة ، ولك علي رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك ، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ، ثم لا

ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي ، وكنت مذموماً ، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

الموائمة بين العقل وبين النص أساس الدين :

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

(سورة الأعراف)

العفو الشيء البسيط ، جاءتني هذه الأفكار عفو الخاطر ، اجعل هذا التشريع مبسطاً ، لا تعقد الأمور ، العفو الشيء السهل .

إنسان غربي أسلم على يد شيخ ، أبقاه ستة أشهر في أحكام المياه ، حتى خرج من جلده و ترك هذا الدين ، التقى بعالم آخر ، قال له : الماء الذي تشربه توضأ منه ، وانتهى الأمر .

كأن الله سبحانه وتعالى يريد من نبيه أن يكون الإسلام سهلاً ، أنا أقول كلمة : الإسلام بحاجة الآن إلى تبسيط لا إلى تعقيد ، يحتاج إلى تطبيق لا إلى متاجرة ، يحتاج إلى عقل ، العقل أصل في الدين ، لا تأتي بقضية العقل يرفضها ، بل يرفضها أشد الرفض ، لا يمكن أن يتناقض العقل مع الدين ، لأن الدين من عند الله ، والعقل جهاز أودعه الله فينا ، فإذا وجدت تناقضاً بين العقل وبين الدين فاعلم علم اليقين أن في العلم خطأ ، أو النص ضعيف ، أو موضوع ، إما خطأ بالنص ، يكون ضعيفاً أو لا أصل له ، أو خطأ بالعلم ، أو توافق العقل مع النقل قطعي ، فها الدين يحتاج إلى موائمة بين العقل وبين النص ، ويحتاج إلى تبسيط .

إنفاق ما زاد عن حاجتك يقرب الآخر إليك :

(خُذِ الْعَفْوَ)

ليكن منهجك مبسطاً ، والمعنى الآخر أنفق العفو .

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة الآية : 219)

فإذا أنفقت العفو أخذت الخير من الآخر ، بمعنى إنفاق ما زاد عن حاجتك ، بمعنى قدم منهجاً ميسراً ، بسيطاً ، واضحاً ، لا تعقيد فيه ، بمعنى أنك حينما تعفو عن الآخر تقربه إليه .

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ)

تطابق النقل مع الفطرة قطعي ، أي أمر أمرك الله به يتوافق مع فطرتك .

لذلك ما تعارف الناس عليه أنه خير فهو خير ، لماذا سمّى الله المعروف معروفاً ؟ لأن كل النفوس تعرفه ، ولماذا سمّي المنكر منكراً ؟ لأن كل النفوس تنكره .

من معاني " خُذِ الْعَفْوَ " :

1 ـ أن يكون منهجك سهلاً و بسيطاً :

إذاً

(خُذِ الْعَفْوَ)

ليكن منهجك مبسطاً ، لا تعقيد فيه ، لا إشكال ، لا تناقض ، لا مبالغة ، لا تشدد ، لا تساهل .

2 ـ أنك حينما تعفو عن الآخر تقربه إليه :

(خُذِ الْعَفْوَ)

والمعنى الثاني أنفق العفو ، ما زاد عنك أنفقه لأخيك حتى يتماسك المجتمع ، واعفُ عمن ظلمك .

((أمَرَنِي رَبِّي بِتِسْعٍ : خَشْيَةِ الله في السِّرِّ والعلانية ، وكلمة العدل في الغضب والرضى والقصد في الفقر والغنى))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

(وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ)

و ائمر بهذا المنهج الذي يتطابق مع الفطرة ، و ائمر بتطبيق منهج الله ، لأن النفوس تعرفه من دون تعليل ، هذه فطرة .

(وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

الجاهل هنا لا يعني غير متعلم ، يعني الذي يملك فكرة أو تفسيراً لخلاف الواقع .

إذا قال لك شخص : كلما زدت الملح في الطعام انخفض الضغط ، ما قولك ؟ لكن معه دكتوراه ، هذا جاهل ، ما دام تكلم كلاماً بخلاف الواقع فهو جاهل ، الجهل ليس معناه أن وعاءك فارغ من المعلومات، ذاك الأمي ، أما الجاهل هو الذي يملك آلاف المعلومات لكن كلها غلط ، كلها بخلاف منهج الله عز وجل .

على الإنسان أن يدع من يهتدي بغير هدى الله عز وجل :

(خُذِ الْعَفْوَ)

ليكن منهجك مبسطاً .

((تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[أخرجه ابن ماجه والحاكم عن العرباض بن سارية]

((اعفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

تقربه إليك ، ثم اجعل هذا المنهج مطبقاً في حياتك ،

(وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ)

ودع من يهتدي بغير هدى الله عز وجل .

من يتصور حلّ المشكلات بشيء أرضي ،

(وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(59-60): تفسير الآيات 200 - 203 ، الإلهام من الملائكة والوسوسة من الشيطان ، عندما يشعر الإنسان بوساوس الشيطان يجب أن يستعيذ بالله فوراً لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-01-30

بسم الله الرحمن الرحيم

من أصابته وسوسة من دفع إلى عمل ما لمجرد أن يستعيذ بالله يحترق الشيطان :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية المئتين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة ، نزغ تشبه نخس ، يعني هناك مسافة بينك وبين إنسان آخر نخسته بعصا أو نخسته بيدك، دفعته هكذا ، أو دفعته إلى شيء ، أو أغريته بشيء ، واستخدمت يدك ، نزغ ونخس .

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ)

أيها الأخوة ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((ما منكم من أحد إلا وقد وكلّ به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة))

[مُسْلِمٌ وَالإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود]

كل واحد من نبي البشر معه ملك يلهمه الصواب ، ومعه شيطان من الجن يوسوس له بالمعصية .

فالآية الكريمة الآن :

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ)

إذا شعرت أن هناك وسوسة تدفعك إلى معصية ، إلى عمل لا يرضي الله ، إلى لقاء لا يرضي الله ، إلى علاقة لا ترضي الله ، إلى خلوة لا ترضي الله ، إلى نزهة لا تر ضي الله ، إلى صفقة لا ترضي الله ، إلى شراكة لا ترضي الله ، إلى إطلاع لا يرضي الله ، إلى حديث لا يرضي الله .

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ)

كأن إنسان نخس إنساناً وقال له : خذ هذه ، أحياناً الإنسان يكتفي بالكلام ، هذا شيء مهم جداً يضيف إلى كلامه إشارة ، فإذا كان الشيء مهماً جداً يضيف إلى كلامه وإلى إشارته وخزاً ، قم ، تحرك ، افعل ما أقول لك ، لا تفوت هذه الفرصة ، فرصة ثمينة تسعد بها ، دعك من كلام العلماء ، أنت في دنيا ، استفد من هذا العمل ، عليك أن تبحث عن لذتك ، عن مباهج الدنيا ، هذه كلها وساوس .

لذلك إن أصابتك أيها المؤمن وسوسة مع دفع إلى عمل ،

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

لمجرد أن تستعيذ بالله يحترق الشيطان ، أعطاك الله عز وجل سلاحاً فعالاً ،

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

الشيطان والملك لا يملكان شيئاً إلا الإلهام أو الوسوسة :

يقابل ذلك إذا ألهمك ملك اذهب واحضر درس تفسير ، دعك من هذا اللقاء ، دعك من هذه النزهة ، دعك من هذا الصديق ، هذا يغريك بالمعاصي ، دعك من هذه التجارة ، فيها مادة محرمة ، دعك من هذا اللقاء ، دعك من هذه السفرة ، الشيطان يوسوس والملك يلهم ، والشيطان والملك لا يملكان شيئاً إلا الإلهام أو الوسوسة .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

كلام الله ، كلام خالق الأكوان ، آية صريحة رائعة :

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

يعني أنت لو أنك ترتدي أجمل الثياب في الصيف ، ثياب بيضاء غالية جداً ، وقميص وحذاء ، وما إلى ذلك ، ونزلت في حفرة ماء آسن ، ماء أسود ، ماء مجاري ، وتوجهت إلى الشرطة لتشتكي على شخص مما أصابك ، فسألك المحقق : هل دفعك إلى الماء ؟ قلت له : لا والله ما دفعني ، هل أشهر عليك مسدساً وأمرك أن تنزل ؟ قلت له : لا والله ما فعل هذا ، قال لك : هل أمسكك ، ووضعك في الماء ؟ قلت له : لا ، فقال : لِمَ تشتكي عليه ؟ قال له : لأنه قال لي انزل فنزلت ، أليس هذا أحمقاً ؟ هذا وضع الشيطان مع الإنسان ،

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

كل إنسان أوكل الله به قريناً من الملائكة يلهمه الخير وقريناً من الجن يوسوس له بالشر :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر الآية : 42)

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة الآية : 102)

الله عز وجل هو الخالق ، بيده كل شيء ، فلذلك ما منا واحد إلا وقد أوكل الله به قريناً من الملائكة يلهمه الخير ، وقريناً من الجن يوسوس له بالشر ، لكنهما لا يملكان إلا الإلهام والوسوسة ، فلما قال عليه الصلاة والسلام :

((ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكلّ له قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة ، فقالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم))

[مُسْلِمٌ وَالإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود]

الجني الذي أوكل برسول الله أسلم على يديه . إذاً

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ)

الآن أنت صامت وتمشي بالطريق تأتيك آلاف الخواطر ، معظمها من الشيطان ، لا تذهب ، لا تعبأ برضا الأم ، أخوك يخدمها ، دعك من هذا ، دائماً هناك خواطر ، طبعاً علماء النفس يقولون : هذا منولوج ، هذا حديث النفس .

إنسان ركب بالسيارة خمس ساعات ساكتاً ، لا يفتر عن حديث نفسه ولا دقيقة ، من موضوع لموضوع ، لموضوع ، لموضوع ، فهذا الحديث حديث النفس ، بعضه من الشيطان وبعضه من الملائكة ، بعضه إلهام ملائكي ، بعضه وسوسة شيطانية ، فبطولتك ألا تصغي للشيطان .

عدم اقتراب الشيطان من الإنسان العاصي لأنه امتداد له يحقق أهدافه :

لكن أيها الأخوة ، الشيطان لا يتعب إطلاقاً مع أهل الضلالة ، لأنهم في أعمالهم يحققون هدف الشيطان، يعني شاب لا يصلي ، ولا ينضبط ، ولا يستقيم على أمر الله يقول لك : ما عندي ولا مشكلة ، طبعاً ما في مشكلة لأنك تحقق هدف الشيطان ، ما في مشكلة لأنك تفعل ما يريد منك الشيطان ، ما في مشكلة لأنك غارق في الملاهي ، في المعاصي والآثام ، طبعاً الشيطان لا يقترب منك لأنك امتداد له ، لأنك محقق لأهدافه ، أما حينما يتوب هذا الشاب ، ويعقد التوبة مع الله ، ويصطلح مع الله ، يأتي دور الشيطان .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(سورة الأعراف)

ما داموا في طريق منحرفة دعهم وشانهم لأنني أريدهم هكذا ، أما إذا سلكوا طريقاً إليك ، أما إذا اصطلحوا معك ، أما إذا استقاموا على أمرك ،

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

احتجاج الشيطان بما أمام الإنسان أو خلفه ليبعده عن الطريق المستقيم :

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

يعني من أمامهم ، التقدم ، عصر الفضائيات ، الكومبيوتر ، المرأة نصف المجتمع ، من حقها أن تبدي كل زينتها ، هذا من حقها الطبيعي ، لابدّ من إيداع الأموال ببنوك ربوية ، هذا مال له قيمة ،

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

العولمة ، والعصرنة ، والحيونة ، والتقدم والفضائيات ، والمرأة نصف المجتمع ، وما إلى ذلك ، وضريبة الربا ... إلى آخره .

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

هذا البلد أصله روماني ، وهذا البلد أصله فرعوني ، وهذا البلد أصله آرامي ، يتجاوزون الإسلام إلى أقوام الوثنيين ، عاشوا قبل الإسلام ، يعتزون بهم ، يستخدمون رموزهم ، إما أن يحتج الشيطان بما أمامك ، أو بمن خلفك ،

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

وسوسة الشيطان للإنسان من النواحي الدينية :

الآن :

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

يعني يأتيك بوسوسة من النواحي الدينية ، صلاتك ما صحت ، لم تكن في خلال الصلاة متجهاً إلى الله كلياً ، ما دامت هذه الصلاة لا يقبلها الله دعها انتهى ، لا تأتي إلى الدرس أنت لست على ما ينبغي ، ما دمت لا تأتي إلى الدرس ، يبعدك عن درس علم ، عن عبادة ، عن نافلة ، عن طاعة له وهكذا ،

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

أو بالوسوسة ، الوضوء ما صحّ ، يعيده مرة ثانية ، ثالثة ، رابعة ، هذه أمراض كلها ، مرض الوسوسة يصبح معه وساوس قهرية ، نعوذ بالله منها ، هذه

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

مرة دخل شخص إلى المسجد ، قصة قديمة جداً ، قال : كل واحد ليس على رأسه قبعة فصلاته باطلة، بهذه البساطة ؟ هذه

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

في بالفاتحة أربع عشرة شدة ، إن لم تأتِ بها فالصلاة باطلة ، كلام غير معقول ، والله كتاب اطلعت عليه قبل أيام كُتيب صغير أن كل إنسان أثناء الحج سعى في الطابق الثاني ، أو رجم في الطابق الثاني حجه باطل ، ويبقى محرماً إلى يوم القيامة ، وكل لقاءاته مع زوجته بالحرام ، شيء جميل والله ؟! . هذه

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يأسك ، يعطيك اليأس .

القصص التي ما أنزل الله بها من سلطان تبعد الإنسان عن الدين :

يقول لك : فلان الفلاني يقرأ القرآن كل ليلة ، لا تستطيع ، لو قرأت بأسرع طريقة لا تستطيع ، أو يصلي بخمس ركعات القرآن كله ، أو الإمام الفلاني صلى لأربعين عاماً الفجر في وضوء العشاء ، أنت تستطيع أن لا تنام ؟ هذا العالم أليس من بني البشر ؟ .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً)

(سورة النبأ)

لما تقدم الإسلام على أشكال تعجيزية ، لا ، لا ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((أمَا وَاللَّهِ إنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لكِنِّي أصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ـ أنام ، وهو سيد الخلق وحبيب الحق ـ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يعطيك نموذجاً فوق طاقتك ، لا تستطيعه ، أن فلاناً يذكر الله في اليوم مئة ألف مرة ، عدهم ، هذه مسابح ، يحتاجون عشر ساعات ، تعمل ، تؤمن طعاماً لأولادك ، أذكار فوق طاقة البشر ، أو يقرأ كل ليلة القرآن بأكمله ، فوق طاقة البشر ، أو أربعين سنة يصلي الفجر بوضوء العشاء ، إذا أرادوا أن يجعلوا لك الدين شيء غير معقول ، غير مقبول فقد أبعدوك عن الدين بطريقة أخرى .

دينا دين منهج وعقيدة وعمل لا دين تبرك و أشياء لا تقدم ولا تؤخر :

لذلك

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

أو قصص ما أنزل الله بها من سلطان .

إنسان سأل عن طالب علم عند عالم ، قال له : هذا هو ، بضع من ماء بالأرض قال : من شدة محبته لنا ذاب ، من شدة محبته فذاب .

قصص غير معقولة ، خرافات ، سحبات ، دجل ، شطحات ، الدين علم ، لما الصحابة الكرام توهموا أن الشمس كسفت لموت إبراهيم ، وقف النبي عليه الصلاة والسلام مصححاً لهم ، قال :

((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يَخسِفان لموت أحد ، ولا لحياته))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك عن عائشة أم المؤمنين]

مرة كنت في مكة المكرمة ، حفظها الله ، فسمعت أخباراً غير معقولة ، أن هناك أنوار ساطعة من القبة الخضراء باتجاه السماء ، أنوار النبي اللهم صلِّ عليه ، سمعت هذه القصة من أشخاص عديدين ، فلما وصلت إلى المدينة هناك درس علم حضرته ، فقال المدرس جزاه الله خيراً : أعلمني أمير المدينة أن هناك أشعة ليزر وضعت على سطح المسجد النبوي لإرشاد الطائرات ، أشعة ليزر أصبحت أنواراً! هذه مبالغات دعك من هذا .

أو تأتيك أحياناً رسائل إلكترونية أن بلكيت أسلم ، غير صحيح ما أسلم ، الغابة على شكل لا إله إلا الله ، ليست صحيحة ، هذه المرأة داست على المصحف فمسخت إلى قرد ، من صنع الكومبيوتر ، مركز إلحادي يصمم هذه الصور ليضحك علينا بها ، وإن شاء الله بدرس معين ، أكثر من سبعين حالة ، خلية نحل عليها اسم الله ، موج البحر على اسم الله عز وجل ، يشغلوننا بأشياء لا تقدم ولا تؤخر ، نحن ديننا دين منهج ، دين عقيدة ، دين حركة ، دين عمل ، لا دين تبرك ، دين أشياء لا تقدم ولا تؤخر .

إخفاء الله جهة العلو و الدنو لأن العلو يشير إلى الله و الدنو طريق الافتقار إلى الله :

أيها الأخوة ،

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

المعاصي والآثام هل انتبهتم إلى أن الله أخفى جهة العلو ، وجهة الدنو ، العلو تشير إلى الله عز وجل ، هذا الطريق سالك وآمن ، شيطان لا يوجد ، والدنو طريق الافتقار إلى الله ، وهذا الطريق ، وهذه الجهة سالكة وآمنة ، إن افتقرت إلى الله لا يوجد ولا مشكلة ، إن أقبلت على الله لا يوجد ولا مشكلة ، أما

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

يقول لك خسرنا ثمانية ملايين ! لا حول ولا قوة إلا بالله ! ربحان مئة مليون السنة الماضية ، نقصوا ثمانية ملايين بالسنة ، صار خسران ثمانية ملايين ،

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

دائماً يشكو ، هذه من علامات من مشى مع الشيطان ، أما النبي الكريم كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت ، تتمتع بحواسك الكاملة ، تتمتع بصحة جيدة ، لك بيت تؤوي إليه ، لك زوجة وأولاد وانتهى الأمر ، المؤمن شاكر ، والآخر ساخط ،

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

على الإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى الذي يسمعه ويقدر على تلبية طلبه ويرحمه :

أيها الأخوة ، الشيء الدقيق أن الله سبحانه وتعالى حينما أمرك أن تستعيذ به فاستعذ بالله ، أنت هل من الممكن أن تلجأ لجهة كي تعينك غير موجودة ؟ يكون الإنسان بلا عقل ، لابدّ من أن تلجأ إلى جهة موجودة ، هل يمكن أن تدعو جهة لا تسمعك ؟ مستحيل ! لابدّ من أن تدعو جهة موجودة وتسمعك ، هل يمكن أن تلجأ لجهة لا تقدر على إنقاذك ؟ مستحيل ! لابدّ من أن تدعو جهة موجودة ، وتسمعك وتقدر على إنقاذك ، هل يمكن أن تلجأ إلى جهة لا تحبك ولو أنها قوية وقادرة وتعلم وموجودة ؟ لابدّ من أن تستعيذ ، أو أن تلجأ إلى جهة موجودة تسمعك ، وتقدر على تلبية طلبك ، وتحب أن ترحمك ، إنها الله .

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بقلب حاضر ، بتوجه إلى الله ، ينتهي فعل الشيطان .

(إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

إن تكلمت فهو سميع ، وإن سكت فهو عليم ، وإن تحركت فهو بصير ، سميع ، بصير ، عليم ، إن تكلمت فهو سميع ، وإن سكت فهو عليم ، وإن تحركت فهو بصير .

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً)

(سورة الإسراء)

القرآن الكريم سبيل الإنسان للخلاص من وسوسة الشيطان :

أيها الأخوة ، الآن :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

الآن عندنا النزغ ، نخس عن بعد

(هناك مسافة)

أما المس : أحياناً تضع يدك بيد صديقك تقول له : يدك بادرة جداً ، يقول لك : أنا والله معي أعراض نقص تروية ، لما مسسته شعرت بالحرارة ، أما لما لمسته شعرت بالحرارة والنعومة ، فصار عندنا نزغ ، ومس ، ولمس.

فقد وجهت إلى النبي

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ)

أي إن أصابتك وسوسة تثير غضبك على المكذبين

(فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

المؤمن :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ)

عن قرب

(طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا)

آيات القرآن و الاستعاذة بالله ،

(تَذَكَّرُوا)

أن هذه وسوسة من الشيطان ، أن الشيطان لا يملك لهم شيئاً ، لا يملك إلا الوسوسة فقط ،

(تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

لمواقع الخطر .

سيدنا يوسف ، عظمة هذا النبي الكريم أنه حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال قال:

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الحشر)

فأصبح سيدنا يوسف .

الشياطين نوعان : شياطين الإنس وشياطين الجن :

لذلك :

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

وجهت هذه الآية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى إذا أثارك الشيطان ، وأثار غضبك على المكذبين بك لا تعبأ به ، فدعه ،

(فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

سميع لدعائك ، عليم باستعاذتك .

أما المؤمنون :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ)

تذكروا القرآن ، تذكروا أمر الله بالاستعاذة به ، تذكروا أن الشيطان لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً ، تذكروا أن الشيطان ضعيف .

(فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

الشياطين نوعان ، شياطين الإنسان ، وشياطين الجن .

مرة ذكرت أن إنساناً سيئاً جداً التقى مع الشيطان ، قال له : ماذا أفعل ؟ قال له : افعل كذا ، فعلته ، أعطاه حلاً ثانياً ، قال له : فعلته ، الثالث ، الرابع ، الخامس ، السادس ، السابع ، الثامن ، التاسع ، العاشر ، قال له : كله فعلته ، قال له : والله أنا هذا الذي عندي ، ماذا تريد أن تفعل أيها الإنسي ؟ قال له: أريد أن أفعل كذا وكذا ، قال له : خاف الله يا رجل .

يعني شيطان الإنس يخوف ، والدليل الله عز وجل قدم شياطين الإنس على شياطين الجن ، والله ما يفعله العالم الغربي يحتلون ، يسفكون الدماء ، يقتلون الشباب ، يهدمون البيوت ، ينهبون الثروات ، تحت شعارات براقة ، من أجل الحرية والديمقراطية ، وحقوق الإنسان عندهم حقوق الحيوان ، أما ألف و ثلاثمئة قتيل ، معظمهم من الناس والأطفال ولا تعليق ولا كلمة أبداً .

شياطين الإنس أشرّ من شياطين الجن :

لذلك شياطين الإنس أشرّ من شياطين الجن ، أما أخوانهم شياطين الإنس .

(وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

لا يمسكون عن إغوائهم ، مثلاً لماذا قال الله عز وجل :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

يوسوس الشيطان ، أما لماذا قال تعالى :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

هذه شيطانة لكن على شكل إنسان ، لك حاجة عندها تثير شهوتك ، لذلك

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

أكبر فتنة تصيب المسلمين فتنة النساء في آخر الزمان :

لذلك أنا أقول كما قال عليه الصلاة والسلام ، أكبر فتنة تصيب المسلمين فتنة النساء في آخر الزمان ، وقال بعض العلماء : كان الغرب يجبرنا بالقوة المسلحة على أن نفعل ما يريدون ، لكنهم الآن بالقوة الناعمة ، بالمرأة على أن نريد ما يريدون ، لذلك جاءت آيات غض البصر ، في القرآن :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور الآية : 30)

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ـ أي وسوسة ـ

(تَذَكَّرُوا)

آيات القرآن ،

(تَذَكَّرُوا)

آيات الاستعاذة بالله ،

(تَذَكَّرُوا)

أن الشيطان ضعيف ، لا يملك شيئاً ،

(تَذَكَّرُوا)

أن الله عز وجل قال :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الإسراء الآية : 65)

(فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

وقع الخطأ .

(وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ)

أخوانهم من شياطين الإنس

(يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ)

بالانحراف ،

(ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)

أي لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا على المعصية ولا يرجعون عنها .

النبي الكريم بشر يتبع ما يوحى إليه :

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف)

قال تعالى :

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

هذا ليس بيدي لذلك :

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ)

من هذه الآيات

(قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا)

لولا صنعتها أنت بنفسك ، هو بشر ، النبي بشر ،

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ ـ من هذه الآيات ـ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا)

أي لولا فعلتها أنت ، وتكلفتها ، وصنعتها لنا ، كي نؤمن بك

(قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي)

أنا متبع ولا أقدر أن آتي بهذه الآيات .

النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب وأي إنسان يدّعي علم الغيب إنسان كاذب :

لذلك قال تعالى :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام الآية : 50)

النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب ، وأي إنسان يدعي علم الغيب فهو كاذب .

((لا أملك لكم من اللّه ضَرّاً ولا نفعاً))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية : 188)

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

أربع آيات ، لا يعلم الغيب ، لا يملك النفع ولا الضر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ،

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

أي إنسان يدعي خلاف ذلك فهو كاذب .

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا)

لولا تكفلت بها أنت ، وأنشأتها من عندك

(قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين :

أيها الأخوة ، الله عز وجل في بعض الآيات حينما جاءت كلمة يقين

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قال :

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

(سورة الواقعة)

هناك علم اليقين ، وهناك عين اليقين ، وهناك حق اليقين ، جدار وراءه دخان ، والقاعدة المنطقية لا دخان بلا نار ، فهذا علم اليقين ، فإذا أتيت وراء الجدار ، ورأيت النار بعينك ، هذا عين اليقين ، فإذا اقتربت من النار وشعرت بالوهج الشديد فهذا حق اليقين .

فينبغي أن ينتقل المؤمن من علم اليقين ، إلى عين القين ، إلى حق اليقين .

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)

(سورة التكاثر)

أما حق اليقين فجاءت في قوله تعالى :

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

أيها الأخوة ، من بلغ علم اليقين ، أو عين اليقين ، أو حق اليقين كما قال سيدنا علي : والله لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، وقال في قول آخر : والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي ، هذا علم اليقين ، مع حق اليقين ، مع عين اليقين .

القرآن يهدي الإنسان إلى سبل السلام والرحمة التي هي قمة العطاء الإلهي :

أيها الأخوة ، حينما قال الله عز وجل :

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)

الآية قرآن ، الآية منهج ، الآية هذا التصور الرائع للكون ، والحياة ، والإنسان ، الآية هذه التفاصيل ، فالمعجزة القرآن ، المنهج الدستور ، العقيدة ، هذا الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام .

(هَذَا بَصَائِرُ)

أي هذه الأنوار التي هي القرآن الكريم .

(وَهُدًى)

هذا القرآن يهديكم إلى سبل السلام ، السلام مع نفسك ، ومع أهلك ، ومع من حولك ، ومع ربك .

(وَهُدًى وَرَحْمَةً)

راحة نفسية واستقرار وسعادة وقرب من الله .

(إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)

منهج كامل ، افعل ولا تفعل ، يهديكم إلى السلامة والسعادة ، والرحمة هي قمة العطاء الإلهي ،

(وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الحارث بن مالك الأنصاري ، مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

((كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ـ أي يرفعون صوتهم بالبكاء والعون ـ قال عليه الصلاة والسلام : يا حارثة عرفت فالزم))

[أخرجه الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري]

أعادها ثلاثاً .

أيها الأخوة الكرام ، بقي درس أخير في سورة الأعراف نشرحه في الدرس القادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(60-60): تفسير الآيات 204 - 206 ، كيفية قراءة القرآن الكريم بقراءة التدبر ، وقراءة التعبد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-02-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الستين وهو الدرس الأخير من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة بعد المئتين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

أولاً فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، هذا كتاب ليس كأي كتاب ، إنه كتاب خالق السماوات والأرض ، هذا كتاب ليس فيه أي زيغ ، ولا فيه أي شك ، يقين قطعي ، هذا كتاب يجب أن نتلقاه بخصوصيات كثيرة ، من هذه الخصوصيات :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)

الفرق بين سمع واستمع كبير جداً ، أنت حينما تجلس وتأتي بمسجلة وتضع شريطاً وجلست لتستمع هذا شيء ، إن كنت تمشي في الطريق ووصل إلى أذنك صوت ما من مذياع ، أو من شخص ، هذا سماع ، فالسماع غير مقصود ، أما الاستماع مقصود بذاته .

لذلك ورد في الحديث :

((من استمع إلى قينة))

[ابن عساكر عن أنس]

وهذا من رحمة الله بنا ، من استمع ، الإنسان يمشي في الطريق الأذن مفتوحة ، وقد يأتي صوت قد لا يرغب أن يستمع إليه ، لكنه يسمعه ، لعظمة هذا الكتاب ، قال تعالى :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ)

أي اجعل سماع القرآن الكريم مقصوداً ، اجلس كي تستمع القرآن الكريم ، اجلس كي تتأمل في آيات القرآن الكريم ، كي تتفكر في آيات القرآن الكريم .

القرآن الكريم يقدم للإنسان إضاءة لسرّ وجوده وغاية وجوده و لما بعد الموت :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ)

لماذا ؟ لأن الله عز وجل قبل آية واحدة قال :

(هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف)

هذا الكتاب يريك الحق حقاً والباطل باطلاً .

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

هذا القرآن يقدم لك إضاءة لسرّ وجودك ، لغاية وجودك ، لما بعد الموت ، لماذا خُلقت ؟ ماذا ينبغي أن تفعل ؟ ما سبب سلامتك وسعادتك ؟

(بَصَائِرُ)

يقدم لك تفسيراً عميقاً دقيقاً متناسقاً عن الكون ، والحياة ، والإنسان ، يقدم لك حقيقة الخير والشر ، حقيقة الجمال والقبح ، حقيقة العلم والجهل .

لذلك :

(هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)

من الذي يربيكم ؟ من الذي خلقكم ؟ من الذي أمدكم ؟ من الذي يعتني بكم ؟ من الذي ينقلكم من حال إلى حال ؟

(هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى)

تهتدي به إلى سبل سلامتك .

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

(سورة المائدة الآية : 16)

سلام مع نفسك ، سلام مع أهلك ، سلام مع مجتمعك ، سلام مع من هو فوقك ، ومع من هو دونك ، سلام من أجل صحتك ، من أجل أسرتك ، من أجل سعادتك ، من أجل سلامتك .

الاستماع إلى القرآن الكريم طريق سلامة الإنسان و سعادته :

(هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الرحمة مطلق عطاء الله ، الرحمة سكينة ، الرحمة تجلٍّ ، الرحمة سعادة ، الرحمة أمن ، الرحمة طمأنينة ، الرحمة رضا ، الرحمة تفاؤل ، فهذا القرآن فيه هدى ، فيه رحمة ، فيه بصائر ، لذلك ليس القرآن كتاباً كأي كتاب .

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ)

استمع ، قد يقرأ القرآن وهناك أصوات أخرى ، يوجد حديث آخر ، مثلاً :

القرآن ينطلق من إذاعة ، والمذياع في غرفة الجلوس مثلاً وهناك حديث ، لا ، استمع وأنصت من حولك ،

(فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)

قد تستمع وهناك أصوات كثيرة تأتي إليك الأولى والأكمل أن تستمتع إلى القرآن ، وألا يدخل إلى الأذن شيء آخر معه ، وإن كان هذا مستحيلاً ، لكن هذا هو الأدب الكامل مع القرآن الكريم .

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

لعلكم تسعدون ، لعلكم ترون من خلال آياته الحق حقاً ، والباطل باطلاً ، لعلكم ترون من خلال آياته طريق سلامتكم وطريق سعادتكم ، لعلكم إذا قرأتم آيات القرآن الكريم كان منهجاً لكم ، كان سبيلاً إلى سلامتكم ،

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

علامة صحة سماعك للقرآن الكريم المبادرة إلى تطبيقه :

أخوانا الكرام ، معنى الاستماع يعني هناك شيء دقيق ، الله عز وجل يريدنا أن نفهم الاستماع على أنه تطبيق ، كيف ؟ قال :

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم الآية : 4)

يعني إصغاء القلوب كان صحيحاً ، لا تعد مستمعاً ، ولا تعد منصتاً ، ولا تعد متلقياً ، إلا إذا انقلبت هذه الآيات من أصوات تستمع إليها إلى سلوك يومي .

أيها الأخوة ، الدقة البالغة أن الإنصات يعني التطبيق ، نأتي بمثل بسيط : إنسان واقف بشكل طبيعي ، أمامه صديقه ، فقال له صديقه : على كتفك عقرب ، لو أن هذا الذي على كتفه عقرب ، بقي هادئاً ، مرتاحاً ، فلما سمع هذه الكلمة قال له : شكراً على هذه الملاحظة ، وأرجو الله أن يمكنني أن أكافئك عليها ، هل تعتقدون أنه فهم ما قيل له ؟ لو أنه فهم ما قيل له لقفز ، وخلع معطفه ، وصاح ، العقرب لدغتها قاتلة أحياناً فلذلك لأنه بقي هادئاً وما تحرك ، ولا خلع معطفه ، ولا اضطرب ، معنى ذلك لم يستمع .

علامة استماعك الحقيقي الانفعال وعلامة الانفعال الحقيقي الحركة :

علامة استماعك الحقيقي الانفعال ، وعلامة الانفعال الحقيقي الحركة .

لذلك بعض العلماء جاء بقانون ، هذا القانون أساسه أن هناك إدارك ، وهناك انفعال ، وهناك سلوك ، لا يصح إداركك إلا إذا نتج عنه انفعال ، إذا في خبر خطير ما تحركت ، قال لك عقرب ما اضطربت ، قال لك أفعى ما مشيت ، ولا تأثرت ، علامة صحة الإدراك الانفعال ، وعلامة صحة الانفعال السلوك، تتحرك ، إما لقتل الأفعى أو للهروب منها ، أما كلام خطير متعلق بمصيرك ، متعلق بسلامتك ، متعلق بسعادتك لا تتأثر ، هنا المشكلة ، فلذلك :

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

(سورة الأنفال)

كأن السماع عند الله عز وجل في القرآن الكريم يعني التطبيق ، علامة صحة سماعك المبادرة إلى التطبيق ،

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

كان إصغاؤها صحيحاً صغت يعني من الإصغاء ،

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

أنت في هذا الدرس وأنا معكم إن لم تنقلب هذه الآيات إلى سلوك فكأننا ما سمعنا ، عند الله السماع يعني التطبيق ، والآيات واضحة

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

وهم عند الله لم يسمعوا ،

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

فإذا قال الله عز وجل :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ)

أي اصغوا إلى آياته ، وترجموها إلى سلوك ، قال لك غض بصرك ، غض بصرك .

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود الآية : 112)

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات الآية : 12)

لا تغتب أخاك ، هذا المعنى الدقيق لكلمة :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ)

أي طبقوا ما فيه .

الأدب مع سماع القرآن الكريم :

أيها الأخوة ،

(وَأَنْصِتُوا)

لا تسمح لتداخلات ، وأصوات كثيرة ، وتعليقات ، وأنت تستمع إلى كتاب الله ، هذا كتابنا ، هذا منهجنا، هذا دستورنا ، هذا كلام خالقنا ، ومرة ثانية فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه .

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)

يعني حديث ورفع صوت في غرفة الجلوس ، وأنت تستمع إلى القرآن الكريم ، لا ، أنصتهم ، تعلم الأدب لسماع القرآن ، نجلس لنستمع إلى القرآن الكريم .

(فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

هل تستهين بكلمة

(تُرْحَمُونَ)

ترحمون أي أنت سعيد ، أي أنت حكيم ، أي أنت آمن ، أي أنت موفق ، أي أنت مستجاب الدعوة ، أي أنت متصل بالله ، هذا معنى

(تُرْحَمُونَ)

أنت راضٍ عن ربك ، راضٍ عن وضعك في الدنيا .

الآن هناك من يستمع ولا ينصت ، يسمع قرآناً لكن لا يوجد إنصات ، لا يوجد متابعة ، لا يوجد تدقيق، لا يوجد تأمل ، لا يوجد تدبر ، يستمع ولا ينصت ، هناك من يستمع وينصت ولا يتعبد ، هذا القرآن تعبدنا الله بقراءته ، كتاب ليس كأي كتاب ، إذا قرأناه نتعبد الله بقراءته .

على الإنسان أن يقرأ القرآن بنيّة عبادة الله عز وجل بقراءته :

أيها الأخوة :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام الآية : 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف)

كأن الكون كله بكفة ، وكلام الله جلّ جلاله بكفة أخرى ، الله عز وجل خلق الدنيا ونورها بالقرآن ، يشق الطريق ، بعد أن يشق الطريق ، توضع شاخصات ، هنا منعطف خطر ، هنا جسر ، هنا طريق صاعدة ، هنا طريق زلقة ، انتبه يوجد شاخصات ، فالله عز وجل خالق الأكوان ونورها بالقرآن الكريم.

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

يجب أن تقرأ القرآن وأنت بنية أن تعبد الله بقراءته .

على الإنسان أن يقرأ القرآن قراءة تدبر :

لذلك ليست العبرة أن تقول قرأت جزءاً ، اقرأ جزءاً كتلاوة ، اجعل لك قراءتان ، قراءة تدبر ، وقراءة تعبد ، التعبد أن تقرأ القرآن كل يوم جزء ، جزأين ، وهناك كلمة عند حُفاظ كتاب الله من لم يقرأ همساً ينس ، يعني ينسى ، حُفاظ كتاب الله يقرؤون كل يوم خمسة أجزاء ، هذه قراءة تعبد ، أما أنت بحاجة إلى قراءة تدبر ، ولو قرأت في اليومين آية واحدة ، أن تقف عند معانيها ، عند مدلولاتها ، عند التطبيق العملي لها ، ماذا ينبغي أن تعمل ؟

يعني مثلاً قرأت آية فيها أمر هل ائتمرت بما أمر الله ؟ قرأت آية فيها نهي هل انتهيت عما نهى عنه الله ، قرأت آية فيها وصف لأهل الجنة ، هل تسعى إلى الجنة ؟ قرأت آية فيها وصف لأهل النار ، هل تفر من النار ولو بشق تمرة ؟ قرأت آية فيها وصف لأمة سلفت عصت ربها فأهلكها الله ، هل اتعظت بها ؟ قرأت آية فيها من آيات الكون هل تفكرت بها ؟ التدبر أن تأخذ موقفاً من الآية ، الأمر أن تأتمر ، النهي أن تنتهي ، وصف الجنة أن تسعى إلى الجنة ، وصف للنار أن تفر منها .

على الإنسان أن يستمع وينصت ويتعبد الله أثناء تلاوة القرآن الكريم :

إذاً هناك من يستمع ، وهناك من يضيف إلى الاستماع ، هناك من يسمع ، لو في قرآن يصدح من محل تجاري مثلاً ، أنت سمعت الآية ، هناك من يسمع ، وهناك من يستمع ، هناك من يستمع وينصت ، هناك من يستمع وينصت ويتعبد الله بهذه التلاوة .

مثلاً : سيدنا جعفر يقول كلاماً رائعاً ، قال : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران)

ماذا قال الله بعد هذه الآية ؟

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

(سورة آل عمران)

لذلك سيدنا جعفر يقول : عجبت لمن يخاف ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

الاستعانة بالله عز وجل أساس نجاة الإنسان من المصائب :

ثم يقول سيدنا جعفر : وعجبت لمن اغتم ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

وهو في ظلمة بطن الحوت ، وفي ظلمة الليل ، وفي ظلمة البحر ، في ظلمات ثلاث والأمل بالنجاة معدوم ،

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

ماذا قال الله بعدها ؟ :

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

فعجبت لمن يخاف ولم يفزع لقوله تعالى ، وقرأ هذه الآية ، وعجبت لمن مُكر به ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ)

(سورة غافر الآية : 44)

المؤمن المستقيم الطائع يفوض أمره إلى الله عز وجل عند مكر الآخرين به :

إذا أنت مؤمن ، مستقيم ، طائع ، محب ، مقبل ، ولك عدو خطير ، وأقوى منك فمكر بك ، ليس لك حل إلا أن تقول :

(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ)

(إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

(سورة غافر)

فجاء الجواب :

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

إذاً حينما يجتمع الناس ضدك

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

وعجبت لمن اغتم ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

وعجبت لمن مُكر به ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

القرآن شفاء للنفوس :

أيها الأخوة ، إذاً هذا القرآن فيه شفاء ، القرآن شفاء للنفوس ، والقرآن فيه طرق السلامة والسعادة ،

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ)

عقله .

(وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه الآية : 123)

نفسه .

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

من تبع هداي لا يخاف مما سيأتي ، ولا يندم على ما سبق ، فمن يتبع هدى الله عز وجل لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت .

أيها الأخوة ، الآن عجبت لمن طلب الدنيا ، كما قال سيدنا جعفر ، ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ)

(سورة الكهف)

أربع آيات إما أنك تخاف ، أو يُنكر بك ، أو تطلب الدنيا من وجهها الصحيح ، فكل آية جاءت بعدها آية ،

(فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ)

الإنصات أساسي أثناء سماع القرآن الكريم :

الآن ومعنى

(أَنْصِتُوا)

معنى واسع جداً ، أنصت حينما تتلو القرآن ، لا تستمع إلى غيره ، وهو معك ، أنصت حينما تقرأ القرآن في الصلاة ، وأنصت حينما تقرأ القرآن في المسجد ، وأنصت إذا استمعت إلى خطيب المسجد ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إذا قلتَ لصاحبك يوم الجمعة : أنصِتْ - والإمام يخطُب - فقد لغوْت))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك عن أبي هريرة]

لذلك الآخرون يعجبون من المسلمين ، تجد بالجامع في عشرة آلاف ، فإذا صعد الخطيب المنبر لا تستمع إلى كلمة ، من هذا التوجيه الإلهي ، شيء رائع جداً في حياة المسلمين خطبة الجمعة ، عبادة دعوية ، والكل ينصت ، وقد يكون المتكلم أقل علماً ممن يستمع الخطبة أحياناً ، يكون في أستاذ جامعي، يكون في إنسان ذو رتبة عالية في الجامعة ، ينصت ، الخطيب يتلو آيات القرآن الكريم . إذاً أول حقيقة أن الاستماع يعني التطبيق ، لن تكون مستمعاً للقرآن إلا إذا طبقت أحكامه .

((رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

التولي و التخلي :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)

(سورة الأعراف)

(تَضَرُّعاً)

أي تذللاً ، القضية أيها الأخوة كلما تذللت إلى الله رفعك الله ، وكلما استعليت خفضك الله ، إن أردت العز فتذلل بين يدي الله عز وجل ، هناك درسان خطيران درس بدر ، ودرس حنين ، درس بدر بليغ جداً ، ونحتاجه جميعاً ، ودرس حنين خطير جداً ، ونحتاجه جميعاً ، في درس بدر هناك افتقار إلى الله، افتقروا إلى الله :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية : 123)

ببدر افتقروا إلى الله فلما افتقروا إلى الله عز وجل نصرهم ، وفي حنين اعتمدوا على كثرتهم قال :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

فلم ينتصروا ، الملخص : إذا قلت أنا تخلى الله عنك ، قلت أنا بمالي ، بقوتي ، بمنصبي ، بعلمي ، بشهادتي ، بأسرتي ، بمركزي بالمجتمع ، بتاريخي ، إذا قلت أنا تخلى الله عنك وإذا قلت الله تولاك بالرعاية .

من تذلل لله رفعه :

إذاً

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً)

مع الله عز وجل في افتقار ، كلما ازددت افتقاراً له رفعك ، وأعلى قدرك ، ورفع ذكرك ، أعلى شأنك، هابك أعداؤك ، بل خدمك أعداؤك ، وكلما استعليت على طاعته أذلك الله .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

* * *

((سبحانك إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت))

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ)

لذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً)

(سورة الأحزاب)

المناجاة بين العبد و ربه مسعدة لاتصاله مع خالق السماوات و الأرض :

أيها الأخوة ، المنافقون قال الله تعالى عنهم :

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة النساء)

لذلك ورد في بعض الأحاديث :

((من أكثر من ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[ابن شاهين في الترغيب في الذكر عن أبي هريرة]

((من حمل سلعته فقد برئ من الكبر))

[القضاعي والديلمي عن أبي أمامة]

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله))

[أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله]

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً)

اجعل لك ساعة تناجي بها ربك ، تتذلل له ، يا رب أنا فقير وأنت الغني ، أنا ضعيف وأنت القوي ، أنا جاهل وأنت العليم ، يا رب ارحم ضعفي ، ارحم ذلي بين يديك ، هذه المناجاة بينك وبين الله مسعدة ، لأنك تتصل مع خالق السماوات والأرض .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً)

ورد :

((أن يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إليّ تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني ، وأحب من أحبني ، وحببني إلى خلقي ، قال : يا رب إنك تعلم أني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

ذكرهم بآلائي كي يعظموني ، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني .

ذكر الله علامة الإيمان :

المؤمن الصادق بقلبه تعظيم لله ، بقلبه محبة لله ، بقلبه خوف من الله ، في أمراض ، في أورام ، في فشل كلوي ، في خثرة بالدماغ ، في شلل ، في بلاء مخيف ، في صحة ، في راحة نفسية ، في زوجة صالحة ، في أولاد أبرار ، في دخل وفير ، وفي أشياء تحملك على محبة الله ، وفي آلاء ، وفي

مجرات، وفي كواكب تدعوك إلى تعظيم الله .

إذاً ذكر الله علامة الإيمان .

((من أكثر من ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[ابن شاهين في الترغيب في الذكر عن أبي هريرة]

دوران الذكر مع الإنسان في كل شؤون حياته :

والأمر بالذكر لا ينصب على الذكر فقط بل على كثرة الذكر لقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

لكن بالمناسبة قراءة القرآن ذكر ، والاستغفار ذكر ، والدعاء ذكر ، والتسبيح ذكر والتهليل ذكر ، والتكبير ذكر ، والتمجيد ذكر ، وقراءة كتاب العلم من أجل أن تعرف الله ذكر ، والدعوة إلى الله ذكر ، والأمر بالمعروف ذكر ، والنهي عن المنكر ذكر ، لذلك الذكر يدور مع الإنسان في كل شؤون حياته ،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً)

وكما قال الله عز وجل :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

قال علماء التفسير : أكبر ما فيها :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

أكبر ما فيها ، وقال بعضهم : ذكر الله لك في الصلاة أكبر من ذكرك له ، إنك إن ذكرته أديت وأحب العبودية له ، أما إذا ذكرك منحك الحكمة .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

يعني الصلاة الصحيحة تعني أنك حكيم وقفت كي تصلي وذكرت الله ، فأنت حينما تذكره يذكرك ، يذكرك بأن يهبك الحكمة ، يذكرك بأن يهبك الرضا ، يذكرك بأن يهبك التوفيق ، يذكرك بأن يهبك السداد والرشاد في القول والعمل .

لذلك ثمار الصلاة الصحيحة تفوق حدّ الخيال ، أقل هذه النتائج أنك في حفظ الله وفي رعايته .

إخفاء الذكر أفضل من رفع الصوت وإزعاج الآخرين :

إذاً :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً)

أي تذللاً

(وَخِيفَةً)

أي خوفاً ، هذه صفات المؤمن الذاكر .

(وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ)

رفع الأصوات ، وأن تعلو على كل صوت ، يعني الله عز وجل يريد قلبك ، يريد إخلاصك ، يريد مودتك ، يريد محبتك ، لا يريد صوتك العالي .

لذلك :

(وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ)

(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً)

(سورة الإسراء)

هناك إنسان إذا ما رفع صوته إلى أعلى طبقة ممكنة لا يعد ذاكراً ، لا ، أفضل الذكر إخفاء الذكر ، هناك ذكر بالقلب ، وهناك ذكر باللسان ، لكن بشكل لطيف ، أما رفع الأصوات وإزعاج الناس ، يعني الآذان بالمئذنة لكن المكبر بشكل معتدل ، لأن هناك مريض ، إنسان يعاني ما يعاني ، فرفع الصوت ، وإزعاج الآخرين ، ليس من الذكر إطلاقاً .

الذكر شحن للإنسان :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

أنت بحاجة إلى الذكر قبل الذهاب إلى العمل ، بالغدو ، وبعد العودة من العمل ، بحاجة إلى ذكر يومي وإن الصلاة ذكر ،

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

الذكر شحن ، أنت كهاتف جوال أنت بحاجة إلى شحن يومي صباحاً ومساءً .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

قبل الذهاب إلى العمل إنسان صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي ، وصلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح ، أنت مغطى برعاية الله مدة أربع و عشرين ساعة .

أكبر مرض يصيب الإنسان أن يكون غافلاً عن الله عز وجل :

(وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)

أكبر مرض يصيب الإنسان أن يكون غافلاً عن الله .

أيا غافلاً تبدي الإساءة و الجهل متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام وأنت لا تراه كأن الـــــعين حولاء أو عميا

لأنت كمزكوم حوى المسك جيبه ولكن الـــــمحرم ما شمّه أصلاً

* * *

(وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)

الغفلة أخطر ما يصيب الإنسان لذلك قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ)

(سورة الأعراف)

العندية هنا ليست عندية مكانية ، الله عز وجل فوق المكان والزمان ، هو خالق المكان والزمان ، عندية قرب من الله

(إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ)

الملائكة المقربون ،

(لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ)

التسبيح التعظيم ، التسبيح التمجيد ، التسبيح التنزيه ، إذا قلت سبحان الله فقد مجدته ، وإذا قلت سبحان الله فقد نزهته عن كل نقص ، وإن قلت سبحان الله فقد عظمته ، التمجيد والتنزيه و التعظيم .

(وَلَهُ يَسْجُدُونَ)

يخضعون ، المؤمن لا يخضع لله وحده .

أيها الأخوة الكرام ، بهذا الدرس انتهت سورة الأعراف بتوفيق الله وفضله الكريم .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الأعراف 007 - الدرس(01-60): تفسير الآية 1..... 1

سورة الأعراف 007 - الدرس(02-60): تفسير الآيتان 2 - 3 16

سورة الأعراف 007 - الدرس(03-60): تفسير الآيات 4 - 7 29

سورة الأعراف 007 - الدرس(04-60): تفسير الآيات 8 -9 43

سورة الأعراف 007 - الدرس(05-60): تفسير الآية 10..... 58

سورة الأعراف 007 - الدرس(06-60): تفسير الآية 11 73

سورة الأعراف 007 - الدرس(07-60): تفسير الآيات 11 - 13 89

سورة الأعراف 007 - الدرس(08-60): تفسير الآيات 14 - 19 104

سورة الأعراف 007 - الدرس(09-60): تفسير الآيات 18 - 23 119

سورة الأعراف 007 - الدرس(10-60): تفسير الآيات 23 - 25 135

سورة الأعراف 007 - الدرس(11-60): تفسير الآية 26..... 148

سورة الأعراف 007 - الدرس(12-60): تفسير الآية27 161

سورة الأعراف 007 - الدرس(13-60): تفسير الآيات 28 - 30 173

سورة الأعراف 007 - الدرس(14-60): تفسير الآيات 31 - 32 190

سورة الأعراف 007 - الدرس(15-60): تفسير الآية 33 204

سورة الأعراف 007 - الدرس(16-60): تفسير الآية 34 219

سورة الأعراف 007 - الدرس(17-60): تفسير الآيات 34 - 36 233
سورة الأعراف 007 - الدرس(18-60): تفسير الآيات 37 - 39 247
سورة الأعراف 007 - الدرس(19-60): تفسير الآيات 40 - 43 261
سورة الأعراف 007 - الدرس(20-60): تفسير الآيات 44 - 51 276
سورة الأعراف 007 - الدرس(21-60): تفسير الآيات 52 - 53 291
سورة الأعراف 007 - الدرس(22-60): تفسير الآيات 54 306
سورة الأعراف 007 - الدرس(23-60): تفسير الآيات 55 - 56 320
سورة الأعراف 007 - الدرس(24-60): تفسير الآيات 57 - 58 334
سورة الأعراف 007 - الدرس(25-60): تفسير الآيات 59 - 62 346
سورة الأعراف 007 - الدرس(26-60): تفسير الآيات 65 - 72 361
سورة الأعراف 007 - الدرس(27-60): تفسير الآيات 73 - 79 379
سورة الأعراف 007 - الدرس(28-60): تفسير الآيات 80 - 84 392
سورة الأعراف 007 - الدرس(29-60): تفسير الآية85..... 402
سورة الأعراف 007 - الدرس(30-60): تفسير الآيات 86 - 93 414
سورة الأعراف 007 - الدرس(31-60): تفسير الآيات 94 - 96 425
سورة الأعراف 007 - الدرس(32-60): تفسير الآيات 96 - 100 441
سورة الأعراف 007 - الدرس(33-60): تفسير الآيات 101 - 102 455
سورة الأعراف 007 - الدرس(34-60): تفسير الآيات 103 - 115 466

سورة الأعراف 007 - الدرس(35-60): تفسير الآيات 115 - 126 481
سورة الأعراف 007 - الدرس(36-60): تفسير الآيات 117 - 129 492
سورة الأعراف 007 - الدرس(37-60): تفسير الآيات 130 - 131 507
سورة الأعراف 007 - الدرس(38-60): تفسير الآيات 133 - 136 518
سورة الأعراف 007 - الدرس(39-60): تفسير الآيات 134 - 137 530
سورة الأعراف 007 - الدرس(40-60): تفسير الآيات 138 - 141 543
سورة الأعراف 007 - الدرس(41-60): تفسير الآيات 142 - 144 556
سورة الأعراف 007 - الدرس(42-60): تفسير الآيات 145 - 147 571
سورة الأعراف 007 - الدرس(43-60): تفسير الآيات 138 - 153 585
سورة الأعراف 007 - الدرس(44-60): تفسير الآيات 154 - 156 597
سورة الأعراف 007 - الدرس(45-60): تفسير الآيات 157..... 611
سورة الأعراف 007 - الدرس(46-60): تفسير الآيات 158- 162 625
سورة الأعراف 007 - الدرس(47-60): تفسير الآيات 163 - 166 639
سورة الأعراف 007 - الدرس(48-60): تفسير الآيات 169 - 171 652
سورة الأعراف 007 - الدرس(49-60): تفسير الآيات 172 - 174 667
سورة الأعراف 007 - الدرس(50-60): تفسير الآيات 175 - 176 680
سورة الأعراف 007 - الدرس(51-60): تفسير الآيات 178 - 179 692
سورة الأعراف 007 - الدرس(52-60): تفسير الآية180 704

سورة الأعراف 007 - الدرس(53-60): تفسير الآيات 181 - 184 717
سورة الأعراف 007 - الدرس(54-60): تفسير الآيات 185 - 187 730
سورة الأعراف 007 - الدرس(55-60): تفسير الآية 188 742
سورة الأعراف 007 - الدرس(56-60): تفسير الآيات 189 - 191 754
سورة الأعراف 007 - الدرس(57-60): تفسير الآيات 191 - 196 765
سورة الأعراف 007 - الدرس(58-60): تفسير الآيات 196 - 199 777
سورة الأعراف 007 - الدرس(59-60): تفسير الآيات 200 - 203 790
سورة الأعراف 007 - الدرس(60-60): تفسير الآيات 204 - 206 804
الفهرس.....818

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

التفسير الكامل

تفسير سورتي الأنفال و التوبة

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (01-30): تفسير الآية 1 ، إطاعة الله والرسول
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-03-06

بسم الله الرحمن الرحيم

ورود كلمة يسألونك في القرآن الكريم في آيات كثيرة:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الأول من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أولاً أيها الأخوة، كلمة

(يَسْأَلُونَكَ)

وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة تزيد عن عشر آيات، لكن الذي يلفت النظر أن بين السؤال والجواب كلمة

(قُلِ)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ)

لهم يا محمد

(الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ)

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة الآية: 219)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

(سورة البقرة الآية: 222)

إذاً جاءت كلمة قل متوسطة بين السؤال والجواب.

لا وساطة بين العبد وربه فالله تعالى لكل عباده:

إلا أن آية واحدة تلفت النظر وتعلمنا الكثير، وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة الآية: 186)

لم تأتِ كلمة قل، وكأن العلماء استنبطوا أنه لا وساطة بين العبد وربه أبداً، ليس بينك وبين الله وسيط.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية تعطينا دافعاً كبيراً إلى أن نسأل الله وحده، تعطينا دافعاً كبيراً إلى أن نناجي الله وحده، تعطينا دافعاً كبيراً إلى الشعور بأن الله لكل عباده.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

الجواب يحدد حيز السؤال:

أيها الأخوة، لكن السؤال يقتضي سائلاً، هم أصحاب رسول الله، ويقتضي مسؤولاً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم

(يَسْأَلُونَكَ)

ويقتضي مسؤولاً عنه أي موضوع السؤال.

هناك وقفة متأنية مع موضوع السؤال.

أحياناً السؤال يحدد حيز الجواب، أنا أسالك: ماذا أكلت البارحة قبل أن تنام ؟ في السؤال تحديد دقيق للجواب، أريد أن تقول لي: أكلت على طعام المساء كذا وكذا، هذه حالة.

أحياناً الجواب يحدد حيز السؤال، مثلاً:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ)

يا ترى السؤال لمَ المحيض ؟ ولمَ ينقطع المحيض في سن معين ؟ وما حكمة المحيض ؟ لا، الجواب يحدد حيز السؤال،

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ)

أي ما حكم مقاربة المرأة في المحيض ؟ هذا السؤال ما الذي أكده ؟ الجواب، فتارةً السؤال يحدد الجواب، وتارةً الجواب يحدد السؤال.

على الغني الذي يستثمر أموال اليتامى أن يستعفف و على الفقير أن يأكل بالمعروف:

أيها الأخوة الكرام:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)

(سورة البقرة الآية: 220)

يبدو أن الصحابة الكرام من شدة الورع خافوا أن تختلط أموالهم بأموال اليتامى لقوله تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

(سورة الأنعام الآية: 152)

دع بينك وبين مال اليتيم هامش أمان، الجواب هنا يحدد طبيعة السؤال،

(وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)

لذلك قال بعض العلماء: إذا كان الذي يستثمر أموال اليتيم غنياً فليستعفف، أي يعطيه الربح كله، وإن كان الذي يستثمر أموال اليتيم فقيراً فليأكل بالمعروف، وقد فسر العلماء المعروف بأجر المثل أو الحاجة، أيهما أقل ؟ مثلاً معك مليون ليتيم، ربح المليون أربعمئة ألف، لك النصف، وله النصف، أنت حاجتك في السنة ثلاثمئة ألف، أما نصيبك بالربح فمئتان تأخذ ما لك فقط ، أما لو معك خمسة ملايين و عند العمل بهم ربحوا خمسة ملايين، أنت حاجتك أربعمئة ألف تأخذ حاجتك، الحاجة أو أجر المثل أيهما أقل ؟ معنى:

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء الآية: 6)

الله سبحانه وتعالى جعل القمر تقويماً يقرأه كل البشر:

أيها الأخوة: الآن:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ)

(سورة البقرة الآية: 189)

البيئة التي كانت حول النبي الكريم أخلاقهم راقية جداً، صحابة نخبة البشر.

((إن الله اختارني واختار لي أصحابي))

[العقيلي عن أنس].

أما من حيث المعلومات الفلكية فلا يوجد معلومات فلكية كافية، لو أن الله سبحانه وتعالى قال: الهلال، حينما تكون الأرض بين الشمس والقمر يكون القمر محاقاً، ثم هلالاً ، ثم بدراً، قضية فلكية معقدة جداً، فربنا عز وجل قال:

(قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

(سورة البقرة الآية: 189)

هذا القمر تقويم، تقويم يراه كل الناس، يقول لك: ثلاثة بالشهر، أربعة عشر الاستدارة تامة، ستة عشر، حذف من الاستدارة حيزاً صغيراً، فكأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا القمر تقويماً يقرأه كل البشر.

لكل سؤال سائل ومسؤول ومسؤول عنه:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ)

(سورة البقرة الآية: 217)

هل تعتقدون أن السؤال عن عدد الأشهر الحرم ؟ لا.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة البقرة الآية: 217)

فهنا السؤال ما حكم القتال في الأشهر الحرم ؟ إذاً اتفقنا على أن لكل سؤال سائلاً، ومسؤولاً، ومسؤولاً عنه، وأن السؤال أحياناً يحدد حيز الجواب، أو أن الجواب أحياناً يحدد حيز السؤال.

الغنائم من فضل الله عز وجل:

الآن لو أردنا أن ندخل في الآية الأولى، وهي قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ) الأنفال جمع نَفَل، كسبب جمعها أسباب، نَفَل جمعها أنفال.

أيها الأخوة : النَفَل هو الغنيمة، والغنيمة ما يؤخذ في الحرب، الدولة المنتصرة تأخذ بعض ما عند العدو من مواد، من أسلحة، من كل أنواع المواد، هذه اسمها غنائم، مفردها غنيمة، لأنها من فضل الله عز وجل، ومن خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اختصت الغنيمة بهذه الأمة من دون الأمم السابقة، أما النفل بالسكون فهو الزيادة، النَفَل الغنيمة جمعها أنفال، و النفل الزيادة.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)

(سورة الإسراء الآية: 79)

العقائد في الإسلام توقيفية لا يجوز أن يضاف عليها ولا أن يحذف منها:

أيها الأخوة، لكن لأن العقائد في الإسلام توقيفية لا يجوز أن يضاف عليها، ولا أن يحذف منها، لأن العقائد والعبادات توقيفية، لا يمكن أن نضيف أية عبادة من عندنا على العبادات التي شرعها الله عز وجل.

لذلك إن أردت أن تقوم بعبادة نافلة ينبغي أن تكون هذه العبادة النافلة من جنس العبادة المفروضة، أي لا تستطيع أن تعمل حركات غير الصلاة و تقول: هذه صلاة، تحب أن تصلي صلاة نافلة تصلي النافلة كالصلاة المفروضة، لكن تنوي أن هاتين الركعتين صلاة نافلة، ينبغي أن تكون العبادة النافلة من جنس

العبادة الأصلية، من أجل ألا يحدث في الإسلام ما ليس منه، لأن العقائد في الإسلام توقيفية، لا يضاف عليها، ولا يحذف منها، الله عز وجل أمرنا أن نطور حياتنا.

بحياتنا الدنيا إعمار الأرض يقتضي إنشاء السدود أحياناً، استخراج الثروات ، تأمين سكن لكل الناس، إيصال الماء للبيوت، هذه كلها مستجدات ينبغي أن نفعلها، ينبغي أن نعمر الأرض، أن نحل مشكلات الشباب، أن نهيئ بيوتاً للزواج، أن نهيئ فرص عمل، أن ننشئ معاملاً، أن ننشئ سدوداً، أن ننشئ جسوراً، أن ننشئ جامعات.

كنت في بلد بعيد في أمريكا الجنوبية زرت سداً هو أكبر سد في العالم، حجز بحيرة وراءه، طولها مئة و ثمانون كيلو متر، هذا السد فيه عشرون عتبة، كل عتبة تساوي محطة حرارية قيمتها خمسمئة مليون دولار، هذا السد يقدم كهرباء بأعلى درجة من القوة، هذا من إعمار الأرض، إنشاء السدود، استخراج الثروات، تصنيع هذه الثروات، إنشاء البيوت، إنشاء المستشفيات، إنشاء الطرق، إنشاء الجسور، هذا من إعمار الأرض.

أما في الدين فلا يوجد بدع، الدين توقيفي، ولاسيما عقائد الدين، وعبادات الدين، لذلك لو أن إنساناً تاقت نفسه لعبادة ليست مفروضة، تاقت نفسه لعبادة نافلة، ينبغي أن يؤدي النافلة كما تؤدى العبادة الأصلية، من أجل ألا نحدث في الإسلام تطوراً يغير معالمه.

من ابتلي فصبر كان للناس إماماً:

أيها الأخوة، نأتي بمثل: سيدنا إبراهيم حينما ابتلي أن يذبح ابنه إسماعيل:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)

(سورة الصافات)

حينما ابتلي أي امتحنه الله أن يذبح ابنه إسماعيل، ومما يزيد هذا الامتحان صعوبة أنه ما جاء بشكل صريح جاء بشكل رؤيا، قال:

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

(سورة الصافات الآية: 102)

ليس الشيء سهلاً، أن إنساناً يذبح ابنه الشاب، وهو نبي، لو أنه قيل له: سيأتي من يذبح ابنك فاصبر، هذا أسهل، أما ينبغي أن تذبحه بيدك، وهو ابنك، وسيدنا إبراهيم لئلا يأتي إلى ابنه هاجس العقوق، لمَ تذبحني ؟ من قال لك ذلك ؟ لئلا يأتي إلى ابنه هاجس العقوق، شرح له القضية،

(قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

قال:

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)

(سورة الصافات)

بأي مستوى سيدنا إبراهيم ؟

الآن تطلب من إنسان ساكن جانب المسجد احضر درساً فقط، المسجد مدفأ في الشتاء، ومكيف في الصيف، هناك مياه باردة للشرب، وهناك مياه ساخنة للوضوء، والسجاد ثخين، و تحت السجاد مواد من أجل أن تستريح، لكن احضر الدرس، يقول له: اذبح ابنك، نحن لا نحتمل هذا الابتلاء.

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة الآية: 124)

متى تكون للناس إماماً ؟ حينما تبتلى فتصبر،

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

المؤمن الصادق واثق من حكمة الله يتلقى قضاء الله وقدره بالرضا واليقين:

أيها الأخوة، الآن دقق:

(فَلَمَّا أَسْلَمَا)

(سورة الصافات الآية: 103)

الأب النبي الكريم أبو الأنبياء استسلم لهذا الأمر، والابن الشاب البار بوالده ، المؤمن بربه، وبحكمة ربه قال:

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

قال:

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)

(سورة الصافات)

ماذا يستنبط لنا ؟ أنه حينما يأتي من قضاء الله وقدره شيء مزعج، أو متعب، أو مؤلم، وتقبله، سريعاً ما ينزاح عنك، أما إذا لم تقبله، تأخر بقاء هذا القضاء والقدر فيك، هذا الدرس، المؤمن الصادق واثق من حكمة الله، واثق من عدل الله، لذلك يتلقى قضاء الله وقدره بالرضا واليقين، من هنا قال سيدنا علي: " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)

درس بليغ لنا.

قصص الأنبياء توجيه وعبرة لنا:

أنا أتمنى عليكم ألا تفهموا أن هذا القرآن فقط كتاب مقدس، تقرأه تعبداً، هذا منهج لنا.

أؤكد لكم ثانية أن قصص الأنبياء الذين مضوا هي لنا، درس لنا، توجيه لنا، فإذا قبلت قضاء الله وقدره سريعاً ما تحل المشكلة.

أيها الأخوة، قال النبي الكريم:

((عَجَبا لأمر المؤمن ! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له))

[أخرجه مسلم عن صهيب الرومي]

سيدنا عمر بن الخطاب، كان إذا أصابته مصيبة قال: " الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني ـ إنسان ترك الصلاة، إنسان أكل مالاً حراماً، إنسان وقع في الفاحشة، أعوذ بالله، هذه المصائب ـ الحمد لله إذ لم تكن في ديني ".

أولاً: حمد الله على أي مصيبة لم تصل إلى الدين، ما ارتكب حراماً، ما أكل مالاً حراماً، ما تعامل مع الحرام، ما نافق، ما جمع مالاً على حساب مبادئه، " الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها ".

مثلاً: حادث سيارة لكن الأولاد سلموا، والزوجة سلمت، الحمد لله، نعمة كبيرة أن المصيبة أصابت المركبة فقط، أما الركاب ففي سلامة تامة، " الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها "، هذا المؤمن راضٍ.

مرة أحد العلماء قال: " ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، بستاني في صدري، ماذا يفعل أعدائي بي ؟ "

لذلك هذا العالم الجليل قال كلمة أخرى، قال: " في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة "، والدليل:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة، ألا يكفي أن الله عز وجل فدى ابنه الذبيح بذبح عظيم ؟ آتاه ولداً آخر، وجعله نبياً، وآتاه ولداً ثالثاً.

من كان سروره بالنقمة كسروره بالنعمة فقد رضي عن الله:

أيها الأخوة، الذي يرضى عن الله دليل إيمان كبير، إنسان في أثناء الطواف حول الكعبة، قال: يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ فكان وراءه أحد العلماء، قال له: يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال له: سبحان الله ! كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه ؟ فقال هذا العالم الجليل: " إذا سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ".

هنا البطولة، أن تقول: يا رب، عندك مشكلة، مشكلة صحية، مشكلة مالية، مشكلة أسرية، مشكلة في العمل، يا رب لك الحمد، لذلك قالوا:

كن عن همومك معرضا وَكِلِ الأمور إلى القضـا
وابشر بـخير عاجل تنسى به ما قد مضـى
فلرب أمـر مسخط لك في عواقبه رضـا

* * *

ولربما ضاق المضيق ولربما اتسع الفضـا
الله يفعل مـا يشاء فلا تكن معترضـا
الله عودك الـجميل فقس على مـا قد مضى

* * *

من يقبل بقضاء الله وقدره يُرفع عنه الأذى:

لذلك درس بليغ لنا إذا جاء قضاء الله وقدره بما لا يريحنا، أو إذا جاء مكروه القضاء ينبغي ألا نجزع، وألا نسخط، وألا نغضب، وألا نتمرد، لكن تقول: الحمد لله على كل حال، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، فحينما تقبل قضاء الله وقدره يُرفع عنك، وحينما لا تقبله يستمر، هذا الدرس البليغ في هذه القصة التي أكرمنا الله بها.

(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ)

(سورة الصافات)

ولد آخر.

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ)

(سورة الأنبياء)

كان الشيء المقلق أن يذبح ابنه إسماعيل، فسلم ابنه إسماعيل، وآتاه الله إسحاق ويعقوب نافلة زيادة على الفضل.

أحياناً يرزقه ولداً يحفظ له ذكره بعد موته، من والدك ؟ والدي فلان، ما شاء الله! رحمة الله عليه، كان صالحاً، فالابن كلما سئل: من والدك ؟ يذكر اسم والده فيترحم الناس عليه، فنقول: هذا الولد حفظ ذكر أبيه، لكن أباه داعية، ما قولك بولد يكون بعد أبيه داعية مثلاً ؟ هذا أرقى بكثير.

فسيدنا إبراهيم أتاه الله ولداً آخر نبياً من الصالحين، فاستمرت الدعوة.

أفضل كسب الرجل ولده:

لذلك أيها الأخوة، لم يبقَ في أيدي المسلمين من ورقة رابحة إلا أولادهم، لو حصّلت أكبر ثروة في الأرض ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل كسب الرجل ولده))

[أخرجه الطبراني عن أبي بردة بن نيار]

لذلك حينما قال الله عز وجل:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ)

كان الامتحان الصعب أن يذبح ابنه، فإذا ابنه يسلم ، ويؤتيه الله ابناً نبياً، وابناً آخر سيدنا يعقوب.

النبي عليه الصلاة والسلام بُعث إلى عامة الناس فأعطي بذلك زيادة على الأنبياء:

أيها الأخوة الكرام، مما أعطي النبي عليه الصلاة والسلام زيادة على الأنبياء و الصالحين قال:

((أعطيتُ خَمْسا لم يُعْطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهر))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله]

ولما تركت أمته منهجه من بعده هُزمت بالرعب مسيرة عام، إذا طبقنا منهج النبي الكريم ننصر بالرعب، فإذا تركنا سنته نهزم بالرعب.

((وجُعلتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطهورا، فأيُّمَا رَجُل من أمَّتي أدركته الصلاة فليصلّ وأحِلّت ليَ الغنائمُ، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأعْطِيتُ الشفاعة، وكان النبيُّ يبعثُ إلى قومهِ خاصة وبعثتُ إلى الناس عامة))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله]

الأنبياء السابقون بعثوا إلى أقوامهم، والنبي عليه الصلاة والسلام بعث إلى عامة الناس.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

(سورة الأنبياء)

عدم إباحة الغنائم للأنبياء السابقين و إنما منحت نافلة لنبينا الكريم:

إذاً: نعود إلى الآية الكريمة:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ)

الأنفال جمع نَفَل ، وهي الغنائم، ما تشريع الله في الغنائم ؟ الغنائم لم تبح للأنبياء السابقين، إنما منحت نافلة لنبينا عليه أتم الصلاة والتسليم.

أيها الأخوة الكرام: هناك مصطلحات، من هذه المصطلحات:

الغنيمة: ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين، وتقسم هذه الغنائم فيما بينهم بنسب معينة، فقديماً مثلاً المقاتل له سهم ، والفارس الذي معه فرس له سهمان.

الفيء: كل مالٍ صار إلى المسلمين من دون قتال، هذا اسمه فيء.

القبض: الغنائم قبل أن تقسم، أحياناً تكون المعركة عصيبة جداً، والعدو شرس جداً، وقوته كبيرة جداً، فالقائد يعطي حوافز للمواطنين، ففي بعض الغزوات قال عليه الصلاة والسلام:

((مَن قَتَلَ كافراً فله سَلَبُهُ))

[أخرجه مسلم وأبو داود عن أنس بن مالك]

أي مال هذا المقتول لمن قتله شخصياً، لا يدخل بالحسابات، هذا اسمه حافز تشجيعي.

في يوم بدر هناك واقعة، يرويها الصحابي الجليل سعد بن مالك رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله: قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف ـ يوجد سيف مع الغنائم يبدو جيد جداً ـ فقال عليه الصلاة والسلام: " إن هذا السيف لا لي و لا لك، ضعه، قال: فوضعته ثم رجعت، فقلت في نفسي: عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلي بلائي، أي إنسان ما قاتل كما قاتلت يأخذ هذا السيف (شعور داخلي)، قال: فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوني من ورائي، فقال الصحابي: قد أنزل الله فيّ شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام: كنت سألتني السيف وهو ليس لي، وإنه قد وهب لي، فهو لك، لقوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ)

أي النبي يوزعها، هي لله ، والنبي يوزعها، قال له: هذا السيف أصبح لي بنص هذه الآية فهو لك.

القضية المبتوت بها من قِبل الله تعالى لا يسمح لأي إنسان أن يعارضها :

أيها الأخوة الكرام، يبدو أن مشكلة محدودة نشبت بين الصحابة حينما وزعت بعض الغنائم، فلذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يحسم هذا الأمر فقال:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ)

(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

أن تسألوا، هذه قضية مبتوت بها، لقول الله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: 36)

مرة سألوا دكتورة بالجامعة في مصر عن رأيها في التعدد، فطبعاً قالت كلمة رائعة، قالت: ما كان لي أن أدلي برأيي في التعدد وقد سمح الله به، من أنا ؟ المشرع هو الله ، ما كان لي أن أدلي برأيي في التعدد ، وقد سمح الله به.

فلذلك الآية الكريمة:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

أي أطيعوا الله.

على الإنسان طاعة الأمر القرآني و طاعة بيان رسول الله:

لكن عندنا آيات متعددة:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(سورة الأنفال الآية: 46)

الله عدد المطاع،

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

عندنا آية أخرى:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

(سورة النساء الآية: 59)

عدد الأمر والمطاع. وعندنا آية ثالثة:

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

(سورة النور الآية: 56)

عندنا

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

و عندنا

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

و عندنا آية

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

إذاً: الله عز وجل أمرنا بالصلاة.

(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

(سورة الحج الآية: 78)

هناك أحاديث كثيرة جداً من اختصاص النبي عليه الصلاة والسلام، يقول لك: الفجر ركعتان، الظهر أربع ركعات، العصر أربع، المغرب ثلاث، العشاء أربع، السنن ركعتان قبل الفجر، أربع قبل الظهر، وركعتان بعد الظهر، ركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، هنا:

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

لأن الأمر الكلي جاء في القرآن، أما التفاصيل، أنصبة الزكاة، آلاف الموضوعات التي تركت لرسول الله، فهذه الموضوعات تغطيها الآية الكريمة:

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أما إذا جاء النص

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

طبعاً أطيعوا الأمر القرآني، وأطيعوا بيان رسول الله، النبي بيّن.

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل الآية: 44)

أما إذا قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أي النبي وحده مشرع، أطيعوا النبي استقلالاً،

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الأمر قرآني، والنبي بيّن، الله كرم المطاع

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

النبي الكريم مثلاً حرم النسب من الرضاعة، هنا

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

استقلالاً، هناك شيء جاء به النبي و هو لم يرد في القرآن، لأنه مشرع.

الوحي نوعان ؛ وحي متلو هو القرآن و وحي غير متلو هو السنة:

لذلك هناك وحي متلو هو القرآن، ووحي غير متلو هو السنة، هناك أشياء النبي بينها:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

هناك أشياء النبي أضافها، كتحريم النسب من الرضاعة، بالقرآن:

(وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)

(سورة النساء الآية: 23)

الآن وعماتكم من الرضاعة، وخالاتكم، هنا

(وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)

استقلالاً، وإذا كان هناك قضية جاءت في القرآن والنبي فصّل في تفاصيلها

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

هذه الآيات التي تأتي على أشكال متعددة.

الثقة بالله عز وجل إذا اختص لنفسه بشيء:

أيها الأخوة، الذي يستنبط من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى إذا اختص لنفسه بشيء

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

وإذا اختص النبي بشيء أيضاً

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

والآية التي تغطي هاتين الآيتين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة الحجرات الآية: 1)

أنت تزور طبيباً يحمل أعلى شهادة، درس ثمانية و ثلاثين عاماً، يقول له: حبة أسبرين يومياً، ما السبب دكتور ؟ هذا ليس مريضاً أديباً، ما دام أتيت إلى طبيب متفوق جداً، تثق بعلمه و إخلاصه و أخلاقه، ينبغي ألا تسأل، فكيف مع خالق السماوات والأرض ؟.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ)

أن تسألوهما ،

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (02-30): تفسير الآية 1 ، تقوى الله تعالى وإصلاح ذات البين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-03-20

بسم الله الرحمن الرحيم

التقوى في اللغة:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني من دروس سورة الأنفال، ولا زلنا في الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

فعل اتق ماضيه وقى، (وقى، يقي، ق)، الأمر حرف واحد وقى، يقي، ق، يعني اجعل بينك وبين غضب الله وقاية، اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية ، اجعل بينك وبين سخط الله وقاية، أو اتق أن تعصيه، اتق أن تخالف أمره، اتق أن يغضب عليك، اتق ألا تكون كما ينبغي.

فكلمة التقوى، واتقوا، واتق، ويتقون، مشتقات هذا الفعل وردت في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمئة مرة، لأن الإنسان أودع الله فيه الشهوات، والشهوات حيادية، والشهوات بإمكانك أن تتحرك منطلقاً منها تقريباً 180 درجة، والشرع الحكيم سمح لك بمسافة، أو بحيز، أو بمساحة، ما سواها في مخالفة، فالمؤمن يتقي أن يقع في المكان المحرم، في الشهوة المحرمة، في الكلمة المحرمة، في أكل الطعام الحرام، في فعل الحرام، فكل شيء الله أودعه فيك حيادي يعني سلم ترقى به، أو دركات تهوي بها.

فلذلك لو أردنا أن نقف في اللغة قليلاً، وقى، يقي، ق، الفعل اتقى هذا فعل مزيد مثل كتب، اكتتب، وقى، اوتقى، دغمت التاء بالواو وأصبح اتقى، فهو فعل خماسي، مزيد بحرفين على الثلاثي، يعني أبسط معنى للتقوى أن تطيع الله، أمرك بالصدق صدقت، نهاك عن الكذب انتهيت، أمرك بأداء الأمانة أديتها، نهاك عن الخيانة انتهيت، أبسط معنى للتقوى هي طاعة الله، أوامر الله عز وجل موجودة في الكتاب وفي السنة.

المنهج الإسلامي منهج تفصيلي يدور مع الإنسان أينما كان :

لكن النقطة الدقيقة أن معظم المسلمين توهموا أن الإسلام عبادات شعائرية ليست غير، لا أبداً، العبادات الشعائرية هي خمس عبادات، بل هي خمسة بنود من مئة ألف بند إن شئت أو من خمسمئة ألف بند إن شئت، المنهج الإسلامي منهج تفصيلي، يدور معك أين ما كنت، يبدأ معك من فراش الزوجية، وهو أخص الخصوصيات، وينتهي بالعلاقات الدولية وهو من أعم العموميات، منهج كامل في حركتك، في نومك، في استيقاظك، في زواجك، في عملك، في إقامتك، في سفرك، بالسلم، بالحرب، بالغنى، بالفقر، علاقتك بأولادك، علاقاتك بآبائك ، علاقتك بإخوانك، علاقتك بمن حولك، علاقتك بالمؤمنين، علاقتك بغير المؤمنين، منهج تفصيلي.

القرآن الكريم ستمئة صفحة، كل أمر بالقرآن الكريم هو بند من بنود المنهج، إذا قال الله عز وجل:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

هذا أمر يقتضي الوجوب.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق)

إذا قال القرآن الكريم:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)

(سورة البقرة الآية: 83)

أمر، فبطولتك كمؤمن إذا قرأت القرآن أن تقف عند كل فعل أمر في القرآن، وأن تسأل نفسك أين أنت منه ؟ هل أنت مطبق له أم لا ؟.

كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك:

لذلك المؤمن يتوهم أنه صلى، وصام، وحجّ، وزكى، وانتهى كل شيء نقول له ما انتهى شيء، الإسلام منهج تفصيلي، يقتضي أن تأخذ كل أمر في القرآن الكريم على أنه أمر يقتضي الوجوب، بل قال بعض العلماء: علة أي أمر أنه أمر.

مرة عالم من علماء دمشق سافر إلى بلاد بعيدة، إلى أمريكا، والتقى برجل هداه الله إلى الإيمان، فانطرح موضوع لحم الخنزير، فهذا العالم الدمشقي تحدث ساعتين عن مضار لحم الخنزير، وعن الدودة الشريطية، وعن انتقال طباع الخنزير إلى آكله، وعن، وعن، وجاء بأدلة، وبراهين، وأمثلة،

وتعليقات، وتحليلات، هذا الذي آمن في هذه البلاد ابتسم، قال له: يكفيك أن تقول لي إن الله حرمه، لأن علة أي أمر أنه أمر.

أنت مع طبيب معه شهادة عليا من بلد بعيد، لا تفكر تسأله عن بعض التوجيهات الطبيب هكذا قال، أنت مع إنسان تثق بعلمه، وبخبرته، وبحرصه على صحتك، يعطيك تعليمات، قد لا يخطر في بالك إطلاقاً أن تسأل عن سببها أو عن علتها.

فلذلك من باب أولى أن تقف مع الله هذا الموقف، الإمام الغزالي الذي قال: يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ طبيب عادي قال لك: ألغ الملح، ضغطك مرتفع، قال لك: بع هذا البيت في الطابق الرابع واشترِ بيتاً في الطابق الأرضي، تبادر فوراً، لو أن طبيباً منعك يا نفس من أكلة تحبينها، لاشك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً فما أجهلك، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله ؟ إذاً فما أكفرك.

كل أمر في القرآن الكريم و في السنة الصحيحة يقتضي الوجوب:

لذلك أيها الأخوة، أبسط معنى لقول تعالى

(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

يعني أطيعوا الله، هناك أوامر في القرآن، وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، طبعاً في استثناء ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، إذا الله عز وجل قال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية: 29)

هذه لام الأمر، هل يعقل أن يأمر الله بالكفر ؟ هذا اسمه أمر تهديد، إذا الله عز وجل قال:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

(سورة البقرة الآية: 187)

هذا أمر إباحة، وإذا قال:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

(سورة النور الآية: 32)

هذا أمر ندب، هناك أمر ندب، و أمر إباحة، و أمر تهديد، وهناك أمر يقتضي الوجوب، وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، وكل أمر في السنة الصحيحة يقتضي الوجوب، لقوله تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية: 7)

الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به:

الآن هناك حقيقة دقيقة جداً، أبدأها بهذا المثل، إنسان لا يقرأ ولا يكتب، اشترى مكيفاً، والجو حار، فتح مفتاح التشغيل فجاءه هواء بارد، فانتعش به واستمتع به، وهو لا يفقه عن هذا المكيف شيئاً، لا يعرف، يأتي إنسان يحمل دكتوراه بالتكييف، واشترى مكيفاً ووضعه في غرفته، والجو حار، وفتح مفتاح التشغيل، وجاءه هواء بارد، كلا الرجلين الذي يجهل آلية هذا الجهاز والذي يعلم آلية هذا الجهاز انتفع بالهواء البارد.

لذلك قالوا: الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، يعني أنت ببساطة لو طبقت منهج الله، قال لك الله عز وجل: اصدق صدقت، لا تكذب ما كذبت، أدِ واجبك، أديت واجبك، كن زوجاً محسناً، كنت زوجاً محسناً، ما عندك إمكان تفهم حكمة الأمر، ولا حللت أمراً، ولا بحثت عن أمر، فقط طبقت الأمر، قطفت كل ثمار الأمر، فالانتفاع بالأمر الإلهي، أو الانتفاع بترك ما نهاك الله عنه، ليس أحد فروع العلم به، لو لم تعلم.

هذا الدين لكل البشر، للمتعلم ولغير المتعلم، للذي يقرأ وللأمي، ما دام الدين كالهواء للبشر، كل إنسان بحاجة للهواء، إن كنت تعرف أن عندك رئتين، والهواء فيه أوكسجين، والدم حمل غاز الفحم، ويجب أن يتم التبادل في الرئتين بين غاز الفحم والأوكسجين أو لم تعلم، أنت مهمتك تستنشق الهواء، أميّ، متعلم، دكتور، مثل بعضها، الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، لأن هذا الدين لكل البشر، متعلم، غير متعلم، أميّ، قارئ، كاتب ، مثقف، دكتور، جاهل، ما دام نفذ الأمر قطف ثماره، واضح ؟.

أعلى مستوى في التقوى أن الله تعالى يقذف في قلب الإنسان نوراً يرى به الحق والباطل:

إذاً أبسط معنى للتقوى طاعة الله، لكن أحياناً الإنسان يعرف فضلاً عن أن هذا الأمر أمراً يعرف حكمته، الله قال:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ)

(سورة البقرة الآية: 63)

من حكمة، فإذا شخص أضاف إلى طاعة الله الحكمة يصبح داعية، عندئذٍ يستطيع أن يقنع الآخرين بتنفيذ هذا الأمر.

أحياناً مثلاً تقول لشخص: أنت حينما تبذل جهداً ونشاطاً تصبح عضلة القلب قوية وتأتي بالأدلة، أنت حينما تمشي كل يوم ساعة، هذا المشي يلين العضلات، يدرب القلب على بذل جهد عالٍ، فكلما أمكنك أن تحلل الأمر، وأن تفهم حكمته، أمكنك أن تقنع الآخر به، ففرق العابد عن العالم، العابد ينفذ الأمر،

والعابد ناجٍ، أما العالم ينفذ الأمر ويعلم حكمة الأمر فبإمكان العالم أن يقنع الآخر بطاعة الله عن طريق بيان الحكمة، هذه حالة أعلى.

أخوانا الكرام، العالم يطيع وهو يعلم الحكمة، لكن لو فرضنا أن هناك قوارير، كل قارورة فيها مادة معينة، مكتوب على هذه القارورة ملح، هنا مكتوب صوديوم، هنا مكتوب بوتاسيوم، هنا مكتوب زنك، فأنت من خلال هذه اللصاقة تعرف المادة، هذه أول مستويات المعرفة، في إنسان لو ما في لصاقات خبرته بالمواد الكيماوية عالية، يقول لك: هذا بوتاس، هذا ملح، هذا نحاس، هذا زنك، فحينما تعرف الشيء باسمه هذا مستوى، لكن في مستوى أعلى أنك تعرف الشيء من دون اسمه هذه خبرة أعلى.

يعني أنت في هذه الحالة تستغني عن البيانات، هناك أنواع من جميع البضائع معظم الناس يعرفونها بحسب البيانات، أصحاب الخبرة بكل حرفة يعرفون الأنواع من دون بيانات يعرفونها بالخبرات، هذا مستوى أعلى، لكن أعلى مستوى بالتقوى أن الله جلّ جلاله يقذف في قلبك نوراً ترى به الحق حقاً، والباطل باطلاً.

أبسط مستوى من التقوى أن يعرف الإنسان المحرمات بالمنهيات والأوامر بالمأمورات:

الآن انتقلنا إلى موضوع دقيق، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية: 28)

وأوضح مثل أيها الأخوة، تمشي أنت ليلاً في طريق مخيف ضمن غابة، في حفر ، في أكمات، وفي أفاعي و عقارب، ومعك مصباح كشاف، بهذا المصباح الكشاف رأيت الحفرة فابتعدت عنها، رأيت الأكمة فتجنبتها، رأيت الحية فقتلتها، مصباح الكشاف أراك كل شيء.

إذاً أبسط مستوى من التقوى أن تعرف المحرمات بالمنهيات، وأن تعرف الأوامر بالمأمورات، وأن تعرف المباحات لم يكن هناك أمر به، ولا نهي عنه، هذا مستوى، لكن أحياناً ينمو حسك الفقهي، هذا حرام ولو لم تنبأ به، حرام أن أفعل هذا، هذا مستوى أعلى.

لما إنسان يرتقي أول الأمر الإنسان يحب الغناء، فاستمع إلى حديث صحيح أن الغناء محرم، هناك آيات تؤكد ذلك، ترك الغناء لكن هناك أغنيات يحبها كثيراً، لم يعد يستمع إلى هذه الأغنيات، لكن مرة راكب بسيارة عامة وضع السائق هذه الأغنية فتجاوب معها، لكن هو لم يسمع استمع، فرق كبير بين سمع واستمع، هو لم يأتِ بشريط، وضعه في المسجلة، ويستمع لهذه الأغنية، لكنه سمعها عرضاً وتفاعل معها، لكن بعد حين حينما تنمو أضواءه الإيمانية وحينما يتقدس قلبه بمعرفة الله، يشمئز من هذه الأغنية التي كان يحبها، هذا مستوى أعلى.

سعادة الإنسان ناتجة عن رؤيا صحيحة وشقاؤه عن رؤيا خاطئة :

أنت تبدأ في المنهيات، وهناك مأمورات، تنتهي عما نهاك الله عنه، وتأتمر بما أمرك الله به، لكن بعد حين تنشأ عندك أذواق إيمانية لا تقبل بالخطأ ولو لم تعرفه أساساً.

ورد أن عمر بن الخطاب قال: **" نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه ".**

هذا مستوى أعلى، أما أعلى مستوى أن يلقي الله في قلبك نوراً، ترى به الحق حقاً والباطل باطلاً، وهذا يستند إلى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

القصة بأكملها رؤيا، هذا الذي سرق ماذا رأى ؟ قبل سنوات عديدة، أناس دخلوا على صائغ في بلدة في أطراف دمشق، وأخذوا كل ما عنده من ذهب وقتلوه، هم خمسة، بعد فترة قصيرة شيء رائع جداً، علقوا جميعاً وشنقوا في مكان الجريمة، هؤلاء حينما اقتحموا المحل، وقتلوا الصائغ، وسرقوا الذهب، هل رأوا أنهم سوف يعدمون ؟ لا، رأوا أنهم سوف يغتنون بهذا المال، إذاً رؤيتهم خاطئة.

كل سعادتك برؤيا صحيحة، وكل شقاء الإنسان برؤيا خاطئة.

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اِتباعه))

هؤلاء الذين انحرفوا، وظلموا، وبنوا مجدهم على أنقاض الآخرين، بنوا حياتهم على قتلهم، بنوا أمنهم على خوفهم، بنوا غناهم على فقرهم، بنوا عزهم على ذلهم، هؤلاء دمرهم الله عزّ وجل، هم حينما فعلوا ذلك ما تصوروا أن الله سيدمرهم، تصوروا أنهم سيفوزون.

من استنار بنور الله عز وجل ربح الدنيا و الآخرة:

لذلك من هو البطل ؟ هو المؤمن الذي استنار بنور الله، لما امرأة بأعلى درجة من الجمال، امرأة العزيز، راودت شاباً وسيم الطلعة، هو عبد عندها، هي سيدته، وليس لصالحها أن تتكلم لأحد عن هذا الذي جرى بينهما، وهو شاب قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف الآية: 23)

ماذا رأى ؟ رأى أن هذه جريمة، رأى أن الزنا خيانة، رأى أن الزنا يحجب عن الله عز وجل، ملك رؤيا صحيحة، لكن لو وضعنا مليون شاب مكانه الآن بعصر العولمة الحيونة يراها مغنماً كبيراً.

سائق سيارة، امرأة أشرت إليه، وقف، صعدت، قال: إلى أين يا أختي ؟ قالت له: خذني إلى أي مكان شئت، فهم، رأى أن هذا مغنماً كبيراً، بعدما قضى حاجته أعطته رسالة فتحها، فيها سطر واحد، مرحباً

بك في نادي الإيدز، انتهى.

سمعت قصة قرأتها، سافر شخص إلى إيطاليا، وفي منتصف الليل طُرق بابه، بغي طرقت بابه، رآها غنيمة كبيرة، بعد أن انتهى ونام استيقظ لم يجدها، كتبت له بأحمر الشفاه على مرآة الغرفة أنت مصاب بالإيدز، فانتحر.

بطولتك أن تملك رؤيا صحيحة.

المؤمن لا يعصي الله عز وجل لأن عطاء الله بطاعته:

المؤمن والله الذي لا إله إلا هو لو قطعوه إرباً إرباً لا يعصي الله، لأنه يرى الدمار، والشقاء، والهلاك، والإحباط، والفقر، والفضيحة بمعصية الله، والقوة، والمنعة، والعزة والتوفيق، وعطاء الله بطاعته.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

كل بطولتك في هذه الدروس أنك تملك رؤيا صحيحة، وكل خطأ الناس إذا تركوا طلب العلم لا يملكون رؤيا صحيحة، يملكون رؤيا مغلوطة.

هذا الذي هدم عشرات ألوف البيوت في غزة، من جبابرة الأرض، هو هاوي سفك دماء، مذبحة صبرا وشاتيلا، ومذابح أخرى، هذه السنة الرابعة والنصف، لم يمت بعد، وأمدّ الله في عمره، قبل أيام رأيت صورة له، يا لطيف ! شيء يصعب وصفه، أربع سنوات ونصف في سُبات، الله كبير، ما رأى أن هؤلاء الذين يقتلهم عباد الله، ما رأى أن الله له بالمرصاد.

كل بطولتك أن تملك رؤيا صحيحة، كل ثمرات هذه الدروس أن تملك رؤيا صحيحة، كل نتائج هذه الدروس أن تملك رؤيا صحيحة، كل الدين أن تقول:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

والله يا أخوان، أروي حديثاً، لا أعتقد أنه في حديث ينفعك كهذا الحديث:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[رواه أبو نعيم عن ابن عمر مرفوعاً]

لذلك من أجل أن تملك رؤيا صحيحة ينبغي أن تطلب العلم.

أيها الأخوة الكرام، إذاً أعلى درجة في التقوى، أن الله يقذف نوراً في قلبك، ترى به الحق حقاً، والباطل باطلاً، هذا النور هو أثمن شيء يملكه المؤمن، يقول ماشي بنور الله يعني ألقى الله بقلبه نوراً أراه الحق حقاً، والباطل باطلاً.

على المؤمن إصلاح العلاقات بينه و بين ربه بتقديم القربات له و ضبط المعاملات معه:

أيها الأخوة الكرام،

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

البين، في بين بيني وبين الله، عليك إصلاح هذه العلاقة، إصلاح هذه العلاقة لمعرفته، إصلاح هذه العلاقة بطاعته، إصلاح هذه العلاقة بالتقرب إليه، إصلاح هذه العلاقة بخدمة عباده، إصلاح هذه العلاقة بأداء العبادات، إصلاح هذه العلاقة بضبط المعاملات، إصلاح هذه العلاقة بتقديم القربات إلى الله عز وجل، فحينما تأتي إلى مجلس علم، وتتعرف إلى الله، وتذهب إلى البيت، وتنفذ ما سمعته من توجيهات قرآنية، ونبوية، فأنت في إصلاح علاقتك مع الله.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

أصلح ما بينك وبين الله.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ: للآية مستويات منها:

1 ـ إصلاح العلاقة بين الإنسان و ربه:

أخوانا الكرام، هذه الآية لها مستويات، أعلى مستوياتها أن تصلح العلاقة بينك وبين الله، وأنا أقول لكم: ما لم تصلح علاقتك مع الله أولاً، ومع أهلك وأولادك ثانياً، وفي عملك ثالثاً، ومع صحتك رابعاً لن تكون ناجحاً، لأن أي خلل في إحدى هذه الجهات ينسحب على كل الجهات، الآن ليس هناك نجاح جزئي، النجاح لا يسمى نجاحاً إلا إذا كان كلياً، ينبغي أن تنجح في علاقتك مع الله، وينبغي أن تنجح في علاقتك مع أهلك و أولادك، وينبغي أن تنجح في علاقتك مع من تعمل معه في عملك، الذي تكتسب رزقك منه، ويجب أن تنجح مع صحتك.

2 ـ إصلاح العلاقة بين الإنسان و بين من حوله:

المستوى الثاني، قال

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

مع الله هذه فهمناها أصلحوا العلاقة بينكم وبين من حولكم، أنت كمؤمن لابد من أن تكون علاقتك بأمك وأبيك إن كانوا أحياء في أعلى مستوى، بحسب المنهج الإلهي، وعلاقتك بأولادك، وعلاقتك بزوجتك،

وبإخوتك وأخوتك، علاقاتك بأقربائك، علاقتك بجيرانك، علاقتك بزملائك، علاقتك بأصدقائك أية علاقة بينك وبين الآخر ينبغي أن تكون علاقة جيدة، مبنية على احترام متبادل، مبنية على الوضوح، ما في كذب، ما في نفاق، ما في غش، مبنية على التواضع، مبنية على الحب، هذه العلاقة الثانية.

بطولة المؤمن أن تكون علاقته مع من حوله علاقة حب و تسامح:

أول علاقة بينية مع الله، ثاني علاقة بينية مع من حولك، فالمؤمن محبوب، يعرف قدره أمه، وأبوه، وأولاده، وزوجته، وأهل زوجته، وأقرباؤه، وجيرانه، وأصدقاؤه، وزملائه علاقة مبنية على الأداء أداء الواجب، والتسامح، والعفو أحياناً، والتلطف، والاعتذار ، والمسامحة، وتقديم هدية، في مشكلة نقدم هدية، في مشكلة غامضة نوضح، البيان يطرد الشيطان، ممكن تبين الشك يزول، مكن تعتذر الحقد يزول، ممكن تطلب السماح الألم يزول ، ممكن تقدم خدمة الألم يتلاشى.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

مع من حولكم، فبطولة المؤمن أن تكون علاقته طيبة مع أهله، وجيرانه، وأخوانه، وأصحابه، وأصدقائه، ومع من يعمل معه، لكن إذا واحد بغى عليك.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

(سورة الشورى)

ينتصر لا أن يكيل له الصاع عشرة.

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى الآية: 40)

يجب أن يكون في علمك أن أولى واجبات المؤمن إصلاح العلاقة بينه وبين الله أولاً وبينه وبين الخلق ثانياً.

الآن، أنت ما لك علاقة، لك أخت نشب بينها وبين زوجها سوء تفاهم كبير جداً أصبح على وشك الفراق، لا تقول أنا ليس لي علاقة، اقرأ الآية:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

بين أخيك وأخيك، بين أختك وزوجها، بين شريك وشريكه، بين جار وجار، أول مستوى أصلح علاقتك مع الله، ثاني مستوى أصلح علاقتك مع الآخرين جميعاً.

3 ـ إصلاح العلاقة بين اثنين:

المستوى الثالث أصلح أي علاقة بين اثنين.

من صفات المؤمن أنه يجمع ولا يفرق، والنبي الكريم نفى عن أمته التفريق قال:

((من فرّق فليس منا))

[أخرجه الطبراني عن معقل بن يسار]

من فرّق، يزور أخته بالعيد، ماذا قدم لك زوجك في هذه المناسبة ؟ زوجها فقير، تحبه ويحبها، ويعيشون حياة جميلة جداً، لم تنتبه، والله ما قدم لي شيئاً، معقول ما يقدم لك شيء ؟ يليق بك واحد آخر، الآن ذهب، جاء زوجها، تغيرت، هو أساء العلاقة بينها وبين زوجها.

شخص اشترى بيتاً صغيراً، فرح به، كان قاعداً بالأجرة، والله أكرمه ببيت يزوره إنسان غني يَقرف ويُقرف، كيف يسعك هذا البيت ؟ يسعه، هذا مأوى، بيت اشتراه بماله، تجده يسود بعينه هذا البيت.

المؤمن يقرب الناس فيما بينهم، وغير المؤمن يباعد ما بين الناس، تجد أين ما جلس مثل الشيطان، يرمي قنبلة، يرمي تعليقاً، يرمي تهكماً، يرمي تصغيراً، يرمي تحقيراً، هذا غير المؤمن.

لذلك:

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جنهم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

قالت:

((السيدة عائشة قالت عن أختها صفية قصيرة ! ـ كلمة واحدة قالتها ـ قال لها: يا عائشة ! لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

[أبو داود عن عائشة]

لا تقلد، ولا تنتقد، ولا تسخر، لا تتهكم، المؤمن متواضع، ودائماً وأبداً يقدم للناس شيئاً يسعدهم.

المودة والمحبة والتوضيح والاعتذار والهدية وسائل تذهب وحر الصدر:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

أصلح ما بينك وبين الله، لمعرفته، وطاعته، والتقرب إليه، أصلح ما بينك وبين من حولك من المؤمنين، رواد مسجد، أقرباؤك، أخوانك ، أخواتك، أصهارك، زبائنك إذا عندك مشروع، زملاؤك بالعمل، جيرانك بالسكن وبالعمل.

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

بالمودة، والمحبة، والتوضيح، والاعتذار أحياناً وبالهدية، كما قال النبي الكريم حين نشأت مشكلة:

((الهَدِيَّة تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْر))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

وكان النبي يقبل الهدية ويرد عليها.

((تهادوا تحابوا))

[البيهقي عن أبي هريرة]

ألف طريق في الاعتذار أحياناً، أيام أخطأت، سامحني، انتهى كل شيء، أنت أصلحت العلاقة بينك وبين الآخرين.

من لم يطع الله عز وجل ففي إيمانه خلل:

أيها الأخوة الكرام، قال:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أكثر من مئات الآيات تبدأ بقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا، يعني يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بكمالي ، يا من آمنتم بعلمي، بقدرتي، بحكمتي، برحمتي، هذا الأمر أمر نفذوه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

(سورة المائدة الآية: 3)

ولو على أنفسكم، لذلك (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فإن لم تطيعوا الله ورسوله فإيمانكم بالله فيه خلل، يعني ممكن واحد معه أزمة قلبية، هذا الطعام يفاقم هذه الأزمة ممكن تقنعه أنه أنت على وشك أزمة قلبية قاتلة، وهذا الطعام يزيد من أزمتك القلبية ممكن أن يأكل ؟ لا، لا يأكل.

المؤمن لا يعصي الله عز وجل و لو دُفعت له الملايين:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

ما دمت قد آمنت بالله واحداً، وموجوداً، وكاملاً، وشرعه حكيم، ورحمن رحيم، وخلقك لجنة عرضها السماوات والأرض هذا العمل يحجبك عني يا عبدي، هذا العمل يقربك مني، هذا العمل سبب للتوفيق، هذا العمل سبب للخذلان.

إنسان يبيع أقمشة على الرصيف ما في أفقر من هذا قطعة قماش، يضع عليها عدة قطع قماش، كل واحدة بخمسين ليرة، دولار، جاءت واحدة دفعت له بالخطأ مئة دولار، وضعها بجيبه، بعد دقيقتين يريد أن يكمل لإنسانة أخرى وجد مئة دولار، في محل إلى جانبه قال له: يا عم الله يخليك، حتى أبحث عن صاحبة المبلغ، عينك على البضاعة، لحقها حصلها بالعصرونية، قال لها: أخت هذه مئة أنا أريد واحد، دعت له من قلبها، أعطاها المئة أخذ واحد، هذا البائع كان صرافاً، والصرافة في وقت سابق منعت كلياً، فهو احتار ماذا يعمل وجد إنساناً يعمل بالأقمشة، وليس عنده محل، قال له تشاركني ؟ قل له: أتمنى والله، خلال عشرة أيام أصبح صاحب محل تجاري بالحمدية بأرقى أسواق دمشق، والله عز وجل

أخذ بيده ، واشترى بيتاً وسيارة، وعاش ببحبوحة، هذا ماذا رأى لما أخذ المئة دولار ؟ رأى السكوت عليها يغضب الله، السكوت عليها هذا مال حرام.

قال لي شخص: والله القصة نفسها في مكان آخر، أقمشة، وبالدولار، وإنسانة غريبة سائحة، أعطته مئة قامت أعجبته، وضعها معه، أثناء عد أموالها نقص مئة اتصلت بالمخفر أحضروه أنكر، بعدها اعترف، أخذوا منه المئة، أراد أن يمشي، لا، إحالة على النيابة العامة، قام دفع خمسة آلاف حتى ألغى الإحالة، أكلت قتلة ودفع المئة، لو كان عنده رؤيا من الأول كان لحقها بالمئة.

قضية رؤيا يا أخوان، أنت تحضر درس علم تملك رؤيا إيمانية، لا تعصي الله لو دفعوا لك الملايين.

هذا الذي غادر و أوصى جاره بزوجته، فخانه بها، هناك كلب أكله وقتله، فقال النبي الكريم: خان صاحبه، والكلب قتله، والكلب خير منه.

الأمانة غنى والخيانة فقر:

أنت عندما تحضر درس علم تملك رؤيا صحيحة، هذه الرؤيا عندما ترى موقفاً في معصية تقول

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

عندئذٍ ترى التوفيق، الأول كان أميناً، قام صار غنياً، النبي قال:

((الأمانة غنى))

[القضاعي عن أنس]

الأمين غني دائماً، موثوق لأن الكل يثق به، والمنحرف، إنسان تزوج حديثاً عنده زوجة شابة، يعمل موظفاً بمحل، يفتح من الساعة الثامنة للحادية عشرة حتى يأتي المعلم، كم بيعة وضعها بجيبه والله أهون، سبعمئة، خمسمئة، ألف، ماشي الحال كل يوم في خمسة أو ستة آلاف، هذا المعلم يفقد بضاعة، البضاعة لا تتناسب مع الغلة، هناك فقد بالبضاعة، فبعث واحد من أصدقائه يشتري حاجة الساعة التاسعة، قال له: تأتي الساعة الثانية عشرة ترجعها، قال له: طيب، جاء الساعة الحادية عشرة، قال له بعت شيئاً ؟ قال له ما أحد أتى صباحاً السوق بارد، الساعة الثانية عشرة جاء، قال له اليوم أخذتها، قال له اليوم ؟ قال له: نعم، متى أخذها ؟ قال له: الساعة التاسعة أخذتها منه، ذاب ذوبان، أعتقد ما في إنسان ما وسطه أن يبقى، طرده.

الأمانة غنى، والخيانة فقر، تضع بجيبك ؟.

تضع بجيبك ؟ تجد شركة استمرت خمس و ثلاثين سنة بالأمانة، والله هناك موظفون تقريباً كأنهم شركاء أصبحوا من أمانتهم، الأمانة غنى.

أنا أريد أن أفهم كلمة واحدة وأقولها لإخواني، عندما تعرف الله تملك رؤيا صحيحة لا تغلط، عندما تعرف منهج الله، القرآن، السنة، الله يريد سعادتك، يريد رقيك، يريد مكانتك، يريد راحتك النفسية، يريد زواجاً ناجحاً لك، يريد زوجة صالحة، يريد أولاداً أبراراً، استقم.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه الحاكم عن ثوبان]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (03-30): تفسير الآيتان 2-3 ذكرالله يدعو إلى الطمأنينة -والتقصير في الواجبات يدعو إلى الخوف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-03-27

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من ورود صفات المؤمنين والمنافقين في القرآن لمعرفة الإنسان مستوى إيمانه:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثانية والثالثة وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

أول نقطة في شرح هذه الآيات، ما الحكمة من أن يرد الله في القرآن الكريم صفات المؤمنين، وصفات المنافقين، وصفات الكافرين ؟ الحقيقة أن الله يورد لنا في كتابه الكريم من صفات المؤمنين كي يعرف كل منا نفسه، أين هو من هذه الصفات ؟ هل هي منطبقة عليه أم ليست منطبقة عليه ؟ أداة تعريف بمستوى إيمانك.

أحياناً تعطى ورقة أسئلة ألف سؤال، خمسمئة سؤال، مئة سؤال، تجيب عنها بنعم أو لا، بعد أن تنتهي تعطى الإجابة الصحيحة، فأنت بكل بساطة تضع لنفسك علامة، بكل بساطة.

فكأن الله سبحانه وتعالى قال لك: يا عبدي اعرض نفسك على هذه الآيات، فإن كانت منطبقة عليك فهنيئاً لك، فأنت مؤمن، وإن كانت ليست منطبقة عليك فانتبه، هذه الحقيقة المرة ينبغي أن تعرفها قبل فوات الأوان.

وإن كان هناك صفات تنطبق عليك وأخرى لا تنطبق عليك فتلافى السلبيات من هذه الصفة.

هذه أحد الوسائل الفعالة كي تكشف نفسك.

على كل إنسان ألا يضع نفسه فوق ما تستحق:

الإنسان بشكل أو بآخر راضٍ عن عقله وراضٍ عن إيمانه، لكن غير راضٍ عن رزقه، يتشكى رزقه دائماً، لكن لو كان منطقياً وكان واقعياً، يجب ألا يضع نفسه فوق ما يستحق، أنا أنصح أخوتي الكرام وأنا معكم، أن نتهم أنفسنا دائماً.

أحد التابعين يقول: التقيت بأربعين صحابياً ما منهم واحد إلا وهو يظن نفسه منافقاً من شدة خوفه من الله.

بل إن عملاق الإسلام الذي أثنى عليه رسول الله قال: لو كان نبي من بعدي لكان عمر، عمر بن الخطاب جاء إلى سيدنا حذيفة، وقال: يا حذيفة بربك اسمي مع المنافقين ؟!.

لا تمدح نفسك، اتهم نفسك، لا تحابي نفسك، عرفها الحقيقة، بالغ في اتهامك لنفسك تكن على صواب، أما هناك أشخاص والعياذ بالله يبرئ نفسه من أخطاء ثابتة فإذا وقع أخوه في خطأ طفيف أقام عليه الدنيا، لا، كن منطقياً.

الله تعالى أورد صفات المؤمنين لتكون هدفاً و مقياساً لنا:

إذاً أراد الله عز وجل من إيراد صفات المؤمنين أن تكون مقياساً لنا، هناك هدف آخر: أراد الله من إيراد صفات المؤمنين أن تكون هدفاً لنا، هذا هو الهدف، مقياس وهدف، قس نفسك واسعَ إلى هذا الهدف، لذلك مرة ثالثة، ورابعة، وخامسة:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

(سورة البقرة الآية: 121)

يقرأ القرآن وفق قواعد اللغة، و إن أمكن أن يقرأه وفق قواعد علم التجويد، ثم يفهمه من خلال التفاسير، ثم يتدبره بعرض نفسه على كل آية، ثم يطبقه.

إذاً نحن أمام آية تصف المؤمنين بخمس صفات:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

إنما أداة قصر وحصر فما لم يكن المؤمنون إخوة فليسوا بمؤمنين:

لكن لابدّ من لفت النظر إلى كلمة

(إِنَّمَا)

أداة قصر وحصر.

هناك مثل شهير في البلاغة إذا قلنا إنما شوقي شاعر، يعني شوقي ليس له اختصاص آخر، ليس له اهتمام آخر، ليس له صفات أخرى، شاعر فقط، إنما، وإذا قلنا إنما الشاعر شوقي، أي لا يوجد شاعر غيره، إنما أداة قصر وحصر.

(الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية: 10)

كلام، وقد يكون غير إخوة، أما:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية: 10)

ما لم يكن المؤمنون إخوة فليسوا بمؤمنين، بالضبط نعبد إياك، أي نعبدك، وقد نعبد غيرك، أما لما جاءت إياك قبل نعبد صار هناك قصر وحصر.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

(سورة الفاتحة الآية: 5)

أي لا نعبد غيرك، القصر والحصر يستفاد من النفي والاستثناء، ما شوقي إلا شاعر أو إنما شوقي شاعر، أو الشاعر شوقي، إما بالتقديم والتأخير، أو بالنفي والاستثناء، أو بإنما.

فالله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

أي ما لم يكن انتماء المؤمنين إلى مجموع المؤمنين فليسوا مؤمنين، من إنما.

من صفات المؤمنين:

1 – الخوف من الله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ)

من هم ؟ الصفة الأولى:

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

(وَجِلَتْ)

أي اضطربت اضطراب خوف، أي الذي لا يخاف من الله إنسان غبي وأحمق.

مرة كطرفة طالب من طلاب التعليم الثانوي، وجهتُ الطلاب إلى الخوف من الله فقال لي طالب: أنا لا أخاف من الله، بحمق، قلت له: أنت بالذات معك حق، فانزعج و قال: لماذا ؟ قلت له: الفلاح يأخذ معه ابنه عمره سنتين على الحصيدة، يمشي جانب الابن ثعبان، طوله اثنا عشر متراً، لا يخاف منه، لأنه إدراك لا يوجد، خوف لا يوجد.

فكل إنسان لا يخاف من الله أحمق، غبي، ضيق الأفق، قصير النظر.

((ورأس الحكمة مخافة الله))

[أخرجه ابن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود]

يا عائشة ! (تمرة اشتهاها) لولا أني أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها.

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة يونس)

(إِنِّي أَخَافُ)

بلغ يا محمد، أنت أنت، سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، صفوته من أنبيائه، سيد الأنبياء، سيد ولد آدم، أوتي الوحي، أوتي القرآن، أوتي المعجزات، أوتي الفصاحة، أوتي البيان، أوتي الرحمة، هو هو نفسه، قل لهم:

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

علامة إيمانك أنك تخاف من الله، بل:

((ورأس الحكمة مخافة الله))

[أخرجه ابن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود]

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

اضطرب، خاف، لذلك ذنب المنافق كالذبابة، وذنب المؤمن كالجبل جاثم على صدره، وكلما عظم الذنب عندك صغر عند الله، وكلما صغر الذنب عندك كبر عند الله.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام: إذا ذكر الله فأمسكوا.

قال لك واحد: من أجل الله، ترجاك رجاءً حاراً، إذا أنت مؤمن ؟.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

على الإنسان أن يخاف من الله إن كان مقصراً في الحقوق أو العبادات أو الطاعات:

أيها الأخوة، لكن هناك من يقول: كيف نوفق بين هذه الآية وبين آية ثانية:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

فكيف نجمع بين هذه الآية وبين الآية موضع درسنا اليوم ؟

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

قال العلماء: لا سمح الله ولا قدر أنت حينما تكون مقصراً في أداء الحقوق، أو في أداء العبادات، أو مقصراً في الطاعات، أو عليك حق، أو عليك واجب ما أديته، أنت حينما تكون هذه الحالة يجب أن تخاف من الله خوفاً شديداً.

سيدنا عمر يمشي في الطريق رأى أطفالاً يلعبون، فلما رأوه لشدة هيبته تفرقوا، إلا واحداً منهم لفت نظره، قال له: يا غلام ! لِمَ لم تهرب مع من هرب ؟ قال له: أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك، هذا الطفل رسم منهج أمة.

أنت بمنصب حساس، إذا جاءك المذنب مطمئناً فعملك فيه خلل كبير، وإن جاءك البريء خائفاً فعملك فيه خلل كبير، ينبغي أن يأتيك يا صاحب المنصب المذنب مرتعد القلب، وينبغي أن يأتيك البريء مطمئناً، لا العكس، قال لك: أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك.

على الإنسان ألا يخاف إلا من ذنبه الذي يستوجب العقاب من الله :

مرة ثانية: أخوانا الكرام، لا يخف أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه، كل شيء بيد الله، لا تخاف إلا من ذنبك الذي يستوجب العقاب من الله.

يقول: هناك نقص أمطار، هناك شح، هناك جفاف، هناك فقر، أهل الدنيا يرسمون لك مستقبلاً أسوداً، لكن المؤمنين لا يعبؤون بكل هذه التشاؤمات، وهذه الإيحاءات، مؤمن ما دمت مع الله فالله معك.

أوضح آية في هذه المعنى سيدنا هود قال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

يعني إذا أنت أمام وحوش كاسرة، مخيفة، مفترسة، فتاكة، لكنها مربوطة بأزمة محكمة، بيد جهة قوية، وحكيمة، ورحيمة، هل تخاف منها ؟ أما أخاف منها إذا قصرت مع ربي، فإذا قصرت مع ربي أرخى لأحدها الزمام فوصلت إليّ، يجب أن تخاف من الله، متى ؟ إذا أذنبت، إذا أذنبت خوفك طبيعي، خوفك طبيعي وحالة سوية، وإن لم تخف فهناك غباء، و حمق، و جهل كبير.

((ورأس الحكمة مخافة الله))

[أخرجه ابن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود]

تحبون أن أعطيكم صورة مشرقة لراعي، امتحنه سيدنا عبد الله بن عمر، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ؟ قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، قال: ليست لي ، قال: خذ ثمنها، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين ولكن أين الله ؟ هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين.

الوضع الطبيعي أن يخاف الإنسان إذا أخطأ ويطمئن إذا أحسن:

أنت إذا قلت أين الله، فأنت مؤمن ورب الكعبة، والذي عنده أشرطة، محاضرات ، وكومبيوترات، وفضائيات، وعنده إطلاعات، وليس مستقيماً والله ما وضع يده على الدين إطلاقاً، أنت إنسان مؤمن إذا قلت أين الله ؟.

إذاً الإنسان إذا قصر، في عبادة، في طاعة، في واجب، وذكر الله ينبغي أن يضطرب، أما إذا كان مستقيماً، وبذل أقصى جهده ليكون مستقيماً تنطبق عليه الآية الكريمة:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

وقد جُمع النموذجان في آية واحدة:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الزمر الآية: 23)

والوضع الطبيعي أنك تخاف إذا أخطأت وتطمئن إذا أحسنت.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت)

2 ـ ازدياد إيمان الإنسان بالتفكر بآيات الله الكونية و التكوينية و القرآنية:

أيها الأخوة، الصفة الثانية:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

الله له آيات كونية، وله آيات تكوينية، وله آيات قرآنية، آياته الكونية خلقه، وآياته التكوينية أفعاله، وآياته القرآنية كلامه.

يعني غرق الباخرة التيتانيك لأن في نشرة صناعتها "إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة"، فغرقت في أول رحلة، وأكابر الأوربيين، الطبقة المخملية، كبار الأغنياء كانوا على متنها، قدروا حلي النساء بالمليارات، وغرقت في أول رحلة، غرق هذه الباخرة من أفعال الله التكوينية، فالله عز وجل نعرفه بأفعاله، وانتصار الضعاف العزل، العشرة آلاف أمام أكبر جيش بالمنطقة أيضاً هذا من أفعاله التكوينية، كل ما يحدث من فعل الله، أحياناً هناك حدث إيجابي يشف عن عظمة الله، و حدث سلبي يشف عن

عظمة الله.

من ازدادت معرفته بخلق الله ازداد إيماناً بالله:

أيها الأخوة، آياته التكوينية أفعاله، آياته الكونية خلقه، الشمس، القمر، النجوم، البحار، الأنهار، الأسماك، الأطيار، الكواكب، الخضراوات، جسمك.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

شعرك، أنفك، نطقك، كلامك، عضلاتك، قلبك، رئتاك، كل شيء في الكون يدل على الله.

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

لذلك قالوا: الإيمان يزيد وينقص، أنت مؤمن بالله، لكن سمعت شيئاً دقيقاً جداً عن خلق الله، ازددت إيماناً، سمعت شيئاً آخر، فكلما فكرت في آية كونية، أو تكوينية، أو قرآنية، وكلما ازدادت معرفتك بخلق الله، ازددت إيماناً بالله لذلك، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر الآية: 67)

إذاً الإيمان يزيد، وإذا أردنا أن نفصل إذا الإيمان يقينيات فهو ثابت ويزيد، وإذا الإيمان اتصال بالله فالاتصال يزداد وينقص، إيمانك يزداد بالحقائق، وينقص بالبعد عن الله، في ضعف بإيمانك، فالإيمان يزداد وينقص، في بعض الأحاديث:

((جددوا إيمانكم))

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

دائرة المحسوسات و المعقولات:

أخوانا الكرام، هناك موضوع دقيق جداً، هو أن هناك دائرة أنا أسميها دائرة المحسوسات، يوجد شيء تراه بعينك، شيء تلمسه بيديك، شيء تشم رائحته، شيء تتذوقه بلسانك، كل شيء متعلق بالحواس الخمس، أو باستطالات الحواس الخمس، هذا يقع في دائرة المحسوسات، وأداة اليقين بها الحواس الخمس، و الإنسان و غيره في هذا الموضوع سواء.

أحياناً دابة ترى حفرة أمامها تقف، الشمس غابت تعود إلى حظيرتها، هناك معرفة حتى عند الحيوانات حسية، هذه لا تعنينا الآن، لكن هذه دائرة، الحسيات أداة اليقين بها الحواس الخمس، واستطالاتها الميكروسكوب، والتليسكوب، أداة اليقين بها الحواس الخمس واستطالاتها.

أما الدائرة الثانية: دائرة المعقولات، المعقولات شيء غابت عينه وبقيت آثاره، أنت خلفك حائط رأيت دخاناً في أعلى الحائط، قلت لا دخان بلا نار، أنت لم ترَ النار، لكن رأيت آثار النار، ما دامت النار قد غابت عنك، وبقيت آثارها أداة اليقين بهذه الظاهرة العقل، العقل يحكم بوجود نار وراء الحائط، لأنك رأيت آثارها، لكن إذا جئت وراء الحائط رأيت النار بأم عينك، نقول هذا عين اليقين، فإذا اقتربت من النار ولفحك وهجها، فأنت في حق اليقين، هناك يقين استدلالي بعقلك، لا دخان بلا نار، وهناك عين اليقين، رأيتها بعينك، وهناك يقين أبلغ من ذلك اقتربت منها فلفحك وهجها، فأنت بين علم اليقين الاستدلالي، وبين علم اليقين الشمولي، وبين حق اليقين التفاعلي.

إذاً الإنسان كما ترون آيات الله خلقه، وأفعاله، وكلامه،

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

من علامات قيام الساعة أن يتنكر الإنسان لمن كان سبب وجوده ولمن رباه :

أخوانا الكرام، هناك نص مهم جداً في هذا الموضوع:

((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، ما الإيمان ؟ قال: أن تُؤمن بالله، وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورُسُلِهِ، وتؤمنَ بالبعث الآخر، قال: يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال: الإسلام أن تعبُدَ الله، لا تُشْرِكُ به شيئاً، وتُقيمَ الصلاةَ المكتوبة، وتؤدي الزّكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: يا رسول الله ما الإحسان ؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لم تره فإنَّه يراك، قال: يا رسولَ الله، مَتَى السَّاعَةُ ؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلَمَ من السَّائل، ولكن سأُحَدِّثُكَ عَنْ أشْراطها: إذا ولَدت الأمةُ ربَّتها))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة وأبي ذر الغفاري]

الأمة ؛ الفتاة الشابة ـ ولدت فتاة، تقول الفتاة عن أمها، أمها جاهلة، تكون أمها عاقلة ومؤمنة، تؤدي الصلوات الخمس، تعرف الله، تربي أبناءها، ابنتها درست بالجامعة، تقول أمي دقة قديمة، لا تفهم شيئاً، عندما يتنكر الإنسان لمن كان سبب وجوده، ولمن رباه هذه من علامات قيام الساعة، أن:

((يكون الولد غيظاً، والمطر قيظاً، وتفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً))

[أخرجه الطبراني عن عائشة أم المؤمنين]

((إذا ولَدت الأمةُ ربَّتها))

من هذا ؟ يكون شخصاً متقدم بالسن، يقول: هذا يعمل عندنا فإذا هو والده، خجل بأبيه.

لذلك:

((إذا ولدت الأمةُ ربَّتها، وإذا كانت العُرَاةُ الحفاةُ رُؤوسَ النَّاس، فذاك من أشراطها، وإذا تَطاوَلُ رعَاءُ البَهُم في البنيان))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة وأبي ذر الغفاري]

كنت ببلد خليجي فيه أعلى بناء بالعالم، فيه ست و ثمانون طابقاً، قال: هناك برج أعلى، عجيب ! قال: برج الذين فقدوا أعمالهم، لو وقفوا فوق بعضهم لكانوا أعلى من البرج.

دائرة الإخباريات:

أيها الأخوة، الآن الدائرة الأولى دائرة الحواس، الدائرة الحسية، أداة اليقين بالمحسوسات الحواس الخمس واستطالاتها، الدائرة الثانية: الدائرة العقلية، أداة اليقين لشيء غابت عينه، وبقيت آثاره. يا ترى في مطر الآن ؟ نعم، هل ترونها ؟ لا، نسمع صوتها بالعقل، غابت عين الشيء عن أبصارنا بقيت آثاره، هذا اختصاص العقل، شيء غابت عينه بقيت آثاره، وطبعاً أكبر اختصاص له، لأن ذات الله لا نراها.

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ)

(سورة الأنعام الآية: 103)

غابت ذاته العلية بقيت آثاره، والكون كله آثاره، هذه الدائرة الثانية.

والدائرة الثالثة: دائرة الإخباريات، شيء غابت عينه وآثاره، كل شيء غابت عينه وآثاره، لا في أثر، ولا في عين.

مثلاً: هل تستطيع أن تقتنع بعقلك أن هناك جن ؟ لا، ملائكة ؟ لا، هذه إخباريات الله أخبرنا بها، أخبرنا بالملائكة، أخبرنا بالصراط، أخبرنا بيوم القيامة، فالقرآن طافح بالإخباريات، أو بشكل أو بآخر أي شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، للتقريب:

أنت عندك بقالية، وبحاجة إلى ميزان، واشتريت ميزاناً غالياً جداً، الآن هناك موازين معهم مئة ذاكرة، تبيع زيتون تكبس 13، فأي كمية زيتون الميزان يضرب السعر بالغرامات يعطيك الثمن، هناك وزن دقيق مع ذواكر، مع شاشة، مع وثيقة، هذا الميزان مصمم لبقالية من خمسة غرامات لخمسة كيلو، فأحب شخص أن يزين سيارته بهذا الميزان، وضعه على الأرض ومشى فوقه فكسره، يقول هذا الميزان سيئ ؟ لا، أنت استخدمته لغير ما صنع له، أما السيارة شركة محترمة جداً، تفتح غطاء

المحرك تجد لوحة مكتوب وزنها 1358 كيلو، هذا الميزان يعجز عن وزن السيارة، لكن الشركة المصنعة للسيارة أخبرتك بوزنها.

أي شيء عجز العقل عن إدراكه أخبرنا الله تعالى به:

الحقيقة الدقيقة: أي شيء عجز العقل عن إدراكه أخبرك الله به، هذه الدائرة الثالثة إخباريات، أخبرك عن يوم القيامة، عن الجن، عن الملائكة، عن الصراط، عن الحوض، أخبرك عن ذاته العلية، هذه كلها إخباريات، وأنا أنصح أخوتنا الدعاة ألا يتحدثوا بالإخباريات إطلاقاً مع من اهتز الإيمان بالله في قلوبهم وعقولهم، لأنه لا يوجد طريق، يعطي حجة قوية هات دليل، ما في دليل، الدليل إخباري.

يعني أنت عندك صديقك، وهناك خزانة لها باب مغلق، وعاشرته ثلاثين عاماً ما كذب في حياته كذبة واحدة، وسألته ماذا يوجد هذه الخزانة ؟ قال لك: حسابات قديمة، انتهى، هذا دليل إخباري، قيمة هذا الدليل من صدق المخبر.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

(سورة النساء)

مخاطبة الله عز وجل المؤمنين بفروع الشريعة والناس عامة بأصول الشريعة:

أخوانا الكرام، هناك تلميحات لطيفة.

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

هل هناك شخص من الأخوة الكرام رأى هذا الشيء ؟ ولا شخص، ولا أنا رأيته، لكن الله قال لك: يجب أن تأخذ إخباري وكأنك رأيته، هذا الدائرة الثالثة، لا تناقش إنساناً بالدائرة الثالثة إذا كان إيمانه بالله ضعيف، ابقَ في الكون، بأدلة علمية، ابقَ في أحقية القرآن، بأدلة الإعجاز، ابقَ في أدلة النبي العدنان بسبب القرآن ، يمكن أن تؤمن بالله وبرسوله وبكتابه بالعقل، وهناك أدلة قاطعة، أما الإخباريات الأخرى هذه للمؤمنين.

لذلك الله عز وجل خاطب المؤمنين بفروع الشريعة، وخاطب الناس عامة بأصول الشريعة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

(سورة البقرة الآية: 21)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

التفريق بين الكفر و المعصية:

شيء آخر: يجب أن نفرق بين الكفر والمعصية، إنسان لا يصلي عن تقصير، عن إهمال، تطالبه بالصلاة يقول لك: الله يتوب عليّ، والله أنا مقصر، ادعُ لي الله يعينني على الصلاة هذا لا يقال له كافر، هذا يقال له عاصٍ، إذا شخص قال لك لن أصلي ؟ لمن أصلي ؟ مثلاً، هذا كافر، إذا أنكر الإنسان فرضية الصلاة وأحقية الصلاة فهو كافر، أما إذا عبر عن تقصيره في أدائها فهو عاصٍ.

على كلٍ هناك مجموعة قواعد أضعها بين أيديكم، ما كل من وقع في الكفر وقع الكفر عليه، ألم يحدثنا النبي عن إنسان ضلت عنه ناقته فأيقن بالموت المحقق، فصار يبكي ويبكي ثم أخذته سِنة من النوم، فلما استيقظ رأى الناقة أمامه، اختل توازنه، قال: يا رب أنا ربك وأنت عبدي، هذه كلمة الكفر، هل هو كافر؟ لا.

لذلك قالوا: ما كل من وقع عليه الكفر وقع الكفر عليه، هذه واحدة.

الشيء الثاني: لا نكفر بالتعيين، إياك، ثم إياك، ثم إياك أن تقول فلان كافر، قل من قال كذا فقد كفر، من فعل كذا فقد كفر، من اعتقد كذا فقد كفر، لا تكفر بالتعيين.

شيء آخر: لعل هذا الذي ظننته على ما تتوهم تاب الله عليه، وتاب هو إلى الله وعاد عن خطئه، لا تُنصب نفسك وصياً على الناس.

المؤمن خيّر لا يضن بمعلوماته و يحب الناس جميعاً:

أيها الأخوة،

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

يتوكل على القوي، والعليم، والخبير، والغني، والمحب، لن يتوكل على الله إلا المؤمن، والمؤمن المستقيم.

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

أي يتصل بالله، والصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيدة القربات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، لا خير في دين لا صلاة فيه، الفرض الوحيد الذي لا يسقط بحال هو الصلاة.

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

ينفق من وقته، من علمه، من ماله، من جاهه، من خبرته،

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

لي قريب يعمل في الحلويات، دخل لعنده إنسان غير مسلم من أقصى البلاد، من الحسكة، قال له تعلمني صنع الكاتو ؟ قال له: تفضل، طبخ طبخة أمامه، كتبها، قال له: اعمل طبخة ثانية أمامي، عمل طبخة أمامه، يقسم لي بالله لثلاثين عاماً يأتيه كل سنة مع هدية ثمينة، قال له: الله أكرمني بسببك.

المؤمن خير، لا يضن بمعلومات، يحب الناس جميعاً، وأحياناً تعمل عملاً طيباً مع إنسان غير مسلم يحب الدين كله من أجلك، يحب الإسلام من أجلك.

لذلك للمؤمن صفتان أساسيتان:

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

(سورة الأنفال)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (04-30): تفسير الآيات 5 - 10، أنواع النصر - كيف يستحق المؤمن النصر على أعدائه ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-04-03

بسم الله الرحمن الرحيم

علامة إيمان المؤمن أنه راضٍ عن الله مؤمن بحكمته:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخامسة وهي قوله تعالى:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

الآيات التي سوف تكون موضوع هذا الدرس تنطلق من آية محكمة وهي قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية: 215)

المؤمن من علامة إيمانه أنه راضٍ عن الله، راضٍ عن قضائه وقدره، مؤمن بحكمته، مؤمن بعلمه، مؤمن برحمته، مؤمن بعدالته.

تعلق إرادة الله عز وجل بالحكمة المطلقة:

لذلك أي شيء وقع المؤمن يعتقد أن الله أراده، ولأن الله أراده إذاً هو ينطوي على حكمة علمها من علمها، أو جهلها من جهلها، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

هذه المقولة التي أرددها كثيراً لو أن الإنسان عقلها، ووصل إلى أبعادها كاملة، لما شعر بأي ألم لما يجري، يتألم ولكن يعلم علم اليقين أن الشيء الذي وقع سمح الله به، ولأن الله سمح الله به فهو ينطوي على خير الآن لم يكشف لكن بعد حين يكشف.

وانطلاقاً من هذه المقولة أؤكد لكم أنه ما من طاغية على وجه الأرض يسمح الله له أن يكون طاغية إلا و يوظف طغيانه لخدمة دينه، والمؤمنين، من دون أن يشعر، ومن دون أن يريد، وبلا أجر، وبلا ثواب.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

ما يقع في الأرض ما كان له أن يقع لولا أن الله سمح بوقوعه:

لو أردنا أن نصرف هذه الآيات على واقعنا ؛ أحداث الحادي عشر من أيلول مؤلمة جداً لأنه جاء بعدها إيذاء شديد للمسلمين، ولكن الله يعلم أنها تنطوي على حكمة لو كُشفت بعد حين لقلنا: إن هذه التداعيات التي جاءت بعد الحادي عشر من أيلول بركات الحادي عشر من أيلول، الدين كان في دائرة التعتيم فأصبح في بؤرة الاهتمام، وكان ورقة خاسرة في أيدي الأقوياء فأصبح ورقة رابحة.

أيها الأخوة، الذي يقع في الأرض ما كان له أن يقع لولا أن الله سمح بوقوعه، ولأن الله سمح بوقوعه ينطوي على حكمة علمها من علمها، وجهلها من جهلها، أي الشر المطلق لا وجود له في الكون، لأن الشر المطلق يتناقض مع وجود الله، هناك شر نسبي.

فتح البطن لمن أصيبت عنده الزائدة بالتهاب حاد، فتح البطن، والتخدير العام ، واستئصال الزائدة على الشبكية، أما بالمؤدى هذه الزائدة الدودية لو لم نستأصلها لكان من الممكن أن تودي بحياة الإنسان.

فلذلك هذا هو الإيمان، هناك حكمة ما بعدها حكمة، وحينما تؤمن أن هناك حكمة ما بعدها حكمة لا يعني أن تستسلم، لا يعني أن ترضى بشيء لا يحتمله المسلمون، يعني أن تقاوم لكن لا تظن أن الله خلق الخلق وتركهم هملاً، قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: 123)

ما من محنة تصيب المسلمين إلا وراءها منحة من الله تعالى:

مرة ثانية أعيد على أسماعكم هذه المقولة: كل شيء وقع أراده الله، أو كل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، معنى بالحكمة: أن الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، أو أن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، وحكمة الله متعلقة بالخير المطلق لذلك:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران الآية: 26)

لم يقل والشر، إيتاء الملك خير، ونزعه خير، وإعزاز الإنسان خير، وإذلاله خير، إنه يُذل ليعز، يخفض الله ليرفع، يمنع ليعطي، يضر لينفع، هذه الكلمات ينبغي أن تلفظ معاً ؛ الضار النافع، يضر لينفع، الخافض الرافع، يخفض ليرفع، المعز المذل، يُذل ليعز.

لذلك كل شيء يصيب الإنسان في الدنيا محض خير، هناك خير ظاهر.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً)

(سورة لقمان الآية: 20)

وهناك خير باطن، وباطنه المصائب، وصدقوا أيها الأخوة ما من محنة تصيب المسلمين إلا وراءها منحة من الله، وما من شِدة تحيط بهم إلا وراءها شَدة إلى الله.

آيات اليوم تنطلق من قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

على كل إنسان أن يثق أن الذي وقع أراده الله و هو متعلق بحكمته و خيره المطلق:

صدقوا أيها الأخوة، لو أن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ساق لهذا الإنسان حكمة ما أصابه في الدنيا، أنا أقول لكم وهذا محض إيماني: إن لم يذب كالشمعة محبة لله لكان في هذه الحقيقة شك.

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

النعم الباطنة هي المصائب، إياكم، ثم إياكم، ثم إياكم أن تفهموا من كلامي أن ترضى بالمصيبة، أن ترضى عن الله بها، لكن أن تقاومها، دخل لص للبيت تقول سبحان الله هذه مشيئة الله، مستحيل ! أنا لا أقصد هذا إطلاقاً، لكن أقصد أن تثق أن الذي وقع أراده الله وأنا عليّ أن أرفض هذا الذي وقع. إذا كان في عدوان على بلدي، أرفض إلا أنه لا أكفر، يا رب لماذا خلقتهم أقوياء ونحن ضعفاء واحتلوا بلادنا ؟ هناك حكمة بالغة.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد الآية: 4)

أرادنا الله أن نكسب شرف مقاومة العدو، هو قادر أن يجعلهم أشلاء بثانية واحدة،

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

الحق لا يقوى إلا بالتحدي وأهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية:

بشكل أو بآخر أنتم مؤمنون معي قطعاً أن كل شيء أراده الله وقع، وأن الله على كل شيء قدير، وأن ما سوى الله ممكن، أي ممكن أن يقع، وممكن ألا يقع، ممكن أن يقع على ما وقع، أو أن يقع على خلاف ما وقع.

أليس من الممكن أن يجعل الله هؤلاء الأعداء أعداء الدين في كوكب آخر ؟ لا نرى شيئاً، لا يوجد عندنا مشكلة بالأرض، لا في بدر، ولا في أحد، ولا في الخندق، ولا في هذه الحروب الطاحنة، الطرف الآخر الكافر بكوكب آخر وانتهى الأمر، بل من الممكن أن يكون الطرف الآخر بقارة أخرى، قارة خاصة للكفار، أو بحقبة أخرى ولكن شاءت حكمة الله أن نكون معاً في مكان واحد، وفي زمان واحد، قال: لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية، كلام دقيق، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

آخر أحداث مهمة ألمت بنا وحدت المسلمين بمشاعر موحدة و كشفت إجرام أعدائهم:

لو أردنا أن تستعرض آخر أحداث مهمة ألمت بنا "حرب غزة "، طبعاً سلبياتها واضحة، رآها الناس رأي العين، الأطفال الذين قتلوا، النساء، هدموا عشرين ألف بيت، لكن من يخطر في باله أن هذه الأحداث جمعتنا جميعاً بمشاعر موحدة ؟ وصار بذل لا يعلمه إلا الله، هذه الأحداث كشفت إجرام أعدائنا، والله لو دفعنا مليارات لا نستطيع أن نشوه صورة الأعداء كما شوهوها بأنفسهم، ثم قلبت المعادلات، كان في مسلمات، في جيش لا يقهر، فئة قليلة ضعيفة مستضعفة عشرة آلاف، تحت الأرض، أكبر جيش بالمنطقة، أعتى جيش، أسلحة منوعة، والعالم كله يغطي هذا العدوان، كله ساكت، فالله عز وجل أرانا قوته، أرانا أن يا عبادي أنا موجود، الأمر بيدي، بأي لحظة المعادلات كلها تخفق. لذلك المؤمن الصادق يتحرك، ويسعى، ولكن لا يكفر، لا ييأس، الله عز وجل لا يتخلى عنا.

كراهية المسلمين القتال لتوهمهم أن هذه الحرب ليست في صالحهم و ليس لقلة إيمانهم:

لذلك الآيات اليوم:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

المؤمنون لماذا هم كرهوا ؟ قطعاً وقولاً واحداً الصحابة ما كرهوا القتال، ولكن لم يكن هناك توازن، أو لا يوجد تكافؤ بينهم وبين الأعداء، الأعداء كُثر، آلاف، بأسلحة، بسيوف، برماح، بقوة، والصحابة ضعاف مستضعفون، فقراء، لا يوجد غير رأسين من الخيل فقط معهم، فالصحابة ما تأبوا أن يقاتلوا، لكن توهموا أن هذه الحرب ليست في صالحهم، هذه الكراهية لا تنفي عنهم الإيمان الكبير، ولا تنفي

عنهم الرغبة في البذل والتضحية، لكن تمنوا أن يكون اللقاء في مجال آخر، وفي مناسبة أخرى.
طبعاً هناك قافلة لقريش، فيها أربعمئة إنسان يحرسون القافلة، فأراد المسلمون أن يتعرضوا لهذه القافلة، هم ثلاثمئة، ومع القافلة أربعون رجلاً، الانتصار عليهم سهل جداً، ومعهم بضاعة كثيرة جداً، فإذا أخذوا هذه البضاعة كسبوا غنيمة كبيرة، وانتصروا على أربعمئة شخص، قضية سهلة جداً، هم أرادوا أن يعترضوا تلك القافلة ولكن الله لم يشأ ذلك، لو كان الذي تمنوه واقعاً كانوا كأنهم قطاع طرق اعترضوا القافلة ونهبوا البضاعة، شأن المسلم أكبر بكثير من ذلك، أراد الله أن ينصرهم على صناديد قريش، على أقويائهم، على فرسانهم، على زعمائهم، على هؤلاء وهم على خيولهم، وسيوفهم، ورماحهم، ذاك النصر، أما (f16) على طفل ! كالذي حدث أعتى الأسلحة من أجل طفل وامرأة، أو هدم وليست قلعة، بيت عادي، انتصار عجيب، انتصرتم على ماذا ؟ على هدم بيت مدني، على قتل طفل، على قتل امرأة.

فلو أن الصحابة تمنوا أن ينتصروا على هذه القافلة، ويأخذوا البضاعة فهذه الغنائم و هذا العمل لا يليق بهم، ولا يرفع شأنهم، بل بالعكس كأنهم قطاع طرق، وكأنهم نهبوا البضاعة لقريش، والله ما سمح لهم بهذا أبداً، رأوا العملية سهلة عليهم، أما أن يواجهوا قريشاً بأكملها بعدتها، بعتادها، بصناديدها، بفرسانها، فهذا شيء فوق طاقتهم، أو أنهم توقعوا أنهم لن ينتصروا عليهم، الفرق كبير جداً، لكن يقول الله عز وجل:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة)

إمداد المؤمنين بالملائكة في بدر:

أيها الأخوة، الله عز وجل قال:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

هم خرجوا لملاقاة قريش، لملاقاة جيش، لملاقاة ألف مقاتل، ثلاثمئة بلا رواحل للمواجهة، أسلحة فتاكة، رماح، وخيول، وقوة، وبطش، وحقد، لكن الله عز وجل في بدر أمدهم بالملائكة.

ومهدت لكم في درس سابق من أن الأشياء التي نعتقدها على أصناف ثلاثة:

صنف حسي أداة اليقين به الحواس الخمس، واستطالاتها، كالتلسكوب، والميكروسكوب.

وصنف عقلي أداة اليقين به العقل، لشيء غابت عينه وبقيت آثاره، كالكهرباء، وعمل المكيفات بالكهرباء، يا ترى هل يوجد كهرباء في المسجد ؟ طبعاً تكبير الصوت بالكهرباء، وعمل المكيفات

بالكهرباء والإضاءة بالكهرباء، فنحن أمام آثار الكهرباء، لا أمام ذاتها، فأي شيء غابت عينه وبقيت آثاره أداة اليقين به العقل.

لكن الملائكة من يملك دليلاً علمياً على وجود الملائكة ؟ لا يوجد دليل، لا الملائكة، ولا الجن، ولا اليوم الآخر، ولا الصراط، ولا الميزان، ولا الحوض، لا يوجد شيء، إنها أخبار أخبرنا الله بها، فالدائرة الثالثة دائرة الإخباريات، فالله عز وجل أخبرنا أنه يمدنا بالملائكة.

(فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

(سورة الأنفال)

أردف فعل ماض، يردف مضارع، مردف، مردَف، المردف يأتي أولاً والمردَف يأتي ثانياً، فجعل الله الملائكة في المقدمة،

(أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

أردفوكم وراء ظهورهم، هم في المواجهة.

الاستقامة والصبر والإيمان أسلحة يملكها المؤمن للقضاء على قوة العدو بقدرة الله:

صدقوا أيها الأخوة والله الذي لا إله إلا هو كم تتحدثون عن قوى الغرب، عن صواريخه العابرة للقارات، عن قنابله العجيبة، العنقودية، الانشطارية، الحارقة، الخارقة ، أشعة الليزر، كل هذا الذي تسمعونه الله تعالى يبطل مفعوله باستقامتنا، وصبرنا، وإيماننا.

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية: 120)

قرآن، كلام الواحد الديان، كلام خالق السماوات والأرض،

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

أي هم أمامكم.

أيها الأخوة،

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

هم تمنوا أن يواجهوا القافلة، القافلة فيها ما يقدر بأربعين شخصاً، فيها بضائع ثمينة جداً، أما أن يواجهوا قريشاً بأكملها، بصناديدها، بأبطالها، بقوتها، بغطرستها، بحقدها، بلؤمها، فكأن الأمر شبه مستحيل.

شيء طبيعي بالإنسان لو قلنا لك: واجه دولة عظمى و هو لا يملك شيئاً أمامها، شيء طبيعي لأن الحياة المادية تشعر الإنسان بأن القضية صعبة جداً.

(يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

(سورة الأنفال)

أيها الأخ الكريم، يجب أن تؤمن أن أحداثاً كثيرة ألمت بك، ولعلها آلمتك، لكنك إذا تعمقت في فهمها وجدت فيها خيراً لا يعلمه إلا الله، كالذي يحصل للمسلمين اليوم، بدأت صحوة كبيرة جداً تنبهنا إلى ماضينا، إلى ديننا، إلى قوتنا، بدأت صحوة تنبه إلى حقد الآخرين، إلى جريمتهم، إلى لؤمهم.

على كل مؤمن أن يستسلم لإرادة الله و قوته:

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

(سورة الأنفال)

الطائفة الأولى قافلة، معها أربعون شخصاً، ومعهم بضائع كثيرة، الله عز وجل وعد المؤمنين أن إحدى الطائفتين لكم، أنا سأنصركم في إحدى الطائفتين، إما القافلة و إما مواجهة قريش بأكملها، الصحابة بفعل بشريتهم وجدوا القافلة أغنى (أربعون شخصاً)، أما مواجهة قريش فشيء فوق طاقتهم.

لذلك:

(يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

قال تعالى:

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ)

إن جاءت قريش برماحها، وسيوفها، وفرسانها، وصناديدها، وأبطالها، هذه الطائف

(ذَاتِ الشَّوْكَةِ)

المسلحة، أما القافلة طائفة ليست ذات شوكة.

لذلك:

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ)

لكن الله يريد أن يظهر آياته لكم، أنا سأنصركم على قريش، بكل ثقلها، بكل قوتها، بكل أسلحتها، بكل أبطالها، بكل صناديدها، بكل فرسانها.

(وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

أي هزمهم هزيمة نكراء، كيف أن العدو وُضِع في المنطقة كعصا غليظة يستخدمها الغرب، في السابق كلما أشار له الغرب إشارة افتعل حرباً، واكتسح أرضاً، ونهب ثروة، وأنهى الحرب بساعات، إذاً هو العصا الغليظة، لكن في عام 2006 و2008 لم يبقَ العصا الغليظة، أصبح العصا المكسورة، تضعضعت مكانته.

فلذلك:

(وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

(لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

(سورة الأنفال)

بالنهاية عليك أن تستسلم أيها المؤمن، الذي وقع أراده الله، والذي أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

الحق و الباطل:

طبعاً:

(كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

أحياناً القيادة تكون في المقدمة تقود الجيش إلى النصر، أحياناً تكون في المؤخرة تسوق الجيش إلى النصر، إما أن تكون في المقدمة تقوده إلى النصر، أو أن تكون في المؤخرة تدفعه إلى النصر، على كلٍ كل قيادة لها حكمة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها.

(لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

الحق الشيء الثابت الهادف، والباطل الشيء الزائل العابث.

هناك بالحياة ما يسمى بالاثنينية، يوجد حق ويوجد باطل، خير وشر، صدق وكذب، إخلاص وخيانة، قسوة ورحمة، الحق هو الله، والحق هو الشيء الثابت والهادف.

للتوضيح: حينما نبني جامعة، هذه الجامعة تُبنى لتبقى، هناك جامعة ببريطانيا عمرها خمسمئة عام، تُبنى لتبقى، لذلك تُبنى ببناء قوي جداً، وحجر حتى يقاوم كل عوامل التعرية، أما السيرك يُبنى لأسبوعين، إذاً من قماش، هذا السيرك يُبنى ليزال بعد أسبوعين.

يوجد فرق بين الحق والباطل، الحق ثابت وهادف، الجامعة من أجل تخريج قادة للأمة، علماء، أطباء، مهندسون، محامون، قادة للأمة، والسيرك من أجل متعة رخيصة، وآني، فالباطل شيء عابث وزائل، والحق ثابت وهادف.

الدين حق لأن هدفه إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة:

لذلك الدين حق، لأن هدفه إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة، وأمده إلى أبد الآبدين، أنت عندما تكون ديّناً أثر الدين في الدنيا يمتد إلى ما لانهاية، و بالعكس الموت نقطة على خطك البياني الصاعد، المؤمن خطه البياني صاعد، والموت نقطة على هذا الخط، ويبقى الخط صاعداً ما بعد الموت، هذا الدين، الدين لأنه يعطيك السلامة والسعادة في الدنيا والآخرة، أما الإنسان إذا كان قوياً ما دام قلبه ينبض هو قوي، فإذا وقف قلبه انتهى.

هذا الذي هدم سبعين ألف بيت، الله عز وجل أصابه بالسبات، هذه السنة الرابعة وأمدّ الله بعمره. بلحظة كان إنساناً جباراً طاغية، صار جثة هامدة، عندي صورة له قبل أيام شيء مخيف، أين جبروته؟ أين قوته ؟.

فالحق ثابت هادف، الدين أثره إلى أبد الآبدين، من أجل إسعاد البشر أجمعين ، والدنيا متع رخيصة زائلة، تنتهي بعد حين.

(لِيُحِقَّ الْحَقَّ - بالدين - وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

طبعاً المجرمون مع الباطل، والباطل زائل، لذلك في النهاية لابدّ من أن ينتصر الحق.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

(سورة التوبة الآية: 33)

مرة يحرمون الخمر، قبل أن ينهار الاتحاد السوفيتي حرم الخمر، فتحريم الخمر تأييد لهذا الدين العظيم.

مرة ثانية يكتشفون أن النظام الإسلامي المالي هو الوحيد بعد انهيار النظام المالي الغربي القائم على الربا،

(لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

النصر من عند الله عز وجل:

قال تعالى:

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

(سورة الأنفال)

لكن الذي ينصر حقيقة هو الله.

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة الأنفال)

أراد أن يطمئننا فقط، أرسل الملائكة للتطمين فقط،

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

هذه حقائق موجودة في القرآن الكريم، الله عز وجل خلق السماوات والأرض وأنزل على عبده الكتاب، الكون في كفة، والقرآن في كفة، هذا كلام خالق الأكوان، قال لك: النصر من عندي، اطمئن،

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

فقط.

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 160)

من شروط النصر: الإيمان بالله و إعداد القوة المتاحة:

النصر له شروط، الإيمان شرط لازم غير كافٍ، والإعداد شرط لازم غير كافٍ، إن أعددت العدة ولم تكن مؤمناً لا تنتصر، وإن آمنت بالله ولم تستعد للعدو لا تنتصر، الإيمان شرط لازم غير كافٍ.

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

والشرط الثاني:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية: 60)

لا الإعداد من دون إيمان يكفي، ولا الإيمان من دون إعداد يكفي، فحينما نعد القوة المتاحة، ونؤمن أن الله هو الناصر ننتصر.

الإيمان هذا القانون الثابت، ولو كان الفرق خيالي بيننا وبين أعدائنا، و هناك حالات كثيرة كان الفرق خيالياً

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

أي أردفوكم وراءهم، هم في الطليعة، هم في المواجهة.

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

من عند الله،

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

أنواع النصر:

1 - النصر الاستحقاقي:

الآن هناك نصر استحقاقي:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: 123)

2 - النصر التفضلي:

هناك نصر تفضلي، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

3 - النصر المبدئي:

وهناك نصر مبدئي، لو أن الإنسان وافته المنية وهو مؤمن بالله، و على عقيدة سليمة، هذا منتصر نصراً مبدئياً

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى)

أما الفعل فعله، والقوة قوته، والتوفيق توفيقه، والنصر نصره.

من أجل أن

(وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ)

لكن الحقيقة اليقينية،

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

4 ـ النصر الكوني:

فالنصر استحقاقي، تفضلي، مبدئي، كوني، النوع الرابع كوني: فئتان بعيدتان عن الله، الأقوى ينتصر، الذي سلاحه دقة إصابته أدق ينتصر.

مثلاً دبابة أو مدرعة مدى مدفعها المجدي ثلاثة كيلو متر، وهناك طائرة هليوكوبتر المدى المجدي لمدفعها سبعة كيلو متر، يمكن طائرة واحدة تدمر مئتي دبابة، فإذا كان الطرفان بعيدان عن الله عز وجل الذي عنده سلاح مداه 7 كم ينتصر على سلاح مداه 3 كم، إذا لم يوجد بالطرفين إيمان فالأقوى ينتصر، السلاح الأقوى، السلاح الأدق في إصابته، التكتل الأقوى، التقنية الأعلى، الأقمار الصناعية، إذا غاب الإيمان حدث ما شئت عن الأقمار الصناعية، والقنابل الذكية، كل ما يقال حول الأسلحة الحديثة صحيح في ظل البعد عن الله عز وجل، أما إن وجد الإيمان فالمعادلات كلها تتغير، إن وجد الإيمان فالله عز وجل يعطل هذا الحشد الكبير.

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)

(سورة آل عمران الآية: 151)

ويقوي المؤمنين ويحفظهم.

إذاً:

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

هناك نصر استحقاقي، كانتصار الصحابة الكرام في بدر، و نصر تفضلي، كانتصار الروم على الفرس، وقد فرح الصحابة الكرام بهذا النصر التفضلي، و نصر مبدئي أن يموت الإنسان موحداً مؤدياً لعباداته، و نصر كوني الأقوى ينتصر، صاحب السلاح الأكثر دقة ينتصر.

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع الآيات المتعلقة بهذه المعركة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (05-30): تفسير الآيات 11 - 14 ، النوم تفاعل عميق وليس له مفرزات - الدعاء يقوي العقيدة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-05-08

بسم الله الرحمن الرحيم

النوم من آيات الله الدالة على عظمته:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الخامس من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الحادية عشرة وهي قوله تعالى:

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)

أيها الأخوة، النعاس نوم خفيف، في اللغة العربية اسمه سنة، قال تعالى:

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)

(سورة البقرة الآية: 255)

السنة نوم خفيف، والنوم نوم ثقيل،

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)

أيها الأخوة، أي أن الله جلّ جلاله لا يأخذه عن تدبير شؤون خلقه نوم خفيف، ولا نوم ثقيل، أما الإنسان إذا أكرمه الله في الأوقات العصيبة بسنة من النوم فالقصد هنا السنة من النوم التي تطمئن المؤمن.

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ)

هناك نعاس مع أمن، وهناك نعاس بلا أمن، فالذي وقع في شرك خفي، وضاقت عليه الأمور، وسدت أمامه الأبواب، ونسي الله فنسيه، لو أنه نام يرى في النوم أحلاماً مزعجة جداً، لكن الله أحياناً يتكرم على عباده المؤمنين الصادقين أنهم ينامون ويستريحون بالنوم، لذلك النوم من آيات الله الدالة على عظمته.

تعطل جميع الآليات أثناء النوم عدا الأذن:

كلكم يعلم أن هناك جهاز هضم، و جهاز الهضم يتفاعل مع الغذاء والناتج هو البراز، وجهاز التنفس يتفاعل مع الأوكسجين، والناتج أكسيد الكربون (غاز الفحم) ـ الزفير غاز فحم ـ و جهاز التعرق يتفاعل

مع الحر والناتج العرق، حتى العين لها مادة تفرزها ناتجة عن تفاعلها مع الأشياء، حتى الأذن لها مادة تفرزها (صماخ الأذن)، فكل جهاز في الجسم يتفاعل مع أشياء كثيرة، إلا أن النوم تفاعل عميق جداً لكن بلا مفرزات.

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ)

أيها الأخوة، العين تفرز العُماص، والأذن تفرز الصماخ، وجهاز التعرق يفرز العرق، وجهاز الكليتين يفرز البول، وجهاز الهضم يفرز البراز، فكل هذه الأجهزة تفرز نواتج، إلا أن النوم آلية معقدة جداً، النوم بلا ناتج، الإنسان عندما يتعب كثيراً يشعر بالإعياء، يكاد ينام قسراً، وأكبر الحوادث في الطرقات السائقين الذين يداومون على السفر ينامون فجأة، وهم يقودون مركباتهم، فالنوم له آلية معقدة، من أبسط شروط آليته أن الخلايا العصبية تتباعد في النوم، فالسيالة العصبية تجد المسافة واسعة لا تستطيع تخطيها، فتنام، لكن الصوت الكبير جداً، العالي جداً يقفز إلى هذه المسافة البعيدة.

تماماً كما لو واجهت جدول ماء، فالمسافة، أو عرض هذا الجدول أوسع من قدرتك على القفز، فتقف. فالسيالة العصبية أثناء النوم تقف، لأن الخلايا العصبية متباعدة، لكن في الأصوات العالية جداً هذه الأصوات تصل إلى الضفة الثانية، ويستيقظ الإنسان.

لكن بالمناسبة يتعطل بالنوم كل شيء عدا الأذن، أي الأذن تعمل في النوم لكن الصوت الضعيف لا يصل، أما الصوت القوي يصل، لو أن إنساناً نائماً نوماً عميقاً وسمع إطلاق مدفع يستيقظ فوراً، أما البصر معطل، الإنسان أثناء النوم مغمض العينين، الأحاسيس كلها معطلة إلا الأذن.

الليل هو الوقت المناسب للنوم:

لذلك أيها الأخوة، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ)

(سورة الروم الآية: 23)

والليل هو الوقت المناسب للنوم، لكن هذه الحضارة جعلت ليل الناس نهاراً، ونهار الناس ليلاً. أجدادنا والسلف الصالح، والآن العالم المتقدم جداً، الساعة التاسعة تتوهم أن هذه المدينة الكبيرة فيها منع تجول، لأن الناس جميعاً آووا إلى فراشهم ليأخذوا قسطاً من الراحة، كي يستطيعوا في اليوم التالي أن يكونوا الساعة الثامنة أو السابعة في أعمالهم، والموظف الذي لا يركز في عمله يخسر وظيفته، وعدم التركيز يأتي من السهر الطويل.

مرة كنت في سدني الساعة التاسعة توهمت أن هناك منع تجول، هذا العالم القوي ينام باكراً ليأخذ قسطاً مديداً من الراحة، والساعة الخامسة صباحاً الطرقات مزدحمة، في بلاد متخلفة أحياناً لا تحل

قضية قبل الساعة الثانية عشرة، المحلات الساعة العاشرة كلها مغلقة، تفتح العاشرة أو الحادية عشرة، يأتي صاحب المحل في الساعة الثانية عشرة أو في الواحدة، والسهر للساعة الثانية عشرة ليلاً هذا النظام.

الآن العالم المتقدم رفضه، دوام متصل من الساعة الثامنة حتى الساعة الخامسة، وهناك ساعة راحة أثناء الظهيرة، الإنسان يذهب إلى بيته الساعة الخامسة، التقى مع أهله وأولاده، جلس معهم، زار صديقه، أما العمل للساعة الثانية ليلاً، للساعة العاشرة ليلاً، للساعة الثانية عشرة ليلاً، والنوم إلى الظهر، هذا نظام ينبغي أن يرفض، وإذا شخص من الأخوة الكرام تمكن من ضبط نظام حياته بالنوم الباكر سيستيقظ صباحاً كالحصان.

((ولو يعلمون ما في العَتَمة والصبح لأتوهما ولو حَبْواً))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ومالك عن أبي هريرة]

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

(سورة المزمل)

أضرب لكم مثلاً في العالم الإسلامي في وقت تألقه، بعد العشاء الناس جميعاً خلدوا إلى الراحة، والاستيقاظ قبل الفجر على صلاة قيام الليل.

مرة أخ وعدني بالمكتب الساعة السادسة صباحاً، سألته ما السبب ؟ قال: أنا علمني والدي الصلاة قبل الفجر بساعة، من أيام طفولتي إلى الآن أنام باكراً وأستيقظ قبل الفجر بساعة.

شيء رائع جداً، إذا استطاع الإنسان أن يضبط بيته، وأولاده على النوم باكراً، والاستيقاظ صباحاً، ساعات القراءة، والمطالعة، والدراسة، والعمل، والتخطيط صباحاً تعادل أربع ساعات في النهار، الساعة الواحدة صباحاً.

الحواس الخمس تنقل للإنسان ما حوله بطريقة أو بأخرى:

على كلٍ: هذا الإنسان حينما ينام، تتباعد خلاياه العصبية، عندنا سيالة واحدة فعالة هي سيالة الصوت، فالصوت الضعيف لا ينتقل عبر هذا التباعد بين الخلايا، أما الصوت العالي جداً يقفز ويصل والإنسان يستيقظ وهذا من فضل الله عز وجل.

أنت تابع الأمر، الإنسان جالس في غرفة فكل شيء في الغرفة تحت مرمى بصره، البيت مئتا متر، أي شيء حدث بغرفة أخرى العين لا تراه، لكن الذي يصل إلى علمك عن طريق الصوت، يقول لك: هناك حركة في البيت، الصوت نعمة، العين ينتهي تفاعلها مع الأشياء عند الجدران، أنا الأذن تصل إلى أطراف البيت كله.

لكن لو دخلت فأرة تحت السرير وماتت، لا تراها ولا تسمع صوتها، ما الذي يشعرك بوجودها ؟ الرائحة، كم جهاز ؟ هناك عين، وهناك صوت أذن، وهناك رائحة، وهذا من فضل الله علينا، الحواس الخمس تنقل لك ما حولك بطريقة أو بأخرى.

نعمة الأمن ونعمة الكفاية أكبر نعمتين على الإطلاق:

أيها الأخوة، الآن هناك موضوع دقيق، أن الإنسان أحياناً ينام ويستيقظ مرتاحاً جداً ، ومستبشراً أحياناً، يرى رؤيا صالحة، يرى أنه في بستان، ويرى أنه مع أحبابه، و يرى أنه في تفوق، وأحياناً يستيقظ على حلم مزعج جداً.

إذاً ممكن أنك إذا أديت الصلوات قبل أن تنام، وقرأت آية الكرسي كما ورد عن سيد الأنام، ودعوت دعاء النوم، أن تنام نوماً مريحاً، وأن يكون هذا النوم راحة لك ولقلبك.

الآن الخوف يخلقه الله، دقق:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية: 151).

قانون الخوف: الإشراك يساوي الخوف، قانون الأمن: الإيمان بالله والاستقامة على أمره تؤديان إلى الأمن، الآيات:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

(سورة الأنعام الآية: 81 - 82)

أكبر نعمتين على الإطلاق نعمة الأمن، ونعمة الكفاية.

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

أن تكون قد ملأت المعدة بالطعام الحلال، شبعت وأنت آمن.

الإنسان أمام خيارات لا تعد و لا تحصى مادام حياً:

قلت مرة: أحد العلماء كان يأخذ تلاميذه صبيحة عيد الفطر إلى المقابر، ليرى أخوانه نعمة الحياة، أنت حي بإمكانك أن تتوب، بإمكانك أن تستغفر، بإمكانك أن تصطلح مع الله، بإمكانك أن تؤدي ما عليك، بإمكانك أن تعمل حسنة تمحو سيئة، بإمكانك أن تؤدي واجباً قد أهملته، بإمكانك أن تطلب العلم، بإمكانك أن تضبط أولادك، ما دمت حياً كل شيء ممكن ، بتعبير آخر: ما دام القلب ينبض أنت في

بحبوحة، أمامك خيارات لا تعد ولا تحصى ما دمت حياً، فإذا مات الإنسان خُتم عمله، لذلك عند الموت:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة)

الآن: الله ملكك نفسك، أنت في الحياة نفسك بين يديك.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

لكن بعد الموت

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

العاقل من استخدم نعم الله في طاعته لا في المعاصي و الآثام:

إذاً هذا العالم الجليل يأخذ أخوانه أول يوم من أيام عيد الفطر إلى المقابر ليعرف أخوانه نعمة الحياة، في اليوم التالي إلى المستشفيات، تشمع كبد، فشل كلوي، خثرة بالدماغ، احتشاء بالقلب، سرطان بالأمعاء، أنت معافى، الحواس الخمس تعمل بانتظام، منحك الله قوة تتحرك، لا تشكو من شيء، في اليوم التالي إلى المستشفيات من أجل أن تعرف قيمة الصحة، هذه نعمة.

((اغتنم خمساً قبل خمس ـ من هذه الخمس ـ صحتك قبل سقمك))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عباس]

الإنسان إذا مرض من مستشفى إلى مستشفى، أهمل كل شيء، الأدوية، والعملية الجراحية، وأين نجريها، في بلده، في بلد آخر، يبيع بيته من أجلها، أنت بصحة تامة، نعمة الصحة لا تعدلها نعمة، ففي اليوم التالي يأخذهم إلى المستشفيات، ليروا المرضى ومما يعانون ؟ وفي اليوم الثالث يأخذهم إلى السجون، من أجل أن تعرف نعمة الحرية، أنت حر، لا يوجد مذكرة بحث بحقك، الذي عليه مذكرة بحث لو طرق بابه لانخلع قلبه، فالحر يفتح الباب و هو مطمئن، يتنقل، يسافر، لا يوجد عليه شيء، نعمة الحياة، ونعمة الصحة، ونعمة الأمن، قال تعالى:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

نعمة الأمن، نعمة الصحة، نعمة الكفاية، نعمة لك أولاد، لك بيت، لك مأوى، لك زوجة، هذه النعم ماذا فعلت بها ؟ استخدمتها في المعاصي والآثام أم استخدمتها في طاعة الرحمن ؟.

الخوف يأتي من الشرك و الأمن يأتي من الإيمان:

إذاً الخوف يأتي من الشرك،

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

أي إنسان مشرك مهما كان قوياً ولو أنها أقوى دولة في العالم، يوجد مع الشرك خوف، و مع الإيمان أمن، احفظ الآيتين،

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

والآية الثانية:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

أيها الأخوة، هناك تجربة ذكرها بعض العلماء، جاؤوا بإنسان وضعوه على لوح خشبي، وعلقوه من وسط اللوح تماماً بحسب التوازن، أي عُلق هذا اللوح بحبل إلى السقف بحيث أن مكان التعليق هو المتصف الدقيق جداً بحيث أنه يبقى أفقياً، عندما جاءته سنة من النوم مال هذا اللوح، هناك شيء جاء، النوم يُخلق، واليقظة تُخلق.

لذلك أيها الأخوة، الله عز وجل جعل النوم من آياته الدالة على عظمته.

على الإنسان أن يحجم عن رواية القصص الغير واقعية:

أقول لكم كلمة عن إنسان أعرفه، لا ينام، أنا لا أتردد دقيقة عن اليقين أنه لو عرض عليه أن يبيع بيته، وأن يبقى بلا مأوى مقابل أن ينام ليلة واحدة لن يتردد أبداً، أنت حينما تتجه إلى فراشك، وتنام نوماً عميقاً هذه من نعم الله العظمى، وكما تعلمون الإنسان مهما كان متعباً إذا نام أربع ساعات أو خمس يستريح، يستيقظ نشيطاً كالحصان، فقضية النوم من نعم الله الكبرى.

قصة عن سيدنا عمر أحجمت عن روايتها سنوات طويلة، ثم رأيتها برواية أخرى فأصبحت أرويها، لما جاءه رسول عامله على أذربيجان، وصل إلى المدينة ليلاً (في منتصف الليل) فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين في هذا الوقت المتأخر فتوجه إلى المسجد، لم يكن هناك كهرباء، سمع إنساناً يناجي ربه ويقول: ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزيها ؟ قال له: من أنت سبحان الله ؟ ! من أنت يا هذا ؟ قال له: أنا عمر، قال له: أمير المؤمنين ؟! قال له: أمير المؤمنين، قال له: ألا تنام الليل ؟ الرواية التي منعتني أن أروي هذه القصة كما يلي ؛ قال له: إني إن نمت ليلي أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي (معنى هذا أنه لا ينام و هذا شيء يتناقض مع قوانين الجسم).

الرواية الثانية: إني إن نمت ليلي كله ـ كلمة كله صار في واقع ـ إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإني إن نمت نهاري أضعت رعيتي.

فالنوم لابد منه.

لذلك هناك مئات القصص التي تروى أنا أعتقد لا أصل لها، أن الفلان الفلاني، العالم الجليل، صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين عاماً، غير صحيحة، هل تستطيع أن لا تنام ليلتين فقط ؟ لا تستطيع، هذا نظام، النبي قال:

((ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن أنس]

لا تروي قصة غير معقولة، لا تروي قصة مستحيلة، حينما تروي هذه القصص تجعل الدين شيئاً غير واقعي، شيئاً مستحيلاً، لذلك أنا أُحجم عن رواية قصة غير مألوفة، غير معقولة، غير منطقية، لا يقبلها العقل.

لذلك هذه القصص التي تروى قرأ القرآن في ليلة واحدة، ستمئة صفحة، إذا الصفحة يقرأها بركعة، يحتاج أن يصلي ستمئة ركعة، ستمئة ركعة لا تكفي بليلة واحدة، هناك أشياء معقولة، وهناك أشياء غير معقولة، فمن سنة النبي أن نصلي إحدى عشرة ركعة، ثماني ركعات، وثلاث ركعات وتر في الليل هذه السنة، دعك مع سنة النبي عليه الصلاة والسلام، لا تبالغ، لا تجعل الإسلام شيئاً خيالياً غير واقعي.

إعجاز الله عز وجل:

الشيء اللطيف أن الإنسان وهو نائم كل شيء معطل إلا الأذن، من هنا قال الله تعالى:

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

(سورة الكهف)

لو أن آذانهم تعمل عملها الطبيعي لما ناموا هذه السنوات المديدة.

الدقة المذهلة في القرآن الكريم:

أيها الأخوة، الآن في سورة الأنفال جاءت الآية:

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً)

إشارة إلى أن كل أصحاب النبي الكريم أصابتهم هذه الغفلة في النوم،

(النُّعَاسَ أَمَنَةً)

فاطمأنت قلوبهم.

هناك نوم مع القلق، أي غير المؤمن لو نام معه قلق، معه أحلام مزعجة جداً، معه كابوس كما يقولون، لكن في آل عمران قال تعالى:

(أَمَنَةً نُعَاساً)

(سورة آل عمران الآية: 154)

ما كل من ناموا كانوا مطمئنين، في الأنفال كل الصحابة كانوا نائمين، أما في مجال آخر فهناك الكثير من المنافقين، بعض الذين ناموا كانوا مطمئنين، أي هناك دقة مذهلة بالقرآن الكريم، مرة جاءت

(النُّعَاسَ أَمَنَةً)

ومرة،

(أَمَنَةً نُعَاساً)

التبديل له معنى دقيق جداً، مثلاً الله قال:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ)

(سورة المائدة الآية: 38)

بدأ بالسارق، أما بالزنا قال:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

(سورة النور الآية: 2)

لأن المرأة أصل في الزنا، تكشف مفاتنها تغري الرجال بها، هذا اسمه التحرش بكلمة أو بلمسة، أما المرأة تتحرش به بثيابها.

قيمة المرأة تظهر من حشمتها:

أنا لا أنسى قصة حُدثتها من قبل أخ كريم، قال: عرضوا بفضائية شاب مجرم اغتصب عدداً كبيراً جداً من الفتيات وقتلهن، فهناك باحثة اجتماعية طلبت أن تلتقي معه على فضائية من الفضائيات، طبعاً سألته عن اسمه، قال لها اسمه، لا يفقه شيئاً لا يقرأ ولا يكتب، أي جاهل جهلاً مطبقاً، فقالت له: كيف تفعل هذا ؟ قال لها: من ثيابهن، وضع يده على المشكلة، من ثيابهن، تقول له هذه الباحثة: لو أن امرأة محجبة هل تتحرش بها ؟ قال لها: الذي يتحرش بها أقتله.

كل قيمة المرأة تظهر من حشمتها، وكأنها ملكة، أنا لا أتصور إنسانة محجبة حجاباً شرعياً أحد يتحرش بها، أكاد أقول مستحيل، ما ظهر منها شيء، ما ظهر من مفاتنها شيء حتى تدعو إلى التحرش، أما التي تعرض كل مفاتنها على الناس كأنها تدعوهم إليها.

من قاتل في سبيل الله يبتغي وجهه منحه الله الأمن و الطمأنينة:

أيها الأخوة،

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)

أولاً: يبدو أنه في إحدى المعارك استطاع المشركون أن يأخذوا الماء إليهم، فحُرم الصحابة من الماء، لذلك أكرمهم الله، أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ كن مع الله، والماء بيد الله.

لذلك

(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ)

إشارة دقيقة جداً، وأنت في ساحة المعركة، وأنت تقاتل، يجب أن تكون نظيفاً، ما قولك ؟.

(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ)

إذا شخص أصابته جنابة من حلم قال:

(وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ)

إشارة أولى إلى النظافة، وإشارة ثانية إلى إنهاء الجنابة وكلاهما مقلق.

هناك أشياء لطيفة جداً أن الله عز وجل وصف لنا صلاة الجماعة في الحرب، هناك قتل مع خط المواجهة الأول، ينبغي أن تصلي جماعة، و لهذا نظام خاص، هناك آيات أخرى، فأنت مدعو أن تصلي جماعة وأنت في الحرب فكيف في السلم ؟ وأنت مدعو أن تكون نظيفاً وأنت في ساحة المعركة.

(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)

هذه النقطة الدقيقة أن الإنسان حينما يقاتل في سبيل الله قتالاً مشروعاً يبتغي من هذا القتال وجه الله عز وجل، الله عز وجل يملأ قلبه طمأنينة.

من كان مع الله كان الله معه:

والله سمعنا قصصاً عن أخوتنا في غزة أثناء الحرب الأخيرة شيء يكاد لا يصدق من طمأنينتهم، يواجهون أكبر جيش، هم ضعاف لا يملكون من الأسلحة الحديثة إلا الشيء القليل جداً، ومع ذلك ألقى الله في قلبهم الطمأنينة، قصص كثيرة جداً قيلت.

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ)

المؤمن يتمتع بطمأنينة عالية جداً، يلقي الله في قلبه الأمن،

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية: 4)

هذه معية عامة، مع كل إنسان، مع الكافر، مع الملحد، مع المشرك، مع العاصي، مع الفاجر، مع أي إنسان، لكن:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

إن الله مع الصادقين، إن الله مع التوابين، هذه معية خاصة، قال علماء التفسير: المعية الخاصة تعني أن الله ينصرهم، ويحفظهم، ويوفقهم، ويحميهم، ويطمئنهم ، المعية الخاصة تعني النصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق، هذه المعية الخاصة، وهي في متناول كل منكم، كن مع الله ترَ الله معك، كن معه مستقيماً تراه معك مثبتاً، كن معه مستقيماً تراه معك موفقاً، كن معه مستقيماً تراه معك ينصرك على أعدائك.

إذاً:

(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ)

أي الماء للنظافة أولاً، وللبعد عن الجنابة إذا كانت هناك جنابة.

الدعاء سلاح المؤمن وهو يقوي العقيدة:

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ)

بالمناسبة قالوا: الدعاء يقوي العقيدة، لما دعا هؤلاء الصحابة ربهم من أجل الماء، والماء نزل قويت ثقتهم بربهم، وقويت عقيدتهم، وإيمانهم به ، الدعاء سلاح المؤمن وهو يقوي العقيدة، أنت إذا دعوت الله دعاء صحيحاً:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة الآية: 186)

ودعوته، واستجاب لك، يزداد إيمانك بالله، بل يتجدد إيمانك بالله، بل هذا الدعاء المستجاب يعد يوماً من أيام الله، قال تعالى:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم الآية: 5)

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ)

دعوتم ربكم أن ينزل عليكم المطر من السماء، المطر نزل، الآن لو فرضنا لا سمح الله ولا قدر وقعنا في سنة جفاف كبيرة جداً، والسماء لا تمطر، مضى الشهر التاسع، والعاشر، والحادي عشر، والثاني عشر، والأول ما كان في مطر، لو فرضنا أجرينا صلاة استسقاء، وعقب هذه الصلاة الأمطار نزلت كأفواه القرب، بماذا يشعر كل المسلمين ؟ بالثقة بالله عز وجل، الله موجود كل شيء بيده.

الإنسان يدعو ربه حقيقة عندما يثق بوجوده و حبه و قدرته و استجابته:

بالمناسبة أنت حينما تدعو الله، ويستجيب لك تزداد إيماناً به، من هنا قال تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

(سورة الفرقان الآية: 77)

أنت متى تدعو الله حقيقة ؟ إذا آمنت أولاً بوجوده، وآمنت ثانياً أنه يسمعك، إن تكلمت فهو يسمعك، وإن تحركت فهو يراك، وإن أضمرت شيئاً فهو يعلمه، وثالثاً تؤمن أنه على كل شيء قدير. والله أعرف صديقاً (القصة من أربع وعشرين سنة)، أصيب بورم خبيث بالرئتين ، والذين عالجوه أصدقائي، أعطوه جواباً قطعياً لا يوجد أمل أبداً، هناك أمل وحيد أن يزرع رئة وأجرة هذه العملية ثمن بيته بالضبط، ابنه صغير، يبدو أن له دعاء مستجاباً، الآن هو حي يرزق، و لم يحتاج إلى هذه العملية، و صار هناك تراجع ذاتي.

بالطب هناك شيء اسمه الشفاء الذاتي، لأن هذا الموضوع مربوط بالخرافات فهو مهمل.

فالدعاء يقوي العقيدة، أنت حينما تدعو الله أنت مؤمن بوجوده، وأنه يعلم ما تقول، وأنه على كل شيء قدير، وأنه يحبك.

أربعة أشياء: يحبك وقادر وسميع عليم وموجود، لذلك قال تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ)

(سورة الفرقان الآية: 77)

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ)

يعطيك المعنويات العالية، واثق.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

أخطر شيء أن نهزم من الداخل:

أخطر شيء الآن أن نهزم من الداخل، أي هناك انهيار داخلي، انتهينا، ما بيدنا شيء، الله موجود، والله عز وجل يظهر آياته من حين لآخر، أنفلونزا الخنازير أليست من آيات الله ؟ رعب بالعالم كله، وقبلها كان هناك أنفلونزا الطيور، وقبلها حرب غزة، أليس هذا دعماً إلهياً ؟ الله عز وجل يظهر آياته، وقبلها انهيار النظام العالمي، وراء بعضهم الحمد لله.

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ)

أنت مع منهج السماء، أنت مع وحي السماء، لكن المشكلة أن أمة المسلمين نائمة في ضوء الشمس، أعداؤهم يعملون ليلاً نهاراً في الظلام، إلا أن الذي يعمل في الظلام يسبق من هو نائم في ضوء الشمس.

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

(سورة الأنفال)

قال عليه الصلاة والسلام:

((نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهر))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله]

وأنا تعليق من عندي: وأمته هزمت بالرعب مسيرة عام، عندما انتشر الشرك و الضعف و المعاصي أصبح هناك هيمنة من الأعداء،

(فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة الأنفال)

الفتنة الطائفية أول ورقة رابحة يحملها العدو ضد الإسلام و المسلمين:

أخواننا الكرام: الفكرة مهمة جداً، نحن أمة إن فرقت إلى كافر بالله، ومؤمن به، و صار هناك مشكلة بين هذين الطرفين، الطاقات والجهود بُددت، الآن نحن هل تصدقون بحربي أفغانستان والعراق الكلفة تقريباً ثلاثة آلاف مليار ؟! لو ما في هذه الحروب وأنفقت على مصالح البشر، كم مستشفى ؟ كم مستوصف ؟ كم طريق ؟ كم جامعة ؟ ثلاثة آلاف مليار ماذا تفعل في الأرض ؟ تحل معظم مشكلات البشر، عندما صار انشقاق وحروب هذه الطاقات والثروات والأموال أُنفقت لشيء لا يقدم ولا يؤخر.

فلذلك الآية الكريمة:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أي عملوا انشقاقاً بالأمة فأصبحوا مؤمناً و كافراً،

(وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)

(سورة الأنفال)

يعني الله عز وجل جعل الذوق لا للطعام والشراب فقط بل للذل أيضاً.

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

(سورة الدخان)

فهذا الذي يشق صفوف الأمة يجعل بأسها بينها، والذي يوحدها يجعل بأسها على أعدائها، فرق كبير جداً بين أن تشق صفوف الأمة فتجعل بأسها بينها، وبين أن توحدها فتجعل بأسها على أعدائها. فلذلك أول ورقة رابحة يحملها العدو هي الفتنة الطائفية، ترونها تعمل عملها في بلاد أخرى، فنحن بوعينا إن شاء الله نسقط هذه الورقة الرابحة من أيدي الطغاة والأعداء.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (06-30): تفسير الآيات 15 - 18، الإعداد والمواجهة تضيق على العدو خطتهم - والله موهن كيد الكافرين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-05-15

بسم الله الرحمن الرحيم

من أراد أن يحدث ربه فليدعه و من أراد أن يحدثه ربه فليقرأ القرآن:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

أول شيء إذا قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أنت أيها المؤمن هل تشعر أنك معني بهذا الخطاب ؟ إذا كنت طبيباً وجاء بلاغ يا أيها الأطباء، وأنت طبيب تشعر يقيناً أنك معني بهذا الخطاب، فإذا كنت مؤمناً حقاً، وقرأت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

تشعر بكل كيانك أنك معني بهذا الخطاب.

قال: إذا أردت أن تحدث ربك فادعه، وإذا أردت أن يحدثك ربك فاقرأ القرآن، أنت حينما تقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أنت مؤمن، الخطاب لك.

مخاطبة عامة الناس بأصول الدين و مخاطبة المؤمنين بفروع الدين:

الحقيقة الثانية: أن الله خاطب عامة الناس بأصول الدين، وخاطب المؤمنين بفروع الدين، قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

(سورة البقرة الآية: 21)

العبادة أصل كبير من أصول الدين، أما حينما خاطب المؤمنين قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

إذاً: أول حقيقة ما دمت مؤمناً حقاً تشعر أنك معني بهذا الخطاب، وأن هذا الخطاب لك، وأن هذا الخطاب يقتضي أن تقف موقفاً، إن كان أمر ينبغي أن تأتمر، إن كان نهي ينبغي أن تنتهي، إن كان آية كونية ينبغي أن تتفكر، إن كان قصة لأقوام سابقين ينبغي أن تتعظ، إن كان مشهداً من مشاهد أهل الجنة ينبغي أن تسعى إليها، وإن كان مشهداً من مشاهد أهل النار ينبغي أن تتقي النار ولو بشق تمرة.

تدبر آيات القرآن الكريم:

صدق أيها الأخ: ما لم يكن لك موقف من أية آية ففي الإيمان خلل.

تصور مدير مؤسسة، قائد جيش، رئيس جامعة، مدير مستشفى، يوجه خطاباً إلى الأطباء، أي معقول الطبيب لا يعبأ إطلاقاً بهذا الخطاب، وهو يعنيه، ومكلف بالخطاب أن يفعل شيئاً ؟

لذلك: امتحن إيمانك من هذا المقياس، هل تشعر إذا قرأت القرآن وتلوت قوله تعالى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هل تشعر أنك معني بهذا الخطاب ؟ هذه واحدة.

وهل تشعر أنه لا بدّ من أن تأخذ موقفاً فيما سيأتي بعد

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

إذا في أمر ائتمار، إذا في نهي انتهاء، إذا في آية كونية تفكر، وإذا في مشهد من مشاهد الجنة تسعى لها، مشهد من مشاهد أهل النار تفر منها، إذا كان هناك قصة لأقوام سابقين ينبغي أن تتعظ، عود نفسك أن تدبر القرآن الكريم أي أن تقف موقفاً من أية آية، هذا التدبر.

التفسير شيء آخر، فهم القرآن شيء وتدبره شيء آخر، الله عز وجل قال:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

(سورة محمد)

التدبر أن تقف موقفاً من أية آية تقرؤها، لأنك مؤمن والله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هذه واحدة.

أركان النجاة:

الآن هل تصدق أن من أركان النجاة التي وردت في القرآن الكريم:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا)

ما سيأتي بعد إلا أركان النجاة:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، أنا أسألك لماذا تصلي ؟ جوابك الرائع والبديهي والواحد والوحيد لأن الصلاة فرض، فإذا أقنعتك بالدليل أن الدعوة إلى الله فرض عين، قل لي ما الدليل ؟ أقول لك سورة العصر،

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا)

أركان النجاة

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

هذه الدعوة.

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم في حدود ما يعلم ومع من يعرف:

لكن أيها الأخ الكريم، الدعوة إلى الله كفرض عين على كل مسلم في حدود ما تعلم ومع من تعرف، في حدود ما تعلم، سمعت درس علم، حضرت خطبة تأثرت بها، قرأت حديثاً أعجبت به، قرأت تفسير آية تأثرت من هذا التفسير، هذا الذي تأثرت به ينبغي أن تنقله إلى من حولك، إلى زوجتك، إلى أخيك، إلى ابنك، إلى صهرك، إلى جارك، إلى صديقك، إلى شريكك، الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف.

أما الدعوة إلى الله كفرض كفاية تحتاج إلى تفرغ، وإلى تبحر، وإلى تعمق، وإلى قدرة أن ترد على كل الشبهات، هذه اختصاص، إنسان متفرغ كلياً، دخل جامعات، جاهد نفسه وهواه وصل لدرجة من العلم بحيث يستطيع أن يرد على كل شبهة، هذا موضوع ثانٍ.

طبعاً الآية المتعلقة بفرض الكفاية قال تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: 104).

(مِنْكُمْ)

من للتبعيض، هذه فرض كفاية، أما الدعوة إلى الله كفرض عي

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

والآية الثانية:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية: 108)

فإن لم تكن داعياً إلى الله أنت لست متبعاً لرسول الله، وإن لم تكن متبعاً لرسول الله أنت لا تحب الله، الدليل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 31)

هذا أول شيء، إذاً

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

أي أنت مكلف أن تدعو إلى الله، لذلك إذا ذاع داعي الجهاد ينبغي أن تستجيب، ولأن أحد أركان النجاة أن تسهم في ترسيخ معالم هذا الدين، وأحياناً الجهاد القتالي أحد أسباب ترسيخ معالم هذا الدين.

حقيقة الإيمان ما إن تستقر في قلب المسلم حتى تعبر عن ذاتها بحركة نحو الآخرين:

أيها الأخوة، علامة إيمانك: ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلبك إلا وتعبر عن ذاتها بحركة نحو الآخرين.

أما ليس لي علاقة، الناس لهم ربهم يحاسبهم، لا تهتم بنشر الحق، لا تهتم بمن حولك، رأيتهم على ضياع وضلال، ولم تعبأ بهم إطلاقاً، هذا الموقف يغضب الله عز وجل والدليل:

عندما أرسل الله عز وجل ملائكة لإهلاك قرية عادوا وقالوا: **" يا رب إن فيها صالحاً، قال: به فابدؤوا، شيء عجيب ! لمَ يا رب ؟! قال: لأنه لم يكن وجهه يتمعر إذا رأى منكراً ".**

إنسان هداه الله إلى الدين، مستقيم، بيته إسلامي، دخله حلال، ما عنده مشكلة يقول لك: الناس هلكى، مرتاح، ألا تحاول أن تنقل هذا الدين لأخيك ؟ لأختك ؟ لصهرك ؟ لجارك ؟ لعمك ؟ لخالتك ؟ لمن حولك ؟ لشريكك ؟ لجيرانك ؟ ألا يوجد عندك رغبة إطلاقاً في أن تنقل شيئاً من الدين للآخرين ؟ ألا يوجد عندك رغبة إطلاقاً في أن تدعو إنساناً لحضور درس ؟ صدق ولا أبالغ هذا الذي لا يعنيه أمر الناس إطلاقاً، ولا يعبأ بانحرافهم، وشرودهم عن الله بالمنظور الإسلامي يستحق الهلاك.

قال: به فابدؤوا، لأن وجهه لم يكن يتمعر إذا رأى منكراً.

علامة إيمانك أن تنقل الخير إلى الآخرين:

أقول لكم مرة ثانية: الدعوة إلى الله فرض عين بدليلين، أول دليل الآية:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

والدليل الثاني:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

فإن لم تدعُ على بصيرة بالدليل، والتعليل، والحديث الصحيح، فأنت لا تتبع رسول الله، والذي لا يتبع رسول الله قولاً واحداً لا يحب الله، لقوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

إذاً فكر، لك ابن خالة، ابن عم، جار، صديق، له ثقة فيك، واثق منك، أعطه شريطاً، أعطه موضوعاً، اقتنيت كتاباً قل له: اقرأه، أحياناً درس تأثرت منه، قل له: تعال احضر معي، يجب أن تفكر بالآخرين، ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى تعبر عن ذاتها بحركة نحو الآخرين، مؤمن سكوني، مؤمن عنده إعجاب سلبي بالدين، مؤمن يعظم الدين، ما خطر في باله ولا لثانية أن ينقل هذا الحق للآخرين، يوجد بإيمانه خلل كبير.

لذلك: الله عز وجل عدّ من علامة الإيمان أن تنقل هذا الخير إلى الآخرين

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

بالمناسبة: هناك باطل وهناك حق، الحق له دوائر، والباطل له دوائر، فأنت إن لم تدعُ إلى الله أنا أقول في حدود ما تعلم، سمعت درساً فقط، تأثرت فيه، اقتن شريطاً وأعطه لمن تتوسم فيه الخير، درس علم تأثرت به كثيراً، ادعُ من تثق به، ومن يثق بك لحضور هذا الدرس.

أحسن الناس قولاً من دعا إلى الله و عمل صالحاً:

بالمناسبة: ما معنى قوله تعالى ؟

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء)

أي أنت هل تستطيع أن تقول لشخص في الطريق لا تعرفه اذهب معي إلى الجامع ؟ مستحيل ! ولا يرد عليك أساساً، لا يعرف من أنت، أما أخوك واثق منك، صهرك واثق بك، ابن عمك واثق بك، ابن خالتك واثق بك، فأنت استغل علاقة القربى، فيها ثقة،

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

والله أخ من أخواننا حضر دروساً لفترة طويلة، الآن هناك عشرة من أقربائه بالجامع بحكمة بالغة، وأدب جم، أعطاهم شريطاً، وحكى لهم بعض الكلمات، لهم ثقة به فأتوا إلى المسجد، وأصبحوا ملتزمين.

إذاً مرة ثانية: ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن إلا وتعبر عن ذاتها بحركة نحو الآخرين، حركة عطاء، أي المؤمن وعاء فإذا امتلأ يجب أن يفيض على من حوله، إذا امتلأ الوعاء لابدّ من أن يفيض على من حوله، وصدق ولا أبالغ الآية الكريمة التي نقرأها ولا نقف عندها كثيراً:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

أي لا يوجد على وجه الأرض إنسان أفضل:

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

الدعوة إلى الله تتذبذب بين أن تكون أقدس عمل وبين أن تكون أتفه عمل:

ولكن لابدّ من التحفظ، الدعوة إلى الله تتذبذب بين أن تكون أقدس عمل على الإطلاق يرقى إلى صنعة الأنبياء، وبين أن تكون أتفه عمل على الإطلاق لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة، حينما تبذل من أجلها الغالي والرخيص تكون أثمن عمل، فإذا انتفعت بها، وتاجرت بها، وارتزقت بها، تغدو عملاً تافهاً لا قيمة له إطلاقاً.

لذلك الإمام الشافعي قال: **" لأن أرتزق بالرقص أفضل من أن أرتزق بالدين".**

هذا الدين اجعله في السماء، اجعله بعيداً عن وحول الأرض، اجعله بعيداً عن المصالح، اجعله بعيداً عن أن تنتمي إلى جهة أرضية، أنت فوق الجهات، فوق الانتماءات فوق التحزبات، فوق الخلافات،

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

لذلك الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً)

معنى الزحف الطفل يبدأ بالزحف، أي يتنقل بيديه فقط، ويسحب جسمه، بعدها يحبو، يستخدم ركبه، ثم يقف ويمشي، فهناك زحف، وهناك حبو، وهناك مشي.

أما الزحف لماذا شبه الله

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً)

أي الكفار أجمعوا على محاربة المؤمنين لحكمة بالغةٍ بالغة الله عز وجل أراد ـ وإرادته حكمة مطلقة ـ أن يجتمع المؤمنون وغيرهم على وجه الأرض في كل مكان وزمان، من اجتماعهم تنشأ معركة أزلية أبدية، هي معركة الحق والباطل، معركة أزلية أبدية، هي معركة الحق والباطل.

معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية :

لذلك وطن نفسك، هناك معركة لابدّ منها، الله عز وجل قال:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً)

(سورة السجدة الآية: 18)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم)

في أي مكان تعيش به، في بلاد الشرق، في بلاد الغرب، هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، أنت إذا دعوت إلى الله، وأنت إذا لبيت دعوة الله بالجهاد في سبيل الله، جهاد النفس والهوى، أو جهاد الدعوة، أو جهاد البناء، أو جهاد القتال، توسع دوائر الحق، فإذا وسعت دوائر الحق ضيقت دوائر الباطل، وإذا أهملت الدعوة ازداد الباطل، وعمّ، وعندئذٍ ضيق على الحق.

القضية خطيرة أيها الأخوة، إن قلت أنا ليس لي علاقة، دوائر الباطل تنمو، والطرف الآخر يكيد، ويخطط، أي لابدّ من أن تقف بوجه الطرف الآخر، الطرف الآخر لا يدخر وسعاً في إحباط كل مسعى إسلامي، هذه معركة شئت أم أبيت، أعجبك أو لم يعجبك، رضيت أو لم ترضَ، هناك معركة أبدية أزلية بين الحق والباطل، فطوبى لمن كان في خندق أهل الحق، والويل لمن كان في خندق أهل الباطل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً)

السعي لإحباط كل عمل يهدف إلى إضعاف الأمة الإسلامية:

أيها الأخوة، ينبغي أن تردوا عليهم بزحفٍ مثله، أعداؤنا في فلسطين خططهم من النيل إلى الفرات، فإذا استسلمنا لخطتهم ضاعت أراضينا، رأيتم ماذا فُعل بالعراق، ماذا فُعل بأفغانستان، ماذا فُعل بغزة، هؤلاء الطرف الآخر يريدون إفقارنا، ثم إضلالنا، ثم إفسادنا، ثم إذلالنا، ثم إبادتنا، فإذا أردنا أن نستسلم انتهينا، وإذا أبينا أن نستسلم:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

بالدول الإسلامية المحتلة المقاومة تركت أثراً كبيراً جداً، أنا في خطبة الجمعة قبل أسبوع أو أسبوعين بينت أن تقرير "سي آي إي "يؤكد أن بقاء إسرائيل لا يزيد عن عشرين سنة قادمة، هناك سبب ؛ لأن عصا إسرائيل كُسرت، مرة في ألفين و ستة، ومرة في ألفين و ثمانية.

إذاً هناك تطور، حينما ترفض الاحتلال، ترفض الاستعمار الاستيطاني، ترفض أن تخضع لمشيئة أعداء الله، طبعاً الأمر يتغير، ويتحول، نحن نعلم أحياناً أنه في حكماء صهيون بروتوكولات، لم ينفذ كل شيء، وجود الإرادة التي تقاوم هذه الخطط الجهنمية قد لا تحقق هذه الخطط.

كل إنسان يستطيع أن يسهم في قوة أمته و في بنائها:

أنا أقول لكم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً)

فواجهوهم بزحف مثله، طبعاً كل واحد منا لو أتقنت عملك أنت مجاهد، طورت صناعتك أنت مجاهد، استغنيت بصناعتك عن الاستيراد فأنت مجاهد، درست، حصلت على درجة عالية جداً وعدت إلى بلدك المسلم، ونفعت بها الناس فأنت في جهاد.

هناك ولاية واحدة في أمريكا خمسة آلاف طبيب معهم بورد، آثروا أن يبقوا هناك، أن يخدموا الطرف الآخر، أنت حينما تعود إلى بلدك أنت مجاهد.

أنا أقول: كل واحد منا مهما تكن هويته، مهما يكن اختصاصه، مهما يكن عمله، مهما يكن سنه، بإمكانه أن يسهم في قوة هذه الأمة، وفي بناء هذه الأمة، وفي صفوف هذه الأمة، وفي إفشال خطط أعداء الأمة.

طالب من الهند اخترع اختراعاً، وهو إنسان مسلم، بعد عام عرض عليه بلكيت الاختراع بخمسين مليون دولار، طلب خمسمئة مليون، واشتراه منه بأربعمئة مليون، وحل مشكلة منطقته الإسلامية بالهند بثلاثمئة مليون، وأبقى لنفسه مئة مليون، هذا واحد.

أنا أدعو الشباب لا تكن رقماً سهلاً، مليارات من البشر جاؤوا، وكبروا، وتزوجوا ، وخلفوا أولاداً، وماتوا ولم يعلم بهم أحد، لكن سيدنا صلاح الدين الأيوبي تقرأ قصصه فترتوي، وقف أمام سبعة و عشرين جيشاً، وسيدنا ابن الوليد خاض مئة معركة، ومع ذلك حقق نصراً كبيراً جداً، من قال لك: إن العظماء جاؤوا سابقاً ولا يوجد عظماء بعدهم ؟ أبداً.

أساساً البطولة والتفوق موجود بكل بلد، وبنسب واحدة

الشباب عماد الأمة و مستقبلها:

لمَ لا تكن إنساناً عظيماً ؟ أكلت، وشربت، ونمت، يوجد غير هذا ؟ نأكل، نشرب ونقول: ما المواضيع التي تطرقت لها قناة الجزيرة ؟ لا يوجد عندنا غيرها، ونحلل التحليلات، شيء صحيح وشيء غير صحيح ، وننام، وإلى متى ؟ حتى يتفاجأ بأزمة قلبية وإلى القبر، هذا واقع المسلمين.

خطط، إن لم تخطط يُخطط لك، إن لم تكن رقماً صعباً كنت رقماً سهلاً عند أعدائك، أليس كذلك ؟ أنا أرى الشباب أمامي، الشباب عماد الأمة، الشباب مستقبل الأمة، الشباب قادة الأمة، تفوق بالدراسة، هذا العصر عصر علم، والحرب كانت بين ساعدين، فأصبحت بين آلتين، الآن بين عقلين، يقول لك: طائرة بلا طيار، تقصف بأدق الأهداف، هذا اختراع عقل بشري، طائرة بلا طيار إصابتها مئة بالمئة دقيقة من دون طيار، هذه مشكلة، الآن حرب بين عقلين.

أيها الأخوة، كما أنهم يزحفون، ينبغي أن نزحف لهم، وإن شاء الله الوعي بدأ يتنامى.

التولي من الزحف من الكبائر:

الآن:

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

(سورة الأنفال الآية: 65)

أي المؤمن القوي بإيمانه يساوي عشرة مقاتلين ممن غفل عن الله، قال:

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

(سورة الأنفال الآية: 66)

أي التولي من الزحف من الثلاثة ليس تولياً مع ضعف الإيمان، لو توليت من ثلاثة ليست متولياً، لو توليت من اثنين فأنت متولٍّ من الزحف، وهو من الكبائر، التولي من الزحف من الكبائر، وقد قال الله عز وجل:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

(سورة النساء)

على المسلم أن ينشر الحق من أجل الاستقرار والحياة الآمنة:

أيها الأخوة، هناك شيء ثالث: أنت مسلم، مؤمن، لا تكذب، لا تسرق، لا تزني ، لا تقتل، أنت حينما تعمم الهدى، من أجل ألا يسرق مالك، وألا تنهب ثروتك، وألا يذل أولادك.

نشر الحق من أجل الاستقرار، والحياة الآمنة، لو أن الأقوياء تولوا كيف ترون ما يجري في العالم ؟ قوة كبيرة من دون إيمان، تصور أن شعوباً تُقتل بأكملها، تُدمر، قُتل من سكان أمريكا الأصليين ثلاثمئة مليون، كذلك في استراليا، كذلك في جنوب إفريقيا، فالطرف الآخر لا يرحم أبداً، ديدنه القتل والإبادة، مليون قتيل بالعراق، مليون معاق، خمسة ملايين مشرد، ولا أحد ينطق بكلمة.

أثناء حرب غزة ثماني دول أوربية جاءت إلى شرم الشيخ، التصريح الوحيد من أجل أن نمنع تهريب السلاح إلى المقاومة، من أجل ثلاثمئة ألف طفل وامرأة قتلوا بـ "16 f "، والأباتشي، و لا يوجد أي تعليق، والآن يزورون أسرة الأسير الواحد، و11800 أسير لا يوجد من يزورهم، ألسنا بشراً ؟ 11800 لم يخطر لمن يزور بلادنا أن يخصهم بزيارة واحدة ؟

اختر أسرة لا على التعيين، بشكل عشوائي، اعمل أسرة بأسرة، أما هم يزارون ؟ قال تعالى:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 119)

إذا ضعف الحق قوي الباطل وإذا قوي الباطل ضيق على الحق:

أيها الأخوة، الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

التولي من الزحف من الكبائر، قال:

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة الأنفال)

إلا بحالتين،

(إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ)

أحياناً يكون هناك انسحاب تكتيكي، الظاهر انسحاب، فالعدو يطمئن ثم ننقض عليه ثانية، هذا انسحاب لا يعد تولياً، خطة عسكرية ذكية جداً.

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ)

المتحرف لقتال رسم خطة محكمة فكان انسحابه وفق خطة من أجل أن ينقض على العدو مرة ثانية.

(أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ)

هو ضعيف انضم إلى جماعة أقوى منه، ضمّ قوته إلى قوة مؤمنين أقوى منه، بهذه الحالتين لا يعد تولياً من الزحف.

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ)

انتقل إلى حيز فئة أكبر منه، أما من يوليهم دبره ليس

(مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ قَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ)

لأنه رفض أن يقوي الحق، وإذا ضعف الحق قوي الباطل، وإذا قوي الباطل ضيق على الحق

(فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

أيهما أهون أن يموت الإنسان في سبيل الله فيستحق الجنة إلى أبد الآبدين، أو أن يتولى من الزحف فيستحق النار إلى أبد الآبدين ؟

(فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة الأنفال)

آية دقيقة جداً.

الإنسان لا يملك إلا الإرادة لكن الله عز وجل يعينه و يمده بالقوة إن كان صادقاً:

إنسان يعجب من هذه الآية،

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

طبعاً الآيتين، أو الفقرتين بالآية متعلقتان بحقيقة التوحيد أن الفعل فعل الله، وأن الإرادة من الإنسان، الإنسان عندما ينوي أن يفعل شيئاً يمده الله بقوة لفعل هذا الشيء، ففي الحقيقة لا يملك إلا الإرادة، لكن الله أعانه، فإذا انتصرت في الحرب هذه قوة الله، أمدك بقوة منه، لك أنت عند أجر الانبعاث، الإرادة، النية الطيبة،

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ)

أي لا تعتدوا بفعلكم، فعلكم من توفيق الله، إن نجحت بالحرب، بالتجارة، بالدراسة، أنت حينما رغبت أن تحقق شيئاً لمسلمين أمدك الله بالقوة، فالكلام الدقيق: ليس هذا من فعلك لكنه فعل الله، إلا أن الله أكرمك به، لكن الله لماذا أكرمك أنت به ولم يكرم الآخر ؟ لأنك طلبت هذا الخير، إذاً منك الانبعاث ومن الله عز وجل الفعل.

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

كلام دقيق جداً نجحت بالدعوة، الفضل لله عز وجل، ألهمك الصواب، أعانك، لكن لو أنك أردت هذا الشيء لما خصك الله به، جزء من الشيء منك، هي الإرادة، والاختيار، والنية الطيبة، والجزء الآخر منه من توفيق الله عز وجل.

لذلك: من شهد عمله فقد أشرك.

من ارتقى إيمانه ازداد تواضعاً و شعوراً بفضل الله عليه:

أخواننا الكرام، الإنسان أحياناً يفتن بالأسباب، يقول لك: عملت خطة دقيقة جداً ونفذت كل شيء، يفتن بالأسباب، ينبغي أن يعلم علم اليقين أن الفعّال هو الله، وأن فعلك من توفيق الله، لذلك: كلما ارتقى إيمانك يزداد تواضعك، وكلما ارتقى إيمانك يزداد شعورك بفضل الله عليك.

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)

الله أعانكم على الانتصار، هذا النصر بتوفيق الله، لكنكم صادقون استحققتم هذا النصر.

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

أي في الظاهر أنت الذي رميت، ولكن في الحقيقة الله الذي رمى، رمى عن طريقك، فأنت لست فعالاً لكنك منفعل بفعل الله عز وجل.

(وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنَاً)

البلاء امتحان، يفهم الناس البلاء أنه مصيبة لا، الابتلاء، الامتحان، الله امتحنكم فنجحتم .

(وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنَاً)

الله عز وجل يمتحن كل عباده، سُئل الإمام الشافعي: **" أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى ".**

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

سميع بأقوالكم، عليم بأحوالكم، الإنسان حينما يبتلى فإما أن ينجح أو لا ينجح، فإن لم ينجح الله عليم بقلبه، وعليم بما قال، وإذا نجح عليم بقلبه وسميع بما قال.

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

(سورة الأنفال)

كل شيء وقع أراده الله و إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة:

يا أخوان هناك أشياء كثيرة سلبية بحياتنا، لكن كل هذه السلبيات لها إيجابيات، أحياناً يُؤَلف كتاب يهاجم الدين، قد يقول أحدكم: لِمَ سمح الله له أن يفعل هذا ؟ هو فعل هذا من أجل أن يوقظ العقول، شبهة كبيرة طلاب العلم تأثروا، اضطربوا، سألوا علماءهم، أعطوهم الجواب العميق القوي فازداد إيمانهم، فأي إنسان مبطل لن يسمح الله عز وجل له أن يفعل شيئاً إلا ويوظف هذا الشيء لخدمة المؤمنين.

لذلك:

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

هذا المكر يعينهم الله على أن يحبط، فإذا أحبطناه ازددنا قوة، وإيماناً، وثقة بالله عز وجل، يجب أن تؤمنوا أن كل شيء وقع أراده الله، وأن كل شيء أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

والله الذي لا إله إلا هو لا يقع شيء على وجه الأرض مهما كان مؤلماً إلا وسنكتشف بعد حين الإيجابيات التي امتن الله بها علينا، حتى الحادي عشر من أيلول بعد حين إذا أمدّ الله بأعمارنا جميعاً ترون بركات الحادي عشر من أيلول كيف ساهمت بصحوة إسلامية، كيف أن الدين كان في دائرة التعتيم أصبح في بؤرة الاهتمام، كيف أن الدين كان ورقة خاسرة بيد الأقوياء أصبح ورقة رابحة، كيف أن الدين عمّ في الأرض كلها.

فلذلك: السلبيات هناك من يفكر في إيجابياتها،

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

أيها الأخوة الكرام، وفي درس قادم إن شاء الله نتابع شرح هذه السورة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (07-30): تفسير الآيات 19 - 23 ، طاعة رسول الله عين طاعة الله وطاعة الله عين طاعة رسوله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-05-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يحسم دائماً ما بين خلقه من خلافات:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع من دروس سورة الأنفال، ومع الآية التاسعة عشر وهي قوله تعالى:

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

هذه الآية بدأت بكلمة

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا)

ولا يغيب عن أذهاننا جميعاً أن الكلمات في اللغة تبدأ بالمعاني المادية، ثم تتطور إلى المعاني النفسية، كيف ؟ الحقد انحباس المطر، ثم أصبح الحقد شعوراً مؤلماً يعتمل في النفس.

الفتح، فتح باب، فتح سجن، إطلاق سراح المساجين، أما الفتح بالمعنى الآخر المعنوي، يعني الحسم، هناك خلاف بين فئتين الله عز وجل يفتح بينهما أي يحسم بينهما، أحياناً يكون هناك طلاق، من الظالم لا نعرف، المظلوم يوفق، فالله تعالى حسم الأمر.

هناك معركة، الله نصر هذه الفئة، فدائماً الله عز وجل يحسم ما بين خلقه من خلافات.

كل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

* * *

فالله عز وجل قال:

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا)

أي إن طلبتم من الله الحسم في أن توضح الحقائق.

النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام على حق، استفتحوا الله عز وجل فلما انتصروا في بدر، وفي الخندق، ولما فتح النبي مكة المكرمة، ودان له أهلها، الله حسم الأمر، ونحن إذا كنا مع الله يفتح لنا أي يحسم خلافاتنا مع أعدائنا، أما قضية عالقة من أربعين سنة، أو خمسين سنة ؟!

أنواع النصر:

قالوا: الحرب بين حقين لا تكون، وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي. الحرب بين حقين لا تكون، الحق لا يتعدد، مستحيل أن يكون حرب بين حقين، بين حق وباطل لا تطول لأن الله مع الحق، انتهى الأمر، لكن بين باطلين لا تنتهي، لذلك قالوا: هناك نصر استحقاقي:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: 123)

وهناك نصر آخر نصر تفضلي، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ (5))

(سورة الروم)

هذا نصر تفضلي، أحياناً نسأل الله نصراً تفضلياً إن كنا لا نستحق النصر الاستحقاقي، و هناك نصر كوني، فئتان شردتا عن الله الذي عنده أسلحة مداها المجدي أطول ينتصر، الذي عنده أسلحة دقة الإصابة بها متناهية ينتصر، الذي عنده أقمار صناعية ينتصر، الذي عنده ثلاثين حليفاً على الحق والباطل ينتصر، في تحالفات دولية، في أقمار صناعية، في أموال طائلة، في إعلام خطير، إذا كان الطرفان المتحاربان شاردين عن الله الأقوى ينتصر، هذا اسمه نصر كوني.

وإذا جاءت شظية وقتلت مسلماً صحت عقيدته وتوحيده وأدى عباداته هذا منتصر نصراً مبدئياً، صار عندنا نصر استحقاقي، ونصر تفضلي، نصر كوني، نصر مبدئي.

أعظم إنجاز للإنسان أن يكون الله معه بالنصر و التأييد:

لذلك:

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا)

أي يا كفار قريش وإن تنتهوا فهو خير لكم، كأن في هذه الآية وعيد للكفار إذا أدركتم أن هذا نبي كريم، وأن الله معه، وإذا كان الله معه فمن عليه ؟ وكففتم عن محاربته فهو خير لكم، وإن تعودوا نعد، إن تعودوا إلى محاربته نعد إلى نصره.

أعظم إنجاز لك أن يكون الله معك، الله عز وجل مع كل خلقه:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية: 4)

أما إذا قال تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

هذه معية خاصة أي معهم بالنصر، والحفظ، والتأييد، والدعم، إن تعودوا إلى حربهم نعود إلى نصرهم:

(وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ (19))

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249))

(سورة البقرة)

فالعدو أحياناً يعتد بقوته، يعتد بأسلحته، يعتد بخبراته، يعتد بأقماره الصناعية، فالله عز وجل يقول:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

بعد آيتين:

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47))

(سورة إبراهيم)

الصبر مع الطاعة طريق النصر:

أما أن تحل مشكلات المسلمين في الأرض بكلمتين في القرآن هذا واقع:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية: 120)

الصبر مع الطاعة طريق النصر، أما الصبر أي القهر مع المعصية ليس بعدهما إلا القبر، إن أردتم النصر اصبروا واتقوا، هذا ملخص الملخص:

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

هذه المعية الخاصة معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق.

أشقى الناس من وقف في خندق معاد للمؤمنين:

لذلك أشقى الناس من وقف في خندق معاد للمؤمنين، الآية الكريمة:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم الآية: 4)

امرأتان حفصة وعائشة:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم الآية: 4)

ما معنى الآية ؟ أي أنت حينما تحارب مؤمناً هل تعلم من وراءه ؟ أحياناً تخاف من طفل صغير لكن وراءه أب كبير، تخاف من دولة صغيرة لكن وراءها دولة كبيرة، تخاف من موظف وراءه الدولة كلها، الإنسان كلما نما عقله عرف من وراء خصمه، أسعد إنسان من وقف في خندق مع أهل الحق، وأشقى إنسان من وقف في خندق معاد لأهل الحق.

الذين كانوا من سادة قريش وزعماء قريش هم الأغنياء، والأقوياء، والوجهاء العظماء، والمؤمنون كانوا ضعفاء، مضطهدين، فقراء، بالنهاية زعماء قريش أين هم ؟ تقول سيدنا أبو جهل ؟ هل تتكلم أنت بهذا الكلام ؟ مستحيل، تقول سيدنا الصديق، سيدنا عمر، وأبو جهل لعنه الله، طبعاً لأنه حارب الحق، لذلك أكبر إنجاز لك أن تكون مع المؤمنين، وأكبر خطأ ترتكبه أن تكون في صف معادٍ للمؤمنين.

خطاب الخاصة من المؤمنين بفروع الدين:

أيها الأخوة الكرام، ومع الآية العشرين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(20))

قلت كثيراً في دروس سابقة: إن الله سبحانه وتعالى يخاطب الناس عامة بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (21))

(سورة البقرة)

ويخاطب الذين آمنوا، لأنهم آمنوا بالله، آمنوا به موجوداً، وواحداً، وكاملاً، آمنوا به، آمنوا بأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، آمنوا بحكمته، ورحمته، وعلمه، وقدرته، لهذه الأسباب كلها هم يخاطبون خطاباً خاصاً، يخاطبون بفروع الدين، وأي أخ كريم مؤمن يتلو قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا فلا يشعر أن هذا الكلام موجه إليه ففي إيمانه شك، ما لم تشعر حينما تقرأ قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أن هذا الخطاب إليك ففي الإيمان خلل.

أي بلاغ عام إلى كل الأطباء في القطر، وأنت طبيب، وهناك قرار حاسم إيجابي أو سلبي، فإن لم يخطر في بالك أنك معني بهذا الخطاب فأنت قطعاً لست طبيباً، و حينما تستمع إلى بلاغ موجه إلى كل الأطباء أنه: ما لم ينل الطبيب ترخيصاً بمزاولة المهنة لأول العام فلا يسمح له بفتح العيادة، وأنت طبيب، هذا قرار مصيري، تتعلق سلامتك واستمرارك بتنفيذ هذا البلاغ، فإن لم يكن يعنيك هذا القرار

فأنت قطعاً لست طبيباً، مادام ممنوع أن تفتح العيادة إلا بترخيص جديد، وأنت طبيب، ورزقك من هذه الحرفة، تقول: أنا ليس لي علاقة.

من أراد أن يحدث الله عز وجل فليدعه:

لذلك مقياس خطير حينما تقرأ قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا، علامة إيمانك أنك معني بهذا الخطاب. حتى بعضهم قال: إذا أردت أن تحدث الله فادعه، يا رب لك الحمد، يا رب وفقني، يا رب انصرني، يا رب اهدني واهدِ بي، وإذا أردت أن يحدثك الله فاقرأ القرآن، الله عز وجل يقول لك: يا أيها الذين آمنوا، وأنت في الصلاة قد لا تنتبه بعد أن تركع ماذا تقول ؟ سمع الله لمن حمده، الله يسمعك الآن فخاطبه، اشكره، ادعه.

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (20))

أيها الأخوة، أطيعوا الله في كليات الدين التي تجدونها في القرآن الكريم، وأطيعوا رسوله في تفاصيل الدين التي تجدونها في سنته المطهرة، فأنت ينبغي أن تطيع الله بقرآنه، وأن تطيع النبي فيما صحّ من سنته، والقرآن وحي متلو، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام وحي غير متلو.

بطولة الإنسان أن يكون عبد شكر لا عبد قهر:

أيها الأخوة:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ (20))

طبعاً أطيعوا الله ورسوله، أي قد يتبادر إلى أحدكم ولا تولوا عنهما، قال تعالى:

(وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ (20))

لأنك لا تستطيع أن تتولى عن الله، حياتك بيده، وقيامك بيده، وسمعك بيده، وبصرك بيده، وقلبك بيده، وأجهزتك بيده، ودسامات قلبك بيده، والشريان التاجي بيده، وزوجتك بيده، وأولادك بيده، والأقوياء بيده، والطغاة بيده، ومن دونك بيده، ومن حولك بيده، والرزق بيده، والسعادة بيده، لم يقل: ولا تتولوا عنهما، لأنك لن تستطيع أن تتولى عن الله عز وجل، لكن بطولتك أن تكون عبد الله، عبد إحسان لا عبد امتحان، هناك من هو عبد لله، عبد شكر، وهناك عبد قهر، ما معنى عبد قهر ؟ مهما تكن عظيماً، مهما تكن قوياً، مهما تكن متفوقاً، مهما تكن متمكناً، قوتك وتمكنك وهيمنتك منوطة بسيولة دمك.

والله أحياناً تتجمد قطرة من الدم لا ترى بالعين في أحد فروع أوعية الدماغ، بمكان شلل، بمكان فقد بصر، بمكان عمى، خثرة في الدماغ لها مضاعفات تنهد لها الجبال، وقد يكون ملكاً، خثرة في الدماغ، أصيب بالشلل، فانتهى بثانية، و بقي شكلاً عشر سنوات إلى أن توفاه الله، يكون ملكاً.

فبطولتك أن تكون عبد شكر لا عبد قهر، أما كل البشر عبيد قهر.

من عرف الله سلم و سعد في الدنيا و الآخرة:

لا يوجد إنسان إلا في قبضة الله بأي لحظة، ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في دعائه ؟

((اللهم إنا أعوذ بك من فجأة نقمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك))

[الجامع الصغير عن أبي نعيم]

فجأة، بثانية، فقدت كل شيء.

لو أن خللاً عقلياً أصاب صاحب البيت ـ هو الذي اشترى هذا البيت، هو الذي زينه، هو الذي اختار الأثاث، هو الذي ينفق عليه، هو الذي له المكانة الكبرى ـ أقرب الناس إليه زوجته تتوسط كي يكون له مكان في مستشفى المجانين.

فكل قيامك بالله، مكانتك بالله، رزقك بالله، دخلك بالله، هيمنتك بالله، قوة تأثيرك بالله، أنت حينما تعلم أنك بيد الله، من أدق أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم أنا بك قائم بك))

إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، اللهم أنا بك قائم بك وإليك، هذا المعنى التوحيدي، هذا الشعور أنك في قبضة الله، وأن الله على كل شيء قدير، وأنك إذا عرفته سلمت وسعدت في الدنيا والآخرة، وأنك إن نسيته بثانية تفقد كل شيء.

الذي يسمع الحق هو الذي يطبقه فقط:

أيها الأخوة الكرام،

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

في قرآنه في كليات الدين، والرسول فيما صحّ من سنته في تفاصيل الدين:

(وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ)

على من تعود ؟ على النبي عليه الصلاة والسلام، ما قال ولا تولوا عنهما، لأنك مستحيل أن تتولى عن الله عز وجل:

(وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(20))

الله عز وجل هداك بالكون، هداك بالقرآن، هداك بالنبي العدنان، هداك بالدعاة إلى الله، الله عز وجل أسمعك الحق، لكن الله جلّ جلاله كأنه يريد أن يقول لنا: إن الذي يسمع الحق هو الذي يطبقه فقط، أما الذي يسمع ولا يفعل كأنه ما سمع.

مثلاً: قلت لإنسان على كتفه عقرب كبيرة: على كتفك عقرب، بقي هادئاً، التفت نحوك وابتسم، وقال لك: شكراً لك على هذه الملاحظة، وأتمنى أن أرد لك الجميل، هل فهم ما قلت له ؟ إطلاقاً ما سمع شيئاً، لو أنه فهم لصرخ، وقفز، وخلع معطفه فجأة، فالذي يسمع ما عند الله هو الذي يطبق:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم الآية: 4)

مثلاً: درس سمعته إن لم تطبقه لم تسمع شيئاً.

إقامة المسلمين على الآثام و المعاصي أبعدهم عن تطبيق كلام الله عز وجل:

صدقوا ولا أبالغ القرآن الكريم يتلى أناء الليل وأطراف النهار، في كل مكان، ولأن المسلمين مقيمون على المعاصي والآثام والله ما سمعوا شيئاً.

مرة اعترضني إنسان و دعاني إلى محله التجاري في أحد أسواق دمشق، قال لي: خطب ابنتي شاب وسيم، ويملك معملاً باسمه، وأنا أرى أن هذه الفرصة فرصة نادرة لن تعوض، لكن هناك رقة في دينه، فما تقول ؟ هو مقتنع مئة بالمئة لكن يحتاج إلى غطاء ديني، يريد شيخاً يقول له: ما شاء الله لا تقف، قلت له: إذا قال الله عز وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 221 ")

فعندما تنتهي من قراءة هذه الآية تغلق المصحف وتقول: صدق الله العظيم، فإن زوجت ابنتك لهذا الإنسان أنت لم تصدق ربك العظيم، أنت ما صدقته، طبعاً زوجه إياها، وبعد سبعة عشر يوماً من العرس طلقها، كان بمصيف فتح باب السيارة وركلها برجله، وعاد إلى الشام لأنه ما صدق قول الله عز وجل.

والله أعرف إنساناً يملك محلاً تجارياً، ثلاث واجهات بثلاث واجهات، وتحته مستودع بحجم المحل، وفوقه مكتب استيراد بحجم المحل، وله بيت أربعمئة متر في البناء نفسه، أخذ قرضاً ربوياً، فباع المحل، وباع البيت، وباع المستودع، وباع المكتب، واشتغل تاجر حقيبة، الله عز وجل قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: من آية " 276 ")

يجب أن تصدق، العالم كله انبطح أمام انهيار النظام المالي، لأن النظام المالي اعتمد على الربا، واعتمد على المتاجرة بالقيمة لا بالسلعة، واعتمد على بيع الدين.

بطولة الإنسان أن يَصْدق الله في كل ما يقول:

عندنا ثلاثة محرمات، نظام عالمي حقق أرباحاً فلكية، أي برميل النفط من خمسين إلى مئة وخمسين، المواد الأولية ارتفعت عشرة أمثال، العالم كاد يرقص من النمو التجاري فجأة، خسر العالم خمسة وعشرين تريليون دولار، أي لا يوجد إنسان إلا فقد نصف ماله، لأن الله يقول:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ (276))

(سورة البقرة)

كل بطولتك أن تصدق الله فيما يقول، فإن لم تصدق لا بد من أن تصدق بعد فوات الأوان، صدق قبل فوات الأوان، ابتعد عن الحرام.

طاعة رسول الله عين طاعة الله وطاعة الله عين طاعة رسوله:

أيها الأخوة الكرام، الآن فكرة جديدة:

(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (80))

(سورة النساء)

طاعة رسول الله عين طاعة الله، وطاعة الله عين طاعة رسوله، وإرضاء الله عين إرضاء رسول الله، وإرضاء رسول الله عين إرضاء الله، الآية الكريمة:

(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (80))

(سورة النساء)

حكماً.

الكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة:

شيء آخر:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (7))

(سورة الحشر)

فأنت لست مخيراً، ينبغي أن تطيع الله ورسوله، أن تطيع الله في كليات الدين وهي في القرآن الكريم، أي أقيموا الصلاة، أما كم ركعة، السنة القبلية، البعدية، الركوع، السجود، تفصيلاتها تأتي في السنة:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

(سورة البقرة الآية: 110)

الزكاة، الأنصبة، ومصارف الزكاة، طريقة دفع الزكاة عيناً أو نقداً هذه في السنة، كأن القرآن مجمل والسنة تفصيلية، وحينما تقرأ قوله تعالى:

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة الآية: 2)

الكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة، القرآن الكريم قطعي الثبوت، أما آياته بعضها قطعية الدلالة، وبعضها ظنية الدلالة، أما الحديث بعضه قطعي الثبوت وبعضه ظني الثبوت ـ الأحاديث الضعيفة ـ وبعضه موضوع.

فأنا أقول دائماً: أطيعوا الله في قرآنه، وأطيعوا الرسول فيما صحّ من سنته، في الحديث هناك حديث موضوع، و حديث صحيح، و حديث متواتر، فنحن بالأحاديث فيما صح من سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

إرضاء الله عين إرضاء رسول الله وإرضاء رسول الله عين إرضاء الله:

أيها الأخوة، النقطة الدقيقة بالآية الكريمة:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ (62))

(سورة التوبة)

قد يقول أحدكم: أحق أن يرضوهما، هكذا اللغة، أما القرآن الكريم:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ (62))

(سورة التوبة)

ضمير الغائب المفرد، استنبط العلماء أن: إرضاء رسول الله عين إرضاء الله، وأن إرضاء الله عين إرضاء رسول الله.

علاقة كل إنسان مع الله وحده لأن الله رقيب و عليم:

أيها الأخوة الكرام، هناك فكرة دقيقة أن الله بالمرصاد، أن الله رقيب، فلو أن مظلوماً ظلم، والمظلوم سامح الظالم، لا بد من حق عام، الله موجود وسيحاسب، لو سامحته، هناك تأديب من الله، أنت علاقتك

مع الله، أحياناً إنسان يتمكن بذكاء شديد أن يستصدر فتوى من عالم جليل، لكن بحسب العرض الذكي كأنه يستنطقه بفتوى لصالحه، ويظن أنه ذكي جداً، وأنه بهذه الفتوى فعل ما يشاء دون أن يحاسبه الله عز وجل، وهو غبي جداً، لو انتزعت من فم النبي عليه الصلاة والسلام، المعصوم، سيد الأنبياء والمرسلين، لو انتزعت من فمه فتوى ولست محقاً بها لن تنجو من عذاب الله، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[البخاري عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

العلاقة مع الله وحده، لو أخوك سامحك، لو كان ضعيفاً و لم يستطع أن يطالبك، أو لو أوهمته وصدقك، هناك حساب مع العليم، مع الرحيم، مع الحكيم، مع الغني، مع القدير.

الله عز وجل أمر الأنبياء أن يبلغوا الناس شفاهاً :

أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(20))

الآن: الله عز وجل أمر الأنبياء أن يبلغوا الناس شفاهاً، الآن هناك انترنيت، و ايميل، و كتاب، و نشرة، و أخبار، لكن الأصل في التبليغ أن يكون شفهياً، هذا الأصل.

لذلك الأنبياء أبلغوا أقوامهم إبلاغاً شفهياً، هذا الشفهي يكتب وينقل، أما الأصل في التبليغ أن تُبلّغه شفهياً، لكن هذا الذي أبلغه النبي عليه الصلاة والسلام كُتِبَ وأصبح محفوظاً.

معرفة الله عز وجل أصل الدين:

لذلك قال تعالى:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

والله هناك تفسيرات لطيفة لهذه الآية، من تفسيراتها: أن العقل هو الرسول، العقل كاف لمعرفة الله، أحياناً تركب طائرة أحدث موديل، تقل أربعمئة راكب، تطير بسرعة ألف كيلو متر على ارتفاع أربعين ألف قدم، فيها مقاعد وثيرة، الجو مريح، كل شيء متوافر في هذه الطائرة، هل تصدق أن انفجاراً تمّ في بعض مستودعات المعادن فكانت هذه الطائرة، هل تصدق ؟ هناك عشرة آلاف مهندس، وعشرة آلاف

مصمم، و أكثر من مئتي ألف جهة تصنع جزئيات الطائرة، تصدق أن طائرة صنعت وحدها ؟ الطائرة أمام أي شيء الله خلقه لا شيء.

مرة عندي موسوعة علمية من أرقى الموسوعات، و هي موسوعة مترجمة، في بحث الطيور مكتوب: إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطير.

الطير أحياناً يطير ستاً وثمانين ساعة بلا توقف، عنده نظام تبريد عجيب، أي الهواء البارد يصل إلى كل أنحاء جسمه، العضلات المستمرة بالعمل تزداد حرارتها لابدّ من تبريد، تصميم الطائر مذهل، إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطير، فلذلك لا بد من أن نعرف الله عز وجل.

العقل كاف لمعرفة الله والفطرة كافية لمعرفة الخطأ:

لو فكرنا في هذا الكون لعرفنا الواحد الديان، فالعقل كاف لمعرفة الله، والفطرة كافية لمعرفة الخطأ، مثلاً: إنسان يسكن مع أمه، ومضى أسبوع لم يأكلا شيئاً، ثم أصاب طعاماً نفيساً فأكله وحده، وبقيت أمه جائعة، هذا الإنسان ألا يعرف في فطرته أنه أخطأ ؟ يحتاج إلى معلم ؟ إلى مرشد ؟ بالفطرة يكشف الخطأ، والدليل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

فنحن نقول: الإنسان إذا لم تبلغه الرسالات يحاسب على عقله الذي يكفيه لمعرفة الله، ويحاسب على فطرته التي تكفيه لمعرفة الخطأ الذي ارتكبه، ولكنه معفى من تفاصيل الشريعة، هذا اجتهاد وأرجو الله عز وجل أن يكون صواباً.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(20)وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21))

ما لم يؤدِ الإنسان ما له و ما عليه لا قيمة لإيمانه إطلاقاً:

الآن: أية آية تقرأها وتخالفها أنت لم تقرأها، أية آية سمعتها وأنت تخالفها أنت لم تسمعها:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21)).

المسلمون مليار وخمسمئة مليون هل ترى في أعمالهم ما يؤكد أنهم مؤمنون باليوم الآخر ؟ أبداً، إذا في سبعين ألف دعوى كيدية بقصر العدل، اغتصاب بيت، اغتصاب شركة، إذا إنسان يريد أن يأكل المال الحرام، يريد أن يأخذ ما ليس له، هذا مؤمن بالحساب ؟ مستحيل وألف ألف مستحيل.

لذلك قرن الله الإيمان بالله باليوم الآخر، المؤمن الصادق يسأل نفسه بكل دقيقة ماذا أقول لله عز وجل يوم القيامة لو سألني لما طلقتها ؟ لما أخرجت شريكك من الشركة بعد أن أخذت خبرته، وأكدت له أنك معه إلى الأبد ؟ وعندما أخذت خبرته، والمال مالك طردته، أو ضايقته حتى انسحب من الشركة، الله كبير.

والله يا أخوان ما لم تؤدِ ما عليك فلا قيمة لإيمانك، ما لم تؤد ما عليك فلا قيمة لعباداتك، ما لم تؤدِ ما عليك فلا قيمة لعقيدتك، شيء خطير:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21))

أليس هناك غش في حياة المسلمين ؟ في بيعهم وشرائهم ؟ هذا الذي يغش المسلمين يصلي ما قيمة صلاته ؟ تضع مادة مبيضة لكنها مسرطنة من أجل أن يزداد ربحك، إذاً أنت ألغيت عباداتك جميعها.

على الداعية أن يُبلغ الدين بمضمون عميق وتفسير دقيق وتحليل مقنع:

أيها الأخوة الكرام، إلى موضوع التبليغ.

هناك مقولة رائعة جداً وهي: حينما تدعو إلى الله بمضمون هزيل، بمضمون سطحي، بقصص، بمنامات، بكرامات، وبلا أسلوب علمي ولا تربوي، المدعو بهذه الطريقة لا يكون عند الله مُبلّغاً، ويقع إثم تفلته على من دعاه بهذه الطريقة، فأنت إذا بلغت هذا الدين ينبغي أن تبلغه بمضمون عميق، وتفسير دقيق، وتحليل مقنع، وبأدلة قوية نصية وعلمية، وبأسلوب تربوي، حتى يعد هذا الذي تلقى منك هذه الدعوة مبلغاً عند الله.

يقول لك: أنا هكذا نشأت من أب غير مسلم ما ذنبي ؟ كم ابن كره حرفة أبيه واختار حرفة ثانية ؟ لو فرضنا سوف يسمح ببيع الوقود بربع السعر، ولكن عن طريق بطاقة خاصة مثلاً وبلاغ أذيع، يبقى مواطن لا يبحث عن هذه البطاقة ؟ أي سعر الحر أربعة أمثال السعر المخفض، فالمخفض ينزل للربع، لكن يحتاج إلى معاملة، إلى بطاقة معينة، وإلى دفتر، و قسائم إلى آخره، يبقى مواطناً واحداً لا يبحث عن هذه البطاقة ؟ لماذا في شؤون دنياك أنا إنسان يقظ وحذر ؟ عندك بيت تملكه تريد بيعه، خرجت من البيت رأيت في وجهك تاجر بيوت قال لك: هذا ثمنه ثلاثة ملايين تبيعه رأساً ؟ تسأل خمسين دلالاً، لماذا في أمور دنياك دقيق تحقق، تسأل، تستنبط، لماذا ؟ أنا هكذا الله خلقني، أنا من أب غير مسلم، لما لم تبحث عن الإسلام الحقيقي ؟ لما كرهت حرفة أبيك ولم تكره دين أبيك ؟ لا يوجد حجة، الحجة قائمة:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية: 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21)إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ(22))

الإنسان إما أن يكون من أول المخلوقات عند الله وإما أن يكون إنساناً غافلاً عن الله:

سامحوني بهذه الكلمة: إما أن تكون إنساناً أنت من أول المخلوقات عند الله، وإما أن تكون إنساناً غافلاً عن الله، ومتفلتاً من أمره، ومنحرفاً في سلوكه، دابة، أو دابة فلتانة، همه بطنه وفرجه، همه المال من حلال، من حرام، همه مصالحه، والله اسمع قصصاً لا تنتهي، عندك زوجة مؤمنة، طاهرة، عفيفة، خاضعة، طائعة، لأنه أعجب بفتاة بعمله، صاحبها، ورافقها، واستغنى بها عن زوجته، وترك زوجته وأهمل أولاده، أين عقله ؟ من دون دين الإنسان ينحرف انحرافاً خطيراً، حينما يكتشف الحقيقة يكاد يموت ألماً، فلذلك أيها الأخوة الكرام:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21)إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ(22))

طبعاً هناك جماد وفوق الجماد يوجد نبات، وفوق النبات يوجد حيوان، وفوق الحيوان يوجد إنسان، فأنت أرقى المخلوقات، الجماد والنبات والحيوان والإنسان، إذا مات العبد الفاجر:

((يستريح منه العبادُ والبلادُ، والشجر والدواب))

[متفق عليه عن أبي قتادة]

بقي أحد ؟ فلما انصرف قبل أشهر زعيم الكتلة الغربية في أمريكا، استراحت منه البلاد، والعباد، والشجر، والدواب.

انظر إلى الأنبياء، تذهب إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام بعد ألف وأربعمئة عام تبكي بكاء شديداً، هل رأيته ؟ ماذا قدم لك ؟ لكنه كان إنساناً كاملاً، كان إنساناً يمثل الكمال الإلهي.

الفرق بين المؤمن و غير المؤمن:

أيها الأخوة الكرام، الفرق الآن بين المؤمن وغير المؤمن فرق كبير جداً، مؤمن طاهر، صادق، أمين، عفيف، متواضع، منصف، رحيم، إنسان آخر خسيس، دنيء، كذاب، منافق، يأخذ ما ليس له، يعتدي:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

عدم استواء المؤمن مع غير المؤمن:

أيها الأخوة الكرام، لا تصدقوا أن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن الصلاة، لا، هناك فروق لا تعد ولا تحصى.

إنسان مجموعة كمالات، مجموعة مبادئ، مجموعة قيم، تعشقه من كماله، وإنسان مجموعة نقائص، وانحرافات، تمقته من جريمته، من يتحمل منكم يشم رائحة قطعة لحم متفسخة ؟ أحياناً يموت حيوان بالفلاة من قبل خمسين متراً تكاد تخرج من جلدك من رائحته النتنة، وأحياناً تكون جائعاً، يقدم لك طعام لحوم مشوية من أرقى مستوى، هذا لحم وهذا لحم، كم المسافة بينهما ؟ صدق ولا أبالغ المسافة بين المؤمن وغير المؤمن كالمسافة بين رائحة قطعة لحم متفسخة، وقطعة لحم مشوية طازجة، الفرق كبير:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

مؤمن صادق، أمين، لا يخون، لا يكذب، عفيف، لا يخدع، لا يتآمر، يقدم لأمته كل خير، في معاملاته طيب رحيم، وإنسان دنيء خسيس لئيم.

يقول سيدنا علي: **<< والله، والله، مرتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين أهون عليّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين >>.**

لا تسمى عند الله مستمعاً إلا إذا نفذت ما سمعت:

أيها الأخوة الكرام:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21))

لا تسمى عند الله مستمعاً إلا إذا نفذت ما سمعت، وإذا لم تنفذ لا قيمة لكل الدروس التي تحضرها، لا قيمة لكل المحاضرات التي تتلقاها:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23))

(سورة الأنفال)

من كان فيه ذرة خير أسمعه الله الحق ليهديه إلى الطريق المستقي:

أيها الأخوة، كلام دقيق جداً لو أن إنساناً فيه واحد بالمليار خير، لا بد من أن يسمعه الله الحق، كي أطمئنكم، لأن الله عز وجل ماذا قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

وعلى إذا جاء مع لفظ الجلالة تعني الإلزام الذاتي، إنسان ساكن بألاسكا، بأقصى الشمال الغربي في العالم، ويبحث عن الحقيقة، يسافر إلى بلد في أمريكا، ويتجنس بالجنسية الأمريكية، ويذهب إلى الشرق الأوسط بحملة، ويلتقي بعالم مسلم، ويقنعه بالإسلام ويسلم، لا تصدق أن إنساناً عنده خير واحد بالمليار إلا الله عز وجل يسمعه الحق، هذه الآية تحل مليون مشكلة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ (23))

(سورة الأنفال)

مرة التقيت مع مندوب شركة من هولندا، فأردت أن أحدثه عن الله عز وجل، لم أتكلم بكلمتين حتى قال لي: هذه المعلومات لا تعنيني، ولا أهتم بها، ولا ألقي لها بالاً، أنا يعنيني أشياء ثلاثة ؛ امرأة جميلة، وبيت واسع، ومركبة فارهة، ومات، والله بحياتي ما تذوقت هذه الآية إلا بعد أن أجابني هذا الجواب:

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23))

(سورة الأنفال)

الله عز وجل تولى بذاته العلية هداية الخلق:

لا تصدق أن إنساناً فيه ذرة خير واحد بالمليار إلا الله عز وجل يسمعه الحق، والحق يصل إليه لقوله تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل).

الله عز وجل تولى بذاته العلية هداية الخلق.

مرة شخص من أخواننا الكرام سافر إلى أمريكا، دخل إلى مسجد، وجد شخصاً ينظف دورات المياه، و هو يتمتع بمستوى رفيع جداً، سأله عن نفسه فقال له: أنا ضابط بالجيش الأمريكي، و عندما كنا في الخليج التقيت مع إنسان مسلم، أقنعني بالإسلام فأسلمت، لأن فيه خير ساقه الله إلى بلد إسلامي، والتقى

مع عالم مقنع، وأقنعه، وأسلم.

لا تصدق، اطمئن، لا تقلق على الآخرين، هذه الآية اعتبرها منهجاً:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ (23))

(سورة الأنفال)

أنت تبحث عن الحقيقة، الله عز وجل يقودك إلى مكان ترتاح له، هو ينتظرك:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ (23))

(سورة الأنفال)

والذين رفضوا الحق، تفضل وقل لهم الحق، قال لي: هذه الموضوعات لا تعنيني، ولا ألقي لها بالاً، ولا أهتم لها، أنا يعنيني أشياء ثلاثة ؛ امرأة جميلة، وبيت واسع، ومركبة فارهة، وقتها أنا تذوقت هذه الآية:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ (23))

(سورة الأنفال)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (08-30): تفسير الآية 24 ، الاستجابة للنبي هي عين الاستجابة إلى الله تعالى فالله مشرع والنبي مبلغ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-05-29

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى يأمر عباده بالاستجابة له بكليات الدين و بالاستجابة لرسوله بتفاصيل الدين:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثامن من دروس سورة الأنفال ومع الآية الرابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

كما ألفنا أن كل الآيات التي تبدأ بـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) يجب أن تشعر بداهة أنك معني بها، وكأن الله عز وجل يقول: يا من آمنت بي، يا من آمنت بي واحداً وكاملاً، يا آمنت بأسمائي الحسنى، وصفاتي الفضلى، يا من آمنت بحكمتي، يا من آمنت بعلمي، يا من آمنت برحمتي، يا من آمنت بقدرتي، يا من آمنت بغناي، افعل كذا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

كأن الله يقول: استجيبوا لله في قرآنه بكليات الدين، واستجيبوا لرسوله بأحاديثه في تفاصيل الدين،

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

من خلال قرآنه بكليات الدين، واستجيبوا للرسول من خلال أحاديثه الصحيحة بجزئيات الدين، فالقرآن مجمل والسنة مفصلة، للتقريب:

إنسان غاب عن المدرسة خمسة عشر يوماً، ففصل، والد هذا الطالب استشار محامياً هل بالإمكان أن يعترض على هذا القرار ؟ فالمحامي المبتدئ قرأ الدستور كله فلم يجد أنه إذا غاب الطالب عن مدرسته خمسة عشر يوماً يُفصل، فلما سأل محامياً آخر، قال له: الدستور أعطى وزير التربية صلاحية وضع تعليمات، فلو رجعت إلى التعليمات التي أصدرها وزير التربية في شأن النظام الداخلي للمدارس تجد أن الذي يغيب عن الصف خمسة عشر يوماً يُفصل هذا المثل للتقريب.

القرآن الكريم كالدستور، أما السنة كالقوانين، القوانين تفسر، وتعطي الجزئيات، والحيثيات، والحالات الخاصة، فالله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر علة خيرية هذه الأمة:

بالمناسبة حينما قال الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110).

هذه الخيرية لها علة، ما علة الخيرية ؟

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 110).

إذاً الأمة الإسلامية التي استجابت لله عز وجل هي أمة خيرة، علة خيريتها

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

فحينما يأتي في آخر الزمان أناس لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم للنبي:

((أو كائن ذلك))

أي معقول أن يأتي في آخر الزمان مسلمون لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر ؟ فقال:

((وأشد منه سيكون ـ عجبوا أكثر ـ وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف، قالوا: أوكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون قالوا: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً))

[ابن أبي الدنيا وأبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي أمامة بسند فيه ضعف].

ففي أمة الإسلام إن لم نأمر بالمعروف، أو لم ننهَ عن المنكر، أو أمرنا بالمنكر ونهينا عن المعروف، أو أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً فقدنا خيريتنا.

أي الذي يُحصل مالاً حراماً وفيراً، يحل به مشكلاته، يسمى عند المنحرفين شاطراً، والذي ينافق لجميع الجهات يسمى عند الشاردين لبقاً مرناً، وكل النقائص والأخطاء الكبيرة التي هي أصل في هذا الدين لها اسم آخر، الفتاة المتبذلة التي تعرض كل مفاتنها في الطريق تسمى باسم أجنبي ـ سبور ـ هذه فتاة سبور، كأنه مدح مع أن الحقيقة إنها تخالف منهج الله عز وجل.

من أحبّ الله عز وجل حقيقة لن يُعذب أبداً:

لذلك:

((إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً))

إذا لم يأمر الناس بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، بل إذا أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف، بل إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، هذه الأمة بكل جرأة ليست

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

إنها أمة كأية أمة شردت عن الله عز وجل، الدليل:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18).

استنبط العلماء أن الله لا يعذب أحبابه، بمعنى أنهم لو أحبوه حقيقة لما عذبهم

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

وهذه نقيس عليها المسلمين، فإذا قال المسلمون: نحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، نحن الأمة المختارة، نحن

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

بنص القرآن الكريم الرد الإلهي جاهز، ما الرد الإلهي ؟

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

والحقيقة:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

المعنى الثاني:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال الآية: 33).

ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم قائمة فينا مستحيل وألف ألف مستحيل أن نُعذب، و هذا دليل أن منهج النبي صلى الله عليه وسلم ليس مطبقاً في حياتنا.

تقسيم أمة النبي الكريم إلى أمتين:

لذلك: اضطر العلماء أن يقسموا أمة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمتين ؛ إلى أمة التبليغ، وإلى أمة الاستجابة، المسلم الذي استجاب لله وللرسول حينما دعاه الله لحياة تليق بكرامة الإنسان، هذا الذي استجاب داخل في أمة الاستجابة، والذي لم يستجب داخل في أمة التبليغ، أمة التبليغ ليس لها أية ميزة عند الله إطلاقاً، والدليل:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18).

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

أنا لا أريد أن تتوهموا لمجرد أن ننتمي إلى رسول الله نحن متفوقون، أبداً، المتفوق هو الذي يتبع النبي الكريم، فإن لم يكن هناك اتباع فكل الوعود الإلهية معطلة، كيف ؟

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم).

أين النصر ؟

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات).

أين الغلبة ؟

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة النور الآية: 55).

أين الاستخلاف ؟

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ)

(سورة النور الآية: 55).

أين التمكين ؟

(الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(سورة النور الآية: 55).

أين الأمن ؟ لا أمن، ولا تمكين، ولا استخلاف، ولا نصر، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم).

وقد لقينا ذلك الغي.

من عرف الله والتزم بمنهجه وأحسن إلى خلقه هذا الإنسان حيّ حياة ثانية:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

هناك حياتان، حياة هذا الجسم، الحي يشعر، يجوع، يعطش، يشعر بالحر، بالقر، يخاف، هذه المشاعر علامة حياته، يتحرك، وهذه الحركة علامة حياته، شعوره وحركته تؤكدان حياة جسمه، لكن إن لم يعرف ربه فهو ميت.

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر).

يقصد بهم الكافرين.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ).

(سورة النحل الآية: 21).

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

* * *

إذاً عندنا حياة أخرى، إنسان يأكل ويشرب كالبهائم، همه بطنه وفرجه، وأنا أفهم أحياناً قوله تعالى عندما مسخ الله اليهود إلى قردة وخنازير، القرد همه بطنه، والخنزير همه فرجه، فالإنسان لمجرد أن يكون همه الأول فرجه وبطنه فهو قرد وخنزير، وقد مسخ قرداً وخنزيراً، أما أنت مؤمن، لماذا أنت في الدنيا ؟ لماذا جاء الله بك إلى الدنيا ؟ ما المهمة التي أنيطت بك في الدنيا ؟ ماذا بعد الموت ؟ أين كنت قبل الموت ؟ ما العمل الذي ينبغي أن تفعله في الدنيا ؟ هذا الذي عرف الله، عرف أسماءه الحسنى، و صفاته الفضلى، عرف حكمته، عرف رحمته، عرف قدرته، عرف حلمه، عرف بطشه، عرف غناه، عرف قوته، هذا الإنسان حينما عرف الله، والتزم بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، هذا الإنسان حي حياة ثانية.

الاستجابة إلى النبي الكريم عين الاستجابة لله:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

هنا يوجد نقطة

(إِذَا دَعَاكُمْ)

ألا ترى معي بحسب قواعد اللغة

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

بحسب القواعد ينبغي أن تكون الآية إذا دعاكم، المدير والمعلم دعوا الطالب إلى الاجتهاد، أما حينما يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

هناك ملمح بلاغي رائع ؛ أنك استجبت إلى رسول الله، واستجابتك إلى النبي الكريم عين استجابتك لله، وإذا استجبت لله عز وجل بأمر قرآني هذه الاستجابة عين استجابتك لرسول الله، لأن النبي عليه الصلاة

والسلام مُبلّغ عن ربه، الله عز وجل أوحى إلى النبي والنبي بلغنا، فهناك وحي من الله إلى النبي، وهناك إبلاغ من النبي إلينا.

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

في وحيه،

(وَلِلرَّسُولِ)

لإبلاغه، والله أوحى لنبيه، والنبي أبلغ أمته،

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

في إبلاغه للنبي هذا القرآن العظيم، واستجيبوا للنبي صلى الله عليه وسلم في إبلاغه لكم

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).

من لم يقل أنا اسعد الناس ففي إيمانه خلل:

أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو أقل كلمة يوصف بها من غفل عن الله، ومن عبد هواه، ومن جعل إلهه هواه، أقل كلمة يوصف بها بأنه ميت، تجلس مع إنسان لا مبادئ، ولا قيم، ولا إيمان، ولا ورع، ولا غيرة، ولا هدف، ولا خدمة، ولا نصيحة، همه بطنه وفرجه فقط، همه الأول أن يأكل، وأن يستمتع بالدنيا، وهمه الثاني فرجه، هذا مسخ قرداً وخنزيراً.

فيا أيها الأخوة الكرام،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بي موجوداً، وآمنتم بي واحداً، وآمنتم بي كاملاً، يا من آمنتم بأسمائي الحسنى وصفاتي الفضلى، يا من آمنتم برحمتي، بحكمتي، بقدرتي، بحلمي، يا من آمنتم بي

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

في قرآنه الذي أوحاه إلى النبي

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

واستجيبوا للنبي في سنته التي هي بيان للقرآن.

لماذا ؟

(لِمَا يُحْيِيكُمْ)

والله الذي لا إله إلا هو ما لم تقل بعد أن اصطلحت مع الله أنا إنسان آخر، إنسان أشعر بالحياة، إنسان أشعر أني إنسان ففي الإيمان خلل.

والله شخص من الأخوة الكرام توفاه الله، ذهب إلى الحج، ولما عاد زرته مهنئاً، أقسم لي بالله ولم يحنث، قال لي: ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني.

والله الذي لا إله إلا هو إن لم تقل بأي ظرف، بأي سن، بأي وضع، أعزب ، متزوج، غني، فقير، صحيح، مريض، ساكن بالمدينة، بالريف، لك أب، ليس لك أب، بأي وضع إن لم تقل أنا أسعد الناس ففي الإيمان خلل، أنت مع من ؟ أنت مع خالق السماوات والأرض ؟ مع القوي، مع الغني، مع القدير، مع العليم، مع الحكيم، مع الرؤوف، مع الرحيم، أنت مع من ؟.

الإيمان مرتبة أخلاقية ومرتبة علمية ومرتبة جمالية:

يا أيها الأخوة، الإيمان مرتبة كبيرة جداً، أحياناً أضرب هذا المثل:

اسم إلى جانبه " د. " صاحب هذا الاسم يحمل ابتدائية، إعدادية، ثانوية، لسانس، دبلوم عام، دبلوم خاص، ماجستير، دكتوراه، كم شهادة ؟ كلمة " د. " فقط تعبر عن كل هذه الشهادات.

للتقريب: مؤمن أي صادق، مؤمن أمين، مؤمن عفيف، مؤمن لا يكذب، مؤمن لا يحتال، مؤمن لا يراوغ، مؤمن لا يزني، مؤمن ! كلمة مؤمن مرتبة أخلاقية، كلمة مؤمن مرتبة علمية، كلمة مؤمن مرتبة جمالية، له أذواق عالية جداً، كلمة مؤمن أعلى مرتبة.

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنؤوا فلاناً فقد اصطلح مع الله)).

[ورد في الأثر].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أطيعوا الله الذي أنزل على نبيه هذا القرآن، أي أطيعوا الله في قرآنه، ورسوله

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

في سنته،

(إِذَا دَعَاكُمْ)

ما قال إذا دعواكم،

(دَعَاكُمْ)

الاستجابة إلى النبي عين الاستجابة لله، والاستجابة لله عين الاستجابة للنبي، هذا يفهم من المثنى الذي جاء الضمير عليه مفرداً.

دليل آخر:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة التوبة الآية: 62).

بضمير المفرد.

من عرف الله عرف كل شيء ومن غفل عن الله فاته كل شيء:

أيها الأخوة،

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

للحياة، حياة القلب، المؤمن حي، الكافر ميت.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية: 21).

المؤمن حي، المنافق ميت، من عرف الله عرف كل شيء، ومن غفل عن الله فاته كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء)).

[من مختصر تفسير ابن كثير].

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

أي أقرب شيء إليك قلبك، أنت ساكت، مرتاح، يقول لك قلبك: غداً تسافر ؟ تقول له: لا أسافر، حديث داخلي، الحديث الداخلي وأنت ساكت، ولا كلمة، ولا حرف، ما قولك: إن الله بينك وبين قلبك، أي الله عز وجل هو القريب منك، يحول بينك وبين قلبك، أي الكهرباء هي أقرب شيء إلى آلة صوتية، لولا الكهرباء لا تنطق هذه الآلة، فهل تتصور شيئاً أقرب إلى الآلة من القوة المحركة لها ؟ لا يوجد أقرب من هذا:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

أي إليه المصير.

القرآن الكريم وحي متلو والسنة المطهرة وحي غير متلو:

يا أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل حينما أمر أن نتبع رسوله عصمه، ما أمرنا أن نأخذ عنه إلا بعد أن طمأننا أن النبي معصوم، و الآية الدقيقة:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر).

لو أن النبي صلى الله عليه وسلم غير معصوم، ما الذي يقع ؟ لو كان غير معصوم وأمرنا بأمر في وقت لم يكن فيه معصوماً معنى ذلك أمرنا بمعصية، أو أمرنا بخطأ، ولأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

طمأننا أن النبي صلى الله عليه وسلم:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم).

أي مع التفصيل تسعة أعشار كلام الناس ينطلق هذا الكلام من الهوى، أحياناً يمدح أولاده مدحاً غير واقعي، يتملق أولاده، أحياناً يمدح بضاعته، وقد تكون بضاعة غير جيدة، صدق ولا أبالغ قد يكون تسعة أعشار كلام الناس ينطلق هذا الكلام من الهوى، الله عز وجل قال لنا:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

لذلك قالوا: القرآن الكريم وحي متلو، والسنة المطهرة وحي غير متلو، المعنى من الله، والصياغة من رسول الله عن طريق السنة، أما القرآن المعنى من الله، والصياغة من الله عز وجل وحي متلو ووحي غير متلو، فإذا قلنا الوحيان نقصد الكتاب والسنة.

ملمح آخر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا)

(سورة الأنفال الآية: 20).

بحسب السياق اللغوي ولا تولوا عنهما، أليس كذلك ؟ الآية

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ)

معنى ذلك أن طاعة رسول الله طاعة الله، وطاعة الله طاعة رسول الله،

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

بعض الملامح في القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ)

من هذا القبيل بعض الملامح، قال تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجرات الآية: 9).

بحسب السياق اقتتلتا، وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلتا، الآية:

(اقْتَتَلُوا)

(سورة الحجرات الآية: 9).

جمع، هي طائفتان

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

جمع، الطائفة فيها عشرة آلاف،

(اقْتَتَلُوا)

فيصير المجموع عشرين ألفاً لم يعودوا اثنين، عشرة آلاف تنتمي إلى طائفة، وعشرة آلاف تنتمي لطائفة ثانية، أما الاقتتال بين عشرين ألفاً، فجاء في الصياغة،

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

الآن فأصلحوا بينهم ؟ لا يصح، الصلح يكون بين عشرين ألفاً ؟ أول طائفة لها مندوب ناطق باسمها، والطائفة الثانية لها مندوب ناطق باسمها، دقة القرآن عجيبة،

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

لم يقل: اقتتلتا، قال:

(اقْتَتَلُوا)

عشرة آلاف مع عشرة آلاف، فالمعركة فيها عشرين ألف متقاتل، الآن هناك صلح، هناك محادثات صلح، هناك مندوب لأول طائفة، ومندوب للطائفة الثانية.

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

(سورة الحجرات الآية: 9).

ترتيب الكلمات في القرآن الكريم:

الشيء بالشيء يذكر، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة الآية:24).

لماذا بدأ الله بالأب ؟ في هذه الآية بدأ بالأب، هناك آية ثانية:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

(سورة آل عمران الآية: 14).

بدأ بالمرأة، وهناك آية ثالثة.

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

(سورة المعارج).

بدأ بالابن، بعدها:

(وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ)

(سورة المعارج).

هناك آية رابعة:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ)

(سورة عبس).

يا رب ! مرة بدأت بالأخ، مرة بالابن، مرة بالزوجة، مرة بالأب، والله يمكن أن تؤلف رسالة دكتوراه في ترتيب الكلمات في القرآن الكريم، في موطن الاعتزاز الاجتماعي، بدأ بالأب، هنا

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

الإنسان يعتز بأبيه، وفي موطن الشهوة

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ)

بدأ بالمرأة، وفي موطن الفدية أغلى شيء الابن،

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

بموطن الاستعانة الأب كبير، والابن صغير، بأخيه.

إذاً: بموطن الأخ، موطن الابن، موطن الزوجة، موطن الأب.

من وصل إلى الله و قرأ قرآنه لا يسمح له أن يناقش أوامره:

أيها الأخوة، هناك نقطة دقيقة جداً في الدرس: إنسان بحاجة إلى عمل جراحي أتاه الله عقلاً راجحاً، يسأل عن طبيب متفوق، يحمل أعلى شهادة، يخاف الله، لا يبتز أموال المرضى، ماهر في العمل الجراحي، خلال شهر، سأل، وسأل، وسأل، ومحص، وبحث، وحقق، إلى أن استقر على طبيب يجمع بين العلم والفضل، والعلم والتقوى، فدخل إلى العيادة، فقال له هذا الطبيب: لا تحتاج عملاً جراحياً هل يستطيع المريض أن يناقشه ؟ الجواب: لا، لأن عقل هذا المريض قاده لهذا الطبيب، و بعدما اهتدى إليه، وبحث، ودرس، ومحص، وحلل، وسأل، ووازن، وقارن، هذا أفضل طبيب صادق مؤمن متفوق، نصحه أن العملية ليست مجدية له، المعنى أن العقل حصان، يأخذك إلى باب السلطان، فإذا دخلت على السلطان دخلت وحدك.

الكون هداك إلى الله، أفعال الله هدتك إلى الله، خلق الله دلك عليه، فإذا وصلت إليه وقرأت كتابه لا يسمح لك أن تناقش أوامره، لقوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: 36).

الكون دلك على الله، الله أمرك بالصيام، الله أمرك بأداء الزكاة، أمرك بالحج ، أوجب عليك العمرة، فلذلك:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

من عرف الله و استقام على أمره عاش في بحبوحة تفوق حدّ الخيال و العكس صحيح :

أيها الأخوة، شيء آخر: الآية الكريمة:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: 97).

لو أن أهل الأرض عرفوا الله، واستقاموا على أمره، والله لعاشوا في بحبوحة تفوق حدّ الخيال، لا أعتقد أن هناك إنساناً بلا بيت، وطعام، وشراب، وحاجات، لكن هل من المعقول أن حربين فقط أُنفق عليهما ثلاثة آلاف مليار، حرب أفغانستان والعراق، هذه الأموال لو وظفت في خير البشرية.

فلذلك: عندنا آيتان ؛ الآية الأولى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

وحياة الناس بهذه الطريقة طيبة، حياة فيها عطاء، فيها أمن، فيها راحة نفسية، فيها تعاون، فيها نمو.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية: 124).

فالمعرضون عن ذكر الله حياتهم ضنك، حياتهم حياة الحروب والاجتياحات، والقتل، والمداهمة، والاعتقال، والقنابل الفسفورية، ترون بأعينكم، حينما يشرد الإنسان عن الله عز وجل شقّ صفوف الناس، صار هناك مؤمن وكافر، صار هناك حروب، و قتال، و سفك دماء، و نهب ثروات.

يوجد 90% من ثروات الأرض بيد 10% من سكان الأرض، هذا الذي يجري في العالم، بعد عن الله عز وجل.

دعوة الله للإنسان دعوة إلى الحياة، حياة القلب و حياة الإيمان و حياة المعرفة:

يا أيها الأخوة، الشيء الدقيق جداً أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا)

إذا استجبت لله في قرآنه، وللنبي في سنته،

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

دعوة الله لنا دعوة إلى الحياة، حياة القلب، حياة الإيمان، حياة المعرفة، حياة الإدراك، حياة تلبية الحاجة العليا في الإنسان.

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

يا أيها الأخوة، هذه آية أساسية في حياتنا، فأنت إما أن تعيش أو أن تحيا،

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

ما قال الله: فإن له حياة ضنكاً، قال

(مَعِيشَةً ضَنْكاً)

أنت تعيش فقط، القلب ينبض، الرئتان تتحركان، هناك حركة، هناك إحساس، هناك شعور، لكن

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان).

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون).

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية: 5).

مشكلة كبيرة جداً.

كل إنسان أمام مفترقين إما السلامة و السعادة أو الشقاء و الهلاك:

فيا أيها الأخوة، نحن أمام مفترقين، مفترق الحياة أو الموت، السلامة أو الشقاء، السعادة أو الهلاك والدمار.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

إما أن تكون حياً باستجابتك لله، وإما أن تكون عائشاً تأكل وتشرب ببعدك عن الله عز وجل.

أيها الأخوة، هذه السورة دقيقة جداً، ولا سيما في بعض الآيات الحاسمة فيها.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذه الآيات، وأن نكون في مستوى تطبيقها، لأن هذا القرآن الكريم يمكن أن نقرأه، وأن نجوده، وأن نفهمه، وأن نتدبره، ولكن لا يعطي هذا القرآن الكريم ثماره إلا إذا طبقناه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (09-30): تفسير الآيتان 25 - 26 ، يجب قمع الفتن قبل أن تستشري - ذِكر الإنسان لنعم الله الكثيرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-06-05

بسم الله الرحمن الرحيم

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشكلة المسلمين الأولى في هذه الأيام:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخامسة والعشرين، وما بعدها، الله عز وجل يقول:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

بادئ ذي بدء: الفتن مهلكة لكن هذه الفتن إذا وقعت ووقف الناس سلبيين تجاهها لم يعبؤوا، لم يأمروا بالمعروف، لم ينهوا عن المنكر، لم يقيموا شرع الله، هذه الفتن تستشري وتتفاقم، وقد تصبح بلاءً كبيراً، وقد تصبح فساداً عريضاً في المجتمع، فالله عز وجل يحذر المجموع.

كما لو احترق بيت في أول الشارع، فالذي يجلس في آخر الشارع يقول: الحريق بعيد عني، إن لم يسارع هذا الذي في آخر الشارع ليساهم في إطفاء الحريق وصل إليه.

هذه مشكلة المسلمين حينما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، استشرى المنكر، واتسع، واتسعت دوائره، حتى ضاقت دوائر الباطل.

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر علة خيرية هذه الأمة:

فلذلك حينما قال الله عز وجل يخاطب هذه الأمة:

(كُنْتُمْ)

أي أصبحتم:

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

علة خيريتكم:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 110).

حينما تكف الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصبح لا شأن لها عند الله:

وحينما تكف الأمة عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حينما ترى الفتنة فتسكت، حينما ترى المعصية تتجاهلها، حينما ترى كبيراً أو قوياً فعل شيئاً منكراً لاذت بالصمت، حينما تكف الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تصبح أمة لا شأن لها عند الله إطلاقاً، والدليل أن الله سبحانه وتعالى خاطب الذين قالوا:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

خاطبهم فقال:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18).

والأمة الإسلامية حينما ترى المنكر، فلا تنهى عنه، حينما ترى المعروف فلا تأمر به، حينما تصمت، حينما ينسحب المسلم من علة خيرية أمته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصبح هذه الأمة لا شأن لها عند الله إطلاقاً، والدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح حينما قال:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا: أو كائن يا رسول الله ؟ قال: نعم وأشد منه سيكون ـ عجب الصحابة ـ كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ـ صعقوا صعقة أشد ـ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب] .

عندئذٍ تودع هذه الأمة، حينما يكون المنكر أمام المسلمين، ولا أحد يتكلم، هذه الأمة انتهت عند الله عز وجل.

الانسحاب من مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسبب ضياع هذه الأمة:

لذلك:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً)

الفتنة وقعت، التفلت حصل، الانحراف استشرى، المعصية ترتكب، المنكر يُفعل، التحدي يكون، كتابات، حركات، أعمال كلها تغضب الله عز وجل والأمة ساكتة، هذه الأمة انتهت عند الله.

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

ورد في بعض الأحاديث: " أن الله سبحانه وتعالى أرسل ملائكته ليهلكوا قرية، فقالوا: يا رب إن فيها صالحاً، قال: فيه فابدؤوا، قالوا: لِمَ يا رب ؟ قال: لأنه لم يكن يتعمر وجهه حينما يرى منكراً ". لمجرد أن تقول ما لي ولهذا ؟ ما لي ولهذه المعصية ؟ أنت بعيد عنها، هذا الموقف الانعزالي، الانسحاب من مهمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يسبب ضياع هذه الأمة.

الأمة أمتان ؛ أمة الاستجابة و أمة التبليغ:

لذلك: الأمة الآن أمتان ؛ أمة الاستجابة، وأمة التبليغ، فالأمة التي لم تستجب لله ورسوله في تطبيق منهج الله ورسوله هذه أمة ليست خير أمة، بل هي أمة كأية أمة شردت عن الله عز وجل،

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

علة الخيرية

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

هذه علة خيريتنا.

فلذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكاد أن يكون الفريضة السادسة، وجرب أنك حينما تنطق بالحق لعل الآخر يرجع إلى الله، لعل الآخر يبتعد عن هذه المعصية، عليك أن تُذكر، وليس عليك الباقي.

أيها الأخوة، إذاً أي خطأ، للتقريب: تأتي إلى بيتك ابنة أخيك، ترتدي ثياباً فاضحة جداً، تستقبلها، ترحب بها، تثني على جمالها، وعلى أناقتها، ولم تتكلم بكلمة واحدة عن هذا التفلت في ثيابها، من هنا نبدأ، حينما ترى شريكك يغش في البيع والشراء وأنت ساكت، من هنا بدأ الخطأ، أما حينما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولا ترضى للخطأ أن تسكت عليه عندئذٍ تكون هذه الأمة على منهج صحيح.

أية فتنة تقع حولك إن بقيت ساكتاً عنها سوف تصل إليك:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

عندئذٍ هذه الفتنة تنتشر وتنتشر، حتى تصل إليك، أنت أيها العم حينما لم تنصح ابنة أخيك أن ترتدي ثياباً إسلامية ساترةً محتشمة، ما الذي يحصل ؟ ابنتك في البيت تضغط على أمها كي تقلد ابنة عمها، حينما لم تأمر بالمعروف، ولم تنهَ عن المنكر وصلت الفتنة إلى بيتك، كالنار تماماً إن لم تخرج من بيتك، وتسهم في إطفاء النار وصلت النار إليك.

لذلك قصة مشهورة مألوفة أن ثيراناً ثلاثة، أبيض، وأسود، وأحمر، جاء الوحش المفترس فأكل الأبيض، فقال الأحمر: أنا لا علاقة لي، لم يقترب مني، فسكت، ثم توجهه هذا الوحش المفترس إلى الأحمر فأكله، فقال الأخير: أنا لا علاقة لي، فلما توجه إلى الأسود ليأكله قال: أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض، من وقتها أُكلت أنا.

اعتقد بهذا يقيناً، أية فتنة تقع حولك إن بقيت ساكتاً سوف تصل إليك، في أي شيء، أما إذا وجد أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، و وضع حد للفتنة، و قُمعت الفتنة، عاش الناس بسلام.

الابتعاد عن المجاملات في حياتنا :

ما الذي يحصل الآن ؟ كل المعاصي والآثام في الطريق، وفي الأماكن العامة، وفي الأسواق وفي الجامعات، تفلت، وانحراف، وكأن هذه الأمة ليست أمة المسلمين، لأن الناس كفوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والله سمعت قصة عن سائق سيارة وقد يكون أمياً، جاءه راكبان زوج وزوجته ـ أعتقد من بيروت إلى دمشق ـ فطلبا منه أن ينتظر ربع ساعة كي تأتي حقيبتهم، فانتظر، جاء شيخ في السبعين يحمل حقيبة على رأسه، هذا الشاب وكزه في رأسه، قال له: لماذا تأخرت ؟ السائق لم ينتبه، أخذ المحفظة ووضعها في الصندوق وانطلقا إلى الشام، أعتقد في نصف الطريق سمع الزوجة تقول لزوجها: كيف تضرب أباك ؟ فوراً أوقف المركبة قال له: انزل، وهذه الأجرة، أنا لو بقيتم معي لعلي أقع بحادث، على بساطته، على معلوماته المتواضعة، لم سمح لإنسان يضرب أباه أن يركب بمركبته، فهذا درس، لو كل الناس فعلوا هذا لكنا في غير هذه الحال.

أحياناً إنسان يسب الذات الإلهية، لا أحد يتكلم ولا كلمة، كله ساكت، يعيد السُباب مرة ثانية، وثالثة، الأمة التي تسكت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعها، انتهت عند الله عز وجل، حياتنا كلها مجاملات، تزور إنساناً كل المعاصي في بيته، وتحترمه أمام أولادك، وتثني على ذكائه، وعلى حكمته، وعلى روعته، وعلى حديثه، وهو يرتكب المعاصي كلها، ضاع أولادك.

((إن الله عز وجل يغضب إذا مُدِحَ الفاسق))

[أخرجه أبو يعلى عن أنس بن مالك].

حياتنا مجاملات.

لذلك:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

الصالح و المصلح:

لذلك الله عز وجل قال:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود).

ما قال: صالحون، الصالح يهلك، أما المصلح لا يهلك، المصلح خرج من ذاته لإسداء النصيحة لغيره، أي أحياناً البنت تنحرف بثيابها، والكل ساكت، تجد بعد فترة البنت المحجبة تريد أن تلغي حجابها، بعد فترة البنت المحجبة الثانية كذلك، لأنه حينما تفلتت البنت الأولى والكل يسكت، طبعاً هذه الفتنة تمشي، فجأة تجد كل الأطراف يريدون هذا الانحراف.

أنا أضرب أمثلة محدودة، لأنه هناك آلاف الأمثلة، في البيع والشراء أحياناً هناك طريقة في الغش، فيحدثك التاجر أنه عمل أرباحاً طائلة عن طريق تبديل اسم السلعة، عن طريق تبديل صفاتها، عن طريق التعريف ببلد المنشأ، أنت تثني على ذكائه، وعلى شطارته، هذا حرام، حرام أن توهم الناس أن هذه البضاعة من هذا المنشأ وهي من منشأ أقل.

كل إنسان محسوب على المؤمنين فعليه إسداء النصيحة للآخرين:

فكلما جاملنا أنفسنا، وسكتنا عن إحقاق الحق، وعن إبطال الباطل انتهت هذه الأمة، صدق ولا أبالغ، لا يوجد بالألف واحد ينصح، الكل يجامل، الكل يتمنى السلامة، ليس مضطراً أن ينصح الآخرين مخافة أن يتسبب بمشكلة، ليس لي علاقة، ليس لك علاقة خسرت الله عز وجل.

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

والله هذا العبد الفقير دخلت على أخ كريم، وهو من كبار التجار، و عنده سكرتيرة وضعها غير منطقي إطلاقاً، قلت: والله لا يجوز، أنت محسوب على المؤمنين، قال لي: والله لم يقل لي أحد هذا، فعلاً أعطاها أمراً بتغيير وضعها، فإن لم تستجب صرفها، انصح، تكلم، قدم ملاحظة، لا تريد أن تتكلم ولا كلمة ؟ ولا تعليق ؟ مديح، مديح، مديح.

((إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب))

[أخرجه الطبراني عن عطاء بن أبي رباح].

أحياناً إنسان منحرف تمدحه، تمدحه، تمدحه، إلى متى تمدحه ؟ لا داع لهذا، إنسان عنده مسبح مختلط، عمل فيه مولداً، جاء الخطباء ومدحوه، كيف تمدحه ؟ مسبح مختلط، يرتكب فيه أكبر المعاصي وتمدحه أيضاً ؟.

((المداحين فاحثوا في وجوههم التراب))

[أخرجه الطبراني عن عطاء بن أبي رباح].

يجب أن تقول: لا في الوقت المناسب، أما الكل يخطئ والكل ساكت، الكل ينحرف والكل ساكت، الكل يتمادى والكل ساكت، المرأة تكاد تظهر عارية في الطريق والكل ساكت وأمها محجبة تمشي إلى جانبها، كيف سمحتِ لها أن تمشي معك بهذا الوضع ؟ ألست أمها ؟ أين تربيتك لها ؟ كله ساكت، فهذا الوضع سبب أن مليار وخمسمئة مليون لا وزن لهم عند الله.

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

مليار ونصف، ربع سكان الأرض، أي كل أربعة أشخاص شخص مسلم، مليار وخمسمئة مليون لا وزن لهم عند الله، لأن هذه الأمة تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الفريضة السادسة.

لا شيء يعين الظالم على ظلمه كسكوت المظلوم:

فلذلك:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

تصيب الكل، أوضح مثل احتراق البيت، إن لم تساهم وأنت في آخر الشارع في إطفاء الحريق، الحريق سوف يصل إليك.

هناك سؤال: الذين ظلموا تصيبهم عقابيل الفتنة، فما بال الذين لم يظلموا ؟ الذين لم يظلموا هم ظلموا في طريقة أخرى، ظلموا حينما سكتوا، لذلك لا شيء يعين الظالم على ظلمه كسكوت المظلوم، لا تسكت، تكلم، وضح، بيّن، ما دام في نصيحة، ما دام في موقف فالإنسان يفكر، هناك من يحاسبني، هناك من يرفض طلبي، أما كل ما يقوله القوي يطاع مع الانبطاح، انتهت الأمة كلها.

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

من أقام أمر الله في بيته و عمله لا شيء عليه:

أيها الأخوة، لو ضربنا أمثلة من الأسرة، يأتي الابن الساعة الثانية ليلاً، أين كنت ؟ عند رفيقي، سكت الأب، أكيد عند رفيقك ؟ من رفيقك ؟ رقم تلفونه، عندما تتابعه إن كان بمكان غير جيد في المرة الثانية يفكر كيف أواجه والدي ؟ أما إن قال له عند رفيقي ولم يتكلم ولا كلمة سيختلف الأمر، والله هناك قصص بالأسر لا تعد و لا تحصى، انحراف خطير إلى درجة الفحش، بنت لمدة ثلاث سنوات تقع في الفاحشة والأب لا يعلم ؟! كانت عند رفيقتها، رفيقتها بالجامعة تدرس معها، الفتنة إن لم تقمع تستشري.

نحن نقول: عندك مملكتان أنت محاسب عليهما، بيتك وعملك، ولست مكلفاً فوق ذلك مبدئياً، مكان المحاسبة أنت تحاسب في الدائرة التي أوكلت إليك، في بيتك معصية، في بيتك تفلت، هناك سهرة مختلطة، أجهزة لا ترضي الله، لقاءات لا ترضي الله، أنت محاسب عن بيتك أولاً، فما لم تكن ضابطاً لأمورك، متابعاً لتفاصيل ما يجري في البيت، فأنت محاسب عند الله، أنت محاسب على مملكتين مملكة بيتك، ومملكة عملك، ما فوق ذلك لك أن تنصح، لكن لست محاسباً.

لو فرضاً أنت بشركة، والمدير العام له شروط بخطأ، يمكن أن تنصحه بطريقة لبقة، لكن أكثر من ذلك غير مكلف، أما ببيتك لا يوجد نصيحة، لا بدّ من أن تقيم أمر الله في بيتك، وفي عملك، فإذا أقمت أمر الله في عملك وفي بيتك لا شيء عليك.

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

والذي يحصل أن كل الانحرافات تبدأ في بيت واحد، وتنتقل إلى بيت، إلى بيت، بعد حين هذه المعصية وجدت في كل البيوت، انحراف في ثياب الفتاة، من بيت واحد، وبعد ذلك هذا الانحراف انتشر في كل البيوت، وهكذا، أما المؤمن يضع حداً لأية فتنة قد تنتشر:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

الأمة كلها في قارب واحد:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو قال: المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب))

[أخرجه النسائي وأبو يعلى وابن حبان عن أبي بكر الصديق].

سبحان الله، من أروع الأمثلة التي ضربها النبي عليه الصلاة والسلام أن قوماً في سفينة، استهموا فيها، أي توزعوا أماكنهم، فأناس في علوها، وأناس في أسفلها، فالذين في أسفلها أرادوا أن يختصروا الطريق بجلب الماء من النهر بأن يثقبوا ثقباً في مكانه، فإن أخذ الآخرين على أيديهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم هلكوا جميعاً، وصدقوا ولا أبالغ ما من مثل أبلغ من أننا جميعاً في قارب واحد، الأمة كلها في قارب واحد، فأي ثقب في هذا القارب إن لم نسارع جميعاً لإغلاقه غرقنا جميعاً، هذا المثل من عند النبي عليه الصلاة والسلام، قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أننا خرقنا نصيباً من نصيبنا فلا نؤذي من فوقنا، والنية طيبة، قال: فإن تركوه، وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً.

إذاً على مستوى أسرة، الأسرة كلها في قارب واحد، على مستوى مؤسسة، مدرسة، جامعة، مستشفى، وزارة، الأمة كلها في قارب واحد، فإذا كان هناك انحراف والكل ساكتون غرقنا جميعاً، وإذا كان هناك انحراف وبعضنا ينصح بعضاً نجونا جميعاً، والله أحياناً قد لا تعلم أن كلمة الحق قد يكون لها أثر لا يوصف.

الحكمة من ضعف النبي الكريم أن يكون الإيمان به عظيماً:

أيها الأخوة، ثم يقول الله عز وجل:

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة الأنفال).

أي الصحابة الكرام في مكة كانوا ضعافاً، و كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق يمر على آل ياسر، وهم يعذبون، ولا يستطيع أن يفكهم، يقول لهم:

((صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة))

[أخرجه الحاكم عن محمد بن إسحاق].

الصحابة دفعوا ثمناً باهظاً حينما أسلموا، ما سر أن النبي كان ضعيفاً ؟ لَمَ لم يكن قوياً كقوة الحكام ؟ لو أنه كان قوياً لأعطى أمراً فطبقه الكل، لكن لا عن إيمان، عن خوف، جعله الله ضعيفاً ليكون الإيمان به خالصاً لوجهه، ما عنده شيء.

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن).

كل إنسان مع القوي يسعى لإرضائه طمعاً فيما عنده، ويتقي أن يعصيه خوفاً منه، فعلاقتك مع القوي علاقة نفع أو خوف فقط، طمع أو خوف، أما علاقتك مع النبي الضعيف علاقة إيمان، إيمان فقط، ضعيف،

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

أبلغ من ذلك:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية: 188).

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام الآية: 50).

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الزمر).

نبي، سيد الخلق، حبيب الحق، سيد ولد آدم، في الطائف ضُرب، لماذا جعله الله ضعيفاً ؟ ليكون الإيمان به عظيماً.

من عبد الله عز وجل بحقٍ في زمن الفتن و الضلالات فله أجر كبير:

الآن: إذا عُرف الإنسان أنه متدين، فبالعالم كله غير مقبول، يخافون منه، إرهابي، مع أنه إنسان مسالم، وديع، لطيف، رحيم، منضبط، مخلص، يتفانى في عمله، كل هذه الصفات الرائعة لأن له مسحة دينية، هو متهم في نظرهم، العالم كله يحترم المتفلتين، يحترم العصاة، يحترم من يتحدون السماء، يحترم من يكفرون بالله عز وجل، والمؤمن يخافون منه، يصنفونه تصنيفاً معيناً، فأنت حينما تريد أن تكون مؤمناً في هذا الزمان لك أجر كبير.

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أولسنا أحبابك ؟ قال: لا أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان، القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين قالوا: منا أم منهم ؟ قال: بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

[ورد في الأثر].

أينما تحركت، المعصية مقبولة والطاعة معها حرج.

فيا أيها الأخوة، أبشروا، ما دمت في هذا الزمان الصعب، لا تنسى قول النبي الكريم فيما يرويه عن ربه:

((وإنَّ العِبادَةَ في الهَرْجِ كهجرة إلي))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة].

عبادة في الهرج، أي في زمن الفتن، في زمن النساء الكاسيات العاريات، في زمن التهجم على الإسلام، وعلى نبي الإسلام، وعلى كتاب الإسلام، كان التهجم على التفاصيل، الآن على الرموز الكبيرة.

رسام الدنمارك شوه صورة النبي عليه الصلاة والسلام، المصحف دُنس في بلاد بعيدة، دُنس والعالم ساكت، فأنت حينما تعبد الله في زمن الفتن، في زمن الضلالات، في زمن يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه، و قد ورد في بعض الآثار: " موت كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لمَ يقتل، ولا المقتول فيمَ قُتل ؟ ".

دولة تعتدي على دولة إسلامية، تقتل منها مليونين، هناك مليون طفل مقتول، تشرد خمسة ملايين، ومع ذلك هي بنظرهم دولة محترمة، والعالم ينظر لها بإكبار، وإذا إنسان دافع عن حقه، أو قاوم المحتل يُتهم بأنه إرهابي، نحن بأي زمان ؟ نحن في أي زمان نعيش ؟!.

ارتباط الإيمان بالأمن و الطمأنينة:

فلذلك:

((وإنَّ العِبادَةَ في الهَرْجِ كهجرة إلي))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة].

يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه، موت كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لمَ يقتل، ولا المقتول فيمَ قُتل ؟.

اثنان ونصف مشرد في الباكستان، بلا طعام، بلا شراب، بلا مأوى، قتل باليوم مئة، مئتان، ثلاثمئة، كأن القتل وسام شرف، فنحن في زمن صعب، لذلك سلوا الله السلامة، وسلوا الله أن يديم على هذه البلاد الأمن والاستقرار، نحن في نعم كبيرة جداً، لا يعرفها إلا من فقدها.

قال لي أخ في العراق: أنا أودع زوجتي يومياً، احتمال موتي في الطريق 50%، يومياً يودع أولاده.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً)

(سورة النحل الآية: 112).

عندما يكون في إيمان يكون هناك أمن وطمأنينة.

على الإنسان ألا ينسى فضل الله عليه:

أيها الأخوة،

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ)

في المدينة، أسستم دولة، شكلتم جيشاً، حاربتم، انتصرتم، أصبحتم دولة كبيرة.

(فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

طبعاً هذه الآية واضحة، أما على إنسان مؤمن، كان لا يملك بيتاً، وليس له دخل ، ويعاني ما يعاني، فيسر الله له شراء بيت، و يسر له زواجاً ناجحاً، و يسر له أولاداً نجباء، وله مكانة محترمة، فعليه ألا ينسى الماضي، ذكرهم بنعم الله.

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم الآية: 5).

هذه الآية لمجموع الأمة.

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وكل شخص منا يذكر كيف كان قبل حين، بحاجة، فقير، بلا عمل، بلا بيت، بلا زواج، بلا أولاد، الله أكرمك، كيف أكرمك بالزواج ؟ يقول: الله يسر لنا، كيف أكرمك بالعمل ؟ كيف نجح العمل معك، فكل ميزاتك الآن ألا تنسى أن هذا من فضل الله عليك.

على كل إنسان أن يكون في قلبه تعظيم لله و حب له و خوف منه:

لذلك:

((أحِبُّوا الله لما يَغْذوكم من نعمه))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس].

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إليّ تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي، ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني وذكرهم ببلائي كي يخافوني))

[من الدر المنثور عن ابن عباس].

معنى ذلك أنه لا بدّ من أن يكون في قلبك تعظيم لله من خلال آياته الكونية، وحب لله من خلال نعمه، وخوف من الله من خلال بلائه، جهاز في جسمك لو تعطل لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق.

هناك قناة دمعية، من العين إلى الأنف، أنفك رطب لأن الدمع الذي يزيد عن حاجة العين ينتقل عبر هذه القناة إلى الأنف، فالأنف رطب، حالات نادرة جداً تُسد هذه القناة فدائماً الدمع على خدك، بعدها يصبح هناك خط أحمر أي التهاب، هذه القناة لها دور كبير جداً، لو أن الرموش انخفضت، هناك مرض اسمه ارتخاء الجفون، كلما أردت أن ترى إنساناً يجب أن ترفع جفنك بيدك، هذه قليلة ؟

نعمة الجفون، نعمة العين، نعمة هذا المفصل، كيف تأكل لولا هذا المفصل ؟ والله هناك نعم بجسمك فقط لا تعد ولا تحصى، لو كان في الشعر أعصاب حس، إلى أين أنت ذاهب؟ ذاهب لأعمل عملية حلاقة بالمستشفى مع تخدير كامل، فالله عز وجل من فضله عليك أنه لم يجعل بالشعر أعصاب حس، ولا بالأظافر، و الحديث عن الجسم يطول.

هناك مثانة لولاها لوضع الإنسان فوطاً بشكل إجباري، كل عشرين ثانية هناك نقطة بول، يتجمعون كل خمس ساعات بالمثانة، لو لم يكن هناك مستودع لكانت مشكلة كبيرة، فكر بأجهزتك جهازاً جهازاً، أي جهاز تعطل تصبح حياة الإنسان جحيماً لا يطاق.

الله عز وجل إذا أعطى أدهش وإذا أخذ أدهش فإياك و التكبر:

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أي الإله الذي نقلك من الأدنى إلى الأعلى هو قادر أن ينقلك من الأعلى إلى الأدنى، إذا أعطى أدهش، وإذا أخذ أدهش.

والله أعرف صديق صديقي درس بفرنسا، يحمل أعلى شهادة في الجيولوجيا، وصل إلى منصب معاون وزير، فقد بصره خلال شهر يأتون له بالمعاملات إلى البيت، بعد ذلك سرحوه، فعندما زاره صديقي، قال له: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف، وأن أمد يدي للناس، ولا أملك من الدنيا إلا هذا المعطف، وأن يرد لي بصري، البصر نعمة كبيرة جداً.

فيا أيها الأخوة، اذكر كيف كنت وكيف أصبحت، إياك والتكبر، إياك أن تنسى الماضي،

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ)

وهذا الخطاب لكل مؤمن، واذكر كيف كنت قبل خمسين عاماً، قبل ثلاثين عاماً، كنت لا شيء، الله أكرمك، أعانك، زوجك، أنجبت أولاداً، ربيتهم ، كل هذه النعم من فضل الله عز وجل عليك.

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (10-30): تفسير الآيات 27 - 29 ، إخلاص العمل وأداء الأمانة من تقوى القلوب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-06-12

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى يخاطب عامة الناس بأصول الدين ويخاطب المؤمنين بفروع الدين:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس العاشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

وقد بينت لكم مراراً أن الله سبحانه وتعالى يخاطب عامة الناس بأصول الدين.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

(سورة البقرة الآية: 21).

ويخاطب المؤمنين الذين آمنوا به بفروع الدين، فحينما يقول الله عز وجل

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يجب على كل مؤمن أن يشعر أنه معني بهذا الخطاب، وأنه لا بدّ من أن يقف موقفاً من هذا الخطاب.

أنواع الشكر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ)

بعد أن بيّن الله عز وجل نعمه على المؤمنين التي لا نهاية لها، ذكّرهم بأن هذه النعم لا بدّ من أن تُشكر، وأنه من لوازم شُكر النعمة الوقوف عند حدود الله، وعدم تجاوزها.

الشكر أنواع، أحد أنواع الشكر: أداء الفرائض، أحد أنواع الشكر: أن يراك الله حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، أحد أنواع الشكر: أن تطيع الله في تفاصيل المنهج، هذا شكر، وفوق هذا الشكر هناك شكر آخر:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

(سورة سبأ).

فالطاعة نوع من الشكر، والعمل الصالح نوع أيضاً من الشكر، فحينما ذكّر الله المؤمنين بالنعم الكثير التي أسبغها عليهم طالبهم أن يشكروه، ومن شكر هذه النعم الوقوف عند الحلال والحرام، التقييد بالأمر والنهي، أن يراك الله حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك.

ومن لوازم الشكر بشكل سلبي ألا تخون الله، ما معنى خيانة الله عز وجل ؟ الخيانة هنا تعطيل أوامر الله، ألا تعبأ بالأمر خيانة، هناك أمر لم تعبأ به، نهي لم تعبأ به، تركت الأمر واقترفت النهي، فهذه خيانة لله عز وجل.

من لوازم شكر النعمة الطاعة و العمل الصالح:

طبعاً الآية تبدأ:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ)

التقديم: هناك نعم كثيرة ينبغي أن تشكرها، من لوازم شكرها الطاعة أولاً، والعمل الصالح ثانياً، وإياك أن تكفر هذه النعم، فإذا كفرت هذه النعم، وعطلت الأمر والنهي والقرآني والنبوي في حياتك فهذا نوع من الخيانة، تعطيل الفرائض، ومجاوزة الحدود.

وأما خيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، رفض سنته، وإفشاء سره للمشركين.

إذاً كلمة خيانة كلمة كبيرة جداً، جاء الله بك إلى الدنيا كي تطيعه، وكي تدخل بطاعتك جنة الله عز وجل التي وعد الله بها المؤمنين، فأنت حينما لا تطيع الله، أو حينما تقترف الذي نهاك الله عنه، أنت لمجرد هذا الفعل فقد خنت الله ورسوله، عطلت الأوامر وتجاوزت الحدود، ولم تعبأ بالسنة، وأفشيت سرّ رسول الله، هذا الذي تعنيه هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أي شيء ائتمنت عليه إن لم تقم بواجب أداء الأمانة فقد خنت الأمانة، هذا معنى واسع جداً، أي الزوجة أمانة عند زوجها، فإن لم يعرفها بالله، ويعاملها بقسوة وشدة، ويقصر في حقها فقد خان الله في زوجته.

والطبيب حينما يأتيه المريض إن لم يؤدِ له علماً جيداً، ووصفة مدروسة، وبحثاً شاملاً فقد خان الأمانة في هذا المريض.

والمحامي أيضاً حينما لا يعتني بالمرافعة، ولا يدقق في نصوص القوانين، ويقدم مرافعة هزيلة ضعيفة يخسر موكله الدعوى فقد خان الله في هذا الموكل.

والزوجة إذا قصرت في حقّ زوجها، والمعلم إذا قصر في حقّ طلابه، والبائع إذا قصر بحقّ من اشترى منه، ولم يبيّن له أن هذه السلعة ليست جيدة، بالعكس أثنى عليها فغشه بها.

والله أيها الأخوة لو دخلنا في هذا الباب لا ننتهي في سنوات.

أي شيء ائتمنك الله عليه أمانة في عنقك:

أي شيء ائتمنك الله عليه أمانة في عنقك، المريض أمانة، الموكل أمانة، الطالب أمانة، المشتري أمانة، حتى المزارع إذا قدمت له دواءً لا ينتفع به كثيراً، وعلمت أنه لا يملك خبرة عالية، بعته دواءً غالياً جداً، وأثره الإيجابي ضعيف جداً خنت الله، كأن الناس يفهمون الدين أن يأتوا إلى المساجد، وأن يصلوا، وأقسم لكم بالله أنت في المسجد ليس من أجل تلقي التعليمات فقط، ولا من أجل أداء العبادات فقط لكن الدين الحقيقي في عملك، في معملك، في حقلك، هل تقدم لهذه النباتات هرمونات ليزداد حجمها ويرتفع سعرها ؟ لكن هذه الهرمونات مسرطنة، هل تفعل هذا ؟ هل تعرض البضاعة عرضاً مغرياً بطرائق مبتكرة من أجل أن تأخذ سعراً أعلى ومستواها أدنى ؟ هذه خيانة.

أقسم لكم بالله مرة ثانية لو أردت أن أعدد أنواع الخيانة التي يقترفها المسلمون في أعمالهم التجارية، والصناعية، والزراعية، والخدمية، والإدارية لأمضينا سنوات وسنوات، لماذا تخلى الله عن المسلمين ؟ لأنهم خانوا الأمانة، الزوج لا يعتني بزوجته، والأب لا يربي أبناءه، والمعلم لا يعتني بطلابه، والطبيب لا يعتني بمريضه، كأن الهدف هو المال.

أما الطبيب المؤمن مستثنى من كل هذه الصفات، كنت أقول لبعض الأخوة الأطباء: ضع المال تحت قدمك تنله، ضعه أمامك تخسره، معنى تحت قدمك أي ليكن همك صحة المريض، شفاء المريض، إن كنت مخلصاً لهذه الدرجة تتألق في سماء الطب، ويأتيك الناس أفواجاً، وتربح المال عندئذٍ، هذا في الطب، والمحاماة، والتدريس، والهندسة، والتجارة ، والزراعة، والصناعة، بأي عمل خدمي، أو عمل تجاري، أنت حينما تخلص تتقن.

الإتقان جزء من خصائص المؤمن:

لماذا هناك شركات بضاعتها مباعة لعام قادم، والثمن مدفوع ؟ إتقان، فالإتقان جزء من دين المؤمن، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه))

[أخرجه أبو يعلى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها].

الإتقان جزء من خصائص المؤمن.

الشيء الدقيق أيها الأخوة، الدقيق جداً أن الغرب في هذا المجال سبقنا، أذكر أنه حدثني أخ يعمل بالأقمشة، قال لي: آلة للتطريز من أرقى مستوى في العالم، عندنا منها في هذا البلد، وعند الصناع في بلد المنشأ منها، متر القماش الذي يصنع في بلدنا فيه أخطاء كثيرة، لا يوجد إتقان، الآلة راقية جداً، لكن يوجد أخطاء كثيرة، يباع في بضع عشرات من الليرات، بينما متر القماش المستورد من بلد صنع هذه الآلة واستخدمها استخداماً فائقاً ببضع مئات، بل تقترب المبالغ من الألوف، والآلة واحدة، لذلك الإتقان يأخذ الغرب ثمنه باهظاً، وعدم الإتقان يدفع الناس إلى خسارة بالغة جداً، الإتقان جزء من الدين.

أنت حينما تقدم سلعة متقنة ماذا فعلت ؟ أرضيت الله عز وجل، وخدمت المسلمين ، وأقبل الناس عليك.

الآن أحياناً هناك رواج اقتصادي، يباع كل شيء، حتى البضاعة من الدرجة العاشرة تباع، أما في أوقات الركود الاقتصادي لا تباع إلا البضاعة المتقنة، في أيام الركود الاقتصادي أصحاب المصالح المتقنين لا يتوقفون عن العمل، العمل مستمر، أما الذين قصروا في إتقان أعمالهم يقول لك: لا يوجد عمل، لا يوجد بيع، لا يوجد حركة.

فدائماً وأبداً المؤمن الذي يعمل في التجارة، أو الصناعة، أو الزراعة، أو في الخدمات، إذا أتقن عمله نال مطلبه، والإتقان جزء من الدين.

ويحضرني هنا أن النبي عليه الصلاة والسلام كان واقفاً أمام قبر أحد أصحابه وقد دفن لتوه، فالذي حفر القبر ترك فرجة، قال له النبي الكريم: هذه لا تؤذي الميت، ولكنها تؤذي الحي:

((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)).

[الجامع الصغير عن عائشة].

كل إنسان سيحاسب عن مئات الأمانات التي أوكلت إليه:

لذلك الآية الكريمة:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ)

مصلحتك أمانة، حرفتك أمانة، مهنتك أمانة، اختصاصك أمانة، طبك أمانة ، المحاماة أمانة، التدريس أمانة، الهندسة أمانة، أي هذا المهندس الذي لا يشرف على صب السطوح بنفسه قد يكون هناك أخطاء كبيرة، قد توضع المواد أقل مما ينبغي، فإذا انهار البناء وقتل المئات، المهندس محاسب عند الله، حتى الذي يطبب الناس، ويعرف منه طب فهو ضامن.

حينما تفهم الأمانة بالمعنى الواسع، الله عز وجل جعلها جمعاً، قال:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

(سورة النساء الآية: 58).

لا يوجد واحد منا إلا وسيحاسب عن مئات الأمانات التي أوكلت إليه، ابنك الصغير أمانة، الابن جاء متأخراً، الساعة الثانية ليلاً، سألته ؟ تحققت ؟ علمت مع من سهر ؟ من يصاحب ؟ من صديقه ؟ أمانة، أنت غارق بعملك وتجارتك لم تهتم، في الثامنة عشر من عمره فجأة تطاول عليك، فجأة بدأ يسهر كل يوم، فجأة لم يعبأ لا برضاك، ولا برضا أمه يقول لك: ماذا أفعل ؟ أنت قصرت معه سابقاً، هو أمانة عندك.

الدين استقامة و خوف من الله عز وجل:

والله أيها الأخوة، هذا الموضوع لا ينتهي، حينما نفهم الأمانة كما ينبغي والله لا ننام الليل حتى نؤدي الأمانات إلى أهلها، والتقصير كبير جداً، وإن الله ينصر الأمة الكافرة العادلة على الأمة المسلمة الظالمة، هناك ظلم شديد، الإنسان يتزوج، لا يؤدي واجبه تجاه زوجته ينجب أولاداً، لا يؤدي واجبه تجاه أولاده، يعمل في عمل معين لا يؤدي الأمانة تجاه من يتعامل معهم، لا يصدقهم، الآن ألوان الغش، والكذب، والدخل، والتزوير لا تعد ولا تحصى.

ممكن القماش مصنوع بأسوأ دولة تصنع القماش، والآن يوجد حواشي مذهبة مع المكواة يضعها على طرف الثوب وتكويها بالمكواة: (صنع إنكلترا) أرقى بلد بالجوخ، فإن وجد الإنسان أن مصنعها ببريطانيا، يدفع الثمن أربعة أضعاف، هي مصنوعة بأسوأ بلد، أنواع الغش لا تعد ولا تحصى.

قال لي إنسان مرة: أخذت كأس عصير، برتقالة واحدة ملأت الكأس، غير معقول ! محقونة مئة إبرة ماء، الله كبير.

فالمصائب تأتي تباعاً، المال يُدمر، التجارة لا تربح، هذا العمل.

حدثني أخ آخر، قال لي: والله يوجد مادة غذائية يضاف لها مادة مسرطنة، تستعمل في الدهان، لكنها تبيض هذه المادة باللون الفاتح يرتفع سعرها عشر ليرات، يضحي بصحة المؤمنين وبسلامتهم من أجل ربح زيادة.

بحقول العنب يوجد مادة إذا رششت هذه المادة على الفاكهة أصبحت مسرطنة يسمونها مادة جهازية، لا تزول هذه المادة بغسل العنقود، لا، تدخل في تركيب العنب من الداخل، تمتصها الجذور، فتصبح هذه المادة داخلة في تركيب العنب، هذه مادة مسرطنة، أي الإنسان إذا أكل هذا العنب قبل مضي ستة أشهر على رش هذه المادة هناك احتمال كبير أن يصاب بالسرطان.

مرة مزرعة نصحت صاحبها بعدم استخدام هذا المبيد، قال لي: والله ضمنتها بثلثي القيمة، ذهب الثلث، من الدبابير طبعاً، هو منع الدبابير أن يأكلوا هذا العنب، لكن ضحى بالمؤمنين الذي يأكلون هذا العنب.

إذاً هناك مواد مسرطنة، و مواد ممنوعة، و مواد ممنوع استيرادها، وأي صيدلية زراعية إذا ضُبطت فيها هذه الماد تغلق فوراً، ويودع صاحبها في السجن، ومع ذلك تأتي تهريباً، وتباع للناس.

على الإنسان أن يتقي الله فيما يقدمه للناس حتى يحبه الله:

الذي أتمنى أن أقوله لكم: دينك بعملك، دينك بمكتبك، دينك بمحاماتك، بطبك ، بهندستك، بزراعتك، هنا الدين، الدين بالاستقامة و لو لم يكن مظهرك دينياً صارخاً، لا تحتاج إلى مظهر صارخ.

((إنما التقوى هاهنا، إنما التقوى هاهنا، إنما التقوى هاهنا))

[رواه أحمد عن أبي هريرة].

حينما تتقي الله فيما تقدمه للناس.

والله أخ من أخوانا الكرام، له مكانة عندي كبيرة جداً، حدثني، قال لي: أنا عندي معمل مواد غذائية للصغار، ويمكن أن أشتري مواداً غذائية انتهت صلاحيتها، ولا سبيل إلى بيعها في المحلات، تباع للمعامل بثلثي قيمتها، الشكولاته انتهت صلاحيتها، الزبدة انتهت صلاحيتها، كل البضائع التي انتهت صلاحيتها كيف تصرف ؟ للمعامل، المعمل يأخذها بثلث قيمتها، أقسم لي بالله هذا الأخ، قال لي: والله لأن هذه السلعة التي يشتريها الصغير بما أعطاه أبوه من مبلغ صباحاً، أعطاه عشر ليرات، معقول أنا أن أطعمه بضاعة فاسدة انتهى مفعولها صلاحيتها ؟ كيف ألقى الله عز وجل ؟ قال لي: والله أفضل المواد على الإطلاق، لأنه يشتري أفضل المواد رأسماله ارتفع ثلاثين بالمئة، ومع ذلك قال لي: والله كيف أربح لا أعرف ! في ربح، فرأسماله أعلى بثلاثين بالمئة، لأن المواد التي يشتريها جيدة.

أنا هكذا أرى، أريد مؤمناً صارخاً، لا لأنه صلى هو مؤمن، لا لأنه عمل عمرة هو مؤمن، أريد إنساناً مؤمناً بصناعته، بزراعته، بوظيفته، جاءك مواطن في معاملة ما، تقول له: تعال غداً ؟ هو من حلب يحتاج إلى ألف و خمسمئة ليرة للإقامة بالفندق، وليأكل، إذا أمنتها له خلال دقائق يرجع إلى حلب، وينام ببيته، أما إن كنت تدير حديثاً ممتعاً مع الموظفة، و قلت له: تعال غداً فقد خنت الأمانة.

الظلم ظلمات يوم القيامة:

والله أيها الأخوة، هذا البحث لا ينتهي، أدوا الأمانات إلى أهلها، إن كنت معلماً، إن كنت صانعاً، إن كنت تاجراً، إن كنت مزارعاً، إن كنت صناعياً كبيراً، ماذا تفعل مع هؤلاء العمال ؟ يوجد بطالة عالية جداً، يقبل معك بستة آلاف، وسبعة آلاف، هل يكفيه هذا المبلغ ؟ هل هذه السبعة آلاف يفتحون بيته الآن؟ معملك يحتاج إلى مواصلات تقدر بألف و خمسمئة ليرة، ذهب من السبعة آلاف ألف و خمسمئة،

بقي له خمسة آلاف و خمسمئة، هل هذا المبلغ يكفيه ؟ هل يستطيع أن يدفع فاتورة الكهرباء ؟ ويشتري الوقود السائل، و فاتورة يدفع الماء والهاتف، وإذا أحب أن يعالج ابنه عند طبيب يحتاج ألف ليرة و هذا أقل شيء، كيف ترضى أن يأخذ هذا العامل هذا المبلغ، وأنت تصرف باليوم مئة ألف ؟ خان الأمانة، موضوع دقيق جداً.

لماذا تخلى الله عنا ؟ بسبب الظلم، إن الله ينصر الأمة الكافرة العادلة، على الأمة المسلمة الظالمة، إياك أن تظلم الناس.

((الظلم ظلمات يوم القيامة))

[أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله].

أحياناً الغني يكون قوياً، يقول لك: هذا السعر إن لم يعجبك سأرى غيرك، هو مقهور يقبل معك بسبعة آلاف، لكن لا يكفونه، أما عندما تعطيه حقه يرضى الله عنك، بحث واسع جداً، كلمة أمانات لا يستثنى منها موضوع، تبدأ بعلاقتك بزوجتك، بأولادك، و تنتهي بالعلاقات الدولية، لا تخون الأمانة، لا تشترِ معملاً لبلدك عمولته عالية، لكنه منسق من العالم من عشرين سنة و يسبب تلوثاً عالياً جداً، لا تشتره، اشترِ أفضل معمل لبلدك، بلا عمولة قدمت خدمة للأمة.

لا يوجد حقل من حقولنا، ولا جهة من جهاتنا، ولا مستوى من مستوياتنا، إلا وهذا الموضوع متعلق بها، هل اشتريت لهذه الأمة المعمل الجيد ؟ الحديد بلا تلوث، لكن لم يعطوك شيئاً مقابله، هناك معمل ثان مجدد غير جديد، أعطوك فيه مبلغاً فلكياً، وأدخلته، أي الفساد حينما يزداد نسقط جميعاً من عين الله.

على الإنسان ألا يخون الله بتعطيل فرائضه ويخون الرسول بعدم تنفيذ سنته:

لذلك الآية الكريمة:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ)

تخونوا الله بتعطيل فرائضه، ومجاوزة حدوده، وتخونوا الرسول بعدم تنفيذ سنته، وإشاعة أسراره ، وتخونوا أماناتكم، كل واحد منا له عمل، يمكن أن تضع قطعة مستعملة بمكان يصعب أن يصل صاحب المركبة إليه، وتعطيه سعر قطعة جديدة.

يمكن أن تضع للمريض دساماً صينياً في قلبه بخمسة و ثلاثين ألفاً، و تكتب بالفاتورة أمريكي، ثمنه اثنان و ستون ألفاً، بعدما انتهت العملية، وانتهى التخدير، وخُيط الجرح، هل يستطيع المريض أن يكتشف نوع الدسام ؟ لا يوجد قوة تكشفه.

عندما يكون في خيانة للأمانة بكل الحقول لا أستثني حقلاً، ابتداء من الطب، وبعد الطب، والهندسة، والتدريس، والتجارة، والصناعة، والزراعة، كل شيء، هذا الموضوع يشمل كل إنسان، معلم ابتدائي،

رسم تفاحة رسمها الطلاب خلفه، ثم ذهب لينام وهو داخل الصف، أذهبت ساعة لم تقدم شيئاً، أوراق الطلاب لم يصلحهم، و إنما وضع علامات شكلية وارتاح.

والله هذه الآية تلاحق كل مؤمن بأي مكان بحياته، من فراش الزوجية، وانتهاء بالعلاقات الدولية.

من خان الأمانة ندم يوم لا ينفع الندم:

(وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ)

المشكلة وأنتم تعلمون:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة).

والله يعلم علم اليقين أنه خان الأمانة، وقد نزلت هذه الآية في رجل اسمه "أبو لبابة "، حين حاصر النبي صلى الله عليه وسلم بني قريظة، وأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد، فاستشارت بنو قريظة أبا لبابة ـ و كان أهله و أمواله فيهم ـ في النزول على حكم سعد، فأشار إلى حلقه، إنه الذبح، أي إن محمداً سيذبحكم، بعد أن أشار هذه الإشارة علم أنه خان الأمانة، أي أعطى معلومات للطرف الآخر ينبغي ألا يعطيها.

وابن بلتعة حينما أرسل كتاباً إلى قريش قال: **" إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم "** هذه خيانة الأمانة، ومع ذلك وقف النبي منه موقفاً رائعاً.

على كلٍ لا تعنينا الحادثة كما يعنينا شمول هذا الموضوع، أي نقل معلومات للطرف الآخر لأعداء المسلمين هذه أكبر خيانة، لو توسعنا أكثر، إذا أقمت عندهم إقامة ثابتة، وقدمت كل خبرتك لهم، وكل معلوماتك وتفوقك لهم، هم أعداء المسلمين، أنت قويتهم.

ببعض الشركات المعلوماتية يوجد خمسة و ثلاثون ألف مهندس، من نخبة مهندسو العالم، ذهبوا إلى البلاد الغنية ـ أنا أقدم لكم رأيي الشخصي ـ أنت حينما تقيم ببلاد الغرب، وتقدم كل خبرتك، واختصاصك، وكل تحصيلك العلمي، وتخدم أبناء الغرب، وهم يتفننون في معاداة المسلمين أنت قويتهم بهذا، لِمَ لا يكن علمك لبلادك ؟ طبعاً يوجد عندنا متاعب كثيرة، في أي بلد نامٍ الدخل سيكون أقل بكثير، لكن يوجد آخرة، و هناك إله سيحاسب.

أنا والله لا أتمنى على أخ أحبه أن يبقى مقيماً هناك دائماً إقامة دائمة، يمكن أن تدرس وترجع، تحصل مالاً وترجع، أما أن تقضي كل حياتك في خدمة هؤلاء، وأن تسهم في قوتهم التي تصب أسلحة فتاكة، وعدواناً، واحتلالاً، ونهباً للثروات، هم أقوياء بما عندهم من عقول، فالعقول التي نمت في بلاد المسلمين هل يعقل أن تخدم غير المسلمين ؟ هذا خيانة للأمانة.

من عَلِم أنه يخالف منهج الله عز وجل تضاعف إثمه:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أنت حينما تعلم أنك تخالف منهج الله، الإثم يتضاعف، مثلاً هناك من يفتي بغير علم، يعاقب ويحاسب، لكن الذي يفتي بخلاف ما يعلم يعد مجرماً، أنت لماذا فعلت هكذا ؟ لماذا يخون الإنسان الأمانة ؟ طمعاً بالمال، لماذا يغش ؟ طمعاً بالمال، لماذا يكذب ؟ طمعاً بالمال، لماذا يحتال ؟ طمعاً بالمال، لماذا يقدم بضاعة رخيصة جداً بمواصفات عالية جداً ؟ طمعاً بالمال، كل أنواع الخيانة تصب في خانة واحدة، حيازة مال وفير، فجاءت الآية:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة الأنفال).

الأموال التي يحصّلها الإنسان من خيانة الأمانة تفتنه عن طاعة الله عز وجل:

بالمناسبة المال الوفير لماذا ؟ من أجل أن تمتع أولادك، لكل ابن سيارة، لكل ابن بيت خاص، طبعاً عندما يغتني الإنسان يريد أن يبقي هذا الغنى لأولاده، فجاءت الآية:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ)

أنت غششت المسلمين، وحصّلت أرباحاً طائلة، من أجل أن ينعم أولادك بمستوى ليس في مقدور كل الناس، هذه مشكلة.

إذاً أموالك التي حصلتها من خيانة الأمانة فتنتك عن طاعة الله،

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

لو أديت الأمانة، ولم تأتك هذه الأموال الطائلة،

(وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

يا أخوان لحكمة بالغة بالغةٍ بالغة جعل الله كسب المال الحلال صعباً، ومتعباً ، وجعل كسب المال الحرام سهلاً.

أمثلة كثيرة: إنسانة تعمل في البيوت ثماني ساعات بخمسمئة ليرة، وإنسانة تأخذها بالحرام بدقائق، بربع ساعة تأخذها، فالحرام سهل.

يمكن أن تغض بصرك عن مستودع تأخذ خمسة ملايين، هذا المال كان مقرراً أن يكون للدولة، والدولة ملزمة بالتعليم، والصحة، وأشياء كثيرة، فذهب المال إلى جيوب قليلة، هذه خيانة للأمانة، الموضوع واسع جداً، لكن أنت فعلت هذا من أجل دخل كبير لينعم به أولادك إذاً هذا المال، وهؤلاء

الأولاد فتنوك عن طاعة الله، أنت من أجلهم عصيت الله.

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

المؤمن حينما يتقي الله يجعل له بصيرة تريه الحق حقاً والباطل باطلاً :

لو أنك أديت الأمانات، وكان دخلك أقل بكثير، هذا المال فيه بركة، يفعل الله به كل خير لك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

(سورة الأنفال الآية: 29).

هذه آية من أدق الآيات،

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

أي يقذف الله في قلوبكم نوراً ترون به الحق حقاً، والباطل باطلاً، هناك آية ثانية تؤكد هذا المعنى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

(سورة الحديد الآية: 28).

يؤتكم رحمة في الدنيا تسعدون بها، ورحمة في الآخرة.

(يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية: 28).

بطولة الإنسان أن يملك نوراً يقذفه الله في قلبه يرى به الخير خيراً والشر شراً:

عندما دعت امرأة ذات منصب وجمال سيدنا يوسف، ماذا قال ؟

(مَعَاذَ اللَّهِ)

(سورة يوسف الآية: 23).

معه رؤيا، الآن إنسان يتعفف عن المال الحرام، إنسان يأكل المال الحرام، لكن في محاسبة، الأول له سمعة متألقة، والثاني أودع في السجن.

فالإنسان بطولته أن يملك نوراً يقذفه الله في قلبه، يرى به الخير خيراً، والشر شراً، والحق حقاً، والباطل باطلاً، والحلال حلالاً، والحرام حراماً، من دون هذا النور هناك أناس كثيرون يرتكبون أخطاء فاحشة، ويجهلون نتائجها، فإذا جاءت النتيجة دخلوا في الإحباط واليأس.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ)

أنت حينما تستقيم على أمر الله،

(يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

أي نوراً يقذف في قلوبكم تفرقون به الحق من الباطل، والخير من الشر، والحلال من الحرام.

(وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

والحلال يلغي الماضي الذي فيه خطأ،

(وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

من لم يتق الله فهو إنسان أعمى:

فلذلك أيها الأخوة، ما دام الموضوع عن التقوى، أنت حينما تتقي الله، أي حينما تقيم أمر الله، حينما تلتزم بمنهج الله، حينما تحل الحلال، وتحرم الحرام، حينما تهتدي بهدي الله، حينما تتحرك فوق منهج الله، حينما تكون مطيعاً لله، بكلام مختصر حينما تتقي الله

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

صار بقلبك نور.

هناك إغراءات كثيرة في الحياة، هذه الإغراءات تغري من طمست بصيرتهم، لا يوجد بقلبه نور، يجد مبلغاً كبيراً يفكر أن المبلغ سوف يسعده، بعد أيام يقبض عليه، ويودع في السجن، و أحياناً يُقتل، الذين يرتكبون الجرائم، لماذا يرتكبونها ؟.

أخواننا الكرام، كلام دقيق، الإنسان إذا لم يتق الله فهو أعمى، يرتكب حماقات لا يرتكبها طفل،

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

والله قصة رويتها كثيراً، لكن لا أشبع من روايتها، إنسان له عمل في المطار، أحب أن يعبر عن مهارته في القيادة، كلب صغير على طرف الطريق في المطار، استطاع أن يدهس قدميه فقط، و هذه تحتاج خبرة عالية جداً، أي أن تستطيع أن تجعل العجلة فوق يديه فقط دون أن تصيبه، دون أن تقتله، هذه براعة، فاستطاع أن يدهس قدمي هذا الحيوان الصغير، ويضحك ضحكة هستيرية تعبيراً عن مهارته في قيادة المركبة، يحدثني من كان معه في المركبة، قال لي: والله بعد أسبوع بأكمله في المكان نفسه العجلة أصابها خلل، فرفع المركبة بالرافعة، وسحب العجلة من مكانها، فإذا بالرافعة تقع، وتقع المركبة على العجلة، والعجلة على رسغيه، يقسم بالله العظيم: عندما ذهبوا به إلى المستشفى يداه اسودتا، فلابد من قطعهما، قال: والله السبت الأول قطع يدي الجرو الصغير، السبت الثاني قطعت يداه، هذا لو كان طالب علم، أو حضر درس علم، لن يفعل هذا، إله كبير، والله عندي من هذه القصص مئات.

جاء إنسان يركب مركبة حديثة جداً من الخليج، فيها خطأ بسيط، عندما ذهب إلى المصلح، المصلح ذكي جداً، عرف أن هذا جاهل، قال له: تحتاج ثلاثة أيام، تحتاج إلى تغيير كذا وكذا وكذا، قال له: كما تريد، قال له: المبلغ عشرة آلاف، فجاره قريب لي، أول يوم خبر أهله أخذهم بالسيارة إلى المطار، و في اليوم الثاني أخذهم لوادي بردى، و في اليوم الثالث إلى الزبداني، هو أصلحها بدقيقة، وعندما جاء قال له: تمام، اسمح لنا بالعشرة آلاف، قال له جاره: هذا العمل والله حرام، قال له: أنت جاهل، هكذا الشغل، ابنه يعمل في مخرطة، دخلت نثرة فولاذ في عينه فدفع تقريباً ما يقدر بستة عشر ألف ليرة لبناني ـ وقتها كان الليرة بمئة و ستين قرشاً ـ أي ما يقدر بخمسة و عشرين ألفاً، دفعهم بعد يومين أو ثلاثة.

الله عز وجل موجود و سيحاسب كل إنسان على عمله :

الله كبير، الله كبير، إياك أن تخطئ مع الناس، إياك أن تبتز أموالهم، إياك أن تكذب عليهم، إياك أن تظلمهم، إياك أن تعتدي عليهم، فالمؤمن يعرف أن هناك إله يحاسب.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر).

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم).

والله عندي من هذه القصص مئات، بهذه الفترة في الدعوة إلى الله قصص وصلت إليّ، شيء مذهل، ترى عدل الله عز وجل.

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

ترى في هذا الفرقان الحق من الباطل، و الخير من الشر،

(وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (11-30): تفسير الآيات 30 - 35 ، مكر الله ردّ على كيد ومكر الكفار ـ ما دمنا نتبع سنة نبينا فلن يعذبنا ربنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-07-10

بسم الله الرحمن الرحيم

اجتماع قريش في دار الندوة للتشاور في مصالحها:

أيها الأخوة الأكارم... لا زلنا في سورة الأنفال ومع الآية الثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

أولاً بعد أن بيّن الله نعمه على المؤمنين، بيّن بعد ذلك نعمته الخاصة على رسوله الكريم، كيف أن قريش اجتمعت في دار الندوة، في الدار التي بناها قصي بن كلاب لتكون مكاناً للتشاور في مصالح قريش، وأن هؤلاء الصناديد صناديد الكفر اجتمعوا في دار الندوة، وتداولوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام، واقترح بعضهم أن يوضع في غرفة، وأن يقيد، وأن تبقى فتحة لهذه الغرفة يلقى من خلالها بطعامه وشرابه إلى أن يموت، هذا اقتراح أحد صناديد قريش، لكن بعضهم قال لهم: إن قومه سوف يأتون، وسوف يحاربونكم، فهذا ليس برأي.

فاقترح آخر بأن يدفع بناقته إلى خارج هذه البلاد كلها، ويستراح منه، فقال قائل آخر: لعل ينقل هذه الرسالة إلى قوم آخرين، فيأتون بعد حين فيحاربونكم، لكن أحدهم وهو أخبثهم اقترح أن يؤخذ من كل قبيلة فتىً، ومعه سيف، فيشتركون جميعاً في قتل النبي عليه الصلاة والسلام حتى تضيع دماءه بين كل القبائل، وعندئذٍ ينتهي هذا الإنسان الذي أقلق عليهم مصالحهم في قريش ، هذا الرأي كان هو المعتمد، واعتمدوه كرأي صائب، أن توزع دماؤه بين كل القبائل فإن طلبوا دية دفعوها جميعاً واستراحوا منه.

إخبار الله عز وجل نبيه بما تآمر عليه أهل قريش :

أيها الأخوة، ورد في السيرة بشكل خاص أن الله سبحانه وتعالى أخبر نبيه بما تآمر عليه أهل قريش، فالقصة معروفة أمسك قبضة من تراب، ورماها بهؤلاء الذين يحرسون بيته تمهيداً لقتله، فشاهد وجوههم، وخرج إلى بيت أبي بكر، ومن بيت أبي بكر إلى غار ثور الذي حصل أنه أبقى ابن عمه وقد أمره أن يرتدي برده ـ ثوبه ـ وأن يسجى على سريره، هم توهموا أن النبي في البيت، تابعوا حراسته تمهيداً لقتله، فلما دخلوا عليه ليقتلوه وجدوا علياً مكانه، أين محمد ؟ قال: لا أدري، سيدنا محمد كان قد

ذهب إلى بيت أبي بكر، ومن بيت أبي بكر إلى غار ثور، تتبعوا الأثر وصلوا إلى غار ثور، رأوا العنكبوت في مدخل هذا الغار فقال قائلهم: مستحيل أن يكون في داخل هذا الغار، وخيوط العنكبوت قديمة ! فانصرفوا، وتابع النبي هجرته إلى المدينة المنورة، قال تعالى:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

المكر تدبير من ضعيف، تدبير محكم، تدبير غير معلن، تدبير سري.

المكر الذي نُسب إلى الذات العلية ليس مكراً لكنه مكر مشاكلة يرد الله به على كيد الآخرين:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ)

ليجمد في غرفة، ويقيد، ويلقى إليه طعامه وشرابه إلى أن يموت، أو بضربة من سيوف عدة يضيع الدم فيها من كل القبائل.

(أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

هذا المكر الذي نُسب إلى الذات العلية ليس مكراً، لكنه مكر كما يقولون علماء البلاغة مكر مشاكلة، الله لا يمكر، وليس من أسمائه أنه ماكر، لكن رد الله على مكرهم بتدبير أنقذ به نبيه،

(وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

إله عظيم بيده كل شيء، بالتعبير المعاصر الخيارات لا تعد ولا تحصى، فإما أن ينصرك، أو أن يضعف خصمك، أو أن يوهم خصمك أنك قوي، أو أن يعتم عليك، الخيارات التي بيد الله عز وجل لهذا الإنسان لا تعد ولا تحصى، أحياناً يسمح لقومك أن يلقوك في النار.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء).

تصور إنساناً كان مع الله، عدوك بيده، القوي بيده، الصحة يده، المال بيده ، التفكير بيده، العقل بيده، إذا كنت مع الله فمن عليك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ والله الآن قوى الشر، قوى البغي، قوى العدوان، أسلحة فتاكة، قنابل ذرية، أقمار صناعية، ثلاثون دولة حديثة، طائرات من أعلى مستوى تنطلق من البلاد البعيدة في آخر بلاد الدنيا، وتتجه إلى شرق الدنيا، وتقصف وتعود دون أن تحتاج إلى التزود بالوقود، طيران، وصواريخ، وقنابل نووية، وأقمار صناعية، ومراقبة دقيقة جداً، الأقمار تراقب الأرض.

مرة وقعت تحت يدي مجلة ألمانية، فإذا فيها تحقيق عن الأقمار الصناعية ، أن الأرض بأكملها صورة واحدة، كما ترونها في بعض الصور العلمية، الأرض بأكملها ترى من القمر الصناعي، على الأرض مربع صغير جداً كبرت الصورة فإذا أمريكا الشمالية، على هذه الخارطة مربع صغير جداً، كبرت

الصورة الثانية، فإذا هي فلوريدا، على فلوريدا مربع صغير جداً كبرت الصورة الثالثة، فإذا هو ساحل في فلوريدا، عليه مربع صغير كبرت الصورة الرابعة، فإذا حقل أخضر مضطجع عليه شخص يقرأ كتاباً يمكن أن تقرأ عنوان الكتاب من القمر، وبيده ساعة، وإلى جانبه صحن فيه تفاحات ثلاث، هذه من القمر، أحياناً يقول لك ممنوع التصوير.

التقدم الذي أحرزه الغرب يفوق حدّ الخيال:

التقدم الذي أحرزه الغرب يفوق حدّ الخيال، كل أقمارهم، وتجسسهم، وأسلحتهم، وقنابلهم، تارةً القنبلة الذكية، والقنبلة العنقودية، والقنبلة الانشطارية، والحارقة والخارقة ، وقنبلة الليزر، والشيء الحديث عن الوسائل الحديثة في التدمير يفوق حدّ الخيال، أي قصف قصر في العراق في غرفة النوم من إيطاليا، تصور صاروخاً يخرج من إيطاليا ليصل إلى غرفة النوم بالذات، تقدم الغرب مذهل.

الله عز وجل قال:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم).

بربكم هل بإمكان دول الأرض مجتمعة أن تنقل هذا الجبل الصغير المتواضع جبل قاسيون إلى درعا، دول الأرض مجتمعة، الله عز وجل أثبت في القرآن الكريم أن مكرهم يزيل الجبال،

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

من كان مع الله ربح الدنيا و الآخرة معاً:

لكنك إذا كنت مع الله كنت أقوى منهم، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ دليل، يقول الله عز وجل ـ صدقوا ولا أبالغ هذه الآية تحل بها مشكلات العالم الإسلامي بأكمله ـ:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية: 120).

بحاملات طائراتهم، حاملة الطائرات مدينة، بطوابق، مئة طائرة مخزنة في جوف الحاملة، مدينة بأكملها، ثمنها يقترب من ثمن مدينة، حاملات الطائرات، والصواريخ العابرة للقارات، والأقمار الصناعية، والأموال الطائلة، والدول الحليفة،

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

لأنك مع الله، وهم في قبضته، من هو العاقل ؟ من هو الذكي ؟ من هو الموفق ؟ من هو السعيد ؟ من هو الذي حقق الهدف من وجودك ؟ من هو الذي ربح الدنيا والآخرة معاً ؟ المؤمن، لأنه كان مع الله.

كن مـع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمـعك

وإذا أعطاك من يمنــعه ثم من يعطـي إذا ما منعك

* * *

الله عز وجل لا يمكر لكنه يكيد كرد على كيد الكفار ويدبر تدبيراً حكيماً لينتقم منهم:

الآية الكريمة:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

الله لا يمكر، لكن هذا مكر مشاكلة.

للتوضيح: سُئل أحدهم أنطبخ لك طعاماً ؟ هو بحاجة إلى ثياب، قال: اطبخوا لي جبة وقميصاً، قالوا: أنطبخ ؟ قال: اطبخوا لي جبة وقميصا، هذا اسمه باللغة مشاكلة.

فالله عز وجل لا يمكر، وليس ماكراً، وليس من أسمائه أنه ماكر، ولا يكيد وليس كائداً، وليس من أسمائه أنه كائد، لكنه يكيد كرد على كيد الكفار، أي يدبر تدبيراً حكيماً، يقمعهم، وينتقم منهم، ويكف أذاهم عن المؤمنين،

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

أيها الأخوة، التاريخ بين أيديكم، هؤلاء القرشيون، الأقوياء، الأغنياء، الصناديد الشجعان، قمم المجتمع القرشي، هؤلاء عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام، وكذبوه، وائتمروا على قتله، أو على حبسه، أو على إخراجه، أين هم الآن ؟ هم الآن في مزبلة التاريخ وأين هؤلاء الصحابة الصغار، الشباب، الضعاف ؟ هم في لوحة الشرف، تقف أمام سيدنا الصديق، تسلم عليه، تقف أمام سيدنا عمر في مقامه في المدينة تسلم عليه، تقف أمامهما بأدب جم، هؤلاء الذين نصروا النبي، رفع الله ذكرهم.

كل صفة يتصف بها النبي الكريم لكل مؤمن منها نصيب:

بالمناسبة: قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح).

وكل صفة يتصف بها النبي لكل مؤمن منها نصيب، وأنا أقول لكم جميعاً: لا يوجد إنسان من الأخوة الكرام الحاضرين إذا أخلص لله، وأقبل عليه، واستقام على أمره، واصطلح معه، لا بد من أن يرفع الله له ذكره، ويعلي قدره، هذا أبداً قانون.

" يا سعد ! لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول، فالخلق كلهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له ".

الناس على اختلاف مللهم و نحلهم و انتماءاتهم لا يزيدون عن رجلين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13).

هذه الحقيقة، هذا كلام مطمئن، نحن جميعاً على اختلاف مللنا، ونحلنا ، وانتماءاتنا، وأعراقنا، وأنسابنا، ومذاهبنا، وطوائفنا، أضف إلى هذه المصطلحات ما شئت ، نحن عند الله أحد رجلين، رجل عرف الله، وانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم، وسعد في الدنيا والآخرة، و رجل آخر غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، ولن تجد نموذجاً ثالثاً.

1 ـ رجل عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل).

صدق أنه مخلوق للجنة فاتقى أن يعصي الله و بنى حياته على العطاء.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل).

2 ـ و رجل غفل عن الله فتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فهلك في الدنيا والآخرة:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل).

كذب بالآخرة، آمن بالدنيا، استغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل).

هذان النموذجان في حياة أهل الأرض، ولن تجد نموذجاً ثالثاً، وكل التقسيمات الأرضية دول الشمال، دول الجنوب، العرق الملون، العرق الأبيض، العرق الأصفر ، الشعوب السامية، دول متخلفة، دول نامية، دول متقدمة، دول صناعية، كل هذه التقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

والله هذه الآية يجب أن يضعها الإنسان في أي مكان في بيته،

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

الأحمق هو الإنسان الذي يريد أن يلغي الدين و يقف في خندق يعادي الحق من خلاله:

أيها الأخوة،

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

ماذا أقول لكم ؟ مرة ضربت هذا المثل: هذا الرسام الدنمركي الذي رأى بسذاجة وغباء بلا حدود أنه إذا شوه صورة النبي تهتز مكانته في العالم الإسلامي، أنا خطر في بالي مثل أنه بسذاجة عجيبة كمن أراد إطفاء الشمس ببصقة من فمه، فتوجه نحوها، وأطلق بصقة من كل عزمه فانطلقت مسافة تقدر بثلاثين سنتمتراً ثم عادت إلى وجهه، وبين وجهه والشمس مئة وستة وخمسين مليون كم، والشمس لسان اللهب منها يزيد عن مليون كم، وحجم الشمس يزيد عن حجم الأرض بأكملها بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وحرارة الشمس في وسطها عشرون مليون درجة، فهذا الإنسان الساذج أراد إطفاء الشمس، والدليل هناك آية قرآنية:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

(سورة التوبة الآية: 32).

الأحمق هو الإنسان الذي يريد أن يلغي الدين، ليس هناك أحمق منه.

كنت مرة في قصر كبير جداً في بلد إسلامي، قصر مذهل، قاعة الاستقبال مساحتها تقدر بألفي متر مربع، مزينة باثنين طن من الذهب، من أجمل قصور العالم، وجدت الساعة ثابتة على التاسعة وخمس دقائق، سألت عن هذه الساعة لماذا لا تعمل ؟ قال: هي ثبتت يوم وفاة صاحب القصر، هذا الطاغية، من أراد إلغاء الإسلام كلياً، منع الثياب الإسلامية، منع الحرف العربية، أراد أن يجعل من بلده بلداً غربياً إباحياً، ذكرت كلمة ترنمت لها، قلت: كم إنسان جاء إلى الأرض أراد إلغاء الإسلام يموت والإسلام باق، والآن من فضل الله هذا البلد يتحرك نحو الإسلام حركة رائعة.

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

أحمق إنسان، أغبى إنسان من وقف في خندق يعادي الحق من خلاله.

الله جلّ جلاله مع الحق دائماً:

هل تعلم من مع الحق ؟ الله جلّ جلاله، الآية الكريمة:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم).

من أجل فتاتين، امرأتين، السيدة عائشة، والسيدة حفصة.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم).

معنى الآية، أي إذا فكرت أن تقف في خندق معادٍ للحق، هل تعلم من هو الطرف الآخر ؟.

من آمن بعد فوات الأوان خسر الدنيا و الآخرة:

أيها الأخوة:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

(سورة الأنفال).

تأتي لإنسان بدليل قوي، بآية كونية، بآية قرآنية رائعة، بإشارة دقيقة جداً، بدليل ناصع، يقول لك، هذا شيء أعرفه، دائماً الطرف الآخر الغير مؤمن يسخر، يستهزئ، لكنه يكتشف بعد فوات الأوان أنه كان يستهزئ بالحقيقة العظمى في الكون.

فرعون هو أكفر كفار الأرض قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية: 38).

فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات).

فرعون وهو يغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس الآية: 90).

متى آمن ؟ بعد فوات الأوان.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

لذلك أيها الأخوة، استمعوا لهذه الحقيقة: أنت مخير، ولك ملايين الخيارات في أي شيء، عُرض عليه بيت رفضته، صغير، وغير مشمس، وسعره مرتفع، فتاة للزواج لم يعجبك شكلها، ولا من حولها، فرفضت الزواج، لك أن ترفض مليون موضوع، إلا أنك إذا رفضت الإيمان تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة الآية: 130).

وخيارك مع الإيمان خيار وقت فقط، لأنه لا بدّ من أن تؤمن بعد فوات الأوان، ولا قيمة لهذا الإيمان إطلاقاً.

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس).

فكل البطولة أن تؤمن قبل فوات الأوان، أن تؤمن وأنت صحيح.

الحياة و الصحة والحرية نعم ينبغي أن نستفيد منها في أمر ديننا لأنها لا تقدر بثمن:

ذكرت لكم كثيراً أن بعض الشيوخ يأخذون أخوانهم صبيحة يوم العيد إلى المقابر ليعرفوا قيمة الحياة، أنت حي بإمكانك أن تتوب، بإمكانك أن تنفق المال، بإمكانك أن تلتمس ممن ظلمته عذراً، بإمكانك أن تؤدي ما عليك من واجبات، نعمة الحياة لا تعدلها نعمة، فإذا جاء الأجل خُتم العمل، وأُغلق باب التوبة، فأنت حي، هذه أول نعمة.

وفي اليوم التالي يأخذهم إلى المستشفيات ليعرفوا قيمة الصحة، هناك تشمع كبد، و فشل كلوي، و خثرة بالدماغ، و شلل، هناك أمراض تهز الجبال، أنت معافى، الأجهزة سليمة، الحواس سليمة، صحتك طيبة، هذه نعمة لا تعدلها نعمة.

في اليوم الثالث إلى السجون ليعرفوا نعمة الحرية، أنت حر، لست معتقلاً، معتقل والحكم عشر سنوات، اليوم لا يمضى معه، كيف ؟! أول أسبوع، ثاني أسبوع، ثالث أسبوع ، رابع أسبوع، تمضي سنة يشعرها دهراً، أين العشر سنوات ؟ فنعمة الحياة، ونعمة الصحة ونعمة الحرية، هذه نعم ينبغي أن نستفيد منها في أمر ديننا.

لذلك قال تعالى:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر).

نعمة الصحة، نعمة الأمن، نعمة الفراغ، نعمة المال، معك مال، عندك وقت فراغ لِمَ لم تطلب العلم ؟ عندك نعمة الأمن، لِمَ لم تبادر إلى أعمال صالحة ؟.

لذلك من أدق الأحاديث الشريفة:

((اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناءك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك)).

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عباس].

الأحمق من يعاند الخالق و يتحداه:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا)

الآيات الباهرة، الآيات الكونية، الآيات القرآنية التكوينية.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا)

يقول لك : هذا شيء معروف.

(لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

أي القصص الخيالية الخرافية، التي سُطرت في كتب الأولين هذه مثلها

(إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

بل بلغ عنادهم وتحديهم وكفرهم مبلغاً عجيباً:

(وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

(سورة الأنفال).

إن كانت بعثة النبي حقاً ليعذبنا ربك.

(بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ)

(سورة الفيل).

(أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

الإنسان متى يتحدى الخالق ؟ يكون أحمقاً، و حمقه لا حدود له.

أيها الأخوة، المؤمن أديب مع الله، أديب أدباً جماً، المؤمن مفتقر إلى فضل الله، المؤمن تعيش معه ثلاثين سنة لا يتكلم كلمة واحدة لا ترضي الله عز وجل، أدبه، وسمته الحسن، وتواضعه، كلنا جميعاً نقول هذا، الله جل جلاله، جل وعز، عز وجل، هكذا المؤمن يعظم الله عز وجل.

لابدّ من اجتماع التعظيم و المحبة و الخوف من الله سبحانه و تعالى في قلب المؤمن:

النقطة الدقيقة جداً:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة).

بالله ! إبليس آمن بالله، قال:

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية: 82).

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف).

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة).

ما لم تؤمن بالله.

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي ـ ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وبنعمائي كي يحبوني، وببلائي كي يخافوني ـ)).

[من الدر المنثور عن ابن عباس].

إذاً لا بدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله من خلال التفكر في آيات الله الكونية، ولا بدّ من أن يكون في قلب المؤمن محبة لله بسبب نعمه التي لا تنتهي، ولا بدّ من أن يكون في قلب المؤمن خوف من الله من خلال البلاء الذي لا ينتهي، تعظيم، محبة، وخوف.

تطبيق سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجعلنا في مأمن من عذاب الله تعالى :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال).

الحقيقة الآية في حياة النبي واضحة جداً، ليس من المنطق، وليس من المألوف أن النبي بين ظهراني أمته و يأتي العذاب الماحق، هم في بحبوحة أن النبي بينهم، لكن بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى، ما

معنى الآية ؟ دقق في المعنى الدقيق هو في الجواب للعالم الإسلامي لماذا يعذب المسلمين ؟ لماذا تحتل أراضيهم ؟ لماذا تنهب ثرواتهم ؟ لماذا يقتل أبناءهم ؟ من الخمسينات إلى الآن كل سنتين أو ثلاثة هناك حرب، أبداً، خمس دول إسلامية محتلة، الثروات نهبت، الأموال نهبت، مواقع، قواعد، لماذا يا رب ؟! قال الله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

من أدق معاني هذه الآية، يا محمد ما دامت سنتك مطبقة في حياتهم، هم في مأمن من عذاب الله، أي مستحيل، وألف ألف ألف مستحيل أن نُعذب ونحن نُطبق سنة رسول الله، مستحيل !.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ)

هذه **"وما كان الله "** أشد أنواع النفي في اللغة، هذا اسمه نفي الشأن، قل لواحد: هل أنت جائع ؟ يقول لك: لا، قل له: هل أنت سارق ؟ هذا وضع ثان، ليس معقولاً أن يقول لك: لا، يقول لك: ما كان لي أن أسرق، بعض النحاة عدوا أكثر من عشرين فعلاً ينفى بهذه الصيغة، لا أسرق، ولا أرغب، ولا أتمنى، ولا أقبل، ولا أبارك، ولا أرضى، ولا أدعم، مستحيل ! ما كان لي أن أسرق، هذا أشد أنواع النفي، والله عز وجل يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ)

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون ومنهج النبي مطبق في حياتهم، يوجد مساجد ؟ نعم، صلوات ؟ نعم، آذان ؟ نعم، حج ؟ نعم، أما التعامل اليومي، يا ترى في الأسواق هل منهج الله عز وجل مطبق ؟ هل هناك أيمان كاذبة ؟ هل هناك بضاعة محرمة ؟ هل هناك معاص و آثام ؟ هل هناك مواد محرمة ؟ هل هناك طريقة محرمة أو ربا ؟

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

هذا تفسير لما هم عليه المسلمون اليوم، لو أنهم طبقوا منهج رسول الله يستحيل أن يعذبوا.

لن تُعذب بإحدى حالتين ؛ تطبيق منهج رسول الله أو الاستغفار:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

معنى ذلك نحن في مأمنين، أو في بحبوحتين، لا يمكن أن نُعذب ومنهج النبي مطبق في حياتنا، في التفاصيل، في البيع، في الشراء، في الحفلات، في الفرح، في الترح، في السفر، في الحضر، في الإقامة في الدراسة، في المعالجة، في الطب، في الولائم.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

لا تُعذب بإحدى حالتين، إن كنت مطبقاً لمنهج رسول الله، أو استغفرت.

(وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الأنفال).

حينما تدفع المسلمين ليهاجروا الحبشة، أو ليهاجروا إلى المدينة، أنت ماذا فعلت ؟ صددتهم عن بيت الله الحرام.

(وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

الدين الإسلامي دين محفوظ من الخالق سبحانه و بقية الأديان عبادتهم رقص وغناء:

والله حضرت مؤتمراً في واشنطن للأديان، المؤتمر فيه ممثلون من ثماني عشر ديناً، أديان سماوية وغير سماوية، إلا أن هذا المؤتمر له طريقة خاصة، ليس فيه إلقاء كلمات أبداً، فيه العبادات، كل دين له ثماني دقائق ليظهر عباداته، أُقسم لكم بالله عدا الدين الإسلامي الذي قام طبيب قرأ صفحة من آل عمران، وقام إنسان آخر فسرها بثماني دقائق، طبعاً الصفحة اختاروها بعناية فائقة، وكان تفسيراً جيداً جداً، وبدأت فقرة المسلمين بأداء إسلامي، وبكينا جميعاً، وقالوا في التقديم لهذا الأذان: يرجى عدم التصفيق لأن هذا الأذان من عبادة المسلمين، وهو دعوة إلى الصلاة، والله الذي لا إله إلا هو، وبقية الأديان عباداتهم كلها رقص، وغناء، وموسيقا، ذكرني هذا بالآية الكريمة:

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

(سورة الأنفال).

المكاء هو الصفير، والتصدية هي التصفيق

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

عدا الدين الإسلامي الذي بدأ بأذان، وقرأت صفحة من القرآن، وفُسرت هذه الصفحة، وما سوى هذا الدين، ما كانت العبادات إلا غناء ورقصاً وموسيقا.

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً)

المكاء هو الصفير، والتصدية هي التصفيق،

(فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (12-30): تفسير الآيتان 36 - 37 ، يبدأ ربنا عز وجل بالتأديب - ثم الابتلاء - فالتمكين - ثم يميز الخبيث من الطيب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-07-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أي إنسان يتوهم أنه قادر على إلغاء دعوة الله للدار الآخرة فهو غبي وأحمق:

أيها الأخوة الأكارم... مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السادسة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ).

أولاً الكافر يتوهم بسذاجة ما بعدها سذاجة، وبغباء ما بعده غباء، أنه قادر أن يوقف دعوة الله إلى السلامة والسعادة، وإلى الدار الآخرة، إله عظيم بيده مقاليد السماوات والأرض أمره كن فيكون، تستطيع أنت أيها الإنسان أن تلغي دعوة الله عز وجل ؟.

ذكرت لكم من قبل: كنت في قصر، ساحة الاستقبال، أو قاعة الاستقبال، مساحتها تقدر بألفي متر مربع، مزينة بذهب وزنه خمسة طن، وفي هذا القصر المنيف الذي يعد من أندر القصور في العالم ساعة توقفت على التاسعة والخمس دقائق، سألت عن هذا، فقيل لي: هذا الوقت الذي مات فيه صاحب هذا القصر، وأراد إلغاء الإسلام كلياً، لم يدع وسيلة إلا واستخدمها لإنهاء الإسلام في البلد، والإسلام باقٍ وفي أعلى درجة الآن، وهذا الإنسان مات ولم يتحقق مراده، من سابع المستحيلات أن تتوهم أنه بنفخة من فمك تطفئ ضوء الشمس.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

(سورة النور).

أيها الأخوة، أي إنسان يتوهم أنه قادر على إلغاء دعوة الله للدار الآخرة فهو غبي وأحمق، لأن الله عز وجل بيده كل شيء.

نمو الإسلام في العالم نمواً مذهلاً يلفت النظر لأنه دين الحق و دين الله:

لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ)

أموال طائلة، مليارات، تنفق لإنهاء الإسلام، والإسلام يزداد قوة، عظمة الإسلام أنك إذا أردت أن تطفئه كمن يطفئ النار بالزيت، الزيت يزيدها لهباً، إن قمعته يزداد قوة، وإن قبلته يزداد قوة، على الحالتين يزداد قوة، والآن حرب عالمية ثالثة معلنة على الإسلام، في كل بقاع الأرض، والدين الأول في الأرض نمواً، كل يوم يدخل ما يزيد عن خمسين فرنسياً بالإسلام، و يتوقع أنه في عام 2020 الدين الأول في فرنسا هو الإسلام.

في الغرب، في أمريكا ألفان و سبعمئة مسجد، الجالية عشرة ملايين، ونمو هذا الدين يلفت النظر، لأنه دين الحق، لأنه دين الله.

لذلك هذا العالم الأمريكي الذي قال: **" أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء، ولكن لأن خلاص العالم في الإسلام ".**

اقتراب العالم من الدين لا لأنه يعبد الله لكن لأنه يرى أن مصلحته في تطبيق أوامره:

بل إن الله يعطينا جرعات منعشة، أنا أعلم علم اليقين أن ضعاف الإيمان من المسلمين دخلوا في ثقافة اليأس، وثقافة الإحباط، وثقافة الطريق المسدود، ولكن الله أعطانا جرعات كثيرة.

طبعاً إسرائيل هي العصا الغليظة في المنطقة، ولها وظيفة واضحة كالشمس، ردع أي قوة في الشرق الأوسط تفكر أن تقول: لا للغرب، لكن هذه العصا الغليظة كُسرت مرتين مرة 2006، ومرة 2008، ولم تعد عصاً غليظة، والذين كسروها أقل منها مئات المرات لكن الله عز وجل يرينا آياته.

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ).

(سورة البقرة الآية: 249).

انهيار النظام المالي في العالم أكبر دعم لهذا الدين، العالم كله ينظر بدهشة للنظام الإسلامي، الإسلام لا يجيز شراء الدين ولا بيعه، والسبب الأول لإفلاس معظم البنوك أنهم يتعاملون بالديون كسلعة، تقدم سندات، بائع بضاعتك بالدين، البنك يشتريها منك، ويبيعها عشرات المرات، المتاجرة بالدَّين في الإسلام ممنوعة، الربا ممنوع، وكل تجارة متعلقة بالزنا والخمر ممنوعة، الآن العالم كله يتطلع إلى النظام الإسلامي المالي، أليس هذا دعماً من الله عز وجل ؟.

قبل أسبوع أُغلقت في روسيا كل النوادي الليلية، لأنها تسبب فساداً في المجتمع ، وقبل انهيار النظام السوفيتي حرموا الخمر، كلما تقدم العالم اقترب من الدين لا لأنه يعبد الله لكن لأنه يرى أن مصلحته في أن يقترب من أوامر الدين.

الإقبال على الدين و الصحوة الإسلامية سببها الشدائد التي ساقها الله للمسلمين:

أيها الأخوة، كلام دقيق جداً:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا)

السين للاستقبال، قد لا يرتدع، قد لا يفكر، قد يطمح بسذاجة أنه إذا أنفق المليارات المليرة لإنهاء الدين يتحقق له ذلك، في بلاد إسلامية مُنع الحرف العربي، مُنع الحجاب، مُنع كل شيء يشير إلى الإسلام، مُنع الزي الإسلامي، مُنع الآذان، مُنع كل شيء والإسلام باقٍ وينمو نمواً عجيباً، لأنه دين الله.

إياكم أن تتوهموا أن المسلمين انتهوا، المسلمون في خير عميم، لأن الله لن يتخلى عنهم، أنا أخطر شيء يؤلمني أن نُهزم من الداخل، أن يقول واحد: انتهينا، لا، لم ننتهِ، الله عز وجل يؤدبنا، لأن فينا خيراً كثيراً إن شاء الله، هناك تضييق، هناك شدة، و لكن لم ننتهِ.

نحن تماماً كإنسان معه التهاب معدة حاد، هذا المرض قابل للشفاء، إذاً يخضع لحمية شديدة جداً، وإنسان آخر معه ورم خبيث منتشر في جميع أنحاء جسمه، الثاني يسأل الطبيب ماذا آكل ؟ فيقول له: كُلْ ما شئت، أيهما أفضل أن يقال لك كُلْ ما شئت، والأمل معدوم بالشفاء، أو أن تخضع لحمية شديدة جداً، والأمل كبير في الشفاء ؟.

هذا الإقبال على الدين، هذه الصحوة الإسلامية، سببها الشدائد التي ساقها ربنا جلّ جلاله للمسلمين، هذه الشدائد تحثنا على طاعة الله، وأحياناً الرخاء، والبحبوحة، والدنيا العريضة، حجاب بين الناس وبين ربهم، فلذلك هذا شيء مطمئن.

قوى الأرض مجتمعة لن تستطيع أن تفسد على الله هدايته لخلقه:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ)

الطائلة، مليارات من أجل تقويض الدعوة الإسلامية، مليارات من أجل منع الشعائر الإسلامية، والناس يزدادون تمسكاً بإسلامهم، ويقيناً بصواب دينهم، وإقبالهم على ربهم.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ)

هذه الأموال الطائلة، والملايين المملينة، بل المليارات المليرة

(تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً)

لأنهم أنفقوها، ولم ينتفعوا شيئاً، بل ازداد الدين قوة مع إنفاقها.

احفظوا هذا المثل: إن أردت مكافحة الدين كمن يطفئ النار بالزيت، الزيت يزيد النار اشتعالاً.

(ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ـ في داخلهم ـ ثُمَّ يُغْلَبُونَ).

أوضح مثل الصحابة الكرام، شباب ضعفاء، قلة أمام صناديد قريش، زعماء قريش، سادات قريش، غنى، وأسلحة، وكل الإمكانات معهم، وحاربوا، وقاتلوا، وتآمروا، وفي النهاية الذين حاربوا النبي عليه الصلاة والسلام هم الآن في مزبلة التاريخ، والذين أيدوه ونصروه في أعلى عليين، وفي لوحة الشرف الإنسانية.

لذلك أتمنى على الإنسان أن يعتقد يقيناً أنه إذا كان في خندق معادٍ للدين فسوف يهزم قطعاً.

للتقريب: من أنت كمواطن ضعيف لتقف أمام دولة مع جيش ؟ مع قوات أمن ؟ مع شرطة ؟ مع أموال طائلة ؟ مع أجهزة ؟ مع كل شيء ؟ هل يستطيع مواطن ضعيف أعزل أن يقف أمام دولة عملاقة ؟ نحن بمنطق الأحداث نرفض هذا، فكيف إذا أراد عبد ضعيف أن يقف أمام الحق ؟.

لذلك أطمئنكم أن قوى الأرض مجتمعة لا يمكن أن تستطيع أن تفسد على الله هدايته لخلقه، والدين يزداد قوة في العالم كله، يزداد تأصلاً، يزداد انتشاراً، هذا شأن الدين، الناس حاجتهم إلى الدين كحاجتهم إلى الهواء، هل بإمكان أهل الأرض أن يمنعوا عنك الهواء ؟ يمنعون عنك الطعام والشراب، يمنعون عنك المأوى، أما يمنعون الهواء ؟ مستحيل، والدين هواء للنفس، ولأنه هواء لا يمكن لأحد أن يمنعه، ولا أن يحتكره، لا واحد، ولا فئة، ولا طائفة، ولا جماعة، ولا عصر، ولا مصر، الدين دين الله.

من ابتعد عن الله يرى بسذاجة وضيق أفق أن بإمكانه أن ينهي الدعوة إلى الله:

لذلك في النفس فراغ، لا يملأه إلا الدين، قد يكون أغنى الأغنياء، وقد يكون أقوى الأقوياء، لكن هو بحاجة إلى أن يؤمن بالله، ليطمئن، بحاجة إلى أن يؤمن بالله كي يشعر بالأمن، كي يشعر أن إلهاً عظيماً يحميه، أن إلهاً عظيماً يستجيب له، أن إلهاً عظيماً يوفقه، أن إلهاً عظيماً يلجأ إليه، أن إلهاً عظيماً يدعوه، أن إلهاً عظيماً يتوكل عليه.

لذلك من أعجب العجب أن تعرف الله ولا تحبه، كما أنه من أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ـ الطائلة ـ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لكن غباءهم تركهم يتوهمون أن إنساناً قوياً بإمكانه أن يلغي دعوة من الله، من خالق السماوات والأرض، توهموا أن هذه الأموال توقف المد الإسلامي، توقف انتشار الإسلام، توقف تألق الإسلام.

(فَسَيُنْفِقُونَهَا)

وبعد أن ينفقوها أهدافهم لن تتحقق، بل يتحقق عكسها، إذاً

(ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ).

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ).

(سورة آل عمران الآية: 12).

كلام واضح،

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ).

أيها الأخوة، الإنسان حينما يبتعد عن الله يصبح في عمى، لا يرى رؤيا صحيحة، يرى بسذاجة، وضيق أفق، أن بإمكانه أن ينهي الدعوة إلى الله، هذا من حمقه، ومن غبائه

(فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ وبئس المصير).

الله عز وجل طليق الإرادة:

أضرب لكم بعض الأمثلة:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ).

(سورة المسد).

لو أن أبا لهب نفسه فكر قليلاً، وذهب إلى النبي ممثلاً، كاذباً، وشهد أنه لا إله إلا الله، وأن النبي الكريم رسول الله، يلغي الآية، لذلك قال العلماء: الله طليق الإرادة، هو حي وقال الله عنه:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

يكفي أن يذهب إلى النبي الكريم كاذباً، منافقاً، ويدعي أنه أسلم، وينطق بالشهادة شهادته تلغي هذه السورة، الأمر بيد الله، الله عز وجل طليق الإرادة.

مثل آخر:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ).

(سورة البقرة الآية: 142).

الله عز وجل وصف الطرف الآخر بأنهم سفهاء، وأنتم أيها السفهاء ـ القرآن يخاطبهم ـ ستقولون كذا وكذا، أبو لهب يحتاج إلى أن ينطق الشهادة بلسانه، و هؤلاء لو سكتوا لأنهوا الآية.

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا).

(سورة البقرة الآية: 142).

وفعلاً السفهاء قالوا:

(مَا وَلَّاهُمْ)

والله أخبرهم أنكم سوف تقولون كذا، لو أنهم فكروا فصمتوا ألغوا الآية، معنى ذلك أن الله أعطانا حرية الاختيار، ولكن في أية لحظة يأخذها منا.

لذلك كيف ربنا عز وجل يؤدب العصاة ؟ إذا أراد ربك إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لبٍّ لبه، أين عقلك ؟ يكون ذكياً جداً، حينما يصدر قراراً من الله بتأديبه، يأخذ عقله، فيرتكب حماقة ما بعدها حماقة، القضية دقيقة جداً، أنت مخير، أما حينما تختار أن تؤذي الناس، حينما تختار أن تكفر بالرحمن، الله عز وجل يؤدبك بعمل سيء تفعله وقد أخذ منك لبك، إن ربك إذا أراد أمر أخذ من كل ذي لبٍّ لبه، أي أن الله طليق الإرادة، منحك الإرادة الحرة وفي أية لحظة يأخذها منك، وحينما يأخذها منك ترتكب حماقة ما بعدها حماقة.

الله عز وجل يجري امتحاناً للمؤمنين من حين إلى آخر ليميز الخبيث من الطيب:

أيها الأخوة، ثم يقول الله عزّ وجل:

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

(سورة الأنفال).

الآن عفواً، أثناء العام الدراسي كل الطلاب يرتدون ثياباً موحدة، وأي إنسان يراهم في الطريق يعرف أنهم طلاب، هناك لون للثانوي، و لون للإعدادي، أليس كذلك ؟ فطالب يمشي في الطريق يرتدي ثياباً معينة، هذا من طلاب المرحلة الثانوية، وطالب آخر مرحلة إعدادية، أثناء العام الدراسي الأوراق مختلطة، بعد الامتحان يتميزون، ناجح وراسب، هل هذا واضح ؟.

الآن: المؤمنون كيف ربنا جل جلاله يميز الخبيث من الطيب ؟ حادث الإسراء والمعراج، بعض ضعاف الإيمان من المؤمنين قال: غير معقول أن يذهب إنسان من مكة إلى بيت المقدس، ويرجع في ليلة واحدة هذا كذب، الإسراء والمعراج امتحن المؤمنين.

أوضح مثل أن الفرق الرياضية تجري مباريات فيما بينها للتصفية، المنتصر الأوحد يدخل في المسابقات الدولية، اسمها مباريات التصفية، فهناك فرق عديدة رياضية يجب أن تختار الدولة فريقاً واحداً للمسابقات الدولية، فتجري عمليات تصفية فالضعيف يسقط.

فالله عز وجل من حين آخر يجري تصفية للمؤمنين، امتحاناً، إذا مُنع الحجاب في بلد معين ضعيفات الإيمان تقلن: ممنوع الحجاب، والله أعرف أخت كريمة تُحضر دكتوراه في فرنسا، فلما منعت الحجاب مُنعت من دخول الجامعة وهي محجبة، لغت الدكتوراه، وعادت إلى بلدها، وبحثت عن دولة ثانية، ولم تنزع حجابها.

كل إنسان ممتحن بما ناله و بما زوي عنه:

القضية امتحان، أحياناً الله عز وجل يسوق شدة هذه الشدة يفرز بها المؤمنون، فلذلك أيها الأخوة فعل الله عز وجل لحكمة بالغة.

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

ووطن نفسك أنك ممتحن، ممتحن فيما أعطاك، ممتحن فيما زوي عنك، أي شيء نلته من الله، نلت علماً ممتحن في هذا العلم، هل تنفقه في سبيل الله أم تتاجر به ؟ ممتحن بالمال هل تنفقه لخدمة المسلمين أم تنفقه للتنعم فقط ؟ ولتستعلي عليهم ؟.

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ).

(سورة القصص الآية: 79).

ممتحن بالذكاء. هل تستخدم ذكاءك لبيان الحق، أم تستخدم الذكاء لمصالح شخصية ؟ أي شيء نلته من الله أنت ممتحن به، وأي شيء زوي عنك أنت ممتحن به، أنت ممتحن مرتان.

لذلك الإمام الشافعي سُئل: **" أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء، فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى ".**

التأديب و الابتلاء و التكريم:

وطن نفسك أيها المؤمن أن هناك مرحلة فيها تأديب، إذا وجدت المخالفات، و التقصير، والتجاوزات، هناك مرحلة التأديب، تأتي المصيبة كعقاب، هناك إنفاق مع التبذير، و منع إنفاق، و بخل، و تقطير، هناك تقصير بالعبادات، يمر المؤمن بمرحلة التأديب، الآن استقام، بعد التأديب استقام، المرحلة الثانية مرحلة الابتلاء، تمتحن وأنت مستقيم، تأتي المصيبة ماذا تقول ؟ المؤمن يقول:

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

(سورة البقرة).

هذه مرحلة الامتحان، فإذا نجحت في مرحلة التأديب فتبت، وإذا نجحت في مرحلة الامتحان فصبرت، الآن تدخل في مرحلة ثالثة هي التكريم، فأنت بين التأديب، والابتلاء، والتكريم، هذه المراحل قد تكون متداخلة، أي بيوم واحد تأتي مصيبة عقاب و تأديب، و مصيبة امتحان وإكرام، أي تكون متمايزة، في مرحلة معينة أدبك الله حتى استقمت على أمره، مرحلة ثانية امتحنك حتى ثبتّ على الحق، الثالثة تكريم، وطن نفسك لا يوجد حياة من دون ابتلاء.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ).

(سورة المؤمنين).

أنواع المصائب:

1 ـ مصائب الأنبياء مصائب كشف:

إلا أن المصائب إذا جاءت هي خمسة أنواع، نوع خاص بالأنبياء، مصائب كشف ينطوي على كمال من أعلى مستوى، هذا الكمال لا يظهر إلا بمصيبة كالطائف، يذهب على قدميه مشياً مسافة تقدر بثمانين كيلو متراً في الجبال، ليدعوهم إلى الله، يصدونه، يكذبونه، يسخرون منه، يغررون صبيانهم أن يضربوه بالحجارة، ويسيل الدم من قدمه الشريف، ويقول يا رب:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى)).

سيد الأنبياء والمرسلين، سيد ولد آدم، حبيب رب العالمين، يُضرب ! والدم يسيل منه، الآن الامتحان: أرسل له ملك الجبال، قال لله:

((يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين)).

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين].

الجبلين، الآن الله مكنه منهم، مكنه أن يلغي وجودهم، قال:

((لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون)).

دعا لهم بالهداية، واعتذر عنهم، و قال: ولعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده، هذه النبوة، ضربوه، وكذبوه، وسخروا منه، ومكنه الله أن ينتقم منهم، قال:

((لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحدك)).

أيها الأخوة، هذه مصائب كشف.

عندك مركبة "مئة و عشرون حصاناً "، هذه القدرة المتناهية لقوة المحرك لا تظهر في طريق مستو، ولا في طريق نازل، تظهر في طريق هذه زاويته، وتمشي بسرعة عالية، هذا المحرك لا تظهر قيمته إلا بحالات نادرة جداً.

2 ـ مصائب المؤمنين مصائب دفع و رفع:

مصائب الأنبياء مصائب كشف، أما مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، مثلاً هناك تهاون بالعبادات، أو عبادات شكلية، يصلي صلاة صورية، غض بصره ليس حازماً، إنفاقه قليل، يعيش مع الناس، يلهو معهم، مؤمن لكن مقصر، هذا يحتاج إلى مصيبة دفع تدفعه إلى الله، قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).

(سورة البقرة).

هذه الآية متعلقة بمصائب المؤمنين،

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ):

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

(سورة البقرة).

بهذه المصيبة، هذه مصائب دفع، الحالة الثانية: مصائب رفع، أي أنت رضيت أن تكتفي ببناء المساجد، لكن عندك إمكانات كبيرة جداً، يمكن أن تضيف إلى بناء المساجد أن تكون داعية كبيراً، حينما ترضى بعمل صالح متواضع وأنت عندك إمكانات كبيرة جداً، يسوق الله لك مصيبة تجعلك ترفع مستوى عملك، هذه مصائب رفع، مصائب دفع و مصائب رفع آياتها:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ):

(أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).

(سورة البقرة)

3 ـ مصائب غير المؤمنين قصم و ردع:

أما مصائب الكفار والمنحرفين، مصائب ردع أو قصم، إذا إنسان فيه واحد بالمليون خير تأتيه مصيبة ردع، مصيبة كبيرة لكن هناك بقية في حياته، لعله يرجع، وإذا انعدم أمل أبداً:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ).

(سورة هود).

تأتي مصيبة القصم، لذلك:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً).

(سورة الأنعام الآية: 44).

إذاً هناك خمسة أنواع، مصائب الكشف للأنبياء، مصائب الدفع والرفع للمؤمنين، مصائب القصم أو الردع للكفار والمشركين، وفلسفة المصيبة جزء من الإيمان.

ما أنت فيه ليس في الإمكان أبدع مما كان:

لذلك أيها الأخوة،

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

أي تكلم ما شئت، امدح نفسك كما تريد، لكن الله قادر أن يضعك في ظرف دقيق جداً يكشفك على حقيقتك، يحجمك، قد تقول كلمات لأمك قبل أن تتزوج رائعة جداً، فإذا تزوجت انحزت إلى زوجتك، ورأيت أمك عبئاً عليك وأحياناً تعنفها، كل شيء قلته سابقاً لست صادقاً فيه، أنت تكلم ما شئت، امدح نفسك كما تتمنى، لكن الله متكفل أن يحجمك، أن يضعك في ظرف صعب جداً، تظهر على حقيقتك، أنا، لا أتقاضى قرشاً حراماً، لا تتقاضى أمام ألف، ألفين، خمسة آلاف، جاءك مليون، يقول لك: بلاء عام ماذا نفعل ؟ أنا عندي أولاد، طبعاً اختلف الوضع، تقول: أنا لا أقبض قرشاً حراماً، لا تعرف حالك الله يعرفك.

فلذلك قال أحد الأئمة الكبار: **"علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ".**

لا تعلم أنت وضعك لو معك مئة مليون، لا تعرف ، فلذلك الله عز وجل حكيم، ما أنت فيه ليس في الإمكان أبدع مما كان، اعلم يقيناً أن مكان ولادتك، وزمن ولادتك، وكونك ذكراً أو أنثى ، وأمك وأباك، أكمل شيء لك، الذي أنت فيه مسير أنت مخير بكل ما كلفت، أي أمر تكليفي أنت مخير، إلا أنك مسير في كونك ذكراً أو أنثى، أحد خيرك ؟ لا، أنت مسير في أمك وأبيك ؟ مسير في مكان ولادتك ؟ مسير في زمن ولادتك ؟ مكان ولادتك، وزمن ولادتك ، وأمك وأبوك، وكونك ذكراً أو أنثى، هذا أكمل شيء لك، عبر عنه الإمام الغزالي فقال: " ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني "، الذي أنت فيه مسير، إذا كشف الله لك يوم القيامة الحكمة من كونك ذكراً أو أنثى، أو فقير، أو غني، أو ابن ملك، أو ابن فقير، إذا كشف الله لك وضعك الذي لست مخيراً فيه إن لم تذب كالشمعة حباً لله فهناك مشكلة، اطمئن، ليس في الإمكان أبدع مما كان.

لذلك الإمام سيدنا علي له كله رائعة يقول: "والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً " أي يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء.

الآن نص آخر: **" والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي ".**

أخطر شيء أن الإنسان ممتحن و أن الله تعالى متكفل أن يكشفه على حقيقته:

أيها الأخوة الكرام، الآية الكريمة:

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ).

مثلاً هناك ألف طبيب بالقاهرة، أطباء محترمون، معهم شهادات عليا، يعملون في المستشفيات، صار في القاهرة زلزال، عدد كبير منهم سافر إلى الإسكندرية، وعدد قليل بقي في القاهرة ليعالج الجرحى،

الزلزال كشف شيئاً عجيباً، قل ما شئت، ادع ما شئت، صنف نفسك في أية مركبة تريد، الله متكفل أن يكشفك على حقيقتك، في بلد نُزع الحجاب، ضعيفات الإيمان خلعن الحجاب، وقويات الإيمان تمسكن بالحجاب، الله عز وجل يسوق العديد من الشدائد، هذه الشدائد تفرز المؤمنين، أبداً، تفرزهم، مهما ادعيت أنك في هذا المستوى، فهناك امتحان صعب جداً، توضع في ظرف حرج جداً، تكشف فيه على حقيقتك، هذا معنى

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

أخطر شيء أنك ممتحن، والله ممتحن كل ساعة، وكل دقيقة، ممتحن في كل موقف، الصحابة الكرام امتحنوا في بدر فنجحوا، قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ).

(سورة آل عمران الآية: 123).

هم أنفسهم، وهم صفوة البشر، ومعهم سيد البشر، في حنين نحن كثر قالوا:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ)).

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس].

اعتدوا بعددهم.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ).

(سورة التوبة).

وطن نفسك أنك ممتحن، وأن الإنسان قد يستطيع أن يخدع معظم الناس لبعض الوقت، وقد يستطيع أن يخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن يخدع الله، أو أن يخدع نفسه لثانية مستحيل.

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ).

(سورة القيامة).

بطولة الإنسان إن كُشف أن يكون على حق لا على باطل:

لذلك:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ).

(سورة النساء الآية: 142).

أنت مكشوف:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ).

(سورة الحاقة).

مكشوف مئة بالمئة، فالبطولة أن تكون مكشوفاً وأنت على حق،

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (13-30): تفسير الآيات 38 - 40 ، قوة الإسلام باتباع منهج الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-07-24

بسم الله الرحمن الرحيم

الكافر إنسان أنكر الحقائق الناصعة كالشمس وسلك مسلكاً يخالف منهج الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثامنة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

اللغة العربية اختارها الله لكلامه، ويبدو أنها من أرقى اللغات الإنسانية، في هذه الآية الدقيقة يقول الله عز وجل مخاطباً نبيه:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

أي أليس السياق اللغوي يقتضي أن تكون الآية قل لهم:

(إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

فلماذا جاءت الصياغة بهذه الطريقة

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

قال علماء البلاغة والتفسير: إن الآية الكريمة لم تخاطبهم، بل ذكرتهم بضمير الغائب، لتكون الآية عامة لكل الكفار قديماً وحديثاً وإلى قيام الساعة، كانت الآية متعلقة بفئة معينة فإذا هي متعلقة بكل الكفار على وجه الأرض.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

أي أيّ إنسان ولو وقع في الكفر، والكفر أكبر انحراف فكري سلوكي، الكافر إنسان أنكر الحقائق الناصعة كالشمس ، وسلك مسلكاً يخالف منهج الله عز وجل،

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا)

أي إن يتوب الكافر

(يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

و هذه رحمة الله.

((لو أتيتني بملء الأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي)).

[ورد في الأثر].

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

(سورة النساء).

المؤمن لا يكره الكافر لذاته بل يكرهه لفعله وكفره:

الله عز وجل لا يكره الكافر كشخص، يبغض عمله، هناك دليل لطيف: عمير بن وهب من كفار مكة يخاطب صفوان بن أمية، يقول له: والله لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت من بعدي، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، صفوان انتهزها مناسبة، قال: أما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر، لا تقلق عليهم، وأما ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت، فامض بما أردت، أي اذهب واقتل محمداً وأرحنا منه، فسقى سيفه سماً، وامتطى ناقته، وتوجه نحو المدينة ليقتل محمداً، ولكن بحجة أن يفك أسيره ـ وكان ابنه أسيراً في المدينة ـ عندما وصل المدينة رآه سيدنا عمر فقال: هذا عدو الله جاء يريد شراً، قيده بحمالة سيفه، وساقه إلى النبي، وقال: يا رسول الله هذا عدو الله جاء يريد شراً، النبي الكريم بأخلاق سامية، قال: أطلقه يا عمر، فأطلقه، قال: ابتعد عنه، فابتعد عنه، يا عمير أقبلْ، فأقبلَ، قال له: سلم علينا، قال له: عمت صباحاً يا محمد، قال له: قل السلام عليكم، قال: هذا سلامنا، لا يوجد غيره، سأله: ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال له: جئت أفك ابني من الأسر، قال له: وهذه السيف التي على عاتقك، قال له: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ فقال له النبي الكريم: ألم تقل لصفوان لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه ؟ عمير وقف ! قال له: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي كان بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله وأنت رسوله، وأسلم.

الشاهد ليس هنا، الشاهد يقول سيدنا عمر: " دخل عمير على رسول الله والخنزير أحب إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحب إليّ من بعض أولادي ".

هذا الدين، المؤمن لا يكره الكافر لذاته أبداً، يكرهه لفعله، لكفره.

ارتباط العداوة بين المؤمن وغير المؤمن بالكفر:

لذلك العداوة التي بين المؤمن وبين غير المؤمن عداوة مرتبطة بالكفر، بالعمل السيئ.

تماماً كما لو أن ابناً عاقاً عاد لأبيه ففي لحظة واحدة الأب يقبله، ويرحب به، ويحبه، يؤكد هذا المعنى ما ورد في الأثر أنه:

((إذا قال العبد: يا رب، قال الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد العاصي: يا رب، يقول الله له: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك))

أنا أنتظرك، لذلك ورد:

((لو يعلم المعرضين انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف إرادتي بالمقبلين ؟))

[ورد في الأثر].

الله عز وجل يحب كل عباده، يريد أن يطهرنا، يريد أن يسعدنا، يريد أن يدخلنا جنة عرضها السماوات والأرض، خلقنا لها.

لذلك:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا)

عن كفرهم، وانحرافهم، وأعمالهم، إن ينتهوا عن كفرهم، عن ضلالهم، عن تكذيبهم، عن انحرافهم، عن أعمالهم الإجرامية.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا)

أي كافر إلى يوم القيامة، بتبديل التاء بالياء أصبحت الآية لكل الكفار في أي زمان ومكان، وها شأن الله مع العصاة، هو ينتظر توبتهم،

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

تعامل الله مع عباده وفق قواعد ثابتة:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

إن عادوا إلى كفرهم، من سنة الله عز وجل أن القوانين ثابتة، وهذا شيء ينقلنا إلى حقيقة أن الله عز وجل يتعامل مع عباده وفق قوانين، والقانون علاقة ثابتة بين شيئين.

شيء مريح جداً للمؤمن أن يتعامل مع الله وفق قواعد ثابتة.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: 97).

لك أن تقول هناك قانون الحياة الطيبة، قانون يحتاج إلى إيمان بالله، وعمل صالح

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

هناك قانون كيف يلتف الناس حولك ؟

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران الآية: 159).

تتصل بالله، تكتسب رحمة، تنعكس الرحمة ليناً، يلتف الناس حولك، تبتعد عن الله يصبح القلب قاسياً، ينعكس القلب غلظة، ينفض الناس من حولك، قانون ثان.

الله عز وجل يحب عباده جميعاً لذلك وضع لهم قواعد ثابتة للتعاون معهم:

القضية رائعة جداً لو قرأت القرآن، وحاولت أن تضع يدك على قوانينه، هذه القوانين يمكن أن تتعامل مع الله بها بشكل قطعي، لأن الله عز وجل يحب عباده جميعاً، وضع لنا قواعد ثابتة بالتعاون معه.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

(سورة يونس الآية: 60).

رافع الرأس، شامخاً، فإذا أساء الإنسان سوف يتحمل اللوم، والتحجيم، والنقد والتشهير.

فلذلك قانون العزة

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

إذاً كأن الله سبحانه وتعالى يريد من القرآن لا أن يكون كتاب تاريخ، يريده أن يكون كتاب قوانين.

الله عز وجل أراد أن يعلمنا أن نأخذ بالأسباب:

لذلك الشيء المألوف أن الله سبحانه وتعالى يغفل تفاصيل كثيرة.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ)

(سورة الكهف الآية: 83).

من هو ؟ في أي عصر، في أي بلاد ؟ في آسيا، في إفريقيا، في أوربا.

(قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً)

(سورة الكهف الآية: 83).

أراد الله أن يعلمنا أن نأخذ بالأسباب، لو جاءت تفاصيل كثيرة حول ذي القرنين لانقلبت هذه القواعد الثابتة إلى قصة، وقعت ولن تقع مرة ثانية، فالذي يريد أن يبحث عن تفاصيل في القرآن أغفلها القرآن كأنه يفسد على الله هدايته لخلقه.

بالضبط، أضرب هذا المثل دائماً: أستاذ جامعي يعطي الاقتصاد، أراد أن يبين لطلابه متى ينجح التاجر، فقال على شكل قصة: لي صديق، اشترى محلاً تجارياً في مركز المدينة، أول شرط أن يكون المحل في موقع تزاحم الأقدام، واختار بضاعة أساسية مواد غذائية، واختار أصنافاً متفوقة، جيدة، ووضع سعراً معتدلاً، ولم يبع ديناً، هذا الأستاذ أعطى طلابه عن طريق هذه القصة أن عوامل نجاح

التجارة ؛ موقع المحل، البضاعة، نوع البضاعة، السعر، عدم البيع ديناً، ربح أرباحاً طائلة، أحد طلابه قال له: هذا الشخص ما اسمه ؟ الاسم لا قيمة له إطلاقاً، قال له طالب آخر: هذا الشخص طويل أم قصير ؟ قال له طالب ثالث: أبيض أسمر ؟ المحل بأي مكان ؟ الأستاذ أراد نقل الحقائق كقوانين لنجاح التجارة.

فحينما تأتي هذه التفاصيل التي تعد في فن القصة عبئاً عليها يكون هذا السائل قد أفسد على المدرس هدفه من هذه القصة.

بطولة الإنسان أن يسكت حيث سكت القرآن:

لذلك البطولة أن تسكت حيث سكت القرآن، يا ترى امرأة العزيز بعد أن أصبح يوسف عزيز مصر، هل تزوجها ؟ والله لا أعرف، ويجب ألا أعرف، لماذا ؟ لأن الله اختار من المغيبات مجموعة آيات، أنا أرى أن الحكمة أن تكتفي بالذي ذكره الله عز وجل.

عندما حاول المفسرون نقل تفاصيل القصص القرآنية من بني إسرائيل وقعنا في متاهة لا تنتهي، وقعنا فيما يسمى بالإسرائيليات، تفسيرات غير معقولة إطلاقاً.

(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا)

(سورة ص الآية: 23).

ببعض كتب التفسير أخذاً عن كتب بني إسرائيل أن له تسع وتسعين زوجة، وأنا لي زوجة واحدة، قال الله: نعجة لم يقل زوجة، تجد تعليلات، تفصيلات، أشياء غير مقبولة إطلاقاً.

لذلك أنا أنصح أن تبتعدوا عن أي تفاصيل مأخوذة من كتب بني إسرائيل عن قصص الأنبياء، أتمنى ذلك.

هنا الآية الكريمة:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

من قاتلك ينبغي أن تقاتله دفاعاً عن أرضك و دينك:

الآن الآية الثانية:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الأنفال).

يقول: إن الله عز وجل أمرنا أن نقتلهم، لا، أمرنا أن نقاتلهم، ما الفرق في اللغة بين أن تقتل وأن تقاتل؟ الفرق كبير جداً، أن تقاتل أي هناك جهة تقاتلك، لو أن الأمر واقتلوهم موضوع آخر، الآية الكريمة:

(وَقَاتِلُوهُمْ)

أوضح مثل ما يجري أمامنا، دولة احتلت بلداً، قتلت مليون، أعاقت مليون، شردت خمسة ملايين، نهبت الثروات، نحن ديننا دين سلام، دين محبة، لا نعمل شيئاً، من قال لك ذلك ؟ لا يوجد جهة في الأرض تقبل ذلك.

(وَقَاتِلُوهُمْ)

هناك من يقاتلك، هناك من يحتل أرضك، هناك من ينهب ثروات الأمة، هناك من يذل الشعب. لذلك يريدوننا أن نلغي آيات القتال في القرآن الكريم، هكذا يريدون، قال تعالى:

(وَقَاتِلُوهُمْ)

لم يقل: واقتلوهم، هذا الذي يقاتلك ينبغي أن تقاتله، ينبغي أن تقاومه، ينبغي أن تقف في وجهه، ينبغي أن تمنعه من تنفيذ مخططاته، يريد أرضاً، يريد ثروة، يريد هيمنة.

أحد السياسيين الكبار في دولة عملاقة قال: هو لا يعجبه أن يكون العالم مئتي دولة يتمناه خمسة آلاف دولة.

كل مشاريعهم عبارة عن تقسيم البلاد إلى دويلات، هذا مشروع الشرق الأوسط، تقسم الدول إلى خمس أو ست دول، تقسيم البلاد إلى دويلات بحسب الانتماءات الطائفية وفرعون موسى من أقدم الفراعنة، أو من أقدم الطغاة، قال الله عنه:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص).

أثر المقاومة الكبير الذي قلب موازين الأرض:

أنا لا أتصور أن عدواً يحتل أرضنا، ينهب ثرواتنا، يذل شبابنا، يمنع إقامة الشعائر في ديننا، نحن دين سلام، دين محبة، نحن إسلامنا متسامح، الآن المسلمون كأنهم يستجدون من العالم الغربي نحن نحب العدل، نحب التسامح، نحب السلام، من قال لك ذلك ؟ هذا الذي يقاتلك ينبغي أن تقاتله، وأساساً كانوا يتوهمون أن احتلال بلد شرق أوسطي كان نزهة والمقاومة هي التي أقضت مضجعهم.

والله مرة سمعت تصريحاً لكبار الموظفين في البينتاغون، قال: ماذا نفعل بحاملات الطائرات، وماذا نفعل بالصواريخ العابرة للقارات، وماذا نفعل بهذه الجيوش، لأنه لا تجرؤ دولة في الأرض أن تحاربه، قال: ولكن ماذا نفعل بهذا الذي أراد أن يموت ليهز كياننا ؟ هذا ليس له حل.

معنى ذلك أن المقاومة كان لها أثر كبير في العراق وفي فلسطين، المقاومة قلبت موازين أهل الأرض، عشرة آلاف مقاتل معهم أسلحة بدائية، تحت الأرض يتصدون لرابع جيش في العالم ؟ لأول جيش من حيث تنوع الأسلحة، لأكبر جيش في المنطقة، هذا الذي حصل، فأنا أتمنى أن تكون الآية واضحة تماماً، قال الله:

(وَقَاتِلُوهُمْ)

هناك قتال مشترك، هناك جهة تقاتلك ينبغي أن تسكت ؟ ينبغي أن تستسلم ؟ ينبغي أن تقول إسلامنا إسلام سلم، إسلام محبة ؟ لا أبداً، الإسلام له أظافر،

(وَقَاتِلُوهُمْ)

فعل قاتل فعل مشاركة، مثلاً، ضارب تضربه ويضربك، قاتل تقتله ويقتلك، حاور تحاوره ويحاورك، وزن فاعل باللغة يعني المشاركة.

تناقض الاستسلام مع ديننا العظيم:

قال تعالى:

(وَقَاتِلُوهُمْ)

عدو احتل أرضك، نهب ثروات، أذل شعبك، موقفي السلام ؟ الاستسلام ؟ مستحيل !.

كبار القادة الغربيين من أين استمدوا قيادتهم ؟ من مقاوتهم للاحتلال،عندما احتلت ألمانيا فرنسا لماذا تألق أحد كبار الزعماء وصار رئيساً للبلاد ؟ لأنه قاوم الاحتلال، في العالم كله، الإنسان يكون بطلاً إذا قاوم الاحتلال، فكأنهم يريدون أن يحتلوا أرضنا، وأن ينهبوا ثرواتنا، وأن نكون نحن وديعين كالحمل، أن نستسلم، هذا يتناقض مع ديننا.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

سبحانك يا رب، كأن الهدف مشروع، تكون فتنة، الطرف الآخر يريد الإباحية، أرأيت إلى هذه الصحون ؟ هناك إحصاء دقيق ثمانمئة محطة فضائية، أربعمئة منها محطة إباحية، ثلاث و عشرون مليون موقع إباحي بالانترنيت، يريدون أن يعمموا إباحيتهم علينا، فهذه الصحون تمثل الغزو الثقافي

الغربي، كانوا يجبروننا بالقوة المسلحة على أن نفعل ما يريدون، لكنهم الآن يجبروننا بالقوة الناعمة بالمرأة على أن نريد ما يريدون.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

حتى لا يفتتن الشباب بالجنس، الآن الجنس هاجس معظم الشباب الذين شردوا عن الله عز وجل، أليس كذلك ؟.

((إذا رأيت شحاً مطاعاً ـ المادية المقيتة ـ وهوى متبعاً، الجنس، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ـ الكبر)).

[أبو داود، ابن ماجه، الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني]

كل إنسان محور العالم، يقول لك: هذا الموضوع لا يناسب العصر، يكون هناك آية قرآنية في هذا الموضوع، من أنت ؟ قال:

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عندُ

***

من أنت ؟ يقول لك: هذا الحكم لا يطبق عندي الآن، الله عز وجل لا يعلم أن هناك ظروفاً أخرى يصعب تطبيقه ؟! الله مشرع، قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية: 286).

الشباب عماد الأمة و مستقبلها فعلينا الحفاظ عليهم:

لذلك أيها الأخوة،

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

أحياناً يحتلون بلداً، أول شيء يشجعون إلغاء الحجاب، يشجعون الاختلاط، دور اللهو، النوادي الليلية، دور السينما، الأفلام، يوزعون أفلاماً إباحية.

حدثني أخ، قال لي: والله توزع أفلام إباحية، زنا محارم، بلا ثمن، و بكميات فلكية.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

نحن عمادنا الشباب، عماد الأمة الشباب، الشباب هم المستقبل، فإذا شردوا عن الله عز وجل أين المستقبل ؟ انتهت الأمة، الأمة بشبابها، الكهول يمثلون الحاضر، والشيوخ يمثلون الماضي، الآن اجلس مع شيخ، أقصد إنساناً متقدماً في السن، يقول لك: في سنة ألف و تسعمئة و عشرين دفعنا نقوداً كيلا نذهب إلى الجيش مثلاً، يتكلم عن الماضي قبل خمسين عاماً، هو يعيش الماضي، و إنسان كهل يعيش

الحاضر، لكن المستقبل لمن ؟ للشباب، إذا الشاب عاش للجنس انتهى، أي حينما يفسد الشباب ينتهي المستقبل:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى)

الآن القتال لاحتلال منابع النفط، القتال لاحتلال موقع استراتيجي، القتال لاحتلال ونهب ثروات كبيرة جداً، القتال من أجل السيطرة، كلها أهداف شيطانية أرضية، أما القرآن الكريم ماذا يقول:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

خضوع لله عز وجل.

الابتعاد عن الأشياء التي تصرف الشباب عن دينهم و مستقبلهم:

والله أيها الأخوة، لو أتيح لنا أن نعيش في مجتمع نطبق الدين تطبيقاً كاملاً، تجد أن الشباب منصرفون إلى مستقبلهم، أما الآن ألف شيء يصرفهم عن الدراسة، أفلام، ندوات وفضائيات، وانترنيت، ومواقع، ألف شيء يصرفهم عن مستقبلهم، ألعاب الكومبيوتر أصبحت بالملايين، كل أموال الطفل يضعها في نادي الكومبيوتر، ثم يأخذ من أخيه، ثم يمد يده إلى مال أبيه من دون إذنه، بلا أي هدف، لعب، هم يعيشون على أنقاض الشعوب.

والله أنا أتمنى هذه الألعاب التي لا طائل منها أن تلغوها من حياة أولادكم، قال لي أخ: يأتي ابني من الصباح ـ هو يعمل بنادي الكومبيوتر ـ من أجل الألعاب، إلى متى ؟ نحن حينما تشل هذه الأمة يكون هذا الشلل بشلل شبابها.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

والله أنا أرى أن المقاومة في البلاد المحتلة تركت أثراً كبيراً جداً، الآن العالم الغربي يعد للمليون قبل أن يحتل دولة شرق أوسطية ثانية، أليس كذلك ؟ بسبب المقاومة، أنا أقول هذه الآية دقيقة جداً:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

لو أتيح لنا فرضاً أن نطبق منهج الله كاملاً، لا يوجد فتن في الطريق، لا يوجد مناظر مثيرة في الطريق، لا يوجد انحراف عند الشباب، الآن الانحراف عند الشباب يكاد يغطي معظم الشباب، من هذه المناظر التي يراها في الطريق، وبينه وبين الزواج عدة أعوام، مشكلة كبيرة جداً نحن قد لا ننتبه لها شيء أودعه الله في كل إنسان، فإذا استثير يومياً قد يصمد إلى بعض الوقت، بعد ذلك تنهار مقاومته، هؤلاء يريدون هكذا، يريدون الإباحية.

محاربة ما نقله الغرب إلينا لئلا نصل إلى ما وصلوا إليه:

أقسم لي أخ في الله مقيم في أستراليا قال لي: الإنسان المحافظ بالتعابير الدارجة، الأصولي، المنتمي إلى دين، التقليدي، القديم، هذا في استراليا، إذا رأى ابنته تتزين عصراً فقط يحذرها من أن تحمل فقط، وصلوا إلى هنا.

شاب أحب فتاة استأذن والده من الزواج منها قال له: لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري ـ أبوه كان زير نساء ـ فلما أحبّ ثانية، قال له: أيضاً هذه أختك وأمك لا تدري، فلما أحب الثالثة قال: إنها أيضاً أختك وأمك لا تدري، هذا الشاب ضجر من أبيه وشكا إلى أمه قالت له: خذ أياً شئت أنت لست ابنه وهو لا يدري.

هذا الغرب ! سفير دولة عظمى يقام له حفل في وزارة الخارجية ليعطى أوراق اعتماده للدولة التي سيكون فيها سفيراً، هذا الحفل رجال ونساء، كل واحد مع زوجته، هذا السفير معه شريكه الجنسي و ليس زوجته، شيء طبيعي جداً، أين نحن ؟!

أيها الأخوة،

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

لئلا نصل إلى ما وصلوا إليه.

(وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أي إذا انتهوا انتهاء حقيقياً أو انتهاء تمثيلياً، هناك فرق، أحياناً الإنسان يكون ذكياً جداً يمارس شيئاً، فإذا ضُبط بالجرم المشهود يعلن توبته الشكلية، لكنه يتابع هذا العمل سراً، فالله عز وجل يقول:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

بصير بانتهائهم إذا كان حقيقياً، أو إذا كان خلبياً، أو إذا كان صورياً.

من عاد إلى طاعة الله عاد الله إلى توفيقه و حفظه و تأييده:

أيها الأخوة الكرام:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

(سورة الأنفال).

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية: 19).

هذه آية واسعة، إن عدت إلى طاعة الله يعود الله إلى توفيقك، وحفظك، وتأييدك، وإن كنت مستقيماً وعدت إلى ما كنت عليه سابقاً الله عز وجل يعود إلى معاقبتك، هناك قوانين ثابتة.

هناك قوانين ثابتة أوضح مثل أن قانون السقوط أنت إن آمنت به أو لم تؤمن واقع بك، الدليل اركب طائرة وقل: هذا القانون لا أؤمن به أنا أحتقره، انزل بلا مظلة هل تلغي فعله فيك ؟ لا، إنما تنزل ميتاً، ما معنى مظلة ؟ المظلة تأدب مع قانون السقوط، ما دام في سقوط نعمل مساحة كبيرة جداً من قماش غير نافذ يعمل مقاومة للهواء، هذه المقاومة تجعل الهبوط بطيئاً فتنزل واقفاً، فالإنسان إذا رفض قانوناً لا يستطيع أن يلغي عمله به هذه النقطة دقيقة، الدين له قوانين إن أخذت بها نجوت، وإن لم تعبأ بها فهي مطبقة عليك شئت أم أبيت، القوانين التي جاء بها القرآن إن آمنت بها، وصدقتها، وتأدبت معها، وعملت وفقها تنجو، أما إذا لم تؤمن بها، لن تستطيع إيقاف عملها فيك:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

خضوع لمنهج الله.

(فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

إذا كان الانتهاء انتهاء حقيقياً، أو صورياً الله بصير.

الإسلام قوي لأن الله معه:

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

(سورة الأنفال).

النقطة الدقيقة في هذه الآية:

(وَإِنْ تَوَلَّوْا)

الله عز وجل ينصركم على قلتكم، هذا الذي يؤمن معكم، ينبغي ألا يتوهم أنه بانضمامه لكم قواكم، لا، الإسلام قوي إن كان كثيراً أو قليلاً، لأن الله معه.

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ)

لا تعلقوا كبير أهمية على تركككم، أنتم أقوياء بالله، فإن كانوا معكم كانوا هم أقوياء أيضاً، فإن تركوكم أنتم أقوياء من دونهم.

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآيات تبين أن الإسلام قوي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (14-30): تفسير الآية 41 ، الاستقامة والعفاف أقصر طريق إلى الله تعالى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-07-31

بسم الله الرحمن الرحيم

الغنائم من نتائج أي نصر وهي ما يؤخذ من العدو عقب الحرب:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الواحدة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

أيها الأخوة، ذكر الله الغنيمة بعد أن ذكر النصر، من نتائج أي نصر الغنائم ، والغنائم ما يأخذه المؤمنون من منقولات من عدوهم عقب المعركة.

أيها الأخوة، لم تكن الغنائم لتكون محللة لأي نبي قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

((أحلت لي الغنائم)).

[البخاري عن جابر].

والغنيمة ما يؤخذ من العدو عقب الحرب، لكن العلماء كأنهم صنفوا الآخر أصنافاً ثلاثة، هناك إنسان آخر مسلم، له ما لك، وعليه ما عليك، هناك إنسان مستأمن أي دولة غير مسلمة لكن بيننا وبينها معاهدات، هناك تمثيل دبلوماسي، وسفراء، هذه دولة مستأمنة، وكل إنسان يأخذ من هذه البلاد الأجنبية بضاعة ولا يؤدي ثمنها فهو سارق، لا أتكلم من فراغ، أتكلم من اجتهاد بعض الجهلاء، من أن هؤلاء ليسوا مسلمين، مالهم حلال لنا.

ألا تذكرون أن النبي عليه الصلاة والسلام معه ودائع المشركين، فلما هاجر أبقى ابن عمه علياً ـ رضي الله عنه ـ وقد عرضه للقتل من أجل أن يؤدي الأمانات إلى أهلها.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا).

(سورة النساء الآية: 58).

المسلم الحق من سلم المسلمون من لسانه ويده:

كل إنسان يفكر أن يأخذ مالاً من غير مسلم أنا أرى أن عقابه مضاعف، لأنه ما أساء إلى هذا الإنسان بل أساء إلى دينه، فرق كبير بين أن تسيء إلى مسلم، فيقول: فلان أساء إليّ، وبين أن تسيء إلى غير مسلم فيقول: المسلمون ليسوا على حق، بين أن تسيء إلى إنسان، وبين أن تسيء إلى دينك، والمسلم الحق من سلم المسلمون من لسانه ويده.

مرة أخ كان ببلاد بعيدة، واشترى بضائع بخمسة آلاف دولار، قال لي: لم أدفع ثمنها لأنهم كفار، أنت تسيء إلى المسلمين عامة، هؤلاء مستأمنون، يوجد علاقات، و سفراء، و سفر، و معاهدات، و اتفاقيات، والمسلمون مسلمون لهم ما لنا وعليهم ما علينا، أما هؤلاء الذين احتلوا بلادنا ـ اليهود ـ واحتلوا أرضنا، واغتصبوا كل ما عندنا، لو وقعت حرب بيننا وبينهم عقب الحرب إذا انتصرنا ـ إن شاء الله ـ الأموال المنقولة التي بأيدينا، التي من أموالهم، حلال لنا، هذه غنائم، والنبي عليه الصلاة والسلام أحلت له الغنائم.

عدم سماح الشرع لنا بأن نأخذ أموال الدول الغير إسلامية التي بيننا وبينها معاهدات:

عندنا دار حرب، ودار أمان، ودار إسلام، كم دار ؟ ثلاثة، دار الحرب مع الأعداء الذين يحاربوننا.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ).

(سورة البقرة الآية: 190).

لكن:

(وَلَا تَعْتَدُوا).

(سورة البقرة الآية: 190).

تقاتل الذي يقاتلك.

(وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ).

(سورة البقرة الآية: 190).

عندنا ديار إسلام، وديار أمان، جميع الدول الغير إسلامية التي بيننا وبينها معاهدات، واتفاقيات، وسفر مسموح، وإقامات، وجوازات، هذه البلاد لا يسمح لك الشرع أن تأخذ من أموالها شيئاً إلا بحقه، أما الغنائم عقب الحرب التي تمت بين المؤمنين وغير المؤمنين وانتصرنا فيها هذه الأموال تسمى غنائم فقط، لئلا يتوسع الجهلاء والمتشددون بهذا، لئلا يأخذوا أي مال لمسلم، الله عز وجل يقول:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى).

(سورة المائدة الآية: 8).

إنك إن عدلت معه قربته إلى الله، إن عدلت معه قربته إليك.

من أساء إلى غير المسلمين أساء إلى الإسلام كله:

والله أخ كريم من أخوتنا، يعمل في مكان، على رأس هذا المكان إنسان بعيد عن الدين بعد الأرض عن السماء، يقول هذا الأخ: لا أتصور في حياتي أن يأتي إلى المسجد، فمرة قدم له إجازة ستة أيام، فغضب ورفض، قال له: هذه الأيام الستة أنا استهلكتها في صلاة الظهر خلال شهرين، فلئلا آكل مالاً حراماً قدمت لك إجازة ستة أيام تساوي صلاة الظهر إلى جانب الدائرة، قال له: أنت من أي جامع ؟ قال له: من الجامع الفلاني، أقسم لي بالله الأسبوع الثاني كان أحد رواد المسجد، هذا الإسلام إلى هذه الدرجة بالدقة، تحاسب نفسك عن ربع ساعة جمعتهم بستة أيام وقدمت إجازة فيهم ؟.

عبد الله بن رواحة ذهب إلى يهود خيبر ليقيّم تمرهم بحسب اتفاقية سابقة، أغروه بحلي نسائهم، قال لهم: " جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالت اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا ".

تقول لي: هذا مال إنسان غير مسلم ؟ مال غير المسلم حرمته أشد، لماذا ؟ لأنك إذا أسأت إليه يتهم الإسلام كله.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا).

(سورة الممتحنة الآية: 5).

الغنائم فقط، الأموال التي تنقل عقب حرب المسلمين مع أعدائهم فقط، أما بلاد غير إسلامية، لا تدفع الثمن، تحتال عليهم، هذه أشياء لا يمكن أن تكون مقبولة إطلاقاً.

بالأخلاق يصل الإسلام إلى أطراف الدنيا:

أقول لكم هذه الكلمات: والله الذي لا إله إلا هو لو أن المسلمين المقيمين في بلاد الغرب أقاموا الإسلام تماماً، طبقوا منهج الله، لكان موقف الغرب من المسلمين غير هذا الموقف، ولو فهم الصحابة الإسلام كما نفهمه نحن والله ما خرج من مكة، الإسلام مبادئ ، الإسلام قيم.

صحابي أثناء الهجرة ألقى الكفار عليه القبض، قال: أطلقوني، عهداً لله إن أطلقتموني لن أحاربكم، فأطلقوه، حدث النبي عليه الصلاة والسلام بهذا، وفرح به النبي الكريم أشد الفرح، بعد سنتين هناك غزوة فانضم إلى المسلمين، رآه النبي فقال له: ارجع ! ألم تعاهدهم ؟.

هذا هو الدين، بالأخلاق يصل الإسلام إلى أطراف الدنيا، وبالاحتيال، والازدواجية والمعايير المتنوعة، هذا يبعد الناس عن الدين، وإذا صحّ أن هناك من يخرج من دين الله أفواجاً بسبب سوء معاملة المسلمين.

إذاً أخواننا الكرام، ليس مسموحاً لإنسان أن يأخذ مالاً من غير مسلم إلا إذا كان عدواً محتلاً، مغتصباً، عقب حرب، أنا أتكلم هذا الكلام لا من فراغ، من قصص كثيرة جداً سمعتها، من أناس لا يعلمون حقيقة الدين، يأخذون ما ليس لهم من غير المسلمين، هذا حرام بل حرمته أشد لأنك بهذا تسيء إلى دينك.

((والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)).

[أحمد عن أنس].

من معاني هذا الحديث: من سلمت سمعة المسلمين من لسانه ويده.

أحد أسهم الغنائم الخمسة لله وللرسول لنشر الدين و تعزيز سنة رسول الله:

أيها الأخوة، ذكر الله الغنيمة بعد النصر، لكن هناك ملمح، عندما أنت قدمت امتحان الشهادة الثانوية يقول لك أبوك: أنا أختار لك الطب البشري بدل الهندسة وكأنك نجحت، مع أن النتائج لم تعلم بعد، حينما يحدثك أبوك عن ما بعد النجاح، كأن هذا الحديث تفاؤل لك بالنجاح، فالحديث عن الغنائم تطمين من الله عز وجل للمؤمنين أنكم سوف تنتصرون،

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ).

هذه الغنائم خمسة أخماس، خمسها لله، وللرسول، ولذي القربى، واليتامى ، والمساكين، وابن السبيل، كم سهم ؟ ستة، هذا الموضوع عند العلماء خلافي، لأن بعضهم ارتأى أن لله وللرسول سهم واحد، و

(لِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

أربعة أسهم، وسهم لله وللرسول، كيف ؟ لتعزيز دين الله، لنشر الحق، لنشر هذا الدين، لتعزيز سنة رسول الله، أي إن صحّ التعبير للدعوة، نحتاج إلى مساجد، إلى مراكز إسلامية في العالم الغربي، نحتاج إلى جامعات، نحتاج إلى كتب، إلى مطبوعات، إلى وسائل نشر، إلى تعزيز الإسلام في العالم، فخمس الغنائم خمسة أسهم، سهم من خمسة لله وللرسول، لتعزيز هذا الدين، لا للجيوب، لله وللرسول فقط، فخمس الغنائم أحد أسهمها الخمسة لله وللرسول، لتعزيز هذا الدين، وبكل عصر هناك وسائل لتعزيز هذا الدين، نحن بالزكاة آخر بند، آخر مصرف:

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ).

(سورة التوبة الآية: 60).

بناء المعاهد، بناء الجامعات، مراكز إسلامية، طبع كتب، طبع أشرطة، نشر هذا الدين،

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)

وقد تفهم نفقات الجيش الذي يحارب في سبيل الله، لكن هناك مرحلة فهمها العلماء كل ما يتعلق بالحرب، من وسائل، والآن يُفهم هذا المصرف من الزكاة في سبيل نشر هذا الدين، وفي سبيل الله، إذاً:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ)

لتعزيز هذا الدين، لتعزيز الكتاب والسنة، لنشر هذا الكتاب، ونشر هذه السنة، لإنشاء مراكز في العالم، لتنوير الآخرين لهذا الدين العظيم.

على الإنسان أن يعطل عقله مع أوامر القرآن الكريم ومع ما صحّ من السنة الشريفة:

(وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

قال:

(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ)

أي من الذي لا يرضى بهذا التقسيم ؟ من كان إيمانه ضعيفاً، الذي وهب لك النصر هو الذي قرر أن توزع الغنائم بهذه الطريقة، طبعاً وأربعة الأخماس لمن ؟ للمقاتلين، هذه غنائم خمسها لله وللرسول سهم،

(وَلِذِي الْقُرْبَى)

سهم ثان،

(وَالْيَتَامَى)

سهم ثالث،

(وَالْمَسَاكِينِ)

سهم رابع،

(وَابْنِ السَّبِيلِ)

سهم خامس، إذاً الأربعة أخماس بحسب القرآن الكريم لمن ؟ للمقاتلين الذين ضحوا بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، و الخمس الخامس لله و للرسول.

(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ)

إن كنت آمنت بالله تستسلم لتوزيع الإرث.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ).

(سورة الأحزاب الآية: 36).

نحن بالمؤتمرات أحياناً هناك قضايا لا تخضع للبحث والنقاش، مسلمات، وبحياة المؤمنين مسلمات، من هذه المسلمات

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

أنت كمؤمن حكم الله في هذا الموضوع انتهى، أقول لك من باب التأكيد: عطل عقلك مع القرآن الكريم ومع ما صحّ من السنة، هذا الحكم هو المطلق تماماً

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ)

في قرآنه،

(وَرَسُولُهُ)

في سنته

(أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ).

لذلك إن آمنت بالله تستسلم لهذا التقسيم الرائع، الخمس لله ورسوله سهم،

(وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

أربعة أسهم، الخمس مقسم إلى خمسة أقسام والأربعة أقسام للمقاتلين.

إنفاق الأموال في سبيل الله من أجل تمكين الدعوة إلى الله ونصرة دينه:

أخواننا الكرام، مرة ثانية حينما ذكر الله مصارف الزكاة:

(لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ).

(سورة التوبة الآية: 60).

في سبيل الله من أجل نصرة دين الله، من أجل الدعوة إلى الله، من أجل إقامة المعاهد، والمدارس التي يبنى فيها الإنسان بناء إيمانياً.

لذلك يمكن أن يدفع من مال الزكاة لبناء المعاهد الشرعية، من أجل تعزيز هذا الدين وتمكين مبادئه وقيمه.

أيها الأخوة، للتقريب، النبي عليه الصلاة والسلام قُبيل معركة بدر أصدر أمراً لأصحابه قال: لا تقتلوا عمي العباس، هناك صحابي سمع الكلام و فكر فيه، قال: أحدنا يقتل أباه وأخاه، وينهانا عن قتل عمه ؟ عمه العباس في مكة، غلب على ظنه أو على وهمه أن النبي محاباة لعمه نهانا عن قتله، ثم تبين أن العباس عم رسول الله كان في مكة مسلماً، وكان عين النبي على أهل مكة، فكل أخبارهم، وكل قراراتهم، تنقل إلى النبي فوراً عن طريق عمه المسلم خفية.

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ).

(سورة غافر الآية: 28).

أي عمه العباس كتم إسلامه عن أهل قريش، وهو معهم، فكل قرار يتخذونه ينقله إلى النبي، إدارة النبي إدارة ذكية جداً، فالنبي قال: لا تقتلوا عمي العباس، الآن حللوا ؛ لو لم يقل لا تقتلوا عمي العباس والعباس مسلم، وأصحابه لا يعلمون ذلك، لقتلوه أثناء المعركة، لو قال: عمي العباس مسلم لا تقتلوه كشف أمره، وانتهت مهمته، لو العباس ما اشترك في المعركة لانكشف أيضاً، إذا لم يشترك كشف، وإذا النبي ذكر أنه أسلم يكشف، وإذا النبي سكت يُقتل، فالنبي الكريم مضطر أن يقول فقط: لا تقتلوا عمي العباس، هذا الصحابي الذي قال في نفسه: أحدنا يقتل أباه أو أخاه في الحرب وينهانا عن قتل عمه، هذا الصحابي يقول: ظللت أتصدق عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله.

الكون مظهر لأسماء الله الحسنى و ينطق بوجود الله ووحدانيته :

أرأيت إلى هذا الكون البديع ؟ هذا الثابت الأول، هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى ، في حكمة، في علم، في قوة، في رحمة، هذا الكون ينطق بوجود الله، ووحدانيته، وكماله، فهذا الإله العظيم حينما يقول لك افعل كذا، ولا تفعل كذا، هذا ينبغي أن تأخذه، والكون يشهد لله عز وجل بحكمته، وعلمه، ورحمته.

فلذلك الملمح الدقيق بالآية:

(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ)

ترون هذه القسمة كاملة، الإنسان أحياناً قد لا يفهم دقائق الحكمة، لكنه مستسلم ، أنا قصة أرويها دائماً لأنها مؤثرة، كنت أمشي مرة في أحد أسواق دمشق، طلبني أخ كريم، وقال لي: أنت تخطب ؟ قلت له: نعم، قال لي: هناك إنسان في السوق الفلاني نزل صباحاً لدكانه ليبيع ويشتري، وقال لي سؤال أثناء الحديث: العمل ليس عبادة يا سيدي ؟ قلت: بلى عبادة، فالعمل عبادة، فنزل لهذه الدكان ليبيع و يشتري ـ هو تاجر قماش بسوق مدحت باشا ـ سمع إطلاق رصاص فمدّ رأسه ليرى ما الأمر فجاءت رصاصة طائشة فاستقرت في عموده الفقري فشُل فوراً، قال لي: ما ذنبه ؟! جاء لمحله التجاري ليكسب رزق أولاده ما ذنبه ؟! قلت له: والله لا أعلم، لكني مؤمن بحكمة الله وعدله، فاعتذرت عن الإجابة لأني لا أعلم التفاصيل، لكنني مؤمن بعدل الله، وحكمته، ورحمته، بعد عشرين يوماً بالضبط أحد أخوتنا الكرام، يحدثني حديثاً عادياً، قال لي: أنا أسكن في الميدان، وفوق بيتي جار مغتصب بيتاً لأولاد أخيه الأيتام، والاغتصاب دام طويلاً، فما تركوا طريقة لطلب هذا البيت لكنه يرفض، وكلوا أحد علماء دمشق، هذا العالم التقى معه فرفض بقسوة أن يرد هذا البيت لأولاد أخوته الأيتام، فلما رفض بعنف قال لهم بالضبط: هذا عمكم يا بني، لا تشكه إلى القضاء هذا لا يليق بكم، اشكُه إلى الله، هذه القصة وقعت

الساعة التاسعة مساء، في الساعة التاسعة صباحاً هو الذي له دكان في هذا السوق، وسمع إطلاق الرصاص، ومدّ رأسه ليرى ما الخبر، وجاءت رصاصة غير طائشة، رصاصة مصيبة فاستقرت في عموده الفقري وشُل فوراً.

والله من الطُرف أن أخاً مقيماً في حلب تحت يديه بيت لإخوته، سمع هذه القصة في الإذاعة فردّ البيت في اليوم التالي مباشرة، الله كبير، الله عز وجل، رصاصة طائشة عليها اسم من تصيبه.

فهذا الصحابي قال: ظللت عشر سنين أتصدق رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله.

من كُشفت له الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء:

قال تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

هذه القسمة ترونها حكيمة وعادلة

(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ).

مرة أخ جاءه مولود فيه أذية دماغية، وكنت معه، ذهبت أنا وهو إلى أول طبيب، الثاني، الثالث، الرابع، و الجميع أجمعوا أن مصيره فقد بصر، أو شلل، الأذية بالدماغ، فأصابه همٌّ شديد قلت له: الإله العظيم الذي تعبده، الإله العظيم الذي ترى حكمته من خلال هذا الكون هو الذي ساق لك هذه المصيبة، ينبغي أن تقبلها.

فأنت أحياناً ما معك تفاصيل، لكن معك كليات، هذا من فعل خالق السماوات والأرض، لحكمة بالغة، لذلك:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

(سورة البقرة).

ربما منعك فأعطاك، وربما أعطاك فمنعك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء، أعطاك فمنعك، أو منعك فأعطاك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء.

زوال الكون أهون على الله من أن تتقي الله ثم لا ترى النجاح والتوفيق بكل شيء:

أخواننا الكرام، كلام دقيق جداً، كل واحد منكم وأنا معكم معنا آلاف القصص، كل هذه القصص من آخر فصل ليس لها معنى، وأنصحك ألا ترويها، القصة التي تلوتها عليكم قبل قليل هذه من البدايات، لماذا جاءت رصاصة طائشة على حدّ زعمهم، فاستقرت في عموده الفقري فأصيب بالشلل ؟ لأنه من عشر سنوات مغتصب بيتاً لأولاد أخيه الأيتام، ولم يرعو، ولم يستسلم لحكم عالم جليل، هذه القصة تعرفها أنت من فصلها الأول الآن حتى فصلها الأخير، إذا معك قصة من هذا النوع اروها للناس، أما أكثر القصص من آخر فصل ليس لها معنى، تعمل إرباكاً، لا ترو قصة إلا إذا علمت كل فصولها.

والله أيها الأخوة، أنا أعتقد أنه لا يوجد واحد منكم إلا ومعه بضع قصص، من أول فصل إلى آخر فصل، وتتجلى في هذه القصة رحمة الله، وعدل الله، وحكمة الله، هذه القصة تكون درساً.

أيها الأخوة، أحد علماء دمشق جاءه طالب علم، قال له: أنا ما عندي بيت، ودخلي لا يكفي طعامي وشرابي، أنا متى أتزوج ؟ قال لي: ماذا أقول له ؟ قلت له:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً).

(سورة الطلاق).

بعد أن قرأ عليه الآية الكريمة قال له: هذه الآية أين تصرف ؟ أنا أريد بيتاً الآن، فيبدو أنه رفض لكن بعد حين فكر، هذا عالم وقرأ قرآناً ـ هو يعمل موظفاً في محل تجاري ـ كيف يتقي الله ؟ كأن المحل محله كلما جاء زبون يعتني به، يطيب له خاطره، يعرض له كل شيء موجود، يتلطف معه، وفي العادة يقول: لا يوجد عندنا، لا علاقة له بالربح، هو له معاش يتأخر، لا يوجد إخلاص، يقول هذا الشاب بعدما قال له هذا العالم:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

صار يتحرك بالمحل كأن المحل له، وبقي سنتين أو ثلاث، صاحب المحل وجد هذا العمل كبيراً، و الغلة ارتفعت، ما هذا الانضباط ! ثمانية ثمانية، لا يتأخر دقيقة، ويعمل بنشاط منقطع النظير، فصاحب المحل هذا أعجبه الوضع، قال له: أنا أريد أن أشتري بيتاً، لكني أحب ذوقك، هل تذهب معي ؟ قال له: والله لا يوجد عندي مانع، أراه بيتاً قال له: هذا صغير، أراه بيتاً آخر قال له: هذا شمالي، شهر أو أكثر حتى عثرا على بيت مناسب جداً و لكن سعره كان مرتفعاً، قال له: هذا يناسبك، بعد أن اشترى البيت، قرر أن يزوجه ابنته، و قال صاحب المحل لهذا الذي يعمل عنده: ابعث أهلك ليروا ابنتي، فالله تعالى بعث له زوجة و بيتاً.

جاء واتصل مع العالم من سبع سنوات قال له هذه أين تصرف ؟ قال له: جزاك الله خيراً، أنا اتقيت الله.

أقسم لكم بالله يا أخوان زوال الكون أهون على الله من أن تتقي الله ثم لا ترى النجاح والتوفيق بكل شيء، علاقتك مع الله، اتق الله،

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

هذه قصة تروى، هناك قصص أبلغ من النصوص بكثير، حقائق مع البرهان عليها.

قدرة الله عز وجل:

فلذلك أيها الأخوة، الله عز وجل يقول:

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ)

يوم الفرقان يوم بدر، ثلاثمئة صحابي، والكفار عددهم كبير، الله عز وجل جعل معركة بدر معركة فاصلة بين الحق والباطل، سمّى الله عز وجل معركة بدر يوم الفرقان، هؤلاء المؤمنون الضعاف، الفقراء، القلة، لا يوجد عندهم رواحل، و لا وسائل، ولا أسلحة على ضعفهم، وعلى ضعف شأنهم انتصروا.

فلذلك أيها الأخوة، سمّى معركة بدر يوم الفرقان،

(يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

(سورة البقرة).

المؤمنون على قلة عددهم و صبرهم و استقامتهم يغلبون الكفار بإذن الله:

أقرأ لكم قصة تابعة في المعنى لهذا الموضوع، قال تعالى:

الآن دققوا:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

(سورة البقرة).

أخواننا الكرام، ذكرت هذه القصة في القرآن من أجل آية واحدة،

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

فنحن كمؤمنين ولو كان الفرق كبيراً جداً بين قوتنا وقوة أعدائنا لكن:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

من آمن بالله و استقام على أمره و أعدّ العدة المناسبة تولى الله عز وجل نصرته:

فالمشكلة مشكلة أن نستقيم، فإذا استقمنا، هؤلاء عندما شربوا من النهر ماذا قالوا بعد قليل ؟

(لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)

وكل مسلم يعصي الله يقول: قوتنا ليست كقوتهم، لأنك عاص، إذا استقمت على أمر الله، الله يتولاك، طبعاً يجب أن تؤمن بالله وأن تستقيم على أمره، وأن تعد العدة لهم بقدر ما تستطيع، لا تطالب بالإعداد المكافئ أنت مطالب بما تستطيع من الإعداد فقط، آمنت بالله، واستقمت على أمره، أعددت لهم ما تستطيع، الله يتولى النصر، مشكلة المسلمون اليوم في النصر، يقول لك: نحن ضعاف، أعداؤنا معهم حاملات طائرات، صواريخ عابرة للقارات، أقمار صناعية، ثلاثون دولة حليفة، لكن الله أكبر، قال لك: استقم، أنا أنصر المؤمنين، قال لك:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً).

(سورة النساء).

قال لك:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ).

(سورة الصافات).

قال لك:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

(سورة غافر الآية: 51).

كلام الله عز وجل زوال الكون أهون على الله من ألا يحققه إن دفعت الثمن.

فلذلك أيها الأخوة، المؤمن لا ييأس، المؤمن لا يضعف، المؤمن لا تضعف همته المؤمن لا يتشاءم.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

(سورة آل عمران).

هذه القصة قصة طالوت وجالوت،

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (15-30): تفسير الآيات 42 - 45 ، لا معصية مع الصبر - وطاعة مع الصبر تنتهي بنصر من الله عز وجل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-08-07

بسم الله الرحمن الرحيم

في الآية التالية بعض التفاصيل عن معركة بدر:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثانية والأربعين وهي قوله تعالى:

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ).

في هذه الآية بعض التفاصيل عن معركة بدر.

(إِذْ أَنْتُمْ)

، أيها المؤمنون

(بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا).

الحقيقة لو أن هناك جبلين الفراغ بينهما يسمى الوادي، وشاطئ الوادي يسمى العدوة، والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام كانوا في العدوة الدنيا، كانوا أقرب إلى المدينة لأنهم جاؤوا من المدينة.

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا)

وقريش جاؤوا من مكة، وهم في العدوة القصوى المؤمنون في طرف وظهرهم إلى المدينة، وقريش في طرف آخر وظهرهم إلى مكة المكرمة.

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى)

أبو سفيان كان يقود قافلة ، وخروج المؤمنين كان القصد منه القافلة، فلما علم أن المسلمين توجهوا نحوه غيّر مسار القافلة واتجه نحو البحر، والركب ؛ أي العير، والركب ؛ القافلة التي كانت تحمل الراحلة

(وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ)

هذه إشارة إلى أن أسفل البحر هو أخفض نقطة في الأرض، لذلك هو مقياس الارتفاع، تقول: أربعمئة متر فوق سطح البحر، ثمانمئة متر فوق سطح البحر.

(وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ)

أحياناً الإنسان ينتقل من طرطوس إلى دمشق، قد يغيب عن ذهنه أن الشام أعلى من طرطوس بثمانمئة متر، يقول: نازل إلى الشام، لا هذا خطأ و الصواب طالع للشام، طرطوس بمستوى البحر، أما دمشق ارتفاعها ثمانمئة متر.

فكأن القرآن أشار إلى أن ساحل البحر يعد مبدأ في الارتفاعات، والانخفاضات.

مرة ذهبت إلى غور فلسطين مكتوب لوحة ستمئة متر تحت سطح البحر ، فالارتفاعات والانخفاضات بالنسبة لسطح البحر لأن سطوح البحار، وشواطئ البحار في العالم كله في مكان واحد، أو هناك ارتفاع واحد هو الصفر.

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ)

غير مساره واتجه نحو البحر

(أَسْفَلَ مِنْكُمْ).

قال:

(وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ)

لو كان هناك وعد رسمي، و اتفاق على أن يكون الفريقان في هذا المكان، وفي هذا الزمان لما أمكنكم ذلك.

الإنسان مخير وقد يأخذ الله منه ذلك الاختيار ليسير إما للتكريم أو للتأديب:

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً).

هذه الفقرة في الآية ينبغي أن تُشرح، الإنسان مخير، لكن لأن الله سبحانه وتعالى طليق الإرادة، ولو أنه منحك الاختيار، أحياناً إما من أجل أن يكرمك إن كنت مؤمناً، أو أن يؤدبك إن كنت عاصياً، فقد يأخذ منك الاختيار، وتسير إما للتكريم أو للتأديب.

والعجيب قد تجد إنساناً بأعلى درجات الذكاء يرتكب حماقة لا يرتكبها أحمق، ومن خلال هذه الحماقة تأتيه مصيبة كبيرة جداً، معنى ذلك إذا أراد ربك إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لبٍّ لبه، مع الله عز وجل لا يوجد ذكي أبداً، هناك مستقيم، أنت تنجح مع الله باستقامتك لا بذكائك لأن الحذر ـ الذكي ـ صاحب

الخبرات المتراكمة يؤتى من مأمنه.

حينما يتوهم الإنسان أن هذا اختصاصه، قد يكون طبيباً مختصاً بالجهاز الهضمي، عنده قناعة عميقة جداً أنه لن يصاب بأمراض جهاز الهضم لأن هذا اختصاصه، يفاجأ بقرحة في المعدة.

حينما تتوهم أنك محمي بسبب ما من الله تفاجأ أن هذه الحماية التي توهمتها ليست صحيحة مع الله عز وجل، هناك مستقيم، المستقيم يوفق، أما الذكي يؤتى من مأمنه، في بعض الآثار القدسية:

((عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين ؟ وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد)).

[ورد في الأثر].

((ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يشأ لم يكن)).

[أخرجه أبو داود عن بعض بنات النبي صلى الله عليه وسلم].

((لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام)).

كن فيكون، زل فيزول، دققوا الآن:

((فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ)).

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه.

التولي و التخلي:

أيها الأخوة، لو تواعدوا لاختلفوا في الميعاد

(وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً).

((ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يشأ لم يكن)).

[أخرجه أبو داود عن بعض بنات النبي صلى الله عليه وسلم].

أحد الخطباء خطب أمام النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما شاء الله وشئت، فقال له النبي الكريم: بئس الخطيب أنت، سويتني لله نداً ؟ قل

((ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يشأ لم يكن)).

لا يوجد إرادة مع الله عز وجل، فالإنسان أحياناً يخطط، يهيئ، يستعد، فتأتي الأمور على خلاف ما يريد، لذلك قال بعضهم: "عرفت الله من نقض العزائم"، إن أردت أن تنجح فاستعن بالله، فافتقر إلى الله،

درس نحتاجه كل يوم، بل كل ساعة، درس التولي والتخلي، إذا قلت الله يتولاك، فإذا قلت أنا يتخلى عنك، إذا قلت الله يتولاك، وإذا قلت أنا أي اعتددت بعلمك، أو بمكانتك، أو بأقربائك، أو بزملائك، أو بمالك، يتخلى عنك.

مرة إنسان أظنه صالحاً ـ ولا أزكي على الله أحداً ـ قال بجلسة: الدراهم مراهم، يقصد أنه بالدراهم تحل أية مشكلة، فبقي في المنفردة فوق الستين يوماً، تأديباً له على هذه الكلمة، تفضل حلها بالدراهم، هذه لا تحل بالدراهم.

مرة كنت عند طبيب، قال له إنسان على الهاتف: أي مبلغ، وأي مكان في العالم مستعدون، قال له: والله لا يوجد أمل، الورم بالدرجة الخامسة.

ما كل شيء يحل بالدراهم، كل شيء يحل بتوفيق الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك، فأنت حينما تقول الله يتولاك، بالدراسة، بالتجارة، بالزواج، بالعمل، بتربية أولادك ، فإذا قلت أنا:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

(سورة القصص الآية: 78).

لها توابع، عندي معلومات دقيقة جداً، اختصاصي نادر، أهلي أغنياء، حينما تعتد بشيء غير الله عز وجل، من محبة الله لك يعطل هذا الشيء وتبقى بحيرة من أمرك.

فلذلك إذا قلت الله تولاك الله، بأي عمل، بأي مجال، بأي مهمة، وإذا قلت أنا تخلى عنك.

كل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقع:

قال:

(وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً)

من هنا أقول لكم هذه المقولة: والله الذي لا إله إلا هو تحل بهذه المقولة كل مشكلات المسلمين ، كل شيء وقع أراده الله، لأنه لا يليق أن يقع بملكه ما لا يريد، إله، مقام الألوهية لا يسمح أن يقع في ملك الله ما لا يريد، فكل شيء وقع أراده الله، لئلا تحقد على أحد، لئلا تقل يا ليت، لو أني فعلت كذا وكذا.

((لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)).

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء].

فكل شيء وقع أراده الله، نعكسها، وكل شيء أراده الله وقع، أبداً، إن وقع سمح الله به، معنى أراده أي سمح به، قد يكون هذا الشيء بخلاف منهجه، لم يرضَ ولم يأمر، إنسان ارتكب الزنا، الله تعالى لم يأمره بهذا، والله لا يرضى لعباده المعصية، لكن ما دام الشيء وقع إذاً هناك حكمة بالغة فسمح الله بهذا،

فكل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، الله حكيم، الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً.

لو عرجنا على ما يجري في العالم اليوم، هناك أحداث مؤلمة جداً، في الحادي عشر من أيلول، قبل هذا التاريخ كان هناك سياسة للدول، بعد هذا التاريخ سياسة أخرى، وكأن في هذا التاريخ أُعلنت حرب عالمية ثالثة على المسلمين، أليس كذلك ؟ احتُلت خمس دول إسلامية، وقع هذا الشيء، هناك حكمة بالغة، أولاً هذه الأحداث الأليمة دفعتنا إلى أن نصحو، هذه الأحداث الأليمة قربت ما بيننا، زادتنا قرباً، زادتنا إنابة، زادتنا تماسكاً، زادتنا وعياً، زادتنا كفراً بالعالم الغربي، لو تتبعت الإيجابيات من الأحداث الكبرى التي أصابت المسلمين، تجد أن الذي وقع أراده الله، وأن الذي أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، الحكمة المطلقة أن الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، والحكمة المطلقة أن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله.

لذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان من حيث القضاء والقدر، والإيمان بالقضاء والقدر يذهب الهم والحزن، ولا تنسوا هذه المقولة الثانية:

((لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه)).

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

كان الغرب حضارة فأصبح قوة غاشمة ولم يبقَ على سطح المبادئ والقيم إلا الإسلام:

لعلكم ترون بأعينكم الإيجابيات التي سوف نقطفها من الحادي عشر من أيلول هي مؤلمة لكن لها إيجابيات إيجابية.

الذي ينبغي أن يقال: قبل هذا التاريخ كان على سطح ما مبادئ الأرض وقيمها، كان هناك الشرق الذي آمن بالمجموع، والغرب الذي آمن بالفرد، وكان الإسلام، ككتل مبدئية كبيرة كان هناك الشرق، والغرب، والإسلام، هناك آلاف الاتجاهات، لكن ككتل كبيرة جداً، مبادئ كبيرة، مبدأ العالم الغربي القائم على الحرية المطلقة لكل الناس، مبدأ العالم الشرقي النظام الواحد، الأساس المجموع، والإسلام.

الشرق تداعى من الداخل.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ).

(سورة الأحزاب الآية: 25).

ماذا بقي على هذه الساحة ؟ الغرب والإسلام، الكلام موضوعي، الغرب ذكي جداً، وقوي جداً، وغني جداً، وقبل الحادي عشر من أيلول طرح قيماً عالية جداً، طرح قيمة الحرية والديمقراطية، وحقوق

الإنسان، وحق التقاضي، وتكافؤ الفرص، والعولمة، واحترام جميع الأديان، فكان الغرب حضارة شامخة خطفت أبصار أهل الأرض، حتى صار أي إنسان بالعالم إذا وصل إلى البطاقة الخضراء التي تتيح له أن يذهب إلى بلاد الغرب كأنه دخل الجنة، هذا كله سابقاً، بعد الحادي العشر من أيلول كان الغرب حضارة فأصبح قوة غاشمة، الذي فعله في أفغانستان، والذي فعله في العراق، والذي فعله في بلاد عديدة، كان الغرب حضارة فأصبح قوة غاشمة، ولم يبقَ على سطح المبادئ والقيم إلا الإسلام.

اقتراب الغرب و الشرق من الإسلام لا عن عبادة لله ولكن عن مصالح:

الآن أسهم الإسلام في الأوج مع أن المسلمين ضعاف، هذا الذي قال: " أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور، لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء ولكن لأن خلاص العالم بالإسلام ".

وهذا بدت بشائره، فرنسا تدرس بجدية ما بعدها جدية النظام المالي الإسلامي، بعد انهيار النظام المالي الغربي القائم على الربا.

بعد انتصار أخوتنا في غزة، الآن الجيوش تخطط لعمليات لمواجهة المقاومة، لا لمواجهة جيش آخر، صار هناك شيء جديد.

الخمر حرمه الاتحاد السوفيتي قبل أن ينهار، تطابق مع الإسلام، قبل أسبوعين روسيا حرمت النوادي الليلية كلياً، الغرب والشرق يقتربان من الإسلام لا عن عبادة لله، أبداً ولكن عن مصالح.

الآن معظم الأنظمة الغير إسلامية أصبحت في الوحل، ولم يبقَ كنظام متماسك، قوي، وشامخ إلا الإسلام.

فنحن في العصر الذهبي للإسلام كمبدأ، كمنهج، كقيم، أما المسلمون ضعاف ، ولكن إن شاء الله هذه الأحداث الكبرى تعلمهم كما قال الله عز وجل إن المستضعف ربما قواه الله عز وجل.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ).

(سورة القصص).

نرجو من الله سبحانه وتعالى أن نكون تحت هذه الآية.

من وقف في خندق مضاد لخندق الحق استحق الشقاء الأبدي:

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

قد تتوهمون أن معنى ليهلك ليموت، لا، بعض الكفار ماتوا في معركة بدر والذين لم يموتوا هلكوا أيضاً، ولو أنهم لم يموتوا، لكنهم حاربوا نبي الله، حاربوا جيشاً مؤمناً، وقفوا في خندق مضاد لخندق الحق، فالهلاك هنا الشقاء الأبدي.

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ)

الذي مات انتهى أجله، والذي لم يمت لأنه خاض معركة ضد أهل الحق فهو هالك، والذي لم يمت بقي حياً، أو الذي مات من المؤمنين أيضاً نجح نجاحاً كبيراً لأنه خاض معركة يدعمها خالق السماوات والأرض.

الله عز وجل مع الإنسان يراه يسمعه و يعلم ما يضمر و ما يعلن:

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

إن خاطبته يسمعك، وإن تحركت في مرضاته يراك، وإن أضمرت خيراً يعلمه، سميع، بصير ، عليم، تتكلم يسمع، تتحرك يراك، تضمر شيئاً يعلمه، سميع، بصير، عليم، من أجل أن يقع هذا الذي وقع:

(إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

(سورة الأنفال).

من كان مع الله صحت رؤيته و العكس صحيح:

كيف يقع الذي وقع ؟ بشكل عام الإنسان أحياناً يرى رؤيا خاصة، هذه الرؤيا تدفعه أن يفعل هذا الأمر، فإذا كان مؤمناً يريه الله عز وجل هذا المشروع أنه ناجح، هناك صعوبات كبيرة، لكن الله لا يريه الصعوبات، يريه النتائج، فيقبل، يأتي الدعم الإلهي، والمعونة الإلهية فينجح، بعد أن ينجح يقول: والله ما كنت أظن أن هذا النجاح بهذه البساطة، النجاح يحتاج إلى جهد كبير لكن الله وفقني.

الطرف الآخر قد لا يعبأ بشيء، يستخف به، وقد يدمر بهذا الشيء، فلذلك هذه الرؤيا التي يراها الإنسان هي التي تدفعه إلى عمل ما، فإن كنت مع الله صحت رؤيتك، وإن لم تكن مع الله فسدت رؤيتك.

سيدنا يوسف شاب جميل الصورة، في مقتبل العمر، دعته سيدته، و هي ذات منصب وجمال، ما الذي رأى حتى قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ).

(سورة يوسف الآية: 23).

هذه الرؤيا، فكان عزيز مصر، تقول: سيدنا يوسف لأنه عفّ عن الحرام، هو المثل الأعلى لكل الشباب اليوم، أيها الشاب لا يرقى بك إلى الله شيء كالعفة، مثلاً تاجر كبير في السن شيء آخر يرقى به إلى الله، إنه العمل الصالح، لأن موضوع الجنس تجاوزه، أما شاب في مقتبل الحياة، والنساء في الطريق كاسيات عاريات، مائلات مميلات، بأي مكان هناك امرأة شبه عارية، بالانترنيت، بالفضائيات، بالطريق، بالمجلات، بالصحف، بأي مكان، فيأتي هذا الشاب المؤمن ويغض بصره عن محارم الله، خوفاً من الله.

سيدنا يوسف هو المثل الأعلى لكلّ شاب مؤمن عفيف:

أنا أتصور كلما غضّ الشاب بصره عن محارم الله كأنه وضع بصندوق ليرة ذهبية، يوم يتزوج يفتح هذا الصندوق فإذا فيه مئات ألوف الليرات الذهبية، كلما تغض بصرك عن امرأة لا تحل لك ترقى عند الله، فأنا أقول: سيدنا يوسف هو المثل الأعلى للشباب، قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ).

(سورة يوسف الآية: 23).

سائق سيارة أشارت له امرأة تفضلي، إلى أين ؟ قالت له: خذني إلى أي مكان تريده فهم، وعدّ هذا مغنماً كبيراً، وأخذها إلى مكان، وقضى حاجته، قدمت له ظرفاً، حسب أن هذه الرسالة هي رسالة شكر، فإذا هو مكتوب عليه مرحباً بك في نادي الإيدز، هكذا.

الإنسان عندما يكون عنده رؤيا صحيحة، سيدنا يوسف قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

أما هذا الشاب الجاهل رآها مغنماً كبيراً، ونسي أنه فقد حياته.

ألا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً

* * *

أكبر عطاء إلهي أن يقذف الله في قلبك نوراً ترى به الخير خيراً والشر شراً:

أخواننا الكرام، دققوا في هذا الذي أقوله: أخطر شيء في حياتك رؤيتك، ماذا ترى ؟ لماذا يسرق اللص؟ هناك سبعة رجال سرقوا محل ذهب، في بلدة في شمال دمشق، بعد عشرين يوماً أعدموا جميعاً، قتلوا صاحب المحل التجاري الذي يبيع الذهب، وأخذوا منه بضع كيلوات من الذهب، وظنوا أنهم سيعيشون حياة فيها بحبوحة كبيرة بهذا الثمن، كُشف أمرهم هم أصبحوا قتلة، فأعدموا جميعاً.

المشكلة هذه الرؤيا، ماذا رأيت ؟ الذي يعصي يتوهم أن المعصية تحقق له لذة كبيرة جداً، والله لا يحاسب، الله غفور رحيم، هناك سذاجة وهناك حمق، فأنت بطولتك أن تملك رؤيا صحيحة، المؤمن يرى بنور الله، الدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ).

الآن دققوا:

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ).

(سورة الحديد الآية: 28).

أنت إذا صليت الصلوات الخمس ألقى الله في قلبك نوراً، ترى به الخير خيراً والشر شراً، هنا المشكلة، الذي يغش المسلمين ماذا رأى ؟ رأى أن هذا المال الذي سيحصله سيستمتع به.

كان عندي طالب له خال صاحب دار سينما، من الدرجة العاشرة، والأفلام التي تعرض كلها ساقطة، في الأربعينات أصيب بمرض خبيث، فزاره ابن أخته وهو طالب عندي، فصار خاله يبكي، قال له: جمعت بضعة ملايين حتى أستمتع بها في الحياة، و إذ بالمرض قد عاجلني، ثم توفي بعد فترة قصيرة.

من اصطلح مع الله عز وجل تولاه الله و نقله من توفيق إلى توفيق ومن نجاح إلى نجاح:

أنت حينما تبني ثروتك على إفساد الشباب، ما الذي رأيته ؟ رأيت أن الله لن يحاسبك، والله أيها الأخوة لو ترون المآل بأية معصية، يصبح الإنسان يعد للمليار قبل أن يعصي الله عز وجل، العبرة بالرؤيا، أن ترى بنور الله، فأنت حينما تصلي الصلاة الصحيحة يلقي الله في قلبك نوراً، لا ترتكب معصية، والله لو دفعوا لك ملايين مملينة بالحرام تركلها بقدمك.

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه)).

[رواه أبو نعيم عن ابن عمر مرفوعا وقال غريب، لكن له شواهد منها ما رواه التيمي في ترغيبه عن أبي ابن كعب مرفوعا بلفظ ما ترك عبد شيئا لا يدعه إلا لله إلا أتاه الله ما هو خير له منه]

العبرة أنك إذا اتصلت بالله ألقى في قلبك نوراً تملك به رؤيا صحيحة لا تغلط، الأخطاء الطفيفة ليست مشكلة، تكفرها الصلوات الخمس، لكن لا يمكن أن ترتكب كبيرة بهذه الرؤيا،

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

(وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

(سورة الأنفال).

أنت حينما تصطلح مع الله، الله عز وجل يتولاك، ينقلك من حال إلى حال، من مقام إلى مقام، من توفيق إلى توفيق، من نجاح إلى نجاح، تكون قد قطعت صعوبات كبيرة لكن الله يريك إياها خفيفة، هذه معونة إلهية كبيرة جداً، فأحياناً الإنسان يقوم بأعمال مذهلة، يقسم بالله العظيم لو كنت أعلم هذه الصعوبات ما أقبلت عليها، الله يخففها أمامه يقبل عليها، يدعمه بالمعونة فينجح.

لذلك الإنجاز الضخم الذي يجريه الله على يد إنسان لا يتناسب مع إمكانياته أبداً ، يتناسب مع توفيق الله عز وجل، فكن طموحاً، ما الذي يمنعك أن تكون إنساناً كبيراً مع الله ؟ داعية كبيراً، عالماً كبيراً، مصلحاً اجتماعياً كبيراً.

الباطل متعدد و الحق لا يتعدد:

ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

(سورة الأنفال).

أي الله عز وجل بآيات كثيرة قال:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ).

(سورة البقرة الآية: 249).

والمعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، كما أنه بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، لكن بين هاتين النقطتين تمر ملايين الخطوط المنكسرة والمنحنية، فالباطل متعدد و الحق لا يتعدد.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ).

(سورة الأنعام الآية: 153).

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ).

جمع:

(إِلَى النُّورِ).

(سورة البقرة الآية: 257).

مفرد، فالحق واحد، فالمعركة بين حقين لا تكون، مستحيل ! وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، أما بين باطلين لا تنتهي، تذهب مع العمر، بين حقين لا تكون، بين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، بين باطلين لا تنتهي.

الله عز وجل يبين للمؤمنين أنه معهم إن ثبتوا و آمنوا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

إذا كنت مؤمناً مستقيماً، صادقاً، اطمئن.

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ).

(سورة الصافات).

إذا كنت مؤمناً، صادقاً، مستقيماً اطمئن.

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

(سورة غافر الآية: 51).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا)

الله عز وجل يبين للمؤمنين أنا معكم وإذا كنت معكم لا أحد يستطيع أن يصل إليكم

(فَاثْبُتُوا)

لكن مع الثبات.

من نصر دين الله نصره الله عز وجل:

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً)

أحياناً الأمر لا ينصب على الذكر، الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً).

(سورة الأحزاب).

الأمر ينصب على الذكر الكثير لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، إذاً هم يذكرون الله عز وجل،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

فالذكر أن تكون مع الله، في صلواتك، في دعائك، في استغفارك، في توبتك، في عملك الصالح.

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

والله سبحانه وتعالى يرينا من آياته الدالة على عظمته أن الأمر بيده، وأنه كما قال تعالى:

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

(سورة آل عمران الآية: 126).

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ).

(سورة آل عمران الآية:160).

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ).

(سورة الحج الآية: 40).

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

أول حقيقة.

الآن:

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

الآية الثالثة:

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

إن نصرت دين الله ينصرك الله.

المعصية مع الصبر ليس بعدها إلا القبر أما الطاعة مع الصبر تنتهي بالنصر:

فيا أيها الأخوة، الأمة الإسلامية تطوق إلى النصر، والكرة بالتعبير المعاصر في ملعبها، فحينما تؤمن، وحينما تستقيم على أمر الله فالله عز وجل ينصرك، لذلك:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ).

(سورة إبراهيم).

الآية الثانية:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً).

(سورة آل عمران الآية: 120).

لذلك المعصية مع الصبر ليس بعدها إلا القبر، أما الطاعة مع الصبر تنتهي بالنصر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (16-30): تفسير الآيات 46 - 48 ، مراعاة المصالح العامة للمسلمين - عدم الإصغاء للشيطان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-08-15

بسم الله الرحمن الرحيم

مهما جمع الإنسان من ثمار الطاعة فلن يحصيها:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السادسة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

العبرة في طاعة الله.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب).

النجاح كل النجاح، والفوز كل الفوز، والتفوق كل التفوق، والتألق كل التألق، في طاعة الله، تطيع من؟ تطيع خالق السماوات والأرض، تطيع من ؟ القوي، الغني، الحكيم الرحيم، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، الذي:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس).

أنت في قبضته، وأهلك في قبضته، ومن حولك في قبضته، ومن فوقك في قبضته، ومن دونك في قبضته، إن أطعته فزت فوزاً عظيماً.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[ابن ماجه عن ثوبان].

الخيرات، مهما جمعت ثمار الطاعة لا يمكن أن تحصيها، راحة نفسية، راحة جسمية، تيسير في أمور الدنيا، تيسيرٌ تيسير، توفيق توفيق، يدافع عنك، يدافع عنك، تحس بمنعة، تحس بهذه المنعة، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ أنت تعامل من ؟ تعامل خالق السماوات والأرض، تعامل من يقول كن فيكون، زل فيزول، كل شيء بيده، أيعقل أن تتجه إلى غيره ؟ أيعقل أن تطيع بشراً وتعصي خالقاً ؟ أيعقل من أجل لعاعة من الدنيا تعصي الله عز وجل ؟.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أي أطيعوا الله فيما جاء في القرآن من أوامر كلياً، وأطيعوا الرسول بما جاء بسنته من تفصيلات تبيينية، هناك أوامر كلية في القرآن، وهناك تفاصيل تبيينية في سنة النبي عليه الصلاة والسلام،

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الدنيا تفرق والآخرة تجمع:

أيها الأخوة، لكن يأتي نهي بعد هذا الأمر، (وَلَا تَنَازَعُوا)، الدنيا تفرق والآخرة تجمع، الدنيا محدودة، المكاسب محدودة، الأموال محدودة، الأعمال محدودة ، المناصب محدودة، الثروات محدودة، فإذا أردنا الدنيا تقاتلنا، وتنازعنا، والذي يحصل في العالم صراع على الدنيا، مرة على منابع النفط، ومرة على مصادر المياه، مرة على الثروات، مرة على أماكن الثروات الكبيرة، يورانيوم، ذهب، كل هذا الذي تسمعونه من سياسات دولية وراء هذه السياسات المنافع.

قائد القوات في العراق صرح قبل أشهر تصريحاً خالف كل ما قيل، قال: جئنا من أجل النفط فقط.

في بلد بإفريقيا تمّ قتل ثمانمئة ألف في راوندا، في أسبوع، سمعت تصريحاً لزعيم دولة كبرى عظمى في الغرب، قال: كان بالإمكان أن نحقن دماء أربعمئة ألف، لكننا لم نفعل لمَ لم يفعل ؟ لأن هناك لا يوجد نفط، أما على توهم أسلحة شاملة ثلاثون دولة احتلت العراق.

إذاً النزاع على النفط، على الثروات، على مراكز النفوذ، على السيطرة، على المواقع الاستراتيجية، هذا الصراع.

فالدنيا إن أردناها نتقاتل، لكننا إن أردنا الآخرة نتعاون، الدنيا تسع الجميع، تسع كل الخلق، تحقق كل الطموحات.

((عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أدخِلَ البحرَ ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

تقنين الله تقنين تأديب لا تقنين عجز:

لا يمكن أن يكون تقنين الله تقنين عجز، تقنين الله تقنين تأديب.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ)

(سورة الشورى الآية: 27).

كنت في مدينة في البرازيل عندي محاضرة مساء، تفقدت أخوةً كراماً كنت أنتظر حضورهم في المسجد فلم يحضروا، سألت عنهم ؟ قال: نزل في هذه الليلة مئتا سنتمتر أي أمطار دمشق على مدى العام نزلت في ليلة واحدة، فالطرق قطعت، وارتفع الماء بشكل كبير في الطرقات، فالله عز وجل إذا أعطى أدهش.

كنت في العمرة اقتنيت مجلة علمية رصينة، فيها خبر أن سحابة في الفضاء الخارجي يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم بالمياه العذبة.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة الحجر).

فإذا قلنا هناك تقنين أي تقنينُ البشر، تقنين الكهرباء، و هذا تقنين عجز، أليس كذلك ؟ لكن تقنين الله عز وجل تقنين تأديب.

لذلك:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أطيعوا الله في كليات الدين في القرآن الكريم ، وأطيعوا الرسول في تفصيلات الدين، في السنة المطهرة الصحيحة.

أنواع الاختلافات:

1 ـ الاختلاف الطبيعي:

(وَلَا تَنَازَعُوا)

أخواننا الكرام، هناك اختلاف وقد يوصف بأنه نزاع، اختلاف طبيعي أساسه نقص المعلومات، حينما نسمع في التاسع والعشرين من شعبان صوت مدفع نقول: قد ثبت غداً رمضان، يقول لك: لا، هناك صخرة في الجبل يريدون شق طريق من خلالها ففجروها بلغم، يا ترى هذا الصوت صوت مدفع رمضان، أم تفجير صخرة بالجبل ؟ صار هناك اختلاف بنقص المعلومات، فإذا فتحنا الإذاعة، وجاء البلاغ الذي يؤكد أنه ثبت أن غداً أول شهر رمضان انتهى النزاع، كنا في نزاع، فانتهى النزاع، كنا في خلاف فانتهى الخلاف، الخلاف الطبيعي لا يمدح ولا يذم، خلاف طبيعي أساسه نقص المعلومات، فإذا جاءت المعلومات انتهى الخلاف.

2 ـ الاختلاف القذر:

لكن الخلاف القذر:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

(سورة الشورى الآية: 14).

جاء العلم، اختلاف بغي، اختلاف عدوان، اختلاف مصالح، اختلاف أهواء، اختلاف رئاسة، مناصب،

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

هذا اختلاف قذر.

3 ـ اختلاف المصالح:

بصراحة الإسلام ديننا جميعاً، إلهنا واحد، نبينا واحد، قرآننا واحد، سنتنا واحدة، تاريخنا واحد، لِمَ الخلاف بين الجماعات الإسلامية ؟ صدقوا ولا أبالغ خلاف مصالح، خلاف تحزبات، خلاف أنا، خلاف أهواء، وما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً، ينبغي أن تنتمي لمجموع المؤمنين، أي أخ لك في الله أخ حبيب، من أي جماعة، والدليل:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ)

(سورة الشعراء الآية: 215).

يا محمد، يخاطب الله النبي الكريم:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء).

الآية الثانية:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجر).

عامة، أنت تحب أخوان جامعك طبعاً، نحن أسرة، أسرة إن شاء الله، هناك ود، و محبة، و تعاون، و تعاطف، و تناصح، و تزاور، و بذل، طبعاً شيء طبيعي جداً أن تحب أخوة المسجد، وينبغي أن تحب أي أخ في الله، من أي جماعة، هذا الدين، يجب أن تشعر أنك أخ لكل المؤمنين، لكل الجماعات، هذا ينبغي أن يكون.

أي إنسان صحت عقيدته واستقام سلوكه علينا احترامه و تقديره:

أخواننا الكرام، كلام دقيق جداً، هناك جماعات تتصور أن الإسلام هو خط رفيع ، هو الخط الذي هم عليه، فأي خروج عن هذا الخط ولو لميلي متر خرج عن الدين، هذا أخطر شيء في حياة الجماعات الإسلامية، كل جماعة تتصور أنها هي الإسلام وحدها، وهي تمثل خط رفيع، وأي آخر خرج عن هذا الخط ميلي متر خرج عن الدين، الحقيقة أن الإسلام شريط عريض، هناك يمين، وهناك يسار.

أنا أذكر مرة زارنا عالم جليل في مسجد العثمان، أجلسته مكاني، وتمنيت عليه أن يلقي على أخواني درساً، وصلى بنا العشاء، بعد فترة جاء عالم في الطرف المقابل لهذا، أجلسته مكاني، وتمنيت عليه أن يلقي على أخواني درساً، صلى بنا العشاء، ودعا لنا، أعلنت أخواني أنني أحترم هؤلاء جميعاً، وأقدرهم جميعاً، أي إنسان صحت عقيدته، واستقام سلوكه فهو أخي وحبيبي.

باتجاه معين، باتجاه آخر هذا كله على العين والرأس ما لم يعتقد عقيدة باطلة، ما لم يسلك سلوكاً منحرفاً أنصحه، نتعاون فيما اتفقنا، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا.

فلذلك أيها الأخوة،

(وَلَا تَنَازَعُوا)

لا تنازعوا، إن كان الهدف هو الآخرة لِمَ التنازع ؟ فضل الله عز وجل يسع الجميع، يسع الكل.

((لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ، ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

التنازع بين أفراد الأمة الإسلامية أضعفها مع أنها تتربع على أهم مكان في العالم:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

الفشل هو الضعف، والفشل هو الجبن، تصور أمة تتربع على أهم مكان في العالم، الشرق الأوسط، تعد ـ مع من دخل في الدين الإسلامي مليار وخمسمئة مليون ـ ربع سكان الأرض، النفط كله عندهم، والثروات عندهم، والذهب عندهم، واليورانيوم عندهم، والفوسفات عندهم، عندهم ثروات لا يعلمها إلا الله، يتربعون على منطقة ـ بالتعبير المعاصر ـ استراتيجية، ملتقى القارات الثلاث، عندهم أعماق استراتيجية، أعماق بعيدة، هذه الأمة بدل أن تكون أقوى أمة، هي أضعف أمة، بسبب الخلاف، بسبب التنازع، حرب استمرت بين دولتين إسلاميتين ثماني سنوات.

وفي مؤتمر الدول الصناعية صار هناك تلاسن بين دولة صناعية كبرى في أوربا وبين دولة صناعية كبرى في أمريكا، فهدد الثاني الأول، بماذا هدده ؟ بإيقاف حرب العراق، ثماني سنوات، دُمر كل شيء، ونحن بحاجة إلى أن نشتري كل شيء من عندهم، هدد زعيم دولة غربية بعيدة هدد الدول الأوربية بإيقاف حرب العراق، بين العرب واليهود الحرب ست ساعات فقط، بين دولتين إسلاميتين ثماني سنوات، أرأيتم ؟.

أيها الأخوة،

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

أي تضعفوا، نختلف مع بعضنا، نحتكم إلى دول غربية، تأتي قواتها وتحتل خمس دول إسلامية، تذهب الثروات وانتهى كل شيء، النزاع حُلّ على حساب الطرفين معاً.

الغرب وضعنا جميعاً في سلة واحدة فينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد:

أيها الأخوة،

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا)

والله أيها الأخوة أتصور الآن أن طرح أي قضية خلافية يعد جريمة، لأن الغرب وضعنا جميعاً في سلة واحدة، فينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد، والله بإمكان أي داعية أن يدعو إلى الله لخمسين عام قادمة في المتفق عليه فقط، في الملتقيات، في التقاطعات، فيما لا حرج فيه إطلاقاً، يمكن أن تغفل أي قضية خلافية، وأن تركز على القضايا المتفق عليها، كيف أن الشجرة لها جذع واحد موحد، وهناك فروع، وهناك أغصان، أما لو بقينا في الجذع نحن أمة واحدة.

لذلك

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

تضعفوا، لا أنسى كنت في بلدة في ألمانيا، سرنا في طريق، قال: هنا هولندا، ثقافتنا نحن كأمة عربية، هناك حدود، و سدود، و أمن عام، و بطاقات، و رسم دخول، و انتظار ساعة، و بطاقة السيارة، كم إجراء تجريه إذا انتقلت من بلد عربي إلى بلد عربي ؟ كم جواز ؟ هناك تفتيش دقيق، و وثائق، و ثبوتيات، قال لي: هنا هولندا، ما هذا الكلام ؟ أنا والله ما صدقت، لا يوجد لوحة ؟ لوحة صغيرة، هولندا؟ أبداً، ولا لوحة.

كنت مرة بمدينة بفرنسا بعد الظهر قال: هنا ألمانيا، لا يوجد حدود و لا شيء يدل على أن هذه دولة ثانية ؟! أوربا بأكملها عملة واحدة، اقتصادهم واحد، ناطق واحد باسمهم جميعاً، تصور أن إنساناً واحداً

ينطق باسم مليار وخمسمئة مليون، ربع سكان الأرض، ما مركزه ؟ هذا من ضعفنا، من تفرقنا من تشرذمنا، من تنازعنا، من تفرقنا.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

كل ثرواتنا لا نملكها، كل مواقعنا لا نملكها.

أنا أذكر مرة في حرب الخليج الثانية سارت مسيرات في الأرض أقل مسيرة مليون إنسان، تناهض الحرب الثانية، لم يعبأ هؤلاء الأقوياء بكل هذه المسيرات، وتمت الحرب وأحتلت العراق، أليس كذلك؟.

من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم:

أخواننا الكرام، أنا أتكلم من واقع، هذا القرآن لنا، هذا القرآن كتاب حياتنا، هذا القرآن فيه حل مشكلاتنا.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

بل أدق من ذلك في التعامل اليومي إذا عزّ أخاك فهن أنت، أخوك تفوق كن معه، كن في صحبته، كن في خدمته، فما لم نغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة لن نوفق في حياتنا ما لم نحمل همّ المسلمين، ما لم تشعر أن هؤلاء المسلمين جميعاً أخوانك، ينبغي أن تفرح لما يسعدهم، وأن تتألم لما يؤلمهم، ما لم تسهم في التخفيف عنهم، ما لم تسهم في إسعادهم فلست مؤمناً، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

على مستوى أسرة، على مستوى شركة، على مستوى وزارة، على مستوى مؤسسة، على مستوى جامعة، على مستوى مستشفى.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

هذا الكلام موجه لكل واحد منا، أنت وأخوك بالبيت لا تتنازعوا، تعاونوا، أنت وصديقك، أنت وشريكك، أنت وصاحبك، أنت وجارك، أنت وزميلك.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

أنت وأخوانك،

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

توجيه إلهي من عند الخالق، من عند الخبير. ماذا يقابل ؟

(وَلَا تَنَازَعُوا)

في الدول القوية، مفهوم فريق العمل، فريق العمل نحن أسرة، ينبغي أن نتناصح، أما الذي يحصل في البلاد النامية، موظف دخل جديداً للشركة، كل أخطائه الغير المقصودة تنقل للمدير العام، هكذا فعل، هكذا عمل، يأتيه التنبيه والتعنيف تجده ينكمش، يخاف أن يتحرك، لا يفعل شيئاً، كان عنده حركة، قد تنمو هذه الحركة، بهؤلاء الذين حطموه أمام مدير المؤسسة جعلوه ساكناً، هذا مفهوم التنافس.

علامة إيمانك التعاون لا التنافس:

أقول لكم بإخلاص: علامة إيمانك التعاون لا التنافس، التناصح لا تسجيل الأخطاء، تحب المصلحة العامة اتصل به هاتفياً، قل له: هذه الفكرة أتمنى أن تراجعها، صوابها كذا ، وأسأل الله أن يلهمك الصواب، في الأسبوع القادم يقول لك: والله أنا تكلمت كلاماً ووجدت الصواب بخلافه، انتهى الأمر، أما يقول: لا، أنا لا أنصحه، ليس هذا سلوك المخلصين، نحن أمة واحدة ينبغي أن نتعاون.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا)

لذلك قالوا: الحرب بين حقين لا تكون مستحيل، لأن الحق لا يتعدد، الحق واحد، بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، لو حاولت أن ترسم مليون مستقيم كلها تأتي فوق بعضها بعضاً، الحق واحد.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية: 153).

الباطل متعدد، الحق واحد.

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة الآية: 257).

النور مفرد، لأنه الحق واحد، والظلمات جمع، ما قال من الظلمات إلى الأنوار وما قال من الظلمة إلى النور،

(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، أما يمر مليون خط منحني، مليون خط منكسر، فالباطل متعدد، أما الحق واحد.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

فالحرب بين حقين لا تكون ، وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي، بين حق وباطل لا تطول، بين باطلين تطول، تطول كثيراً، لا تنتهي، وبين حقين لا تكون، فإذا إنسان وجد منازعة من مؤمن إذاً هناك واحد على خطأ.

((مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[رواه أحمد عن ابن عمر، وإسناده حسن]

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

ينبغي على كل مسلم أن يكون مع أخيه و يعاونه لا ينافسه و يقضي عليه:

أخواننا الكرام، يوجد بالقرآن ريح، و رياح، الرياح جمع، إن كان هناك رياح من جهات عديدة تكون رياحاً، متوازنة، معتدلة، هادئة، أما إذا جمعت الرياح كلها في جهة واحدة أصبحت ريحاً مدمرة، هناك ريح سرعتها ألف كم تدمر كل شيء، يأتي إعصار على بلدة لا يبقي فيها حجراً فوق حجر، تقتلع الأشجار، الجدران تسقط أحياناً، فكل سرعة لها تدمير، أما الريح إذا اجتمعت الرياح في جهة واحدة، ونحو هدف واحد تدمر كل شيء.

قال:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

تذهب قوتكم، تصور مليار وخمسمئة مليون معهم نفط العالم، معهم ثروات طبيعية، معهم نفط إستراتيجي، تصور هم أمة واحدة، لهم قيادة واحدة، واحد ينطق باسمهم جميعاً، التصريح الواحد من هؤلاء يهز العالم كله، أما عشرات الدول متصارعة، متحاربة، الدماء تسيل بين المؤمنين، يومياً يوجد خمسون قتيلاً، وثمانون جريحاً.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

ينبغي أن تصبر على أخيك، أخوك تفوق كن معه، أعنه لا تنافسه.

ثمن الجنة تناقض الطبع مع التكليف:

أقول لكم هذه الحقيقة: الدعوة إلى الله الدعوة الخالصة فيها اتباع ليس فيها ابتداع، الدعوة إلى الله الخالصة فيها تعاون، وليس فيها تنافس، الدعوة إلى الله الخالصة فيها قبول الآخر، وليس فيها رفض الآخر، الدعوة إلى الله الخالصة فيها قبول للنصيحة، الدعوة إلى الذات فيها رفض للنصيحة.

بالمناسبة الإنسان عنده طبع، و عنده تكليف، والطبع يتناقض مع التكليف، ومن تناقض الطبع مع التكليف يكون ثمن الجنة، الطبع أن تأخذ المال، والتكليف أن تنفقه، هناك تناقض، التكليف أن تستيقظ على صلاة الفجر، والطبع أن تبقى نائماً، الطبع أن تملأ عينك من محاسن المرأة، والتكليف أن تغض البصر، من تناقض الطبع مع التكليف يكون ثمن الجنة.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات).

الطبع فردي والتكليف تعاوني:

الآن استمعوا الطبع فردي، والتكليف تعاوني.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة الآية: 2).

التكليف تعاوني، والطبع فردي، فأنت تؤكد فرديتك، وتبني مصلحتك على حساب الأمة، إذا كنت بعيداً عن الله، فإذا كنت مع الله تؤثر التعاون على الفردية، فكل إنسان يتحرك إما بقيمه أو بطبعه، من ملأ عينه من محاسن امرأة في الطريق، تحرك هذه النظرات من خلال طبعه، ومن غضّ بصره عن محارم الله تحرك من خلال مبادئه وقيمه.

أبسط مثل: من أخذ المال من أي وجه حلال أم حرام تحرك وفق طبعه، من عفّ عن المال الحرام، وأنفق هذا المال في سبيل الله، تحرك في مبادئ إسلامه وقيمه، فأنت إما مع الطبع، أو مع التكليف، التكليف مبادئ وقيم، والطبع سجية.

العالم الغربي يخلق بؤراً في العالم ليغتني و يبني مجده على مشكلات أهل الأرض:

لذلك

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

ما سبب التنازع ؟ الفردية، الإنسان فردي، يحب أن يتميز، يحب أن يكون مهماً، يحب أن يشار إليه بالبنان، وقد يصل به الأمر أن يبني مجده على أنقاض الآخرين، أن يبني غناه على فقرهم، أن يبني عزه على ذلهم، أن يبني قوته على ضعفهم، أن يبني كرامته على إذلالهم، أن يبني مجده على أنقاضهم، الطبع ينتهي إلى هذا العالم كله، الآن عشرة بالمئة من سكان الأرض يملكون تسعين بالمئة من ثروات الأرض، ومع ذلك هناك صراع لا ينتهي، والله الذي ينفق على الأسلحة لو أُنفق في إعمار الأرض لكان أهل الأرض جميعاً في بحبوحة، مليارات، صاروخ ثمنه اثنان ونصف مليون دولار، يطلق عشرين صاروخاً قد لا يصيب ولا واحد، اضرب عشرين باثنان ونصف مليون، الإنفاق على التسليح إنفاق فلكية، لذلك عدوا عقود السلاح عقود إذعان لا عقود تراض، أحياناً بمئة ضعف يزيد السعر عن الكلفة، عقود إذعان.

لذلك أربح تجارة في الأرض السلاح والمخدرات، المخدرات من مكان الزراعة إلى مكان البيع ألف ضعف، الليرة تصبح ألف ليرة، من مكان الزراعة إلى مكان البيع، فلذلك المخدرات تجارة رابحة جداً، والسلاح كذلك.

لذلك مرة دولة عظمى كلفت ثلاثين عالماً أن يقبعوا في مكان جميل ليجيبوا الحكومة عن سؤال، أيهما أربح لهذه الدولة العملاقة الحرب أم السلام ؟ فكان الجواب الحرب، الحرب تصبح عقود إذعان، تبيع البضاعة مع التنافس أقل ربح ثلاثون بالمئة، أما بالمئة ألف لا يوجد إلا بالسلاح.

فلذلك العالم الغربي يخلق بؤراً في العالم، هناك بؤرة بين الهند وباكستان "كشمير"، هناك بؤرة السودان، هناك بؤرة في الشرق الأوسط، في كل منطقة هناك بؤرة توتر، هذه البؤرة تستدعي شراء مئات الدبابات، وقد تُدمر في حرب واحدة، دبابات وطائرات، لذلك الغرب يغتني على مشكلات أهل الأرض، سياسته بيع السلاح، والسلاح بيع إذعان، لا يوجد مساومة بالسعر أبداً ، يفرض سعراً، طائرة مئة مليون، رقم فلكي تسقط بصاروخ واحد.

فلذلك قضية خلق بؤر توتر في العالم هذه سياسة بعيدة جداً، بؤرة في الشرق الأوسط "فلسطين"، بؤرة بين الهند والباكستان، ببنغلادش، بؤرة في السودان، بؤرة هنا، في أي مكان هناك بؤرة توتر، تستدعي شراء أسلحة، وتدمير أسلحة، والغرب يعيش في بحبوحة تفوق حدّ الخيال، أما آن أن نصحو من غفلتنا؟

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

تذهب قوتكم

(وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

النبي الكريم جاء بمكارم الأخلاق و طاعة الله عز وجل:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

(سورة الأنفال).

قريش بلغهم أن سرية من المسلمين توجهت إلى قافلتهم التي حُملت بالبضائع، أبو سفيان توجه إلى ساحل البحر، فخرجت قريش من أجل الدفاع عن هذه القافلة.

(خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً)

بلغهم أن القافلة نجت، أبو سفيان أخذها إلى البحر، فقيل لهم: ارجعوا، فرفضوا، و قالوا: نريد أن نقاتل محمداً، من أجل أن تعلو مكانتنا في الجزيرة، من أجل أن ترهبنا القبائل.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ)

السمعة نحن أقوياء، نحن هنا، نحن أقوى من محمد وأصحابه، القافلة نجت، وانتهى الأمر، لا:

(خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

بماذا جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ؟ جاء بطاعة الله، جاء بمكارم الأخلاق.

((وإنما بعثت معلماً))

[أخرجه الحارث عن عبد الله بن عمرو بن العاص].

((إنما بعثت مكارم الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة].

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

الشيطان يورط الإنسان و يغريه بمعصية كبيرة و نتائج كلها وهمية:

(وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة الأنفال).

هذه النقطة الدقيقة:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم الآية: 22).

ما لي عليكم سلطان أبداً، إلا أنني وسوست لكم،

(فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ)

أنا معكم،

(فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

إذاً الشيطان يوسوس من أجل أن تتورط، فإذا تورطت في معصية يقول لك: إني أخاف الله رب العالمين، هذا بالتعبير اليومي مقلب كبير جداً، وقعت في فخه، هذه من فخوخ الشيطان يغريك بالمعصية و يسهلها لك.

مرة سبع أشخاص ائتمروا على قتل صائغ، في بلدة قريبة من دمشق، قتلوه ووضعوه في بئر وأخذوا مركبته مع عدد من الأوزان الكبيرة من الذهب، أذكر بعد ثلاثين أو أربعين يوماً تمّ إعدامهم في المكان نفسه، حينما أقدموا على هذا العمل بماذا زين لهم الشيطان أعمالهم ؟ تنجون من العقاب، أليس كذلك ؟ هل من الممكن أن إنساناً يرتكب جريمة سرقة، ويعتقد جازماً أنه سيقبض عليه ويودع في السجن ؟ مستحيل ! لا يوجد إنسان يرتكب جريمة سرقة وقتل إلا وفي تخطيطه أنه سينجو، الشيطان يورطك،

يغريك بمعصية كبيرة، يغريك بنتائج كلها وهمية، بعد التورط يأتي العقاب، هذا من عمل الشيطان، إذا جاءك خاطر يتناقض مع منهج الله قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف الآية: 23).

من جاءه خاطر من الشيطان يتناقض مع منهج الله فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم:

أخواننا الكرام، بصحيفة دمشقية سائق صعدت إلى مركبته امرأة، مركبة عامة سألها إلى أين ؟ قالت له: خذني إلى أين تشاء، رآها مغنماً كبيراً، بعد أن قضى حاجته منها أعطته رسالتين، رسالة فيها مبلغ مزور أودع السجن، والثانية فيها سطر واحد مرحباً بك في نادي الإيدز، لو كان مؤمناً لركلها بقدمه، عندما قالت له: خذني إلى أي مكان رأى هذا مغنماً، فالشيطان وسوس له، فأصيب بمرض الإيدز، وأودع السجن، أنا قرأتها في صحيفة دمشقية، قبل سنوات عديدة.

الشيطان هكذا يغريك بالمعصية، يزينها لك، يعتم عليك النتائج كلها، فإذا وقعت في الفخ يقول لك:

(إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

هذا مقلب كبير جداً فكن صاحياً.

أيها الأخوة الكرام، في درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (17-30): تفسير الآية 49 ، الناس ثلاثة أصناف مؤمن ومنافق وكافر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-10-02

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن واضح علانيته كسريرته وظاهره كباطنه:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السابع عشر من دروس تفسير سورة الأنفال، ومع الآية التاسعة والأربعين وهي قوله تعالى:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة، لا شك أن سورة البقرة افتتحت بالحديث عن الأصناف الثلاثة ؛ عن المؤمنين، وعن الكافرين، وعن المنافقين، والملاحظة الشمولية أن المؤمن واضح، علانيته كسريرته، ظاهره كباطنه، ما يقوله تعبير عما في نفسه، والله عز وجل وصفهم بآيتين أو ثلاث، قال:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة).

أي صدّق حين أخبره الله بكتابه الكريم أن هناك جنة عرضها السماوات والأرض ، صدق الله وعمل للجنة، هذا موقف يحتاج إلى بطولة، على الشبكية هناك شهوات محسوسة، على الشبكية هناك امرأة جميلة، هناك قصر فخم، هناك سيارة فارهة، هناك طعام طيب، لم يعبأ بما على الشبكية، ولكنه عمل لما أخبره الله به من حياة أبدية، أخبر الله عباده المؤمنين فقال:

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

(سورة الضحى).

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

(سورة الإنسان).

لذلك هذا المؤمن صدق ربه، لأن الكون كله يشهد لله بعظمته، والبطولة أن المؤمن بدأ من التفكر في السماوات والأرض، رأى كوناً ينطق بوجود الله، وبوحدانيته، وكماله، رأى من خلال الكون حكمة الله، رأى رحمة الله، رأى علم الله، رأى قوة الله، رأى غنى الله، رأى وحدانيته الله، هذا كله رآه.

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم أقوى دليل على أن القرآن كلام الله:

لذلك عندما قرأ القرآن، من خلال الوعد والوعيد، ومن خلال إعجازه، صدق أن هذا الكلام كلامه، وأن الذي جاء بهذا الكلام رسوله، انظر التسلسل، الأصل هو الكون، فكر في كون ينطق بكل جزئياته، بوجود الله، ووحدانيته، وكماله، وأن هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، فتعرف بالله من خلال الكون، ثم قرأ كتاباً فإذا فيه معجزات، أو إن صحّ التعبير إعجاز، ففيه إشارات كثيرة إلى حقائق علمية لم تكن معروفة إطلاقاً وقت نزول الوحي، عرفت بعد مئات السنين، أو بعد ألف و أربعمئة عام.

فالإعجاز العلمي في القرآن الكريم أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله، وعلى أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل القرآن، فلذلك آمن بالقرآن كلام الله عز وجل، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، ثم آمن أن الذي جاء بهذا القرآن هو رسول الله.

الآن انتهى دور العقل، بالعقل آمن أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، رحيماً، قوياً، حكيماً، غنياً، موجوداً، واحداً، كاملاً، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، واحداً، أحداً، فرداً:

(الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

(سورة الإخلاص).

العقل دليل الإيمان بالشيء الذي غابت عينه وبقيت آثاره:

لما آمن بالله عز وجل من خلال هذا الكون الآن رأى أمامه كتاباً، يقال: إنه كلام الله، قرأ في هذا الكتاب فإذا كل شيء وعد به يتحقق، وإذا كل شيء يتوعد الله به يتحقق، وقوع الوعد والوعيد أحد أكبر الأدلة على أن هذا الكتاب كلام الله، ثم هناك الإعجاز العلمي، فآمن بالقرآن على أنه كلام الله، والذي جاء به هو رسول الله، أي مما يشهد للنبي أنه نبي هذا القرآن، الآن انتهى دور العقل، وجاء دور النقل، القرآن أخبرك أن هناك حياة أبدية لا تنتهي، القرآن أخبرك أن هناك حساباً دقيقاً:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر).

الآن القرآن أخبر عن أشياء غيبية، لذلك كنت أقول لكم دائماً: هناك دائرة المحسوسات، أداة اليقين بها الحواس الخمس، واستطالاتها، كالميكروسكوب، والتليسكوب ، هناك أشياء حسية ملموسة، شيء تمسكه، تحمله، تمتحن نعومته، بحواسك الخمس، تراه حجماً، وشكلاً، ولوناً، تحمله، تدرك وزنه، هناك أشياء حسية ظهرت عينها، وظهرت آثارها فأداة اليقين بها الحواس الخمس واستطالاتها، هذه لا تعنينا

كثيراً واضحة، لكن هناك أشياء غابت عينها و بقيت آثارها، هذه الأشياء كالكهرباء مثلاً، نحن لا نرى الكهرباء، لكن نرى مصباحاً متألقاً، نرى صوتاً يكبر، نرى مروحة تدور، نرى ثلاجة تبرد، نرى سخاناً يسخن، هذه كلها آثار الكهرباء، فالشيء الذي غابت عينه وبقيت آثاره دليل الإيمان به العقل، العقل مختص بموضوع غابت عينه، وبقيت آثاره.

الإيمان بوجود الله ووحدانيته وكماله أعظم موضوع على الإطلاق:

لذلك أعظم موضوع الإيمان بالله، الذات الإلهية لا نراها، بدليل قوله تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام الآية: 103).

لكن كل هذا الكون أثر من آثار الله عز وجل، ترى في الكون رحمته، ترى الطفل الصغير، ترى الكائنات كيف تتنامى، ترى النباتات، ترى الحيوانات، ترى الأطيار، ترى الأسماك، ترى البحار، ترى السماوات والأرض، ترى الكواكب، المجرات، هذا كله تراه، فالكون مظهر لأسماء الله الحسنى، والكون مظهر تجسيد لهذه الأسماء، لكن يحتاج إلى عقل، العقل أساسه يرى شيئاً مادياً، محسوساً، ملموساً، له وزن، له طول، له عرض، له ارتفاع، له مسافة، له لون، له صوت، له رائحة، له ملمس، يحكم على صانعه، فالعقل دوره أنه يعرف الخالق من الخلق، يعرف المسير من التسيير، يعرف الحكيم من الحكمة، يعرف القدير من القدرة، يعرف القوة من القوي، هذا مجال العقل، بعد أن يؤمن الإنسان من خلال عقله بوجود الله، ووحدانيته، وكماله.

والمقولة الشهيرة: الأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، والبعرة تدل على البعير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟.

وقوع الوعد والوعيد أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله:

الآن بعد أن تؤمن بالله موجوداً، وواحداً، وكاملاً، وأن أسماءه كلها حسنى، وأن صفاته كلها فضلى، وأن تؤمن بقدرته، ورحمته، وحكمته، وعلمه، وغناه، الآن تؤمن بكلامه من خلال أقوى دليلين وقوع الوعد والوعيد.

للتقريب: رأيت في البحر باخرة عملاقة، الآن يوجد بواخر حمولتها تزيد عن مليون طن، مدينة تتحرك، حاملات الطائرات مدينة، مئة طائرة تطير من هذه الحاملة وتعود إليها، فيها غرف، ملاعب، مطابخ، مدينة تمشي.

لو رأيت حاملة طائرات تمخر عباب البحر، مبتعدة عن الميناء، وادعى إنسان أنه قائدها ما الدليل ؟ قال لك: سأعطيها أمراً أن ترجع، أعطاها أمراً أمامك أن ترجع، فهذه المدينة العملاقة رجعت إلى الميناء، فكلامه صادق ؟ طبعاً صادق، أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله وقوع الوعد والوعيد.

مثلاً الحياة الطيبة التي يعيشها المؤمن مصداق لقول الله عز وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: 97).

فالحياة الطيبة التي يحياها المؤمن هي مصداق لقوله تعالى لهذه الآية، معنى ذلك أن الحياة الطيبة بيد الله، والله أخبرنا أنه:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

هو يعيش حياة طيبة، هذا أقوى دليل على أن القرآن كلام الله، والإنسان القوي جداً، والغني جداً، معيشته ضنك:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية: 124).

فالمعيشة الضنك الذي يحياها الكافر، البعيد عن الله، المعرض عن ذكر الله، هي مصداق قوله تعالى، فأقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله وقوع الوعد والوعيد، وأقوى دليل بالإعجاز العلمي، فأنت حينما تؤمن بالله واحداً موجوداً، واحداً كاملاً، وتؤمن بأن هذا القرآن كلام الله، من لوازم هذا الإيمان أن الذي جاء بهذا القرآن هو قطعاً رسول الله، فآمنت به، انتهى دور العقل، جاء دور النقل، النقل أخبرك الله أن هناك دار الآخرة فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

أخبرك الله أن هناك حساباً دقيقاً:

((ليأتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في تمرة قط))

[أخرجه الطبراني عن عائشة أم المؤمنين]

هناك حساب دقيق، أخبرك القرآن أن هناك نار جهنم، لا يموت فيها الكافر ولا يحيا، كل شيء أخبرك الله به، الآن هذا المصدر الثالث في الدين، هناك محسوسات أداة اليقين بها الحواس الخمس، هناك معقولات أداة اليقين بها العقل، هناك إخباريات أداة اليقين بها الخبر الصادق، كل هذا الكلام من أجل أن نعلم ما معنى:

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

أكبر سبب دعا المؤمنين إلى طاعة الله أنهم آمنوا بالغيب:

المؤمن آمن بالغيب، آمن بشيء لا يراه، لكن كل شيء يغيب عليه، رأى دخاناً قال: لا دخان بلا نار، ما رأى النار رأى الدخان، فالدخان ليس ناراً لكن من آثار النار، رأى آثر النار ولم يرَ النار.

لذلك هؤلاء المؤمنون بطولتهم أكبر سبب دعاهم إلى طاعة الله أنهم آمنوا بالغيب ، آمنوا بما أخبرهم الله به، هناك حياة أبدية، هذا الإيمان بالغيب يقتضي أن يتقوا معصية الله، هذا الإيمان بالغيب يقتضي العمل الصالح، لذلك:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل).

صدق أنه مخلوق للجنة، فاتقى أن يعصي الله، فبنى حياته على العطاء، أعطى واتقى لأنه صدق بالحسنى، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل).

كذب بالآخرة وآمن بالدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ، هذا التصنيف القرآني لبني البشر، إنسان صدق أنه مخلوق للجنة فآمن بالغيب، واتقى أن يعصي الله، لأنه صدق أنه مخلوق للجنة، وبنى حياته على العطاء، وإنسان آخر كذب بالحسنى، لم يصدق بالآخرة، كلام فارغ، الدنيا هي الجنة وهي النار، والغني في جنة، فكذب بالحسنى واستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، هذان الصنفان من بني البشر ولن تجد ـ والله أعلم ـ صنفاً ثالثاً.

الفلاح نجاح في الدنيا والآخرة معاً:

لذلك هؤلاء المؤمنون آمنوا بالغيب، وأقاموا الصلاة:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة البقرة).

ثم آمنوا بالدعوة إلى الله، آمنوا بالأنبياء السابقين.

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة).

الفلاح نجاح في الدنيا والآخرة معاً، النجاح في الدنيا وحدها يسمى نجاحاً، إنسان يحمل أعلى شهادة في الدنيا، إنسان يملك أكبر ثروة في الأرض، النجاح في الدنيا يعد نجاحاً لكن لا يعد فلاحاً، أما الفلاح

أن تنجح في الدنيا والآخرة، أن تنجح في الهدف الذي خلقت من أجله، هذا أول صنف، المؤمن واضح يعمل للآخرة، يخاف الله وحده، لا يخشى غير الله ، يحاسب نفسه حساباً دقيقاً جداً، يحاسب نفسه على نظرة لا ترضي الله، على كلمة تفوه بها خطأ، يحاسب نفسه على تمرة.

رأى النبي تمرة على السرير فاشتهاها، فقال: " يا عائشة لولا أنني أخشى أنها من تمر الصدقة لأكلتها"، ظن أنه جاءه طبق من التمر صدقة فوقعت منه، قال: " لولا أنني أخشى أنها من تمر الصدقة لأكلتها "، صار ورعاً.

المؤمن واضح و الكافر واضح:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

واضحين، المؤمن واضح آمن بالله، وبنى كل حياته على الإيمان بالله، بنى كسب ماله على الحلال، يركل بقدمه ملايين مملينة، لأنها لا ترضي الله، ويقبل بدخل محدود من طريق مشروع يرضي الله، يبحث عن زوجة مؤمنة صالحة يتمنى أن تكون جميلة إضافة إلى صلاحها، لكن لو جاءته جميلة ليس فيها دين يرفضها، بنى حياته، بنى عمله، بنى زواجه، اختار عملاً ينفع المسلمين، هناك عمل يبنى على ابتزاز أموال الناس، أو على إلقاء الرعب في قلوبهم، لو كان دخله فلكي يرفضه، نحن نظن أن المؤمن شخص عادي، المؤمن مرتبة عالية جداً، مرتبة علمية، مرتبة أخلاقية، مرتبة فكرية، مرتبة جمالية. لذلك:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

المؤمن واضح جداً، له منظومة قيم، ومبادئ، ومنطلقات، وأنماط سلوك ثابتة، هذا أول صنف، ومع الأسف الشديد والكافر واضح جداً، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة البقرة).

ألغى من حياته الدين، مرة حدثت مندوب شركة في هولندا شيئاً عن الدين، قال لي: هذه الموضوعات لا تعنيني إطلاقاً، ولا أهتم بها، ولا ألقي لها بالاً إطلاقاً، أنا لا يعنيني إلا امرأة جميلة، ومركبة فارهة، ومنزل كبير، واضح، الكافر واضح، له ميزة أنه واضح، لا تنغش به أبداً، واضح، الدين ألغاه من حياته، كالأجانب، ألغوا الدين من حياتهم كلياً واستمتعوا بالدنيا من أعلى درجة، أتقنوها، أتقنوها إتقاناً مذهلاً، عندما أتقنوها ملكوها، ملكوا الدنيا، أتقنوا الدنيا، وآمنوا بها، واكتفوا بها، ولم يعبؤوا بالآخرة.

بقلب المؤمن من الرضا والطمأنينة و السكينة ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم:

أخواننا الكرام، المؤمن واضح، آمن بالله، وباليوم الآخر، وجعل كل حركاته ونشاطاته وفق منهج الله، وسعى للدار الآخرة، لكن المحسوسات لم يعبأ بها، آمن بالمغيبات، آمن بجنة عرضها السماوات والأرض، يسعى إليها، من الذي وعده بها ؟ خالق السماوات والأرض، الذي وعده بها خالق هذا الكون.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة الآية: 111).

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

(سورة النساء).

بمنتهى العقل، بمنتهى الذكاء، بمنتهى الفلاح، بمنتهى الفوز، آمن بالآخرة، لكن الله ما منعه أن يأكل، ويشرب، ويتزوج، وينجب، ويعمل، أقسم لكم بالله بل إن استمتاع المؤمن في الدنيا بطريق مشروع، لأنها وفق منهج الله، ولأن العلاقة مع الله نامية جداً، فيسعد بالدنيا أيما سعادة.

بل إن بعض الملوك ـ اسمه إبراهيم بن الأدهم، مدفون في جبلة، كان ملكاً، ثم ترك الملك و أصبح عارفاً بالله ـ قال هذه الكلمة الرائعة: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف.

والله الذي لا إله إلا هو يوجد بقلب المؤمن من الرضا، من الطمأنينة، من السكينة، من الأمن، من الحكمة، ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، المؤمن واضح، يركل بقدمه مليار يقبل بخمسة آلاف بالشهر، لا لأنه أحمق، لأنه ذكي جداً، لأنه ضمن الآخرة بهذه الطريقة، أنا أخاف أن تتوهموا أنه فقط يصلي، منطلقاته، فكره، مبادئه، قيمه، نظام حياته، زواجه، تربيته لأولاده، كل أعماله وفق الآخرة، مرتاح.

إلغاء الكافر الآخرة و الإيمان من قلبه كلياً:

أما الكافر أيضاً واضح، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة البقرة).

ألغى الآخرة من حياته، ألغى الإيمان بالله كلياً.

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(سورة البقرة الآية: 7).

هذا ختم يسمونه تحصيل حاصل، هذه الأبواب المفتوحة لو أن الباب الخارجي مغلق هي بحكم المغلقة، أليس كذلك ؟ لو أردت أن تخرج الخارجي مغلق، ما قيمة هذه الأبواب ؟ قال:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

المعنى:

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

(سورة القرة الآية: 7).

والغشاوة هي حب الدنيا، وحبه للدنيا جعله أعمى أصم.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة البقرة).

انتهى وصفهم واضحين جداً، آيتان، المؤمنون خمس آيات، الكفار آيتان، الآن ميزة الكافر واضح، الغرب ليس فيه دين، مؤمن بالدنيا بالمال، المال هو كل شيء.

مرة ذهب عالم من دمشق إلى أمريكا، جلس بحديقة و إلى جانبه شخص، هذا العالم أسمر اللون فسأله الشخص الجالس بجانبه عن دينه، قال له: أنا مسلم، قال له: ما الإسلام ؟ قال له: أتحب أن أحدثك عنه خلال ساعة ؟ قال له: ممكن، هذا عالم كبير، وله تفسير دقيق جداً، فحدثه عنه بخمسين دقيقة، فكان رد فعل هذا الإنسان أنه أخرج من جيبه مئة دولار، قال له: أنا هذا إلهي أعبده من دون الله، واضح وضوح الشمس، يؤمن بالدنيا، بالمتعة، بالجمال، بالرفاهية، الآن كل أقول السياسيين يتحدثون عن الرفاه فقط، نجاحهم بالحياة، أو نجاحهم بإدارة حياتهم يتعلق بتأمين الرفاه لشعبهم فقط، الرفاه لا الإيمان.

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

المنافق له ظاهر وله باطن و يتكلم بشيء لا يؤمن به:

أما المشكلة الكبيرة هذا الصنف الثالث:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

(سورة البقرة).

له ظاهر وله باطن، يتكلم بشيء لا يؤمن به، يجلس مع المؤمنين يظهر إيمانه المزور.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة البقرة).

الله عز وجل وصفهم بثلاث عشرة آية، الإنسان يتحرك، يجلس مع المؤمنين يعمل نفسه مؤمناً، يأخذ كل ميزاتهم، يجلس مع الكفار يستهزئ بالمؤمنين.

المنافق في نص الآيات التالية كافر مبطن وعذابه أشد:

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

لأنه أخذ ميزات المؤمنين في الدنيا، واستمتع كما استمتع الكافرون قال:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

(سورة النساء الآية: 145).

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ)

(سورة البقرة الآية: 13).

هؤلاء سفهاء.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية: 13).

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)

المنافق في نص هذه الآيات كافر مبطن، كافر، وعذابه أشد،

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

واضح ؟.

الشبهات حجاب بين الإنسان و ربه:

أردت بهذه المقدمة أن أبين لكم ما معنى قوله تعالى:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ)

هناك حالة ثانية، أنا لا أسميها نفاقاً،

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

هناك إنسان إيمانه ضعيف، عنده شبهات، هذه الشبهات كانت حجاباً بينه وبين المؤمنين، لماذا هناك حروب في الأرض مثلاً ؟ لماذا هناك طفل يموت صغيراً ؟ عنده شبهات ما سأل عنها، فكانت هذه الشبهات حجاباً بينه وبين الله.

لذلك أنا أقول لكم: الذي عنده سؤال خطير يسأل عنه، لا يبقى بشك، وبحيرة، أحياناً الشبهات تكون حجاباً بينك وبين الله، الله يعلم أن هذا الإنسان كافر، لماذا خلقه ؟ طبعاً الشياطين عندهم خبث كبير جداً، يطرحون عليك أسئلة تتوهم أنه لا يوجد لها جواب، هي لها جواب.

فلذلك إذا الإنسان تعثرت خطاه في السير إلى الله من خلال بعض الشبهات ينبغي ألا ينام الليل حتى يبحث عن جواب لها، لا تقل: أنا لا أسأل، إذا لم تسأل ليس لك قيمة عند الله عز وجل، اسأل، لكل شبهة جواب.

أيها الأخوة،

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ)

تحدثنا عنهم، هؤلاء الكفار الذين يمثلون.

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

فالمرض يأتي إما من شبهة، أو من شهوة.

المريض في عالم الإيمان أسباب مرضه شبهة أو شهوة:

الآن عندنا عقبة أخرى، غير الشبهة، الشهوة، أحياناً الإنسان تغلبه شبهة، أو تغلبه شهوة، المريض في عالم الإيمان أسباب مرضه شبهة أو شهوة.

لذلك قال تعالى:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ)

هؤلاء الكفار، الكفار الذين يمثلون دور المؤمنين،

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ)

والدليل: ألا إن المنافقين هم الكافرون، هم

(فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

المرض بسبب شبهة ليست واضحة عنده، سمع درساً أن الإنسان مكتوب عليه كل شيء قبل أن يولد، الأمر منته، والله ليس عنده مشكلة.

إذا كان مدرسة أول يوم بالعام الدراسي وقف المدير، قال: سأتلو عليكم أسماء الناجحين في آخر العام، وأسماء الراسبين، اذهبوا و ادرسوا، من الآن يدرس ؟ الأمر منته.

عند الناس بعض الشبهات إما بالقضاء والقدر، أما باختلاف، تجد غنياً يكاد يموت من التخمة، وفقيراً يكاد يموت من الجوع، تجد غنى وفقراً، هناك غني وهناك فقير، هناك قوي وهناك ضعيف، هناك صحيح وهناك مريض، هناك فتاة جميلة جداً يتهافت عليها كبار الأغنياء وهناك فتاة مستوى شكلها أقل مما ينبغي تجدها تعاني ما تعاني، يا رب ما الحكمة ؟ يوجد شبهات، أي اختلاف توزع الحظوظ في

الأرض، شاءت حكمة الله أن يكون هناك إنسان غني وهناك إنسان فقير، هناك إنسان وسيم جداً وآخر دميم، إنسان طويل العمر يقول لك: عمري ثمانية و تسعون، و إنسان يموت بالثامنة عشر، هناك مئات الشبهات هذه تحول بين المؤمن ضعيف الإيمان وبين أن يسعى إلى الله، وهناك شهوات كثيرة، المرأة أحد أكبر الشهوات، يوجد إنسان يعصي الله لا عن كفر لكن شهوته غلبته، هذا الإنسان الذي عنده شبهة حالت بينه وبين الاستقامة، أو عنده شهوة غلبته، كما سماه الله هنا ليس منافقاً لكنه مريض ضعيف الإيمان، فالآية تقول:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ)

مرضى القلوب إما بشبهات القضاء والقدر أو بسبب شهوات غلبتهم:

والله هناك آية أيها الأخوة:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود الآية: 88).

المؤمن على بينة، الأمور عنده واضحة جداً، الأمور كالشمس، والآن في هذا العصر اللون الرمادي اختفى، هناك مؤمن واضح الإيمان، وهناك كافر واضح الكفر، لأن الإيمان ضعيف، الآن لا يوجد نفاق، المنافقون قلة قليلة جداً، ما من داع لأن ينافق، العالم كله مع الكفر، الآن قلما تجد منافقاً، لماذا ينافق ؟ يفطر جهاراً في رمضان، ويتحدث عن مغامراته في المعاصي والآثام، لا يخاف، العالم الآن كله مع الكفر، الإيمان ضعيف جداً.

فلذلك هؤلاء مرضى القلوب إما بشبهات القضاء والقدر، بالخير والشر، بتوزيع الحظوظ في الدنيا، أو بسبب شهوات غلبتهم، هؤلاء يقولون

(غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ)

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود).

الآن غير المؤمن يقول لك كم دخلك ؟ يقيمك كلك بدخلك فقط، لا يوجد عنده شيء آخر، إذا كان دخلك محدوداً وأنت أسعد الناس، ساكن في بيت صغير، وعندك زوجة صالحة تحبها وتحبك، ولك هدف كبير، تسعى إليه أنت أسعد الناس.

الآن بمقاييس الدنيا يقيّم الشخص بمتاعه فقط، أين ساكن ؟ بحي متواضع، مساحة بيتك تقدر بستين متراً، دخلك ثلاثة آلاف، خمسة آلاف بالشهر، هذا عند الغني لا شيء صفر، قد يكون هذا الفقير قلامة

ظفره ـ أقسم لكم بالله ـ تساوي أغنى أغنياء العالم، قد تكون حاجباً مستقيماً، وهناك مدير عام غارق في المعاصي والآثام، وقبول الرشوة، والمال الحرام، هذا الحاجب الذي على بابه قلامة ظفره تعدل كل هؤلاء الأشخاص المنحرفون.

بطولة الإنسان أن يعرف موازين الله عز وجل:

عند الله موازين، بطولتك أن تعرف موازين الله، لذلك:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران).

بمقاييس الدنيا الذي اشترى أرضاً قبل عشر سنوات، والآن تضاعفت ثلاثمئة ضعف يقول لك: بيته بالجنة، أي جنة هذه ؟ تستطيع أن تأكل أكثر من وجبة طعام واحدة ؟ أغنى أغنياء الأرض يأكل وجبة طعام، ينام على سرير واحد، يرتدي ثوباً واحداً، هل يوجد غير هذا؟ الدنيا محدودة لها سقف.

المؤمن إنسان سعيد لأنه آمن بالله تعالى:

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبه))

[أخرجه الترمذي عن عبيد الله بن محصن]

أي مؤمن مطمئن، ليس ملاحقاً، ليس مرتكباً أي خطأ، حتى يكون عليه إذاعة بحث، لو طرق بابه ليلاً من الطارق ؟ و هناك إنسان إن طرق بابه ليلاً يموت من الخوف، أما المؤمن ليس مطلوباً، لا يوجد مذكرة بحث بحقه.

((آمِنا في سِرْبه مُعافى في جَسَدِهِ))

النبي استيقظ مرة قال:

((الحمد لله الذي رد عليّ روحي و عافاني في جسدي و أذن لي بذكره))

[صحيح عن أبي هريرة]

فالمؤمن سعيد جداً، فلذلك النقطة الدقيقة الإنسان حينما يبتعد عن الله تكون مقاييسه مادية، قال سيدنا علي: " قيمة المرء علمه ".

فهؤلاء المنافقون ومرضى القلوب قال:

(غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ)

ما عرف كيف يحيا المؤمن، ما عرف مشاعر الرضا التي أكرمه الله بها، ما عرف مشاعر اليقين، ما عرف الحكمة التي أكرمه الله بها، ما عرف الأمن الذي ينعم به، المؤمن من خلال صلاته المتقنة يتمتع بأمن، وبحكمة، وبسعادة، وبسكينة، وبحكمة بالغة لأنه آمن بالله.

لذلك:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ)

مغرور معنى مغرور أي توهم شيئاً أكبر من حجمه، المؤمن ما توهم أن الجنة أكبر، الجنة حقيقة أكبر، أما الكافر يتهمه أنه متوهم، يقول لك: لم يرَ شيئاً في الدنيا، يقول: من بيته إلى الجامع و من الجامع إلى بيته، لا يعرف أن هذا أسعد إنسان في الأرض، لا يعرف،

(غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، لنا أيضاً وقفة متأنية مع هذه الآية، أنا لعلي أطلت في التقديم لأنه من هو المنافق ؟ هو إنسان بينَ بين، المؤمن واضح والكافر واضح، والمؤمن التعامل معه سهل جداً، عنده منهج سهل جداً، والكافر أوضح، قال لك: أنا الآخرة ألغيتها من حياتي، مقياسه كله مادي، أما هذا الوضع الوسط لا تعرفه مؤمناً، لا تعرفه كافراً، لا تعرف هل هو مع المؤمنين أم مع الكافرين ؟ هذا الوضع خطير جداً، أسأل الله جلّ جلاله أن ينقذنا من حال أهل النفاق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (18-30): تفسير الآيتان 50 -51 ، ما قبل الموت - نفي الله عز وجل الظلم عن ذاته العلية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-10-30

بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب الله عز وجل نبيه الكريم في الآية التالية:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخمسين وهي قوله تعالى:

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

هذه الآية أيها الأخوة فيها خاطب الله النبي عليه الصلاة والسلام، أما لو فهي حرف امتناع لامتناع، ولولا حرف امتناع لوجود، بمعنى لولا المطر لهلك الزرع، امتنع هلاك الزرع لوجود المطر، لو جئتني لأكرمتك، هذه لو حرف امتناع لامتناع، امتنع إكرامي لك لامتناع مجيئك.

فالله سبحانه وتعالى يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام ويقول: يا محمد

(وَلَوْ تَرَى)

مصير هؤلاء الكفار إذ يتوفاهم ملك الموت.

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ)

الملائكة فاعل، أي ولو ترى يا محمد إذ يتوفى الملائكة الذين كفروا، ماذا سيحل بهم ؟ ما مصيرهم ؟ القرآن الكريم سكت عن الحديث عن مصيرهم، وعما يحل بهم، لماذا ؟ قال بعض العلماء: إن إغفال الجواب يسمى في علم البلاغة إيجازاً غنياً.

أي قد تقول: أصابني فقر، واضح، أصابني مرض، أصابني هم، أصابني حزن، لكن تقول أحياناً لو تعلم ما الذي أصابني ؟! فهذا السامع انطلق خياله إلى آفاق كبيرة جداً، هذا ليس إيجازاً عادياً، هذا إيجازٌ غني، لأن هناك إيجازاً مخلاً، وهناك إطناباً مملاً، والبلاغة بين الإيجاز المخل وبين الإطناب الممل، أما هذا الإيجاز له اسم خاص بالبلاغة اسمه إيجاز غني.

من عرف الله استقام على أمره:

مرة ثانية أقول لك: أصابني هم، الهم محدد، أصابني مرض، أصابني فقر ، أصابتني مصيبة، أما حينما أقول لك: لو تعلم ما الذي أصابني، ما الذي أصابه ؟ ينطلق الخيال إلى آفاق كثيرة، إذاً هو أغفل التفاصيل ليعطي التفاصيل قوة يصنعها خيال السامع، هذا معنى الإيجاز الغني.

(وَلَوْ تَرَى)

يا محمد

(إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ)

في أثناء الوفاة يضربون وجوهم وأدبارهم، فالقاتل حينما يلقى القبض عليه يُساق بالضرب إلى السجن، لا يُساق بالتكريم، حينما يلقى القبض على قاتل، أو على مجرم، أثناء سوقه إلى السجن، يتلقى ضربات كثيرة، لأنه مجرم، وهؤلاء الذين كفروا بنوا مجدهم على أنقاض الناس، بنوا حياتهم على موتهم، بنوا غناهم على إفقار الناس، بنوا أمنهم على إخافة الناس، بنوا عزهم على إذلال الناس دائماً وأبداً، أنت حينما تعرف الله تستقيم على أمره، تأخذ ما لك وتدع ما ليس لك.

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

الإيمان بالله يُعرف الإنسان بحدوده و يبعده عن العقاب:

الإنسان لماذا يؤمن بالله ؟ ليعرف حدوده، لئلا يعتدي، لئلا يستحق بعد الاعتداء العقاب من الله، أنت حينما تعرف الله عز وجل وأنه سيحاسب، وأنه سيعاقب، تقف عند حدك، كيف لا وأنت مع إنسان من بني جلدتك لكنه أقوى منك، حينما تعلم علم اليقين أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه.

وأوضح مثل: تقود مركبة وعند تقاطع الطرق الإشارة حمراء، والشرطي واقف، الشرطي عين واضع القانون، وشرطي آخر على الدراجة، وضابط مرور في مركبة، أنت مواطن عادي، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تتجاوز الإشارة الحمراء، لأنك موقن قطعاً أن واضع قانون السير علمه يطولك من خلال هذا الشرطي، والشرطي والضابط، وأن قدرته تطولك، و بإمكانه أن يسحب الإجازة منك، وأن يحجز المركبة.

أنت انظر كيف تتعامل مع الأقوياء في الدنيا، أنت تاجر استوردت بضاعة، لم تخبر عنها جهة الضرائب، تهدر حساباتك، وتضاعف ضرائبك، مع أن كل شيء تستورده تذهب منه نسخة إلى وزارة

المالية، فإذا أغفلتها أنت في ميزانيتك هم يكشفونها، قلما تجد في أنحاء البلاد تاجراً واحداً يغفل إعلام المالية بصفقة استوردها، التعامل مع الأقوياء، أو التعامل مع من علمهم يطولك، أو مع من قدرتهم تطولك، واضح جداً، الله عز وجل قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

أغبى أغبياء الأرض من لا يدخل الله في حساباته:

وقد يسأل سائل لماذا اختار الله جلّ جلاله من أسمائه الحسنى اسمين فقط،

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قدرته

(وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

علمه، إذا كنت مع واضع قانون السير لا تخالفه أبداً، إذا كان علمه يطولك من خلال الشرطي و قدرته تطولك من خلال سحب الإجازة، فكيف تتعامل مع خالق السماوات والأرض، وأنت في قبضته ؟ يعلم سرك ونجواك، يعلم ما أعلنته، ويعلم ما أسررته، ويعلم ما لم تعلمه، وأنت في قبضته.

فلذلك العلم بالله يقود إلى طاعة الله،

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

أخوتنا الكرام، دققوا فيما سأقول: أغبى أغبياء الأرض، أحمق حمقاء الأرض ، أجهل جهلاء الأرض، الذي لا يدخل الله في حساباته، وصدقوا ولا أبالغ، ما من قطرة دم تراق في الأرض، في كل الأصقاع، وفي كل الأزمنة، من آدم إلى يوم القيامة وإلا ويتحملها إنسان يوم القيامة، إلا أن دم المقتول بحدٍّ شرعي يتحمله الله عز وجل.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

أتظن أن الله لا يحسب ؟ ولا يعاقب ؟.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

الاستقامة على أمر الله تحتاج إلى معرفة به:

فلذلك أيها الأخوة الاستقامة على أمر الله تحتاج إلى معرفة به، لأنه هؤلاء الذين كفروا غفلوا عن الله، واعتدوا بقوتهم، وجبروتهم، وظنوا أن الله لا يحاسبهم، فبطشوا، هؤلاء الذين يقصفون المدن، يدمرون الشعوب، يسببون المجاعات، يهدمون البيوت، يقتلون الشباب، ثم يتصدرون الشاشات، ويتحدثون عن الحرية والديمقراطية، الله لهم بالمرصاد.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

الحساب الختامي يوم القيامة فالعاقل من اتعظ بغيره:

أخوتنا الكرم، أسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا، إلا اسماً واحداً، هو اسم العدل، هذا الاسم محقق جزئياً، الله يعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين، ولكن الحساب الختامي يوم القيامة:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران الآية: 185)

فالبطولة لا أن تعيش لحظتك وأنت قوي، وأنت غني، لكن البطولة أن تعيش مصيرك، دائماً العاقل يعيش في المستقبل، يعيش في نتيجة عمله.

(وَلَوْ تَرَى)

يا محمد، لو ترى هؤلاء الكفار حينما يتوفاهم

(الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

أيها الأخوة، ورد في السنة أن صحابياً أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم وقال له:

((أقبل صحابي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله لقد رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك ـ أي علامة من الضرب الشديد ـ ظاهرة على جسده، فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك ضرب الملائكة))

((وجاء صحابي آخر وقال: يا رسول الله ني حملت على رجل من المشركين فذهبت لأضربه، فندرَ رأسُه؟ فقال: سبقك إليه الملك))

[القرطبي عن سعيد بن جبير]

وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

(سورة الأنفال)

هذا القرآن الكريم، إذاً:

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

إذا أراد الإنسان أن ينفذ أمراً فليتدبر عاقبته:

أيها الأخوة، سُئل أحدهم: ما العقل ؟ فقال: أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه، هذا القاتل لو فكر أنه سيلقى القبض عليه، وسوف يُحاكم، وسوف يُعدم، ما قتل، لكنه عاش لحظته، فقتله وطمع بماله، فنفى اعتقاله ثم محاكمته، ثم شنقه، كل بطولتك أن تعيش المستقبل، وأن تعيش على مشارف ترك الدنيا، أن تعيش وتتصور ما وضعك في القبر ؟ هل قبرك روضة من رياض الجنة ؟ أم حفرة من حفر النار ؟.

إذا أراد أحدكم إنفاذ أمر فليتدبر عاقبته، أقول لكم: أن الأغبياء يعيشون الماضي دائماً، يتحدث عن بطولاته، وأن الأقل غباء يعيشون الحاضر، لكن العقلاء والأذكياء يعيشون المستقبل.

وأنت تدخن تستمتع بهذه الدخينة، لكن هل فكرت في سرطان في الرئة ؟ هل فكرت في هذا ؟ هذا الذي كان يقول: تعالوا إلى حيث النكهة، معلن كبير للدخان، يرتدي حصاناً وثياباً خاصة، ويقول: تعالوا إلى حيث النكهة، قبل أن يموت قال ما يلي: كنت أكذب عليكم الدخان قتلني، بعضهم قال: العاقل لا يندم، لأن الذي سيأتي توقعه، فتكيف معه، ومن هو الذكي ؟ هو المتكيف، ما من تعريف جامع مانع موجز للذكاء كهذا التعريف، الذكاء هو التكيف فقط، أن تتكيف مع المستقبل، أخطر حدث في المستقبل أن تغادر الدنيا، ماذا أعددت لهذه الساعة ؟.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ *نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

(سورة فصلت)

أيها الأخوة الكرام، جاء في الأثر القدسي:

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن، وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

أعظم أنواع التكيف أن تتكيف مع حدث الموت:

أيها الأخوة، من ملامح أن تعيش المستقبل قاعدة في بعض البرمجيات النفسية، ابدأ من النهاية، ابدأ من المصير.

سُئل طالب نال الدرجة الأولى في الشهادة الثانوية: ما سبب التفوق ؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي ولا دقيقة في أثناء العام الدراسي، أي تكيف مع الامتحان، فالبطولة بالتكيف.

أعظم أنواع التكيف أن تتكيف مع حدث الموت.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

(سورة يس)

فكل ذكائك، وكل نجاحك، وكل فلاحك، وكل بطولتك، وكل توفيقك، أن تتكيف مع المستقبل، مع أخطر حدث في المستقبل، مع مغادرة الدنيا، يا ترى لو أننا فكرنا بالموت، وقد أمرنا نبينا عليه الصلاة والسلام فقال:

((أكثروا ذكر هادم اللذات ـ مفرق الأحباب، مشتت الجماعات ـ))

[رواه الديلمي عن أنس]

((يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من أحببت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الحاكم عن سهل بن سعد]

لو أن إنساناً فكر في مصيره، لا يعمل، لا يدرس، لا يتاجر، لا يبحث عن وظيفة، لا يشتري بيتاً، لا يتزوج، لا، يدرس، وينال أعلى الشهادات، ويتاجر، وقد يقيم صناعة، وقد يبحث عن وظيفة راقية، وقد يتزوج امرأة تسره إن نظر إليها، وتحفظه إذا غاب عنها، ويتنزه مع أولاده، هذا كله مسموح، لكن التفكر بالموت يمنعك أن تعصي الله، التفكر بالموت يسرع بك الخطا إلى الله، هذه فائدته.

((أكثروا ذكر هادم اللذات ـ مفرق الأحباب، مشتت الجماعات ـ))

[رواه الديلمي عن أنس]

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور))

[ورد في الأثر]

أصل حدث الوفاة أمر من الله يبلغ لملك الموت:

أيها الأخوة،

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ)

الوفاة تنسب إلى الله أحياناً، كما في قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ)

(سورة الأنعام الآية: 60)

وتنسب إلى ملك الموت.

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

(سورة السجدة الآية: 11)

وتنسب إلى رسل الله عز وجل:

(تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)

(سورة الأنعام)

شرح هذه الآيات أن أصل حدث الوفاة أمر من الله، يبلغ لملك الموت، وملك الموت قد يبلغ أحد جنوده بقبض روحه، إما أن تكون الوفاة معزوة إلى الله، وإما أن تعزى إلى ملك الموت، وإما أن تعزى إلى رسل من جنود ملك الموت.

أنواع العذاب:

أيها الأخوة، الحقيقة الثانية أنه في ساعة الاحتضار هناك عذاب، والدليل هذه الآية، هناك عذاب في القبر، وهناك عذاب الاحتضار، وهناك عذاب يوم القيامة، فالبطولة لا أن تملك الدنيا وأن تتألق في الدنيا، ثم تتحمل عذاب الاحتضار، وعذاب القبر، وعذاب يوم القيامة إلى أبد الآبدين.

أخواننا الكرام، أحياناً العذاب الأليم أخف من الضرب أمام ملأ، قال تعالى:

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة النور)

أحياناً هناك عذاب أليم، وهناك عذاب عظيم، وهناك عذاب مهين، هؤلاء الكفار يضربون بضرب مهين،

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

الضرب له معنى، والضرب إيلام مع الإهانة، وهناك (عَذَابَ الْحَرِيقِ) عذاب مؤلم جداً، و عذاب عظيم:

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

للكفار.

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة الأنفال)

أي أنت أحياناً تجد دولاً تجتاح دولاً، تهدم بيوتاً، وتلقي قنابل نووية على بعض البلاد، عقب الحرب العالمية الثانية ثلاثمئة ألف إنسان ماتوا في ثوان معدودة، هؤلاء الذين أمروا بالقصف، وإلقاء القنابل، والتعذيب، وإذلال الناس، يجب أن تعلم علم اليقين أن الله سيعذبهم عذاباً أليماً:

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

ورود النار غير دخولها فدخول النار تعذيب شديد لكن ورودها لا علاقة له بالعذاب إطلاقاً:

لذلك في بعض الآيات يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

(سورة مريم الآية: 71)

قال علماء التفسير: " ورود النار غير دخولها، دخول النار تعذيب شديد، لكن ورود النار لا علاقة له بالعذاب إطلاقاً، الذين يردون النار لا يتأثرون ولا بوهجها ".

أحياناً يأتي مسؤول كبير، يحب أن يعمل زيارة للسجون، فيذهب إلى السجن، وتفتح له الأبواب، يجلس في غرفة المدير العام، يأتي الشراب البارد، يُصور، يُكرم، يُبجل، إذا إنسان له مرتبة مرموقة دخل السجن كضيف كبير يزور السجن يعد سجيناً ؟ لا.

الله عز وجل كما قلت قبل قليل: أسماؤه الحسنى كلها محققة في الدنيا، لكن اسم العدل محققة جزئياً، فمن أجل أن يرى كل إنسان مصير الطغاة قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

ليرى المؤمن مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً، ليرى المؤمن هؤلاء الطغاة الذين ملؤوا الأرض قتلاً وإذلالاً ما مصيرهم، ليتحقق اسم الله العدل.

فهذه الآية دقيقة جداً في قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

أي كل بني البشر سيطلون على النار الذين لم يستحقونها، الذين استحقوا الجنة سيطلون على النار ليروا مكانهم في النار لو لم يكونوا مؤمنين، وليروا مصير العصاة في النار أي ليتحقق اسم الله العدل.

الابتعاد عن الظلم الذي يودي بالإنسان إلى النار:

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ)

اتخذتم قرار إبادة، اتخذتم قرار إعلان حرب على شعب آمن بدعوى أسلحة الدمار الشامل، ليس هناك أسلحة دمار شامل ولا هم يحزنون، لكن هناك بترول، هؤلاء الذين أعلنوا الحرب على بلاد ضعيفة آمنة، قتلوا أهلها، شردوا خمسة ملايين، وأعاقوا مليوناً، وقتلوا مليوناً، هؤلاء الذين يبنون أمجادهم على أنقاض الشعوب، يبنون حريتهم على إذلال الشعوب، يبنون غناهم على إفقار الشعوب، هؤلاء طغاة الأرض.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

أيها الأخوة،

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ)

هذه قرارات اتخذتموها في الدنيا، دقق في هذه الآية:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(سورة الزخرف)

حدثني صديق، قال لي: توفي والدي وكنت مكانه في تجارة الصوف، وأنا جاهل، سافر إلى مكان شراء الصوف، خطر في باله أنه إذا أعطى صاحب الصوف أوزاناً أقل من الحقيقة يكون ذكياً، فكل وزنة يطرح منها خمسة كيلو، ثمانية كيلو، لم ينتبه صاحب الصوف لكن عنده حدس عام أن هذه الكمية ثمنها ثلاثون ألفاً، فوجد ثمنها يقدر بعشرين ألفاً، هو بدوي قال له: إن شاء الله تلقاها بصحتك، قال لي: ركبت بهذه السيارة، وأنا طبعاً لا أعرف الله، قمت عشرة آلاف من ثمنها، أنا بصراع، أرجع وأعطيه الفرق ؟ مشكلة، قال لي: بقيت في صراع من مكان الصوف إلى مشارف دوما، قال لي: أخذت قراراً ماذا حصل ؟ قال لي: ما كملت هذا القرار بذهني، وجدت نفسي وسط بركة من الدماء السيارة قلبت والصوف تناثر، وعبوات السمن فسدت، وأخذوه إلى المستشفى.

سبحان الله ! أنا هذه الآية أراها مناسبة جداً،

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

إياك أن تتخذ قراراً فيه ظلم،

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

الله عز وجل ينفي عن نفسه أن يكون ظلاماً للعبيد:

أخواننا الكرام: الظلام صيغة مبالغة من ظالم، الآن إنسان ثبت خشبة بكرسي لمرة واحدة في حياته نقول له: ناجر، أما النجار من اتخذ النجارة حرفة، إنسان ثبت زراً بقميصه بإبرة نقول له: خائط، أما الخياط من اتخذ الخياطة حرفة، إنسان ذبح دجاجة لمرة واحدة في حياته نقول له: جازر، أما الجزار من اتخذ هذه الحرفة مهنة له، هناك ظالم لمرة واحد بالخطأ، بالصواب، أما الظلّام كثير الظلم، إلا أن صيغ المبالغة تأخذ منحيين، منح الكثرة، ومنح شدة الفعل، إما ظلم لا يحتمل كبير جداً، أو ظلم مليون إنسان، إذا إنسان غدر مشترٍ بخمسة ملايين، هذا ظلام، وإذا إنسان غدر ألف مشترٍ كل واحد بمئة ليرة أيضاً ظلام، الأول ظلام بشدة الظلم، والثاني ظلام بتكرار الظلم.

الله عز وجل قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

مهما يكن الظلم قليلاً لو شمل كل العبيد لكان هذا العمل ظلماً شديداً والذي أوقعه ظلام، الله عز وجل ينفي عن نفسه أن يكون ظلاماً للعبيد.

لذلك حينما نثبت صيغة المبالغة نثبت الصيغة غير المبالغة بها، إذا إنسان أكال، أكل كمية كبيرة جداً، هو أيضاً آكل، إن أثبتنا صيغة المبالغة نثبت صيغة غير المبالغة، أما إذا نفينا صيغة المبالغة لا ننفي صيغة غير المبالغة، معنى ذلك الله سبحانه وتعالى لما قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

ولو كان الظلم طفيفاً، إذا شمل كل العباد يعد هذا ظلماً كبيراً، فالله عز وجل نفى عن ذاته العلية أن يكون ظالماً وظلاماً في الوقت نفسه، بل إن نفي الظلم عن الله جاء بآيات، ونفي الظلام جاء بآيات، لكن نفي صيغة المبالغة تغطي الصيغة الغير مبالغة.

كل شيء أراده الله وقع وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة:

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

ولكن أيها الأخوة، يجب أن نعلم علم اليقين أنك أنت كائن محدود لا تستطيع أن تثبت عدل الله بعقلك، إلا بحالة مستحيلة أن يكون لك علم كعلم الله، هذا غير معقول، لذلك الله عز وجل أخبرنا بالقرآن الكريم أنه لا يكذب.

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر الآية: 17)

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة الأنفال)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة التوبة الآية: 70)

آيات تصل إلى المئات تنفي عن الذات الإلهية أن يكون ظالماً، أو ظلاماً، فيثبت عدل الله بإخبار الله عن ذاته العلية، أما ما يجري في الأرض يحتاج إلى أن تقرأ سورة الكهف لماذا خُرقت السفينة ؟ ولماذا قُتل الغلام ؟ ولماذا أنشأنا جداراً بلا مقابل ؟ الأشياء التي لا يستوعبها عقلك قسها على ما في سورة الكهف، سفينة، وراء هذه السفينة ملك، يغتصب كل سفينة عدواناً.

(يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً)

(سورة الكهف)

أردت أن أعيبها لئلا تصادر، إذاً هذا في حق صاحب السفينة خير، أما في ظاهره شر، فكل قصة اضطربت في فهمها قسها على سورة الكهف، تجد أن الله سبحانه وتعالى أفعاله كلها حكيمة، وكل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، هذه حقيقة دقيقة جداً.

وهناك حقيقة أخرى: لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (19-30): تفسير الآية 52 ، الدأب هو العادة والاستمرارية على الشيء- والكفر هو تغطية الحقيقة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-11-13

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يخفف عن رسوله تكذيب قريش له:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثانية والخمسين وهي قوله تعالى:

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

أيها الأخوة، كلمة،

(كَدَأْبِ)

أي كعادة، الدأب هو العادة، هو الاستمرار على شيء، كأن الله يخفف عن رسوله تكذيب قريش له.

يقول له: يا محمد هذا الذي أنت فيه هكذا عادة الكفار، فرعون وقف من سيدنا موسى هذا الموقف، فالذي حصل معك حصل مع من قبلك من الرسل، (كَدَأْبِ) كعادة

(آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

طبعاً الذين من قبلهم قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح ، وقوم لوط أيضاً كذبوا رسلهم وأنبياءهم، لذلك الله عز وجل عاقبهم، فأهلكهم، واستأصلهم، أو عذبهم، أو أغرقهم، أو خسف بهم الأرض، قانون، قوم يكذبون النبي ويستخفون بآيات الله، ولأنهم كذبوا، ولأنهم اعتدوا، عاقبهم و أهلكهم.

حينما تؤمن بالدنيا وتكفر بالآخرة لابدّ من أن تأخذ ما ليس لك وتعتدي على أموال الناس وأعراضهم:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

لو أن الإنسان كذب، ولم يفعل سوءاً، قد يقول قائل ماذا فعل ؟ لا، أنت حينما تكذب بالحق لابدّ من أن تفعل سوءاً، حينما تؤمن بالدنيا وتكفر بالآخرة لا بد من أن تأخذ ما ليس لك، لا بد من أن تعتدي على أموال الناس، على أعراضهم، لا بد من أن تتنافس تنافساً غير بريء.

للتوضيح: لو أن التصور لا علاقة له بالسلوك تصور ما شئت، لو أن الاعتقاد لا علاقة له بالسلوك اعتقد ما شئت.

أوضح مثل: شفاعة النبي الكريم لأهل الكبائر من أمته، لو سمع هذا الحديث إنساناً وهو يبيع المواد الغذائية، وبإمكانه أن يغشها دون أن يُكشف أمره، يرى أن هذا الحديث:

((شفاعتي لأهل الكبائر مِنّ أمَّتي))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك]

يغطي سلوكه العدواني، لأنه اعتقد أن النبي سيشفع لمن يفعل الكبائر من أمته، يرى له مبرراً أن يعتدي على الآخرين.

أي اعتقاد تعتقد به أو تقتنع به لا بدّ من أن يجسد إلى سلوك:

الفكرة الدقيقة أن العلاقة بين التصور وبين السلوك معدومة، نقول لك: اعتقد ما شئت لكن لا بدّ من أن ينعكس التصور إلى سلوك.

مثل آخر: لو أن طالباً قال لزميله: الأستاذ في آخر العام نقدم له هدية ثمينة فيعطينا الأسئلة، ودعك من الدراسة، هذه الفكرة مريحة، انتهى من الدراسة، والوظائف، والمذاكرات، وأمضى العام الدراسي ببحبوحة، وبسهر مع الأصدقاء، وبارتياد دور السينما، ونوم إلى الظهر، في آخر العام طرق باب الأستاذ وعرض عليه هدية ثمينة ليعطيه الأسئلة، فتلقى صفعة منه، وطرده.

فأي اعتقاد، أي تصور، أي قناعة تعتقد بها، أو تقتنع بها لا بد من أن تجسد إلى سلوك.

أي اعتقاد باطل لكنه مريح يقبله الإنسان من دون دليل:

الآن ما النظرية السائدة في العالم ؟ نظرية دارون، نظرية دارون تتناقض مع الدين تناقضاً كلياً، في القرآن الكريم آدم وحواء، بدأ الله البشرية بنبي كريم، وفي نظرية دارون الإنسان انحدر من قرد، والقرد من، ومن، ومن، الحياة بدأت بخلية واحدة، وتطورت إلى أن أصبحت إنساناً سوياً، هذه النظرية تلغي وجود الخالق، تلغي وجود إله سيحاسب، تلغي وجود إله سيعاقب، تلغي الإيمان بالدار الآخرة، هناك نظرية مريحة جداً، هذه الدول التي تقصف دول أخرى، تحل بلاداً، تقتل الآلاف، تقتل الملايين، هذه الدول القوية التي تستبيح لنفسها أن تنهب ثروات الآخرين، أن تهدم البيوت، أن تقتل الشباب، ما الذي يغطيها عقائدياً ؟ نظرية دارون .

ماذا يقول دارون في نظريته ؟ إن الفأرة تُخلق من الخرق البالية، وإن الضفدع يُخلق من الوحل، وإن الدود ينشأ من تفسخ اللحم، ويقول دارون: وإن العلم إن لم يثبت نظريتي فهي باطلة، هو الإنسان الوحيد الذي تنبأ بسقوط نظريته إن لم يثبت العلم ما ذهب إليه، لكن عندما كشفوا في الأحافير وجدوا كائنات،

وحشرات، وأسماك، وأطيار، موجود شكلها الكامل ضمن الأحافير، حينما يأتي رماد بركاني، ويغطي مدينة بأكملها، بعد مئات من ملايين السنين الكائن العضوي يتلاشى، يبقى آثاره كأحافير، المفاجأة التي نقضت هذه النظرية أن كل الأحافير التي عُثر عليها قبل خمسمئة مليون عام تشبه المخلوقات التي رأينا شكلها في الأحافير، تشبه الكائنات التي تعيش اليوم، إذاً لا يوجد مخلوق مرحلي، إذاً النظرية باطلة.

فالإنسان أحياناً يعتقد بشيء باطل لكنه مريح، فأي اعتقاد باطل لكنه مريح يقبله الإنسان من دون دليل.

أنا أضرب مثلاً ذكرته كثيراً: أن إنساناً أراد أن يشتري سيارة، لكنه لم يشترِ وإنساناً آخر أراد أن يشتري سيارة لكنه اشترى، سرت إشاعة في البلد أن هناك تخفيض رسوم، بمقدار خمسون بالمئة، الذي ما اشترى يصدق هذه الإشاعة من دون دليل، لأن هذه الإشاعة مريحة له كثيراً، والذي اشترى يكذبها من دون دليل.

الله عز وجل يعاقب لا لمجرد التكذيب:

أنا أُحذر الأخوة الكرام أن تتسرب إليهم تصورات، أو أفكار، أو معلومات، أو عقائد باطلة لكنها مريحة.

المفهوم الساذج للشفاعة، النبي الكريم يوم القيامة يسجد، يقول الله له: ارفع رأسك، فيجيبه: لا أرفع حتى أُشفع، قال له: ارفع وتشفع، فالعملية سهلة.

الآن أنت بالتعليم هناك وظيفة من لم يكتبها لا يعامل كالذي كتبها، لأنه في اليوم التالي لا أحد يكتب، والذي كتب أحمقاً، بذل جهداً، وسهر للساعة الثانية عشرة على المسائل وحلها، وثاني يوم الذي ما كتب مثل الذي كتب.

فالموضوع دقيق، الله عز وجل يعاقب لا لمجرد التكذيب، لأن التكذيب من لوازمه الانحراف، الدليل القوي:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

أي تصور يقتضي سلوكاً، فإذا كان التصور صحيحاً فالسلوك صحيحاً، وإن كان التصور خطأ فالسلوك خطأ.

في كل شيء له آية تدل على أنه واحد:

لذلك الله عز وجل أهلك قوم فرعون، أهلك من قبلهم قوم نوح، قوم هود، قوم صالح، قوم لوط، بعضهم أهلكوا هلاك استئصال كلي، وبعضهم عُذبوا، وبعضهم أُغرقوا ، وبعضهم خُسف بهم، لأنهم كفروا، لماذا كفروا ؟ قال: كفروا بآيات الله الكونية، هذا الكون ، وكفروا بآيات الله التكوينية، بأفعاله، وكفروا بآيات الله الإعجازية، وكفروا بآيات الله القرآنية.

فالله عز وجل أهلك فرعون، وأهلك من قبلهم قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، أهلكهم إهلاك استئصال، أو إهلاك غرق، أو إهلاك تعذيب، أو إهلاك خسف.

قال تعالى:

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

كفروا بآيات الله، الآيات العلامات، الله عز وجل له آيات كونية هذا الكون بشمسه، بقمره، بنجومه، بكواكبه، بمذنباته، بمجراته، بأرضه، بجباله، بسهوله، بوديانه، بأسماكه، بأطياره، بنباتاته، بطعامه، بشرابه، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

(كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

أي آياته الكونية، وعندما وضع سيدنا إبراهيم في النار و لم تحرقه، هذه آية إعجازية لأن الآية الكونية لها قوانين، أما هذه الآية فيها خرق للقوانين، هذه آية إعجازية.

صنعوا باخرة، أعظم باخرة في عام 1912، باخرة تيتانيك، وجاء في نشرتها: إن القدر لا يستطيع إغراقها، وفي أول رحلة لها من أوربا إلى موسكو، فيها حلي بالمليارات، هذه الباخرة عملاقة، لها جدران، وقواطع أرضية، فأي مكان خُرق تغلق الفتحات، فالباخرة في سلام، وشاءت حكمة الله أن تغرق في أول رحلة لها، هي كانت مدينة، مدينة عارمة، فقال بعض القساوسة: إن غرق هذه الباخرة درس من السماء إلى الأرض.

من كفر بآيات الله الكونية و التكوينية و القرآنية و الإعجازية فمصيره الهلاك:

لذلك الله له آيات كونية، وله آيات إعجازية، العصا تصبح ثعباناً مبيناً.

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

ضرب الأرض بعصا فأصبحت طريقاً يبساً، ناقة خرجت من الجبل، إذاً هناك آيات كونية خلقه، وفق القوانين والأنظمة الآيات الإعجازية خرق لهذه القوانين:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)

(سورة الإسراء)

هناك آيات تكوينية أفعال الله عز وجل، وهناك آيات كونية كلامه، الله عز وجل قال:

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

كفروا بآيات الله كلها، كفروا بآياته التكوينية، والكونية، والإعجازية، والقرآنية، كأن الله عز وجل يقول: يا محمد هؤلاء الذين يكذبونك الآن شأنهم كشأن فرعون حينما كذب موسى، لكن مصير هؤلاء الهلاك كمصير الأمم التي كذبت رسلها، هذا الموقف مشابه لموقف فرعون من سيدنا موسى، والذين يكذبونك الآن أين هم ؟ الآن أين هو أبو جهل ؟ من منكم ذهب إلى مكة فوجد مقاماً لأبي جهل ؟ أين أبو جهل ؟ أين أبو لهب ؟ أين هؤلاء أعداء الله عز وجل ؟ هم الآن في مزبلة التاريخ، الشباب الفقراء الضعاف الذين آمنوا به أين هم الآن ؟ كان الصحابة يقولون: إذا ذُكر الصديق نقول: هو سيدنا وأعتق سيدنا، أي بلالاً، القرشيون الأصلاء من أرومة أصيلة هؤلاء يقولون عن سيدنا بلال: سيدنا، الصديق سيدنا وأعتق سيدنا، أي بلالاً.

فالله عز وجل رفع هؤلاء الذين آمنوا برسول الله، وكانوا فقراء، وضعاف ومرضى، الله عز وجل قال:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

آثار فرعون تفوق حدّ الخيال لحكمة بالغة:

أيها الأخوة:

(كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

كلها، الكونية، والتكوينية، والإعجازية ، والقرآنية، ومصير هؤلاء كمصير الأقوام السابقة، إغراق، أغرقناهم، فجاءتهم صواعق فأغرقتهم، خسف الله بهم الأرض، لكن لحكمة بَالغةٍ بالغةٍ بالغة أبقى الله آثار فرعون، يأتي الناس من كل أطراف الدنيا الآن لرؤية هذه الآثار، آثار فرعون تفوق حدّ الخيال، حجر يزن خمسين طناً، ليس هناك روافع هيدروليك، ولا حاملات، ولا شاحنات ضخمة جداً، ولا بواخر عملاقة، ولا رافعات عملاقة، كيف جيء بهذه الأحجار من أسوان ؟ كيف انتقلت عبر نهر النيل؟ وكيف نقلت إلى موقع الأهرام ؟ وكيف صنفت ؟ وكيف صفت ؟ الفراعنة وصلوا إلى شيء شبه مستحيل الآن، فرغوا الهواء بين حجرين، فلما فرغوا الهواء بين حجرين أصبح الحجران كحجر واحد،

لو أمكن أن تضع لوحين من البلور فوق بعضهما دون أن تبقي ولا ذرة هواء يصبح اللوحان لوحاً واحداً، هذا فعله الفراعنة.

الأهرام فيها نافذة لا تسمح هذه النافذة بدخول الشمس إلى داخل الهرم إلا في يوم واحد من السنة هو يوم وفاة هذا الفرعون، بأي زاوية هناك دراسة هندسية مذهلة، أن الشمس لا يمكن لأشعتها أن تدخل إلى داخل الهرم إلا في يوم واحد هو يوم وفاة هذا الفرعون، هذا فوق طاقة البشر.

كنت في باريس وجدت مسلة مأخوذة من مصر، كنت في ألمانيا وجدت آثاراً مذهلة مأخوذة من مصر، فهناك مسلات، وهناك أهرامات، حتى هذه اللحظة كيف فرعون مصر كما هو الآن، أنا عرضت صورته ببعض الفضائيات كما هو، بلحمه، بشحمه، بعظمه، بملامح وجهه، ما هذا التحنيط ؟!.

رأيت خبزاً في الأهرامات، أنا زرت الأهرامات المصنوعة من ستة آلاف عام، وجدت قطعاً من اللحم من ستة آلاف عام، وجدت فرعون كل أصابعه ملبسة بالذهب، كل أصابعه ذهب مخيف، وجدت عربة بالأهرام حتى هم يعتقدون أن هناك حياة أخرى، لذلك يحتاجون إلى عربات، ويحتاجون إلى طعام، وإلى شراب، حتى القمح الذي أستخرج من أهرامات مصر ومضى عليه ستة آلاف عام زُرع فأنبت، معقول رشيم يعيش ستة آلاف عام ؟! الألوان التي طليت بها المعابد لم تتغير حتى الآن.

الله عز وجل ما أهلك قوماً إلا وذكّرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة:

أيها الأخوة، الله عز وجل لحكمة بالغةٍ بالغة أبقى هذه الأهرامات، المسلات، التحنيط، النوافذ التي تدخل الشمس في يوم واحد فقط هو يوم وفاة فرعون، الذهب، تحنيط الخبز، تحنيط الأشخاص، تحنيط القمح، هذا كله في الأهرامات، لذلك الله عز وجل ما أهلك قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة.

في بعلبك ستة أحجار، وزن الحجر مئتا طن، عندما وقعت بعض الأحجار عملت شبه زلزلة ببعلبك، هذا الحجر كيف نُقل، كيف نُحت، كيف نُصب، ما أهلك قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة.

أيها الأخوة، قال تعالى:

(وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)

(سورة ص)

(وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)

الأهرامات، وقال عن ثمود:

(الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

(سورة الفجر)

هذه في السعودية الآن، هل تصدقون مدينة بأكملها منحوتة في الجبال ؟ والأنباط كذلك في الأردن، مدينة بأكملها منحوتة في الجبال، غرف استقبال، ونوم، وجلوس، بالبتراء صالة بحجم هذا المسجد على مرتين فيما أعتقد، محفورة من الجبل، والخطوط مستقيمة ، والصخر منحوت نحتاً كاملاً، أي أربعة جدران وسقف وأرضية كأنها بلاط، هي فراغ من الجبل نُحت، مع الزخارف والأقواس والتيجان.

الله عز وجل لحكمة بالغةٍ أبقى آثار الفراعنة ليكونوا درساً لكل الأمم القادمة:

لذلك الله عز وجل لحكمة بالغةٍ بالغة أبقى آثار الفراعنة ليكونوا درساً لكل الأمم القادمة، والآن هناك تقدم مذهل، ومع ذلك ومع هذا التقدم المذهل هناك تخلف أخلاقي مذهل، فكل هذه الحضارات ما استطاع أصحابها أن يبقوا عليها، لأنهم خالفوا منهج الله عز وجل.

كنت مرة في اسطنبول زرت مرة مسجداً، الأخ الذي معي قال: تفضل إلى المحراب، ما فهمت ماذا يريد، وصلت إلى المحراب وجدت عمودين، قال لي: بإمكانك أن تدير العمود فأنا أمسكته ودرته فدار معي، هذا له قاعدة وله تاج، هناك فراغ ميلي واحد، الجامع مضى على بنائه سبعمئة عام، ميلي واحد دليل أن الحسابات دقيقة جداً، العمود يدور بيديك، أي أن الله عز وجل أعطى الأمم السابقة قوى جبارة، اليوم تجد بناء ضخماً من الأسمنت، لا يوجد حجار إسمنت، يُجبل الإسمنت ويصب فيتجمد، لكن في القديم ليس هناك مواد بين الأحجار، ليس هناك رافعات، ولا شاحنات، ولا أشياء عملاقة، أمور كلها بسيطة ومع ذلك بلغوا ما بلغوا.

تفوق عاد الأولى في شتى المجالات:

أيها الأخوة، لكن الله عز وجل أبقى نموذجاً لأمة طاغية قوم عاد، قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

أي تفوقت في شتى المجالات.

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

(سورة الفجر)

حفروا مدينة بالجبل.

(وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(سورة الفجر)

أي هناك قصف وهناك إفساد، أي هناك بنتاغون يقصف، وهوليود تقصف، واضح تماماً ؟

(الَّذِينَ طَغَوْا)

لا في بلدهم ولكن

(فِي الْبِلَادِ)

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

وقال: إنه أهلك عاد الأولى، معنى هذا أن هناك عاداً ثانية، نعيش اليوم أخبارها.

الله عز وجل جعل قوم عاد نموذجاً للأمم الطاغية:

الله عز وجل وصفهم بالتفوق العمراني:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء)

تفوق عمراني، تفوق صناعي.

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

تفوق عسكري.

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت)

تفوق علمي، ومع التفوق العمراني، والصناعي، والعسكري، والعلمي، هناك غطرسة، استعلاء، كبر، احتقار للآخرين، وكانوا مستكبرين، أي تغطرسوا، وقالوا:

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية: 15)

فلذلك الله عز وجل جعل قوم عاد نموذجاً للأمم الطاغية، فهؤلاء القوم

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

ما العذاب الذي أهلكهم الله به ؟

(بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

بالأعاصير:

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

المؤمن ممتلئ تعظيماً لصنعة الله عز وجل وغير المؤمن ممتلئ تعظيماً لصنعة خالق البشر:

أخواننا الكرم، معنى كفر أي غطى، والكفر في بعض اللغات السامية هو الغطاء، ومعنى كفر أي غطى حقيقة، أغفل حقيقة، حجب حقيقة، فكلمة كفر تعني أن هناك شيئاً عظيماً غُطي، هناك شيء عظيم حُجب عن النظر.

فلذلك في قوله تعالى:

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

أي هذه الآيات الدالة على عظمة الله حُجبت عن الأنظار، اجلس مع إنسان يحدثك ساعة عن السيارات، وموديلاتها، وأسعارها، وألوانها، وخصائصها، يحدثك عن الموبايلات، عن الهواتف، عن الشبكة العنكبوتية، يحدثك ساعات طويلة عن شيء صنعه البشر، وقلما يحدثك عن شيء صنعه خالق البشر، مع أن الآيات الدالة على عظمة الله تفوق حدّ الخيال.

أقول لكم هذه الكلمة: المؤمن ممتلئ تعظيماً لصنعة الله عز وجل، وغير المؤمن ممتلئ تعظيماً لصنعة خالق البشر، من علامة إيمانه أنه يحدثنا ساعات طويلة عن آيات الله الدالة على عظمته، ومن علامة استغراق الإنسان في الدنيا أن يحدثك ساعات طويلة عن دقائق صنع الإنسان.

فلذلك

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

لا تصدق ما يقال أحياناً من أناس لم يتحققوا مما يقولون، أن الله كتب الكفر على الإنسان قبل أن يولد، فلما جاء الإنسان للدنيا حقق مراد الله فكفر، فأودعه الله في جهنم لأبد الآبدين، تقول الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

رجل شارب خمر جيء به لسيدنا عمر، قال: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليّ ذلك، فقال سيدنا عمر: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال له: ويحك يا هذا! إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار، أي إذا ألغيت الاختيار ألغيت الوعد والوعيد، ألغيت الثواب والعقاب، ألغيت الجنة والنار، ألغيت المسؤولية، ألغيت حمل الأمانة، ألغيت التكليف، ألغيت الدين كله.

أنت تصور مدير مدرسة في أول يوم من أيام العام الدراسي، في أول يوم جمع الطلاب في الباحة ومسك قائمتين، وقال: هؤلاء الناجحون في آخر هذا العام، وهؤلاء الراسبون، الطالب لم يداوم، ولم

يعرف اجتهاده من ضعفه، هؤلاء كتبتُ عليهم أن ينجحوا، وهؤلاء كتبتُ عليهم أن يرسبوا، هل تقبلها من مدير المدرسة ؟.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له: إياكَ إياك أن تبتل بالماء

* * *

الإنسان مخير و ليس مجبراً:

الله عز وجل قال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية: 29)

أنت مخير ولست مجبراً.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية: 148)

أما الآية الأصل في ذلك:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

أي تكذبون، لذلك لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عبادة تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً ولم يطع مكرهاً.

الإنسان مهما تطاول هو في قبضة الله عز وجل:

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

كلها، والكفر هو الغطاء، وكفر أي غطى، كلمة كفر تعني أن هناك شيئاً قد غُطي، أنت ممكن أن تدخل لغرفة لا يوجد فيها شيء إطلاقاً، بلاط وأربعة جدران، تضع غطاء حتى تستر شيئاً، لا يوجد شيء تستره أساساً، عندما قلنا كفروا أي غطينا حقيقة، غطينا وجود،

(كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

المتانة مقاومة قوى الشد، والقساوة مقاومة قوى الضغط، أمتن عنصر في الأرض الفولاذ المضفور، وأقسى عنصر الألماس، فلذلك الألماس يقاوم قوى الضغط، أما الفولاذ المضفور يقاوم قوى الشد، فالمصاعد تتحرك بالفولاذ المضفور والتل فريك كذلك، بينما الحفر يحتاج إلى رأس ألماسي أو قريب من الألماس، الله عز وجل قال:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

أي الكافر مربوط بحبل مهما تحرك، مهما تنطع، مهما تطاول، هو في قبضة الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورةالأنفال 008 - الدرس (20-30): تفسير الآيتان 53 - 54 ، لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وبالشكر تزداد النعم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-11-20

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان حينما قبل حمل الأمانة كلفه الله أن يعبده وقد أعطاه مقومات التكليف:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس العشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثالثة والخمسين وهي قوله تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة، الإنسان هو المخلوق الأول رتبة، المخلوق المكرم، لأنه قَبِل حمل الأمانة، فحينما عرض الله:

(الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: 72)

فالإنسان هو المخلوق الأول لأنه قَبِل حمل الأمانة، ولما قَبِل حمل الأمانة سخر الله له:

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية: 13)

والمسخر له أكرم من المسخر، لذلك حينما قبل حمل الأمانة كلفه الله أن يعبده، وقد أعطاه مقومات التكليف، أعطاه كوناً هو في الحقيقة مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، أعطاه عقلاً وفق مبادئه الثلاثة، مبدأ السببية، مبدأ الغائية، مبدأ عدم التناقض، أعطاه فطرة سليمة يكشف بها خطأه، أعطاه شهوة كمحرك يدفعه إلى الله، لولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات، أعطاه حرية يثمن بها عمله، أعطاه شرعاً هو مرجع قطعي للعقل وللفطرة معاً، ثم أعطاه وقتاً هو غلاف عمله، وفي النهاية ما أقره الشرع فهو حسن، وما رفضه فهو قبيح.

نعم الله عز وجل على الإنسان:

لذلك الإنسان أنعم الله عليه بنعمة الإيجاد أوجده:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

أنعم الله عليه بنعمة الإمداد، أمدّه بكل حاجاته، أمدّه بالهواء، بالماء، بالطعام ، بالشراب، أمدّه بزوجة، وأمدّها بزوج، أمدّه بأولاد، كل شيء تراه عينك من نعم الله عز وجل، أعطاه نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد.

من آمن بالله و شكره حقق الهدف من وجوده:

شيء آخر: هذا الإنسان عندما أعطاه الله هذه النعم عليه أن يؤمن وأن يشكر، لأن الكون مسخر له تسخيرين، تسخير تعريف، وتسخير تكريم، ردّ فعل التعريف أن تؤمن، وردّ فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، وعندئذٍ تتوقف كل المعالجات الإلهية، الدليل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية: 147)

لأن الكون مسخرٌ تسخير تعريف، ومن خلال التعريف آمنت، ولأن الكون مسخر تسخير تكريم، ومن خلال التكريم قد شكرت، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك لذلك إن فعلت هذين الشيئين الإيمان والشكر تتوقف المعالجة الإلهية.

لو أن إنساناً فحصه الطبيب فوجد إحدى كليته توقفت عن العمل كلياً، يقول له: لا بدّ من إجراء عمل جراحي لاستئصال هذه الكلية، موعد العمل الجراحي، هذه الكلية صُورت مرة ثانية، فإذا بها تعمل، هل تستأصل ؟.

إذا أنت آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، وعندئذٍ تتوقف كل المعالجات الإلهية،

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

في اللحظة التي يؤمن بها الإنسان و يشكر الله على كل شيء تتوقف كل المعالجات:

الآن الله منحك نعمة الإيجاد، منحك نعمة الإمداد، منحك نعمة الهدى والرشاد، أرسل رسلاً، بعث أنبياء، أنزل كتباً، أنزل أمطاراً، أنبتت نباتاً، أنت بالطعام والشراب تغذي جسمك، وبهذا الحق الذي نزل على نبيك صلى الله عليه وسلم تغذي روحك، الذي ينبغي أن يكون أن تعرفه، وأن تعبده، وأن تشكره، الله عز وجل قدم لك كل شيء، منحك الوجود، أمدك بما تحتاج، هداك إليه، أوجد، أمد، هدى، نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد، نعمة الهدى والرشاد، بقي عليك أن تؤمن لأن كل هذا الكون يدل على الله، بقي عليك أن تشكر لأن كل ما في الكون نعم خُلقت لك.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

(سورة البقرة الآية: 29)

فاعلم علم اليقين أنه في اللحظة التي تؤمن الإيمان الذي أراده الله، أي الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، وفي اللحظة التي تشكر عن طريق خدمة الخلق، عن طريق مساعدة الخلق، حققت الهدف من وجودك، وعندئذٍ تتوقف كل المعالجات،

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

هذا هو الوضع الطبيعي.

من عاش لذاته و بنى مجده على أنقاض الناس عوقب عقاباً شديداً:

عندنا حالة مرضية، إنسان الله عز وجل أنعم عليه بنعمة الإيجاد، أنعم عليه بنعمة الإمداد، أنعم عليه بنعمة الهدى والرشاد، فلم يستجب، ولم يعبأ، ولم يستقم، ولم يتحرَ الحلال، بنى مجده على أنقاض الآخرين، بنى ماله على إفقارهم، بنى عزه على إذلالهم، بنى أمنه على إخافتهم، عاش لذاته، عاش الناس له ولم يعش للناس، هذا الإنسان لو استمرت نعم الله عليه كما كانت لا معنى للدين أصلاً.

وظيفة كُلف بها الطلاب، فالذي سهر طوال الليل لحل المسائل، وبذل جهداً كبيراً ، وفي اليوم التالي يرى هذا الطالب المجد أن الذي ما كتب الوظيفة لم يعاقب، ولم يساءل، معنى ذلك أن أوامر المعلم لا قيمة لها إطلاقاً، والدليل، الآن أي معلم يعطي وظيفة و في اليوم الثاني لا يحاسب المقصر، في اليوم الثالث لا أحد يكتب الوظيفة.

فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى أنعم عليك بنعم لا تعد ولا تحصى، أي يمكن أن أقول لك: خذ هذه الليرة السورية فعدها ؟ لا تعد الليرة، الله قال:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم الآية: 34)

معنى ذلك بركات النعمة الواحدة لا يمكن أن تحصى، أنت محاط بالنعم، جسمك، خلق لك عينين، لو كانت عيناً واحدة ترى الطول والعرض، ولا ترى البعد، خلق لك أذنين، لو كانت أذناً واحدة لا تعرف جهة الصوت، أعطاك هذا الشعر، ثلاثمئة ألف شعرة، بكل شعرة وريد، شريان، عصب، عضلة، غدة دهنية،غدة صبغية، لو أعطاك عصباً حسياً بالشعر لاحتجت كل أسبوعين إلى عمل جراحي في المستشفى، تحتاج إلى تخدير كامل وحلق شعرك، لم بضع في الشعر أعصاب حس، لو دققت في جسمك لرأيت العجب العجاب، أنت غارق في النعم، هناك نعم بجسمك، خلق لك مأوى، زوجة، أولاد، طعام، شراب، فواكه، خضراوات، أسماك، أطيار، لو حدثتكم سنوات وسنوات لا تنقضي نعمة الله.

الله عز وجل لن يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم:

ذلك المؤمن عندما يقدر هذه النعمة، يعرف هذه النعمة، يشكر هذه النعمة، هذه النعمة تدوم، فإذا كفر بالمنعم، ولم يعبأ بالنعمة، ومارس شهواته من خلال هذه النعم، لا بد من أن تتغير الأمور.

الآية:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أي شيء يصيبك أنت السبب، أقوى دليل حديث قدسي في الصحاح، يقول:

((يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّما، فلا تَظالموا، يا عبادي، كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيتُه، فاسْتَهدُوني أهْدِكم، يا عبادي، كُلُّكم جائع إلا مَنْ أطعمتُهُ فاستطعِموني أطْعِمْكم، يا عبادي، كُلُّكم عار إلا مَنْ كَسوْتُه، فاستكْسُوني أكْسُكُمْ، يا عبادي إنكم تُخطئون بالليل والنهار، وأنا أغْفِرُ الذُّنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفِرْ لكم، يا عبادي إنَّكم لن تبلغُوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تبلغوا نَفْعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقى قلب رجل واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، [كانوا] على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ، يا عبادي، إنما هي أعمالُكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إيَّاها، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

الله عز وجل أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد ، موقفك من هذه النعم لم تعبأ بها، لم تشكرها، بل استخدمتها في معصية الله، توقع يقيناً أن الله سيؤدبك.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

كبر، استعلاء، عنجهية، يرى أن الناس خلقوا له.

من ظلم الناس غيّر الله النعم التي أعطاه إياها إلى نقم:

ذلك:

((الكبرْ: بطَرُ الحقِّ، وغمطُ الناس))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود]

أن ترفض الحق، وأن تظلم الناس، لمجرد أن تظلم الله عز وجل يغير هذه النعم إلى نقم، الرياح نعمة، والعواصف نقمة، الأمطار نعمة، والفيضانات نقمة، كل شيء تراه عينك يمكن أن يكون نعمة، ويمكن أن ينقلب إلى نقمة، الزواج نعمة، وهناك زواج نقمة، أن تنجب أولاداً نعمة، وهناك أولاد نقمة، أن تكون غنياً نعمة، وهناك غنى نقمة، أي شيء بقدرة قادر يمكن أن يكون نعمة، وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون نقمة، فأنت مغمور بنعم الله، محاط بنعم الله، هذه النعم ينبغي أن تعرفها نعماً من الله، هذا نوع من الشكر، وينبغي أن يمتلئ القلب امتناناً لهذه النعم.

يروى أن ملكاً سأل وزيره، وكان ملكاً جبراً، قال له: من الملك ؟ قال له: أنت لا يوجد غيرك ؟ قال له: لا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيت يؤويه، وزوجة ترضية ورزق يكفيه، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه، أو إذلاله.

فالإنسان إذا كان بالنعم مغمور لا تغير لا يغير، أحياناً يحلو لي أن أشرح الآية الكريمة ببساطة ما بعدها بساطة، الآية:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: 11)

أقول لمن يسألني: هل أنت بخير ؟ إذا قال: نعم، أقول له: لا تغير والله لا يغير ، مطمئن، مستقيم، دخلك حلال، بيتك إسلامي، تغض بصرك، تضبط لسانك، تؤدي زكاة مالك، لا تغير والله لا يغير، اطمئن، اطمئن للمستقبل.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية: 51)

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

فرق كبير بين ما كتب الله لنا، أو كتب علينا.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت)

في أي عصر، في أي مصر، في أي مكان، في أي بلد، بأي نظام.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: 97)

وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

من كان مستقيماً فله معاملة خاصة من الله عز وجل:

أنا أخاطب الشباب الذين هم مقبلون على نشاطات كثيرة، استقم كما أُمرت، مهما كنت، فقير، غني، تحمل شهادة عليا، لا تحمل، تملك رأسمال، لا تملك، لك أب قوي، لك أب غني، أنت يتيم، ما دمت مستقيماً فلك معاملة خاصة، اقرأ هذه الآية، وليطمئن قلبك بها:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية: 21)

مستحيل وألف ألف مستحيل.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

والله الذي لا إله إلا هو الشاب المستقيم حينما يقرأ هذه الآيات يمتلئ قلبه ثقة بالله وثقة بالمستقبل، سوف ييسر لك عملاً طيباً، وزوجة صالحة، و أولاداً أبراراً، وسمعة طيبة ، و صحة جيدة.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه مالك عن بلاغ مالك]

أخواننا الكرام، درس مفصلي، أنت بنعم، إذا عرفتها نعماً من الله، المعرفة شكر، وأن يمتلئ قلبك امتناناً من الله أيضاً شكر أعلى، وأن تقابل هذه النعمة بعمل صالح، أعلى وأعلى.

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً)

(سورة سبأ الآية: 13)

أنت حينما تستقيم على أمر الله اطمئن للمستقبل.

الآيات التالية توازن بين المستقيم وغير المستقيم:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

اقرأ الآيات التي توازن بين المستقيم وغير المستقيم.

النعمة المشكورة ثابتة:

أيها الأخوة، أنت بنعم، موجود نعمة، نعمة الإيجاد أنت بنعم، تسكن ببيت، يوجد في البيت ماء، يوجد طعام، و شراب، و سرير، و مدفأة بالشتاء، و مروحة بالصيف، تسير على قدمين، تملك كل أهليتك، لك عمل، أعطاك الله قدرة على أن تمتلك خبرة معينة، خبرة علمية، تدريس، وظيفة، طبيب، مهندس، محامي، تاجر، حتى تتقن صنعة معينة من نعم الله الكبرى، هذه النعم نعمة الإيجاد، والإمداد، والهدى والرشاد، هذه النعم إذا عرفتها وشكرتها لن تزول، النعمة المشكورة ثابتة.

لذلك:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أنت في خير ؟ تقول نعم، لا تغير الله لا يغير.

سؤال آخر: كيف وضعك ؟ والله في مشكلة كبيرة، مشكلة مالية، مشكلة اجتماعية، مشكلة صحية، مشكلة زوجية، يقول الله عز وجل لك: غيّر حتى أغير، لا تغير لا أغير، أغير حتى أغير، صدقوا ولا أبالغ هذا ملخص الملخص، والله يمكن أن يضغط الدين بهذه الكلمات الأربع، لا تغير لا يغير الله، إذا كنت في بحبوحة، وفي سعادة، لا يوجد عندك مشكلة، الآن عندنا مشكلة غيّر حتى يغير،

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

اجعل هذه الآية في غرفتك،

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أنت لمجرد أن تصطلح مع الله، وأن تستقيم على أمره، وأن تخطب وده، تجد شيئاً لا يصدق، الأمور ميسرة، تلهم الصواب، تلهم الحكمة، تلهم طلاقة اللسان، تتمتع بشخصية قوية، لا تتضعضع أمام قوي ولا أمام غني، صابر، محتسب، طليق اللسان، تعرف الواحد الديان، لا تغير لا يغير، غير حتى يغير، واضح ؟.

المسلمون لا يريدون أن يغيروا لكنهم ينتظرون بسذاجة أن يغير الله ما بهم و هذا مستحيل:

هذه الآية يجب أن تكون في مكان بارز في غرفتك

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أرادك أن تبدأ أنت الآن، المسلمون عندهم حالة صعبة جداً، ينتظرون أن يغير الله ما بهم، بمعجزة، يأتي زلزال على العدو ويبيده، الحمد لله، لا يأتي زلزال، غيّر حتى يغير، الله عز وجل أعطانا جرعات منعشة، عشرة آلاف مقاتل ـ يغلب على ظني أنهم مؤمنين ولا أزكي على الله أحداً ـ استطاعوا أن يقفوا

أمام أكبر جيش في المنطقة، أليس كذلك ؟ ثمان و ستون مدرعة دُمرت في يوم واحد، عشرة آلاف مقاتل تمكنوا أن يقفوا أمام أكبر جيش أول جيش بالمنطقة، رابع جيش بالعالم، أول جيش بتنوع الأسلحة، لأنهم قالوا: الله.

الله أعطانا جرعة منعشة، كأن يقول لنا: أنا موجود يا عبادي، لكن غيروا حتى أغير، المسلمون لا يغيرون ولكن ينتظرون حتى يغير الله ما بهم، هذا مستحيل، نعيش كما نريد، اختلاط، إطلاق بصر، متابعة مسلسلات، إهمال في الطاعات، غش في البيع والشراء، كذب واحتيال، الحالة الاجتماعية لا ترضي الله، المسلمون لا يريدون أن يغيروا لكنهم ينتظرون بسذاجة أن يغير الله ما بهم، مستحيل !

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

هذه الآية أخواننا الكرام تنطبق على فرد واحد، وعلى الأمة بأكملها، عظمة هذا القرآن فردي وجماعي، دعك من الناس أنت غيّر، صل الفجر في جماعة، اذكر الله كل يوم، صل ركعتين من قيام الليل، غض بصرك عن امرأة لا تحل لك، لا تتابع مسلسلات لا ترضي الله عز وجل أبداً، كن صادقاً، كن أميناً، قدم مساعدة لكل من حولك، تفاجأ أن الله غيّر كل معاملته معك، تتمتع براحة نفسية عجيبة، بسعادة مذهلة، بتوفيق، بسداد، الدنيا كلها في خدمتك.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

التغير يبدأ من الداخل فمن اصطلح مع الله يجب أن يرى التغير بعد ساعة:

أخواننا الكرام، غيّر حتى يغير، لا تغير لا يغير، هذا ملخص الملخص، فهذه الآية تنطبق على الأفراد، والجماعات، والدول، والشعوب، والأمم، والبشرية، وعود الله عز وجل زوال الكون على الله أهون من ألا تتحقق، وهناك جرعات منعشة أذاقنا الله إياها كي نثق بالله، كي نخرج من ثقافة اليأس، ثقافة الإحباط، ثقافة الطريق المسدود، هذه الآية لك وحدك، ولأسرتك، ولعشيرتك، ولقومك، ولشعبك، ولأمتك، وللإنسانية جمعاء، غيّر حتى يغير، لا تغير لا يغير، المعنى بسيط جداً، لكن عميق جداً.

لذلك الله عز وجل قال:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

التغير لا يبدأ من استيراد نظام آخر بعيد عنا، التغير لا يبدأ من الخارج، لا يبدأ من جهات قوية بعيدة، لا يبدأ بدعم خارجي، التغير يبدأ من الداخل، أنت حينما تصطلح مع الله يجب أن ترى التغير بعد ساعة، الله عز وجل في بعض الآثار القدسية قال:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

المؤمن الصادق يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء:

بإمكانك أن تعقد صلحاً مع الله فوراً لأن المستقبل لا تملكه، والماضي مضى، ما مضى فات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، لا تملك إلا هذه الساعة، تعاني ما تعاني ؟ غيّر حتى يغير، تعاني من ضيق مادي ؟ غيّر حتى يغير.

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)

(سورة نوح)

تعاني من خلاف زوجي ؟

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[رواه أحمد عن ابن عمر، وإسناده حسن]

استقم، حتى إن أحد العارفين قال: " أنا أعرف مقامي عند الله من أخلاق زوجتي" اعقد مع الله صلحاً تفاجأ أن الزوجة تسلس لك، صار البيت لطيفاً، ليس فيه صوت مرتفع، ليس فيه تكسير، فيه ود، فيه رحمة، غيّر حتى يغير، هذا ملخص الملخص، لا تغير لا يغير، أي أنت في نعم مستحيل أن تبقى وأنت كافر بها، الكفر بالنعم أن تعزوها إلى أهل الأرض، مثلاً ابنك حرارته 41 وأنت في قلق، والتشخيص المبدئي التهاب سحايا، ثم هداك الله إلى طبيب أعطاك دواء، وشفي الابن، يقول لك: هذا الطبيب ممتاز، الله عز وجل سمح لك بالشفاء على يد هذا الطبيب، هذا التوحيد، قل: يا رب لك الحمد.

لذلك المؤمن الصادق يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، يعالج ابنه عند الطبيب وفي أعماق أعماقه: يا رب أنت الشافي، يراجع مركبته مراجعة تامة، وقبل أن يسافر: يا رب أنت الحافظ، وأنت المُسلم.

من استخدم نعم الله وفق منهجه ضمن ثباتها و دوامها

هذه النعم لا تعد ولا تحصى، الصحة نعمة، أن تملك ذاكرة نعمة، أن تملك لساناً ينطق نعمة، أن تملك قلباً ينبض نعمة، كل جهاز نعمة، كل عضو نعمة، والزوجة نعمة ، والأولاد نعمة، والمأوى نعمة، وإتقان عمل نعمة، والوظيفة نعمة، والمال نعمة، فهذه النعم أنت إذا شكرت الله عليها، واستخدمتها وفق منهج الله، أنت بهذا تضمن ثباتها ودوامها، لا تقلق من المستقبل، المستقبل بيد الله.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية: 51)

مرة ثانية:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

أخواننا الكرام، هذه النعم إذا انتقلت بها من الإيمان إلى الكفر سوف تُغير، وهذه النعم إذا آمنت بالله وشكرته على هذه النعم سوف تدوم، أبداً، هذه الحقيقة تصلح للأفراد والجماعات.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

إذا دعوته يسمعك، وإذا سكت يعلم ما في قلبك، إذا تحركت يراك، تتكلم يسمعك ، تتحرك يراك، تثبت وتسكت يعلم ما في نفسك.

الله عز وجل يخبر نبينا الكريم أن الذي يعانيه من قومه قد عاناه الرسل من قبله:

ثم يقول الله عز وجل:

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)

(سورة الأنفال)

الدأب هو العادة، كعادة آل فرعون في تكذيبهم لسيدنا موسى، أي يا محمد لا تقلق، ولا تحزن، لست بدعاً من الرسل، الذي تعانيه من قومك قد عاناه قبلك الرسل.

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)

فرعون كان بنعمة لكن ما شكرها فغرق، وخسر ملكه.

ما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه:

ملخص الملخص، أنت بنعمة ؟ أعرفها من الله، واشكر ربك عليها، وقابل هذه النعمة بخدمة الخلق، تضمن ثباتها ونموها، أحياناً إنسان يفقد شيئاً من أعضائه، هناك آفات، و أورام خبيثة، و أمراض وبيلة، و عجز في حادث سير، أنت حينما تستقيم على أمر الله كأن الله يطمئنك، يا عبدي:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور الآية: 48)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ولكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، شظية طائشة لا يوجد، هناك شظية مصيبة، تصيب الهدف، لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (21-30): تفسير الآيات 55 - 59 ، الإنسان هو المخلوق الأول رتبة وهو في قبضة الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-12-11

بسم الله الرحمن الرحيم

تكريم الله عزّ وجل للإنسان:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخامسة والخمسين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

والدواب جمع دابة، والدابة كل مخلوق يدب على وجه الأرض، أي يمشي على وجه الأرض، هو دابة وجمعها دواب.

ولكن بالعرف الدواب هي التي تمشي على أربع، ولقد كرم الله الإنسان.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

الإنسان كرمه الله فجعله يمشي على رجليه، وهو منتصب القامة، ويداه طليقتان ، هناك من يقول: إن هذه الحضارة الإنسانية بسبب أن يدي الإنسان طليقتان.

لذلك عندنا معنى لغوي، الدابة، وأي مخلوق يدب على وجه الأرض، وبهذا التعريف الشامل الإنسان يدخل في هذا التعريف، لكن العرف أن الدواب تمشي على أربع، بينما كرم الله الإنسان، فجعله يمشي على رجليه، وجعل يديه طليقتين.

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة:

الآية تقول:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا)

هنا الدواب بشر، بشر كفار، وهناك ملمح دقيق جداً بالآية أن هذا الذي كفر ينضم لا إلى بني البشر ينضم إلى الدواب، هذا الذي كفر صُنف هنا مع الدواب، مع أن الإنسان ليس دابة بل هو مخلوق مكرم.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: 73)

لذلك إن الإنسان هو المخلوق الأول رتبة.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ)

(سورة البينة)

لذلك كما قال سيدنا علي:ركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان ".

إذاً الدابة: أي مخلوق يدب أي يمشي على وجه الأرض، لكن العُرف أن الدواب هي المخلوقات التي تمشي على أربع، ولقد كرم الله بني آدم فجعل الإنسان يمشي على قدمين، وجعل يديه طليقتين.

الإنسان عندما لا يعرف الله عز وجل يهبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به:

إلا أن الكافر أُلحق مع الدواب، قال الله عنهم:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية: 21)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية: 5)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون الآية: 4)

(كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف الآية: 176)

إذاً الإنسان حينما لا يلبي حاجته العليا وهي معرفة الله عز وجل هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوىً لا يليق به.

إذاً:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا)

والله أنا أحياناً لا أرى من وصف لهذا الكافر الشارد، التائه، المنحرف، الذي يعتدي على أموال الناس، وعلى أعراضهم، والله لا أرى من وصفٍ يليق به كأن أقول دابة، حينما لم يلبِ حاجة عقله، لم يتعرف إلى الله، لم يعرف سرّ وجوده، لم يعرف غاية وجوده، هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوىً لا يليق به.

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة المكرم و المكلف:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

ما لم تؤمن التصنيف يختلف، أنت مصنف مع البشر، ولأنك من بني البشر أنت المخلوق الأول رتبة، لأنك من بني البشر أنت المخلوق المكرم، لأنك من بني البشر أنت المخلوق المكلف، لأنك من بني البشر أنت تفوق الملائكة، هكذا الآيات، والأحاديث، والنصوص.

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

كل هذا الكون يدل على الله، فالإنسان غارق بنعم لا تعد ولا تحصى.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

ترى الأشياء بأحجامها الحقيقية، وبألوانها الدقيقة، أنت صور مجموعة من الأشخاص بآلة، تجد بعد طبع الصورة أن الألوان كلها متقاربة، لكن العين البشرية تفرق بين ثمانية ملايين لون، بالعين ترى كل إنسان له لون، بالآلة الألوان متقاربة، بالعين يوجد بالميليمتر مربع مئة مليون مستقبل ضوئي، بأعلى آلة تصوير رقمية احترافية هناك عشرة آلاف مستقبل ضوئي، فأنت مكرم بالعينين.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً)

(سورة البلد)

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

جعل له عينين، أذنين، يسمع، ويبصر، ويتألم، ويفرح، ويسعد، ويدرك، ويغضب، مركز الذاكرة في الإنسان لا يزيد عن حبة عدس، هناك سبعون مليار صورة، فالإنسان إذا عاش ستين سنة تقريباً يوجد بذاكرته ما يساوي 70 مليار صورة.

أوامر الله عز وجل التكليفية و التكوينية:

لذلك أيها الأخوة،

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لكن هناك شيء دقيق، أن الله عز وجل له أمر تكليفي، وله أمر تكويني، الأمر التكليفي افعل، ولا تفعل، والأمر التكليفي يشبه طريق سالك ممتد، لكن عند أول تقاطع وضعت لوحة ممنوع المرور هذا أمر تكليفي، لكن الإنسان بإمكانه أن يمشي، وأن يخالف هذه اللوحة، الأمر التكليفي قد لا يطبق، كلفك أن تكون صادقاً، الإنسان مخير، قد يكذب، كلفك أن تكون أميناً، قد تخون، كلفك أن تصلي، الإنسان مخير قد لا يصلي، كلفك أن تكون منصفاً.

فالأوامر الإلهية التي كلف الله بها الإنسان هي أوامر تكليفية، يمكن للإنسان أن يعصيها، أما الأمر التكويني شيء آخر، هذا الطريق السالك المفتوح الذي بإمكان السائق أن يعبره، وهناك لوحة ممنوع المرور، بالأمر التكويني يوجد أربع قطع إسمنت مسلح على عرض الطريق، ارتفاعها متران، هذا أمر تكويني، الأمر التكليفي أمر الله، أما التكويني فعل الله ، الأمر التكويني لا يعصى، الله خلقك أبيض البشرة، أو أسمر، لون بشرتك أمر تكويني، كونك من فلان أو فلانة أمر تكويني، كونك ولدت بدمشق أمر تكويني، ولدت في السبعينات أمر تكويني، الله له أمر تكليفي، وله أمر تكويني واضح ؟ فالإنسان مكلف بأمر تكليفي أن يكون مؤمناً، أن يكون صادقاً، أن يكون أميناً، أن يكون منصفاً، أن يطلب العلم، أن يتعرف إلى الله، أن يتعرف إلى منهجه، أن يطيعه بأمر تكليفي، كل إنسان قد يعصي، وقد لا يصلي، وقد يأكل المال الحرام، إلا أن بقية المخلوقات مسيرة، الإنس والجن مخيران.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

(سورة الرحمن)

الإنس والجن أعطيا الأمانة، والتكليف، وكلفا بعبادة الله عز وجل، ما سوى الإنس والجن مخلوقات مسيرة بالغرائز.

الإنس والجن أعطيا الأمانة والتكليف و ما سوى الإنس والجن مخلوقات مسيرة بالغرائز:

اطلعت على نظام النحل، نظام ما بعده نظام، دقة ما بعدها دقة، قيام بالواجب ما بعده قيام بالواجب، اختصاص دقيق، هذا النظام المذهل في النحل ليس بأمر تكليفي، بل بأمر تكويني، هناك أنظمة في عالم النحل، أو في عالم النمل يكاد الشيء لا يصدق، كل نحلة تقوم بمهمتها، نحل لجني الرحيق، نحل لصنع العسل، نحل لصنع بيت الشمع، نحل للحراسة، نحل للتعليم، نحل للتنظيف، نحل للتميع، نحل للتهوية،

عالم النحل عالم قائم بذاته، أروع نظام اجتماعي في الكون عالم النحل، لماذا لا يوجد معصية ؟ لأنه بأمر تكويني، بغريزة.

مثلاً: دابة أطعمها تشبع تقف عن الطعام، أي محاولة لتجبرها على الطعام لا تنجح، أما الإنسان يأكل فوق حاجته، الدابة بغريزتها لا تأكل إلا حاجتها.

حتى إن هناك شيء مشاهد، لو فرضنا هناك معبر مائي، فالدابة هل تستطيع أن تعبر هذا المعبر ؟ إن كان هذا المعبر أوسع من طاقتها لا تعبر، مهما ضربتها، مهما دفعتها.

الإنسان أحياناً يخاطر ويغرق أحياناً، الدواب تتحرك بغرائز، والغرائز لا تخطئ أبداً، الكون كله مسير عدا الإنس والجن، لأنك من بني البشر أنت مخير، مخير ومكلف بمعرفة الله، ومعرفة منهجه، لا تأكل الدابة فوق حاجتها، ولا تتخطى معبراً مائياً لا تستطيع أن تقفز منه، أما الإنسان قد ينضبط، وقد لا ينضبط.

من طرائف المعلومات أن الإنسان الذي وصل إلى القمر، والذي أرسل المركبات إلى المشتري، والذي حصّل علوم الثقلين، والذي نقل الصورة عبر الأمواج الكهرطيسية والذي نقل الإنسان بالطائرة، أربعمئة و ثمانين راكباً يركبون بالطائرة كأنهم في مدينة تطير في الأجواء، الإنسان الذي نقل الصورة، نقل الصوت، صنع هذا المحمول، وأنت بأي مكان بالعالم تخاطب أي إنسان في العالم بثانية، هذا الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بالزلزال ولا قبل ثانية، بينما الدواب تتنبأ به قبل عشرين دقيقة، لحكمة أرادها الله.

الإنسان مخير ومكلف بأمر تكليفي أما المخلوقات الأخرى فمسيرة بالغرائز:

إذاً: الإنسان مخير ومكلف بأمر تكليفي، يطيع أو لا يطيع، أما المخلوقات الأخرى مسيرة بالغرائز، تجد الحيوان يقوم بأعمال يعجز عنها العقلاء، بالغريزة.

البطريق طائر، يعيش في القطبين، حينما تلد أنثاه بيضة يضعها على قدميه، ويغطيها بالفرو الذي على جسمه، ويبقى أربعة أشهر لا يأكل ولا يشرب، حفاظاً على هذه البيضة، لو سقطت من على قدميه إلى الثلج لمات الصغير، بعد أربعة شهر تفقس البيضة، الأب معه كمية طعام في حوصلته معدة لهذا الصغير، يعطي هذا البطريك الصغير وجبة طعام دسمة، وتأتي الأنثى فتأخذه عندئذٍ يذهب إلى البحر، ما هذا النظام ! هناك رحمة بأمر تكويني، وهناك عدل بأمر تكويني، وهناك نظام بأمر تكويني، و هناك توزيع اختصاصات بأمر تكويني، فما سوى الإنسان مسير بالغرائز.

مثل بسيط: الطفل الآن ولد، إذا وصلت إصبع الطبيبة إلى شفتيه يمصها فوراً والمص عملية معقدة جداً، عملية معقدة، إحكام الشفتين على هذه الأصبع ثم سحب الهواء ، منعكس المص غريزة أودعها الله في الطفل كي يعيش، الإنسان يتحرك إما بعقله مع معلومات أو بغريزته.

الإنسان كائن بالغ التعقيد تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز:

الآن الإنسان، يا ترى الجوع ما حقيقته ؟ الآن أنت بالسيارة عندك مؤشرات، هناك مؤشر صوتي، و مؤشر ضوئي، و مؤشر رقمي، الحرارة مؤشر رقمي، فالإنسان إذا لم ينتبه للمؤشر يحترق المحرك، وهناك مؤشر صوتي، و هناك سرعة معينة إذا تجاوزتها هناك صوت يصدر من السيارة، وهناك مؤشر حراري، الجوع ما نوعه ؟ صوتي أم حراري ؟ لا نعرف، الجوع، تحس بالجوع بغريزتك فتأكل، والعطش، تحس بالعطش بغريزتك، طبعاً لضمان سلامتك جعل الله الإحساس بالجوع والإحساس بالعطش غريزي، تأكل، الهضم عملية معقدة جداً جداً جداً، هناك عصارات، وهناك حركة المعدة، وحركة الأمعاء، وهناك البنكرياس، والصفراء، آلية معقدة جداً، لو ترك الله الهضم للإنسان، تتناول وجبة طعام تحتاج إلى أربع أو خمس ساعات هضم، والله أنا مشغول أهضم الطعام.

لو ترك لك دقات القلب تنام فتموت، القلب يعمل آلياً، والهضم يتم آلياً، وأحياناً أعمالك اليومية تنقلب للحركة الآلية، تخرج من مكتبك إلى بيتك تقود السيارة وأنت غارق بحديث مع صديقك، ولا تفكر بالقيادة إطلاقاً، الأعمال اليومية المتكررة سبحانك يا رب ! تنتقل إلى جهاز آلي.

مثلاً: إنسان غيّر بيته، خلال شهرين أربع أو خمس مرات يسوق مركبته إلى البيت القديم دون أن يشعر، مركبة على النظام الآلي القديم، الإنسان كائن بالغ التعقيد، تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز.

الله عز وجل وفر للإنسان وقته و كلفه بعبادته و طاعته:

الله عز وجل جعل لك غرائز لكن أراحك بها، أنت ضع هذه اللقيمات بفمك والأمر اتركه إلى الله، حركة الأمعاء، إفراز العصارات، إفراز الأنسولين في البنكرياس، إفراز الصفراء، الطعام انتقل من المعدة إلى الأمعاء الدقيقة، ثم الغليظة، وتمت التصفية، ذهب قسم من السكريات إلى مركز الشبع فشبعت، لو درست الإنسان مخلوق عجيب، هناك غرائز لا تعد ولا تحصى، الغرائز من أجل أن تتفرغ لعبادة الله.

والله أعرف إنساناً طبيباً توفي ـ رحمه الله ـ عنده مركز التنبيه النوبي قد تعطل، فإذا نام يموت. بعد مئة عام صنعوا دواء، شيء لا يصدق، هذا الدواء تحتاج أن تأخذه كل ساعة بالليل، هذا الأخ

الطبيب رحمه الله يربط أربعة منبهات، نام الساعة الحادية عشرة، يربطهم الساعة الثانية عشرة ليأخذ حبة، يأخذها، يربطهم على الساعة الواحدة، يأخذها، وهكذا، أنت تنام من الساعة العاشرة إلى الساعة الرابعة نوماً عميقاً، والرئتان تعملان، والقلب يعمل، والهضم يعمل، يوجد بالإنسان أجهزة رائعة جداً تعمل لوحدها، لكن أعطاك حرية الاختيار، قال لك: فكر بالكون، هذا عمل إرادي، قال لك: اعبدني، هذا عمل إرادي، اعمل عملاً صالحاً، هذا عمل إرادي.

فالله عز وجل وفر لك وقتك، الأعمال المعقدة جداً التي أنت بأمس الحاجة إلها أمنها لك بغرائز، وكلفك بعبادته. إذاً:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لكن النقطة الدقيقة الحيوان غير مكلف، والحيوان يتحرك بالغرائز لا بالاختيار، الإنسان عنده غرائز تعفيه من جهد كبير، والله عز وجل فرغه لعبادته، وطاعته، والدعوة إليه.

الإنسان حينما يخون مرة وثانية وثالثة هذا لا عهد له وينبغي أن يؤدب:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لكن الله سبحانه وتعالى أشار إلى اليهود حينما قال:

(الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ)

(سورة الأنفال)

اليهود عاهدوا النبي عليه الصلاة والسلام أن يكفوا شرهم عنه، ثم نقضوا العهد في بدر، ثم عاهدوه ثانية، ثم نقضوا العهد في الخندق.

(الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ)

الإنسان حينما ينقض العهد يقال: خان العهد، والخائن كما قال الله عنه:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

خانوه مرتين، مرة في بدر، أعانوا قريش عليه، ومرة في الخندق سمحوا لقريش أن تحاربه من جهتهم، الآية تقول:

(فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

(سورة الأنفال)

فالإنسان حينما يخون مرة وثانية وثالثة هذا لا عهد له، ينبغي أن يؤدب، أي أدبهم حتى ابتعد أنصارهم عنهم.

الخائن مع الباطل فعلى الإنسان أن يشرد به حتى يبتعد أنصاره عنه:

(فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ)

تثقفنهم ؛ أي تجدهم، إن وجدتهم في ساحة المعركة أدبهم شر تأديب كي يبتعد أنصارهم عنهم. إنسان وقع أسيراً وقد نكل بالصحابة الكرام، فأمر النبي بقتله، فتوسل إليه أن عنده بنات صغيرات، وليس لهم غيره، فالنبي رق له، عاد إلى قتل الصحابة والتنكيل بهم، وقع أسيراً مرة ثانية، فلما حاول أن يستعطفهم مرة ثانية، قال: لا، تقول العرب خدع محمداً مرتين.

إذاً

(فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

أي من خلفهم لئلا يتورطوا بمعونتهم، شرد بهم بقوة حتى يبتعد عنهم أنصارهم لأنهم مع الباطل.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

(سورة الأنفال)

لو أن بينك وبينهم معاهدة، وأنت شعرت أن هؤلاء قد يقعون بالخيانة، أو على وشك الخيانة، أو تحركوا نحو الخيانة، عندنا خيانة وقعت، و خيانة ستقع، فرق كبير لو أن بينك وبين قوم عهد وخانوك ابدأ بحربهم، الخيانة نقض للعهد، لكن لم ينقضوا العهد بعد، لكن هناك بوادر، و اتصالات، و حركة مشبوهة.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً)

أو عمل، لا يجوز لك أن تحاربهم مباشرة، لابد من أن تبلغهم أن العهد الذي بينك وبينهم قد انتهى.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ)

أبلغهم أن المعاهدة قد انتهت وأنا في حل منها، وأنا سوف أتحرك، كما أريد.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ)

عهدهم أي أبطل عهدهم،

(عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

وأنا أتمنى عليكم إما بالمعجم المفهرس، أو بالكمبيوتر اكتب إن الله لا يحب، اجمع الآيات، وإن الله يحب، وبالأحاديث الشريفة إن الله لا يحب، وإن الله يحب، اجمع قائمتين ما الذي يحبه الله ؟ وما الذي لا يحبه ؟.

الله تعالى يحب الصادقين والتوابين والمتطهرين ولا يحب كل متكبر أو خائن:

هناك نقطة دقيقة جداً أن الله يتعامل معنا وفق قوانين، شيء مريح جداً، أحياناً مثلاً مدير مؤسسة يغضب بلا سبب، يرضى بلا سبب، لا تعرف ما السبب، يقولون: كالاسمنت ينهار من دون إنذار، هناك إنسان مزاجي، لكن خالق السموات والأرض جعل لك قوانين معه، فالأمر عنده واضح.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

فأنت ابحث عن الآيات التي تؤكد:

أن الله يحب الصادقين، يحب التوابين، يحب المتطهرين.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة)

إن الله لا يحب كل متكبر، لا يحب الخائنين، ابحث عن الذي يحبه الله والذي لا يحبه.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ)

عهدهم، أي أنهِ العهد الذي بينك وبينه

(عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال)

أحياناً تأتي مصيبة، يكون إنساناً قوياً، وغنياً، وبذكاء معين، ينجو منها، يظن نفسه متفوقاً ونجا من هذا المصاب الذي عمّ معظم الناس، لكن أنت في قبضته، بأي لحظة أنت في قبضته، فالآية دقيقة جداً، أن الإنسان الكافر في قبضة الله.

الإنسان في قبضة الله:

لذلك الإنسان في قبضة الله، بأي لحظة الله يدمره، أي مع الله لا يوجد ذكي، ولا يوجد قوي، فالإنسان بلحظة يفقد حركته، بقطرة دم لا تزيد عن رأس الدبوس تتجمد في بعض فروع الدماغ أو في بعض أوعية الدماغ يصبح مشلولاً، ساعة فشل كلوي، ساعة تشمع كبد، ساعة احتشاء بالقلب، ساعة شلل، ساعة مرض معين، الأمراض العضالة لا تعد ولا تحصى، والله عز وجل بأي لحظة يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق.

فهذا الذي يتحرك بلا منهج، يعتدي على الناس، يأكل المال الحرام، على ماذا يعتمد ؟ أنت في قبضة الله، أحياناً الإنسان ينجو من مصيبة عامة، ليس معنى هذا إذا نجا ألا يقع في مصيبة أخرى، أنت في قبضة الله، لذلك:

((عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وأنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أدخِلَ البحرَ، ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

((إني والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض علي منهم ناديته من قريب، أهل ذكري، أهل مودتي، أهل شكري، أهل زياتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

المؤمن يرى أنه في قبضة الله دائماً فهو متأدب معه ويشكره على ما أعطاه:

الله عز وجل قال:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

الكيد هو التدبير، المتانة في الفيزياء مقاومة قوى الشد، أمتن شيء بالأرض الفولاذ المضفور، وأقسى شيء في الأرض الألماس، الألماس يتحمل قوى الضغط، والفولاذ المضفور يتحمل قوى الشد.

مثلاً: الاسمنت يجب أن يكون مسلحاً، لأن السنتيمتر المكعب من الاسمنت يتحمل خمسمئة و خمسين كيلو ضغط، لا يتحمل خمسة كيلو شد، أما الشد لو وضعته بآلة فيها شد على خمسة كيلو ينكسر، إذاً يحتاج إلى تسليح بالحديد، أي ما يسمى بالاسمنت المسلح.

فالله عز وجل يقول:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

أي أنت مربوط بحبل، مهما كنت قوياً لا ينقطع،

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

أنت في قبضة الله، بلحظة الإنسان يفقد بصره، يفقد سمعه، يفقد حياته بالنمو العشوائي، أي الورم الخبيث، يفقد حياته بتجمد خثرة بالدماغ، يفقد حياته باحتشاء القلب، يفقد حياته بالفشل الكلوي، يفقد حياته بتشمع الكبد، الإنسان بقبضة الله.

فالمؤمن يرى أنه في قبضة الله دائماً، متأدب معه، ويشكر الله على ما أعطاه.

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال)

معنى سبقوا إما أنهم فعلوا شيئاً ما أراده الله، مستحيل، لا يقع في ملك الله إلا ما يريد، أو أنهم تفلتوا من عقاب الله.

هذا الذي هدم سبعين ألف بيت بغزة، هذه السنة الثالثة أعتقد أنه لم يمت إلى الآن ، صار وزنه ثلاثين كيلو، كان مثل الدب، وزنه ثلاثين كيلو، انتقام من الله.

لذلك:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (22-30): تفسير الآيات 60 - 63 ، الإعداد للعدو ثم الاتكال على الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-12-18

بسم الله الرحمن الرحيم

من لم يجاهد أو يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الكريمة:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء، من لم يجاهد، ومن لم يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق، ولكن الناس يتوهمون أن الجهاد هو الجهاد القتالي ليس غير، مع أن الحقيقة أن هناك أنواع كثيرة من الجهاد، منها جهاد النفس والهوى، تؤكدها الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

وقد نسب إلى بعض الصحابة قولهم وقد عادوا من غزوة: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى ".

الجهاد الأساسي جهاد النفس والهوى فما لم تنتصر على نفسك لن تستحق من الله شيئاً:

حينما تحمل نفسك على طاعة الله فأنت في جهاد، حينما تضبط لسانك عن الغيبة والنميمة فأنت في جهاد، حينما تضبط عينك عن أن تطبقها في محارم الله فأنت في جهاد، حينما تضبط يدك عن أن تبطش بغير حق فأنت في جهاد، حينما تضبط رجلك عن أن تسير بها إلى مكان لا يرضي الله فأنت في جهاد، حينما تضبط أعضاءك وجوارحك عن أية معصية فأنت في جهاد.

أيها الأخوة، الجهاد النفسي هو الجهاد الأساسي، كي أقرب لكم هذه الحقيقة:

الدكتوراه، الماجستير، الدبلوم، اللسانس، الشهادة الثانوية، كل هذه الشهادات لا يمكن أن تكون قبل أن تحمل إعدادية، وهو التعليم الأساسي، من الصف الأول وحتى التاسع، تسمى عندنا في بلادنا التعليم

الأساسي، الثانوية بعد التعليم الأساسي، المعهد المتوسط بعد التعليم الأساسي، اللسانس بعد التعليم الأساسي، الدبلوم بعد التعليم الأساسي، الماجستير بعد التعليم الأساسي، الدكتوراه بعد التعليم الأساسي.
أساس الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك، والمهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة لذلك أية دعوة إلى الجهاد القتالي لا تسبقها دعوة إلى جهاد النفس والهوى لا تنجح، الجهاد الأساسي جهاد النفس والهوى، ما لم تنتصر على نفسك فلا تستحق من الله شيئاً.

لن يستطيع أي إنسان أن يجاهد عدوه إن لم يجاهد نفسه و هواه أولاً:

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم هو بشر:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف الآية: 110)

ولولا أنه بشر، تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، ولن تستطيع أن تجاهد العدو إلا إذا جاهدت نفسك وهواك أولاً.
لذلك، جهاد النفس والهوى يغطيه القرآن الكريم

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

الصحابة الكرام قولهم: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى ".
للتقريب مرة ثانية: قد تدفع عدة ملايين لإنشاء مسجد، لكنك لا تستطيع أن تغض بصرك عن محارم الله، فأنت ضعيف في جهاد النفس والهوى، أية شهوة تصر عليها ولا تفكر أن تتوب منها تحول بينك وبين الجهاد الحقيقي، جاهد نفسك وهواك أولاً.
مرة ثانية: المهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، كل قوتك أن تجاهد نفسك وهواك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: 11)

وهذه الآية فيها إشارة واضحة جداً إلى جهاد النفس والهوى،

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

عن طريق جهاد النفس والهوى.

حلاوة الإيمان ثمنها الجهاد في سبيل الله:

لذلك حينما تلزم دروس العلم، وتتعرف إلى منهج الله، وحينما تحمل نفسك على طاعة الله، حينما تضبط دخلك وتجعله حلالاً صرفاً، حينما تضبط لسانك، حينما تضبط أذنك ، حينما تضبط عينك، حينما تضبط يدك، حينما تضبط رجلك، حينما تضبط أهلك، حينما تضبط بيتك، حينما تضبط عملك وفق منهج الله، نقول: أنت سرت في طريق الجهاد، جاهد نفسك وهواك أولاً، وهذا الجهاد من أعلى درجات الجهاد، لأنك في هذا الجهاد ترفع عند الله، هذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان))

[أخرجه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي]

أي ؛ أن يكون الله في قرآنه أي في الأمر والنهي، ورسوله في سنته أي في الأمر والنهي:

((أحب إليه مما سواهما))

فحينما تؤثر طاعة الله على مصلحتك المتوهمة، على مصلحتك الدنيوية، عندئذٍ تكون قد دفعت ثمن حلاوة الإيمان، وحلاوة الإيمان ثمنها الجهاد في سبيل الله.

الجهاد الدعوي:

أيها الأخوة، الجهاد في سبيل الله مرتبة يسبقها مراتب عدة، الجهاد الثاني الجهاد الدعوي، أن تطلب العلم، وأن تُعلم، وهذه المرحلة يمكن أن تسمى بالجهاد الدعوي، تعليماً وتعلماً، إلقاء وتلقياً، فإن كنت لا تعلم تلقى العلم، وتلقي العلم من الجهاد.

حينما تركب مركبة أولى، وثانية، وقد تكون ثالثة، وتأتي من أطراف المدينة إلى المسجد، وتجلس على الأرض من دون ضيافة إطلاقاً، لتتعرف إلى الله فأنت في جهاد آخر، اسم هذا الجهاد: الجهاد الدعوي، هذا الجهاد تغطيه الآية الكريمة:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

أي بالقرآن:

(جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

لذلك يقول سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ: " قوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالم مستعمل علمه ـ فالعالم حينما يطبق علمه تطبيقاً تاماً فهو في جهاد ـ ومتعلم لا يستنكف أن يتعلم، والمتعلم في جهاد ـ....." .

الجهاد الدعوي أن تتعرف إلى الله و تتفكر في ملكوت السماوات و الأرض:

الآن الجهاد الدعوي أن تتعرف إلى الله، حينما تجلس لتفكر في ملكوت السماوات والأرض أنت في جهاد، حينما تقرأ كتاباً في العقيدة أنت في جهاد، حينما تقرأ كتاباً في الفقه أنت في جهاد، أنت في الجهاد الدعوي، جهاد التعليم أو التعلم، جهاد الأخذ أو الإعطاء، جهاد التلقي أو الإلقاء، جهاد طلب العلم أو إلقاء العلم، هذا الجهاد تغطيه الآية الكريمة:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

((إنَّ الملائكة تضع أجْنِحَتَها لطالب العلم رضا بما يطلب))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن صفوان بن عسال]

دعاني أخ من إفريقيا لزيارة بيته، في أطراف المدينة، صدقوا ولا أبالغ رأيت بيتاً لا يمكن أن يُسكن، برد لا يحتمل، ليس عنده مدفأة، ليس عنده بساط، جاء من أطراف إفريقيا ليطلب العلم في الشام، هذا الجهاد، طلب العلم جهاد، قد يأتي أخ من درعا ليستمع إلى الدرس هو في جهاد، هناك من يأتي من حلب ليستمع إلى الدرس فهو في جهاد، وعلى الأرض، وبلا ضيافة.

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[ورد في الأثر]

الأمن و الحكمة أكبر هدية من الله للمصلي في بيته:

بماذا يكرمك الله وأنت في بيته ؟ يكرمك بنعمة الحكمة.

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية: 269)

أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة، ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، أنت بالحكمة تتدبر أمرك بالمال القليل، ومن دون حكمة تبدد المال الكثير، أنت بالحكمة تجعل العدو صديقاً، ومن دون حكمة تجعل الصديق عدواً، أنت بالحكمة تسعد في بيتك، ومن دون حكمة تشقى في بيتك، أكبر هدية لك أيها المصلي، وأنت في بيت الله

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

يؤتيك الأمن، لا تقلق، تشعر أن الله معك، تشعر أن الله يحفظك، يؤيدك، يدافع عنك، يوفقك، يدعمك.

((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح))

[أحمد]

السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء:

أنت حينما تأتي إلى بيت الله أنت طالب علم.

((إنَّ الملائكة تضع أجْنِحَتَها لطالب العلم رضا بما يطلب))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن صفوان بن عسال]

((مَن سَلَكَ طريقا))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء]

خرجت من بيتك، الوقت شتاء، وبرد قارس، والمدفأة مشتعلة، وجالس في بيتك لك أن تجلس على مقعد وثير، تطلب القهوة، والشاي، والفواكه، زوجتك أمامك، أولادك أمامك، جاء وقت الدرس تقوم وترتدي ثيابك، وتركب أول مركبة والثانية من أجل أن تصل إلى مسجد بعيد، بماذا يتفضل الله عليك ؟ بنعمة الأمن.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

أنت في جهاد، منحك الأمن، منحك الحكمة، منحك السكينة، السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

((ما جلس قوم في بيت من بيوت الله تبارك وتعالى، يتدارسون كتاب الله تعالى ويتعاطونه بينهم، إلا أظلتهم الملائكة بأجنحتها، وإلا كانوا أضياف الله تبارك وتعالى حتى يقوموا))

[أخرجه مسدد بن مسرهد عن عبد الله بن عباس]

وقد تجلس في بيت عظيم، في غرف رائعة، على أثاث راق، تقدم لك الضيافة الراقية، والحديث نهش في أعراض المسلمين.

((ما من قوم يقومون من مَجلس لا يَذكرونَ اللهَ فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمارٍ))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

أحياناً تجلس من كثرة معاصي اللسان لا تستطيع أن تقف.

أفضل إنسان من دعا إلى الله و عمل صالحاً:

إذاً بعد الجهاد النفسي يأتي الجهاد الدعوي: " قوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالم علمه

استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره ".

إذاً الجهاد الثاني:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ـ بالقرآن ـ جِهَاداً كَبِيراً)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكُم ـ أي الخيرية المطلقة ـ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن عثمان بن عفان]

الآية الكريمة:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

أي لن تجد على وجه الأرض إنساناً أفضل عند الله

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

للحديث روايات ثلاث:

((فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

و:

((خير له مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الطبراني عن أبي رافع]

و:

((خير لك من الدنيا وما فيها))

[تخريج أحاديث الإحياء للعراقي]

أغلى أنواع المال.

الجهاد البنائي و إعداد القوة المتاحة:

أما الجهاد الثالث موضوع الدرس، الجهاد البنائي:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

أعدوا لمن يحاربونكم، أعدوا لأعدائكم، أعدوا للطرف الآخر الذين يتربصون بكم الدوائر،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

أعدوا لهؤلاء الشهداء الذين دفعوا حياتهم ثمناً للجهاد، أعدوا لذوي الشهداء الذين فقدوا معيلهم، وأباهم، أعدوا للأسرى الذين أُسروا ظلماً، أعدوا لمن تضرر في حرب مع الطرف الآخر، وأعدوا للطرف

الآخر.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

للطرف الآخر:

(مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

أخواننا الكرام، رحمة الله بالمؤمنين أن الله ما كلفهم أن يعدوا لأعدائهم القوة المكافئة وقد يكون هذا الآن مستحيلاً، لأن الأمم الأخرى تعد لنا من مئتي عام، أنواع منوعة من الأسلحة، فنسمع مثلاً عن قنبلة خارقة حارقة، ملجأ سقفه من الإسمنت المسلح، هذه القنبلة تخرق السقف أولاً ثم تنفجر ثانياً، فتحرق كل من في الملجأ، وقد ألقيت هذه القنبلة في حرب الخليج الأولى، و نسمع عن القنبلة العنقودية، بدائرة قطرها خمسمئة متر لا ينجو إنسان، تسمع مرة عن القنابل الفسفورية الحارقة، القنابل التي تلغي الاتصالات، القنابل التي تعطل الطاقات، القنابل التي تفني البشر وتبقي الحجر، البناء كما هو، الناس وحدهم يموتون، أعدوا لنا كثيراً، أعدوا لنا الطائرات، تسمع "f16 "، أباتشي، تسمع "b52 "، تنطلق من أمريكا، تقصف أفغانستان وتعود دون أن تتزود بالوقود أعدوا لنا كل شيء، في كل أنحاء العالم، طيران، أقمار صناعية، هم يطلعون على أقل حركة في سطح الأرض، بدل أن نعد لهم أعدوا لنا، فلما أعدوا لنا ملكوا ناصية العالم، الآن فرضوا علينا إباحيتهم، فرضوا علينا انحرافهم، والغزو الثقافي يفوق آلاف المرات خطراً من الغزو العسكري، هذه الصحون التي تتجه إلى السماء، من أجل أن تستقبل الإباحية، والقنوات الفضائية، هذا الذي أعدوه لنا، أرادوا إضلالنا، وأرادوا إفسادنا، وأرادوا إفقارنا، وأرادوا إذلالنا، وفي الحقيقة هم في النهاية أرادوا إبادتنا.

على المسلمين أن يعدّوا ما يستطيعون من قوة و على الله الباقي:

ماذا ينبغي علينا أن نفعل ؟

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

لا تيأسوا، لماذا؟ لأن المؤمن معه قدرة الله، معه علم الله، لأن المؤمن يمده الله بملائكته، وهناك قصص كثيرة، ألقيت في إذاعة العدو، في حرب غزة، يسأل الجندي الأسير ماذا يرتدي جنودكم ؟ يقول: يرتدي ثياباً مبرقعة، فيقولون له: أنت كاذب يرتدون ثياباً بيضاء.

الله عز وجل حينما وعد المؤمنين أن يمدهم بالملائكة قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

والباقي يتولاه الله.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

أعد ما تستطيع وعلى الله الباقي، لأن الذي تستطيعه مع قدرة الله يفوق قوة العدو والعدو مهما كان قوياً. تصور حلف الناتو، ثلاثون دولة أوربية، عمرها الحضاري مئتا عام، طائرات ، صواريخ، قنابل، مدرعات، ذخائر، إعلام، أموال، وثلثا أفغانستان ليست بيدهم، أين هم ؟ المؤمن مع دعم الله له، مع قوة الله أقوى من عدوه.

انتصار أخواننا في غزة غيّر مقاييس الحرب في العالم:

لذلك:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أخوتنا في فلسطين، في حرب غزة، عشرة آلاف مقاتل معهم بنادق فقط، وأسلحة بدائية جداً، وصواريخ بدائية جداً، وقفوا أمام أكبر جيش في المنطقة، لاثنين وعشرين يوماً لم يستطيع هذا الجيش العملاق، رابع جيش في العالم بأسلحته الفتاكة أن يحقق أهدافه، هل هذا الكلام صحيح ؟ هذه جرعة منعشة من الله،

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

تأثرت تأثراً بالغاً من قول أحد زعمائهم قبل الحرب قال: يا رب لقد أعددنا ما نستطيع، وعليك الباقي، وهذا الذي حدث، والله انتصار أخواننا في غزة، انتصار المسلمين في غزة عام 2008، وفي لبنان عام 2006 ، والله غيّر مقاييس الحرب في العالم، ما قيمة هذا الجيش !.

ذلك مرة قرأت تعليقاً لأحد كبار القادة في أمريكا، قال: ماذا نصنع بحاملات الطائرات وماذا نصنع بالصواريخ العابرة للقارات وليس هناك دولة على وجه الأرض تجرؤ أن تحاربهم ؟ ولكن ماذا نصنع بهذا الإنسان الذي أراد أن يموت ليهز كياننا ؟ لذلك الحرب التقليدية انتهت في العالم، لم تفلح.

أيها الأخوة،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((ألاَ إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ ثلاثاً))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن عقبة بن نافع]

أي القوة في عهد النبي إن أطلقت سهماً أن يصيب هدفاً، هذه القوة.

((ألاَ إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ ثلاثاً))

الأعداء أعدوا لنا ما يستطيعون من قوة من أجل إفقارنا وإضلالنا وإفسادنا وإبادتنا :

أيها الأخوة،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

نبال، المسافة قريبة، رماح ، صار هناك التحام ؟ سيوف، نبال بعيدة، هناك قوس، ورماح، وسيوف.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

لكن بالضبط كما يجري الآن، النبال والرماح والسيوف هذه تصيب أهدافاً بعيدة، لكن لا تحقق نصراً، النصر أن تحتل الأرض.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

أنتم بحاجة إلى خيل تحتلون بها الأرض، صار هناك قصف جوي وزحف عسكري.

والآن مهما قصفت الدول المعتدية، لا بدّ من أن تحتل الأرض بالنهاية، وقد تكون عاجزة عن أن تحتل الأرض، النصر إذاً لم يحقق.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

صار هناك تطوير، الآن القوة الصاروخ، القوة القنابل، القوة الطيران، القوة المدرعات، القوة الأقمار الصناعية، القوة التواصل، القوة الإعلام، القوة هذه جاءت نكرة، كي تغطي كل أنواع القوة لنهاية الدوران، في عصر يكون الإعلام قوة كبيرة، وفي عصر آخر تكون الأقمار الصناعية قوة، لأنها تغطي كل الأرض.

وقع تحت يدي مجلة، تستطيع أن ترى الأرض كلها من القمر، الأرض كلها، على الأرض يوجد مربع صغير ميلي بميلي، كُبر في صورة ثانية، فإذا هو شمال أمريكا، على الصورة الثانية مربع صغير، كُبر فإذا هو فلوريدا، هناك مربع صغير كُبر فإذا هو شاطئ بفلوريدا، مربع صغير آخر كُبر فإذا هي حديقة من الحشيش الأخضر عليها مربع صغير، كُبر هذا المربع الصغير إنسان مستلق على بساط يمسك كتاباً يقرأه إلى جانبه صحن فيه تفاح، وساعته بيده، ويمكن بدقة بالغة أن تقرأ عنوان الكتاب، هذه الصورة من القمر.

أعدوا لنا، نحن نقول: ممنوع التصوير، أعدوا لنا ما يستطيعون من قوة، من أجل إفقارنا، وإضلالنا، وإفسادنا، وإذلالنا، وإبادتنا، ونحن ما صدقنا ربنا حينما قال لنا:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 119)

كلمة جامعة مانعة.

الإرهاب في القرآن الكريم يعني أن تملك سلاحاً يمنع الإرهاب والعدوان عنك:

أيها الأخوة، إذا

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

الآن يجب أن ندرس مقياس القوة، تجد حصناً حصيناً قبل مئتي عام، لا يوجد طريقة لتصل إليه، حوله ماء، كقلعة حلب الآن، فإن كان هناك طيران فالحصن لا قيمة له، و أنت إن لم تملك سلاح جو فعال لا تملك شيئاً، كل منشآتك في خطر، مصافي النقل، السدود، كلها في خطر، إذا لم تملك سلاح جو فعال جداً تحمي به أجواء الأرض فهناك مشكلة.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

وكل عصر له قوة، أي قصف تمهيدي، ثم الاحتلال.

((أَلاَ إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ))

عن بعد، ولا بدّ من رباط الخيل تحتلون بها الأرض، من أجل ماذا ؟ قال: من أجل أن:

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

فأي دولة معها سلاح فتاك هي مرهوبة الجانب، الآن دول في التاريخ المعاصر عندها مفاعل نووي لا أحد يحاربها، لأنها تملك سلاحاً رادعاً، السلاح أحياناً قد لا تستخدمه إطلاقاً، ولكن وجود السلاح يرهب العدو.

حدثني أخ من الباكستان، قال لي: نحن نعيش في بلد مجاور للباكستان في الهند، عددنا تسعون مليوناً، نُعامل معاملة قاسية جداً، فعندما استطاعت باكستان تصنيع قنبلة ذرية اختلفت المعاملة مئة و ثمانين درجة،

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

فلا بد من سلاح رادع.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

الإرهاب هنا ماذا يعني في القرآن الكريم ؟ الإرهاب أن تملك سلاحاً يمنع الإرهاب بالضبط، الإرهاب أن تملك سلاحاً يمنع العدوان عليك فقط، أن يكون عندك سلاح رادع، قوة رادعة،

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

ويجب أن يكون عدوكم هو عدو لله لا أن تقاتلوا بعضكم بعضاً، هذه مشكلة كبيرة جداً.

أكبر مصيبة تصيب المسلمين أن يكون بأسهم بينهم وسلمهم لأعدائهم:

أكبر وصمة عار بحق المسلمين أن بأسهم بينهم، وأن سلمهم لأعدائهم.

أخواننا الكرام، يجب أن يكون العدو الذي نحاربه عدواً لله، كأن الله يشير إلى أن أكبر مصيبة تصيب المسلمين أن يكون بأسهم بينهم.لذلك أعداء المسلمين يتعاونون وبينهم 5% قواسم مشتركة، والمسلمون يتقاتلون وبينهم 95 % قواسم مشتركة، وهذه وصمة عار بحقنا

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

معاً.ولكن أيها المؤمنون إياكم أن تتوهموا أن أعداءكم هم الذين في ساحة المعركة، لا

(وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ)

هناك من يخطط، هناك من يخفي نفسه، هناك من يعمل في الخفاء، هناك من يستعد للانقضاض عليكم.

(وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)

لذلك المؤمن كيس، فطن ، حذر.

(وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ)

هناك من يتآمر عليكم خفية، وهناك من عنده استعداء ليتآمر عليكم.

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

هنا الآية متصلة بآية القتال، أي ما تنفقوا من شيء لتجهيز الجيوش، إعداد العدة هذا أيضاً

(يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

وليست العبرة بقوة العدوان، ولكن العبرة أنهم:

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة الأنفال)

من كان الله معه فلن يستطيع أحد أن يخدعه:

لذلك حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

(سورة الفتح)

هذا الفتح المبين جاء عقب صلح الحديبية، معنى ذلك البطولة أن ينتشر السلام بين شعوب الأرض، الفتح الحقيقي ليس فتح حرب بل هو فتح سلم،

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

هذه الآية جاءت عقب صلح الحديبية.

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا)

لا تقل: موقف تمثيلي، ثم ينقضون علينا، الله معك، ولن يخذلك، لا تكن داعية حرب، كن داعية سلم.

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

إن الله هو سميع وعليم، إن تكلمت فهو سميع، وإن أضمرت شيئاً فهو عليم، لا تخاف، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ و إذا كان عليك فمن معك ؟

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

إذا كان الله معك من يستطيع أن يخدعك ؟

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)

الحب والودّ و التعاطف بين المؤمنين من خلق الله عز وجل:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة الأنفال)

هذا الحب بين المؤمنين، هذا الود بينهم، هذا التعاطف فيما بينهم، من خلق الله عز وجل.

المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون و لو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم،

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (23-30): تفسير الآية 64 ، لا قلق من أي خوف إذا كان الله حسبك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-01-01

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى لم ينادِ رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم باسمه تكريماً وتعظيماً له:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الرابعة والستين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

حينما تقرؤون القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى لم ينادِ رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم باسمه، قال:

(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

(سورة البقرة الآية: 35)

قال:

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ)

(سورة هود الآية: 48)

يا نوح، يا آدم.

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 116)

(يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)

(سورة الصافات)

ما قال الله في القرآن كله يا محمد، بل قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

و:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

(سورة المائدة)

تعظيماً له، لأنه سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، الله عز وجل أوصله إلى سدرة المنتهى.

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)

(سورة النجم)

الإسراء والمعراج تكريم من الله عز وجل بعد جفوة البشر لهذا النبي العظيم:

بل إن الإسراء والمعراج جاء تكريماً من الله، بعد جفوة البشر لهذا النبي العظيم، لذلك ما محنة إلا وبعدها منحة من الله، وما من شِدة إلا وبعدها شَدة إلى الله، وأي مؤمن حينما يحافظ على طاعته لله وعلى استقامته، إن جاءته محنة فليعلم علم اليقين أن بعد هذه المحنة منحة، وإن جاءته شِدة وبقي طائعاً، مستقيماً، متوجهاً إلى الله، فبعد هذه الشِدة شَدةٌ إلى الله.

فالنبي عليه الصلاة والسلام كما ترون ما خاطبه باسمه أبداً، بينما خاطب معظم الأنبياء بأسمائهم.

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم الآية: 12)

(يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)

(سورة الصافات)

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ)

(سورة هود الآية: 48)

(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

ولم يقل الله عز وجل في القرآن كله يا محمد،

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

الفرق بين مقام النبوة ومقام الرسالة، مقامة النبوة درجة قرب أعلى.

فلما مرّ الصديق بأحد الصحابة وهو سيدنا حنظلة رآه يبكي، قال له: " مالك يا حنظلة تبكي ؟ قال: نافق حنظلة، قال له: ولِمَ يا أخي ؟ قال: نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين، فإذا عافسنا الأهل ننسى، من أدب الصديق قال له: يا أخي وأنا كذلك، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انطلقا إليه وحدثاه بما جرى، قال له النبي الكريم: نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا، مقام النبوة إقبال مستمر على الله، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم ".

النبوة مقام إقبال وقرب واتصال دائم بالله عز وجل والرسالة مقام تبليغ ودعوة إلى الله:

معنى ذلك مقام النبوة مقام القرب، و الإقبال على الله، أعلى مستوى في الإقبال القرب، مقام الأنبياء، اتصال دائم، إقبال دائم، وأما مقام الرسالة مقام الرسول معه رسالة ينبغي أن يبلغها، فأحياناً في موضوع التبليغ:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة المائدة الآية: 67)

في مقام القرب:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

النبوة مقام إقبال وقرب، واتصال دائم بالله عز وجل، والرسالة مقام تبليغ ودعوة إلى الله، والنبي عليه الصلاة والسلام ما خوطب باسمه إطلاقاً بل خوطب بمقام النبوة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

وخوطب بمقام الرسالة بحسب السباق.

الله عز وجل أودع بالإنسان الشهوات والشهوات حيادية:

إذاً الآية الرابعة والستون

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

هناك نقطة دقيقة جداً يجب أن تكون واضحة لديكم، هو أن الله سبحانه وتعالى لا يعاقب الكافر لأنه كفر به، بل يعاقب الكافر لأنه من لوازم كفره أن يعتدي على الآخرين، كيف ؟

الله عز وجل أودع بالإنسان الشهوات، والشهوات حيادية، أودع فيه حب المرأة، أودع فيه حب النساء.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

(سورة آل عمران الآية: 14)

حبّ المال، ما من إنسان على وجه الأرض يستطيع أن يقول: أنا لا أحب المال، إنسان يصرح، إنسان لا يصرح، أما هذا الميل أودعه الله فينا، أودع فيه حب العلو في الأرض، ما من إنسان إلا ويتمنى أن يكون ذا شأن كبير، يشار إليه بالبنان، يحترمه الناس، يعظمونه، أيضاً هذا مما أودعه الله فينا، (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

(وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ)

(سورة آل عمران الآية: 14)

المركوب، سابقاً خيل والآن سيارة.

(وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران الآية: 14)

المزرعة، أي بيت، وسيارة، ومكان للاصطياف ـ مزرعة ـ، وامرأة، هذه الشهوات الكبرى التي أودعها الله في الإنسان.

الإنسان بالشهوات يرتقي صابراً و شاكراً:

أخواننا الكرام، الكلام دقيق جداً، ما أودع الله فينا هذه الشهوات إلا لنرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، كيف ؟ الله عز وجل أعطاك منهجاً، افعل ولا تفعل، وإذا قال لك: افعل في هذه الحدود، فحينما أودع الله في الإنسان حب المرأة شرع له الزواج، بالإسلام لا يوجد علاقة بين الرجل والمرأة إلا علاقة زواج، لا يوجد خليلة، لا يوجد عشيقة، لا يوجد صاحبة، هناك زوجة، المرأة أم، بنت، أخت، خالة، عمة، زوجة، هذه المرأة، الإسلام نظيف جداً.

الله عز وجل أودع الشهوات، فإذا أخذنا ما سمح الله به ارتقينا إلى الله شاكرين، وإذا تركنا ما نهانا الله عنه ارتقينا إلى الله صابرين، فأنت بالشهوات ترتقي صابراً، وترتقي شاكراً، إذاً هي حيادية، هي كالبنزين في السيارة، إذا وضع هذا البنزين في المستودع المحكم، وسال في الأنبوب المحكم، وانفجر في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب، ولّد حركة نافعة أقلتك أنت وأهلك إلى مكان جميل، أما إذا صُبت هذه الصفيحة على السيارة، وأصابها شرارة، أحرق المركبة ومن فيها، سُلم نرقى بها إلى أعلى عليين، أو دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين، لولا الشهوات ما ارقينا إلى رب الأرض والسماوات.

بطولة الإنسان أن يتحرك بدافع شهواته وفق الحيز الذي سمح الله له فيه:

كلام آخر: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

مرة حدثني زميل في العمل، قال لي: أنا في مرحلة من حياتي كنت شارداً، وارتكبت أخطاء كبيرة جداً، ثم أكرمني الله بزوجة، أقسم لي بالله، قال لي: والله ساعة مع زوجة والله راضٍ عني أسعد من ألف ساعة مع امرأة لا تحل لي، هذه الفطرة.

إذاً أيها الأخوة، الله عز وجل حينما أودع الشهوات أعطاك حيزاً مسموحاً به، كل بطولتك أن توقع حركتك من خلال هذه الشهوة في هذا الحيز، لا يوجد بالإسلام حرمان، أنا أخاطب الشباب، حرمان لا يوجد، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

مثلاً إنسان تزوج، يتم اللقاء الزوجي، ويقوم على قيام الليل، ويبكي في الصلاة لأنه فعل شيئاً يرضي الله، وما خرج عن منهج الله، وكل إنسان يتقصى طاعة الله عز وجل يهديه إلى سبلها، لذلك بطولتك أن تتحرك بدافع شهواتك وفق الحيز الذي سمح الله لك فيه.

الله تعالى لا يعاقب الكفار على كفرهم بل يعاقبهم على جرائمهم لانحرافهم واعتدائهم:

لذلك الله عز وجل لا يعاقب الإنسان إذا كفر به، لكن من لوازم الكفر الآن دخلنا في الموضوع الدقيق، من لوازم الكفر العدوان، الإنسان إذا أراد الدنيا، وكفر بالآخرة، لا تكفيه زوجته، وهذا حال معظم الفسقة، يجب أن يعتدي على امرأة ثانية، قريبة، موظفة... إلخ، لأن شهوته إلهه.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان الآية: 43)

مرة ثالثة لا يعاقب الكافر على كفره، يعاقب الكافر على إساءته، لأنه اعتدى على أعراض الآخرين، أو اعتدى على أموالهم، لا يكفيه رزقه، يريد أموالاً مملينة.

فلذلك الله عز وجل لا يعاقب الكفار على كفرهم بل يعاقب الكفار على جرائمهم، لأنه من لوازم الكفر أن تنحرف.

التلازم الحتمي بين الكفر و العدوان:

الآن أدلة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون)

يجب أن تؤمن أن هناك تلازماً حتمياً بين الكفر وبين العدوان، العالم ترونه دولاً قوية جداً، تحتل بلاداً، تقتل ملايين، ملايين مملينة، مليون قتيل، مليون معاق، خمسة ملايين مشرد، بدعوى البحث عن سلاح شمولي في بلد عربي، لا تصدق إنساناً كفر بالله عز وجل اكتفى بما أتاه الله عز وجل، من لوازم الكفر العدوان، دقق:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

من لوازم عدم الإيمان بالآخرة إنسان قوي وبإمكانه أن يأخذ أموال معظم الناس ويعيش حياة تفوق حدّ الخيال، لَمَ لا يفعل ؟.

الانحراف الشديد يحتاج إلى غطاء عقدي هو الإلحاد:

لذلك الانحراف الشديد يحتاج إلى غطاء عقدي هو الإلحاد، ما السبب أن نظرية دارون راجت رواجاً عجيباً ؟ وأنا أقسم لكم بالله دارون نفسه حينما قال: "إن لم يثبت العلم نظريتي فهي باطلة "، دارون تصور أن الفأرة تأتي من الخرق البالية، وأن الضفدع تأتي من الوحل، وأن الديدان تأتي من تفسخ اللحم، هذا كتابه في أصل الأنواع، قال: "إن لم تثبت العلم نظريتي فهي باطلة"، الآن علماء الغرب الكبار الذين آمنوا بهذه النظرية رفضوها رفضاً كلياً، ومع ذلك ما من بلد في العالم حتى البلاد الإسلامية تُدرس هذه النظرية في المدارس، وهذه النظرية تعني أن الله غير موجود، شيء عجيب ! لماذا ؟ هذه النظرية مريحة، تلغي المسؤولية، تلغي الدار الآخرة، تلغي الحساب، كل سلوك يحتاج إلى غطاء عقدي.

بقال حضر درس علم، قال المدرس: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، ما هذا ! حديث رائع، فيه يضيف للحليب ماء، هذه كبيرة، هكذا قال النبي، ما من حركة تتحركها إلا بحاجة إلى غطاء، يسمونها فلسفة، أو تصوراً، أو المنطلقات النظرية، فكل إنسان يتحرك بغطاء، الغطاء الذي يحتاجه المجرم الإلحاد.

لذلك نظرية دارون راجت رواجاً مذهلاً بالعالم، أقسم لكم بالله عندي دراسة دقيقة جداً لمعظم العلماء الذين آمنوا بهذه النظرية، رفضوها رفضاً قاطعاً، السبب أن هذا الإنسان الذي كان وحيد الخلية المخلوق، وتطور صار إنساناً، اسمه كائن مرحلي، وحيد الخلية، الإنسان يوجد بدماغه مئة و أربعون خلية، هذا المخلوق المرحلي لم يعثر عليه إطلاقاً، بل إن الأحافير ـ معنى الأحافير أي آثار الكائنات الحية بالصخور، أحياناً يثور بركان، حمم البركان تتراكم فوق الكائنات الحية، بعد آلاف السنين هذه الحمم تتصخر، لو كسرت لكان بداخلها شكل الحيوان الذي دفن معها ـ تؤكد أن المخلوقات التي عاشت قبل 530 مليون عام هي نفسها الآن باطلة كلياً، لماذا هي رائجة ؟ تلغي المسؤولية، معنى ذلك أن الإنسان يعتقد عقيدة تريحه، وقد تكون غير واضحة.

أوضح مثل: صديقان عزما العزم على شراء سيارتين، أحدهما اشترى سيارة والثاني لم يشتر، في البلد سرت إشاعة أن هناك مشروع قانون بتخفيض الرسوم الجمركية إلى النصف، الذي اشترى يكذب هذه الإشاعة من دون دليل، والذي لم يشتر يصدقها من دون دليل، تكذيب الإشاعة مريح لمن اشترى، وتصديقها مريح لمن لم يشتر.

على الإنسان ألا يعتقد شيئاً من دون دليل قطعي:

انتبه ما كل ما تعتقده صواباً، كل الأحاديث التي فيها شفاعة بالمعنى الساذج تعلق الناس بها، لأنها مريحة، كل أخطائك غُفرت، مثلاً:

((من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه))

[الشيخان عن أبي هريرة].

والله شيء مريح، عش عشرين أو ثلاثين سنة بالمعاصي والآثام، و بعد ذلك قم بحجة فترجع كيوم ولدتك أمك، من قال لك ذلك ؟ لا يغفر في الحج إلا الذنوب التي بينك وبين الله وحدها فقط، وما بينك وبين العباد لا يغفر إلا بالأداء أو المسامحة.

صحابي جليل جاهد مع رسول الله، واستشهد، جاء ليصلي عليه، قال: أعليه دين ؟ قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، ما صلى عليه، أخوه في الله تألم ألماً شديداً قال: يا رسول الله عليّ دينه، فصلى النبي عليه، سأله في اليوم التالي: أأديت الدين ؟ قال: لا، سأله في اليوم الثالث: أأديت الدين ؟ قال: لا، في اليوم الرابع، قال: أديته، فقال عليه الصلاة والسلام: الآن ابترد جلده.

أنا أتمنى على الأخوة الكرام ألا يعتقدوا شيئاً من دون دليل قطعي، العقيدة خطيرة إذا توهمت الشفاعة بالمفهوم الساذج تفاجأ يوم القيامة:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة].

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة].

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة].

((وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أنَّ فاطمة بِنْتَ محمدٍ سَرَقت لقطعتُ يَدَهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين].

هذا الدين.

من لوازم الكفر ارتكاب الجرائم:

لذلك الله عز وجل لا يعاقب الكفار على كفرهم بل يعاقبهم على جرائمهم، لأنه من لوازم الكفر ارتكاب الجرائم، والعالم الآن أوضح شاهد، ماذا يجري ؟ احتلال دول، قتل بالآلاف، بالمئات، بالملايين، قتل، إبادة، نهب ثروات، إذلال، الغرب اتخذ قراراً بالإفقار، ثم بالإضلال، ثم بالإفساد، ثم بالإذلال، ثم بالإبادة، الله عز وجل يعاقب الكافر على جرائمه، مثلاً:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق)

(أَرَأَيْتَ)

! أين الجواب ؟ هذا الذي ينهى عن الصلاة، ويحارب الدين، انظر إلى سلوكه، كاذب، منافق، شهواني، يرتكب أعمال إجرامية كثيرة جداً،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية: 50)

من لم يكن على الحق فهو على الباطل حتماً:

يوجد بالحياة شيء اسمه اثنينية، حق وباطل، خير وشر، صدق وكذب، أمانة وخيانة، فإن لم تكن على الحق فأنت على الباطل حتماً، الدليل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

دعك من كلامه، دعك من أقواله، دعك من معتقداته، دعك من تصوراته، انظر إلى سلوكه، فيه عدوان، وكبر، يأخذ ما ليس له، يغتصب شركة، يغتصب بيتاً، لأن حركته شهوانية،

(اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

والهوى ليس له حدود.

لذلك الحديث القدسي الصحيح:

((يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقى قلب رجل واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد

واحد، فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ، ذلك لأن عطائي كلام، كن فيكون وأخذي كلام، ذل فيزول، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

(سورة إبراهيم الآية: 7)

فسيدنا إبراهيم عندما ألقي في النار، جاءت ضفدع كانت قد ملأت فمها ماء ونفثته على النار، لكن هذه الضفدع لا يمكن أن تطفئ هذه النار، وهناك كائن آخر صار ينفخ، لا هذا الكائن زادها اشتعالاً، ولا هذه الضفدع أطفأتها، لكن كل كائن أخذ موقفاً، هناك موقف أخذته أنت، قد تقف مع الحق، وقد لا يؤثر هذا الموقف في دعم الحق، إنسان ضعيف، وقد تقف مع الباطل، وقد لا يؤثر هذا الموقف في ازدياد الباطل، لكن أخذت موقفاً.

الإنسان إن لم يستقم على أمر الله ولم يتحرك وفق منهجه لابدّ من أن يعتدي على الآخرين:

إذاً أيها الأخوة، القضية أن الإنسان إن لم يستقم على أمر الله، وإن لم يستنر بنور الله، وإن لم يتحرك وفق منهج الله، لا بد من أن يعتدي على حقوق الآخرين.

((تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً حتى يأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً))

[ابن ماجه عن عبد الله بلفظ قريب منه].

هل تصدقون أن العالم الغربي قتل ثلاثمئة ألف زنجي ؟ والله هناك جرائم مرتكبة بالعالم العقل لا يصدقها، هذا الكفر، من لوازم الكفر العدوان، العدوان يومي، بأحدث الطائرات f16، والأباتشي، قُتل أطفال صغار، ونساء ضعيفات، ألف و ثلاثمئة امرأة وطفل قتلوا في غزة، بأحدث الأسلحة، المجتمع الغربي بأكمله عقد مؤتمراً بشرم الشيخ، البيان الوحيد جئنا من أجل أن نمنع تهريب السلاح إلى فلسطين، هل تصدقون هذا الكلام ؟.

هذه الجرائم ضد الإنسانية، اعمل كلمة، تصريحاً، استنكرها، أبداً، جئنا من أجل منع تهريب السلاح إلى الفلسطينيين،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

في بعض البلاد المحتلة بشرق آسيا، وضعوا خمسة آلاف إنسان في قلعة كبيرة، وتركوهم بلا طعام ولا شراب حتى أكل بعضهم جلد بعضهم، وشربوا بولهم، ثم قصفوا بالطائرات حتى أبيدوا عن آخرهم، الخبر عادي جداً، شيء طبيعي.

أنا أقول: هؤلاء الطغاة كيف ينامون الليل ؟ هذا الذي هدم سبعين ألف بيت في غزة هذه السنة السادسة ولا زال حي يرزق، والله يمد بعمره، الله كبير،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

الله عزّ وجل شرفنا وكرمنا بعبادته وحده سبحانه:

لذلك:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة الحجرات الآية: 7)

اشكر الله، يوجد باليابان شركات عملاقة، أهل اليابان ماذا يعبدون ؟ شيء لا يصدق هناك من يعبد الحجر، هناك من يعبد الشجر، هناك من يعبد الشمس والقمر، هناك من يعبد النار، هناك من يعبد الأعضاء التناسلية عند الرجل، هناك من يعبد موج البحر، هناك من يعبد الجرذان في آسيا، فالله عز وجل شرفنا وكرمنا بعبادة الله وحده، الواحد الأحد، الفرد الصمد.

لذلك لا تقلق على هذا الدين إنه دين الله، ولكن اقلق ما إذا سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون جندياً له، لا تقلق، إن الله سبحانه وتعالى قادر أن ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر.

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

شيء آخر: لا تقلق من وجود الباطل، الباطل قديم، الباطل قديم قدم الإنسان، ولكن البطولة أن لا ينفرد الباطل بالساحة، هناك باطل، وهناك ملاهي، وهناك جوامع، وهناك أعمال ساقطة، وهناك فن هابط لا يرضي الله، الباطل قديم، ولكن البطولة أن لا ينفرد الباطل بالساحة.

الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

يكفيك، بلد فيه ما يقدر بخمسين مليون إنسان، وله ملك قوي جداً، بيده كل شيء، الجيش، والشرطة، والوزارات، والأموال، كل شيء بيده، فإذا عاداك مئة ألف بهذا البلد، وكان معك الملك، أنت رابح أم خاسر ؟ الكلام دقيق، مئة ألف عادوك في بلد، كلهم مواطنون عاديون، الملك الذي بيده كل شيء معك، فأنت الرابح الأول.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

كل شيء بيد الله عز وجل، كل شيء بيده، هذا التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، أنت بالتوحيد وبالدعاء أقوى إنسان في الأرض.

((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك].

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟.

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي، أعرف ذلك من نيته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[ورد في الأثر].

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ أي واحد منكم وقد يكون شاباً صغيراً، من أسرة فقيرة، وظيفته متواضعة جداً، إذا كان الله معك أنت أغنى إنسان، وأقوى إنسان، و أعلم إنسان، الله يحب المؤمن الذي نفسيته عالية جداً، أنت مؤمن الإيمان مرتبة علمية، وأخلاقية، وجمالية.

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلمه.

لأنك مؤمن لك مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية.

من أقام أمر الله فيما يملك كفاه الله ما لا يملك:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

بعضهم قال: حسبك الله أي يكفيك الله، يكفيك الله فيما لا تملك أسبابه، نحن هل نملك أسباب أن نلغي الغرب القوي كله ؟ لا نملك، العالم الإسلامي بأكمله لا يملك أن يلغي الغرب، حسبك الله فيما لا تملك أسبابه، وفيما تملك أسباب

ه (وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

كل إنسان هناك شيء لا يملكه، وشيء يملكه، فالذي تملك أسبابه المؤمنون يعاونك، المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية: 10)

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(سورة التوبة الآية: 71)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

فيما لا تملك من أسبابه شيئاً،

(وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

فيما تملك، أو أنت كإنسان تملك دائرة أمرك فيها نافذ، بيتك، كل إنسان له بيت هو الأب، هو المنفق، شيء طبيعي جداً أمره نافذ في زوجته، وفي أولاده، وفي بناته، لكن لا يملك ورماً خبيثاً، هذا شيء لا يملكه، لا يملك طاغية جباراً، فالله عز وجل كأنه يقول لنا: أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك، انتهى الأمر.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: 11)

إذا لم تغير ما في نفسك من الشرود إلى الهدى، من المعصية إلى الطاعة، من الغفلة إلى الذكر، الله لا يغير شيئاً عندك، بل إن مشكلة المسلمين الأولى أنهم يفعلون ما يحبون، يعيشون وفق أهوائهم، وينتظرون معجزة من الله تنصرهم على أعدائهم، هذا شيء مستحيل

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

يكفيك الله فيما لا تملك أسبابه، أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك.

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 126)

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 160)

أما فيما تملك تحتاج إلى جنود، إلى من يعينك،

(وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (24-30): تفسير الآيتان 65 - 66 ، القوة سلاح للمؤمن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-01-08

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل لم يخاطب النبي باسمه إطلاقاً إنما خاطبه بمرتبته النبوية:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخامسة والستين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل لم يخاطب النبي باسمه إطلاقاً كما خاطب بقية الأنبياء:

(يَا يَحْيَى)

(سورة مريم الآية: 12)

(يَا عِيسَى)

(سورة آل عمران الآية: 55)

(يَا إِبْرَاهِيمُ)

(سورة هود الآية: 76)

لكن خاطبه بمرتبته النبوية،

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

وأحياناً:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

(سورة المائدة الآية: 41)

فالأمر إذا كان متعلقاً بالدعوة

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

الرسالة منصب دعوي، وإذا كان الأمر متعلقاً بأمر الله عز وجل

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

هنا

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

معنى حرض أي حث، حثهم على القتال، أو حرض أي أثِرْ حماستهم، أو أغرهم بالقتال، أي قتال هذا؟.

خطاب الله عز وجل يتجه تارة إلى قلب الإنسان و تارة إلى عقله و تارة إليهما معاً:

أخواننا الكرام، الإنسان عقل وقلب، من أجل أن تحدث فيه قناعة ينبغي أن تخاطبه بالعلم، ومن أجل أن تحدث عنده موقفاً ينبغي أن تخاطب قلبه، فالإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، فالخطاب تارة يتجه إلى العقل، وتارة يتجه إلى القلب، وقد يتجه إلى العقل والقلب معاً.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

(سورة الانفطار)

يخاطب القلب.

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

(سورة الانفطار)

يخاطب العقل، فالله سبحانه وتعالى يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يحرض المؤمنين على القتال، لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق النفوس، وهو الذي يعلم حقيقتها، فالإنسان من دون ردع ينحرف، الردع أي الحق يحتاج إلى قوة، إلا أن الحق عند الآخر هو أن تكون قوياً، أما عند المؤمنين الحق ما جاء به الوحي السماوي، والحق الذي جاء به الوحي السماوي يحتاج إلى قوة، فرق كبير بين أن تعد أن الحق هو القوة ـ ومنطق هذا العصر إذا كنت قوياً فأنت على حق، الحق أن تكون قوياً ـ وأن تفرض ثقافتك على الآخر لأنك قوي.

الباطل إن لم نقف أمامه تتسع دوائره ويضيق على الحق دوائره:

حينما تعيش البشرية أن القوي ـ أي قوي ـ هو صاحب الحق، وأن الضعيف هو المخطئ، عندئذٍ البشرية تسير في طريق الهاوية، فالقوي يحتل البلاد، ينهب الثروات، يقتل الشباب، قد يقتل مليوناً، ويعيق مليوناً، ويشرد خمسة ملايين من أجل الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، ما من عصر انتهكت فيه حقوق الإنسان كهذا العصر، تحت مسميات فارغة، تحت طروحات باطلة، فالمسلم مادام ضعيفاً لا يستطيع أن يغير شيئاً، يوم يذوب قلب المسلم في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن سكت استباحوه، وإن تكلم قتلوه.

((تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً ثم يأتي أخي عيسى فيملؤها قسطً وعدلاً))

[ابن ماجه عن عبد الله بلفظ قريب منه]

فالباطل إن لم تقف أمامه، إن لم تشعره أنك قوي، تتسع دوائره، ويضيق على الحق دوائره، وهذا ما يجري في العالم.

مثلاً: فتاة في أمريكا ارتدت ثياب السحاقيات، والسحاق ؛ شذوذ بين الإناث، محرم قطعاً في الشرائع الإلهية، وفي القوانين الأرضية، فتاة في نيويورك بمدرسة ثانوية ارتدت هذه الثياب، يبدو أن المدير على بقية مروءة، ففصلها، أقام أبوها دعوى على المدير وربح الدعوى وكلفه بمبلغ كبير، لأنه اعتدى على حرية الفتاة، واضح ؟ هذا في نيويورك.

في باريس فتاة وضعت على رأسها خرقة تنفيذاً لدين يدين به ربع سكان الأرض قامت الدنيا ولم تقعد، لا يوجد منطق أبداً.

طائرة سقطت في لوكربي، دُفعت دية كل راكب خمسمئة مليون بالليرة السورية، مجموع الركاب ملياران وسبعمئة مليون دولار، مئات القتلى يموتون كل يوم عندنا ولا شيء !.

الحق قوة و الباطل ضعف:

لذلك الحق إذا كان ضعيفاً، فهناك التطاول، والاحتلال، ونهب الثروات، وسحق المنجزات، وتدمير كل شيء، هذا الذي يجري في البلاد الإسلامية، خمس دول إسلامية محتلة هناك دولة تملك أكبر احتياطي نفط في العالم، 450 مليار برميل، وهذا البلد أرخص بلد في العالم بتكلفة استخراج البرميل، خمسة و ثمانون سنتاً، في بلاد أخرى ثمانية دولارات و نصف كلفة استخراج البرميل، ثروات طائلة، بلاد شاسعة، مركز جغرافي مذهل، فالحق ضعيف، الأقوياء يحتلون، ويسفكون الدماء، وينهبون الثروات لأن الحق ضعيف، يجب أن يكون الحق قوياً، لكن إن كنت قوياً ليس معنى هذا أنك على حق، أما عندهم ما دمت قوياً فأنا على حق، مايك مترايت، ما دمت أنت قوي فأنت على حق.

من لم يكن متفوقاً في دنياه فلن يحترم دينه:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

استعد للمواجهة، دولة أحياناً تكون نووية، قد تقضي خمسين عاماً قادمة، ومئة عام قادمة، ولا تحتاج أن تستخدم هذا السلاح، لكنها لأنها دولة نووية مرهوبة الجانب، هذا المعنى، لذلك قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال الآية: 60)

لماذا ؟

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 60)

الإرهاب هنا من أجل ألا يكون الإرهاب على المسلمين.

أيها الأخوة، هذا معنى قول الله عز وجل

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

سويسرا بلد في أوربا، كل مواطن فيها هو عنصر في الجيش، سلاحه عنده وبأي إشارة يصبح الشعب كله مسلحاً، مع أن سويسرا بلد مسالم، ما دخلت الحرب العالمية الثانية، لماذا يكون هذا المجتمع مرهوب الجانب ؟ إذا كان قوياً، كأن الآية تقول: أيها المؤمنون كونوا أقوياء، لأن وحي السماء يحتاج إلى قوة، دعك من القوة العسكرية، أنت كطالب إذا تفوقت لك قيمة في الجامعة، وعند أهلك، ومع من حولك، التفوق في الدراسة قوة، التفوق في التجارة قوة، في الصناعة قوة، التفوق مطلوب، أقول لكم هذا الرأي وأنا واثق من صوابه: ما لم تكن متفوقاً في دنياك لا يحترم دينك.

إعداد القوة التي أمر الله بها موجهة إلى أعداء الله وإلى من أنكر أحقية هذا الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

أي استعد،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

القوة مطلقة، الخيل في عهد النبي هو القوة، بعد حين المنجنيق هو القوة، المدرعات هي القوة، الآن الطائرات هي القوة، قد تدمر الطائرات البنية التحتية لبلد ما تدميراً كاملاً، فما لم يكن لك سلاح جو قوي لن تستطيع أن تحمي منشآتك، كأن الله عز وجل ما أراد المؤمنين أن يكونوا ضعافاً أرادهم أن يكونوا أقوياء.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

قتال من ؟ قال:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

منطلق دفاعي، وليس هجومياً.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(سورة البقرة)

هناك دول الآن كبيرة جداً، لم تدخل حرباً من الخمسينات، لكنها مرهوبة الجانب، لا يفكر أحد في الاعتداء عليها.

شيء آخر:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

هذا الجهاد البنائي

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ ـ من ؟ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

هذه القوة موجهة إلى أعداء الله، إلى من أنكر أحقية هذا الدين، من أنكر الدار الآخرة، من عاش لشهواته، من أراد إفساد الخلق.

القراءات في القرآن الكريم:

1 ـ قراءة البحث و الإيمان:

أساساً أيها الأخوة الله عز وجل حينما قال:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

(سورة العلق)

هذه قراءة البحث والإيمان.

2 ـ قراءة الشكر و العرفان:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

(سورة العلق)

هذه قراءة الشكر والعرفان.

3 ـ قراءة الوحي و الإذعان:

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

(سورة العلق)

هذه قراءة الوحي والإذعان.

4 ـ قراءة العدوان و الطغيان:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

(سورة العلق)

هذه قراءة العدوان والطغيان، هناك قراءة الإيمان، وقراءة الشكران، وقراءة الوحي والإذعان، وقراءة الطغيان.

قوم عاد نموذج للأقوام المستعلية التي طغت في الأرض:

حينما يستخدم الإنسان العلم ليطغى به، ليفرض إباحيته على شعوب الأرض، ماذا فعلت عاد ؟ قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

عاد تفوقت في شتى الميادين، وما أهلك الله قوماً إلا وذكرهم أنه هلك من هو أشد منهم قوة، إلا عاداً حينما أهلكها قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية: 15)

تفوقت في العمران:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

(سورة الشعراء)

وتفوقت في الصناعة:

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء)

وتفوقت في الناحية العسكرية:

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

وتفوقت في العلم:

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت)

ومع التفوق العمراني، والعلمي، والعسكري، كانوا متغطرسين، وقالوا: من أشد منا قوة ؟ ماذا فعلوا ؟

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(سورة الفجر)

الطغيان بالقصف، والفساد بالأفلام.

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف:

أيها الأخوة، إذاً ينبغي أن تكون قوياً، ما علاقة المؤمنين بهذه الآية ؟ إذا كنت طالباً في الجامعة ينبغي أن تكون متفوقاً، فإذا كنت متفوقاً وديّناً اقتنع الناس بالدين، أما إذا كنت كسولاً وديّناً ربطوا بين الدين وبين الكسل، إذا كنت متفوقاً بالتجارة أقنعت الآخر بأن يكون تاجراً مؤمناً مستقيماً، أما إذا تخلفت في التجارة عزوا تخلفك إلى دينك.

لذلك الآن ما لم تكن متفوقاً في الدنيا لا يحترم دينك، أو ما لم تكن قوياً لا يحترم دينك، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هذا كله تحت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

العدو الطرف الآخر، الذي شرد عن الله، لا ينضبط بقيم، ولا بمبادئ، لكن يتحرك وفق مصلحته، فإن رآك ضعيفاً احتل أرضك، ونهب ثرواتك، هذا الذي يحصل.

الله تعالى أعطى المؤمن قوة تحمل كبيرة فإذا حارب يفوز بإحدى الحسنيين الشهادة أو النصر:

لذلك أيها الأخوة البلاد الإسلامية التي أحتلت، والتي قامت فيها مقاومة كبيرة جداً، ثلاثون دولة احتلوا دولة بالمقياس الحضاري متخلفة، هؤلاء المقاتلون واجهوا ثلاثين دولة واستطاعوا أن يحتلوا 74% من بلادهم، وأعادوها إلى حوزتهم، لذلك الطرف الآخر يعد للمليون الآن قبل أن يقرر أن يحتل بلداً إسلامياً آخر، هذا إنجاز كبير، هذه المقاومة.

يقول أحد كبار الموظفين في دولة عملاقة في الناحية العسكرية، قال: ماذا نفعل بحاملة الطائرات، والصواريخ العابرة للقارات، وليس هناك دولة على وجه الأرض تجرؤ أن تحاربنا ؟ لكن ماذا نفعل بهذا الإنسان الذي أراد أن يموت باختياره ليهز كياننا ؟ هذا ليس له حل.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

يبدو أن الله سبحانه وتعالى أعطى المؤمن قوة تحمل كبيرة جداً، إياك أن تتهم أن المؤمن يصلي فقط، المؤمن إنسان آخر بقيم، بمبادئ، بمنطلقات، بأخلاق.

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

هناك أسباب، المؤمن موحد، لا يرى مع الله أحداً، المؤمن يستعين بالله عز وجل، المؤمن يوفقه الله عز وجل، يلهمه الصواب، يرفع معنوياته، يعلي قدره.

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

والمؤمن إذا حارب يفوز بإحدى الحسنيين، إما أن ينتصر، وإما أن يستشهد، وفي كلا الحالتين فهو رابح.

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

(سورة التوبة الآية: 52)

إما الشهادة أو النصر.

المؤمن رقم صعب لا يباع و لا يُشترى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

مؤدى الآية: أيها المؤمن يجب أن تكون قوياً، ومرة ثانية أخاطب الأخوة الشباب، معنى أن تكون قوياً أنت، أن تكون متفوقاً، الطالب الأول، الموظف الأول، المهندس الأول، الطبيب الأول، المدرس الأول، المحامي الأول، الصانع الأول، التاجر الأول.

أقول لكم دائماً: لِمَ ترضى أيها الأخ الكريم أن تكون رقماً بسيطاً من دهماء الناس ؟ من عامتهم ؟ من سوقتهم ؟

مرة سألت طلابي: من يذكر اسم تاجر كبير عاش في دمشق عام ألف و ستمئة و ثلاثة و ثمانين وله علامة تامة ؟ الطلاب فكروا، وفكروا، وفكروا، لم يستطع أحد الإجابة، قلت لهم: وأنا لا أعرف، لكن من منا ينسى صلاح الدين الأيوبي ؟ من منا ينسى عمر بن الخطاب ؟ هؤلاء القادة العظام الذين فتحوا البلاد، العلماء الكبار، لِمَ ترضى أن تكون رقماً بسيطاً ؟ لِمَ لا تكون رقماً صعباً ؟.

أقول لكم هذه الكلمة: لك قناعة معينة، إذا غيرت قناعتك مقابل مبلغ من المال انتهيت عند الله، هناك إنسان يغير قناعته بمئة ليرة، و إنسان بألف ليرة، و إنسان بمئة ألف، و إنسان بمليون، لو غيرت قناعتك بمئة مليار انتهيت عند الله، معنى هذا أنت إنسان لك رقم تُشترى به، أما المؤمن رقم صعب.

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه))

العلاقة بين الحرية والقوة علاقة متداخلة:

أيها الأخوة، لأن المسلمين يعانون ما يعانون من ضعفهم، من تفرقهم، من شتاتهم، من خصوماتهم، بأسهم بينهم شديد، وسلمهم لأعدائهم، يشترون كل شيء.

" ويل لأمة تأكل ما لا تزرع، ويل لأمة تلبس ما لا تنسج، ويل لأمة تستخدم آلة لا تصنعها، بل ويل لأمة تشتري السلاح ".

كنت مرة في مصر فقال أحد العلماء في الخطبة ـ كنا في مؤتمر ـ: إذا أردت أن يكون قرارك من رأسك فلا تأكل إلا من فأسك.

إذا كان هناك اكتفاء ذاتي، الثروات صنعناها، الأراضي استصلحناها، اكتفينا من الناحية الغذائية، آلاتنا من صنعنا، عندئذٍ لنا قرار، أنت حر بقدر ما أنت قوي، وأنت قوي بقدر ما أنت حر، العلاقة بين الحرية والقوة علاقة متداخلة، أنت قوي إذا كنت حراً، وأنت حر إذا كنت قوياً، أقول لكم هذا الكلام من معاناة، المسلمون يعانون ما يعانون، لأنهم ضعاف، ولأن بأسهم بينهم، ولأن سلمهم لأعدائهم، ولأنهم متفرقون، ولأنهم يتنازعون.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 46)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

المؤمن مع خالق السماوات والأرض فيؤيده و ينصره ويلقي في قلبه الثبات:

أخواننا الكرام، صدقوا ولا أبالغ، أنه من يتابع الإعلام المعادي في حرب غزة يفاجأ أن الذي يقع في أيديهم من الأسرى يسألونهم، ماذا يرتدي جنودكم ؟ يقولون: المبرقع، قالوا: لا، أنتم تكذبون، ترتدون ثياباً بيضاء، فهؤلاء هم الملائكة بنص القرآن الكريم، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ الطرف الآخر جبان يخاف، المؤمن شجاع، لأن الموت الذي ينخلع له قلب الطرف الآخر هو محبب عند المؤمن.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

أنتم ترون في بعض مدن الألعاب السيارات الكهربائية، تجد معركة بين الصغار في هذه السيارات، لكن صاحب هذه المنشأة بضغط على مفتاح يعطل الكهرباء فيتوقف كل شيء، فإذا كنت مع صاحب هذه المنشأة أمرك سهل جداً.

أي المؤمن مع خالق السماوات والأرض، الله عز وجل يؤيده، ينصره، يلقي في قلبه الثبات، يلقي في قلب عدوه الخوف.

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية: 151)

هناك قصص مؤداها أنه يستحيل أن ينتصر الكفار على المسلمين في الحرب إذا كانوا مؤمنين طبعاً.

لذلك هناك ملك فرنسي وقع أسيراً في المنصورة في عام ألف و مئتين و خمسين، قال هذه الكلمات وهي محفوظة في المتحف في باريس، قال: لا يمكن أن ننتصر على المسلمين في الحرب، ولكن ذكر الفرقة، والفساد، والرشوة، والنساء، والنزاعات الداخلية، لهذا ينتصرون علينا، أما في الحرب المؤمن قوي.

والدليل العدو في حرب جنوب لبنان، وحرب غزة، انتقلت أهدافه من الأمن إلى البقاء، كان الحديث عن الأمن فقط، الآن الحديث في صحف العدو عن البقاء، وصار هناك توازن رعب، كانت حروبهم نزهة، أما نحن نضطرب فندخل الملاجئ، الآن يَقصفون ويُقصفون، نخاف ويخافون، ننطلق إلى الملاجئ وينطلقون، هذا اسمه توازن رعب لم يكن من قبل، والحسم انتهى، هم يبدؤون الحرب وهم ينهونها، الآن يبدؤونها، أما النهاية ليست بيدهم، إلا بتدخل أجنبي لصالحهم طبعاً.

أيها الأخوة، المقاومة فكر وليست أشخاصاً.

قضية لغوية دقيقة جداً تُحرض المسلمين على أن يكونوا أقوياء:

أخواننا الكرام، هناك قضية لغوية دقيقة جداً، عندنا أفعال إذا شدّدنا وسطها، أي وضعنا شدة على الحرف الوسطي بها، أو أضفنا لها همزة ينعكس معناها، مثلاً: قشّر تفاحة أي أزال قشرها، القشر ملازم الفاكهة، قشّرتها أي أزلت قشرها، مرضّ جلب المرض أم أزال المرض ؟ أزال المرض، بالشدة، مَرض أي أصابه المرض، مرضّ شفاه من مرضه، نص من دون تشكيل، أو من دون تنقيط، هذا نص معجم، مبهم، أعجمه أي أزال عجمته، السن باء، والسن الثاني نون، هذه تاء مربوطة، عندما نقطناه كان مبهماً أعجماً فبالتنقيط أزلنا عجمته.

إذاً عندنا أفعال عندما نضعف وسطها، أو نضيف عليها همزة ينعكس معناها، صار المعنى مناقضاً لأصل اشتقاقها، أوضح مثل قشّر، أي أزال القشرة، مرضّ ؛ أزال المرض، أعجم ؛ أزال العجمة، أقسط.

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

(سورة الجن)

الظالمون، أقسط عدداً أي أزال الظلم، الآن:

(قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً)

(سورة يوسف الآية: 85)

أي حتى تهلك نفسك، حرضاً ؛ أي هالكاً، حرضّ أبعد الهلاك، أي إذا كنتم أيها المؤمنون ضعافاً فأنتم هالكون كما حالنا اليوم، متى يزول هلاككم ؟ إذا كنتم أقوياء.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

أفعال كثيرة، قشّر ؛ أزال القشرة، مرضّ ؛ أزال المرض، أقسط ؛ أزال الظلم.

(تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً)

أي هالكاً، فحرضّ ؛ أزال شبح الهلاك، أي: أيها المسلمون ! أيها المؤمنون ! إن لم تكونوا أقوياء فأنتم هالكون، لأن العدو لا يرحمكم، تسعون بالمئة من ثروات الأرض بيد عشرة بالمئة من أهلها، فالمسلم يجب أن يكون قوياً، والدليل:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[مسلم وابن ماجه و أحمد عن أبي هريرة]

فرص العمل الصالح المتاحة أمام القوي لا تعد ولا تحصى:

بل إنني أقول لكم: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، بل يجب، لأن فرص العمل الصالح المتاحة أمام القوي لا تعد ولا تحصى، والقوة أنواع ثلاثة، قوة المنصب، فأنت بجرة قلم تحق حقاً وتبطل باطلاً، وقوة العلم، فأنت بالعلم تبدد الظلام، تبدد الجهل، تبعد الخرافات، الترهات، الأباطيل، الضلالات، وقوة المال، أنت بالمال تبعد شبح الفقر.

((وكاد الفقر أن يكون كفراً))

[أخرجه أحمد بن منيع عن أنس بن مالك أو الحسن البصري]

وكاد الفقر أن يكون إرهاباً، وكاد الفقر أن يكون جريمة، وكاد الفقر أن يكون لا مبالاة.

فلذلك بالمال الحلال تبعد شبح الفقر، فالفقر والتخلف، والفقر والجريمة متلازمان.

على الإنسان أن يكون قوياً لا على حساب مبادئه و قيمه بل وفق منهج الله:

فلذلك أيها الأخوة الكرام، حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة الأنفال)

في عهد الصحابة العشرة تغلب مئة، العشرون يغلبون مئتين،

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

ملخص هذا الدرس ينبغي أن تكون قوياً، لكن أن تكون قوياً لا على حساب مبادئك، ولا على حساب قيمك، أن تكون قوياً إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله، لكن من يمنعك أن تكون قوياً في علمك؟ هل يمنعك أحد ؟ لا، من يمنعك أن تكون قوياً في بيتك ؟ بيت مسلم مؤمن، من يمنعك أن تكون قوياً في عملك ؟ لا أحد، فكأن علاقتنا بهذه الآية علاقة مفهوم القوة بأوسع معانيه، يجب أن تكون قوياً.

الصدق و الأمانة و العفة صفات تلفت نظر الآخر إلى الدين الإسلامي:

أنا أذكر أن أحد الأخوة الكرام كان طالباً يحضر هذه الدروس، وكان أبوه يعارضه معارضة كبيرة جداً، فلما نجح بتفوق في الشهادة الإعدادية قال لأخيه: خذ أخاك معك إلى المسجد، اختلف الوضع، عندما رآه متفوقاً قال: خذ أخاك معك إلى المسجد.

فأنا أقول لكم أيها الأخوة: ما دمت منتمياً إلى مسجد ينبغي أن تكون قوياً بدراستك، بتجارتك، باختصاصك، طبيب مسلم لك مسجد، ينبغي أن تكون الطبيب الأول، لأنك عندئذٍ تقنع الناس بالدين، أنت لا يمكن أن تقنع بالدين إذا رأيت المتدين ضعيفاً، خنوعاً، متكلاً، غير متقن لعمله، لا تقنع بالدين إذا رأيت إنساناً له ديانة أرضية من شرق آسيا، قذر، يتسول، هل يخطر في بالك لو لساعة واحدة أن تشتري كتاباً عن ديانته و تطلع عليها ؟ مستحيل ! ما الذي يلفت النظر في المسلم ؟ قوته، أمانته.

لذلك:

((كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه،

وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

لذلك إن أردت أن تكون داعية صامتاً فكن قوياً، بأوسع معاني القوة التي لا تحتاج إلى عنف، كن قوياً بعلمك، كن قوياً باختصاصك، قوياً في بيتك، قوياً بإرادتك، قوياً بالتفوق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (25-30): تفسير الآيات 66 - 68 ، قياس الوسع بالتكليف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-01-15

بسم الله الرحمن الرحيم

الحدّ الأقصى و الحدّ الأعلى:

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السادسة والستين، وهي قوله تعالى:

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة الأنفال)

أيها الأخوة، قد يسأل سائل في الآية السابقة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

(سورة الأنفال الآية 65)

أي واحد لعشرة.

(وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

(سورة الأنفال)

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

هاتان الآيتان يشف منهما موضوع دقيق في الإسلام، هذا الموضوع ألخصه بكلمتين هناك الحد الأدنى، وهناك الحد الأقصى، أضرب أمثلة:

مسيلمة الكذاب قبض على صحابيين، فجيء بهما إليه، فقال للأول: أتشهد أنني رسول الله ؟ قال: ما سمعت شيئاً، فقطع رأسه فمات، فسأل الثاني، أتشهد أني رسول الله ؟ قال: أشهد أنك رسول الله، الأمر بلغ النبي عليه الصلاة والسلام، فقال النبي: أما الأول فقد أعزّ دين الله فأعزه الله ـ الذي قُطع رأسه عندما قال لمسيلمة: ما سمعت شيئاً ـ وأما الثاني ؟ الصحابة قلقوا عليه أشد القلق، قال: وأما الثاني فقد قبل رخصة الله، هناك موقف بطولي، وهناك موقف مقبول عند الله، الأول الحد الأقصى، والثاني الحد الأدنى، هذا موضوع دقيق في الإسلام، هناك حدّ أقصى، وهناك حدّ أدنى.

عظمة هذا الدين وجود حدٍّ أدنى يستطيعه كل الناس و حدّ أعلى يفعله الأبطال:

حينما أُلزم علماء المسلمين أن يقولوا بخلق القرآن، بعضهم كنوا عن موافقتهم بكناية قال: القرآن، والإنجيل، والتوراة، والزبور كلها مخلوقة وقصد أصابعه، هذا الحد الأدنى ونجوا.

أما ابن حنبل قال: لا، لا أقول بخلق القرآن، فدخل السجن وعُذب كثيراً، ابن حنبل أخذ الحدّ الأعلى، بقية العلماء أخذوا الحدّ الأدنى.

إذاً عظمة هذا الدين أنه يوجد حدّ أدنى يستطيعه كل الناس، و حدّ أعلى يفعله الأبطال، فلو ألغينا الحدّ الأعلى لألغيت البطولة في الأرض، لو أن أصحاب الأخدود قبلوا تحت تهديد القتل أنه إله، لا شيء عليهم، الله عز وجل ما كلف الإنسان ما لا يطيق، لكن أصحاب الأخدود رفضوا أن يعترفوا بألوهيته، فدفعوا حياتهم ثمناً لهذا الموقف البطل.

ماشطة بنت فرعون وقع المشط من يدها فقالت: بسم الله، قالت لها بنت فرعون: ألك إله غير أبي ؟ قالت لها: الله ربي وربك ورب أبيك، أخبرت أباها، جيء بها وعندها خمسة أولاد، وجاء بقدر فيه زيت مغلي، فقال لها: ألك إله غيري ؟ قالت: الله ربي وربك، أمسك ولدها الأول وألقاه في الزيت، حتى انفصل لحمه عن عظمه، ورأته بعينها فأمسك الثاني، قال: لك إله غيري ؟ قالت: الله ربي وربك، فأمسك بالثاني وألقاه في القدر حتى انفصلت عظامه عن لحمه، وأمسك بالثالث، قال لها: ألك إله غيري؟ قالت: الله ربي وربك ألقاه في القدر، أخذ الرابع، سألها ألك إله غيري: قالت: الله ربي وربك، ألقاه في القدر، الخامس رضيع، فلما قال لها: ألك إله غيري ؟ فسكتت، والحديث في الصحاح، فأنطقه الله أن يا أمي اثبتي أنت على حق، قالت: الله ربي وربك، فألقاه في القدر، ثم ألقاها في القدر، في أثناء الإسراء والمعراج شمّ النبي رائحة لم يشم مثلها قط، قال: يا جبريل ما هذه الرائحة ؟ قال جبريل: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون.

كلّ إنسان مخير وعندما يختار الأيسر والأسهل لا شيء عليه:

معنى ذلك بكل موقف هناك حدّ أعلى يجعلك بطلاً، والله عز وجل ما كلفك فوق ما تطيق، فعمل لك حداً أدنى، هذا شأن المسلمين في كل مكان، وهناك حدّ أعلى له ثمن باهظ وله مكانة كبيرة، وهناك حدّ أدنى لا تستطيع أن تضحي بحياتك، فقبلت، لذلك الله عز وجل قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية: 286)

فالإنسان عندما يختار الأيسر والأسهل لا شيء عليه.

لكن هناك قصة ذكرتها مرة في بلد إسلامي، الله عز وجل كافأ الأول برقم فلكي ـ في ذلك الوقت كنت بتركيا ـ قلت: أعطى الأول عشرة آلاف دولار، والثاني أعطاه عشرة آلاف تركي، الثاني أخذ أجراً لكنه قليل جداً بالقياس إلى أجر البطل.

فأنت مخير، الله عز وجل ما كلفك ما لا تطيق، إن أردت أن تكون بطلاً هناك ثمن كبير جداً، و مكافأة فلكية، إن أردت أن تكون كأي إنسان عادي الحد الأدنى تأخذ به.

فلذلك مع قوة الإيمان، مع نزع الدنيا من قلب الإنسان، مع البعد، مع أهل الضلال، قد يأخذ الإنسان الموقف الأعلى، قد يكون إيمانه قوياً جداً، عندئذٍ تأتي الآية الأولى،

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

هناك حدّ أدنى، وهناك حدّ أقصى.

كل أمر كلف الله به الإنسان هو أمر ضمن وسعه:

أيها الأخوة، لكن يجب أن تعلموا علم اليقين أن الله جلّ جلاله قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

أي مستحيل وألف ألفِ مستحيل أن تكلف بأمر فوق طاقتك، إلا أن المشكلة أن الناس يقيسون التكليف بوسعهم، الأصح أن تقيس الوسع بالتكليف، ما دام هذا الأمر كلفك الله به إذاً قطعاً ضمن وسعك، حينما يقول الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور الآية: 30)

يجب أن تؤمن كل خلية بجسمك، وكل قطرة في دمك، أن غضّ البصر في أصعب الأزمنة، وفي زمن الكاسيات العاريات، المائلات المميلات، في زمن أن المرأة تمشي في الطريق تبدو كل مفاتنها في هذا الزمن الصعب غض البصر ضمن وسعك، ما دام هناك أمر إلهي هذا الأمر ضمن وسع الإنسان، لكن ضمن وسع الإنسان الصادق الذي أراد الدار الآخرة، الذي أراد الله ورسوله والدار الآخرة، أما إذا كان هناك إصرار على الدنيا يقول لك: هذا شيء فوق طاقتي، متى يرى هذا الشيء فوق طاقته ؟ إذا أراد الدنيا.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيام:

أيها الأخوة، الحقيقة الدقيقة: قس الوسع بالتكليف، الأصل هو التكليف، فما دام الله قد كلفك هذا الأمر يقيناً وقطعاً ضمن وسعك، أما الناس يقيسون التكليف بوسعهم، هو مُصّر على المعصية، بعيد عن الله، آثر الدنيا، يقول لك: لا أستطيع، وقد قيل: اعلم يقيناً أن الأمر الذي تتوهم أنك لا تستطيعه هو الأمر الذي لا تريد أن تفعله، وهناك قصص لا تعد ولا تحصى.

إنسان في صعيد مصر، أميّ، لا يقرأ ولا يكتب، أرسل ابنه إلى الأزهر، وعاد بعد خمس سنوات شيخاً، وألقى خطبة في جامع القرية، فبكى الأب بكاءً مراً، وقد ظن الناس أن هذا البكاء الشديد كان فرحاً بابنه الذي أصبح خطيباً، لكن الحقيقة هي العكس، كان هذا البكاء الشديد أسفاً على عمر ضيعه في الجهل، في اليوم التالي ركب دابته وتوجه إلى القاهرة، الطريق ألف كيلو متر، وعلى الدابة مسير شهر، فوصل بعد شهر إلى القاهرة، سأل: أين الأزعر ؟ لا يحفظ اسمه، قيل له: لا يوجد عندنا أزعر، عندنا أزهر، قال: هذا الذي يتعلم الطلاب به، أخذوه في الخامسة والخمسين إلى الأزهر، فتعلم القراءة والكتابة، ثم طلب العلم ومات في السادسة والتسعين وهو شيخ الأزهر.

إن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيام، والله مستحيل وألف ألفِ مستحيل أن تطمح بشيء وتصدق في طلبه ولا تصل إليه، من سابع المستحيلات.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

ما دام الله قد كلفك فهذا ضمن وسع الإنسان، لقوله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

مستوى الإيمان الضعيف مقبول عند الله مع مضي الزمن والفتوحات والغنائم والأموال:

لكن سؤال:

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ)

الآن تشير إلى الزمان، يبدو أن الصحابة الكرام وهم مع سيد الأنام كانوا في أعلى درجات الإيمان، وفي أعلى درجات البعد عن الدنيا، وفي أعلى درجات البعد عن الفتن، وفي أعلى درجات القرب من الله، بهذا القرب، وبهذا الإقبال، وبهذا البعد عن الدنيا، وبهذا الصدق الكبير، كان الواحد منهم بعشرة:

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

لكن مع مضي الزمن، والفتوحات، والغنائم، والأموال، والاستقرار، هذا يضعف الإيمان، أو مع الإقبال على الدنيا، وضعف الإقبال على الآخرة، هذا يضعف الإيمان، مع انتشار الفتن هذا يضعف الإيمان، لذلك جاء التوقيت زمني،

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً)

لكن مستوى الإيمان الضعيف مقبول عند الله، بالجامعة يوجد مقبول، و وسط، و جيد، و ممتاز، و درجة شرف، مراتب النجاح هناك نجاح مقبول، و هناك نجاح بدرجة شرف.

أيها الأخوة، الملخص أنك إذا واجهت رجلين، وفررت منهما، فأنت فار من الزحف وهي من الكبائر، لأن هذا الحد الأدنى، أما إذا واجهت عشرة وفررت منهم هذا دليل ضعف الإيمان، لكن لو فررت من ثلاثة لا تعد عديم الإيمان، أما من اثنين أقل من ضعيف، أي راسب.

الله عز وجل مع المؤمنين بالتوفيق و التأييد و النصر و الحفظ:

أما قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

ماذا أقول بهذه الآية ؟ هذه معية خاصة، هو معهم بالتوفيق، معهم بالتأييد، معهم بالنصر، معهم بالحفظ، معهم بالرعاية، لو إنسان قال: سافرت إلى بلاد الغرب ومعي خمسة دولار، تصدقه ؟ مستحيل! لكن لو علمت أن معه إنساناً معه ملايين فالكلام صحيح، أو إنسان ضعيف قال: نقلت هذه الصخرة من هنا إلى هنا، كلام غير مقبول، لو علمت أن معه بطلاً بالوزن الثقيل أعانه عليها صار الكلام مقبولاً.

إذا قلت:

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

أي معهم بقدرته، معهم بعلمه، معهم بغناه، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ فالبطولة أن تكون مع الله، والقضية الدقيقة أن هناك معية عامة حينما يقول الله عز وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية: 4)

أي معكم بعلمه، هناك معية عامة، أما إذا قال الله عز وجل: (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) هذه معية خاصة، معهم بالتوفيق، معهم بالحفظ، معهم بالنجاح، معهم بالإكرام، معهم بالعطاء، مع الخاصة رائعة جداً.

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

(مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة الأنفال: الآية 66)

(مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

هذه معية خاصة.

المعية الخاصة لها ثمن و ثمنها الآية التالية:

الله عز وجل يبين لنا أن هذه المعية الخاصة لها ثمن.

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة الآية: 12)

هذا ثمن معية الله عز وجل، ولا تنسوا أبداً أنه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ الآيات تصبح:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

دلالات القصة التالية:

أيها الأخوة الكرام، في موضوع غزوة بدر، كلكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام اختار لأصحابه مكاناً مناسباً في هذه الغزوة، فجاء صحابي جليل اسمه الحُباب بن المنذر ـ أنا ما رأيت قصة لها دلالات كهذه القصة ـ قال له: يا رسول الله هذا الموقع وحي أوحاه الله أم هو الرأي والمشورة ؟ إذا كان وحياً لا أتكلم ولا كلمة، أما إذا كان اجتهاداً لي كلام، لكن حكمة الله المطلقة أن الله حجب عن نبيه الموقع المناسب، حجبه عنه وحياً، وحجبه عنه اجتهاداً، وحجبه عنه إلهاماً، فجاء هذا الصحابي بأدب جمٍّ قال له: يا رسول الله هذا المكان وحي أوحاه الله إليك أم هو الرأي والمشورة ؟ قال له: هو الرأي والمشورة، قال له: والله يا رسول الله ليس بموقع، أي هذا الموقع غير مناسب، النبي الكريم ببساطة وبعفوية وبمودة قال له: أين الموقع المناسب ؟ أشار له إلى موقع آخر، فأعطى النبي أمراً لأصحابه أن ينتقلوا إلى هذا الموقع ـ القصة دقيقة جداً ومعبرة جداً ـ القصة تعني أن النبي معصوم من أن يخطئ في أفعاله، وأقواله، وإقراره، لكن لحكمة بالغةٍ بالغة حجب الله عنه الموقع المناسب، حجبه وحياً، وحجبه إلهاماً،

وحجبه اجتهاداً، فكان هذا الموقع الذي اختاره لم يعجب هذا الصحابي، هذا الصحابي من شدة أدبه قبل أن يدلي برأيه قال له: هذا الموضع وحي أم رأي ؟ فإن كان وحياً لا أتكلم و لا كلمة، وإن كان رأياً أنصح، الآن النبي معصوم.

إلا أن فضيلة واحدةً لا يمكن أن تبدو منه، فضيلة الرجوع إلى الصواب، هو معصوم، فكيف يظهر بهذه المكرمة ؟ وهذه الفضيلة ؟ لا بد أن يحجب عنه الموضع المناسب وحياً، وإلهاماً، واجتهاداً، ويأتي صحابي مؤدب جداً ويسأله ؟ يجيبه أن هذا الرأي والمشورة، يقول له: ليس بموقع.

لذلك هذه القصة لها دلالات كبيرة جداً تبين أنه حتى الفضيلة لا يمكن أن تظهر من النبي لأنه معصوم، الله عز وجل هيأ له ظرفاً دقيقاً، وظهرت هذه الفضيلة، فضيلة الإصغاء إلى الناصح، فضيلة الرجوع إلى الصواب، فكانت هذه القصة من معالم سيرته النبوية صلى الله عليه وسلم.

من كان مع الله كان الله معه:

أما كلمة

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابرينَ)

أي عندما كان في الغار، ووصل الكفار إليه، الحقيقة هناك ملمح آخر دقيق جداً هو أن النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، أخذ بالأسباب، هيأ من يأتيه بزاد، من يأتيه بالأخبار، من يمحُو الآثار، اتجه جنوباً والمدينة شمالاً، اتجه ساحلا والمدينة في الداخل، قبع في غار ثور أياماً ثلاثة وقت شدة الطلب، فكل ثغرة غطاها، إذاً هو أخذ بالأسباب، هذا منهج أخذ بالأسباب كأنها كل شيء، وتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

لكن واقع العالم أن الغرب أخذ بالأسباب، واعتمد عليها، وألهها، ونسي الله، فوقع في الشرك، وأن الشرق لم يأمر بها أصلاً فوقع في المعصية، والصواب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، لكن حينما وصل المطاردون إليه هناك ملمح دقيق جداً، لو أنه أخذ بالأسباب، واعتمد عليها، ووصلوا إليه، لانهارت قواه، لكنه أخذ بالأسباب طاعة لله، واعتمد على الله، فلما وصلوا إليه قال أبو بكر: " يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا "، فقال:

((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابرينَ)

أي أنت مع الله قوي جداً، أنت مؤمن ضعيف بمرتبة اجتماعية متدنية، و دخل متواضع جداً، لا يعرفك أحد، لست مشهوراً، إذا كنت مع الله أنت أقوى الناس، وأذكى الناس، لأنك تأخذ قوة الله، وتأخذ علم الله، وتأخذ رحمة الله، فالأصل أن تكون مع الله.

من كان مع الله أيده الله بالسكينة والطمأنينة والسعادة:

لذلك

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

كلمة مع قليلة ؟ مثلاً: مواطن متواضع، دخله محدود، ضارب آلة كاتبة، بيته بأقصى المدينة، بيته ستون متراً، لكن الملك معه، صار أقوى من كل وزراء الملك.

فأنت يجب أن تعلم ماذا أن يكون الله معك، ولا تنسى هذه المقولة: "وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ".

لا تنسى هذه المقولة: " يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ ".

حينما تكون مع الله ينزل على قلبك السكينة، السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، هذه السكينة أكبر عطاء إلهي، طمأنينة، ثقة، قوة شخصية، سعادة، رضا، تفاؤل، معنويات مرتفعة جداً، هذه السكينة.

استشارة النبي الكريم أصحابه في أسرى معركة بدر:

أيها الأخوة الكرام، شيء آخر: هذه الموقعة ـ موقعة بدر ـ تمّ أسر سبعين قرشياً، فالنبي الكريم استشار أصحابه الكرام، فقال: ما ترون في هؤلاء الأسرى ؟ ماذا نفعل بهم ؟ إن الله قد مكنكم منهم، وإنما هم أخوانكم بالأمس، فقال أبو بكر: "يا رسول الله أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر، ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم، والعشيرة، والأخوة، استبقهم، أي اعفُ عنهم، وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك، فيكونوا لك عضداً "، فقال عليه الصلاة والسلام: ما تقول يا بن الخطاب ؟

نحن أحياناً بالأخبار نسمع أن هذا الوزير من الصقور، وهذا الوزير من الحمائل، هناك وزير صقر، وهناك وزير حمامة، فلما سأل سيدنا عمر، قال له: " يا رسول الله كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، أرى أن تمكنني من فلان فأضرب عنقه، وأن تمكن علياً من عقيل فيضرب علي عنقه، وتمكن حمزة من فلان حتى يضرب عنقه، حتى ليعلم الله أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين،

هؤلاء صناديد قريش، وأئمتهم، وقادتهم، فاضرب أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن راعون مؤلفون ".

وقال عبد الله بن رواحة: "يا رسول الله أنظر وادياً كثير الحطب، فأضرمه عليهم ناراً " فقال العباس وهو يسمع ما يقول: " قطعت رحمك"، قال أبو أيوب: فقلنا ـ أي الأنصار ـ: "إنما يحمل عمر ما قال حسد لنا "، فدخل عليه الصلاة والسلام البيت، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، ثم خرج فقال: إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله تعالى ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة.

في حياتنا اليومية ضمن الشرع هناك إنسان لين، وهناك إنسان قاس.

أبو بكر و عمر من وجهة نظر النبي صلى الله عليه وسلم:

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: مثلك يا أبا بكر في الملائكة كمثل ميكائيل يتنزل بالرحمة، ومثلك يا أبا بكر في الأنبياء كمثل إبراهيم، قال:

(فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى بن مريم إذا قال:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة)

ومثلك يا عمر في الملائكة كمثل جبريل يتنزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله، ومثلك في الأنبياء كمثل نوح قال:

(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً)

(سورة نوح)

ومثلك في الأنبياء كمثل موسى قال:

(اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(سورة يونس)

لو اتفقتما ما خالفتكما، لكن واحد مع الصقور، وواحد مع الحمائل، واحد شديد وواحد لين، أخذ قراراً لا يَنْفَلِتَنَّ أحد منكم إلا بفداء، أو ضَرب عُنُق، ومن بين الأسرى كان عدد كبير من أغنياء قريش، النبي أخذ قرار فداء أو قتل.

أيها الأخوة، لذلك قال تعالى:

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

فجاء الوحي يقول :

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة الأنفال)

أيها الأخوة الكرام، تتمة هذه الآيات وشرحها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (26-30): تفسير الآيتان 67 - 68 ، معاملة الأسرى معاملة حسنة هو من طبع الإسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-01-22

بسم الله الرحمن الرحيم

النصوص نوعان ؛ قطعية الدلالة و ظنية الدلالة :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السابعة والستين والآية الثامنة والستين، وهي قوله تعالى :

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، أسرى جمع أسير، والأسير من شُد على يديه وقُيد، وأصبح في قبضة جهة قوية، جهة قوية قبضت عليه، شدت وثاقه، أصبح في قبضتها، وفي أمرها.

الحقيقة الأسير في الإسلام إن لم يُقتل يصبح عبداً، لكن قبل أن أبدأ هذا الموضوع الدقيق لا بد من تقديم :

لو أنني قلت لواحد منكم أعطِ فلاناً ألف درهم ونصفه، كم المبلغ ؟ يا ترى الهاء في ونصفه تعود على الألف أم على الدرهم ؟ إن كانت تعود على الألف أي أعطه ألفاً وخمسمئة، و إن كانت تعود على الدرهم أي أعطه ألفاً ونصف درهم، هذا النص اسمه احتمالي، وهناك نص قطعي، أعطِ فلاناً ألفاً وخمسمئة درهم لا يحتاج هذا النص لا إلى تفسير، ولا إلى تأويل، ولا إلى بحث، ولا إلى درس، ولا إلى خلاف بين العلماء، هذا نص قطعي الدلالة، أما أعطِ فلاناً ألف درهم ونصفه هذا نص ظني الدلالة، إن أعدت الهاء الضمير الغائب على الألف، ألف وخمسمئة، إن أعدتها على الدرهم ألف ونصف، قد يفهمه شحيح ألف ونصف، وقد يفهمه كريم ألف وخمسمئة، النص هذا اسمه نص احتمالي.

عدم تشريع العبودية في الإسلام إطلاقاً :

الآن مع عدة آيات متعلقة بالرق، حينما تؤمن بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، تؤمن به إلهاً عظيماً، رحيماً، عادلاً، موجوداً، واحداً، كاملاً، أسماءه حسنى، صفاته فضلى، وهذا تشريعه، لابد من أن تفسر هذا التشريع تشريع إنساني.

أنا حينما أقبض على مقاتل، وبإمكاني أن أقتله، و لم أقتله، حقنت دمه، وجئت به إلى عندي، وعاملته معاملة إنسانية تفوق حدّ الخيال، كان أصحاب النبي يطعمون الأسير أفضل ما عندهم من طعام، ويأكلون أردأه، الأسير إنسان رأى نفسه معززاً، مكرماً، محترماً، سيده يرحمه، يطعمه، يسقيه، يطعمه مما يأكل، يلبسه مما يلبس، لا يكلفه ما لا يطيق، أنا أعتقد أن تسعين بالمئة إن لم أقل تسعاً و تسعين بالمئة من الأسرى الذين لم نقتلهم بل حقنّا دماءهم، لم نقتلهم بالحرب بل حقنّا دماءهم، وهم عطلوا تفكيرهم، ولم يؤمنوا وحقدوا على هذا الدين، عاملناهم معاملة لينت قلوبهم، وأزاحت عن صدروهم، ورأت المسلم إنساناً رحيماً، منصفاً، عادلاً، عنده ذوق، عنده رحمه، أنا أرى أن العبودية لم تشرع في الإسلام إطلاقاً، بل شرع من أجل تصفيتها، لم تُشرع العبودية في الإسلام، بل الذي شُرع من أجل تصفيتها، لكنها واقع قائم، لكن كيف تعامل الإسلام مع العبودية كواقع قائم بأساليب من أجل أن تصفى؟.

حينما يغلق الآخر عقله لدعوتك يمكن أن تفتح قلبه بإحسانك :

أيها الأخوة، الأسير بشكل أو بآخر أسير حرب، وكان من الممكن أن يُقتل ونستريح منه، لكن حقناً لدمه، ورأفة به، وطمعاً لهدايته، عاملناه كأسير مع الإحسان إليه.

((يا داود ذكر العباد بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر].

حينما يغلق هذا الآخر عقله لدعوتك، يمكن أن تفتح قلبه بإحسانك، عندئذٍ يصغي لك، يصغي لكلامك، حينما يغلق عقله لبيانك افتح قلبه بإحسانك، فإن فتح قلبه بإحسانك أصغى لكلامك، هذه الحالة التي سمح الله بها، والرقيق قائم في المجتمعات.

لذلك الموازنة هذا الأسير إما أن أقتله ونحن في حرب، والقتل جائز، لأنك إن لم تقتله قتلك، هذه حرب، مثلاً عندنا أخلاق الحرب، وأخلاق السلم، أخلاق السلم :

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت).

هذا السلم، في الحرب :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

(سورة التحريم).

هذه أخلاق الحرب، الحديث الآن عن الحرب لا عن السلم، في السلم :

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

لكن بعض المسلمين اختلطت عليهم أخلاق الجهاد مع أخلاق الدعوة، إذاً أنت بين خيارين، أنت قائد جيش، وفي معركة، والطرف الآخر يريد أن يقتلك، لكنك انتصرت عليه، فإما أن تقتل جنوده واحداً تلو الآخر، وإما أن تأسرهم، إن أسرتهم أبقيت على حياتهم، وحقنت دماءهم، طمعاً في هدايتهم، انتظاراً كي يفتحوا لك قلوبهم بإحسانك حتى يفتحوا لك عقلهم لبيانك.

الله سبحانه وتعالى شرع الإحسان للأسرى :

هذا المنطلق له تطبيقات سيئة و هذا شيء آخر، لا علاقة لنا بالتطبيقات، علاقتنا بالمنطلقات، هذا هو الدين، أما إن أساء المسلمون فهم هذا الدين، لم يفهموا حقيقة هذا الدين، ظنوا أن الأسرى مكسب، هم بعيدون عن حقيقة هذا الدين بعد الأرض عن السماء، فبقاء الأسير على قيد الحياة أمر مطلوب ومرغوب، لذلك شرع الله سبحانه وتعالى الإحسان للأسرى، أجمل كلمة قرأتها في معاملة الأسرى : كان أصحاب رسول الله يطعمون الأسير أطيب الطعام، ويأكلون أردأه.

لا تبتعدوا كثيراً، هناك أُسر تستقدم خادمة، تعاملها كابنتها تماماً، كالابنة، الطعام، والشراب، والثياب، والغرفة الدافئة، ولا تكلفها ما لا تطيق، وقد تكون هذه الخادمة ليست مسلمة، إذا بها بعد حين تُسلم. الفكرة، أحياناً الإنسان يغلق عقله لبيانك.

أنا أذكر أن صحفية بريطانية وقعت في أسر جماعة مسلمة في شرق آسيا، تفننت في إحراجهم، تخلع ثيابها أمامهم، يغضون عنها البصر، تطلب طعاماً نادراً يأتون به إليها، مكثت أشهراً، هي تحمل حقدا على الإسلام يفوق حدّ الخيال، تفننت في إحراجهم، وفي استفزازهم، ثم أطلقوا سراحها، عقدت مؤتمراً صحافياً أول كلمة قالتها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهي الآن من الداعيات الكبيرات في بريطانيا، كيف أصبحت داعية ؟ والله لا أبالغ أعرف قصتها تفصيلاً، تنطوي على حقد لهذا الدين يفوق حدّ الخيال، لما رأت الذين أسروها كيف عاملوها، كيف أكرموها، كيف أطعموها ما تشتهي، كيف حققوا لها مطالبها، وحين استفزتهم بخلع ثيابها غضوا عنها البصر، تقول في المؤتمر الصحفي : طموحي في الحياة أن يتزوجني واحد من هؤلاء.

أعطيكم فكرة مع أن الإسلام شرع لتصفية الرق، لكنه كان قائماً وراسخاً في كل المجتمعات، وأصلاً في الحياة الاجتماعية عند كل الشعوب.

فلذلك الإسلام واقعي، هذا النظام نظام العبودية سعى جاهداً لتصفيته.

صمود الدين الإسلامي بالرغم من كثرة أعدائه و خصومه :

أيها الأخوة، الحقيقة الإسلام ما أكثر الأعداء حوله، وما أكثر خصومه، وما أكثر التهم التي تصب عليه، وأقسم لكم بالله لولا أن الإسلام دين الله لانتهى من ألف عام، لكنه دين الله بقي صادماً أمام أعدائه.

مرة أحد أصدقائي، رئيس الجالية الإسلامية في أمريكا، قال لي : أجريت دراسة كلفتني سنتين، حول أعمال العنف في أمريكا، اتصل بكل مراكز الشرطة، المفاجأة التي لا تصدق أن نسبة المسلمين الذين يقومون بأعمال العنف لا يزيدون عن اثنين في المئة، والإعلام العالمي يروج أن كل عميل وراءه مسلم.

الحقيقة يجب أن تبحث عنها، فهذه التي تحقد على الإسلام حقداً يفوق حدّ الخيال عندما رأت معاملتهم، حينما بالغت في استفزازهم، حينما أوقعتهم في حرج في طلباتها، حينما أكرموها بتوجيه نبيهم، وأطلقوا سراحها بعد شهرين، أول كلمة قالتها في المؤتمر الصحفي أنها أعلنت إسلامها، وأنها تتمنى أن تحظى يزوج من هؤلاء، هذا الدين دين الله عز وجل.

والآن أقول لكم مثل من واقع المسلمين : في بيوت كثيرة من كل بلاد المسلمين فيها خادمات، وبعض الخادمات لسن مسلمات، المعاملة الطيبة جداً، الإكرام، حينما تعامل هذه الخادمة كبنت من بنات صاحب البيت، ما الذي يحصل ؟ تُسلم.

حدثني إنسان، قال لي : إنسانة من هذا البلد الطيب لا تقبل إلا خادمة غير مسلمة، يقول لها : طلب عجيب وغريب، قالت له : أريدها غير مسلمة، المفاجأة أنها كلها جاءت بخادمة غير مسلمة من خلال المعاملة الطيبة، والإكرام تسلم، أرادت أن تتقرب إلى الله بتعريف هؤلاء بالإسلام.

أنا أقدم لكم تمهيدات، الموضوع دقيق جداً، لم يشرعه الإسلام إطلاقاً، بل كان موجوداً، وواقعاً، وقائماً.

مثلاً : سابقاً في الجاهلية قد يرتكب أحد جناية في حق الآخر، ولا يقدر أن يقدم دية، فيقول له : خذني عبداً ـ أقول لكم ما يجري في الجاهلية ـ إنسان ارتكب جريمة قتل، وليس معه دية، فيقول لولي المقتول: خذني عبداً، هذا مصدر، أو خذ ابنتي جارية، وهناك آخر يكون مستديناً مبلغاً كبيراً، يقول لمن دينه هذا المبلغ : خذ ابني عبداً، أو ابنتي جارية، لذلك كانت مصادر الرق متعددة، ولم يكن للعتق إلا مصرف واحد هو إرادة السيد أن يعتق عبده، أو أن يحرضه فقط، مصرف واحد اختياري وأنواع منوعة من مصادر العبودية، في الحرب، في الجريمة، في القتل، في الدَّين الباهظ.

الإسلام جعل الرق نوعاً من الدعوة إلى الله يقوم على أساس المعاملة الطيبة :

لذلك عدد العبيد يتزايد، المصادر كثيرة، والمصرف واحد، والمصرف الواحد اختياري، على مجاز السيد، عندما جاء الإسلام كيف عالج هذه المشكلة ؟ عمل على تصفية الرق، أولاً : ألغى كل مصادر الرق، إنسان ارتكب جناية، يقول له : خذني عبداً، أو خذ ابنتي جاريةً، إنسان عليه دين باهظ لا يطيق سداده، يقول : خذني عبداً، أو خذ ابنتي جارية، هذا في الإسلام محرم أشد التحريم، ماذا فعل الإسلام ؟ جفف مصادر الرق، أبقى على رق واحد هو رق الحرب، إنسان يحاربك وبإمكانك أن تقتله، ضمن الحرب القتل جائز في كل العقائد العسكرية في العالم، لكن المسلم بقلبه رحمة، هذا الذي يحاربه يجهل حقيقة الدين، يجهل علة وجود الإنسان، لذلك يبقي على دمه، ويأخذه أسيراً، ويعلمه الإسلام، لا بالمنطلقات النظرية بل بالتطبيقات العملية، يعامله معاملة طيبة جداً، والشاهد الكبير، كان أصحاب النبي الكريم يأكلون أردأ الطعام، ويطعمون أطيبه للأسرى استجلاباً لقلوبهم، ودعك من كل الأمور الأخرى.

أنت عندك معمل، في المعمل عامل، و هذا العامل غير مسلم، رأى من كرمك، من إحسانك، من رحمتك، من عطفك، زوجْتَه، أكرمته، بعد حين يميل إليك، هذا الشيء يقع كل يوم، ما دام الرق قائماً، حقيقة قائمة في كل المجتمعات، أراد الإسلام أن يجعل من الرق نوعاً من الدعوة إلى الله، تقوم لا على أساس الإقناع الجدلي، بل تقوم على أساس المعاملة الطيبة.

دائماً وأبداً هناك بون شاسع بين المنطلقات النظرية أحياناً، وبين التطبيقات العملية، الأمور بعد حين تأخذ طابعاً نفعياً، تأخذ طابعاً غير صحيح، لكن كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : "يبعث على رأس كل مئة عام ما يجدد لهذه الأمة دينها "، طرأ عليها خطأ كبير، فهم سقيم، بعد عن الحقيقة.

أول إجراء جاء به الإسلام كل رقٍ من غير الحرب المشروعة حرام :

أيها الأخوة، إذاً : الإسلام عايش الرق كواقع قائم، وأراد أن يصفيه عن طريق منع مصادره إلا مصدراً واحداً هو الحرب، إنسان جاء ليقاتلك، ولك أن تقتله، لا، احقن دمه، هو أخوك في الإنسانية، ليرى منك المعاملة الطيبة، القلب الرحيم، العطف، الحنان، عندئذٍ يميل إليك.

أول إجراء جاء به الإسلام كل رق من غير الحرب المشروعة حرام، ولا يجوز الاسترقاق من غير طريقة الحرب، الآن بالعكس فتح الإسلام أبواب العتق على مصارعه، الواقع السابق قبل الإسلام المصادر متنوعة كثيرة والمصرف واحد، الآن المصادر أُغلقت بكاملها، ولم يسمح إلا بالاسترقاق الحر، إنسان جاء ليقتلك، حقنت دمه، وعلمته الإسلام بالتطبيق العملي، وفتح بالعكس أنواع الإعتاق، أول شيء جعل عتق العبد كفارة لعدد من الذنوب، فعتق رقبة، فأغلق أبواب العبودية وما أكثرها في

الجاهلية، وأبقى باباً واحداً على المعاملة بالمثل، أنت معقول تحارب جهة هي تأخذ أولادك، وتسترقهم، وتجعلهم عبيداً، وأنت بسذاجة تأخذ أولادهم فتطلق سراحهم ؟ مستحيل ! سمح الإسلام ـ والرق قائم ومنتشر في كل أرجاء البلاد ـ مرحلياً بالمعاملة بالمثل، فما دام أعداء الدين أخذوا الأولاد وجعلوهم عبيداً فأنت مسموح لك فقط في الحرب، في الحرب الدينية، في حرب نشر الإسلام، في حرب نقل الهدى إلى أطراف الدنيا، في الحرب التي انتقلت من قوله تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

(سورة البقرة الآية : 143).

سمح الإسلام مرحلياً باسترقاق المقاتل وحقن دمه لا قتله، جاء إلى بيتك رأى رحمتك، أنا أقول كلاماً دقيقاً جداً، رأى كرمك، رأى عدلك، رأى إنصافك، أحبك، قال :

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

(سورة التوبة الآية : 11).

صار أخوك.

الهدف من الإحسان إلى الأسرى :

كلمة

(فَإِنْ تَابُوا)

أي أنا جعلته عندك أسيراً كي يؤمن من خلال معاملتك له،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

انتهى الأمر معنى ذلك سمحت لك أن تأخذه إلى بيتك، لا من أجل أن تستخدمه، لا من أجل أن تستغله، لا من أجل أن تتعبه، لا من أجل أن تقضي عليه، من أجل أن تهديه إلى الله ورسوله،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

إذاً حرم الإسلام كل مصادر الرق إلا الذي يحاربك في الدين، ينبغي ألا تقتله، وألا تبيده، الآن في العالم حرب إبادة.

بدولة في شرق أسيا جمعوا خمسة آلاف في قلعة وأبقوهم من دون طعام وشراب حتى شربوا بولهم، وأكلوا لحم بعضهم ثم قصفوهم.

العبيد بأمريكا قتل منهم ثلاثمئة مليون، في بعض البلاد ساقوهم مسيراً إلى شمال سيبيريا أكثر من ألفي كيلو متر، خمسة و تسعون بالمئة منهم مات في الطريق، لو تقرؤوا ما يجري في العالم من ظلم، وقهر، الإسلام جعل هذا النظام السائد القائم كواقع جعله طريق للهدى.

كان الصحابة الكرام يأكلون أردأ الطعام، ويطعمون الأسرى أطيبه، وثمامة بن أثال الذي وقع أسيراً، رُبط في سارية المسجد، مرّ به النبي قال : ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال : إن تقتل تقتل ذا دم ـ فأنا قاتل ـ وإن تعفو، تعفو عن شاكر ـ وإن أردت الفدية فاطلب ما تشاء ـ في اليوم التالي مرّ به فأعاد القول، في اليوم الثالث أطلق سراحه، فغاب واغتسل وعاد ليشهد أنه لا إله إلا الله، هذا شاهد من الشواهد الكثيرة.

القصد أن هذا أخوك في الإنسانية، ينبغي أن تأخذ بيده إلى الله، هو عطل عقله عن سماع كلامك، أردت أن تفتح قلبه بإحسانك، فلعل عقله يصغي إليك، واضح ؟.

الإسلام جعل العبودية طريقاً للهداية وسبباً للإحسان وسبباً لفتح القلوب :

والله الذي لا إله إلا هو لا يمكن أن يكون الدين إسلامياً إلا هكذا، وأي فهم آخر يكون فهماً جاهلياً و فهماً خاطئاً، الإسلام دين خالق الأكوان، أي حينما تغلق عقلك عن فهم هذا الدين نقنعك بهذا الدين من باب المعاملة الطيبة، والآن مسموح لك كمسلم أن تعامل الآخر معاملة طيبة، والنتائج باهرة وغير متوقعة.

ضربت مثل الخادمة أحياناً، فهي غير مسلمة، بالمعاملة الطيبة تسلم، ليس بعيد عنكم ما جرى في سجن أبو غريب في العراق، كلهم أسرى، الأعمال التي مارسها المحتلون مع هؤلاء الأسرى، العقل لا يصدقها، وليس غريب عنكم ما جرى في سجون بأمريكا، أنواع التعذيب تفوق حدّ الخيال، أنواع الإذلال، التعرية الكاملة، الكهرباء، الماء ينهمر في أيام الشتاء طوال اليوم، شيء يفوق حدّ الخيال، نحن نطعمه أطيب أنواع الطعام، ويأكل أصحاب البيت أردأه، العبودية كانت قائمة والرق قائم، فجأة جعل الإسلام هذه العبودية طريقاً للهداية، سبباً للإحسان، سبباً لفتح القلوب.

إعتاق الرقاب من أعظم الأعمال التي تقربك إلى الله :

أخواننا الكرام، بل قول الله عز وجل :

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)

(سورة البلد)

جعل إعتاق الرقاب من أعظم الأعمال التي تقربك إلى الله.

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ)

(سورة البلد)

إعتاق عبد، أعظم عمل تتقرب به إلى الله إعتاق العبيد بتصفية الرق، جاء الإسلام والرق قائم في العالم كله، ماذا فعل الإسلام ؟ أغلق كل المصادر عدا مصدر واحد لا بد منه، الذي يحاربك جاء ليقتلك، بدل

أن تذبحه، وأن تصفيه، وأن تبيده، أخذته وفتحت قلبه بإحسانك، ففتح عقله لبيانك، فأسلم، فأصبح أخاك في الله، وانتهى الأمر، واضح تمام.

لكن من لم يرتكب ذنباً يوجب عتق رقبة، ولا أعتق رقبة بأريحية إيمانية حباً لله عز وجل، وعنده عبد، قال : هؤلاء العبيد، دقق في رسول الإنسانية :

((إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن المَعْرُور بْن سُوَيْدٍ].

هذا المنهج، أخوك وقع تحت يدك، ينبغي أن يأكل مما تأكل، وأن يلبس مما تلبس، وألا تكلفه ما لا يطيق، وإن كلفته فأعنه، أصبح مثل أحد أفراد البيت، وماذا تخاطبه ؟ يا عبدي أعوذ بالله، يا فتى، أنت كابني، هذا الإسلام، وفوق ذلك شرع الإسلام عتق العبيد، جعل عدداً كبيراً من الذنوب كفارتها إعتاق رقبة،

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ)

إذاً الإسلام جاء والرق موجود، وأبوابه متعددة ومصرفه واحد، أغلق كل أبوابه على الحرب وفتح مصارف لا تعد ولا تحصى تمهيداً لتصفيته.

تحريم أخذ الأسرى لأعمال دنيوية :

أيها الأخوة، لكن لو أن الإنسان أراد هذا الأسير من أجل عرض الدنيا، بأن يطمع بمن يخدمه، أو بامرأة يقضي بها حاجته، أو بمال يبغي به رغد العيش، كل ذلك مرفوض والدليل :

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

أي ممنوع في التشريع الإسلامي أن تأخذ الأسير كي يخدمك، أو أن تأخذ الأسيرة كي تقضي حاجتك منها، أو أن تأخذ الأسير ليعينك في أعمالك،

(تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا)

الله عز وجل في أصل التشريع شرع ـ والأسر قائم والعبودية قائمة ـ تشريعاً مرحلياً لتصفية العبودية قولاً واحداً، فأغلق كل مواردها، إلا مورداً واحداً مورد الحرب، وفتح الأبواب على مصارعها لعتق العبيد

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ)

(أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

(سورة البلد).

الرق في الإسلام تشريعه مرحلي من أجل تصفيته كلياً :

أيها الأخوة، شيء آخر : هذا أصل التشريع، هذا هو الإسلام، هذا هو منهج الله، هذا هو المنهج الإنساني، والرق في الإسلام تشريعه مرحلي، من أجل تصفيته كلياً، تصفيته بأن أغلق كل الأبواب، وأبقى باب الحرب التي تهدف إلى إعلاء كلمة الله، وكأن هذا الأسير بدل أن تقتله حقنت دمه، وجئت به إلى البيت، وفتحت قلبه بإحسانك ففتح لك عقله لبيانك، فآمن فبعد أن آمن أصبح أخوك في الإنسانية، وانتهى كل شيء، لذلك اجتهاد النبي الكريم وأصحابه الكرام.

(لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة الأنفال).

هم لم يعصوا أمر الله عز وجل، لكن التشريع جاء مع الذي حصل، أحياناً أنت واجهك موقف، اجتهدت ووقفت هذا الموقف هذا ليس معصية، لكن حينما يأتيك التشريع وتخالفه هذا يعد معصية، فأصحاب النبي الكريم اجتهدوا اجتهاداً سواء أقره الوعي أم لم يقره، هم ما فعلوا شيئاً ومعهم أمر سابق، لكنهم اجتهدوا، والحديث عن اجتهاد الصحابة سوف نأتي عليه إن شاء الله في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (27-30): تفسير الآية 70 ، الأحكام المتعلقة بالعلاقة بالآخر ـ قصة خيبر وإسلام العباس عمّ رسول الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-02-05

بسم الله الرحمن الرحيم

حاجة الإنسان إلى الدين كحاجته إلى الهواء :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السبعين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة، كنت أقول دائماً: إن الإسلام منهج كامل، يبدأ من فراش الزوجية، ويصل إلى العلاقات الدولية، فهو كالهواء يحتاجه كل إنسان، لا تستطيع أمة أن تحتكره، ولا بلد، ولا قطر، ولا مذهب، ولا طائفة، حاجة الإنسان إلى الدين كحاجته إلى الهواء، لذلك هو يغطي كل حركات الإنسان، بدءاً من أدق علاقاته الخاصة من فراش الزوجية، وانتهاء بالعلاقات الدولية.

علاقة المسلمين بالآخرين تقوم على :

1- أن الذين يعاهدون المسلمين ثم يخلفون عهدهم لابدّ من أن يؤدبوا ردعاً للباقين :

أخواننا الكرام، هناك مجموعة أفكار دقيقة، مستنبطة من الآيات التي تتحدث عن علاقة المسلمين بالآخرين، علاقة سلم، علاقة حرب، علاقة هدنة، علاقة معاهدة، علاقة اتفاق، أول هذه العلاقات أن الذين يعاهدون المسلمين ثم يخلفون عهدهم لا بدّ من أن يؤدبوا ردعاً للباقين، أحياناً الإنسان يعطي ويأخذ، أما حينما يكون هناك اتفاقاً ومعاهدة، وشيئاً موثقاً، ثم يأتي الطرف الآخر ويخونه لابدّ من أن يؤدب الآخر، عقاباً على خيانته، وردعاً من أن يفكر الآخرون بخيانة المسلمين.

أحياناً العالم الآخر يقيم دعوى مطولة على مبلغ، قد تكون تكاليف الدعوى أكبر من هذا المبلغ، ما الحكمة ؟ من أجل أن يلقي في روع من يعاملونه أن حقه ثابت.

إذاً من بعض النصوص القرآنية والنبوية، ومن بعض أحكام السيرة، نستنبط أن الآخرين ـ الطرف الآخر ـ إذا اتفقوا مع المسلمين، ونقضوا اتفاقهم، أو خانوا اتفاقهم، لا بدّ من عقاب أليم أراده رب العالمين، كي يكون هناك ردعاً يردع الآخرين عن أن يتلاعبوا باتفاقاتهم مع المسلمين، هذه حقيقة أولى.

2 ـ سمح الله للمؤمنين ابتداءً أن يلغوا الاتفاق مع الطرف الآخر بشرط الإعلام :

أحياناً الطرف الآخر يخشى أن ينقض العهد، سمح الله للمؤمنين ابتداءً أن يلغوا الاتفاق، إلغاء مع الإعلام، أنا متفق مع إنسان على قضايا معينة، فإذا شعرت، أو غلب على ظني أنه يخونني أنا ابتداءً أنهي هذه المعاملة وأبلغه ذلك، هذا أيضاً حكم آخر ينبغي أن يراعى في العلاقات مع الآخرين.

مثلاً : حينما اتهمت دولة بإسقاط طائرة دفعت دية كل إنسان على الطائرة تقريباً خمسمئة مليون ليرة سورية، دفعت هذه الدولة مليارين وسبعمئة مليون دولار، بالمقابل هناك خطأ في القصف ذهب ضحيته مئة إنسان خطأ، لأننا ضعاف، القتل بالمئات، بل بالألوف، بالعراق مليون قتيل، مليون معاق، خمسة ملايين مشرد، ولا شيء عليهم، وضع طبيعي، أحدث الأسلحة، أحدث الطائرات، قتلت النساء والأطفال في غزة، ألف وخمسمئة طفل وامرأة قتلوا بأرقى الأسلحة، تماماً كمصارع كبير يمسك طفلاً رضيعاً ويضربه، ويقول: انظروا قوتي شيء مضحك!

جاءت أوربا إلى شرم الشيخ تصريحها الوحيد أنها جاءت من أجل أن تمنع تهريب السلاح إلى الفلسطينيين فقط، أما هذه الجرائم البشعة التي يندى لها جبين الإنسانية حينما أراد الله من خلال القرآن الكريم، ومن خلال السنة المطهرة، أن الطرف الآخر إذا عاهدناه، ونقض عهده معنا، وخان العهد، وانقلب علينا، وطعننا في ظهورنا، ينبغي أن نؤدبه، لأن الحق له أظافر، والحق ينبغي أن يكون قوياً.

أنا لا أقول: يقول أهل الغرب: أنت قوي أنت إذاً على حق، هذا كلام شيطاني، الحق ما جاء به وحي السماء، لكن الحق يحتاج إلى قوة، بين أن يكون القوي على حق هذا اعتقاد أهل الغرب، القوي هو على حق، ما دمت قوياً انهب ثروات الشعوب، أفقر الشعوب، خذ ثرواتهم.

والله مرة استمعت إلى إنسان في أعلى منصب في العالم، قال: لقد تمّ في راوندا قتل ثمانمئة ألف ـ في أسبوع قُتلوا ذبحاً، في بلد إفريقي في الجنوب ـ قال: وكان بإمكاني أن أتدخل وأن أنقذ أربعمئة ألف، لكنني لم أتدخل، هكذا قال، لأنه لا يوجد هناك نفط.

إن لم يتفوق الإنسان في دنياه فلن يُحترم دينه :

أنا أقول كلمة : ما لم تصدق كلام الله عز وجل.

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية : 119]

ما لم نصدق كلام الله فالمعاناة معهم صعبة جداً، لكن سمعت كلمة رائعة، هم لا يحبوننا، لكن إذا كنا أقوياء يحترموننا، وإذا كنا ضعافاً مع عدم محبتهم لنا يحتقروننا، هذا شأن القوي، القوي لا يعظم إلا القوي، هم لا يحبوننا قطعاً، لكن فرق كبير بين ألا يحبوننا ويحترموننا، وبين ألا يحبونا ويحتقروننا.

فلذلك أنت حينما تعاهد مسلماً، وتنقض العهد، تطعنه في الظهر، فهناك عقاب شديد تأكيداً لقيمة المسلمين، ولثمن حياتهم، وثمن سلامتهم، أما إذا غلب على ظنك أن هذا الذي عاهدته ربما نقض العهد أنت أنهِ الاتفاق ابتداءً وأعلمه، لكن دائماً الله عز وجل قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال الآية : 60]

رأيتم في بلد مجاور كيف أن أعداء الأمة ـ اليهود ـ دمروا بنيته التحتية في عشرين يوماً تدميراً كاملاً، بنية تحتية كلفت أربعين ملياراً، هي ديون على هذا البلد دُمرت في عشرين يوم نهائياً، فمعناها لا بدّ من أن تكون قوياً، والآن العصر عصر قوة، والعالم لا يخضع لك إلا إذا كنت قوياً، بل إن لم تتفوق في دنياك لا يُحترم دينك، لا تقبل أن تكون إنساناً عادياً، تأكل وتشرب فقط، كن رقماً صعباً، كن من النخبة، كن من الطليعة، كن من الذين يحار الطرف الآخر فيهم.

لذلك جاء إلى الدنيا مليارات مملرة، مليارات، ولدوا، وكبروا، وتزوجوا، وأنجبوا، وماتوا ولم يدرِ بهم أحد، أنا أنصح أخوتي الحاضرين لا تكن رقماً سهلاً، كن رقماً صعباً، إما أن تُخطط، وإما أن يُخطط لك، تفوق في دراستك، هذا التفوق قوة لأمتك، تفوق في صناعتك، هذا التفوق قوة لأمتك، تفوقك في تجارتك هذا التفوق قوة لأمتك، تفوق في اختصاصك، هذا الاختصاص قوة لأمتك.

أنواع الجهاد :

1 ـ جهاد النفس و الهوى :

أيها الأخوة،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

أنا مضطر أن أذكركم : أن هناك جهاداً نفسياً، جهاد النفس والهوى، أن تجاهد نفسك وهواك، وما من كلمة أروع من كلمة صحابي جليل عاد من غزوة مع العدو فقال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى"، هل تستطيع أن تضبط شهواتك ؟ هل تستطيع أن تتحرك بها وفق منهج الله ؟ هل تستطيع أن تقيم الإسلام في نفسك ؟ وفي بيتك؟ وفي عملك ؟ وصدقوا ولا أبالغ لستم مطالبين بأكثر من ذلك مع أن هناك قوى كبيرة تتربص بالمسلمين، لكن :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة الآية : 286]

ما كلفك الله إلا أن تقيم الإسلام في نفسك، وفي بيتك، وفي عملك، لو فعل كل منا هذا لكنا في حال آخر.

فلذلك

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

هذا اسمه الجهاد النفسي، أعد للآخر إيماناً قوياً، أعد للآخر اتصالاً بالله، أعد للآخر قرباً منه، أعد للآخر نوراً يلقيه الله في قلبك حينما تتصل به، هذا الجهاد الأول؛ جهاد النفس والهوى.

2 ـ الجهاد الدعوي :

ثم هناك الجهاد الدعوي، أن تبحث عن الحقيقة فأنت مجاهد، أن تأتي من مكان بعيد إلى مسجد، تجلس على الأرض من دون ضيافة لتتعلم كلام الله هذا جهاد، هذا اسمه جهاد دعوي تؤكده آية كريمة :

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

الهاء تعود على القرآن،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

ولعل النبي عليه الصلاة والسلام استنبط من هذه الهاء قوله الكريم :

((خيرُكمْ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن عثمان بن عفان]

خيركم على الإطلاق، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

لا تجد على وجه الأرض إنساناً أفضل

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الملك]

شاب يخطط ليتزوج امرأة مؤمنة، يخطط لينجب أولاداً مؤمنين، يخطط ليخفف متاعب أمته، يخطط ليحمل أعباء أمته، هذا شاب عند الله كبير جداً، وهناك شاب يخطط ليستمتع بالحياة، فقط، هو صغير.

أبواب البطولة مفتوحة على مصارعها إلى يوم القيامة :

يا أيها الأخوة الكرام، لولا أن أبواب البطولة مفتوحة على مصارعها إلى يوم القيامة لما أقيمت الحجة على المؤمنين، أبواب البطولة مفتوحة على مصارعها إلى يوم القيامة.

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

[سورة الواقعة]

يمكن أن تكون في آخر الزمان، اشتقت لأحبابي، قالوا : أو لسنا أحبابك ؟ قال : لا، أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين قالوا : منا أم منهم ؟ قال : بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون.

نحن في آخر الزمان، أية حركة معها معصية، بالانترنيت يوجد معصية، بالفضائية يوجد معصية، بالصحيفة يوجد معصية، بالمجلة يوجد معصية، بالطريق يوجد معصية، بالجامعة يوجد معصية، لذلك: في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين قالوا : منا أم منهم ؟ قال : بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون:

((بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء))

[مسلم عن أبي هريرة]

3 ـ الجهاد البنائي :

أيها الشاب، ما الذي يمنعك أن تكون بطلاً ؟ تعلم، فعلمك خدمة لأمتك، أحياناً نأتي بخبير يأخذ مئة ضعف عما يأخذه المواطن، يستغلون جهلنا، فإذا تعلم الإنسان في الطب، في الهندسة، في أي اختصاص، وسدّ ثغرة لهذه الأمة معنى هذا أنه مجاهد هذا الجهاد الثالث، الأول: جهاد نفسي :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

[سورة العنكبوت الآية : 69]

والجهاد الثاني: الجهاد الدعوي،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

والثالث: الجهاد البنائي

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

[سورة الأنفال الآية : 60]

صنعوا طائرة "b52 "هذه الطائرة تنطلق من أمريكا وتقصف أفغانستان، وتعود إلى أمريكا دون أن تحتاج للتزود بالوقود، صنعت عام 1960، وصالحة لعام 2040، أعدوا لنا أم أعددنا لهم ؟.

ألقوا قنبلة قبل سقوط بغداد تفني البشر، وتبقي الحجر، عشرة آلاف إنسان أصبحوا كالهباء، والأبنية كما هي، أنا أخاطب كل واحد منكم، تعلم، أتقن اختصاصك، لتكون دعماً لأمتك، أتقن اختصاصك، أتقن تجارتك، أتقن صناعتك، أتقن دراستك، أتقن حرفتك.

اسمعوا هذه الكلمة : الأمة بحاجة إلى من يموت في سبيل الله، والله لكن أقول : هي بألف حاجة إلى من يعيش في سبيلها.

إذاً هذا الجهاد البنائي،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

الإعلام قوة، والأقمار الصناعية قوة، والأسلحة قوة، والتماسك الاجتماعي قوة، هناك مجتمع لا يخترق أبداً، تلاحظون أكبر دولة بالأرض لم تستطع أن تخرق جماعة، تحتل الآن معظم أفغانستان، فالمجتمع لا يُخترق الآن، وهناك مجتمعات تُخترق.

فأنا أقول : أنت كمواطن عادي تستطيع أن تجاهد نفسك وهواك أولاً بحضور درس علم تقوم بالجهاد الدعوي، تتعلم، وبإتقان عملك تقوم بالجهاد البنائي

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

4 ـ الجهاد القتالي :

إذا نجحنا في الجهاد النفسي، وفي الجهاد الدعوي، وفي الجهاد البنائي، ينتظر أن ننجح في الجهاد القتالي، المعركة معركة مصير، معركة بالمصطلح المعاصر نكون أو لا نكون.

والله يُخطط للمسلمين، لإفقارهم، ولإضلالهم، ولإفسادهم، ولإذلالهم، وهناك واحدة غير معلن ولإبادتهم، تجد يموت الملايين، ولا تصريح، ولا تعليق، ولا احتجاج، ولا استغراب أبداً، مهما قُتل من المسلمين، الكل ساكت، أسير واحد يأتي رئيس أمريكي إلى المنطقة في برنامج زيارته أسير، ولنا عند اليهود أحد عشر أسيراً و ثمانمئة، لم يخطر في باله أن يزور أسرة واحدة للتوازن.

اعلم علم اليقين كما قال الله تعالى عز وجل:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

تيقن، هم لا يحبوننا، لكن نريد أن نضيف إلى عدم محبتهم لنا أن نُحترم عندهم إذا كنا أقوياء، إذا كنا متماسكين، صدق ولا أبالغ طرح القضايا الخلافية الآن جريمة، لماذا ؟ لأنهم وضعونا جميعاً في سلة واحدة، فينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد.

الآن لا زلنا في الأحكام المتعلقة بالعلاقة بالآخر، انطلاقاً من أن منهج الله عز وجل منهج شمولي، يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، إذا جنح فريق من غير المسلمين إلى مسالمة المسلمين نحن معهم، من مركز قوي، لكن نحن معهم ونحن يقظون.

كان عليه الصلاة والسلام يحذر الناس، ويحترس منهم من دون أن يطوي بشره عن أحد، أرادوا السلام ؟ نحن مع السلام، لكن سلام مشرف، سلام مع الكرامة، سلام مع الاعتزاز.

الإيمان من دون طاعة لله عز وجل لا قيمة له إطلاقاً :

أما النقطة الدقيقة جداً إذا قال الله عز وجل:

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

[سورة الأنفال الآية : 65]

إله، الذي خلقنا، المؤمن في حالة قوة إيمانه يستطيع أن يواجه عشرة أضعاف، وفي حال ضعف إيمانه الواحد يواجه اثنين، فالجهاد في الإسلام لا يعتد كثيراً بتوازن القوى، يعتد بقوة الإيمان، قوة إيمان مع الإعداد، إن سألتني عن قانون النصر، والنصر يطمح له كل إنسان، قانون النصر الإيمان الذي يحمل صاحبه على طاعة الله، إيمان من دون طاعة لا قيمة له إطلاقاً، إيمان فلكلوري، والإعداد أن تعد لهم ما تستطيع، وكل واحد ضمن اختصاصه.

مرة سألني طفل أنا ماذا أفعل ؟ قلت له : ادرس، تعلم، خذ شهادة، لأنه كلما كثُر المتعلمون باختصاصات متنوعة تنهض الأمة.

أنت احمل همّ الأمة، لا تحمل همّ نفسك، احمل همّ الأمة، الأمة بحاجة إلى شباب يعيش في سبيلها.

مرة التقيت مع شخص، يملك معملاً، الآن المعمل يعمل على الكمبيوتر تقريباً، هناك قطعة بالكمبيوتر معقدة جداً، والله أطلعني على خارطة لهذه القطعة طولها ستة أمتار، إذا تلفت فيها قطعة، تذهب الأجهزة إلى بلاد بعيدة، الوقت يستغرق شهراً، و الأجرة ترجع بعشرة ملايين، أحد الأخوة الكرام في هذا البلد الطيب استطاع أن يحل هذه المشكلة، الآن يأخذ عشرة آلاف، و لأنه أتقن صناعته وفّر على صاحب المعمل مليوني ليرة أو ثلاثة ملايين ـ هذا القطعة تدعى البورد بالكومبيوتر ـ طبعاً الكومبيوتر صناعي، والمعمل يتوقف إن لم تصلح هذه القطعة، فيدفع صاحب المعمل كما يريدون لحلّ هذه

المشكلة، هم يتقصدون وضع قطعة ضعيفة، تتعطل كل سنة مرة ليقبضون ملايين مملينة، شاب مؤمن وفقه الله واستطاع أن يحل اللغز، والله الخريطة رأيتها، طولها يقدر بستة أمتار، هناك قطعة تالفة وضع محلها قطعة جيدة وانتهى الأمر.

فالعلم ضروري الآن، والعالم صار قرية واحدة، كان خمس قارات صار قارة، صار بلداً، صار مدينة، صار الآن قرية صغير، كان قرية، ثم بيتاً، ثم غرفة، ثم سطح مكتب.

أيها الأخوة، لابدّ من أن تتعرف إلى الحقيقة، لابدّ من أن نطلب العلم، لابدّ من أن نلقى الله بعمل يرضي الله عز وجل.

الحكمة من أمر النبي الكريم عدم قتل عمه العباس :

أخواننا الكرام، هذه الآية التي ذكرتها في بداية الدرس :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قال علماء التفسير في أسباب النزول: إن هذه الآية نزلت في العباس، لكن هناك قصة تؤكد لكم من العباس؟ هو عم النبي، لكن كان في مكة، وكان مسلماً، هو عين النبي، قيادة ذكية جداً، لكن حينما وقعت موقعة بدر، قال عليه الصلاة والسلام: "لا تقتلوا عمي العباس".

لها تعليل، صحابي قال: أحدنا يقتل أباه وأخاه وينهانا عن قتل عمه، حينها العباس كان مسلماً، فإذا قال: لا تقتلوه لأنه مسلم كشفه، وانتهى دوره، وإذا سكت قد يُقتل بالحد، وإذا ما خرج مع المشركين يكشف نفسه أيضاً، لذلك قال :" لا تقتلوا عمي العباس".

هذا الصحابي بعد أن علم أن العباس كان مسلماً يقول: ظللت أتصدق عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله.

قصة خيبر وإسلام العباس عمّ رسول الله صلى الله عليه و سلم :

أيضاً قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح خيبر الحجاج بن علاط السلمي فأسلم، وكان غنياً، كثير المال، فقال : يا رسول الله، إن مالي عند امرأتي أم شيبة بمكة، ومتفرق في تجار مكة، فائذن لي يا رسول الله أن آتي مكة لآخذ مالي، قبل أن يعلموا بإسلامي، عندئذٍ لا أقدر على أخذ شيء منه، يبدو أنه كان غنياً كبيراً، وأمواله كلها متفرقة في مكة، عند تجارها، عند امرأته أم شيبة، فائذن لي

أن أذهب إلى مكة، قبل أن يعلم أهل مكة بإسلامي لآخذ مالي، عندئذٍ لا أقدر على أخذ شيء منه، فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم.

لكن هناك سؤال محرج، ثم قال الحجاج : يا رسول الله لابدّ من أن أقول، أي أن أتقول شيئاً بخلاف الواقع، أتسمح لي أن أحتال لأخذ مالي؟ فقال عليه الصلاة والسلام رحمة به وبكماله: قل ما شئت.

قال الحجاج فخرجت، حتى إذا قدمت إلى مكة وجدت بثنيتي البيضاء رجالاً من قريش يستمعون الأخبار، لم يكن هناك فضائيات، كانوا يخرجون إلى ظاهر المدينة يتلقون الركبان، ليسألون عن الأخبار، ويسألون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر، وهي من أقوى قرى الحجاز، وهم يتجسسون الأخبار من الركبان، وكان بينهم تراهن عظيم على مئة بعير، حول من سيغلب، هناك مراهنة بين أطراف قريش حجمها مئة بعير على من سيغلب، أهل خيبر أم رسول الله ؟.

فلما رأوا الحجاج، ولم يكونوا قد علموا بإسلامه، قالوا : الحجاج والله عنده الخبر اليقين، يا حجاج ! إنه قد بلغنا أن القاطع ـ لعنهم الله ـ يعنون رسول الله، قد سار إلى خيبر فقال الحجاج : عندي من الخبر ما يسركم، هو معه إذن من رسول الله، فاجتمعوا عليه يقولون: إيه يا حجاج، تكلم، قال الحجاج : فقلت لهم: لم يلقَ محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتل مثلهم، فهزم هزيمة لم يسمع بمثلها، وأسر محمد، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث فيه إلى مكة، فنقتله بين أظهرهم، بمن كان أصاب من رجالهم، فانطلق هؤلاء الرجال فرحين أشد الفرح إلى أهل مكة فقيل لهم: قد جاءكم الخبر، هذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم، ثم قال لهم الحجاج: أعينوني على غرمائي المدينين، أريد أن أقدم فأصيب من غنائم محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فاجمعوا لي مالي على أحسن ما يكون، فاسترد كل ديونه.

فشا ذلك بمكة، وأظهر المشركون الفرح والسرور، وانكسر من كان بمكة من المسلمين، الآن الشاهد : وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب، فجعل لا يستطيع أن يقوم ـ لم يعد يستطيع أن يقف من شدة حزنه بهذا الخبر ـ ثم بعث العباس إلى الحجاج غلاماً ليقول له : يا حجاج، انظر حسن الظن بالله، الله أعلى وأجلّ من أن يكون الذي جئت به حقاً، أي هذا غير معقول.

وصدقْ إذا كنت مؤمناً مستقيماً لن تخاف، فقال الحجاج : اقرأ على أبي فضل السلام، وقل له : ليُخلِ لي بعض بيوته لآتيه بخبر يسره، واكتم عني، فأقبل الغلام وقال : أبشر أبا الفضل، فوثب العباس من فرحه وكأنه لم يمسه شيء عندما أخبره الغلام بذلك، وأعتقه العباس رضي الله عنه لوجه الله من فرحه، وقال : لله عليّ عتق عشر رقاب على هذا الخبر السار.

فلما كان الظهر، جاء الحجاج فناشد العباس أن يكتم عنه ثلاثة أيام، وقال: إني أخشى الطلب، فإذا مضت ثلاثة فأظهر أمرك، أكتم خبري عنهم ثلاثة أيام حتى أسافر، فإذا مضت ثلاثة فأظهر أمرك،

وطالت على العباس تلك الأيام كأنها سنوات، وبعد مضي هذه الأيام عمد العباس رضي الله عنه إلى حلة فلبسها، وتخلق بخلوق وتعطر، وأخذ بيده قضيباً، ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون لمن مرّ بهم : لا يصيبك إلا الخير يا أبا الفضل، عرفوا أن الخبر مؤلم جداً، هو يتحمله، هذا والله التجلد بعد المصيبة، قال : كلا والله الذي حلفتم به لم يصبني إلا خير بحمد الله، أخبرني الحجاج أن خيبر فتحها الله عز وجل على يد رسوله، وجرت فيها سهام الله، وسهام رسوله، وتزوج رسول الله صفية بنت ملكهم، وإنما قال لكم ذلك ليأخذ أمواله منكم، وإلا فهو ممن أسلم، فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، فقال المشركون : ألا يا عباد الله انفلت عدو الله ـ يعنون حجاجاً ـ أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، ولم يلبسوا أن جاءهم الخبر الآخر أن النبي انتصر على أهل خيبر وتزوج صفية بنت ملكهم، والأمر على عكس ما يكون.

معنى ذلك نريد أن نقول لكم: العباس كان مسلماً، لذلك قال النبي الكريم: لا تقتلوا عمي العباس، لأن أي كلام آخر يفشل الخطة، فأنت بحاجة إلى حسن ظن بالله عز وجل.

فلذلك أيها الأخوة، هذه الآية سوف نوسعها في درس قادم :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (28-30): تفسير الآيات 69 - 72 ، طاعة الله ورسوله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-02-12

بسم الله الرحمن الرحيم

ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية التاسعة والستين، وهي قوله تعالى:

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنفال]

أيها الأخوة، الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان الشهوات، والحقيقة التي أكررها كثيراً: أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، أودع فينا حب المرأة:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

[سورة آل عمران الآية : 14]

هذه الشهوات لها قنوات نظيفة، أودع فينا حب المرأة، وشرع لنا بالزواج، أودع فينا حب المال، وشرع لنا الكسب المشروع، فهذه الغنائم التي تؤخذ في الحرب حلال، لكن الآية تلفت نظرنا إلى أن يتقي الإنسان ربه في إنفاق المال.

الطرق إلى الله لا تعد ولا تحصى :

المال له سؤالان: كيف اكتسبته؟ وكيف أنفقته؟ والمال قوة، والله عز وجل يريدنا أن نكون أقوياء في الدنيا، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

فإذا كان طريق القوة ـ القوة كلمة عامة ـ المال قوة، والعلم قوة، والمنصب قوة، صاحب المنصب الرفيع بجرة قلم يحق حقاً، أو يبطل باطلاً، بتوقيع يقر معروفاً، أو يزيل منكراً، وصاحب المال الوفير بإمكانه أن يعمل أعمالاً صالحة لا تعد ولا تحصى، بإمكانه أن يعالج المرضى، بإمكانه أن يزوج

الشباب، بإمكانه أن ينشئ الجمعيات، والمؤسسات، كما قال ابن القيم: "الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق"، الحقيقة الدينية واحدة، أما الطرق إلى الله لا تعد ولا تحصى فدائماً وأبداً :

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

السبب : لأن فرص العمل الصالح أمام القوي بعلمه، أو بماله، أو بمنصبه، لا تعد ولا تحصى.

فرص العمل الصالح أمام القوي لا تعد ولا تحصى :

لذلك نستنبط : إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، لكن إذا كان طريق القوة سالكاً على حساب مبادئك، وعلى حساب قيمك، فالضعف وسام شرف لك.

إذاً : إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج، يجب أن تكون قوياً، لأن النبي الكريم يخبرك أن:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

لأن فرص العمل الصالح أمام القوي لا تعد ولا تحصى.

سمعت عن إنسان في بلد إفريقي يزيد سكانه عن مئة و تسعين مليوناً، هناك فقر يفوق حدّ الخيال، وهناك ثروات لا يعلمها إلا الله، ثروات لا يعلمها إلا الله، وفقر لا يعلمه إلا الله، إنسان من أهل الغنى أراد أن يأخذ أولاد هؤلاء الفقراء الذين يتسولون طوال النهار، وأن يعلمهم، وأن يكفي أهلهم، صدقوا ولا أبالغ في هذا الوقت الصعب هناك أعمال صالحة لا تعد ولا تحصى، هناك أعمال متعلقة بالتعليم، أعمال متعلقة بالتأهيل المهني، أعمال متعلقة بالطبابة، الأعمال الصالحة الموجودة لا تعد ولا تحصى.

فهنا في الآية إشارة:

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً)

معنى :

(طَيِّباً)

أن النفس تطيب بهذا المال.

أنت حينما تصنع طاولة متقنة، وتأخذ أجرتك حلالاً، هذا المال نعمة، هذا المال تنفقه على نفسك وعلى أهلك، وأحد الصحابة الكرام يقول: "حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي".

الحياة الإنسانية حياة رائعة في ظلّ طاعة الله عز وجل :

وأنتم أيها الشباب حينما تتزوجون إن شاء الله، وحينما تعملون أعمالاً متقنة، وحينما تكسبون أموالاً، هذا المال تنفقه على أهلك، على أولادك، تكفيهم، تمتن علاقتك بهم، تأخذ بيدهم إلى مبادئ الإسلام، فالحياة رائعة في طاعة الله، في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، بل إن الآية الكريمة يفهمها بعض العلماء :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة، فالمرأة، أُودع حب المرأة في قلوب البشر، وأُودع في قلوب النساء حب الشباب، وحب الرجال، شهوة مشتركة، جعل الله لها قناة نظيفة هي الزواج، المال؛ أودع الله فينا حب المال، جعل لنا قناة نظيفة في كسب المال، وفي إنفاقه.

فهنا الآية تشير إلى إنفاق المال،

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً)

ومرة ثانية : المال الحلال تطيب النفس به، والمرأة الحلال تطيب النفس بها، بعد جهد جهيد حصّلت شهادة عليا، حصّلت حرفة، لك دخل، حصلت على زوجة صالحة، تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعها إن أمرتها، جئت إلى البيت، رأيت امرأة تحبها وتحبك، تكرمها وتكرمك، أنجبت منها أولاداً ملؤوا البيت فرحة وسعادة، فهذا شيء رائع جداً.

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً)

فالإنسان قد يقارب أهله، ويقوم لصلاة الليل، ويبكي في الصلاة، لأن الحركة وفق منهج الله.

الحلال تطيب النفس به و تحلو :

صدق ولا أبالغ، أعيدها مرة ثانية، وثالثة، ورابعة: ما من شهوة أودعها الله فينا إلا جعل الله قناة نظيفة طاهرة تسري خلالها، بتعبير آخر : ليس في الإسلام حرمان إطلاقاً، هناك سعادة و هناءة.

والله في الجامع الصغير عدد كبير من الأحاديث الشريفة التي تبدأ بكلمة حق، حق المسلم على المسلم، حق الجار على جاره، حق الأب على أولاده، حق الأولاد على آبائهم، أحاديث كثيرة، لكن هناك حديثاً إذا قرأته يقشعر جلدك: "حق المسلم على الله أن يعينه إذا طلب العفاف".

وأنا أخاطب الشباب : غضّ بصرك عن محارم الله، ولك حق عند الله أن يكرمك بزوجة تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إن أمرتها.

أيها الأخوة،

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً)

حلالاً تحلو به النفس، وطيباً تطيب به النفس، أحياناً يعقد عقد زواج، يوم العرس السيارات تطلق أبواقها، ألا يستحون؟ لا، لا يستحون، هذا عمل مشروع، هكذا أراد الله أن تكون العلاقة بالأنثى، علاقة زواج، تجد الكل يبارك، ويهنئ، ويفرح، أما لو كان هناك اتصالاً هاتفياً مشبوهاً بين ذكر وأنثى كأنه يعمل جريمة، هذا خلاف منهج الله، علاقة شائنة، علاقة غير مشروعة، علاقة فيها خيانة، علاقة فيها معصية، فدائماً الحلال تطيب النفس به، الحلال ترقى النفس به، الحلال تُقبل النفس به على الله.

لذلك اعتقد يقيناً أنه ما من شهوة أودعها الله فيك إلا ولها قناة نظيفة تسري خلالها، فابحث عن الحلال، وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه.

المال قوام الحياة :

أيها الأخوة،

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ)

بإنفاق المال، المال أيها الأخوة قد تنفقه في وجه حلال فترقى، ولا سمح الله ولا قدر قد ينفقه إنسان في وجه حرام فيهوي، إنفاق المال مهم جداً، إن أنفقته في طاعة، أو في عمل صالح، أو في بر، أو في تقوى، ترقى إلى الله، والمال قوام الحياة، وقد جعل الله المال نعمة كبيرة، فإذا متعك الله بمال حلال ولو كان قليلاً، القليل الحلال فيه بركة، يبارك الله فيه، والكثير غير الحلال يمحق الله بركته.

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ)

هنا

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)

في إنفاقه، أن تنفقه في وجه حلال.

لذلك ورد في بعض الآثار: أن البشر أصناف أربعة، فريق جمع المال في حلال وأنفقه في حلال، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، يقال : خذوه إلى النار، يوجد حالتان، فريق جمع المال من حلال، تجارة مشروعة، وأنفقه في حرام يقال : خذوه إلى النار، حسابه سريع، أي تجارته مشروعة، لكنه انحرف بهذا المال، ووظفه في اقتناص الشهوات المحرمة، وفريق جمع المال من حرام، من قمار، وأنفقه في حلال، تزوج فيه، يقال : خذوه إلى النار، ما دام في طرف حرام، فهو من حرام إلى حرام

قطعاً، أما الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال فيقال: هذا قفوه فاسألوه، هل تاه بماله على من حوله؟ هل قال من حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا؟.

إنفاق المال في المباحات مع عدم الإسراف و التبذير :

الحياة دقيقة جداً، إذا أعطاك الله مالاً ينبغي أن تتقي الله بهذا المال، فإنفاق المال مهم جداً.

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً)

[سورة الإسراء الآية :29]

المبذر :

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)

[سورة الإسراء الآية : 27]

والمبذر في القرآن الذي ينفق ماله بمعصية،

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

[سورة الإسراء الآية : 27]

شيء آخر : المسرف في المباحات، دائماً وأبداً الشيطان يوسوس لك بالكفر، فإذا وجدك على إيمان يوسوس لك بالشرك، فإذا وجدك على توحيد يوسوس له بالكبائر، فإذا وجدك على طاعة يوسوس لك بالصغائر، فإذا وجدك على ورع بقي معه ورقتان رابحتان، يوسوس لك بالتحريش بين المؤمنين، أنت من أي حلقة ؟ شيخك لا يفهم، أنت من أي جامع ؟ هذا من عمل الشيطان، هل يجب أن تعرف هذا لمن تابع؟ ما هذه الشهوة المرضية ؟ مؤمن.

من لم ينتمِ إلى مجموع المؤمنين فليس منهم :

أخواننا الكرام، لا يضاف على كلمة مسلم ولا كلمة، والله عز وجل قال :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية : 10]

وما لم تنتمِ إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً، وما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً، كل مؤمن على العين والرأس، الإسلام ليس خطاً رفيعاً لمجرد أن تخرج عنه قيد أنملة فلست من الدين، لا، الإسلام شريط عريض، كل من في هذا الشريط إن صحت عقيدته، واستقام سلوكه، على العين والرأس.

مرة ثانية : ما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المسلمين فلست مؤمناً، لقوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

أنت أخ لكل مؤمن، بأي جامع آخر، ما دامت العقيدة صحيحة، والمنهج قويم، فالسلوك مستقيم، ولك أعمال صالحة، انتهى، أنت أخي في الله على العين والرأس.

آخر ورقة رابحة بيد الشيطان أن يوسوس للإنسان بالمباحات :

إذاً الشيطان يوسوس بالكفر، ثم بالشرك، ثم بالكبائر، ثم بالصغائر، ثم بالتحريش بين المؤمنين، بقي معه ورقة أخيرة، ورقة المباحات، يوسوس لهذا الإنسان أن يمضي وقته كله في بيته، وفي تزيين بيته، وفي نشاطاته الدنيوية، لا يوجد حرام، لكن لا يوجد عمل صالح ثم يفاجئه الموت.

فالانغماس في المباحات إلى أقصى درجة، والعناية الغير معقولة بالدنيا، واستهلاك الوقت الطويل بتحسين الدنيا، ثم يأتي ملك الموت، وهذا الإنسان الذي أمضى وقته في الاستمتاع في الدنيا بالحلال جاء فقير اليدين.

فلذلك آخر ورقة رابحة بيد الشيطان أن يوسوس للإنسان بالمباحات.

إذاً:

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لما مضى، ولخطأ غير مقصود.

من أنفق شيئاً في سبيل الله وكان راضياً ضاعفه الله له أضعافاً كثيرة :

ثم يقول الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنفال]

قالوا : الحمد لله على وجود الله، والحمد لله أن الله يعلم، الله عز وجل مطلع على قلبك، فيه طيب؟ فيه نية طيبة؟ فيه براءة؟ فيه نظافة؟ فيه سلامة صدر؟ لا يوجد به حقد، لا يوجد به احتيال، الحمد لله على وجود الله.

إنسان وقع أسيراً، أُخذت منه فدية، أعطاها عن طيب خاطر، وبعدها تاب إلى الله توبة نصوحة، قال:

(يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ)

أي شيء تنفقه في سبيل الله، أو تنفقه بقضاء الله وقدره، إذا كنت راضياً فالله عز وجل يضاعف لك الجزاء أضعافاً مضعفة.

كلكم يعلم أن سيدنا العباس كان في مكة، وكان مسلماً، والدليل عندما جاءه الخبر من الحجاج لم يستطع أن يقف على قدميه، فلما علم أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب خيبر، وانتصر عليهم، وتزوج صفية بنت زعيمهم، أعتق الذي أبلغه هذا الخبر، وأعتق معه عشرة من العبيد.

فلذلك سيدنا العباس كان في أعلى درجات الإيمان، لكن دفع فدية، بحسب النظام العام دفع فدية، فيقول سيدنا العباس هذه الآية نزلت بيّ :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

علاقة الإنسان بربه يجب أن تُبنى على الحب :

أيها الأخوة الكرام، الإنسان علاقته بالله ينبغي أن تبنى على الحب، الله عز وجل هو إلهنا، هو خالقنا، هو مربينا، هو مسيرنا، أمرنا بيده، نحن في قبضته، في أي شيء نحن في قبضته، ومع ذلك ما أراد أن تكون علاقته بنا علاقة إكراه، قال :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية : 256]

أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون علاقتنا به علاقة حب، قال :

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة الآية : 54]

الإله العظيم الذي فيك مالك كل شيء، حياتك، صحتك، أجهزتك، أعضاؤك حواسك الخمس، سمعك، بصرك، زوجتك، أولادك، عملك، من هم فوقك، من هم معك من هم دونك، كل شيء بيد الله، ومع كل هذا وأنت في قبضته ما أراد أن تعبده خوفاً، أرد أن تعبده حباً، لذلك قالوا في تعريف العبادة : هي طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

الله عزّ وجل يعلم كل شيء و هو مطلع على قلب كل إنسان :

أيها الأخوة،

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً)

صدق أيها الأخ الله عز وجل مطلع على قلبك، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لا تخفى عليه خافية.

(يَعْلَمُ السِّرَّ)

[سورة طه]

أي ما أسررته :

(وَأَخْفَى)

[سورة طه]

(يَعْلَمُ السِّرَّ)

الذي أضمرته، ما خفي عنك، فالله عز وجل يعلم، فإذا أنت على حق، وإذا كنت طاهراً، بريئاً، نظيفاً، مستقيماً، فعلم الله بك يكفيك، لذلك قالوا: الحمد لله على وجود الله:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً)

القلب السليم أكبر مكسب يكسبه الإنسان في الدنيا :

ما هو أكبر مكسب تكسبه في الدنيا؟ أقول لكم: أكبر مكسب على الإطلاق القلب السليم، والدليل قال تعالى :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء]

ومن أدق تعريفات القلب السليم هو: القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية : 50]

ماذا يستنبط من هذه الآية ؟

(وَمَنْ أَضَلُّ)

أي لن تجد على وجه الأرض إنساناً أضل

(مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

عند علماء الأصول يوجد المعنى المخالف، المعنى العكسي، فالذي يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه، فالذي يشتهي المرأة يتزوج، و الذي يشتهي المال ويكسبه مشروعاً من طريق مشروع، يشتهي أن يكون إنساناً كبيراً، يشار إليه بالبنان طلب العلم، وعلم العلم، وخدم الناس، فما من شهوة أودعها الله فينا إلا ولها قناة نظيفة.

لذلك الذي يتبع هواه وفق منهج الله لا شيء عليه،

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

أيها الأخوة، فالقلب السليم هو القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله.

أكثر شيء ينفعك عند الموت قلب سليم لا يشتهي شهوة لا ترضي الله ولا يحتكم إلا لله :

شيء آخر : القلب السليم لا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يعبد غير الله، ولا يحتكم إلا لله، أربع خصائص للقلب السليم، وعند الموت لا ينفعك إلا قلب سليم، الإنسان حينما يأتيه ملك الموت وتنتهي حياته، ويساق إلى القبر، ليوضع في القبر، لا ينفعه في هذا القبر إلا قلبه السليم،

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ)

ترك أربعة مليارات، أعرف إنساناً ترك أربعة مليارات، وكان في بيت الله الحرام، لم يصلِّ، و لم يحج، و لم يعتمر، وأمضى الصيف في بلد رائع جداً في الشمال، وفي الفندق جاءته أزمة قلبية أودت بحياته، ما انتفع من هذا المال إطلاقاً،

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

أكبر شيء يمكن أن ينفعك عند الموت قلب سليم، قلب لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، ولا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يحتكم إلا لله، ولا يعبد غير الله.

لذلك

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

من كان مع الله كان الله معه :

إذاً :

(إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً)

أي قلبك سليم، لا يوجد به حقد، ولا احتيال، ولا خداع، ولا انحراف، ولا أكل مال حرام، ولا عدوان على أعراض الناس، قلب سليم مستقيم، هذا المستقيم يعيش حياة كأنها جنة، وبعد الموت له جنة،

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، وبعضهم قال : ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري ـ أي جنته في داخله ـ فإن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ إذا كنت مع الله كان الله معك.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا

*** * ***

لم يعد هناك حجاب بينك وبين الله.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـا فـإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولذ بحمانا و احتمِ بجنـابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

****

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات وأهل الأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[ورد في الأثر]

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

أخواننا الكرام، إذاً حينما قال الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية : 55]

هذا قانون إلهي، قانون الاستخلاف،

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

نحن لسنا مستخلفين الآن، هذه الحقيقة المرة،

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

قانون،

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

ونحن أيضاً لسنا ممكنين،

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

ونحن أيضاً لسنا آمنين، لسنا مستخلفين، ولسنا ممكنين، ولسنا آمنين، أين الخلل ؟ الإجابة عن الخلل في هذه الآية، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم]

إذاً ماذا ينفعنا ؟ المسلمون أضاعوا الصلاة، وقد أجمع العلماء على أن إضاعة الصلاة لا يعني تركها، بل تفريغها من مضمونها،

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

ولقد لقينا ذلك الغي، خمس دول إسلامية محتلة الآن، نُهبت ثرواتهم، قُتل شبابهم، ملايين قتلوا، وأُعيقوا، وشُردوا، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، هناك قواعد ثابتة، هناك قوانين، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، والله عز وجل وعدنا بالنصر، قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

القلب السليم مع إحكام الصلة بالله سبب النصر :

إذاً:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

القلب السليم لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، ولا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يعبد إلا الله، ولا يحتكم إلا لشرع الله، من هنا:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً)

بطولتك الأولى أن تملك قلباً سليماً، قلباً مؤمناً، قلباً طاهراً، قلباً مقبلاً، قلباً متمسكاً بأحكام الشرع، قلباً جعلك تختار زوجة مؤمنة، تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إذا أمرتها.

القلب السليم مع إحكام الصلة بالله سبب النصر، والله عز وجل قال :

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم]

الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله.

بعض الأسرى الذين وقعوا أسرى في معركة بدر، قالوا: نحن معنا مال يا رسول الله، لكن اسمح لنا أن نسافر، وأن نأتي بالمال، المؤمن كما قال النبي الكريم :

((المؤمن كيس، فطن، حذر))

[ورد في الأثر]

إنسان ضعيف باللغة قرأها: المؤمن كيس قطن، قال: سيدي! كيف كيس قطن؟ قال له: قلبه أبيض يا بني، ولين بالمعاملة، فالله عز وجل قال :

(وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة الأنفال]

فالله عز وجل أخبر النبي أن هذا الطلب غير مشروع، أرادوا بهذا الطلب أن يفروا من الأسر،

(وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

لذلك إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟.

الله عز وجل مع المؤمنين بالنصر و الحفظ و التأييد :

النقطة الدقيقة أيها الأخوة، أن الإنسان حينما يكون مع الله فإن الله معه في آيات كثيرة، إذ قال الله عز وجل :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية : 4]

هذه معية عامة لا تعني إلا ما أنتم عليه، معية العلم فقط، أما إذا قال الله عز وجل :

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

إن الله :

(مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة]

إن الله مع التوابين، قال: هذه معية خاصة، معية النصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق، والفوز، فإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا وجد من فقدك؟ وماذا فقد من وجدك؟.

لذلك الآية الكريمة:

(وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

الآية التالية العالم الإسلامي اليوم في أمس الحاجة إليها :

ونحن في درس قادم إن شاء الله، نتحدث عن آية دقيقة جداً، والعالم الإسلامي اليوم في أمس الحاجة إليها، أقرؤها لكم قراءة :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ

كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[سورة الأنفال]

وهذه الآيات إن شاء الله سوف نشرحها بتوفيق الله في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (29-30): تفسير الآية 72 ، الإيمان عدة مراتب فيجب على المؤمن اتباع هذه المراتب حتى يصل إلى أعلاها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-02-19

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان مرتبة علمية وأخلاقية وجمالية :

أيها الأخوة الأكارم... مع الدرس التاسع والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثانية والسبعين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام، ما من آية في القرآن الكريم يحتاجها المسلمين اليوم كهذه الآية.

بادئ ذي بدء:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

الإيمان مرتبة علمية، وأخلاقية، وجمالية، ذلك لأن المؤمن عرف الحقيقة العظمى، عرف الله جلّ جلاله، عرفه خالقاً، ومربياً، ومسيراً، عرفه موجوداً، وواحداً، وكاملاً، عرف أسماءه الحسنى، وصفاته الفضلى، معرفة الله أصل الدين، إنك إن عرفت الله عرفت كل شيء، وإن فاتتك معرفة الله فاتك كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحبّ إليك من كل شيء)) .

[مختصر تفسير ابن كثير]

المؤمن يعرف سرّ وجوده و غاية وجوده :

لذلك كلمة

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

هذا الإنسان عرف سرّ وجوده، عرف غاية وجوده، عرف منهجه في الأرض، عرف أن الدنيا ممر، وليست مقراً، عرف أن الدنيا دار عمل، وليست دار أمل، عرف أن الدنيا دار تكليف، وليست دار

تشريف، عرف أن الدنيا زائلة، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الدنيا سبب دخول الجنة، طبعاً حينما يدخل المؤمنون الجنة:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

[سورة الزمر الآية: 74]

أي جئنا إلى الدنيا، وعرفنا ربنا، وعبدنا ربنا، وتقربنا إليه بالعمل الصالح، فكان هذا العمل بشقيه الاعتقادي والسلوكي سبب دخول الجنة.

فكلمة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

للتقريب والفرق من الأرض إلى السماء: الآن بالمجتمعات المدنية، إذا قلت: دكتور، أي بالحد الأدنى يحمل ابتدائية، إعدادية، ثانوية، لسانس، دبلوم عام، دبلوم خاص، ماجستير، دكتوراه، بالحد الأدنى. كلمة

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أنت قد عرفت الله خالقاً، مربياً، مسيراً، موجوداً، واحداً، كاملاً، عرفت أسماءه الحسنى، عرفت صفاته الفضلى، عرفت أن الدنيا مزرعة الآخرة، أن الدنيا ممر وليست مقراً.

إدعاء الإيمان شيء سهل :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

السؤال: كل إنسان يتوهم أنه مؤمن، نسأله متى آمنت؟ متى تفكرت في خلق السماوات والأرض؟ متى قرأت القرآن؟ متى فهمت ـ فهمت تفسيره ـ؟ متى قرأت السنة؟ متى اطلعت عليها؟ فهمت فحواها، متى درست أحكام الفقه؟ متى عرفت تاريخ الإسلام؟ تاريخ الصحابة الكرام؟ متى؟ كل إنسان ما بذل ولا جهد، ولا تجشم حضور درس، ولا تجشم قراءة كتاب، ولا متابعة موضوع علمي، يقول لك: أنا مؤمن، وإيماني أقوى من إيمانك، وأنا إيماني بقلبي، وهو غارق بالمعاصي والآثام.

إدعاء الإيمان شيء سهل، لكن سبحانك يا رب! لا يستطيع إنسان أن يقول أنا طبيب ولو قال: أنا طبيب، ووضع لوحة على باب داره، يعاقب أشد العقاب، الطب يحتاج إلى شروط، طبيب أي معه ابتدائي، إعدادي، ثانوي، دخل كلية الطب، درس علوم عامة، درس علم التشريح، علم الفيزيولوجيا، علم الأمراض، علم الأدوية، بعد دراسة سبع سنوات يعطى إجازة في الطب، لا تقدم ولا تؤخر، يعمل دبلوم عامة، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه من بلده، معه دكتوراه بالطب لا تقدم ولا تؤخر، و إذا لم يذهب لبلد بعيد و يأتي بالبورد، لا يستطيع أن يكتسب من حرفته، قال لك: طبيب، كلمة طبيب

للتقريب كل الشهادات، طبيب، معي بورد، أي درست ببلاد بعيدة، ودرست سبع سنوات، حتى يقول: أنا معي بورد يحتاج إلى أربعين سنة، هذا الواقع.

كلمة مؤمن أكثر بكثير، مؤمن أي عرف الله، عرف سرّ وجوده، عرف غاية وجوده، عرف لماذا هو في الدنيا، عرف ما يصلح له في الدنيا.

الإيمان إن لم ترافقه حركة فلا قيمة له :

لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

الآن أنت آمنت، أي إيمان لا ترافقه حركة لا قيمة له.

إنسان على وشك أن يموت عطشاً، قال له آخر: في هذا المكان نبع ماء، لم يتحرك، ولم يتوجه إليه، ولم يشرب منه، ومات، هذا يموت مع الحسرة، لأنه عرف وانحرف، عرف ولم يطبق، لذلك قال تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة]

من هم المغضوب عليهم؟ الذين عرفوا وانحرفوا، وأي مسلم يعرف سرّ وجوده وغاية وجوده، ويعرف الآخرة، ولا يتحرك، والله لا من باب التشاؤم، ولكن من باب الحقائق المرة، ترى الناس يتوهمون أنهم مؤمنون بالآخرة، ولو آمنوا بالآخرة ما اغتصبوا بيتاً، ولا أكلوا درهماً حراماً، ولا اعتدوا على الآخرين، لا على أموالهم، ولا على أعراضهم، تجد في قصر العدل سبعمئة ألف دعوى، عدوان، هؤلاء يتقاضون في قصر العدل يصلون، ويصومون، ويحجون، ويزكون، فكيف أكل بعضهم أموال بعض؟.

الإيمان الشكلي بالآخرة لا قيمة له إطلاقاً :

إذاً الإيمان بالآخرة، الشكلي، اللفظي لا قيمة له إطلاقاً، أحياناً تأتيك رسالة من دائرة البريد، تعال استلم رسالة مسجلة غداً الساعة العاشرة، لا تتحرك فيك شعرة، وقد تذهب، وقد لا تذهب، تأتي رسالة من جهة قوية، تعال غداً الساعة العاشرة، لا تنام ولا دقيقة، والله لم أفعل شيئاً! تعرف من هو الثاني، ماذا يملك الثاني من سلطة عليك، قد تدخل ولا تخرج.

لو عرفنا ربنا كما يعرف بعضنا بعضاً لحلت مشكلاتنا، إله:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

[سورة الحجرات الآية: 12]

سهرة كلها غيبة، إله يقول:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة الآية: 188]

لذلك أنا أقول أيها الأخوة: إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في معرفة طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من أمره، وهذا حال المسلمين اليوم.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

متى آمنت؟ أي درس حضرته؟ أي تفسير قرأته؟ أي كتاب حديث اقتنيته؟ أي مجلس علم داومت عليه؟ هناك إنسان يستطيع أن يقول: أنا معي شهادة ثانوية ولم أنتسب لأية مدرسة؟ يستطيع أن يقولها، هذا النظام المدني، أما هل يستطيع أن يقول: أنا معي لسانس ولم أدخل الجامعة؟ طبعاً لا، أما الإيمان كلأ مشاع، كلٌّ يدعي وصلاً بليلى.

المؤمن إنسان مستقيم و منضبط بمنهج الله عز وجل :

أيها الأخوة، إذا قال الله عز وجل

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أي عرفوا الله، عرفوه خالقاً، مربياً، مسيراً، عرفوه واحداً وكاملاً، عرفوا أسماءه الحسنى، مطالعة أسماءه الحسنى صوتاً أو نصاً جزء من إيمانك، عرفوا صفاته الفضلى، عرفوا الدار الآخرة.

أنت لو سافرت لبلد مجاور في أثناء الذهاب وجدت تفتيشاً غير معقول، لابدّ من أن يفتشوا كل شيء معك، سافرت إلى هناك والعودة في اليوم الثاني، هل تشتري حاجة رأيتها بعينك، كيف تحاسب؟ مستحيل !.

لو تعاملت مع الله كما تتعامل مع الأقوياء في الدنيا، لاستقمت على أمره، لذلك قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

أنت حينما توقن أن علمه يطولك.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

[سورة غافر الآية: 19]

مثل دقيق جداً: طبيب مسلم يفحص امرأة، سمح الشرع له أن ينظر من جسمها إلى موضع المرض، فاختلس نظرة إلى مكان آخر، هل في الأرض كلها جهة بإمكانها أن تضبطه بهذه المخالفة؟.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر]

علمه يطولك، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون،

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

علمه يطولك، وقدرته تطولك، لو أن إنساناً قوياً علمه يطولك وقدرته تطولك لا يمكن أن تعصيه. اسأل أخواننا التجار المستوردين بالذات، حينما تستورد بضاعة تذهب نسخة من إجازة الاستيراد إلى المالية، فإذا أغفلت هذه البضاعة في حساباتك أهدرت كل حساباتك، أنا لا أتصور تاجراً بالأرض يخفي عن المالية صفقة، لماذا؟ لأن المالية تعلم من خلال نظام الاستيراد.

فأنت مع إنسان تنضبط، ومع خالق الأكوان لا تنضبط؟

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

مؤمن أي مستقيم.

الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله لا تستطيع أن تقطف ثماره :

لذلك اسمحوا لي بهذا المثل: دائرة كبيرة كل من قال: أنا مؤمن، والله موجود ضمن الدائرة، وقد يرتكب الكبائر، لكن هذا الإيمان كإيمان إبليس لا يقدم ولا يؤخر، ولا ينفع، قال:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

إبليس، قال:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ)

[سورة الأعراف الآية: 12]

آمن به خالقاً، ربي

(فَبِعِزَّتِكَ)

آمن به رباً وعزيزاً.

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

آمن بالآخرة، ومع ذلك هو إبليس، فالإيمان الذي لا يترجم إلى سلوك، لا يترجم إلى التزام، لا يترجم إلى مواقف، لا يترجم إلى حركة باتجاه الخير، لا يترجم إلى أن يراك حيث أمرك، ويفتقدك حيث نهاك،

لا قيمة له إطلاقاً، لا تقول الحمد لله على الإيمان، أي إيمان؟ لم تطبق بالإسلام شيئاً، صدق ولا أبالغ وهذه حقيقة مرة، وهي أفضل ألف مرة من الوهم المريح، الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله، لا تستطيع أن تقطف ثماره إطلاقاً.

لذلك هذه الدائرة الكبيرة كل من قال: أنا مؤمن، والله موجود ضمن الدائرة، لكن إن لم يطبق منهج الله دخلنا بدائرة ثانية ضمنها، ضمن الدائرة الثانية كل إنسان آمن بالله، واستقام على أمره صار بالدائرة الثانية، الآن كل إنسان خارج الدائرة الكبيرة، ملحد، هناك إنسان ضمن الدائرة الكبيرة، من قال: الله موجود، لكن لم يطعه، وهناك إنسان ضمن الدائرة الداخلية، هذا الذي آمن بالله، واستقام على أمره، ولعل مركز هذه الدائرة الأنبياء، هؤلاء المعصومون في دائرة، إذاً هناك أشخاص خارج الدائرة، و هناك أشخاص داخل الدائرة الكبيرة، و هناك أشخاص داخل الصغيرة، وفي المركز النبوات.

على كل إنسان أن يوقع حركته وفق منهج الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

هاجروا تعني الحركة، مطلق الحركة، أي إن كان يكتسب رزقاً من حرفة لا ترضي الله، فلابدّ من البحث عن حرفة أخرى، حركة، يقيم في مكان لا يستطيع أن يطيع الله فيه، فتركه هذا المكان لمكان يطيع الله فيه، يفهم من هنا الهجرة حركة، تحرك أي انتقل من مكان إلى مكان، من مجموعة أصدقاء إلى مجموعة مؤمنين، من مكان يصعب أن يطيع الله فيه إلى مكان يستطيع أن يطيع الله فيه.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

الهجرة هنا الحركة التي تجسد الإيمان.

(وَجَاهَدُوا)

الجهاد هنا بذل الجهد لأن الشرع سمي بالتكاليف، والتكاليف تعني أن الأخذ يحتاج إلى كلفة، إلى جهد، فإطلاق البصر سهل، لكن غضّ البصر يحتاج إلى جهد، سهل أن تبقى نائماً إلى الساعة العاشرة، لكن الاستيقاظ على صلاة الفجر يحتاج إلى جهد، سهل أن تتحدث عن كل شيء، غيبة، نميمة، بهتان، كذب، سخرية، استخفاف، مزاح رخيص، أما ضبط اللسان يحتاج إلى جهد، فضبط اللسان، ضبط العين، ضبط الأذن، هناك أشياء لا ترضي الله، ضبط اليد، ضبط الحركة، في مكان لا يرضي الله، هذا كله يحتاج إلى جهد.

معنى جاهدوا أي أوقعوا حركتهم وفق منهج الله، هذا الجهاد، الله عز وجل أودع فينا الشهوات، وبالشهوات يمكن أن تتحرك مئة و ثمانين درجة، لكن مسموح لك بمئة درجة، فالجهاد أن توقع حركتك نحو المرأة ضمن المئة درجة، هناك زواج، هناك محارم، علاقة المؤمن بالمرأة علاقة زواج، أو محارم، لكن لا يوجد في الإسلام خليلة إطلاقاً، ولا عشيقة، ولا صديقة حميمة، هناك حيز مسموح به، وحيز محرم.

بكسب المال، الربا، التجارة، الإرث، لكن لا يوجد بالإسلام سرقة، ولا نهب، ولا غش، ولا تدليس، فحركتك في العلاقة بالمرأة مضبوطة بالشرع، وحركتك في علاقتك بكسب المال مضبوطة بالشرع، هذا معنى جاهدوا،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا)

الهجرة تحتاج إلى جهد وإرادة قوية وتجشم مصاعب :

أخواننا الكرام،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

بالمعنى الواسع:

((العِبَادَةُ في الهرج كهجرة إليَّ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن معقل بن يسار]

المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، صديق منحرف تركه من الهجرة، عمل لا يرضي الله تركه من الهجرة، علاقة لا ترضي الله تركها من الهجرة، بلد لا يرضي الله تركه من الهجرة، مطلق الحركة.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا)

هناك جهد، هناك إرادة قوية، هناك تجشم مصاعب.

((ألا إن عمل الآخرة حزن بربوة، ثلاثاً، وإن عمل النار سهل بشهوة))

[أخرجه إسحاق بن راهويه عن عبد الله بن عباس]

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

(وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ)

بذل أمواله في سبيل الله، بذل ماله ليتعلم، بذل ماله ليتقرب إلى الله.

" حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي ".

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ)

وفي الجهاد

(وَأَنْفُسِهِمْ)

جاهد بماله، ونفسه.

في كل آيات القرآن الكريم المتعلقة بالجهاد قدم الله جهاد المال على جهاد النفس، لأن بذل المال أهون، الله بدأ بالأهون، بذل المال أهون من بذل النفس، إلا بآية واحدة:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 111]

الله بدأ بالأهم،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ)

طبعاً أنفق من ماله الزكاة، أنفق من ماله الصدقة، أنفق من ماله مبلغاً لإنشاء ميتم، لإنشاء مستوصف، لإنشاء مستشفى، لإنشاء معهد شرعي، لإنشاء جمعية خيرية، لإطعام الأيتام، لإطعام الفقراء، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

سمعت عن إنسان يريد أن يفعل شيئاً له قيمة، هو إفريقي، قال لي: في نيجيريا مئة و تسعون مليون مسلم، فقراء جداً، ماذا يفعلون؟ يرسلون أولادهم للتسول، هو فكرته أن يعطي الأب بدل الدولار الواحد الذي يجمعه ابنه من التسول خمسة دولارات، على شرط أن يعلم ابنه، يعلمه الدين، يعلمه حرفة، يعلمه فيصبح مهندساً أو طبيباً، وهذا عمل عظيم.

وأنا أقول لكم أيها الأخوة: أي محسن فكر بطالب متفوق ينفق عليه ليأخذ أعلى شهادة، يكون قد خدم الأمة، الأمة تحتاج إلى علماء، أي محسن فكر بإرسال طلاب إلى جامعات عريقة في العالم ليأتوا باختصاصات مفيدة جداً للأمة، هذا قدم صدقة جارية، وهذا أراه الآن من أعلى مستويات الإحسان.

الكم القليل من العلماء سبب تخلف الدول النامية :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

هناك حقيقة مرة سأقولها لكم: تمّ قتل ثلاثة آلاف و ثمانمئة عالم بالعراق ، أي عالم، مسلم، غير مسلم، سني، شيعي، مسيحي، يجب أن يبقى هذا الشعب قطيع، من يقود الأمة؟ العلماء، الأمة بعلمائها، لا أقصد علماء الدين فقط، لا، علماء، خبراء اقتصاد، خبراء حقوق، خبراء بالتجارة، خبراء بالصناعة، الأمة بعلمائها، العالم الغربي سبب تفوقه الكم الكبير من العلماء، والعالم المتخلف سبب تخلفه الكم القليل من العلماء.

وحينما كنت في الجزائر، فرنسا حينما دخلت إلى الجزائر نسب المتعلمين تقترب من سبعين بالمئة فلما خرجت كانت نسبة المتعلمين عشرة بالمئة.

دائماً الدول التي تستعمر تناهض العلم، فأنا أقول: من أعظم الأعمال الآن طالب متفوق، عنده ملامح تفوق، تنفق عليه لينال دكتوراه في اختصاص ما.

كنت مرة في جائزة قرآن كريم في بلد خليجي، اقترحت على المسؤولين أن نعطي الطالب الحافظ مليون ليرة، لا، نعطيه منحة دكتوراه، كل إنسان حفظ كتاب الله صار عالماً، أي إنسان حفظ كتاب الله ينال منحة دكتوراه حتى نهاية الدراسة، هذا عطاء.

حجم الإنسان عند ربه بحجم عمله الصالح :

فيا أخوان، موضوع العمل الصالح، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، والله هناك أعمال صالحة لا تعد ولا تحصى.

مرة التقيت بأخ ـ توفي رحمه الله ـ قال لي: أرجو منك أن تدلني على فتيات صالحات جداً، تقيات، حافظات كتاب الله، ما أتيح لهن الزواج، لأنه خطر في باله مشروع أن يعمر بناية صغيرة، وكل بنت حافظة لكتاب الله يكتب لها بيتاً، صار هناك عروض خاصة، و صارت البنت مرغوبة، وفعلاً كلهن تزوجن.

أنواع العمل الصالح لا تعد ولا تحصى، لذلك تقرب إلى الله بعمل صالح، أنا علقت تعليقاً من يومين: تجد أخاً يحضر دروساً بالمسجد من خمس و ثلاثين سنة، و مع ذلك لا يقدم شيئاً، لا يتحرك حركة، لا يتكلم كلمة، أنا لا أريد هذا، الإنسان يتعلم بعد ذلك يلقي، يُخدم بعد ذلك يَخدم، هل من المعقول إنسان ليس له عمل فقط حضور الدروس؟ والله من دون عمل لا تقدم ولا تؤخر، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا)

العلاقة بين المؤمنين أمتن علاقة في المجتمع البشري :

أحياناً يأتي طالب علم من بلد فقير، يعيش حياة صعبة جداً، والله هناك أسر بالشام أنا أثني عليها، تحتويه، تعطيه غرفة مفروشة، هناك أناس يتهافتون على الإنفاق على طلاب العلم، هذا الذي آوى طلاب العلم، ونصرهم، وأكرمهم، وأطعمهم، له عند الله أجر عظيم.

مرة دعاني أحد طلاب العلم الأفارقة إلى بيته، الوقت شتاء، والبرد قارس، لا يوجد عنده مدفأة، ولا سجادة، لا يوجد بيت بالشام إلا وعنده حاجات ليس بحاجة إليها، منزعج من وجودها، فكر إذا كان عندك حاجات لا تستخدمها هناك طلاب علم، أحياناً سرير، سجادة، مدفأة، شيء ثمين جداً، تحرك حركة، قدم شيئاً، قدم حاجة، قدم قطعة أثاث، قدم مبلغاً من المال، قدم محاضرة، قدم كتاباً، قدم دعوة، قدم إكراماً، قدم مالاً، من دون عمل الإيمان وحده لا تقطف ثماره، الآية واضحة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا)

أحياناً يأتي أخ من حلب، هناك أخ يدعوه على العَشاء، والله هذا عمل عظيم، وجد نفسه محبوباً، جاء من حلب، يسمع درس الجمعة، يذهب إلى الفندق ويتعشى هناك، لا، خذه إلى البيت و قدم له الطعام، يطمئن، ويحس أن هناك علاقة أخوة كبيرة جداً، هذه معنى:

(آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

العلاقة بين المؤمنين هي أمتن علاقة في المجتمع البشري.

(أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

أنت وليه، تنصحه، ترشده، تدعوه، تكرمه، تعينه، وهو ينصحك، ويرشدك، ويكرمك، ويعينك، هذا معنى

(أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

حجم الإنسان عند الله بحجم بذله وتضحيته :

الآن هناك حالة ثانية، مؤمن لكن لا يتحرك، ولا يقدم، ولا يؤخر، ولا يدفع، ولا يطلب كلمة، ولا يأمر بالمعروف، يقول لك: الناس لا يُخدمون، هذه آية أم حديث؟ هذا كلام الشيطان، والله هناك مصطلحات جاءتنا من العصور الوسطى والله هي الكفر بعينه، امش بجنازة ولا تمشي بزواج، من قال لك هذا الكلام؟ أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح، يا أخي ساهم في تزويج شاب وفتاة، فتاة مؤمنة، طاهرة، حافظة كتاب الله، عاونها، دلّ عليها، يقول: لا دخل لي، حتى لا يأتيه وجع رأس.

بالمناسبة: أحياناً يمكنك الله عز وجل من أن تزوج شاباً مع شابة، فيغيب خمس سنوات، ولا تسمع أية كلمة عنه، وعندما يتشاجر مع زوجته يأتي لعندك، يا أخي! عندما كنت مسروراً منها لماذا لم تأت و تشكرني؟ أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

ليس مستعداً لأن يتحرك، يقول لك: هذا أفضل، تكلفه بعمل ينسحب باعتذار، تكلفه بمهمة ينسحب منها، تطلب منه أن يأتي إلى الدرس يأتي، لأن هذه لا تكلفه شيئاً:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

حجمك عند الله بحجم التزامك، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، حجمك عند الله بحجم بذلك، وتضحيتك، هذا الحجم:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

التعاون بين الناس إما على البر والتقوى أو على الإثم والعدوان :

أخواننا الكرام، هناك مفاجأة كبيرة جداً، وقد لا ننتبه إليها:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

[سورة الأنفال]

يتعاونون، يعقدون مؤتمرات، يبذلون جهوداً جبارة ليكيدوا للمسلمين، والطرف الآخر يتعاونون، التعاون إما أن يكون على البر والتقوى، أو على الإثم والعدوان، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: 2]

الطرف الآخر يتعاون على الإثم والعدوان، أي يعتدي، أو يقصف، أو يفسد بالأفلام، كلام دقيق

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ)

الإثم انحراف أخلاق، والعدوان إيذاء،

(وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ)

أخواننا الكرام، هذه الآية كما بدأت بها من أخطر آيات القرآن الكريم، ولا أتصور أن المسلمين في أشد الحاجة إلى شيء كما هم بحاجة إلى هذه الآية، لكن فيها عقدة، وفيها حل، هذا في الدرس القادم إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (30 -30): تفسير الآيات 72 - 75 ، الهجرة مضمون الولاء والبراء دليل الوفاء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-02-26

بسم الله الرحمن الرحيم

الولاء و البراء:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثلاثين من دروس سورة الأنفال، وهو الدرس الأخير إن شاء الله، ومع الآية الثانية والسبعين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

هؤلاء المهاجرون تركوا عقائدهم الوثنية، وآمنوا بالله، وتركوا بلدهم، ووطنهم، وبيتهم، وأموالهم، وانتقلوا إلى المدينة، وليس معهم شيء.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

ثم جاهدوا مع رسول الله في نشر هذا الدين، جاهدوا بمالهم، بإنفاق مالهم، وجاهدوا بأنفسهم في سبيل الله، القصد هو الله.

((من قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العُلْيَا فهو في سبيل الله))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري]

أما الأنصار

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

كلمة أولياء أي هناك تناصف، هناك مودة، هناك حب، هناك دفاع، ما معنى فلان وليّ وأنا وليه، نتعاون، نتناصر، نتناصح، يدافع بعضنا عن بعض.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

المهاجرون.

والأنصار:

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

الآن هناك حالة ثالثة، أول قسم المهاجرون، القسم الثاني الأنصار، القسم الثالث فئة تركت عقيدتها الوثنية ولم تعبأ بها، وآمنت بالله عز وجل، لكنها لم تترك أوطانها، ولا أموالها، ولا مكتسباتها.

الله تعالى أراد من الآية السابقة أن يغري المسلمين بالهجرة ويشجعهم عليها :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

هذه فئة ثالثة،

(مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

ضعف الولاء، قد يكون له ولاء لأنه آمن، لكن ولاء الهجرة لم يهاجر، أي آثر مصالحه على الجهاد في سبيل الله، لكن هؤلاء الذين آمنوا،

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

(وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ)

يبقى بينك وبينه قواسم مشتركة، آمن كما آمنت، وأيقن كما أيقنت، لكنه آثر مصالحه على الجهاد في سبيل الله، لكن لو استنصرك على قوم بينك وبينهم معاهدة، ميثاق، ينبغي أن تؤثر الحفاظ على العهد على نصرة هذا الذي لم يضح بمصالحه من أجل دينه

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أيها الأخوة، هذه الآية شرحتها في الدرس الماضي، ولكن لعلاقتها الوشيجة بالآيات التي بعدها أشرت إليها إشارة سريعة.

الطائفة الأولى تركوا دينهم السابق الوثني، وآمنوا بالله، وتركوا وطنهم، وبيوتهم، وأموالهم، وانتقلوا إلى المدينة، ثم اكتسبوا مالاً، جاهدوا بإنفاق هذا المال، وجاهدوا في الحرب، هؤلاء في الدرجة الأولى.

والفئة الثانية لم يتركوا أوطانهم لأن النبي جاء إلى بلادهم،

(آوَوْا وَنَصَرُوا)

كلمة دقيقة جداً، قال:

(أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

أما الفئة الثالثة آمنت ولم تهاجر، هذه لها ولاء الإيمان، وليس لها ولاء الهجرة.

أيها الأخوة، حينما قال الله عز وجل:

(مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

كأن الله أراد أن يغريهم بالهجرة، أو أن يشجعهم عليها، هاجروا لكم ما للمؤمنين وعليكم ما عليهم.

الهجرة بالمعنى الواسع و الضيق:

لكن هناك ملاحظة ما معنى هاجر؟ هي فعل رباعي، وهناك هجر، لعل المعنى أنك إذا كنت في بيت ولم يعجبك تهجره فقط، هجر، لكن إذا كانت هناك مضايقات لا تحتمل لا نقول: هجرت البيت، هاجرت من البيت.

فالصحابة الكرام لو أنهم في مكة، سمح لهم بنشر دينهم، وإقامة شعائر ربهم، ما من داع لأن يهاجروا، إلا أن المضايقات، والتنكيل، والتعذيب، والضغط، والحصار، والقتل أحياناً، هذا دفعهم إلى الهجرة، فينبغي أن نفرق بين فعل هجر، أي هجر من طرف واحد، أما هاجر فيه فعل مشاركة، فيه جهة ضغطت عليك وكان ردّ فعلك أن تدع هذا المكان.

لذلك الهجرة بالمعنى الواسع أن تنتقل من دار الكفر إلى دار الإيمان، لو وسعناها أكثر من ذلك أن تنتقل من حرفة لا ترضي الله، فيها معصية واضحة، إلى حرفة ترضي الله بمعناها الواسع، أن تدع صديقاً لا يرضي الله، إلى صديق يرضي الله، أن تنتقل من بيت فيه فساد كبير جداً، تخاف على بناتك إلى بيت آخر ليس فيه فساد.

فالحركة، مطلق الحركة، طبعاً الهجرة لها معنى ضيق، ولها معنى واسع كيف؟ تقول مثلاً: سيارة، كلمة سيارة لها معنى ضيق، أي مركبة تتحرك بمحرك انفجاري، وقوده سائل البنزين، هذا تعريف مختصر، هذه السيارة، الله عز وجل قال:

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ)

[سورة يوسف الآية:19]

ما هي؟ مرسيدس؟

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ)

[سورة يوسف الآية:19]

الآن كل من يسير سيارة، فكلمة سيارة لها معنى واسع، ولها معنى ضيق، معناها الضيق الصحابة الكرام الذين انتقلوا من مكة المكرمة، وقد أُرغموا على ترك مكة، بالتعذيب والتنكيل، والإيذاء، والحصار، إلى المدينة، هذه الهجرة بالمعنى الضيق.

الهجرة قائمة إلى يوم القيامة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة:

لكن لا يقال لإنسان الآن انتقل من مكة إلى المدينة مهاجر، لقول النبي الكريم:

((لا هجرة بعد الفتح))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عباس]

لكن الهجرة قائمة إلى يوم القيامة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة، في مكان لا تستطيع أن تحجب بناتك، والدخل كبير وفلكي، في مكان لا تستطيع أن تربي أولادك، والدخل كبير وفلكي، والحاجات ميسرة، وحقوق الإنسان بأعلى درجة، والمساكن ميسرة، والمواصلات، ساعة يقول لك: سنعمل أنفاقاً، وساعة يقول لك: مروحيات، كل شيء ميسر، بلاد جميلة جداً كلها حدائق، وأبنية شامخة، الحياة ناعمة جداً، الأماكن التجارية فيها من البضائع ما لا يصدق، والمشكلة أن عدداً من المسلمين كبيراً عاشوا بالغرب والحياة مريحة، مريحة جداً، لكن حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة))

[أخرج ابن المنذر عن جرير بن عبد الله البجلي]

أكبر ثمن يدفعه أنه لا يستطيع أن يربي أولاده كما يريد الله عز وجل، إلا قلة قليلة جداً لا تزيد عن خمسة بالمئة هذه ليس لها حكم.

من لم يكن ابنه كما يتمنى فهو أشقى الناس:

أنا كنت أقول دائماً:إذا بلغت أعلى منصب، وجمعت أكبر ثروة، وارتقيت إلى أعلى مكانة، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس، الحياة في الغرب مريحة جداً، لكن الثمن باهظ جداً، الثمن أن تخسر أولادك، وأن تخسر بناتك، في الأعم الأغلب، التعميم من العمى لا يخلو المسلم الذي يعيش في الغرب من أن يكون قد ضبط أولاده وبناته بحالات ونسب لا تزيد عن خمسة بالمئة، أما في الأعم الأغلب الجو جو معاصٍ، جو آثام، الدين مرفوض كلياً، الدنيا هي كل شيء.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

[سورة الروم]

فلذلك الهجرة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة، في مكان لا تستطيع أن تقيم شعائر الله.

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)

[سورة النساء الآية:97]

في مكان لا تستطيع أن تحجب بناتك، في مكان لا تستطيع أن تربي أولادك، في مكان لا تستطيع أن تجهر بالحق.

من أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ومن أحبّ دنياه أضرّ بآخرته :

لذلك المؤمن حينما يهاجر من بلاد الحياة فيها ناعمة إلى بلاد قد تكون نامية، والبلاد النامية فيها مشكلات لا تعد ولا تحصى، ولكن تستطيع في بلاد نامية بحكم أن الأكثرية على بقية حياء، على بقية

إنصاف، أن تربي أولادك كما ينبغي.

والله كنت مرة أغادر أستراليا، رئيس الجالية الإسلامية أثناء الوداع بكى، قال لي:بلغ أخواننا في الشام أن مزابل الشام خير من جنات أستراليا، وأنا ما رأيت بلاداً أجمل من أستراليا، قارة بأكملها لثمانية عشر مليوناً، فيها ثروات لا يعلمها إلا الله، الحديث عن الرفاه الذي يعيشونه صعب أن يتصور، الثلاجة نفسها إذا قلت الكميات فيها هي التي تتصل بالسوبر ماركت، وتعطي رقم صاحب البيت، وتأتي البضاعة، الأمور منسقة بشكل مذهل، الرفاه الذي بأستراليا العقل لا يصدقه، قال لي:بلغ أخواننا في الشام أن مزابل الشام خير من جنات أستراليا، جئت إلى الشام وأبلغت الأخوة الكرام هذه الرسالة، لكن سألته وضح؟ قال لي:ابنك في الشام ابنك، وهو مسلم، أما الابن عندنا لن يكون مسلماً قد يكون ملحداً أو ستفاجئ بحلقة في أذنه، والمعنى سيء جداً، باليمنى معنى، و باليسرى أسوأ، بالأذنين معنى أسوأ وأسوأ، بهذا الوضع، كل شيء رائع، وكل شيء جميل، وكل شيء لطيف، والحقوق مذهلة هناك، لكن خسرت أولادك.

لهذا أنا أقول: لو بلغت أعلى منصب في الأرض، وجمعت أكبر ثروة في الأرض، وبلغت أعلى مكانة في الأرض، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس.

لذلك أكثر من ثلاثين حديثاً صحيحاً يشير إلى الشام:

((بينما أنا نائم رأيت عمود الإسلام احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهوب به فأتبعته بصري فعمد به إلى الشام))

[الحافظ أبو بكر النجاد عن أبي الدرداء]

أي أن تدخل إلى مسجد ممتلئ في أيام رمضان بالشام هناك أعراس، أعراس التراويح في المساجد، أهل الشام يزحفون إلى المساجد أليس كذلك؟ هذه نعم لا يعرفها إلا من فقدها، نحن في نعم لا يعرفها إلا الله، مع أننا نعاني ما نعاني، لكن لا تجتمع الدنيا والآخرة معاً.

من أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، ومن أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، فالذي أقام في الغرب وأحبّ دنياه لعله أضرّ بآخرته، والذي آثر أن يبقى في بلاد نامية فيها متاعب كثيرة أحب آخرته ولعله أضر بدنياه.

من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً:

لكن فرق كبير جداً بين أن ينتقل الإنسان للدار الآخرة وقد مات على الإيمان، ومات على منهج النبي العدنان، وبين أن ينتقل إلى الدار الآخرة وقد تلبس بالمعاصي والآثام، وفقد أولاده وبناته.

ومرة ثانية هذا الكلام لا على التعميم، لأن التعميم من العمى، بكل بلد أوربي هناك أناس مؤمنون تقيدوا بأحكام الدين، وربوا أولادهم تربية صحيحة، التعميم من العمى، أنا لا أعمم، لكن بالأعم الأغلب،

هناك خمسة و تسعون بالمئة ممن آثر الحياة في الغرب على ما فيها من حريات، ووسائل رفاه، وأمور ميسرة، آثر الحياة هناك على الحفاظ على دينه، ودين بناته، وأولاده، وزوجته.

لذلك الذي يترك هذه الميزات ويأتي إلى بلده ليتمكن من تربية أولاده، هذا أنا أعده مهاجراً، كما قلت قبل قليل: الهجرة بين كل مدينتين أو بلدين تشبهان مكة والمدينة.

الولاء والبراء الركن السادس في الإسلام:

أيها الأخوة، شيء آخر: الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

[سورة الأنفال]

الآية الأولى: المهاجرون والأنصار

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

المهاجرون، والأنصار:

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

الولاء الحب، الولاء الود، الولاء التناصر، الولاء التناصح، الولاء الانتماء، بل إن الولاء والبراء هناك من يعدهما الركن السادس في الإسلام، يجب أن توالي المؤمنين، وأن تتبرأ من الكفار والمشركين، ينبغي أن توالي المؤمنين ولو كانوا ضعفاء وفقراء، وينبغي أن تتبرأ من أعداء الدين ولو كانوا أغنياء وأقوياء، هذا الإيمان.

تعاون الطرف الآخر على إذلال و إبادة المسلمين:

لذلك المفاجأة الآن:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

يتعاونون، يتباذلون، يتناصحون، يتآمرون، تجد ثلاثين دولة أوربية على الباطل، يقفون مع الدولة العظمى بالرغم من ارتكابها الجرائم، الاحتلال، ونهب الثروات،

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

كما ترون، الثلاثون دولة أي مشكلة بالعالم يأتون كلهم معاً، بأفغانستان، بالعراق، بلبنان

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

هناك تعاون، تعاون مذهل، تنسيق مذهل، نقل معلومات مذهل، تسمعون بالأخبار الأخيرة خمس أو ست دول أُخذت جوازاتهم، وزورت، والذي اعترض حفاظاً على ماء الوجه فقط، هم في الأعماق موافقون على ما جرى.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

يمكن لا يوجد آية بالقرآن الكريم أنا أشعر ـ وهذا اجتهاد مني ـ أن المسلمين في أمس الحاجة إليها إلا هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

آمن، هاجر، جاهد، أنفق ماله، ضحى بحياته، آوى، نصر، هؤلاء أمة واحدة، كتلة واحدة

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا ـ أيضاً ـ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

الهاء، على من تعود؟ تعود على الآية السابقة بأكملها، إن لم تؤمنوا، وإن لم تهاجروا، وإن لم تجاهدوا، وإن لم تؤووا، وإن لم تنصروا، وإن لم يكن بعضكم أولياء بعض

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

وهذا الذي يعيشه العالم الإسلامي، الولاء ليس لبعضهم بعضاً، هذا الكيان ولاؤه للعدو أحياناً، هذا الكيان ولاؤه لدولة عظمى، هذا الكيان ولاؤه لدولة في أوربا، ولاء المسلمين لا إلى الإسلام، ولا إلى بعضهم بعضاً، الولاء لغير المسلمين، هذا طبعاً شيء غير معلن، أما الواقع هناك من يقف مع الطرف الآخر ضد مصالح المسلمين، هذا شيء واقع.

من لم يكن انتماؤه إلى مجموع المسلمين فليس بمؤمن:

لذلك

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

إن لم يكن انتماؤك إلى المؤمنين، إن لم يكن انتماؤك إلى مصالح المؤمنين، إن لم يكن انتماؤك إلى وحدة المؤمنين، إن لم يكن انتماؤك إلى قوة المؤمنين ولو كانوا ضعافاً وفقراء، لكن الولاء للأقوياء من غير المؤمنين، الولاء والانبطاح لغير المؤمنين

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

وهذا الواقع، مليار وخمسمئة مليون يحتلون أهم مواقع إستراتيجية في العالم، وتحتهم ثروات لا يعلمها إلا الله، ومع ذلك هم أفقر الشعوب، وأمرهم ليس بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، أنا لا أتحدث عن بلد معين، أتحدث عن المسلمين كمجموعة.

مرة ثانية:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

يتعاونون، ويتناصرون، ويتناصحون، ويتآمرون.

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

إن لم تؤمنوا، وتهاجروا بأموالكم في سبيل الله، وإن لم تؤووا، وإن لم تنصروا

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

كما هو الآن، فالهاء هنا تعود على الآية السابقة بأكملها

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

من آمن ولم يجاهد أو ينصر فإيمانه لا يرقى إلى المستوى الذي ينجيه من عذاب الله:

الآن الله عز وجل وصف المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، ووصف الكافرين بأن بعضهم أولياء بعض، ثم يقول:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[سورة الأنفال]

الآية الأولى وصفت، والآية الثانية قررت النتيجة، قال:

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)

في الدنيا.

في الآن مليار وخمسمئة مليون مسلم، هل هناك واحد منهم يقول أنا لست مؤمناً؟ كل واحد يدعي أنه مؤمن، أما عندما قال الله:

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)

أي الذي آمن ولم يهاجر، آمن ولم يجاهد، آمن ولم ينفق ماله في سبيل الله، آمن ولم يجاهد الجهاد الأكبر، آمن ولم يؤو، آمن ولم ينصر، بنص هذه الآية إيمانه لا يرقى إلى المستوى الذي ينجيه من عذاب الله.

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)

الإنسان يتوهم أن الآية فيها تكرار، الآية الأولى وصف المؤمنين:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

والكفار:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

العطاء الحقيقي هو عطاء الآخرة:

الآن جزاء المؤمنين أولاً في الدنيا:

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)

وفي الآخرة

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

ما معنى رزق كريم؟ الشيء الذي تنتفع به من دون أي جهد هذا رزق كريم، مثال ذلك الهواء، لا يوجد فواتير هواء الآن، تتنفس مئة نفس، فواتير هواء لا يوجد، فالهواء رزق كريم، والماء أيضاً لكن هناك فواتير بالماء، لكن الماء مبذول، فكل شيء تأخذه هذا من دون جهد هذا رزق كريم، هناك جهد أقل، أما بالآخرة، نظام الآخرة:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

[سورة ق الآية:35]

أي شيء يخطر في بالك تجده أمامك.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

[سورة ق]

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[سورة الحاقة]

الفواكه في الآخرة:

(لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)

[سورة الواقعة]

أحياناً يمنع استيراد الموز أحياناً، هذه ممنوعة،

(لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)

قطوفها دانية.

لذلك العطاء الحقيقي هو الآخرة، في الدنيا هؤلاء الذين

(هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

والمفاجأة

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

يتعاونون، ويتناصحون، ويتآمرون، ويتبادلون التقارير من أجل قمع المسلمين، أما أخطر كلمتين في هذه السورة

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

تعود الهاء على من؟ على الآية السابقة، إذا ما آمنت وهاجرت وجاهدت وآويت ونصرت

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

التفرق و التشرذم مصير المسلمين إن ابتعدوا عن نصرة بعضهم :

أخواننا الكرام، بلاد الأندلس زرتها قبل شهر تقريباً، شيء لا يصدق، حضارة خسرها المسلمون، وقد حكموها ثمانمئة عام، بالنهاية صار الولاء ليس للمسلمين، لأطراف أخرى غير مسلمة، والآن تجد دولاً إسلامية يكون ولاؤها لغير الإسلام، فإذا كان الولاء لغير المسلمين لن يكون بعضهم أولياء بعض، إن لم يكن بعضهم أولياء بعض سيكون هناك تفرق، هناك تشرذم، هناك ضعف.

((يَدُ الله على الجماعة، ومن شَذَّ شَذَّ إلى النار))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

فهذه الأمة تصور أنها ربع سكان الأرض، مليار وخمسمئة مليون، تصور ينطق بلسانها إنسان واحد، الآن أوربا كلها ينطق بلسانها إنسان واحد، عملة واحدة، حدود لا يوجد إطلاقاً، تنتقل في أوربا من مكان لأي مكان بدون لوحة.

إنسان دعاني في سويسرا إلى مكتبه، ودعاني إلى الطعام في بيته بإيطاليا، أين الحدود؟ قال: لا يوجد حدود، هناك خط من الحجارة السوداء، هذا الخط هو الحدود فقط، تنتقل من إيطاليا، لسويسرا، للنمسا، لفرنسا، لألمانيا، بلد واحد، هم يتعاونون، يتناصرون، يتناصحون، يتبادلون الحقائق، يتآمرون على المسلمين

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

إن لم نكن كذلك

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ)

الفتنة الجنس، أي كانوا يجبروننا بالقوة المسلحة على أن نفعل ما يريدون، لكنهم الآن يجبروننا بالقوة الناعمة المرأة على أن نريد ما يريدون، هذه الصحون تستقبل ماذا؟ محطات فضائية غربية، ولا يعلم

إلا الله ما في هذه المحطات، هناك تدمير قيم، الفطرة دُمرت، الله يحفظنا من كيد هؤلاء، ومن ثقافة هؤلاء، ومن هذه الصحون وما فيها.

الآخرة رزق كريم من دون أي جهد:

أيها الأخوة،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

الآخرة رزق كريم من دون أي جهد، لك ما تشاء، لك ما تشتهي، خطر في باله صديقه فاطلع فرآه في سواء الجحيم ، أي خطر يأتيك تجده أمامك

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

هذا هو الرزق الكريم، هذا زرق من دون جهد، من دون تعب، أنت في الدنيا من أجل طبق طعام تحتاج ساعة وأنت تعمل، زوجتك أعطيتها إجازة وأحببت أن تتغدى من أجل طبق طعام تحتاج ساعة، هنا رزق لكن معه جهداً، له ثمن، أما بالآخرة

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

أنواع الجهاد:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

لعلكم تستنبطون أن الذي يؤمن ولم يجاهد، والجهاد له معان كثيرة، أنت حينما تجاهد نفسك وهواك فأنت مجاهد، وصدقوا هذا هو الجهاد الأكبر، كما قال بعض الصحابة: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى"، أنت حينما تطلب العلم أنت مجاهد.

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

والله لا أبالغ مجيئك من بلد بعيد من الغوطة و أنت تركب سيارتين أو ثلاث، والطريق يحتاج إلى ساعة أو ساعتين لتحضر درساً على الأرض، ليس هناك كرسي مريح، ولا كأس شاي، صح أم غلط؟ بعد ذلك ترجع إلى بيتك، والله هذا جهاد، هذا جهاد معرفي، جهاد دعوي، عندما تتقن عملك وتريحنا من الاستيراد هذا جهاد بنائي، أتقن عملك، يأتي خبير يأخذ مئة ضعف عن المواطن، وهو يضحك

علينا، تختص اختصاصاً نادراً تنفع أمتك فيه، هذا جهاد، وعندما يتاح لك أن تقاتل وتقاتل هذا جهاد أيضاً، عندنا جهاد نفسي، جهاد دعوي، جهاد بنائي، جهاد قتالي، فالذي آمن ولم يجاهد بأحد هذه الأنواع الأربع ـ بفلسطين هناك جهاد قتالي الآن، بغزة جهاد قتالي ـ فالذي آمن ولم يجاهد إن جاهد نفسه فهو مجاهد، وإن جاهد في طلب العلم فهو مجاهد، والدليل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

بالقرآن

(جِهَاداً كَبِيراً)

والذي يتقن عمله ويرفع رأس أمته عالياً فهو مجاهد.

هناك أخ أعرفه كشف بكل الحواسيب الصناعية لوحة معقدة جداً، هذه اللوحة إن كان فيها عطب تذهب إلى بلاد بعيدة للإصلاح، تكلف ملايين، استطاع أن يكشف سرّ هذه اللوحة، وصار يحل مشاكل هذه البلد بهذا التفوق، هذا شيء ليس قليلاً، أنت ممكن أن تكون مجاهداً إذا جاهدت نفسك وهواك، ومجاهداً إذا طلبت العلم، ومجاهداً إذا أتقنت عملك، أتقنت عملك رفعت اسم الأمة، وإذا أتاح الله عز وجل لك ظرفاً، وسمح ولي الأمر بالقتال فأنت لك أجر أيضاً كما يجري في العراق، وفي فلسطين، وفي أفغانستان.

الشاب الذي يؤمن ويستقيم على أمر الله ويطلب العلم إنسان مجاهد:

قال:

(وَالَّذِينَ آوَوْا)

إذا أنت آمنت ولم تجاهد، نشأت في بيئة لا ترضي الله تركتها، فإذا آمنت ولم تجاهد، وآمنت ولم تهاجر، وآمنت و لم تؤو، وآمنت ولم تنصر، وطن نفسك وقل لنفسك أنك لست مؤمناً، أنا لا أقولها لك، لست مؤمناً،

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)

وغيرهم ليسوا مؤمنين حقاً، مؤمنون لكن هذا الإيمان لا ينجيهم، هم في الدنيا مؤمنون، وفي الآخرة

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال]

دعك من الصحابة، الأجيال المؤمنة التي جاءت من بعدها،

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ)

وأنا أقول لكم: الشاب الذي يؤمن، ويستقيم على أمر الله، والذي يحمل نفسه على طاعته، ويطلب العلم والله مجاهد، الآن مجاهد قد يأتيه عمل دخله فلكي لكن فيه معاص وآثام لا يقبل به بل يقبل بعمل فيه طاعة للرحمن،

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ)

لذلك: اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك، قال: لا، أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان الصابر منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين قالوا: منا أم منهم؟ قال: بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

آخر فقرة بالآية

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبعضٍ)

الصحابة الكرام مع الأنصار كانوا يتوارثون، فلما نزلت آية المواريث نُسخ هذا التوارث، لذلك قال تعالى:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ)

في الإرث

(فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

وبهذا انتهت سورة الأنفال في ثلاثين ساعة، والفضل لله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (01-70): مقدمة لتفسير سورة التوبة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-02-26

بسم الله الرحمن الرحيم

مضمون سورة التوبة :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الأول من دروس سورة التوبة، هذا الدرس والدرس الذي يليه إن شاء الله سأتحدث عن مضامين هذه السورة، وبعدها ننتقل إلى شرحها آيةً آية.

أولاً: مما يلفت النظر أن هذه السورة لم تبدأ بالبسملة، والحديث عن البسملة حديث طويل، إن شاء الله في الدرس القادم أتحدث عن البسملة.

لكن البسملة كلمة مشتقة، بسملة أي: بسم الله الرحمن الرحيم، وحوقل: لا حول ولا قوة إلا بالله، ودمعز: أدام الله عزك، وسبحل قال: سبحان الله، وحيعل قال: حيّ على الفلاح، وهلل قال: لا إله إلا الله، وكبّر قال: الله أكبر، هذا مما تنفرد به اللغة العربية، اشتقاق كبير، أي خمس كلمات تدمج في كلمة واحدة.

فهذه السورة لم تبدأ بالبسملة، وقال بعض العلماء: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدد بداية كل سورة بالبسملة، ولم يحدد في هذه السورة بداية، هكذا قال بعضهم.

وفي قول آخر: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحدد في هذه السورة البسملة، لأن الأمر كما يتصوره بعضهم ليس رتابة في القرآن، هناك تغيرات تلفت النظر، مثل: في جزء عمّ السور كلها مكية، السور كلها تتحدث عن الكون.

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

[سورة الفجر]

(وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

[سورة الضحى]

هذه السورة تلفت النظر إلى عظمة الله من خلال الكون، ضمن هذا السياق الكوني الأخروي تأتي سورة المطففين.

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

[سورة المطففين]

قال بعض العلماء: مما يلفت النظر أن هذه السورة قطعت سياق السور الكونية وتوجهت إلى حكم شرعي تعاملي، بعضهم علق وقال: أنت إذا لم تؤمن بآيات الله فهذا شيء كبير جداً، لكنك إذا طففت بالمكيال هذا شيء كبير جداً أيضاً.

نقص المعلومات شيء و الاعتداء على الآخرين شيء آخر :

لو أن إنساناً لم يتح له أن يعرف حقيقة الكون، لكنه آمن بالله، واستقام على أمره، وأدى ما عليه، أدى العبادات، أخذ ما له ولم يأخذ ما ليس له، هذا الإنسان ناجٍ عند الله، لأنه لم يعتدِ على الآخرين، نقص المعلومات شيء، وأن تعتدي على الآخرين شيء آخر، فالتطفيف عدوان، التطفيف غش، التطفيف أن تأخذ ما ليس لك، فكأن الله سبحانه وتعالى أراد بقطع السياق الكوني بسورة بالجزء الثلاثين، في جزء الكونيات، في جزء السور المكية، قطع السياق، وجاءت سورة تتحدث عن التطفيف، وكأن التطفيف يشمل كل أنواع الغش

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

كما أنه ويل للإنسان إن لم يعرف الواحد الديان،

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

سورة التوبة لم تبدأ بالبسملة لأن القرآن الكريم توقيفي من عند الله :

أيها الأخوة، لكن يرد على هذين الرأيين في أن هذه السورة سورة التوبة لم تبدأ بالبسملة لأن القرآن الكريم بآياته، وبترتيب آياته، وبسوره، وبترتيب سوره، توقيفي من عند الله ولا دور للنبي صلى الله عليه وسلم إطلاقاً في تحديد أسماء السورة، أو في ترتيبها، أو في تحديد الآيات، أو في ترتيب الآيات.

أحياناً من حكمة الخالق أنك في بعض الأمور تنتقل من شيء إلى شيء، لكن أحياناً تجد فجوة، هذه الفجوة لعلها تلفت النظر، ما الذي حدث؟ هناك آيات كثيرة، أي الكلمات متعاطفة بالرفع، يأتي حرف عطف، وتأتي كلمة منصوبة، هذا شيء يلفت النظر.

لذلك عند علماء القرآن شيء ما يسمى بالنكات، جمع نكتة، النكتة ظاهرة بلاغية، مثلاً قال تعالى:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

[سورة التوبة الآية: 62]

الضمير مفرد، وسياق الآيات ينبغي أن يكون والله ورسوله أحق أن يرضوهما، لماذا جاءت الهاء المفردة بدل الهاء المثناة؟ كأن الله أراد أن يقول: إن إرضاء الله هو عين إرضاء رسول الله، وإن

إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، هذه نكتة بلاغية.

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً)

[سورة الجمعة الآية:11]

قُدمت التجارة على اللهو، لأن لا لهو من دون تجارة، لأنه يحتاج إلى أموال، يحتاج إلى دخل مفتوح لا دخل محدود.

(قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ)

[سورة الجمعة الآية:11]

هنا قدم اللهو على التجارة، لماذا قُدم؟ قال: لأن ترك الفرائض، أو ترك العبادات بسبب اللهو أعظم إثماً من تركه بسبب التجارة.

اللفتات البلاغية في القرآن الكريم شيء دقيق جداً :

على كلٍّ التقديم والتأخير:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

[سورة التوبة الآية: 24]

قدم الآباء، في هذه الآية المعنى الاعتزاز الاجتماعي، الإنسان يعتز بأبيه، بدأ الله بالأب، في موضع آخر بدأ بالمرأة:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

[سورة آل عمران الآية: 14]

لأن الآية في موضوع الشهوات، فالمرأة قُدمت على البنين، في موضع الاستعانة الإنسان لا يستطيع أحياناً أن يستعين بأبيه لتقدمه في السن، ولا بابنه لصغر سنه، يستعين بأخيه.

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ)

[سورة عبس]

قدم الأخ، في مجال الافتداء أغلى شيء بالفدية الابن.

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

[سورة المعارج]

إذاً مرة الله بدأ بالأب، مرة بالمرأة، مرة بالابن، مرة بالأخ، وموضوع التقديم والتأخير، موضوع اللفتات البلاغية في القرآن الكريم شيء دقيق جداً، لذلك نحن حينما نقف عند بعض هذه اللفتات، أو عند بعض النكات، يزداد إيماننا أن هذا القرآن من عند خالق الأكوان.

الدين الإسلامي انضباط كلّه و نظام كلّه :

شيء آخر: في الحج نحن مكلفون أن نقبل حجراً، وفي الحج نفسه مكلفون أن نرجم حجراً، لِمَ قبلنا الأول، ولِمَ رجمنا الثاني؟ قال بعض العلماء: لا شيء في الكون مقدس لذاته بل إن التقديس من عند الله عز وجل، فإذا أمرنا ربنا أن نقبل هذا الحجر أصبح هذا الحجر مقدساً، وإذا أمرنا أن نرجم هذا الحجر أصبح هذا الحجر مبتذلاً.

إذاً التقديس والتدنيس بأمر الله عز وجل.

شيء آخر بالدين هناك عظمة، بالنظام العسكري في أثناء الطعام يقول الضابط: سكوت، يجب أن توقف مضغ اللقمة، والذي يحرك فكيه يعاقب، هذا يبين عظمة النظام، هذا جيش سيحارب، فلابد من أن يكون الآمر مطاعاً، ولابد من أن تنفذ الأمر، فهمته أو لم تفهمه، نفذ ثم اعترض.

كذلك في الدين، هذا الدين فيه انضباط، أي تنفيذ هذا الأمر بحذافيره يتضح مثلاً في الصيام أمة بأكملها مع أذان المغرب لا تجد إنساناً واحداً، أمة بأكملها تأكل في ثانية واحدة مع إطلاق المدفع، وأمة بأكملها توقف الطعام في ثانية واحدة مع أذان الإمساك، في صلاة التراويح قد يجتمع في الحرم ملايين، ومع ذلك كل هؤلاء يتحركون في وقت واحد، حركة متساوية، يقفون، يركعون، يسجدون، هذا الانضباط في هذا الدين من دلائل عظمة خالق السماوات والأرض.

أنا لا أعتقد أنه يوجد على وجه الأرض نظام كنظام الإسلام، أنت في الصيام، في أحد أشهر الصيف، وفي أحد أيام رمضان الطويلة، سبع عشرة ساعة، والحر لا يحتمل، والصائم يكاد وقت الظهيرة يموت من العطش، يدخل بيته لا أحد بالبيت، وفي الثلاجة ماء عذب، زلال، بارد، ولا يراه أحد في الأرض، ولا يستطيع أن يضع في فمه قطرة من ماء، هذا الدين، هذا الدين يبين أنه لا ينجح أمر إلا إذا كان الآمر معك، أما الأمر الوضعي شيء آخر.

إشارة حمراء، وراكب المركبة تجاوز الإشارة الحمراء، يكمن له شرطي أوقفه، قال له: ألم ترَ الإشارة حمراء، قال له: والله رأيتها حمراء، لكنني لم أراك، لأن النظام مربوط بشرطي فقط.

أنت لاحظ شيء من وضع البشر، لا يطبق إلا إذا كان علم واضع القانون يطولك، وقدرته تطولك، فإن كان علمه لا يطولك لا يطبق، إن كانت قدرته لا تطولك لا يطبق، علمه يطولك، وقدرته تطولك، أما نظام خالق الكون، لأن الله معك.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية: 4]

يستطيع إنسان مسلم يجد في وعاء الزيت في دكانه فأرة أن يبيع الزيت؟ إن كان مؤمناً لا يستطيع، يُحول هذا الزيت إلى الصابون، إن لم يكن مؤمناً يأتي بملقط يأخذ الفأرة ويبيع الزيت، أليس كذلك؟ بربكم هل تنتظم الحياة من دون إيمان بالله؟ والله قصص الأمانة والاستقامة والنزاهة والخوف من الله لا تصدق.

سائق سيارة وجد في مركبته بكيس أسود عشرين مليون ليرة، بحث عن صاحبها أربعة أيام حتى عثر عليه وقدم المبلغ له، ما الدافع؟ أن الله يراقبه.

الحياة لا تنتظم إلا بالإيمان :

صدق ولا أبالغ لا يمكن أن تنتظم الحياة من دون إيمان بالله، هل يستطيع إنسان مؤمن وهو يعجن العجين أن يدخل إلى الحمام ولا يغسل يديه ويتابع العجين؟ لا يستطيع، أما غير المؤمن يستطيع، ما دام لا يوجد رقابة، ولا محاسبة، فلذلك النظام الوضعي هكذا.

سيدنا عمر رأى راعياً أراد أن يمتحنه، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قل: خذ ثمنها، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها لكن أين الله؟ ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟.

ما لم تقل كما قال هذا الراعي في كل ظرف يسمح لك هذا الظرف أن تأخذ ما ليس لك، ما لم تقل أين الله فأنت بعيد ـ بعد الأرض عن السماء ـ عن الإيمان، الإيمان استقامة.

((الإِيمانُ قَيَّدَ الفَتْكَ، لا يَفْتِكُ مؤمِن))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

الأمانة بالإسلام شيء لا يصدق، قد يكون معك ملايين، أقسم لي بالله إنسان قال لي: معي عشرون مليوناً استثمار من صديق، لم يعلم أحد بهذا المبلغ، وليس مع أهله إيصال، مات بحادث، فإذا أبقى هذا المبلغ له ليس هناك في الأرض من يسائله، ذهب إلى الورثة وقدم لهم المبلغ، هذا هو الإيمان، الحياة لا تنتظم إلا بالإيمان.

علامة عقل الإنسان خوفه من الله تعالى :

حينما تؤمن أن الله يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، لا يمكن أن تعصيه، والمثل واضح: راكب مركبتك، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، وشرطي آخر على دراجة، وضابط مرور بالسيارة، وأنت مواطن عادي، هل من الممكن أن تمشي على الأحمر؟ مستحيل وألف ألف ألف مستحيل، لأن واضع قانون

السير ووزير الداخلية علمه يطولك من خلال هذا الشرطي، وقدرته تطولك من الشرطي الآخر الذي معه دراجة، وقد تسحب منك الإجازة، وتؤخذ منك المركبة، لو تعاملت مع خالق السماوات والأرض على أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، والله لو كنت وحدك في الصحراء، لا تستطيع أن تدوس على نملة، شعوب تُقتل، مدن تقصف، مليون قتيل في العراق، خمسة ملايين مشرد، مليون معاق، خطأ توهمنا أنه يوجد سلاح شامل والسبعة ملايين؟ والله صدقوا ولا أبالغ لا يوجد قطرة دم تراق في الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا وسيسأل عنها إنسان لِمَ قتلته؟.

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير]

أنا أقول: علامة عقلك خوفك من الله.

((ورأس الحكمة مخافة الله))

[أخرجه ابن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود]

أن تقول:

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[سورة المائدة]

والله مجتمع فيه إيمان، لا فيه سرقة، ولا غش، معمل يبيع لبناً مصفى، لا يوجد به نقطة حليب، كله مواد كيماوية، بنصف السعر، فكل معامل اللبن المصفى توقفت عن العمل، لأن السعر مئة ليرة، هذا الذي فعل هذا أُصيب بالجنون، وفلس على خمسة و عشرين مليوناً، معقول أن تغش المسلمين و يتركك الله؟ معقول تبيع مادة كيماوية ليس لها علاقة بالحليب إطلاقاً تبيعها على أساس أنها مادة غذائية؟.

الغبي هو الإنسان الذي لا يدخل الله في حساباته :

أخواننا الكرام، من هو الغبي؟ الغبي هو الذي لا يدخل الله في حساباته.

بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قل لصاحبها: ماتت، قال له: ليست لي، والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها لكن أين الله؟ ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟.

والله مرة حدثني أخ أحترمه كثيراً، عنده معمل مواد غذائية للصغار، قال لي: هذا الطفل أخذ من والده عشر ليرات، معقول أبيعه بضاعة موادها الغذائية الأساسية منتهية الصلاحية؟ هناك مواد غذائية لها صلاحية، فإن لم تبع في وقتها من يشتريها؟ أصحاب المعامل، هذه لا تظهر في الأسواق، تدخل في تركيب هذه المادة، يقول لي هذا الأخ المؤمن: والله لا أستطيع، آتي بأفضل المواد، لأن الله يحاسبني.

إذا لم تدخل الله بحساباتك، إذا لم تقل في اليوم ألف مرة إني أخاف الله، أخاف أن أكذب، أخاف أن أغش، يمكن أن تبيع دواء منتهية صلاحيته؟ جاء طفل يحتاج إلى دواء ثمنه ثمانمئة ليرة، تحك تاريخ الصلاحية على أن الكلمة ليست واضحة وتبيعه إياها.

أنا أقسم لكم بالله الإنسان عندما يرتكب معاصٍ كبيرة جداً كهذه المعاصي كأن عباداته الراقية أُلغيت، من أين جئت بهذا الكلام؟.

السيدة عائشة تقول: **"بلغها أن واحداً من الناس فعل شيئاً لا يرضي الله، قالت: قولوا له: إنه أبطل جهاده مع رسول الله".**

أحياناً يكون هناك أشياء طبية، الجيدة غالية جداً، وهناك نوع سيئ جداً، ويوضع في القلب أثناء العملية، فالطبيب بعدما يفتح قلب المريض ويغلقه إن وضع له قطعة من أرخص نوع، والفاتورة جاءت من أغلى نوع، هل يستطيع أن يتحقق؟ كان مغمى عليه.

لذلك إذا الإنسان لم يخف من الله، هلك في الدنيا قبل الآخرة.

أيها الأخوة، انظر إلى الإيمان، الصديق رضي الله عنه أبلغوه أن صاحبه ـ أي محمد عليه الصلاة والسلام ـ يزعم أنه سافر الليلة إلى بيت المقدس وعاد، ولا يزال فراشه ساخناً، ماذا قال؟ قال: إن قال هذا فقد صدق، كيف تربى المؤمن؟ هذا نبي، لا يكذب، والإسراء والمعراج يعد معجزة الله أكرم النبي عليه الصلاة والسلام بها:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

[سورة الإسراء الآية: 1]

قال: إن قال هذا فقد صدق.

عدم تناسب البسملة مع نقض العهود :

أخواننا الكرام، هذه السورة ـ سورة التوبة ـ سبقها سورة الأنفال، وفيها توزيع للغنائم، وسورة التوبة فيها توزيع للصدقات، واحدة توزيع الغنائم، والثانية توزيع الصدقات، إذاً السورتان متكاملتان.

وقد يقول قائل: لِمَ لم تبدأ بالبسملة؟ قال: لأن ـ البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم ـ في البسملة أمان ورحمة، وفي هذه السورة نقض للعهود، فلا تتناسب البسملة مع نقض العهود هذه وجهة نظر متعلقة بأن هذه السورة ليس فيها بسملة.

التوبة حصن للمجتمع وهي طريق للسلامة :

أيها الأخوة، قد يسأل سائل: لماذا سميت هذه السورة بسورة التوبة؟ لأنها بدأت بأن الكفار نقضوا عهودهم مع رسول الله، ولما نقضوا عهودهم الله عز وجل تبرأ من هذه العقود والعهود، لذلك هذا الذي نقض عهده مع رسول الله فتح الله له باب التوبة.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء الآية: 27]

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

[سورة البقرة الآية: 222]

تصور ديناً ليس فيه توبة، الإنسان إذا اقترف معصية لا يغفر له هذا الذنب أبداً، يعمل ألف معصية ما دام لا يوجد توبة، الإجرام يتفاقم، يتفاقم إلى درجة مذهلة، يصبح هناك شراسة بالإجرام، أما أي ذنب إذا تبت منه قَبِل الله توبتك، فالتوبة رحمة، التوبة حصن للمجتمع، التوبة حصن للمذنب، التوبة طريق للسلامة، والله لو ذهبنا لسنوات وسنوات نعدد حكمة التوبة لا ننتهي.

الحكمة من تسمية سورة التوبة بهذا الاسم :

الله عز وجل سمّى هذه السورة التي افتتحت بأن الكفار نقضوا عهدهم مع رسول الله بسورة التوبة، لأن الله يغريهم بالتوبة، يدعوهم إلى التوبة، وإياك أن تقنط من رحمة الله وإياك أن تيئس، القنوط من رحمة الله كفر، واليأس من رحمة الله كفر.

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، أرزق ويشكر سواي خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي، ويتبغضون إلي بالمعاصي من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري، أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثلها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

أيها الأخوة، بهذه السورة آيات تلفت النظر: تابوا فتاب الله عليهم، أي تابوا فقبل الله توبتهم، العبرة لا أن تتوب، العبرة أن يقبل الله توبتك، فالله عز وجل يقول: تابوا فتاب الله عليهم، وفي آية:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: 118]

بعضهم قال: شرع لهم التوبة كي يتوبوا، الإنسان ضعفت نفسه، زلت قدمه، وهناك ذنب، فباب التوبة مفتوح، شرع لهم التوبة ليتوبوا، وبعضهم قال: ساق الله لهم من الشدائد ما يحملهم بها على التوبة.

الله عز وجل تواب يتوب عن أكبر و أكثر الذنوب :

أيها الأخوة، الله عز وجل سمّى ذاته العلية بالتواب، والتواب صيغة مبالغة لاسم الفاعل، ومعنى صيغة المبالغة أي أن الله يتوب على مليون ذنب، ويتوب على أكبر ذنب، المبالغة في أسماء الله الحسنى تعني مبالغة كم، ومبالغة نوع، أي أكبر ذنب له توبة، وأصغر ذنب مع مليون ذنب له توبة، فالله عز وجل يتوب عن أكبر الذنوب، وعن أكثر الذنوب، لكن أهون توبة الأولى، الثانية أصعب، والثالثة أصعب، كلما تكرر الذنب أصبحت التوبة أصعب لا على قبولها بل على الإنسان نفسه.

وفي هذه السورة حوار مع المشركين، ومع أهل الكتاب، ومع المنافقين، المشرك واضح، والكافر واضح، معنى واضح أي لم يخفِ كفره، كفره ظاهر، قال لك: أنا لست مؤمناً لكن المنافق منافق، مزدوج، يظهر شيئاً ويخفي شيئاً.

والحديث في هذه السورة عن المؤمنين، هناك حديث طويل عن المؤمنين، وحديث طويل جداً عن المنافقين، وعن المشركين، وعن أهل الكتاب.

الدنيا مشتركة بين المؤمنين وبين غير المؤمنين أما الآخرة فللمؤمن فقط :

أيها الأخوة، وهناك حديث في هذه السورة عن الربوبية، وكيف أن رب العالمين يطعم كل مخلوقاته، كافراً أو مؤمناً.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ)

[سورة البقرة الآية: 126]

أي الله عز وجل يطعم المؤمن والكافر في الدنيا، لذلك الدنيا مشتركة بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، أما الآخرة:

((وعد صادق يحكم فيها ملك قادر))

[أخرجه الطبراني عن شداد بن أوس]

وهذه السورة إن شاء الله سوف تشرح لنا معان دقيقة جداً عن اليوم الآخر، وعن الذات الإلهية، وعن تقسيمات البشر، وعن بعض الأحكام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (02-70) : مقدمة عن مضامين السورة 2 ، فضائل ومعاني بسم الله الرحمن الرحيم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-03-19

بسم الله الرحمن الرحيم

خلو سورة التوبة من بسم الله الرحمن الرحيم :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثاني من دروس سورة التوبة، ولا زلنا في المقدمة وكما تعلمون أن هذه السورة ليس فيها بسملة، والبسملة تعني بسم الله الرحمن الرحيم .

والحقيقة أن في القرآن الكريم كله مئة وأربع عشرة بسملة، السور التي وردت فيها البسملة هي مئة وثلاث عشرة عدا التوبة، والتوبة ليس فيها بسملة، ولكن وردت البسملة التي هي في الترتيب أو في العدد مئة وأربع عشرة في سورة النمل في سياق الآيات:

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

[سورة النمل]

أولاً البسملة مجمع عليها أنها آية من كتاب الله، ومجمع أيضاً أنها آية من سورة الفاتحة :

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

رقمها واحد:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الفاتحة]

رقمها اثنان.

أما في كل سور القرآن الآية التي بعد البسملة رقمها واحد، إذاً هي آية من كتاب الله تابعة لسورة الفاتحة، بل هي فاصلة بين سورتين، بل هي فاصلة وإشارة إلى ابتداء السورة الثانية.

ومعلوم أن ترتيب المصحف غير ترتيب النزول، فالآيات نزلت بترتيب وقد جُمعت بالمصحف بترتيب آخر، وترتيب المصحف توقيفي، أي من الله عز وجل، الفاتحة نزلت بعد المدثر لكنها السورة الأولى في القرآن الكريم.

أمية النبي وحده تعد وسام شرف له وأميتنا وصمة عار بحقنا :

أيها الأخوة، الحقيقة أن هذه البسملة تحتاج إلى شرح كثير، لأن البسملة نشاط يومي من نشاطاتنا، ولابدّ من معرفة حقيقة هذه البسملة، فالله عز وجل حينما اصطفى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة وكان بغار حراء، قال له جبريل:

((اقرأ. قال: قلت: ما أنا بقارئ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين]

ما معنى اقرأ ؟ هناك نص تحفظه طُلب منك أن تقرأه، أو هناك كتاب أمامك طُلب منك أن تقرأ فيه، فالنبي الكريم أميّ لا يقرأ ولا يكتب، وأميتنا جميعاً تعد وصمة عار، ولكن أمية النبي وحده تعد وسام شرف له، لأن وعاءه الثقافي لو فيه من ثقافات الأرض فكلما قال كلمة ينبغي أن يسأله أصحابه أن يا رسول الله هذا الكلام من عندك؟ من ثقافتك؟ أم من وحي السماء؟ فشاءت حكمة الله أن يكون الوعاء الثقافي للنبي عليه الصلاة والسلام خالياً من كل ثقافة أرضية، وممتلئاً بوحي الله عز وجل، لذلك قال تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

إذاً أمية النبي تعني أنه لم يتلقَ ثقافة أرضية، بل إن وعاءه الثقافي إن صحّ التعبير ممتلئ بوحي السماء، هذا يؤكده قوله تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

النبي عليه الصلاة والسلام أفصح العرب إطلاقاً :

لذلك علماء العقيدة يقولون: إن القرآن الكريم وحي متلو، بينما السنة الشريفة الصحيحة وحي غير متلو، القرآن الكريم المعنى واللفظ من الله عز وجل، والسنة الصحيحة المعنى من الله والصياغة من رسول الله، وكان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب إطلاقاً، وهذا في حديثه الشريف:

((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، وقريش فصح القبائل))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

وهذا الأسلوب البلاغي اسمه عند علماء البلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم.

((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

أيها الأخوة الكرام، قال له جبريل:

((اقرأ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين]

ليس أمامه نص مكتوب ليقرأه، ولا محفوظ ليتلوه، قال:

((ما أنا بقارئ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين]

أعادها ثانية، وثالثة، قال له:

((ما أنا بقارئ))

ثم جاءت الآية الأولى من الوحي، وحي السماء:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[سورة العلق]

أنت لست بقارئ ولكن إرادة الله طليقة، وهو على كل شيء قدير، فسوف تقرأ على البشر كلاماً هو قمة العلم، والآن يأتي إنسان ويأخذ بعض الأحاديث ويشرحها فينال عليها درجة الدكتوراه.

يا أيها الأميُّ حَسبُكَ رتبةً في العلمِ أنْ دانتْ لكَ العلماءُ

* * *

لأن الله عز وجل تولى تعليمه.

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

[سورة النجم]

من علّمه الله فهذا التعليم من الأكرم لا من الكريم :

أخوتنا الأكارم، كل إنسان خريج من جامعة يتباهى أن أستاذه فلان، هناك في الجامعات أساتذة لامعون جداً، متألقون جداً، يعدون مراجع في العلم، فإذا أتيح لطالب أن يكون أستاذه فلاناً فإنه يفتخر دائماً: أنا تلميذ فلان، فإذا سمح لعلماء الأرض أن يتيهوا على أقرانهم بأساتذتهم فالنبي عليه الصلاة والسلام علّمه رب العزة،

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

أيها الأخوة، هناك كلام دقيق، هذا الكلام حينما تتعلم من مخلوق، والمخلوق غير معصوم، قد تتعلم منه الصواب، وقد يزل هذا المخلوق فتتعلم منه الخطأ، على كلٍّ ما دام هذا المخلوق ضليعاً في العلم وعلمك إذاً هذا تعليم يدل عن كرمه، لكنه إذا علمك خالق السماوات والأرض، إذا علمك الله، هذا دليل أن هذا

التعليم هو من الأكرم لا من الكريم، مخلوق يعلمك فيتكرم عليك، لكن الله سبحانه وتعالى حينما يتولى تعليمك فهو الأكرم :

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

[سورة العلق]

الذي تولى تعليمك، إنما تقرأ باسم الله، للتقريب: لو أن وزارة فيها مدراء عامون، دعوا إلى اجتماع، ودخل إنسان لا يعرفونه، ألقى عليهم تعليمات تفصيلية في شؤون إداراتهم، قد يقول أحدهم له: يا سيدي! أنت تمثل من؟ يقول لك: أنا أمثل رئاسة الوزراء، أنا أتكلم باسم رئاسة الوزراء، فهذا الكلام ليس من هذا الإنسان المتكلم، بل هو مبعوث من رئيس الوزراء ليلقي هذه التعليمات على كبار الموظفين.

القرآن الكريم كلام خالق السماوات و الأرض :

لذلك إذا قرأت القرآن، أو قرئ القارئ عليك القرآن، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم يعني هذا كلام خالق السماوات والأرض، هذا كلام الذي أوجدك ولم تكُ من قبل شيئاً، هذا كلام من بيده مقاليد السماوات والأرض، من بيده الخلق والأمر، من بيده كل شيء، هذا كلام من بيده الرزق، من بيده الحياة، من بيده الموت، هذا كلام من يرفعك، من يعطيك، هذا كلام المعز، هذا كلام المذل، هذا كلام القوي، هذا كلام الغني، هذا كلام القادر، هذا كلام المهيمن، هذا كلام من بيده كل شيء، هذا كلام:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية : 123]

معنى كلمة بسم الله الرحمن الرحيم هذا كلام خالق الأكوان، وخالق الإنسان، ومن بيده مقاليد كل شيء، ومن

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

ومن إليه المصير.

إنسان يكون بدائرة، وله مدير عام، وحريص على إرضائه، وقد يعلل هذا الحرص بأن مصيره بيد هذا المدير، يرفعه أو لا يرفعه، يعاقبه أو لا يعاقبه، يبعده إلى مكان بعيد، أو يجعله في بلدته، يقول لك: الأمر بيده، فحرص هذا الموظف ـ ولله المثل الأعلى ـ على إرضاء هذا المدير، وقلقه من أن يغضب عليه، نابع من أن مصير هذا الموظف بيد هذا المدير، تقريباً أو إبعاداً، ترقية أو عدم ترقية.

لكن أنت حينما تعلم أن كل شؤونك بيد الله، الصحة أولاً، الشريان التاجي، القلب، الرئتان، الكبد، نمو الخلايا قد تنمو نمواً عشوائياً فتنتهي حياة الإنسان، نحن في قبضة الله، نحن تحت رحمة الله، نحن في علم الله .

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية : 4]

بعلمه، فحينما تقول بسم الله، أتعلم هذا كلام من؟ هذا كلام خالق السماوات والأرض.

معاني البسملة :

1 ـ البسملة تشير إلى أن كل شيء أمام الإنسان هو بيد الله :

والله أيها الأخوة، تنطوي هذه البسملة على معانٍ لا يعلمها إلا الله، أضرب لك مثلاً:

أنت إنسان ضعيف أردت أن تزرع أرضك، تقول: بسم الله، هل تستطيع أنت أن تنبت هذا البذر؟ يوجد بالبذرة رشيم، والرشيم كائن حي، وهناك محفظة غذائية، وهذه المحفظة الغذائية التي مع الرشيم تكفي أن ينمو لهذا الرشيم سويقاً، وجذيراً، فأنت حينما تلقي هذا الحب في الأرض هل أنت الذي خلقت الرشيم؟ هل أنت جعلت معه محفظة غذائية؟ هل أنت صممت هذا البذر بهذه الخصائص؟ هل تستطيع إنزال المطر؟ إن لم يكن هناك أمطار أو زراعة، هل تستطيع إنبات البذور؟ فإذا بدأ العامل في حقل الزراعة عمله بقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ معنى ذلك أن يا ربي أنا ضعيف، إنبات البذور بقدرتك، إنزال الأمطار بقدرتك، تفاعل هذه البذرة مع مواد الأرض، مع المعادن، مع الأسمدة بقدرتك، نضج هذه الثمار بقدرتك، فأنت حينما تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، تتذكر أن الله بيده كل شيء، وأنك فقير إليه، وأنه هو الغني، وأنك لا تعلم وهو يعلم، وأنك ضعيف وهو القوي، وأنك جاهل وهو العليم.

حينما يقدم طبيب جراح على عملية في المخ، أقل خطأ يموت المريض، الخطأ قد يكون بالمليمترات يموت المريض، فأنت حينما تعلم أن حياة هذا المريض بيد الله، وأن توفيق هذا العمل الجراحي بيد الله، وأن علمك بيد الله، وأن قدرتك بيد الله، تقول: بسم الله الرحمن الرحيم .

2 ـ الافتقار إلى الله في كل شيء :

هذه البسملة أيها الأخوة الكرام، يجب أن تشير إلى أن كل شيء أمامك هو بيد الله، وأن كل القوانين التي تسود الأرض هي قوانين الله عز وجل، وأن كل خصائص المواد بيد الله، أو كل هذه الخصائص الله جلّ جلاله أودعها في هذه المواد، وأن كل حركة، أو سكنة، وأن كل عطاء، أو منع، أو رفعة، أو انخفاض بيد الله عز وجل، لذلك تقول: بسم الله الرحمن الرحيم.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس]

وعرفت الله من نقض العزائم، وأتمنى من كل أعماقي أن يكون هذا الدرس بهذه الفكرة واضحاً جداً لنا جميعاً، أنت حينما تقول: الله، حينما تتبرأ من حولك وقوتك، حينما تتبرأ من خبرتك، حينما تتبرأ من قدرتك، من مالك، من تعليمك، من خبراتك، يتولاك الله، وحينما تعتد بعلمك، أو بقدرتك، أو بمالك، أو بحسبك، أو بنسبك، يتخلى الله عنك، وهذا الدرس هو الدرس الذي لا نحتاجه لا في اليوم مرة، والله بل نحتاجه كل ساعة، لأن أصحاب النبي رضوان الله عليهم وهم قمم البشر في معركة بدر افتقروا إلى الله فانتصروا، همْ هم، وفيهم سيد البشر، في حنين اعتدوا بعددهم الكبير فتخلى الله عنهم، والآية الكريمة:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة]

3 ـ تذليل كل شيء للإنسان بقدرة الله عز وجل :

أخواننا الكرام، هذا معنى بسم الله الرحمن الرحيم، أنا لا أتحرك بقدرتي، أنا ضعيف لكن هناك قوانين أودعها الله في الأشياء، فكل هذه القوانين تُسهّل لي الانتفاع بما في الأرض، أنتفع بما في الأرض بسبب القوانين التي أودعها الله فيها، مثلاً: غذائي يحتاج إلى لحم، واللحم في الأنعام، والأنعام مذللة، قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس الآية : 72]

أما الثعبان ليس مذللاً، الذئب غير مذلل، أما الأنعام فمذللة، من جعلها مذللة؟ الله جل جلاله، فأنت حينما تذبح بقرة وتبيعها بسم الله، لأن الله جعلها مذللة، لكنك لا تستطيع أن تواجه ذئباً مفترساً، غير مذللة، العقرب غير مذللة، تخاف منه وهو صغير، الثعبان غير مذلل، الله عز وجل قال:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

فإذا قلت: بسم الله أذبح هذه البقرة، لولا أنها مذللة لما استطعت أن تذبحها، لجنت، وجنّ البقر في بريطانيا، اضطروا أن يبيدوا ثلاثين مليون بقرة، قيمتها ثلاثون مليار جنيه إسترليني، أطعموا البقر طحين اللحم فجنّ، وجنون البقر مرض خطير من جنون البشر، من جعلها مذللة؟ أنت تحلب البقرة فلا تقتلك، الجمل مذلل، الفيل مذلل، أما العقرب غير مذلل، الثعبان غير مذلل، تخاف منه، حينما تقرأ قوله تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

يجب أن تذوب شكراً لله عز وجل، من جعل هذا الماء عذباً فراتاً؟ الله عز وجل، ولو كان ملحاً أجاجاً. يموت الناس على قارب نجاة في البحر عطشاً، والبحر أربعة أخماس اليابسة، وعمق البحر في بعض الأماكن اثنا عشر ألف كيلو متر، ويغطي أربعة أخماس الأرض، وحينما تغرق الباخرة، ويركب ركابها في قوارب النجاة، وينفذ الماء يموتون عطشاً وهم على سطح البحر، لأن هذا البحر ملح أجاج، والله جعل لنا ماء عذباً فراتاً، فأنت تقول: بسم الله، بسم من جعله عذباً فراتاً؟ .

أمثلة عن تذليل كل شيء للإنسان بقدرة الله تعالى :

هذا القمح الذي نأكله كل يوم من جعله غذاءً نافعاً كاملاً؟ هل تعلم أيها الأخ الكريم ما معنى بسم الله؟ أنت تشرب كأس الحليب، هل تذكرت أن هذه البقرة مذللة؟ وأن هذه البقرة عندها غدة ثديية، يمر فوقها أوعية دموية كثيفة جداً، وأن هذه الغدة الثديية تأخذ من الدم ما تحتاجه ويتكون الحليب، ويرشح من هذه الغدة الثديية قطرات الحليب إلى ضرع البقرة، من سخر هذا النظام؟ من خلق الغدة الثديية في البقرة؟ من جعل هذه الغدة تختار ما تحتاج من الدم؟ .

(بَيْنَ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ)

[سورة النحل]

الله جلّ جلاله، لمجرد أن تشرب كأس الحليب يجب أن تتذكر أن هذه البقرة مذللة، وأن أجهزتها دقيقة جداً، بل إن العلماء يقولون: إن كل أربعمئة حجم من الدم يساوي حجم حليب واحد، أي أربعمئة لتر من الدم تجري فوق الغدة الثديية يصنع منها لتر حليب واحد، هل تعلم آلية هذه الأجهزة؟ تعقيد هذه الغدد؟ حتى تشرب حليباً يعد غذاء كاملاً لك، كلنا في كل أعمارنا نأكل مشتقات الحليب لا نمل منه، اللبن، والجبن، والقشطة، وما إلى ذلك،

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

معنى بسم الله؛ هل فكرت في البقرة؟ هل فكرت فيمن ذللها؟ هل فكرت في أنها تأكل أقل مما تنتج؟ لو أن ثمن طعامها أقل من إنتاج حليبها لما رباها أحد منا.

هل فكرت في هذه الدجاجة التي تعطيك البيض؟.

معنى بسم الله الرحمن الرحيم؛ أنت تأكل بقدرة الله، بعلم الله، بفضل الله، برحمة الله، كلمة بسم الله الرحمن الرحيم كلمة كل دقيقة، تركب هذه المركبة بسم الله، من أودع في البنزين القوة الانفجارية؟ ضع صفيحة ماء في مستودع البنزين هل تمشي السيارة؟ من أودع في البنزين القوة الانفجارية؟

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

تركب الطائرة من جعل قوانين الهواء تحمل مئة و خمسين طناً وهذا وزن الطائرة، ومئة و خمسين من الركاب، وما إلى ذلك، طائرة تقدر حمولتها مع وزنها بثلاثمئة و خمسين طناً حملها الهواء وتمشي بسرعات عالية؟!

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل]

عُزي خلق الطائرة في هذه الآية إلى الله عز وجل، من ألقى في عقول المخترعين هذه الفكرة؟ .

4 ـ كلمة بسم الله تعني أن تتذكر فضل الله وحكمته :

أخواننا الكرام، هذه كلمة بسم الله بكل دقيقة، تكتب، من علمك أن تكتب؟ من جعل هذه العضلات؟ من جعل هذا التوافق بين عينيك وبين أفكارك؟ تلقي كلمة، كل حرف يسهم في صنعه سبع عشرة عضلة، الكلمة خمس كلمات، سبع عشرة عضلة في كل حرف، الكلمة خمسة حروف، والجملة عشر كلمات، والصفحة، والكتاب، تلقي خطبة، من جعل هذه الأجهزة تتحرك؟ بسم الله، حينما تقول: بسم الله تذكر قدرة الله، تذكر فضل الله، تذكر حكمة الله، تذكر علم الله، تذكر كرم الله، تذكر لطف الله، تذكر رعاية الله.

أيها الأخوة، امرأة تخبز على التنور، وطفلها على طرف التنور، كلما وضعت رغيفاً مسكت ابنها وضمته، وشمته، وقبلته، هذه وردت في الآثار، نبي كريم قال: يا رب ما هذه الرحمة؟ فقال الله له: يا موسى هذه رحمتي، أودعتها في قلب أمه، وسأنزعها، فلما نُزعت الرحمة من قلب الأم وبكى طفلها ألقته في التنور، وانتهى الأمر.

لا تصدق أن رحمة الآباء والأمهات بأولادهم، إنما هي رحمة منهم، هي رحمة الله أودعها الله للآباء والأمهات.

كلمة بسم الله يجب أن تتذكر فضل الله، عطاء الله، لطف الله، رحمة الله، علم الله، غنى الله، قدرة الله، هذا معنى بسم الله الرحمن الرحيم، قبل أن تأكل هذه الفواكه من صممها؟ التفاحة حجمها معتدل، وقوامها معتدل، وقشرها حاجز يمنع تلوثها، وطعمها طيب، لو أنها مفيدة وطعمها مر، لو أن طعمها طيب وليست نافعة، لو أنها نافعة ومفيدة وقوامها صخري كالصخر، تصور خصائص التفاحة، هذا العنب الذي تأكله، هذا الحليب الذي تشربه، هذا الخبز الذي تتناوله، هذا معنى بسم الله، تذكر نعم الله، دخلت البيت، هذا المأوى من أكرمك به؟ أمامك زوجة من أكرمك بها؟ إنه الله عز وجل، أمامك أولاد يملؤون البيت فرحاً، من منحك إياهم؟ الله عز وجل.

5 ـ من معاني البسملة أيضاً أن تتذكر نعم الله عليك :

البسملة من أجل أن تتذكر نعم الله عليك، أنا آكل بسم الله، هذا الطعام من خلق الله، وهذا الخبز من خلق الله، وهذه الفاكهة من خلق الله، وهذا الماء من خلق الله، وهذا البيت من فضل الله، وهذه الزوجة من فضل الله، وهؤلاء الأولاد من كرم الله، هذا معنى بسم الله، هذا بسم الله الذي خلق.

(واقرأ بسم ربك الذي خلق)

أخواننا الكرام، الله عز وجل خلقك، أعطاك قدرات، أعطاك ذاكرة، الذاكرة حجمها كحجم حبة العدس، تتسع لسبعين مليار صورة، من أعطاك هذه الذاكرة؟ لولا هذه الذاكرة لنسيت كل المعلومات، ما عرفت أولادك، لولا هذه الذاكرة لأصيب الإنسان بفقد ذاكرة فيدخل عليه ابنه فيسأله: من أنت؟ فقد الذاكرة مرض خطير، قال له: من أنت؟ لِمَ دخلت عليّ؟ ابنه ولم يعرفه.

الأمر كلّه بيد الله عز وجل :

لكن هناك أشياء دقيقة جداً أن إنساناً شاباً في ريعان الشباب، يتزوج شابة في ريعان الشباب، ولا ينجبان، هناك قوانين يعطلها الله عز وجل، والسيدة مريم حملت من دون زوج، هذا السبب إما أن يعطل، أو أن يلغى، معنى هذه القوانين التي أنت بفضلها تعيش هي بيد الله أيضاً يمكن أن يعطلها، أو أن يلغيها، الزوج والزوجة الشابان لا ينجبان تعطلت هذه القوانين، ويمكن لامرأة كالسيدة مريم العذراء أن تلد من دون زوج، بالحالة الأولى تعطلت هذه القوانين، وبالحالة الثانية ألغيت هذه القوانين، الأمر بيد الله عز وجل.

هذه لست طرفة، الإنسان بكل ما أوتي من علم، وقوة، وتقدم تقني، وسبر لأغوار الفضاء، وأغوار السحاب، لا يستطيع أن يتنبأ بالزلزال ولا قبل ثانية واحدة، علماء كبار يحملون شهادات من أكبر الجامعات، مختصون بالزلازل، وهناك مخابر، ومناظير، وتلسكوبات، وأجهزة بالغة الدقة، ولا يستطيعون أن يتنبئوا بالزلزال ولا قبل ثانية واحدة، بينما الحمير تتنبأ قبل عشرين دقيقة، وفي زلزال تسونامي هناك قرية نجت بأكملها لأنها قلدت الدواب، شعروا بالزلزال فانطلقوا إلى خارج المدينة، أهل البلدة تبعوهم فنجوا، الله عز وجل يعطي، يعطي ويمنع، منع عن الإنسان أن يعرف أن يتنبأ بالزلزال، سمح للبهائم أن تتنبأ بالزلازل قبل عشرين دقيقة.

يعطي بقدر ويمنع بقدر، فكل شيء بين يديك هو بفضل الله، وبحكمة الله، وبقدرة الله، وبرحمة الله، وبغنى الله عز وجل، فإذا أكلت بسم الله، وإذا شربت بسم الله، وإذا دخلت بيتك بسم الله، الإنسان إذا دخل بيته وقال: السلام عليكم، وجلس إلى الطعام وقال: بسم الله، يقول الشيطان لإخوانه: لا مقام لكم في

هذا البيت، صاحبه دخل فسلم، وجلس إلى الطعام وسمّى، قال: إذا دخل ولم يسلم، وجلس إلى الطعام ولم يسمِ يقول الشيطان لمن حوله: أدركتم المبيت والعشاء في هذا البيت.

قل: بسم الله، تمشي بسم الله، هناك إنسان لا يمشي، ترى بسم الله، هناك إنسان لا يرى، تنطق بسم الله، الآن العقل بيد الله عز وجل، تكون شخصاً مهماً جداً عندك أسرة، وأولاد، ومكانة، ووظيفة عالية جداً، ومركبات عديدة، و تكون مهيمناً، ومسيطراً، وتحت يدك مئات الأشخاص تصاب بعقلك، فأقرب الناس إليك يتوسلون لكل من يعرفونه أن يكون لك مكان في مستشفى المجانين، أليس كذلك؟ أما إن كان عندك عقل في رأسك، فسوف يهديك إلى الصواب، عندك نطق، عندك سمع، عندك بصر، عندك أجهزة سليمة معافى بها، عندك مأوى.

لذلك مرة ملك سأل وزيره: من الملك؟ قال له: أنت، قال له: لا، لست أنا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيت يؤويه، ورزق يكفيه، وزوجة ترضيه، هذا ملك.

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبه، مُعافى في جَسَدِهِ، عندهُ قوتُ يومِه، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه الترمذي عن عبيد الله بن محصن]

والله أيها الأخوة، هناك أمراض عضالة تجعل حياة الناس جحيماً لا يطاق، يتمنى الموت فلا يجده، فإذا كان الإنسان صحيح الجسم، معافى، لا يوجد عنده مشكلة، غير ملاحق، آمن في بيته، له زوجة مستقيمة، له أولاد أبرار، والله لو سجد لله كل يوم عشرات المرات لا يوفي جزاء هذه النعمة.

معنيان كبيران للبسملة :

أخواننا الكرام، هناك في ذهني معنيان كبيران للبسملة، إذا قلت: بسم الله وأنت تشرب هل فكرت في هذا الماء العذب الذي جعلك الله تشربه؟ كان ماء ملحاً في البحار، جاءت أشعة الشمس بخرته فأصبح بخاراً، ارتفع إلى السماء فأصبح سحاباً ـ هناك آلية بالغة التعقيد ـ ثم أصبح مطراً، فهطل على رؤوس الجبال والسهول، وسال في الينابيع، وتفجر ماء عذاباً، زلالاً، بسم الله، فكرت في هذه النعمة؟ دخلت إلى بيتك فكرت في هذه النعمة؟ مأوى، البيت مأوى، تناولت الطعام فكرت في هذه النعمة؟ هناك إنسان يعيش على السيروم، يشتهي أن يأكل أقل شيء، ممنوع من أن يأكل، فإذا كنت تأكل ما تريد، وساكن في بيت، وعندك قوت يومك، ولم تشكر الله على هذه النعمة، هذه مشكلة كبيرة جداً، هذا المعنى الأول للبسملة.

المعنى الثاني: هل تأكل وفق منهج الله؟ هل هذا الطعام حلال ومن كسب حلال؟ هذا اللقاء هل يرضي الله؟ هل هذه السفرة في مرضاة الله؟ هذا معنى بسم الله.

البسملة لها معنيان، أن تذكرك بنعم الله، وأن تذكرك بمنهج الله، اصبر.

((قال : هل عندكم طعام ؟ فإذا قلنا : لا، قال : إني صائم))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين]

دخلت إلى البيت هل تتعامل مع الزوجة كما وجهك النبي الكريم؟ هذه بسم الله، تناولت الطعام، هل تأكله وفق منهج الله؟ البسملة تعني أن تذكر فضل الله، وأن تتحرك وفق منهج الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (03-70):تفسير الآيتان 1-2 ، البراءة تناقض الاستمساك.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-03-26

بسم الله الرحمن الرحيم

العبادة عبادتان؛ عبادة شعائرية وعبادات تعاملية :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث من دروس سورة التوبة، ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

أيها الأخوة الكرام، لابدّ من تمهيد لهذه الآيات، فكلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نعبده، ولكن العبادة عبادتان، عبادة شعائرية وعبادات تعاملية.

فالعبادة الشعائرية: الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة.

والعبادة التعاملية: الصدق، والأمانة، وإنفاذ العهد، وتحقيق الوعد، وما إلى ذلك.

يؤكد العبادة التعاملية أن سيدنا جعفر رضي الله عنه حينما سأله النجاشي عن الإسلام ذكر العبادة التعاملية، فقال:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء)).

[أخرجه ابن خزيمة عن عفر بن أبي طالب]

إلى آخر القيم الأخلاقية.

الإسلام كيان أخلاقي و قيمي :

لذلك الإسلام كيان أخلاقي، كيان قيمي، كيان مبادئ، كيان سلوك، هذا هو أصل الدين، والإيمان هو الخلق، ومن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان، والصفة الأولى التي مدح بها النبي عليه الصلاة والسلام هي:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

فلذلك تصور إسلاماً بلا خلق، طقوس، العبادات تؤدى أداءً شكلياً، مساجد، أبنية، تحف، صور، رموز، أطر، الإسلام قيم أخلاقية، فالصحابة الكرام وصلت راياتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، بقيم أخلاقية أصيلة.

هذا الصحابي في أثناء هجرته قبض عليه المشركون، قال لهم: عهداً لله إن أطلقتموني لن أحاربكم، فأطلقوه، فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام وحدثه بما حصل فرح فرحاً شديداً، لكن بعد فترة من الزمن كان هناك غزوة، فمن شدة تلهفه للجهاد هذا الصحابي الذي عاهد المشركين ألا يقاتلهم انخرط في عداد هذه الغزوة، فقال له النبي: ارجع ألم تعاهدهم؟.

بهذه القيم وصل الدين إلى مشارق الشرق، ومغارب الغرب، وصل إلى الصين، وإلى مشارق باريس، ولن يمتد الدين إلا بالقيم الأخلاقية، لن ينتشر الدين إلا بالقيم الأخلاقية، لن يدخل الناس في دين الله أفواجاً إلا إذا كان الناس أخلاقيين، ما الذي يفرقنا عن الصحابة؟ جوامعنا رائعة، ممتلئة، كل الشعائر في أعلى مستوى، مكتبات، مؤتمرات، مظاهر إسلامية صارخة، لكن هذا الحب وهذه القيم التي عاشها الصحابة نفتقدها اليوم.

العبادة الشعائرية لا نقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

أخواننا الكرام، أنا لا أصدق أن يخدع المسلم أخاه، أو أن يغشه، أو أن يكذب عليه، أو أن يحتال عليه:

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب)).

[أخرجه الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

فإذا كذب وخان ليس مؤمناً.

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب)).

ما دام التركيز في الدعوة الإسلامية على أداء العبادات الشعائرية، وعدم الاهتمام في العبادات التعاملية فهذه العبادات الشعائرية لا نستطيع أن نقطف ثمارها، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، من المسلمات أن العبادة الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية.

((يؤتى بأناس يوم القيامة لهم أعمال كجبال تهامة يجعلها الله هباء منثورا، قيل: يا رسول الله جلّهم لنا ـ أي صفهم لنا ـ قال: إنهم يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها)).

[ورد في الأثر]

((قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوماً : " أتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ ؟ قالوا : المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال : إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار)).

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذا الدين، هذه الصلاة، الصوم:

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعمَلَ بهِ، فليسَ للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشَرَابَهُ)).

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

فليس لله حاجة لا في جوعه، ولا في عطشه.

((رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش)).

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

هذا الصيام، الحج:

((من حج بمال حرام فقال : لبيك اللهم لبيك ، قال الله له : لا لبيك ولا سعديك حجك مردود عليك)) .

[الأصبهاني في الترغيب عن أسلم مولى عمر بن الخطاب]

الزكاة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية.

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام)).

[ورد في الأثر].

هذا الكلام يعني ألا تضيع وقتك، ألا تتحرك حركة لست نافعة إطلاقاً، ما لم تستقم على أمر الله لن تقطف من ثمار الدين شيئاً، كيف أن التجارة فيها آلاف النشاطات، من شراء محل، إلى شراء مستودعات، إلى شراء مكاتب استيراد، إلى تعيين موظفين، إلى تعيين مندوب مبيعات، إلى عرض البضاعة، إلى السفر، إلى المعارض، إلى استيراد البضاعة، إلى تخليصها، إلى تخزينها، إلى عرضها، إلى بيعها، إلى جمع أموالها، عشرات، بل ألوف النشاطات، لكن كل هذه النشاطات تضغط بكلمة واحدة: إنه الربح، إن لم تربح فلست تاجراً.

والدين إنشاء مساجد، إنشاء معاهد شرعية، إنشاء مؤتمرات، عقد ندوات، تأليف كتب، كل هذه النشاطات يمكن أن تضغط بكلمة واحدة، إنها الاستقامة، فإن لم تستقم لن تقطف من ثمار الدين شيئاً.

الإيمان مرتبة علمية و أخلاقية :

لذلك أحياناً يأتي الحديث عن الصلاة، وعن أنها عماد الدين، وسيدة القربات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، وهناك حديث طويل عن الصيام، وعن الحج، وعن الزكاة..إلخ، وهناك حديث أطول عن العبادات التعاملية.

فالمؤمن، كلمة مؤمن ماذا تعني؟ كلمة دكتور ماذا تعني؟ هناك مصطلح معاصر في أي بلد في العالم تعني أن حامل هذه الشهادة معه شهادة ابتدائية، إعدادية، ثانوية، لسانس، دبلوم عامة، دبلوم خاصة، ماجستير، دكتور، كلمة دكتور، أو حرف دال قبل اسم هذا الإنسان معنى ذلك أنه يحمل كل هذه الشهادات بالضبط.

ماذا تعني كلمة مؤمن؟ كلمة مؤمن تعني على حقيقتها أن صاحب هذا اللقب يتمتع بمعرفة يفتقر إليها غير المؤمنين، عرف الله، عرف خالق السماوات والأرض، عرف حقيقة الحياة الدنيا، عرف حقيقة وجود الإنسان، عرف من أي جاء؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ عرف سرّ وجوده، عرف غاية وجوده، فكلمة مؤمن مرتبة علمية.

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلمه.

كلمة مؤمن تعني أنها مرتبة أخلاقية، هذا الإنسان لا يكذب، لا يغش، لا يحتال، لا يتآمر، يعمل بالنهار، لا يوجد عنده شيء معلن وشيء غير معلن، سره كعلانيته، وعلانيته كسره، باطنه كظاهره، وظاهره كباطنه، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها)).

[أخرجه ابن ماجه والحاكم عن العرباض بن سارية]

المشكلة أن اثني عشر ألفاً من المؤمنين الصادقين في الأرض لن يغلبوا.

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ)).

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

فإذا كان مجموع الأمة يزيد عن مليار وخمسمئة مليون، وليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، ويملكون أكبر الثروات، وشعوبهم أفقر الشعوب، كيف نفسر ذلك؟ نفسر ذلك كما قال الله عز وجل:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم]

وقد لقي المسلمون ذلك الغي.

الإسلام منهج تفصيلي :

أخواننا الكرام، لا تتصوروا أبداً أن الإسلام أن تصلي فقط، أن تكتفي بالصلاة، وأن تصوم رمضان، وأن تحج البيت، وأن تؤدي الزكاة، وانتهى كل شيء، لم ينتهِ شيء من هذا، الإسلام منهج، منهج تفصيلي، يغطي كل نشاطات حياتك، كما أقول دائماً وأكرر: بدءاً من فراش الزوجية وانتهاءً بالعلاقات الدولية، منهج.

فلذلك من هو البطل؟ الذي يدرس هذا المنهج، ويطبقه في زواجه، في اختيار زوجته، في تربية أولاده، في عمله، في كسب ماله، في إنفاق ماله، في مناسباته الحزينة ـ لا سمح الله ـ وفي المناسبات السعيدة، كيف تتحرك؟ أنت كائن متحرك تتحرك بدافع إلى الطعام والشراب حفاظاً على بقائك كفرد، تتحرك بدافع إلى الزواج حفاظاً على بقاء النوع، تتحرك بدافع إلى تأكيد الذات حفاظاً على بقاء الذكر، هذه الحركة من ينظمها؟ منهج رباني.

ببساطة ما بعدها بساطة، تقتني آلة غالية الثمن، عظيمة النفع، معقدة التركيب، ومعها نشرة، أي إنسان يقتني آلة غالية جداً ومعها نشرة حفاظاً على سلامتها، وحفاظاً على أدائها أداءً كاملاً لا يستعملها قبل أن يقرأ تعليمات الصانع، ببساطة بالغة أنت أعقد آلة في الكون، ولهذه الآلة صانع حكيم، ومربٍ رحيم، هذا الكتاب معه تعليمات الصانع مشروحاً من قبل المعصوم، فهذا الكتاب والسنة هما المنهج، فإذا أردت المنهج، أردت سعادتك، أردت استمرارك من قبل أولادك، طبق تعليمات الصانع، إذا أردت أن تسلم وتسعد، وأن تنجح في الدنيا والآخرة، وأن تكون من الفالحين، طبق تعليمات الصانع.

تكامل العبادات الشعائرية مع القيم الأخلاقية :

أنا في هذه المقدمة أريد أن أركز على أن الدين في حقيقته مجموعة قيم أخلاقية مع مجموعة عبادات شعائرية، العبادات الشعائرية والقيم الأخلاقية تتكاملان، وكلاهما شرط لازم غير كافٍ، أن تقول لي: أنا أخلاقي لكن لا أصلي، مرفوض عملك، لابد من أداء الصلوات لأنها فرض على كل مسلم، الأخلاقيات من دون عبادات لا قيمة لها، والعبادات من دون أخلاق لا قيمة لها، التعبير المعاصر: كلاهما شرط لازم غير كافٍ، العبادات، والمعاملات، فديننا دين عبادات شعائرية، كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، ودين عبادات تعاملية كالصدق، والأمانة، والعفة، وأداء الواجبات، وإنجاز الوعد، والحفاظ على العهد.

فإذا فهمنا الدين مجموعة عبادات شعائرية لا غير أخطأنا الهدف، وإذا فهمنا الدين مكارم أخلاقية ولا تحتاج إلى عبادات أخطأنا الهدف، ما لم يكن الدين بجناحيه جناح العبادات الشعائرية مع جناح العبادات

التعاملية، لن نحلق في سماء السعادة إطلاقاً، الدين مجموعة عبادات شعائرية، مجموعة مبادئ أخلاقية، فإذا حلقنا في السماء بهذين الجناحين معاً سعدنا وسلمنا، وإذا اكتفينا بجناح واحد وقعنا.

البراءة و العصمة :

أيها الأخوة الكرام، هذه السورة سورة التوبة بدأت بقوله تعالى:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

فالبراءة تناقض الاستمساك، بيني وبين فلان عهد أنا مستمسك به، مطبق لشروطه، والبراءة من هذا العهد أن ألغي هذا العهد، وأن أتحرر من قيود هذا العهد.

أخواننا الكرام، العصمة الاستمساك، والآية الكريمة:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

[سورة آل عمران الآية: 103].

العصمة أن تستمسك بهذا الشيء، العصمة أن تستمسك ببنود هذا العقد، العصمة أن تستمسك ببنود هذا العهد، العصمة أن تستمسك ببنود هذا الوعد، هذه العصمة استمساك، والبراءة انقطاع العصمة، قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة آل عمران]

(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا)

[سورة هود الآية: 43]

فلذلك البراءة تعني أنه كان هناك عهداً بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، المشركون نقضوا هذا العهد، فلا معنى أن يستمسك المسلمون بهذه البنود، من السذاجة والخطأ أن يبقى المسلمون مستمسكين بهذا العهد، لذلك جاءت البراءة من الاستمساك بهذا العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، هذه البراءة لم تأتِ من إنسان، بل جاءت من الواحد الديان،

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

أي البراءة بسبب أمر إلهي بلغها النبي

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

للتوضيح: فلان برأ من الدَّين؛ كان الدائن ممسكاً به، فلما أدى الدَّين أطلقه، برأ من المرض؛ كان المرض ممسكاً بهذا الإنسان، أقعده في الفراش، ترك عمله، فلما شفي هذا المريض انطلق إلى عمله، فبرأ أي خرج من هذا القيد، كان المرض قيداً، وكان الدَّين قيداً، فالبراءة خروج من هذا القيد.

على الإنسان أن ينضم إلى المؤمنين و يعيش معهم :

أيها الأخوة، كان عليه الصلاة والسلام قد عاهد قريشاً، وعاهد اليهود ولم يوفِ هؤلاء بعهدهم، لذلك كان لزاماً أن تنقض هذه العهود، وقد يقول قائل والسؤال وجيه: النبي عليه الصلاة والسلام فتح مكة في العام الثامن للهجرة، وجاءت هذه البراءة في العام التاسع، فالسائل يسأل: لِمَ تأخرت البراءة من هذه العهود عن عام الفتح؟ هناك من أجاب فقال: النبي عليه الصلاة والسلام حرر المكان أولاً بفتح مكة، وتكسير الأصنام، وعبادة الواحد الديان، وفي العام التاسع حرر القاطنين بمكة من هذه العهود التي هم نقضوها بالأساس.

لكن العبرة أن الحياة أحياناً تختلط فيها الأوراق، والاختلاط خطير جداً، أي أوراق المؤمنين مختلطة مع أوراق الكفار، مع أوراق المشركين، مع أوراق المنافقين، فالبطولة أن يتمايز كل فريق على حدة.

أحياناً يذهب إنسان لبلاد الغرب، يسكن في أحد أحياء هذه المدينة، كل من حوله أناس لا يعرفون الدين إطلاقاً، لا يوجد عندهم انضباط إسلامي، ولا انضباط أخلاقي، تجد هذه المعيشة مع هؤلاء، مع الاختلاط، مع التداخل، يبعث ابنه إلى المدرسة، بالمدرسة مبادئ وقيم بعيدة عن مبدئنا وقيمنا، بعيدة بعد الأرض عن السماء، فما يعد عندنا جريمة يعد عندهم تسلية ولا شيء فيها.

فلابد من أن يجتمع المؤمنون في مكان واحد يقيمون الصلوات، عندهم مسجد، عندهم لحم حلال، عندهم طعام إسلامي، أولادهم ينشؤون مع أولاد أخوانهم في مسجد صغير، فلذلك الإنسان ينبغي أن ينضم إلى المؤمنين، وأن يعيش معهم.

للانضمام إلى مجموع المسلمين ثمار كبيرة جداً :

يترتب على الانضمام إلى المسلمين ثمار كبيرة جداً، من هذه الثمار أن الله أشار إليها، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة]

كن معهم، انضم إليهم، اجلس معهم.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف]

إذاً لا بدّ من أن تنضم إلى جماعة المؤمنين.

((والجماعة رحمة والفرقة عذاب)).

[أخرجه الطبراني عن النعمان بن بشير]

لا تستطيع أن تستقر على أمر الله إلا إذا كنت مع المؤمنين، الأخ المؤمن، يقول لك: هل صليت العصر؟ قم لنصلِّ، الأخ المؤمن يخاف من الله، الأخ المؤمن يغض بصره، الأخ المؤمن عفيف، إذا صاحبت مؤمناً تقويت به على طاعة الله، وإذا صحب الإنسان فاسقاً قواه الفاسق على معصية الله، لذلك:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ)).

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

فكأن هذه البراءة جعلت التمايز واضحاً جداً بين المؤمنين، وبين المشركين، وبين المنافقين.

من كان مع المؤمنين كانوا حصناً له :

الآية الكريمة:

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة النساء الآية: 115]

معنى ذلك أن للمؤمنين سبيلاً، هناك قيم ومبادئ بين المؤمنين، المؤمن لا يغش، ولا يخدع، ولا يخون، ولا يكذب، هذه حدود دنيا للإيمان، فإذا كنت مع المؤمنين كانوا حصناً لك.

((عليكم بالجماعةِ، وإيَّاكُم والفُرْقة، فإنَّ الشيطانَ مع الواحد، وهو من الاثنين أبعدُ ـ وإنما يأكل الذئب من الغنم القاسيةـ)).

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

إذاً عن طريق هذه البراءة من العهود التي لم تطبق، والمواثيق التي انتهكت، تمايز المؤمنون عن غيرهم من المشركين، وعن غيرهم من المنافقين.

البراءة التي نزلت ليست من البشر لكنها من خالق البشر :

الشيء الدقيق في هذه الآية: أن هذه البراءة ليست من البشر، لكنها من خالق البشر لأن خالق البشر:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه]

يعلم ما تسره، ويعلم ما لا تعلمه،

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

لذلك عبر الإمام علي رضي الله عنه بهذه المقولة: **"علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون".**

فهذه البراءة من الله، من العليم، من الخبير، من الذي لا تخفى عليه خافية، إذاً هو أمر إلهي، لأنه

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

رحمة الله عز وجل بعباده :

لكن بعد هذه الآية:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

لكن لئلا نتهم أننا أخذناهم على حين غرة، قال تعالى:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

ملمح رائع جداً، أضرب مثلاً بسيطاً: في بلد ما يتساهلون في موضوع أخذ رسوم البضاعة المستوردة، فمعظم المحلات فيها مخالفات، أي فيها بضاعة جاءت بطريق غير نظامي، مرة سمعت قراراً في دولة مجاورة أعطت الناس أربعة أشهر فرصة لتدبر شؤونهم، وتأمين رخص لبضاعتهم، بعد هذه الأشهر الأربع، يبدأ التفتيش، أنا لفت نظري أن هذا القانون حضاري، فالبطولة أن تعطي هذا الإنسان فرصة. الآية دقيقة جداً، يا أيها الذين أشركتم، نقضتم عهدكم مع محمد عليه الصلاة والسلام معكم مهلة أربعة أشهر،

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ)

أي تحركوا على مهل، اطمئنوا لن نحاربكم، أعطى الله عز وجل هؤلاء الذين نقضوا عهودهم مع رسوله أعطاهم فرصة أربعة أشهر.

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ)

أي تحركوا برخاء، بيسر، مثل السياحة، على الإنسان الذي يركب مركبته للنزهة ألا يسرع، لأن الطريق نزهة، الطريق جميل جداً، يمشي ببطء، هذه الفسحة.

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ)

لكن بعد هذه الأشهر الأربع سوف تطبق عليكم قوانين صارمة، هذا درس لنا، أنت أب، معلم، مدير مؤسسة، رئيس جامعة، مدير مستشفى، هناك فوضى، أعطِ مهلة لضبط الأمور، وبعدها حاسب، معنى ذلك أنك لم تأخذ أحداً على حين غرة، ليست القضية قنصاً، وأنا أقول: أي قانون يصدر حديثاً ويعطي المواطنين مهلة لتدبر شؤونهم قانون حضاري.

أحياناً مثلاً نرفع الرسوم الجمركية ضعفين، متى؟ هناك بضائع دفعت رسومها، فإذا وصلت إلى الميناء ينبغي أن نأخذ الرسوم السابقة، على أساس أنه قدم فواتير، وقدم أسعاراً، وقدم أشياء بالنظام السابق،

فكلما كان النظام راقياً وحضارياً يعطي مهلة لمن سيطبق عليهم النظام، كي يتدبر أمره وبعد ذلك الحساب.

الأحمق من اعتدّ بقوته مع الله عز وجل :

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

فرضنا أن هذا الذي أعطي المهلة كان قوياً جداً، لم يعبأ بهذه المهلة، على رسلك، أنت لا تعجز الله عز وجل، مع الله لا يوجد قوي، مع الله لا يوجد ذكي، مع الله هناك مستقيم، لذلك يؤتى الحذر من مأمنه، وأي إنسان يعتد بقوته مع الله أحمق، وأي إنسان يعتد بذكائه مع الله أحمق، مع الله هناك مستقيم، المستقيم ينجو، أما القوي لا ينجو،

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ)

أنت في قبضته، في قبضته دائماً، أي نقطة دم لا ترى بالعين، بحجم رأس الدبوس تتجمد في أحد فروع الشرايين في الدماغ بمكان شلل، بمكان فقد ذاكرة، بمكان عمى، أعوذ بالله! كل شأنك، وقوتك، وحجمك المالي، وهيمنتك، وسيطرتك، تتوقف على خثرة دم تتجمد بالدماغ.

ملك بأوج قوته أصيب بخثرة بالدماغ، انتهى، بقي عشر سنوات درجة عاشرة، فأنت في قبضة الله، لا تقل: أنا، كل أموالك منوطة بضربة قلبك، توقف القلب انتهى كل شيء، كل مكانتك، وأموالك، وهيمنتك منوطة بسيولة الدم، تجمد الدم في العروق، احتشاء، انتهى كل شيء، كل أموالك، ومكانتك، وهيمنتك بنمو الخلايا، فإذا نمت نمواً عشوائياً انتهيت، أنت بكلمة.

لذلك:

(واعلموا)

أيها الذين عاهدتم، ونقضنا عهدنا معكم، ألا تعتدوا بقوتكم

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

للتقريب: ثلاثون دولة، من أقوى الدول في العالم، معها أسلحة فتاكة، طيران، على أقمار صناعية، على قنابل عنقودية، على قنابل فسفورية، على قنابل حارقة، وخارقة، وليزرية، وقواعد، وحاملات طائرات، وصواريخ عابرة للقارات، ثلاثون دولة، لم تستطع أن تقف أمام مقاتلين، مقاتل يحمل بندقية فقط، 73% من هذه البلاد أصبحت بيد المقاومين، هذا درس بليغ، إذا كان الله عز وجل معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

هناك معنى آخر: هذا الجندي الذي يحمل رسالة ضرب مليون جندي لا يحمل رسالة، الأمة ليس لها رسالة لها طموحات اقتصادية، أن تحتل منابع النفط، أن تحتل أماكن إستراتيجية، فهذه أهداف أرضية، ما دام لا يوجد مبادئ وقيم، الذين يقاتلون أشخاصاً بلا رسالة، والذين يدافعون عن دينهم، وعن أمتهم، وعن بلادهم، أشخاص معهم رسالة، فالفرق كبير جداً بين من يملك رسالة ومن لا يملك رسالة،

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (04-70):تفسير الآية 1 ، شرح معنى التوبة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-04-02

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب تسمية سورة التوبة بهذا الاسم :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع من دروس سورة التوبة، ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قد يسأل سائل لِمَ سميت هذه السورة بسورة التوبة مع أنها تفتتح ببراءة الله عز وجل

(إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قال بعض العلماء: الله عز وجل ما فتح باب التوبة إلا ليتوب على المذنبين، ولا فتح باب المغفرة إلا ليغفر لهم، وما فتح باب الصلح معه إلا ليصطلح معه، فكأن الله سبحانه وتعالى أرادنا أن نتوب، لذلك قال تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء الآية: 27]

تصور أن هذا الدين العظيم ليس فيه توبة، ما الذي يحصل؟ يقع المذنب باليأس فإذا وقع باليأس تفاقمت ذنوبه، وكان في ذنب بسيط فأصبح يرتكب الكبائر، لأنه لا توبة له.

الله عز وجل فتح باب التوبة ليتوب على عباده :

لذلك الله عز وجل فتح باب التوبة، والحقيقة الإنسان حينما يذنب الذي يغطي هذا الذنب التوبة، والله عز وجل:

(يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة]

وقد ورد:

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكر

أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم ـ لأنه يحب التوابين ـ وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

فالله جلّ جلاله بحسب هذا النص حبيب أو طبيب، حبيب إن تبت إليه، وطبيب إن لم تتب إليه.

((أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

لذلك مهما يكن الذنب كبيراً، لأن الله عز وجل يقول:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف الآية: 156]

والذنب شيء، مهما كان الذنب كبيراً، والدليل الآخر:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 35]

مهما كثرت، ومهما كبرت.

اليأس والإحباط وعدم المبادرة إلى التوبة جهل كبير بكمال الله عز وجل :

لذلك الذي ييئس من توبة الله عليه يعد هذا اليأس نوعاً من أنواع الكفر بالله، الذي ييئس من توبة الله، أو من قبول توبة الله، يعد هذا اليأس نوعاً من الكفر، فاليأس، والإحباط، وعدم المبادرة إلى التوبة جهل كبير بكمال الله عز وجل، والدليل:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

بل ينتظركم، ورد في الأثر القدسي:

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إليّ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين؟))

[ورد في الأثر]

إذا قال العبد: يا ربي وهو راكع، يقول الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا ربي وهو ساجد، يقول الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا ربي وهو عاصٍ، يقول الله له: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك.

ألا تعلم أيها الأخ كما ورد في الحديث الصحيح:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

ضال ضلّ عنه شيء ثمين، إنسان في الصحراء ضلت عنه ناقته، النتيجة موت محقق.

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

له في زواجه عشرون عاماً لم ينجب، ثم فوجئ بأن زوجته حامل، هذا العقيم الوالد، والذي أوشك على الموت عطشاً ثم اهتدى إلى نبع ماء.

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يروي قصة أعرابي أراد أن يقطع الصحراء على ناقة له، وعلى ناقته طعامه، وشرابه، وزاده، أدركه التعب فجلس ليستريح، فأخذته سنة من النوم، فلما أفاق لم يجد الناقة، أيقن بالهلاك وبكى وبكى، حتى أخذته سنة نوم ثانية فأفاق فرأى الناقة، فمن شدة فرحه نطق بالكفر قال: يا رب أنا ربك وأنت عبدي، يقول عليه الصلاة والسلام كتعليق: **" لله أفرح بتوبة عبده من هذا البدوي بناقته".**

هل هناك وضوح أشد من هذا الوضوح؟

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

باب التوبة باب رحمة الله :

النقطة الدقيقة هناك آية ثانية:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

فالذنب يقابله التوبة، مهما كبر، أو مهما كثرت الذنوب، فأسماء الله الحسنى أحياناً تأتي بصيغ المبالغة، الله عز وجل تواب صيغة مبالغة، والمبالغة المتعلقة بأسماء الله الحسنى، تعني مبالغة كم، أو مبالغة نوع، أي مليون ذنب، أو أكبر ذنب.

فلذلك بعض العلماء أشار إلى أن هذه السورة تبدأ ببراءة

(اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

براءة من الله، وعنوان هذه السورة سورة التوبة، كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: هؤلاء الذين نقضوا عهد الله، وتبرأ الله منهم ومن عهدهم، أمامهم باب التوبة، باب التوبة يعني رحمة الله، الله عز وجل ينتظرنا ليتوب علينا.

لذلك الحديث عن التوبة حديث طويل، وحديث يبعث الأمل في النفس، وقد ورد أن المؤمن مذنب تواب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ بَنِي آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوابونَ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

وكأن باب التوبة باب رحمة الله، فالإنسان إذا أذنب عليه أن يتوب، لكن هناك إشارة دقيقة إلى أن المؤمن يتوب من قريب، أي لا يدع مسافة زمنية طويلة بين الذنب وبين التوبة منه، وكلما جاءت التوبة قريبة من اقتراف الذنب كان قبولها أسرع، وكانت راحة النفس معها أشد.

بطولة الإنسان إذا تاب من الذنب ألا يعود إليه :

لذلك الإنسان إذا مارس خطيئة، أو اقترف إثماً وثبت عليه:

(فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ)

[سورة الحديد الآية: 16]

عندئذٍ يصعب على هذا الإنسان الذي ارتكب هذا الخطأ أن يتوب منه، لكن الله يقبل توبته، أول توبة سهلة جداً، وقد عبّر عنها بعضهم بهذه الكلمة البسيطة: الصلح مع الله بلمح البصر، الصلحة بلمحة، لكن لو أن الإنسان أعاد الذنب مرة ثانية يجد صعوبة في التوبة، وكلما كرر الذنب وجد أن التوبة أصبحت أبعد مما يتوقع.

فالبطولة أن الإنسان إذا تاب من ذنب ينبغي ألا يعود إليه، لأنه إذا تاب منه، وقبل الله توبته، ثم عاد إليه باب التوبة مفتوح أمامه، لكن ليس بالبساطة والسهولة التي كانت في بداية التوبة.

إذاً رأي العلماء ـ علماء التفسير ـ أن هذه السورة سميت بالتوبة لأن الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ومع أن نقض العهد من الكبائر ـ فتح الله لهم باب التوبة، فجاءت هذه السورة على أنها افتتحت ببراءة

(اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

كأن هؤلاء الذين نقضوا عهد الله يقول الله لهم: لكن باب التوبة مفتوح لكم.

أنواع الذنوب :

شيء آخر: هناك ذنب يغفر، وذنب لا يترك، وذنب لا يغفر، أما الذنب الذي يغفر ما كان بينك وبين الله.

وأريد أن أبين للأخوة الكرام، أن هناك وهماً وقع به بعض المسلمين، هذا الوهم أنه إذا حجّ بيت الله

الحرام رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، والحديث صحيح، لكن أي ذنوب؟ التي بينه وبين الله وحده، هذه تغفر عقب الصيام، وعقب الحج، فالتوبة تعني أنه ما كان بينك وبين الله من الذنوب تغفر لمجرد أن تتوب إلى الله، لكن هناك آيات فيها ملمح:

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

[سورة الأحقاف الآية: 31]

هذه المن للتبعيض، أي يغفر لكم بعض ذنوبكم، يغفر لكم ذنوباً كانت بينكم وبين الله، أما الذنوب التي بينكم وبين العباد؛ حقوق لم تؤدَ، واجبات لم تؤدَ، قرض حسن لا يؤدَ، الذنوب التي بينك وبين العباد هذه الذنوب لا تغفر إلا بأحد حالتين؛ بالأداء أو بالمسامحة، ما كان بينك وبين العباد هذه الذنوب لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة، تؤدي هذا القرض الذي اقترضته يؤدي الله عليك، أو يأتي صاحب الدين يقول لك: سامحتك، وتنازلت لك عن هذا الدين، فالله عندئذٍ يغفر، أما ما كان بينك وبين العباد هذه الذنوب لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة، لأن هناك منطلقاً دقيقاً وهو أنه ما كان بينك وبين الله هذا مبني على المسامحة، وما كان بينك وبين العباد هذا مبني على المشاححة، لأن حقوق العباد ينبغي أن تؤدى.

حقوق العباد مبنية على المشاححة و حقوق الله مبنية على المسامحة :

لذلك قد لا تصدقون لأنه شيء غريب، هذا الذي ضحى بحياته في سبيل الله فكان شهيداً، ضحى بحياته، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، الإنسان أحياناً يضحي بماله، ينفق ماله كله.

((يا أبا بكر، ما أبقيتَ لأهلك ؟ قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب]

لم يبق شيئاً، لكن الإنسان قد يجود لا بماله، بل بروحه، بحياته، فجاء الحديث:

((يُغْفَرُ للشهيد كلُّ ذَنْب إلا الدَّيْنَ))

[أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

شهيد! ضحى بحياته، وضع روحه على كفه، قدّم حياته لله، قدّم لله أثمن ما يملك لكن عليه دين.

((يُغْفَرُ للشهيد كلُّ ذَنْب إلا الدَّيْنَ))

[أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

بل كان عليه الصلاة والسلام حينما يموت أحد أصحابه وهو في نية الصلاة عليه يقول لإخوانه ـ أخوان الميت ـ أعليه دين؟ فإن قالوا: نعم، لا يصلي عليه، يقول: صلوا على صاحبكم، شهيد! بذل حياته في سبيل الله، من أجل أن تعلموا أن حقوق العباد عند الله مقدسة.

لذلك ما كان بينك وبين الله القضية سهلة جداً، لأن ما كان بينك وبين الله مبني على المسامحة، لكن ما كان بينك وبين العباد مبني على المشاححة، فذنب يغفر ما كان بينك وبين الله، وذنب لا يترك ما كان

بينك وبين العباد، هذا الذنب الذي لا يترك إما أن تؤدي ما عليك، أو أن يسامحك الذي له حق عندك.

الشرك بالله ذنب عظيم لا يغفر :

إلا أن الخطورة في الذنب الثالث: وذنب لا يغفر، وهو الشرك بالله، وأذكر دائماً مثلاً يوضح هذه الحقيقة: إنسان له مبلغ كبير في حلب، ركب قطار حلب، اشترى بطاقة من الدرجة الأولى وركب خطأ في مقطورة الدرجة الثالثة، هذا خطأ لكن يغفر، لأن القطار في طريقه إلى حلب، فإذا وصل لحلب بقاطرة من الدرجة الأولى أو الثالثة لا يوجد مشكلة، هو خطأ دفع مبلغاً كبيراً واستهلك مكاناً من الدرجة الثالثة، لو أن هذا الراكب جلس مع شباب ليسوا منضبطين فانزعج كثيراً منهم هذا خطأ ثانٍ، لكن القطار في طريقه إلى حلب، والمبلغ الكبير سيقبضه، خطأ ثالث ليس معه طعام، تلوى من الجوع وهو لا يعلم أن في أحد المقطورات مطعم، هذا خطأ ثالث، لكن القطار باتجاهه إلى حلب، وسيصل إلى حلب، وسيأخذ المبلغ، هناك خطأ رابع ركب بعكس اتجاه القطار فأصيب بالدوار، هذا خطأ رابع، لكن القطار يتحرك نحو حلب، وسيصل إلى حلب بالوقت المناسب، وسيقبض المبلغ، كل هذه الأخطاء هي صعبة، تدفع مبلغاً ضخماً، وتركب مقطورة من الدرجة الثالثة، وتجلس مع شباب غير منضبطين، تصاب بالدوار، تتلوى من الجوع، لكن في النهاية القطار سيصل إلى حلب وستأخذ المبلغ الكبير، أما هناك خطأ لا يغفر أن تركب قطار درعا ليس هناك قبض مال و لا شيء تأخذه في هذا الاتجاه.

هذا الشرك بالله، فالشرك أن تتجه إلى غير الله، غير الله ليس عنده شيء، فعلى الإنسان أن يتجه إلى الله، لأن الله بيده كل شيء، بيده زواجك، بيده سعادتك، بيده صحتك، بيده التوفيق، بيده التأييد، بيده الحفظ، بيده كل ما تتمناه، كل مطامحك عند الله، فإذا كنت معه كان معك.

الله عز وجل يريدنا أن نتجه إليه، فإذا اتجهنا إليه غفر لنا كل الذنوب، أما إذا اتجهنا إلى غيره ليس هناك شيء.

لذلك: ذنب يغفر ما كان بينك وبين الله، وذنب لا يترك ما بينك وبين العباد، يغفر بإحدى الحالتين بالأداء أو المسامحة، وذنب لا يغفر وهو ذنب الشرك.

قد يسأل سائل: لا يغفر متى؟ لا يغفر إذا مات مشركاً، لكن إذا تاب من الشرك يغفر، لا يغفر إذا مات على الشرك، لكن حتى الذنب الذي لا يغفر لو أن الإنسان تاب من الشرك انتهى كل شيء.

لذلك وقفت وقفة متأنية عند سبب تسمية هذه السورة، كأن الله يقول لهؤلاء الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله، ونقض العهد من أكبر الكبائر، حتى هذا الذنب قابل للتوبة.

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

[سورة الأنفال الآية: 19]

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

مشاعر التائب مشاعر مسعدة :

أيها الأخوة، الآن:

((تابوا فتاب الله عليه))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

توبة الله إذا جاءت بعد توبة العباد تعني أن الله قَبِل هذه التوبة، وصدقوا ولا أبالغ أن الإنسان إذا تاب إلى الله يلقي الله جلّ جلاله في روعه أنه قَبِل توبته، من عظمة الله أنه إذا تاب عليك يطمئنك.

لذلك ورد في بعض الأقوال أنه: من وقف في عرفات، ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له، لأن الله سبحانه وتعالى من عظيم كرمه أنه إذا قَبِل توبتك أشعرك بذلك.

لذلك اسأل إنساناً حجّ بيت الله الحرام، وقَبِل الله توبته، فتراه يشعر بأن هموماً كالجبال أزيحت عن كاهله.

أخواننا الكرام، بالمناسبة: مشاعر التائب مشاعر مسعدة، هذا التائب يشعر كأنه يحلق بالسماء فرحاً بتوبة الله عليه، فأكبر ذنب يغفره الله إن تاب الإنسان منه، وليجعل الإنسان هذه الآية نصب عينه دائماً:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

والله عز وجل يقول:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف الآية: 156]

وأكبر ذنب هو عند الله شيء، ما دامت رحمة الله وسعت كل شيء أبشروا أيها الأخوة الكرام برحمة الله بنا، وتوبته علينا.

الله عز وجل رحمة بالإنسان يسوق له في الدنيا من الشدائد ما يحمله على التوبة :

أيها الأخوة، فإذا قال الله عز وجل:

(تابوا فتاب الله عليه)

أي قَبِل توبتهم، لكن هناك آية دقيقة جداً:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: 118]

ما معنى

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

يعني الله عز وجل رحمة بهذا الإنسان يسوق له في الحياة الدنيا من الشدائد ما يحمله على التوبة، وكل إنسان عنده نقطة ضعف، هناك إنسان نقطة ضعفه في ماله، فإذا ذهب ماله خرّ لله ساجداً وتائباً، وهناك إنسان نقطة ضعفه في صحته، و إنسان نقطة ضعفه في بيته، وإنسان في مكانته، الله عز وجل يسوق لهذا الإنسان مصيبة من الجهة التي يحرص عليها تماماً.

لذلك الله عز وجل خبير، وكلمة مصيبة ما سميت مصيبة إلا لأنها تصيب الهدف، اعلم علم اليقين أن المؤمن لا يمكن إلا أن يبتليه الله، فإذا ضعفت عبادته، وضعفت استقامته، يسوق له من الشدائد ما يحمله بها على التوبة.

مرة الإمام الغزلي يقول: **"يا نفس! لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها، لا شك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله؟ إذاً فما أكفرك، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله؟ إذاً فما أجهلك".**

إذاً أي إنسان لا يتوب مدموغ عند الله بالكفر بهذه النعمة الكبيرة جداً نعمة التوبة والجهل، أنت مع إنسان إذا عفا عنك تذوب محبة له، إنسان عليه دين يقدر بثلاثة و عشرين مليوناً فإذا قال له صاحب هذا المبلغ: مسامح، ألا يختل توازنه؟

الله عز وجل حينما يقول:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

بل إنَّ الله:

(يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

بل إنَّ الله:

(يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

بل إنَّ الله:

(يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

لذلك أيها الأخوة، إذا قلنا:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أي ساق لهم من الشدائد ما يحملهم بها على التوبة.

تعليق: ادخل إلى مسجد صدق ولا أبالغ 90% من رواد المسجد ساقهم الله إلى بيته بطريقة رائعة، لاح له شبح مصيبة فبادر إلى طاعة الله، لاح له شبح مرض فبادر إلى التوبة.

فالله عز وجل يسوق من الشدائد ما يحملنا بها على الطاعة، لذلك بطولتك أن تستجيب لخطة الله عز وجل التي تعني أن الله يريدك أن تتوب، أن تقبل عليه، أن تقلع عن الذنب، الله عنده وسائل يسوقها تباعاً، وهذا من نعمة الله عز وجل.

أخواننا الكرام، كأن هناك مراحل يخضع لها المؤمن.

الله عز وجل غني عن تعذيب العباد :

أخواننا الكرام، إذاً إذا قال الله عز وجل في آيات كثيرة:

(تابوا فتاب الله عليه)

أي فقبل توبتهم، أما إذا ورد

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أي من رحمته بنا يسوق لنا من الشدائد ما يحملنا بها على التوبة.

لذلك ورد في الحديث القدسي الصحيح:

((يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

يعني إبرة غمستها في مياه البحر.

((.... ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام ـ الآن دققوا ـ فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

هذا حديث دقيق جداً، لا تقل: لا حظ لي، لا تقل: الدهر يومان يوم لك ويوم عليك، كلام ليس له معنى إطلاقاً، لا تقل: قلب لي الدهر ظهر المجن، لا تقل: سخر القدر مني، كله كلام ليس له معنى إطلاقاً.

((فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

لذلك الله عز وجل غني عن تعذيبنا، يقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء]

غني عن تعذيبنا، أي شيء لا ترتاح له ابحث عن المشكلة التي سببت هذا الشيء، ابحث عن المخالفة، ابحث عن المعصية، هذا الذي يمكن أن يكون سبباً لما يعاني الإنسان منه.

باب التوبة مفتوح على مصارعه إلى يوم القيامة :

أيها الأخوة الكرام، لكن في النهاية إذا أعاد الذنب كثيراً صعبت عليه التوبة، فليوطن نفسه أنه إذا تاب من ذنب ألا يعود إليه، لأن الله سبحانه وتعالى يقبل التائب لمجرد أن يقول كلمة واحدة: يا رب لقد تبت إليك، فكأن الله سبحانه وتعالى يخاطبه ويقول: يا عبدي وأنا قد قبلت.

إذاً أكبر باب يعني رحمة الله هو باب التوبة وهو مفتوح على مصارعه إلى يوم القيامة، فالإنسان ما عليه إلا أن يراجع نفسه، وأن يتوب، وأن يتوجه إلى الله عز وجل، وأحياناً عندما يتكرر الذنب يشعر الإنسان بصعوبة في التوبة، ما الحل؟ الحل:

((وأتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسَنَةَ تَمْحُهَا))

[أخرجه الترمذي عن أبي ذر الغفاري]

أصبحت بحاجة إلى التوبة، وإلى عمل صالح، إلى صدقة، إلى صيام، فعندما يحس الإنسان أن هذا الذنب وقع به كثيراً، وكأن الله لا يقبل توبته، يضيف إلى التوبة عمل صالح، أو يضيف صدقة.

((وأتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسَنَةَ تَمْحُهَا وخالِقِ الناسَ بخلُق حسن))

[أخرجه الترمذي عن أبي ذر الغفاري]

سورة التوبة أعطت للكفار و المنافقين و المؤمنين خصائصهم :

أخواننا الكرام، في هذه السورة ـ سورة التوبة ـ حوار مع المشركين، ومع أهل الكتاب، ومع المنافقين، وكأن هذه السورة أعطت لهذه الأصناف؛ الكفار المشركون، المنافقون، المؤمنون، خصائصهم، أي هذه السورة تتميز أنها قدمت نماذج مع تفاصيل دقيقة جداً بالمنافقين، وقدمت نماذج للمؤمنين، ونماذج للكافرين، فالمؤمن صادق مع نفسه، ومع الحقيقة، والكافر لعله صادق مع نفسه لكن ليس صادقاً مع الحقيقة، أما المنافق إنسان مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وكأن الله سبحانه وتعالى في مطلع سورة البقرة وصف المؤمنين بآيتين أو ثلاث، والكفار بآيتين، أما المنافقين فوصفهم بثلاث عشرة آية.

فهذه السورة فضلاً عن أنها فتحت باب التوبة لمن نقض عهده مع رسول الله، هذه السورة شرحت خصائص المؤمنين، والكفار المشركين، والمنافقين.

بطولة الإنسان أن يكون مؤمناً في الدنيا حتى يستحق جنة الآخرة :

أيها الأخوة، شيء آخر في هذه السورة: الله عز وجل وضح لنا معنى الربوبية، فالربوبية إمداد كل العباد بما يحتاجون.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ)

[سورة البقرة الآية: 126]

هذه الدنيا للجميع.

((الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر))

[أخرجه الطبراني عن شداد بن أوس]

لذلك الخير بالآخرة للمؤمنين فقط، أما في الدنيا الجميع يأكل ويشرب، فالبطولة أن تكون مؤمناً في الدنيا حتى تكون تستحق جنة عرضها السماوات والأرض.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (05-70):تفسير الآيتان 1-2 ، البراء انقطاع العصمة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-04-09

بسم الله الرحمن الرحيم

البراء انقطاع العصمة والعصمة تعني التمسك :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الخامس من دروس سورة التوبة، ولا زلنا في الآية الأولى:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

البراء أولاً انقطاع العصمة، والعصمة تعني التمسك، فأنت بين أن تتمسك، وبين أن تتبرأ.

فلذلك الله عز وجل من عنده مباشرة تبرأ من العهود التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش، وبعض قبائل العرب لأن هؤلاء خانوا العهود.

مثلاً: الدين قيد، فإذا الإنسان أدى الدين برئت ذمته من هذا الدين، والمرض قيد فإذا شفي الإنسان برئ من هذا المرض الذي أقعده في الفراش.

فالاستمساك نقيضه البراء،

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

وتروي الروايات التاريخية أن النبي صلى الله عليه وسلم عاهد قريشاً، وعاهد اليهود، لكن السؤال الدقيق، لِمَ تأخر نقض العهد معهم إلى السنة التاسعة للهجرة مع أن فتح مكة تمّ السنة الثامنة؟ لذلك قالوا في السنة الثامنة حُرر المكان من الأصنام، وفي السنة التاسعة حُرر الإنسان، تبرئة المكان سبقت تحرير الإنسان، لكن في هذه السنة ـ أعني في السنة التاسعة ـ حرر المكان والإنسان معاً.

ثقة النبي عليه الصلاة والسلام بنصر الله عز وجل :

دائماً المؤمن الموفق، الناجح، يعمل بعقله، وغير المؤمن يتحرك بعاطفته الهوجاء، وقد يخسر خسارة كبيرة، وهذه حقيقة دقيقة جداً بين أن تعمل عقلك، أن ترسم خطة، أن تخطط، وبين أن تتحرك بعاطفتك.

الصحابة الكرام قبل الهجرة مُنعوا منعاً باتاً، أُمروا أن يكفوا يدهم عن أي عمل يسيء للمشركين، الأوراق مختلطة، يوجد بكل بيت مؤمن ومشرك، لذلك:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

[سورة النساء الآية: 77]

فلما أصبح لهم كيان في المدينة، استطاعوا أن يحاربوا الروم والفرس، لذلك لما كان النبي في الهجرة، وتبعه سراقة، سراقة طمع بمئة ناقة، وقد وضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، والله قال كلاماً العقل يصعب أن يصدقه، إنسان أُهدر دمه، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يتبعه إنسان طامع بهذه الجائزة، يقول له: كيف بك يا سراقة إن لبست سواري كسرى؟ دقق في هذا الكلام، حلله، ماذا يعني؟ يعني أنني سأصل سالماً، هذه ثقته بالله، وسأنشئ دولة، وسأعد جيشاً، وسأحارب أكبر دولتين في العالم، وسأنتصر عليهما، وسوف تأتيني غنائم كسرى إلى المدينة، ولك يا سراقة سوار كسرى، هذه ثقة النبي بنصر الله.

أكبر مصيبة تصيب المسلمين انهيار ثقتهم بأنفسهم :

أقول لكم الآن: أكبر مصيبة تصيب المسلمين انهيار ثقتهم بأنفسهم، لها اسم آخر: انهزامهم من الداخل، إحباطهم، شعورهم أنهم قد انتهوا، لأن أعداءهم أقوياء جداً، أكبر مصيبة تصيب الإنسان أن يهزم من الداخل.

أُهدر دمه، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يقول له: كيف بك يا سراقة إن لبست سواري كسرى؟ وفي عهد عمر جاءت كنوز كسرى، وقف صحابيان من كل طرف، رفع كل واحد منهما رمحه، لم يرَ الأول رمح الآخر، فقال عمر: إن الذي أدى هذا لأمين، فقال له سيدنا علي: يا أمير المؤمنين أعجبت من أمانتهم؟ لقد عففت فاعفوا، ولو وقعت لوقعوا.

أيها الأخوة، أخطر شيء أن نهزم من الداخل، أخطر شيء أن نقول: لقد انتهينا، أخطر مصيبة تصيب الأمة حالة الإحباط واليأس.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

فلذلك في السنة الثامنة فتحت مكة، وكُسرت الأصنام، و تحرر المكان منها، وفي السنة التاسعة تحرر الإنسان من نقض هذه العهود التي لم يرعها الكفار.

النبي معصوم بمفرده وأمته معصومة بمجموعها :

أيها الأخوة، لئلا تعتقد أن هذا القرار قرار بشري، هو قرار إلهي، الإنسان يجتهد؛ قد يصيب، وقد لا يصيب، لكن هذا القرار قرار إلهي، والدليل:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

هناك تعليق لطيف: النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده، بينما أمته معصومة بمجموعها، لقول النبي الكريم:

((لا تجتمع أمتي على ضلالة))

[أخرجه الطبراني عن أبي بصرة الغفاري]

النبي وحده معصوم بمفرده، وأمته معصومة بمجموعها.

لذلك هذا القرار قرار إلهي،

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

لأن الله سبحانه وتعالى علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

النبي معصوم، لكن لحكمة بالغةٍ بالغة بالغة، سمح الله له بهامش اجتهادي، فإن أصاب أقره الوحي على اجتهاده، فصار اجتهاده كالوحي تماماً، وإن لم يكن اجتهاده كما يريد الله عز وجل يأتي الوحي ويصحح له.

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 43]

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

[سورة عبس]

الله عز وجل سمح للنبي الكريم بهامش اجتهادي :

لماذا سمح للنبي صلى الله عليه وسلم بهامش اجتهادي؟ ليكون فرقاً بين مقام الألوهية المطلق ومقام البشر، بالنهاية النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، أقوله سنة وتشريع، وأفعاله سنة وتشريع، وإقراره إذا رأى شيئاً فسكت تشريع.

والدليل: عندما كان في بيت أحد أصحابه وقد توفاه الله، سمع امرأة من وراء الستار تقول: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، لو أنه سكت لكان كلامها صحيحاً، وتشريعاً، فقال لها: ومن أدراكِ أن الله أكرمه؟.

فأن تحكم على إنسان بالجنة أو بالنار حكماً قطعياً، هذا سماه العلماء التألي على الله، من أنت حتى تقول فلان من أهل النار؟ لعله يتوب ويسبقك، ومن أنت حتى تقول فلان من أهل الجنة؟ لعله يخطئ، ومن أدراكِ أن الله أكرمه؟ قولي أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

هذا هو الأدب مع الله، قل دائماً إن أعجبك إنسان: أظنه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً، إن طلب منك أن تشهد بإنسان، هذا علمي به، فإن بدل وغير فلا علمي بالغيب، كن أديباً مع الله.

إذاً النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده، وأمته معصومة بمجموعها، وعصمة النبي معها هامش اجتهادي ضيق جداً، فإن أصاب النبي أقره الوحي على ذلك، وإن لم يكن اجتهاده كما يريد الله عز وجل جاء الوحي وصحح له، ففي النهاية النبي معصوم بأقواله، وأفعاله، وإقراره.

النبي صلى الله عليه وسلم حالف خزاعة، ولها قبيلة مناوئة لها هي قبيلة بكر، بكر تحالفت مع قريش، لذلك قريش أعانت بكراً على حرب خزاعة، وفي هذا نقض للعهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش ـ قريش وبكر، والنبي وخزاعة ـ قريش أعانت بكراً على قتال خزاعة، والنبي حليف لها، وحليف الحليف حليف، فذلك كان هذا النقض سبب أن الله في عليائه برأ من العهود والمواثيق التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين.

رحمة الله عز وجل بعباده :

لكن بعضهم تساءل:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

فكيف يبلغ الله نبيه ببراءة نبيه من العهود مع المشركين ثم يخاطب المشركين؟ قال علماء التفسير: كأن الله أمر المؤمنين وأصحاب النبي أن يبلغوا المشركين، أي قولوا لهم.

الآن الوقفة الرائعة أنه في العالم كله لا يجوز أن تطبق القوانين بمفعول رجعي، وهذا ظلم للإنسان ما بعده ظلم، شيء مباح، مسموح، إنسان فعله في ظلّ القوانين القائمة، أي موضوع مباح مسموح، الحاكم ارتأى أن يمنع هذا الشيء، له أن يمنعه، أما أن يطبق هذا المنع على من فعله سابقاً، هذا منتهى أنواع الظلم.

لذلك شيء ثابت في عالم القوانين أن القوانين يمنع منعاً باتاً أن تطبق بمفعول رجعي هذا عدل، لكن الإحسان أبلغ من ذلك، للتقريب: لو أن بلداً اكتشف أن هناك بضائع كثيرة جداً غير نظامية، وهذه البضائع تدخل على الدولة أرباحاً كبيرة جداً، لأنها جاءت بطريق غير نظامي، هل يعقل أن الأسواق تعج بالبضائع الغير نظامية فيصدر قانون بمحاسبة المخالفين فوراً ؟ التساهل السابق شجع الناس، فإذا منعت ينبغي أن تصبر على الناس حتى يسووا أوضاعهم، الآن تطبيق القانون بمفعول رجعي جريمة، لكن الرحمة أن تعطي الناس مهلة كي يسووا أمورهم.

سمعت عن قرار في بلد بإفريقيا، فأعجبني، وهذا القرار ينص على بالالتزام بأشياء معينة في الاستيراد، أعطاهم ستة أشهر ليسووا أوضاعهم، معنى ذلك أن هناك رحمة.

دقق:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

لكن أيها المشركون بعد نقض العهود، أراد الله لها أن تنقض، لأنكم خنتم هذه العهود، لن نحاربكم قبل أربعة أشهر، سووا أوضاعكم.

(فَسِيحُوا)

ساح؛ أي تحرك على مهل، فالإنسان إذا ركب مركبته مع أهله للنزهة ما من داعٍ للسرعة، المنظر جميل، الطريق في النزهة جزء من النزهة، يمشي هوناً، قال:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ)

معكم أربعة أشهر لن نحاربكم، قال: لئلا يؤخذ المشركون على حين غرة، إذاً معكم أربعة أشهر حتى تُبلغوا، وحتى تأخذوا الحيطة والحذر، وحتى تعدوا العدة.

أخواننا الكرام، من هو العدو التقليدي للمؤمن؟ المشرك والكافر، فالمؤمن مكلف أن يحسن لكل من حوله، لكن وفق خطة، قال:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ)

أي اطمئنوا، تحركوا ببطء، لن يطبق هذا القرار وهذه البراءة إلا بعد أربعة أشهر.

من عدل مع المشرك قربه إلى الله :

أيها الأخوة، هناك سؤال آخر : أن الله سبحانه وتعالى أبلغ رسوله أن يتبرأ من عهوده مع الكفار، ثم خاطب الكفار مباشرة، كيف؟ مرة ثانية: الله عز وجل أراد من النبي، ومن خلال الصحابة أن يخاطب المشركين بهذا القرار الإلهي، هناك آية:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)

[سورة المائدة الآية: 8]

أي لا يحملنكم.

(شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

[سورة المائدة الآية: 8]

والشنآن هو البغض الشديد.

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: 8]

والله الذي لا إله إلا هو في منظور الإسلام، وفي ضوء مبادئ الإسلام، وقيم الإسلام، لا تستطيع أن تؤذي كافراً بلا مبرر،

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

إن عدلت مع هذا المشرك قربته إلى الله، وقربته إليك

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

الابتعاد عن الاعتداد بالقوة لأن الإنسان في قبضة الله عز وجل :

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ)

إياكم أن تعتدوا بقوتكم، لأنكم جميعاً في قبضة الله، إياكم، ثم إياكم، ثم إياكم أن تعتدوا بقوتكم، مع الله لا يوجد قوي، ولا ذكي، ولا محتال، أنت في قبضته.

إذاً:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ)

مرة جاء توجيه من يزيد بن معاوية إلى والي البصرة، و يبدو أن هذا التوجيه لا يرضي الله، فلو نفذه والي البصرة لأغضب الله، ولو لم ينفذه لأغضب الخليفة، وقد يعزله، كان عند هذا الوالي إمام كبير، وتابعي جليل هو الحسن البصري، فسأله: ماذا أفعل؟ هذا هو التوجيه، أجابه إجابة والله تكتب بماء الذهب، قال له: اعلم أن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله، أي إذا أراد بك يزيد شراً الله يمنعه، لكن لو أرضيته، وأغضبت الله، وأراد الله بالإنسان مرضاً عضالاً يزيد لا يمنعه، اعلم أن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله.

ثم قال الله عز وجل بعد أن قال:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

أي في قبضته، للتفصيل: إنسان كبير، كبير في ماله، كبير في منصبه، كبير في علمه، كل علمه، وكل مكانته، وكل قوته، وكل ماله، متوقف على نبض قلبه، فإذا توقف القلب كل ما يملك صار إلى غيره، بكون بشراً يصير خبراً على الجدران، في الشام كل يوم تقريباً مئة و خمسون حالة وفاة، كلهم أشخاص لهم بيوت، لهم مراتب، لهم أعمال، دارسون، معهم شهادات، لهم مكانة، توقف القلب، انتهى كل شيء، فكل مكانتك، وكل حجمك المالي، وحجمك الإداري، وكل هيمنتك، مرتبط بنبض قلبك، وكل مكانتك، وكل قيمتك، وكل حجمك المالي، والإداري، مرتبط بسيولة دمك، خثرة لا ترى بالعين كرأس الدبوس تتجمد في بعض أوعية المخ شلل، فقد ذاكرة، فقد بصر، الإنسان ضعيف، لا تقل أنا قل الله.

التولي و التخلي :

أصحاب النبي الكريم قالوا: الله في بدر فانتصروا.

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

[سورة آل عمران الآية: 123]

ضعاف، وفي حنين، هم هم، ومعهم سيد الخلق،وحبيب الخلق،قالوا:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

نحن كُثر، اعتدوا بكثرتهم.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة]

وأنت أيها الأخ الكريم، أنت بحاجة إلى هذين الدرسين كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة، تقول: أنا دارس، متعلم، أبي فلان، يتخلى الله عنك، تقول: يا رب ليس لي غيرك يتولاك، تقول: أنا يتخلى عنك، تقول: يا رب أنت وحدك القوي يتولاك، فأنت في كل لحظة بين التولي والتخلي، تعزي تفوقك إلى ذاتك يتخلى الله عنك، تعزي التفوق إلى الله يتولاك، الدرس الوحيد الذي يحاسب عليه كل مؤمن كل ساعة هذا الدرس، التولي والتخلي.

فلذلك

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ)

إنسان يبدو أنه متفوق جداً في الرياضيات، قال: يارب الرياضيات عليّ والجبر عليك، أنا ضعيف بالجبر، فرسب.

لا يوجد إنسان قوي مع الله، لا تقل أنا، ألغ كلمة أنا من حياتك، انظر إلى فضل الله عليك، حتى إن علماء القلوب يرون أن أي مؤمن شهد عمله فقد أشرك، لأنه إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

الدين الإسلامي دين عظيم لا يفرق بين إنسان و إنسان:

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

دقق في هذه الآية:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

[سورة آل عمران الآية: 12]

أنتم لا تتصورن من هم أصحاب النبي؟ شباب، صغار، ضعاف، فقراء، صناديد قريش، أعلام، كبار، زعماء، أقوياء، أذكياء، فصحاء، أين هم صناديد قريش؟ في مزبلة التاريخ، تقول سيدنا أبو جهل؟ هل تستطيع أن تقولها؟ أبو لهب؟ أعوذ بالله، سيدنا الصديق، سيدنا بلال، بلال عبد فلما أراد الصديق أن يشتريه من سيده الذي كان يعذبه كل يوم، يضع على صدره صخرة ليكفر بمحمد، يقول: أحد أحد، فاشتراه منه، أراد سيدُ بلالٍ أن يهين بلالاً، قال له: والله لو دفعت به درهماً واحداً لبعتكه، فقال له الصديق: والله لو طلبت مئة ألف درهم لدفعتها لك، فلما أنقذه من سيده وضع يده تحت إبطه، سيدنا الصديق من أكبر رجالات قريش، وقال: هذا أخي حقاً.

هل تصدقون أن عمر خليفة المسلمين خرج إلى ظاهر المدينة ليستقبل بلالاً؟ هذا ديننا، عبد، سيد، أبيض، ملون.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 13]

مرة تروي بعض الروايات أن بعض زعماء قريش وقفوا باب عمر بعد فتح مكة، بعد الانتصار الحاسم، لم يؤذن لهم، آلمهم جداً أن صهيباً وبلالاً يدخلان ويخرجان بلا استئذان، فلما دخلوا عليه عاتبوه، فقال لهذا الذي عتب عليه : أنت مثلهما؟.

سيدنا بلال! نقول: سيدنا بلال، وكان عبداً حبشياً، أسود اللون، لكن هو عند الله في أعلى مقام، هذا الدين، الدين أممي، والدين لا يفرق بين إنسان وإنسان.

من أطاع الله عز وجل فهو في أعلى مقام :

أقول لكم: والله أي واحد منكم، أي إنسان من أي بلد، من أي مكان، من أي جنس، مادام مطيعاً لله فهو في أعلى مقام.

أنا أذكر أن رجلاً دخل على النبي الكريم عليه الصلاة والسلام فهش له وبش، واستقبله استقبالاً غير معهود، قال له: أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، يبدو أن الصحابي فقير جداً، صُعق قال له: أنا؟ قال له: أنت، قل له: أو مثلي؟ قال له: نعم يا أخي، أنت خامل في الأرض علم في السماء.

وأنا أخاطب كل شاب منكم: ليس معك شهادة، أول حياتك، من أسرة فقيرة، لكن مستقيم قلامة ظفرك تساوي مليون رجل فاسق،

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

اشعر أنك مع الله.

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

والكافرين إلى هلاك

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال الآية: 36]

مرة كنت بأستراليا هناك إذاعة على الهواء مباشرة، فإنسان مغرض، قبل نهاية الندوة بدقيقة، قال لي: الإسلام دين الجهل، والقتل، والفقر، والإرهاب، والإجابات تحتاج إلى ساعة، تعلم علم اليقين أن الندوة انتهت، و لم يبقَ غير دقيقة، وهذه تُهم تحتاج لساعات، فقلت له كلمة واحدة: ما ضرّ السحاب نبح الكلاب، وما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلام بحجر، ولو تحول الناس إلى كناسين ليثيروا على الدين ما أثاروه إلا على أنفسهم.

خلاص العالم بالإسلام إن أحسن المسلمون فهمه و تطبيقه :

هذا دين الله، لا تقلقوا على هذا الدين إنه دين الله، ولكن لنقلق جميعاً ما إذا سمح الله لنا أو لم يسمح أن نكون جنوداً له، اقلق على هذا فقط، لا تقلق على هذا الدين، والله الذي لا إله إلا هو العالم كله الآن يحارب الدين، والدين في أعلى مستوى بانتشاره.

مؤتمر عقد بفرنسا حضره كل دول العالم، المشتركون في المؤتمر مئة و خمسون ألفاً في وسط العاصمة الفرنسية، هناك إحصائيات دقيقة أن خمسين فرنسياً يدخلون في الإسلام يومياً، و ببلاد الغرب البعيدة في أمريكا يدخل ثلاثة و ثلاثون إنساناً في الإسلام يومياً.

لذلك قال عالم أمريكي هداه الله إلى الإسلام: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء، هم ضعاف، ولكن لأن خلاص العالم بالإسلام، أنظمة الغرب لم تنجح في إسعاد البشر، وأنظمة الشرق لم تنجح في إسعاد البشر، والعالم كله يتعلق اليوم بالإسلام، ولكن بشرط أن يحسن المسلمون فهم دينهم، وأن يحسنوا تطبيقه، وأن يحسنوا عرضه على الطرف الآخر، هذه البطولة.

لذلك انهيار النظام العالمي المالي نظام عملاق، مئة و خمسة و خمسون مصرفاً أعلنوا إفلاسهم، لأن هناك ربا، أليس هذا جرعة منعشة للمسلمين؟ انتصار أخوتنا العشرة آلاف في غزة على أقوى جيش في

المنطقة، أليس هذا جرعة منعشة؟ كأن الله يقول لنا: أنا موجود يا عبادي، لا تيئسوا، أنا موجود، كل شيء بيده، لكن كونوا لي كما أريد، أكن لكم كما تريدون.

الكافر إلى خزي والمؤمن إلى الله عز وجل :

أيها الأخوة،

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

بالنهاية هناك خزي وعار، ومستحيل، وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح.

لسيدنا علي كلمة رائعة: **"يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شرّ بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية".**

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك؟

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

قانون أزلي أبدي، الكافر إلى خزي، والمؤمن إلى الله عز وجل.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة الآية: 5]

الهدى رفعهم، رفع قدرهم، رفع شأنهم، رفع مكانتهم، والباقي:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الأحقاف]

كآبة، أو في السجن، في تفيد شيئاً ضمن شيء، المؤمن على، على تفيد العلو

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

غير المؤمنين

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

فلذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، لأنك مفطور على حبّ وجودك، وعلى حبّ سلامة وجودك، وعلى حبّ كمال وجودك، وعلى حبّ استمرار وجودك، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً.

مجيئكم إلى هذا المسجد ـ جزاكم الله خيراً ـ يشبه تماماً شحن هذا الهاتف، إن لم تشحنه يتوقف، إنسان بلا شحن نوبي، أسبوعي يسكت، يضيع، تأتيه كآبة، يأتيه إحباط، يأتيه تشاؤم، يأتيه ضجر، تزل قدمه، يرتكب معصية، لأنه لا يوجد شحن.

فهذا اللقاء الطيب إن شاء الله شحنة لهذا الإنسان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (06-70):تفسير الآيتان 2 - 3 ، الترابط الفكري والثقافي مع الطرف الآخر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-04-16

بسم الله الرحمن الرحيم

نتيجة السورة التالية إنهاء العهود والعقود مع المشركين كافة :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثانية وهي قوله تعالى:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

والآية التي تليها:

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

أيها الأخوة الكرام، مما يلفت النظر أن هذه السورة لها خصوصية.

أولاً: آخر سورة نزلت في القرآن الكريم، من خصوصيات هذه السورة أنها تتضمن إنهاء العهود التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، سواء أكانت هذه العهود قد انتهت بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة، أو الناكثين لوعودهم، أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم عهود مقيدة ولم ينقص المسلمين شيئاً، ولم يظاهروا عليهم أحداً، فعلى الجملة، النتيجة من هذه السورة إنهاء العهود والعقود مع المشركين كافة في الجزيرة العربية، وإنهاء مبدأ التعاقد أصلاً، هناك تطور جذري، تطور نوعي في علاقة المسلمين مع الآخرين من خلال هذه السورة، مع العقود المبرمة سُمح للمشركين بالطواف في المسجد الحرام، أو عمارته في صورة من الصور، لكن هذا الشيء انتهى، لم يسمح لهم لا بالطواف، ولا بالسعي، ولا بأي منسك من مناسك الحج عندهم.

سورة التوبة تنبؤنا عن خصائص مرحلة جديدة :

أيها الأخوة، المغزى العميق من هذه الأحكام النوعية في هذه السورة أن هناك مرحلة عاشها المسلمون في مكة، وهذه المرحلة تقتضي التفاهم، التعاهد، التعاقد، لكن بعد أن أعزّ الله دينه ونصر نبيه، هناك مرحلة أخرى تنبؤنا هذه السورة عن خصائصها.

النقطة الدقيقة: إن الذي يراجع أحداث السيرة النبوية، ويراجع وقائعها، يرى من خلالها الواقع التاريخي للمنهج السياسي الإسلامي، ويراجع كذلك طبيعة هذا المنهج في ذاته، ومراحله، وأهدافه، أي الخطوة الحاسمة في العلاقات بين المسلمين في الجزيرة العربية، وغير المسلمين قد جاء موعدها، ومُهد لها، وتهيأت لها الأحوال، وأصبحت هذه الخطوة الطبيعية في أوانها المحتوم.

كان هناك مصالح تقتضيها حالة المسلمين، ومصالح تقتضيها وضع المسلمين قبل فتح مكة، لكن بعد فتح مكة هناك مستجدات لا بد من أن تراعى.

أيها الأخوة، لا بد من تمهيد لمعرفة الطرف الآخر.

الإنسان لأنه قبل حمل الأمانة سخر له ما في السماوات والأرض :

أيها الأخوة، الله عز وجل كان الله ولم يكن معه شيء، خلق المخلوقات في عالم الذر، وهذه المخلوقات خلقها ليسعدها، لكن عرض عليها عرضاً متميزاً، هذا العرض تؤكده الآية الكريمة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

هذا الإنسان لأنه قَبِل حمل الأمانة، وقال: أنا لها يا رب.

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية: 13]

فالإنسان في القرآن، والإنسان في المنهج الإسلامي، هو المخلوق الأول، أنا أقول لكل واحد منكم: لأنك من بني البشر أنت المخلوق الأول في الكون، أنت المخلوق الأول رتبة، لأن الله حينما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فئة من مخلوقاته قالت: نحن لها يا رب، فلما قالوا: نحن لها تميزوا عن بقية المخلوقات، نظير تميزهم سخر الله لبني البشر

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

تسخير تعريف، وتسخير تكريم، والحقيقة قَبِل حمل الأمانة مع عالم الإنس عالم الجن.

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

[سورة الأنعام الآية: 130]

فعالم الجن وعالم الإنس قبلا حمل الأمانة، فكانا في القمة، الذي حصل أن البشر حينما جاؤوا إلى الدنيا بعضهم راعى هذه الأمانة، وأداها، وتعرف إلى الله، واستقام على أمره، وعمل الصالحات تقرباً إليه، ودفع ثمن الجنة التي فيها:

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هؤلاء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، في عالم الأزل، وكان صدقهم تاماً هم الأنبياء، والمرسلون، والذين قبلوا وأدوا ما عليهم ولكن بمستوى أقل هم المؤمنون، والذين لم يرعوا هذه الأمانة بعضهم من الكفار، وبعضهم من المنافقين، فيمكن أن يقسم البشر إلى مؤمن وغير مؤمن، وغير المؤمن كافر صراحةً جهاراً نهاراً، أو كافر ضمناً، هذا هو التقسيم.

البشر على اختلاف مللهم ونحلهم وانتماءاتهم نموذجان لا ثالث لهما :

لما جاء الناس إلى الدنيا سيُعبرون عن موقفهم في عالم الأزل، لكن كان من الممكن أن يعيش الكفار في كوكب آخر، لا يوجد أية علاقة بيننا وبينهم كمؤمنين طبعاً، وكان من الممكن أن يعيشوا في حقبة أخرى، وكان من الممكن أن يعيشوا في قارة أخرى، ولكن شاءت حكمة الله جلّ جلاله أن يعيش البشر مؤمنهم وكافرهم في مكان واحد، الشيء الطبيعي إنسان آمن بالواحد الديان، منطلقاته الفكرية أن يسعى لدخول الجنة، أن يوقع حركته وفق منهج الله، والبشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وطوائفهم، وتياراتهم، لا يزيدون عن نموذجين فقط، نموذج عرف الله، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة.

فالذي قبل حمل الأمانة، وجاء إلى الدنيا وحملها، وأدى ما عليه، هم الأنبياء أولاً والمرسلون، والذي أداها بمستوى أقل هم المؤمنون، ويتفاوتون فيما بينهم، لكن الذي لم يحمل هذه الأمانة، ونقض عهده مع الله، جاء إلى الدنيا ليكون طرفاً آخر، كافراً بهذه الأمانة مؤمناً بالدنيا.

لذلك يمكن ببساطة بالغة أن يقسم البشر إلى قسمين، مؤمن وغير مؤمن، صادق كاذب، وفيّ غير وفيّ، رحيم قاس، يمكن لهذه القيم أن تنتظم البشر جميعاً، فقسم من هؤلاء البشر أقبل على هذه المبادئ والقيم، فكانوا المؤمنين، وقسم آخر أعرض عنها فكانوا الكفار والمنافقين.

وذكرت قبل قليل: كان من الممكن أن يكون هؤلاء البشر غير المؤمنين في كوكب آخر، بل في قارة أخرى، بل في حقبة أخرى، ولكن شاءت حكمة الله أن نعيش معاً في وقت واحد، وفي مكان واحد.

القرآن الكريم اعتمد قيمتين فقط للترجيح بين خلقه؛ العلم و العمل :

لذلك من بديهيات الأمور أن تنشأ معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، بين المؤمن وغير المؤمن، بين الذي وفى ما عاهد الله عليه وبين الذي لم يرعَ هذا العهد إطلاقاً.

وهذا التقسيم موجود بكل مكان، وبكل زمان، هذا التقسيم الحقيقي، هناك تقسيمات على وجه الأرض لا تعد ولا تحصى، هذه التقسيمات لم يعتمدها القرآن الكريم، باطلة، العرق الأبيض، خير إن شاء الله! العرق الملون، الشعب السامي، الشعب الأنكلو سكسوني، هذا كلام، دول، وشعوب، وألوان، ولغات، هذه التقسيمات لم يعتمدها القرآن، القرآن اعتمد قيمتين فقط للترجيح بين خلقه، اعتمد قيمة العلم فقال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر الآية:9]

واعتمد قيمة العمل فقال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: 132]

وأما البشر:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 13]

سيدنا سعد بن أبي وقاص كان من أحبّ أصحاب النبي إلى النبي وحده، قال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((سعد ارم فداك أبي وأمي))

[أخرجه الطبراني عن سعد]

ما فدى النبي أحداً من أصحابه إلا سعداً بن أبي وقاص، وقال: إذا دخل عليّ يقول: هذا خالي أروني خالاً مثل خالي، قال له عمر مرةً: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول الله فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له.

معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية :

أنا أقول لكم الآن بناء على هذه المعطيات: أي واحد منكم إذا تعرف إلى الله، واستقام على أمره، قلامة ظفره قد تساوي مليون إنسان شارد عن الله، أي واحد من أي بلد، من أي عرق، من أي ملة، من أي طائفة، هذا هو الدين.

الدين أن يأتي أبو بكر الصديق إلى صفوان بن أمية ويشتري منه سيدنا بلالاً، كان عبداً مملوكاً، وكان يعذبه سيده، فقال: والله لو دفعت به درهماً لبعتكه،فقال له الصديق: والله لو طلبت مئة ألف لأعطيتكها، هذا أخي حقاً، وضع يده تحت إبطه وقال: هذا أخي حقاً، هذا هو الدين.

وأقول لكم مرة ثالثة: أية أمة تعتمد بالترجيح بين أفرادها مقاييس انتمائية هذه أمة متخلفة، وأية أمة تعتمد في الترجيح بين أفرادها مقاييس موضوعية أمة قوية ومتقدمة،

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

فلذلك هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل.

توظيف الله تعالى طغيان الطغاة لخدمة دينه و المؤمنين :

الآن النقطة الدقيقة جداً أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 140]

في عصرٍ المؤمنون أقوياء، وفي عصر آخر المؤمنون ضعاف، ضعاف جداً، وقد شاءت حكمة الله أن نكون في هذا العصر، المؤمن ضعيف، القوة، والمال، والأقمار الصناعية، والطيران، والقنابل النووية مع الطرف الآخر، لذلك فرضوا إباحيتهم، وفرضوا ثقافتهم، على جميع الشعوب، والشعوب الإسلامية لأن يُغزوا من قبل الأعداء أهون ألف مرة من أن يغزوا ثقافياً، الغزو الثقافي خطير جداً، أنت انتهيت كمسلم، أنت رقم بسيط، لا قيمة لك إطلاقاً.

فلذلك أيها الأخوة، أتمنى من أعماق أعماقي أن يستعيد الإنسان المسلم هويته، أنت مسلم، أنت معك وحي السماء، معك منهج الله عز وجل، ينبغي أن تكون في مستواه، لأن الله شاءت حكمته أن نعيش معاً، إذاً هناك معركة بين الحق والباطل، مرة يقوى المؤمنون، ومرة يقوى أعداء الله، لكن هذان امتحانان صعبان جداً، أحياناً يقوي الله الكافر لحكمة بليغةٍ بليغةٍ بليغة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها لينظر كيف تعملون.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

إيماني أن الله سبحانه وتعالى لا يسمح لطاغية على وجه الأرض أن يكون طاغية إلا ويوظف طغيانه لخدمة دينه والمؤمنين، وكل الذي ترونه في العصر الحديث من اجتياحات، ومن عدوان على البلاد الإسلامية، إذا أمدّ الله بعمركم جميعاً ينبغي أن تعلموا علم اليقين أن هناك حكمة بالغة بالغة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، لأنه لا يليق بألوهية الإله أن يقع في ملكه ما لا يريد، لكن الذي أتمنى أن يكون واضحاً لكم أن خطة الله تستوعب خطة أعدائه.

تصور سفينة عملاقة من أكبر السفن في العالم تتجه نحو الشرق، وعلى ظهر هذه السفينة رجال يشاكسون قائد السفينة، ويتحدونه، فيتجه على ظهر السفينة نحو الغرب، خير إن شاء الله! السفينة كلها باتجاه الشرق.

لا تستطيع جهة في الأرض أن تفسد على الله هدايته لخلقه :

العالم كله يتجه نحو الدين، هناك أعداء للدين:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال الآية: 36]

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

[سورة آل عمران الآية: 14]

هذا الدين لا تستطيع جهة في الأرض أن تفسد على الله هدايته لخلقه.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق]

آيات كثيرة.

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف]

والتاريخ بين أيديكم، وهؤلاء الصحابة الفقراء الضعاف، الشباب من الطبقة الدنيا من المجتمع، والصناديد، والأقوياء، والأذكياء، والأغنياء، بيدهم الجزيرة كلها، هم زعماء قريش، وقريش زعيمة الجزيرة العربية كلها، ما الذي حصل؟ أن الله سبحانه وتعالى في النهاية جعل هؤلاء الأصحاب قمماً في التاريخ البشري، وجعل هؤلاء الذين عارضوا الحق في مزبلة التاريخ، وهذا الأمر مستمر وثابت.

ما لم نعد إلى ديننا فلن ننتصر على عدونا :

لذلك هناك امتحان صعب، صعب جداً، يقوي الله الكافر، يقويه، يقويه عسكرياً، واجتماعياً، ومادياً، غني، وقوي، وذكي، وبيده كل شيء، والمسلمون على كثرتهم مليار وخمسمئة مليون، وعلى أنهم يملكون ثروات لا يعلمها إلا الله، بلادهم محتلة، أمرهم ليس بيدهم، للطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، لكن هناك حكمة أن الذي يضعف إيمانه في ساعة من ساعات ضعف إيمانه يقول: أين الله؟

يقصفون، يهدمون، يقتلون، الذي يقولونه يفعلونه، والأمر بيدهم، والإعلام بيدهم، والدولار بيدهم، وهذا امتحان، ونحن فيه الآن.

يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه.

هؤلاء العدوانيون اليهود قتلوا في غزة ألف و خمسمئة طفل وامرأة، بأحدث أسلحة في العالم جاء الغرب إلينا كمؤتمر، التصريح الوحيد يجب أن نمنع تهريب السلاح للمقاومة فقط، أما ألف و خمسمئة طفل يموت على مرأى العالم كله لا أحد ينطق بكلمة، ولا تعليق، ولا استنكار، ولا شجب، بدأ يأتي رئيس أمريكي إلى المنطقة يزور دمشق، وتل أبيب، ورام الله، والبند الرابع أسرة الأسير الإسرائيلي، ولنا عند اليهود أحد عشر و ثمانمئة أسير، ما خطر في باله أن يراعي أسر هؤلاء ولا بزيارة واحدة.

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 119]

إله عظيم يقول هذا، ما لم نعد إلى ديننا، إلى تاريخنا المجيد، إلى قيمنا، إلى أخلاقنا، لا نستطيع أن ننتصر عليهم.

قوانين النصر :

أما النصر له قوانين.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد الآية: 7]

الله عز وجل لا يحتاج أن ينصره، لكن إذا نصرت دينه ينصرك، حديث خطير جداً:

((فإنما تُرزقُونَ وتُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

هؤلاء الضعاف إن أطعمتهم إن كانوا جياعاً، وإن كسوتهم إن كانوا عرايا، وإن أسكنتهم إن كانوا مشردين، إن علمتهم إن كانوا جاهلين، يتفضل الله علينا بمكافأة من جنس عملنا، ينصرنا على من هو أقوى منا، هذا الكلام واضح كالشمس.

أردت من هذه المقدمة أن تعلموا لماذا أراد الله أن يكون في الأرض مؤمنون وغير مؤمنين، بينهما تناقض كبير، إنسان يعمل للآخرة، وإنسان يعمل للدنيا، إنسان يعبد الله، ويسعى لمكارم الأخلاق، وإنسان يعبد شهوته فقط.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان الآية: 43]

أحياناً يكون فرق بين شخصين، يكون فرق في الدرجة، الاثنان نجحا، لكن نجح بتفوق والثاني نجح بأقل تفوق، أحياناً يكون هناك تناقض، هذان لا يجتمعان.

الناس عند الله نموذجان :

1 ـ رجل عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة :

لذلك هذه المقدمة ضرورية جداً، لأن البشر بصرف النظر عن أعراقهم، وعن أنسابهم، وعن طوائفهم، وعن ألوانهم، وعن قومياتهم، وعن كل ما نقوله عن البشر، هم عند الله رجلان، مؤمن وغير مؤمن، المؤمن عرف الله فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان آخر غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، ولن تجد نموذجاً ثالثاً، مؤمن وغير مؤمن، الدليل القرآني:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

[سورة الليل]

صدق أنه مخلوق للجنة، بناء على هذا التصديق اتقى أن يعصي الله، وبناء على هذا التصديق بنى حياته على العطاء، علامة المؤمن أنه يسعده أن يعطي، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة.

2 ـ و رجل غفل عن الله فتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فهلك في الدنيا والآخرة :

النموذج الآخر :

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب بالجنة، وآمن بالدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ.

لذلك هؤلاء البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، هم نموذجان؛ أول نموذج بنى حياته على العطاء، والثاني على الأخذ، أول نموذج ملك القلوب، والثاني ملك الرقاب، أول نموذج عاش للناس، والثاني عاش الناس له، أو نموذج يمدح في غيبته، والثاني في حضرته، هذان النموذجان الناس جميعاً تبع لهم.

هذه الحقيقة الدقيقة حول هذا الموضوع.

باب التوبة مفتوح على مصارعه لمن أشرك بالله تعالى :

الله عز وجل أمر النبي صلى الله عليه وسلم والدليل:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: 1]

في مرحلة، المرحلة الانتقالية انتهت، مرحلة أنصاف الحلول انتهت، مرحلة هذا لكم وهذا لنا انتهت، دخل المسلمون بعد أن قواهم الله عز وجل في مرحلة ثانية، هذه المرحلة:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة التوبة]

لكن الله رحيم، هؤلاء الذين أشركوا باب التوبة مفتوح أمامهم على مصارعه، هؤلاء الذين أشركوا أعطاهم مهلة ليفكروا

(فَسِيحُوا)

تحركوا في الأرض آمنين أربعة أشهر، لكن إياكم أن تعتدوا بقوتكم، مع الله لا يوجد قوي، ماذا أقول؟ بسواحل الهند، وشرقي آسيا، في النصف الكرة الجنوبي، أجمل أماكن في العالم، فيها منتجعات من فئة العشر نجوم، وتستقطب أغنى أغنياء العالم، وفي هذا المكان الجميل، وفي الشتاء القارس في الشمال، والجو دافئ، والطبيعة الخلابة، والأشجار الباسقة، والبحر الهادئ، والمنتجعات الكبيرة جداً، جاء زلزال تسوناني، مات منهم خمسة و عشرون ألفاً، وعتموا على هذا الرقم، هؤلاء نخبة العالم.

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة القلم]

طبعاً مات مؤمنون أيضاً، مثلاً طائرة سقطت كل راكب يموت على نيته، إنسان يسافر لشراء بضاعة ليبيعها للمسلمين يموت على هذه النية، إنسان يسافر إلى مكان في آسيا ليرتكب الفاحشة يموت على هذه النية، لا أقول إن كل إنسان مات بهذا الزلزال هو كافر، لا، هناك مؤمنون وهناك غير مؤمنين، لكن الله عز وجل لا يوجد معه قوي، لذلك قالوا: زلزال تسونامي يساوي مليون قنبلة ذرية، الأرض كلها في قبضة الله.

بلد فيه زلزال قوته تقدر بسبع درجات على مقياس رختر، كل شيء انتهى، يقال لك: مئة و خمسون ألفاً بالعراء، وقبل أيام بالصين، وقبلها بهاييتي، البشر في قبضة الله، ولا ينجينا إلا طاعة الله، والاستقامة على أمره.

من كان الله معه فمن عليه و من كان عليه فمن معه ؟

لذلك أيها الأخوة،

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

كنا بمرحلة، طبعاً لماذا كانت البراءة؟ لأن المشركين نقضوا عهدهم مع رسول الله، هم بدؤوا فلما بدؤوا بنقض العهود أمر الله نبيه أن يلغي كل هذه العهود، لكن رحمة بهم:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

اعلم يقيناً أنك في قبضة الله، بأي لحظة يتوقف القلب ينتهي كل شيء، كل أموالك لغيرك، أموالك المنقولة، والغير منقولة، ومنصبك الرفيع، ومن حولك، وأتباعك، وأهلك، أصبح خبراً على الجدران، كان شخصاً فأصبح خبراً.

أيها الأخوة، هذه حقيقة

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

ككلمة أقولها دائماً: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ الله عز وجل مع الصحابة الكرام، الفقراء الضعاف، الشباب، وقد أجرى الله على أيديهم النصر، وإله الصحابة إلهنا، والإله موجود دائماً، وقوانينه ثابتة،

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

الدين الإسلامي دين جماعي وفردي :

وأخاطب الأخوة الكرام: هذا الدين جماعي وفردي، لو طبقته وحدك لقطفت كل ثماره، ولو طبقته الأمة لانتصروا على أقوى دولتين في العالم، من هم المسلمون؟.

سراقة تبع النبي عليه الصلاة والسلام ليقتله، أغراه بمئة ناقة، قال له: يا سراقة ـ أنت فكر بدقة بالغة إنسان أهدر دمه، والمئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، والذي تبعه يرجو هذه المئة ناقة ـ قال له: يا سراقة، كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟ نقرأ هذه الحادثة ولن نقف عندها أي أنا سأصل يا سراقة إلى المدينة، وسأنشئ دولة، وسأؤسس جيشاً، وسأحارب أكبر دولتين في العالم، وسأنتصر عليهما، وسوف تأتيني الغنائم إلى هنا، ولك يا سراقة سواري كسرى، ما هذا التفاؤل؟ ما هذا اليقين؟ والذي حصل في عهد عمر جاءت كنوز كسرى، وسأل عن هذا الصحابي ـ سراقة ـ وألبسه سواري كسرى، وقال: بخ بخ أعيرابي من بني مدلج يلبس سواري كسرى؟!

الوعود قائمة، والآن قائمة، الله ينتظر أن نصطلح معه، وأن نتوب إليه، والنصر سهل جداً، وهناك عينات موضحة، و جرعات منعشة،أخوتنا المقاومون في غزة كم عددهم؟ عشرة آلاف وقفوا أمام أول جيش في المنطقة، رابع جيش في العالم، يملك الطيران الحديث، الأباتشي، و f16، وأضخم مدرعة في العالم من صنعه، وصواريخ، وأسلحة كيماوية، وأسلحة عنقودية، وقنابل عنقودية، وانشطارية، وكل هذه الأسلحة لم تستطع أن تحقق شيئاً، و استمرت الحرب اثنين و عشرين يوماً، هذه أليست جرعة منعشة لنا جميعاً؟ الله موجود، والآن الخط البياني للطرف الآخر يهوي.

بلد محتل من قبل ثلاثين دولة، حلف الناتو، 74% من أراضيها بيد المقاومين، معهم بارودة فقط، هذه كلها أشياء تعطيك فكراً أن الله موجود، لذلك:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات، طبعاً آيات اليوم :

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

بلاغ عام

(إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (07-70):تفسير الآيتان 3-4 ، رؤية الطرف الآخر للمسلم والإسلام.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-04-23

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الله تتذبذب بين أن تكون أقدس عمل وأتفه عمل :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السابع من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

هذه الآية شُرحت في الدرس السابق، لكن ذكرتها لأن هناك استثناء، قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة]

الحقيقة أن هناك آيات كريمة تنظم العلاقة بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، هذه الآيات ملخصة في قوله تعالى:

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية:7]

الحقيقة أن الدعوة إلى الله تتذبذب بين أن تكون أقدس عمل على الإطلاق يرقى إلى صنعة الأنبياء، وبين أن تكون أتفه عمل على الإطلاق لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة.

الدعوة الخالصة إلى الله أساسها الاتباع :

متى تكون الدعوة إلى الله أقدس عمل وترقى إلى صنعة الأنبياء؟ حينما نتبع لا نبتدع.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأنعام الآية: 50]

فحينما أتبع منهج الله في قرآنه، ومنهج رسوله في سنته، فأنا متبع، فالدعوة الخالصة إلى الله التي تعد أقدس عمل على الإطلاق، والتي ترقى إلى صنعة الأنبياء، أساسها الاتباع، بينما حينما نبتدع هذه الدعوة تصبح عملاً لا جدوى منها، اتبع لا تبتدع، قال: حكمة تكتب على ظفر: اتبع لا تبتدع، اتضع لا

ترتفع، الورع لا يتسع، فحينما تكون الدعوة أساسها الاتباع ترقى إلى صنعة الأنبياء، وهناك توجيهات:

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

ماذا يقابل هذه الآية؟ يقابل هذه الآية:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة الآية:5]

فهذا الكافر إذا رأى المسلم، رآه غير صادق، رآه ليس منصفاً، لم يكن هذا المسلم في المستوى الذي أراده الله، ما الذي يحصل؟ تعينه أنت على كفره، يعتقد أنه على صواب، ولأنك أخطأت معه هذا الخطأ يسحبه على دينك.

بطولة المؤمن أن يشد الطرف الآخر إلى الإسلام بأخلاقه وحسن معاملته :

لذلك: وطن نفسك أنك إذا أسأت إلى مسلم، هذا المسلم يقول: فلان أساء إليّ، أما إذا أسأت إلى غير المسلم يقول هذا الإنسان غير المسلم: الإسلام دين باطل، فبين أن يبقى الخطأ بك وبين أن ينسحب الخطأ على الدين كله؟!

لذلك أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتين من قبلك، أنت سفير، هؤلاء المشركون الذين كانوا أمناء على العهد، وكانوا أوفياء، ولم ينقصوا منه شيئاً، لم يصدوا لكم تجارة، ولم يستولوا على أغنام، ولم يسرقوا أسلحتكم، ولم يغروا بكم أحداً، ولم يظاهروا عليكم أحداً، هؤلاء هم كما تروي الروايات التاريخية بنو ضمرة، وبنو كنانة، هؤلاء لم يؤذوا المسلمين إطلاقاً، وكانوا أوفياء لعهودهم ومواثيقهم، هؤلاء جاء الأمر الإلهي بأن يستمر العهد معهم إلى مدتهم،

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

أخواننا الكرام، للتقريب: النبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل المدينة المنورة، قال كلاماً يجب أن نقف على أبعاده، قال: "أهل يثرب أمة واحدة"، يوجد في يثرب نصارى، ومشركون، ووثنيون، وموال، وأعراب، ويهود، هذا المفهوم الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام يقال عنه اليوم: مفهوم المواطنة، أو مفهوم التعايش،

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

أي إلغاء الآخر غير مقبول، فبطولتك بذكاء، وبمنطق، وبلطف، وبإحسان، أن تقنع الطرف الآخر بالدين من خلال الأخلاق، من خلال حسن المعاملة، من خلال الإنصاف.

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا)

[سورة المائدة الآية: 8]

إن عدلت معه تقربه إلى الله، وتقربه إليك، لذلك الآية رائعة:

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

بطولتك أن تقنعه بدينك لا من خلال إيذائه، بل من خلال الإحسان إليه، بل من خلال الإنصاف.

طبعاً هؤلاء كما ذكرت بنو ضمرة، وبنو كنانة كانوا مشركين، فاستثنوا من قوله تعالى:

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

الإنقاص نوعان :

أيها الأخوة، ما معنى ؟

(لَمْ يَنْقُصُوكُمْ)

العلماء قالوا: الإنقاص معناه التقليل، والإنقاص على نوعين؛ إنقاص في الذوات، وإنقاص في متعلقات الذوات، كيف؟

الإنسان حينما يقتل أنقص هذا المجتمع واحداً، هذا إنقاص ذوات، أما حينما يأخذ مال إنسان أخذ متعلقه، أخذ حقه، فالإنقاص يحمل معنيين، إما إذا اعتدوا عليكم بالقتل، أو إذا اعتدوا على أموالكم،

(ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً)

الآن يمكن ألا يعتدوا عليكم، ولا على أموالكم، ولكن يغرون الآخرين بكم، يغرون أعداءكم أن ينقضوا عليكم.

لذلك:

(ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً)

أخلاق القتال شيء وأخلاق الحياة المدنية شيء آخر :

نعود إلى الدعوة، الدعوة ترقى إلى صنعة الأنبياء، وتكون أعظم عمل على الإطلاق حينما نحسن إلى هذا الآخر، حينما نستقيم معه، موضوع القتال موضوع آخر، ليس له علاقة بهذا الدرس، أخلاق القتال شيء، وأخلاق الحياة المدنية شيء آخر، أخلاق القتال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة الآية:73]

هذا أين؟ في ساحة المعركة، أما في الحياة المدنية:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت]

يمكن أن تقول: هناك أخلاق الجهاد في ساحة المعركة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

وأما الأخلاق:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة فصلت]

لذلك أول صفة الاتباع لا الابتداع، أنت مؤمن، معك منهج، معك وحي السماء، معك افعل ولا تفعل.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

ارتباط المؤمن مع الله عز وجل بعقد إيماني :

حينما يكون الأمر واضحاً، وحينما يكون النهي واضحاً، لا خيار لك أيها المؤمن، لأنك مرتبط مع الله بعقد إيماني، يا أيها الذين آمنوا ، يا من آمنتم بالله، يا من آمنتم به موجوداً، وواحداً، وكاملاً، يا من آمنتم به خالقاً، ورباً، وإلهاً، يا من آمنتم بأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، يا من آمنتم بمنهجه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، يا أيها المؤمن أنت في عقد إيماني مع الله،

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

فهؤلاء :

(الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً)

هؤلاء ينبغي أن يتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم .

الظهر رمز القوة و الظهير هو المعين :

أيها الأخوة،

(وَلَمْ يُظَاهِرُوا)

ما معنى

(وَلَمْ يُظَاهِرُوا)

قال: مأخوذة هذه الكلمة من مادة الظهر، وهذا الظهر يتحمل أقوى شيء، وأثقل شيء، والدليل: إنك لا تستطيع رفع كيس يزن مئة كيلو بيدك، هل تستطيع؟ لكنك تحمله على ظهرك، فأقوى مكان في الإنسان هو الظهر.

لذلك الظهر أن تعينه، أن تدعمه.

(فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)

[سورة الصف]

كلمة ظاهرين، أي أعناهم، أصبحوا أقوياء.

إذاً الظهر رمز القوة، أقوى مكان يتحمل به الإنسان هو الظهر، والمثل مرة ثانية واضح جداً: ليس بإمكانك أن تحمل كيس قمح بيدك، لكن هذا الكيس الذي يزن مئة كيلو تضعه على ظهرك، وهناك صناديق حديدية الآن تزن مئة كيلو، هؤلاء الذين أمدهم الله بقوة منه يحملون هذا الصندوق على ظهرهم، ويصعدون به الدرج.

فالظهر مكان القوة، أو أقوى مكان في الإنسان.

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما قصّ الله علينا نبأ في حياته الداخلية، قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم]

هناك ملمح لطيف، زوجتان من زوجات النبي عليه الصلاة والسلام ظاهرتا عليه فالرد الإلهي:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

علاقة الإنسان مع المحيط الخارجي إدراك فانفعال فسلوك :

ألا يتساءل أحدنا؟ للتقريب: مواطن انتقد بلداً هل يعقل من أجل مواطن، أو مواطنين، أن تستنفر القوى البرية والبحرية والجوية؟ غير معقول.

ماذا تعني الآية؟

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

في الآية ملمح دقيق و هو أن: علامة إيمانك اتباعك، فإن لم تتبع فأنت لم تفهم، أوضح مثل: لو قلنا لإنسان ـ لا سمح الله ـ على كتفك عقرب، بقي هادئاً، مرتاحاً، وابتسم، وقال لك: شكراً لك على هذه الملاحظة، وأرجو الله أن يمكنني أن أكافئك عليها، بربكم هل فهم هذا الإنسان ماذا تعني كلمة عقرب؟ مستحيل! لو فهم ماذا تعني كلمة عقرب، لقفز، وخلع معطفه، وصاح أحياناً، لأن العقرب لدغته قاتلة.

فلذلك عندنا قاعدة دقيقة جداً؛ علاقتك مع المحيط الخارجي، إدراك، فانفعال، فسلوك، فأنت إن لم تنفعل لم تدرك، وإن لم تتحرك لم تنفعل، إدراك، فانفعال، فسلوك، تمشي في بستان، ـ لا سمح الله ـ رأيت ثعباناً، حينما تنفعل معنى ذلك أدركت ما معنى ثعبان، وإذا انفعلت لا بد من حركة، إما أن تبادر إلى قتله، أو إلى الهروب منه.

قاعدة دقيقة جداً، يصح الإدراك إذا تبعه انفعال، ويصح الانفعال إذا تبعه حركة، فإذا الإنسان لم ينفعل، ولم يتحرك، معنى ذلك لم يصغ إلى كتاب الله، ملمح دقيق،

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

ماذا تعني هذه الآية؟ أي لا سمح الله ولا قدر إذا كان الإنسان في خندق معاد للحق ينبغي أن يعلم من هو الله، حياتك بيده، الشريان التاجي بيده، شرايين الدماغ بيده، الخثرة بيده، الورم الخبيث بيده، تشمع الكبد بيده، الفشل الكلوي بيده، العاهة الدائمة بيده، الفقر المدقع بيده، أن تفقد حريتك بيده، فأنت في قبضته.

فلذلك كلما ازداد إيمانك يزداد اعتصامك بالله عز وجل.

أيها الأخوة، الظهير هو المعين، فلان شددت به ظهري، أي أعانني، ظهر فلان على فلان؛ أي تفوق عليه، علا ظهره؛ أي استولى على أقوى شيء عنده.

القوي يجب أن يعين الضعفاء ويجبرهم على أن يعملوا معه ليتعلموا :

الآن في سورة الكهف آية دقيقة، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً)

[سورة الكهف]

الشاهد:

(فَأَعِينُونِي)

الحقيقة أن السد ينبغي أن يتخلله مكان ترابي، بمعنى أن هذا المكان الترابي يتلقى الصدمات، أنت حينما تضع شيئاً قابل للكسر، حوله إسفنج، ما مهمة هذا الإسفنج؟ تلقي الصدمات، فالمنطقة المرنة لها دور كبير.

لذلك:

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ)

وهناك استنباط آخر أن القوة تعني أن هذا القوي يجب أن يعين الضعفاء، وأن يجبرهم على أن يعملوا معه ليتعلموا، هذا الكلام يعني عندما تعطي إنساناً مساعدة من دون عمل يألف البطالة، يألف النوم إلى الظهر، يرتاح، أما حينما تكلفه بعمل، فرص العمل أفضل ألف مرة من إعطاء الصدقة، أخطر شيء بالمجتمع أن يتعود الإنسان أن يأخذ ولا يعطي، لكن تأمين فرص عمل، هناك دوام، هناك جهد، هناك إبداع، هذا يرقى بالأمة، أنا مع الصدقات لكن لمن؟ للعاجز.

((لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة قوي))

[أخرجه ابن حبان عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

أما إذا كان الشاب قوياً ويطلب مساعدة بلا عمل، هيئ له فرصة عمل، هذه الفرصة تجعله نشيطاً، تجعله منتجاً، يأخذ أجرته رافع الرأس، لذلك:

((اليدُ العليا خير))

[أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر]

والأولى ألا تكون اليد سفلى، أما إذا قبضت أجرتك بيدك فيدك ليست سفلى، لكن الصدقات لمن يعاني ما يعاني، هناك حالات مرضية، هناك حالات عجز، هناك عاهة، أما إنسان شاب قوي تعطيه دون أن يفعل شيئاً فهذه مشكلة كبيرة، لذلك الآية:

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ)

لذلك الحديث الرائع الصحيح:

((فإنما تُرزقُونَ وتُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

هذا الضعيف ينبغي أن تطعمه إن كان جائعاً، وأن تكسوه إن كان عارياً، وأن تُعلّمه إن كان جاهلاً، وأن تنصره إن كان مظلوماً، وأن تؤويه إن كان مشرداً، وأن تعالجه إن كان مريضاً، أنت حينما تعين الضعيف يكافئك الله بمكافأة من جنس عملك، ما المكافأة؟ ينصرك على من هو أقوى منك.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

أخوتنا الكرام، الأمة الإسلامية تعاني ما تعاني، أنا أتحدث عنها بشكل عام، فحينما الأمة تنصر ضعفاءها، عندئذٍ يكافئها الله بأن ينصرها على من هو أقوى منها.

فلذلك يجب أن يكون لك دور في الحياة، اسأل نفسك هذا السؤال: أنا ماذا قدمت لمن حولي؟ ولا يوجد إنسان إلا ويملك خصائص يمكن أن ينفقها، قال تعالى:

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة]

وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح، والعمل الصالح لا يقبل إلا بشرطين، أن يكون صواباً، وأن يكون خالصاً، صواباً وفق السنة، وخالصاً ما ابتغي به وجه الله، وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: 132]

اعتماد القرآن قيمتان مرجحتان بين خلقه ؛ العلم والعمل :

القرآن اعتمد قيمتين مرجحتين بين خلقه، اعتمد قيمة العلم وقيمة العمل، فقال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر الآية: 9]

هذه قيمة العلم.

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة الآية: 11]

هذه قيمة العلم، وأما العمل:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف الآية: 19]

أية أمة تعتمد مقاييس موضوعية ترقى، وأية أمة تعتمد مقاييس غير موضوعية تهوي، كلمة واحدة: إن اعتمدنا مقاييس موضوعية نرقى، ونقوى، وننتصر، أما إذا اعتمدنا مقاييس انتمائية نهوي ونسقط.

لذلك ذو القرنين قال:

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ)

البطالة مرفوضة، الراحة مرفوضة.

أنواع الفقر :

لذلك قالوا: هناك فقر الكسل، وهناك فقر القدر، وهناك فقر الإنفاق، سيدنا الصديق سأله النبي عليه الصلاة والسلام: ماذا أبقيت لنفسك؟ ـ أنفق كل ماله ـ قال: الله ورسوله.

هذا فقر الإنفاق، وهناك فقر الكسل، الكسول دخله قليل جداً، لا يتقن عمله، لا يؤدي ما عليه، لا يعمل لترويج عمله، يكتفي بالقليل، يمضي وقته نائماً، يؤجل، لا يتقن، إذا كان فقيراً فهذا هو فقر الكسل، وهناك فقر القدر، إنسان أحياناً امتحنه الله بعاهة، هذا فقير، لكن هذا فقر القدر، فرق كبير بين فقر القدر، وبين فقر الكسل، وبين فقر الإنفاق.

قال أحد الأصحاب للنبي الكريم إني لأحبك، قال النبي الكريم: انظر ماذا ترى؟ قال: والله إني لأحبك، قال: انظر ماذا ترى؟ قال: والله إني لأحبك، قال: إن كنت صادقاً فيما تقول للفقر أقرب إليك من شرك نعليك، أي فقر هذا؟! فقر الإنفاق، إذا أحب الله عز وجل أعان عباده، أعانهم، معقول أن تكون في بحبوحة ومن حولك من المؤمنين في أمس الحاجة إلى مساعدتك ولا تساعدهم؟ مستحيل.

إني لأحبك، والله إني أحبك، والله إني أحبك، فقال: إن كنت صادقاً فيما تقول للفقر ـ قصد فقر الإنفاق ـ أقرب إليك من شرك نعليك، لكن لا تنسوا هذا الحديث:

((فإنما تُرزقونَ وتُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

والله الذي لا إله إلا هو لو أن المجتمع الإسلامي انتبه إلى ضعفائه، أطعمهم، وسقاهم،وأكرمهم، وعلمهم، وآواهم، فالله سبحانه وتعالى يتفضل علينا جميعاً أن ينصرنا على من هو أقوى منا.

إن لم يكافأ المحسن و يعاقب المسيء فنحن في طريق الهاوية :

ذو القرنين قال:

(قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً)

[سورة الكهف]

أخواننا الكرام هناك حقيقة خطيرة، إن لم يكافأ المحسن، وإن لم يعاقب المسيء، فنحن في طريق الهاوية، مثل بسيط: أنت معلم، عندك خمسون طالباً، أعطيتهم وظيفة، بعض الطلاب كتبوا الوظيفة واستغرقت معهم ساعتين أو ثلاثة، وتعبوا بها كثيراً، وفي اليوم التالي لم تشاهد الوظائف، فاستوى عندك من جهد طوال الليل في كتابة الوظيفة، ومن أهمل هذا الأمر، في اليوم الثالث أعطِ وظيفة لا أحد يكتبها.

كلام دقيق، إن لم يكافأ المحسن، إن لم يعاقب المسيء، فهناك مشكلة، فإذا كنت معلماً، أو كنت أباً، أو كنت قيماً على عشرة، يجب أن يكافأ المحسن، ويعاقب المسيء.

لذلك:

(قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً)

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً)

[سورة الكهف]

هذا مبدأ يحتاجه الأب، تحتاجه الأم، يحتاجه المعلم، يحتاجه أي صاحب منصب قيادي.

أيها الأخوة، هذه أمانة القوي.

الطرق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

أخواننا الكرام، قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

لماذا؟ قال: لأن القوة تعني قوة المال، وقوة العلم، وقوة المنصب، قوة المال، بإمكانك أن تفعل في المال أعمالاً لا تعد ولا تحصى، مشاريع، معاهد، مستشفيات، مستوصفات، تزويج الشباب، والله هناك طرق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وأنا أتصور أن الله جلّ جلاله ما جعل الغني غنياً إلا ليصل بغناه إلى أعلى درجات الجنة، حينما ينفق ماله في سبل الخير.

والقوة الثانية قوة العلم:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية: 39]

هذه قوة ثانية.

والقوة الثالثة: قوة المنصب، بجرة قلم تحق حقاً، وتبطل باطلاً، تقر معروفاً، وتزيل منكراً، بتوقيع، فقوة العلم، وقوة المال، وقوة المنصب.

لذلك إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، أما إذا كان طريق القوة على حساب مبادئك وقيمك فالضعف وسام شرف لك.

المؤمن سفير لهذا الدين :

أيها الأخوة، الآية الكريمة التي بدأناها في أول هذا الدرس:

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

أيها الأخوة الكرام، هذا الدرس يضغط بآية واحدة:

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

فأنت على ثغرة من ثغر هذا الدين، فلا يؤتين من قبلك.

وآخر فكرة أنك إذا أسأت إلى غير المسلم هو لا يتهمك عندئذٍ يتهم إسلامك، لا يتهمك يتهم دينك، وأنت سفير لهذا الدين.

أيها الأخوة الكرام، في الآيات القادمة إن شاء الله تتبدى بعض الحقائق في هذه السورة الكريمة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (08-70):تفسير الآية 5 ، معاملة الكفار بما يستحقونه دون إيذائهم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-04-30

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات التالية دقيقة جداً يحتاج فهمها إلى إعمال الفكر :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثامن من دروس سورة التوبة، ومع الآية الخامسة وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآيات دقيقة جداً، يحتاج فهمها إلى إعمال الفكر، الله عز وجل أمرنا أن نقاتل، من؟ الذين أرادوا إبادتنا.

أنا أضع بين أيديكم بعض التصريحات لبعض الأعداء الكبار، يقول طاغية كبير: "ربما سيكرهني العالم وسيخشاني بدلاً من أن أشتكي إليه، ربما يخاف من ضرباتي الجنونية بدلاً من أن يعجب بروحي الجميلة، وليرتجف مني، وليعامل بلدي كبلد مجانين، وليقل إننا متوحشون، وإننا نمثل خطر الموت لجميع الجيران، وإننا جميعاً غير أسوياء، ونستطيع أن نغرز أزمة فظيعة إذا قُتل طفل منا واحد، وأن نفجر بسبب ذلك آبار البترول في جميع الشرق الأوسط".

الله عز وجل هو الخبير، حينما أمرنا أن نقاتل، نقاتل من؟ نقاتل مثل هؤلاء الذين أرادوا إبادتنا.

في العالم الغربي تمّ قتل ثلاثمئة مليون زنجي، الأخبار الدقيقة جداً عن أعمال الطرف الآخر حينما يسيطرون، لما فتح الفرنجة القدس قتلوا سبعين ألف إنسان في ثلاثة أيام، فمثل هذا الإنسان الذي يتشفى بدماء المسلمين، مثل هذا الإنسان الذي يبني مجده على أنقاض المسلمين، هذه الآية له فقط، لكن أصنافاً كثيرة، فئات كثيرة، أنواعاً كثير من البشر ما أُمرنا أن نقاتلهم أبداً، أنا أتكلم عن مثل هؤلاء.

صحيفة من أشهر الصحف في بلاد الغرب، قالت: لا توجد قيم ولا أخلاق، إنما هي القوة، والقوة وحدها، ومنذ خمسة آلاف سنة والقوي يفرض ما يريد، وكلما أمعنا في القوة كسبنا أكثر، فنحن حينما استأصلنا الهنود الحمر، والإنكليز حينما استأصلوا سكان أستراليا الأصليين، نجحنا في حسم المعركة.

أي حربهم حرب إبادة، مثل هؤلاء الذين يريدون إبادة البشر، مثل هؤلاء الذين يريدون أن يقوم مجدهم على أنقاض البشر، مثل هؤلاء الذين يريدون أن يبنوا غناهم على إفقار البشر، مثل هؤلاء الذين يريدون أن يبنوا أمنهم على إخافة البشر، مثل هؤلاء الذين أرادوا أن يبنوا عزهم على إذلال البشر،

هؤلاء وحدهم المعنيون بهذه الآية، لئلا يُفهم القرآن على خلاف ما أراد الله، هؤلاء المعنيون بهذه الآية.

في تاريخ البشرية جرائم لا يعلم أبعادها إلا الله عز وجل :

أخواننا الكرام، حينما فتح الفرنجة الأندلس تمت مجزرة تفوق حدّ الخيال، إذا ضُبط الإنسان يغتسل يوم الجمعة يُقتل، إذا ضُبط الإنسان في هذه البلاد يصنع حلوى في أيام العيد يُقتل، فهناك في تاريخ البشرية جرائم لا يعلم أبعادها إلا الله، هؤلاء الفئة القليلة، الطاغية، المجرمة، معنيون بهذه الآية، لئلا يُفهم القرآن على خلاف ما أراد الله عز وجل.

هناك قصيدة قالها أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس، وهذه القصيدة تعد من الأدب العالمي، لأنها تُرجمت إلى أربع عشرة لغة:

يا راكبين عتاق الخيـــل ضامرة كأنها في مجـال السبق عقبان
و حاملين سيوف الهند مرهفـــة كأنها في ظلام النقـع نيران
و راتعين وراء البحر في دعـــة لهم بأوطانهم عز وسلـطان
أعندكم نبأ من أهل أندلـــس فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث صناديد الرجال وهـم قتلى و أسرى فما يهتز إنسان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهـم عليهم من ثياب الذل ألـوان
يا رب أم و طفل حيل بينهمـــا كما تفرق أرواح و أبـــدان
و طفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومـرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهـــة و العين باكية و القلب حيـران
لمثل هذا يبكي القـــلب من كمد إن كان في القلب إسلام و إيمان

* * *

ليست أحداث غزة عنا ببعيد، من هؤلاء الذين قُتلوا؟ مقاتلون؟ لا، أطفال في عمر الورود، نساء ضعاف، ألف وخمسمئة طفل قُتلوا بأحدث الأسلحة، هذه الآية لهم، لهؤلاء الطغاة، لهؤلاء القتلى، لهؤلاء الذين يبنون مجدهم على أنقاض الشعوب، لهؤلاء الذين يرتاحون للدماء تسيل، هذه الآية لهم وحدهم، لا يذهبن بكم الظن أن الإسلام أمر بهذا إلا مع فئة قليلة جداً، أرادت أن تبني مجدها على أنقاض الشعوب، أرادت أن تبني حياتها على موتهم، أمنها على خوفهم، غناها على فقرهم، عزها على ذلهم.

هذه الآيات لها معنى محدد، وتجاه فئة تريد أن تسيل الدماء في ديار المسلمين، هؤلاء فقط، خمسة آلاف في قلعة في بلاد الشرق البعيد حُصروا في قلعة، وبقوا بلا طعام ولا شراب حتى شربوا أبوالهم،

وأكلوا لحوم بعضهم، ثم قُصفوا حتى قُتلوا، هذا الذي تتحدث عنه الآية.

الإسلام دين السلام والمحبة والتسامح :

أما الإسلام دين السلام، دين المحبة، دين التسامح، لما فتح صلاح الدين الأيوبي القدس، لم تُرق قطرة دم واحدة، وهؤلاء الفرنجة يتحركون آمنين مطمئنين، باعوا متاعهم بأثمانها، ولم يفعل معهم المسلمون شيئاً، حتى قال أحد كبار الفلاسفة تولستوي: "ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب"، طبعاً العرب المسلمون، ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب.

فأنا أذكر هذه التحفظات لئلا يذهب بكم الظن إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ)

من هذا الصنف، الذين يبنون مجدهم على أنقاض الشعوب.

ارتباط كرامة الإنسان بمصير المعركة التي يقودها :

أيها الأخوة،

(فَإِذَا انْسَلَخَ)

ما معنى انسلخ؟ أي شيء لصيق بشيء، كالجلد في الدابة سلخته، أي نزعته، أي هذه الأشهر الحرم إن انسلخت كانت حصناً، كانت درعاً للمشركين، كانت وقاية، كانت حماية.

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)

مِن الصنف الذي ذكرته قبل قليل، مِن الصنف الذي يهوى سفك الدماء، مِن الصنف الذي يبني مجده على أنقاض البشر، مِن الصنف الذي يتوهم أن له ما ليس للبشر، وأن على غيره ما ليس عليه من البشر.

أيها الأخوة، معنى ذلك أن الأشهر الحرم لها حكمة بالغة، من أجل حقن الدماء، قد يتحارب جيشان، وكل جيش جعل مصير المعركة منوط بكرامته، فالدماء تسيل، والحرب لا تقف، فتأتي هذه الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتال، في خلال هذه الأشهر يذوق الناس طعم السلامة فيتمنون استمرارها، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن تحقن الدماء، لأنه خلق الإنسان على جِبلة خاصة، حينما تسيل الدماء ترتبط كرامة الإنسان بمصير المعركة، فلذلك تستمر الحروب سنوات، وسنوات.

في تاريخ الجاهلية رجل مدّ رجله، وقال: من كان أشرف مني فليضربها، فقام إنسان وضربها، ودامت الحرب بين قبائل العرب عشر سنوات.

فالإنسان حينما يثور دم الحقد عنده قد يغدو مجرماً كبيراً، الآية هذه موجهة إلى هذا الصنف وحده، إلى الذي يتلذذ بالقتل، ألف وخمسمئة طفل صغير مع امرأة قُتلوا في حرب غزة، أي هل من الممكن مصارع كبير يمسك طفلاً رضيعاً ويصرعه ويقول: انظروا إلى قوتي؟ أحمق، يجب أن تقف أمام مصارع آخر، هذه الطائرات لجيش آخر لا لأطفال عزّل في بلدة محصورة مكشوفة، لا تملك سلاحاً مضاداً للطائرات، ولا سلاح طيران، وتبرز عضلاتك.

موقف الإسلام من الآخر :

حينما اجتاحوا لبنان، دمروا البنية التحتية، من أجل أسير واحد، فلذلك الله هو الخبير، هؤلاء الذي يرون مجدهم في القتل، يرون مجدهم في إسالة الدماء، يرون مجدهم في سفك الدماء، في انتهاك الأعراض، هذه الآية لهم وحدهم، أي لها سياق.

أضرب مثلاً: أضرب مثلاً: إذا كان هناك بضع شباب في مسبح، وقال أحدهم لزميله: رش فلاناً، ما معنى رش هنا؟ هل معناها اقتله؟ لا ، رشه بالماء فقط، الجو جو مسبح، البيئة بيئة مسبح، رشه أي صب عليه الماء فقط، أما إذا كان في ساحة معركة، وهناك تلاحم، وقال له: رشه أي اقتله، بيئة هذه الآية لا علاقة لها بمشرك مسالم إطلاقاً، لا علاقة لها بمشرك لا يعتدي عليك:

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 7]

آية واضحة كالشمس:

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ)

[سورة الممتحنة الآية: 8]

أنا أريد أن أُبين موقف الإسلام، الإسلام لا يقبل من جهة أن تتلذذ بسفك الدماء، ولا بقتل الأبرياء، ولا بقتل النساء والأطفال، هذه الآية موجهة لهذا النوع من البشر.

التصاق الأشهر الحرام بالناس وكأنها درع لهم تحميهم :

إنسان فرضاً خلال عشرين أو ثلاثين سنة خطط لإبادة المسلمين، أليس في قتله خلاصاً للمسلمين وشروره؟ هكذا الآية لها سياق، الآية لها سباق، ولها لحاق، ولها سياق، يجب أن نفهم الآية في جوها، فهذه الأشهر الحرم ملتصقة بالناس، وكأنها درع لهم، تحميهم، كأنها وقاية لهم، لذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يذوق الناس طعم السلم، وهل تصدقون أن قوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر]

ما الفتح؟ صلح الحديبية هو الفتح الحقيقي، أي إشاعة السلام هو النصر الحقيقي، البشر يحبون السلام، يحبون الأمن، الراحة، وهذا تشريع الله عز وجل.

بيان معنى انسلخ عنه و انسلخ منه :

لكن هناك في اللغة ينسلخ عنه، وينسلخ منه، سلخنا الجلد عن الدابة، أي أخذنا جلدها بعيداً عنها، أما انسلخ الإنسان من دينه، أي ابتعد عنه، فرق كبير بين أن نقول: سلخنا عن الدابة جلدها أي نزعناه، وبين أن نقول: انسلخ الإنسان من دينه، والآية:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا)

[سورة الأعراف الآية:175]

انسلخت من الشيء أي أنا خرجت منه، أما سلخنا عنه جلده أي نحن أخذنا منه جلده:

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ)

[سورة يس الآية: 37]

فالنهار طارئ، والأصل هو الظلام الدامس، لذلك عندما صعد رائد الفضاء إلى القمر، وتجاوز طبقة الهواء التي تبلغ خمسة وستين ألف كم، صاح بأعلى صوته: لقد أصبحنا عمياً لا نرى شيئاً، لأن ظاهرة انتثار الضوء انتهت بعد طبقة الهواء.

لذلك هذه الحادثة التي ظهرت بعد ألف وأربعمئة عام من بعثة النبي تبين أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن.

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

[سورة الحجر]

الله سبحانه وتعالى أراد ألا يجتمع في الجزيرة دينان :

أيها الأخوة الكرام، الآن بعد إعطاء المشركين مهلة أربعة أشهر، أو إعطاء من لهم عهد إلى انقضاء عهدهم، أراد الله سبحانه وتعالى ألا يجتمع في الجزيرة دينان، مع أنه:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

ولكن لا بد من جهة يبقى بها الدين الإسلامي مهيمناً، وليكون هذا المكان رمزاً لوحدة المسلمين. فلذلك لك أن تؤمن، ولك ألا تؤمن، لأنه:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

لكن إذا آمنت ينبغي أن تلتزم، ليس لك أن تخرج متى تشاء، وتنقل نقاط الضعف التي توهمتها إلى أعداء المسلمين، فأنت في الأساس مخير، لك أن تؤمن، ولك ألا تؤمن،

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

أما إذا آمنت ينبغي أن تلتزم، وهذا ما يفهم من بعض هذه الآيات.

انتشار الدين بالقدوة لا بالإكراه :

هناك نقطة ثانية دقيقة جداً، وأتمنى أن توضح لكم:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

أنت حر في أن تؤمن، أو ألا تؤمن، والدين انتشر بالقدوة، لكن هذا الذي يمنع وصول الدين إلى كل الفئات هذا نقاتله، هذا الذي يلغي حرية الاعتقاد، هذا الذي يلغي حرية التدين، هذا ينبغي أن يُقاتل، لأنه يمنع الخير عمن حوله، هذا دين الله، الآن الدول العظمى الكبرى تريد أن تعمم ثقافتها على الشعوب بالقوة أليس كذلك؟ الدول الكبرى الآن تريد أن تنقل ثقافتها بل إباحيتها إلى الشعوب الضعيفة، بسبب قوتها وهيمنتها.

فالإسلام أراد أن تشيع العقيدة الصحيحة في بني البشر، فما أمر المسلمين بالجهاد إلا لينشر هذا الدين في الآفاق، والذي أراد أن يبقى على دينه يدفع مقابل حمايته الجزية، أي بدل نقدي، كل مواطن ينبغي أن يدافع عن بلده، أحياناً يسمح لمواطن أن يدفع بدلاً مقابل أن يعفى من الخدمة الإلزامية، هذا معنى الجزية بلا زيادة ولا نقصان، أناس أرادوا أن يبقوا على دينهم، من يحميهم؟ المسلمون، نظير عزوفهم عن الجهاد، وعزوفهم عن الدخول في الدين، يدفعون الجزية كبدل نقدي لحمايتهم.

من أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن بقي على دينه فعليه الجزية :

أيها الأخوة، الآية تقول:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)

لكن أن وجدتموهم لا يشكلون خطراً عليكم، هذه حالة ثانية، مشرك طاغية، مشرك مجرم، مشرك يتمنى إبادة المسلمين، مشرك يقعد للمسلمين

(كُلَّ مَرْصَدٍ)

مشرك يخطط لسفك الدماء، هذا له حكم، قال: إن وجدتم مشركين لا يفكرون في سفك الدماء، قال: هؤلاء خذوهم، لا تقتلوهم،

(وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ)

راقبوا حركاتهم، فإن لم تجدوا في حصرهم، وفي حركاتهم ما يقلق دعوهم وشأنهم، ويدفعون الجزية طبعاً.

(وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ)

أما عظمة هذا الدين:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ)

أي الإسلام واضح، إما أن تسلم، لك ما لنا، وعليك ما علينا، فإن أردت أن تبقى على دينك لا مانع، لكن مقابل بدل نقدي، البدل النقدي هو الجزية، أما إن أردت أن تحاربنا، إن أردت أن تقاتلنا، إن أردت أن تسفك دماءنا، إن أردت أن تبني مجدك على أنقاضنا، إن أردت أن تُيتّم أولادنا، وأن ترمل نساءنا نحاربك، فقط هذا الكلام الدقيق.

لذلك:

(وَخُذُوهُمْ)

خذوهم أسرى، ولو قاتلوكم، أرادوا بقتالكم أن يدافعوا عن أنفسهم، هذا قتال غير قتال رؤوس الكفر، رؤوس الكفر يقاتلونكم ليبيدوكم، أما هؤلاء يقاتلون دفاعاً عن أنفسهم، قال:

(وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ)

أي راقبوا حركاتهم وسكناتهم، إذا قاموا بأية حركة معادية يسهل عليهم كشفها،

(وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ)

المؤمن كيس فطن حذر، ولا يكن استطلاعكم لهم إذلالاً، هذا لا يجوز، فالاستدلال على حركاتهم وسكناتهم شيء، والاستذلال شيء آخر.

عظمة الإسلام :

إذاً الآية:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ)

الطغاة، سفاكو الدماء، الوحوش البشرية، الذين يبنون مجدهم على أنقاض الشعوب، يبنون حياتهم على إبادة الشعوب، يبنون غناهم على إفقار الشعوب، ينهبون ثروات أهل الأرض، ليعمروا بلادهم.

(فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)

فإن قاتلوا دفاعاً عن أنفسهم، وليسوا في مستوى الصنف الأول، قال:

(وَخُذُوهُمْ)

خذوهم أسرى، واحشروهم في مكان معين،

(وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ)

إنهم أخوانكم إن آمنوا :

(فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

[سورة الأحزاب الآية: 5]

وهذه عظمة الإسلام،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ أول ما أوحى الله تعالى إلى نبيه الكريم :

أيها الأخوة، ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب زاد المعاد، وهو كتاب سيرة، من أشهر كتب السيرة، هناك فصل عقده باسم: فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين، يقول: أول ما أوحى الله جلّ جلاله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[سورة العلق]

أول أمر، أول كلمة، في أول آية، في أول سورة نزلت في القرآن الكريم:

(اقْرَأْ)

أي تعرف إلى الله،

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

بعدها:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ)

[سورة المدثر]

أي تعلّم وعلّم، تذكر وذكّر، تلقى وألق،

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)

أمره أن ينذر عشيرته الأقربين:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً)

[سورة الإسراء]

مراحل الدعوة الإسلامية:

ثم هناك آيات أخرى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[سورة الشعراء]

ابدأ بأهلك، لأن هناك ثقة بين الأخ وأخيه، بين الأب وابنه. ثم:

(أَنْذِرْ قَوْمَكَ)

[سورة نوح]

أول شيء:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ)

ثاني شيء:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ)

أنذر من؟

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

ثم:

(أَنْذِرْ قَوْمَكَ)

ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين جميعاً.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

[سورة الأنبياء]

تعلَّم وعلِّم، تذكر وذكّر، تلقى وألق، ابدأ بـ

(عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

ثم بمن حول العشيرة، ثم بقومك، ثم بالعرب، ثم بمن حول العرب، ثم بالبشر أجمعين.

كل مرحلة مرّ بها النبي عليه الصلاة والسلام لها ما يقابلها اليوم :

أقام النبي عليه الصلاة والسلام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، بضع عشرة سنة يدعو النبي في مكة إلى الله، ليس هناك قتال، ولا جزية، ولا هم يحزنون، وأمر أصحابه بالكف عن قتال الأعداء:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

[سورة النساء الآية: 77]

أي في مرحلة لا بدّ من أن تجهز نفسك لإيمان لا يتزلزل، إيمان كالجبال، لإيمان راسخ رسوخ كقمم الجبال، هذه المرحلة الأولى، فأقام النبي في قومه بضع عشرة سنة بعد نبوته ينظر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف، والصبر، والصفح.

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

[سورة الحجر]

هذه مرحلة، ماذا فعل بهذه المرحلة؟ أسس صحابة إيمانهم كالجبال، لا تزلزلهم المصائب، صامدون، صادقون، الله عز وجل يصفهم ويقول:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب]

هؤلاء النخبة، هؤلاء نخبة أصحاب رسول الله، هم الذين حافظوا على هذا الدين، وبعد أن انتقلوا إلى المدينة، وأسسوا دولة، وجهزوا جيشاً، الآن دخلوا في طور آخر، ثم أمرهم أن يقاتلوا من يقاتلهم، عهد الضعف، والصفح، والتسامح، هذا العهد مرحلي، الآن هناك شأن للمؤمنين، لهم كيان، لهم كرامة، لهم عزة، في هذا الوضع أُمروا أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم، ويكفوا عمن لم يقاتلهم، ثم أُمروا أن يقاتلوا ليكون الدين كله لله. فلذلك هذه المراحل المتعاقبة تعطينا نماذج يعيشها المسلمون اليوم، فكل مرحلة مرّ بها النبي عليه الصلاة والسلام لها ما يقابلها اليوم.

من يملك السلاح و العدة مرهوب الجانب :

أيها الأخوة، الموضوع موضوع محدد، أنا عجبت عجباً كبيراً، زرت مرة سويسرا، وهذا البلد معروف أنه بلد مسالم دائماً، ولا علاقة له بأية حرب، فإذا يملك جيشاً من أقوى الجيوش، بل نظامه هناك أن كل مواطن عنصر في الجيش، وفي ساعات يجتمع شمل هذا الجيش لماذا؟

لا بدّ من أن تكون قوياً.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

الذي يملك السلاح مرهوب الجانب،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

الآن الدولة التي تملك سلاحاً نووياً مرهوبة الجانب، وقد لا تستخدمه أبداً، وقد يمضي مئة عام وهذا السلاح لا يستخدم، لكنه أداة ردع، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد الإيمان بالله :

هناك ملمح دقيق في الآية يجب أن يكون عدوكم عدواً لله، لذلك:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

سبب هذا الحديث أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بعد الإيمان بالله، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله، وإنَّ ذلك لكائن ؟))

أي معقول؟! قال عليه الصلاة والسلام:

((نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر، ونهيتُم عن المعروف؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال : نعم، وأشدُّ منه سيكون))

صعقوا ثانية.

((قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً))

[ورد في الأثر]

على كلٍّ أيها الأخوة، الآية الكريمة:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (09-70):تفسير الآية 6 ، الرفق والمعاملة الحسنة للطرف الآخر حتى ولو كان كافراً.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-05-07

بسم الله الرحمن الرحيم

كلّ البشر من دون استثناء مطلوبون للهداية و لرحمة الله :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس التاسع من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة وهي قوله تعالى:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الحقيقة الأولى: أن كل البشر من دون استثناء مطلوبون للهداية، مطلوبون لرحمة الله، يدعوهم الله إلى الإيمان من دون استثناء، هناك توهمات أساسها الجهل أن الله خلق لجهنم أناساً، وخلق للجنة أناساً، كل الذين خلقهم الله عز وجل خلقهم لجنة عرضها السماوات والأرض، والدليل:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود الآية :119]

خلقنا ربنا ليرحمنا، خلقنا لنعرفه، خلقنا لنهتدي إليه، خلقنا ليسعدنا، خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض.

حسن الظن بالله ثمن دخول الجنة :

أيها الأخوة، أنت حينما توقن أنك مخلوق للجنة من خلال هذه الآية:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل]

اليسرى هي الجنة.

أيها الأخوة، ينبغي أن تنطلق في أصل عقيدتك من أن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا، وخلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض، وما الحياة الدنيا إلا تأهيل للجنة، ما الحياة الدنيا إلا مكان ندفع فيه ثمن الجنة، ما الحياة الدنيا إلا إعداد لدخول الجنة، فلذلك حسن الظن بالله ثمن دخول الجنة، هناك كلمات يقولها عوام الناس، صدقوا ولا أبالغ هي الكفر بعينه، يقول: سبحان الله!

الله خلقنا للشقاء، من قال لك ذلك؟ خلقنا ليسعدنا، خلقنا لنعرفه.

لكن: تصور مدرسة من أعلى مستوى، بناءً، وأساساً، وأدوات، ومدرسين، إنما أُنشِئت كي تخرج قادة للأمة، لو أن أحد الطلاب قصر في واجباته، واستحق أن يؤدب كي يسير على الطريق الصحيح، قال هذا الطالب: هذه المدرسة أُنشِئت كي تعاقبنا، هذا هو الجهل بعينه.

الله عز وجل خلق الإنسان ليسعده في الدنيا و الآخرة :

قد يستحق الإنسان التأديب من الله، قد يستحق معالجة حقيقية، هادفة، فيتوهم أن الله خلقنا للعذاب، الله عز وجل خلقنا ليسعدنا،

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ)

هؤلاء الكفار الذين كفروا، هؤلاء المشركون الذين أشركوا، هم مطلوبون لرحمة الله، مطلوبون لهدايته، مطلوبون كي يتعرفوا إليه، كل الخلق مطلوبون للهداية، والدليل: والحديث عن المشركين، والدليل الحديث عن براءة الله عز وجل :

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة التوبة]

والحديث عن انحراف هؤلاء، وعن كفر هؤلاء، وعن إشراك هؤلاء، وعن ضلال هؤلاء، وفي ضمن هذا الحديث:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

الله عز وجل خلق الإنسان لجنتين؛ جنة في الدنيا و جنة في الآخرة :

اِنفِ من كل تصوراتك أن الله خلقنا ليعذبنا، أو أن الله سبحانه وتعالى خلق للجنة أناساً، وخلق للنار أناساً، هذا شيء لا يقبله عاقل، خلقك وقدر عليك أن تعصيه فإذا نفذت إرادته وعصيته يجعلك في جهنم إلى أبد الآبدين؟ هذه رحمة الله؟! هو ينتظرك، ينتظر لفتةً منك.

((إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ أُهَرْوِلُ))

[البزار عن سلمان الفارسي]

هو ينتظرك، ورد في بعض الآثار:

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إليّ، هذه إرادتي في المعرضين فكيف بالمقبلين؟ إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

ينبغي أن نعرف رحمة الله، خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا، خلقنا لجنتين، جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

ما خلقنا ليعذبنا، هذه حقيقة أساسية.

العقيدة أخطر شيء في حياة الإنسان :

أخواننا الكرام، إن صحت عقيدة المرء صحّ عمله، وإن فسدت عقيدة المرء انحرف سلوكه، ما من وهم نتوهمه، ما من تصرف نتصوره، إلا وله انعكاس في السلوك، فإذا كان التوهم منحرفاً، أو ظالماً، أو بعيداً عن الحقيقة، انعكس شقاء.

لذلك أقول لكم: أخطر شيء في حياتك عقيدتك، إن صحت صحّ سلوكك، وإن لم تصح انحرف السلوك، فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن الكفار، وعن كفرهم، وعن المشركين وشركهم، وعن انحرافهم، ولكنه يفتح لهم باب التوبة على مصراعيه إلى يوم القيامة.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 53]

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

ومن أبلغ مما قيل في هذا المعنى، قصة رمزية رواها النبي عليه الصلاة والسلام: رجل ركب ناقته، وعليها طعامه وشرابه، ليقطع بها الصحراء، أدركه التعب، فجلس ليستريح فأخذته سنة من النوم فأفاق فلم يجد الناقة، ما معنى إنسان بالصحراء لم يجد ناقته وعليها طعامه وشرابه؟ معنى ذلك أنه هالك لا محالة، ميت قطعاً، فأيقن بالهلاك، مشى ثم عاد إلى ما كان، أدركته من شدة البكاء سِنة من النوم، فأفاق فرأى الناقة، فاختل توازنه من شدة فرحه، قال: يا رب أنا ربك وأنت عبدي، يقول الله عز وجل برواية النبي الكريم: "لله أفرح بتوبة عبده من هذا البدوي بناقته".

هذا موقف الله عز وجل، ينتظرنا، يفرح بتوبتنا، يفرح بعودتنا.

((أحب ثلاثاً وحبي لثلاث أشد، أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد، وأبغض ثلاثاً وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد، أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد))

[ورد في الأثر]

الشرط و النفي :

لذلك الله عز وجل في أثناء الحديث عن المشركين، وعن الكفار، وعن المنحرفين، في غمرة هذا الحديث يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

أيها الأخوة، إن حرف شرط، معنى الشرط أن حدثين لا يقع الثاني إلا إذا وقع الأول، هذا المعنى يستفاد من معنى إن الشرطية، إن تجتهد تنجح، النجاح لا يكون إلا بعد الاجتهاد، لذلك هذا الحرف يدخل على الأفعال

(وَإِنْ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ)

لكن هناك إن أخرى ليست شرطية، بل هي نافية:

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ)

[سورة المجادلة الآية: 2]

أي هنا ما،

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ)

فإما أن تأتي إن داخلة على الفعل وتفيد الشرط، وإما أن تأتي وبعدها اسم تفيد النفي، هذه حقيقة تفيد في علم النحو.

ولكن هنا في هذه الآية شيء جديد إن شرطية دخلت على الاسم،

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ)

ماذا قال علماء النحو في هذه الصيغة القرآنية الجديدة؟ قال: لابد من أن نقدر فعلاً لهذا الفاعل،

(أَحَدٌ)

فاعل لفعل محذوف، يقدر مما سيأتي بعده، أي نقدر هذه الآية على الشكل التالي:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ)

أحد فاعل لفعل محذوف تقديره استجارك.

استجارة المجير من خصائص الأمة الإسلامية :

أيها الأخوة، الآية:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ)

مشرك، مقاتل، أحياناً مهدور دمه، فلمجرد أن يستجير بك ينبغي أن تجيره، لأن إجارته شهامة، والنبي الكريم يقول:

((خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام))

[أحمد عن أبي هريرة]

وفي حديث آخر يخاطب بعض أصحابه:

((أسلمت على ما أسلفتَ لك من خير))

[أخرجه البخاري ومسلم عن حكيم بن حزام]

وحينما قال:

((إنما بعثت معلماً))

[ابن ماجه عن ابن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

في هذه الأحاديث الثلاث أن الأمة العربية في الجاهلية كانت على بعض القيم الأخلاقية، فقيمة الكرم، والشجاعة، والإجارة من قيم هذه الأمة حتى قبل الإسلام.

فلذلك استجارة المجير كانت من خصائص هذه الأمة.

على المؤمن أن يتأكد من صدق استجارة المستجير :

الآن قد تعرف من الاستجارة المستجير، وقد تعرف المستجير أولاً، ثم يستجير بك، إما أن نبدأ بالاستجارة، إنسان لا تراه، سمعت صوتاً يقول: أجرني، سمعت الاستجارة قبل أن ترى المستجير، وهناك حالة ثانية: رأيت الإنسان ثم استجار بك.

لذلك أيها الأخوة، الاستجارة قد تسبق المستجير، وقد يظهر المستجير ثم يستجير، ماذا نقصد بهذا التفصيل؟.

الآية الكريمة:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ)

جاء المستجير قبل الإجارة إشارة إلى أن المؤمن كما وصف: كيس، فطن، حذر.

قد تكون الاستجارة خلبية، وقد تكون الاستجارة احتيالاً، وقد تكون الاستجارة مكراً، وقد تكون الاستجارة كسباً للوقت، فالمؤمن ينبغي أن تكون فطناً، وأن يتأكد من استجابة المستجير، وأنه مستجير حقاً، وليس من باب الاحتيال.

فلذلك الله عز وجل قدم شخص المستجير على استجارته، وما قال وإن استجارك أحد قال:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ)

تأكد أنه مستجير حقاً، تأكد أنه بريء، تأكد أنه يطلب المعرفة، الاستجارة إما أن تبدأ بالعين عن طريق رؤية شخص المستجير، وإما أن تبدأ بالأذن عن طريق سماع الاستجارة، لذلك المؤمن يتأكد من صدق استجارة المستجير.

والكلمة التي قالها سيدنا عمر: لست بالخِبْ والخِبُ يخدعني، أي لست من الخبثُ بأن أُخدع، ولا من السذاجة بأن أُخدع، لا أُخدع، ولا أُخدع، شيء رائع جداً، المؤمن بسيط، طاهر، سليم النفس، متواضع، لكنه ليس بالغبي.

المؤمن بقدر ما تحبه تجلّه و تحترمه :

هناك كثير من القصص وأنت دائماً أيها الأخ الكريم لا تعجب بإنسان بسيط، ساذج، ولا تعجب بإنسان ذكي خبيث، هناك إنسان ذكي لكنه خبيث، وإنسان بسيط لكنه ساذج، لا يعجبك إنسان بقدر ما تحبه، بقدر ما تحترمه، لكن كما يقول الله دائماً: لله المثل الأعلى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن]

بقدر ما تحبه لأنه كريم، بقدر ما تجلّه لأنه عظيم، والمؤمن يتخلق بهذا الخلق، ليس من السذاجة بحيث يحتال الناس عليه، المؤمن: كيس، فطن، حذر، وليس من اللؤم بحيث يقسو على الناس، بقدر ما تحبه تجلّه، بقدر ما تحبه تحترمه، هذا الموقف يحتاجه الأب، هناك أب علاقته مع أولاده علاقة بسيطة، أولاده يكذبون عليه كل يوم، ويصدق كذبهم، وفي جلستهم مع بعضهم بعضاً يسخرون من أبيهم، وهناك أب آخر قاس جداً يرعبهم دائماً، فالأول ليس أباً كاملاً، والثاني كذلك، الأب الكامل الذي يحبه أولاده وفي الوقت نفسه يجلونه، أو بقدر ما يحبونه يجلونه، هذا الموقف رائع جداً، الأنبياء يعبدون الله:

(رَغَباً وَرَهَباً)

[سورة الأنبياء الآية: 90]

والمؤمن ينبغي أن تحترمه، وتجلّه، سيدنا عمر يقول: لست بالخَبْ، و لا الخِبُ يخدعني، لست بالخبث بحيث أخدع، ولا من السذاجة بأن أُخدع، هذا الموقف الكامل.

فلذلك لو أن إنساناً استجار بك ينبغي أن تتأكد من استجارته، هل هو مستجير حقاً أم هو مخادع؟ هل يطلب المعرفة والأمان أم يطلب المكر والعدوان؟ وفي بعض الأحيان تكون الاستجارة كسباً للوقت ليس غير.

وكما قلنا قبل قليل: المؤمن كيس، فطن، حذر.

المغزى من القصة الرمزية التالية :

أنا أذكر قصة رمزية وردت في كتب الأدب، أن صيادين مرا بغدير، فيه سمكات ثلاثة، كيسة ـ أي عاقلة ـ وأكيس منها، وعاجزة ـ غبية ـ فرأى الصيادان السمكات الثلاثة، كيسة، وأكيس منها، وعاجزة، فتواعدا أن يرجعا، ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك، فسمعت السمكات قولهما ـ القصة رمزية ـ أما أكيسهن، فإنها ارتابت وتخوفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ثم إنها لم تعرج ـ أي لم تفعل شيئاً ـ حتى خرجت من مكان يتصل به الغدير بالنهر، خرجت من هذا المكان فسلمت، ماذا قالت؟ العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، هذه أكيس السمكات أي أعقلهن، أما الأقل عقلاً ، الأقل كياسة فمكثت في مكانها حتى عاد الصيادان، عندها خطة جاهزة، فدخلت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سُدّ، فقالت: فرطت وهذه عاقبة التفريط، ثم إن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، وقعت في مشكلة، قصرت فوقعت في مشكلة، أما الأولى أكيس السمكات، وهي مرتاحة، في وقت مبكر، قبل أن يرجع الصيادان خرجت من هذا المكان فنجت، الثانية أقل عقلاً، وقعت في مشكلة، لكنها لم تعدم الحيلة، قالت: لكن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ثم إنها تماوتت ـ تصنعت الموت ـ فطفت تارةً على ظهرها، وتارةً على بطنها، فظن الصيادان أنها ماتت، فأخذها أحدهما ووضعها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر فنجت، لكن بعد أن أُحرقت أعصابها، الأقل ذكاء يتحمل أعباء كبيرة جداً، يقصر لكنه يرسم خطة فينجح بعد أن يكون قد أتلف أعصابه.

وأما العاجزة الثالثة فلم تزل في إدبار وإقبال حتى صيدت، لا يوجد عقل أبداً، كيسة، وأكيس منها، وعاجزة، الكيس، أكيس الناس يحتاط للأمور قبل وقوعها، والأقل يحتاط أثناء وقوعها، والعاجز لا قبل وقوعها، ولا بعد وقوعها.

الآن هناك دول تخطط لعشرين سنة قادمة ، و دول تواجه مشكلة تخطط لها هذه أقل، و دول لا تخطط لا قبل المشكلة، ولا بعد المشكلة، دائماً محاطة بمشكلات، وأزمات.

بطولة الإنسان أن يستعد للموت بالاستقامة والتوبة والعمل الصالح :

فلذلك أيها الأخوة، هذا درس بليغ، النبي قال:

((الكيس من دان نفسه ـ ضبطها ـ وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))

[أخرجه الحاكم عن شداد بن أوس]

والله سمعت عن إنسان كان عنده نادي قمار، وهو على فراش الموت، شعر بدنو الأجل، وبالخطأ الكبير الذي عاشه، طلب إنساناً من أهل العلم، لا أعرف من هو، ولا أقره على قوله، قال له: ماذا أفعل؟ معه ثمانمئة مليون، قال له: والله لو أنفقتها كلها لا تنجو من عذاب الله، متى انتبه؟ وهو على فراش الموت.

أخواننا الكرم، الموت يأتي بغتةً، والقبر صندوق العمل، فالبطولة أن تستعد للموت بالاستقامة، بالتوبة، بالعمل الصالح، بتربية الأولاد.

الاستجارة بداية الهداية :

على كلٍّ كأن الله عز وجل يبين أن فطنة المؤمن كفيلة بمعرفة حال المستجير، وكما قلت قبل قليل: الاستجارة من أخلاق العرب في الجاهلية، كانوا يجيرون المستجير، والاستجارة دليل قوة المؤمنين، دليل شهامتهم، وقد يقع الكافر في أثناء المعركة الطاحنة مع المؤمنين بشك في كفره بل يتطلع إلى الإيمان، لذلك يستجير، الاستجارة أحياناً بداية الهداية، أي وجد الإنسان نفسه في خطأ.

أذكر لكم قصة سريعة: نعيم بن مسعود، هذا كان زعيم قبيلة غطفان، وجاء لمحاربة النبي عليه الصلاة والسلام، في الخندق، وهو في خيمته، قلق في الليل، أنقل لكم حواره مع نفسه؛ نعيم بن مسعود، كان زعيم قبيلة غطفان، وجاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام، خاطب نفسه قال: يا نعيم، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ لماذا أتيت؟ من أجل أن تقاتل هذا الرجل؟ ـ يقصد النبي الكريم ـ ماذا فعل حتى تقاتله؟ اغتصب مالاً؟ انتهك عرضاً؟ ماذا فعل؟ أين عقلك يا نعيم؟ أيليق بك أن تقاتل إنساناً رحيماً دعا إلى الله؟ لحظة تفكر صائبة، وقف في خيمته، وتوجه إلى معسكر المسلمين، ودخل إلى معسكرهم، وطلب النبي الكريم عليه أتمّ الصلاة والتسليم، ودخل عليه، فالنبي فوجئ به، قال له: نعيم! قال له: نعيم، قال له: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت مسلماً، فبكى النبي، قال: ائمرني بما تريد؟ قال له: أنت واحد خذل عنا، فهو تمّ إسلامه خفية، هو عند اليهود مازال مشركاً، وعند قريش لا يزال مشركاً، فااستطاع أن يحدث اليهود بحديث، وقريش بحديث، فاختلفوا، وطلبوا الرهائن، وصدقوا نصيحة نعيم، وانفضوا عن رسول

الله، وانتهت هذه المعركة بجهد هذا الإنسان.

لحظة تفكير، قل لنفسك، لماذا أنت في الدنيا؟ ماذا بعد أن تكون غنياً؟ ماذا بعد المال؟ الموت، ماذا بعد أن تكون قوياً؟ الموت، ماذا بعد أن تستمتع بكل مباهج الدنيا؟ الموت، ما دام الموت نهاية كل حي ماذا أعددت للموت؟.

المستجير إذا آمن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم :

الآن ينبغي أن نستمع إلى المستجير، نطلب المعرفة، يجب أن نحدثه، فإذا آمن فهو واحد منا، نقطة دقيقة جداً، المستجير إذا آمن له ما لنا، وعليه ما علينا، عظمة هذا الدين أن أعدى أعداء الدين لمجرد أن يشهد أن لا إله إلا الله أصبح واحداً من المؤمنين، له كل ميزاتهم، وعليه كل ما عليهم، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمَّتهم أدناهم، ويُجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم))

[أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

من ارتقى إيمانه لا يحقد على الكافر بل يشفق عليه :

أيها الأخوة الكرام،

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ)

والآن لا تكره الطرف الآخر، هو لا يعلم دينك، بلغه هذه الرسالة، بأدب، بلطف، بمودة، بتوضيح، بأدلة، النبي الكريم يحب كل البشر، ويقول:

((لو تعلمون ما أعلمُ لضَحِكتم قليلاً، ولبَكَيْتمْ كثيراً))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

أنت كمؤمن لا تكره شخص الكافر، لكن تكره كفره فقط، تكره عمله، فإذا أصغى إليك ينبغي أن تحدثه عن دينك، ينبغي أن تقدم دينك لكل من حولك، أن تقدمه واضحاً، أن تقدمه بالأدلة، أن تقدمه بالبراهين.

فيا أيها الأخوة الكرام،

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ)

بيّن له، وضح له، بيّن له عظمة الكون، عظمة خالقه، بيّن له هذا المنهج القويم.

(ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ)

هو الآن حر، إن آمن فهو واحد منا، له ما لنا، وعليه ما علينا، وإن لم يؤمن يجب أن توصله إلى مأمنه سالماً، ما هذا الدين؟ مشرك، مقاتل، عدو، كافر يقول لك: أجرني، ينبغي أن تجيره، وأن تسمعه كلام

الله، وأن توصله إلى مأمنه، هذا الإسلام.

(ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

أنت كطبيب، كطبيب أمراض جلدية إذا جاء مريض بمرض جلدي مخيف، هل تحقد عليه؟ أبداً ، تشفق عليه.

كلما ارتقى إيمانك لا تحقد على الكافر، لكن تشفق عليه، وفرق كبير بين أن تحقد عليه، وبين أن تشفق عليه، إنسان ضلّ الطريق، أخطأ خطأً كبيراً، سار في طريق الشقاء ينبغي أن تشفق عليه .

لذلك كان عليه الصلاة والسلام يبكي على خصومه، يبكي على الكفار، الله عز وجل سلاه فقال:

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

[سورة طه]

كان يبكي على أعدائه رحمةً بهم، وكلما ارتقى مقامك عند الله، يمتلئ قلبك حزناً لحال الناس من حولك، في ضياع، لا تحقد، ارفق بهم، أشفق عليهم، ضلوا سواء السبيل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (10-70):تفسير الآية 7 ، الإيمان هو خلقٌ حسن.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-05-14

بسم الله الرحمن الرحيم

التلازم الحتمي بين التدين الصحيح والخلق القويم :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس العاشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة وهي قوله تعالى:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء: إن هناك تلازماً ضرورياً حتمياً بين التدين الصحيح والخلق القويم، فقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم الغاية الأولى من بعثته، والمنهج الأول لدعوته، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إنما بعثت معلماً))

[أخرجه ابن ماجه عن ابن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

النبي عليه الصلاة والسلام ضغط دعوته كلها بالأخلاق.

قضية الأخلاق تحتل مركز الصدارة في هذا الدين :

النبي صلى الله عليه وسلم له آلاف الخصائص، فلما أراد الله أن يمدحه بماذا مدحه؟ بالخلق القويم:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

إذاً: قضية الأخلاق تحتل مركز الصدارة في هذا الدين:

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام))

[ورد في الأثر]

ابن عباس رضي الله عنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً كئيباً، فقال له: ما لي أراك كئيباً؟ قال: ديون لزمتني ما أطيق سدادها، فقال ابن عباس: لمن؟ قال له: لفلان، فقال: أتحب أن أكلمه لك؟ قال: إذا شئت، فخرج ابن عباس من معتكفه، قال له إنسان: يا بن عباس أنسيت أنك

معتكف؟ قال: لا والله! ولكني سمعت صاحب هذا القبر ـ وأشار إلى النبي الكريم ـ والعهد به قريب، وبكى يقول:

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجده هذا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام))

[ورد في الأثر]

((لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجده هذا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

إذاً أكبر حيز، وأكبر مساحة في هذا الدين، مساحة الخلق.

الإنسان موقف أخلاقي :

لذلك:

((إنما بعثت معلماً))

[أخرجه ابن ماجه عن ابن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

وكلمة لأتمم فيها ملمح دقيق جداً، ذلك لأن العرب قبل الإسلام كانوا على بعض القيم الأخلاقية، كانت عندهم الشجاعة، والبذل، والتضحية.

بعضهم يركب فرساً، رأى رجلاً في أيام الحر الشديدة ينتعل رمال الصحراء، دعاه لركوب الخيل، فلما اعتلى ظهر الخيل وراءه، دفع صاحبها على الأرض، وعدا بالخيل لا يلوي بها على شيء، قال له صاحب الخيل: يا هذا! لقد وهبت لك هذا الفرس، ولن أسأل عنها بعد اليوم، ولكن إياك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء، فتفقد الصحراء أجمل ما فيها، المروءة.

والله أيها الأخوة، هناك قصص بتاريخنا الإسلامي تبدو متألقة لمئات السنين، الإنسان في النهاية موقف أخلاقي، لذلك:

((إنما بعثت معلماً))

[أخرجه ابن ماجه عن ابن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

الإنسان على أحد طريقين إما أن يستجيب لله ولرسوله أو أنه على طريق الهوى :

الشواهد:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

انظر إلى الربط، الربط بين التدين الصحيح والخلق القويم، وبين التكذيب بالدين والإساءة إلى اليتيم

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هو هو

(فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص الآية: 50]

أي أنت على أحد طريقين، إما أن تستجيب لله ولرسوله، أو أنك على طريق الهوى، وليس هناك طريق أخرى، إما أن تستجيب لله ولرسوله، أو أنك تتبع الهوى،

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

هذا قرآن.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

((لا إيمان لمن لا أمانة له))

نفى عنه الإيمان كلياً لمن لا أمانة له.

((ولا دين لمن لا عهد له))

[أخرجه أبو يعلى والطبراني عن أنس بن مالك]

إذا كان هناك مؤشر يتحرك بحسب مرتبة الإيمان، و مؤشر آخر يتحرك بحسب القيم الأخلاقية، العقربان يتحركان معاً، فأنت أخلاقي بقدر ما أنت مؤمن، وأنت مؤمن بقدر ما أنت أخلاقي، لذلك الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك بالخلق، زد عليك بالإيمان، لأن الآية اليوم:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ)

ما دام قد أشرك، ما دام قد ابتعد عن الله، أنى لهذا الإنسان أن يفي بوعده؟ أنى له؟

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

الإيمان أساس الفضائل ولجام الرذائل :

أيها الأخوة، وهناك حديث صحيح آخر :

((الحياء والإيمان قرنا جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر))

[الحاكم عن عبد الله بن عمر]

لذلك قيل: الإيمان أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وصدق ولا أبالغ وأدعوك إلى أن تصدق أنه لا خلق إلا من خلال الدين، وقد يقول أحدكم: ما بال بعض الناس الذين لا دين لهم يتخلقون بأخلاق رائعة؟ هذه أخلاق الأذكياء، العمل العبادي الرائع يلتقي مع العمل الذكي في النتائج، ويختلف عنه في البواعث، مثال:

إنسان ذكي جداً، ومثقف ثقافة عالية جداً، سلمناه إدارة مشروع، وراقبناه، قد نفاجأ أنه مستقيم، وقد نفاجأ أنه حكيم، وقد نفاجأ أنه عادل، فإذا جاء إنسان مؤمن، مؤمن إيماناً كبيراً وسلمناه، هناك مفاجأة مؤلمة، أيضاً الثاني جيد، الأول جيد، والثاني جيد، الأول أخلاقه أخلاق الأذكياء، يقطفون ثمارها في الدنيا فقط:

(مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

[سورة البقرة الآية: 102]

وأنا والله أتصور أن كل الإيجابيات في الغرب إسلامية، لأنهم يعبدون المال من دون الله، تقتضي مصلحتهم أن يكونوا أخلاقيين، صادقين، متقنين، لكن إذا هُددت مصالحهم ينقلبون إلى وحوش.

خلاص العالم في الإسلام بشرط أن يحسن المسلمون فهم دينهم وتطبيقه :

أقول لكم بكل دقة: إن صحّ أن هناك سطحاً للمبادئ والقيم في الأرض، الأرض ستة آلاف مليون، مختلف الأديان، والاتجاهات، والمعتقدات، والطروحات التي جمعنا عقائدها، ما الذي كان على سطح هذا المكتب؟ الإسلام، الغرب، الشرق، الشرق سابقاً آمن بالمجموع ولم يعبأ بالفرد، والغرب آمن بالفرد ولم يعبأ بالمجموع، ملخص الملخص والإسلام دين الله، ما الذي حصل؟ أن الشرق تداعى من الداخل، ماذا بقي على هذا السطح؟ الغرب والإسلام، أليس كذلك؟ الغرب غني جداً، وذكي جداً، وقوي جداً، وطرح قيماً رائعة جداً، طرح قيمة الحرية، وطرح قيمة حقوق الإنسان، وطرح تكافؤ الفرص، وطرح حق التقاضي، وطرح، وطرح، هذه القيم الغربية، هذه القيم مع قوته، وغناه، وذكائه جذبت أبصار أهل الأرض، فصار الذي معه بطاقة خضراء يدخل بها إلى بلاد بعيدة كأنه دخل إلى الجنة.

مرة كنت بالعمرة، فراكب بسيارة، قال إنسان للآخر: الله يطعمها لكل مشتهٍ، هذه عوض مكة أصبحت أمريكا.

فالغرب خطف أبصار أهل الأرض، بلاد جميلة، قوة، ذكاء، علم، حرية، ديمقراطية، حقوق الإنسان، حقوق الحيوان، ما الذي حدث بعد الحادي عشر من أيلول؟ كان الغرب حضارة ساحقة فأصبح قوة غاشمة، أليس كذلك؟ والله الذي لا إله إلا هو كان قلة قليلة جداً من كبار المثقفين يعرفون حقيقة الغرب، أما الآن والله أطفالنا يعرفون ذلك، الذي جرى في هذه البلاد الإسلامية التي احتلت من قبلهم، الجرائم، القتل العشوائي، التدمير، هذا هو الغرب، فالغرب بعد الحادي عشر من أيلول كان حضارة ساحقة فأصبح قوة غاشمة، ما الذي بقي على هذا السطح؟ الإسلام وحده.

لذلك قال أحد أكبر علماء الغرب وهو مقيم في أمريكا: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب، على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء، ولكن لأن خلاص العالم في الإسلام، لكن بشرط، وهذا الشرط هو ورقة العمل بين أيدينا، أن يحسن المسلمون فهم دينهم، أن يحسنوا تطبيقه، أن يحسنوا عرضه على الطرف الآخر.

الخط البياني للإسلام في صعود والعالم كله يتطلع إلى الإسلام :

لذلك أيها الأخوة، مثلاً انهيار النظام العالمي المالي العملاق، جرعة منعشة من الله عز وجل ليبين لنا أن الحق ما جاء به هذا الدين.

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية: 276]

مئات البنوك أعلنت إفلاسها،

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

انتصار عشرة آلاف مقاتل في غزة على الجيش الرابع في العالم، على الجيش الأول في المنطقة، على الجيش الأول في الأسلحة، لاثنين و عشرين يوماً لم يستطع أن يحقق شيئاً، جرعة منعشة ثانية.

أخواننا الكرام، الله عز وجل رحمة بنا يبدو أن تتالي النكبات أدخلتنا في نفق اليأس، والإحباط، والطريق المسدود، فشاءت حكمة الله أن ينعشنا بهذه الجرعات المنعشة، لذلك الخط البياني للإسلام في صعود، والعالم كله يتطلع إلى الإسلام.

أنا حضرت مؤتمراً إسلامياً في باريس، عدد الحاضرين مئة وخمسون ألفاً، وكأنك في مدينة إسلامية، والنساء كلهن محجبات، الآن الدين يأخذ أعلى مرتبة، وعلى الإسلام حرب عالمية ثالثة معلنة، كانت

غير معلنة، الآن معلنة، حرب عالمية ثالثة معلنة على الإسلام، ومع ذلك الدين الأول الذي ينمو في العالم هو الإسلام، يدخل في الإسلام كل يوم خمسون إنساناً فرنسياً، في أمريكا يدخل كل يوم في الإسلام ثلاثة وثلاثون إنساناً، الإسلام ينمو، وكأن هذا الدين أراد الله جلّ جلاله أن يجعله في أعلى درجة، والعالم كله الآن يتطلع إلى الإسلام، الآن هناك دراسات بأعلى مستوى في الجامعة من أجل أن يحل المصرف الإسلامي في التراب الأوربي محل المصارف الربوية، سبحان الله!، أي شيء يقع لصالح هذا الدين، أي شيء يقع يؤكد أحقية هذا الدين.

سلوك الإنسان يدل عليه :

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام بينَّ في أحاديثه الصحيحة لأن الآية:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ)

كيف: تعجبية، إنسان أميّ مثلاً كيف يؤلف كتاباً وهو لا يقرأ ولا يكتب؟ هناك حالة تعجب،

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ)

((الحياء والإيمان قرنا جميعاً))

[صحيح عن ابن عمر]

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

هناك آية دقيقة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

[سورة العلق]

أين التتمة؟ مضمرة، أي هذا الذي ينهى عبداً إذا صلى دعك من أفكاره، انظر إلى سلوكه، يكذب، يحتال، يبالغ في الكبر،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى)

[سورة العلق]

من كلام المؤمن، ومن كلام غير المؤمن، انظر إلى السلوك، هذا صادق، هذا كاذب، هذا أمين، هذا ليس أميناً، هذا متواضع، هذا متكبر، شيء واضح تماماً.

فلذلك أيها الأخوة، هناك أحاديث صحيحة دقيقة جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً))

[أخرجه أبو يعلى والطبراني عن جابر بن سمرة]

((إن أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً))

[أخرجه البزار عن أنس بن مالك]

((من أحب الناس إلى الله يا رسول الله؟ فقال: أحب الناس إلى الله أحسنهم خلقاً))

[أخرجه الطبراني عن أسامة بن شريك]

أصبحوا ثلاثة، وإن من أقرب المؤمنين مجلساً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أحسنهم خلقاً:

((ما خير ما أعطي الناس؟ قال: خلق حسن))

[أخرجه الحاكم عن أسامة بن شريك]

((إنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ))

[أخرجه أبو داود عن عائشة أم المؤمنين]

((إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة))

[أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك]

كلها أحاديث في أعلى مستوى من الصحة.

((الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

أعظم المسلمين قرباً من رسول الله من ضاقت المسافة بين سلوكهم ومبادئ هذا الدين :

تحتل القيم الأخلاقية في هذا الدين أكبر مساحة، وملخص الملخص: الإيمان هو الخلق فمن زاد عليك في الحلق زاد عليك في الإيمان، ويكفي أن الله سبحانه وتعالى أعطى نبيه مئات الخصائص التي ينفرد بها، فلما أراد أن يثني عليه أثنى على خلقه العظيم،

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

أيها الأخوة، أقول لكم: إن أعظم المسلمين قرباً من رسول الله أولئك الذين ضاقت المسافة بين سلوكهم وبين مبادئ هذا الدين، لا تقيّم نفسك بمعلوماتك، لا تقيّم نفسك بحفظك، لا تقيّم نفسك بخصائصك، بمكتبتك، قيّم نفسك باستقامتك، وبأخلاقك، هذا المقياس الأول، وقد أكده الله عز وجل للنبي الكريم، بل إن ابن القيم رحمه الله يقول : الإيمان هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان .

المؤمن ينتظر وعد الله ولا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل :

أيها الأخوة، إن الذين نكنّ لهم عظيم الاحترام، ليسوا أولئك الذين يملكون كثيراً من المال، وليسوا أولئك الذين يملكون الدهاء والمكر، وليسوا أولئك الذين يملكون القوة الجسدية الخارقة، وليسوا أولئك

الذين يملكون الرقاب، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، إنما أولئك الذين يملكون الخلق الكريم، ويترفعون عن سفاسف الأمور، أولئك الذين انتصروا على التحديات داخل نفوسهم، أولئك الذين يملكون قوة الانتظار، من هو المؤمن؟ ينتظر فرج الله، منضبط، متماسك، لا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، ينتظر وعد الله.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة القصص الآية: 61]

أولئك الذين يملكون التضحية بالعاجل في سبيل الآجل، أولئك الذين يملكون الإيثار مع مسيس الحاجة، أولئك الذين يملكون القلوب هؤلاء نكنّ لهم عظيم الاحترام.

طابع الرقي الحقيقي هو طابع أخلاقي :

أيها الأخوة، إن طابع الرقي الحقيقي هو طابع أخلاقي.

مرة كنت في لقاء حضره كبار الصناعيين، قال أحدهم كلمة رائعة، قال: حتى في العمل الصناعي، وحتى في العمل التجاري، الأخلاق عماد هذه الأعمال، الشركات العملاقة فيها مبادئ أخلاقية، بالتعامل مع المشتري، مع الموظفين، إن طابع الرقي الحقيقي هو طابع أخلاقي أكثر من أن يكون طابعاً عمرانياً، تنظيمياً، والجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام تنبع بشكل أساسي من طابع الاستقامة، والنبل، والتضحية، وليس من التفوق في الحروب، أو العلوم، أو العمران.

في بدر الرواحل ثلاثمئة، والصحابة ألف، فسيد الخلق وحبيب الحق أعطى أمراً، هو قائد الجيش، وزعيم الأمة، قال: كل ثلاثة على راحلة، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، سوى نفسه مع أقل جندي، ركب الناقة، فلما جاء دوره في المشي توسلا صاحباه أن يبقى راكباً فقال: "ما أنتما بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر"، خُلق، رئيس دولة، زعيم أمة.

مرة في سفر، أرادوا أن يذبحوا شاةً، قال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، قال: نكفيك ذلك يا رسول الله، قال: لا، أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه، هذا هو النبي الكريم.

دخل أعرابي إلى مجلسه، تأمل، قال: أيكم محمد؟ ليس له كرسي؟ ليس له ثياب خاصة؟ الآن بعض رجال الدين منظره صارخ من ألف متر، من ألف متر معروف أنه رجل دين، أيكم محمد؟ هناك روايتان، الأولى قال له: أنا، والثانية قال له صحابي: ذلك الوضيء، معنى هذا أنه كان جالساً بين أصحابه، ليس له أي ميزة، لذلك من رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه.

لذلك أيها الأخوة، الجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام تنبع بشكل أساسي من طابع الاستقامة، والنبل، والتضحية، وليس من التفوق في الحروب، أو العلوم، أو العمران.

مصير الإنسان يتوقف على أمرين؛ علاقته بربه وعلاقته بأخيه الإنسان :

أيها الأخوة، الآية الكريمة موضوع هذا الدرس:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ)

هناك تناقض بين أن تكون مؤمناً وبين أن تكون لا أخلاقياً، أو أن تكون لا أخلاقياً وأن تكون مؤمناً، التناسب أن القيم الأخلاقية الأصيلة من صفات المؤمنين، لكن من عامل الناس بذكائه هذا يكسب الدنيا، كما هو الحال عند الغرب، الغرب تفوقوا، لأنهم في الحقيقة بذكائهم طبقوا منهج الإسلام دون أن يشعروا، فقطفوا ثماره في الدنيا، أما المؤمن يقطف ثمار أخلاقه في الدنيا والآخرة.

أيها الأخوة، دراسة الحضارات الإنسانية توقفنا على حقيقة كبرى، هذه الحقيقة أن مصير الإنسان يتوقف دائماً على أمرين، على علاقته بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان، والبعد الروحي والأخلاقي هو المركز والمحور في هاتين العلاقتين، وحينما ينحط الإنسان ينحط المجتمع، ويتحول عن عبادة ربه إلى عبادته لذاته ولشهواته، وتَسْود علاقته بالآخرين، تسود هذه العلاقة بالرغبة في القوة لا في الرحمة، علاقة الناس فيما بينهم القوي يأكل الضعيف، والغني يبتلع الفقير، والقمع مكان التفاهم، والعناية بالجسد لا بالروح، والاهتمام بالمصلحة لا بالمبدأ، في مثل هذه المجتمعات المنحرفة يتحول المجتمع كله إلى غابة، يشعر كل واحد فيها أن من حقه افتراس الآخرين، كما أن من الممكن أن يكون فريسة لواحد منهم، هذا مجتمع الغاب، نعوذ بالله من مجتمع الغاب.

العودة إلى الدين الطريق الوحيد السالك إلى الله :

لذلك أيها الأخوة، الطريق الوحيد السالك إلى الله أن نعود إلى هذا الدين.

((إذا رجع العبد إلى الله، نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

هذا منهج مع الطرف الآخر،

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

يجب أن تكون العلاقة بين المؤمنين وبين غير المؤمنين تحكمها هذه الآية،

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

وهذا منهج لنا جميعاً، أنت في دائرة، في شركة، في عمل، في حي، لك جار غير مسلم، أو غير مؤمن، فما استقام لك، ينبغي أن تستقيم له، هذا منهجنا في هذا الدرس

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (11-70):تفسير الآيات 8 - 10 ، العنصرية في زمن التظلم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-05-28

بسم الله الرحمن الرحيم

نقض العهود سمة أساسية في سلوك الكفار والمشركين :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الآية السابقة التي كانت موضوع الدرس الماضي:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة]

أولاً كيف: أداة استفهام وتعجب، في الآية السابقة:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ)

الحديث في الآية السابقة عن نقض المشركين لعهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن الآية التي تليها:

(كَيْفَ)

لم يذكر الله عز وجل نقض العهود، يبدو أن نقض العهود سمة أساسية في سلوك الكفار والمشركين. لا بد من أبين لكم أن هناك تقسيمات لأهل الأرض والله لا تعد ولا تحصى، وكل هذه التقسيمات ما اعترف بها القرآن، يقول لك: العرق الآري، العرق الأنغلو سكسوني، العرق السامي، دول الشمال، دول الجنوب، الملونون، الدول الصناعية، الدول المستغِلة، الدول المستغَلة، الشعوب النامية، الشعوب المتقدمة، أي تقسيمات أهل الأرض لا تعد ولا تحصى.

أهل الأرض في القرآن الكريم لا يزيدون عن نموذجين فقط لا ثالث لهما :

1 ـ رجل عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة :

ولكن دققوا وصدقوا أن الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم أنزلهم جميعاً في حقلين، أهل الأرض على اختلاف مللهم، ونحلهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، على اختلاف كل تقسيمات أهل الأرض، أهل الأرض في القرآن الكريم لا يزيدون عن نموذجين فقط، لا ثالث لهما، هذا التقسيم في قوله تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

النموذج الأول:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

عقيدياً صدق أن الله خلق بني آدم لجنة عرضها السماوات والأرض، هذه العقيدة، أنت كإنسان مخلوق للجنة، مخلوق لسعادة الأبد، وجاء الله بك إلى الدنيا كي تدفع ثمن الجنة، جاء الله بك إلى حياة دنيا، فيها صلاة، فيها صوم، فيها حج، فيها صدق، فيها أمانة، فيها تواضع، فيها بذل، فيها عطاء، جاء بك إلى الدنيا من أجل أن تدفع ثمن الجنة، من أجل أن تُهيأ للجنة،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

السمة العقدية، البارزة، الأساسية في حياة المؤمن أنه مخلوق للجنة، لذلك من لوازم هذا الاعتقاد أن يبتعد عن معصية الله، اتقى أن يعصيه، اتقى أن يغضبه، اتقى أن يخرج عن منهجه، اتقى أن يكذب، اتقى أن يخون، اتقى أن يؤذي عباد الله، صدق بالحسنى، واتقى، وبنى حياته على العطاء.

الفرق الصارخ بين المؤمن و غير المؤمن :

أخواننا الكرام، الفرق الكبير الصارخ النموذجي، يكاد يكون الأوحد بين المؤمن وبين غير المؤمن أن غير المؤمن يسعده أن يأخذ كل شيء، بينما المؤمن يسعده أن يعطي، اسأل نفسك هذا السؤال المحرج، ما الذي يسعدك أن تعطي أم أن تأخذ؟ إذا كان حقاً يسعدك أن تعطي فأنت مؤمن ورب الكعبة. لأنه قُدم كتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلف قدمه بهذه الطريقة، قال: "يا من جئت الحياة، فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من زكيت سيادة العقل، ونهنهت غريزة القطيع، يا من هيأك تفوقك لتكون فوق الجميع، فعشت واحداً بين الجميع، يا من كانت

الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، ومشكلات الناس عبادتك".

المؤمن يسعده أن يعطي، ولأنه موقن أنه خلق للجنة فالعطاء الذي يقدمه ثمن الجنة.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة]

ينفق من علمه، من خبرته، من مكانته، من جاهه، من ماله، ينفق كل شيء، موقفه الأساسي هو العطاء، هذا الصنف الأول،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

عقيدياً صدق أنه مخلوق للجنة، السلوك السلبي اتقى أن يعصي الله، امتناع، لم يكذب، لم يخون، لم يزن، لم يسرق، لم يغتب، السلوك الإيجابي العطاء، من ماله، من وقته، من جهده، من خبرته، لا تنسَ هذا المقياس، ما الذي يسعدك أن تعطي أم أن تأخذ؟ إن كان الذي يسعدك أن تعطي فأنت مؤمن ورب الكعبة، أما إذا كان يسعدك أن تأخذ وألا تعطي فهذه صفة من شرد عن الله، أما إذا كنت تعطي وتأخذ، فلابأس، تعطي وتأخذ، هذا الصنف الأول.

المؤمن يسعده أن يعطي لأنه موقن أنه خلق للجنة :

الرد الإلهي:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل]

الله عز وجل يتولاك، يسيرك إلى الجنة، إلى جنة عرضها السماوات والأرض، يتولى تربيتك، يتابعك، يقدم لك كل شيء، يزيدك إيماناً، آمنت بالله فزادك إيماناً، هذه العقيدة، والسلوك السلبي الاستقامة، الامتناع، السلوك الإيجابي العطاء، هذا كلام جامع مانع، هؤلاء هم المؤمنون آمنوا بالجنة، واتقوا أن يعصوا ربهم، و بنوا حياتهم على العطاء، الرد الإلهي، الجواب الإلهي، الجزاء الإلهي:

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

ييسر لك عملاً شريفاً، وزوجة طاهرة، وأولاداً أبراراً.

2 - و رجل غفل عن الله فتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فهلك في الدنيا والآخرة :

الصنف الثاني:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

[سورة الليل الآية: 8]

بنى حياته على الأخذ، بخل واستغنى عن طاعة الله، لم يستقم.

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

بالجنة، قال: الدنيا هي الجنة، الغني هو في جنة، المال هو كل شيء، اللذائذ هي كل شيء، المتع هي كل شيء،

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

عكس الأول، عقيدياً آمن بالدنيا، وكذب بالآخرة، السلوك السلبي لم يمتنع، بل أكل المال الحرام، واعتدى على أعراض الناس، وتطاول، واستكبر، وأخذ ما ليس له، وأما السلوك الإيجابي أخذ ولم يعطِ، بنى مجده على أنقاض الناس، بنى عزه على ذلهم، بنى غناه على فقرهم، بنى قوته على ضعفهم، بنى كبرياءه على إذلالهم، هذا شأن الكافر، شأن المشرك، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

لشقاء الدنيا، وعذاب الآخرة، هاتان الآيتان فيهما تقسيم دقيق لأهل الأرض، والله الذي لا إله إلا هو أتمنى ألا تعتمدوا تقسيماً آخر، في القرآن الكريم البشر على هاتين الزمرتين.

الحكمة من تقوية المؤمنين تارة و الكفار تارة أخرى :

لذلك:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ)

((لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له))

[أخرجه أبو يعلى عن أنس بن مالك]

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

كيف؟ الآن هذا كلام الخبير، كلام خالق السماوات والأرض، هذا كلام رب العالمين.

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ)

أي يتمكنوا منكم، الله عز وجل يقول:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 140]

كان من الممكن أن يجعل الله المؤمنين أقوياء إلى أبد الآبدين، عندئذٍ يظهر النفاق في الأرض من أجل المصالح، وكان من الممكن أن يكون الكفار هم الأقوياء، كالحال اليوم، وعندئذٍ يضعف الإيمان، لكن شاءت حكمة الله أن يقول هذه الآية:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

مرة يكون المؤمنون أقوياء، ومرة كما هي الحال اليوم المؤمنون ضعفاء، هذه حكمة الله عز وجل،

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

لذلك:

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ)

أن يتمكنوا منكم، أن يملكوا القوة،

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)

يتابعون، يدرسون، يتقصون أي خطأ من المؤمنين، أي تجاوز، أي تقصير، يُكبر، ويُشهر،

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ)

يتمكنوا منكم، يكونوا أقوياء عليكم،

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)

لك أن تقول: نظرتُ، اطلعتُ، رأيتُ، حدجتُ، لمحتُ، أما أرقبكم؟ أتابع حركة كل واحد منكم، أعلى درجة من التدقيق المراقبة، كمراقب الامتحان، وجد يده في جيبه، هناك مشكلة، وجد معه ورقة ثانية، هناك مشكلة، يرقبوكم، يتابعوا كل حركاتكم وسكناتكم.

بناء الطرف الآخر مجده على أنقاض الشعوب :

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)

الإل هو اللمعان، الضياء الشديد للعين، الإل هو الصوت العالي للأذن، حينما يرقبوكم

(لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا)

لا صوت ينهاهم عن العدوان عليكم، ولا وميض، ولا كلام ينهاهم عن العدوان عليكم، ولا أي عامل آخر.

مثلاً: رجل قوي يضرب طفلاً صغيراً، نقول له: صغير! يضربه، أنت كبير! يضربه ابن أخيك! يضربه، جارك! يضربه، ماذا فعل؟ يضربه، لا يرتدع لا بمبادئ، ولا بقيم، ولا بموقف إنساني، ولا بموقف وطني، يريد أن يأخذ كل شيء، يريد أن يبني مجده على أنقاض الناس.

لذلك هؤلاء الذين استقطبوا الأرض في بعض البلاد قتلوا ثلاثمئة مليون إفريقي، بلاد الحرية، التي تدعي الحرية بتاريخها، تاريخها وصمة عار، قتلوا ثلاثمئة مليون زنجي، استقدموهم من إفريقيا وقتلوهم حينما عصوا أمرهم، لو قرأت التاريخ الحديث لوجدت شيئاً لا يحتمل.

لذلك:

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)

ومضة واحدة: مسؤول كبير جداً من دولة عظمى زار المنطقة، ببرنامج زيارته أربع بنود: دمشق، تل أبيب، رام الله، زيارة أسرة الأسير الإسرائيلي الوحيد، وأحد عشر ألفاً وثمانمئة أسير لنا عندهم، لم يخطر في باله أن يختار أسرة واحدة ليزورها، لا يوجد عهد، ولا منطق، و لا شعور إنساني، هؤلاء الأسرى بشر، لهم آباء، لهم أمهات، تشعر كأن المسلم لا شيء، ليس له حق أبداً، يموت إنسان تقوم الدنيا ولا تقعد.

مثل آخر: فتاة بأمريكا بنيويورك ارتدت ثياب السحاقيات، والسحاق محرم في كل الشرائع السماوية، بل وفي القوانين الأرضية، أي شذوذ، يبدو أن مدير المدرسة على بقية مروءة فطردها، أقام والدها دعوى على إدارة المدرسة فحكم له القاضي بمبلغ كبير، تعليل الحكم قال: لأنه اعتدى على حرية هذه الفتاة ، ما هذه الحرية؟!.

فتاة في باريس، تضع على رأسها خرقة، تقوم أوربا ولا تقعد، الحجاب محرم، تقوم أوربا ولا تقعد، ماذا فعلت؟ لأنها وضعت قطعة قماش على رأسها؟ أيها الغرب، ألا تؤمنون بالحرية؟ ماذا فعلت؟ إنها تنتمي إلى دين يدين به ربع سكان الأرض؟ دين كله حشمة، وكله أدب وعفاف، أوربا بأكملها تقوم لأن فتاة صغيرة وضعت على رأسها قطعة قماش، أما التي ارتدت ثياب السحاقيات عندما طُردت من المدرسة أقام أبوها دعوى، فحكمت لها المحكمة بمبلغ كبير، لأن المدير اعتدى على حريتها، أرأيتم المكيالين؟ يكيلون بألف مكيال ومكيال.

الكفر بالطاغوت أساس الإيمان بالله عز وجل :

لذلك:

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا)

الإل اللمعان، الصوت العالي، العهد، الإل القرابة، الحوار، الجوار، التحالف والحلفان، اليمين والقسم، كل شيء يدعو إلى الرحمة هو الإل،

(لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)

لذلك صدقوا لا يمكن أن نؤمن بالله إلا إذا كفرنا بالطاغوت، قال تعالى:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة الآية: 256]

بلد صغير في الشرق الأوسط، عنده مئتا قنبلة نووية، لم يتكلم أحد في الأرض كلها بكلمة، بلد آخر إسلامي يجري مفاعل لقضايا سلمية العالم كله يقوم الآن، يقوم العالم كله ولا يقعد، لا يوجد مقياس واحد، لن نؤمن بالله إلا إذا كفرنا بالطاغوت، أنا آتي ببعض الأمثلة، هناك آلاف آلاف الأمثلة، يكيدون بمكيالين، طائرة سقطت فوق دولة عربية فدفعت هذه الدولة 270مليار، بواقع خمسمئة مليون ليرة سورية لكل راكب ، دية كل راكب، ويموت كل يوم بالمئات في بلاد مستعمرة من قبل الاستعمار الغربي وكله خطأ، لماذا ثمن المواطن الغربي إذا مات بحادث واتُهمت به دولة ندفع له خمسمئة مليون، وآلاف مؤلفة، مليون قتيل بالعراق، ومليون معاق، وخمسة ملايين مشرد، ولا كلمة، كله عادي، أرأيتم؟

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

على المسلم أن يعتز بدينه و بانتمائه لهذه الأمة :

ينبغي أن نعتز بهذا الدين، ينبغي أن نعتز بانتمائنا بهذه الأمة، هناك تخلف، وهناك مشكلات كثيرة، لكن لا يوجد جرائم،

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا)

الإل القرابة، والعهد، والجوار، واليمين، والقسم، والحلف، والتحالف، لا يأخذون بأي اعتبار، لا اعتبار إنساني، ولا أخلاقي، ولا وطني، ولا قومي، ولا ديني، أبداً.

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)

ليس عنا ببعيد حرب غزة، قضية إبادة مليون إنسان، والعالم كله متفرج.

عُقد مؤتمر بدول أوربا في مصر، هل تصدقون؟ من قُتل في غزة؟ أطفال ونساء فقط، بأرقى أنواع الأسلحة، هذه الأسلحة صُممت لتقابل جيوش كبيرة عملاقة، لا لتقابل بيتاً صغيراً فيه أطفال ونساء، فقتل ألف وخمسمائة طفل وامرأة في حرب غزة، أوربا نادت لمؤتمر في مصر، أنا تابعت المؤتمر، التوصية الوحيدة بهذا المؤتمر، محاولة منع تهريب السلاح للمقاومة، والألف والخمسمائة طفل وامرأة أليسوا بشراً؟ سلاح متطور جداً قتل الأطفال والنساء ولا كلمة، ولا حرف، دول أوربا عقدت مؤتمراً بمصر عقب حرب غزة، التوصية الوحيدة منع إيصال السلاح إلى المقاومة، لو أنهم استنكروا قتل الصغار لابأس، استنكار، تنديد، شجب، أبداً، ولا كلمة، كأن هؤلاء المسلمين لا قيمة لهم إطلاقاً، أنا لا أقول هذا الكلام إلا من أجل أن نعتز بالله، أن نعتز بديننا، أن نعتز بهذا التاريخ العظيم الذي أكرمنا الله

به.

مرة ثانية:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

العنصرية :

أي شيء يدعو إلى الرحمة لا يؤخذ به، هؤلاء لا يحترمون أي قيمة، أما هم يرحمون شعوبهم رحمة تفوق حدّ الخيال، إذاً ليسوا إنسانيين، بل هم عنصريون، اسمعوا هذا الكلام يا أخوان، هذا كلام عام ودقيق: لمجرد أن تتوهم أن لك ما ليس لغيرك، وأن على غيرك ما ليس عليك، فأنت عنصري، بدءاً من زوج يسخر من أم زوجته، فإذا تكلمت زوجته كلمة عن أمه أقام عليها الدنيا، عنصري، وحق الفيتو بمجلس الأمن عنصري، لماذا خمس دول إن قالت: لا توقف القرار؟ نحن نعيش عصراً عنصرياً، الطرف الآخر إذا تمكنوا من المؤمنين لا يراعون قرابة، ولا عهداً، ولا حلفاً، ولا يميناً، ولا جواراً، ولا أي شيء آخر.

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ)

هذا كلام الخالق، كلام خالق البشر،

(لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)

الآن الذمة بينك وبين نفسك، أحياناً تقترض مبلغاً، ولا تكتب وصلاً، المُقرض توفي و المبلغ كبير، هذا المبلغ لا يوجد شاهد عليه، ولا إيصال، ولا سند، ولا إنسان شاهده، هذا المبلغ في ذمتك، عندك شيء ليس عليه دليل، إلا قناعتك أنت، هذه الذمة، لا الصراخ الخارجي، ولا التصريحات، ولا الرجاء، ولا الاستنكار، ولا التنديد، ولا القناعة الداخلية، أحياناً الإنسان يخجل أن يأمر بشيء وأن يخالفه في عمله، يخجل أن يأمر موظفاً عنده بشيء هو يخالفه كل يوم، لا يقبل اعتراضاً خارجياً، ولا رجاء خارجياً، ولا تنديد خارجياً، ولا يستجيب إلى ذاته التي تستنكر عليه هذا العمل.

على الإنسان أن يكون باطنه كظاهره و سره كعلانيته :

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ)

الحقيقة دائماً هناك أشخاص أذكياء جداً، له كلام أحلى من العسل، وله معاملة أقسى من الوحش، أحياناً تجد إنساناً في مجتمعات قمة في اللطف، والتهذيب، وفي البيت يكون وحشاً، هذا موجود بكثرة، البيت لا يوجد به رقابة، لا أحد يعترض عليه، لكن استقامتك الظاهرة خارج البيت مصالحة.

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

قال:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

***

يقول: أزمة الشرق الأوسط، لا يوجد كلمة عدوان، اغتصاب فلسطين، لا، أزمة الشرق الأوسط، المصطلحات دقيقة جداً، يختارون مصطلحات حيادية، أزمة العدوان على فلسطين، جريمة اغتصاب الأرض، لا، أزمة الشرق الأوسط.

الربط بين الفسق و الانحراف الفكري :

أيها الأخوة، هذا درس بليغ جداً،

(يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

يجب أن نربط بين الفسق وبين الانحراف الفكري، هناك انحراف فكري معه فسق، وهناك فسق فيه انحراف فكري، والدليل:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية: 50]

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة التوبة الآية: 8]

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة التوبة]

الخاسر من باع آخرته بعرض من الدنيا قليل :

أيها الأخوة، هناك نقطة دقيقة جداً: أهل الدنيا الذين شردوا عن الله أخذوا من الدنيا شيئاً محدوداً جداً، وضيعوا الأبد، هم خاسرون أشد الخسارة،

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ)

أي باعوا إيمانهم وكسبوا الدنيا، والدنيا محدودة.

((أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين))

[أخرجه أبو يعلى وابن حبان عن أبي هريرة]

بضع سنوات استمتع بالدنيا وضيع الآخرة، كأن إنساناً باع آخرته بعرض من الدنيا قليل، بل إن النبي الكريم بكلام بليغ قال:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

ائتِ بإبرة، واذهب إلى ساحل البحر، واركب قارباً، وأنزل هذه الإبرة في البحر، كم علق فيها من ماء؟ تشبيه بليغ، هذا الماء الذي علق بالإبرة هو أقل من نقطة، أقل من عشر النقطة، هذه الدنيا، والآخرة البحر.

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

هؤلاء ظلموا أنفسهم، باعوا آخرتهم بعرض من الدنيا قليل، لذلك:

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً)

أي باعوا دينهم بالدنيا، باعوا دينهم بالتفلت، باتباع بعض الشهوات، باعوا آخرتهم بسنوات محدودة،

(فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هذا العمل سوف يسوؤهم كثيراً، كلام خالق الأكوان،

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

[سورة التوبة]

الغبي من ضيّع آخرته بدنياه :

قد يقول أحدكم: المعنى تكرر، مرة:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

على أنفسهم، لما باعوا دينهم، وأساؤوا للمؤمنين، وبنوا مجدهم على أنقاض المؤمنين، ولم يعبؤوا لا بعهد، ولا بوعد، ولا بقيمة، ولا بحياء، ولا برحمة، لما باعوا آخرتهم بدنياهم، الآن اعتدوا على من؟ على أنفسهم،

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ)

عهداً، ميثاقاً، رحمةً، خجلاً، حياءً

(وَلَا ذِمَّةً)

ولا بدافع ذاتي، ولا بدافع خارجي، ولا بضغط خارجي، ولا بصراخ، ولا برجاء، ولا بتنديد، ولا بتأنيب، ولا يستجيبون لا بضغط خارجي، ولا بوازع إنساني،

(لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

هذه المرة على أنفسهم.

إنسان أمضى حياته بالمعاصي والآثام، هذه الأيام مضت، بقيت تبعات أعماله، إنسان آخر أمضى حياته بالطاعات، هذه الأيام الصعبة مضت بقي ثواب هذه الأعمال، شيء دقيق جداً الأعمال الصالحة، تنتهي أعباؤها وتبقى خيراتها، والأعمال السيئة تنتهي لذائذها وتبقى تبعاتها.

أحياناً إنسان يرتكب جريمة، يأخذ سرقة كبيرة، بعد القبض عليه انتهت حياته، لم يستفد من هذه الجريمة شيئاً، لذلك تعلمنا في الجامعة أن المجرمين يصنفون مع الأغبياء، المجرم غبي، ومن يتبع الدنيا أيضاً غبي آخر، ضيع آخرته بدنياه، هناك إنسان آخر أشد غباء، من هو؟ الذي يضيع آخرته بدنيا غيره، يعمل أعمالاً كلها منحرفة إرضاء لإنسان، ضيع آخرته، من المنتفع من هذا العمل؟ غيره.

لذلك قالوا: الذنب شؤم على غير صاحبه، فكيف على صاحبه؟.

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هذه الأعمال سوف تسوؤهم

(لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

ومع كل هذه الجرائم، ومع كل هذه التجاوزات، ومع كل هذا الطغيان:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

[سورة التوبة]

هذه رحمة الله، هذه في الدرس القادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (12-70):تفسير الآيتان 11-12 ، ثمرات الصلاة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-06-04

بسم الله الرحمن الرحيم

ابتعاد المشركين عن رعاية حق القرابة والنسب والضعف :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية الحادية عشرة وهي قوله تعالى:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

ما الذي سبق هذه الآية؟ قوله تعالى:

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

أي لا يرعون حق القرابة، ولا حق النسب، ولا حق الضعف، كل العوامل التي تراعى هم لا يراعونها،

(لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)

ثم يقول الله عز وجل:

(يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)

[سورة التوبةِ]

الثانية موضوع آخر:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

[سورة التوبة]

على أنفسهم، لقد اعتدوا عليكم حينما لم يراعوا أي عنصر يخفف عداوتهم، واعتدوا على أنفسهم حينما فعلوا هذا الفعل الذي سيحاسبون عليه يوم القيامة.

لكل عمل نتيجة يوم القيامة :

لذلك الذي لا يؤمن يظلم نفسه، والذي يعتدي يظلم نفسه.

((الظلم ظلمات يوم القيامة))

[أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله]

الحقيقة الدقيقة من خلال هذه الآيات أن لكل عمل نتيجة يوم القيامة، إما أن يكون هذا العمل سبب سعادة الإنسان في الآخرة، وإما أن يكون هذا العمل سبب شقاء الإنسان في الآخرة.

الآية اليوم:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

مهما كان الحديث قوياً عن أهل الإعراض، عن أهل الكفر، عن أهل الشرك، عن أهل الضلال، مهما يكن الحديث قوياً عن العصاة، والمذنبين، والتائهين، والشاردين، تجد رحمة الله عز وجل تفتح أبوابها فيقول:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

أي أروع ما في هذا الدين أن باب التوبة مفتح على مصارعه إلى يوم القيامة.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء]

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة]

وما أمرك أن تتوب إليه إلا ليقبل توبتك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليستجيب لدعائك، وما أمرك أن تسترحمه إلا ليرحمك.

دقق فيما سأقول: ما أمرك أن تتوب إليه إلا ليتوب عليك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليستجيب لك، وما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

الصلاة عماد الدين وعصام اليقين وسيدة القربات :

أخواننا الكرام، الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيدة القربات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، لا خير في دين لا صلاة فيه، أركان الإسلام: الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والنطق بالشهادة، النطق بالشهادة يكفي مرة في العمر، والحج يسقط عن المريض والفقير، والصيام يسقط مع أدائه مستقبلاً عن المريض والمسافر، ما الفرض الذي يعد الفرض الأول؟ الذي يعد الفرض المتكرر؟ الذي لا يسقط بحال؟ إنه فرض الصلاة، لا خير في دين لا صلاة فيه، والصلاة ولا بشكل إلا بحالة نادرة جداً لا تقع للمئة ألف إنسان إلا نادراً أن يصاب بغيبوبة كاملة، بسبات كامل، وما سوى ذلك

المريض يصلي، إن كنت عاجزاً عن الوقوف تصلي وأنت قاعد، وقد تصلي وأنت مضطجع، وقد تصلي بإيماءات من رأسك، فلابد من أن تصلي، الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال.

إن هذا الدين بالأصل اتصال بالله.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

من أحكم الصلة بالله عز وجل طهر قلبه من الأمراض و الأحقاد :

الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، الصلاة معراج المؤمن، الصلاة طهور كما قال عليه الصلاة والسلام، إن أحكمت الصلة بالله طهرت قلبك من الأمراض، من الحقد، من الحسد، من الكبر، من التطاول، كل الأمراض النفسية تشفى منها من خلال الصلاة، لأن الصلاة طهور.

والصلاة نور، إن الله سبحانه وتعالى يقذف نوره في قلب المؤمن من خلال الصلاة، فالصلاة نور ترى به الحق حقاً، والباطل باطلاً، ومن أين يأتي شقاء الناس؟ يأتي من العمى.

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

[سورة الحج]

الإنسان قبل أن يتحرك له رؤية، رؤية المصلي صحيحة، متطابقة مع منهج الله، لذلك المصلي لا يُدمر، ولكن رؤية غير المصلي قد يرى أن يقترف جريمة، فيكون إعدامه بعد أيام، قد يرى أن ينهب مالاً، ويغيب عنه أنه سيلقى القبض عليه، أنت حينما تصلي أنرت قلبك بالحق، وقلّما تقع في عمل مدمر، فالصلاة نور وطهور.

والمصلي صلاة صحيحة لا يحقد، لا يحتال، لا يتكبر، لا يستعلي، لا يظلم، أنت مصلٍّ، والمصلي يرى، والمصلي طاهر، والمصلي سعيد، والصلاة حبور، والصلاة نور، والصلاة طهور.

((أرحنا بها يا بلال))

[أخرجه الطبراني عن رجل من الصحابة]

والصلاة معراج المؤمن، والله عز وجل في آيات كثيرة يتحدث عن الصلاة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم الآية: 30]

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه :

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت الآية: 45]

هذا النهي الذاتي، هذا النهي يسميه العلماء: الوازع، عظمة هذا الدين أنه في الأصل مبني على الوازع الداخلي، كيف؟

سيدنا عمر أراد أيها الأخوة الكرام أن يمتحن راعياً، فقال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟!.

المصلي يرى أن الله معه، وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه، ولكن أين الله؟!.

فلذلك الصلاة تعطيك هذا الرادع،

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

القوانين تردع، أما الدين فيمنع، القوانين مبنية على الرادع الخارجي، لكن الدين أساسه الوازع الداخلي. كما قال النبي الكريم:

((نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه))

[كنز العمال عن عمر]

القوانين تردع أما الصلاة فتمنع، والفرق كبير بينهما.

الله عز وجل إن ذكر المؤمن منحه الأمن و الحكمة و السكينة :

أيها الأخوة،

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

قال بعض العلماء: ذكر الله أكبر ما فيها، وقال بعضهم وهذا المعنى دقيق جداً: ذكر الله لك أيها المصلي وأنت تصلي أكبر من ذكرك له، لأنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، لكنه إذا ذكرك منحك الرضا، والرضا عطاء كبير، المؤمن راضٍ عن الله، إنه إن ذكرك منحك نعمة الأمن، وهذه النعمة لا يتمتع بها إلا المؤمن.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام]

إذا ذكرك منحك الرضا، إذا ذكرك منحك الأمن، إذا ذكرك منحك الحكمة.

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية: 269]

أنت بالحكمة تسعد بأي شيء، ومن دون حكمة تشقى بأي شيء، إنه إن ذكرك منحك التوفيق، منحك النصر، منحك الحفظ، منحك السداد، ألا تقرؤون بعض الأحاديث الشريفة؟:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحُق على المزُور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

وأنت في المسجد قد لا تجد كرسياً تجلس عليه، ولا ضيافة أبداً، لكن إذا خرجت من المسجد كما كان النبي الكريم يعلمنا إذا دخل إلى المسجد يقول:

((اللَّهمَّ افتح لي أبواب رحمتك))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي حميد وأبي أسيد]

لذلك الله عز وجل يلقي السكينة في قلوب رواد المساجد، السكينة تعني الرحمة، تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، السكينة أي الحكمة، و الرحمة، و الرضا، والسداد، والتفاؤل، والثقة بالله، والتماسك، وقوة الشخصية، أنت تتصل بخالق الأكوان؟ بخالق السماوات والأرض؟.

الصلاة قرب من الله وحبور ونور :

فلذلك الصلاة معراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، الصلاة سيدة القربات، الصلاة اتصال بالله، الصلاة نور، الصلاة حبور، سعادة، الصلاة طهور، الصلاة فيها يذكرك الله عز وجل، إن ذكرك منحك الأمن، إن ذكرك منحك حياة زوجية سعيدة، إن ذكرك منحك التوفيق، إن ذكرك منحك الهيبة، إن ذكرك منحك قوة الشخصية، إن ذكرك منحك التوفيق، إن ذكرك منحك الرضا.

لذلك:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

هذه الصلاة التي يصليها بعض الناس، لا خشوع فيها، ولا اتصال بها، هذه الصلاة ما أرادها الله عز وجل، ما أرادها الله عز وجل قولاً واحداً، لقول النبي الكريم لما رأى مصلياً يصلي كما يصلي بعض الناس قال له:

((قم فصلِّ إنك لم تصلِّ))

[الترمذي عن رفاعة بن رافع]

الصلاة قرب من الله، الصلاة حبور، الصلاة نور، الصلاة إقبال، الصلاة حكمة، يمنحك الحكمة في الصلاة، يمنحك الرضا في الصلاة، يمنحك التوفيق في الصلاة.

الاستقامة أحد أكبر أسباب الخشوع في الصلاة :

لذلك الآية الكريمة:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

بشكل أو بآخر لو أن إنساناً تاب من معصية ولم يحكم صلاته، ربما عاد إليها، لأن الصلاة كبيرة، صعبة، أي ثقيلة.

(إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

[سورة البقرة]

إذا كنت خاشعاً، مستقيماً، مصطلحاً مع الله، مطيعاً، فالصلاة جنة.

((أرحنا بها))

الصلاة نور، الصلاة حبور، الصلاة قرب من الله عز وجل، أما من دون استقامة الكلام مؤلم، تصبح الصلاة عبئاً على الإنسان.

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ)

[سورة البقرة الآية: 45]

أي ثقيلة،

(إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

إن أردت أن تسعد بالصلاة فاستقم على أمر الله الاستقامة أحد أكبر أسباب الخشوع في الصلاة.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

[سورة المؤمنون]

لا خير في دين لا صلاة فيه :

لذلك أيها الأخوة،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

الدين صلاة، لا خير في دين لا صلاة فيه،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ)

أي يمكن أن نفهم الزكاة في هذه الآية بفهم ضيق، هو أن تؤتي ربع العشر من مالك، زكاة مالك كل عام، إذا حال عليه الحول، ويمكن أن يتوسع معنى الزكاة لخدمة الخلق.

وكأن السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، حينما قال الله على لسانه في القرآن:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم]

لكل إنسان حركتان؛ حركة نحو الله و حركة نحو الخلق :

أي أنت حركتان، حركة نحو الله، معرفة، وطاعة، وعبادة، وتقرباً، وحركة نحو الخلق انضباطاً، وإحساناً.

لك علاقتان، علاقة مع خالق السماوات والأرض، وعلاقة مع من حولك من البشر، فإذا أحكمت هاتين العلاقتين كنت في مأمن من عذاب الله،

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

أي أقاموا الصلاة، مثلاً: إنسان أقام بناء، العمل ليس سهلاً، هناك رخص، قد تبقى الرخصة لعام أو عامين، وهناك حفر أساسات، وقد تدفع مبالغ فلكية لا تُرى بالعين تحت الأرض، حفر، وأساسات، وقاعدة استنادات، وإسمنت، وحديد، كله تحت الأرض، ثم بيت على الهيكل، إلى أن يكسى البناء كسوة راقية، نقول: أقام البناء، إنسان أحياناً يزيح حاجة من هنا إلى هناك، لا تقل: أقام بل أزاح، أما أقام عمل كبير، عمل له مقدمات، له شروط، له حيثيات، له مراحل.

بطولة الإنسان أن يكون له اتصال بالله عز وجل في أثناء الصلاة :

لذلك: أقام الصلاة، أي تعرف إلى الله، وبعد التعرف إلى الله تعرف إلى منهجه، وبعد التعرف إلى منهجه حمل نفسه على طاعته، وبعد أن حمل نفسه على طاعته تقرب إليه بالأعمال الصالحة، معرفة، واستقامة، وعمل صالح، عندئذٍ تقول: الله أكبر، ربما انعقدت لك مع الله صلة.

للتقريب: لا تستطيع أن تقول عن شخص أن معه دكتوراه ولا يحمل شهادة ابتدائية! شيء مضحك، لأن الدكتوراه مرحلة متقدمة جداً، يسبقها ابتدائي، إعدادي، ثانوي، جامعة، دبلوم عام، دبلوم خاص، ماجستير، دكتور.

معنى ذلك أن المصلي مستقيم، والمستقيم يعرف الله، تعرف إلى الله، تعرف إلى منهجه، أطاعه،تقرب إليه، فلما قال: الله أكبر انعقدت صلة بينه وبين الله، وطبعاً أنت حينما تتوضأ وتقف، وتقرأ الفاتحة، وتركع، وتسجد، هذه الصلاة المكتوبة سقطت عنك، سقط عنك إثم ترك الصلاة، صليت لكن البطولة أن يكون لك اتصال بالله في أثناء الصلاة.

إنسان دعاك إلى طعام، أتيت لكن لم تأكل شيئاً، الداعي يتمنى عليك أن تأكل، لا أن تثبت وجودك بميم ـ أي موجود ـ هذه الميم لا تقدم ولا تؤخر.

لذلك الوقت وقت، صليت، وقمت من عملك، وتوضأت، ووقفت بين يدي الله، لِمَ لا تسعى إلى إحكام العلاقة مع الله؟ إحكام العلاقة مع الله سببه الكبير الاستقامة على أمره، لأن الذنوب تحجب عن الله.

عظمة هذا الدين أن الإنسان لمجرد أن يؤمن يصبح أخاً لكل مؤمن :

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

عظمة هذا الدين أن الإنسان لمجرد أن يؤمن أصبح أخاً لكل مؤمن، له ما للمؤمنين، وعليه ما على المؤمنين.

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

رجل يحقد على النبي حقداً لا حدود له، التقى مع صفوان بن أمية، قال له: والله لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد أخاف عليهم العنت من بعدي، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، فقال له صفوان: أولادك أولادي ما امتد بهم العمر، اطمئن، وديونك عليّ بلغت ما بلغت، فامضِ بما أردت ـ عنده شيئان مقلقان، ديونه وأولاده ـ صفوان بن أمية حلّ له هذه المشكلة فسقى سيفه سُماً، وامتطى ناقته، وتوجه إلى المدينة المنورة، ليقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فلما وصل إلى المدينة، طبعاً هناك مبرر لذهابه إلى المدينة، أخوه واقع في الأسر، فلما وصل إلى المدينة رآه سيدنا عمر، فقال: هذا عمير عدو الله جاء يريد شراً، قيده بحمالة سيفه، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، دخل على النبي الكريم، قال: يا رسول الله هذا عمير، جاء يريد شراً، سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام قال له: يا عمر أطلقهُ، أطلقه، ثم قال له: ابتعد عنه، ابتعد عنه، وطلب من عمير أن يدنو منه، فدنا منه، قال له: سلم علينا يا عمير، قال له: عمت صباحاً يا محمد، قال له: قل: السلام عليكم، قال له: هذا سلامنا، ما عندي غيره، بقسوة، وبغلظة، قال له، ما الذي جاء بك إلينا؟ قال له: جئت أفك أخي، قال له: وهذه السيف التي على عاتقك؟ قال له: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر؟ فقال له النبي الكريم: ألم تقل لصفوان بن أمية في مكة، لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد صغار أخشى عليهم العنت من بعدي، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه؟ وقف عمير، وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسوله، فأسلم، الشاهد في القصة: سيدنا عمر قال: دخل عمير على النبي صلى الله عليه وسلم والخنزير أحبّ إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أبنائي.

في الإسلام لا يوجد عداوة مستمرة، لا يوجد حقد، دخل عمير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والخنزير أحبّ إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أولادي.

أيها الأخوة،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

عظمة هذا الدين المؤمن يكره الكافر، يكره المنحرف، العاصي، الآثم، يكره المجرم، لكن لمجرد أن تنعقد توبة هذا أصبح أقرب للمؤمن من أخيه،

(فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

أنواع الأخوة :

أيها الأخوة، لذلك هناك أخوة النسب، الأخ النسبي، الأخ لأب، أو أخ لأم، أو أخ لأم أو أب، ولكن ربّ أخ لك لم تلده أمك، هذه أخوة الإيمان وهي من أمتن أنواع الأخوة، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ المتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نُور، يغبطهم النبيُّون والشهداءُ))

[أخرجه الترمذي ومالك عن معاذ بن جبل]

إذاً

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي)

والتاريخ الإسلامي يشهد أن هناك عداوات في الجاهلية لا يعلمها إلا الله، بعد أن آمنوا جميعاً كان بينهم من المودة ما لا يصدق، هذه مودة الإيمان، لذلك في قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية: 10]

وكأن الله رفع علاقة أهل الإيمان مع بعضهم بعضاً إلى أمتن علاقة في الحياة، وهي علاقة أخوة النسب.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 10]

من لا عهد له لا دين له :

أيها الأخوة:

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

[سورة التوبة]

عاهدوا فنكثوا لأن أهل الضلال لا عهد لهم.

((لا إيمان لمن لا أمانة له،ولا دين لمن لا عهد له))

[أخرجه أبو يعلى والطبراني عن أنس بن مالك]

من لا عهد له لا دين له، وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

لم يرعوا هذه الأيمان، بل حنثوا بها، عاهدوا ونكثوا، عاهدوا ونقضوا،

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ)

أذكر أن صحابياً جليلاً في طريقه في الهجرة اعترضه المشركون، لكن قال لهم: عهد الله علي أنكم إذا أطلقتموني لن أحاربكم، فأطلقوه، وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وحدثه بما جرى، فرح النبي به فرحاً شديداً، بعد حين كانت غزوة دون أن يشعر انخرط فيها، قال له: النبي ارجع، ألم تعاهدهم؟.

عبد الله بن رواحة أرسله النبي الكريم لتقييم تمر خيبر، هؤلاء ظنوه إنساناً عادياً فأغروه بحلي نسائهم كرشوة، ليقلل التقدير، فقال لهم هذه الكلمات: جئتكم من عند أحبّ الخلق إليّ، وأنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، أي لن أظلمكم، فقالت اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

أيها الأخوة الكرام،

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

المؤمن مقيد بمنهج الله فهو أمين و صادق و أخلاقي :

أخواننا الكرام، لو أن الكافر أخلاقي وعند وعده، وعنده عهده، كأن الدين فقد تألقه، أو فقد وظيفته.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

[سورة الماعون]

لذلك كلمة مؤمن لها معان كثيرة، أي مستحيل على مؤمن أن يكذب، أن يحتال، أن يتكبر، أن يخادع، أنت كمؤمن أنت مقيد بمنهج الله، لأنك مؤمن أنت متصل بالله، لأنك متصل بالله أنت أخلاقي، أنت صادق، أنت أمين.

بماذا عرّف الصحابة الكرام الإسلام للنجاشي؟ قال: حدثوني عن الإسلام؟ قال سيدنا جعفر:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه.))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

الصدق والأمانة والعفاف أركان الأخلاق، إن حدثك فهو صادق، وإن عاملك فهو أمين، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف:

((.....حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

الإسلام كيان أخلاقي مبني على دعائم هي أركان الإسلام :

لذلك الإسلام كيان أخلاقي، مبني على دعائم هي أركان الإسلام، قال عليه الصلاة والسلام :

((بُنِي الإسلامُ على خَمْسٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمر]

الإسلام كيان أخلاقي.

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

((بُنِي الإسلامُ على خَمْسٍ))

الخمس: الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والنطق بالشهادة.

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ)

سفهوا هذا الدين،

(فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ)

هؤلاء بالمصطلح المعاصر مجرمو الحرب، الذين يقودون الحروب، ويسفكون الدماء،

(فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

أيها الأخوة الكرام، لذلك يجب أن يكون الدين قوياً، إذا كان قوياً معه قوة ردع.

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

من هنا الله عز وجل يقول:

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (13-70):تفسير الآيات 13 - 15 ، التوبة الخالصة هي سببٌ لنصر المسلمين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-06-18

بسم الله الرحمن الرحيم

نقض العهود يستوجب التأديب :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة عشرة وهي قوله تعالى:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أيها الأخوة، يبين الله في هذه الآية أن هؤلاء القوم الذين نقضوا عهودهم مع المؤمنين مرات ومرات، نقضت قريش عهدها مع رسول الله فأخرجته، ونقض اليهود عهدهم مع رسول الله فائتمروا على قتله، وكل الأطراف الأخرى غير المؤمنة من شأنها نقض العهود والمواثيق، لذلك قال تعالى لهؤلاء: أنتم قدمتم لهم كل سبل السلام، قدمتم لهم عهداً، لكنهم نقضوا هذه العهود، نقض هذه العهود يستوجب التأديب، المؤمن قوي، والمؤمن له أظافر، والمؤمن ينبغي أن يُرهب جانبه، لكن نحن في وضع استثنائي عشنا في عصر أُعلنت فيه حرب عالمية على المسلمين، وكل أطراف الدنيا تهاجم الإسلام، هذا الهجوم المستمر، وهذا الاتهام المستمر، بالتخلف، والعنف، والإرهاب، أورث المسلمين الشعور بالنقص، فصدقوا هذه التهم، لكن الله عز وجل يقول: نقضوا عهودهم معكم، هؤلاء لا عهد لهم، هؤلاء نقضوا مواثيقهم، هؤلاء لا يرعون في مؤمن:

(إِلًّا وَلَا ذِمَّةً)

[سورة التوبة الآية: 10]

لذلك يقول الله عز وجل:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

نحن تصورنا أن المؤمن دائماً ضعيف، دائماً يعبر عن السلام، والمحبة، والوئام، وأنه لا يتدخل بشأن الآخرين، هذه الثقافة جاءتنا من شدة الهجوم الذي انهال على المسلمين، لكن الحقيقة أن المؤمن قوي، والمؤمن عزيز، والمؤمن يكفيه عزاً أن الله معه، كأن الله لا يحبنا أن نستخذي، أن نتطامن، أن نخضع، ورد في بعض الآثار:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

دائماً الإسلام سلم، الإسلام محبة، كلام طيب، لكن دائماً سلم ومحبة، والطرف الآخر يتفنن في حربنا، وفي قهرنا، وفي قتل شبابنا، وفي احتلال أرضنا، وفي نهب ثرواتنا، والإسلام محبة وسلام وأنس؟ لا، لابد من قوة نظهرها، لا بد من عزة نعتز بها، كأن الله عز وجل يثير بنا العزة فيقول:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ)

العصر الآن عصر الانحياز إلى الباطل :

الأقوياء اليوم يضربون، يحتلون، يقبضون على المقاتلين، يحاكمونهم، هم أحرار فيما يفعلون، إذا وقع في أسرنا جندي واحد تقوم الدنيا ولا تقعد، ولنا عند أعدائنا أكثر من أحد عشر ألف أسير، ولا أحد يتكلم، قبضنا على أسير واحد الدنيا كلها قامت، نحن في عصر الانحياز إلى الباطل، هؤلاء الذين يؤسرون لا أحد يسأل عنهم، أما أسير واحد من العدو يُدمر لبنان من أجله؟ تُدمر البنية التحتية من أجله؟

فلذلك ليس هناك منطق، الذي يحاول أن يصنع مفاعلاً سلمياً تقوم عليه الدنيا ولا تقعد، ويحاصر، وتجري عليه حرب اقتصادية، أما الذي قصف سفناً تحمل مؤناً لشعب محاصر، لا أحد يتكلم، ولا أحد ينتقد، ولا أحد يندد، هذه مشكلة، لذلك قال تعالى:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 119]

كأن المسلم ليس له حق، جاءنا رئيس أمريكي ليزور المنطقة، برنامجه دمشق، تل أبيب، رام الله، زيارة أسرة الأسير الإسرائيلي، ولنا عندهم أحد عشر ألفاً وثمانمئة أسير، و لم يخطر في باله أن يزور أسرة واحدة من أسر المسلمين.

لذلك أقول هذا كثيراً كي تنزعون من أذهانكم أنهم يحبونكم،

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

المؤمن لا يخشى إلا الله لأنه قوي :

لذلك:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

طبعاً سياق الآيات عن كفار قريش، وعن يهود المدينة،

(نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

هم البادئون والبادئ أظلم،

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

المؤمن لا يخشى إلا الله لأنه قوي، لا يخشى قوة دون قوة الله، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ بل يقرأ قوله تعالى فيطمئن:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة]

إذاً أي توجه إلى الخضوع بداعي أننا لا نملك أسلحة الطرف الآخر هذا ضعف إيمان.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

ومرة ثانية، وثالثة، ورابعة: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

بطولة الإنسان أن يقدم لله أسباب النصر كي ينتصر :

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

أي يا عبادي! أنا معكم، كأن الله سبحانه وتعالى في التاريخ المعاصر أعطانا جرعة منعشة، كيف أن أخوتنا في غزة هم عشرة آلاف وقفوا لاثنين وعشرين يوماً أمام أقوى جيش في المنطقة، دون أن يستطيع هذا الجيش تحقيق أي هدف، هذه جرعة منعشة، كأن الله يقول لنا: أنا موجود يا عبادي، ووعدي هو هو، وعدي لكم بالنصر هو هو، فالبطولة أن تقدموا لله أسباب النصر، والآية الكريمة:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور الآية: 55]

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، هذه الآيات ينبغي أن ترفع معنوياتنا.

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم]

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الغافر الآية: 51]

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات]

ومرة ثانية: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

المؤمن ما لم يكن مستقيماً على أمر الله فلن يثق بنفسه أبداً :

لذلك:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

الآن الحساب حساب مادي، يقول لك: عندهم أسلحة متطورة، عندهم سلاح طيران متفوق، عندهم قنابل جرثومية، وقنابل عنقودية، وقنابل ذكية، وقنابل حارقة، وقنابل خارقة، وعندهم إستراتيجية في الحرب متفوقة جداً، هذا كلام لا يقاس بعالم الإيمان، لأن الله مع المؤمنين، معهم بالنصر والتأييد، وإذا كان الله معنا فمن علينا؟ وإذا كان علينا فمن معنا؟.

لكن أيها الأخوة، لا تجد الناس يعبؤون كثيراً بهذه المعاني، لأن المؤمن ما لم يكن مستقيماً على أمر الله لن يستطيع أن يعتمد على هذه الآيات، لا يثق بنفسه أبداً، إذا كنت مستقيماً على أمر الله، مصطلحاً مع الله، وتقرأ هذه الآيات، تتوكل حقاً على الله، تثق حقاً بنصر الله، تتفاءل لا تتشاءم، لكن ضعف الإيمان يسبب عدم الإمكان أن تعتمد على هذه الوعود من الله لعدم ثقتك بنفسك.

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

طبعاً الآيات موجهة لأصحاب رسول الله، لكن القرآن حمّال أوجه، القرآن لكل المؤمنين، لكل أهل الإيمان إلى نهاية الدوران.

شروط النصر :

أخواننا الكرام، بشكل أو بآخر النصر له قانون، أحد شروط هذا القانون أن تكون مؤمناً لقوله تعالى:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

أن تكون مؤمناً كما يريد الله عز وجل، أي إيمان ينصره الله عز وجل؟ الإيمان الذي ينقلب إلى سلوك، إلى طاعة، إلى التزام، إلى أن تكون وقافاً عند حدود الله، إلى أن تأتمر بما أمر الله، إلى أن تنتهي عما عنه نهى وزجر، هذا الإيمان الذي ينقلك إلى الحركة، إلى الالتزام، إلى أن تكف عما نهاك الله عنه، إلى أن تفعل ما أمرك الله به، هذا الإيمان أحد أكبر أسباب النصر، لكن المشكلة أن كل مسلم على وجه الأرض يدّعي أنه مؤمن وهو ليس كذلك، بدليل أنه لا يستقيم على أمر الله، كلمة إيمان بالأصل إنسان عرف الله، فإذا عرفه أطاعه، ومن أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تحبه ثم لا تطيعه، ومن لوازم الإيمان الطاعة.

أما الآن مليار وخمسمئة مليون مسلم يحتلون أبرز منطقة في العالم، مليئة بالثروات، ومع ذلك الشعوب الإسلامية هم أضعف شعوب الأرض وأفقرها، بسبب ضعف إيمانهم، وضعف ثقتهم بدينهم، وضعف ثقتهم بوعود ربهم، بسبب ضعف استقامتهم، هذا الواقع.

الإنسان إذا قدم أسباب النصر انتصر و لو كان عدوه قوياً :

لذلك أنت إذا قدمت لله أسباب النصر انتصرت ولو كان عدوك قوياً، لأن الله أقوى منه، الله عز وجل فوق كل الخلق، فوق كل قوي، وأقوى الأقوياء بيده، والآية الدقيقة:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود]

أي كل القوى المخيفة في الأرض بيد الله، وأنت علاقتك ليست مع هذه القوى، علاقتك مع من يملكها، إنه الله، فإذا اصطلحت معه أبعدها عنك، وإذا قصرت في طاعته سمح لأحدها أن تقترب منك، هذه القصة كلها.

فلذلك أيها الأخوة، الله عز وجل يدفعنا إلى أن نؤمن به الإيمان الذي يحمل على طاعته، فإذا آمنا الإيمان الذي يحمل على طاعته عندئذٍ نعتمد على هذه الوعود من الله،

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

قريش بدأت في معارك أُحد، وبدر، والخندق، واليهود بدؤوا حينما نقضوا عهودهم مع رسول الله،

(وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ)

من كان مع الله كان الله معه :

أحياناً تقيم موازنة بين قوتك وقوة الأعداء، و الأعداء أقوياء جداً، والآن العالم الغربي يملك طائرات، يملك صواريخ عابرة للقارات، يملك أسلحة جرثومية، يملك أسلحة كيماوية، يملك قنابل خارقة حارقة، يملك قنابل عنقودية، قنابل تمشي على أشعة الليزر، يملك طيران، هذا كله نراه، نسمع به، ولكن الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك؟.

قد يسأل إنسان هذا السؤال: ثلاثون دولة من حلف الناتو بأفغانستان، و84% من أرض أفغانستان بيد المقاومين، هذه الدول الثلاثون أين هي؟ كيف أن هؤلاء يملكون بندقية فقط و بيدهم 84% من مساحة أفغانستان، وفي العراق الشيء نفسه، المقاومة قوية جداً، معنى ذلك إذا كان الله معك فمن عليك؟

وإذا كان عليك فمن معك؟.

الآن هناك موظف كبير بالبنتاغون، قال: ماذا نفعل بحاملات الطائرات والصواريخ العابرة للقارات ماذا نفعل بهذه؟ لأنه ما من دولة على وجه الأرض تجرؤ أن تحاربنا، ولكن ماذا نفعل بهذا الإنسان الذي جاء ليموت فيهز كياننا؟ هذا ليس له حل؟ صار هناك رد على هذه القوى بالمقاومة، وترون أن هذه المقاومة ولاسيما الإسلامية تركت أثراً كبيراً جداً في العالم، فكأن الله سبحانه وتعالى بهذه الآية لا يريدنا أن نكون ضعافاً، ولا أن نرهب الأقوياء، ولا أن نخشاهم، ولا أن نبتعد عن التفكير في محاربتهم،

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

الجرعات المنعشة التي قدمها الله عز وجل للمؤمنين في هذه الأيام :

والعدو الصهيوني أنا أشبهه بالعصا الغليظة للغرب، مهمة هذا الكيان أنه عصا غليظة، أي بلد في الشرق الأوسط قال: لا للغرب، هذه العصا تسحقه، أليس كذلك؟ لكن هذه العصا والفضل لله كُسرت مرتين، مرة في عام 2006 في جنوب لبنان، مرة في عام 2008 في غزة، كُسرت، ولا تزال مكسورة، شيء خلاف الخطط، خلاف المتوقع، وكأن الله أعطانا درساً بهذين النصرين أنني موجود، والأمر بيدي، والوعود التي وعد الله بها هي هي، والإله هو هو:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

عفواً، أصغر دولة في العالم تعد ثلاثة ملايين، لأن معها أقوى دولة في العالم، هذه ترهب ملايين المسلمين أليس كذلك؟ مع أنها أقوى دولة في العالم، لأن أكبر دولة في العالم تدعمها دعماً بلا حدود، هذه الدولة الصغيرة تواجه وتتحدى أكبر دول المنطقة، إذاً العبر بمن معك، فإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟.

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ)

وكأن الله يعتب علينا

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

سيدنا خالد واجه بآسيا ثلاثمئة ألف مقاتل، وكان جيشه ثلاثين ألفاً، فطلب من الصديق النجدة، طلب منه خمسين ألف مقاتل، بعد حين أرسل له المدد، المفاجأة أنه واحد هو القعقاع بن عمرو، فلما وصل القعقاع بن عمرو إلى سيدنا خالد قال له: أين المدد؟قال له: أنا، قال له: أنت؟! و كان مع القعقاع كتاباً

من سيدنا الصديق، في هذا الكتاب: يا خالد! والذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يُهزم، وانتصروا، ثلاثون ألفاً مع القعقاع واجهوا ثلاثمئة ألف.

عدم انتصار الإنسان على عدوه إلا بطاعته لله و بمعصية عدوه لله :

القضية بالإيمان إذا كان الله معك فأنت تملك كل شيء، فكل بطولتك أن يكون الله معك، ويكون الله معك بالطاعة، يكون الله معك بطاعتك لله، ولا تنتصر على العدو الأقوى منك إلا بطاعتك لله وبمعصية عدوك لله، فإذا عصيت الله استويت معه بالمعصية فانتصر عليك بقوته، هذا كلام نهائي، والله عز وجل يقول:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

[سورة التوبة]

لا تخشونهم، هذه الآيات يحتاجها المسلمون في مواجهة أعدائهم، تحتاجها الأمة العربية في مواجهة العدو الصهيوني، والله هناك قصص من البطولات التي جرت في حرب غزة تكاد لا تصدق، ألقى الله الهيبة في قلوب المقاتلين، عشرة آلاف مقاتل! شباب معهم بندقيات فقط واجهوا جيشاً يعد رابع جيش بالعالم، يعد أول جيش بالمنطقة، يعد أول جيش في تنوع الأسلحة واجهوا هذا الجيش لاثنين وعشرين يوماً، ولم يحقق هذا الجيش أي هدف من أهدافه، أين الله؟ هذا الله عز وجل، الله موجود، وأنا أعدّ هذا النصر جرعة منعشة لنا، يجب أن تثق بالله، إله يقول لك أنا معك، وإذا كنت معك فمن عليك؟

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

كم هدف؟

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ)

عندنا جيش يُهزم في ساحة المعركة وعندنا جيش فضلاً عن هزيمته في ساحة المعركة يُهزم نفسياً،

(وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

بنود قانون النصر :

1- الإيمان بالله :

لكن اسمحوا أيها الأخوة، أبين لكم أن للنصر قانوناً، أو بنود قانون النصر أن تكون مؤمناً الإيمان الذي يريده الله عز وجل، ما الإيمان الذي يريده الله عز وجل؟ هو أن تكون مؤمناً مطبقاً، أن يترجم إيمانك

إلى التزام، إلى طاعة، إلى أن تأخذ ما لك، وأن تدع ما ليس لك، أن تطيع الله في سراءك وضراءك، في خلوتك وجلوتك، إلى أن تسعى بنشر هذا الدين، فإذا كان الله معك فمن عليك؟ أو إيمان يترجم إلى استقامة، أما هناك إيمان لا يترجم إلى استقامة فلا يقدم ولا يؤخر.

بصراحة المسلمون يعدون الآن مليار وخمسمئة مليون، هؤلاء المؤمنون يعدون ربع سكان الأرض، وعندهم ثروات طائلة، ويقيمون على أرض تعد أرقى أرض في العالم، ومع ذلك ليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، السبب: عدم الطاعة،

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

2 ـ إعداد العدة المتاحة :

الآن هذا الشرط الأول، وهو الإيمان الذي يحمل على طاعة الواحد الديان، الشرط الثاني: أن نعد لأعدائنا ما نستطيع.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

الله عز وجل ما طالبنا أن نعد القوة المكافئة، طالبنا أن نعد القوة المتاحة،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

والله يرمم الباقي، إله كلام خالق السماوات والأرض، أكبر مشكلة نعاني منها أن عدونا قوي، مدعوم من دول الغرب، يتربص بنا، ويحاول أن يشتت جمعنا، وأن يفرق وحدتنا، وأن يأخذ أرضنا، وأن ينهب ثرواتنا، هذا العدو علاجه الوحيد أن نؤمن بالله أولاً إيماناً يحمل على طاعته، وأن نقاومه، وكما ترون أنباء المقاومة إن في العراق، أو في فلسطين، أو في أفغانستان، قدمت صوراً رائعة جداً، وكأن عقيدة الحرب تغيرت بعد نتائج هذه المقاومة، ما قيمة الجيوش الكبيرة؟.

مرة قلت لكم: موظف كبير بالبنتاغون يقول: ماذا نفعل بحاملات الطائرات وليس هناك دولة على وجه الأرض تجرؤ أن تحاربنا؟ لكن ماذا نفعل بهذا الإنسان الذي جاء ليقاتلنا؟ جاء ليموت من أجل أن يهز كياننا، لذلك المقاومة طريق لحل الجيش القوي، قال تعالى:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ)

أي تنتصرون على عدوكم انتصاراً مادياً، وانتصاراً معنوياً،

(وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

المؤمن مع كل من آمن بالله في الأرض :

بربكم أخبار انتصار أخوتنا في حرب غزة ألم يثلج صدور المسلمين جميعاً؟ انتصار أخوتنا في جنوب لبنان ألم يثلج صدور أخوتنا جميعاً؟ هذا شيء طبيعي جداً، بل إن الله سبحانه وتعالى أثبت للصحابة الكرام فرحهم بانتصار الروم، مع أن هناك أشياء خلافية بيننا وبينهم، قال تعالى:

(الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم]

الصحابة الكرام فرحوا بانتصار الروم مع أنهم أهل كتاب لما بيننا وبينهم من قواسم مشتركة، بشكل عام المؤمن مع كل من آمن بالله في الأر ض، يتعاطف معه، لكنه ليس مع الملحد، مع الكافر، مع الفاسق،

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

أي الله عز وجل قادر أن يعذبهم، عنده عذاب، عنده صواعق، عنده براكين، عنده زلازل، عنده موت معين، عنده وباء معين، لكن الله أراد أن يكسبنا أجر القتال،

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

[سورة محمد الآية: 4]

هذا الذي يريده الله عز وجل،

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

تتالي النكبات على أمتنا في هذا العصر أورثت نكبات مؤلمة جداً :

أنتم تلاحظون لو أن هناك عملاً إسلامياً عسكرياً حقق نجاحاً كبيراً، تجد المسلمين في العالم يفرحون، ينتشون،

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

هذا فرح كبير، أنت لك أهداف خاصة، لك بيت، لك مركبة، لك أولاد، لك دخل، لكن أنت إنسان تعيش في مجموع، وهذا المجموع إذا ارتقى تسعد بهذا الرقي، وإذا لم ترتق تتألم.

عفواً تتالي النكبات على أمتنا في هذا العصر أورثت نكبات مؤلمة جداً، أنا أسميها ثقافة اليأس، أو ثقافة الإحباط، أو ثقافة الطريق المسدود، لكن لما رأينا ومضات من النصر؛ انتصار أخوتنا في جنوب لبنان، في غزة، المقاومة في أفغانستان، في العراق، هذه الومضات أعطتنا راحة نفسية، هذه الراحة

تبين أن المؤمن يفرح فرحاً كبيراً بنصر الله

(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة التوبة]

لأنه خلقنا، وهو إلهنا، ويعلم من خلق، المؤمن يسعده النصر، وتؤلمه الهزيمة، لذلك عندما تتتالى الهزائم تنشأ حالة يأس أو حالة إحباط عند الأمة، وهذه حالة خطيرة جداً.

هزيمة المسلمين من الداخل أخطر شيء في حياتهم :

لذلك أنا أقول دائماً: أخطر شيء أن يهزم المسلمون من الداخل، من داخل نفوسهم، أما أي هزيمة طارئة من الخارج قد تنتهي بانتصار مبين، أما الهزيمة من الداخل خطيرة جداً، هذه تصيب الأمة بالإحباط

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

ودائماً وأبداً الله جلّ جلاله يريدنا أن نتفاءل، فإذا تبت إلى الله توبة نصوحة الله سبحانه وتعالى ينسيك الماضي كله.

((إذا رجع العبد على الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

هناك وعود إلهية بالقرآن الكريم لكل مؤمن، والذي أتمنى إيضاحه لكم أن هذا الدين دين أفراد ودين جماعات في الوقت نفسه، الأمة إذا طبقته انتصرت على عدوها ولو كان قوياً، لكن لو أن الأمة لم تطبق هذا الدين، إذاً لم تنتصر، أنت كفرد ماذا تعمل؟ أنت أيها الفرد المسلم لو طبقت أحكام هذا الدين وحدك لانتصرت، ولقطفت كل ثماره لوحدك.

إذاً هناك نصر جماعي إذا طُبق هذا الدين من قبل جماعة الأمة، أو نصر فردي ينالك وحدك إذا اصطلحت مع الله، فأنت حاول أن يكون هذا الدين لكل الأمة، فإن لم تستطع فلا أقل من أن تكون أنت مؤمناً صادقاً حتى تنتظر من الله العطاء.

التوبة علم وحال وعمل :

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ)

معنى ذلك أن الهزيمة مؤلمة جداً، ينشأ منها غيظ في القلب، والنصر يعطي القلب شفاءً،

(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

(عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

تعود على الإنسان، أي إنسان شاء التوبة، وقدم أسبابها، العلم، والندم، والإقلاع، أو التوبة علم، وحال، وعمل، إذا قرأت عن هذا الدين العظيم، إذا طلبت العلم، عرفت أين ذنبك، وأين خطؤك، فالعلم طريق التوبة، والندم الحال النفسي الذي يرافق العلم، والإقلاع هو النتيجة، أن تقلع عن هذا الذنب إقلاعاً كلياً، فالتوبة علم، وحال، وعمل،

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

تعلم، تندم، تقلع،

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة، عجيب الأمر كلما قرأنا بعض الآيات جاء باب الخلاص، وهو التوبة، لاحظت في هذه السورة أن كل مجموعة آيات تحوم حول موضوع ينتهي هذا الموضوع بفتح باب التوبة مهما تكن، هناك شرك، هناك كفر ـ لا سمح الله ـ هناك نفاق،

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

وما أمرنا أن نتوب إليه إلا ليقبل توبتنا، وما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لدعائنا.

فلذلك

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

علمه بتوبتك الصادقة، وحكمته بقبول هذه التوبة هو سبيل خلاصنا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (14-70):تفسير الآيتان 14-15، قوتنا وتكافؤنا خزي وهزيمة لأعدائنا.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-06-25

بسم الله الرحمن الرحيم

كل شيء وقع في الكون أراده الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة عشرة وهي قوله تعالى:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

أيها الأخوة، كان من الممكن أن يعذبهم الله عز وجل من قِبله مباشرة، لأن هناك قضاء وقدراً يأتي من قِبل الله مباشرة، كأن يقع الابن من شرفة فيموت، وهناك قضاء وقدر يأتي على يد إنسان، قد يدهس سائق مركبة هذا الطفل فيموت، الحالة الأولى قضاء وقدر من الله مباشرة، والحالة الثانية قضاء وقدر جرى على يد إنسان.

دائماً كل شيء وقع أراده الله، بمعنى سمح به، لأنه لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد، كل شيء وقع في الكون أراده الله بمعنى أنه سمح به.

وقال علماء العقيدة: أراد ولم يرضَ، أراد ولم يأمر، إنسان ارتكب سرقة، الله سمح له أن يسرق، لحكمة بالغةٍ بالغة من حيث السارق والمسروق، الله عز وجل قال:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأنعام]

فخطة الله تستوعب خطة البشر، أضرب لكم مثلاً: باخرة عملاقة تتجه نحو الشرق عليها ركاب، هذا الراكب على ظهرها أراد أن يتحداها، فمشى على ظهرها نحو الغرب، لكن الباخرة العملاقة تتجه نحو الشرق، فحركة راكب على ظهر الباخرة باتجاه الغرب لا تقدم ولا تؤخر.

خطة الله تستوعب خطة البشر لأنه لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد :

خطة الله تستوعب خطة البشر، مرة في مؤتمر إسلامي قام مندوب دولة عانت ما عانت من الغرب، والآن محتلة من قبله، قال: والله لقد أصابنا من القهر والبؤس ما لم يصب به المسلمون في مئة عام، وبكى في المؤتمر، ثم قال: ولكننا ارتقينا في سلم الإيمان ما لم نرتق به في ثلاثمئة عام، فجاء دوري في

الكلام، قلت: إذاً خطة الله استوعبت خطة المحتلين.

كل شيء وقع أراده الله، بمعنى سمح به، ويجب أن نقول لشيء كالاحتلال، كالاغتصاب، كالأعمال الشريرة، نقول: أراد ولم يأمر، أراد ولم يرضَ، الإنسان مخير.

أنت صيدلي أردت أن تعين موظفاً عندك في الصيدلية، أردت أن تمتحن خبرته في الأدوية، وضعت له بعض الأدوية على الطاولة، قلت له: هذا المكان للفيتامينات، هذا للمسكنات، هذا للنوع الفلاني، وزع هذه الأدوية على رفوف الصيدلية، فإذا أخذ دواء متعلقاً بالفيتامينات نقله إلى المسكنات، لو أنك منعته ألغيت اختياره، لابد من أن يتحرك وفق خبرته، وفق إرادته.

فلذلك كل شي وقع أراده الله، لأنه لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد، لكن هذا الإنسان الذي فعله، والذي أوقعه، قالوا: لكل واقع حكمة علمها من علمها وجهلها من جهلها، لكل واقع حكمة، مادام الله سمح بوقوعه فهناك حكمة قد لا نكتشفها الآن، لكن قد نكتشفها بعد فترة طويلة.

والأحداث الأليمة التي وقعت في حياتنا أثناء وقوعها مؤلمة جداً، لكن بعد حين ترى إيجابيتها، للتقريب: الذي فعله العدو حينما قصف سفن المعونات الغذائية، والله لو دفعنا مليارات مملرة لتشويه سمعته في العالم لا نستطيع، لكنه شوه سمعته بيده، حتى أنصار هذا الكيان استنكروا ذلك.

فكل شيء وقع لأنه وقع سمح الله به، لحكمة بالغةٍ بالغة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، أحداث غزة مثلاً أذابتنا جميعا في بوتقة واحدة، أيقظت فينا الدافع الإنساني والإسلامي.

لكل واقع حكمة :

لذلك أيها الأخوة في حيز الأفعال كل شي وقع، وسمح الله له أن يقع، فيه حكمة بالغة بالغة، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، لذلك قالوا: لكل واقع حكمة، مادام الشيء وقع، وقد يأتي يوم بعد أمد بعيد أو قريب نعرف إيجابيات الأحداث الكبيرة التي وقعت في العالم، أحياناً توحدنا، أحياناً تذيبنا في بوتقة واحدة، أحياناً توقظ معنى الجهاد، أي انتصار أخوتنا في فلسطين وفي البلاد المحتلة هذا أعطى فكراً آخر للحرب، فكر المقاومة ليس إنساناً مقاوماً إذا قتلته تنتهي المقاومة، أصبح هناك فكر للمقاومة، وأصبح هناك منهج.

قال بعض المسؤولين الكبار في بلاد قوية: ماذا نفعل بحاملات الطائرات والصواريخ العابرة للقارات وليس هناك على وجه الأرض دوله تجرؤ أن تحاربنا؟ لكن ماذا نفعل بهذا الإنسان الذي أراد أن يهز كياننا؟.

أخواننا الكرام، أريد أن أقول هذا العبارة أرددها دوماً لأنها تلخص العقيدة: كل شيء وقع أراده الله بمعنى سمح به فقط، لأنه قد يريد ولم يأمر، وقد يريد ولم يرضَ .

مثلاً الأب كتلة من الرحمة، فإن التهبت زائدة ابنه و هو طبيب جراح، يضعه على الطاولة ويخدره، ويفتح بطنه والدم يسيل، ويستأصل هذا الزائدة، ثم يخيط الجراح، وهو أب، مادام هذا الطبيب الجراح الرحيم الأب فعل هذا هناك حكمة بالغة بالغة لهذا العمل، لكن هذا الأب كان يتمنى ألا تلتهب هذه الزائدة، أما وقد التهبت لابد من هذا العمل.

إذاً ننطلق من أن كل شيء وقع أراده الله بمعنى سمح به، لأنه قد يريد ولم يأمر، السارق حينما يسرق سمح الله له أن يسرق وهناك حكمة بالغةٌ بالغة حينما سمح لهذا أن يسرق، وحينما سمح لهذا البيت أن يُسرق منه هناك حكمة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها.

لكل شيء وقع حكمة بالغة تكشف بعد حين :

لذلك نقول: لكل واقع حكمة، وقد يكون الموقع مجرماً، مادام وقع، مادام الله سمح بوقوعه، هناك حكمة بالغةٌ بالغة لكن عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، وقد ذكرت بعد حين هذه الآية:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

الآية واضحة،

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)

سمح الله لفرعون أن يكون طاغية، وأن يجعل من حوله شيعاً، لكن من أجل

(أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

هذا أخطر فكرة في القضاء والقدر، بل أخطر فكره قي العقيدة، شيء وقع مؤلم لكن الله سمح به، لأنه وقع سمح الله به، ولأن الله سمح به هناك حكمة بالغةٌ عرفها من عرفها وجهلها من جهلها تكشف بعد حين.

لذلك قد يأتي يوم نكتشف أن الأحداث الكبيرة التي ألمت بأمتنا هي أحد أسباب اجتماعنا ووحدتنا، هي أحد أسباب قناعتنا بمنهج الله عز وجل، هذه حكم إلهية.

تعلق إرادة الله بالحكمة المطلقة :

لذلك نعيد هذا الحقيقة التوحيدية: كل شيء وقع، معنى وقع أي سمح الله به، وقد يسمح بشيء لحكمة بالغةٍ بالغة لم يأمر بهذا الشيء، ولم يرضه، لكن سمح به لحكمة بالغة.

تماماً لو أن مرض الغرغرين في اليد، أي أقرب الناس لهذا الإنسان يسمح بقطع اليد، الذي سمح بقطع اليد هو الأب، لكن الابن لو لم تقطع من هذا المكان لقطعت من هذا المكان، هذا مثل يقرب المعنى.

إذاً نصل إلى الحقيقة الأساسية: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، لذلك ليس في الكون شر مطلق، هناك شر نسبي، كالعمل الجراحي لإنسان التهبت زائدته، لابد من فتح البطن، لابد من التخدير، لابد من أن يسيل الدم، لابد من أن يتألم بعد انتهاء المخدر، كل هذا من سلبيات العمل الجراحي، لكن هذا العمل الجراحي لابد منه حينما تفهم القضاء والقدر، حينما تفهم ماذا يحدث بالعلم بهذا المنظور الإسلامي ترتاح نفسك.

الحكمة من أن الله لم يرد أن يهذب المشركين مباشرة بل أراد أن يعذبهم بأيدي المؤمنين :

أيها الأخوة الله عز وجل يقول:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

ما الحكمة أن الله جلّ جلاله لم يرد أن يهذبهم من عنده مباشرة بل أراد أن يعذبهم بأيدي المؤمنين؟ قال: ليكون للمؤمنين هيبة في المجتمعات، القوي محترم دائماً، والضعيف غير محترم، القوي محترم، والناس يتطلعون إلى القوي، يُعظمون القوي، فحينما يسمح الله للمؤمنين أن يكونوا أقوياء، وأن يوقعوا الألم الشديد بمن خان العهد، وتنكر للوعد، ولم يعبأ بهذا الدين، يكون لهم مهابة.

الآن كيف أن الدول العظمى التي تملك قنابل نووية، ومعها أسلحة فتاكة، وصواريخ، وأقمار صناعية،وبوارج، وقنابل عنقودية، وجرثومية، خارقة، وحارقة، وليزرية، كيف أن هذه الدول التي تملك أسلحة فتاكة مرهوبة الجانب؟ لِمَ لا يكون المؤمنون في الأرض مرهوبي الجانب؟ لماذا نرضى أن نكون ضعافاً؟ نشتكي، ونندد، ونستنتج، ونشدد على كذا، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً، بل ونتمتع بضبط النفس، لماذا نحن كذلك؟ لماذا لا نكون أقوياء يهابنا الأعداء؟.

لذلك الحكمة من هذه الآية

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

من أجل أن يكون لكم رهبة في قلوبهم، القوي محترم، يجب أن تكون قوياً، وأقول لكم: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، والقوة أنواع، قوة المال، وقوة العلم، وقوة المنصب، لك

منصب رفيع بجرة قلم تحق حقاً وتبطل باطل، بتوقيع تقر معروف وتزيل منكراً، إن كنت غنياً تزوج الشباب، تقيم المعاهد الشرعية، تنشئ الجمعيات الخيرية، تطعم الجياع، تكسو العراة، أمامك خيارات لا تعد ولا تحصى، وإذا كنت صاحب قرار بتوقيع، إذا كنت عالماً بإلقاء العلم، إذا كنت غنياً بإنفاق المال.

فرص العمل الصالح المتاحة أمام القوي لا تعد ولا تحصى :

لذلك مرة ثانية: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً لأن فرص العمل الصالح المتاحة أمام القوي لا تعد ولا تحصى.

إذاً إرادة الله من هذه الآية

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

من أجل أن يكون لك مهابة، أقسم لي بالله إنسان مسلم في بلاد آسيوي يعد تسعمئة مليون، وفيه تسعة ملايين مسلم، المسلمون مضطهدون معذبون، حقوقهم مهضومة، يعانون ما يعانون، وفي بلد إسلامي مجاور لهذا البلد الكبير، بلد الإسلامي استطاع أن يطور قنبلة نووية، يقسم لي بالله الأخ المقيم في هذا البلد الأسيوي أن معاملة هذا البلد للمسلمين تطورت مئة وثمانين درجة لأن الجيران أصبح لديهم سلاح نووي.

والآن ما لم نكن أقوياء لا أحد يعبأ بنا، كلمة أخرى ما لم تكن متفوقاً بدنياك لا يحترم دينك، مسلم حاجب، ضارب آلة كاتبة، كاتب، أما الأقوياء أصحاب المعامل الضخمة، الصناعيون الكبار ليسوا مسلمين، هذه مشكلة كبيرة جداً، يجب أن نكون أقوياء، أقول للشاب: لِمَ ترضى أن تكون رقم سهلاً لا أحد يعبأ بك؟ لِمَ لا تكن رقماً صعباً؟ تفوق يا أخي، تعلم، اختص اختصاص نادر، قدم شيئاً لهذه الأمة، مشكلتنا بالضعف، نحن ضعفاء ـ كمسلمين طبعاً ـ لا أقصد بلداً معيناً، لا نملك إلا أن نندد، وأن نستنكر، وأن نشدد على كذا، وأن نحرق علماً، ونحرق صورة، هل يوجد عندنا غير هذا؟ خلال خمسين عاماً بالتنديد، والشجب، والاستنكار، وحرق العلم، وحرق الصورة هل فعل هذا معنا شيئاً؟ هم يضحكون علينا.

أمة الإسلام أمة عظيمة قلبت وجه التاريخ فعلينا أن نسعى لخدمتها :

لذلك أيها الأخوة، أنا أخاطبكم جميعاً وأنا واحد منهم: تفوق، تفوق بعلم اخدم به أمتك، تفوق باختصاص نادر، تفوق بخبرة عالية، نأتي بالخبير يأخذ مئة ضعف راتب مواطن عادي، وقد يكون أقل ذكاء من المواطن، تفوق، لا تكن رقماً بسيطاً، لا تكن شخصاً لا أحد يعبأ بك، تفوق، النبي عليه الصلاة

والسلام طلب النخبة قال:

((اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين))

[ورد في الأثر]

عندما أسلم سيدنا عمر توقف إيذاء قريش للمسلمين، ولما أسلم سيدنا حمزة صلى المسلمون في بيت الله الحرام، نريد طالباً متفوقاً، العلم مفتوح الباب للكل، عندك اختصاص نادر تخدم به أمتك؟ تقوي به هذه الأمة؟ وإلا لماذا أردت أن تكون رقماً لا قيمة له؟ الذي جاء للدنيا ملايين مملينة، كبروا، وتزوجوا، وأنجبوا، وماتوا، ولم يدر بهم أحد.

مرة من باب الطرفة سألت طلابي: من منكم يذكر تاجراً كبيراً عاش في الشام عام 1660 أعطيه علامة تامة؟ فكروا،لا أحد يعرف، قلت لهم: ولا أنا أعرف، أما سيدنا عمر، سيدنا خالد، صلاح الدين الأيوبي ردّ الفرنجة، هؤلاء الأعلام لا ينساهم أحد.

فأنا أستنهض هممكم، لا تكن إنساناً عادياً من سقط المتاع، لا تكن رقماً سهلاً، ينبغي أن تكون رقماً صعباً، تفوق واخدم هذه الأمة، هذه الأمة لها فضل كبير على البشرية.

والله كنت بألمانيا، حدثنا رئيس كنيسة كبيرة في مدينة بألمانيا، حتى أبكانا، قال: أنتم أيها المسلمون لكم فضل كبير علينا، حضارتنا من عندكم، أنا ما رأيت إنساناً منصفاً كهذا، أنصفنا إنصافاً عالياً جداً.

فنحن أمة عظيمة، أمة قلبت وجه التاريخ، أمة وصلت فتوحاتها إلى مشارف الصين، إلى مشارف باريس، إلى فيينا، هذه الأمة الآن كبا جوادها، فكل واحد منا ينبغي أن يسعى، يسعى ليكون رقماً صعباً، يضع خبرته، ومكانته، وعلمه، وقوته، في خدمة أمته.

حاجة الأمة الإسلامية إلى من يعيش في سبيلها ويتفوق ويتعلم :

أخواننا الكرام، مع احترامي اللامحدود لمن يموت في سبيل هذه الأمة، أقول لكم هذه الكلمة: نحن بأمس الحاجة إلى إنسان يعيش في سبيل هذه الأمة، مع احترامنا الغير محدود لمن يموت في سبيل هذه الأمة، هذه الأمة بحاجة إلى من يعيش في سبيلها، يتفوق، يتعلم، يقدم خبرات، هناك مثل بسيط من خبرتي المتواضعة: المعامل الضخمة معها حواسيب معقدة جداً، هذا الحاسوب يتعطل أحياناً، إصلاحه يكلف عدة ملايين، معمل إنتاجه كبير يديره حاسوب معقد جداً، يتعطل هذا الحاسوب، فإصلاحه يحتاج إلى شهر، يتعطل الإنتاج، ويذهب هذا الحاسوب إلى بلد بعيد، أقصد الحواسيب الصناعية المعقدة جداً، بعد شهر يأتي الحاسوب وقد تمّ إصلاحه، والمبلغ بالملايين، بهذا البلد الطيب مواطن استطاع أن يحل هذه المشكلة في بيته، يأخذ على كل حاسوب صناعي معطل عشرة آلاف ليرة ، حلّ لنا مشكلة أي حاسوب صناعي مربوط بمعمل وتعطل، هذا الأخ بتوفيق من الله استطاع أن يحل هذه المشكلة، والله

مرة أطلعني على خارطة "mother board " طولها ستة أمتار، خارطة لجهاز الحاسوب خطير جداً طولها ستة أمتار.

نحن بحاجة إلى إنسان يتفوق، وأقول مرة ثانية: ما لم نتفوق في دنيانا لا يحترم ديننا، الغرب لا يحترم إلا القوي، تقول: أنا مسلم، أنا معي وحي السماء، قوي؟ يحترمك، وما لم نتفوق في دنيانا لا يحترم ديننا، أنا أستثير همم الشباب، لا تقبل أن تكون إنساناً عادياً جداً، فقط يريد أن يتزوج، لا يريد أي شيء من الحياة، يريد فقط بيتاً يسكن فيه، ألا يوجد لك أي هدف ثان أبداً؟ هذا من سقط المتاع، وكلما علت همومك ارتقيت عند الله، هذه الأمة، الأمة التي قادت العالم الآن كبا جوادها ألا تغار عليها؟ ألا تتمنى أن تقدم لها كل شيء؟ ألا تتمنى أن تعيد لها مجدها التليد؟ هذه مشكله يا أخوان.

الأشياء الشفهية لا تقدم ولا تؤخر فعلينا أن نكون أقوياء لتُرهب أعداءنا :

فلذلك لفت نظري في هذه الآية لِمَ لم ينزل بهم الله العقاب من عنده مباشرة؟ يصيبهم بزلزال مثلاً، لنا أعداء ـ فرضاً اليهود ـ الله قادر بزلازل واحد ألا يبقي منهم أحداً، هناك زلزال، هناك وباء جماعي، هناك صواعق، الله قادر، قال لك:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

فانتصار أخواننا في عام 2006 و 2008 على أكبر جيش بالمنطقة، على الجيش العملاق، على الجيش الأول في العالم بتنوع الأسلحة، وعلى الجيش الرابع في العالم، وعلى الجيش الأول في المنطقة، انتصار عشرة آلاف مقاوم على جيش عملاق، والله قلب الموازين في العالم، والله أعطى لمعنى الجهاد معنى واقعياً، وصار هناك اضطراب في الفكر العام.

فيا أيها الأخوة، كل هدفي من هذه الآية

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

ليكون لكم شأن كبير عند أعدائكم، أما كل الأشياء الشفهية لا تقدم ولا تؤخر، تستنكر، تشدد على كذا، تندد، لم ننتفع بهذا طول حياتنا، لا ننتفع إلا بالقوة، كن قوياً، وافرض على عدوك ما تريد

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ)

شيء يخزهم، أي عقب المقاومة التي جرت في فلسطين والله أخبار العدو يندى لها الجبين، كيف انهزموا، كيف كُسرت العصا الغليظة، الكيان الصهيوني أخواننا الكرام عصا غليظة للغرب، وأي بلد في الشرق الأوسط يقول: لا، مهمة هذه العصا أن تسحقه، هذا ملخص الملخص، عصا غليظة بيد الغرب في الشرق الأوسط، وأي بلد يقول: لا، هذه العصا تسحقه، لكن هذه العصا الغليظة والحمد لله

كُسرت مرتين، مرة في عام 2006 في جنوب لبنان، ومرة في عام 2008 في غزة، ولا تزال مكسورة، والضرب العنيف من قبلهم دليل أن عصاهم كُسرت.

الله تعالى موجود و نحتاج بأن نستجب له فقط :

فيا أيها الأخوة، صار هناك أخبار منعشة، انهيار النظام العالمي القائم على الربا، والله هذا خبر منعش، معنى ذلك:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية: 276]

أي هناك تطورات بالعالم كبيرة جداً، بلد بآسيا محتل من قبل ثلاثين دولة، أربع و سبعون بالمئة من أراضيه بيد بالمقاومة، أين الثلاثون دولة العملاقة الأوربية؟ أين أسلحتها؟ هذه كلها أشياء تعطيك بأن الله موجود، وكأن الله يقول: يا عبادي أنا موجود، أنا معكم، والقوانين هي هي، إله الصحابة إلهنا، الإله الذي نصر المسلمين إلهنا، فنحن نحتاج بأن نستجب له فقط.

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

الآن:

(وَيُخْزِهِمْ)

عندك هزيمة مادية، وهزيمة معنوية:

(وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

أنتم حينما استمعتم إلى قصف سفن المعونة المتجهة إلى غزة، حدثني أخ كان معهم أقسم بالله الذين خططوا لهذه السفن لم يسمحوا بأدوات معدنية، جميع الأدوات من البلاستيك حتى لا يكون حجة للعدو الصهيوني، الأدوات كلها بلاستيك، ومع ذلك قصفوا، قصفوا ولا يحملون إلا أغذية لشعب محاصر من أربع سنوات يكاد يموت من الجوع، لذلك:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

[سورة محمد]

ارتكبوا حماقة كبيرة.

أخطر شيء في حياة الأمة أن تهزم من الداخل :

إذاً

(يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

هذه واحدة، ثانياً:

(وَيُخْزِهِمْ)

هزيمة معنوية، ثالثاً: تستعيدون أرضكم

(وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ)

ورابعاً:

(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

نحن النكبات حينما تتالت ماذا فعلت؟ فعلت حالة مرضية بالمسلمين، ما هذه الحالة؟ الشعور باليأس، والإحباط، والطريق المسدود، هذه الحالة المرضية خطيرة جداً، أي أخطر شيء بحياة الأمة أن تهزم داخلاً، الله قال:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

فيا أيها الأخوة، الآية الكريمة، الملمح الدقيق فيها، كان من الممكن أن يتولى الله بنفسه إهلاكهم بزلزال، ببركان نفس البركان الذي أطلق بعض السحب البركانية وعطل الطيران بأوربا، الخسارة فوق الملياري دولار بأسبوع، بالتعبير المعاصر الخيارات بيد الله لا تعد ولا تحصى، بركان في بريطانية نفث سحباً رمادية عطل الطيران، الخسارة تقترب من ملياري دولار بأسبوع واحد.

أيها الأخوة،

(قَاتِلُوهُمْ)

كونوا أقوياء،

(يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

تكتسبون مهابة قوية

(وَيُخْزِهِمْ)

يفضحهم

(وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

تتالي النكبات يسبب مرضاً نفسياً :

أقول لكم مرة ثانية: تتالي النكبات يسبب مرضاً نفسياً سماه العلماء اليأس، الإحباط، الطريق المسدود:

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة التوبة]

حدثني أخ مقيم بالضفة الغربية قال لي: هناك ستمئة و ستون حاجزاً في الضفة، وغرفة بلور فيها جندي إسرائيلي، أمامه الموالح، البوظة، العصير، يوقف إنسانة حاملة على وشك الولادة سبع ساعات بلا سبب، دعك واقفة، أي يتفننوا بإذلالنا، امرأة حامل! طالب جامعي فاته الفحص بسبب هذه الحواجز، الحاجز ليس له أي وظيفة إلا إذلال المواطن، عنده جامعة يوقفه ليفوته الفحص، امرأة حامل قال لي: تمت ولادتها بالطريق بسبب هذه الحواجز، لا يسمحوا، فهؤلاء وحوش لا يجدي معهم إلا القوة:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ *وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

لكن سبحانك يا رب! كلما جاءت الشدة جاءت معها الرحمة، هؤلاء الكفار الذين أراد الله للمؤمنين أن يقاتلوهم، وأن يفضحوهم، وأن ينتصروا عليهم قال:

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

الصلحة بلمحة.

باب التوبة مفتوح على مصارعه إلى يوم القيامة :

الله عز وجل كلهم عباده، وأي عبد تاب إلى الله قَبِله الله تعالى، باب التوبة مفتوح، لو لم يكن باب التوبة مفتوحاً لتمادى العاصي في عصيانه، يقول لك العاصي: مادام لا يوجد توبة لأفعل ما أشاء، لتمادى الإنسان من ذنب بسيط إلى أن يرتكب أكبر جريمة إذا لم يكن هناك توبة.

إنسان قاتل قتل تسعاً وتسعين شخصاً ـ هذه القصة واردة في الصحاح ـ سأل إنساناً: لي توبة؟ قال له: لا يوجد لك توبة، فقتله فصاروا مئة، أما الثاني فقال له: لك توبة لكن غادر هذا البلد إلى بلد آخر.

فيا أيها الأخوة

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أخواننا الكرام، قصدت من هذه الآية فقط أن القوي محترم، ولا بد من أن يكون لك هيبة.

وقال سيدنا عمر تقول السيدة عائشة: "ما رأيت أزهد من عمر، إذا سار أسرع، وإذا أطعم أشبع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع".

أردت من تفسير هذه الآية أن كل واحد من أخواننا الشباب عليه ألا يقبل أن يكون فقط عنده أشياء بسيطة جداً، كن بطلاً، باب التوبة مفتوح على مصارعه إلى يوم القيامة، تفوق بالعلم، متاح لك أن تتعلم.

مرة هذا الموضوع تحدثت به سألني طفل عمره خمس سنوات، قال: أنا ماذا أفعل؟ قلت له: تفوق

بدراستك، أنا أقول للشباب: تعلم، كن خبيراً، اختر فرعاً مهماً للأمة، قدم علمك للأمة، وهذه النية الطيبة تتفوقوا بها إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (15-70):تفسير الآية 16، مراقبة الإنسان لنفسه ومن خلال هذه المراقبة يتقرب إلى ربه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-07-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الدنيا دار عمل و تكليف و الآخرة دار جزاء و تشريف :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة عشرة وهي قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أيها الأخوة الكرام، حقيقة هذه الدنيا أنها دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي. هذه الدنيا دار عمل وليست دار جزاء، هذه الدنيا دار تكليف وليست دار تشريف، هذه الدنيا دنيا، وبعدها حياة عُليا، دار دنيا ودار عُليا، الدار الدنيا فيها متاعب، فيها ابتلاءات، فيها أمراض، فيها هموم، فيها أحزان، فيها موت، فيها مرض، فيها فقر، فيها قهر، طبيعة الحياة الدنيا إعداد للآخرة، لذلك اعلم يقيناً أنك مبتلى شئت أم أبيت.

الأمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ سُئل: ندعو بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى.

الدنيا دار ابتلاء وتأديب وإكرام :

لا تصدق أيها المؤمن أن تصل إلى الجنة التي عرضها السموات والأرض والذي فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

لا تصدق أن تصل إلى الجنة من دون امتحانات، والدليل:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون]

الأصل في الدنيا أنها دار ابتلاء.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة]

أنت حينما توطن نفسك على أن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، حينما توطن نفسك أنه لا بدّ من أن يكون في حياة المؤمن نقطة سلبية يمتحن بها، أي بشكل أو بآخر المؤمن إن خالف منهج الله فأمامه تأديب، وإن استقام على أمر الله فأمامه ابتلاء، فلابد من أن تكون حياة المؤمن منطوية على ابتلاء، وتأديب، وإكرام، والأرجح أن حياته تستقر على الإكرام، لابدّ من مرحلة يؤدب فيها إذا خالف منهج الله، ولابدّ من مرحلة يمتحن فيها إذا استقام على أمر الله، ثم تأتي مرحلة التكريم، وهذه المراحل الثلاثة إما أن تكون متداخلة، أو أن تكون متمايزة.

لذلك الطالب عندما يوطن نفسه على أن العام الدراسي عام جهد كبير، وعام سهر طويل، وعام قراءة متأنية، وعام بعدٍ عن كل حظوظ الدنيا، من أجل أن ينال شهادة عُليا يتيه بها على الآخرين، عندئذ ينجح.

لا توطن نفسك أبداً على أن الدنيا دار استمتاع، دار استرخاء، دار نعيم، دار سرور، المؤمن يُسر، ويسعد، وينعمه الله، لكن هدفه طاعة الله، تأتي السلبيات والإيجابيات، يأتي الإكرام والتأديب، يأتي الامتحان والتكريم.

بطولة الإنسان أن يفهم حقيقة الدنيا ليستقبل متاعبها بالرضا و مصائبها بالشكر :

إذاً حينما تكتشف حقيقة الدنيا بل إن جزءاً من عقيدتك أن تفهم حقيقة الدنيا، هذه الدنيا ليست دار استقرار، ممر وليست مقراً، هذه الدنيا دار عمل لا دار جزاء، هذه الدنيا دار تكليف لا دار تشريف، الدنيا نخرج منها، أما الجنة:

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر الآية : 48]

بطولتك أن تفهم حقيقة الدنيا، إن فهمت حقيقة الدنيا تستقبل متاعبها بالرضا، تستقبل مصائبها بالشكر، تستقبل جهدها الكبير بالرضا.

أيها الأخوة، الآية الكريمة :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا)

أي هل من الممكن أن تدخل لجامعة، تنتسب لجامعة، تدفع أقساطاً، و لا يوجد فحص ولا دوام ولا متابعة وبعد أربع سنوات تمنح الليسانس بدون امتحانات؟ هل يوجد بالأرض جامعة تفعل هذا؟ هل يوجد في الأرض كلها جامعة تعطي شهادة من دون امتحان؟ مستحيل!.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

إن كنا ممتحنين، اعتقد يقيناً وهذا جزء من آثار النبي عليه الصلاة والسلام.

الإنسان لن يُمكّن قبل أن يُبتلى :

أعيد النص على مسامعكم مرة ثانية: إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، لا تستقيم لإنسان، الصحة جيدة، الدخل قليل، الدخل كبير هناك آفة في الجسم ـ مرض ـ لا يوجد مرض وهناك دخل كبير لكن الزوجة سيئة، الزوجة جيدة، الأولاد غير أبرار، الأولاد جيدون لكن الدخل قليل، أي طبيعة الحياة الدنيا لابدّ أن تمتحن من زاوية، إما من زاوية الدخل، أو من زاوية العمل، أو من زاوية الزوجة، أو من زاوية الأولاد، أو من زاوية المسكن، أو من زاوية الصحة، لا بدّ من أن تمتحن.

أعيد على مسامعكم قول الأمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ حينما سُئل: ندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكن قبل أن تُبتلى.

وهذه الآية تؤكد هذه الحقيقة،

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن تترك بلا امتحان، طعام، شراب، بيت فخم، دخل كبير، صحة جيدة، زوجة رائعة، أولاد، هكذا، موت إلى الجنة، مستحيل! هذا مستحيل وألف ألف ألف مستحيل،

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا)

الله عز وجل حكيم، قد يعطيك صحة ومعها امتحان، قد يعطيك بيتاً ومعه امتحان، قد يعطيك زوجة وفية ومعها امتحان، قد يعطيك أولاداً أبراراً ومعهم امتحان، اعتقد يقيناً بأنك لابد من أن تبتلى، والآية الدقيقة

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

والآية الثانية:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: 1]

بطولة الإنسان أن يقف من المصائب موقفاً كاملاً :

الآن اسمع هذه القاعدة: ليست البطولة ألا تصيبك مصيبة، هذا مستحيل! لكن البطولة أن تقف من المصيبة موقفاً كاملاً، ليست البطولة ألا تصاب بمصيبة، لكن البطولة أن تقف الموقف الكامل من المصيبة، فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، هو نفسه يقول:

((لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أتت علي ثلاث من بين يوم وليلة ومالي طعام إلا ما واراه إبط بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

جاع النبي الكريم، وخاف النبي الكريم، خاف، وجاعَ، وضيّق عليه الكفار، وهددوه بالقتل، وأخرجوه من بلده، فإذا كان سيد الخلق وحبيب الحق قد ابتلاه الله، فاعتقد يقيناً أنه لن ينجو مؤمن من الابتلاء. لكن أحياناً ترى إنساناً غارقاً في المعاصي والآثام، ومع ذلك يتمتع بصحة جيدة، ومركز قوي، ودخل فلكي، ويتبجح، ويتكبر، ويتعاظم، نقول: هذا الإنسان له موقف عصيب بعد حين.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

[سورة آل عمران الآية : 13]

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

[سورة المدثر]

أحياناً الإنسان يتوهم أن الله عز وجل إذا أعطاه الدنيا فهو يحبه، ليس كذلك، والدليل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

ليس باباً بل أبواباً، ليس أبواب شيء بل أبواب كل شيء.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

[سورة الأنعام الآية:44]

أي الله عز وجل يرحم المؤمن فيعالجه على كل قضية معالجة سريعة، لكن غير المؤمن قد يسمح له أن يعلو، ويعلو إلى أن يصل إلى قمة العلو وهنا يسقط سقوطاً مريعاً، أيهما أفضل أن تعالج يومياً؟ أن تعالج عند كل مشكلة؟ عند كل خطأ؟ عند كل غفلة؟ عند كل نذم؟ أم أن تجمع لك هذه العقوبات في عقوبة كبرى ماحقة؟ والله الذي لا إله إلا هو إذا رأيت أن الله يتابعك، ويحاسبك على كل كلمة، على كل تقصير، على كل ابتسامة ساخرة، على كل تعليق لاذع، إن رأيت الله يتابعك فاعلم علم اليقين أنه يحبك، وهذه بشارة والله لمن يتابع.

الله عز وجل يسوق للإنسان المصائب ليتذكر أخطاءه :

شيء آخر:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

[سورة التغابن الآية: 11]

يهدي قلبه إلى سرّ المصيبة، جاءت مصيبة يا رب ما السبب؟ أين الخلل؟ أين الخطأ؟ أين التقصير؟ أين المعصية؟ والله سبحانه وتعالى يهدي قلبك أيها المؤمن حينما يسوق لك بعض الشدائد، يذكرك ببعض الأخطاء، هذه من أجل هذه، لذلك:

((ما من عثرةً، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عودٍ، إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

مرة ثانية: بطولتك أن تكتشف عندما تأتي المصيبة أين الخلل؟ أين الخطأ؟ أين التقصير؟ لا تحابي نفسك، لا تتوهم أنها مصيبة ترقية، لا، ظن بأخيك ظناً حسناً، إن أصابت أخاك مصيبة، قل: إنها مصيبة ترقية ، أما لنفسك فقل: لابدّ من خلل، لابدّ من خطأ، لابدّ من تقصير،

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

لأنه مستحيل وألف ألف مستحيل، أن تساق لإنسان مصيبة بلا سبب، والدليل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء]

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ)

أي الله عز وجل حكيم يضعك في ظرف تكشف على حقيقتك، وكلما استطعت أن تخدع الناس تولى الله كشف الحقيقة.

الإنسان يعرف نفسه معرفة يقينية :

لذلك قيل في بعض الأمثال الأجنبية: بإمكانك أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، بإمكانك أن تخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت، فهذا مستحيل! بل أضيف على ذلك: أما أن تستطيع أن تخدع نفسك، أو أن تخدع ربك لثانية واحدة، فهذا مستحيل وألف ألف مستحيل، والدليل:

(الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة]

والإنسان يعرف نفسه معرفة اليقين، لذلك مرة كتب على سرير في أحد الفنادق بألمانيا: إن لم تنم هذه الليلة فالعلة ليست في فرشنا، إنها وثيرة، لكن العلة في ذنوبك إنها كثيرة، وهناك فطرة والفطرة تحاسب، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم الآية:20]

الإنسان ممتحن دائماً وإذا لم ينجح كان عدم النجاح حجاباً بينه وبين الله :

أيها الأخوة، كلفك الله أن تجاهد نفسك وهواك، يضعك في ظرف تعتذر، تنسحب، ترفض أن تشارك، ترفض أن تدفع، امتُحنت، صدق ولا أبالغ أنت ممتحن كل يوم، بل ممتحن كل ساعة، سألك سائل، طُلب منك لقاء، اعتذرت، مشغول، وأنت لست كذلك، امتحنك ولم تنجح

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

اعتقد أنك ممتحن في كل يوم، بل في كل ساعة، بل في كل موقف.

دخلت للبيت، طلبت منك أمك دواء، قلت لها: الصيدليات كلها مغلقة، سكتت، وتعلم أنت علم اليقين أن هناك صيدليات مناوبة، هي سكتت، امتُحنت فلم تنجح.

أيها الأخوة، أنت حينما تعلم أن الله يمتحنك دائماً، فإذا نجحت في الامتحان تألقت، وكنت قريباً من الله عز وجل، وإذا لم تنجح كان عدم النجاح حجاباً بينك وبين الله،

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ)

طبعاً الله عز وجل عنده علم كشف، وعلم حصول، لكن علم الكشف لا يعد أصلاً في المحاسبة، أما علم الحصول فيعد أصل.

مثلاً: طالب كسول جداً، لم يكتب أية وظيفة، و لم يكتب إجابة لأي سؤال، وكلما سُئل يقول: لا أعلم، هذا الطالب راسب، هل من المناسب أن المدرس يصدر قراراً بترسيبه دون امتحان؟ مستحيل! يخضع لامتحان، وحينما يقدم الأوراق بيضاء، ويأخذ الأصفار، عندئذٍ يصدر قراراً برسوبه.

فعلم الله الكشفي لا تحاسب عليه، لكن تحاسب على علم الله الحصولي، العلم الواقع، وضعك بامتحان ولم تنجح، هذا العلم حصولي، أما الكشفي فليس لك علاقة به أبداً، فهذا الذي امتُحن ولم يجاهد، لم يبذل جهداً في طاعة الله، لأتفه سبب اعتذر، انسحب، لم يشارك، قال: لا أستطيع وهو ليس كذلك، طُلب منه قرض حسن لإنسان مؤمن صادق، اعتذر، يا ترى اعتذاره صحيح؟ لا يملك أم يملك ولم يقدم هذه العمل الصالح؟ فأنت لاحظ نفسك بأن الله يمتحنك دائماً.

علامة المؤمن أنه يستفتي الله ورسوله أما ضعاف الإيمان فيلجؤون للكفار :

الآن:

(وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

مدخل.

المؤمن قد يلجأ إلى مؤمن، لا يوجد شيء، وضع طبيعي، المؤمن قد يلجأ إلى رسول الله وضع طبيعي، قد يلجأ إلى الله وضع طبيعي، أما أن يلجأ إلى كافر ليظهر أمامه ضعيفاً ويتذلل أمامه؟.

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

المؤمن يتخذ من الله ومن رسوله

(وَلِيجَةً)

أي يسأل القرآن عن هذا الموقف، أدخل القرآن في حياته، يسأل السنّة النبوية، ما حكم وضعي؟ دخل في السنة، دخل في القرآن، دخل فسأل عالماً، الدخل مشبوه أم صحيح؟ دخل على مؤمن، أو دخل السنّة، أو دخل القرآن، ليطمئن، أعتقد أن القرآن والسنة والمؤمنين هؤلاء مراجع له، فرجع إليهم،

(وَلِيجَةً)

أي مدخلاً، دخل عليهم، ليسأله، ليطمئن على وضعه، على دخله، على بيته، على ماله، لذلك فإن علامة المؤمن أنه يستفتي، يسأل، أما ضعاف المؤمنين أو غير المؤمنين فيلجؤون للكفار.

لذلك قالوا: من شكا إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن اشتكى لكافر كأنما اشتكى على الله، الكافر يشمت، الكافر يدعوك إلى معصية، يدعوك لقرض ربوي، يدعوك لإلغاء عمل صالح، فالمؤمن لا يلجأ ولا يستفتي إلا مؤمناً يخاف الله، وقد يستفتي رسول الله من خلال سنته، وقد يستفتي ربه من خلال قرآنه، يرجع إلى القرآن، وإلى السنّة، وإلى من يثق من العلماء.

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا)

ما اتخذ

(مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

بل دخل على الله من خلال قرآنه، ودخل على النبي من خلال سنته، ودخل على المؤمنين من خلال استشارتهم.

الله عز وجل يعلم حقيقة الأمور و مقاصدها :

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

هو الخبير، يعلم كل شيء يخطر في بالك، لا تخفى عليه خافية.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر]

للتقريب طبيب يفحص مريضة، سمح الشرع له أن ينظر إلى مكان المرض لكن اختلس النظر إلى مكان آخر، من يكشفه؟ ليس على وجه الأرض كلها جهة تستطيع أن تكتشف خائنة العين، قال تعالى:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

خبير بعملك، ما البواعث؟ ما الدوافع؟ ما الحيثيات؟ ما الظروف؟ ما الأهداف؟ ما الطموحات؟ والله عز وجل هو الخبير بما تعمل:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

[سورة الإسراء الآية:17]

قد تقول كلاماً أحلى من العسل، وأنت موقفك من هذا الذي تقول له هذا الكلام ليس كما تقول، تتخذ هذا الموقف أسلوباً كي تصل لهدفك، من يعلم ذلك؟ الله عز وجل.

مرة إنسان عنده آلاف الدونمات، فأقنعه شخص قال له: إذا قدمت لجامع خمس دونمات مثلاً، تضطر البلدية أن تفرز أرضك إلى محاضر، فإذا فرزت إلى محاضر، ارتفع ثمن الأرض عشرة أضعاف، فهو قدم خمسة دونمات لمسجد، هو عند الناس محسن كبير، ما شاء الله! قدم خمسة دونمات لمسجد بنية إلى أن تضطر البلدية إلى تقسيم أرضه المشاع إلى محاضر، فلما قسمت إلى محاضر ارتفع سعرها أضعافاً مضاعفة، هو عند الناس محسن، أما عند الله ليس بمحسن، منتفع، فالله عز وجل يعرف

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

ولاحظ هذه الملاحظة أن كل كلمة تقولها، وكل حركة تتحركها، وكل سلام تطرحه على الآخر، يعلم الله حقيقته، يعلم بواعثه، يعلم مقاصده، يعلم مؤداه، لذلك:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

أفضل أنواع الإيمان أن يعلم الإنسان أن الله معه :

الإنسان حينما يوقن أن الله مطلع عليه يتأدب مع الله، بل إن أفضل أنواع الإيمان أن تعلم أن الله معك، يسمعك، أفضل أنواع الإيمان أن تعلم أن الله يعلم، هناك بعض الآيات في معرض الحديث عن الحج:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

[سورة المائدة الآية: 97]

إذا علمت بأن الله يعلم استقمت على أمره،

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

العمل حجمه، بواعثه، العقبات، الصوارف، الحيثيات، المؤدى، كم كلفك هذا الموضوع؟ كم ضحيت من أجله؟ كل هذه الحيثيات يعلمها الله عز وجل، لأنه خبير بما نعمل.

من شروط العمل الصالح الإخلاص و الصواب :

بالمناسبة العمل لا يقبل عند الله إلا بشرطين: إلا إذا كان خالصاً وكان صواباً، خالصاً ما ابتُغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، شرطان أساسيان في تفسير قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية:19]

العمل الذي يرضي الله ينبغي أن يكون صواباً وفق السنة، يقول لك: يانصيب خيري، حفلة غنائية يرصد ريعها للأيتام، هذا عمل ليس صواباً، ينبغي أن يكون صواباً وخالصاً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، هذا العمل الذي يقبله الله عز وجل.

أيها الأخوة،

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

لذلك الإخلاص ينفع معه كثير العمل وقليله، ومن دون إخلاص لا ينفع لا كثير العمل ولا قليله، العمل من دون إخلاص لا قيمة له.

((يؤتى برجال يوم القيامة لهم أعمال كجبال تهامة يجعلها الله هباء منثورة، قيل يا رسول الله جلهم لنا، قال: إنهم يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلو من محارم الله انتهكوها))

[ابن ماجه عن ثوبان]

لذلك: من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله.

بالمناسبة أيها الأخوة، الإنسان خارج بيته يلبس ثياباً جميلة، ويبتسم، ويتأنق ويتعطر، كله من أجل مكانته، لكن أخلاقه الحقيقية متى تظهر؟ في البيت، لا رقيب، ولا حسيب، أخلاقه الحقيقية تظهر في البيت، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي))

[أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين]

الأخلاق الحقيقية التي ينبغي أن تكون عليها تكون في البيت.

بطولة الإنسان أن يشعر أن الله يراقبه :

أيها الأخوة، إذاً

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

فالإنسان أحياناً خارج البيت بهمه مكانته، يهمه منظره، يهمه ثناء الناس عنه، فإذا تجمل وتأنق وتواضع وابتسم، هذه من أجل مكانته، لكن متى تظهر أخلاقه على حقيقتها، في البيت، ما في رقيب ولا حسيب، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي))

ولمجرد أن تشعر أن الله يراقبك، وأن الله معك، وأن هذا العمل لا يرضيه، أو أن هذا العمل يرضيه، مراقبة الله للإنسان المستمرة أحد أكبر أسباب استقامته، راقب الله، لماذا دعوت فلاناً؟ لماذا مدحت فلاناً؟ لماذا تجشمت المصاعب لهذا السفر؟ لماذا غضبت؟ لماذا أعطيت؟ لماذا منعت؟ لماذا تساهلت هنا ولم تتساهل مع هذا؟ أحياناً مع امرأة بمعاملة يتساهل الإنسان تساهلاً مذهلاً معها، يأتي مواطن ذكر، فيجد تعقيدات لا تحتمل، لماذا؟ لماذا تساهلت معها ولم تتساهل مع هذا الإنسان؟ والله كله فيه حساب.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

والبطولة أن تشعر أن الله يراقبك، بل إن حال المراقبة من أرقى الأحوال، إن الله يراقبك.

أيها الأخوة، هذه الآية

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

أي مدخلاً

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

البطولة أن تراقب نفسك في العمل، وأن تعلم يقيناً أن الله معك ويراقبك،

والله عز ولله يقول:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء الآية:1]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (16-70):تفسير الآية 17 ، الآداب التي يجب على الإنسان أن يؤديها في بيوت الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-07-09

بسم الله الرحمن الرحيم

عدم السماح للمشركين بدخول بيت الله الحرام :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة عشرة وهي قوله تعالى:

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

أيها الأخوة الكرام، كان البيت الحرام قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام منتدى لأهل قريش، منتدى يجلسون، يتسامرون، ينشدون الأشعار، أي النشاطات التي تؤدى في هذا البيت لا علاقة لها بالعبادة إطلاقاً.

لذلك الله عز وجل أعطى توجيهاً من خلال القرآن وسنة النبي الكريم أن هؤلاء لا يسمح لهم بدخول بيت الله الحرام،

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

العمارة هي الجلوس في المسجد، والنشاط الذي يؤدى به، لا الجلوس هدف العبادة، ولا النشاط يتصل بالدين، أشعار، وندوات، ومسابقات، وما إلى ذلك، فلذلك جاء الرد الإلهي، وهذا البيت الحرام البيت الأول.

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران الآية:96]

البيت الحرام بيت الله عز وجل في الأرض :

أخوتنا الكرام، إن صحّ التعبير تمشياً مع الجانب المادي في الإنسان اتخذ الله لذاته العلية بيتاً في الأرض، بيت الله الحرام له خصائص، في هذا البيت يُقبل الله على عباده، الصلاة في هذا البيت لها طعم آخر، لذلك يجب أن تكون لهذا البيت خصوصية،

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً)

معنى ذلك أنك إذا دخلت إلى بيت الله الحرام، أو بشكل آخر إذا دخلت إلى أي مسجد، ورد في الآثار:

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زوارها هم عمارها))

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام سنّ لنا إذا دخلنا المسجد أن ندعو بهذا الدعاء:

((اللَّهمَّ افْتح لي أبواب رحمتك))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي حميد وأبي أسيد]

وكلمة رحمة كبيرة جداً، عطاء إلهي، يا ترى ما طبيعة هذا العطاء؟ عطاء منوع؛ حفظ رحمة، توفيق رحمة، استجابة الدعاء رحمة، يلقي الله في قلبك نوراً رحمة، ترى به الحق حقاً والباطل باطلاً، يتجلى على قلبك، العبد موصول بالله، بخالق السموات والأرض، بالقوي، الأقوياء من بني البشر بيده، دقق بهذه الآيات:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود الآية: 55]

تحدٍّ:

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود الآية: 56]

أنت حينما تؤمن بهذا الإله العظيم، خالق السماوات والأرض، رب العالمين، وأنت معه، إذا كنت معه فمن عليك؟ أي من يستطيع أن يصل إليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ وإن فقدت الصلة به ماذا وجدت؟ لم تجد شيئاً، وإن اتصلت به ماذا فقدت؟ لم تفتقد شيئاً.

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

معرفة الله عز وجل و الاتصال به أعظم عمل على الإطلاق :

والله أيها الأخوة، ما من عمل على الإطلاق في حياة كل منا أعظم من أن تتعرف إلى الله، وأن تتصل به، الدنيا محدودة، الدنيا لها سقف، الدنيا أمد قصير، سنوات تمضي، فإذا الإنسان أمام ملك الموت، هو يُقدم على حياة أبدية، هذا الذي عرف الحقيقة في الوقت المناسب، دققوا في هذه الآية:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

[سورة هود الآية: 28]

أنت المخلوق الأول، مخلوق للجنة، الجنة فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

إلى أبد الآبدين، مخلوق للجنة، وثمن هذه الجنة أن تأتي إلى الدنيا، وأن تستقيم على أمر الله، وأن تعمل صالحاً ابتغاء مرضاة الله، والله ما حرمك شيئاً في الدنيا، لكن أعطاك الأشياء بطريق نظيف، المرأة؟ هناك زواج، المال؟ هناك تجارة، أي شيء يسعدك في الدنيا له قناة نظيفة تسري من خلاله.

أكبر خاسر في الأرض من يأتي الدنيا و يغادرها و لا يعرف الله تعالى :

لذلك هذا الذي يأتي إلى الدنيا، ويغادرها، وما عرف الله، هو أكبر خاسر في الأرض.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر الآية:15]

ينبغي أن تعرف من أنت؟ أنت المخلوق الأول، الأول في الكون، المخلوقات لا تعد ولا تحصى، النباتات مخلوقات، الجمادات مخلوقات، الحيوانات مخلوقات، الملائكة مخلوقات، الجن مخلوقات، الإنسان هو المخلوق الأول، لأن الله عز وجل حينما عرض على البشر الأمانة قبلها البشر، قبلها الإنسان، فلما قبل حمل الأمانة سخر الله له.

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية :13]

ينبغي أن تعرف أنك المخلوق الأول، وأن سرّ وجودك في الدنيا أن تعرف الله، وأن تعرف منهجه، وأن تحمل نفسك على طاعته، وعلى التقرب إليه بالأعمال الصالحة، إن فعلت هذا حققت الهدف من وجودك، حققت سرّ وجودك، وغاية وجودك، إن فعلت هذا فزت فوزاً عظيماً.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية:71]

الطريق إلى الله سالكة بطاعته و الخضوع لأمره :

كلمة عظيم قد يقولها طفلٌ صغير، يقول لك: أنا معي مبلغ عظيم، كم تقدر هذا المبلغ؟ بمئتي ليرة، فإذا قال مسؤول كبير بالبنتاغون: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، كلمة عظيم من مسؤول تقدر بمئتي مليار، فإذا قالها رب العالمين:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

إذا آمنت بالله أقسم لك بالله: قلامة ظفر مؤمن تساوي أهل الأرض الفسقة، قد يكون الإنسان مؤمناً ضعيفاً، موظفاً بسيطاً، مواطناً عادياً، لا يملك إلا قوت يومك، وهو عند الله كبير.

يروى أن النبي الكريم دخل عليه أحد الصحابة فهش له وبش، وقال له: أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، هذا الصحابي الجليل فقير، قال: أو مثلي؟! قال له: أنت خامل في الأرض علم في السماء. أخواننا الكرام، أنا أُخاطبكم، كل واحد منكم يستطيع أن يكون عالماً في السماء، الطريق إلى الله سالكة، لا تحتاج إلى ميزة.

من عرف الله و أطاعه حقق الهدف الأكبر من وجوده في الدنيا :

الآن هناك مناصب لا يوجد أمل لتصل لها، تحتاج شهادات، وتحتاج انتماءات، وتحتاج قدرات، أما أي إنسان يصل إلى أقرب مكانة عند الله بطاعته فقط، أي أن تتعرف إلى الله، أن يكون بينك وبين الله ود.

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم الآية: 96]

إذا كان معك هاتف شخص عادي جداً بوزارة معينة، تتيه بهذا الرقم، يقول لك: عند الضرورة خبرني، فإذا كنت على اتصال بخالق السموات والأرض! يا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ أي متاح لنا جميعاً أن نصل إلى الله، والوصول إلى الله بإمكاناتنا متاح لنا، أن تستقيم على أمره، أن تؤدي العبادات، أن تخدم عباده، لذلك هذا المشرك الذي عبد غير الله، عبد زيداً أو عبيداً، عبد قوياً، عبد غنياً، عبد متسلطاً، خضع له، نسي ربه، هذا المشرك احتقر نفسه، أنت لله، قالوا: الجماد من أجل النبات، والنبات من أجل الحيوان، والحيوان من أجل الإنسان، والإنسان من أجل من؟ من أجل الواحد الديان، خلقك من أجل أن تعرفه.

فلذلك أنت حينما تعرف الله، وحينما تطيعه، تكون قد حققت الهدف الأكبر من وجودك في الدنيا، والذي جاء إلى الدنيا وخرج منها وما عرفه، أي لم يحقق الهدف الأكبر في حياته

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

تعبير الله عز وجل عن بيت الله الحرام بكلمة مسجد :

بعض المفسرين فسروا المساجد ببيت الله الحرام، لذلك كما هو معلوم ممنوع أن يدخل المشركون منطقة الحرم كلها، فأنتم ترون في الذهاب إلى مكة قبل الوصول لمكة، هناك طريق لغير المسلمين لينقلوا إلى غير مكة، أما مكة بحرمها الكبير، وبيت الله الحرام فيها، ممنوع على غير المسلم أن يدخله، استناداً لهذه الآية، طبعاً هذا مكان عبادة إسلامية، مكان اتصال بالله، فالذي يعبد غير الله ليس له مكان عندنا.

مثلاً الجامعة لطلاب العلم، وهناك إنسان أُمي لا يقرأ ولا يكتب، أراد أن يدخلها لتجارة، هنا لا يوجد تجارة، هنا يوجد طالب علم، وهناك قاعات تدريس، وأساتذة، و دكاترة، هذا المكان ليس للتجارة، التجارة في الأسواق، الذي يريد الدنيا متاحة له الأرض كلها، أما بيت الله الحرام لمن يريد الآخرة، لمن يريد الله عز وجل،

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

لأن بيت الله الحرام كل مكان فيه جهة للقبلة، من طرف الشمال إلى الجنوب، ومن طرف الجنوب إلى الشمال، من طرف الشرق إلى الغرب، ومن طرف الغرب إلى الشرق.

مرة إنسان سأل آخر في بيت الله الحرام، أين القبلة؟ قال له: الكعبة أمامك، قال له: الكعبة واضحة، قلت لك: أين القبلة؟ هو جاهل، فأي إنسان دخل بيت الله الحرام من أي جهة، قبلته الكعبة، بعض العلماء قالوا: كل جهة مسجد، كلمة مساجد هنا في هذه الآية بالذات تعني بيت الله الحرام، المساجد هنا باتجاه الجنوب، مساجد اليمن باتجاه الشمال، مساجد العراق باتجاه الغرب، مساجد بلد آخر باتجاه الشرق، كشمال إفريقيا، لكن بيت الله الحرام فيه كل الاتجاهات بأي مكان باتجاه الكعبة، فعُدّ أي مكان مسجداً، فالله عبّر عن بيت الله الحرام بكلمة مساجد:

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

هذا مكان للصلاة، مكان للعبادة.

لذلك ورد في الأثر: أن الحديث في المسجد، حديث عن الدنيا، عن التجارة، عن الأعمال، عن فرص العمل، عن شؤون الدنيا، إذا تُكلم بها في المسجد قال: إنها تحبط العمل، هذا المكان لعبادة الله، والدليل عند الدخول إلى المسجد ينبغي أن تقول :

((اللَّهمَّ افْتح لي أبواب رحمتك))

والخروج من المسجد يقتضي أن تقول:

((وافتحْ لي أبواب فضلك))

[الترمذي عن فاطمة الزهراء]

أنت دخلت واتصلت بالله تسأل الله أن يفتح لك طريق الصلة به، أما إذا خرجت من المسجد تسأل الله جلّ جلاله أن يفتح لك عملاً صالحاً يعبر عن اتصالك بالله عز وجل، خارج المسجد اسأل الله أن يهبك عملاً صالحاً، ضمن المسجد اسأل الله أن يمنحك صلة به، هذا المكان مكان اتصال بالله.

منع المشركين من دخول بيت الله الحرام :

أيها الأخوة، في بعض الأحاديث الشريفة:

((لا يدخل المسجد مشرك))

[ابن جريج عن عطاء]

((لا يطوف في البيت عريان))

[أحمد عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه]

كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام يطوفون بالبيت عراة، لماذا؟ قال: لأن ثيابهم ارتكبوا فيها المعاصي فخلعوها كلياً، وطافوا عراة، وقد فعلوا معصية أكبر من معاصيهم.

أيها الأخوة، طبعاً أول توجيه:

((لا يدخل المسجد مشرك))

[ابن جريج عن عطاء]

((لا يطوف في البيت عريان))

[أحمد عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه]

(مَا كَانَ)

هذه عبارة فيها نفي الشأن، طبعاً للتوضيح: ما هو نفي الشأن؟ هناك نفي الحدث و هناك نفي الشأن، لو إنسان سأل شخصاً قال له: هل أنت جائع؟ يقول: لا، لكن لو قال له: هل أنت سارق؟ هل يكفي أن يقول: لا، يقول: ما كان لي أن أسرق، هذا نفي الشأن، ليس من شأني أن أسرق، ولا من طبيعتي، ولا من منهجي، ولا من مبدئي، ولا أقبل، ولا أسمح، وأرفض، وألوم، وأوبخ، وأعاقب، يمكن أن يحكي لك خمسين كلمة، بمعنى ما كان لي أن أسرق، فكلمة:

(مَا كَانَ)

تعني نفي الشأن، أما هل أنت جائع؟ لا، نفي الحدث، الجوع حدث، أنت لست جائعاً، أما أتُهم إنسان بالسرقة، لا يقول: لم أسرق، يقول: ما كان لي أن أسرق.

لذلك هنا هذا النفي، أي لا يدخل المشركون البيت الحرام،لا، لا، بل أعمق من ذلك،

(مَا كَانَ)

أي أيُّ إنسان لم يؤمن بالله، آمن بالأصنام، ما سرّ وجوده في بيت الله الحرام؟ جامعة للتعليم والتدريس، إنسان أُميّ ومجرم، ليس له علاقة بالجامعة، بالعلم أُميّ، بالسلوك مجرم، في الجامعة ليس له مكان أبداً، فعدم إدخاله الجامعة شيء طبيعي جداً:

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)

إنسان كافر بخالق السماوات والأرض، ماذا يعني المسجد له؟ أنا أقول لكم: تراث، فلكلور إسلامي، فالإنسان إذا لم يؤمن بالله أصلاً فكل مظهر إسلامي، أقواس، أبنية، مساجد، يقول لك: فلكلور إسلامي، هذا تراث إسلامي، أما المسجد عند المؤمن هذا بيت الله.

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

البشر ثلاثة أصناف :

لو توسعنا قليلاً، أنت جئت إلى بيت الله وصليت، أنت حينما تقف بين يدي الله وتقول:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة]

يأتي التوجيه الإلهي:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة الإسراء الآية:53]

تكلم الكلمة اللطيفة، الكلمة الحسنة، الكلمة التي لا تؤذي، هذا أمر إلهي، فأنت إذا قلت: الله أكبر، سبحان ربي العظيم، هذا الركوع الخاص بهذه الركعة، هو خضوع لله في تنفيذ هذه الآية،

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

أي وأنت في الركوع لسان حالك يقول: سمعاً وطاعةً يا رب، فإذا وصلت إلى السجود: يا رب أعني على طاعتك، الركوع خضوع، والسجود استعانة، والسورة التي بعد الفاتحة توجيهات ربنا عز وجل، والفاتحة تمهيد للسورة،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

من هؤلاء الذين أنعمت عليهم؟ الذين عرفوا وطبقوا،

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)

الذين عرفوا وانحرفوا،

(وَلَا الضَّالِّينَ)

الذين ما عرفوا وانحرفوا، فالبشر شئتم أم أبيتم ثلاثة أصناف، صنف عرف الله وأطاعه، والثاني عرفه ولم يطعه، والثالث ما عرفه ولم يطعه،

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

ملخص الصلاة :

الآن يقول الله لك:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الإسراء الآية:53]

هذا توجيه إلهي، الله أكبر، سبحان ربي العظيم، سمعاً وطاعةً يا رب، سأقول لمن حولي

(الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

سمع الله لمن حمده، الله أكبر، يا رب أعني أن أقول:

(الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

هذا ملخص الصلاة، الفاتحة تمهيد، والسورة توجيه، والركوع خضوع، والسجود استعانة بالله عز وجل،

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

فبيت الله للعبادة، بيت الله لمعرفة الله، بيت الله للدعوة إلى الله، بيت الله لإقامة الصلاة، بيت الله للتعاون بين المؤمنين، بيت الله مكان للمسلمين،

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

أي لا يحق لهم، وليس من شأنهم، ولا يستحقون دخول هذا البيت، لك أن تأتي بأفعال لا تعد ولا تحصى من صيغة ،

(مَا كَانَ)

مرة ثانية: سُئل أحدهم هل أنت سارق؟ هو إنسان مستقيم، قال له: ما كان لي أن أسرق، أنا لا أسرق، ولا أطلب من أحد أن يسرق، ولا أرضى بالسارق، وأحارب السارق، وأذم السارق، يمكن أن تتكلم عشرات الكلمات بل ضعف عشرات ترجمة لكلمة ما كان لي أن أسرق، لذلك لم تنفِ الحدث، هل أكلت؟ لم آكل، نفى الحدث، أما هل سرقت؟ ما كان لي أن أسرق، هذا نفي الشأن، نفي الشأن أبلغ من نفي الحدث.

آداب المساجد :

أخواننا الكرام، العلماء وضعوا آداباً كثيرة للمساجد، وهذه الآداب مستقاة من آيات كريمة، ومن أحاديث كثيرة، يأتي في مقدمة هذه الآداب: عدم تخطي الرقاب في المسجد، من هذه الآداب: ألا يكون

المسجد مكاناً لحديث دنيوي، لأنه هذا المسجد مكان عبادة، والدنيا لها مكان آخر، في الأسواق، لذلك ورد :" إن الحديث الدنيوي في المسجد يحبط العمل ويمحو الحسنات".

وكما قلت: عدم تخطي الرقاب، وعدم إيذاء المسجد، لا بصوتٍ، ولا براحةٍ، ولا بشيء من هذا القبيل، والله عز وجل بقول:

(خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

[سورة الأعراف الآية:31]

أي الإنسان يكون مغتسلاً، متعطراً، ثيابه نظيفة، هذه تليق بالمؤمن، وهو في بيت من بيوت الله.

المسجد مكان السجود والعبادة :

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)

قد يقصد بمساجد الله بيت الله الحرام وحده، لأنه بكل مكان بالمسجد يوجد قبلة خاصة، مجموع هذه القبلات سميت مساجد.

(مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)

إنسان ليس مؤمناً بالله، المسجد ليس له عمل به إطلاقاً، فالمسجد مكان السجود، مكان للعبادة، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((جُعِلت لي الأرضُ مسجداً))

[أخرجه النسائي عن جابر بن عبد الله]

هناك فرق بين أن يتخذ بناء للصلاة وحدها، هذا مسجد، وأي مكان تسجد فيه على الأرض يسمى مسجداً، مسجد كمكان السجود شيء، ومسجد كبيت أقيم للصلاة شيء آخر، أي هذا الدين العظيم سمح للمسلم أن يصلي في أي مكان، في بيته، في معمله، في حقله، أي مكان مسموح الصلاة فيه، أما إذا أتى إلى بيت الله صار هناك صلاة وهناك علم، مكان خاص للصلاة، لذلك أي إنسان يصلي في بيته فرضاً صلاة الفجر فهذا شيء مقبول، لكن:

((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح))

[أحمد]

في بعض الأحاديث وهي متواترة، أن صلاة الجماعة تعدل صلاة الفرد في بيته سبعاً وعشرين ضعفاً، فأنت في البيت قد تقرأ:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص الآية: 1]

أما إذا صليت الفجر في المسجد، بكل ركعة تقرأ صفحة بكاملها.

اختلاف وجهات نظر العلماء في قضية القراءة من المصحف والإنسان يصلي :

بالمناسبة قضية أن تقرأ من المصحف واردة على اختلاف وجهات نظر العلماء، أما أنت حينما تقرأ بالركعة صفحة بكاملها، تتملى من هذه الآيات فإذا جاء الركوع خضعت لله، وإن جاء السجود، أي أحياناً قد تستفيد إذا قرأت من المصحف في الصلاة، لأنك لا تحفظ كتاب الله، فإذا أردت أن تعتمد على ذاكرتك فهناك الإخلاص، والمعوذتين، بكل صلاة، ومع التكرار تفقد السورة معناها، لذلك يمكن أن تقرأ في الصلاة من مصحف، على اختلاف بين الأحكام، طبعاً مسموح أن تقرأ من المصحف في النوافل قطعاً، أما في الفرائض فهناك اختلاف، أي منع أبو حنيفة ذلك وبقية العلماء أجازه.

على كلٍّ: جرب أن تصلي والمصحف أمامك وتقرأ صفحة بكاملها في كل ركعة، أول ركعة هذا الصفحة، والركعة الثانية هذه الصفحة، العبارة أن الصلاة:

((عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين))

[البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)

أي الإيمان التوجه إلى الواحد الديان، الإيمان أن تخضع إلى الله، الإيمان أن تطبق منهجه، الإيمان أن تأتمر بأمره، الإيمان أن تنتهي عما نهي عنه وزجر، الإيمان أن يكون عملك إسلامياً، الإيمان أن يكون زواجك إسلامياً، الإيمان أن تبحث عن عمل صالح تتقرب به إلى الله عز وجل،

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

العمل الصالح إن لم ترافقه نية طيبة وإخلاص لا قيمة له :

أخواننا الكرام، أخطر شيء أن يحبط العمل، عمل بنية لا ترضي الله، لا قيمة له إطلاقاً، ولا وزن له، مثلاً: إنسان عنده ألف دونم قيل له: لو تبرعت بخمسة دونمات لمسجد تضطر البلدية أن تفرز هذه الأرض إلى محاضر، فإذا فرزت إلى محاضر يتضاعف سعرها، إذاً قدم خمسة دونمات لبناء مسجد، عند الناس جميعاً المحسن الكبير، بهذه النية الذي أرادها لا وزن لعمله إطلاقاً، فلذلك:

((إنما الأعمال بالنيات))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب]

قال:

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

العمل الصالح إن لم ترافقه نية طيبة وإخلاص لا قيمة له، لذلك الحديث:

((إنما الأعمال بالنيات))

قيمة العمل محددة بنيته، ما النية؟

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

لذلك قالوا: عادات المؤمن عبادات، لو اعتنى بأولاده، لو أدخل على قلبهم الفرح، عمل صالح، لو اشترى ثياباً جديدة لأولاده على العيد فهذا عمل صالح، عادات المؤمن عبادات، وعبادات المنافق سيئات،

(حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

عمله مرفوض ولو كان عبادةً، لأنه منافق،

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

المؤمن الصادق يتحرى الإخلاص في عمله وفي كل شؤون حياته :

أخواننا الكرام، كل ما أتمناه أن يراقب الإنسان عمله، فإن كان ليس لله فهو خاسر.

مرة إنسان تروي الكتب أنه ما تخلف أربعين عاماً عن صلاة الفجر في المسجد، في أول صف، مرة فاتته الصلاة، فقال: ماذا يقول الناس عني؟ معنى هذا أن هدفه الناس.

راقب نفسك، أنت حينما قدمت هذا الطعام تبتغي السمعة أم الشهرة أم تبتغي إكرام هذا الضيف؟ أنت حينما أتيت إلى المسجد ليقال عنك من رواد المساجد أم تبتغي وجه الله؟ قضية الإخلاص لله قضية خطيرة، فراقب عملك، وتفحص نيتك.

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

أي كما أن المعاصي لها أمكنة، قد تكون هناك معاص في بيوت الله، وقد تكون هناك إشراكات في بيوت الله.

فلذلك المؤمن الصادق يتحرى الإخلاص في عمله، وفي كل شؤون حياته، تصبح الآية في النهاية :

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

المقصود بمساجد الله، بيت الله الحرام:

(شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

ولبيوت الله آداب كثيرة إن شاء الله تعالى نعالجها بتفصيل في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (17-70):تفسير الآية 18 ، الآداب في المساجد.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-07-16

بسم الله الرحمن الرحيم

المسجد مكان عبادة فلا يجوز طرح أي موضوع دنيوي فيه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة عشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

أيها الأخوة الكرام، وعدتكم في هذا اللقاء الطيب أن يكون الحديث عن آداب المساجد، فالله عز وجل يقول:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)

[سورة الجن الآية: 18]

هذا المكان مكان عبادة، هذا المكان لذكر الله، فأي موضوع دنيوي، أو شخصي، أو متعلق بفئة من الناس، لا يجوز طرحه في بيت الله، والدليل هذه الآية:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)

هنا الدعوة إلى الله، إلى الله وحده، الدعوة إلى الآخرين في مكان آخر، اختر أي مكان آخر إلا بيت الله من أجل أن تدعو به إلى غير الله، وهذا أول أدب من آداب المساجد، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زواري فيها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، فحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

أنت حينما تلجأ إلى الله ينبغي أن تأتي إلى بيته، أنت حينما تود أن تلتقي بإنسان تأتي إلى بيته، فأنت إذا أردت الله فاذهب إلى بيته.

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زواري فيها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني))

الآن:

((وحق على المزور))

إكرام الله من يأتي إلى بيته بمنحه لذة القرب منه و حلاوة مناجاته :

من حقك على الله أن يكرمك الله في بيت الله، قد يقول أحدكم: كيف؟ من هذا الإكرام أن تذوق لذة القرب من الله، ،أن تذوق حلاوة مناجاته، وأن يمنحك الله بهذه الزيارة شهادة الإيمان،

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

فأنت حينما تأتي إلى بيت من بيوت الله فهذه شهادة لك بأنك مؤمن.

((وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالأيمان))

[الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

قال تعالى:

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

أي علامة إيمانك أنك ترداد المساجد، علامة إيمانك أن تصلي في المساجد، علامة إيمانك أنك تطلب العلم في المساجد، علامة إيمانك أن قلبك متعلق بالمساجد، هذا بيت الله عز وجل، فعن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال:

((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وعد منهم ورجل قلبه معلق في المساجد))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

هذا من السبعة الذي يظله الله يوم القيامة.

((يوم لا ظل إلا ظله))

من ذكره الله منحه الحكمة و الطمأنينة و الأمن :

أخواننا الكرام، معنى ذكرته كثيراً: إنك في بيت من بيوت الله تصلي، ذكر الله لك وأنت في بيت من بيوت الله تصلي أكبر من ذكرك له، أي لو إنسان سأل أي إكرام نأخذه في بيت من بيوت الله؟ قال: إذا ذكرك الله وأنت في بيته يمنحك الحكمة، والله عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً)

[سورة البقرة الآية:269]

يمنحك التوفيق، يمنحك الرضا، يمنحك النجاح، يمنحك السعادة، يمنحك الأمن، يمنحك أن تحقق أهدافك في الدنيا، تصور خالق الكون يكرمك في بيته، وقد لا تجد كأساً من الشاي، أو كأساً من العصير، لكن قد تجد التوفيق في عملك، التوفيق في زواجك، التوفيق في تربية أولادك، التوفيق في قربك من الله عز وجل، إذاً:

((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ عدّ النبي الكريم من هذه السبعة ـ و رجل قلبه معلق بالمساجد))

من وفق في عمله أو زواجه فهذا من إكرام الله له :

حديث آخر:

((من غدا إلى المسجد أو راح))

[مسلم عن أبي هريرة]

معنى راح في اللغة راح إلى بيته أي عاد إلى بيته، غدا خرج من بيته.

((من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح))

أنت حينما يحين وقت الدرس تقوم وترتدي ثيابك، وتتوضأ، وتركب أول سيارة، وثاني سيارة، وقد تجد ازدحاماً في الطريق، وقد تجد صعوبة في ركوب السيارات، تصل إلى بيت من بيوت الله، فهل تصدق أنك لن تكرم من الله عز وجل؟ أحياناً توفق في عملك، أحياناً توفق في زواجك، هذا من إكرام الله لك، لأن الله عز وجل حينما قال:

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة البقرة الآية: 201]

قال علماء التفسير: الزوجة الصالحة من حسنات الدنيا، التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك، وإذا أمرتها أطاعتك، هذا إكرام من الله، ألا تحب أن تكرم في بيته؟ أن توفق في زواجك؟ أن توفق في تربية أولادك؟ أن توفق في عملك؟ أن توفق في دخلك؟ أن توفق في سعادتك؟.

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زواري فيها هم عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

إذاً:

((من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح))

[مسلم عن أبي هريرة]

لكن من حيث اللغة عندما طرقت باب إنسان صديقك، فتح لك ابنه، قلت له: أبوك في البيت، قال لك: والله يا سيدي قبل قليل راح، تقول له: سلم عليه، هذا كذب، لأن كلمة راح عاد إلى البيت، توهمت أنت أنه ليس بالبيت، راح أي عاد إلى البيت، غدا: ذهب، راح:عاد.

نشاطات المسجد تسمو بالإنسان وترقى به وتغذي عقله :

ماذا في المسجد؟ ذكر الله تعالى، تلاوة القرآن، وعظ وإرشاد، تزكية للنفس، مجلس للعلم، فقه في الدين، كل نشاطات المسجد تسمو بك، وترقى بك، تغذي عقلك، وتغذي قلبك، وتصحح مسيرتك، إذاً كل الخير في بيوت الله عز وجل، وقد يغفل الإنسان عن ميزة أنت في المسجد مع من؟ مع المؤمنين، مع أخوانك المؤمنين، هذا مجتمع إيماني، فيه صدق، فيه أمانة، فيه وفاء، فيه محبة، فيه إخلاص، أي أكبر ربح لك أن تربح أخوة في المسجد، لهم مهن متعددة، وهناك محبة، و صدق، و تواضع، و بذل، و تضحية، فالإنسان إذا ربح أخاه المؤمن فهذا ربح كبير جداً، أين تجد هذا المؤمن؟ في المسجد، فأنت حين دخلت إلى بيت من بيوت الله لك أخوة مؤمنون، وأتمنى أن يتم التعارف فيما بينكم، فالإنسان إذا صافح أخاه في المسجد، ليسأله عن اسمه، وعن اسم أبيه، وعن عمله، وعن هاتفه، لك أخ، لأن الله عز وجل يريد أن نتعاون.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية:2]

حضّ النبي عليه الصلاة و السلام على التعارف في المسجد :

أنت في المسجد يجب أن تعرف من في المسجد، لا أقول: أن تعرفهم جميعاً، لكن أن تعرف بعضهم، أخ مؤمن صادق، حتى أتمنى عليكم أن الأخ منكم إذا اتخذ له من رواد المسجد أخوة فإن غاب أحدهم فليتفقده، تصور إنساناً يرتاد بيت الله، غاب يوماً لأنه كان مريضاً، اتصل فيه أحد الأخوة الكرام، أقلقتنا، خير إن شاء الله، فقال له: أنا مريض، فزاره الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، فشعر بسعادة لا توصف، معنى هذا أنا إنسان مهم، لكن إذا دخل إنسان إلى المسجد، ولم يتعرف على أحد، ولم يسأل عن أحد، إن غاب لا يشعر به أحد، فأنا أتمنى وأنت في المسجد أن تتعرف على أخوة لك من سنك، من حرفتك أحياناً، من جيرانك، هناك علاقات حرفة، علاقات جيرة،علاقات أخوة في الله، سن متقاربة، حرفة متقاربة، سكن متقارب، فلابد من أن تتعرف إلى أخوتك الكرام، هذه المعرفة حضّ عليها النبي عليه الصلاة والسلام.

أيها الأخوة، مرة ثانية وثالثة: سيدنا سعد بن أبي وقاص يقول: "ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس ـ من هؤلاء الثلاثة ـ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من عند الله تعالى".

اسمعوا هذا الحديث:

((ما اجتمع قوم))

وأنتم قوم،

((في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله))

ونحن نتلو كتاب الله،

((ويتدارسونه بينهم، ويذكرون الله تعالى، إلا تنزَّلت عليهم السَّكينةُ وغشيتهم الرحمةُ، وحفَّتْهم الملائكةُ، وذكرهم الله فيمن عندَه))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن معاوية بن أبي سفيان]

مرة ثانية:

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم ويذكرون الله تعالى ، إلا تنزَّلت عليهم السَّكينةُ ، وغشيتهم الرحمةُ ، وحفَّتْهم الملائكةُ وذكرهم الله فيمن عندَه))

آداب المساجد :

1 ـ محبة المساجد وتقديرها والنظر إليه بعين التكريم والتعظيم

من آداب المساجد، قال: محبة المساجد، وتقديرها، والنظر إليه من عين التكريم، والتعظيم، والتقديس، والاحترام، المسجد له مكانه كبيرة عندك، شيء عظيم، بيت الله، لذلك قال الله تعالى:

(فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج الآية: 32]

أول أدب من آداب المسجد، المسجد له مكانة كبيرة عندك، مثلاً أنت قد تدخل إلى سوق، لكن دخلت إلى جامعة، كلمة جامعة، أي هناك علم، و أساتذة علماء، و تدريس، و اختصاصات مهمة جداً، كلمة جامعة غير سوق، من علامات إيمانك أنك تنظر إلى بيوت الله نظرة إكبار، وتعظيم، ومحبة، وتقدير، وتكريم، وتقديس، واحترام، هذا أول أدب من آداب المساجد، ينطلق من قوله تعالى:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج الآية:32]

2 ـالعناية ببناء المساجد :

الأدب الثاني:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

[سورة النور الآية:36]

ما قال أن تبنى، لذلك العناية ببناء المساجد هذا نصه، هذا دليله،

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

أي العناية بالمسجد، بالتدفئة شتاءً، بالتكييف صيفاً، بالماء البارد، بالسجاد، بالنظافة، بالومضات الجمالية، هناك مسحة جمالية في المسجد، هذا بيت الله.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

[سورة النور الآية: 36]

ترفع لأن اسم الله يذكر فيها، نذكركم بالآية الأولى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)

(يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ)

[سورة النور]

كلمة رجال تعني أبطالاً:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

[سورة النور الآية: 37]

المسجد بيت كل تقي :

لذلك:

((المسجد بيت كل تقي تكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح، والرحمة، والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة))

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

لذلك من أبرز آداب المساجد فضلاً عن محبتها، وتعظيمها، وتكريمها، أن تسعى إلى إشادتها، والقيام بنشاطاتها، والقيام بما تستطيع من جهد لبنائها، وتأمين حاجاتها الأساسية، ومرافقها، وأثاثها، وتشجيع الناس على التبرع لاستكمالها، وتجهيزها بما يليق بمكانتها، وابتغاء وجه الله عز وجل في كل ذلك، لذلك.

((من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة ـ طائر ـ بنى الله له بيتاً في الجنة))

[أخرجه ابن ماجه وابن خزيمة عن جابر بن عبد الله]

والله أنا أغبط كل إنسان ساهم في بناء مسجد، ساهم في تأسيس مسجد، ساهم في تأمين حاجات أساسية للمسجد، حتى إن النبي الكريم يقول:

((المسجد بيت كل تقي تكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله))

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

والحديث المتعلق بهذه الفقرة:

((من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة))

[أخرجه ابن ماجه وابن خزيمة عن جابر بن عبد الله]

قال:

((من أسرج في مسجد سراجاً ـ وضع مصباحاً ـ لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه))

العمل على إضاءة المساجد ورد فيه حديث شريف.

3 ـ محافظة الإنسان على الصلاة في المسجد ولو كان بعيداً عن منزله :

الآن: المحافظة على الصلاة في المسجد ولو كان بعيداً عن منزلك، والمشي إليها ولو تحملت في سبيل ذلك الحر، والبرد، وظلمة الليل، ومشقة الطريق.

أخواننا الكرام:

((كان رجل من الأنصار لا أعلم أحد أبعد من المسجد منه))

هذا النص لإخوتنا الكرام للذين لهم بيوت بعيدة عن المسجد.

((كان رجل من الأنصار لا أعلم أحد أبعد من المسجد منه، وكانت لا تخطئه صلاة في مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقيل له: لو اشتريت حماراً تركبه في الظلماء وفي الرمضاء، قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: قد جمع الله لك كل ذلك))

[رواه مسلم عن أبي بن كعب]

أليس هذا الحديث لأخوتنا الذين يبتعدون عن المسجد، والله مرة كنت في أمريكا هناك منطقة اسمها توليديو، فيها محاضرة، بعد أن انتهت المحاضرة، قال لي أحدهم: أنا فلان الفلاني ـ أخوه صديقي ـ: هل تعلم كم قطعت من الأميال حتى أصل إلى هذا المسجد؟ قلت له: لا أعلم، قال لي: ستمئة ميل، أي ألف

كيلومتر، ألف كيلومتر ليستمع إلى محاضرة في بيت الله، سبحان الله! تجد إنساناً بيته على بعد أمتار، ولا يرتاد المساجد، ألف كيلومتر من أجل أن يحضر هذه المحاضرة.

4 ـ التهيؤ للذهاب إلى المسجد بالطهارة وحسن الوضوء :

لذلك من متابعة آداب المسجد، التهيؤ للذهاب إلى المسجد، بالطهارة، وحسن الوضوء، والتسوك، ولبس الثياب النظيفة، وتقليم الأظافر، وترجيل الشعر، والتجمل، والتطيب، والدليل:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

[سورة الأعراف الآية:31]

وفي حديث آخر :

((مَنْ تطهَّر في بيته، ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضيَ فريضة من فرائض الله، كانت خطواتُه إحداهما تَحُطُّ خطيئة، والأخرى ترفع درجة))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

كلها أحاديث صحيحة.

5 ـ إنهاء جميع الأعمال الدنيوية عند سماع الأذان والمسارعة إلى تلبية النداء :

من آداب المسجد إنهاء جميع الأعمال الدنيوية، وإيقاف كافة الأشغال المادية، عند سماع الأذان، والمسارعة إلى تلبية النداء، والتوجه إلى المسجد مهما كانت الأعذار، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

[سورة الأنفال الآية: 24]

الشاهد إذا دعاكم، حيّ على الصلاة دعوة الله، حيّ على الفلاح دعوة الله:

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 24]

((أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجل أعمى، فقال: يا رسولَ الله، إنه ليس لي قائد يقودُني إلى المسجد، فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يُرَخِّصَ له؟ ليصلى في بيته فرَّخص له، فلما وَلَّى دعاه، فقال: هل تسمع النداء بالصلاة؟ قال: نعم، قال: فأجِبْ داعي الله))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

أي الذي أفقده الله نعمة البصر، واستأذن النبي أن يصلي في بيته لم يأذن له، فكيف الذي يتمتع بنعمة البصر؟!

6 ـ الدخول إلى المسجد مقدم الرجل اليمنى :

من آداب المسجد الدخول إلى المسجد مقدم الرجل اليمنى، قائلاً: "بسم الله، اللهم صلِّ على سيدنا محمد، اللهم افتح لي أبواب رحمتك"، أنت في بيت الله في أمس الحاجة إلى رحمة الله تتنزل عليك، تزداد إيماناً، تزداد محبةً، تزداد اتصالاً، تزداد خشوعاً، تزداد تألقاً، تزداد كرماً، اللهم افتح لي أبواب رحمتك، كما يستحب أن ينوي الاعتكاف في المسجد مادام فيه، نويت الاعتكاف في هذا المسجد مادمت فيه، والخروج قال: مقدم الرجل اليسرى، واضع حذاءه أمامه بهدوء، اللهم صلِّ على سيدنا محمد، اللهم إني أسألك من فضلك ـ بالدخول رحمتك، بالخروج من فضلك ـ عملاً صالحاً، بحسب اتصالك بالله في المسجد أنت بحاجة إلى عمل صالح، ترقى به عند الله، فعن النبي أنه قال:

((اللَّهمَّ افْتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللَّهمَّ إني أسألك من فضلك))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي حميد وأبي أسيد]

7 ـ صلاة ركعتين سنة تحية المسجد قبل الجلوس :

من آداب دخول المسجد: صلاة ركعتين سنة تحية المسجد قبل الجلوس، إذا لم يكن وقت صلاة راتبة، ومن لم يتمكن من الصلاة لحدث، أو شغل، فليقل: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثلاث مرات، هذه تجزئ عن صلاة ركعتين هما تحية المسجد، والحديث الآخر:

((إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ]

8 ـ خلع الحذاء وإزالة ما علق به من أوساخ خارج المسجد :

الآن من آداب المسجد خلع الحذاء، وإزالة ما علق به من أوساخ خارج المسجد، وإطباقه ووضعه في أقرب مكان مخصص، والحذر من رفعه فوق الرؤوس، أو تلويث المسجد به، ثم إطباق باب المسجد بهدوء عند الدخول.

9 ـ الانتباه إلى طهارة الجوارب ونظافتها :

الآن الانتباه إلى طهارة الجوارب ونظافتها، قبل المشي بها على سجاد المسجد.

مرة قال لي إنسان: أنا أتأثر بخطبتك، ولكني صليت وراء إنسان لم يغسل جواربه من أشهر، فكرهت هذا الوضع كراهية لا حدود له، الإنسان المؤمن يغسل ثيابه، يغسل جواربه، يغتسل، ستنظف، هذا بيت الله هذا.

10 ـ تجنب أكل الثوم والبصل وما له رائحة كريهة :

من آداب المسجد تجنب أكل الثوم والبصل، وما له رائحة كريهة، لقول النبي الكريم:

((من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا))

[متفق عليه عن جابر]

في أعلى درجات الصحة، حديث آخر:

((من أكل الثوم والبصل فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم))

[مسلم عن جابر]

11 ـ تجنب تلويث المسجد بشيء من القاذورات أو النجاسات :

ومن آداب المسجد تجنب تلويث المسجد بشيء من القاذورات، أو النجاسات، كالمرور بأرجل عليها نجاسة، أو تلويثه بالقليل من الدم، كما يحرم التبول في المسجد ولو كان في وعاءٍ، ويحرم الاستنجاء فيه، هذا كله من قول النبي الكريم:

((إنَّ هذه المساجدَ لا تصلحُ لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لِذِكْر الله، والصلاةِ، وقراءةِ القرآن))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أنس بن مالك]

أيضاً البصاق خطيئة كفارتها دفنها، إنسان يبصق في الجد أو في صحن المسجد، هذا الشيء يتنافى مع الآداب الإسلامية.

12 ـ تجنب اللهو واللعب والجري واللغو والثرثرة ورفع الأصوات :

تجنب اللهو، واللعب، والجري، واللغو، والثرثرة، ورفع الأصوات، ولو بقراءة القرآن، على وجهٍ يشوش على المصلين، أو للذاكرين، أو المتدارسين للعلم: فعن السائب بن يزيد رضي الله عنه أنه قال:

((كنتُ قائما في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئتُه بهما، فقال: مَنْ أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا : من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم))

[رواه البخاري عن السائب بن يزيد]

و الحديث الآخر:

((اعْتَكَفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرون بالقراءةِ، فكشَفَ السِّتْرَ، وقال: ألا إنَّ كُلَّكُمْ يُناجِي رَبَّهُ، فلا يُؤذِيَنَّ بعضُكم بعضا، ولا يَرفَعْ بعضُكم على بعض في القراءةِ))

[أخرجه أبو داود عن أبي سعيد الخدري]

رفع الصوت بالقراءة يؤذي بقية المصلين، مثلاً يكون هناك درس علم بالمسجد، بدأ الدرس، يأتي أخ لم يصلِّ المغرب بعد، يصلي أمام عدد من الأخوة بأعلى صوته، فهو بهذا الصوت المرتفع شوش على المؤمنين درسهم، الإنسان يحتاج إلى ذوق.

13 ـ تجنب الخصومات والاشتغال بأمور الدنيا :

من آداب المسجد تجنب الخصومات والاشتغال بأمور الدنيا، والبيع والشراء، والبحث عن ضائع، وإنشاد الشعر، أو هجاء مسلم، أو غزل، أو ما شاكل ذلك.

((نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشراء والبيع في المسجد، وأن تُنشَد فيه ضالة، وأن يُنشَد فيه شِعْر))

[أبو داود و الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

((إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أرَبحَ الله تجارتك، وإذا رأيتم من يَنْشُد ضالَّة في المسجد فقولوا: لا ردَّ الله عليك ضالتك))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

وقال سعيد بن المسيب: "من جلس في مسجد فإنما يجالس ربه فحقه ألا يقول إلا خيراً "

14 ـ تجنب الاحتباء وتشبيك الأصابع :

تجنب الاحتباء، وتشبيك الأصابع، وفرقعتها والعبث فيها في المسجد أثناء انتظار الصلاة:

((إذا كان أحدكم في المسجد فلا يشبكن أصابعه فإن التشبيك من الشيطان ، وإن أحدكم لا يزال في صلاة ما كان في المسجد حتى يخرج منه))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري]

15 ـ تجنب الخروج من المسجد بعد الأذان إلا لعذر حتى يصلي المكتوبات :

تجنب الخروج من المسجد بعد الأذان إلا لعذر حتى يصلي المكتوبات، ما العذر؟ إمام بجامع ثان حضر الدرس، أذن العشاء، هو إمام بجامع آخر، هذا العذر مقبول، أما أن تخرج من المسجد وقد أذن المؤذن دون أن تصلي، هذا فيه نهي من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

16 ـ تجنب تناول الأطعمة في المسجد وتجنب الوقوع في المحرمات :

تجنب تناول الأطعمة في المسجد، وجعل المساجد أمكنه للراحة، والقيلولة، والسمر، وتجنب الوقوع في المحرمات، كالغيبة، والنميمة، والكذب، وما إلى ذلك.

17 ـ ألا يكون المسجد طريقاً للمرور :

ألا يكون المسجد طريقاً للمرور، الآن في الأموي هناك باب للحميدية، وباب لطرف آخر، أناس كثيرون يمكن أن يدوروا حول المسجد بزيادة بسيطة، أما أن يعمل المسجد كممر فهذا أيضاً منهي عنه، القيام بصيانة المسجد، والحفاظ على نظافته، ،أناقته، وأثاثه، وأمتعته، وكتبه، ومصاحفه، فعن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((عُرِضَتْ عليَّ أُجُورُ أُمَّتي، حتى القَذَاةَ ـ قشة صغيرة ـ يُخرجُها الرجل من المسجد))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك]

قشة حملتها وضعتها بجيبك عمل صالح.

18 ـ صيانة المسجد من الأطفال :

صيانة المسجد من الأطفال، أنا أتمنى أن يكون الأطفال في المسجد لكن مع أبيهم، أما دخل و تركهم بالخارج، لا، يجب أن يكون ابنك معك، نحن نحب ونتمنى أن ينشأ الطفل في المساجد، لكن يجب أن ينضبط وإلا فهناك مشكلة.

19 ـ ابتعاد المرأة عن التزين و التبرج عند الدخول للمسجد :

ممنوع على المرأة التي حضرت إلى المسجد التزين والتبرج، هذا شيء نهى النبي عنه بالنسبة إلى النساء، فقال:

((إذا شَهدَتْ إحداكُنَّ المسجد فلا تَمسَّ طِيباً))

[أخرجه مسلم والنسائي ومالك عن زينب الثقفية]

لأن له رائحة.

((قالتْ عائشة: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ إذْ دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مِنْ مُزَيْنَةَ تَرْفُلُ فِي زِينَةٍ لَهَا فِي الْمَسْجِدِ، فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْهَوْا نِسَاءَكُمْ عَنْ لُبْسِ الزِّينَةِ وَالتَّبَخْتُرِ فِي الْمَسْجِدِ فإنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى لَبِسَ نِسَاؤُهُمْ الزِّينَةَ وَتَبَخْتَرْنَ فِي الْمَسَاجِدِ))

[أخرجه بن ماجه عن عائشة أم المؤمنين]

أيها الأخوة الكرام، هذه بعض الآداب في المساجد ونحن في قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (18-70):تفسير الآيات 19-22 - أجر العمل بقيمته لا بحجمه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-07-23

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان أعلى شهادة يحملها الإنسان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية التاسعة عشرة وما بعدها وهي قوله تعالى:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أيها الأخوة الكرام، سيدنا العباس عم رسول الله، قبل أن يسلم قال: نحن نسقي الحجيج، ونرعى البيت، ونفك العاني، ونقوم بعمارة البيت، كأنه يريد أن يقول: هذا يكفي، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينفي هذه المقابلة بين خدمة البيت وبين الإيمان بالله.

للتقريب: إنسان نال دكتوراه، والثاني طبع الكتب، الذي طبع الكتب عمله جيد لكن هذه الطباعة لا ترقى بالطابع إلى مستوى الدكتوراه.

الإيمان أعلى شهادة يحملها الإنسان، الإيمان مرتبة أخلاقية، والإيمان مرتبة علمية، والإيمان مرتبة جمالية، أي أذواق المؤمن أذواق عليا، سعادته في الاتصال بالله، أهدافه نبيلة، منطلقاته سليمة، مبادئه واضحة، قيمه سامية، الإيمان شيء مهم جداً، الإيمان مرتبة علمية عالية، لكن من يعمل في طبع الكتب، وتأمين مستلزمات الجامعة، وتأمين القرطاسية، وضبط الدوام، هذه الأعمال لا بدّ منها، لكن هذا العمل لا ترقى إلى مستوى أن تكون عالماً.

فلذلك هؤلاء العرب الذين كانوا على إدارة بيت الله الحرام، معهم مفاتيح هذا البيت، هؤلاء يرون قبل أن يؤمنوا أن هذه الأعمال تكفي، أن هذه الأعمال تقوم مقام الإيمان، طبعاً هذه آية تغطي حالة مستمرة، والآن مع أن الأغنياء والله مشهورون أحياناً، أنت عمرت جامعاً، ممتاز، جزاك الله خيراً، بارك الله بك، ونفع بك، وكثّر من أمثالك، لا يكفي أن تعمر جامعاً و لست مستقيماً على أمر الله، ولا يكفي أن تعمر جامعاً ولم تطلب العلم، هذا العمل عند الله محفوظ، تكافأ عليه أضعافاً مضاعفة، لكن يجب أن تجمع بين عمارة المسجد وبين معرفة الله.

مرة ثالثة: هناك أعمال متعلقة بالكتب، وطباعة الكتب، وتأمين المواد الأولية للطلاب، والقرطاسية، وضبط الدوام، كله جيد، لكن هذه الأعمال لا ترقى أن تكون طالباً جامعياً، تنتقل من شهادة إلى شهادة، ومن مرتبة إلى مرتبة، حتى تصبح عالماً كبيراً، هذه شيء وهذا شيء، الخدمات لا بدّ منها، لكن يجب أن تجمع بين هذه الخدمات وبين طلب العلم، هي أمثلة من حياتنا اليومية للتقريب.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

لذلك قال تعالى حينما قال بعضهم قبل أن يسلم: نحن نسقي الحجيج، ونرعى البيت ونفك العاني، ونقوم بعمارة البيت، انتهى، لكن الله سبحانه وتعالى نفى نفياً قاطعاً أن تكون هذه الأعمال ـ وهي محمودة، ومن يفعلها يؤجر عليها ـ توازي أن تكون مع رسول الله، أن تؤمن به، أن تدافع عنه، أن تنشر هذا الدين، على كلٍّ:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: 132]

أقول لكم: الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، لكن يمكن أن تقوم بخدمة مسجد ليس غير، لكن ينبغي أن تكون طالب علم فيه، ما أروع أن تكون طالب علم ترقى بعلمك من مقام إلى مقام، ومن حال إلى حال، ومع ذلك لك أعمال صالحة كثيرة منها رعاية المسجد، أما أن تكتفي برعاية المسجد عن طلب العلم، وعن معرفة الله، فهذا ما أراده الله لإنسان يبتغي رضوانه:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أحياناً طلب العلم يحتاج إلى جهد، وإلى وقت، وإلى متابعة، وإلى تطبيق، وإلى مجاهدة النفس والهوى، ولكن أهون بكثير أن تدفع مئة مليون وأنت تملك ألف مليون لعمارة مسجد، أنشأ هذا المسجد المحسن الكبير فلان الفلاني، شيء سهل، أي الغني الذي معه آلاف الملايين فرضاً، إن دفع عشرة ملايين لمسجد فهذا عمل رائع لكن لا يوازي أن تكون طالب علم، أن تكون مؤمناً إيماناً يرقى بك إلى أعلى عليين، لا توازن بين هذا وتلك، أقول لكم: اجمع بينهما، لا بدّ من أن تصل إلى الله، لا بدّ من أن تستقيم على أمره، لا بدّ من أن تتقرب إليه، لا بدّ من أن تحبه، لا بدّ من أن تجعل من عملك وسيلة إلى القرب إلى الله عز وجل، إضافة إلى هذا الطلب، وإلى هذا المسعى، وإلى هذا الطموح، لا مانع أن تجعل بعض أعمالك الصالحة خدمة المساجد، لا أن تكتفي بالخدمة.

على الإنسان أن يجمع بين طلب العلم والتقرب إلى الله وخدمة المساجد :

أخواننا الكرام، الذين يقدمون لهذا المسجد شيئاً كثيراً من وقتهم، ومن خدماتهم، هم طلاب علم فيه، يجمعون بين طلب العلم وبين التقرب إلى الله وبين خدمة هذا المسجد.

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ)

عمل عظيم،

(وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

أي أهون بمليون مرة، وأنا أقول لكم كلاماً دقيقاً، أن تدفع مئة مليون عن أن تنضبط بمنهج الله مئة في المئة، هذه تحتاج إلى إرادة قوية، وإلى إصرار على طلب مرضاة الله، تحتاج إلى جهد كبير، هناك منازعة، وأهواء، أما إنفاق المال بعيداً عن الاستقامة فقضية ليست صعبة، ولاسيما إذا كان المبلغ المنفق لا يساوي واحد بالمليون من ثروتك، تبرع لهذا المشروع المحسن الكبير فلان الفلاني، شيء جميل جداً، لكن هذا التبرع واحد بالألف من ثروته، يا ترى هو سلك طريق الإيمان؟.

مرة ثانية وثالثة: طالب دخل الجامعة، عنده مواد كثيرة، ويلتقي مع كبار المدرسين، ويبحث عن الحقيقة، ويرقى مع كل مادة، يرقى في كل عام، من السنة الأولى إلى السنة الثانية، إلى السنة الثالثة، إلى السنة الرابعة فالسنة الخامسة، ثم ينال الإجازة، ثم الدبلوم العام، والدبلوم الخاص، ثم الماجستير، ثم يؤلف الكتب، هذا إنسان غير إنسان مكلف بطبع الكتب للجامعة، هذا عمل إداري، عمل خدمي، له أجر، وعند الله مقبول، لكن لا توازن بين هذا وذاك، هناك مسافة كبيرة جداً،

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

الكلمات التي كثر استعمالها فقدت مدلولها :

لكن أخوتنا الكرام، أريد أن أقول لكم كلمة: في اللغة قاعدة وهي أن الكلمة إذا كثر استعمالها فقدت مدلولها، مثلاً كلمة قتله، أي ضربه، معنى قتله يعني سفك دمه في اللغة، من كثرة استعمال هذه الكلمة فقدت مدلولها، فلان قتله، أي ضربه الآن، الأستاذ قتلني، أي ضربني وليس ذبحني، هناك فرق، معناها ذبحه، لكن من كثرة استخدام هذه الكلمة فقدت معناها، أحياناً تسأل إنساناً ملحداً: كيف الصحة؟ يقول لك: الحمد لله، تحمد من؟ أنت تنكر وجودة أصلاً، كلمة الحمد لله ليس لها معنى الآن، يقولها ملحد أحياناً، فلذلك الكلمات التي كثر استعمالها فقدت مدلولها.

على المؤمن أن يوازن بين طاعة الله وبين طاعة هوى نفسه :

من هنا أقول:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

كل إنسان يدعي أنه مؤمن، ولا تجد في سلوكه ما يؤكد ذلك، عفواً لو سألت مليار مسلم، أنا سأقول هم مليار وخمسمئة مليون، أنا أتصور أن الخمسمائة مليون شردوا عن الله دعهم، المليار مسلم لو سألته هل أنت مؤمن باليوم الآخر؟ لا أعتقد هناك إنسان يقول: لا، لو دققت في أعمال الناس، هذا الذي يغتصب بيتاً، أو يغتصب شركة، أو يغش المسلمين، بماذا يؤمن؟ لا تبتعد كثيراً، نحن في رمضان الذي يضيف مادة مسرطنة لإنتاجه الغذائي ، لكنها ترفع السعر، هذا من أجل ربح محدود ضحى بصحة المسلمين، ما الذي رأى؟ هذا رأى أن هذا المال أكبر عنده من الله، وفي العيد نقول: الله أكبر، من أطاع زوجته وعصى ربه، فهو ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، ماذا رأى؟ رأى أن طاعة زوجته أكبر عنده من طاعة الله، الذي يغش المسلمين بمادة غذائية، يضيف مادة تضر بالصحة لكنها تبيض هذا الإنتاج، فإذا ازداد بياضه ارتفع ثمنه، هذا جاء العيد قال: الله أكبر مع المصلين، أقسم لكم بالله ولا أبالغ: لو قال مليون مرة هو في الحقيقة ما قالها ولا مرة، لأنه رأى أن هذا المبلغ الذي سيحصّله من غشه لهذه المادة أكبر عنده من الله.

القضية مع الإيمان دقيقة جداً، لا تكن بسيطاً، تتعامل مع خالق الأكوان، تتعامل مع الله من أجل جنة عرضها السموات والأرض، أيعقل أن تسمح لنفسك أن تقدم للمسلمين مادة سيئة جداً بأسعار غالية جداً؟ هذا المبلغ الذي تربحه من غشك للمسلمين هو أكبر عندك من الله؟! وأنت حينما تستجيب لزوجتك في معصية لا ترضي الله من أجل أن ترضى عنك، أنت ما قلت ولا مرة الله أكبر، لأنك رأيت أن رضاها أكبر عندك من رضاه الله عز وجل.

مرة امرأة سألت زوجها شيئاً من الدنيا، ألحت عليه فقال لها هذا الكلام: أيتها المرأة إن في الجنة من الحور العين، ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن، أهون من أن أضحي بهن من أجلك، المؤمن يوازن بين طاعة الله وبين طاعة هوى نفسه.

مرة ثانية: كلمات نقولها كل يوم، نقولها ولا معنى لقولها إطلاقاً، الله أكبر، هذا الذي يؤذي المسلمين ليربح منهم، ما الذي رآه؟ هذا المال الحرام الذي ربحه منهم بسبب إيذائهم هو أكبر عنده من الله، ما كل كلمة نقولها تنطبق علينا، فبطولتك إذا قلت الله أكبر أن يكون الله عندك أكبر من كل شيء.

عمارة المسجد عمل عظيم ولكن لا تحل محل الإيمان بالله :

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

مع أن عمارة المسجد عمل عظيم، وله عند الله ثواب كبير، إنك تعتني ببيت الله الحرام، هذا عمل كبير جداً، لكن لا يحل محل الإيمان، لا يحل محل طلب العلم، لا يحل محل أن تكون مؤمناً صادقاً، أنت تكون مؤمناً متصلاً بالله عز وجل.

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

الإنسان أحياناً يدرس دراسات جامعية عليا، من سنة أولى إلى سنة ثانية إلى ثالثة فرابعة، نال اللسانس دخل في الدراسات العليا، دبلوم عامة، دبلوم خاصة، ماجستير، دكتوراه، وإنسان عنده محل جانب الجامعة، يطبع الكتب الجامعية، عمل جيد، مهنة شريفة، ودخلها حلال، لكن لا يوازن مع إنسان يطلب العلم ليكون أحد أعمدة الأمة، هناك فرق كبير.

الذي أريد أن أقوله: لا يحل محل طلب العلم، ولا محل طلب رضوان الله ، هذا شيء آخر، الأشياء الأخرى لها أجرها عند الله أيضاً، ولها ثمنها، وصاحبها يحمد على ذلك، لكن هذه لا تحل محل هذه.

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ)

بطولة الإنسان أن يكون في خدمة الخالق حتى يحبه الخلق :

أخواننا الكرام، معنى

(آمَنَ بِاللَّهِ)

أي آمن الإيمان الذي يحمله على طاعة الله، ومعنى آمن باليوم الآخر أي آمن الإيمان الذي يمنعه أن يؤذي مخلوقاً، هؤلاء الذين يدمرون الشعوب، يقصفون، يقتلون، يبيدون، ينهبون ثروات أمة من الأمم، هؤلاء ما عرفوا الله إطلاقاً، فلذلك البطولة أن تكون في خدمة الخالق حتى يحبك الخلق، آمن بالله إيماناً منعه أن يعصيه، وآمن باليوم الآخر إيماناً منعه من أن يؤذي أحداً،

(وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

بنفسه وماله، هؤلاء الذين فعلوا هذا لا يستوون عند الله،

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أريد أن أؤكد لكم من خلال هذه الآية أنه لا شيء يغني عن طلب العلم، ولا شيء يغني عن طلب مرضاة الله، ولا شيء يغني عن طلب الجنة، طلب العلم والعمل به، وطلب الجنة، هذه تعد من سرّ وجودك، وغاية وجودك، الأعمال الأخرى جيدة، ومقبولة، ومن يفعلها له عند الله أجر كبير،

(كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

طبعاً جاهد بماله ونفسه.

من لم يستقم على أمر الله فلن يقطف من ثمار الدين شيئاً :

(لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

في الآية إشارة دقيقة، إنسان قد يأكل مالاً حراماً، فإذا أكل مالاً حراماً ظلم الناس، أي غشهم في بضاعتهم، أخذ ما ليس له، أي مال حرام مبني على ظلم، قدم شيئاً بمواصفات أقل مما ينبغي، فربح أرباحاً طائلة، فهذا ظالم، الآن هذا الإنسان الذي أعماله صالحة لا تعفيه من محاسبته على أخطائه، هذه الأعمال التي يفعلها بعض الناس وهي مشكورة ومحمودة عند الله لا تغني صاحبها عن طاعة الله، وطلب رضوانه.

(لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

الظلم ظلمات يوم القيامة، نحن على يقين أنك لو صمت شهر رمضان كله صياماً وفق ما جاء في كتب الفقه تماماً، ولك أعمال لا ترضي الله، هذا الصيام لا يقدم ولا يؤخر، العبرة أن تستقيم على أمر الله، وقبل الاستقامة لا تستطيع أن تقطف ثمار الدين إطلاقاً.

أحياناً الإنسان يتمنى أن يضغط الدين كله بكلمة، أو كتمهيد هل يمكن أن تضغط التجارة كلها بكلمة واحدة؟ ممكن، لها نشاطات لا تعد ولا تحصى، لها آلاف النشاطات، لكن يمكن أن تضغط بكلمة واحدة، إنها الربح، فإن لم تربح فلست تاجراً، كما أنه يمكن أن تضغط الدين كله بكلمة واحدة هي الاستقامة، فإن لم تستقم لن تقطف من ثمار الدين شيئاً، الدين بلا استقامة كما ترون، مليار وخمسمئة مليون مسلم ليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

اثنا عشر ألفاً لا يغلبون، والمليار والخمسمائة مليون لا ينتصرون، إن لم يستقيموا على أمر الله.

حدثني عالم جليل من علماء دمشق ـ وقد توفاه الله ورحمه ـ هو من بلد من أوربا الشرقية، من ألبانيا، قال لي: كلما أسافر إلى بلدي، أزوره في العام مرة، ألقي خطبة في العاصمة وفي أكبر مسجد، ويقول

لي: أمامي عشرة آلاف مسلم، من شدة تأثرهم بكلامي، معهم بجيوبهم زجاجات خمر، من شدة تأثرهم بخطبة هذا الخطيب يشربون الخمر في المسجد، أي تجد المسلمين اسماً فقط، لا يوجد استقامة أبداً، لا وزن لهم عند الله.

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

ائتِ باثني عشر ألف مسلم مؤمن مستقيم، هؤلاء لا يغلبون إطلاقاً.

لذلك أيها الأخوة المشكلة واضحة جداً، العدد الكبير لا قيمة له، التجمع الكبير لا قيمة له، القيمة باستقامة المسلمين.

على الإنسان أن يفتخر بمعرفة الله و القرب منه لا بأشياء لا تقدم و لا تؤخر :

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ)

قال: السقاية مكان للماء، تجمع الماء اسمه سقاية، والإناء الذي نشرب به اسمه سقاية، وعملية السقاية اسمها سقاية، فبين أن تكون السقاية ماءً أو إناءً أو عملية شرب،

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ)

وهذا العمل يقبل أو لا يقبل.

(وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ)

بناء المسجد، تأسيسه، إلقاء خطبة فيه، كله من عمارة المسجد،

(كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

أي ينبغي ألا تفتخر بعمل مادي إن لم تكن طالب علم تسعى لمرضاة الله، الأصل أن تطلب العلم، الأصل أن تؤمن الإيمان الذي يريده الله عز وجل.

العرب قبل الإسلام من بيدهم أمور بيت الله الحرام يفتخرون، هذا يفتخر معه مفتاح الكعبة، طلحة، و سيدنا العباس قبل أن يسلم كان مسؤولاً عن سقاية الحاج، سيدنا علي قال: صليت ستة أشهر ـ قبل الناس أسلم بوقت مبكر جداً ـ وأنا صاحب جهاد، فهذه المفاخرة هذا بعمارة المسجد، وهذا بسقاية الحاج، وهذا وهذا، عندما سمع العباس الآية قال: لقد رضينا بالله رباً، لا تفتخر افتخر بقربك من الله، افتخر بمعرفة الله، افتخر بطلب العلم.

بطولة الإنسان أن يعتمد مقاييس الله عز وجل :

أخواننا الكرام بالمناسبة: هناك مقاييس لله عز وجل، وهناك مقاييس للبشر، بطولتك أن تعتمد مقاييس الله عز وجل، الله ماذا قال:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية:71]

الفوز العظيم في القرآن هو طاعة الله، وطاعة رسوله، فافتخر بمقياس ذكره الله في القرآن، قال:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[سورة الزمر الآية:10]

افتخر أن تكون صابراً، أي كل آية يثني الله فيها على فئة من المؤمنين هي مقياس، لكن لا تفتخر بشيء، لا ينتمي إلى عملك، وإلى جهدك ، افتخر بوسامتك، الوسامة من الله عز وجل أكرمك بها، افتخر بشيء من كسبك، أي الله عز وجل أعطى النبي الكريم عليه أتمّ الصلاة والتسليم آلاف الخصائص، لكن حينما أثنى عليه، أثنى على خلقه العظيم، لأن خلقه العظيم من كسبه، أما الوحي من عند الله، إنزال القرآن عليه من عند الله، فكل شيء ينبغي أن تفتخر به ينبغي أن يكون من كسبك:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

[سورة التوبة]

أما إنسان يقول لك: أنا معي لسانس، ما معنى هذه الكلمة؟ أي معه ابتدائي، وإعدادي، و ثانوي، وجامعة، كلمة لسانس أي أربع شهادات، قال لك: معي دكتوراه؛ أي معه ماجستير، دبلوم عام، دبلوم خاص، وماجستير.

فكلمة مؤمن سبحان الله مرتبة علمية عالية جداً، مرتبة أخلاقية، مرتبة جمالية، لكن كل إنسان يدّعي أنه مؤمن، فهذا مصطلح غير منضبط .

كلٌ يدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

* * *

هؤلاء المؤمنين حقاً.

الإيمان مرتبة علمية وأخلاقية وجمالية :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا)

آمنوا، يقول لك: أنا مؤمن، متى طلبت الإيمان؟ كم درساً حضرت؟ أي كتاب قرأت؟ من العالم الذي تتلمذت على يده؟ هناك إنسان يقول لك: أنا معي لسانس لكن ما درست أبداً، وما دخلت جامعة لكن معي لسانس، ما هذا اللسانس؟ أقل شيء أن تنتمي إلى جامعة، لكن معك لسانس و لم تداوم بحياتك، و لم تفتح كتاباً، فهذا كلام مضحك.

فلذلك الإيمان مرتبة، مرتبة علمية، مرتبة أخلاقية، مرتبة جمالية، المؤمن له أذواق عالية جداً، المؤمن له مبادئ أخلاقية قيمة جداً، المؤمن عالم، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه، إذا قلت مؤمناً أي عنده حد أدنى من العلم، قلت مؤمناً أي عنده حد أدنى من الأخلاق، قلت مؤمناً أي عنده حد أدنى من الذوق العالي، أذواقه عالية جداً.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

الهجرة حركة ما إن يستقر الإيمان في قلب المؤمن حتى يعبر عن نفسه بحركة، إيمان سكوني لا يوجد، إيمان أساسه إعجاب سلبيي لا يوجد، المؤمن متحرك يتحرك إلى عمل صالح، إلى دعوة إلى الله، إلى طلب مرضاة الله، إلى أمر إلى المعروف، إلى نهي عن المنكر، ما لم تتحرك لتعبر بهذه الحركة عن إيمانك فلست مؤمناً.

الإيمان موقف وحركة وسلوك وعطاء :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

أي آمنت بالله، لك أصدقاء بعيدون عن الله ينبغي أن تعتزلهم، وأن يكون لك أصدقاء من نوع آخر، لك حرفة لا ترضي الله ينبغي أن تدعها، كلمة مؤمن أي هناك حركة، حركة بحرفتك، حركة ببيتك، حركة بزواجك، حركة بأولادك، ببناتك، مادام آمنت فهناك حركة، أما إيمان سلبي فلست مطبقاً شيئاً من الإيمان، أنا والله مؤمن الحمد لله، ما الذي يؤكد هذا الإيمان؟ موقف تأخذه، عطاء تعطيه، امتناع تمتنع عنه، ما لم تصل لله، وتقطع لله، وتعطي لله، وتمنع لله، وترضى لله، وتغضب لله، لست مؤمناً، الإيمان موقف، والإيمان حركة، والإيمان سلوك، والإيمان عطاء.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا)

هاجر لها معان واسعة جداً، قد تنتقل من مكان إلى مكان هذه هجرة، لكن هاجر إنسان أي تعرف إلى الله، له مجموعة أصدقاء لا يرضون الله عز وجل، يحتاج أن ينتقل من مجموعة لمجموعة، له سكن

ضمن بؤرة فساد كبير جداً، يجب أن يبحث عن منزل آخر، له حرفة سيئة جداً ابحث عن حرفة أخرى، الإيمان حركة، وما لم تتحرك حركة وفق إيمانك، لا يعد هذا الإيمان كافياً ولا مجزياً.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هناك بذل جهد، بذل عطاء، بذل انضباط، امتناع، وصل، قطع، إرضاء، غضب، هناك مواقف، ومشاعر، وحركة.

الفائز من يجاهد في سبيل الله بماله و نفسه :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

وطن نفسك، مؤمن، مستقيم، لك أعمال صالحة، تجاهد نفسك وهواك، تحب من حولك، تقدم لهم كل معونة، تمثل منهج الله عز وجل، عندئذٍ هذا الإيمان ظهر في حياتك، قال: هؤلاء الذين

(جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ)

أي أنفق ماله

(وَأَنْفُسِهِمْ)

ضبط نفسه

(أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

الفوز الحقيقي.

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ)

الرحمة عطاء، أحياناً لك ابن وأنت ميسور طلب منك حاجة، أحببت أن ترتاح منه فأعطيته إياها، أعطيته وأنت لا تحبه، لكن الكلمة الدقيقة:

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ)

يرحمهم ويرضى عنهم، قد ترحم إنساناً لا ترضى عنه، لكن يرحمهم ويرضى عنهم:

(وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآيات:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

العظيم يقول لك:

(أَجْرٌ عَظِيمٌ)

فكم هو هذا الأجر؟.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (19-70):تفسير الآيات 20-22 ، تصحيح التصور يصحح الاستقامة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-07-30

بسم الله الرحمن الرحيم

كل إنسان جُبل على حبّ وجوده وحبّ كمال وجوده وحبّ استمرار وجوده :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية العشرين وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، في القرآن الكريم مصطلحات، وتحديد معنى المصطلحات جزء من العلم، لأن هذه المصطلحات مع مضي الزمن تأخذ معانٍ واسعة جداً، هذه المعاني الواسعة تضعف حديتها، تضعف مدلولها.

فالله عز وجل يقول في نهاية الآية التي هي موضوع هذا الدرس:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

كل إنسان يحب أن يكون فائزاً، الفوز محبب، النجاح والفوز تهفو إليهم النفوس، والإنسان كما تعلمون جُبل على حبّ وجوده، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده، سلامة وجوده باتباعه تعليمات الصانع، أنت أعقد آلة في الكون، أعقد آلة، تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، لك صانع حكيم، لهذا الصانع تعليمات التشغيل والصيانة، انطلاقاً من حرصك على سلامتك، انطلاقاً من حرصك على سعادتك، انطلاقاً من حرصك على استمرار وجودك، ينبغي أن تطيع الله عز وجل، كل إنسان كائناً من كان في كل زمان ومكان، في أي قارة، في أي بلد، في أي إقليم، في أي مصر، في أي عصر، مجبول على حبّ سلامة وجوده، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده.

الجهل هو أزمة الإنسان وسبب شقائه :

لماذا الآلام والمصائب؟ هي أزمة علم فقط، الدليل أهل النار في النار:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

لا تنسوا أيها الأخوة أن الإنسان يتحرك، ما الذي يسبق حركته؟ التصور، إن صحّ تصورك استقامت حركتك، إن لم يصح تصورك انحرفت حركتك، المتحرك وفق منهج الله هو المؤمن، بالإسلام لا يوجد حرمان، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، الحرمان مستحيل، جميع الشهوات التي أودعها الله فينا لها قنوات نظيفة، والدليل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية: 50]

عند علماء الأصول المعنى المخالف المعكوس، أي الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه، اشتهى المرأة تزوج، واختارها جميلة، اشتهى المال كسبه من طريق حلال.

فلذلك المشكلة أيها الأخوة أن أزمة الإنسان وسبب شقائه هو الجهل، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به.

لذلك: إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً.

على الإنسان أن يأخذ إخبار الله وكأنه يراه :

إذاً في الإسلام مصطلحات، المؤمن مصطلح، الكافر مصطلح، المنافق، المشرك، الملحد، هذه كلها مصطلحات، أحياناً تضيع معالم هذه الكلمات، كل إنسان يدّعي أنه مؤمن، طبعاً أنت انتبه لهذه النقطة، لا يستطيع إنسان أن يتكلم كلمة بالطب إلا إذا كان مختصاً به، يستطيع فلان أن يفتح عيادة ويكتب الطبيب الفلاني وهو لا يقرأ ولا يكتب؟ ممكن؟ لا يستطيع، الحياة كلها اختصاصات، لكن سبحان الله! الشيء المؤلم وأبعد من الحدود أن كل إنسان يتكلم بالدين، هذه غير معقولة.

يقولون هذه عندنا غير جائز قال فمن أنتمُ حتى يكون لكم عندُ

* * *

من أنت؟ إله، آية قرآنية، حديث صحيح، خالق الكون أعطى هذه الأمر.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

(مَا كَانَ)

أي مستحيل وألف ألف مستحيل،

(مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

رأيي كذا، إذا قال الله شيئاً انتهى كل شيء، لذلك مثلاً:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل]

بربكم أنتم جميعاً لا أستثني واحداً منكم، هل واحد منكم رأى الحادثة؟ الله قال:

(أَلَمْ تَرَ)

والله ما رأيناها، قال علماء التفسير: يجب أن تأخذ إخبار الله وكأنك تراه، خالق الكون.

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه :

أخواننا الكرام، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، كم هي المسافة بين خالق الأكوان وبين الإنسان؟ هي نفسها بين كلام الله وكلام خلقه، إله يقول لك: افعل كذا، أو لا تفعل، لك رأي في الموضوع؟.

أحياناً الدولة القوية بأي مفاوضات تقول: هذه القضايا لا يمكن أن تخضع للمناقشة، وأنت كمؤمن، أي إذا جاء حكمٌ في القرآن أو حكمٌ في الحديث الصحيح أقول لك: عطل عقلك، هذا كلام خالق الأكوان، عقلك إذا كان كلام بشر توازن بين كلام وكلام، أما كلام خالق البشر، الآية الدقيقة:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

كلمة آمن في القرآن تعني أن الإنسان بذل جهداً كبيراً حتى آمن وتعرف إلى الله :

أخواننا الكرام، الله عز وجل يقول:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

آمن، أنت تصدق إنساناً نام، استيقظ معه دكتوراه، هذا خيال، ابتدائي ست سنوات، إعدادي ثلاث سنوات، ثانوي ثلاث سنوات، جامعة أربع سنوات، دبلوم سنة، دبلوم ثانية، ماجستير، دكتوراه، تأليف كتاب، ثلاث وثلاثون سنة دراسة، حتى وضع جانب اسمه "د"، يموت تنتهي، تريد أن تقول: أنا مؤمن ولا مرة حضرت درس علم، و لم تقرأ القرآن، ولم تقرأ تفسيره، ولم تلازم العلماء، ولم تطلب العلم، متى آمنت؟

(الَّذِينَ آمَنُوا)

آمن، فلان تاجر، اشترى محلاً، ومستودعاً، ومكتب استيراد، وعيّن موظفين، معه رأسمال، سافر للمعارض، وأخذ وكالات، وعرض البضاعة، وباع البضاعة، وجمع ثمن البضاعة، ووزع الأرباح، كلمة تاجر فيها معان كثيرة، مؤمن! ما خطر بالك أن تحضر مجلس علم؟ ما خطر بالك أن تقرأ القرآن وتفهم تفسيره؟ ما خطر بالك أن تلازم عالماً من العلماء المؤمنين الصادقين؟

(الَّذِينَ آمَنُوا)

كلمة آمنوا في القرآن تعني بذل جهداً كبيراً حتى آمن، بذل جهداً، اقتطع من وقته وقتاً ثميناً، تعرف فيه إلى الله.

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

بطولة الإنسان أن يعد لآخرته لا لدنياه :

(الَّذِينَ آمَنُوا)

آمن، لزم درس علم، التقى بعالم، قرأ القرآن، قرأ تفسيره، تابع قضايا الدين، سأل عن الحلال والحرام، قرأ سيرة النبي، تأثر بها، يقرأ كل يوم صفحات من كتاب الله، يلتزم بما أمر الله، ينتهي عما نهى الله عنه، يأتمر بما أمر، يقدم العمل الصالح، ينفق من ماله، أقام الإسلام في نفسه أولاً، وفي بيته ثانياً، وفي عمله ثالثاً، عندئذٍ نقول: أنت مؤمن

(الَّذِينَ آمَنُوا)

متى آمنت؟.

أخواننا الكرام، جنة للأبد ألا تستدعي أن تؤمن؟ عفواً نجد الإنسان يعيش كما قال النبي:

((مُعْتَرَكُ المنايا ما بين الستين إلى السبعين))

[أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة]

ستون سنة، حتى يأخذ بورد يحتاج أربعين سنة بالضبط، يقول لك: سبع سنوات بأميركا حتى أخذت البورد، وقبلها سبع سنوات إجازة بالطب، وقبلها دبلومات، وقبلها ماجستيرات، وقبلها ثانوي، وقبلها إعدادي، وقبلها ابتدائي، حتى صار معه بورد، أي الإنسان يعيش ستين أو سبعين سنة، أربعون سنة إعداد بعشر سنوات.

أيها الأخوة، حتى تؤمن للأبد من أجل عشر سنوات، عشرين سنة، تجد أكثر الناس عمرهم بين الستين و السبعين، والآن هناك جلطات يموت و هو في الثامنة و الثلاثين، فأنت ماذا تعد لما بعد الموت، هذا الأبد، معنى الأبد لا أعرف، أقسم لكم بالله: لا يستطيع إنسان أن يتصور الأبد.

مثال بسيط: واحد بالأرض وواحد على هذا الحائط، وثلاثة أصفار جنبه ألف، وثلاثة ثانية مليون، وثلاثة ثالثة ألف مليون، وثلاثة رابعة مليون مليون، كل ميلي صفر، ما هذا الرقم! على الحائط واحد لآخر الجامع، لآخر شيخ محي الدين، لآخر ركن الدين، لتدمر، للعراق، اترك الأرض، اصعد إلى السماء، واحد بالأرض و أصفار للقمر، ما هذا! واحد بالأرض و أصفار للشمس، 156مليون كيلومتر، كل ميلي صفر، هذا الرقم اجعله صورة والمخرج لا نهاية، قيمته صفر، أي رقم ينسب للانهاية قيمته صفر، الدنيا كلها صفر، عاش مئة و ثلاثين سنة، بلكيت يملك تسعين مليار دولار، صفر، لو عشت مئة و ثلاثين سنة وتملك تسعين ملياراً صفر، حديث للنبي الكريم:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يؤخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

اذهب إلى الساحل، اركب قارباً، أخرج إبرة و اغمسها في البحر، واحسب كم علق بها من الماء، والبحر المتوسط، والمحيط الهادي، والمحيط الهندي، والأطلسي، والمحيط الشمالي والجنوبي، احسب كم علق بهذه الإبرة من الماء بنسبة إلى البحار الخمس.

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يؤخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

((عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم ، وقفوا على صعيد واحد وسألوني كل واحد منكم مسألتَهُ، ما نقص ذلك في ملكي، إلا كما يأخذ المِخْيَطُ إذا غمس البحرَ ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

من رجحت عنده كفة الإيمان أصبحت قناعاته أقوى من شهواته :

أيها الأخ الكريم، أنت حينما تحضر درس علم، تتشكل عندك قناعات، درس ودرس ودرس وكل أسبوع درس، بالشهر أربعة دروس، بالفصل تحضر اثني عشر درساً، بالسنة تحضر خمسين درساً، كل درس عمل قناعة.

آتي بمثل آخر: تصور الشهوة التي أودعها الله في الإنسان، لها وزن فرضاً، وزنها طن مثلاً، الدرس جمعت فيه عشر غرامات قناعات، كم درس تحضرهم حتى تتصور الحق واضحاً؟.

(يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

[سورة هود الآية:28]

كل درس تحضره شكلت قناعات، القناعات إذا تراكمت أصبحت قوة كبيرة، هذه تقف أمام الشهوات. مرة قال لي إنسان: عندما أسمع امرأة تمشي ورائي لا يوجد قوة بالأرض تجعلني أغض بصري عنها، أي ينظر إليها، هذه شهوة مدمرة، فعندما أنت تطلب العلم، صار عندك قناعات، يقينيات، هذه تقف أمام الشهوات، المؤمن مستقيم، استقامته ليست صدفة، استقامته من قناعاته، أحياناً تختلف مع إنسان، وراءه قوة كبيرة جداً، أنت لا ترى حجمه، قد يكون حجمه صغيراً، تنظر إلى من يقف وراءه، الآن دولة ضعيفة جداً وراءها أكبر دولة بالعالم، تهدد وتتوعد تتكلم بمن يدعمها أليس كذلك؟

التفكر في خلق السموات والأرض أحد سبل معرفة الله :

أنت حينما تعرف الله لك شأن كبير عند الله، وعند الناس،

(الَّذِينَ آمَنُوا)

تفكر في خلق السموات والأرض، هذا طريق.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران]

أحد سبل معرفة الله التفكر في خلق السموات والأرض، هذا طريق، طريق آخر:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران الآية: 137]

حدثني أخ محام، قال لي: كنت أدافع عن إنسان مرتكب جريمة، طبعاً القاضي أصدر حكماً بالإعدام، وبلغته، قال لي: بلغته وما تحركت فيه شعرة، و هذا شيء نادر جداً إعدام! قال لي: حرصت حرصاً لا حدود له أن أحضر إعدامه، قبل أن يوضع الحبل في رقبته، قال هذا الكلام قال: أنا الآن سأشنق لأنني متهم بقتل إنسان، قال له: أنا ما قتلته أبداً، لكنني قتلت إنساناً من ثلاثين سنة، وذكر كيف قتله، إله عظيم.

قال لي قاض: حلف إنسان يميناً كاذباً على المصحف وهو واقف أمامي، أمسك المنصة بيده وحلف اليمين، رفع يده ليحلف اليمين، وحلف اليمين وبقي رافعاً يده، قال له القاضي: أنزل يدك، لم يرد عليه،

كان ميتاً، بعد دقيقة سقط، الله كبير، عدله عظيم، لذلك:

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

على الإنسان أن يترك البيئة التي تدعوه لمعصية الله و يهاجر منها :

(الَّذِينَ آمَنُوا)

متى آمنت؟ كم ساعة بذلت من جهد كي تعرف الله؟ كل إنسان معه لسانس، يقول لك: عندي اثنا عشر مادة، أحياناً خمس عشرة مادة، وكل مادة لها دكتور، وكل مادة لها كتاب ثمانمئة صفحة، ومئتي مرجع، وكل مادة لها فحص شفهي وكتابي، بعد أربع سنوات يعطونه إجازة في الآداب، يكتب على بطاقته لسانس في آداب اللغة العربية وعلومها، كل هذا الجهد من أجل هاتين الكلمتين، أي من أجل أن تدخل الجنة إلى أبد الآبدين ألا يستأهل ذلك أن تعرف الله.

(الَّذِينَ آمَنُوا)

آمنت أي بذلت جهداً، قرأت القرآن، قرأت تفسيره، لازمت درس علم، اتخذت مرجعاً دينياً، أسأل عن كل قضية،

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

هاجروا.

أحياناً يكون هناك بيئة سيئة جداً، كل شيء في هذه البيئة يدعوك للمعصية، يصعب أن تطيع الله في هذه البيئة، لا بدّ من الهجرة، وأحياناً والعياذ بالله في المجتمعات الغربية الزنا على قارعة الطريق، لا حياء، ولا خجل، ولا أدب، والشيء مبذول بذلاً عجيباً، في مثل هذه البيئة، هذه لا تناسبك كمؤمن، ينبغي أن تأتي لبلاد المسلمين، هناك مساجد، و دروس علم، وبيئة إسلامية، و بقية حياء، وبقية خجل،و بقية رحمة، و بقية إنصاف، هناك فرق كبير جداً.

والله مرة كنت بأستراليا، قارة بأكملها يسكنها 18 مليون، الخيرات لا يعلمها إلا الله، قال لي رئيس الجالية وهو يودعني: قل لأخوتنا في الشام إن مزابل الشام خير من جنات أستراليا، قلت له: لِمَ؟ بالشام ابنك مسلم، أما عندنا هنا احتمال أن يكون ابنك ملحداً أو له حلقة في أذنه، في اليمين لها معنى سيئاً جداً، وباليسار أسوأ، وبالاثنتين أسوأ وأسوأ، إما ملحد أو شاذ، هنا أين نحن؟ بألف نعمة، عندنا بقية حياء، بقية خجل، الأب أب، والأم أم.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

بيئة سيئة جداً، ترتكب فيها المعاصي على قارعة الطريق، جريمة الزنا ليست بشيء هناك إطلاقاً، ولا يحاسب عليها الإنسان، شيء طبيعي جداً.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

انتقل إلى حي منضبط، اعمل عملاً طاهراً، هناك أعمال منحرفة كثيرة جداً، كلمة هجرة بالمعنى الواسع، اختر عملاً يعيك على دينك، أحياناً يكون لك عمل دخله محدود لكنه عمل صالح، وهناك عمل آخر دخله كبير لكنه يعيش مع العصاة والمذنبين، هذه مشكلة.

من يتعرف إلى الله في وقت مبكر يشكل حياته وفق منهج الله :

لذلك:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

أعطيكم معنى الهجرة الواسع، قد تنتقل من حي إلى حي، من حرفة إلى حرفة، من مجموعة أصدقاء إلى مجموعة أصدقاء، مرة إنسان على خلاف المألوف أثناء درس من دروسي وقف، فاستغربت أنا، قال لي: أستاذ نسمع درسك نتأثر كثيراً، نذهب إلى البيت نرجع كما كنا، ما هذه القصة! الله ألهمني كلمة واحدة، قلت له: غيّر الطقم، معه طقم أصدقاء سيئين، يجب أن تصادق المؤمن.

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

أنت تحتاج إلى بيئة مؤمنة، صديق مؤمن، صديق نصوح، صديق محب، صديق وفي، عندما تؤمن بوقت مبكر تشكل حياتك تشكيلاً إسلامياً، تختار زوجة صالحة مؤمنة، أهلها صالحون، هذه تعينك على دينك.

فلذلك أنت حينما تتعرف إلى الله في وقت مبكر تشكل حياتك وفق منهج الله، والله الذي لا إله إلا هو لا أغبط إن أردت أن أغبط إلا شاباً نشأ في طاعة الله، سيتزوج زواجاً إسلامياً، سيختار فرعاً يعينه على أمر آخرته، سيختار حرفة تعينه على أمر دينه.

بطولة الإنسان أن تكون مقاييس الفوز عنده مطابقة لمقاييس الفوز عند الله :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

انتقل لبيئة صالحة،

(وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

بذل جهداً، طبعاً التكاليف ذات كلفة، إن عمل الجنة حزن بربوة، وإن عمل النار سهل بسهوة، المعاصي سهلة جداً، كُل من شئت، تأمل من شئت، افعل ما شئت، بلا قيد، ولا ضابط، ولا منهج، ولا مبدأ، ولا قيم، هذا الانحراف، أما المؤمن يسأل هذه حرام؟ هذه حلال؟ ما حكم هذا العمل؟.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

بحث عن بيئة صالحة تعينه على طاعة الله،

(وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

جاهد: بذل أقصى الجهد في سبيل الله مخلصاً

(بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

طبعاً الله عز وجل بدأ بالأسهل، إنفاق المال أسهل، وأحياناً يقتضي ذلك أن تبذل حياتك في سبيل الله، قال: أعظم درجة عند الله

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

أين بطولتك؟ أن تكون مقاييس الفوز عندك مطابقةً لمقاييس الفوز عند الله، الفائز عند الله آمن، وهاجر، وجاهد،

(فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

هذه مقاييس الخالق، مقاييس المخلوق أخذ أرضاً تضاعف سعرها مئتي ضعف، صارت حالته جيدة جداً، هذا مقياس عند الناس، تسلم منصباً رفيعاً هذا مقياس أيضاً، زوجته بارعة الجمال هذا مقياس آخر، دخله فلكي، هذه مقاييس البشر، أي كمال في الشكل، دخل فلكي، قوة، شبكة اتصالات، معارف، مكانة اجتماعية، وسامة، لكن هل يستطيع الواحد ـ أنا أخاطب الجميع وأنا واحد منكم ـ منا أن يستيقظ كل يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله؟ عندنا بوابة خروج، بالمطارات يوجد بوابات، كل واحد منا له بوابة خروج، حتى يغادر الدنيا، فهذا البطولة، أن تعيش المستقبل، أن تعيش هذه اللحظة، المغادرة صعبة كثير، بيت أربعمئة متر، كله رخام، ثريات، أثاث، كل ما لذّ وطاب بهذا البيت، من هذا البيت لقبر تحت الأرض، هل هناك إنسان منا جميعاً ينجو من القبر؟ أبداً كلنا، أين ذكاؤك؟ فبطولتك وحكمتك أن تعد لهذا الساعة.

والله مرة شيعت أحد أخواننا عندما فتحوا النعش، وحملوه، ووضعوه في القبر، البلاطة أقصر من الفتحة وضع الحفار كم حجرة، وأهال التراب، أنا أعتقد أنه نزل فوق المتوفى خمسة كيلو من التراب، عندك حمام، عندك أثاث فخم، وكله درجة أولى، هذا قبر.

والله توفي والد صديقي، فتحوا القبر فوجدوا مياهاً سوداء، لأن المجاري مفتوحة على القبر، سألوا ابنه، قال: ماذا نفعل؟ ضعوه، يقول لي مدير معمله: أنا شهر لم آكل ،أين وضعوا معلمي؟ في قبر فيه مياه سوداء، أين بطولتنا بهذه اللحظة؟ ماذا أعددنا لهذه اللحظة؟.

رحمة الله عز وجل مطلق عطائه :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

مخلصون

(بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

هذه مقاييس الفوز عند الله، اسأل نفسك بكل جرأة ولا تتحفظ، ولا تحابي نفسك، ما مقاييس الفوز عندك؟ هناك مقاييس كثيرة، تكون غنياً، يكون بيتك فخم جداً، عندك مركبة فارهة، عندك معارف أقوياء، طبعاً سهرات، سفر، فنادق، طعام طيب، زوجة جميلة، مكانة اجتماعية، هذه مقاييس الفوز عند الناس، لكن هل يستطيع إنسان أن يبقى من دون أن يغادر الدنيا؟

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)

[سورة المدثر الآية:9]

إذاً

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

بطولتك أن تملك مقاييس للفوز مطابقة للقرآن الكريم لا أن تملك مقاييس للفوز تخالف منهج الله عز وجل.

أحياناً يتوفى إنسان من أغنياء البلد، تذهب للتعزية تجد بيتاً واسعاً جداً، من اشترى البيت؟ المرحوم، تجد ثريات ليس معقول جمالها، من اختار الثريات؟ المرحوم، التزيينات بالبيت من صممها؟ المرحوم، من اشترى البلاط؟ المرحوم، من اشترى الأثاث؟ المرحوم، أين المرحوم؟ في القبر، هذا شيء واقعي، أما غير الواقعي إنسان اشترى بيتاً بأحد أحياء دمشق الراقية، و لم تعجبه الكسوة، كسر كل الكسوة، وكساه بأذواق مذهلة، بعدما انتهى وسكن، بعد أربعة أيام جاءه ملك الموت، البطولة أن تعد لهذه الساعة، هذه بوابة الخروج

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ)

هؤلاء الذين عرفوا الله في الدنيا،

(بِرَحْمَةٍ مِنْهُ)

مطلق عطاء الله رحمة الله عز وجل.

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف الآية:32]

الآية الدقيقة:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ)

عطاء، وترحيب، ورضوان،

(وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

مقيم إلى أبد الآبدين، لا يوجد التهاب مفاصل، ولا خثره بالدماغ، ولا جلطة بالقلب، ولا ابن عاق، ولا زوجة سيئة،

(نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

إلى أبد الآبدين،

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

هذا الذي يزهد بعطاء الله أحمقاً، يزهد بما عند الله، هذا الإله يعصى؟ ألا يخطب وده؟ ألا ترجى جنته؟ ألا تخشى ناره؟.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيعُ

لـو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحـب يطيعُ

*** * ***

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (20-70):تفسير الآية 23 ، العلاقة بينك وبين الصديق الصدوق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-08-06

بسم الله الرحمن الرحيم

مخاطبة الله عز وجل المؤمنين بفروع الدين و عامة الناس بأصول الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس العشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والعشرين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

بادئ ذي بدء: الله جلّ جلاله يخاطب عامة خلقه بأصول الدين، يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة الآية:21]

لكنه يخاطب المؤمنين الذين آمنوا به، خالقاً، ورباً، ومسيراً، آمنوا بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، آمنوا به وباليوم الآخر، هؤلاء الذين آمنوا لا يُخاطبون بأصول الدين لأنهم آمنوا بها، بينما يخاطبون بفروع الدين.

على الإنسان أن يختار صديقه الذي يعينه و يأخذ بيده :

من توجيهات القرآن الكريم للمؤمنين بموضوع خطير جداً، هذا الموضوع هو أنك شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، مع من تحب، ومع من تعاشر، ومع من تلتقي به، فلا بدّ بعد الإيمان بالله أن تصطفي إنساناً مع الناس ليكون صديقاً حميماً لك، أن تصطفيه مؤمناً، لأن المؤمن يعين أخاه المؤمن، المؤمن ينصح المؤمن، المؤمن ينبه المؤمن، المؤمن وفيّ للمؤمن، بينما غير المؤمن له موقف:

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

[سورة آل عمران الآية:120]

لا ينصحك، ينصحك لدنياك لا لدينك، يغريك بالمعاصي والآثام، صحبته شبه، لذلك لا تصدق مؤمناً التزم وله بطانة سيئة، مستحيل، لا يستطيع المؤمن أن يستقيم إلا مع بطانة صالحة، فلذلك كيف تختار مثلاً شيخك؟ ينبغي أن تختار أخوانك، أن تختارهم من المؤمنين، المؤمن ناصح، أمين، مؤمن، صادق،

المؤمن لا يقبل المعصية والإثم، فهذا يأخذ بيدك، لذلك قال بعض علماء القلوب: لا بدّ من أخ لك يرقى بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله، الإنسان له شيئان له قول وله حال، له مقال وله مقام، فالمقال وفق الشرع، لا يدعو إلى معصية، و لا يغري بمعصية، لا يتحدث حديثاً عن النساء بلا ضوابط، لا يدعو إلى مخالفة شرعية، كلامه منضبط بالكتاب والسنة، والمبادئ الأخلاقية، والقيم الراقية، فكلامه تنتفع به.

على الإنسان أن يصاحب من يدله على الله مقاله وينهض به إلى الله حاله :

لا تصاحب من لا يدلك على الله مقاله، وينهض بك إلى الله حاله، هذه الحالة تحتاج إلى شرح، أي المؤمن موصول بالله عز وجل، وإذا صادقت مؤمناً موصولاً جاءك لا من أقواله الآن من أحواله، فما دليل ذلك؟ دليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ولزارتكم في بيوتكم))

[مسلم عن حنظلة]

أي المؤمن في بيت الله له حال غير المقال، أنت أتيت إلى بيت الله، أنت ضيف الله:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

أنت في بيت الله في درس علم، هناك معلومات، آيات، أحاديث، تحليلات، أدلة واقعية علمية، فقهية، دينية، أنت تأخذ علماً، وهناك شيء آخر تحس به وقد لا تنتبه إليه، حالك مع الله بالجامع حال آخر. لذلك الصحابة شكوا إلى النبي الكريم قالوا: يا رسول الله نكون معك ونحن والجنة كهاتين، فإذا عافسنا الأهل ننسى قال:

((نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، أم أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة))

[مسلم عن حنظلة]

إذاً هذا النص الصحيح يؤكد أن للمؤمن حالاً مع الله وهو في بيت الله، هذه بركة مجلس العلم، لذلك:

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتدارسون القرآن، إلا غشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عندَه))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن معاوية بن أبي سفيان]

المقابل:

((وما أجتمع قوم في مجلس لم يذكروا الله عز وجل إلا قاموا عن جيفة حمار))

[أخرجه ابن حبان والحاكم عن أبي هريرة]

جلسة، حديث عن النساء، وعن أشكال النساء، وعن الأسعار، وحديث في أي موضوع، لا يوجد خبر سار، تنتهي الجلسة و أنت لا تستطيع أن تقف على قدميك، لذلك بذكر الصالحين تتنزل الرحمات، اجلس في مجلس، حدّث أخوانك عن مؤمن مستقيم، بطل، ينطوي على مبادئ، له مواقف رائعة، له أعمال طيبة، تجد الحاضرين انتعشوا، شعروا بقيمة الإنسان، شعروا بحلاوة الإيمان، تمنوا أن يكونوا كهؤلاء، بعد قليل حدثهم عن إنسان لئيم، تجد أن المجلس قد تعكر، لذلك بذكر الصالحين تتنزل الرحمات، بالمقابل ـ هذا المقابل سماه علماء الأصول المعنى المخالف ـ وبذكر اللؤماء تتعكر المجالس، حاول في كل لقاء مع أخوانك أن تتحدث عن مؤمن، عن صحابي، عن تابعي، عن عالم، عن إنسان معاصر لك مستقيم، هذا الحديث عن مؤمن يعاصرك يعطيك دفعاً قوياً إلى الله عز وجل.

البشر عند الله فريقان لا ثالث لهما :

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

ماذا يستنبط؟ هناك موضوع واحد في حياة المؤمن هو الحاسم في تقييم من حوله، موضوع الإيمان، لذلك هناك تقسيمات لبني البشر لا تعد ولا تحصى، يقول لك: العرق الآري، العرق السامي، العرق الأنغلو سكسوني، البيض، الملونون، الصفر، دول الشمال المتقدمة الصناعية، دول الجنوب المتخلفة، الدول المستَعمرة، المستعمِرة، النامية، المتطورة، تقسيمات لا تنتهي، والله نحن أمام آلاف التقسيمات، ما قولكم أن هؤلاء البشر هم عند الله فريقان، لا ثالث لهما، فريقٌ عرف الله فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وفريقٌ غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، ولن تجد صنفاً ثالثاً، الدليل:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

أي صدق أنه مخلوق للجنة، فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب بالجنة، صدق الدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

ولن تجد صنفاً ثالثاً، مؤمن وكافر.

العلاقة بين المؤمنين أمتن و أدوم علاقة على وجه الأرض :

إذاً بحياة المؤمن في علاقاته مع من حوله، في علاقات بعمله، هذه مشروعة، أنت مدرس بثانوية، ليكون المدير من يكون، تؤدي واجبك، وتحترمه فقط، عامل بمعمل، موظف بدائرة، علاقات العمل وفق منهج الله لا شيء عليها، أما الحديث عن العلاقات الحميمة، أي الزواج علاقة حميمة، الشراكة علاقة حميمة، أن تذهب مع إنسان في نزهة طويلة علاقة حميمة، العلاقات الحميمة ينبغي أن تكون مع المؤمنين، لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِناً، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

مجتمع المؤمنين مجتمع راق جداً، مجتمع المؤمنين مجتمع الصدق، مجتمع الأمانة، مجتمع الوفاء، مجتمع الإخلاص، مجتمع النصيحة، التناصح، مجتمع التعاون، لذلك: المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم، رب أخ لك لم تلده أمك، بل إنني أقول: ما من علاقة بين اثنين على وجه الأرض أمتنُ وأدومُ من علاقة بين مؤمنين.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية:10]

كيف أخوك من النسب؟ من أمك وأبيك؟ فينبغي أن تكون علاقتك بأخيك في الله كعلاقتك بأخيك النسبي.

قضية الإيمان هي القضية الوحيدة الحاسمة في علاقة الإنسان مع من حوله :

فلذلك

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هناك معنى ضمني، صاحبوا المؤمنين، كونوا معهم،

(لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

معنى أولياء؛ فلانٌ ولي لفلان، أي يحبه، ينصحه، يدله على الخير، يدافع عنه، يصله، يكرمه، كل هذه المعاني تتضمن معنى الولي،

(لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

لذلك قضية الإيمان هي القضية الوحيدة الحاسمة في علاقتك مع من حولك، طبعاً الكلام الدقيق لك أن تكون في معمل، في مدرسة، في وظيفة، في دائرة، علاقات العمل مشروعة ولا شيء فيها، الحديث عن العلاقات الحميمة، علاقة زواج، شراكة، نزهة مشتركة، لقاء حميم، سهرات طويلة، هذه العلاقات الحميمة ينبغي أن تكون مع المؤمنين حصراً.

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

وهناك قرابة، قرابة شديدة أب، قرابة شديدة أخ، إن كان هذا الأبُ أو الأخُ منحرفاً فاسقاً ينبغي أن تبتعد عنه، دون أن تؤذيه، دقق الآن:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ)

[سورة لقمان الآية:15]

أي الأب والأم :

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

[سورة لقمان الآية:15]

الأمر الإلهي:

(فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

[سورة لقمان الآية:15]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ)

ليس المقصود أن تكون معادياً لهم، بل أن تعاملهما بالحسنى، لكن يعطيك توجيهاً معيناً في معصية، ممنوع أن تنفذ أمراً بمعصية، لأنه:

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

[أخرجه الطبراني والإمام أحمد عن عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري]

لأنه:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

فأنت مكلف أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، لكن مع عدم الطاعة في معصية، لكن لو أمرك أبوك بطاعة أصبحت طاعته من طاعة الله.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

أي مَالَ للكفر، مال لعدم الإيمان بالله، مال لعدم الإيمان بالآخرة، مال للمعاصي والآثام، ماله من حرام، سهراته مختلطة، علاقاته ليست منضبطة، هذا الأب يُحترم كأب، الأب بديننا له مكانة، لكن لا

يطاع، بلا عنف، بلا غلظة، اعذرني يا والدي أنا أطبق منهجاً لا أستطيع أن أغيره، أي أنا لا أدعوكم إلى موقف فيه مشادة، فيه عنف، فيه فظاظة، فيه غلظة، أبداً :

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

هذا الموقف الرائع، موقف فيه معروف، فيه أدب، فيه احترام، لكن لا يوجد فيه طاعة.

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

إذاً هنا نهي واضح،

(تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ)

أولياء، يقول لك: تعلم موسيقى فرضاً، هناك حرفة دخلها كبير لكن لا ترضي الله عز وجل، هناك أشياء كثيرة يمكن أن تسبب للمسلم حرجاً مع الله عز وجل هذه:

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

أيها الأخوة، هناك نهي إلهي، من هو المؤمن؟ الذي يأتمر بما أمر الله، وينتهي عما نهى الله عنه، نهاك أن تطيع مخلوقاً في معصية الخالق، ولاسيما لو كان أبوك، لو كان هذا الذي نهاك الله عنه أباك ينبغي ألا تطعه في معصية الله.

لكن مرة ثانية وثالثة أقول هذا الكلام لأنني أعلم أن هناك شباباً عندهم غلظة في علاقاتهم بأوليائهم، والدليل هذه الآية:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

المؤمن يحب بعقله ويكره بعقله فإن تحرك مع أحاسيسه هبط مستواه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا)

هناك ملمح دقيق بكلمة استحبَ، الحب مرتبط بالفطرة والعقل، كل شيء يقبله العقل تحبه، وكل شيء تقبله الفطرة تحبه، لكن أحياناً تنشأ محبة غير صحيحة، محبة نفسية غير عقلية، أنا مضطر أن أبين أن الحب قد يكون عقلياً، وقد يكون نفسياً، لو أن طبيب القلب منعك من أن تأكل الملح، والطعام بلا ملح ليس له مذاق طيب، أنت تحب الطعام بلا ملح لا بأحاسيسك، تحبه بعقلك، لأن عقلك يقول لك: لو تجنبت الملح لنجوت من هذا المرض، هناك أشياء محببة ترفضها، تحب رفضها بعقلك، نسمي هذه الكراهية كراهية عقلية فقط، لكنك تحبها، وقس على ذلك كل شيء، المؤمن يحب ويكره بعقله لا بأحاسيسه، أي امرأة حسناء تبرز كل مفاتنها بالطريق، لو ملأت عينيك من محاسنها شيء طبيعي بالإنسان أن الله عز وجل أودع فيه حب المرأة، أما حينما يبغض إطلاق البصر إليها هذا البغض

شعوري أم عقلي؟ عقلي، المؤمن يحب بعقله، ويكره بعقله.

مبلغ فلكي، لكنه من حرام، تبغضه، ترفضه، أي أنت وازن نفسك، حينما تتحرك مع الأحاسيس هبط المستوى، حينما تتحرك مع العقل ارتخى المستوى، لذلك ورد في بعض الأقوال لسيدنا علي:

"أن ركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان".

البطل هو الإنسان الذي ينتصر بمبادئه على حاجاته :

أنت من الأساس عندك قبضة من تراب الأرض، ونفحة من روح الله، عندك جزء علوي وجزء سفلي، وأحياناً تكون في صراع بين الدوافع الأرضية والدوافع السماوية، بين المبادئ واللذائذ، بين الحاجات والقيم، هذا الصراع لا ينجو منه إنسان، والدليل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات]

شيء طبيعي جداً أن هناك تناقضاً بين الحاجات وبين القيم، أنت بحاجة إلى بيت وهناك طريق للمال غير مشروع ترفضه مع أنك بحاجة لهذا المبلغ، عملت موازنة فوجدت أن طاعة الله أولى، فأنا أقول لك: لا يوجد مؤمن على وجه الأرض إلا ويعيش صراعاً بين ما يحتاج وبين مبادئه، من هو البطل؟ الذي ينتصر بمبادئه على حاجاته، لكن هناك تطمين إلهي:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

والله أقول لكم: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، تترك شيئاً لله خوفاً منه، خوفاً من غضبه، خوفاً من معصيته، ولا توفق إلا إلى ما هو خيرٌ منه أبداً.

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

النهي عن مصاحبة غير المؤمنين :

لذلك الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

أي أحب ألا يصلي، الإيمان أن تصلي، أحب أن يطلق نظره في محاسن النساء، الإيمان أن تغض البصر، أحب ألا يؤدي الزكاة، أن يستمتع بهذا المال، فكلما استحب الإنسان المعصية على الطاعة،

الكفر على الإيمان، يعمل عملاً سيئاً، هذا الإنسان ابتعد عن الدين، وقد لا يكون كافراً بالكفر الكبير، هناك كفر يخرجك من الملة أصلاً، وهناك كفر دون كفر، فإذا الإنسان لم يؤدَ زكاة ماله كَفر كُفراً جزئياً، كفر بهذه الفرضية، إذا ما غض بصره كفر بهذه الفرضية:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور الآية:30]

إذاً المؤمن يستقيم، غير المؤمن يتفلت،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ)

معنى ولي: ترجع إليه، تستشيره، تأخذ بنصيحته، تلجأ إليه، تريد أن تكون مثله، تأتمر بأمره، هذا الولي، هذا الذي ابتعد عن الله ينبغي أن تبتعد عنه، والدليل:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ)

[سورة الكهف الآية: 28]

معنى أغفلنا أي وجدناه غافلاً، معنى أغفل في اللغة لا تعني أن الله خلق الغفلة فيه تعني أن الله وجده غافلاً.

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية:28]

فأنت منهي عن أن تصاحب من لم يكن مؤمناً،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ)

في الفقه عندنا عبارة مشهورة، اسمها من باب أولى، إذا أنت منهي عن أن تتخذ أباك وأخاك وليين إن أحبا الكفر على الإيمان، فما قولك بغير أبيك وأخيك؟ من باب أولى، الأب الذي أنجبك، الأخ الذي ولد معك، ينبغي ألا تتخذه ولياً إذا أحب الكفر على الإيمان، فكيف موقفك من غير الأب والابن، من غير الأب والأخ، من باب أولى طبعاً.

الإيمان هو الذي يحدد علاقة الإنسان بمن حوله :

ملخص هذا اللقاء الطيب أن الإيمان هو الذي يحدد علاقتك بمن حولك، لكن لو أن الله نهاك عن أن تتخذ إنساناً كافراً ولياً، لا يعني أن تعاديه، لا يعني أن تسبه، لا يعني أن تشتمه إطلاقاً، ابتعد عنه، إذا كان هناك علاقة عمل أدِّ الذي عليك واطلب من الله الذي لك، أنا لا أنهى عن علاقات العمل، الحياة تقوم على عمل، والعمل في أطياف بالمجتمع، فأنت علاقتك الحميمة يجب أن تكون مع المؤمنين، الحميمة أي زواج، شراكة، نزهة طويلة، العلاقات الحميمة ينبغي أن تكون مع المؤمنين، لأن المؤمن

ناصح، المؤمن صادق، المؤمن أمين، المؤمن واعي، المؤمن لا يسمح لك أن تقذف معصية وهو معك، حارس أمين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

لأنفسهم، ظلم نفسه، ضيع الآخرة، غرق في الدنيا ونسي الآخرة، أي خسارة كبيرة جداً، والدليل:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الزمر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (21-70):شرح الآية 24 ، الطريق إلى الله ليس سالكاً حينما تُؤثر كل شيء على رضا الله تعالى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-09-24

بسم الله الرحمن الرحيم

من آثر الدنيا على الآخرة فالطريق إلى الله عز وجل ليس سالكاً :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

صدقوا ولا أبالغ أن هذه الآية من الآيات الحاسمة، من الآيات المفصلية، من الآيات الخطيرة، لأنك حينما تؤثر جانباً من هؤلاء، علاقات القربى والنسب، علاقات المال والثروات، علاقات المتعة والسرور، إن آثرت واحدة من هذه على طاعة الله و رسوله، فاعلم يقيناً أن الطريق إلى الله ليس سالكاً، الطريق مسدود.

من آثر طاعة والده الغارق في المعاصي على طاعة الله خسر الدنيا والآخرة :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

أي الحياة متنوعة، أحياناً يكون الأب قوياً جداً، وغنياً جداً، ويمكن أنه إذا رضي عن ابنه أن يعطيه من الخير ما لا يوصف، مركبة، وبيت، وزواج، ودخل كبير، لكن هذا الأب افتراضاً على سبيل الافتراض ليس على الحق، وأن هذا الابن إذا رفض أمراً للأب يغضب الله، يفقد كل شيء، فالله عز وجل يقول:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

أي الأب القوي الغني الذي بتصور الابن يمكن أن يعطيه من الدنيا ما يشاء، لكن هذا الأب افتراضاً ليس على الحق، ليس على منهج الله، لا يأمر بأمر يرضي الله، فحينما يعارض هذا الأب يخسر كل شيء، هذه الآية حاسمة، والله ما من آية كهذه الآية تعد فاصلة بين الإيمان وبين البعد عن الإيمان.

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

المقصود هنا الأب القوي الغني، الذي يمكن أن يغرق ابنه بالدنيا بما يحتاج، ما كل أب قوي وغني، لكن هناك آباء يهيئ لابنه مركبة، وبيتاً بأرقى أحياء المدينة، وإنفاقاً كبيراً، لكن هذا الأب غارق في معاصي الله، ولا يرضى عن ابنه، إلا إذا وافقه على عمله، أن تعارض هذا الأب خسرت كل شيء، فإذا كنت مؤمناً تؤثر طاعة الله على كل شيء.

الابتلاء قدر كل إنسان :

سُئل الإمام الشافعي: ندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى. وطن نفسك مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تدخل الجنة من دون ابتلاء، لقوله تعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

الابتلاء قدرنا:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران: 142]

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

دخول الجنة لا يكون إلا بعد أن يظهر كل إنسان على حقيقته :

أخواننا الكرام، اعتقد يقيناً أن الابتلاء والامتحان قدرنا، وأنه لا سبيل إلى دخول الجنة إلا بعد التمحيص، والتدقيق، ولا بد من أن تظهر على حقيقتك، والله خبير بالنفوس، الله عز وجل هو الخبير الذي يضعك في ظرف لا بدّ من أن تعبر في هذا الظرف عن حقيقتك، فإما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفذ عذابها:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

الأب القوي، الغني، غير المنضبط بمنهج الله، هذا إذا غضب حرمك كل شيء، وإذا رضي عليك أعطاك كل شيء، المقصود بهذا الأب الأب الذي إن عارضته فقدت كل شيء:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

مكانة الأب الكبيرة جداً في المجتمع الإسلامي :

الآن الابن، يمكن أن يكون الأب إنساناً عادياً أما الابن فإن حقق نجاحات في الدنيا كبيرة، هذه النجاحات لا كما يرضى الله عنها، فإذا عارضه الأب أيضاً فقد كل شيء، أنت لاحظ يقول الشاب المتزوج أحياناً: أنا عندي أولاد ثلاث، الله عز وجل قال:

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا)

[سورة الإسراء: 23]

أين تسكن يا أخي؟ عند ابني، عندما يكبر تتقدم به السن، يعجز، أنا عند ابني، أما أين تعيش؟ عند أبي، كنت عند أبيك فصار أبوك عندك، هذه الحياة أمامكم، الإنسان في بداياته قوي، أولاده عنده، عندما كبر أصبح أبوه عنده، موضوع ليس له علاقة بالدرس لكن ساقه إلى ذاكرتي سياق الدرس، من فضل الله على المسلمين أن آباءهم المتقدمون بالسن عند أولادهم، هذه حالة صحية عالية جداً في الغرب، مأوى العجزة صدق ولا أبالغ يكون أحياناً من مستوى العشر نجوم، وأي شيء يتخيله الإنسان أمامه طبعاً مقابل أجور عالية جداً، هذا الأب حينما تتقدم به السن وأولاده ليسوا على ما ينبغي، يضعونه في مأوى العجزة، أكبر مشكلة يعاني منها القائمون على هذه المؤسسات للعجزة انتحار هؤلاء، إذا تمكن أن يجلب شفرة ينتحر بها، تمكن أن يجلب حبلاً يموت فيه، أي أداة يمكن أن تنهي حياته، أنا حدثني أخ تابع ندوة مطولة في التلفزيون الفرنسي عن هذه البيوت، بيوت العجزة، المشكلة الأولى الانتحار، لا حظ هذه المشكلة ليست موجودة عند المسلمين، الأب عند أولاده معه أحفاده، تأتيه بناته ليزوروه، الأب لا يحتاج إلى الطعام والشراب، الأب وصل إلى درجة هذه الأشياء ألفها، وعافت نفسه عنها، ما الذي بقي له فقط؟ أن يكون مع أولاده وأحفاده، نحن في العالم الإسلامي هذه ميزة كبيرة جداً، أن الأب عند أولاده، والأب مع أحفاده، والأب له مكانته الكبيرة جداً، فلذلك اشكروا الله عز وجل على هذه الآداب الإسلامية التي تقتضي أن يكون الأب مقبولاً بل مرحباً به، بل ومعتنى به، بل وإن الأبناء أحياناً يتنافسون على الأب، كل واحد يتمنى أن يكون عنده في البيت، هذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدها.

قال لي أخ عاش في فرنسا: أكبر مشكلة يعاني منها القائمون على هذه المؤسسات هي انتحار المتقدمين في السن، أما عندنا معزز مكرم، يتقرب أبناؤه إلى الله بخدمته، والعناية به، وقد يكون مشلولاً، ويتحملون خدمته القاسية سنوات طويلة، وكلهم يرى أن هذا مغنم كبير عند الله العزيز الكبير.

من كان ابنه عنده أغلى من الله عز وجل فقد عصى الله و رسوله :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ)

أحياناً الإنسان يعصي الله من أجل أبنائه، يمكن أن يأكل المال الحرام ليطعمهم ما يتمنون، ليلبسهم ما يريدون، يمكن وفي الأعم الأغلب أن يكون الأب ضعيف الإيمان، ودخله محدود، وعنده أولاد، يمد يده إلى الحرام ليغطي حاجات أولاده، دون أن ينتبه إلى أنه:

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

الابن والزوجة تطعمهم مما تأكل، وتلبسهم مما تلبس، وما كلفك الله أن تمد يدك إلى الحرام من أجلهم، أما عندما تطعمهم طعاماً أنت لا تأكله، لك لقاءاتك مع أصدقائك، ولك طعامك في المطاعم، تطعمهم أردأ الطعام، فأنت محاسب أشد الحساب، لكن ما كلفك الله أن تمد يدك إلى الحرام كي تطعمهم، وهذا شيء مستحيل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ)

أي الابن أحياناً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة المنافقون الآية : 9]

وأحياناً الابن مجبنة، مبخلة، يسبب للأب الخوف على المال على مستوى البخل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ)

من دفعت زوجها لكسب المال الحرام فقد أغضبت الله و رسوله :

الأصول والفروع، الآباء أي الأصول مهما علوا، والأبناء الفروع مهما نزلوا:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ)

الأقارب المتوازين في النسب؛ الأخ، الأخت:

(وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

من بقي؟ أصول، فروع، أخوة وأخوات، عمات وخالات، الحركة نحو الأعلى أصول، نحو الأدنى فروع، الحركة الأفقية الأعمام، والأخوال، والأخوات، والأخوة، أبناء الأخوات والأخوة، تابع لهذا القسم:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ)

هذه علاقات النسب، أما علاقات الزواج وأزواجكم، الزوجة غالية جداً.

أخواننا الكرام، أحياناً الإنسان من أجل زوجته قد يأكل المال الحرام كي يرضيها، أحد الصحابة له زوجة ضغطت عليه على أن يقدم لها شيئاً من الدنيا، فقال لها هذه الكلمة الرائعة: اعلمي أن في الجنة

من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك.

الصحابية الجليلة كانت تودع زوجها وتقول: اتق الله بنا؛ نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام، الآن الزوجة تدفع زوجها إلى كسب المال الحرام.

أسباب العنف في العالم :

لذلك قال تعالى:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

[سورة التغابن الآية:14]

قال علماء التفسير: هذه عداوة مآل، في النهاية زوجته أرضاها ودخل النار من أجلها، البطولة أن رئيساً فرنسياً ـ القصة منذ عشر سنوات ـ جمع ثلاثين عالماً من كبار علماء النفس والاجتماع، في منتجع في فرنسا، وطلب منهم إجابة عن سؤال واحد، لماذا العنف في العالم؟ نحن في الخمسينات كل أربع أو خمس سنوات يحكم إنسان بالإعدام، تزحف دمشق بأكملها، لترى إعدام إنسان بالخمسينات، الآن كل يوم يوجد مئتي قتيل، أليس كذلك؟ النفس غالية جداً ما السبب؟ هذا الرئيس الفرنسي جمع ثلاثين عالماً من كبار علماء النفس والاجتماع، في منتجع وأعطاهم ثلاثين يوماً، وطالبهم بإجابة حاسمة عن سؤال؛ لماذا العنف في العالم؟ فكان الجواب وقد تستغربون ذلك إنه مجتمع الاستهلاك، تدخل على سوق فيه بضائع، مواد غذائية، ألبسة، أدوات كهربائية، شيء يفتن الإنسان، ولا يملك ثمنه، دخلت امرأة إلى سوق من أضخم الأسواق في أوربا قالت: يا إلهي ما أكثر الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان، في هذه الأسواق الحاجة تدعوك إلى شرائها أحياناً بالتقسيط، أحياناً بالائتمان، ببطاقة، ترى أنك مثقل، والحياة بسيطة نحن عقدناها، العلماء قالوا: مجتمع الاستهلاك وراء العنف، ما التفسير؟ قال: هذا الإنسان يرى كل يوم في الإعلانات هذه السيارة، وهذا الجهاز، وهذه الثلاجة، وهذه الأدوات المنزلة، هذه الحاجات الراقية يشتهيها، تعرض عليه كل يوم، في الطرقات، على الشاشة، في الصحف، في المجلات، إعلانات مثيرة جداً، وراؤها علماء نفس، يريك هذه الآلة وكأنها سبب سعادتك، يريك هذه المركبة أنك إذا اقتنيتها فأنت أسعد إنسان، الإعلانات اليومية على الشاشات، والصحف، والمجلات، وفي الطرقات، هذه الإعلانات تخلق حاجة عند الإنسان، الآن هذا الإنسان أولاً: قد لا يملك ثمن هذه الحاجة، بماذا يشعر؟ يشعر هو وأهله بحالة اسمها الحرمان، فإذا مدّ يده إلى الحرام ليغطي هذه الحاجات سقط من عين الواحد الديان، وإذا ألغى وقت فراغه، وعمل عملاً إضافياً لم يعد أباً، يقول لك: ذهبت من البيت قبل أن يستيقظ أولادي، وعدت إلى البيت بعد أن ناموا، الشرفاء هكذا، الإنسان

الشريف دينه غالٍ عليه، يخاف الله، له عمل آخر، له عمل بمكان، ومحاسب بمكان، العملان أفقداه وقت فراغه، بالمناسبة الإنسان الذي ليس عنده وقت فراغ يملأه بحسب مبادئه ليس إنساناً، يقول لك: خرجت من البيت قبل أن يستيقظوا وعدت بعد أن ناموا، أنت بهذا ألغيت أبوتك، فأنت حينما ترهق نفسك بعمل يفقدك الأبوة أنت ضيعت أكثر مما أخذت.

هؤلاء العلماء كانت إجابتهم: مجتمع الاستهلاك يلقي صوراً مغرية لكل هذه الحاجات التي قد لا يحتاجها معظم الناس، هذه الصور المغرية أمامها ثلاثة مواقف، موقف الشعور بالحرمان المستمر، موقف آخر موقف أن تمد يدك إلى الحرام لتغطي هذه الحاجات، سقطت من عين الله، أكلت المال الحرام، والوضع الثالث أن تعمل عملاً إضافياً يلغي أبوتك، تقريباً أكثر الشرفاء لا يوجد عندهم وقت أبداً ليجلسوا مع أولادهم، من يربيهم؟ من يأخذ بيدهم؟ من يدلهم على الحق؟ لا يوجد أحد، لذلك من تعريفات اليتيم من كان أبوه مشغولاً عنه، إن اليتيم من يجد أماً تخلت أو أباً مشغولاً، الأب المشغول أولاده كالأيتام، القضية خطيرة جداً:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

هل يوجد غير هذا؟ الآباء مهما علوت والأبناء مهما نزلت، والأخوان؛ أخ، أخت، عمة، خالة، حركة عرضية وأولادهم طبعاً، وأزواجكم، الزوجة لها حكم خاص، وعشيرتكم.

على التاجر الابتعاد عن العلاقات التجارية التي لا ترضي الله عز وجل :

الآن:

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا)

أموال حصلتموها بكد وتعب شديدين:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا)

وحينما ذكر الله التجارة ذكر الكساد، والتاجر وحده يعرف معنى الكساد، قال لي مرة صاحب معمل: إذا دخلت إلى المستودع أحس أن قلبي سوف يقف، البضائع للسقف لكن لا يوجد بيع، أي أصعب حالة يعاينها التجار الكساد:

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا)

مثلاً: عندك بضاعة يمكن أن تعلن عنها بطريقة أو بأخرى، لكن يوجد إعلان بوسائل لا ترضي الله عز وجل، امرأة شبه عارية ترتدي هذه الحاجات، هذا إعلان لا يرضي الله عز وجل، أحياناً الكساد يدعو التاجر إلى إعلان لا يرضي الله عز وجل، أو إلى علاقة مشبوهة، أو إلى علاقات تجارية لا

ترضي الله عز وجل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

هذه الأقارب، أبوة، بنوة، أخوات، أخوة، أعمام، أخوال، عشيرة، والشيء المركزي الزوجة.

أندم الناس من دخل أولاده بماله الجنة ودخل هو بماله النار :

لذلك:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

[سورة التغابن الآية:14]

هذه عداوة المآل:

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا)

في بعض الآثار النبوية: "إن روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا والدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي، في هذا الأثر النبوي: ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله، وانقطع رزقه، ألقى عليه غم الموت، فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والصارخة بويلها، يقول ملك الموت: ممَّ الفزع؟ وممَّ الجزع؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، وإنّ لي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً، فو الذي نفس محمد بيده، لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه، لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم.

أيها الأخوة الكرام، الإنسان قد يحصّل مالاً بمشقة بالغة، وتحصيل المال بمشقة بالغة معنى اقتراف المال أي جمعه بجهد بليغ، مرة قال لي صاحب معمل: خمسة وثلاثون عاماً أكون بالمعمل الساعة الخامسة فجراً وأغادر آخر إنسان، اشترى بيتاً بمئة وستين مليوناً، لكن جهد فوق طاقة البشر، الأموال الذي اقترفتموها أي جمعتموها بجهد كبير، قال لي آخر عنده معمل أقمشة: والله ما ذهبت إلى اللاذقية من ثلاثين سنة مرة، إلا مرة استلمت سيارتي، الذين عندهم أعمال كبيرة هناك جهد كبير جداً في تجميع هذه الأموال، لكن ورد في الأثر أن الله عز وجل يسأل عبده يوم القيامة، أن عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله له: إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، يسأل عبداً آخر أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله له: أنا الحافظ لأولادك من بعدك.

فكل إنسان جمع ماله من حلال الله عز وجل يحفظ له هذا المال لأولاده، لكن أندم الناس من دخل أولاده بماله الجنة، ودخل هو بماله النار، ورثوه حلالاً، وأنفقوه في طاعة الله.

بطولة الإنسان لا أن يحتكم لقانون وضعي بل لقانون الله عز وجل :

الآية الكريمة من سورة التوبة:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا)

أي تعبتم في جمعها:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

للتقريب، بنظام إيجار معين سابق هناك بعض الفئات من المجتمع محمية من الإخلاء، ساكن في بيت ثمنه خمسون مليوناً، أجرته مئة ليرة على النظام القديم، أي ضرائب البيت عشرة أضعاف أجرته، وساكن هذا البيت محمي بالقانون، يقول: أنا القانون معي، إذا وضعت في القبر هل معك قانون؟ عندك بيت آخر صرت مغتصباً، أيها الأخوة الكرام، كل بطولتك لا أن تحتكم لقانون وضعي، أن تحتكم لقانون الله عز وجل:

(وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

والله هناك حالات بفضل الله نظام الإيجار تعدل، وهذا فضل كبير من الله، لكن قبل تعديل القانون كان هناك إنسان يسكن في بيت ضرائبه عشرة أضعاف أجرته، ومحمي، فالذي لم ينظر إلى أن الله سيحاسبه، نظر إلى أن القانون يحميه، هذا خطأ كبير:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

من كان ماله وتجارته أحبّ إليه من الله و رسوله فقد خسر و خاب :

هنا الشاهد:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

وما عندهم من أموال، وخيرات، وبيوت، والله زارني أخ قال لي: يوجد باسمي تسعمئة مليون من أراضٍ، ومساكن، وأخي يعمل على سيارة بالأجرة، الأب أعطى ابنه الأول ما يقترب من ألف مليون، و أما ابنه الثاني فيعمل عملاً شاقاً ليأكل ويشرب، أين العدل؟

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ)

من طاعة الله، من طاعة رسول الله، من الجهاد في سبيل الله، إن كان الأمر كذلك فالطريق إلى الله ليس سالكاً.

العاقل من تمسك بالشرع و القرآن لا بمصالحه المتعارضة معهما :

أيها الأخوة الكرام، لا تعتد بمادة بالقانون لصالحك، اعتد بأن الشرع لصالحك، أن القرآن الكريم لصالحك، أن منهج الله لصالحك، والله عندي قصص لا تعد ولا تحصى من أناس تركوا بيوتاً هم يحميهم القانون لكنهم خافوا من الله، ترك بيتاً و لا يوجد عنده بيت، الله عز وجل أكرمه ببيت، حدثني أخ قال لي: أنا ساكن في بيت بأحد أحياء دمشق الراقية، أجرته بسيطة، عندما استأجره قالت له صاحبة البيت: هل تعدني أنني إذا طلبت منك البيت أن تعطني إياه؟ قال لها: أعدك، بأصعب أزمة بيوت في هذه البلدة الطيبة، قالت له: أريد البيت، قال لها: حاضر، أقسم لي بالله أنه سلمها البيت، ووقع عقداً بتسليم البيت ولا يوجد عنده بيت إطلاقاً، وكان تأمين البيت شيء شبه مستحيل، يقول له المحامي بعد أن وقع: أنت مجنون، بقيت في الطريق، قال: أنا حسب ما وعدتها، هو يعمل في الألبسة الجاهزة، وفي البناء الذي يعمل به بيت جميل جداً، قال لي: إذا بعت سيارتي، وبعت كل بضاعتي، وأشياء كثيرة، يمكن أن أدفع الدفعة الأولى من ثمن البيت، فبعد أن اتفقوا وبدأ يبيع، لم يوافقوا على متابعة العقد، قال لي: بعد شهر بعت بيعاً ليس طبيعياً، وأنا أنوي أن أسلم البيت، وبعد أن سلمت البيت، جاءني أصحاب البيت الذي أردت أن أشتريه و عرضوا عليّ أن يبيعوه لي تقسيطاً، ودفع أول دفعة، وسكن في البيت ودعاني إلى طعام والله في هذا البيت، هو عندما ترك البيت تركه طاعة لله، المحامي استغرب قال له: أنت مجنون بقيت في الطريق، لكن الله ما تركه في الطريق، ثم انتقل إلى بيت أفضل.

على الإنسان أن يؤثر طاعة الله على كل ما يملك من حقوق وفق القوانين الوضعية :

أيها الأخوة الكرام، أقسم لكم بالله عندي قاعدة، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، الوعد النبوي:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

من طاعة الله في قرآنه، وطاعة النبي في سنته:

(أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

الطريق إلى الله ليس سالكاً:

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

والله هذه الآية من أخطر آيات سورة التوبة، والله ما منا واحد إلا ويتعلق مصيره بها، يجب أن تؤثر طاعة الله على كل ما تملك من حقوق وفق القوانين الوضعية، في القبر لا أحد يحميك إلا الله، قال لي إنسان: استطعت أن آخذ محضراً بثلث قيمته، بتمثيلية أحضر أناساً دفعوا مبالغ صغيرة جداً للمزايدة، وله ترتيبات معينة، فالمحضر بدمشق، واستطاع أن يشتري المحضر بثلث قيمته، وأكثر من مئتي شخص يملكه، بعضهم أيتام، واعتبر حاله ذكياً جداً ومتفوقاً، قلت له: وكيف تواجه الله بهذا العمل؟ فسكت، بالقبر لا يوجد قانون يحميك؟ قلت له: إما أن تعطي أصحاب الأرض القيمة الحقيقية أو أن تلغي العقد، قال لي: إن شاء الله أفعل، أنا ما رأيته، مرة كنت في الطريق شاهدت ابنه قال لي: والدي توفي، قلت له: الأرض أرجعها؟ قال لي: لا والله أخذها، تفضل واجه الآن.

أغبى الأغبياء من أكل مالاً حراماً و عدّ نفسه ذكياً :

أيها الأخوة الكرام، الله كبير، لا تعد ذكياً إذا أكلت مالاً حراماً بل تعد أغبى الأغبياء:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

أنا حدثني أخ هو محام كبير، قال لي: هناك بيت ثمنه يقدر بستين مليوناً، بعدما مات صاحبه، أبرز إنسان عقد بيع، هذا العقد أصولي لكن قد يكون مزوراً، اضطر القاضي إلى شاهدين، هناك شاهد شهد، الثاني أحضروه بالأجرة، وضع يده على المصحف وحلف يميناً كاذبة أنه هو يعرف هذه الحقيقة، أقسم بالله هذا القاضي أن هذا الشاهد يمسك الطاولة بيده اليسرى، ويده اليمنى على المصحف، ورفع يده لكن لم ينزلها، فالقاضي انزعج، قال له: انزل يدك، كان ميتاً، ثم قلب، مات أثناء حلف اليمين.

عين الفسق من آثر دنياه على آخرته :

أيها الأخوة الكرام، الآية التالية خطيرة جداً:

(آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

من أمر الله في قرآنه، وأمر النبي في سنته:

(وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

الطريق إلى الله ليس سالكاً، فتربصوا مكانكم:

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

إذاً أن تؤثر أباك، وأبناءك، وأخوانك، وزوجتك، وعشيرتك، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن على طاعة الله، فهذا هو عين الفسق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (22-70):شرح الآيات 25-26 ، التوحيد والافتقار هو أدب وواقع ويوقي الإنسان من شرك خفي.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-10-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد هو الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الخامسة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية لها معنىً متعلقاً بالتوحيد، والتوحيد هو الدين، والتوحيد ألا ترى مع الله أحداً، والتوحيد أن توقن أنه لا فاعل إلا الله، ولا مانع إلا الله، ولا رافع إلا الله، ولا خافض إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، وما من خطأ متعلق بالشرك الخفي إلا ويعالج من قبل الله جلّ جلاله معالجة سريعة، فهؤلاء الصحابة الكرام على علو قدرهم، وعلى أنهم نخبة البشر، وعلى أنهم صحابة سيد البشر، حينما اعتدوا بعددهم ولم يوحدوا جاء التأديب الإلهي مع أنهم في أعلى درجة من القرب من الله عز وجل.

الافتقار إلى الله ليس أدباً فحسب بل هو واقع أيضاً :

الله عز وجل يقول:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)

أي في بدر، في بدر افتقر الصحابة إلا الله:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

[سورة آل عمران الآية:123]

بمعنى مفتقرون إلى الله، إن أردت أن تأخذ من الله كل شيء افتقر إليه، الافتقار ليس أدباً فحسب بل هو واقع، نحن لا شيء، أنت بالله عالم، وبالله قوي، وبالله غني، وبالله حكيم، أما إذا اعتددت بما توهمته قوةٍ لك فأنت لست قوياً، ولا حكيماً، ولا عالماً، ولا غنياً.

من رأى فضل الله عليه فهو أقرب المخلوقات إلى الله عز وجل :

أخواننا الكرام، لو تتبعنا آيات القرآن الكريم في أكثر مواطنه نجدها تحوم حول محور واحد ألا وهو التوحيد، وقد قيل: ما تعلمت للعبيد أفضل من التوحيد، أي من هؤلاء الذين عالجهم ربنا جلّ جلاله؟ هم أصحاب سيد الخلق، هم نخبة البشر، هم الذين اصطفاهم الله عز وجل ليكونوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك حينما ـ في ساعةٍ من الساعات ـ توهموا أنهم كثر، وأن عددهم كبير، وأن النصر حليفهم، جاء التأديب الإلهي فجاءت الآية الكريمة:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

آية أخرى وهي أيةُ اليوم:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)

وكل واحد منا له أيام مع الله، وحين قال الله عز وجل:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم الآية:5]

أيها المؤمن في يوم ما رجوت الله أن يوفقك فوفقك، رجوت الله أن يشفيك من هذا المرض فشفاك، رجوت الله أن يرزقك زوجة صالحة فأجابك، أن يرزقك أولاداً صالحين فاستجاب لدعائك، فالمفروض بالمؤمن أن يتذكر فضل الله عليه، فالمؤمن شكور، وشاكر، شاكر اسم فاعل، وشكور كثير الشكر، فحينما ترى فضل الله عليك أنت أقرب المخلوقات إلى الله، هناك إنسان يتذكر قوته، يعتد بقوته، يعتد بنسبه، يعتد بماله، يعتد بمنصبه، أما المؤمن وهو في أعلى درجات القوى فيرى افتقاره إلى الله.

التولي والتخلي :

الحقيقة أن الإنسان بين التولي والتخلي، التولي والتخلي حالان يرافقان كل مؤمن في أي وقت، في أي وقت تقول: الله يتولاك الله، وفي أي وقتٍ تقول: أنا يتخلى الله عنك، مهما ارتقيت في مراتب الإيمان، حينما تتفهمُ لدقيقةٍ واحدة أن هذا الفعل الذي أجراه الله على يديك هو من اختصاصك، أو من خبرتك، أو من ذكائك، أو من حكمتك، يأتي التأديب الإلهي، لذلك المؤمن لا يشهدُ عمله ولكنه يشهد فضل الله عليه، فإذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، في دراستك يمكن أي طالب ألا ينجح بالامتحان على الرغم من دراساته المتعمقة جداً، يمكن لأي مريض أن يكون مرضه سبب موته، يأتي الشفاء الإلهي، يمكن أن ترزق بزوجة تريك النجوم ظهراً كما يقال، ويمكن أن يرزقك الله زوجةٍ صالحة تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إن أمرتها، فأنت حينما توحد، حينما

تتبرأ من حولك وقوتك، وتلتجئ إلى حول الله وقوته، والدعاء الذي ينبغي أن تقوله قبل كل عمل: "اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين".

الحقيقة هذه الآيات التي أمامنا تعلمنا التوحيد، تعلمنا التوحيد ونحن بحاجة إليه، أنا لا أبالغ في كل دقيقة من دقائق حياتنا، أنت أمام مشكلة يجب أن تحل، أمام عقبة يجب أن تتجاوزها، أمام ضائقة يجب أن تنجو منها، أمام عدو حاقد يجب أن تنجو من حقده، فهناك أخطار محيطة بالإنسان في كل وقت، وفي كل زمان، وفي كل مكان، وهذه الأخطار هي محفزات للتوحيد، محفزات لمعرفة الله، أقول ولا أبالغ: إن هذا الدرس اليوم يحتاجه كل واحد منا في كل يوم، بل في كل ساعة، إما أن يعتد بقوته، أو بعلمه، أو بخبرته، أو بمنصبه، أو بشهادته، أو بنسبه، أو بإمكاناته، أو بماله، حينما يعتدُ بهذا الذي بين يديه، وينسى فضل الله عليه، يقع في مطبةٍ اسمها الشرك الخفي، وقد ورد في بعض الآثار النبوية:

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، أما إني لست أقولُ إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن شهوة خفية وأعمالٌ لغير الله))

[ورد في الأثر]

التوحيد ألا يرى الإنسان مع الله أحداً :

أخواننا الكرام، الشرك الجلي واضح، أن تعبد بوذا مثلاً كما يفعل من في بعض البلاد في شرقي آسيا، أن تعبد صنماً، أو حجراً، أو شمساً، أو قمراً، أو إنساناً، ولكن التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، التوحيد:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية:123]

التوحيد أن ترى كما في قوله تعالى:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات]

فكل الدين ولا أبالغ يدور حول التوحيد، والإيمانُ بالله خالقاً هذا الإيمان موجود عند معظم البشر، حتى إبليس آمن بالله خالقاً، والدليل قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص]

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة ص]

فقضية أن تؤمن أن الله موجود هذه قاسم مشترك بين كل البشر، عدا قلة قليلة جداً عطلت عقولها، ولكن الإيمان الذي نقصده في كل هذه الدروس الإيمان التوحيدي، أي ألا ترى مع الله أحداً، أن ترى أن

رزقك بيد الله، وأن سعادتك بيد الله، وأن الشقاء بيد الله، وأن الحكمة بيد الله، وأن التفوق بيد الله، كلما رأيت أمور الدنيا منوطة بالله عز وجل كنت موحداً، فالتوحيد أن تجعل همومك هماً واحداً، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، التوحيد أن ترى أنّ يد الله تعملُ وحدها،

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

المؤمن يعترف دائماً بفضل الله عز وجل عليه :

أيها الأخوة، الله عز وجل يذكّر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولُ لهم:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)

الصحابة الكرام شبابٌ ضعاف فقراء، واجهوا قريشاً، واجهوا صناديد قريش، واجهوا الأغنياء، واجهوا الأقوياء، واجهوا من سيطروا على الجزيرة العربية بأكملها، لكن الله معهم، وإن كان الله معك فمن عليك؟ وإن كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)

وأنت أيها المؤمن أنا أتمنى أنك إذا قرأت آية في كتاب الله بالتعبير المعاصر أن تسقطها على نفسك، أنت كشاب وقعت في عدة مواقع محرجة، كيف نجاك الله منها؟ لك طلبات عند الله بدت لك في وقتٍ ما مستحيلة، كيف تحققت؟ كنت بحاجة إلى عمل، إلى زوجة، إلى بيت، إلى أولاد، الله يسر لك زواجك، يسر لك عملك، رزقك أولاداً، حينما ترى أن ما أنت فيه ليس بذكائك، ولا بخبرتك، ولا بحنكتك، ما أنت فيه فضل الله عليك، هذه الرؤية هي محض الإيمان، أن ترى دائماً فضل الله عليك.

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)

[سورة النمل الآية: 40]

دخلت إلى البيت: "الحمد لله الذي آواني، وكم ممن لا مأوى له"، استيقظت صباحاً معافى في جسمك، "الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي، وعافاني في بدني، وأذن لي بذكره"، جلست إلى الطعام أكلت فشبعت: "الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وأسقانا فأروانا"، لك زوجة تعتني بك، تطبخ لك، تهتم بشأنك، هذه نعمة كبيرة، في بيتك أولاد صغار، يملؤون البيت فرحةً، هذه نعمة أيضاً، لو أردت أن تعدد نعم الله عز وجل فلن تحصيها.

المؤمن يرى فضل الله عليه و غير المؤمن يرى الذي ينقصه فقط :

الشيء اللطيف:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

[سورة إبراهيم الآية: 34]

هل يمكن أن تقول لإنسان خذ هذه الليرة فعدها؟ كأن المعنى أن نعمة واحدة من نعم لو ذهبت تعدد خيراتها وفضائلها لا تنتهي، فأنت غارق في نعمة الله، جسمك، لك بصر ترى به الأشياء، لك سمع تنتهي إليك الأصوات، لك عقل، لك لسان تنطق به، لك رجلان تتحرك بهما، لك يد تسعى بها، لك بيت، لك أهل، لك زوجة، لك أولاد، هذه النعم التي تعد عند الناس، عادة الإنسان غير المؤمن لا يشكر الله عز وجل، يرى الذي ينقصه فقط، والبطولة قبل أن ترى ما ينقصك ينبغي أن ترى ما عندك، مثلاً:

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبه))

[أخرجه الترمذي عن عبيد الله بن محصن]

إنسان ليست هناك مذكرة بحث في حقه، لو التقيت مع إنسان عليه مذكرة بحث ينخلع قلبه إذا طُرق بابه، حالة القلق والخوف، أنت من خوف المرض في مرض، ومن خوف الفقر في فقر، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، فأنت معافى من هذا القلق، أنت آمن في سربك.

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبه، مُعافى في جَسَدِهِ، عندهُ قوتُ يومِه، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها))

لا يوجد بحقك مذكرة بحث، لا يوجد عندك ولد معاق، والله هناك أولاد معاقون، ولهم آباء قد يكونوا مؤمنين، ويصبرون على هذه الإعاقة، ولكن الولد الغير معاق أجمل بكثير، ابنك يتحرك أمامك، يتكلم، دخل مدرسة، ارتقى من صف إلى صف، هذه نعمة قد تغيب عن معظم الناس، هناك طفل منغولي، طفل معاق، طفل مشلول، طفل عنده تخلف عقلي، طفل عنده عاهة دائمة، أما إن كان في البيت طفل سليم، طفلة سليمة، زوجة صالحة، مأوى، هذه النعم التي غمرك الله بها ينبغي أن تذكرها.

العالم شرد عن الله شروداً كبيراً و المؤمن أنعم الله عليه بنعمة التوحيد :

مرة ثانية: المؤمن يرى فضل الله عليه، بالحد الأدنى أنه منحك نعمة الإيجاد، منحك نعمة الإمداد، منحك نعمة الهدى والرشاد.

في الحد الأدنى دلك عليه، لم تكن شارداً، هناك ملايين مملينة، مئات الملايين يعبدون حجراً، الآن في شرق آسيا يعبدون بقرة، يعبدون جرذاً، عندي موضوع في مجلة فرنسية عن قبائل كثيرة في آسيا

يعبدون الجرذ، وهناك معابد، و تحقيقات طويلة جداً، هناك من يعبد النار، هناك من يعبد موج البحر، وهناك من يعبد شهوته وما أكثرهم.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان الآية: 43]

العالم شرد عن الله شروداً كبيراً، فأنت الله عز وجل أنعم عليك بنعمة التوحيد، تعبد الله عز وجل خالق السماوات والأرض:

(لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

[سورة الأعراف الآية: 185]

أنزل على عبده الفرقان، الفرقان بين يديك تقرأه، قدم لك الفرقان أو قدم لك القرآن تصوراً عن الكون، وعن الحياة، وعن الإنسان، وعن سرّ وجودك، وعن غاية وجودك، وماذا بعد الموت، وعن الجنة والنار، هذه كلها حقائق تبعث في النفس الراحة، أنت تعرف من فقد العقيدة في ضياع، عنده ألف سؤال وسؤال، وألف استفهام واستفهام، و عنده قضايا عالقة، وقضايا ليس لها جواب، هذا الدين العظيم قدم لك تصوراً دقيقاً، عميقاً، شمولياً، عن الكون والحياة والإنسان.

من اشتغل بمعرفة نعم الله عليه كان أقرب الناس لله عز وجل :

لذلك تذكر فضل الله عليك، من هذا الفضل الذي أُشير في هذه الآية، إلى الصحابة الكرام:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)

أنا أقول في قوله تعالى:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

كل مؤمن ولا أستثني واحداً له أيام مع الله، وقع في ضائقة فسأل الله مخلصاً فاستجاب الله له، كان على مشارف امتحان مصيري، والمادة صعبة جداً، والله وفقه في هذه المادة وتخرج، وتعين بوظيفة، وتزوج، واشترى بيتاً، واستقر، هذا من فضل الله عليك، هناك نعم قد ترونها بديهية، لك أب وأم، لو التقيت بلقيط لوجدت عنده آلام تسحقه، من أبوه؟ لا يعرف، هناك آلام تسحقه، من أسرة، لك أب، لك أم معروفة بصلاحها، فلو ذهبت تعدد فضل الله عليك لذبت محبة لله عز وجل.

والله أنا أقول حتى لمن أصابته مصيبة، أقول له: لو كشف الغطاء يوم القيامة عن الحكمة من سوق هذه المصيبة لك إن لم تذب محبة لله فأنا مسؤول عن هذا الكلام.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران الآية: 26]

أي شيء مألوف جداً أن لك عينين، لكي ترى الألوان، ترى الجبال، ترى الأنهار، ترى البحار، ترى السماء، ترى الأطيار، ترى الأسماك، ترى زوجتك، ترى أولادك، ترى من حولك، ترى من فوقك.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد]

وهناك إنسان فاقد البصر، جعلك تنطق تعبر عن مشاعرك، عن أفكارك، عن مبادئك بلسان فصيح، هذه نعمة كبرى، أنا أذكر نعماً بشكل غير متسلسل، كيفما تحركت هناك نعمة أنت مغمور بها.

لذلك إذا اشتغلت بتعدد أو بمعرفة نعم الله عليك كنت أقرب الناس لله عز وجل.

أيها الأخوة، الآية الخامسة والعشرون من سورة التوبة:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ)

الوضع الطبيعي هناك نعم أنت مغمور بها، لكن أحياناً تكون في نعمة كبرى ساقها الله إليك، وتوهمت أنت أنها من جهدك، ومن بطولتك، ومن إمكاناتك، هنا وقعت في شرك خفي.

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

شروط تلاوة القرآن الكريم :

أخواننا الكرام، لا يغيب عن أذهانكم أن الله سبحانه وتعالى حينما وصف المؤمنين بأنهم:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

[سورة البقرة الآية: 121]

وأذكركم أن من حق التلاوة أن نقرأه بلغة عربية صحيحة، لذلك سيدنا عمر قال:" تعلموا العربية فإنها من الدين".

ومن حق تلاوته أن تقرأه قراءة مجودة إن أمكن، شيء جميل جداً أن تتعلم قواعد التجويد، ومن حق تلاوته أن تفهمه، ومن حق تلاوته أن تطبقه، والتدبر أن تعرض نفسك على كل آية تقرأها أين أنت منها؟ هل أنت مطبق لها؟ هل أنت مقصر؟ هل أنت ينبغي أن تستكمل بعض الأعمال كي تنطبق عليك؟

من وقع في الشرك الخفي استحق التأديب :

فلذلك هذه الآية التي بين أيدينا هل تذكرت فضل الله عليك؟ في دراستك، في زواجك، في عملك، في أولادك، في علاقتك الطيبة بأهلك، فهناك نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى.

لذلك الآية الكريمة هي موجهة للصحابة، ونحن أيضاً ينبغي أن نسقطها على أنفسنا

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ)

هنا، هذا الدرس البليغ أن قمم البشر، أصحاب رسول الله وقعوا في شرك خفي حتى استحقوا التأديب، فأنت من؟ من أنت أمام سيدنا سعد؟ سيدنا عمر؟ سيدنا الصديق؟ هؤلاء كانوا نخبة البشر، و لكن عندما اعتدوا بعددهم وقالوا في أنفسهم:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

الله عز وجل ساق لهم درساً لا ينسى، في بدر انتصرتم لأنكم افتقرتم، أما في حنين خذلتم فلأنكم اعتدتم بعددكم، فإذا كان هذا الدرس البليغ ينطبق على أصحاب رسول الله وهم قمم في الكمال فلأن ينطبق على كل مسلم من بابِ أولى،

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

لذلك قيل: يؤتى الحذر من مأمنه، مثلاً طبيب ـ رئيس قسم الأمراض الباطنية في الجامعة ـ أمضى ثلاثين عاماً في الأمراض الباطنية، أحياناً يتوهم أنه محصن من هذه الأمراض، والشيء الغريب كأنه يعتد أن هذا اختصاصه، يصابُ أستاذ الأمراض الباطنية بقرحة في المعدة أحياناً.

المؤمن لا يرى عمله يرى فضل الله عليه :

أحياناً الإنسان دون أن يشعر يعتد باختصاصه، فيؤتى من مأمنه، البطولة أن تفتقر إلى الله، البطولة ألا ترى مع الله أحداً، البطولة أن ترى ما أنت فيه فضلٌ من الله عليك، لذلك أقول دائماً: المؤمن لا يرى عمله، يرى فضل الله عليه، الله وفقك بالدعوة، ليس بذكائك، ولا بقوة شخصيتك، ولا بطلاقة لسانك، ولا باتساع علمك، ولا بحكمتك، هذا التوفيق الذي أنت فيه من فضل الله عليك، تدخل إلى بيتك تجد زوجة صالحة، و أولاداً أصحاء، معك ثمن طعامك، معك مأوى، "الحمد لله الذي آواني وكم ممن لا مأوى له"، عود نفسك أن ترى نعم الله عليك، عود نفسك إذا استيقظت أن تقول ـ هناك ستة آلاف مليون إنسان كل يوم يستيقظون ـ كما كان يقول النبي عندما يستيقظ:

((الحمد لله الذي ردّ لي روحي))

أنا أعرف شخصاً نام فلم يستيقظ صباحاً، وجد ميتاً، فالإنسان إذا استيقظ:" الحمد لله الذي ردّ لي روحي"، بعد ذلك وقف، مشي، توضأ:"وعافاني في بدني"، وبدأ يومه بالذكر، وبالصلاة.

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

مرة إنسان تبرع ببيت لجمعية خيرية، أقيم به حفل، عريف الدخل ألقى به كلمة، قال له: أيها المحسن الكريم كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين بجمعيتنا، وأن تقف في صف كبير معك الهوية، وينبغي أن تبصم لثلاثمئة ليرة قبل العيد، ولكن الله أغناك، وسمح لك أن تقدم هذا البيت لوجه الله، حتى الذي يعطي لولا أن الله امتن عليه بالعطاء لما أعطاه، التوحيد أن ترى فضل الله عليك.

من اتجه إلى غير الله عز وجل تخلى الله عنه :

لذلك ،

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

أحياناً تعجب بعلمك، هناك طبيب بمدينة بقطر مجاور، يعد الأول في اختصاصه، فزاره زميله الطبيب باختصاص آخر، فقال له: أنا أقوى طبيب بالمنطقة، ارتكب خطأ مع مريض لأول مرة في تاريخ هذا القطر تسحب من طبيب شهادته، صدر قرار بسحب الشهادة من هذا الطبيب، لا تقل أنا قل الله، أنت بين التولي والتخلي، تقول: أنا يتخلى عنك، تقول: الله يتولاك، قمم البشر الصحابة الكرام، قالوا في بدر الله فانتصروا، وقالوا في حنين:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

فلم ينتصروا،

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

والله إذا جاء القدر كما يقال عمي البصر، إذا جاء القدر لا تنتفع لا بعلمك، ولا بمكانتك، ولا بعلاقاتك، ولا بالأقوياء الذين يقدرونك، ولا تنفع إلا بفضل الله عز وجل.

(إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

أي هناك تأديب من الله لطيف أنه في أية لحظة تعتد بها بقوتك كل المنافذ الأرضية تغلق أمامك، جميع الأبواب تصبح مغلقة إلا باب السماء.

قال لي أخ فقد حريته، قال لي بقيت سنة وشهرين، السنة بأكملها أحاول أن أوسط أشخاصاً كي يطلق سراحي، بعد مضي اثني عشر شهراً لم تنجح كل محاولاتي، فتركت البشر واتجهت إلى خالق البشر، صار يصلي، يقوم الليل، يسأل الله في جوف الليل، حتى امتن الله عليه بإطلاق سراحه.

أي هذا درس بليغ، حاول أن تتجه إلى الله وحده، حاول أن ترجع الأمور إلى فضل الله وحده.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

حكمة بالغة، عددهم كبير، عشرة آلاف مقاتل يولون مدبرين، لكن العلاج الإلهي جاهز:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

الراحة النفسية، الثقة بالله، الافتقار إلى الله، الاعتماد على الله.

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

هذا الدرس صدق ولا أبالغ يمر به المؤمن في اليوم عدة مرات، لمجرد أن يعتمد على ما يتوهم أنه من قدراته، اختصاص، شهادة، منصب، ذكاء، حكمة، أقارب، شركة، علاقات، يتخلى الله عنه، وكل من حوله يفاجئونه بتخليهم عنه، فإذا اتجه إلى الله وحده، الله عز وجل وفقه.

على المؤمن أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء:

هذا الدرس درس بليغ ويحتاجه كل واحدٍ منا، اعتمد على الله وحده، خذ الأسباب وكأنها كل شيء، ثم توكل على الله وكأنها ليست بشيء، الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، طبعاً سهل جداً أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد عليها، وأن تنسى الله، والأسهل منه ألا تأخذ بها وتتواكل على الله، وكلاهما طريقٌ غير صحيح، البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

وهذه السكينة تسعد بها ولو افتقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، الراحة النفسية، الثقة بالله، الشعور بالاعتداد بالله عز وجل.

(عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

هذا الدرس مرّ به أصحاب رسول الله، ويحتاجه كل مؤمن إلى يوم القيامة، بأي مجال، أحياناً بالتجارة، أحياناً بالصناعة، أحياناً بالوظيفة، أحياناً بالدراسة، أحياناً بالمعالجة الصحية، تتجه إلى أطباء وتنسى خالق الأطباء، تجد الطرق كلها مسدودة، ثم تتجه إلى الله تفتح لك الأبواب، فأنت استفد من هذه التجربة التي مرّ بها الصحابة الكرام، وحاول أن تعقد الأمل على الله، وأن تتوكل على الله، وأن ترجو الله، وأن تستقيم على أمر الله، تمهيداً للدعاء الذي يقبله الله جلّ جلاله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (23-70):شرح الآية 26 ، مع السكينة أنت في عطاء ولو فقدت كل شيء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-10-08

بسم الله الرحمن الرحيم

السكينة عطاء إلهي كبير يتمتع به المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة والعشرين وهي قوله تعالى:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

أيها الأخوة، لا بدّ من وقفة متأنية عند كلمة سكينة، هذا عطاء إلهي كبير، هذه ميزة يتمتع بها المؤمن، إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال، للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، السكينة نعرف آثارها لكن لا نعرف حقيقتها، حينما يتجلى رب العزة على مؤمن بالسكينة، أو حينما ينزل الله بالتعبير القرآني سكينته على رسوله، أو على المؤمنين، أو على مؤمن، هذا عطاء ما بعده عطاء، هذا عطاءٌ أقل ما يوصف به أنك تسعد به ولو لا تملك شيئاً، وتشقى بفقده ولو ملكت كل شيء، هذه السكينة أنزلها الله على قلب نبيه وهو في الغار، وهو مطارد، ومئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً.

((يا رسول الله لقد رأونا، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

ما هذه الثقة؟ ما هذه الطمأنينة؟ النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة تبعه سراقة طمعاً بمئة ناقة لمن يأتي بالنبي حياً أو ميتاً، فقال له النبي عليه الصلاة و السلام: يا سراقة كيف بك إذا لبست سوار كسرى؟ إنسان مطارد، مهدور دمه، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يقول له: يا سراقة كيف بك إذا لبست سوار كسرى؟

كأن النبي يقول: أنا سأصل سالماً إلى المدينة، وسأؤسس دولة، وسأبني جيشاً، وسأحارب أكبر دولتين في العالم، وسأنتصر عليهما، ولك يا سراقة سوار كسرى، ما هذه الثقة؟ هكذا ينبغي أن يكون المؤمن، أن يثق بالله، لأن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

من أخلّ بما كلفه الله به من عبادة فالله جلّ جلاله في حلٍّ من وعوده :

لكن:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية:55]

فإذا أخلَّ الطرف الآخر بما كلفه الله به من عبادة فالله جلّ جلاله في حلٍّ من وعوده الثلاث، ولا تنسوا أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، لذلك حينما تتنزل السكينة على قلب مؤمن يسعد ولو كان في السجن، سيدنا يوسف أين كان؟ بالسجن، نبيٌ كريم دخل السجن، لكن مع السكينة كأنه في أتمِّ سعادته، سيدنا رسول الله أنزل الله على قلبه السكينة وكان في الغار، أنزل عليه السكينة وكان في طريق الهجرة فلم يتأثر.

الأشياء التي وصف بها الأنبياء والرسل لكل مؤمن منها نصيب بقدر إيمانه وإخلاصه :

وبالمناسبة هذا أخطر شيء أقوله بهذا اللقاء الطيب: الأشياء التي وصف بها الأنبياء والرسل لكل مؤمن منها نصيب بقدر إيمانه وإخلاصه، أي الله عز وجل حينما يقول للنبي الكريم:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح]

هذه للنبي الكريم، ولكل مؤمن صدق مع الله، يرفع الله له ذكره، لذلك أنا أحياناً أجد شاباً مستقيماً يخاف الله، يضبط نفسه، يتبع منهج ربه، أقسم لكم بالله أقول له: لا تخف، أتنبأ لك بمستقبل زاهر، كيف؟ لا أعلم، لكن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، الله عز وجل وعد المؤمن بحياة طيبة:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية:97]

بأي وضع، بأي بلد، بأي ظرف، بأي بيئة، هذا وعد فوق المكان والزمان، فوق كل المعطيات، فوق كل الأشياء التي توحي بالضعف.

النكبات المتتالية أورثت ثقافة اليأس والإحباط لكن الله أعطانا جرعات منعشة :

لذلك مرة ثالثة: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، أحياناً تشيع في حياة المسلمين ثقافة اليأس، أو ثقافة الإحباط، أو ثقافة الطريق المسدود، بسبب النكبات التي تتالت على الأمة الإسلامية في تاريخها الحديث، هذه النكبات المتتالية أورثت ثقافة اليأس أو الإحباط أو الطريق المسدود، لكن الله جلّ جلاله أعطانا جرعات منعشة، رابع جيش بالعالم، جيش العدو رابع جيش، أول جيش في الشرق الأوسط، أول جيش بتنوع الأسلحة، ولم يستطع لاثنين وعشرين يوماً أن يحقق أي هدفٍ من أهدافه حينما اشتبك مع فئة قليلة مؤمنة لا تملك شيئاً، أليست هذه جرعة منعشة؟ نظام عالمي عملاق ينهار، وتعلن عشرات مئات البنوك إفلاسها، لأنها أنظمة قائمة على الربا، أليست هذه جرعة منعشة؟ فالله عز وجل رحمة بنا وإشفاق علينا من أن نقع في اليأس، الطريق المسدود والإحباط، أعطانا في التاريخ الحديث جرعات منعشة، ثم أنزل الله سكينته، فقد ورد:

((إن بيوتي في الأرض المساجد ـ هذا بيت الله ـ وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

بربكم أنتم في بيتٍ من بيوت الله، ما الإكرام الذي تتوقعونه من رب العزة؟.

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

من ذكر الله أدى واجب العبودية ومن ذكره الله منحه الحكمة و الأمن :

تقول لي: لا يوجد بالمسجد مقعد مريح، الجلوس على الأرض، لا يوجد عصير، ولا شاي، ولا ضيافة، فأي إكرام هذا؟ انتظر، ورد في قوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت الآية:45]

قال علماء التفسير: ذكر الله أكبر ما في الصلاة، لأن الله عز وجل يقول:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

هذا تفسير، لكن ابن عباس رضي الله عنه له رأي آخر، قال في معنى قوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

أيها المسلم أنت في الصلاة تذكر الله، لكن ذكر الله لك وأنت في الصلاة أكبر من ذكرك له، لأنك إن ذكرته أديت واجب العبودية له، لكنه إذا ذكرك وأنت في الصلاة، وأنت في المسجد، إذا ذكرك منحك نعمة لا يتمتع بها في الأرض إلا المؤمن، منحك نعمة الأمن، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام]

المعنى نفسه، جاء بآية أخرى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة الآية:51]

لنا لها معنى، وعلينا لها معنى، لنا خير

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في مرض وفاته أعطي دواء ذات الجنب، فغضب وقال: إن هذا المرض ما كان الله ليصيبني به.

الشاب المستقيم لن يضيعه الله أبداً و سيكرمه بالدنيا قبل الآخرة :

وأنا أقول لكم كتطبيق لهذه الآيات الشاب المستقيم يجب أن يعتقد يقيناً أن الله لن يضيعه، وأن الله سيكرمه بالدنيا قبل الآخرة:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية الآية:21]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة القصص الآية:61]

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة الصافات]

فأنت أيها الشاب حينما تتوجه إلى الله، حينما تصطلح معه، حينما تتوب إليه، حينما تعاهده على الطاعة، حينما تقوم على خدمة خلقه، إن الله عز وجل لن يضيعك، وليس أمامك إلا الخير، هذه الآيات لنا جميعاً،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

الأمن و السلامة :

لذلك هذا الكلام في قوله تعالى:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

هذه السكينة تعني الشعور بالقرب من الله، الحياة الطيبة، الثقة بالله، عدم توقع السوء، لأنه قالوا: توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، نحن عندنا حالة اسمها السلامة، وعندنا حالة اسمها الأمن، الأمن أبلغ من السلامة، لأن السلامة إن انطلقت بمركبتك من دمشق إلى حمص في الساعة الخامسة فجراً والعجلة الاحتياط ليست صالحة، تقود المركبة مدة ساعتين وأنت قلق جداً، لأنه إن تعطلت إحدى العجلتين، أو تعطلت عجلة واحدة لن تستطيع متابعة السير، وصلت إلى حمص ولم يقع شيء، تحققت السلامة ولم يتحقق الأمن، الأمن أبلغ من السلامة، لأنك إن توقعت المصيبة فأنت في مصيبة، إن توقعت الفقر فأنت في فقر، إن توقعت المرض فأنت في مرض، هناك أمراض تصيب القلب بسبب توقع إصابته بمرض، أحياناً الخوف من مرض القلب، هذا الخوف يصيب صاحبه بمرض القلب، الناس يعيشون قلقاً كبيراً، نعمة الأمن من حق المؤمن وحده، والشاهد واضح جداً:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

لابدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيمٌ لله ومحبة له وخوفٌ منه :

إذاً: إنه إن ذكرك فضلاً عن نعمة الأمن يمنحك نعمة الرضا، أنت راض، راض عن الله.

((يا ربي أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال يا ربي إنك تعلم أنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟))

دققوا أيها الدعاة، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال:

((ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

أي ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، معنى ذلك أنه لا بدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيمٌ لله، ومحبة له، وخوفٌ منه، التعظيم من خلال آلائه

العظيمة، والمحبة من خلال نعمه الوفيرة، والخوف من خلال البلاء الذي لا يحتمل، يجب أن تعظمه، وأن تحبه، وأن تخافه، لذلك:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

تحت العظيم أربعة خطوط، هو آمن بالله لكن ما آمن به عظيماً، كشأن معظم الناس آمنوا بالله خالقاً، لكن ما آمنوا به عظيماً، لو أن الإنسان آمن بالله العظيم لا يمكن أن يعصيه، لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت، والدليل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

من أيقن أن علم الله يطوله و قدرته كذلك لا يمكن أن يعصيه :

أسماؤه الحسنى كثيرة، تسعة وتسعون اسماً، اختار الله من أسمائه اسمين؛ العلم والقدرة، أي أنت حينما توقن أن علم الله يطولك، وأن قدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه، ليس مع خالق السماوات والأرض، بل مع إنسان من بني جلدتك، تركب مركبة والإشارة حمراء، والشرطي واقف، فإذا تجاوزت الإشارة الحمراء علم الشرطي يصل إلى واضع قانون السير، وقدرة واضع قانون السير قد تنزل بالمخالف أشد العقاب، فأنت حينما توقن مع إنسان من بني جلدتك أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه أبداً، مثلاً إنسان تجاوز الإشارة الحمراء وهناك شرطي بمكان غير واضح، غير ظاهر، فنبه هذا السائق، قال له: ألا ترى أن الإشارة حمراء؟ قال له: والله رأيتها و لكن ما رأيتك، رأيتها لكنني لم أرك، فمعنى ذلك النظام الوضعي لا يطبق إلا بوجود من يتابع هذا النظام.

كلكم تصومون رمضان بأيام الصيف الحارة، تدخل إلى بيتك لا تستطيع أن تضع قطرة ماء في فمك، والحرارة قد تكون خمساً و أربعين درجة، وتكاد لا تستطيع متابعة الصيام ومع ذلك تصوم.

الحياة لا تنضبط إلا بالإيمان بالله :

لذلك أي نظام وضعي، لِمَ لا ينجح؟ لأنه لا يوجد مراقبة فعالة، مثلاً هناك إنسان يعجن العجين، ودخل إلى الحمام الساعة الثانية ليلاً ولم يغسل يديه، وتابع عجن العجين، و كان معه التهاب كبد وبائي،

يصيب من ثلاثمئة إلى خمسمئة إنسان يأكل من هذا الخبز، الحياة لا تنضبط إلا بالإيمان بالله.

لذلك عندما يكون هناك نظام إلهي، الله مع كل إنسان، سيدنا ابن عمر امتحن راعياً، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال له: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟ هذا البدوي، الراعي، الأعرابي، لا يوجد عنده أشرطة كاسيت، ولا سيديات، ولا مكتبة أربعة جدران، لكنه عرف الله، قال له: ولكن أين الله؟ وفي اللحظة التي تقول بها أين الله؟ قطعت أربعة أخماس الطريق إلى الله، هذا الدين كله، الدين حينما تبتعد عن كل معصية، فأنت ورب الكعبة مؤمن.

لذلك يقول أحد العلماء أظنه التستري، ترك دانق من حرام خيرٌ من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام، وسيدنا ابن عباس كان معتكفاً في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً كئيباً، قاله : ما لي أراك كئيباً؟ قال له: ديون لزمتني ما أطيق سدادها، قال: لمن؟ قال: لفلان، قال ابن عباس لهذا الكئيب أتحب أن أقدمه لك؟ قال: إذا شئت، فقام ابن عباس من معتكفه، يبدو أن إنساناً قال له: يا بن عباس أنسيت أنك معتكف؟ قال: لا والله ما نسيت، ولكنني سمعت صاحب هذا القبر - وأشار إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام - والعهد به قريب ودمعت عيناه، قال صاحب هذا القبر: والله لأن أمشي مع أخٍ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافه في مسجدي هذا.

نظرت إلى الدين، ترك دانق من حرام خيرٌ من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام، لأن أمشي مع أخٍ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافه في مسجدي هذا، لأنه النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمر]

الإسلام بناء عظيم :

الخمس ليست هي الإسلام، هي أركان الإسلام، ولكن الإسلام بناء عظيم، الإسلام والله لا أبالغ خمسمئة ألف بند، هذه البنود تبدأ من أخصّ خصوصيات الإنسان، تبدأ من فراش الزوجية وتنتهي بالعلاقات الدولية، لكل حركة حكم شرعي، هناك فرض، و واجب، و سنة، و مستحب، و مباح، و مكروه تنزيهاً، ومكروه تحريماً، و حرام، بكل حركة، وسكنة، بالأخذ والعطاء، والعمل، والغضب، والرضا، هناك أحكام شرعية، لذلك إذا قلت منهج الله التفصيلي قد يصل إلى خمسمئة ألف بند، يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، فأنت إذا كنت حريصاً على سلامتك، وحريصاً على سعادتك، ينبغي أن تبحث عن منهج ربك، وأن تطبقه عندئذٍ تحقق السلامة في الدنيا والآخرة.

الأشياء العظيمة التي خصّ الله بها رسوله خصّ بها المؤمنين :

أخواننا الكرام، في قوله تعالى:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

الأشياء العظيمة التي خص الله جلّ جلاله بها رسوله جزءٌ منها خصّ بها المؤمنين، والآية واضحة،

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

وأي مؤمن بأي مكان بأي زمان، أي هؤلاء الصحابة، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك؟ قال: لا أنتم أصحابي؛ أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان الصَّابرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، أجره كأجر سبعين، قالوا : منا أم منهم؟ قال : بل منكم، قالوا: و لمَ؟ قال : لأنكم تجدون على الخير معواناً و لا يجدون))

[الترمذي عن أنس]

طبيعة العصر الحديث، المعصية موجودة بأي مكان، موجودة على الشاشة، موجودة في الانترنت، موجودة في الصحف، موجودة في المجلات، موجودة في الطريق، موجودة في الجامعات، فهذا الذي يقبض على دينه كأنما يقبض على الجمر لأنه من علامات قيام الساعة موتٌ كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لِمَ يقتل ولا المقتول فيمَ قتل؟

حدثني أخ من بلد مجاور قال لي: إنني أودع زوجتي وأولادي كل يوم، لأن احتمال الموت خمسون بالمئة، أيضاً هذا يعني أن نشكر الله عز وجل من أعماق قلوبنا على نعمة الأمن التي نتمتع بها.

من نعم الله العظيمة على الإنسان أنه يعيش بين مؤمنين :

لذلك

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

الحالة النفسية المريحة، الثقة بالله، الطمأنينة، الرضا، الإنسان حينما يصلي ذكر الله له أكبر من ذكر العبد لربه، إن ذكرك الله في الصلاة منحك نعمة الأمن، منحك نعمة الرضا، منحك الحكمة، أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة العاشرة ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، أنت بالحكمة تجعل العدو صديقاً، وبالحمق تجعل الصديق عدواً، أنت بالحكمة تتدبر أمرك بدخل محدود ومن دون حكمة تبدد المال الكثير، أي الفرق بين المؤمن وغير المؤمن ليس بالدرجة إنما بالنوع.

للتقريب: أنت من أسبوع لم تأكل، وهناك لحم مشوي بأعلى مستوى، ولحم بمكان آخر متفسخ له رائحة تصل لخمسين متراً، تكاد تخرج من جسمك من رائحة اللحم المتفسخ، وهناك لحم آخر مشوي تتوق

إليه، القطعتان لحم، لكن الأولى لحم متفسخ والثانية لحم شهي.

وهكذا الإنسان، هناك إنسان تشتهي أن تجلس معه، تشتهي أن يحدثك، تشتهي أن تجاوره، تشتهي أن تسافر معه، وإنسان لا تحتمل مزاحه، ولا تعليقاته، ولا عاداته، ولا تقاليده.

لذلك أيها الأخوة، من نعم الله العظيمة أنك تعيش بين مؤمنين، فإذا كنت أنت مع أخوة مؤمنين، طيبين، طاهرين، صادقين، أوفياء، يتعاونون معك، هذه نعمة لا تعدلها نعمة.

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

دعني أقول لك بصراحة: إن لم تقل أنا أسعد من في الأرض إلا أن يكون الآخر أتقى مني فعندك مشكلة، حتى إن بعض العلماء قال: إن ذكرت الله فلم تشعر بشيء، إن صليت الفريضة فلم تشعر بشيء، إن قرأت القرآن فلم تشعر بشيء، فاعلم أنه لا قلب لك، مستحيل أن تذكر الله ولا يذكرك؟ أن تقبل عليه ولا يقبل عليك؟ أن تخطب وده ولا يخطب ودك؟ مستحيل!.

((إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ أَهْرُولُ))

[البزار عن سلمان الفارسي]

هذا المعنى دقيق جداً،

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا)

عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود :

عندنا قاعدة بالمنطق: عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، أي لو أيقظنا إنساناً من قبره من خمسين سنة، أريناه قرصاً، أنا عندي قرص فيه خمسة عشر ألف عنوان، معنى عنوان، قد يكون كتاب مؤلفاً من أربعين جزءاً، ما قلت كتاباً، قلت عنواناً، فالنصوص على القرص مضبوطة بالشكل، يمكن أن تبحث عن موضوع بخمسة عشر ألف عنوان أو مئة ألف كتاب، ببضع ثوان، هذا الذي أيقظته من قبره قبل خمسين عاماً يصدقك؟ يقول لك: أنت مجنون، لأن عقله مرتبط بواقع لم يكن فيه كمبيوتر.

لما كان الخليفة يعطي أمراً بالمدينة، كان الفارس يركب على جواده من المدينة إلى الشام، إلى بغداد، ليوصل بعد شهر هذه الأوامر، الآن بثانية، أنا أقول: العالم صار قارة وحدة، صار بلداً، صار مدينة، صار قرية، صار بيتاً، صار غرفة، الآن العالم سطح مكتب، أي شيء يقع بالعالم بعد ثوان تراه بعينك، أليس كذلك؟ فإذا أيقظت إنساناً من قبره قبل خمسين عاماً لا يصدق ذلك إطلاقاً.

لذلك عندنا عقل وعندنا نقل، أيهما أخطر؟ النقل، النقل وحي السماء، النقل من عند خالق السماوات والأرض، أما العقل فمرتبط بالواقع.

فلذلك:

(وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا)

والله سمعت ولا أدري مبلغ هذا الخبر من الصحة، عندما كان الأعداء يقبضون على جندي من غزة، يقولون له: ماذا يرتدي الجنود عندكم؟ يقول لهم: ثياباً مبرقعة، يقولون له: أنت كاذب، يرتدون ثياباً بيضاء، الله موجود إذا كان هناك إخلاص ينصرك، شيء مدهش أنه لمدة اثنين و عشرين يوماً لم يتمكن أقوى جيش بالمنطقة أن يحقق أي هدف من أهدافه، أليس كذلك؟ يقولون له: كانوا يرتدون ثياباً بيضاء، فالقرآن قرآن.

فلذلك:

(وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا)

لهذه القصص تواترت كثيراً، أنا لا أصدق أنها من لا شيء، كان هناك معونة إلهية والله موجود:

(وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

السكينة أكبر عطاء إلهي للإنسان :

أخواننا الكرام، مركز الثقل في هذا الدرس السكينة، تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، أنت بمكان حُجزت به حريتك مع السكينة أسعد إنسان، وبأجمل بيت في الأرض بلا سكينة أشقى إنسان، أنت مع المال القليل والسكينة أسعد إنسان، ومع الدخل الفلكي بلا سكينة أشقى إنسان، سعادتك بالسكينة، لأن السكينة أكبر عطاء إلهي لك في الدنيا، والسكينة ليس لها علاقة لا مكان، ولا بزمان، ولا ببيئة، ولا ظروف صعبة، وعد الله عز وجل فوق كل الظروف، وفوق كل المعطيات، فآية اليوم:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (24-70):شرح الآية 28 ، أوصاف المشركين تشير إلى أوصاف النفس.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-10-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين إنسان نفسيته ملوثة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الأوصاف التي وصف بها المشركون قد تشير إلى أوصاف النفس، فالإنسان الذي يريد أن يبني مجده على أنقاض الآخرين، أو أن يبني حياته على موتهم، أو غناه على موتهم، أو عزه على ذلهم، هذا إنسان نفسيته نجسة، أي ملوثة، ملوثة بالشهوات، فالإنسان له نفس، وله عقل، وله جسم، الجسم وعاء النفس، والعقل جهاز استشاري، لكن ذات الإنسان نفسه التي بين جنبه، والتي خاطبها الله عز وجل:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)

[سورة الفجر]

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

أي أنت أيها الإنسان ينبغي أن تعلم علم اليقين مقومات وجودك، نفسك ذاتك أي أنت، أنت الذي تسعد، وأنت الذي تشقى، أنت الذي ترقى، وأنت الذي تسقط، أنت الذي ترتفع عند الله، وأنت الذي تنخفض، أنت الذي تخلد في جنة لا يزول نعيمها، أو تشقى في نارٍ لا ينفد عذابها، هذا الجسم وعاء كالثياب الذي ترتديها، حينما يموت الإنسان تنفصل نفسه عن جسمه، والروح التي كانت تمده بالحياة تتوقف، عند الموت يتوقف الإمداد الإلهي، فتنفصل النفس عن الجسم، الجسم يفنى في التراب، في القبر، والنفس إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

لذلك إذا خاطب الله الإنسان يقول:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)

الدنيا محدودة بأيام فهي صفر بالنسبة للآخرة :

الآيات التي يخاطب الله بها نفس الإنسان هي الآيات التي يخاطب الله بها ذات الإنسان، هناك أشياء ملحقة عند الموت تزول عنك، فالروح قوة الإمداد تتوقف، الجسم وعاء النفس ينفصل، أما تبقى هذه النفس خالدة إلى أبد الآبدين، إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

أخواننا الكرام، يجب أن يعلم المؤمن علم اليقين ماذا يعني الأبد؟ الأبد لا نهائي، وكلمة لا نهاية مهما استطاع العقل البشري أن يستوعبها لا يستوعبها، واحد أمامه صفر عشرة، صفر آخر مئة، صفر ثالث ألف، صفر رابع عشرة آلاف، صفر خامس مئة ألف، صفر سادس مليون، صفر سابع عشرة ملايين، واحد على هذا الحائط وأصفار إلى الحائط الثاني، كم الرقم؟ واحد على هذا الحائط وأصفار إلى قمة جبل قاسيون، إلى حلب، إلى موسكو، إلى القطب، إلى القطب الجنوبي، كم هذا الرقم؟ واحد في الأرض وأصفار إلى الشمس، 156مليون كيلومتر، كل ميلي صفر، كم هذا الرقم؟! أي رقم مهما يكن فلكياً إذا نسب إلى اللانهاية فهو صفر، واحد في الأرض وأصفار إلى الشمس إذا نسب هذا الرقم إلى اللانهاية أي وضع صورة وفي المخرج لانهاية فقيمة هذا الرقم صفر.

فالدنيا لا شيء، لو كنت فيها أغنى الأغنياء، لو كنت فيها أقوى الأقوياء، مادامت الحياة في الدنيا محددة بأيام إذاً هي صفر.

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ـ لأنه مؤقت ـ ولم يحزن لشقاء ـ لأنه مؤقت ـ قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

العاقل من أطاع الحي الذي لا يزول :

أخواننا الكرام، من الضروري جداً أن تعلم ماذا يعني الأبد؟ ماذا يعني قوله تعالى:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

[سورة الطلاق الآية:11]

بالتعبير الرياضي المعاصر الأبد يعني اللانهاية، أي رقم تتخيله في الدنيا، واحد في الأرض وأصفار إلى أبعد مجرة في الكون، صفر، تملك كما يملك بعض الشباب في أمريكا؟ بيلكيت يملك تسعين ملياراً دولار، لو كنت تملك تسعين مليار دولار، لو كنت تملك ثروات الأرض، لو استمتعت بكل شيء في

الدنيا، لو عمرت مليار سنة، أي رقم ينسب للانهاية فهو صفر، فأنت قبل أن تفكر في طاعة الله هل تعلم من تطيع؟ تطيع الحي الذي لا يزول، الباقي على الدوام، تطيع خالق الأكوان، تطيع من إليه المصير.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية:123]

يجب أن تعلم أنت مع من؟.

أغبى إنسان من يقف في خندق معاد للحق لأن الحق هو الله عز وجل :

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ)

[سورة التحريم الآية:4]

حفصة وعائشة، امرأتان شابتان:

(وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم الآية:4]

ما معنى الآية؟ أيعقل من أجل امرأتين لهما الرأي في موضوع ما،

(وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

قال بعض علماء التفسير: من أجل أن يعلم الإنسان إذا أراد أن يقف في خندق آخر غير خندق الحق، أنت من تواجه؟.

بحياتنا اليومية، أنت مواطن، هناك مواطن له وظيفة كبيرة في الدولة، تعد للمليون قبل أن تخاصمه، لأنه مركبٌ في أعماقك أن الدولة كلها وراءه.

فأنت حينما تفكر أن تقف في خندق آخر غير خندق الحق، أنت تواجه من؟ تواجه خالق السماوات والأرض،

(وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

أنا لا أرى أغبى ممن يقف في خندق معاد للحق، الحق هو الله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية:123]

البطل من عرف الله عز وجل و اتبع أوامره :

أنت تخاصم إنساناً نداً لك، أما أن تخاصم خالق السماوات والأرض، أن تتحدى خالق السماوات والأرض، أن تعصي خالق السماوات والأرض جهاراً نهاراً، قلبك بيده، الشريان التاجي بيده، الدسامات

بيده، عضلة القلب بيده، رئتاك بيده، سمعك، بصرك، حركتك، أكبر إنسان على وجه الأرض نقطة دم لا ترى بالعين، إذا تجمدت في أحد أوعية الدماغ، الإنسان يصاب بالشلل، في مكان بالشلل، في مكان بالعمى، في مكان يفقد ذاكرته، ما هذا الإنسان؟ هذا الدماغ الذي فيه 140 مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد، هناك أوعية دموية بالغة الدقة قطرة دم كرأس الدبوس لا ترى بالعين إن تجمدت أصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، أنت في قبضته، حياتك بيده، رزقك بيده، سعادتك بيده، شقاؤك بيده، أهلك بيده، أولادك بيده، من حولك بيده، من فوقك بيده، من تحتك بيده، مصيرك بيده، لذلك من هو البطل؟ الذي عرف الله.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

الإيمان يقتضي أن تتوجه إلى الله وحده وأن تعبده وحده وأن تطيعه وحده :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

إنسان ترك خالق السماوات والأرض واتجه إلى إنسان، أراد أن يرضيه، توهم أن هذا الإنسان ينفعه أو يضره، توهم أن هذا الإنسان يعليه أو يخفضه، توهم أن هذا الإنسان يعطيه أو يمنعه، أوهام كلها، أوهام شركية.

لذلك: "الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، وأن تبغض على عدل".

الشرك حينما تتوهم أن مصيرك بيد فلان، هذا شرك أكبر، لو أن حياتك بيده، موتك بيده، أن تعلو في الأرض بيده.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف]

ملخص الملخص: لو ضغطت الدين كله بكلمة واحدة ليس إلا الله، حقيقة وحيدة، بيده كل شيء، إليه مصير كل شيء، فإذا عرفته عرفت كل شيء، وإن ابتعدت عنه ابتعدت عن كل شيء.

لذلك الدين ليس فيه حالة وسط، الإيمان يقتضي أن تتوجه إلى الله وحده، وأن تعبده وحده، وأن تطيعه وحده، وأن ترضى بقضائه وحده، وأن تتكل عليه وحده، وأن تسعد بقربه وحده، هذا الدين، والإنسان يسعد بقدر ما يوحد، ويشقى بقدر ما يقع في الشرك الخفي.

((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوة خفية وأعمالاً لغير الله))

[أخرجه البزار عن عبد الرحمن بن غنم]

راقب نفسك، أنت حينما تفكر أن ترضي زيداً، لأن زيداً قوي، وقد يخصك بوظيفة وقعت في الشرك الخفي، وحينما تفكر أن تزور عبيداً لمصلحة تتوهمها، وقعت في الشرك الخفي، أمرك جملةً وتفصيلاً بيد الله، رزقك بيد الله، سعادتك بيد الله، زواجك بيد الله، أولادك بيد الله، من هم فوقك بيد الله، من هم تحتك بيد الله، نجاحك في العمل بيد الله، هذا هو التوحيد، التوحيد:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

من أطاع مخلوقاً و عصى خالقاً فقد خسر الدنيا و الآخرة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

أنا لئلا أقع في الوهم الكبير ليس بالعالم الإسلامي كله إنسان يجرؤ أن يعبد بوذا، نحن ليس عندنا في عالمنا الإسلامي شرك جلي، لكن المسلمين وقعوا في شركٍ خفي، والخفي أخطر، الشرك الجلي نادر غير موجود، أما الشرك الخفي فمنتشر بعدد كبير جداً، وكل إنسان يطيع مخلوقاً ويعصي خالقه وقع في الشرك، وحينما تضغط عليك زوجتك من أجل عمل لا يرضي الله، وتستجيب لها، فأنت لا تقول في الصلاة الله أكبر، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، لأنك توهمت أن إرضاء الزوجة في معصية الله أكبر عندك من رضاء الله، حينما ترضي شريكاً باستيراد بضاعة محرمة والأرباح طائلة، حينما تقبل بهذا الاستيراد لبضاعة محرمة وأرباحها طائلة، وأنت قمت للصلاة وقلت: الله أكبر، أنت ما قلت الله أكبر، رأيت هذا المبلغ الحرام الذي سيأتيك من هذه الصفقة أكبر عندك من طاعة الله، كلام دقيق وخطير، أنت حينما ترضي مخلوقاً في معصية الله، ما قلت الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، ترداد الكلمات لا يقدم ولا يؤخر، أصبحت جزءاً من عاداتنا وتقاليدنا، بالعيد الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، شيء جميل، لكن هذا الذي يرتكب معصية إرضاء لفلان، ما قالها ولا مرة، لأنه رأى أن إرضاء فلان أكبر عنده من إرضاء الله، هذا ملخص الملخص.

فيا أيها الأخوة،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ)

هؤلاء تعلقوا بما سوى الله، تعلقوا بأشخاص أقوياء، أو تعلقوا بأشخاص أغنياء، أو تعلقوا بأشخاص توهموا أن الخير عندهم ـ خير الدنيا طبعاً ـ أطاعوهم في معصية، هؤلاء ما كبروا، ولا وحدوا، ولا قالوا الله أكبر ولا مرة ولو رددوها بألسنتهم ألف مرة.

على كل إنسان أن يبتعد عن المشركين لأنهم لا يقيمون وزناً لله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجسٌ)

معنى نجس؛ هناك تعبير دقيق جداً تقول: هذا الشيء نجس، معنى نجس: أي أصابتهم نجاسة، لكن جوهره طاهر، لكن لحقت به نجاسة، وأنت إذا غسلته سبع مرات إحداهن بالتراب يطهر، فالشيء النجس يطهر، أما عين النجاسة هل تطهر؟ على هذا الثوب نجاسة مغلظة، هذه النجاسة هل تطهر؟ هي عين النجاسة لا تطهر، فالله عز وجل لم يقل إنما المشركون نجسون قال:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

هم عين النجاسة، أي البعد عن الله يستلزم اللؤم أحياناً، الحقد، أن تأكل ما ليس لك، أن تستعلي على خلق الله، أنت حينما تبتعد عن الله، وتؤله شخصاً من بني البشر تعبده من دون الله، من لوازم الشرك أن تعتدي على الآخرين.

أيها الأخوة،

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

طبعاً هذه الآية لها منطوق ولها مفهوم، المفهوم: لا تقم علاقة حميمة مع مشرك، لا تقم معه شراكة اندماجية، هناك علاقات حميمة منها الزواج، منها الشراكة، فإقامة علاقة حميمة مع مشرك تقع معه في متاهات كثيرة، هو لا يرى الله عز وجل، يرى عبد الله، يرى زيداً أو عبيداً، لا يرى أن الرزق يجب أن يكون وفق منهج الله، يقول: هذه الصفقة فيها ربح طائل، تغتني إلى نهاية الحياة، ولا يعبأ كثيراً بأنها صفقة مشروعة أو غير مشروعة، فالعلاقة مع إنسان مشرك، لا يقيم وزناً للدين، لا يقيم وزناً لطاعة الله، لا يعبأ بمنهج الله، علاقة متعبة كثيراً.

لذلك:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

بالمعنى العام زوجته في مشكلة، يدعو رفاقه إلى البيت، وزوجته شابة في ريعان الشباب، وجميلة، وأصدقاءه شباب ملؤوا أعينهم من محاسنها، ابحث بموضوع الخيانة الزوجية بحث علمي، تجد أن تسعين بالمئة من الخيانة الزوجية سببها الاختلاط، يقول لك: روح رياضية.

أول خطبة ألقيتها في هذا المسجد كانت عام أربعة و سبعين و تسعمئة و ألف، في صحن المسجد، تقدم مني رجل في الخامسة و الخمسين أو في الستين، وصار يبكي، فآلمني هذا جداً، و سألته عن سبب بكائه؟ قال لي: زوجتي تخونني، قلت له: مع من؟ قال لي: مع جارنا، قلت له: كيف تعرفت عليه؟ قال لي: مرة زارنا الجار، فطلبت منها أن تجلس معنا لأنها تجلس بمفردها، فجلست معه، يبدو أن الجار قد

استلطفها فأدار حواراً معها، هو جار بنفس الطابق، العلاقات نمت بينه وبينها، انتهى الأمر إلى خيانته، قلت له: أنت لو حضرت درس علم واحد، وعلمت من هذا الدرس أن الاختلاط حرام ما وقعت في هذا المطب الكبير.

ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله :

أخواننا الكرام، ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان.

مرة زارني أخ كريم عُيّن مدير سجن في عدرا، قدم لي كتاب هدية، قرأت الكتاب تأثرت به كثيراً، ذكر لي ثلاثاً و ستين حالة عنده في السجن، ثلاث و ستون جريمة، حلل هذه الجرائم تحليلاً إسلامياً كل جريمة سببها مخالفة كبيرة لمنهج الله.

مرة جلست جلسة مع أخ، قال لي: أنا قاض جنائي، رحبت به، فقال لي: كنت تلميذك سابقاً، فقلت له: أهلاً وسهلاً، قال لي: قبل أيام أصدرت حكماً في جريمة، طبعاً سهرة لرجال، دخلت الزوجة وقدمت الضيافة، يبدو أنها بارعة الجمال، فأحد الأصدقاء طرق البيت ليلاً، ودخل إلى غرفة الزوج وذبحه ـ تمّ إعدامه قبل فترة ـ ثم زنى بامرأته، وقال لها: أنا خدرته، فلما خرج من البيت، ذهبت إلى الغرفة الثانية لترى زوجها فوجدته مقسوماً إلى قطعتين، رأسه قطعة، و جسده قطعة أخرى، قال لي: هذا تمّ إعدامه، أي لولا أن هذه الزوجة دخلت لتقديم الضيافة لما كان هناك جريمة.

لو تتبعت أي مشكلة كبيرة جداً لوجدت أنها بسبب خروج عن منهج الله، و بسبب التفلت، والتعري، وإظهار المفاتن، لو تتبعت الجرائم الجنسية، أو الخيانات الزوجية، ولا أبالغ أن خمسة و تسعين بالمئة منها بسبب الاختلاط، اختلاط مع التعري.

فلذلك،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ)

المشرك خضع لتقاليد وعادات ما أنزل الله بها من سلطان، أنا مع العادات والتقاليد إذا كانت موافقة لمنهج الله، ولست معها إطلاقاً إذا خالفت لمنهج الله.

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

ما من مخالفة لمنهج الله عز وجل إلا بسبب الجهل :

أخواننا الكرام، مرة ثانية: أريد أن أؤكد هذه الحقيقة ما من مشكلة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بسبب مخالفة لمنهج الله، وما من مخالفة لمنهج الله إلا بسبب الجهل والجهل أعدى أعداء الإنسان، عندنا أعداء تقليديون مثلاً الصهيونية، الاستعمار، وهناك قائمة طويلة عريضة، أقول لكم: العدو الأول لنا جميعاً هو الجهل، لأن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، ولو درست الأمور دراسة متأنية علمية لرأيت أنه ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب مخالفة لمنهج الله، وما من مخالفة لمنهج الله إلا بسب الجهل، أنت حينما تأتي إلى مجلس علم، القضية أبعد من أن تكون درس ممتع، والدنيا شتاء، والليل طويل، الأمر أبعد من هكذا بكثير، هذا الدرس مصيري أي يمكن أن يقع الإنسان في خطأ كبير بسبب جهله، وهذا الخطأ سبب دماره، هناك أشياء مصيرية، وأشياء غير مصيرية، فالإنسان أحياناً يخالف القانون هناك غرامة يدفعها، لكن أحياناً يرتكب جريمة قتل لم يعد الأمر موضوع غرامة، صار إعدام، فهذا العمل مصيري، أي هذا العمل أنهى حياتك، فهناك أعمال بسبب الجهل قد تسبب دمار إنسان، قد تسبب إفلاسه، قد تسبب انهيار بيته، فأنت حينما تحضر مجلس علم لتعرف منهج الله، هذا الكتاب تعليمات الصانع، أنت أعقد آلة في الكون، ولهذه الآلة بالغة التعقيد التي هي أنت صانع حكيم، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة، فقراءة التعليمات حفاظاً على سلامتك وعلى سعادتك، صدق ولا أبالغ، أنت حينما تتعلم كتاب الله وسنة رسوله تكون في طريق سلامتك وسعادتك.

منهج الله عز وجل ليس حداً لحرية الإنسان إنما هو ضمان لسلامته :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

عقيدتهم نفعية فقط، عقيدتهم متعلقة بالدنيا فقط، عقيدتهم تسمح لهم بالنفاق، تسمح لهم بالمعاصي والآثام، عقيدتهم تقيم للشهوة المقام الأول، عقيدتهم تقيم للانحراف إن نتج عنه مكسب مادي مقبول، مقبول الانحراف، مقبول التعاون على معصية، مقبول كل شيء مادام يحقق ربحاً كبيراً.

لذلك لا أقول هذا من ميزات أهل الدنيا، أحياناً الطرف الآخر البعيد عن الله عز و جل مناورته واسعة جداً لأنه لا يوجد عنده شيء حرام، والله سمعت بالعالم الغربي البعيد عنا، أن بعض الشركات حتى يأخذ صاحبها الوكالة يقدم لهم زوجته ليأخذ الوكالة، لا يوجد قيود، المؤمن مقيد بمليون قيد، مقيد بمنهج الله، بالحلال والحرام، هذه القيود، ليست حداً لحريتكم أبداً، ولكنها ضمان لسلامتكم.

تريد أن أقيم لك مثلاً صارخاً؟ تمشي أنت في مكان جميل، بساتين، عصافير، الوقت ربيع، الأشجار كلها مزهرة، و هناك لوحة مكتوب عليها: ممنوع التجاوز حقل ألغام، بربك هل ترى هذه اللوحة حداً لحريتك أم ضماناً لسلامتك؟ في اللحظة التي تعلم بها علم اليقين أن هذه اللوحة ضمان لسلامتك فأنت فقيه ورب الكعبة، وفي أي لحظة تتوهم فيها أن هذه اللوحة حدٌ لحريتك فأنت لا تعرف شيئاً.

أوامر الدين ليست حداً لحريتك بل هي ضمان لسلامتك، كم خيانة زوجية سببها الاختلاط؟ تكون زوجة صالحة وجيدة، وعندك أولاد منها، تحبها وتحبك، عندما صار هناك اختلاط دخل الشيطان، صار هناك إغراءات، وعدها بحياة غير هذه الحياة، اتجهت إليه، تشاكست معك طلقتها التحقت به، أنت السبب، أنت المذنب الأول، لذلك من أراد إنفاذ أمر فليتدبر عاقبته.

من ترك شيئاً لله عوضه الله عنه أضعافاً مضاعفة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

عقيدته، تصرفاته، مبادئه، قيمه، حالاته، أحواله، كلها بعيدة عن الطهر، والعفاف، والنقاء.

(فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

أي فقراً،

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

حينما تدع شيئاً لله الله جل جلاله سيعوضك عنه أضعافاً مضاعفة.

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

أي شيء محرم اركله بقدمك ولا تفكر بالميزات المادية التي فاتتك، فاتك معصية الله، الله عز وجل يراك كيف آثرت طاعته على مبلغ كبير، لذلك الحديث أتمنى أن يكون محفوظاً عندكم:

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (25-70) : تفسير الآية 29 ، التجديد في الدين هو ألا نزيد عليه وألا نحذف منه بل أن ننزع عنه كل المصالح الدني

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-10-26

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهاد ليس فرضاً أحادياً إنما هو فرض من قبل أولي الأمر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية التاسعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

أولاً: قضية الجهاد ليست فرضاً على آحاد المسلمين، والذي يقرر الجهاد هم أولو الأمر، ليس فرضاً أحادياً، هذا الفرض من قبل أولي الأمر، وهذه حكمة بالغة، والدليل أن الصحابة الكرام حينما كانوا في مكة مُنعوا من القتال.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

[سورة النساء الآية:77]

عندما صار هناك كيان للمسلمين صار هناك دولة، صار هناك كيان مستقل، الآن هذا الأمر موجه لهذا الكيان المستقل.

المنهج الإسلامي منهج رائع يستخدم الهدى البياني :

المنهج الذي جاء به الإسلام لنشر هذا الدين منهج رائع، أولاً: هذا الدين يستخدم الهدى البياني، أنا أدعوك إلى معرفة الله، وإلى طاعته، وإلى اتباع سنة نبيه، وإلى العمل الصالح، بل إلى التقرب إلى الله بالعمل الصالح، فقط، دعوة بيانية، الهدى البياني، هذا الإنسان الذي دُعي إلى الله فإذا آمن بالله، له ما لنا وعليه ما علينا، لا يوجد أي فرق، هذا الذي دعوته إلى الله واستجاب لك، له ما لك وعليه ما عليك، لكن العالم الآن مما يعاني؟ يعاني من مرض أصاب معظم الأمم والشعوب، مرض العنصرية، معنى العنصرية أنك ترى لنفسك ما ليس لغيرك، وأن على غيرك ما ليس عليك، للتقريب: بلد عنده ثلاثمئة رأس نووي إلى جوارنا، أما بلد آخر إذا فكر بمفاعل سلمي تقوم الدنيا ولا تقعد، لماذا تسكتون عن هذا الكيان الذي عنده ثلاثمئة رأس نووي وهذا الذي فكر بمفاعل نووي سلمي تقوم الدنيا ولا تقعد؟ هذا

الموقف عنصري، فالغرب يرى لنفسه ما ليس لنا، من حقه وحده أن يمتلك السلاح النووي، أما أي كيان آخر من العالم الثالث، أو من العالم الإسلامي -الحقيقة سموه العالم الثالث تطييباً لقلوبنا، سموه الدول النامية تطييباً لقلوبنا- أي بلد آخر إسلامي يفكر بمفاعل، تقوم الدنيا ولا تقعد، هذه هي العنصرية، له ما ليس لنا، وعلينا ما ليس عليه، هو يقصف، يقتل الآلاف، ولا أحد يتكلم بكلمة.

العنصرية :

أخواننا الكرام، لعلكم تذكرون أن حرب غزة قتل فيها ألف وخمسمئة طفل وامرأة بأحدث أسلحة بالعالم، بالأباتشي، وf16 ، عقد مؤتمر في مصر عقب هذه الحرب، أنا تابعت الخبر بدقة، التوصية الوحيدة، جاء الغرب المتحضر، البلاد الديمقراطية التي تحترم الإنسان، جاؤوا إلى مصر وعقدوا مؤتمراً عقب حرب غزة، التوصية الوحيدة عدم إيصال السلاح للمقاومة فقط، أما ألف وخمسمئة طفل وامرأة يموتون بلا ذنب؟!.

العالم عنصري، ما العنصرية؟ أن ترى لنفسك ما ليس لغيرك، وأن ترى على غيرك ما ليس عليك، أضرب أمثلة حتى تتوضح المسألة، جاءنا رئيس أمريكي، برنامج زيارته: دمشق، الكيان الصهيوني، رام الله، واضحة، ثلاث عواصم، أما رابع بند فزيارة أهل الأسير الإسرائيلي، ولنا عند اليهود أحد عشر ألفاً و ثمانمئة أسير، ما خطر في باله أن يختار أسرة من أسر هؤلاء الأسرى ليزورها بالتوازي.

أخواننا الكرام، الغرب يرى لنفسه ما ليس لغيره، ويرى علينا ما ليس عليه، هذا الموقف عنصري، والعنصرية تبدأ بزوج يتهكم على أم زوجته مرتاح، فإذا تكلمت زوجته على أمه كلمة أقام عليها الدنيا، أنت عنصري، كما أنها أمك هي أمها، احفظوا هذه القاعدة: حينما تتوهم أن لك ما ليس لغيرك، وأن على غيرك ما ليس عليك، هذا الموقف عنصري، يبدأ من زوج وينتهي بحق الفيتو في مجلس الأمن، لماذا خمس دول إذا قالوا لا يلغى القرار؟ إذا كان هناك عضو من أعضاء مجلس الأمن يوالي الكيان الصهيوني، أي قرار سيصدر، يستخدم بحق الفيتو، فيلغى القرار، لماذا خمس دول بالعالم إن قالت إحداهن: لا، ألغي القرار؟

أنا أقدم هذه المقدمات كي تعلموا أن الإنسان مكرم عند الله، وأن الإنسان المؤمن يدعو إلى الله، لكن إذا قبل هذا المدعو صار له ما لنا وعليه ما علينا، فإن آمنوا فإخوانكم في الدين.

من علامات قيام الساعة الأعور الدجال وهو أعور يرى مصلحته ولا يرى مصلحتك :

أخواننا الكرام، الأمر بالجهاد متعلق بأولي الأمر فقط، لا يقدر مسلم من آحاد المسلمين أن يقرر الجهاد وحده، هذا الشيء مرفوض، هذه أحكام مربوطة بأولي الأمر.

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

هؤلاء الذين ما آمنوا بالله، آمنوا بالطاغوت، هؤلاء الذين يخاطبون لم يؤمنوا بالله، آمنوا بالدنيا، آمنوا بمصالحهم.

لذلك ورد في بعض الأحاديث من علامات قيام الساعة الأعور الدجال، أعور يرى مصلحته ولا يرى مصلحتك، يرى كرامته ولا يرى كرامتك، يرى حقه بالحرية ولا يرى حقك، يرى حقه بامتلاك سلاح نووي ولا يرى حقك، اسمه أعور، يرى بعين واحدة، والدجال يتكلم كلاماً بخلاف الواقع.

بدولة مجاورة لنا، احتلتها بلدة تعرفونها جميعاً، مليون قتيل، مليون معاق، خمسة ملايين مشرد، لماذا جاؤوا؟ قال: من أجل الحرية، شيء جميل والله! أنا سمعت أنه في رواندا في إفريقيا تمّ ذبح ثمانمئة ألف في أسبوع، وسمعت تعليقاً لرئيس من كبرى دول الغرب قال: كان بإمكاني أن أحقن دماء أربعمئة ألف، ولكنني لم أفعل، مذبحة أودت بحياة ثمانمئة ألف بجنوب إفريقيا بأسبوع، قال: كان بإمكاني أن أحقن دماء أربعمئة ألف، لكنني لم أفعل، لأن هناك لا يوجد بترول، أما على وهم وجود سلاح شمولي في دولة مجاورة، جاءت ثلاثين دولة، أما تصريح وحيد، قال قائد القوات في هذه الدولة المعتدى عليها: جئنا من أجل النفط فقط.

الإنسان لن يستمسك بالعروة الوثقى إلا إذا كفر بالطاغوت :

لذلك هؤلاء الذين يرون لهم ما ليس لغيرهم، وعلى غيرهم ما ليس عليهم، هؤلاء الذين يبيدون البشر.

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

ماذا نسميها؟ أزمة الشرق الأوسط، أما احتلال و قتل، أنا أقول لكم: والله الذي لا إله إلا هو ما لم نكفر بالطاغوت لن نؤمن بالله، والدليل:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة الآية:256]

لن تستمسك بالعروة الوثقى إلا إذا كفرت بالطاغوت، أن ترى حضارتهم، وإنسانيتهم، ورقتهم، وأخلاقهم، وآدابهم، هذه يقتضي أن تبتعد عن الدين بقدر ما تقترب منه، لذلك هؤلاء الذين ما آمنوا بالله،

آمنوا بالمادة، آمنوا بمصالحهم، ثأروا لكرامتهم ولم يثأروا لكرامة الآخرين، ثأروا لمصالحهم التي هددت ولم يرعوا مصالح الآخرين:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

والله أيها الأخوة، لماذا أفعل هذا؟ لا أدري، لكن ما التقيت بإنسان من دولة مجاورة إلى جانبنا احتلت إلا قلت له: لكم فضل علينا لأن مقاومتكم أعطت المستعمر درساً لا ينساه، والآن الغرب يعد للمليون قبل أن يحتل بلداً إسلامياً بقدر ما كان هناك شجاعة و إقدام.

على كلٍّ القضية تحتاج إلى دقة، من الذين أمرنا أن نقاتلهم؟ ليس أفراد الناس، هؤلاء الذين منعوا حق الحرية للإنسان، الحرية حق، ينبغي أن تتخذ قراراً في شأن دينك، أنت حر به، أما الذي يمنعك من هذه الحرية فهذا ينبغي أن تنطبق عليه هذه الآية:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

اقتران الإيمان بالله مع الإيمان باليوم الآخر في القرآن الكريم :

والعجيب أن القرآن ما ذُكر فيه إيمان بالله إلا اقترن مع الإيمان باليوم الآخر، لماذا؟ قال: الإيمان بالله كل شيء فيه آيةٌ تدل على أنه واحدٌ، أما اليوم الآخر فيجب أن تعتقد أنه حينما تعتدي على أخيك لا بدّ من أن يقتص منك في يوم ما، لهذا أنا أقول: ما من قطرة دم تراق في العالم كله، من آدم إلى يوم القيامة، إلا وسيسأل عنها إنسان، عدم دقة بالقصف، مات مئة شخص، هناك حساب بليغ.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

خطأ بالقصف، خطأ بالتقدير، شظية طائشة، ما من قطرة دم تراق على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة، إلا وسيسأل عنها إنسان، قال العلماء: إلا دم القتيل بحدٍّ، إنسان قتل فقتل، دم القتيل بحد يتحمله الله وحده يوم القيامة، المقتول بحدٍّ، أي قتل فقتل، فالقاضي الذي حكم بقتله لا يتحمل دمه، من يتحمل دمه؟ خالق السماوات والأرض، لأنه قتل بحق.

لذلك يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً، الآية الكريمة:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

على المؤمن أن يفرح إذا انتصر إنسان مؤمن بالله على إنسان وثني يعبد النار :

الحقيقة فرق كبير بين أهل الكتاب وبين المشركين، المشرك ما آمن بالله أصلاً، آمن بأوثان، آمن بأصنام، قال تعالى:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

[سورة الزمر الآية:3]

لكن أهل الكتاب لهم وضع آخر، والدليل قوله تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

[سورة الروم]

لما غلبوا تألم الصحابة، لماذا تألموا؟ هناك سؤال، لماذا تألم الصحابة حينما غلبت الروم؟ لأنهم نصارى، ولأنهم أهل كتاب، ولأنهم آمنوا بالله، إذاً هناك قواسم مشتركة، لذلك لما وعد الله بنصرهم ماذا قال:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم]

معنى هذا إذا كان إنسان بينك وبينه قواسم مشتركة، يجب أن بينك وبينه علاقة من نوع آخر، أنا أتكلم بالقرآن:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

قال بعض العلماء: أدنى الأرض فيها إعجاز علمي، لأنه الغلبة كانت في غور فلسطين، وفي غور فلسطين أخفض نقطة على سطح الأرض،

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ)

[سورة الروم]

بضعة من سنة إلى تسع، دقق،

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

المؤمنون من هم؟ من المعنيون بهذه الآية؟ الصحابة الكرام وعلى رأسهم النبي الكريم،

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

معنى ذلك إذا إنسان بينك وبينه قواسم مشتركة كبيرة وانتصر ينبغي أن تفرح، إذا انتصر إنسان مؤمن بالله ومعه كتاب على إنسان وثني يعبد النار ألا ينبغي أن تفرح؟

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

أدنى الأرض فيها إعجاز علمي،

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ)

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

[سورة الروم الآية: 4]

أما الشاهد

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

المؤمنون هم الصحابة الكرام، بنصر الله بانتصار الروم على الفرس.

النبي الكريم

لولا أنه نبي مرسل معه وحي السماء ما كان له أن يأتي بالأخبار :

شيء آخر: هذا النبي الكريم الذي عاش بالصحراء- عاش في مكة- من أين له هذه الأخبار لولا أنه نبي كريم جاء بأخبار كثيرة؟

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

[سورة مريم الآية:44]

معنى هذا أن النبي الكريم جاء بأخبار كثيرة عن التاريخ البشري، لولا أنه نبي مرسل معه وحي السماء، ما كان له أن يأتي بهذه الأخبار.

كلام النبي الكريم ليس من اجتهاده إنما هي وحي يوحى :

أيها الأخوة الكرام، بهذه الآية إعجاز إخباري، أنت الآن إذا كان هناك حرب نشبت بين فئتين في العالم، هل تقدر أن تقول: سينتصر فلان؟ مغامرة كبيرة، أنت تغامر بعلمك، بمكانتك، فكيف يتلو النبي الكريم هذه الآية لولا أنه واثق أن هذا القرآن من عند خالق السماوات والأرض؟ لأنه أخبر الصحابة الكرام بأن الروم سينتصرون في بضع سنين، فإن لم ينتصروا فهناك مشكلة كبيرة، إن تصالحوا فهذه مشكلة أكبر، هذا ليس نبياً، إذاً:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

فكلام النبي الكريم إن في الوحي المتلو - القرآن - أو في الوحي الغير متلو – السنة - ليس من عنده، ولا من اجتهاده، ولا من تصوره، ولا من خبرته، وليس من إبداعه، وليس من معطيات عصره، النبي إن هو إلا وحي يوحى، لذلك نقول: الوحيان الكتاب والسنة، سيدنا الصديق أخبره أخدهم أن تعال اسمع

صاحبك، ذهب إلى بيت المقدس، وعرج إلى السماء، وعاد وفراشه لا يزال ساخناً، قال: هو قال هذا؟ قال: نعم، قال: إذاً صدق.

"ثلاثة أنا فيهن رجل و فيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى".

وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في الآية إعجاز إخباري :

أيها الأخوة، في الآية إعجاز إخباري، وفعلاً في بضع سنين، قيل: بعد سبع سنين وقيل: بعد تسع سنين، انتصر الروم على الفرس، هذه الآية:

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

لم تقع، وقت نزول الآية لم تقع، إخبار مستقبلي، كم هي ثقة النبي بهذا القرآن؟ النبي حينما ترك مكة المكرمة إلى الطائف ليدعو أهلها، أهل الطائف كذبوه، وسخروا منه، بل وأغروا صبيانهم بإلقاء الحجارة عليه، وعاد إلى مكة، يقول له سيدنا زيد: يا رسول الله، كيف تعود إلى مكة وقد أخرجتك؟ فقال له النبي الكريم كلمة: إن الله ناصر نبيه.

هذا الإيمان، النبي الكريم في الهجرة تبعه سراقة ليقتله، ويأخذ مئة ناقة التي أعدت لمن يأتي به حياً أو ميتاً، اقترب من رسول الله، غاصت قدما فرسه في الرمل، فوقع، ثم غاصت مرة ثانية وثالثة، علم سراقة أنه ممنوع من هذا الرجل، فقال له النبي الكريم: يا سراقة كيف بك إذا لبست سوار كسرى؟ والله كلام لا يصدق، أن إنساناً مهدور دمه، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يعد الذي تبعه بسوار كسرى، كان لسان حال النبي الكريم أنني سأصل إلى المدينة سالماً، وسأحارب أقوى دولتين في العالم، دولة الروم، وكسرى، وسأنتصر عليهما، وسوف تأتيني كنوز كسرى، ولك يا سراقة سوار كسرى، ما قولك؟.

الآن للتقريب: دولة ضعيفة جداً، من دول العالم الثالث، صغيرة، بشرق آسيا، صغيرة جداً، ضعيفة جداً، نقول لواحد فيها: سوف يكون مكانك في البيت الأبيض، كلام مضحك، يا سراقة! بالصحراء يلاحق النبي الكريم ليأخذ مئة ناقة، يقول له: يا سراقة كيف بك إذا لبست سوار كسرى؟ في عهد عمر فتحت بلاد كسرى، وجيء بالكنوز و وضعت في المدينة، تروي بعض الروايات: أن صحابيين وقفا على طرفا الكنوز ورفع كل منهما رمحه للأعلى فلم يرَ الأول رمح الثاني، ولم يرَ الثاني رمح الأول، جاء سيدنا عمر قال: أين سراقة؟ جيء بسراقة وألبسه بيده سوار كسرى، وقال: بخ بخ، أعرابي من بني مدلج، يلبس سوار كسرى.

أنت مع من؟ مع خالق الأكوان، مع الواحد الديان، مع الذي إذا قال لشيء كن فيكون، إذا كنت مع الله فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟.

الحق هو الشيء الثابت والهادف أما الباطل فشيء زائل و غير ثابت :

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)

الخمرة تغتال العقول، وطعمها ليس مستساغاً، حينما ترى إنساناً يشرب الخمر يسرع في بلع ما شرب، طعمها ليس مستساغاً، لا فيها غول، أي لا تغتال العقل، ومع ذلك:

(وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ)

ما هو الحق؟ للتقريب: أنت أحياناً تقيم معرضاً، أو تقيم سيركاً، ويمكن أن تقيم بيوتاً من كرتون، ولكن إن أردت أن تقيم جامعة، هذه الجامعة وجدت لتبقى لمئات السنين، هناك جامعات بالغرب من خمسمئة عام، لذلك الجامعة شيء، والسيرك شيء آخر، السيرك يقام لمدة أسبوعين، قد يكون البيت خيمة، و قد يكون من صفائح خشب بسيطة جداً، أما الجامعة فيجب أن تكون بناء يعيش مئات السنين.

الحق الشيء الثابت والهادف، أكثر من مئة آية:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

[سورة الأنعام الآية:73]

ما هو الحق؟ الشيء الثابت والهدف، الجامعة وجدت لتبقى، لأن لها رسالة كبيرة جداً، تخريج قادة أمة، أطباء، صيادلة، محامون، مهندسون، الجامعة وجدت لتبقى، إذاً بناؤها بناء قوي ومتين، ودائم هذا كله للتقريب، الحق ثابت هادف، الباطل عكس الحق ليس ثابتاً وزائلاً، والحق والباطل الله عز وجل قال عنه:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

باطل، إنكار وجود الله، المعسكر الشرقي كم سنة عاش؟ سبعون سنة، و الآن الكنائس ممتلئة في الاتحاد السوفيتي سابقاً،

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

إله يقول لك:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

الشيء الطارئ والعابث، طارئ وعابث، احفظوا هاتين الكلمتين، الحق الشيء الثابت والهادف، للتقريب جامعة، نبني جامعة لمئات السنين، والباطل الشيء الطارئ والزائل، فالحق ثابت هادف، أي

الحق له رسالة كبيرة جداً، إسعاد الإنسان، أن يسود النظام في مجتمعات البشر، أن يسود العطاء، أن يسود الخير، أن يسود العدل، أن تسود المحبة، أن تسود الرحمة، هي أهداف الحق.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص الآية: 50]

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية:55]

من أباح كل شيء محرم خرج عن منهج الله عز وجل :

إذاً هنا

(وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)

الخمر تغتال العقول، الميسر.

هو الداء الذي لا بد منـه وليس لذنب صاحبه اغتفارُ

تشاد له المنازل شاهقـاتٍ وفي تشيدها يكون الدمارُ

*** * ***

قرأت خبراً أن إنساناً دخل لدار قمار، خسر بليلة وحده كل ما يملك، اثنان ونصف مليون دولار، جاء للبيت أطلق النار على زوجته وأولاد، ثم مات، انتحر

هو الداء الذي لا بد منـه وليس لذنب صاحبـه اغتفار

تشاد له المنازل شاهقـاتٍ وفي تشييد ساحتها الدمـارُ

نصيب النازلين بها سـهادٌ وإفلاسٌ فيـأسٌ وانتحـارٌ

*** * ***

فإذا كان هناك بلاد فيها دور قمار، فيها خانات خمر، فيها دور زنى، وكل شيء محرم مباح، هؤلاء خرجوا عن منهج الله عز وجل:

(وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

من يعيش مع المسلمين له حق عليهم أن يضمنوا حياته ودينه مقابل الجزية :

أخواننا الكرام، هناك ملمح في الآية دقيق جداً، أي أنت حرٌ في أن تدين بأي دين، والدليل:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

ولكن هذا الذي يعيش مع المسلمين له حق عليهم، حقه عليهم أن يضمنوا حياته، وأن يضمنوا دينه، إنسان يعيش مع المسلمين غير مسلم، له حقٌ عليهم أن يضمنوا حياته، وحق آخر أن يضمنوا حريته في ممارسة شعائر دينه، المقابل؟ دفع البدل النقدي، مادام أعفي من الجهاد، الجهاد يحتاج إلى عقيدة صحيحة، فالمجاهد ينبغي أن يكون مؤمناً بالله بالأساس، لذلك غير المسلم يدفع بدلاً نقدياً نظير حماية حياته، وحماية عبادته، إذاً يدفع الجزية،

(حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ)

يعطيها بيده أي هو إنسان صحيح، فالمريض لا يوجد عليه جزية.

(حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

لا يوجد استعلاء أيضاً.

إذاً أيها الأخوة القضية أن هذه الآية تحتاج إلى شرح طويل، وإلى أن تزيل عنها بعض اللبس، هؤلاء:

(الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)

ولم يسمحوا لأحد عندهم أن يؤمن، أنا ضمنت لك بقاءك، وحياتك، وأن تمارس شعائرك الدينية، لكن لا أسمح لك أن تمنعني أن ألقي الحق على من حولك، فإن منعتني أقاتلك فقط، ما دام هناك حرية دعوة إلى الله في أي مكان في العالم فالأمر مختلف، الآية مرة ثانية:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ)

والحق الشيء الثابت والهادف

(مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ)

ولا تفسير لهذه الجزية إلا أنه مقابل أن المسلمين يضمنون لغير المسلم حياته، ويضمنون حرية عبادته، هاتان الضمانتان يقابلهم بدل نقدي، مطبق في كل الشعوب والبلاد

(حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ)

بيده، أي صحيح، ليس مريضاً،

(وَهُمْ صَاغِرُونَ)

الجهاد من حق أولي الأمر وحدهم :

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية تحتاج إلى فهم دقيق، وإلى عرض دقيق أيضاً، قد تُفهم على غير ما أراد الله عز وجل، جهاد هؤلاء ليس من حق آحاد المسلمين أبداً، هذا الذي يجري ليس مقبولاً بنص هذه الآية، لكن الجهاد من حق أولي الأمر وحدهم، هم يقررون، والدليل الصحابة الكرام منعوا أن يقاتلوا، أما في المدينة بعدما صار هناك كيان، و أولو أمر عندئذٍ سُمح لهم، قال:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا)

[سورة الحج الآية: 39]

لك أن ترد كيد الكائدين، وعدوان المعتدين، والقتال هنا قتال دفاعي في الأعم الأغلب.

التجديد في الدين يعني أن تنفي عنه كل ما علق به مما ليس منه :

أيها الأخوة، أما شؤون الآخرة الحقيقة أن الله ما ذكر إلا بعض الآيات المتعلقة بالآخرة، فأنا ليس لي حق أن أضيف على هذه الآيات معاني لم ترد في النصوص، هناك أشخاص يتخيلون أوضاعاً وأحوالاً وتفاصيل لم يأتِ بها نص.

لذلك قضية الآخرة مقطوع بها، هذا الذي ورد عن الآخرة لا نزيد عليه، ولا نحذف منه، بشكل عام الدين كله إن زدت عليه أو حذفت منه وقعت في مشكلة كبيرة، إن زدنا على الدين ما ليس منه أصبحنا شيعاً، وفرقاً، وطوائف، وصار بأسنا بيننا.

أول واحدة: إن أضفنا على الدين ما ليس منه أصبحنا شيعاً، وفرقاً، وطوائف، وصار بأسنا بيننا، وإن حذفنا من الدين ما عُلم منه بالضرورة ضعفنا، لما حذف الجهاد ضعف المسلمين.

إذاً: ما هو التجديد في الدين؟ ألا تزيد عليه، وألا تحذف منه، بل أن تنزع عنه كل ما علق به مما ليس منه، بالتعبير الدقيق ما هو التجديد في الدين؟ لا أن تزيد عليه ولا أن تحذف منه، بل أن تنفي عنه كل ما علق به مما ليس منه، آخر قراءة:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (26-70) : تفسير الآية 30 ، الفرق بين حقائق الإيمان وبين حلاوة الإيمان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-10-29

بسم الله الرحمن الرحيم

ديننا العظيم هو دين التوحيد :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

الحقيقة أيها الأخوة أن هذا الدين العظيم هو دين التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، ألا ترى يداً تعمل مع الله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية:123]

الأمر كله، كل شؤون الكون، كل شؤون الأرض، كل شؤون البشر ترجع إليه.

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ)

[سورة المؤمنون الآية:91]

التوحيد أن تعبد الله وحده، التوحيد أن تعبد الله وحده فيما أمر، وبالطريقة التي أمر، التوحيد أن تخلص الوجهة إلى الله، الحقيقة لو أردت أن تقول لي هل يمكن أن تجمع الدين كله بكلمة؟ الجواب هو: التوحيد.

الدين له ثمرة يانعة لا تقطف إلا بالتوحيد :

الحقيقة أيها الأخوة أن الإنسان حينما يوقن يقيناً مقطوعاً به أن أمره بيد الله، وأن حياته بيد الله، وأن رزقه بيد الله، وأن زواجه بيد الله، وأن أولاده بيد الله، وأن من فوقه بيد الله، وأن من تحته بيد الله، وأن من حوله بيد الله، وأن نجاحه بيد الله، وأن توفيقه بيد الله، حينما يتأكد الإنسان أن الله عز وجل بيده كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وأمره نافذ بكل شيء، وليس فوقه شيء، ما الذي ينتج عن هذا؟ أن يتوجه إلى الله وحده، هذا هو الدين، الدين أن تستقيم وجهتك إلى الله، الدين أن تتصل بالله، الدين أن تسعد

بقرب الله، الدين أن تتحرك وفق منهج الله، الدين أن تعطي لله، وأن تمنع لله، وأن تغضب لله، وأن ترضى لله، وأن تصل لله، وأن تقطع لله، هذا هو الدين.

وحينما تغيب هذه المعاني معاني التوحيد يصبح الدين ثقافة كأي ثقافة، بل يقترب من العادات والتقاليد، بل يقترب من التراث، عندئذٍ تمتنع عن الناس ثمرات الدين، الدين له ثمرة يانعة، لكن هذه الثمرة اليانعة لا تقطف إلا بالتوحيد.

الله عز وجل ما أمر الإنسان أن يعبده إلا بعد أن طمأنه أن الأمر كله بيده :

الحقيقة الشرك أنواع: هناك شرك جلي واضح، في بلاد شرقي آسيا هناك من يعتقد ويتوهم أن بوذا إله، هذا شركٌ جلي واضح، لكن الذي نخاف على أخوتنا منه هو ليس الشرك الجلي، إنه ليس موجوداً بالعالم الإسلامي والحمد لله، ولكن الذي نخاف على أخواننا الكرام منه هو الشرك الخفي، الشرك الخفي: أن تتوهم أن جهة في الأرض قوية بيدها رزقك، بيدها نجاحك، بيدها سعادتك، هذا التوهم شرك، والشرك كما قال الله عز وجل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف]

فهذا الإله العظيم هل يعقل أن يقول لك اعبدني وأمرك بيد غيري؟ مستحيل! قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

بعد أن طمأنك أنه أمرك كله بيده، قال لك: فاعبده، متى قال لك أن تعبده؟ بعد أن طمأنك.

الفرق الكبير بين أن يقف الإنسان على فكرة التوحيد وبين أن يعيشه :

لكن أخواننا الكرام لابدّ من حقيقة دقيقة، أن التوحيد كفكرة سهل جداً، أما أن تعيش التوحيد هذا هو الإيمان، فرقٌ كبير بين أن تقف على فكرة التوحيد، وبين أن تعيش التوحيد، أضرب مثلاً الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

الآية واضحة وضوح الشمس، ولك أن تفهمها بداهة، بل لك أن تشرحها للناس، لكن لو أنك مؤمن مستقيم، مقيم لأوامر الله تماماً، وبيتك إسلامي، وعملك إسلامي، ودخلك إسلامي، والإنفاق إسلامي، وأنت تسعى لمرضاة الله، ولك صديقٌ على مقاعد الدراسة، بعيدٌ عن الدين بعد الأرض عن السماء، صار معه ملايين مملينة، يسكن ببيت كالقصر، مركبات متعددة، حوله خدم وحشم، لمجرد أن تقول:

هنيئاً له فأنت لا تعرف الله، لأنه حينما ترى أن هذه الدنيا العريضة التي بين يديه أغلى عندك من طاعة الله ومن العمل للآخرة فأنت لا تعرف الله، بل لا تعرف من أنت، أنت مؤمن، الكلام طويل ودقيق، أنت حينما تصل إلى مرضاة الله وصلت إلى كل شيء.

((ابن آدم اطلبنِي تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

أنت حينما تعرف الله، وتعرف أن هذه الدنيا دار عمل وليست دار أمل، دار تكليف وليست دار تشريف، أنت حينما توقن أنك مخلوق للجنة، وفي الجنة:

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

وأن الله جاء بك إلى الدنيا من أجل أن تعمل عملاً يعد ثمناً لدخول الجنة.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النحل]

فهذا الذي عرف سرّ وجوده، وعرف غاية وجوده، وعرف أن الله خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض، لذلك حينما تعرف ذلك لا تتمنى أن تكون محل أحدٍ من أهل الدنيا، أنت بحالة لا تسمح لك أن تتمنى أن تكون مع أحدٍ من أهل الدنيا.

للتقريب، دخلت إلى الحمام وتنظفت نظافة من براز معين، وارتديت ثياباً نظيفة معطرة، ومشيت في الطريق فرأيت بركة فيها مياه آسنة سوداء، وعدداً من الأشخاص يسبحون بها ويلعبون ويضحكون، هل يعقل أن تتمنى أن تكون معهم؟ مستحيل! بل حياة المؤمن، نظافة المؤمن، رقي المؤمن، أبلغ من ذلك.

المؤمن حينما يكتشف أن الله خلقه من أجل أن يسعده سعد في الدنيا و الآخرة :

لذلك: من أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقّر ما عظمه الله عز وجل، فالمؤمن حينما يكتشف أن الله خلقه من أجل أن يسعده، والسعادة بعبادته، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون)

[سورة الذاريات]

والعبادة طاعة لله عز وجل، لكنها طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، أنت حينما تؤمن أنك تحقق الهدف الذي خلقت من أجله فأنت أسعد إنسان، وكنت أقول إن لم تقل أنا أسعد من في الأرض إلا أن يكون أحد أتقى مني ففي الإيمان خلل، لِمَ لا تكون أسعد الخلق

وأنت مع الله؟ مع من بيده كل شيء؟ مع الخالق؟ مع الرب؟ مع المسير؟ مع الكريم؟ مع الجليل؟ مع الغني؟ مع القوي؟ مع من بيده كل شيء؟ مع من إذا أراد شيئاً أن يقول له:

(كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس]

الأقوياء بيده، الضعفاء بيده، الأغنياء بيده، أهل الأرض بيده، أهل السماء والأرض بيده، كيف تقول لا يوجد عندي شيء؟.

من لم يقل أنا أسعد إنسان ففي إيمانه خلل :

أخواننا الكرام، القضية في الدين قضية كبيرة جداً، أنت حينما تكون متديناً أو حينما تصطلح مع الله:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض، أن هنئوا فلاناً فقد اصطلاح مع الله))

[ورد في الأثر]

أقسم لكم بالله أيها الأخوة، ما لم تقل أنا أسعد من في الأرض إلا أن يكون أحدٌ أتقى مني ففي الإيمان مشكلة، تخاف ممن؟ الأقوياء بيده، تخشى الفقر؟ هو غني ونحن الفقراء إليه، تخشى المرض؟ هو الشافي، تخشى الضعف؟ هو القوي، تخشى قوياً؟ هو أقوى الأقوياء.

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

[ورد في الأثر]

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

أيها الأخوة، أنت حينما تعرف الله تعرف كل شيء، وحينما تفوتك معرفة الله يفوتك كل شيء، أنت حينما تصل إلى الله تسعد بهذه الصلة ولو فقدت كل شيء، وحينما تحصل الصلة بالله تسعد بها ولو فقدت كل شيء، أما إذا فقدتها فتشقى ولو ملكت كل شيء.

الفرق بين حلاوة الإيمان و حقائق الإيمان فرق كبير جداً :

الإيمان شيء آخر، شيء ثمين جداً، لكن ثمنه باهظ، لذلك في بعض الأحاديث النبوية:

((ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حَلاوَةَ الإيمان))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك]

حلاوة الإيمان شيء وحقائق الإيمان شيءٌ آخر، حقائق الإيمان أن تؤمن بالله، وبكتابه، وبأنبيائه، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، أما حلاوة الإيمان فأن تقول: أنا أسعد الناس، حلاوة الإيمان تجعلك بطلاً، حلاوة الإيمان تجعلك كريماً، شجاعاً، مقداماً، حلاوة الإيمان تجعلك قائداً لمن حولك، فرق كبير بين حقائق الإيمان وبين حلاوة الإيمان، لذلك أيها الأخوة:

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف له ذلك من نيته إلا جعلت الأرض تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

من لم يبذل وقتاً للإيمان لن يتمتع بمزايا الإيمان :

الإيمان أيها الأخوة ليس كما تتوهمون أحياناً، فلان مؤمن، أي كيف إذا قلت: فلان دكتور، أي معه ابتدائية، وإعدادية، وثانوية، وجامعة، ولسانس أو بكالوريوس، دبلوم عامة، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه، ثلاث عشرة شهادة، كلمة حرف د. أي معه ثلاث عشرة شهادة، وكلمة مؤمن!

أخواننا الكرام الإيمان مرتبة علمية، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه، معنى مؤمن أي عرف حقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان، معنى مؤمن عرف سرّ وجوده، وغاية وجوده، معنى مؤمن عرف ربه، معنى مؤمن عرف منهجه، معنى مؤمن عرف طريق سعادته، معنى مؤمن عرف طريق شقائه، فاتقى طريق الشقاء وتابع طريق النعيم، معنى مؤمن عرف أن:

((الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح برخاء، ولم يحزن بشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخر من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

لكن الإنسان إذا لم يبذل وقتاً للإيمان كيف ينعم بمزايا الإيمان؟ أي هل يستطيع إنسان لم يفتح كتاباً، ولم التحق بمدرسة، ولم يحضر درساً، ولم يقرأ، ولم يكتب، أن يقول لك: أنا مثقف؟ أو أنا معي شهادة عليا؟ هذا مستحيل! أنا أقول لأخوتي الكرام: أنت مؤمن، متى آمنت؟ متى تفكرت في خلق السماوات والأرض؟ متى قرأت القرآن؟ متى عرفت أحكامه؟ متى عرفت حلاله وحرامه؟ متى عرفت الخير والشر؟ متى سرت في طريق الإيمان؟ أي يمكن أعلى مرتبة في الحياة بلا ثمن، هل يستطيع إنسان أن

يقول أنا طالب جامعي ولا يحمل ثانوية ولا إعدادية ولا ابتدائية؟ مستحيل، سبحانك يا رب! كل أمور الدنيا مقننة، طبيب طبيب، محامي محامي، مهندس مهندس، إلا قضايا الإيمان مائعة.

كلٌ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

* * *

أنا مؤمن، كيف يعصي المؤمن ربه، مستحيل!.

من يعرف أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى لا يمكن أن يقبل أن يكون له ابن :

لذلك أيها الأخوة الآيات الآن تتعلق بحقيقة الإيمان.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

أنت حينما تعرف منهج الله لا يمكن أن تقول فلان ابنه، مستحيل، حينما تعرف الذات الكاملة، الأبدية، السرمدية، حينما تعرف قدرة الله، علم الله، غنى الله، قوة الله، حينما تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى لا يمكن أن تقبل أن يكون له ابن مستحيل! فكرة لا يقبلها الولد الصغير.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

هذا القول دليل أنهم ما عرفوا الله عز وجل، لذلك أيها الأخوة اعتقدوا معي يقيناً أن هذا الدين العظيم فيه أصلان كبيران، الأصل الأول معرفة الله، والأصل الثاني عبادته، أنت بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، حينما تغفل معرفته أغفلت كل شيء.

طريق معرفة الله التفكر في آياته الكونية :

لذلك لماذا في القرآن الكريم ما يزيد عن ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون؟

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا *وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

[سورة الفجر]

هذه الآيات الكونية:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ)

[سورة البلد]

هذه الآيات التي في القرآن الكريم تتحدث عن الكون والإنسان، ما علاقتك بها؟ الحقيقة علاقتك بها التفكر في خلق السموات والأرض.

الطرق السالكة لمعرفة الله الآيات القرآنية و التكوينية و الكونية :

يجب أن تعلم علم اليقين أن طريق معرفة الله التفكر في آياته الكونية، والأصل في هذا الموضوع:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران]

والأصل الثاني النظر في آياته التكوينية:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران]

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام]

الأولى آياته الكونية، علاقتك بها التفكر، والثانية آيات الله التكوينية، علاقتك بها النظر، والثالثة آيات الله القرآنية، علاقتك بها التدبر.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

[سورة محمد]

أي وقت أمضيته لمعرفة الله، الله تعرفه من كونه، من خلقه، من تكوينه، من أفعاله، من كلامه، من قرآنه، آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات قرآنية، طرق سالكة لمعرفة الله، فإذا جهدت بالتفكر بها عرفت من هو الله.

أخواننا الكرام، أكاد أضع يدي على مشكلة المسلمين الأولى أنهم عرفوا الأمر ولم يعرفوا الآمر، لكنك إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، البطولة أن تعرف من هو الآمر، ماذا عنده لو أطعته؟ ماذا ينتظرك لو عصيته؟ أن تعرف الآمر ثم تعرف الأمر، إن عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر.

منهج البحث في الدين إن كنت ناقلاً فالصحة مبتدعاً فالدليل :

أخواننا الكرام، ذلك هذا الذي قالوه:

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

أي كلمة قيلت، مقولة لا علاقة لها بالواقع أبداً، مثلاً: لو أنت الآن لا تملك ثمن طعام، قلت: معي مليار كلمة، ما معك ثمن وجبة طعام تقول معي مليار كلمة؟ كلام لا يقدم ولا يؤخر ولا يصرف بأي مكان، فالكلام سهل، قل ما شئت، والحياة الدنيا فيها بشر يتكلمون، والكلام ما لم يكن مطابقاً للواقع لا قيمة له، من أدق تعريفات العلم: القول المطابق للواقع، هناك تعريف أدق: علاقة بين متغيرين يؤكدها الواقع، عليها دليل، مقطوع بصحتها، لو ألغيت الدليل لكان الكلام تقليداً، لو ألغيت الواقع لكان جهلاً، لو ألغيت القطع لكان وهماً، أو شكاً، أو ظناً، لو ألغيت اليقين لكان ثلاثون بالمئة وهم، خمسون بالمئة شك، تسعون بالمئة ظن، أما العلم فكلام يقيني قطعي، القول المطابق للواقع المقطوع به، عليه دليل، ألغ الدليل صار تقليداً، ألغ الواقع صار جهلاً، ألغ القطع صار وهماً أو ظناً أو شكاً، لذلك القول المطابق للواقع مع الدليل هو العلم.

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

مرة أخ كريم، مفتي في هذا البلد الطيب، توفي رحمة الله، كنا في طابق مرتفع بالشام، قال لي: كل هذه المدينة ملكي لكن بلا دليل، الكلام سهل، كل هذه الأبنية التي تراها هي ملكي ولكن لا دليل. لذلك قالوا: لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، بل هناك منهج بحث في الدين، إن كنت ناقلاً فالصحة، مبتدعاً فالدليل.

على الإنسان ألا يقبل شيئاً و لا يرفض شيئاً إلا بالدليل :

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

عود نفسك أيها الأخ الكريم ألا تقبل شيئاً إلا بالدليل، بل ألا ترفض شيئاً إلا بالدليل، تقبل بالدليل، وترفض بالدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، وأقوى دليل على ذلك:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)

[سورة يوسف الآية:108]

معنى بصيرة؛ أي معي دليل، ومعي تعليل:

(أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية:108]

فإذا كنت متبعاً للرسول فينبغي أن تكون دعوتك بالدليل.

الله تعالى حينما رتب المعاصي والآثام جعل على رأسها الافتراء على الله :

لذلك:

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

كلام، بل إن الله سبحانه وتعالى حينما رتب المعاصي والآثام بدأ بالفحشاء والمنكر، بل بعد الفحشاء والمنكر هناك الشرك، هناك الكفر، هناك الإلحاد، وجعل على رأس هذه الجرائم الفكرية قال:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة]

لذلك:

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى يرقى بها إلى أعلى عليين، الكلمة الطيبة صدقة.

الكلمة الطيبة صدقة :

أيها الأخوة:

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

أحياناً بجلسة، بلقاء، بندوة، يُطرح كلام، بعض الكلام كفر بعينه، بعض الكلام يؤكد الشرك بالله، بعض الكلام يؤكد البعد عن الله، أو بعض الكلام لا يؤكد كمال الله عز وجل، فما كل كلام يسمع، ولا كل كلام يصغى إليه، المؤمن حينما يعرف الله عز وجل صار معه مقياس، يقيس هذا الكلام بالمقياس الذي أعطاه الله إياه، بالقرآن، مثلاً يقول الشاعر:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

* * *

هذا كلام غير صحيح، يقول: مادمت لا تملك موتي أو حياتي دعني أتمتع، ومئات الأشخاص يقولون: تمتع بالحياة بقدر ما تستطيع، أما التوجيه الإلهي فصحيح، أطع الله قدر ما تستطيع، أطع الله ما استطعت.

إذاً أيها الأخوة:

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

والله أيها الأخوة الذي يقال أحياناً تجد كلاماً يقال في المجالس، في الندوات، في اللقاءات، كلام لا معنى له، لا وزن له، لا يرقى بالإنسان، الكلمة الطيبة صدقة، الله عز وجل قال:

(مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ*تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

[سورة إبراهيم]

الكلمة الطيبة كلمة مباركة قد يحيا قلب إنسان بكلمة طيبة.

ملة الكفر واحدة في أي مكان وزمان :

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

هناك كلمة طيبة ترقى بها إلى أعلى عليين، وكلمة خبيثة أيضاً تطير في الآفاق.

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

[سورة إبراهيم]

نصف العالم كان يعتقد بأنه لا إله، وبقيت هذه الدول التي تؤمن بأنه لا إله سبعين عاماً تطرح فكراً إلحادياً، أين هي الآن؟.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

فلذلك

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ)

أي ملة الكفر واحدة،

(يُضَاهِئُونَ)

أي يشابهون، ملة الكفر واحدة، الكافر هو كافر في أي مكان وزمان.

(قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

هذا الذي لم يؤمن بالله انظر إلى عمله، يأخذ ما ليس له، يعتدي على أموال الآخرين، يعتدي على أعراضهم، فهو إنسان منافق، و صفاته:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى *أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

[سورة العلق]

إنسان آخر:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

[سورة العلق]

الناس في النهاية رجلان :

1 ـ إنسان تعرف على الله فسلم وسعد في الدنيا والآخرة :

أخواننا الكرام، الناس في النهاية رجلان، مؤمن عرف الله، وعرف منهجه، فانضبط بمنهجه، وعمل صالحاً، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، ورجل غفل عن الله، وغفل عن منهجه، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، ولن تجد إنساناً ثالثاً.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

صدق أنه مخلوق للجنة، الحسنى هي الجنة، والدليل:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس الآية:26]

الحسنى هي الجنة.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

اتقى أن يعصي الله، صدق بالحسنى فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء.

2 ـ إنسان غفل عن الله فشقي وهلك في الدنيا والآخرة :

الطرف الثاني:

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب أنه مخلوق للجنة، وتوهم أنه مخلوق للدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، هناك نموذجان.

بطولة المؤمن أن يكون من أتباع الأنبياء :

بل يقع على رأس الهرم البشري زمرتان، الأنبياء قمم البشر والأقوياء قمم القوة، الأنبياء أعطوا ولم

يأخذوا، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء ملكوا القلوب والأقوياء ملكوا الرقاب، الأقوياء عاش الناس لهم، والأنبياء عاشوا للناس، الأقوياء يمدحون في حضرتهم والأنبياء يمدحون في غيبتهم، والناس جميعٌ تبع لقوي أو نبي، بطولتك أيها المؤمن أن تكون من أتباع الأنبياء، قوتك في كمالك، قوتك في إحسانك، قوتك في استقامتك.

لذلك:

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ ـ يشابهون ـ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

ينصرفون على ملذاتهم إلى اغتصاب ما ليس لهم، إلى علاقات لا ترضي الله، إلى مكاسب دنيوية.

(لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

[سورة الغاشية]

هذه الآية أيها الأخوة تبين أن البشر على نوعين مؤمن وغير مؤمن، المؤمن عرف الله، عرف منهجه، انضبط بمنهجه، أحسن إلى خلقه، سلم وسعد في الدنيا والآخرة، وغير المؤمن غفل عن الله، وغفل عن منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (27-70) : تفسير الآية 31 ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-11-05

بسم الله الرحمن الرحيم

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

أيها الأخوة الكرام، لهذه الآية أهميتها الكبيرة، لأن الأمراض التي وقع بها أهل الكتاب في الأعمّ الأغلب وقع بها المسلمون، أين نقطة الضعف في حياة المسلمين؟ ينطلق شرح هذه النقطة من أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أضرب لكم مثلاً من عهد النبي عليه الصلاة والسلام: أنصاري أُمّر على بعض من أصحاب النبي، هو أميرهم لسرية، فقال هذا الأمير: أضرموا نار عظيمة فأضرموها، قال: اقتحموها، فأبوا، قال لهم: ألست أميركم؟ أليست طاعتي طاعة رسول الله؟ وقع الصحابة في حيرة كبيرة، هو أميرهم وأمره نافذ، لكنه أمرهم أن يقتحموا النار لتحرقهم وليموتوا فيها، فقالوا: إنما آمنا بالله فراراً منها، فكيف ندخلها؟! يبدو أنهم لم يفعلوا، لكنهم أخبروا النبي عليه الصلاة والسلام بما فعله بهم أميرهم، فقال عليه الصلاة والسلام: والله لو اقتحمتموها لازلتم فيها إلى يوم القيامة، إنما الطاعة في معروف.

هذا درس بليغ، أريد في هذا اللقاء الطيب، أن يكون واضح لديكم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إلا أنني وأنتم معي نعطل عقولنا أمام الوحيين، الوحي الأول كلام الله، فهمت أو لم تفهم هذا كلام الله، هذا قطعي الثبوت، وفرق كلام الله عن كلام خلقه، بل فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

الإنسان مع القرآن الكريم أو ما ثبت في السنة الشريفة لا اختيار له :

الآية الكريمة نخضع لها، فهمنا أو لم نفهم، قنعنا بها أو لم نقنع، هذا كلام الله، وأما النبي عليه الصلاة

والسلام فمعصوم من أن يخطئ، في أقواله، وأفعاله، وإقراره.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

فأنا مع القرآن الكريم ليس لي اختيار.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية:36]

قد ترغب بشراء هذا البيت، قد تشتريه وقد لا تشتريه، شراء البيت مباح، قد ترغب في سفر، قد تسافر وقد لا تسافر، قد يعرض عليك عمل، قد تقبل وقد لا تقبل، أما حينما يأتي أمر من الله، أو أمر من المعصوم من رسول الله ثبت عنه، فليس لك اختيار إذا كنت مؤمناً، أي الأمر الإلهي بوحي السماء، بالقرآن، والأمر النبوي وهو وحي آخر لأن الله يقول:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

الأمر في القرآن وما صحّ من أمرٍ في سنة النبي العدنان، لا اختيار لك في تطبيقه أو عدم تطبيقه، والدليل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ)

هذه ما كان تعد من أشد صيغ النفي.

مثلاً تسأل إنساناً هل أنت جائع؟ يقول لك: لا، لكن لو قلت له لا سمح الله ولا قدر وهو مؤمن كبير هل أنت سارق؟ يقول لك: ما كان لي أن أسرق، هذا اسمه في اللغة نفي الشأن، أي أنا لا أفعل السرقة، ولا آمر بها، ولا أرضى بها، ولا أحبّها، ولا أصاحب سارقاً، ولا ولا يمكن أن تعد أنواعاً لا تعد ولا تحصى من النفي، هذا اسمه نفي الشأن، فرق كبير بين نفي الحدث ونفي الشأن، هل أكلت صباحاً؟ يقول لك: لا، نفى الأكل، أما هل أنت سارق؟ ينبغي أن تقول ما كان لي أن أسرق، ليس من شأني، ولا من طبيعتي، ولا من أخلاقي، ولا من مذهبي، ولا أرضى به، ولا آمر به، ولا أقرّ عليه، كلما مرّ معكم في القرآن:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

أي مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون وفيهم سنة رسول الله مطبقة،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ)

[سورة آل عمران الآية:179]

لو بحثت في القرآن الكريم عن الآيات التي تبدأ وما كان الله، لوجدت العجب العجاب، أشد أنواع النفي بهذه الصيغة،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

فلذلك أنت حينما تقف على حكم من القرآن، أو حينما تطلع على حكم من القرآن، أو على حكم من النبي العدنان صحّ عنه، ليس لك خيار في الموضوع إطلاقاً.

مرة ثانية:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

من آثر إرضاء الآخرين على إرضاء الله عز وجل خسر الدنيا و الآخرة :

هؤلاء أهل الكتاب ماذا فعلوا؟ فعلوا بخلاف هذه القاعدة، قال:

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ)

أي رجال الدين اليهودي، وسمي الحبر حبراً لأنه يحبر الكلام، ويوضحه، ويفصله، ويزينه

(وَرُهْبَانَهُمْ)

الرهبان جمع راهب، الإنسان المنقطع للعبادة،

(وَرُهْبَانَهُمْ)

الرجال المنقطعون للعبادة،

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أي هل تصدق أن إنساناً يلتقي بإنسان من جنسه، من بني جلدته، يقول له: أنت ربي؟ ليس هذا وارداً، لكن النبي عليه الصلاة والسلام شرح هذه الآية فقال: "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً لم يعبدوهم على أنهم آلهة ولكنهم أطاعوهم طاعة عمياء".

أي عاملوهم كإله، مثلاً لو أن امرأة طلبت من زوجها طلباً لا يرضي الله، فخضع لها حفاظاً على مودتها، عصى الله وأطاعها، لك أن تقول عن هذا الزوج: عبد زوجته من دون الله بالضبط، هو ما قال لها أنت إله إطلاقاً، لكن لأنه آثر إرضاءها ولم يعبأ بإرضاء الله عاملها كإله.

فحينما تعبد إنساناً، أنت لا تقول هو إله، وما كان لك أنت تقول ذلك، لكن عاملته كإله، وانتهى الأمر، لذلك لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه :

أيها الأخوة، ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، صدقوا ولا أبالغ، أن هذا النص ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، أي أنت حينما ترى مصلحتك في هذا العمل، وهذا العمل نهى الله عنه، هذا العمل لا يرضي الله، فحينما تركل بقدمك هذا العمل مع ما ينتظرك منه من خير مادي في الدنيا، أنت بهذا أكدّت أنك مؤمن، حينما تركل بقدمك عملاً تنتفع منه نفعاً كبيراً لكنه لا يرضي الله أنت بهذا أكدّت أنك مؤمن.

مرة حدثني أخ توفي -رحمه الله- قال لي: استطعت أن أخذ محضراً في أرقى أحياء دمشق بنصف قيمته، قلت له: كيف؟ قال لي: بالمناقصة، لي ترتيبات معينة، أي استطعت أن آخذ هذا المحضر عن طريق المناقصة بمزاودين خلبيين من طرفي، واستقر الثمن على ما يساوي نصف هذا المحضر، قلت له: وكم شخص يملكون هذا المحضر؟ قال لي: ثلاثمائة شخص، قلت له: هؤلاء أليس بهم أيتام؟ قال لي: طبعاً، قلت له: أعطيت هؤلاء الأيتام نصف ما يستحقون عن طريق هذه المناقصة الخلبية؟ كيف تواجه الله عز وجل؟ والله الذي لا إله إلا هو، أنا ما رأيت على وجه الأرض إنساناً أغبى ممن يؤثر دنياه على آخرته، هو وعدني أن ينسحب من هذه المناقصة، أو وعدني أن يدفع الفرق لأصحاب الأرض، كيف تواجه الله يوم القيامة؟ ثلاثمئة إنسان يملكون هذا المحضر، بعضهم أيتام، أعطيتهم نصف حقهم، وتركت هذا المال لأولادك؟!

لذلك الميت أحياناً ترفرف روحه فوق نعشه، يخاطب من حوله: يا أهلي! يا ولدي! لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة عليّ، فو الذي نفس محمد بيده، لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه، لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم.

الفتوى على قدر النص :

و الأمراض التي أصيب بها أهل الكتاب، أنا لا أبالغ ولست متفائلاً كثيراً أصيب بها المسلمون، يقول لك: معي فتوى من الشيخ فلان، إذاً ما قولك إذا استطعت بحنكه بالغة وذكاء لمّاع أن تنتزع من فم النبي عليه الصلاة والسلام المعصوم الذي يأتيه وحي السماء فتوى لصالحك ولست محقاً بها؟ الجواب: لا تنجو من عذاب الله، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَعَلَّ أحدكم أَلْحَنَ بحُجَّتِهِ مِن الآخر، فإذا قضيت له بشيء، فإنما أقطعُ له قطعة من النَّار))

[أخرجه ابن ماجه وأبو يعلى والإمام أحمد عن أبي هريرة]

ما قولك؟ يقول لك: والله هناك إنسان يمكن مؤذناً أو إمام مسجد، والله سألته وأفتى لي، لا يعرف اسمه، ولا يعرف وظيفته، ولا يعرف علمه، وأخذ هذه الفتوى وارتاح، لو انتزعت من فم النبي الكريم، من سيد الخلق، ومن حبيب الحق، ومن سيد ولد آدم، لو انتزعت من فمه فتوى لصالحك ولم تكن محقاً بها لا تنجو من عذاب الله.

بالمناسبة أخ يذكر لي قصة، يسألني ما الحكم؟ أنا بحسب القصة أقول له الحكم، لكن مدى انطباق هذه القصة على الواقع، هذا مسؤولية السائل لا المسؤول، لو أنه فرضاً قال لي: زوجتي تخونني فرضاً ومرات كثيرة، هل عليّ إثم إن طلقتها؟ لا أبداً طلقها، لكن لو أن الكلام غير صحيح يقول الفلان الفلاني وافق لي على تطليقها، هل ذكرت لهم ماذا قلت له؟ ذكرت الخيانة المتكررة، وعدم الانصياع، وعدم التوبة، طبعاً ساعتئذ لا يوجد مانع.

فدائماً الفتوى على قدر النص، وهذه المشكلة يعاني منها كل الدعاة إلى الله، يقول لك كلام على هواه، كلام يحملك شئت أم أبيت على فتوى معينة، فإذا أفتيت بهذه الفتوى، أخذ نص كلامك وأبلغ الناس جميعاً، أنه أفتى لي، أفتى لي بذلك.

والله مرة كنت ببيت، قال: والله نحن مستغربون نحن لا نأتي إلا ببيرا بلا كحول لكن قال: أنت أفتيت بها، أنا والله ذكرت العكس عشرات المرات، لأنه الأمام مالك حرم خنزير البحر وهو سمك من اسمه، أي أكثر من مئة نوع من الشراب لا يحلو لك إلا كلمة بيرا بلا كحول، شراب الشعير، أحضر شعيراً وخذ شرابه، لا بيرا بلا كحول.

على المؤمن أن يكون واعياً في كل مواقف حياته :

أخواننا الكرام صدقوا هناك أشخاص يدّعون أنهم سمعوا فتوى من علماء أجلاء، وكلامهم كذب، لمصالح يحققونها، فأنت كمؤمن كن واعياً، أنا بينكم، اتصل بي، اسألني، هل صحيح أنك قلت كذا؟ لولا أنني أعاني كثيراً، والله هناك أشياء أبلغ من ذلك لكن لا أقولها بالدرس، أعاني أكثر من ذلك، مثلاً طلب مني أخ كريم، قال: والله جاء إنسان من طرفك وطلب مئة ألف و أنا أحبك كثيراً فأعطيته إياها، والله لا أعلمه إطلاقاً، وصل الموضوع للسرقة، فأنتم كونوا واعيين، لا تقبل شيئاً من دون دليل، ولا تقبل رفض شيء من دون دليل، اسأل يا أخي، لا تبقى ساكتاً، لا تحمل شيئاً من دون دليل قطعي، لا تقبل شيئاً من دون دليل، ولا ترفض من دون دليل، لأن هناك كذباً في هذا العصر لا يعلمه إلا الله.

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

لم يقولوا إنكم أرباب أبداً، لكن عاملوهم كالأرباب، أمروهم فائتمروا، نهوهم فنهوا، إذاً عاملته أنت كالرب.

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

لذلك في هذا الدين لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فرعون من الجبابرة، لم يستطع أن يحمل زوجته السيدة آسيا على أن تعبده من دون الله.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم]

هذا موقف، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الإنسان مع القرآن له مهمة واحدة أما مع الحديث فله مهمتان :

أنا بحياتي وبحياة كل واحد منكم إنسان واحد نطيعه بلا تردد، وبلا دليل، هو النبي عليه أتمّ الصلاة والتسليم فقط، طبعاً ما صحّ عنه، قد يكون هناك حديث ضعيف، و قد يكون هناك حديث موضوع، لأن الزنادقة وضعوا في بعض الروايات أربعمئة ألف حديث عن النبي لا أصل له، فلا بدّ من أن تتأكد من صحة الحديث، فأنت مع القرآن مكلف أن تفهم ماذا أراد الله بهذه الآية، وبعدها تطبق أمر الله، لكن مع الحديث أن مكلف بمهمتين، مع القرآن لأنه قطعي الثبوت أنت مكلف بمهمة واحدة، لكن مع الحديث لأنه ظني الثبوت، هناك أحاديث غير صحيحة، أحاديث موضوعة، كل الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، قال: والمخلصون على خطر عظيم، لم يبقَ أحد، هذا الحديث وضعته الزنادقة للتيئيس، عالم لا تنفد، عامل لا تنفد، مخلص لا تنفد، كل الناس هلكى إلا العالمون، والعاملون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، هذا الحديث وضعته الزنادقة للتيئيس، أي لا يوجد أمل.

أنت مع القرآن لك مهمة واحدة، أن تبحث عن المعنى الذي أراده الله.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنبياء]

أما في الحديث فعندك مهمتان، أول مهمة أن تتأكد من صحة الحديث، والمهمة الثانية أن تفهم المقصود، وأن تطبقه، أما مع نص آخر، لأي إنسان كائناً من كان من آدم إلى يوم القيامة فمهمتك غير القرآن والسنة، لك كم مهمة؟ ثلاث مهمات، أول مهمة أن تتأكد من مطابقة هذا الأمر أو هذا النهي للقرآن والسنة، فإن لم يطابق القرآن والسنة فاركله بقدمك.

على الإنسان أن يطيع الله في قرآنه و النبي في سنته :

العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- جاءه رجل قال له: رأيت النبي عليه الصلاة والسلام وقال لي: اذهب إلى مكان كذا وكذا فتجد كنزاً فخذه، ولا تدفع زكاته، قال له: هل وجدت الكنز؟ قال: نعم، قال له: ادفع زكاته، لأن فتوى النبي في حياته هي الأصل، نحن أي رؤيا لا يمكن أن يستنبط منها حكم شرعي، لأن ديننا دين شرع، دين نص، دين أدلة، دين حقائق، لذلك هؤلاء أطاعوا مخلوقاً وعصوا ربهم.

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ)

الأحبار علماء اليهود، والرهبان علماء النصارى

(أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أي عاملوهم كآلهة، وأطاعوهم.

أخواننا الكرام، هؤلاء

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أي عاملوهم كآلهة، و أطاعوهم فيما لا يرضي الله.

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

الله عز وجل هو الجهة الوحيدة التي ينبغي على الإنسان أن يطيعها :

يا أيها الأخ الكريم اعتقد يقيناً أن بحياتك جهة واحدة تطيعها هي الله، وإن جاءك الأمر من رسوله وكان صحيحاً أيضاً ينبغي أن تطيعه، ينبغي أن تطيع الله في قرآنه، وأن تطيع النبي في سنته، والدليل الحديث الشريف:

((ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حَلاوَةَ الإيمان))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك]

حلاوة الإيمان شيء لا يوصف، حلاوة الإيمان تجعلك رجلاً فذاً، تجعلك عالماً، تجعلك شجاعاً، سخياً، كريماً، حليماً، حلاوة الإيمان تجعلك أسعد الناس، والله لا أبالغ إن لم تقل أنا أسعد الناس ففي الإيمان مشكلة، حقائق الإيمان أيّ إنسان يتمتع بذاكرة قوية، واستمع إلى درس، وحفظه، قضية سهلة، أي قد يأتي إنسان غير مسلم في الأصل، نحن عندنا مؤلفات كبيرة جداً وعملاقة ألفوها أجانب، مستشرقون، أناس ليسوا مسلمين.

لذلك قضية

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً)

حينما تخضع لإنسان من دون دليل لا يعنيك أن كلامه يوافق الشرع أو لا يوافقه، لكن مصلحتك معه بكل بساطة وبكل جرأة أقول لك: أنت اتخذته رباً، مادمت قد أطعته وعصيت الله.

للتقريب: صحابي له امرأة طلبت منه حاجة لا يملك ثمنها، فلما ألحت عليه، قال لها: اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن، أهون من أن أضحي بهن من أجلكِ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

على الإنسان ألا يقبل شيئاً من دون دليل :

الآن تقول لي - لا سمح الله ولا قدر - شيخ قال لي: اعمل شيئاً لا يرضي الله لأرضى عنك، هل أعمل هذا الشيء؟ طبعاً هناك قصص تروى مضحكة، قيل: إنسان نزل لقبره، جاءه ملكان فتلقى الملكان ضربة أخرجتهما من القبر، قيل لهما: أمثل هذا يسأل؟ هذا من تلاميذي، كلام مرفوض، خرافات، خزعبلات، ترهات، أباطيل، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الزمر]

من هو؟ سيد الخلق وحبيب الحق،

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

قل لا أعلم الغيب:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

[سورة الأعراف الآية:188]

هذا مقام النبوة، فلذلك لا تقبل شيئاً من دون دليل، مثلاً قاطع أختك، قد يقول لك الأب ذلك، غضب من ابنته أراد أن يؤدبها، قال له: قاطع أختك من دون دليل، ماذا فعلت؟ لم تفعل شيئاً، لكنها أرادت أن تقيم أمر الله في بيتها، وأنت أردت خلاف ذلك فغضبت عليها، فأردت من ابنك أن يقاطع أخته، لا تتحرك من دون دليل، لولا الدليل لقال من شاء ما شاء.

من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى :

هذا الكلام ملخص هذا الدرس،

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً)

ما قال أرباباً لكن لأنهم أطاعوهم في معصية عاملوهم كأرباب.

(أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

هو الفاعل، هو المعطي، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعز، هو المذل،

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

أيها الأخوة، ملخص مخلص المخلص، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا تخف، من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى، من ابتغى أمراً بمعصية سخط الله عنه وأسخط عليه الناس، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن أطاع ربه وأغضب خلقه، الله عز وجل يقول:

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

الآية:

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (28-70) : تفسير الآيتان 32-33 ، من يبحث عن الحقيقة يتولى الله بذاته العلية هدايته.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-11-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أغبى أغبياء أهل الأرض من يضع نفسه في خندق معادٍ للحق:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثانية والثلاثين وهي قوله تعالى:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

أخواننا الكرام، هذا الذي يضع نفسه في خندق معادٍ للحق، هو من أغبى أغبياء أهل الأرض، لأن الحق هو الله، والله بيده كل شيء، الحق هو الله، والله فوق كل شيء، والآية الكريمة:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف الآية:21]

أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟.

لذلك هؤلاء الذين شردوا عن الله، الذين غفلوا عن هذا الإله العظيم، الذين غفلوا عن دينهم القوي، هؤلاء بسذاجة ما بعدها سذاجة، وبجهل ما بعده جهل، يتوهمون أن بإمكانهم أن يفسدوا على الله هدايته لخلقه.

لا تستطيع جهة في الأرض من آدم إلى يوم القيامة أن تفسد على الله هدايته لخلقه:

أخواننا الكرام، الحقيقة التي أتمنى أن تكون واضحة وضوح الشمس لا تستطيع جهة في الأرض من آدم إلى يوم القيامة مهما قويت أن تفسد على الله هدايته لخلقه، ولكن هؤلاء الذين سمح الله لهم أن يكونوا طغاةً في الأرض ما سمح لهم أن يكونوا طغاةً إلا والله يوظف طغيانهم لخدمة دينه والمؤمنين من دون أن يشعروا، ومن دون أن ينتبهوا، ومن دون أن يريدوا، وبلا أجر، وبلا ثواب، طالبوني بالدليل، لأنه لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

[سورة القصص]

الله تعالى لن يسمح لطاغيةٍ أن يكون طاغية إلا ويوظف طغيانه لخدمة دينه والمؤمنين:

الآن دقق:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

اعتقد معي يقيناً أن الله لا يسمح لطاغيةٍ أن يكون طاغية إلا وأن يوظف طغيانه لخدمة دينه والمؤمنين، من دون أن يشعروا، ومن دون أن ينتبهوا، ومن دون أن يريدوا وبلا أجر وبلا ثواب، في النهاية الله عز وجل مع المؤمنين، لذلك:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ)

صدقوا ولا أبالغ، لو أن واحداً أمامكم أراد بغباء ما بعده غباء أن يتوجه إلى الشمس وينفخ عليها ليطفئ نورها، بمَ تحكمون عليه؟ إنسان في الأرض توجه إلى الشمس ونفخ فيها وفي تصوره أن تطفأ، فهذا الذي يقاوم الحق كهذا الإنسان.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا)

ليس نور الشمس، نور الله، الذي بيده كل شيء، بيده أن يرفعك، هو الرافع، هو الخافض، هو المعطي، هو المانع، هو المعز، هو المذل، بيده كل شيء وإذا كان الله معك فمن عليك؟ من هو البطل؟ الذي ينصر الحق، من هو الأحمق؟ الذي يقف في خندق معاد للحق.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال الآية:34]

هذا كلام رب العالمين،

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

كل إنسان ليس بينه و بين الله وسيط:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

، هذا الدين كالهواء للمؤمنين، كالهواء لكل بني البشر، لا تستطيع جهة أن تمنعه، ولا أن تحتكره، هذه جهة تكون غبية غباء لا حدود له حينما تفكر أن تمنعه عن الناس، لأنه ليس بينك وبين الله وسيط، إذا قلت يا رب قال الله لك: لبيك يا عبدي، يا ربي لقد تبت إليك، يقول لك: عبدي وأنا قد قبلت، فالذي بينك وبين الله لا تستطيع جهة بالأرض أن تصل إليك.

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

[سورة طه]

أخواننا الكرام، المؤمن ينبغي أن يعتز بالله.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

حاجة الإنسان إلى الدين كحاجته إلى روحه:

أخواننا الكرام، مرة كنت في بلد ليس عربياً، لكنه مسلم، وزرت المتحف، وقفت أمام ساعة ضبطت على الساعة التاسعة والخمس دقائق، فسألت عن سبب ضبط هذه الساعة، فقيل لي: هذه الساعة مات فيها الذي أراد إلغاء الإسلام في بلده كلياً، والذي قتل خمسمئة ألف من طلاب العلم - قصة قديمة - سبحان الله! فقلت في نفسي: آلاف الطغاة جاؤوا إلى الأرض وماتوا، بل أرادوا قبل أن يموتوا أن يلغوا الإسلام في بلادهم، ماتوا وبقي الإسلام شامخاً في بلادهم.

فلذلك مرة ثانية: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ نحن في:

((دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

لذلك افعل كما تشاء، الحق باقٍ إلى يوم القيامة، لكن دوائر الحق تتسع أحياناً وتضيق أحياناً أخرى.

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة هود الآية:7]

في عصر يكون الحق قوياً، وفي عصر يكون الحق ضعيفاً.

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية:140]

لو أن الحق كان قوياً إلى أبد الآبدين لظهر النفاق في الأرض، ولو أن الباطل كان قوياً إلى أبد الآبدين ليئس الناس من رحمة الله،

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

، تارة يقوى أهل الحق، وتارة يضعفون، لكن المؤمن لا يبدل ولا يغير.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

لي مقولة: أنك إذا دعمت الدين يقوى، وإذا حاربته يقوى أكثر، مشكلة كبيرة، تدعمه يقوى، تحاربه يقوى أكثر، هذا الدين هو الهواء لكل البشر، حاجتنا إلى الدين كحاجتنا إلى أرواحنا.

المحاولات التي أرادت أن تقوض دعائم هذا الدين باءت بالإخفاق:

لذلك الشعوب التي ما عرفت الرسالات السماوية، ماذا فعلوا؟ اخترعوا آلهة، في الهند يعبدون البقر، في مكان آخر يعبدون الحجر، في مكان آخر يعبدون الشمس والقمر، الإنسان خُلق ضعيفاً، هذا الضعف يقتضي أن تؤمن بجهة قوية تلوذ بها، تحميك، ترجع إليها، فالمسلمون والفضل لله عز وجل عرفوا الإله الحقيقي، عرفوا خالق السماوات والأرض، شعوب أخرى توهمت إلهاً، أحياناً تقف البقرة في عرض الطريق فيقف السير، الإله واقف، تدخل إلى محل أغذية تأكل ما تشتهي وصاحب المحل في أعلى درجة من السعادة، لأن الإله عنده، هناك من يعبد البقر، هناك من يعبد الشمس والقمر، والفضل الذي أكرمنا الله به أننا نعبد الله، خالق السماوات والأرض.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

، هذا الحق، لو لم يكن حقاً لتلاشى من مئات السنين، والله المؤامرات التي حيكت ضد المسلمين عبر التاريخ تفوق حدّ الخيال، وبالنهاية الحق شامخ وواضح وقوي، وهذا الحق الله عز وجل يدعمه وينصر أهله.

لذلك هذا الذي يريد أن يطفئ نور الله، أو يريد أن يلغي درساً مثلاً، أن يلغي علاقة طيبة مع الله، أن يلغي شعيرة من شعائر الله، هذا الإنسان يرتكب حماقة ما بعدها حماقة، لأنه يعبر عن بعده عن الله أولاً، ويخسر المعركة ثانياً، والتاريخ الإسلامي يشهد بذلك، والمحاولات التي أرادت أن تقوض دعائم هذا الدين لا تعد ولا تحصى، ولكنها جميعاً باءت بالإخفاق.

(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

لأن الله تولى بذاته العلية هداية الخلق، والدليل:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل]

تولى بذاته العلية هداية الخلق.

من يبحث عن الحقيقة يتولى الله بذاته العلية هدايته:

أنا الذي أؤمن به قطعاً لو إنسان بأقصى مكان في الأرض بحث عن الحقيقة، وتمنى أن يهتدي إليها، يتولى الله هدايته، والدليل الرائع:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال الآية:23]

لو عندك من الخير قيد أنملة لسمعت الحق.

مرة التقيت مع مندوب شركة من هولندا، حدثته عن بعض الآيات الكونية الدالة على عظمة الله، قال لي بالحرف الواحد: هذه الموضوعات لا تعنيني، ولا أهتم لها، ولا ألقي لها بالاً، إنما يعنيني امرأة جميلة، وبيت واسع، ومركبة فارغة، فأنا تذوقت قوله تعالى:

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة الأنفال الآية:23]

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

بطولة الإنسان أن ينصر الحق و يكون معه:

لذلك أيها الأخوة، كل بطولتك أن تنصر الحق، أن تكون مع الحق، أحياناً ابتلاءات الله كبيرة جداً، فالصحابة الكرام في معركة الخندق:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب]

حتى قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

وأحياناً حينما يقوى الباطل ويسيطر ويهيمن، وقد يفعل فعلاً لا يرضي الله، ضعاف الإيمان يتزلزلون.

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

[سورة الأحزاب الآية:12]

المؤمن الصادق واثق من نصر الله عز وجل:

لكن الله يقول:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب]

نسأل الله جلّ جلاله أن نكون من الذين لم يبدلوا تبديلاً، والله الذي لا إله إلا هو، أنا أتحدث عن مؤمن، لو لم يبقَ على وجه الأرض من المؤمنين إلا هو لكان واثقاً من نصر الله.

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر الآية:51]

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

بكلمات، أي يتوهم إنسان ساذج أنه بمقالتين، بإلقاء كلمة، بتأليف كتاب، ينهي الدين، أي لا يوجد قوة على وجه الأرض تستطيع أن تزلزل هذا الدين، لأنه دين الله.

والذي قاله مرة أحد زعماء قريش: إن للبيت رباً يحميه، وإن لهذا الدين إلهاً عظيماً يحميه، وقد ينصره بأعدائه من دون أن يشعروا، ومن دون أن يريدوا، وبلا أجر وبلا ثواب.

(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

لأن الله تولى بذاته العلية هداية خلقه، والله عز وجل كما ترون الأحداث كلها تسير لصالح المؤمنين في النهاية.

خلاص العالم بالإسلام:

أيها الأخوة،

(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

في أي بلد، في أي مكان، في أي زمان، في أي عصر، في أي مصر.

(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

أنا أقول من أعماق قلبي: هنيئاً لمن عرف الله، هنيئاً لمن تفانى في طاعته، هنيئاً لمن دعا إليه، هو المنتصر، هؤلاء الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام، من هم؟ زعماء، أقوياء، أغنياء، أين هم اليوم؟ في مزبلة التاريخ، هؤلاء الشباب الضعاف الفقراء الذين وقفوا مع النبي أين هم؟ تقول: سيدنا بلال، سيدنا معاذ، هؤلاء سادة، كانوا ضعافاً، كانوا فقراء، لكن الله سبحانه وتعالى رفع قدرهم، ورفع

شأنهم، أعلى مكانهم، أسماؤهم في لوحة الشرف.

أخواننا الكرام، عالم من أمريكا هداه الله إلى الإسلام، وزار الجالية الإسلامية في بريطانيا، وقال مقالة أمام أحد علماء الإعجاز العلمي في لندن، هذه الكلمة مؤثرة جداً، قال: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب، على الأقل في المدى المنظور، لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء، ولكن لأنهم خلاص العالم بالإسلام، الإسلام يحرم الخمر.

الاتحاد السوفيتي الذي رفع شعار لا إله اعتنق الإلحاد، هذه الدولة العملاقة قبل أن تنهار من الداخل حرمت الخمر قبل انهيارها بسنوات، وصار هناك ضريبة وعقوبة كبيرة جداً لمن يشرب الخمر، معنى ذلك خضعوا لا عن عبادة أبداً، ولا عن إيمان، ولكن وجدوا أن الخمر تدمر الأمة، تشل قدراتنا، عقب انهيار النظام العالمي العملاق، النظام العالمي المالي القائم على الربا، عقب انهياره قبل سنوات تمّ إعلان إفلاس مئة و خمسة و خمسين مصرفاً في أمريكا، الأزمة العالمية المالية، لماذا؟ لأن هذا النظام العالمي المالي العملاق يقوم على الربا، وتأتي الآية الكريمة:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية:276]

معلوماتي الدقيقة أن هناك دراسات دقيقة وجادة وعميقة في العالم الغربي، دراسات للاقتصاد الإسلامي، وسوف تنشأ مصارف على التراب الأوروبي تعتمد النظام الإسلامي، هذا معنى قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

[سورة التوبة الآية:33]

اعتماد أعداء الإسلام على النظام الإسلامي الأسري و الاقتصادي بدافع المصلحة:

أخواننا الكرام، هناك دراسات الآن حول الاقتصاد الإسلامي تفوق حدّ الخيال، هذا الاقتصاد هو منهج الله عز وجل، لذلك قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)

الحق الشيء الثابت والهادف

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

أي هناك مشكلة يعاني منها الغرب أنهم لا طلاق عندهم، الفاتيكان قبل أعوام- أعتقد عشر أعوام- سمح بالطلاق، فتقدم مليون طلب في يوم واحد،

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

أنا أقول لكم وأعني ما أقول: في النهاية النظام الإسلامي المالي، النظام الإسلامي الأسري، هذا الذي جاء به الإسلام، سوف يعمل به أعداء الإسلام، لا عن إيمان ولا عن اعتقاد ولكن بدافع المصلحة، وكلما تقدم العلم اقترب من الدين، لذلك:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

(وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

[سورة التوبة]

وأي نظام وضعي لا يصمد لعقدين من الزمن، لكن هذا النظام الإلهي نظام أبدي لأنه من عند الخالق، من عند خالق السماوات والأرض.

المؤمن يلقي الله في قلبه نوراً يرى فيه الحق حقاً والباطل باطلاً:

أيها الأخوة،

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى)

الهدى، تصور الهدى ضوءاً كشافاً أمامك، الحفرة تراها تبتعد عنها، الأفعى تراها تقتلها، الأكمة تراها تحيد عنها، الحفرة تراها كأنك تستعين بضوء كشاف، والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد الآية:28]

المؤمن يستنير بنور الله، المؤمن يلقي الله في قلبه نوراً، يرى فيه الحق حقاً والباطل باطلاً، يرى فيه الخير خيراً والشر شراً، المؤمن يهتدي بنور الله.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)

هذا الدين يدينون له كل البشر، يخضعون له، فأنت حينما يقال لك: 2+2=4 تسكت، لو قلت 2+2=7 هناك من يعترض، ما هو الدين؟ الذي تخضع له عن قناعة، تخضع له عن إيمان، تخضع له عن فطرة، تخضع له عن اقتناع، دان له أي خضع له، فالإنسان يخضع للحق الذي من عند الله.

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم، ويتباغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل على منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو وأنا أرأف لعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

الحق الشيء الثابت والهادف والباطل الشيء الزائل والعابث:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)

الحق الشيء الثابت والهادف، والباطل الشيء الزائل والعابث، أحياناً ينشأ سيرك يأتون بفيلة، وبعض الوحوش، وبعض الألعاب البهلوانية، هذا السيرك مؤلف من خيمة، لأنه مؤقت، أما حينما تبني جامعة فهذه تبنى لتبقى، هناك جامعات بنيت من خمسمئة عام، وهي شامخة إلى الآن، فالفرق بين الحق والباطل، الحق الشيء الثابت الدائم والهادف، الجامعة مهمتها الأولى أن تربي قادة للأمة جامعة، أما السيرك فهدفه المتعة، متعة آنية، لذلك المكان قماش، ألعاب بهلوانية، ألعاب الحيوانات، هذه هو السيرك، الحق الشيء الثابت والهادف، والباطل الشيء الزائل والعابث، قال تعالى:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

أي هذا النظام الذي رفع شعار لا إله في الشرق استمر كم سنة؟ سبعون عاماً، بعدئذٍ انهار وانتهى، تداعى من الداخل من دون حرب، لأنه باطل،

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

الحق الثابت والهادف، والباطل الزائل والعابث، الباطل عبث والباطل زائل، والحق الثابت والهادف. إذاً:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

، وأي نظام وضعي فيه ثغرات، هذه الثغرات تكتشف بعد حين، ولا يرضاها الإنسان.

حاجة العالم إلى الإسلام لا عن إيمان و اعتقاد ولكن عن مصلحة:

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

العالم الآن بحاجة إلى إسلام، لا عن إيمان، ولا عن اعتقاد، ولكن عن مصلحة، فلذلك - وصدقوا ولا أبالغ - البلاد القوية من دون أن تشعر ومن دون أن تريد تطبق الإسلام كمصلحة، أي الإيجابيات في العالم الغربي إيجابيات إسلامية، لأن هذا العالم أراد أن يكون قوياً أعطى الإنسان حقه، عندما أعطاه حقه تماسك المجتمع، وأي نهضة لا تعتمد هذا الدين العظيم لا يكتب لها النجاح.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

أي اشكروا الله عز وجل، نحن إيماننا ثابت وهادف، إيماننا لا يتزعزع، الأحداث كلها التي تجري في الأرض لصالح هذا الدين، وفي النهاية الذي أراده الله لهؤلاء المسلمين أراد لهم الخير، أراد لهم القوة

والتفوق، وكل الأحداث تجري لصالح المسلمين، مع مد وجزر أحياناً.

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

سبحان الله! مرة كنت في مدينة، يمكن هي أقصى مكان في الأرض نحو الجنوب، اسمها ملبورن، في أستراليا، هذه المدينة على الساحل الجنوبي لأستراليا، وأستراليا أخفض قارة في الأرض، أي لا يوجد مدينة بعدها إطلاقاً إلا القطب الجنوبي، بهذه المدينة مسجد، و إذاعة إسلامية، و جالية إسلامية، ماذا قال النبي الكريم؟

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

[خرجه الطبراني والإمام أحمد عن تميم الداري]

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم في حدود ما يعلم و مع من يعرف:

لذلك الله عز وجل حينما أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله وأينما تذهب، هناك بلاد كثيرة زرتها، من كندا إلى البرازيل إلى السويد إلى النرويج إلى ألمانيا إلى إيطاليا إلى فرنسا أينما ذهبت هناك إسلام، هناك دعوة دينية، وجالية إسلامية، ومساجد، وإذاعة، و مؤلفات.

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

هذا دين الله عز وجل، لكن الله سبحانه وتعالى ترك لنا أن ننصره.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

[سورة محمد الآية:4]

فهنيئاً لمن سمح الله له أن يدعو إليه، وهنيئاً لمن وفقه الله في الدعوة إلى الله، لأن الله تعالى يقول:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

وسوف أوضح لكم أن هناك دعوة إلى الله هي فرض عين على كل مسلم، لا يعفى منها إنسان، فرض عين في حدود ما تعلم ومع من تعرف فقط، سمعت درساً لك زوجة حدثها عنه، سمعت خطبة تأثرت بها حدث عنها شريكك بالمحل، أقرباءك، اجعل حديثك في أثناء الأسبوع متعلقاً بما سمعت من حق.

((بلّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

هذه دعوة إلى الله تعد فرض عين على كل مسلم.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

والله الآن أيها الأخوة، كنظام يحقق مصالح البشر، ليس هناك إلا الإسلام:

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

من لا يدعو إلى الله على بصيرة ليس متبعاً لرسول الله:

أيها الأخوة، أنت حينما تعتقد أن الدعوة إلى الله فرض عين، لا بدّ من أن تدعو إلى الله، أقول لك مثلاً: أنت لماذا تصلي؟ طبعاً هناك إجابة سهلة جداً، لأنها فرض، هل تعتقد يقيناً أن الدعوة إلى الله فرض عين؟ تسألني هل هناك دليل؟ الدليل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية:108]

فإن لم تدعُ إلى الله على بصيرة، قطعاً أنت لست متبعاً لرسول الله، والآية تقول:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية:31]

الدعوة إلى الله فرض عين في حدود ما تعلم، سمعت درساً، سمعت تفسير آية، سمعت خطبة، بلغ مضمونها لمن حولك، زوجتك، أولادك، أقرباؤك، شركاؤك بالعمل.

((بلّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

هذا أول دليل، الدليل الثاني:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر]

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

أي ادعوا إلى الله، هي فرض عين على كل مسلم، أما فرض الكفاية فيحتاج إلى تفرغ، وإلى تبحر، وإلى تعمق، فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، أي إنسان متخصص بالشريعة بعمق كبير، هذا إنسان آخر، هذا قام بما يسمى بفرض الكفاية، أما فرض العين فعلى كل واحد منكم.

((بلّغُوا عني ولو آية))

حضرت درساً، سمعت خطبة، قرأت مقالاً، تأثرت، بلغ هذا المقال لمن حولك.إذاً:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

وسوف ترون أن هذا الدين هو الدين الذي سوف يسود العالم،

(وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (29-70) : تفسير الآيات 34 - 35 ،التعميم من العمى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-12-03

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن علمنا الموضوعية و عدم التعميم:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة التوبة]

أيها الأخوة الكرام، أول ملمح في هذه الآية الموضوعية الرائعة التي نلمحها في القرآن، لم يقل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا إن الأحبار والرهبان، هذا تعميم، والتعميم دائماً يجانب الحقيقة، والتعميم من العمى، وأنا أنصح أخوتي الكرام ألا تعمم، ألا تطلق حكماً عاماً على كل الناس، قل: إن بعض الناس.

(إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ)

، وإن من أهل الكتاب من يفعل كذا وكذا، القرآن كلام خالق الأكوان، علمنا أن نأتي بأحكام موضوعية، أحكام متوازنة، فلذلك أحياناً يوصف الأمي والجاهل بأحكامه التعميمية.

مثلاً زار إنسان مدينة فانزعج من بعض المعاملات، يقول: كلهم كذابون، كلهم غشاشون، علامة الأمية والجهل التعميم، والإنسان المؤمن والمثقف لا يعمم، والقرآن علمنا الموضوعية.

التعميم من العمى وهو من خصائص الجهلاء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ)

لو تصورنا أن الآية يا أيها الذين آمنوا إن الأحبار والرهبان، وكان هناك حبر- الحبر من علماء اليهود، والرهبان من عباد النصارى- قرأ هذه الآية على هذا الشكل: إن الأحبار والرهبان، ولم يكن كذلك يشك في القرآن، القرآن يعطي أحكاماً موضوعية.

(كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ)

عود نفسك ألا تطلق أحكاماً عامة، لا تقل كل أصحاب هذه الحرفة غشاشون، إياك أن تقول هذا، لأن التعميم من العمى، والتعميم من خصائص الجهلاء، والتعميم فيه فجاجة وعدم نضج، والتعميم يبعدك عن الموضوعية.

أيّ منفعة بنيت على مضرة فهي حرام وأي منفعة بنيت على منفعة فهي حلال:

أيها الأخوة،

(لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

إذا قال الله عز وجل: يأكلون أموال الناس بالباطل، معنى ذلك أن هناك أكلاً لمال الناس بالحق، كيف؟ أنت فتحت بقالية، ذهبت إلى السوق المركزي فجراً، واشتريت خمسين صنفاً من الخضراوات والفواكه، وجئت بها إلى محلك التجاري، جيرانك استيقظوا صباحاً، مشوا أمتاراً، وجدوا الفواكه والخضار، طبعاً بسعر أغلى من سعر التسوق، هذا الفرق بين التسوق وبين البيع، هي أرباح التاجر، هو خدمك وذهب للسوق المركزي وجاء بهذه الأصناف، أضاف عليها ربحاً، باعك إياها وأنت إلى جانب بيتك، قدم لك خدمة، أكاد أقول: إن الدخل الحلال فيه صفة رائعة أنه منافع متبادلة، البائع انتفع بهذا الفارق بين سعر الشراء والبيع، وأنت انتفعت وجدت حاجتك إلى جانب البيت، أنت انتفعت بوجود الحاجات إلى جانبك، وهو انتفع بهذا الفرق بين الشراء والبيع، فكل منفعة متبادلة في الأعمّ الأغلب تنطوي تحت الحلال.

لكن أوضح سرقة، المنتفع هو السارق وصاحب المال هو الخاسر، إنسان انتفع وإنسان خسر، وكأن الحرام منفعة يقابلها خسارة، مضرة، منفعة قامت على مضرة، لو تتبعت الأموال الحرام، الربا، السرقة، الاحتيال، الغش، لوجدت أن مالاً أُخذ بغير حق، منفعة انتفع بها البائع بناها على مضره، ضرّ بها الشاري، أي منفعة بنيت على مضرة في الأعمّ الأغلب هذه الطريقة في كسب المال تصنف تحت الحرام، وأي منفعة بنيت على منفعة في الأعمّ الأغلب هذه العلاقة التي من شأنها أنها تنضوي على منفعتين أو على منافع متبادلة تنضوي تحت الحلال.

الطرائق لكسب المال الحرام لا تعد ولا تحصى وكلها مبنية على الوهم والتضليل:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

يقدم له وهماً، يقدم له فكرة لا أصل لها، يلقي في روعه أنه بهذا المبلغ سيغفر له، لذلك رجال الدين في العصور الوسطى، باعوا صكوك الغفران، تدفع ثمن الصكوك تغفر لك كل ذنوبك، هذا الذي أعطاك هذا الصك هل يملك أن يغفر لك كل ذنوبك؟ دائماً أكل الأموال بالباطل لها مليون طريق وطريق، والله الطرائق لكسب المال الحرام لا تعد ولا تحصى، وكلها مبنية على الوهم، والتضليل، والإيهام، وأساليب لا يقبلها الله عز وجل، تدليس، تضليل، إيهام، كذب، غش.

لذلك البطولة أن يكون دخلك حلالاً، إن كان الدخل حلالاً أنت من أسعد الناس، دائماً وأبداً الدخل الحرام له نتائج سيئة جداً، هذا اللحم الذي ينبت من حلال يبارك الله فيه، هناك لحم ينبت من سحت، من مال حرام، فهذا الأب الذي يأكل المال الحرام ويطعم أولاده هناك مشكلة في حياته كبيرة.

والله التقيت بإنسان، قال لي: عمري ست و تسعون سنة، البارحة أجريت تحليلاً كاملاً للدم والبول، سبحان الله! كله طبيعي، لا يوجد شيء خلاف النسبة الطبيعية، ثم قال لي: والله ما أكلت بحياتي قرشاً حراماً، ولا أعرف الحرام، أول حرام حرام المال، وثاني حرام حرام النساء.

الاستقامة عين الكرامة:

لذلك:

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه مالك في عن بلاغ مالك]

الاستقامة عين الكرامة، كما أنه في التجارة يمكن أن تضغط التجارة بكل نشاطاتها، والله فيها أكثر من مئة ألف نشاط، نشاط متنوع، شراء، بيع، دعاية سفر، أخذ وكالات، إنشاء معارض، ترويج بضاعة، طبع فواتير، شراء مستودعات، أكثر من مئة ألف نشاط، كل هذه النشاطات تضغط في كلمة واحدة، إنها الربح، فإن لم تربح فلست تاجراً، قياساً على هذا وكل نشاطات الدين، تؤلف كتاباً، تلقي محاضرة، تنتسب لمعهد شرعي، تذهب للحج و للعمرة، لو هناك مئة ألف نشاط ديني، كل هذه النشاطات يمكن أن تضغط بكلمة واحدة إنها الاستقامة، فإن لم تستقم لن تقطف من ثمار الدين شيئاً، دين من دون استقامة ثقافة، عادات، خلفية إسلامية، أرضية إسلامية، طموحات إسلامية، اهتمامات إسلامية، مشاعر إسلامية، بطاقة إسلامية، زخرفة إسلامية، أقواس إسلامية، الدين شيء والإسلاميات شيء آخر، الآن الدول مهما انحرفت، مهما انتشر فيها الفسق والفجور، يقال لك: بلد إسلامي، لأن فيه أبنية إسلامية، و بطاقات إسلامية، و معالم إسلامية، وآثار إسلامية، الدين شيء آخر، الدين منهج يومي، لذلك لا تهتم كثيراً بما يقال، أرضية إسلامية، خلفية إسلامية، اهتمامات إسلامية، مؤلفات إسلامية، مشاعر إسلامية، فن إسلامي، الإسلام شيء آخر، الإسلام منهج مطبق، إن لم يطبق أصبح الدين ثقافة، وأصبح الدين

تراثاً، وأصبح الدين من منجزات الأمة الفكرية.

تحري الحلال وغض البصر عن محارم الله حصنان يقيان المؤمن من أخطر انحرافين:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ)

فإذا كان الحبرُ أو الراهب يأكل المال الحرام فما قولك ببقية أتباع هذا الدين؟ أي يمكن أن تضغط كل المعاصي والآثام في بندين، بند متعلق بالمال، وبند متعلق بالنساء فقط، كل الفضائح بالعالم بتاريخ البشرية فضائح مالية، أو جنسية، شهوتا المال والجنس وراء جميع الانحرافات.

فلذلك المؤمن حينما يحصن نفسه من موضوع المال الحرام، والعلاقة الآثمة المحرمة مع النساء، نجا من أكبر مطبات الإنسان، أكبر مطبين ينتظران الإنسان مطب المرأة ومطب المال، ولو استعرضت الفضائح في تاريخ البشرية لا تزيد عن نوعين من الفضائح، فضيحة مالية اختلاس، فضيحة جنسية زنى فقط.

لذلك تحري الحلال وغض البصر عن محارم الله حصنان يقيان المؤمن من أخطر انحرافين في الحياة، أما أكل المال بالحق، درست اختصاصاً، صرت طبيباً، جاءك مريض عالجته، تقاضيت الأجرة، هذه تأخذها بالحلال، درست هندسة، أنشأت مخططاً لبناء، تلقيت الأجر، درست صيدلة، فتحت صيدلية، بعت الدواء، تلقيت ربحاً، كل حرفة مقبولة مادامت مشروعة، لذلك في الإسلام بدائل، ما حرم عليك شيء إلا جعل لك بدائل له.

مثلاً يقول لك: نحن بحاجة إلى التأمين، هناك تأمين محرم، التأمين التجاري محرم، والتأمين التعاوني مندوب، تصور مئة تاجر أقمشة، عملوا صندوقاً للتأمين، وضع كل واحد بهذا الصندوق مئة ألف، أي عشرة ملايين، عشرة ملايين هذا مال لهم وظفوه بمشاريع، إن صار هناك عطب لأحد التجار، أخذ من هذا الصندوق تعويضاً، تأمين تعاوني، هذا من أرقى أنواع التأمين، أنت مالك محفوظ لك، وقد يستثمر، وإذا أصاب أحد زملائك مصيبة يدفع من هذا الصندوق، لا يوجد أروع من التأمين التعاوني، والآن بدأ ينتشر، هذا حلال، بل مندوب، لا تصدق شيئاً حرمه الله ليس له بديل حلال.

أنواع المال الحرام لا تعد ولا تحصى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

والله الذي لا إله إلا هو لو أردت أن تستوعب وأن تستقصي أنواع المال الحرام، والله لا تعد ولا تحصى، يكفي أن توهم الشاري أن هذه البضاعة سوف يمنع استيرادها، والفكرة ليس لها أصل، أنت أوقعته بحالة نفسية قلقة، فاشترى ولم يسأل عن السعر، أنت استغليت قلقه ورفعت السعر، هذا مال حرام، والله أكاد أقول لكم: أكثر من تسعين بالمئة من طريقة كسب المال في العمل التجاري المحرم مبني على الوهم، أو الاحتكار، أو الإيهام، أو الغش.

لذلك هذا الإنسان الذي يغير الواقع في البيع والشراء لا يظن نفسه ذكياً، أحياناً إنسان يجمع مالاً حراماً خلال عشر سنوات، يذهب بمصادرة واحدة، يذهب بكارثة واحدة، أنت جمعتهم خلال عشر سنوات و ذهبوا بليلة واحدة.

والله إنسان أظنه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً، احترق محله التجاري، فأنا أمامه والمحل يحترق، لكن أظنه صالحاً، قال لي: أنا أعمل بهذا العمل منذ ثلاثين سنة، لعلي أكلت مالاً حراماً بهذه السنوات، فجمع الله لي إياهن بهذا الحريق، وجدته راضياً، هناك عدل إلهي، لعلي أكلت مالاً حراماً خطأ بالبيع والشراء، عنده معمل نسيج، وعنده محل للبيع، محل البيع احترق، فخسر حوالي عشرة ملايين ليرة بضاعة، قال لي: هناك خطأ مني، لعلي أكلت مالاً حراماً بثلاثين سنة.

ما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة:

يجب أن تعتقد يقيناً أنه لا يوجد مصاب ينزل بلا سبب، ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة، حاول ألا تجامل نفسك، حاول ألا تحابي نفسك، الله عز وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً)

ما قال إن كل الأحبار والرهبان، تعلم الموضوعية، تعلم ألا تطلق أحكاماً عامة، تعلم ألا تتهم الكل، لا يتهم الكل إلا الأحمق، وكلما ارتقت علاقتك الموضوعية ترتقي عند الله، وكلما عممت تعميماً سريعاً باطلاً تسقط من عين الله.

(إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

الباطل الشيء الزائل، والباطل الشيء العابث، العبث والزوال من صفات الباطل، والثبات والنماء من صفات الحق، سبحان الله! إذا كان المال حلالاً فالمال ينمو وينمو وينمو، يقول لك: بدأنا بمئة ألف، الآن معنا مئات الملايين، هناك مال حلال لأنه ينمو، يأتي إنسان يحاول أن يكون ذكياً وهو بهذا من أغبى الأغبياء لأنه أكل أموال الناس بالباطل، وجمع ثروة طائلة، فوقع في أخطاء مدمرة، وخسر جميع ماله،

وأدبه الله.

أي مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تجد خيراً في المعصية، ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تجد سوءاً في الطاعة، الطاعة كلها خير، والمعصية كلها شر، لكن لحكمة بالغة قد يكون الشر غير واضح، لكن الواضح هو المبلغ الكبير، هذا المبلغ الكبير قد يُدفع على صحة الإنسان، بتعبير آخر الله عز وجل عنده ملايين الخيارات، تجمع مالاً كثيراً بطريق غير صحيح مرض واحد يمنعك من التمتع بهذا المال.

كان عندي طالب له قريب صاحب دار سينما، فهو يأتي بالأفلام الساقطة كي تروج مشاهدتها عند الناس، وهذه السينما من الدرجة الخامسة أو العاشرة، وانحرافات، وهو في الأربعينات صار معه ورم خبيث، فزاره طالبي لأن هذا الشخص يكون خاله، بكى وقال له: أنا حاولت عن طريق الأفلام أن أجمع ثروة طائلة لأتمتع فيها بخريف عمري، ها قد وافتني المنية بوقت مبكر.

أي لا تظن أنه يمكن أن تقوم بعمل يؤذي الناس وتنجو من عذاب الله.

من صفات المجتمع المنحرف أكل أموال الناس بالباطل وصدّ عن سبيل الله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

إن أردت أن تصف المجتمع المنحرف، صفتان جامعتان مانعتان، أكل أموال الناس بالباطل، وصدّ عن سبيل الله، مال حرام، ومحاربة للدين، وهذا عمل العالم كله الآن، البنوك، والمصارف، والأموال الربوية، والابتزاز بوسائل مشروعة وغير مشروعة، وصد عن ذكر الله.

أيها الأخوة الكرام،

(إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

المنفعتان المتبادلان من خصائص المال الحلال، والمنفعة التي تقوم على مضرة من خصائص المال الحرام، من أكل أموال الناس بالباطل أن تستخدم الإيهام، والكذب، والدجل، ومع أكل أموال الناس بالباطل هناك صدّ عن سبيل الله.

على الإنسان أن ينطلق في كسب المال لا من حاجته بل من قدرته:

ثم يقول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

أيها الأخوة من ملامح هذه الآيات أن الإنسان ينبغي أن يكسب لا بقدر حاجته بل بقدر إمكاناته، لماذا؟ لو كسب بقدر حاجاته وأنفق الذي كسبه على حاجاته هناك أشخاص كُثر لا يملكون القدرة على كسب المال، هؤلاء يموتون من الجوع، فكل مؤمن ينبغي أن يكتسب بحسب قدرته على الكسب، والفائض ينفقه بحسب أموال الزكاة أو الصدقة على من لا قدرة له على كسب المال فصار هناك توازن بالمجتمع.

فدائماً يجب أن تنطلق في كسب المال لا من حاجتك بل من قدرتك، مادام الإنفاق واجباً، إذاً ينبغي أن تكتسب المال بطريقة تزيد عن حاجتك كي تعطي الفقراء والمساكين.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

أيها الأخوة، الله عز وجل جعل من الذهب والفضة أصلين للعُملات، الآن حتى الورقة العملية أصلها ذهب أو فضة، أي مغطاة في المؤسسات النقدية بعدد من الأوزان الذهبية تكافئ هذه الأوراق الورقية المطبوعة.

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

معنى ذلك أن الإنفاق ينبغي أن يكون في سبيل الله، والإنفاق كلمة واسعة جداً، أي عمل خيري في سبيل الله، أي عمل دعوي في سبيل الله، أي عمل تعليمي في سبيل الله، أي سدّ لحاجات الفقراء في سبيل الله، أي مشروع ينتفع منه الفقراء في سبيل الله، أي مشروع تعليمي، أي مشروع صحي، لذلك الطرائق طرائق إنفاق المال في سبيل الله لا تعد ولا تحصى، ومن أراد العمل الصالح والله أمامه مليون طريق وطريق.

مرة لفت نظري إنسان عنده بنت كلما جاءه خاطب لا يرجع وهي صالحة جداً وحافظة لكتاب الله، فاشترى لها بيتاً وجعل هذا البيت لها، فجاءها خطاب كثر، شاب لا يوجد عنده بيت، وهي فتاة معها بيت، فهذه الفكرة راقت له فأنشأ بناء، وكل فتاة ممن يعرفها صالحة، حافظة لكتاب الله، محجبة، يكتب لها بيتاً صغيراً فتتزوج سريعاً، انظر هذا العمل لا يأتي ببال إنسان، هيأ زواجاً لفتيات مؤمنات، طاهرات، عفيفات، حافظات لكتابه.

والله الأعمال الصالحة لها طرائق، وأساليب، وأنواع، وصور، لا تعد ولا تحصى، أنا أجمعها بهذه الكلمة، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، والله لا يوجد إنسان من الحاضرين وأنا معكم، إلا بإمكانه ضمن عمله أن يعمل عملاً صالحاً، ضمن بيئته، ضمن بيته، ضمن إمكانيته، ضمن أوضاعه،

ضمن أوضاعه العامة، له أن يعمل عملاً صالحاً.

من عاش تقياً عاش قوياً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

سمعت عن أشخاص كثيرين عاشوا سنوات طويلة، و هناك عالم من علماء الشام بلغ من العمر ثمان و تسعين سنة، وكان منتصب القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه، حينما يُسأل يا سيدي! ما هذه الصحة التي حباك الله بها؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

البطولة في خريف العمر، فالذي نشأ بصلاح وورع وتقى له عند الله خريف عمر كبير.

أخواننا الكرام، لا تبتعدوا كثيراً، مرة أقيم حفل لعلماء الشام، عدد كبير منهم تجاوز المئة، ويتمتع بأعلى درجات الصحة، سبحان الله! من علامات التوفيق أن يطول العمر، ويحسن العمل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

أشخاص كثيرون والله التقيت بهم وحدثوني عن استقامتهم، من ثمار هذه الاستقامة أنهم في أعلى درجات، في أكبر أعمارهم كانوا سعداء، ويتمتعون بصحة جيدة.

مهمة الإنسان أن يربي ابناً صالحاً يحسن إدارة المال من بعده:

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ)

هذا إنسان أحمق يعيش فقيراً ليموت غنياً، إنسان كان شديداً بالإنفاق شدة مبالغ بها، توفي ترك مئات الملايين في السبعينات، فصديق المتوفى رأى ابن المتوفى، شاب، قال له أين ذاهب؟ اسمحوا لي بهذه الكلمة قال له: ذاهب لأسكر على روح أبي، الإنسان إذا لم يربِ أولاده وترك مالاً، يكون قد ترك المال للفسقة، وقد يتألم ألماً لا حدود له، لذلك تربية الأولاد أهم بألف مرة من جمع المال، هناك و الله أولاد صالحون، والله ترك لهم آباؤهم ملايين مملينة، كلها أنفقت في مشاريع خيرية، وأعمال صالحة، كل بطولتك أن يرثك ابن مؤمن، هذا يحسن إدارة المال من بعدك، هذا يجعل هذا المال في صحائفك.

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

المال لا يمكن أن يكون هدفاً إن جعلته هدفاً أخطأت التصرف، المال وسيلة، يقول أحد الصحابة: حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي، هاتان مهمتان كبيرتان للمال.

النار عاقبة من كنز الذهب و الفضة:

(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

هذا العذاب:

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ)

[سورة التوبة الآية:35]

إنسان فقير سألك سؤالاً، فقلت له بجبهتك: لا يوجد معي، هذه الجبهة، وأحياناً تعطيه طرف جسمك، الجنب، وأحياناً تدير له ظهرك، فالأجزاء الثلاث من الجسم التي عبرت على عدم الإنفاق الجبهة والجنب والظهر:

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ)
(هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

[سورة التوبة]

والله أيها الأخوة عندي قصص عن أناس تركوا أموالاً طائلة، وتركوا ذرية فاسدة، فهذه الأموال أنفقت في المعاصي والآثام، هم حصّلوها بكد وتعب شديد، وأولادهم أنفقوها في المعاصي والآثام. لذلك ورد أن روح الميت ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي! يا ولدي! لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، وأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي.

المال أحد أكبر الأشياء التي سوف يحاسب عليها الإنسان يوم القيامة:

أخواننا الكرام، أحد أكبر الأشياء التي سوف تحاسب عليها المال من أين اكتسبته؟ وفيمَ أنفقته؟ معك جواب؟.

يروى أن إنساناً من كبار أثرياء مصر توفي، وأولاده علموا أن أصعب ليلة للميت هي أول ليلة، فخافوا عليه، فخطر في بالهم أن يكلفوا إنساناً لينام معه أول ليلة، أحضروا إنساناً فقيراً جداً يكاد يموت من الجوع، أعطوه عشرة جنيهات لينام في هذه الليلة مع أبيهم في القبر، جاء الملكان فرأيا شخصين قال أحدهما للآخر: عجيب، هناك اثنان في القبر، يبدو أن الحي خاف فتحرك، فقال أحدهما للآخر: هذا حي وليس بميت، بدؤوا به فأجلسوه، من شدة فقره أحضر كيساً، فتحه من مكان من أجل رأسه، ومن طرفيه من أجل يديه، وربطه بحبل - طبعاً القصة الرمزية – فلما أجلسوه بدؤوا بالحبل، هذا الحبل من أين أتيت به؟ قال لهم: من البستان، كيف دخلت للبستان؟ لم يعرف الجواب فضربوه ضرباً مبرحاً، فهذا عندما خرج من القبر، قال: أعان الله أباكم.

والله الذي لا إله إلا هو سوف نحاسب عن كل شيء، والله عن ابتسامة بغير محلها، إنسان صديقك قال لك: ماذا نفعل إذا الإنسان لا يغش لا يعيش؟ إن قلت له: والله معك حق، أو هززت برأسك أن هذا الكلام صحيح، فهذا إثم كبير، والله لا أبالغ سوف نحاسب عن كل شيء، ما لم نستغفر، ونتوب، القضية ليست سهلة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ)

بجبهته رفض، فلما ألح أعطاه جنبه، فلما ازداد في الإلحاح أعطاه ظهره.

أشقى الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً:

(فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

أندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، والله هناك أشخاص عاشوا حياة الكفاف وتركوا مئات الملايين، والله لا أبالغ أحد أخواننا الكرام، كافح التسول في الشام لسنتين متتاليتين قال لي جمعت تقريباً 1500ألف و خمسمئة متسول، حقق معهم، الفقراء منهم خمسة أشخاص فقط، والبقية معهم مليون بالبنك أو سبعمئة ألف أو ثمانمئة ألف، ومظهره متسول.

لذلك التوجيه القرآني أن الذي يستحق منك صدقة:

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً)

[سورة البقرة الآية:273]

أخواننا الكرام، الآيات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ)

هذه النقطة تعلمنا الموضوعية، ليس كل الأحبار والرهبان،

(إِنَّ كَثِيراً)

(لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

بطرق غير مشروعة، بالإيهام، والكذب، والدجل،

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

هذا أشقى الناس، عاش فقيراً ليموت غنياً.

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (30-70) : تفسير الآية 36 ، فوائد الأشهر الحرم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-12-10

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان قبل حمل الأمانة وهي نفسه التي بين جنبيه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة]

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء، هذا الكون يشف عن وجود الله، وعن كماله، وعن وحدانيته، هذا الكون له خالق عظيم، ورب كريم، ومسير حكيم، هذا الإله العظيم خلق المخلوقات وعرض عليها الأمانة، فقال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

الإنسان قَبل حمل الأمانة، ما الأمانة؟ نفسه التي بين جنبيه.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس]

الإنسان بعد أن حمل الأمانة كان المخلوق الأول عند الله عز وجل :

الله عز وجل جاء بنا إلى الدنيا، أعطانا هذه النفس كأمانة بين أيدينا، فالنجاح كل النجاح، والفلاح كل الفلاح، والفوز كل الفوز، والتفوق كل التفوق، والعقل كل العقل، بأداء الأمانة وبطاعة الله، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

أنت حينما تلتقي في أيام العيد بطفل صغير، يقول لك: معي مبلغ عظيم، والده مدرس، أو مهندس، أو طبيب، تقدر هذا المبلغ العظيم الذي تكلم عنه الطفل بألف ليرة، أما إذا قال مسؤول كبير في البنتاغون: أعددنا لحرب العراق مبلغاً عظيماً، يمكن أن تقدر المبلغ العظيم بالنصف الثاني بمئتي مليار دولار، فإذا قال خالق الأكوان ورب الوجود:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

أي إذا شخص منكم حضر درس علم، وعرف شيئاً عن ربه، وشيئاً عن الحياة الدنيا، وشيئاً عن الآخرة، وتحرك باتجاه هذا الهدف،

(فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

يكون قد حقق الهدف من وجوده.

فلذلك عندما الله عز وجل خلق السماء والأرض وعرض عليها الأمانة

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

كان الإنسان بعد أن حمل الأمانة المخلوق الأول عند الله، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة]

إطلاقاً.

العبادة علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا :

أيها الأخ الكريم، اعتقد يقيناً أن الفرصة أمامك وأنت في الحياة الدنيا كي تكون أفضل الخلق جميعاً، إذا حملت الأمانة، وأطعت الله ورسوله، هذا ليس كلام البشر، هذا كلام خالق البشر،

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

إذاً الله عز وجل جاء بك إلى الدنيا كي تعبده، والدليل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

لو أرسلنا الآن طالباً إلى فرنسا لينال الدكتوراه، في باريس بالذات، مدينة كبيرة مترامية الأطراف، يسكنها عشرة ملايين إنسان، فيها مدارس، فيها جامعات، فيها معامل، فيها ملاه، فيها دور سينما، فيها مؤسسات، فيها دوائر حكومية، فيها متنزهات، فيها مسارح، فيها نوادي ليلية، ماذا نقول لهذا الطالب الذي أرسل لهذا البلد لينال الدكتوراه؟ علة وجوده الوحيدة أي علاقته بهذه المدينة علاقة واحدة نيل هذه

الشهادة.

أيها الأخوة الكرام، هل تصدقون أن وجودنا في الدنيا له هدف واحد هو أن نعبد الله

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

وأنت حينما تعبد الله حققت المراد من وجودك، حينما تعبده وتشكره، أو حينما تعرفه وتشكره، لذلك يقول تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء الآية:147]

لمجرد أن تعرفه، وأن تشكره، حققت الهدف من وجودك، وكنت مع المخلوقات الأولى،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

والله عز وجل ما كلفك فوق ما تطيق، قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة الآية:286]

وما من شهوة أودعها الله فيك إلا جعل لها قناة نظيفة تسير خلالها، اعتقد يقيناً أن ليس بالإسلام حرمان إطلاقاً، لا يوجد حرمان، لكن هناك تنظيماً.

الكون كله ينطق بوجود الله وبوحدانيته وبكماله :

إذاً الله عز وجل خلق الإنسان، وجاء به إلى الدنيا من أجل أن يعبده، كيف يعبده؟ ينبغي أن يعرفه أولاً، كيف يعرفه؟ جعل الله الكون كله شافاً عن وجوده، وعن كماله، وعن وحدانيته، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، فالكون كله ينطق بوجود الله، وبوحدانيته، وبكماله.

هناك طائر اسمه البطريق يعيش في القطب الشمالي والجنوبي، هذا الطائر يمشي على رجليه كالإنسان تماماً، حينما تضع أنثاه البيضة، يحملها على رجليه، ويغطيها بريشه، ويبقى أربعة أشهر لا يذوق شيئاً من أجلها، ومعه بحوصلته كمية غذاء دسمة، حينما يخرج هذا المخلوق من البيضة، يفتح منقاره يضع الأب الطعام في منقاره، أربعة أشهر لا يذوق شيئاً، من أجل أن تبقى البيضة على قدميه مغطاة بريشه، هي ومضة من ومضات الله عز وجل.

عظمة الله وحكمته من دوران الأرض على محور مائل على مستوي دورانها :

والله أيها الأخوة، لو أمضينا كل أعمارنا في اكتشاف عظمة الله في خلقه، شيء لا ينتهي، فلذلك عندما خلق الله عز وجل الإنسان وعرض عليه الأمانة، وقبل حمل الأمانة، كان المخلوق الأول، فجعل الله له

الكون مقوماً أولاً يعينه على طاعة الله، كل شيء في الكون ينطق بوجود الله، وبوحدانيته، وبكماله. فالأرض تدور حول الشمس دورة كل عام، من هذه الدورة تنشأ الفصول الأربع، صيف، شتاء، خريف، ربيع، تدور دورة حول نفسها من هذه الدورة ينشأ الليل والنهار، لكن تصور لو أن الشمس هنا والأرض هنا، لو أن الأرض تدور على محور موازي لمستوي دورانها هكذا تدور تنتهي الحياة، لأن أول قسم حرارته تقدر بثلاثمئة و خمسين فوق الصفر، وثاني قسم حرارته تقدر بمئتي و سبعين تحت الصفر، هي تدور لكن على محور يوازي مستوي الدوران، أما هذه الأرض تدور هكذا، لو أنها هكذا الصيف دائم، والشتاء دائم، والربيع دائم، والخريف دائم، تدور بمحور ميله يقدر بثلاث و ثلاثين درجة، من دوران الأرض على محور ليس موازياً على مستوي دورانها، وليس متعامداً مع مستوي دورانها، ينشأ الليل والنهار والفصول الأربع، فكلما قرأت في القرآن:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

[سورة فصلت الآية:37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت الآية:37]

الليل والنهار أصل الزمن في حياتنا :

الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، أي مليون وثلاثمئة ألف أرض تدخل في جوف الشمس، وبين الأرض والشمس مئة و ستة و خمسون مليون كيلومتر، وفي أبراج السماء وما أكثرها درب التبانة مجرتنا، المجموعة الشمسية بأكملها تساوي نقطة على شكل مغزلي، مجرة درب التبانة شكلها مغزلي، أي بيضوي، عليها نقطة واحدة هي المجموعة الشمسية بأكملها، والأرض أحد الكواكب الصغيرة في المجموعة الشمسية، هذا الإله العظيم يعصى؟ ألا يخطب وده؟ ألا ترجى جنته؟ ألا تخشى ناره؟ خلق الإنسان، وخلق له الكون، وهذا الكون ينطق بوجود الله، ووحدانيته، وكماله، ويؤكد أن له خالقاً عظيماً، ومربياً كريماً، ومسيراً حكيماً، شاءت حكمة الله أن يكون من دورة الأرض حول نفسها الليل والنهار،

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

وشاءت حكمة الله أن يكون من دورة الأرض حول الشمس الفصول الأربع، هذه من آيات الله، لذلك دورة الأرض حول نفسها وتشكل الليل والنهار أصل الزمن، لولا دورة الأرض حول نفسها لما كان الليل والنهار، ولولا دورة الأرض حول الشمس لما كانت الفصول الأربع، صار هناك شهر، ثلاثون يوماً، أنت إذا نظرت إلى الشمس لا تعرف في أي يوم من أيام الشهر أنت، لكن تعرف إذا نظرت إلى

الشمس في أي وقت من أوقات اليوم، الجواب واضح؟ إن نظرت إلى الشمس، إن كانت في كبد السماء كان الوقت ظهراً، قبل أن تغيب قبيل المغرب، بعد الشروق ضحى، إذا نظرت إلى الشمس تعرف أين أنت من اليوم، لكن إذا نظرت إلى القمر تعلم أين أنت من الشهر، إذا كان هلالاً رفيعاً في أول الشهر، بدراً في منتصفه، هلالاً معكوساً في آخره،

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة التوبة]

قالوا: دورة الأرض حول الشمس تشكل العام بأكمله، ودورة الأرض حول نفسها تشكل الليل والنهار، الليل والنهار أصل الزمن في حياتنا، وأتصور أنه لو لم يكن هناك ليل ونهار، في سنة ألفان و عشرة الرقم ليس له معنى، لو ألغي دوران الأرض حول نفسها لألغي الزمن كلياً، على كلٍّ الموضوع دقيق له تفصيلات رائعة جداً.

في القرآن الكريم آية تشير إلى أكبر نظرية في الفيزياء وهي النظرية النسبية :

طبعاً أينشتاين اكتشف أن السرعة المطلقة هي سرعة الضوء، الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلومتر، الحقيقة هناك آية في القرآن تشير إلى أكبر نظرية في الفيزياء، هي النظرية النسبية، هذه جاء بها أينشتاين، هذه النظرية قلبت مفاهيم الفيزياء في الأرض، هذه النظرية تقوم على أن السرعة المطلقة في الكون هي سرعة الضوء، أي أعلى من الضوء لا يوجد، هذه السرعة المطلقة التي هي سرعة الضوء تعني أن كل شيءٍ سار بسرعة الضوء أصبح ضوءاً، الضوء ليس له كتلة وحجمه لا نهائي، أي شيءٍ سار مع الضوء أصبح ضوءاً، لذلك الآية الكريمة:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

[سورة الحج]

لو أخذنا مركز الأرض، الأرض كرة لها مركز، ولو أخذنا مركز القمر و وصلنا بينهما بخط، لكان هذا الخط نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، هذا الخط نعرف طوله من نصف قطر الأرض مع نصف قطر القمر مع المسافة بينهما، هذا نصف القطر نضربه باثنين نحصل على القطر، نضربه بالبي أي 3.14 نحصل على المحيط هذا باليوم، بالشهر نضرب بثلاثين، بالسنة نضرب باثني عشر، بألف سنة نضرب بألف، ابنك الصغير وبدقائق معدودة يحسب لك كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام، واضح؟ لو قسمت هذا الرقم على ثواني اليوم، اليوم كم ثانية؟ ثلاثة آلاف و ستمئة ثانية، المفاجأة المذهلة لو قسمنا ما يقطعه القمر في رحلته في ألف عام على ثواني

اليوم النتيجة سرعة الضوء، تأتي الآية:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

أي ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء قي يوم واحد، فإذا قسمت على ثواني اليوم النتيجة سرعة الضوء و التي هي السرعة المطلقة، هذا ملخص نظرية أينشتاين، وردت في أربع كلمات في القرآن الكريم:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

إذاً:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ)

الشهر ثلاثون يوماً، اليوم أربع و عشرون ساعة، ليل ونهار

(اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

البشر عند الله نموذجان لا ثالث لهما :

الآن البشر كما تعلمون مؤمنون وكفار، هذا ملخص الملخص.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

ما الحسنى؟

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

[سورة يونس الآية: 26]

الجنة، أنت إذا صدقت أنك مخلوق للجنة، شيء طبيعي جداً أن تتقي أن تعصي الله، وإذا اتقيت أن تعصي الله تبني حياتك على العطاء، فصفات ثلاثة جامعة مانعة للمؤمن، صدق أنه مخلوق للجنة، واتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء.

الطرف الثاني، كذب أنه مخلوق للجنة، بل آمن أنه مخلوق للدنيا، لذلك استغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ، ستة آلاف مليون إنسان على اختلاف مدنهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، مهما أردت أن تعدد، البشر عند الله نموذجان، صنفان، فريقان، صنف آمن أنه مخلوق للجنة، فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، وصنف آمن أنه مخلوق للدنيا لا للجنة، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ.

الحق يقوى بالتحدي وأهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية :

أخواننا الكرام، إذاً الإنسان حمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيه، فريق آمن وفريق لم يؤمن، فريق صدق بالحسنى، فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، وفريق كذب بالحسنى بل آمن بالدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، الآن أليس من الممكن أن يكون هؤلاء الذين كفروا بالجنة وآمنوا بالدنيا في كوكب معين والمؤمنون في كوكب وانتهى الأمر؟ ليس هناك بدر، ولا أحد، ولا الخندق، ولا الحروب المعاصرة، ولا حروب عالمية أولى، ولا ثانية، ولا ثالثة، لا يوجد شيء، المؤمنون في كوكب، والكفار في كوكب، لكن شاءت حكمة الله أن يكونوا معاً في كل مكان وفي كل زمان، بعضهم قال: لأن الحق يقوى بالتحدي، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية، إذاً القرار الإلهي أن يعيش في الأرض المؤمنون وغير المؤمنين في زمان واحد، وفي وقت واحد، أينما ذهبت أناس مع الحق، وأناس مع الباطل، أناس مع المبدأ، وأناس مع الشهوة، أناس مع القيم، وأناس مع المصلحة، أناس مع الدنيا، وأناس مع الآخرة، لذلك قدرنا أن هناك معركة بين الحق والباطل، هذه المعركة أزلية وأبدية، لأن الحق يقوى بالتحدي، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية.

الحكمة من الأشهر الحرم :

هذا تمهيد لهذه الآية:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

هذه قضية كونية

(مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

هذه الأشهر الأربع يُمنع فيها القتال، معنى ذلك لأن المؤمنين والكفار مع بعضهما، وكل واحد له هدف، وأحياناً تتعارض الاتجاهات، إذاً أن يتحارب الفريقان شيء طبيعي، وهذا قدرنا، لكن جعل الله هذا الأشهر الأربع الحرم، رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ممنوع القتال فيها، لماذا؟ الإنسان إذا حارب يثور دمه وتتنامى عزته وكبرياؤه، ولا يدع القتال حتى يفني خصمه، والخصم كذلك، فجاءت هذه الأشهر الأربع رجب، وذو العقدة، وذو الحجة، ومحرم ليقف القتال، ليس هناك غالب ولا مغلوب حفاظاً على عزة الإنسان وكرامته، أحياناً تكون هناك حرب، تدخل دول ثلاث توقفها، الطرفان يتمتعان بكرامتهم وبعزتهم، فهذا من علم الله في الغيب، جعل الله المؤمنين والكفار مع بعضهما بعضاً، لا شك أن هناك معركة أزلية وأبدية بين الحق والباطل، فإن نشبت الحروب ينبغي أن تقف ولو إلى حين ليذوق

الناس طعم السلام، فينحازوا إليه، هذا بعض ما توجه إليه السادة المفسرون

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

أي تقف الحروب في هذه الشهور، لا غالب ولا مغلوب، يذوق الناس طعم السلم يحبونه، قد يكون هذا الوقف لإطلاق النار مستمراً وتنتهي الأمور بالحوار، والمصالحة، ورفع الضيم عن بقية الناس، هذه الحكمة البالغة من الأشهر الحرم، يقف القتال لا بالأعلام أن أحد الخصوم قد انتصر، ولا بإذلال الثاني أنه انهزم، يقف القتال بحكم إلهي فلا يوجد منتصر ولا مغلوب، والجميع كرامتهم محفوظة،

(مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

شأن أهل الدنيا أن يبني الكافر مجده على أنقاض البشر وحياته على موتهم :

لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

[سورة الحجرات الآية:9]

هناك كثير من الحروب التي دمرت العالم الإسلامي، والخطأ أنه لم يتدخل أي فريق ليوقف الحرب بين هاتين الدولتين، كل طرف استعان بقوى أجنبية، والقوات دخلت وهم باعونا واشترونا و فازوا بمليارات مملوءة من هذه الحروب.

مرة قيادة كبيرة في العالم الغربي جمعت ثلاثين عالم نفس في منتجع، وتركوهم شهراً بأكمله ليجيبوهم عن سؤال واحد، أي شيء أفضل للعالم الغربي الحرب أم السلم؟ فكان الجواب: الحرب، أنتم لاحظوا كل فترة هناك حرب، بالنهاية تذهب أموال طائلة من المتحاربين إلى العالم الغربي، لأن عندهم السلاح، حتى يبيعوا السلاح هم بحاجة إلى بؤر ملتهبة في العالم، بين الهند و الباكستان مشكلة كشمير، بيننا وبين العدو الصهيوني مشكلة فلسطين، بالسودان هناك مشكلة، كل مكان فيه مشكلة، هذه مشكلة بؤر التوتر من أجل أن يبيعوا الأسلحة، والأسلحة تباع لا بعقود تراض بل بعقود إذعان، سعر الشيء مئة ضعف، مضطر، هم يبتزون أموالنا عن طريق بؤر التوتر هذه في العالم، ثم يبيعون السلاح بعقود إذعان، كي يحققوا ثروات طائلة، هذا البحث طويل، والبحث له جوانب كثيرة، لكن هذا شأن أهل الدنيا، شأن أهل الدنيا أن يبني الكافر مجده على أنقاض البشر، ويبني حياته على موت البشر، ويبني أمنه على إخافة البشر، ويبني غناه على إفقار البشر.

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

فإذا كان هناك مشكلة بين المؤمنين في هذه الأشهر تقف الحرب، لكن لو أن الكفار أعجبهم هذا الترتيب، المؤمنون في هذه الأشهر لا يحاربون، هم يبدؤونهم بالحرب.

لذلك جاءت الآية:

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)

إذا مشرك أراد أن تكون هذه الآية لصالحه نقاتله ولو كنا بالأشهر الحرم، هذه حالة نادرة واستثنائية،

(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ)

الإنسان مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض :

أخواننا الكرام، الإنسان مخلوق للجنة، لجنة عرضها السماوات والأرض فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

وهذا منهج الله في الأرض.

الحقيقة الدقيقة أن الحرب بين حقين لا تكون لأن الحق لا يتعدد، والحرب بين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، أما بين باطلين فلا تنتهي، تذهب مع العمر، بين حقين لا تكون، وبين حق وباطل لا تطول، وبين باطلين لا تنتهي.

(فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ)

أي بعدم تطبيق هذه الآية، فيما لو كان هناك صراعٌ بين المؤمنين.

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)

طبعاً مستحيل وألف ألف مستحيل أن إنساناً يستهين بدمك، وبحريتك، وبثروتك، وبالاستقلال، ويهجم عليك وأنت تقف مكتوف اليدين، هذا مستحيل، هذه الحياة الدنيا دار ابتلاء.

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل عطاء الدنيا لبلاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[كنز العمال عن ابن عمر]

والآية تقول دققوا:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

[سورة البقرة الآية:190]

يقاتلك ليأخذ مالك، ليأخذ ثروات بلدك، ليذل شعبك، تقف مذلول اليدين أمامه.

السلاح يعطي الإنسان قوة ردع و يجعل الدولة مرهوبة الجانب :

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)

لذلك هذا الشيء واضح جداً، سماه العلماء المعاملة بالمثل، ولاحظ أن هناك دولاً متقدمة جداً، ودولاً مسالمة لا تحارب أبداً، مثل سويسرا مثلاً، هل تصدق أن أقوى جيش عندها؟ هل تصدق أن كل مواطن هناك يعد جندياً؟ السلاح ردع، والدليل:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال الآية:60]

لذلك هناك دول تملك سلاحاً نووياً، أنا متأكد قد لا تحتاج أن تستخدمه ولا لمئة عام قادمة، لكن لأنها تملك هذا السلاح هي مرهوبة الجانب،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

والله حدثني أخ يعيش في الباكستان، قال لي: كان هناك معاملة قاسية للمسلمين في الهند فلما تملكت الباكستان سلاحاً نووياً المعاملة انقلبت مئة و ثمانين درجة، أحياناً السلاح قد لا تستخدمه إطلاقاً، لكن يعطيك قوة ردع.

الله عز وجل مع المؤمنين بالنصر و التأييد و الحفظ :

لذلك:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

والفضل لله عز وجل أن هذا الكيان الصهيوني في المنطقة هو عصا الغرب الغليظة، هذه العصا مهمتها أن أي بلد في الشرق الأوسط يقول: لا للغرب، تأتيه هذه العصا بضربة قاصمة، لكن هذه العصا كسرت، كم مرة؟ كسرت مرتين، وإن شاء الله تبقى مكسورة، ونحن بإيماننا بالله، واصطلاحنا معه، وإقبالنا عليه، أقول: أعداؤنا اليهود فقدوا الآن ما يسمى بالحسم، ما الحسم؟ كانوا يبدؤون الحرب وفي أي لحظة ينهونها، لكن الآن يبدؤونها لكن ليس بإمكانهم أن ينهوها، التطور نوعي، الشيء الثاني كان هناك رعب من قِبلنا، الآن هناك توازن رعب، يقصف ويقصفون، ندخل إلى الملاجئ ويدخلون، نخاف ويخافون، اسمه توازن رعب، أول إنجاز: فقد الحسم، يبدؤون ولكن ليس بإمكانهم إنهاء الحرب، حرب غزة التخطيط كان ليوم واحد، ضربوا ثمانمئة هدف، ولم يتمكنوا من إيقاف الحرب إلا بعد اثنين وعشرين يوماً، فقدوا الحسم، صار هناك توازن رعب، أما أخطر هدف فتحقق، أن اليهود كانوا يريدون الأمن فقط، بستين سنة ماضية، الآن هدفهم البقاء، الكلام دقيق.

أنا ألقيت على المنبر تقريرCIAأن هذا الكيان عمره القادم يقدر بخمس و عشرين سنة فقط، أي هناك أخبار طيبة، أنا لا أحب الأخبار السيئة لكن هناك أخباراً طيبة ترتفع معنوياتك، أنت مسلم غالٍ على الله، الله لن يتخلى عنك إطلاقاً، هذه أشياء ثابتة، صحف العدو، فقدوا الحزم، وصار هناك توازن رعب، وكان هدفهم الأمن فأصبح البقاء:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

ثلاثون دولة ببلد إسلامي بشرق آسيا، معهم أحدث الأسلحة، والطرف الثاني عندهم بنادق فقط، أربعة و ثمانون بالمئة من مساحة الأرض بيد الطرف الثاني، شيء يحير، هناك أخبار طيبة جداً، أخبار مشجعة،

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

معهم بالنصر، والحفظ، والتأييد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (31-70) : تفسير الآية 37 ، تلاعب الكفار بالأشهر الحرم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-12-17

بسم الله الرحمن الرحيم

من حكمة الأشهر الحرم حقن الدماء وتخفيف العداوة والبغضاء :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

أيها الأخوة، لعل من حكمة الأشهر الحرم أنه إذا نشبت حرب بين فئتين هذا الدم الذي أهرق يزيد المعركة احتداماً، وقد لا تنتهي المعركة، وقد تدوم بعض الحروب في الجزيرة قبل الإسلام سنوات وسنوات، لكن حلاً يرضي الطرفين، ويحفظ ماء وجه الطرفين، ولا يذل أحد الطرفين، أن الأيام تمضي في هذه الشهور الاثني عشر، أربعةُ أشهر لا يجوز فيها القتال، فالحرب تقف بالتعبير المستخدم الآن لا غالب ولا مغلوب، فحينما تدخل هذه الأشهر يتوقف القتال، ويذوق الناس طعم السلم، ولعل هذه الطريقة هي التي تحقن الدماء، وتوقف الحروب، فلذلك جعل الله الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، هذه الأشهر الله عز وجل حرّم فيها القتال، فالقتال يقف دون أن يهان أحد الطرفين، ودون أن يوصف أحد الطرفين أنه مهزوم، ودون أن يتعجرف أحد الطرفين أنه منتصر، الحرب تقف في هذه الأشهر هذا هو الشرع الإلهي، حقن للدماء، وتخفيف للعداوة والبغضاء.

الحق واحد لا يتعدد :

و لكن لا بد من التنويه، بأن الحرب بين حقين لا تكون، الحق لا يتعدد، لذلك الحرب بين حقين لا تكون، وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، لكن بين باطلين لا تنتهي، هذه مقولة تلخص حقيقة الحروب في الأرض، بين حقين لا تكون.

للتقريب: نقطتان لو جهدت أن تصل بينهما بخط مستقيم الخط المستقيم الثاني ينطبق على الأول، والخط المستقيم الثالث ينطبق على الثاني، ولو حاولت أن ترسم مليون خط مستقيم بين نقطتين كل هذه

المستقيمات تتطابق، الحق واحد، لكن لو أردت أن ترسم خطاً منحنياً أو خطاً منكسراً بين نقطتين لك أن ترسم مليون خط، أول خط انحناء بسيط، الخط الثاني انحناء أشد، إلى ما لانهاية، فيمكن أن ترسم ملايين الخطوط المنحنية أو المنكسرة بين نقطتين، لكنك لا تستطيع أن ترسم بين هاتين النقطتين إلا خطاً واحداً.

فالحق لا يتعدد، والباطل كثير، ماذا نستنبط من هذه الحقيقة؟ كل واحد منا له عمر الله أعلم، ستون، سبعون، ثمانون، خمسة وخمسون، تسعة وأربعون، ثلاثة وستون، هذا العمر لا يسمح لك ولا يكفيه أن تستوعب الباطل، الباطل كثير، والباطل غير محدود، لو أمضيت معظم العمر في دراسة فرقة ضالة واحدة، البواعث، الخلفيات، المعطيات، المؤثرات، الأهداف، التطورات، قد تمضي ثلث العمر في دراسة موضوع باطل واحد، إذاً الأعمار لا تكفي لاستيعاب الباطل، الباطل كثير، الآن في الأرض، هناك طروحات، و ضلالات، و خزعبلات، و أوهام، وعقائد فاسدة، و تصورات خاطئة، الأرض تعج بالضلالات، لكن الحق واحد.

على كل إنسان أن يعرف الحق و يجعله مقياساً له :

لذلك هذا العمر الذي منحك الله إياه كاف لاستيعاب الحق، ولا تكفي آلاف الأعمار لاستيعاب الباطل، ماذا نستنبط من هذه الحقيقة؟ أنك أيها الإنسان لا تملك إلا عمراً محدوداً، هذا العمر يكفي لاستيعاب الحق الذي أنت في أمس الحاجة إليه، وإذا استوعبت الحق كان الحق مقياساً في كل شيء، اعرف الحق واجعله مقياساً، وأي شيء خلاف الحق فهو باطل، أي العمر يغطي أن تستوعب الحق وحده، هناك كتاب، و سنة، و وحي متلو الكتاب، و وحي غير متلو السنة، فأنت حينما تقرأ القرآن كل يوم وتبحث في تفسيره، وتقرأ السنة وترى تفاصيلها، هذا الذي تعلمته واستوعبته هو المقياس.

مثلاً لو أن هناك أمتاراً ببلد، أمتار مزورة، أي متر وثلاثة سنتيمترات، متر وسنتيمتر واحد، متر وميليمتر، متر وعشرة سنتيمترات، نحن عندنا متر نموذجي مودع في مركز المدينة، في أيدي أمينة ومحفوظ، هذا المقياس الحقيقي، فأنت تستخدم هذا المقياس لامتحان أي متر يقاس به.

وكلامي دقيق، أنت حينما تمضي وقتك في فهم القرآن الكريم، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، هذا دخل في منهاجك، الآن عندنا مثلاً حفلة غنائية يرصد ريعها للعمل الخيري، بحسب المنهج هذه مرفوضة، لأن الأهداف النبيلة السامية يجب أن تكون الوسائل لها نبيلة سامية، حفل غنائي لا يرصد ريعه لعمل خيري، فأنت حينما تجهد أن تستوعب الحق، أن تفهم الوحي، الوحي الذي أنزله الله على نبيه الكريم، وأن تفهم السنة التي فسرت لك هذا الوحي، فأنت بهذا الوحي وتلك السنة تجعل منهما

مقياساً لك لكل شيء، فما ورد مطابقاً للكتاب والسنة على العين والرأس، وما جاء مخالفاً للكتاب والسنة مرفوضٌ أشد الرفض.

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

لذلك الشيء الواقعي والعملي أن تجهد في استيعاب الحق، فإذا استوعبته بشكل معقول لأن هناك تفاصيل، وأساسيات، وبالمناسبة الكلام دقيق، الحق كأساسيات يجب على كل مسلم أن يستوعبه، أما التفاصيل فتحتاج إلى تفرغ، وإلى تعمق، وإلى تبحر.

لذلك هذا يقودنا إلى أن طلب العلم فرض عين على كل مسلم، أنت تعمل في التجارة فرض عين عليك أن تتقن الأحكام الفقهية المتعلقة بالتجارة.

هناك فكرة أتمنى أن تكون واضحة لديكم: أنت تسأل إنساناً، ماذا تعمل؟ يقول لك: طبيب، ماذا تقول في هذه الآية؟ قال: هذه ليست من اختصاصي، بترفع، هو طبيب، والثاني مهندس، هذا معلوماتي، وهذا معه اقتصاد دولة، هذا معه فيزياء نووية، فيأتي إنسان يتوهم أنه إذا كان لديه اختصاص في علم من العلوم، هو في الاختصاص متبحر، هذه هويته، ولا حاجة له أن يكون مختصاً في الدين، هذا ليس من اختصاصي، ومعه فيزياء نووية، الحقيقة الدقيقة: أن طلب العلم فرض عين على كل مسلم، والدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، الفرض العيني.

الإنسان خاسر لأن مضي الزمن وحده يستهلكه :

الله عز وجل أودع في الإنسان قوة إدراكية، ميزه بها عن بقية المخلوقات، هذه القوة الإدراكية من شأنها أن تستخدمها في البحث عن الحقيقة، وإذا استوعبت هذه الحقيقة ينبغي أن تدعو إليها، والدليل أن الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في سورة قصيرة لا تزيد عن سطر يقول فيها:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر]

أي خاسر، وقد يسأل سائل يا رب لماذا أنا خاسر؟ فالجواب: لأن مضي الزمن وحده يستهلك الإنسان، بصرف النظر عن طاعتك لله، أو عن عدم طاعتك، سبت، أحد، اثنين، ثلاثاء، أربعاء، خميس، جمعة، انتهى أسبوع، ثم أسبوع ثان، ثم ثالث، ثم رابع، ثم شهر، شهر ثان، ثالث، رابع، انتهى فصل، فصل ثان، ثالث، رابع، عام، عشرة أعوام، انتهى عقد، فالإنسان ما بين طرفة عين وانتهائها يغير الله من حال إلى حال.

مرة عندي شريط صغير، كاسيت، لا أعرف ما مضمونه، استمعت إليه فإذا هو شريط موضوع بآلة إجابة آلية عن الهاتف، استمعت إليه بشغف، الشريط اتصالات هاتفية مسجلة كلها، أكثر من خمسة عشر إنساناً قد توفاهم الله وأصواتهم على هذا الشريط، خمسة عشر إنساناً صوتهم في الشريط توفاهم الله، فالدنيا ساعة اجعلها طاعة، أي عمرك يستوعب الحق الذي أنت بحاجة إليه، أما الباطل فلا ينتهي، فالحق هو المقياس، وما سواه باطل.

الوحي حق مطلق :

أنت حينما تستوعب الحق تستطيع أن تقول بكل قوة وبكل ثقة أن ما سواه باطل، صار معك مقياس، هذا الوضع يخالف القرآن فهو باطل، هذا الوضع يخالف السنة فهو باطل، فاجهد في هذا العمر المحدود أن تستوعب الحق، الحق وحي السماء، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، أي كم كتاب في المكتبة؟ ملايين، مئات الملايين، كل هذه الكتب من تأليف البشر، والإنسان غير معصوم يخطئ ويصيب، أما إذا قرأت وحي السماء، بسم الله الرحمن الرحيم:

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة البقرة]

فالوحي حق مطلق، وقد شرح هذا الوحي بكلام النبي المعصوم، وكلامه حق مطلق لذلك:

((إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما؛ كتاب الله وسنتي))

[أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة]

لذلك أيها الأخوة ينبغي أن نجهد جميعاً بمعرفة القرآن والسنة، فإن عرفنا الكتاب والسنة، وتمسكنا بهما فلن نضل أبداً.

النادم من تفوق في كل علوم الأرض ولم يستوعب الحق الذي وجد من أجله :

أخواننا الكرام، مرة ثانية: طلب العلم فرض حتمي على كل مسلم، فرض عيني، إياك أن تقول: أنا مهندس لا علاقة لي بالدين، أنا طبيب، أنا معي معلوماتية، أكثر الناس أصحاب الاختصاص العالي يعتزون بهذا الاختصاص، وكأنهم في غنى عن أن يكونوا مستوعبين للدين، هو مهندس معماري، معه معلوماتية، معه طب، معه بورد، كل علوم الأرض لو تفوقت بها ولم تستوعب الحق الذي جئت إلى الدنيا من أجله تندم أشد الندم.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

[سورة الكهف]

فأنت في هذا العمر المحدود ينبغي أن تستوعب الحق ليكون الحق مقياساً، فنحن عندنا قضبان تستخدم كمتر، قد يكون هناك مليون قضيب، أحدها متر وسنتيمتر واحد، و الثاني ستة و ثمانون متراً، والثالث متر وعشرة سنتيمترات، نحن عندنا متر نظامي مودع في مكان أمين، دقيق، على مستوى الميليمتر، هذا المتر هو المقياس، فالحق مقياس، وما سواه باطل.

على كل إنسان أن يجهد في استيعاب الحق :

أنا أتمنى للمرة الثالثة أن يجهد أحدنا في أن يستوعب الحق، إن استوعبه كل شيء يقيسه عليه، ما جاء في الكتاب والسنة هو الحق، لكن كتوسع صغير أرى الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، الخط الأول، الخط الثاني، الخط الثالث، الخط الرابع، الخط الأول: النقل الصحيح، لماذا أقول نقل صحيح؟ لأن هناك نقلاً غير صحيح، حديث موضوع، كل الناس هلكى، هكذا؟ قال إلا العالمون، و العالمون هلكى، كيف؟ قال: إلا المخلصون، والمخلصون هلكى –لم يبقَ أحد- قال: هذا الحديث وضعته الزنادقة للتيئيس، يكفي أن تقرأ مثلاً أن أحد كبار العلماء لأربعين عاماً صلى الفجر بوضوء العشاء، أنت جرب هل تستطيع أن تبقي يومين من دون أن تنام؟ ليس صحيحاً، هذه القصة تبعدك عن الدين، الدين واقعي.

((والله إني لأخشاكم لله))

هكذا يقول النبي الكريم:

((أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن أنس]

الإسلام دين واقعي :

والله قصة أحببت عن ذكرها لعشرين سنة تقريباً، القصة أن والي أذربيجان أرسل إلى سيدنا عمر بن الخطاب رسولاً، رسول عامله على أذربيجان، هذا الرسول وصل المدينة ليلاً، فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين، وانتظر حتى الصباح، ذهب إلى المسجد يبدو أنه داس على يده خطأ فسمع صوتاً، قال: من؟، قال: عمر، قال: أمير المؤمنين! قال له: أمير المؤمنين، قال له: ألا تنام الليل، فهو الجواب الأول لأنني رفضت أن أروي القصة من أجله، إني إن نمتُ ليلي أضعتُ نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي، يجب ألا ينام الليل ولا النهار، أربعون سنة لا يوجد نوم إطلاقاً، هذه القصة تروى؟ ليس معقولاً! عثرت على رواية ثانية، إني إن نمت ليلي كله أضعتُ نفسي أمام ربي، واضحة، عندئذٍ

رويتُ هذه القصة، إني إن نمت ليلي كله أضعتُ نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعتُ رعيتي. الإسلام واقعي، الإسلام يجب أن تعيشه، القصص التالفة فيها مبالغات ما أنزل الله بها من سلطان، هذه المبالغات مثبطة، أنت مسلم، يجب أن تصل إلى الجنة وأنت مهندس، وأنت طبيب، وأنت تاجر، تبيع، وتشتري، وتتزوج.

((أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن أنس]

الأشياء المخالفة للفطرة تشريع أرضي و ليس سماوياً :

لذلك دائماً لما الله عز وجل قال:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا)

[سورة الحديد الآية:27]

هم تصوروا أن ترك الزواج يجعلهم أقرب إلى الله، قال:

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

[سورة الحديد الآية:27]

لم يستطيعوا، هذا التشريع أرضي، وليس سماوياً.

(إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ)

[سورة الحديد الآية:27]

هم ابتدعوها، أرادوا منها التقرب لكن لأنها مخالفة للفطرة، مخالفة للطبيعة البشرية

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

من يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه

فلذلك هذا الإسلام دين الفطرة، دين الواقع، وأكبر دليل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية:50]

عندنا بأصول الفقه المعنى المخالف،

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

المعنى المخالف: الذي يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه، اشتهى المرأة فتزوج، يصلي قد يقارب زوجته، وقد يصلي بعدها قيام الليل، وقد يبكي في الصلاة.

الشهوة سلم نرقى بها إلى أعلى عليين أو دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين :

مرة دعاني أحد علماء دمشق إلى الطعام، هذا العالم الجليل تزيد سنه عن مئة وسنتين، قال لي: عندي ثمانية و ثلاثون حفيداً، كلهم من حفّاظ كتاب الله، فلما خرجت من عنده، قلت: هذا الإنسان تزوج امرأة، وأنجب أولاداً، جلبوا له بالكنائن، وأنجب بناتاً، جلبوا له بالأصهار، الصف الأول: هو وزوجته، والصف الثاني: أولاده مع زوجاتهم، وبناته مع أزواجهم، الصف الثالث أحفاده، هذا صار هرماً، العالم وزوجته، وأولاده وزوجاتهم، وبناته وأزواجهن، وأحفاده، هذا الهرم المبارك ما أساسه بيولوجياً؟ علاقة جنسية، وفي أي بيت هناك علاقة جنسية، انظر هذه العلاقة ماذا أورثت؟ لذلك الشهوة سلم نرقى بها إلى أعلى عليين، أو دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين.

الشهوة للتقريب كصفيحة البنزين، إن وضعت هذه الصفيحة في مستودع المركبة المحكم، وسال هذا البنزين في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، ولّد حركة نافعة، أقلتك إلى الزبداني، إلى نزهة، ما الذي يجري في المركبة؟ انفجارات لكن انفجارات منضبطة، هذه الصفيحة نفسها صبها على المركبة وفيها خمسة ركاب أعطيها شرارة، تحرق المركبة ومن فيها، السائل نفسه إما قوة مدمرة، أو قوة محركة، فالشهوات ما أودعها الله فينا إلا لنرتقي بها إلى رب الأرض والسماوات، وما من شهوة أودعها الله فينا إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، بشكل أو بآخر - وأنا أخاطب الشباب- حرمان في الدين لا يوجد، أنت إن كنت تمشي في الطريق وجدت تيار توتر عال، ومكتوب بلوحة واضحة بخط واضح: ممنوع التجاوز، تيار توتر عال، تيار التوتر العالي له حرم، فإذا الإنسان دخل حرم التوتر العالي ينجذب، ويصبح فحمة في دقائق، هل تشعر بحقد على من وضع هذه اللوحة؟ مستحيل! بل تشعر بامتنان، هل هذه اللوحة حد لحريتك أم ضمان لسلامتك؟ هل تصدق من هو الفقيه؟ الذي يرى الأوامر والنواهي ليست حداً لحرية الإنسان لكنها ضمان لسلامته، يجب أن تنطلق من أن هذه الأحكام ضمان لسلامتك، أنت لاحظ أي إنسان مستقيم، لا يوجد عنده مشكلة بحياته، لا يوجد عنده مشكلة تنهد لها الجبال، هناك حالات تعد حالات تدمير كامل للإنسان، أنت مادمت مستقيماً أنت في رعاية الله، وفي حفظ الله، وفي توفيق الله، وفي مظلة الله عز وجل.

الحق ما جاء به الوحي الصحيح وقبله العقل الصريح وارتاحت إليه الفطرة السليمة :

الذي أتمناه أن تحاول جهدك أن تستوعب الحق في هذا العمر المحدود، إن استوعبته كان الحق مقياساً لك، وما سواه باطل، فالحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، هناك نقل موضوع، ونقل ضعيف، ونقل مزور، خط النقل الصحيح، لذلك قالوا: الأحاديث الصحيحة تجمعنا، والأحاديث

الضعيفة والموضوعة تفرقنا، الصحاح تجمعنا وخط العقل الصريح، هناك عقل تبريري.

حينما يأتي بلد غربي إلى بلد إسلامي يأتي بقواته إلى هذا البلد، ويتم قتل مليون إنسان، وإعاقة مليون ثان، وتشريد خمسة ملايين، والذي يعلن بهذه الحملة من أجل الحرية، هذا كلام مزور، هذا كلام باطل، هناك نقل صحيح، و عقل صريح، و عقل تبريري، والإنسان منطقي، حتى جرائمه يعطيها تبريراً أحياناً، فالبطولة أن يكون الحق صريحاً، إذاً هذه الدائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، والعقل الصريح، والفطرة السليمة، والواقع الموضوعي، فالحق ما جاء به وحي السماء، وشرحه المصطفى المعصوم، ما جاء به وحي السماء، وقبله العقل غير التبريري، وارتاحت إليه الفطرة السليمة، وقبله الواقع الموضوعي، الواقع ينبغي أن يتوافق مع الفطرة، ومع العقل، ومع وحي السماء، ما جاء به الوحي الصحيح، وقبله العقل الصريح، وارتاحت إليه الفطرة السليمة، وأكده الواقع الموضوعي.

الله تعالى اختص من الأشهر أربعة جعلهن حراماً وعظّم حرماتهن :

أيها الأخوة، الذي أريد أن أوضحه لكم أن الله عز وجل عظم هذه الأشهر، فجعل الذنب فيها أعظم، وأجر العمل الصالح فيها أكبر، أي- لا سمح الله ولا قدر- إنسان يسرق وهو في الحج، هو يسرق، السرقة سرقة لكن في أيام الحج معقول! وفي بيت الله الحرام!، الله اصطفى مكاناً هو بيت الله الحرام، واصطفى زماناً هو رمضان، فلذلك الأشهر الحرم: رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، العمل الصالح فيها أجره أكبر، والذنب فيها كبير، كما أن الأجر في العمل الصالح كبير، والذنب في هذه الأشهر كبير، إذاً يقول ابن أبي طلحة: إن الله تعالى اختص من الأشهر أربعة جعلهن حراماً، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر فيهن أعظم.

تعظيم الأمور بما عظّم الله هو عند أهل الفهم وأهل العقل نهاية الكمال :

أيها الأخوة، بعض العلماء قال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً- سيدنا جبريل ملك، لكن الله اصطفاه من بين الملائكة وجعله أمين وحي السماء- ومن الناس رسلاً- والأنبياء بشر، لكنهم صفوة البشر- واصطفى من الكلام ذكره- فضل كلام الله على كلام الخلق كفضل الله على خلقه- واصطفى من الأرض المساجد:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحُق على المزُور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

واصطفى من الشهور رمضان، والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظّموا ما عظم الله، فإن تعظيم الأمور بما عظم الله هو عند أهل الفهم وأهل العقل نهاية الكمال، عظم ما عظمه الله.

لذلك قالوا - وهذا الكلام موجه لطلاب العلم-: من أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظمه الله، أي إذا الله عز وجل امتن عليك بمعرفته وطاعته، ولك صديق على مقعد الدراسة، عندما كبرت أنت وهو، صار من كبار الأغنياء لكنه رقيق الدين- دقق فيما سأقول-: إذا قلت في نفسك: هنيئاً له، فأنت حقرت ما عظمه الله، أنت مؤمن، أنت مستقيم، موعود بالجنة.

المؤمن موعود بالجنة و هذا الوعد يمتص كل مشكلاته :

مرة شخص إما من باب الدعابة أو من باب الانتقاد لا أعرف، قال لي: تقول أن المؤمن سعيد، أنا أؤكد لك أنه ليس بسعيد، قلت له: لماذا؟ قال: إذا كان هناك موجة حر شديدة يعاني منها كما يعاني منها غير المؤمن، وإذا كان هناك غلاء في الأسعار يعاني منها كما يعاني منها غير المؤمن، أين ميزته؟ فخطر في بالي مثل جاءني لتوه، قلت له: إنسان عنده ثمانية أولاد، ودخله خمسة آلاف ليرة، وبيته بالأجرة، وعليه دعوى إخلاء، دعوى إخلاء، وبيت بالأجرة، و دخله خمسة آلاف، وعنده ثمانية أولاد، هذا الإنسان وضعه لا يحتمل، تحت خط الفقر بكثير، قلت له: عنده عم لا ينجب أولاداً، معه خمسمئة مليون، مات بحادث، وهذا الشاب وريثه الوحيد، إنسان انتقل من فقر مدقع فجأة إلى خمسمئة مليون لكن حتى يستلمها يحتاج إلى عام، هناك مالية، و ضرائب، وتصفيات، وبراءات ذمة، أي اشتغل سنة حتى قبضها، لماذا بهذا العام بأكمله أسعد إنسان، لم يأكل لقمة زائدة، لم يشترِ معطفاً، لا يوجد معه، لكن لأنه موعود قطعاً بخمسمئة مليون فهو أسعد الناس، المؤمن قال:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت]

فالله وعد المؤمنين بالجنة، هذا الوعد يمتص كل مشكلاتنا، أليس كذلك؟

تلاعب الكفار بالأشهر الحرم لمصالحهم :

إذاً نعود للآية موضوع هذا الدرس:

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ)

أي الله عز وجل جعل الأشهر الحرم اصطفاها عن بقية الشهور، القتال فيها حرام، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ورجب، ومحرم، الكفار أرادوا أن يلعبوا بهذه الشهور فقدموا بعضها وأخروا بعضها لمصالحهم. فالله عز وجل قال:

(إِنَّمَا النَّسِيءُ)

التأخير والتقديم، وتعديد هذه الأشهر زيادة في الكفر،

(يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)

هم أربعة، هم بالعدد لم يغيروا، لكن غيروا بالتعيين، بالترتيب، هذا التغيير من أجل مصالحهم، هذه كيف تصير؟ يأتي إنسان مثلاً هناك قضية فيها مشكلة كبيرة، لا تحل بالقانون، هذا البيت مؤجر على النظام القديم والمستأجر معه حقوق، هذا يلجأ للشيوخ، سيدي هل يجوز للإنسان أن يغتصب البيت؟ يقول له: لا يجوز يا بني، عنده حاسة سادسة، هذه القضية لا تحل بالقانون تحل عند المشايخ، هناك قضية ثانية لا تحل عند المشايخ تحل بالقانون، يقول: نحن نعيش في بلد فيه نظام، فيه قانون، هو نفسه يقول هذا، مرة قال: أريد حكم الله، مرة قال: أريد حكم القانون، فالإنسان عندما يبدل ويغير، يعتمد مرة على نظام، ومرة على نظام آخر يكون قد بدل و غيّر.

مثلاً: امرأة متزوجة ببلاد الغرب، مسلمة وزوجها مسلم، مهرها مئة ألف، زوجها معها عشرة ملايين، تقيم دعوى أمام قاض أمريكي، لماذا؟ لأن القاضي يحكم لها بنصف أموال زوجها، هنا بهذه البلاد تعويض الطلاق نصف دخل الزوج، هنا تناسبكم هكذا، تأتي إلى بيت مستأجر من النظام القديم، المستأجر معه حق البقاء بالبيت، يطلب الشرع، لماذا في هذه البلاد الغربية طلبت القانون؟ هنا بالبلاد الإسلامية طلبت الشرع؟ عنده حاسة سادسة، القضية لا تحل بالقانون، تحل عند المشايخ، وهذه لا تحل عند المشايخ، تحل عند القانون، فلما هو يختار القانون أو الشرع بحسب أهوائه ومصالحه يكون قد غيّر، هذا الموضوع كله. أي هو في أشهر حرم، إذا كانت مصلحتي أن أنقل شهراً إلى شهر أهرب حتى أنهي المعركة وأغنم غنائم كبيرة، وقتها أنا لا أعبأ بتعيين الأشهر، أعبأ بأنها أربعة فقط.

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)

الأربعة أربعة، لكن لعب في التقديم والتأخير من أجل مصالحه، وأي إنسان يلعب بالأحكام الشرعية لمصالحه، ساعة يعتمد الشرع، ساعة يعتمد القانون، معنى ذلك يبحث عن مصالحه. قال تعالى:

(زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

وإن شاء الله في درس قادم نتحدث عن موضوع الهدايا بالتفصيل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (32-70) : تفسير الآية 37 ، أنواع الهداية.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-12-24

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاجات التي أودعها الله في الإنسان سبب ارتقائه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

الحقيقة أيها الأخوة أن هناك هداية المصالح، وأن هناك هداية الوحي، وأن هناك هداية التوفيق، وأن هناك هداية إلى الجنة، أربعة أنواع من الهداية.

أولاً: في حياتنا الدنيا الله جلّ جلاله هدانا إلى مصالحنا، فلولا الجوع لما كان هذا الدرس، فبالجوع تبحث عن الطعام، تعمل، تكسب مالاً، تشتري به طعاماً، تأكل تلبي به حاجة الجسد، لك حاجة أخرى، أنت بحاجة إلى الطرف الآخر، تتزوج، لك حاجة ثالثة هي تأكيد الذات تتفوق، لولا هذه الحاجات التي أودعها الله فينا ما ارتقينا، نسلم بها ونسعد.

السعادة التي لا توصف تأتي بعد الصلح مع الله عز وجل :

لذلك هدانا الله إلى مصالحنا، كل إنسان حريص على صحته، حريص على رزقه، حريص على أولاده، جعل في قلب الزوج مودة لزوجته من خلق الله، جعل في قلب الآباء والأمهات محبة لأولادهم، أي هناك هداية المصالح، كل شيء أمرنا الله به فطرنا عليه، بتعبير معاصر: برمجنا عليه، فأنت حينما تتحرك بمنهاج الله ترتاح نفسك، أساساً السعادة التي لا توصف التي تأتي بعد الصلح مع الله سببها أنك في الحقيقة اصطلحت مع نفسك، عندما أطعت الله ارتاحت نفسك، اطمأنت، الله عز وجل خلق الإنسان ضعيفاً، هذا الضعف يتجاوزه إذا أطاع الله، والدليل القرآني:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج]

في أصل خلقه، نقطة ضعف في أصل خلقه،

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج]

معنى ذلك أن المصلي له خصائص إيجابية كبيرة جداً، لكن ليس كل مصلٍّ،

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المعارج]

صفات المصلين :

أخواننا الكرام، في مناسبة هذه الآية لي تعليق عليها أذكره كثيراً، لكن يحسن أن أعيد ذكره الآن: أنت إذا قلت: مسلم، بل إذا قلت: إنسان، هذه الكلمة يأتي تحتها ستة آلاف مليون إنسان، على وجه الأرض ستة آلاف مليون، أضف إلى هذه الكلمة كلمة ثانية، قل: إنسان مسلم كنا بستة آلاف مليون، أصبحنا بمليار وثمانمئة مليون، كنا ستة مليارات، عدد سكان الأرض، عندما قلت: إنسان مسلم ضاقت الدائرة إلى مليار وثمانمئة مليون، فإذا قلت إنسان مسلم عربي، ضاقت الدائرة إلى أربعمئة مليون، فإذا قلت: إنسان مسلم عربي سوري، ضاقت الدائرة إلى عشرين مليوناً، فإذا قلت: إنسان مسلم عربي سوري مثقف، ضاقت الدائرة لعشرة ملايين، فإذا قلت: إنسان مسلم عربي مثقف طبيب بقوا خمسين ألفاً، إذا قلت: إنسان مسلم عربي مثقف طبيب قلب بقوا ألفاً، إذا قلت: جراح بقوا خمسين، جراح مقيم في دمشق أربعة، كلما أضفت صفة ضاقت الدائرة.

هذا المقياس، أو هذا المثل طبقوه على الآية الكريمة:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

في الأرض أعتقد مليار و ثمانمئة مليون مسلم، أنا أتصور تخميناً لا تحقيقاً أن الذين يُصلّون مليار،

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ)

[سورة المعارج]

أيضاً ورد:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

أي فكر بالكون، رأى عظمة الله عز وجل فتواضع.

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي))

واستقام، فكر بالكون، استعظم ربه، عظمه، خشع له، فاستقام على أمره.

((وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي))

إذا وقع بذنب يتوب سريعاً.

((وأطعم الجائع - له عمل صالح - وكسا العريان، ورحم المصاب، وأوى الغريب - أعمال صالحة - كل ذلك لي - الإخلاص- وعزتي وجلالي، إن نور وجه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، يسألني فأعطيه، يقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي، وأستحفظه بملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس، لا يمس ثمرها، ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

تعظيم الله و محبته و الخوف منه مشاعر إيمانية طبيعية :

أخوتنا الكرام، معنى ذلك أن هذا الأثر القدسي الرائع الصحيح فيه كليات الدين، أول كلية ممن تواضع لعظمتي، أي تفكر في خلق السماوات والأرض، هذا التفكر يرثه تعظيماً لله عز وجل.

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية]

تفكر في خلق السماوات والأرض.

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي))

بالمناسبة ورد أيضاً:

((قال: يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا ربي إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

أي ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، يستنبط من هذا أنه لا بد من أن يستقر في قلب المؤمن تعظيم لله، وهذا التعظيم يأتي من التفكر في خلق السماوات والأرض، ولا بد من أن يستقر في قلب المؤمن طاعة الله، محبة لله، وهذه المحبة تتأتي من التفكر في نعم الله، ولا بد من أن يستقر في قلب المؤمن خوف من الله، وهذا الخوف يتأتى من النظر في بلاء الله، بلاؤه ينبغي أن تخاف منه، ونعمه ينبغي أن تحبه من أجلها، وآلاؤه ينبغي أن تعظمه فيها، فتعظيم وحب وخوف، هذه مشاعر إيمانية طبيعية، إذا بقلبك مشاعر الخوف من الله، ومشاعر الحب لله عز وجل، ومشاعر التعظيم، فأنت مؤمن ورب الكعبة.

أنواع الهداية :

1 ـ هداية المصالح :

الآيات الكونية تدعوك إلى التعظيم، والنعم تدعوك إلى الحب، والبلاء يدعوك إلى الخوف، والأنبياء يعبدون الله رغباً ورهباً، إذاً هداية المصالح، الله عز وجل هداك إلى مصالحك، محبة الآباء لأولادهم هداية المصالح، محبة الأبناء لأهاليهم هداية المصالح، المودة والرحمة التي أودعها الله في قلب الزوج تجاه زوجته هذه من هداية المصالح، والمودة البالغة التي تكنها الزوجة لزوجها هذه من هداية المصالح، هداك إلى مصالحك.

2 ـ هداية الوحي :

ثم هداك هداية الوحي، جاء وحي من السماء يقول لك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة السجدة الآية:4]

حدثك القرآن عن ذات الله بآيات كثيرة، حدثك عن مخلوقاته، عن الكون، عن الحياة، عن الإنسان، عن سر وجودك، عن غاية وجودك، عن أن العبادة علة وجودك، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، فهذه هداية الوحي، القرآن حدثك عن الجنة والنار:

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً)

[سورة الزمر الآية:43]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة]

وحدثك عن النار:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

أمن بالله، لكنه ما آمن بالله العظيم، والتفكر في خلق السماوات والأرض يوصلك إلى الإيمان بالله العظيم، فأول هداية: هداية المصالح، والهداية الثانية: هداية الوحي.

3 ـ هداية التوفيق :

الهداية الثالثة لمن استجاب للوحي، هداية التوفيق، أنت بمجرد أن تقول: يا رب، أنا تبت إليك، الله عز وجل يقبلك، يا رب أعني على نفسي، يا رب ارزقني عملاً صالحاً، الآن هناك هداية ثالثة اسمها هداية التوفيق، الله يوفقك لجهة إيمانية صادقة تأخذ منها، يوفقك إلى أعمال صالحة كثيرة، تتقرب بها إلى الله، يوفقك إلى زوجة صالحة، إلى أولاد أبرار، إلى سمعة طيبة، إلى عمل مريح، أنت حينما تصطلح مع الله، أمامك سلسلة لا تنتهي من التوفيقات، والعطاءات.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه مالك عن بلاغ مالك]

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن تكون حياة المؤمن كغيره:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

في الدنيا قبل الآخرة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية الآية:21]

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت،

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)

إنسان ماله حرام، يدير نظره إلى أي امرأة حسناء، لا يعبأ لا بدخل حلال ولا بدخل حرام، لا يعبأ لا بشيء مشروع ولا بشيء غير مشروع، هذا يحاسب كما يحاسب المستقيم؟!

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)
(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية]

إذاً هداك إلى مصالحك، وهداك إلى الوحي، ثم وفقك إليه.

أقول لكم كلمة دقيقة، والله بشارة لكم جميعاً: حينما تقول يا رب أعني على نفسي، يا رب ألهمني رشدي، يا رب ارزقني عملاً صالحاً، الآن تأتي هداية التوفيق، يوفقك إلى حياة هادئة، سعيدة، إلى زوجة صالحة- الكلام للشباب - إلى أولاد أبرار، إلى رزق حلال، أي ثمار الإيمان لا تعد ولا تحصى، أنت تعامل من؟ تعامل خالق السماوات والأرض، والهداية التي تأتي اسمها هداية التوفيق.

4 - الهداية إلى الجنة :

وآخر هداية الهداية إلى الجنة، فأنت بين هداية المصالح، وهداية الوحي، وهداية التوفيق، والهداية إلى الجنة.

الكافرون و الفاسقون و الخائنون و الظالمون لا يهديهم الله عز وجل :

من هؤلاء الذين لا يهديهم الله؟ حصراً في القرآن الكريم الذين لا يهديهم الله هم القوم الكافرون:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

والذين لا يهديهم الله هم القوم الفاسقون:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

والذين لا يهديهم الله هم القوم الظالمون:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[سورة التوبة]

والذين لا يهديهم الله هم الخائنون:

(اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

[سورة يوسف]

والذين لا يهديهم الله هم القوم الفاسقون، ولا يهدي كيد الخائنين، ولا يهدي من يضل، الذي أراد إضلال الناس لا يهديه الله عز وجل، ولا يهدي من هو كاذب كفار، ولا يهدي من هو مسرف كذاب.

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

[سورة محمد]

أي حركة منك إلى الله، يأتي العطاء الإلهي، حركة منك إلى الله، التوجه إلى الله، طلب المعونة من الله، الاستقامة على أمر الله، التقرب من الله بالعمل الصالح، حضور مجلس علم، ذكر، ذكر الله عز وجل، الدعوة إلى الله، أي حركة نحو مرضاة الله، هذه يأتيك مقابلها أضعاف مضاعفة من الحفظ، والمعونة، والتوفيق.

أي آية بالقرآن تتصدر بـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) المؤمن معني بها :

أيها الأخوة، لذلك إذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة التحريم الآية:8]

أي آية بالقرآن أنت معني بها، أي آية بالقرآن تتصدر هذا النص، أو يتصدرها هذا النص:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الشورى الآية:22]

أنت معني بها، بل إن المؤمن الحق إذا قرأ القرآن يشعر حينما يقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أن الله يخاطبه.

من علامات الإيمان أن الإنسان إذا قرأ القرآن يشعر أن الله يحدثه :

أخواننا الكرام، هناك أثر يقول:

((إذا أردت أن تحدث الله عز وجل فادعه))

[ورد في الأثر]

دعاؤك لله حديث، وإذا أردت أن يحدثك الله عز وجل فاقرأ القرآن، تحدثه بالدعاء، ويحدثك بتلاوة القرآن، وأقول لك كلمة دقيقة: من علامات الإيمان أنك إذا قرأت القرآن تشعر أن الله يحدثك:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران]

يجب أن تشعر في كل خلية في جسمك، وفي كل قطرة من دمك أن الله يحدثك، وهذه حالة قراءة القرآن حالة رائعة جداً:

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)

[سورة الإسراء]

حينما تقرأ القرآن فجراً هذه القراءة في وقت صاف، في وقت ملائكي، في وقت تتنزل فيه الرحمة.

من صحت عبادته التعاملية قطف ثمارها في العبادة الشعائرية :

أيها الأخوة الكرام، أي كلام يأتي بعد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

في القرآن كله هو توجيه لتحقيق سلامتك وسعادتك في الدنيا والآخرة، وهل هناك شيء أغلى من سلامتك وسعادتك؟ من يتمنى العطب؟ من يتمنى المرض؟ من يتمنى الشقاق الزوجي؟ من يتمنى عقوق الأولاد؟ من يتمنى الفقر؟ من يتمنى التعذيب؟ من يتمنى السجن؟ أنت حينما تصطلح مع الله أنت في حفظ الله، في رعاية الله، مرة من ألطف ما قرأت عن النبي الكريم:

((أردف خلفه معاذ بن جبل، قال له: يا معاذ ما حق الله على عباده؟- فسيدنا معاذ أديب جداً - قال: يا رسول الله، الله ورسوله أعلم، سأله ثانية: يا معاذ ما حق الله على عباده؟ سأله ثالثة - وسيدنا معاذ يتأدب مع النبي - ويقول: الله ورسوله أعلم، في المرة الرابعة، قال له: يا معاذ حق الله على عباده أن يعبدوه وألا يشركوا به شيئاً))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن معاذ بن جبل]

هذا الحق، أنت حينما تصلي تؤدي واجبك تجاه ربك، أنت حينما تصوم، حينما تحج بيت الله الحرام، حينما تغض بصرك عن محارم الله، حينما تكون صادقاً، اعتقد يقيناً هناك عبادات شعائرية، وهناك عبادات تعاملية، الشعائرية لا تزيد عن خمس: أن تنطق بالشهادة، وأن تصلي وأن تصوم، وأن تحج، وأن تزكي، أما العبادات التعاملية فقد تصل إلى خمسمئة ألف بند، في بيتك، في عملك، في الطريق، مع جارك، مع صديقك، مع زميلك، في كسب المال، في إنفاق المال، في تمضية وقت الفراغ، كيف تعامل زوجتك، أولادك، أقرباءك، أمك، أباك، العبادة التعاملية هي أصل في الدين، إن صحت العبادة التعاملية قطفت ثمارها في العبادة الشعائرية، إن صحت العبادة التعاملية استقامة وانضباطاً وإحساناً قطفت ثمارها في العبادة الشعائرية، فلذلك:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي، إن نور وجه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، يسألني فأعطيه، يقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي، وأستحفظه بملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس، لا يمس ثمرها، ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

من استقام على أمر الله عز وجل سعد و سلم في الدنيا و الآخرة :

أيها الأخوة، إذاً أي كلام يأتي بعد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هذا الكلام يحقق لك لو طبقته سلامتك وسعادتك في الدنيا والآخرة.

لذلك أي إنسان على وجه الأرض من الستة آلاف مليون إنسان، ستة مليارات، كل واحد من هؤلاء حريص حرصاً لا حدود له على سلامة وجوده، وعلى كمال وجوده، وعلى استمرار وجوده، سلامة وجودك باتباع تعليمات الصانع، مستحيل أن تطبق منهج الله في كسب المال ويدمر مالك؟ مستحيل أن تطبق منهج الله في اختيار زوجتك ثم تفاجأ بزوجة خائنة؟ مستحيل أن تطبق منهج الله في تربية أولادك وتفاجأ بابن عاق؟ مستحيل! سلامة وجودك باتباع تعليمات ربك، هذه التعليمات ثمارها كبيرة جداً، ثمارها سعادة في الدنيا، ثمارها استقرار في الدنيا، ثمارها مكانة في الدنيا، ثمارها حياة، سلامة وجودك باتباع تعليمات الصانع، بالاستقامة، ومعنى سلامة لا تعني سعادة، أي لا يوجد عندك مشكلة كبيرة، لست مريضاً بمرض عضال، لست مصاباً بحادث سير مدمر، لم تعلن إفلاسك بشكل كامل، هذه الأحداث الخطيرة التي تدمر الإنسان، من باب حسن الظن بالله، المؤمن معافى، لأنه طبق منهج الله، لذلك لمجرد أن تستقيم على أمر الله، أنت في سلامة، في سلام مع الله.

الفرق بين السلامة و السعادة :

لكن السلامة شيء، والسعادة شيء آخر، لكنك إذا عملت الصالحات أنت في سعادة، السعادة شيء، والسلامة شيء آخر، السلامة سلبية، ما أصبت بمرض، ما افتقرت، ما، ما، كلها فيها ما، أما السعادة فإيجابية، تأتيك من الله سكينة، هذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، والله عز وجل ذكر في كتابه الكريم أنه ينزل السكينة على عباده المؤمنين.

إذاً أول شيء: السلامة، ثاني شيء: السعادة، وكل إنسان مجبول على حب سلامة وجوده، وكمال وجوده، واستمرار وجوده، الاستمرار يأتي أنك حينما ربيت أولادك تربية صحيحة كانوا استمراراً لك.

والله مرة لا أنسى هذا الموقف، توفي عالم جليل في الشام، أقيم له العزاء في الجامع الأموي، ذهبت للتعزية، في اليوم الثالث وقف ابنه وألقى خطبة لا تبتعد كثيراً عن خطبة أبيه، هذا الأب ربى ابناً داعية، أنا قلت: إذاً لم يمت هذا الأب، لم يمت مادام له خليفة، له ابن استمر، فأنت باستقامتك تحقق

سلامتك، بالعمل الصالح تحقق سعادتك، وبتربية أولادك تحقق استمرارك، السلامة بالاستقامة، والسعادة بالعمل الصالح، والاستمرار بتربية أولادك.

بطولة الإنسان أن يحب الله الحي الباقي على الدوام :

أيها الأخوة الكرام، إذاً الإنسان مجبول على كمال وجوده، وعلى سعادة وجوده، وعلى استمرار وجوده، من تعريفات الإنسان أيضاً: هو عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، يا ترى الدين يلبي كل هذه الحاجات؟ عندك حاجة أساسية إلى علم يملأ عقلك، وعندك حاجة أساسية إلى حب يملأ قلبك.

مرة كنا بالجامعة، عندنا أستاذ علم نفس يعد أحد أكبر الأساتذة في العالم العربي، قال: أي إنسان لا يجد حاجة إلى أن يُحِب، أو إلى أن يُحَب، ليس من بني البشر، أنت كإنسان عندك حاجة إلى أن تُحِب، وحاجة إلى أن تُحَب، أما أن تُحِب فينبغي أن تُحِب من هو أصل في وجودك خالق السماوات والأرض، الحي الباقي على الدوام، البطولة أن تعرف من تُحِب، الإنسان أحياناً يحب إنساناً، يموت هذا الإنسان يتألم أشد الألم، أما إذا أحببت الواحد الديان، هو حي باق على الدوام، أنت في الدنيا والآخرة مع محبوبك، فأنت عقل يدرك، والعقل يحتاج إلى علم، وقلب يحب، والقلب يحتاج إلى محبوب، وكلما كان هذا المحبوب عظيماً كنت أذكى باختيارك، فإذا كان الذي اخترته هو الله، أنت معه إلى أبد الآبدين، كل بطولتك أن تحب الله، ومحبة الله أسبابها بين أيدينا، الله يحب عباده جميعاً، وأساساً ما أراد أن تكون علاقتنا به علاقة إكراه.

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية:256]

الأقوياء يطاعون قهراً، إكراهاً، أما الله عز وجل الذي خلقنا فما أراد أن تكون علاقتنا به علاقة إكراه، قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة الآية:54]

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)

[سورة البقرة الآية:165]

إذاً علاقة الحب بينك وبين الله، فأنت عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، غذاء العقل العلم، وغذاء القلب الحب، وغذاء الجسم الطعام والشراب.

مرة ثانية: أنت حريص حرصاً لا حدود له على سلامة وجودك، وعلى كمال وجودك، وعلى استمرار وجودك، سلامتك باستقامتك، وكمالك بالعمل الصالح، واستمرار وجودك بتربية أولادك.

البشر عند الله عز وجل لا يزيدون عن صنفين لا ثالث لهما :

أيها الأخوة، الله عز وجل حينما هدانا إلى مصالحنا، وهدانا إلى الوحي وحي السماء، وفقنا بعد أن اهتدينا إليه، الآن آخر هداية الهداية إلى الجنة التي فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذه الجنة خلقنا من أجلها، والبشر حيال هذا الموضوع ينقسمون إلى قسمين: الله عز وجل يقول:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

تصور أن البشر يصنفون مئات التصانيف، أهل الشمال، وأهل الجنوب، دول الشمال قوية وغنية، ودول الجنوب فقيرة وضعيفة، العرق الأبيض والملون، هذا تقسيم ثان، والعرق الأنكلو سكسوني، والعرق السامي، هذا تقسيم ثالث، وتقسيم رابع الدول الصناعية والدول الزراعية، الدول المتقدمة والدول المتخلفة، تقسيمات لا تعد ولا تحصى، الأذكياء والأغبياء، المستغِلون والمستغَلون، المنتجون والمستهلكون، تقسيمات لا تعد ولا تحصى، ما قولكم أن هذه التقسيمات عند الله باطلة، ولم يعتمدها القرآن، اعتمد القرآن تقسمين فقط مؤمن وغير مؤمن، المؤمن له صفات وغيره له صفات، هذا التقسيم جاء في قوله تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

انظر:

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

أي اتقى أن يعصي الله، وحرص على العمل الصالح، لأنه صدق أنه مخلوق للجنة.

الفرق الكبير بين المؤمن وغير المؤمن فرق جوهري :

البشر الستة آلاف مليون ينقسمون إلى قسمين، قسم آمن أنه مخلوق للجنة، وقسم أيقن أنه مخلوق للدنيا فقط،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

صدق أنه مخلوق للجنة بناء على هذا التصديق اتقى أن يعصي الله، وبعد ذلك تقرب إلى الله بالعطاء، يعطي من ماله، من خبرته، من ذكائه، من علمه، من حاجاته، مطلق، والفعل إذا أُطلق، إذا أُلغي مفعوله أُطلق، أعطى، المؤمن كريم يعطيك وقته، يعطيك خبرته.

والله مرة أخ طلب مني أن أدله على إنسان يعلمه صنع مادة غذائية معينة، قلت له: سوق البزورية يوجد فيه أربعون محلاً يبيعون حلويات اسألهم، أقسم بالله ولا إنسان أعطاه نصيحة، إلا إنساناً واحداً قال له: هذه المادة مربحة، ومادتها الأولية موجودة، وأرباحها جيدة، سبحان الله! المؤمن نصوح، علامة المؤمن نصوح، والأقل إيماناً يتوهم إذا دخل إنسان على هذه الحرفة قلّ ربحه.

فلذلك الفرق الكبير بين المؤمن وغير المؤمن فرق جوهري، إذاً الشيء الدقيق أنت مجبول على سلامة وجودك، وعلى كمال وجودك، وعلى استمرار وجودك، ولك عقل غذاؤه العلم، ولك قلب غذاؤه الحب، ولك جسم غذاؤه الطعام والشراب.

وإن شاء الله في درس قادم نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (33-70) : تفسير الآيتين : 38- 39 ، الصحوة قبل فوات الأوان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-12-31

بسم الله الرحمن الرحيم

مخاطبة الله عز وجل الكفار وعامة الناس بأصول الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أخوتنا الكرام، ما من آية لصيقة بكل واحد منكم وأنا معكم كهذه الآية، إنها آية تبين لكم أن الله سبحانه وتعالى إن رأى من المؤمن تكاسلاً أو ضعفاً ساق له بعض الشدائد، ليحفزه إلى طريق الله عز وجل، فالله عز وجل يسأل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ولا تنسى أيها المؤمن أنك إذا قرأت مثل هذه الآيات، ومثل هذه الآيات تقترب من ثلاثمئة آية،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الله عز وجل من سننه في القرآن الكريم أنه يخاطب الكفار بأصول الدين، و يخاطب عامة الناس بأصول الدين، يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة الآية: 21]

لأن علة وجود الإنسان في الأرض أن يعبد الله، أنت في الدنيا من أجل أن تعبد الله، هذه الحقيقة خطيرة، أنت في مكان ما لك مهمة واحدة، فلو ذهب طالب لباريس كي يدرس الدكتوراه، هذه المدينة الكبيرة العملاقة التي فيها كل شيء تقريباً، معامل، مصحات، مستشفيات، بيوت للسكن، مراكز للدولة، جامعات، ملاعب، حدائق، أماكن لهو، هذه المدينة العملاقة، هذا الطالب الذي ذهب إلى هذه المدينة لينال الدكتوراه، نقول له: علة وجوده في هذه المدينة نيل الدكتوراه.

علة وجود الإنسان في الأرض أن يعبد الله :

هل تصدق أيها الأخ أن علة وجودك في هذه الدنيا، العلة الوحيدة أن تعبد الله، الدليل لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، الدليل قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

مخلوق في الدنيا من أجل أن تعبد الله، كما أنك في الجامعة وجودك في الجامعة لعلة واحدة، أن تنال الدكتوراه فقط، وجودك في المستشفى من أجل أن تشفى، وجودك في السوق من أجل أن تربح، علة الوجود مهمة جداً، وكل واحد في مكان موجود ينبغي أن يسأل لماذا أنا هنا؟ لو إنسان سافر إلى مدينة إن جاءها تاجراً تحرك نحو المتاجر، والأسواق، والمعامل، وإن جاءها سائحاً تحرك نحو المتنزهات، والمقاصف، والآثار، وإن جاءها سائحاً نحو الأماكن الجميلة، تاجر نحو المعامل، طالب علم نحو الجامعات، أي لا تصح حركة الإنسان إلا إذا عرف سرّ وجوده، في أي مكان أكبر سؤال، أخطر سؤال، أن تقول كل يوم: لماذا أنا في الدنيا؟ أنت في الدنيا من أجل أن تعبد الله، والآية تقول:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

منهج الله منهج تفصيلي واسع جداً :

ينبغي أن نعلم أن العبادة بالمفهوم الضيق الساذج أن تؤدي خمس عبادات، أن تؤدي الصوم، والصلاة، والحج، والزكاة، وأن تنطق بالشهادة، لكن العبادة بأوسع معانيها أن تخضع لمنهج الله خضوعاً كاملاً، وإياك أن تظن أن منهج الله هو هذه العبادات الخمس، والله الذي لا إله إلا هو منهج الله يقترب من خمسمئة ألف بند، هذه البنود تبدأ من أخص خصوصيات الإنسان من فراش الزوجية، وتنتهي بالعلاقات الدولية بين الأمم، منهج كامل، كيف تتزوج، كيف تختار زوجتك، كيف تربي أولادك، كيف تعامل جيرانك، كيف تكسب مالك، هذا هو المنهج.

أخواننا الكرام، من لوازم التوفيق أن تعلم علم اليقين وأنت في مكان ما لماذا أنا هنا؟ وأكبر سؤال لماذا أنت في الدنيا؟ أنت في الدنيا بنص القرآن الكريم من أجل أن تعبد الله، والآية:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

وقد يفهم بعض الناس العبادة فهماً ضيقاً جداً، يظنون العبادة أن تؤدي العبادات الشعائرية، وهي الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، والنطق بالشهادة، ولكن الحقيقة أن العبادة بالمفهوم الواسع أن تخضع لمنهج الله بكل تفاصيله، وتفاصيل هذا المنهج قد تقترب من خمسمئة بند، شؤون حياتك كلها،

زواجك، تربية أولادك، كسب مالك، علاقتك بزوجتك، بوالديك، بأخوتك، بأبنائك، بجيرانك، بمن حولك، بمن فوقك، علاقتك بصحتك، علاقتك بطعامك، بشرابك، علاقتك بالناس، علاقتك بالشأن العام، هذه تفاصيل منهج الله عز وجل.

فلذلك منهج الله منهج تفصيلي واسع جداً، من هنا كان الذي يحرص على سلامته وسعادته لا بد من أن يقف بعلم دقيق على منهج ربه، منهج الله عز وجل افعل ولا تفعل، منهج الله عز وجل من عند الخبير، من عند العليم، منهج الله عز وجل يحقق لك علة وجودك، وهي السلامة والسعادة، فالإنسان قد ينطلق من حبه لذاته، من حرصه على سلامته، من حرصه على سعادته، فيتبع منهج ربه.

العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

لذلك أتمنى أن تكون متيقناً أن العبادات الشعائرية خمسة بنود في منهج تفصيلي يقترب من خمسمئة ألف بند، الصلاة فرض، والصيام، والحج، والزكاة، والنطق بالشهادة، هذه عبادات شعائرية، لكن العبادات التعاملية أهم، الدليل أن العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، النبي عليه الصلاة والسلام سأل أصحابه فقال:

((ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا ، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

الصلاة معها صدق ، معها أمانة، معها عفة، معها إتقان عمل، معها حكمة، معها رحمة، معها لطف، الإيمان هو الخلق فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالإيمان.

من أراد أن يُحدث الله عز وجل فليدعه :

أيها الأخوة الكرام، الإيمان أن تعرف الله أولاً، ثم تتوجه إليه ثانياً، وتتقرب منه بالاستقامة والعمل الصالح.

فلذلك الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

واعلم علم اليقين أنك كمؤمن إذا قرأت مثل هذه الآيات أن تشعر شعوراً وضحاً مركزاً أنك معني بهذه الآيات، الله يخاطبك يخاطب المؤمن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

قال: إذا ردت أن يحدثك الله عز وجل فاقرأ القرآن، فإذا وصلت إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

فالله جل جلاله يحدثك، وإذا أردت أن تحدث الله عز وجل فادعه، الدعاء تحديث لله عز وجل، تحادثه بالدعاء، ويحادثك إذا تلوت القرآن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وأتمنى أن كل آية في القرآن تفتتح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وهذه الآيات تقترب من ثلاثمئة آية، وإذا قرأت هذه الآية يجب أن تشعر أنك معني بهذه الآية، وأن الله يخاطبك كمؤمن.

من يعرف الله يسارع إليه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الآن تصيب المؤمنين، يضعف إيمانهم، تضعف همتهم، يؤثرون الراحة، يؤثرون البقاء بالبيت، يؤثرون التمتع بما هو حلال طبعاً، أنا أتحدث مع المؤمنين، المؤمنون تأخذهم بعض المباحات، ولا تنسوا أن الإنسان أحياناً يحول بينه وبين الاتصال بربه أشياء كبيرة، طبعاً أكبر هذه الأشياء، أو إذا أردنا أن نرتب المعاصي والآثام ترتيباً تصاعدياً نقول: الكفر أن تنكر وجود الله، والشرك تتوهم أن معه آلهة أخرى، إنسان قوي زيد أو عبيد، بيده قوة، يفعل ما يشاء، تتوهمه أنه فعال، لكن الفعال الوحيد هو الله.

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود]

فأن تضع كل ثقتك بإنسان تظنه قوياً وتنسى الله عز وجل هذا نوع من الشرك، فصار عندنا الكفر أن تنكر، الكفر أن تؤمن بجهة قوية غير الله، بعد ذلك هناك ارتكاب الكبائر والعياذ بالله، أو ارتكاب الصغائر، أو التحريش بين المؤمنين، أو التوسع بالمباحات، فكأن هذه الآية تلفت نظر المؤمنين إلى أنك إذا توسعت في المباحات، وآثرت الراحة على العمل الصالح فأنت من الخاسرين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

النفير حركة سريعة، إقبال شديد، همة عالية،

(انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

شددت قدميك إلى المسجد، شددت قدميك إلى عمل صالح، بادرت لإنفاق مالك، بادرت لمواساة من حولك، بادرت لإلقاء العلم على من تعرف، هناك أعمال صالحة تبدأ من الدعوة إلى الله، وتصل إلى أن تميط الأذى عن الطريق، هذه كلها أعمال صالحة، فأنت حينما تعرف الله تسارع إليه.

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ)

[سورة آل عمران الآية: 133]

المسارعة مطلوبة لأن الوقت محدود، والحياة فرصة ثمينة لا تتكرر، فرصة ذهبية لأنك تنال من خلالها جنة الله التي أعدها لعباده المؤمنين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي سارعوا، شمروا فإن الأمر جد، وتأهبوا فإن السفر قريب، وتزودوا فإن السفر بعيد، وخففوا أثقالكم فإن في الطريق عقبة كؤود، أي الهمة العالية، المبادرة إلى العمل الصالح، إلى طاعة الله عز وجل، إلى خدمة الخلق، إلى نشر هذا الدين، إنفاق المال، مواساة الفقراء، إطعام الجياع، معالجة المرضى، تأمين سكن لبعض الشباب، أنت حينما تتحرك في طريق مرضاة الله تحقق الهدف من وجودك.

أنواع الجهاد :

1 - جهاد النفس و الهوى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

ومنه الجهاد في سبيل الله، أي جهاد النفس والهوى، هذا الجهاد النفسي.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

[سورة العنكبوت الآية: 69]

هذا الجهاد النفسي، يأتي بعده الجهاد الدعوي، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

ويأتي بعد ذلك الجهاد البنائي:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال لآية:60]

ويأتي بعد ذلك الجهاد القتالي، الجهاد الأول جهاد النفس والهوى، هذا الجهاد الأساسي، حتى إن بعض الصحابة عاد من معركة فقال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى، لابد من أن تجهد.

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

[سورة الحج الآية: 78]

أول مجاهدة جهاد النفس والهوى، غض البصر مجاهدة، إنفاق المال مجاهدة، ضبط اللسان مجاهدة، ضبط الحواس مجاهدة، رعاية الأهل والأولاد مجاهدة، رعاية الجيران مجاهدة، جاهد تشاهد، إن أردت أن تشاهد عظمة الله ادفع ثمن هذه المشاهدة جهاداً،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

2 ـ الجهاد الدعوي :

الجهاد الثاني: الجهاد الدعوي،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

وسمّى الله هذا الجهاد جهاداً كبيراً لأن تعلم القرآن و تعليمه جهاد كبير، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكمْ ـ مطلقاً ـ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن عثمان بن عفان]

خيركم، الخيرية المطلقة، من تعلم القرآن وعلمه، أول جهاد جهاد النفس والهوى، الجهاد الثاني الجهاد الدعوي.

3 ـ الجهاد البنائي :

الجهاد الثالث الجهاد البنائي، إتقان عملك جهاد، الطبيب الذي يتقن عمله مجاهد، يطور خبراته، يخضع لدورات، أي إنسان بأي عمل، تطوير العمل، وتعميق الخبرة فيه، وتقديم خدمة للمسلمين جيدة متقنة، هذا جهاد أيضاً، جهاد نفسي، جهاد دعوي، جهاد بنائي، والجهاد البنائي شاهده في القرآن الكريم هو قوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

4 ـ الجهاد القتالي :

والجهاد الرابع: الجهاد القتالي، لكن لا ينبغي أنه لمجرد أن تستمع إلى كلمة جهاد أن يتجه ذهنك إلى الجهاد القتالي، الجهاد مستويات كثيرة، وأهمها على الإطلاق جهاد النفس والهوى، فما لم تجاهد نفسك وهواك، ما لم تحمل نفسك على طاعة الله، ما لم تحملها على البذل والتضحية، لن تكون مؤهلاً للجهادات التالية، جهاد النفس والهوى هو الجهاد الأول، وأصل كل جهاد، كيف عندنا تعليم أساسي من الأول حتى التاسع، هناك تعليم ثانوي، و تعليم جامعي، و دراسات عليا، و دكتوراه، و نوبل، فالجهاد مستويات، الحد الأساسي الذي لا بد منه، الذي هو أصل كل جهاد، جهاد النفس والهوى، أن تحمل نفسك على طاعة الله، أن تحملها على البذل والعطاء، أن تحملها على أن تلتزم، أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر.

على الإنسان أن يستعد للقاء الله عز وجل و لو كان شاباً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

الإنسان مال إلى الراحة، مال إلى النوم المديد، مال إلى الطعام، أنا أتحدث عن المؤمنين، أتحدث عن مؤمن لا يعصي الله، لكن المباحات توسع بها، وهذه مشكلة أولى للمؤمنين، يتوسع بالمباحات، يعتني بهذا البيت عناية فائقة، يعتني بدكانه عناية فائقة، هذه العناية مقبولة ولابدّ منها، أما إذا غطت أوقاته كلها، أو على حساب عباداته هذه العناية أصبحت ليست كما ينبغي فتأتي هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

الإنسان أحياناً يعتني بالبيت عناية تفوق حدّ الخيال، بعد أشهر أحياناً أو أيام توافيه المنية، والله أعرف إنساناً اشترى بيتاً بأرقى أحياء دمشق، واعتنى به عناية تكاد لا تصدق، القصة طويلة، وبعد أن انتهت الكسوة كاملة بقي عليه أن ينتقل من بيته القديم في أحد أحياء دمشق العادية إلى هذا البيت الراقي جداً، وافته المنية، فغسل في بيته الجديد.

فالإنسان لا يعرف متى توافيه المنية، لذلك البطولة أن تستعد للقاء الله ولو كنت شاباً.

المؤمن همته عالية يلبي أي دعوة للعمل الصالح :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

(اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

أي ملتم إلى الراحة، إلى النوم، إلى القراءة المسلية، هناك صحف، و مجلات، و متابعة مجلات معينة، و بيت مريح، و مقعد وثير، و غرفة نوم مريحة تماماً أكثر وقته نائم، لا أحد يوقظه إلى العصر، جريمة إذا أيقظه أحد، فراحته، وطعامه، وشرابه، وأموره البيتية، كلها درجة أولى، كأنه تثاقل إلى الأرض.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

المؤمن همته عالية، يلبي أي دعوة للعمل الصالح، ينطلق مسارعاً للعمل الصالح، الآية:

(انْفِرُوا)

الآن المشي العادي مشي، أما إنسان نفر إلى الجهاد أي أسرع إلى الجهاد فحركة سريعة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

هناك سؤال محرج:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ)

أي الآخرة، والله يا أخوان كلي رجاء أن تستوعبوا كلمة اللانهاية، الأبد.

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

[سورة الطلاق الآية: 11]

أكبر رقم تتصور أمام اللانهاية صفر، ما هذا الرقم؟ ألف؟ لا، أريد مليوناً، ألف ألف؟ لا، أريد مليون مليون، أريد مليون مليون مليون، أريد مليار مليار، أريد مليار مليار حتى ينقطع نفسي، أريد مليار ليوم القيامة، كل هذه الأرقام صفر أمام اللانهاية، واحد بالأرض وأصفار للشمس، تصور مئة و ستة و خمسين مليون كيلو متر أصفار، كل ميلي صفر، هذا الرقم إذا نسب إلى اللانهاية، واسألوا أهل الاختصاص قيمته صفر، واحد بالأرض وأصفار إلى الشمس، فالدنيا لو عشت مئة وثلاثين سنة، أنا معلوماتي المتواضعة، أعرف شيخاً أزهرياً عاش مئة و ثلاثين سنة، أطول عمر سمعت به ، لو عاش مئة و ثلاثين أمام الأبد صفر، لو كنت بعهد سيدنا نوح والحياة ألف سنة أمام الأبد صفر، لو عشت مليار سنة أمام الأبد صفر، أنت تضحي بالآخرة.

الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

الراحة، البيت، النوم، متابعة برنامج معين، قراءة مجلة، قراءة جريدة، تجلس مع اهلك، لا يوجد موضوع مهم، تسهر سهرة، كلام فارغ، كلام عن الطعام، والشراب، أو السياسة، هذا الوقت أنت بضعة أيام، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه.

والله أيها الأخوة لا يوجد إنسان يرتكب خطأ يفوق حدّ الخيال كالذي يضيع وقته، لأنه هو وقت، عندنا تعبير دقيق دراسة الوقت، أو إدارة الوقت من صفة الكبار، الأشخاص المتفوقون يحسنون إدارة الوقت، هناك وقت للدراسة، وقت للنوم، وقت للراحة، وقت تجلس مع أهلك، وقت تطالع، تقرأ، أنا اطلعت على إحصائية دقيقة أن الإنسان الغربي يقرأ بالسنة ثمانين كتاباً، وسافرت كثيراً، ما رأيت في ركاب القطارات أو الطائرات إلا من يقرأ، الإنسان في الشرق الأوسط كل ثمانين إنساناً يقرؤون كتاباً واحداً بالسنة، الواحد يقرأ ثمانين كتاباً في السنة بالعالم الغربي، والثمانون بالشرق الأوسط يقرؤون كتاباً واحداً، لا أحد يقرأ، القراءة محدودة جداً، المعلومات محدودة، التصور محدود، القرار خاطئ.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

اطلب العلم، اطلب المعرفة، ألف كتاباً، اعمل شيئاً، ألق درساً، ادعُ إلى الله، ارعَ مسكيناً، ارعَ يتيماً، ارعَ أرملة، أنت في الدنيا من أجل العمل الصالح، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، اسأل نفسك دائماً لو أن الله سألني: يا عبدي ماذا فعلت من أجلي؟ والله يا ربي أكلنا، وشربنا، واشترينا بيتاً، وعملنا عدة نزهات، وكنا مسرورين جداً، ماذا فعلت من أجلي؟ هل واليت فيّ ولياً؟ هل عاديت فيّ عدواً؟ حضرت درس علم؟ حرصت على معرفة القرآن الكريم؟ على معرفة السنة النبوية؟ خدمت إنساناً؟ تكفلت بطالب علم؟ أطعمت جائعاً؟ رعيت جيرانك؟ الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، الأعمال الصالحة كثيرة ولو أطعمت هرة.

النبي ذكر:

((بينما رجلٌ يَمشي بطريق اشْتَدَّ عليه العطشُ، فوجد بئرا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلبٌ يَلْهَثُ، يأكل الثَّرَى من العطش، فقال الرجلُ: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغَ مِني، فنزل البئر، فملأ خُفَّهُ ماء، ثم أمْسَكه بفيهِ، حتى رَقِيَ، فسقى الكلبَ، فشكرَ اللهُ له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله، إن لنَا في البَهَائِمِ أجرا؟ فقال: في كُلِّ كَبدٍ رَطبَةٍ أجرٌ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود ومالك عن أبي هريرة]

أطعمت هرة أحياناً، أطعمت طيراً، والله أعرف أخاً يشتري طعام الطيور بكميات كبيرة، يضع هذا الطعام على سطح البيت، تأتي الطيور وتأكل، له عمل، يا أخي أكلنا، هذا ليس عملاً صالحاً، نمنا نوماً عميقاً هذا ليس عملاً صالحاً، أنجبنا أولاد طبعاً الابن محبب، رعيت ابنك، ألبسته، والله شيء جميل، الابن طفل جميل، يلبس لباساً جميلاً، شيء جيد، شيء ممتع بالبيت، أنت ماذا فعلت من أجل الله؟ هل واليت فيّ ولياً؟ طلبت العلم؟ خدمت الناس؟ نصحتهم بعملهم؟ ولله هناك أعمال لا يعلمها إلا الله، يؤديها

أناس كبار عند الله، أنا لا أريد العمل الصالح بالتعبير المعاصر، إنسان عرض عليك عملاً لبيته، العمل الصالح هدف يومي عندك، معظم المسلمين إذا عرض عليهم عمل صالح يؤدونه، هذا أداء عفوي، أريد العمل الصالح هدفاً مركزاً جداً في حياتك، الإنسان عندما يغادر الدنيا يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

تميز صلاة الجمعة بخطبتها :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

بالأشياء الواضحة بحياتنا اليوم، بادر لحضور درس علم، يقول: أنا الحمد لله صليت صلاة الجمعة، لحقت الإمام بالركعة الثانية لكني صليتها، والخطبة؟ الله قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الجمعة الآية: 9]

افتح كل كتب التفسير ما هو ذِكر الله؟ الخطبة، الجمعة متميزة بالخطبة، عبادة دعوية كل جمعة، هو إذا ظنّ أنه إذا لحق الركعة الثانية أدرك الجمعة، لا لم يدركها، الجمعة من أجل الخطبة، وينبغي أن تأتي من أول ساعة، كي تستمع إليها بأكملها، الجمعة عبادة، الصوم عبادة، الحج عبادة، الصلوات عبادات، هذه عبادات شعائرية، أما الأهم فالعبادات التعاملية، إنفاق المال، رعاية الفقير، رعاية اليتيم، رعاية الأرملة، تعليم العلم، الدعوة إلى الله، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

الدنيا لا تتناقض مع الإيمان والعمل الصالح والسعي للآخرة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أجمل بيت عمرته، هذا تجلس به دائماً؟ لا، يجب أن تخرج منه لكن لن تخرج عامودياً بل أفقياً، أي بيت تسكنه مهما كان فخماً، لابد من أن تخرج منه بشكل أفقي، بنعش، هل هناك أحد لا يموت؟ الناس كلهم، يكون ساكناً ببيت، والله أحياناً أدخل لبيوت أقول هذا البلاط من اختاره؟ المرحوم، من اختار هذا الجبصين، شيء رائع جداً؟ من اشترى الثرية؟ المرحوم، من اشترى السجادة؟ المرحوم، أين هو المرحوم؟ هذه الحياة هكذا، أنا أتكلم بالواقع يا أخوان، والله أحياناً يكون هناك تعزية بأحد أفخم أحياء دمشق، البيت سعره يقدر بمئة وثمانين مليوناً، أحياناً أحضر التعزية، قد تكون قرابة، أقول هذا البيت، من كساه؟ الذي كساه جالس بباب صغير بالقبر، هل هذا الكلام صحيح؟ الذي اشترى البلاط، واختار هذا المنجور، واختار الجبصين، اشترى الثريات، هذا الطقم من الكنبات سعره ثلاثة ملايين اشتراه من

إيطاليا، أين هو صاحب البيت؟ بباب صغير، البطولة أن تهتم بمثواك الأخير، اقرأ كل النعوات وسيشيع إلى مثواه الأخير؛ في باب صغير مثلاً، أو في المهاجرين، هذا المثوى الأخير، مادام القبر هو المثوى الأخير، ما هو المثوى المؤقت؟ بيتك، بقدر ما تعتني به هو مثوى مؤقت.

والله أعرف شخصاً اشترى بيتين، بلاطة كاملة بالطابق الثاني عشر، مطل على الشام، وبقي سنتين يكسو هذا البيت، قال لي مهندس يعمل عنده: أذواقه ليست معقولة إطلاقاً، أفضل نوع من الرخام، حتى هناك نوع شفاف وضع تحته إضاءة، انتهت الكسوة، وانتهى أجله مع انتهاء الكسوة، وغادر الدنيا.

هذه الحياة، معي مئة قصة بهذا الموضوع، فأنت فكر بالآخرة، اشتغل، أسس عملاً، ادرس ، خذ دكتوراه، توظف، تزوج، أنجب أولاداً، هذا كله وفق منهج الله، هذا ضروري، لكن إياك أن تنسى الآخرة، إياك أن تنسى الجنة والنار، إياك أن تنسى العمل الصالح، إياك أن تنسى طاعة الله، إياك أن تنسى الاستقامة، الدنيا بمصادر مشروعة، وبمنهج مشروع، لا شيء فيها، لكن هذه لا تتناقض مع الإيمان، والعمل الصالح، والسعي للآخرة.

العاقل من يعد لساعة الموت عدتها :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

إلى متع الأرض، إلى البيت، تجد كلما تكلفه بعمل، يؤثر الراحة في البيت فقط، ينسحب من أي عمل صالح، يعتذر، تطلب منه مبلغاً مثلاً لجامع، لشيء عمل دعوي، والله لا يوجد معي، نقدي لا يوجد معي، كلها أموال جاهدة:

(اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

والله مرة شيعنا أخاً من أخواننا، دفن أمامي، وضع في القبر، كشف عن وجهه ثم أهالوا عليه التراب، طبعاً وضعوا البلاطة وأهالوا التراب، وانتهى، والله الذي لا إله إلا هو، ما رأيت على وجه الأرض إنساناً أعقل ولا أذكى ممن يعمل لهذه الساعة، لساعة الموت، يستطيع واحد من الحاضرين وأنا معكم أن يقول: أنا لا أموت، مستحيل!.

إنسان في مصر يعمل بالفن، سمعت عنه، أنه لم يأكل بحياته طعاماً في المساء، حفاظاً على صحته، يأكل فواكه، و لم يركب طائرة بحياته خوفاً أن تسقط فيموت، وله قصص طويلة، ووصل للسادسة والتسعين، لكن بعد ذلك مات.

كل مخلوق يمـــــوت ولا يبقى إلا ذو العزة والـجبروت

* * *

والليل مهما طـــال فلابد من طلوع الفـــــجر

والعمر مهما طـــال فلا بد من نزول القـــــبر

*** * ***

وكل ابن أنثى ولو طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمــول

فإذا حملت إلى القبور جنــازة فاعلم أنك بعدها محمـــــول

*** * ***

متاع الحياة الدنيا قليل إذا قيس بالآخرة :

قال:

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

إلهك الذي خلقك للجنة ينصحك، قال لك: متاع الحياة الدنيا إذا قسته بالآخرة فهو قليل، متاع الدنيا قليل، كلها كم سنة، والله أنا كلما أسمع عن إنسان توفي، من باب الاستفهام أسأل: كم عمره؟ يقول لك: عمره سبعة و خمسون، ثمانية و أربعون، ثلاثة و ستون، واحد و سبعون، أكثر شيء يصل للسبعين تقريباً، للثمانين قلائل، ينهي دراسته، يأخذ لسانس، يتعين بوظيفة، ويتعين بأربع أو خمس محافظات بعد ذلك ينتقل إلى الشام، عندما يأتي إلى الشام يكون عنده بيت صغير يقوم بكسوته، يؤسسه، راح من عمره خمسون سنة، هذه الدنيا، انظروا يا أخوان، هذه نصيحة إلهية لنا جميعاً،

(مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء الآية: 77]

أي كم سنة؟ الآن إذا أراد إنسان أن يعمل إحصاء دقيقاً، عاش ثلاثاً و ستين سنة، كم مرة عزم فيها؟ وكم مرة عمل نزهة؟ عدة مرات فلإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه.

مادام القلب ينبض فباب التوبة مفتوح :

أما الآية الكريمة:

(إِلَّا تَنْفِرُوا)

من محبته لكم، من حرصه عليكم، من حبه لكم،

(إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

إنسان بدوي عنده أرض بشمال جدة، فلما توسعت جدة، ارتفعت أسعارها ارتفاعاً كبيراً، لكن هو لا يوجد عنده خبرة بالأسعار، باع هذه الأرض لمكتب عقاري خبيث جداً، اشتراها بربع قيمتها، ضحكوا عليه، فهؤلاء الثلاثة عمروها بناية مؤلفة من اثني عشر طابقاً، قصة واقعية، فأحد الشركاء وقع من الطابق الثاني عشر إلى الأرض، فنزل ميتاً، الثاني دهسته سيارة، فانتبه الثالث، ربط هذه القصص بموضوع أن أخذوا الأرض بربع قيمتها، فبحث عن صاحب الأرض حوالي ستة أشهر، وأعطاه ثلاثة أمثال قيمتها، فهذا البدوي قال له: ترى أنت لحقت حالك، وأنا أقولها لكم وأقولها لنفسي: مادام القلب ينبض فعلى الإنسان أن ينتبه، كل شيء يحل في الدنيا، توبة نصوح.

((لو بلغتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السماءِ، ثم استَغْفَرتَني غَفَرْتُ لك، ولا أبالي))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

مادام القلب ينبض فالتوبة مقبولة، توبة كاملة، اعمل توبة نصوحة، واعمل برنامجاً دينياً، وأدِ الصلوات الخمس أداء متقناً، وأنفق جزءاً من مالك، واذكر الله عز وجل، واقرأ القرآن، حتى الله عز وجل يقبلك في عباده الصالحين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (34-70) : تفسير الآية 40 ، تلازم النصر مع السكينة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-01-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى ذات كاملة واجب الوجود وهو على كل شيء قدير :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية منطلق لموضوع كبير، هذا موضوع هو أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، هو ذات كاملة، واجب الوجود، لكن ما سواه ممكن الوجود، معنى ممكن أي ممكن أن يكون موجوداً أو ألا يكون، معنى آخر ممكن أن يكون على ما هو كائن أو على خلاف ما يكون، أليس من الممكن أن يجعل الله الكفار في كوكب آخر؟ أو في قارة أخرى؟ أو في حقبة زمنية معينة؟ لا يوجد حروب، ولا كفر، ولا معاصي، ولا آثام، المؤمنون في كوكب، والكفار في كوكب، لكن شاءت حكمة الله أن نكون في معاً في مكان وزمان واحد.

البشر عند الله صنفان لا ثالث لهما :

لذلك القرآن طافح بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الجمعة الآية:9]

هناك آية واحدة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ)

[سورة التحريم الآية: 7]

هناك مؤمنون، وهناك كفار.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى *إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

الصنف الأول صدق أنه مخلوق للجنة، هؤلاء المؤمنون، بناء على هذا التصديق اتقوا أن يعصوا الله عز وجل، وبنوا حياتهم على العطاء، بالمؤمن صفة أساسية، صارخة، شمولية، قطعية، أن حياته كلها عطاء، يعطي من وقته، من ماله، من علمه، من خبرته، وهناك صفة أخرى لأهل الدنيا يأخذون، هذا يعطي، وهذا يأخذ.

الناس جميعاً تبع لقوي أو نبي :

ومن أروع ما قدم بعض المؤلفين كتاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قدمه صاحب الكتاب للنبي الكريم، قال له:

"يا من جئت الحياة، أعطيت ولم تأخذ".

الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء عاشوا للناس، والأقوياء عاش الناس لهم، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء يمدحون في غيبتهم، أما الأقوياء فيمدحون في حضرتهم، لذلك الناس جميعاً تبع لقوي أو نبي، من هنا خاف الناس الأقوياء، وأحبوا الأنبياء، هناك هرم بشري، هناك بشر، و للبشر أعلام، أعلام البشر هم المتفوقون، المشاهير، بالتعبير المعاصر النجوم، أعلام البشر زمرتان، زمرة سبب قوتهم وكمالهم وأخلاقهم معرفتهم بالله، وقسم آخر سبب قوتهم بأسهم وبطشهم وشدتهم.

هناك قوي من طغاة الأرض، بعض الحروب العالمية تركت خمسين مليون قتيل، وخمسين مليون معاق، وخمسة ملايين مشردين، وهناك أنبياء عاشوا للناس، لذلك الناس جميعاً تبع لقوي أو نبي.

الفرق بين المؤمن و غير المؤمن فرق صارخ :

النقطة الدقيقة: أن المؤمن من أتباع الأنبياء، وأن غير المؤمن من أتباع الأقوياء، فبطولتك أن تكون تابعاً لمن؟ أن تكون تابعاً للأنبياء، تطبق المنهج الذي جاؤوا به، تتقرب إلى الناس بكمالك، بعطائك، بحلمك، بعدلك، بإنصافك، الفرق بين الاثنين فرق صارخ.

مثل للتقريب: قطعة لحم، واللحم غذاء أساسي، والإنسان إذا كان جائعاً جوعاً شديداً، أثمن طعام يمكن أن يقدم له هو اللحم المشوي، وهناك قطعة لحم متفسخة، رائحتها تصل لخمسين متراً، تكاد تخرج من

جلدك من رائحتها، القطعتان من اللحم، قطعة لحم تتمنى أن تأكلها وأنت جائع، وقطعة لحم تخرج من جلدك منها من شدة رائحتها النتنة، صدق ولا أبالغ هكذا البشر، إنسان تتمنى أن تكون معه، تتمنى أن تجالسه، تتمنى أن تكون في خدمته، تتمنى أن تصاحبه، هؤلاء المؤمنون تتمنى أن تتزوج منهم، هناك كمال، و حلم، و رحمة، و إنصاف، و كلام منضبط، و عفة، و رقي، وهناك إنسان كتلة سيئات، كاذب، منحرف، وصولي، منافق، لذلك دقق:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

[سورة الماعون]

إنسان آخر.

قضية الإيمان والكفر قضية حاسمة :

أخواننا الكرام، الفرق بين المؤمن وبين غير المؤمن كما بين الأبيض والأسود، كما بين قطعة اللحم المتفسخة وبين قطعة اللحم الطازجة، بين الأزهار الفواحة وبين الأقذار التي لا تحتمل، فرق كبير جداً، يقول لك: هذا يصلي، القضية أكبر من الصلاة، أكبر من مليون صلاة، المؤمن صادق لا يكذب، المؤمن لا يخون، لا يعتدي على أعراض المسلمين، لا يعتدي على أموالهم.

فيا أيها الأخوة الكرام، قضية الإيمان والكفر قضية حاسمة، من هنا الله عز وجل جعل المؤمنين وجعل غير المؤمنين في مكان واحد وفي زمان واحد، لترى الفرق الكبير بين من عرف الله وبين من لم يعرف الله.

من نصر دين الله عز وجل ارتقى عنده :

لذلك الله عز وجل يقول في سورة التوبة في الآية الأربعين:

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ)

إذا أنتم تأبيتم أن تنصروه، الله ينصره.

لكن هناك سؤالاً: الله عز وجل أرادنا أن نرقى عنده بنصرة أنبيائه، فإذا استنكفنا فهذا شأننا، عندئذٍ ينصره هو، لكن أراد الله عز وجل أن يترك نصرته لنا لنكسب العمل الصالح، هو قادر بأي لحظة أن ينصرهم، ولكن حينما تقف موقفاً مشرفاً من نبي كريم، حينما تدعم داعية صادقاً، حينما تقف مع الحق، حينما ترفض الباطل، تكون قد نصرت هذا الدين، ماذا نفهم من قوله تعالى :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ)

[سورة محمد الآية: 7]

الله يحتاج من ينصره؟ هو القوي، كن فيكون، زل فيزول، ولكن المعنى عندما تدعم دينه، حينما تقوم وتصلي وهناك عدد كبير لا يصلي، أنت إذا قمت إلى الله نصرت دينه، حينما تدافع عن مؤمن نصرت دينه، حينما تذب عن الحق نصرت دينه، حينما تدعم إنساناً مستقيماً نصرت دينه، حينما تنطق بالقرآن نصرت دينه، حينما ترفض كلام أهل الكفر نصرت دينه، والله الذي لا إله إلا هو هناك مليون مليون طريق لنصر هذا الدين، الله عز وجل قوي عزيز، لا يحتاج من أحد أن ينصره، ولكنك إذا نصرت دينه ارتقيت عنده، وإذا نصرت دينه نصرك، والآية الكريمة:

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 160]

النصر الحقيقي من عند الله عز وجل :

الآية الأولى:

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: 126]

النصر الحقيقي من عند الله، قد يكون هناك وسائل، قد تملك سلاحاً وقد لا تنتصر، قد تمتلك الرجال وقد لا تنتصر بهم، قد تمتلك العداد وقد لا تنتصر به، أما النصر فمن عند الله، أول حقيقة في الدين:

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

هو الناصر.

الآن هذا النصر الذي هو من عند الله له ثمن، ما ثمنه؟

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

تنصر دينه، تدافع عن المؤمن، تقف مع الحق، تحكم بالعدل، لا تأخذك في الله لومة لائم، إذاً نصرت دينه، والله الذي لا إله إلا هو باليوم الواحد هناك مئات المواقف متاح لك فيها أن تنصر دينه، مثلاً مؤمن غائب عن الجلسة، و هناك إنسان يكرهه لأنه مؤمن، فطعن بأمانته، وتعلم أنت علم اليقين أنه نقي، وأنه طاهر، وأنه عفيف، فدافعت عنه، أنت في هذا الكلام نصرت دين الله، لأنه هو مؤمن، عند الناس مؤمن، وتعلمه يقيناً أنه صادق، وأمين، وعفيف، لكن دائماً هناك عداء أساسه العقيدة، المؤمن قد لا يؤذي أحداً قطعاً وله أعداء، هذه العداوة هي عداوة قابيل لهابيل، ماذا فعل قابيل؟ قابيل قاتل، وهابيل مقتول، ماذا فعل قابيل؟ قاتل، لذلك العداوة عداوة حال، عداوة موقف، فالمؤمن مؤمن، لأنه مؤمن هناك

من يعاديه، النبي ماذا فعل؟ قدم للناس كل خير.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الفرقان الآية:31]

هناك أعداء لله عز وجل، هكذا أراد الله عز وجل.

الحكمة من وجود المؤمنين و الكافرين في مكان و زمان واحد :

مرة ثانية أقول لكم: كان من الممكن أن يكون الكفار في كوكب آخر، أو في قارة أخرى، أو في حقبة أخرى، ولكن شاءت حكمة الله أن نكون معاً، على وجه الأرض، وفي كل مكان وزمان، السبب لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي، ولأن أهل الحق لا يستحقون النصر إلا بالبذل والتضحية، لذلك معركة الحق والباطل أرادها الله، أرادها الله لأنك إذا نصرت الحق وعاديت أهل الباطل ارتقيت عند الله، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية.

زوال الكون أهون على الله من ألا تحقق الآية التالية :

الآن تطبيق عملي، هناك آية كريمة أخوتنا الكرام:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

[سورة آل عمران الآية:21]

آية قرآنية، زوال الكون أهون على الله من ألا تحقق هذه الآية، في النهاية المؤمنون ينتصرون، لكن الحرب جولات، هناك جولات وجولات، ونحن جاء دورنا في هذا العصر، الكافر قوي جداً، الكفار أقوياء، بيدهم زمام المقدرات في الأرض، ونحن ضعفاء، لكن ما دمت مع الله فالله معك إن شاء الله.

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ)

ماذا فعل كفار قريش؟ قال:

(إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ)

هذا الإنسان الراقي، الحليم، الرحيم، اللطيف، الذي اتصل بالله، جاءه الوحي، أراد إنقاذ أمته، لما خرج إلى الطائف، لماذا خرج إلى الطائف؟ ليهديهم إلى الإسلام، ليرحمهم، كذبوه، سخروه منه، أغروا سفهاءهم أن يضربوه وضربوه، جاءه ملك الجبال، قال يا محمد: أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك:

((إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، قال : لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي ـ هذا الولاء الصعب، هذا الولاء الذي معه الوفاء ـ اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن عائشة]

هذا الإنسان الكامل الذي ما قبل أن يؤدب معارضوه إطلاقاً، الله عز وجل لما أرسل له ملك الجبال، قال هذا الملك للنبي الكريم:

((إن شئت أطبق عليهم الأخشبين))

أي مكنه الله أن ينتقم منه، لم يقبل.

((اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

هذا هو المؤمن، فأنت أطمئن كمؤمن الله سوف ينصرك، أما إذا نصرك إنسان ودعمك، ودعم مقولتك، ودافع عنك، ووقف أمام خصومك وقفة جريئة، فهذا كسب عمل صالح كبير، أما لو تخلى عنك كل من حولك الله لن يتخلى عنك، حقيقة مهمة، الله عز وجل يريدنا أن ننصر الحق، كي نرقى عنده، كي نكون أبطالاً عنده، كي يرقى بنا هذا النصر إلى عليائه، لكن لو تخلينا عن نصرة أهل الحق، الله ينصرهم ويستغني عنا بنصرتهم، فأنت إذا نصرت أهل الحق من أجل أن ترقى عند الله فقط، أما هو فسوف ينصرهم.

على الإنسان أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ويتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ)

النبي الكريم علمنا في درس الهجرة حقائق بليغة جداً هو كإنسان أخذ بالأسباب، اتجه إلى غار ثور، قبع فيه ثلاثة أيام، ثم استأجر خبيراً في الطريق، وناقة جيدة هاجر بها، أي أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، اتجه نحو الساحل ليعمي على المطاردين حركته، قبع في غار ثور ثلاثة أيام، استأجر دليل طريق وراحلة، أخذ بالأسباب كلها، لكن عندما وصلوا إليه، ما كان يعتمد على هذه الأسباب الذي أخذ بها، كان يعتمد على رب الأرباب، فلما وصلوا إليه، قال:

((يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

هذا الكلام أخواننا الكرام ينقلنا إلى حقيقة دقيقة، ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وينبغي أن تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، دائما أن تأخذ من طرف العصا قضية سهلة جداً، أما أن تمسك العصا من وسطها القضية تحتاج إلى مهارة عالية جداً، فأن ألا تأخذ بالأسباب كشأن المسلمين اليوم، القضية سهلة جداً، أو أن تأخذ بها كأهل الغرب وأن تعتمد عليها وأن تأهلها، وأن تنسى الله قضية أهون، كلا الطرفين خاطئ، البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها

ليست بشيء.

أي يمكن أن تقرأ الكتاب المدرسي عدة مرات، تلخصه كله، تحفظه كله، وفي الوقت نفسه وأنت على هذا الإتقان الشديد، من أعماق أعماق تقول: يا رب أنت المسلم، أنت الذي تلهمني الصواب في الامتحان.

الإنسان حينما يأخذ بالأسباب ينسى مسبب الأسباب، حينما يأخذ بالأسباب ينسى الله عز وجل، عندك سفرة إلى حلب بمركبتك، أجريت مراجعة للسيارة، كل شيء راجعته جاهزيته تامة، عندك إمكان بعد هذه المراجعة التامة أن تشعر بافتقارك إلى الله؟ أن تقول: يا رب! أنت المسلم، يا رب! احفظني في هذا السفر، يا رب! أن رفيقي في السفر، وأنت خليفتي في الأهل والمال والولد، الشيء المألوف الإنسان إذا أخذ بالأسباب وكان إيمانه ضعيفاً، ينسى مسبب الأسباب، ينسى الله، وأنه حينما لا يأخذ بالأسباب وهو عاصٍ لله، عندئذ يتواكل على الله، إما أن يتواكل أو أن يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها، أما الموقف الكامل فأن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام مع أنه موقن بنصر الله له، مع أنه موعود بالنصر، أخذ بالأسباب، أعدّ العدد، بكل معركة من معاركه كان يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وبعدئذٍ يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

من كان مع الله كان الله معه :

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ)

سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام خرج مع أبي بكر.

(أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ)

لكن المشكلة أن هذه الخطة المحكمة - توجه نحو الساحل، وقبع في غار ثور ثلاثة أيام- مع كل هذه الخطط، والاحتياطات، وصلوا إلى الغار، الحكمة من وصول الكفار إلى الغار أن يتبين أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أخذ بالأسباب لم يكن يعتمد عليها، كان يعتمد على الله، فلما قال له الصديق: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا ، عندئذٍ قال عليه الصلاة والسلام :

((يَا أَبا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا))

هناك رواية ضعيفة أن سيدنا الصديق قال للنبي الكريم، وهو خائف، قال: يا رسول الله لقد رأونا، قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف]

أي أنت إن كنت مع الله عز وجل ينبغي ألا تخاف، إذا كان معك خالق السماوات والأرض، إذا كان معك فمن عليك؟ وإن كان عليك فمن معك؟

أخواننا الكرام، والله أن يكون الله معك في متناول يد كل مؤمن، كن معه يكن معك، كن معه مطيعاً يكن معك ناصراً، كن معه يكن معك، وهذا متاح لكل مسلم، أنا لا أتكلم عن حالات خاصة، متاح لكل واحد منكم، إذا كنت مع الله كان الله معك.

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

أنا أقول دائماً: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟.

الله عز وجل ما أمر الإنسان أن يدعوه إلا ليستجيب له :

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

أخواننا الكرام، قد تكون قوياً، وقد تكون غنياً، وقد تملك حلاً لكل مشكلات أهل الأرض، وإذا تخلى الله عنك ترى كم أنت ضعيف، وقد تكون ضعيفاً فإذا كنت مع الله شعرت بقوتك، القوة والضعف قضية نسبية، إن كنت مع الله شعرت بقوتك، وإن كنت بعيداً عن الله شعرت بضعفك، لذلك الله عز وجل يقول فيما يرويه النبي عن ربه:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

كيف يكون المؤمن قوياً؟ بالله عز وجل، يستعين بالله، يتوكل على الله، يستقيم على أمر الله، يدعو الله عز وجل، باب الدعاء هناك غفلة كبيرة عنه.

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

[سورة غافر الآية: 60]

وما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا،

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

والله أيها الأخوة لو فتحتم على أنفسكم هذا الباب الكبير من الخير، باب الدعاء، اسأل ربك كل شيء، اسأله ملح طعامك، هكذا ورد بالحديث، اسأله حاجتك كلها، اسأله شسع نعلك إذا انقطع، من لا يدعوني أغضب عليه، اسأله، اطلب منه، أقم مناجاة بينك وبينه، يا ربي وفقني، يا ربي ألهمني الصواب، قبل أن تخطب امرأة، يا رب هيئ لي زوجة صالحة، زوجتك حامل، يا رب اجعل هذا الابن صالحاً، اسأله،

ناجه، لكن من الذي يسأل ربه؟ المستقيم، المخطئ يستحي أن يناجيه، أنت استقم على أمره، واسأله كل شيء، اسأله حاجتك كلها، ولا تقلق.

إذاً

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ - النبي الكريم - لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

كلام دقيق جداً، أتمنى أن يكون واضحاً لديكم، النبي أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، لكنه لم يعتمد عليها، اعتمد على الله، فلما وصلوا إليه قال أبو بكر: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا – أو لقد رأونا- عندئذٍ قال عليه الصلاة والسلام :

((يَا أَبا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا))

الموقف الكامل ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

السكينة راحة نفسية عجيبة لا يشعر بها إلا المؤمن :

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

ما هذه السكينة؟ الله عز وجل يرزقنا السكينة، السكينة حالة أمن عجيبة، حالة راحة نفسية عجيبة، حالة ثقة بالمستقبل عجيبة، حالة شعور بالتفوق عجيبة، حالة شعور بالقوة عجيبة، سكينة، الله عز وجل أنزل عليك السكينة، آية قرآنية:

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

تسكن فيها، ترتاح، لا تخاف أحداً، لا تخاف دماراً، لا تخاف فقراً، لا تخاف مرضاً عضالاً، النبي الكريم أعطي دواء لذات الجنب، مرض عضال، فغضب وقال: ذلك مرض ما كان الله ليصبني به، وأنت أيها المؤمن، أنت حينما تقرأ قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت]

إله عظيم بيده ملكوت السماوات والأرض، يطمئنك ويقول: لا تخف، ولا تحزن، لا تخف من المستقبل، ولا تحزن على الماضي، الآن أحياناً إنسان بالستين أو بالسبعين هناك أمراض عضالة تأتي في آخر سنوات العمر، هناك شلل، و ورم، و أمراض تنهد لها الجبال، المؤمن واثق أن الله عز وجل يحميه منها، ذلك مرض ما كان الله ليصيبني به، فأنت حينما تعيش تقياً تعيش حياة سعيدة، أكبر عطاء إلهي أنه طمأنك، والدليل أن الصحابة الكرام في قول الله عز وجل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة الآية:51]

لنا، ما فال علينا، أنا أقول لكم هذه الكلمة: أنت اجهد أن تستقيم على أمر الله، ويجب أن يمتلئ قلبك ثقة بالمستقبل، لا يوجد عندك دمار أبداً، أهل الدنيا من بعدهم عن الله عز وجل يتوقع شللاً.

مرة إنسان زار مريضاً معه أزمة قلبية، و له بيت معتني به عناية تفوق حدّ الخيال، قال هذا المريض لصديقه الزائر: أنا خائف من هذه المرأة اللعينة بعدما موت أن تتزوج إنساناً يأتي إلى هذا البيت على بارد الماء، ما هذه الحالة؟ تجد البعيد عن الله عنده قلق دائم، عنده خوف، عنده شعور أنه هو سوف يدمر،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

أنت مؤمن غال عند الله.

الله عز وجل لا يعامل الإنسان الفاسق كالإنسان المؤمن :

أنا أريد هذه النقطة أن تكون واضحة عندكم، مادمت مستقيماً على أمر الله، يجب أن تشعر بالأمن، والله عز وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام]

أي أنت ألا تعجب من قوله تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

تتصور أن الله عز وجل يعامل الإنسان الفاسق كالإنسان المؤمن؟ مستحيل!.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

[سورة الجاثية الآية:21]

دعك من الآخرة، الحياة الدنيا مستحيل أن يكون فيها المؤمن كغير المؤمن، في بيته، في صحته، في زواجه، في أولاده، مستحيل! في الدنيا قبل الآخرة، والدليل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

معقول، حياتك غير حياته، زواجك غير زواجه، عملك غير عمله، دخلك غير دخله، سمعتك غير سمعته، أنت مؤمن، فأنا أتمنى أن المؤمن إذا استقام على أمره تماماً ألا يسمح بوساوس من الشيطان أن

تخيفه من الله عز وجل

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

الله عز وجل يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين :

(لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

أخواننا الكرام، هذه السكينة أجمل ما عند الله، أحلى عطاء لله، سكينة، تجلس مع مؤمن، والله فقير لا يوجد عنده شيء، عنده ثقة بنفسه، عند ثقة بالله، عنده شعور بالسعادة، لذلك قالوا: إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال، للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

إذاً:

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

شعور بالراحة، شعور بالسعادة، بالطمأنينة، بالرضا، شعور بالأمن، عدم الخوف من المستقبل، عندك بيت، وزوجة، بيتك إسلامي، زوجتك محجبة، البيت فيه صلاة.

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية:132]

لا يوجد كلام بذيء، لا يوجد نظرات لا ترضي الله عز وجل، لا يوجد ملهيات بالبيت تبعدك عن الله عز وجل، بيت إسلامي، ماذا تنتظر من الله أن يعاملك؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

لك معاملة خاصة، في كل الأزمات العامة لك معاملة خاصة.

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ)

بعضهم قال: على سيدنا الصديق، لأنه كان قلقاً.

(وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

اعتقد يقيناً أنه لا يمكن أن تكون كلمة الذين كفروا هي العليا، قد تعلو أحياناً لفترة محدودة، ثم تسقط، لذلك إذا كنت مع الله كان الله معك، أنت في قوة دائمة، وفي تألق دائم.

كلمة الله هي العليا و الحق هو المنتصر :

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

لكن مرة أحد الأخوة الكرام توقع أن حركة الكلمة الثانية هي الفتحة:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ)

فهو توهم أن الواو عطف، فقال لآخر: لماذا لم تأت مفتوحة، فأجابه: لو كانت الواو حرف عطف لكان عندنا مشكلة كبيرة، أي جعل كلمة الذين كفروا سفلى بعد أن كانت عليا،

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً، في أي زمان، في أي مكان، وكلمة الله استئناف، الواو استئنافية،

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً، دائماً كلمة الله هي العليا، الحق هو المنتصر، المصير للحق.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف]

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

الآن أنت أي طرح لأي موضوع، طرح أرضي بعيد عن الدين سينهار، مثلاً كم فرقة ضالة جاءت للعالم الإسلامي؟ والله آلاف الفرق، وقويت، وتلاشت، لم يبقَ إلا الإسلام، هذا دليل كبير جداً، أي فرقة ضالة غيرت وبدلت وانحرفت بعقيدتها وسلوكها تلاشت، ولم يبقَ على الساحة العامة إلا الإسلام كطود شامخ

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً، جعلها سفلى بينما كلمة الله هي العليا دائماً.

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

إن شاء الله نتابع هذه الآيات في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (35-70) : تفسير الآيات 41 - 42 ، المسارعة إلى الجهاد، اليقظة قبل فوات الأوان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-01-14

بسم الله الرحمن الرحيم

على الإنسان أن ينفر في سبيل الله بأي حال كان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الواحدة والأربعين وهي قوله تعالى:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أيها الأخوة، أما معنى قوله تعالى:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً)

أي أيها المؤمنون سارعوا إلى الجهاد في سبيل الله، لكن بأية حال أنتم؟

(خِفَافاً وَثِقَالاً)

قال: خفافاً من السلاح، وثقالاً مع السلاح، أي معكم سلاح أو لا يوجد معكم، خفافاً من السلاح، أو ثقالاً معكم سلاح، خفافاً ركباناً، وثقالاً مشاة، إن كنتم ركباناً فانفروا، وإن كنتم مشاة فانفروا، مشاة أو ركباناً، مسلحين أو من دون سلاح، خفافاً شباباً -الشاب نشيط- أو شيوخاً ثقالاً، الشيخ حركته بطيئة، بسلاح أو من دون سلاح، راكب أو ماشي، شاب أو شيخ، هزيل أو سمين، إذا الإنسان كان رشيقاً ونحيلاً كانت حركته سهلة، والذي عنده وزن حركته أصعب، أيضاً

(خِفَافاً وَثِقَالاً)

أيها الأخوة، لابد من أن تنفر في سبيل الله بأية حال أنت، أقول لكم هذا مع التوسع أي أنت لا بدّ من أن تسعى إلى مرضاة الله، فقير، غني، صحيح، مريض، طالب علم، غير طالب، تعمل في التجارة، تعمل في الصناعة، متقاعد، بأية حالة أنت ينبغي أن تسعى إلى مرضاة الله، لأن هذا العمل مصيري، معنى مصيري أي متعلق بسعادتك الأبدية، هناك أعمال لا تقدم ولا تؤخر، الإنسان ينجح من السابع إلى الثامن، من الثامن إلى التاسع، من التاسع إلى العاشر، لكن مجموع علاماته في الشهادة الثانوية تحدد مصيره، هناك مجموع تصبح من خلاله طبيباً، إن كان أقل طبيب أسنان، أقل هندسة، أقل صيدلة، أقل بمعمل معين، مجموع العلامات مثلاً نسميه مصيري، يحدد حرفتك بالدنيا، كطالب علم و لا يوجد عندك أموال ورثتها عن أبيك، لابد من أن تدرس، فالدراسة مجموع علاماتك تحدد مصيرك، للتقريب.

كذلك قضية النفور إلى الله، أن تسعى إلى مرضاة الله، أن تطلب العلم، أن تطلب العمل الصالح، أن تسعى إلى عمل يرقى بك عند الله، أن تسعى إلى علم ينور بصيرتك، الإنسان أحياناً يعيش حياة لا يرقى بها إلى مستوى الإنسان.

الإنسان حينما قبل حمل الأمانة كان أفضل المخلوقات :

كلكم يعلم أن الجماد شيء، يشغل حيزاً، وله وزن، وله ثلاثة أبعاد، هذا الجماد، لكن النبات أيضاً شيء، يشغل حيزاً في الفراغ ، وله وزن، وله ثلاثة أبعاد، لكنه ينمو، فرق النبات عن الجماد أنه ينمو، الحيوان شيء يشغل حيزاً في الفراغ، وله وزن، وله ثلاثة أبعاد، وهو ينمو كالنبات، ويضاف إلى نموه أنه يتحرك، الحصان يمشي، الإنسان شيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله وزن، وينمو كالنبات، ويتحرك كبقية المخلوقات، لكنه يفكر، فإن لم يفكر، إن لم يبحث عن الحقيقة، إن لم يلبِ الحاجة العليا في الإنسان، هبط عن مستوى إنسانيته، إلى مستوى لا يليق به.

ينبغي أن تعرف من أنت، أنت حينما قبلت حمل الأمانة في عالم الأزل في قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

أنت حينما قبلت حمل الأمانة كنت أفضل المخلوقات جميعاً، من هنا سيدنا علي رضي الله عنه يقول:" ركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان".

من آمن و شكر حقق الهدف من وجوده :

أيها الأخوة، يجب أن تعرف من أنت، أنت المخلوق الأول لأنك قبلت حمل الأمانة في عالم الأزل، ولما قبلت حمل الأمانة سخر الله لك أيها الإنسان:

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية: 13]

تسخير تعريف، وتسخير تكريم، هذا الكون يعرفك من هو الله، هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، هذا الكون يشف عن كمال الله، يشف عن وحدانية الله، يشف عن وجود الله، هذا الكون هو الثابت الأول، سخره لك تسخير تعريف، تسخير التعريف يقتضي أن تؤمن به، وسخره لك أيضاً تسخير تكريم، وتسخير التكريم يقتضي أن تشكره، دقق الآن فإذا آمنت به، وشكرته، حققت

الهدف من وجودك، وإذا حققت الهدف من وجودك تتوقف فجأة كل المعالجات الإلهية، والدليل قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء الآية: 147]

تسخير التعريف يقتضي منك أن تؤمن، وتسخير التكريم يقتضي منك أن تشكر، فإذا آمنت أو شكرت حققت الهدف من وجودك.

عبادة الله عز وجل علة وجود الإنسان في الدنيا :

أنت قد تسأل لو سافرت إلى بلد أجنبي ببعثة رسمية كي تنال الدكتوراه، وأنت في هذا البلد، وليكن باريس، مدينة عملاقة كبيرة، مترامية الأطراف، فيها المعامل، فيها المصانع، فيها الجامعات، فيها المدارس، فيها الحدائق، فيها المؤسسات، فيها النوادي الليلية، فيها دور اللهو، أنت كطالب لك في هذه المدينة الكبيرة العملاقة هدف واحد، هذا الهدف الواحد نسميه اصطلاحاً علة وجودك، علة وجودك في هذه المدينة نيل الدكتوراه، ليس لك علاقة بالمعامل، ولا بالمسارح، ولا بالحدائق، ولا بالمشكلات، ولا بالسجون، علة وجودك فقط في هذه المدينة أن تنال هذه الشهادة، قس على ذلك، وعلة وجودك في الدنيا أن تعبد الله، قال تعالى بآية قطعية الدلالة:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

العبادة طاعة، خضوع لمنهج الله، هي طاعة لكن هذه الطاعة ليست قسرية، لأن الأقوياء يطاعون قسراً.

الله عز وجل أراد أن تكون العلاقة به علاقة حب لا علاقة إجبار أو قسر :

لكن الله جلّ في علاه ما أراد من عباده أن يطيعوه قسراً، أراد أن يطيعوه اختياراً، فقال:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

أرادك أن تأتيه طائعاً، أراد أن تأتيه محباً، أراد أن تأتيه مختاراً، أراد أن تأتيه بمبادرة منك، أراد أن تأتيه محباً، لذلك

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

بل أراد أن تكون العلاقة به علاقة حب قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة الآية: 54]

إذاً هذا معنى دقيق، علة وجودك في الدنيا أن تعبد الله، والعبادة طاعة لكنها طوعية ممزوجة بمحبة قلبية، فما عبد الله من أطاعه ولم يحبه، وما عبد الله من أحبه ولم يطعه، أساسها معرفة يقينية تنتهي إلى سعادة أبدية، هناك جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي.

مثل للتوضيح: لو إنسان دخل للبيت، وجد الماء في كل غرف البيت، وقد أفسدت هذه المياه الأثاث، فانطلق مسرعاً يبحث عن من يصلح التمديدات، وهو في طريقه للبحث عن إنسان يحل هذه المشكلة، قد يجد في محل شيء جميل، أو قطعة جميلة، أو آلة دقيقة، هو لا يرى شيئاً هو يبحث عن إنسان لإصلاح الخلل الذي أصاب أثاث البيت، هذه الحالة تشبه حالة مؤمن فرّ إلى الله، هدفه أن يعرف الله، هدفه عمل صالح يتقرب به إلى الله، هدفه أن يطلب العلم، هدفه أن يرقى عند الله، كلما كان الهدف كبيراً، والصدق في طلبه عالياً، هذا الهدف الكبير لا يرى أي شيء آخر، هذا معنى قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[سورة المؤمنون]

من يعرف الله يسعى إليه و يطيعه :

اللغو ما سوى الله، لا يوجد عنده وقت للقيل والقال، وإضاعة المال، لا يوجد عنده سهرة فارغة، كلام فارغ، مزاح رخيص، لقاء تقليدي لا يقدم ولا يؤخر، لا يوجد عنده وقت لسقطات الناس، لمجالسهم التي تنتهي بالغيبة والنميمة.

((ما من قوم يقومون من مَجلس لا يَذكرونَ اللهَ فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمارٍ))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، ويذكرون الله تعالى، إلا تنزَّلت عليهم السَّكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عندَه))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن معاوية بن أبي سفيان]

أنت حينما تعرف الله تسعى إليه، وإذا سعيت إليه لا ترى شيئاً آخر إطلاقاً، بل الأشياء كلها تُقيّمها بمدى ارتباطها بهذا الهدف، هدفك واحد أن تعرف الله، أن تطيعه، أن تعبده، أن تدعو إليه، تختار حرفة تعينك على هذا الهدف، تختار بيتاً قريباً من المسجد يعينك على الهدف، تصاحب أصدقاء ترقى بهم عند الله، فعندما يكون الهدف واضحاً الجزئيات تنبع من هذا الهدف.

الهدف الواضح يلهم الإنسان إلى وسائل تعينه على بلوغه :

أخواننا الكرام، الشيء الدقيق أن الله حينما قال:

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الملك]

هناك إنسان يمشي هدفه واضح، الهدف الواضح يلهمك إلى وسائل تعينك على بلوغه، أما إنسان بلا هدف، وهذه مشكلة كبيرة جداً، الناس يعيشون لا يشعر أحدهم أن هناك هدفاً أمامه، لا تجد كلمة تعبر عن إدراك لهدفه إطلاقاً، يعيش بلا هدف، يأكل ويشرب ويستمتع بالحياة، ويهمه ما يهم عامة الناس، يسعى إلى ما يسعى إليه عامة الناس، لا يوجد عنده شيء واضح، مركز، هدف واضح.

مرة ثانية: طالب ذهب إلى بلد أجنبي ليدرس، الهدف واضح جداً –دراسة- فأي صديق يعينه على التكلم باللغة الأجنبية يصاحبه، أي كتاب يعمق له فهمه باختصاصه يشتريه، أي لقاء يثمر قوة في اختصاصه يسعى إليه، الهدف واضح، الوسائل تنبع من هذا الهدف.

أنا كل الذي أتمناه في هذا الدرس إن شاء الله أن يتضح الهدف، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، الآن زواجك، اختيار حرفتك، عملك، وقت فراغك، تربية أولادك، حركتك، حتى أوقات فراغك كيف تمضيها؟ إما في عمل، أو في شيء يقويك، ويقوي إيمانك، ويقوي اتصالك بالله عز وجل.

كلمة

(خِفَافاً وَثِقَالاً)

من إعجاز القرآن الكريم :

لذلك هذا معنى قوله تعالى:

(انْفِرُوا خِفَافاً)

نشيطين، أو

(ثِقَالاً)

متباطئين، لكن انفروا، شاب أول حياته، إنسان متقدم بالسن، هذا خفيف، وهذا ثقيل، انفروا لقلة عيالكم، لا يوجد عنده أولاد

(خِفَافاً)

انفروا

(ثِقَالاً)

عندكم أولاد، انفروا شباباً، انفروا شيوخاً، انفروا راكبين، انفروا مشاة، انفروا بسلاح أو من دون سلاح، انفروا في مقتبل العمر أو في مؤخرة العمر، هذا الكلام

(خِفَافاً وَثِقَالاً)

جامع مانع، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، كلمة

(خِفَافاً وَثِقَالاً)

ينضوي تحتها مئات المعاني، أي انفروا في كل حال.

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

[سورة آل عمران الآية: 191]

هناك ثلاث حالات، إما أنك واقف، أو مضجع، أو جالس، لا يوجد حالة رابعة، إذا قال الله عز وجل:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

أي يذكرون الله دائماً بكل أحوالهم،

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً)

أنواع الجهاد :

1 - جهاد النفس و الهوى :

الآن:

(وَجَاهِدُوا)

الجهاد فيه بذل جهد، والجهاد أيها الأخوة كلما ذكره بعضهم لا يفهم منه إلا الجهاد القتالي، مع أن هناك أنواعاً كثيرة من الجهاد غير القتالي، أو جهاد النفس والهوى.

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

[سورة الحج الآية: 78]

رجعنا من الجهاد الأصغر- القتال- إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى، هذا الجهاد الأساسي، تماماً كالتعليم الأساسي، الجهاد الذي لا يسبقه جهاد، المهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، الجهاد الأول: جهاد النفس والهوى،

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)

[سورة العنكبوت الآية: 69]

الجهاد النفسي، غض البصر جهاد، ضبط اللسان جهاد، تقصي الحلال جهاد، عمل دخله فلكي كبير لكنه لا يرضي الله، وهناك عمل دخله أقل بكثير لكنه يرضي الله، هذا جهاد، فالجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى، والآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت]

هذا أول جهاد؛ جهاد النفس والهوى، هذا الجهاد الأساسي، هذا الجهاد الذي لا يسبقه جهاد، هذا الجهاد الذي لا بدّ منه، والمهزوم أمام نفسه في هذا الجهاد لا يستطيع أن يواجه نملة، وانتهى الأمر.

2 ـ الجهاد الدعوي :

عندنا جهاد آخر: جهاد دعوي ما دليله؟ قوله تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

الهاء تعود على القرآن الكريم:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: 52]

فأن تتعلم القرآن وأن تعلمه هذا جهاد، أن تطلب العلم وأن تعلمه جهاد، أن تحضر درس علم هذا جهاد، لذلك طالب العلم تصلي عليه الملائكة في السماء والحيتان في البحر.

((وَمَن سلكَ طريقا يَلْتَمِسُ فيه عِلْما سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طريقا إلى الجنَّةِ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

طلب العلم جهاد لكن من نوع آخر، والدليل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ـ بالقرآن ـ جِهَاداً كَبِيراً)

صار عندنا الجهاد النفسي الأساسي الذي لا بدّ منه، جهاد النفس والهوى، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى.

والجهاد الدعوي،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

فالذي يدعو إلى الله فهو في جهاد.

3 ـ الجهاد البنائي :

عندنا جهاد بنائي، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

الإنسان عندما يتقن صناعته، بهذه الصناعة الوطنية التي بذلت للناس بسعر معتدل، واستغنينا بها عن الاستيراد، هذا قدم لأمته شيئاً عظيماً، هذا جهاد بنائي، كل إنسان إذا أتقن عمله هو في جهاد بنائي، وآيته الدقيقة والآية الأصل في هذا الموضوع:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

أحياناً هناك بعض الأجهزة المعقدة في المعامل، هذا الجهاز متعلق بالكومبيوتر، يصاب بالعطب، إصلاحه بالملايين، أعرف إنساناً في محافظة في بلدنا الطيب استطاع أن يكتشف طريقة إصلاح هذا القسم من المعمل، فبدل الملايين المملينة، والتأخر لمدة شهر أو شهرين، يصلحه هنا في سوريا، وبسعر معقول جداً، هذا وفر على الأمة ملايين مملينة من إصلاح هذه القطعة الخطيرة جداً في المعمل، هذا جاهد، مسلم، وفر نقدنا الثمين، وفر حاجتنا الأساسية.

4 ـ الجهاد القتالي :

صار عندنا جهاد نفسي جهاد النفس والهوى، و جهاد آخر جهاد دعوي تعلم القرآن وتعليمه، و جهاد ثالث بإتقان عملك إتقاناً بالغاً هو جهاد بنائي، فإذا نجحنا في الجهاد الأول جهاد النفس والهوى، وفي الجهاد الثاني الجهاد الدعوي، وفي الجهاد الثالث الجهاد البنائي، ينتظر أن ننجح في الجهاد الرابع هو الجهاد القتالي

فالجهاد بين أن يكون بنائياً، وبين أن يكون دعوياً، وبين أن يكون نفسياً، وأما الجهاد القتالي فحينما نحقق النجاح في الأنواع الثلاثة فالمرجح والذي يغلب على الظن أننا ننجح في الجهاد الرابع وهو الجهاد القتالي، إذاً:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

علامة علم الإنسان أن ينفر إلى الله :

طبعاً إلهنا، وربنا، هو الخبير، هو الخالق، هو المسير، هو الرب، يقول:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أي علامة علمكم أنكم تنفرون إلى الله:

(خِفَافاً وَثِقَالاً)

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

[سورة التوبة]

الأشياء القريبة من الإنسان يقبل عليها، نزهة، مكسب معين،

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ)

مثلاً أنا أذكر أن إنساناً توفي رحمه الله، إذا قرأ الإمام بالركعة الأولى بالفجر آيتين زيادة عن الصفحة تقوم الدنيا ولا تقعد، دائماً يتابع الإمام على قراءته، يقول له: أطلت، فمرة إنسان استوقفه أكثر من ساعتين على الواقف بأمور التجارة، أمور شراء البيوت وبيعها، لم يتكلم أي كلمة، لم يشعر بالوقت، ما دام الموضوع متعلقاً بالتجارة، والصناعة، وأرباحه، ومكاسبه، واقف على الواقف، والجو بارد، والوقت شتاء، إذا الإمام قرأ آية زيادة عن الصفحة تقوم الدنيا ولا تقعد.

عظمة هذا الدين أن كل الوعود التي وعدنا الله بها تكون في الحقيقة بعد الموت :

أنا أقول: القضية إذا كانت متعلقة بالدنيا الوقت مبذول لها من دون قيد أو شرط، وإذا كان الأمر متعلقاً بالآخرة يقولون: اسمح لنا لقد تأخرنا، اجلس جلسة الحديث فيها عن التجارة، أو الصناعة، أو المكاسب، أو المشاريع، تجد الكل يجلس و يتابع الحديث، أما إذا كان الحديث عن الدين، فيقولون لك: اسمح لنا تأخرنا، عندما تكلمت بالدين اسمح لنا، لأن هذا الموضوع خارج اهتمامه، هذا معنى الآية:

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً)

أي تجارة مربحة، منصب رفيع، نزهة رائعة، رحلة ممتعة، أشياء قريبة، تلبي حاجة الإنسان المادية، سهرة لطيفة مثلاً، وإذا الإنسان له معصية - والعياذ بالله - يحبذها.

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ)

هذه لبعد الموت، عظمة هذا الدين أن كل الوعود التي يعدك الله بها هذه تكون في الحقيقة بعد الموت، أما في الحياة فهناك متاعب.

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله در بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

إذاً

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ)

موضوع الموت كفكرة وارد في حياة الإنسان أما كحقيقة فبعيد عن حقيقته :

أخواننا الكرام، لذلك الإنسان بحياته موضوع الموت كفكرة وارد، أما كحقيقة فبعيد عن حقيقة الموت، كل إنسان ساكن ببيت، عنده زوجة وأولاد، له عمل، له دخل، أما مغادرة الدنيا من البيت إلى القبر، من أولاد إلى القبر، من زوجة إلى القبر، من أحفاد يملؤون البيت فرحة إلى القبر، من نزهات إلى القبر، من اجتماعات إلى القبر، من مظاهر الدنيا إلى القبر، فموضوع القبر شيء مخيف.

ورد في بعض الآثار:

((أن الميت حينما يوضع في القبر ينادى أن عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت))

أخواننا الكرام، إن روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي! يا ولدي! لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة عليّ، ونفس محمد بيده ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا وجد أن العبد قد انقضى أجله، وانقطع رزقه، ألقى عليه غم الموت فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثوبها، فيقول ملك الموت: ممَ الفزع؟ وفيمَ الجزع؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً، فو الذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه، لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم.

العاقل من أعدّ لساعة الموت عدتها :

يقول لك الإنسان: مسكين مات! أنت ألست مسكيناً؟ أنت ألن تموت؟ مسكين مات! صدق ولا أبالغ الموت كفكرة سهل جداً، أما أن تعيشه بتعبير دارج عندما تأتي قضية متعلقة بالقلب واحتمال الموت قائم، ينسى حليب أمه، الموت شيء مخيف، موت للقبر، وأنا أنصح كل إنسان أراد أن يتعظ رأى جنازة، ولو لم يكن له علاقة بالميت اتبع هذه الجنازة، النعش موضوع، يفتح النعش، يحمل الميت، يوضع في القبر ، توضع البلاطة، يهال التراب عليه، انتهى، عظم الله أجركم، ساكن ببيت أربع وصالون، هو عمل الجبصين، هو اشترى الثريات، هو اشترى السجاد، هو نظم البيت، هو اختار الأثاث.

أنا أحياناً أكون في تعزية ببعض الأحياء الغنية جداً، أحضر، أقول: من اشترى الثريات؟ المرحوم حتماً، من عمل الجبصين واختاره بهذا الشكل؟ المرحوم، من اشترى هذا السجاد؟ المرحوم، من صمم هذا البيت؟ المرحوم، أين المرحوم؟ هل هناك واحد من الحاضرين وأنا معكم يستطيع ألا يموت؟ يستطيع الواحد منا وأنا معكم أن يستيقظ كل يوم مثل اليوم السابق دائماً؟ مستحيل! مثلاً عنده مشكلة بالقلب، يذهب إلى المستشفى، عدة أيام يضعون نعوته، هذا ينتظرنا جميعاً، الله يمد بأعماركم، لكن سنموت كلنا، لابد من الموت، لكن من هو البطل؟ من هو العاقل؟ من هو الذكي؟ الذي يعد لهذه الساعة عدتها.

أنا أعرف إنساناً -والله لا أبالغ لأن القصة قد لا تصدق- بأول بناء، بأرقى أحياء دمشق كان له بيت مساحته خمسمئة متر، أكبر بناء، ابنه صديقي زرته، شيء مثل الخيال، قسم شرقي، قسم غربي، أناقة الأثاث، عنده تحف، التحفة ثمنها بالملايين، هذا توفي في أيام مطيرة في دمشق، وأنا طبعاً كون ابنه صديقي، كنت في الجنازة، القبر الذي يدفن به فيه مياه سوداء، فلتت مياه المجاري على هذا القبر، فسألوه؟ قال: ضعوه ماذا نفعل؟ أنا لا أنسى هذا الموقف، إنسان بهذه الأناقة، وبهذا الغنى، وبهذا الرقي، هنا يدفن؟ هذا الذي حصل.

بطولة الإنسان أن يخطط لمعرفة الله وللاستقامة على أمره :

البطولة أن تعد لهذه الساعة، هذا القبر قد يكون روضة من رياض الجنة، وقد يكون حفرة من حفر النار، فكل بطولتك لساعة الموت، أنت مع من؟ المؤمن يعرق - هكذا ورد في بعض الآثار- قال: لأنه يرى مقامه في الجنة، فيستحي من الله، وغير المؤمن -والعياذ بالله-يرى مكانه في النار، فهذا الشيء الذي سيأتي ينبغي أن نعيشه قبل أن يأتي، البطولة أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

أخواننا الكرام، الآية الكريمة:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أما إن كانت القضية قضية تجارة، وظيفة، رحلة إلى أوربا، فهي مكسب:

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

البطولة أن تخطط، لأنك إن لم تُخطِط يُخطَط لك، أن تخطط لمعرفة الله، للاستقامة على أمره، ولعمل صالح تتقرب به إلى الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (36-70) : تفسير الآيات 43 - 47 ، الإخلاص في العمل يكشف نية المخلص من المنافق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-01-21

بسم الله الرحمن الرحيم

النبي الكريم معصوم بمفرده من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره و صفاته :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والأربعين وهي قوله تعالى:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

أولاً أيها الأخوة، لابد من بعض الحقائق أضعها بين يدي هذه الآيات، الحقيقة الأولى أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وصفاته، بينما أمته معصومة بمجموعها، الفرق كبير، معصوم بمفرده من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره.

مثلاً: أحد أصحاب النبي توفاه الله عز وجل، اسمه أبو السائب، ومن عادة النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا مات أحد الصحابة كان يذهب إلى بيته قبل تشييعه، سمع امرأة تقول من وراء الستر: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، لو سكت النبي عليه الصلاة والسلام لكان كلامها صحيحاً، سكوت النبي إقرار، قال لها: وما أدراك أن الله أكرمه؟ قولي: أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

إذاً النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وفي صفاته، بينما أمته معصومة بمجموعها.

((لا تجتمع أمتي على ضلالة))

[أخرجه الطبراني عن أبي بصرة الغفاري]

مثلاً: يصدر كتاب لا أحد يتكلم بكلمة، طُبع، ونُشر، وقُرئ، سكوت الأمة عن هذا الكتاب اسمه إجماع سكوتي، بينما كتاب آخر حينما صدر قامت الدنيا ولم تقعد، إذاً هناك إجماع كلامي.

الحكمة من عصمة النبي عليه الصلاة و السلام :

أما لماذا كانت إرادة الله أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام معصوماً بمفرده، في أقواله وأفعاله وإقراره وصفاته؟ لأن الله أمرنا أن نأخذ عنه، والآية الكريمة:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر الآية: 7]

أمرنا أن نأخذ عنه، نأخذ من أقواله، وأن نتأسى بأفعاله.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

[سورة الأحزاب]

وأن نسعد بصفاته.

الحكمة من أن النبي صلى الله عليه وسلم سُمح له بهامش اجتهادي ضيق جداً :

ولكن في بعض الآيات يشم منها أنه غير معصوم:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

[سورة عبس]

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

فكيف نوفق بين هذه الحقائق المطلقة التي أجمع عليها العلماء وبين بعض الآيات التي تشير إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان ينبغي أن يفعل غير الذي فعله؟ قال العلماء وهذا كلام دقيق جداً: سُمح للنبي صلى الله عليه وسلم بهامش اجتهادي ضيق جداً، الآية الأساسية:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

هناك وحي متلو، هو القرآن الكريم، وهناك وحي غير متلو، هو كلام سيد الأنبياء والمرسلين، نحن أمام وحيين، أمام وحي متلو هو القرآن الكريم، وأمام وحي غير متلو هو أقوال النبي عليه أتمّ الصلاة والتسليم، لكن للتصحيح: وحي متلو هو القرآن الكريم الذي هو قطعي الثبوت، ووحي غير متلو هو ما صحّ من أقواله النبي، لأن أقوال النبي عليه الصلاة والسلام ليست في مجملها قطعية الثبوت، هناك أحاديث ضعيفة، و أحاديث موضوعة، القرآن قطعي الثبوت، أما السنة فظنية الثبوت، لذلك سخر الله لهذه الأمة علماء كبار، جهابذة عكفوا على سنة النبي عليه الصلاة والسلام ومحصوها، ودرسوها، حتى إنه في أمتنا الإسلامية علم ليس له وجود في أية أمة أخرى، اسمه علم الجرح والتعديل، علم الرجال الذين نقلوا عن سيد الأنام.

الله تعالى أراد أن يكون هناك فرق بين مقام الألوهية المطلق وبين مقام البشرية :

إذاً في بعض الآيات كهذه الآية:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

رأي العلماء وهو رأي دقيق وصائب، أنه ترك للنبي عليه الصلاة والسلام هامش اجتهادي، فإن اجتهد النبي وأصاب أقره الوحي على ذلك، وصار كأنه وحي، وإن ترك ما ينبغي أن يقوله جاء الوحي وصحح له كهذه الآية، وكآية:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى)

لماذا؟ ليكون هناك فرق بين مقام الألوهية المطلق وبين مقام البشرية، لولا هذا الهامش الاجتهادي، ولولا أن الوحي في بعض الآيات صحح للنبي عليه الصلاة والسلام لكان كلام النبي مطلقاً، ومعنى مطلق أنه ربما يؤله بعد حين، لذلك أراد الله أن يكون هناك فرق بين مقام الألوهية المطلق، وبين مقام البشرية.

أخواننا الكرام، مثلاً: لو قاض أصدر ألف حكم بحياته، حكم واحد لم يكن دقيقاً، لا أقول: ما كان عادلاً، ما كان دقيقاً، هو عند أهل الأرض قاضٍ عادل، لو عشرة أحكام من ألف لم تكن هذه الأحكام دقيقة يسمى عند أهل الأرض قاضياً عادلاً هذا في شأن الإنسان، أما في شأن الواحد الديان فلو أنه ظُلم عصفور واحد في تاريخ البشرية من آدم إلى يوم القيامة لا يكون الله عادلاً.

يقول بعض العارفين بالله: والله لو تشابهت ورقتا زيتون لما سميت الواسع.

لا يستطيع أي إنسان أن يثبت عدل الله بعقله إلا أن يكون له علم كعلم الله وهذا مستحيل :

مرة كنت أمشي في بعض أسواق دمشق خرج من محله التجاري أخ كريم واعترضني، وقال: أنت خطيب؟ قلت له: نعم، قال: هذا الذي جاء إلى محله التجاري في أحد أسواق دمشق ليبيع ويشتري، ويكسب رزق أولاده، وزاد على ذلك قال لي: العمل أليس عبادة؟ قلت: بلى عبادة، قال لي: سمع صوت إطلاق نار مدّ رأسه فإذا رصاصة تصيب عموده الفقري فانشل فوراً، فما ذنب هذا الإنسان؟ لم يرتكب معصية، لم يأكل مالاً حراماً، لم يفعل شيئاً، سمع صوت إطلاق نار، مدّ رأسه فجاءت رصاصة وأصابت عموده الفقري فأصبح مشلولاً، قلت: والله لا أعلم! طبعاً يستحيل على عقلك أن يثبت عدل الله، لكن عدل الله جاءك بإخبار الله قال:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

[سورة الكهف]

فأنا أصدق عدالة الله لا من خلال عقلي بل من خلال إخبار الله لي، الآن الشيء الظاهر هناك شعوب إسلامية فقيرة جداً، حروب، ونكبات، وزلازل، وفقر، وشعوب تعيش حياة دنيوية تفوق حدّ الخيال،

وكل حياتها معاص، وآثام، كلام دقيق أقوله لكم: لا تستطيع أن تثبت عدل الله بعقلك، إلا بحالة مستحيلة أن يكون لك علم كعلم الله، وهذا مستحيل.

فأنا حينما قال لي هذه القصة، قلت: والله أنا أؤمن أن الله عادل، أنا هذه القصة لا أعرف تفاصيلها، لكن لحكمة بالغة بالغة أحد أخواننا الكرام مرة كان ماشياً معي، قال لي: لنا جار ساكن فوقنا، في أحد أحياء دمشق، هذا الجار تحت يده بيت لأولاد أخيه اليتامى، وبقوا ثماني سنوات يطالبونه بالبيت و لم يرضَ أن يعطيهم إياه، بعد أن يئسوا من يأخذوا حقهم من عمهم اشتكوا إلى أحد علماء دمشق، كان شيخ القراء الشيخ حسين الخطاب اشتكوا له، وجمع هذا الشيخ الكبير هذا العم مع أولاد أخيه، ورفض رفضاً قاطعاً أن يعطيهم البيت بوقاحة، فقال الشيخ لأولاد لأخيه: لو أنكم شكوتم عمكم إلى القضاء هذا لا يليق بكم، اشكوه إلى الله، الساعة التاسعة صباحاً قال لي: عنده محل بسوق مدحت باشا، سمع إطلاق رصاص، مدّ رأسه ليرى ما الخبر فجاءت رصاصة واستقرت في عموده الفقري، القصة نفسها، أنا والله اقشعر بدني، قلت: يا رب! وقتها أنا ما عرفت السبب.

قلت: أكثر الأخوة الكرام يحفظون مئتي قصة من آخر فصل ليس لها معنى، أنصحك ألا ترويها، وأنت بحياتك تعرف عشر قصص فقط من أول فصل، هذه القصص التي من أول فصل تقشعر منها الأبدان.

فقال لي أخ مقيم بحلب: هناك رجل له قصة كهذه القصة تماماً، استولى على بيت لأولاد أخيه الأيتام وهو في قبضته، من عشر سنوات يرفض إعطاءهم البيت، فجأة اتصل بالمحامي وقال له: أفرغ لهم البيت، المحامي استغرب قال له: ما الذي حدث؟ أنت مصر ألا تعطيهم البيت، قال له: سمعنا البارحة قصة بالقدس تخوف، هي نفس القصة التي رويتها قبل قليل.

عدل الله عدل مطلق :

أخواننا الكرام، أنا أؤمن أن عدل الله مطلق ولو لم يكن معي دليل على قصة سمعتها من آخر فصل، فعلينا أن نعرف كل قصة من أول فصل إلى آخر فصل حتى نرى عدل الله المطلق.

لذلك هذا يعلمنا أنه يستحيل على عقلك أنه يدرك عدل الله عقلاً إلا بحالة واحدة مستحيلة أن يكون لك علم كعلم الله، لكن الله أخبرك قال:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر الآية: 17]

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء]

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

آيات كثيرة، وأحاديث أكثر تؤكد عدل الله المطلق، لكن نحن علمنا محدود، لو أن لنا علماً كعلم الله لكشفنا عدله المطلق بعقولنا، أما إننا لا نعلم علم الله عز وجل فأخبرنا ربنا فقال:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

((يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّما، فلا تَظالموا))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

قبول النبي الكريم أعذار المنافقين الذين تخلفوا عنه :

إذاً:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

أراد الله أن يسمح لنبيه الكريم بهامش اجتهادي، بهامش اجتهادي ضيق، فإذا اجتهد النبي وأصاب سكت الوحي، وبهذا السكوت أقره على اجتهاده، أما إذا استخدم النبي اجتهاده ولم يكن التصرف كما يريد الله عز وجل فيأتي الوحي ويصحح له، هذا التصحيح أظهر الفرق بين مقام الألوهية المطلق وبين مقام النبوة، النبي بشر.

((اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر وأرضى كما يرضى البشر))

[أخرجه الطبراني عن أبي الطفيل عامر بن واثلة]

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

إذاً:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

المنافقون قبيل بعض المعارك استأذنوا النبي ألا يكونوا معه، وقدموا أعذاراً كثيرة، والنبي قَبِل أعذارهم،

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

لو أنك لم تأذن لهم تخلفوا عنك:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

أما استأذنك وقدم لك عذراً، فأنت قبلت هذا العذر، وأذنت له، بقي عند المجموع مؤمناً لكن استأذنك:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

لكن الله عز وجل يقول:

(لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة]

لو فرضنا أسرة فيها خمسة أشخاص، فيها شابان، والبيت يحترق، فقال هذا الشاب لأبيه: عندي محاضرة في الجامعة، أتسمح لي؟ البيت يحترق! فهذا الاستئذان مرفوض، الاستئذان مرفوض أصلاً:

(لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

من لم يبكِ لما يصيب المسلمين فبإيمانه ضعف :

واسمحوا لي أن أقول لكم: الآن والله إن لم تبكِ لما يصيب المسلمين في بقاع الأرض فبإيمانك ضعف، أناس يقتلون، يموتون من الجوع، يعذبون، ينكل بهم في بلاد متعددة من بلاد المسلمين، وأنت ليس لك علاقة، مرتاح.

أحياناً أنا أرى بعض الأخوة الكرام أنهم ألغوا الاحتفال، هناك أخوة لنا يموتون من الجوع، يقتلون، يذبحون في فلسطين، في أفغانستان، في العراق، كل هذه أمامكم، مليون قتيل بالعراق، ومليون معاق، وخمسة ملايين مشرد، وأنت ليس لك علاقة؟! مسلمون، بأفغانستان قصفوا قلعة قتلوا بها خمسة آلاف إنسان، وإذا سقطت طائرة بفعل عمل معين دفعوا بعض الأقوياء مبلغاً يقدر بمئتين و سبعين مليار دولار، أي دية كل راكب خمسمئة مليون ليرة سورية، إذا قُتل واحد منه تقوم الدنيا ولا تقعد.

جاءنا مرة مسؤول كبير أمريكي، رئيس جمهورية سابق، برنامج زيارته؛ زيارة دمشق، وتل أبيب، ورام الله، وهناك بند رابع، ما هو؟ زيارة أسرة الأسير الإسرائيلي، نحن لنا عند اليهود أحد عشر ألفاً وثمانمئة أسير، ما خطر ببال هذا المسؤول الكبير الحضاري أن يزور أسرة واحدة بالمقابل، نحن ألسنا بشر؟ أسير واحد، عند الفلسطينيين يأتي رئيس جمهورية من بلد بعيد برنامج زيارته ثلاث مدن؛ دمشق، تل أبيب، رام الله، والبند الرابع: زيارة أسرة الأسير الإسرائيلي و أحد عشر ألفاً وثمانمئة أسير؟.

الله عز وجل يمتحن عباده امتحانات دقيقة جداً :

لذلك أيها الأخوة الكرام:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 119]

أكبر خطأ وقع به المسلمون أنهم ظنوا أن أهل الغرب منصفون، ليسوا منصفين إطلاقاً:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

لذلك جاءت الآية التي تليها:

(لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

أذكر زلزالاً وقع في القاهرة أن الأطباء فُرزوا، بعضهم ذهب إلى الإسكندرية وترك المرضى بالمئات، وبعضهم داوم بالمستشفى أربع وعشرين ساعة، هذا الزلزال أيضاً فرز الناس .

والله عز وجل يمتحن عباده امتحانات دقيقة جداً، وكل إنسان يظهر على حقيقته، إنسان داوم أربع وعشرين ساعة حتى يلبي حاجة الناس المصابين، وإنسان ترك وذهب وأراد أن ينجو بنفسه.

(لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

لا تصاحب من لا يرقى بك إلى الله حاله ويدلك على الله مقاله :

أنت أحياناً تشاهد مشهداً مأساوياً ببلد إسلامي محتل، تبكي، البكاء حالة جيدة، هذا معناه أنك تحس بالانتماء لهم، تُساعد بجهدك، أحياناً بمالك، أحياناً بالدعاء، هناك حركة، و ألم، و بكاء، و مساعدة بجهدك، بعضلاتك، بمالك، أحياناً تدعو لهم أن ينتصروا، أما ليس لك علاقة إطلاقاً فهذا مؤشر خطير جداً أنك لا تنتمي لهذه الأمة.

(إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

[سورة التوبة]

لو كان أمامك قطعة ألماس، رأيت هذه القطعة في متحف بتركيا، ثمنها مئة وخمسون مليون دولار، حجمها يقترب من الجوزة، وهناك كأس جيد جداً ثمنه ألف ليرة، و وعاء بلور ثمنه عشرون ليرة، وقال لك إنسان: اختر، أنا أعرف فهمك وتفكيرك ومعلوماتك من اختيارك، قلت: هذا وعاء كبير أخذت الكبير، ثمنه عشرون ليرة، أما هذه الألماسة فثمنها مئة وخمسون مليون ليرة، فكلما اخترت الشيء النفيس تكون أنت النفيس.

أحياناً إنسان يغوص بالبحر يخرج أصدافاً ليس لها قيمة إطلاقاً، وإنسان غواص يخرج معه اللآلئ، الفرق كبير بين اللآلئ والأصداف، لذلك أنت حينما تنشغل عن النفيس بالخسيس تكون مع أهل اللهو، والدنيا فيها أشياء نفيسة جداً، فيها أن تعرف الله، فيها أن تعرف منهجه، فيها أن تستقيم على أمره، فيها أن تعمل عملاً صالحاً يرقى بك عند الله، هذه أشياء نفيسة، وقد تستمتع بالدنيا، أنت اجلس جلسة من جلسات الناس، الحديث أحياناً عن الأسعار، أحياناً عن الخضروات، وإذا المستوى هابط يكون الحديث عن النساء، وأحياناً بالسياسة، لا وجد حديث دسم يرقى بك.

لذلك: لا تصاحب من لا يرقى بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله، صاحب إنساناً يرقى بك حاله، ويدلك على الله مقاله، صاحب مثل هذا.

الخاسر لا يدخل الآخرة في حساباته إطلاقاً :

(إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

أي الآخرة ليست داخلة في حساباته، ورد:

((ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا وجد أن الإنسان قد انقطع رزقه، وانقضى أجله، ألقى عليه غم الموت، فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثوبها، والصارخة بويلها، يقول ملك الموت: مم الفزع؟ وفيمَ الجزع؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، ولي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحدا فو الذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه، لذهلوا عن ميتهم وبكوا على أنفسهم))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

وفي أثر آخر:

((أن روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي! يا ولدي! لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة عليّ))

القضية خطيرة، والقضية مصير أبدي، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها.

الذكي هو الذي يعيش حدث الموت و يستعد له بمعرفة الله وبطاعته :

لذلك قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

[سورة الملك الآية: 2]

لماذا قدم الموت على الحياة مع أن الحياة أول ثم الموت؟ قال: هذا تقديم رتبي لا تقديم زمني، لأن الإنسان حينما يعيش أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى، يا ترى غني أم فقير؟ وسيم أم دميم؟ إنسان زوجته حامل يا ترى حامل بذكر أم أنثى؟ يكون غنياً أم فقيراً؟ قوياً أو ضعيفاً؟ عالماً أم جاهلاً؟ شقياً أو سعيداً؟ لكن الموت كما قال عليه الصلاة والسلام :

((فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[الجامع الصغير عَنْ حَمْزَةَ بْن حُمْرَانَ]

ميت بالنعش، إما إلى الجنة، أو إلى النار، من هو الذكي؟ هو الذي يعيش هذا الحدث حدث الموت،

يستعد له بمعرفة الله، يستعد له بطاعته، يستعد له بطلب العلم، يستعد له بحضور دروس العلم، يستعد له بإقامة الإسلام في البيت، وإقامته في العمل، هكذا يستعد الإنسان للموت:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

كل إنسان مكشوف عند الله عز وجل :

ثم قال تعالى:

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

[سورة التوبة]

مرة إنسان - قصة قرأتها قديماً - رأى رجلاً يصلي قاعداً في المسجد، سأل عنه، يبيع أوعية للماء في دكانه، الدكان عالية جداً وفيها سلم، زاره في الدكان، قال له: بالله عليك أريد هذا الوعاء، نصب السلم وصعد بنشاط مذهل، أنزله، قال له: عفواً ليس هذا هو، الذي بجانبه، صعد مرة ثانية، مرة ثالثة، مرة رابعة، مرة خامسة، أجبره أن يعمل نصف ساعة، طالع نازل، لا يوجد به شيء ويصلي على القاعد! في نشاطه التجاري بأعلى درجة من النشاط و في المسجد يصلي قاعداً، فالإنسان ينكشف عند الله عز وجل :

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ)

البارحة فلان لم تكن في الدرس، والله قبل الدرس بربع ساعة جاءني صديق استحيت منه، أكثر الأخوة الكرام إذا جاءهم أخ قبل الدرس يأتون به إلى الدرس، فينتفع، وقد يبقى في الدرس طوال حياته، هذا ليس عذراً، أنا والله عندي موعد لا أستطيع، الذي يريد أن يحضر يحضر لكن لأتفه سبب يقول لك لم أتمكن من الحضور:

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

من هم القاعدون؟ النساء والأطفال.

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ـ فساداً ـ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

[سورة التوبة]

أي النميمة والغيبة أسرعت فيما بينكم، هذه الآيات التي بين أيدينا تصف حال بعض المنافقين.

من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة :

سأقول لكم كلاماً دقيقاً، يقول بعض التابعين: اجتمعت بأربعين صحابياً من أصحاب رسول الله، ما منهم واحد إلا ويظن نفسه منافقاً من شدة خوفه من الله، أقول لك : هناك حالات جاءت في وصف المنافقين تجدها عند بعض المؤمنين، أنا أقول: مؤمن ورب الكعبة، عنده أمراض خفيفة، فحينما يصف الله لنا المنافقين الهدف أن نراقب أنفسنا، أين أنت من هذه الآية؟ هل الأمر كذلك؟ أمر الله عظيم عندك أم ممكن لأسباب بسيطة جداً أن تعتذر منه؟ هذا الذي أتمنى أن يكون واضحاً

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ـ أي فساداً وشراً ـ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

أحد الناس إذا وجد صديقه ينفق ماله في سبيل الله، يقول له: احرص على قرشك الأبيض ليومك الأسود، قد يُتهم بعقله، وأنا أقول - وأقولها أمامكم وأخاطب الشباب بالذات-: والله ما من شاب دون استثناء يبتغي وجه الله، ويستقيم على أمر الله، أنا أقول لست متفائلاً بل موقناً أن له عند الله مستقبلاً كبيراً، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، تريد نهاية مشرقة؟ ينبغي أن يكون لك بداية محرقة، وأنت شاب، وصدق ولا أبالغ الإنسان الذي تقدم في السن، وقد عرف الله، لا يغبط إلا شاباً في أول حياته، يا ليت هذا الشاب يعرف الذي يعرفه من بلغ السبعين، لأمضى وقته كله في طاعة الله، وقته كله في طلب العلم، وفي الإنفاق. الإنسان الذكي والموفق هو الإنسان الذي يأخذ خبرات من تقدمه بالسن، وينتفع بها وهو في بداية حياته.

من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها :

كلام ملخص: لا يوجد إلا الله، وأي عمل تبتغي به مرضاته يأتيك عليه في الدنيا قبل الآخرة مليار ضعف، أنا أعلم علم اليقين أن الشاب إذا أقبل على الله، وأخلص له، واتقى أن يعصيه، فله مستقبل كبير، كبير جداً، وهذا والله لا يتأخر عن أي إنسان، أنت من تعامل؟ أنت تعامل إله، بيده كل شيء، الصحة بيده، الزواج الناجح بيده، الرزق الوفير بيده، السمعة الطيبة بيده، السعادة بيده، كل شيء بيده .

لذلك: اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، ومن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها.

((مَنْ كانَتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعل الله غِناه في قلبه، وجمع عليه شَمْلَهُ، وأتَتْهُ الدنيا وهي راغِمَةٌ، وَمَنْ كانت الدنيا هَمَّه، جعل الله فقْرَه بين عينيه، وفرَّق عليه شَمْلَهُ، ولم يأتهِ من الدنيا إلا ما قُدِّر له))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (37-70) : تفسير الآيات 48 - 51 ، علامات المؤمن والمنافق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-01-28

بسم الله الرحمن الرحيم

النفاق حالة موجودة قائمة وواقعة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والأربعين وهي قوله تعالى:

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

الحقيقة أن هذه السورة -سورة التوبة- في معظمها تتحدث عن فئة ممن ينتمي إلى الإسلام، ليسوا مؤمنين كما ينبغي، وليسوا كفاراً، ولكنهم منافقون، فالنفاق حالة موجودة، قائمة، واقعة، يظهر شيئاً، ويخفي شيئاً، سريرته ليست كعلانيته، وباطنه ليس كظاهره، وخلوته ليست كجلوته، هناك موقف مزدوج، شيء معلن، شيء مبطن، شيء ظاهر، شيء باطن، شيء مسموح أن يقوله، شيء خفي عن أن يقوله، هذه الحالة مرضية:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

[سورة البقرة الآية: 10]

المرض قال عنه علماء التفسير: حب الدنيا، هذا الحب حمله على أن ينافق، فيريد أن يأخذ ميزات المؤمنين مع ميزات الكافرين معاً، هناك مؤمن واضح، وهناك كافر واضح، إنسان رفض هذا الدين ولم يعبأ به، الكافر واضح، الكافر لا يغش أحداً، الكافر علانيته تكشف حقيقته، يقول لك: أنا لا أؤمن بالأديان كلها، الكافر من الصعب بل من المستحيل أن يستطيع أن يضل أحداً، هو ضال مكشوف، لكن الخطورة في المنافق، والنفاق حالة تتحرك بين الكفر وبين ضعف الإيمان، هناك منافق حمله نفاقه إلى أن يكون كافراً، وهناك منافق غلبته شهوته فأظهر شيئاً وأخفى شيئاً، وهذا واضح جداً في أوائل سورة البقرة.

صفات المؤمن و المنافق :

لكن الآية اليوم في التوبة:

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ)

الحقيقة الفتنة خروج ما في النفس، فلان فُتن، أي بنفسه شيء لا يرضي الله، هذا الشيء امتحنه الله به فكشف.

بالمناسبة الله عز وجل من خصائص الدنيا:

((إنها دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

الإنسان حينما يقرأ الآيات المتعلقة بالمنافقين وهي موجودة في القرآن الكريم في أكثر من سورة، الحقيقة الموقف الكامل من الآيات أن نعرف صفات المنافقين كي نبتعد عن هذه الصفات، وأن نعرف صفات المؤمنين كي نقبل على هذه الصفات، فهذا الدرس له أثر سلبي، وله أثر إيجابي، الأثر الإيجابي أن تعرف هذه الصفات، فتبتعد عنها رجاء أن تكون مع المؤمنين، فالمنافق يحب الفتنة، يحب أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، يسعى إلى ذلك، المنافق يحب ضعف المؤمنين.

أنا أقول لك كلمة دقيقة جداً: ما الذي يسعدك؟ إذا رأيت أخاً مؤمناً تفوق، هل يؤلمك تفوقه؟ والله لا أبالغ، ولا أحابي أحداً، إن كان يؤلمك تفوق المؤمن فهذه صفة من صفات المنافقين والدليل:

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

[سورة آل عمران الآية: 120]

امتحن نفسك، وكن قاسياً عليها، لك أن تلتمس لأخيك عذراً، لكن أنا أنصح أخوتنا الكرام، ألا تلتمس لنفسك عذراً، إذا أخ مؤمن تفوق في عمل ما، وآلمك هذا التفوق، فهذا فرع من فروع النفاق، إذا أفرحك هذا التفوق فأنت مؤمن ورب الكعبة، ما الذي يؤلمك تفوق المؤمن أم ضعفه؟ المؤمن يؤلمه ضعف المؤمن، ويفرح إذا تفوق المؤمن، لأن المؤمنين أمة واحدة، الكل لواحد، والواحد للكل،

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

الحديث عن المنافقين،

(وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

فكن دقيقاً مع نفسك، لك أخ مؤمن بالمسجد، معك على مقاعد الدرس، قريب لك، جار لك، زميل لك، صديق لك، تفوق، وفق في عمله، وفق في عمل صالح، علامة إيمانك أن تفرح له من كل أعماقك، وكأن هذا الخير نلته أنت، وهذا وسام شرف لك عند الله، فالمؤمن يهنئ أخاه المؤمن، يفرح له بزواجه، بدراسته، بتفوقه، لأن المؤمنين كلٌّ واحد.

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ)

أما الذي يحب أن تشيع الفتنة، أن تشيع الفتنة بالذين آمنوا، أن تشيع الفاحشة بالمؤمنين ويفرح لهذه الفاحشة التي شاعت بينهم، فهي علامة نفاق ورب الكعبة.

المؤمن واضح أما المنافق فظاهره شيء وباطنه شيء آخر :

والبطولة أن المؤمن واضح، ومع الأسف الشديد والكافر واضح، من هو الذي يؤذي؟ المنافق، ظاهره شيء، وباطنه شيء آخر.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة البقرة]

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ)

أي إن كان هناك شيء يخالف الشرع يحب أن ينتشر هذا الشيء بين المؤمنين، يفرح، إذا كان هناك نقاط ضعف عند المؤمنين يفرح بها، ويذكرها كثيراً، هو قناص، إذا اكتشف بمؤمن خطأ يلح عليه، يشهر به، يؤكد عليه، يفرح بسقوط المؤمن.

المنافقون يبتغون الفتنة و يريدون إضعاف المؤمنين :

لذلك:

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ)

المنافق هو المنافق في أي زمان، وفي أي مكان.

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ)

يحب أن يفتن المؤمنون، يحب:

(أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة النور الآية: 19]

والكلام خطير، ما فعل شيئاً، ما قال شيئاً، لكن يحب

(أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ)

والحقيقة في الأعم الأغلب الله يحاسب على العمل، أما هنا فيحاسب على النية وحدها، المنافق إذا أحب

(أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا)

فقد صُنف مع المنافقين، والويل له من رب العالمين، والمؤمن يحب أن يشيع الحق بين المؤمنين، يحب أن تشيع الفضيلة، يحب أن يكون المؤمنون متفاهمين، متعاونين، متناصحين، ومتزاورين، والأثر القدسي:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ - والمتحابون في جلالي على منابر من نور، يغبطهم عليها النبيون عليها يوم القيامة-))

[أخرجه مالك عن معاذ بن جبل]

المنافقون يبتغون الفتنة، يريدون ضعف المؤمنين، يريدون أن تشيع الفاحشة فيما بينهم، يريدون أن يلتقطوا أخطاء المؤمنين ليجهروا بها، وليشيعوها بين الناس.

الفتن الطائفية الورقة الرابحة بيد أعداء المسلمين :

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ)

والمنافق هو المنافق في كل مكان وزمان، والمؤمن هو المؤمن في كل مكان وزمان.

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ)

أحياناً تقليب الأمر أن تجعل عاليه سافله، وسافله عليه، أن تقدم للمؤمن نصيحة من أجل أن يفتن بالدنيا، مثلاً: لمَ فعلت هذا؟ لِمَ لم تفعل هذا؟ ضيعت دنياك، لِمَ أنفقت مالك؟ لقد ضيعت مستقبلك، لِمَ التزمت هذا المسجد؟ صُنفت مع كذا، دائماً يخوف، يقتنص، يريد أن يجرح.

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

دائماً وأبداً الله عز وجل يدافع عن الذين آمنوا، مثلاً حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

[سورة القصص الآية: 4]

وبالمناسبة الفتن الطائفية ورقة رابحة جداً بيد أعداء المسلمين.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ)

افعل كذا، لا تفعل كذا، لو فعلت كذا هناك مشكلة، لو لم تفعل كذا هناك مشكلة، يريد أن يدفع المؤمن إلى معصية الله، أو إلى حب الدنيا، يرغبه بالدنيا ويزهده في الآخرة، يدفعه لعمل يفتن به ويبعده عن عمل يرقى به، هذا شأن المنافق.

المنافق مخادع مثبط يظهر أشد ما يظهر في المعارك :

(حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

أحياناً الله عز وجل ينصر المؤمنين، فإذا نصرهم كشف المنافقين، وكشف المخادعين، وكشف المثبطين.

الحقيقة النفاق يظهر بأشد ما يظهر في المعارك، فالمنافق لا يريد أن يحارب، يلتمس شتى الأعذار، ينسحب من أي معركة، لا يريد أن يموت، بعكس المؤمن، يقبل على الجهاد في سبيل الله، يقبل على نصرة هذا الدين، يتمنى إعلاء كلمة الله، ولو أدت إلى فقد حياته، لأنه يبتغي الجنة والدار الآخرة:

(حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

يقول أحدهم: في بلاد الروم نساء روميات على جانب من الجمال، أخاف إن ذهبت إلى هناك لأجاهد معك يا رسول الله أن أفتن، أنت مفتون، أنت فتنت وانتهيت، هذا الذي يلتمس أن يبتعد عن عمل صالح مغبة الفتنة وقع في الفتنة دون أن يشعر، أنا أقول مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطلب الله عز وجل، أن تبتغي رضوانه، ثم تصاب بشيء لا يرضيك.

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ)

لو ذهبنا لكان كذا، لو بقينا أفضل، لو حاربنا هناك مشكلة، إذا لم نحارب أفضل، دائماً مثبطون، يدعو بعضهم بعضاً إلى البعد عن الجهاد، البعد عن العمل الصالح، البعد عن إنفاق المال:

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

حاجة الإسلام إلى مؤمنين أقوياء و متفوقين :

أخواننا الكرام، أقول لكم هذه الكلمة: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، لأن الإسلام بحاجة إلى أقوياء، إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون غنياً، لأن الإسلام بحاجة إلى مال تنفقه في سبيله، إذا كان طريق التفوق سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تتفوق،

ونحن بحاجة إلى متفوقين، والنبي عليه أتمّ الصلاة والتسليم طلب النخبة قال:" اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين ".

لما أسلم سيدنا عمر وقف إيذاء المسلمين، لما أسلم سيدنا حمزة صلوا في بيت الله الحرام، فالله عز وجل يعز الإسلام بالمتفوقين، والذي أتمنى على كل شاب من الشباب المؤمن أن يفكر أن يكون رقماً صعباً، أن يخدم أمته خدمة عالية، إذا تفوق في دراسته هو في خدمة أمته، إذا أحسن إلى من أساء إليه هو في خدمة أمته، لِمَ لا تكون رقماً صعباً؟ لِمَ لا تكون مؤمناً كبيراً؟ لِمَ تقبل أن تكون في الدرجات الدنيا من الإيمان؟ يجب أن تكون متفوقاً، ولا تعبأ بمن يثبط عزيمتك.

من كان مع الله حفظه الله من الفتن :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا)

ينسحب من عمل صالح باعتذار مضحك، أخاف أن أفتن، لن تفتن، إذا كنت مع الله لن تفتن، إذا كنت مع الله هناك حفظ لك من الله عز وجل.

(أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

فالكافر حينما يبتعد عن العمل الصالح، وحينما يحب أن تشيع الفتنة بين المؤمنين، وحينما يسهم في إشاعة هذه الفتنة، هناك ثلاث مراحل؛ أخطرها المرحلة الثالثة، طبعاً تنطلق من الغيبة أولاً، لو أن أخاً كريماً تفوق لآلمك هذا التفوق، هذه حالة، لكن ما تكلمت ولا كلمة، لكن آلمك أن يتفوق، تتمناه ألا يتفوق، هذه حالة، أحياناً إذا لم يتفوق تُشيع هذا بين الناس كي يشفى صدرك، أما أخطر شيء فأن تسعى لعدم تفوقه، هناك منطلق، وهناك تمنيات، وهناك فعل، فالإنسان عندما ينتقل من الموقف السلبي، إلى التمنيات، إلى الفعل، يكون قد انغمس إلى قمة رأسه في النفاق:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

السلامة والسعادة مطلب كل إنسان على وجه الأرض :

أيها الأخوة، لا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى السلامة والسعادة، يتمنى سلامة وجوده، ويتمنى كمال وجوده، ويتمنى استمرار وجوده، سلامة الوجود بطاعة الله، وكمال الوجود بعمل صالح يعينك على أن تقبل على الله، واستمرار الوجود بأن تنجب أولاداً صالحين يكونوا من بعدك استمراراً لك.

أنا لا أنسى مرة في تعزية عالم جليل توفاه الله في دمشق، وكان العزاء في الجامع الأموي، وفي اليوم

الثالث قام ابنه فألقى خطبة رائعة كأبيه، أنا قلت في نفسي: إذاً هذا العالم الجليل الذي توفاه الله لم يمت، ابنه استمرار له.

فأنت كما تعلم حريص على وجودك، وعلى سلامة وجودك، وعلى استمرار وجودك، سلامة وجودك بطاعة الله، وكمال وجودك بعمل صالح ترقى به إلى الله، واستمرار وجودك بولد صالح ينفع الناس من بعدك، لو طبقت هذه القاعدة على ستة مليارات إنسان لست مخطئاً، ما من إنسان على وجه الأرض إلا وهو حريص على سلامة وجوده، وعلى كمال وجوده، وعلى استمرار وجوده، السلامة بالاستقامة، والكمال بالعمل الصالح، والاستمرار بتربية أولادك.

الإنسان هو المخلوق الأول و المكلف بعبادة الله عز وجل :

الشيء الآخر، وأنت بالمناسبة كائن متفوق، وأنت المخلوق الأول في هذه الدنيا، والدليل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

ولأنك المخلوق الأول أنت مكلف بعبادة الله عز وجل، والعبادة كما جاء بالتعريف طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

المجموع لواحد والواحد للمجموع وهذه علامة الإيمان :

أخواننا الكرام، طبعاً هذه الآيات تظهر واضحة أشد ما تظهر في الحرب، فالمنافق يعد الخروج إلى الحرب خسارة كبيرة، قد يموت، لذلك ينسحب منها بطريقة أو بأخرى، ويعد انتصار المسلمين مغرماً له، هو ليس مؤمناً فالإنجاز الذي يحقق للمؤمنين يؤلمه.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

[سورة التوبة]

وهذه علامة النفاق، وصدق ولا أبالغ بإمكان كل واحد منا أن يكتشف نفسه حقيقة فيما كان له أخ كريم، ووفق في دنياه إلى عمل صالح، فالذي يسعد بهذا التفوق علامة إيمان له، والذي يؤلمه هذا التفوق علامة بدائية للنفاق، والدليل:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

أنا أعتقد يقيناً أن هناك مؤمنين صادقين، محبين، إذا رأوا أخاً لهم تفوق يفرحون، ويسعدون، ويعدون هذا التفوق لهم جميعاً، فالمجموع لواحد، والواحد للمجموع، وهذه علامة الإيمان، وحينما تسعد بتفوق

أخيك المؤمن هذا وسام شرف لك، تهنئه من أعماق قلبك، وتفرح له لأنه أضاف للمؤمنين تفوقاً، المؤمنون كتلة واحدة، فإذا تفوق أحدهم عاد هذا التفوق على جميع المؤمنين، وإذا وقع أحدهم وقع الجميع.

مثلاً: حينما تشاهد ما يعانيه المسلمون في بعض البلاد، في بلاد آسيا البعيدة والقريبة، وفي فلسطين، وتتألم أشد الألم، هذا وسام شرف له، معنى ذلك أنك تنتمي إلى هذه الأمة، ويؤلمك ما يؤلمهم، ويسعدك ما يسعدها، وحينما لا تبالي إطلاقاً بما يجري، ولا تعبأ، لا يوجد عندك مشكلة خاصة بحياتك، إذا لم يكن عندك مشكلة خاصة بحياتك فهذه أكبر مشكلة، هذه المشكلة تبين أو تشف عن أنك لا تنتمي لهذه الأمة:

((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به))

[أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك]

ما لم تعش ظروف المؤمنين، صعوبة حياتهم، مشكلاتهم، ما الذي يشدك أن تنتمي إلى هذه الأمة؟ الألم الذي يعتصر قلبك حينما ترى بلاداً كثيرة محتلة، تنهب ثرواتها، وتُقتل أبناؤها، فأنت مؤمن، ومن علامة إيمانك أنك تتألم.

المنافق يؤلمه أن يتفوق المؤمن و ينجح :

بلغه أن نساء الروم جميلات جداً، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال: ائذني لي ألا أجاهد معك لئلا أفتن.

(ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا)

حينما تلتمس العذر ألا تقتل فهذه فتنة كبيرة وقعت فيها.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

الآية الفاصلة في الموضوع:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

الآية دقيقة:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

المنافق يؤلمه أن يتفوق المؤمن، يتألم، يسكت، يحسد، يكبر النقاط السلبية، يطعن، يسخر أحياناً، هذه كلها تصرفات تعبر عن شعور الغيرة والحسد.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

وهذا أكبر دليل لك، أخوك نجح تفرح له من أعماقك، تزوج زوجة صالحة، تفرح له من أعماقك.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ)

كمؤمن تسعدك، وكغير مؤمن يسوءك ذلك.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ)

إذا كان هناك مشكلة بالجهاد ولم ينتصر المسلمون، قتل بعضهم، يقول: نحن خططنا، ونجحنا، هم تورطوا وجاهدوا، نحن خططنا ولم نجاهد فنجحنا، يعد نجاته من بعض الامتحانات ذكاء وتفوق.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ - أخذنا احتياطنا - وَيَتَوَلَّوْا - عن الخوض في الجهاد - وَهُمْ فَرِحُونَ)

أنواع الجهاد :

1 - جهاد النفس و الهوى :

بالمناسبة أنا أتمنى على كل أخ كريم أنه إذا ذكر كلمة الجهاد أن يعلم أبعاد هذه الكلمة، الجهاد ليس معناه دائماً القتال، والدليل:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا)

[سورة العنكبوت الآية: 69]

هذا الجهاد النفسي، جهاد النفس والهوى، رجعنا من الجهاد الأصغر –القتال- إلى الجهاد الأكبر-جهاد النفس والهوى-، غض بصرك جهاد، إنفاق المال جهاد، أداء الصلاة في المسجد جهاد، أداء صلاة الفجر في وقتها جهاد، طاعة الله جهاد، بر الوالدين جهاد، هذا الجهاد أكبر أنواع الجهاد، الدليل:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت]

2 - الجهاد الدعوي :

وهناك جهاد آخر الجهاد الدعوي، والدليل قل تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

بالقرآن،

(جِهَاداً كَبِيراً)

إذاً ممكن أن نسمي الجهاد الآخر جهاد الدعوة.

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا))

[أحمد عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

من هنا جاء في الأحاديث الكثيرة أن الجهاد جهاد النفس والهوى.

والجهاد الدعوي:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

بالقرآن، يكفي أن تتعلم القرآن وأن تُعلمه، يكفي أن تحاول أن تفهم آيات القرآن الكريم، وأن تنقلها إلى من حولك، فأنت مجاهد من نوع آخر وهو الجهاد الدعوي، والدليل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

بالقرآن،

(جِهَاداً كَبِيراً)

3 ـ الجهاد البنائي :

الجهاد الثالث: الجهاد البنائي، هذا جهاد يغفل عنه المسلمين، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

أحدكم إذا كان طالباً، وتفوق في دراسته، وجعل هذا التفوق في خدمة الأمة، هذا مجاهد من نوع ثالث، الجهاد البنائي، كما أن الأمة في حاجة إلى من يموت في سبيلها، شيء ثابت الأمة بحاجة إلى من يموت في سبيلها، ولكن لا تنس إلى أن الأمة في أمس حاجة إلى من يعيش في سبيلها، الأمة تحتاج إلى خبراء، إلى علماء، إلى أساتذة جامعيين، إلى خبراء في الاقتصاد، في التنمية، في الأمور الحياتية اليومية، فالذي يتفوق في حرفته، ويوظف هذه الحرفة لخدمة أمته فهو أيضاً مع المجاهدين، والدليل:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

هذا الجهاد الثالث.

4 ـ الجهاد القتالي :

والجهاد الرابع: الجهاد القتالي، جهاد الحرب، فبين جهاد نفسي جهاد النفس والهوى، وجهاد دعوي في تعلم القرآن وتعليمه، وجهاد بنائي للإعداد للطرف الآخر ما يحتاج من قوة، وبين جهاد قتالي في

ساحات المعركة، فإذا ذكرت كلمة جهاد اعلم أنها أنواع كثيرة؛ جهاد النفس والهوى، والجهاد الدعوي، والجهاد البنائي، والجهاد القتالي.

من أيقن بالآية التالية امتلأ قلبه بالاطمئنان و الأمن و السعادة :

قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة التوبة]

لكن أيها الأخوة، الحقيقة إذا أيقنت بهذه الآية، يمتلئ قلبك أمناً، واطمئناناً، وسعادة، لأن هذه الآية تتحدث عن المستقبل،

(قُلْ - يا محمد - لَنْ يُصِيبَنَا - في المستقبل- إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

كتب علينا لها معنى، وكتب لنا لها معنى آخر، كتب لنا من الخير.

والله أيها الأخوة، أنا حينما أرى شاباً مؤمناً، طيباً، طاهراً، مستقيماً، عفيفاً، صادقاً، أميناً، أنا أتنبأ له بمستقبل كبير جداً، لا أملك وسائل هذا المستقبل، لكن أقول: إن الله عز وجل يباهي الملائكة بهذا الشاب التائب، يقول تعالى:

((انظروا إلى عبدي، ترك شهوته من أجلي))

[أخرجه ابن السني الديلمي في مسند الفردوس عن طلحة]

((ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب))

[الديلمى عن أنس]

((أحب ثلاثاً وحبي لثلاث أشد أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد))

[ورد في الأثر]

بمقتبل حياته، غض بصره، صدق، أمانه، بر والدين، إتقان عمل صالح، شيء رائع جداً، ما من شيء أحب لله تعالى من شاب تائب، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، يقول: انظروا عبدي قد ترك شهوته من أجلي، لذلك:

((أحب ثلاثاً وحبي لثلاث أشد، أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد، أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد، وأبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد، وأبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد))

[ورد في الأثر]

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

بماذا؟ بالمصيبة التي أصابت النبي.

علامة المنافق الأولى أنه يفرح لمصيبة حلت بالمؤمن :

محور هذا اللقاء الطيب أن علامة المنافق الأولى أنه يفرح لمصيبة حلت بالمؤمن، وعلامة الإيمان الكبرى أن المؤمن يفرح لخير أصاب أخاه المؤمن، ويتألم أشد الألم بمصيبة حلت بأخيه المؤمن، هذه علامة، هذا محور الدرس.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

أيها المؤمن، لا يوجد بالمستقبل لك إلا الخير،

(لَنْ يُصِيبَنَا)

لن لتأبيد المستقبل، لن لتأبيد النفي، لن أكلمك، أي أنا لن أكلمك في المستقبل إطلاقاً، لن لتأبيد النفي في المستقبل.

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

من خير، وصدق، هذه الآية وحدها تملأ قلبك طمأنينة.

آية ثانية:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية]

الآيات التالية بشارة للمؤمنين :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لا يوجد أمامك أيها الشاب التائب إلا الخير، ما عندك بيت، يأتي البيت، والزوجة، والأولاد، والمكانة، والاستقامة، والتألق، والدعوة:

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة البقرة الآية: 257]

(هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

مرة أخيرة: هذه الآيات بشارة للمؤمنين،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لغة دقيقة جداً، ما كتب الله لنا شيئاً، وما كتب علينا شيئاً آخر، ما كتب لنا من خير، لن يصيبنا إلا الخير، لا يوجد أمامنا إلا الإكرام،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لنا، لكن غير المؤمن علينا، كتب لك، وكتب عليك، كتب لنا من خير، كتب علينا من تأديب،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (38-70) : تفسير الآيات 51 - 52 ، المكافأة من جنس العمل، النصر أو الشهادة كلاهما حسن.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-02-04

بسم الله الرحمن الرحيم

الإله العظيم يطمئن المؤمنين و يتوعدهم بالسلامة و السعادة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الواحدة والخمسين وهي قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

أيها الأخوة، صدقوا ولا أبالغ أن في القرآن الكريم آيات، لو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه الآيات لكفت، هذه الآية وهي كلام خالق السماوات والأرض، كلام رب العالمين، كلام من بيده كل شيء، بيده رزقك، بيده سلامتك، بيده صحتك، بيده أهلك، بيده أولادك، بيده من حولك، بيده من فوقك، بيده من دونك، بيده أجهزتك، هذا الإله العظيم يطمئن المؤمنين، يقول للنبي عليه الصلاة والسلام أن قل لهم:

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

فرق كبير بين أن نقول: كتب الله علينا، وبين أن نقول:

(إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لنا لها معنى، وعلينا لها معنى آخر، يغلب على لنا الخير فقط،

(لَنْ يُصِيبَنَا)

في المستقبل إلا الخير في كل شيء، والدليل:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا)

في المستقبل:

(وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت الآية: 30]

على الماضي، إذا مرت معك هذه الآية اعلم علم اليقين أنها تغطي الماضي والمستقبل، تغطي الوقت كله.

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا)

بالمستقبل،

(وَلَا تَحْزَنُوا)

على الماضي.

لذلك سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام سأل معاذ بن جبل:

((أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ فقلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقَّه عليهم: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، قال: فتدري ما حقُّهم على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: أن لا يعذِّبَهم))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن معاذ بن جبل]

هل تدري وأنت تسلك طريق الإيمان، وأنت تخاف من الواحد الديان، وأنت تتقصى رضاء الله عز وجل، وأنت تخاف أن تعصيه، هل تدري أنك ضمنت السلامة والسعادة والاستمرار؟ الاستمرار في الآخرة، والسلامة في الدنيا، والسعادة في الدنيا.

من يصطلح مع الله عز وجل لن يصيبه إلا الخير :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا)

لن عند علماء العربية تفيد تأبيد النفي، أي إلى الأبد لن يصيبنا إلا الخير.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

من خير، فأنت حينما تختار تصطلح مع الله.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

والله أيها الأخوة لا أرى أن كلمة هنيئاً تصح إلا إذا عرفت الله، إلا إذا أطعته، إلا إذا ابتغيت رضوانه. أيها الأخوة، هذه الآية من الآيات التي تملأ قلب المؤمن أمناً وطمأنينة، وتملأ قلب المؤمن ثقة بالله عز وجل، وثقة بالمستقبل:

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

آيات من القرآن الكريم تبين الفرق بين المسلم و الكافر :

إليكم بعض الآيات الداعمة:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص]

نعمة الأمن من أدق خصائص الإيمان :

أيها الأخوة، أنا لا أتمنى أن مؤمناً مستقيماً، يسعى إلى مرضاة الله، يخشى أن يعصيه، يتقرب إليه، أن هذا المؤمن يأتي إلى قلبه خوف، من أدق خصائص الإيمان نعمة الأمن، والآية:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام]

فهل تصدقون أن الله سبحانه وتعالى أنشأ لك حقاً عليه؟ والله مرة في كتاب الجامع الصغير وهو كتاب أحاديث، إلا أن هذا الكتاب رتب ترتيباً هجائياً، مثلاً حق الأخ على أخيه، حق الزوج على زوجته، حق الزوجة على زوجها، حق المسلم على المسلم، كلمة حق مع بعضهم كلهم، على أول كلمة بالحديث، وعلى الأبجدية، الحاء بعدها القاف، هناك حديث واحد تقرأه يقشعر جلدك، وهذا الحديث خاص بالشباب، حق المسلم على الله، أن يعينه إذا طلب العفاف، شاب في ريعان الشباب، وشهوته في أوجها، ويخاف من الله، وضبط نفسه، غض بصره عن محاسن النساء، والنساء مبذولات في الطريق، كل ما عند المرأة من مفاتن ظاهرة في الطريق، فإذا غض بصره، وابتغى رضوان الله عز وجل له مكافأة كبيرة، ما هذه المكافأة؟ المكافأة من جنس العمل، هو غض بصره عن امرأة لا تحل له، أنا أرى ولا أتألى على الله أن حق هذا الشاب على الله أن يرزقه امرأة تسره إن نظر إليها، وتحفظه إذا غاب عنها، وتطيعه إن أمرها.

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

من كان مع الله كان الله معه :

تعليقي:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

أنت مع من؟ مع جهة بشرية؟ يكون لك قريب بأعلى منصب، تطلب منه شيئاً يعتذر، هذه فوق صلاحياتي، أو يعدك ثم يخلف، لم يتمكن من تنفيذها، أنت مع من؟ أنت مع الله، مع خالق الكون، مع من بيده كل شيء، مع من بيده إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، أنت معه؟

لذلك قالوا: المعية معيتان، معية عامة، ومعية خاصة، المعية العامة:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديث الآية: 4]

هذه المعية العامة، لكن المعية الخاصة.

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

(مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة البقرة]

(مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة]

ما هذه المعية الخاصة؟ قال: هذه المعية معية النصر، والحفظ، والعون، والتوفيق، إذا كان الله معك أنت بتوفيق الله، وبحفظ الله، وبعون الله، وبرعاية الله، إذا كان الله فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

الله عز وجل يدافع عن المؤمن وهو لا يدري :

إذاً هذه الآية:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

السبب أنها جاءت بعد قوله تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

[سورة التوبة]

ردّ عليهم يا محمد،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

من خير، من تكريم، من توفيق، من رزق، من محبة، من سكينة.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

أحياناً الإنسان يقويه إنسان قوي، قوي له نفوذ بالبلد، ومسموع الكلمة، وأمره نافذ، وغني ميسور، وكفل يتيماً، هل يجوع هذا اليتيم؟ هل يعرى؟ هل ينال أحد منه؟ يقول لك: أنا فلان يدافع عني، وحتى

الإنسان لو وكل محامياً لامعاً بقضية ينام مطمئناً، يقول: المحامي فلان سيدافع عني ، فإذا كان خالق السماوات والأرض هو الذي يدافع عنك، والدليل:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج الآية: 38]

الله يدافع عنك وأنت لا تدري.

((لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى))

[الطبرانى عن معاذ بن أنس]

من كان في طاعة الله وفقه الله و حفظه و أكرمه :

أيها الأخوة، هذه الآية يجب أن تكون في قلوبكم، وفي عقولكم، وفي خواطركم:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

أنت مع من؟ تصوَر تصوراً غير معقول، أن طفلاً والده ملك، أو طفلاً والده قائد الجيش، وهناك عريف هدده، فصار يبكي من شدة خوفه، معنى هذا أنه غبي، لأنه لم يعرف من هو والده، أقل رتبة بالجيش عريف، هذا العريف هدد هذا الطفل، أو هذا العنصر، وهذا العنصر والده قائد الجيش، فإذا خاف حقيقة يكون أحمقاً لا يعرف الله عز وجل.

أنا أريد أن يكون لك ثقة بالله، ثقة بمحبته لك، ثقة بنصره، ثقة بحفظه، أنت مع خالق السماوات والأرض، ولست مع جهة أرضية قد تنساك أحياناً، رواية لا تعد في الصحاح: سيدنا نوح قبل أن يأتي الطوفان جاءته امرأة ورجته ألا ينساها من تأمين مكان في السفينة، جاء الطوفان، وهو على السفينة وفي الأمواج الكبيرة تذكر هذه المرأة، ونسي أن يدعوها إلى السفينة، فتألم أشد الألم، فلما انتهى الطوفان، واستوت السفينة على الجودي، جاءت هذه المرأة و قالت له: يا نوح متى الطوفان؟ إن نسي سيدنا نوح فالله لا ينسى.

إذا كنت مع الله كان الله معك، إن كنت في طاعته يوفقك، يحفظك، يكرمك.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

احفظوا هذه

(لَنَا)

لن: تفيد تأبيد المستقبل، نفي مؤبد:

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

الاستقامة على أمر الله تولد الأمن و الطمأنينة :

أخواننا الكرام، إن أردت حالة لا يتمتع بها إلا المؤمن هي نعمة الأمن فاستقم على أمر الله، والله عز وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

وفي اللغة العربية فرق كبير بين أولئك الأمن، أو

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

إذا قدمت الخبر على المبتدأ الذي هو شبه جملة معنى ذلك أن التركيب فيه قصر وحصر، الأمن لهم ولغيرهم، أما

(لَهُمُ الْأَمْنُ)

وحدهم.

(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة]

حصر، ما نعبد إياك، ونعبد غيرك، عندما تقدم شبه الجملة في التركيب الاسمي الجملة تعطي معنى القصر والحصر،

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

إذا كان الله عز وجل وليك، هل تخشى من أحد؟، هل تخاف أحداً؟ إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـا فإنا منحنا بالرضا من أحبنــا
ولذ بحمانا واحتمِ بجنابنـــا لنـحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلقى المسرة و الهنا
وسلم إلينا الأمر في كلِّ ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنــا

* * *

المؤمن الذي اصطلح مع الله واستقام على أمره يرى إكراماً وتوفيقاً ما بعده توفيق :

أيها الأخوة، هذه الآية يجب أن تكون في أذهانكم دائماً، وفي قلبكم، وهي بشارة كبيرة لمن استقام على أمر الله:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

صدقوا ولا أبالغ أنت حينما تصطلح مع الله، وتستقيم على أمره، والله ترى العجب العجاب، ترى لطف الله، ترى رحمة الله، ترى عناية الله، ترى توفيق الله، ترى نصر الله، ترى إكرام الله، حينما تصطلح مع الله، وتستقيم على أمره، والله ترى أشياء لا تصدق، وهذه لكل مؤمن اصطلح مع الله، واستقام على أمره، يرى إكراماً ما بعده إكرام، وتوفيقاً ما بعده توفيق، وتيسيراً ما بعده تيسير، وراحة نفسية ما بعدها راحة، وسعادة، وسكينة، ورضا، وتألقاً، وثقة بالله عز وجل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

[سورة البقرة الآية: 257]

للتقريب: أحياناً يكون الأب قوياً، وأخلاقياً، وديّناً، وعنده ابن، هذا الابن لا يمكن أن ينطق ببنت شفة، بكلمة بذيئة، التربية عالية جداً، مجتهد، وأنيق، وأحياناً يكون الابن انعكاساً لوالده، فإذا كان الله عز وجل

(وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أي هو وليهم بشؤونهم، ببيتهم، بأسرتهم، بمن حولهم، بعملهم، باختصاصهم، بصحتهم،

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

على الإنسان أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

لكن التوكل يحتاج إلى شيئين، إلى استقامة، وإلى هدف، من ادعى أنه توكل على الله ولم يأخذ بالأسباب هذا التوكل مرفوض، ومن أخذ بالأسباب واعتمد عليها ولم يتوكل على الله هذا الأخذ بالأسباب مرفوض، والواقع أن العالم الغربي أخذ بالأسباب من أعلى درجة، واعتمد عليها، وألهها، ونسي الله، والعالم الإسلامي المتخلف لم يأخذ بها أصلاً، العالم الغربي وقع بالشرك والعالم الإسلامي وقع في المعصية، الصواب ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست

بشيء.

للتقريب: عندك سفرة إلى مدينة في الشمال بمركبتك، تراجع المركبة، تراجع المحرك، تراجع كل شيء فيها مراجعة دقيقة، ومع كل هذه المراجعة أنت موقن يقيناً قطعياً أن المسلم هو الله، إذً أخذت بالأسباب راجعت المركبة، ثم توكلت على الله، أما لو أنك توكلت ولم تأخذ بالأسباب فهذا التوكل مرفوض.

سيدنا عمر رأى أناساً في الحج يتكففون الناس قال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: كذبتم، المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله.

ملخص الملخص ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

هذا كله في قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

لأن الله يقول:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

التوكل أن تأخذ بالأسباب أولاً، ثم تتوجه إلى الله ثانياً، إحدى الحالتين سهلة، لا تأخذ بالأسباب كحال المسلمين اليوم، والله سينصرنا إن شاء الله، فإن لم نأخذ بالأسباب - بأسباب القوة - إن لم يحب بعضنا بعضاً، إن لم نتفانَ في خدمة هذه الأمة، هناك أشياء يجب أن نأخذ بها أولاً حتى يُسمع دعاؤنا، إن لم نأخذ بالأسباب لا نحقق ما نتمنى، وإذا أخذنا بها، واعتمدنا عليها، لا نحقق ما نتمنى، وأوضح شاهد النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب في الهجرة، ما من ثغرة إلا أغلقها، ما من جزئية إلا حققها، وبعد أن أخذ بكل هذه الأسباب، ووصل المشركون إلى غار ثور، قال الصديق:

((لو أن أحدهم نظر إلى قدَمْيه أبْصَرَنَا تحت قدميه. فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

هذا درس بليغ يحتاجه المسلمون، أن نأخذ بالأسباب، أنت طالب تدرس وبعد الدراسة يا رب أنت الموفق، أنت تاجر تشتري صفقة بدراسة جيدة، النوعية، المظهر، الأسعار، المنافسة، وبعد ذلك يا رب تجبر، كل إنسان يأخذ بالأسباب بدقة بالغة، ويعتمد على الله لا عليها، يكون قد حقق شرطي النجاح في كل شيء، هذا كلام لكل أخ موجود، للطالب، للتاجر، للموظف، للمزارع، خذ بالأسباب ثم توكل على رب الأرباب:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

التوكل و التواكل :

شيء قليل أن يكون الله عز وجل مولاك؟ يدافع عنك، يحميك، يوفقك، ينصرك، والثمن سهل، الثمن طاعته فقط.

أحياناً هناك ملك بالظاهر بيده كل شيء، لكن مستحيل أن تصل إليه، لكن الله ليس بينك وبينه حجاب إطلاقاً، تقول: يا رب! يقول لك: لبيك يا عبدي، يا ربي تبت إليك، يا عبدي وأنا قبلت، الصلحة بلمحة، والأمر بيدك، لذلك الآية الأولى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

إذاً يجب أن نفرق بين التوكل وبين التواكل، التوكل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، أما التواكل فإما أن تأخذ بالأسباب ثم تعتمد عليها، أو ألا تأخذ بالأسباب وتتوهم أنك تعتمد على الله، وكلا الطريقين خاطئ:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

[سورة التوبة]

ماذا ينتظر المؤمن؟ إما استشهاد في سبيل الله- الشهيد إلى الجنة- أو انتصار، الاستشهاد حسنى، والانتصار حسنى:

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

شيء رائع جداً، فالمؤمن إن أصيب -لا سمح الله- بمرض عضال أنهى حياته، إلى أين يذهب؟ إلى الجنة بإذن الله.

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158))

[سورة آل عمران]

إذا ألقينا القبض على إنسان وسقناه إلى أمه، الأم كلها رحمة.

الخلق كلهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له :

أيها الأخوة، يجب أن تثق بالله، وإذا كنت في طاعته يجب أن تثق بنصر الله، يجب أن تثق بتوفيق الله، يجب أن تثق بهذا النصر الدقيق جداً.

سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، هو في الحقيقة خال رسول الله، وما كان النبي يداعب أحداً إلا خاله، إذا دخل سعد يقول: هذا خالي أروني خالاً مثل خالي، وما فدى النبي أحداً إلا سعد بن أبي وقاص، قال:

((ارْمِ، فداك أبي وأمِّي))

[أخرجه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص]

وعندما توفي النبي عليه الصلاة والسلام، لسيدنا عمر كلمة رائعة جداً، قال: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له، لذلك:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 13]

للتقريب: نحن أمة عربية، أبو لهب أحد صناديد قريش، وعربي قح، ومن أرومة عربية، وأصيل:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد]

هل نفعته عروبته؟ سلمان الفارسي ليس عربياً، من بلاد فارس.

((سلمان منا أهل البيت))

[أخرجه الحاكم عن مصعب بن عبد الله الزبيري]

صهيب رومي من بلاد الروم، هذا الدين، سيدنا الصديق رأى بلالاً يُعذب، بلال حبشي يعذبه سيده صفوان بن أمية، فاشتراه منه بمئة دينار، بعد أن اشتراه منه، صفوان أراد أن يهين بلالاً، قال: والله لو دفعت به درهماً لبعتكه، ليس مئة درهم، ولا مئة دينار، أبيعه بدرهم، لأنه لا قيمة له عندي، فردّ عليه سيدنا الصديق، قال له: والله لو طلبت به مئة ألف لأعطيتك، الشاهد: بعد أن اشتراه وأطلقه لوجه الله، وضع الصديق يده تحت إبط بلال، وقال: هذا أخي حقاً، وما ذكر الصحابة الصديق إلا وذكروا معه بلالاً، يقولون: هو سيدنا وأعتق سيدنا، سيد الصحابة هو سيدنا، وأعتق سيدنا، هذا الدين لا يوجد به تفرقة:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

الأمة لا ترقى إلا عندما تعتمد على مقياسي العلم والعمل :

لذلك الأمة حينما تعتمد مقياسي العلم والعمل ترقى، إذا اعتمدت مقاييس انتمائية لا ترقى، هناك مقاييس موضوعية؛ العلم والعمل، أنت مدير دائرة، يوجد عندك وظيفة حساسة جداً، وهناك إنسان كفء لها، ويحمل أعلى شهادة، إذا عينت هذا الإنسان الكفء تحقق نتائج كبيرة جداً، تنفع الأمة، لك قريب شبه

جاهل، عينته بهذا المنصب مكان الخبير و هو ليس كفئاً، أنت ماذا فعلت؟ أنت اعتمدت مقياساً انتمائياً، و ابتعدت عن المقياس الموضوعي.

لذلك مثل هذا المجتمع لا يتماسك، ولا يرقى، أية أمة تعتمد مقياساً موضوعياً لا انتمائياً ترقى، وأية أمة تعتمد مقياساً انتمائياً لا موضوعياً لا ترقى.

لذلك اشتراه، ووضع يده تحت إبطه، وقال: هذا أخي حقاً.

في بعض الراويات أن أبا سفيان أراد أن يدخل على عمر بن الخطاب، يبدو أن عنده أعمالاً كثيرة جداً، وقف ببابه مدة طويلة- وأبو سفيان زعيم قريش من ألمع الأسماء- وعندما دخل عليه عاتبه قال له: زعيم قريش يقف ببابك طويلاً وصهيب وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان؟ قال له: أنت مثلهما؟ هناك فرق كبير جداً.

أنا ألح على المقاييس الموضوعية لا الانتمائية، حينما تعتمد مقياساً انتمائياً هذا المقياس يمشي بالأمة إلى طريق الهلاك.

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

أي أنت أيها المؤمن ماذا ينتظرك؟ توفيق الله بالدنيا، صحة طيبة إن شاء الله، زوجة صالحة، أولاد أبرار، مكانة اجتماعية، سمعة طيبة، مات للجنة، ماذا يوجد أمامك؟ إنسان مات مؤمناً، مات مستقيماً، مات تائباً، مات مصطلحاً مع الله، إن عاشَ عاش سعيداً، وإن ماتَ مات حميداً:

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص]

من ينهض بأمته فالله عز وجل سينصره لا محالة :

أخواننا الكرام، كي تستبشروا، الله عز وجل قال: -وكلام الله وأنا أقول زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين- قال:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

[سورة آل عمران الآية: 12]

الله أعطاك النتيجة،

(سَتُغْلَبُونَ)

أعطاك النتيجة الحتمية،

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

فأنت إذا نهضت بأمتك يجب أن تعتقد يقيناً أن الله سينصرك، أنا أتمنى أن يكون انتماء الإنسان للمجموع، أنت من أمة تحتاج إلى خبراء، إذا ابتغيت بدراستك خدمة هذه الأمة فأنت في جهاد، إذا ابتغيت من كل شيء خدمة هذه الأمة فأنت في جهاد، أحياناً تختار اختصاصاً نادراً، أنا سافرت إلى بلاد بعيدة وجدت بولاية واحدة خمسة آلاف طبيب من بلد عربي واحد، خمسة آلاف طبيب معهم بورد من بلد عربي واحد بولاية واحدة، بولاية واحدة بأمريكا فيها خمسة آلاف طبيب من دولة عربية في أمس الحاجة إلى هؤلاء الأطباء، بلاد غنية جميلة، فيها ميزات كثيرة جداً، فآثر البقاء في هذه البلاد على العودة إلى بلده.

مرة لمحت طبيباً يحمل شهادة بورد، ويجري عملية في مستشفى وطني متواضع جداً، هذا جاء إلى بلده كي يخدم أمته، أنا والله العبد الفقير شجعت الأخوان المؤمنين المتفوقين على الدراسة في بلاد الغرب، ودرسوا، عندي يقين بالمئة مليون لابد من أن يرجعوا جميعاً إلى بلادهم، لماذا؟ لخدمة أمتهم، لماذا؟ لأنهم يحملون رسالة، هناك رسالة يحملها، بلاده نامية وفيها متاعب كثيرة، لكن هو يحمل رسالة، يعود لبلده، ويخدم بعلمه المتفوق أمته، بين إنسان حامل رسالة وبين إنسان مرتزق مسافة كبيرة جداً.

قصة من أربعين سنة تمّ إعدام عالم كبير، ظروف استثنائية صعبة فجاؤوا له بشيخ ليلقنه الشهادة، قال له: أنت أيها الملقن ترتزق بـ لا إله إلا الله، أما أنا فأموت من أجلها.

فرق كبير بين إنسان يحمل رسالة وإنسان يرتزق ببعض الأفكار الدينية.

يا أيها الأخوة، عندما تحمل رسالة تكون أسعد الناس، وإن لم تقل: أنا أسعد الناس، أسعد من في الأرض إلا أن يكون أحد أتقى مني فهناك مشكلة بعلاقتك بالله عز وجل.

أيها الأخوة، آيات اليوم:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (39-70) : تفسير الآيات 53 - 54 ، ضعف الإخلاص يبطل العمل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-02-11

بسم الله الرحمن الرحيم

العبرة في العمل الصالح أن يقبله الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والخمسين وهي قوله تعالى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

أيها الأخوة، العبرة في العمل الصالح أن يقبله الله عز وجل، قد يعمل المرء أعمالاً كالجبال، كمال الخلق يدل على كمال التصرف، لم تقبل لا قيمة لها.

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

((من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً))

[مسند الشهاب عن أنس]

من علامات إخلاص المؤمن أن سره كجهره، وأن باطنه كظاهره، وأنه في خلوته كما هو جلوته، ثبات المؤمن على طاعة الله وحده ومع الناس، في خلوته وفي جلوته، في سره وعلانيته، وفي باطنه وظاهره، أما أن يكون للإنسان موقف مع نفسه وموقف مع الناس فهذه ازدواجية تضعف قيمة عمله، المؤمن واضح، واضح جداً.

الإخلاص أهم شيء في العمل :

لذلك أيها الأخوة، أهم شيء في العمل الإخلاص، بالإخلاص ينفع كثير العمل وقليله، ومن دون إخلاص لا ينفع لا كثيره ولا قليله، والإخلاص ملخص الطاعة، أنت إذا كنت مخلصاً توجهت بهذا العمل إلى الله، ولا تعبأ بزيد ولا بعبيد، ولا ترضي فلاناً ولا علاناً.

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)

[سورة الإنسان]

وأروع ما في حياة المؤمن أنه مخلص، والذي يميز المنافق عدم إخلاصه.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة البقرة]

دائماً أيها الأخوة ينبغي أن نحاسب أنفسنا هل هناك رياء في أعمالنا؟ هل نعمل عملاً أمام الناس غير العمل الذي نعمله وحدنا؟ هل هذا العمل إذا صعد إلى الله عز وجل هل يقبله الله عز وجل؟ المشكلة أن الذي يضعف إخلاصه يرد عمله، هذا الجهد الكبير والاهتمام البالغ من دون إخلاص لا يقدم ولا يؤخر، والآية مرة ثانية:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

[سورة الفرقان]

أحياناً تدعو إنساناً إلى طعام، قد يأتي إلى خاطرك أن تظهر له براعة أهلك في الطبخ، أو غناك، أنواع منوعة، هذا الطعام بهذه النية فقد قيمته، بنية إكرام المؤمن، إطعامه إذا كان جائعاً، حل مشكلته إذا كان فقيراً، هذا عمل طيب.

كلما ارتقى العمل كان الإخلاص ثمرة لهذا الرقي :

لذلك المؤمن يتعاهد نفسه، يراقب عمله، وكلما ارتقى العمل كان الإخلاص ثمرة لهذا الرقي، أو كلما كان الإخلاص في العمل كان الإخلاص سبباً لرقي هذا العمل.

هؤلاء الصحابة الكرام الذين وصلت راياتهم إلى أطراف الدنيا ما هو أكثر شيء في حياتهم؟

الإخلاص، والإخلاص يثمر المحبة، أنت حينما تخلص في عملك ترى أخاك في الدين أخاً حقيقياً، تحبه، تقدم له، تنصحه، تعينه، أما إذا كان هناك إخلاص ضعيف فضعف الإخلاص ينتج عنه تدابر، تباغض، تباعد، والذين آمنوا قدوتهم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فالحب الذي كان بينهم يفوق حدّ الخيال، والتناصح بينهم أيضاً يفوق حدّ الخيال، وتواضعهم لبعضهم بعضاً يفوق حدّ الخيال، مجتمع المؤمنين مجتمع له خصائص، أهم خصيصة في هذا المجتمع أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، يتعاونون، يتناصحون، يتحابون، يتبادلون النصائح، تنصحه وينصحك، تعينه ويعينك، تدافع عنه ويدافع عنك، لذلك الآية الكريمة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ)

العمل قيمته بما وراءه من إخلاص، أما إذا كان هناك رياء في أداء العمل ترائي به الناس، أو تخفي شيئاً وتظهر شيئاً كان النفاق، والنفاق في بعض الآيات إن المنافقون:

(هُمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة النساء الآية: 151]

والمنافق في بعض الحالات كافر، لكنه غطى نفسه بمظاهر الإيمان الخارجية، كي ينال من خصائص المؤمنين ما لم يناله لو كان كافراً:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ)

الإخلاص أساسه التوحيد :

أخواننا الكرام، الأعمال التي كلفنا الله بها لا تقبل إلا بالإخلاص، والإخلاص أساسه التوحيد، لو أردت أن تسأل ما طريق الإخلاص؟ هو التوحيد، فكل موحد مخلص، وكل مخلص ما كان مخلصاً إلا لأنه كان موحداً، معنى التوحيد؛ ما من إله إلا الله، لا معطي إلا الله، لا مانع إلا الله، لا رافع إلا الله، لا خافض إلا الله، لا معز إلا الله، لا مذل إلا الله.

وسيدنا عمر يقول: تعاهد قلبك، أنت إذا قمت بعمل، هذا الذي تقوم به هل تبتغي به ثناء الناس عليك؟ لكن شيء طبيعي إذا كان عملك صالحاً الناس سوف يثنون عليك هذا بفضل الله عليك، إذا أحبك الناس هذا فضل من الله، حتى إن بعض العلماء قالوا بقوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه الآية: 39]

المؤمن الله عز وجل من باب التكريم يلقي محبته في قلوب الخلق، أن تكون محبوباً هذا فضل من الله، أما أن تكتفي برضاء الناس عليك ولا تعبأ برضاء الله عز وجل فهذا نوع من النفاق.

آيات التوحيد :

لذلك من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أسخط الله برضى الناس سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، الأصل أنك تعبد إلهاً واحداً.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية: 123]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف الآية: 54]

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

[سورة الأعراف الآية: 158]

حبذا إذا قرأت القرآن أن تتقصى آيات التوحيد، واعتقد يقيناً أن الإيمان في حقيقته هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، تقرأ قوله تعالى فيقشعر جلدك:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح الآية: 10]

ألا ترى مع الله أحداً، ألا ترى فاعلاً إلا الله، ألا ترى معطياً إلا الله، ألا ترى مانعاً إلا الله، ألا ترى رافعاً إلا الله، ألا ترى خافضاً إلا الله، هذا هو التوحيد، والتوحيد أصل هذا الدين، بل إن ديننا دين التوحيد، الإنسان حينما يتوجه إلى الله وحده استراح من هموم كالجبال، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، أخلص لله يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها.

العلاقة الوثيقة بين الإخلاص و التوحيد :

أحد أسباب قوة شخصية المؤمن أنه لا يستجدي المديح من الناس، يرضي الله وكفى، وشعاره دائماً: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، والأحاديث كثيرة جداً تصف المخلصين بقوتهم، وبقوة شخصيتهم، وببراءتهم من كل أنواع النفاق، المخلص لا ينافق.

والحقيقة هناك علاقة وشيجة جداً بين الإخلاص والتوحيد، كلما ارتقى توحيدك ارتقى إخلاصك، وكلما ارتقى إخلاصك ارتقى توحيدك، التوحيد ألا ترى مع الله أحد، ألا ترى يداً تعمل مع الله، فلذلك تعامل الناس بأدب جم، وتأخذ وتعطي لكن الآمال منعقدة على الله عز وجل.

والقصة طويلة، الطالب، التاجر، الموظف، المزارع، حينما يوحد ترتاح نفسه، حينما يوحد يستقيم عمله، حينما يوحد تقوى شخصيته، حينما يوحد يصل إلى الله:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ)

أحياناً تدعو الناس إلى بيتك اسأل نفسك سؤلاً محرجاً: لماذا دعوتهم؟ عندك بيت فخم جداً، تريد أن يروا ما عندك؟ هذه مشكلة، عندك مال وفير تريد أن تري من حولك حجمك المالي؟ لكن أحياناً تريد أن تكرم المؤمن، هذا هدف مشروع ونبيل، قبل العمل، في أثناء العمل، بعد العمل، راقب نفسك، الهدف أرضي أم سماوي؟ الهدف أن أفتخر أم أقدم عملاً لله عز وجل؟ تابع أمورك، راقب نفسك، ولا تحابي نفسك، معظم الناس يحابون أنفسهم في هذا الموضوع، يصف إخلاصه وصفاً عجيباً، ولكن في الحقيقة

قد يكون في الإخلاص ضعف، بأمور الإخلاص لا تحابي نفسك، شدد عليها، لماذا فعلتِ كذا؟ لماذا قلتِ كذا؟ أحياناً الإنسان يميل إلى مدح نفسه، أحياناً المديح كي تكون قدوة لغيرك، تشجعهم أنك باستقامتك على أمر الله أكرمك الله، جيد، فرق كبير بين أن تبين لهم إكرام الله للمؤمن وبين أن تزهو عليهم. أعرف أخوة كراماً إن أرادوا أن ينفعوا الناس بقصة جرت معهم فيها إكرام من الله لا ينسبون هذا إلى ذاتهم، يقول لك: عندي صديق فعل كذا وقد أكرمه الله بكذا، والحقيقة هو نفسه الإكرام كان له، لئلا تأتي نفسه وتوبخه على أنه يفتخر ينسب هذا إلى غيره، سمعت عن إنسان فعل كذا وكذا.

استجداء المديح علامة ضعف الإخلاص :

أيها الأخوة، المخلص الإنسان ليس بحاجة إلى أن يستجدي المديح، وأنا أستخدم كلمة بدقة هناك من يستجدي المديح، أحياناً يدعوك إلى بيته إذا بقيت ساكتاً لم تثنِ على هذا البيت هو يسألك هل أعجبك البيت؟ يدعوك إلى طعام، فإن لم تثنِ على الطعام يستفزك، الطعام إن شاء الله جيد؟ يريد أن يستجدي المديح، كلما زلت قدمك إلى استجداء المديح كان هذا علامة على ضعف إخلاصك، المؤمن يعبد الله، المؤمن يخلص في عمله، المؤمن يبتغي وجه الله، ولا تأخذه بالله لومة لائم.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

الفاسق هو العاصي، لكن كأن هناك علاقة متينة بين القيام بالعبادات وبين الاستقامة على أمر الله، بإمكانك أن تقوم بعبادة، لكن هذه العبادة لا يقبلها الله عز وجل إلا بالإخلاص، والإخلاص تتناقض معه سلوكيات كثيرة، مديح الذات، الاستعلاء، الظهور، حب الظهور، هذا كله يؤدي إلى ضعف العمل الصالح بضعف إخلاصك.

الحقيقة أحد الصحابة سأل النبي عليه الصلاة والسلام:

((قلت: يا رسول الله ماذا ينجي العبد من النار ؟قال: الإيمان بالله، قلت: يا رسول الله إن مع الإيمان عملاً، قال: يرضخ مما رزقه الله، قلت: يا رسول الله أرأيت إن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ به؟ قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قلت: يا رسول الله ، أرأيت إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟قال : يصنع الأخرق. قلت: أرأيت إن كان أخرقاً لا يستطيع أن يصنع شيئاً؟ قال : يعين مظلوماً، قلت: أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً؟ قال: ما تريد أن تترك في صاحبك من خير؟! ليمسك أذاه عن الناس، فقلت: يا رسول الله إذا فعل ذلك دخل الجنة؟ قال: ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة))

[البيهقي عن أبي ذر]

بمعنى أن العمل صالح يقود إلى عمل صالح أكثر، عندنا بالفيزياء مبدأ العطالة، هذا القانون معناه أن الجسم الساكن يرفض الحركة، والمتحرك يرفض السكون، لمَ وضع الحزام في السيارات؟ لأنك إذا كنت تركب سيارة وأوقفتها بالمكبح جسمك يرفض الوقوف يبقى مندفعاً نحو الأمام، وقد يكون هذا الإيقاف المفاجئ سبب موت الراكب، لذلك وضعوا له الحزام، الجسم المتحرك يرفض السكون، والساكن يرفض الحركة، هذا مبدأ العطالة.

لذلك الإنسان إذا كان له عمل يصعب أن يوقف هذا العمل، وإذا ترك العمل الصالح يصعب أن يفعله، عود نفسك على العمل الصالح.

العمل الذي يقبله الله عز وجل هو العمل الذي يكون خالصاً وصواباً :

أيها الأخوة:

((إن الله طيِّب، لا يقبلُ إلا طيباً))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

ما العمل الذي يقبله الله؟ في بعض الآيات تبين أن العمل الذي يقبله الله عز وجل يجب أن يكون خالصاً وصواباً، فسرت هاتان الكلمتان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي بهذا العمل وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، وكلا الشرطين لازم غير كافٍ، لو أن العمل صواب لكن ابتغي به أمر دنيوي هذا العمل لا يقبل، لو أن العمل فيه إخلاص ولم يوافق السنة، لا يقبل، فالعمل الذي يقبله الله عز وجل هو العمل الذي يكون خالصاً وصواباً، والدليل قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية: 19]

العمل لا يسمى صالحاً إلا إذا ابتغى به صاحبه وجه الله، والعمل لا يسمى صالحاً إلا إذا تطابق مع سنة النبي عليه الصلاة والسلام، خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

ويبدو أن العمل الصالح الذي يقبله الله عز وجل يجب أن تكون أرضيته الاستقامة، الاستقامة أصل، كيف أن هناك أشياء بالجهاز تعد هيكلاً عظمياً له، البناء فيه هيكل إسمنتي، الآن يكسى بالدهان، والبلاط، والنوافذ، والأبواب، الأصل أن الهيكل العظمي سليم.

والإخلاص بالعمل، الإخلاص كالهيكل العظمي، فالعمل من دون إخلاص لا يعبأ الله به،

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

الأعمال الصالحة إن رافقتها استقامة على أمر الله فهذه الأعمال ترقى بالإنسان إلى الله :

مرة ثانية:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

هذا يعني أن المؤمن كما قلت قبل قليل: سريرته كعلانيته، وباطنه كظاهره، وخلوته كجلوته، لا يوجد عنده ازدواجية بالشخصية، واضح، عدم تقبل العمل لضعف إخلاصه، وأحد أسباب ضعف الإخلاص أن هذا العمل الصالح رافقته معاص كثيرة:

(إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

الفسق المعصية، فالإنسان إذا خرج عن طاعة الله، وله أعمال صالحة، الله سبحانه وتعالى يعطيه جزاءه في الدنيا على هذا العمل الذي فعله بالدنيا ولم يكن مستقيماً، ما أحسن عبد من مؤمن أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة، إنسان قد يعمل عملاً إرضاء للناس ينال رضاء الناس، كافأه الله عليه بإرضاء الناس، لكنك إذا عملت عملاً تبتغي به وجه الله أكرمك الله في الدنيا والآخرة معاً.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

هذا الذي أتمناه أن الأخ له درس عمل، يؤدي الصلوات، يصوم رمضان، يحج بيت الله الحرام، يؤدي زكاة ماله، الاستقامة في العلاقات الاجتماعية، الاستقامة في كسب الأموال، وفي إنفاق الأموال، الاستقامة في البيت، الاستقامة في العمل، الاستقامة في زواجه، الاستقامة في تربية أولاده، إذا رافقت أعماله الصالحة استقامة على أمر الله هذا العمل يرقى به إلى الله.

الاستقامة و العمل الصالح :

أما الخطأ مع العمل الصالح، فالعمل قد ينال عند الله مكافأة في الدنيا، لكن لا يكون هذا العمل سبيلاً لكسب رضى الله عز وجل.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْوْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

بشكل أو بآخر الفسق أن تخرج كما تفسق التمرة، التمرة لها قشرة، أحياناً تمسك التمرة وتضغطها فالتمرة تخرج من دون قشرة في بعض الحالات، نقول: فسقت التمرة، والإنسان الشرع حصن له، فإذا خرج من هذا الحصن فسق.

أولاً: الإنسان يعلم حدود الله بفطرته، ويعلمها أيضاً بالتعلم، فأنت حينما تحضر درس علم تعرف الحلال والحرام، والخير والشر، وما ينبغي وما لا ينبغي، هذه المعرفة سبب كبير جداً لاستقامتك على أمر الله.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

للتوضيح: طريق إلى الله، المعاصي التي يرتكبها الإنسان كأنها عقبات في هذا الطريق، هذه العقبات كأداء، تحول بينه وبين السير إلى الله، ماذا تعني التوبة؟ أن تزيح هذه العقبات عن الطريق إلى الله، هذه الاستقامة، كل معصية تعد عقبة في الطريق إلى الله، فإذا استقمت على أمر الله، وتبت توبة نصوحة، كأنك أزلت هذه العقبات من طريقك إلى الله، بعد أن تزيلها هل يكفي؟ أنت مستقيم لكنك غير متحرك، أنت ساكن، الاستقامة تضمن لك السلامة، أنت ما كذبت، ما غششت، ما خنت، ما اقترفت معصية، كله جيد، هذه تضمن لك السلامة.

تماماً كطالب ما ضرب زملاءه، ولا أساء إليهم، ولا قسا عليهم بالكلمات، لكن ما درس، المدرسة فيها انضباط، فيها دراسة، فيها شيء سلبي، وشيء إيجابي، المستقيم أدى الشيء الإيجابي بالإسلام، ما كذب، ما غش، ما خان، شيء جيد جداً، لكن لا يكفي، لو أن الطالب لم يدرس وآخر السنة لم ينجح، يقول: أنا والله ما آذيت الطلاب، طبعاً ما آذيتهم، ولا كذبت عليهم، لكنك ما درست، نريد عملاً إيجابياً، وبالإسلام هناك استقامة، وهناك عمل صالح، الاستقامة سلبية، والعمل الصالح إيجابي.

الاستقامة والعمل الصالح إذا اجتمعا تفرقا وإن تفرقا اجتمعا :

لذلك أقول لكم دائماً: إذا ذكرت الاستقامة وحدها تعني الاستقامة والعمل الصالح، وإذا ذكر العمل الصالح وحده يعني الاستقامة والعمل الصالح، أما إذا ذُكرت الاستقامة والعمل الصالح فكل شيء يعني شيء، الاستقامة امتناع، والعمل الصالح عطاء، أي إذا اجتمعا تفرقا، وإن تفرقا اجتمعا، إذا ذكرت الاستقامة وحدها فتعني الانضباط السلبي، والعمل الصالح الإيجابي، وإذا قلت: العمل الصالح وحده أي الانضباط السلبي والعطاء الإيجابي، أما إذا ذكرت الاستقامة والعمل الصالح فالاستقامة لها معنى والعمل الصالح له معنى. بشكل أو بآخر هذا الدين العظيم يمكن أن يضغط بأربع كلمات، أن تعرف الله، وأن تتصل به، وأن تستقيم على أمره، وأن تتقرب إليه بالعمل الصالح.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

مرة ثالثة:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

هَبَاءً مَنْثُوراً قالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

هذا يعني أنه لا يوجد بحياة المؤمن ظاهر وباطن، جلوة وخلوة، علانية وسر، وضعه موحد.

العبادات نوعان؛ عبادات شعائرية و عبادات تعاملية :

الآن:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة]

أخواننا الكرام هناك معنى دقيق جداً وأقول خطير:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

هناك استنباط خطير جداً، قد تجد إنساناً يصلي لكنه ما عرف الله، صلى وأكل مالاً حرماً، صلى وغش في البيع، صلى واعتدى على أعراض الآخرين، هذا الذي لا يعرف الله عباداته لا وزن لها إطلاقاً، ولا يستطيع أن يقطف ثمارها إطلاقاً.

فالعبادات نوعان؛ عبادات شعائرية، كالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وعبادات تعاملية، فإذا أدى العبادة الشعائرية ولم يكن مستقيماً لا ينجو من عذاب الله، والدليل أن العبادات الشعائرية كالصلاة، والصوم، والحج، لا تقطف ثمارها، إلا إذا صحت العبادة التعاملية، والأدلة كثيرة.

العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

النبي عليه الصلاة والسلام سأل أصحابه الكرام:

((أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

شيء واضح جداً، هذه الصلاة، الصيام:

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعمَلَ بهِ ، فليسَ للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

حديث آخر:

((رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش))

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

هذا الصيام، الزكاة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

الحج:

((من حج بمال حرام فقال: لبيك اللهم لبيك ، قال الله له: لا لبيك ولا سعديك حجك مردود عليك))

[الأصبهاني في الترغيب عن أسلم مولى عمر بن الخطاب]

الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، عبادات شعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، والعبادات التعاملية جاءت في كلام قاله سيدنا جعفر للنجاشي، سيدنا جعفر هاجر إلى الحبشة مع نفر من أصحاب رسول الله، والملك النجاشي سألهم عن الإسلام، قال سيدنا جعفر:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقة، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار))

[أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمة أم المؤمنين]

هذه العبادات التعاملية، والكلام الفيصل العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها عند الله إلا إذا صحت العبادات التعاملية، لذلك:

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام))

[ورد في الأثر]

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته، خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا))

[الطبراني عن ابن عمر]

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ)

أي ما عرفوا الله، وما عرفوا رسوله، لذلك خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (40-70) : تفسير الآية 55 ، شقاء الآباء من شقاء أبنائهم ـ للمؤمن جنتان جنة في الدنيا وجنة في الآخرة .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-02-18

بسم الله الرحمن الرحيم

عطاء الله عطاء أبدي :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الخامسة والخمسين وهي قوله تعالى:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

أخواننا الكرام: أي شيء ينتهي عند الموت هذا لا يليق أن يكون عطاءً إلهياً، هذا الشيء الذي ينتهي بالموت لا يتناسب مع كرم الله، عطاء الله أبدي إلى أبد الآبدين:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

[سورة النساء الآية: 57]

أما الدنيا فبضعة أيام، قد يؤتي الله الإنسان مالاً، قد يؤتيه صحة، قد يؤتيه منصباً، قد يؤتيه مكانة، تنتهي عند الموت، لأن الموت ينهي كل شيء، الموت ينهي قوة القوي، وينهي ضعف الضعيف، ينهي غنى الغني، وينهي فقر الفقير، ينهي ذكاء الذكي، ومحدودية المحدود، ينهي وسامة الوسيم، ودمامة الدميم، الموت ينهي كل شيء، الموت تنتهي به الأمراض، ورم خبيث مات انتهى المرض، لكن ما بعد الموت إما لجنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها.

من وضع كلّ همه و جهده و تخطيطه للدنيا فقط فهو أحمق غبي :

والله أيها الأخوة، لا أعجب ممن يعيش وليس له هدف في الآخرة، بضع سنوات مشحونة بالمتاعب، والهموم، والضغوط، والحيرة، والحوادث، والآخرة خُلقنا من أجلها، لذلك لو أن الإنسان أعرض عن الله عز وجل وأتاه الله مالاً، هذا ليس نِعمة، إنما هو نَعمة.

(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

[سورة الدخان الآية: 27]

آتاه الله صحة سيموت، آتاه الله بيتاً فخماً سيتركه، كل شيء يترك ليس عطاء، الموت ينتهي به كل شيء، مهما كنت كبيراً، مهما كنت عظيماً، مهما كنت غنياً، مهما كنت مستمتعاً، مهما كنت بصحة جيدة، الموت ينهي كل شيء.

لذلك من وضع كل همه، وكل جهده، وكل تخطيطه للدنيا فقط فهو أحمق غبي، أنت خُلقت للانهاية، خُلقت لجنة عرضها السماوات والأرض، خُلقت للأبد، فأنت اخترت سنوات معدودة، فإذا مضت ولم تكن مؤمناً، فإذا مضت ولم تكن مستقيماً، فإذا مضت ولم تكن محسناً، فهناك مشكلة كبيرة جداً.

لذلك لو أن إنساناً فقيراً موظفاً، دخله محدود، بيته صغير يقدر بستين متراً، لا يوجد عنده شيء يلفت النظر، لو زار غنياً مترفاً؛ بيت فخم، مركبات متعددة، دخل فلكي، أذواق رفيعة جداً، ولم يكن هذا الغني مؤمناً، وقال: ليتني كنت مكانه، لا قيمة لكل إيمانه، من آتاه القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظمه الله، إذا الله عز وجل سمح لك أن تعرفه، وسمح لك أن تعبده، وسمح له أن تطيعه، وسمح له أن تكون في مسجد تتعلم، هذه نعم لا تقدر بثمن، هذه النعم تعد أكبر نعم في حياتك، لأن هذه النعم مؤداها إلى الجنة.

كلمة مؤمن كلمة واسعة جداً :

ما معنى أنك مؤمن؟ أي أنك مستقيم، ما معنى أنك مؤمن؟ أي لك عمل صالح، ما معنى أنك مؤمن؟ أي أب صالح، ما معنى أنك مؤمنة؟ أي أم صالحة، ما معنى أنك مؤمن؟ أي لك أولاد صالحون، ما معنى أنك مؤمن؟ أي مستقيم، صادق، أمين، تنفق من مالك في سبيل الله، كلمة مؤمن كلمة واسعة جداً.

إذا إنسان كتب إلى جانب اسمه بالبطاقة د. فلان، ما معنى د.؟ أي دكتور، معه ابتدائي؟ حتماً، معه إعدادي؟ حتماً، معه ثانوي؟ حتماً، معه لسانس؟ حتماً، معه دبلوم تربية؟ حتماً، معه ماجستير؟ حتماً، هذه الدال تعني، ابتدائي، إعدادي، ثانوي، جامعة، ماجستير، هذا معنى الدال.

معنى مؤمن أي مستقيم، معنى مؤمن دخله حلال، معنى مؤمن إنفاقه حلال، معنى مؤمن يغض البصر، معنى مؤمن أي صادق، معنى مؤمن أي مخلص، معنى مؤمن أي متقن لعمله، معنى مؤمن أي لا ينافق، لا يكذب، لا يحتال، معنى المؤمن أي علاقاته بالنساء مضبوطة، محارمه فقط؛ زوجته، ومحارمه، أكثر لا يوجد عنده، معنى مؤمن أي لا يوجد عنده جلسات فيها مشروب، جلسات فيها اختلاط، كلمة مؤمن تعني كل ذلك.

لذلك إذا أكرمك الله عرفك بذاته العلية، أعانك على طاعته، أعانك على التقرب إليه، ألحقك بمنبع علمي تتلقى منه، رعاك، رباك، شجعك إذا أحسنت، خوفك إذا أسأت، معناها أنت بالعناية المشددة، كلمة

عناية مشددة يبغضها الناس، يتوهموا معه أزمة قلبية وضعوه بالعناية المشددة، لها معنى آخر، المؤمن بالعناية المشددة من الله عز وجل أي يرعاه، يتابعه، ينبهه، يحذره، يكافئه، يشجعه، ينصره، يوفقه.

المؤمن يتمتع بنعمة لا يعرفها إلا من ذاقها :

لذلك الإنسان إذا ترك الله ولم يعبأ بمنهجه قد يكون غنياً، ومعنى غني أي بيته فخم جداً، مركبته فخمة جداً، إنفاقه كبير، طعامه نفيس، سهراته ممتعة، سفرياته فيها إنفاق كبير، هذا معنى غني، لكن معنى مؤمن معك مال تشتري به طعاماً طيباً، معك مال تذهب به إلى مكان جميل، لكن هذا المكان الجميل بحر مثلاً، جبل أخضر، أخذ من جمال الله مسحة، والطعام الطيب أخذ من جمال الله مسحة، والوجه الجميل أخذ من جمال الله مسحة، لكن المؤمن مع خالق الجمال، مع أصل الجمال:

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـــا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنـا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنـا

ولــو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـا

ولــو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقربنـــا

* * *

إذاً أنت كمؤمن عرفت الله، عرفت منهجه، أكرمك الله بطاعته، وبالاستقامة على أمره، دخلك حلال، علاقتك بالنساء شرعية، زوجتك فقط، محارمك فقط، لا يوجد عندك علاقة شائنة، لا يوجد دخل حرام، ولا احتيال، أنت مؤمن، أنت ملك، صدق ولا أبالغ ملك، البطولة أن تمشي رافع الرأس لا تحنيه لأحد، ألا تستحي بشيء فعلته، عملك طيب لا يوجد عندك شيء تستحي به، لا يوجد عندك شيء تخاف أن يفضح، هذا المؤمن، المؤمن يتمتع بنعمة لا يعرفها إلا من ذاقها.

لذلك إبراهيم بن الأدهم كان ملكاً ثم ترك الملك باختياره وصار عارفاً بالله، فقال كلمة لأنه كان ملكاً أنا أصدقه بها، قال: "لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف".

المؤمن إنسان موصول بالله يتحرك وفق منهجه :

كلمة مؤمن قليلة؟ مؤمن، إنسان موصول بالله، بخالق السماوات والأرض، مؤمن يتحرك بمنهج الله، مؤمن محسن، مؤمن حليم، مؤمن رحيم، مؤمن صادق، مؤمن لا ينافق، مؤمن لا ينحرف، مؤمن لا تجره شهوة إلى معصية، ضابط شهواته، مؤمن سيد نفسه، مؤمن أي يملك نفسه عند الشهوة وعند الغضب، لكن هؤلاء الذين شردوا عن الله أيها المؤمن لو كانوا أغنياء:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ)

ولو أن لهم أولاداً، أحياناً يكون ابن الغني أنيقاً جداً، ثيابه غالية جداً، يُعتنى به عناية بالغة، ويحمل شهادات عليا، وهناك إنفاق عليه، دروس خاصة، ومعلمون، قد يكون ابن الغني متفوقاً، هذا لا يعني أنه صالح، الله عز وجل يريد أن ينبه المؤمنين، إذا كنت مؤمناً فأنت الغني الحقيقي، إن كنت مؤمناً فأنت الراقي الحقيقي، إذا كنت مؤمناً فأنت الفالح، أنت الناجح، أنت الموفق، أنت المتفوق.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

مرة التقيت بأخ كريم، هو طبيب، ووضع كل آماله بابن الوحيد، درسه الطب، بعثه إلى أمريكا ليتخصص، قال لي: هيأت له عيادة بخمسة عشر مليوناً، وضع كل آماله بابنه، ابنه تزوج إنسانة أمريكية وقطع الاتصال بأبيه، والله بكى الأب أمامي، وضع كل أمله بابنه، قال:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

الفرق الكبير بين الأسرة المسلمة و الأسرة المتفلتة :

عندما تربي ابنك تربية إسلامية يعرف قيمتك، عندما تربيه تربية إسلامية لا يعقك، تربيه تربية إسلامية يكون بخدمتك، تربيه تربية إسلامية يكون يدك اليمنى، تربيه تربية إسلامية يكون كظلك، الأب عندما يربي ابنه تربية إسلامية يربيه على الوفاء، على الطاعة، على بر الوالدين، على الإحسان، هذا الابن آخذ من أبيه الشيء الكثير، هذا الابن مستحيل أن يخرج عن دائرة الحق، هذا الابن معوان لأبيه، هذا الابن مرافق لأبيه، لذلك الابن من دون توجيه ديني، من دون تربية إسلامية، يضيع.

والله أنا لي أخ كريم، له قريب يملك أكثر من ألف مليون، توفي، التقى بابنه بعد أيام من وفاة أبيه، قال له: إلى أين أنت ذاهب؟ قال له كلمة لعلي معذور إذا قلتها لكم، قال له: ذاهب أسكر على روح أبي، خلّف له مالاً لكن لم يخلف له علماً، خلف له مالاً لكن لم يخلف له أدباً، خلف له مالاً لكن لم يجعله مؤمناً، هذه مشكلة المشكلات.

والله في كل عقوق للوالدين بحياتنا المعاصرة القصة تهد الجبال، وضع كل ثقته بابنه، وابنه قلب له ظهر المجن، أما الأب الصالح فيربي ابنه تربية صالحة، قلّما تجد أباً مؤمناً ابنه بعيد عنه، قلّما تجد أباً مؤمناً ابنه عاق، لأنه رباه على البر، لأن الابن استقى الرحمة، استقى الحنان، استقى العطف، استقى التوجيه، ففرق كبير كبير بين أسرة مسلمة وأسرة متفلتة، الفرق كبير كبير.

الولد الصالح من أكبر نعم الله على الإنسان :

الحقيقة من أكبر نعم الله على الإنسان الولد الصالح، والدليل قال تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

[سورة البلد الآية : 1-3]

البنوة والأبوة من آيات الله الدالة على عظمته، بل هناك آيات أخرى تبين أن المؤمن له ذرية صالحة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

[سورة الطور الآية 21]

تربية الابن تحتاج إلى جهد كبير جداً :

أنا لا أتصور بيتاً تؤدى فيه الصلوات، بالبيت هناك غض بصر، هناك انضباط مع النساء، تقام في هذا البيت دعوات إلى الله عز وجل، بيت لا يوجد فيه تفلت، لا يوجد فيه غناء يصدح، لا يوجد فيه أجهزة مخلة بالآداب موجودة، بيت منضبط، أنا لا أتصور هذا البيت يخرج أولاداً متفلتين، مستحيل!.

والله مرة حدثني أخ هو أستاذ ديانة، قال لي: أنا تابعت مسلسلاً والله بهذا المسلسل ثلاث عشرة خيانة زوجية.

أحياناً الإنسان يستمد ثقافته من أفلام، ماذا يوجد في الفيلم؟ هناك أشياء خلاف الشرع، تفكير بخلاف الشرع، سلوك بخلاف الشرع، كأن الناس يتعلمون من الأفلام لا من القرآن.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

تربية الابن تحتاج إلى جهد كبير جداً، رباه ليكون له فكان لغيره، أكبر مأساة تعانيها الأمهات أنها تربي ابنها تربية على أن يكون في نهاية العمر في خدمتها، فإذا به ينعتق منها ويكون في خدمة زوجته، عندئذٍ يدخل على قلب الأم من الآلام ما لا يوصف، هذا العقوق.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

أنا أرى هذا الذي أمامك، بيته فخم جداً، مركبته فارهة، أثاث بيته فيه أذواق عالية جداً، يحكي بالملايين، لا يصلي، ما عرف الله، لا يوجد انضباط أخلاقي، ولا طاعة لله عز وجل، كل هذه الدنيا لا قيمة لها، لأنها زائلة ماضية، ما الذي يبقى؟ تبقى الطاعة.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

اللذة و السعادة :

والله الذي لا إله إلا هو أكثر من إنسان في المقياس الدنيوي هو في القمة، يقول لي بصراحة ما بعدها صراحة: أنا أشقى الناس، مللت من المال، مللت من الطعام والشراب، اسمعوا هذه الكلمة لم يسمح الله للدنيا مهما كانت عظيمة أن تمد الإنسان بسعادة مستمرة، تمده بلذة متناقصة، اللذة شيء، والسعادة شيء، السعادة إحساس مادي، يأتي من طعام طيب، أو من ثياب جيدة، أو من بيت فخم، أو من زوجة جميلة ، اللذة إحساس هذا الإحساس يتناقص، وإن كان الإحساس بمعصية، يلتقي بامرأة بالحرام ينتهي هذا اللقاء بكآبة، ينتهي بتأنيب الضمير، ينتهي بالضياع، أما السعادة فتنبع من الداخل، اللذائذ تأتي من الخارج، اللذائذ طابعها حسي، اللذة تحتاج إلى مال، إلى جمال، إلى طعام، إلى بيت، إلى مركبة فارهة، اللذائذ طابعها حسي، وأسبابها حسية، وكلها خارج ذاتك تأتي من الخارج، أما السعادة الحقيقية فهي نفسية وليست حسية، تنبع من داخلك، أنا لا أبالغ -إن شاء الله- قد تجد شاباً بغرفة قميئة، لا يملك شيئاً من المال، يأكل الكفاف لكنه متصل بالله، هذا أسعد ألف مرة من شاب آخر في سنه غارق في النعيم لكنه بعيد عن الله، عظمة هذا الدين أنك إذا طبقته تكون أسعد الناس، بل إنني أقول: ينبغي أن تقول ليس على وجه الأرض أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أكبر أنواع الإكرام للإنسان من الله عز وجل أن يهبه أولاداً بررة :

الابن من دون هدف عبء، وقد يكون عاقاً، صار بلاء، أقسم لي أخ ليس من رواد المسجد، إنسان مؤمن، عنده ابن عاق يتفنن بإزعاجه، قال لي: والله إذا دُهس لأقيمن مولداً احتفالاً بموته، من شدة عقوق هذا الابن، الابن بلاء أحياناً، أما ابن المؤمن أقسم لكم بالله فيمكن أكبر هدية يأخذها المؤمن من الله ابنه أحياناً، أكبر هدية، ابن مطيع، بار، أديب، محسن، في خدمة أبيه، هذا ابن وهذا ابن؟ أنا أقول لك كمؤمن، كأن الله عز وجل قال:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

[سورة الطور الآية 21]

أحد أكبر أنواع الإكرام لك أيها المؤمن أن يهبك الله أولاداً بررة.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

يتعب، يشقى حتى يقطف ثمار تعبه في خريف العمر ابنه يتخلى عنه، ويؤثر امرأته على أمه وأبيه.

(وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

الفرق الكبير بين دنيا المؤمن ودنيا غير المؤمن :

أخواننا الكرام، دعكم من الموازنة بين مؤمن وبين غير مؤمن من حيث الآخرة، والله في الدنيا الفرق كبير جداً، بيت المؤمن له خصائص، زواج المؤمن له خصائص، إنجاب المؤمن له خصائص، تربية المؤمن لها خصائص، مستقبل علاقة الأبناء بأبيهم للمؤمن لها خصائص، هناك تبدل جذري، أحياناً يكون الفرق بالدرجة، أحياناً بالطبيعة هناك نحاس وهناك ذهب، أما الذهب فهناك أربع وعشرون، وواحد وعشرون، و ثمانية عشر، نقول: الفرق بالدرجة، بالعيار، أما الفرق بين الذهب والتنك فليس بالعيار، الفرق كبير جداً، التنك من أخس المعادن والذهب من أثمن المعادن.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

يمضي حياته في شقاء ما بعده شقاء، فرق كبيرٌ كبير بين دنيا المؤمن ودنيا غير المؤمن، والله دنيا المؤمن جنة، بل الله عز وجل حينما قال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن الآية: 46]

من اصطلح مع الله كسب الدنيا و الآخرة :

لذلك أيها الأخوة، أنت حينما تصطلح مع الله تكسب الدنيا والآخرة، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، بينما الجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً، والشيء الواقع أن الإنسان يعيش بالدنيا إذا ما عرف الله، وما اتجه للدين، يتقدم بالسن، كلما تقدم سنه ضعفت إمكانية الاستمتاع بالحياة، بعد أن ينضج يأتي ملك الموت، إلى أين؟ عندما كان بالدنيا فكر في كل شيء إلا هذه الساعة، لم يعد لها إطلاقاً، هذه أخطر ساعة، الله عز وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

[سورة الملك الآية: 2]

بدأ بالموت لأنه كما قال النبي الكريم:

((فوا الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[الجامع الصغير عَنْ حَمْزَةَ بْن حُمْرَانَ]

لا يوجد خيارات، الطفل حينما يولد أمامه آلاف الخيارات، أما عندما تأتي المنية فلا سبيل إلا إلى سبيلين إما إلى جنة يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفذ عذابها، فالبطولة، والذكاء، والعقل أن تعد للآخرة، هذا الذي يتميز به المؤمن، فإذا أعددت للآخرة عندك طمأنينة لو جاء الموت لك عند الله شيء:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة فصلت الآية: 30]

أنت حينما تؤمن لك الدنيا والآخرة، لك في الدنيا جنة، وفي الآخرة جنة، وحينما يبتعد الإنسان عن الله عز وجل ضحى بدنياه وآخرته معاً.

الدنيا دار تكليف لا دار تشريف :

لذلك أيها الأخوة، أهل الدنيا إذا ارتقوا بالدنيا، واستمتعوا بها، وجمعوا المال الوفير وأنفقوه على ملذاتهم، وعلى شهواتهم، هذه أوقات محدودة وتنتهي، البطولة في النهاية، الله عز وجل قال:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف الآية: 128]

لذلك هذه الدنيا يجب أن تكون ممراً وليست مقراً لأنها دار تكليف لا دار تشريف، لأنها منزل عمل لا منزل جزاء، العمل هنا هو الجزاء في الآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (41-70) : تفسير الآيات 56 - 57 ، المنافق له ازدواجية، بينما المؤمن واضح .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-02-25

بسم الله الرحمن الرحيم

العطاء هو السمة الأساسية الجامعة المانعة للإنسان المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة والخمسين وهي قوله تعالى:

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)

الحقيقة التي لابد من التمهيد لها في هذا الموضوع ولهذه الآية أن البشر عند الله صنفان لا ثالث لهما، في قوله تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل]

الآن الصنف الأول:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

الحسنى هي الجنة، صدق أنه مخلوق للجنة، وبناء على هذا التصديق اتقى أن يعصي الله، وبناء على إيمانه بالجنة جعل همه الأول العمل الصالح، والعمل الصالح عطاء، تعطي من وقتك، من مالك، من جهدك، من شأنك، من حكمتك.

إذاً البشر عند الله على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، هم عند الله صنفان لا ثالث لهما، الصنف الأول صدق أنه مخلوق للجنة، وبعد هذا التصديق اتقى أن يعصي الله، طبق منهجه والتزم الأمر والنهي، وهذا الإنسان بعد أن آمن هذا الإيمان بنى حياته على العطاء، أعطى مما أعطاه الله، لذلك قال الله تعالى:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة الآية: 3]

فإذا أردت أن تسألني عن سمة أساسية جامعة مانعة للإنسان المؤمن هي العطاء.

البشر عند الله صنفان لا ثالث لهما :

1 ـ رجل عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة :

لذلك أحد المؤلفين في السير ألف كتاباً عن حياة النبي عليه الصلاة والسلام وقدّم له بمقدمة رائعة قال: "يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من زكيت سيادة العقل، ونهنهت غريزة القطيع، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع فعشت واحداً بين الجميع، يا من كانت الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، ومشكلات الناس عبادتك".

لذلك قالوا: يقع على رأس الهرم البشري زمرتان؛ الأقوياء والأنبياء، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء ملكوا الرقاب، والأنبياء ملكوا القلوب، الأنبياء عاشوا للناس، والأقوياء عاش الناس لهم، وكل إنسان على وجه الأرض لابد من أن يكون تابعاً لقوي أو نبي، فالبطولة أن تكون تابعاً لنبي، لذلك الآية الكريمة:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل الآيات : 1-7]

الرد الإلهي على إنسان آمن بالله أولاً، واتقى أن يعصيه ثانياً، وبنى حياته على العطاء ثالثاً أن الله سبحانه وتعالى ييسره لطريق سعادته،

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

أي يستقيم على أمر الله، يعمل الصالحات، يربي أولاده، يتقن عمله، معطاء، كريم، حليم، لطيف، هذه مكارم الأخلاق مجموعة عند الله تعالى، فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً، إذاً

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

2 ـ و رجل غفل عن الله فتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فهلك في الدنيا والآخرة

الصنف الثاني:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآيات :8-9]

لماذا استغنى عن طاعة الله؟ لأنه آمن بالدنيا ولم يؤمن بالآخرة، لماذا بنى حياته على الأخذ؟ لأنه آمن بالدنيا ولم يؤمن بالآخرة، فهذا الذي بخل، واستغنى، وكذب، العقيدة تكذيب السلوك أخذ، الإساءة واضحة في سلوكه، أنا أرى ولن تجد على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة صنفاً ثالثاً:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل الآيات: 5-9]

هذا الذي كذب بالآخرة، وصدّق الدنيا، هذا الذي بنى حياته على الأخذ سيموت، وقد يترك ثروات طائلة، بعد أن قال الله عز وجل:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

[سورة الليل الآية: 8-11]

لذلك أندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، في بعض الآثار النبوية أن الميت في أثناء تشييعه ترفرف روحه فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة علي.

فالبطولة ألا تندم، لأن الإنسان حينما يخطئ سوف يندم.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر الآيات: 92 -93]

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة الآية: 36]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

[سورة المؤمنون الآية: 115]

مستحيل، فلابد من يوم يحاسب فيه الإنسان عن كل عمل عمله في الدنيا.

بطولة الإنسان أن يعيش المستقبل وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا :

البطولة لا أن تعيش الماضي، كنت، وسافرت، وأنفقت، واشتريت، وبعت، ولا أن تعيش الحاضر، لكن البطولة أن تعيش المستقبل، وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

لذلك الآية التي سبقت هذه الآية هي قوله تعالى:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 55]

الإنسان إذا ابتعد عن الله مقاييسه مادية، فإذا رأى إنساناً غنياً، قوياً، له بيت فخم جداً، مركبة فارهة، يتمتع بسيطرة على الآخرين، يقول: هنيئاً له، لكن إذا عرفت الله لا تقل هذا لأنه لا هنيئاً إلا للمؤمن:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

لا يمكن أن تصح التهنئة الحقيقية إلا إذا عرف الله.

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

ضعاف الإيمان ينافقون للمؤمنين لابتغائهم الدنيا :

الآية دقيقة جداً:

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ)

لأنه حينما يكون الإسلام قوياً ينافق غير المسلمين للمسلمين، إذا كانت الجهة الثانية هي القوية ينافق لهم أيضاً، أما إذا كان الإسلام قوياً فضعاف الإيمان أو البعيدون عن الإيمان ينافقون للمؤمنين،

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ)

لأنهم يبتغون بهذا النفاق الدنيا، يبتغون المكاسب المادية، يبتغون أن ينالوا مع المؤمنين ما ينالوا، لذلك

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ)

طبعاً من بديهيات اللغة أنه إذا سألك إنسان كم الساعة؟ تقول له: الساعة السابعة، متى تقسم له؟ إذا أنكر عليك، معقول الساعة السابعة؟ تقول: والله الساعة السابعة، مثلاً، فالإنسان يحلف حينما يقع في موقف إنكار، فهؤلاء منافقون، والمنافق في الأساس كافر، لكن حياته مع المؤمنين فاضطر أن ينافق للمؤمنين، عندنا بالأساس:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

(مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، لا يزيدون عن هذين الصنفين.

التفكر في خلق السموات والأرض أقصر طريق إلى الله :

لكن القرآن الكريم في أول البقرة بيّن أصنافاً ثلاثاً؛ هناك مؤمن واضح وضوح الشمس:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض]

الأمور في الإسلام واضحة، العمل تحت ضوء الشمس، جهاراً نهاراً، هذا دين الله، دين الله لا يستحيا به، ولا يخاف إنسان أن يطبق منهج الله عز وجل، السبب أن الإنسان أعقد آلة في الكون هذا تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، الإنسان يتمتع بخصائص حتى في جسمه لم يصل أحد إلى نهايتها، بالدماغ مئة و أربعون مليار خلية سمراء استنادية لم تعرف وظيفتها بعد، أربعة عشر مليار خلية قشرية، الذاكرة مكانها في الدماغ حجمها بحجم حبة العدس، تتسع لسبعين مليار صورة، فالإنسان معجز في خلقه، والله سبحانه وتعالى فقال:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

الله جعل جسمك أقرب آية إليك، لأن التفكر في خلق السموات والأرض هو في الحقيقة أقصر طريق إلى الله، بل هو أوسع باب ندخل منه على الله، لأن التفكر في خلق السماوات والأرض يضعك وجهاً لوجه أمام عظمة الله.

برأس الإنسان ثلاثمئة ألف شعرة تقريباً، لكل شعرة وريد، وشريان، وعصب، وعضلة، وغدة دهنية، وغدة صبغية، بعينه هناك طبقة قرنية هذه شفافة شفافية تامة، ما معنى شفافة شفافية تامة؟ هذه الطبقة القرنية تتغذى بطريقة تنفرد بها، الخلية الأولى تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، وتنقله عبر الغشاء الخلوي، فلو غُذيت هذه القرنية في العين عن طريق أوعية الشعر الدقيقة للدم لرأينا ضمن شبكة، لكن الله عز وجل قال:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[سورة التين]

فالإنسان إن أراد أن يعرف الله فليتفكر في خلق السموات والأرض، وليتفكر في جسمه.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[سورة عبس]

إلى شرابه، مم خلق؟

(خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

[سورة الطارق]

تداول الأيام بين الناس :

إذاً أنت حينما تؤمن الإيمان الذي أراده الله لابد من أن تستقيم على أمر الله، أما المنافق فليس على أمر الله، مع مصالحه، وشهوته، ومكانته، لكن وجد بمجتمع الإسلام قوي فينافق، عامة الناس إما أن ينافقون لأهل الحق إذا كان الحق قوياً، أو ينافقون لأهل الباطل إذا كان الباطل قوياً، والحقيقة الآية الكريمة:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 140]

شاءت حكمة الله المطلقة أن يكون تداولاً بين الحق والباطل، لو كان الحق مسيطراً دائماً لارتفعت نسبة المنافقين إلى درجة كبيرة، لو كان الباطل مسيطراً الإيمان يضعف، فالله لحكمة بالغةٍ بالغة جعل الحق والباطل يتداولان القوة، مرة يكون القوي هو المؤمن، و مرة يكون غير المؤمن هو القوي، على كلٍّ الإنسان يمتحن في الحالتين.

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)

الله عز وجل نفى أن يكون هؤلاء.

صيغة ليس منا من أشد صيغ الردع في سنة النبي عليه الصلاة والسلام :

لذلك أريد أن أبين أن في بعض الأحاديث النبوية أحاديث كثيرة تبدأ بقول النبي ليس منا، أنت كل بطولتك، وكل تفوقك، وكل توفيقك، أن تكون من المؤمنين، أن تكون منهم، لا أن تكون معهم، أن تكون منهم، فالله عز وجل كما بيّن النبي الكريم قال:

((ليس منا من غَشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

ما قولكم أيها الأخوة أن الإنسان إذا غش بنص كلام النبي الصحيح ليس من أمة محمد.

((ليس منا من غَشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

أنت تغش هناك كذب، المؤمن لا يكذب، تعلن عن بضاعة من مصدر معين غالية جداً هي ليست كذلك، أنت إذا أردت أن تفرز الناس في هذه الأحاديث فهناك مشكلة كبيرة جداً.

((ليس منا من غَشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

وأنا أرى أن صيغة ليس منا من أشد صيغ الردع في سنة النبي عليه الصلاة والسلام، ليس منا:

((ليس منا من غَشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

الغاش كاذب، الغاش يقدم بضاعة سيئة تحت مسمى بضاعة جيدة، الغاش يؤذي المسلمين، الغاش يسرق أموالهم بطريقة احتيالية:

((ليس منا من غَشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

وأنا أتمنى على الأخوة المشاهدين أن ينتبهوا لنصوص كثيرة تبدأ بليس منا، ما بعد كلمة ليس منا كلام خطير جداً، النبي الكريم ينفي الإيمان أصلاً عن الإنسان إذا غش.

((ليس منا من غَشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

((ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن))

[سنن أبي داود عن أبي سعيد]

كلام الله، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، القرآن كون ناطق، والكون قرآن صامت، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي.

عظمة الأنبياء تنبع من انعدام المسافة بين أقوالهم وأفعالهم :

أنا أرى الآن أن الإسلام لا ينتشر ولا يقوى عوده إلا إذا رأى الناس مسلماً يمشي أمامهم على قدمين، مسلم يمشي أمامهم، صادق، أمين، متقن لعمله، لأن هذه القيم الأخلاقية لا تعيش بالكتب.

مرة أديب من أدباء مصر الكبار، قال: هناك أدب الكتب، وهناك أدب الحياة، أدب الكتب ينبع من كتب ويصب في كتب، أما أدب الحياة فأنت حينما تلتقي بإنسان صادق وقد صدق فدفع ثمن صدقه غالياً، أو إنسان أمين، هذا له تأثير في حياتك أكثر من ألف كتاب أخلاقي، الإنسان يحب أن يرى القيم ممثلة في إنسان، لذلك:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

[سورة الأحزاب الآية: 21]

عظمة الأنبياء كانت تأتي من أين؟ الناس حينما عايشوهم لم يجدوا في حياتهم مسافة بين أقوالهم وأفعالهم، والآن أي داعية إذا حرص حرصاً لا حدود له على ألا يرى الناس مسافة بين الأقوال والأفعال هذه الدعوة تنجح، والآية الدقيقة جداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الصف]

المؤمن واضح أما المنافق فنراه مع المؤمنين بجسمه لا بأخلاقه ولا بكسب ماله

الحقيقة الآية الكريمة:

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ)

لكن الله ينفي عن هؤلاء أن يكونوا من المؤمنين لأنه يبدو في ظرف معين المؤمنون أقوياء، المنافقون يتقربون إليهم بالنفاق، هؤلاء ليسوا مؤمنين.

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ)

في المكاسب، لذلك لماذا يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء الآية: 145]

لماذا؟ لأن المنافق أخذ ميزات المؤمنين المادية، وتمتع بوهمه بالتفلت من منهج الله عز وجل، جمع بين ميزات المؤمنين المادية وبين التفلت الكامل من منهج الله عز وجل، هذا في الدرك الأسفل، أما مع الأسف الشديد فالكافر واضح وضوح الشمس، والمؤمن واضح، من هو الذي يسبب إشكالاً شديداً للمجتمع؟ المنافق، تراه مع المؤمنين بجسمه لكن لا تراه بأخلاقه، ولا بكسب ماله، ولا بإنفاق ماله، فهذا أخذ ميزات المؤمنين، وتحرك وفق هوى نفسه من دون ضوابط، فلذلك:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

اختلاف مقاييس المؤمن عن مقاييس أهل الدنيا :

أخواننا الكرام، كأن هذه الآية تكمل آية سابقة، الله عز وجل قال:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

المؤمن معه مقاييس غير مقاييس أهل الدنيا، مقياسه قيمي، مقياسه مبدئي، مقياسه بقدر تحقيق هدفه في الدنيا، هذا مقياسه، علامة الإيمان أنه لا يعبأ بالمظاهر الفخمة في الحياة، وقد يكون أنيقاً، وقد يكون بيته لطيفاً، المطلوب أن يكون هناك أناقة، و نظافة، و ذوق، هذا شيء مطلوب، أنا أقول دائماً: من قال الأناقة والنظافة والترتيب والأذواق العالية من خصائص أهل الدنيا؟ هي من خصائص المؤمنين.

((فأصْلحُوا رحَالكُم، وأصلحوا لِبَاسَكُم، حتى تكونوا كأنَّكم شَامَةٌ في النَّاس))

[أخرجه أبو داود عن ابن الحنظلية سهل بن الربيع]

لكن المؤمن مع هذه الأناقة الظاهرة، والنظافة الواضحة هو أخلاقي، هو طاهر من الداخل أيضاً، لا يوجد عنده حقد، ولا احتيال، ولا مخادعة، عنده موقف معلن، وموقف حقيقي، لا يوجد عنده ظاهر

وباطن، عنده شيء للاستهلاك الخارجي، وشيء يعيشه خطأ، هذا شيء دقيق جداً.

فلذلك ينهى المؤمنين،

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

هناك مظاهر صارخة للأغنياء، بيت فخم جداً، مركبة فارهة، دخل فلكي، هذه المظاهر مؤقتة.

كل مخلوق يموت ولا يبقـــى إلا ذو العزة والـــجبروت

*** * ***

والليل مهما طـــــــال فلابد من طلوع الـــفجر

والعمر مهما طـــــــال فلابد من نزول الـــقبر

*** * ***

علة وجود الإنسان في الدنيا أن يعرف الله عز وجل :

البطولة أن تعيش المستقبل، والله عز وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: 2]

إذاً ينهانا الله عز وجل على أن نعجب بأموالهم وأولادهم، الفخامة، والأناقة، والغنى، والإنفاق الفلكي، والدخل المتميز، إلى آخره، أنت في الحياة بمهمة.

إذا كان في مدرسة البطولة الدراسة، والاجتهاد، والنجاح، أما مقعد على النافذة مسلٍّ، فهذا المقعد لا يقدم ولا يؤخر في مستقبل هذا الطالب، فإذا هو حرص على مقعد إلى جانب النافذة كي يتسلى أثناء الدرس، أو أتى بطعام نفيس جداً، شطائر مثلاً، أو لعبَ ألعاباً أمامه على كمبيوتر مثلاً، والدرس قائم، يكون قد ابتعد عن علة وجوده، فالبطولة أن تعرف علة وجودك في الدنيا، أنت في الدنيا من أجل أن تعرف الله، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

الله عز وجل في آية سابقة قال:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ)

هذا تصريح إلهي، المنافق ليس مؤمناً، المنافق هو كافر لكنه وجد في مجتمع إيماني، تقتضي مصالحه أن ينافق لهؤلاء المؤمنين.

الحكمة من جعل القرآن الكريم عربياً :

أخواننا الكرام، من لقطات اللغة العربية، لماذا الله عز وجل جعل هذا القرآن عربياً؟ قال:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

[سورة الشعراء]

طبعاً علماء اللغة يؤكدون أن اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية، كلام موضوعي ليس لأننا عرب، لا، من أرقى اللغات الإنسانية.

مثلاً، أنت تقول باللغة نظر، وهناك رأى، و لمح، و لاح، و حدج، و حملق، و بحلق، ونظر شزراً، وشخص، هناك مئة كلمة للنظر، شخص النظر مع الخوف، حدج النظر مع المحبة، حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم، رنا النظر مع المتعة، منظر جميل، بحر صاف، فكل كلمة نظر معها فعل ثان، معها خاصة ثانية، فاللغة العربية متسعة بالعبير، والذين درسوا اللغة العربية كاختصاص يأتون بأقوال لكبار علماء اللغة في العالم، يقولون: هذه اللغة من أرقى اللغات الإنسانية، لأنها لغة متصرفة، لغة مصرفة أي عندك مثلاً فعل ثلاثي عرف، اسم الفاعل عارف، اسم المفعول معروف، صيغة المبالغة عرّاف، المصدر معرفة، اسم فاعل، اسم مفعول، اسم آلة، اسم زمان، اسم مكان، صيغة تفضيل، اللغة العربية لغة اشتقاقية، يمكن أن تولد من كلمات محدودة آلاف الكلمات، لغة اشتقاقية، تنفرد بها، مثلاً: كتاب، هذا مكتب، الآن كتب: فعل ثلاثي كتب، كتب فعل ماض، الطاولة مكتب، هذا كتاب، من لغة واحدة، باللغة الأجنبية: "تيبل، بوك، رايت" هذه من فعل، وهذا من فعل، وهذا من فعل، فاللغة العربية لغة اشتقاقية، إذا الإنسان تبحر في خصائص هذه اللغة يعلم لماذا اختارها الله لغة لكلامه، والحقيقة المؤلمة جداً، والله سافرت إلى بلاد كثيرة، لكن مرة سافرت إلى استراليا، وزرت أضخم مدرسة فيها، مكلفة عشرات الملايين من الدولارات جمعوا لي الطلاب في قاعة كبيرة، وأنا حينما أبلغوني أنه سنأتيك بمترجم لأن أبناء الجالية الإسلامية لا يعرفون اللغة العربية إطلاقاً شعرت بحزن كبير، بينما الأعداء أي طفل من أطفالهم يتقن اللغة التي نشأ عليها آباؤه، و هذه مشكلة كبيرة جداً.

فاللغة هي وعاء الثقافة، والنبي أشار إلى هذا المعنى، وهذه النظرية تتفق مع أحدث نظرية في القومية، كلام النبي الكريم: " ليست العربية بأحدكم من أب و لا أم، ولكن من تكلم العربية فهو عربي".

إذا الإنسان تكلم هذه اللغة أخذ ثقافة الأمة، أخذ قيمها، أخذ مبادئها، أخذ مقاييسها الجمالية: " ليست العربية بأحدكم من أب و لا أم، ولكن من تكلم العربية فهو عربي".

اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية :

نحن كمسلين قد تعيش مع كتاب البخاري عشرات السنين، ولا يخطر على بالك لثانية واحدة أنه ليس بعربي، لأن الإسلام جمعنا جميعاً، ودائماً حينما نريد أن نقوى يجب أن نعلن انتماءنا لجميع المسلمين، الآن عدد المسلمين مليار وثمانمئة مليون، يتربعون على مناطق أولى في العالم إستراتيجية، يملكون ثروات لا يعلمها إلا الله، لكن لو أنهم تعاونوا وتناصروا لكانوا أقوى قوة في الأرض، والذين ابتعدوا عن الدين عملوا مجتمعات موحدة، العملة موحدة، انعدام القيود في السفر، ينتمون إلى عشرات القوميات، واللغات، وهناك حروب طاحنة بينهم، ومع ذلك اقتضت مصلحتهم أن يجتمعوا، فالأولى بنا أن نجتمع.

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ)

لكن كلقطة لغوية، قال: من تفيد ابتداء الزمان قبل المكان، سافرت من عمان إلى دمشق، من ابتداء المكان، وانتظرتك من الصباح حتى المساء، من ابتداء الزمان، هناك معنى آخر: من للتبعيض، بما أنفقتم من أموالكم، من أموالكم للتبعيض.

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة البقرة الآية: 159]

القاعدة في اللغة القرآنية أن كل أمر يقتضي الوجوب.

(وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة الآية: 159]

أو إذا أنفقتم مالكم كله، هكذا قال العلماء، إذاً من للتبعيض، من للابتداء، ابتداء المكان، أو الزمن، عندنا من بيانية، اشتريت ثوباً من القطن، بينت نوع الثوب، نوع خيوطه، من القطن، هناك من تعليلية ارتجفت من الخوف لا من البرد، من الخوف هذه من تعليلية، الآن إذا دخل أستاذ إلى صفه وقال: لكل طالب جائزة، كل طالب أمامه، لكن هناك طالب غائب، ليس له جائزة، أما لو قال: ما من طالب في هذا الصف إلا وله جائزة، حتى الغائبون لهم جائزة، سموها هذه المن لاستغراق أفرد النوع.

قال لك إنسان: أمعك مال كي ننشئ شركة تجارية رأسمالها مليون؟ قلت له: ما معي مال، أي ما معك النصف مليون، الكلفة مليون، والشركة بين اثنين كل واحد نصف مليون، ما معك النصف، أما إذا قلت له: ما معي من مال، ولا قرش، إذا قال من فلها معنى، ما معي من مالٍ، ولا قرش، ولا درهم، أما ما معي مالٌ كافٍ لهذا المشروع، فهذه المن لاستغراق أفراد النوع.

قد تأتي من بمعنى في، قال تعالى:

(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ)

[سورة فاطر الآية: 40]

وقد تأتي بمعنى إلى، اقتربت منك، أي اقتربت إليك، وقد تأتي بمعنى الباء، أمسكت من يده أي بيده، وقد تأتي بمعنى عن لا تبتعد من المكان، وقد تأتي بمعنى على، لعل الله ينصرنا من القوم الكافرين، هذه دقة اللغة، هذه اللغة من أرقى اللغات الإنسانية.

من أخطر الموضوعات في حياة المؤمن أن يعرف هل هو مؤمن أم لا ؟

لذلك كلمة:

((ليس منا من غَشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

قست عليها أحاديث كثيرة، ليس منا، النبي الكريم نفى عن هذا الإنسان انتماءه للإيمان، الآية:

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ)

هذا من أخطر الموضوعات في حياة المؤمن، أن يعرف هل هو من المؤمنين أم ليس منهم؟ هو يدعي ذلك، كلٌ يدعي وصلاً بليلى، لكن البطولة أن تكون منهم حقيقة،

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ)

لذلك تتبعت بعض النصوص النبوية ليس منا فوجدت العجب العجاب.

((ليس منا من غَشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

ما قولك تصلي وتصوم، تضيف إلى بعض المواد الغذائية مادة تجعلها ناصعة لكنها مسرطنة، لا تعبأ بنتائج تناول هذه المادة التي هي من صنعك، قد تعبأ بالربح الزائد، ليس منا نفى عنه الانتماء إلى الإسلام أصلاً:

((ليس منا من غَشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

((ليس منا من لم يتغنَ بالقرآن))

[سنن أبي داود عن أبي سعيد]

كلام خالق الأكوان، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، لا تعلم حقيقة هذا الدين:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية]

الصغير يحتاج إلى أن ترحمه و تعطف عليه :

((لَيْسَ مِنا مَن لم يَرحَمْ صغيرَنا، ويُوِّقرْ كَبيرنا))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

الصغير يحتاج إلى أن ترحمه، يحتاج إلى أن تعطف عليه، يحتاج إلى أن تحسن إليه، لأن الصغير كما ورد في بعض الآثار:

((لاعب ولدك سبعاً، ثم أدبه سبعاً، ثم راقبه سبعاً، ثم اترك حبله على غاربه))

[ورد في الأثر]

في مرحلة لابد من الملاعبة والتحبب، فالذي يقسو على أولاده الصغار هذا إنسان بعيد عن منهج الله عز وجل، أما في مرحلة فتحتاج إلى مراقبة.

((لاعب ولدك سبعاً، ثم أدبه سبعاً، ثم راقبه سبعاً، ثم اترك حبله على غالبه))

مرحلة ملاعبة حتى يتحبب إليك، مرحلة تأديب هذا غلط، هذا حرام، هذا لا يجوز، مرحلة مراقبة، المراهق وضعه صعب جداً، إن عاملته ككبير يخيب ظنك، وإن عاملته كصغير لا يحتمل ذلك، فيحتاج معالجة حكيمة جداً:

((لاعب ولدك سبعاً، ثم أدبه سبعاً، ثم راقبه سبعاً، ثم اترك حبله على غالبه))

في بعض الروايات:

((ويعرف لعالمنا حقه))

[أحمد عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ]

((ليس منا من لم يأمر بالمعروف ولم ينهَ عن المنكر))

[كنز العمال عن ابن مسعود]

لماذا؟ لأن الله عز وجل حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

علة هذه الخيرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن كف الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدوا خيريتهم كلياً.

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لذلك:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر - الصحابة صعقوا- قالوا: يا رسول الله، وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر ونهيُتم عن المعروف؟))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

وقد وصل المسلمين إلى هذا المستوى، فكان عجبهم أشد قالوا:

((قالوا: يا رسول الله، وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُ منه سيكون، كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً))

هنا الصاعقة:

((قالوا: وما أشد منه؟ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً؟))

هذا الزمن زمن تبدل القيم، هذا البيت الذي قاله شاعر في الجاهلية، وعده العلماء أهجا بيت قالته العرب:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

هذا الآن شعار كل إنسان، البيت الذي كان أهجا بيت قالته العرب شعار كل إنسان الآن.

ما دام دخله قوياً، ودخله كبيراً، وبيته واسعاً، وعنده سياحة، وسفر، وغارق في الملذات الدنيوية، هذا يعد عند الناس ناجحاً نجاحاً كبيراً، لذلك:

((هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينهَ عن المنكر))

[كنز العمال عن ابن مسعود]

الدنيا لم يسمح الله لها أن تمدَّ الإنسان بسعادة دائمة بل بسعادة متناقصة :

((ليس مِنا مَن تَشبَّه بغيرنا))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

باي، ما هذه باي؟ السلام عليكم، من تشبه بغيرنا، أحياناً الإنسان يستمد مكانته المتوهمة من تقليده للأجانب.

((لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه))

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

والله مرة قابلني شاب في الشام آلمني جداً، بنطاله فيه ثلاثة ثقوب كبيرة، والله تألمت جداً، كتبت عندي في دفتري الخاص- وكنت مسافراً إلى استراليا- بعد أن أعود أقدم له بنطالاً جديداً، هناك في أستراليا تفاجأت أن شباباً، أولاداً أغنياء أيضاً هناك ثقوب ببنطالهم، إذا كان الغربيون باعوا بنطالاً فيه ثقوب فصار هذا شيء مقدس عند الناس، شاب يرتدي ثوباً فيه رقع أحياناً، فيه تقطيع غير نظامي، شيء مزعج، هذا من ضعف إيمان الإنسان، حياته ملّ منها، الحياة تُمل بكل شيء، إذا لم يكن هناك هدف كبير، ما السبب؟ هذا موضوع دقيق جداً، الموضوع الدقيق أن الإنسان خلق لمعرفة الله، فالله زوده بنفس لا نهائية، أي هدف نهائي يمل منه، أي هدف محدود هو مصمم لمعرفة الله عز وجل، إذا اختار هدفاً محدوداً يمل منه، تجلس مع إنسان كبير، مع إنسان غني، تجده ملّ من حياته، هذه الدنيا ما سمح الله لها أن تمدك بسعادة دائمة بل بسعادة متناقصة.

لذلك الآية الكريمة:

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)

يخافون.

الوصف الدقيق للمنافقين :

والتي بعدها:

(لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)

[سورة التوبة]

إذاً خوفهم دفعهم أن يلجؤوا إلى شيء، إلى حصن حصين، إلى ملجأ، إلى مغارة، إلى نفق، خوفهم من الخسران، وأن يكشف أمرهم، وهم يكذبون، المؤمن لا يكذب، المنافقون يكذبون، يدّعون أنهم مؤمنون ليأخذوا من مكاسب المؤمنين، هم في الحقيقة ليسوا مؤمنين، لذلك هذا الموقف الازدواجي أخلّ بتوازنهم، وكل إنسان يرتكب عملاً سيئاً، أو ينافق، أو يكذب، أو يعبر عما ليس في نفسه يختل توازنه، فإذا اختل توازنه لجأ كما إلى يسمى في علم النفس الدفاع عن النفس، فيلجؤون إلى ملجأ يحتمون به، الملجأ رمز.

(أَوْ مَغَارَاتٍ)

والمغارة لا يكشف أمرها،

(أَوْ مُدَّخَلاً)

أي نفق،

(لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)

كيف أن الفرس تجمح فتنطلق بأقصى سرعة، إذاً يعبرون عن خوفهم الشديد من أن يفضحوا، لذلك المؤمن لا يخشى شيئاً؛ ليله كنهاره، سره كعلانيته، سريرته كظاهره، الوضوح عند المؤمن يجعله مطمئناً، أما غير المؤمن فله موقف مزدوج، موقف معلن، موقف حقيقي، يفعل في البيت ما لا يفعله أمام الناس، فهذه الازدواجية في السلوك تجعله في حالة نفسية اسمها اختلال التوازن، هذا الاختلال يسوقه إلى أن يلجأ إلى ملجأ، أو مغارة، أو مدخل أي نفق

(لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)

كجموح الفرس أي ينطلق بأعلى سرعة، وهذه الآية تعطي وصفاً دقيقاً للمنافقين، كيف يظهرون ما لا يبطنون، يعلنون ما لا يعتقدون، هذا الموقف الازدواجي موقف من صفات المنافقين، أما المؤمن فواضح، ومع الأسف والكافر واضح، بينما المنافق ازدواجي الشخصية، عنده حالة مزدوجة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (42-70) : تفسير الآيات 58 - 59 ، فرق بين الهمز واللمز.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-03-04

بسم الله الرحمن الرحيم

اللمز :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والخمسين وهي قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

لا زال الحديث عن المنافقين، لكن:

(وَمِنْهُمْ)

من للتبعيض، أي بعض هؤلاء المنافقين،

(يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

أي في موضوع الصدقات، ما هو اللمز؟ الله عز وجل قال:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ)

[سورة الهمزة]

ما هو الهمز؟ الحقيقة هو السخرية من الآخرين، فأنت حينما تسخر فأنت هماز، حينما تعيب على الآخر بغير حق فأنت هماز، حينما تسخر بإشارة منك، أو بحركة، أو بابتسامة، أو بتعبير بعضلات الوجه، كل أنواع التعابير، وليست كلاماً، وقد تكون كلاماً، هناك إنسان يبني مكانته على أنقاض الآخرين، هذا أسلوب غير جيد هذا أسميه قناص، يبني مكانته على قنص الآخرين، على إظهار عيوبهم، على الوقوف عند سلبياتهم، هذا الإنسان القناص يبني مجده على أنقاض الآخرين، أما المؤمن فمن كماله أنه يتعامل مع الآخرين بإيجابيتهم، وفرق كبير بين أن تتقصى النواحي السلبية في الإنسان وبين أن تتقصى النواحي الإيجابية، والموضوعية كما أقول دائماً قيمة علمية أخلاقية في وقت واحد، أنت إذا كنت موضوعياً فأنت عالم في أحكامك، وأنت إذا كنت موضوعياً فأنت أخلاقي في سلوكك.

بطولة الإنسان أن يكون موضوعياً :

لذلك حينما استعرض النبي الكريم أسرى بدر فوجئ أن صهره زوج ابنته مع الأسرى جاء ليحاربه، فقال عليه الصلاة والسلام: "والله ما ذممناه صهراً".

ما هذه الموضوعية؟ إنسان جاء ليحاربك، ومع ذلك لا تنسى إيجابياته.

فلذلك البطولة أن تكون موضوعياً، وأنا لا أصدق أن يكون العالم موسوعياً لكنه ليس موضوعياً، فالموضوعية جزء من علم العالم، أنت أخلاقي إذا كنت موضوعياً، وعالم كبير إذا كنت موضوعياً، وفي هذه الموضوعية يلتقي العلم مع الأخلاق، فلما رأى صهره، قال: "والله ما ذممناه صهراً".

وأنا أتصور أن سبب إسلام صهره هذا الموقف الموضوعي، فأنا لا أقول أن المسلم يمكن أن يتعامى عن الخطأ، لكن إذا كان هناك خطأ لا ينسى معه الصواب، فأنا أرى أن المسلمين تنقصهم الموضوعية.

لذلك الآية الكريمة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ)

ما قال: هم يلمزونك، قال: منهم، هذا حكم موضوعي.

الموضوعية قيمة أخلاقية وعلمية :

أحياناً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ)

[سورة البقرة الآية: 8]

أكثر الكلمات من الناس.

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء الآية: 159]

هذا موضوع، موقف موضوعي، لا يوجد به تعميم.

مرة كنا في الجامعة نناقش رسالة الدكتوراه، قال المشرف كلمة لا أنساها ما دمت حياً قال: التعميم من العمى، فالذي يعمم أعمى، لا تقل كل أهل هذه البلدة، لا تقل أهل هذه البلدة ليسوا كما ينبغي، قل: بعضهم، لو تتبعت بالقرآن لرأيت أن الله عز وجل قال في الآيات ومنهم أي بعضهم، فأنا أقول الموضوعية قيمة أخلاقية، والموضوعية قيمة علمية، وأنت إذا كنت موضوعياً فأنت أخلاقي، وأنت إذا كنت موضوعياً فأنت عالم، والعلماء تنقصهم هذه النقطة، أحياناً هناك انحياز أعمى إلى جهة معينة، هذا هو التعصب، والنبي الكريم يقول:

((وليس منا من قاتل على عصبيَّة، لَيسَ مِنَّا مَنْ دَعا إلى عَصبيَّة))

[أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم]

البطولة أن تكون موضوعياً، أن تقاتل، أو أن تتحرك وفق منهج، وفق مبدأ، وفق قيمة.

الهمز و اللمز :

لذلك هؤلاء:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ)

اللمز هو النقد، والنقد سراً، هذا اللمز، الهمز النقد علناً، دائماً الضعفاء يلمزون، والأقوياء يهمزون، الآن الأقوياء يهمزون لا يخافون، ينتقدون خصومهم على الملأ، أما الضعفاء ففيما بينهم سراً يلمزون، فالنبي الكريم بيّن عن هذه الآية أشياء كثيرة، قال:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

قال بعضهم في أصل الصدقة، هم يتوهمون أن إنساناً بذل جهداً كبيراً وجمع مالاً، يأتي الفقير ويأخذه بلا تعب، هذا منطلق أهل الدنيا، لكن بمنطلق الآخرة والحقيقة أقول كلمة دقيقة: إن آمنت بالآخرة الإيمان الذي أراده الله يجب أن تنعكس مقاييسك، هناك مقاييس مستنبطة من قوانين الأرض، مجتمع عنده ظروف معينة، من هذه الظروف المعينة يستنبط قوانين، مثلاً بالمجتمع الصناعي المتقن يبيع أكثر، الآن بمجتمع آخر الذي يمدح يرتقي، مستنبطة هذه المقاييس من واقع اجتماعي معين، إلا ن المؤمن يتحرك وفق مقاييس الله عز وجل، لا تأخذه بالله لومة لائم، ينطق بالحق ولو كان مراً.

قال له: يا أبا حنيفة لِمَ لا تتغشانا، قال له: ولِمَ أتغشاكم ـ للمنصور ـ وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه؟ إنك إن أكرمتني فتنتني.

أبو حنيفة أيضاً رأى غلاماً أمامه حفرة، قال له: إياك يا غلام أن تسقط- قصده في الحفرة- فقال له هذا الغلام: بل إياك يا إمام أن تسقط، إني إن سقطت سقطت وحدي، وإنك إن سقطت سقط معك العالم.

إذاً اللمز هو النقد سراً، والهمز هو النقد علانية، والضعفاء يلمزون، والأقوياء لا يلمزون سراً بل يهمزون علانية.

الإيمان بالآخرة يدفع الإنسان إلى عمل صالح :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

موضوع الصدقات في أصله المنافقون رفضوه، إنسان يتعب وإنسان لم يتعب، لكن أنت حينما تؤمن بالآخرة يجب أن تنعكس مقاييسك لأن الإيمان بالآخرة يدفعك إلى عمل صالح، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، أما أنت فحينما تؤمن أن هذه الدار دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل فرح لا منزل ترح.

في بعض الخطب النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن هذه الدنيا دار التواء))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

أي ينجح في عمله لا ينجح في بيته، ينجح في زواجه قد لا ينجح في تربية أولاده، ينجح في زواجه وفي تربية أولاده لكن دخله أقل من حاجته، هناك مشكلة.

((إن هذه الدنيا در التواء لا دار استواء))

ولحكمة بالغةٍ بالغة هذه الدنيا لا تستقيم لإنسان، لو استقامت لكره لقاء الله، لو استقامت كما يتمنى لكره لقاء الله عز وجل.

المؤمن خاضع لمنهج الله عز وجل وهذا هو الإسلام الحقيقي :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

لماذا الصدقة؟ إما أنه ينتقد أصل الصدقة، أو ينتقد كميتها، أو ينتقد طريقة أخذها أو إنفاقها، هناك نقد، غير المؤمن قناص، لكن المؤمن كما قال الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

هذه ما كان نفي الشأن، وهو أشد أنواع النفي في اللغة، إذا سألت إنساناً وهو إنسان محترم جداً هل أنت سارق؟ هل يقول لك: لا؟ يقول لك: ما كان لي أن أسرق، هذا نفي الشأن، لا أريده، ولا أدعو له، ولا أرضاه، ولا أقره، ولا، ولا، بعض علماء النحو عدوا اثني عشر معنى من نفي الشأن.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

مع وجود آية قطعية الدلالة، مع وجود حديث صحيح، يلتغى اجتهاد المؤمن، الاجتهاد متى؟ في آية ظنية الدلالة، في موضوع لم يرد فيه نص يقيني، هنا الاجتهاد، أما في قضية واضحة فلا يوجد اجتهاد، أنت مؤمن خاضع لمنهج الله عز وجل، وهذا هو الإسلام الحقيقي.

العلاقة بين الأمر القرآني والنبوي علاقة علمية :

بل إن القرآن الكريم أكّد في كل آياته أن الأنبياء جميعاً مسلمون، بمعنى استسلموا لمنهج الله عز وجل، فالإنسان أعقد آلة في الكون، تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، ولهذه الآلة صانع حكيم، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة.

فانطلاقاً من حرصنا على سلامتنا وعلى سعادتنا ينبغي أن نطيع ربنا، العلاقة بين الأمر والنتيجة التي ينتهي إليها، والعلاقة بين النهي والنتيجة التي ينتهي إليها علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة، كيف؟ لو أن طفلاً وضع أصبعه على مدفأة مشتعلة تحترق، نقول: هناك علاقة علمية بين وضع الأصبع على المدفأة واحتراقها، علاقة علمية، لكن لو أن للبيت مدخلين، أعطى الأب أمراً لأولاده أن استخدموا هذا الباب، فأتى ابن و خالف هذا الأمر، فعاقبه الأب، لا يوجد علاقة علمية بين عقاب هذا الابن وبين دخوله من باب في الأساس معد لدخوله، لكن هذا في علاقة وضعية.

أحياناً يكون الأمر لمصلحة معينة، لكن لا يوجد علاقة علمية، لكن ينبغي أن نؤمن جميعاً كمؤمنين أن العلاقة بين الأمر القرآني والنبوي علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة.

حقّ العباد على الله إذا هم عبدوه عبادة صحيحة ألا يعذبهم :

لذلك قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون ومنهج النبي مطبق فيهم، طبعاً الآية في حياة النبي لها معنى معروف، لكن ما معناها بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى؟

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون ومنهج النبي مطبق في حياتهم،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ)

هنا ما كان نفي الشأن

(لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

لذلك النبي الكريم أردف سيدنا معاذ:

((قال له يا معاذ: ما حق الله على عباده؟ قال: أن يعبدوه، - سأله سؤالاً آخر- قال له: يا معاذ ما حق العبادة على الله إذا هم عبدوه؟ قال: ألا يعذبهم))

[البخاري عن معاذ]

ما قولك؟ أي الله عز وجل أنشأ لنا حقاً عليه، حق العباد على الله إذا هم عبدوه عبادة صحيحة ألا يعذبهم، فأنت في مأمن من عذاب الله.

من يتبع منهج الله عز وجل لا يضل عقله ولا تشقى نفسه :

أنا أقول دائماً:

(فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة الأحقاف الآية: 13]

أنت الآن الساعة الفلانية كذا وكذا، هناك ماض وهناك مستقبل، الله عز وجل أعطاك ضمانتين ألا تخاف من المستقبل، وألا تندم على ما فاتك من الماضي، لذلك مما يروى عن سيدنا الصديق أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، والله عز وجل يقول:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه]

أي لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة]

اجمع الآيتين، الذي يتبع منهج الله عز وجل لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى على ما هو آت، ماذا بقي من السعادة في الدنيا والآخرة؟

من عرف الآمر ثم عرف الأمر تفانى في طاعة الآمر :

لذلك الآية الكريمة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ)

هذا المنافق لم يعبأ بتشريع الله عز وجل، لم يرَ هذا التشريع من عند خالق السموات والأرض، لم يرَ هذا التشريع من عند العليم الحكيم، من عند الرحمن الرحيم، من عند القوي الحكيم، أنت حينما تعرف من هو القائل، من هو المرسل، تعرف قيمة الأمر.

أنا أقول دائماً: إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر، وهذا شأن معظم المسلمين اليوم، هم في مدارسهم تعلموا الحرام، والحلال، الزنا، والقتل، والرشوة، وما إلى ذلك، لكنهم ما بذلوا وقتاً لمعرفة الخالق.

لماذا الصحابة الكرم بقوا في مكة والآيات تتأتى تتحدث عن اليوم الآخر وعن خالق السموات والأرض؟ أنا أقول: بكل دعوة أسلامية مرحلة مكية، ومرحلة مدنية، المرحلة المكية التعريف بالله، التعريف بالآمر، التعريف باليوم الآخر، وفي المرحلة المدنية تفاصيل التشريع.

فنحن إذا اكتفينا في دعوتنا إلى الله ببيان تفاصيل هذا التشريع، ولم نلق بالاً إلى تعظيم الله عز وجل لأن الآية الكريمة:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)

[سورة الحاقة]

لماذا؟ قال:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

آمن بالله، ما آمن به عظيماً، إبليس آمن، قال ربي:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

قال:

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

لكن ما آمن به عظيماً،

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

فالعبارة أن تؤمن بالله العظيم، الآية الكريمة تنصب على كلمة عظيم، لأن أي إنسان ولو كان عاصياً يؤمن بالله، الملحدون قلائل جداً في الأرض، معظم أهل الدنيا آمنوا بالله خالقاً، لكن الذي يعظمه من خلال التفكر في خلق السموات والأرض هو الذي يعظم أمره.

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الدنيا بعد الإيمان بالله :

إذاً

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

صدقة نزل بها أمر إلهي، قرآن، والنبي فصل، هم لا يرونها تشريعاً يصلح لهم، هم توهموا أنهم جمعوا المال بجهدهم، والثاني أخذه وهو فقير، لكن أنت حينما تعلم في الدنيا أنك من أجل عمل صالح، والدليل: الإنسان إذا وافته المنية ماذا يقول؟

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

معنى ذلك أن علة وجود الإنسان في الدنيا بعد الإيمان بالله، علة وجودك العمل الصالح، فالإنسان حينما يأتيه ملك الموت يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

أنت جاء الله بك إلى الدنيا كي تعمل عملاً يؤهلك لدخول الجنة، الإنسان يدرس سبع سنوات في الجامعة حتى يعمل في الطب مثلاً، حتى يكون له دخل معقول، ويكون له بيت معقول، ومركبة معقولة، وزوجة معقولة، فالإنسان عندما يتحرك حركة في الأرض، الحركة هذه منوطة بأهدافه، أنا الذي أتمنى أن يكون واضحاً أن المؤمن يعظم أمر الله، بينما غير المؤمن يستخف بأمر الله عز وجل.

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)

[سورة نوح]

هذا الإله العظيم أنزل قرآناً، القرآن كون ناطق، والنبي الكريم قرآن يمشي.

على الإنسان أن يميز بين الإنسان النفعي و الإنسان المبدئي :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

يلمزك؛ ينتقدك، يعيب عليك في أصل الصدقة، أو يعيب عليك في حجمها، خمسة بالمئة كثير، أو يعيب عليك في طريقة أخذها ودفعها، يعيب عليك ثلاثة موضوعات، إما بأصلها كمبدأ، أو في أخذها وإنفاقها، أو في طريقة دفعها، إنهم ماديّون:

(فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا)

إذا ناله نصيب يرضى بها، معنى هذا أنه نفعي، هناك إنسان نفعي وهناك إنسان مبدئي، المؤمن مبدئي، غير المؤمن نفعي، لذلك هو مستعد أن يقبل أي شيء تقوله، ما دام في منفعة، هذا يكشف الإنسان، يقول لك إنسان فرضاً: أنا لا آكل مالاً حراماً، أحياناً يأتيه مبلغ فلكي، يقول: أنا مضطر عندي أولاد، أخذه، فهو امتُحن وبالامتحان رسب:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

معنى هذا أنه نفعي، إيمانه أو سبب إيمانه المادة، إذا كان هناك مادة يقرك على أي شيء، إذا لم يكن هناك نفع يرفض أي شيء، إذاً هناك تفرقة كبيرة بين الإنسان النفعي والإنسان المبدئي.

القوي بمنصبه أو بماله أو بعلمه ينشر العلم بين الناس :

أنا أقول دائماً: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، لأن القوي متاح أمامه من العمل الصالح ما لم يتح لغيره، فالذي معه مال وفير أنا أقول: القوة؛ قوة المال، قوة العلم، قوة المنصب، وهذا كلام دقيق، إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، والنبي الكريم يؤكد هذا المعنى يقول:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلّ خير))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هو جبار خواطر، لكن إذا كنت قوياً معنى ذلك أن فرص العمل الصالح التي أمامك كبيرة جداً، أنت بالمال تطعم الجياع، تواسي المرضى، تنشر العلم، فالبعد عن الدنيا فيه خطأ كبير، ينبغي أن تكون في يديك لا في قلبك، لأن المسلمين بحاجة إلى قوة، والحق يحتاج إلى قوة، طبعاً عند أهل الدنيا القوة هي الحق، أنت قوي إذاً أنت على حق، مادمت قوياً القوة تصنع لك الحق، هذا عند أهل الضلال، أما عند أهل المؤمنين فالقوة شيء آخر، القوة وسيلة لتقوية الحق، فالحق ما جاء به الوحيان الكتاب والسنة، والقوة تدعم الحق، فأنا أقول: إذا كان طريق الحق سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، لأن الفرص المتاحة أمام القوي لا تعد ولا تحصى، ولأن علة وجودك في الدنيا العمل الصالح، والعمل يحتاج إلى قوة، إما إلى قوة- طبعاً القوي بمنصبه بجرة قلم يحق حقاً ويبطل باطلاً، يقر معروفاً ويزيل منكراً- أو إلى مال، فالقوي بماله يطعم الجياع، يزوج الشباب أحياناً، يرعى الأرامل، هناك أعمال لا تعد ولا تحصى، والقوي بمنصبه أو بماله أو بعلمه ينشر العلم بين الناس.

المؤمن راض عن الله عز وجل :

لذلك هؤلاء المنافقون ما عبئوا بمنهج الله، ولم يعرفوا من هو القائل، ما قدروا عظمة هذا القرآن الكريم، قال:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

لكنهم نفعيّون،

(فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

المؤمن راض عن الله.

قال إنسان يطوف حول الكعبة يناجي ربه: يا رب هل أنت راض عني؟ وراءه الإمام الشافعي، قال له: يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى الله عنك؟ الآية الكريمة:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

[سورة البينة الآية: 8]

قال له يا سبحان الله! أنا أتمنى رضاه فكيف أرضى عنه؟ فقال له الإمام الشافعي: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

لذلك قال سيدنا علي: " الرضا بمكروه الرضاء أرفع درجات اليقين".

دائماً السيارة لا تمتحن بالطريق الهابط بل في الطريق الصاعد، لا تحتاج إلى محرك أصلاً في الطريق الهابط، أما في الصاعد فتحتاج إلى ذلك، لذلك قالوا:" المصائب محك الرجال".

أنواع المصائب :

الإنسان يكشف على حقيقته بالمصيبة، إذاً المصائب أولاً للمؤمنين لها تعبير خاص، للمؤمن دفع ورفع، مؤمن سرعته إلى الله بطيئة، أعماله الصالحة قليلة، عباداته غير متقنة، تأتيه مصيبة تدفعه إلى باب الله بسرعة أعلى، وبنية أعلى، إما أن تدفعه فتزاد السرعة، أو أن تعلي مقامه عند الله، مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، لكن مصائب غير المؤمنين مصائب قصم وردع، يردعه، أو يقصمه، أما مصائب الأنبياء فمصائب كشف، ينطوون على حقيقة وعلى كمال لا متناه، هذا الكمال اللامتناهي يعبر عنه بحادث.

نبي كريم يذهب إلى الطائف مشياً على قدميه، ثمانون كيلو متراً، وصل إليهم يدعوهم إلى السعادة في الدنيا والآخرة، آذوه، وكفروا به، وشتموه، وأغروا صبيانهم به، لكن الذي لا يصدق أن الله سبحانه وتعالى أرسل له ملك الجبال، قال له: "يا محمد أنا طوع أمرك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، قال: لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده".

إذاً مصائب غير المسلمون مصائب ردع- إذا كان فيه بقية خير- أو قصم، مصائب المؤمنين مصائب دفع أو رفع، مصائب الأنبياء مصائب كشف، هناك حقيقة لا تظهر إلا بوضع صعب.

أن يأتي مشياً للطائف على قدمين، أن يكذبوه، أن يسخروا منه، أن يغروا أولادهم بضربه، يأتيه ملك الجبال، يقول له: "لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين، قال: لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون".

المصائب هي النعم الباطنة :

لذلك مصيبة المؤمن مصيبة دفع أو رفع، الله عز وجل قال:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان الآية: 20]

قال بعض علماء التفسير المصائب هي النعم الباطنة، الآية الكريمة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

إذاً هو مادي، ما دام هناك مادة يرضى عنك، إن لم يكن هناك مكسب مادي يسخط عليك، الآية الكريمة:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

[سورة التوبة]

كأن الله تمنى عليهم أن يرضوا بعطاء الله، أن يرضوا بنصيبهم من الله عز وجل، والحقيقة من علامة المؤمن الرضا عن الله عز وجل، راض عن الله، نحن عندنا أشياء، لكن أنت مسير بأمك وأبيك، أنت لم يختارهم، أنت مسير بمكان ولادتك، مسير في وقت ولادتك، مسير كونك ذكراً أو أنثى، مسير في قدراتك العامة، في كونك ذكر أو أنثى، ومن فلان أو فلانة، وفي مدينة كذا، وفي عصر كذا، وفي قدرات عامة، أنت حينما تؤمن إيماناً مبنياً على علم دقيق أن الله عز وجل أقامك في أكمل حال يناسبك، الآن إنسان عنده ألم لا يطاق في بطنه، هذا مكانه ليس مكان جميل وإطلالة على البحر، يحتاج إلى مستشفى، فدائماً الله عز وجل يسوق للعبد ما يناسبه لكن البطولة أن تؤهل نفسك للإكرام، الله عز وجل في الحديث القدسي يقول:

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلى صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض علي منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنتهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم لولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

الله عز وجل يسوق للعبد ما يناسبه لكن البطولة أن يؤهل الإنسان نفسه للإكرام :

كأن الله تمنى على هؤلاء أن يرضوا ما أتاهم، أي أن تكون راضياً عن الله شيء رائع جداً، إن رضيت عن الله عز وجل قربك الله عز وجل، خالق الأكوان، ملك الملوك، قيوم السموات والأرض، القوي، الغني، الرحيم، الحكيم، ساق لك هذه المشكلة، أو جعلك بهذا الوضع، أو جعلك في كفاف.

مرة قال لي إنسان: دخلي يقابل مصروفي، قلت له: إذاً أصابتك دعوة النبي، قال: ماذا دعا عليّ؟،

قلت: قال: من أحببني فاجعل رزقه كفافاً.

أحياناً يكون عندك شيء يغطي حاجاتك، لكن لا يوجد عندك شيء يكون زلة قدم، لأن الإنسان عندما يموت ورد في بعض الآثار:

((روحه ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم والتعبة علي))

[ورد في الأثر]

والله مرة حدثني أخ أبكاني، قال لي: قريبي ترك ألف مليون، رأيت ابنه بعد يومين في الطريق، قلت له: إلى أين أنت ذاهب؟ قال: أريد أن أشرب الخمر على روح والدي.

الإنسان إذا لم يربِّ أولاده عنده مشكلة كبيرة، وضع بين أيديهم مالاً وفيراً يكون هذا المال سبب فسقهم، وفجورهم، والأب يحاسب على ذلك، فنحن نريد أن ينتبه الابن، أو ينتبه الأب أن أولاده سيحاسب عنهم، والدليل قول النبي الكريم:

((خير كسب الرجل ولده))

[أحمد عن أبي بردة بن نيار]

قال:

(فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا)

[سورة التوبة الآية:58]

مادي إذاً.

المؤمن إنسان مبدئي وغير المؤمن إنسان نفعي :

المؤمن مبدئي، قال النبي الكريم:

((لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

هذا المؤمن، المؤمن إنسان مبدئي، غير المؤمن نفعي، بالمال يسكت، تعطيه يسكت لأن مشكلته مشكلة مال فقط.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ)

ملك سأل جواريه: اطلبي وتمني، كل واحدة طلبت شيئاً، هذه تريد بيتاً، و هذه تريد قصراً، كل واحدة طلبت، إلا أن واحدة قالت: أنا أريدك أنت، قال: أنا وما أملك لك؟ لذلك ورد في بعض الآثار:

((من أحببنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا))

أنت تقول: حسبي الله ونعم الوكيل،

(وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

من يرفض الدين يحتقر نفسه :

لذلك الإنسان أحياناً يحتقر شيئاً فيرفضه، عرضوا عليه بيتاً صغيراً وثمنه غال رفضه، لماذا رفضه؟ احتقاراً له، قد تعرض عليك فتاة للزواج، لكن أخلاقها ليست كما تتمنى رفضتها، الإنسان يرفض في حياته آلاف الأشياء احتقاراً لها، إلا أنه إذا رفض هذا الدين احتقر نفسه، فرق كبير، قال تعالى:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة الآية: 130]

أنت حينما ترفض هذا الدين تحتقر نفسك، لأنك المخلوق الأول والدليل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية:72]

الإنسان هو المخلوق الأول و المكلف بعبادة الله عز وجل :

أنت المخلوق الأول المكرم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

[سورة الإسراء الآية: 70]

أنت المخلوق المكلف؛ مكلف أن تعبد الله.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، أنت مخلوق مكرم، مكلف، مخلوق أول، من عرف نفسه عرف ربه، جئت إلى الدنيا من أجل أن تدفع ثمن الآخرة، وأكبر دليل:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

إذا عرفت سرّ وجودك.

لو أن أباً أرسل ابنه إلى باريس للدراسة، مدينة عملاقة، واسعة جداً، فيها معاهد، فيها جامعات، فيها أسواق، فيها ملاه، فيها نوادٍ ليلية، فيها حدائق، فيها متاحف، فيها كل شيء نقول: هذا الطالب الذي

أرسله أبوه إلى باريس ليدرس لينال الدكتوراه علة وجوده في هذه الدنيا شيء واحد هي الدراسة، فإذا غفل عن سرّ وجوده فهو أغفل الغافلين.

العبادات الشعائرية لا نقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

أنا أتمنى على الأخوة المشاهدين أن يعلموا علم اليقين ما علة وجودهم في الدنيا الدليل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

لكن قد يفهم الناس العبادة فهماً ساذجاً، يظن الناس العبادة أن تصلي فقط، وأن تصوم، وأن تحج بيت الله الحرام، وأن تزكي فقط، مع أنه يوجد عندنا آيات وأحاديث دقيقة جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

سأل مرة النبي أصحابه:

((أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذه الصلاة، الصيام:

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ بهِ ، فليسَ للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

الحج:

((من حج من مال حرام ووضع رجله في الركاب، وقال: لبيك اللهم لبيك، قال: لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك))

[الأصبهاني في الترغيب عن أسلم مولى عمر بن الخطاب]

الزكاة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

إذاً العبادات الشعائرية كالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والنطق بالشهادة إن لم يصاحبها استقامة على أمر الله، وتطبيق لمنهجه، لا يمكن أن تقطف ثمارها إطلاقاً، لذلك لما سأل النجاشي سيدنا جعفر أجابه:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

هذا يقتضي عبادات شعائرية، وهناك عبادات تعاملية، والعبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا كانت عبادات تعاملية، وهذا معنى الاستقامة على أمر لله.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الآيات حافزاً لنا على طاعة الله عز وجل:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (43-70) : تفسير الآية 60، الصدقة تعني صدق النية مع الله سبحانه وتعالى، الفرق بين الفقير والمسكين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-03-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان هو المخلوق الأول والمكرم و المكلف بطاعة الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة عشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، كما تعلمون الإنسان هو المخلوق الأول، لقوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية:72]

هو المخلوق الأول، والمخلوق المكرم.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء]

لكن الذي أركز عليه أن الإنسان هو المخلوق المكلف، كلف أن يعبد الله، وفي أدق تعريفات العبادة: أنها طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية.

العمل الصالح علة وجودنا بعد الإيمان بالله :

لذلك العبادة طاعة، طاعة فيما أمر، واجتناب لما نهى عنه وزجر، ولكن هناك شيء آخر، العبادة طابعها أن تمتنع عن كل ما نهاك الله عنه، ولكن الإنسان خُلق للجنة، والجنة لها ثمن، ما ثمن الجنة؟ العمل الصالح، جاء الله بنا إلى الدنيا من أجل أن نعرفه أولاً، وأن نتقرب إليه ثانياً بالعمل الصالح، فكأن علة وجودنا بعد الإيمان بالله العمل الصالح.

ولو وضحت هذا بمثل أن أباً أرسل ابنه إلى باريس لينال الدكتوراه، مدينة عملاقة كبيرة، فيها معامل، فيها حدائق، فيها متاحف، فيها ملاه، فيها دور لهو، فيها كل شيء لكن هذا الطالب الذي أرسله أبوه لينال الدكتوراه من السوربون، علة وجوده الوحيدة في هذه المدينة أن ينال الشهادة.

فلذلك الإنسان حينما يعلم علة وجوده تصح حركته، أوضح مثل: إنسان سافر إلى بلد معين وسأل: إلى أين أذهب؟ نحن نعجب من سؤاله، نقول له: لماذا جئت إلى هنا؟ إن جئت طالب علم فاذهب إلى الجامعات، وإن جئت سائحاً فاذهب إلى المتنزهات، وإن جئت تاجراً فاذهب إلى المعامل والمؤسسات، فالحركة في أي مكان لا تصح إلا عرف سبب المجيء، فأحد أكبر علائم الإيمان، أحد أكبر مرتكزات الإيمان، أحد أكبر الخصائص الإيمانية أن تعرف سرّ وجودك في الأرض، أنت في الأرض من أجل أن تعبد الله، إما أن تكتشف هذا بالبحث، والدرس، والتأمل، أو أن تعرفه من النص، كما قال الله عز وجل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

فكأن العبادة معرفة أولاً، وطاعة ثانياً، معرفة وطاعة، فأنت لن تخضع لجهة لا تعرفها، لابد من أن تعرف الله.

والإمام علي رضي الله عنه يقول: "أصل الدين معرفة الله".

السبب أنك إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر، وهذا حال بعض المسلمين، الآمر لم يجهد نفسه لمعرفته، لكن بين يديه الأوامر، درسها في التعليم الإعدادي، والثانوي، والجامعة، هناك أمر، هناك نهي، هناك حرام، هناك حلال، هذه الأوامر بين يديه، لكن الآمر ما عرفه، فلذلك انصياعه لهذا الأوامر ضعيف، وهذا يفسر ضعف حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

لذلك الله عز وجل خلقنا كي نعرفه، وخلقنا أيضاً من أجل أن نتقرب إليه، وهذا التقرب إلى الله يقوم على شقين، على شق الاستقامة، وعلى شق العمل الصالح، الاستقامة ترك، يقول لك المستقيم: أنا ما أكلت مالاً حراماً، ترك، أنا لم أفعل المعاصي، لم، لم، الاستقامة طابعها سلبي، تركت، لكن لا يكفي أن تمتنع عن المعاصي والآثام، هذا الواحد الديان الذات الكاملة ينبغي أن تتقرب إليه، فإذا كان طابع الاستقامة الترك والامتناع فطابع العمل الصالح البذل والعطاء، فحجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح، فرق كبير بين أن تعمل صالحاً صدفة، عرض عليك عمل فعملته، وبين أن تستيقظ صباحاً، وهمك الأول العمل الصالح، فقد ورد:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

للتقريب أيضاً: الطالب حينما يلتحق بالجامعة ويعلق آمالاً كبيرة على نهاية المطاف في هذه الجامعة، يتصور أن له مستقبلاً كبيراً، بزوجة، ببيت، بمكانة اجتماعية، بدخل كبير، فإذا علق أهمية كبيرة على هذه الجامعة ينصرف إليها بكل طاقاته، بكل شؤونه، بكل اهتماماته. فعلى الإنسان أن يعرف أنه في الدنيا من أجل العمل الصالح.

العمل الصالح يصلح للعرض على الله بنيته وبموافقته للمنهج :

هناك دليل قوي جداً وقاطع أن الإنسان حينما يأتيه ملك الموت يقول هذه المقولة الشهيرة:

(رَبِّ ارْجِعُون * لَعَلِّي أعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

معنى هذا أن الإنسان يندم عند الموت على سبب وجوده في الدنيا، وهو العمل الصالح، فإذا ركز المؤمن على هذه الحقيقة، فإذا أصبح بحث عن عمل صالح، وإذا أمسى بحث عن عمل صالح، سبحان الله! الأعمال الصالحة متنوعة جداً، حتى إن بعضهم قد قال: الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وأنت في البيت إذا كنت زوجاً صالحاً فهذا عمل صالح، إذا كنت أباً صالحاً فهذا عمل صالح، إذا كنت ابناً صالحاً فهذا عمل صالح، إذا اعتنيت بأولادك هذا عمل صالح هذا في البيت، في الطريق غض البصر عمل صالح، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمل صالح، دخلت إلى محلك التجاري ما دمت صادقاً.

((التَّاجِرُ الأمينُ الصَّدُوقُ مع النَّبيِّينَ))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

ما دمت صادقاً، تبيع بضاعة جيدة بسعر معتدل، تحسن لمن حولك، هذا عمل صالح فكأن الله جعل العمل الصالح يدور معك حيثما ذهبت، في أي مكان هناك عمل صالح، أحياناً الأمر بالمعروف عمل صالح كبير، النهي عن المنكر عمل صالح، غض البصر عمل صالح، النصيحة عمل صالح، الدعوة إلى الله عمل صالح، لذلك ما معنى عمل صالح؟ هذا العمل يصلح للعرض على الله بنيته وبموافقته للمنهج.

شرطا العمل الصالح :

بالمناسبة العمل الصالح له شرطان أساسيان، استنبطه بعض المفسرين من قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية: 19]

متى يرضى الله عن العمل؟ قال: إذا كان خالصاً، وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله وحده، الإخلاص، وصواباً ما وافق السنة، فالعمل الذي يشم منه أنه مخلص لكن ليس فيه موافقة للسنة لا يقبل، يانصيب خيري! هذه مخالفة للسنة مثلاً، يقول لك: حفل غنائي يرصد ريعه للأيتام، العمل الصالح ينبغي أن يكون خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، هذا معنى قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

فالانضباط وفق المنهج، والإخلاص في النية، هذان الشرطان يرفعان العمل إلى أن يكون صالحاً للعرض على الله عز وجل.

العمل يدفن مع الإنسان فإن كان كريماً أكرمه وإن كان لئيماً أسلمه :

مرة ثانية: الإنسان في النهاية حينما يأتيه ملك الموت، ترك بيته، ترك أهله، ترك أولاده، ترك منصبه الرفيع، ترك دكانه، ترك تجارته، ترك، ترك، لا يبقى معه إلا شيء واحد هو العمل الصالح، فهذا العمل يدفن مع الإنسان وهو حي، العمل حي، والإنسان يدفن معه وهو ميت، فإن كان كريماً أكرمه، وإن كان لئيماً أسلمه.

هذه المقدمة من أجل هذه الآية، حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

طريق خشية الله أن تتعرف إليه و تعرف عظمته وتخضع لأمره :

أخوتنا الكرام، كلمة إنما عند علماء النحو أداة قصر وحصر، أي إذا قلت: إنما شوقي شاعر، أي شوقي شاعر فقط، ليس كاتب مسرحية، وليس أديباً، وليس كاتب قصة، وليس تاجراً، إنما شوقي شاعر، إن ما بعدها مقصور على شيء معين، الله عز وجل قال:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر الآية: 28]

معنى إنما هنا العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، طريق خشية الله بنص هذه الآية أن تتعرف إليه، إنك إذا عرفت الآمر، عرفت عظمته، خضعت لأمره، إن لم تعرف عظمته تفننت في معصيته.

لو فرضنا وقع تحت يدك كتاب في الفلك، وعلمت أن بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، في الساعة ضرب ستين، في اليوم ضرب أربع وعشرين، في العام ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، بأربع سنوات ضرب أربع، ابنك الصغير خلال دقائق على آلة حاسبة يحسب لك المسافة بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب، أربع سنوات ضوئية، هذه المسافة لو أردت أن تقطعها بمركبة أرضية لاحتجت إلى خمسين مليون عام، خمسون مليون عام كي تقطع أقرب مسافة بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب لها، الآن نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، المرأة المسلسلة مليونا سنة ضوئية، بعض المجرات أربع وعشرين ألف مليون سنة ضوئية.

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة]

هذا الإله يعصى؟ هذا الإله ألا يخطب وده؟ ألا ترجى جنته؟ ألا تخشى ناره؟ فلذلك حينما نعرف من هو الله نخضع له، نستجيب له، نتفانى في طاعته، فمعرفة الآمر ضرورية جداً بطاعته، حينما تصورنا أن الدين فقه فقط، أحكام فقهية، ولم ننتبه إلى معرفة الآمر ضعفت الاستقامة في العالم الإسلامي، لأن النبي الكريم حينما جاء إلى أهل مكة بقي معهم أعواماً طويلة يحدثهم عن الله وعن اليوم الآخر، لذلك أكثر السور المكية تتحدث عن ذات الله، وعن ألوهيته، وعن ربوبيته، وعن الدار الآخرة، فهذه المرحلة في كل دعوة ضعيفة الآن في هذه الأيام، القوية الأمر والنهي أما البطولة فأن تجمع بين الآمر والأمر.

توزيع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء :

طبعاً هذه المقدمة من أجل أن أعلم لماذا أنا أتصدق؟ لأنني جئت إلى الدنيا من أجل عمل صالح يعد سبباً لدخول الجنة، لأن علة وجودي في الدنيا العمل الصالح، لأن العمل الصالح يرفعني، والدليل قوله تعالى:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر]

فالله عز وجل في هذه الآية الكريمة -الآية الستون- من سورة التوبة يقول:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ)

طبعاً لحكمة بالغة بالغةٍ بالغة وزع الله الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، في الدنيا هناك فقير، وهناك غني، هناك قوي، وهناك ضعيف، هناك وسيم، وهناك أقل وسامة، وهناك دميم، هناك ذكي جداً، وهناك أقل ذكاء، وهناك محدود، الله عز وجل وزع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، أنت مبتلى؛ أي ممتحن، فيما أعطاك الله، وفيما زوى عنك، ومن أدق أدعية النبي عليه الصلاة والسلام قول النبي الكريم:

((اللَّهمَّ ما رَزَقْتَني مما أحِبُّ فاجعَلْهُ قُوَّة لي فيما تُحِبُّ))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطمي]

أحببت المال فجاءك المال، اجعل هذا المال قربة إلى الله، أحببت الزواج جاءتك زوجة ترضيك، اجعل هذه الزوجة في طاعة الله.

((اللَّهمَّ ما رَزَقْتَني مما أحِبُّ فاجعَلْهُ قُوَّة لي فيما تُحِبُّ، وما زَوَيْتَ عني مما أحِبُّ))

تمنيت دخلاً وافراً فكان دخلاً محدوداً، تمنيت بيتاً واسعاً فكان بيتاً صغيراً، تمنيت أشياء كثيرة لم تتح لك، قال:

((وما زَوَيْتَ عني مما أحِبُّ فاجعَلْهُ فرَاغا لي فيما تُحِبُّ))

أنت في الحالتين رابح، إن آتاك الله ما تحب وظفته في الحق، وإن زوى عنك ما تحب وظفت الفراغ الناتج عن بعده عنك فيما تحب.

كل إنسان ممتحن فيما توافر له من حظوظ :

لذلك الآية الكريمة:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ)

أي شاءت حكمة الله أن توزع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، صار هناك غني وفقير، قوي و ضعيف، الغني يتقرب إلى الله إذا أعطى من ماله للفقير، والفقير يقبل على الله حينما يرى هذا الشرع لم ينسه، الفقير جعل الله له حقاً في مال الغني فالفقير يتقرب، والغني يتقرب، والمحسن يتقرب، والذي أحسن إليه يتقرب، وهذا شأن الحياة الدنيا، كل إنسان له حظ من الله في الدنيا، هناك حظ توافر له وحظ زوي عنه، والإنسان ممتحن فيما توافر له من حظوظ، وفيما زوي عنه من حظوظ، أنت ممتحن دائماً، ممتحن فيما لك، ممتحن فيما عليك، ممتحن فيما أعطاك، ممتحن فيما زوي عنك، ممتحن في الرخاء، ممتحن في الشدة، ممتحن في الصحة، ممتحن في المرض، ممتحن في الغنى، ممتحن في الفقر، علة وجودنا في الدنيا أنها دار ابتلاء، والخطاب النبوي الشريف هو:

((إن هذه الدنيا در التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل عطاء الدنيا لعطاء الآخرة سبب، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[الترمذي عن أنس]

إنفاق المال في طاعة الله يرتقي بالمسلم إلى أعلى الدرجات :

الصدقات، هذا المال الذي أمرك الله أن تنفقه هو الزكاة، لكن بعض العلماء تساءلوا: لماذا سميت الصدقات زكاة؟ لأنها تشف عن صدق الإنسان في طاعة الله، هناك طاعات لا تقدم ولا تؤخر، أنت حينما تتجه إلى القبلة، أمر تعبدي، لكن ما كلفك شيئاً، كلفك أن تعرف القبلة فقط، هناك عبادات كثيرة ليس لك حظ منها إطلاقاً، إلا أن إنفاق المال، المال محبب، المال شيء ثمين والدليل أنه محبب:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

[سورة آل عمران الآية، 14]

لولا أن الله أودع فينا حبّ المال لما كان للصدقة من معنى إطلاقاً، تعطي شيئاً نفيساً، الآن إنسان معه مبلغ ألف مليون، هذا لو أنفقه على مصالحه الشخصية، وعلى شهواته، هذا تمتع به كثيراً، لو أنفقه في طاعة الله لارتقى عند الله كثيراً.

مرة سيدنا عمر فيما تروي بعض الأقوال أمسك تفاحة وقال: أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت.

حتى إن النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم حينما ذبح شاة ووزعها على الفقراء والمساكين وبقي منها كتفها، فقالت عائشة: يا رسول الله! ذهبت كلها إلا كتفها، فقال مقولة رائعة، قال:

((بل بقيت كلها إلا كتفها))

[الترمذي عن عائشة]

الذي استهلكته ذهب، والذي أنفقته بقي.

لذلك الله عز وجل جاء بنا إلى الدنيا من أجل أن نعرفه أولاً، وأن نتقرب إليه ثانياً بالعمل الصالح، وهذه الآية تتحدث عن بعض الأعمال الصالحة.

تعريف الفقير و المسكين :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ)

هناك جدل طويل حول تعريف الفقير والمسكين، بعضهم يقول: الفقير هو الذي لا يجد شيئاً، والمسكين ينقصه أشياء كثيرة، إما أن تفتقد كل شيء فأنت فقير، أو أن تملك شيئاً لا يكفي فأنت مسكين، وهناك

علماء عكسوا التعريفين، على كلٍّ هناك فقير وهناك مسكين.

لكن هناك ملاحظة في القرآن دقيقة، هاتان الكلمتان إذا افترقتا اختلفتا، وإذا انفردتا اجتمعتا، أي إذا قال الله: فقراء، يعني فقراء ومساكين، وإذا قال: مساكين، يعني فقراء ومساكين، أما إذا قال: فقراء ومساكين اختلف الوضع، فالفقير الذي لا يجد شيئاً في بيته، المسكين يجد لكن غير كاف، لكن طبعاً الزكاة تعطى لكليهما، إنسان ساكن ببيت والبيت ملكه، وعنده خمسة أولاد، وعنده زوجة، ودخله محدود لا يكفي، لأن عنده بيتاً لا تعطه شيئاً، الذي لا يجد حاجته يستحق الزكاة، لأن الزكاة ينبغي أن تجعله يعيش عيشة كريمة.

حتى إن بعض الأئمة الفقهاء قال: ينبغي أن تغنيه بالزكاة عاماً، وهناك رأي آخر- وأنا مع الرأي الآخر- ينبغي أن تغنيه طوال حياته، هيئ له عملاً، اشترِ له دكاناً، اشترِ له شيئاً، آلة حبكة مثلاً، أمن له شيئاً يعيش منه طوال حياته، الزكاة ينبغي أن تغني الإنسان، أما مبلغ محدود جداً فلا يقدم ولا يؤخر، لا يكفي، النبي كان إذا أعطى أعطى شيئاً كافياً. إذاً :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)

الفقير الذي لا يجد حاجته إطلاقاً والمسكين عنده شيء لكن غير كاف.

الفرق بين الزكاة و الصدقة :

على كلٍّ الإنسان حينما يجتهد له أجره عند الله عز وجل ولو أخطأ:

((إذا حكم الحَاكِمُ فاجتهدَ فأصابَ فلهُ أجران، وإذا حَكَمَ فاجتهد فأخطأ فله أجر))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن عمرو بن العاص]

أجر من أجرين.

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)

لأن هذه الصدقة تمتن العلاقات الاجتماعية، أحياناً الغني البخيل حوله أعداء، حوله أعداء لأنهم يرون بذخه، وإنفاقه، وترفه، هم فقراء يعطيهم أجراً محدوداً جداً، أما إذا كان هذا الغني كريماً فمنح من حوله عطاءات تحقق لهم كرامتهم الإنسانية أصبح من حوله حراساً له، وفرق كبير جداً بين أن يكون من حولك يتربصون بك ويحسدونك، وبين أن يكون من حولك حراساً لك، الغني إذا فعل المعروف أحبه الناس، لذلك الآية دقيقة جداً جداً:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

[سورة التوبة الآية: 103]

معنى تطهرهم أي أن هذا المال الذي دُفع كصدقة أو زكاة يطهر الغني من الشح، ويطهر الفقير من الحقد، ويطهر المال من حق تعلق الغير به، المال متى يكون حلالاً؟

إذا أديت زكاته، متى يكون حراماً وعبئاً عليك؟ إذا لم تؤدِّ زكاته، فالزكاة تطهر المال من تعلق حق الغير به، والدليل:

(فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ)

[سورة المعارج]

إذا الله قال :

(حَقٌّ مَعْلُومٌ)

[سورة المعارج]

الزكاة معلوم، تحتاج إلى حسابات وإلى جرد، أما الصدقة :

(حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة المعارج]

إذا أضيفت كلمة معلوم فنعني الزكاة، لابد من حسابات، أن تعطي مبلغاً بحسب تقدير غير صحيح هذه ليست زكاة، الزكاة هناك جرد للمحل، والبضاعة، والنقد، وما لك، وما عليك، بعد ذلك تحسب قيمة الزكاة وتدفعها، أما الصدقة فلا تحتاج إلى هذه الدراسة، لذلك دائماً أنا أشبه الزكاة بالضريبة، لا بد من دفعها، ولا أجر لك بها، فرض على المواطن – ضريبة- أما لو قدم مبلغاً ضخماً لإنشاء ثانوية، قدمها للدولة يستحق حفل تكريم، وشكر، وثناء، لأنه قدم شيئاً فوق ما طلب منه.

على الإنسان أن يضع المال بيد من يستحقه :

لذلك الإنسان يرقى بالصدقة كثيراً، الآية الكريمة:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)

لكن نحن في توهم غير صحيح أن الفقير هو المتسول، لا، الفقير إنسان يسكن ببيت، متزوج، يرتدي ثياباً أنيقة، لكن دخله لا يكفي، فالبطولة أن تعف بهذا المال من عنده عزة وكرامة، فلذلك أحياناً الأغنياء لمجرد أنهم أنفقوا من دون دراسة أي إنسان صادفوه أعطوه هذه الزكاة، هناك نقص كبير بإنفاق المال، فيجب أن تضع المال في يد من يستحقه، لكن عندنا وهم كما قلت قبل قليل: أن المتسول فقير، لا، إنسان له عمل، وعنده زوجة، وأولاد، وبيت، لكن حاجاته أكثر من دخله، هذا عندما تعطيه حافظت له على كرامته، وعلى عزته.

الأعمال الخيرية تحتاج إلى دفع وأجور حتى يكون هذا الأجر سبباً لمحاسبة المقصر :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا)

من يعمل بجمع الأموال -أموال الصدقة - هذا عامل، يستحق هذا العمل إن كان فقيراً أو غنياً، السبب؟. بعضهم قال: أي عمل طوعي قد لا يكون متقناً، أي عمل تطوعي لا تستطيع أن تحاسب صاحبه يقول لك: الذي أخذته منك خذه مني، الآن هناك أعمال خيرية تطوعية تجد فيها تقصيراً كبيراً جداً، هناك تغيب كثير، و إهمال كثير، إهمال بالتسجيل، بالمحاسبة، يقول لك: أنا ما أخذت منك شيئاً.

هناك رأي آخر أعطِ حتى على العمل الصالح أجراً من أجل أن تحاسبه، فلذلك هناك رأي وأنا معه وهو: حتى الأعمال الخيرية تحتاج إلى دفع، وأجور، حتى يكون هذا الأجر سبباً لمحاسبته عن تقصيره.

(وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا)

الذين يعملون في جمع أموال الزكاة، وأموال الصدقات ويحتاجون إلى وقت، طبعاً المتفرغ قطعاً، حتى الإنسان الغير متفرغ إذا عفت نفسه لا يوجد مانع، أما إذا كان طلباً نعطيه حتى نحاسبه.

(لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ)

المال محبب لأن الله عز وجل قال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

فأنت حينما تعطي إنساناً مبلغاً من المال هو بحاجة إليه، وقد يكون بحاجة إليه لبعض حاجاته الثانوية، على كلٍّ هذا المال ألفت به قلبه.

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[حديث قدسي رواه البيهقي عن عمير بن وهب]

بالبر يستعبد الحر، أنا أقول دائماً: الإحسان قبل البيان، إذا كنت داعية أحسن، إنك بإحسانك تفتح قلب المستمع ببيانك، تفتح قلب المستمع بإحسانك، ليفتح لك عقله لبيانك.

مرة ثانية: تفتح بإحسانك قلب المحسن إليه، وعندئذٍ يفتح لك هذا المحسن عقله لبيانك، فالإحسان قبل البيان.

(لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا)

أي العامل على جمع أموال الزكاة يستحق من الزكاة أجراً، بصرف النظر عن كونه محتاجاً، أو غير محتاج، لكن الأورع أنه إذا كان غير محتاج، مكتف، أن يدع هذا المال لمن هو أفقر منه.

أعظم ما في هذا الدين أنه ألغى الرق إلا في حالة واحدة :

أخواننا الكرام،

(وَفِي الرِّقَابِ)

أعظم ما في هذا الدين أنه ألغى الرق، ألغى الرق بأساليب عديدة، أولاً: كان الرق له مصادر كثيرة، أي إنسان عليه دين لم يستطع أن يؤديه يؤخذ أحد أولاده عبداً، صار عبداً بسبب الدين، وأي إنسان عليه عقوبة جنائية ما وقعت عليه إلا أن يُجعل رقيقاً، فالإسلام ألغى المصادر للرق إلا مصدراً واحداً، كل مصادر الرق التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ألغيت في الإسلام، إلا مصدراً واحداً أنك إذا أردت أن تنشر هذا الدين، وحاربت أناساً منعوا أن توصل دعوتك السماوية إلى ما حولهم، فإذا أنت حاربتهم من أجل أن توصل هذه الرسالة إلى شعوبهم، لكنك إذا حاربتهم وأسرتهم، الأسر هدف منه أن القتل ليس هدفاً إطلاقاً، هذا الأسير عطل عقله عن فهم هذا الدين، عطل عقله تعطيلاً كاملاً، فأنت إذا أخذته إلى بيتك ورأى رحمتك، ورأى أنصافك، أحب الدين، هناك دعوتان: دعوة كلامية بيانية، ودعوة معاملة وإحسان، فالذي استعصى عقله عن فهم هذا الدين، قلبه مؤهل أن يحب هؤلاء المسلمين بمعاملتهم. لذلك من ألطف ما قرأته من سير الصحابة أنهم كانوا يأكلون أردأ الطعام، ويطعمون أسراهم أطيب الطعام، هذا الأسير في الأصل- التطبيق موضوع ثان- أردت أن تقنعه بالدين لا بالكلام والأدلة والبراهين والحجج، أردت أن تقنعه بهذا الدين بالمعاملة الطيبة، والإنسان عبد الإحسان، فالذي لم يؤمن بعقله، ولم يحكم عقله فيما بلغه من أدلة، فأخذ إلى بيت مؤمن عامله معاملة طيبة جداً، أطعمه مما يأكل، ألبسه مما يلبس، ما كلفه ما لا يطيق، أعانه فيما كلفه، صار مثل ابنه، كابنه تماماً.

فلذلك معظم الأسرى الذين كانوا عند الصحابة آمنوا وانضموا إلى المؤمنين، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن أسلموا فهم منكم، وأنتم منهم، بالإسلام لا يوجد تفرقة، لكن هي طريقة بدل قتل الأسير، بدل حرب الإبادة، نحن حرب هداية، لا يوجد عندنا حرب إبادة، فهذا الذي وقع أسيراً يعامل أطيب معاملة كي يقتنع بالإسلام لا بعقله بل بقلبه، هذا هو الذي أراده النبي الكريم في موضوع ملك اليمين.

الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ)

هذا بعتق الرقبة، الإسلام أنهى الرق عن طريق هذه الآية، وعن طريق جعل المغفرة من بعض الذنوب، ودية القاتل تكون بعتق العبيد، فجعل مصارف العبودية كثيرة.

حضّ الإسلام على القرض الحسن :

(وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)

الغارم الذي استدان بشكل شرعي، ليس لمعصية، أحياناً إنسان ذو فسق والفجار يقترضون من أجل معاصيهم، أما إنسان اشترى بيتاً و لم يتمكن أن يسد هذا القرض، وهذا شيء رائع كأن الشرع حض الناس على الإقراض، هناك طبقة من المجتمع لا تقبل الصدقة، عنده عزة وكرامة لا يقبل أن يكون متصدقاً عليه، هذا الإنسان يقبل القرض، فكأن الإسلام حضّ على القرض الحسن، وفي بعض الروايات أنه يعادل نصف الصدقة، إذا إنسان أقرض إنساناً مئة ألف كأنه دفع خمسين ألف صدقة بهذه الطريقة، لكن ما الذي يؤكد أن القرض أراده الله؟ جعل أحد مصارف الزكاة أن يؤدى هذا الدين ممن استدان ولم يتمكن من سداد الدين.

نشر الدين بالوسائل الحديثة نوع من الجهاد :

(وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هذه دقيقة جداً، بعض العلماء السابقين فهموها الجهاد فقط، الآن إنشاء مركز إسلامي، إنشاء دار نشر إسلامية، نشر هذا الدين بالوسائل الحديثة، هذا نوع من الجهاد.

فلذلك:

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)

حديثة وأنا معها، أي أن تقصر في سبيل الله على جهة واحدة وهي القتال، أحياناً هناك ظرف معين لا يوجد إمكان للقتال، لكن هناك إمكان لنشر الدعوة بأساليب متنوعة.

حياة النفس تحتاج إلى صدقة أيضاً :

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

هذا الذي قطع، له بيت في بلده، هو في الطريق انقطع، سرقت محفظته مثلاً، هناك حالات كثيرة، فهو ليس ابن هذا البلد ولا ابن هذه المدينة، هو ابن السبيل، ابن هذا الطريق، هذا أيضاً يستحق الزكاة من فرصها الدقيقة.

(وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ)

معنى الفرض أي الشيء الذي لا بد منه، أنا أقول لكم مثلاً: تنفس الهواء فرض، إن لم يكن هناك تنفس فهناك موت، شرب الماء فرض، تناول الطعام فرض، الآن حياة النفس تحتاج إلى صدقة، الآية الكريمة:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة الآية: 195]

تهلك إن لم تنفق، تريد عملاً ترقى به عند الله يوم القيامة، إذاً:

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (44-70) : تفسير الآية 61، إيذاء النبي ترك سنته القولية والعملية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-03-18

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الله أعظم عمل على الإطلاق :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الواحدة والستين وهي قوله تعالى:

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة الأحباب، لابد من مقدمة تلقي ضوءاً على أبعاد هذه الآية، أولاً: النبي الكريم داعية من أكبر الدعاة إلى الله، النبي عليه الصلاة والسلام الداعية الأول، والدليل قوله تعالى:

(أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)

[سورة الأحزاب]

بل إن الله سبحانه وتعالى عدّ الدعوة إلى الله أعظم عمل على الإطلاق، والذي يدعو إلى الله في مكان عليٍّ، لقوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

الدعوة إلى الله دعوتان؛ دعوة إلى الله خالصة ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله:

الأنبياء دعاة إلى الله في المستوى الأعلى، هم قمم الدعوة إلى الله عز وجل، لأنهم معصومون عن أن يخطئوا بأقوالهم، وأفعالهم، وإقرارهم، إنهم معصومون، إذاً سيرتهم تشريع، فالنبي عليه الصلاة والسلام أفعاله تشريع، وأقواله تشريع، وإقراره تشريع، معنى السنة هناك سنة قولية، وسنة عملية، وسنة إقرارية، مجموع هذه السنن القولية، والعملية، والإقرارية هذه السنن تجمعها السنة الشريفة.

فالله عز وجل بيّن أن هذا النبي هو النبي الأول، لأن الله عز وجل ختم بنبوته النبوات، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسالته خاتمة الرسل، وكتابه خاتم الكتب.

أما أن تؤذي النبي! كيف؟ لابد من تقديم؛ الدعوة إلى الله دعوتان، في هذا العصر دعوة إلى الله خالصة، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله، يهمنا أن نعرف خصائص الدعوة الصادقة، الدعوة الصادقة أساسها الاتباع، بينما الدعوة إلى الذات أساسها الابتداع، قال: اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع، أساسها الاتباع، فالله عز وجل يقول:

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ)

هو داعية إلى الله، الله عز وجل أرسله رحمة للعالمين، أرسله لهداية عباده جميعاً من دون استثناء، فالذين يؤذون النبي يؤذون أصل الدعوة، يؤذون هدية الله لعباده، فلذلك من أشقى الأشقياء؟ من وقف في خندق مضادٍ للأنبياء، أشقى الأشقياء من كان في خندق معادٍ للأنبياء، الأنبياء قمم البشر، معصومون، كمالاتهم فوق الشبهات.

إذاً هناك دعوة خالصة أساسها الاتباع، ومن خصائصها التعاون، فالتعاون سلوك حضاري، والتعاون طريق إيجابي، والتعاون دليل للتواضع، والله عز وجل قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: 2]

العبادة الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

بل إنه قد يغيب عن الإنسان أن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، أية آية تقرأها فيها أمر أو فيها نهي لك موقف منها، هناك من يتوهم أن الأوامر هي خمسة، صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، والنطق بالشهادة، هذه عبادات شعائرية يقابلها خمسمئة ألف بند بالعبادة التعاملية، والدليل لما سيدنا جعفر قابل النجاشي قال: حدثني عن هذا الدين؟ قال:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

هذه العبادة لتعاملية، وكلام دقيق دقيق العبادات الشعائرية كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، لا يمكن أن تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية، النبي سأل أصحابه:

((أتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

إذاً العبادة الشعائرية، كالصيام، والصلاة، والحج، والزكاة لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية.

الإيمان هو الخلق :

النبي الكريم أمر بالصدق، أمر بالأمانة، بالاستقامة، بالتواضع، كل مكارم الأخلاق هي عبادة تعاملية، وحينما غفل المسلمون عن العبادة التعاملية وصلوا إلى ما وصلوا إليه، لأن الله عز وجل حينما وصف النبي، هو نبي، ورسول، و يوحى إليه، و، و، كل هذه الخصائص أغفلها الله لما مدحه قاله:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

لذلك قال الإمام ابن القيم: الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

فهذا الإنسان الذي دعا إلى الله ينبغي أن يكون مطبقاً لمنهج رسول الله، وينبغي أن يتعاون مع بقية الدعاة، عندنا تنافس، وعندنا تعاون، التنافس سلوك متخلف، أما التعاون فسلوك حضاري، فالداعية إلى الله المخلص يتبع، ويتعاون، ويعترف بالآخر، هناك مصطلح جديد اسمه الإقصاء، الإنسان الذي له مصلحة مادية في الدعوة، أو يحصل مكاسب دنيوية من الدعوة، يريد أن يقصي الآخر، ألا يدع مجالاً للآخر أن يتعاون معهم إطلاقاً.

إيذاء النبي ليس بشتمه ولا بضربه ولكن بعدم استجابة دعوته :

لذلك الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، لكن في حدود ما تعلم ومع من تعرف، الذي أريد من هذه الآية أن من هم الذين يؤذون النبي؟ أي قد يتوهم متوهم أن إيذاء النبي تسبه أو أن تضربه مثلاً، هذا مستحيل في قوله تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة الآية:67]

لكتن الإيذاء هنا ألا تؤمن به، الإيذاء ألا تستجيب له، مثلاً الطفل الذي علق أباه على دراسته أمالاً كثيرة، أكبر إيذاء لوالده ألا يدرس، الطفل قد يكون مؤدباً، أكبر إيذاء يقوم به الابن تجاه والده ألا يدرس فقط.

فإيذاء النبي ليس بشتمه، ولا بضربه، إيذاء النبي بعدم استجابة دعوته، لأن رحمته كبيرة، هو أرحم الخلق بالخلق، فإذا رأى إنساناً شرد عن الله يتألم له لا عليه، لذلك الكبار يغضبون لا لذواتهم يغضبون لعمل الآخرين، لا لذوات الآخرين، يغضبون لعمل الآخرين.

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ)

فأنت حينما تستمع إلى حديث شريف ولا تعبأ به، هذا نوع من الإيذاء، آذيت نفسك وآذيت النبي أنك لم تستفد منه.

من لم يستجب لأمر النبي و لم يطبق سنته فقد كذب به :

لذلك سيدنا سعد له كلمة رائعة يقول: "ثلاثة أنا فيهن رجل" كلمة رجل في القرآن والسنة تعني أنه بطل:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة النور الآية:37]

هناك إنسان ذكر لكن غير رجل، فالرجولة تعني البطولة: "ثلاثة أنا فيهن رجل" أي بطل، وفيما سوى ذالك أنا واحد من الناس؛ ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، ولا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى".

أنا أقول كلاماً أرجو أن يكون واضحاً: إنسان يقرأ حديثاً دون أن يشعر بعقله الباطن لا يعبأ به، والدليل لا يستجيب له، لا ينفذه، إذا كان في الحديث الشريف أمر أو نهي لمجرد أنك لا تستجيب له فأنت لم تعبأ به، مثلاً: لو زرت طبيباً وعالجك، وأعطاك وصفة طبية، أنت كنت مؤدباً جداً معه، وصافحته، وشكرته، ولم تشترِ هذا الدواء، عدم شرائك لهذا الدواء دليل أنك لست مقتنعاً بعلمه، هذا نوع من التكذيب، أنت كنت مؤدباً جداً معه، لما دفعت له أتعابه، وشكرته على معاينته لك، لمجرد أنك لم تشترِ الدواء فأنت لست واثقاً من علمه.

هذا نوع من التكذيب، ما من داع لأن يكتب الإنسان مقالة ضد النبي الكريم، لأنه ما استجاب لأمر النبي، ما طبق سنته، ما أخذها كمنهج للحياة، ما رآها هي من عند الله، فهو قد كذبه:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم الآية:4]

لأنه أخذ موقفاً سلبياً، هذا نوع من أنواع التكذيب، تماماً كالذي يزور طبيباً، طبيب جيد لكنه توهم أنه باختصاصه غير متفوق، فعدم شراء الدواء دليل أنه أعطاه مرتبة دون التي يتمنى.

الإسلام منهج كامل :

إيذاء النبي يكون بعدم تطبيق لمنهجه، لذلك الإسلام لابد من أن يؤخذ بأكمله، منهج كامل، بحياتنا أشياء كثيرة لك أن تأخذ بعضها، وأن تضع بعضها الآخر، لكن هذا الدين دين كامل، يغطي كل حاجاتك، يغطي كل نشاطاتك، يغطي كسب مالك، إنفاق مالك، علاقتك ببيتك، مع زوجتك، مع أولادك، إمضاء وقت فراغك أحياناً، فإذا درست هذا الإسلام كدين تجده يغطي كل نشاطاتك من دون استثناء، وأنا أقول دائماً: من أدق خصوصيات الإنسان من فراش الزوجية ومن أكبر الموضوعات في الدنيا العلاقات الدولية، فهذا المنهج الإلهي الإسلامي يبدأ مع المؤمن من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، منهج كامل، لكن المسلمين قصروه على العبادات الشعائرية، يصلي أما الدخل فحرام، يصلي الإنفاق حرام، يصلي النشاط الاجتماعي محرم، هناك اختلاط، و كشف عورات، و كلام لا يليق، و غيبة، و نميمة، وتجده يصلي، كيف الدين ضغط إلى الصلاة، والصيام، الحج، والزكاة، هذا الذي يعاني منه المسلمون اليوم.

من طبق سنة النبي في حياته فهو في مأمن من عذاب الله :

إيذاء النبي يعني فضلاً عن أن تؤذيه إيذاءً مادياً، وهذا الشيء شبه نادر، أو أن تؤذيه إيذاءً كلامياً عدم تطبيق سنته يعد إيذاءً له، عدم أخذ منهجه، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

آية دقيقة جداً، لها معنى واضح في حياة النبي، ما دام النبي بين ظهرانيهم هم في مأمن من عذاب الله، لكن ما معنى الآية بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى؟ المعنى يا محمد مادامت سنتك مطبقة في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، ما دامت سنتك، منهجك، أمرك ونهيك مطبقاً في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، أما إذا لم تكن مطبقة فمعهم بحبوحة ثانية:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال]

فإما أن تكون وفق منهج رسول الله، فأنت في مأمن من عذاب الله، وإما أن تستغفر فأنت أيضاً في مأمن، أما لا يطبق، ولا يستغفر، فهو أصبح معرضاً لتأديب إلهي.

فإيذاء النبي هو عدم تطبيق سنته، لكن أنت دون أن تشعر حينما تقتني آلة بالغة التعقيد، عظيمة النفع، غالية الثمن، ماذا تفعل؟ تحرص على أن تقرأ تعليمات الصانع، وكلامي دقيق جداً، هذا القرآن هو في الحقيقة تعليمات الصانع، لأنك أنت أعقد آلة في الكون، ولهذه الآلة صانع عظيم، ولهذا الصانع العظيم تعليمات التشغيل والصيانة، فانطلاقاً من حرصك على سلامتك، وعلى سعادتك، وعلى أن تعيش حياةً آمنة مطمئنة ينبغي أن تتبع تعليمات الصانع، فالصانع يقول لك: يجب ألا تؤذي النبي بعد استجابتك لدعوته.

الدين توقيفي ولا يحتمل الإضافة أو الحذف :

مرة ثانية: إيذاء النبي قولاً أو فعلاً المعنى نادر جداً، والمعنى قلّما يحدث، والله يعصمه من الناس، لكن الذي يحصل عدم الاستجابة له، أو تسفيه سنته، أحياناً لا تفرق بين منهج الله وبين منهج البشر، منهج الله حق مئة بالمئة، لأنه من عند الله، طبعاً الله عز وجل ذات كاملة منهجه كامل، فالدين توقيفي، لأنه من عند الله لا يحتمل المناقشة، أنت بالدين لا تستطيع أن تضيف شيئاً، ولا أن تحذف شيئاً، كماله كمال مطلق، لكن بإمكانك أن تحلل النصوص، أن تعمق فهمك لها، أن تبحث عن تطبيقات لها، هذا كله من مجال الاجتهاد، أما أن تلغي نصاً، أو أن تضيف نصاً، فهذا شيء مستحيل، الدين توقيفي، ولا يحتمل لا الإضافة، ولا الحذف، أما الواقع فلما أضفنا على الدين ما ليس منه، ضعفنا، صار هناك فرق، وطوائف، واتجاهات غير صحيحة، لما أضفنا على الدين ما ليس منه، ضعفنا، فلما حذفنا من الدين الجهاد خذلنا، نفترق بالإضافة ونضعف بالحذف، أما إذا طبقنا الدين كما جاء من دون إهمال أي جانب فقد نصرنا، أما إذا بقي الدين على العبادات الشعائرية فلا يقدم ولا يؤخر.

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

المؤمن يعتقد أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، فإذا وعد الله المؤمنين:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور الآية: 55]

نحن لسنا مستخلفين.

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

[سورة النور الآية: 55]

والدين غير ممكن.

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور الآية: 55]

نحن لسنا آمنين، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، فإن كانت هذه الوعود غير محققة فالجواب الطبيعي والصحيح والدقيق أننا لم نكن بالمستوى الذي أراده الله عز وجل.

فلذلك الاستخلاف في الأرض هذا شرف عظيم سمح الله لنا به، أن يستخلفنا عن ذاته العلية كي ننشر هذا الدين لخلقه،

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

- كقانون -

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية: 55]

فإذا أخلّ الطرف الآخر بما عليه من عبادة فالذات الإلهية في حل من وعودها الثلاث، هذا الواقع. إذاً إيذاء النبي عدم تطبيق سنته، عدم تطبيق منهجه في بيتك، وفي عملك، وفي حلك، وفي ترحالك، وفي كسب مالك، وفي إنفاق مالك،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

ما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل :

أقول لكم هذه الكلمة: ما من مصيبة على وجه الأرض من دون استثناء إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإسلام، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، لذلك الجهل أكبر مشكلة، الآن نحن نقول أحياناً: العدو الأول: الاستعمار، العدو الأول: الصهيونية، العدو الأول: الجهل، الدليل، أن أهل النار وهم في النار قالوا:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

السبب هو الجهل، السبب أن الإنسان يحب نفسه، على وجه الأرض ستة آلاف مليون ما منهم واحد إلا وهو يحب لنفسه السلامة والسعادة، السلامة و السعادة مطلبان أساسيان لكل إنسان على وجه الأرض، من المؤمنين، وغير المؤمنين، من كل الطوائف، والملل، والنحل، والأعراق، والأنساب، فالسلامة والسعادة مطلبان لكل إنسان، لماذا يشقى الإنسان؟ لمطلبه الأساسي السلامة والسعادة، لأنه ما عرف

طريق السلامة والسعادة، فالله عز وجل إذا أكرم الإنسان، ودله على طريق السلامة والسعادة فهو من المقربين من الله عز وجل، وهذا منهج الخالق.

أنت لو سافرت إلى بعض بلاد العالم هناك من يعبد البقر، هناك من يعبد الشجر، هناك من يعبد الشمس والقمر، هناك من يعبد أمواج البحر، هناك من يعبد الجرذان في آسيا الجرذان، معابد عملاقة، أنا عندي مجلة ألمانية، فيها تفاصيل مذهلة، يعبدون الجرذان، فنحن كأمة الله عز وجل كرمنا وشرفنا أن نعبد الله عز وجل، خالق السموات والأرض.

فإيذاء النبي المعنى الدقيق ليس أن تشتمه -لا سمح الله ولا قدر- ولا أن تناله بالأذى، لكن النبي يؤذى وهو في قبره، يؤذى بعدم اتباع سنته، أعطاك منهجاً كاملاً لسلامتك وسعادتك، كيف تكون زوجاً صالحاً، زوجة صالحة، ابناً باراً، أباً حكيماً، عاملاً متقناً، تكون سعيداً في الدنيا.

فإيذاء النبي في الأعم الأغلب، والشيء الواسع والمستمر، عدم الأخذ بسنته، وهذا ناتج عن ضعف الإيمان بنبوته، هذا نبي معصوم، معه من الخالق منهج، هذا المنهج لصالحه.

الدنيا تصلح بالكفر والعدل ولا تصلح بالإيمان والظلم :

دائماً وأبداً عندنا علاقة وضعية وعلاقة علمية كيف؟ أنا حينما أنهي ابني عن أن يمس مدفأة مشتعلة، فإذا عصاني ومسها تحترق أصبعه، العلاقة بين مس الأصبع واحتراق الأصبع علاقة علمية، مس المدفأة المشتعلة سبب احتراق الأصبع.

أما حينما يكون للبيت بابان، أعطي الأمر لأولادي أن يستخدموا إلا باباً واحداً، فإذا استخدم أحدهم الباب الثاني عاقبته، لكن لا يوجد علاقة علمية بين العقاب وبين استخدام باب للخروج، هذه علاقة وضعية.

أنت حينما تؤمن أن كل أوامر الله عز وجل ونواهيه، العلاقة بين الأمر والنتيجة علاقة علمية.

فرضاً لو تصورنا مجتمعاً ينكر وجود الله أصلاً، وأخذ منهج الله عز وجل وطبقه مئة في المئة، يقطف كل ثماره في الدنيا طبعاً، والدليل: الغربيون بذكائهم فقط اكتشفوا أن الصدق ينجو به صاحبه، بإتقان العمل ترتفع المبيعات، فهم بذكائهم وصلوا إلى القواعد الإيمانية، هم عرفوا الإسلام بطابع عملي، أو بمنطلق عملي، فصناعتهم أحياناً متقنة جداً، ووعودهم دقيقة جداً، وأمورهم واضحة جداً، فتفوقهم ناتج من تطبيق الإسلام، لا لأنه منهج الله، لأنه طريقهم لأرباحهم الطائلة، فهذه النقطة دقيقة جداً، أحياناً الإنسان يقع بحيرة الغرب متفوق، والدليل أن الله قال:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام الآية: 44]

أتقنوا الدنيا، أعطوا كل إنسان حقه، أخذوا في الأسباب فارتقوا، لذلك ابن أحد العلماء الكبار يقول: "إن الله ينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة" الأصل الدنيا تصلح بالكفر والعدل، ولا تصلح بالإيمان والظلم.

الإنسان إذا خرج عن منهج الله اختل توازنه :

إذاً أريد أن أصل إلى هذه الحقيقة أن إيذاء النبي الحقيقي عدم الأخذ بسنته، وعدم جعل هذه السنة منهجاً مطبقاً في حياتنا، والآية التي تؤيد هذا المعنى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)

أي هو يُتهم عند هؤلاء الذين شردوا عن الله عز وجل أنه يستمع لكل إنسان، ويصدقه، وكأنه ساذج، النبي قمة من قمم البشر الكبرى، معقول يكون عنده فهم سطحي؟ هذا مستحيل، لكن دائماً الإنسان إذا خرج عن منهج الله عنده حالة يقع بها وهي اختلال توازن.

عفواً، طالب عنده شهادة ثانوية، والعلامات بالشهادة الثانوية لها أثر في اختيار الكلية، لكن إذا لم يكن يدرس، عنده حالة اختلال توازن، الآن يقول لك: لعل الأستاذ يعطيني السؤال؟ يتعلق بأفكار غير صحيحة، أو بأوهام، أو أنا أتوقع توقعات معينة يأتي منها السؤال فأنجح، فالإنسان عندما يقصر يختل توازنه، وكل إنسان اختل توازنه يسعى إلى ترميمه، إما بالتعلق بفكرة غير صحيحة، الآن مفهوم الشفاعة مثلاً صحيح، لكن إنساناً أمضى كل حياته بالمعاصي وبالنهاية يأتي النبي فيشفع له هذا كلام مضحك، الشفاعة تنال المستقيم، الموحد، وهناك بحث طويل حول الشفاعة، لكن الإنسان عندما يعصي الله عز وجل يختل توازنه، يحتاج إلى ترميم هذا الاختلال عن طريق التعلق بأفكار غير صحيحة، أو عن طريق الطعن بالصالحين، حتى يرتاح، أحياناً الإنسان المستقيم هناك من يطعن به، ما السبب؟ العاصي اختل توازنه.

مرة أستاذ سأل طالباً أين وظيفتك؟ قال له: لم نكتب الوظيفة، قال له: أنت كم واحد؟ يتوهم الطالب إذا قال لم نكتب الوظيفة الوضع طبيعي، قال له: أنت واحد، قل: لم أكتب الوظيفة.

فالإنسان عندما يختل توازنه يعمم، يقول: كل الناس وضعهم هكذا، لا يحب أن يرى إنساناً مستقيماً، المستقيم يكشف له وضعه.

كلام البشر فيه الخطأ وفيه الصواب أما كلام الوحي فكلام مطلق :

إذاً :

(يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)

طبعاً هذا من اتهامات كفار قريش للنبي الكريم، فردّ الله عليهم وقال:

(قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ)

أذنه تصغي إلى الوحي معه وحي السماء، النبي الكريم معه وحي السماء، معه منهج خالق السموات والأرض، معه الصح المطلق، معه الحق المطلق، معه افعل ولا تفعل، معه تعليمات التشغيل والصيانة للإنسان، معه تعليمات سلامتك وسعادتك، وحي طبعاً كلام البشر فيه الخطأ وفيه الصواب، أما كلام الوحي فكلام مطلق.

فلذلك أنت عندما تقرأ أحاديث النبي الصحيحة أنت مع وحي السماء، إذا قرأت القرآن أنت مع وحي السماء، لذلك:

((تَرَكْتُ فيكُمْ أمْرَيْنِ لنْ تَضِلُّوا ما تَمسَّكْتُمْ بهما كتابَ الله، وسنّة رسولِهِ))

[أخرجه مالك عن بلاغ ملك]

الكتاب والسنة إن تمسكنا بهما لن نضل أبداً.

النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر :

إذاً:

(قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ)

كل إنسان يخطئ ويصيب إلا الأنبياء فهم معصومون، فكلام النبي حق مئة في المئة، وما نهاك إلا عن شيء يؤذيك، ولا أمرك إلا بشيء ينفعك، النبي بشر، معنا حجة، الكلام الدقيق:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الكهف الآية: 110]

الآية القرآنية أنه أنا يؤذيني ما يؤذي أي إنسان، وأخاف مما يخاف منه أي إنسان، أي أنه لو يكن بشراً تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، في بعض أحاديثه:

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

هو بشر، لولا أنه تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، يشتهي المرأة لكنه ضبط نفسه، يشتهي المال لكنه ضبط نفسه، فلولا أنه بشر وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، لذلك:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة التوبة الآية: 128]

هو إنسان، في بعض الكتب محمد الإنسان، هو إنسان، لكنه انتصر على إنسانيته، وسما إلى ربه فكان سيد البشر.

هناك من يقول: أن هذا نبي، هذا نبي فعلاً، وأنت لن تكون نبياً لكن أنت مكلف أن تأخذ منه ما أمرك، والدليل:

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

السنة بيان نبوي وكلامي وعملي وإقراري لما في القرآن :

إذاً:

(أُذُنُ خَيْرٍ)

يتلقى الوحي من السماء، وينقله لكم، الوحي هو القرآن، كيف فسره؟ بالحديث.

بشكل أو بآخر، سنة النبي القولية، والعملية، والإقرارية، بيان نبوي لما في القرآن، إذاً السنة بيان نبوي، وبيان كلامي، وبيان عملي، وبيان إقراري، لما في القرآن، إذا أردت أن تفهم القرآن فافهم سنة النبي العدنان بالضبط.

التكذيب صفة من صفات أهل الدنيا :

(قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ)

أي يصدق المؤمنين، من صفات بعض أهل الدنيا التكذيب، يكذب:

(هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

[سورة الدخان]

يشك في أي شيء،

(هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

كأن الله عز وجل وصف المجتمع في نهاية الزمان بصفتين؛ في شك من كل شيء، يلعبون، اللعب عمل غير هادف، فتجد مسابقات، واحتفالات، ومعارض، وأشياء كل هدفها آني ومحدود ينتهي بزوالها، لكن لا يوجد أعمال كبيرة جداً ترقى بالإنسان إلى أبد الآبدين.

فلذلك:

(هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

اللعب قد يبدأ بلعبة أطفال، لكن أحياناً حياتنا لعب، هناك مثلاً أعمال كبيرة جداً لكن تنتهي عند الموت، الإنسان عندما يؤمن بالآخرة، أقسم لكم بالله وأنا أعني ما أقول: أنك إذا آمنت بالله الإيمان الحقيقي ثم آمنت باليوم الآخر، والملاحظة الدقيقة: أن أكثر ركنين من أركان الإيمان وردا في القرآن معاً الإيمان بالله واليوم الآخر، هناك إله له منهج، و يوم تحاسب عليه، أنت إذا آمنت بالله الإيمان الذي أراده الله، وباليوم الآخر الإيمان الذي أراده الله، لا يمكن أن تعصيه، أوضح مثل أسوقه للأخوة الكرام: أنت مواطن عادي، راكب مركبتك، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، وهناك شرطي آخر على دراجة، و ضابط مرور بسيارة، وأنت مواطن عادي، هل من الممكن أن تتجاوز الإشارة الحمراء؟ مستحيل، لأن هذا الشرطي يأخذ رقم السيارة، فإذا لم تقف تبعك الشرطي الآخر، وإلا فهناك سيارة ثانية تتبعك، فأنت تتقي هذا النظام وتحت سيطرة واضع هذا النظام.

من يؤمن أن الله يعلم وسيحاسب لا يمكن أن يعصيه :

أنت حينما تؤمن أن الذي أمر يعلم وسيحاسب لا يمكن أن تعصيه، والدليل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

الله اختار من كل أسمائه القدرة والعلم، يعلم، وسيحاسب، أنت لست مع خالق السموات والأرض، مع إنسان مثلك إذا كان يعلم وسيحاسب.

أحياناً التاجر يستورد، لكن هو يعلم يقيناً أن نسخة من هذا الاستيراد ذهبت للمالية فهل من الممكن أن يخفي عن المالية حساباته؟ كل شيء استورده نسخة من هذا الاستيراد يذهب إلى المالية، فإذا أخفى حساباته تهدر حساباته، ويتكلف بمبالغ طائلة.

فأنت عندما تعرف إنساناً مثلك مثله، لكن يعلم وسيحاسب، لا تعصيه، فكيف بخالق الأرض والسموات؟

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

إذاً

(قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ)

لأن المؤمن صادق، الآن عندما أنت تكون صادقاً وإنسان يكذبك تقع بحرج كبير جداً، أما علاقة المؤمنين فإذا حدث صدق، فالنبي الكريم يؤمن للمؤمنين، أي شيء يقولونه له يصدقه.

أشقى الناس قاطبة من كان في خندق معادٍ لأهل الحق :

(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ)

ما الرحمة؟ كلمة واسعة جداً، إيمانك رحمة، استقامتك رحمة، أن تعرف أن الله خلقك رحمة، أن تعلم علم اليقين أن بعد الموت حياة أبدية رحمة.

(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

ليس من السهل أن الله يرسل إنساناً كاملاً معصوماً لخدمة البشر، لرقي البشر، لسلامة البشر، لسعادة البشر، وأن تكون أنت في خندق معادٍ له.

لذلك أشقى الناس قاطبة من كان في خندق معادٍ لأهل الحق، فإذا كنت مع الحق هذه نعمة كبيرة جداً، والحق واحد لا يتغير.

أنا أقول دائماً: ما الحق؟ الحق دائرة تتقاطع في هذه الدائرة أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، هناك نقل غير صحيح، حديث موضوع، حديث غير صحيح، تأويل آية غلط، خط النقل الصحيح نصاً وتأويلاً، وخط العقل الصريح، هناك عقل تبريري، فكل إنسان عاقل يرتكب المعاصي الكبيرة يعطيها تبريراً إيديولوجياً معيناً، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، هناك فطرة منطمسة، وخط الواقع الموضوعي، فإذا اجتمعت في دائرة خط النقل الصحيح، والعقل الصريح، والفطرة السليمة، والواقع الموضوعي، فأنت مع الحق والحق هو الله عز وجل.

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

في الدنيا والآخرة، عذاب أليم في الدنيا لأنه خالف منهجه، فدفع ثمن المخالفة، بالآخرة كان مع الذين ساق الله لهم عذاباً شديداً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (45-70) : تفسير الآية 62، الحلف بالله هروب من كذب يريده الحالف، والصادق لا يحتاج إلى الحلف.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-03-25

بسم الله الرحمن الرحيم

من علامات الإيمان أن تتجه إلى الله وحده و تستعين به وحده :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثانية والستين وهي قوله تعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

أيها الأخوة الكرام، من علامات الإيمان أن تتجه إلى الله وحده، أن تثق بالله وحده، أن تستعين بالله وحده، أن ترجو الله وحده، هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

من خصائص المؤمن أنه يتجه إلى الله، يتجه إليه، ويحبه، ويعبده، ويطيعه، ويعلق آماله عليه، أما من شرد عن الله فقد اتجه إلى البشر.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

لكن الإنسان المؤمن الصادق هدفه الأول إرضاء الله عز وجل، وإذا رضي الله عنك رضي عنك كل من حولك.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

المنافق يسترضي من حوله و لو كان عن طريق الكذب :

أيها الأخوة الكرام، إذا أردت أن تضغط الدين كله في كلمات؛ أن تتجه إلى الله وحده، أن تعلق الأمل على الله وحده، أن ترجو الله وحده، أن تحب الله وحده، إذا أحببت الله أحبك كل من حولك، إذا توكلت على الله أنت أقوى إنسان، حتى إنهم قالوا: إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله.

أيها الأخوة الكرام، هؤلاء الذين شردوا عن الله، هؤلاء المنافقون الذين نحن بصددهم في هذه السورة الكريمة، هؤلاء المنافقون:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

هو يريد أن يسترضي من حوله، ولو كان هذا الاسترضاء عن طريق الكذب.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

ولكنهم غفلوا عن الذي خلقهم، يعلم سرهم ونجواهم، يعلم بأي شيء يتكلمون، ومن أي تصور ينطلقون، ولأي هدف يعملون، هم

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

إذا رضي الله عنك أرضى عنك كل الخلق، أما إذا رضي عنك الخلق جميعاً ولم يكن الله راضياً عنك فهذا الرضا لا تنتفع به إطلاقاً.

من خسر الجنة فقد وقع في أكبر خسارة على الإطلاق :

الإنسان سيعيش سنوات معدودات، هو خلق للأبد، خلق لجنة عرضها السموات والأرض، فالذي يخسر الجنة يكون قد وقع في أكبر خسارة على الإطلاق، والدليل:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر الآية: 15]

ففرق كبير بين أن تتشتت، وبين أن ترضي فلاناً وعلاناً، وبين أن تحلف لفلان وعلان، وبين أن تكون موزعاً بين الخلق، وبين أن تكون مع الحق، وإذ كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك؟. حتى إن بعضهم قال: يا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ ماذا وجد من فقدك؟ ما وجد شيئاً، أما الذي وصل إلى الله فوصل إلى كل شيء.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

لكن الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

لماذا؟ لأن رزقك بيد الله وحده، لأن سلامتك بيد الله وحده، لأن عزك بيد الله وحده، لأن ما تطمح إليه عند الله وحده، فإذا اتجهت إلى غيره وقعت في الشرك.

من يشتهي شهوة لا ترضي الله فقد وقع في الشرك :

الحقيقة أن الشرك الجلي فيما أتصور لا وجود له في العالم الإسلامي، ليس هناك إله كبوذا يعبد مع الله في العالم الإسلامي، الشرك الجلي ليس موجوداً، لكن ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يا أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي))

[أخرجه البزار عن عبد الرحمن بن غنم]

وليس الجلي، الشرك الخفي:

((أما إني لست أقول أنكم تعبدون صنماً أو حجراً، ولكن شهوة خفية، وأعمال لغير الله))

[ورد في الأثر]

شهوة خفية، فالإنسان حينما يشتهي شهوة لا ترضي الله وقع في الشرك، والدليل:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الجاثية الآية: 23]

فالذي يشتهي شهوة لا ترضي الله، الذي يشتهي شهوة تحجبه عن الله، الذي يشتهي شهوة تبعده عن الله، الذي يشتهي شهوة تؤخر اتصاله بالله، هذا وقع في خطأ كبير، لذلك الإيمان الصحيح توجه إلى الله، الإيمان الصحيح إخلاص لله، الإيمان الصحيح طاعة لله، الإيمان الصحيح أن ترضي الله وحده:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

طاعة الله عين طاعة رسول الله و طاعة رسول الله عين طاعة الله :

أخوتنا الكرام، في هذه الآية ملمح خطير، وأقول خطير لماذا؟ من قواعد اللغة أنك إذا قلت:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ)

بحسب قواعد اللغة أن يرضوهما، الاثنان، أما الآية جاءت:

(أَنْ يُرْضُوهُ)

بالمفرد، ماذا تعني هذه اللفتة البلاغية؟ يسميها بعض المفسرين لفتة بلاغية، أو نكتة بلاغية، جاء الضمير مفرداً أي أن طاعة الله عين طاعة رسول الله، وأن طاعة رسول الله عين طاعة الله، لأنك إن أطعت رسول الله فقد أطعت الله، وإن أطعت الله فمن لوازم طاعتك لله أن تطيع رسول الله، هذه المعاني مختزلة موجودة في الضمير المفرد.

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

بدل من أن تقول أن يرضوهما، لذلك القرآن الكريم فيه آيات كثيرة، يؤكد أنهم إذا أطاعوا رسول الله فقد أطاعوا الله، وإذا عصوه فكأنهم عصوا رسول الله، لماذا؟ هناك مصطلح معاصر اسمه الشفافية، أي

أن النبي صلى الله عليه وسلم شفاف، بمعنى يشف عن الحق، ليس له مطلب شخصي، دعوة إلى ذاته ليست موجودة، دعوته لله، إخلاصه لله، كلامه مستنبط من وحي الله، إذاً الضمير المفرد في قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

أي أن طاعة الله عين طاعة رسول الله، وأن طاعة رسول الله عين طاعة الله.

من حلف بغير الله فقد وقع في شرك خفي :

لذلك نعود إلى كلمة

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ)

قال العلماء: الحلف يطلق على اليمين الكاذبة، بل إنك إن راجعت ألفاظ الحلف في القرآن لوجدت كل هذه الألفاظ تؤكد أنهم أقسموا بالله كذباً، الشيء الذي ينبغي أن يكون متعلقاً بهذه الآية أن الإنسان حينما يحلف بغير الله، أو يحلف لمقصد دنيوي، وقع في شرك خفي، السبب أنه فاته أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وأن إرادته مطلقة، وأن الله جل جلاله:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة البروج]

الإنسان الذي تتجه إليه ليس فعالاً لما يريد، أما الله فوحده

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

ما كل إنسان أراد شيئاً يتحقق، فأنت إذا اتجهت إلى إنسان وقعت في خطأ كبير، أما إذا اتجهت إلى الواحد الديان فبيده كل شيء، حياتك بيده، زواجك بيده، نجاح زواجك بيده، أولادك بيده، صحتك بيده، رزقك بيده، خيرك بيده، صوابك بيده، خطؤك بيده، فلذلك هذا هو التوحيد، حقيقة التوحيد.

الإيمان الحقيقي أن ترى أن الله فعال وقيوم وبيده كل شيء :

قد يقول قائل: إن الإيمان بالله عز وجل خالق السموات والأرض، لقد غاب عن الإنسان أن الشيطان مؤمن بهذا المعنى، ألم يقل الشيطان ربي:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

في القرآن الكريم، الشيطان آمن بالله رباً، وآمن به عزيزاً، وقال له:

(خَلَقْتَنِي)

[سورة الأعراف الآية:12]

وآمن به خالقاً، وقال:

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

وآمن بالآخرة، ومع ذلك هو شيطان رجيم، وإبليس لعين، لذلك ليس الإيمان أن تؤمن بأن الله خلق السموات والأرض وانتهى الأمر، الإيمان الحقيقي أن تراه فعالاً، قيوماً، بيده كل شيء، ما من شيء يقع في الأرض إلا بيده، والدليل الآية المشهورة في البقرة:

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

[سورة البقرة الآية: 284]

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

[سورة البقرة الآية:255]

الفرق الكبير بين أن تتجه إلى المخلوق وبين أن تتجه إلى الخالق :

الله عز وجل يملكنا خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، إذاً فرق كبير بين أن تتجه إلى المخلوق وبين أن تتجه إلى الخالق، أهل الدنيا إذا غفلوا عن الله يتجهون إلى المخلوقات، وهناك مآس ونكبات واحباطات، وإنسان يخلص لإنسان ثم يفاجئ أنه لئيمٌ لؤماً لا حدود له، فإذا أردت أن تعيش سعيداً فكن مع الله:

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

* * *

إذاً إذا حلفت فاحلف بالله، الله عز وجل هو خالقك، وهو ربك، وهو مسيرك، أي إلهك بيده الملك، بيده مصائر الخلق، بيده الدنيا وبيده الآخرة.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية: 123]

الله عز وجل أمرك أن تعبده بعد أن طمأنك أن الأمر بيده :

الله عز وجل في هذه الآية الأخيرة

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

قال لك:

(فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود الآية: 123]

متى أمرك أن تعبده؟ حينما طمأنك أن الأمر كله بيده، والإنسان حينما يشعر أن علاقته مع جهة واحدة هذا الشعور مسعد، علاقته مع جهة، يرضي هذه الجهة، يخلص لهذه الجهة، يسعى لهذه الجهة، يخاف من هذه الجهة، يرجو هذه الجهة، هذا هو التوحيد، فالمؤمن علاقته مع جهة واحدة، هي الله، والله عز وجل لا يحتاج إلى إيصال، ولا إلى يمين، أنت معفى من كل ذلك لأنه يعلم، أما غير الله عز وجل فلا يعلم إلا بالقسم، أو بالسند، أو بالإيصال، طبعاً ليس ممنوعاً أن تأخذ إيصالاً من إنسان، لكن القصد من ذلك أنك مع الله، لا تحتاج إلا إلى أن توقن أنه يعلم.

الله عز وجل يعلم وسيحاسب وسيعاقب :

أنا أقول كلمة: هناك كلمات ثلاثة؛ يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، أخذاً من قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

[الطلاق الآية: 12]

كأن الله عز وجل سوف يلخص لنا القرآن كله:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

دقق: أنت في علاقتك ليس مع خالق السموات والأرض، مع إنسان أقوى منك، علمه يطولك، وقدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه، وأوضح مثل: شرطي أمام الإشارة الضوئية، أنت مواطن عادي، والإشارة حمراء، والشرطي معك، فإذا تجاوزتها كتب مخالفة، فيها مبلغ كبير، وإذا تفلت من يده هناك شرطي على دراجة، وضابط مرور بسيارة، وسحب إجازة، وحجز مركبة، لماذا أنت مع الشرطي؟ لأنك تعلم أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، تستقيم على أمره، فلذلك الآية الكريمة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

المؤمن لا يكذب :

إذاً الحلف في الأعم الأغلب بل في القرآن الكريم حرصاً يعني القسم مع الكذب، ودائماً الإنسان حينما يلجأ للقسم أي عنده كذب، عنده شك أن الذي يخاطبه لا يصدقه، الحالف ينطلق من هذا المنطلق، أما إذا كنت صادقاً فلا تحتاج إلى كذب، بل إن الأشخاص المتوازنون، أصحاب الشخصية القوية الناتجة عن إيمانهم، وعن استقامتهم، قلّما يحلفون، لأن كلامهم صادق، هذا الذي أمامه يعرفه مؤمناً، لا يكذب.

بالمناسبة: المؤمن لا يكذب قد يقع في أخطاء كثيرة لأنه لا يكذب، لماذا؟ لأن الكذب لا يتعلق بشهوة، يتعلق بمكر، قد تزل قدم الإنسان إذا غلبته شهوته أحياناً، أما الكذب فلا يتعلق بشهوة إطلاقاً، يتعلق بمصلحة، فالذي يكذب يخطط، فالمؤمن لا يكذب فهذه صفة بالإيمان كبيرة جداً.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

يحلفون لكم، هذا اليمين موجه لكم، لأنهم توهموا أن مصالحهم معكم، وأنكم أقوياء، وأن رضاكم عنهم مغنم كبير، هذا هو الشرك، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لكن الله عز وجل يقول: من الجهة التي أحق أن ترضيها؟ إنه الله، والإنسان الذي أخبرك عن أمر الله و نهيه هو رسول الله، فجهتان في الأرض هما أولى أن تكون في رضائهما، الله ورسوله.

كل شيء وقع أراده الله وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة :

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

لذلك قالوا: كل شيء وقع أراده الله، معنى أراده لا تعني أنه أمر به، ومعنى أراده لا تعني أنه رضيه، أراده تعني أنه سمح به فقط.

كطبيب سمح بإجراء عمل جراحي لابنه إن كانت الزائدة عنده ملتهبة، أراد ولم يأمر، أراد ولم يرضَ، هذا كلام دقيق، أراد أي سمح فقط، الله عز وجل خلقنا للسعادة، فإذا أكل إنسان مالاً حراماً تقتضي رحمة الله به أن تؤدبه، يتلف ماله، فإذا أتلف مال الإنسان أحياناً طبعاً ليس شرطاً، لكن إتلاف المال أحياناً رسالة من الله أن هذا الدخل ليس صحيحاً، دخل معه كذب، معه غش.

فالإنسان حينما يبدأ يفهم على الله يكون قد قطع أربعة أخماس الطريق إلى الله، الإنسان حينما يصاب بمصيبة من السذاجة بمكان أن تمر عليه مرور الكرام، لماذا ساق الله لي هذه المصيبة؟ هناك حكمة بالغة، أفعال الله عز وجل فيها حكمة بالغة، لأن كل شيء وقع أراده الله، معنى سمح به، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، لكن الذي وقع أراده الله، لحكمة بالغة، فالإنسان من السذاجة بمكان إذا ساق الله له مصيبة أن يمر عليها مروراً سطحياً.

يقول لك إنسان أحياناً: الحياة متعبة، الدهر يومان يوم لك ويوم عليك، قلب لي القدر ظهر المجن، هذا كلام ليس له معنى إطلاقاً، هذه المصيبة التي ساقها الله للإنسان وراءها حكمة بالغة.

أنت هل تصدق أن أباً في الأرض يضرب ابنه بلا سبب؟ مستحيل! فالضرب وراءه حكمة، بل إن الأب الصادق المربي حينما يعاقب ابنه يبين له السبب، هذه العقوبة من أجل كذا أو كذا، من هنا جاء قول الله تعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

الله عز وجل طليق الإرادة :

هناك ملمح دقيق في القرآن؛ الله عز وجل حينما قال:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد]

أن أبا لهب لو توجه إلى النبي كاذباً، ومنافقاً، وأعلن إسلامه، ألغى السورة، لكن الله عز وجل كما يقول بعض العلماء: إرادته مطلقة، طليق الإرادة، الأمر بيده، فأبو جهل بتفكير بسيط وقليل وسريع لو ذهب إلى النبي وأعلن أنه أسلم لألغيت الآية، بل هناك شيء آخر: الآية الكريمة:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ)

[سورة البقرة الآية: 142]

لم يقولوا بعد، وقد سمعوا هذه الآية، فإذا سكتوا ألغوا هذه الآية:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

[سورة البقرة الآية: 142]

الله عز وجل وصفهم بأنهم سفهاء، وهؤلاء السفهاء سمعوا هذه الآية، فإذا سكتوا ألغوا هذه الآية، لكن الله عز وجل طليق الإرادة، هذا الشيء لا بد من أن يقال، لذلك:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

لو سكت، أو لو ذهب وأعلن إسلامه لألغى السورة كلها، قال:

(سَيَحْلِفُونَ)

[سورة التوبة الآية: 95]

هناك آيات سيحلفون، لم يحلفوا بعد، فلو لم يحلفوا لألغوا الآية.

الطغاة عصي بيد الله :

إذاً الله عز وجل طليق الإرادة، كل شيء أراده يقع، بأي شكل، والكلمة التي أذكرها كثيراً: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، بالعالم المادي كل شيء له حكمة بالغة، فالشر صار في النفوس ، فالإنسان حينما يظلم إنساناً، المظلوم ظُلم لحكمة أرادها الله، لذلك الظالم صوت الله، ينتقم به، ثم ينتقم منه، فهذا الإيمان مريح، هذا الإيمان بالتوحيد يلغي الحقد، يلغي القهر، الأقوياء أحياناً عصي بيد الله، فالإنسان إذا تلقى ضربة بعصا من الخطأ أن يحقد على العصا، يحقد على الضارب إذا أراد أن يحقد، فهؤلاء الطغاة عصي بيد الله، فلذلك البطولة أن تعود إلى الله مستقيماً وتائباً.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

الآن مرة ثانية:

(يَحْلِفُونَ)

يحلفون إيماناً كاذبة، الحلف في القرآن الكريم أيمان كاذبة، لكن:

(لِيُرْضُوكُمْ)

القسم يعني الكذب أو الصدق أما الحالف فالحالف كاذب دائماً :

أما إذا قلت:

(أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)

[سورة المائدة الآية: 53]

فالقسم يعني الكذب أو الصدق، يحتمل القسم أن يكون القسم كاذباً، ويحتمل أن يكون صادقاً، أما إذا قلنا الحالف فالحالف كاذب دائماً، والدليل:

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)

[سورة القلم]

الإنسان كائن متحرك و له حاجات عدة :

هناك شيء آخر متعلق بهذه الآية الدقيقة: هناك قوانين يستنبطها الإنسان من حركة الحياة، نحن نعيش في هذه الدنيا، هناك عمل، و دوام، و ربح، و خسارة، و سفر، و إقامة، و زواج، هذه الحركة، الإنسان طبعاً كائن متحرك، لِمَ هو كائن متحرك؟ هناك سبب، عنده حاجات، حاجته إلى الطعام والشراب تدفعه للحركة، حاجته إلى الزواج تدفعه لأن يتحرك تحركاً آخر، حاجته إلى تأكيد الذات هذه حركة ثالثة، فالحاجة إلى الطعام والشراب حفاظاً على بقاء الفرد، والحاجة إلى الزواج حفاظاً على بقاء النوع، والحاجة إلى التفوق حفاظاً على بقاء الذكر، هذه حاجات ثلاثة في الإنسان، هذه الحاجات تدفعه إلى أن يتحرك فهو كائن متحرك، يذهب إلى عمله، يعود إلى البيت، يبحث عن زوجة صالحة، يبحث عن دخل وفير، يبحث عن إنجاب ولد، فعنده حركة، هذه الحركة فيها قوانين، الغني يشتري أثمن شيء، ويسكن بيتاً فاخراً مثلاً، والفقير بيته متواضع، ودخله قليل، وإنفاقه قليل، هذه القوانين مستنبطة من حركة الحياة، لكن المؤمن يتمتع برؤية عميقة جداً، يتمتع بتصور دقيق جداً، لأن هناك قوانين أخرى ليست هذه القوانين التي نراها كل يوم، هذه القوانين مستنبطة من حركة الحياة، أما هناك قوانين أخرى أنا أسميها قوانين العناية الإلهية، يأتي إنسان يتصدق بماله، بحسب الآلات الحاسبة لم يعد معه مال، يفتح الله له رزقاً ما كان في حسبانه، فنقول: هذا الرزق الوفير الذي جاءه لا بقوانين الحياة بل بقوانين العناية الإلهية، أحياناً الإنسان يصيبه مرض، هذا المرض قد يكون سبب توبته إلى الله، فإذا تاب والمرض عضال وعند الأطباء ليس له دواء، فالله يتدخل تدخلاً مباشراً يتم ما يسمى بالشفاء الذاتي.

على الإنسان الاعتماد على قوانين العناية الإلهية :

المؤمن يعلم علم اليقين أن هناك قوانين غير قوانين حركة الحياة، هناك قوانين العناية الإلهية، هذه القوانين توفقه في دراسته، في زواجه، في عمله، في صحته، فهو اعتماده على الله لذلك الفاتحة التي نقرأها كل يوم عدة مرات:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة]

بين أن تكون مع خالق السموات والأرض، مع الغني، مع القوي، مع العالم، مع العليم، مع الحكيم، مع المقتدر، مع من يعلم، مع من بيده كل الأقوياء.

أنا أقول دائماً: المؤمن وضعه يشبه وضع إنسان أمام وحوش كاسرة، لكن هذه الوحوش مربوطة بأزمة قوية، بيد جهة حكيمة، فأنا علاقتي ليست مع الوحوش، مع من يملكها، فإذا أرخى أحد الحبال وصل

هذا الوحش إليه، وإذا شدّ الحبل أبعده عنه، فالحقيقة العاقل ليس مع الوحوش لكن مع من يمسك أزمتها، هذا هو التوحيد، لذلك يجب أن نعتمد على قوانين العناية الإلهية.

من يؤثر طاعة الله يخضع لقانون العناية الإلهية :

الله عز وجل قال لك:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة الآية:276]

لكن بالآلة الحاسبة الربا يزيد المال، أقرضت مئة ألف أخذت مئة وعشرة، فالآلة الحاسبة الربا فيها زيادة، لكن الله قال:

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية:276]

الصدقة فيها نقص للمال، مع هذا النقص يفتح الله لك أبواباً لم تكن في الحسبان للرزق، فالإيمان بالله يقتضي تسليماً كاملاً بقدرة الله عز وجل، فقادر أن يمنحك رزقاً وفيراً وأنت لا تملك أسبابه، وقادر أن يسعدك بزوجة وقد تكون من الدرجة العاشرة، وقادر أن يشقيك بزوجة من الدرجة الأولى، وقادر بالمال أن يطغيك، وبالمال أن يسعدك به، فالعبرة أن تكون مع الله عز وجل، فالأشياء التي بين أيدينا، المال، المنصب، الصحة، هي أشياء حيادية، إما أن تكون لصالحنا، أو أن تكون عبئاً علينا.

إذاً القوانين التي تحكم البشر قوانين ثابتة، لكن معها مجموعة قوانين أخرى أنا أسميها قوانين العناية الإلهية، فالذي يؤثر طاعة الله يخضع لقانون العناية الإلهية، الذي ينفق ماله إرضاء لله يخضع لقانون العناية الإلهية.

لذلك قالوا: يمكن أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل وألف مستحيل، لأن الله عز وجل لا بد من أن يكشف الحقائق.

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أهل الجنَّةِ))

[أخرجه البخاري عن سهل بن سعد الساعدي]

وفي نهاية المطاف يكشف الله نفاقه.

الله عز وجل قيد معصية الرسول في المعروف :

شيء آخر: أنت حينما تؤمن أن طاعة رسول الله هي طاعة الله، وأن طاعة الله تقتضي طاعة رسول الله، تكتشف النكتة البلاغية في الضمير المفرد،

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

مرة النبي عليه الصلاة والسلام أرسل سرية وأمّر عليها صحابياً، هذا الصحابي أنصاري، هذا الذي حصل، قال: ألست أميركم؟ قالوا: بلى، قال: أليست طاعتي طاعة رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: أضرموا ناراً عظيمة، أضرموها، قال: اقتحموها، فكر الصحابة و قالوا: كيف نقتحمها وقد آمنا بالله فراراً منها؟! فشكوا، فراجعوا النبي الكريم على هذا الأمر فقال عليه الصلاة والسلام:

((والله لو اقتحمتموها لازلتم فيها إلى يوم القيامة إنَّمَا الطاعةُ في المعروف))

[أخرجه البخاري عن علي بن أبي طالب]

لا تعطل عقلك.

((إنَّمَا الطاعةُ في المعروف))

يؤكد هذا الآية الكريمة:

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

[سورة الممتحنة الآية:12]

الله عز وجل قيد معصية الرسول وهو المعصوم الذي يوحى إليه، سيد الخلق، وحبيب الحق في المعروف،

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

شفافية دعوة النبي الكريم أن كل ما أمر به محض إخلاص لله :

أخواننا الكرام، الشيء الآخر الذي يجب أن يكون واضحاً أن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام فيها شفافية كبيرة، ما معنى الشفافية؟ أحياناً يكون على النافذة بلور صاف، صناعة متقنة جداً، هذا البلور يشف عما وراءه، هناك بلور فيه عروق، أو فيه زخارف، الذي يظهر لك هو الزخارف وليس ما وراء البلور، فشفافية النبي الكريم، وهذا مما ينبغي أن يكون عليه الدعاة، حظ نفس ليس له إطلاقاً، مطلب شخصي ليس له، أهداف أرضية ليس له، يشف عن الحقيقة فقط، طبعاً هي صفة في أعلى مستوياتها في الأنبياء، فشفافية دعوة النبي الكريم أن كل ما أمر به محض إخلاص لله، وكل ما نهى عنه محض إخلاص لله، فلذلك طاعته من طاعة الله عز وجل، لكن ما سوى النبي ينبغي أن تفكر، إذا كان هذا الأمر يتناسب مع القرآن والسنة لا يوجد مانع، إذا لم يتناسب تستطيع أن تراجعه، أنت مسموح لك، نحن كمسلمين في الأرض مسموح لنا أن نستجيب لواحد ليس غير، هو رسول الله، لو لم تفكر بالأمر أنت على صواب، مادام أمر النبي فأنت على صواب، لكن ما سوى النبي الكريم تحتاج إلى تدقيق وإلى مراجعة.

دعوة النبي عليه الصلاة والسلام فيها تنفيذ لأمر الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، الآية التي ينبغي أن تكون داعمة لهذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء الآية:59]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

أي في قرآنه،

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أي في سنته، الثالثة عليها إشكال،

(وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

أروع ما قرأت عن هذه الآية أن الأمام الشافعي يقول: أولو الأمر هم الأمراء والعلماء، العلماء يعلمون الأمر، والأمراء ينفذونه، فكأن بينهما تكاملاً، العالم يعلم تشريعاً، الأمير ينفذ تنفيذاً، والآن يقول لك: السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، فكأن العلماء يعلمون الأمر، والأمراء ينفذونه، فدعوة النبي عليه الصلاة والسلام فيها تنفيذ لأمر الله عز وجل.

لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

واللفتة الدقيقة في كلمة:

(مِنْكُمْ)

أي من جنسكم، مؤمن، يخاف الله، يحرص على مصالحكم،

(وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

العودة إلى القرآن و السنة في أية قضية خلافية بين الأمراء و العلماء :

لكن الشيء الذي يلفت النظر قال:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

[سورة النساء الآية:59]

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

قال: إذا تنازعتم مع أمرائكم، ومع علمائكم، طبعاً مع الله ورسوله أشياء واضحة، لكن مع علمائكم وأمرائكم قال:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

هنا اللفتة الدقيقة، هل تصدق أن يردك الله إلى مرجعين فيهما حل لكل مشكلات الأمة إلى يوم القيامة؟ فإذا رجعت إلى هذين المرجعين لابد من أن تجد حلاً، كأن الله شهد لهذا الدين أنك إذا رجعت إليه ففيه حلٌ لكل مشكلات الإنسان من دون استثناء.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

معنى ذلك أي منازعة ما بين العلماء أو الأمراء في قضية معاشية، قضية ثقافية، قضية دينية، فالحكم هو القرآن والسنة، القرآن فيه مبادئ كبرى، والسنة فيها تفاصيل.

علامة حبّ الله عز وجل أن تتبع النبي الكريم :

شيء آخر متعلق بهذه الآية:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

الشيء الآخر قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية:31]

علامة حب الله عز وجل أن تتبع النبي الكريم، لذلك قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

إذا كانت سنتك يا محمد مطبقة في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، والآية الأخيرة:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

[سورة النساء الآية:80]

هذه الآية حاسمة، هذا المنهج منهج متكامل لله ورسوله، طاعة الله في قرآنه، والنبي في سنته الصحيحة، فإذا طبقنا هذا التوجيه نحن في مأمن من عذاب الله.

((تَرَكْتُ فيكُمْ أَمْرَيْنِ لنْ تَضِلُّوا ما تَمسَّكْتُمْ بهما: كتابَ الله، وسنّة رسولِهِ))

[أخرجه مالك عن بلاغ بن مالك]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (46-70) : تفسير الآية 63، المحاددة تجعل حداً بين الحق والباطل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-04-01

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية متعلقة بسلامة الإنسان وسعادته :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والستين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية متعلقة بسلامة الإنسان وسعادته، فحينما يحادد الله ورسوله وكان ينبغي أن يوالي الله ورسوله، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقنا، وهو الذي يربينا، وهو الذي يمدنا، وهو الذي يسيرنا، مرجعنا إليه، مآلنا إليه، بيده قوتنا وضعفنا، صحتنا وسقمنا، بيده كل شيء، فهل يعقل أن نتجه إلى غيره؟

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية: 123]

بعد أن طمأنك أن كل أمرك،

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ)

أي كل أمرك كله توكيد ثان:

(فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود الآية: 123]

أي حياتك، صحتك، زواجك، أولادك، سعادتك، شقاؤك، توفيقك، عدم التوفيق، التألق، عدم التألق، العلو، عدم العلو، كل هذا بيده، فكيف تتجه إلى غيره؟.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا)

كان ينبغي أن يعلم، حينما تكون القضية بديهية واضحة، صارخة، عليها مليون دليل ودليل، وإنسان تجاهلها يقول له: ألم تعلم؟

لو أن طالباً لم يدرس فلم ينجح نقول له: ألا تعلم أن من جدّ وجد؟ شيء بديهي جداً.

عندنا أشياء تعرف بالبديهة، التجارة تحتاج إلى رأسمال، هذا العمل يحتاج إلى صدق، هذا العمل يحتاج إلى إتقان، فالأشياء البديهية تعرف بالفطرة.

تطابق الدين العظيم مع الفطرة :

بالمناسبة: هذا الدين العظيم متطابق مع الفطرة تطابقاً تاماً، والدليل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم الآية: 30]

أن تقيم وجهك لهذا الدين هو نفسه ينطبق على فطرتك، بمعنى ما من أمر أمرك الله به إلا وفطرتك ترتاح له، وما من نهي نهاك الله عنه إلا والفطرة تشمئز منه، هذه نعمة كبيرة أن الله إذا أمرك بأمر وأنت أطعته اصطلحت مع فطرتك، أحد أسباب راحة المؤمن أنه وجد نفسه، اصطلح مع فطرته، فطرته تدعوه إلى الصدق وهو يصدق فارتاحت نفسه.

فلذلك أكبر خطأ أو أكبر نتيجة سلبية لمن يعصي الله أنه اختلف مع فطرته، فأصبح عنده كآبة، حتى الإنسان لو لم يتلقى دروس علم إطلاقاً فطرته توافق الشريعة تماماً.

بتعبير آخر: الإنسان إذا أطاع الله وهو لا يعلم أنها طاعة لله يرتاح، بالعالم الغربي عندهم راحة تأتي من الصدق، يرتاح للصدق، لإتقان العمل، هناك أشياء لها عندهم قيمة، الأشياء تتطابق مع فطرتهم، فالإنسان إذا بحث عن سلامته وسعادته عليه أن يطيع ربه عز وجل.

الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله :

لذلك:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا)

الشيء البديهي، الواضح، الصارخ، الأساسي، الذي تكشفه بذاتك من دون تعليم، هو حقائق الدين وعلاقة الفطرة بها، فإذا قال الله عز وجل:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا)

غاب عن نفسك الآية التي تقول:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ)

هؤلاء الخلق لهم خالق، فإذا آذيت أحدهم آذيت الخالق، بمعنى لو أنك ضربت طفلاً هذا الضرب يؤذي والده لمحبته له، والله عز وجل يحب كل عباده، فإذا أسأت إلى واحد منهم، إذا ضربته، إذا شتمته، إذا

حقرته، إذا أهنته، إذا ابتززت ماله، إذا أوقعته في مشكلة، إذا أفسدت علاقته مع زوجته، هذا شيء يغضب الله عز وجل، هم عباده، لذلك الكلام الرائع: الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، أنت من دون أن تشعر حينما تنصح إنساناً، حينما تحسن إلى إنسان، حينما تصدق مع إنسان، الله يحبك لأنك رحمت عباده، و كنت صادقاً معه.

لذلك أخوتنا الكرام، سعادتك بيدك، وشقاؤك بيدك، أنت تعيش بمجتمع، هذا المجتمع هم بشر، هم عباد الله أولاً، فإذا صدقتهم، وأحسنت إليهم، وكنت منصفاً لهم، أحبك خالقهم، أحبك ربهم، فأنت حينما تعاون إنساناً تتعامل مع خالق الإنسان.

الحركة لا تصح إلا إذا عُرف السبب :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا)

هذا شيء بديهي، واضح، جلي، صارخ،

(أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

النقطة الدقيقة: كلمة ألم هي أداة استنكار، وسائل العلم بين يديك، والواجب أن تعلم الحقيقة، ومع أنها بين يديك لم تكتشف هذه الحقيقة، فيأتي التعبير الدقيق ألم تعلم.

طالب دخل العام الدراسي هناك حقيقة بديهية: أنه من اجتهد نجح، هذه حقيقة يكتشفها بفطرته، فحينما لم يدرس، وعندما لم ينجح تعجب، نقول: لا، هذا التعجب غباء، من بديهيات الدراسة أن الدراسة تحتاج إلى جهد.

(أَلَمْ)

الاستفهام مع حرف النفي لم يعنِ الاستنكار، ومعنى الاستنكار أن وسائل العلم قدمت لك، والواجب أن تعلمها، لكنك لم تعلمها فالخطأ خطؤك.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء]

بتعبير آخر، لماذا لا تعلم وكان ينبغي أن تعلم؟ هل هناك من علم يفوق أن تعرف سبب سلامتك وسعادتك؟ هل هناك من علم يفوق أن تعلم ماذا بعد الموت؟ أين كنت قبل أن تولد؟ عندنا من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ هناك قضايا فلسفية خطيرة جداً، أنت حينما تعلم علم اليقين أنك مخلوق لجنة عرضها السموات والأرض، حينما تعلم أنك مخلوق، تأتي الحركة موافقة لهذا الهدف.

طالب ذهب إلى باريس فسأل إلى أين أذهب؟ أقول له: عجباً لهذا السؤال! لماذا جئت إلى هنا؟ إن جئت طالب علم فاذهب إلى السوربون، إن جئت سائحاً إلى برج إيفل، إن جئت تاجراً اذهب إلى الأسواق

والشركات، فالحركة لا تصح إلا إذا عرفت السبب، ألم تعلم؟ وسائل العلم قدمت لك، والواجب أن تعلمها، والذي وقع أنك لم تعلم، فهذا خطأ كبير يتحمل الإنسان نتائجه الخطيرة.

الحد في الإسلام :

أخواننا الكرام،

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ)

ما معنى يحادد؟ كلمة يحادد جاءت من الحد، وكان الناس يضعون بين أراضيهم حدوداً، أحياناً قطعة حديد، أحياناً حجر، أحياناً شريط شائك هذا اسمه حد، هذه أرضي، وهذه أرضك، وضع حد يعني فصل بين أرضه وأرض غيره، الآن ما هو الحد في الإسلام؟ عندنا حد يفصل بين كسب الحلال والحرام، الربا حرام، لأن أساس الربا أن المال يلد المال، فصار المال سلعة، نحن عندنا سلعة وعندنا مال، السلعة ينتفع بها مباشرة، رغيف الخبز تأكله أما الليرة فلا تؤكل، ينتفع بها بطريقة غير مباشرة، فهذا ثمن، فحينما جعل الثمن سلعة وتاجرنا بها هذا هو الربا، والربا إذا قبلناه كدخل فهذا الربا يجعل الأموال الكثيرة بأيد قليلة، مشكلة البشر كلهم المشكلة الكبرى في البشر أن قلة قليلة تملك كل شيء، وأن الكثرة الكثيرة لا تملك شيئاً، هذه المشكلة، هذا التفاوت الكبير في الدخل، إنسان يملك مليوناً ومليون لا يملكون شيئاً، هذا وراء الثورات، وراء العنف، وراء التطرف، وراء الإرهاب، هذا التفاوت الكبير، الحقيقة الخطيرة في الدنيا أن تسعين بالمئة من ثروات الأرض يملكها عشرة بالمئة من سكانها، دول الشمال والجنوب، فهناك غنى مفرط، وفقر مدقع، هذا وراء الثروات والحروب وما شاكل ذلك.

لذلك:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ)

أي جعل حداً بينه وبين الحق، يجب أن تكون مع الحق، أن تكون وفق الحق، أن تكون مسايراً للحق، لا أن تكون في جهة والحق في جهة، حادد جعل حداً بينه وبين الحق.

المعية في الإسلام لها معنيان؛ معية خاصة ومعية عامة :

لذلك أيها الأخوة، المعية في الإسلام لها معنيان، معية خاصة، ومعية عامة، فإذا قال الله عز وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

قال علماء التفسير: هذه معية العلم، والله معك يعلم ماذا تفعل، نائم، مضطجع، تتكلم كلاماً صحيحاً، تتكلم كلاماً غير صحيح، تمارس عملاً خاطئاً أم صواباً؟ الله معك، والإنسان كما قيل: أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، فإذا كان الله معك وهو معك لكن هل تشعر أنه معك؟ إذا شعرت أن الله معك يستحيل أن تعصيه.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ)

الله معك، لا سمح الله ولا قدر إنسان يكذب على من يشتري بضاعته، يعطيها صفة غير صحيحة، من مصدر غير صحيح، فأنت حينما تكذب الله معك، ألا تستحي من الله؟

((استحيوا من الله حق الحياء))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن مسعود]

أحد أنواع الحياء أن تستحي أن تعصيه.

من يقرأ القرآن ينبغي أن يقرأه قراءة متأنية :

طبعاً:

(يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

يحادد الله في قرآنه، الله أمرك بالاستقامة:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

[سورة هود الآية: 112]

أنت لم تستقم، أمرك بالعدل والإحسان، وممكن للإنسان إذا قرأ القرآن أن يستنبط الأوامر الإلهية، هذا كتاب خالق الأكوان، كتاب الإنسان، كتاب سعادة الإنسان، فأنت حينما تقرأ القرآن ينبغي أن تقرأه قراءة متأنية.

أخ حدثني كلما قرأ أمراً يضع تحته خطاً، عمل مصحفاً لوحده، لقراءته الخاصة، خط بالأخضر، وكلما قرأ نهياً وضع خطاً بالأحمر، فإذا فتح المصحف هذه الأوامر، وهذه النواهي، أحياناً هناك قصص فيها موعظة كبيرة جداً، الله عز وجل ما أرادنا أن نقرأ القرآن قراءة سريعة، أرادنا أن نتدبره، والتدبر شيء دقيق جداً.

آيات الله في الكون :

الله له آيات ثلاثة، آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات قرآنية، الآيات الكونية خلقه:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة آل عمران الآية: 190]

والآيات التكوينية أفعاله، والآيات القرآنية كلامه، أنت بين آيات كونية، وتكوينية، وقرآنية، وهذه الآيات طرق سالكة إليه، تعرفه من آياته الكونية، والتكوينية، والقرآنية، فهذا الكون لماذا نصبه الله عز وجل؟ من أجل أن تعرفه، الله عز وجل:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

[سورة الأنعام الآية: 103]

لكن جعل لك هذا الكون ليكون هذا الكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، الآن الله عز وجل له أفعال، أحياناً يأتي زلزال لأمة باغية طاغية، هناك وضوح تام، أحياناً هناك أشياء واضحة تماماً، أحياناً تكون غير واضحة لحكمة بالغة، فأنت حينما تتأمل بكلامه تدبراً، وتنظر إلى أفعاله تبصراً، وتتفكر في آياته الكونية معرفة، فقد حققت الهدف من هذا الكون، هناك آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات قرآنية، هذه الآيات طريقك إليه وإلى معرفته.

أحد أسباب سعادة المؤمن أن معه توجيهات من عند الخالق :

فهنا لعلك تعلم أن الذي يحادد الله ورسوله ما مصيره من خلال الأحداث؟ وما مصيره من خلال القرآن؟ بالقرآن ذكر لك مصيره.

لذلك لماذا كان الصحابة إذا قرؤوا آية وقد تحقق الوعد والوعيد هذا التحقق يسعد الإنسان؟

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

[سورة يونس الآية: 59]

قال بعض العلماء: تأويل القرآن أن ترى الوعد والوعيد محققاً، أنت مثلاً ترى إنساناً يغش الناس في البيع والشراء، يأكل مالاً حراماً، ويزداد غنى، تابع أمره فإذا بضربة قاصمة من الله، هذه الضربة تزيد في إيمانك، أنا أقول: مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، هذا يقين، فالمؤمن أحد أسباب سعادته أن معه توجيهات من عند الخالق، ما من داع لأن يدفع الثمن هو، أما غير المؤمن فيأكل مالاً حراماً، فيدمر ماله كله، يشقى بدماره، عليه ديون، تذل نفسه، يكتشف بعد فوات الأوان أن ماله حرام، المؤمن له وضع آخر، وضع سليم، قرأ كلام خالق الأكوان، وفيه نهي عن أكل المال الحرام فتركه، ما من داع أن يدمر حتى يتعظ، لذلك دائماً المؤمن الموفق يتعظ بغيره، بينما الشقي يتعظ بنفسه، وأحياناً تكون الموعظة بعد فوات الأوان.

مثلاً: إنسان رأى شيئاً يشبه قنبلة، قنبلة؟ ليست قنبلة؟ صح؟ غلط؟ أراد أن يمتحنها فانفجرت و أزهقت روحه، فلم ينتفع بهذا الدرس، هناك معاص تدمرك نهائياً، لا يبقى بحياتك وقت تستمتع بهذه التجربة، و

هناك معاص لها عقاب محدود، يأتي العقاب تخاف فلا تعيد هذا الشيء الذي فعلته، لكن هناك معاص كبيرة جداً، مهلكة، فتنتهي سعادتك في الدنيا.

من لبَّ حاجات عقله و جسمه و قلبه فقد تفوق :

إذاً الآية التي أتمنى أن تكون واضحة تماماً هي: ألم يعلم؟ ينبغي أن تعلم، أنت عندك حاجة عليا، و حاجات دنيا يمكن أن نسميها كذلك، أنت بحاجة للطعام والشراب حاجة دنيا، بحاجة إلى زوجة حاجة دنيا، لكن هناك حاجة عليا أن تعرف الحقيقة، برأسك عقل، والعقل غذاؤه العلم، فأنت حينما تلبي الحاجة العليا تسمو عند الله عز وجل، مثلاً: أنت حينما تأتي إلى مسجد كي تستمع إلى درس علم أنت بهذا المجيء تلبي الحاجة العليا بالإنسان، وأنت إنسان لأنك عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، العقل غذاؤه العلم، والقلب غذاؤه الحب، والجسم غذاؤه الطعام والشراب، إن لبيت حاجة عقلك وقلبك وجسمك معاً تفوقت، أما إذا اكتفيت بواحدة منهما فتطرفت.

فلذلك المؤمن يلبي حاجة عقله له مجلس علم، يتابع العلم، من أنا؟ أين كنت قبل أن آتي إلى الدنيا؟ ماذا بعد الموت؟ ما أسباب دخول الجنة؟ ما أسباب دخول النار؟ ما الحلال والحرام؟ تاجر، أحكام البيوع مهمة جداً، عندنا محام، طبيب، هذا يحتاج لأحكام خاصة بهاتين المهنتين يسمونها جعالة، الجعالة غير الإنجاز، هناك فرق بينهما، على كلٍّ ألم يعلم، ينبغي أن تعلم.

على الإنسان أن يكون ضمن الحق فإن كان هناك حدّ بينه و بين الحق فهناك مشكلة :

شيء آخر:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ)

أنت ضمن الحق، أما إن كان هناك حدّ بينك وبينه، أي دخلك في واد والمنهج في واد آخر، علاقتك مع النساء في واد والمنهج الصحيح في واد آخر، فهذه مشكلة، إنسان يتحرك وفق شهواته، هناك حرام بكسب المال، حرام بإنفاقه، حرام بعلاقته مع النساء، حرام بلقاءاته، حرام بسفره، يتحرك حركة بدافع شهواته، هذا جعل نفسه في حيز آخر من الحق، لم يكن هناك حد، الحد يجعلك في حيز آخر، هذا معنى

(يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

طبعاً وحيثما جاءت كلمة الله ورسوله لها معنى دقيق، الله عز وجل هو الخالق، هذا الكون يدل عليه، وهذه الأفعال، زلزال أحياناً، فيضان، الحروب أيضاً تدل عليه، هذه أفعاله، وأحياناً كلامه، أن تعرف الله، وأن تعرف أمره ونهيه، هذا شيء مهم جداً، أما رسوله فهذا منهج، القرآن كتاب من فسره بالحقيقة؟

رسول الله، لكن ما قال لنا تفسيراً، قال لنا: سنة، هناك كتاب فيه كليات، والسنة فيها تفصيلات، أنت إن أردت أن تفهم ما في الكتاب ينبغي أن تقرأ السنة.

((إن تَمسَّكْتُمْ به لن تَضِلُّوا بعدي))

[أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم]

بطولة الإنسان أن يعيش المستقبل :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

النتيجة خطيرة جداً،

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

هذه النار وردت في:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم عن جابر بن عبد الله]

دائماً وأبداً الإنسان يعيش واقعه وماضيه، يقول لك: كنت محامياً، كنت تاجراً بعد ذلك تركت التجارة، كنت موظفاً ثم تقاعدت، يتكلم عن ماضيه وعن واقعه، قلّما تجد إنساناً يفكر في مستقبله، ما سيكون، وأخطر شيء بالمستقبل مغادرة الدنيا، نحن الموت نؤمن به لكن لا نعرف حجمه، حجمه من بيت إلى قبر، هناك بيت أربعمئة متر، بيت ثمنه يقدر بمئة وخمسين مليوناً بعده قبر، من صالونات، غرف ضيوف، غرف طعام، غرف جلوس، أجهزة كهربائية، إطلالة جميلة، إلى قبر، ماذا في القبر؟ فالبطولة أن تفكر فيما سيكون لا فيما هو كائن.

أقول لك هذه الكلمة: أدق ما في حياة المؤمن أنه يعيش المستقبل، مرة سألوا طالباً أخذ الدرجة الأولى على القطر بالشهادة الثانوية، فأجروا معه لقاء صحفياً، أنا قرأت هذا اللقاء أعجبتني إجابته، قيل له: ما سبب هذا التفوق؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي ولا ثانية.

والمؤمن الصادق ساعة وفاته مغادرته للدنيا ماثلة بين عينيه، هذا العمل يرضي الله عز وجل، لو أن الله سألني لماذا فعلت هذا؟ لماذا قطعت هذه العلاقة؟ لماذا وصلت هذا الإنسان؟ إنسان منحرف، لماذا وصلته؟ لماذا أخذت هذا المال؟ لماذا اخترت هذه الحرفة؟ لماذا التقيت بهذا اللقاء؟ هل معك جواب؟ البطولة أن تهيئ جواباً لله عز وجل عن كل شيء تفعله.

الله عز وجل مع المؤمنين بالحفظ و الرعاية و التوفيق :

الذي ينبغي أن يقال إن معية الله عز وجل معية علم، لكن إذا قال الله عز وجل:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

قال علماء التفسير: هذه معية خاصة، المعية الخاصة رائعة جداً، أي معهم يوفقهم، ومعهم يحفظهم، ومعهم ينصرهم، ومعهم يرشدهم، ومعهم بالتوفيق، والحفظ، والرعاية، والإكرام، إذا كان الله معك فمن عليك؟

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك؟

* * *

على المؤمن ألا يجعل بينه وبين الحق شيئاً :

أيها الأخوة، يحادد أي يعادي، عمل حداً، أنت هنا وأنا هنا، وسوف نختصم، معنى يحادد أي يشاقق، أي أنت في شق وأنا في شق، معنى يحادد أي يحارب، أنت دائماً الدين بمكان وأنت بمكان، أنت بمكان والحق بمكان، أنت بمكان والفضيلة بمكان، أنت بمكان والصواب بمكان، عندما تكون أنت مع الصواب، ومع الحق، ومع الفضيلة، ومع الدين، هذا معنى:

(يُشَاقِقِ)

[سورة النساء الآية: 115]

جعل حداً بين شقين، شق الحق، وشق الباطل، هو مع الباطل، والمؤمن لا يجعل بينه وبين الحق شيئاً، هو مع الحق، وفي الحق، وهناك إنسان يستخدم سلاحه ليجبر الناس على الباطل، هذا أصعب، عندنا ضال مضل، و عندنا فاسد ومفسد.

للكافر شقاء في الدنيا و جهنم في الآخرة :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

طبعاً نار جهنم في الآخرة، وفي الدنيا هناك شقاء، بعض معاني الآيات:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

قال بعض علماء التفسير: جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، بل قال بعضهم: بل يقاس على ذلك أن هناك جهنم في الآخرة وجهنم في الدنيا، لأنه:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

[سورة طه الآية: 124]

هذه جهنم في الدنيا، هناك قلق، وقهر، وطمع، وشعور أنه مقهور، أحياناً هناك شعور أنه ما أخذ حقه، هذه المشاعر النفسية مؤلمة جداً.

علامة المؤمن أنه قوي الشخصية متفائل سعيد :

الحقيقة السعادة النفسية- أنا أقول كلمة- أنت عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، إذا غذيت عقلك بالعلم، وقلبك بالحب تفوقت، كنت أسعد الناس، فأنت حينما تكتشف حقيقة الإيمان، والله أنا أقول هذه الكلمة وأرجو أن تكون دقيقة: إن لم تقل ليس على وجه الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ففي إيمانك مشكلة، يجب أن تقول كلاماً علمياً ودقيقاً، ليس على وجه الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني، فأنت عندما تكون مؤمناً أي أنت سعيد، أنت متوازن، قوي الشخصية، متفائل، موفق، لك عمل صالح ترقى به عند الله، لك صلة بالله، تشعر أنت بالتعبير الدارج غال على الله، هذه علامة المؤمن، أما أنت واحد من الخلق فلا شأن لك عند الله، هي مشكلة كبيرة،

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الخسارة الحقيقية هي خسارة الآخرة :

لماذا لا تكن ولياً لله ورسوله؟ الفرق كبير جداً، أن توالي الحق، أنت مع الحق، مع المؤمنين، مع الصدق، مع العدل، مع الإنصاف، مع الإحسان، الحق طبعاً كلمة ولها تفاصيل، أنت مع القرآن، إذا هناك آية قرآنية:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

مستحيل،

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

ما هي جهنم؟ هي موضوع الأبد، ما هو الأبد؟ أتمنى أن أقدم شيئاً للتقريب: واحد هنا وأصفار إلى آخر الطاولة، أول ثلاثة أصفار ألف، ثاني ثلاثة مليون، الثلاثة الثالثة ألف مليون، الثلاثة الرابعة مليون مليون، لآخر الطاولة لا أعرف كم مليار، لنهاية المسجد، من هذا البلد إلى القطب، كله أصفار، وكل

ميلي صفر، واحد بالأرض وأصفار إلى الشمس، مئة و ستة و خمسون مليون كيلو متر كم أصفاراً كم هذا الرقم؟.

أخواننا الكرام، أي أخ كريم عنده إلمام بالرياضيات يعرف أن أكبر رقم في الكون إذا نسب للانهاية فهو صفر، والآخرة لا نهاية، الدنيا لو عشت مليون سنة، لو كنت أغنى أغنياء الأرض، لو عندك مليون امرأة، أغنى أغنياء الأرض إذا نسبت قدرته على المال إلى الآخرة فهي صفر، لذلك:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الشورى الآية: 45]

هذه الخسارة الحقيقية خسرت الآخرة، لذلك النجاح مسعد، والخسارة مؤلمة، وفي بعض الآثار النبوية:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

إحساس الندم إحساس مؤلم جداً، ساحق.

من قابل نعم الله بالجحود و الكفر فهو أشقى الناس :

إذاً

(مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

(أَلَمْ يَعْلَمُوا)

أنت تصدق جامعة تعطيك دكتوراه من دون فحص؟ هل هناك جامعة تقدم لها طلباً: أرجو منحي شهادة فتأخذها؟ هناك دراسة ثلاث و عشرين سنة، وأطروحات، وامتحانات كتابية وشفوية، فأنت تصدق إنساناً مخلوقاً للجنة لا يوجد عنده امتحانات؟

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

أما الإنسان يوم القيامة فيكشف الله له لماذا خلقه، خلقه ليسعده، أعطاه سمعاً وبصراً، وأعطاه عقلاً، وأعطاه إدراكاً، وأعطه جسماً، وأعطاه زوجة وأولاداً، وأعطه حرفة أتقنها، جاءه منها دخل كبير، وقابل هذه النعم بالكفر والجحود، وبنى مجده على أنقاض الآخرين، بنى حياته على شقائهم، بنى حياته على موتهم، بنى عزه على ذلهم، بنى سعادته على شقائهم، معقول؟ هذا الخالق ألا يسألك؟ الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، فإنسان يحادد الله ورسوله؟ معقول الذي خلقك تحاربه؟ الذي خلقك تعصيه؟ لا تعبأ بدينه؟ ولا بمنهجه؟ ولا بوعده؟ ولا بوعيده؟ ولا بما عنده من خيرات؟ هذا من أشقى الناس.

البشر على اختلاف مللهم ونحلهم صنفان لا ثالث لهما :

والله لا أبالغ قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل]

ماذا فعل؟ أيقن أنه مخلوق للجنة، بعد هذا اليقين اتقى أن يعصي الله، وبعد هذه التقوى بنى حياته على العطاء، صدق بالحسنى، اتقى أن يعصيه، بنى حياته على العطاء، الآن الله عز وجل الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

زواجه ميسر، صحته ميسرة، دخله ميسر، سعادته ميسرة.

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

أولاً ما عرف الله، غفل عنه، الدليل: تفلت من منهجه، وبنى حياته على الأخذ لا على العطاء، هذه صفات جامعة مانعة، البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، هم صنفان لا ثالث لهما،

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

فهذا الإنسان الثاني الذي

(يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

وهناك جهنم في الدنيا قياساً على ذلك، الآية التي قالت:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

سأل إنسان عالماً كبيراً: ما بال الأقوياء والملوك؟ قال: ضيق القلب، معيشة الضنك لا تكون أحياناً بقلة المال، المال وفير، تكون أحياناً بالشعور بالضياع، والإنسان يسعد قلبه، قد تجد مؤمناً متواضعاً جداً، دخله محدود، وبيته متواضع، أسعد الناس بالبلدة كلها، قد تجد إنساناً بأرقى مكان، بأعلى مرتبة، وهو شقي، فالشقاء لا يأتي من منصب، ولا يأتي من ثروة، يأتي من أن تكون مع الله، كن مع الله تر الله معك.

أعظم نعمة للمؤمن أن الله طمأنه على مستقبله :

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

دائماً، كيف أن الإنسان المحكوم بالإعدام يمكن أن يعدموه بعد ستة أشهر، كلما وضعوا المفتاح بالزنزانة يقول: جاؤوا يعدمونني، يعيش حياته كلها قبل أن يعدم بالإعدام، يعدم مليون مرة قبل أن يعدم، والإنسان إذا كان بعيداً عن الله، حتى في الدنيا قلق، يخاف من مرض عضال، أعظم نعمة للمؤمن أن الله طمأنه على مستقبله، والدليل قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة الآية: 51]

ما قال علينا، قال: لنا.

أتمنى على الأخوة الكرام المؤمنين إذا الله عز وجل طمأنك أن تقول:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لم يقل علينا، إنك إذا استقمت على أمر الله لك عند الله في الدنيا سعادة، والدنيا فيها جنة، جنة القرب من الله عز وجل، يقابلها ينار جهنم أيضاً، في الدنيا شقاء، مستحيل أن تكون منقطعاً عن الله وأنت سعيد أبداً، وألف ألف ألف مستحيل ولو كنت قوياً أو غنياً.

من تعرف إلى الله استقام على أمره و انصاع له :

(خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

هذا الخزي، الذي خلقك، الذي أعطاك الحياة، أعطاك الزوجة والولد، أعطاك القدرات، أعطاك العقل، أعطاك السمع، والبصر، أعطاك كل خصائصك، نسيته وكنت عبداً لغيره؟! أنا أقول دائماً: إما أن تكون عبداً لله وإما أن تكون عبداً لعبد لئيم.

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

إذا قال لك طفل: أنا معي مبلغ عظيم، طفل عمره أربع سنوات، عقب عيد الأضحى قال لك: أنا معي مبلغ عظيم، نقدره بألف ليرة مثلاً، أما إذا قال لك مسؤول بالبنتاغون: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، أي مئتا مليار، نفس الكلمة قالها طفل قدرتها بمئتي ليرة، قالها إنسان بمنصب رفيع بدولة عظمى قدرتها بمئتي مليار، فإذا قال ملك الملوك عذاب عظيم، ما هذا العذاب العظيم؟.

أنا أقول هناك شاهد آخر طبعاً:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

العظيم قال لك: هذا الفضل عظيم، لذلك بحسب الآية أعظم شيء أن تعرف الله، إنك إن عرفته عرفت كل شيء، إن عرفته كان بيدك سبل سعادتك وشقائك، كان بيدك المستقبل الرائع في الجنة، فلذلك الخير كله في طاعة الله، الخير والتوفيق، الرحمة في طاعة الله، الذي أتمنى أن يكون واضحاً جداً أن هناك حالتان شقاء وسعادة، الشقاء بمعصية الله، والسعادة بطاعته:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (47-70) : تفسير الآيات 64 - 66، عقاب الله للمنافقين، والمجرم هو القاطع.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-04-08

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستعداد لدفع خطر متوقع هو المعنى الذي يُفهم من كلمة احذر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والستين وما بعدها وهي قوله تعالى:

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، أصل الحذر أن تستعد لدفع خطر متوقع، فإذا قلت لمسافر: خذ حذرك؟ قد يسافر ومعه صديق، وقد يسافر ومعه سلاح، فالاستعداد لدفع خطر متوقع هو المعنى الذي يُفهم من كلمة احذر، الحذر.

ولكن كيف نفهم هذه الآية الكريمة في ضوء هذا التعريف،

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ)

المنافق ما الذي يخيفه؟.

أولاً: زمرتان من البشر واضحتان جداً، المؤمنون والكفرة، المؤمن واضح آمن بالله خالقاً، ورباً، ومسيراً، وانصاع لمنهجه تطبيقاً وإخلاصاً، والكافر أنكر الإيمان، وتحرك وفق شهواته، فالكافر واضح، والمؤمن واضح، إلا أن هناك صنف ثالث، له موقف خاص يفعله إذا خلا، وموقف عام يفعله أمام المؤمنين، هذا المنافق، المنافق له ظاهر، وله باطن، له سريرة، وله علانية، له موقف خاص، وله موقف معلن، هذه الازدواجية عند المنافق تقتضي الحذر، فالمنافق أظهر الإيمان أمام المؤمنين، على مكاسب يجنيها من هذا الموقف، وأخفى الكفر، فهذا المنافق الشيء الذي يخافه كثيراً أن تنزل آية تفضحه.

حينما سمع طفل صغير اسمه الجلاس من عمه هذه الكلمة التي قالها في البيت: لو أن محمداً صادق فيما يقول لكنا شراً من الحمر، فحينما عرض هذا الطفل الصغير على النبي هذه المقولة نزل قوله تعالى:

(وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

[سورة التوبة الآية: 74]

الله عز وجل سمح للبشر أن يروا الظاهر لكن السرائر لا يعلمها إلا هو :

لذلك أيها الأخوة، كلمة يحذر بالنسبة للمنافق نفهمها أن المنافق أعلن الإيمان، وأغفل الكفر، أعلن الانسياق بأمر الله، وأخفى المعصية سراً، فهو مزدوج الشخصية، وذو الوجهين - كما قيل- لا يكون عند الله وجيهاً، فهذا المنافق يحذر أن تنزل آية في القرآن تفضحه، قال تعالى:

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ)

لحكمة بالغةٍ بالغة الله عز وجل سمح للبشر أن يروا الظاهر، لكن السرائر يعلمها الله عز وجل، فالإنسان إذا أسر سريرة لحكمة بالغةٍ بالغة لابد من أن يكشفها الله للبشر بوقت طويل أو قصير، لذلك قيل: يمكن أن تخدع الناس لبعض الوقت، بل أن يمكن أن تخضع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل وألف ألف مستحيل، لكني أعلق وأقول: أما أن تخدع نفسك أو أن تخدع ربك فهذا مستحيل، ولا لثانية واحدة، لقوله تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

[سورة القيامة]

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

[سورة ق]

فالإنسان حينما يؤمن أن الله معه كيف يعصيه؟

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لـو كان حبك صادق لأطعته إن الـمحب لمن يحب يطيع

* * *

فالمؤمن من خصائصه أنه واضح، سريرته كعلانيته، ظاهره كباطنه، وهو مع الحق والحق لا يخشى البحث، ولا يستحي به، الحق ينبغي أن تعلنه على الناس كافة، لأن الحق هو الله عز وجل.

الدين قضية مصيرية تتعلق بها سلامتك وسعادتك في الدنيا والآخرة :

أريد أن أوضح نقطة دقيقة هي أن الحق يشبه دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، الدين نقل، لكن هناك نقل صحيح، و نقل غير صحيح، فالبطولة إذا نقلت أن تنقل ما هو صحيح، هناك أحاديث لا تعد ولا تحصى موضوعة، وهناك تأويل لآيات غير صحيح، فالبطولة أن تعتمد النص الصحيح بتأويل صحيح، لأن هذا الدين حياتك، ومستقبلك، ومصيرك.

" إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم" سيدنا عمر يقول لابنه عبد الله: "ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا".

فقضية الدين قضية خطيرة، قضية مصيرية، الإنسان قد ينجح من صف إلى صف أما بالشهادة الثانوية فهناك علامات، هذه العلامات تحدد مصيره، قد يكون طبيباً، أو مهندساً، أو باختصاص ليس عليه طلب إطلاقاً، بالحياة أشياء مصيرية تحدد مصير الإنسان، إما في سعادة أبدية، أو في شقاء أبدي، فقضية الدين قضية مصيرية، ليس الدين وردة تضعها على صدرك من حين لآخر، الدين قضية مصيرية تتعلق بها سلامتك وسعادتك في الدنيا والآخرة.

حقيقة المنافقين :

لذلك المنافق له باطن كفري، وله ظاهر إيماني، أراد أن يكسب من الطرفين، أراد أن يكون في تفلت كامل فيما بينه وبين حياته الخاصة، وأراد أن يكون مع المؤمنين في الظاهر كي ينال من مكاسبهم، هذه حقيقة المنافقين.

فلذلك المنافقون يحذرون أن تنزل:

(سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ)

المؤمن حياته فيها طمأنينة، فيها صراحة، فيها وضوح، لا يخشى المساءلة، ظاهره كباطنه، باطنه كظاهره، سره كعلانيته، علانيته كسره، هذا التطابق التام بين الظاهر والباطن، بين حالته الخاصة وحالته العامة هو سر قوته، فالحق لا يستحيا به، الحق لا يخشى البحث، الحق يعلن على الملأ، الحق لا يقال في غرف مغلقة، لا يقال في الأقبية، الحق يقال على الملأ، في رابعة النهار، بل يقال في الإذاعة إذاً فالحق واضح كالشمس لا يخشى البحث، لا يستحيا به، تقوله على الملأ، تقوله وأنت واثق من أحقيته، الحق الذي هو الدين، الحق يكاد يكون دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح هناك نقل موضوع، ونقل غير صحيح، ونقل موهوم، وتأويل لنقل صحيح غير صحيح، فتتقاطع في هذه الدائرة أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، هناك عقل تبريري، هذا عقل سيئ جداً، الهدف أن مصالحك في المقدمة، يأتي العقل ليبرر، كأن يقول المستعمرون مثلاً: جئنا إلى هذا البلد من أجل حريتكم، هم جاؤوا من أجل النفط، لا من أجل حريتنا.

فالعقل الصريح أحد خصائص الحق، الحق دائرة تتقاطع بها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، هناك واقع مزور، لو فرضنا أن إنساناً قال: إن معظم المسلمين عندهم أكثر من زوجة، هذا كلام غير صحيح، الذي يعدد ثلاثة في المئة فقط

من مجموع البشر، فهناك كلام غير صحيح.

إذاً أريد أن ألح على أن الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، هذه كلها تتوافر في الحق، والحق هو هذا الدين، والحق هو الوحي، والحق هو السيرة والسنة، والحق ما جاء به الوحي السماوي.

لذلك هؤلاء المنافقون يحذرون أن تنزل آية تفضحهم،

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ)

غيب المستقبل لا يعلمه إلا الله عز وجل :

بالمناسبة عندنا شيء اسمه غيب، عندنا غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، وغيب مكاني، وغيب زماني، فغيب الماضي، والحاضر، والمستقبل غيب زماني، وأنت في هذا البلد لا تدري ما يكون في بلد آخر هذا غيب مكاني.

فلذلك النقطة الدقيقة جداً أن غيب المستقبل لا يعلمه إلا الله، وأي إنسان يدعي أنه يعلم الغيب فهو كاذب، لأن الله سبحانه وتعالى يقول عن رسول الله قل:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة الأنعام الآية: 50]

أما الذي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بأشراط الساعة هذا من إخبار الله له، هذا بذاته لا يعلم الغيب، أي بشر كائن من كان حتى الأنبياء لا يعلمون الغيب، أما إذا تحدثوا عن المستقبل فإخبار الله لهم عن هذا المستقبل.

الحق لا يخشى البحث لأن الحق هو الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، المنافق أبطل الكفر وأظهر الإيمان، إذاً هو يخاف أن تنزل سورة تفضحه، أما المؤمن فواضح وضوح الشمس، ليله كنهاره، سره كعلانيته، ما يضمر كما يعلم، هذه صفة بالإنسان رائعة جداً، واضح، ليس معه حالة قلق، حالة خوف، حالة وجل، واضح، يقول النبي الكريم:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض]

لذلك مرة ثانية: الحق لا يخشى البحث، والحق لا يستحيا به، والحق يعلن على الملأ ولا أحد على وجه الأرض يستطيع أن ينطق بكلمة، لأن الحق هو الله عز وجل، والحق أساسه نقل صحيح، وعقل صريح، وفطرة سليمة، وواقع موضوعي، الواقع المزور يتناقض مع الحق، الفطرة المنطمسة تتناقض مع

الحق، العقل التبريري يتناقض مع الحق، النص الموضوع يتناقض مع الحق، لابد من نقل صحيح، وعقل صريح، وفطرة سليمة، وواقع موضوعي.

الغيب و أنواعه :

الآن ما دام الحديث عن الغيب، عندنا غيب المستقبل، هذا لا يعلمه إلا الله، حتى الأنبياء والمرسلون لا يعلمون الغيب، أما غيب الماضي فغاب عنا، لكن الله عز وجل أخبرنا بأشياء كثيرة من غيب الماضي، والدليل قوله تعالى:

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا)

[سورة هود الآية: 49]

وأحد دلائل نبوة النبي أن الله سبحانه وتعالى أخبره بقصص وحوادث من عالم الغيب الماضي. هناك شيء آخر: غيب المستقبل في بعض الآيات أخبر الله عنه، هناك شيء يلفت النظر الله عز وجل قال:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

[سورة الروم]

غلبت فعل ماض.

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم]

أولاً: استنباطان دقيقان من خلال هذه الآية، الاستنباط الأول: أن غيب المستقبل لا يعلمه إلا الله، وأنه أخبر أنبياءه عن أشياء لم تقع، لكنها سوف تقع كهذه الآية.

لكن هناك شيء ثان، قال:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

معنى ذلك هناك قواسم مشتركة بين الأديان السماوية، قواسم مشتركة بين الحق، بين أهل الحق، فمن علامة إيمانك أنك تقدر من هم على شاكلتك في الدعوة إلى الله.

الدعوة إلى الله دعوتان :

لهذا أقول دائماً: الدعوة إلى الله دعوتان، دعوة إلى الله خالصة، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله، فالدعوة إلى الله الخالصة أساسها الاتباع.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأحقاف الآية: 9]

والدعوة إلى الله الخالصة أساسها التعاون.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: 2]

والدعوة إلى الله الخالصة أساسها الاعتراف بالآخر، بينما الدعوة إلى الله المغلفة بدعوة إلى الذات أساسها الابتداع لا الاتباع، والدعوة إلى الذات المغلفة بالدعوة إلى الله أساسها عدم التعاون، التنافس، والدعوة إلى الذات المغلفة بدعوة إلى الله أساسها إلغاء الآخر بالمصطلح المعاصر إقصاء الآخر، فالمؤمن ليس إقصائياً، هو يدعو إلى الله، يتبع لا يبتدع، يتعاون لا يتنافس، يقدر الآخر، لا يلغي وجوده.

كل شيء وقع أراده الله وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة :

إذاً هذا غيب المستقبل قد أخبر الله عنه، مثلاً:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

[سورة البقرة الآية: 142]

هذا شيء لم يقال بعد،

(سَيَقُولُ)

هؤلاء السفهاء وصفوا بأنهم سفهاء، فلو سكتوا لأبطلوا هذه الآية، سكتوا فقط.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد]

لو أن أبا لهب توجه إلى النبي وأعلن إسلامه ظاهراً ألغى هذه السورة، لو أن السفهاء سكتوا ألغوا هذه الآية، إذاً هذا يستنبط منه أن الله سبحانه وتعالى طليق الإرادة، الأمر بيد الله عز وجل الله:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود]

لو أن هؤلاء السفهاء سكتوا ولم يقولوا لأبطلوا هذه الآية، هذا يستنبط منه أن الله عز وجل

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

أي إنسان يدّعي أنه يعلم الغيب فهو إنسان كاذب :

أيها الأخوة، لذلك هذه الآيات التي تتحدث عن أقوام سابقين تلخصها الآية الكريمة:

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ)

غيب الماضي الإخبار عنه دليل نبوة هذا النبي الكريم، وغيب الحاضر قد يكون شيء حدث في مكان آخر، هو غاب عنك مع أنه وقع، وقع في الوقت نفسه هذا غيب الحاضر، أحياناً ربنا عز وجل أخبرنا عنه.

الآن أي إنسان يدّعي أنه يعلم الغيب فهو كاذب وهذه حقيقة مهمة جداً، فلذلك هذه الآية تلغي عمل المشعوذين، والدجالين، والكذابين، والقصاصين، وكل إنسان يوهم أنه يعلم الغيب فهو كاذب، كاذب وينبغي أن تركله بقدمك، لأن الله عز وجل اختص بعلم الغيب، لكن أحياناً تقتضي حكمته أن ينبئ أنبياءه أو النبي الكريم عن أحداث سوف تقع مصداقاً لنبوته، هذا من إعلام الله له وليس من علمه بذاته.

الابتعاد عن وضع المواضيع المقدسة الإلهية في مجال اللعب :

أيها الأخوة الكرام،

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

أحياناً كان المنافقون إذا جلسوا مع بعضهم بعضاً يتحدثون عن هذا النبي، وعن هذا القرآن بسخرية لاذعة، فقيل: أتستهزئون بهذا المنهج العظيم؟ بالقرآن الكريم؟ الآية الكريمة:

(قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

هذا الأمر أمر تحدّ وأمر توبيخ،

(قُلِ اسْتَهْزِئُوا)

سوف تعلمون نتائج هذا الاستهزاء، فالإنسان ينبغي أن يبتعد عن أن يضع المواضيع المقدسة الإلهية في مجال اللعب أحياناً،

(قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)

[سورة التوبة]

أشقى الناس من كان في خندق معاد للحق :

أيها الأخوة الكرام، بعض الكفار كانوا إذا جلسوا فيما بينهم، حينما علموا أن بعض أقوالهم كان ينزل بها وحي فكانوا يقولون: لا داعي أن نتكلم حتى لا ينزل فينا قرآن، هذا من أقوالهم، لا داعي أن نتكلم حتى لا ينزل فينا قرآن، لكن من هو أشقى الناس؟ هو الذي يكون بخندق معادٍ للحق، أشقى الأشقياء الذي كان في خندق آخر غير خندق الحق، لأن الله سبحانه وتعالى يبين أن بيده كل شيء، وأن كيد الله متين، والمتانة صفة مادة تتحمل الشد، عندنا مقاومة قوى الشد، المادة التي تقاوم قوى الشد نسميها بالمادة المتينة، والمادة التي تقاوم قوى الضغط نسميها بالمادة القاسية، من أمتن المواد في الأرض الفولاذ المضفور، خيط من الفولاذ قطره ميلي متر، يحمل مئتي كيلو، فإذا كان الفولاذ مضفوراً يحمل أكثر، الآن المصاعد بالفولاذ المضفور، التل فريك بالفولاذ المضفور، الأشياء التي تتحمل أوزاناً كبيرة جداً نعلقها بالفولاذ المضفور، فالفولاذ المضفور أمتن معادن في الأرض، والمتانة مقاومة قوى الشد، أما أقسى مادة في الأرض الألماس تقاوم قوى الضغط، مثلاً الاسمنت السنتمتر المربع أو المكعب منه يتحمل خمسمئة وخمسين كيلو ولا ينكسر، بينما هذا السنتيمتر المكعب لو وضعته بين فكين وسحبته يكسر على خمسة كيلو، لذلك الاسمنت ينبغي أن يكون مسلحاً، مقاومة قوى الضغط عالية جداً، أما مقاومة قوى الشد فضعيفة جداً، فلابد من إسمنت مسلح، التسليح ليقاوم قوى الشد لا قوى الضغط، الآن ما علاقة هذا الكلام بالآية في قوله تعالى:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

[سورة الأعراف]

أي هذا الكافر مربوط بحبل لكنه مرخى، ففي أية لحظة يشد هذا الحبل فإذا هو في قبضة الله، وهذا أكبر وهم يدمر الكافر، لا يدخل الله في حساباته أبداً، يعتمد على قوته، على ذكائه، على معلوماته، على من حوله، على جمعه الغفير، وينسى الله عز وجل، لكنه يفاجأ من حيث لا يحتسب، عرفت الله من نقض العزائم، فالذي يعتمد على إمكاناته، وعلى عقله، وعلى ماله، وعلى من حوله، وينسى الله، أنا أرى أن أغبى الأغبياء في الأرض هم الذين ما أدخلوا الله في حساباتهم،

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

المتانة مقاومة قوى الشد.

من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى :

الآية التي تقول:

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا)

هذا أمر تحدٍّ، استهزئ وسوف تحاسب، لكن أن تكون في خندق معادٍ للحق؟ أن تكون تحت وعيد إلهي؟ هذا شيء مخيف، فهذا هو الغباء بعينه، أن تنسى أن الله بيده كل شيء، وأن مرجعك إليه، ومصيرك إليه، وحياتك بيده، وموتك بيده، ورزقك بيده، والسعادة بيده، والشقاء بيده، لذلك لما الله عز وجل قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

شيء رائع جداً، قال:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

هذه معية عامة، معكم بعلمه، أما إن قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

هذه معية خاصة، معكم بالتوفيق، معكم بالحفظ، معكم بالنصر، معكم بالتأييد، فإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ لذلك معية الله ثمينة جداً.

أيها الأخوة الكرام،

(قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى،

(إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

تناقض العبث مع الدين :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ)

مثلاً للتقريب: أستاذ جامعي أمامه ورق للطلاب وعليها يضع العلامات، وكلمة العلامات تعني مصير هذا الطالب بالنجاح أو الرسوب، النجاح أي أخذ شهادة عليا، وتعين بوظيفة راقية، وتزوج، هل من الممكن أن يجرب الأستاذ قلمه على هذه الأوراق؟ إنسان يأخذ صفراً بشكل عابث؟ العبث يتناقض مع هذا الدين.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنين]

كلام دقيق.

الحق و الباطل :

ما هو الحق؟ الحق هو الله، لكن من بعض تعريفات الحق لأن هناك آيات كثيرة جداً، بالمئات:

(أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ)

[سورة فاطر الآية: 24]

ما هو الحق؟ الحق الشيء الثابت والدائم، الثبات والديمومة، ما هو الباطل؟ الشيء العابث والزائل، مثلاً: نحن ممكن أن نعمل سيركاً، السيرك يعمل لمدة أسبوعين أو ثلاثة، فالبناء عبارة عن خيام وأشياء للتسلية، فيل مثلاً، بعض الحيوانات، بعض الألعاب البهلوانية، هذا السيرك، فالسيرك هدفه إمضاء الوقت فقط، تسلية، فالهدف ليس هدفاً عظيماً، هدف زائل وعابث، أما الحق كتأسيس جامعة من أجل تخريج قادة للأمة، يجب أن يكون بناؤها ضخماً قد يعيش مئات السنين، فالفرق بين بناء لهدف نبيل كالجامعات و المساجد مثلاً وبين بناء لهدف رخيص كالسيرك كالفرق بين الحق و الباطل.

فالشيء الحق هو ثابت وله هدف كبير، هادف وثابت، والباطل زائل وعابث، فحيثما قرأت كلمة الحق في القرآن، أنزل هذا الكتاب بالحق، لهدف كبير أن تسعد في الدارين، وهذا الحق لا يتبدل ولا يتغير، تمر أمم، شعوب، أقوام، رخاء، شدة، الحق ثابت، ومبادئ الحق ثابتة.

بطولة المؤمن أن يكون مع الحق وليس مع الباطل :

لذلك:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)

اللعب عمل عابث، إذا لم يكن هناك إيذاء للآخرين ممكن، لكن ألا يكون في موضوعات خطيرة، الموضوع الخطير ممنوع أن يكون عرضة للعب والعبث، هناك آية كريمة تقول:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الدخان]

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

بالحق لهدف كبير، الحق ثابت، أحياناً تقرأ كثيراً، تراجع كثيراً، لكن الحق ثابت لا يتغير، طوبى لمن كان مع الحق، والويل لمن كان مع الباطل، الباطل زائل، في شمال الأرض كان الفكر الإلحادي منتشراً لمدة سبعين أو ثمانين سنة ثم تهاوى وأصبح زاهقاً.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

زهوق صيغة مبالغة، أكبر باطل زائل، ومليون باطل زائل، فكل بطولة المؤمن أنه مع الحق وليس مع الباطل.

إذاً الآية الكريمة:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ)

الله عاتبهم وقال:

(قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)

أيعقل أن تكون الموضوعات الكبرى في الحياة، موضوع الإيمان بالله، الإيمان برسول الله، الإيمان بكتاب الله موضع الاستهزاء وموضع لعب؟ لذلك قال تعالى:

(لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

[سورة التوبة]

رحمة الله عز وجل رحمة واسعة :

هناك ملمح دقيق: هم لم يؤمنوا، لكن أعلنوا إيمانهم، هم قدموا هوية لهم أنهم مؤمنون فربنا عز وجل بهذا المعنى ذكر هذا الكلام،

(لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

بعد أن أعطيتم أنفسكم هوية إيمانية، وحصلتم بها مكاسب كبيرة، وأنتم تبطنون الكفر،

(قَدْ كَفَرْتُمْ)

كنتم بنظر الآخرين مؤمنين فلما عبرتم عن هذه السخرية وهذا الاستهزاء بالكتاب والسنة أصبحتم كافرين

(لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

لكن رحمة الله عز وجل قال:

(إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ)

أي هؤلاء المنافقون الذين سخروا من دين الله، من كتاب الله، من رسول الله، لو أنهم عادوا لقبلهم الله عز وجل.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[حديث قدسي]

والآية واضحة جداً:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 53]

فلذلك قال بعض علماء التفسير: هذه أرجى آية في كتاب الله،

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

المغفرة تكون بعد الإيمان بالله عز وجل :

لكن لو تابعنها:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

[سورة الزمر الآية: 54]

المغفرة تكون بعد الإيمان، لذلك:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء الآية: 48]

الشيء الدقيق:

(لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ)

أي تابت ورجعت، المنافقون سخروا من هذا الدين، من هذا الكتاب، من هذا النبي، ومع ذلك إن عادوا إلى الله انتهى كل شيء، فلذلك ما دام القلب ينبض أنت في بحبوحة المغفرة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

ما دامت سنتك قائمة فيهم هم في مأمن من عذاب الله، لكن عندنا مأمن ثان:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

لذلك:

(إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ)

هؤلاء الذين سخروا من الكتاب، والسنة، ومن رسول الله، إذا تابوا وعادوا إلى الله، فالله يتوب عليهم.

من أصرّ على كفره و طغيانه فالنار مثوى له :

(نُعَذِّبْ طَائِفَةً)

مصرة على كفرها، وعلى نفاقها،

(بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

ما معنى مجرمين؟ أنت حينما تجرم أي تقطع، كمن جرم اللحم عن العظم، قطع اللحم، فهذا الذي أخذ هذا الموقف وأصر عليه قطع نفسه عن الحق، صار هو في واد والحق في واد آخر، هذا هو الجرم الكبير أن تكون في خندق معادٍ للحق، أن تكون في طرف آخر، لا مع أهل الحق.

(إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

جرموا أنفسهم أي قطعوها عن الحق، أصبحوا في خندق معادٍ للحق، أصبحوا هم في مكان والحق في مكان آخر، أما المؤمن فمع الحق دائماً.

لذلك الآيات:

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (48-70) : تفسير الآيات 67 - 68، صفات المنافقين، وباب التوبة مفتوح ما لم يغرغر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-04-15

بسم الله الرحمن الرحيم

الأوامر الإلهية حينما تكون موجهة للذكور هي حتماً للإناث من باب التغليب :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الكريمة:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

أولاً الأحكام التكلفية ذكورية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة التحريم الآية:8]

أكثر آيات القرآن الكريم المتعلقة بالتكليف جاءت ذكورية، لأنها تخاطب الذكور، لكن هناك في اللغة العربية، أو في البلاغة بحث دقيق هو التغليب، فإذا دخل إلى هذه القاعة فرضاً سبعون طالبة وطالب واحد نقول: دخل الطلاب، غلبنا هذا الذكر على الإناث فالتغليب كأن تقول: الوالدان، الأب لم يلد، اسمه والد، القمرين: الشمس والقمر، فلذلك التغليب حينما تأتي الأوامر الإلهية موجهة للذكور، هي حتماً للإناث، من باب التغليب، أي أخت كريمة، مؤمنة طاهرة، إذا قرأت:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هي مخاطبة أيضاً بهذه اللغة، وكأن الله يقول: يا أيتها المؤمنات، هذا هو التغليب.

في بعض الآيات لا بد من التفرقة بين الذكور والإناث :

لكن في حالات قليلة لا بد من التفرقة بين الذكور والإناث:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

[سورة النحل الآية967]

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

[سورة آل عمران الآية:195]

هنا:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ)

لأن المنافقون لهم مجالسهم، والنساء لهن مجالسهن، فربما تكلمن النساء في مجالسهن كلاماً، الله عز وجل ينكره عليهن، وكذلك الرجال، فهو بالأصل أي آية موجهة إلى الذين آمنوا هي حكماً موجهة إلى المؤمنات، إلا في حالات، في بعض الآيات لا بد من ذكر الذكور والإناث معاً، هنا جاءت الآية:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لكن قبل أن نتابع الآية: إذ يأتي قبل هذه الكلمات

(يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ)

النقطة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية:110]

هي خير أمة بنص هذه الآية، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، إله عظيم خلق الكون، يقول:

(كُنْتُمْ)

قال علماء التفسير: أيها العرب أصبحتم بهذه الرسالة

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

أصبحتم، كنتم هنا بمعنى أصبحتم بحسب السياق،

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

السؤال؟ ما علة هذه الخيرية؟ ما العلة؟ جاءت العلة:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية:110]

علة هذه الخيرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لو تصورنا أن هذه العلة لم تطبق، فقدنا خيريتنا، وأصبحنا أمة كأية أمة خلقها الله، يؤكد هذا قوله تعالى:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية:18]

الأمة الإسلامية إن تخلت عن رسالتها فقدت خيريتها :

الأمة العربية الآن لو تخلت عن هذه الرسالة، ولم تقم بما أراده الله لها أن تكون وسيطة بين الله وبين خلقه، ولم تعبأ بهذه الرسالة، عندئذٍ فقدت خيريتها، لذلك يصدق عليها ما يصدق على أي أمة شاردة عن الله عز وجل،

(كُنْتُمْ)

أي أصبحتم بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

[سورة البقرة الآية:143]

أي وسطاء بين الله وخلقه، فإذا تخلينا عن هذه الرسالة، أو لم نعرف حقها، فقدنا هذه الخيرية، فلذلك في بعض الآثار النبوية كلام خطير قال:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ - الصحابة صعقوا - قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بنكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟- اشتدَّ عجبهم- قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟))

[ابن أبي الدنيا وأبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي أمامة]

هذا اسمه تبدل القيم، للتقريب: في النقد العربي، عدّ النقاد أهجا بيت قالته العرب على الإطلاق:

دع المكارمَ لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

أهجا بيت قالته العرب هو مع الأسف الشديد شعار أي إنسان في هذا العصر، مادام دخله وفيراً، بيته فخم، عنده مركبة فاخرة، يوم يقضي أوقاته الممتعة مع من يحب، يسافر، إذا كان همه هكذا، فقد انطبق عليه هذا البيت:

دع المكارمَ لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

من عرف نفسه عرف ربه :

ألم تسأل من الذي خلقك؟ ولماذا خلقك؟ ولماذا جاء بك إلى الدنيا؟ وماذا بعد الموت؟ هذه قضايا كبيرة. لذلك قالوا: ما كل ذكي بعاقل، كيف؟ الذكاء متعلق بالأشياء التفصيلية، فقد تحمل دكتوراه بالفيزياء

النووية، ولست عاقلاً إذا غفلت عن ربك، وعن مصيرك، وعمّا بعد الموت، ما كل ذكي بعاقل، الإنسان إذا جاء إلى الدنيا من خلقني؟ من أمدني؟ من أعطاني هذا الشكل؟ من أعطاني هذه الحواس؟ من أعطاني هذا العقل؟ من جعلني من أم وأب؟ هناك ملايين الأسئلة إذا عرفتها عرفت الله، وإن غابت عنك غبت عن الحق، لذلك قالوا: من عرف نفسه عرف ربه.

إذاً نحن نكون خير أمة إذا ذكرنا علة الخيرية:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

فهذا الذي كسب مالاً حراماً هو عند الناس ذكي جداً، هذا الذي وصل إلى شيء ليس عن طريق مشروع، بل عن طريق غير مشروع يعد عند الناس شاطراً، هذا شيء خطير جداً، أن تتبدل القيم، فلذلك من بعض الأحاديث التي تلفت النظر:

((اطلعت في الجنة فرأيت عامة أهلها المساكين))

[شعب الإيمان عن ابن عباس]

الإنسان المادي مقاييسه كلها مادية، يرى المؤمن يؤثر طاعة الله على شيء كبير أحياناً، يؤثر طاعة الله على منصب رفيع، يريد أن يكون محسناً لا مسيئاً، فهذا الموقف يجعله عند أهل الدنيا أبلهاً.

الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحمل الإنسان على طاعة الله :

لذلك أيها الأخوة الكرام، كما قال الله عز وجل:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

متشابهون لكن هناك شيء لطيف جداً، ينبغي أن أذكره لكم متعلق بهذا الموضوع، الله عز وجل في سورة الأنفال في الآية الثانية والسبعين قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الأنفال الآية: 72]

آمنوا بالله خالقاً، آمنوا به مربياً، آمنوا به مسيراً، آمنوا بأسمائه الحسنى، وبصفاته الفضلى، آمنوا أن بيده كل شيء، وإليه مصير كل شيء،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أو بشكل مختصر

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

هم الأشخاص الذين حملهم إيمانهم على طاعة الله، الإيمان الذي يحمل على طاعة الله هو الإيمان الذي أراده الله، أما الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله فلا يقدم ولا يؤخر، بل إن إبليس مؤمن بهذا المعنى، قال:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

قال له:

(خَلَقْتَنِي)

[سورة الأعراف الآية: 12]

آمن به رباً، وعزيزاً، وخالقاً، قال:

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

آمن بالآخرة ومع ذلك هو إبليس، فالإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله لا يعد إيماناً منجياً، الدليل:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

آمن بالله لكنه ما آمن به عظيماً.

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً)

[سورة نوح]

طريق الإيمان بالله العظيم التفكر في خلق السموات والأرض :

التركيز على الإيمان بالله العظيم وكيف تؤمن بالله العظيم حينما تتفكر في خلق السموات والأرض، هذه العين الشبكية مساحتها ميلي وثلث فقط، كم مستقبل ضوئي فيها؟ فيها مئة وثلاثون مليون مستقبل ضوئي، وأنا أمامي آلات تصوير، آلات احترافية لا شك، أغلى آلة تصوير احترافية في بالميليمتر المربع عشرة آلاف مستقبل ضوئي، بالعين بالميليمتر مئة مليون مستقبل ضوئي، العين البشرية تفرق بين تسعة ملايين لون، لو أخذنا لوناً واحداً ودرجناه ثمانمئة ألف درجة العين البشرية تفرق بين درجتين، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد]

فلذلك قضية الإيمان قضية كبيرة جداً، أنت حينما تؤمن بالله عظيماً،

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

طريق الإيمان بالله العظيم التفكر في خلق السموات والأرض.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران]

فالتفكر في خلق السموات والأرض أقصر طريق إلى الله، وأوسع باب ندخل منه على الله، لأن هذا التفكر يضعك وجهاً لوجه أمام عظمة الله.

المؤمن مرتبة أخلاقية وعلمية وجمالية :

لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

الدكتور، ما معنى دكتور؟ أي معه ابتدائي، وإعدادي، وثانوي، ولسانس، ودبلوم، وماجستير، ودكتوراه، يدرس ثلاثاً و ثلاثين سنة، هذه تعني كلمة "د"، إذا قلت: مؤمن؟ المؤمن مرتبة أخلاقية، ومرتبة علمية، ومرتبة جمالية، إذا قلت: مؤمن أي يتمتع بحس جمالي عال جداً، المؤمن يتمتع بعلم عال جداً.

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه.

إذا قلت: مؤمن أي يتمتع بأخلاق عالية.

المؤمنون يتعاونون ويتناصرون و يتناصحون ويتزاورون :

لذلك الآية الدقيقة حينما ذكر الله المنافقين والمنافقات قال:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

أما حينما ذكر:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

[سورة الأنفال الآية:72]

هاجر، انتقل من مكان إلى مكان، أو من موقف إلى موقف، أو من منطلق إلى منطلق، أو من قيم إلى قيم، هناك نقلة نوعية:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا)

[سورة الأنفال الآية:72]

بذلوا جهداً كبيراً:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة الأنفال الآية:72]

الإخلاص:

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا)

[سورة الأنفال الآية:72]

آويت أهل الإيمان، نصرتهم، وقفت معهم، آويتهم ولو كانوا ضعافاً وفقراء، لأن أهل الدنيا يحتفلون بالأقوياء والأغنياء، بينما أهل الإيمان يحتفلون بالفقراء والضعفاء،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا)

(أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

[سورة الأنفال الآية:72]

أي الكل للواحد، والواحد للكل، يتعاونون، يتناصرون، يتناصحون، يتزاورون، يتبادلون، و قد ورد:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ، والمتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نُور، يغبطهم عليها النبيون يوم القيامة))

[أخرجه الموطأ عن أبي إدريس الخولاني]

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

[سورة الأنفال الآية : 72]

من لم يأخذ من المؤمنين موقفاً عملياً فكلامه لا يقدم و لا يؤخر :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال الآية:72]

ما أخذ موقفاً عملياً، لم يصل لله، ولم يقطع لله، ولم يعط لله، ولم يمنع لله، ولم يرض لله، ولم يغضب لله،

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

ما يتحرك، ما قدم شيئاً، أنت إذا قلت للشمس وهي ساطعة: يا لها من شمس ساطعة، ماذا فعلت؟ ما قدمت شيئاً، هي ساطعة شئت أم أبيت، ذكرت هذا أم لم تذكره، أحببت أم كرهت هي ساطعة، لكن ماذا فعلت من أجل أن تتمتع بهذه الأشعة؟ هل عرضت نفسك لها؟ إنسان معه مرض جلدي، وشفاءه بالشمس فقطن في بيت تحت الأرض و قال: يا لها من شمس ساطعة، وهو بالقبو يسكن تحت الأرض، هذا الكلام لا يقدم ولا يؤخر فما لم ينتفع من هذه الأشعة لا يعد كلامه عنها له قيمة إطلاقاً.

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

ما تحرك، ما تقدم، ما بذل، ما ضحى، ما وصل، ما قطع، ما رضي، ما غضب، هو يعيش بعالمه الخاص، بعامله المادي، لكن يتعاطف مع المسلمين، يقول، عنده خلفية إسلامية، عنده أرضية إسلامية، عنده نزعة إسلامية، عنده اهتمامات إسلامية، عنده فكر إسلامي، و لكن هذا لا يقدم ولا يؤخر.

إن لم يؤمن المؤمن و ينصر أخاه ستكون هناك فتنة ينتج عنها شقاء كبير :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال الآية: 72]

الشاهد ليس هنا، الآية دقيقة جداً جداً جداً:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

[سورة الأنفال الآية: 73]

يتعاونون، ويتآمرون، ويخططون، ويسهرون إلى الفجر وهم يخططون للمؤمنين

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

الشاهد الخطير:

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

[سورة الأنفال الآية: 73]

هذه الهاء على من تعود؟ تعود على آية سابقة بأكملها، أي

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

إذا ما آمنتم، ولا هاجرتم، ولا جاهدتم بأموالكم، ولا جاهدتم في سبيل الله، ولم تؤووا، ولم تنصروا إن لم تفعلوا هذا،

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

[سورة الأنفال]

تعاون الطرف الآخر و تكاتفه لإضعاف المسلمين و إذلالهم :

يعاني المسلمون اليوم من فتنة في الأرض يمسي المرء مؤمناً ويصبح كافراً، يمسي كافراً ويصبح مؤمناً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل،

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

يجتمعون، يخططون، يتآمرون لضرب العالم الإسلامي، لاستنزاف خيراته، لأخذ ثوراته، للإيقاع بين أطرافه،

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

الهاء تعود على:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا)

إن لم تؤمن، إن لم تهاجر، إن لم تجاهد بمالك ونفسك، إن لم تؤو، إن لم تنصر

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

وقد حدثنا النبي عن آخر الزمان: يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه، موتٌ كعقاص الغنم:

((يَوْمٌ لاَ يَدْرِى الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ؟ وَلاَ الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ؟))

[مسلم عن أبي هريرة]

بالخمسينات حينما يحكم على الإنسان بالإعدام تزحف المدينة بأكملها كي ترى إعدامه، اليوم هناك أربعون، خمسون، ستون شخصاً يموتون في اليوم الواحد، أخبار القتل وسفك الدماء شيء غير معقول إطلاقاً.

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

تفعلوا الإيمان، والهجرة، والجهاد بالمال، والنفس، والإيواء، والنصر،

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

ذكرت هذه الآيات من سورة الأنفال والتي توضح معنى:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

يتعاونون، يتآمرون، يخططون.

الآن هم :

(يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ)

((كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

وصف المؤمنين والمنافقين والكفار له هدف كبير جداً :

(وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ)

لا ينفق، بخيل، ينفق على شهواته مبالغ فلكية، فإذا دُعي إلى صدقة أو زكاة يمسك يده، إن أنفقوا المال أنفقوه إسرافاً وتبذيراً، وإن منعوه منعوه بخلاً وتقطيراً، هذه الصفات إذا ذكرها الله في كتابه الكريم من أجل أن نخاف، لعل بعض هذه الصفات تقع علينا، دائماً وأبداً في القرآن الكريم إذا جاء وصف المؤمنين لتكون هذه الأوصاف مقياساً لك، هل أنت من هؤلاء؟ هل أنت من إذا ذكر الله وجل قلبك؟ هل إذا ذكرت عليك آياته ازددت إيماناً؟ فوصف المؤمنين والمنافقين والكفار له هدف كبير جداً، ما هذا الهدف؟ من أجل أن تقيس نفسك، هذه الأوصاف للمؤمنين مقاييس لأهل الإيمان، أوصاف الكفار تعريف بهم، أوصاف المنافقين تعريف بهذه الفئة الخطيرة، هذه لها موقف مزدوج، لها ظاهر ولها باطن، دائماً الكافر أعلن عن كفره، وعندما أعلن عن كفره أعطانا مناعة ضده، والمؤمن واضح، أما المنافق فأوهمنا أنه مؤمن، فتعاملنا معه فغدر بنا، الكافر واضح، والمؤمن واضح، أما المنافق فله ظاهر وله باطن، له علانية وله سر، له شيء معلن وشيء غير معلن، فهذه الشخصية المزدوجة أوقعتنا في حرج شديد، نال مكاسب المؤمنين وهو في الحقيقة مع الكفار.

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة البقرة]

فلذلك:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ)

لذلك من اشتكى إلى مؤمن كأنه اشتكى إلى الله، ومن اشتكى إلى كافر فكأنه اشتكى على الله.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف]

تسمية المنكر منكراً لأن الفطر السليمة تنكره بداهة من دون توجيه :

قد يقول أحد الأخوة المشاهدين:

(أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ)

الله جعله غافلاً، لا، وزن أفعل في اللغة، افتح المعاجم، وجدناه غافلاً وليس جعلناه غافلاً، الفرق كبير جداً بين وجدناه غافلاً، أو جعلناه غافلاً، أغفلنا قلبه أي وجدناه كذلك،

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

إذاً:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

يتعاونون، يتفقون، يخططون، يتآمرون

(يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ)

لماذا سمى الله المنكر منكراً؟ لفتة لطيفة جداً، لأن الفطر السليمة تنكر المنكر بداهة من دون توجيه، من دون تعليم، المنكر مرفوض، الذي يغش الحليب بالماء هل يفعل هذا أمام الناس؟ لا، في غرفة أخرى، يفعلها في خلوة، بالفطرة.

حتى القطة قال بعضهم: إن أطعمتها قطعة لحم تأكلها أمامك، فإن خطفتها تأكلها بعيداً عنك، هناك فطرة تنطبق مع الشرع مئة بالمئة.

كل شيء أمرنا الله به متوافق توافقاً تاماً مع الفطرة :

الآية الكريمة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

[سورة الروم الآية: 30]

الشيء الرائع بهذا الدين أن كل شيء أمرك الله به متوافق توافقاً تاماً مع فطرتك، فالذي أمرك الله به ترتاح له، وهذا تفسير السعادة العظمى التي تصيب المؤمن حينما يصطلح مع الله عز وجل.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

من عرف الله عرف سرّ وجوده و غاية وجوده :

أيها الأخوة الكرام،

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ)

بخلاء، لا ينفق، ينفق إسرافاً وتبذيراً وإذا منع يمنع بخلاً وتقطيراً.

(وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)

بعضهم قال: الإنسان حينما ينسى الله نسيان الله ينسيه مهمته في الدنيا، أنت إذا عرفت الله عرفت سرّ وجودك، وغاية وجودك، أنت إذا عرفت الله عرفت طاعته، عرفت جنته، عرفت ناره، أما إذا غفلت عن الله فغفلت عن كل شيء، المعنى الدقيق أن نسيان الله أنساهم أنفسهم، أنساهم أنهم المخلوق الأول، الله عز وجل قال:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

لما قبل حمل الأمانة كان المخلوق الأول عند الله،

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

لأنه قبل حمل الأمانة سخر له :

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية: 13]

لأنه قبل حمل الأمانة أودع فيه الشهوات، ليرقى بها إلى رب الأرض والسموات.

بالمناسبة: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

باب التوبة مفتوح على مصراعيه :

لذلك:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ)

هذه الصفات الإنسان إذا قرأها وراجع نفسه مراجعة دقيقة، فوجد نفسه ينطوي على واحدة منها الباب مفتوح للتوبة، ما دام القلب ينبض فأنت في بحبوحة من أمرك، الله عز وجل قال:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب الإنسان وهو مطبق لمنهج رسول الله، الآن لو فرضنا لا يطبق هذا المنهج، معه بحبوحة ثانية:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال]

(نَسُوا اللَّهَ)

نسيانهم لله عز وجل أنساهم أنفسهم.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

إنسان منحرف فسقت التمرة نزعت جلدها من لبها أي الفاسق خرج عن منهج الله.

ما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل :

بالمناسبة ما من خروج على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، ويقول لك: استعمار، وصهيونية، والحقيقة أكبر خطر يواجه المسلمين جهلهم بالله، حينما جهلوا بربهم ما عرفوا لماذا جاء الله بهم إلى الدنيا، ما عرفوا سر وجودهم، ما عرفوا غاية وجودهم، ما عرفوا ما عند الله من عطاء كبير، هذا جاهل، وهذا الجهل أوقعه بالشقاء، لأن مشكلة أهل النار في النار بآية واحدة:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

معناها أزمة علم، لأن الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، غذاء العقل العلم، غذاء القلب الحب، غذاء الجسم الطعام والشراب، فكل إنسان منطلق من حبه لذاته، من حرصه على سلامة وجوده، وحرصه على كمال وجوده، وحرصه على استمرر وجوده، ينبغي أن يطيع الله عز وجل، فإذا نسي سر وجوده، وغاية وجوده، كان جاهلاً ولو كان يحمل أعلى شهادة، قلت قبل قليل: فرق كبير بين الذكاء والعقل، قد تكون ذكياً ولست عاقلاً، لأن الذكاء متعلق بالجزئيات، قد يحمل أعلى شهادة في الفيزياء النووية، لأنه ما عرف الله، وما عرف منهجه، وما عرف ماذا بعد الموت فهو ليس بعاقل.

الحكمة من تقديم المنافق على الكافر :

لكن الله عز وجل يقول:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

[سورة التوبة]

هناك تقديم وتأخير، لِمَ لم يبدأ الله بالكفار؟ الكافر واضح يعلن عن كفره، والمنافق له مظهر إسلامي، قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ)

قال: لأن الكافر لما أعلن عن كفره أعطاك مناعة ضده، فلم تستجب له إطلاقاً، أما المنافق فيصلي معك أحياناً.

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

[سورة التوبة الآية: 54]

معنى هذا أنه يصلي، لذلك:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

((يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ)

قدمهم على الكفار لأنهم غشوا المؤمنين، لهم مظهر إسلامي وهم في الحقيقة كفار، فقدمهم على الكفار وعدهم:

(نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

سيدنا علي رضي الله عنه يقول: "يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية ".

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ)

كأن يقول قائل: الوعد للخير، أما الوعيد فللشر، بحسب اللغة وعدهم النار، الله يتوعدهم بجهنم، فلان خسيس بخيل- ولكنك قد تتوهم أنه سيمدحه - لكنه حقير، هذا اسمه تأكيد الذم ما يشبه المديح، أو فلان كريم ومفضال إلا أنه شهم ذو مروءة، هذا أسلوب سلكه النبي الكريم، ذكره في نص دقيق قال:

((أنا أفصح العرب بَيْد أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

قريش أفصح قبيلة في العرب.

((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش))

قال عنه علماء البلاغة: أسلوب تأكيد الذم بما يشبه المديح، أو أسلوب تأكيد المديح بما يشبه الذم، هنا وعد، كأن بعد الوعد هناك جنة فإذا بها نار، هناك مفاجأة تعمل صدمة:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

الإنسان ما لم يغرغر باب التوبة مفتوح أمامه :

مرة ثانية هذه الأوصاف التي يأتي ذكرها في القرآن الكريم للمؤمنين مثلاً، أو للكفار، أو للمنافقين، هي في الحقيقة مقاييس لنا جميعاً، فإذا المؤمن قرأ آيات المؤمنين وشعر أن هذه الآيات تنطبق عليه هو في نعمة كبيرة أما إن كان هناك آية لا تنطبق عليه فالباب مفتوح، القلب ينبض، ما دام القلب ينبض فهناك بحبوحة كبيرة جداً، صحح خطأك، وإذا قرأ إنسان آية عن المنافقين وجد فيها صفة تنطبق عليه، الباب مفتوح أيضاً تب منها، الإنسان ما لم يغرغر باب التوبة مفتوح، فما دام باب التوبة مفتوح:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 53]

فالباب مفتوح، وهناك كثير من القصص تؤكد هذا المعنى، سمعت قصة كنت في بلد عربي يبدو أن هناك إنسان ثقافته محدودة جداً، عنده أرض إلى جانب المدينة، تتوسع توسعاً كبيراً، فلما توسعت هذه المدينة اقتربت من أرضه، فتضاعف ثمنها مئات الأضعاف، فباعها إلى مكتب تجاري، هذا المكتب خبيث جداً فاشتراها بربع ثمنها، صاحبها ليس عنده هذه الثقافة التجارية العميقة، أنشؤوا بناء من اثني عشر طابقاً، في مدينة كبيرة جداً، وفي بلد عربي مهم، هم شركاء ثلاث، فالأول وقع من سطح هذا البناء فنزل ميتاً، والثاني داسته سيارة، فبقي الثالث، فهذا الثالث خاف على مصيره فبحث عن هذا الأعرابي الذي باعه الأرض وأخذها منه بربع ثمنها ونقده ثلاثة أضعاف حصته، فقال له هذا البدوي: ترى أنت لحقت حالك.

الإنسان أحياناً يلحق حاله إذا كان عنده غلط إما في كسب المال، أو في إنفاق المال، أو في علاقته مع أقاربه، أو علاقته مع زوجته، أو علاقته مع أولاده، فالبطولة أن الإنسان ما دام قلبه ينبض فباب التوبة مفتوح ما لم يغرغر طبعاً:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (49-70) : تفسير الآيات 69 - 70، الفرق بين اللذة والسعادة، الخسارة الكبيرة عند إحباط العمل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-04-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان كائن متحرك :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع قوله تعالى:

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الإنسان كائن متحرك، ما الذي يحركه؟ حاجته إلى الطعام والشراب، حفاظاً على وجوده كفرد، وما الذي يحركه؟ حفاظه على بقاء النوع عن طريق الزواج، وما الذي يحركه؟ حفاظه على بقاء الذكر عن طريق التفوق، فحاجته إلى الطعام والشراب حفاظاً على وجوده كفرد، وحاجته إلى طرف آخر - إلى الزواج- حفاظاً على بقاء النوع، وحاجته إلى بقاء ذكره حفاظاً على مكانته، هذه الدوافع الثلاث تحركه فهو كائن متحرك.

الناس رجلان لا ثالث لهما :

أما هذه الحركة فإن كانت وفق منهج الله سلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإن كانت هذه الحركة بخلاف منهج الله شقي وهلك في الدنيا والآخرة، هذه حقيقة دقيقة جداً، تؤكدها آيات كثيرة في قوله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

صدق أنه مخلوق للجنة، فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء كثمن للجنة:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

صدق بالدنيا وكفر بالآخرة فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، لن تجد نموذجاً ثالثاً، هذا التقسيم القرآني لبني البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم.

الله عز وجل منح البشر حظوظاً متباينة وزعها توزيع ابتلاء :

قال تعالى:

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً)

أي الله عز وجل حينما منح الحظوظ للبشر، هذه الحظوظ أي نصيبه من الوسامة، نصيبه من الجمال، نصيبه من الغنى، نصيبه من القوة، نصيبه من التفوق العقلي، هذه الحظوظ الذي يمنحها الله لبني البشر النقطة الدقيقة فيها أنها تمنح في الحياة الدنيا ابتلاءً، توزع الحظوظ على البشر ابتلاءً، أي أنت ممتحن فيما أعطاك الله، أعطاك مالاً أنت ممتحن في هذا المال، أعطاك قوة أنت ممتحن بهذه القوة، أعطاك جاهاً أنت ممتحن بهذا الجاه، فكل شيء أعطاك الله إياه من دون استثناء مادة امتحانك مع الله.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون]

علة وجودك في الدنيا الابتلاء لأن الإنسان حينما:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية:72]

لما قبل حمل الأمانة:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية:13]

جاء به إلى الدنيا كي يتعرف إلى الله، وكي يتقرب إليه، ليكون هذا التعرف والتقرب ثمناً لجنة ربه، هذه الحكمة التي أرادها الله من مجيئنا إلى الدنيا.

الامتحان علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا :

الإنسان في الدنيا حينما يغادرها يندم على شيء واحد هو العمل الصالح، يؤكد هذا قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

إذاً الله عز وجل منح البشر حظوظاً متباينة، هذه الحظوظ المتباينة التي وزعها الله على بني البشر وزعها توزيع ابتلاء، أي امتحان.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية:2]

أنت ممتحن بمالك، ممتحن بصحتك، ممتحن بزوجتك، ممتحن بأولادك، ممتحن بقوتك، ممتحن بضعفك، ممتحن بغناك، ممتحن بفقرك، علة وجودك في الدنيا الابتلاء، أي الامتحان.

الموت ينهي كل شيء :

الله عز وجل في الآية التاسعة والستين من سورة التوبة يقول:

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً)

لذلك الموت ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي وسامة الوسيم، ينهي دمامة الدميم، كل هذه الحظوظ في الدنيا سوف تنتهي، لكن الله سبحانه وتعالى امتحنك بها، فماذا تفعل؟ الآية الكريمة:

(فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

[سورة الأعراف]

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ)

ومع ذلك أهلكهم الله، لأن:

كل مخـلوق يـموت ولا يبقـى إلا ذو الـعزة والـجبروت

***

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

***

كل ابن أنثى و إن طـالت سلامته يوماً على آلـة حدباء محمولُ
فإذا حملـت إلـى القبور جنـازة فاعلم بأنـك بعـدها محمولُ

***

إذاً من أدق أدق تعريفات الإنسان التي ذكرها الإمام الحسن البصري أن الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، فأنت بضعة أيام إما أن تكون في طاعة أو في معصية، إما أن تكون في قرب من الله أو في بعد عنه، أما أن تكون مع الخيرين، أو مع الشريرين، الدنيا ساعة اجعلها طاعة، والنفس طماعة عودها القناعة، هؤلاء الأقوياء جاء الموت فأخرجهم من الدنيا، هؤلاء الأغنياء جاء الموت فأخرجهم من الدنيا، إذاً:

كل مخـلوق يـموت ولا يبقـى إلا ذو الـعزة والـجبروت

***

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

***

بطولة المؤمن أن يعيش المستقبل :

أيها الأخوة الكرام،

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ)

سيدنا عمر بن عبد العزيز فيما يروى عنه أنه كان إذا دخل مقر عمله كل يوم يتلو هذه الآية:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

[سورة الشعراء]

والآية بليغة جداً:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً)

وجاء الموت أنهى قوتهم، كانوا أغنياء جاء الموت ألغى غناهم، كانوا متماسكين جاء الموت فرق هذا التماسك.

إذاً البطولة الآن لا أن تعيش حاضرك، ولا أن تعيش ماضيك، لكن البطولة أن تعيش مستقبلك، ومعظم الناس يعيشون ماضيهم أو يعيشون حاضرهم، أما المستقبل فلا يفكرون فيه، مع أن أخطر زمن بالنسبة للإنسان هو المستقبل، لماذا؟ لأن في المستقبل مغادرة الدنيا، المغادرة تعني من قصر إلى قبر، من غنى إلى قبر، من مكانة اجتماعية إلى قبر، هذا النقلة المخيفة من دنيا عريضة إلى قبر لا يزيد عن أمتار، فلذلك البطولة في المؤمن أنه يعيش المستقبل ويعيش هذه اللحظة.

مرة طالب حقق الدرجة الأولى على بلد بأكمله، فأجروا معه لقاء صحفياً فسأله: ما سرّ هذا التفوق؟ قال: لحظة الامتحان لم تغادر ذهني ولا ثانية، وأنا أقول: والمؤمن الموفق لحظة مغادرة الدنيا لا تفارق ذهنه إطلاقاً.

الموت ينهي كل شيء ويبقى العمل الذي يحاسب الإنسان عليه :

ماذا أقول لله إذا سألني عن هذا السؤال؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

هذا المال ممَ اكتسبته؟ فيمَ أنفقته؟ هذا العلم ماذا عملت به؟ هذا الزوجة لِمَ طلقتها؟ هذه الشراكة لِمَ عقدتها؟ هذه الرحلة لِمَ قمت بها؟ هناك سؤال دقيق جداً، فلذلك الله عز وجل يبين لنا ولو كنت قوياً،

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً)

ولو كنت غنياً، ولو كنت عظيماً، ولو كنت ذا شأن، الموت ينهي كل شيء، الموت ينهي قوة القوي، وغنى الغني، وحكمة الحكيم، ينهي كل شيء ويبقى العمل الذي تحاسب عليه.

قال:

(كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً)

كما قال الله عز وجل:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الكهف الآية:46]

زينة، لكن الآية الدقيقة جداً:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

[سورة الكهف الآية:46]

في قوله تعالى:

(وَالْبَاقِيَاتُ)

عرف المال والبنون، كيف عرف المال والبنون؟ بأنهما زائلان، فلذلك الإنسان مهما علا شأنه، مهما تمتنت علاقته بما حوله، هذه العلاقة سوف تنتهي عند الموت، فالذي تحبه إما أن تفارقه أو أن يفارقك، الذي تحرص عليه إما أن تفارقه أو يفارقك.

الحياة الدنيا محدودة تنتهي بالموت بينما الحياة الأبدية لا نهاية لها :

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ)

الخلاق هنا حظوظ من الدنيا، إنسان وسيم، إنسان قوي، إنسان غني، إنسان بمنصب رفيع، هذا الخلاق يعني الحظوظ من الدنيا،

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ)

لكن الفرق كبير كبير بين حياة محدودة وبين حياة متصلة، الحياة الدنيا محدودة تنتهي بالموت، بينما الحياة الأبدية لا نهاية لها، ولا بد من تعريف قريب لهذا الأبد الذي جاء ذكره في القرآن الكريم كثيراً، الأبد لو تصورنا رقم واحد في الأرض وأصفاراً، إلى أين؟ إلى مسافة معروفة، إلى الشمس، كل ميلي صفر، أول ثلاثة أصفار ألف، ثاني ثلاثة أصفار مليون، ثالث ثلاثة أصفار ألف مليون، رابع ثلاثة

أصفار مليون مليون، لو تابعنا الأصفار إلى الشمس ما هذا الرقم؟ أكبر رقم تتصوره، وليكن واحد في الأرض وأصفار إلى الشمس، وبين الأرض والشمس مئة و ستة و خمسون مليون كيلو متر، وكل ميلي صفر، هذا الرقم إذا نسب إلى اللانهاية فهو صفر، فالدنيا بكل ما فيها من أموال، من متع، ومن مباهج الدنيا إذا نسبت إلى الآخرة فهي صفر، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث قال:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

اركب البحر أمسك إبرة، مخيط، اغمسه في ماء البحر وانظر بمَ يرجع؟ المحيط الهادي في بعض الأماكن العمق فيه يقدر باثني عشر ألف متر- هذا خليج مريانا- فهذه البحار الخمس، المحيطات، الهادي، والأطلسي، والمتوسط، والشمالي، والجنوبي، وبحر العرب لو غمست في أحد البحار إبرة ونزعتها بمَ ترجع من ماء البحر؟ هذا الذي أخذته من مياه البحر هو نسبة الدنيا إلى الآخرة، فلذلك الله عز وجل يذكر هؤلاء:

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً)

فالبطولة ليس وضعك في الدنيا، البطولة ما تنتهي إليه حياتك في الدنيا، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها.

حينما رأى النبي جنازة قال:

((مستريح، أو مُسْتَراح منه، فقالوا: يا رسول الله ما المستريحُ وما المستَراح منه؟ فقال: العبد المؤمنُ يستريح من نَصَب الدنيا، والعبد الفاجرُ يستريح منه العبادُ والبلادُ والشجر والدواب))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ومالك عن أبي قتادة]

فبين أن تكون مستريحاً من الموت وبين أن يكون الإنسان مستراحاً منه عند الموت؟ فهذا الذي شرد عن الله كان قوياً، أو كان غنياً، أو كان ذا شأنٍ في المجتمع فلما جاء الموت أنهى كل هذه الخصائص.

اللذة و السعادة :

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا)

فرق كبير بين اللذة والسعادة، فرق كبير جداً، قالوا: اللذة حسية، أن تأكل طعاماً طيباً، أن تسكن في بيت واسع، أن تطل من هذا البيت على مناظر خلابة، أو تكون لك زوجة جميلة، فاللذائذ حسية، معنى اللذائذ حسية أي تحتاج إلى أشياء ثلاث، تحتاج إلى وقت، وإلى مال، وإلى شباب- قوة-، ولحكمة أرادها الله عز وجل دائماً هذه الأشياء الثلاث تفتقد واحداً منها، ففي بداية الحياة الصحة جيدة، والوقت موجود لكن لا يوجد مال، إذاً لم تتحقق شروط اللذائذ أو مباهج الدنيا، في منتصف الحياة الصحة موجودة، واللذائذ

موجودة لكن لا يوجد وقت، مشغول بأعماله، في خريف العمر هناك وقت، ومال لكن لا يوجد صحة، لحكمة بالغة بالغةٍ الإنسان إذا شرد عن الله أسباب اللذائذ يفتقد واحداً منها دائماً، أما إذا عرف الله فهو يعيش لا باللذائذ ولكن في سعادة، السعادة تنبع من الداخل، أما اللذائذ فتأتي من الخارج، السعادة تحتاج إلى اتصال بالله، أما اللذائذ فتحتاج إلى أموال، السعادة تحتاج إلى اتصال بالله بأي عمر كنت، أما اللذائذ فتحتاج إلى مال بعمر معين، لذلك الفرق كبير جداً بين اللذائذ وبين السعادة، السعادة تنبع من الداخل، ولا حدود لمستوياتها، فالله عز وجل حينما:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

هذا الإنسان مصمم إن صحّ التعبير تصميماً لا نهائياً، هو مصمم بمعرفة الله، والقرب منه، مصمم لجنة عرضها السموات والأرض، لذلك هذا الإنسان لا يملأ نفسه إلا معرفة الله عز وجل، أما إذا اختار هدفاً مادياً فهذا الهدف هو أكبر منه بكثير، إذا اختار هدفاً مادياً سرعان ما يمل منه ويتركه، هذه حقيقة ثابتة اسأل الأغنياء ملوا من المال، اسأل الأقوياء ملوا من مناصبهم، اسأل كل فئة في الأرض، طبيعة هذه الحياة الدنيا ما سمح الله لها أن تمد الإنسان بسعادة مستمرة، بل بسعادة متناقصة، وإذا كان هناك معصية مع السعادة المتناقصة فهناك كآبة، كآبة المعصية، ما سمح الله للدنيا أن تمدك بسعادة مستمرة، بل بسعادة متناقصة، الإنسان لو اشترى بيتاً واسعاً جداً أسبوع شهر يتمتع به تماماً لكن بعد حين أصبح شيئاً عادياً، لو اقتنى مركبة بعد حين أصبحت شيئاً عادياً، إذاً الآية الدقيقة:

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً)

القوة قوة منصب أحياناً، والأموال، والأولاد زينة الحياة الدنيا.

من كان رأسماله كله في الدنيا فالموت ينهي له كل ما يملك :

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ)

فاستمتع استمتاعاً كاملاً، يا ترى هذه المتعة إلى متى؟ إلى الموت؟ إلى مغادرة الدنيا؟ لكن المؤمن خطه البياني صاعد صعوداً منتظماً، ويبقى صاعداً حتى إذا مات، وما الموت إلا نقطة على هذا الخط الصاعد، بينما أهل الدنيا قد يكون خطه البياني صاعداً أيضاً صعوداً حاداً، لكن بعد هذا الصعود الحاد هناك هبوط مريع، هو الموت ، الموت ينهي كل شيء، فالإنسان إذا كان كل رأسماله في الدنيا فالموت ينهي كل ما يملك، إذا كانت كل مكتسباته وخصائصه ورأسماله في الدنيا الدنيا زائلة، أما المؤمن فسار في طريق الحق، فخطه البياني صاعد صعوداً مستمراً، لذلك:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا)

خضتم في الدنيا، في أعمالها، في أموالها، في مباهجها، في لذائذها، في مسراتها،

(وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

إحباط العمل :

أيها الأخوة الكرام، الخطورة الكبيرة جداً أن يحبط العمل، ما معنى أن يحبط العمل؟ إحباط العمل أن ينحط العمل، بدل الزواج الزنا، بدل الكسب المشروع الكسب الغير مشروع، ما من شيء أودعه الله فيك، بل ما من شهوة أودعها الله فيك إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، بالإسلام لا يوجد حرمان، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، فحينما يستمتع الإنسان بشيء محرم الموت ينهي هذه المتعة، ويبقى وزرها، وحينما يجهد الإنسان في طاعة الله، ويأتي الموت، الموت أنهى هذا الجهد الكبير، وبقيت السعادة التي وعده الله بها.

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

المعنى الأول لإحباط العمل أنه أصبح عملاً منحطاً بخلاف منهج الله، أصبح عملاً عدوانياً، بنيت مجدك على أنقاض الآخرين، بنيت عزك على ذلهم، بنيت قوتك على ضعفهم، بنيت غناك على فقرهم، هذا نوع من أنواع إحباط العمل، والشيء الثاني حتى لو كان عملاً عظيماً بمقاييس الأرض لأن صاحبه أراد العز، والمال، والجاه ليس غير، هذا العمل محبط أيضاً، لأنه فقد قيمته الأخروية، فالعمل يحبط مرتين، مرة إذا أصبح عملاً سيئاً بمقاييس الشرع، ومرة إذا كان هذا العمل لغير الله.

العمل يقبل عند الله بشرطين؛ الإخلاص و الصواب :

لذلك حينما قال الله عز وجل:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النحل الآية: 19]

متى يرضى الله عن العمل؟ قال بعض العلماء: إذا كان خالصاً وصواباً، صواباً ما وافق السنة، وخالصاً ما ابتغي به وجه الله، فالعمل يقبل عند الله بشرطين، إذا كان خالصاً وإذا كان صواباً، خالصاً ما ابتغي

به وجه الله، وصواباً إذا وافق السنة، فأي عمل يخالف منهج الله عز وجل لو ابتغيت به وجه الله لا يقبل، وأي عمل ولو كان عظيماً إن لم تبتغ به وجه الله لا يقبل، فهذه قاعدة دقيقة جداً استنبطت من قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

والله يرضى عن العمل إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً إذا وافق السنة.

الخسارة الحقيقية خسارة الآخرة :

(وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

ما الخسارة؟ إذا الإنسان فقد رأسماله فهو خاسر، والخسارة لا تعرف الألم الذي تورثه إلا من ذاقها، الخسارة مؤلمه جداً، قد يخسر الإنسان رأسماله، قد يخسر مكانته، قد يخسر منصبه، قد يخسر زوجته، قد يخسر أولاده، لكن الخسارة الحقيقية:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الشورى الآية: 45]

حينما تشعر أن الله عز وجل خلقك لجنة عرضها السموات والأرض، وأنت جئت إلى الدنيا، ولهوت بالدنيا، ولم تعبأ لمنهج الله لك، ثم جاء ملك الموت، فإذا أنت بعيد عن منهج الله، وعن أسباب دخول الجنة، هذه الخسارة الحقيقية، لذلك ورد في بعض الآثار النبوية:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم عن جابر بن عبد الله]

عذاب الندم عذاب لا يحتمل، إذاً:

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

الفلاح و النجاح :

دائماً وأبداً ينبغي أن تحكم مقاييس ربنا جلّ جلاله، الله قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى]

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

[سورة الأعلى]

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة المؤمنون]

فأنت إذا فتحت القرآن على قد أفلح هي بضعة آيات، والفلاح كما تعلمون ليس كالنجاح، نجاح محدود، نجاح في كسب المال، نجاح في تسلم منصب رفيع، نجاح في الزواج، لكن الفلاح نجاح في الدنيا ونجاح في الآخرة، نجاح في العلة التي خلقت من أجلها، هذا هو الفلاح، لذلك الفالحون والمفلحون في القرآن لها معان دقيقة جداً.

بطولة المؤمن أنه يتعظ بغيره :

الآن الله عز وجل يقول:

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[سورة التوبة]

الإنسان أحياناً يقرأ آية في أمر هذا الأمر يقتضي أن تأتمر، يقرأ آية فيها نهي هذا الأمر يقتضي أن تنتهي، تقرأ آية ذكر من آيات الله هذه الآية تقتضي أن تتفكر في خلق السموات والأرض، ولكن لو قرأت عن أمة سابقة أهلكها الله تتعظ، لذلك بطولة المؤمن أنه يتعظ بغيره، أما غير المؤمن فلا يتعظ إلا بنفسه.

بالمناسبة: أحياناً حينما تتعظ قد تكون هذه المعصية لم تبق لك ما تتعظ فيه، ما كل معصية بإمكانك أن تخرج منها، فلذلك من بدأ حياته بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة.

الله عز وجل ضرب قوم عاد مثلاً على الإنسان أن يتعظ منه :

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل ضرب على هؤلاء المفسدين في الأرض، هؤلاء الطغاة قوم عاد، الله عز وجل قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر]

عاد تفوقت في كل المواطن، تفوقت في شتى المجالات،

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

تفوقت في شتى المجالات، هناك آية ثانية:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

[سورة الشعراء]

تفوق عمراني.

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

[سورة الشعراء]

تفوق صناعي.

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

[سورة الشعراء]

تفوق عسكري، وهناك تفوق علمي.

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

[سورة العنكبوت]

تفوق عمراني:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

تفوق صناعي:

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

تفوق عسكري،

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

وهناك شيء آخر فيه عجرفة:

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

[سورة فصلت الآية:15]

ومع هذا التفوق في شتى المجالات، في المجال العلمي، والعمراني، والصناعي، والعسكري كان هناك غطرسة، واستعلاء، وكبر،

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

بطولة الإنسان أن يتعظ فيما يأتي في القرآن الكريم من قصص :

شيء آخر: هؤلاء القوم قوم عاد ماذا فعلوا؟ قال:

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر]

وكأن هؤلاء القوم كانوا نموذجاً للأمم الطاغية الباغية التي استعلت، وطغت، وبغت، ونسيت ربها جل جلاله.

فيقول الله عز وجل مذكراً:

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

لذلك الإنسان أحياناً يغتني فيطغى، والآية الكريمة:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق]

حينما يتوهم الإنسان أنه غني، وأن هذا المال تنحل به كل المشكلات، ونسي الله عز وجل، أنا أقول من هو الغبي؟ الغبي من لم يدخل الله في حساباته، قال بعضهم: عرفت الله من نقض العزائم، فهؤلاء قوم عاد طغوا في البلاد، أكثروا فيها الفساد، تفوقوا بعلمهم، تفوقوا ببنائهم، تفوقوا بصناعتهم، تفوقوا بقوتهم العسكرية، طغوا في البلاد، أكثروا فيها الفساد، فالله عز وجل

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

فالبطولة أن تتعظ فيما يأتي في القرآن الكريم من قصص.

الدنيا لمن يتقنها ويحسن إدارتها أما الآخرة فخاصة بالمؤمنين :

شيء آخر، والنقطة الدقيقة جداً أن الله عز وجل، الدنيا يعطيك بالربوبية كل حاجاتك بصرف النظر عن إيمانك، أي الإنسان، يأكل، ويشرب، ويتزوج، ويسافر، ويتاجر، ويربح، ويستمتع بالحياة، هذا منهج من مناهج الله عز وجل، فالدنيا من ينالها؟ القوي أحياناً، أو الذي أتقنها، لكن الآخرة لعباده المؤمنين، فالدنيا يمكن أن ينالها القوي، بل لحكمة أرادها الله أن الذي أتقن الدنيا ينالها، لذلك إن الله أحياناً ينصر الأمة الكافرة العادلة على الأمة المسلمة الظالمة، هذا كلام دقيق جداً، الدنيا لمن يتقنها، الدنيا لمن يحسن إدارتها، ينالها، أما الآخرة فوعد صادق خاصة بالمؤمنين.

فلذلك قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى رحمة منه يرسل الرسل والأنبياء ليبينوا لهؤلاء الذين شردوا عن الله عز وجل منهجهم الصحيح، فمن يتعظ له الجنة، ومن يتجاهل هذه الرسالات له عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

لذلك عطاء الربوبية لكل البشر، مؤمنهم وكافرهم، أما عطاء الإلوهية فللمؤمنين وحدهم، أي المؤمن وحده هو الذي ينال الآخرة بأعلى درجاتها.

مثلاً الأهرامات في مصر، حدثني أخ كريم قرأ عنها الكثير، قال: هناك نافذة في الأهرام، زاوية هذه النافذة مدروسة دراسة مذهلة، بحيث أن الشمس تعبر خلال هذه النافذة في العام كله يوم واحد، يوم موت فرعون، لا يوجد الآن إمكانية أن تصمم نافذة بزاوية معينة، بحيث في يوم واحد فقط الشمس تعبرها إلى داخل الهرم، فهؤلاء الذين كانوا قبلنا كانوا أقوياء جداً، ومع ذلك أهلكهم الله عز وجل، لذلك:

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل :

أيها الأخوة الكرام، البطولة لا أن تعيش حاضرك، أن تعيش المستقبل، والمستقبل في مغادرة الدنيا، وكل هذه الآيات التي قرأت في هذا اللقاء الطيب من أجل أن تتجه إلى الآخرة، والآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك عادل، والآخرة فيها أبد، والأبد مهما شرح يصعب أن يوضع في مفهوم بين يدي الناس، الأبد يعني ما لا نهاية، وأكبر رقم على وجه الأرض إذا نسب للانهاية كان صفراً.

أيها الأخوة الكرام، الآيات التي قرئت في هذا اللقاء الطيب

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ)

أي بالحظوظ التي وهبكم الله إياها.

(وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا)

خضتم في وحل الدنيا

(كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

العمل فقد قيمته إن كان للدنيا، وفقد قيمته إن كان سيئاً، الإحباط نوعان إما أن العمل يخسر الثواب الذي وعد الله به، أو أن يكون منحطاً فعلاً.

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

وكلمة:

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

هذا نفي الشأن وهو من أشد أنواع النفي في القرآن الكريم، أي مستحيل وألف ألف ألف مستحيل لا يظلمهم، ولا يرضى أن يظلمهم، ولا يمكن أن يظلمهم، فكل أنواع الأفعال التي تنفى بهذه الصيغة أفعال قطعية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (50-70) : تفسير الآيات 71 - 72، المؤمنون أولياء مع بعضهم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-04-29

بسم الله الرحمن الرحيم

التوازن أسلوب تربوي رائع يجعل الإنسان بين الرجاء والخوف :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخمسين من دروس سورة التوبة، ومع قوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، من حكمة الله جلّ جلاله في كتابه العزيز أنه إذا حدثنا عن الكفار والمنافقين جاء الحديث عن المؤمنين، وهذا من باب أن تبحث عن هدف، وأن تبتعد عن شيء غير صحيح، فلابد من التوازن بين الإيجابيات والسلبيات، إن حدث عن حال أهل الجنة يأتي ذكر أهل النار، إن حدث عن المؤمنين يأتي ذكر الكفار المنافقين، فهذا التوازن أسلوب تربوي رائع لأنه يجعل الإنسان بين الرجاء والخوف.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

التغليب في القرآن الكريم :

لذلك أيها الأخوة بعد الحديث عن الكفار والمنافقين وكيف أنهم نقضوا عهودهم مع الله عز وجل، وانحرفوا عن منهج الله، وتعاملوا مع المؤمنين تعاملاً غير منطقي، وغير عادل يأتي ذكر المؤمنين، فالآية الكريمة الواحدة والسبعون هي قوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ)

ولابد من وقفة متأنية، هذه الوقفة تبين أن في قواعد البلاغة موضوع اسمه التغليب، فإذا قلت مثلاً: دخل سبعون فتاةً وفتى، تقول: دخل، لا تقول دخلت، سبعون فتاة وفتى، ما دام هناك ذكوراً وإناثاً تكتفي باختيار الذكور كقاعدة نحوية، وقاعدة صرفية، إذاً التغليب عندما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الجمعة]

بمئات الآيات في القرآن الكريم، كل هذه الآيات المؤمنات معنيات قطعاً بهذه الآيات من باب التغليب، فإذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

حتماً إذا قرأت أخت كريمة مؤمنة هذا القرآن يجب أن تعتقد جازمة أن الله يخاطبها أيضاً على أساس التغليب، كأن تقول: الوالدان، الرجل لم يلد، لكن الوالدان تغليب صفة الأم كوالدة على الأب، وهكذا القمران، الشمس والقمر، فهذا التغليب قاعدة بلاغية.

فالله عز وجل في كل القرآن الكريم إذا قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هذه الآية تعني يا أيتها المؤمنات من باب التغليب.

لكن في بعض الآيات القليلة ولحكمة بالغةٍ بالغة جاء ذكر المؤمنين والمؤمنات:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية: 97]

وآيات كثيرة من هذه الآيات هذه الآية.

مجتمع الإيمان مجتمع التواصي و النصح :

الله عز وجل ذكر المنافقين والمنافقات، وحدثنا عن أحوالهم، وذكر الكفار ثم يقول:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

لو رجعنا قليلاً إلى الآية السابعة والستين:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة التوبة الآية: 67]

ما الفرق بين

(بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

-على المنافقين والمنافقات- و

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

- تعني المؤمنين والمؤمنات-؟ فرق كبير جداً،

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

هم متشابهون، لكن المؤمنين

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

المؤمن ينصح أخاه، إن رأى فيه خللاً يرشده إلى هذا الخلل، إن رأى ضعفاً في عبادته ينصحه بعبادته، فهناك تناصح مستمر، هذا التناصح يرقى بالمجتمع الإيماني، والدليل هناك آية دقيقة جداً قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر]

ما قال: أوصى بعضهم بعضاً،

(تَوَاصَوْا)

أنت توصي أخاك إذا رأيت فيه زللاً، وأخوك أيضاً يوصيك إن رأى فيك زللاً، فهناك تواص، هذا فعل مشاركة، مجتمع الإيمان مجتمع التواصي.

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

بل إن علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدليل قوله تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

هذه الخيرية لها علة:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

لو أن المؤمنين قصروا فيما أمرهم الله به من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر فقدوا خيرتهم، فإذا فقدوا خيرتهم أصبحوا أمة كأية أمة خلقها الله، أصبحوا أمة كأية أمة خلقها الله لا شأن لها عند الله إطلاقاً:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية: 18]

فبين أن تكون أمة خيرة لها خصائص ولها ميزات وبين أن تكون أمة كأية أمة؟! فالمؤمنون إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فقدوا خيرتهم.

فلذلك الله عز وجل قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

(وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة المائدة الآية: 110]

لذلك النبي الكريم في بعض أحاديثه يقول لصحابته الكرام:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون - فتعجب أيضاً الصحابة- قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟- صعقوا أشد الصعق - قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

تبدل القيم أخطر شيء بحياة المجتمع :

أخطر شيء بحياة المجتمع تبدل القيم، أنا أضرب مثلاً بسيطاً، تعلمنا في الجامعة في كلية الآداب أن أهجا بيت قالته العرب:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

أما الآن فهذا البيت شعار كل إنسان، همه دخله فقط، ما دام دخله كبيراً، وبيته واسعاً، وزوجته جميلة، وحياته فيها متع كثيرة جداً، فهو الرابح، وهو الشاطر، بالمصطلح اليومي، فلذلك تبدل القيم خطير جداً، من هنا الله عز وجل يبين من هم المؤمنون، قال:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ)

مرة ثانية: المؤمنة قد تصل إلى أعلى درجة يصلها المؤمن، ونقول دائماً: النساء يساوون الرجال في التكليف، والتشريف، والمسؤولية، هن مكلفات كما يكلف الرجال، وهن مشرفات كما يشرف الرجال، وهن مسؤولات كما يسأل الرجال، المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف والمسؤولية.

ارتقاء مجتمع الإيمان من خلال التناصح :

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

في الدرس قبل الماضي

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

أي متشابهون، أما المؤمنون:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصائص المؤمن، فإذا رأى في أخيه خلالاً، أو أخطاء، أو تقصيراً، بشكل مؤدب جداً، وفيما بينه وبين أخيه فقط ينصحه، هذا المؤمن يستجيب لهذه النصيحة فيرتقي بعمله، فمجتمع الإيمان يرتقي دائماً من خلال التناصح:

((المؤمنون بعضُهُم لبعض نَصَحة متوادّون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم، والفجرة بعضهم لبعض غشَشَة متخاذلون وإن قربت منازلهم))

[ابن حبان عن أنس بن مالك]

لذلك هناك رجل حلل سرّ المودة بين المؤمنين، لأن الله عز وجل قال المودة التي بين المؤمنين هذه من خلق الله عز وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

المودة بين المؤمنين:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم الآية: 21]

هذه مودة.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم]

هذا الود إما أنه بينهم وبين الله، أو بينهم وبين المؤمنين.

الأمة الإسلامية إن تخلت عن رسالتها فقدت خيريتها :

أيها الأخوة،

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

هناك تناصح، وتعاون، وتكاتف، وتناصر، هذا المجتمع يعلو، يقوى، يتماسك، يرقى باستمرار بسبب الأمر بالمعروف، وينبغي لهذه الأمة العربية التي شرفها الله بهذا الدين أن تعلم علم اليقين أن بالوقت الذي تتخلى فيه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفقد خيريتها، إذاً هي أمة كأية أمة والمعنى الدقيق:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون وفيهم رسول الله، ما معنى فيهم رسول الله، طبعاً في حياة النبي الآية لها معنى، لكن بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى الآية لها معنى آخر، أي ما دامت سنة رسول الله مطبقة في حياة المسلمين فهم في مأمن من عذاب الله،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

هذه المعاني،

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

الولاية، أنت وليّ، أي تنصحني، أنت وليّ ترشدني، تساعدني، تأخذ بيدي، تتعاون معي، التناصح، والتناصر، والتعاون، هذه صفات المؤمنين، فمجتمع المؤمنين يرقى، يرقى باستمرار، يرقى بأدب، أي لا يوجد تناصح علني، فيما بينك وبينه، ما دام هذا الأخ مؤمناً وأنت مؤمن رأيت فيه خللاً، تنصحه بينك وبينه، فيدع هذا الخلل، ولك أجر وله أجر.

إذاً مجتمع المؤمنين مجتمع ينمو، مجتمع يسمو، مجتمع يعلو، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

أما الآية التي قبل درسين شرحت:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

فمن شيء وأولياء شيء آخر.

الفطرة و الصِبغة :

هم:

(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

ما المعروف؟ الله عز وجل أودع في فطرنا، أنت بالفطرة تحب الخير، تحب الصدق، تحب الأمانة، هذا بالفطرة، لكن هناك صبغة أيضاً، الفطرة أن تحب الأمانة ولو لم تكن أميناً، الفطرة أن تحب العدل ولو لم تكن عادلاً، الفطرة أن تحب الصدق ولو لم تكن صادقاً، أما الصبغة فأن تصطبغ نفسك بالصدق، والعدل، والرحمة، فالصبغة نتيجة حتمية لاتصالك بالله، لأن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً، الله عز وجل حينما أثنى على نبيه الكريم، هو نبي، ورسول، ويوحى إليه، والله أجرى على يديه المعجزات، ومع كل ذلك حينما أثنى عليه قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

فالأب عندما يمنح ابنه مركبة، أو يشتري له داراً، لا معنى أن يقيم له حفل تكريم لأنه اشترى له مركبة، أما إذا نال الدرجة الأولى في الامتحان فيقيم له حفل تكريمي، التكريم يكون من جهد ذاتي.

فالله عز وجل يبين بهذه الآية أن مجتمع المؤمنين مجتمع مختلف كلياً عن مجتمع المنافقين، الاختلاف الكلي التناصح أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟- فاشتد عجبهم - قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

فإذا القيم الأخلاقية عُدت ضعفاً فهذا شيء مؤلم، مرة قرأت كلمة مؤلمة جداً، قال: أنت ضعيف لأنك أخلاقي، وأنت أخلاقي لأنك ضعيف، هذه الكلمة كالسم في الدسم تماماً، أنت أخلاقي لأنك بطل وبطل لأنك أخلاقي.

العبادة الشعائرية لا نقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ)

مجتمع التناصح، مجتمع التعاون، مجتمع التناصر، مجتمع التواضع، والحقيقة المؤلمة أن الطرف الآخر الغرب لا يقنع بهذا الدين من خلال الكتب والمحاضرات، يقنع بهذا الدين من خلال مجتمع إسلامي يطبق هذا الدين.

كما قيل: القرآن كون ناطق، والكون قرآن صامت، والنبي الكريم قرآن يمشي، والآن الذي يؤثر في الناس أن يروا بأم أعينهم إنساناً مسلماً صادقاً أميناً، فالنجاشي عندما سأل سيدنا جعفر عن الإسلام ماذا قال له؟

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

قيم أخلاقية، هذه العبادة أنا أسميها العبادة التعاملية، عندنا عبادة شعائرية، كالصلاة والصوم، والحج، والزكاة، وعندنا عبادة تعاملية، وأنا إيماني القاطع في هذا الموضوع أن العبادة الشعائرية كالصلاة والصيام والحج لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية، النبي الكريم سأل:

((أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذا المفلس.

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

لذلك قالوا: من لك يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله.

أحد أسباب راحة المؤمن أنه اصطلح مع فطرته :

إذاً دقة بالغة بالغة في قوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

هذا التناصح، هذا التعاون.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: 2]

البر صلاح الدنيا والتقوى صلاح الآخرة،

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

المعروف تعرفه الفطر السليمة ابتداءً.

إذا إنسان أمه جائعة، واشترى طعاماً وأكله وحده، من دون أي توجه، أو توجيه، أو إرشاد، أو تعليم، يشعر أنه بحق أمه مجرم، هي جائعة وهو يأكل وحده، فالفطر السليمة متوافقة مع الحق، أحد أسباب راحة المؤمن أنه اصطلح مع فطرته، كل شيء أمرك الله به أودعه في فطرتك، والدليل التطابق التام بين منهج الله وبين الفطرة في قوله تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ)

[سورة الروم الآية: 30]

إذاً: يأمرون بالمعروف ما تعرفه الفطر السليمة ابتداءً، لا يوجد كلمة أدق من كلمة معروف، كل إنسان يعرف هذا المعروف ابتداءً من دون توجيه، هذه الفطرة، ويقولون: الإسلام دين الفطرة.

مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى :

(وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

والمنكر تنكره الفطر السليمة، سمى الله المنكر منكراً لأن البشر جميعاً ينكرون هذا المنكر، حتى الهرة أحياناً إذا خطفت قطعة لحم تأكلها بعيدة عنك، أما إذا أطعمتها إياها فتأكلها أمامك، إذاً هذه مركز في فطرتها أيضاً أنها الآن ارتكبت عملاً غلطاً.

لذلك الأمر بالمعروف تعرفه الفطر السليمة، والنهي عن المنكر تنكره الفطر السليمة، أما

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

فأن تقيم وجهك للدين حنيفاً، هذا يشبه تماماً فطرتك التي فطرت عليها، لذلك المؤمن عنده راحة نفسية ناتجة أنه اصطلح مع فطرته، المعاصي والآثام كالجبال جاثمة على ظهره، فإذا استقام على أمر الله واصطلح معه رجع إلى الله عز وجل، أكرمته فطرته براحة ما بعدها راحة.

(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

هنا، هذا الموقف الأخلاقي، الإنسان المؤمن صادق، الإنسان المؤمن أمين، الإنسان المؤمن منصف، الإنسان المؤمن متواضع، مكارم الأخلاق هذه من أين جاءت؟ قال: إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً.

الله عز وجل حينما وصف النبي الكريم قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

بمعنى الشيء الذي يعد ثمن دخول الجنة هذا السلوك الأخلاقي الذي تسلكه من صدق، وأمانة، وإنصاف، وتلبية للمستغيث، وطهر، وعفاف، هذه الأخلاق التي هي محصلة الإيمان، والله عز وجل مدح النبي بخلقه العظيم.

من ذكر الله أدى واجب العبودية و من ذكره الله منحه الرضا و الطمأنينة :

إذاً:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

هناك تعاون، و تناصح، وتناصر،

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

ما تعرفه الفطر السليمة،

(وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

هنا السر، هذا الاتصال بالله عز وجل أنت حينما تتصل بالله، الله حينما قال:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

وهناك آية كريمة دقيقة جداً:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ)

[سورة العنكبوت الآية:45]

قال بعض علماء التفسير: ذكر الله أكبر ما فيها، لكن الله عز وجل في معنى آخر قال: أيها المسلم المصلي ذكر الله لك وأنت تصلي أكبر من ذكرك له:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

[سورة البقرة الآية: 152]

ذكر الله لك أيها المصلي وأنت في الصلاة أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، لكنه إذا ذكرك منحك الرضا، إذا ذكرك منحك الحكمة، إذا ذكرك منحك القوة، إذا ذكرك منحك الكرم، منحك الشجاعة، هذه المكارم الأخلاقية من خلال اتصالك بالله تشتقها أنت، فالفرق بين المؤمن وغير المؤمن ليس فرقاً بسيطاً إنما فرق نوعي، فلان يصلي، لا، الإيمان أكبر من أن تصلي، الصلاة طريق لمكارم الأخلاق، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً.

الحكمة من اقتران الصلاة بالزكاة في القرآن الكريم :

إذاً:

(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

ما تعرفه الفطر السليمة،

(وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

ما تنكره الفطر السليمة،

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

الصلاة طريق هذا الكمال الذي وصلوا إليه،

(وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

من أدق التعريفات أنك إذا اتصلت بالله سعدت، جارك الفقير كي تعينه على أن يتصل بالله ينبغي أن تساعده، فإن ساعدته توازن واتصل بالله عز وجل، فأنت ينبغي أن تسعى كي تقيم هذه العلاقة مع الله أولاً، وأن تعين على إقامة هذه العلاقة عند الآخرين، عند الآخرين أن تلبي حاجاتهم، لذلك جاءت الصلاة والزكاة في معظم كتاب الله مقترنتين،

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

أي ما زاد عن أموالهم، بالمناسبة الله عز وجل قال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

[سورة التوبة الآية:103]

الزكاة تطهر الغني من الشح، تطهر الفقير من الحقد، تطهر المال من تعلق حق الغير به، هي:

(تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

الزكاة تنمي نفس الغني، يرى أثر إنفاقه بين الناس يصبح محبوباً، يصبح من حوله حراساً له من محبتهم، فتزكي نفس الغني، وتزكي نفس الفقير حينما يشعر أن مجتمعه لا ينساه، هناك تشريع في هذا الدين لمعاونة الفقير، والشيء الثالث تزكي هذا المال فيزداد هذا المال بالإنفاق:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية:276]

منهج الله منهج شمولي واسع جداً :

إذاً قال:

(وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

في ماذا؟ في تفاصيل الحياة، لأن منهج هذا الدين العظيم منهج قويم، منهج واسع جداً، يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، منهج الله منهج شمولي، واسع جداً، لا كما يتهمه بعض الناس، أداة عبادات شعائرية ليس غير، في كل حركاتك وسكناتك هناك حكم شرعي.

فلذلك

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

الذي تعرفه الفطر السليمة،

(وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

الذي تنكره الفطر السليمة

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

هذا الكمال الذي يتمتعون به اشتق من اتصالهم بالله عز وجل، والدليل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

أي أنت حينما اتصلت بنا يا محمد امتلأ قلبك رحمة بهم، هذه الرحمة انعكست ليناً، هذا اللين جعلهم يلتفون حولك، لو كنت منقطع عنا لامتلأ القلب قسوة، ولانعكست هذه القسوة غلظة وفظاظة، وانفضوا من حولك، والآية دقيقة جداً:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

إذاً

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

أي يعينون الآخرين على إقامة الصلاة من خلال تلبية حاجاتهم، إنسان فقير جداً ليس عنده ما يأكل، عنده مشكلة، فأنت حينما اتصلت بالله وشعرت بهذا الفضل العظيم، تحاول أن تعين أخاك أن يتصل بالله من خلال تأمين حاجاته

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

وأما في التفاصيل الشراء، والبيع، والسفر، والإقامة، والطلاق، والزواج، والإنجاب، فهناك ملايين ملايين القضايا، قال:

(وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أي يطبقون منهج الله في الكتاب، والسنة، المنهج،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

الإنسان خلق لجنة عرضها السموات والأرض ثمنها طاعة الله عز وجل :

قال:

(أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ)

سيرحمهم، ورحمة الله في قممها دخول الجنة، وفي تفاصيلها أن تكون في الدنيا سعيداً بطاعة الله، أن تكون موفقاً، أن تكون منصوراً من قبل الله عز وجل.

(سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

هو عزيز، ومع أنه عزيز حكيم، هناك قوة ومع القوة كمال:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن]

بقدر ما هو عظيم بقدر ما هو رحيم، لذلك الرد الإلهي:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة التوبة]

هناك جنة فيها بساتين، فيها أنهار، فيها أشياء جميلة جداً، فيها حور عين، لكن

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ)

أكبر من هذه التي ذكرها الله عز وجل،

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

بمقياس الآخرة هذا هو الفوز، إذاً الإنسان خلق لجنة عرضها السموات والأرض، ثمنها طاعة الله عز وجل.

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

والله عز وجل بالمناسبة ما أودع فينا شهوة إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها،

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ)

وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور الآية: 55]

نحن لسنا مستخلفين، ولسنا ممكنين

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

ولسنا آمنين، ما السبب؟ قال:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية: 55]

فإذا أخلّ الفريق الآخر بما عليه من عبادة فالله جل جلاله في حل من وعوده الثلاث.

إذاً:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ)

ومرة ثانية: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

على الإنسان المؤمن أن يعتمد مقاييس الفوز التي عند الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)

هناك نيل مستمر، إنسان راكب قطاراً والمناظر متبدلة باستمرار، فهو يركن لهذا المنظر الجميل باستمرار، أما لو جلس في غرفة القطار وأغلق النوافذ فبعد حين يمل من هذه الغرفة، مهما كانت فخمة، فالجنة في تبدل مستمر.

(وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ)

لكن فوق كل هذا، إنسان دعاك إلى طعام طبعاً الطعام طيب، وكل شيء من الدرجة الأولى، لكن ترحيبه الشديد بك يفوق متعة الطعام

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

أكبر من كل ما في الجنة من متع حسية، الله قال:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

البطولة أن تعتمد مقاييس الفوز التي اعتمدها الله عز وجل، هناك مقاييس فوز في الدنيا، أن تكون غنياً هذا فوز، أن تكون في منصب رفيع هذا فوز، أن تتمتع بمباهج الدنيا هذا فوز، لكن هذا فوزاً ليس عظيماً، لكن المؤمن يعتمد مقاييس الفوز التي عند الله عز وجل، الله عز وجل يقول:

(ذَلِكَ)

أن تكون مؤمناً، وأن تسعى لمرضاة الله، وأن تصل إلى الجنة،

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

إذا إنسان سأل طفلاً كم معك من المال؟ فأجابه: معي مبلغ عظيم، يكون صغيراً، لكن عنده مبلغ الألف عظيم جداً، عقب العيد جمع ما أخذه من أقاربه، وسماه مبلغاً عظيماً، أما إذا قال إنسان يحتل منصباً رفيعاً في دولة قوية: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، قد يكون مئتي مليار دولار، فإذا قال ملك الملوك ومالك الملوك:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هذا شيء يصعب تصوره، فالله عز وجل يقول:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هناك إنسان يشتري أرضاً تتضاعف مئتي ضعف، وإنسان يجمع ثروة طائلة جداً، وإنسان يبلغ أعلى منصب، قال تعالى:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

لذلك هذه الآيات:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (51-70) : تفسير الآية 73، الجهاد وأنواعه.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-05-06

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل خلقنا ليرحمنا ويسعدنا في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والسبعين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل خلق الإنسان ليسعده في الدنيا والآخرة، أو خلق الإنسان ليرحمه، والدليل قوله تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود الآية: 119]

فالله عز وجل خلقنا ليرحمنا، وخلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة، فالذين شردوا عن الله، وغفلوا عنه، واتبعوا شهواتهم، هم في طريق شقائهم وهلاكهم.

رحمة الله عز وجل تقتضي أن ينبه عباده إلى سرّ وغاية وجودهم :

لذلك تقتضي رحمة الله عز وجل أن يرسل إليهم أنبياء ومرسلين، ليذكروهم بعلة وجودهم في الدنيا، وهي عبادة الله عز وجل لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

والعبادة طاعة طوعية، تسبقها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، فالله خلقنا لسعادة أبدية في الدنيا والآخرة.

فلذلك تقتضي رحمة الله عز وجل أن ينبه عباده إلى سرّ وجودهم، وغاية وجودهم، فلذلك أرسل أنبياءه ورسله، فالذين أصروا على كفرهم، واعتدوا ببعدهم عن ربهم، لابد من أن يعالجوا معالجة استثنائية، أحياناً هناك أمراض تتشفى بالأدوية، وهناك أمراض تحتاج إلى جراحة.

فالنبي عليه الصلاة والسلام بأمر من الله عز وجل يخاطبه ويقول:

(جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

والحقيقة في الأحوال السلمية المنهج:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت]

هذا في الأحوال العادية السلمية، أما في الحرب فهناك منهج آخر:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

في السلم هناك منهج لله عز وجل وفي الحرب هناك منهج آخر :

أيها الأخوة، الجهاد كما ورد في الأحاديث النبوية:

((ذروة سنام الإسلام الجهاد))

[أخرجه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي]

والجهاد بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس من أجل هداية الخلق، وهناك أمر إلهي موجه إلى النبي الكريم، وإلى من يأتي بعده:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

المنافقون كفار، ولكن عاشوا في مجتمع إسلامي، وأرادوا أن يأخذوا مكاسب لصالحهم فأعلنوا شيئاً، وأخفوا شيئاً، أعلنوا إيمانهم، وأخفوا كفرهم، هؤلاء المنافقون في الدرك الأسفل من النار، لأنهم أوهموا المؤمنين أنهم مؤمنون، لذلك استفادوا من هذه الصفة التي انتحلوها وغابت عنهم أن الله عز وجل لابد من أن يفضحهم.

إذاً الشيء الدقيق الآن أنه في السلم هناك منهج، وفي الحرب هناك منهج آخر، في السلم:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

لم يقل ادفع بالحسنى،

(بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

إذا كان هناك رداً على إساءة بموقف حسن فيجب أن تختار أفضل موقف حسن

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ)

هذا موقف المؤمن في الأحوال العادية، أما حينما تشتد المعركة فلابد من أن تجاهد الكفار والمنافقين جهاداً أساسه القوة.

النبي الكريم لعلو مقامه عند الله ما خوطب باسمه بل بلفظ النبوة والرسالة :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

هناك شيء دقيق وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام هو سيد الخلق، وحبيب الحق، هو سيد ولد آدم، هو النبي الذي أقسم الله بعمره الثمين، قال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر]

هو النبي الذي ما خوطب باسمه أبداً:

(يَا يَحْيَى)

[سورة مريم الآية: 12]

(يَا عِيسَى)

[سورة المائدة الآية: 116]

(يَا مُوسَى)

[سورة النمل الآية: 9]

إلا النبي

(يَا أَيُّهَا)

أو:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

[سورة المائدة الآية: 67]

ولم يأتِ اسمه إلا خبراً، مبتدأ ليخبر عنه:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)

[سورة الفتح الآية: 29]

هذا من تفضيل النبي الكريم على بقية الأنبياء والمرسلين.

إذاً الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

هنا الغلظة أحياناً تردع الكافر عن متابعة كفره،

(جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

يبدو أن بعض النفوس تأتي بالشدة، وبعضها يأتي بالإقناع، وبعضها يأتي بالرخاء، فصنف الكفار في الأعم الأغلب ينصاعون إلى الحق عقب شدة تأتيهم.

إذاً النبي الكريم لعلو مقامه عند الله ما خوطب باسمه أبداً بل توجه الله إليه و خاطبه بلفظ النبوة والرسالة.

جهاد النفس والهوى هو الجهاد الأساسي :

أما الجهاد الذي أُمر النبي به فهذا جهاد له معان كثيرة جداً، والحقيقة من أولى معاني الجهاد جهاد النفس والهوى، لأن بعض الصحابة الكرام حينما رجع من الحرب قال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، جهاد النفس والهوى، لأن الذي ينهزم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، فلابد بادئ ذي بدء من أن تنتصر على نفسك، أن تنتصر عليها بأن تحملها على طاعة الله، فالنفس نزاعة إلى المتعة، نزاعة إلى الشهوة، نزاعة إلى التفلت، نزاعة إلى حرية تتوهمها مسعدة، نزاعة إلى أن تعيش كما تتمنى، يأتي منهج الله عز وجل يضبطها، هناك أشياء مباحة، وأشياء محرمة، وأشياء مكروهة، وأشياء مستحبة، أنت أمام دائرة كبيرة، هذه الدائرة الكبيرة ما بعدها هو الحرام، أما الحلال فأنواع، هناك فرض، وسنة مؤكدة، وسنة، ومستحب، فهناك منهج دقيق لهذا الإنسان، الإنسان لأنه أعقد آلة في الكون، ولهذه الآلة بالغة التعقيد إله، وتعقيدها تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، لهذه الآلة المعجزة صانع عظيم، وخالق حكيم، وهذا الصانع العظيم له تعليمات التشغيل والصيانة، إنها كتابنا، وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام، فلابد للإنسان الذي يبغي سلامته وسعادته من أن يتبع منهج خالقه، منهج صانعه، ودائماً وأبداً الصانع هو الجهة الوحيدة الخبيرة بأسباب سلامة هذه الآلة وأدائها الأداء الأكمل، والله عز وجل يقول:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر]

فالله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ)

فالمجاهدة تبدأ بالدعوة إلى الله هذا الجهاد الدعوي، وقد يسبق هذا الجهاد الدعوي جهاد النفس والهوى، فغض بصرك عن محارم الله هذا نوع من الجهاد، أن تنطق بالحق ولا تكذب نوع من الجهاد، أن تأخذ ما لك وأن تدع ما ليس لك نوع من الجهاد، جهاد النفس والهوى هو أساس الجهاد.

كيف أن في التعليم هناك تعليم أساسي، وهناك تعليم ثانوي، وهناك تعليم جامعي، وهناك دراسات عليا، وهناك دكتوراه، هذه مراتب، أما الشيء الأساسي فمن الصف الأول حتى التاسع في بعض البلاد، هذا التعليم الأساسي.

فالجهاد جهاد النفس والهوى هو الجهاد الأساسي، والمهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة.

أنواع الجهاد :

1 ـ جهاد النفس و الهوى :

إذا قال الله عز وجل يخاطب النبي وكل أمر موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام هو موجه إلينا بالتبعية، شيء طبيعي جداً، الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

[سورة الأحزاب]

هو يتقي الله، هذا الأمر موجه لأصحابه، ولأمته من بعده، فالله عز وجل يأمر النبي أن يجاهد، والجهاد نبدأ بجهاد النفس والهوى، جهاد النفس والهوى هو الأصل في الجهاد.

ومرة ثانية: الذي يهزم أمام نفسه، وتغلبه شهوته، وتغلبه مصالحه، ويغلبه تفلته، وتغلبه غفلته، هذا الإنسان لا يستطيع أن يواجه نملة، فضلاً عن أن يواجه عدواً، فلذلك يعد جهاد النفس والهوى أصلاً لكل جهاد.

هذا الجهاد جهاد النفس والهوى كما عبر عنه الصحابي الجليل: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى".

2 ـ الجهاد الدعوي :

الآن هناك جهاد آخر، ودليله في القرآن آية محكمة، قال:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

وسمّى الله عز وجل تعليم القرآن، وتوضيحه، وبيان آياته، ومحكمه، ومتشابهه، والتفاصيل الدقيقة المتعلقة بالقرآن، هذا نوع من الجهاد،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

أي بيّن هذا القرآن، فصّل هذا القرآن، لذلك قال عليه الصلاة والسلام، وقد لخص كل رسالته فقال:

((إنما بعثت معلماً))

[أخرجه الحارث عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

فكأن النبي الكريم بين أن أعلى مرتبة ينالها الإنسان أن يدعو إلى الله عز وجل والدليل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

هذا الجهاد الدعوي.

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

ونحن يغلب على ظننا أن الجهاد الدعوي من اختصاص العلماء والدعاة الكبار، هذا خطأ كبير، الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، فرض عين، لكن الدعوة إلى الله مع التفرغ، والتعمق، والتبحر فرض كفاية، إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، هناك أشخاص تفرغوا في دراستهم، وفي اختصاصهم لمعرفة هذا الدين العظيم، كتاباً، وسنة، وفقهاً، وأحكاماً، وسيرة، هذا الجهاد الدعوي الذي أساسه التفرغ التام، والتعمق، والتبحر، فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، أما الجهاد الدعوي كفرض عين فكل إنسان كائن من كان عليه أن يجاهد جهاداً دعوياً، والدليل:

((بلِّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

والدليل قوله:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

فالذي لا يدعو إلى الله بعيد بعداً كبيراً عن منهج الله عز وجل،

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

من لا يدعو إلى الله على بصيرة ليس متبعاً لرسول الله :

دليل ثالث:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية: 108]

فالذي لا يدعو إلى الله على بصيرة، وكتعليق على كلام بصيرة، أي بالدليل والتعليل، خذوا الكتاب بقوة واذكروا ما في من حكمة، فالدليل من كتاب الله، ومن سنة رسول الله، أو من إجماع المسلمين، فالدعوة إلى الله بالدليل والتعليل،

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)

بالدليل والتعليل،

(أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

فالذي لا يدعو إلى الله على بصيرة ليس متبعاً لرسول الله، وبالتالي ليس محباً لله:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 31]

فتنطلق من محبتك لله باتباع رسول الله، ومن منهج النبي الكريم أنه دعا إلى الله، فالدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم ومع من تعرف، فهذا الذي حضر درس علم في مسجد، واستمع إلى تفسير آية، وتأثر بها تأثراً بالغاً، عليه أن ينقلها إلى أهله، إلى أولاده، إلى جيرانه، إلى أصدقائه، طوال هذا الأسبوع حضر خطبة، تأثر بقصة عن صحابة رسول الله، هذه القصة ينقلها.

((بلّغوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

فالدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم، ومع من يعرف، إذاً أن تقول: لا علاقة لي بالدعوة، أنا مسلم، هذه مهمة الدعاة الكبار، لا، أنت كمسلم يجب أن تكون داعية بنقل حديث لرسول الله، نقل معنى آية فهمتها، وتعمقت بها.

إذاً هناك دعوة تعد فرض عين على كل مسلم، وهذا الجهاد سنسميه الجهاد الدعوي أول جهاد جهاد النفس والهوى، أن تضبط أهواءك وفق منهج الله.

من ترك جهاد نفسه مال للشهوات و المعاصي :

بالمناسبة: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها بالإسلام لا يوجد حرمان، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، فالإنسان يجاهد أولاً نفسه وهواه، هذا جهاد النفس والهوى، هو الجهاد الأساسي، هذا الجهاد هو فرض عين على كل مسلم، لأن هناك نفس لها شهوات، فالإنسان إذا ترك جهاد نفسه يميل للشهوات، والشهوات معظمها في المعاصي والآثام، يميل إلى التفلت، إلى ترك الطاعات، إلى ترك الفرائض، إلى أن يتكلم ما يشاء، أن يلتقي مع من يشاء، أن يطلق بصره في الحرام، هذا كله من صفات الإنسان العادي، فالإنسان إن لم يجاهد نفسه وهواه، إن لم يضبط مشاعره، وحواسه، وأعماله، ويده، ومسيرته، فهو في مشكلة كبيرة جداً.

فالجهاد الأول هو جهاد النفس والهوى، والجهاد الثاني: الجهاد الدعوي، أن تطلب العلم من أنت؟ أنت المخلوق الأول، كيف تعلم أنك المخلوق الأول؟ كيف تعلم أنك مكلف أن تعبد الله؟ كيف تعلم أنك مخلوق للجنة؟ كيف تعلم أن هذه الدنيا:

((دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

بطولة الإنسان أن يعيش المستقبل وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا :

كيف تعلم من أنت؟ أنت المخلوق الأول، أنت مكلف أن تعبد الله، فالإنسان يأتي إلى الدنيا وينغمس في ملذاتها، وشهواتها، بل ينغمس في العمل، ويتقن عمله، وينال أرباحاً طائلة، فإذا وصل إلى قمة نجاحه يأتي ملك الموت، هذه مفاجأة كبيرة جداً، لذلك البطولة لا أن تعيش الماضي، ولا أن تعيش الحاضر، بل أن تعيش المستقبل، وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا، ماذا أعددت لهذه الساعة؟ من بيت فخم، من غرف متعددة، من زوجة، من أولاد، من أصهار، من بنات، من مركبة فارهة، من سفر، من نزهة، من سياحة، من ولائم إلى قبر، نقلة مخيفة جداً، من كل شيء وفيما يبدو للعين إلى لا شيء، ماذا أعددنا لهذه الساعة؟

مرة ثانية: بطولة الإنسان أن يعيش المستقبل لا أن يعيش الماضي والحاضر، هناك حدث خطير جداً هو مغادرة الدنيا.

أنت حينما تقرأ النعوات، النعوات على جدران الطرق، تقرأ هذه العبارة: وسيشيع إلى مثواه الأخير، معنى ذلك أن البيت مثوى مؤقت، مهما كان فخماً، مهما كان واسعاً، مهما كان غالي الثمن، مثوى مؤقت، البيت الحقيقي هو تحت الأرض لا فوق الأرض، ماذا تحت الأرض؟ فالذكاء، والبطولة، والتوفيق، والحكمة، أن تعيش المستقبل، وأن تعيش أخطر حدث في المستقبل وهو مغادرة الدنيا. لذلك ينطلق الجهاد إلى الإيمان بالموت، الموت لا أحد ينكره، لكن لا أحد يعيشه، أن تعيش الموت شيئاً وأن تقر به شيئاً آخر، أن تعيش الموت، ماذا في القبر؟ ماذا ينفعني في القبر؟ مهما زينت بيتك، وهذه التزيينات وإن كانت ليست محرمة، مباحة، لكن لا تنفعك في القبر، مهما بالغت في أناقتك، هذه لا تنفعك بالقبر، ينفعك في القبر شيء واحد هو عمل صالح مخلص، لذلك:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية: 19]

العمل الصالح الذي يرضي الله عز وجل ما كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

الدعوة إلى الله من أجل الحفاظ على هذا الدين و تنميته :

الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ)

أول جهاد: جهاد النفس والهوى.

الجهاد الثاني: الجهاد الدعوي، فالدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم ومع من يعرف، هذا الجهاد الدعوي أساس الدعوة إلى الله عز وجل، وحينما تقلص الدعوة إلى الله ينتهي الدين، لأن الدعوة إلى الله توسع دوائر الحق، فإذا توسعت هذه الدوائر ضيقت على دوائر الباطل، فالباطل موجود وقديم، لكن البطولة -وكلام دقيق جداً - ألا ينفرد الباطل بالساحة، الباطل موجود، أما حينما نقصر في الدعوة إلى الله فيكاد الباطل ينفرد بالساحة، أينما توجهت الصحيفة فيها باطل، والإذاعة فيها باطل أحياناً، والفضائية فيها باطل، والانترنيت فيه باطل، الباطل موجود، أما إذا توسع الباطل فغلب على دوائر الحق فهنا المشكلة كبيرة جداً، قد يضيع جيل بأكمله، قد تضيع أمة بأكملها، فالدعوة إلى الله من أجل الحفاظ على هذا الدين مبدئياً، ومن أجل تنمية هذا الدين ثانوياً، الحفاظ أولاً، والتنمية ثانياً.

إذاً أحد أكبر أنواع الجهاد فضلاً عن جهاد النفس والهوى الذي هو أصل في الجهاد الجهاد الدعوي، ويجب أن يعتقد كل مسلم أنه مكلف بالدعوة إلى الله، مكلف بأدلة كثيرة، أحد أكبر هذه الأدلة سورة العصر:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر]

ما قال: أوصوا، قال:

(تَوَاصَوْا)

فعل مشاركة، أي أنا أنصحك وأنت تنصحني، أنا رأيت في أخي خللاً، بأدب جم، على انفراد بيني وبينه، أنصحه، ثم رأى فيّ خللاً، فنصحني، هذا التواصي، أنصحه، وينصحني، أرشده، ويرشدني، آخذ بيده، ويأخذ بيدي، هذه مشاركة، الجهاد الأول: الجهاد النفس والهوى، الجهاد الثاني: الجهاد الدعوي.

3 ـ الجهاد البنائي :

وقد نفاجأ أن هناك جهاد ثالث هو الجهاد البنائي، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

جهاد بنائي، كيف تنبي هذه الأمة؟ يجب أن تنشر التعليم فيها، يجب أن تربي أولادها، يجب أن تنشئ المصانع، أن تحفر الآبار، أن تستصلح الأراضي، أن ترفع مستوى الصناعة، أن تطور الصناعة، أن تعمم التعليم، هناك بناء للأمة، وهذا ينضوي تحت الجهاد، جهاد بنائي، لأن هذه الأمة تواجه أعداء دائماً وأبداً، لابد من أن تكون قوية كي تواجه العدو.

أنا أقول دائماً وأبداً: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، بل سيرك في طريق القوة فرض عين عليك أن تكون قوياً، لماذا؟ لأن القوي، من هو القوي؟ القوة قوة مال، والقوة قوة منصب، والقوة قوة علم، فالعلم، والمنصب، والمال، هذه قوة، فإذا سلكت طريق القوة، لأن القوي إما بماله، أو بعلمه، أو بمنصبه، خيارات العمل الصالح أمامه لا تعد ولا تحصى، وأنت باعتبار مخلوق في الدنيا من أجل العمل الصالح، علة وجودك في الدنيا العمل الصالح، فأنت أمام خيارات واسعة جداً، هذا الكلام موجه للإخوة المؤمنين، أنت جئت إلى الدنيا من أجل العمل الصالح، فكلما توسعت في هذا العمل الصالح، هناك عمل صالح دعوي، وهناك عمل صالح تعاوني، معاونة، خبرة، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، إنشاء مساجد، إنشاء معاهد شرعية، نشر العلم الديني، وتوضيح القرآن، دراسة، نشراً، وتوضيحاً.

إذاً الجهاد الأول جهاد النفس والهوى، الجهاد الثاني الدعوي، الجهاد الثالث البنائي أن تبنى هذه الأمة، أن تبنى -إن صح التعبير- بنيتها التحتية، ثم أن تبنى مصانعها، أن تبنى أراضيها الزراعية، أن تبنى تجارتها، أن تبنى جامعاتها، فهذا جهاد بنائي، أنت تنتمي إلى أمة، هذه الأمة يجب أن تكون قوية، قوية بك، بإتقان عملك، بإخلاصك، إذاً الجهاد الثالث الجهاد البنائي.

4 ـ الجهاد القتالي :

إذا نجحنا في جهاد النفس والهوى، ونجحنا في الجهاد الدعوي، ثم نجحنا في الجهاد البنائي، الآن جاء دور الجهاد القتالي، لكن معظم المسلمين إذا قرؤوا كلمة جهاد لا يخطر على بالهم إلا الجهاد القتالي، هذا الجهاد القتالي يسبقه جهاد نفسي، يسبقه جهاد دعوي، جهاد بنائي، ثم يأتي الجهاد القتالي. إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

لابد من الشدة، الشِدة تتبعها شَدة إلى الله، الشِدة الحكيمة، رحيم، تتبعها شَدة إلى الله، والمحنة أحياناً تتبعها منحة من الله، فالحياة ليست كلها رفاه، وراحة، وسعادة، الحياة فيها متاعب أحياناً، هذه المتاعب طريق الوصول إلى الله عز وجل، لا ترى إنساناً في الحياة الدنيا متألقاً باختصاص عال جداً، يحمل

شهادات عليا كثيرة، وله دخل كبير، وله بيت وأولاد، ومكانته الاجتماعية عالية، هذا درس ثلاثاً و ثلاثين سنة، نام على طاولة الدراسة من شدة تعبه، هذا الجهد الكبير في مطلع حياته أعطاه هذه المكانة، وكذلك الآخرة.

أنت من أجل أن تكتب قبل اسمك د. أي دكتور، تحتاج إلى شهادة ابتدائية، وشهادة إعدادية، وشهادة ثانوية، ولسانس، ودبلوم، وماجستير، ودكتوراه، تحتاج إلى دراسة ثلاث و ثلاثين سنة من أجل كلمة د. إلى جانب اسمك، فإذا أردت أن تكون من أهل الجنة في جنة عرضها السموات والأرض:

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

ألا تحتاج إلى جهاد النفس والهوى؟.

الجنة لكل واحد من المسلمين :

أخواننا الكرام، من السذاجة بمكان أن تظن أن هذه الجنة لكل واحد من المسلمين، بلا جهد، بلا تعب، بلا انضباط، بلا جهاد، بلا ضبط مشاعر، بلا ضبط جوارح، بلا إنفاق مال، بلا طلب علم، هذا الشيء من السذاجة بمكان.

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

لأن هؤلاء الكفار حينما يكتشفون أنهم خرجوا عن منهج الله يتألمون ألماً لا حدود له، حتى إن في بعض الأحاديث الشريفة:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم عن جابر بن عبد الله]

إذاً الجهاد جهاد أولي جهاد النفس والهوى، جهاد دعوي الدعوة إلى الله فرض عين وفرض كفاية، ثم جهاد بنائي، أن تسهم في بناء هذه الأمة، أي كل إنسان إذا أتقن عمله إتقاناً جيداً ثم طور عمله يسهم في بناء الأمة، أتقنه أولاً، وطوره ثانياً، فالأمة مجموعة نشاطات، هناك نشاط بنائي، ونشاط زراعي، ونشاط صناعي، ونشاط تعليمي، و نشاط علمي، هذه النشاطات المتعددة، إذا أتقنتها، وطورتها، معنى هذا أنك قويت أمتك، فأنت في هذه الحالة تجاهد جهاداً بنائياً، وحينما تكون الأمة قوية ومتماسكة يأتي عدو خارجي يعتدي عليها يمكن أن تجاهد جهاداً قتالياً.

كلمة الجهاد لا تعني الجهاد القتالي فقط :

كلمة الجهاد أتمنى على أخوتي المشاهدين إذا قرؤوها في القرآن والسنة ألا تنصرف أذهانهم إلى الجهاد القتالي فقط، هناك جهاد نفسي، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى، هناك جهاد دعوي:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

هناك جهاد بنائي:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

هناك جهاد قتالي حينما يصل الأمر إلى المواجهة لابد من جهاد قتالي.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

بين أن يعيش الإنسان حياة أبدية عرضها السموات والأرض، وبين أن يعيش الإنسان في جهنم وبئس المصير.

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

[سورة النساء الآية: 65]

لذلك البطولة لا أن تعيش الحاضر، ولا أن تعيش الماضي، بل أن تعيش المستقبل.

من تسميات النفس في القرآن الكريم :

1 ـ النفس المطمئنة :

أيها الأخوة الكرام، شيء دقيق جداً أن هذه النفس التي نحن بصددها نجاهدها، ألم نقل في البداية جهاد النفس والهوى، قال: هذه النفس لها في القرآن مسميات عديدة من هذه المسميات:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

[سورة الفجر]

هذه النفس التي عرفت ربها من خلال الكون، من خلال آياته الكونية، أو من خلال آياته التكوينية، أو من خلال آياته القرآنية، عرفت ربها فاستقامت على أمره.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

[سورة هوج الآية: 112]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية:30]

عرفت ربها واستقامت، والاستقامة طابعها سلبي، ما أكل مالاً حراماً، ما غش، ما اغتاب، ثم تقربت إليه بالعمل الصالح.

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر الآية: 10]

عرفته من خلال آياته الكونية، أو التكوينية أفعاله، أو القرآنية كلامه، ثم استقمت على أمره، والاستقامة أصل في هذا الدين، وبعد الاستقامة تقربت إليه بالعمل الصالح، ثم جاءها ملك الموت فانقلبت إلى جنة عرضها السموات والأرض، وهذه هو التصميم - إن صح التعبير- تصميم معاصر، عبارة معاصرة، هذا هو التصميم الإلهي لهذا الإنسان، أن يأتي إلى الدنيا يتعرف إلى الله، يعبده، يطيعه فيما أمر، يتقرب إليه بالعمل الصالح، يأتيه الموت ينقبض إلى جنة عرضها السموات والأرض، هذه النفس المطمئنة.

2 ـ النفس اللوامة :

وهناك نفس لوامة مقبولة أيضاً، كلما أخطأت لامت نفسها، حالة طيبة أيضاً، أي إما أنه كامل، أو في طريق الكمال، لذلك الآية الكريمة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

أي مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يعذب الإنسان وهو مطبق لمنهج رسول الله،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

أنت فيهم أي سنتك مطبقة في حياتهم، فالنفس الأولى نفس مطمئنة، عرفت ربها، استقامت على أمره، تقربت إليه بالإحسان، النفس الثانية نفس تحاسب نفسها، إذا زلت قدمها تحاسب نفسها، هذه نفس لوامة.

3 ـ النفس الأمارة بالسوء :

وهناك والعياذ بالله إنسان شرد عن الله شرود البعير، وتحكمت به شهواته، فأصبحت نفسه أمارة بالسوء، فبين أن يكون الإنسان ذا نفس مطمئنة، أو أن يكون ذا نفس لوامة، تقريباً في طريق الكمال والسمو، أو أن يكون ذا نفس أمارة بالسوء وهذه حالة مرضية خطيرة جداً.

تبدل القيم مشكلة كبيرة جداً :

شيء آخر: طبعاً نحن بحاجة إلى الجهاد، لكن كلما عمّ الفساد وانحرف الناس في بعض الآثار النبوية عن آخر الزمان:

((يومَ يذوبُ قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير))

[أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أبي ثعلبة الخشني]

قد يعم الفساد، تعم الفوضى أحياناً، يعم الانحراف، يصبح الأمر بالمعروف شيئاً مستحيلاً، المنكر هو المسيطر.

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، وقالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، وقالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

هذه مشكلة كبيرة جداً، تبدل القيم.

إذاً الجهاد من أجل أن ننقل الناس من حالة الضياع والشرود إلى حياة الإيمان والعلم والعمل الصالح.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

والإنسان ينبغي أن يكون ذا نفس مطمئنة، فإن لم يكن فلا أقل من أن يكون ذا نفس لوامة، أما أن تكون نفسه أمارة بالسوء فهو بعيد عن الله بعد الأرض عن السماء.

معظم الناس لا يدخلون جهنم في حساباتهم إطلاقاً :

أيها الأخوة الكرام، والبطولة ختام العمل هنا:

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة التحريم]

هناك مصير في جهنم أبدي، هنا المشكلة، قضية النار، أنا والله أقول هذا الكلام وأرجو أن أكون مخطئاً: معظم الناس لا يدخلون جهنم في حساباتهم إطلاقاً، يتحرك براحة نفسية، يأكل مالاً حراماً، يختار حرفة مبنية على إيذاء الناس أحياناً، أو على ابتزاز أموالهم، يهتم ببيته، بأهله، يهتم بمركبته، يهتم بدخله الكبير، يهتم بطعامه، بشرابه، برحلاته، بنزهاته، وينسى أن هناك يوم يحاسب عن كل شيء يفعله، لذلك الله عز وجل أردانا أن نؤمن بالموت، أن نعيش الموت من حين إلى آخر.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

[سورة الملك الآية: 2]

بدأ بالموت:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية:2]

هذه الآية أيها الأخوة يخاطب بها النبي عليه الصلاة والسلام، ولكنها موجهة إلى كل مسلم،

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (52-70) : تفسير الآية 74، غزوة تبوك.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-05-13

بسم الله الرحمن الرحيم

التعبير غير المباشر عن طريق القصة فيه موعظة كبيرة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والسبعين وهي قوله تعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية تشير إلى قصة وقعت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثناء غزوة تبوك، أحداث القصة دقيقة جداً، بل يمكن أن نستنبط منها حقائق كثيرة.

أحياناً يستخدم القرآن التعبير المباشر، وهذا له خصائصه، وأحياناً يستخدم القرآن التعبير الغير مباشر عن طريق القصة، وهذا الأسلوب له خصائصه، على كلٍّ التعبير غير المباشر عن طريق القصة فيه موعظة كبيرة، لأن القصة حقيقة مع البرهان عليها، حقيقة مجسدة بأشخاص يتحركون، يتحاورون، يتواصلون، والإنسان أخو الإنسان فإذا قرأ قصة عن إنسان آخر فلابد من أن يتعظ موعظة كبيرة، لذلك قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة يوسف الآية: 111]

قصة الجلاس بن سويد مع النبي صلى الله عليه و سلم :

أيها الأخوة، تروي كتب السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أراد أن يغزو الروم، وهذه الغزوة هي غزوة تبوك، هذه الغزوة وقعت أحداثها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أراد أن يغزو الروم، وكانت هذه الوقعة أول وقعة بين المسلمين وبين غير العرب، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الغزوة في فترة شديدة الحر، كل واحد في هذه الفترة يفضل الجوس في بيته، في الأخياف، تحت النخيل، تحت الشجر، في جو رطب، ولا يرغبون في القيام من الظل، في هذه الفترة الحرجة الحارة حراً شديداً دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة لبلاد الروم هي غزوة تبوك.

وعندما دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد في سبيل الله، والذهاب لقتال الروم، الآن المنافقون تلمسوا أعذاراً كاذبة، حتى لا يذهبوا إلى الجهاد، فظل القرآن ينزل في هؤلاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين، فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد: والله إن كان محمد صادقاً فيما يقول فنحن شر من الحمر، فهو بهذا الكلام تكلم بكلمة الكفر، إن كان صادقاً، فإن لم يكن صادقاً فنحن في غنى عن هذه الغزوة، فهذه الكلمة بحق النبي الكريم المعصوم الذي أرسله الله بهذا القرآن وبهذه الدعوة العظيمة، هذا الكلام بحق النبي يعد كفراً، هنا قال له أحدهم: لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم شر من الحمر، وأنت يا جلاس شر من الحمار.

وهنا قام بعض المنافقين ليفتك بعامر بن قيس الأنصاري، لأن الجلاس بن سويد كان من سادة قومه الذي قال: لو أن محمد صادقاً فيما يقول لكنا شر من الحمر، هذا الكلام قاله سيد في قومه.

وذهب عامر بن قيس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما حدث، فاستدعى النبي صلى الله عليه وسلم ابن سويد وسأله عن الخبر- دققوا الآن- ابن سويد حينما استدعي من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله عن هذا الخبر حلف بالله أن كل ما قاله عامر بن قيس لم يحدث إطلاقاً، أي أنكر، وكذب، وحينما حلف أن هذا الذي نقله لك فلان لم يقع إطلاقاً تركه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه حلف بالله، وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء وقال: " يا رب إني أسألك أن تنزل على عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم تصديق ما قلت، وتكذيب الكاذب"، فقال عليه الصلاة والسلام: آمين، ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحي بقول الحق جل جلاله:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا)

الآية التي نحن في بصددها،

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ)

الآن الوحي أضاف شيئاً دقيقاً جداً أن المنافقين حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم بأن يدعونه إلى مكان مرتفع ثم يدفعونه فينزل ميتاً،

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا)

بعضهم قال: هم لم يسلموا أصلاً، المنافق كافر، لكن شراح هذه الآية قالوا: هؤلاء عند الناس مسلمون، أظهر إسلامه وأخفى كفره، فهنا كلمة:

(وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ)

بعد أن شاع بين الناس أنهم مسلمون.

وهكذا حسمت هذه الآية هذا الموقف، وأظهرت من هو الصادق ومن هو الكاذب، فيما رواه عامر بن قيس، وأنكره الجلاس.

الله تعالى أراد أن يَعلم المنافقون أنه يخبر نبيه بما يخفونه :

ولكن الآية الكريمة تجاوزت ما عرف من الحادثة إلى ما لم يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه:

(وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا)

ذلك أن الله تبارك وتعالى لحكمة بالغةٍ بالغة أراد أن يعلم المنافقون أنه يخبر نبيه بما يخفونه، ولو نزلت هذه الآية فقط في حادثة الحلف الكذب لقال المنافقون: ما عرف محمد عليه الصلاة والسلام إلا ما قاله عامر، ولكن هناك أشياء لم يسمعها عامر وهم قالوها، ذلك بأن المنافقين قد تآمروا على النبي صلى الله عليه وسلم واتفقوا على قتله عند عبوره العقبة، والعقبة هذه هي مجموعة من الصخور العالية التي تعترض الطريق، ويتحايلون على اجتياز العقبة بأن يعبروها أحياناً من أنفاق منخفضة، وأحياناً يعبرونها بأن يصعدوا فوقها ثم ينزلوا، ودبر المنافقون أن يدفعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أعلى الصخور ويسقط في الوادي، ولكن حذيفة بن اليمان رحمه الله تعالى ورضي الله عنه كان يسير خلف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنبه للمؤامرة فتنبه المنافقون، وهكذا لم ينالوا مثلما يريدون، وعندما أتى النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة قد كانوا يعدون العدة ليجعلوا عبد الله بن أبيّ ملكاً عليهم، ولكن مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمكنهم من ذلك.

وقيل: إنهم تآمروا على قتل عامر بن قيس لأنه أبلغ رسول الله بما قاله الجلاس بن سويد ولكنهم لم يتمكنوا.

الحوادث التي وقعت في عهد رسول الله وقعت لحكمة لتكون منهجاً لكل إنسان :

أيها الأخوة الكرام، هذه القصة تبين أن الذي ابتعد عن الله يتحرك حركة شريرة، أرادوا أن يقتلوا النبي عليه الصلاة والسلام، لماذا؟ لأنه جاء لهم بهذا الدين العظيم، بهذا الهدى القويم، بهذا القرآن الكريم، فالمؤمن يتحرك وفق منهج الله، لكن الآخر غير المؤمن يتحرك وفق هوى نفسه.

على كلٍّ هذه القصة لها عدة حقائق دقيقة جداً ينبغي أن نعرفها، لأن كل شيء وقع أراده الله، معنى أراده أي سمح به، لم يأمر، ولم يرضَ، لكن سمح به لحكمة بالغة بالغة، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

ويبدو أن الأحداث التي وقعت في عهد رسول الله هذه الأحداث تعبر عن حقائق كثيرة جداً، وحقائق تنبع من واقع، تنبع من معاينة، تنبع من تجربة، فحينما تنبع الحقيقة من واقع ومن خبرة ومن تجربة تكون أبلغ في النفوس مما لو ألقيت بلا تمهيد وبلا حقائق تدعمها.

إذاً أكثر الآيات التي تشير إلى وقائع وقعت في عهد النبي الكريم إنما هي حقائق لكنها استنبطت من حوادث، بل إن الحوادث التي وقعت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت لحكمة بالغةٍ بالغة كي يكون بمجموع هذه الحوادث منهج كامل لهذا الإنسان، فقد يقول العلماء أن سنة النبي عليه الصلاة والسلام هي أقواله، أقواله سنة.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

إنه معصوم من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، فأقواله سنة، وأفعاله سنة، وإقراره سنة، هذه السنة تفسير، وتوضيح لآيات القرآن الكريم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لنْ تَضِلُّوا ما تَمسَّكْتُمْ بهما: كتابَ الله، وسنّة رسولِهِ))

[أخرجه مالك عن بلاغ بن مالك]

علم الله علم مطلق :

هؤلاء:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا)

وغاب عنهم أن الله يعلم:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه]

يعلم ما تبطن، ويعلم ما تخفي، لذلك سيدنا علي كرم الله وجهه له قول رائع: "علم ما كان، وعلم ما سيكون، وعلم ما كان في الماضي، وعلم ما يكون في الحاضر، وعلم ما سيكون في المستقبل، - أما الرابعة- وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون"، إذاً علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

علم الله علم مطلق، فلذلك الإنسان حينما يعلم أن الله يعلم يستقيم على أمره:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

اختار الله من أسمائه القدير والعليم، معنى ذلك أن هذين الاسمين وحدهما يكفيان كي تستقيم على أمر الله، هو يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب.

نحن من حياتنا اليومية أنت حينما تركب مركبة والإشارة حمراء، والشرطي واقف، ودفتر الضبط بيده، وأنت مواطن عادي، شيء طبيعي جداً أن تلتزم بهذه الإشارة، إن تجاوزتها كُتب الضبط، ودفعت مبلغاً كبيراً، فما دمت موقناً أن هذا الشرطي يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، لن تعصي أمره، لن تعصي أمر شرطي فكيف بخالق السموات والأرض الذي يعلم وسيحاسب وسيعاقب؟ والدليل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

المعركة بين الحق و الباطل معركة أزلية أبدية :

الله عز وجل يضيف في قرآنه الكريم:

(وَمَا نَقَمُوا)

هؤلاء المنافقين، لماذا ينقمون على هذا النبي الكريم؟ لماذا حاولوا قتله؟ ماذا فعل هذا النبي؟ جاءهم بالهدى، جاءهم بكتاب منهج الله عز وجل، هذا المنهج ليسعدهم في الدنيا والآخرة، هذا المنهج فيه أسباب سلامتهم وسعادتهم، لماذا نقموا عليه؟ ماذا فعل هذا النبي الكريم حتى كاد له الكائدون وتآمر عليه المتآمرون؟ هذه حقيقة دقيقة هي أن الطرف الآخر الذي ابتعد عن الإيمان لا يحب الحق أن ينتشر، لأن انتشار الحق يفضحه، فدائماً وأبداً هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، هذه المعركة قديمة، ودائماً أقول: الباطل موجود في كل مكان في الأرض، لكن بطولة المسلم وبطولة المؤمن ألا يسمح للباطل أن ينفرد بالساحة، هناك باطل لكن هناك حق، هناك أماكن مستنيرة كالمساجد فيها دعوة إلى الله، وتعريف بالإنسان، وهناك أماكن فيها معاص وآثام، والإنسان مخير، ولأن الإنسان مخير يثمن عمله، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً بالقدرة، إن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

الفرق الكبير بين مقام الألوهية ومقام البشرية :

لذلك هذا الذي حصل في عهد النبي الكريم في هذه الغزوة يعد درساً بليغاً لنا نحن من بعده، هذه الوقائع التي وقعت في عهد النبي منهجاً حركياً لنا، والذين قالوا: إن سنة النبي هي أقواله وأفعاله

أصابوا الحقيقة، أقواله وأفعاله وإقراره، فالنبي معصوم من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره، من عصمه؟ الله عز وجل، هو كماله مطلق لكن عصمته أيضاً مؤكدة بالقرآن الكريم، لكن كتعليق لطيف الله سبحانه وتعالى ترك لهذا النبي الكريم هامشاً ضيقاً جداً، هامشاً اجتهادياً، فإذا اجتهد النبي الكريم من أجل أن يؤكد الله لأمته من بعده أنه بشر، فإذا اجتهد من خلال هذا الهامش الذي ترك له، وهو ضيق جداً، ولم يكن اجتهاده كما ينبغي فيأتي الوحي ليصحح له اجتهاده، معنى ذلك أن هناك فرق كبير بين مقام الألوهية ومقام البشرية، هو بشر وقد قال عن نفسه:

((إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك]

الآية الكريمة:

(وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)

نقموا تعني كرهوا، لأن الغنى لا يكره، أما لأنه جاء عن طريق النبي، فهؤلاء الذين تحدث الله عنهم بعد مجيء النبي اغتنوا وتعاونوا، لكن الذين ابتعدوا عن الدين ما أرادوا هذا النصر للمؤمنين.

المنافق كافر عاش في جو إيماني فأظهر الإيمان وأخفى الكفر والعصيان :

وقد قال بعض المفسرين: وقبل أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم كان الذين كرهوا مجيء رسول الله إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئاً، ولكنهم لما نافقوا ودخلوا في الإسلام أخذوا من الغنائم وأغناهم الله، بل إن الجلاس بن سويد هذا الذي أراد هذه الفتنة، لما قُتل له غلام دفع له النبي عليه الصلاة والسلام اثني عشرة ألف درهم دية له، إذاً قد جاء على يد رسول الله الغنى للجميع، حتى المنافقين، فهل هذا أمر تكرهونه؟ طبعاً لا، ولكنه دليل على فساد طباعهم، وعدم إنصافهم في الحكم، وما دام الله سبحانه وتعالى قد أغناهم بمجيء رسوله ما كان يصح أن يعاب ذلك على النبي الكريم، بل كان يجب أن يمدح به وأن يتفانوا بالإيمان بعد ذلك، هذا المنافق يأتيه الخير في الدنيا ومع ذلك يعادي أهل الحق، الحقيقة أن المنافق كافر، لكنه عاش في جو إيماني أراد أن يكسب مكاسب إيمانية، فأظهر الإيمان، وأخفى الكفر والعصيان.

باب التوبة مفتوح على مصارعه لكل إنسان :

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا)

الآن إضافة إلى ما حدث، إضافة إلى ما لم يعلم النبي بذلك، هموا بقتله، وهموا

(بِمَا لَمْ يَنَالُوا)

والله عز وجل كما قال:

(يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة الآية: 67]

النبي معه رسالة، أما حينما تقرأ قوله تعالى:

(أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ)

[سورة آل عمران الآية: 144]

طبعاً قد يقتل النبي بعد أداء الرسالة، لكن ما دام يؤدي الرسالة الله عز وجل يعصمه من الناس حتى يؤدي الرسالة.

(وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)

المنافقون الذين أظهروا الإيمان، أخذوا الغنائم، واغتنوا بعد مجيء رسول الله إليهم، الشيء الذي يلفت النظر أن هؤلاء الكفار، والذين أعلنوا إيمانهم كانوا منافقين، هؤلاء يقول الله عنهم:

(فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ)

أي باب التوبة مفتوح على مصراعيه لكل إنسان، لكل إنسان كافر، أو منافق، أو عاص، أو آثم، الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء الآية: 27]

والله يحب التوابين، ويحب المتطهرين:

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري على العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا أنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

شيء دقيق جداً، الله عز وجل حبيب، أو طبيب، إن أطعته فهو الحبيب، وإن عصيته فهو الطبيب.

((أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا أنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

الدين أن تتعاون مع جهة واحدة هي الله عز وجل :

إذاً الآية الكريمة:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

الإله يعلم، يعلم السر وأخفى،

(وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا)

فما كل شيء تريده يقع، الأمر بيد الله وحده:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود]

الإنسان لا يسمح الله له بفعل إلا لحكمة بالغة، وقد يريد أشياء كثيرة، لكن هذه الأشياء بعضها يحقق لحكمة بالغة وبعضها لا يحقق، الإنسان حينما يؤمن بالتوحيد، والدين هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، ما التوحيد؟ ألا ترى مع الله أحداً، التوحيد أن ترى يد الله وحدها تعمل، التوحيد أن ترى أنه لا رافع ولا خافض إلا الله، ولا معز ولا مذل إلا الله، ولا معطي ولا مانع إلا الله، هذا التوحيد يجعلك تتوجه إلى الله وحده، والدين توحيد، والدين أن تتعاون مع جهة واحدة هي الله، إنه يعلم، لا يحتاج إلى إيصال، ولا إلى قسم، الله يعلم، يعلم كل ما يخطر في بالك، يعلم حركاتك وسكناتك، يعلم سرك وعلانيتك، يعلم ما تبطنه وما تظهره، فحينما تتعامل مع الله على أنه يعلم لابد من أن تنضبط، لذلك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قدرته تتسع لكل شيء، حتى حينما تستمع إلى قصة أن هناك مرض عضال كالورم خبيث تم شفاؤه ذاتياً هذا شيء لا يستغرب أبداً، شيء طبيعي جداً، كن فيكون، زل فيزول، لذلك أنت حينما تتعرف إلى الله أنت مع من؟ مع خالق السموات والأرض، مع من:

(أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس]

مع أن إرادة الله عز وجل تعمل وحدها في الكون، فإذا كنت مع القوي أنت قوي، أخذت قوتك من قوته، إذا كنت مع الغني أنت تستغني عن الناس، إذا كنت مع العزيز أنت تعز نفسك، لا تذلها، وقد ورد أنه:

((لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلّ نفسَهُ))

[أخرجه الترمذي عن حذيفة بن اليمان]

عظمة هذا الدين أنه يقوم على الوازع الداخلي :

لذلك عظمة هذا الدين أن الإنسان باتصاله بالله يشتق الكمال من الله عز وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

[سورة العنكبوت الآية: 45]

هذا نهي الوازع لا نهي الرادع، نهي ذاتي، عظمة هذا الدين أنه يقوم على الوازع الداخلي. قال: يا أيها الراعي بعني هذه الشاة وخذ ثمنها؟ قال له: ليست لي- لسيدنا عمر، أو لابن سيدنا عمر في بعض الروايات- قال له: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة لثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق أمين ولكن أين الله؟.

هذا الراعي وضع يده على حقيقة الدين، وأنت في اللحظة التي تقول فيها أين الله؟ لا أفعل هذا، أنت مؤمن ورب الكعبة، أما هذا الذي يفعل شيئاً في الخفاء ويبدو أمام الناس في أحلى مظهر ديني فهو إنسان لا يعرف الله إطلاقاً، والمؤمن الحقيقي ظاهره كباطنه، وباطنه كظاهره، سره كعلانيته، وعلانيته كسره، لا يوجد عنده شيء مخفي، لا يوجد عنده موقف مزدوج، لا يوجد عنده موقف معلن وموقف مستهلك، لا يوجد عنده شيء إطلاقاً، عنده موقف واحد، فلذلك كما قال النبي الكريم:

((لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

الإنسان بلحظة واحدة ينتقل من عالم إلى عالم :

إذاً نعود لهذه الآية:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)

يروى أن رجلاً زعيماً كبيراً من زعماء قبائل العربية جاء إلى المدينة ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام هو نعيم بن مسعود، كان زعيم غطفان، وله شأن كبير، وجاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام، وهو في المعسكر خارج المدينة استيقظ ليلاً- أما أنا تأثرت تأثراً بالغاً في الحوار الذاتي، الحوار الذاتي شيء مهم جداً- قال: يا نُعيم- يخاطب نفسه- ما الذي جاء بك إلى هنا؟ من أجل أن تحارب هذا الرجل؟ ماذا فعل هذا الرجل؟ هل سفك دماً؟ هل انتهك عرضاً؟ هل سلب مالاً؟ أين عقلك يا نُعيم؟ انظر إلى هذا الحوار، هذا الحوار الذاتي، المنطقي، العقلاني، الهادئ، الواقعي، سبب إسلامه، فلما وجد نفسه بحالة غير مقبولة، يحارب إنساناً يدعو إلى الأخلاق، إلى الرحمة، إلى العدل، إلى الإنصاف،

فقال: أين عقلك يا نعيم؟ فقام من توه، وتجاوز الحد بين المشركين - الذي جاؤوا ليقاتلوا النبي- وبين المؤمنين، ودخل على النبي الكريم، النبي تعجب منه أشد العجب، قال له: نُعيم؟ قال: نُعيم، قال: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت مسلماً فلما أسلم بدقيقة واحدة انتقل من عالم الكفر إلى عالم الإيمان، قال له: ائمرني بما تشاء، قال له: أنت واحد يا نُعيم، قال له: ائمرني، قال له: خذل عنا، فلأنه عند اليهود مشرك، ومع الطرف الآخر، استطاع أن يجري الله الخير على يديه، ومعركة الخندق انتهت بهزيمة الكفار، والعنصر الفعال في ذلك هو نُعيم بن مسعود.

أنت حينما تعرف الله الدنيا كلها فتحت لك، أنت حينما تعرف الله، الله عز وجل يوظفك عنده بأعمال كبيرة جداً.

فهذا الرجل كان مشركاً، وسيموت مشركاً، وسيدخل جهنم إلى أبد الآبدين، لحظة تفكير منطقي، واقعي، عقلاني، لماذا جئت إلى هنا؟ من أجل أن تحارب هذا الرجل؟ ماذا فعل هذا الرجل؟ هو دعا إلى الله، دعا إلى الفضيلة، دعا إلى الصدق، إلى الأمانة، إلى الإخلاص، فآمن.

فلذلك الإنسان بلحظة واحدة ينتقل من عالم إلى عالم.

الله عز وجل ينتظرنا أن نتوب إليه ويحبنا إذا تبنا إليه :

إذاً الله عز وجل يقول لهؤلاء الذين ائتمروا على النبي وأرادوا قتله:

(فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ)

باب التوبة مفتوح على مصارعه كلها، والله ينتظر أن نتوب إليه، ويحبنا إذا تبنا إليه، والدليل:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة]

(فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

في الدنيا هناك عذاب، وفي الآخرة هناك عذاب، الذي يعجب له الإنسان أن الإنسان حينما يتحرك بلا هدف، وبلا مبادئ صحيحة، وبلا حقائق يقينية، يتحرك حركة عشوائية، قد تكون هذه الحركة العشوائية بلا دليل، بلا حقائق، بلا منطلقات صحيحة، هذه الحركة تكون سبب هلاكه الأبدي في الدنيا والآخرة.

فهذا الرجل الذي تحدثت عنه نُعيم بن مسعود، فكر تفكيراً صحيحاً، بلحظة تفكير صائبة، واقعية، ناصعة، بيضاء، آمن برسول الله، كان مشركاً فصار من كبار الصحابة، وقد أجرى الله الخير على يديه، وكانت هذه المعركة معركة الخندق قد انتهت بانتصار المسلمين، وهو عنصر فعال في هذا النصر.

البشر عند الله زمرتان لا ثالث لهما :

(وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

عجيب، سعادة في الدنيا والآخرة أو شقاء في الدنيا أو الآخرة؟ ذلك أن البشر عند الله زمرتان لا ثالث لهما، دقق:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

صدق أنه مخلوق للجنة، هذا الإيمان، هذا التصديق دفعه إلى أن يتجنب معصية الله، اتقى أن يعصيه، وهذا التصديق إلى الجنة دفعك إلى أن تتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، هذه زمرة،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

الطرف الثاني:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب أنه مخلوق للجنة، بل آمن أنه مخلوق للدنيا فقط، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، لذلك الهرم البشري يقع على رأسه زمرتان، زمرة الأقوياء والأنبياء، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء عاش الناس لهم، والأنبياء عاشوا للناس، الأقوياء ملكوا الرقاب، والأنبياء ملكوا القلوب، وشتان بين أن تملك رقبة الإنسان أو أن تملك قلبه، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء يمدحون في غيبتهم، بعد ألف وأربعمئة عام يمدح النبي، والأقوياء في حضرتهم فقط، بل في غيبتهم قد تذمهم، والبطولة في الأقوياء أن يتخلقوا بأخلاق الأنبياء حتى يحبهم الناس.

فلذلك أنا أتمنى من الأخوة المشاهدين أن يكونوا أتباع نبي، لأن أتبع الأنبياء يتخلقون بأخلاق الأنبياء، هناك صدق، وأمانة، ورحمة، وتواضع، وإنصاف، هذه الأخلاق التي جاء بها النبي، النجاشي سأل أحد أصحاب النبي سيدنا جعفر عن الإسلام فقال له:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

وهذا هو المنهج الأخلاقي لهذا الدين العظيم، هذه العبادة التعاملية فضلاً عن العبادة الشعائرية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (53-70) : تفسير الآيات 75-77، العهد الصادق مع الله عز وجل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-05-20

بسم الله الرحمن الرحيم

البشر من خلال القرآن الكريم مؤمنون وكافرون ومنافقون :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الخامسة والسبعين وهي قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

أيها الأخوة، لا زلنا في سياق الآيات التي تتحدث عن المنافقين، وشيء لا يغيب عنكم أن البشر من خلال القرآن الكريم مؤمنون، وكافرون، ومنافقون، المؤمن هو الذي عرف الله فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، بينما الكافر هو الذي غفل عن الله، بل أنكر وجوده أحياناً، وتفلت من منهجه فعلاً، ثم أساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، هذا هو أصل التقسيم، إنسان عرف الله، فانضبط بمهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، هذا أصل التقسيم.

ولكن فئة من الناس أرادت أن تجمع بين التفلت وبين مكاسب المؤمنين، فأظهرت الإيمان، وأخفت الكفر والنفاق، هذا الذي أظهر الإيمان وأخفى الكفر هو منافق، له ظاهر وله باطن، له موقف معلن وله موقف حقيقي، له سر يناقض علانيته وله باطن يناقض ظاهره، فهذا الإنسان ازدواجي، له شخصيتان، موقفان، منطلقان، هذا الإنسان سماه الله منافقاً.

المنافق في الدرك الأسفل من النار لأنه جمع بين التفلت وبين مكاسب المؤمن :

أيضاً لا يغيب عنكم أن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء الآية: 145]

ذلك أن الكافر واضح، فأنت أخذت منه احتياطاً، أعلن لك كفره، لن تصغي إليه، لن تأخذ بإرشاداته، لن تلتقي معه، أما المنافق فأظهر الإيمان، وأنت بشر، لا تعلم الحقائق الباطنة فصدقته، فإذا به يغدر بك.

لذلك الله عز وجل حينما قال:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

لأنهم جمعوا بين التفلت في السلوك وبين مكاسب المؤمنين، لذلك سياق الآيات يتحدث عن هؤلاء المنافقين، قال تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ)

ولا شك أن كل واحد من المؤمنين إذا أدى عمرة، أو أدى حجة لبيت الله الحرام، وهو يقترب من الحجر الأسود يقول له: يا رب عهداً على طاعتك، ولكن الشيء المؤلم أن الله عز وجل يقول:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

[سورة الأعراف الآية: 102]

المؤمن إذا عاهد الله فهو عند هذا العهد :

بطولتك أنك إذا عاهدت رسول الله عز وجل أن تكون عند هذا العهد، فالمؤمن إذا عاهد الله هو عند هذا العهد، لذلك قال تعالى:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم]

أدى ما عليه، فحينما تشعر أنك عاهدت الله، وأنت عند عهدك، هذه مرتبة عالية في الإيمان، وكان إبراهيم عليه السلام قدوة في هذا الموضوع،

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

قال يا بني:

(إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

[سورة الصافات الآية: 102]

شيء رائع جداً، خضوع لمنهج الله مئة بالمئة.

لذلك هؤلاء المنافقون الحديث عنهم في هذه السورة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ)

عاهد الله:

(لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ)

أي إذا أصبحت غنياً سأنفق من هذا المال، منهم ثعلبة، منهم ابن قيس، منهم حاطب.

الحقيقة الآية الكريمة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

قال العلماء: الرزق أحياناً إما أن يكون عن طريق الأسباب، أو عن طريق التفضل، أحياناً لك تجارة، تشتري البضاعة، أو تبيعها، الفرق بين سعر الشراء والمبيع هو الربح، فأنت كسبت هذا المال عن طريق الأخذ بالأسباب، لكن أحياناً الإنسان يأتيه مبلغ كبير، من دون جهد كبير، هذا الرزق تفضلي، إذاً هناك رزق عن طريق الأسباب، وهناك زرق فضلي.

أنواع النصر :

بالمناسبة كما يقال دائماً: الشيء بالشيء يذكر، الله عز وجل حينما تحدث عن النصر قال: هناك نصر استحقاقي، وهناك نصر تفضلي، وهناك نصر كوني، أما الاستحقاقي فهؤلاء الصحابة الكرام في بدر حينما أخلصوا لله عز وجل، واصطلحوا مع الله، وواجهوا جيشاً كبيراً مسلحاً مع صناديد قريش، وهم يريدون أن يلغوا الإسلام أصلاً، الله عز وجل نصرهم قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

[سورة آل عمران الآية: 123]

قال العلماء: هذا هو النصر الاستحقاقي، لكن الله تعالى قال:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم]

هذا النصر الثاني ليس استحقاقياً ولكنه نصر تفضلي، وأحياناً الطرفان المتقاتلان بعيدان عن الدين بعد الأرض عن السماء، من الذي ينتصر؟ الأقوى، الذي يملك سلاحاً متطوراً أكثر، مداه المجدي أكبر، فهناك نصر كوني لا علاقة للإيمان والكفر بهذا النصر، قضية أسلحة، قضية إعداد، قضية خطط، قضية إستراتيجية دقيقة، فهناك نصر كوني، وهذا يكون بين الطرفين البعيدين عن الله عز وجل، أما أحياناً فالله عز وجل ينصر المؤمنين لا نصراً استحقاقياً لكن نصراً تفضلياً لحكمة بالغة، وهناك نصر بالأساس استحقاقي.

من اصطلح مع الله عز وجل تولى الله حياته بالتوفيق والسداد :

لذلك أيضاً يوجد رزق عن طريق الأسباب، لكن أحياناً الإنسان بطريقة أو بأخرى يأتيه رزق وفير عن طريق التفضل.

فلذلك:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

هذا عهد، والشيء الذي يملأ القلب حسرة أن الإنسان حينما يعاهد الله عز وجل ثم يخلف عهده يصغر بعين الله، بل يسقط من عين الله، وأقول لكم هذه الكلمة: سقوط الإنسان من السماء إلى الأرض ومع هذا السقوط تنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، البطولة أن تكون عند الله مقرباً، أن تكون عند الله صادقاً، أن تكون عند الله طائعاً.

فالإنسان علاقته بالله سبب سعادته وشقائه، هناك مصطلح معاصر يقال: هذا شيء مصيري، يوجد أشياء كثيرة جداً ليست مصيرية، لكن هناك أشياء في الحياة مصيرية.

وأوضح مثل الطالب عندما ينجح من الصف السابع إلى الثامن، من الثامن إلى التاسع، من التاسع إلى العاشر، أما إذا وصل إلى الشهادة الثانوية فعلامات نجاحه تحدد مصيره في الحياة إما طبيب، أو مهندس، أو، أو، بحسب الأنظمة في بعض البلاد، حينما ينال علامات عالية جداً يدخل كلية الطب، إذاً النجاح في هذه السنة نجاح مصيري، يحدد مصير الطالب، هذا للتقريب.

وبحياة الإنسان أشياء مصيرية، فإذا استقام على أمر الله حفظه الله عز وجل:

((احفظ الله يَحْفَظْك))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس]

إذا اصطلح مع الله عز وجل تولى الله حياته بالتوفيق، والسداد.

سعادة الإنسان وسلامته ومستقبله منوط بطاعة الله عز وجل :

هذا ينقلنا إلى قضية دقيقة جداً سماها بعض المفسرين معية الله، الله عز وجل قال:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

قال العلماء: معكم بعلمه، أية حركة، أو سكنة، أو تقدم، أو تأخر، هو بعلم الله عز وجل، هو معكم بعلمه، لكن إذا قرأت القرآن فإذا بالقرآن آية:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة البقرة]

(مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة]

هذه المعية ليست معية عامة، لكنها معية خاصة، قال العلماء: معكم بالتوفيق، معكم بالنصر، معكم بالتأييد، معكم بالحفظ، والمقولة التي أرددها كثيراً: إذ كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ وأقول مرة ثانية: يا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[السيرة النبوية]

فلذلك سعادتك، وسلامتك، ومستقبلك منوط بطاعة الله، من هنا جاء قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

مقاييس الفوز عند الله عز وجل :

الحقيقة: هناك مقاييس أرضية، وهناك مقاييس سماوية، الأرضية أن تكون غنياً، الأرضية أن تكون صحيحاً، أن تكون وسيماً أحياناً، أن تكون قوياً، هذه مقاييس الفوز الأرضية، لكنك إذا بحثت عن الفوز السماوية أن تكون عند الله فائزاً، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

أذكر آية:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

يبدو من خلال هذه الآية أنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء، أنك إذا اتقيت الله وصلت إلى كل شيء، أنك إذا أحببت الله أحبك كل شيء، العلاقة مع الله علاقة أساسية في حياة الإنسان، لذلك الله عز وجل خالق السموات والأرض، يحيي ويميت، بيده مقاليد الأمور، فإذا كنت معه كان الله معك، لذلك قال بعض العارفين:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـا فـإنا منحنا بالرضا من أحبنا
ولـذ بحمانا واحتمِ بجنابنا لـنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلقى المسرة والهنا
وسلم إلينـا الأمر فيما يكن فـما القرب والإبعاد إلا بأمرنا

* * *

الناجح و الفالح :

لذلك أيها الأخوة، أنت إذا عاهدت الله وكنت عند عهدك فأنت ناجح نجاحاً حقيقياً، بل إنك فالح، والفرق دقيق جداً بين الناجح والفالح، الناجح هو الذي حقق ناجحاً في الدنيا، نجح في جمع المال، نجح في اعتلاء منصب رفيع، نجح في تربية أولاده، لكن الفالح هو الذي حقق سر وجوده، وغاية وجوده، نجح في معرفة ربه، لذلك آيات كثيرة:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة النور]

نجح في الدنيا والآخرة معاً، والنجاح محبب، والإنسان حينما ينجح يسعد بنجاحه أيما سعادة، حتى لو نجح في دراسته، أو في نيل شهادة عليا، أو في تجارته، النجاح محبب، فكيف إذا كان نجاحاً في معرفة الله؟ فكيف إذا كان نجاحاً في دخول الجنة؟ فذلك:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

وكنت أحياناً أضرب مثلاً للتقريب: إذا قال لك طفل: معي مبلغ عظيم، كم تقدر هذا المبلغ؟ عقب العيد أخذ من أقربائه بعض الهدايا النقدية، فالطفل يقول لك: معي مبلغ عظيم، قد يكون مئتي ليرة، لكن إذا قال مسؤول كبيرة في دولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، قد يكون مئتي مليار دولار.

أعظم عطاء على الإطلاق معرفة الله عز وجل :

إذا قال الله عز وجل ودققوا في هذه الآية:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

أي أعظم عطاء على الإطلاق أن تعرف الله، لذلك قال تعالى:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الكهف الآية: 46]

مال من دون بنين شيء مؤلم جداً، بنون كثر من دون مال شيء مؤلم جداً

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ)

لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْبَاقِيَاتُ)

[سورة الكهف الآية: 46]

بكلمة والباقيات عرّف المال والبنون، لأنهن زائلان،

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ)

ماذا يفهم من كلمة المال والبنون؟ شيء زائل، لذلك كل شيء ما سوى الله فهو زائل.

ملك سأل وزيره قال له: قل لي كلمة إن كنت سعيداً أحزن، وإن كنت حزيناً أفرح، قال له: كل حال يزول، لا يوجد شيء يدوم.

النفس لا تموت لكنها تذوق الموت :

لذلك المؤمن إذا جاء إلى الدنيا، وعرف الله في هذه الدنيا، واستقام على أمره، وأحسن إلى خلقه، هذه الدنيا تقوده إلى الآخرة، الآن أحياناً نستخدم الخط البياني، طريقة حديثة في التعبير عن التطورات أحياناً، فإذا كان خط المؤمن البياني صاعداً وهذا الصعود مستمر، يبقى مستمراً حتى ما بعد الموت، والموت نقطة على هذا الخط الصاعد، لكن الإنسان الذي ما عرف الله، واشتغل بدنياه، وانغمس بشهواته المحرمة، قد يكون خط بيانه صاعداً صعوداً عجيباً، لكن هناك نقطة من هذا الصعود سوف يهوي إلى أسفل سافلين، فالبطولة أن يكون الخط البياني صاعداً صعوداً مستمراً.

لذلك أيها الأخوة، الآية الكريمة تذكرنا بهذا المعنى قال:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران الآية: 185]

النفس لا تموت لكنها تذوق الموت، معنى الموت أن ينفصل الجسد عن النفس، وأن تتوقف الروح، الإنسان ذاته نفسه، النفس هي التي تؤمن.

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)

[سورة الفجر]

أو:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

[سورة القيمة]

فنفس الإنسان ذاته، ذاته نفسه، تؤمن أو تكفر، ترقى أو تسقط، تسعد أو تشقى، هذه النفس، هذه النفس ضمن جسد، هذه النفس ترى من خلال العينين، تسمع من خلال الأذنين، تتحرك من خلال الأرجل، تبطش عن طريق اليد، فهذه النفس هي الآمرة، هي الناهية، هي السعيدة، هي الشقية، هي المحاسبة، هي المكلفة، هي المؤمنة، هي الكافرة، هذه هي النفس، هناك وعاء للنفس هو الجسد، عند الموت ينفصل الجسد عن النفس، أما القوة التي تحرك هذا الجسد فأنت بالروح ترى، بالروح تسمع، بالروح تمشي، ما دام الروح بالجسد فهناك حركة، وسمع، و بصر، وإدراك، ومحاكمة، وتكلم، ونطق.

من يتحرك بلا منهج ولا مبدأ فحركته خاسرة :

الموت انفصال النفس عن الجسد، وانقطع الإمداد الإلهي عن طريق الروح، لذلك:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

معنى ذلك النفس تذوق الموت ولا تموت، لذلك الخلود إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفد عذابها، القرار خطير جداً، لذلك الله عز وجل يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة]

هذا الذي يتحرك بلا منهج، بلا مبدأ، بلا قيم، بلا هدف، حركة عشوائية أساسها مصلحته، أساسها شهواته، أساسها ولاءاته، هذه الحركة العشوائية حركة خطيرة جداً.

نموذج الإنسان قبل أن يعرف الله في القرآن الكريم :

لذلك أيها الأخوة، الشيء الدقيق أن القرآن الكريم قدم نماذج بشرية، مثلاً قال:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج]

الإنسان قبل أن يعرف الله هلوع، شديد الخوف، شديد الجزع، شديد الحرص.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج]

القرآن قدم لك نموذج الإنسان قبل أن يعرف الله:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر]

لأن مضي الزمن يستهلكه، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه فالقرآن قدم لك نماذج بشرية، مثلاً:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق]

الهدف من تقديم نماذج عن الإنسان المؤمن و الكافر و المنافق في القرآن الكريم :

قال بعض العلماء: كلمة الإنسان إذا جاءت معرفة بال تعني الإنسان قبل أن يعرف الله، فالله عز وجل قدم لك نماذج الإنسان المؤمن.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[سورة الأنفال الآية: 2]

قدم لك نماذج إنسان مؤمن، إنسان كافر، إنسان منافق، وهذا حديثنا عن المنافقين، قال العلماء: هذه النماذج التي وردت في كتاب الله عن أهل الإيمان، وعن أهل الكفر والعصيان، وعن أهل النفاق والبهتان، هذه النماذج ما هدفها؟ الحقيقة هدفها خطير جداً، أنت إذا قرأت القرآن ورأيت صفات المؤمنين تنطبق عليك، فهذه نعمة لا تعدلها نعمة، تطمئن إلى عطاء الله، تطمئن إلى عدل الله، تطمئن إلى رحمة الله، إذا قرأت آيات المؤمنين ورأيتها تنطبق عليك:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

[سورة البقرة الآية: 3]

أي آمن بالغيب، وبالآخرة، ولم يرَ الآخرة، آمن بالله عن طريق مخلوقاته،

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

الأخلاق التي يتحلى بها المؤمن إنما اشتقها من خلال اتصاله بالله تعالى :

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

[سورة البقرة الآية: 3]

جوهر هذا الدين الصلاة:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة]

من حيث العقيدة آمن بالله خالقاً، مربياً، مسيراً، آمن بأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى،

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

لا خير في دين لا صلاة فيه، انعقدت صلته بالله عز وجل، اشتق من الله عز وجل من خلال هذه الصلاة مكارم الأخلاق، صار رحيماً لأنه اتصل بالرحيم، صار عدلاً لأنه اتصل بالعدل، صار لطيفاً لأنه اتصل باللطيف، كل مكارم الأخلاق التي يتحلى بها المؤمن إنما اشتقها من خلال اتصاله بالله، والدليل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية:159]

أي بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً معهم:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران الآية:159]

إذاً القرآن قدم نماذج بشرية للبشر، وأنت إذا قرأت القرآن ينبغي أن تدقق في مدى مطابقة هذه الصفات، صفات المؤمنين عليك، فإن تطابقت فهذا خير كبير، وفضل عظيم، وإن لم تطابق فالباب مفتوح، والطريق سالك إلى الله عز وجل، باب التوبة مفتوح، فلذلك الله عز وجل وصف الإنسان أحياناً:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

لأن مضي الزمن يستهلكه،

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

الله سبحانه وتعالى قدم لنا في كتابه الكريم نماذج عن الأمم الطاغية أيضاً :

الآن فضلاً عن أن الله سبحانه وتعالى قدم لنا في كتابه الكريم نماذج بشرية، قدم لنا أيضاً نماذج عن الأمة الطاغية، فقال تعالى عن قوم عاد:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر]

معنى:

(لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

؛ أي تفوقت في شتى المجالات، وفي آية أخرى جاءت التفاصيل قال:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

[سورة الشعراء]

تفوق عمراني.

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

[سورة الشعراء]

تفوق صناعي.

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

[سورة الشعراء]

تفوق عسكري، وهناك تفوق علمي:

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

[سورة العنكبوت]

تفوق عمراني، تفوق صناعي، تفوق عسكري، تفوق علمي.

عاد مثال للأمة الطاغية الباغية التي تسخر طاقتها لاستغلال ما عند الآخرين :

ماذا فعلت عاد؟ قال:

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر]

ما قال طغوا في بلدهم، قال:

(فِي الْبِلَادِ)

أحياناً هناك دول قوية جداً، أثرها السلبي وطغيانها يعم البلاد كلها تقريباً،

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر]

التفوق العمراني، والصناعي، والعسكري، والعلمي، غطرسة:

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

[سورة فصلت الآية:15]

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

؟ غطرسة، وكأنك ترى بعض الأمم القوية في هذا العصر تنطبق عليها هذه الصفات مئة بالمئة، فالله عز وجل فضلاً عن أنه قدم نماذج بشرية للأفراد قدم نماذج للأمم والشعوب، فالأمة الطاغية الباغية، التي تسخر طاقتها لاستغلال ما عند الآخرين من ثروات، هذه الأمة جاء ذكرها في القرآن الكريم،

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

[سورة فصلت الآية:15]

هناك ملمح دقيق في هذه الآية، ما أهلك الله قوماً إلا ذكرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة إلا عاد حينما أهلكها قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ)

أي ما كان فوق عاد إلا الله، صفات دقيقة تفصيلية تنطبق على أية أمة ظالمة باغية معتدية، فالله قدم نماذج، قدم نماذج للأشخاص، وقدم نماذج للشعوب، فأنت أمام قرآن من عند خالق الأكوان، أنت أمام قرآن يقدم لك نماذج.

باب التوبة مفتوح على مصارعه ما دام القلب ينبض :

الآن الشيء الذي أتمنى أن يكون واضحاً جداً أن هذه الخصائص التي ترد في القرآن عن المؤمنين مقياس لك أيها المؤمن، هل تنطبق عليك؟ إن لم تنطبق عليك، أو إن لم ينطبق بعضها عليك، فالباب مفتوح، والإصلاح سهل، ما دام القلب ينبض كل شيء يحل، باب التوبة مفتوح على مصارعه، لذلك لما أدرك فرعون الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس الآية: 90]

فجاء الرد الإلهي:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

[سورة يونس الآية: 90]

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

الحقيقة هناك نقطة دقيقة جداً: أنت مخير بملايين الموضوعات، لكن اختيار قبول أو رفض، أردت الزواج عرضت عليها الزواج ليس دينها كما ينبغي، رفضتها، عرضوا عليك بيتاً صغيراً وسعره غال، رفضته، لك أن ترفض آلاف الأشياء هذا خيار قبول أو رفض، إلا أنك مع الإيمان لا تملك خيار قبول أو رفض، تملك خيار وقت فقط، خيار وقت إما أن تؤمن بالوقت المناسب، أو أن تؤمن بعد فوات الأوان، فلذلك الآية الكريمة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

الآية التالية لا تعني واحداً إنما تعني عدداً كبيراً ممن عاهدوا الله وأخلفوا عهدهم معه:

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة التوبة]

أحجموا عن الإنفاق، طبعاً جاءت العبارة بصيغة الجمع، هذه الآية لا تعني واحداً كثعلبة تعني عدداً كبيراً ممن عاهدوا الله، وأخلفوا عهدهم معه،

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

[سورة التوبة]

وإذا رجعتم إلى كتب السيرة ترون أن هذه الآية تنطبق على ثعلبة وعلى أشخاص كثر، هؤلاء جميعاً- عكرمة أيضاً- هناك أشخاص ورد ذكرهم في السيرة النبوية عاهدوا الله، ثم أخلفوا ما وعدوه، وكيف نستنبط هذا؟ من قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ)

ما قال: فلما آتاه، من يتوهم أن هذه الآية تنطبق على واحد فقط فهذا خطأ كبير،

(فَلَمَّا آتَاهُمْ)

يعني عدد كبير منهم كما ذكر بعض المؤرخين الذين عاهدوا الله على أن ينفقوا ثم أحجموا.

إذاً هؤلاء:

(وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

بطولة الإنسان أن يحتل مكانة رفيعة عند الله عز وجل :

مرة ثانية: لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، قد تكون فقيراً لكنك عند الله كبير، قد تكون بمنصب متواضع جداً لكنك مؤمن، مستقيم لك مكانة عند الله، قد تكون ذا دخل قليل فالحياة خشنة في بيتك لكنك عند الله كبير، لكن المشكلة أن هؤلاء الذين:

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

عظماء لكن عند الله ليسوا كذلك، فالبطولة أن تحتل مكانة عند الله، البطولة أن تكون لك عند الله مكانة رفيعة، ابتغوا الرفعة عند الله، لأن الله بيده كل شيء، بيده سعادتك، بيده رزقك، بيده أولادك، بيده زوجتك، بيده من حولك، بيده من فوقك، بيده من تحتك، بيده الأقوياء، بيده الأغنياء، بيده كل شيء، فأنت إذا عرفت الله عرفت كل شيء، وإن فاتتك معرفة الله فاتك كل شيء:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ)

كأني بإخوتي الكرام المشاهدين أدوا فريضة الحج أو العمرة عند الحجر الأسود الدعاء الذي علمنا إياه النبي:

((اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك وسنة نبيك، وعهداً على طاعتك))

[أخرجه الطبراني عن نافع]

فالإنسان إذا أدى الحج أو العمرة وقال عند الحجر الأسود: وعهداً على طاعتك، ينبغي ألا ينسى هذا العهد أبداً، وبطولته أن يكون عند عهده، فإذا عاهدته على الطاعة ينبغي أن تكون مطيعاً لكن الله عز وجل يقول مع الأسف الشديد:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

فكن أنت من إذا عاهد الله كنت عند هذا العهد:

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (54-70) : تفسير الآيات 79-82، قانون الالتفاف والانفضاض.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-05-27

بسم الله الرحمن الرحيم

البشر عند الله مؤمن وكافر ومنافق :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية التاسعة والسبعين وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة، كما تعلمون لا زلنا في سياق الآيات التي تتحدث عن المنافقين، وقد بينت لكم في لقاء سابق أن البشر عند الله مؤمن وكافر، وهناك صنف ثالث أراد أن يجمع بين تفلت الكفار وبين مكاسب المؤمنين، فأظهر الإيمان وأخفى الكفر والنفاق، فكان عند الله منافقاً، هؤلاء يلمزون أي يعيبون، ينتقدون بإشارة، بنظرة، بحركة، بعبارة، يلمزون أي ينتقدون، أو يسخرون.

والحقيقة أن المؤمن متأدب جداً مع الله، ومتأدب مع خلقه، أما كلما رأيت شيئاً لا يروق لك، تلقي على إنسان لوماً، أو تحقره، أو تزدريه، فهذه الصفات لا تليق بالمؤمن أصلاً، المؤمن ليس عياباً، ولا فحاشاً، ولا بذيئاً، المؤمن يؤلف ولا يباعد، يقرب ولا يباعد، يؤلف ولا يشمت، فصفات المؤمن صفات راقية من أين جاءته؟ من اتصاله بالله عز وجل.

قانون الالتفاف والانفضاض :

ودائماً وأبداً أقول وربما كان هذا القول مناسباً لهذه الآية:

(فَبِمَا)

الباء باء السبب.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد من خلال اتصالك بنا لنت لهم، فلما لنت لهم أحبوك، فالتفوا حولك.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

لو كان الإنسان منقطعاً عن الله عز وجل يمتلئ قلبه قسوة، والقسوة تنعكس على علاقاته مع الآخرين غلظة وفظاظة، عندئذٍ ينفض الناس من حوله، لك أن تقول أن هذه الآية تتحدث عن قانون الالتفاف والانفضاض، تتصل بالله يمتلئ القلب رحمة، تنعكس الرحمة ليناً، هذا اللين يدعو من حولك إلى أن يلتفوا حولك، أنت بين أحباب، بين مؤيدين، بين أنصار، بين محبين، فإذا كان القلب منقطعاً عن الله يمتلئ قسوة، وهذه القسوة تترجم في علاقته مع الآخرين غلظة وفظاظة، عندئذٍ ينفض الناس من حولك، فلك أن تقول: هذه الآية بالتعبير المعاصر تشير إلى قانون إلهي شامل وقاطع هو قانون الالتفاف والانفضاض.

المنافق يباعد ولا يؤلف بينما المؤمن يؤلف ولا يباعد :

دائماً المنافق ينتقد، يصغر، يحاول أن يحشر أنفه بشيء لا يعنيه، المنافق يصغر ما عند الناس، المنافق يفرق ولا يجمع، يباعد ولا يؤلف، بينما المؤمن يؤلف ولا يباعد، يجمع ولا يفرق، كما قال النبي:

((من فرق فليس منا))

[أخرجه الطبراني عن معقل بن يسار]

ذهبت إلى بيت أختك، البيت صغير، تنتقد هذا البيت، هذا ليس بإمكانه أن يشتري أكبر، هذا دخله محدود، اشترى هذا البيت الصغير، فلا معنى إطلاقاً أن تنتقد هذا البيت، أو ماذا أعطاك على العيد مثلاً؟ ما أعطاها شيئاً، دخله محدود، فدائماً المؤمن لا يفرق بين الأحبة، لذلك ورد:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ والمتحابون في جلالي على منابر من نور، يربطهم عليها النبيون يوم القيامة))

[أخرجه مالك عن معاذ بن جبل]

بشكل أو بآخر المؤمن لا ينتقد، المؤمن يحسن الحسد، كان عليه الصلاة والسلام يحسن الحسد، لك صديق بيته صغير، لا يوجد مانع، مأوى، الدنيا مؤقتة، أنت حينما تنقل اهتماماتك إلى الآخرة، أقول لك هذه الكلمة: لا بد من أن تنعكس مقاييسك، مقياسك صار قرآنياً:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

الموت ينهي كل شيء :

المؤمن مستقيم، بوضع فقير، بوضع غني، بيته كبير، صغير، مركزه مرموق، غير مرموق، مادام قد آمن بالله واتصل به، وتخلق بأخلاق هذا الدين، وأحسن إلى خلق الله، هو فائز والفوز عظيم لأن الدنيا محدودة.

الموت أيها الأخوة ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي وسامة الوسيم، ينهي دمامة الدميم، الموت ينهي كل شيء، والدنيا ساعة اجعلها طاعة، لذلك ورد:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

أخواننا الكرام، هناك شيء دقيق جداً، أنت إذا آثرت آخرتك على دنياك وفقت فيهما معاً، أما إذا آثرت الدنيا على الآخرة فخسرت الدنيا والآخرة.

أيها الأخوة، هؤلاء المنافقون الذين نحن بصدد الحديث عنهم في هذه السورة، سورة التوبة لهم صفات كثيرة، من هذه الصفات أنهم يلمزون، ينتقدون إما بالعبارة، أو بالإشارة، أو بحركة باليد، أو بغمز في العين، أي بطرق شتى.

من هو المتطوع؟

(يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

من هو المتطوع؟ هو الذي أدى الفرض وزاد على الفرض تطوعاً، صلى الصلوات الخمسة، وصلى صلوات نافلة، صام رمضان، وصام الاثنين والخميس، دفع زكاة ماله، ودفع صدقة فوق زكاة ماله، الله عز وجل جعل الحد الأدنى هي الفرائض، لكن بعد الفرائض هناك نوافل، لذلك ورد:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

للتقريب الفرائض كالضريبة التي تفرضها الدولة على المواطنين، أما حينما تتبرع ببناء ليكون جامعة، يقام لك حفل تكريمي، فهذا تطوع، والإنسان في الحقيقة يزداد قرباً من الله عز وجل بالتطوع، لذلك:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

الفرائض يجب أن تؤدى شئت أم أبيت، هي الحد الأدنى من العبادة.

محاسبة الإنسان على المديح الكاذب :أما النوافل:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

ما معنى كنت سمعه؟ أي أن هذا المؤمن أي شيء يستمع إليه من خلال مبادئ وقيم فلو فرضنا أنه استمع إلى إنسان باحتيال بالغ حصّل ثروة طائلة، لا تقل هنيئاً له، فإذا قلت هنيئاً له شاركته في الإثم.

((من شهد معصية فأنكرها، كمن غاب عنها، ومن غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها))

[أخرجه أبو داود عن عُرس بن عميرة الكندي]

إنسان مثلاً ارتكب عملاً غير أسلامي، غير صحيح بأميركا، وقلت أنت في مجلسك والله شاطر، جمع ثروة طائلة وعاش في بحبوحة، هل تدري أنك شاركته بالإثم؟ قضية أن تؤيد عملاً خلاف الشرع هذه شيء خطير جداً، الذي حولك أوقعتهم في مشكلة، لذلك ورد في بعض الآثار:

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[ورد في الأثر]

إنسان يرتكب المعاصي جهاراً نهاراً، وزار بيتك، وأنت أثنيت عليه ثناء كبيراً أمام أولادك، ما الذي حصل؟ أوقعت أولادك في مشكلة كبيرة، يرون معاصيه وآثامه، والأب مدحه.

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[ورد في الأثر]

إن لم يكن من المناسب أن ينتقد فليسكت، أنت لا تحاسب على النقد إن لم تنتقد، تحاسب على المديح الكاذب.

ما كل ذكي بعاقل :

لذلك أيها الأخوة، النقطة الدقيقة أن المتطوعين هؤلاء المؤمنون، قد يكونوا فقراء فصاموا صيام نفل، قد يكونوا فقراء فجاهدوا مع رسول الله، قد يكونوا فقراء فجمعوا أموال الزكاة حسبة لله عز وجل، فهؤلاء الذين ابتعدوا عن الدين، وأرادوا أن يجمعوا بين تفلت الكفار وبين مكاسب المؤمنين هم المنافقون، هؤلاء همهم النقد، بل إني أسميهم أحياناً القناصين، قناص، أي خطأ رآه يبالغ به، ويعرض عضلاته أمامك حيال هذا الخطأ، فالله عز وجل انتقدهم في هذه الآية:

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ)

المتطوعين المؤمنين الذين أرادوا التقرب إلى الله بنوافل العبادات، صام صيام نفل، وصلى صلاة نافلة، ودفع فوق زكاة ماله مالاً، وفعل أي شيء يتقرب به إلى الله عز وجل، لذلك:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

هؤلاء المتطوعين:

((...حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

الآن أي شيء يستمع إليه يعرضه على الكتاب والسنة، فإن وافقه قبله، وإن خالفه رفضه، أو ركله بقدمه، عندك منهج، أنت ممكن أن تقر إنساناً احتال وجمع مالاً طائلاً وتعتبره ذكياً أو عاقلاً؟ لذلك قالوا: ما كل ذكي بعاقل، قد يحمل الإنسان أعلى شهادة في العالم، الفيزياء النووية، فإن لم يعرف ربه، ولم يستقم على أمره، ولم يعمل لآخرته، فهو ليس بعاقل، نقول: هو ذكي جداً، لكن ليس بعاقل، المقولة دقيقة: ما كل ذكي بعاقل، العقل متعلق بالأشياء الكبيرة جداً، بسر مجيئك إلى الدنيا، ما عرفت ماذا بعد الموت؟ ما فكرت ما الذي يسعدك؟ ما بحثت؟ فالذي لا يبحث عن سر وجوده، وعن غاية وجوده، وعما ينبغي أن يفعله في الدنيا، يكون غير عاقل وما كل ذكي بعاقل، لأن الحياة محدودة جداً.

تعريفٌ بالأبد :

الله عز وجل خلقك للأبد، ما الأبد؟ والله أيها الأخوة لا أملك طريقة لنقلها لكم، أو لاتخاذها سبباً لتوضيح هذه الفكرة، إلا للتقريب: واحد أمامه ثلاثة أصفار ألف، ثلاثة أخر مليون، ثلاثة ثالثة ألف مليون، ثلاثة رابعة مليون مليون، ثلاثة خامسة ألف مليون مليون، ثلاثة سادسة مليون مليون مليون، من هنا إلى الشمس أصفاراً، تصور واحداً في الأرض وأصفاراً إلى الشمس، المسافة بين الأرض و الشمس مئة و ستة و خمسون مليون كيلو متر، وكل ميلي صفر، هذا الرقم إذا نسب إلى اللانهاية صفر، أكبر رقم تتصوره إذا نسب إلى اللانهاية صفر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

اذهب إلى مدينة ساحلية، على البحر المتوسط، وأمسك بإبرة واغمسها في مياه البحر وانظر بكم حملت من ماء البحر:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

لذلك:

((يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّما، فلا تَظالموا، يا عبادي كُلُّكم عار إلا مَنْ كَسوْتُه، كُلُّكم جائع إلا مَنْ أطعمتُهُ، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أتْقى قلب رجل

واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم ، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ، ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

المنافقون يصغرون المؤمنين و أعمالهم :

إذاً أيها الأخوة، هؤلاء المتطوعون الذين يقومون بالنوافل، بنوافل العبادات، يصلي صلوات نافلة، يصوم الاثنين والخميس مثلاً، يدفع زكاة ماله، وفوق زكاة ماله صدقات، فهذا المتطوع الذي يقوم بعبادات تزيد عن الفرائض، هذا المتطوع يرى نقداً حاداً من المنافقين، والحديث عن المنافقين:

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ)

واللمز والغمز نوع من الانتقاد، انتقاد مرة باللسان، مرة بالعين، مرة بعلائم الوجه- بحركات الوجه- مرة بالإشارة، مرة بالعبارة، مرة بالموقف، مرة بالابتسامة الساخرة، هذه هو اللمز والغمز، هؤلاء المنافقون يصغرون المؤمنين، يصغرون أعمالهم، لذلك ابتغوا الرفعة عند الله،

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ)

مؤمن فقير جداً، لا يملك أن يفعل أعمالاً كبيرة، فجمع أموال الزكاة خدمة لهذا الدين، هذا ينتقده المنافق

(يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ)

أي الله عز وجل يريد قلبك أن يكون محباً له، فأي عمل منك يقبله منك، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، إنسان لا يملك إلا جهداً قليلاً، بذله في سبيل الله، لا يملك مالاً عريضاً، فالله عز وجل يقبله منه.

حجم العمل بحجم نيته :

على كلٍّ العبرة لا أن يكون حجم المال كبيراً، أن يكون حجم الإيمان كبيراً، هؤلاء المؤمنون الفقراء الذين لا يملكون مالاً كثيراً ليدفعوه، لكنهم جمعوا أموال الصدقات خدمة لهذا الدين،

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ)

لذلك: رب درهم سبق ألف درهم.

درهم تنفقه في إخلاص يسبق مئة ألف درهم أنفق في رياء، فالعمل لا يقيّم بحجمه يقيّم بالنوايا التي وراءه، من هنا قال النبي الكريم في الحديث الصحيح المتواتر:

((إنما الأعمال بالنيات))

[البخاري عن عمر بن الخطاب]

أي حجم العمل بحجم نيته، لذلك الذي أتمنى أن يكون واضحاً للأخوة المشاهدين أن الأعمال لا تقبل بل لا تقطف ثمارها إلا إذا كانت خالصة وعلى صواب، على صواب وفق السنة.

يقول لك مثلاً: إن حفلة غنائية كبيرة جداً، يرصد بيعها للأيتام، نحن نريد عملاً خالصاً وصواباً، صواباً وفق السنة، وخالصاً ما ابتغي به وجه الله، فالعمل الذي يقبله الله عز وجل هو العمل الذي ينطلق من منهج رسول الله، وينطوي على نية خالصة، فالإنسان الفقير الذي لا يجد إلا جهده،

(لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

غير المؤمن المنافق، عياب، قناص، كثير النقد، يبحث عن نقاط الضعف في الطرف الآخر، يبرز هذه النقاط، يسخر منه، يصغره، هذا كله يتناقض مع أخلاق المؤمنين.

من فسق خرج من حدود الله عز وجل :

لذلك يقول الله عز وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام:

(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

هذه الآية تذكرني بآية أخرى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

[سورة التوبة الآية: 54]

إذاً هم يصلون، أما هم عند الله فكفار، هذا الذي جعل العلماء يقولون: هناك كفر دون كفر، إن آمنت بالله خالقاً، ولم تقتنع بهذا الدين، ما أديت زكاة مالك، فعدم أداء زكاة المال نوع من الكفر بالزكاة، لم تصلِّ، عدم أدائك للصلوات نوع من الكفر بالصلاة، فقالوا: هناك كفر دون كفر

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

الآية التي تشابهها:

(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

هؤلاء المنافقون يصلون مع رسول الله،

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

هم فكفروا لأنهم فسقوا، فسقت التمرة أخرجتها من قشرتها، فكأن القشرة حد، القشرة وعاء، القشرة حدود، فالذي فسق خرج من حدود الله عز وجل.

بطولة الإنسان أن يترك هامش أمان بينه و بين المعصية :

بالمناسبة أخواننا الكرام، أنا أحب أن أبين لكم أنت أحياناً يجب أن تدع هامش أمان بينك وبين المعصية، هذا يؤكده قوله تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ)

[سورة الأنعام الآية:151]

لا تقترب منها، اجعل بينك وبينها هامش أمان، أوضح مثل: تيار كهربائي عشرة آلاف فولت، هذا يجب أن تبتعد عنه ثمانية أمتار، لأن هذا التيار حوله مسافة تجذب من دخل فيها فيحترق، فلا بد من حاجز، هامش أمان بينك وبين المعصية، مثلاً: الاختلاط قد يكون سبيلاً إلى الفاحشة، الاختلاط، إطلاق البصر سبيل آخر، صحبة الأراذل سبيل ثالث، فالفاحشة التي نهى الله عنها هذه الفاحشة لها أسباب، فإذا دخلت إلى أسبابها ربما قادتك هذه الأسباب إلى الفاحشة، لذلك من هو الشريف؟ الذي يهرب من أسباب الخطيئة لا من الخطيئة نفسها، وقد تكون الخطيئة بوضع معين، قد تقع فيها دون أن تتملك البعد عنها، فالبطولة أن تدع هامش أمان بينك وبينها، هذا أنا أفسره بنهر عميق جداً، والذي يمشي على شاطئه لا يتقن السباحة، هذا النهر له شاطئان، شاطئ مائل زلق، وشاطئ مستو جاف، فإذا مشى على الشاطئ المستوي الجاف فهو في أمان من أن يسقط، أما إذا مشى على الشاطئ المائل الزلق فاحتمال كبير أن يسقط الإنسان في الماء ويموت.

لذلك أبق بينك وبين المعاصي هامش أمان، هذا معنى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

[سورة الإسراء الآية: 32]

فالاختلاط، وإطلاق البصر، ومتابعة الأفلام الإباحية، هذا كله أحياناً ينقل إلى الزنا، فالمؤمن الصادق يدع مسافة بينه وبين المعصية حتى لا يقع فيها.

المنافق يريد من الدين المكاسب والأشياء الممتعة :

الآية الكريمة:

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * اسْتَغْفِرْ لَهُمْ)

يا محمد أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)

لن تفيد التأبيد

(فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

هذا كفر دون كفر، أي كفر بالله، ما طبق منهجه كأنه ما رأى أن هذا المنهج صالح له،

(كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

لكن أحياناً المنافق هناك أشياء بالدين يحبها، يحب احتفالاً، يحب رحلة مع المؤمنين، الأشياء الممتعة له يحبها ويريد من الدين المكاسب، يريد من الدين الأشياء الممتعة، فهناك منافقون كثر الأشياء التي تريح يقبل عليها، ذلك:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

[سورة التوبة]

يجلسون مع النبي في المسجد، ولهم مكانة وشأن، يكون غنياً هذا يحب الإسلام الفلكلوري، إسلام فيه احتفالات، فيه رحلات، فيه وجاهات، فيه إلقاء كلمات، فيه تعظيم، فيه مدح له، لكن لا يحب إسلام الجهاد، الإسلام الذي فيه بذل، تضحية، غض بصر، ضبط نفس، هذا لا يحبه، يحب إسلاماً فلكلورياً، إسلام مهرجانات، إسلام احتفالات، إسلام كلمات رائعة، إسلام مديح، إسلام طرب أحياناً، هذا الإسلام لا يقدم ولا يؤخر.

البعيد عن الدين هو من ينتقي من الدين ما يعجبه :

لذلك:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ)

هم قعدوا في مجلسه لكنهم خلافه، بمعنى هو في الجهاد هم في المدينة، في البستان، مع الماء الوفير، هو في الجهاد يقتل أعداء الدين وهم في بيوتهم مع نسائهم، فلذلك الإنسان يجب أن يأخذ الدين كله، لا أن ينتقي منه، هذا الذي ينتقي من الدين ما يعجبه ليس مؤمناً بالتعبير الصحيح.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ)

هم فعلوا شيئاً خلاف ما فعل، هو في تبوك، في الجهاد، هم في المدينة قدموا أعذارهم ليتخلفوا عن الجهاد، هم يريدون الراحة، المتعة، الطعام، الشراب، الظل الظليل، الماء الوفير، لا يحبون بذل الجهد الكبير، فذلك هذا الذي ينتقي من الدين ما يعجبه هذا إنسان بعيد عن أن يكون حقيقة متديناً.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هناك أشياء في الدين مريحة، وممتعة، يقول: حضرنا احتفالاً، والله ألقيت كلمات رائعة، دعينا إلى طعام، والله كان هناك تجلياً، لكن أنت في البذل الحقيقي لا تبذل شيئاً تأخذ الميزات، تأخذ النواحي الإيجابية، تأخذ النواحي المريحة.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

مرة رجل قدم مبلغاً لجامع، بشرط أن يكتب على قطعة رخام كبيرة أن هذه المئذنة كانت عن طريق المحسن الكبير الفلان الفلاني، يريد هذه العبارة أن تكون على المئذنة، أما أن يتعامل مع الله تعامل إخلاص فليس هذا داخلاً في حساباته.

(وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

هذه الدنيا تنتهي، تنتهي إلى الموت، والموت في قبر، مهما كنت متمتعاً في الدنيا المتعة تنتهي، لذلك العبارة الدقيقة أكثر النعوات: سيشيع إلى مثواه الأخير، مهما اعتنيت في البيت الذي أنت فيه هناك مثوى أخير هذا القبر، هذا القبر قد يكون روضة من رياض الجنة، إذا كان العمل طيباً، وقد يكون حفرة من حفر النيران:

(وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

العبرة في خواتيم الأعمال :

الآن دققوا:

(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة التوبة]

أي قد تضحك أولاً قليلاً، وتبكي بعد هذا الضحك كثيراً، وقد تبكي قليلاً، وبعدها تضحك كثيراً، فالعبرة في النهايات، العبرة في خواتيم الأعمال، للتقريب: معظم الأشخاص في سن الشباب متشابهون، جسمه صحيح، وقوي، يأكل ما يشاء، حركته سريعة، يصعد الدرج بسرعة، هذا النشاط الذي يتوافر في الشباب شيء قاسم مشترك بينهم جميعاً، لكن هذا الذي أمضى حياته في طاعة الله، له خريف عمر رائع جداً.

كان بالشام عالم كبير، هذا العالم بدأ التعليم بالثامنة عشرة من عمره، ومات بالثامنة والتسعين، تقريباً درس ثمانين عاماً، وله مدرسة عريقة جداً، وكل كبار أهل البلد خرجوا من هذه المدرسة، هذا وصل للثامنة والتسعين، وكان منتصب القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه، وذاكرته قوية، من حوله يعجبون لهذه الصحة، وهذا القوام، وهذه الذاكرة، وهذه الحواس المرهفة، يقال له: يا سيدي ما هذه الحواس التي أكرمك الله بها؟ قال: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر من عاش تقياً عاش قوياً.

إذاً البطولة أن يكون الضحك آخراً، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، هناك بداية محرقة لكن بعدها نهاية مشرقة، فالبطولة أن تطيع الله في بدايات الحياة حتى إذا وصلت إلى خريف الحياة كنت في نهاية مشرقة.

حجم الإنسان عند ربه بحجم عمله الصالح :

الذي أتمناه للإخوة المشاهدين أن تبحث عن الحقيقة في الوقت المناسب، وأن تلتزم بها وعندئذٍ لك عند الله مستقبل كبير، والدليل الآية الكريمة:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة الآية: 51]

فأجمل شيء بحياة المؤمن أن يطمئنه، يطمئنه للمستقبل،

(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

أي أنت لك عمل حجمك عند الله بحجم عملك، الآن عملك من أين يأتي؟ من معرفتك بالله، من إيمانك به، من إيمانك بالدار الآخرة، أنت حينما تؤمن بالدار الآخرة تنعكس مقاييسك انعكاساً كبيراً.

مرة سيدنا عمر أمسك تفاحة قال: أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت.

النبي الكريم مرة ذبح شاة ووزع لحمها، فالسيدة عائشة قالت له: يا رسول الله، لم يبقَ إلا كفتها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: بل بقيت كلها إلا كتفها، الذي أنفق هو الذي بقي، بل بقيت كلها إلا كتفها.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

أخواننا الكرام العبرة أن هذه الحياة الدنيا هي معبر للآخرة، فمن عرف حقيقة الحياة الدنيا كما ورد:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

لا تستقيم لإنسان، قد تمنح المال لا تمنح الأولاد، قد تمنح الأولاد لكن لا يوجد مال، قد يكون لك أولاد ومال لكن لا يوجد صحة، هناك صحة لكن لا يوجد راحة بال.

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

أيها الأخوة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع جميعاً من هذه الحقائق التي وردت في هذه السورة، هذه الحقائق لصالح المؤمن فإذا عرف الحقيقة في الوقت المناسب ينتفع بها، أما فرعون نفسه فعرف الحقيقة لكن بعد فوات الأوان حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس الآية: 90]

فقيل له:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

[سورة يونس الآية: 91]

فخيارك مع الإيمان خيار وقت، إما أن تؤمن في الوقت المناسب أو لا بد من أن تؤمن ولكن بعد فوات الأوان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (55-70) : تفسير الآيات 83-85، عقاب الله للمنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-06-03

بسم الله الرحمن الرحيم

تمتع اللغة العربية في شتى بقاع الأرض بخصائص كبيرة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والثمانين وهي قوله تعالى:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل يقول:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً)

[سورة يوسف الآية: 2]

ولأن هذه اللغة اختارها الله لتكون لغة وحيه لذلك تتمتع لا في رأي علماء المسلمين بل في رأي علماء اللغة في شتى بقاع الأرض بخصائص كبيرة، من هذه الخصائص قضية التصرف.

على كلٍّ لهذا الموضوع بحث طويل لكن نكتفي من هذا الموضوع في قوله تعالى:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ)

هناك آية أخرى عن سيدنا موسى أنه:

(رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً)

[سورة الأعراف الآية: 150]

هناك رجعناك، وهناك رجع، ما الفرق بينهما؟ هذا الفعل يأتي فعلاً لازماً، وفعلاً متعدياً، والحقيقة أن الكلمة في اللغة العربية اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما دل على شيء، إنسان حيوان، نبات، جماد، الاسم ما دل على شيء، والفعل ما دلّ على حدث، الفعل يحتاج إلى فاعل ويحتاج إلى مفعول، لكن أحياناً يأتي الفعل مكتفياً بفاعله، نقول: هذا فعل لازم يكتفي بفاعله، كأن تقول: حضر فلان، أو نام فلان، أو غضب فلان، لكن أحياناً الفعل يحتاج إلى مفعول به تقول: أكل الطفل التفاحة، فالتفاحة مفعول به وقع عليه فعل الفاعل.

إلا أن الأفعال من بعضها يكون تارةً لازماً ويكون تارةً متعدياً، وهذا الفعل الذي تبدأ به الآية من هذا النوع.

النبي الكريم معصوم من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره :

الله عز وجل في آيات أخرى يصف سيدنا موسى:

(رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً)

أما هنا الآية الكريمة:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ)

فالكاف ضمير متصل في محل مفعول به

(رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ)

فعل لازم، اكتفى بفاعله، أما

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ)

ففعل متعد والمفعول به هو الكاف، إما أن يكون الفعل لازماً فيكتفي بفاعله، أو أن يكون فعلاً متعدياً فيحتاج إلى مفعول به، وقع عليه فعل الفاعل.

لكن ما الحكمة أن يكون الرجوع لازماً أو متعدياً؟ سيدنا موسى اتخذ قراراً ذاتياً

(رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ)

لكن الآية الكريمة

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ)

حركات النبي صلى الله عليه وسلم بفعل الله عز وجل، كل حركاته، وسكناته، وأقواله، وأفعاله، ومواقفه، وإقراره، هذه سنة، هذا منهج، هذا تشريع، لذلك إذا قلت سنة النبي تعني أقواله، وتعني أفعاله، وتعني إقراره، وتعني مواقفه، وتعني صفاته، هذه سنة النبي.

والنبي عليه الصلاة والسلام بالمناسبة معصوم، عصمه الله من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، لذلك أمرنا أن نأخذ عنه، فقال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر الآية: 7]

إذاً عودة سريعة إلى بعض مصطلحات اللغة، الكلمة في اللغة تكون اسماً، أو فعلاً، أو حرفاً، الاسم ما دلّ على شيء، إنسان، حيوان، نبات، جماد، الفعل ما دلّ على حدث، حدث وقوع شيء، أكل، شرب،

خرج، حضر، أتى، كسر، ضرب، قتل، الفعل ما دلّ على حدث، هذا الفعل إن وقع في الماضي فهو فعل ماض، إن وقع الآن أو في المستقبل فهو فعل مضارع.

القرار إن كان من ذات الإنسان واستخدمنا كلمة رجع معنى هذا أنه قرار داخلي :

الآن الكلمة:

(فَإِنْ رَجَعَكَ)

فالكاف ضمير متصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به، هنا الفعل متعد، فلما

(رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ)

هذا فعل لازم، فالقرار إن كان من ذات الإنسان واستخدمنا كلمة رجع معناه قرار داخلي، أما إذا كان لفعل متعدٍّ كقوله تعالى:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ)

فهذا فعل متعد بمعنى أنه يحتاج إلى مفعول به، والكاف كاف الخطاب ضمير متصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به.

إذاً الله أرجعه، هذا يفهم منه أن النبي صلى الله عليه وسلم حركاته، وسكناته، وأقواله، وأفعاله، وإقراره تشريع، لأن الله عصمه، فلما عصمه أمرنا أن نأخذ عنه كل شيء.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

الفرق بين مقام الألوهية و مقام البشرية :

لكن قد يسأل سائل: لعل الله عز وجل لحكمة بالغة بالغةٍ ترك له هامشًا اجتهادياً ضيقاً جداً، فالنبي الكريم إذا جاء اجتهاده وفق ما ينبغي أقره الوحي على اجتهاده، فإن فرضاً جاء اجتهاده بخلاف ما ينبغي فالوحي يصحح له، لماذا هذا؟ لماذا ترك الله لنبيه المعصوم هامشاً اجتهادياً ضيقاً؟ إن اجتهد النبي الكريم وأصاب في اجتهاده أقره الوحي على ذلك وانتهى الأمر، لكن فرضاً إن جاء اجتهاده بخلاف ما ينبغي لأنه بشر فيأتي الوحي ويصحح له لماذا؟:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 43]

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

[سورة عبس]

فإذا جاء اجتهاد النبي بخلاف ما ينبغي فيأتي الوحي ويصحح له، لماذا؟ السؤال الآن لماذا ترك الله عز وجل للنبي هامشاً اجتهادياً؟ ليكون هناك فرقاً بين مقام الألوهية، ومقام البشرية النبي بشر:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

[سورة الكهف الآية: 110]

لئلا يؤله فيما بعد.

((اللهم إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك]

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر :

لكن ملاحظة أخرى ودقيقة: لأن الأنبياء بشر، ولأنه تجري عليهم كل خصائص البشر، كانوا سادة البشر، هو يشتهي كما نشتهي، ويتألم كما نتألم، ويغضب كما نغضب، ويرضى كما نرضى، لأنه بشر، ولأنه تجري عليه كل خصائص البشر كان سيد البشر، لأنه انتصر على بشريته.

والنبي الكريم هناك من يقول- وهذه شطحة فيما أعتقد - إن الكون خُلق من أجل محمد، أنا أقول البشر خلقوا ليكونوا على شاكلة محمد، هو قدوة هم.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

[سورة الأحزاب الآية: 21]

المبادئ والقيم إذا أخذت من بطون الكتب تنتهي إلى الكتب :

الأخلاق، والمبادئ، والقيم، إن كانت في بطون الكتب لا يتأثر بها، يتأثر بها إذا رأى إنساناً أمامه يتمثل به، لذلك قالوا: الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، الذي يؤثر في الناس أن يروا الآن مسلماً صادقاً، مسلماً أميناً، مسلماً مخلصاً، مسلماً ورعاً، هذه القيم الأخلاقية ينبغي أن تكون متمثلة في إنسان، تراه بعينيك، ترى خطواته، ترى أخلاقه، ترى عطاءه، ترى ورعه، ترى حلمه، ترى رحمته، ترى قربه من الله، فلذلك المبادئ والقيم إذا أُخذت من بطون الكتب تنتهي إلى الكتب، أما إذا أُخذت من واقع الحياة فتؤثر في الحياة.

لذلك النبي الواحد أهدى للبشرية شيئاً أفضل من آلاف الكتّاب، لماذا؟ لأن الناس رأوا فيه صدقاً، ما رأوا مسافة بين أقواله وأفعاله، ما رأوا تناقضاً بين واقعه وبين مآله.

لذلك أيها الأخوة، قضية القدوة شيء مهم جداً، والشيء بالشيء يذكر، إن أردت أن تكون داعية ينبغي أن تكون قدوة قبل أن تنطق، القدوة قبل الدعوة، إن أردت أن تكون داعية ينبغي أن تكون محسناً، ينبغي أن تفتح قلوب من حولك بإحسانك ليفتحوا لك عقلهم لبيانك، افتح قلبهم بإحسانك فيفتحوا لك عقلهم لبيانك.

المؤمن ما لم يبذل من وقته و جهده و ماله لن يصل إلى الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، الآية الكريمة:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ)

كأن النبي الكريم ذهب إلى الجهاد، وفي المدينة من تخلف عنه، هناك من تخلف عنه لضعفه، أو لمرضه، أو لفقره، أو لأنه لم يجد ما يحمل نفسه عليه، هؤلاء ليسوا معنيين بهذه الآية، لكن الأقوياء والأغنياء الذين تخلفوا عنه هم من تعينهم هذه الآية، لذلك دقة القرآن عجيبة قال:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ)

لم يقل إليهم، قال:

(إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ)

إلى هؤلاء الأقوياء، إلى هؤلاء الأغنياء الذين تخلفوا عنه وخالفوا منهجه، ولم يبذلوا، الحقيقة المؤمن ما لم يبذل من وقته، من ماله، من جاهه، من صحته، من أي شيء يملكه، لن يصل إلى الله عز وجل.

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران الآية:92]

فيبدو أن معركة مؤتة في الصيف، والحر لا يحتمل، والمسافة طويلة، ولكن بعدت عليهم الشقة، والخطر كبير سيواجهون الروم، وما أدراك ما الروم، فالعدو شرس، وقوي جداً، والمسافة طويلة جداً، والحر لا يحتمل، فهؤلاء ضعاف الإيمان تخلفوا عن رسول الله، هؤلاء المعنيون بهذه الآيات، أما الفقير الذي لم يجد ما تحمله عليه، وتولى وأعينه تفيض من الدمع حزناً لأنه لم يكسب شرف مشاركة النبي في الجهاد، هؤلاء المرضى، الضعاف، الفقراء، الصغار، الكبار، فليسوا معنيين بهذه الآية.

المنافق تحركه الغنائم و ليست طاعة الله عز وجل :

لذلك قال تعالى:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ)

هؤلاء المنافقون، والحديث في هذه الآيات من سورة التوبة عن المنافقين، هذا الذي يجد ويبخل، هذا الذي لا يحب أن يساهم، هذا الذي أراد أن يكون مرتاحاً في الدنيا سوف يعاني ما يعاني يوم القيامة.

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ)

طبعاً هذا نبي الله، والله عز وجل يؤيده بنصره، فحينما توجه النبي مع أصحابه المخلصين، الصادقين إلى ساحات الوغى، وعادوا بالغنائم، المنافقون رأوا الغنائم، مكاسب كبيرة، لذلك تمنوا أن يكونوا معهم، مادام هناك غنائم، ما الذي يحرك البعيد عن الله عز وجل؟ تحركه المادة، مادام هناك مكاسب مادية، مادام هناك أموال يشارك، لذلك النبي الكريم حينما ذهب إلى الجهاد ومعه أصحابه الصادقين، المخلصين، وعادوا بالغنائم، تمنى المنافقون أن يكونوا معهم، قال:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ)

المعركة القادمة استأذنوه بالخروج، ما الذي حركهم؟ ليس طاعة الله، لم تحركهم طاعة الله، بل حركتهم المغانم، والغنائم والمكاسب المادية،

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً)

سبحان الله! لعله أكبر عقاب من الله لهؤلاء المنافقين أنهم محيت أسماؤهم من قائمة المجاهدين، والحديث:

((من لم يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمه من النفاق، والجهاد ذروة سنام الإسلام))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

أنواع الجهاد :

1 - جهاد النفس و الهوى :

والجهاد الحقيقي بالتعبيرات الدقيقة مراحله عديدة، هناك جهاد النفس والهوى فأنت حينما تحمل نفسك على طاعة الله، فهذا جهاد، هذا من جهاد النفس والهوى، وأنت حينما تمتنع عن كل معصية ومخالفة هذا من الجهاد، وحينما تبذل المال من أجل طاعة الله هذا جهاد، حينما تبذل الوقت، الجهد، المكانة، كل شيء تقدمه، وكل شيء تمتنع عنه هذا من الجهاد، وهذا الجهاد أصل كل جهاد هذا جهاد النفس

والهوى، والمسلمون يتوهمون أحياناً أنه إذا ذكرت كلمة الجهاد تقفز إلى أذهانهم كلمة القتال، هناك أنواع من الجهاد غير القتال، والدليل جاهد تشاهد كما قالوا.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)

[سورة العنكبوت الآية: 69]

أي جاهدوا أنفسهم، حملوها على طاعة الله، أبعدوها عن معصية الله، حملوها على البذل والعطاء، جاهدوا بأموالهم وبأنفسهم، فهذا الجهاد فرض في الإسلام، بل هو فرض عين أحياناً.

أيها الأخوة الكرام،

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً)

وهذه خسارة لا تعدلها خسارة، أن الله سبحانه وتعالى حذف أسماءهم من قائمة المجاهدين، بل منعهم أن يجاهدوا مع رسول الله، وقد حرموا هذا الفضل الكبير، والإنسان في الدنيا حجمه بحجم عمله الصالح فقط، جئت إلى الدنيا كي تعمل عملاً صالحاً يكون ثمناً لدخول الجنة، فالذي حُرم من الجهاد، وكما قلت قبل قليل: هناك جهاد النفس والهوى، وهو أصل كل جهاد، كيف أن التعليم الأساسي هو أساس التعليم، ثم التعليم الثانوي، ثم التعليم الجامعي، ثم الدراسات العليا، ثم الدكتوراه، فأصل كل هذه المراحل التعليمية التعليم الأساسي، فجهاد النفس والهوى هو الجهاد الأساسي الذي هو فرض عين على كل مسلم، والدليل:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

[سورة العنكبوت الآية: 69]

2 ـ الجهاد الدعوي :

ولكن هناك جهاداً آخر هو الجهاد الدعوي، لابد من أن تدعو إلى الله، لابد من أن تنقل حقاً إلى الآخرين، استمعت إلى خطبة ينبغي أن تنقل مضمونها إلى من حولك، استمعت إلى درس دينين، قرأت آية، قرأت كتاباً، شاهدت مناظرة تأثرت بها، أنت حينما تنقل الذي وصلك من الحق إلى الآخر تكون جاهدت جهاداً دعوياً، جهاد النفس والهوى كالتعليم الأساسي، كالجهاد الأساسي، هناك جهاد دعوي لنقل ما تعلمت، والجهاد الدعوي فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم ومع من يعرف، والدليل:

((بلّغوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

دليل آخر:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف لآية: 108]

هذا الجهاد الدعوي.

3 ـ الجهاد البنائي :

لكن بعد الجهاد الدعوي هذه أمة و هناك أمة أخرى قد تعتدي عليها، قد تحاربها، قد تسخرها لمصالحها، فلابد من جهاد بنائي، والجهاد البنائي أن تتقن عملك وأن تطوره، كل إنسان بمكانه، المعلم في صفه، الموظف في دائرته، التاجر في دكانه، كل إنسان بحسب ما أقامه الله، أنا أقول دائماً: الجهاد البنائي فيما أقامك الله، هذه امرأة، قال النبي الكريم:

((اعلمِي أيتها المرأة وأعلمِي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

هذه المرأة تعبد الله فيما أقامها، أقامها أماً، أقامها زوجة، أقامها بنتاً، أقامها في أي مجال يبغي أن تعبد الله فيه.

لذلك الغني عبادته إنفاق المال، أقامه الله غنياً، والقوي عبادته إحقاق الحق، وإبطال الباطل، والعالم نقل العلم للآخرين.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية: 39]

فالعالم له عبادة نشر الحق، والقوي له عبادة إحقاق الحق، وإبطال الباطل، والغني له عبادة إنفاق المال، فالعبادة تشمل كل طبقات المجتمع، وتدور مع الإنسان في كل شؤونه، وفي كل أحواله، وفي كل أوقاته.

الجهاد عقيدة صحيحة تنبع من داخل الإنسان :

الآية الكريمة:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ)

الآن رأوا الانتصار هؤلاء الذين تخلفوا، رأوا الغنائم، طاب لهم أن يشاركوا مرة ثانية، فجاء المنع الإلهي:

(فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ)

لن تفيد النفي مع التأبيد،

(لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً)

ما الفرق بينهما؟

(لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً)

إذا خرجنا لملاقاة العدو خارج المدينة، فلو جاء العدو إلى المدينة أيضاً ممنوعون أن يقاتلوا مع النبي الكريم، لا إذا غادرنا ولا إذا هوجمنا،

(لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً)

لأن أصل الجهاد عقيدة صحيحة، أصل الجهاد رغبة في العمل الصالح، وكل شيء لا ينبع من داخل الإنسان لا قيمة له، الإنسان قيمته في عمله الصالح، وقيمة العمل الصالح في الإخلاص، الإخلاص هذا العمل ينبع من ذاتك، ينبع من اختيارك.

الله عز وجل أرادنا أن نأتيه عن حبّ و إخلاص :

لذلك الله عز وجل هو خالقنا، ومربينا، وإلهنا، ومسيرنا، ما أراد أن تكون علاقتنا به علاقة إكراه، قال:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

أرادنا أن نأتيه عن حب، عن إخلاص، أرادنا أن نأتيه بمبادرة منا، فلذلك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله ولم يجاهدوا، وآثروا بيوتهم، والظل الظليل، والماء البارد، والراحة، وقدموا اعتذارات كثيرة للنبي الكريم، والنبي في أيام الحر الشديدة، في الصيف، والصحراء كلكم يعلم ما معنى الصحراء، ما مستوى الحر فيها، والمسافة بعيدة جداً.

(بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ)

[سورة التوبة الآية: 42]

والعدو قوي جداً، الروم، فآثروا البقاء في بيوتهم، ومع أهلهم، وفي بساتينهم، هؤلاء الذين تخلفوا محيت أسماؤهم من قائمة المجاهدين.

(فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً)

لا إذا خرجنا للقتال، ولا إذا واجهنا العدو في بلدنا.

(إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

من هم الخالفون؟ الذين خالفوا رسول الله، قالوا:

((لَخَلُوفُ فم الصائم))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك عن أبي هريرة]

الإنسان إذا ترك الطعام لساعات طويلة يظهر في فمه رائحة ليست مستحبة، كأن هذه الرائحة شبهوا بها، أي فسدوا، هؤلاء فاسدون، أولاً خالفوا منهج النبي، أو وقفوا موقفاً مخالفاً له، هو في مكان، هم في مكان، مكانهم في بيوتهم مع أهلهم، مع أولادهم، في بساتينهم، ينامون مرتاحون، هو في القتال وفي الجهاد.

يدافع الله عن المؤمن حينما يلهم مؤمناً أن يدافع عن أخيه :

لكن هناك ومضة لطيفة أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في مؤتة، سأل أصحابه: أين فلان؟ فبعض من الناس قال: يا رسول الله شغله بستانه عن الجهاد معك، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام، لكن الذي أفرحه قول أحد الصحابة وقد دافع عن أخيه وقال: يا رسول الله، والله لقد تخلف عنك أناس ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولكن مانعاً منعهم، فابتسم النبي وفرح لهذا الموقف الأخلاقي.

أنت عندما تدافع عن أخيك تعرفه صادقاً، وأميناً، و عنده أمر قاهر، فإذا جاء من يغمزه، ويقلل من نشاطه وإيمانه ينبغي أن تدافع عنه، والله عز وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج الآية: 38]

كيف يدافع عنهم؟ حينما يلهم مؤمناً أن يدافع عن أخيه، أنت كمؤمن لك أخ تعلم صدقه، وورعه، واستقامته، وهناك موقف ينبغي أن يكون فيه لم تجده، أحسن الظن به، وقيل: التمس لأخيك سبعين عذراً.

من تخلف عن رسول الله حجب عن الله و هذا أكبر عقاب له :

إذاً:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً)

والله أنا لا أرى عقاباً من الله أشد من أن يعبدك الله عنه، الآية:

(يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين]

حُجب عن الله عز وجل، هذا عقاب كبير جداً.

(فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

الذين تخلفوا عن رسول الله، اقعدوا معهم، أو اقعدوا مع الذين خالفوا دعوة رسول الله، أو اقعدوا مع الفاسدين.

((لَخَلُوفُ فم الصائم))

أو إنه تخلف عن الجهاد مع رسول الله، أو أنه خالف أمر رسول الله، أو أنه حينما خالف أمر النبي الكريم شعر بصغره، وأصبح فاسداً كالرائحة الكريهة، قال:

(فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة التوبة]

المنافق إنسان فقد مكانته عند الله :

الحقيقة نحن حينما نلفظ كلمة الكفر نتوهم أن الذي أنكر وجود الله هو الكافر، هذا معنى مقبول، وقد يسمى ملحداً، لكن الكفر درجات، واسع جداً، فأنت حينما لا تصلي كأنك أنكرت فرضية الصلاة، أنت حينما لا تؤدي زكاة مالك لم تعبأ بهذا الأمر الإلهي، لذلك سيدنا سعد بن أبي وقاص له كلمة رائعة، قال:" ثلاثة أنا فيهن رجل" أي بطل.

بالمناسبة: فلان ذكر غير رجل، ذكر تعني أنه ليس أنثى، رجل تعني أنه بطل، ولحكمة بالغة كلمة رجل في القرآن والسنة لا تعني أنه ذكر بل تعني أنه بطل، قال:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة النور الآية: 37]

فالآية الكريمة

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ)

هذا الإنسان فقد مكانته عند الله.

بطولة الإنسان أن ينجح مع الله عز وجل :

بالمناسبة: لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، قد تكون فقيراً لكن عند الله كبيراً، قد تكون مريضاً لكن عند الله كبيراً، قد تكون تعاني ما تعاني لكنك عند الله كبيراً، لكنك إن سقطت من عين الله ولو كنت غنياً، ولو كنت قوياً، هذه أشياء زائلة، تزول هذه الأموال، وتلك المكانة، ويبقى البعد عن الله عز وجل. لذلك:

(فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

كان مع المتخلفين، لذلك يوم القيامة يقول الله عز وجل:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

[سورة يس]

قفوا جانباً، أنتم مجرمون، فالبطولة أن تنجح مع الله.

بطولة الإنسان أن يكون مع الله ووفق منهجه وفي طاعته :

البطولة أن تأتي إلى الدنيا فتعرف أنك المخلوق الأول، لقوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب]

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء]

والبطولة أن تعرف أنك مكلف، مكلف أن تطيع الله، و أن تعبده، بل إن العبادة علة وجودك، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

(وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

لذلك ابن أُبيّ طلب قميص النبي، النبي كان له ثياب يرتديها تلاصق جسمه تماماً، وثياب فوق هذه الثياب، فلما طلب ابن أُبي زعيم المنافقين وهو على فراش الموت، يبدو أنه كشفت له الحقيقة، فطلب قميص النبي، فالنبي يرتدي قميصاً ملاصقاً لجسمه، وقميصاً آخر فوقه، أعطاه القميص الآخر، فأصر على أن يأخذ القميص الملاصق لجسمه، أعطاه القميص، لكن هناك تعليق مخيف أعطاه قميصه، وارتدى قميصه، فقال النبي الكريم بعد أن مات ابن أُبي: الآن استقر في جهنم حجراً كان يهوي به سبعين خريفاً.

البطولة أن تكون مع الله، ووفق منهج الله، وفي طاعة الله.

لذلك:

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

الإيمان بالله يحمل الإنسان على طاعته والإيمان باليوم الآخر يمنعه من أن يؤذي إنساناً:

فالإنسان إذا كان مؤمناً فالدنيا ساعة اجعلها طاعة، الله عز وجل وعد المؤمنين بالجنة، والجنة تسوى فيها الحسابات.

بالمناسبة: ما ذكر الله أركان الإيمان في القرآن أو ما ذكر ركنين من أركان الإيمان في القرآن متلازمين إلا الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن الإيمان بالله ينبغي أن يحملك على طاعته والإيمان باليوم الآخر ينبغي أن يمنعك من أن تؤذي إنساناً.

إذاً

(وَلَا تُصَلِّ)

نهي للنبي أن يصلي

(عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

والكفر كما قيل: كفر دون كفر، الكفر دون كفر أنه ينافق مثلاً لا يطبق،

(وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

وهذه حالة ثانية خطيرة جداً، الإنسان العادي أحياناً له أعمال صالحة بحسب فطرته السليمة، لكن هذا مات وهو فاسق، لذلك الآية الكريمة:

(وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

[سورة التوبة]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (56-70) : تفسير الآيات 86-89، ما علة وجود الإنسان في الأرض؟.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-06-10

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل خلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة والثمانين وما بعدها، وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

الله عز وجل خلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة، وجاء بنا إلى الدنيا كي نعرفه، وكي نلتزم منهجه، وكي نتقرب إليه، وهذا ثمن الجنة، التي خلقنا لها.

البشر نموذجان لا ثالث لهما عند الله عز وجل :

بالمناسبة: البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، هم نموذجان عند الله.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

فالإنسان إذا آمن أنه مخلوق للجنة يتقي أن يعصي الله، وإذا آمن أنه مخلوق للجنة يبني حياته على العطاء.

لذلك قرأت مرة كتاباً في السيرة لفت نظري التقديم، هذا الكتاب قُدم لرسول الله قال: يا من جئت الحياة أعطيت ولم تأخذ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء عاشوا للناس، والأقوياء عاش الناس لهم، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء يمدحون في غيبتهم، والأقوياء يمدحون في حضرتهم، والناس جميعاً تبع لقوي أو نبي.

فلذلك هذا النبي الكريم أرسله الله كي يطبق المنهج الذي جاء معه، والشيء الذي يلفت النظر أن الله يقول في آية أخرى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون إذا طبقوا منهج رسول الله

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

هذه بحبوحة.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال]

الإيمان بالله و العمل الصالح علة وجود الإنسان في الدنيا :

لذلك الآية الكريمة:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا)

علة وجودك في الدنيا أن تؤمن، علة وجودك في الدنيا أن تعمل صالحاً، علة وجودك في الدنيا أن تدفع فيها ثمن الآخرة أن آمن، فالإيمان لا قيمة له إلا إذا حملك على طاعة الله، فإن لم يحملك الإيمان على طاعة الله لا يقدم ولا يؤخر، بل هو عبء عليك، وشهادة على أنك وقعت في خطأ كبير، الإيمان حجة لك أو عليك.

فلذلك:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا)

أن يعني مضمونها، مضمون هذه السورة:

(أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ)

بالله الذي خلقك، بالله الذي يربيك، يمدك بما تحتاج، بالله الذي يسيرك، الله عز وجل خالق ومربٍّ ومسير، خالق خالقك من عدم، مربّ، رب العالمين أمدك بما تحتاج، أمدك بالهواء، أمدك بالماء، أمدك بزوجة، بالأولاد، بالطعام، بالشراب، بالمزروعات، بالنباتات، بالأطيار، بالأسماك، أعطاك هذا الكون:

(أَنْ آمِنُوا)

أي لا شيء يعلو على الإيمان.

بل إن البشر يفترقون عند الإيمان، مؤمن وغير مؤمن، المؤمن

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

حياته ميسرة، فيها سعادة، فيها طمأنينة، فيها شعور بالأمن، فيها استقرار، له أعمال صالحة كثيرة، الله عز وجل يحفظه، ينصره، يؤيده، يقربه، يجري على يديه الخير الكثير، غير المؤمن شرد عن الله، فقد سعادته، فقد النور الذي يمشي به.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد الآية: 28]

المؤمن عنده نور، هذه آية قرآنية، الإيمان نور، أنت حينما تتصل بالله يمتلئ القلب نوراً، بهذا النور ترى الحق حقاً، والباطل باطلاً، ترى الخير خيراً، والشر شراً، فالمؤمن له رؤية صحيحة.

من صحت رؤيته صحّ عمله :

بالمناسبة أي عمل تقوم به وراءه رؤية، فالذي يقدم على عمل سيئ ماذا رأى؟ رأى أن هذا العمل السيئ فيه مكسب كبير، ونسي حساب الله له، ونسي ما سوف ينجم عنه من آلام، فبطولة المؤمن أن تصح رؤيته، إن صحت رؤيته صحّ عمله، لكن هناك شيء يعينك على أن تصح رؤيتك أن تعرف سرّ وجودك.

كأن نقول لطالب أرسله والده إلى باريس لينال الدكتوراه، مدينة باريس واسعة جداً، مدينة كبيرة، مترامية الأطراف، فيها مسارح، فيها دور لهو، فيها دور سينما، فيها حدائق، فيها معامل، فيها مساكن، هذا الطالب الذي أرسله والده إلى باريس ليدرس الدكتوراه نقول: علة وجودك شيء واحد، نيل هذه الشهادة.

فالإنسان متى يصح إيمانه، ومتى يفلح في دنياه وآخرته؟ إذا عرف سر وجوده، أنت خلقت في الدنيا من أجل أن تعبد الله، والعبادة بالمفهوم الواسع أن تخضع لمنهجه، منهج الله عز وجل واسع جداً يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، كلمة آمن.

أنت بالدنيا إذا قلت: فلان دكتور أي معه ابتدائية، معه إعدادية، معه ثانوية، معه شهادة جامعية، معه دبلوم عامة، معه دبلوم خاصة، معه ماجستير، معه دكتوراه، ثلاث عشرة شهادة وأمضى ثلاثاً و ثلاثين سنة بالدراسة ليضع كلمة د. إلى جانب اسمه، فكيف إذا كنت مؤمناً غنمت الدنيا والآخرة؟!

فالإنسان الغافل عن الله ما حمل نفسه على درس علم واحد يحضره، ما خطر في باله أن يقرأ القرآن ويفهمه، ما خطر في باله أن يطلع على السنة ويستوعبها، ما خطر في باله أن يتفرغ إلى طاعة الله ولا ساعة، فإذا انغمس الإنسان في دنياه ضاعت عليه دنياه وآخرته.

الكون أعظم شيء يمكن أن يوصلنا إلى الله :

لذلك:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا)

علة وجودك في الدنيا أن تؤمن، والله عز وجل له آيات، له آيات كونية، هذا الكون يدل على الله، بسمائه، بأرضه، بمجراته، بمذنباته، بالنباتات، بالحيوانات، بالجبال، بالسهول، بالبحار، بالصحارى، هذا الكون بتعبير آخر مظهر لأسماء الله الحسنى، وكل أسماء الله الحسنى يمكن أن تستشفها من هذا الكون، الكون أعظم شيء يمكن أن يوصلك إلى الله، بل إنني أقول دائماً: إن التفكر في خلق السموات والأرض، وقد حض الله عليه في القرآن، وقال:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة آل عمران]

هذه عبادة، وكل أمر في القرآن يقتضي الوجوب، التفكر في خلق السموات والأرض عبادة من أرقى العبادات، لأنها عبادة من ثمراتها معرفة الله، إن عرفت الله عرفت كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإذا فتك فاتك كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

الإيمان الحقيقي هو الإيمان الذي يترجم إلى استقامة وعمل صالح :

لذلك الوقفة عند كلمة:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا)

أنا أتمنى على كل أخ كريم أن يسأل هل آمنت بالله الإيمان الذي ينبغي؟ لو أن واحداً قال: أنا مؤمن، نقول له: إبليس مؤمن أيضاً، قال ربي:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

خلقتني، آمن به رباً، وعزيزاً، وخالقاً، وآمن باليوم الآخر قال:

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

فإذا موضوع الإيمان كلمات تقولها، إبليس مؤمن، أما الإيمان الحقيقي فالذي يترجم إلى استقامة، يترجم إلى عمل صالح، يترجم إلى انضباط، يترجم إلى حدود الله، الإيمان الحقيقي يترجم أن تعطي لله، وأن تمنع لله، وأن ترضى لله، وأن تغضب لله، وأن تصل لله، وأن تقطع لله، الإيمان الحقيقي لا بد أن يترجم إلى سلوك، إلى التزام، إلى أحوال، إلى قرب، إلى رؤية، إلى طموح كبير.

لا يكفي أن تؤمن يجب أن يحملك إيمانك على طاعة الله :

إذاً أقف عند هذه الكلمة وقفة متأنية:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا)

الأخ الكريم يسأل نفسه أنت متى آمنت؟ هل قرأت كتاباً؟ هل اطلعت على كتاب الله؟ هل قرأت تفسيره؟ هل استمعت إلى تفسيره؟ هل قرأت سنة النبي الكريم؟ هل عرفت ما ينبغي وما لا ينبغي؟ هل عرفت لماذا جئت إلى الدنيا؟ هذه كلها ضمن الإيمان.

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ)

هل آمنت بالله الإيمان الذي يحملك على طاعة الله؟ هل آمنت بالله الإيمان الذي يحجبك عن معاصيه؟ لا يكفي أن تؤمن.

لو أن إنساناً معه مرض جلدي، والدواء الوحيد أن يتعرض إلى أشعة الشمس، فجلس في غرفة مظلمة وقال: يا لها من شمس ساطعة! ما أعظم ضوء الشمس! لو أمضى وقته كله في الإشهاد بضوء الشمس، وعظمة ضوء الشمس، ولم يتعرض إلى أشعة الشمس، لا قيمة لكل هذا الشيء .

لذلك إذا اكتفيت بالإيمان ما فعلت شيئاً، أنت ماذا فعلت إذا اكتفيت بالإيمان؟ أنت ما زدت على أن أقررت بشيء واقع، شئت أم أبيت، إن لم تقر به فهذا جنون، إن أقررت به ما فعلت شيئاً، شيء واقع. الشمس ساطعة، أنا أقول: الشمس ساطعة، ماذا فعلت؟ أما هذا المريض الذي معه مرض جلدي خطير، دواؤه الوحيد في التعرض لأشعة الشمس، إن لم يتعرض لهذه الأشعة لا قيمة لإيمانه بوجود الشمس.

إن لم يكن هناك حركة تؤكد إيمانك لا قيمة لهذا الإيمان :

الحقيقة أنه:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا)

كلمة آمنوا لها أبعاد كبيرة جداً، أي وقت بذلته كي تؤمن؟ أي مجلس علم حضرته كي تؤمن؟ أي كتاب قرأته كي تؤمن؟ أي لقاء تم كي تؤمن؟ أي إنسان تتلمذت على يديه كي تؤمن؟ ما الذي فعلته حتى

آمنت؟ الإنسان حتى يدخل لأقل وظيفة بالبلد يحتاج إلى شهادة ثانوية، اثنتا عشرة سنة دراسة حتى يدخل لأقل وظيفة، فكيف إذا أراد دخول الجنة؟ بلا إيمان.

إذاً

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ)

طبعاً بالله خالقاً، بالله رباً، بالله مسيراً، بالله صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى.

(أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ)

لا يكفي أن تؤمن، لابد من حركة، هناك التزام، وامتناع، وعطاء، وأخذ، ورضا، وغضب، وصلة، وقطيعة، المؤمن له حركة، الحركة نتيجة لإيمانه، ما لم يكن هناك حركة تؤكد إيمانك لا قيمة لهذا الإيمان.

الدنيا دار التواء لا دار استواء :

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ)

الأغنياء، الأقوياء، غارقون في متعهم، في ملذاتهم، في شهواتهم، هؤلاء أرادوا الدنيا واكتفوا بها، وغابوا عن الآخرة:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[كنز العمال عن ابن عمر]

إذاً:

(اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ)

أي يدهم تطول كل شيء، بمالهم، يقول لك: المال يفعل كل شيء،

(أُولُو الطَّوْلِ)

أو أولو القوة، إما أنه قوي بماله، أو قوي بمنصبه، أو قوي بعلمه.

(اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

أي أرادوا الدنيا واكتفوا بها.

الآية الدقيقة، يقولون: سيدنا عمر بن عبد العزيز ما دخل مجلسه إلا ويتلو هذه الآية والآية دقيقة جداً:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

[سورة الشعراء]

إذاً:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ)

هؤلاء الأقوياء، والأغنياء.

من آثر الدنيا على الآخرة خسرهما معاً :

(أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه.

مرة قصة طريفة، شاب يعمل في سوق مشهور، فكان يجمع القمامة ويضعها في علبة ثمينة، يغلفها بورق ثمين، ثم بشريط أحمر مع عقدة، ويضعها على الرصيف، يأتي إنسان يظنها عقد ألماس، يحملها ويمضي سريعاً، يتبعه بعد مئة متر، يفك الشريط الأحمر، بعد مئة متر ثانية يفك الورق المذهب، بعد مئة متر ثالثة يفتح العلبة فإذا بها قمامة المحل، يصيح، ويسب، ويشتم، والله هذا المثل الصارخ يشبه حقيقة الدنيا عند الموت، الإنسان بالبدايات يظن المال كل شيء، في منتصف الحياة يظنه شيئاً لكن ليس كل شيء، لكن عندما يأتي ملك الموت يراه ليس بشيء، الشيء الثمين العمل الصالح، لذلك الدليل:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

[سورة المؤمنون]

إذاً:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ)

الأقوياء، والأغنياء أصحاب المراكز الكبيرة أحياناً، أصحاب الأموال الطائلة، أصحاب المتع الفائقة، هؤلاء يستأذنوك آثروا الدنيا على الآخرة:

(وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

المتخلفون عن رسول الله رضوا بأن يبقوا مع النساء :

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)

[سورة التوبة]

من هم الخوالف؟ النساء، في بعض التفاسير، المرأة الله عز وجل أقامها زوجة تربي أولادها، مكانها الصحيح في بيت زوجها تربي أولادها، فالخوالف هنا كما قال بعض المفسرين: النساء،

(ذَرْنَا)

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ)

مع أن المرأة في منطوق الإسلام العظيم مساوية للرجل تماماً في التكليف، والتشريف، والمسؤولية، مساوية له، مكلفة كما هو مكلف، مشرفة كما هو مشرف، مسؤولة كما هو مسؤول، لكن المرأة مكانها الطبيعي أن تكون مربية لأولادها.

لذلك هذه امرأة جاءت النبي عليه الصلاة والسلام وقالت: يا رسول الله، إن زوجي تزوجني وأنا شابة، ذات أهل ومال وجمال، فلما كبرت سني، ونثر بطني، وتفرق أهلي، وذهب مالي، قال لي: أنت علي كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتم إلي جاعوا.

انظر إلى التقسيم اللطيف، هو ينفق عليهم، وأنا أربيهم، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتم إلي جاعوا، فبكى النبي الكريم، هذه المرأة التي ذكر الله أنه سمع قصتها من فوق سبع سموات.

لذلك:

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ)

مع قسم من الناس اختارهم الله ليكونوا في تربية أولادهم، هذا مما يرفع شأن المرأة، والدليل الدقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما فتح مكة المكرمة، دعاه سادتها ليبيت عندهم، ما الذي فعله؟ قال: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة، وركز لواء النصر أمام قبرها، ليعلم العالم كله أن هذه المرأة التي في القبر شريكته في النصر.

فالمرأة وهي في بيتها، وتعتني بأولادها، وتكون زوجة صالحة، هي في أعلى درجة عند الله، لكن مكانها في إدارة بيتها، أما الرجل فله مكان آخر، فإذا المواقف تبدلت، والأماكن تبدلت يصبح هناك مشكلة، الرجل مهمته خارج البيت.

من اختار الباطل و استمرأه يصر عليه و يعجب به :

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

معنى طبع؛ المعنى دقيق جداً، الإنسان إذا اختار الباطل، واستمرأه، وأصر عليه يألفه، يرفض شيئاً آخر، فهذا الطبع يسمونه تحصيل حاصل، الإنسان إذا اختار الباطل، واستمرأه، أعجب به، أصر عليه، الله عز وجل جعله مخيراً، الله عز وجل خلق الإنسان أعطاه الخيار، فإذا أصر على هذا فليكن ما يريد، لكن الله عز وجل ينبهه، يسوق له بعض الشدائد، يجمعه مع من ينصحه، فإذا أصر على ما هو فيه، دعاه وشأنه، كما قال الله عز وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

[سورة الأنعام الآية:44]

الله عز وجل ينصح، يبعث رسلاً، أنبياء، دعاة، علماء، يسوق لك بعض الشدائد، قد تعالج نفسياً، قد تعالج مادياً، قد تساق لك مصيبة.

((عجب ربك من قوماً يساقون إلى الجنة بالسلاسل))

[أخرجه الترمذي عن عمرو بن شعيب]

فحينما أرادوا أن يكونوا مع الخوالف، طبعاً هذه الكلمة لا تخدش مكانة المرآة إطلاقاً لكن هي لها مكان آخر، ليس من المعقول إنسان له أولاد يحتاجون إلى تربية، إلى توجيه، إلى إعداد طعام، و يقبع في بيته، المرأة هذا مكانها الطبيعي، وتصل بهذا المكان إلى أعلى درجة، لكن حينما يقبع الرجل في البيت ويدع العمل نقول: هذا اختار مكاناً غير صحيح، ليس هذا مكانه.

إذاً:

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)

الطبع هنا تحصيل حاصل، أنا حينما أمشي في طريق، هدفي مدينة معينة، ثم أرى طريقين، وإنسان يقف ولا أسأله أين الطريق الموصل لهذه المدينة، وأختار عشوائياً طريقاً، هذا الطريق لا ينتهي بالمدينة التي أريد فهذا الخطأ من المسافر، فليتحمل هذا المسافر خطأه، حينما لم يسأل، وأصر على خطئه.

عطاء الله عز وجل عطاء مشترك لكل البشر :

إذاً:

(وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)

لا يفقهون سرّ وجودهم، ولا غاية وجودهم، ولا أسباب سلامتهم، ولا أسباب سعادتهم.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة التوبة]

يا الله!، لكن استدراك، لكن النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

أي عرفوا سر وجودهم، عرفوا غاية وجودهم، جعلوا من جهادهم طريقاً للجنة.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

طبعاً قد تلتقي برسول الله، وتؤمن معه، وقد لا تلتقي به، وتؤمن معه، شيء طبيعي، ممكن أن تلتقي به، وأن تؤمن معه، يمكن أن تأتي بعد ألف عام، فإذا آمنت معه لك أجر كبير، أي هذا العطاء عطاء مشترك لكل البشر.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

يبدو أنه الله قدم جهاد المال على جهاد النفس، قال بعض العلماء: لأنه أسهل، إنفاق المال أسهل من جهاد النفس والهوى، وجاء بأنفسهم بعد أموالهم لأن هذا يحتاج إلى إصرار أكثر، قد تسهم في بناء مسجد، أما غض البصر فيحتاج إلى إرادة قوية جداً، ضبط النفس يحتاج إلى إرادة، فالأنبياء كما يصفهم الله عز وجل وعلى رأسهم لرسول عليه الصلاة والسلام

(جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

النجاح المطلق نجاح في الدنيا والآخرة :

(لَهُمُ الْخَيْرَاتُ)

مطلقة في الدنيا والآخرة.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

في الدنيا جنة، وفي الآخرة جنة،

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

هذا هو النجاح المطلق نجاح في الدنيا والآخرة، والنجاح مسعد، والإنسان حينما ينجح يسعد، أما النجاح فقد يكون جزئياً، النجاح في الدنيا يسمى نجاحاً، أما النجاح في الآخرة فيسمى فلاحاً، أنت حققت الهدف من وجودك وصلت إلى ما ينبغي أن تكون عليه،

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة التوبة]

بطولة الإنسان أن يعتمد مقاييس القرآن في الفوز :

أخوتنا الكرام، قل لي: ما مقياس الفوز عندك أقول لك من أنت، يقول لك أحدهم: فلان اشترى أرضاً تضاعفت مئة ألف ضعف، هذا الإنسان يرى أن تشتري أرضاً وأن يرتفع ثمنها إلى مئة ضعف هذا هو الفوز العظيم.

فكلمة الفوز البطولة أن تعتمد مقاييس القرآن في الفوز، القرآن له مقاييس في الفوز، وهناك مقاييس للدنيا، في عالم الدنيا الغني فاز فوزاً عظيماً في نظر أهل الدنيا، لذلك في بعض الأحاديث:

((اطلعت في الجنة فرأيت عامة أهلها المساكين))

[شعب الإيمان عن ابن عباس]

هذا الذي أراد الله والدار الآخرة عند عامة الناس أبلهاً، ضيع عليه فرصاً كثيرة جداً من المتع الرخيصة، ومن المباهج فهذا أبله عند البله، أما عند العقلاء فهو في أعلى درجة.

يقول سيدنا علي كلمة: "يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية، والعلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".

الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين :

إذاً:

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ)

وحينما يخبرنا الله أن النبي جاهد بماله ينبغي أنت أن تجاهد بمالك، لماذا؟ لأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

جهاد المال واضح إنفاق المال في سبيل الله.

إنسان سأل أحد العارفين: يا سيدي كم الزكاة؟ قال له: عندكم أم عندنا؟ طبعاً الملاحظة تثير العجب، قال له: وما عندكم وما عندنا؟ هناك إسلام واحد، قال له: عندكم اثنان ونصف بالمئة أما عندنا -عند المقربين من الله- فالعبد وماله لسيده.

لذلك المؤمن في درجات، هناك أصحاب اليمين، والسابقون السابقون، و أصحاب الشمال، فإما أن يكون الإنسان من السابقين السابقين، هؤلاء عدد كبير في الأولين، وقليل في الآخرين.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

في الدنيا هناك سعادة، سعادة القرب من الله عز وجل، سعادة الطمأنينة، سعادة الرضا عن الله، سعادة الحكمة التي يمنحها الله للمؤمنين، سعادة التوفيق، سعادة الحفظ، سعادة التأييد.

من ذكره الله منحه الرضا و التوفيق و السعادة :

لذلك:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت الآية: 45]

قال العلماء: ذكر الله أكبر ما فيها، لكن ابن عباس رضي الله عنه في رأي دقيق جداً قال: ذكر الله لك أيها المصلي وأنت تصلي أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، لكنه إذا ذكرك منحك الرضا، إذا ذكرك منحك التوفيق، إذا ذكرك منحك السعادة، إذا ذكرك منحك السكينة، إذا ذكرك منحك أن تكون فائزاً فوزاً عظيماً.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ)

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

أخواننا الكرام، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، إذا قال الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور الآية:55]

هذا أعظم وعد بين يدي المسلمين.

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

الثمن:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية: 55]

لذلك:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر]

انتظر كل خير.

من أخلّ بما عليه من عبادة لله فالله في حلٍّ من وعوده :

في بعض الأحاديث:

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه مالك عن بلاغ مالك]

(يَعْبُدُونَنِي)

فإذا أخلّ الفريق الثاني هم عباد الله بما عليهم من عبادة الله، الله عز وجل في حلٍّ من وعوده الثلاث،

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

وذكرنا الجهاد جهاد النفس والهوى، وهناك الجهاد البنائي:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

وهذا الجهاد البنائي تحتاجه أمتنا الإسلامية اليوم، يجب أن نقوي أنفسنا، أن نستصلح الأراضي، أن نشق الطرق، أن نبني السدود، أن نرفع مستوى المعيشة، لأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، ونحن بحاجة ماسة إلى أن نظهر للعالم الآخر أن الإسلام دين حياة وآخرة، دين يصلح لحياتنا الدنيا، ودين يسعدنا في الدار الآخرة، فلا بد من عمل دقيق كي نصل إلى هذه الأهداف.

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هذا هو الفوز العظيم، والفوز مسعد للإنسان أيما سعادة، والفوز حينما تصل إلى الهدف الكامل الذي أعد لك تشعر أنك حققت نجاحاً كبيراً في الدنيا.

الله عز وجل أراد أن يكون لكل نتيجة سبب :

يا أيها الأخوة الكرام، لكن ليس معقولاً إنسان يطلب دكتوراه من دون دراسة، يطلب أعلى دراسة ولا يقدم لهذا الطلب أي جهد مقابل، فالإنسان لساعات من ضعفه يتمنى، والله عز وجل قال:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء الآية:123]

وهذا الشيء الدقيق جداً أن الله عز وجل أراد أن يكون لكل نتيجة سبب، وهناك شيء اسمه مقدمات ونتائج، فمن الخطأ الكبير أن تتوقع نتائج بلا مقدمات، والمسلمون اليوم كما قال الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

الدين منهج كامل و شمولي :

المشكلة أن العبادة، تقلصت وتقلصت وضاقت وضاقت حتى فهم معظم المسلمين أن العبادة أن تؤدي العبادات الشعائرية، تصلي، وتصوم، تحج، وتزكي، لكن النبي الكريم:

((سأل مرة أصحابه من المفلس؟ قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: لا، المفلس من أتى بصلاة، وصيام، وصدقة، وقد ضرب هذا، وشتم هذا، وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ حتى يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هذه الصلاة:

((يؤتى برجال يوم القيامة لهم أعمال كجبال تهامة، يجعلها الله هباء منثورا، قيل يا رسول الله جلهم لنا، قال: إنهم يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها))

[ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

هذه الصلاة، الصيام:

((رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع))

[أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة]

هذا الصوم، صوم من دون طاعة لله، من دون إقبال على الله، من دون توبة نصوحة لا قيمة له، كيف فهم المسلمون اليوم أن الدين ليس إلا عبادات شعائرية؟ بينما الدين منهج تفصيلي، يبدأ بفراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، في كسب مالك، في إنفاق مالك، في قضاء وقت فراغك، في بيتك، في الطريق، في العمل، في صناعتك، في زراعتك، في تجارتك، في منصبك، أنت حينما تفهم الإسلام على أنه منهج كامل، منهج شامل، منهج يدور معك أينما درت، وأينما وجدت، تجد أن هذا المنهج يحتاج إلى جهد كبير، وإلى إرادة قوية، وإلى عزيمة.

لذلك:

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

يعني هذا الفوز عند العظيم، وصفه الله بالعظيم أي عند العظيم.

من أراد الدنيا و الآخرة فعليه بالعلم :

أنا أقول دائماً المثل الذي يوضح هذه الفكرة: طفل صغير عقب عيد الأضحى، زاره عمه، قال له: أنا معي مبلغ عظيم، كم تقدر هذا المبلغ؟ بمئتي ليرة، بألفي ليرة، أما إذا قال مسؤول كبير في دولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً هذا يقدر بمئتي مليار، فإذا قال ملك الملوك، ومالك الملوك، فإذا قال الله رب العالمين:

(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

معنى ذلك أن تكون مؤمناً، هذه هو الفوز العظيم، وهناك آية ثانية:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

أي إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا أذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لا يعطيك شيئاً، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (57-70) : تفسير الآيات 90-93، أقسام البشر من خلال القرآن الكريم ثلاثة أقسام (المؤمنون، المنافقون، الكفار).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-06-17

بسم الله الرحمن الرحيم

البشر في القرآن الكريم أقسام ثلاث :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية التسعين وهي قوله تعالى:

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، لا زالت الآيات تتحدث عن المنافقين، وكما تعلمون البشر في القرآن أقسام ثلاث، مؤمنون عرفوا الله، فانضبطوا بمنهجه، وأحسنوا إلى خلقه فسلموا، وسعدوا في الدنيا والآخرة.

وكفار غفلوا عن الله، وتفلتوا من منهجه، وأساؤوا إلى خلقه، فشقوا وهلكوا في الدنيا والآخرة.

بينما هناك فريق ثالث أظهر الإيمان وأبطن الكفر، ادعى أنه مؤمن، وهو في الحقيقة ليس كذلك.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

[سورة البقرة]

المنافق إنسان خطير جداً :

هذا الفريق الثالث المنافق خطير جداً، لأنه بتصوره يحقق مكسبين، هو حينما يكون مع المؤمنين حصل على مكتسباتهم، وحينما تفلت من منهج الله قلد الذين كفروا وغفلوا عن الله عز وجل، لذلك في آيات كثيرة يبين الله عز وجل أن المنافقين:

(فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء الآية: 145]

فالله عز وجل يقول:

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)

من هم المعذرون؟ الذين قدموا عذراً كاذباً، عذراً مفتعلاً، الذين كذبوا كانوا أقوياء، وأشداء، لكنهم ادعوا المرض، فهذا الادعاء هو اعتذار كاذب، هؤلاء في القرآن سماهم الله المعذرون، فلذلك هناك من يعتذر وهو صادق، وعذره مقبول، وهناك من يعتذر وعذره كاذب فهو مرفوض، لذلك قال الله تعالى:

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)

الله عز وجل يعلم السرّ و أخفى :

النقطة الدقيقة علاقة الإنسان بالله، والله عز وجل:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه]

يعلم ما تسره، ويعلم أيضاً ما خفي عنك أنت، لذلك قال سيدنا علي كرم الله وجهه عن الله عز وجل: "علم ما كان، وعلم ما يكون- الحاضر- وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون".

لو أن إنساناً دخله محدود، لو أن دخله أصبح رقماً فلكياً، هل يعلم هو ماذا سيفعل؟ هل يبقى مستقيماً؟ هل يتفلت؟ هل ينفق هذا المال على ملذاته أم على أعمال الخير؟ هذا الذي لم يكن الله وحده يعلم ما سيكون، بل يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

لذلك حينما يوقن الإنسان أن الله يعلم، وأن الله بيده كل شيء، الله عز وجل يقول:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

[سورة الطلاق الآية: 12]

كأن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون، الكون فيه آلاف مليارات المجرات، وفي كل مجرة آلاف مليارات الكواكب والنجوم، هذا الكون العملاق الذي لا حدود له في منطق العلم الحديث، هذا الكون بكل ما فيه يسبح الله عز وجل، والله عز وجل خلق الخلق والأمر إليه.

الإنسان انطلاقاً من حرصه على ذاته وسلامته وسعادته يطيع الله عز وجل :

أنت أيها الإنسان حينما تعتقد يقيناً أنك أعقد آلة في الكون، وهذا التعقيد تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، وأن لهذه الآلة بالغة التعقيد - أي الإنسان- صانع حكيم، وهذا الصانع الحكيم له تعليمات التشغيل والصيانة، فانطلاقاً من حرصك على ذاتك، من حرصك على سلامتك، من حرصك على مستقبلك، تطيع الله عز وجل، لأن العلاقة بين الأمر الإلهي وبين نتائجه علاقة علمية، ما الفرق بين العلاقة العلمية والعلاقة الوضعية؟ أحياناً يكون للبيت مدخلان، يعطي الأب أمراً أن هذا المدخل ممنوع أن تستخدمه، مسموح لكم بالثاني، فإذا أراد أحد الأولاد أن يعصي أباه فدخل في المدخل الذي منع عليهم،

يعاقب، لكن لا يوجد علاقة بين العقاب وبين الدخول من هذا الباب، العلاقة وضعها الأب نقول: العلاقة بين الأمر والعقاب، أو النهي والعقاب، علاقة وضعية وضعها الأب، أما لو أن إنساناً وضع يده على مدفأة مشتعلة فاحترقت نقول: هناك علاقة علمية بين الوضع وبين الاحتراق.

فهناك علاقة بين الأمر والنتيجة، هذه العلاقة إما أنها حقيقية علمية، أو أنها وضعية، في الأعم الأغلب كل الأوامر في القرآن الكريم العلاقة بينها وبين نتائجها علاقة علمية، وكل النواهي التي نهى الله عنها العلاقة بينها وبين النتائج علاقة علمية، معنى هذا أن كل أمر فيه بذور نتائجه، وأن كل نهي فيه بذور نتائجه، هذا شيء مريح جداً، ديننا ليس دين طقوس، ما الفرق بين الطقوس والأديان السماوية؟ الفرق كبير جداً، الطقوس حركات، وسكنات، وإيماءات، وتمتمات لا معنى لها، لكنها جُعلت مقدسة ومهمة، أما الدين فالأمر والنهي بينه وبين النتيجة علاقة علمية، ما من أمر أمرك الله به إلا وتقطف ثماره في الدنيا قبل الآخرة، والإنسان إذا فكر ملياً وعرف أن هذه التعليمات في القرآن والسنة هي تعليمات الصانع، وأن الصانع وحده هو الجهة الوحيدة التي تعلم يقيناً ما الذي ينفعك وما الذي يضرك، ما الذي يسعدك وما الذي يشقيك، فالإنسان أحياناً ينطلق من حبه لذاته فيعبد الله عز وجل، ينطلق من حرصه على سلامته فيعبد الله عز وجل.

ما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل :

لذلك ما من مصيبة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، قضية تفكر.

مرة زعيم غطفان- نعيم بن مسعود- جاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام في الخندق، هو في خيمته خاطب نفسه، هذا الحوار اسمه الآن في الأدب الحديث حوار ذاتي، خاطب نفسه قال: يا نُعيم ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أجئت لتحارب هذا الرجل- يقصد النبي عليه الصلاة والسلام- ماذا فعل؟ هل سفك دماً؟ قال: لا، هل انتهك عرضاً؟ قال: لا، خاطب نفسه قال: يا نُعيم أين عقلك؟ هذا رجل عظيم، فخرج من معسكره، وانطلق إلى معسكر المسلمين، ودخل على النبي صلى الله عليه وسلم، النبي الكريم فوجئ به، نُعيم؟ قال: نُعيم، قال: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت مسلماً.

أنا أقول تعليقاً على الحادثة: لحظة تفكير حكيم، صحيح، صادق، نقلته من الشرك إلى الإيمان، من شقاء الدنيا والآخرة إلى سعادة الدنيا والآخرة، وكل واحد منا، أنت المخلوق الأول لك خالق عظيم، ومعك منهج قوي، وأنت مخلوق للجنة:

((فيها ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

لِمَ لا تدقق في إنفاق مالك؟ لِمَ لا تدقق في كسب مالك؟ لِمَ لا تدقق في علاقاتك الاجتماعية؟ هل هي وفق منهج الله أم في مخالفة لمنهج الله؟ لِمَ لا تدقق في تربية أولادك؟ فالإنسان حينما يفكر يسلم وينجح، الدليل أن أزمة أهل النار في النار أزمة علم فقط والدليل:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

لأن كل إنسان فُطر على حب وجوده، وعلى حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده، أي ستة آلاف مليون على وجوه الأرض ما منهم واحد إلا وهو حريص حرصاً لا حدود له على سلامة وجوده، وعلى كمال وجوده، وعلى استمرار وجوده، من أين يأتي الشقاء؟ من الجهل.

المنافق إنسان جمع بين الكفر والإيمان الظاهري :

مرة ثانية: الجهل أعدى أعداء الإنسان، ونحن كأمة عربية ألفنا في هذا التاريخ الحديث أن نقول: العدو الأول الصهيونية، الاستعمار، لا، العدو الأول هو الجهل، لأن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به.

لذلك هؤلاء المنافقون، هؤلاء أرادوا أن ينالوا مكاسب المؤمنين، وأن يتمتعوا بتفلت الكافرين، فجمعوا بين الكفر والإيمان الظاهري، لكن الله فضحهم، لذلك قالوا: يمكن أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، ويمكن أن تخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل وألف ألف ألف مستحيل، أما أن تستطيع أن تخدع الله أو أن تخدع نفسك فهذا لا يكون ولا لثانية واحدة، لأن الله يعلم، وأنت تعلم.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر]

طبيب يفحص مريضة، مسموح له في الشرع أن ينظر إلى مكان المرض، فإذا استرق النظر إلى مكان آخر، ليس على وجه الأرض جهة يمكن أن تضبط هذه المخالفة إلا الله

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

من أيقن أن علم الله و قدرته تطوله لا يمكن أن يعصيه :

المنافقون ما عرفوا الله، ولا عرفوا أنه يعلم، وأنت حينما تؤمن أن الله يعلم مستحيل أن تعصي الله، ودائماً أضرب هذا المثل المألوف: أنت مواطن والإشارة حمراء، والشرطي واقف، و هناك شرطي آخر على دراجة، ضابط سير في المركبة، وأنت مواطن عادي، مستحيل أن تخالف الإشارة مع إنسان، مع واضع قانون السير، لأن علمه يطولك، ولأن قدرته تطولك، والله عز وجل حينما قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة الطلاق الآية:12]

قدرته تطولك:

(وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

علمه يطولك، فأنت مع إنسان إذا أيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه. هؤلاء المعذرون الذين افتعلوا أعذاراً واهية، أعذراً غير حقيقية، أعذاراً كاذبة، ولك أن تقول ما شئت، لكن الله يعلم، والله يكشف المنافق، هؤلاء افتعلوا أعذاراً غير صحيحة، هم مرضى، هم ضعاف، عندهم مشكلة في البيت، زوجته مريضة ...الخ،

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)

التفاوت بين المدينة و البادية الهدف منه التعارف لا القتال :

أيها الأخوة، من هم الأعراب؟ نحن في الآيات السابقة كان الحديث عن منافقي المدينة، والآن الآيات تنتقل إلى منافقي البادية، مدينة وبادية، مدن وريف، بالمصطلحات الحديثة.

مرة النبي الكريم جاءه صحابي من أصحابه الذين عاشوا في البادية، فقال كلمة لطيفة، قال: فلان نحن حاضره، وهو باديتنا، هناك تكامل بين البادية والمدينة، المدينة فيها صناعة، البادية فيها مواد أولية، مشتقات الألبان كلها من البادية، اللحوم، الغنم، الجمال، فقال: فلان باديتنا ونحن حاضره، فأنا أرى التفاوت بين البادية والمدينة تفاوتاً كبيراً، لكن من أجل التعارف، من أجل التكامل، حتى حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

[سورة الحجرات الآية: 12]

شعوب، وقبائل، وعناصر، وأعراق، وأنساب، وقبائل، وطوائف، وقوميات، هذا التفاوت الهدف منه التعارف لا القتال.

من يبتعد عن الله يكون عدوانياً :

لذلك مرة قرأت إحصاء، أنه لو أوقفنا الحروب لاستطاع كل إنسان على وجه الأرض من ستة آلاف مليون أن يكون نصيبه مئة دولار كل شهر، كل إنسان حتى الصغار، في ستة آلاف مليون، ستة آلاف مليون إنسان، صغار أو كبار يستطيعون أن يأخذوا مئة دولار كل شهر، هذه نفقات الحروب، ثلثا الدخول القومية للبلاد تذهب للجيوش والاستعداد للحرب، لأن الإنسان:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج]

وحينما يبتعد عن الله يكون عدوانياً.

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)

لماذا الأعراب أبعد عن الإيمان من أهل المدن؟ بعد قليل يأتي التفسير.

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ)

ألا يشاركوا في المعركة، أن يبتعدوا عن القتال، أن يبقوا في بيوتهم، في بساتينهم، تحت الظل الظليل، المعركة التي تتحدث عنها هذه الآيات في أماكن بعيدة جداً، في مؤتة، والوقت صيف، والحر شديد، والمسافة بعيدة، والمشقة كبير، فلذلك المنافق آثر السلامة فادعى أنه مريض، ادعى أن أهله مرضى، قدم عذراً كاذباً.

لذلك:

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ)

ألا يشاركوا في المعركة، المنافق يريد المغانم لا المغارم، المغارم يبتعد عنها، المغانم يكون في أول صف، ما دام هناك توزيع غنائم، وجاهة، مكانة، وليمة، دعوة، احتفال، أول إنسان، في البذل والتضحية يبتعد.

الكذب على الله وقاحة وجهل كبير :

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الإنسان يكذب، لكن الحقيقة أن المؤمن قد يخطئ، وقد تغلبه شهوته، لكنه لا يكذب، لو ألغينا الكذب في حياتنا لحلت معظم مشكلاتنا، المؤمن لا يكذب.

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

تكذب على من؟ على الذي خلقك؟ على الذي يربيك؟ على الذي مصيرك بيده؟ على الذي:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

عن الذي:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

عن الذي يعلم

(مَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

تكذب على من؟.

الإنسان أحياناً يكذب على إنسان آخر، الإنسان الآخر قدراته محدودة، موظف لم يأتِ إلى الدائرة، قد يقول للمدير: زوجته مريضة، المدير لا يوجد عنده إمكان أن يعرف الحقيقة، لكن تكذب على الله الذي يعلم كل شيء؟ فالكذب على الله وقاحة، وجهل كبير.

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ)

ألا يحاربوا، هم أشداء، أقوياء، معهم الرواحل، معهم السلاح، ومع ذلك ادعوا المرض، أو ادعوا الفقر، أو ادعوا الضعف.

(وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

يقول الله عز وجل:

(وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ)

معنى هذا أن المنافقين كفار، إن المنافقين هم الكافرون، كفار، لكنهم أخفوا كفرهم وأظهروا إيمانهم المصطنع.

إذا أراد الله شيئاً وقع و إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة :

(وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وهذه السين للاستقبال، وإذا أراد الله شيئاً وقع، والمقولة الدقيقة جداً: إذا أراد الله لشيء أن يقع لابد من أن يقع، لأن إرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، كل شيء وقع أراده الله، أي سمح به.

بالمناسبة: قد يتصور متصور أنه إذا كان وقعت حرب الله أرادها، أي سمح بها، لكن لم يرضها، ولم يأمر بها، هناك فرق بين الإرادة وبين الأمر والرضا، يقول علماء العقيدة: أراد ولم يأمر، أراد ولم يرضَ، لأن الله أعطى الإنسان حرية، كيف يقيّم عمل الإنسان؟ في ضوء حريته.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان]

إذا ألغينا الحرية ألغينا الدين، ألغينا الاختيار، ألغينا حمل الأمانة، ألغينا التكليف، ألغينا الثواب، ألغينا العقاب، ألغينا الجنة، ألغينا النار.

الله تعالى أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً :

أخوتنا الكرام، في اللحظة التي تتوهم أن الإنسان مجبور على كل أعماله، الإنسان مجبور سماها علماء العقيدة عقيدة الجبر، يتوهم بعض الجهلة أن الإنسان ما بيده شيء، حتى كفره أُجبر عليه، حتى لو شرب الخمر، الأعوام لهم كلامات هي الكفر بعينه أحياناً، يقول لك: طاسات معدودة بأماكن محدودة، أي الله عز وجل قدر عليه شرب الخمر، ثم يحاسبه عليه، مستحيل، هل تقبل هذا من مدير مؤسسة؟ أن يأمر موظفاً أن يسافر إلى مكان كذا ثم يحاسبه على هذا السفر؟ أنت أمرتني، هل تتوهم أن الله قدر على الكافر كفره؟ أو قدر على العاصي معصيته؟ أعوذ بالله.

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ)

[سورة الأعراف الآية:28]

أخواننا الكرام، مرة ثانية: ما لم تؤمن يقيناً أنك مخير، وأن أعمالك ستحاسب عليها، وأنها من اختيارك، لو ألغيت هذا ألغيت الجنة، ليس لها معنى، حتى إن بعض الصحابة الكبار قالوا: لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً، ولم يطع مكرهاً.

الإنسان مخير :

أنت مخير، وأكثر الناس يتوهمون أنهم مجبرون، هذه الفكرة مريحة لكن غير صحيحة، أخي ليس بيدي، الله قدر علي ذلك، الجواب:

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ)

(أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأعراف]

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام]

في اللحظة التي تتوهم فيها أنك مجبر، وأن الله قدر عليك هذه الأعمال السيئة التي فعلتها، في هذه اللحظة تكون قد خرجت من أدق عقيدة في الإسلام لأنك مخير، لكن أنت مسير في كونك ذكراً أو أنثى، أنت مسير في أمك وأبيك، أنت مسير في مكان ولادتك، مسير في زمان ولادتك، مسير في إمكاناتك، لكن حينما تكتشف في وقت لاحق يوم القيامة أن هذا الذي سيرك الله إليه من مكان ولادتك، وزمان ولادتك، ووالدك، ووالدتك، وإمكاناتك، وكونك ذكراً أو أنثى حينما تكتشف أن هذا الذي سيرك الله إليه هو حكمة بالغة بالغة، وليس في الإمكان أبدع مما كان، عندئذٍ تستسلم، فيما لست مخيراً به هو لصالحك، وهذا يكتشف يوم القيامة، فقد قال الإمام علي كرم الله وجهه:" لا يظهر سر القضاء والقدر إلا يوم القيامة "، تكتشف، من هنا الخلائق كلها تقول:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة يونس]

الله عز وجل طمأن الذين تخلفوا عن الجهاد ومعهم أعذار مقبولة :

أيها الأخوة،

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ)

في عدم المشاركة في الجهاد،

(وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أي بالمغانم جاهز، بالمغارم غائب، بالأشياء المريحة أول صف، بالأشياء المتعبة آخر صف، أو لا يأتي إطلاقاً، لكن الله عز وجل طمأن الذين تخلفوا عن الجهاد ومعهم أعذار مقبولة، فقال:

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة التوبة الآية:91]

الشيخ الكبير ضعيف، لا يستطيع أن يقاتل، والطفل الصغير ضعيف، فالضعفاء صغار أو كبار هؤلاء لا تثريب عليهم في ترك الجهاد.

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى)

إنسان مريض، عنده عاهة، يتحرك برجل واحدة مثلاً، عنده آلام لا تحتمل بالعمود الفقري فرضاً، فهناك حالات مرضية شديدة، هذه الحالات تعد عذراً كافياً عند الله مقبولة.

مهمة المريض و الضعيف و الفقير أثناء الجهاد :

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ)

المجاهد ينبغي أن يجد قوت أهله في غيابه، له زوجة، له أربعة أولاد، يجب أن يكون معه إنفاق مبالغ تغطي حاجاتهم في غيابه، ونفقاته هو، يجب أن يملك مبلغين، مبلغ لينفقه هو في الجهاد، مبلغ آخر ينفقه أهله في غيابه.

قال:

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ)

الضعيف، والمريض، والفقير، لكن هؤلاء لهم مهمة في أثناء الجهاد، وهم في المدينة لهم دعوة إلى الله، النصح لكل مسلم، لهم إقناع المنافقين بأحقية هذا الجهاد، عندهم مهمات كبيرة، منها: تعزيز الجهاد في الإسلام، منها: رفع قيمة المجاهدين، منها: بيان حكمة الجهاد، منها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنت في المدينة، وأصحابك في تبوك يجاهدون، لك دور في المدينة، منها: أن ترعى أهلهم، أن ترعى صغارهم، أن ترعى أهليهم.

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ)

أي دعوا إلى الجهاد، بينوا قيمة المجاهدين، بينوا فرضية الجهاد، بينوا نتائج الجهاد، هذه:

(نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ)

أو أحسنوا إلى المجتمع، هناك دعوة إلى الله في عيادة مريض، في إطعام أرملة، أو مسكين، أو يتيم.

المتخلف عن الجهاد معذور لمرض أو فقر أو عدم تأمين راحلة :

(مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

المتخلف عن الجهاد معذور إما مريض، أو فقير، عندنا حالة ثالثة: القوة إما أن تكون في صحتك، أو قوياً في مالك، أو تملك أساليب الجهاد، عندك سيف، أو فرس، أو عندك دابة، فأحياناً الإنسان يكون قوياً بصحته، ويملك قوت يومه، لكن لا يوجد عنده راحلة قال:

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنَاً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

[سورة التوبة]

تحملهم على دابة، عنده صحة، وعنده مال، لكن لا يوجد عنده راحلة.

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنَاً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

هذا إنسان مستثنى، هذا فقير، أو ضعيف، أو صحيح قوي، لكن لا يوجد عنده دابة تحمله، فجاء النبي يرجوه أن يؤمن له دابة، قال له: والله لا أجد، ما عندي، تولى، رجع إلى بيته وهو يبكي، من شدة ألمه، ومن شدة حزنه على ما فاته من هذا الفضل الكبير،

(تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنَاً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا :

لذلك علة وجودك في الدنيا العمل الصالح، والإنسان المؤمن في صلاة الفجر يقول: اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك، نحن أحياناً نعمل عملاً صالحاً لكن بشكل عرضي، علة وجودك في الدنيا بعد الإيمان بالله العمل الصالح لأن العمل الصالح يرفعك، ولأن الإنسان لما جاءه ملك الموت لا يندم إلا على عمل صالح فاته، قال:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

إذاً هؤلاء الذين كانوا ضعفاء، أو كانوا مرضى، أو ما عندهم ما ينفقون على أهلهم في غيابهم، ولا على أنفسهم في مشاركتهم، ما عليهم حرج لكنهم ينصحون بالجهاد، ويرفعون قيمة المجاهدين، هذه الفريضة، إذا نصحوا لله ورسوله، بل إذا دعوا إلى الله، أو أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر،

(مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لتخلفهم عن الجهاد لأنهم معذورون،

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ)

الغدد الدمعية نعمة لا تقدر بثمن :

بالمناسبة: الإنسان عنده غدد دمعية، هذه حينما تفرز مفرزاتها ترطب العين وتسهل حركة الأجفان، لكن في الحزن الشديد هذه الغدد تفرز دموعاً أكثر من الوضع الطبيعي، عندئذٍ تفيض العين بدموعها،

البكاء هو إفراز دموع أكثر من المصرف، بمقل العين هناك قناة تتصل بالأنف، فالدموع الزائدة عن تصرف القناة الدقيقة جداً تتجه إلى الأنف.

مرة حدثني أخ قال لي: أنا عندي مشكلة كبيرة، هذه القناة الدمعية مسدودة، فدائماً الدمع يفيض، من فيضان الدمع المستمر صار هناك خطأ على خدي، لأن الدمع فيه مادة قلوية، إذاً هناك نعمة لا تخطر في بال الإنسان، أن هذه القناة التي تصرف الدمع إلى الأنف سالكة، لو أنها ليست سالكة هناك مشكلة كبيرة، يتشوه الوجه:

(تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

من أعرض عن الله و أصرّ على إعراضه لا يعي على خير :

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة التوبة]

من هو المؤاخذ؟ من هو المعاتب؟ من هو الملوم؟ من هو الكاذب؟

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ)

قوي، غني، ومعه درعه، ومعه سيفه، ومعه ناقة، ومعه فرس:

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ)

الخوالف قال المفسرون: هم النساء اللواتي أُمرن أن يبقين في بيوتهن ليرعوا أزواجهم وأولادهم.

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

الطبع هنا أن الإنسان إذا أعرض عن الله عز وجل، وأصر على الإعراض عندئذٍ يغلف قلبه، عندئذٍ لا يعي على خير، هذا الطبع تحصيل حاصل.

لو أن الباب الخارجي لهذا المسجد أُحكم وأُغلق، فهذا الباب مفتوح، لكن لا قيمة له ما دام الباب الخارجي مغلقاً فكأن هذا مغلق أيضاً.

فأحياناً يكون هناك طبعاً من صنع الإنسان، لما أعرض عن الله عز وجل، والنبي الكريم يقول:

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

[أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء]

الإنسان آثر شهوته، أحبها، إذاً هو لا يعي على خير.

إذاً:

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (58-70) : تفسير الآيات 94-99، لا اعتذار بعد النفاق فالمنافق كافر، والأعراب هم أهل البادية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-06-24

بسم الله الرحمن الرحيم

من يغيب عن الجهاد و يؤثر المقام في البيت فلابد من أن يختلق الأعذار الواهية :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والتسعين وما بعدها وهي قوله تعالى:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

أيها الأخوة الكرام، لا زالت هذه الآيات في سورة التوبة تتحدث عن المنافقين، ولعل سورة التوبة من أبرز السور التي عالجت موضوع النفاق بشكل تفصيلي.

فهؤلاء المنافقون حينما يغيبون عن الجهاد، ويؤثرون المقام في بيوتهم، مع أهلهم وأولاده، ولا يجشمون أنفسهم مشقة مشاركة المؤمنين في الجهاد، هؤلاء من أجل الحفاظ على مكانتهم لابد من أن يختلقوا الأعذار الواهية غير الصحيحة.

هم:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ)

أيها المؤمنون، يا أصحاب رسول الله، حينما تعودون من الجهاد، إلى بلدكم المدينة، والمنافون لم يشاركوا معكم لابد من موقف ترميمي، من أجل الحفاظ على مكانتهم، هم:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ)

حينما ترجعون إليهم من الجهاد.

(قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ)

قال: آمنت به، أي اعتقدت به، آمنت له أي صدقته، الإيمان بالله شيء والإيمان مع الله بمعنى آخر.

(قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ)

أي لن نصدقكم، أنتم كاذبون.

الإنسان الكاذب كذبه يدل عليه والمؤمن أوتي فراسة ينظر بنور الله :

بالمناسبة: المؤمن من أبرز علائم إيمانه أن القضية التي فيها آية قرآنية واضحة لا يخضعها للمناقشة إطلاقاً، المؤمن الصادق فيما ذكر الله في كتابه الكريم من حكم متعلق بموضوع هذا الموضوع غير قابل للبحث، الدليل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ)

[سورة الأحزاب الآية: 26]

وهذه ما كان من أشد صيغ النفي، هذا اسمه نفي الشأن، قد تقول لإنسان محترم: هل أنت سارق؟ مستحيل أن يقول لك: لا، يقول لك: ما كان لي أن أسرق، مستحيل وألف ألف مستحيل لا أفكر، ولا أقر، ولا أشجع، ولا أرضى، ولا، ولا، بعض العلماء عدوا أكثر من عشرة أفعال يتضمنها هذا النفي، يقول: ما كان لي أن أسرق.

فالله عز وجل في هذه الآية:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ)

يقدمون اعتذاراً واهياً، والاعتذار مكشوف، سبحان الله! الإنسان الكاذب كذبه يدل عليه، والمؤمن أوتي فراسة:

((اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمن، فإنه يَنظُرُ بنورِ اللّه))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

فالإنسان بإمكانه أن يخدع الناس لبعض الوقت، أو أن يخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن يخدعهم جميعاً لكل الوقت فهذا مستحيل، فكيف إذا كانوا أصحاب رسول الله؟ المؤمن معه نور، والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد الآية: 28]

الصفة الصارخة بالمؤمن بقلبه نور، هذا النور يريه الحق حقاً والباطل باطلاً.

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة في الكون :

الإنسان بالمناسبة كائن متحرك، ما الذي يحركه؟ الحاجة إلى الطعام والشراب، حفاظاً على وجوده كفرد، هذه أول حاجة، الحاجة إلى الزواج، حفاظاً على وجود النوع، الثالثة الحاجة إلى تأكيد الذكر، تأكيد الذات، الإنسان لا يكفي أن يكون موجوداً، ويأكل ويشرب، عنده حاجة كبيرة جداً، هذه الحاجة لعل الله خلقها فيه، لأنه قَبل حمل الأمانة، لما قَبل حمل الأمانة- والآن سأذكر فكرة خطيرة جداً- لأنك

أيها الإنسان حينما عرض الله على البشر الأمانة قبلت أن تحملها، فلما قبلت أن تحملها أصبحت المخلوق الأول عند الله، والدليل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

هل يغيب عن ذهنك أنك المخلوق الأول؟ المخلوق الأول رتبة في الكون،

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)

على كل المخلوقات،

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

الآية الكريمة تقول:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب]

ممكن أن تقرأ الآيات قراءة استفهامية، هل كان مخطئاً؟ لا.

إذا أب عنده عشرة أولاد، قال: من يأتي بالدكتوراه من أمريكا أعطيه المعمل كله، فقال له أحدهم: أنا، هذا الابن الطموح الذي عنده آفاق واسعة جداً، هل كان مخطئاً بهذا العرض؟ لا، أما إذا ذهب إلى هناك ولم يدرس، فما له شيء عند أبيه، الآن صار ظلوماً جهولاً.

الفلاح و النجاح :

هذه الآية تقرأ بطريقتين:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

لا، لم يكن ظلوماً جهولاً حينما قبل حمل الأمانة، لكنه إذا لم يحملها:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

تقرأ قراءة استفهامية، وقراءة إقرارية، فهذا الإنسان هو المخلوق الأول، والله كلفه بحمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيه سلمه الله إياها، والدليل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس]

كلمة الفلاح بالقرآن دقيقة جداً، نحن نستخدم كلمة النجاح، النجاح أن تنجح في جمع المال مثلاً، أن تنجح في تسلم منصب رفيع، أن تنجح في قيادة مجموعة من الناس، هذا نجاح، لكن الفلاح أن تحقق

الهدف الذي خلقت من أجله، الفلاح أن تجمع بين الدنيا والآخرة، أن تكون في الدنيا طائعاً، وفي الآخرة متفوقاً، فهذا الفلاح له معنى دقيق جداً، نجاح شمولي، نجاح من بدايات الحياة الدنيا وإلى أبد الآبدين، نجاح بأعلى درجة من مستويات النجاح، نجاح في تحقيق الهدف الذي خلقت من أجله، يسمى فلاحاً.

المؤمن لا يخضع أي موضوع فيه حكم إلهي للمناقشة إطلاقاً :

هؤلاء المنافقون يعتذرون حفاظاً على مكانتهم، لأن الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، غذاء العقل العلم، وغذاء القلب الحب، وغذاء الجسم الطعام والشراب، فحينما يعبر عن محبته للحق مثلاً، محبته للدين، بهذا يرتقي عند الناس، فالمنافق هو في حياته الخاصة لا يطبق شيئاً من الدين، متلفت كالكافر، لكن يريد مكسباً اجتماعياً، أن يكون مع المؤمنين في مكانتهم، وفي مكاسبهم، فهو ينافق لهم.

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ)

الجواب من الصحابة:

(قُلْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ)

أي لن نصدقكم،

(قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ)

أقول مرة ثانية: أي موضوع فيه حكم إلهي المؤمن لا يخضعه للمناقشة إطلاقاً.

في بعض المؤتمرات يقال: عندنا مجموعة موضوعات لا يمكن أن تدخل في برنامج المؤتمر، هذه مسلمات، ممنوع أن تكون مكان مناقشة.

وأنا أقول: أي موضوع ذكره الله في القرآن بحكم قطعي هذا الموضوع غير قابل للمناقشة إطلاقاً، ما كان الله،

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ)

(إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

الله أمر بحجاب المرأة، هذا الموضوع غير قابل للبحث، بمعنى لو أنها كانت سافرة هي نصف المجتمع، هناك حجج واهية تطرح في بعض المجلات، أنت كمؤمن ما دام هناك حكماً إلهياً بقضية معينة، واضحاً، قطعي الدلالة، هذه الأحكام قطعية الدلالة في القرآن لا يمكنك كمؤمن أن تدخلها في المناقشة،

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

فهذا الذي جعل المؤمنين يقولون:

(لَا تَعْتَذِرُوا)

الله عز وجل أخبرنا عنكم، إنكم منافقون، إنكم كاذبون، إنكم تريدون أن تجمعوا بين مكاسب المؤمنين وتفلت الكافرين:

(وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ)

الإنسان مخلوق أول مكرم و مكلف :

بالمناسبة: أنت أيها الإنسان مخلوق أول، والآية معروفة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

وأنت مخلوق أيضاً مكرم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء]

وأنت المخلوق المكلف، مكلف أن تعبد الله.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

فأنت أولاً: مكرم، وثانياً: أول، وثالثاً: مكلف، فأنت مكلف بعبادة الله عز وجل، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

هؤلاء:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ)

المؤمن أكرمه الله بالوحي، وحي السماء الحق المطلق، ومعه سنة النبي هي شرح لهذا الوحي، معه الكتاب والسنة، فأي موضوع يتناقض مع الكتاب والسنة يركله بقدمه، أما أنه يصدق كل شيء فيكون إنساناً أحمقاً.

العمر لا يتسع لاستيعاب الباطل ولكنه يكفي لاستيعاب الحق :

الحقيقة الإنسان إذا عاش كل عمره من أجل أن يتطلع على الثقافات المتنوعة لا يكفي عمره، من أجل أن تحيط بثقافة جهة معينة، أو أمة معينة، أو عصر معين، تحتاج إلى عشرات السنين، فالعمر لا يتسع

لاستيعاب الباطل، ولكنه يكفي لاستيعاب الحق، بين نقطتين يمر خط مستقيم ، ممكن أن تمرر مليون خط منحن أو منكسر، بين نقطتين، فالحق واحد لا يتعدد، فإذا استوعبته العمر يكفي لاستيعاب الحق، ما سواه باطل، أما هناك إنسان يضيع ثلاثين سنة في استيعاب عقيدة طائفة معينة، عمرك ثمين جداً، يجب أن تمضي هذا الوقت باستيعاب الحق الذي خلقت من أجله، أما استيعاب الباطل فشبه مستحيل، بل مستحيل وألف ألف مستحيل، الباطل متنوع.

أوضح مثل: نقطتان هناك خط مستقيم واحد بينهما، أما ممكن أن ترسم مليون خط منحنٍ أو منكسر بينهما فهذا الباطل، الباطل متنوع، لذلك الآية الكريمة:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام الآية: 135]

فجاء الباطل جمعاً دائماً، آية ثانية:

(وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة المائدة الآية: 16]

ما قال إلى الأنوار، نور واحد وفيه ظلمات بعضها فوق بعض.

إذاً المؤمن معه وحي السماء، معه الحق المطلق، وحي السماء حق مطلق، وشرح النبي المعصوم شرح مطلق.

((تَرَكْتُ فيكُمْ أمْرَيْنِ لنْ تَضِلُّوا ما تَمسَّكْتُمْ بهما: كتابَ اللهِ، وسنَّةَ رسولِهِ))

[أخرجه مالك عن بلاغ بن مالك]

أي ما صح من هذه السنة.

الجهة الصانعة هي الجهة الوحيد التي ينبغي على الإنسان أن يتبع تعليماتها :

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ)

المؤمن يستوعب ما قاله الله للمؤمنين والكفار والمنافقين، فمعه تقييم إلهي، أنت أحياناً عندك آلة غالية جداً، لكن معها بطاقة، أو معها كتيب من معمل الصانع، أصح فكرة وأصح معلومة عن هذه الآلة ما جاء في هذا الكتيب، لأنها من عند الصانع، بل إن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيد التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، والدليل قوله تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر]

الله عز وجل هو الخبير، خبير بما تعلمون.

بطولة الإنسان ألا يسمح للخواطر السيئة أن تسيطر عليه :

(قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ)

الله عز وجل يعلم حقيقة هذا الإنسان، لكن هو لا يحاسب إلا على العمل الذي يأتيه الإنسان في الدنيا، علم الله الأزلي لا يكون سبب هلاك أو شقاء أو سعادة، أما السبب الحقيقي فهو العمل، فالإنسان يأتي إلى الدنيا كي يعبر عن ذاته بخير أو بشر، في هذا الخير الذي انقلب إلى سلوك، إلى عمل، هنا يحاسب الإنسان عليه، وهذا من فضل الله علينا، معنى ذلك أن هناك خاطر سيئ لا تحاسب عليه، أي خاطر مهما كان سيئاً لا تحاسب عليه، لكن تحاسب على العمل، لكن هناك ملاحظة: هذا الخاطر السيئ إن لم ترفضه ينقلب إلى سلوك، لو أنك قبلته تابعته تفاجئ بعد وقت أنه أصبح سلوكاً، فالبطولة أن الإنسان لا يسمح للخواطر السيئة أن يستمر بها.

الأمور بنواياها :

(وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الذي عمل العمل هو أدرى به، فما معنى أن الله عز وجل ينبئ هذا الإنسان بما كان يعمل؟ ينبئ الإنسان بخلفيات هذا العمل، بأهداف هذا العمل، بنوايا هذا العمل، العمل له شكل ظاهر، وله خلفيات. إذا أنت لا سمح الله ولا قدر إنسان له عدو فقدم له طعاماً نفيساً جداً وهو يعلم علم اليقين بأن هذا الطعام يؤذيه، يحاسب كإنسان مؤذ، قدم طعاماً نفيساً، هو طبيب، قدم طعاماً نفيساً، يعلم أن هذا الطعام يفاقم مرضه، فهو لا يحاسب على أنه قدم له طعاماً، هدية،لا، قدم له شيئاً يؤذيه فالأمور بنواياها، والحديث المتواتر الأول:

((إنما الأعمال بالنيات))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب]

أحياناً تعطي ابنك دواء مراً، وتجبره عليه، لك أجر كبير، مع أنه مر، وقد يقدم إنسان طعاماً لعدوه نفيساً لكنه يؤذيه، فالعمل يقيم بنيته فقط، والنية لا يعلمها إلا الله:

(قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة التوبة]

الله عز وجل طليق الإرادة :

النقطة الدقيقة بإعجاز القرآن الكريم أن الله يقول:

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ)

هم لم يحلفوا بعد، الله عز وجل قال:

(سَيَحْلِفُونَ)

لو أنهم فكروا قليلاً ولم يحلفوا لأبطلوا هذه الآية، ولكن الله كما يقال طليق الإرادة، هم قيل لهم قبل أن يحلفوا سوف تحلفون، فإذا لم يحلفوا ألغوا الآية، لكن هذا الشيء لا يمكن إلا أن يكون، لأنه من عند الله عز وجل.

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ)

(انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ)

أي رجعتم إليهم، بعدما انتهى الجهاد وعاد المجاهدون إلى المدينة.

(لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ)

هنا لها معنى دقيق:

(لِتُعْرِضُوا)

عن اتهامهم بالنفاق

(لِتُعْرِضُوا)

عن لومهم،

(لِتُعْرِضُوا)

عن محاسبتهم،

(لِتُعْرِضُوا)

عن ذمهم.

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ)

فالله عز وجل قال طمئنوهم،

(فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ)

دعه وشأنه، الله يحاسبه، الإنسان المؤمن يترفع عن الدخول في المتاهات، والمناقشات، والعلل التي وراءها متاعب كثيرة، هو عرف الله عز وجل فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، هذا دعه وشأنه.

المنافق إنسان كذاب يأخذ ما ليس له و يوقع بين الناس :

يقول الله:

(فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ)

أما الشيء المخيف فقال:

(إِنَّهُمْ رِجْسٌ)

أحياناً يكون عندك ثوب نجس، أي ملوث بالنجاسة، تغسله فيطهر، فالنجس صفة لشيء أصابته نجاسة، أما النَجس فهل يطهر؟ مستحيل، عين النجاسة، فهذا ملمح باللغة دقيقة جداً.

قال:

(إِنَّهُمْ رِجْسٌ)

هم عين النجاسة، عين النجاسة لا تطهر، المادة القذرة هذه تزيلها، أما هي نفسها فتطهر؟ هي القذر بنفسه.

(إِنَّهُمْ رِجْسٌ)

معنى رجس كذاب، منافق، يأخذ ما ليس له، يحتال، يوهم الناس، يوقع بين الناس، مصلحته قد تفرق، فيفرق بين الأم وابنها، دائماً الطرف الآخر خططه كلها للشعوب الأخرى أضعاف، قهر، إذلال، إفساد، إشاعة الفحشاء، شيء واضح جداً، فالغرب عندما يحتل بلداً يريد أن يشيع فيه الفحشاء، والإنسان حينما يشيع الفحشاء في بلد يسهل عليه حكمه، المؤمن قوي، المؤمن كريم، عزيز، أما المنحرف أخلاقياً ضعفت شخصيته فأصبح تابعاً.

المنافقون هم عين النجاسة :

لذلك في بعض الأحاديث الدقيقة جداً أنه بآخر الزمان هناك أقوياء، وطغاة، ورجالهم معهم سياط، يجلدون فيها الناس، الحديث معروف لكن الحديث نفسه له تتمة:

((ونِساء كاسيات عاريات))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

الشيء الذي يلفت النظر لماذا جمع النبي الكريم رجال أقوياء يجلدون الناس بسياطهم مع نساء كاسيات عاريات؟ هذا الجمع استنبطه بعض العلماء أن الحاكم القوي أحد أسباب قوته أن يشيع الفحشاء في مجتمعه، حتى يضعفوا فينصاعوا لحكمه، طبعاً حكم الظالم أقصد.

إذاً:

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ)

أي لا يوجد صفة أبلغ من هذه الصفة، هم عين النجاسة، نجاسة أخلاقية، الكذاب نجس، المنافق نجس، المحتال نجس، الذي يبالغ في الأمور حتى يبتز أموال الناس نجس، فالإنسان الكامل كما قال بعضهم: مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً.

مكارم الأخلاق أكبر ثمرة من ثمرات الصلاة :

أنا أقول لكم هذه الكلمة دقيقة جداً، أرجو الله أن تكون واضحة قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت]

من أدق ما قاله الإمام ابن عباس الصحابي الجليل: " إن ذكر الله لك أيها المصلي أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، لكنه إذا ذكرك منحك الرحمة، منحك العدل، منحك الحلم، منحك الرضا، منحك اليقين، منحك مكارم الأخلاق"، أكبر ثمرة من ثمرات الصلاة مكارم الأخلاق، وحينما غفلنا عن هذه الثمرة الصلاة لم تكن كما أرادها الله عز وجل من هنا ورد:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي - أي فكر بالكون، عرف عظمة الله - ولم يصر على معصيتي - استقام على أمر الله - وأطعم الجائع، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي - إخلاص هذا - وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

والحديث طويل.

نية الإنسان لفعل معصية هي الكسب الذي سيحاسب عليه :

إذاً

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هذا الكسب هو من صنع الإنسان، الحركة من الله، القوة من الله، أما نية التوجه إلى معصية فهذا من الإنسان، والدليل:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة الآية: 286]

ما الذي تحاسب عليه؟ هذه النية لفعل طاعة أو معصية، فنية الإنسان لفعل معصية هي الكسب الذي سيحاسب عليه، أما القوة فقوة الله عز وجل، والعمل الصالح يحتاج إلى قوة وهي من الله، لكن نية المؤمن في تقديم هذه الخدمة هي التي يكافئ الله عليها، هذه النية التي انعقدت في نفسه في خدمة الناس هي سبب المكافأة من الله له.

من أطاع الله أطاعه كل شيء :

الآن:

(يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

انظر الإنسان المؤمن متعلق بالله عز وجل، إذا أرضى الله أرضى الله عنه كل شيء، من هاب الله هابه كل شيء، من أرضى الله أرضى الله عنه كل شيء، إذا إنسان أرضى الله عز وجل يلقي الله محبته في قلوب الخلق، يلقي هيبته في قلوب الخلق، يلقي في قلوب الخلق رغبة في طاعته، من أطاع الله أطاعه كل شيء، من هاب الله هابه كل شيء.

إذاً:

(يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

هنا الشاهد لو أن أهل الأرض جميعاً رضوا عن إنسان، ولم يكن الله راضياً عنه ما استفاد شيئاً، الأصل رضاء الله عز وجل، فإذا رضي الله عنك أرضى عنك كل الخلق، لذلك:

((من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه))

[أخرجه الترمذي والإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين]

لذلك: إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، المؤمن موحد، المؤمن يتجه إلى جهة واحدة، أما غير المؤمن فعليه أن يتجه إلى جهات عديدة جداً.

(يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

البطولة أن يرضى الله عنك لا أن يرضى عنك الناس، قد يرضى الناس عنك والله ليس راضياً عنك، لا قيمة لهذا الرضا إطلاقاً.

الموضوعية قيمة أخلاقية و علمية :

ثم يقول الله عز وجل:

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُود مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة التوبة]

كيف؟ هناك تعليل لطيف، الأعراب سكان البادية، وهناك سكان المدن، بالمدينة يوجد علم، ومساجد، ومدارس، ومعاهد، ودروس علم، وخطباء، الريف قد يكون جميلاً وهادئاً، لكن لا يوجد علم، هنا أكثر المفسرين قالوا: الأعراب الذين اختاروا البادية، البادية هادئة، لكن لا يوجد فيها علم.

((من بدا جفا))

[أخرجه أبو يعلى عن البراء]

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ)

بعدهم عن منابع العلم جعلهم بهذه الجفوة، وهذا التكذيب أحياناً.

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

لكن الشيء الذي يلفت النظر ما يسمى بالموضوعية، الموضوعية أخواننا الكرام، قيمة أخلاقية، وقيمة علمية، إذا كنت موضوعياً فأنت أخلاقي، وإذا كنت موضوعياً أنت عالم، قيمة أخلاقية، وقيمة موضوعية، وقيمة علمية في الوقت نفسه، أنا أتمنى أن يكون الإنسان موضوعياً، الآن مثلاً:

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة]

لا يوجد حكم مطلق، مرة كنا في الجامعة أثناء مناقشة الدكتوراه قال الأستاذ المشرف للذي يدلي بملخص أطروحته: في هذه العبارة تعميم، قال له: والتعميم من العمى.

الأعمى يعمم، أما كلما ارتقى علمك فلا تعمم، الحكم الموضوعي دليل علمك، ودليل أخلاقك، أنت إذا كنت موضوعياً فأنت عالم، وأنت إذا كنت موضوعياً فأنت أخلاقي.

مثلاً: الأسرى مروا أمام النبي في بدر، وكان صهره بينهم، زوج زينب، سعد بن الربيع قال: "والله ما ذممناه صهراً"، انظر إلى الموضوعية، هو الآن مشرك، وجاء ليقاتل النبي، وقد يقتله، أما لما استعرض الأسرى فقال: "والله ما ذممناه صهراً".

فأنت بالموضوعية تكون عالماً، بالموضوعية تكون أخلاقياً.

إذاً:

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً)

والأعراب سكان البادية، والبادية لا يوجد فيها علم، العلم فيها ضعيف جداً، الآن نحن عندنا بواد، خيام، وغنم، ومنتجات زراعية، لكن جامعة ومدارس بالبادية لا يوجد.

حاجة العلم إلى التفرغ :

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ)

يقول الإمام الشافعي: لو كلفت شراء بصلة ما تعلمت مسألة.

العلم يحتاج إلى تفرغ، إلى جامع، إلى مجلس علم، الإنسان حتى يضع على بطاقته د. جانب اسمه، د. يعني دكتور يكون معه ابتدائية، وإعدادية، وثانوية، ولسانس، ودبلوم عامة، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه، ثماني شهادات حتى يضع د.، تريد أن تقول: أنا مؤمن ولك الجنة وما قدمت شيئاً لهذه الجنة؟ لا قدمت علماً، ولا طلبت علماً، لا قرأت كتاباً، ولا فهمت القرآن، مستحيل.

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

هذه دعوة إلى أن تكون مع دور العلم، مع ينابيع العلم، مع مكان فيه علم، مع مكان فيه توجيه، الأولى أن تكون في مجلس علم، مع شيخ في مسجد، في تفسير، في حديث، في سيرة، في فقه، هذا العلم علم مصيري، نحن أحياناً نفرق بين شيء مصيري وشيء غير مصيري، إذا الإنسان عرف الله عرف كل شيء.

أنواع العلم :

كنت أقول دائماً: إن كل علم ممتع على الإطلاق، أنا أضرب مثلاً بسيطاً أن الإلياذة والأوديسة هي قصائد مشهورة جداً في العصور القديمة، قبل الميلاد، لكن تتحدث عن آلهة، الأفكار كلها غير صحيحة، لكن يبدو فيها نظم عميق جداً، الإلياذة والأوديسة ممتعة لكن غير صحيحة، هناك علم ممتع ونافع، أنت أخذت شهادة عليا نادرة، فيزياء نووية، لك دخل كبير، صار هذا علماً ممتعاً مع أنه ممتع نافع، لكن هناك علم ممتع، نافع، مسعد، هو العلم الشرعي، هذا العلم نفعك في دنياك وفي آخرتك، هذا العلم كان سبب دخولك الجنة، فابحث عن علم ممتع، نافع مسعد، هناك علم ممتع فقط، أي علم. أحياناً مثلاً تقرأ قصيدة و هي عبارة عن ألف بيت، بموضوع معين، لكن هذا الموضوع لا يقدم ولا يؤخر هذا علم ممتع، هناك علم ممتع نافع مسعد.

المنافق يرى أن الإنفاق خطأ كبير و خسارة كبيرة :

الأعراب ابتعدوا عن ينابيع العلم، سكنوا البادية:

(أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ)

بعضهم المنافق،

(مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً)

العمل الصالح يعد خسارة كبيرة، يقولون: إن أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الجنة أم من أهل النار ما الذي يسعدك أن تعطي أم أن تأخذ؟ الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء ملكوا القلوب، الأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء يمدحون في غيبتهم، الأقوياء في حضرتهم، الأنبياء عاشوا للناس، الأقوياء عاش الناس لهم.

إذاً:

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً)

يعد الإنفاق خطأ كبيراً، ومغرماً كبيراً، وخسارة كبيرة، ما رأى الله، ما رأى ما عند الله، ما عمل للجنة، ينفق، ادعى أنه مؤمن فلابد من أن ينفق، فإنفاقه في إكراه.

من ارتاحت نفسه لمصيبة ألمت بأخيه فهو منافق :

(وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ)

بالمناسبة أخواننا: إذا ارتاحت نفسك بمصيبة ألمت بالمؤمن فاعلم أن هذا نوع من النفاق، الدليل:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 50]

هذا مقياس، المؤمن مستقيم، طاهر، جاءته مصيبة أنت ارتحت، يمكن أن تعزيه، يمكن أن تتصنع الألم من أجله، لكن بأعماقك مرتاحاً، ما دام هناك راحة لهذه المصيبة التي أصابت المؤمن فاعلم علم اليقين أن هذا نوع من النفاق.

فالمنافق:

(وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ)

المصائب، ينتظر مصيبة تريحه.

قال:

(عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

المصائب سوف تنزل إليهم،

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

إذا تكلمت سميع، سكتت، وفكرت بأعماقك عليم، إن تحركت بصير، تحركت، نطقت سميع، لا تحركت ولا نطقت، أضمرت شيئاً، عليم، أنت مستهدف، إن تحركت فهو عليم، وإن تكلمت فهو سميع، أضمرت فهو عليم.

من تقرب إلى الله بعلم أو بعمل فله الجنة :

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة التوبة]

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ)

انظر إلى التوازن والموضوعية،

(مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ)

يتقرب إلى الله بإنفاقه.

(وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ)

أي يحضر مجلس علم له صلة مع رسول الله.

(أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ)

أحد القرب القرب عن طريق العلم، أو عن طريق العمل، علم وعمل، إن جلست مجلساً لرسول الله، أو لعالم صادق فأنت قدمت قربة علم، وإذا عملت عملاً صالحاً قدمت قربة عمل،

(أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ)

الرد الإلهي:

(سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ)

أي في الجنة

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (59-70) : تفسير الآيات 100-102، الموت نهاية كل حي، وبداية حياة أبدية، ممكن أن تخدع الناس، ولكن مستحيل أن تخدع الله ثم تخدع نفسك.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-07-01

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل الصالح علة وجودنا في الدنيا بعد الإيمان بالله :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية المئة وما بعدها وهي قوله تعالى:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء: إن علة وجودنا في الدنيا بعد الإيمان بالله هو العمل الصالح، والعمل الصالح يرقى بنا إلى الله، بل هو ثمن الجنة، بل إن العمل الصالح من خلاله يتفاوت الناس في مكانتهم عند الله عز وجل.

فلذلك حينما كلفنا أن نعرفه أولاً، وأن نعبده ثانياً، وأن نتقرب إليه ثالثاً، التقرب إليه بالعمل الصالح، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك.

فهؤلاء الذين سبقوا عند الله لهم أعمال صالحة جداً بسبب إصرارهم ورغبتهم في مرضاة الله سبحانه وتعالى، فأجرى الله على أيديهم الخير:

((عبدي أنا خلقت الخير والشر، فطوبى لمن قدرت على يده الخير، وويل لمن قدرت على يده الشر))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

هؤلاء السابقون من أصحاب رسول الله، أصحاب النبي الكريم بعضهم من مكة المكرمة، وبعضهم من المدينة، فالذين سبقوا إلى الإيمان في مكة، والذين سبقوا إلى نصرة النبي في المدينة، هؤلاء الذي تعنيهم هذه الآية.

التسابق في الدنيا فيه حمق كبير لأن الموت ينهي كل شيء :

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ)

الذي يلفت النظر أن التسابق في الدنيا حمق كبير لماذا؟ لأن الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي وسامة الوسيم، ينهي دمامة الدميم،

الموت ينهي كل شيء، فالتسابق في الدنيا حمق وأي حمق، ولأوضح هذه الحقيقة بمثل: لو أجرينا تسابقاً كبيراً بين السيارات، سيارة كبيرة، صغيرة، حديثة، قديمة، محرك بأعلى مستوى، بأدنى مستوى، في نهاية هذا الطريق وادٍ سحيق، فكل هذه السيارات بعد أن بلغت نهاية الطريق سقطت في الوادي، فما قيمة هذا التسابق؟.

التسابق في الدنيا فيه حمق كبير لأن الموت ينهي كل شيء، ينهي القوي، والضعيف، والوسيم، والدميم، والذكي، والغبي، ينهي كل أنواع البشر، فلأن الموت جعله الله نهاية الحياة الدنيا فالتسابق في الدنيا تسابق إلى مجهول، تسابق إلى لا شيء، أما البطولة أن تتسابق إلى مراتب الآخرة، لذلك قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات]

التسابق في عمل الآخرة ينتهي بجنة عرضها السموات والأرض :

الله عز وجل أرادنا أن نتسابق في عمل الآخرة لأن هذا التسابق ينتهي بجنة عرضها السموات والأرض إلى أبد الآبدين، ولا أحد بإمكان عقله أن يتصور الأبد، ماذا أقول لكم؟ أكبر رقم تتصوره في الكون إذا نسب إلى الأبد فهو صفر، واحد في الأرض أصفار للشمس، للمريخ للمشتري، لبلوتو، إلى أبعد نجم في الأرض.

بالمناسبة: بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، والموضوع طويل، لكن باختصار لو كان هناك طريقاً يصل لهذا النجم، وركبت مركبة أرضية تحتاج أن تصل إليه إلى أقرب نجم ملتهب يبعد عنا أربع سنوات ضوئية إلى خمسين مليون عام، فبعض المجرات التي اكتشفت حديثاً والتي تبعد عنا أربعة و عشرين ألف مليون سنة، هذه المجرات متى نصل إليها؟! أما إذا قرأت قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة]

لذلك:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر]

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا أذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لا يعطيك شيئاً.

الموت نهاية كل حيّ وبداية كل حياة أبدية :

الله أرادنا أن نتسابق، أن نتنافس في الآخرة، لأنها دار القرار، لأنها دار النعيم المقيم، لأنها دار الخلد، لأنها دار الأبد، أما التنافس على الدنيا ففيه حمق وأي حمق، لأن الموت ينهي قوة القوي وضعف الضعيف، وغنى الغني وفقر الفقير.

مرة اطلعت على كتاب من أربعة أجزاء حول قصص العرب، بعد أن قرأت هذا الكتاب وصلت إلى هذه النتيجة، الأقوياء ماتوا، الضعفاء ماتوا، الأغنياء ماتوا، الفقراء ماتوا، الأذكياء ماتوا، الحمقى ماتوا، كل هؤلاء البشر الذين قرأت عنهم في هذه المجلدات الأربع ماتوا إذاً الموت نهاية كل حي وبداية كل حياة أبدية.

لذلك أيها الأخوة، كل مصائب الدنيا تنتهي عند الموت، وكل متاعب الآخرة تبدأ بعد الموت، تبدأ ولا تنتهي، أما مصائب الدنيا فتنتهي عند الموت، فالإنسان الذي أصيب بمرض عضال الموت ينهي هذا المرض، والفقير ينتهي فقره، فالتنافس يجب أن يكون على عمل الآخرة، والآية الكريمة:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

هنا:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ)

تسابقوا في العمل الصالح، تسابقوا في معرفة الله، تسابقوا في الإخلاص لله، تسابقوا في خدمة البشر، تسابقوا فيما يقربهم من الله عز وجل.

الإنسان حينما يولد أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى :

إذاً:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ)

هذه الآية تلقي ضوءاً على هذه الآيات التي نحن بصددها، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

لماذا؟ هذه اللام لام التعليل:

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: 2]

لكن لماذا بدأ بالموت؟ بدأ بالموت لأنه بالنسبة إلينا أخطر من الحياة، الإنسان حينما يولد أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى، أما إذا وافته المنية فأمام خيارين لا ثالث لهما.

((فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[الجامع الصغير عَنْ حَمْزَةَ بْن حُمْرَانَ]

حينما يولد أمام خيارات لا تعد ولا تحصى، أما حينما يأتيه ملك الموت فأمام خيارين لا ثالث لهما.

لذلك مرت جنازة أمام النبي عليه الصلاة والسلام فقال كلمة رائعة، قال:

((مستريح، أو مُسْتَراح منه، فقالوا: يا رسول الله ما المستريحُ وما المستَراح منه؟ فقال: العبد المؤمنُ يستريح من نَصَب الدنيا، والعبد الفاجر يستريح منه العبادُ والبلادُ والشجر والدواب))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ومالك عن أبي قتادة]

كل شيء يرتاح منه، لذلك السبق هنا سبق بمعرفة الله، سبق إيمان به، سبق عمل صالح، سبق استقامة.

من يتبع أصحاب النبي في منهجهم واستقامتهم وسلوكهم يتبعهم بإحسان :

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ)

المهاجرون تسابقوا، وفيهم السابق واللاحق، والأنصار تسابقوا، وفيهم السابق واللاحق.

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)

ما معنى اتبعوهم بإحسان؟ حينما تتبعُ أصحاب النبي في منهجهم، في استقامتهم، في سلوكهم، في إخلاصهم، في محبتهم لله، اتبعتهم بإحسان، إذا كان هناك مشكلة مرت أنت لا تجعل همك أن تكبّر هذه المشكلة، وأن تجعلها منهجاً، هذا عمل القناصين، عمل المنحرفين، عمل أصحاب النوايا السيئة، لذلك نأخذ من الماضي الأشياء المشرقة، ونتجاوز الأشياء الأخرى.

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة البقرة]

في الأزمات طرح أي قضية خلافية جريمة في حق الأمة :

أخواننا الكرام، إذا أنت مسافر إلى بلد، وتعلق آمالاً كبيرة على بلوغ هذا البلد، لك مبلغ كبير تأخذه، ونظرت إلى ورائك فرأيت هناك مشكلة، أو خصومة بين اثنين، هل تقتضي مصلحتك أن تعود إلى الوراء لتتطلع على هذه المشكلة أم أن تنظر إلى أمامك لتصل إلى هدفك؟

فنحن حينما نستورد من التاريخ مشكلات تشق صفوفنا، أو تباعد بيننا، هذا العمل غير صحيح، وغير ناجح، وغير واقعي، وغير مفيد، فنحن نأخذ من التاريخ ما يجمعنا، ما يوحدنا، ما يقربنا إلى الله عز وجل، أما إذا نقبنا في التاريخ، وقد تكون الروايات غير صحيحة، وكاذبة فأخذنا السلبيات، وكبرناها فهذا عمل شيطاني، لذلك:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

مرة ثانية: أنت مسافر إلى بلد، لك فيه مبلغ فلكي تحل فيه كل مشكلاتك، سمعت خصومة وراءك، هل تلغي هذا الهدف الكبير وهذه المدينة التي فيها مبلغ كبير وترجع إلى الوراء لترى من هو المصيب ومن هو المخطئ؟

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ)

أنا أعني ما أقول ينبغي ألا نستورد من تاريخنا مشكلات تشق صفوفنا، وتباعدنا، وتحزبنا، وتجعلنا شيعاً وطوائف هذا كله من عمل الشيطان.

لذلك في الأزمات طرح أي قضية خلافية أنا أراها جريمة في حق الأمة، طرح القضايا الخلافية، هناك قواسم مشتركة، ذلك أن أعداءنا يتعاونون تعاوناً مذهلاً وبينهم خمسة بالمئة قواسم مشتركة، بينما المسلمون في تخلفهم الحديث يتقاتلون والدماء تسيل، وبينهم خمسة وتسعون بالمئة قواسم مشتركة، ينبغي أن نبحث عن عوامل وحدتنا، عن عوامل قوتنا، عن عوامل ازدهارنا، عن عوامل انتصارنا.

إذاً: نأخذ من الماضي ما يقوي وحدتنا، ما يقوي مكانتنا، ما يقوي مبادئنا، ما يقوي تحقيق رسالتنا، أما أن ننبش الماضي لنأخذ خلافات فنجعل أنفسنا شيعاً، وطوائف، ونتعادى فهذا من عمل الشيطان، النصوص الصحيحة تجمعنا والنصوص الضعيفة والموضوعة تفرقنا، وقد قيل في الصحاح غُنية.

إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذي استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا.

لا تنبش التاريخ وتأخذ الصور الخلافية التي تزيد في تشرذمنا، وقد تزيد في انشقاقنا مع بعضنا، هذا عمل تخريبي وليس عملاً بنائياً.

بطولة الإنسان أن يختار من الماضي ما يوحدنا و يجمعنا :

هؤلاء:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ)

في مكة،

(وَالْأَنْصَارِ)

في المدينة،

(وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)

أنت بكل شيء هناك جوانب مضيئة متألقة جداً، اتبع هذا الجانب، وهناك جوانب قد يكون فيها أشياء موضوعة.

أنا لا أنسى مقدمة المؤرخ الكبير الطبري، المؤرخ الطبري بمقدمة الكتاب قال: "أنا جمعت في هذا الكتاب كل ما وصل إلي من دون تمحيص".

فنحن نقع في خطأ كبير حينما نقول: هذه القصة وردت في الطبري، الطبري نفسه بالمقدمة قال: أنا جمعت كل شيء، أنت محص، فما كل شيء ينقل إليك تخبر به.

لذلك البطولة أن تختار من الماضي ما يوحدنا، ما يجمعنا، ما يجعلنا نتألق في هذه الحياة الدنيا.

الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين :

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

أن يرضى الله عنك شيء طبيعي، أن تكون مستقيماً سيرضى الله عنك، أن تكون محسناً يرضى الله عنك، أن تكون باراً بوالديك يرضى الله عنك، أن تكون محسناً إلى من حولك يرضى الله عنك، فكيف ترضى عنه؟.

إنسان يطوف حول الكعبة كان وراءه الإمام الشافعي، قال هذا الطائف: يا ربي هل أنت راضٍ عني؟ فقال له الإمام الشافعي: وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال له: سبحان الله! من أنت؟ قال له: أنا محمد بن إدريس، قال له: كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ قال له: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

هذا يذكرني بقول الإمام علي رضي الله عنه: "الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين".

إذاً التسابق في الدنيا حمق، لأن الموت ينهي كل شيء، أما التسابق في الآخرة فهو النجاح، هو الذكاء، هو الحكمة، هو البطولة، كل الصفات الرائعة أسقطها على هؤلاء الذين يتسابقون في الدار الآخرة، الله قال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

العطاء الإلهي يفوق حدّ الخيال :

الحقيقة التسابق في الآخرة هو الفوز الحقيقي، أنا أقول دائماً مثل بسيط أرويه كثيراً: أن طفلاً صغيراً عقب العيد قال لأخيه، أو لقريبه: معي مبلغ عظيم، طفل عمره ست أو سبع سنوات قال لك: معي مبلغ عظيم، كم تقدره؟ بألف ليرة، إذا مسؤول كبير بالبنتاغون قال: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، قال: عظيم، تقدره أنت بمئتي مليار، الكلمة نفسها قالها طفل فقدرت مئتي ليرة، وقالها مسؤول كبير بدولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، قدرناها مئتي مليار، وإذا كان خالق الأكوان قال عن إنسان فعل شيئاً معيناً قال:

(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

فإذا كان أعظم العظماء خالق الأرض والسماء قال: هذا شيء عظيم، معنى ذلك أن العطاء الإلهي يفوق حد الخيال، لذلك أنا أقول دائماً الآية المشهورة:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)

أخذوا الإيجابيات، بعض السلبيات تركناها، دعك منها.

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

حينما أطلعهم على ماذا ينتظرهم في الجنة رضوا عنه، فلذلك الآية:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى]

قال: المؤمن حينما يرى مكانه في الجنة، ويرى مقامه في الجنة يقول: لم أرَ شراً قط، وحينما يرى غير المؤمن مقامه في النار يقول: لم أرَ خيراً قط، من هنا قال سيدنا علي رضي الله عنه : "يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور وكل بلاء دون النار عافية".

المراتب الرفيعة التي عاصرت النبي موجودة إلى نهاية الدوران :

هناك نقطة دقيقة: الله عز وجل حينما تحدث عن:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

[سورة الواقعة]

قال:

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

[سورة الواقعة]

معنى ذلك أن هذه المراتب الرفيعة التي عاصرت النبي عليه الصلاة والسلام هذه المراتب موجودة إلى نهاية الدوران،

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

هذا يدعونا إلى التنافس، أنت ما دمت قد جئت متأخراً لكن المراتب العالية التي بلغها أصحاب النبي يمكن أن تصلها، من هنا قوله تعالى:

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

لذلك ورد في بعض أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك؟ قال: لا أنتم أصحابي أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان الصَّابرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، أجره كأجر سبعين، قالوا : منا أم منهم؟ قال : بل منكم، قالوا: و لمَ؟ قال : لأنكم تجدون على الخير معواناً و لا يجدون))

[الترمذي عن أنس]

لذلك في آخر الزمان:

((الصَّابرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[الترمذي عن أنس]

لذلك ورد:

((عبادة في الهرج كهجرة إلي))

[مسلم عن معقل بن يسار]

في زمن الفتن، في زمن الباطل، في زمن النساء الكاسيات العاريات.

((عبادة في الهرج كهجرة إلي))

من صدق الله و أحسن إلى خلقه فاز فوزاً عظيماً :

الآن الله عز وجل حينما تحدث عن هؤلاء:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ)

هناك مهاجر، و أنصاري، وإنسان تابعي، وإنسان تابعي التابعي، في عصر الصحابة التابعين وتابعي التابعين، قال:

(وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

العظيم يقول:

(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

فلذلك إذا صدقت الله عز وجل، وتحركت حركة منهجية، وأحسنت إلى خلقه، وابتغيت رضوانه وجنته هذا الفوز العظيم.

أخواننا الكرام، الإنسان جبل على حب وجوده، وعلى حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده، هكذا جبل، فحينما يحقق وجوده أو علة وجوده في طاعة الله يكون هذا:

(الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

النجاح الكبير، التفوق، التألق، البطولة، كل هذه الصفات الرائعة إنما يوصف بها من تحرك إلى الله، لذلك ورد:

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

الإنسان مهما يكن ذكياً قد لا يكشف المنافق :

الآية التي بعدها:

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

[سورة التوبة]

أتقنوا النفاق، فالإنسان مهما يكن ذكياً، قد لا يكشف هذا المنافق، المنافق أتقن دوره تماماً، المشكلة أيها الأخوة، المؤمن هناك توافق بين لسانه وقلبه، فهو واضح، والكافر مع الأسف واضح أيضاً، هناك توافق بين لسانه وقلبه، كفر بهذا الدين، أعطاك مناعة ضده، فأنت مرتاح معه، كافر، أما هذا المنافق فهناك تناقض بين لسانه وقلبه، لسانه معك، وقلبه يحاربك، ورد بالأثر:

((لابد للمؤمن من كافر يقاتله، ومنافق يبغضه، ومؤمن أحياناً يحسده، ومن نفس ترديه، ومن شيطان يغويه))

خمسة أطراف.

عذاب المنافق :

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

كم مرة صاروا؟ ثلاث مرات، قال: المرة الأولى المنافق حينما يعلم من نفسه النفاق يظهر شيئاً، ويخفي شيئاً، يحتقر نفسه، هذا أول عذاب.

أنا أذكر مرة وزعوا استبياناً على عشرة آلاف زوج، ليجيب عن سؤال، لِمَ لا تخون زوجتك؟ هذا السؤال، فهذه الأجوبة صنفت تصنيفاً أخلاقياً، وجدوا أن أقلها قيمة الجواب الآتي: لا أستطيع، معه بالعمل، ترافقه دائماً، تحرسه دائماً، تحاسبه دائماً، هذا مستوى، قال: لا أستطيع، المستوى الأرقى لا قوة لي على احتمال هذا الذنب، أي الذنب ضاغط، يحس بالخيانةأ هذا الإحساس بالخيانة ضاغط عليه، أما في المستوى الأرقى فأكره الخيانة، لا أحتمل متاعبها بالوسط، أكره الخيانة أعلى مستوى.

فالشرع بالنهاية يرقى بالإنسان ليكون في مستوى الشرع، الشاهد على ذلك أن أصحاب النبي الكريم وصفوا: يفرحون بما أنزل إليهم، الآن بالبدايات الإنسان يكون راغباً بالمعاصي والآثام، لكنه تاب إلى الله، هو يشتهيها ولا يفعلها، أوضح مثل: أن إنساناً اصطلح مع الله، والغناء له حكم شرعي واضح، فيه تحريم، فلو استمع في سيارة عامة إلى أغنية كان يحبها، يتعاطف معها كثيراً، لكن هو لا يستمع إليها، لكن بعد حين يمقت هذه الأغنية، ارتقت نفسه.

الشرع ينبغي أن ينهض بك إلى مستوى تتوافق مع أحكامه، حتى تنطبق الآية الكريمة:

(يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

أما إذا كان هناك مسافة مستمرة بين ما تتمنى وبين الواقع فهذه مشكلة كبيرة.

إذاً:

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ)

المدينة محاطة بالمنافقين، قال:

(وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ)

منافقون، في الداخل، ومن الخارج،

(مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ)

أتقنوا النفاق.

(لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ)

أول مرة: احتقارهم لأنفسهم نوع من العذاب، المرة الثانية: أن الله يعاقبهم، هذه الثانية، والثالثة في الآخرة:

(سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

بالآخرة.

من يسلك طريق الإيمان يشعر بسعادة لا توصف :

ما المؤمن؟

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، هؤلاء الذين عرفوا الله، سعداء في الدنيا، لي رأي سأقوله لكم: إن استمتاع المؤمن في دنياه التي أرادها الله له من دنياه التي أخذها أشد متعة، من الجانب الإيماني اشتهى المال فعمل عملاً شريفاً، وكسب كسباً شرعياً، اشتهى المرأة تزوج، الأشياء التي أبيحت للمؤمن في الحلال أشد متعة بآلاف المرات من الطريق الآخر.

فلذلك الإنسان حينما يسلك طريق الإيمان يشعر بسعادة لا توصف، لأنه اصطلح مع نفسه أولاً، ولأنه حينما طبق الشرع توافق هذا التطبيق مع فطرته.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم الآية: 30]

إذاً: الأعراب منافقون حول المدينة، وفي المدينة منافقون يتقنون النفاق، لماذا عرف الله نبيه الكريم والمؤمنين بهذه الحالة؟ قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء الآية: 71]

باب التوبة مفتوح دائماً :

الآن:

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة التوبة]

من هؤلاء المنافقون؟ يا الله! باب التوبة مفتوح دائماً،

(اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ)

قال:

(خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً)

من أدق ما في هذه الآية أن اعترافهم بذنبهم عمل صالح وذنبهم الذي عملوه عمل سيئ، فجمعوا بين عملهم السيئ وهو الاعتراف بالذنب والعمل السيئ.

لكن بعضهم يقولون: أن الإنسان حينما يعترف بذنبه، ويندم على فعلته فكأن هذا في طريق التوبة، دائماً عندنا بالقرآن آيات تلفت النظر، هناك آية تقول:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: 118]

توبة الله تسبق توبتهم، هناك آية تقول تابوا:

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة الآية: 117]

ما الفرق بينهما؟ من أدق ما قرأت عن هذه الآية:

(تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

[سورة المائدة الآية: 17]

إذا سبقت توبة الله قبول التوبة أي ساق لهم من الشدائد ما حملهم بها على التوبة:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم لولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

إذاً البطولة أن الله عز وجل إذا ساق لك بعض الشدائد يجب أن تعلم علم اليقين أن هذه الشدائد سيقت لك كي تتوب إلى الله، وحينما تفهم حكمة الله عز وجل، وتصطلح معه، تذوب حباً له:

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

الله عز و جل أنبأ نبيه عن المنافقين ليحذر أصحابه :

هؤلاء الأعراب المنافقون، وهؤلاء الذين يسكنون في المدينة، ممن

(مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ)

أتقنوا النفاق،

(لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ)

الله عز وجل أنبأ نبيه لينبئ أصحابه بهؤلاء المنافقين كي يحذروهم.

(سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ)

مرة عذاب نفسي، اختل توازنهم، ومرة عقاب على نفاقهم، والثالثة في الآخرة في جهنم وبئس المصير،

(ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً)

هنا:

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)

عندنا رجاء، وعندنا تمنّ، الفرق الكبير بين الرجاء والتمني، أن التمني لشيء مستحيل، ألا ليت الشباب يعود يوماً، هذا شيء مستحيل، هذا تمنّ، أما الرجاء فمن صيغه عسى،

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)

يغلب على الأمر أنه سيحقق،

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الله عز وجل ونفسك لا يمكن أن تخدعهما لثانية واحدة :

فيا أيها الأخوة الكرام، القضية قضية دقيقة جداً هو أن مصيرك الأبدي إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها، المصير الأبدي مخيف، الدنيا بكل ما فيها.

مرّ النبي الكريم على قبر، فقال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[رواه ابن المبارك عن أبي هريرة]

فهؤلاء الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة، والأعراب حول المدينة، لا تعلمهم يا محمد قد يكون نفاقهم بأعلى درجة من الذكاء والإتقان،

(لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ)

لكن أنا أعيد هذه الكلمة التي أرددها كثيراً: قد تخدع الناس لبعض الوقت، وقد تخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت، فهذا مستحيل وألف ألف مستحيل، لذلك أما الشيء المستحيل فأن تخدع الله.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء الآية: 142]

أن تخدع نفسك، والدليل:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة]

الله عز وجل ونفسك لا يمكن أن تخدعهما لثانية واحدة.

(نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بهذه الآيات، وأن نجعلها نبراساً لنا في حياتنا، وأن يتغمدنا الله بعفوه، إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (60-70) : تفسير الآيات 103-105، فضائل الزكاة وما يتضمنها من عبر - لا يعلم الغيب إلا الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-07-08

بسم الله الرحمن الرحيم

الزكاة تؤخذ ولا تعطى :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، ملامح كثيرة من خلال هذه الآية، الملمح الأول أن الزكاة تؤخذ ولا تعطى، أي يجب أن يأخذها ولي أمر المسلمين، لأن القضية منوطة بنظام اقتصادي، منوطة بنظام دقيق جداً، فإذا ترك الأمر لاختيار المسلمين هناك مشكلة كبيرة، فالزكاة تؤخذ هكذا القرآن، أما إذا كان ظروفاً أخرى فهذا موضوع ثان، أما أصل الزكاة فأنها تؤخذ، والدليل يا محمد:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

وولي الأمر الذي ينوب عنه إلى نهاية الدوران مهمته أن يأخذ الزكاة من الناس.

الشهوات أودعت فينا لنرقى بها إلى رب الأرض والسموات :

أولاً:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

والأموال جمع، لم تأت الكلمة مفردة، جمع، النقدان الذهب والفضة مال، النقد الورقي الآن مال، الأراضي مال، البيوت مال، بمعدل التجارة طبعاً عروض التجار مال، البضائع مال، كل شيء له قيمة ويكون موضع تداول، موضع تجارة، وبيع وشراء، هو مال، فالكلمة واسعة جداً.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

طبعاً هنا هي الزكاة، لكن الغريب أن الله سماها صدقة، قال بعض العلماء: لأن الإنسان يقوم بنشاطات كثيرة جداً لا تكلف شيئاً، أما حينما يُطلب إليه دفع ماله فالله عز وجل قال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران الآية: 114]

الله عز وجل أودع فينا الشهوات، والذي يعد دقيقاً جداً ما أودع فينا الشهوات إلا لنرقى بها إلى رب الأرض والسموات، الحقيقة هناك من يتوهم أنه لولا الشهوات لكنا من أهل الجنة، لا ، لولا الشهوات لما كنا من أهل الجنة، لولا أن الله أودع فينا هذه الشهوات، ما ارتقينا بها إلى رب الأرض والسموات.

أنت لو أمسكت حجراً وأعطيته لفقير، هل ترقى بهذا العمل؟ لا، أما حينما تمسك ليرة ذهبية وتعطيها لهذا الفقير فترقى بهذا العمل، لماذا؟ الذهب محبب إليك.

الله عز وجل خلقنا ليسعدنا :

فلولا أن الله أودع فينا الشهوات حب النساء لما كان هناك معنى لغض البصر، لولا أن الله أودع فينا حب المال، ما كان هناك معنى لإنفاق المال، لولا أن الله أودع فينا الشهوات، ما ارتقينا إلى رب الأرض والسموات، لكن أريد أن أوضح هذه الحقيقة:

لو أن طالباً قصر في أداء واجباته المدرسية، فعاقبه المعلم، فقال هذا الطالب لمن حوله: إن هذه المدرسة إنما أنشئت كي تعاقبنا، أو كي تضربنا، هذا حمق، المدرسة أنشئت كي تعلمنا، كي تهذبنا، كي نكون قادة للأمة، أما حينما ينحرف أحد الطلاب فيعاقب، فالله عز وجل يعاقب لكن الأصل أن الله خلقنا ليسعدنا، والدليل:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود الآية: 119]

خلقنا ليسعدنا، لماذا يكون العذاب إذاً؟ خلقنا ليسعدنا، وجبلنا على حبنا لذاتنا، وحبنا لوجودنا، وحبنا لسلامة وجودنا، وحبنا لكمال وجودنا، وحبنا لاستمرار وجودنا، يأتي العذاب من الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به والدليل القطعي قول أهل النار:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

معنى هي أزمة علم فقط، أنت مبرمج، مولف، مفطور، على حب وجودك، وعلى حب سلامة وجودك، وعلى حب كمال وجودك، وعلى حب استمرار وجودك، فحينما تتغافل عن منهج الله، وتقع في خطأ تعاقب، أما الأصل فأن الله خلقنا ليسعدنا، والدليل:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

خلقهم ليرحمهم.

المصائب تسوق الإنسان إلى باب الله عز وجل :

بل إن المصائب أحياناً سماها الله عز وجل في كتابه نعماً، والدليل قال تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان الآية: 20]

قال علماء التفسير: النعم الظاهرة النعم المألوفة الصحة والمال، وأما النعم الباطنة فالمصائب، لأن المصائب تسوقهم إلى باب الله.

((عجب ربنا من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل))

[رواه أحمد والبخاري وأبو داود عن أبي هريرة]

((ما من عثرةً، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عودٍ، إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة]

إذاً النقطة الدقيقة جداً أن الله سبحانه وتعالى حينما أمرنا أن ندفع أموالنا

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

تؤكد صدقهم، المال محبب لولا أن الله أودع فينا حب المال لما كان من معنى لإنفاقه، لولا أن الله أودع فينا حب المرأة لما كان من معنى لغض البصر والانضباط، إذاً هذه الشهوات إنما أودعت فينا لنرقى بها إلى رب الأرض والسموات.

الشهوات حيادية توظف في الحق أو في الباطل :

أنا أذكر أن عالماً جليلاً من علماء الشام، زرته مرة، قال لي: عندي ثمانية و ثلاثون حفيداً، فكرت بعد أن خرجت من عنده، أنه تزوج امرأة أنجبت له بنات وبنين، البنات تزوجن والبنين تزوجوا، الصف الثالث أولاد بناته، وأولاد أولاده، هذا الهرم الذي بدأ به وبزوجته ثم بأولاده وبناته، ثم بأحفاده ذكوراً وإناثاً، ما أساس هذا الهرم كله؟ علاقة جنسية، شهوة، إلا أنها وضعت في مكانها الصحيح، الشهوات حيادية إما أن توظف في الحق أو في الباطل.

لذلك أنا أقول دائماً: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها فيها قناة نظيفة تسري خلالها، بتعبير آخر معاصر: بالإسلام لا يوجد حرمان أبداً، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها فيها قناة نظيفة تسري خلالها.

بل إنني أقول ولا أظن أنني أبالغ: إنها متعة المؤمن بحياته الدنيا، لأنها من حلال ووفق منهج الله، ومع هذه المتعة هناك مرضاة لله عز وجل التي تفوق متعة أهل الدنيا بدنياهم ملايين المرات، لأنه مطمئن.

مثلاً بيت فيه كل الأجهزة الكهربائية، المكيف، والثلاجة، والغسالة، والمكواة، والراديو، كل الأجهزة موجودة لكن لا يوجد كهرباء، كل هذه الأجهزة عبء على صاحبها، حاجزة محلاً، وآخذة كتلة بلا فائدة، فإذا سرت الكهرباء في البيت كلها لها قيمة.

صدق ولا أبالغ، الإيمان يجعل الحياة جنة، الزواج له معنى في الإيمان، إنجاب الأولاد لهم معنى في الإيمان، إنجاب البنات له معنى، النبي الكريم حينما جاءته فاطمة ضمها، وشمها، وقال: "ريحانة أشمها وعلى الله رزقها".

الإسلام منهج كامل شامل :

الفرق بين حياة المؤمن و غير المؤمن - وفق المبادئ، والقيم، والأهداف، والحركات في الحياة- كبير جداً، ليس الفرق بين إنسانين، إنسان يصلي و آخر لا يصلي، لا أكبر بكثير، أنا أرى أن منهج الله عز وجل ليس خمسة بنود كما يتوهمه بعض الناس، صوم، صلاة، حج، زكاة، لا، منهج الله عز وجل يبدأ من فراش الزوجية، وهو من أخص خصوصيات الإنسان، وينتهي بالعلاقات الدولية، منهج كامل شامل.

فلذلك أنت حينما تصطلح مع الله وتخضع لله، أي آية في القرآن الكريم تخاطب المؤمنين علامة إيمانك أنك إذا قرأتها تشعر أنك معني بها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة التحريم]

أي آية تبدأ بـ :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

تشعر يقيناً أنك معني بها، لأن الله عز وجل كأنه يقول: يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بوجودي، يا من آمنتم بربوبيتي، يا من آمنتم بألوهيتي، يا من آمنتم بأسمائي الحسنى، أفعل أو لا أفعل، فأنت معك منهج، هنا من فقرات هذا المنهج:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

أي المال الورقي مال، والذهب والفضة مال، والبضاعة مال، عروض التجارة مال، الآن الأراضي المعدة للتجارة مال، البيوت المعدة للتجارة مال، أما بيت السكن فمعفى من الزكاة، أساس البيت معفى من الزكاة، الأدوات معفاة من الزكاة، المركبة معفاة من الزكاة، هناك أشياء معفاة لأنها مستهلكة، أما كل شيء يمكن أن يكون للتداول، وللبيع والشراء، ويربح فعليه زكاة.

الزكاة تؤكد إيمان المؤمن و صدقه :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

هذه الصدقة تؤكد صدقهم في إيمانهم، علامة الصدق هو الدفع، أما بالصيف فتتوضأ وتُنشف وتصلي لم تكلف شيئاً، لا يوجد شي إطلاقاً، لا يوجد جامع في دخوله رسم دخول، المتحف له رسم دخول، أما الجامع فتدخل دون أن تدفع شيئاً، تتوضأ، والجامع مكيف، مدفأ في الشتاء لا يوجد أي مشكلة، فحينما لا تبذل لا ترقى عند الله.

الآن:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

أي صدقة تؤكد صدقهم مع الله عز وجل، تؤكد صدق إيمانهم، أحياناً بعض الدول تعلن عن مسابقة، وتجعل رسماً لهذه المسابقة، إنسان يتقدم إليها وغير جاد في هذا التقديم، حتى لا يكون عبئاً على الدولة، له استمارة، وله اضبارة، و هناك لجان فحص، يضعون مبلغاً جيداً جداً، هذا يكشف الصادقين، من عنده إصرار على الموضوع؟ يدفع المبلغ، فهنا الزكاة تؤكد إيمان المؤمن، تؤكد صدق إيمانه، تؤكد أنه يحب الله أكثر من ماله.

مثلاً الحج، لك بيت مستقر فيه، لك غرفة ضيوف، غرفة جلوس، لك أشياء مريحة جداً، اترك بيتك، وزوجتك، وأولادك، ومركبتك، ووظيفتك، ومكتبك، وإخوانك، وأحبابك، وأصدقاءك، واذهب إلى الحج، هناك متاعب كبير جداً في الحج، حر، ومشقة، وطواف وسعي، و صعود إلى عرفة، هذه تؤكد أن أمر الله أحب إليك من دنياك، فالدنيا دار ابتلاء لا دار اجتباء، دار ابتلاء.

الزكاة تطهر النفس من الحقد :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

الآن ما معنى:

(تُطَهِّرُهُمْ بِهَا)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

قال: هذه الصدقة التي هي الزكاة تطهر الغني من مرض الشح.

أخواننا الكرام عندنا أمراض خبيثة، أمراض عضالة، تنتهي بالموت، مثلاً الورم الخبيث مرض عضال، أنا أقول لكم: إذا كان الورم الخبيث مرض عضال ينهي حياة الإنسان فالشح مرض عضال أيضاً يصيب النفس، والدليل:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر]

الشح مرض خطير يصيب النفس،

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

من: تطهر الغني من الشح، والفقير من الحقد، يرى الغني مركبته الفارهة، بيته الفخم، مساحته أربعمئة متر، ألوان الطعام والشراب، أنواع الحلويات، لقاءاته، حفلاته، زياراته، سياحته، أموال ينفقها بغير حساب، وهو فقير معدم، فالفقير يحقد أحياناً، فالزكاة تطهر من الحقد، فالغني طهره الله من الشح وهو مرض عضال، والفقير طهره الله من الحقد.

الزكاة تطهر المال من تعلق حق الغير به :

الآن الشيء الثالث أن الزكاة تطهر المال من تعلق حق الغير به، الزكاة مالك، لذلك قالوا: أي مالٍ مهما يكن كبيراً إذا أديت زكاة ماله، فقد أذهبت عنه الخطر، فأنت حينما تؤدي زكاة مالك طهرت الغني من البخل، من الشح، طهرت الفقير من الحقد، طهرت المال من تعلق حق الغير به، لأن الله قال:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ)

[سورة الذاريات الآية: 19]

أنت حينما تؤدي الضريبة، لا يأتيك كتاب شكر من وزير المالية، الدولة تقوم على الضرائب، فيها رواتب موظفين، فيها تعليم، فيها جيش، كل هذه النفقات الكبيرة تحتاج إلى أموال، فالضرائب واجب المواطن، أما حينما يقدم مواطن بناء فخم ليكون جامعة، فيقام له حفل تكريمي، الحفل التكريمي بمَ زاد على الضرائب؟

فالزكاة واجب كل مسلم، من أجل أن تستقيم الحياة، والله مرة قرأت دراسة عن بلد نام: لو أن أغنياء هذا البلد دفعوا زكاة مالهم ما بقي فقير، أحد شروحات الزكاة أنها نظام اقتصادي كامل، لو أن كل غني دفع زكاة ماله ما بقي فقير.

أنواع العبادات :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

تؤكد صدقهم،

(تُطَهِّرُهُمْ)

من الشح إن كان غنياً، من الحقد إن كان فقيراً، تطهر المال من تعلق حق الغير به، لأنه قال:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ)

أي هذا الفقير - في أصل التصميم الإلهي- جعله الله يرقى عن طريق فقره، وهذا الغني جعله الله يرقى عن طريق ماله، لذلك أنا أقول دائماً: عندنا عبادة مألوفة، أن تصلي، وتصوم، وتحج، و تزكي، لكن هناك عبادة الهوية، أنت من؟ أنت غني، العبادة الأولى إنفاق المال، أنت عالم؟ العبادة الأولى إلقاء العلم، على ألا تأخذك في الله لومة لائم، أنت قوي؟ العبادة الأولى إحقاق الحق، إذاً عندنا عبادة مألوفة شعائرية، كالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، عندنا عبادة الهوية فالغني العبادة الأولى إنفاق ماله، والقوي العبادة الأولى إحقاق الحق، والعالم العبادة الأولى أن تلقي العلم وألا تأخذك في الله لومة لائم، والدليل هناك آية دقيقة جداً:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية:39]

فلو خشي هذا العالم غير الله أُلغيت دعوته كلها، إذا خشي غير الله فسكت عن الحق خوفاً، أو نطق بالباطل رياءً، انتهت دعوته، عندنا عبادة الهوية، الغني عبادته إنفاق المال، العالم عبادته إلقاء العلم، دون أن يخشى أحداً، والقوي عبادته إحقاق الحق.

من يتجاهل الآخرين إنسان أحمق :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

الآن تطهرهم واضحة، تطهر المال من تعلق حق الغير به، وتطهر الغني من الشح، والفقير من الحقد، أما:

(وَتُزَكِّيهِمْ)

فهذا الغني حينما يرى مئات الأشخاص أخذوا من ماله وشكروه، وأصبحوا ممتنين له، وكانوا حراساً له، شعر بمكانة اجتماعية جديدة، لأن المحسن محبوب، فالغني عندما أعطى لمن حوله ممن يلوذ به زكاة ماله، الفقير اشترى طعاماً، اشترى شراباً، اشترى ثياباً، تمتع بالحياة كالغني تماماً، يكن له الود

والمحبة، فالغني بين أن يكون من حوله حراس، وبين أن يكون من حوله لصوص له، بين أن يكون حارساً أو لصاً، تجد الفقير المحروم حاقداً، فأنت تركب مركبتك، وتحضر الأكل، والفواكه، والحلويات، وهو يحملها لك إلى البيت كلها، هو يرى، هو إنسان، فهذا الذي يتجاهل الآخرين إنسان أحمق.

الزكاة تزكي نفس الغني عن طريق هؤلاء الذين أعطاهم من ماله فأحبوه :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

تزكيهم، زكت نفس الغني عن طريق هؤلاء الذين أعطاهم من ماله فأحبوه، والتفوا حوله، وخدموه، وكانوا حراساً له، الآن وزكت نفس الفقير، وجد نفسه محترماً، المجتمع لم ينسه، المجتمع مهتم به، جاءه على العيد مبالغ للطعام، والشراب، طبعاً الزكاة أن تكفيه طوال العمر، هناك رأي للإمام الشافعي، والزكاة أن تكفيه طوال العام، أحياناً أنت تؤدي زكاة مالك، تشتري للفقير عربة بيع، فأنت أغنيته طوال حياته، أما أن تعطيه مبلغاً بسيطاً لن يكفيه يومين، فليست هذه الزكاة، أن تغنيه، إما لعام أو طوال حياته، طوال حياته تؤمن له آلة حبك، فرضاً، تريكو مثلاً، هذه الآلة عاش منها، أو لسنة معينة، يجب أن تغنيه إما لعام، أو لكل الأعوام، هذه الزكاة، أما تجده يصف لك ثلاثين أو أربعين شخصاً ولكل واحد مبلغ لا يكفيه يومين، صرفه وانتهى الأمر، بقي فقير، هذه الزكاة ما حلت مشكلة إطلاقاً، يجب أن تحل بها مشكلة حقيقية، لذلك أن تغنيه طوال العام، أو أن تغنيه مدى الحياة، مدى الحياة بحرفة.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

فلما الغني أنفق ماله، وكان من حوله محب، وحارس، وصديق، وممتن له، شعر بمكانته، نمت نفسه، بالبر يستعبد الحر، أما الفقير فوجد الشرع لم ينسه، المجتمع مهتم به، المجتمع حريص على سعادته، وعلى إنفاقه، وعلى أولاده، وعلى كل ما يحتاجه، أيضاً شعر بقيمته، هنا النمو، الزكاة هي النمو.

الزكاة تزكي المال إما بالطريق المألوف أو بالعناية الإلهية :

(تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

الآن المال ينمو، طبعاً تنمو نفس الغني، يشعر بمكانته الاجتماعية، وتنمو نفس الفقير فيشعر باهتمام المجتمع به، والمال يزداد، كيف يزداد؟ يزداد بطريقتين، بطريقة اقتصادية، أن هذا الغني إذا أعطى هذا المال للفقراء صار مع الفقير قوة شرائية، سيشتري بها الطعام، والشراب، والثياب، فساهم هذا الفقير برفع مبيعات هذا الغني، فالغني فضلاً عن أنه دفع زكاة ماله، وتقرب إلى الله، ارتفعت مبيعاته، لأن هذا المال ليس له معنى من دون إنفاق، أنفقه الفقير على طعامه وشرابه، وثياب أهله وحاجاته، فنفس الغني

ارتقت، ونفس الفقير ارتقت، المال ازداد بالطريقة المألوفة.

أحياناً دول غنية جداً، يقول: منحنا الدولة الفلانية مئة مليون دولار، ما منحوهم أموالاً نقدية، منحوهم بضاعة كاسدة عندهم، حركوا المعامل عندهم، فأحياناً الدفع يسهم في رفع المبيعات.

هنا المعنى الدقيق:

(تُزَكِّيهِمْ)

تزكي المال إما بالطريق المألوف العلمي، بارتفاع القوة الشرائية عند الفقير، والقوة انعكست مبيعات عند الغني، فزاد ماله بهذه الطريقة، وهناك طريقة ثانية أنا أسميها العناية الإلهية، أحياناً هذا الغني الذي أدى زكاة ماله، الله يصرف عنه بلاء كبير، قد يكون حريقاً، يكتشفه في الوقت المبكر، وانتهى الحريق، أما إن لم يكتشفه فقضي على البضاعة كلها.

فلذلك في بعض النصوص تؤكد أنه :

((ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

بلد من بلدات المسلمين اجتاحتها حرب أهلية، أحرقت كل شيء، أنا رأيت محلاً بأم عيني، في مركز المدينة كل ما حوله محترق، يمين ، ويسار، وفوق، إلا هذا المحل كما أغلقه صاحبه، دافع زكاة ماله قبل الأحداث بأيام، الله حفظ له ماله.

((ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة))

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

نفس الغني زكت، نمت، ونفس الفقير زكت، ونمت، المال زكي بالقوانين الاقتصادية، وزكي بالعناية الإلهية.

الموصول بالله مستنير القلب متوازن بنفسه محب لله عز وجل :

الآن:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

أنت حينما تتصل برسول الله، ما الذي يحدث؟ نفس متألقة، نفس عرفت ربها، نفس متصلة به، فأنت إذا اتصلت بالمتصل وصلت إلى الله.

مولدة للكهرباء، تعطي بيتاً من البيوت، فإذا أنت وصلت خطاً لهذا البيت، جاءك ما في المولدة، شيء واضح جداً.

لذلك:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

فالنبي الكريم حينما يرى أعمال صحابه الجيدة يحبهم فإذا أحبهم نشأ اتصال نفسي بين أصحابه وبينه، هذه الصلة النفسية تسعد من اتصل بهذا النبي الكريم.

لذلك أحياناً تجد مؤمناً يأتي إلى المسجد، يحضر درس دين يقول لك: ارتحت، لماذا ارتاح؟ لأنه اتصل بنفوس مؤمنة، صار هناك تمازجاً بينه وبين هذه النفوس، فالذي عنده شيء من الرضا عن الله نقله لهذا الشيء، هذا اسمه بعمل النفس الحديث التخاطر النفسي، أنت ممكن إذا صاحبت إنساناً موصولاً بالله تشعر بقيمة الصلة بالله عز وجل.

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ)

الإنسان الموصول بالله عز وجل إذا التقيت معه ترتاح، لأنه أنت أصابك من صلة الله شيئاً، الموصول بالله مستنير القلب، متوازن بنفسه، محب لله عز وجل، فأنت سافرت معه سفرة، التقيت معه، تشعر براحة، هذه بركة المجلس.

من يلتق بأهل الإيمان يزداد قرباً من الله :

لذلك أي مجلس فيه صالحون تتنزل عليهم الرحمات:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد الآية: 28]

وأي مجلس فيه أناس طالحون، منحرفون، لؤماء، تجده عكر الجلسة كلها.

يروون أن أحد العارفين بالله أخوانه كلهم محبوبون، وطيبون، ومحبون له، وفي جو لطيف، منهم واحد منكر، بعيد عن الله، قال لهم: من يبيع لي هذه العباءة؟ قال له: أنا سيدي، قال له: خذ بعها، فأصحابه استغربوا، قال لهم: اشتريت لكم صفاء هذا المجلس بهذه العباءة.

إذا كان هناك إنساناً منكراً نقاداً، لئيماً، قناصاً، يعكر الجلسة كلها.

هنا:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

أنت حينما تلتقي بأهل الإيمان تزداد قرباً من الله، أولياء أمتي إذا رؤوا ذكر الله بهم، موصول بإنسان يخاف من الله، موصول بإنسان متواضع، موصول بإنسان محب لله، يحب الخير للناس كلهم، هذه صفات رائعة جداً، أما اللئيم فشيء لا يحتمل.

يقول سيدنا علي: "والله والله مرتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصفٍ بريشتين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين – كل هذا مستحيل - ونقل بحرين ذاخرين بمنخلين، أهون علي من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين".

سُئل: ما الذل؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم، ثم يرده:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة التوبة]

إذا تبت توبة نصوحة أنسى الله حافظيك وبقاع الأرض كلها خطاياك وذنوبك.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 53]

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ)

إنفاق المال هو الطريق الأسرع لاسترضاء الله :

أيها الأخوة الكرام، ما أمرك الله أن تتوب إليه إلا ليتوب عليك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك، هذه حقيقة ثابتة.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ)

ينتظرهم.

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم لولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

(وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ)

لذلك قالوا: تقع الصدقات في يد الرب قبل أن تقع في يد الفقير، وقالوا في بعض الأحاديث:

((باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها))

[أخرجه الطبراني عن علي ابن أبي طالب]

تقع في يد الله قبل أن تقع بيد الفقير، الله عز وجل بالمناسبة يسترضى بالصدقات إذا كان واحد غلط غلطة مع ربه، الطريق الأسرع إلى استرضاء الله عز وجل إنفاق المال.

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

تواب صيغة مبالغة، وحينما تصاغ أسماء الله الحسنى صيغة مبالغة الله يتوب علينا، فهو التواب؛ كثير التوبة، حينما تصاغ الأسماء الحسنى صيغة مبالغة، صياغة شيئين تعني كماً أو نوعاً، أي أكبر ذنب تتصوره يغفر الله لك هذا الذنب، ومليار ذنب يغفر، عدداً ونوعاً، هذا معنى التواب، أكبر ذنب يغفر، ومليون ذنب يغفر،

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الدنيا بعد الإيمان بالله :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة التوبة الآية:105]

أنت في الدنيا من أجل العمل الصالح، والدليل عند الموت تقول:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

أي علة وجودك في الدنيا بعد الإيمان هو العمل الصالح،

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الغيب لا يعلمه إلا الله :

دائماً الشهادة نحن بعالم الشهادة، أما عالم الغيب فكما قيل في القرآن الكريم لا يعلم الغيب إلا الله. لذلك اسمحوا لي بهذه الكلمة: أي إنسان أوهمك أنه يعلم الغيب قل له: أنت كاذب، لأن الغيب لا يعلمه إلا الله، هناك دعوات لا تعد ولا تحصى أساسها الدجل، والكذب، وإيهام الناس البسطاء، الغيب لا يعلمه إلا الله، والدليل:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

[سورة الأعراف الآية:188]

إذاً الغيب لا يعلمه إلا الله، فأي كلام من دجال، من مشعوذ، من جاهل، من إنسان يدعي الدعوة إلى الله، وأعطاك تطميناً على المستقبل، هذا كذب بكذب، لكن أنت حينما ترى إنساناً مستقيماً فبشره بأن الله معه والدليل:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت الآية:30]

فأنت وفق القرآن لك أن تتكلم، بل إن الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام عن علامات قيام الساعة، وعن علامات آخر الزمان، هذه ليست علماً بالغيب، هذا من إعلام الله له، فرق كبير، هو لا يعلم الغيب، قل لا أعلم العيب.

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

لكنه نذير وبشير، أما الله عز وجل أعلمه عن آخر الزمان:

((يكون المطر قيظاً، والولد غيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً))

[رواه الطبراني عن أم الضراب]

يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحه، هذه علامات قيام الساعة، فكل الأحاديث التي فيها أشراط الساعة الكبرى والصغرى إنما هي من قبيل إعلام الله له، وهذا مما يؤكد نبوته عليه الصلاة والسلام.

من شروط العمل الصالح الإخلاص و الصواب :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

ينبئك بقيمة عملك، ينبئك بإخلاص عملك، مدى الإخلاص فيه، مدى الصواب فيه، مدى ما تبتغي به وجه الله فيه، العمل عمل، واضح، لكن له خلفيات، له أهداف، له شوائب، له انحرافات، لذلك:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية:19]

قال العلماء: العمل الصالح يرضى الله عنه بشرطين أن يكون خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

لذلك:

(وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ)

حقيقة عملكم، الإخلاص في عملكم، الصواب في عملكم، الهدف من عملكم، الخلفية، الأرضية، الملابسات، هذه كلها يعلمها الله عز وجل وآخرون، هذه للدرس القادم إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (61-70) : تفسير الآيات 106-108، توبة الله على بعض المتخلفين، المنافقون يريدون شق صفوف المسلمين والتفرقة بينهم وجعلهم شيعاً.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-07-15

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التوبة في مجملها شرح تفصيلي لأحوال فئة من الناس :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة، أذكركم أن هذه السورة (التوبة) في مجملها شرح تفصيلي لأحوال فئة ثالثة، ليست فئة مؤمنة، وليست كافرة، لكنها منافقة، لكنهم أرادوا أن يحوزوا على مكاسب المؤمنين، وأن يتمتعوا على وهمهم بتفلت الكافرين، هؤلاء المنافقون، هؤلاء جاء الحديث عنهم مطولاً في هذه السورة، ففي معظم الآيات يقول الله عز وجل: ومنهم، من يفعل كذا وكذا، ومنهم، ومنهم ومنهم، وفي آيات أخرى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: 74]

و:

(سَيَحْلِفُونَ)

[سورة التوبة الآية: 95]

وكأن هذه السورة في مجملها شرح تفصيلي لأحوال فئة من الناس، لم يقبلوا الإيمان ولكنهم أرادوا مكاسبه، ولم يكونوا مع المؤمنين، بل كانوا مع الكافرين، هؤلاء المنافقون، وقد جاء ذكرهم في آيات كثيرة إنهم:

(فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء الآية: 145]

هؤلاء يقول الله عز وجل عنهم:

(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

عدم استطاعة الإنسان أن يجزم بمصيره يوم القيامة :

أيها الأخوة، معنى:

(مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ)

أي مؤخرون، حتى يحكم الله فيهم.

بالمناسبة الإنسان حينما يعلم علم اليقين ما سيكون ليس هذا من صفات العبودية لله عز وجل، مما يلفت النظر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم".

فالإنسان يرجو رحمة الله، يرجو الثواب، يرجو السلامة، يرجو النجاة، يرجو الجنة، أما لا يستطيع إنسان أن يجزم بمصيره يوم القيامة.

لذلك كان عليه الصلاة والسلام عند بعض أصحابه وقد توفاه الله عز وجل، فسمع امرأة من وراء الستار تقول: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، النبي عليه الصلاة والسلام كما تعلمون كلامه تشريع، وسكوته تشريع- أي إقراره- وأفعاله تشريع، فلو أن النبي الكريم سمع هذه المقولة من هذه المرأة، وقد قالت: هنيئاً لك أبا السائب لقد - حرف تحقيق- لقد أكرمك الله، لو أنه سكت لكان كلامها صحيحاً، فقال لها: ومن أدراك أن الله أكرمه قولي: أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

أي ليس من شأن المخلوق أن يحكم على المستقبل، يرجو رحمة الله، يرجو أن يكون من أهل الجنة، أما أن يحكم حكماً جازماً قاطعاً فهذا ليس من شأن البشر.

ليس من شأن المخلوق أن يحكم على المستقبل :

لذلك دائماً وأبداً حينما يدور الحديث عن مصير إنسان أنا أتمنى أن يكون الجواب دائماً: هذا من شأن الله وحده، لا تضع نفسك موضع الحكم على الآخرين، هذا من شأن الله وحده، فالنبي الكريم لما سمع من امرأة من وراء الستار تقول عن صحابي جليل توفاه الله: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، فلو أنه سكت لكان كلامه صحيحاً، قال: ومن أدراك أن الله أكرمه قولي: أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

مما يؤكد هذه الحقيقة أن بعض الذين تخلفوا عن الجهاد، حينما جاء النبي الكريم عائداً من تبوك، واستمع إلى الذين تخلفوا عن الجهاد، استمع إليهم واحداً واحداً، وقبل أعذارهم لحكمة بالغة، فلما جاء بعض الصحابة هم ثلاثة، كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، سيدنا كعب قال: والله يا رسول الله ما كنت في وقت من الأوقات أشد مني قوة ومالاً في الوقت الذي تخلفت عنك، فقال النبي الكريم بلفتة رائعة، قال: أما هذا فقد صدق، استمع إلى ثمانين منافقاً وقبل أعذارهم، فلما جاء كعب

استحيا من الله أن يكذب عليه، قال له: كنت شديداً صحيحاً، ومعي راحلة، ومعي مال، كنت في أعلى درجات القوة والنشاط، ومع ذلك تخلفت عنك فقال النبي الكريم: أما هذا فقد صدق.

من كان صادقاً مع الله فالطريق إلى الله سالك :

لذلك الإنسان إذا كان صادقاً مع الله الطريق سالك إلى الله مباشرة، فالله عز وجل قال:

(وَآخَرُونَ)

يقصد هؤلاء الثلاثة، وفي آية أخرى يقول الله عز وجل:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة التوبة]

أراد الله سبحانه وتعالى من هذه الآيات أن يبين أن الإنسان ما دام قلبه ينبض، باب التوبة مفتوح على مصارعه، بل إن الله سبحانه وتعالى ما أمرنا أن نتوب إليه إلا ليتوب علينا، وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا، وما أمرنا أن نسأله إلا ليعطينا، إنه أرادنا أن نكون سعداء.

((إني والإنسن والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلى صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتباغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض علي منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنتهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم لولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

الرحمة التي يتراحم بها البشر هي رحمة الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، ورد في الأثر أن النبي عليه الصلاة والسلام روى لأصحابه هذه القصة، امرأة تخبز على التنور، فكلما وضعت رغيفاً في التنور ابنها إلى جانب التنور، حملته، وضمته، وشمته، فمر نبي كريم قال: يا رب! ما هذه الرحمة؟ قال: هذه رحمتي، أودعتها في قلوب الأمهات وسأنزعها- القصة رمزية طبعاً- فلما نُزعت الرحمة من قلب الأم، وبكى طفلها ألقته في التنور.

هذه الرحمة التي يتراحم بها البشر هي رحمة الله عز وجل، وفي بعض الإشارات اللطيفة في القرآن:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه الآية: 39]

أي إذا أحبك الناس فهذه محبة الله، إذا أحبت الأم ابنها فهذه محبة الله له، إذا أحب الأب ابنه فهذه محبة الله له،

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

الحديث عن الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله :

إذاً هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد، وكانوا صادقين، لم يكذبوا، قال سيدنا كعب: فأجمعت صدقه، كنت نشيطاً، ومعي راحلة، ومعي نفقات أهلي، ومعي نفقات الجهاد، وتخلفت عنك، فلما استمع النبي إلى ثمانين منافقاً، وقدموا أعذاراً كاذبة، وواهية، فلما استمع إلى هذا الصحابي الجليل سيدنا كعب، قال: أما هذا فقد صدق، دقق في هذه العبارة الذكية، إنه قيّم هؤلاء الثمانين: أما هذا فقد صدق، أما الذين سبقوه فكانوا كاذبين.

لذلك هناك ثلاثة من أصحاب النبي الكريم تخلفوا عن الجهاد، ولا عذر لهم، منهم سيدنا كعب، فجاء ذكرهم، قال:

(وَآخَرُونَ)

بعد الحديث عن المنافقين، عن صفاتهم، عن أخلاقهم، عن مواقفهم، عن أنواعهم، عن أقسامهم، ومنهم، ومنهم، ومنهم، يحلفون، وسيحلفون، ويحلفون، جاء الحديث عن هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله، فقال:

(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

السجن ليس ممنوعاً في الإسلام فهو طريقة من طرق تأديب المنحرفين :

أخوتنا الكرام، كان الإسلام في عهد نبينا الكريم في أعلى المستويات، ولم يكن في عهد النبي سجن، مع أن السجن ليس ممنوعاً في الإسلام، طريقة من طرق تأديب المنحرفين، لكن هذا المجتمع المثالي الذي انصاع لرسول الله، مما يلفت النظر أن الإنسان إذا سُجن يمنع من أهله ومن أقربائه، ومن الناس، وحتى من أقرب الناس إليه –زوجته- أما في هذا المجتمع فلما وجه النبي أصحابه أن يقاطعوا هؤلاء الثلاثة، المدينة كلها سجن أصبحت لهم، لا أحد يكلمهم، ولا أحد يلقي عليهم السلام، ولا حتى زوجاتهم، هذا المجتمع الكامل، مجتمع الطاعة لله عز وجل، الشيء الذي يلفت النظر لم يكن هناك سجن، ولكن المدينة كلها أصبحت سجناً لهم، ما دام الإنسان بالسجن يمنع عن أهله، وعن أولاده، وعن أحبابه، وعن

أقاربه، هو طليق، وليس مسجوناً، لكنه في الحقيقة في سجن لا أحد يكلمه، ولا أحد يلقي عليه السلام، لذلك قل تعالى:

(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ)

أي حكمهم مؤخر لمشيئة الله،

(إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

الفرق بين الآيتين التاليتين :

بالمناسبة نقرأ في القرآن:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: 118]

وفي آيات أخرى لها ترتيب معاكس، تابوا:

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة الآية: 117]

ما الفرق بين الآيتين؟ أما تابوا:

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ)

أي أعلنوا التوبة فقبل الله توبتهم، أما:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أحياناً يسوق الله لبعض المذنبين بعض الشدائد، هذه الشدائد تسوقهم إلى باب الله، إذاً هو بهذه الشدة التي أحاطت بهم دفعتهم إلى باب الله، لذلك قالوا: كل شِدة - طبعاً للمؤمنين - وراءها شَدة إلى الله، وكل محنة تصيب المؤمنين وراءها منحة من الله، وهناك آيات تؤكد هذا المعنى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

الله عز وجل حكيم تقتضي رحمته أن يعالج عباده :

الآن ندقق:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

لذلك بعضهم يرى أن الطغاة في الأرض في شتى العصور، هؤلاء ما كانوا طغاةً إلا ليقدموا خدمة غير ظاهرة للمؤمنين، الطغاة دون أن يشعروا، ودون أن يريدوا طغيانهم موظف لخدمة للمؤمنين، أو لخدمة الإيمان والمؤمنين، لأن هذه الشِدة تسوق الناس إلى باب الله عز وجل:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة]

فالله عز وجل حكيم، كيف أن الطبيب إذا مرض ابنه والتهبت زائدته، الأب الطبيب الرحيم الحنون يأمر بأجراء عملية لابنه، يخدر ابنه، يفتح بطنه، تستأصل الزائدة، لأنه رحيم وعليم، فلذلك الآية الكريمة:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام]

أي تقتضي رحمته أن يعالج عباده، أحياناً إنسان يصاب بالتهاب معدة حاد، فإذا التقى بطبيب داخلي يخضعه لحمية قاسية جداً جداً، هذه الحمية طريق شفائه، مع أنها قاسية جداً منعه من كل أطايب الطعام من أجل شفائه، لكن لو جاء لهذا الطبيب مريض آخر، معه ورم خبيث منتشر في كل أنحاء جسمه، ولا أمل في شفائه، لو أن هذا المريض سأل الطبيب: ماذا آكل؟ يقول له: كُل ما شئت، أيهما أفضل أن تخضع لحمية قاسية جداً بعدها الشفاء التام أم أن يقول لك الطبيب كُل ما شئت؟ لأنه ميئوس من الشفاء، لذلك قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام]

الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله :

لذلك هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد وكانوا صادقين مع رسول الله هؤلاء جاء ذكرهم في هذه الآية:

(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

إذاً تاب الله عليهم ليتوبوا، أي ساق لهم من الشدائد كي تنتهي بهم هذه الشدة إلى التوبة إلى الله، أما تابوا فتاب عليهم معناها أعلنوا توبتهم، فقبل الله هذه التوبة.

(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

معنى حكيم: أن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، والذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، هذه حقيقة دقيقة جداً.

انطلاق المنافقين في بناء مسجدهم من الكفر :

أيها الأخوة، ثم يقول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

[سورة التوبة]

هؤلاء المنافقون ضاقوا ذرعاً بأصحاب رسول الله، فأرادوا أن يبنوا لهم مسجداً خاصاً، في هذا المسجد يتحدثون كما يشاؤون، قد ينتقضون النبي الكريم، وقد ينتقضون أصحابه، أرادوا أن يكون لهم مسجد يرتعون فيه ويمرحون، ويتكلمون على أهوائهم، فأنشؤوا مسجداً، لكن هذا المسجد سماه الله عز وجل مسجد ضرار لتفريق وحدة المسلمين، لشق صفوفهم، لإيقاع الفتنة بينهم.

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً)

هم انطلقوا في إنشاء هذا المسجد من الكفر، كفروا بهذه الرسالة، وكفروا بدعوة النبي الكريم، أرادوا أن يكون لهم مكانة اجتماعية نابعة من الدين، أي هناك من يريد الدنيا من خلال الدين، الحقيقة الله عز وجل يكشف كل هؤلاء المنافقين.

المنافقون ليسوا مؤمنين لكن أرادوا مكاسب المؤمنين :

أحياناً الإنسان يبحث عن الدنيا من خلال الدين، وأساساً ما هو النفاق؟ الحقيقة النفاق هو ظاهرتان ظاهرة انحطاط في الإنسان، عنده شيء يعتقده، وشيء يقوله، فحينما تتناقض أقواله مع عقائده هو المنافق، يقول شيئاً لا يؤمن به، يؤمن بشيء لا يقوله، هذه الازدواجية بالشخصية، هو أراد أن يكون مع الكفر، مع أهل الفسق والفجور، مع التفلت، مع الإباحية، مع الشهوات، لكن وجد في مجتمع إيماني قوي، فمن أجل مصالحه أراد أن ينافق، لذلك الإسلام إذا كان ضعيفاً لا أحد ينافق له، لا أحد ينافق لإسلام ضعيف، أما إذا كان الإسلام قوياً فهناك من ينافق له، فإذا قلنا: نفاق أي يوجد عندنا ظاهرة مريضة في المنافق، وظاهرة قوة في المؤمنين، لأن الإنسان الضعيف لا أحد ينافق له، فالمؤمنون أقوياء، ومعهم مغانم كثيرة، فالمنافقون هم ليسوا مؤمنين، لكن أرادوا مكاسب المؤمنين.

لذلك:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً)

أنشؤوا مسجداً، وارتادوا هذا المسجد ليكون مقابلاً لمسجد رسول الله، ليأخذ فيه المنافقون حريتهم في الحديث كما يشتهون، هم في مجتمع المسلمين مقيدون، ومحاسبون، ومراقبون.

لذلك قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً)

أي أرادوا من هذا المسجد أن يشق صفوف المسلمين.

أحياناً سألني مرة أخ، قال: رأيت بعض الناس عقب صلاة الجمعة يصلون الظهر فما حكم ذلك؟ قلت له: لو أن بلدة فيها عدة مساجد، وأحد هذه المساجد يتسع لكل أهل القرية، في أحكام الشريعة لا يجوز أن يصلي الناس إلا في هذا المسجد الواحد، من أجل وحدة الكلمة، من أجل وحدة الهدف، من أجل جمع الشمل، من أجل عدم التفريق بين المسلمين، تصور بلدة فيها عدة مساجد، أربعة مساجد، أحد هذه المساجد يتسع لكل أهل القرية، الحكم الشرعي أن يرتاد أهل القرية هذا المسجد، من أجل وحدة الكلمة، وحدة الصف، من أجل التوفيق بين المؤمنين، فالذي يصلي في مسجد آخر هذه الصلاة لا تقبل منه، لا بد من أن يصلي الظهر بعدها حتى ترمم صلاته، هذه منطلق الفكرة في الذين يصلون الظهر بعد صلاة الجمعة، أما إذا كان هناك مدينة فيها ملايين مملينة، وفيها مئة مسجد، لو أن ربع هذه الكمية ارتادوا المساجد لا تكفيهم، هذا صار موضوعاً ثانياً، أما أتصور قرية فيها أربعة مساجد، أحد هذه المساجد يتسع لكل سكان القرية، فيجب أن يكونوا في مكان واحد، وفي توجيه واحد، وفي لُحمة واحدة، وفي أهداف واحدة، لأن التفرقة خطيرة جداً.

الدعوة إلى الله دعوتان :

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ)

أي وأنت في الحقل الديني هناك دنيا، وأنت في الحقل الديني هناك مآرب لا ترضي الله، وأنت في الحقل الديني هناك من يدعو لغير الله، أنا أقول دائماً: الدعوة إلى الله دعوتان وكلام دقيق جداً، دعوة إلى الله خالصة، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله، أما الدعوة إلى الله الخالصة فمن خصائصها الاتباع، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها الابتداع، هذا يبتدع شيئاً ما جاء في السنة ليقول أنا العالم الوحيد، وأنا المصدر الفريد، فالدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الاتباع، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها الابتداع، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها التعاون، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية:2]

والدعوة إلى الذات من خصائصها عدم التعاون التنافس، مجتمع المؤمنين مجتمع متعاون في بعض الأحاديث:

((المُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبعْضِهِمْ نَصَحَةٌ مُتَوَادُّونَ وَإِن افْتَرَقَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ، وَالْفَجَرَةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ غَشَشَةٌ مُتَخَاذِلُونَ، وَإِن اجْتَمَعَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ))

[أبو الشيخ ابن حبان في كتاب التوبيخ والبيهقي في الشعب عن أنس]

فالدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الاتباع، والدعوة إلى الذات من خصائصها الابتداع، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها التعاون، والدعوة إلى الذات من خصائصها التنافس، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الاعتراف بالآخر، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها إلغاء الآخر، إقصاء الآخر، إذاً الخالصة اتباع، وتعاون، واعتراف بالآخر، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها التفلت من مهج الله، عدم الاتباع، الابتداع، ثم التنافس لا التعاون، ثم إلغاء الآخر، إقصاء الآخر.

المؤمن يجمع ولا يفرق أما الذي يفرق فيثير القضايا الخلافية :

هؤلاء المنافقون ليسوا مؤمنين، هم في الحقيقة كفار، إن المنافقين هم الكافرون، لكنهم أرادوا أن يتمتعوا بمزايا المؤمنين ومكتسباتهم، ويتوهموا أن التفلت أقرب إليهم من الالتزام فكانوا المنافقين.

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً)

أرادوا من خلال الدين، من خلال بناء مسجد، - مسجد منافس- مسجد يجمع الكفار بصيغة الإسلام.

(وَكُفْراً)

بهذا الدين، بنبي المسلمين، بهذا القرآن،

(وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ)

لذلك ورد في بعض النصوص:

((من فرق فليس منا))

[أخرجه الطبراني عن معقل بن يسار]

المؤمن يجمع ولا يفرق، أما الذي يفرق فيثير القضايا الخلافية، يثير التعصبات، يدعو بدعوى الجاهلية، هذا إنسان منحرف، إذاً:

((فليس منا))

هذه ليس منا خطيرة جداً، ينفي عنه النبي الانتماء إلى الإسلام أصلاً:

((لَيسَ مِنَّا مَنْ دَعا إلى عَصبيَّة، وليس منا من قاتل عصبيَّة، وليس منا من مات على عصبيَّة))

[أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم]

والعصبية الانحياز الأعمى.

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

* * *

انحياز أعمى إلى القوم، إن كانوا صالحين فهو معهم، وإن كانوا سيئين فهو معم، إذاً:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْر)

كفروا بهذه الدعوة،

(وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ)

والنص الدقيق جداً:

((من فرق فليس منا))

الهدف من بناء المنافقين مسجداً لهم :

الآن:

(وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

هذا المكان يجذبون إليه من حارب الله ورسوله، ليكونوا عوناً لهم على محاربة هذه الدعوة، فتجد الإنسان المنافق إذا رأى إنساناً ينتقد المؤمنين، يطعن باستقامتهم، لا يثمن عملهم يحبونه، ويلتقون معه، لأنه عنصر جديد انضم إليهم.

لذلك:

(وَإِرْصَاداً)

تتبع، انتظار، مراقبة، تتبع، انتظار:

(لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

هؤلاء المنافقون يريدون أن يجمعوا من حولهم على شاكلتهم، فأي إنسان له انتقاد، له تعليق سلبي، له موقف عدائي من النبي وأصحابه، هم ينتظرونه بفارغ الصبر، كي ينضم إليهم وكي يؤسسوا دعوة موازية لدعوة النبي.

(مَسْجِداً ضِرَاراً)

فيه حديث عن سلبيات، وانتقادات، اخترعوها هم من أجل تفرقة المؤمنين، وشق صفوفهم، ومع ذلك هم يدعون بخلاف واقعهم.

(وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى)

أي من إنشاء هذا المسجد، لكن الله يشهد

(وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

إذاً تستطيع أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، أو أن تخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع الله فلا تستطيع و لا لثانية واحدة.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء الآية:142]

أو أن تخدع نفسك:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة]

الحكم الشرعي للمسجد الذي أنشأه المنافقون :

(وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

الآن جاء الحكم الشرعي، هؤلاء المنافقون حينما بنوا هذا المسجد، أرادوا أن يصبغوا عليه طابعاً مقدساً، فرجوا النبي الكريم أن يصلي فيه، وكان على وشك مغادرة المدينة إلى غزوة تبوك، هو وعدهم أنه إذا عاد من هذه الغزوة يصلي فيه، لكن الله سبحانه وتعالى كشفهم له، أي أحياناً يكون النفاق غير ذكي، وهناك نفاق ذكي جداً، لدرجة أن المؤمن لا يكشفه، هذا شيء طبيعي جداً، هؤلاء أرادوا أن يأتي النبي إليهم ليصلي فيه، ليأخذ هذا المسجد طابعاً مقدساً، فصار هناك مسجداً مناوئاً آخر فيه طرح آخر، فيه كلام آخر، فيه موقف نفسي آخر، فهم يحلفون بالله

(إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى)

لكن الله فضحهم وقال:

(وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

جاء الحكم الشرعي:

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)

[سورة التوبة]

(لَا تَقُمْ فِيهِ)

دعه لكن لا تصلي فيه،

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً)

فهم النبي أن يهدم المسجد بعد أن عاد، وأنشأ مكانه مكاناً للقمامة، هذا المسجد منطلق من شق صفوف المسلمين.

طرح القضايا الخلافية جريمة بحق المسلمين :

لذلك أنا أقول الآن: طرح القضايا الخلافية الآن يعد جريمة بحق المسلمين، لأن الأعداء وضعونا جميعاً في خندق واحد، وضعونا كلنا في سلة واحد، وينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد.

(وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)

أي إنسان يطلب رحمة الله، يطلب نقاءه من الذنوب، يطلب توبة نصوحة، يطلب قرباً من الله، هذا المكان مقدس بمن فيه، فالصحابة الكرام في مسجد النبي هم مخلصون، أرادوا تطهير نفوسهم، أرادوا أن تصطبغ نفوسهم بالكمالات الإلهي، أرادوا التعاون، أرادوا نشر هذا الدين، المؤمن ينطلق على نوايا عالية جداً، بل إنهم قالوا: نية المؤمن خير من عمله، قد يجهد ليلاً نهاراً لخدمة الخلق، لكن يتمنى أن يهدي الخلق جميعاً، نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله، يتمنى الضلال لكل البشر، فهو يسعى لإضلال البشر لكن ما تمكن من ذلك، يتمنى لو أنه أضل الناس جميعاً، إذاً نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله.

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً)

وحينما قال الله أبداً فهم النبي أن هذا المسجد ينبغي أن يلغى، أن يهدم، وهُدم، لذلك شق صفوف المسلمين الآن يعد جريمة.

أي طرح يفرق بين المسلمين طرح من قبل الشيطان :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

ماذا فعل فرعون؟ لأنه علا في الأرض:

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

أي طرح طائفي، أي طرح يفرق بين المسلمين هذا طرح من قبل الشيطان،

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

لذلك الأولى والله أنا أقول دائماً ومع الأسف الشديد: إن أعداءنا يتعاونون تعاوناً مذهلاً، وبينهم خمسة بالمئة قواسم مشتركة، ومع الأسف الشديد المسلمون يتقاتلون، والدماء تسيل بينهم، وبينهم خمسة وتسعون بالمئة قواسم مشتركة، أعداؤنا على خمسة بالمئة قواسم مشتركة يتعاونون، والمسلمون إلههم واحد، نبيهم واحد، قرآنهم واحد، منهجهم واحد، كله واحد، ومع ذلك فرق، وأحزاب، وطوائف، وتناحر، وتراشق تهم، هذه وصمة عار بحق الأمة.

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى)

على طاعة الله

(مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)

لو أن الأخ الكريم فتح القرآن، أو على معجم مفهرس، أو في الكمبيوتر، الله يحب من؟ يحب المتقين، المتطهرين، الصادقين، المؤمنين، فإذا أراد الإنسان أن يصل إلى الله فالمنهج واضح أمامه تماماً.

وفي لقاء آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (62-70) : تفسير الآيات 109-111، أساس بنيان المؤمن التقوى، الأمن حالة نفسية، والكفاية حالة مادية للمؤمن الذي يعيش نعمة الأمن .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-07-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الأشياء الأساسية في حياة الإنسان هي من بنيانه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية التاسعة بعد المئة وما بعدها، وهي قوله تعالى:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أيها الأخوة الكرام، كلمة:

(أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

زواجك من بنيانك، إنجاب أولادك من بنيانك، تربية أولادك من بنيانك، كسب مالك من بنيانك، إنفاق مالك من بنيانك، هويتك في المجتمع من بنيانك، عملك من بنيانك، نشاطك، حركتك، هذه الأشياء الأساسية في حياتك، هذه من بنيانك، هناك إنسان بنى حياته على طاعة الله، بنى حياته على تقوى الله، بنى حياته على العمل الصالح، بنى حياته على تصورات صحيحة، استقاها من الكتاب والسنة، بنى حياته على سر وجوده وغاية وجوده.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

فالإنسان يبني حياته، أو يبني بنيانه، أو يبني هويته، أو يبني نشاطه، أو يبني عمله الصالح، أو يبني حركاته وسكناته.

انطلاق المؤمن في كل نشاطاته من طاعة الله :

والإنسان فيه حاجات ثلاثة أودعها الله فيه، أودع فيه حاجته إلى الطعام، حفاظاً على وجوده كفرد، إذاً هو كائن متحرك، ينبغي أن يتحرك ليعمل، يكسب مالاً يشتري به طعاماً ليأكل، طبعاً لولا الحاجة للطعام والشراب ما رأيت على وجه الأرض شيئاً، لا طرقات، ولا جامعات، ولا جسور، ولا مؤسسات، ولا معامل، ولا حدائق، كل شيء تراه بعينك أساسه الحاجة إلى الطعام والشراب، هذه

الحاجة يجب أن يلبيها.

عنده حاجة ثانية إلى الطرف الآخر، الحاجة إلى الزواج من أجل الحفاظ على النوع.

عنده حاجة ثالثة إلى تأكيد الذات، الحاجة للتفوق، حاجة إلى بقائه كفرد، وحاجة إلى بقاء النوع، وحاجة إلى التفوق، هذه الحاجات جعلته كائناً متحركاً، يجب أن يعمل من أجل أن يكسب المال، ليشتري به طعاماً، وشراباً، وكتاباً يقرأه.

إذاً الإنسان كائن متحرك، وليس كائناً سكونياً، هذه الطاولة كائن سكوني لو تركت على ما هي عليه ألف عام تبقى كما هي، كائن سكوني، أما الإنسان فكائن متحرك لأن الله أودع فيه الشهوات، وما أودعت فيه الشهوات إلا ليرقى بها إلى رب الأرض والسموات، الشهوات حوافز، ما أودع الله في الإنسان الشهوات إلا ليرقى بها إلى رب الأرض والسموات.

إذاً الإنسان يتحرك ليبني نفسه، الزواج بناء، إنجاب الأولاد بناء، العناية بالأولاد بناء، تعليمهم بناء، إرشاد إلى الحق والخلق بناء.

الآن الله عز وجل يقول:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

الآن حركته بالأرض، نشاطاته، أوقات فراغه، زواجه، إنجاب أولاده، هويته بالمجتمع، اختصاصه، المؤمن ينطلق في كل هذه النشاطات من طاعة الله، يتحرك وفق مرضاة الله، يسعى لنيل مرضاة الله، هدفه الجنة:

((وما قرب إليها من قول أو عمل))

[أخرجه ابن حبان عن عائشة أم المؤمنين]

اللذة و السعادة :

لذلك هذا الإنسان تحرك وفق ما خلق له، هناك معنى دقيق جداً هو أن الإنسان خلق لمعرفة الله، لذلك جعلت طاقته لا نهائية، لو أنه اختار هدفاً محدوداً المال مثلاً، فإذا وصل إليه شعر بالملل والسأم، اختار الجاه وصل إليه شعر بالملل والسأم، وكأن الله سبحانه وتعالى لم يسمح للدنيا أن تمد الإنسان بسعادة مستمرة، بل بلذائذ متناقصة، هذا إذا كانت وفق شرع الله، أما إذا كانت وفق معصية الله فاللذائذ متناقصة مع كآبة، بشكل أو بآخر ما سمح الله للدنيا أن تمدك بشكل مستمر بسعادة مستمرة، بل بلذائذ متناقصة ، واللذة تنتهي بالكآبة، لذلك الفرق الكبير بين اللذة والسعادة، فرق بين المشرق والمغرب، اللذة أساسها متع حسية، وهذه المتع الحسية تحتاج إلى مال، وتحتاج إلى وقت، وتحتاج إلى صحة، ولحكمة بالغة بالغةٍ بالغة دائماً الإنسان تنقصه واحدة، في البدايات الصحة طيبة والوقت وافر لكن لا يوجد مال،

في منتصف الحياة يوجد مال وصحة لكن لا يوجد وقت، منغمس بعمله حتى قمة رأسه، لما تقاعد وسلم المعمل لأولاده صار عنده ووقت و مال لكن لا يوجد عنده صحة، دائماً هناك نقطة تنقص الإنسان، أما إذا اتجه إلى الله فهو في سعادة مستمرة لأن اللذة غير السعادة، اللذة تأتي من الخارج، تأتي من المادة، من متع حسية، واللذة متناقصة في تأثيرها، وتنتهي بالكآبة، أما السعادة فتنبع من الداخل، ومستمرة، ومتنامية.

الموت ينهي كل شيء :

أنا أقول دائماً: إذا صح أن لكل إنسان خطاً بيانياً المؤمن وحده خط بيانه صاعداً صعوداً مستمراً، وقد يكون موته نقطة على هذا الخط الصاعد، والصعود بعد الموت، صاعد صعوداً مستمراً، أما خط الآخر الغير مؤمن قد يكون صاعداً صعوداً حاداً، لكنه فجأة ينتهي بانهيار حاد، صعود حاد، وانهيار حاد، لأن الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي وضعف الضعيف، وغنى الغني وفقر الفقير، ووسامة الوسيم ودمامة الدميم، وذكاء الذكي، ينهي كل شيء.

إذاً الآن هناك موازنة دقيقة، مثلاً الله قال:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً)

[سورة السجدة الآية: 18]

مسافة كبيرة جداً.

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص]

مسافة كبيرة جداً، الإيمان شيء، والكفر شيء آخر، هنا في طمأنينة، في سكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، يوجد سكينة، و رضا، و توازن، وتفاؤل، و ثقة بالله عز وجل، وحركة نحو جنة عرضها السموات والأرض.

بنيان الإنسان ينبغي أن يكون وفق منهج الله عز وجل :

أنا أقول: بنيانك أيها الإنسان، أي زواجك، ألصق شيء بالإنسان زوجته وحرفته، فالبطولة في المؤمن أن يحسن اختيار زوجته، واختيار حرفته، هناك حرف أساسها معصية الله عز وجل، و حرف أساسها

طاعة الله عز وجل، فالزوجة والحرفة موضوعان خطيران لصيقان بالإنسان، فأنا أقول: بنيانك أيها الإنسان، أي فكرك، تصوراتك، عقيدتك، مبادئك، قيمك، حركاتك، سكناتك، هذه ينبغي أن تكون وفق منهج الله.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ)

التقوى هي الطاعة، التقوى معناها واسع جداً، لكن في أبسط معانيها الطاعة، طاعة الإنسان بمنهج ربه.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ)

أي اختار زوجة صالحة، كما يقال: تسره إن نظر إليها، وتحفظه إذا غاب عنها، وتطيعه إن أمرها، أسس بنيانه بزواجه، الآن أنجب أولاداً رباهم تربية حسنة، تربية إيمانية، تربية إسلامية، تربية علمية، تربية أخلاقية.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

فوجودك بنيان، حركاتك وسكناتك بنيان، كسب مالك بنيان، إنفاق مالك بنيان، علاقتك الأسرية بنيان، علاقاتك مع من حولك بنيان، علاقاتك مع من فوقك بنيان، علاقاتك مع من هو تحتك بنيان، أنت لك حركة، فأنت لأن لك حاجة إلى الطعام والشراب حفاظاً على وجودك، وبحاجة إلى طرف آخر إلى زوجة والزوجة إلى زوج حفاظاً على بقاء النوع، وإنك بحاجة إلى تأكيد الذات حفاظاً على الأهمية والتفوق، لأنك كائن أودعت فيك هذه الحاجات فأنت لك بنيان، بنيانك الأساسيات في حياتك. أحياناً تجلس مع إنسان، تسأله: أين أنت ساكن؟ ماذا تعمل؟ إلى أي درجة علمية وصلت؟ هل أنت متزوج؟ هل عندك أولاد؟ هذه أساسيات الحياة، فكأن الله عز وجل يقول: البنيان أساسيات الحياة، هذه تبنى بناء.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ)

على طاعة الله، على الانصياع لمنهج الله، على الوقوف عند الحلال والحرام:" ليس الولي الذي يطير في الهواء، وليس الولي الذي يمشي على وجه الماء، لكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام".

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ)

طلب العلم، تحرى الحلال في كسبه، تحرى الصواب في إنفاقه، اختار زوجة صالحة مؤمنة، أنجب أولاداً رباهم تربية إسلامية، اختار عملاً وحرفة في خدمة الناس، هناك حرف أساسها ابتزاز أموال الناس، حرف أساسها إفساد الناس، حرف أساسها العدوان على الناس، حرف أساسها خدمة المجتمع.

الفرق بين التقوى و الرضوان :

(تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ)

والفرق بينهما دقيق، التقوى الطاعة، أما الرضوان فالتقرب، مثلاً: طريق وأنت معك مركبة، هناك عقبات على هذا الطريق، العقبات صخور كبيرة على عرض الطريق، هذه العقبات لا يمكن إلا أن تزيلها من الطريق حتى تمشي على هذا الطريق.

فالمعاصي والآثام عقبات في الطريق إلى الله، فالإنسان إذا استقام على أمر الله كأنه زال كل هذه العقبات، دخله حلال، بيته حلال، زواجه صحيح، أولاده رباهم تربية صحيحة، أوقات فراغه يمضيها في عمل جيد،

(أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى اللهِ)

الرضوان غير التقوى، أنت لما استقمت قلت: أنا ما أكلت مالاً حراماً، ما، أنا ما اغتبت، ما، كل أنواع الاستقامة تبدأ بما، أما أنت فضلاً عن هذه الاستقامة فأنت مكلف أن تعمل صالحاً، العمل الصالح حركة نحو الله.

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر الآية: 10]

الاستقامة امتناع، أما العمل الصالح فهو بذل شيء من أجل هذا الدين، من أجل الآخرة، من أجل طاعة الله عز وجل.

الشهوة حيادية نرقى بها إلى أعلى عليين أو نهوي بها إلى أسفل سافلين :

الآن الموازنة دقيقة:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

أساسيات حياته، اختيار حرفته، هذا من البنيان، اختيار زوجته من البنيان، اختيار الإنجاب أو عدم الإنجاب من البنيان، تربية أولاده من البنيان، اختيار حرف أولاده من البنيان.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ)

أي المؤمن أحياناً يأتيه دخل محدود لكنه حلال مئة بالمئة، يقبل عليه ويرضى به، وهناك دخل فلكي غير محدود، لكنه مبني على معصية، يركله بقدمه، هذا الإيمان، هو توهم خاطئ جداً، أن المسلم يصلي، لا، والله لا أبالغ لعل منهج الله يقترب من خمسمئة ألف بند، في بيتك، في فراشك، مع أهلك، مع أولادك، مع جيرانك، مع أصدقائك، في حرفتك، مع من تتعامل معهم، مع من هم فوقك، مع من هم

دونك، في إملاء أوقات فراغك، الحركة الإنسان له حاجة للطعام والشراب، وحاجة إلى الجنس، وحاجة إلى تأكيد الذات، هذه الحاجات جعلتك كائناً متحركاً، الحركة من أجل أن تكسب المال، من أجل أن تأكل، أن تتزوج، أن تعلو في الأرض، هذه الحركة إما أن تكون وفق منهج الله، أو بخلاف منهج الله.

لكن أنا أطمئن الأخوة المشاهدين: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

مرة ذكرت قصة أنه لي جار في الحي الذي أسكنه في الشام، عالم جليل تجاوز سنه المئة عام، زرته مرة فقال لي: عندي ثمانية و ثلاثون حفيداً، قلت: سبحان الله! تزوج امرأة، أنجب منها أولاداً تزوجوا، جلبوا له الكنائن، وأنجب البنات تزوجن فجلبن له الأصهار، في أول مستوى هو وزوجته، ثم أولاده، ثم بناته، ثم أحفاده، قلت أنا: هذا الهرم الرائع الطاهر، الخير، أساسه علاقة جنسية، وفي أي بيت دعارة هناك علاقة جنسية.

فالشهوة حيادية، نرقى بها إلى أعلى عليين، أو نهوي بها إلى أسفل سافلين، الشهوة حيادية، الله جعل بالإنسان شهوات، و ما من شهوة أودعها الله بالإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، بتعبير آخر بالإسلام لا يوجد حرمان أبداً، أي شيء تشتهيه نفسك له منهج صحيح، له قناة نظيفة، فالمؤمن ما حرم نفسه متع الحياة، لكن تحرك حركة نظيفة، وتحرك حركة صحيحة، وتحرك حركة هادفة، وارتقى بحركته إلى الله ورسوله.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ)

شفا؛ على حافة،

(جُرُفٍ هَارٍ)

بئر غير مبني، وقد يهدم،

(فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ)

عدم استواء المؤمن مع الفاسق :

لذلك:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً)

(لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

مرة قال لي إنسان لعله مداعباً: تقول المؤمن سعيد، والله مثله مثل الناس، هكذا أكد لي بجلسة فيها عدد كبير من الناس، فأنا خطر في بالي مثل أوضح به الحقيقة، قلت له: إنسان موظف ودخله محدود جداً،

وعنده أولاد كثر، وبيته بالأجرة، وعليه دعوى إخلاء، ووضعه المادي صعب جداً، لهذا الإنسان عم يملك خمسمئة مليون، وليس عنده أولاد، وتوفي بحادث، ما الذي حصل؟ الذي حصل أن هذا الإنسان الموظف، الفقير، المعدم، الذي عنده ثمانية أولاد، وما عنده دخل يكفي إنفاق أيام معدودة، فجأة امتلك خمسمئة مليون، لكن الروتين، والإجراءات المالية، وبراءات الذمة تطول، حتى قبض أول مبلغ بعد سنة، لماذا هذا الموظف الفقير المعدوم أسعد إنسان بهذه السنة؟ ما قبض قرشاً، لكن صار معه خمسمئة مليون، إن رأى سيارة فارهة يقول: سأشتري مثل هذه، وإن رأى بيتاً فخماً يقول: سأشتري هذا البيت، هذا معنى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: 111]

(فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

فلذلك هنا موازنة دقيقة جداً

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

إذاً

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

أي أسس حياته، زواجه، بنيانه، دراسته، درس اختصاصاً ينفع الأمة، حرفته، بيته في حي ملتزم، وهناك أحياء متفلتة جداً، يخاف على أولاده، فبيته، دراسته، تفكيره، حرفته، زوجته، أولاده، أساسيات حياته.

مثلاً المركبة أساسياتها المحرك، أساسياتها الوقود، أساسياتها العجلات، هذه أساسياتها، أما لونها فهذا شيء ثانوي، أما الأساسيات فواضحة.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا)

على حافة،

(جُرُفٍ هَارٍ)

على بئر غير مبني، فاحتمال انهدامه كبير جداً،

(فَانْهَارَ بِهِ)

لم ينهار في البئر، بل في نار جهنم،

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

من يرفض الحق أصلاً يمتنع عن الهدى :

لو تتبعنا قوله تعالى:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

مثلاً إنسان يمشي في طريق، وليكن من دمشق إلى حمص، في منتصف الطريق طريقان، وهناك إنسان واقف دليل، لم يسأل هذا الدليل، ولم يعبأ به، واختار أحد الطريقين، فالذي اختاره كان خطأ، الدليل يستطيع أن ينصحه، ما سأله، بل رفض كلامه.

فالإنسان عندما يرفض الحق أصلاً إذاً هو امتنع عن الهدى، هذا يسمونه تحصيل حاصل، لما هو رفض هداية الله عز وجل

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

ظلم نفسه بترك الدين، ما بحث عن الله، ما بحث عن منهجه، ما التقى بعالم، ما حضر مجلس علم، ما قرأ كتاباً، ما سأل عن سر وجوده، وغاية وجوده، ما عرف تعريفه الحقيقي، هو المخلوق الأول، الإنسان المكلف المكرم.

أنا مرة التقيت مع خبير دولة أجنبية، أحببت أن أذكر له شيئاً عن الدين، فبعد أن بدأت قال لي: معذرة، هذه الموضوعات بأكملها، وتفاصيلها، لا تعنيني، ولا أهتم لها، ولا ألقي لها بالاً، وانتهى الأمر.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة الأنفال]

فالإنسان له اختيار، إذا ما اختار طريق الحق، لم يختر طريق الحق، سيكون في ضلال، ويكون في انحراف، ويكون في بعد عن الله، وسيدفع ثمن انحرافه شيئاً باهظاً.

الإنسان مخير و لولا أنه مخير لما كان من فضل له إذا آمن :

إذاً:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ)

على منهج الله، على الحلال، على الخير، على الشر، على الحق، على الباطل، زواجه، اختيار حرفته، تربية أولاده، نشاطاته، إملاء أوقات فراغه، كلها وفق منهج الله، فهذا من حال إلى أحسن، من خير إلى خير، من تقدم إلى تقدم، من تألق إلى تألق، من فلاح إلى فلاح.

(أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ)

قصص لا تعد ولا تحصى قد تنشئ ملهى ليلياً، طبعاً هناك معاص لا تعد ولا تحصى، قد تنشئ دار قمار مثلاً، والمال كله حرام، والحقيقة لماذا الإنسان مخير؟ لأنه لولا أنه مخير لما كان من فضل له إذا آمن، لولا أنه مخير لما كان للجنة من معنى، فاختياره دليل رقيه، اختياره يثمن عمله.

لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

الإنسان أعقد آلة في الكون تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز :

إذاً الآن كلام دقيق: أنت أيها الإنسان لك بنيان، أساسيات حياتك، دراستك، هناك دراسات ترقى بالإنسان، ودراسات تهوي به إلى أسفل سافلين، هناك تجارة رابحة، وصالحة، وحلال، ورد:

((إن أطيب الكسب كسب التجار، الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا))

[الجامع الصغير عن معاذ]

فهذا الإنسان حينما يختار حرفة ترقى به، يختار زوجة ترقى به، ينجب أولاداً ويربيهم تربية تجعلهم قرة عين له في المستقبل، هذا إنسان تحرك وفق منهج الله، من أنت أيها الإنسان؟ أنت أعقد آلة في الكون، تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، ولك صانع عظيم، وحكيم، ولك تعليمات التشغيل والصيانة، الآلة الراقية معها تعليمات المصنع، ما من جهة على وجه الأرض أجدر أن تتبع تعليماتها كالجهة الصانعة، لأنها الجهة الخبيرة قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر]

إذاً فالذي:

(أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أنت اجمع الآيات والله لا يهدي القوم الفاسقين، القوم الظالمين، هناك معان كثيرة، تقريباً اثنتا عشرة آية ابحث عنها في المعجم المفهرس، أو في الكمبيوتر، وحاول أن تبتعد عن هذه الصفات التي لا تؤهل أصحابها إلى بلوغ المنى في الدنيا ولا في الآخرة.

الفطرة و الصبغة و الشرع :

أيها الأخوة الكرام، هناك فطرة، وهناك صبغة، وهناك منهج، الآن الشرع يتوافق مع الفطرة، يتناقض مع الهوى، الإنسان لو أنه لم يستيقظ على صلاة الفجر أعطى جسمه راحته الكاملة، لأنه ترك صلاة الفجر يحس بانتقاض، فهذا العمل تناقض مع فطرته، وتوافق مع شهوته، الحب النوم أو الاستمرار في الفراش، إذاً:

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة التوبة]

هذه الآية معناها توافق الفطرة مع المنهج، الآية الدقيقة في هذا المعنى:

(وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

[سورة يونس الآية:105]

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً هذا يتطابق تطابقاً تاماً مع فطرتك، مع بنيتك، مع خصائصك، أي شيء أمرك الله به أنت مبرمج عليه، مولف عليه، لذلك الإنسان إن استقام يحس براحة لا تقدر بثمن، الله عز وجل أمرك أن تكون صادقاً ونفسك مبرمجة، مصممة، مولفة، مسواة.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

[سورة الشمس]

على أن تكون صادقاً، مثل عندما مركبة مصممة على طريق معبد فإذا سرت بها بطريق وعر، أحجار، وأكمات، وحفر، تسمع أصواتاً وتكسيراً، هذه مصممة على طريق معبد، فإذا سرت بها على طريق معبد كانت انسيابية، وحركتها سهلة، ورائعة.

الكآبة سببها البعد عن الله عز وجل :

لذلك:

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ)

هو يشعر بأخطائه، هذه الكآبة.

لذلك في بعض البلاد الغربية أجروا إحصائية للأمراض النفسية فالنتيجة كانت مئة و ستة وخمسين بالمئة، هذه الكآبة سببها البعد عن الله عز وجل.

أنت مصمم وفق منهج الله، فأول ثمرة يجنيها المؤمن أنه اصطلح مع نفسه، يقول لك: أنا مرتاح، مسرور، يحس أنه في أعلى عليين.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

فالحالة النفسية للمؤمن حالة مريحة جداً لأنه اصطلح مع خالقه، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ إذا كان الله معك فمن عليك؟ لا يستطيع إنسان في الأرض أن ينال منك، وحينما لا يكون الله معك قد يتطاول عليك من هو أقرب الناس إليك، هذه الحقيقة.

من يطيع الله عز وجل يشعر بسعادة لا توصف :

إذا:

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ)

هذه الكآبة التي تصيب العاصي، الكآبة التي تصيب المنحرف، شيء طبيعي جداً، هو مبرمج على طاعة الله، مولف على طاعة الله، والدليل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

الله عز وجل حينما سوّى هذه النفس سواها وفق منهج الله، فلمجرد أن تطيع الله تشعر براحة، هذه السعادة لا توصف.

لذلك:

((نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ)

أقلقهم، أوقعهم في أزمة نفسية، أوقعهم في كآبة، الكآبة المعصية، فالإنسان حينما يعصي الله يقع في كآبة، يقع في ضيق، والدليل:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

[سورة طه الآية:124]

قال بعض العلماء: ما بال الأقوياء والأغنياء؟ قال: هم كذلك، في معيشة ضنك، الضنك هو ضيق القلب، أي يا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟.

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا)

بنوا حياتهم على دخل حرام، على علاقات متفلتة مع النساء، على احتقار من هم دونهم، على كسب غير مشروع، على إنفاق غير مشروع، على تفلت في العلاقات، بنى حياته على المعاصي والآثام، هو في بعد عن الله، هو في قلق، في خوف من المستقبل، من المجهول.

المؤمن يتمتع بأمن لا يوصف :

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ)

هناك حالة اسمها الانسجام، بينك وبين نفسك، بينك وبين خالقك، بينك وبين من حولك، بينك وبين من فوقك، بينك وبين من تحتك، أي ثمار الإيمان كبيرة جداً، مستحيل أن تضغط في كلمات، أو في بنود،

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ)

تتقطع قلوبهم أسفاً على ما هم فيه، قلقاً على ما هم فيه، خوفاً مما هم فيه، أي المؤمن يتمتع بأمن لا يوصف:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام]

قال:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

[سورة الأنعام الآية: 82]

المؤمن في أمن و كفاية و الكافر في خوف و قلق :

أخواننا الكرام، في اللغة لفتات دقيقة جداً، لما قال عز وجل:

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

فرق كبير بين أن يقول:

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

أو أولئك الأمن لهم، إذا قلنا: أولئك الأمن لهم ولغيرهم، لا يوجد قصر ولا حصر،

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

لهم وحدهم، كأن تقول: إياك نعبد أم نعبد إياك، فرق كبير جداً إياك نعبد أي لا نعبد غيرك، هناك قصر و حصر، أما نعبد إياك ونعبد غيرك، هنا:

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

هذا اسمه الإيمان، أمن الإيمان،

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

ولا أعتقد في الأرض نعمة تفوق نعمة الأمن، قال تعال:

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

[سورة قريش]

يقارب هذه الآية:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل]

إن كنت مؤمناً فأنت في أمنٍ وكفاية، الأمن حالة نفسية، والكفاية حالة مادية يقابلها:

(فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)

الجوع حاجة مادية، والخوف حالة قلق نفسي.

إذاً:

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ)

توافق الفطرة مع المنهج،

(إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

من باع الله عز وجل نفسه فله جنة عرضها السموات و الأرض :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة التوبة]

أي عقد بيع، أنت بعت الله عز وجل نفسك وكل ما حولك فأنت حينما تبيع هذا البيع فالله عز وجل يكافئك بجنة عرضها السموات والأرض.

لكن لهذه الآية بحثاً طويلاً أرجو الله سبحانه وتعالى أن نتوسع بها في لقاء قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (63-70) : تفسير الآية 111، التجارة مع الله تجارة رابحة - الفوز العظيم هو الفوز بالجنة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-07-29

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى منح الإنسان الإيجاد والإمداد والهدى والرشاد :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الحادية عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أيها الأخوة الكرام، بين الآيات القرآنية في السورة الواحدة علاقات وشيجة، فبعد أن حدثنا ربنا جل جلاله عن الذين تخلفوا عن الغزو، وعن الذين اعتذروا كاذبين، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم، قال: هذه الأنماط – النماذج- من المنافقين، والكفار، لا تعني أن ليس هناك فئة مؤمنة طاهرة، متفوقة، لذلك جاء الحديث عن المؤمنين، فقال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

النقطة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى منح الإنسان الإيجاد، ومنحه الإمداد، ومنحه الهدى والرشاد، منحك نعمة الإيجاد، أنت موجود، والدليل: لو اطلعت على كتاب ألف قبل ولادتك، في أثناء تأليف هذا الكتاب، من أنت؟ لا شيء، ما هويتك؟ لا هوية، ما وجودك؟ لا وجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان]

إذاً منحنا الله عز وجل النعمة الأولى نعمة الإيجاد، فنحن موجودون، والوجود نعمة كبرى، لأن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا، فلما أوجدنا، معنى ذلك أنه أوجدنا ليسعدنا وهذه نعمة كبيرة.

الله عز وجل منح الإنسان الحياة و اشتراها منه :

لذلك العلماء قالوا: هناك نعم كبرى، أولها: نعمة الإيجاد، وثانيها: نعمة الإمداد، أمدك بكل حاجاتك، المادية، والمعنوية، القريبة، والبعيدة، ومع كل ذلك منحك نعمة الهدى والرشاد، دلك عليه.

إذاً أي إنسان على وجه الأرض يتمتع بنعم ثلاث، أولاها: نعمة الإيجاد، وثانيها: نعمة الإمداد، وثالثها: نعمة الهدى والرشاد، الله عز وجل أوجدنا، وأمدنا، وهدانا، ولكن هذا التمليك ملكنا أنفسنا، وملكنا أموالنا، المال مال الله، لكن الله ملكنا إياه، وليكون هذا التمليك أكيداً وحقيقاً قال: أقرضني من هذا المال، هو مال الله عز وجل.

كيف بأب يعطي ابنه مبلغاً كبيراً، ثم يقول له: أقرضني يا بني، المال مال الأب لو قال: ردّ لي بعض المال، لم يقل رد لي بعض المال، قال: أقرضني.

معنى ذلك الله سبحانه وتعالى منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الرشاد والهدى، ونعمة الإمداد، لكن الله عز وجل إذا أعطى لا يأخذ، وإذا منح لا يسترد، إذاً ملكك حياتك، وملكك مالك، الآن إذا بذلت حياتك في سبيل الله، إما ضعفاً، أو جهداً، أو طاقة، أو قتلاً في سبيل الله، إن قدمت حياتك في سبيل الله، أو قدمت مالك، هذا العمل ثمّنه الله تثميناً كثيراً، لأنه عدّ حياتك ملكك، وعدّ مالك ملكك، ثم قال: ابذل هذه الحياة، ابذل جهداً، أو وقتاً، أو مشقة، أو نفساً، ابذل هذا المال أو بعضه، أو كله، فكأن الله سبحانه وتعالى منحك ثم استقرضك، فقال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة الآية: 245]

إذاً:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى)

أي هو منحك الحياة، واشتراها منك، إذاً هناك صفقة، هناك بائع ومشتر، مبيع ومادة، المشتري هو الله، والبائع هو الإنسان المؤمن، وأما الثمن فهو جنة عرضها السموات والأرض فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

المؤمن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

لذلك المؤمن حينما يشعر أنه باع نفسه لله، كيف يتصرف بعدها؟ أضرب على ذلك مثلاً: لو أن لك بيتاً ملكك، بعته، فالذي اشتراه أراد أن يلغي حائطاً بين غرفتين، هل تستطيع أن تعترض عليه؟ لو أراد أن ينشئ غرفة زائدة، أي إجراء في هذا البيت لأنه تملّكه فأنت كبائع ليس لك الحق أن تعترض عليه، هذا المثل للتقريب.

ما دمت قد بعت نفسك لله بيعاً حقيقياً، وبيعاً قطعياً، فإذا اختار الله لك دخلاً محدوداً، أو زواجاً من دون أولاد، أو ذكوراً من دون إناث، أو إناثاً من دون ذكور، أو دخلاً فلكياً، أو دخلاً محدوداً، أو مرضاً

معيناً، أو مشكلة في حياتك، هذا كله من قضاء الله وقدره، فأنت إذا كان بيعك حقيقياً بعت ربك عز وجل، طبعاً هذا لا يتناقض مع أن تعالج نفسك، هذا لا يتناقض مع أن تأخذ بالأسباب، ولكن حينما تأخذ بالأسباب ولا تستطيع بعد الأخذ بها أن تحقق الهدف، إذاً هذه مشيئة الله، هذه كلمة دقيقة جداً.

المؤمن حينما تأتيه مشكلة يبحث عن حل لها، وحل ثان، وحل ثالث، فإذا لم تفلح كل الحلول، يقول: هناك حكمة بالغة بالغة من هذا الذي أصابني، أما أن تقول هناك حكمة قبل أن تفعل شيئاً فهذا عمل فيه تواكل، وعمل مرفوض في عالم المسلمين.

بالإسلام هناك حقيقة خطيرة جداً: المؤمن الصادق عليه أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

التوكل من أخطر صفات المؤمن :

ما الذي يتناقض مع هذه الحقيقة؟ ألا تأخذ بالأسباب مدعياً أنك توكلت على الله، هذا ليس هو التوكل.

قال سيدنا عمر: "المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله".

الطالب المتوكل يدرس قصارى جهده، ثم يتوكل على الله، والتاجر المتوكل يدرس الصفقة دراسة متقنة مبالغ فيها، ثم يشتريها ويتوكل على الله، الطبيب المؤمن يراجع كل المراجع ثم يصف الدواء وبعدها يتوكل على الله، لأن التواكل أي ألا تسعى وأن تكتفي بالتوكل، هذا عند الفقهاء تواكل وليس توكلاً، لأن هذا التوكل من أخطر صفات المؤمن، لكن المسلمين في تخلفهم عن حقيقة دينهم، فرغوا هذه الصفة من مضمونها الصحيح، فصار ترك الأخذ بالأسباب توكلاً، لا أبداً، خذ الأسباب وكأنها كل شيء، وتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

أيضاً للتقريب: أنت مسافر من بلد إلى بلد، ماذا يعني التوكل؟ أن تراجع المركبة مراجعة دقيقة، أن تراجع المحرك، أن تراجع العجلات، أن تراجع العجل الاحتياط، أن تراجع كل شيء، ثم تقول: يا ربي توكلت عليك، اللهم احفظني، أما أن تكون العجلة الاحتياط غير سليمة وهناك أخطاء كبيرة بالمركبة، وتقول: توكلت على الله فهذا ليس من الدين في شيء، خذ الأسباب وكأنها كل شيء، ثم توكل على الله وكأنها ليست بشيء.

عندنا منزلقان في التوكل، عدم الأخذ بالأسباب يتناقض مع التوكل، والاعتماد عليها يتناقض مع التوكل، تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وتعتمد على الله وكأنها ليست بشيء.

البذل علة وجودنا في الدنيا :

لذلك إن الله عز وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

ماذا اشترى منهم؟

(أَنْفُسَهُمْ)

من هو الإنسان؟ هو نفسه التي بين جنبيه، جسمه وعاء له، وروحه قوة إمداد إلهية تحركه، فالروح قوة الإمداد الإلهية، والجسم وعاء لنفسه، ونفسه ذاته، ونفسه هي المؤمنة، هي غير المؤمنة، هي الصادقة، هي الكاذبة، هي التي ترقى، هي التي لا ترقى.

إذاً الله عز وجل:

(اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

النفس بطاقتها، بوقتها، بجهدها، ببذلها، بتضحيتها، بالمتاعب التي قد تتحملها، بالهموم التي تنصب عليها، هذا كله من خصائص النفس، وقد يبذل الإنسان نفسه في سبيل الله، فهذه النفس المؤمن باعها لله عز وجل، وهذا هو البيع الرابح.

(وَأَمْوَالَهُمْ)

كل شيء يملك هو مال، فمالك هو النقد الذي بين يديك، ومالك وقتك، ومالك جاهك، ومالك مكانتك، هذه كلها داخلة لأن هذا لك، تملكه أنت، فهناك من يبذل من ماله، ومن جاهه، ومن وقته، ومن علمه، فلابد من البذل، بل إن علة وجودنا في الدنيا البذل، والدليل أن الذي يأتيه ملك الموت يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

كأن العمل الصالح بعد الإيمان بالله، هو علة وجودك، لأن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، ولأن العمل الصالح ثمن الجنة، من هنا كان المؤمن موفقاً وسعيداً، لأنه عرف سر وجوده.

وللتوضيح: لو إنسان سافر إلى بلد أجنبي لينال الدكتوراه، في هذه العاصمة التي فيها الجامعة، علة وجوده في هذه المدينة الدراسة فقط، هناك نزهة، و زيارة، و سياحة، و ناد ليلي، و سينما، و نشاطات، وحركات، وسكنات لا تعد ولا تحصى، ولكن هذا الطالب الذي جاء لهذه المدينة بقصد الدراسة، نقول: علة وجوده في هذه المدينة نيل هذه الشهادة، فالمؤمن الموفق لا تغيب عنه علة وجوده في الدنيا.

العبادة علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا :

علة وجودك في الدنيا قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

العبادة، العبادة هي الطاعة، والعبادة أن تستسلم لمنهج الله عز وجل، والعبادة أن تكون مع الله، أن تطيعه، وأن تتقرب إليه، وأن تسعد بقربه في الدنيا والآخرة، أن تطيعه فيما أمر، وأن تنتهي عما نهى عنه وزجر، وأن تتقرب إليه بالأعمال الصالحة، وأن تتجه إليه محباً ومخلصاً، هذه العبادة، والإنسان إذا عبد الله شعر بالتوازن، وهناك شيء اسمه في علم النفس متعة الإنجاز، فأنت حينما تعرف سر وجودك، وغاية وجودك، وتتحرك وفق هذا الهدف الذي رسمه الله لك، تشعر بطمأنينة، وراحة نفسية لا يعرفها إلا من ذاقها، أنت حينما تتحرك وفق الهدف الذي خلقت له، أو وفق سر وجودك، ووفق غاية وجودك، تشعر بطمأنينة، وراحة نفسية لا تقدر بثمن، حينما تستيقظ صباحاً كما ورد في بعض الأحاديث النبوية:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

عطاء الله أبدي سرمدي :

إذاً إن الله جلّ جلاله:

(اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ)

وهبهم أنفسهم، ثم اشتراها منهم، وهبهم أموالهم، ثم قال: أقرضوني بعض هذا المال، أقرضني يا عبدي، هذه المعاني إذا ذاقها المؤمن ذاب محبة لله عز وجل، اشترى، ما الثمن؟ الثمن شيء لا يوصف قال:

(بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

قد يخطر في بال الإنسان بأن لهم أولاداً نجباء، بأن لهم حياة مديدة بأن لهم صحة فريدة، هذا كله زائل. أخوتنا الكرام، الدنيا بكل ما فيها، من مباهج، من متع، من مسرات، من أموال، من جاه، من سلطان، لا تتناسب مع كرم الله عز وجل، لماذا؟ لأن كل هذا العطاء في الدنيا ينتهي عند الموت، وعطاء الله

ينبغي أن يكون أبدياً سرمدياً، الدنيا مهما تفوقت فيها، بعلمك، أو عملك، أو مكانتك، أو وسامتك، أو صحتك، أو زواجك، أو أولادك، كل ما فيها من مباهج، ومن مسرات، لا تتناسب مع كرم الله عز وجل، لماذا؟ لأن هذه الدنيا تنتهي بالموت، لكن عطاء الله الذي يليق بكرمه ينبغي أن يكون أبدياً.

من سقط من عين الله ضيع مكانته وهيبته :

لذلك أنا أقول: المؤمن العطاء الإلهي له على شكل خط بياني صاعد صعوداً مستمراً، وما الموت إلا نقطة على هذا الخط الصاعد، والصعود بعد الموت مستمر، هذا العطاء أيلغى بشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً؟ في بعض الآثار النبوية:

((ألا يا رب شهوة ساعة، أورثت حزناً طويلاً))

[ورد في الأثر]

شهوة ساعة، زلة قدم، ضيعت مكانتك عند الله، لأن الإنسان إذا عصى الله عز وجل سقط من عينه، لو أن شيئاً سقط من السماء إلى الأرض يتحطم على سطح الأرض، يتكسر، فكيف إذا سقط الإنسان من عين الله عز وجل؟ قد تكون فقيراً وأنت عند الله كبير، وقد تكون ضعيفاً وأنت عند الله كبير، وقد تكون مرهقاً وأنت عند الله كبير، وقد تكون متعباً وأنت عند الله كبير، ولكن إذا سقط الإنسان من عين الله انتهى كل شيء.

((ابن آدم اطلبنِي تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

(اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

إنسان سأل عارفاً بالله، قال له: يا سيدي كم الزكاة؟ فهذا العارف أراد أن يعطيه درساً لطيفاً، قال له: عندنا أم عندكم؟ قال له: عجيب ما عندنا؟ وما عندكم؟ قال له: عندكم اثنان ونصف بالمئة، أما عندنا فالعبد وماله لسيده.

البعد وعدم السير الحقيقي في الطريق إلى الله يسبب أسئلة لا داعي لها :

لذلك الإنسان حينما يؤدي ما عليه من فرائض، هو مؤمن ورب الكعبة، وناج، وفي الجنة، لكن أحياناً هو من السابقين السابقين، من الذين قدموا كل ما يملكون لله عز وجل، هذا المعنى في قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأنعام]

هذا أعلى درجات العبادة، أن يكون كل شيء بيديك لوجه الله عز وجل، الثمن الجنة، والجنة مهما تنوعت أوصافها، الله عز وجل اختار للجنة أوصافاً في القرآن محدودة، أنا أتمنى ألا نزيد عليها شيئاً، كل شيء الله عز وجل ذكره في عالم الغيب ممنوع على المؤمنين أن يزيدوا عليه، فأي زيادات من خيال العلماء، هذا ممنوع، نكتفي بالوصف الذي كان في القرآن الكريم، هذا الوصف فيه حكمة بالغة، لكن للتقريب: إنسان يتجه للمدينة، سأل عن مساحتها، عن مبانيها، عن حدائقها، عن جامعتها، وناقش، وحاور، وصدق، وكذب، هذا جهد ضائع، أنت في الطريق إليها وبعد أن تدخلها ترى كل شيء.

فقضية ما في الجنة، ونعيم الجنة، وحور عين، وهل للمرأة حور عين أيضاً أم لا يوجد لها؟ هذه التفاصيل، العجيب أن الصحابة لم يسألوا عنها إطلاقاً، لماذا؟ لأنهم وصلوا إلى الله، والإنسان إذا وصل إلى الله توفرت أسئلته.

كنت أقول مرة: لو إنسان لم يرَ البحر سأل عن لون البحر، عن عمق البحر، عن طعم ماء البحر، عن ملوحة البحر، عن كثافة البحر، هناك مليون سؤال، فإذا رأى البحر ونزل فيه، مياه البحر محيطة به، رائحة الملح يشمها بأنفه، منظر الماء يراه بعينه، انتهت كل أسئلته، أنت إذا وصلت إلى الله انتهى كل شيء.

لذلك قلما تجد في أصحاب النبي من يطرح عليه أسئلة من النوع الذي يطرح اليوم، فالبعد، وعدم السير الحقيقي في الطريق إلى الله، يسبب هذه الأسئلة.

من يموت في سبيل رفع راية الإسلام عالياً و نشر الحق فهو في سبيل الله :

(بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

الثمن؟ قال:

(يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)

الإنسان يموت موتاً طبيعياً، أحياناً يقتل في حرب، لكن هناك حالة واحدة ولها شروط صعبة جداً، أن تموت في سبيل الله، من هذا الذي يموت في سبيل الله؟ الذي قاتل ليكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله، ليعلي دين الله، لينشر هذا الدين، ليجعل هذا الإسلام متبعاً في كل البلاد، حينما يخرج من ذاته لينقل هذا الدين إلى من حوله، ويموت في هذه الحالة الرائعة، فهو في سبيل الله، أي كل إنسان مات هو في سبيل الله؟ هذه فيها تزيد، وفيها مبالغة، وفيها عدم دقة في الكلام، الذي يموت في سبيل رفع راية الإسلام عالياً، الذي يموت في سبيل نشر الحق في الأرض، هذا في سبيل الله، لكن هناك حالات أخرى من الموت عدها النبي شهادة، مثلاً: ورد في بعض الأحاديث:

((مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فهو شهيد))

[أخرجه النسائي عن سويدَ بن مُقَرِّن]

أي مظلوم، طالب بحقه، لم يعطَ حقه، ثم قتل فهو أيضاً شهيد، هناك أهدف عديدة أما أرقى هدف فأن تموت من أجل رفع كلمة الحق.

أنواع الدعوة إلى الله :

1 ـ الدعوة البيانية :

(يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

طبعاً هذا القتال أخواننا الكرام، يجب أن يوضح لأخوتنا هناك دعوة بيانية، دعوة باللسان:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

[سورة النحل الآية:125]

دعوة بيانية، مع الدعوة البيانية أحياناً هناك شِدة، أي هناك دعوة بيانية، و دعوة عن طريق التربية، أحياناً الله عز وجل يسوق لك بعض الشدائد، هذه الشدائد هي دعوة إليه، إذا أرسل لك نبياً ومعه كتاب فهذه دعوة بيانية، هذه أرقى دعوة، الدعوة البيانية أكمل موقف فيها الاستجابة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 24]

الله عز وجل يدعوك للحياة،

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

هذه الدعوة البيانية، لو أن الدعوة البيانية لم يكن بعدها استجابة، الله قال:

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

الدعوة البيانية نص تقرأه، كلمة تسمعها، خطبة تستمع إليها، درس علم تصغي إليه، هذه الدعوة البيانية، كلام وأنت معافى سليم في بيتك، في أهلك، مع أولادك، بدخلك، بدكانك، بتجارتك، وأنت بأعلى درجة من الراحة تأتيك دعوة إلهية، عن طريق خطيب مسجد، عن طريق داعية، عن طريق كتاب، عن طريق رؤيا، عن طريق حادثة، عن طريق ...الخ.

2 ـ التأديب التربوي :

قال: فإن لم تستجب لهذه الدعوة البيانية، الآن يقول لك الطبيب: هذا المرض الذي تعاني منه يعالج معالجة تامة بالحمية، فإذا أنت رفضت الحمية، يقول لك: إن لم تقبل بالحمية لابد من عمل جراحي. فهناك دعوة بيانية، فإن رفضتها هناك دعوة تأديبية، الدرس الثاني فيه تأديب، فيه شدة، في نفسك، في مالك، في دخلك، في أولادك، فيمن حولك، فيمن فوقك، فيمن تحتك، هذه شدة، والشدائد دائماً من أجل أن تشدك إلى الله، كل شِدة وراءها شَدة إلى الله، وكل محنة وراءها منحة من الله، فالدعوة البيانية أرقى شيء، والموقف الكامل أن تستجيب، الدعوة التأديبية تحتاج طبعاً إلى أن تتوب إلى الله عز وجل.

3 ـ الإكرام الاستدراجي :

إن لم تستجب بالدعوة التأديبية لابد من طريقة ثالثة تمتحن بها، وهي الإكرام أنا أسميه إكرام استدراجي.

4 ـ القصم :

لا بالشدة استجبت، ولا بالإكرام استجبت، ولا بالبيان استجبت، عندئذٍ يأتي القصم:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

[سورة الأنعام الآية: 44]

يل أيها الأخوة الكرام، نحن في الدنيا ندعى إلى الله، النبي الكريم مرّ على قبر قال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[رواه ابن المبارك عن أبي هريرة]

كل دنياكم، لو تملك أكبر شركة بالعالم، أكبر دخل، أعلى منصب:

((إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

فالبطولة أن تصحو وأنت حي، أنت تصحو والقلب ينبض، أو تصحو وفي العمر بقية.

إذاً:

(يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق عوده للمؤمنين :

أخواننا الكرام، أنا أقول دائماً: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق عوده للمؤمنين، الله عز وجل إذا وعد وفى، لا يوجد جهة أقوى من الله تمنعه أن يوفي وعده، كل شيء بيده، كن فيكون زل فيزول، الآية الكريمة:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص]

مرة كنت في مجلس يضم أربعين أو خمسين شخصاً، وأنا أحدثهم عن الجنة، وعن أحوال المؤمن، فقال لي أحدهم: أنا لست قانعاً بهذا الكلام، المؤمن شأنه كأي إنسان، ما يصيب الناس يصيبه، من سراء، ومن ضراء، لا يوجد له أي ميزة، هكذا رأيه، قلت له: لو أن إنساناً عنده ثمانية أولاد، ودخله أربعة آلاف ليرة في الشهر، لا تكفيه طعام خمسة أيام، وبيته مستأجر، وعليه دعوى إخلاء، أي مصائب الدنيا كلها انصبت عليه، وله عم غني غنى فاحشاً، يملك مئة مليون، وليس له أولاد، ومات هذا العم في حادث سير، وهذا ابن الأخ الفقير المحتاج هو الوريث الوحيد لهذا الإنسان، هذا الفقير حينما علم أن عمه مات بحادث، وأن الخمسمئة مليون آلت إليه، لكن المالية، وبراءات الذمة، والوثائق، تحتاج إلى روتين طويل في البلد، لا يستطيع قبض قرش واحد قبل عام، لماذا هذا الفقير المدقع المعدم هو أسعد إنسان بهذا العام مع أنه لم يأكل لقمة زائدة ولم يرتدِ معطفاً واحداً؟ قال: دخل في الوعد. الآن اسمعوا قوله تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

أنا أقول لأخوتنا المشاهدين: هنيئاً لمن أيقن أن الله وعده بالجنة، هذا أعظم عطاء إلهي، هنيئاً لمن أيقن أن الله وعده بالجنة.

أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا :

إذاً:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً - في كل الكتب السماوية - وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

هل هناك قوة في الأرض يمكن أن تمنع رب العالمين أن يفي بوعده؟ مالك الملك، الحي القيوم، العباد كلهم في قبضته، كن فيكون، زل فيزول، لذلك البطولة أن تكون متيقناً من وعد الله لك، وعدك بجنة عرضها السموات والأرض، هذا الوعد بالجنة يمتص كل متاعبك، هذا الوعد بالجنة يخفف كل همومك، هذا الوعد بالجنة ينقلك إلى ما سيكون، لا إلى ما هو كائن.

قال:

(فَاسْتَبْشِرُوا)

أيها المؤمنون، الإنسان يعيش المستقبل، أكثر الناس يعيشون الماضي والحاضر، يتحدث عن ماضيه، ذهب، وسافر، تزوج، وأنجب أولاداً، وزوج أولاده، وإلى آخره، ويتكلم عن حاضره، وعن ماضيه، لكن قلة قليلة من الناس تفكر إلى المستقبل، والحقيقة أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أكيسكم))

أي أعقلكم، أحزمكم.

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكرا، وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لوقت النشور))

[ابن مردويه والبيهقي عن أبي جعفر المدايني]

الله عز وجل خلقنا لجنة عرضها السموات والأرض، مع الأسف الشديد يعيش الناس ماضيهم وحاضرهم، وقلما يعيشون مستقبلهم، فالله عز وجل يلفتنا في هذه الآيات إلى ما ينتظر المؤمن من نعيم مقيم.

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ)

المؤمن لماذا هو سعيد؟ هو مثل الناس يصيبه ما يصيبهم، يقلقه ما يقلقهم، لكن وعد الله له بالجنة يمتص كل متاعب الدنيا.

معرفة الله و الاستقامة على أمره ثمن الجنة :

الآن النقطة الدقيقة أن الله عز وجل العظيم، قال:

(وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

إذا الإله العظيم بنبئك بقرآنه، بكلام واضح كالشمس، قطعي الدلالة، يقول لك: هذا

(هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أما عند الناس، بمقاييس الناس، بدنيا الناس، إنسان اشترى أرضاً تضاعفت مئة مرة فيقول لك: هذا فاز فوزاً عظيماً بالمال فقط، إما بمنصب اعتلاه، أو بمال جمعه، أو بأهل كانوا كما يتمنى، ففي الدنيا مباهج، و مسرات، و إنجازات، ومراكز علية، و ثروة طائلة، وهيمنة، و سيطرة، ومباهج لا تعد ولا تحصى، لكن كل هذه المباهج تنقطع بالموت، إذاً ليست عطاءً حقيقياً.

قال:

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ)

لأن الثمن هو الجنة، بأن لهم الجنة الثمن هو الجنة،

(وَذَلِكَ)

العطاء:

(هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

إذا قال العظيم فوزاً عظيماً فهو عظيم فعلاً، ولابد من قضية أذكرها كثيراً: طفل صغير عمره أربع أو خمس سنوات عقب عيد الأضحى قال لأخيه: أنا معي مبلغ عظيم، مئتا ليرة، وإذا قال إنسان بدولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، أي مئتي مليار، فإذا كان عظيم العظماء، ملك الملوك، ومالك الملوك:

(فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

فالحقيقة أن تعرف الله، أن تستقيم على أمره، أن تتقرب إليه، أن تمضي إليه، أن تمضي حياتك بالعمل الصالح، فالعمل الصالح هو النجاح، هو الفلاح، هو الفوز، هو التفوق، هو السعادة، طرق السعادة بين أيدي الناس، أن تعرف الله، وأن تتبع منهجه، أن تعرف الله، وأن تتصل به، أن تعرف الله، وأن تتقرب إليه هذا:

(هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

فلذلك:

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (64-70) : تفسير الآية 112، التوبة نقل من المعصية إلى الطاعة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-08-05

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من تدبر الآية التالية ومثيلاتها من الآيات المتشابهات :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثانية عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لنا في هذه الآية بعضاً من صفات المؤمنين، والحقيقة حينما يبين الله عز وجل في هذه الآية وفي غيرها من هذه الآيات الكثيرة صفات المؤمنين، فلعل الهدف من ذلك أن هذا المؤمن إذا قرأ القرآن، وقرأ صفات المؤمنين، ينبغي أن يتدبر هذه الآية، هذه الصفات هل تنطبق عليه؟ إن انطبقت عليه فهو في نعمة كبيرة، إن لم تنطبق عليه فهو في محنة كبيرة، إن انطبق عليه بعضها ولم ينطبق عليه بعضها الآخر فهو في وضع وسطي، فلابد من أن يتأمل المؤمن هذه الآيات، ولا بد من أن يراجع نفسه مراجعة دقيقة، بل لا بد من أن يقف عندها كلمة كلمة، ويرى هل هو من التائبين؟ هل هو من العابدين؟ من الحامدين؟ من السائحين؟ من الراكعين؟ من الساجدين؟ هذه صفات المؤمنين، وما أراد الله من هذه الآية، ومن مثيلاتها إلا أن تكون مقياساً لنا، أو هدفاً، إما أنها مقياس نقيس بها إيماننا، أو إنها هدف يمكن أن نسعى إليه.

إذاً هناك حكمة بالغة من تدبر هذه الآية ومثيلاتها من الآيات المتشابهات.

التوبة تجبُّ ما قبلها و التائب من الذنب كمن لا ذنب له :

أيها الأخوة،

(التَّائِبُونَ)

لعل رحمة الله في التوبة، الإنسان إذا شذّ عن منهج الله، أو انحرف عن طريق الحق، إذا وقع في المعاصي والآثام، ولم يكن هناك توبة، إذاً عرف مصيره في النار، ما الذي سيكون؟ ما دام هو في النار

ينبغي أن يفعل كل شيء، أن يبحث عن معصية لم يفعلها سيفعلها، المشكلة كبيرة جداً، أما إذا الله عز وجل بيّن لعباده أن التوبة تجب ما قبلها، وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

وأن الله عز وجل حينما قال:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

الله عز وجل خلق الإنسان ليرحمه :

أنت حينما تقرأ آيات التوبة، آيات كثيرة:

(اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة]

كلمة يحب من الله عز وجل شيء يفوق حدّ الخيال، الله يحب التائب، أي يا عبدي لو كنت منحرفاً، لو كنت مسرفاً على نفسك، أنا أقبلك، والذي يقنت من رحمة الله ليس مؤمناً، لذلك فتح الله باب التوبة، هذا الباب يسع جميع العباد، إن:

(اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 53]

جميعاً أي يغفر كل الذنوب، وأكبر الذنوب، وحينما يأتي اسم الله بصيغة المبالغة:

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

[سورة طه الآية: 82]

هناك غافر، غافر اسم فاعل، أما غفار فصيغة مبالغة لاسم الفاعل، معنى صيغة مبالغة لاسم الفاعل أن الله عز وجل يغفر الذنوب مهما كثرت، ومعنى غفار بمعنى أنه يغفر أكبر ذنب، إما نوعاً أو كماً، فالله عز وجل يدعونا إلى التوبة، والإنسان حينما يتوب - ومن ذاق عرف- يشعر عند التوبة أن هموماً كالجبال كانت جاثمة على صدره، فانزاحت عنه، التائب يحس بخفة، كأنه يطير في الهواء، هذا الجبل الذي يكاد أن يسحقه أزيح عنه، لأن الله عز وجل خلقنا ليرحمنا، وما فتح باب التوبة إلا للمذنبين، بل إنه ما أمرنا أن نتوب إليه إلا ليتوب علينا، وما أمرنا أن تستغفره إلا ليغفر لنا، وما أمرنا أن نعبده إلا ليرحمنا.

باب التوبة مفتوح في كل زمان و مكان :

إذاً:

(التَّائِبُونَ)

هؤلاء المؤمنون إذا زلت بهم القدم، قصرت بهم العزيمة، انحرفوا قليلاً، وقعوا في ذنب، غلبتهم شهوتهم، المسلم، أو الإنسان مذنب خطاء، شيء طبيعي جداً، لكن البطولة أن هذا الذنب الذي وقع به المؤمن باب التوبة مفتوح على مصراعيه، لئلا يقنط من رحمة الله من أجل ألا ييئس.

(التَّائِبُونَ)

مرة ثانية:

((إذا رجع العبد- إلى الله تائباً - نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

فالتائب يحبه الله عز وجل، سار في طريق سعادته، لأن الله عز وجل خلقنا للسعادة.

فإذا كان ابناً طموح أبيه منه أن يكون مثقفاً ثقافة عالية، أو أن يكون طبيباً مثلاً، فحينما يتحرك هذا الطفل لتحقيق هذا الهدف يسعد والده، لأن والده يتمنى عليه أن يكون كذلك، الله عز وجل حينما خلقنا أرادنا أن نعبده، وأن نطيعه، كي يسعدنا بعبادته في الدنيا والآخرة، فالله عز وجل يفرح بإيمان عباده المؤمنين، يفرح بتوبتهم:

((لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

بطولة الإنسان إذا وقع في ذنب وتاب منه أن تكون توبته توبة نصوحة :

وهناك أحاديث كثيرة تؤكد فرح الله عز وجل بعباده المؤمنين، فكأن الله عز وجل يدفعنا إلى التوبة، كأن الله يقول: يا عبادي مهما كثرت الذنوب، مهما عظمت العيوب، مهما كان الذنب كبيراً فباب التوبة مفتوح على مصراعيه، ويؤكد هذا قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

فالمؤمن كثير التوبة، يتوب في اليوم مرات ومرات، كلما وقع في خطأ، في خلل، زلت قدمه، يرجع إلى الله بالتوبة، والله عز وجل بابه مفتوح لكل عباده.

لكن الواقع أنك إذا وقعت في ذنب فالتوبة الأولى أهون توبة عليك، لمجرد أن تنعقد التوبة كأنك تشعر أن الله قبلك، وقبل هذه التوبة، لكن حينما تعيد الذنب مرة ثانية، أقول لك الواقع يشعر هذا المذنب للمرة

الثانية أن التوبة الآن لم تكن سهلة كالأولى، صار كأنه استهزاء برحمة الله، فيجد صعوبة في التوبة الثانية، والصعوبة أشد في الثالثة، فالبطولة أنك إذا وقعت في ذنب وتبت منه أن تكون التوبة توبة نصوحة.

من أعاد ذنبه عليه أن يضيف إلى توبته عملاً صالحاً :

المؤمن تواب، أي كثير التوبة، والله عز وجل قال:

(التَّائِبُونَ)

جعل صفة المؤمنين الأولى أنهم تائبون، أي ليس لنا إلا الله، طبعاً الإنسان إذا تاب من الذنب نفسه مرات ومرات يجد صعوبة في التوبة الثانية، وصعوبة أكبر في التوبة الثالثة، وأكبر في الرابعة، لكن في النهاية ليس لنا إلا الله، يجب أن نتوب، والإنسان كتعليق إذا زلت قدمه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه، أما إذا أعاد الذنب فصار بحاجة إلى شيء آخر يزيد على التوبة، أن يصوم مثلاً مع التوبة، إن كان ذا مال أن ينفق من ماله، الإنسان أحياناً يسترضي أخاه بالمال، أقول لكم بكل بساطة: الله عز وجل يسترضى بالصدقة، فالإنسان إذا زلت قدمه أعاد الذنب مرة ثانية، فكيف يتوب توبة ثانية أو ثالثة؟ عندئذٍ يجب أن يضيف إلى توبته عملاً صالحاً، كصيام نفل، أو كدفع صدقة.

والحقيقة لا يعرف الشوق إلا من يكابده، لا يعرف مشاعر الإنسان المذنب حينما يتوب توبة نصوحة إلا من ذاق هذه المشاعر.

أقول لكم مرة ثانية: كأن جبالاً كانت جاثمة على ظهره، فلما تاب توبة نصوحة أزيحت هذه الجبال عن كاهله، وشعر بخفة وراحة نفسية لا تعدلها راحة.

التوبة حدّ فاصل بين زمن وزمن وبين حال وحال :

إذاً من صفات المؤمنين أنهم تائبون، لكن أقول لكم وهذه حقيقة مرة: إن التوبة الأولى سهلة جداً، أما الثانية فأصعب، والثالثة أصعب وأصعب، كأنك لم تفِ بوعدك، ولم تكن عند عهدك، لكن ليس هناك إلا التوبة نجاة لنا من كل شيء.

كأن التوبة بدأ الله بها لأنها تنهي عهد المعصية، عهد التفلت، زمن الانغماس في الملذات، تنهي الشرود عن منهج الله، تنهي وضعاً غير لائق في الإنسان، تنهي وضعاً لا يرضي الإنسان، تنهي وضعاً لا يرضي الله، هذا الزمن انتهى بالتوبة، كأن التوبة حد فاصل بين زمن وزمن، بين حال وحال، بين واقع وواقع، بين معطيات ومعطيات، هذا الحد الفاصل نقلك من المعصية إلى الطاعة، من البعد عن الله إلى

القرب منه، من التشتت إلى الجمع.

((من أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له))

[الترمذي عن أنس]

العطاء علة وجود الإنسان في الدنيا :

(التَّائِبُونَ)

من صفاتهم بعد التوبة أنهم عابدون، العبادة خضوع لمنهج الله، خضوع لما أمر، وابتعاد عما عنه نهى وزجر، ثم العبادة التقرب إلى الله بالطاعات، وبالأعمال الصالحة، وبالبذل، بل إن علة وجود الإنسان في الدنيا هو العطاء.

مرة قرأت كتاباً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بالمؤلف يقدم هذا الكتاب للنبي الكريم، قال في الصفحة الأولى من هذا الكتاب: "يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ".

الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء ملكوا القلوب، الأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء عاشوا للناس، والأقوياء عاش الناس لهم، وفرق كبير بين النبي والقوي، وفرق كبير بين أتباع النبي وأتباع القوي، لذلك كن من أتباع الأنبياء، لأنك إن فعلت هذا استحققت الجنة وما فيها من نعيم مقيم.

العبادات الشعائرية لا نقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

(التَّائِبُونَ)

لكنهم عابدون، العبادة قد يتوهمها متوهم أن تؤدي العبادات الشعائرية، هذا خطأ كبير، خطأ كبير جداً، لأن سيدنا جعفر حينما التقى النجاشي ملك الحبشة سأله عن هذا الدين فقال:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

معنى ذلك تفاصيل هذا المنهج تفاصيل أخلاقية، هناك عبادات شعائرية كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، لكن هناك عبادات تعاملية كالصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، والرحمة، وما إلى ذلك.

وأقول لكم هذه الحقيقة وقد تكون مؤلمة: العبادات الشعائرية كالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية.

التائب من لوازم توبته وعلامة قبول توبته أن يكون عبداً لله بعد التوبة :

إذاً:

(الْعَابِدُونَ)

الذين خضعوا لمنهج الله،

(الْعَابِدُونَ)

الذين استجابوا لله ورسوله،

(الْعَابِدُونَ)

الذين تقربوا إلى الله،

(الْعَابِدُونَ)

الذين تعرفوا على الله،

(الْعَابِدُونَ)

الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله،

(الْعَابِدُونَ)

الذين أقاموا منهج الله في بيوتهم، وفي أعمالهم،

(الْعَابِدُونَ)

الخاضعون، المتمثلون لمنهج الله عز وجل، تائبون وعابدون، فالتائب من لوازم توبته ومن علامة قبول توبته أن يكون عبداً لله بعد التوبة.

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ)

والعبادة واسعة جداً، هناك من يتوهم خطأ أن الإسلام هذه العبادات الشعائرية صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، أقول لكم: الإسلام منهج تفصيلي، يبدأ من فراش الزوجية، وينتهي بالعلاقات الدولية، يبدأ من أخص خصوصيات الإنسان، وينتهي بأكبر علاقات بين الأمم والشعوب، هذا الإسلام منهج كامل.

إذاً:

(الْعَابِدُونَ)

الممتثلون إلى منهج الله، المطبقون له، الذين استجابوا لله فكان عملهم وفق منهج الله عز وجل.

من لوازم التوبة أن يعبد الإنسان الله حق العبادة :

الآن: تائب وعابد، ما الرد الإلهي على توبته وعبادته؟ تائب وعابد، تاب توبة نصوحة، وعبد الله حق العبادة، ألا يوجد شيء من الله يشجعه ويثبته ويطمئنه ويحفزه؟ طبعاً.

الآن:

(الْحَامِدُونَ)

يأتي الخير الإلهي.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه مالك عن بلاغ بن مالك]

الخيرات، صدق واعتقد يقيناً أنه لمجرد أن تفكر أن تتقرب إلى الله بطاعة، بعبادة، بإنفاق مال، بقيام ليل، بقراءة قرآن، فالله عز وجل معك وسيكافئك، وسيتقرب إليك أيضاً.

((إن تَقَرَّبَ إليَّ شِبْرا تَقَرَّبتُ إليه ذِراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذِرَاعاً اقْتَرَبتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلَة))

[البخاري و مسلم عن أبي هريرة]

الله عز وجل ينتظرك، ينتظر هذه اللحظة التي تبحث عنها، لذلك الترتيب دقيق من لوازم التوبة أن تعبده حق العبادة، قال: وما حق العبادة؟ قال:

((أنْ تَحْفَظ الرَّأسَ ومَا وَعى، والْبَطْنَ ومَا حَوى، وتذْكُرَ المَوتَ والبلى))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن مسعود]

حق العبادة الطاعة، حق العبادة الخضوع لمنهج الله عز وجل، حق العبادة أن تؤدي شعائر الله عز وجل.

عطاء الله عز وجل لا نهائي :

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ)

المعنى الذي يأتي بين العابدين والحامدين، أنك حينما تتوب إليه، وحينما تعبده، تأتيك الخيرات، تأتيك المسرات، تأتيك الراحة النفسية، يأتيك الشعور بالتفوق، تأتيك الطمأنينة، يأتيك الأمن، يأتيك التوفيق في أعمالك، التوفيق في بيتك، التوفيق مع من حولك، مع من فوقك، مع من دونك، أي ثمار الطاعة لا تقدر بثمن، ثمار الطاعة لا تعد ولا تحصى.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

لن تحصوا، لن تستطيع أن تحصي خيرات الاستقامة، التائبون ترك المعصية والانحراف والتفلت، وما شاكل ذلك، بعد أن تاب توبة نصوحة، وترك كل المعاصي والآثام، الآن عبد الله، خضع لمنهجه، أدى عباداته الشعائرية، وطبق العبادات التعاملية، كان صادقاً، وأميناً، ومستقيماً...الخ.

الآن بعد أن عبد الله، واستقام على أمره، وتقرب إليه، جاءت الخيرات، وشيء يحير يا ترى خيرات مادية؟ مادية، ومعنوية، ونفسية، وروحية.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[رواه ابن ماجه وأحمد والدارمي عَنْ ثَوْبَانَ]

رحمة الله عز وجل يصعب حصرها في شيء واحد، رحمة الله توفيق، رحمة الله زواج سعيد، رحمة الله أولاد أبرار، رحمة الله زوجة صالحة، رحمة الله صحة، رحمة الله مكانة، رحمة الله رؤية ثاقبة، من الصعوبة بمكان أن تحدد رحمة الله، عطاء الله، وكيف أن عطاء الله عز وجل لا نهائي، فعطاؤه لا نهائي.

الإنسان خُلق ليعرف الله عز وجل :

اللفتة الدقيقة جداً أن هذا الإنسان حينما خلق ليعرف الله، قالوا: إن الأرض للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟ لله عز وجل.

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[سورة طه]

أنت لله، فأنت حينما تتعرف إلى الله، وحينما تقترب منه، وحينما تعمل صالحاً من أجله، الآن حققت الهدف من وجودك، والله عز وجل يفرح بك، لأنك تحركت وفق منهجه.

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ)

من لوازم التوبة العبادة، ومن لوازم العبادة الخير الذي يأتيك.

أقول لكم هذا الكلام: لحكمة بالغة بالغةٍ بالغة في اللحظة التي ينعقد في نفس الشاب المؤمن التوبة إلى الله، تجد حياته انقلبت رأساً على عقب، يجد سعادة، واستقراراً، وأمناً، ومكانة، وتوفيقاً، وتفوقاً، في بيته

محترم إلى أعلى درجة، بين أصدقائه، في مدرسته، في الطريق محشوم عفيف، يغض بصره، صفات المؤمن صفات راقية جداً.

للتقريب: فلان دكتور، أو تكتب جانب اسمه د. أي معه ابتدائية، وإعدادية، وثانوية، ولسانس أو بكالوريوس، و دبلوم عامة، دبلوم خاصة، وماجستير، ثلاث عشرة شهادة من كلمة د. وإذا قلت: مؤمن أي عرف الله عز وجل، فهو مستقيم و أخلاقي.

الإيمان مرتبة أخلاقية وعلمية وجمالية :

بالمناسبة: الإيمان مرتبة أخلاقية، ومرتبة علمية، ومرتبة جمالية، المؤمن أسعد إنسان، أقسم لكم بالله أيها الأخوة المشاهدون: تمتع المؤمن في الدنيا التي أتيحت له في الجانب الحلال منها فقط، أي اشتهى المرأة تزوج، اشتهى المال عمل عملاً طيباً، مستقيماً، نزيهاً، جمع المال، تمتع المؤمن في الدنيا تفوق متعة غير المؤمن بآلاف المرات، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

له جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة.

المؤمن طبيعته شاكر وغير المؤمن طبيعته كفور :

الآية الدقيقة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية الآية: 21]

قد تقول: في الآخرة، لا، في الدنيا قبل الآخرة.

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

[سورة الجاثية الآية:21]

في دنياهم، أي المؤمن بيته غير بيت غير المؤمن، المودة بينه وبين أولاده متمايزة، هدوءه في البيت، تماسكه، رحمته، مكانته، شخصيته، الآن نشاطه نشاط مقدس، لقاءاته هادفة، بحث عن العلم، مثلاً دعا إلى الله، بيته فيه سكينة، ووقار، علاقته واضحة، الفرق كبير بين الذهب والنحاس، الفرق كبير بالثمن وكبير بالثبات على الخصائص.

إذاً:

(الْحَامِدُونَ)

جاءه الخير فحمد الله عليه، فالمؤمن طبيعته شاكر، شكور، وغير المؤمن طبيعته كفور، يكون بأعلى درجة من الدخل، بأعلى درجة من الصحة، يشكو لك، كثير الشكوى، البلد لا يعجبه، والناس لا يعجبونه، والتجارة لا تعجبه، يعيش في بحبوحة كبيرة جداً وغارق بالنعيم ومع ذلك يتشكى، قال:

أي هذا المتشكي وليس بك داء كيف تـغدو إذا غدوت عليلاً

* * *

أي عنده دنيا عريضة وهو يشتكي فكيف إذا غابت عنه هذه الدنيا؟

السياحة الفكرية :

الآن:

(السَّائِحُونَ)

السائح خرج من بلده، كأن هذه الكلمة تعني السياحة الفكرية، فكر بالكون، هناك إنسان عاش ببيته، أكل، وشرب، ونام، هناك إنسان فكر بالشمس، ما هذه النعمة الكبيرة؟ فكر بالقمر، فكر بهذه النباتات الجميلة، هذه لمن؟ لمن هذه النباتات؟ يروى أن إنساناً قدم لحمار فله فأكلها، هذه الفلة للإنسان ليتمتع برائحتها.

فهناك عشرات ألوف النباتات ضمن البيوت تعيش كي تستمتع بها، أنت مكرم، الفواكه كم نوع؟ النباتات كم نوع؟ المواهب الجمالية في الكون رائعة جداً، كلها من أجلك، ألا ترى أن الله عز وجل سخرها لك؟.

(السَّائِحُونَ)

أي يفكر، أكل، هذا الحليب، هذا الشراب اللذيذ المفيد، غذاء كامل، من أين جاء؟ من البقرة، هل يستطيع أهل الأرض أن يصنعوا من علف البقرة حليباً؟ معمل صامت بلا ضجيج، تأكل الحشيش تعطيك الحليب، الأجبان، والألبان، مشتقات الحليب لا تعد ولا تحصى، هذا الحليب هدية من الله.

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

[سورة النحل الآية:5]

(لَكُمْ)

لها معنى دقيق، خلقت لكم خصيصاً، فالإنسان المؤمن إذا شرب كأس الحليب، إذا أكل طعاماً، إذا أكل خبزاً، الآن القمح من صممه؟ القمح غذاء كامل، مرة قرأت عنه، هناك أربعة آلاف و خمسمئة نوع من القمح، هذا الغذاء الكامل.

سائح يفكر، يفكر في هذا النجم، هذا نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، المرأة المسلسلة تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، وهناك مجرة تبعد عنا أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، لو كان هناك طريقاً لهذا النجم لاحتاج إلى خمسين مليون عام ليصل إليه:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة]

هذا الكون لمن؟ لك، هذه النباتات لمن؟ لك، أنواع النباتات بالمليارات، أشكال أوراق النباتات لا تعد ولا تحصى، أنواع الفواكه، أنواع الحيوانات، أنواع النباتات، أنواع الصخور، كون بأعلى درجة من الكمال.

من عرف الخالق عرف كل شيء :

إذاً:

(السَّائِحُونَ)

يفكر بطعامه، بشرابه، بمن حوله، بمن فوقه، بمن تحته، هذا الذي يأكل ويمشي.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

[سورة النحل الآية:21]

(السَّائِحُونَ)

هنا السياحة الفكرية ، يفكر في خلق السموات والأرض، يفكر في جسمه، هذه العين فيها طبقة هي الملتحمة وهي شفافة، كل الجسم يتغذى عن طريق الشعريات، إلا ملتحمة العين، الطبقة الأولى، هذه عن طريق الحلول، أول خلية تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، من جعل خلايا القرنية تتغذى عن طريق الحلول؟ لو تغذت عن طريق الشعريات لرأينا ضمن شبكة، وهذا شيء مستحيل، سائح، جسمك أكبر آية بين يديك، الشعر، العينان، الأذنان، اللسان، المعدة، الأمعاء، جهاز التنفس، جهاز الكليتين، إلى آخره، عندك أجهزة بالغة الدقة، أنت أكبر آية بين يديك، أنت أنت نفسك، جسمك أكبر آية.

(السَّائِحُونَ)

أكل طعاماً فكر فيه، ألقى نظرة على البحر فكر بالبحر، ألقى نظرة على الجبل فكر بالجبل، رأى حيواناً أليفاً فكر بهذا الحيوان، رأى نباتاً جميلاً فكر بهذا النبات، يعيش مع الصانع لا مع الصنعة، العالم الغربي يعيش مع الصنعة فقط.

مرة قالوا: إن الثقافة الغربية سخرت الطبيعة لشهوات الإنسان، ثقافة تسخير، أما ثقافة المسلمين فثقافة معرفة الصانع، الخالق، فأنت إذا عرفت الخالق عرفت كل شيء.

الحكمة من أخذ الله عز وجل الركوع والسجود من الصلاة :

الآن

(الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ)

قال بعض العلماء: لماذا أخذ الله من الصلاة الركوع والسجود؟ لأن الإنسان إذا كان واقفاً في الصلاة، هناك وقوف بغير الصلاة، إنسان واقف بمحله التجاري، واقف في بيته، فالوقوف مشترك بين الصلاة وبين غير الصلاة، والقعود قاعد ببيته على كنبة، على كرسي، على الأرض، أما الشيء الذي لا تفعله إلا في الصلاة فالركوع والسجود، والله عز وجل قال:

(الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ)

أخذ من الصلاة ما تتميز به،

(الرَّاكِعُونَ)

والحقيقة:

((لكل سورة حظها من الركوع والسجود))

[رواه أحمد عن أبي العالية]

أنت إذا قرأت قوله تعالى بعد الفاتحة في الصلاة:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة الإسراء الآية:53]

أنت ما قلت له:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة]

الله أكبر، ركعت، معنى الركوع يا ربي سمعاً وطاعةً لهذا الأمر،

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

هذا الركوع متعلق بالآية التي قرأتها، ركوع الإنسان في الصلاة مرتبط بالآية التي قرأها بعد الفاتحة، الآن سجدت: يا رب أعني على هذه الآية أن أطبقها، الركوع يعني نعبد، والسجود نستعين.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة]

الركوع نعبدُ والسجود نستعين.

((لكل سورة حظها من الركوع والسجود))

[رواه أحمد عن أبي العالية]

أنت إذا قرأت قوله تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

يأتي الأمر الإلهي:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة البقرة الآية:195]

في الركوع يا رب سأنفق، في السجود يا رب ارزقني حتى أنفق، فكأن كل آية تقرأها بالصلاة لها علاقة بالركوع والسجود،

(الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ)

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الآن:

(الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

أساساً حينما قال الله عز وجل :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

علة هذه الخيرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال النبي الكريم:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال: نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر، ونهيُتم عن المعروف؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُّ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

أنا أذكر هذا البيت من الشعر عده النقاد في الأدب العربي القديم أهجا بيت قالته العرب:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

*** * ***

هذا شعار كل إنسان اليوم، لا علاقة لنا، لا دخل لنا:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

*** * ***

هذا عصر تبدل القيم، أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، هناك أشياء لا يحتملها الإنسان، الآن بديهية، مألوفة جداً.

أحد أسباب سعادة الإنسان تطابق خصائص نفسه مع منهج الله عز وجل :

(الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

أدق ما في الآية أن المعروف لِمَ سمّى الله بعض الأمور معروفاً؟ قال: لأن الفطر السليمة تعرفها بداهة، الإنسان إذا كان باراً بأمه بكل الشرائع، بكل العصور، شيء بديهي، إذا كان محسناً، إذا كان منضبطاً، شيء بديهي، فالمعروف جاء وحي من الله، لكن الفطر السليمة تعرفه بداهة، هذا تطابق الفطرة مع الشرع.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم الآية: 30]

عندك فطرة لكن لا تطابق الشرع، لذلك أحد أسباب سعادة الإنسان إذا أطاع الله تطابقت خصائص نفسه مع منهج الله عز وجل.

(الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

المعروف ما تعرفه الفطر السليمة من دون تعليم، والمنكر ما تنكره الفطر السليمة ابتداءً.

إنسان جائع جداً، وأمه مثله جائعة، أحضر طعاماً و أكله وحده، بكل الشرائع، بكل النظم، بكل الثقافات، هذا عمل غير مقبول، تنكره الفطر السليمة.

على الإنسان أن يترك مسافة أمان بينه و بين حدود الله :

إذاً:

(وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ)

الله له حدود، فالبطولة أن تقف عند هذه الحدود، بل أن تدع مسافة أمان بينك وبين هذه الحدود، وهذا معنى قوله تعالى:

(حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة الآية: 187]

دع بينك وبينها مسافة أمان، كيف أن التيار الكهربائي - ثمانية آلاف فولت- يجب أن تبتعد عنه ثمانية أمتار وإلا يجذبك، كذلك المعاصي فيها قوة جذب، فإذا أبقيت بينك وبين المعصية هامش أمان فأنت في سلام.

لذلك:

(وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ)

أي يبتعد عنها مسافة تمنعه أن يقع فيها.

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

ينتظرهم كل خير.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[رواه ابن ماجه وأحمد والدارمي عَنْ ثَوْبَانَ]

خير في الدنيا وخير في الآخرة، خير في المادة وخير في الروح، خير في الجلة وخير في الآجلة، خير مطلق،

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (65-70) : تفسير الآيات 113 - 116، لا يفيد استغفار أحد لأحد إلا أن يكون الاستغفار من ذات النفس، لا تكليف دون بيان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-08-12

بسم الله الرحمن الرحيم

إضاءة سريعة حول الآية التالية :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

أيها الأخوة الكرام، لابد من إضاءة سريعة حول هذه الآية، البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، مصنفون في الدوائر التالية: دائرة واسعة جداً، كل من أقرّ بوجود الله داخل هذه الدائرة، والذي أنكر وجود الله أصلاً خارج هذه الدائرة.

ودائرة ثانية ضمن الدائرة الكبرى من كان إيمانه بالله مقترناً مع التطبيق، أي من حمله أيمانه على التطبيق، من كان وقافاً عند الحلال والحرام، من رآه الله في طاعة وافتقده في معصية، هذا الذي التزم شرع الله، طبق منهج الله، انصاع لأمر الله، كان من أولئك الذين استمعوا إلى القول فاتبعوا أحسنه، هؤلاء ضمن الدائرة الثانية، لكنهم غير معصومين، إلا أنهم أقرب من غيرهم إلى السلامة والسعادة.

وفي وسط هذه الدوائر مركز فيه الأنبياء والمرسلون المعصومون، فهناك من موقعه خارج هذه الدوائر كلها، الذي أنكر وجود الله، وهناك من كان مكانه في الدائرة الكبرى، الذي أقرّ بوجود الله لكن لم يلتزم، لم يلتزم الحق، لم يأتمر بما أمر الله ولم ينتهِ عما عنه نهى الله، هذه المنطقة أصحابها ليسوا ناجين، أما الدائرة التي تلي تلك الدائرة الكبيرة ففيها أناس التزموا، انصاعوا لأمر الله، طبقوا، هؤلاء ليسوا معصومين ولكن الله سبحانه وتعالى يؤدبهم ويعالجهم إلى أن يأخذ بيدهم إلى الجنة.

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عاملها سقماً في جسده، أو اقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الدر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أموه))

[ورد في الأثر]

أما الأنبياء والمرسلون فهؤلاء قمم البشر، هؤلاء معصومون من أن يخطئوا في أقوالهم، وأفعالهم، وفي أحوالهم، لذلك أُمرنا أن نتبعهم، وأن نأخذ عنهم.

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر الآية:7]

لأن النبي الكريم معصوم من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، أمرنا أن نأخذ عنه، والآية واضحة:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

النبي الكريم قدوة وأسوة لنا :

لكن فضلاً عن ذلك النبي قدوة لنا، وأسوة، وفي قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

[سورة الأحزاب]

إذاً هؤلاء البشر يصنفون هذا التصنيف، خارج الدائرة، ضمن الدائرة الكبرى، وبعضهم ضمن الدائرة الصغرى، وقلة قليلة هم الأنبياء والمرسلون في مركز هذه الدائرة، هؤلاء معصومون من أن يخطئوا في أقوالهم، وفي أفعالهم، وفي إقرارهم.

إنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين :

الآن النقطة الثانية المضيئة لهذه الآية:

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

للتوضيح: أقل ممرض على وجه الأرض إن أراد أن يعطي حقنة لمريض لا بد من تعقيم الحقنة، وتعقيم الزجاجة، وتعقيم المكان، وأكبر جراح قلب في الأرض إن أراد أن يعطي حقنة لا بد من أن يطبق هذه التعليمات.

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

فهذا منهج لا بد من تطبيقه، ولأن الأنبياء والمرسلين بشر تجري عليهم كل خصائص البشر، ولولا أنه تجري عليهم كل خصائص البشر لما كانوا سادة البشر، لأنهم بشر وانتصروا على بشريتهم، وقفوا عند منهج الله، أمروا بالمعروف، نهوا عن المنكر، كانوا سادة البشر، وأي إنسان يجب أن يعتقد اعتقاد جازماً أن بإمكانه أن يغير، والله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد الآية:11]

و لو كان التغيير مستحيلاً لكان من العبث إرسال الأنبياء والمرسلين، مادام الإنسان قابلاً للتغير والآية واضحة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا)

فإن كان التغيير قائماً فالحجة قائمة علينا.

ما كان صيغة من أشد صيغ النفي :

الآن الآية تقول:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى)

أي هذا الصحابي الذي هداه الله إلى الإسلام، ونوّر الله قلبه بالإيمان، وسعد سعادة ما بعدها سعادة حينما تعرف إلى الله، هذا الصحابي له أب، وله أم، وله أقارب، فكل إنسان يتمنى أن يكون من يلوذ به مؤمناً، ناجياً، فلعل بعضكم تمنى أو أراد أن يدعو الله لأبيه وأمه الذين توفوا أن يكونا من أهل الجنة، فجاء التوجيه الإلهي، النقطة الدقيقة في هذا التوجيه أن النبي هو نفسه أمر بذلك، قال:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ)

لكن ماذا تعني:

(مَا كَانَ)

؟ قال:

(مَا كَانَ)

صيغة في اللغة العربية تعني نفي الشأن، للتوضيح نقول: لو أن إنساناً سأل آخر: هل أنت جائع؟ يقول: لا، أما لو سأله سؤالاً آخر: هل أنت سارق؟ لا ينبغي أن يقول: لا، يقول: ما ينبغي لي أن أسرق، أو ما يكون لي أن أسرق، هذا نفي الشأن.

العلماء قالوا: هناك نفي الحدث، وهناك نفي الشأن، نفي الشأن يعني أنا مستحيل أن أفعل هذا، أو أن أرضى بهذا، أو أن أُقر هذا، أو أن أسكت عن هذا، فكل أنواع الأفعال التي تتعلق بهذه الحادث داخلة في هذا النفي.

إذاً من أشد صيغ النفي:

(مَا كَانَ)

وقالوا بعض علماء النحو: وهذا قد يفيد فضلاً عن النفي النهي، نفيٌ ونهيٌ.

الشرك الخفي و الشرك الجلي :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا)

أي:

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى)

لذلك الشرك بالله واسعٌ جداً، هناك شرك جلي، وهناك شرك خفي، الذين قالوا: بوذا إله في شرق آسيا هذا شرك جلي، والحقيقة الشرك الجلي ليس موجوداً في العالم الإسلامي، ولكن الشيء الذي يمكن أن يكون واسع الانتشار هو الشرك الخفي، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي أما أني لستُ أقولُ إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوة خفية، وأعمالاً لغير الله))

[أخرجه البزار عن عبد الرحمن بن غنم]

فالذي يؤثر صفقة محرمة على صفقة شرعية لربحها الكبير هذا وقع في الشرك الخفي، لأنه رأى هذا المال أفضل عنده من طاعة الله، أشرك المال مع طاعته لله، هذا الذي يطيع زوجته في معصية، ماذا رأى؟ رأى أن طاعتها أغلى عنده من طاعة الله، وقع في الشرك، لذلك قالوا: الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، أي إنسان منحرف أكرمك بشيء فأحببته، هذا من الشرك، أو أن تبغض على عدل، إنسان قدم لك نصيحة بأدب جميل فكرهته، فالشرك واسع جداً، والدليل قول تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف]

التوحيد هو الدين :

وذكرت قبل قليل: الشرك الجلي الله عز وجل عافانا منه، لكن المشكلة في الشرك الخفي، الشرك الخفي شهوة حينما تؤثرها على طاعة الله وقعت في الشرك، إنسان حينما تؤثر طاعته على طاعة الله وقع في الشرك، عادات وتقاليد ليست متوافقة مع الشرع إذا خضعت لها ولم تخضع للشرع فهذا نوع من الشرك، والدليل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، والتوحيد هو الدين، الدين والتوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، إبليس اللعين:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية:82]

معنى هذا أنه آمن بالله رباً وعزيزاً، لكنه لم يوحد، لذلك إذا أردت أن تضغط الدين كله في كلمة إنه التوحيد، أي ألا ترى مع الله أحداً، ألا ترى معطياً، ولا مانعاً، ولا رافعاً، ولا خافضاً، ولا معزاً، ولا مذلاً إلا الله.

مرة أخرى: وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، فالإنسان المؤمن لأنه موحد يتجه إلى الله وحده، ويخاف من الله وحده، ويرجو الله وحده، يأتمر بما أمر الله وحده، وينتهي عما عنه نهى وحده، هذا التوجه الموحد إلى الله عز وجل هو حقيقة الإيمان، أما حينما أدعي أنني مؤمن وأطيع إنساناً في معصية الله فهذا شرك، أي أشركته مع طاعة الله، والآية:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان الآية:48]

أحياناً الإنسان شهوته يعبدها من دون الله، فالشرك واسع جداً، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، ألا ترى معطياً، ولا مانعاً، ولا رافعاً، ولا خافضاً، ولا معزاً إلا الله.

تناسب المقدمات مع النتائج أمر هام جداً :

إذاً:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا)

هذا الحكم ينطبق على النبي والمؤمنين معاً لأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين،

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ)

أحياناً إنسان يكون بامتحان معين، تنقصه علامة أو علامتان، هناك من يزيد له هاتين العلامتين، أما إنسان ما حضر الامتحان أصلاً ولا قدم ولا مادة فينجح؟ إذاً هناك لعب بالنظام، ولعب بالمقاييس، فلا بد من أن تتناسب المقدمات مع النتائج.

أما إنسان يمضي حياته كلها في معصية الله ويكون يوم القيامة كالذين آمنوا؟!

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة القصص الآية:61]

هذه الآيات فيها توازن وفيها موازنة بين المؤمن وغير المؤمن ينبغي أن تكون واضحة جداً في أذهاننا.

القرابة الحقيقة قرابة الإيمان :

إذاً:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى)

القرابة الحقيقة قرابة الإيمان، في قول الله عز وجل:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية:10]

هذه القرابة الحقيقية، ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ، المتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نُور يغبطهم النبيُّون والشهداءُ))

[أخرجه الترمذي ومالك عن معاذ بن جبل]

البشر صنفان كبيران :

إذاً البشر كما قال الله عز وجل صنفان كبيران:

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

ولن تجد فريقاً ثالثاً، إلا الفريق الذي نتحدث عنه، هذا أعلن إيمانه، وأبطن كفره، له موقف معلن، موقف حقيقي، شيء يعمله في خلوته لا يفعله في جلوته، له ظاهر، وله باطن، الإنسان المزدوج هذا هو المنافق، أراد أن يجمع مكاسب المؤمنين مع تفلت الكافرين، فالحديث في هذه السورة عن هؤلاء:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

طالب نقصه علامة واحدة ممكن أن نتوسط لدى المدرس ليضيف له هذه العلامة وينجح، أما طالب ما قدم الامتحان أصلاً، ما قدم ولا مادة، فالوساطة لدى المدرس لينجح شيء عجيب، وشيء مستحيل، فكأن هذه الآية تدور حول هذا المعنى:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

بعدوا عن الله بعد الأرض عن السماء.

مطالبة الله عز وجل أصحاب النبي الكريم ألا يقيسوا على الآية التالية :

لماذا جاء هذا النهي أو جاء هذا النفي؟ هو ونفي ونهي بآن واحد، لأن سيدنا إبراهيم كما جاء في بعض الآيات قال: سأستغفر لك ربي لأبيه عابد الوثن، جاءت الآية لتوضح:

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

[سورة التوبة]

والد سيدنا إبراهيم عابد الصنم وعد ابنه أن يؤمن فلما وعد ابنه أن يؤمن، فكان من إبراهيم أن يستغفر له، يا أصحاب النبي لا تقيسوا على هذه، هذه لها خصوصية خاصة:

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ)

دائماً هناك قواعد، دائماً وأبداً هناك قواعد صارمة، لا تفكر أن تطلب من الله عز وجل أن تلغى هذه القواعد.

مرة قرأت في كتاب يقول أحدهم في دعائه: يا رب لا تسألنا عن شيء، إذا الله عز وجل قال في القرآن:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

فمن العبث ومن الغباء أن تقول: لا تسألنا عن شيء، فالدعاء بعكس القرآن، بخلاف القرآن، بخلاف السنن الإلهية، دعاء باطل، لكن أراد الله عز وجل أن يبين لهؤلاء الصحابة الذين ظنوا أن استغفار إبراهيم لأبيه يمكن أن يقاس عليه أن يستغفروا لآبائهم الذين ماتوا مشركين، فجاء التخصيص:

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ)

لكن إبراهيم نفسه

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ)

قانون الالتفاف و الانفضاض :

الآية الكريمة أيها الأخوة:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران الآية:159]

هذه الآية تشير إلى قانون الالتفاف والانفضاض، أي يا محمد بسبب رحمة استقرت في قلبك كنت ليناً لهم، هذه الرحمة التي أودعها الله في قلبك من خلال اتصالك بالله عز وجل هذه الرحمة انعكست ليناً في معاملة من حولك، فلما عاملتهم باللين التفوا حولك وأحبوك، قال افتراضاً: ولو كان المرء منقطعاً عن الله لامتلأ قلبه قسوة، ولانعكست هذه القسوة غلظة، وفظاظة، من نتائج هذه الغلظة والفظاظة أن ينفض الناس من حولك، إذاً: اتصال، رحمة، لين، التفاف، انقطاع، قسوة، غلظة، انفضاض، وكأن هذه الآية:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

تبين قانوناً ثابتاً يحتاجه الأب، يحتاجه المعلم، يحتاجه العالم، المرشد، الداعية، يحتاجه أي إنسان في منصب قيادي، ولو كان على عشرة، أو على أعلى مستوى، فهو بحاجة لهذه الآية التي تعنى بقانون الانفضاض والالتفاف، تتصل، يمتلئ القلب رحمة، تنعكس الرحمة ليناً، اللين يدعو الناس أن يلتفوا حولك، يخضعوا لك، يحبوك، يحرسوك،

(وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ)

لو كنت منقطعاً عنا لامتلأ القلب قسوة، انعكست هذه القسوة غلظة، وفظاظة، فانفض الناس من حولك.

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

الإنسان كلما ارتقى مقامه عند الله اتسعت دائرة اهتمامه :

الآية التي بعدها:

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ)

فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه،

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ)

شديد التأوه، على وزن فعال، هذه صيغة مبالغة، وصيغة المبالغة تعني إما النوع أو الكم، فشدة رحمة هذا النبي الكريم جعلته أواهاً، أي إنسان أحياناً يهتم بمن حوله، بأسرته، فإذا رأى إنساناً منحرفاً، شاذاً، لا يتأثر له.

وكنت أضرب هذا المثل: لو أنك رأيت في الطريق ثلاثة شبان، أحدهم ابنك، والثاني ابن أخيك، والثالث لا تعرفه، والثلاثة يدخنون، على من ينصب غضبك؟ على ابنك أولاً، وبعدها على ابن أخيك، والثالث لا يعنيك.

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

التأوه هو التألم، فالإنسان كلما ارتقى مقامه عند الله تتسع دائرة اهتمامه، فقد يهتم الإنسان بنفسه فقط، أرقى من هذا يهتم بأسرته، أرقى من هذا يهتم بالأسرة الكبيرة الواسعة، أرقى من هذا يهتم بأهل بلده، أما الأنبياء فيهتمون بكل البشر.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

[سورة الأنبياء]

فبقدر اتساع دائرتك يعلو مقامك عند الله، وبقدر ضيق هذه الدائرة ينخفض مقامك عند الله عز وجل، وكلما ارتقى المؤمن بسلم الإيمان تتسع دائرة اهتمامه.

وللتوضيح أكثر: كيف أن الإنسان إذا ارتفع في الفضاء تتسع الرؤية، أنا مرة دخلت إلى قطر رأيت طرطوس وصيدا بنظرة واحدة، تقريباً مئات الكيلومترات بنظرة واحدة.

كلما ارتفع مكان الإنسان تتسع الرؤية، وكلما ارتفع مقام الإنسان تتسع اهتماماته الإنسانية، هذا الذي يحمل همّ الأمة، هذا الذي يحمل همّ من حوله، إنسان كبير عند الله عز وجل، فالإنسان يكبر، أو قلبه يكبر، ويكبر، ويكبر، ولا نرى كبره، فيتضاءل أمامه كل كبير، ويصغر ويصغر، ويصغر، ولا نرى صغره، فيتعاظم عليه كل حقير، البطولة أن هذا القلب قلب المؤمن قد يتسع لعدد كبير من الخلق. إذاً صار أواهاً، يتألم للخلق، يتألم لضياع الخلق، يتألم لانغماس الخلق بالمعاصي والآثام، يتألم لمصير الخلق حينما غفلوا عن الله عز وجل، فهذا درس لنا جميعاً، كلما اتسعت دائرة اهتمامك، كنت عند الله كبيراً، وكلما ضاقت هذه الدائرة كنت عند الله صغيراً، وهذه الرحمة التي يشتقها المؤمن من الله عز وجل هي التي توسع اهتمامه،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

بطولة الإنسان أن تكون رحمته عامة تسع كل الخلق :

وأنا أقول دائماً: والبطولة أيضاً أن تكون الرحمة عامة، أودع الله في كل أب محبة أبنائه، في كل زوج محبة زوجته، فهذه الرحمة التي أودعها الله فيك هذه عطاء ابتدائي، ليس بطولة منك، لكن البطولة أن تكون رحمتك عامة تسع كل الخلق.

أنت مثلاً بمحل ابنك لا تسمح له أن يحمل شيئاً فوق طاقته، أما عندك موظف صغير فتكلفه أن يحمل فوق طاقته، هذا تناقض.

مرة قال لي إنسان: هذا الذي عندي لا أسمح له أن يغادر قبل نهاية الدوام، طلب مني أن يغادر قبل ساعة حتى يدرس بمدرسة ليلية فلم أسمح له، إذا تعلم يفقس، أما ابنه فدفع له مليون ليرة بمدرسة خاصة، هذا موقف حقير، أنت تعامل ابنك معاملة غير معاملة الناس، علامة المؤمن أن يعامل الناس برحمة وعدل وإنصاف، وهذا ميزان لنا جميعاً، هل تعامل الآخرين كما تعامل أقرب الناس إليك؟ الإيمان هكذا رحمة عامة، هناك رحمة خاصة، لكن هذه الرحمة الخاصة في المؤمن لا تلغي الرحمة العامة، والرحمة العامة في المؤمن لا تلغي الرحمة الخاصة.

إذاً أصل هذا الدين الاتصال بالله، ومع الاتصال بالله اشتقاق الكمال الإلهي، ومع هذا الكمال تسعد بهذا الإيمان وتُسعد من حولك.

أوصاف الأنبياء والمؤمنين في كتاب الله مقاييس لنا جميعاً :

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ)

هذا امتحانات، والأصح أن أوصاف المؤمنين أو أوصاف الأنبياء والمؤمنين في كتاب الله مقاييس لنا جميعاً.

مثلاً: لو أن لك صديقاً أصاب شيئاً من الدنيا بالحلال، مال، درجة عالية بالتعليم، أو كان زواجه ناجحاً جداً، أو كان عمله جيداً، هل تتألم؟ لمجرد أن تتألم فهذه صفة في المنافقين، والدليل:

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة آل عمران الآية:120]

امتحن نفسك من خلال هذه الآيات، وأنا أتمنى أن تكون أوصاف الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم مقاييس لنا جميعاً، ما التدبر؟ يمكن أن تقرأ هذا القرآن قراءة صحيحة، وفق قواعد اللغة العربية، شيء جيد، لكن ممكن إذا أتقنت أحكام التجويد أن تقرأه قراءة مجودة، أفضل لكن ممكن أن تقرأ هذا القرآن قراءة صحيحة وفق قواعد اللغة العربية، وقراءة مجودة وفق أحكام التجويد، وفضلاً عن هذا وذاك أن تفهم هذه الآيات، هذا مستوى ثالث، ويمكن فضلاً عن قراءة الآيات قراءة صحيحة وفق قواعد اللغة، وقراءة مجودة وفق أحكام التجويد، وأن تفهم معاني هذه الآيات، وأن تتدبر هذه الآيات، والتدبر أن تسأل نفسك مع كل آية: أين أنا منها؟ هل أنا مطبق لها؟ هذا التدبر، صار هناك قراءة صحيحة، قراءة مجودة، قراءة فهم، قراءة تدبر، مجموع هذه القراءات وردت في كتاب الله في قوله تعالى:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

[سورة البقرة الآية:121]

فأنت إذا تلوت هذا الكتاب حقّ تلاوته، قرأته وفق قواعد اللغة، إذاً: " تعلموا العربية فإنها من الدين"، وقرأته وفق قواعد التجويد، ثم فهمته، ثم تدبرته، تقول: أين أنا من هذه الآية؟.

الاتصال بالله عز وجل من ثماره التخلق بأخلاق الله عز وجل :

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

وما لم يخفق قلبك بالرحمة، ما لم يخفق قلبك برحمة بمن حولك، بمن دونك، هذا القلب عندئذٍ يقسو، وإذا قسا فهو بعيد عن الله عز وجل، وإن القلب القاسي بعيدٌ عن الله عز وجل.

(أَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

فالحلم يتكامل مع الألم، متألم لكنك إذا تألمت من إنسان لا تبطش به بل تعالجه معالجة حالمة، معالجة رحيمة، معالجة متأنية، معالجة حكيمة.

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

على كلٍّ هذه الآيات تعطينا درساً في ثمار الإيمان، الاتصال بالله عز وجل من ثماره التخلق بأخلاق الله عز وجل، هذه الأخلاق ترقى بك عند الله والآية الكريمة:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

[سورة الأعراف الآية:180]

أنت تتصل بالحكيم، كن حكيماً حتى تكون حكمتك سبب اتصالك بالله، أنت تريد أن تقف بين يدي الرحيم، كن رحيماً حتى تكون رحمتك سبب اتصالك بالله، هذا الأسماء الحسنى إذا تقربت بها إلى الله انعقدت هذه الصلة مع الله عز وجل.

لا تكليف من دون بيان :

ثم يقول الله:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة]

معنى ذلك أن بعض الصحابة توفاهم الله في وقت مبكر بعد نزول الوحي، هناك أحكام كثيرة جاءت بعد موتهم ما طبقوها، فخاف الصحابة على من حولهم ممن توفاهم الله قبل أن يستكمل القرآن الكريم، فجاء التطمين الإلهي:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ)

أي أنت حينما لا تبلغ الحكم لست مكلفاً فيه، لا معاقبة من دون تبين، دائماً هناك تبليغ، البلاغ تأتي بعده المسؤولية، أما لم يبلغ هذا الإنسان، فهذه رحمة بمن توفاهم الله في وقت مبكر، ولم يستكمل القرآن نزوله، عندئذٍ الذين تركوا شيئاً سيأتي بعد حين هم معفون منه.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ)

لا تكليف من دون بيان، هناك دعوة بيانية، و الإنسان إن لم يستجب فهناك تأديب تربوي، لم يتعظ هناك إكرام استدراجي، لم يشكر هناك قصم.

كلّ شيء بيد الله عز وجل :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

[سورة التوبة]

له هذه اللام لام الملكية كما قال علماء النحو، لكن الله عز وجل ملكيته غير ملكيتنا.

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

[سورة الشورى الآية: 11]

ملكيته خلقاً، وإمداداً، ومصيراً، أنت تتملك هذا البيت، لكن قد يأتي قرار بإجراء تنظيم لهذه المنطقة، يؤخذ منك البيت، فأنت ملكيتك محددة، الملكية محددة، أما إذا قال الله عز وجل:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أي خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، أي الملكية المطلقة، فالإنسان إذا كان مع الله سعد بقربه، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

(إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

والسموات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله، فكل شيء تراه عينك بيد الله خلقاً، وإمداداً، ومصيراً، فإذا كنت مع الله كان الله معك.

(إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

الحياة بيده، والموت بيده، والرزق بيده، وكل شيء بيده.

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود]

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

((ابن آدم اطلبنِي تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

[ورد في الأثر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (66-70) : تفسير الآيات 117 - 119، التوبة هي حبل النجاة، والفوز بالجنة، والله يتوب على عبده ليتوب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-08-19

بسم الله الرحمن الرحيم

من رحمة الله بالخلق أنه شرع لهم التوبة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، من رحمة الله بالخلق أن الله سبحانه وتعالى شرع لنا التوبة، بل إن:

(اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

[سورة البقرة الآية: 222]

وهذه التوبة هي حبل النجاة، التوبة هي قارب النجاة، هذه التوبة لولاها لتفاقمت الذنوب، وانتهت بأصحابها إلى جهنم وبئس المصير، لكن الله رحيم بعباده، شرع لنا التوبة، بل شجع عليها، وقال:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء]

لذلك هذه التوبة صمام الأمان، وحبل النجاة، التوبة طريقنا إلى نسيان الماضي.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

التوبة النصوح ليس لها ثواب إلا الجنة :

التوبة النصوح ليس لها ثواب إلا الجنة، فلذلك تشريع التوبة رحمة كبيرة لهؤلاء البشر، التوبة أن تفتح مع الله صفحة جديدة.

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلى صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتباغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر

شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنتهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

لذلك:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة]

لكن هنا الآية الكريمة:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

التوبة خلاص الإنسان من شقاء الدنيا و الآخرة :

أيها الأخوة الكرام، أحياناً تأتي الآيات: تابوا فتاب الله عليهم، تابوا فقبل الله توبتهم، وأحياناً تأتي الآيات: تابوا فتاب عليهم، لعل الآية الثانية تابوا فتاب عليهم بمعنى أن الله ساق لهم بعض الشدائد التي حملتهم بها على التوبة، لأن الله عز وجل قال:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة]

فكل عذابات الدنيا عذابات دنيا، متعلقة باسمها، عذابات الدنيا هي عذابات دنيا من أجل أن نتوب إلى الله عز وجل،

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

إن :

(اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

فلذلك التوبة باب النجاة، التوبة قارب النجاة، التوبة حبل النجاة، التوبة أن تفتح مع الله صفحة جديدة.

((والإسلام يجب ما قبله))

[أخرجه الطبراني والإمام أحمد عن عمرو بن العاص]

فلذلك أيها الأخوة، لو عرف الناس حقيقة التوبة لكانت التوبة خلاصاً لهم من شقاء الدنيا والآخرة، على كلٍّ في معركة مؤتة الذين كانوا حول النبي تخلفوا، وبعضهم تخلفوا بلا عذر، وبعضهم بعذر، وبعضهم كانوا مع النبي الكريم.

المؤمن الصادق يدافع عن إخوانه المؤمنين وهذا الدفاع وسام شرف له :

لكن الذي يلفت النظر أن النبي الكريم وهو في تبوك سأل عن بعض أصحابه، فقال بعضهم: شغلته الدنيا- بستانه- فقال أحدهم: لا والله يارسول الله، وهذه لفتة رائعة، يا رسول الله لقد تخلف عنك أناس ما نحن أشد حباً منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام وكأنه ثمّنَ هذا الدفاع من الصحابي عن إخوانه، على كلٍّ المؤمن الصادق يدافع عن إخوانه المؤمنين، وهذا الدفاع وسام شرف له.

في هذه الغزوة غزوة تبوك بعض المنافقين تخلفوا وبلا أعذار، وبعض المؤمنين تخلفوا بأعذار، فالذي لم يجد دابة يحمل نفسه عليها، تخلف، والفقير تخلف، والمريض تخلف، فهناك فقير، ومريض، و هناك من لم يجد، وهناك إنسان آخر لم يجد شيئاً يحمله إلى الجهاد، هذا التخلف مقبول والعذر مقبول، وهناك تخلف بلا عذر، أو العذر كاذب.

لذلك لما جاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة ليعتذروا للنبي عليه الصلاة والسلام وأدلوا بأعذار واهية، والنبي كما يقال مجاملة لهم قَبِل هذه الأعذار، وكانوا فيما أعتقد ثمانين، فلما جاء سيدنا كعب، وقال: والله تخلفت عنك بلا عذر، أي كنت قوياً، وعندي ناقتان، و، و، ولكني تخلفت عنك، فقال النبي الكريم: أما هذا فقد صدق، وكأنه قيّم الثمانين إنساناً الذين قدموا أعذاراً واهية.

فلذلك في هذه الغزوة بعض المنافقين تخلفوا بأعذار واهية، وبعضهم تخلفوا بأعذار مقبولة، وبعضهم كانوا مع النبي الكريم، فجاءت الآية:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ)

عتب الله على النبي في الهامش الضيق الذي تركه له هو عتب له وليس عليه :

قد يسأل سائل: ما نوع توبة الله على النبي وهو المعصوم؟ الحقيقة هناك إضاءة لابد منها هو أن الله سبحانه وتعالى عصم النبي الكريم من أن يخطئ بأقواله، وأفعاله، وإقراره، ولكن ترك له هامشاً ضيقاً هو الهامش الاجتهادي، لماذا تُرك له هذا الهامش؟ قال: في هذا الهامش الاجتهادي الذي تركه الله له يجتهد، فإن أصاب أقره الوحي على ذلك، وإن لم يصب جاء الوحي فصحح له، ولكن هذا الهامش،

وهذا التصحيح، قال عنه بعض علماء السيرة: إن الله أراد ذلك ليكون هناك فرق بين مقام الألوهية، وبين مقام النبوة، أو مقام البشرية، هذا الهامش الضيق الاجتهادي الذي تُرك له أراد الله منه أن يكون الفارق واضحاً، فرق بين مقام الألوهية وبين مقام النبوة، لكن الذين تبحروا في هذا الموضوع وجدوا أن عتب الله على النبي عتباً له لا عليه، لأنه اجتهد وفعل الأصعب، فكل عتب الله عز وجل على النبي في الهامش الضيق الذي تركه له، هو عتب له وليس عليه.

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

[سورة طه]

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

[سورة عبس]

فكل الآيات التي جاءت في ظاهرها تعاتب النبي عليه الصلاة والسلام هي في مضمونها تعتب له لا عليه.

كأن يدخل الأب إلى غرفة ابنه يراه منكباً على الكتاب، دخل إلى غرفته الساعة التاسعة فرآه منكباً على الكتاب، الساعة الحادية عشرة رآه منكباً على الكتاب، الساعة السادسة فجراً رآه منكباً على الكتاب، فعتب له، قم واسترح قليلاً يا بني، هل هذا عتاب عليه؟ لا، عتاب له.

الفرق بين مقام البشرية ومقام الألوهية :

كل عتابات القرآن للنبي الكريم من هذا النوع، يعتب له لا عليه، لأنه حمّل نفسه ما لا يطيق،

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

لكن الحكمة البالغة من ذلك أن هناك مقام الألوهية، وهناك مقام البشرية، النبي بشر، قل:

((إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك]

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

إذاً الهامش الضيق الذي تُرك للنبي عليه الصلاة والسلام هامش اجتهادي، والنبي الكريم اجتهد فإن أصاب أقره الوحي على هذا الاجتهاد، وإن ترك الأولى وقد حمل نفسه ما لا تطيق يأتي الوحي ويصحح له، فصار عندنا مقام البشرية ومقام الألوهية، النبي بشر لكنه كان سيد البشر، لأنه انتصر على بشريته.

مرة ثانية: لولا أن النبي بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، لما كان سيد البشر.

الآية هنا أيها الأخوة:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ)

بعضهم قال: النبي لم يفعل شيئاً، هو معصوم في الأساس، معصوم من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، ما معنى توبة الله على النبي؟ بعضهم قال: إنها جبر لخاطر الصحابة، أدخله معه:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ)

بعضهم قال: توبة الله على النبي توبة تثمن جهده الكبير، أتعبت نفسك كثيراً، أشقيت نفسك كثيراً،

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

هذا نوع توبة الله على النبي الكريم.

الإنسان بضعة أيام :

إذاً الآية الكريمة،

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

الإنسان أيها الأخوة، يأكل، ويشرب، ويصلي، ويصوم، هكذا معظم المسلمين، لكن في مواقف محدودة، في أيام معدودة، إما أن يكون بطلاً يكبر ويكبر، ولا نرى كبره فيتضاءل أمامه كل كبير، ويصغر ويصغر ويصغر ولا نرى صغره فيتعاظم عليه كل حقير، أنت بضعة أيام، فلذلك الله قال:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم الآية: 5]

كل مؤمن له بضعة أيام وقف بها موقفاً بطولياً، آثر طاعة الله على هوى نفسه، بذل ما في وسعه، قدم الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، هذا يوم مشهود للمؤمن، فلذلك الله عز وجل يريدنا أن نذكر أنفسنا بأيام الله، يوم الله عز وجل أنقذك من مشكلة كبيرة، يوم وفقت فيه بعمل بطولي، هذه الأيام تعد منارات على طريق الإيمان.

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ)

الحقيقة المهاجرون والأنصار ضربوا أروع المثل، هؤلاء المهاجرون سبقوا إلى الإسلام، والأنصار قدموا لهم الغالي والرخيص، ولا أنسى الكلمة التي قالها سيدنا سعد بن الربيع حينما عرض عليه الأنصاري نصف أملاكه، دكاناً، وبيتاً، وحقلاً، ومالاً، قال له: بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق، الشيء الذي لا يصدق، الأنصار بذلوا كل ما في وسعهم للمهاجرين، أما المهاجرون فتعففوا عن أملاك غيرهم، هؤلاء بذلوا، وهؤلاء تعففوا، هذا شأن المؤمنين، قال له: بارك الله لك في مالك ولكن دلني على السوق، لذلك ورد في بعض الآثار:

((ولا تَسألوا النَّاس شيئاً))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن عوف بن مالك الأشجعي]

لكن كان الصحابي إذا وقع من يده زمام الناقة ينزل من على جمله إلى الأرض ليلتقطه ولا يحب أن يكلف أحداً أن يناوله إياه، هذه دقة بالغة في خدمة الذات.

الإنسان يمتحن إيمانه في أيام الشدائد :

(الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

والحقيقة الأيام بين أن تكون مريحة، أو صعبة، بين إقبال الدنيا، وبين إدبارها، بين توفر الحاجات، وبين فقد هذه الحاجات، فالإنسان لا تظهر بطولته في أيام الرخاء، تظهر في أيام الشدة، كما أن المركبة لا تمتحن في الطريق النازلة، تمتحن في الطريق الصاعدة، فنحن في أيام الشدائد يمتحن إيماننا، يمتحن عطاؤنا، بذلنا، مواساتنا، مشاركتنا للآخرين.

(الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

لذلك ليسوا سواءً، من آمن قبل الفتح، ومن آمن بعد الفتح، مسافة كبيرة جداً، حينما ينتصر الإسلام الدخول فيه سهل جداً، أما حينما يكون الدخول في الإسلام عبئاً كبيراً على الإنسان، وآثر طاعة الله ورضوانه، حينما دخل دفع ما دفع من متاعب، فهذا له عند الله شأن كبير.

إذاً:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

لكن الشيء الذي يلفت النظر أن الله عز وجل حينما قال:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 140]

مرة يقوى المؤمنون، ومرة يقوى أعداؤهم، فإذا جعل الله القوة على مدى الزمان للمؤمنين، دخل الناس في النفاق، وإذا جعلها لغير المؤمنين دخل الناس في اليأس، لكن حكمة الله عز وجل اقتضت أن القوة والضعف تتناوب بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، فإذا كنا في عصر القوي فيه لم يؤمن فلابد من حكمة بالغة يجب أن نعرفها.

الله عز وجل متكفل أن يحجم الإنسان و يضعه في حجمه الطبيعي :

(وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ)

أي الله أحياناً يضعنا على الحافة، فالذي يعبد الله على حرف قد لا يتحمل امتحان الله عز وجل، هذا الامتحان كاشف، لهذا أنا أقول: قل ما شئت عن نفسك، لكن الله متكفل أن يحجمك، أن يضعك في الحجم الحقيقي الذي تحتله، قل ما شئت، ادع ما شئت، هناك امتحانات دقيقة جداً وقد تكون صعبة تكشف الإنسان على حقيقته، ويحجم تحجيماً حقيقياً، وهذا يؤكده معنى قوله تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

[سورة العنكبوت]

أنت ادع ما شئت، وضع لنفسك حجماً كما تشاء، لكن الله متكفل أن هذا الحجم الكبير الذي وضعته لنفسك يحجم بامتحان دقيق دقيق.

الدعاء مخ العبادة :

أيها الأخوة، لولا أن الله أرادنا أن نتوب إليه، بل أراد أن يقبل توبتنا، بل أراد أن يرحمنا، لما أمرنا أن نتوب، ولولا أن الله أراد أن يستجيب لنا لما أمرنا أن ندعوه، والدليل القوي جداً الآية الكريمة:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

[سورة الفرقان الآية: 77]

((الدُّعاءُ مُخُّ العبادةِ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

الدعاء هو العبادة، هو الذي يترجم المعرفة بالله، والدعاء هو سلاح المؤمن، وأنت بالدعاء قوي جداً، لأنك مع القوي، مع الغني، مع الحكيم، مع العليم، مع الرحيم، فلذلك ورد:

((من لا يدعني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((إن الله يحب الملحين بالدعاء))

[رواه الحكيم ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة]

((إن الله يحب كل قلب حزين))

[أخرجه الحاكم عن أبي الدرداء]

الله عز وجل يدعوه عن معرفة، والدعاء هو العبادة، بل هو مخ العبادة، فالله عز وجل تاب على النبي، وتاب على أصحابه:

(وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

التوبة الوقائية :

هناك معنى آخر للتوبة إن صحت التسمية، التوبة الوقائية، أنت حينما تتصل بالله عز وجل، وتنعقد لك صلة مع الله عز وجل، ويمتلئ القلب نوراً ترى به الحق حقاً، والباطل باطلاً، الله تاب عليك بهذه الطريقة، بمعنى أنه منحك أسباب الاستقامة، أسباب الرؤية، نوّر قلبك.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد الآية: 28]

كأن هذا المعنى يعطيك وقاية من المعاصي والآثام، فكأن هذا المعنى بالشمول توبة من الله لك، بين أن يعصي الإنسان ربه فيتوب، وأن يقبل الله توبته، وبين ألا يعصيه أصلاً، فهذا نوع من التوبة عالية جداً،

(إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

على الإنسان أن يجمع في دعائه بين الخوف و الرجاء :

الله عز وجل:

(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن]

ذو الجلال قوي، غني، جبار، منتقم، والإكرام رحيم، عفو، كريم، والحقيقة البطولة أن الأسماء المتعلقة بقوته، والأسماء المتعلقة برحمته، أن تكون بين الرجاء وبين الخوف، فإذا غلب الخوف على الرجاء وقعنا باليأس، وإذا غلب الرجاء على الخوف وقعنا في التوسع، أو في عدم التقيد بمنهج الله عز وجل، فالله عز وجل يعالجنا، إن رآنا توسعنا في مفهوم الرجاء تأتي بعض الشدائد، وإن رآنا توسعنا في مفهوم الخوف هذا الخوف جعلنا أقرب لليأس تأتي بعض الإكرامات الإلهية، فالله يقلبنا يمنة ويسرة، بين الرخاء والشدة، بل إن الله عز وجل وصف أنبياءه العظام أنهم يعبدون الله خوفاً وطمعاً، هذا موقف المؤمن الصادق، موقف المربي الحكيم، المربي الحكيم، الأستاذ الناجح، الداعية، يجب أن يعرف الابن من أبيه الحكيم أنه يحبه، وأنه يخافه، أن تجمع بين الحب والخوف، هذا معنى قول الله عز وجل:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن]

لا تعلم، تخافه، تخافه، لكن لا يوجد خوف مع يأس ، وتحبه تحبه، وهذا درس للآباء، والأمهات، والمعلمين، والمدرسين، والموجهين، والدعاة، وكل إنسان يحتل منصباً قيادياً هو بحاجة لهذا الدرس، أن تشعر من حولك بالخوف تارة، وبالرجاء تارة أخرى، كما يقال في بعض العبارات المعاصرة: أن تمسك العصا من الوسط، بين الخوف والرجاء،

(إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

الله عز وجل يحب الصادقين :

ثم قال تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة التوبة]

هناك أصحاب ثلاث تخلفوا عن الجهاد، وكانوا مع النبي صادقين، حتى أن سيدنا كعب قال: وقد أجمعت صدقه، يا رسول الله كنت قوياً، وعندي ناقتان، وكنت صحيحاً ومعافى، ليس لي عذر، قال: أما هذا فقد صدق، استمع إلى ثمانين منافقاً بأعذار واهية وقبل مجاملة، أما سيدنا كعب فقال عنه النبي: أما هذا فقد صدق، فالله عز وجل يحب الصادقين.

مجتمع المؤمنين مجتمع مؤمن منضبط مطبق لمنهج الله :

قال:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)

ما معنى خلفوا؟ غير معنى تخلفوا، خلفوا أي أرجأ الحكم بهم إلى حين، حيث تمت مقاطعتهم لمدة خمسين يوماً، المقاطعة بينهم وبين رسول الله لا أحد يكلمهم حتى زوجاتهم، حتى أقرب الناس إليهم، بل هذه القصة الحقيقة وسام شرف كبير، ما هذا المجتمع الملتزم؟ المنضبط؟ المؤتمر؟ إنسان يرتكب خطأ تدخله السجن، ما السجن؟ أن تعزله عمن حوله من دون سجن، عزلته عمن حوله، هو طليق، يتحرك يمشي في الطريق، يدخل إلى بيته، لكن زوجته لا تحدثه، أقرب الناس إليه، ما هذا المنهج القويم الذي جعل أمر النبي نافذاً في أدق أدق خصوصيات الإنسان؟ هذا منهج الله عز وجل، مجتمع مؤمن، منضبط، مطبق.

قال:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

لذلك قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية:97]

الحياة الطيبة لا تعني أنه غني، تعني أنه موصول بالله، تعني أنه متوكل على الله، تعني أنه يحب الله، تعني أنه خاضع لمنهج الله، تعني أنه يتأمل بحياة سعيدة، قادمة بعد الموت، هذه حالة دقيقة جداً.

المؤمن موعود بالجنة وهذا الوعد لا بد من أن يقع :

مرة قلت: المؤمن سعيد، فالذي استمع لهذه الكلمة في جمع غفير قال: لا ليس سعيداً، مثله مثل أي إنسان، فقلت له: لو أن إنساناً فقيراً جداً، وعنده ثمانية أولاد، ودخله لا يكفي أياماً معدودة، له عم يمتلك خمسمئة مليون، ومات بحادث كبير، وليس له أولاد، فهذا المبلغ صار إليك، أما إذا أراد أن يقبضه فيحتاج إلى وقت طويل، هناك معاملات مالية، وبراءات ذمة، إلى آخره، لماذا في هذه الفترة بين وفاة عمه وبين استلام المبلغ هو أسعد الناس؟ لأن الله وعده بالجنة، والمؤمن موعود بالجنة، وهذا الوعد لا بد من أن يقع:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية:111]

سبب سعادته، وسبب امتصاصه لكل مشكلة حوله.

إذاً:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ)

هؤلاء المؤمنون تخلفوا عن رسول الله وكانوا صادقين.

(الَّذِينَ خُلِّفُوا)

أما خلفوا هنا يعني تأخر الحكم عليهم.

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ)

بعد خمسين يوماً،

(لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

أيها الأخوة الكرام، في بعض الأحاديث:

((إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي))

[أخرجه البخاري، ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صحيح]

الصدق يهديك إلى الله فكن صادقاً، ولو أخطأت كن صادقاً.

السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء :

(وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ)

أحياناً أنت تخاف من الله، لكن مع الله وحده، تخاف منه، ولا ملجأ من عقابه إلا إليه، تخاف منه وتقبل عليه، تفر من عقابه، وتتسابق إلى طاعته، لا يوجد غير الله عز وجل، تخاف منه، والحل أن تلجأ إليه.

(أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ)

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ)

يحس بضيق، والآية الكريمة:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

[سورة طه الآية:124]

قرآن، زوال الكون أهون من ألا تتحقق هذه الآية،

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

قال بعضهم: ما بال الأقوياء والأغنياء؟ قال: ضيق القلب، الإنسان إذا ابتعد عن الله لو كان قوياً، لو كان غنياً، يشعر بضيق لا حدود له، لذلك هذه الراحة النفسية، نسميها السكينة، الله عز وجل ينزل هذه السكينة على عباده الصالحين، هذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، هذه السكينة ذاق النبي الكريم طعمها وهو في الغار، مهدور دمه، ملاحق، وذاقها إبراهيم وهو في النار، وذاقها موسى في الصحراء، وذاقها أهل الكهف في كهفهم، هذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، هذه سكينة الله عز وجل، تسميها رحمة، تسميها تفاؤلاً، تسميها تماسكاً، تسميها ثقة، تسميها صعوداً إلى الله عز وجل، تسميها صعوداً نفسياً، سمها ما شئت لكنها رحمة الله، تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

الله عز وجل يسوق للإنسان الشدائد لتحمله على التوبة :

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

ما الذي يسعدك حينما تأخذ أم حينما تعطي؟ الحقيقة هناك أقوياء وهناك أنبياء، الأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء عاشوا للناس، الأقوياء عاش الناس لهم، الأقوياء يمدحون في حضرتهم، الأنبياء يمدحون في غيبتهم.

أيها الأخوة، كن تابعاً لنبي تكن أسعد الناس في الدنيا.

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

هنا الشاهد،

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

ساق لهم هذه الشدة، لأن الصحابة الكرام قاطعوهم خمسين يوماً، لا أحد يكلمهم، لا أحد يسلم عليهم، حتى زوجاتهم،

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

ساق لهم بعض الشدائد كي تحملهم هذه الشدائد على التوبة.

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة التوبة]

تواب، صيغة مبالغة، تاب، يتوب، تائب، هنا تواب صيغة مبالغة، ومعنى صيغة مبالغة أنه يتوب على عبد ارتكب أكبر ذنب في الأرض، أو يتوب على عبد ارتكب مليون ذنب، إما نوعاً، أو عدداً،

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

شديد التوبة.

إذاً:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم))

على الإنسان أن يكون مع المؤمنين الصادقين :

ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة]

الحقيقة هذه الآية دقيقة جداً، أنت حينما تكون مع الناس الشاردين عن الله عز وجل تصعب عليك التوبة، من حولك يدعوك إلى المعصية، إلى الشرود عن الله، إلى التفلت، إلى ترك العبادات، أما إذا كنت مع المؤمنين فهؤلاء يدعونك إلى طاعة الله، فلذلك العلاج، الدواء، الصواب أن تكون مع المؤمنين، والدليل:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف]

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)

أي أرجأ الله الحكم فيهم إلى حين، بعد خمسين يوماً تاب الله عليهم.

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ)

هنا معنى ظنوا بمعنى حسبوا، ظن بمعنى أيقن أو حسب، من ألفاظ التضاد، هنا ظنوا بمعنى أيقنوا.

(وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أي الشدائد ساقها لهم كي تحملهم على التوبة، فإذا تاب:

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

التوبة علم وحال وعمل :

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أما تابوا فتاب عليهم فلها معنى آخر، أي أعلنوا توبتهم والتوبة علم، وحال، وعمل، علم: علمَ أنه مذنب، حال: شعر بالندم، عمل: أقلع عن الذنب، علم وحال، وعمل، هذا الذي علمه هداه إلى التوبة، وحاله انعقد على ألا يعود لهذا الذنب، ثم أصلح ما أفسده قبل أن يتوب، ثلاثة أشياء، علم، وحال، وعمل.

هنا: تابوا فتاب عليهم، أما

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

فساق لهم بعض الشدائد كي يحملهم على التوبة، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((عجب ربنا من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل))

[رواه أحمد والبخاري وأبو داود عن أبي هريرة]

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

التواب صيغة مبالغة، يغفر لك مليون ذنب، العدد، ويغفر أكبر ذنب، نوع أو عدد،

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

الله سبحانه وتعالى يضع لنا الحل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

كن معهم.

((الجماعة رحمة والفرقة عذاب))

[أخرجه عبد الله بن أحمد عن النعمان بن بشير]

((فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد - وإنما يأكل الذئب من الغنم القاسية -))

[أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو يعلى والإمام أحمد عن عمر بن الخطاب]

كن مع المجموع، كن مع أهل الإيمان:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (67-70) : تفسير الآيات 120 - 122، العبادات الشعائرية مناسبة لقطف ثمار العبادات التعاملية، الله عز وجل يقدر أجمل أعمال الإنسان ثم يعطي الثواب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-08-26

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جلّ جلاله ما أراد أن تكون العلاقة به علاقة إكراه بل علاقة حب :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السابع والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية العشرين بعد المئة وهي قوله تعالى:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

أيها الأخوة الكرام، تذكيراً ببعض الحقائق الأساسية عن العبادة إنها: طاعة طوعية وليست قسرية، لأن الله جل جلاله ما أراد أن تكون العلاقة به علاقة إكراه، قال:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

بل أراد أن تكون العلاقة به علاقة حب، قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة الآية:54]

لذلك العبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أي ما عبد الله من أطاعه ولم يحبه، كما أنه ما عبد الله من أحبه ولم يطعه، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، هذه العبادة نوعان، عبادة شعائرية كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، وعبادات تعاملية كالصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، وإنجاز الوعد، إلى آخر ما هنالك من صفات أخلاقية، هناك عبادات شعائرية، وهناك عبادات تعاملية.

العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

لكن الحقيقة الخطيرة أن العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، لذلك:

((سأل النبي مرة أصحابه من المفلس؟ قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: لا، المفلس من أتى بصلاة، وصيام، وصدقة، وقد ضرب هذا، وشتم هذا، وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ طرحوا عليه سيئاتهم حتى يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذه حقيقة أولى، فالعبادات تعاملية وشعائرية، والتعاملية: السلوك، الأخلاق، المواقف، العطاء، الانضباط، ترك ما نهى الله عنه، أن يراك حيث أمرك، أن يفتقدك حيث نهاك، العبادات التعاملية هي التي ترقى بالإنسان، أما الشعائرية فمناسبة لقطف ثمار العبادات التعاملية.

كيف أن العام الدراسي الأصل فيه الدارسة، وساعات الامتحان الطالب الذي درس يظهر جهده الكبير في ساعات الامتحان.

الصلاة معراج المؤمن :

لذلك ما بين الصلاتين إذا كان هناك عمل صالح، والتزام، ووقوف عند الأمر والنهي، يقطف المسلم ثمار استقامته فيما بين الصلاتين، وكأن الصلاة امتحان والتزام بالعبادات التعاملية، في العام الدراسي تدرس، وفي الامتحان تظهر النتائج.

إذاً الصلاة مناسبة كي تمتحن استقامتك قبل الصلاة، فإن كنت مستقيماً شعرت بالقرب من الله، وعرجت نفسك إلى الله، فالصلاة معراج المؤمن، وقطف ثمار الصلاة الاستنارة، والانضباط، والسعادة.

العلاقة بالنبي الكريم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى :

لذلك الآية الكريمة:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ)

وكأن الخصيصة الأولى للمؤمنين أن نكون مع رسول الله، إذا كان حياً يُرزق فنحن معه في السراء والضراء، نحن معه في غزواته، في إقامته في المدينة، في الضراء، لكن بعد انتقال النبي الكريم إلى الرفيق الأعلى، كيف تكون العلاقة به؟ كما قال الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ)

[سورة الأنفال الآية:33]

معنى

(وَمَا كَانَ اللَّهُ)

أي هذا مستحيل وألف ألف مستحيل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

قال علماء التفسير:

(وَأَنْتَ فِيهِمْ)

معنى هذه الكلمة بعد انتقال النبي، إذا كانت سنتك مطبقة في حياته مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب.

المؤمن حينما يستقيم على أمر الله له معاملة خاصة :

لذلك مرة كان النبي عليه الصلاة والسلام قد أردف معاذ وراءه على الدابة سأله:

((ما حقُّ الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقَّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فسكت النبي قليلاً- وجاء السؤال الثاني- ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: حقُّ العباد على الله ألا يعذِّبهم))

[أخرجه البخاري عن معاذ بن جبل]

كأن الله جل جلاله أنشأ لك حقاً عليه، فلذلك المؤمن حينما يستقيم على أمر الله له معاملة خاصة.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت الآية:30]

لا تخافوا من المستقبل، ولا تحزنوا على ما فاتكم في الماضي.

(وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت]

وكلمة لا تخافوا ولا تحزنوا قد لا ننتبه إلى مضامينها، لا تخافوا ولا تحزنوا تغطي الزمن كله، لا تخافوا تغطي المستقبل، ولا تحزنوا تغطي الماضي.

من اتبع هدى الله لا يضل عقله ولا تشقى نفسه :

بل إن الله عز وجل في بعض الآيات يقول:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه الآية:123]

أي لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، الآية الثانية:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة الآية:38]

لو جمعنا الآيتين الذي يتقي الله عز وجل، والذي يخشى الله عز وجل، لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت، ماذا بقي من سعادة الدنيا؟ ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت، ولا يضل عقله، ولا تشقى نفسه.

إذاً كأن الله عز وجل في هذه الآية العشرين بعد المئة من سورة التوبة يبين أن من خصائص المؤمن متابعة النبي عليه الصلاة والسلام، من خصائص المؤمن أن يتابع النبي في حياته، أن تكون معه في السراء والضراء، في الحرب والسلم، وأن تتابع سنته بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

إذاً كضمانة قطعية حتمية من خالق السموات والأرض، ولأن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، وأن الله عز وجل إذا قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور الآية:55]

أول وعد:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

طبعاً الحقيقة المرّة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، نحن الآن لسنا مستخلفين في الأرض،

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

والحقيقة في أعم بلاد المسلمين ليس الدين ممكن في بلادهم،

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

هذا الأمن الذي وعدنا به ليس الآن محققاً قال:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية:55]

على الذات الإلهية أن يحقق لنا النصر، والتمكين، أما إذا لم يؤدِ العباد ما عليهم من عبادة فالله جل جلاله في حل من وعوده الثلاث.

من طبق سنة النبي في حياته فهو في مأمن من عذاب الله عز وجل :

إذاً من أخص خصوصيات المؤمن أن يكون مع رسول الله، إن كان حياً معه في كل غزوة، معه في الحضر وفي السفر، في السلم وفي الحرب، وإن انتقل النبي الكريم إلى الرفيق الأعلى، إذاً هو معه في سنته، والشاهد الدقيق:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

فإذا كانت سنة النبي مطبقة في حياتنا فنحن في مأمن من عذاب الله، فمن خصائص المؤمن أن يكون مع رسول الله.

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ)

(مَا كَانَ)

تنفي إمكان الوقوع، أما ما ينبغي فلا تنفي إمكان الوقوع، لكن تنفي كمال الوقوع والكلام دقيق جداً، فحيثما قرأت في القرآن الكريم ما كان الله ليفعل أي هذا مستحيل وألف ألف مستحيل، هنا ما كان للمؤمنين أن يتخلفوا عن رسول الله، مستحيل أن تكون مؤمناً وأن تتخلف عن رسول الله، فالتخلف عنه نفاق، وأي نفاق.

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ)

من رغب في الشيء أقبل عليه ومن رغب عن الشيء ابتعد عنه :

الآن دقق:

(وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

رغب في الشيء، رغب: مال إلى الشيء ميلاً عميقاً، رغبتُ هذه الجامعة، رغبتُ هذه الحرفة، رغبتُ هذا المال، رغبَ: مال ميلاً شديداً، لكن هذا الفعل من ألطف ما فيه أنه إذا جاء بعده رغب فيه، مال إلى الأخذ به، وإذا جاء بعده رغب عن، مال إلى تركه، لذلك الأفعال في اللغة أفعال لازمة، وأفعال متعدية، وأفعال قاصرة، ما الأفعال اللازمة؟ أن تقول: نام زيد، نام: فعل يحتاج إلى فاعل فقط، هذه فعل لازم، سعد فلان: فعل لازم، لكن إذا قلت: أكل الطفل التفاحة، هذا فعل متعدّ، لا بد لهذا الفعل من أن يصيب شيئاً وقع الفعل عليه، الذي قام بالفعل هو الفاعل، والذي وقع الفعل عليه هو المفعول به، فهذا الفعل الذي يحتاج إلى فاعل، وإلى مفعول معاً، هو الفعل المتعدي، فاعل ومفعول معاً.

ولكن هناك فعل قاصر، يأتي بعده حرف جر، مثلاً: رغبت في، رغبت في الشيء فالشيء في الأصل مفعول به، لكن لأن الفعل قاصر يأتي هذا الحرف ليجر أثر الفعل إلى المفعول، رغبت في الشيء،

الشيء في الأساس مفعول به، لكن لأن الفعل قاصر لا يصل تأثيره إلى ما ينبغي أن يكون مفعولاً به إلا بحرف، رغبت في الشيء، ورغبت عن الشيء، ونظرت إلى، وبحثت عن، فكل فعل من لوازمه حرف، هذا الحرف يعطي بياناً دقيقاً لمضمونه.

إذاً:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

أي يؤثرون النبي، يؤثرون طاعته، يؤثرون تلبية أمره، يؤثرون أن يكونوا معه،

(وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

فلذلك إما أن ترغب في الشيء، أو أن ترغب عن الشيء، إن رغبت في الشيء أقبلت عليه، إن رغبت عنه ابتعدت عنه.

من خصائص المؤمنين ألا يتخلفوا عن رسول الله :

لذلك من خصائص المؤمنين ألا يتخلفوا عن رسول الله، وألا تكون لهم رغبة بعيدة عن رغبة رسول الله، فلذلك:

((لا يُؤمن أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليه مِنْ والده وولدِهِ والنَّاس أجمعين))

[أخرجه البخاري عن أنس بن مالك]

أو كما قيل: "ما لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام أحب إليك من نفسك"، أي ما لم تكن توجيهات النبي، ما لم تكن أوامر النبي، ما لم تكن النواهي التي نهى عنها النبي، أحب إليك من كل شيء، فالطريق إلى الله ليس سالكاً، هذا يذكرنا بقوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

كأن الطريق إلى الله لا يكون سالكاً إلا إذا آثرت رضوان الله على كل شيء.

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ)

فأنت معه في حياته في السراء والضراء، معه في الحضر وفي المذر، معه في الغزو وفي السلم، معه في كل شيء، معه مطيعاً، معه محباً، معه مطبقاً، معه مؤثراً رغبته على رغبتك.

هكذا قال الله عز وجل:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

إذا لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام أحب إليك من نفسك فبينك وبين الإيمان مراحل.

محبة رسول الله و طاعة أمره قضية أساسية في الدين :

لذلك سيدنا عمر كان صريحاً جداً إلى درجة تلفت النظر، قال: يا رسول الله أنت أحب إلي من أهلي وولدي ومالي والناس أجمعين إلا نفسي التي بين جنبي، فقال: يا عمر! لما يكمل إيمانك، لما تأكد هذا الصحابي الجليل أن هذه القضية أساسية في الإيمان، أساسية جداً، ولا مساومة عليها إطلاقاً، غاب حيناً وعاد إلى النبي الكريم وقال: لأنت أحب إلي من نفسي، وأهلي وولدي، ومالي، حتى نفسي التي بين جنبي، قال: الآن يا عمر.

هذا كلام دقيق، أنت إذا رأيت شيئاً لا يرضي الله أحب إليك من طاعة الله، فهناك مسافة كبيرة، مثلاً نحن في الأعياد، في الفطر، وعيد الأضحى، نكبر، نقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أنا أقول بتعليق أردده كثيراً: إذا أطعت مخلوقاً، وعصيت خالقك، فأنت ما قلت الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، إذا أطعت مخلوقاً، وعصيت الذي خلقك، إذا أطعت زوجتك في معصية، إذا أطعت شريكك في معصية، إذا أطعت من حولك في معصية وعصيت الله، الحقيقة أن طاعة هذا المخلوق كانت أحب إليك من طاعة الله، لذلك عصيت خالقك وأطعت هذا المخلوق، إذاً لم تقل أنت الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، حقائق الدين دقيقة جداً، أنا ممكن أن أقرأ القرآن، أما أين أنا من هذه الآيات؟

على الإنسان أن يقرأ القرآن وفق قواعد اللغة وعلم التجويد ثم يفهم معانيه ويتدبرها :

قلت سابقاً حينما قال الله عز وجل:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

[سورة البقرة الآية:121]

قال بعض العلماء: هؤلاء المؤمنون يقرؤون القرآن وفق قواعد اللغة الصحيحة، لأن الله قال:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر]

الله: مفعول به مقدم، والعلماء فاعل مؤخر، لو عكست الآية هناك مشكلة كبيرة، معنى فاسد،

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

فإذا رفعت لفظ الجلالة ونصبت العلماء المعنى فاسد، و خطير جداً، إذاً لا بد من أن تقرأ القرآن قراءة صحيحة وفق قواعد اللغة، والأكمل أن تقرأه وفق قواعد علم التجويد، ثم لا بد من فهم المعاني، ثم لا بد من التدبر، والتدبر أن تسأل نفسك مع كل آية أين أنت منها؟ هل أنت مطبق لها؟ نُهيت عن هذا الشيء، هل انتهيت عنه؟ أُمرت بهذا الشيء، هل أمرت به؟.

من آثر شهوته على طاعة الله خسر الدنيا و الآخرة :

إذاً من خصائص المؤمنين:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

أي يرغبون أن يطيعوه، ولا يعبؤون برغباتهم، يؤثرون طاعة النبي على حاجاتهم الخاصة:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

هذا كلام دقيق، إذا كان في الدنيا شيء لا يرضي الله لكنك تفعله فقد آثرت شهوتك على طاعة الله، أو آثرت حظ نفسك على طاعة الله، إذا أطعت مخلوقاً وعصيت خالقاً، إذا أطعت مخلوقاً وعصيت الذي خلقك، فأنت لم تقل الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

(وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ)

لكن النتيجة، دققوا الآن:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ)

عطش،

(وَلَا نَصَبٌ)

تعب،

(وَلَا مَخْمَصَةٌ)

جوع،

(فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ)

دخلوا أرضهم، ووطئوها بأقدامهم،

(وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً)

نالوا منه، نالوا من خطته، نالوا من طموحاته، نالوا من كرامته،

(وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)

معنى ذلك أن الأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى، بل إن بعض العلماء قال: الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، يمكن أن تعمل صالحاً وأنت في الطريق، وأنت في البيت، وأنت في الحقل، وأنت في الدكان، وأنت في المدرسة، وأنت في الجامعة، أي عمل تبتغي به رضوان الله هو عمل صالح يكتب في صفيحتك إلى يوم القيامة، لذلك الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

وكأن هذه الآية تبين تفاصيل، أي:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ)

الظمأ العطش، والنصب التعب،

(وَلَا مَخْمَصَةٌ)

الجوع،

(فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ)

أنت أحياناً تحجم الكافر، تبين له قوتك، تبين له ضعفه، تبين له انحرافه،

(وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

أي عمل صالح يعمله الإنسان يكتب في ميزان حسناته يوم القيامة :

لذلك إذا كانت العبادات الشعائرية محدودة بخمسة عبادات، صلاة، وصوم، وحج، وزكاة، ونطق بالشهادة، فإن العبادات التعاملية لا تنتهي، تدور معك حيثما درت، تبدأ هذه العبادات من فراش الزوجية وتنتهي بالعلاقات الدولية، أي عمل تبتغي به رضوان الله، لو قرأت كتاباً، لو ألقيت درساً، لو دعوت دعوةً، لو أطعمت جائعاً، لو عالجت حيواناً مريضاً، أي عمل تعمله هو في الحقيقة عمل صالح يكتب في ميزان حسناتك يوم القيامة، وهذه الآية تبين ذلك:

(وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

أحياناً ركب بعض الصحابة الكرام فرسه قبيل الحرب وتبختر بها، فقال عليه الصلاة والسلام: "إن هذه المشية يكرهها الله إلا في هذا الموطن".

أحياناً تحتاج إلى أن تقف موقفاً قوياً أمام الكافر:

(وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)

من هنا قيل: من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن اشتكى إلى غير المؤمن فكأنما اشتكى على الله.

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الدنيا :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

المحسن أجره محفوظ عند الله عز وجل، إذاً أراد الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن يعدد بعض الأعمال التي تعد عبادات تعاملية ترقى بالإنسان يوم القيامة، أحياناً هناك أشياء سلبية يصاب بالظمأ، بالجوع، بالعطش، بالتعب، بالمرض أحياناً.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

الآن موقف يغيظ الكفار، يحجمهم، يصغرهم، لعلهم يستيقظون من غفلتهم.

(اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً)

وصلوا إلى العدو أخذوا منه شيئاً،

(إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)

لذلك أنواع الأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى، بل إن علة وجود الإنسان في الدنيا هي العمل الصالح، والدليل أن الإنسان حينما يأتيه ملك الموت يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

أقول مرة ثانية: زوال الكون أهون على الله من أن يضيع عليك عملك، العمل الصالح محفوظ.

مهما بدا للإنسان العمل صغيراً فهو عند الله محفوظ :

الآن:

(وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة التوبة]

رب درهم سبق ألف درهم، الإنسان أحياناً يأتي ليتوضأ يرى نملة في المغسلة، ينتظر حتى تخرج منها، لئلا تغرق في الماء، هذا عمل عند الله محسوب، رأى في الجامع قشة وضعها في جيبه، مهما بدا لك العمل صغيراً فهو عند الله محفوظ.

(وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

ما معنى هذه الآية؟ لك عمل في مجال محدد، و هذا العمل تكرر عشرات المرات، أرقى نسخة من هذا العمل تسجل لك، أرقى شيء.

هنا:

(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أحياناً إنسان أنا أسميه: قناص، يفتش عن عيوب الآخرين، ويقتنصها، ويشيعها بين الناس، أما الذات الإلهية العظيمة فتقدر لك أجمل أعمالك

(أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

للجهاد أنواع كثيرة :

ثم يقول الله عز وجل:

(لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

[سورة التوبة]

هنا الموضوع دقيق جداً جداً، معنى هذا الموضوع أن هؤلاء الصحابة إذا توجهوا جميعاً إلى الحرب، من بقي لنشر هذا الدين؟ فالذي ينبغي أن يكون واضحاً أن الجهاد أنواع كثيرة، هناك جهاد دعوي، الله عز وجل يقول:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

أي بالقرآن، أي الأمة تحتاج من يموت في سبيلها، وتحتاج أيضاً من يعيش في سبيلها، فالذي يأخذ العلم ينقله إلى الآخرين، وهذا عمل عظيم، والدليل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

أي ليس على وجه الأرض إنسان أفضل عند الله:

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

الإيمان من لوازمه الاستقامة والدعوة إلى الله من لوازمها العمل الصالح :

وقد تقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون]

أما:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

فالمؤمن ينبغي أن يكون مستقيماً.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية: 30]

فالإيمان من لوازمه الاستقامة، أما الدعوة إلى الله فمن لوازمها العمل الصالح،

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

إذاً فضلاً عن أن الأمة في أمس الحاجة إلى مجاهدين، إلى مقاتلين، إلى من ينشر الدين، إن الأمة بحاجة إلى هؤلاء، وبحاجة إلى علماء الذين يأخذون هذا المنهج الإلهي، ويبثونه بين الناس، لذلك قال الله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً)

لابد من أن يتفرغ بعضهم للدعوة إلى الله، وليأخذوا هذا الوحي من رسول الله، وينقلوه إلى الناس.

الحركة الأساسية للبشر دفاعية ودعوية :

(وَمَا كَانَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

وكأن هذه الآية تنطبق على الدعاة إلى الله عز وجل، لو أخذت كل فرقة من هؤلاء، وتفقهت في الدين، وأنذرت قومها، لعل هؤلاء يهتدون ويسعدون في دنياهم وأخراهم.

أيها الأخوة الكرام، هنا في هاتين الآيتين تبين أن الحركة الأساسية للبشر حركة دفاعية، وحركة دعوية، دفاعية ودعوية، فالأمة بحاجة إلى من يموت في سبيلها، وبحاجة أيضاً إلى من يعيش في سبيلها.

الدعوة إلى الله فرض عين و فرض كفاية :

الآية التي جاءت بعد الأولى:

(وَمَا كَانَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

لذلك كلام دقيق دقيق الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم ومع من يعرف، أما التفرغ، والتعمق، والتبحر فهذا فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، دليل فرض الكفاية:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران]

ما فرض العين؟

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية: 108]

يدعو إلى الله، دليل آخر:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *)

[سورة العصر]

الأمة الراقية أمة تملك جناحاً دفاعياً و جناحاً علمياً معاً :

بعد أن قال الله عز وجل:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً

صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمَا كَانَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً)

لابد من فريق يتخصص في الدفاع، وفي الحرب، وفريق آخر يتخصص بالدعوة إلى الله عز وجل، أي هناك علماء، وهناك أمراء:

(وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، هاتان الآيتان تبينان أن الأمة التي لا تملك قوة تدافع بها عن مقوماتها، عن مبادئها، عن قيمها، هي أمة خاسرة، والأمة التي لا ينهض بعض أفرادها لنشر هذه الحقائق، ولنشر هذا الوحي الإلهي الذي أنزله الله على رسوله الكريم، أمة ضائعة، فلابد من جناح دفاعي وجناح علمي حتى ترقى الأمة إلى مصاف الأمم الراقية.

وفي درس آخر إن شاء الله يمكن أن نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (68-70) : تفسير الآيات 122 - 123، الدعوة فرض عين على كل مسلم في حدود القدرة، الحرب بين باطلين لا تنتهي.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-09-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الله أفضل عمل على الإطلاق :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثامن والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثانية والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، لعل هذه الآية تنضوي تحت موضوع كبير هو الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى حينما وصف الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)

[سورة الأحزاب]

فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، من أدق أوصافه أنه داعٍ إلى الله، لذلك ليس من عمل أفضل عند الله على الإطلاق من الدعوة إلى الله، لأن الدعوة إلى الله تعرف الإنسان بحقيقة إنسانيته، تعرف الإنسان بأنه المخلوق الأول رتبة، تعرف الإنسان بأنه المخلوق المكرم، تعرف الإنسان بأنه المخلوق المكلف، تعرف الإنسان بأن حياته الدنيا ذات مهمة خطيرة جداً، إنها العمل الصالح، فالطريقة المجدية الوحيدة التي تنقل الإنسان من الجهل إلى العلم، من البعد عن الله إلى القرب، من دنس الشهوة إلى قدس الطاعة، هي العبادة، فالعبادة تؤهل الإنسان أن يكون مؤمناً، وأن يحقق الهدف من وجوده، بل أن يحقق الهدف الذي أراده الله له.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

الدعوة إلى الله دعوتان :

هذه العبادة إن صحت التسمية هي الدعوة إلى الله عز وجل، وليس على وجه الأرض إنسان أفضل عند الله:

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

لكن الدعوة إلى الله دعوتان، دعوة إلى الله خالصة، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله، فالدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الإتباع، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها الابتداع، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها التعاون، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها التنافس، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الاعتراف بالآخر، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها إلغاء الآخر، فلذلك ما كل من دعا إلى الله دعا إلى الله، فقد ورد:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، ولم يصر على معصيتي، وكف شهواته عن محارمي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، يسألني فأعطيه، يقسم علي فأبره، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يمس ثمرها، ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

حاجة الدعوة إلى الله إلى العلم و الإخلاص :

حينما قال الله عز وجل:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ)

أي جماعة

(طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

هذه الآية ومثيلاتها، بل والآيات التي تتحدث عن الدعوة إلى الله تبين أن أعظم عمل على الإطلاق هو الدعوة إلى الله، لأنك تأخذ بيد أخيك الإنسان إلى الله، تأخذه إلى طاعة الله، تأخذه للعمل الصالح، تأخذه إلى ما خُلق من أجله، تأخذه إلى جنة عرضها السموات والأرض، تأخذه إلى خيري الدنيا والآخرة. فلذلك هذا الذي سمح له أن يدعو إلى الله، يجب أن يذوب محبة لله عز وجل على هذا الفضل العظيم الذي سمح الله له به.

إذاً:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ)

من بعض الأقوال التي جاءت في الأثر:

((عبدي كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك))

[ورد في الأثر]

فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام من أوصافه الأساسية أنه داعية إلى الله عز وجل إذاً حينما تقرأ قوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

وينبغي أن أؤكد على أنه من دعا إلى الله فعليه أن يدعو بعلم، الدعوة إلى الله تحتاج إلى علم مكين، وتحتاج إلى إخلاص، لأن الله عز وجل حينما قال:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية: 19]

قال علماء التفسير:"الله عز وجل يقبل العمل الصالح إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، فإذا كان خالصاً ولم يكن موافقاً للسنة لا يعد عملاً صالحاً، إذا كان وفق السنة ولم يكن خالصاً لا يعد عملاً صالحاً، فالإخلاص ومطابقة السنة كلاهما شرط لازم غير كافٍ".

ما من عمل أعظم عند الله من الدعوة إلى الله بعلم وبإخلاص وبحكمة :

إذاً قوله تعالى:

(كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ)

تعلم وعلم.

((خيرُكمْ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن عثمان بن عفان]

هذه في اللغة اسم تفضيل، خيركم على الإطلاق من تعلم القرآن وعلمه، لأن هذا القرآن تعليمات الصانع، هذا القرآن فيه أسباب نجاحنا، أسباب تألقنا، أسباب سعادتنا، أسباب حفظنا، أسباب رقينا، إذاً ما من عمل أعظم عند الله من الدعوة إلى الله بعلم، وبإخلاص، وبحكمة

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

أي مؤمن على الإطلاق مكلف أن يدعو إلى الله :

طبعاً قد يتوهم متوهم أن الدعوة إلى الله يجب أن يكون خطيب مسجد حصراً، أو له مكانة كبيرة، لا، أي مؤمن على الإطلاق، بأي حجم، مكلف أن يدعو إلى الله، والنبي قال:

((بلِّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

أنت استمعت في خطبة الجمعة إلى تفسير آية، تأثرت بها كثيراً، هذه الآية مع تفسيرها انقلها إلى زوجتك، إلى أولادك، إلى جيرانك، إلى من حولك، إلى إخوانك بلقاء خلال أسبوع هذا:

((بلّغوا عني ولو آية))

وهذا معنى قول الله عز وجل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية: 108]

فالذي لا يدعو إلى الله أصلاً هذا ليس متبعاً لرسول الله، حتى إنه: "من لم يجاهد- أقصد هنا الجهاد الدعوي- ولم يحدث نفسه بالجهاد، مات على ثلمة من النفاق".

لابد من أن تدعو إلى الله، والآية الصريحة الدقيقة الواضحة:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر]

فالتواصي بالحق ربع النجاة، بل أحد أركان النجاة، والآية الثانية:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

فلابد من أن تكون متبعاً لرسول الله، والدليل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 21]

فالآية هنا:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ)

تعلم وعلّم، تقرب وقرّب، استبن وبيّن، فالمؤمن له نشاط، وهذا المؤمن الذي يبتعد عن الله، يبتعد عن شيء أساسي في حياة كل مؤمن.

((بلّغوا عني ولو آية))

التجارة الرابحة هي التجارة مع الله عز وجل :

النقطة الدقيقة جداً هذا الذي دعوته إلى الله، إذا استجاب لك، والتزم الأمر والنهي، وتألق إلى الله، أعماله كلها في صحيفتك، من دعوتهم إلى الله أعمالهم كلها في صحيفتك أيها الأخ الداعية الأول، إلى يوم القيامة، التجارة مع الله مربحة كثيراً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة الصف]

الله سمّى العمل الصالح تجارة مع الله، أنت بالتجارة العادية تربح بالمئة عشرة، فكيف مع الله تربح بالمئة مليار؟ هذه تجارة رابحة.

الدعوة إلى الله فرض عين و فرض كفاية :

إذاً:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ)

أريد أن أؤكد بالمفهوم التقليدي أن فقط الخطباء دعاة، العلماء دعاة، الذين يظهرون على الشاشات دعاة، الذين لهم مظهر ديني صارخ دعاة، لا، أي مؤمن على الإطلاق ينبغي أن يكون داعية، والدليل ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، الدليل:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

ربع النجاة، أحد أركان النجاة، والدليل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

لن تكون متبعاً لهذا النبي الكريم إلا إذا كنت متبعاً الله عز وجل.

((بلّغوا عني ولو آية))

أقول لكم بشكل دقيق: الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم فقط، ومع من تعرف، أما الدعوة إلى الله فمع التبحر، والتعمق، والتوسع، والقدرة على الإجابة عن أي سؤال، عن أي شبهة، هذا فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ)

[سورة آل عمران الآية 104]

منكم، من للتبعيض، إذاً:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

أخوتنا الكرام، ألم تقرؤوا قول الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

هذه الخيرية التي وصفها الله تعالى أمة النبي ما علتها؟ الخيرية،

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

هذه الخيرية ما علتها؟ قال:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالمعروف يوسع دوائر الحق، والنهي عن المنكر يوسع دوائر الحق، فإذا توسعت دوائر الحق ضاقت دوائر الباطل، فلذلك الدعوة إلى الله فرض كفاية، تحتاج إلى تفرغ، وإلى تبحر، وإلى تعمق، أما الدعوة إلى الله كفرض عين، ففي حدود ما تعلم ومع من تعرف، وكأن الله سبحانه وتعالى حدثنا في هذه السورة سورة التوبة عن ضرورة الجهاد في سبيل الله، وعن ضرورة الدعوة إلى الله.

إذاً:

(وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله فيجب على الإنسان أن يكون قوياً :

أيها الأخوة، ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة]

الحقيقة الإسلام فضلاً عن أنه وحي السماء، ومنهج الله في الأرض، لكن يحتاج إلى قوة، عند الآخرين القوة هي الحق، وهذا خطأ كبير، وهذا خطأ فاحش، الحق ما جاء به وحي السماء، ولكن يحتاج إلى قوة، أن تقول: القوي على حق، في الغرب هكذا يعتقدون، ما دمت قوياً فأنت على حق، ولو كنت ظالماً، ولو أخذت ما ليس لك، ولو احتللت أرضاً ليست لك، ما دمت قوياً فأنت على حق، لكن الحق ما جاء به وحي السماء والحق يحتاج إلى قوة، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

أقول لكم: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، لماذا؟ أولاً لأن النبي قال:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

أما الشيء الثاني فالقوي خياراته في العمل الصالح لا تعد ولا تحصى، فالذي يحتل منصباً رفيعاً بجرة قلم يحق حقاً، ويبطل باطلاً، والذي يملك مالاً وفيراً، بهذا المال يرعى الفقراء، يزوج الشباب، ينشئ

الجمعيات الخيرية، يرعى الأرامل، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، حينما تعلم علم اليقين أن علة وجودك في الدنيا هي العمل الصالح، تأتي القوة ومنها قوة المال، وتأتي القوة ومنها قوة المنصب، وتأتي القوة ومنها قوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لترفع العمل الصالح إلى أعلى مستوى.

من اختار طريق الله رفع الله له ذكره :

إذاً الذي ينبغي أن يكون واضحاً أن الإيمان وحي السماء، والله عز وجل أعطانا الخيار، قال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان]

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام]

هذه الحقيقة أيها الأخوة، أن الإنسان مع أن الله عز وجل أعطاه الخيار، لكنه إذا اختار طريق الحق رفع الله ذكره، بل ألم يقل الله عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح]

قال بعض العلماء: كل الصفات التي أثنى الله بها على نبيه الكريم لكل مؤمن منها نصيب، بقدر إيمانه، واستقامته، وإخلاصه.

إذاً الحق مع أنه من عند الله، لكنه يحتاج إلى قوة، فإذا كان طريق الحق سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً لأن خيارات العمل الصالح المتاحة أمام القوي ليست متاحة أمام الضعيف، فالغني بماله، والقوي بسلطته، والثري بثرائه.

عبادة الهوية :

لذلك النقطة الدقيقة هنا أن العبادة كُلف بها كل البشر، لكن هناك ما يسمى بعبادة الهوية، أنت من؟ أنت غني؛ العبادة الأولى في إنفاق المال، أنت من؟ أنت قوي؛ العبادة الأولى في إحقاق الحق، أنت عالم؟ العبادة الأولى في إلقاء العلم، والدليل:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية: 39]

هذا الذي يدعو إلى الله، لو خشي غير الله، فسكت عن الحق خوفاً، أو نطق بالباطل نفاقاً، انتهت دعوته، الآية دقيقة:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

لو أن هذا الذي خشي غير الله، سكت عن الحق خوفاً من القوي، أو نطق بالباطل نفاقاً له، انتهت دعوته، كما أن الإنسان يرقى إذا أنفق ماله، هذه عبادة الغني الأولى، ويرقى إذا أنصف الضعيف، هذه عبادة القوي الأولى، الآن ويرقى بعلمه إذا أنفقه، نطق به، ولم يخشَ في الله لومة لائم، هذا الذي يقوله الله عز وجل دائماً:

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

مرة ثانية: لو خشي غير الله، فسكت عن الحق خوفاً، أو تكلم بالباطل طمعاً، انتهت دعوته:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

طبعاً مرة ثانية:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

أما إذا منعك القوي أن تنقل هذا للآخرين تقاتله، أنت لا تقاتل الإنسان ليؤمن، لأن الله عز وجل يقول:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

لكنك تقاتل من يمنعك أن تنشر هذا الدين، وهذه مشروعية الجهاد في الإسلام، تقاتل من يمنع هذه الرسالة أن تصل للآخرين.

الإسلام لا ينتشر بالإكراه ينتشر بالاختيار :

الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ)

لماذا يلونكم؟ الآية الكريمة: الله عز وجل أمرنا أن نقاتل المشركين كافة، لكن هنا الذي يليك أقرب إليك من البعيد، والذي يليك تخف مؤن الحرب معه، جارك، والذي يليك ربما إذا انضم إليك أصبحت قوة كبيرة.

مرة ثانية: الإسلام لا ينتشر بالإكراه، ينتشر بالاختيار، والإنسان مخير وليس مسيراً

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

لكن الذي يمنعك أن توصل رسالة الله إلى البشر هذا الذي يقاتل في الإسلام.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

بعضهم قال: لأن قتال هؤلاء القريبين أقل كلفة، وأنت مستوعبهم أكثر من غيرهم، وهذا هو الطريق لمواجهة العدو الأبعد، هذا سر

(الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

اختلاف أخلاق المؤمن في السلم عن أخلاقه في الحرب :

لكن الذي يلفت النظر:

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

تقرأ أنت القرآن:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت]

إنسان يعاديك، يتطاول عليك، وأنت تحتمله، وتسمح له أن يتحرك معك، ما هذه الأخلاق؟! هذه أخلاق السلم، فأنت في الحياة المدنية،

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

في الأحوال العادية، في أيام السلم، المودة، والمحبة، والعفو، والتسامح، هذه أخلاق الإنسان المؤمن، لكن في الحرب:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة الآية: 73]

الغلظة في الحرب مطلوبة، وإلا لا معنى للحرب إطلاقاً، فهنا الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

الغلظة قوة التحمل، والغلظة القسوة في محاربتهم.

دائماً وأبداً كان سيدنا عمر كما يقال، تروي عنه السيدة عائشة: "كان إذا قال أسمع -جهوري الصوت- وإذا سار أسرع، وإذا ضرب أوجع".

فهنا:

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

قوة التحمل، إن حاربوكم فيجب أن تحتملوا قسوتهم وإن حاربتموهم كونوا قساةً معهم.

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

طبعاً هذه أخلاق الحرب، وفي السلم هناك أخلاق.

الله مع المؤمنين بالحفظ و التأييد و النصر و التوفيق :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

الله عز وجل حينما يقول:

(مَعَ الْمُتَّقِينَ)

أي معهم مؤيداً، معهم ناصراً، معهم موفقاً، معهم حافظاً، والمعية دائماً لها معنى دقيق في القرآن، إذا قال الله عز وجل :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية: 4]

هذه معية عامة، قال علماء التفسير: هو معكم بعلمه، لكن حينما يقول الله عز وجل:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

أي معهم بالتوفيق، معهم بالحفظ، معهم بالتأييد، معهم بالنصر، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـا فـــإنا منحنا بالرضا من أحبنا
ولـــذ بحمانا واحتمِ بجنابنا لـــنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلقى المسرة والهنا

* * *

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـــا
ولـو سمعت أذناك حسن خطابنـا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنـا
ولـــو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـا

* * *

ولـــو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقربنـــا
فـــما حبنا سهل وكل ادعى سهولـــته قلنا له قد جهلتنا
فأيسر ما في الحب بالصد قتلـــه وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

* * *

إذاً أيها الأخوة، الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

هم أقرب إليكم فإذا اهتديتم أصبحتم قوة أقوى.

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

هذه أخلاق ليست ثابتة في المؤمن طارئة، هو في الحرب له موقف، وفي السلم له موقف، من أبرز آيات السلم:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

هذه أخلاق السلم، أما في الحرب:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

هنا:

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

أي قوة تحمل، وحينما تهجمون عليهم لابد من قوة رادعة، إذاً: هناك أخلاق الحرب، وأخلاق السلم.

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

وإذا كان الله معك فمن عليك؟ كلمة مع المتقين معهم مؤيداً، معهم ناصراً، معهم موفقاً، معهم مكرماً.

الدين لا يحتمل الإضافة أو الحذف :

أيها الأخوة، الذي وقع في عالم الإسلام نحن حينما أضفنا على الدين ما ليس منه ظهرت الفرق، والطوائف، وتشتتت الأمة، هذا الإسلام ينبغي أن نأخذه كله كما أُنزل، وكما قال النبي:

((كلَّ مُحدثةٍ بدْعة، وكل بدْعَةٍ ضَلاَلَة))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن العرباض بن سارية]

أنا أقول- وهذا اجتهاد شخصي- : إنك إذا أضفت على الإسلام ما ليس منه تشرذمنا، وتفرقنا، وتشتتنا، وأصبحنا فرقاً وطوائف، أما إذا حذفت منه ما عرف منه للضرورة فضعفنا، نضيف نتفرق، تحذف نضعف، فالذي يفسر ضعف المسلمين أننا أضفنا على الدين ما ليس منه هذا الدين لا يحتمل الإضافة، لأنه من عند الله عز وجل، كماله مطلق.

القضايا التي عالجها الدين تامة عدداً كاملة نوعاً :

والله عز وجل قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء الآية: 59]

من هم أولي الأمر؟ كما قال الإمام الشافعي: هم الأمراء والعلماء، العلماء يعرفون الأمر، والأمراء ينفذون الأمر،

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

الآن:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

[سورة النساء الآية: 59]

لو اختلفتم مع علمائكم، أو مع أمرائكم، ما الحل؟ قال:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

[سورة النساء الآية: 59]

كأن الله عز وجل حوّلك أو أحالك على الكتاب والسنة، هل تصدق أو هل يعقل أن يحيلك الله لحل كل المشكلات إلى يوم الدين على الكتاب والسنة ثم لا تجد في الكتاب والسنة حلاً لهذه المشكلة؟ مستحيل.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

[سورة المائدة الآية: 3]

قال العلماء: الإتمام عددي والكمال نوعي، أي عدد القضايا التي عالجها الإسلام تام عدداً، وطريقة المعالجة كاملة نوعاً،

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

فالإكمال نوعي، والإتمام عددي، أي عدد القضايا التي عالجها الإسلام تام عدداً، الآن طريقة المعالجة كاملة نوعاً، للتوضيح: أنا أقرضت إنساناً عشر ليرات ذهبية، ردها لي بالتمام والكمال، بالتمام عشرة، بالكمال جيدة، ليرة ذهبية جيدة، أي حروفها واضحة تماماً، ردها لي بالتمام والكمال.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

فعدد القضايا التي عالجها الدين تام عدداً، طريقة المعالجة كاملة نوعاً.

حاجة الإسلام إلى العلم و القوة :

إذاً الآية الأولى: دعوة المؤمنين للتفقه في الدين، ثم لنشر هذا الدين، إذاً أعظم عمل على الإطلاق الدعوة إلى الله.

الآن: والقوة، نحن بحاجة إلى علم، وإلى قوة، بالعلم نرقى، وبالقوة نقدم مثلاً يُحترم.

مرة أحد ملوك الغساسنة، اسمه جبلة بن الأيهم، جاء المدينة مسلماً، في عهد سيدنا عمر، هذا ملك، فلما جاء مسلماً رحب به أشد الترحيب، هذا الملك جبلة في أثناء طوافه حول الكعبة بدوي من فزارة داس طرف ردائه، فانخلع الرداء من على كتفه، ولأنه حديث عهد بالملك التفت إلى هذا الأعرابي وضربه ضربة هشمت أنفه، هذا الأعرابي ذهب إلى عمر يشكوه، سيدنا عمر استدعى جبلة، تصور أحد

المتخاصمين ملك، اسمه جبلة بن الأيهم، وخصمه أعرابي من الطبقة الدنيا في المجتمع، الآن يقال: من رعاع الناس، من دهماء الناس وسوقتهم، فجاء شاعر صاغ هذا شعراً.

فقال عمر: أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ فقال جبلة: لست ممن ينكر شيا أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيدي، فقال عمر لجبلة: أرضِ الفتى لابد من إرضائه، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك، قال: كيف ذاك يا أمير! –صُعق- هو سوقة وأنا عرش وتاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً، قال عمر: نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً، فقال جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إن أكرهتني، قال له: عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه، كل صدع فيه يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى، هذا هو الإسلام، فيه تساو.

إذاً الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

الإسلام لا ينتشر بالسيف حقيقة مطلقة، لكن الذي يمنعك أن تنشره يجب أن تحاربه فقط، فإذا سمح لك انتهى الأمر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ)

لأن قتالهم أقل كلفة، وأنت أعلم بهم من غيرهم، وإذا آمنوا معك توسعت حدود المملكة الإسلامية، وبعد ذلك يأتي بالذي يأتي بعد الأولين.

الغلظة في الحرب :

ولكن:

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

الغلظة يعني أن تكون شديداً، الغلظة في الحرب أحد أسبابها، وأنا أقول بعض الأمثلة: إذا كنت في مسبح، إنسان قال للثاني: رشه، ما معنى رشه؟ أي بالماء، أما إذا كنت في ساحة معركة والضابط قال للجندي: رشه، ما معنى رشه؟ بالرصاص.

البيئة تختلف، هنا بيئة حرب، هنا بيئة استجمام، فأخلاق الحرب غير أخلاق السلم، فأخلاق السلم:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

أما أخلاق الحرب:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

الحق واحد لا يتعدد :

لذلك:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة]

أخواننا الكرام، مقولة دقيقة: الحرب بين حقين لا تكون، لماذا؟ لأن الحق لا يتعدد، الحق واحد، كما أنه بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، الحرب بين حقين لا تكون، الآن الحرب بين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، الثالثة: وبين باطلين لا تنتهي، فالآية أخيراً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

الصبر طريق النصر :

(وَصَابِرُوا)

[سورة آل عمران الآية: 200]

أيضاً إذا كان عدوك صابراً كن أنت أشد صبراً منه.

(وَرَابِطُوا)

[سورة آل عمران الآية: 200]

ابقَ في مكانك متحفزاً لأي عدوان آخر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات في سورة التوبة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (69-70) : تفسير الآيات 124 - 127، التعميم من العمى، الفتنة امتحان للإنسان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-09-09

بسم الله الرحمن الرحيم

تفاوت موقف الناس من آيات الله عز وجل :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع و الستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، السورة من معانيها أن عدداً من آيات القرآن الكريم مسورة بسور خاص، يجعل لهذه الآيات موضوعاً واحداً، أو محوراً واحداً ينتظمها، إذاً السور جمعت الآيات توقيفاً، فكانت كل مجموعة من الآيات سورة، أي تحوم حول محور واحد، فقال تعالى:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ)

الآن هذه السورة أُنزلت، وهذه الآيات تُليت، لكن موقف الآخرين من هذه الآيات متفاوت، الله عز وجل حينما ذكر أهل النفاق والفجور قال:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

[سورة الإسراء]

أما إذا قرؤوا آيات القرآن ازدادوا إيماناً، فالمؤثر واحد، بينما النتائج متباينة، بسبب استعداد الإنسان لقبول هذه الآيات، هذا الاستعداد يكون لتفريغ القلب من الشهوات، لأن:

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

[أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء]

الإنسان إذا امتلأ قلبه بالشهوات إذاً هو بعيد عن رب الأرض والسموات، بعيد عن منهج الله، بعيد عن فهم كلام الله، أحد أسباب فهم كلام الله أن يكون الإنسان طاهراً من كل عيب، مبرأ من كل نقص، لذلك أهل الإيمان يزدادون إيماناً بتلاوة القرآن، بينما أهل الكفر والعصيان يعدون القرآن عاماً عليهم، بل لا يزيدهم إلا ظلاماً، أو إلا ضلالاً.

تطابق فطرة الإنسان مع منهج الله عز وجل :

إذاً:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ)

الله عز وجل بين الفاعلية في الآيات والانفعال في الآيات، للتقريب: أنت حينما تقول: كسرت هذا الشيء فانكسر، أي هذا الشيء قابل للكسر، فالله عز وجل أودع في كل إنسان قابلية للإيمان، والدليل أن فطرة الإنسان متوافقة تماماً مع منهج الله، الآية الكريمة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم الآية: 30]

كل أمر أمرك الله به، أنت مبرمج، مولف، على قبوله، وعلى أن تسعد به، فلذلك تطابق الفطرة مع المنهج تطابق تام قطعاً، ما من أمر أمرك الله به إلا إذا طبقته تسعد به، وما من نهي نهاك الله عنه إلا إذا ابتعدت عنه تسعد بالبعد عنه.

من خرج عن منهج الله خرج عن فطرته أيضاً :

تطابق الفطرة مع المنهج تطابق تام لماذا؟ والله أعلم لأن الحق دائرة، تتقاطع في هذه الدائرة أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، أنا ذكرت النقل الصحيح أي أنني وصفته بأنه صحيح لماذا؟ لأن هناك نقل غير صحيح، حديث موضوع، أو تأويل مغلوط، لآية قرآنية، إما الخطأ في أصل النص، أو الخطأ في فهمه.

فلذلك الحق دائرة، تتقاطع فيها الدائرة أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، هناك عقل صريح، وهناك عقل تبريري، فالإنسان أحياناً كي يدافع عن خطئه، وكي يدافع عن انحرافه، وعن سقوطه، يفتعل أعذاراً غير صحيحة، تبريرات غير صحيحة، فالعقل إما أن يقودك وإما أن تقوده، فإذا قادكَ قادك إلى الخير، في القرآن الكريم ما يزيد عن ألف آية تتحدث عن العقل.

فالحق دائرة، تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، هناك نقل غير صحيح، هناك حديث موضوع، أو هناك تأويل لآية قرآنية، التأويل غير صحيح، فالنقل الصحيح أحد أركان الحق، والعقل الصريح، هناك عقل صريح موضوعي وعقل تبريري، فأهل الانحراف والفجور والفسوق يستخدمون عقلاً تبريرياً ليغطوا انحرافهم.

حينما تأتي دولة عظمى إلى بلد في الشرق الأوسط، وتقول: جئنا من أجل التنمية، من أجل أن نطور هذا البلد إلى وضع حضاري، الحقيقة جاؤوا من أجل النفط، فهذا عقل تبريري، عندنا عقل صريح،

فالحق دائرة، تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، الإنسان فطر فطرة سليمة تطابق منهج الله مئة في المئة، لذلك أحد أسباب الراحة النفسية التي لا حدود لها حينما يصطلح الإنسان مع الله عز وجل، أي حركته في الحياة تطابقت مع فطرته، فكان هناك انسجاماً بين فطرته، وبين حركته في الحياة، أما الذي يخالف فطرته، يبني مجده على أنقاض الآخرين، يبني حياته على موتهم، يبني عزه على ذلهم، يبني أمنه على خوفهم، فهذا الذي خرج عن منهج الله هو خارج أيضاً عن فطرته.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه]

من رفض الحق احتقر نفسه :

أهم شيء في هذا الموضوع تطابق الفطرة أو تطابق النفس بخصائصها مع منهج الله عز وجل، تماماً لو أن مركبة حديثة جداً في أعلى مستوى سرنا بها على طريق وعر، صخور، وأكمات، وحفر، تستمع إلى أصوات مزعجة، والحركة متعثرة، وقد ينكسر بها بعض الأشياء، أما لو نقلتها إلى طريق معبد، تحركت بانسياب عجيب، وبراحة عجيبة، فنقول: هذه السيارة مصممة لهذا الطريق.

والإنسان مصمم ليعرف الله، خُلق ليعرفه، قالوا: الجماد للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟ هو لله، فالإنسان الذي لا يكون لله يحتقر نفسه، والإنسان أحياناً يرفض أشياء كثيرة، هذا الرفض يعني أن هذا الشيء عنده محتقر، إلا أن هناك حالة فريدة إذا رفضت الحق فأنت تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة القرة الآية: 130]

لأن الله خلقك لتعرفه، خلقك له، فإذا عرفت سرّ وجودك، وغاية وجودك، إذا عرفت أنك مخلوق لجنة عرضها السموات والأرض، عندئذٍ تسعد، وعندئذٍ يفرح الله بك.

البشر عند الله فريقان لا ثالث لهما :

أيها الأخوة الكرام، الأرض فيها تقسيمات، وفيها موازين لا تعد ولا تحصى، لكن البشر جميعاً عند الله فريقان، فريق عرف الله، وعرف منهجه، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وفريق غفل عن الله، وغفل عن منهجه، وشيء طبيعي جداً أن يتفلت من هذا المنهج، وأساء إلى خلقه فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، ولن تجد صنفاً ثالثاً، والدليل قوله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

صدق أنه مخلوق للجنة، واتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب أنه مخلوق للجنة، بل آمن أنه مخلوق للدنيا فقط، لذلك استغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ.

لذلك اسأل نفسك السؤال المحرج: ما الذي يسعدك أن تعطي أم أن تأخذ؟ إن كان يسعدك أن تأخذ فأنت من أهل الدنيا، وإن كان يسعدك أن تعطي فأنت من أهل الآخرة.

لذلك هذا النبي الكريم أحد الأخوة الكرام ألف كتاباً عن سيرته، وقدّمه تقديماً رائعاً، قدّمه للنبي الكريم، قال له: "يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود كله ورعيت قضية الإنسان، يا من زكيت سيادة العقل، ونهنهت غريزة القطيع، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع، فعشت واحداً بين الجميع، يا من كانت الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، ومشكلات الناس عبادتك".

الإنسان إما أن يكون وعاؤه فارغاً من حب الدنيا أو ممتلئاً بها :

إذاً حينما تتنزل سورة وفيها آيات، يقرؤها إنسان فيزداد إيماناً، يقرؤها إنسان فيزداد قرباً، يقرؤها إنسان فيزداد خشوعاً، يقرؤها إنسان فيزداد طاعة لله، يقرؤها إنسان آخر فيزداد بعداً، لذلك الإنسان إما أن يكون وعاؤه فارغاً من حب الدنيا، إذاً هو مهيئاً لاستقبال الحق، أما إذا كان غارقاً في حب الدنيا ولا يعنيه أكان ماله حلالاً أم حراماً، فهذا الوعاء ممتلئ فلذلك:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

[سورة الأحزاب الآية:4]

إما أن يمتلئ القلب من وحي السماء، أو يمتلئ حباً للدنيا، وقد قيل:

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

[أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء]

لذلك:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ)

فيها آيات،

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ)

طبعاً سراً:

(أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً)

الآية آية، يسمعها المؤمن فيتألق، يسمعها المؤمن فيستجيب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية:24]

تعلق العقل بالشموليات و الذكاء بالجزئيات :

والحقيقة أرقى هدى على الإطلاق الهدى البياني، وأنت صحيح قوي، معافى، لك بيت، لك زوجة، لك أولاد، لا تشكو من شيء، لك دخل يغطي نفقاتك، إذا دعاك الله إليه، دعاك إلى طاعته، دعاك إلى عمل صالح، دعاك إلى بذل من مالك، إذا دعاك الله فاستجبت، فهذه أعلى درجة في التوفيق، وفي الذكاء، وفي العقل.

أقول لكم دائماً: ما كل ذكي بعاقل، قد تحمل أعلى شهادة في الفيزياء النووية، ولا تكون عاقلاً، العقل متعلق بالشموليات، أما الذكاء فمتعلق بالجزيئات، فأنت حينما تعرف الله تعد عاقلاً، أنت حينما تطيعه تعد عاقلاً، أما حينما تغفل عن الله، ولو أنك تحمل أعلى شهادة في الأرض، فهذه الشهادة تنفعك في الدنيا فقط، أما إذا جاء ملك الموت فتقول:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

الموضوعية قيمة علمية و أخلاقية :

إذاً:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ)

دقق في:

(فَمِنْهُمْ)

أنا أقول دائماً: الموضوعية هي الأحكام الدقيقة، الموضوعية قيمة علمية، والموضوعية قيمة أخلاقية، أنت إذا كنت موضوعياً فأنت عالم، وأنت إذا كنت موضوعياً فأنت أخلاقي، لذلك أكثر آيات القرآن يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة آل عمران الآية:199]

بعضهم، لذلك مرة كنت في جامعة، أحضر مناقشة دكتوراه، يبدو أن الطالب في أثناء شرحه لملخص أطروحته، جاء بعبارة فيها تعميم، قاطعه المشرف، وقال له: اعلم علم اليقين أن التعميم من العمى، لا يعمم إلا أعمى، أما الإنسان العالم فموضوعي.

الإنسان حينما يتعرف إلى الله يزداد إيماناً وقرباً ومحبةً وخشوعاً :

دقق في:

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

وإن منهم.

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

[سورة التوبة]

ما قال هم،

(فَمِنْهُمْ)

بعضهم، عود نفسك ألا تعمم، والتعميم من العمى، والتعميم دليل جهل، والتعميم دليل سطحية، دائماً أعطِ الحكم الموضوعي، النبي عليه الصلاة والسلام حينما استعرض الأسرى في بدر، فوجئ بصهره، زوج ابنته مع الأسرى، كان هذا الزوج صالحاً فقال عليه الصلاة والسلام لما وصل إليه: " ما ذممناه صهراً ".

هذه موضوعية، هو مشرك، جاء ليحارب النبي، هذا شيء صحيح، أما له ميزة: " ما ذممناه صهراً ". لذلك ألّف كتاب فيما قرأت عنه أن أول طبعة خمسة ملايين نسخة، كيف تؤثر في الآخرين؟ جاء عالم من كبار علماء مصر، وأفرغ هذه القواعد على آيات القرآن الكريم، مثلاً: أنت مدير دائرة، صاحب مؤسسة، لك منصب قيادي، عندك موظف يتأخر، هذا خطأ، أما إذا أردت أن تحاسبه فينبغي أن تبدأ بايجابياته، بأمانته، بولائه، بخبرته، ثم حاسبه على تأخره، هذا منهج، قبل أن تنتقل بيّن الإيجابيات.

أذكر أن في السيرة أحد المسلمين دخل إلى المسجد والنبي يصلي في أصحابه، من حرصه على أن يدرك الركعة الأولى، أسرع في حركته، أحدث ضجيجاً، وجلبةً، فلما انتهى من الصلاة قال له النبي الكريم:

((زادَك الله حِرْصاً، ولا تعُدْ))

[أخرجه البخاري عن أبي بكرة]

فبين أن الإنسان إذا كان مدير مؤسسة، مدير معمل، إذا كان وزيراً يحتل منصباً قيادياً، عنده موظفون، لو أن أحدهم أخطأ ينبغي أن تبين له أولاً إيجابياته، الأشياء الإيجابية في حياته ثم تأتي بلفت نظره لهذا الخطأ، عندئذٍ يقبل هذا.

فلذلك الإنسان حينما يتعرف إلى الله، وحينما يقرأ القرآن يزداد إيماناً، يزداد قرباً، يزداد محبةً، يزداد خشوعاً، يزداد طاعةً.

فضل كلام الخالق على كلام خلقه كفضل الله على خلقه :

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ)

من يقول منهم، الدقة منهم أي ليسوا جميعاً، بعضهم

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً)

هذا الكلام يقال فيما بين المنافقين، ما هذا الكلام لا معنى له؟ إذاً هذا الكلام كلام خالق الأكوان. بالمناسبة قالوا: فضل كلام الخالق على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، المسافة بين كلام خالق الأكوان وبين كلام إنسان كما هي المسافة بين الخالق والمخلوق.

فلذلك قيل: إن القرآن كون ناطق، وإن الكون قرآن صامت، وإن النبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، والمسلمين اليوم بحاجة إلى مسلم يمشي أمامهم، صادق، أمين، يفي بالعهد، ينجز الوعد، هذه العبادة التعاملية.

العبادة الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

بالمناسبة العبادة الشعائرية كالصلاة والصيام والحج والزكاة لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية، لذلك النبي الكريم:

((سأل مرة أصحابه من المفلس؟ قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: لا، المفلس من أتى بصلاة، وصيام، وصدقة، وقد ضرب هذا، وشتم هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ طرحوا عليه سيئاتهم حتى يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ :

أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[سنن ابن ماجه عن ثوبان]

هذه الصلاة، الصيام:

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعمَلَ بهِ، فليسَ للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

الحج:

((من حج بمال حرام فقال : لبيك اللهم لبيك، قال الله له : لا لبيك ولا سعديك حجك مردود عليك))

[الأصبهاني في الترغيب عن أسلم مولى عمر بن الخطاب]

الزكاة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

فالعبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، لما النجاشي سأل سيدنا جعفر: حدثني عن الإسلام؟ قال له:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

إن حدث فهو صادق، إن عاملك فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف.

((فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

هذه هي العبادات التعاملية، والعبادة الشعائرية كالصلاة والصوم والحج والزكاة لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، لذلك الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان، لأنه ما فرّغ قلبه من حب الدنيا، لأن الشهوات أعمته وأصمته، لأن انغماسه بالشهوات جعله لا يعي على خير.

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ)

من هؤلاء المنافقين، من يقول سراً:

(أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً)

كلام عادي، لأن قلبه مفعم بالشهوات، هذه الشهوات حجاب عن رب الأرض والسموات.

المسلم على ثغرة من ثغر هذا الدين فلا يؤتين من قبله :

(وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

لأنهم على صواب، لذلك من أدق الآيات التي ينبغي أن ننتبه إليها قوله تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة الآية:5]

ما معنى الآية؟ أنت أيها المسلم حينما تخطئ، وحينما يكتشف هذا الخطأ إنسان كافر، يزداد قناعة بكفره، انظر إلى الإسلام كيف هو؟ أنت عندما تسيء لمسلم قد يقول: انظر إلى فلان ماذا فعل معي، المسلم إذا أسأت إليه يقول: فلان فعل معي كذا وكذا، فلان، أما إذا أسأت إلى غير المسلم يقول: الإسلام هكذا، لذلك أنت على ثغرة من ثغر هذا الدين فلا يؤتين من قبلك.

الإنسان سفير هذا الدين، فأي خطأ بالسفير ينسحب على دولته، هذا شيء معروف، أي خطأ بالسفير، لذلك هناك في بعض البلاد للسفراء معاهد عالية يتعلم لغتين أجنبيتين، هو من أسرة راقية، ومعه شهادة علمية، وشهادة أدبية، وشهادة دبلوماسية، معه ثلاث شهادات، ومن أرقى الأسر، وطليق اللسان، وله وسامة، وأنيق، هذا يمثل دولة، أما إذا كان هناك خطأ من سفير هذا الخطأ فينسحب على دولته، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك.

إذاً :

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

هنا الشاهد:

(فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

أمراض الجسم تنتهي عند الموت لكن أمراض النفس تبدأ آلامها بعد الموت :

(وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)

[سورة التوبة]

أخواننا الكرام، هناك أمراض كثيرة، هناك أمراض ضالة، الورم الخبيث ينتهي بالموت، هناك أمراض كبيرة جداً، وخطيرة جداً، ومن أدعية النبي الكريم: " اللهم إنا نعوذ بك من عضال الداء، ومن شماتة الأعداء، ومن السلب بعد العطاء".

لكن هذه الأمراض مهما تكن عضالة تنتهي عند الموت، ورم خبيث مات صاحبه انتهى المرض، هناك أمراض خطيرة جداً، خثرة بالدماغ، مات، انتهى المرض، أمراض الجسم تنتهي عند الموت، لكن أمراض النفس يبدأ مفعولها بعد الموت، أمراض النفس تبدأ آلامها بعد الموت، فالبطولة أن تكون في الدنيا حريصاً على سلامة نفسك.

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عاملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

إنسان مؤمن له أخطاء في الدنيا الله عز وجل يسوق له بعض الشدائد كي يطهر من هذه الأمراض، فهو الرابح الأكبر، من هنا يقول سيدنا علي: "يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية، العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أجسامهم مفقودة، وأعيانهم موجودة ".

علمهم موجود، الإمام الشافعي من سنوات كثيرة توفاه الله، علمه بيننا، فالإنسان بالعلم يمتد أثره.

إذاً:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ)

أي لم ينتفعوا بها، لم يفهموا شيئاً، لأن الشهوات ملأت قلوبهم، وعاء فيه هواء، وأنت تريد أن تصب فيه الماء، لابد من فقاعات تخرج منه، لابد من إخراج الهواء حتى يدخل الماء، لا يوجد إنسان عنده وعاءين،

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

فإذا أفرغت قلبك من حب الدنيا يأتي الحب، إذا كنت مقيماً على شهواتك، مقيماً على معاصيك أنى لك أن تؤمن.

الإيمان تصديق وتوجه إلى الله :

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

هنا يوجد موضوع دقيقة، يا ترى إيمان الإنسان يزيد وينقص؟ هناك جواب نعم، وهناك جواب لا، الذين قالوا: لا، ما حجتهم؟.

أنت أيقنت أن هذا الضوء متألق، انتهى، متألق، لا يزيد ولا ينقص، حقيقة رأيتها، أدركتها، لكن الإيمان تصديق وإقبال، التصديق ثابت، الله خالق السموات والأرض، لا يتغير فكرة واحدة، رب العالمين، إله العالمين، التصديق حدي لا يزيد ولا ينقص.

لو قلت لك: هذه الطاولة طولها متر ونصف، انتهى الكلام، كلام قطعي، وحدي، لا يحتاج إلى تفسير، ولا تعليل، ولا تدقيق، ولا شيء.

الإيمان كفكر، كمسلمات، كإيمان بالله خالقاً، الإيمان بالله مربياً، الإيمان بالله مسيراً، الإيمان لا يزيد ولا ينقص، والإيمان تصديق وتوجه إلى الله، التصديق لا يزيد ولا ينقص، أما التوجه فيزيد ولا ينقص، فحينما تقبل على الله تزداد إيماناً، أنت إذا أقبلت على الله وصلت إلى الرحيم، فازددت رحمة، إلى العليم، إلى الحكيم، إلى اللطيف، إلى الرؤوف، فأنت إذا أقبلت على الله ازددت حباً، فالإيمان إذا قلت: لا يزيد ولا ينقص على أنه معلومات محددة جداً، الله خالق السموات والأرض، وإذا قلت: الإيمان يزيد وينقص الإيمان فضلاً عن أنه فكر معين، تصور معين، إدراك معين، هو صلة بالله، إقبال على الله، بشكل أو بآخر، الإيمان تصديق وإقبال، والكفر تكذيب وإعراض، فالإيمان بمعنى أنه تصديق لا يزيد ولا ينقص، بمعنى أنه إقبال يزيد وينقص.

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

حب الدنيا مرض، أمراض الجسم تنتهي عند الموت، أما أمراض النفس فتبدأ بعد الموت.

الحديث عن الله عز وجل يسعد والحديث عن الدنيا لا يسعد :

(وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً)

الرجس الشيء القذر، وفي الأصل قذر، ويزداد قذارة.

(إِلَى رِجْسِهِمْ)

مثلاً: اجلس في مجلس وليكن الحديث عن الله عز وجل، تشعر بسعادة كبيرة، بتعابير معاصرة: بالسكينة، اجلس مع أهل الدنيا، والحديث عن المال، والنساء، وما إلى ذلك، وأنت ما عندك كما عندهم، تزداد ألماً، فالحديث عن الله عز وجل يسعد، والحديث عن الدنيا لا يسعد، ثم يقول الله عز وجل:

(أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)

[سورة التوبة]

إيمانه ضعيف، الدنيا تفتنه، الدنيا تصرفه عن الله عز وجل، والحياة الآن فيها صوارف كثيرة، وفيها عقبات كثيرة، فالمؤمن يتجاوز هذه الصوارف، ويتخطى هذه العقبات، أما بلا إيمان قوي؟ بلا معرفة بالله؟ بلا اتصال به؟ بلا إقبال عليه؟ فهناك صوارف لا تعد ولا تحصى تصرفه عن الدين، وهناك عقبات تقف أمام طريقه.

(وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ)

هو في الأساس نجس، ويزداد نجاسة.

الله عز وجل قادر أن يحجم كل إنسان و يكشف نواياه :

(وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ * أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)

يفتن أحياناً بامرأة، يفتن بمبلغ كبير، من طريق مشبوه، يقول لك: أنا لا آكل مالاً حراماً، ويعبر عن اشمئزازه، لا تأكل مالاً حراماً إذا كان المبلغ ألف ليرة، أما إذا كان مليوناً فتفكر فيها، يقول: أنا عندي أولاد، الله عز وجل قادر أن يحجم كل إنسان، تكلم عن نفسك ما شئت لكن الله قادر أن يضعك في موقف دقيق جداً تكشف نواياك، لذلك:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة الآية: 5]

إذا الإنسان كان بعيداً عن الدين ورأى مسلماً يقع في خطأ كبير، هذا المسلم يقنع هذا البعيد عن الدين بكفره، أنا لا أعمل هكذا، أما عندما يكون المسلم مستقيماً فيقيم الحجة على الآخرين.

بطولة الإنسان أن ينجح بالامتحانات التي تعرض عليه :

(أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ)

طبعاً الإنسان أحياناً يفتن بالمرأة، يفتن بالمال، يفتن بالجاه، معنى يفتن أي امتحن ولم ينجح، وقد ينجح، يفتن بالمرأة ويقول:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف الآية: 23]

سيدنا يوسف فُتن بالمرأة، امرأة العزيز جميلة جداً، وهو شاب، وغريب، ومسافر، لكنه قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ)

فتن فنجح، هناك إنسان يفتن فيرسب، فالبطولة أن تنجح بالامتحان، والله عز وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك]

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون]

والإمام الشافعي سُئل: ندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى.

المؤمن يمر بمراحل، مرحلة التأديب إذا كان هناك أخطاء، مرحلة الامتحان إذا لم يكن هناك أخطاء، مرحلة التمكين، هذه المراحل الثلاث إما أن تتداخل، أو أن تتمايز، مرحلة تأديب، مرحلة امتحان، مرحلة إكرام، أو أنه باليوم الواحد موقف فيه تأديب، موقف فيه امتحان، موقف فيه تمكين:

(أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)

من انصرف عن الله صرف الله قلبه عن معرفته :

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

[سورة التوبة]

يتداولون حديثاً فيما بينهم، يطعن بهذا الذي أُنزل عليهم.

(ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

إذا انصرف الإنسان عن الله صرف الله قلبه عن معرفته، الله عز وجل أعطانا الخيار.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: 29]

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام]

أيها الأخوة الكرام،

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ)

تداولوا أنهم لم يقبلوا بهذا القرآن، ولم يعبؤوا به، ولم يروا فيه شيئاً ذا بال، فلذلك:

(ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (70-70) : تفسير الآيات 128 - 129، اختار الله الأنبياء من صفوة البشر، وعلى الإنسان أن يؤدي الذي عليه ويترك لله الذي له.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2011-09-16

بسم الله الرحمن الرحيم

النبي بشر خصائصه كخصائصنا لكنه انتصر على بشريته فكان سيد البشر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السبعين والأخير من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والعشرين بعد المئة وما بعدها، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

والتي بعدها:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

أيها الأخوة، هناك حقائق لابد من أن أبدأ بها، كي تلقي ضوءاً على هذه الآيات.

أولاً: لولا أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر، تجري عليه كل خصائص البشر، لما كان سيد البشر، إنه يخاف كما نخاف، ويشتهي كما نشتهي، لولا أنه بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، وانتصر على بشريته، لما كان سيد البشر.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

[سورة الكهف الآية: 110]

لأنه بهذه الطريقة تقوم الحجة علينا، النبي عليه الصلاة والسلام بشر خصائصه كخصائصنا، أحواله كأحوالنا، لكنه انتصر على بشريته وسما إلى ربه فكان سيد البشر، في بعض الأحاديث:

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

أثناء القطيعة، فلولا أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر.

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

حرص النبي على هداية البشر :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

هناك ملمح دقيق في قوله تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ)

أي هو حريص على هداية الخلق:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

[سورة الشرح]

حينما جاءتك الرسالة، ورأيت أن معك منهج الله، ولعلك بهذا المنهج تنقل الناس من الظلمات إلى النور، فالنبي عليه الصلاة والسلام بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، إذاً هو سيد البشر.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

هو بشر، وفضلاً عن ذلك هو من هذه الأمة، وفضلاً عن ذلك هو من قريش، تعرفون أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، تعرفون ماضيه، تعرفون أخلاقه، تعرفون أنه صادق أمين، فهل يعقل أن يكون مؤتمناً عندكم ولا يكون مؤتمناً على وحي السماء؟ إذاً هذه الآية:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

للنبي الكريم خصوصية جعلته مصدقاً في قومه :

أخوتنا الكرام، الله عز وجل قال:

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً)

[سورة الإسراء]

وهذا الأصل أن يكون منكم، من البشر، من خصائصكم.

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً)

[سورة الإسراء]

إذا الدعوة للملائكة الرسول ملك، الدعوة للبشر الرسول بشر.

إذاً:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

أولاً: من بني البشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، وثانياً: من الأمة العربية، بلغتكم، ومن بلدتكم، من مكة، ومن قريش، أي هناك خصوصية كبيرة جداً جاءت عند النبي الكريم لتكون مصداقيته عالية عند قومه.

أيها الأخوة، إذاً:

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً)

إذاً ينبغي أن نعلم علم اليقين أن هناك خصوصية لهذا النبي الكريم جعلته مصدقاً في قومه.

الله عز وجل اختار أنبياءه من صفوة البشر ليبلغوا رسالته :

لكن هناك نقطة دقيقة جداً، هذه النقطة أن الله سبحانه وتعالى حينما جعل الفقراء والضعفاء يؤمنون به، ولو بادر إلى الإيمان به الأقوياء، والأغنياء، والسلاطين، الأمر كان فيه مشكلة، أما جعل الفقراء وبعد الفقراء سار إليه الأقوياء.

إذاً دعوته دعوة لبني البشر، الشيء الدقيق:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

لماذا الله ما قال؟ لقد أرسلت إليكم،

(جَاءَكُمْ)

النقطة الدقيقة أن النبي الكريم لمجرد أن جاءته الرسالة بادر من تلقاء نفسه لنشر هذا الدين، الأنبياء اختارهم الله على علم، والدليل:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران]

هناك جدل طويل بين أن النبوة كسب أم اختيار، النبوة الله اختار أنبياءه ليبلغوا الرسالة لا شك، لكن كيف اختارهم؟ اختارهم من صفوة البشر، هناك شيء بالنبوة كسبي، وشيء وهبي، شيء وهبي أن الله اصطفاهم ليكونوا أنبياء، لِمَ اصطفاهم ولم يصطفِ غيرهم؟.

(وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ)

[سورة الدخان الآية: 32]

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ)

أنت أردت أن تعطي طالباً مكافأة كبيرة جداً، تختار مَن مِنَ الطلاب؟ الأول، المتفوق، فهذه الهدية ليست من صنع الطالب، جاءته مكافأة، هي وهبية، لكن لماذا أعطيت لهذا الطالب؟ لأنه مجتهد. فللنبوة جانب وهبي الأصل، لماذا اختار الله هذا الإنسان ليكون نبياً؟ اختاره على علم، اختاره لتفوقه، لمحبته.

إذاً هذا الإشكال الأول:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

من هذه الأمة، يتكلم بلغتكم، وقد نشأ بينكم، وتعرفون صدقه، وعفافه، ونسبه، ولا أقل من أن أروي موقف النجاشي من سيدنا جعفر لما النجاشي سأل سيدنا جعفر عن هذا الدين، وعن النبي الكريم:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

إن حدثك فهو صادق، إن عاملك فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف.

((نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه))

وكأن هذه الصفات الثلاثة أركان الأخلاق، بالتعاون المادي أمين، بالتعامل العاطفي عفيف، من حيث النسب نسبه من أعلى مستوى.

((نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه))

إن حدث فهو صادق، إن عاملته بالدرهم والدينار فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف، وفضلاً عن ذلك النسب.

لا قيمة للنسب من دون إيمان :

لكن موضوع النسب يحتاج إلى وقفة متأنية، إذا قلنا: أبو لهب عم النبي، أي أقرب إنسان للنبي أبو لهب، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد]

فالنسب لا معنى له، ولا قيمة له إلا مع الإيمان، فإذا كان صاحب النسب مؤمناً جاء النسب تاجاً له، النسب يعد تاجاً للمؤمن بعد إيمانه، أما من دون إيمان.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

[سورة المسد]

الآن يقابلها:

((سلمان منا أهل البيت))

[أخرجه الحاكم عن مصعب بن عبد الله الزبيري]

منا؟ سلمان فارسي، صهيب رومي.

((نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصِه))

[كنز العمال عن عمر]

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 13]

إذاً:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

من هذه الأمة العربية.

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر علة خيرية هذه الأمة :

بالمناسبة الله عز وجل حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

هذا كلام خالق الأكوان،

(كُنْتُمْ)

قال علماء اللغة: معنى كنتم هنا أي أصبحتم، أصبحتم بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس، لقد اختار الله هذه الأمة لتكون وسطاً، أي وسطاء بينه وبين خلقه، لكن الأمة العربية الآن لعلها غفلت عن هذه الأمة التي شرفها الله بها، أن تكون هذه الأمة وسيطاً بين الله وبين عباده،

(كُنْتُمْ)

أي أصبحتم، بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس، ما علة هذه الخيرية؟ قال:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

دقق لو تصورنا أن الأمة الآن العربية تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقدت خيرتها، وأصبحت أمة كأية أمة خلقها الله، لا شأن لها عند الله، هناك آية تشير إلى هذا؟

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية: 18]

تبدل القيم في الزمن الحاضر :

هذه الأمة لمجرد أن تتخلى عن رسالتها وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصبحت كأية أمة خلقها الله، لا شأن لها عند الله، لكن خيريتها بالأمر بالمعروف، من هنا قال النبي الكريم:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر ونهيتُم عن المعروف؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُّ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً؟))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

هذا تبدل قيم، أنا كنت أروي للطلاب أهجا بيت قالته العرب، ودخل شاعره في عهد سيدنا عمر السجن لهذا البيت، ما هذا البيت؟ قال:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

هذا البيت الذي يعد أهجا بيت قالته العرب هو في الحقيقة شعار معظم الناس اليوم.

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

إذاً:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

فإذا كفت الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصبحت كأية أمة خلقها الله.

من طبق سنة النبي في حياته فهو في مأمن من عذاب الله :

هناك دليل آخر و هو قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

طبعاً الآية في عهد النبي لها معنى واضح، ما دام النبي بين ظهرانيهم فهم في مأمن من عذاب الله، لكن ما معنى الآية بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى؟ هنا الشاهد، قال العلماء: ما دامت سنة النبي مطبقة في حياتهم، في حركاتهم، وسكناتهم، في كسب أموالهم، في إنفاق أموالهم، في علاقتهم الاجتماعية، ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم مطبقة في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، ضمانة، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعذب الأمة الإسلامية وهم يطبقون منهج رسول الله.

(وَمَا كَانَ)

هذه ما كان نفي الشأن، أشد أنواع النفي في اللغة صيغة ما كان، قال بعضهم: هناك نفي الحديث، ونفي الشأن، تسأل إنساناً هل أنت جائع؟ يقول لك: لا، قل لإنسان محترم جداً: هل أنت سارق؟ لا يكفي أن

يقول لا، يقول: ما كان لي أن أسرق، هذا مستحيل وألف مستحيل، لا أقر، ولا أرضى، ولا أسكت، ولا، ولا، ولا، ممكن أن تنفي بهذه الصيغة اثني عشر فعلاً:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

أمة تطبق منهج النبي تُعذب؟ مستحيل.

على الإنسان أن يطمئن لوعد الله عز وجل :

مرة النبي عليه الصلاة والسلام أردف معاذ بن جبل خلفه على الدابة، قال له يا معاذ:

((ما حقُّ الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فسكت النبي قليلاً- وجاء السؤال الثاني- ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: - والله هذا الكلام أقوله لكم وفيه أكبر طمأنينة للمؤمن- حقُّ العباد على الله ألا يعذِّبهم))

[أخرجه البخاري عن معاذ بن جبل]

يجب أن تكون مطمئناً لوعد الله، هذا يؤكده قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة الآية: 51]

مرة سيدنا أبو ذر قيل له: احترق محلك، قال: ما كان الله ليفعل، يا أخي احترق، قال لهم: ما كان الله ليفعل، فلما ذهبوا إلى الدكان وجدوا دكان جاره وليس دكانه.

أنا أتمنى أن يكون عند المؤمن ثقة بوعد الله عز وجل، وعدك بالتوفيق، لذلك أنا أقول دائماً: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ و ماذا وجد من فقدك؟

معية الله لها ثمن و هو التفكر في خلق السموات والأرض :

إذا كان الله معك ليس على وجه الأرض جهة تستطيع أن تنال منك، الله معك، لكن هذه المعية لها ثمن.

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

[سورة المائدة الآية: 12]

من هنا في الأثر القدسي:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

أي فكر في خلق السموات والأرض، عرف عظمة الله.

على الإنسان أن يؤمن بالله الإيمان العظيم :

دقق في هذه الآية:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

[سورة الحاقة]

إبليس آمن بالله، الدليل:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية:82]

قال له:

(خَلَقْتَنِي)

[سورة الأعراف الآية: 13]

آمن بالله خالقاً، رباً، و

(بِعِزَّتِكَ)

عزيزاً.

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

آمن بالآخرة، ومع ذلك هو إبليس اللعين، لكن إبليس ما آمن بالله العظيم، لهذا يقول الله عز وجل:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً)

[سورة نوح]

يجب أن تؤمن بالله العظيم.

النبي بأعلى درجة من الكمال فهو نبراس للناس و قدوة :

إذاً الآية الكريمة:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

يوجد قراءة من أنفَسِكم، قراءة تغني المعنى أحياناً، بأعلى درجة من الكمال، لكن الذي يقول: إن الكون خُلق من أجل محمد، هذه شطحة، لكني أقول: إن الكون خُلق ليكون الناس فيه على شاكلة محمد، خُلق البشر ليكونوا على شاكلة محمد، ليكون هو نبراساً لهم وقدوة.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

[سورة الأحزاب]

إذاً:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ)

لماذا لم يقل أرسلته إليكم؟ النبوة وهبية، وكسبية، لولا أنه تفوق في معرفة الله، تفوق في طاعته، تفوق في محبته، لما استحق هذه الرسالة، بهذا المعنى.

منهج الله جاء لخير الناس و سعادتهم و سلامتهم :

لذلك الشيء الذي يلفت النظر أن السيدة خديجة لما جاءها النبي وقد جاءه الوحي- أنا الآن أعجب لم ينزل في القرآن الكريم آية- أول ما جاءه الوحي:

(اقْرَأْ)

[سورة العلق]

قالت له:

((فوالله لا يُخزيك الله أبداً، إنك لتَصِلُ الرحم، وتَصْدُق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتَكسِب المعدوم. وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين]

كيف ربطت بين الرسالة بين الكمال الذي هو فيه؟

((فوالله لا يُخزيك الله أبداً))

الآن لم ينزل قرآن بعد، و ليس هناك نصوص نبوية.

((وتحمل الكَلّ، وتَكسِب المعدوم. وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق))

إذاً:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)

أي إذا كان هذا المنهج يتعبكم فهذا شيء يؤلمه، جاء لخيركم، جاء لسعادتكم، جاء لسلامتكم.

طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب :

لكن الله عز وجل قال:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة]

أخواننا الكرام، الأب، الأم، العالم أحياناً يشتد على ابنه المقصر، هذه الشدة لصالحه، وأنا أقول دائماً: كل شِدةٍ وراءها شَدةٌ إلى الله، وكل محنةٍ وراءها منحة من الله، فإذا قسا لأب على ابنه وصار طبيباً، أو ذا منصب رفيع، وعاش حياةً سعيدة في تألق، هذا عاد الخير عليه.

إذاً:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)

أي يؤلمه أن هذا الشرع فيه مشقة، لا، لكن أنت مخلوق للجنة، والجنة تحتاج إلى جهد، وأي شيء بلا ثمن مستحيل.

أنا أقول دائماً وهذه الكلمة أذكرها كثيراً: حتى يضع إنسان حرف د. قبل اسمه، فقط د. يعني دكتور، أي معه شهادة ابتدائية، وشهادة إعدادية، وشهادة ثانوية، ولسانس، أو بكالوريوس، ودبلوم عامة، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه، أي درس ثلاثاً و ثلاثين سنة حتى يكتب د. .

وأنت مؤمن أنت وعدك الله بجنة عرضها السموات والأرض تريدها بلا جهد؟ لذلك طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، أنت تستطيع أن تقدم لجامعة كبيرة عريقة طلباً أنه يرجى منحي دكتوراه ولا يوجد معك ابتدائية أُمي، ممكن؟ لا يوجد شيء بلا ثمن.

العاقل من أعدّ للساعة عدتها :

لذلك هنا:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

ومن أنفَسِكم،

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)

أي هو يرضى لكم السعادة، لكن السعادة لها ثمن، أنت في دار عمل.

لو أن طالباً في أثناء العام الدراسي كان له مقعد على النافذة، ومعه شطائر يأكل ما يشاء أثناء الدرس، وموالح، ومشروبات، وعصائر، وشاي، وقهوة، ولم ينتبه للدرس إطلاقاً، شأنه كشأن الناس الآن، يعيش للدنيا فقط، نسي أن هناك جنة عرضها السموات والأرض، نسي اليوم الآخر.

لذلك مرة شيعت أحد الأخوة الكرام، توفاه الله، لما وضعوه في القبر، ووضعوا الحجر الكبير فوق فتحة القبر، ثم أهالوا التراب، والله الذي لا إله إلا هو ما وجدت على ظهر الأرض إنساناً أعقل ولا أذكى ممن يعمل لهذه الساعة، من قصر، من بيت أربعمئة متر، إلى قبر، من زوجة، أولاد، أصهار، كنائن، ولائم، سفريات، رحلات، دعوات، إلى قبر، ماذا في القبر؟ لذلك قال تعالى هو:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: 2]

بدأ بالموت لماذا؟ لأن الإنسان حينما يولد أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى، أما إذا جاءته المنية فأمام خيارين لا ثالث لهما.

((فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[الجامع الصغير عَنْ حَمْزَةَ بْن حُمْرَانَ]

المصائب التي تصيب البشر هي ردع من الله ليعودوا إلى الطريق الصحيح :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)

يؤلمه أن تتوهموا أن هذا الشرع فيه قيد عليكم، لا، هذا قيد رحمة.

دقق، هذا المثل أنا وضعته: لو أن طالباً قال لأبيه: أريد ألا أدرس، قال له: كما تشاء، ثاني يوم لا يوجد وظائف، ولا مدرسة، ولا دوام، نام للظهر، راح على السينما، اعتقد أنه أسعد طالب بالأرض، لا يوجد عنده واجب إطلاقاً، أما عندما كبر لا وظيفة، ولا تجارة، ولا زواج، ولا شيء، حقد على أبيه، قال له: يا أبتِ لما قلت لك لا أريد أن أدرس لِمَ لم تضربني؟ الآن دقق بالآية:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ)

[سورة القصص الآية: 47]

فهذه المصائب التي تصيب البشر لولا أن الله أراد منها أن تكون رادعاً، أو باعثاً، الإنسان يوم القيامة يعتب على الله إن لم تكن هذه المصائب:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة القصص الآية: 47]

التراحم فيما بين الناس هو رحمة الله :

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ)

لذلك قالوا: أرحم الخلق بالخلق هو رسول الله، أرحم الخلق بالخلق، وأنا أذكر قصة رمزية أن أحد الأنبياء مشى في الطريق، رأى أماً تضع رغيفاً في التنور، وتأخذ ابنها تضمه وتشمه، فقال: يا ربي! ما هذه الرحمة؟ فالله أخبره أن هذه رحمتي، أودعتها في قلب أمه وسأنزعها، فلما نزع الله الرحمة من قلب أمه بكى فألقته في التنور، فالتراحم فيما بين الناس هو رحمة الله، رحمة الله أودعها في قلب الأمهات

والآباء، لذلك الآية الكريمة:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه الآية: 39]

أنا أقول: محبة الأب والأم لابنهما هي محبة الله له جعلها في قلب الأم والأب.

أيها الأخوة، هذه الأمة كانت رعاة للغنم، بفضل هذه الرسالة أصبحت قادة للأمم، من رعاة للغنم إلى قادة للأمم.

أيها الأخوة الكرام،

(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

قانون الالتفاف و الانفضاض :

الآن دققوا قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

هذه الباء باء السبب، أي يا محمد بسبب رحمة اشتققتها من الله من خلال اتصالك بنا، يا محمد هذه الرحمة التي في قلبك، والتي اشتققتها منا بسبب اتصالك بنا،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ)

كنت ليناً لهم، فلما كنت ليناً لهم التفوا حولك، الآن لو كنت منقطعاً عنا، لامتلأ قلبك قسوة، وهذه القسوة تنعكس مع التعامل مع الناس غلظة وشدة، عندئذٍ ينفض الناس من حولك، وكأن هذه الآية قانون الالتفاف والانفضاض، يحتاجها الأب، تحتاجها الأم، يحتاجها المعلم، يحتاجها المرشد، أي إنسان على وجه الأرض يحتل منصباً قيادياً يحتاج هذه الآية:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

لذلك:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

الهدى قرار ذاتي لابد للإنسان من أن يأخذه :

لذلك قال النبي الكريم:

((إنما مَثَلي ومَثَل النَّاس، كمثل رجلٍ استوقدَ ناراً، فلمَّا أضَاءتْ ما حَوْلَهُ، جعَلَ الفراشُ وهذي الدوابُّ، الَّتي تقع في النَّار، تَقع فيها، فجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ ويَغْلِبْنَهُ، فيَتَقحَّمْنَ فيها فأنا آخِذُ بحُجَزِكُم عن النَّار، وأنتُم تَقحَّمُونَ فيها))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذا بالضبط الواقع، النبي الكريم برؤيته وعلو مقامه هدفه الأول أن ينجي أمته من النار،

(فَإِنْ تَوَلَّوْا)

أي:

(إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ)

[سورة الشورى الآية: 48]

ما أنت عليهم بحفيظ.

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

[سورة الزمر]

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

[سورة البقرة الآية: 272]

هذا الهدى قرار ذاتي لابد من أن يأخذه الإنسان.

على الإنسان أن يؤدي ما عليه و يطلب من الله الذي له :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ)

أديت الذي عليك، اطلب من الله الذي لك، لذلك لا يستطيع لا نبي، ولا رسول، ولا داعية كبير أن ينقل الهدى إلى الناس، فالناس مخيرون، هذا الإنسان يقبل أو لا يقبل، والدليل دقق:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى]

هذه آية، الثانية:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

عجيب!

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

ثم هناك آية أخرى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

معنى ذلك الهدى قرار ذاتي إذا اتخذه الإنسان كل شيء في الأرض وفي الكون يدله على الله، أما إن لم يتخذ هذا القرار، لو كان هناك قاعدة فضائية يرى المجرات بعينه من خلال التلسكوبات، لو كان على مجهر إلكتروني يرى الخلية، لو كان هناك أكبر مركز علمي، يرى كل شيء، هذه الأشياء لا تقدم ولا تؤخر، الهدى لابد من أن تتخذ قراراً ذاتياً لطلب الحقيقة، عندئذٍ كل شيء يدلك على الله.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ)

مرة فيما أذكر أحد خلفاء بني أمية ولعله آخر خليفة صعد المنبر ليخطب قبل صلاة العيد، بخلاف السنة، يبدو أنه لم يكن محبوباً فكان الناس إذا صلوا العيد انصرفوا إلى بيوتهم، صعد المنبر ليخطب قبل الصلاة، هكذا قرأت القصة، أحد الجالسين أمسكه من ثوبه- للخليفة- قال له: هذا ما فعله النبي الكريم، لكنه لم يعبأ به وتابع الصعود وخطب، قال أحد الحاضرين: أما هذا فقد أدى الذي عليه.

أنا أقول دائماً: أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك، أدِ الذي عليك من طاعة واطلب من الله الذي لك.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ)

أنا أديت الذي علي، أحياناً أنا أقول لإنسان يستنصحني في علاقته بأبيه، قد يكون أبوه قاسياً جداً، أقول له: أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك.

من لم يؤمن بالله العظيم فالطريق إلى الله ليس سالكاً :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

(رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

ما لم تؤمن بالله العظيم فالطريق إلى الله ليس سالكاً،

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً)

أنت إذا تفكرت في خالق السموات والأرض آمنت بالله العظيم.

من بعض المعلومات البسيطة: بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب عدا الشمس أربع سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، بالساعة ضرب ستين، باليوم ضرب أربع وعشرين، بالسنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، بأربع سنوات ضرب أربع، ابنك الصغير بدقائق على آلة حاسبة يحسب لك كم تبتعد الأرض عن أقرب نجم ملتهب لها عدا الشمس،

أربع سنوات ضوئية، الآن لو أن هناك مركبة في الأرض، ويمكن أن تصل لهذا الكوكب سرعتها كسيارة عادية، مئة، تحتاج إلى خمسين مليون عام كي تصل إليها، خمسون مليون عام كي تقطع أربع سنوات ضوئية.

أخواننا الكرام نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، المرأة المسلسلة المجرة تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، أحدث مجرة اكتشفت حديثاً تبعد عنا أربعة وعشرين مليون سنة ضوئية، اقرأ قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة]

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر]

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا أذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، بينما الجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً.

هذا هو الدرس الأخير في سورة التوبة وأرجو لإخوتي لكم التوفيق والنجاح.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-01): تفسير الآية 1 1

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-02): تفسير الآية 1 14

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-03): تفسير الآيتان 2-3 27

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-04): تفسير الآيات 5 - 10 39

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-05): تفسير الآيات 11 - 14 51

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-06): تفسير الآيات 15 - 18 64

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-07): تفسير الآيات 19 - 23 77

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-08): تفسير الآية24 93

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-09): تفسير الآيات 25 - 26 106

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-10): تفسير الآيات 27 - 29 118

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-11): تفسير الآيات 30 - 35 130

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-12): تفسير الآيات 36- 37 142

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-13): تفسير الآيات 38 - 40 154

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-14): تفسير الآية 41 165

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-15): تفسير الآيات 42 - 45 177

سورة الأنفال 008 - الدرس (30-16): تفسير الآيات 46 - 48 189

سورة الأنفال 008 - الدرس (17-30): تفسير الآية 49..... 202
سورة الأنفال 008 - الدرس (18-30): تفسير الآيات 50 - 51..... 215
سورة الأنفال 008 - الدرس (19-30): تفسير الآية 52..... 226
سورة الأنفال 008 - الدرس (20-30): تفسير الآيات 53 - 54..... 237
سورة الأنفال 008 - الدرس (21-30): تفسير الآيات 55 - 59..... 248
سورة الأنفال 008 - الدرس (22-30): تفسير الآيات 60 - 63..... 259
سورة الأنفال 008 - الدرس (23-30): تفسير الآية 64..... 271
سورة الأنفال 008 - الدرس (24-30): تفسير الآيات 65 - 66..... 283
سورة الأنفال 008 - الدرس (25-30): تفسير الآيات 66- 68..... 296
سورة الأنفال 008 - الدرس (26-30): تفسير الآيات 67 - 68..... 306
سورة الأنفال 008 - الدرس (27-30): تفسير الآية 70..... 315
سورة الأنفال 008 - الدرس (28-30): تفسير الآيات 69 - 72..... 325
سورة الأنفال 008 - الدرس (29-30): تفسير الآية 72..... 338
سورة الأنفال 008 - الدرس (30-30): تفسير الآيات72- 75..... 350
سورة التوبة 009 - الدرس (01-70): مقدمة لتفسير سورة التوبة 363
سورة التوبة 009 - الدرس (02-70) : مقدمة عن مضامين السورة 2 372
سورة التوبة 009 - الدرس (03-70):تفسير الآيتان 1-2..... 383
سورة التوبة 009 - الدرس (04-70):تفسير الآية 1 394

سورة التوبة 009 - الدرس (70-05):تفسير الآيتان 1-2..... 405
سورة التوبة 009 - الدرس (70-06):تفسير الآيتان 2 - 3..... 419
سورة التوبة 009 - الدرس (70-07):تفسير الآيتان 3-4..... 427
سورة التوبة 009 - الدرس (70-08):تفسير الآية 5..... 438
سورة التوبة 009 - الدرس (70-09):تفسير الآية 6 449
سورة التوبة 009 - الدرس (70-10):تفسير الآية 7..... 459
سورة التوبة 009 - الدرس (70-11):تفسير الآيات 8 - 10 469
سورة التوبة 009 - الدرس (70-12):تفسير الآيتان 11-12 480
سورة التوبة 009 - الدرس (70-13):تفسير الآيات 13 - 15 492
سورة التوبة 009 - الدرس (70-14):تفسير الآيتان 14-15..... 503
سورة التوبة 009 - الدرس (70-15):تفسير الآية 16..... 514
سورة التوبة 009 - الدرس (70-16):تفسير الآية 17 525
سورة التوبة 009 - الدرس (70-17):تفسير الآية 18 536
سورة التوبة 009 - الدرس (70-18):تفسير الآيات 19-22 549
سورة التوبة 009 - الدرس (70-19):تفسير الآيات 20-22 560
سورة التوبة 009 - الدرس (70-20):تفسير الآية 23 571
سورة التوبة 009 - الدرس (70-21):شرح الآية 24 580
سورة التوبة 009 - الدرس (70-22):شرح الآيات 25-26 591

سورة التوبة 009 - الدرس (23-70):شرح الآية 26 601
سورة التوبة 009 - الدرس (24-70):شرح الآية 28 611
سورة التوبة 009 - الدرس (25-70) : تفسير الآية 29 620
سورة التوبة 009 - الدرس (26-70) : تفسير الآية 30 631
سورة التوبة 009 - الدرس (27-70) : تفسير الآية 31..... 643
سورة التوبة 009 - الدرس (28-70) : تفسير الآيتان 32-33 652
سورة التوبة 009 - الدرس (29-70) : تفسير الآيات 34 - 35 663
سورة التوبة 009 - الدرس (30-70) : تفسير الآية 36 674
سورة التوبة 009 - الدرس (31-70) : تفسير الآية 37 685
سورة التوبة 009 - الدرس (32-70) : تفسير الآية 37 695
سورة التوبة 009 - الدرس (33-70) : تفسير الآيتين : 38- 39 707
سورة التوبة 009 - الدرس (34-70) : تفسير الآية 40..... 720
سورة التوبة 009 - الدرس (35-70) : تفسير الآيات 41 - 42 732
سورة التوبة 009 - الدرس (36-70) : تفسير الآيات 43 - 47 743
سورة التوبة 009 - الدرس (37-70) : تفسير الآيات 48 - 51 753
سورة التوبة 009 - الدرس (38-70) : تفسير الآيات 51 - 52 766
سورة التوبة 009 - الدرس (39-70) : تفسير الآيات 53 - 54 778
سورة التوبة 009 - الدرس (40-70) : تفسير الآية 55 788

سورة التوبة 009 - الدرس (41-70) : تفسير الآيات 56 - 57 796
سورة التوبة 009 - الدرس (42-70) : تفسير الآيات 58 - 59 812
سورة التوبة 009 - الدرس (43-70) : تفسير الآية 60..... 827
سورة التوبة 009 - الدرس (44-70) : تفسير الآية 61..... 840
سورة التوبة 009 - الدرس (45-70) : تفسير الآية 62..... 853
سورة التوبة 009 - الدرس (46-70) : تفسير الآية 63..... 867
سورة التوبة 009 - الدرس (47-70) : تفسير الآيات 64 - 66..... 881
سورة التوبة 009 - الدرس (48-70) : تفسير الآيات 67 - 68..... 894
سورة التوبة 009 - الدرس (49-70) : تفسير الآيات 69 - 70..... 910
سورة التوبة 009 - الدرس (50-70) : تفسير الآيات 71 - 72..... 924
سورة التوبة 009 - الدرس (51-70) : تفسير الآية 73..... 939
سورة التوبة 009 - الدرس (52-70) : تفسير الآية 74..... 954
سورة التوبة 009 - الدرس (53-70) : تفسير الآيات 75-77..... 966
سورة التوبة 009 - الدرس (54-70) : تفسير الآيات 79-82..... 980
سورة التوبة 009 - الدرس (55-70) : تفسير الآيات 83-85..... 992
سورة التوبة 009 - الدرس (56-70) : تفسير الآيات 86-89..... 1005
سورة التوبة 009 - الدرس (57-70) : تفسير الآيات 90-93..... 1020
سورة التوبة 009 - الدرس (58-70) : تفسير الآيات 94-99..... 1030

سورة التوبة 009 - الدرس (59-70) : تفسير الآيات 100-102..... 1048
سورة التوبة 009 - الدرس (60-70) : تفسير الآيات 103-105.....1062
سورة التوبة 009 - الدرس (61-70) : تفسير الآيات 106-108..... 1075
سورة التوبة 009 - الدرس (62-70) : تفسير الآيات 109-111..... 1088
سورة التوبة 009 - الدرس (63-70) : تفسير الآية 111..... 1101
سورة التوبة 009 - الدرس (64-70) : تفسير الآية 112..... 1113
سورة التوبة 009 - الدرس (65-70) : تفسير الآيات 113 - 116..... 1128
سورة التوبة 009 - الدرس (66-70) : تفسير الآيات 117 - 119..... 1141
سورة التوبة 009 - الدرس (67-70) : تفسير الآيات 120 - 122..... 1155
سورة التوبة 009 - الدرس (68-70) : تفسير الآيات 122 - 123..... 1169
سورة التوبة 009 - الدرس (69-70) : تفسير الآيات 124 - 127..... 1183
سورة التوبة 009 - الدرس (70-70) : تفسير الآيات 128 - 129.....1196
الفهرس.....1211

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

التفسير الإلكتروني

تفسير من سورة يونس إلى الرعد

www.nabulsi.com
info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (01-17): تفسير الآيتان 1 – 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-09-20

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من الابتداء بتفسير الأجزاء العشرة الأخيرة :

بسم الله الرحمن الرحيم .. تمَّ بتوفيق الله وفضله تفسير الأجزاء العشرة الأخيرة من كتاب الله خلال السنوات الماضية ، وانتهينا في الدرس الماضي من تفسير سورة الفاتحة ، وها نحن ننتقل الآن إلى الأجزاء العشرة الثانية من كتاب الله سبحانه وتعالى ، وتبدأ بسورة يونس ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يُمِدَّنا من فضله كي ننهي تفسير كتاب الله كلّه .

أما الحكمة من البدء بالأجزاء العشرة الأخيرة هي أنَّ هذه الأجزاء العشرة الأخيرة يغلب عليها الطابع المكّي ، والطابع المكّي آياتٌ تدور حول وجود الله ، وحول عظمته ، وأسمائه الحسنى ، وآياته الكونية، وترسيخ الإيمان بالله ، وأما السور المدنيَّة فيغلب عليها طابع التشريع ، والنبي عليه الصلاة والسلام بقي في مكَّة المكرَّمة ثلاثة عشر عاماً يوجِّه الأنظار إلى آيات الله الكونيَّة ، فحينما استقرَّ الإيمان في النفوس جاءت الآيات المدنيَّة ، ولا يمكن أن تنفّذ الأمر ما لم تعرف الآمر ، ولا أن تنتهي عن النهي ما لم تعرف الناهي ، فالآيات المكّية أولاً ، ثم الآيات المدنيَّة ، فالعشرة الأجزاء ـ وهكذا في اللغة ـ الأخيرة يغلب عليها الطابع المكّي ، والأجزاء العشرة المتوسِّطة بينَ بينْ ، والأجزاء العشرة الأولى يغلب عليها طابع التشريع ، فمع سورة يونس عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة ..

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ{1} أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ{2} إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ)

(أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ)

(الر)

الر

1 ـ معنى الحروف المقطعة :

هذه الحروف وأمثالها ..

(الم)

(سورة البقرة)

(المر)

(سورة الرعد : الآية 1)

(كهيعص)

(سورة مريم)

(حم)

(سورة الأحقاف)

(ق)

(سورة ق : آية " 1 ")

هذه الحروف سمَّاها بعض المفسِّرين " فواتح السوَر " ، وقال بعضهم الآخر : " الله أعلم بمراده " ، وقد روي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه أنه قال في تفسير هذه الحروف : " إنها أوائل أسماء الله الحُسنى " ، وقد روي عنه رضي الله عنه تفسير هذه الحروف الثلاثة :

(الر)

أي أنا الله أرى ، وقال بعض المفسِّرين : " إنها أوائل أسماء رسول الله ، فألف أحمد ، واللام لطيف ، والراء رحيم " .

والذي يرجِّح هذا الرأي الأخير أنَّ كل سورةٍ على الإطلاق بدأت بهذه الحروف يعقبها مباشرةً كاف الخطاب ..

(الم (1)ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ)

(سورة البقرة)

(المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

(سورة الرعد)

(كهيعص (1)ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)

(سورة مريم)

على كلٍ هناك رأيٌ رابع أو خامس ، وهو : أن القرآن الكريم المُعْجِز الذي تحدَّى الله به بني البشر ..

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة الرحمن : الآية 33)

2 ـ لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثل آية من القرآن :

هناك آياتٌ بهذا المعنى توضِّح أن الإنس والجنَّ قاطبةً لا يستطيعون أن يأتوا بآيةٍ من آيات الله عزَّ وجل ، فلذلك من جنس هذه الحروف ، كيف أن التراب بين أيدينا منه تخرُج النباتات كلُّها، التفاح ، فلو اجتمع الإنس والجن على أن يأخذوا تراباً ليصنعوا منه فاكهةً لا يستطيعون ، فهناك إعجاز ، التراب موجود ، والماء موجود ، هذا الحشيش الذي تأكله البقرة يُصنع منه لبن سائغ للشاربين ، هذه كلها آيات الله عزَّ وجل ، المواد الأوليَّة موجودة ، ولكن الإعجاز في خلقها ، في تكوينها ، في صنعها ، كذلك قال بعضهم : " إن هذا القرآن الكريم المُعْجِز هو من حروفٍ نعرفها جميعاً ؛ ألف ، باء ، تاء ، ثاء ، جيم ، حاء ، خاء .. ثمانية وعشرون حرفا ، وقد رُكِّبت آيات هذا الكتاب من هذه الحروف ، والله سبحانه وتعالى كما قلت قبل قليل : تحدَّى البشر إنساً وجنّاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن ..

(لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

(سورة الإسراء)

على كلٍ ، في كتاب الله آياتٌ تحتمل وجوهاً عديدة ، فكما كنت أقول لكم دائماً : القرآن الكريم حمَّال أوْجُه ، والقرآن الكريم ذو وجوه ، فـ ..

(الم)

3 ـ الحروف المقطعة من الإعجاز العلمي :

إما أنها من أسماء الله الحسنى ، وإما أنها دليل إعجاز الله في كتابه ، وإما أنها من أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، وإما أنها فواتح السور ، وقد سمعت أن هناك من لَقَّمَ حاسباً إليكترونياً بآيات القرآن الكريم ، آيةً آيةً ، حرفاً حرفاً فوجد أن كل سورةٍ تبدأ بحروفٍ مثل هذه الحروف لو أحصيت حروف هذه السورة لوجدَّت أن أكثر حرفٍ تكرَّر فيها هو الألف ، ثم اللام ، ثم الراء ، وفي سورة (ق)أكثر حرفٍ تكرَّر فيها هو حرف " قاف " ، هذا شيءٌ يظهر حديثاً ، القرآن الكريم كلام الله .

وسمعت عن الإعجاز الحسابي ، غير الإعجاز الرياضي ، مثلاً : كلمة يوم ذُكِرَت في كتاب الله

ثلاثمائة وخمساً وستين مرَّة حصراً ، ولو فتحت بعض كتب معاجم القرآن الكريم .. هناك معاجم لكلمات القرآن الكريم .. لوجدت كلمة يوم ، واليوم بلا التعريف ، ومع التعريف وردت ثلاثمائة وخمساً وستين مرَّة ، وأن كلمة شهر وردت حصراً اثنتي عشرة مرَّة ، وأن آيات الجنَّة مساويةٌ لآيات النار ، وأن آيات الملائكة مساويةٌ لآيات الشياطين ، وأن آيات الدنيا مساويةٌ لآيات الآخرة ، هذا الإعجاز الحسابي لم يكن في الحُسبان ، هناك إعجازٌ حسابي ، وهناك إعجازٌ رياضي ، وهناك إعجازٌ بلاغي ..

(الر)

وهناك إشاراتٌ لطيفة إلى أسماء الله الحُسنى ، وهناك إشاراتٌ إلى أسماء النبي عليه الصلاة والسلام ، أما من يقول : " الله أعلم بمراده " ، هذا القول مقبول ، ولكن أعفى نفسه من كل جهد .. الله أعلم بمراده أي لا أدري ، وربنا سبحانه وتعالى يقول :

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

إنَّ هذه الحروف جعلها الله رموزاً كي يتحرَّك هذا الذهن ، الوضوح الشديد يفقد الحافز لفهم الكتاب ، لكن هذه الرموز لعلَّ الإنسان يُستثار بها فيتَّجه إلى تفسيرها ، على كلِ القرآن ذو وجوه هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام ..

(الر)

4 ـ من معاني الحروف المقطعة أسماء النبي عليه الصلاة والسلام :

إذا رجَّحنا أن الألف أحمد ، واللاَّم لطيف ، والراء رحيم ، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أحمد الخلق قاطبةً ، لماذا كان أحمد الخلق ؟ لأنه كان أشدَّهم معرفةً بفضل الله عزَّ وجل ، إذاً : الحمد يتناسب طرداً مع المعرفة ، مع معرفة الفَضْلِ ، فما من مخلوقٍ بلغ مرتبة النبي عليه الصلاة والسلام في معرفة فضل الله سبحانه وتعالى ، لذلك اسمه في السماء أحمد ، وفي الأرض محمَّد ، والاسم في اللغة يعني الصفة ، واسمه أي من الوسم ، النبي عليه الصلاة والسلام كان أحمد الخلق قاطبةً ، لأنه كان أحمد الخلق صار أرحمهم ، وألطفهم ، لأنه أشدَّهم صلةً بالله عزَّ وجل ، فالله سبحانه وتعالى في هذه الحروف يُثْنِي على النبي عليه الصلاة والسلام ، ويذكر صفاته العُليا هو أحمد الخلق ، وهو لطيفٌ أي إذا صاحبته ، إذا توجَّهت إليه ، إذا ذكرت اسمه ، يرقى بنفسك بلطفٍ إلى الله سبحانه وتعالى .. " الله المعطي وأنا القاسم " ..

[ورد في الأثر]

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 103)

النبي عليه الصلاة والسلام دليلنا إلى الله :

فهذه الأحوال الطيّبة التي تنشأ في النفس من اتصالك برسول الله صلى الله عليه وسلَّم حيَّاً أو ميتاً .. " حياتي خيرٌ لكم ، ومماتي خيرٌ لكم ".. هذه الأحوال الطيّبة ، هذا الشعور بالسعادة ، هذا الشعور بالقُرب من الله عزَّ وجل ، هذا الإحساس بالطمأنينة يكون عندما تذكر النبي عليه الصلاة والسلام ، لذلك :

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ)

(سورة الأحزاب : الآية 56)

صلاة التجلّي ، أي أن قلب النبي عليه الصلاة والسلام مهبطٌ لتجلّيات الله عزَّ وجل ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(56))

(سورة الأحزاب)

أي أن الله سبحانه وتعالى يتجلّى على قلبه الشريف ، وإذا شئتم نوعاً من هذا التجلّي طرفاً من هذا النور ، شيئاً بسيطاً من هذه التجليات فصلّوا عليه ، فصلاة الله على النبي عليه السلام صلاة إكرامٍ وتجلٍّ ، وصلاة المؤمنين عليه صلاة اتصالٍ وأخذ ، الله يعطي ونحن نأخذ ، والنبي عليه الصلاة والسلام باب الله ، وأي امرئٍ أتاه من غيره لا يدخل .

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((... ثُمَّ سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ...))

[سنن الترمذي]

النبي عليه الصلاة والسلام أحمدُ الخَلق وأرحمُهم :

إذاً : لمعرفته الشديدة بفضل الله كان أحمدَ الخلق ، ولأنه كان أحمدَ الخلق كان أشَدَّهم صلةً بالله عزَّ وجل ، ولأنه كان أشدَّهم صلةً بالله عزَّ وجل كان ألطفهم في نقل العبادِ من أحوالهم العاديَّة إلى أحوال القُرب والتجلي ، لذلك مرَّ الصديق رضي الله عنه في أحد طرق المدينة بصحابيّ يجلس على قارعة الطريق يبكي ، اسمه حنظلة ، فقال الصديق لهذا الرجل الصحابي: " مالك يا حنظلة تبكي ؟ " قال : نافق حنظلة ، قال : " يا أخي لمَ ؟ " قال : نكون مع رسول الله ونحن والجنّة كهاتين " ..

أحياناً الإنسان على شكل مصغر جداً إذا حضر مجلس علم ، وكان هناك إخلاص ، وليست هناك دنيا، تحفُّ به الملائكة ، يقول لك : ارتاح قلبي ، شعرت بسعادة ، هذا نموذج مصغَّر مليار مرَّة ، ألف

مليار، إذا حضرت مجلس علم ، وكان فيه إخلاصٌ من الطرفين من المتكلّم والمستمع ، والتجليات تهبط على هذا المجلس .. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ...))

[صحيح مسلم]

فكيف لو أُتيح لك أن تجلس في مجلس النبي عليه الصلاة والسلام ؟

عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَيِّدِيِّ قَالَ :

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ؟ قَالَ : قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[صحيح مسلم]

هذا تعريف النبوَّة ، النبوَّة إقبالٌ دائمٌ على الله ، وما دام الإنسان على أنه مقبلاً دائماً فهو بنوره مستنير، أنَّى له أن يغلط ؟ لذلك من هنا كانت عصمة الأنبياء ، الأنبياء معصومون ، وأي امرئٍ ينسب إلى نبيٍّ من الأنبياء غلطاً أو خطيئةً فقد جهل معنى العصمة ..

(بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ(26)لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(27))

(سورة الأنبياء)

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

يفهم الناس الجهلاء هذا الكلام ساعة طاعة ، وساعة معصية ، أعوذ بالله ، ساعة إقبال وساعة فتور

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ ، سَاعَةً وَسَاعَةً))

النبي الكريم بإقباله العالي على الله سبحانه وتعالى شقَّت نفسه فأصبح يرى ما لا يراه الناس ، ويسمع ما لا يسمعون ،

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ جَعْفَرٍ قَالَ :

((أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لا أُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا أَبَدًا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ فِي حَاجَتِهِ هَدَفٌ أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ ، فَدَخَلَ يَوْمًا حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الأَنْصَارِ ، فَإِذَا جَمَلٌ قَدْ أَتَاهُ فَجَرْجَرَ ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَمَسَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَاتَهُ وَذِفْرَاهُ ، فَسَكَنَ ، فَقَالَ : مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ : هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَمَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَهَا اللَّهُ ، إِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[مسند الإمام أحمد]

كان يخطب على جذع نخلةٍ فجاء صحابيٌّ ، وصنع له منبراً ، فحنَّت النخلة إليه ، فكان يقف على المنبر ، ويضع يده على جذع النخلة إكراماً لها.

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ))

[صحيح مسلم]

كلما ازداد إقبالك ازداد نورك :

كلَّما ازداد إقبالك رأيت ما لا يراه الناس ، وسمعت ما لا يسمعون ، قد تنظر إلى وردة ، أنت مؤمن تقول : سبحان الله ! تشعر أن الله سبحانه وتعالى خلقها من أجلك ، خلقها إكراماً لك ، هذا إحساس فوق مستوى الناس ، أما قد يرى الوردة إنسان فيقول : كم ثمنها ؟ الأسعار مرتفعة ، أسعار الورد مرتفعة ، تفكير مادي محض ، أنت فكَّرت تفكير آخر، لو ارتقت نفسك لرأيت أن هذه الوردة سخَّرها الله سبحانه وتعالى إكراماً للإنسان ، إذاً :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ ، سَاعَةً وَسَاعَةً))

وهذا الذي عبَّر عنه الصوفيّون بحالة الكشف ، أي أنه لا يرى إلا الله ، يرى الله من خلال كل شيء ؛ من خلال كأس الماء ، من خلال رغيف الخبز ، من خلال كأس الحليب ، من خلال البيضة ، من خلال التفَّاحة ، من خلال ابنه الصغير ، من خلال زوجته ، من خلال الهواء ، من خلال كل شيء ..

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد .

كلَّما ارتقى الإيمان بالإنسان كشف عن بصيرته ، وصار بصره حادَّاً ، لكن يوم القيامة كل إنسانٍ يملك هذا البصر الحاد ، ولكن متى ؟ بعد فوات الأوان .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

اعرف الحقَّ في وقته لا بعد فوات الأوان :

رأيت الحقيقة ، ولكن بعد فوات الأوان ، ولا تنفع في هذه الساعة رؤية الحقيقة ، والبطولة أن ترى الحقيقة قبل أن يفوت الأوان ، أن ترى الحقيقة وأنت في الدنيا ، تستطيع أن تتوب من ذنوبك ، تستطيع أن تتقرَّب إلى ربك ، البطولة أن ترى الحقيقة وأنت في الدنيا ، تتعرَّف إلى خالقك ، تقرأ كتابه ، تفهم آياته ، تستقيم على أمره ، تُجالس أهل الحق ، تدعو إلى الله سبحانه وتعالى ، تذكر الله كثيراً ، هذه البطولة ، لكن إذا جاء الموت ، فرعون عرفه ..

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس : الآية 90)

قال له :

(أَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس : الآية 91)

أحياناً الطالب يأتيه في الامتحان سؤالٌ لا يُجيب عنه إطلاقاً ، فيقدِم الورقة بيضاء ، يذهب إلى البيت ، ويفتح الكتاب فيعرف جواب السؤال ، ولكن متى ؟ بعد فوات الأوان ، الورقة قُدِّمَت بيضاء وسوف تنال علامة الصفر ، فإذا عرفت الآن جواب السؤال نسخر منك ، ونقول لك : بعد فوات الأوان ، فهذا كله عن معنى اللطيف ، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا أحببته ، إذا صلَّيت عليه ، إذا ذكرت أخلاقه ، إذا تعلَّق قلبك به ، يرقى بك إلى الله بلطف من دون أن تشعر ، وأما الراء فبمعنى : ما من مخلوقٍ على وجه الأرض أرحم بالخلق من النبي عليه الصلاة والسلام ، ومع ذلك قال الله في حقِّه :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف : من الآية 58)

الرحمة كلُّها عند الله ، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو أرحم الخلق بالخلق ، أُوتي رحمةً من هذه الرحمة ..

(الر)

أي كأن الله سبحانه وتعالى عرَّفنا بهذا النبي ..

(تِلْكَ)

يا محمَّد .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ

1 ـ ما هي الآية ؟

الآيات جمع آية ، والآية العلامة الدالَّة .

في حياتنا علاماتٌ كثيرة ، علاماتٌ تدلُّ على المرض ، علاماتٌ تدلُّ على الصحَّة ، علاماتٌ تدل على عظمة الله سبحانه وتعالى ، فالجبال من آيات الله ، والشمس والقمر من آيات الله ، والمجرَّات من آيات الله ، والنجوم في كبد السماء من آيات الله ، والمسافات بين النجوم من آيات الله ، وخلق الإنسان من آيات الله ، والماء من آيات الله ، والهواء من آيات الله ، وابنك الصغير الذي يلعب في البيت من آيات الله..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

(سورة الروم : من الآية 21)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت : من الآية 37)

فالآية هي العلامة الدالَّة على شيء ، فالكون كلُّه آياتٌ تدلّ على عظمة الله ، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

(سورة الذاريات)

وكتاب الله سبحانه وتعالى آياتٌ دالَّةٌ على عظمته ، وعلى حكمته ، وعلى قدرته ، وعلى رحمته ، وعلى علمه ، وعلى تشريعه ، وعلى الحلال والحرام ، والحق والباطل ، والخير والشر، وما يجوز وما لا يجوز ، وعلى سنن الله في خلقه ، وعلى العِبَر المستنبطة من التاريخ .. يا محمَّد ..

2 ـ كل كلمة في القرآن آية وعلامة :

كل كلمةٍ آية ، والنَظْمُ آية ، والتقديم آية ، والتأخير آية ..

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور : من الآية 30)

لو أنَّ الله سبحانه وتعالى قال : قل للمؤمنين يحفظوا فروجهم ويغضّوا من أبصارهم ، هناك معنى خطير تلاشى ، وهو أن طريق حفظ الفرج غض البصر ، لذلك قدَّم غضَّ البصر على حفظ الفرج ، فالتقديم آية ، والتأخير آية ، والإيجاز آية ، والإطناب آية ، والسكوت عن الشيء آية ، إذا سكت القرآن عن شيء فسكوته آية ، لأن هذا الشيء متبدِّل ، ومتغيّر ، ومتطور ، ولا علاقة له بإقبال النفس على خالقها .

إن الله أمركم بأشياء ، ونهاكم عن أشياء وسكت عن أشياء رحمةً بكم ، فالشيء الذي ذكره الله آية ، والشيء الذي سكت الله عنه آيةٌ على حكمته ، وعلى رحمته ، وعلى لطفه ، وعلى رأفته بالعباد ..

(تِلْكَ آياتُ)

لكن الآيات هنا متعلّقة بالقرآن الكريم ..

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

هذه متعلّقة بالكون .

أما :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

3 ـ معنى الكتاب :

أما الكتاب فبعضهم قال : " حيثما وردت كلمة الكتاب معرَّفةً في القرآن الكريم فإنما تعني الكُتُبَ السماويَّة كلها " ، والكتب السماويَّة كلُّها ماذا تعني ؟ تعني أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، وخلق لهم منهجاً إذا طبَّقوه سعدوا في الدنيا والآخرة ، وحقَّقوا الهدف الكبير من خلقهم .

الكتاب منهجٌ للخلق :

بشكلٍ أو بآخر : آلة معقَّدة جداً ، مع هذه الآية نشرة استعمال بكل اللغات ، فمتى طبَّقت ما في هذه النشرة ضمنت سلامة الآلة ، وضمنت قيامها على أحسن وجه ، وضمنت لها أعلى مردود ، وبأقلّ جهد، وأقلّ نفقات ، ضمنت سلامتها من كل شيء ، فإذا ضربت بهذه النشرة عُرض الحائط عطبت الآلة ، وخسرتها ، وخسرت ثمنها ووظيفتها .

فآيات الكتاب .. هذا الكتاب منهج الله في خلقه .. سواءٌ أكان معنى الكتاب جميعَ الكُتُبَ السماويَّة ، أو كان معنى الكتاب القرآن الكريم وحده فكلاهما يدل على أن هذا المنهج منهج الإنسان في الحياة ، وهو كتابه المقرَّر ، فما قولكم بطالبٍ جامعي على مشارف التخرُّج ، وبقيت عليه مادَّةٌ أساسيَّة إذا نجح فيها

تخرَّج من الجامعة ، وإذا تخرَّج دخل في وظيفةٍ راقية ، وإن دخل في هذه الوظيفة الراقية كان له دخلٌ كبير أتاح له أن يتزوج ، وأن يبني أسرةً ، وأن يفعل ما يفعل ، فإذا كان قبل الامتحان بيومين ، وبدأ يقرأ قصصاً لا علاقة لها بالكتاب المقرَّر ألا يُعدُّ هذا الطالب غبيًّا ؟ يقول لك : هذه الكتب قيّمة ، هذه قصص ممتعة ، للمؤلّف الفلاني ، نقول له : عندك كتاب مقرَّر إذا قرأته وفهمته تخرَّجت من الجامعة ، وضمنت مستقبلك .

كذلك الإنسان في الدنيا ، فأنت أي كتابٍ تقرأه ، أي شيءٍ تُطالِعَه إن لم يكن له علاقةٌ بالقرآن الكريم ، أو بمنهجك في الحياة فهو ضياعٌ للوقت ، لذلك دخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المسجد فرأى قوماً متحلّقين حول رجل فقال : " من هذا الرجل ؟ " هو يعلم لكن أحبَّ أن يُعَلّم ، قالوا : " هو يا رسول الله نسَّابة " ، قال : " وما نسَّابة ؟ " قالوا : " يعلم أنساب العرب " قال : " ذلك علمٌ لا ينفع من تعلّمه ، ولا يضرَّ من جهله " .

[ورد في الأثر]

أي أنه بلا فائدة ، فتعلَّم كتاب الله ، فيه الحق ، فيه طريق الخير ، طريق السعادة ، طريق النجاة في الدنيا والآخرة .

إذاً :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

4 ـ معنى الحكيم :

الحكيم : أي أن كلام الحكيم حكيم ، إما أن الحكيم اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى ظهر في كلامه ، فالإنسان الحكيم كلامه فيه حكمة ، والإنسان الأخرق كلامه فيه حمق ، فالله سبحانه وتعالى من أسمائه الحكيم ، إذاً : كلامه حكيم ، وهناك معانٍ كثيرة لكلمة حكيم .

من معاني الحكيم : أن الله تعالى يخاطب الإنسان في كتابه الكريم ؛ يخاطب عقله تارةً ، ويخاطب قلبه تارةً أخرى ، يحذِّره تارةً ويبشّره ، يخوِّفه أحياناً ، ويطمئنه أحياناً أخرى ، يقصُّ عليه القصص ما فيه موعظة بالغة ، يخبره بالآيات ، يحدِّثه عن الأقوام السابقة ، يخبره عما سيكون في المستقبل بعد الموت، فيه حكمة بالغة ، فيه تنويع ، القرآن يوجِّه النفوس إلى طريق سعادتها .

في السورة الواحدة ترى آيات كونيَّة ، وترى وصفاً للنار وأهلها ، وترى وصفاً للجنَّة وأهلها ، وترى تبشيراً ، وترى تحذيراً ، وترى قصَّةً ، القصَّة مع الآية مع التحذير مع التبشير مع مشاهد القيامة ، هذا بمجموعه يحمل النفس على طاعة الله سبحانه وتعالى .

إذاً : حكيم ، صياغته حكيمة ، موضوعاته حكيمة ، تنويع موضوعاته حكيمة ، عمق موضوعاته حكيمة ، حجم موضوعاته حكيمة ، لو كان القرآن عشرة آلاف صفحة لم يكن حكيماً ، أي أنه فوق طاقة الإنسان ليقرأه ويستوعبه ، جعله موجزاً ، جعله بليغاً ، فيه من كل علمٍ طرف ، فيه أصول العلوم كلها، أصولها لا تفصيلاتها ، فيه مناهج السعادة ، الطريق إلى الله سبحانه وتعالى ، حكيم ، حكيم في موضوعاته ، حكيم في حجم موضوعاته ، في حجم عددها ، حكيم في تنوُّعها ، حكيم في صياغتها ، أي أن الله عزَّ وجل يصوغ الآيات صياغات حكيمة جداً ..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

(سورة القصص : من الآية 14)

الآية قانون :

هذا ضمن قصَّة ، لكن الله سبحانه وتعالى ترك القصَّة وعَقَّبَ عليها بتعقيبٍ يشبه أن يكون قانوناً :

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

انتهت القصَّة .

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

يقرأ الآية مؤمن واقع في أزمة ، خائف من جهة ، عنده مشكلة ، يمكر به بعض الناس ، يقرأ هذه الآية فيصبح قلبه مطمئناً لحفظ الله سبحانه وتعالى ولتوفيقه ، قال :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

هذا قانون في كل زمان وفي كل مكان ، في كل عصر وفي كل مصر ، قديماً وحديثاً ، في كل مكان..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

إذاً : ربنا عزَّ وجل حكيم في هذا الكتاب .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من الآية 36)

حكيم .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل : من الآية 8)

إلى هذا المكان ، لو أن إنساناً في هذا العصر قرأ هذه الآية لقال : الآن يوجد طائرات حديثة ، توجد طائرات أسرع من الصوت ، تركب الطائرة الساعة الثامنة وأنت في لندن تكون في الساعة العاشرة في واشنطن ، تَعْبُر المحيط الأطلسي في ساعتين ، ربنا عزَّ وجل قال :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

الله عزَّ وجل في هذا الكتاب غطَّى به كل الأزمنة ..

(وَيَخْلُقُ)

أي أن وقودها من الأرض ، من خلق الله سبحانه وتعالى ، ومعدنها من الأرض من خلق الله سبحانه وتعالى ، والفكر الذي اخترعها من خلق الله سبحانه وتعالى ، فكأن الطائرة آيةٌ على عظمة الله سبحانه وتعالى .

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

إذاً :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

5 ـ من معاني الحكيم المحكَم :

من معاني الحكيم أيضاً أنه مُحْكَم ، معنى محكم أي لا خلل فيه ، ولا نقص ، ولا تناقض ، وأي كتابٌ لبني البشر إذا قرأته قراءةً واعية سرعان ما تكشف التناقض ، أو تكشف الخلل ، وأحياناً المؤلِّف يوسِّع في فصل توسيعاً شديداً جداً ، ويوجز في فصل ، معنى هذا أن معلوماته في هذا الموضوع واسعة ، وفي هذا الموضوع ضعيفة ، إذاً : الكتاب غير متوازن ، فهناك فصل موسَّع جداً وفصل ضيّق ، إذاً : هو غير حكيم ، لكن قوله تعالى :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

أي أنه محكم ، لا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا نقص ، هذه من معاني الحكيم ، و ..

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)

(سورة هود : من الآية 1)

6 ـ من معاني الإحكام الترابط :

من معاني الإحكام أيضاً الترابط ، فبعضهم قال لجهله الفاضح : "ليس بين آيات القرآن ترابط " . هذا جهلٌ فاضح ، ما من آيةٍ إلا وآخذةٌ بعنق أختها ، وكأنَّ السورة عِقْدٌ منظوم .

كتاب الله يحتاج إلى نفسٍ طاهرةٍ كي تَعِيَه :

لكن كتاب الله يحتاج إلى نفسٍ طاهرةٍ كي تَعِيَه ..

(لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ)

(سورة الواقعة)

من معاني هذه الآية : المُطَهَّر يفهم كتاب الله .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ)

(سورة البقرة : من الآية 282)

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

(سورة التغابن : من الآية 11)

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصلت : آية " 44 ")

(وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا(82))

(سورة الإسراء)

البعيد عن الله سبحانه وتعالى ، المتلبِّس بالمعصية ، من كان قلبه نجساً يقرأ القرآن فلا يفهم منه شيئاً ، يراه متناقضاً ، يراه غير منتظم ، غير مترابط ، لكن الله سبحانه وتعالى قال :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

هناك ترابطٌ بين آياته ، هناك ترابطٌ بين كلماته .

مثالٌ من إحكام القرآن بين حروفه :

هناك ترابطٌ بين حروفه .

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هنا(ثُم) وفي آية ثانية :

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

هذه ثم وهذه الفاء ، فهل هذا تنويع ؟ هذا عمل الإنسان ، يقول لك : نَوِّع ، لتفادي التكرار ، ضع مرَّة ثم ومرَّة الفاء ، فأستاذ الإنشاء والتعبير يضع خطوط حمراء ، ويقول لك : هذه تكرار ، والتكرار يُضعِف الموضوع ، نوِّع ، فلمَّا قال ربنا :

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

ولمَّا قال :

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا)

يا ترى هل الله عزَّ وجل ينوِّع ، أم أنَّ هناك لكل آية معنى دقيق جداً ؟ فـ (الفاء وثم) حرفان من حروف العطف يفيدان الترتيب ، لكن الفاء تفيد الترتيب على التعقيب ، وثم تفيد الترتيب على التراخي ، فإذا قلنا : دخل فلان ففلان أي أن الثاني وراء الأول ، أما دخل فلان ثم فلان أي بعده بساعة ، فربنا عزَّ وجل قال :

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

إذا رأيت إنساناً ينكر هَدي الله عزَّ وجل ، وماله حرام ، وهو فاجر ، وفاسق ، ومعتدٍ ، وباغٍ ، ومنحرف ، وصحَّته طيِّبة ، وماله وفير ، وبيته فخم ، ومكانته الاجتماعيَّة عالية ، هذه ثمَّ ، أي انتظر ، انتظر سنة ، سنتين ، ثلاثا ، أربعا ، عشرا ، تأتيه الضربة القاصمة .. لأن الله يمهل ولا يهمل ..

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

ومن جهة أخرى تجد إنساناً أحياناً يحلف يميناً غموساً في المحكمة ، ويضم له مالاً حراماً ، يقول الناس عنه : خرج من المحكمة مشى مترين فوقع مشلولاً ، هذه :

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا)

هذه الفاء ، فحتى في الحروف إحكام ، في الكلمات إحكام ، في الآيات إحكام ، في السور إحكام ، وبعضهم قال : " جزء عمَّ .. الجزء الأخير من كتاب الله .. كلُّه آياتٌ كونيَّة ..

(إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ)

(سورة الانفطار)

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)

(سورة التكوير)

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

وفي سورة واحدة :

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

(سورة المطففين)

فهي في المعاملات ، قال بعض المفسرين : " إذا كان التطفيف بحق إنسانٍ يقتضي الهلاك فكيف التطفيف بحق الله سبحانه وتعالى ؟ هناك تناسب في الآيات ، في الحروف ، في الكلمات ، في السور ، هذه من معاني الحكيم المترابط ، من معاني الحكيم كما قلت قبل قليل : أي الذي لا خلل فيه ، ولا غلط، ولا رَيْب ، ولا نسيان ، ولا ضعف ، ولا تناقض ، ولا تضارب بين الآيات .

7 ـ من معاني الحكيم إحكام الله في القرآن الحق والباطل :

من معاني الحكيم الذي أحْكَمَ فيه الله سبحانه وتعالى الحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام، وما يجوز وما لا يجوز ، أي أن هذه الآيات حكمت على هذا الشيء بأنه حق وهذا باطل .

لذلك :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من الآية 36)

إذا قال الله عزَّ وجل :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من الآية 276)

ليس هناك أيّ مناقشة إطلاقاً ، فلا يجوز البحث في هذا الموضوع ، لأن الله سبحانه وتعالى قضى في الربا حكمه ، وهو حكيم ، فإما أن هذا القرآن حكم على شيءٍ بالإباحة ، وعلى شيءٍ آخر بالحرمة ، وشيءٍ بأنه حلال ، وشيءٍ بأنه حرام ، وهذا حق ، وهذا باطل ، وهذا يجوز ، وهذا لا يجوز .

من معاني الحكيم ، أي الحاكم ، من معاني الحكيم المحكم ، المترابط ، من معاني الحكيم الذي لا خلل فيه ، من معاني الحكيم التناسب مع الإنسان ، يخاطب عقله .

الآن هناك كتب تخاطب العقل فقط ، فهي مملَّة ، وكتب تخاطب الوجدان فقط ، ممتعة ، لكن غير نافعة، الكتب التي تخاطب العقل فقط نافعة غير ممتعة ، جافَّة ، لكن القرآن الكريم فيه تنويع ؛ فيه قصَّة ، فيه صورة ، فيه مشهد ، فيه تاريخ ، فيه آية ، فيه إشارة ، فيه عبارة ، فيه مثَل ، فهو حكيم ..

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

فملخَّص هذا الكلام كلّه : " فضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على خلقه " ، هل يوازَن بين المخلوق والخالق ؟ لا ، إذاً لا يوازَن بين كلام الله وبين كلام خلقه ..

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(1)أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ

1 ـ من عجبِ الناس إرسال رسول من البشر :

أي أن الناس يعجبون إذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً !! ألا يعرفون قيمة أنفسهم أن الله يحبَّهم وخلقهم ليسعدهم ؟ ألا يعرفون أنهم خُلقوا لهدفٍ عظيم ؟ الذين يعجبون أن يُرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً لا يعرفون قدر الإنسان .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الإسراء : من الآية 70)

الذين يعجبون أن يُرْسِلَ الله سبحانه وتعالى رسولاً لا يعرفون قدر النبي عليه الصلاة والسلام .

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا)

أي أتعجب أن يوجِّه الأبُ الذي ينطوي قلبه على محبَّةٍ لابنه نصيحةً لابنه ؟! أتعجب أن تخاف الأمُ على مصير ابنها ؟! طبيعتها هكذا ، أتعجب أن تحرص الأم على نجاح ابنها ؟! أي أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وتركهم هكذا ؟ أهكذا ظنُّكم ؟ أتعجبون أنْ أكرم اللهُ بني البشر برسولٍ منهم يبيّن لهم ما يفعلونه ، فهذه الآية دقيقة جداً ، فمن يعجبْ كيف يرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً فهذا ينكر رحمته، ينكر حكمته من خلقه ، ينكر الآخرة ، فلذلك :

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)

نقف عند كلِ كلمة :

(رَجُلٍ مِنْهُمْ)

2 ـ الأنبياء والرسل من الرجال حتى يكونوا حجة على الناس :

هذه لها بحث طويل ، ما جعل الله نبيَّاً مَلَكاً ، لو كان مَلَكاً لقال الناس : أخي هذا مَلَك ، أما أنا فإنسان من لحمٍ ودم ، أنا فيَّ شهوات ، هذا مَلَك ، لكانت الحجَّة مع البشر ، لكن حيث أن هذا النبي الكريم بشر من لحمٍ ودم أودَعَ الله فيه الشهوة كما أودعها فينا ، لكنَّه ضبطها ، أودع فيه حبَّ المال كما أودعه فينا ، لكنَّه جعل المال في خدمة الخَلْق ، أودع فيه حبَّ العلو كما أودعه فينا ، ولكنَّه ارتفع بأخلاقه العُليا ، لا يمكن أن يكون النبي إلا بشراً ، ولو كان مَلَكاً لما اهتدى به أحدٌ من الخلق ، يقول : أخي هذا مَلَك وأنا بشر ، ظروف صعبة ، النبي الكريم خاض حروباً ، واجَهَ معارضات ، واجه كفَّاراً ، وتآمروا عليه ،

وتآمروا على قتله وثبت ، وقال :

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

لا يمكن أن تقوم الحجَّة إلا إذا كان النبي بشراً .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف : من الآية 110)

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((اللَّهُمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ ، يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ ...))

[مسلم]

أي أنا من طبيعتكم ، لذلك هو الحجَّة علينا ، هذا بشر من طينتكم ، من جبلَّتكم ، من طبيعتكم ، أودِع فيه ما أودعتُه فيكم ومع ذلك استَعمَل فكره ليعرفني فعرفني ، وجاهد ليعرِّف الناس بي فعرَّفهم بي ، استحقَّ أن يكون نبيَّاً ، لذلك :

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ)

3 - الأنبياء والرسل يُرسَلون من أقوامهم وليسوا غرباء :

لو لم يكن منهم فهذا معنى ثانٍ ، فلو جاء من مصر إلى مكَّة ودعاهم ، إنهم يخافونه ، ويخشونه ، ويتوجَّسون منه مثلاً ، لأنه من قطر آخر ، لا ، بل إنه جاء منهم ، من بينهم ، من جماعتهم ، يعرفون نسبه ، وصدقه ، وعفافه ، وأمانته ..

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ)

كما لو أنَّ جامعة أُنشِأت وكلَّفت ألوف الملايين ؛ من قاعات المحاضرات ، إلى مختبرات ، إلى حدائق، إلى مكتبات ، إلى بيوت للطلبة ، فهل من العجب أن تسخِّر هذه الجامعة مرشداً اجتماعياً لكل طالب ، أو لكل خمسة طلاب ؟ وهذا ما تفعله الجامعات ، هذا الطالب في الجامعات الراقية لا يستطيع أن يقطع أمراً في شأن اختصاصه إلا بعد موافقة هذا البروفسور ، لماذا ؟ لأن الجامعة في أعلى مستوى ، وهدفها تخريج الطلاَّب بأعلى مستوى ، فربنا عزَّ وجل خلق هذا الكون ؛ خلق المجرَّات ، ألف مَليون مليون مجرَّة ، وفي المجرَّة مَليون مليون نجم ، خلق الشمس والقمر ، والأرض والسماء ، والبحار والجبال ، ويترك هذا الإنسان هملاً بلا توجيه ، بلا إرشاد ، بلا تبيين ، بلا تعريف ، بلا هدى ، بلا منهج ، بلا كتاب ، تركه هكذا ضائعاً ؟ هذا مما يعني كلمة :

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا)

لابدَّ من أن يكون هناك أنبياء ، لأن الله رحيم ، بسبب رحمته وحكمته ، ولأنه خلقنا ليسعدنا فلابدَّ من أن يبعث لنا أنبياء ، ورسلاً ، وكتباً ، ومناهج ، ودعاة ..

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ)

أي أن الذي ينكر بعثة النبي عليه الصلاة والسلام يُنْكِرُ رحمة الله سبحانه وتعالى ، ينكر حكمته ، ينكر قيمة النبي ، ينكر قيمة نفسه ، أنت غالٍ على الله كثيراً ، ولأنك غالٍ على الله عزَّ وجل أرسل لك رسلاً، وبعث إليك قرآناً ، وبعث لك أناساً متفرِّغين للدعوة إلى الله ..

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 23)

علم فيك الخير فأسمعك ، تعجب تقول :

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ)

أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ

1 ـ ما هو الإنذار ؟

الإنذار لفت النظر لخطر سيقع بعد فَسْحَةٍ من الوقت ، هذا هو الإنذار ..

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

2 ـ المؤمنون هم ملوكُ الآخرة :

هؤلاء المؤمنون هم ملوك الدار الآخرة ، هؤلاء المؤمنون لهم عند الله مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر ، لا قلق ، ولا خوف ، ولا حَزَن ، مكان ثابت ، رتبة ثابتة لا أحد ينازعك عليها إطلاقاً ..

(وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا)

(سورة المائدة : من الآية 37)

(لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ)

(سورة الأنبياء : من الآية 103)

(قَدَمَ صِدْقٍ)

3 ـ معنى : قَدَمَ صِدْقٍ

أي مقام صدقٍ ، معنى قدم أي حصَّله بسبقه ، باجتهاده ، معنى قدم ثباته ، معنى قدم مقامه ، ومن معاني القدم الثبات والسبق والمقام ، القدم حقَّق مكانة ، والقدم حصَّله بقدمه أي بسبقه ، مقام صدق ، مقعد صدق ، مقام عند الله .

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

هذا الوعد الذي وعدك الله به من مقعد صدقٍ عنده ، هذا يعدل الدنيا وما فيها ، لذلك إذا قتل أحدنا في أيَّام شدَّة وجود الحشرات المنزليَّة أي (الناموس) فإذا قتل ناموسة هل لها قيمة عند أحد ؟ هل يحاسبك عليها أحد ؟ هل عليك أي مؤاخذة فيها ؟ لا شأن لها ، فكيف جناحها ؟ قال :

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

أي أن الدنيا ؛ بمالها ، بنسائها ، ببيوتها ، ببساتينها ، بمتعها ، بشهواتها لو أنها

((تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

فهذا الذي يستقيم على أمر الله ، ويخلص لله ، ويغضُّ بصره ، ويحرر دخله ، وتسعه السنَّة ، ولا تسعه البدعة ، يرفضها ، هذا له عند الله قدم صدقٍ ، وكما قيل : " الزُهَّاد والورعون جلساء الله يوم القيامة ". قدم صدق أي حصَّلوها بسبقهم ، ولهم عند الله مكانةٌ ثابتة بسبب صدقهم مع الله سبحانه وتعالى ..

(قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (02-17): تفسير الآيات 2 – 4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-09-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأنا في الدرس الماضي بتفسير سورة يونس عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وقلنا في قوله تعالى :

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ)

أي أن كيف يعجب الناس أن يرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً يبين لعباده طريق سعادتهم، من عَجِب هذا العجب فكأنه ينكر رحمة الله سبحانه وتعالى ، مَنَ عجب ذلك العجب فكأنما ينكر أن لخلق الله سبحانه وتعالى هدفاً سامياً ، خلق الخلق ليسعدهم ، خلقهم ليعرفوه ، خلقهم ليتجلَّى عليهم ، خلقهم ليسعدوا سعادةً أبدية ، فإذا تاهوا عنها ، وحادوا عنها ، لابدَّ من أن يرسل إليهم رسولاً ، أيعجبون ؟! أما أن يكون الرسول ملكاً فهذا شيءٌ غير واقعي ، لا يستجيب له أحد ، لا يصدقه أحد ، لا يأخذ بكلامه أحد ، لأن الحجة الكبرى أنك ملك ونحن بشر ، والذي تقوله لا نستطيع تطبيقه لأنك لست مثلنا ، لكن الله سبحانه وتعالى أرسل رسولاً منهم ، رجلاً منهم ، ولو كان هذا الرجل من غير قبيلتهم ، من بلدٍ بعيد لشكوا به ، وظنوا فيه الظنون ، رجلٌ نشأ بين أظهرهم يعرفون صدقه، ونسبه ، وأمانته ، وعفافه ، ويعرفون طهارته ، وهو إنسانٌ يحس بما يحسون ، ويغضب لما يغضبون ، يدعوهم لعبادة الله سبحانه وتعالى أتعجبون ؟! .

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ)

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ

1 - القرآن فيه إنذار للناس :

أي أن هذا الكتاب فيه إنذارٌ وفيه بشارة ، إنذارٌ للضال بأنه سيدفع ثمن ضلاله كبيراً ، إنذارٌ للعاصي بأنه سيدفع ثمن معصيته غالياً ، إنذارٌ للبعيد عن الله عزَّ وجل بأنه سيشقى في الدنيا والآخرة ، وهذا إنذار من عند الله .

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

ومن أوفى بعهده من الله ؟ الرحيم ، العليم ، الغني ، القدير يقول لك: انتبه وراءك يومٌ عسير .

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10))

(سورة المدثر)

ساعة اللقاء ، ساعة نهاية الحياة ، ساعة كشف الغطاء ، ساعة رؤية الحقيقة .

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(11)وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا(12)وَبَنِينَ شُهُودًا(13)وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا(14)ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ(15))

(سورة المدثر)

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ)

2 ـ من علامات العقل الاستجابة للقرآن في دعوته للحياة الحقيقية :

إن من علامات العقل الاستجابة لكلام الله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 24)

أنت الآن مدعوٌ للحياة ، قد تقول : ألست حياً ؟ نقول لك : لا ، جسمك حي ، حياتك حياة جَسَد ، حياة دمٍ ولحم ، حياة شرايين وأوردة ، لكن القلب له حياة ، حياته بمعرفة الله سبحانه تعالى ، حياته بالإقبال عليه ، حياته بالاستنارة بنوره ، حياته بالتقرُّب إليه ، حياته بالاستهداء بهديه ، حياته بالالتجاء إليه ، حياته بالاعتصام بكتابه ، هذه الحياة ، لذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل : من الآية 21)

3 ـ اعمل لتلك الساعة :

قد يكون الإنسان في أوج حياته وهو ميت ، قد تنبض شرايينه حيويةً ونشاطاً ، وهو ميت ، والموت موتان ، موت الجسد وموت النفس ، فالله سبحانه وتعالى يدعونا لما يحينا ، أي أن هذا الأمر مهم جداً ، هذا الأمر لو أخذتموه مأخذ الجِد لما نمتم الليل ، قال عليه الصلاة والسلام :

((إذا مات العبد رفرفت روحه فوق النعش تقول : يا أهلي يا ولدي ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حل وحرم ، فأنفقته في حله وغير حله ، فالهناء لكم ، والتبعة علي))

ثم يقول عليه الصلاة والسلام : ما من بيتٍ إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات ، فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله ، وانقطع رزقه ألقى عليه غَمَّ الموت فغشيته سكراته ، فمن أهل البيت الضاربة وجهها ، والصارخة بويلها ، والنادبة حظها ، فيقول ملك الموت : " فيم الجزع ؟ ومم الفزع ؟ ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً ، ولا قرَّبت له أجلاً ، وإن لي فيكم لعودة ثم عودة حتى لا أبقي منكم أحداً))، قال عليه الصلاة والسلام : " فو الذي نفس محمد بيده لو يسمعون كلامه ، ويرون مكانه لذهلوا عن ميِّتهم ، ولبكوا على أنفسهم))

، ويقول عليه الصلاة والسلام ، وهذا مقصد الشاهد :

((لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلت طعاماً عن شهوةٍ ، ولا شربتم شراباً عن شهوةٍ ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه))

فإذا كان هناك أمر خطير جداً ، كأن يكون عند الإنسان امتحان في الصف الأخير ، صف التخرج ، ومعلَّقٌ على تخرجه آمال كبيرة ، وهو يمشي في الطريق ماذا يرى ؟ أنا أقول : لا يرى شيئاً ، لشدة اهتمامه بالامتحان لا يرى شيئاً أبداً ، فلان رآه في الطريق الفلاني ، الواجهة الفلانية ، المحل الفلاني ، لا يرى شيئاً ، هو في شغلٍ عما حوله ، ولو عرف الإنسان ربه حق المعرفة لكان في شغلٍ عما سوى الله ، لذلك :

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

مشغول ، له هدف كبير ، فرصةٌ قصيرٌ بسعادةٍ أبدية ، كل دقيقة محاسبٌ عليها ، حتى إن أهل الجنة لا يندمون إذا دخلوا الجنة وسعدوا بها إلا على شيءٍ واحد ؛ على ساعةٍ مرت لم يذكروا الله فيها .

فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار

الأمر خطير ، هذا الكلام كلام الله سبحانه وتعالى ، إلهٌ ينذر ، ربنا عزَّ وجل يقول :

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار)

(سورة البقرة)

من منا يقبل أن يُعْطَى مالاً وفيراً ليتمتع به سنتين أو ثلاثا أو خمسا ، كيفما شاء ، في أي بلدٍ شاء ، في أي فندقٍ شاء ، في أي مقصفٍ شاء ، في أي طريقةٍ شاء ، ثم يعذَّب عذاباً أليماً لم يعذب مثله أحد ، لأسبوعٍ واحد لا يرضى ، ليومٍ واحد لا يرضى ، لساعةٍ واحدة لا يرضى ، فكيف ترضى أن تعيش حياةً قصيرة وراءها عذابٌ أبدي ..

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار)

الله سبحانه وتعالى ينذر الناس ، نحن في دار عمل ، اعملوا ما شئتم ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به ، كل عمل عند الله له ثمن ، إن لكل سيئةٍ عقاباً ، ولكل حسنةٍ ثواباً ، في الدنيا والآخرة ، اعمل ما شئت ، تحب أن تصدُق اصدق ، تحب أن تكذب اكذب ، للصدق ثمن ، وللكذب ثمن ، تحب أن تغش الناس غشهم ، تحب أن لا تغشهم لا تغشهم ، وللغش ثمن ، وللإخلاص ثمن ، تحب أن تغض البصر غضه ، تحب أن لا تغض لا تغض ، ولإطلاق البصر ثمن ، ولغض البصر ثمن في الدنيا والآخرة ، اعملوا ما شئتم ، الله سبحانه وتعالى يحاسب ، بل إن الطاعة ينطوي فيها نتائجها ، وإن المعصية ينطوي فيها نتائجها ، فلو وضعت إصبعك على مدفأة وهي مشتعلة من يحاسبك ؟ هي تحاسبك ، وضع إصبعك عليها يحرقه ، وكذلك المعاصي ، كل معصيةٍ لها نتائج وَخِيمة ، فإن لم تحب أحد ، إن أحببت نفسك ، إن كنت مفرطاً في أنانيتك أطع الله سبحانه وتعالى ، إذا أطعته تسعد في دنياك وآخرتك ، هي على كلمة :

(أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ)

4 ـ استجب لإنذار الله :

إنذار ، فمن منا إذا جاءه إنذار من دائرة الهاتف " إن لم تدفع خلال عشرة أيام يلغى الاشتراك " ، وتعرف أن تأمين هاتف شيء صعب جداً ، وقد يكون ثمنه كبيرا ، يحتاج إلى وسائط مهمة ، من منا لا يبادر فوراً لإنذار من إنسان ، لانقطاع الهاتف فقط تبادر ، تأخذ إجازة ، تلغي عملاً مهمًّا لدفع الاشتراك ، إذا تلقيت إنذاراً من مؤسسة الهاتف ، ينذرك بالدفع أو يقطع الهاتف ، ماذا تعمل ؟ لماذا أنت تتعامل مع الناس بتفهُّم وصدق ، وتقرأ كتاب الله صباحاً ومساءً ، أو يتلى على مسامعك ، ولا تأخذ بآياته وتقول : سَيُغْفَرُ لنا ، كما قال اليهود ؟ .

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)

(سورة الأعراف : من الآية 169)

من قال لك ذلك ؟

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى)

(سورة طه)

هذه أربعة شروط ، هل تبت توبةً نصوحاً ؟ وهل آمنت بالله حق الإيمان ؟ وهل عملت صالحاً ؟ وهل اهتديت إليه ؟ إن كنت كذلك فأبشر بالمغفرة .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النحل)

الحد الأدنى تعامَلْ مع الله سبحانه وتعالى كما تتعامل مع إنسان يعطيك إنذاراً فتنفذ على الفور .

(أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ)

أي أن هذا الذي يعصي الله أيضمن صحته ، أيضمن أن لا يصاب بمرض عضال ، أيضمن أن لا يصاب بمرضٍ يدفع كل ماله من أجل معالجته ، والشواهد أمامكم كما ترون ، أمراضٌ وبيلة تفتك بالناس في الغرب بسبب انحرافهم ، وآخر إحصاء لمرض انحلال المناعة مائة مليون مصاب في العالم الآن ، بسبب الانحراف الأخلاقي ، اعملوا ما شئتم ، إطلاق البصر له ثمن .

رجل كانت هوايته أن يتنزَّه في الطرقات ، ويطلق بصره بالحرام فأصيب بمرض اسمه ارتخاء الجفون ، لا يستطيع أن يرى إلا إذا فتح جفنه بيده .. إن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً ، لا تحب أحداً ، أحبَّ نفسك ، فإذا أحببتها تستقم على أمر الله ، انتبه لسمعك ..

((من استمع إلى صوت قينةٍ صب في أذنيه الآنك يوم القيامة قيل : وما الآنك يا رسول الله؟ قال : الرصاص المذاب))

[ورد في الأثر]

((من نظر إلى الحرام ملأ الله عينيه من جمر جهنم))

[ورد في الأثر]

((من أكل لقمة من حرام لا تقبل له شهادة عند الناس ولا صلاة عند الله سبحانه وتعالى))

حرر دخلك ، أدِّ زكاة مالك ، ادفع للناس حقوقها ، لا تبخس الناس أشياءهم ، لا تَبنِ غناك على فقر الناس ، ولا على حرمانهم حقوقهم ، لا تبن صحتك على مرضهم ، ولا مجدك على أنقاضهم ، لا تبن شيئاً على حساب شيء .

(أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ)

الله سبحانه وتعالى ، هذا كلام الله لا كلام بشر ..

(أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ)

أي ناس .

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ)

5 ـ من عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت :

من يضمن أن يعيش إلى ساعة ؟ قال عليه الصلاة والسلام :

((من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت))

إذا قال : غداً سأشتري هذا الشيء ، وهو يظن أن غداً سيعيشه ، وأنه سيعيش غداً لا محالة ، فقد أساء صحبة الموت ، فمن منا يضمن أن يعيش إلى ساعة ؟ إذاً : لابدَّ من أن تنام وقد صفَّيت الحساب .

((إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا ، وَإنْ أرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

معنى ذلك أن هناك موتين ، موت النوم وموت الموت ..

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

(سورة الزمر : من الآية 42)

وفاة كاملة ، فإذا وضع الإنسان رأسه على الوسادة فإما أن يستيقظ ، وإما أن لا يستيقظ ، إما أن يستيقظ وإما أن يستيقظ الناس على نعيته .

أعرف رجلا نام الساعة الحادية عشرة ، يبدو أن زوجته في الساعة الواحدة لمست يده فرأتها باردة فاستيقظت مذعورة ، فإذا هو ميت .

((من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت))

أما المؤمن فيحسب لهذه الساعة حسابها ، يُعِدُّ لها طوال حياته ، ليلاً ونهاراً ، فحضور مجالس العلم إعدادٌ لها ، وإتقان الصلاة إعدادٌ لها ، ودفع الزكاة إعدادٌ لها ، وغض البصر إعدادٌ لها ، وخدمة الخلق إعدادٌ لها ، والإكثار من العمل الصالح إعدادٌ لها ، هذه البطولة ، البطولة أن تعُد لساعةٍ نسيها الناس ، غاب عنها ، في غفلةٍ عنها ، ساهون لاهون .

(أنْ أنذِرِ النَّاسَ)

إنذار من الله ، إذا قرأت إنذار الكهرباء ، أو إنذار الماء بالقطع ، أو إنذار الهاتف فتذكَّر إنذار الله سبحانه وتعالى .

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ)

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ

أما هذا المؤمن ليكن في الدنيا ما يكن ، كبير الشأن ، أم صغير الشأن ، معروفا ، أم غير معروف ، مشهورا ، عَلَما ، أم غير عَلَم ، مغمورا ، دخله محدود ، أم دخله غير محدود ، قوي البنية ، أم ضعيف البنية ، زواجه موفق ، عنده أولاد ، ما عنده أولاد ، هو مؤمن .

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ)

البطولة أن تكون مؤمناً ، سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال : "الحمد لله ثلاثًا ؛ الحمد لله إذ لم تكُ في ديني " .. أية مصيبةٍ ليست في الدين تهون ، لا قيمة لها ، يأتي الموت فيضع حداً لها ، لكن البطولة

أن تكون بعد الموت :

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ)

1 ـ معنى : قَدَمَ صِدْق

معنى قدم صدقٍ أي أن المؤمنون سبقوا إلى هذه المكانة ، في تسابق .

لابد من المنافسة في ميدان الخير لكسب قدم الصدق :

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الحديد : من الآية 21)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

هنا التنافس ، هنا التنافس الشريف ، شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس ، فلا يوجد شيء في الدنيا أعظم من أن يكون لك عند الله مقام .

(أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)

(سورة الإسراء)

يجب أن تعرف مقامك عند الله ، إذا أردت أن تعرف ما لَكَ عند الله فانظر ما لله عندك ، هل تقف عند الحرام ؟ هل تبادر إلى المأمورات ؟ هل تدع المنهيَّات ؟ هذا مقام الله عندك ، فإذا ترك الإنسان أوامر الدين لسببٍ تافه ، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى لا شأن له عنده ، وكلمة : لا أستطيع ، وليس عندي وقت ، ولا أريد ، هذه كلمات لا يقولها المؤمن ، المؤمن ذو همةٍ عالية ، فلذلك :

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ)

لهم مكانة ثابتة ، حصَّلوها بسبقهم ، وقدم صدقٍ فيه معنى السبق ، وفيه معنى آخر وهو الثبات ، مكانة ثابتة حَصَّلها بسبقه .

(عِندَ رَبِّهِمْ)

2 ـ الخلق كلهم عيال الله لا فرق بينهم إلا بالتقوى :

والخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، لا فرق بين عربيٍ وأعجمي إلا بالتقوى ، المقياس واحد ، الناس ابتدعوا مقاييس كثيرة ، لكن الله سبحانه وتعالى يقيس عباده جميعاً بمقياسٍ واحد.

((إنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ هِيَ فِي النَّار))

[من مسند أحمد عن أبي هريرة]

((ترك دانقٍ من حرام خير من ثمانين حجةً بعد الإسلام))

[ورد في الاثر]

سألوا الجُنيد : " من ولي الله ؟ أهو الذي يطير في الهواء ؟ " قال : " لا " ، " أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال : " لا ، الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام " .

أحبابنا اختاروا المحبة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحب شرعاً

التقيُّد التام بالشرع علامة الإيمان .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

إذا كانت هذه حالة النبي فكيف نحن ؟

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود : من الآية 112)

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ)

قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ

1 ـ من صفات الكافر التشكيك في الدين :

فالكافر يريد أن يشكك بالدين ، يتهمه بالغيبية أحياناً ، يتهمه بالعجز عن مواجهة مشكلات الحياة ، يتهمه بعدم التطور ، يتهمه اتهاماتٍ كثيرة ، كل هذه الاتهامات تعبيرٌ عن خللٍ أصاب الكافر من ترك الدين ، هذا الخلل يحب أن يتهم الدين بشيء كأنه يُعفي نفسه من اتباعه ، هذه الحالة الداخلية للذين ينكرون الدين :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون)

هو نفسه .

2 ـ عدم الاستجابة نابعٌ من اتباع الهوى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : من الآية 50)

علامة عدم الاستجابة اتباع الهوى ، اتباع الهوى يحمل صاحبه على أن لا يستجيب .

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

1 ـ معرفة الله أساس الدين :

كلمة دقيقة جداً ، النبي اللهم صلِّ عليه حينما جاءه أعرابي قال له : " جئتك لتعلمني من غرائب العلم " ، فقال عليه الصلاة والسلام : "فماذا صنعت في رأس العلم ؟ " فقال هذا الأعرابي : " وما رأس العلم ؟ " قال : " هل عرفت الرب ؟ " .

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((رأس الدين معرفته))

[روي في الأثر]

فمعرفة الله سبحانه وتعالى أساس الدين ، فإذا عرفت الله عرفت كل شيء ، وإن لم تعرف الله لم تعرف شيئاً ، ما دامت معرفة الله أساس الدين كيف نعرفه ؟

2 ـ معرفة الله تتم من خلال آياته :

هل يمكن أن ندركه بحواسنا ؟ الجواب : لا ، لا تدركه الأبصار ، أي أنه يستحيل على حواسنا جميعها أن تعرفه ، بقي طريقٌ واحد ، لا يمكن أن تعرفه إلا من خلال آياته ..

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ)

(سورة النحل : من الآية 104)

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

طريق وحيد ، لما ربُّنا عزَّ وجل بين قصة سيدنا إبراهيم :

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ(76)فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

(سورة الأنعام)

الآية معروفة ، والقصة معروفة ، إلى أن قال :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

ربنا عزَّ وجل أطلعنا على أن طريق الإيمان هو التأمُّل في آيات الكون ، ضع فرضية وأثبتها لم تثبت، دعها ، ضع فرضية أخرى إلى أن تهتدي إلى الحقيقة ، هذا هو الطريق الوحيد ، لذلك ربنا عزَّ وجل عقِب هذه القصة قال :

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 88)

هذا هو الهدى ، بهذه الطريقة التي اتبعها إبراهيم تهتدي وإلا فلا ، ثم قال بعد ذلك :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 90)

يجب أن تجعل طريقتهم في الهداية قدوةٌ لك ، وفي أعقاب ذلك قال :

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمْ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الأنعام : من الآية 111)

إلا إذا سلكوا الطريق الذي رسمه الله سبحانه وتعالى ، فلو أن الإنسان قرأ كتب طب وحده في البيت ، لو قرأ مجلات طبية ، لو ارتدى ثوباً أبيض ، لو فعل ما فعل ، لا يكون طبيباً إلا إذا دخل كلية الطب ، الطريق إلى الله سبحانه وتعالى وحيد .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 153)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

لذلك :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

أي هل فكرتم في ربكم الذي يمدكم بما تحتاجون ؟ ربكم هو الخالق..

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

خَلقُ السماوات والأرض :

هل وصلت إلى معرفة الخالق ؟ من خلق المجرات ؟ من خلق مليون مليون مجرة؟ من جعل بين المجرتين ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية ؟ من جعل مليون مليون مجرة وفي كل مجرة مليون مليون نجم ؟ فهذا مذنب هالي سيأتينا ضيفاً بعد أشهر .. رقم لا أذكر دقته ، ربما طول ذنبه تسعة ملايين كيلومتر .. يدور في مداره في كل سبعين سنة دورة ، وقد مر بالقرب من الأرض عام : ألف وتسعمائة وعشرة ، كل ستة وسبعين سنة مرة ، من خلق هذا المذنب ؟ من خلق الشمس ؟ هل عرفت الخالق ؟ هل صدَّقت أن الله هو الذي خلق كل شيء ؟ من صمم هذه الآيات ؟ ..

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

1 - معنى : فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

بعضهم قال اليوم هو الدَوْر ، و ..

(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

في ستة أدوار ، أي أن في تُحْمَل على الحال ، أي ليلٌ ونهار ، وصيف وشتاء ، وربيعٌ وخريف ، نظام الأرض مبني على ستة أيام ، ليلٌ ونهار وأربعة فصول ، وهناك آيات تؤكّد هذا المعنى :

(وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ)

(سورة فصلت : من الآية 10)

أي في أربعة فصول .. إذاً :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

2 - العاصي لا يعرف الله ربَّه :

الحقيقة أن الذي يعصي الله لا يعرفه ، لذلك قالوا : " لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت " ، مهما كان الذنب صغيراً ، هو صغير ، لكن هل تعرف أنت من تعصي ؟ تعصي الخالق ، تعصي الرب ، تعصي المسيِّر ، تعصي السميع ، البصير ، الرحيم ، العليم ، القوي ، الغني عن طاعتك

فكلما استحضرت أسماء الله الحسنى كَبُرَ عليك أن تعصيه لذلك :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 28)

بقدر ما تكون عالماً بقدر ما تكون خاشعاً ، حجم خشوعك بحجم علمك ، حجم خشيتك بحجم معرفتك ، لذلك : لا يعصي الله إلا جاهل .

لقوله تعالى :

(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

تفسيرات كثيرة ، هذا بعض التفاسير .

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

كما قال الإمام مالك : " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال بدعة ؟ لكن هناك من وضح هذه الآية بأن الله سبحانه وتعالى إما أن ترى أن الله يدبر الأمر ، فإن رأيت الله يدبر الأمر هانت عليك الأمور ، وكان هذا التدبير برداً وسلاماً على قلبك وطمأنينةً وراحة ، لذلك حالة المؤمن النفسية عزيزة، كلها طمأنينة ، كلها استسلام لحكمة الله ، استسلام لأمر الله ، هو متوكل، مفَّوض ، مسلَّم ، مرتاح ، يدبِّر الأمر ، حتى أن بعض الصوفيين قال : " دبِّر أن لا تدبر " .

" أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد " .

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

يُدَبِّرُ الأَمْرَ

معنى : يُدَبِّرُ الأَمْرَ

فإذا رأيت في سنة مواسم الفواكه كثيرة ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

سنة فيها شُح بالأمطار ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

سنة فيها خيرات كبيرة ..

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

جاءك ذكور فقط ..

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

جاءك إناث فقط ..

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

جعلك الله عقيماً ..

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

زوجة صالحة ..

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

صحة طيبة ..

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

تدبيره ، وكل شيء يفعله وراءه حكمةٌ بالغة لا يعلمها إلا الله ، فالإنسان المؤمن مستسلم لذلك :

((عَجَبًا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ ؛ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ ، إنْ أصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإنْ أصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[صحيح مسلم عن صهيب]

فكلمة :

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

من جعل الأرض تدور حول الشمس ؟ الله ، لو وقفت لتوقفت الحياة ، لو وقف دورانها حول نفسها لتوقفت الحياة ، لو دارت على محور موازٍ لمستوي الدوران .. هكذا .. هنا نهار إلى الأبد ، مائتان وخمسون درجة فوق الصفر ، مات كل شيء ، وهنا ليل إلى الأبد ، مائتان وخمسون درجة تحت الصفر مات كل شيء ، من جعل المحور مائلاً ؟ من جعل الدورة حول نفسها وحول الشمس ؟ من جعل المدار إهليلجياً ؟ من جعل الشكل البيضوي له بعدان ؛ بعد أدنى وبعد أقصى ، في البعد الأدنى قد تجذب الشمس الأرض ، الله سبحانه وتعالى زاد من سرعتها فنشأ من هذه السرعة قوةً نابذة تكافئ القوة الجاذبة ..

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

من يسوق السحاب ؟ الله سبحانه وتعالى ، من ينزل الأمطار ؟ الله سبحانه وتعالى ، من ينبت النبات ؟ الله سبحانه وتعالى ، من يحرِّك الرياح ؟ الله سبحانه وتعالى ، من يُخَلِّقُ الجنين في بطن أمه ؟ الله

سبحانه وتعالى ، نقطة ماء بعد تسعة أشهر ، كائن ؛ له رأس ، له شعر ، له عينان ، له أنف ، له فم ، يتثاءب ، يعطس ، يتنفس ، يأكل ، الطريق مفتوح ، يتحرَّك ، يستجيب للضوء ، يستجيب للصوت ، فيه كبد ، وبنكرياس ، وفيه صفراء ، فيه أمعاء دقيقة ، فيه أعصاب ، فيه عضلات ، في شرايين ، فيه أوردة ، فيه عظام ، فيه أربطة ، فيه مفاصل ، فيه لسان ، فيه رغامى ، فيه مري ، فيه لسان مزمار ، فيه دماغ ، فيه مخ ، فيه مُخَيْخْ، فيه عمود فقري ، فيه حوض ، فيه عضلات ، تسعة أشهر من يدبر الأمر ؟ الله سبحانه وتعالى ..

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ)

تكفي هذه الآية ، يدِّبر أمر المخلوقات ؛ الحيوان ، والنبات ، وكل شيء الله عزَّ وجل خلقه يدبر .

مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

1 ـ معنى الشفع :

الشفع هو الزوج .

2 ـ لا يقع شيءٍ في ملك الله إلا بأمر الله :

أي أن أي شيءٌ في ملك الله لا يستطيع أن يقع على شيءٍ في ملك الله إلا بأمر الله ، شيءٌ ما في ملك الله لا يستطيع أن يصيب شيئاً ما في ملك الله إلا بأمر الله ، هذه معنى آية الكرسي .

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

العقرب تلدغ ، لا تستطيع العقرب أن تلدغ مخلوقاً ما إلا بأمر الله ، النار تُحْرِق ، لا تستطيع النار أن تحرق شيئاً ما إلا بأمر الله .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

إنسان شرير لا يستطيع أن يصل إلى الإنسان إلا من بعد إذن الله سبحانه وتعالى ، فإذا كان الأمر بيد الله فالقضية محلولة ، عليك أن ترضي جهةً واحدة ، أما المنافق والمشرك فيجب أن يرضي كل الجهات ، وإرضاء الناس غايةٌ لا تدرك ، لكن المؤمن يرضي الله سبحانه وتعالى ، قال سيدنا هود :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

أيّ إنسان شرير تخافه فهو بيد الله عزَّ وجل ، بملك الله .

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)

(سورة الحديد : من الآية 22)

هذا هو الإيمان ، فإذا كنت في مستوى هذه الآية فلا تحزن على شيء ، سيدنا الصديق لم يندم على شيءٍ فاته من الدنيا .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

إنسان أكرمك فهذا من بعد إذنه ، إنسان سبّب لك متاعب فهذا من بعد إذنه ، إنسان أفسد عليك ، أجبروك على دفع مائة ألف ، فمن بعد إذن الله ، إنسان سبّب لك أن يُكتَب بك ضبط ، فالتسعيرة ليست مضبوطة فمن بعد إذن الله .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

إنسان ضايقك من الجيران فمن بعد إذن الله ، إنسان خوَّفك فمن بعد إذن الله ، آخر أكرمك فمن بعد إذن الله، واحد أعطاك عطاء ثمينًا فمن بعد إذن الله .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)

فهذا هو التوحيد ، الدين كله توحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، وَحِّد تسترح .

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

أي أن هذا أساس الإيمان ، لا يستطيع إنسانٌ ما ؛ مهما كبر شأنه ، مهما كان قوياً ، مهما كان جباراً ، لا يستطيع إنسانٌ ما أن يصل إليك إلا بإذن الله ، كن مع الله ترَ الله معك ..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب نا فإن منحنا بالرضا من أحبنا

ولُذ بحمانا و احتمِ بجنابـنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

3 ـ توكَّل على الذي كلُّ الأمر بيده :

ما مِن حالة أجمل من أن يكون المؤمن لائذاً بحماية الله ، قل هذه الكلمات في السجود : يا رب ليس لي إلا أنت ، لا تتكل على شيء ، لا على علمك ، ولا على مالك ، ولا على شأنك ، من اتكل على شيءٍ

وكله الله إليه ، هو شرك ، إما أن تشرك نفسك مع الله ، وإما أن تشرك مخلوقاً آخر مع الله ، وفي كلتا الحالتين لابدَّ من أن يؤدِّبك الله سبحانه وتعالى ، كطالب متفوق بالهندسة ومقصِّر بالجبر ، قال له : يا رب الهندسة علي ، لكن الجبر عليك ، أنا ضعيف بالجبر ، دخل على الامتحان أخذ بالهندسة صفرا ، في العام القادم قال : يا رب الهندسة والجبر عليك ، من اتكل على شيءٍ أوكله الله إليه .

(مَا مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِن بَعْدِ إذْنِهِ)

إذا دخلت على موظف ، ولم يقل لك : اقعد ، من بعد إذنه ، تعرف أنه صاحبك ، قال لك : الآن أريك من هو صاحبك ، أحياناً يبقيك واقفاً خمس دقائق ، لا ينظر إليك ، من بعد إذنه ، حتى هذا الموقف من بعد إذنه ، فأنت كن مع الله ترَ أن الأعداء يخدموك ، اتركه فأقرب الناس يتخلى عنك ، أحياناً تتخلى الزوجة عن زوجها ، تهمله ، تقسو له في الكلام ..

(مَا مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِن بَعْدِ إذْنِهِ)

فهذه آية دقيقة .

(يُدَبِّرُ الأمْرَ)

هو الله .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إلَهٌ وَفِي الأرْضِ إلَهٌ)

(سورة الزخرف : من الآية 84)

(وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إنَّمَا هُوَ إلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل : من الآية 51)

لا إله غيره ، هذا هو التوحيد ، تجد الإنسان يصلي وهو مشرك ، يصوم وهو مشرك ، يقوم ببعض العبادات وهو مشرك ، والشرك معه خوف ، معه حزن ، معه قلق ، معه ضياع ، معه تشتت ، معه ضيق ، معه أشياء كثيرة ؟

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ)

ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ

هذا الرب هو الذي يستحق العبادة وحده :

ألا يكفي أن الله خالقٌ ؟ ألا يكفي أن الله خالق السماوات والأرض ؟ ألا يكفي أن الله رب كل شيء ؟

ألا يكفي هذا كي تعبدوه ؟ أتعبدون من دون الله ما لا يسمع ولا يبصر ..

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

1 ـ القبر مصير لا مفرّ منه :

اذهب إلى أي مكانٍ شئت ، افعل ما شئت ، لابدَّ من أن ترجع إليه فتحاسب على كل صغيرةٍ وكبيرة ، حينما يوضع الميت في قبره قال بعضهم : إن أصعب ليلة أول ليلة ، يقول الله عزَّ وجل : " عبدي رجعوا وتركوك " ، وضعوه في هذا القبر ، فإذا بالقبر مفتوح عليه المجاري ، فقالوا لابنه : ماذا نفعل؟ قال لهم ، دعوه ، فماذا سنفعل ؟

" رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت " .

ألا يجب أن تعرفه من الآن ؟ المكوث معه أبداً ما من أحد غيره ، الآن معك زوجة ، وولد ، و رفيق ، و صاحب ، و سهرة ، نمضي الوقت ببعض الألعاب ، نلعب النرد ، وبعد ذلك ؟

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

2 ـ لو تمتعت من كلِّ شيء ، ثم ماذا ؟

ذهبت إلى نزهات ، جُبْتَ العالم كله ، يقول لك : أخي سويسرا جميلة جدا ، إسبانيا أجمل من سويسرا، تناقش الناس بجمال البلاد ، ثم وبعد ذلك ؟

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

لو طفت الدنيا بأكملها ، لو طرت في السماء ، لو غصت في البحار..

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

3 ـ لا قيمة للدنيا في الآخرة :

المصير معه ، فالذكاء والعقل يقولون لك : اعرفه قبل فوات الأوان ، اعرفه قبل أن تأتيه صفر اليدين،

لو أن إنساناً أخذ أمواله كلها لبلد وقالوا له : هذه الأموال هنا لا قيمة لها ، نريد عملة محلية ، خسر كل شيء ، والإنسان كذلك إذا ذهب إلى الدار الآخرة ، يا رب أنا عندي خمسة طوابق بأرقى حي ، ليس لها عندنا أي شغل ، عندي ثمانية أولاد ، ثلاثة منهم أطباء ، وأربعة مهندسون ، وواحد طبيب ، فيقال لك : لمْ تعلمهم الدين ، يا رب أنا عملت معملا إنتاجه عالٍ جداً ، وكنت أربح أموالاً طائلة ، المعمل ليس له قيمة هنا ، فكل شيء أنشأه بالدنيا ، ليس له قيمة ، العمل الصالح فقط ، لذلك " الغنى والفقر بعد العرض على الله " ، الغنى غنى العمل ، والفقر فقر العمل .

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة العصر)

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

والله الذي لا إله إلا هو يجب أن لا يغادر ذهنك موضوع العودة إلى الله فتذكره كل يوم مائة مرة ، وأنت تبيع ، تحلف بالله أنها ليست رابحة معك ..

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

ما قولك ؟ تحلف بالله ، أخي انصحني ، تنصحه بالبضاعة الكاسدة عندك ..

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

تعمل أعمالاً خلاف الأصول ، تأكل مالاً حراماً ..

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

أي عملٍ سوف تحاسب عليه ، صغيراً كان أو كبيراً .

(وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ)

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ

مهما كان العمل صغيراً فستحاسب عليه :

ما أكرم شابٌ شيخاً لسنه إلا سخَّر الله له من يكرمه عند سنه .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

مهما كان العمل صغيراً فستحاسب عليه ، ومهما كان كبيراً تحاسب عليه ، إذاً : ليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يغفر له .

(وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)

وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ

هؤلاء الكفار لهم ..

(لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)

قال : ألا يا رُبَّ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا ، طاعمةٌ ناعمةٌ يوم القيامة ، ألا يا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٌ عاريةٌ يوم القيامة ، ألا يا رب مكرمٍ لنفسه ، وهو لها مهين ، ألا يا رب مهينٍ لنفسه وهو لها مكرم ، البطولة أن تأتي الله سبحانه وتعالى وأنت نظيف ..

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

(وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ{4} هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{5} إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

هذه الآيات نشرحها إن شاء الله في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (03-17): تفسير الآيات 05 – 09
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-10-04

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(5)إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ(6)إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(7)أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ

1 - على قارئ القرآن أن يعلم أنّ الذي يتلوه كلام الله وآياته :

من قوله تعالى :(هُوَ)يعلم قارئ القرآن أن الذي يتلوه كلام الله ، خالق السماوات والأرض ، الذي أمره ونهاه ..

2 - الشمس والقمر آيتان من آيات الله :

(هو).. من آياته الدالّة على عظمته أنه خلق الشمس ، من آياته الدالّة على عظمته أنه خلق القمر ، فهل فكّرنا في الشمس أو في القمر ؟

رؤية آيات الله بين البصر والبصيرة :

الإنسان يمكن أن يرى الشمس ولا يراها ، وقد لا يرى الشمس وقد يراها ، هناك رؤية عينٍ ، وهناك رؤية قلبٍ ، هناك بصرٌ وهناك بصيرةٌ ، مَن مِنَ البشر اليوم لا يرى الشمس ؟ كل ذي عينين يرى الشمس ، لكن مَن رأى من خلال الشمس عظمة الله سبحانه وتعالى ؟ قِلّةٌ قليلة ..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105)وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس : من الآية 101)

هذه هي الشمس ببُعدِها وضوئها وحرِّها :

الشمس .. بالمناسبة .. أقرب نجمٍ إلينا ، إذا كان النجم ملتهباً وهو منبعٌ ضوئي ، والكوكب مُبَرَّد ، له قشرةٌ باردة ، فأقرب نجمٍ إلينا من دون استثناء هو الشمس ، هذه الشمس التي ترونها متألِّقةً في رابعة النهار ، ومع أنها أقرب نجمٍ إلينا يزيد بُعْدُها عن الأرض عن مائة وستة وخمسين مليون كيلو متر ، وهي أقرب نجمٍ إلينا ، لو تخيَّلنا أن طريقاً سالكةً إلى الشمس فكم يقطعها قطارٌ يسير بسرعة مائة كيلو متر في الساعة ؟ يقطعها في مائتين وعشر سنين إلى أن يصل إلى الشمس ، كم تقطعها قذيفة مدفعٍ ؟ في سبع سنين ، كم يقطعها الضوء ؟ في ثماني دقائق .

أحبُّ أن أوضِّح لكم بُعْدنا عن الشمس ، في ثماني دقائق يقطع الضوء المسافة بين الأرض والشمس ، مع أن سرعة الضوء ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية ، وأما قذيفة المدفع فتحتاج إذا أُطْلِقَت من الأرض إلى سبع سنين كي تصل إلى الشمس ، وأما القطار فيحتاج إلى مائتين وعشر سنين كي يصل إلى الشمس ، هذه المسافة بيننا وبين الشمس ليست بشيء إذا ما قيست بالمسافات الكونيَّة الأُخرى ، أي أن بيننا وبين الشمس ثماني دقائق ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة .

شيءٌ آخر : أقرب نجمٍ آخر إلى الأرض بعد الشمس هو نجم القُطْب ، بُعده عنَّا أربع سنواتٍ ونصف من السنوات الضوئيَّة ، هذه الشمس مصدر حرارةٍ وضياءٍ للأرض ، من منَّا يصدِّق أن نصيب الأرض من هذه الأشعَّة ، ومن هذه الحرارة ، ومن هذا الضياء واحد على ألفي مليون جزء ، نصيب الكرة الأرضيَّة بأكملها من أشعَّة الشمس ، ومن ضيائها ، ومن نورها ، ومن حرارتها ، ومن طاقتها واحد على ألفين مليون جزء مما تنتجه الشمس لما حولها من الكواكب السيَّارة ، الشمس نجمٌ متألِّق مشتعل .

قد يسأل سائل : كم مضى على تألُّقها ؟ فبعض العلماء يقول : " أكثر من خمسة آلاف مليون سنة " ، وهؤلاء أيضاً يتوقَّعون أن تعيش الشمس متألِّقةً أكثر من خمسة آلاف مليون سنة قادمة ، لقوله تعالى :

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)

(سورة يس : آية 38)

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1))

(سورة التكوير)

لها عُمر ، فهناك سؤال دقيق : ما هي هذه الطاقة التي مضى على تألُّقها خمسة آلاف مليون سنة ، وسوف تستمر خمسة آلاف مليون سنة قادمة ؟ شيء عجيب ، قال بعض العلماء : الشمس فرنٌ ذَرْيّ

فيها غاز الهيدروجين ، فلو أن هذا الغاز أحرقناه لما أنتجت الشمس هذه الطاقة ، ولكن هناك تفجير نَوَويّ لذرَّة الهيدروجين إذْ يتحوَّل عنصر الهيدروجين إلى عنصر الهيليوم ، من هذا التفجُّر النووي تنتج هذه الطاقة التي لا حدود لها ..

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(96))

(سورة الأنعام)

هذه هي الشمس ، من خمسة آلاف مليون سنة ولخمسة آلاف مليون سنة تنتج من الطاقة الشيء الذي لا يُصدَّق .

حرارة سطحها ستة آلاف درجة ، وتصل حرارة الأعماق فيها إلى خمسة عشر مليون درجة ، فلو أن الأرض أُلقِيَت في الشمس لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة ، وكل إنسانٍ على وجه الأرض يتلَّقى من الشمس طاقةً تعادل ستة عشر ألف حصان بخاري ، ما هو الحصان البخاري ؟ الاستطاعة بالفيزياء تُقاس بالحصان البخاري ، عندما صنعوا القطار البخاري وضعوا في الطرف المقابل أحصنة ، فكانت هذه الأحصنة تشدُّ القطار إلى الوراء بكل طاقتها ، فحيثما وقف القطار أي أن القوة الدافعة للمحرِّك تكافئ قوة الحصان الدافعة في اتجاه معاكس، قالوا : قوة هذا المحرِّك يعادل عشر أحصنة ، هذا أساسها ، فالآن صارت تحسب القوى بالأحصنة فيقال : هذه السيَّارة اثنا عشر حصاناً ، خمسة عشر حصاناً ، فكل إنسان يتلَّقى من الشمس طاقة واستطاعة تُعادِل ستة عشر ألف حصان بخاري على وجه الأرض ، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى قال :

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت : من الآية 37)

من منَّا يصدِّق أن ألسنة اللهب التي تُرى إذا كان للشمس كسوفٌ كامل يزيد طولها على مليون كيلو متر ، فربنا عزَّ وجل قال :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً)

من منَّا يصدِّق أن الشمس تفقد كل يوم ثلاثمائة وستين ألف مليون طن من كتلتها ، كل يوم ، وتفقد في الثانية الواحدة أربعة ملايين وستمائة ألف طن من كتلتها ، هذه بعض الحقائق عن الشمس ..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

لو أنَّ إنساناً يزن على سطح الأرض خمسةً وستيّن كيلو غراما ، ووقف على سطح الشمس .. فرضاً.. لكان وزنه ألف وسبعمائة كيلو غرام ، هو هو الإنسان ، لقوَّة جذبها ، لأن كتلة الشمس أكبرُ من كتلة الأرض بثلاثٍ وثلاثين ألف مرَّة ، لكن حجم الشمس أكبر من حجم الأرض بمليون وثلاثة وثلاثين ألف مرَّة ، والكتلة غير الحجم ، أشياء مثيرة وعجيبة ودقيقة عن الشمس ، الشمس تجري في كل ثانية

عشرين كيلو مترا ، الأرض تدور حول نفسها ، والأرض تدور حول الشمس ، والشمس تجري ، والمجرَّة تجري ، أربع حركات ؛ الأرض حول نفسها ، والأرض حول الشمس ، والشمس تجري باتجاه قلب النسر وهو نجمٌ آخر .. النسر الواقع .. والمجرَّة التي نحن فيها كلُّها تجري ، سرعة المجرَّة مائتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية الواحدة ، أي أن هذه سرعةٌ قريبةٌ من الضوء .

نحن في حركةٍ مذهلة ، سرعة المجرَّة ، وسرعة الشمس باتجاه النسر الواقع عشرون كيلو متر بالثانية الواحدة ، وسرعة الأرض حول الشمس ثلاثون كيلو متر في الثانية الواحدة ، وسرعتها حول نفسها ألف وستمائة كيلو متر في الساعة ، ومع هذا نشعر أن الأرض مستقرَّة ، أي استقرارٍ هذا ؟ ..

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل : من الآية 61)

من آيات الله الكبيرة ، حركةٌ حول النفس ، وحركةٌ حول الشمس ، والشمس متحرِّكة ، والمجرَّة متحرِّكة ، ونحن نحسُّ أن الأرض مستقرَّة ، ونشيد الأبنيَّة ، ولا يتحرَّك في البناء شيء ..

من نجوم المجموعة الشمسية :

أقرب نجمٍ إلى الشمس عُطارد ، تبعد عنه ثلاث دقائق ، وأبعد نجمٍ في المجموعة الشمسيَّة هو نجم بلوتو يبعد عن الشمس خمس ساعات ضوئيَّة ، الشمس تُرى من هذا النجم البعيد كنجمٍ صغيرٍ صغيرٍ في السماء الدُنيا ، والشمس تُرى من عطارد كقرصٍ كبيرٍ كبير ، ونحن في الأرض نراها بحجمٍ معتدل..

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(96))

(سورة الأنعام)

عطارد بفعل قربه من الشمس ترتفع حرارته عن ثلاثمائة وخمسين درجة مئويَّة ، الحياة عليه مستحيلة، وبلوتو الذي يبعد عن الشمس خمس ساعات تنخفض فيه الحرارة إلى مائتين وخمسين درجة تحت الصفر ، والحياة عليه مستحيلة ، فهل من باب المصادفة أن الحرارة على وجه الأرض معتدلةٌ وتوافق طبيعة الإنسان .

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(96))

(سورة الأنعام)

هذا من تقدير الله عزَّ وجل ، هذا نجمٌ آخر من المجموعة الشمسيَّة يبعُد عن الشمس خمس ساعات ضوئيَّة ، حرارته مائتان وخمسون تحت الصفر مع أنه يتلَّقى أشعَّة الشمس ، وهذا عطارد حرارته ثلاثمائة وخمسون فوق الصفر ، الحياة على هذين الكوكبين مستحيلة ، لذلك ربنا عزَّ جل قال :

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(5))

(سورة الرحمن)

أي أن هناك يد عليمة ، حكيمة ، خبيرة عَيَّنت هذه المسافة بيننا وبين الشمس ، فجعلت الحياة على سطح الأرض معقولة ، ومحتملة ، ومناسبة لطبيعة أجسامنا .

لو أننا أحرقنا هيدروجين الشمس ، أو أحرقناه عن طريق التفاعل النووي ، أو تفجير عنصر الهيدروجين ، التفجير النووي في الشمس يعطي طاقة تعادل مليون ضعف عن الطاقة الناتجة عن إحراق الهيدروجين ، والوقود السائل نحرقه في المحرِّك عن طريق المكابس ، يُنتج طاقة ، لو تخيلنا أنه بالإمكان بدل أن نحرقه أن نفجِّره نووياً لنتج عن هذه الطاقة مليون ضعف ، وهذا ما يحدث في الشمس ، فربنا عزَّ وجل قال :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

الشمس مصدر كبير للضوء ، أشعَّة الشمس تُحرق ، والآن هناك سخَّانات تعمل بأشعَّة الشمس ، عبارة عن مرآة مُقَعَّرة مكان الإناء في محرقها ، وربنا عزَّ وجل قال :

(وَالْقَمَرَ نُورًا)

من الآيات المتعلّقة بالشمس :

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة لقمان : من الآية 29)

هناك توقيت ، لقوله تعالى :

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1))

فنحن نحيا ، والشمس مِلْءَ بصرنا ، هذه الشمس أحد الأدلَّة الكُبرى على عظمة الله سبحانه وتعالى ، لذلك الإنسان مكلَّف أن يفكِّر في الشمس ، ما مصير الأرض لو انطفأت الشمس ؟ تصبح قبراً جليدياً للبشر ، ما حقيقة الأرض من دون الشمس ؟ لا حياة على وجه الأرض .

وَالْقَمَرَ نُورًا

أما القمر فالله سبحانه وتعالى جعله أيضاً آيةً لنا ..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

1 ـ هذا هو القمر نورًا وضياءً :

القمر عاكس لأشعَّة الشمس ، لذلك تجلَّت حكمة الله سبحانه وتعالى فيه ، فتربة القمر تربةٌ بلوريَّة مهمَّتها الكبرى عكس أشعَّة الشمس على سطحه إلى الأرض ..

(وَالْقَمَرَ نُورًا)

أشعَّة الشمس حادَّة ، أشعَّة القمر لطيفة ، القمر يبدو في الليل ، وفي الليل له جوٌ لطيف .

2 ـ دوران القمر تقويم لشهور العام :

القمر لحكمةٍ بالغة يدور حول نفسه مرَّةً في الشهر ، ويدور حول الأرض مرَّةً في الشهر .. الأرض هكذا والقمر هكذا ، القمر يدور هكذا .. إذاً : وجهٌ واحدٌ يواجهنا طوال أيام الشهر ، لأنه يدور حول نفسه مرَّة وحول الأرض مرَّة ، من جعل هذا التوافق في دورته حول نفسه وحول الأرض ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، لذلك ما يُرى على سطح القمر نراه دائماً ، فلو أن رائد الفضاء ذهب إلى وجه القمر الآخر لما رأى الأرض إطلاقاً ، لأن وجهاً واحداً يواجه الأرض في دوران القمر حول الأرض .

الأرض تدور ، والقمر يتحرَّك في اليوم الواحد ثلاث عشرة درجة ، لذلك حينما يكون القمر بدراً تراه يُشْرِقُ مع غروب الشمس من الشرق ، فإنْ شئتَ اضبط الساعة في أيَّام الصيف مثلاً ، أشرقَ على الساعة الثامنة ، في اليوم التالي يتأخَّر شروقه خمسين دقيقة ، أي أن القمرَ تحرَّك في مداره حول الأرض ثلاث عشرة درجة ، وهكذا ، لكن كيف يبدو هذا القمر كما قال الله عزَّ وجل :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ)

أي أن الشمس هكذا والقمر هكذا ، الأرض هنا ، إن كانت الأرض هنا والشمس في الوسط ، والقمر هنا ، فأهل الأرض يرون القمر بدراً كاملاً ، فإذا سار القمر هكذا ماذا يبدو لأهل الأرض ؟ يبدو لهم نصف وجه القمر الذي يرونه ، فإذا صار القمر بين الأرض والشمس صار محاقاً ، تقدير القمر منازل شيءٌ معجز ، أي أن الله سبحانه وتعالى جعله تقويماً لأهل الأرض ، تقويماً يراه كل الناس على اختلاف لغاتهم ، وثقافاتهم ، ومللهم ، ونِحَلِهم ، وأراضيهم ، شمال الأرض أو جنوبها ، شرقها أو غربها ، في أي مكان يُرى القمر على شكل منازل ، في اليوم الأول ، والثاني ، والثالث ... والرابع عشر ، والخامس عشر ، وهكذا ..

(وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

3 - بين القمر والأرض قصة :

القمر له أشياء دقيقة جداً ، من هذه الأشياء أن بعده عنَّا ثلاثمائة وستون ألف كيلو متر ، هذا أقرب كوكب إلى الأرض ، حتى إن علماء الفلك سمَّوه : تابعاً ، لشدَّة لصوقه بالأرض ، مركبة الفضاء قطعت المسافة في ثلاثة أيَّام بسرعة أربعين ألف كيلو متر ، لكن الضوء يقطع المسافة بين القمر والأرض في ثانيةٍ واحدة فقط ، في ثانيةٍ واحدة تُقطَع المسافة بين الأرض والقمر .

القمر كتلة والأرض كتلة بينهما تجاذب ، الأرض تجذب القمر والقمر يجذب الأرض ، الأرض تجذب القمر ولولا جذبها له لانطلق في مسارٍ مستقيم بعيداً بعيداً عن الأرض ، لكن جذب كتلة الأرض للقمر تجعله يدور حولها ، ولولا جذب الأرض للقمر لدارت الأرض حول نفسها دورةً في كل أربع ساعات ، صار النهار ساعتين والليل ساعتين ، مكابح ، غير معقول أن النهار ساعتان ! استيقظ من نومه ، صلى الصبح ، لبس ، ذهب إلى العمل فأذَّن المغرب ، لم يفتح المحل بعد ، رفع الغلق فأذَّن المغرب ، هل يرجع إلى البيت ؟ غير معقول ، جاء إلى البيت ليتعشَّى ، تعشَّى وجلس مع أولاده فذهب لينام فرأى الشمس أشرقت ، غير معقول ، لولا أن القمر يخفف من سرعة الأرض لصار النهار ساعتين والليل ساعتين ، لكن جذب القمر للأرض يجعل دورة الأرض حول نفسها في أربعٍ وعشرين ساعة ، هذا معقول ، والإنسان دخل إلى بيته ، وارتاح لا يزال معه مسافة طويلة ، ووقتٌ طويل كي يستريح ، ذهب إلى عمله في داوم لثماني ساعات فتعب ، جاء إلى البيت وتناول طعام الغداء ، رجع إلى عمله ، وعاد بعد المغرب ، فتوقيت النهار والليل اثنا عشر ساعة شيءٌ دقيق جداً ..

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(96))

(سورة الأنعام)

بين القمر والأرض تجاذب ، العلماء قدَّروه بكبل فولاذي قطره خمسون كيلو مترا ، لكن الله لطيف ، جذب الأرض للقمر ليس عن طريق كبل فولاذي بل قوَّةٌ جاذبة لا تراها ، هناك جذب ، والدليل : المد والجزر ، البحر يرتفع عشرين متراً حينما ينجذب إلى القمر ، وهناك بحوثٌ حول أن اليابسة نفسها ترتفع سنتيمترات بفعل جذب القمر ، هناك علاقةٌ وطيدة بين الأرض والقمر .

قالوا : لو أن القمر اقترب من الأرض إلى نصف المسافة فقد يظن الإنسان أنه أجمل فيصبح ذو حجمٍ أكبر ، ويصبح ضوءه أشد ، لا ، لو أن القمر اقترب من الأرض إلى نصف المسافة لتضاعف المدُّ والجزر أربعة وستين ضعفاً ، وأربعة وستون ضرب عشرين مترا ، حوالي ألف ومائتا متر ، أي أن كل المدن الساحليَّة وعددٌ كبيرٌ جداً من مدن الجبال تصبح مغمورةً تحت سطح البحر كل يوم مرَّتين ، هذا مستحيل .

إذاً : وضع القمر في هذا المكان شيء معجز ، المد والجزر معقول بعشرين متراً ، هذا يعين على الملاحة في الموانئ ، وله فوائد كبيرة جداً ، لكن لو المسافة اقتربت أكثر لتضاعف المد والجزر أربعة وستين ضعفاً ، وهذا مما يجعل الحياة على سواحل البحار مستحيلة .

مثلاً : في لبنان إلى أن تصل إلى ظهر البيدر حتى تنجو من المدِّ والجزر ، مستحيل ، كل هذه المدن ، وهذه الأماكن تصبح تحت البحر مثلاً ، هذا لو أن القمر اقترب من الأرض لغرق الناس ، وأُذكِّركم بقوله تعالى :

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(5))

(سورة الرحمن)

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(49))

(سورة القمر)

ربنا عزَّ وجل قال :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

القمر كتلته صغيرة ، فلو أن إنساناً وزنه ستون كيلوا وصل إلى القمر ، وَوَزن نفسه لوجد أن وزنه أصبح عشرة كيلوات فقط ، كل شيء على القمر يخف وزنه ستة أمثال ، الذي وزنه ستون في الأرض وزنه هناك عشرة كيلو غرامات ، لا هواء ولا ماء ، إذاً : لا صوت ، لو أن مدفعاً أطلِقَ على سطح القمر لما سمع له أحدٌ صوتاً إطلاقاً ، لا هواء ولا ماء ، إذاً لا توجد عوامل حتّ للتربة ، القمر هو هو منذ أن خُلِقَ وحتى الآن ، أما الأرض فحصل فيها تبدُّل كثير ؛ في مجاري الأنهار ، في سواحل البحار، في أشياء كثيرة .

شيءٌ آخر : هناك علماء رصدوا وجه القمر فعدّوا فيه عشرة آلاف وادي ، يوجد وديان ، وجبال ، و سهول على سطح القمر ، الله عزَّ وجل جعل القمر أحد الآيات الدَّالة على عظمة الله سبحانه وتعالى ، لكن هذه اللام .. لام التعليل ..

(لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ

كأن الله عزَّ وجل جعل القمر خصيصاً لنعلم عدد السنين والحساب ، ودورة القمر حول الأرض أساس السنة القمريّة ، بينما دورة الأرض حول الشمس أساس السنة الشمسيَّة ، فالشهر الشمسي حكماً ، أما دورتها حول الشمس هي السنة ، وأما السنة القمريَّة فهي سنة حكميَّة ، لكن الأصل دورة القمر حول الأرض دورة ، أي يُبنى من دورة القمر حول الأرض السنة القمريَّة ، ويُبنى على دورة الأرض حول

الشمس السنة الشمسيَّة ، ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ)

مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ

أي أن حجم القمر ، حجم الشمس ، البُعد بينهما ، تربة القمر ، لا هواء ولا ماء على القمر ، وتجاذب الأرض مع القمر ، المد ، الجزر ، طاقة الشمس ، حجم الشمس ، لهيب الشمس ، ما تنتجه من طاقة ، تبدُّل هذه الطاقة ..

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ)

أي لو أنه حصل تبدَّل طفيف في المسافات ، في الأبعاد ، في الطاقة ، في الحجوم ، في التجاذب لاختلَّ نظام الأرض ، لو أن الشمس اقتربت أكثر لاحترق من عليها .. ثلاثمائة وخمسون درجة ، وهذا غير معقول مثل كوكب عطارد .. لو ابتعدت مائتين وخمسين تحت الصفر ..

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ)

معنى بالحق أي أن هذا الوضع السليم ، هذا الوضع الحكيم ، هذا الوضع الذي لو بُدِّل لفسد نظام الأرض ، هذا معنى بالحق ..

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

هذه الآيات الكونية لا يعقلها إلا العالِمون :

أي أن هذه الآيات من أجل ماذا ؟ القمر لِمَ خلقه الله عزَّ وجل ؟ لشيءٍ واحد هو أن نعرف الله من خلاله ، لقومٍ يعلمون عن الله شيئاً ، الله لا تُدركه الأبصار ، ولكنَّ العقول تُدركه عن طريق الآيات ، أصبح طريق معرفة الله عزَّ وجل هو التفكُّر بآيات الله عزَّ وجل ، عن طريق هذه الآيات نتعرَّف إلى الله عزَّ وجل ، الله سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ)

(سورة النحل : من الآية 104)

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

صار الطريق واحدا لابدَّ من سلوكه ، وهو أن تنظر في القمر لترى الله من خلاله ، أن تنظر في الشمس لترى الله من خلالها ، وآياتٌ أخرى تأتي بعد هذه الآيات :

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

معنى : إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

المعنى الأول :

من معاني هذه الآية : كيف أن الليل يعقب النهار ، وكيف أن النهار يعقب الليل ، ليل ونهار ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

إن اختلاف الليل والنهار طولاً ، في الصيف يصبح النهار طويلاً ، وفي الشتاء يصبح قصيراً .

المعنى الثالث :

إن اختلاف طبيعة الليل والنهار ، النهار فيه ضياء ، الليل فيه ظلام ، النهار فيه حركة ونشاط ، الليل فيه سكون وراحة ..

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

في اختلاف طبيعتهما ..

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا(11))

(سورة النبأ)

اختلاف طبيعتهما ، واختلاف طولهما ، وتعاقبهما كلٌ بعد الآخر هذه أيضاً من آيات الله عزَّ وجل . مَنْ خلق الليل والنهار ؟ الله سبحانه وتعالى ، كيف ؟ بدوران الأرض حول نفسها ، لو أن هذه الأرض وقفت عن الدوران لألغي الليل والنهار ، صار وجهٌ من وجوهها نهاراً إلى الأبد ، ووجهٌ آخر ليلاً إلى الأبد ، فالوجه الذي يقابل الشمس مائتان وخمسون درجة فوق الصفر للأبد ، والوجه الذي لا يقابل الشمس حرارته مائتان وخمسون درجة تحت الصفر للأبد ، توقَّفت الحياة ، إذاً : الليل والنهار آيتان من آيات الله ، لأن الأرض تدور حول نفسها .

بهذه الطريقة يكون الليل والنهار متعاقبين :

لو كان محورها .. هكذا ، ودورانها هكذا ، والشمس هنا .. أيضاً مع أنها تدور لانعدم الليل والنهار ، نصف الكرة الذي يدور هكذا ، والشمس من هنا نهارٌ إلى الأبد ، ونصف الكرة الثاني ليلٌ إلى الأبد ،

لتوقَّفت الحياة أيضاً على سطح الأرض ، إذاً لا يكفي أن تدور ، بل يجب أن تدور على محورٍ ليس موافقاً لمستوى الدوران من أجل أن يكون هناك ليل ونهار متعاقبان ، ولو أن الأرض وقفت يوجد ليل ونهار ، ولكنَّهما غير متعاقبين ، شيء دقيق جداً ، لو أن الأرض توقَّفت عن الدوران فهنا نهار ، وهنا ليل ، والشمس من هنا ، لكن هذا الليل والنهار ليسا متعاقبين ، لو أن الأرض دارت على محورٍ موازٍ لمحور الدوران لكان هناك ليل ونهار ، لكنَّهما ليسا متعاقبين ، أما الآية :

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

أي أن في تعاقب الليل والنهار ، ولا يتعاقب النهار والليل إلا إذا كان المحور .. هكذا .. لو أنه هكذا ، عموديٌّ على مستوي الدوران ، والشمس هكذا ، الأرض تدور هكذا ، لصارت هذه المنطقة صيفاً إلى الأبد ، هذه ربيع إلى الأبد ، هذه شتاء إلى الأبد ، الأرض هكذا تأتيها أشعَّة الشمس عموديَّة في خطِّ الاستواء ومائلة في القسمين الشمالي والجنوبي ، إذاً : لأصبحت الفصول ثابتة في كل بقعة ، هذا المكان أمطارٌ وثلوج إلى الأبد ، وهنا شمسٌ محرقةٌ إلى الأبد ، وهنا ربيعٌ دائم ، وهنا خريفٌ دائم ، هذا شيء مستحيل .

كيف تنبت المزروعات ؟ التفاح يحتاج إلى برد ، تقطفه في الصيف ، توجد خضراوات تحتاج إلى حر، فلولا تعاقب الحرّ والقرّ لما نبت النبات ، يأتي الثلج فيميت الأحياء الضارَّة ، ويأتي الحر فينضج الفاكهة ، ويعطيها طعمها الحلو ..

ولو أن الأرض دارت حول نفسها على محور عمودي لثبتت الفصول ، ليس في الأرض أقوات ، كل منطقة لا يمكن أن تُنْتِج النبات ، حر دائم يميت النبات ، برد دائم لا يُنْبت النبات ، الله سبحانه وتعالى جعل محور الأرض مائلاً سبعاً وعشرين درجة ، بهذا الميل تأتي أشعَّة الشمس عموديَّةً إلى نصف الكرة الشمالي ، هنا صيف ، فإذا دارت الأرض حول الشمس .. هكذا .. جاءت الشمس عموديَّةً على نصف الكرة الجنوبي ، لذلك هناك تبدُّل مستمر بين الصيف والشتاء في نصف الكرة الشمالي والجنوبي.

الآن إذا ركب إنسان طائرة من شمال أمريكا إلى جنوبها ، يجد في الشمال درجة الحرارة أربعين لا تُحتمل ، الناس في البحار يسبحون ، ينتقل إلى البرازيل فيجد هناك أربعة أمتار من الثلج وعواصف وأعاصير ، في اليوم نفسه يمكن أن تركب طائرة من أمريكا الشماليَّة إلى الجنوبيَّة في يوم واحد ترى الحرارة هنا أربعين فوق الصفر ، وهنا خمسًا تحت الصفر ، إذاً : الآية العظيمة :

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

أي في تعاقب الليل والنهار ، تعاقب الليل والنهار آية ، وميل محور الأرض آية ..

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الكونُ كلّه بسماواته وأرضه آيةٌ :

في السماوات الشمس ، في السماوات القمر ، في السماوات نجم القطب ، في السماوات المجرَّة .. درب التبَّانة .. في السماوات المجرَّات ، في السماوات الهواء ، النيازك ، الشُهُب ، المذنَّبات ..

(وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الجبال ، الأغوار ، السهول ، الصحارى ، البحار ، الينابيع ، الأنهار ، اكتشفوا الآن أن في مصر نهراً بكثافة نهر النيل يسير في غربي مصر تحت الأرض ويصبُّ في البحر ، الآن اكتشفوه ، اكتشفوا أن ليبيا تقع فوق بحرٍ من المياه العذبة ..

(وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذه باطن الأرض فيها خيرات لا يعلمها إلا الله ..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى(6))

(سورة طه)

الآن البحث الجاد عن الماء العذب ، فكلَّما كان الإنسان جادًّا في البحث وجد كمّياتٍ خياليَّة من الماء العذب تحت سطح الأرض مُخَزَّنًا لهذه الأيَّام .. أيام الجفاف السطحي .. وأيام كثرة الطلب على الغذاء الأرضي .

إذاً :

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

الحيوانات آية ، الزواحف ، الفقريَّات ، الثدييات ، الجراثيم ، العصيّات ، الفيروسات ، البكتيريا ، ديدان الأرض ، والحيوانات الكبيرة ، الحوت الأزرق وزنه مائة وثلاثون طناً ، والفيل ، والكركدن ، وحيد القرن ، الضخم ، والصغير ، والذي يُرى ، والذي لا يُرى ، والذي في خدمة الإنسان مذلَّل ، والمستوحِش ، والمتوحِّش هذا كلُّه آياتٌ للإنسان..

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

1 ـ هذا هو الإنسان المُعرض عن الله وآياتِه :

والآن سيصف لنا ربنا عزَّ وجل إنساناً أعرض عن هذه الآيات ، ترك هذه الآيات ، قال : هذه لا تعنيني ، لا شأن لي بها ، لا يُجْدِي البحث فيها ، تركها وراء ظهره ، ماذا فعل ؟ قال :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا)

لا يعلّق أية أهميَّةٍ على ما بعد الموت ، لا يقيم وزناً لساعة اللقاء ، لا يأبه للموت ، لا يفكّر في الآخرة إطلاقاً ، لا يرجو رحمة الله ، لا يرجو وعده بالجنَّة ، لا يخشى وعيده بالنار ..

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا)

هذا الموضوع يقول لك : لا يعنيني ، هذا الموضوع خارج اهتمامي .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

2 ـ المعرض عن الله راض بالدنيا مطمئنٌ بها :

رضي أن يكون دخله وفيراً ، وصحَّته طيِّبة ، وله زوجةٌ تروق له، وله أولادٌ يسيِّرُهُم كما يشتهي ، كما هو ، وله شأنٌ اجتماعي يعيش به ..

(وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا)

أي أن دخلهم الكبير طمأنهم ، يقول لك : أمَّنَّا مستقبلنا ، قال واحد : يوجد عندي مال لا تأكله النيران ، أكلته النيران ، وأمضى بقيَّة حياته متسوِّلاً ، هكذا قال : لا تأكله النيران ..

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا)

لا يريدون ، تدعوه إلى الدين يُعْرِض ، تغريه بمجلس العلم يقول : ليس عندي وقت ، تخوِّفه من الموت فيقول لك : من هنا إلى يوم الله يفرجها الله ، ضع رأسك مع الرؤوس وقل : يا قطَّاع الرؤوس ، تقول له : الله عزَّ وجل قال ، يقول لك : العلم قال غير ذلك ، صار أخونا طرحه علميٌّ :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

جعلها منتهى أمله ..

((مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))

[سنن ابن ماجة عن عثمان بن عفّان]

((أوحى ربُّك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه))

((الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمر))

[ورد في الأثر]

((وعزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلّطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريَّة ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي))

[ورد في الأثر]

((لي عليكَ فريضة ، ولك عليَّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

[ورد في الأثر]

((أنت تريد ، وأنا أريد ، فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا)

3 ـ المعرض عن الله لم يتفكر في آيات الله الكونية :

لأنه لم يفكّر في الشمس ، لم ير عظمة الله من خلال الشمس ، لم يفكّر في القمر ، لكنه بحث عن يوم القمر لكي يتنزّه فقط ، علاقته مع القمر علاقة المنتفع الخسيس لا علاقة العالِم الرشيد ، عَن قَتَادَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ :

((هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرٍ كَذَا ، وَجَاءَ بِشَهْرٍ كَذَا))

[أبو داود]

خير ، لكن رشاد ، دليلنا إلى الله عزَّ وجل .

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس : من الآية 101)

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا)

أمنان وخوفان ،

((من خافني في الدنيا أمَّنته يوم أجمع عبادي ، ومن أمِنَني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي))

[ورد في الأثر]

أي من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً ، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً حوسِب يوم القيامة حساباً عسيراً ، فإذا مدحت هذا الإنسان ، وكان مدْحه يُغضِب الله عزَّ وجل ، صديق فاجر تمدحه أمام صديق ثانٍ ، هذا يغضب الله .

(وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

عن هذه الآيات ، عن الشمس والقمر ، والليل والنهار ، واختلاف الليل والنهار ..

(أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

1 ـ هذا هو مصير ذاك المُعرض وأمثاله :

هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا ، هؤلاء الذين كانت الدنيا مبلغ علمهم ، منتهى طموحهم ، منتهى آمالهم ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، جعل الدنيا أكبر همِّه ومبلغ علمه ، في الدنيا خبرته عالية جداً ، في الآخرة .. صفر .. لا يفقه شيئاً ، قال : هؤلاء الذين انتهت آمالهم في الدنيا جعلوها منتهى آمالهم ، أقصى طموحاتهم هؤلاء الذين :

(وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا)

عن الشمس والقمر ، والنجوم ، والليل والنهار ، والجبال والصحارى ، والوديان ، والأمطار والثلوج ، وعن آيات الكتاب أيضاً ، هناك آياتٌ كونيَّة ، وهناك آياتٌ توجيهيَّة ، عن هذه وتلك ، قال :

(أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

2 ـ الغافل عن الله لا يكسب إلا السيئة :

معنى ذلك إذا غفل الإنسان عن الله سبحانه وتعالى لابدَّ من أن يكسب السيئة ..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(9)دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

ترابط الآيات ودقة تنسيقها :

ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)

(سورة هود من الآية 1)

معنى(أحكمت)أي أن هناك ترابطا منطقيا بين آيات السورة الواحدة ، فلمَّا قال ربنا عزَّ وجل :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

أي أن طريق معرفة الله عن طريق الآيات ..

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

أي تُشْرِقُ في نفوسهم أنوار الله سبحانه وتعالى ، لو أن الإنسان لم يفكّر في هذه الآيات هذا حاله :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

لأنهم غفلوا عن هذه الآيات انتهت بهم طموحاتهم إلى الحياة الدنيا ، دخله كبير إذاً هو مبسوط ، سرور أبله ، لأن الموت سوف يكون عليه كالصاعقة ، ربنا عزَّ وجل قال :

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

(سورة الطور)

فهذا الاطمئنان اطمئنان الأغبياء ، اطمئنان أبله ، عندما يرضى الإنسان بالدنيا ، يحقّق دخلاً كبيراً ، يعمل صفقة رابحة ، يشتري بيتاً فخماً ، يحقّق كل آماله الدنيويَّة ، يظن أن كل شيء انتهى ، لا ، لم ينته شيء ، الخطر الكبير في الطريق ، عند ساعة اللقاء ، لذلك ساعة اللقاء كالصاعقة على أهل الدنيا ، هناك أشخاصٌ يكرهون أي شيءٍ يتصل بالموت ، أي أنه يكره سماع القرآن ، لأن القرآن في ذهنه مرتبطٌ بالموتى ، مات إنسان ، القارئ يقرأ له القرآن ، يكره نبات الآس ، لأنه يوضع على القبور ، وكل شيء متعلّق بالموت يخاف منه ، يقول لك : تشاءمت ، هذا الحديث أوقفه وانتهِ منه ، لأنه مهتم بالدنيا فقط ، فإذا جاء الموت كان كالصاعقة ، فالإنسان إذا اطمأنَّ في الدنيا يكون اطمئنانه أبله ، اطمئنان الأغبياء ، اطمئنان الحمقى ، لكن العاقل لا يطمئن إلا إذا أطاع الله سبحانه وتعالى ، عندما يطيع الله طاعة تامَّة شعر بطمأنينة لا يعلمها إلا من ذاقها ، قال الله عزَّ وجل :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

هناك ترابط دقيق ، الذي يغفل عن التفكُّر في هذه الآيات سوف لا يرجو لقاء الله أولاً ، وسوف يرضى بالحياة الدنيا ، وسوف يطمئن لها ، ثم يأتيه الموت كالصاعقة ..

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

(سورة الطور)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (04-17): تفسير الآيات 9 – 11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-10-11

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكيرٌ بما سبق :

في الدرس الماضي وصلنا بتوفيق الله إلى قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(7)أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

التذكير الأول : إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا

((فَالنَّاسُ رَجُلانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ))

[من سنن الترمذي عن ابن عمر]

هؤلاء :

(الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا)

كانت أكبر همِّهم ، ومبلغ علمهم ، ومنتهى طموحاتهم ، واستغنوا عن رحمة الله ، وأداروا ظهرهم للقرآن ، وجعلوا ما بعد الموت خارج اهتمامهم .

التذكير الثاني : مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونْ

هؤلاء كما قال الله عنهم :

(مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

لكن الذي آمنوا لهم حالٌ أخرى ، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(9)دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

التذكير الثالث : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِم

فالإيمان عمل ، هذا الذي يقول لك : أنا مؤمن ، يجب أن تقول له : متى آمنت ؟ كيف آمنت ؟ ما الدليل على وجود الله ؟ ما الدليل على ربوبيَّته ؟ ما الدليل على ألوهيَّته ؟ متى آمنت ؟ هل خصصت وقتاً كل يوم كي تؤمن ؟ هل جلست مع نفسك تتأمل في ملكوت السماوات والأرض؟ أمَّا أن يسمع الإنسان شيئاً فيقوله كما سمعه هذا لا يسمى إيماناً ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

الإنسان له أن يدَّعي أنه مؤمن ، هذه بيده ، كلمة يقولها : أنا مؤمن ، لكن هل تظن أن الله سبحانه وتعالى سيترك هذا الإنسان يدَّعي أنه مؤمن ، ولا يضعه في مواقف معيَّنة تكشف حقيقته ، فربنا عزَّ وجل يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

هؤلاء الذي عرفوا الله سبحانه وتعالى ، هؤلاء الذين آمنوا به من خلال آياته ، هؤلاء الذين فكروا في ملكوت السماوات والأرض ، هؤلاء الذي ذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، هؤلاء الذين تعرَّفوا إلى الله في الرخاء ، هؤلاء الذين بَهَرَتْهُم عظمتُه ، هؤلاء الذين ملأت آياتُه نفوسَهم ، هؤلاء الذين آمنوا، من لوازم الإيمان العمل الصالح ، الإيمان دعوى برهانُه العمل الصالح ..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أي أنه عرف أن له رباً بيده كل شيء ، إليه مرجع كل شيء ، فلا حركة ، ولا سكنة ، ولا صغيرة ، ولا كبيرة ..

(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ)

التذكير الرابع : مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ

الأشياء كلها مُعَطَّلَة إلى أن يشاء الله ، لا تأخذُ الأشياء خصائصها ولا فاعليتها إلا إذا شاء الله .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

هذه الكلمة فسَّرها المفسِّرون تفسيراتٍ شتَّى ، بعضهم قال : ألم يقل الله قبل قليل :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(7)أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(8)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

من معاني : يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ

إلى مأواهم ، وهو الجنة ، أي إيمانهم وعملهم الصالح يهديهم إلى الجنة ، هذا معنى .

وهناك معنى آخر ، المعنى الآخر مأخوذٌ من معنى الإيمان ، الإيمان وجهةٌ إلى الله سبحانه وتعالى ، فما دام الإنسان متجهاً إلى الله سبحانه وتعالى أي أنه في صلة ، وتعريف الصلاة كما عرَّفها النبي عليه الصلاة والسلام :

((الصّلاةُ نُورٌ))

[مسلم عن أبي مالك الأشعري]

كل إنسانٍ يصلي صلاةً صحيحة يقذف الله في قلبه نوره ، فالصلاة نور ، وبالنور ترى الخير خيراً والشر شراً ، إذاً : المصلي مستنير ، والمؤمن الذي آمن بالله ، وعمل صالحاً فأقبل عليه ، بإيمانك به عرفته ، بعملك الصالح تقرَّبْتَ إليه ، مثلاً أنت في عطشٍ شديد ، عرفت النبع وذهبت إليه ، لا ترتوي إلا إذا عرفت النبع أولاً ، وذهبت إليه ثانياً ، كذلك آمنت بالله أولاً من خلال آياته الدالة على عظمته ، ثم تقربت إليه بالعمل الصالح ، فإذا آمنت بالله أولاً ، وعَمِلْتَ الأعمال الصالحة ثانياً ، هداك الله إليه .

بعضهم قال : إلى جنته .

وبعضهم قال : أنت حينما آمنت به ، وعملت العمل الصالح تقرَّبت إليه ، بمعنى اتصلت به ، وطبيعة الصلة نور ، وبهذا النور رأيت الخير خيراً فاتبعته ، ورأيت الباطل باطلاً فاجتنبته .

نقف عند هذه النقطة قليلاً ، هذا الذي يسرق ، وهو في البيت يقتل ، يقبض عليه فيعدم ، حينما أقدَم على هذا العمل ماذا كان يرى ؟ كان يرى أن السرقة مَغْنَمٌ كبير ، وأنه بجهدٍ يسير يُحَصِّل مالاً كبيراً ، كان في عمى وقتها عن النتائج الأليمة ، عن إعدامه ، عن شنقه أمام الناس ، فالقضية عند الناس قضيةٌ واحدة ، إما أنك ترى ، أو أنك لا ترى ، الكافر في عمى ، لا يرى نتائج الأشياء ، ما من إنسانٍ أُتيح له أن يرى نتائج عمله السيئ فيقدم على هذا العمل ، فالأزمة أزمة رؤية ، إما أنك ترى ، وإما أنك لا ترى.

لأن كل إنسان فُطِرَ على حب نفسه ، حب السلامة ، حب النجاة ، حب الفوز ، هذه فطرة الإنسان ، فلأن الإنسان مفطورٌ على حب ذاته ، وعلى حب سلامته ، وعلى حب نجاته ، وعلى حب فوزه إذا رأى الخير خيراً يتبعه قطعاً ، وإذا رأى الشر شراً يجتنبه قطعاً ، لكن لماذا يقدم الإنسان على الشر ؟ لأنه يراه خيراً ، لماذا يراه خيراً ؟ لأنه في عمى ، لماذا هو في عمى ؟ لأنه لا يصلي .

هذا ملخص الآية : إذا اتصلت بالله عزَّ وجل قذف في قلبك النور ، فرأيت الخير خيراً فاتبعته ، ورأيت الباطل باطلاً فاجتنبته ، إذاً أنت في نجاة .

وتماماً كمن يقود سيارةً في طريقٍ كله منعطفات ، في اَللَيْل ، ما دام المِصباح متألّقاً فهو ينجو من هذه الحُفَر والمنعطفات ، لكن إذا انطفأ الضوء فجأةً لابدَّ من أن يتدهور ، وهذا الذي لا يصلي مقطوعٌ عن الله عزَّ وجل ، إذاً هو في عمى ، إذاً : يرى المعصية مغنماً ، يرى كسب المال بطريقةٍ غير مشروعة مغنماً كبيراً ، وذكاء ، وقدرة على اقتناص المناسبات ، وفوزاً عظيماً ، لكن الذي يرى ، يرى الحسيب العليم ، يرى الديَّان ، يرى عدالة الله سبحانه وتعالى ، لابدَّ من أن يذهب المال من حيث أتى ، لابدَّ من أن يتلف المال ، ويتلف صاحبه معه ، ومن أصاب مالاً في مهاوش أذهبه الله في نهاور ، فالقضية قضية رؤية .

سيدنا يوسف لماذا صار عزيز مصر ؟ لأنه حينما راودته هذه المرأة .. امرأة العزيز .. كان ذا بصيرة، كان متصلاً بالله عزَّ وجل فرأى نتائج الزنا ، وكيف أنه قبيحٌ لصاحبه ، وكيف أنه خيانةٌ لسيِّدِهِ، وكيف أنه معصيةٌ لربه ، فقال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف : من الآية 23)

فجعله الله عزيز مصر ، ولو أنه لبَّى نداء جسده كما يقولون لكان في أسفل سافلين ، لما كان سيدنا يوسف ، وقد قيل لأحد العارفين : " متى يكون داؤها دواءها .. أي النفس .. ؟ " ، فقال هذا العارف بالله : " إذا خالفت هواها " ، لأن هواها هو داؤها ، ودواءها بمخالفة الهوى ، لأن اتباع الهوى هوان ..

و اخجلتي من عتاب ربـي إذا قال لي أسرفت يا فلان
إلى متى أنت في المعاصي تســير مرخى لك العنان
عندي لك الصلح و هو برِّي وعندك السيف والسنــان
ترضى بأن تنقضي الليالي و ما انقضت حربك العوان
فاستحي من شيبةٍ تراهــا في النار مسجونة تهــان
واستحي من كتابٍ كــريمٍ يحصي به العقل و اللســان

***

عندما يكون الإنسان في عمى يأكل مالاً حراماً ، فيكون الجزاء عاجلاً ، يتلف الله ماله ، وقد يتلفه مع ماله ، إذا كان في عمى يعتدي على الأعراض ، يُعْتَدَى على عرضه ، ما من مأساةٍ في المجتمع ـ راجعوا المحاكم الشرعية ـ ما من دعوى طلاق إلا وراءها معصية ، وليس من معصيةٍ إلا وراءها عمى ، والعمى سببه الانقطاع عن الله عزَّ وجل ، لو كنت في قمة الذكاء ، لو حصَّلت أعلى شهادة في العالم ، الذكاء وحده لا يكفي ، الذكاء قوة مدمِّرة ، أما مع الهدى قوة خَيِّرَة ، الذكاء قوة خيرة ، فإن كان الذكي مقطوعاً عن الله عزَّ وجل فهو قوةٌ مدمِّرة .

فالإنسان بلغ الآن من الذكاء المرتبة العُليا ، أي أن العقل البشري تطور ، واخترع ، وسخَّر الطبيعة ، واخترع مخترعات تريحه جداً ، نقل الصورة ، نقل الصوت ، غاص في أعماق البحار ، راد الفضاء ، وصل القمر ، اخترع أجهزة تنقل الصور الملونة في لمح البصر، لكنه في جهلٍ شديد ، وبعدٍ عن الله مديد ، ما الذي حصل ؟

أطلق لنفسه العنان ، بوحي عقله ، وذكائه ، وأن هذه الدنيا هي كل شيء ، فإذا مرضٌ عضال يصيب العالم المتمدن فيما يزعمون .. مرض الإيدز .. انحلال المناعة ، خبرٌ قرأته قبل أيام أن في العالم مائة مليون إصابة حتى الآن ، ستة آلاف وفاة في أمريكا وحدها ، وهذا المرض هو بسبب بعدهم عن الله عزَّ وجل ، بعدوا عن الله ، انقطعوا عنه ، كانوا في ضلالة وفي عمى ، فأطلقوا لشهواتهم العنان ، فكان العقاب العاجل في الدنيا قبل الآخرة ، فمهما كنت ذكياً ، مهما كنت مثقفاً ثقافةً عالية ، مهما كنت ذا شأن، إن لم تدعِّم هذا الذكاء بالهُدى فالمصير إلى الهاوية ، وإلى الدمار ..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

المعنى الثاني : أن الإيمان وجهة إلى الله ، وأن العمل الصالح قربةٌ له ، وأنك إذا عرفته وتقرَّبت إليه اتصلت به ، في هذه الصلة يحصل النور، في هذا النور ترى الخير خيراً والشر شراً، تنجو من مآذق الدنيا ، من متاعبها ، من مهلكاتها ، من ضلالاتها ، من شقائها ، من الضياع ، من القلق .

(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

هناك معنى ثالث مستنبطٌ من قوله تعالى :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

إذا قال ابن لأبيه : أنا أود أن أدرس ، وأبوه كان مثقفا ثقافة عالية ، بمجرد أن يقول له : أنا أريد أن أدرس ، الأب أعطاه غرفةً مستقلةً في البيت ، أمَدَّه بالكتب ، أمده بالمراجع ، وضعه في أرقى مدرسة ، أعطاه المال الكافي ، أعفاه من أعباء المنزل ، سجَّله في معاهد إضافةً إلى مدرسته ، جعل له مدرّسين خاصين ، والطالب قال : أنا سأدرس ، كذلك ولله المثل الأعلى ، إذا قال العبد : يا رب أعنّي على طاعتك ، تُيَسَّرُ له أموره ، يُيَسَّرُ له أمر معاشه ، ييّسر الله له زوجةً تعينه على دينه ، توافقه في اتجاهه، ييسر له عملاً طيباً ورزقاً حسناً ، نقياً ، نظيفاً ، هذا إذا اختار أن يكون من المؤمنين .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

المعنى الرابع :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

إلى العمل الصالح ، لأن جوهر الحياة هو العمل الصالح ..

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة العصر)

أي أنك جئت إلى الدنيا من أجل مهمةٍ واحدة ؛ أن تعمل عملاً صالحاً يصلح للعرض على الله عزَّ وجل كي تسعد به إلى الأبد .

إذاً :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف)

المعنى الرابع :

(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

إلى العمل الصالح ، الله عزَّ وجل يقدِّر على يديه الأعمال الصالحة الكبيرة ، أي أنه إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ، ونسبه إليك ، وما من مخلوقٍ على وجه الأرض يحب العمل الصالح كسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك قدَّر الله على يديه هداية البشر ..

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ)

(سورة سبأ : من الآية 28)

وجعله بابه الأوحد ، أي امرئٍ أتاه من غيره لا يدخله ، وجعل له المقام المحمود ، والوسيلة العظمى ، إذاً أنت لك عمل صالح بقدر نواياك ، لو أنك تنطوي على نيةٍ صادقة في التقرُّب إلى الله عزَّ وجل ، لأمَدَّكَ الله بالعمل الصالح ولقدّره على يديك ، وجعل الهدى على يديك ، أنت لا تملك إلا شيئاً واحداً ، تملك النية الطيبة والباقي على الله ..

" الخير بيدي ، والشر بيدي ، فطوبى لمن قدَّرت مفاتيح الخير على يديه ، والويل لمن قدَّرت الشر على يديه " .

العمل الصالح أفضلُ عطاءٍ :

قيل : " إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله ـ شيء دقيق هذا الحديث ـ فانظر فيما استعملك " ، فما نوع عملك في الحياة الدنيا ؟ مبني على أذى الآخرين أم على نفعهم ؟ هناك أعمال خيِّرة ، وهناك أعمال شريرة ، والله عزَّ وجل قال :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

والله إن هذا هو الذي يسمَّى العطاء ، أما العطاء في الدنيا فلا يسمَّى عطاء ، إنه ابتلاء ، لأنه منقطع ،

هل يصح أن تقول لعطاءٍ قليلٍ يسيرٍ موقَّت : إنه عطاءً ؟ الكريم لا يعطي هكذا ، لذلك قال سيدنا علي : << الغنى والفقر بعد العرض على الله >> ، قال سيدنا موسى :

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(24))

(سورة القصص)

أنا مفتقر يا رب للعمل الصالح ، فالحقيقة التي لا مراء فيها ولا مجاملة : إذا كانت حياة الإنسان مبنية على عمل ، وكسب مال ، وراحة ، واسترخاء ، وطعام ، وشراب ، ونوم ، وخدمة نفسه ، والعناية ببيته فقط ، وليس له عمل صالح ، والله هذا هو الفقر بعينه ، حتى إن بعضهم وجَّه قول سيدنا علي : " كاد الفقر أن يكون كفراً " ، وبعضهم وجَّه هذا القول بمعنى أن الفقر من العمل الصالح هو كفرٌ بالله عزَّ وجل ، أي أنك آمنت به ، وعرفت أنه عظيم ، وعرفت أن هناك جنة عرضها السماوات والأرض ، وهناك نار ، ولا تتقرب إلى الله بالعمل الصالح ، إذاً : هذا أحد أنواع الكفر ، وكاد الفقر من العمل الصالح أن يكون كفراً .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام : من الآية 132)

لك عند الله حجم ، حجمك بحجم عملك الصالح ، ماذا فعلت ؟ ماذا ضَحَّيْت ؟ ماذا أنفقت ؟ كم هديت ؟ ألك عملٌ صالحٌ باتجاه الهدى والدعوة إلى الله ؟ ألك عملٌ صالح باتجاه إنفاق المال ؟ ألك عملٌ صالحٌ باتجاه تقديم الخدمات للمؤمنين ؟ هل عاونت مؤمناً ؟ هل أنقذته من ورطة ؟ هل عُدَّتَ مريضاً ؟ هل دللت ضالاً ؟ هل ضحيت بوقتك من أجل أخيك ؟ هل عملت عملاً يرضي الله عزَّ وجل ؟ الحقيقة الإنسان لا يتمكن أن يقابل إنساناً له شأن ، لا يوجد وقت ، انتظر شهرا ، لكن ربنا عزَّ وجل قال :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا)

(سورة الكهف " 110 ")

ربُّ العِزَّة ، خالق السماوات والأرض ، إذا أردت أن تلقاه فعليك بالعمل الصالح ، والدليل : اعمل عملاً صالحاً خالصاً لوجه الله ، وانظر كيف أن الله سبحانه وتعالى يتجلَّى على قلبك بالرحمة ، والآية الكريمة هكذا :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ(56))

(سورة الأعراف)

قال لي شخص كان يمر بمنطقة دُمَر الساعة الثانية عشرة ليلاً .. القصة ذكرتها سابقاً .. رأى امرأة واقفة حاملة طفلا ، ومعها رجل ، توقع أنهم بحاجة ماسة للمساعدة ، وإذا الابن حرارته إحدى وأربعون درجة ، والأم لا تدري ماذا تفعل ، ومعها زوجها ، قال لي : أخذتهم إلى مستشفى ، ولطبيب مناوب ، ولصيدلي مناوب ، وأخذ إبر بالمستشفى ، الساعة الرابعة فجرا انتهينا من علاجه ، ثم أرجعتهم إلى

دمر مكان سكناهم ، ورجعت إلى بيتي ، أقسم لي بالله أسبوعين أو ثلاثة وهو مغمور بالسعادة ، وكل واحد منا يجرِّب ..

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا)

اخدم إنسان لله ، لا جزاءً ، ولا شكوراً ، ولا مدحاً ، ولا ذماً ، ولا تقديرا معنويا ، ولا تقديرا ماديا ، ولا لفت نظر ، ولا كلمة شكر في الجريدة .

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ)

(سورة الإنسان : من الآية 9)

العمل الصالح هو الذي يرقى بك ، والآية الكريمة :

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)

(سورة فاطر : من الآية 10)

إذا تكلمت بكلام لطيف يعرفه الله سبحانه وتعالى ، يصعد إليه ، لكنك أنت على الأرض ، ويصعد كلامك إليه ، والذي يصعد بك كلك هو العمل الصالح ..

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر : من الآية 10)

يرفعك عند الله عزَّ وجل ، لا يرفعك عند الله كلامك ، الكلام اللطيف سهل ، بلا شيء ، لذلك :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

(سورة فصلت : من الآية 30)

علامة الإيمان الاستقامة ، بعد فقرة ثانية ..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة فصلت : من الآية 33)

لا تؤثر الدعوة إلى الله إلا بالعمل الصالح ، وإذا كان العمل سيئاً أعطت الدعوة عكس المفعول ، أي أن من دعا إلى الله ، وكان عمله سيئاً فكأنه ينفّر الناس من الله عزَّ وجل ..

" يا رب ، أيُّ عبادك أحَبُّ إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : يا موسى أحبُّ عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء ، أحبَّني ، وأحب من أحبني ، وحبِّبني إلى خلقي ، قال : يا رب ، إنك تعلم أني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحبّبك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي".

الأخلاق الحسنة لها أثر كبير في الدعوة :

أي أن من دعا إلى الله ، وكان عمله سيئاً كان سبباً في تنفير الناس من الدين وإبعادهم عنه ، لذلك قال الله تعالى في الحديث القدسي :

((إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ، ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[الترغيب والترهيب عن جابر ، وفي سنده ضعف]

هذا الدين يحتاج إلى سخاء ، وإلى أخلاق حسنة ، فلو أن زوجاً أخلاقه شرسة ، وانفعالي ، وكلامه قاسٍ ، وتوبيخه عنيف ، وبخيل على زوجته ، ويقول لها : صلِّ ، مستحيل أن تصلي ، وإن صلَّت فستصلي بلا وضوء ، كي تغيظه ، تقول له : أنا كنت أصلي بلا وضوء ، لكن هذا الدين لا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، لا بدَّ له من سخاء ومن حسن خلق ، حتى إن ربنا عزَّ وجل علمنا كيف ندعو إليه ، قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه الكريم :

(قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(25))

(سورة سبأ)

أنتم تعملون ، نحن أجرمنا ، هذا هو الأدب الجَم ، أي إن كنتم تعتقدون أننا مجرمون بهذه الدعوة فأنتم مُعفَون من السؤال عن هذه الجريمة ، ونحن لا نُسأل عما تجرمون ، ولا عما تعملون ، يجب أن تنتقي ألطف كلمة ..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

التذكير الخامس : دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

من معاني : دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

المعنى الأول : دعاءهم ، والمعنى الثاني : الدعوة العبادة ، والمعنى الثالث : ملخص علاقتهم بالله سبحانه وتعالى منذ أن خلقوا في الأزل وحتى الأبد ..

(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

أحياناً تلخِّص علاقتك كلها بكلمات ، علاقة الإنسان مع ربه منذ أن خلقه وحتى الأبد ..

(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ)

أي ما أعظم شأنك يا رب .

(وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

السلام من الله : الطمأنينة ، الأمن ، التجلّي ، السعادة ، وملخَّص السلام والتسبيح ..

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

بعضهم قال : لما دخل يونس في بطن الحوت ، كيف دعا ربَّه ؟ قال :

(أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87))

(سورة الأنبياء)

فلم يدعُ ، بل سبَّح الله ، ونزَّهَهُ ، ومجَّده ، قال العلماء : تنزيه الله وتمجيده ، وتسبيحه أحد أنواع الدعاء، لذلك النبي الكريم استنبط من هذه الآية دعاء الكَرْب ، فإذا ألمَّت بالإنسان مصيبة يقول : لا إله إلا أنت العليم الحكيم ، لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم ، لا إله إلا أنت ربُّ العرش العظيم ، هذا هو الدعاء ، ولكنه ما دعا ، لقول الله عزَّ وجل في الحديث القدسي الشريف :

((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِين))

[من سسن الترمذي عن أبي سعيد]

لما قال سيدنا يونس :

(أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)

(سورة الأنبياء)

هذا دعاء ، لكن سيدنا يونس شغله تعظيم الله سبحانه وتعالى ، والاعتراف بذنبه عن طلب الخلاص ..

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

أي أن إذا وقع بضائقة قال له : سبحانك يا رب ، ما أرحمك .. مصيبة قاسية جداً .. سبحانك يا رب ما أعدلك ، سبحانك يا رب ما أرحمك ، سبحانك يا رب ما أحكمك ، إنني صابرٌ لحكمك يا رب ، هذا دعاء ويقتضي الإجابة ، النبي الكريم استنبط من هذا الدعاء فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ يَقُولُ :

((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ))

[متفق عليه]

وهذا دعاء الكرب ، فأهل الجنة لا يوجد موضوع يجول في خواطرهم إلا موضوع واحد ، سبحانك اللهم ، ما هذا العطاء ؟ ما هذا النعيم المقيم ؟ ما هذا السرور ؟ ما هذا الأمن ؟ ما هذه الطمأنينة ؟ ما هذا الذي لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟ ما هذا النعيم المقيم ؟ ما هذه الجنة ؟ .

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ(55)هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ(56))

(سورة يس)

فهناك آيات كثيرة ..

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

تحيتهم من الله ، تصور إنسانا عظيما يقول لك : أهلاً وسهلاً ، رحَّب بك ، سلامٌ عليك ، فكيف بهذا السلام من الله عزَّ وجل .

(وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

أي تحية الله لهم سلامٌ عليكم إلى الأبد ..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

هذا طموح ، هنا الطموح ، جمع مليونا يريد مليونا ثانيا .

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

هذا العطاء الذي لا ينفد ، أما غيره فليس لك منه إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدَّقت فأبقيت ، والباقي ليس لك ، بل لغيرك ، وستحاسب عليه ، كيف اكتسبته ؟ وكيف أنفقته ؟

إذاً :

(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

بعضهم قال : أهل الجنة إذا رأوا طائراً ، واشتهوا أن يأكلوه يكفي أن يقولوا : سبحان الله ، فيأتيهم مشوياً جاهزاً للطعام ، فإذا أكلوه قالوا : الحمد لله ، أي أنه لا طلبات ، فأحياناً إذا كان الشخص غالياً على صاحبه يقول له : والله هذا الثوب جميل ، يقول له : هو مقدَّم ، فوراً ، أي أن الأول اشتهى ذاك الثوب ، فأهل الجنة يكفي أن يقولوا : سبحان الله ، لشيء جميل حتى يصبح بين أيديهم ، فإذا تناولوه يقولون : الحمد لله رب العالمين ، هذا المعنى الآخر من معاني :

(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا))

[مسلم]

إذا أكل أكلة الإنسان ، وكان يحبها وشبع فقال : الحمد لله رب العالمين ، يا ربي لك الحمد والشكر والنعمة والرضا ، الحمد لله الذي أطعمني ، وسقاني ، وآواني ، وكم مِن إنسان لا مأوى له ، وكم من كبدٍ جائعة ، لقد أطعمك الله .

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(3)الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4))

(سورة قريش)

هذا المعنى الثالث ، بعد ما أن يتلقى الإنسان النعمة من الله عليه أن يحمد الله .

بعضهم قال : في كل دعاءٍ يجب أن يبدأ بالتسبيح ، وينتهي بالتحميد ، لقول الله سبحانه وتعالى :

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(180)وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(181)وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182))

(سورة الصافات)

هذه من أواخر سورة الصافّات .

إذاً :

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

بعضهم قال في معنى هذه الآية : " الدعوة القضية " ، المعنى الثالث للدعوة ، الدعوة الدعاء ، والدعوة العبادة ، والدعوة القضية ، أي أن قضيتهم مع الله تتلخص بالحمد لله ، كان في حياته فقيراً ، كان مصاباً، كان قد فقد بصره ، فقد ابنه ، له ابن متعلّق به كثيراً توفاه الله عزَّ وجل ، كانت زوجته مشاكسة، دخله قليل ، عنده أمراض مزمنة ، كل شيء ساقه الله له يكشفه يوم القيامة ، فيذوب محبة لله، لولا هذه الأمراض لما عرفتك ، لولا هذه المصائب لما عبدتك ، لولا هذا الضيق لما التجأتُ إليك يا رب .

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

هذه ملخص الملخص ، لذلك في الإسلام كلمات أساسية ، بعض هذه الكلمات : لا إله إلا الله ، هذه علامة التوحيد ، بعض هذه الكلمات : الله أكبر ، شعار المسلمين ، الكلمة الثالثة : الحمد لله ، الحمد لله ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولله الحمد ، هذه ثلاث كلمات أساسيات في الدين .

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ)

التذكير السادس : وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ

طالبُ الخير يلقى الخير ، ومستعجل الشر يحلم الله عليه :

الشيء الملاحظ أن الله سبحانه وتعالى إذا طلب العبد طلب خير وقال : يا رب اهدني ، يمكن أن يدعو الله عند العصر ، ويأتي في صلاة المغرب فيجمعه الله برجلٍ تكلم معه بكلام طيب ، فسأله : أنت أين تحضر ؟ خذني معك ، عند العصر دعا الله عزَّ وجل وعند المغرب كان مهتدياً ، وإذا طلب الإنسان الخير فإن الله سبحانه وتعالى يستجيب له استجابةً سريعةً جداً .. " من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم " ..

ربنا عزَّ وجل قال :

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ)

أي أنه أكل مالاً حراماً ، فقصمه ، فمات ، فصار إلى جهنَّم ، يأكل مالاً حراماً ، يسلّمه ، ويعتدي على أعراض الناس ، يمهله الله ، ويظلم ويمد له في حياته ، ربنا عزَّ وجل قال :

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ)

لأهلك الناس كلَّهم وأخذهم إلى جهنم ، لكن ربنا عزَّ وجل حليم ، فإذا طلب الإنسان الخير يُعَجِّلُ الله له به ، فإذا طلب الشر أمهله ، لعله يتوب ، لعله يندم ، لعله يرجع ، لعل الله يخرج من صلبه من يوحِّد الله..

سيدنا جبريل قال لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بالطائف :

((أمرني ربي أنا أكون طوع إرادتك ـ لأهل الطائف ، لأنهم آلموه ، وردّوه ، وكذَّبوه ، واستهزءوا به ـ لو شئت لأطبقتُ عليهم الجبلين " ، قال له : " لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون " ..

[السيرة النبوية]

إذا وضع طبيب أسنان الآلة في فم الطفل ، والطفل سبّه ، فهل يطرده ؟ ..

((اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحِّد الله))

كلما ارتقى إيمانك تترفَّع عن الانتقام نهائياً ، حتى لو أسيء إليك ، تداريه ، لو ارتكب معصية أمامك لا تيأس منه ، الفاسق ضيِّق الأفق إذا رأى عاصياً يسبّه ، أما المؤمن العالي فإنه يحوطه .

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ؟

الإمام مالك كان ماشياً في الطريق فرأى رجلاً سكّيرا ملقىً على الأرض ، والزَبَدُ على فمه ، ويقول : الله ، فآلمه أن يخرج هذا الاسم العظيم من فمٍ سكران ، فأخذه إلى البيت ، ونظَّفه ، وأكرمه ، وأطلقه ، جاء إلى المسجد صباحاً فرأى رجلاً يصلي ، ويبكي ، ويعبِّر عن شوقه لله عزَّ وجل ، فقال : يا هذا من أنت ؟ سيدنا مالك رأى في المنام ربَّ العزة قال له : " يا مالك طهَّرت فمه من أجلنا فطهرنا قلبه من أجلك " ، فقال له : " من أنت يا رجل ؟ " قال : " إن الذي شفاني أخبرك بحالي " ، الإنسان لا ييأس من شارب خمر ، فهذا قد يتوب ويسبق العابدين ، لأن الصلحة بلمحة ، وقد يرتكب الإنسان معصية ، ويندم ، ويقول : يا رب ، ندمت ، " إذا قال العبد : يا رب ، وهو راكع ، قال الله : لبَّيك يا عبدي ، فإذا قال العبد : يا رب وهو ساجد ، قال : لبيك يا عبدي ، فإذا قال العبد : يا رب وهو عاصٍ قال : لبيك ثم لبيك ثم لبيك " .

فما من شيءٍ أحب إلى الله من شابٍ تائب ، " إذا تاب العبد توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه .. الملَكيَن.. والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه " ، إذا تاب العبد و "

((أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنْ الذُّنُوبِ))

[أحمد عن عمرو بن العاص]

((أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ))

[مسلم عن عمرو بن العاص]

واللهُ سِتِّير ، قال رجل : " يا رب ، من هذا الذي يعصيك ، وأنت لا تمطرنا .. المطر نزل ، وهذا الإنسان لم يغادر قوم سيدنا موسى .. قال له : " عجبت لك يا موسى أأستره عاصياً وأفضحه تائباً ؟ " .

لما يتوب الإنسان إلى الله انتهى كل شيء ، " إذا تاب العبد توبةً نصوحاً نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله " ، وانتهت مشكلته .

الكلمة الحقيقية : هنيئاً هنيئاً لمن تاب توبةً نصوحاً ، وإذا تاب الإنسان يحس أن وزنه قد خف كثيراً ، ينام نوماً عميقاً ، ليس عليه ذنوب ، ولا عليه حقوق ، لو أن الله قبضه في الليل يعلم أن مصيره إلى الجنة .

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ)

سيدنا خالد لو أن الله أراد أن يؤآخذه وهو يحارب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأرسل إليه بسهم فمات، يحارب رسول الله ، فبعد ذلك ؟ بعدها صار سيدنا خالد ، ثم بعد ذلك أصبح سيف الله المسلول .

عكرمة بن أبي جهل أعدى أعداء الإسلام صار سيدنا عكرمة ، عمير بن وهب ، صفوان بن أمية ، صناديد الكفر ، هؤلاء أسلموا وحسن إسلامهم ، واستشهدوا في المعارك ، فلو أن الله سبحانه وتعالى عجَّل إليهم الشر لقضى عليهم ، فلو أن الإنسان آمن لا ينظر باحتقار لغير المؤمن ، لعله يسبقك ، الآن هو متلبس بمعصية ، لكن لعله يتوب ، كن متواضعاً ، أكرمه ، هذا العاصي أكرمه ، تقرَّب إليه ، لعله يلين قلبه .

قيل : إن بشراً الحافي كان مسرفاً على نفسه كثيراً بالمعاصي ، طرق عليه الباب رجل .. فإذا عنده خمر ونساء وجوارٍ ومشاكل .. فخرج إليه غلام ، قال له : " قل لسيِّدك : إن كان حراً فليفعل ما يشاء ، وإن كان عبداً فما هكذا تصنع العبيد " ، هل العبد هكذا يعصي مولاه ؟ فتبعه حافياً .

مالك بن دينار دخل مرة إلى المسجد ، وكان حوله أناس كثيرين ، فوقفوا له تعظيماً لشأنه ، فاستحيا من الله وقال : أنا كنت قاطع طريق ، وشقياً من الأشقياء ، تزوج ، جاءته فتاة صغير جميلة ، فكانت تخفف من شراسته ، نام مرةً فرأى ثعباناً تنيّناً يتبعه ، وقد انخلع قلبه ، وهو يفرّ من وادٍ إلى جبل ، إلى أن أدركه التعب ، وكاد يقع ، فرأى ابنته الصغيرة في المنام ، فأشارت إلى الثعبان فابتعد الثعبان عنها ،

قال لها : " يا بنيتي من أنتِ ؟ " قالت : " أنا عملك الصالح " ، قال : " فمن هذا التنيّن ؟ " قالت : " هذا عملك السيئ " ..

أحياناً الإنسان يحلم بثعبان مخيف ، هذا عمل سيئ .. فاستيقظ وتاب من وقته ، وقبلت توبته ، وصار من كبار العارفين بالله ، فليس للإنسان أن ييأس ، يرى من لا يصلي فيقول : فيعنفه من غير مبالاة ، لماذا ؟ هو مقصر اخدمه ، وتقرب له ، فإذا أنقذت رجلا من المعصية فلك أجر أكبر .

إذاً :

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

التذكير السابع : فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

هؤلاء الكافرون في الجنة ، وفي الآخرة نذرهم أحياء ، يأكلون ويشربون ، ويطغون ، ويعمهون ، فلعلّهم يهتدون ، إلى أن يهتدي .

(يعمهون)من العمه ، وهو غير العمى ، العمى عمى العين ، أما العمه فعمى القلب ، فلان أعمه بالهاء ، أي قلبه أعمى ..

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46))

(سورة الحج)

إذاً : من حكمة الله سبحانه وتعالى أنه يعطي المقصِّر والعاصي فرصةً كي يتوب .

لا يجوز الدعاء على النفس والولد والمال :

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ قَالَ : كَانَتْ رَاحِلَةٌ أَوْ نَاقَةٌ أَوْ بَعِيرٌ عَلَيْهَا مَتَاعٌ لِقَوْمٍ ، فَأَخَذُوا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، وَعَلَيْهَا جَارِيَةٌ، فَتَضَايَقَ بِهِمْ الطَّرِيقُ ، فَأَبْصَرَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجَعَلَتْ تَقُولُ : حَلْ حَلْ ، اللَّهُمَّ الْعَنْهَا ، أَوْ الْعَنْهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَصْحَبْنِي نَاقَةٌ أَوْ رَاحِلَةٌ أَوْ بَعِيرٌ عَلَيْهَا أَوْ عَلَيْهِ لَعْنَةٌ مِنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى))

[أحمد]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لَا تُوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَاعَةَ نَيْلٍ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ))

[أبو داود]

الدعوة على الولد لا تجوز ، ولا على المال ، ولا على النفس ، في ساعة الغضب يدعو على نفسه ، لا يجوز ، ولا على أولادك ، ولا على أموالك ، هذا مما نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام .

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الخلاصة الختامية :

إذاً : الآيتان :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(7)أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هذا الصنف الأول ..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

عرفوا ربهم ..

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

إلى الجنة ، وإلى العمل الصالح ، وإلى معرفة الحقائق ..

(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(9)دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ)

أي إذا دعا الإنسان على نفسه ، أو على أهله ، أو على أولاده ، أو على ماله ، الله عزَ وجل لا يستجيب له ، يعطيه مهله ، النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم قال :

((إني سألت ربي عزَّ وجل أن لا يستجيب دعاء حبيبٍ على حبيبه))

[ورد في الأثر]

من طلبات النبي الخاصة لله عزَّ وجل أنه إذا دعا إنسان على حبيبه بالهلاك فالله لا يستجيب له ، إذا دعت أم علي ابنها بدعوة ، وقال لها أحدهم : آمين ، فتجدها قد اغتاظت منه ، إذاً : هي لا تعني ما تقول .

((إني سألت ربي عزَّ وجل أن لا يستجيب دعاء حبيبٍ على حبيبه))

[ورد في الأثر]

إذاً :

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ)

الخير مُعَجَّل أما الشر فمؤجَّل .. فالإنسان الذي ينوي الشر ، ويطلب الشر فلا يحقق ، بل يؤخَّر ، إلى أن يُصِرَّ عليه ، عندئذٍ يكون إخراجه أفضل من كبته ، أما إذا طلب الخير مباشرةً فيهديه الله إلى طريق الخير ، لذلك الآية الكريمة :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت : آية " 69)

((إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[البخاري عن أنس]

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ ، فَقَالَ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟))

[من مسند أحمد عن أبي هريرة]

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ)

أي تعجيلهم بالخير ، أي أن الله عزَّ وجل إذا سأله العبد خيراً أجابه سريعاً ، فإذا سأله الشر أخَّره إلا أن يصر عليه ، فإذا أصر عليه أخرج هذه الشهوة من نفسه ، ثم حاسبه عليها ، ولو فعل الله ذلك ..

(لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

الحكمة تقتضي :

(فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

الآية التي تدعمها :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

الله عزَّ وجل سبقت منه كلمة أن يعيش الإنسان في هذه الدنيا عمراً محدوداً لا يقلّ ، وسبقت منه كلمة أن تكون الحياة الدنيا تجسيداً لنيات الإنسان ، ولولا هاتان الكلمتان ..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا)

لكان إهلاكهم .

(وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

إن الله سبحانه وتعالى سبقت منه كلمةٌ أن تكون الدنيا تجسيداً لنفس الإنسان ، والأجل المسمى ، لولا هاتان الكلمتان لأهلك الله العصاة ، فالإنسان لا يتدخل في شؤون الله عزَّ وجل ، وإذا كان له صديق فاجرٌ فلا يقل : ألا يقصمه الله ؟ ألا يهلكه ؟ هذا تدخل بشؤون الله عزَّ وجل ، " رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده " .

إن هذا الأمر ليس لك ، فهو له سبحانه ، وهو إله حكيم عليم ، وليس كلما رأيت عاصياً تقول : لماذا لا يهلكه الله ؟ لماذا تركه حياً إلى الآن ؟ أنت ألم تكن جاهلاً سابقاً ، لو أن الله أهلك الإنسان بجهله لكان مصيره لجهنم ، الله حلم عليك ، واهتديت ، وعرفته ، واستقمت ، والآن يحلم على غيرك ، هكذا الأصول ، فالإنسان لا يطلب تعجيل العقاب للأشرار ، لله حكمةٌ بالغة في مدّهم بالحياة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (05-17): تفسير الآيات 12 – 17
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-10-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً

1 ـ كلمة (الإنسان)في القرآن الكريم :

أما كلمة الإنسان تتكرَّر كثيراً ..

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي(15))

(سورة الفجر)

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا(83))

(سورة الإسراء)

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5))

(سورة الطارق)

(إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ(34))

(سورة إبراهيم)

قال بعض المفسِّرين : " حيثما وردت كلمة الإنسان مُعَرَّفة بأل فإنها تعني هذا الإنسان المُعْرِض ، هذا الإنسان الغافل ، أما الإنسان إذا عرف الله صار اسمه مؤمناً ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة التحريم : من الآية 8)

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

(سورة غافر : من الآية 28)

(الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)

(سورة الحديد : من الآية 12)

تبدَّل اسمه ، إذا كان ساهياً ، لاهياً ، ضائعاً ، تائهاً ، شارداً فهو إنسان ، أما إذا عرف الله صار مؤمناً، فربنا عزَّ وجل يعطينا نموذجاً من الإنسان المُعرض ..

(وَإِذَا مَسَّ)

2 - وَإِذَا مَسَّ :

انظر إلى كلمة مَسَّ ، أحياناً تمسَّ التيَّار الكهربائي في ثوانٍ تقفز من على الأرض ، فكيف لو وُضِعَت اليدُ على تيارٍ عالٍ ؟ يتفحَّم على الفور ..

(وَإِذَا مَسَّ)

فربنا عزَّ وجل حكيم ، يمسُّ الناس بالضُر مسًّا ؛ آلام ، مغص ، نوبة رمل ، يصيح ويستريح ، تأتي نوبات ، أحياناً تأتي حالات ضيق ، كل المصائب التي يُصاب بها الإنسان تحت قوله تعالى :

(وَإِذَا مَسَّ)

ومن معاني مسَّ فيها لطف ، وفيها تقدير دقيق ، وفيها عناية بالغة ، لو رفعنا التيَّار يتفحَّم الإنسان ، لكننا نحن يجب أن نكهربه من دون أن يتفحَّم ، نعطيه مسًّا خفيف ..

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ)

3 - وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً

قالوا : " هذه اللام بمعنى على " ، أي دعانا على جنبه ، وهو مضطجع يقول : يا رب ..

(أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً)

أي أنه دعانا في كل أحواله ، مضَّجعاً أو قاعداً أو قائماً كقوله تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران)

معنى قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم أي في الأحوال كلّها ، أما هذا الإنسان المُعْرِض ، الشارد، التائه ، الغافل ، الضائع .

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً)

كلُّ إنسان يعرف ربَّه في الشدة ، والعاقل يعرفه في الرخاء :

الآن عرفتني يا عبدي ؟ فرعون عرف الله عزَّ وجل حينما أصابه الغرق ، قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90)ءَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس : آية 90 - 91)

حينما كنتَ شابَّاً ، حينما كنت غنياً ، حينما كنت قوياً ، حينما كنت تقفز على الأرض قفزاً نسيتنا ، غفلت عن ذكرنا ، لم تبال بكتابنا ، حينما جاء المرض ، حينما جاء العجز ، حينما ألمَّت بك المصيبة قلت : يا رب ، لا بأس ادعني ، ولكن ليتك دعوتني حينما كنت في بحبوحة ، ليتك دعوتني حينما كنت صحيحاً ، ليتك دعوتني حينما كنت قويَّاً ، ليتك دعوتني حينما كنت غنياً ، ليتك دعوتني حينما كنت في الرخاء ، وفي الحديث عن ابن عباس :

((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ))

[أحمد]

لكنك إذا دعوت الله في الشدَّة دعاء المُضطر لا دعاء العارف ، دعاء الذي تحت وطأة السيف لا الذي تحت وطأة العقل ، العقل يقول لك : اعرف الله في الرخاء ، لذلك النبي الكريم قال

((اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ))

[الحاكم عن ابن عباس]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا : هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[سنن الترمذي]

أي إلى أن عُطِبَ الجسد تقول : يا رب ، كنت مستعلياً على الناس، كنت لا تنظر إلى أحدٍ دونك ، حينما جاءت الأزمة القلبيَّة صار إلى تواضع ، أخي ادعُ لنا ، أستاذ ادعُ لنا ، الآن تقول : ادعُ لنا ؟! كيف كانت حالك قبل أن تُصاب بهذا المرض ؟ ..

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ)

طائرة تطير دخلت في عاصفة مكهربة فاضطربت ، وكادت تسقط ، وهبطت ، وجنحت ، لم يبق في الطائرة واحدٌ إلا ويقول : يا الله ، فلمَّا هبطت على الأرض عُرِفَ أن هذه الطائرة تحمل أناساً لا يؤمنون بالله إطلاقاً ، لكن مسَّهم الضر فدعوا الله مخلصين له ..

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ)

أي أن البطولة وأنت في الرخاء ، حيث الصحَّة طيِّبة ، الزوجة ممتازة ، الأولاد أبرار ، الدخل وفير ، المكانة جيدة ، وأنت في قمَّتك ، وأنت في قمَّة مجدك ، وأنت في الوظيفة وليس بعد التقاعد ، يجب أن تكون متواضعاً وأنت على رأس عملك ، والناس أمامك ينتظرون ..

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً)

الإنسان بالمال يستعلي ، وبالقوَّة يستعلي ، وإذا كانت له وظيفة يستعلي بها ، وإذا كان مقتدراً يستعلي ، وإذا كان معه شهادة عالية والناس بحاجة له يستعلي ، ولا يكلّم أحداً ، لكن إذا جاءت المصيبة فإنه يتواضع ، ليتك تواضعت قبل المصيبة ، ليتك عرفت الله وأنت في الرخاء ، ليتك عرفت الله وأنت في بحبوحة ، ليتك عرفت الله وأنت قويٌّ نشيط ، لكن متى ؟! بعد فوات الأوان ! بعد أن ضيَّعت ما ضيَّعت!..

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً)

لكن ربنا عزَّ وجل لإلحاحه بالدعاء ، يا رب ، يا رب ، يا رب ، ما لي سواك ، أنقذني قال :

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ)

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ

1 ـ إذا زال الضر عادت حليمة إلى عادتها القديمة :

هذه الأزمة زالت ، هذا المرض انحسر ، هذا القلق تبدَّد ، هذا الخوف تلاشى ..

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

يقول لك : والله هذا الطبيب مستواه عالٍ ، فلان ذهبت إليه وقلت له : أنا قريبك ، تدخَّل وخلِّصني ، أين الله عزَّ وجل ؟ لا يوجد الله عزَّ وجل .

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

2 ـ البلاغة في كلمة (مَرَّ):

أما كلمة (مرَّ) ففيها بلاغة رائعة ، سيل عارم مندفع وضعت أمامه حاجز ، فلمَّا أزلت الحاجز مرَّ وتابع اندفاعه ، أي أن الإنسان أحياناً تتعقَّد معاملته ، فيأتي إنسان ، ويأخذها منه ، ويوقِّعها من فلان ، وفلان ، وفلان ، ويقول له : تفضَّل ، جاء هذا الإنسان مسك هذه المعاملة نظر وذهب ، قال له : شكراً، فهذا الذي وقف ، وعاونك ساعة ، وتجاوز الدور ، وكانت المعاملة تحتاج إلى خمسة أيَّام ، وفيها تعقيدات ، وقد يوافقون أو لا يوافقون ، أخذها بنفسه ، ومشَّاها لك ، وناولك إياها ، نظرت فيها فهي مع الموافقة ، التوقيع بالأخضر ، ومشيت من فورك ، أين يا أخانا ؟ مرَّ ، ومرَق ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّين كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ))

[متفق عليه عن أبي سعيد الخدري]

أي أنه يمر ..

(كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

قل : يا رب لك الحمد ، يا رب لك الشكر ، هذا توفيقك ، هذه عنايتك ، هذا فضلك ، هكذا يقول الإنسان ، منتهى اللؤم ، منتهى الجحود ، منتهى الكفر ، ابنه حرارته واحد وأربعين فحصه الطبيب فقال له : عنده التهاب سحايا ، إنه على وشك الموت ، يا رب ليلاً ونهاراً ، وبعد هذا الحرارة انحسرت والله عزَّ وجل عافاه له ، اسجد سجود الشكر لله عزَّ وجل ، قل له : يا ربي لك الحمد والشكر والنعمة والرضا ، هذا فضلك يا رب ، لا إنه مرَّ شيء مادي وقف في طريقه ثم فتحت له المجال فاندفع ، من دون إحساس ، من دون قِيَم ، من دون شعور ، من دون اعتبارات ..

(مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

هذا نموذج اللئيم ، إذا وقع تحت الشدَّة قال : يا رب ، فإذا انحسرت الشدَّة نسي الله عزَّ وجل ، ونسي أنه دعاه ، ونسي أنه تذلَّل له ، ونسي التضرُّع ، لكنه رأى ما عنده من إنجاز..

(مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

1 ـ كان النبي عليه الصلاة والسلام يعظِّم النعمة مهما دقَّت :

النبي اللهمَّ صل عليه كانت تعظم عنده النعمة مهما دَقَّت ، لو شرب كأس الماء ، تعظُم عنده النعمة مهما دقَّت ، حينما دخل مكَّة فاتحاً دخلها مطأطئ الرأس تواضعاً لله عزَّ وجل ، هكذا الإنسان ، النبي عليه الصلاة والسلام قدوةٌ لنا ..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب : من الآية 21)

إنسان لبس ثياباً جديدة ، دخل إلى بيته ، يقول : الحمد لله الذي آواني ، وكم ممن لا مأوى له ، وإذا أكل طعاماً يحبُّه قال : الحمد لله الذي أطعمني وأسقاني ، وإذا وجد أن له زوجة في البيت ، وله أولاد ، بيته نظيف ، له دخل يقول : يا رب لك الحمد .. " الحمد على النعمة أمانٌ من زوالها ".. الحد الأدنى في الشكر أن تعرف أن هذه النعمة من الله ، والحد الأعلى أن تُقابل على النعمة بخدمة العباد ..

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ(13))

(سورة سبأ)

لكن أنا لا أتصوَّر إنساناً يشكر الله على نعمه ، على حواسِّه الخمس ، على عقله ، على زوجته ، وعندما يتزوَّج الإنسان ..

شُرَيْح القاضي لقيه صديقه قال له : " يا شُرَيح ، كيف حالك في بيتك ؟ " قال له : "والله يا فلان .. اسمه الشَعْبي .. والله منذ عشرين عاماً لم أجد ما ينغِّص حياتي أو يعكِّر صفائي " ، قال له : " وكيف ذلك ؟ " قال له : " خطبت امرأةً من أسرةً صالحة ، فلمَّا دخلت بها وجدت كمالاً وصلاحاً ، أي أنه وجد عقلاً وأدباً وجمالاً ، فقمت وصلّيت ركعتين شكراً لله على نعمة الزوجة الصالحة ".. وفي بحث الصلاة في الفقه صلاة الشكر ، إنسان اشترى بيتاً ، يدخل إلى بيته الذي هو ساكن فيه ، أول عمليَّة يتوضَّأ ، ويصلي ركعتي الشكر ، نجح في شهادته الجامعيَّة ، أول عمليَّة صلاة الشكر ، تزوَّج ، اشترى محلاً ، صفقة باعها ، وربح فيها ، صلاة الشكر مشروعة ، ربنا عزَّ وجل قال في الحديث القدسي :

((إني والإنس والجنُّ في نبأٍ عظيم ، أخلق ويُعْبَد غيري ! وأرزق ويُشكَر سواي ! خيري إلى العباد نازل ، وشرُّهم إليَّ صاعد ! أتحبَّب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغَّضون إليَّ بالمعاصي ، وهم أفقر شيءٍ إليَّ ، من أقبل عليَّ منهم تلقَّيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب))

[ورد في الأثر]

هكذا مرَّ ، الصحَّة طيّبة ، والأكل في البيت من كل الأنواع ، لست محروماً من شيء ، نعمة الزوجة موفورة ، نعمة السكن موفورة ، الماء فُرات ، فلا ينقصك شيء ..

(مَرّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

شعرت بوضع غير طبيعي فأجريت فحصا فوجدت أنك سليم ، يا رب لك الحمد ، كان الاحتمال ورما خبيثا فظهر أنه ورم عادي ..

(مَرّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

اللئيم لا يشكر أحدا :

أهكذا المؤمن ؟ هذا حال الإنسان العادي ، هذا حال الإنسان الكافر، هذا حال الإنسان الجاهل ، المُعْرِض ، المُقَصِّر ، اللئيم ، سيدنا علي قال : " والله والله ، مرَّتين ، لحفر بئرين بإبرتين ، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين ، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين أهون عليَّ من طلبِ حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين " ..

أعلّمه الرماية كل يومٍ فلمَّا اشتدَّ ساعده رماني

وكم علَّمته نَظْمَ القوافي فلمَّا قال قافيةً هجاني

* * *

هكذا !! تسمع أحياناً أن صانعاً كان عند معلّمه ، فتح محلاً فتجده فيتكلّم عليه ، إنه علّمك المصلحة ، وأكرمك ، ودلّلك ، وعندما صار معك إمكانيَّات لتفتح محلل لك تقول : هذا معلمي غشَّاش لا تذهبوا إليه، هكذا اللؤم ؟! والله اللؤم في الأرض الآن كأنه طوفان ، من علامات قيام السَّاعة أن يكون المطر قيظاً ، والولد غيظاً ، ويفيض اللئام فيضاً ، ويغيض الكرام غيضاً ، أول أنواع اللؤم مع الله عزَّ وجل ..

(مَرّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

كنت تولول قبل ساعة ، ظهر بالتحليل أنه لا يوجد شيء ، يالله سوف أعمل سهرة اليوم، أي سهرة هذه؟ كان المصير أسود ، أين السهرة اليوم ؟ ..

(مَرّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)

ربنا عزَّ وجل قال :

(كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

قليل من يفي بعهد الله :

والله هناك آية قرآنيَّة يقشعر لها البدن ، الله قال :

(وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

(سورة الأعراف : من الآية 102)

يذهب إلى الحج يعاهد ربَّه عند الحجر الأسود ، يا رب لا أُعصيك أبداً ، فيأتي بعد سبعة أيَّام يعصيه ، يا أخي معوَّد ، وقد قال لي أحدهم : تبنا يا أخي ، كنَّا نشرب الخمر فتبنا ، ذهبنا إلى الحج ، وعاهدنا الله، جلس مع رفاقه فقالوا له : اشرب ، فقال لهم : لا أنا معاهد ، فقالوا له : خذ منا ثمن الحِجة واشرب ، فقال : والله شربت فماذا أفعل ؟

(وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ(102))

فاسق ..

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ)

معاني الحروف المقطّعة :

1 ـ الإهلاك بسبب الظلم :

انظر إلى دقَّة القرآن الكريم ، لا يوجد هلاك بلا سبب ، أخي الطبقة الأرضيَّة هشَّة ، على مقياس

رختر كانت الدرجة ثماني فتهدَّمت المكسيك ، ما هذا ؟ الموضوع على رختر فقط ، أم هي إهلاك من الله عزَّ وجل ؟ هي إهلاك من الله ، ومن السُخف أن تفسِّر هذه الظواهر الخطيرة في العالَم تفسير أرضي ، مع أن التفسير الأرضي مقبول إذا جمعته مع التفسير الإلهي ..

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

2 ـ الإهلاك بسبب الظلم لا ينافي التفسير العلمي :

يمكن أن تفسِّر أنه عندما أراد ربنا عزَّ وجل إهلاك قرية فاسقة ، فاجرة ، تتاجر بالأفيون ، توزِّع الأفيون لجميع أنحاء العالَم كان يمكن أن تفسِّرها أنها إهلاك من الله عزَّ وجل عن طريق هزَّة أرضيَّة ، قد تجمع التفسير الإلهي مع التفسير العلمي ، والتفسير الإلهي والتفسير العلمي لا يتناقضان إنما يتكاملان ، أما أن تقول : فقط هزَّة أرضيَّة على مقياس رختر فقط ، معنى هذا : " من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر " أصبحت نفسه هي المصيبة ..

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ)

لما ظلموا .. ما دام يوجد ظلم فهناك هلاك ، لذلك حينما يعمُّ الفساد في آخر الزمان ..

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الروم : من الآية 41)

قال الله عزَّ وجل :

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(58))

(سورة الإسراء)

الهلاك نوعان :

لكن العلماء قالوا : " الهلاك نوعان ؛ هلاكٌ مُبرَم وهلاكٌ بطئ " ، أي ضُعف الموارد ، شُحُّ السماء ، قلَّة النبات ، ازدياد الحاجات ، قلَّة الدخل ، الضغط الاجتماعي ، هذا أحد أنواع الهلاك ، هذا يسمونه موتا بطيئا ، إما موت بضربة قاصمة أو موت بطيء ، فالهلاك هلاكان ، عندما يجد الإنسان أن ليس معه مال ، أموره ليست بيده ، الله عزَّ وجل قال :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور : من الآية 55)

أي أنه إذا لم يستخلفنا الله في الأرض ، بل استخلف أعداءنا ، ولم يمكّن لنا ديننا الذي ارتضى لنا ، ولم يبدِّلنا من بعد خوفٍ أمناً فهذا أحد أنواع الهلاك ، لكن ليس هلاك قاصم ، بل إنه هلاك ببطء ، لكن السبب :

(يَعْبُدُونَنِي)

العبادة لم تحصل ، فلمَّا أخلَّ العباد بما عليهم فالله سبحانه وتعالى في حلٍّ من وعده ..

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ)

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

العلماء وقفوا عند هذه الآية ، لماذا ..

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ

1 ـ انتبه إلى قوله : وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ

لأن نفي الإيمان شيء ، ونفي الإمكانيَّة شيءٌ آخر ، مثلاً تقول : فلان لم يسرق ، إنك نفيت عنه حدث السرقة ، لكن تقول : فلان ما كان له أن يسرق ، إنك نفيت عنه إمكانيَّة السرقة ، ورغبة السرقة ، واستعداده للسرقة ، نفيت عنه كل ما يتصل بالسرقة ، هذا يسمُّونه النفي المُبالغ ، ما كان لي أن أفعل ، ما فعلت شيئاً ، أنا ما أفطرت ، والله أنا صائم يا أخي ولم أفطر ، لكن ما كان لي أن أفطر ، أي مستحيل ، شيء لا يخطر في بالي إطلاقاً ، لا يوجد عندي استعداد أن أفطر ، ولا توجد عندي نيَّة لأفطر ، ولا توجد عندي إمكانيَّة لأن أفطر ، ولا أرضى أن أفطر ، مهما دعوتني فلا أفطر ، ما كان لي أن أفطر ، هذه(ما كان)تفيد نفي الإرادة ، ونفي الإرادة أبلغ من نفي الحدث ، فلان ما كان له أن يسرق أي مستحيل ، لكن لم يسرق أي قد يكون عنده إمكانية لأن يسرق ، ولكن ما سرق ، لكن ما كان له أن يسرق أي مستحيل ، ربنا عزَّ وجل قال :

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

2 ـ لماذا جعل ربنا سبحانه وتعالى إيمانهم مستحيلاً ؟

لماذا جعل ربنا سبحانه وتعالى إيمانهم مستحيلاً ؟ إذا كان هدف إنسانٍ أن يصل إلى حَلَب ، فمشى باتجاه درعا ، فماذا تقول ؟ تقول : ما كان له أن يصل ، إذا كان ذاهباً إلى حلب ، ووقف في حمص ، ولم يُكمِل تقول : لم يصِل بعدُ ، أما إذا كان ماشياً بعكس الاتجاه فتقول : ما كان له أن يصل ، كلَّما مشى بعد عن هدفه ، فعندما يمشي الإنسان في طريق الدنيا ، ويتوغَّل فيها ، ويقع في الظلم والبغي والعدوان ، والدنيا أكبر همِّه ، وينغمس في شهواته ، لا نقول : هذا لا يؤمن بل نقول : هذا ما كان له أن يؤمن بهذا المعنى ، فالطالب الذي لم يداوم إطلاقاً هل تقول : لم ينجح ؟ لا إنك تقول : ما كان له أن ينجح ، أما إذا داوم ولم يجتهد تقول : لم ينجح ، أما إذا لم يداوم ولا يوماً ، ولا فتح كتاباً ، ولا اشترى كتباً تقول : لم ينجح ؟ إنك تقول : ما كان له أن ينجح ، ربنا عزَّ وجل قال :

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

لكن لماذا أهلكهم الله عزَّ وجل ؟ لأنهم ما كانوا ليؤمنوا ، ربنا عزَّ وجل ما دام لهم أمل في الإيمان فلا يوجد هلاك ، ما دام هناك بقيَّة أمل فلا هلاك ، إلى أن يسير الرجل في طريقٍ معاكسٍ للإيمان بزاوية مائة وثمانين درجة ، أي نصف دائرة .. فهو هكذا ، والإيمان هكذا في اتجاه آخر .. عندئذٍ يستحقُّ الهلاك ، لأنه ..

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

الهلاك أمر من الله عزَّ وجل مدروس ، فليس هناك هلاك عشوائي ، أو هلاك من دون مبرِّر، أهلكهم الله عزَّ وجل لأنهم :

(ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ)

جاءتهم الرسل أعرضوا عنهم ، تجاوزا الحدود ، غرقوا في الدنيا ، وقعوا في الظلم فأهلكهم الله عزَّ وجل ، كلام ربنا عزَّ وجل دقيق ..

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

1 ـ القانون المطّرد بوجود سببه : كَذَلِكَ نَجْزِي

كلمة(كذلك)خذها قانونا ..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

قال :

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

هذا قانون ، تعريف القانون في العلم : علاقةٌ ثابتة بين متحوِّلين ، أي أنك عندما تُحسن يؤتيك الله العلم والحكمة ..

" من أخلص لله أربعين صباحاً تفجَّرت ينابيع الحكمة في قلبه وأجراها الله على لسانه " .

قانون :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

القصَّة انتهت ، القانون :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

كن مؤمناً ، واستحقَّ النجاة في كل عصر ، في كل عصر كن مؤمناً تستحقَّ على إيمانك أن تنجو من كل شيءٍ تخافه .

قانون :

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ)

وقبل ظلمهم ..

(وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ)

فكذَّبوا بها ..

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

2 ـ كلَّ قومٍ أهلكهم الله لا جدوى منهم :

إذاً كلَّما رأيت قوماً أهلكهم الله عزَّ وجل تأكَّد أنهم لا جدوى منهم ، لا أمل منهم ، لو كان فيهم بقيَّة أملٍ في هدايتهم لما أهلكهم الله عزَّ وجل ، قال عليه الصلاة والسلام :

((وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ))

[مسلم عن ابن عباس]

لا يهلك إلا من هلكت نفسه ، وبعدت عن الحق .. ولا يهلك إلا من شرد على الله شرود البعير ، ابتعد وغاص كثيراً في ضلال مبين .

الخمر مثلاً تُذهِب العقل ، وتحطُّ المكانة ، وتُضعف المَلَكَات ، وتُثَبِّط الهمم ، فمن شربها فهو في ضلالٍ مبين ، وفي ضلال بعيد ، الضلال البعيد ؛ واحد ماشي في طريق باتجاه حمص مثلاً ، وجد مفرقاً فمشى فيه ، بعد ما مشى مائتي كيلو متر إذا به بطريق تَدمُر ، وهو يريد حمص ، هذا اسمه ضلال بعيد ، أي أنه ابتعد كثيراً ، لو مشى عشرة كيلو مترات ورجع فهذا ضلال قريب ، فهناك ضلال مبين ، وضلال بعيد ، أحياناً الإنسان يبعد كثيرا ، يعتقد اعتقادات فظيعة ، أنه لا توجد غير الحياة الدنيا، هذا ضلاله بعيد ، هذه هي الدنيا فهي كل شيء ، من كان فيها غنياً فهو في جنَّة ، ومن كان فيها فقيراً فهو في جهنَّم ، وليس بعد الدنيا شيء ، هذا في ضلال بعيد ، ويوجد ضلال مبين ، فمن كان مجرماً استحقَّ الهلاك..

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

1 ـ لا تعيِّر غيرَك بما فيك :

يكون في المحل ابن يعمل عند أبيه ، وليس راضياً عن أبيه ، يقول لك : بيعه صعب ، أنا أحب أن أبيع بسهولة ، أبي كذا ، أبي كذا ، يتوفَّى الأب ، ويأخذ الابن المحل مكان أبيه ، فيأكل مالا حراما ، ويغش، كل الذي تنتقد فيه أباك وقعت فيه ، بل في أشدَّ منه ، والله عزَّ وجل يمتحن الإنسان ، فقد يكون موظَّفا في دائرة فينتقد الأعلى منه ، أُزيح فوضعوه مكانه ، فتجده كذلك أغلق بابه عن المراجعين ، كيف كان ينتقده من قبل ، وقع في نفس المرض ، ربنا عزَّ وجل قال :

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

الإنسان لا ينتقد ، وإذا انتقد ينتبه ، فإن عيون الناس مفتَّحة ، فإذا وقع فيما انتقد غيره فقد وقع في أبشع

شيءٍ ، وهو التناقض ، فأبشع صفة في العقل التناقض ، أي أن تقول شيئاً وتفعل عكسه ، أن تقيس الناس بمقياسين : مقياس تقيس به نفسك ، ومقياس تقيس به الآخرين ، هذا تناقض ، هذا تفريق ، هذا خطأ ، وخلل فكري ..

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

2 ـ الاستخلاف في الأرض سنة الله :

وهكذا ، الآن انظر ترى السوق مشهوراً في الشام ، أما بعد ستين سنة كل هذا الطقم يتغيَّر ، إما أن يتسلَّم المحل ، أو أن يُباع ، أو يأتي الابن مكان أبيه ، تجد وجوهاً جديدة ، ستين سنة أخرى تجد طقماً جديداً ، هذا على مستوى المحلَّات ، أما على مستوى البيوت ؛ هذا البيت يتوفَّى الأب ، فيُباع أو يسكن فيه ابنه ، وُجد وجه جديد ، ومعاملة جديدة ، فربنا عزَّ وجل جعلنا خلائف في الأرض ، الإنسان يخلف أباه ، يخلف شريكه ، يخلف موظَّفا في دائرته ..

(لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

3 ـ الاستخلاف في الأرض تحت المراقبة الإلهية :

أنت تحت المراقبة ، عندما يراقب الإنسانُ إنساناً آخر يربكه ، فكيف وأن الله سبحانه وتعالى يراقبنا جميعاً ؟!

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

حال المراقبة قاله الصوفيّون ، الإنسان دائماً شايف الله ناظر إليه.. اعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك ..

اغتسل أحدهم عُريانا عند النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال له :

((خذ أجارتك لا حاجة لنا بك إني أراك لا تستحي من الله))

[ورد في الأثر]

حالة المؤمن أنه تحت المراقبة ، مراقبة إلهيَّة ، مراقبة رحيمة ، مراقبة خَيِّرة ، مراقبة فيها لطف ليس فيها إزعاج ..

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

في أثناء البيع ، تقول : الله وكيلك ليس فيها ربح ، الله على رأسك ، هل صحيح أنك لم تربح ؟ تحاكي نفسك بالمائة مائة وأنت رابح ، الله وأذَّن المؤذِّن فتقول : أخي نريد أن نلحق بالصلاة ، أيّ صلاة هذه ؟

حلفت بالله أنه ليس فيها ربح وأنت رابح ، هكذا دين الناس الآن ، يقول لك : كل شيء لحاله ، ولم يعلم أن كل شيء محاسب عنه ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

إذاً :

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ{14} وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ

1 ـ انظرْ كيف يرد الناس القرآن ؟

لم يعجبه القرآن ، منع الربا لم يعجبه ، يقول لك : هذا الربا ، مال تضعه من دون فائدة ، مجنون أنا فأضعه من غير فائدة ؟ غيري يستفيد منه ، ولا أنا أستفيد منه ، هذه الآية يا أخي ليست لهذا الزمن ، بعد هذا الله قال :

(لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : من الآية 130)

انتبه يا أخي النهي ليس عن خمسة بالمائة، النهي عن خمسة وعشرين بالمائة ، هكذا الله قال ..

(لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

لم تعجبه هذه الآية ، وآية غض البصر لم تعجبه كذلك ، أين أذهب بعيوني يا أخي ؟ أنا شغلي كلّه مع موظّفات ، ماذا حصل إذا نظر إليها ، هذه بدّلها لنا يا أخي ..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ)

هذا فيه تضييق كبير ، ثقيل .

(أَوْ بَدِّلْهُ)

2 ـ انظرْ كيف وصل الناس إلى المطالبة بتبديل ما في القرآن ؟

أو تعديلات طفيفة ، أي ألغ لنا آية النظر ، ألغ لنا آية الربا ، ألغ لنا آية الاختلاط ، هكذا يكون في مرونة ، يقول لك : هذا شيخ عصري ، مرن ، لا يعقدها كثيراً على التلاميذ ، فقط قلبك يكون مع الله يا

ابني افعل ما شئت ..

(ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي)

لماذا لا تجامل في أمور الدنيا وتجامل في أحكام الله ؟

إذا كنت مهندساً ، وجاءك شخص ، وقال لك أريد مخططاً ، عملت له المخطط ، قال لك : هذا الحديد اثنا عشر ميليمترا هل يستبدل بثمانية مليمترات فقط للسواري ؟ والله لا يجوز ذلك يا أخي ، هنا لا مجاملة ، عوض عن الستة أكياس يمكن أن نضع أربعة ، هنا لا مجاملة ، هذا بناء بثمانية طوابق ، تضع أربعة أكياس يقع البناء ، المهندس مسؤول ، تضع عوضاً عن اثني عشر ميليمترا ثمانية مليمترات يقع البناء ، هنا لا مجاملة ، لأنه توجد قوانين ، هذا البناء مبني على علم ، السنتيمتر مربَّع يتحمَّل مائتي كيلو ، إذا كان هناك أربعة أكياس بدل ستة لا يتحمَّل مائة وخمسين كيلوا ، كلَّه حسابات ، هل توجد مجاملة بالموضوع ؟ لا مجاملة ..

(ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ)

فهذه نفس بشرية ، فإذا سمحنا لها بالاختلاط تعلَّقت بالنساء ، أي صلاة بقيت هذه ؟ انقطعت عن الله عزَّ وجل ، إذا سمحنا لها بالربا وقعت في الحرام ، أصبحت خجولة ، أي أن القضية ليس معها لعبة ، محطَّة وقود مكتوب عليها : ممنوع التدخين ، لا تعقّدوها كثيرا ، غير معقول ، هذا تعقيد ، التدخين يُذْهِب بالكازيَّة كلها يفجرها ، هذا إعلان مصيري ، وليست قضيَّة سهلة ، فكل شيء الله عزَّ وجل نهى عنه أو أمر فيه ليس فيه مجاملة ، ولا حل وسط ، ولا بالمائة ثلاثين ، هذا دين ..

((ابن عمر دينك دينك ـ أي الزم دينك ـ إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[ورد في الأثر]

كل إنسان يتساهل معك فاعلم أنه لا يفهم شيئاً .. فلو أن إنساناً يريد أن ينشئ معمل غسَّالات ضخماً ، وجد أن موضوع تنشيف الآلة صعب ، قال : هذه سوف أُلغيها ، بدونها أحسن ، ماشي الحال ينشفوا الملابس بأيديهم ، عصر الغسيل كذلك صعب فألغاه ، تسخين الماء صعب فألغى التسخين ، الآن دورانها صعب ألغى الدوران ، هذه أصبحت وعاء غسيل وليست بغسَّالة .. كلَّما ألغيت صعوبة صرت بعد ذلك بلا شيء ، لذلك الدين ليس فيه لعب ، مثل اللعبة مثلاً ، شروط اللعب إذا ألغيتها وقلت : ليس بشرط أن تأتي الكرة في السلَّة ، لم تعد هناك بطولة ، لو جاءت نحوها تعتبر ، هذا لم يعد لعباً ، إذا لم توجد شروط صعبة دقيقة لم تعد هنا بطولة ، فكلَّما ألغيت شيئاً من الدين تهدِّم الدين .

((الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[ورد في الأثر]

أخي أنا قلبي نظيف لا أنوي لأحد شراً ولكن لا أصلي ، لا ينفع هذا لأن

((الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

لذلك :

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ)

هناك معنى دقيق هو : أن القرآن من عندك إذاً دبِّره ، كأنَّهم يظنُّون أو يتهمون النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا القرآن من عنده لذلك بدِّله لنا، غيّره أو عدّله ، هذه الآية احذفها لنا ..

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي)

قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي

أنا رسول ، أنا مبلِّغ .

إذا صدر مرسوم من رئيس الوزراء ، وأتى موظَّف من الدائرة يبلغك فتقول له : يا أخي احذف لي هذه المادَّة ، ما الذي أدخلني أنا في الموضوع ؟ أنا مبلِّغ فقط ، تقول لواحد يبلغك مرسوما : احذف لي هذه المادَّة ؟ عدِّلها لي ، هذا بيد رئيس الوزراء ، وليس بيد موظَّف بسيط..

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

1 ـ الخوف يتناسب مع الإدراك :

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو ما هو من الرفعة والعظمة يخاف إن عصى ربَّه عذاب يومٍ عظيم ، فما بال عامَّة الناس ؟! لذلك الخوف يتناسب مع الإدراك ، فإن كان الإدراك ضعيفا كان الخوف ضعيفا ، لأن الخوف يتناسب طرداً مع الإدراك ، فإن لم يكن هناك إدراك فلا خوف .

مرَّة قال لي طالب : أنا لا أخاف من الله عزَّ وجل ، قلت له : معك حق ، عندما قلت له : معك حق ، استغرب ، قلت له : أحياناً يضعون طفلاً صغيراً في الحصيدة فيمر ثعبان فيلمسه الطفل ، لأنه ليس لديه إدراك ، طبعاً لا تخاف من الله عزَّ وجل ، لأنك لا تعرف ما معنى الله عزَّ وجل ..

في بدر قال عليه الصلاة والسلام :

((لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبيَّاً))

[ورد في الأثر]

2 ـ لا يستخفّ بعدالة الله إلا غبي أحمق :

هذه هي عظمة الأنبياء ، لا محاباة عند الله ، الله عزَّ وجل لا يقرِّب إنساناً على باطل ، لا يُقرِّب معتدياً، لا يقرِّب ظالماً ، بل إنه يقرِّب إنساناً مستقيماً ، يقرب إنساناً محسناً ، لأن الله كامل ..

((إنَّ اللَّهَ طيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طيِّبًا))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

فإذا كان رسول الله اللهمَّ صل عليه يقول :

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إذا كان سيدنا عمر قال : << والله لو أن الله أنزل على نبيّه أنه معذِّبٌ واحداً من خلقه لخِفْتُ أن أكون أنا >> ، فإذا كان سيدنا عمر عملاق الإسلام الذي قال : << والله لو تعثَّرت بغلةٌ في الفرات ـ وهو في المدينة ـ لحاسبني الله عنها ، لمَ لمْ تُصلِح لها الطريق يا عمر ؟ >> ، وإذا كان سيدنا عمر يقول : << ليت أمَّ عمر لم تلد عمر ، ليتها كانت عقيماً >> ، ماذا رأى ؟ ماذا رأى من شدَّة الحساب ، ومن عدالة الله سبحانه وتعالى ؟ لا يستخفُّ بعدالته إلا أحمق ، لا يستخفُّ بعدالته إلا غبي ..

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{15} قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ)

قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ

1 ـ لماذا لم يتّهموا النبي عيه الصلاة والسلام قبل البعثة :

أربعين سنة لم أتكلَّم ولا كلمة ، معنى هذا أن الكلام ليس من عندي ، لو كان من عندي لكنت أتكلَّمه وأنا بالثلاثينات ، أتكلَّمه بالخامسة والعشرين ، أتكلَّمه بالعشرينات ، أربعين سنة لم أتكلَّم كلمة ، هذه واحد .

الشيء الثاني: هل جرَّبتم عليَّ من قبلُ كذباً قط ؟

يقولون : إن هرقل ملك الروم التقى بأبي سفيان ، وكان على الشرك قبل أن يؤمن ، حدَّثه عن رسول

الله ، أن عندنا رجلا ادعى أنه نبي ، ويقول : أنا نبي ، وهكذا ، هرقل كان ذكياً قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب ؟ قبل البعثة ؟ قال : " لا والله " ، فقال هرقل : " قد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله " ، هرقل نفسه قال هذا الكلام ..

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)

الشيء الثاني : عندما استقبل النجاشي وفد المسلمين ، وقال له : يا جعفر حدِّثنا عن نبيُّكم " قال له : " يا أيها الملك ، كنَّا قوماً أهل جاهليَّة نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحِم ، ونسئ الجوار ، ويأكل القويَّ منَّا الضعيف .. هذه الجاهليَّة الأولى مثل الثانية .. حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته ، وصدقه ، وعفافه ، ونسبه .. أربعة أشياء ، نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه ..

فدعانا إلى الله لنعبده ونخلع ما يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وصلة الرحم ، فعدا علينا قومنا ليعذِّبونا ويفتنوننا عن ديننا ، وقد لجأنا إليك " فقال : " أنتم آمنون في بلادي " ، إذاً :

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)

من معاني عُمُراً من قبله : أنني في هذا العمر لم أتكلَّم كلمة في القرآن ، معناها الآن هو ليس من عندي .

2 ـ الأمين قبل البعثة وبعدها :

المعنى الآخر : أنني كنت عندكم صادقاً وأميناً فهل يُعْقَلُ أن أكذب الآن ؟ ..

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)

يقولون : إن عمرو بن العاص كان صديقاً لمسيلمة الكذَّاب ، التقى معه قال له : " ماذا يقول الآن نبيُّكم؟ .. أي قل لنا ما هي آخر الأخبار ؟ ، قال له : " يزعم أنه نزل عليه قوله :

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة العصر)

فقال له : " أنا كذلك أُنزل عليّ مثل هذا الكلام " قال له : " ما هذا أسمعنا " قال له : " يا وَبَر يا وبَر إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حقرٌ نقر " ، فقال له عمرو بن العاص : " والله إنك لتعلم أني أعلم أنك كذَّاب "..

(قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)

ثم يقول الله عزَّ وجل :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ

1 ـ الافتراء على الله والتكذيب بآياته من أكبر الجرائم :

ربنا عزَّ وجل وصف هذا العمل بأنَّه جريمة ، هناك جريمتان ؛ الأولى أن تفتري على الله كذباً ، أن تزعم أنه قد أوحي إليك ولم يوح إليك ، أن تزعم شيئاً لم يقله الله ، أن تبدِّل في الدين ، أن تغيّر ، أن تزوِّر ، أن تحرِّف هذه جريمة ، والجريمة الثانية هي أن تكذِّب بالحق ، الافتراء على الله بالكذب جريمة ، والتكذيب بالحق جريمة ..

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

ليس هناك إنسان أظلم ..

(مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

ابن سلاَّم حينما كان في المدينة المنوَّرة وقَدِمها النبي عليه الصلاة والسلام مهاجراً قال : " انجفل الناس إليه ، فلمَّا رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب .. من رآه بديهة هابه ومن عامله أحبَّه .. فلمَّا سمعه يقول :

((أيها الناس افشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلَّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنَّة بسلام))

[أحمد]

انشرح قلبي للإسلام .

2 ـ لابد من معرفة المصير المحتوم :

هناك أمور مصيريَّة في حياة الإنسان ، أخطر موضوع تعالجه موضوع الإيمان بالله عزَّ وجل لأنك بعد الموت سوف تكون مع الله إلى الأبد ، فإذا كنت قد آمنت به من قبل وعرفته ، واستقمت على أمره ، وأطعته وتقرَّبت إليه سعدت إلى الأبد ، وإن كنت قد أعرضت عنه ، ولم تطع أمره ، وأسأت إلى عباده، ثم كان منقلبك إليه ، ورجعت إليه ، فرأيت العمل السيئ ، هذا العمل أشقاك إلى الأبد ، هذا موضوع خطير جداً ، أن تعرف أين المصير ، الناس في غفلة عن هذا ، النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((والذي نفس محمدٍ بيده لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ ـ تختفي قابليتكم نهائياً ـ ولا شربتم شراباً ، ولذهبتم إلى الصعُدات تلدمون أنفسكم وتبكون عليها))

[ورد في الأثر]

الإنسان يوم القيامة حينما يأتيه الموت يصرخ صرخةً لو سمعها أهل الأرض لصُعِقوا بها ، الآن قبل فوات الأوان ونحن أصحَّاء ، ونحن في قوَّتنا ، وصحَّتنا ، اِعرف الله في الرخاء قبل أن تضطر إلى معرفته في الشدَّة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (06-17): تفسير الآيات 17 – 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-10-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي في سورة يونس إلى قوله تعالى :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ

1 - لا أشد ظلما ممّن يفتري الكذب على الله :

كلمة أظلم اسم تفضيل ، أي الأشد ظُلْمَاً ، أي أن هناك ظالمٌ وهناك أظلم ؟ من هو الأظلم ؟ من هو الأشد ظلماً ؟ من هو الأكبر ظلماً ؟ من هو الأكثر ظلماً ؟ هو الذي يفتري على الله الكذب ، الذي يشرِّع من تلقاء نفسه ، الذي يقول : قال الله ، ولم يقل الله ، الذي يحرِّف ، الذي يزوِّر ، الذي يؤوِّل تأويلات تغطي انحرافاته ، هذا الذي يفتري على الله الكذب ، هذا الذي يضع حديثاً لا أصل له ، أو هذا الذي يأتي بتأويل لا أصل له ، أو هذا الذي يجر الآيات كي تتوافق مع انحرافاته هذا الذي يفتري على الله الكذب ، إنه الأشد ظلماً ، والأعظم ظلماً ، ظلم لمن ؟ ظلم نفسه أولاً ، والناس ثانياً .

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

أي : هل في الأرض إنسان أشد ظلماً من هذا ؟ هذه :

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

هل في الأرض كلها إنسانٌ أشد ظلماً من هذا الذي يفتري على الله الكذب ، من هذا الذي يقول : رأيت في المنام كذا وكذا ، رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في المنام وقال لي : كذا وكذا ، ولم يقل له كذا وكذا ، والافتراء على الله عزَّ وجل سواء بتأويل آياته تأويلاً غير صحيح ، أو الافتراء على النبي عليه الصلاة والسلام بأنه قال ولم يقل ، أو بتوجيه الآيات والأحاديث توجيهاً مغايراً للحقيقة ، هذا الذي يفتري على الله الكذب هو الأشد ظلماً .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ)

هناك ظالمان ، أو هناك مجرمان ، بدليل قوله تعالى :

(إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

2 ـ المفتري على الله مجرمٌ غير مفلح :

فهذا الذي يفتري على الله الكذب ظالمٌ مجرم ، وهذا الذي يكذب بالحق ظالمٌ مجرم ، ظالمٌ بحق نفسه ، مجرمٌ بحق الآخرين ، هذا الذي يصد الناس عن سبيل الله ، هذا الذي يستخف بآيات الله ، يكذبها ، يريد أن يطفئ نور الله عزَّ وجل ، هذا أشد ظلماً لنفسه ومجرمٌ في حق الناس .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ{17} وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ)

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ

1 ـ من العجب أن تتعلق بمخلوق وتترك الخالق :

أي أن من العجب العُجاب أن تتجه إلى مخلوقٍ وتدع الخالق ، أن تعلّق آمالك على إنسان وتيأس من روح الله ، من العجب العجاب أن تخشى فلاناً ولا تخشى الله ، أن ترجو ما عنده ولا ترجو ما عند الله .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ)

وفي الأثر عن علي :

((ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته ، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً ، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيته إلا أهويت الأرض من تحت قدميه ، وقطعْت السماء بين يديه))

[كنز العمال]

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ)

هذا القرآن ليس للسماع بل للتطبيق ، راقب نفسك ، هل تعبد أحداً من دون الله ؟ هذا الذي يطيع زوجته ويعصي ربه تنطبق عليه هذه الآية يعبدها من دون الله ، هذا الذي يطيع شريكه ، ويأكل الربا ، ويعصي الله عزَّ وجل يعبده من دون الله ، هذا الذي يأمر بمعصية ويعصي الله إرضاءً لهذا الذي أمره هذا يعبده من دون الله .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ)

سيدنا هود قال :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِي(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

2 ـ كمالُ التوحيد أن لا ترى مع الله أحدًا :

كمال التوحيد أن لا ترى مع الله أحداً .

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(20))

(سورة غافر)

هذا هو التوحيد أن لا ترى مع الله أحداً ..

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : من الآية 17)

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)

(سورة محمد : من الآية 19)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : من الآية 2)

((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[سنن الترمذي عن ابن عباس]

إذا تيقَّنْتَ أن أمورك كلها بيد الله فأنت موحِّد ، أنا أقول : كلها ، أمورك كلها لا بعضٌ منها ، لقوله تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

ما أسخف هؤلاء ، ما أحمقهم ، ما أشد غباءهم ، ما أضلهم ، ما أبعدهم عن الصواب ..

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ)

يروي التاريخ أن أحد التابعين عاصر أحد الولاة من قبل يزيد بن عبد الملك ، فجاء هذا الواليَ أمرٌ لا يرضي الله عزَّ وجل ، فاستشار هذا التابعي فقال له كلمة ، قال له : " إن الله عزَّ وجل يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " .

أحد الولاة في عهد سيدنا عمر كتب إلى عمر بن الخطاب : " أن أُناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم ، لست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسَّهم بالعذاب ، فإن أذنت لي فعلت " ، فأجابه سيدنا عمر : " سبحان الله !! .. متعجباً .. أتستأذني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله ؟! وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البيِّنة ، فإن قامت فخذهم بالبينة ، ثم ادعهم إلى الإقرار ، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم ، فإن أنكروا فأدعوهم لحلف اليمين ، فإن حلفوا فأطلق سراحهم ، وايم الله لأن يلقوا الله بخياناتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم " .

يروي التاريخ أن في عهد عمرو بن العاص رضي الله عنه في مصر جفَّت مياه النيل ، والمصريون القدامى كان إذا جَفَّ نهر النيل ألقوا فيه فتاةً في ريعان الصبا حتى يرضى ، ويفيض عليهم بمائه ، فلما جف تكلَّم الناس في موضوع إلقاء فتاةٍ فيه بحسب تقاليدهم السابقة ، سيدنا عمرو بن العاص رأى هذا مخالفاً للشرع ، وتحت ضغطٍ شديد قال : " سأستشير أمير المؤمنين " ، فلما استشاره بعث إليه سيدنا عمر بالرسالة التالية قال : " من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، يا نيل ، إن كنت أنت تجري فلا تجري ، وإذا كان الله يجريك فسوف تفيض " ، وبعد هذه الرقعة فاض النيل ، بعد أيام هطلت الأمطار الشديدة ، وفاض نهر النيل ، فالدين كله توحيد ..

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة الأعراف : من الآية 59)

لذلك : " إني والإنس والجن في نبأٍ عظيم أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي " .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ)

وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ

منطق الحمقى والمغفَّلين :

كذلك أهل الفسق والفجور ، وأهل النفاق عندهم شيء من المنطق حسب رأيهم ، نحن معاذ الله لا نعبدهم إيَّاهم ولكننا نتخذهم شُفَعَاء ، فيا سبحان الله ! إن كانوا لا يملكون نفعاً ولا ضراً في الحال ، فهل يملكون الشفاعة في المآل ؟ إن كان الآن لا يملك نفعاً ولا ضراً فهل يملكها في المستقبل ، يوم يقوم

الناس لرب العالمين ؟

شيء آخر .. رد عليهم الله سبحانه وتعالى :

(قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ)

قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ

إذا كان الله لا يعلم هؤلاء الشفعاء فهم عدمٌ :

أي أن إذا كان الله لا يعلمهم فهم غير موجودين ، الإنسان قد لا يعلم وجود هذا الشيء ، والشيء موجود ، قد تُمْسِك كأس ماء فتراه صافياً ، مع أن فيه ملايين الأحياء الدقيقة ، فعدم رؤيتك لهذه الأحياء لا ينفي وجودها ، وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود .. هذه قاعدة في الفلسفة .. لأن الإنسان محدود ، لكن الله سبحانه وتعالى الذي أحاط بكل شيءٍ علماً ، الذي وسع كرسيه السماوات والأرض أي علمه ، الذي يعلم السر وأخفى ، إذا كان الله لا يعلم هؤلاء الشفعاء فهم بالتأكيد غير موجودين .

(قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ)

هؤلاء الشفعاء :

(إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة النجم : من الآية 23)

هذا اختلاقٌ من عندكم ، هذا افتراءٌ على الله سبحانه وتعالى :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً)

معنى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً

1 - المعنى الأول :

هذه آية مهمةٌ ، الناس أمةٌ واحدة ، بمعنى أن فطرتهم واحدة ، إمكاناتهم واحدة ، إمكانات الناس كلّهم واحدة ، أي أن كل الناس عندهم استعداد أن يؤمنوا بالله عزَّ وجل ..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44))

(سورة طه)

لولا أن فرعون يملك إمكانية الهدى لما أرسل الله له موسى ، هل أرسل موسى تمثيلاً ؟ حاشا لله ،

أرسله لأن فرعون يملك إمكانية الهدى ، الناس جميعاً أمةً واحدة ، بمعنى أن بنيتهم النفسية واحدة ، استعداداتهم واحدة ، إمكاناتهم واحدة ، فطرتهم واحدة ، قوانينهم النفسية واحدة ، وقد جُبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

هذا ممّا جُبل عليه الإنسان :

المعنى الأول:

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا(28))

(سورة النساء)

وَ ..

(خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

(سورة الأنبياء : 37)

هذه بنيته ، يخاف ، يقلق ، يحب الخير ، يحب السلامة ، يحب المحسن ، يحب العدالة ، وإن لم يكن عادلاً ، يحب الطهارة ، وإن لم يكن طاهراً ، حتى المنحرفون ، حتى اللصوص إذا اقتسموا الغنائم يقتسمونها فيما بينهم بالعدل ، لأن فطرتهم هكذا ، فربنا عزَّ وجل قال :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً)

هذه من معاني أمة واحدة ، أي بلا خلاف ، فلو أحضرت إنسانا من الألسكا ، من جنوب إفريقيا ، من جنوب استراليا ، من كندا ، من سيبيريا ، من اليابان ، من القطب الشمالي ، الإنسان هو الإنسان ، يحب السلامة ، يحب المحسن ، يحب الخير لنفسه ، في قلبه محبةٌ لأولاده ، منطقي ، واقعي ، هذا هو الإنسان ، خلق الله عزَّ وجل الناس على فطرةٍ سليمة ..

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم : من الآية 30)

لذلك لا يوجد فواصل بين الأمم والشعوب ..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

(سورة الحجرات)

هذا المعنى الأول من معاني :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً)

المعنى الثاني :

أن الناس جميعاً مدعوُّون للإيمان بالله عزَّ وجل ، قال :

(قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة الأعراف : من الآية 156)

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

خلقهم ليرحمهم ، ورحمة الله مبذولةٌ لكل الناس ، بقي علينا أن نكون أهلاً لها ، اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ..

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً)

أي يجب أن تكون البشرية أمةً واحدة ، لما بين كل إنسان من تواصل ، لأن كل إنسان فُطِرَ فطرةً سليمة .

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ

اختلاف الناس سببُه اتباع الأهواء :

لكن ما الذي فرَّق الناس شيعاً ؟ وفرَّقهم أحزاباً ، وفرقهم قبائل ، وفرقهم تجمُّعات ؛ تجمعات عرقية ، وتجمعات إقليمية ، وتجمعات مذهبية ، وتجمعات بحسب العمل والمِهَن والطبقية ، من الذي فرقهم ؟ قال :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ)

الأهواء فرَّقتهم ..

(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال : 63)

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر : من الآية 14)

ما الذي فرق بينهم ؟ الأهواء ، هؤلاء انغمسوا في الخمور ، هؤلاء انغمسوا في كسب المال الحرام ، هؤلاء انغمسوا في مباهج الدنيا الرخيصة ، والانغماس في الدنيا جعلهم هكذا .

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

1 ـ الدنيا للعمل والآخرة للجزاء :

إن الله سبحانه وتعالى قال كلمة ؛ أن يوم الدين هو يوم الجزاء ، وأن الحياة الدنيا دار عمل ودار امتحان ، وأن يوم الدين هو يوم الجزاء ، لولا أن الله سبحانه وتعالى وعدنا بيوم الجزاء لحاسب المسيء في الدنيا وقضى عليه ..

(وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

2 ـ كلّ إنسان يزعم أن السعادة في الجهة التي يراها :

أحياناً يكون عشرة أشخاص على وشك الموت عطشاً ، وأحدهم توهَّم النبع في هذا المكان ، وآخر توهمه في هذا المكان ، وثالث توهمه في هذا المكان ، ورابع أنكر وجود النبع ، وهناك نبعٌ واحد في مكان محدد ، الذي تطابق اعتقاده مع الحقيقة هو الذي ينجو ، وما سوى ذلك يهلك ، وفي وقتٍ محدود تعرف صدق هؤلاء العشرة ، هذا الذي ادعى أنْ ليس هناك نبع ، وكان هناك نبع خسر حياته ، وهذا الذي ادعى أن النبع في هذه الجهة ، ولم يكن في هذه الجهة خسر حياته وخسر آخرته ، وهذا حال الناس اليوم ، كلٌ يزعم أن السعادة في هذه الجهة ، بعضهم يراها في المال ، يكتشف بعد فوات الأوان أن المال شيء ، ولكنه ليس كل شيء ، وبعضهم يرى السعادة في العلو في الأرض ، يكتشف بعد فوات الأوان أن العلو في الأرض شيء ولكنه وليس كل شيء .

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[سنن الترمذي عن أنس بن مالك]

إذاً :

(فَاخْتَلَفُواْ)

فإذا اختلفت مع أخ لك في المذهب ، في المشرب ، في الأسلوب ، في الطريق ، في الهدف ، وكنت أنت على حق فهنيئاً لك أولاً ، ونرجو أن يهتدي أخوك ثانياً ، لكن القضية قضية خطيرة ، قال النبي عليه الصلاة لابن عمر :

((ابن عمر ، دِينك دينك ، إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذي استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال]

وكلٌ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقِرُّ لهم بذاكا

فالواحد ينظر إلى قيمه ومعتقداته ، عقيدته صحيحة أم لا ، هل يعتقد أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، شقيهم شقي من الأزل ، وسعيدهم سعيد من الأزل ، وانتهى الأمر ، تقول : فيم العمل إذاً ؟ العمل صار تضييع وقت ، هذه عقيدة خطيرة جداً ، هل تعتقد أن الله خلق الكافر كافراً ، وليس هناك أي تعديل ؟ لماذا أرسل موسى إلى فرعون ؟ أرسله تمثيلاً ؟ فالإنسان يمتحن عقيدته ، الخطأ في العقيدة خطير جداً .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام : من آية 148)

يمتحن ظنه بالله عزَّ وجل ، وربنا عزَّ وجل قال :

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

(سورة الأعراف : من الآية 180)

فهل يقينك بأن أسماء الله حسنى كلها ؟ أين الدليل ؟ ماذا تعرف عن أسماء الله عزَّ وجل ؟ ماذا تعرف عن رحمته ؟ ماذا تعرف عن حكمته ؟ عن لطفه ؟ عن غناه ؟ عن قوته ؟

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً)

أي أن البشر جميعاً أبيضهم وأسودهم ، أحمرهم وأصفرهم مدعوُّون إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، وبُنْيَتُهم واحدة ، وإمكاناتهم واحدة ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لا يوجد عذر ، أن تقول : لا أستطيع ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، النفس تستطيع أن تطبِّق أمر الله عزَّ وجل في كل زمانٍ وفي كل مكان ..

(وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ)

وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ

1 ـ الكونُ كلّه آياتٌ :

الكون كله آيات ، ربنا عزَّ وجل قال :

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

(سورة الذاريات)

جسمك كله آيات ، شعرك آيات ، مائتان وخمسون ألف شعرة ، في كل شعرة شريان ، ووريد ، وعصب ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية، لكل شعرة .

الدماغ آية ، فيه مائة وأربعون مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد ، أربعة عشر مليار خلية قشرية تجري فيها المحاكمة ، والتخيل ، والتذكُّر ، وكل النشاط العقلي في هذه الخلايا .

في العين مائة وثلاثون مليون عصية ومخروط في الشبكية ، العصب البصري أربعمائة ألف عصب ، الأذن ، اللسان ، المعدة في كل سنتيمتر مربع ثمانمائة عصارة هاضمة ، مجموع هذه العصارات تفرز لتراً ونصفاً من العصارة الهاضمة في كل وجبة طعام ، والمعدة لا تهضم نفسها ، وحتى هذا التاريخ هناك سؤال كبير : كيف لا تهضم المعدة نفسها ؟ فأنت تأكل اللحم وتهضمها وهي من لحم ، الجهاز الهضمي ، البنكرياس ، الكبد .

بعضهم قال : الكبد خمسة آلاف وظيفة ، لا يستطيع الإنسان أن يعيش من دون كبد أكثر من ثلاث ساعات ، والكبد يستطيع ترميم أي جزءٍ يقتطع منه في أسابيع ، الكبد آية ، ومخبر كيماوي ، مخزن ، الكبد في عنده إمكانات يحول الدسم إلى سكر والسكر إلى دسم ، الكبد آية .

الكلية مصفاة عاقلة ، الدم يمر فيها في اليوم الواحد مائة وثمانون لتراً من الدم ، أي برميل بكاملة يمر بالكلوة كل يوم ، فيها طريق طوله عشرون كيلو متراً ، يمر فيه الدم بالنهار خمسة مرات ، أي أن الدم يمشي في الكلية كل يوم مائة كيلو متر ، تصفي الدم من السموم والسوائل الزائدة ، وتفرز ثلاث هرمونات ، هرمون مضاد لفقر الدم ، وهرمون ينظم ضغط القلب ، وهرمون ثالث ، فالذين يصابون بالتهاب في الكلوي يرتفع ضغطهم فجأةً ، والكلية وحدها لو توقفت عن العمل لانقلبت حياة الإنسان جحيماً .

أثر الأسيد أوريك أو البولة في الدم مخيف ، هذا السم إذا زادت نسبته في الدم يشل النشاط العقلي ، ويوتر الأعصاب ، ويخرج الإنسان عن طوره ، بتراكم السموم ، فلما يفرِّغ الإنسان المثانة يجب أن يشكر الله عزَّ وجل شكراً كبيراً ، ويقول : الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني ، وابقى لي ما ينفعني .

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

(سورة الذاريات)

الآيات موجودة ، الشمس آية ، القمر آية ، الجبال آية ، المياه العذبة آية ، الأمطار آية ، البحار آية ، أنواع النباتات آية ، أنواع الأطيار آية ، أنواع الأسماك آية .

ابنك آية ، ابنتك آية ، البنت تمسك بالمخدة ، وتضعها على صدرها وهي صغيرة ، بنيتها النفسية أمّ ، والطفل يركب عصاه ، كأنها حصان يركبه ، بنيته النفسية رجل ، عندما يكبرون تجد أن الصفات قد اختلفت ، خشن صوته ، وبقي صوتها ناعما ، فصفات الذكور عندما تظهر عند البلوغ آية من آيات الله عزَّ وجل ، وصفات الأنوثة حينما تظهر آية من آيات الله ، لذلك :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم : من الآية 21)

لم ينظر لخلقه ، لم ينظر لابنه ، لم ينظر لطعامه ، لم ينظر لشرابه لم ينظر إلى السماء والأرض ، ويطلب آيةً فيها خرقٌ للقوانين الأرضية !

(وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ)

2 ـ الله وحده يعلم أي الآيات تفيد العباد :

أي أن الله سبحانه وتعالى يعلم وحده ما إذا كانت هذه الآية تفيدكم أو لا ، لو أنها تفيدكم لأنزلها عليكم ، ولكن الذي لا يؤمن بهذا الحشد للآيات لم يؤمن بآية فيها خرقٌ لقوانين الكون..

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الأنعام : من آية " 111 ")

أي حتى يسلكوا الطريق التي رسمها الله عزَّ وجل ، وما لم يسلكوا الطريق التي رسمها الله عزَّ وجل فلن يستطيعوا أن يؤمنوا بآيات الله ، فهؤلاء مع كثرة الآيات التي بثّها الله سبحانه وتعالى لم يؤمنوا ..

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17))

(سورة الغاشية)

3 ـ ألم ينظروا إلى مخلوقات الله فإنها أعظم آيةٍ ؟

الإبل :

الإبل تعيش في الصحراء ، عندها جفن إذا أطبقته ترى طريقها ، ويمنع الجفن رمال الصحراء الدقيقة من أن تؤذي عينيها ، ولها مستودعٌ يكفيها شهراً ، لو أنها لم تأكل ثلاثين يوماً بأكملها لكان مستودع الغذاء الذي وضعه الله في سنامها يكفيها عن الطعام شهراً ، وعندها خزّانات للمياه تكفيها عشرة أيام ، تستطيع الناقة أن تمتنع عن شرب الماء عشرة أيام بكاملها ، وجعل لها خفاً لا يغوص في الرمال ، يتناسب مع الرمال ، وجعل لها جلوساً نظامياً كي يسهل تحميلها ، جعل لها ثفينات ، ثفنة في بطنها ، وثفينات في أرجلها وأيديها ، إذا جلست يستطيع صاحبها أن يحمِّلها ، لو أنها تجلس كما يجلس الحصان على جنبه كيف يحملها ؟

إذاً :

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(18)وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(19)وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20))

(سورة الغاشية)

النحل :

ألم ينظروا إلى النحل ؟ هذا المخلوق الضعيف الذي يصنع لك شراباً لذيذاً ، شافياً ، مفيداً ، من منا يصدق أن كيلو العسل محصلة طيران أربعمائة ألف كيلو متر .. لو كلفنا نحلةً واحدة أن تصنع كيلوا من العسل لكلفها أن تطير أربعمائة ألف كيلو متر .. أي حول قطر الأرض عشرة مرات ، كيف تختار النحلة رحيق الأزهار ؟ لذلك المؤمن كالنحلة إذا وقعت لا تؤذي ولا تكسر ، وإذا رحلت عن هذه الزهرة تركت رسالةً لأختها ، هذه الزهرة قد مصصتُ رحيقها فلا تتعبي نفسكِ بها ، من أعطى هذه المملكة نظامها ؟ عاملات حارسات يقفن على أبواب الخلايا ، فإذا جاءت نحلةٌ من غير هذه الخلية قتلنها ، إلا أن تقول كلمة السر ، فإذا قالت كلمة السر دخلت ، من علّمها هذا ؟ نحلاتٌ منظّفات ينظفن الخلية ، فإذا عثرن على جسمٍ أو على حشرةٍ كبيرةٍ لا يستطعن نقلها غلّفنها بمادةٍ شمعية ، لئلا تفوح منها رائحتها النتنة ، من علم النحل ذلك ؟ الله سبحانه وتعالى ، نحلاتٌ مهمتهن تهوية الخلية ، فإذا كان الوقت شتاءً أغلقن أبواب الخلية بأجنحتها ، وإذا كان الوقت صيفاً فعلن بالأجنحة .. هكذا .. فنشأ تيارٌ في جو الخلية رطّب الجو .

من علّم النحلة أن ترقص لأخواتها رقصةً تعبِّر بها عن بعد الزهر عن الخلية ؟ هناك رقصة تشعر أن الزهر قريب ، هناك رقصة كأنها تقول للنحلات : استعدوا لسفرٍ طويل ، إذا كان عشرين كيلو مترا فما فوق فلها رقصة دائرية ، وإذا كان ربع دورة معنى ذلك أن الزهر قريب من الخلية ، من علّم هذه النحلات ؟ من علم النحلات صنع البيوت السداسية المنتظمة التي يعجز المهندسون عن رسمها ؟ فكيف عن صنعها ؟ هناك نحلات وصيفات مهمتها تأمين طعام الملكة ، هناك ملكة ، فإذا جاءت الخلية ملكةٌ أخرى قتلت لأن القيادة يجب أن تكون بيد واحد ، فأشياء وأشياء عن النحل ، النحل آية من آيات الله .

النمل :

النمل .. النمل إذا خرج من وكره ، وسار ورأى في الطريق طعاماً يبث رسائل كيميائية في الطريق ، أي أنه يضع نقطة فيها رائحة بحيث أن النملات الأخريات خلال دقائق يسرن على الخط نفسه ، هناك رائحة تجذب النملات إلى الطعام ، وهناك رائحة تنفِّر النملات من المجيء ، إذا وجدت خطرا أو ماء ، أو شيئا مخيفا تعطي إشارات كيمائية معاكسة ، من علم النملة ذلك ؟

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)

(سورة النور : من الآية 41)

النمل آية ، النحل آية ، الفراش آية .

دود القزّ :

دود القز وحده آية ، تصنع خيطاً لا تستطيع الآلات الحديثة حتى الآن صنع خيوط بهذه النعومة ، وبهذا القطر الرفيع ، حرير .

كأس الحليب آية ، البيضة آية ، الدجاج ، البقر ، الجمل ، أنت محاط بالآيات ، ومع ذلك :

(وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ)

كل هذه الآيات لا تكفي ؟ حسبكم الكون معجزة ، الكون وحده معجزة .

(فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ)

فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ

المعنى الأول :

لا يعلم الغيب إلا الله ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

أنه إذا أنزل الله عليكم آية ، الله وحده يعرف ما إذا كنتم تؤمنون أو لا تؤمنون .. " علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون " ، لم تنزَّل عليهم آية ، الله وحده يعلم لو أنزلها عليهم ماذا يفعلون .

(فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ{20} وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا)

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا

انقلاب الإنسان بعد الشدة :

الإنسان يكون ضعيفاً ، يكون مريضاً ، يكون فقيراً ، يكون مستضعفا ، يقول : يا الله ، يا الله ، فإذا أزال الله عنه كربه ومصيبته عاد يفكر في صد الناس عن سبيل الله .

(قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً)

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا

حدثني أخ كريم ، رجل عنده محل تجاري له ولإخوته الثلاثة ، لكنه أكبرهم ، وقد وضع يده على هذا المحل ، جاءه مرض عضال ، نوبةٌ قلبيةٌ حادة كان على مشارف الموت ، ماذا فعل ؟ طلب آلة تسجيل، وقال ، وهو يظن أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة : إن هذا المحل ليس لي ، إنه لأخي فلان وأخي فلان ، وأخي فلان ، خاف ، فلما زالت عنه هذه النوبة ، طلب هذا الشريط وأخفاه ، وتابع العمل في المحل ، ثم طوَّب المحل لنفسه ، ووافته المنية بعد ثمانية أشهر ، مات مغتصباً ، فالإنسان أحياناً إذا شعر بدنو أجله

يخاف ، فإذا رفع الله عنه الخوف عاد لينكر ، عاد ليظلم ، عاد ليأخذ ما ليس له .

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً)

لأن الله عزَّ وجل بيده كل شيء ، أنت تريد ، وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد .

(قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً)

إذا شخص قال : أنا غداً أفعل بفلان كذا وكذا ، قلبك بيد الله عزَّ وجل قد يوقفه ليلاً .

مرة قاضٍ أراد أن يحكم لفلان ظلماً على فلان ، وصار الشيء بحكم المقرر ، وقف على قوس القضاء، فإذا بألمٍ في المعدة شديد أخذ على إثره إلى المستشفى ، أين الحكم ؟ الدعوة تأجَّلت ، جاء قاض آخر فحكم بالعدل .

إذاً :

(قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً)

من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت .

(إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ

كلُّ شيء مسجَّل صغيرُه وكبيرُه :

كله مسجل ، إذا شعر الإنسان أن صوته مسجل ، ينتقي أدق الكلمات ، وإذا شعر أن صورته مسجلة أيضاً ، من حين إلى حين يحسّن وضعه ، لأنهم يقومون بتصويره ، فإذا كان مسجلاً بصورة وصوت فهو تحت المراقبة ، فإذا تيقَّن الإنسان أن الله سبحانه وتعالى يحصي عليه أنفاسه ، وحركاته ، وسكناته، وأقواله ، ونظراته ..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(19))

(سورة غافر)

ماذا يفعل ؟ هو الفرق فرق علم وجهل فقط ، إما أن تعلم فتنضبط ، وإما أن لا تعلم وسوف تعلم بعد فوات الأوان .

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

كلّ شيء يسير بتقدير الله :

الإنسان يتحرك وفق خواطر ، الله عزَّ وجل يلهمه أن يسافر ، يكون قد استحق العقاب ، يحدث له حادث فيفقد أحد أعضائه .

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{22} فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

1 ـ صورة حية للرجل اللئيم :

انظر إلى الموقف اللئيم ، وهو على ظهر السفينة ، والسفينة كريشةٍ في مهبِّ الريح ، والأمواج تتلاعب بها ، والحياة أصبحت على وشك النهاية ، يا رب ، يا رب ..

(فَلَمَّا أَنجَاهُمْ)

إلى البر ..

(إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

2 ـ احذر أن يصل بك الكِبرُ إلى كوقف كهذا :

الإنسان في اليابسة يطغى ، أما في الجو ، طائرةٌ دخلت في غيمة مكهربة فاضطربت ، وتعطَّلت بعض أجهزتها ، وكادت تحترق ، فقال ربان الطائرة لبعض المضيفين : أن بلِّغ الركاب كذا وكذا ، خرج ليبلغهم ، لا أحد من الركاب عنده استعداد أن يسمع شيئاً ، وهو يبتهل إلى الله ، هذا يصرخ ، هذا يولول، هذا يبكي ، هذا يلطم وجهه ، فتوسَّم في الركاب لعله يرى واحداً يبلِّغهم ، فنظر إلى واحدٍ هادئ، فتوجه إليه ليبلغه أن يبلغهم ، فإذا هو مغمى عليه ، في الأرض هو قوي ، يقول : سأفعل كذا وكذا ، من أنت ؟ الخطر القائم في الجو ، أو الخطر القائم في البحر نفسه في البر ، لو علمت أن الله على كل شيءٍ قدير ، قلبك بيده ، حياتك كلها بيدك، لذلك :

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ)

هذه هي الباخرة التي زعموا أن القدر لا يغرقها !!!

صنعوا في عام 1912 باخرة من أضخم بواخر العالم اسمها (التيتانيك)، هذه الباخرة طبعت نشرةٌ وزِّعت على ركابها كُتب فيها : " إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة " ، كتبت هكذا ، كانت مصنوعة بشكل مزدوج ، وبقواطع بين هذا الازدواج ، فأيّ مكان ثُقب تغلق الجدران المحيطة به ، فكأن شيئا لم يحصل ، وفي أول رحلة لها من لندن إلى بوسطن ركب في هذه الباخرة أثرياء أوروبا ، وكانت قد أثّثت بأثاثٍ يزيد على أثاث القصور ، وفيها ما لذ وطاب ، كل أنواع المتع المتوافرة في الأرض في هذه الباخرة ، من مسابح ، إلى قاعات رقص ، إلى مطاعم ، إلى ، إلى .. أثرياء العالم ركبوا في هذه الرحلة الأولى .. وهي في عرض البحر ، في المحيط الأطلسي ، ارتطمت بجبلٍ ثلجي شطرها شطرين ، كانت ترسل إشارات استغاثة من حولها ، ما حولها ظنَّها تحتفل بتدشينها ، ولم يستجب إليها أحد ، ومات ركابها كلهم غرقاً ، قدَّروا أن الحلي التي على صدور النساء بألوف الملايين، فقال بعض القساوسة وقتها : " إن غرق هذه الباخرة درسٌ من السماء لأهل الأرض " ، فما قولكم هذا : إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة ؟ ربنا عزَّ وجل قال :

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{22} فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم

البغي يعود على صاحبه وبالاً :

ومما يقترب من هذا التشبيه أن الإنسان أحياناً يمرض ابنه ، تجده يصلي ، زوجته على وشك الولادة ، يخاف أن يأتي المخلوق مشوَّهاً ، يخاف أن تكون الولادة عسرة ، تحتاج إلى ولادة قيصرية ، ومستشفى، تموت الزوجة أيضاً ، يا رب ، وصار يصلي ، قرأ قرآن الآن فقط ، بعد ما ولدت وجاءت له بالصبي ، أقام حفلة مباركة ودعا رجالاً ونساء في اختلاط ، أين كنت ؟ ماذا كنت تفعل ؟ .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم)

فأجمل ما في هذه الآية أن بغيكم ليس على من تظلمونه ، هذا قد عالجه الله على يدكم ، وانتهى ، أما البغي واقعٌ عليكم ..

(إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ثمار البغي متاع قليل :

أما هنا كلمة متاع منصوبة ، أي أن كل هذه الثمار التي تقطفونها من بغيكم إنما تستمتعون بها في الحياة الدنيا فقط ، فإذا جاء الموت انتهى كل شيء ، فلو أن إنساناً اغتصب بيتاً ، متى يستمتع به ؟ يستمتع في حياته فقط ، بعد الحياة يؤخذ منه ..

الآية الأخيرة :

(فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لو أن أخاً كبيراً اغتصب من أخيه الصغير بيتاً ، إلى متى يستمتع بهذا البيت ؟ في الحياة الدنيا فقط ، لابدَّ من أن يموت ويتركه .

إذاً :

(مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أي أن ثمرات البغي لن تستهلكوها إلا في الحياة الدنيا فقط ، وبعد الحياة الدنيا هناك الحساب الدقيق وهناك العذاب ..

(ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

إذاً : مهما كان الشيء ثميناً عند الإنسان ، مهما كان المكسب كبيراً ، ما دام يستهلكه في الحياة الدنيا فقط ، وسوف يموت فهو متاع قليل ، وسيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كلما دخل إلى مجلسه .. مجلس الخلافة .. كان يتلو هذه الآية :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

(سورة الشعراء)

يتلو هذه الآية ويجلس ..

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

إذاً : متاع الحياة الدنيا ، لذلك :

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (07-17): تفسير الآيات 23 – 27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-11-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي في سورة يونس إلى قوله تعالى :

تقرير ما سبق في الدرس الماضي :

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ)

1 - لا ينجي من الشدائد إلا الله تعالى :

أي في سفينةٍ ..

(وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(22)فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

2 - ما هو البغي ؟

هنا الآية :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

البغي : التجاوز ، العدوان ، الاغتصاب ، الإسراف ، هذا البغي عائدٌ عليكم ، حجم البغي منصبٌ عليكم ..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

انتهى المعنى ، الآن جاءت فقرة أخرى ، وهي :

(مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

3 - إنْ كان للبغي ثمار فلا تعدو أن تكون دنيوية زائلة :

أي إن ثمار البغي إن كانت له ثمار ، ثمار البغي لا تستفيدون منه إلا في الحياة الدنيا ، والحياة الدنيا موقّتة ، لو أن إنساناً اغتصب أرضاً ، يزرعها ، ويفلحها ، ويجني ثمارها ويبيع الثمار فلا يستفيد منها

إلا في الحياة الدنيا ، فإذا جاء الموت انقطعت عنه وحُوسِبَ عليها ..

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أتستأهل هذه الدنيا أن تأخذ ما ليس لك ، ثم تُعَذَّب إلى الأبد ؟

سألت مرَّة رجلاً قلت له : أجبني وأنصِف ، لو أعطيناك مبلغاً من المال كبيراً جداً إلى درجة أنه يصعب إحصاؤه ، وقلنا لك : تمتَّع فيه خلال خمسة أعوام في أي مكانٍ تشاء ، وانغمس في كل الملذَّات والشهوات ، ولا تدع مكاناً إلا وتردُه ، ولا ملهىً إلا وتسكنه ، ثم لابدَّ من عذابٍ أليمٍ بئيسٍ لأسبوعٍ فوق طاقة التحمُّل ، هل ترضى ؟ قال : لا والله ولا ساعة ، ولكن كيف ترضى العكس ، أن تكون الحياة الدنيا محدودة ، ومتعتها محدودة ، والعذاب الذي تسبِّبه أبدي ؟ لذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

4 ـ البغي يعود على صاحبه بالوبال :

البغي كلُّه عليك ، عائدٌ عليك .. أحد الناس كان في حالة سُكْرٍ شديد .. هكذا قرأت قصَّة في جريدة .. وهو سكران ذبح امرأته وخمسة من أولاده ، أنا تصوَّرت أن أحداً لم يدر به ، وأن أحداً لن يحاسبه ، وأن أحداً لن يقبض عليه ، بعد أن ذهب السُكْرُ وصحا ، ورأى هذه الزوجة المخلصة الأمينة الوفيَّة ، الطيّبة الطاهرة ، وهؤلاء الأولاد كالملائكة كلُّهم غارقون في دمائهم ، تصوروا حالته عندئذٍ مثل هذا السكير لو أن أحداً لم يحاسبه ، فإنّ نفسه تحاسبه عندما يصحو

اعتدى إنسان على قريبته ذات يوم ، فأخذوه إلى السجن ، فذبح نفسه داخل السجن ، قطع الوريد ، ومات منتحراً لشدَّة ألمه النفسي .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

إيّاكم والظلم :

الإنسان أحياناً يفعل أفعالاً لا تحتملها نفسه لو صحا ، الآن هو في غيبوبة ، الآن في سُكْر ، الآن هو في نوم وغفلة ، والناس نيامٌ ، إذا ماتوا انتبهوا .. يفعل ، ويترك ، ويأكل ما ليس له ، ويعتدي ، ويؤذي، ويسبِّب تعاسة فتاة إلى ما شاء الله من أجل لذَّةٍ طارئة ، حينما يصحو ضميره ، حينما تنقطع عنه الدنيا ، حينما يواجه الحقيقة ، حينما يصبح بصره حديداً وثاقباً عندئذٍ لا تحتمل نفسه تبعات عمله ، نفسه وحدها تحاسبه ، ويحكم على نفسه بالانتحار كما رأيتم مع الذي اعتدى على قريبةٍ ، لذلك : " إن

العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول : يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى ، وإنه ليعلم ما فيها من شدَّة العذاب " .

هذا فضلاً عن عذاب النار المُحرق ، وعن العذاب الجسدي الذي أكَّدته الآيات ، هذا الذي قتل زوجته وأولاده الخمسة لو لم يُحاسَب ، لو لم يُقبَض عليه ، لو لم يُسَق إلى السجن ماذا تفعل فيه نفسه ؟ إنها تُهلِكه ..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

يجب على الإنسان ألا يكون مسرفاً ، ومن الممكن أن يتمنى في ساعة الغفلة وغمرة الشهوة أن يأخذ ما ليس له ، فإذا صحا وعرف حجم بغيه وعدوانه عندئذٍ يذوب ألماً قبل أن يعذِّبه الله عزَّ وجل ..

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

فهذا البغي متى تستفيد منه ؟ في الدنيا فقط ، كما قلت قبل قليل : لو أخذت أرضاً ليست لك ، فإذا جاء الموت ، انقطعت منفعتها ، وجاءت تبعتها ، فذاق ويلاتها ، ولو أن إنساناً سرق مبلغاً كبيراً ، وصرف جزءاً منه ، صرف مثلاً واحد بالمائة منه ، ثم ألقي القبض عليه ، وسيق للمحاكمة ، وصدر القرار بإعدامه ، وهو يصعد درجات المشنقة تكون المنفعة قد انقطعت ، وبدأت التبعة ، هذه هي المسؤوليَّة ، وهذا هو الجزاء ..

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

يجب على الإنسان ألا يطغي على زوجته ، ولا على جيرانه ، ولا على صانع عنده في المحل ، ولا على إنسان أدنى منه ، ولا على إنسان أضعف منه ، ولا على صغير لا يقوى على مناقشته .

(إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

علامة النضج الخوف من الله ..

(مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أي أن هذا البغي لن تستفيدوا منه إلا في الحياة الدنيا فقط ، وحصراً ..

(ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

5 ـ هذه هي حقيقة الحياة الدنيا في التمثيل القرآني :

الآيات القرآنيَّة مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض كأنَّها عِقْدٌ نفيس ، فما هي هذه الحياة الدنيا ؟ الله سبحانه وتعالى ساق لنا صورةً عن الحياة الدنيا فقال :

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ)

هذا النبات له جذور روّاها الماء ، فانتعشت ، نمت ، أزهر النبات فلبست الأرض حلّةً قشيبة ، فانظروا إلى بستان في الربيع إنه مثل الجنَّة ..

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ)

بعضهم قال :

(كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ)

أي اختلط الماء بالأرض ثم .. الاستئناف وتتمة الآية ..

(فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ)

أي أن نبات الأرض بسببه ، أو اختلط الماء بالنبات اختلاطاً ، أي أن المواد الموجودة في التربة ذابت في الماء ودخلت إلى الجذر عن طريقه..

(مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ)

أي أن شجرة التفّاح أزهرت ، وشجرة المشمش أزهرت ، والقمح نما ، وبسقت أسواقه ، والشعير مثله، والحمُّص والعدس كذلك ، والفول ظهرت بوادره ، وجميع أنواع الخضراوات ، وأنواع الفواكه ، والثمار ، والبرسيم طعام الأنعام أيضاً كلها آتت أكلها ، والحشائش الخضراء ، وأنواع الأزهار تفتحت والأعشاب تطاولت وارتفعت ..

(مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ)

ففرح بها صاحبها .. وصار بستانه كالجَّنة ، أرضه خضراء ، أشجاره مورقة مثمرة ، مياهه عذبة ، أزهاره فوَّاحة نضرة..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا)

أي أن الزخرف هو تمام الكمال ..

(وَازَّيَّنَتْ)

أي أن البستان أصبح مزَّيَّناً بالأزهار ، وغدا بهجة للناظرين ، مخضوضراً بالحشائش وتنوعت فيه الثمار وتنافت فيه طعومها ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

أي قادرون على جنيها ، وعلى قطافها ، وعلى توضيبها .. كما يقولون .. وعلى تسويقها ، وعلى بيعها ، وعلى قبض ثمنها ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

هذه الأمور كلّها : كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ

هذه الآية من الآيات البليغة ، أي أن الحياة الدنيا كأرضٌ يأتيها ماءٌ المطر فتنبت الحشائش والأزهار والثمار ، ويصبح البستان مزداناً قشيب الحلة يأخذ بالألباب ، يفرح صاحبة ، تغمره النشوة ، يتخيَّل كيف سيبيع محصوله بأغلى الأسعار ، ويقبض ثمنه ، ويشتري بثمنه .. مثلاً .. قطعة أرضٍ ثانية ، أو بيتاً في الحي الفلاني ، أو سيارةً فارهة ، وهو في أحلامه ، وهو في خواطره المسعدة ..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

وكمثال آخر : قد يشتري إنسان محلاً يزيِّنه ، يُدَوكره ، يعتني فيه ، يفتتح المحل فترسل إليه باقات الورد تعبيراً عن التهنئة ، يداوم فيه شهراً أو شهرين ، يُلصق النعي على المحل ، ومازالت أول ميزانيَّة لم تظهر عنده بعد ، ما عرف أرباحه هذه السنة ، ما عرف حجم أرباحه ، ما قبض المسحوبات، جاءته المنيَّة فعاجلته ، فالحياة الدنيا هذا شأنها ومثلها.. هذه الآية متعلّقة بمتاع الحياة الدنيا ..

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أي أن محصِّلة هذا البغي لن تستطيعوا أن تستفيدوا منها إلا في الحياة الدنيا ، وهذه هي الحياة الدنيا ، أمطارٌ ، أعشابٌ ، أزهارٌ ، رياحين، أشجار مثمرة ، فرح ثم يأتي أمر الله عزَّ وجل فيجعل عاليها سافلها ، ويقبض صاحبها فلا يستطيع الاستفادة منها بل يدفع ثمن عتوه وانحرافه فيها غالياً ، وكأن الله سبحانه في هذه الآية نفسها قد أنبأنا عن ظروف الدنيا آخر الزمان فقال :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ)

أي المدن مزيَّنة ، مزدانة ، شوارع ، حدائق ، ناطحات سحاب ، جسور معلّقة ، أنفاق تحت الأرض ، أبنية فخمة ، مطاعم من الدرجة الأولى ، فنادق من الدرجة الأولى ، متنزَّهات ، حدائق حيوان ، حدائق للإنسان ، أي أن الأرض فيها البهارج الجميلة جداً تأسر القلوب وتستبد بالعواطف الإنسانية ..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا)

كل شيء جميل ، كل شيء مزيَّن ، كل شيء مزخرف يتلألأ ، لم يعد أحد يرضى أن يسكن في بيت من دون جبصين ، لا يُسْكَن فيه ، وتنقبض قسمات وجهه ، وتتغضض جبهته علامة كبرى على رفضه..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا)

هؤلاء كبراء العالم الذين يملكون الأسلحة الذرِّيَّة ، النَّوويَّة ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

أي أن بيدهم مصير العالم ، إن قامت حربٌ نوويَّةٌ انتهى العالم ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

عندئذٍ جاءتهم الساعة ..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا)

فليلاً أو نهاراً هذه متعلّقة بكرويَّة الأرض ، إذا كان أمر الله عامًّا على مستوى الكرة الأرضيَّة فلابدَّ من أن يأتي قوماً ليلاً وقوماً نهاراً ، الآن في ساعة واحدة نكون نحن في الليل وفي أوروبا وأمريكا في النهار..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

إنّ ربنا عزَّ وجل يُطلعنا على نماذج مصغَّرة ، هذه الزلازل ، مدينة فخمة ، ناطحات سحاب ، أبنية من أجمل الأبنية ، وفترة زلزال قد تكون ثلاث ثوان ، وقد تطول إلى ثلاثين ثانية ، وهذا طويل جداً ، وأنت تتابع بناية تُعَمَّر عندك ، تصوَّر عندما حفروا الأساسات ، عندما وضعوا العضادات ، عندما صبَّوا الخليط الإسمنتي ، تصوَّر كم سنة لكي ترتفع البناية على العظم ويُفرغ من بنائها ؟ وكم سنة كسوتها ؟ وكم سنة زخرفتها ؟ وكم سنة فرشها ؟ والله تحتاج إلى عشرات السنين ، أطول زلزال لمدَّة ثلاثين ثانية ، وبعض الزلازل ثلاث ثوان كالذي جاء في أغادير ..

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

فهذه الآية لها تفسير آخر ..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا)

الرفاهية المبنية على البغي مآلها الاندثار :

أي أن كل شيء صار جميلاً جداً ، كل شيء علته الزخارف وأنواع الزينات وألوانها الأخاذة ، كل شيء مريح للعين ، ألوان جميلة ، حاجات متقنة ، وسائل رفاه منقطعة النظير ، حياتنا كلّها أزرار ، فإذا لم يكن لدى أحدهم في سيَّارته زر ليرفع البلور ينزعج ، هكذا سيبذل جهداً كبيراً ، لا يستطيع أن يرفع زجاج أبواب السيارة بيده هذا تخلف صناعي يورث مشقة لصاحب السيارة ..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا)

لأن هذا الرفاه على حساب الآخرين ، لأن هذا الرفاه مبنيٌّ على جوع الإنسان وعلى ظلمه ..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

قد يقول الإنسان بعد قيام الساعة : هنا كانت لندن ، هنا في هذا المكان ..

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا)

هذه الأبنية الشاهقة ، وهذه العمارات الفخمة ، وهذه الفنادق الرائعة ، وهذه المتنزَّهات ..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

لأنه ..

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الروم : من الآية 41)

أي أن الفساد في العالم تفشى بشكل منقطع النظير ، أي أن كل شيء صار مسخَّراً لشهوة الإنسان ولانحرافه ، على كلٍ الآية وحدها إذا نزعتها من بين أخواتها فهي صورة من صور نهاية العالم ، مشهد أخَّاذ من مشاهد قيام السَّاعة، إن نزعتها وحدها ، وإذا قرأتها مع أخواتها فلها معنى آخر ، أي أن هذا البغي الذي يبغيه الإنسان من أجل قطعة أرضٍ ، من أجل بيتٍ ، من أجل متجرٍ، من أجل شيءٍ تافهٍ فإنه لا يستفيد منه إلا في الحياة الدنيا فقط ، ومصيره في الحياة الدنيا إلى زوال محتم ..

(فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ(17)صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ(18))

(سورة البقرة)

انظر الآن إلى الناس ، أحدهم يشتغل في عمل مضنٍ لكي يجمِّع دريهمات فيشتري بها هذا البيت ، ويزيِّنه ، يجعل نوافذه كلُّها من الألمنيوم وزجاجه من البلور العاكس ، وكله تركيبات ، ثم تجده لم يتمتَّع فيه إلا قليلاً ، فيذوي عوده ، ويموت

لي قريب جاره يسكن في منزل فوقه له محل تجاري ، راجت بضاعته كثيراً ، فزيَّن بيته إلى درجة متناهية في التزيين ، بعد أن انتهت زينة البيت بشهرين وافته المنيَّة .. وآخر قال لجيرانه في البناية : مدخل البناء غير لائق ، وقد يكون عند أحد سكان البناء عزاء مثلاً ، أو فرح ، فدعا إلى اجتماعين أو ثلاثة لسكان البناء ، وجمعوا مبلغاً معيناً من كل بيت ، دهَّنوه ووضعوا باب حديدٍ فخمٍ ، ووضعوا أنترفون ، بعدما انتهت العمليَّة بأسبوعين صاحب المشروع توفي .. طبعاً هو يعرف ماذا أمامه ، جاء الناس فوجدوا المدخل فخماً ودهانات وأنترفون ورخامات ، لكنه قد فاته القطف ، وهكذا الحياة الدنيا ، هكذا نهايتها ، لذلك :

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

إن قرأناها مع أخواتها ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

أي قادرون على جني الثمار ، وعلى بيعها ، وعلى استثمار مالها في مجالات أخرى هذا معنىً ، وإن أخذناها وحدها ..

(وَظَنَّ)

أكابر الأرض وقتها أنهم قادرون عليها ، عندئذٍ ..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا)

أمرنا لا أمرهم ، أمرنا نحن ..

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

6 ـ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ

الله يدعو جميع الناس إلى دار السلام

يدعو مَنْ ؟ سؤال ، يدعو فعل مضارع ، والله سبحانه وتعالى هو الفاعل ، ولكن المفعول به مَنْ ؟ يدعو مَن ؟ لأن الله عزَّ وجل أغفل المفعول به فالدعوة عامَّة ، يدعو كل خلقه إلى دار السلام ، أي أنه خلقهم لدار السلام ، أي أنه خلقهم للجنَّة ، أي أنه خلقهم ليرحمهم فقط ..

(وَاللَّهُ يَدْعُو)

الإنس ، والجنَّ ، جميع بني البشر ، أسودهم ، وأبيضهم ، وأحمرهم ، وأصفرهم ، غنيُّهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم ، مدنيُّهم وقرويُّهم..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

لكن الذي يطلب دار السلام وحده يهديه إلى صراطٍ مستقيم ، قال المفسِّرون : " الصراط المستقيم هو القرآن الكريم " . وقال بعضهم : "الصراط المستقيم هو دين الإسلام " ..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

ادعُ الله أن يهديك إلى صراطه المستقيم :

وهذا واقع ، أقول لك : تضرع إلى الله قائلاً : يا رب اهدني إلى طريق الحق ، قلها بصدق تر أن الله سبحانه وتعالى جمعك مع أهل الحق ، وانشرح صدرك لكلامهم ، ويسَّر لك تطبيق الحق ، وتجلَّى على

قلبك بعض من تجليَّاته ، فسعدت بهذا التجلي وكنت من قبل شقيَّاً ، كل هذا جمعك مع أهل الحق ، وأسمعك كلامهم ، وانشرح صدرك لهم ، وطبَّقت دلالتهم ، وسعدت بتطبيقك ، كل هذا بفضل سؤالك لربِّك : يا رب دلني عليك ، دلني عليك ، ودلني على من يدلُّني عليك ، اللهمَّ ارزقنا حبَّك ، وحبَّ من يحبُّك ، وحبَّ عملٍ صالحٍ يقرِّبنا إلى حبِّك ..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

يقول بعضهم : أنا مكتوب عليَّ في الأزل أنني شقي ، هذا كلام فارغ ، هذا كلام الشيطان ..

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام : من الآية 148)

أما نحن فنقول له : أنت مخيَّر ..

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)

(سورة يونس : من الآية 19)

أي أنه خلقهم وفق فطرةٍ واحدة ، ووفق بنيةٍ واحدة ، وفق استعداداتٍ واحدة ، ووفق حقيقةٍ واحدة ولهدفٍ واحد ، أي أن الإنسان خُلِق ليسعد ، أي إنسان ، فربنا عزَّ وجل قال :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

شتَّان بين الدنيا ودار السلام :

فشتَّان بين الدنيا ودار السلام ، أحد الناس لديه مبلغ اشترى به سيَّارة ، وآخر مثله اشترى أرضاً ، الذي اشترى السيَّارة بهذا المبلغ الضخم بحادث واحد أصبحت أثراً بعد عين ، لكن الأرض تضاعفت خمسين ضعفاً ، باع جزءاً منها بسيطاً ، وعمَّر بجزء منها بيتا فخمًا ، ثم باع جزءاً ثانياً ، واشترى بالثمن سيَّارة .. مثلاً .. فهذا الإنسان الأول لم يوفَّق في اختياره ، لكن الثاني وفّق في اختياره ، فعندما يختار الإنسان الدنيا فالدنيا كلها تنتهي إذا توقَّف القلب ، يقول أحدهم : هذه البناية كلها لي ، مؤلفة من ثلاثين طابقاً ، ما دام القلب يدق ضع السمَّاعة عليه ، مادام يخفق إذاً هي لك ، وإذا وقَّف القلب لم تعُد لك ، فمتى لك ؟ ما دام هذا القلب ينبض ، فإذا توقَّف عن النبض ليست لك .

إذا اختار الإنسان الدنيا هناك احتمال أن تتركها بعد ثانية واحدة ، وهناك احتمالٌ آخر أن تتركك هي ، عنده مال صُودِرَ ، عنده محل احترق ، له مصلحة وُقِّفت ، له زوجة توفِّيت ، له شأن اجتماعي فعزل من مكانه ، كل ذلك ممكن ، فإما أن تتركك ، وإما أن تتركها ، على كلٍ هي مغامرة ، بثوانٍ تنتهي الحياة كلّها ، ولا سيما في هذه الأيَّام حيث إن ضغط الحياة لا يحتمله القلب ، تجد الأب في السابعة والأربعين جاءته جلطة ، وذاك سكتة قلبيَّة ، وثالث انفجار بالدماغ ، هذا تضخُّم في القلب ، هذا عدم

تروية للعضلة القلبيَّة ، أمراض كثيرة في سن الأربعينيات ، فهذه الحياة الدنيا سريعة الزوال ، قال عليه الصلاة والسلام :

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً ، وأحزمكم أشدُّكم استعداداً لها ، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزوِّد لسكنى القبور ، والتأهُّب ليوم النشور))

[ورد في الأثر]

إذا فكَّر الإنسان في اليوم خمس دقائق في الموت بعد صلاة الفجر ، أو بعد السُّنة وبين السنَّة والفرض وقت قصير ، فكَّر هل نبقى في هذا البيت ؟ الله أعلم ، هل أدرك السنة الثانية ، الآن نحن في الخامسة والثمانين هل نلحق إلى التسعين ؟ لا أعرف ، هل سأكتب ألف وتسعمائة وتسعين ؟ يمكن ألا أكتبها ، يمكن إلى التاسعة والثمانين ، يمكن بالسادسة والثمانين ألا نعيش لوقتها ، الإنسان يفكِّر في النهاية لكي يهون عليه الإقبال على طاعة الله عزَّ وجل ، ويهون عليه ترك البغي والعدوان ..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

الله تعالى لا يهدي إلى صراطه المستقيم إلاّ المستقيمَ الصادقَ :

الصراط هو القرآن الكريم ، فلماذا لم يشأ الله ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا يهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم إلا إذا كان صادقاً في طلبه ، وإلا إذا دفع الثمن ، لابدَّ من أن تكون صادقاً في هذا الطلب السامي ، ولابدَّ من دفع الثمن ، ودفع الثمن الاستقامة على أمر الله، فمن كان صادقاً وعلامة الصدق الاستقامة يأخذ الله بيده ، ويهديه إلى الصراط المستقيم ، أي أنه يفتّح قلبه لمعاني كتابه ، يفهمها ، يتفاعل معها ، يطبِّقها ، يسعد بها ، يقول لك : أنا أسعد الناس ..

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لا مقارنة بين دار الدنيا ودار السلام :

فإذا أجريت موازنةً بين دار السلام ، لماذا سمَّاها الله دار السلام ؟ لأن في الجنَّة سلامٌ في سلام ، لا نغص ، ولا همَّ ، لا يمكن أن تخلو حياة الإنسان من منغصات ، فإذا مرض ابنه تجد أنه شعر بضيق ، وكذلك إذا كان له تعويض في دائرة عمله ، وصدر قرار بإلغائه ، أو إذا كان يدخل عليه ألف ليرة فوق راتبه وتوقف صرف الألف له ، وصعب عليه أن يدبِّر معيشته بالراتب فقط ، شعر بضيق ، وكذلك إذا كان في منصب مرموق فشعر بمن ينافسه عليه ، ولن يتركوه في المنصب فإنه يحس بضيق يملأ عليه نفسه ، عَمِلَ تخطيطاً لقلبه فوجد فيه تسرُّعاً ، فإنه يشعر بضيق كذلك إذا عمل فحص دم فوجد أن هناك

مادَّة مرتفعة عن حد المعدل فيشعر بالضيق ، إذا كان ساكنا في بيت فظهر أنه مُعرّض للاستيلاء عليه من قِبَل المحافظة فهذه مشكلة تملأ حياته كدراً وهمّاً ، أي أن الحياة كلها متاعب ، إما من طرف البيت، و إما من طرف الصحَّة ، وإما من طرف الزوجة ، وإما من طرف الأولاد ، وإذا كان له قريب يمدَّه ببعض الحاجات فتوفي هذا القريب ، وانقطع رفد ذلك القريب إنها مشكلة ، وهكذا الحياة كلها ضيق وتعب ، ورحم الله القائل : تعبٌ كلها الحياة فما أعجب إلا من راغبٍ في ازدياد

((إن هذه الدنيا دار التواءٍ لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء))

ـ لأن الرخاء مؤقَّت .. إذا ركب رجلٌ أفخر سيَّارة لينقلوه إلى المشنقة فهل يفرح بمقاعدها ؟ يقول : انظروا إلى المقعد ما أجمله ! أي مقعد هذا ؟! يكون أحمق إذا فرح فيها ..

((لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ـ كذلك الشقاء مؤقَّت ـ هذه الدنيا قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عُقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

إذاً : معنى دار السلام أي أنه ليس في هذه الدار لا نغص ، ولا قلق ، ولا حزنٌ ، ولا غمَّ ، ولا همَّ ، ولا خوف ، ولا اضطراب ، ولا حسرة ، ولا ندم ، جميع المتاعب التي تنتاب الإنسان في الدنيا معافى منها في الجنَّة، جميع المُقْلِقات ، جميع المنغِّصات ، جميع المخاوف ، جميع الأحزان التي تنتاب الإنسان في الدنيا فالله سبحانه وتعالى عافى أهل الجنَّة منها ..

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48))

(سورة الحجر)

جاء البرد يحتاج إلى وقود ، والوقود ارتفع سعره ، يشعر بضيق ، جاء الحر ، موجة حر شديدة ولا يوجد عنده أجهزة تكييف في البيت ، بيته آخر طابق ، يشعر بانقباض ، لا حر، ولا قر ، ولا خوف ، ولا مرض ، ولا أثر لأي بلاء فيه ، ولكن ظهر بعض من الشعر الشائب في رأسه ، وبعد هذا بصره ضعُف ، وانحنى ظهره ، كذلك شعر بالضيق ، معنى هذا أنه قربت أسباب المنيّة ، هناك في الجنة لا شيء يدعو للقلق أو الهلع ، شبابٌ دائم ، صحَّةٌ دائمة ، حيويةٌ دائمة ، الفواكه لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة ، نهر من لبن ، ما الذي يزعجك من اللبن في الدنيا ؟ إنه يحمِّض ، قال :

(لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ)

(سورة محمد : من الآية 15)

ما الذي يحبِّبك في العسل ؟ أن يكون مصفَّى رائقاً ، شفَّافاً ، له سيولة معيَّنة ، قال :

(وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى)

(وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

(سورة محمد : من الآية 15)

في الخمر لذَّة ولا أثر للحرقة ، لا تغتال العقول ، الفاكهة ما الذي يزعجك في الدنيا منها ؟ أنها غير متوافرة أحياناً ، فلو أن أحداً ذا يسر وغنى لكن الموسم انتهى وانقضى ، كالعنب مثلاً .. فإنه يستطيع أن يبتاعه مهما غلا الثمن حتى ولو كان من بلد آخر ، أما في الجنة فهي :

(لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (33))

(سورة الواقعة)

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ(42))

(سورة الصافات)

فهذه الجنَّة التي قال الله عزَّ وجل عنها في الحديث القدسي الذي رواه أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

أهذه الجنَّة يزهد فيها ؟ أتضعها وراء ظهرك ؟ لا تلتفت إليها ؟ بل تلتفت للدنيا ؟! هذا من تعاسة الإنسان أن يرضى بالدنيا ، ويُعْرِض عن الدار الآخرة .

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

الله تعالى مصدر السلام :

السلام اسمٌ من أسماء الله عزَّ وجل ، أي أن هذه الجنَّة داره..

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

الله عزَّ وجل مصدر السلام في الكون ، إذا كنت معه ، وهذا المعنى لا يعرفه إلا من ذاقه ، إذا كنت مُقْبِلاً عليه ، ولائذاً بحماه ، ومعتزاً به تشعر بسلام في نفسك عجيب ، لا يخيفك إنسان في الأرض ، ولا تخيفك كلمة تسمعها ، ولا تهديد يُلقى عليك أبداً ، أنت عبد السلام ، الله هو السلام ، مصدر السلام..

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ إِلَّا مِقْدَارَ مَا يَقُولُ :

((اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ ، وَمِنْكَ السَّلَامُ ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ))

[مسلم]

أول معنى أنها دارٌ لا قلق فيها ، دار السلام .

والمعنى الثاني : أنها دارٌ الله سبحانه وتعالى الذي هو السلام ، ويتجلَّى فيها على عباده المؤمنين فيسعدون به .

والمعنى الثالث : السلام هو التحيَّة ، أي أن الإكرام في الجنة منقطع النظير ، أحياناً الإنسان يأتيه

ضيف فيقول له كل دقيقتين : يا أهلاً وسهلاً ، هذه مبالغة بالإكرام ، قلتها له أول مرَّة ، والثانية ، والثالثة ، بعد ربع ساعة يا أهلاً ، يرحِّب فيه بألوان الترحيب ، إذاً هذا من الإكرام .

المؤمنون في الجنة في موضع ترحيب وإكرام :

المعنى الثالث أن هؤلاء المؤمنين في الآخرة ، وهم في الجنَّة يتلقَّون تحيَّاتٍ من ربِّهم بشكلٍ مستمر ، هنيئاً لكم ..

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة)

هنيئاً لكم ..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15)آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16)كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17)وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(18)وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19))

(سورة الذاريات)

إلى آخر الآيات ، فالمؤمن يوم القيامة موضع كل تكريم .. وإذا وضع أحد لك طعاماً شهياً نفيساً ، ولم يرحِّب بك فإنك تنزعج ، ولعل الترحيب عندك أغلى من الأكل ، قال لك : تفضل كل ، أأنت جئت لتأكل؟ أم جئت لتزوره .. لكن إذا رحَّب بك إنسان آخر ، وقال : آنستنا ، هذه الكلمات يمكن أن تدغدغ لك عواطفك ، تشعر بنشوة عجيبة جداً ، سيدنا إبراهيم عندما قرَّب الطعام للضيف قال :

(أَلَا تَأْكُلُونَ(27))

(سورة الذاريات : من الآية 27)

تفضَّلوا ، هذه من آداب الضيافة ، إن أول آداب الضيافة البشر و الاستعداد ..

(فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69))

(سورة هود)

فهيَّأ حاله ، والكرماء يهيِّؤون حالهم ، عنده كمية من الخبز احتياطاً ، عنده حاجات مدخرة للضيافة ، وإذا طرأ ضيف فيجب أن يقدم له وجبة عشاء مع الاحتفاء والترحيب ..

(فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69))

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)

(سورة الذاريات : من الآية 27)

كذلك تقريب الطعام للضيف من السُنَّة ، إذا كان الصحن بعيداً فإنه يستحي أن يقول لك : أريد أن آكل

من الصحن الفلاني ، إنه جالس ينظر إليه ، وهو مستحٍ ، وجعله منه قريباً ..

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)

بعد هذا قال : تفضَّلوا وكلوا ..

(قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ(27))

الاستعداد ، وتقريب الطعام للضيف ، ودعوته للطعام هذا من آداب الضيافة .

إذاً :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

عرفنا أن دار السلام هي الجنَّة ، والعباد كلُّهم مدعوَّون ، أحياناً يقول لك : الدعوة عامَّة كل من يحب يشرِّفنا حضوره ، أحياناً توجد بطاقة بيضاء ، البيضاء أي أول صف ، الحمراء ثاني صف ، الخضراء ثالث صف ، توجد درجات ، لكن أحياناً يقول لك : الدعوة عامَّة ، أي كلكم مدعوَّون لدار السلام ، لكن لا بد من الثمن ، الثمن أن تكون صادقاً في طلب دار السلام ، وأن تدفع الثمن وهو الاستقامة على أمر الله ، فإذا فعلت هذين الشرطين عندها يأخذ الله بيدك ، ويهديك إلى صراطٍ مستقيم ، ويجمعك مع أهل الحق ، يشرح صدرك لكلامهم ، ويهدوك لتطبيق كلام الله ، ويمسِّكوك بالكتاب ، تطبِّقه ، تسعدُ به ، لذلك :

هم الأحبَّة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدلُ وإن عدلوا
والله إن فتنوا في حبهم كبدي باقٍ على حبِّهم راضٍ بما فعلوا

***

إذا صار للإنسان مع الله عزَّ وجل مودَّة ، وانعقدت أواصرها فلابد من أن يذوب محبَّة في الله عزَّ وجل ، ففي قلب المؤمن سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها .. " لو يعلم المُلُوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف " ، هكذا قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه ، هو مع الله ، وكل شيءٍ بيد الله ، هو الجميل ، هو الغني ، هو الحميد ، هو القوي ، هو العزيز ،

((وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ))

[أبو داود عن الحسن بن علي]

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

وإليك معنى آخر : يهدي من يشاء هو سبحانه ، ومشيئته مرتبطة بصدق العبد وباستقامته .

والمعنى الآخر : ويهدي من يشاء منكم حسب اختياره للهدى أيها العباد جميعاً ..

(إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

والدعوة أيضاً عامَّة ، لك أن تفهم هذه الآية بأن تعزو المشيئة إلى الله عزَّ وجل بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى لا يهدي هذا الإنسان إلى صراطٍ مستقيمٍ إلا إذا دفع الثمن ، والثمن استقامته على أمره .

والمعنى الآخر : ويهدي من يشاء من العباد كلّهم بمعنى أن العباد مخيَّرون ..

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت : من الآية 17)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 148)

هذا المعنى الآخر ..

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(25)لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

7 ـ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ

الحسنى هي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى :

أحسنوا بماذا ؟ قال : هذا من إعجاز القرآن الكريم ، قال : الذين أحسنوا النظر ، فكَّر فرأى أن الدنيا موقّتة والآخرة أبديَّة ، فكَّر فرأى أنه إذا أطاع فلاناً ، وفلان عبد مثله ضعيف لا ينفعه ، لكنَّه إذا أطاع الله عزَّ وجل فإن الله عزَّ وجل الله حيٌّ لا يموت ، قال :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا)

أي أنهم أحسنوا النظر في العاقبة ، أو أحسنوا النظر في أمر الآخرة ، أي أحسنوا التفكير .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا)

بعضهم قال : للذين أحسنوا في العمل ، والذين أحسنوا في الدعوة إلى الله ، الآية مطلقة ، فعل مطلق في إشارته للإحسان ودلالته عليه ..

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا)

في تفكيرهم ، وفي تعبيرهم ، وفي محاكمتهم ، وفي نظرهم ، وفي قولهم ، وفي عملهم ، وفي دعوتهم..

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

هي الجنَّة ..

(وَزِيَادَةٌ)

ما هي الزيادة ؟ هي النظر إلى وجه الله عزَّ وجل ، فإن المؤمنين ينظرون إلى وجه الله عزَّ وجل نظرةً يغيبون معها خمسين ألف سنةٍ من نشوة النظر ، والدليل على ذلك قوله تعالى :

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ)

لا هَمّ للمؤمنين في الجنة :

أي أنَّ هذا الوجه الذي نظر إلى الله عزَّ وجل فسعِد بهذه النظرة لا يرهقه قترٌ ، القتر هو الغم ، أحياناً يقول لك أحدهم : ما بك ؟ وجهك غير طبيعي ؟ كأنك في همٍّ وقلق ، والإنسان حينما يتألَّم يظهر ألمه القلبي على صفحة وجهه .

نتابع الآية الأخيرة :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

في الحياة الدنيا كل آلامه النفسيَّة تنعكس على صفحة وجهه ، تنعكس قلقاً ، يقول لك : علائم وجهه حزينة ، يوحي وجهه بانقباض ، نفسه كما يوحي بخوفٍ يؤرقه ، هذا هو القتر ، وأحياناً الإنسان يخون شريكه ، وحينما يكتشف شريكه خيانته يُحِسُ بالذلِّ والعار ، وأحياناً طالب صغير يأخذ قلماً ليس له ، فيظهر أن القلم في جيبه ، فالمعلّم قبل أن يعنّفه ، أو قبل أن يُحاسبه فإن هذا الطفل يُحسُّ بالخزي والعار، يترجم هذا الإحساس علائم ذلَّة مسحت وجهه ، أما أهل الجنَّة في الجنَّة فلا قتر يعلو الوجوه ، ولا ذلَّة..

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

لماذا لا توجد الذلَّة ؟ أطاعوا الله في الدنيا واعتزُّوا به ، وها هو قد كافأهم على طاعتهم بجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض ، لماذا القلق والحزن ؟ هم آمنون من كل شيء ، في طمأنينة ما بعدها طمأنينة ..

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

إلى الأبد ، اجعل موازنة بين دار السلام والحياة الدنيا ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً))

[ورد في الأثر]

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(26)وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ)

8 ـ عدل الله المطلق : جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا

وبالمُقابل ، لا عقاب فوق طاقتكم ، مائة ضعف ، لا ..

(جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

الطاعة عزٌّ والمعصية ذلٌّ :

وإليك على عز الطاعة : أحد التابعين كان يمشي مشيةً فيها اعتزاز ، فظنَّها بعضهم أنها كِبْر ، فقالوا : " يا فلان أكِبْرٌ ؟ " قال : لا هذا عزُّ الطاعة " ، الشاب المطيع لله عزَّ وجل يشعر بعزَّة وبمكانة لا يعلمها إلا الله ، يحس أنه في رعاية الله ، فإنك بأعيننا ، يحس أن الله معه ، أن الله آخذٌ بيده كلَّما عثر ، أن الله يدافع عنه ، أن الله يسدد خُطاه ، يسدِّد أقواله وأفعاله ، هذا عزُّ الطاعة ..

(وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

والنظر إلى ذلَّة المعصيَّة ، سيدنا يوسف خرج في موكبه بعد أن صار عزيز مصر ، وكانت قد رأت الموكب امرأة العزيز بعد أن شاخت ، وخارت قواها ، وتبدل حالها فقالت هذه الكلمة الشهيرة : " سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعته ـ تعني أن يوسف كان عبداً فصار عزيزاً ـ ومن جعل الملوك عبيداً بمعصيته " ، تعني نفسها .

إذاً إن كان أحد يريد عزاً لا يفنى فليطع الله عزَّ وجل ، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله ، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك ..

(مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ)

9 ـ لا عاصم إلا الله :

أي لا مجال للالتجاء لأحد أيا كان ، فإن هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله عبادٌ أمثالكم، ضعاف ، مثلاً : عصابة سرقةٍ لها زعيم له سلطة على أفراد العصابة وهيمنة وشأن ، فلمَّا أُلقي القبض عليهم جميعاً صار زعيمهم واحداً مثلهم ، اقعد يقعد ، ازحف يزحف ، هرول يهرول الخ .... هذا الذي كان ذا هيمنة عليهم ، صار كأحدهم هكذا الشركاء في الدنيا ..

(مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنْ اللَّيْلِ مُظْلِمًا)

لهم وجوه أسود من الليل لشدَّة بعدهم ومعصيتهم وطغيانهم وما اقترفوه في حقِّ العباد ..

(أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

خاتمة :

درسنا آيتين ، فيهما موازنة بين الحياة الدنيا التي تذهب في لمحة البصر وتتلاشى..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا)

والآيتان معلّقتان بوشائج محسوسة مع الآية السابقة عليهما :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أي أن ثمار البغي لن تفيدكم إلا في الحياة الدنيا ، والحياة الدنيا موقّتة ، وسريعة الزوال ، وشيكة التحوُّل ، أما دار السلام ، من اسمها دار السلام ..

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(73))

(سورة الزمر)

إلى أبد الآبدين ، ولنجر موازنة بين الحياة الدنيا ودار السلام ، إن دار السلام الدعوة لها عامَّة ، وإذا كان أحد يريد تفصيلات ، فأحياناً يحوّل إلى دفتر شروط ، هذه المناقصة لكل المواطنين ، ودفتر الشروط يؤخذ من المكان الفلاني من الساعة كذا إلى كذا ، فدار السلام دعوة عامَّة ، وبعد هذا :

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

القرآن الكريم ، أو الإسلام هما أو أحدهما الصراط المستقيم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (08-17): تفسير الآيات 31 – 36
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-11-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ... وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

من دلائل ألوهية الله تعالى :

الله مالكُ كل شيء فاطلبوا الرزق مِن عنده :

في هذه الآية مجموعة أدلة قاطعة على ألوهية الله سبحانه وتعالى وعلى ربوبيته ، من هذه الأدلة الرزق ، وكل إنسانٍ متعلقٌ برزقه ، فهذا الرزق من السماء والأرض ، فإذا كان الرجل يملك ثمن الطعام فهل يملك خلقه ؟ هل يملك صُنْعَهُ ، من جعل أشعة الشمس المسلَّطة على البحار منذ خمسة آلاف مليون سنة ؟ من جعل هذه البحار التي تزيد مساحتها على سبعين بالمائة من مساحة الأرض ؟ من جعل هذا الماء المالح يتبخر ماءً عذباً فراتاً ؟ من جعل الماء يعلق في الهواء على شكل بخار ماء ؟ من جعل الفروق الكبيرة في درجات الحرارة بين القطبين ، بين القطب الشمالي وخط الاستواء ؟ من خلال هذه الفروق الشاسعة تحرَّك الهواء ، إذا كان هناك حرٌ تمدد الهواء فتعرض المكان لضغط منخفض ، وإذا كان هناك بردٌ انكمش الهواء فصار هناك ضغطٌ مرتفع ، وبين الضغط المرتفع والمنخفض يتحرك الهواء ، من حرك الهواء ؟ من حركه حتى ساق هذا السحاب ؟ من جعله ينقلب إلى أمطار تنزل في الأماكن المناسبة ، وفي الأوقات المناسبة ، وفي الكميات المناسبة ، وفي الأنواع المناسبة ؟ قد تأتي الأمطار في أول العام فلا يستفاد منها الفائدة المطلوبة ، وقد تأتي في آخره بكمياتٍ قليلة فلا يستفاد منه ، وقد تقل الثلوج فلا تمتلئ الينابيع ، أمطارٌ غزيرة في مطلع العام ، في أواخر العام توقَّفت الأمطار ، نسبة الثلوج قليلةٌ جداً ، الينابيع معظمها جفَّ ، من يملك إنزال الأمطار من السماء ؟

ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ بالغة ووفق عدالةٍ مطلقة يمنع الأمطار عن بعض الشعوب ، عن بعض البلاد ماذا يحصل ؟

في إفريقيا سبع سنواتٍ عجاف ماذا نتج عنها ؟ كاد الناس يموتون جوعاً ، استنجدوا بأمم الأرض ، يبس النبات ، ومات الحيوان ، وكنت أرى في بعض الصور كيف أن مئات ألوف الأبقار ملقاةً على الأرض وهي ميَّتة عطشاً ، رأيت صورةً في أستراليا الأغنام تذبح وتلقى في الوديان لعدم وجود الكلأ ، من يملك هذا الماء من السماء ؟ من يملك الأمطار ؟ الثلوج ؟ من يبخِّر ؟ من يحرِّك ؟

(وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا(14)لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا(15))

(سورة النبأ)

نزل الماء من السماء بقدرة من ؟ من خلق هذه الأرض وما فيها من معادن ؟ الأرض فيها كالسيوم ، وفيها فوسفور ، وفيها مغنزيوم ، وفيها حديد ، وفيها مواد آزوت ، وفيها كربون ، ومعادن وأشباه معادن ، ومواد لازمة لإنبات النبات ، من جعل هذه التربة أنواعاً ، هذه تربة زراعية ، وتلك تربة كلسية ، وأخرى تربة غضارية ، هذه تربة لحقية ، من جعل أنواع التُرَب ؟ كل هذه المواد التي نحتاجها كامنةٌ في هذه التربة إنها نعمة من رب السماء والأرض وهذا هو الإمداد .

من خلق أنواع البذور ؟ بذور الأشجار المثمرة ، بذور المحاصيل ، القمح ، الشعير ، العدس، الحمص، بذور الخضروات ، الكوسا ، الباذنجان ، اللوبياء ، الفاصولياء ، أنواع النباتات، الخضروات، الخضروات الصيفية ، والشتوية ، والمحاصيل ، والأشجار المثمرة ، هذه البذرة الصغيرة ، من أعطاها هذه القدرة الكامنة ؟ لتكون شجرة لها شكلٌ خاص ، لها وظائف خاصَّة ، لها إثمارٌ في وقت خاص ، لثمرتها شكلٌ خاص ، وطعمٌ خاص ، ولونٌ خاص ، من خلق هذه البذور وأودع فيها خصائصها المتعددة ؟ من جعل الرشيم وهو الكائن الحي في البذرة ؟ من ؟ أإله مع الله ؟

خلق البحار ، وخلق الشمس ، وخلق القطب ، وخط الاستواء ، وخلق قانون التبخر ، من الذي جعل الماء يزداد حجمه إذا برد على خلاف عناصر الأرض كلها ، ولولا هذه الظاهرة لمات الإنسان والحيوان ولانعدم التبخُّر ؟

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

إذا كنت يا أخي الكريم تملك ثمن الفاكهة فتذكَّر أنك لا تملك خلقها ، ولا تملك صنعها ، أنواع منوَّعة ، ليس هناك مجالٌ واسع للحديث عن أنواع الخضراوات ، هذه فيها فيتامين (سي) ، وتلك فيها مواد مقوية ، هذه فيها ألياف سيلولوزية ، وأخرى فيها مادة مخاطية ترمم الجهاز الهضمي .. كل غذاء ، كل نبات ، هذه فيها فوسفور تفيد أصحاب الأعمال الفكرية ، فأنواع الخضراوات ، والنباتات ، والفواكه ، والثمار ، القمح ثلاثة آلاف وستمائة نوع ، فالله عزَّ وجل الذي خلقه ونوّعه وجعله ، ينبت في كل أماكن

الأرض ، ينبت في الجبال ، وفي السهول ، وفي الأغوار ، وفي الصحارى ، وفي المناطق الحارة ، والباردة ، والمعتدلة ، والجافة ، والرطبة ، من ؟ أإله مع الله ؟

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

والأرض أودع فيها هذه المواد الأساسية ، أودع فيها المعادن ، أودع فيها أشباه المعادن ، أودع فيها هذه البكتريات ، حينما ألقيت القنبلة الذريّة على كل من هروشيما ونكازاكي تعقّمت التربة ، بمعنى أن الأحياء الدقيقة ماتت ، فلم تنبت شيئاً ، من خلق الكائنات الدقيقة ؟

انظر إلى طعامك :

من خلق ديدان الأرض ؟ قرأت عن ديدان الأرض مقالةً رهيبة ، لو أن ديدان الأرض ماتت لمات معها الإنسان ، لأنها عنصرٌ أساسيٌ في إنبات النبات ، ديدان الأرض ، من ؟ أإله مع الله ؟

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

فحينما تأكل هل ترى الله من خلال طعامك ؟

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس : من الآية 101)

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25)ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا(26)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(27)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(28)وَزَيْتُونًا وَنَخْلا(29)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(30)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(31)مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ(32))

(سورة عبس)

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

بدءاً من الشمس والقمر ، والرياح ، والحرارة ، والبرودة ، وتبدُّل الطقس ، والبحار ، واليابسة ، وهطول الأمطار ، من جعل الجبال مستودعاتٍ للأمطار ؟ من جعل الثلوج مغذّياتٍ لهذه المستودعات ؟ من خلق أنواع النباتات ؟ من خلق البذور ؟ أإلهٌ مع الله ؟!

هذا الإله ألا يستحق العبادة ؟

هذا الذي يرزقنا ألا يقتضي أن نعبده ، هذه الذي يمدنا بالطعام والشراب ، هذا الذي ينزل علينا الأمطار ألا يستحق العبادة ؟ نعبد من دونه أُناساً مثلنا لا يملكون ضراً ولا نفعاً ، ولا حياةً ولا موتاً ولا نشورا ؟ من اعتز بمن يموت فإن عزَّه ميت ، لأن هذا الذي تعتز به إذا مات مات عِزُّك ، لكنك إذا اعتززت بالله الحي القيوم فإنك عزيزٌ كريم .

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

فموضوع الرزق ، موضوع الطعام والشراب موضوع كبير جداً ، وهذا ما نتعامل معه كل يوم ثلاث مرات ، إذا جلست إلى مائدة الصباح تفكَّر فيما على المائدة صنفاً صنفاً ، صحناً صحناً، الجبن ، البيض، اللبن ، الزيت ، من أين جاء الزيت ؟ من هذه الشجرة المباركة ، من الزيتون ، تفكَّر في الخبز، في كأس الماء ، في كأس الحليب ، في لعقة العسل ، في كل شيءٍ تأكله آيةٌ على أنه هو الخالق ، هو المربي ، هو المسيِّر ، هذه فقرةٌ أولى في الآية .

(أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)

أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

1 ـ إعجاز الله ظاهر في السمع :

من شق لنا السمع والبصر ؟ فهذه الأذن ، لماذا جعل الله لنا أذنين ولم يجعل لنا أذناً واحدة ؟ سؤال ، لنا أنفٌ واحد ، ولنا أذنان ، لأنه لولا الأذنان لما عرفت مصدر الصوت ، بوجود أذنين والصوت من خلفك أودع الله سبحانه وتعالى جهازاً دقيقاً دقيقاً معقداً في المخ يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين ، فإذا وصل الصوت إلى هذه الأذن قبل هذه الأذن بواحد على ألف وستمائة وخمسين جزءا من الثانية ، يحكم الدماغ البشري على أن جهة الصوت من اليمين ، من جعل هذا الصيوان ؟ هذا الصيوان يُجَمِّع الأصوات ، ولو تصورنا إنساناً بلا صيوان لكان سمعه ضعيفاً جداً ، إذاً : بهذا الصيوان يقوى السمع .

أؤكد لكم هذه الحقيقة ، إذا وضع أحدكم يده هكذا يصله الصوت بشكلٍ أضخم ، وأقوى ، فهذا الصيوان من خلقه ؟ من خلقه بهذه التجاعيد ، هذه التجاعيد أي صوتٍ جاء من أي جهةٍ لابدَّ من أن يلقى سطحاً يعكسه إلى الداخل ، هذه التجاعيد من صنعِ حكيمٍ عليم ، إن جاء الصوت بزاوية ثلاثين ، يجد سطحاً يعكسه إلى الداخل ، وعلى الزاوية ستين هناك سطح يتعاكس معه ، إن لهذا الصيوان سطوحاً من كل الاتجاهات ، فأي صوتٍ جاء إلى الأذن لابدَّ من أن يجد سطحاً يعكسه إلى الداخل ، فلو جعلنا هذا الصيوان أملس لضاع علينا صوتٌ كثير ، وضعف سمعنا .

من جعل ممرّ الأذن ضيِّقاً ؟ ولو كان أوسع من أحد أصابعنا لفقد الأطفال سمعهم لأتفه سبب ، لكن الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل قناة السمع أضيق منفذاً من أصغر إصبع في الإنسان ، ثم جعلها مِعْوَجَّة ، لو جعل غشاء الطبل في صدرها والخط مستقيم ، فقلم أو عود يفقد الإنسان سمعه ، لكن الله سبحانه وتعالى جعلها ضيقةً وجعلها معوَجَّةً ، وجعلها تنتهي بغشاء الطبل ، ما هذا الغشاء الذي يتجاوب

مع أي صوت ؟ ويهتز اهتزازاتٍ قدرها العلماء بأرقام مائة وثلاثين اهتزازة بالثانية أو أكثر .. الرقم لا أذكره ، لكن هناك عتبات للسمع دقيقة جداً .. يهتز ثم يستعيد استقراره ليتلقى صوتاً جديداً ، مَن ربط هذا الغشاء بعظامٍ سمعيةٍ أربع تضخم الأصوات إلى أن يصل الصوت إلى الأذن الداخلية حيث العصب السمعي الذي يلتقط الأصوات ويرسلها إلى الدماغ ليدرك الإنسان فحوى الكلام ؟

يرن جهاز الهاتف ترفع السماعة يقول لك : هل عرفتني ؟ تقول له : أنت فلان ، كيف ؟ من زودك بذاكرةً للأصوات ؟ في مخ الإنسان ذاكرةٌ صوتية ، لاشك أن كل واحدٍ منا في حياته أكثر من مائة شخص يعرف أصواتهم واحداً واحداً ، من ؟

لا يزال علماء الجسم البشري في حيرةٍ من أن هناك صوتاً يسبب انزعاجاً سموه الضَجيج ، وأن هناك صوتاً يسبب ارتياحاً سموه النَغَم ، وما الفرق بين النغم والضجيج ؟ لا أحد يعرف سر هذا ، لماذا خلق الله سبحانه وتعالى الأذن مفتوحةً دائماً ، الإنسان بإمكانه أن يغلق عينيه ، الإنسان يغضُّ بصره عن المحارم ، لكنه لا يستطيع أن يغلق أذنه عن الأصوات ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من استمع إلى صوت قينةٍ صب في أذنيه الآنك قيل : وما الآنك يا رسول الله ؟ قال : الرصاص المذاب))

[الجامع الصغير عن أنس ، وفي سنده مقال كبير]

من استمع ، لم يقل من سمع ، أي جلست إلى جهاز اللهو ، واستمعت إلى الغناء ، وأنت تقصِدُ ذلك ، لكن إذا طرق سمعك نغمٌ لا يرضي الله وأنت لا ترضى عنه ، أغلب الظن أن هذا معفوٌ عنه ، والله وحده يعلم إن كنت راغباً في سماع هذا الصوت أو لست راغباً فيه ، ربنا عزَّ وجل قال :

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا(11))

(سورة الكهف)

لماذا قال على آذانهم ؟ لأن الأذن مفتوحة ، مفتوحةٌ دائماً ، ولماذا جعلها مفتوحةً دائماً ؟ لأنها دائرة أمنٍ للإنسان ، والإنسان إذا أغمض عينيه قد يأتيه الخطر من أقرب الناس إليه ، من أقرب شيءٍ إليه ، لكن الصوت يحذِّرُهُ ، فسائق السيارة قد لا يرى ماذا يحدث ، لكن صوتاً غريباً يجعله يقف ، فالأذن مفتوحةٌ دائماً ، رأيت مرةً جهازاً للهاتف له ضوء ، فبدل الجُلجُل يتألّق الضوء ، أي أن هناك مخابرة ، فقال صاحب هذا الجهاز : لو أنني لفتُّ وجهي هكذا أحدث إنساناً وجاءت مخابرة لا أدري ، لكن الصوت له وظيفة أخرى ، كيفما كنت يأتيك الصوت ، وهذا من حكمة الله عزَّ وجل .

(أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)

2 - إعجاز الله ظاهر في البصر :

وهذه العين ، المَحْجَر ، الحاجب ، كرة العين ، عضلات أنسيةٌ ، عضلاتٌ وحشيةٌ ، عضلاتٌ علويةٌ ، عضلاتٌ سفليةٌ ، عضلات مائلةٌ تحرِّكها في كل الاتجاهات ، هذه هي العين ، ثم القَرنية ذلك الجسم الشفَّاف شفافيةً تامة ، كيف تتغذى القرنية ؟ أين الشعريَّات ؟ أين الشرايين ؟

هذه القرنية لها سمةٌ خاصة تتغذى عن طريق الحلول ، أول خليةٍ تأخذ غذاءها وغذاء جارتها ، وينتقل الغذاء من خليةٍ إلى أخرى عَبْرَ الجدار الخلوي من دون أن يكون هناك شبكة شرايين وأوردة تعيق الرؤية وتحجبها ، هذه هي القرنية .

من جعل بعد القرنية القزحية ، عين فلان زرقاء اللون ، وتلك سوداء ، وأخرى عسلية ، هذه القُزَحية ؟

ظاهرة المطابقة في العينين :

من جعل فيها هذه العضلات تتسع وتضيق من دون أن تشعر ؟ إذا جاءها الضوء الكثيف ضاقت ، وأخذت من الضوء حاجتها ، وإذا قلّ الضوء اتسعت ، وأخذت من الضوء حاجتها ، فإذا نظرت إلى شيءٍ بعيد اتسعت أيضاً حتى تنضِح الرؤية وأنت في غفلةٍ عن هذا ، من جعل هذه العين ؟ من جعل هذا الجسم البلوري عدسة لكنها ذات حياة ؟ عدسةٌ مرنة يزداد إحديدابها ، أو يزداد انبساطها حيث يقع خيالها في الشبكية دائماً ، وهذا من الأشياء المعجزة ، كيف ترى الأشياء المتحرِّكة ، وتأتي جميع أخيلتها على الشبكية تماماً ؟ سمى العلماء هذه الظاهرة المطابقة ، وهي من أعقد ما يجري في العين ، هذا يعجز عنه أكبر علماء الأرض ، لأنك لو كنت تشاهد كرةً تتحرك في كل ثانيةٍ لها بعدٌ عن العين ، من يقيس هذا البعد ؟ ومن يضغط على الجسم البلوري ضغطاً يجعل خيال هذه الكرة تقع على الشبكية تماماً ؟ الله سبحانه وتعالى وهو معكم أينما كنتم .

إن ظاهرة المطابقة لا يمكن أن تشرح في مسجد لأنها تحتاج إلى صور ورسومات ، إلى توضيحات .

من جعلك ترى الأشياء المتحركة وأنت مرتاح ؟ لو أنك ترى الشيء بعد أربعين سنتيمترا فقط ما قيمة هذه العين ؟ بعد الأربعين لا تراه ، قبل الأربعين لا تراه ، لكن هذه العين تنظر إلى كل شيء ، وترى كل شيء وهي مرتاحة ، من جعل هذه الشبكية فيها مائة وثلاثون مليون عصية ومخروط ، الذي أحصى مخاريط العين ، وعصيَّاتها مُنِحَ جائزة نوبل في عام سبعة وستين وتسعمائة وألف للميلاد ، في عام سبعة وستين هناك عالمٌ توصَّل إلى أن في شبكية العين مائة وثلاثين مليون من المخاريط ومن العصيات ، يستقبل بعضها الألوان كلها ، وبعضها يستقبل اللون الأبيض والأسود فقط ، ثم من جمع هذه الشبكية في عصبٍ بصريٍ قوامه أربعمائة ألف عصب ، تذهب إلى الدماغ ؟ من جعل لك عينين

من أجل أن ترى بهما البعد الثالث ؟ أن ترى الأشياء مجسَّمة ؟ أن ترى طولاً وعرضاً وعمقاً ، من ؟ إنك لن تستطيع بعينٍ واحدة أن ترى المسافات العُمقِية ، لن تستطيع أن ترى البعد الثالث في عينٍ واحدة، ولكن العينين تريانك الأشياء مجسمة ، لا يزال هذا سر ، إنك إذا صورت شيئاً بآلة تصوير فالصورة حجمها صغير ، ولكنك ترى الشيء بحجمه الحقيقي ، وعينك صغيرةٌ جداً ، كرةٌ صغيرة ، ترى الجبل جبلاً ، والجمل جملاً ، والإبرة إبرةً ، والنملة نملةً ، ترى الشيء بحجمه ، ولونه ، وبعده ، من خلق هذا ؟

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)

ومن زوَّدك بذاكرةٍ للبصريات ؟ .. هناك ذاكرة للمسموعات ، وذاكرة للمشاهد ، تقول هذا المنظر رأيته من قبل ، هذا الوجه أعرفه ، هذا الكتاب قرأته ، هذا الطفل شاهدته من قبل مع أبيه ، من زودك بهذه الذاكرة ؟ ألا يستحق منك العبادة ؟ ألا يستحق منك الطاعة ؟ ألا يستحق أن تكون محباً له ؟ .

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ

المعنى الأول :

فبحسب تفكير الناس البدائي الشيء الساكن ميِّت ، فالبيضة ميتة ، من أخرج منها الدجاجة ، افتح بيضة الآن ، اقلها أو اسلقها ، وانظر ما فيها ؟ بياض وصفار ، هل من السهل أن تنقلب هاتان المادَّتان إلى صوص ؟ له سمع ، وله بصر ، وله شم ، وله فم ، وله لسان ، وله مريء ، وله حُوَيصلة ، وله أمعاء ، وله قلب ، وله كبد ، وله بنكرياس ، وله كليتان ، وله عضلات ، وله عظام ، وله أعصاب ، من ؟ .

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

الحيوان المنوي إذا لقَح بويضةً يصبح إنساناً سوياً ، من أودع في هذا الحيوان المنوي وفي تلك البويضة خمسة آلاف مليون صفة ؟ سموها تعليمات ، وسموها أوامر ، والعلماء قالوا : لو أن هذه التعليمات ، وهذه الأوامر كُتِبَت في كتب لكان حجمها كحجم أكبر موسوعةٍ مؤلفةٍ حديثاً .

الآن عندنا موسوعات ، دائرة معارف ، مؤلفة من أربعين أو خمسين جزءاً ، كل جزء ثلاثة آلاف صفحة ، لو أن هذه الأوامر التي أودعها الله في الحيوان المنوي ، وفي البويضة ، أردنا أن نكتبها بكتب لاستغرقت أكبر الموسوعات العلمية .

إنسان له شعر ، وهناك أنواعٌ منوَّعَةٌ من الشعر ، هناك شعرٌ جَعِد ، وهناك شعر أملس ، وهناك شعر أسود ، وهناك شعر أشقر ، وهناك شعر خشن ، وهناك شعر حريري ، أنواع منوَّعة من الشعر ، في هذا الحيوان المنوي يكمن شكل الوجه ، أهو كروي أم مستطيل أم كمثري الشكل ، في هذا الحيوان المنوي يكمن نوع العينين ، لونهما ، حجمهما ، نوع الحاجبين، أزجّين ، مفترقين ، نوع الأنف أقنى ، طويل ، قصير ، نوع الشفتين ، نوع الخدين، أملسين ، أسيلين ، قصيرين ، نوع العنق ، نوع اليدين ، لون الجلد ، طبيعة الدم ، كيمياء الدم كلها كامنة في هذا الحيوان المنوي .

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

ثمرة واحدة زيتونةٌ من خشب ترميها في الأرض ، فتصبح شجرةً لها جذور، ولها جذع ، ولها أغصان، ولها أوراق ، تزرعها بعلاً تعطيك زيتوناً ، ممتلئاً زيتاً ، تأكله ، وتستفيد منه .

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

وكلما تقدم العلم فُسِّرَت هذه الآية بحسب التقدم العلمي كيف تموت الخلايا وكيف تولد الخلايا ؟ خلايا الأمعاء عمرها ثمانيةٌ وأربعون ساعة ، خلايا القلب والدماغ عمرها يوازي عمر الإنسان ، خلايا الشعر تبقى ثلاث سنوات حيّة ، الشعرة تعيش ثلاث سنوات ثم تسقط ، ينبت مكانها شعرةٌ جديدة .

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

المعنى الثاني :

وقد تفهم هذه الآية بشكلٍ آخر ، قد يلد الكافر مؤمناً ، وقد يلد المؤمن كافراً .

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

هذا بعلم الله .

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)

(سورة هود)

عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أبوه أبو جهل .

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

البيئة ليست حُجة :

لا تقل : بيئتي صعبة ..

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

قد يخرج عالمٌ من بيئةٍ جاهلة ، وقد يخلق أخلاقيٌ كبير من بيئةٍ منحطة ، وقد يخرج رجلٌ فاسقٌ من بيئةٍ صالحة ، لأن لكل إنسان اختيار..

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56))

(سورة القصص)

مدلول إخراج الحي من الميت والميت من الحي عامٌّ في جميع المخلوقات :

والمجال يطول ، هذه آيةٌ دلالاتها واسعةٌ جداً ، يطبق مضمونها على الإنسان ، كما يطبق على الحيوان، وعلى النبات ، وبعد ذلك فهناك بحوث حديثة مفادها أن هناك مجَرَّات تخلق ، ومجرات تتلاشى على شكل غازات ، حتى في الكون هناك خلقٌ متجدد ، هناك خلقٌ جديد ، وهناك موتٌ لبعض الكواكب ، وهناك مناطق سوداء في الفضاء الخارجي إذا دخلتها الأرض أصبحت بحجم البيضة ، هناك كواكب غازية ، زحل غازي ، غازات متجمعة ، طبعاً كثافته قليلة ، من يحوِّل الصلب إلى سائل والسائل إلى غاز والغاز إلى صلب ؟ ثم هناك نظرية تقول : إن هناك أجراماً غازيةً تدخل في ثقوبٍ سوداء فتصبح كتلاً متراصَّة .

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

1 ـ الله يدبِّر أمرَ المخلوقات كلها :

فأحياناً تجد أن الجو ارتفعت حرارته بشكلٍ غير طبيعي ، هذا من أجل أن يتفتَّح الزهر ، يسميه العوام: (عبوء الزهر) ، من يدبِّر الأمر ؟ أحياناً تأتي رياحٌ عاتية في أيام الربيع ، هذه رياحٌ لواقح من أجل إلقاح النباتات ، من يدبِّر الأمر ؟ يأتي بردٌ شديد فيهلك كل الكائنات الضارة في التربة ، يأتي حرٌ شديد فتكسب الفواكه طعمها الحلو المذاق ، من يدبِّر الأمر ؟ مِن إشراق الشمس إلى غروبها ، القمر ، الأرض ، يقول لك : منخفضات ، من يدبِّر الأمر ؟ منخفضات ، منخفض وراء منخفض ، هنا صقيع ، هنا برد ، هنا حر ، هنا جو رطب ، هنا رياح شديدة ، يقول لك: رياح شرقية لها فوائد ، رياح غربية لها فوائد ، الشرقية باردة ، الغربية دافئة ، الغربية يأتي معها أمطار ، الشرقية يرافقها صقيع ، هذا مفيد وهذا مفيد ، ومن يدبِّر الأمر ؟

2 - الله يدبِّر أمرَ الإنسان كلَّه :

شيء آخر : أمر الإنسان من يدبِّره ؟ إلى هنا تناولنا في شرحنا أمر الكون الذي تحدثت عنه الآية الكريمة ، لكن الآية مطلقة ..

(وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

شاب يطلب الزواج ، يطلب العفة مثلاً ، فالله عزَّ وجل يجمعه مع إنسان يلهمه أن يسأله عن وضعه العائلي ، فيقول له الشاب : لست متزوجاً فيؤمّن له بيتاً ، فدّبر لهذا الشاب ، من يدبر الأمر ؟ أحد الناس يريد أن يشتغل في عمل يدرّ عليه أسباب معيشية وعائلته ، يلهمه مصلحة يشتغل فيها ، يأتيه الزبائن ، يبعثهم ربنا إلى متجره ، يبيع يشتري ويربح ، ويشتري طعاماً لأولاده ، يدخل بيته معه قوت عياله ، من يدبِّر الأمر ؟ الله سبحانه وتعالى ، هذه أدلةٌ قاطعة على ربوبية الله ، وعلى ألوهيته ، وعلى حكمته ، وعلى تسييره .

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

أمر عجيب ..

(فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

إنه اعتراف لكن بغير تطبيق : فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ

قال أعرابيٌ للنبي عليه الصلاة والسلام : جئتك لتعلمني من غرائب العلم ، فقال النبي الكريم: فماذا صنعت في أصل العلم ؟ قال : وما أصل العلم ؟ قال : هل عرفت الرب ؟ قال : ما شاء الله ؟ قال : فماذا صنعت في حقه ؟ قال : هل عرفت الموت ؟ قال : ما شاء الله ؟ قال : فماذا أعددت له ؟ فأدق نقطة بهذه الآية هذه الكلمة ، إذا كنت تعرف هذا تماماً فلماذا لم تأخذ حتى الآن موقف يتناسب مع هذا الإيمان ؟ إن كنت تقول : الله يرزقني ، والله جعل لي السمع والأبصار ، والله يدبِّر أمري ، فلمَ لا تطيعه؟ ماذا تنتظر ؟

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرك في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب مطيع

***

فإذا لم تأخذ موقفاً عملياً تجاه ربك ، وإذا لم تتقصَّ سُبُلَ طاعة الله عزَّ وجل ، إذا ما اجتنبت نواهيه ، فهذه المعرفة لا قيمة لها .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال : من الآية 72)

إذا لم يأخذ الإنسان موقفاً عملياً ، ويسمع الحق ، ويعمل به ، فإيمانه إدعاء ليس أكثر فلماذا هذه المعصية في البيت ؟ ماذا تنتظر ؟ ألا تحس بالتناقض ؟ هل تقول : هي حرام ، تجيبني : نعم حرام ؟ إذاً : لمَ لا تزيلها فوراً ؟ كيف يرضى الإنسان أن تركن نفسه ، وهناك خلل بين ما يعتقده وما يفعله ؟ كيف يرضى عن نفسه وهو لا يتّبع ما يقتنع به من سبيل الإيمان ؟

(أَفَلَا تَتَّقُونَ(31)فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ)

فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ

أما هذه الآية ، والله الذي لا إله إلا هو لو عرفنا دلالاتها حق المعرفة ، لو فهمنا أبعادها لعقدنا التوبة من توِّنا دون تباطؤ أو تراخٍ ..

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

1 - لا يمرُّ بين نقطتين إلا خط مستقيمٌ واحدٌ :

إذا كان الخط المستقيم يمر بين نقطتين فهل يمكن أن يمر بين هاتين النقطتين خطٌ آخر لا ينطبق عليه ، ويكون مستقيماً ؟ مستحيل ، بين نقطتين لا يمر إلا مستقيمٌ واحد ، فإذا قال ربنا عزَّ وجل :

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

(سورة الأحزاب : من الآية 33)

فلو أن المرأة لم تفعل هذا وتستجب لدعوة ربها وأمره لكانت في الضلال ، هذا هو الحق .

2 - الحق هو الشيء الثابت :

معنى الحق الشيء الثابت ، حق الشيء أي استقر ، فإذا بنيت جداراً على الشاقول تقول : هذا جدار حق ، أي يستمر ، يبقى ، فإذا بنيته من غير شاقول ، وكان مائلاً هذا سوف يقع ، فتعريف الحق أنه يثبت والباطل يزول .

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ)

(سورة الإسراء : من الآية 81)

الحق الشيء الذي رسمه الله سبحانه وتعالى منهجاً للبشر ، فأي منهجٍ آخر فهو باطل ، إن لم تعتقد بالله رباً فعقيدتك باطلة ، إن لم تعتقد بالله إلهاً فعقيدتك باطلة ، إن لم تصل فأنت مبطل ، ولو تفلسف الإنسان، وزعم أنه ذو فكرٍ مُنْفَتِح ، وأنه يقرأ ، وأنه يطالع ، ما دمت لا تصلي فأنت مبطل .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

3 ـ إمّا الحق وإما الباطل :

العلماء قالوا : " ليس في الأرض منزلةٌ ثالثة بين الحق والباطل ، إما أنك على حق ، وإما أنك مبطل "، إن لم يكن اسمك في قائمة الناجحين فماذا يعني هذا ؟ أنك راسبٌ ، فهل هناك قائمة ثالثة ؟ لا توجد قائمة ثالثة ، إما أن يكون اسمك في قائمة الناجحين ، وإما أنك راسب ، ولا توجد حالة ثالثة ، في بلد فيها جامعة واحدة ، إما أن تكون من طلاّب هذه الجامعة ، أو خارجها ، لا توجد حالة ثالثة ، فالإنسان إن لم يعتقد بالله رباً ، إن لم يعتقد به خالقاً ، إن لم يعتقد به إلهاً يعبد ، فعقيدته باطلة ، فالأرباب الذين يزعمهم من دون الله مبطلون ، فالآلهة الذين يعتقدهم مبطلون .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

أي إذا لم ينطبق سيرك على الخط المستقيم فشيء قطعي أنك مُبطل ، ولا توجد حالة ثالثة ، وهنا لا مجال للمجاملة ، قضية مصيرية ، قضية سعادة أبدية أو شقاء أبدي ، لا يوجد عندنا أنصاف حلول ، الإسلام إما أن تأخذه كله أو تدعه ، أما أن تأخذ منه ما شئت ، فأخذك منه ما شئت كأنَّك تركته كله ، فالأمر ليس هوىً يتبع .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

الحق هو الذي حقَّه الله ، إنما الحق هذا القرآن ، عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ :

((... أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ...))

[البخاري ومسلم]

4 ـ النشاط الإنساني إما حقٌّ وإما باطل :

هذه بعض مناجاته ربه في جوف الليل ، أي إن لم تؤمن بهذا النبي فإيمانك باطل ، إن لم تؤمن بهذا القرآن فعقيدتك باطلة ، ليس هناك شيء وضعي آخر يحل محله ، هذا هو الحق ، فلو أن التشريع

الوضعي كان كالقرآن ، وانطبق عليه لكان حقاً ، بل وكان قرآناً ، وإن خالفه فهو باطل ، وهذا هو الحق ، ليس من حالة ثالثة ، غض البصر هو الحق ، العلاقة بالمرأة لها حق واحد وهو الزواج ، وأي علاقة أخرى باطلة .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

وبالنسبة لكسب المال ، فإن الشرع حدد سبل كسبه ، فالهبة جائزة ، والإنسان يتملَّك المال حلالاً بالهبة، وبالإرث ، وبالتجارة ، وبالكسب الحلال ، أي طريق آخر فهو باطل .

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

والله قضية مصيرية وخطيرة ، الإنسان يتفحَّص سلوكه اليومي ، يتفحَّص قِيَمَه ، لماذا يؤمن ؟ ماذا يفعل في اليوم ؟ هل يفعل شيئاً خلاف القرآن ؟ إذاً هو مبطل .

5 ـ الحقُّ يقابل الضلالَ أيضًا :

ربنا عزَّ وجل مرة قابل الحق بالباطل ، ومرة أخرى قابله بالضلال ، إذا انطلق أحد باتجاه حمص مثلاً، ولكنه سلك طريقاً لا يؤدي إلى حمص ، بل يؤدي إلى بغداد مثلاً ، فإننا نقول : ضل الطريق ، الضلال أن تسير في جهةٍ لا توصلك إلى هدفك ، فما هو الهدف الكبير ؟ السعادة ، فالضلال أي سلوكٍ يؤدي إلى الشقاء فهو الضلال .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : من آية 9)

بالزواج تسعد ، وبغير الزواج تشقى ، بكسب المال الحلال تسعد ، وبكسبه حراماً تشقى ، باتصالك بالله تسعد ، وبانقطاعك عنه تشقى ، إذاً صار معنى الضلال هو الطريق الذي لا يوصلك إلى هدفك ، ولو عرف الضَّالون أنهم سائرون في طريق شقائهم لما ساروا .

6 ـ لابد من معرفة طريق السلامة حتى نسلكه :

إذاً ما هي الأزمة ؟ أزمة مَعْرفةٍ ، إما أن تعرف ، وإما ألا تعرف ، لو عرفت حُلَّت القضية ، ليس على وجه الأرض رجلٌ واحد يتمنَّى الشر لنفسه ، أو يتمنى الشقاء لنفسه ، فحب السلامة فطرةٌ في الإنسان ، إذاً : بقي عليك أن تعرف أين طريق السلامة ، إنه طريق الحق ، وغيره باطل ، باطل ، شيء آخر ربنا عزَّ وجل قابل الحق بالضلال وقابله بالباطل ، الحق من خصائصه الثبات والديمومة ، والباطل من خصائصه الإزهاق .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

الإنسان المبطل يتلاشى هو ومبدؤه ، لكن من دعا إلى الله عزَّ وجل ، من تمسك بكتاب الله فهو خالدٌ خلود الحق ، إذاً من تعلق بالباطل زهق مع الباطل ، ومن تعلّق بالحق خَلَدَ في جنةٍ عرضها السماوات والأرض مع الحق .

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

تذكَّروا مثل الناجحين ، هناك قائمة واحدة للناجحين ، إن لم يكن اسمك في هذه القائمة فهذا الطالب راسبٌ حتماً ، إذا لم ينطبق سلوكك على القرآن فالحكم القطعي أن هذا الإنسان مُبْطِل ، وفي طريق الهاوية والشقاء ، والسعيد من عرف الحقيقة قبل فوات الأوان ، لكن جميع بني البشر سيعرفونها ، ولكن بعد فوات الأوان .

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(26))

(سورة الفجر)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27)يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا(28))

(سورة الفرقان)

لكن متى ؟ بعد فوات الأوان .

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس : من الآية 90)

فقال له : أي لفرعون .

(آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس : من الآية 91)

7 ـ البطولة أن تعرف الحق في الوقت المناسب :

البطولة أن تعرف الحق في الوقت المناسب ، أن تعرفه وأنت شاب ، وأنت في مقتبل العمر ، أن تبني مستقبلك وفق الحق ، أن تبني زواجك على الحق ، أن تبني عملك على الحق ، فإذا عرف الإنسان الحق متأخراً وله أربٌ و مصلحة في أمرٍ ما ، ولا يستطيع أن يتخلى عن مأربه ، فالباطل يفترسه ، قال لي أحدهم : دعوت صاحبي للجامع مرتين وثلاثا وأربعا وخمسا ، فيقول لي : مصلحتي لا تتناسب مع الجامع ، أتناقض مع نفسي ، قلت له : غيِّرها ، قال لي : والله من الصعب أن أغيرها ، إذا عرفت الله عزَّ وجل في وقتٍ مبكّر تبني زواجك وكل مصالحك على أساسه .

قال لي أخ آخر : إنه خطب امرأة أعجبه جمالها ، فلما اهتدى إلى الله أبت أن تهتدي معه ، وظلت على طريقتها التي لا ترضي الله ، الآن هو يشقى بها ، يشقى بهذه الزوجة ، فإذا عرفت الحق في وقتٍ مبكر تبني زواجك على أساسه ، وتبني عملك على أساسه ، فتسعد بزواج وبعملك .

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

في إعادة الحق إحقاقٌ للحق وإبطالٌ للباطل :

هل بين الشركاء المزعومين من يبدأ الخلق ، أي أنه يخلق ؟ فمن خلق الشمس ، والقمر ، والأرض ؟ من يعيد خلق الإنسان ؟ هذه الآية دقيقة جداً ، لو أن الله عزَّ وجل بدأ الخلق ولم يعده لكان في مبدأ الخلق نقص ، المحسن لم يأخذ جزاءه ، والمسيء لم ينل عقابه ، لكن الله عزَّ وجل بدأ الخلق ، وسوف يعيده لينال كل إنسان جزاء عمله ، هذا يوم الدين ، بدأنا خلقاً وسوف يعيدنا مرةً ثانية ليلقى كلٌ منا جزاء عمله .

(وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا)

(سورة النساء)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

(يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

هذه الآية جميلة الدلالة جداً ..

(يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

في إعادة للخلق إحقاق للحق وإنصاف للعباد يتبعه تكريم للمؤمنين ، إذ يخلدون في جنة عرضها السماوات والأرض فأنت خُلقت ، وأعطيت سمعا وبصرا ، ودماغا ، وتفكيراً ، وحرية اختيار ، وشهوات أودعها الله فيك ، وقال لك : تصرف ، وسوف أحاسبك على كل حركةٍ وسكنة في يوم الدين ، مالك يوم الدين ، فهنيئاً لمن عرف الله في الحياة ، المشكلة ليست الآن ، لكن المشكلة في الخلق الثاني ، الطلاب جميعاً في العام الدراسي متساوون ، لكن المشكلة بعد الامتحان ، بالامتحان ينفرز الطُلاّب إلى ناجحين وراسبين ، إلى أعزَّة وإلى أذلة ، إلى متفوقين يعلو وجوههم البشر ، وإلى مهزومين يعلو وجوههم القنوط .

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ)

إذاً نستدل على الله عزَّ وجل بخلقه . الآن هناك دليل آخر ، لا يقلّ عنه :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ)

الله خلق الخلق وهداه إرشادًا إلى الحق :

للتقريب مثلاً : تجد الدولة شقت طريقاً عريضاً ، بعد فترة وضعت عليه لافتات ، من هنا للمكان الفلاني ، هنا ممنوع المرور ، هنا مسموح ، هناك منعطف خطر ، أنت إذاً إزاء شيئين ، عملية بناء ، و عملية إرشاد ، باللافتات عملية إرشاد ، والدولة حريصة على أن يسلك الناس هذا الطريق ، وحريصةٌ على سلامتهم ، وعلى وصولهم إلى أهدافهم ، فشقت لهم هذا الطريق ، وأقامت لهم العلامات على جوانبه ، فدائماً بالنسبة لخلق الإنسان شيئان خلق وهدى ..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة فاطر : من الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا(1))

(سورة الكهف)

خلق وهدى ..

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى(1)الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3))

(سورة الأعلى)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

فهنا :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

أين أنت ذاهب ؟ فإذا كان الفحص غداً الساعة الثامنة ، وغرفتك جاهزة ، والكتاب مفتوح ، يقول الأب لابنه : أين أنت ذاهب ؟ لابد من أن تجتهد يا بني وتذاكر ، أنت في مرحلة إعداد ، والوقت ثمين جداً ، أين ذاهب ؟

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

ما دام الله عزَّ وجل خلق الخلق ، وينتظر منك أن تطيعه ، فأنى تصرف عنه ؟ إلى أين تلتفت ؟

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى)

هذا الصنم ليس فيه ما يهديك ، لا يستطيع أن يتحرك من دون أن تحركه ، هل يتحرك بذاته ؟ معنى يَهِدِّي يتحرك ، لا يستطيع أن يتحرك إلا أن تحركه أنت ، هذا يهديك ؟

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(35)وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا

أي أن عقائد معظم الناس ، وتفكيرها ، وتصوراتها ، وثقافتها ، معارفها ، معلوماتها من نوع الظن ، والظن لا يغني من الحق شيئاً.

قال عليه الصلاة والسلام :

((قيدوا العلم بالكتابة))

[ورد في الأثر]

أحدهم قرأ مقالة خلاصتها أن الدواء الفلاني يطيل العمر ، هذا باطل ، لأن ربنا عزَّ وجل قال :

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ(34))

(سورة الأعراف)

أيّ شيء يخالف كلام الله فهو باطل :

انتهى الأمر ، فهذه المقالة باطلة ضع عليها إشارة ضرب ، كلام فارغ جزاف ، أحدهم قال لك : أنا رأيت الجن ، كلام لا أصل له ، بل هراء .

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف : من الآية 27)

يمكنك أن تلغي مائة قصة بهذا الموضوع ، مائتي قصة ، مليون قصة، كله كذب ، صار باطلاً ، فأيّ علم ، أي قصة ، أي حادثة ، أي مقالة قرأتها وفق كتاب الله حق ، خلافه باطل ، فربنا عزَّ وجل سماه باسم ثالث ظن ، ليس مؤكداً ، فإذا بنى إنسان مصيره على أشياء غير صحيحة أو غير ثابتة ، فهو من أهل الظن والريب ، فإن مات وهو مسلم بالهوية ، أيريد بعد ذلك من رسول الله أن يشفع له ؟ هذا ظن.. بل وَهم .

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

الشفاعة حق ، ولكن لمن دخل الجامعة مثلاً ، فإذا دخل للجامعة فإنه يجد من يعاونه ، ويقدم له الكتب ، ويهيئ له قاعة مطالعة ، ومكتبة عامرة ، وقد يُعطى راتباً ، وغرفة بالمدينة الجامعية ، كلها لمن ؟ لمن دخل الجامعة ، أما إذا كنت خارج الجامعة الشفاعة ليست لك ، إذا ظن بعضهم أن الشفاعة لكل واحد انتمى انتماء شكلياً للنبي عليه الصلاة والسلام ، انتماؤه شكلي ، فهذا ظن ، والظن خطر ، يأكل مال

حرام ، يغش الناس ، يختلس النظر ، يصافح النساء ، يتغزَّل ، يجلس جلسات منكرة ، وظنه أن رسول الله يشفع له يوم القيامة ، معنى ذلك أنه خرب بيته ، وعاقبته البوار لا محالة .

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

أي أن الأمر خطير جداً ، تحقق من كل فكرة تعرفها ، من كل قصة تسمعها ، هناك قصص غير صحيحة ، اجعل القرآن إمامك ، قيدوا العلم بالكتاب ، فأي قصةٍ أو فكرةٍ أو عقيدةٍ ، وافقت كتاب الله فهي حق وإلا فهي باطل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (09-17): تفسير الآيات 33 – 38
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-11-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي في سورة يونس إلى قوله تعالى :

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ

1 ـ حقٌّ أو باطل ، ولا ثالث لهما :

ليس في الحياة إلا شيئان : حقٌّ وباطلٌ ، فإن لم يكن المرء على الحق فهو في الباطل ، في طعامه ، وفي شرابه ، وفي كسبه ، وفي زواجه، وفي عقيدته إن لم يكن مع الحق فهو مع الباطل ، ليس هناكٌ مرتبةٌ ثالثة ، وليس في الآخرة مرتبةٌ ثالثة ، << فو الذي بعث محمداً بالحق ما بعد الدنيا من دار إلا الجنَّة أو النار >> ، أي أن الموقف حاسم ، يجب أن تتخذ قراراً مصيرياً ، إما أن تكون مع الحق ، وإن لم تكن كذلك فلابدَّ من أن تكون مع الباطل ، إما أن تحبَّ المؤمنين ، وإن لم تكن كذلك فسوف تحبُّ الفاسقين ، إما أن تكون سعيداً ، وإن لم تكن كذلك فلابدَّ من أن تكون شقيًّا ..

((الناس رجلان : برٌّ تقيٌّ كريمٌ على الله ، وفاجرٌ شقيٌّ هيّنٌ على الله))

[ورد في الأثر]

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

2 ـ فَأَنَّى تُصْرَفُون

إلى أين أنتم ذاهبون ؟ ماذا في الدنيا ؟ هل فيها غناءٌ عن الآخرة ؟ هل وحدها تسعد الإنسان ؟

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

عندما يسير الإنسان في طريقٍ مسدود ، أو طريق مهلِك يقول له صاحبه المشفق عليه : إلى أين أنت ذاهب ؟ هذا طريق الشقاء .

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

1 ـ الفاسق لا يؤمن :

هناك علاقةٌ ترابطيَّةٌ كما يقولون ، الفاسق لا يؤمن ، وإن لم يكن الرجل مؤمناً فلابدَّ من أن يفسق ، أي أن كلا الطرفين يكون سبباً للآخر ونتيجةً له .

(كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا)

2 ـ معنى : فَسَقُوا

معنى فسقوا أي خرجوا عن أمر الله ، كل إنسانٍ خرج عن أمر الله لن يؤمن ، لماذا ؟ لأنك إذا ناقشته سوف يدافع عن انحرافه ، لن يناقش الأمر مناقشةً موضوعيَّة ، لن يتجرَّد عن هواه ، متلبِّسٌ بالهوى ، غارقٌ في شهوته ، غارقٌ في انحرافه ، إذا ما ناقشته فسوف يدافع عن انحرافه ، هذه فكرةٌ أساسيَّة ..

(كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

3 ـ المتلبِّس بالمعصية لا يقرّ بالحقيقة :

الفاسق لا يؤمن ، لو أنَّ إنساناً تلبَّس بالربا ، وحضر مجلس علمٍ ذُكِرَ فيه الربا وتحريمه قد يقول : هذا الأستاذ لا يعرف الحقيقة ، الربا الآن لابدَّ منه ، لماذا يرفض هذا المستمع هذه الحقيقة ؟ لأنه متلبِّسٌ بها.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : من الآية 50)

لذلك :

(كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

أي أنه من القوانين الثابتة ، من سنن الله في خلقه أن العاصي لا يؤمن ، والمنحرف فاسق ، وأن الذي لا يؤمن لابدَّ من أن يحمله عدم إيمانه على الفسق ، والعلماء قالوا : " بين الفسق والإيمان علاقةٌ ترابطيَّة " ، أي أن الفسق يؤدِّي إلى عدم الإيمان ، وعدم الإيمان يؤدي إلى الفسق ، فحيثما تلبَّس الإنسان بإحدى الخصلتين قادته إلى الثانية ، فإذا كان فيه فسق تجده يردُّ الحق ، إذا كان يؤثر الاختلاط في المجالس ، وذكرت له أن الاختلاط حرام يقول لك : لا هذا كلامٌ غير صحيح .. رجل متلبِّسٌ بشرب

الخمر فتعلَّق بكلمةٍ موضوعةٍ في الإنجيل " أن قليلاً منه ينعش الروح " ، وتعلَّق بآيةٍ زعم أن الله عندما قال :

(فَاجْتَنِبُوهُ)

أن الخمر ليست حراماً ، ولو كانت حراماً حسب زعمه لقال سبحانه : حُرِّم عليكم ، لماذا يردُّ الحق ؟ لماذا يتعلَّق بالباطل ؟ لأنَّه متلبِّسٌ بشرب الخمر ..

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

4 ـ لمعرفة الحقيقة لابد من التجرد من الهوى :

لن تستطيع أن تعرف الحق إلا إذا تجرَّدت عن هواك ، إذا تجرَّدت عن الهوى فهذا ثمن الحقيقة ، ثمن الحقيقة كي تعرفها أن تكون حيادياً ، أن تقبل الحق ولو كان على نفسك ، هذا الذي يأتي إلى مجلس العلم ، ويصغي للحق ، وإذا ذكر في مجلس العلم شيءٌ يدينه فإنه يقول : أنا مقصِّرٌ فيه : والله الحق عليَّ ، إن شاء الله سأتوب من هذا الذنب ، إذاً : هذا صادق ، وهذا مؤهَّل أن يعرف الحقيقة ، ثمن الحقيقة التجرُّد عن الهوى ، أما من كان متلبِّساً بهواه فلن يؤمن ، بل يكابر ..

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

فكل واحد منَّا يحاسب نفسه ، لو كان متلبِّساً بمعصية ، وحضر جلسة معيَّنة من جلسات العلم والإيمان، ورأى نفسه يرد الحق فليعرف السبب ، فتلبُّسه بهذه المعصية حمله على ردِّ الحق ، ولو أنه لم يؤمن ، واكتفى بالاعتقاد ، وحضر مجلس العلم ولم يَعِ ما يُقال فيه ، ولم يتبنّ ما يُقال فيه ، ولم يفكَّر ، ولم يدقِّق، ولم يحقِّق ، ولم يبحث بحثاً ذاتياً ، هذا التقليد الأعمى لابدَّ من أن يحمله على الفسق .

إذاً : هذه آيةٌ خطيرة من أمَّهات الآيات :

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

علاقةٌ ترابطيَّة ، الفسق سبب عدم الإيمان ، وعدم الإيمان سبب الفسق ، وحيثما تلبَّس الإنسان بإحداهما قادته إلى الأخرى .

الآن :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

1 ـ الله وحده بدأ الخلقَ :

قلنا في الدرس الماضي : إن الله سبحانه وتعالى بدأ الخلق ، أي أنه خلق الأرض ، وخلق السماوات ، وخلق المجرَّات ، وخلق الشمس والقمر، وخلق الإنسان ، وخلق الحيوان ، وخلق النبات ، حينما بدأ الخلق تجسَّدت عظمته في الخلق ، تجسَّد علمه في الخلق ، حينما بدأ الخلق ظهرت أسماؤه الحسنى من خلال الخلق ، ظهر عطفه ، ورحمته ، وجماله ، وعلمه ، وقدرته ، وغناه ، لكن :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

2 ـ إعادة الخلق لإظهار عدل الله تعالى :

لماذا يعيد الله الخلق مرَّةً ثانية ؟ لتظهر عدالته ، نحن في دار عمل وسوف نأتي إلى دار جزاء ..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت : من الآية 40)

افعل ما شئت ، كلُّه مسجَّلٌ عليك ، كل من أموال الناس ما شئت أو ترفَّع عنها ، انظر إلى الحرام ما شئت أو غُضَّ بصرك ، قل الصدق أو اكذب ، افعل ما شئت ، كلُّه مسجَّلٌ عليك ، أنت في دار عمل ، وسوف تَرِدُ دار الحساب والشقاء ، وسوف ترد دار الجزاء ، لذلك قالوا : " الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف " ، تشريف للمؤمن ، ودار عذابٍ لغير المؤمن..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت : من الآية 40)

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

بدأه وسوف يعيده ، بدأه وتجلَّت من خلاله أسماؤه الحسنى ، وسوف يعيده ليتجلَّى عدله المُطْلَق ، في الدنيا تجد فقيراً وتجد غنياً ، هناك قوي وهناك ضعيف ، فيها صحيح وفيها مريض ، تجد إنساناً له زوجة مطيعة ، وتجد إنساناً له زوجة مشاكسة ، إذا انتهت الحياة بالموت ، ولا شيء بعد الموت يقول هذا الفقير : يا رب لماذا خلقتني فقيراً ؟ ولماذا أغنيت فلانًا ؟ ما ذنبي ؟ وما ميزته ؟ ويقول هذا الضعيف : لماذا خلقتني ضعيفاً ؟

(يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

نحن في دار امتحان ، نحن في دار ابتلاء :

((إنَّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، من عرفها لم يفرح لرخاء ـ لأنه مؤقَّت ـ ولم يحزن لشقاء))

[ورد في الأثر]

لأنه مؤقَّت .

إذا دخل إنسان إلى بيت فخم جداً ربع ساعة ، هل يشعر أن هذا البيت له ؟ لا ، إنه جميل ، ولكن ليس له ، نحن في دارٍ مؤقَّتة ، نحن مثلنا كمثل راكب ناقةٍ جلس في ظل شجرةٍ فاستراح قليلاً ، ثم عاد وركب .. ومشَى .. كن في الدنيا كأنَّك مسافر أو عابر سبيل ، كن في الدنيا كأنك غريب .

إذاً : إعادة الخلق من أجل تحقيق العدالة ..

((ألا يا ربَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة ، ألا يا ربَّ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة ، ألا يا ربَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين ، ألا يا ربَّ مهيناً لنفسه وهو لها مكرم))

[ورد في الأثر]

وكما قال الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه : << الغنى والفقر بعد العرض على الله >> .

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 24)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

إذاً : الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، بدأه ، وعرفنا من خلال بدئه أسماءَه الحسنى ، وسوف يعيده ، وسيتحقَّق من إعادة الخلق عدالته المطلقة .

ثم يقول الله عزَّ وجل :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ

1 - الله خَلَق وهدى :

اتضح من الآيتين أن الله سبحانه وتعالى في أكثر من آية في القرآن الكريم بيَّن أنه :

(خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3))

(سورة الأعلى)

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8))

(سورة الشمس)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة فاطر : من الآية 1)

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ)

(سورة الفرقان : من الآية 1)

فكأن الذي ظهر أن هذا القرآن الكريم يعدل الكون ..

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(77))

(سورة الواقعة)

صار عندنا كما قال بعض المصلحين : " إن لله في خلقه كتابين الكون والقرآن " ، الله سبحانه وتعالى خلق وهدى ..

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى(49)قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى(50))

(سورة طه)

مرَّ معي في بعض الأبحاث أن سمكاً اسمه سمك السلمون ، يتوالد في أعالي الأنهار في أمريكا الشماليَّة والجنوبيَّة ، وينتقل برحلةٍ شاقَّةٍ شاقة إلى المحيط الأطلسي ، إلى سواحل فرنسا ، ثم يعود أدراجه إلى مسقط رأسه هناك ، وضع مركزُ بحوث لبعض الأسماك أو لأعدادٍ وفيرة منها قِطعاً معدنيَّة مسجل عليها تاريخ اليوم والشهر والسنة ، هذه الأسماك بعد أشهر عادت إلى مسقط رأسها ، الشيء الذي يُحَيِّر العقل أن هذه الأسماك وهي في المحيط الأطلسي كيف عرفت طريق العودة إلى مسقط رأسها ؟ لو أنها انحرفت درجة واحدة لجاءت في مصبِّ نهرٍ آخر ، لو أنَّها انحرفت درجتين لجاءت في أمريكا الجنوبيَّة بدل الشماليَّة ، هل معها بوصلة ؟ معها خرائط ؟ معها إحداثيَّات ؟ هل معها اتصال لاسلكي مع مراكب للتوجيه البحري ؟ كيف عرفت طريقها ؟ بعض العلماء أخذوا بعض الأسماك ، وحملوها إلى مصبِّ بعض الأنهار في أوروبا وهي صغيرة ، حينما كبرت سارت إلى الأطلسي ، وعادت إلى أمريكا ، لا يزال هذا سرّاً ، ما الذي يسيِّر هذه السمكة ؟ شيء يعجز عن تفسيره وتعليله

علماء البحار ، يعجز عنه المتخصِّصون ، يعجز عنه ربابنة السفن ، وأنت على سواحل فرنسا تشاهدها تتجه تحت البحر لا ترى شيئاً ، تتجه إلى مصبِّ الأمازون وتبلغ غايتها ؟!! هذا من هداية الله عزَّ وجل، هذه الظاهرة لا تُفَسَّر إلا بالقرآن ..

(الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى(50))

(سورة طه)

الحيوان هداه إلى طعامه ، هداه إلى شرابه ، هداه إلى دوائه ، قد يُصاب الحيوان بمرض ، يذهب إلى البستان يبحث عن حشيشةٍ بعينها فيأكلها فيشفى ، هداه إلى طعامه ، هداه إلى شرابه ، هداه إلى طريقة توالده ، هداه إلى أنثاه ، هداه إلى كل شيء ، لكن الإنسان أعطاه الفكر وبالفكر ارتقى الإنسان ، وهدى الله الإنسان إليه ليعرفه فيعبده ، الحيوان هداه إلى طعامه وشرابه ، لكن الإنسان هداه إليه عن طريق ماذا ؟ عن طريق الكون ، ثم عن طريق ماذا ؟ عن طريق الأنبياء ، وعن طريق الكتب ، وعن طريق ورثة الأنبياء .. الدعاة إلى الله .. وعن طريق المصائب ، وعن طريق الضيق ، وعن طريق الغنى ، وعن طريق الفقر ، وعن طريق المرض ، وعن طريق الصحَّة ..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

والله شديد المحال ، إذاً :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ(34)قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى)

أي أن هذا الصنم الذي لا يستطيع الحركة من تلقاء نفسه أهذا يهديكم .

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

2 ـ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

خطر في بالي أن طالباً علاماته لا تؤهله لدراسة الطب في جامعة دمشق ، ولكن تؤهله ليدرس في حلب أو هندسة في جامعة دمشق فيحتار ، يقيم موازنات ، طب أم هندسة ؟ هما قريبان من بعضهما ، الطب أرقى ، لكن في حلب ، يجب أن يستأجر غرفة ، أن يأكل وحده ، تثقله أعباء المعيشة ، فالمصروف كبير ، لكن لو أن أحداً خيَّروه بين أن يكون طبيباً ويكون بمهنة دنيا جداً ، تأخذ مليون ليرة أم تأخذ مليون ضربة ؟ هذه لا تحتاج إلى وقفة ؟ تأخذ مليون ليرة ذهبيَّة أم مليون ضربة ؟ هذا ليس بخيار ، هذا شيء بديهي أن يأخذ المليون ليرة ، فالخيار إذاً بين الإيمان وعدم الإيمان ، أي بين السعادة

والشقاء ، بين الخلود في الجنَّة ونعيمها وبين الخلود في النار وجحيمها ، بين أن تكون مهتدياً وبين أن تكون ضالاً ، بين أن تكون مستبصراً بين أن تكون ضائعاً وتائهاً ، بين أن تكون مطمئناً و بين أن تكون خائفاً ، بين أن تكون عزيزاً و بين أن تكون ذليلاً ، بين أن تكون موفَّقاً وبين أن تكون الأمور كلها مُعَسَّرة ، بين أن يحبَّك الله وبين أن تسقط من عين الله ، لا نسبة بين هذا كله ولا مقارنة ..

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

كيف تجحد نعَمَ الله عليك ؟!

كيف يقدر الإنسان أن ينام وهو على معصية ؟ كيف يعصي الإله خالق الكون ؟ " لا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر على من اجترأت " ، كيف تجحد فضل الله عزَّ وجل ؟ ..

((إني والإنس والجنُّ في نبأٍ عظيم ، أخلق ويُعْبَد غيري ! وأرزق ويُشكر سواي))

[ورد في الأثر]

كيف تجحد هذه النعم ؟ نعمة البصر هل عرفت من خلق البصر ؟ من خلق السمع ؟ من خلق الشم ؟ من خلق هذه الربع مليون شعرة في رأسك ، لكل شعرة وريد وشريان ، وعصب وعضلة ، وغدَّة دهنيَّة، وغدَّة صبغيَّة ؟ هل تعرف من خلق في أنفك عشرة ملايين عصب شمّي ؟ هل تعرف من شقَّ هذه العين وجعل في شبكيَّتها مائة وثلاثين مخروطاً ؟ هل عرفت من خلق هذه الأذن ؟ خلق أذنين لتعرف مصدر الصوت من الصيوان ، إلى القناة الأذنيَّة ، إلى غشاء الطبل ، إلى الأذن الوسطى ، إلى الداخليَّة ، إلى قنوات التوازن ؟ من خلق العظام وأعطاها حداً في نموها تقف عنده ؟ لو أن الأسنان تنمو بازدياد ماذا يحدث ؟ هو القابض والباسط ، أعطى هذه الأسنان نمواً ، ثم أوقفها عند حدِّها ، أعطى هذه العظام نمواً ، ثم أوقفها عند حدِّها ، من أمر العظام أن تقف عن النمو ؟ بعض الأطبَّاء قال لي : كأن هناك خطاً وهمياً مرسوماً في الفضاء ، إذا وصل العظم إليه يقف عن النمو ، شيء مضحك والله ، خط وهمي مرسوم في الفراغ إذا وصل نمو العظم إليه توقَّف عن متابعة النمو ، لا هذا غلط ، الصواب هو القابض والباسط ، الجامع والمانع ، ولتقل : إنها الحكمة في الخلق ، فإذا تأمَّل الإنسان في هذا الكون يرى :

في كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد

والله كل شيء كأنه ينطق ويقول : أنا دليلٌ على عظمة الله ، من طعامك ، إلى شرابك ، إلى ابنك ، إلى كأس الماء ، إلى كأس الحليب، إلى الجبل ، إلى البحر ، إلى السمك ، إلى الطير ..

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحد

فالله سبحانه وتعالى بقدر ما هو خالق عظيم بقدر ما هو هادٍ حكيم ، هداك في كل شيء ..

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

أي إذا كنت محتاراً أتدخل كلية الطب أم كاية الهندسة فأنت على حق ، الطب في حلب والهندسة في دمشق ، أي أن هناك وجهة نظر ، أنت محتار لا بين أن تفتح محل أقمشة أم ملبوسات جاهزة ، لكن تأخذ مليونا أو تُضرَب مليون ضربة ، فمن غير المعقول أن تقول : والله أنا محتاج أن أفكّر قليلاً ، أتركوني لأفكّر ، إذا قال لك واحد : هذا البيت بمائة ألف ، وثمنه الحقيقي ثلاثمائة ألف ، هل تقول : والله اتركني أفكر يومين ، أم تقول فوراً : أنا اشتريت ، أين الدلال ؟ قم واكتب العقد ؟ معي الآن دفعة أولى ، وإذا كنت تحب فالنقود جاهزة عندي في المكتب ، إذا رأيت البيت فرصة فإنك تسارع ولا تقول: اتركها لي يومين ، لا تتكلّم أبداً ، بل تبادر لإنفاذ عملية البيع..

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

كيف الإنسان راضي بالدنيا .

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ)

(سورة التوبة : من الآية 38)

هل تقبلون بهذه ؟ شاب أبوه ملك قال له : يا ابني اطلب وتمنَّى ، فقال له : أريد محَّاية حبر، فقط ؟ طلب الدنيا واكتفى بها ، لو طلب يختاً سيعطيه ، لو طلب أكبر قصر سيعطيه إياه ، ولكنَّه طلب محاية ، أو قلمًا ، أكثر لا يريد .. إنه حمق ، وغباء وضلال .

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(35)وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا

كل مَن يعتمد على الظن لا يفلح :

أي أن معظم الناس عقائدهم ظن ، تصوراتهم ظن ، منطلقاتهم ظن ، أهدافهم ظن ، أي أنه يتوهَّم السعادة بالمال هذا ظن ، المال لا يُسعِد ، يتوهِّمها بالنساء ، النساء لا تُسعِد ، يتوهِّمها بالبيت الفخم ، ربَّ كوخٍ حقير صاحبه أسعد الورى ، اللهمَّ صلِّ عليه كان إذا صلَّى قيام الليل ، وحان السجود نقلت السيدة عائشة رجليها جانباً أو ضمتهما إلى جسدها ، لأن الغرفة لا تتسع لنومها وصلاته ، ودخل عليه عديُّ بن حاتم فتناول اللهمَّ صلِّ عليه وسادةٍ من أدمٍ محشوَّةً ليفاً ، و قال لعدي ابن حاتم : " اجلس على هذه " ، قال عدي للنبي : " بل أنت تجلس " ، قال عليه الصلاة والسلام : "بل أنت " ، قال عدي : "

فجلست عليها ، وجلس رسول الله على الأرض " ، ليس عنده في بيته غير وسادة واحدة ، ومع ذلك كان سيّد الخلق وحبيب الحق ، الله عزَّ وجل ما أقسم بحياة أحد من الأنبياء إلا بحياته صلى الله عليه وسلم ، قال له :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72))

(سورة الحجر)

قال له :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

لا يعرف الحقيقة إلا مَن ذاقها :

سيدنا الصدِّيق .. جاء سيدنا جبريل وقال للنبي عليه الصلاة والسلام : قل لصاحبك : إن الله راضٍ عليه فهل هو راضٍ عن الله ؟ " ، سيدنا الصديق لم يتحمَّل الكلمة .. مجالات الإيمان لا يعرفها إلا من ذاقها ، الإنسان أحياناً يقيم علاقة مع إنسان من طينته ، إنسان يفنى يعتز بهذه العلاقة ..

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزَّك ميّتُ

عندما يصير للإنسان وجهة إلى الله عزَّ وجل تحدث له صلة حقيقيَّة ، إقبال حقيقي ..

لا يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول

***

هذا مثل من يقول لآخر : صف لنا طعم العسل ، فيجيبه أنه من الصعب والله ، إذا ذقه فقط فستعرفه فمن ذاق عرف ، استقم استقامة تامَّة ، وقدِّم أعمالاً صالحة لوجه الله عزَّ وجل خالصة من كل شائبة ، ثم تعال وقل لي ماذا حدث لك ، تعال وقل لي أي سعادة عشت ؟ وإلى أي مدى اطمأننت ؟ وكيف نزَّل الله على قلبك السكينة ؟ وكيف يسَّر لك الأمور ؟ وكيف أصبح لك بيتك ؟ وكيف أصلح لك جسدك ؟ وكيف أصلح لك معيشتك ؟ وكيف أكرمك في الدنيا قبل الآخرة ؟

" كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك " .

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا)

بعضهم يعتقد أن المسرحيَّة .. مثلاً .. تهذِّب النفوس ، هذا ظن ، وآخر يعتقد أن الاختلاط يهذِّب المشاعر ، وثالث يعتقد أن الموت نهاية الحياة لا بعث بعده ، ولا أي شيء آخر ، هناك من يعتقد أن المال هو السعادة ، وأن الدراهم مراهم .. وكل إنسان يتصوِّر فكرة متوهماً إيَّاها أنها حقيقة وهو يظنها ظناً ، هذه مصيبة كبيرة ، وإذا كان الإنسان على وشك الموت عطشاً ، وتوهَّم الماء بجهة معيَّنة ،

وذهب إلى هذا المكان فما لبث أن مات هناك عطشاً لأنه لم يجد ماء ، بين أن تكون متأكّداً من وجود الماء وبين أن تكون واهماً قضية موت أو حياة ، إذا بقي في حياته ربع ساعة ، وقالوا له : في هذه الجهة يوجد ماء ، لكنه ليس متأكّداً وجود الماء ، هل يستهلك هذه الربع ساعة في مسير إلى مكان غير مؤكّد ؟ يكون قد غامر بحياته ، لكن إذا كان متأكّداً من وجود ماء ، وذهب إليه فهو على حق عندئذٍ ، وسينجو بحياته ..

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

فأحياناً الطالب يتوهَّم إذا قيل له : إن الأستاذ الفلاني يعطي الأسئلة ، ولكن ليس الآن ، بل قبل الامتحان بأسبوع ، فإنه لا يدرس أبداً ، هل هذه الفكرة صحيحة ؟ لو أنها كانت صحيحة لقبلنا بها ، أما إذا كانت غير صحيحة ولا تصدق ، ثم يمضي السنة كلها باللعب والتسلية ، وكان مقبلاً على فحص بكالوريا ، وفيها يتحقق مصيره ، وقبل الامتحان بأسبوع طرق الباب فطُرد ، أليس قد غامر بمستقبله ؟ لأنه ربط مصيره بظن ، لأن طالبًا قال له : الأستاذ يعطيه الأسئلة ، إذا كان قد قال لك ذلك بفمه فهذا بحث آخر ، لكن هذا ظن ..

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا)

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

هذا ظن ، هذه دعوى ..

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة : من الآية 18)

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ(80))

(سورة البقرة)

كذلك هذا ظن ، يقول بعضهم لبعض افعل ما شئت فالنبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لك ، فهل هكذا تفهم الشفاعة ؟ هذا فهم خاطئ للشفاعة ، الشفاعة حق ، ولكن لها معنى أرقى من هذا ، لا يشفع النبي لمن ترك الحق ، وأدار ظهره له ، لكن من تبع سنَّته يشفع له .

شاب دخل الجامعة يقدِّمون له كتباً وطعاماً وشراباً ، ومكتبات ، وكل ما يحتاجه ، ويعينه على الدراسة، إلا أن هذا الطالب في نهاية العام مطالب بأداء الامتحان ..

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(36)وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ

1 ـ وَمَا كَانَ :

أولاً : كلمة ما كان دقيقة جداً ، أنت تقول مثلاً : الحديد لم يصدأ ، عندك قطعة حديد تأمَّلتها لم تصدأ ، لكن الصدأ من خصائص الحديد ، تقول : لم تصدأ ، لكنك إذا أمسكت قطعة ذهب فماذا تقول ؟ ما كان لها أن تصدأ ، هناك فرق بين أن تقول : لم تصدأ ، وبين ما كان لها أن تصدأ لأن من طبيعة الحديد الصدأ ، ولظروفٍ خاصَّة كانت في مكانٍ جاف لم تصدأ ، أما الذهب ما كان له أن يصدأ ، ليس من شأنه الصدأ ، ليس من خصائصه الصدأ ، لذلك قالوا : هذه العبارة حيثما وردت في كتاب الله فإنها تنفي الشأن لا تنفي الحدث ، تقول على إنسان : لم يسرق ، أما إذا كان إنسان من عليَّة القوم فتقول : ما كان له أن يسرق ..

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 33)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت : من الآية 40)

لا تنفي الحدث ، ولكن تنفي الشأن ، أي أنَّ أبلغ أنواع النفي في كتاب الله صيغة ما كان ، لأنها تنفي الإرادة ، والاستعداد ، والإمكانيَّة ، والشأن ، والرغبة ، والحدث ...

مثلاً : شخص يحمل دكتوراه في الرياضيات فقلت له : اثنين ضرب ثلاثة ؟ فسكت ، فقلت عنه : لأنه لا يعرف ، نقول لك : ما كان له أن يجهل هذه الحقيقة ، لكنَّ سكوته له معنى ، لا يعرفها ، وهو يحمل دكتوراه بالرياضيات ؟ لا تقل : لم يعرف ، بل قل : ما كان له إلا أن يعرف .. فربنا عزَّ وجل قال :

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)

2 ـ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ

مثلٌ تقريبي ، ولله المثل الأعلى :

في الأسبوع الماضي بحثت عن مثل يوضِّح هذه الفكرة وهو : لو فرضنا أن واحداً لم يرَ طائرة في حياته ولا صورتها ، ولا ركب فيها ، ولا يعرف شيئاً عن إمكانيَّاتها أبداً ، لكنه رأى طفلاً قد صنع طائرة من ورق ، وسحبها في الهواء ، دخل هذا إلى محل حدادة مترين في مترين ، قال له صاحب

المحل : هذه الطائرة الحديثة الفلانية ، التي تتسع لستمائة راكب ، أنا أصنعها في هذا المحل ، مادام هذا الإنسان لم ير الطائرة يصدِّق ، لكن لو ركب الطائرة ، ورأى حجمها ، ورأى أن علم البشريَّة كله مجموع فيها ، ستمائة راكب في طائرة ، وطعام وشراب ، وهيدروليك ، وأجهزة ، ورادارات ، شيء عجيب في الطائرة ، هل يمكن لإنسان ركب طائرةً كبيرةً نفَّاثةً من أحدث الطائرات أن يصدِّق أنها صنعت في محل متواضع في أحد أسواق دمشق ؟ مستحيل ، لو عرفت الطائرة ما صدَّقت هذا الكلام ـ هذا المثل تقريبي .

3 ـ لا يمكن أن يكون القرآن من كلام البشر :

لو أننا قرأنا هذا القرآن ، وعرفنا ما فيه من تشريعٍ اجتماعي ، ما فيه من حقائق ، ما فيه من ذكرٍ للأولين ، ما فيه من ذكر ليوم القيامة ، ما فيه من نظام الطلاق ، من نظام الميراث ، من نظام الزواج ، من نظام البيوع ، ما فيه من حقائق ، من مشاهد ، من تاريخ ، ما فيه من طُرُق توصل إلى الله عزَّ وجل ، ما فيه من سُنَن ، لو عرفت مضمونه تقول : لا يمكن لبشرٍ كائناً من كان أن يأتي بمثله ، إذا ركبت الطائرة ترفض هذه المقولة ، فإذا لم تركبها ، ولم ترها ، ولم تسمع بها ، وقيل لك : إن هذا القرآن من صنع محمد لأنه كان عبقرياً فذّاً ، كان ذكياً جمع العرب بهذا القرآن ، إن لم تقرأه قد تقول : هذا الكلام صحيح ، أما إذا قرأته وفهمت آياته تقول : هذا ليس من صنع بشر..

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)

انظر إلى كلمة من دون الله هل تعلم أن الكون كلَّه من دون الله ؟ دع عنك الجمادات ، ودع عنك الحيوانات لا تعقل ، والنباتات ، بقي الإنس والجن ..

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)

4 ـ الإعجاز العلمي والبلاغي دليل أن القرآن كلام الله :

مستحيل ، لو أننا قرأناه .. فالعنكبوت التي تنسج البيت هي أنثى العنكبوت .. النبي الكريم اللهمَّ صلي عليه هل درس علم الحيوان ، وعرف أن العنكبوت ذكر وأنثى ، والأنثى هي التي تنسج البيت ؟ لا أعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم عرف أو درس ، الله عزَّ وجل هو الذي عنده علم ما خلق فقال :

(كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا)

(سورة العنكبوت : من الآية 41)

الله عزَّ وجل حينما ذكر العنكبوت استعمل تاء التأنيث ، معنى هذا أن من ينسج بيت العنكبوت هي الأنثى ، لنأخذ الحوت .

قال لي بعض الإخوة : إن المريء في الحوت على عِظَم الحوت لا يتَّسع لمرور الإنسان لأنه ضيق ، ربنا عزَّ وجل قال :

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ)

(سورة الصافات : من الآية 142)

لم يقل : فابتلعه ، أي بقي سيدنا يونس لقمةً في فمه ، ولم يصل إلى جوفه ، النبي الكريم شرَّح الحوت؟ رأى الجهاز الهضمي للحوت ؟ عرف ضيق المريء ؟ هذا كلام الله ، إذا صعد الإنسان في الفضاء الخارجي يشعر بضيق النفس ، وهذا جاء في كتاب الله ، أي أن هذا القرآن كتاب أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألف وأربعمائة عام ، والعلم تقدَّم تقدُّماً مذهلاً ، حتى هذه الساعة لم يحدث أن اكتشف العلماء حقيقةً تناقضت مع كتاب الله ، هذا مما يؤكِّد أنه من عند الله ، من عند خالق الكون ..

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ)

مستحيل ..

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الرحمن : من الآية 33)

لماذا بدأ الله بالجن ؟

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ)

(سورة الإسراء : من الآية 88)

لماذا بدأ بالإنس ؟ لأن هذا كلام رب ، قيل : لأن الإنس أقدر على البيان من الجن ، والجن أقدر على خرق السماوات من الإنس ..

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)

(سورة النور: من الآية 2)

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ)

(سورة المائدة : من الآية 38)

لماذا بدأ هنا بالزانية ؟ قال : لأنها أقدر على الزنا من الزاني ، ولماذا بدأ هنا بالسارق ؟ لأنه أقدر على السرقة من السارقة ، فالرجل أقدر من المرأة في مجال السرقة ، فقدم السارق ، بينما الزنا المرأة أقدر عليه من الرجل ، لذا قدم الزانية ..

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 24)

ربنا عزَّ وجل ذكر الأقرباء في هذه الآية لكنَّه بدأها بالأب ، وفي موطنٍ آخر قال :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

(سورة آل عمران : من الآية 14)

بدأ بالنساء ، وفي موطنٍ ثالث :

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(34)وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ(35))

(سورة عبس)

بدأ بالأخ ، وفي موطنٍ رابع بدأ بالابن :

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(11))

(سورة المعارج)

بدأ بالابن ، هذا كلام الله ، في كل موطن قدَّم الله سبحانه وتعالى الشيء المهم ، في موطن اعتزاز الإنسان الاجتماعي قدَّم الأب ..

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 24)

في موطن الشهوة قدَّم المرأة ..

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ)

(سورة آل عمران : من الآية 14)

في موطن الاستنجاد قدَّم الأخ ، لأن الأب كبير والابن صغير ، أقرب إنسان إليك أخوك ، في موطن الفدية أغلى شيء الابن قدَّم الابن ، هذا كلام الله ،

في ثمانية عشر آية قدَّم الله سبحانه وتعالى السمع على البصر ، لأن العلم اكتشف أن استجابة السمع قبل استجابة البصر ، أي أن الجنين يستجيب للصوت وهو في بطن أمِّه ، لكن الطفل المولود حديثاً لا يستجيب للضوء إلا بعد أيَّامٍ ثلاثة .

(أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ)

(سورة المؤمنون : من الآية 78)

إلا في آيةٍ واحدة عبَّرت عن أن سرعة الضوء أكثر من سرعة الصوت ..

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)

(سورة السجدة : من الآية 12)

هنا قدّم البصر على السمع ، وفي ثمانية مواطن قدَّم الله بذل المال على بذل النفس ، لأنه أيسر ، وبذل المال أهون من بذل النفس ، وفي آيةٍ واحدة قدَّم الله بذل النفس على بذل المال ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

(سورة الصف)

في ثمانية مواطن قدَّم المال على النفس ، وفي موطنٍ واحد ..

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 111)

في موطن البيع القطعي قدَّم الأهمَّ على المهم ، في القرآن الكريم ذُكِرت كلمة(اليوم) ثلاثمائة وخمساً وستين مرَّة ، وذُكر الشهر اثنتا عشرة مرَّة ، هل هذا صدفة ؟ آيات الجنَّة تعادل في عددها آيات النار ، آيات الدنيا تساوي آيات الآخرة ، آيات الملائكة تساوي آيات الشياطين ، شيء عجيب ، ففي القرآن يوجد إعجاز حسابي ، وفيه إعجاز رياضي ، و إعجاز بلاغي ، وفيه إعجاز تشريعي ، و إعجاز علمي، ما من حقيقةٍ علميّةٍ إلا وذكر القرآن أصولها ، لم يتطرَّق للتفصيلات لأنه كتاب هدايةٍ وإرشاد ، لكن اكتفى بذكر أصول العلم ..

إن أصول العلاقة الزوجيَّة مذكورة في القرآن ، فقد ذكر الله عزَّ وجل أن الزوجة من آيات الله ، ووصَّى الزوج ، وجعل القِوامة للأزواج لسببين : أنه أنضج منها عقلاً وأفقاً وفكراً وإرادةً وتصميماً وخُلُقاً ، ولأنه أنفق من ماله ، لكنَّه خاف من الشطط فقال الله عزَّ وجل :

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

(سورة البقرة : من الآية 228)

درجة واحدة ، أي ينبغي أن يكون الرجل فوق المرأة بدرجة واحدة ، فأصول العلاقة الزوجية الصحيحة مبثوثة في القرآن ، وكذا أصول البيع والشراء ..

(إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

(سورة النساء : من الآية 29)

إذا كان هذا المشتري يعرف أن هذا البائع مستحكم ، وأخذ منه بالمائة ثلاثمائة ربحا فهذا الشاري أهو راضٍ ؟ يقول لك البائع في معرض مناقشته في تلك الصفقة : هو قبل ، يعني الشاري ، نعم هو قَبِلَ مضطراً ، هذا اسمه استغلال ، لو كُشِفَ رأس المال للشاري هل يرضى ؟ ومن مقياس البيع الشرعي الرضا .

(إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً)

(سورة البقرة : من الآية 282)

(إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ)

(سورة النساء : من الآية 29)

لو دقّقت في كتاب الله تجد أن فيه نواحي تربويَّة ، فيه كنايات لطيفة جداً ، علّمنا الأدب في التعبير ، كما أنه فيه نواحي أخلاقيَّة أرشدنا إليها ..

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)

(سورة ص : من الآية 44)

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(30))

(سورة ص)

إن في القرآن نواحي تشريعيَّة ، ونواحي شخصيَّة ، علاقات زوجيَّة ، علاقة الآباء بالأبناء ، لو دقّقت في القرآن الكريم لرأيته تناول كل شيء ، لأن الله سبحانه وتعالى جعله دستوراً للبشر .

إذاً :

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

المعنى الأول : بشارة عيسى بالنبي صلى الله عليه وسلم :

بشّر كل من سيدنا موسى وسيدنا عيسى بالنبي محمد ، وورد في التوراة والإنجيل ذكر النبي عليه الصلاة والسلام .

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

(سورة الصف : من الآية 6)

فجاء النبي عليه الصلاة والسلام ، فكان مجيئه تصديقاً لما جاء في التوراة والإنجيل ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : القرآن يؤكّد ما في الإنجيل والتوراة :

ولكن تصديق الكتاب ، المعنى الثاني هو أن ما جاء في القرآن يؤكّد ما جاء في الإنجيل والتوراة ، لأن الكتب السماويَّة الثلاثة من عند الله ، إلهٌ واحد ، والتشريع واحد ، لكن إذا وجدنا في القرآن الكريم تفصيلات لم تَرِد في التوراة والإنجيل فهذا مما ذكره الله عزَّ وجل من حكمته ، أي بحسب تطور

ظروف الحياة ، بحسب ظهور مشكلات لم تكن ظاهرة من قبل ، فجاء التشريع مقتضباً مرَّةً ، ومفصَّلاً مرَّةً أخرى ..

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

فالقرآن صدَّق ما جاء به الأنبياء السابقون ، ومجيئه تصديقٌ لما في كتبهم ، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام يصدِّق أن هذا الكلام من عند الله ، أي أنه قمَّةٌ في الكمال .. فقد قال سيدنا جعفر للنجاشي : " أيها الملك كنَّا قوماً أهل جاهليَّة نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منَّا الضعيف .. هذه الجاهليَّة قبل الإسلام .. حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف نسبه ، فهو من نسل إبراهيم .. إذاً : نعرف نسبه ، وأمانته ، وصدقه ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحِّده ، ونخلع ما يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وقول الحق، فعدَى علينا قومنا ليعذِّبونا .. " إذاً :

(وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)

بعضهم قال : " الكتاب إذا ذُكرت تعني الكتب السماوية كلها ، فما جاء في الكتب السابقة مختصراً جاء في القرآن مفصَّلاً ..

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

لا ريب فيه أي لا شكَّ فيه لأنه من الله عزَّ وجل ، وأنه فيه الكمال المطلق ، لا يأتيه الباطل ، لا يوجد كتاب من صنع إنسان إلا وفيه غلط ، قد يكون صغيراً أو كبيراً لكن الكتاب الذي لا ريب فيه هو القرآن الكريم ..

(مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(37)أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ

أنتم تقولون : إن محمداً صلى الله عليه وسلَّم افترى هذا القرآن على الله سبحانه ، الله سبحانه وتعالى يتحدَّاهم أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من عندهم تضاهي هذا الكتاب .

الآية الثانية التي لها علاقة بهذه الآية :

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء : من الآية 88)

أي مستحيل ..

(وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أي اجمعوا كل من تستطيعون لتتعاونوا على صنع آيةٍ إنكم لن تحقّقوا هدفكم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (10-17): تفسير الآيات 39 – 41
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-11-22

بسم الله الرحمن الرحيم

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ

1 ـ من الجهل الفاضح الحُكمُ على الشيء قبل تصوُّره :

الحقيقة أن في الإنسان صفاتٍ عديدة بعضها مقبول ، وبعضها جيد ، وبعضها مرذول ، من صفات الإنسان العقلية المرذولة أن يُكَذِّبَ قبل أن يحيط بالشيء علماً ، أي أن يحكم على الشيء قبل أن يعرفه ، كيف يتم ذلك ؟ إن هناك صفات خُلُقِيَّة مذمومة ، وهناك صفات عقلية مذمومة ، من الصفات العقلية المذمومة أن تكذِّب بالشيء قبل أن تعرفه ، أن تستخف به دون أن تحيط به علماً ، أن ترُدَّهُ وأنت جاهلٌ به ، هذه صفةٌ عقليةٌ ذميمةٌ في الإنسان ، من صفات السُذَّج ، من صفات عامة الناس ، من صفات الدَهْمَاء ، من صفات المتخلّفين عقلياً ، أما أن تكذِّب بالشيء قبل أن تعرفه ، قبل أن تحيط به علماً ، قبل أن تدرك حقيقته ، قبل أن ترى أبعاده فربنا سبحانه وتعالى ذمَّ هؤلاء الذين كذَّبوا بالقرآن قبل أن يعلموه، وكم من إنسانٍ في هذا العصر لا يعرف حقيقة هذا الكتاب ، يقول : هذا الكتاب ليس لهذا العصر ، فيه غيبيات ، لو عرف أن سعادته كلها ، لو عرف أن سعادته وسعادة مجتمعه ، والإنسانية جمعاء منوطةٌ بتطبيقه لاختلف الأمر ، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

2 ـ الحقيقة إما منقولة وإما مبادَر إليها :

في هذه الآية شيئان هامان بارزان .. الشيء الأول : إن الإنسان أحياناً يبادر مبادرة ذاتية لمعرفة الحقيقة ، وأحياناً تُنْقَل إليه الحقيقة ، إذا كان قد بادرها أو نقلت إليه ، وعقلها ، وطبقها فهو في خير ، أي سواءٌ عليك أفكرت تفكيراً ذاتياً بربك وبآياته الكونية ، واستنبطت من هذه الآيات أن لك رباً عظيماً، خالقاً قديراً حكيماً ، سوف يعيد الخلق مرةً ثانية ليجزي كل إنسانٍ بما عمل ، سواءٌ عليك أبادرت أنت

لمعرفة الحقيقة أم نُقلت إليك الحقيقة ، لابدَّ من أن تعرف الحقيقة ، إما عن الطريق النظر ، وإما عن طريق السمع ، عن طريق النظر قال تعالى :

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس)

إنسان لم ينظر ، فإذا جاءه الحق عن طريق إنسان آخر ، وأسمعه إياه فقد صار هذا الحق حجةً عليه .

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 23)

فإما أن تفكِّر أنت ، وإما أن تنظر ، وإما أن تسمع ، وأما الكفار فقد وصفهم ربنا عزَّ وجل فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(6)خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(سورة البقرة)

لأن منفذي القلب هما السمع والبصر ..

(وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

(سورة البقرة)

أي أن منفذ القلب عليه غشاوة ، وهو حب الدنيا ، صار عندنا منفذان للحق : إما أن تنظر ، وإما أن تسمع ، أما هؤلاء الذين كفروا بهذا الكتاب ، كذبوا به ، ولم ينظروا في آياته ودلالاتها ، ولم ينظروا في نظامه الاجتماعي ونظامه الاقتصادي ، ولم ينظروا في تشريعاته ، ولم ينظروا في دلالاته وآياته ، ولم ينظروا في مضامينه ، ولا في إعجاز صياغته وبيانه ، ولا في إعجازه الرياضي والحسابي والدلالي ، لم ينظروا في القرآن ، وحينما نقل إليهم تفسيره الصحيح أيضاً لم ينظروا في هذا التفسير .

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

3 - بين التفسير والتأويل :

أما التأويل فإنه يختلف عن التفسير ، أحياناً تقول : الصَّبا الرياح الشرقية هذا تفسير ، ولكن التأويل إذا ورد النص فيما يعارض الواقع فعليك أن تؤول النص بما لا يخالف الواقع ، فإذا قلت : في بيتنا بحرٌ ، البحر لا يكون في البيت ، إذاً : في بيتنا رجلٌ علمه كالبحر ، فانتقلنا من الحقيقة إلى المجاز .

وكمثل على التأويل ربنا عزَّ وجل قال :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

الله عزَّ وجل منزه عن التبعيض ، ليس له شيء بعض منه ، منزَّه عن التجزيء ، لكن يد الله بمعنى قوته فوق أيديهم ، فحينما يتعارض النص مع الواقع عندئذٍ تحاول أن توفّق بينه وبين الواقع ، هذا هو التأويل ، ربنا عزَّ وجل قال :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

هذه المتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم ، لذلك أمرنا سبحانه قائلاً :

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59))

(سورة الفرقان)

ربنا عزَّ وجل قال :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

التأويل هنا أي توضيح الآيات إيضاحاً وتفسيراً ، وتوفيقاً مع الكمال الإلهي ، لو فرضنا أن أحداً قال لك : الله ضار ، طبعاً ، يضر لينفع ، يبتلي ليجزي ، يأخذ ليُعطي ، أنت أوَّلت هذا الاسم بشكلٍ يليق بكمال الله عزَّ وجل ، وإذا اكتفيت وقلت : الله يضر العباد ، فهذا فهمٌ قاصر ، الله سبحانه وتعالى يضرُّهم لينفعهم ، هذا هو التأويل ، أوَّلت الضرر لصالح العباد وبشكلٍ يتناسب مع كمال الله عزَّ وجل ، إذا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

هنا الذنب بمعنى الإحساس بالذنب ، أي إن لم تحسوا بذنوبكم لم يكن فيكم خيرٌ يرتجى ،

((لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

أي أنَّهم إذا خالفوا أدق مخالفة ، إذا وقعوا في أصغر ذنب ، اشتعلت نفوسهم فرقاً من الله عزَّ وجل ، هؤلاء ناجون ، فحينما يَرِدُ النص بشكلٍ لا يتناسب مع قائله تُؤوِّلُهُ ، هذا مذهب بعض العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل ، فهنا الآية :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

أي أن الإنسان ليس له حق أن يكذب بآية أو يأخذ بآية مكانها قبل أن يعرف تأويلها ..

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

هنا الوقف عند كلمة :

(وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

وقال تعالى أيضاً :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران : من الآية 18)

من علامات العلماء الصادقين أنهم يشهدون للناس بعدالة الله عزَّ وجل .

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران : من الآية 18)

من خلال هذا الشرح السريع تبيَّن أن معنى التأويل توجيه النص توجيهاً يليق بقائله .. فصحابي جليل يقول : " أنا أصلي بغير وضوء ، وأحب الفتنة ، وأكره اليقين ، وأفر من رحمة الله ، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء " ، قالوا له : " ما هذا يا فلان ؟! " ، فدخل سيدنا عليٌ كرم الله وجهه على أمير المؤمنين عمر ، وقال له : " يقول فلان : كذا وكذا !! " ، قال له إنه يعني : " أنه يصلي على النبي بغير وضوء ، ويحب الفتنة ، وهي المال ، لأن الله تعالى يقول :

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ)

(سورة التغابن : من الآية 15)

ويكره اليقين ، واليقين هو الموت ..

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99))

(سورة الحجر)

ويفر من رحمة الله ، يعني من المطر ، وله في الأرض زوجةٌ وولدٌ ما ليس لله في السماء " ، هذا التأويل أي أنك أولت الكلام بما يليق بصاحبه ، الكلام لا يُحْمَلُ على نَصِّهِ يحمل على قائله .

إذا قال الله سبحانه وتعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

الفتنة معناها دقيق جداً ، ويليق بكمال الله عزَّ وجل ، فالفتنة هي الامتحان وإظهار ما في النفس ، إذا قال سيدنا موسى لرب العزة :

(إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ)

(سورة الأعراف : من الآية 155)

فيجب أن تُؤول هذه الآية ، بمعنى هذا امتحانك وبلاؤك ، لتكشف الناس ، لتفرزهم ، لتميز الخبيث من الطيِّب ، هذا هو معنى الآية .

وإذا قال الله :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء)

(سورة فاطر : من الآية 8)

هذه تؤوَّل بمعنى أنه من يشاء من العباد أن يهتدي فالله عزَّ وجل يهديه ، والإنسان مخير في أن يسلك أياً من السبيلين .

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

لذلك :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

هذه آية محكمة لا تحتاج إلى تفسير ، ولا إلى تأويل ، ولا إلى كتاب تفسير ، واضحة كالشمس ، معظم آيات القرآن الكريم من هذا النوع ، إن الله لا يحب الكاذبين .

(لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُورًا(36))

(سورة النساء)

هذه آيات محكمات .

مثلاً :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(11))

(سورة الصف)

هذه آية محكمة ليس فيها شيء غامض ، لكن :

(وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة : من الآية 13)

هذه آية متشابهة ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْه)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

الله لم يشأ لي الهدى ، هذه الآية تفسَّر ، الله لا يريدني أن أهتدي..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا)

(سورة آل عمران : من الآية 7)

فالإنسان إما أن يعرف التأويل أو أن يحضُر مجالس التأويل كي يكون على بينةٍ من ربه .

مثالٌ من واقع الناس عن التأويل غير الصحيح :

البارحة كنت مع شخص قال لي : يا أخي :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة التغابن : من الآية 16)

أي ببذل الحد الأدنى من استطاعتكم ، قلت له : لا ليس كذلك بل معناها :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة التغابن : من الآية 16)

ببذل الحد الأقصى ، هو أولها على الحد الأدنى ، أي على قدر ما تستطيع ، وتأويل هذه الآية على الحد الأقصى ، والدليل الآيات الأخرى :

(اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران : من الآية 102)

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج : من الآية 78)

(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41))

(سورة الأحزاب)

هذه الآيات كلها تتناقض مع هذا التأويل الذي يطابق هوى نفسه ، أي ببذل الحد الأدنى من الاستطاعة.

إذاً التأويل أن توجِّهَ النصَّ توجيهاً يتناسب مع قائله ، يجب أن تفسِّر الانتقام كاسمٍ من أسماء الله بما يليق مع أسمائه الحسنى .

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف : من الآية 180)

فالمنتقم ، والجبَّار ، والضار ، والقابض ، هذه كلها أسماءٌ لله حسنى ، يجب أن تؤولها تأويلاً يتناسب مع عظمة الله عزَّ وجل ، ومع كمالاته اللامحدودة ، هؤلاء تسرَّعوا ، كذَّبوا بهذا القرآن قبل أن يتأملوا في آياته ، في مضامينه ، في كل ما ينطوي عليه من حقيقة ، وما ينطوي عليه من منهج رشيد .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : من الآية 9)

كذبوا ..

قال لي صديق كان يعمل بعمل إداري وزَّع بلاغاً على من دونه .. كان مدير ثانوية .. البلاغ خال من أية كلمة ، ورقة بيضاء ، وضع فوقها ورقة كتب عليها : إلى السادة المدرسين يرجى تبلغ البلاغ المُرْفَق .. يطلب التوقيع على البلاغ المرفق .. قال لي : فوجئت بأن معظمهم وقَّع ، والبلاغ المرفق

كان ورقة بيضاء ، أي أنه وَقَعَ على الورقة ، ولم يقرأ مضمونها ، هذه صفةٌ عقليةٌ ذميمة ، أن تكذِّب بالشيء قبل أن تحيط به علماً ، أو أن تصدقه قبل تحيط به علماً ، هذه صفةٌ ذميمة ، والأذم منها أن يأتيك التأويل الصحيح الذي يليق بحضرة الله عزَّ وجل وبعدها تنبذ هذا القرآن وراء ظهرك ولا توليه أي اهتمام .

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا(30))

(سورة الفرقان)

فنبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .

إذاً :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

أي لم يحيطوا علماً به ، وقبل أن يستمعوا إلى التأويل الصحيح كذبوا به .

4 ـ معنى آخر للآية : وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ

من معني التأويل وقوعُ الوعد والوعيد :

وهناك تفسيرٌ آخر لهذه الآية لا يقلّ عن الأول ، تأويل القرآن الكريم يعني وقوع وعده ووعيده ، فإذا وعد اللهُ عزَ وجل المرابيَ بحربٍ من الله ورسوله ، أي أنْ تدمَّر أمواله وتصادر فهذا تأويل هذه الآية :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : من الآية 279)

هذه آية ، متى يأتي تأويلها ؟ إذا صودر المال كله ، أو احترق ، أو تلف ، أو دمِّر ، تدمير هذا المال تأويل الآية ، إذاً : هم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، لكن تأويله لم يأتِ بعد ، هذه (لما) ، حرف جزم مثل لم ، وعندنا في علم النحو : لما ، ولام الأمر ، ولا الناهية ، حروف جزم تجزم الفعل المضارع ، و تختص لما بوضع دقيق فمثلاً إذا قلت : لم يحضر المدرس ، فهذه (لم) تنفي الفعل المضارع وتجعله ماضياً ، يُسَمّونها حرف جزمٍ ، ونفي ، وقلب ، نفت حدوث الفعل ، وجزمته ، وقلبت معناه من المضارع إلى الماضي ، لم يحضر المدرس .

أما إذا قلت : لن يحضُر المدرس فهذه (لن) تنفي المستقبل مع أنها حرف ناصب ، ولكنك إذا قلت : لما يحضر المدرس ، أي حتى هذه الساعة لم يحضر ، لكن احتمال حضوره قائم ، مثلاً الساعة التاسعة يبدأ درسه ، صار الوقت الآن التاسعة وخمس دقائق مثلاً ، لا تقل : لم يحضر ، هذا غلط باللغة ، وإذا قلت : لن يحضر أيضاً غلط ، كأنك علمت الغيب بهذه الطريقة ، لو أنه خبَّر وقال : لن أحضر هذه

الساعة تكتب للطلاب : لن يحضر المدرس لأداء الدرس هذه الساعة، لن للمستقبل ، وإذا كان عدم حضوره في الماضي تقول : لم يحضر بعد ما مضت الساعة بكاملها، والساعة انشطبت ، تكتب : لم يحضر المدرس ، يوقع الموجه ، تغيّب المدرس ، أما إذا كان تأخره لمدة خمس دقائق فلا تقل : لم يحضر ، ولا تقل : لن يحضر ، ولكن ماذا ؟ تقول : لما يحضر ، أي حتى الآن لم يحضر مع أن احتمال حضوره لا يزال قائماً .

مرابٍ قال لك : مضى علي زمن ، وأنا أرابي ، ولم يصبني شيء من ضرر ، هذه أموالي تزداد ، وآخذ فوائدها بالمائة ثمانية عشر ، أودعت مائة ألف دولار في بنك أجنبي ، فصار المبلغ الآن مائة ألف وثمانية عشر ألف دولار ، وما اعتراني ضرر ولا خطر ، وأنا مرتاح من كل هموم الحياة ، مبلغ ضخم يأتيني كل شهر ، أصرفه ، ولست مسؤولاً أمام أحد ، لا أعطي لأحد فاتورة ، ولا أريد بياناً ، ولا أريد إيضاحاً للحسابات ، نقول له :

(وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

تأويل هذه الآية ، آية الربا ، لما يأتِ بعد لكنه سوف يأتي ، أحد الناس مثلاً تجاوز حدوده في علاقته مع النساء ، قال لك : ماذا جرى ؟ نقول له : هذه الآية لما يأتِ تأويلها ، إذا وجد الرجل رجلاً آخر في بيته فقد وقع تأويل الآية :

مَن يزنِ يُزن به ولو بجداره إن كنت يا هذا لبيباً فافهمِ

***

التأويل صار بمعنى آخر ، أي تحقق وعد الله ووعيده .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ)

(سورة النور : من الآية 55)

لو أن الله استخلفهم في الأرض لكان استخلافه لهم تأويلاً لهذه الآية .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه :)

إذا رأيت إنساناً ضاقت به الدنيا ، وقال لك : الحياة لا تطاق ، همومٌ تكاد تمزِّق قلبي ، وحالي كما قال الشاعر :

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبالِ

كل نبل مصيبة .

فكنت إذا أصابتني سهامٌ تكسَّرت النصال على النصالِ

يعني أنه لم يَخلُ مكان في جسمي من رمية سهم .

إذا قال لك إنسان : الحياة شاقة ، أهون شيءٍ فيها الانتحار ، فقل هذا تأويل قوله تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه :)

وإذا التقيت بمؤمن ، وقال لك : ليس في الأرض من هو أسعد مني ، الحمد لله ، أنا غارقٌ في نِعَمِ الله ، فهذه الحالة تأويل قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : من الآية 30)

ما هو التأويل إذاً ؟ تحقُّقُ وعد الله ووعيده في الحياة ، حيثما تحقق وعد الله ووعيده في الحياة فهذا تأويل الآية .

إن رأيت صاحب مالٍ عريض صودرت أمواله كلها ، ورأيته على وشك الانهيار ، فهذا تأويل قوله تعالى :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : من الآية 279)

هذا التأويل .

اقرأ القرآن الكريم ، حيثما وردت آيةٌ فيها وعدٌ أو وعيد ، حيثما وردت آية تأخذ شكلَ قانونٍ ، أي علاقةٌ ثابتة بين متحولين ، ثم رأيتها تقع في الحياة ، فهذا هو التأويل ، فالبطولة ليست بأن تصدِّق بالشيء بعد أن يحدث ، مثلاً : بناء في وضع خطر براعة المهندس أن يكشف لك الخطورة قبل أن يقع البناء ، فإذا وقع هل لك أن تكذِّب وقوعه ؟ انتهى الأمر ، من منا يكذب أن بناء وقع ، لكن العلم يفيد قبل أن يقع البناء عندئذٍ تخلي البيت من السكان ، والحقيقة أنها إذا وقع التأويل لم ينفع ذكاء، وانتهى الأمر .

فرعون نفسه لما أدركه الغرق قال :

(حتى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس : من الآية 90)

فقال له الله تعالى :

(أَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

هذا الإيمان جاء بعد فوات الأوان ، جاء في وقتٍ غير مناسب ، هذا الإيمان لا يجدي ..z

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ)

(سورة النساء : من الآية 18)

هذه ليست توبة ، التوبة أن تكون وأنت صحيحٌ شحيحٌ تخاف الفقر ، وتأمل الغنى ، أن تدفع من مالك الحلال لله عزَّ وجل ، هذا الوقت المناسب .

فمثلاً عندما أتنبَّأ بشيء بحسب فهمي لكتاب الله ، فهي بطولة ، لكن بعد أن يأتي الموت ، كما فعل فرعون عند الغرق ، إذ صار الأمر يقيناً ، ولا مجال للتوبة عندئذٍ ..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

انتهى الأمر ، فإذا جاء تأويل الآيات انتهى الأمر ، فإذا آمنت أو لم تؤمن فأنت مرغمٌ على الإيمان ، تأويل القرآن بمعنى وقوع وعده ووعيده .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

إذا صادفت أخوين ، أحدهما مستقيم والآخر غير مستقيم ، الأول طاهر النفس والآخر دَنِسٌ غير طاهر، الأول كسبه حلال ، والآخر كسبه حرام ، وزرتهما بالعيد في يوم واحد ، وسمعت من الثاني شكوى ليس لها حدود ، وهو في ضيق ، وتبرُّم ، وينتهي قائلاً لك : الحياة تعيسة ، وسمعت من الأول حمداً ورضىً من دون حدود ، فهاتان الحالتان تأويل قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

إذاً بهذه الأمثلة فُهم معنى التأويل ، وهو تحقق وعد الله ووعيده .

5 ـ التكذيب بعد وقوع التأويل مستحيل :

إن التكذيب بعد وقوع التأويل مستحيل ، فهذا المهندس بما أوتي من فهمٍ دقيق ، وإدراكٍ عميق ، كشف أن في البناء خطراً ، وأنذر أصحابه بوقوع البناء ، انتهت مهمته ، وهم إن كذَّبوه وقع البناء فوق رؤوسهم وقتلهم جميعاً ، وإن صدَّقوه نجوا ، لكن إذا كذَّبوه ثم وهم نائمون رأوا فجأةً البناء ينهار عليهم، فهم خلال ثوانٍ يصدقون قوله ، لكن متى صدقوه ؟ بعد فوات الأوان ، فالبطولة أن تصدِّق قبل أن يأتي التأويل ، أما بعد أن يأتي التأويل فلن تجد مكذباً إطلاقاً ، لم يبق على وجه الأرض مكذِّب ، البطولة إذا رأيت ما يشبه القنبلة أن تسارع لمعرفة ما إذا كان فيها فتيل أم ليس فيها فتيل ، لكن إذا جربتها بنفسك لا سمح الله ووقع انفجار ، فإنك خلال ثانية تعرف ، لكن متى ؟ بعد أن أطاحت بصاحبها ، عرف أنها قنبلة ، هل استفاد من هذه المعرفة ؟ لا ، إن البطولة أن تعرفها قبل أن تنفجر ، هذا التأويل ، أن تعرف

ما سيكون قبل أن يكون ، أن تعرف أن هناك يوماً آخر ، فيه ساعة اللقاء مع الله عزَّ وجل ، فيه حساب دقيق ..

((لا تَزُولُ قدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَا وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟))

[من سنن الدارمي عن معاذ بن جبل]

هل أصبحنا بمستوى معلوماتنا خلال كذا درس ، خلال سنة من الدروس ؟ لقد صار لدينا معلومات دقيقة جداً فهل نحن في مستواها ؟ وهل كل شيء عرفناه طبقناه .. عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَا وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

1 ـ علاقة الظلم بالتكذيب :

هذا كلام رب العالمين ، فما علاقة الظلم بالتكذيب ؟ وإليك بعض الأمثلة قالوا لك : حصل بركان ، وثار في كولومبيا ، قُتل من جرائه خمسة وثلاثون ألف نسمة ، قال آخر : خمسة وعشرون ، وأحدهم كذب الخبر ، فماذا يحصل ؟ هناك أشياء إذا كذبتها لا يحصل شيء ، كما في الخبر السابق ، و قال أحدهم : ليس من المعقول أن يكونوا قد صعدوا إلى القمر ، حجمه صغير لا يتسع لمركبة فضائية ، كذب بارتياد الفضاء الخارجي فليس لتكذيبه عواقب وخيمة لا عليه ولا على غيره .

أما بعد ؛ فاستمع لقوله تعالى :

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

ما علاقة التكذيب بالظلم ؟ إن كل مكذبٍ بمنهج الله سبحانه وتعالى لابدَّ من أن يقع في الظلم ، فإذا كذبت بغض البصر فقد كذبت بهذا التشريع ، وأطلقت البصر كما تشاء فإطلاق البصر هذا لابدَّ من أن يبذر في النفس بذور الهوى ، ويثير كوامن الشهوة ، ويلهبها ، ثم لابدَّ من أن تعتدي على أعراض الآخرين ، والتكذيب بغض البصر لابدَّ من أن ينتهي بك إلى العدوان على أعراض الناس ، ومثله التكذيب بأن الربا محرم ، لابدَّ من أن يحملك على أكل الربا ، وأكل الربا ظلم ، الفكرة دقيقة ، فعلاقة التكذيب بالظلم علاقة إيجابية مسلم بها .

إذا كذبت بالمنهج الصحيح فالعاقبة وخيمة ، لو أن إنساناً كذب أن يكون الوقود السائل وقوداً للسيارة ، ووضع ماء مكانه ، هل تسير السيارة ؟ لا تسير ، هذا تكذيب له مضاعفات ، وضع الماء فبقيت السيارة في مكانها واقفة ، لما كذب أن الوقود بنزين ، فوضع مكان البنزين ماء ، معنى ذلك بقي أنه في أرضه جامدًا ، فليس كل تكذيب خطرًا ، إذا لم تصدق أنه قضى خمسة وثلاثون ألفاً في بركان ، بل قلت : خمسة وعشرون ألفاً ، فالأمر سيّان ، هذا تكذيب غير خطر ، لكن إذا كذبت بمنهج الله عزَّ جل فهذا تكذيب خطر ، تكذيب مدمر ، ينتهي بصاحبه إلى الظلم ، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، هذه دقة الربط في القرآن .

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

2 ـ النتيجة عقب السبب : كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

كذب الذي من قبلهم فانظر ، هذه الفاء للترتيب على التعقيب ، أي لابدَّ من أن تأتي النتيجة عقب السبب، كذب بالآيات ..

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

أشخاصٌ كثيرون يحلفون يميناً غموساً في المحاكم ، لا تنقلهم أقدامهم مترين إلا ووقعوا في حالاتٍ مَرضيةٍ وبيلة ..

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(39)وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

معاني الحروف المقطعة :

1 ـ علاقة الفساد بعدم الإيمان :

ما علاقة الفساد هنا بعدم الإيمان ، أي إن لم تؤمن بهذا الكتاب فلابدَّ من أن تكون مفسداً في الأرض ، تفسد العلاقات بقولك ، بنظراتك ، بتعاملك مع الناس ، ما دمت لا تؤمن بهذا القرآن فلابدَّ من أن تكون مفسداً ، فإما أن تكون مصلحاً ، وإما أن تكون مفسداً ، كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات يبين لنا ما ينتج عن الإيمان به ، وما ينتج عن عدم الإيمان به .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

إن لم تؤمن بهذا الشرع الحنيف بهذا المنهج القويم .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء)

فلابدَّ من أن تكون مع المفسدين .

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ)

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ

1 - لا يرفعك مدحٌ ولا يخفضك جرحٌ :

عندك في البيت كيلو من معدن الحديد ، قلت للناس : هذا ذهب ، قالوا لك : كذب ، هذا حديد ، وهو ذهبٌ فعلاً ، مَن الخاسر ؟ هم ، من الرابح ؟ أنت ، ولو أن عندك كيلو من الحديد وقلت للناس : هذا ذهب ، وهو حديد ، فصدقوك ، كلهم صدقوك ، لكن مَن الذي يخسر ؟ أنت ، علاقتك مع نفسك ، كل محاولات الدجل ، والاستعراض ، وعرض العضلات أشياء سخيفة ليس لها وزن عند الله عزَّ وجل ، لك حقيقة عند الله ، لا تجرحها إساءة ظن الناس بك ، ولا يرفعها ثناء الناس عليك ، والشيخ محي الدين رضي الله عنه قال عنه بعضهم : زنديقٌ كافر ، وقال عنه بعضهم : سلطان العارفين ، لا قول بعضهم سلطان العارفين يرفع مكانته عند الله ، ولا قول بعضهم أنه كافر يخفضه عند الله ..

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 134)

علاقتك مع نفسك ، فأرح نفسك من أقوال الناس ، لا تستجدِ ثناءهم .

((أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ))

[سنن الترمذي عن عقبة بن عامر]

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن وسعه بيته وبكى على خطيئته .

هذه النصيحة الإلهية ..

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

هذا المثل لا تنسوه أبداً ، معك كيلو من المعدن ، الناس جميعاً ظنوه حديدا ، وهو ذهبٌ ، ثمنه مائة وثمانية وخمسون ألفاً ، فهم واهمون ، وأنت مصيب ، معك كيلو من الحديد ، أوهمت الناس بأنه ذهب ، وصدقوك ، وهو حديد فأنت الخاسر المخادع .

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ)

2 ـ لا تملك إلا عملك فأصلحْه :

عملي ملكي ، وكل شيء غيره عارية مستردة ، فالإنسان ماذا يملك ؟ هل يملك البيت ؟ لا يملكه ، لابدَّ من أن يخرج منه بشكلٍ أفقي ، أبداً ، إذا كان للواحد بيت يقول : أين سوف يغسلونني ؟ له غرفة خاصة فهل يغسلوه فيها أم في الحمام ، أو المطبخ ... لابدَّ من أن يخرج منه ، دخل إليه ، ثم يخرج منه بعد أن سكنه عشر سنوات مثلاً ، هناك خرجة ما بعدها رجعة ، فالبيت ليس لك ، السيارة ليست لك ، تؤخذ مفاتيحها ، ويركبها أناس آخرون ، وعندك خزانة فيها مقتنيات ثمينة ، ليست لك ، وعندك أرض ارتفع سعرها مائة ضعف ، ليست لك ، ليس لك إلا عملك ..

((يا قُيَيس ، إن لك قريناً تدفن معه وهو حي ، ويدفن معك وأنت ميت ، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك ، ألا وهو عملك))

[ورد في الأثر]

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة العصر)

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا (103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ)

لا تبال ، لأنّ مَن عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به .

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)

أي ..

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة فاطر)

كل إنسان محاسب على عمله ، لن تحاسبوا على عملي ، ولن أحاسب على أعمالكم .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ(42)وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ(43)إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

طبعاً هذه الآيات تحتاج إلى شرحٍ تفصيلي إن شاء الله ننتقل إلى تفصيلها في درسٍ قادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (11-17): تفسير الآيات 42 – 51
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-11-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في سورة يونس عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ(42)وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ

1 ـ دقة الآية في الجمع بين الحواسّ :

الحقيقة هذه الآية من الدَّقَّة بمكان ، نبدأ بالعين ، هناك في الإنسان عينٌ ، وهناك دماغٌ ، وهناك قلبٌ ، وهناك اتصالٌ بين هذه الأشياء الثلاثة ، فهذه الكرة تنطبع في شبكيَّتها الصور ، والعصب البصري ينقل هذه الصور إلى الدماغ ، الدماغ يُدرك ، والعين تُحس ، العين مكان الإحساس ، والدماغ مكان الإدراك، والقلب مكان العقل ، بدليل قوله تعالى :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا)

(سورة الأعراف : من الآية 179)

أحياناً الطفل الصغير يرى ثعباناً مخيفاً ، صورة الثعبان انطبعت على شبكيَّته ، ولكنَّه لم يُدرك ما هو ، لذلك لا يخاف ، ولا يتأثَّر ، ولا ينفعل ، وقد يُدرك ما هو ، وبين هذا الإنسان وبين الثعبان حاجز منيع ، فلا يتحرَّك ، لكن إذا انطبعت صورة الثعبان في شبكيَّة العين ، وانتقلت هذه الصورة إلى الدماغ ، والدماغ بحكم التجربة والمفهومات التي حصَّلها في سنيّ حياته أدرك أنه ثعبان ، هل تعرفون ما دور العقل ؟ دور العقل هو التحرُّك لاتقاء شرِّه أو للهروب منه ، فمن لم يتحرَّك لم يعقل ، ومن لم يعرف الخطر لم يُدرك ، ومن لم ير لم يُبصر ، فالعين تبصر ، والدماغ يُدرك ، والقلب يعقل .

أحياناً تُصاب الشبكيَّة بتخريب ، أو تصاب العين ، أو عدستها ، أو جسمها البلوري ، أو خلطها المائي، أو خلطها الزجاجي ، أو قرنيَّتها ، أو قزحيَّتها بعطب ، فهناك عمىً سببه تخريب جهاز العين ، وقد تكون العين سليمةً مائة في المائة ، لكن مركز الرؤية في الدماغ يُصاب بالعطب ، هناك عمىً في الدماغ ، وإذا جاءت الشهوات فختمت على القلب نقول : هناك عمىً ثالث هو عمى القلب ، فإما أن

تصاب العين بعطبٍ فتعمى ، وإما أن يصاب الدماغ بعطبٍ فيعمى ، تتعطَّل الرؤيَّة ، وإما أن يصاب القلب الذي هو مناط العقل بعطبٍ ، أو يحال بينه وبين الحقائق فهذا هو عمى القلب ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46))

(سورة الحج)

2 - التعامل بين الإنسان والمحيط مبنيٌّ إدراك وانفعال وسلوك :

أحد العلماء قال : " إن قانون التعامل بين الإنسان والمحيط مبنيٌّ على ثلاث مراحل ؛ إدراكٌ ، انفعالٌ ، سلوك " الإدراك أولاً من لم ينفعل فإدراكه غير صحيح ، من لم يسلك فانفعاله غير صحيح ، الناس درجات ، أُناسٌ في غفلةٍ عن حقائق الدين ، هؤلاء بعدوا عن الدين ، أناسٌ ينفعلون ، أي عندهم عاطفة دينَّة ، يتأثَّرون ، يتمنَّون نصر المسلمين ، لكنَّ سلوكهم في البيت هوَ هو ، لم يتحرَّكوا ، هؤلاء لا يجديهم انفعالهم شيئاً ، وعاطفتهم المتأجِّجة لا تنفعهم ، فما لم يسلك طريق الحق ويبتعد عن طريق الباطل لا يُعدُّ المسلمُ مسلماً حقّاً ، لذلك :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال : من الآية 72)

فربنا عزَّ وجل يقول هنا :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ)

3 - وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْك

لم يقل : ومنهم من يسمعونك ، بل يستمعون إليك ، أي أنه جلس ليسمع ، لكن السماع ينتقل من الأذن ، إلى الدماغ ، إلى القلب ، قلبه مغلقٌ بالشهوة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(6)خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

(سورة البقرة)

فالختم على القلب حكمي ، لأن منافذ القلب مسدودةٌ بالشهوات ، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمّ))

[سنن داود]

إذاً :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

4 ـ ليس الصممُ صممَ الأذن :

أيُّ صَمَمٍ هذا ؟ هل هو صمم الأذن ؟ لا ، الأذن سليمة تتأثر بأدقِّ الأصوات ، هل الدماغ أصابه عطب؟ لا ، هذا الكلام الذي نقله غشاء الطبل إلى عُظَيْمات السمع إلى الأذن الداخليَّة إلى الدماغ أدرك الدماغ فحواه ، وسمَّاه الله أصم ، ما الذي جعله أصمَّ ؟ إن الطريق من الدماغ إلى القلب مسدودٌ بالشهوات ، فربنا عزَّ وجل قال :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ)

يا محمَّد عليه الصلاة والسلام ..

(تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

أنَّى لهم أن يعقلوا هذه الحقيقة ما دامت الشهوة قد سدَّت منافذ القلب ؟

صمم الأذن وعمى القلب سببهما الانغماس في الشهوات :

صار واضحاً الآن أن العين تنتقل الصور منها إلى الدماغ ، ومن الدماغ إلى القلب ، وتنتقل الأصوات من الأذن إلى الدماغ ، ومن الدماغ إلى القلب ، فقد يُصاب الإنسان بصممٍ جزئي ، أي بعطبٍ في الأذن أو بعمى في العين ، وقد تتخرَّش أماكن الإدراك في الدماغ فيصاب الإنسان بعمىً منشؤه الدماغ ، وبصمم منشؤه الدماغ ، هذه كلّها أشياء عضويَّة ، لكن قد يُصاب الإنسان بصمم القلب وبعمى القلب ، وصمم القلب وعمى القلب هذان مرضان منشؤهما نفسي ، أي أن الاستغراق في الدنيا أن تأخذ الشهوة على الإنسان مداخل قلبه ، أن تسدَّ هذه المداخل ، أن تكون الشهوة همَّ الإنسان ، شغله الشاغل ، عندئذٍ لا يعي القلب خيراً ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ :

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[الترمذي]

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(14))

(سورة المطففين)

أي أن الأعمال السيئة تكون حاجزاً بين القلب وبين الحقيقة ، شيء دقيق جداً ..

أنا أضرب بعض الأمثلة : يرى إنسان أن في غرفته ثعباناً ، ولا يتحرَّك ! هذا مستحيل ، قد تنطبع الصورة في العين والدماغ لا يُدْرِكُها ، وقد يُدرك الدماغ ولا يتحرَّك ، إذاً هو إنسان غير عاقل ، بل مجنون ..

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا)

(سورة الأعراف : من الآية 179)

فالله سبحانه وتعالى سمَّى هؤلاء الكفرة صماً وعمياً ، ووصفهم بالصمم ، ووصفهم بالعمى ، ولكن هذا الصمم ، وهذا العمى ليس منشؤه عضوياً ، ولكن منشؤه نفسي ، انغماس الإنسان في الدنيا ، تعلُّقه بها ، ارتكابه المعاصي ، هذه المعاصي كلُّها تكون حجاباً بين القلب وبين عقل الحقيقة .

بعد أن تعقل الحقَّ لابد أن تتحرك لتطبيقه :

فالذي أريده من خلال هذا الكلام ، أنه مهما استمعت إلى الحق ، ومهما كان الحقُّ واضحاً ، ومهما كانت الأمور واضحة لديك ، فإن لم تتحرَّك فإن الحقَّ لا يُجْدي ، أي أن هذا كلامٌ عاقبته خطيرة ، كلامٌ يسمِّيه بعضهم مصيريَّاً ، أي أن مصيرك في الدنيا والآخرة متوقِّفٌ على تطبيقه ، فعندما يسمع الإنسان، ويتأثَّر ، ويثني على المتكلِّم ، وهو كما هو ، نقول : إنه لم يعقل الحقيقة ، ولو عقلها لسلك سلوكاً يتناسب مع عقله لها .

النبي الكريم هكذا فهم الدين ، جاءه أعرابيٌّ فقال له : " يا رسول الله جئتك لتعلمني من غرائب العلم "، فقال عليه الصلاة والسلام :

((وماذا صنعت في أصل العلم ؟ " فقال هذا الأعرابي: " وما أصل العلم ؟ " قال : " هل عرفت الرب؟ " قال : " ما شاء الله .. أي عرفته وهو بذلك يدَّعي .." قال له : " فماذا صنعت في حقِّه ؟ إن كنت قد عرفته ماذا صنعت في حقِّه؟))

[ورد في الأثر]

ولقد ضربت في الأيَّام الماضية مثلاً على بعض الإخوة الأكارم ، وهو : أن إنسانًا ليس عنده زيت ، وسعر عبوة الزيت عند جاره السمَّان خمسمائة ليرة ، وسعرها في المؤسسة الاستهلاكيَّة مائتان وخمسون ، وقال له ابنه : في الاستهلاكيَّة الزيت متوفرة ، و ليس هناك ازدحام ، وأنت بحاجة لزيت ، ودخلك محدود ، ولديك فراغ ، والمبلغ موجود معك ، ماذا تفعل ؟ لا يمكن إلا أن تقف ، وترتدي ثيابك، وتتجه نحو الاستهلاكيَّة لشراء الزيت ، هذا العقل ، العقل تحرُّك ، بلغ إلى علمك أن الزيت متوافر ، والسعر معقول جداً ، وعند السمَّان السعر بالضعف ، ودخلك محدود ، والمبلغ موجود ، ووقتك فراغ ، والزيت موجود ، والازدحام منعدم ، إذا لم تتحرَّك فلعل ابنك قال لك : الازدحام شديد ،

أو إذا لم تتحرَّك لعلّ دخلك غير محدود فلست بسائل ، أو إذا لم تتحرَّك فلديك في البيت زيت ، أو إذا لم تتحرَّك لأن سعر الزيت عند السمَّان بسعر الاستهلاكيَّة ، أو إذا لم تتحرَّك لأنه ليس لديك وقت لتتحرَّك وتشتري الزيت ، عندك موعد مهم جداً ، أو إذا لم تتحرَّك لأنه ليس معك ثمن الزيت ، فعندما تأتيك المعلومات الدقيقة ، ولا تبادر من فورك فذلك سبب ما ، أما إذا بلغتك كل هذه المعلومات وأنت بحاجة ترى نفسك تتحرَّك مسرعاً ، هذا شأن الإنسان في الدنيا ، إذا بلغه أن في هذه السيَّارة مخالفة تسبِّب مصادرتها فماذا يفعل ؟ لا يحركها من موقفها حتى يزيل أسباب المخالفة .

إذا بلغك أن هذه البضاعة سوف تُصَادَر ، وستدفع ثمانية أضعاف ثمنها غرامة جزاءً فماذا تفعل ؟ تبقيها في محلّك التجاري ؟ من الممكن ألا تنام ليل نهار ، طول الليل تعمل في نقلها ، عندما يكون إدراك الإنسان صحيحاً ، وينتقل الإدراك إلى القلب تجد أنه تحرَّك ، هذا مقياس لنا جميعاً ، ما دام بعض الحاضرين يقول : والله تباركنا بك يا أستاذ ، والحمد لله على هذا الدرس ، والله مجلس علم زاخر، والحمد لله ، وصافحت يد الشيخ تبركاً ، وانصرفت مهرولاً ، وأنت كما أنت في البيت ، والله ما عقلت شيئاً ، ولا تقدَّمت درجة ، وكلّه وهمٌ في وهم ، ما لم تتحرَّك ، و تغض بصرك ، وتحرِّر دخلك ، وتستّر عيالك ، وتزيل المخالفات من البيت فالآن أنت عقلت الحق ، أما قبل ذلك فشممت رائحته ، أدركته بفكرك ، ولم ينتقل إلى قلبك ..

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

لكي يوفّر الإنسان وقته ، لكي لا يقول الإنسان : أنا بقيت عند الأستاذ اثنتي عشرة سنة ولم أتقدَّم ، والله لم أستفد شيئاً ، أنت لا تطبِّق ، عملياً ما علمت الازدحام الشديد لا قيمة له عند الله عزَّ وجل .. واحدٌ كألف وألفٌ كألف .. أي واحد عقل الحقيقة انتهى أمره إلى خير ، أعرابيٌّ من الصحراء جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال له : " يا رسول الله عظني وأوجز " ، فقرأ عليه النبي الكريم :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

قال له : " قد كُفِيت " فقال عليه الصلاة والسلام : " فقُه الرجل " ، أي أنه أصبح فقيهاً ، فآية واحدة لو عقلتها لأفلحت ، فقد تقرؤها ، وقد تفهمها ، وقد تسمع تفسيرها ، وقد تفسِّرها لأخيك ، ولكنَّك لم تعقلها ، دليل عقلك لها تطبيقك إيَّاها ، ودليل فهمك إياها توضيحك للمعنى ، فإذا وضَّحت المعنى للآخرين فقد فهمتها ، أما إذا طبَّقتها فقد عقلتها ، وقبل العقل لا قيمة لأيِّ شيءٍ آخر ، ربنا عزَّ وجل يقول :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

الله عزَّ وجل سمَّاهم صُمَّاً ، لهم آذان مرهفة ، لهم دماغ تلافيفه متعرِّجة وهو ذكي ولكنَّه عند الله أصَمَّ لأنه ما طبَّق الحق .. فقال هذا الأعرابي : " وما أصل العلم ؟ " قال : " هل عرفت الرب ؟ " قال : " ما شاء الله " قال : " فماذا صنعت في حقِّه ؟ هل عرفت الموت ؟ " قال : "ما شاء الله " ، قال : " فماذا أعددت له ؟ " .. هذا هو التفكير العملي ، أما أن تُعلِّق مصحفاً في البيت ، وتضع مصحفاً على صدرك، أو تُعلِّق مصحفاً في سيَّارتك ، تكتب على المحل : فاستقم كما أُمِرْت ، بسم الله الرحمن الرحيم، إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، تعلِّق صورة الكعبة في البيت ، ما دام الأمر في اختلاط فأنت لست عاقلاً شيئاً من الدين ، ما دام الدخل مشبوهاً فلست عاقلاً شيئاً من الدين ، ما دام هناك مصافحة للنساء و تساهلا في الأوامر و تقصيرا في الصلاة فإنك لم تعقل شيئاً عن الله عزَّ وجل ، إن هذا الحضور للمسجد وسماع الدروس من دون تطبيق ليس له قيمة ..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا(142)مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا(143))

(سورة النساء)

هذا الإنسان المقصِّر هل هو كافر ؟ لا ليس كافراً ، لأنه يعرف كل شيء ، أهو مؤمن ؟ لا ليس مؤمناً، لأنه ليس بمطبِّق ، إنه من المذبذبين لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ(42)وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)

إذاً مناط العقل في القلب ، ومنفذا القلب السمع والبصر ، فإذا أحبَّ الإنسان الدنيا كانت غشاوةً على سمعه وعلى بصره ، هذه آية دلالتها دقيقة جداً ومن الآيات المحكمات ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

1 ـ علاقة هذه الآية بالآية التي قبلها :

علاقة الآية بالآية التي قبلها ، أنَّ الإنسان خلقه الله سبحانه وتعالى مزوَّداً بوسائل المعرفة ، فهذه السيَّارة مزوَّدة بمصباحين متألِّقين شديدين ، فإذا أطفأ السائق هذين المصباحين ، وسار في الظلمات بلا ضوء ، وكان هناك منعطفٌ خطير لم يرَه بالعين المجرَّدة فهوى في الوادي ، نقول له : لم يظلمك أحد ، لقد ظلمت نفسك ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

2 ـ هلاك الإنسان في الدنيا سببه عدمُ رؤية الحقيقة :

عندما يهلك الإنسان هلاكاً في الدنيا السبب أنه ما رأى الحقيقة مع أنَّه يملك وسائلها ، مع أنه يملك وسائل الحقيقة ، أو لو أن وسائل الحقيقة لا يملكها الناس لكان الله سبحانه وتعالى قد ظلمهم ، لكن الله سبحانه وتعالى قال :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

(سورة البلد)

بعض تفسيرات هذه الآية : يرى بهما الآيات ..

(وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9))

يسأل به عن الحق ..

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(10))

طريق الخير والشر ..

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(11)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(12)فَكُّ رَقَبَةٍ(13))

أي أن تفكَّ رقبتك من أسر الشهوة ، ما دامت الشهوة أكبر همِّك ومبلغ علمك فلن تعرف الحقيقة ..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(10)فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(11)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(12)فَكُّ رَقَبَةٍ(13))

(سورة البلد)

أي أن تفكَّ رقبتك من نير الشهوة ثمن الحقيقة ، لذلك :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْقَطِيفَةِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ))

[ابن ماجة عن أبي هريرة]

الإنسان يقيِّم نفسه بهذا المقياس ، مقدار التحرُّك ، مقدار الاستجابة العمليَّة ، مقدار التطبيق هذا الله هو مقياس عقلك لقول الحق .

نذكر بعض الأمثلة ، فمثلاً لو أن أحداً قرأ الآية التالية

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

هي آية واضحة ، من الممكن لي إنسان عادي أن يفهمها ، وهذه الآية لا تحتاج إلى تفسير ، لكن إذا لم يطع الإنسان الله ورسوله فما فاز الفوز العظيم ، فشتَّان بين فهم الآية وتطبيقها .

من الممكن أن أحداً يقرأ بلاغ منع التجوُّل ، يدقِّق في الخط والحروف ، ونوع الطباعة ، ونوع الورق،

شكل التوقيع ، بخط مَنْ ، يدقّق بالصياغة ، بالرقم والتاريخ ، لكن فاته أن يطبِّق البلاغ ، فاته أن يدخل إلى البيت فوراً ، قد يهلك ، درس في هذا البلاغ أشياء كثيرة ولكنَّه غفل عن مضمونه ، إذاً ما الذي عقله ، لو أنه عرف أن هذا البلاغ يعني أنه من يتجوَّل في الطريق يعرِّض نفسه للهلاك إذاً قبل أن تدرس الخط ، والتوقيع ، والحبر ، والورق ، وصياغة البلاغ ، ورقمه وتاريخه انظر إلى مضمونه واستجب له قبل أن تهلك نفسك ، فالقرآن الكريم أول ما يدعوك إليه أن تستجيب لأوامره ، وأن تنتهي عن نواهيه ، وإلا لا جدوى مما سوى ذلك ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

أحياناً قد يشتري الإنسان دواءً مبيداً لكنَّه خطر جداً ، والبائع ينصحه فيقول له : إن هذا الدواء خطر جداً ، إذا وضعته في وعاء ، ولم تغسله يمكن أن يسبب هلاك الأسرة ، هناك من استعمل هذا الدواء في وعاء وغسل الوعاء غسلاً سطحيَّاً ، وطبخ فيه فمات أفراد الأسرة كلُّهم ، البائع بلَّغه ، حذَّره ، أخذ توقيعه ، فربنا عزَّ وجل قال :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(44)وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ

1 ـ تعارف الناس تعارف افتضاح وتوبيخ :

في الآية تعارف بين الناس ، هذا التعارف لا تعارف ترحيب ، ولكن تعارف افتضاح وتوبيخ ، يقول أحدهم للآخر : أنت دللتني على طريق المنكر لا جزاك الله خيراً ، يقول له : لا ، أنت السبب ، هناك تعارف توبيخ وافتضاح .شيء آخر : ربنا عزَّ وجل قال :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ)

أي حينما تأزف الآزفة ، حينما يأتي يوم القيامة ، أو حينما تأتي الساعة عندئذٍ ..

(كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ)

2 ـ عيشك في الدنيا كأنه ساعة من نهار :

إذا أعطيناه شخصاً فرصة خمس سنوات يتجوَّل في أرجاء الأرض ، ويستمتع بكل ما فيها من مباهج ، ويقترف جميع الملذَّات المباحة وغير المباحة والمحرَّمة ، وينغمس في كل الشهوات ، وينفق أبهظ

الأموال ، ويعطي نفسه هواها ، وهو عاطل عن أي عمل إطلاقاً ، بل كل عمله الاستمتاع ، وبعد هذا أردنا أن نعذّبه عذاباً أليماً ، حينما يبدأ التعذيب الجسدي ألا ينسى كل هذه الأيَّام ؟ ألا ينسى كل هذه السنوات التي أمضاها في الملذَّات ؟ هكذا حال الكافر .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ)

عمرهم المديد قضوه بالمتع التي انغمسوا فيها ، بالملذَّات التي اقتنصوها ، بالشهوات التي مارسوها ، بالأيَّام التي استطالوا فيها شِرّةً ، بالليالي التي سهروها ، بالأصحاب الذين استمتعوا بصحبتهم ، بالموبقات التي انغمسوا فيها ، هذا العمر المديد الذي أمضوه في المعاصي يصغر ويصغر حتى يصبح ساعةً من النهار ، لذلك سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كلَّما دخل إلى مجلس الخلافة كان يتلو هذه الآية ..

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

(سورة الشعراء)

فهذه الدنيا المديدة بشهواتها وملاذّها ، وطعامها وشرابها ، ونسائها ، وبيوتها الفخمة ، وبساتينها ، ومقاصفها ، وذهبها وفضَّتها ، ومتعها الرخيصة وغير الرخيصة هذه كلُّها تصغر وتصغر حتى تصبح ساعةً من النهار ..

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ)

السيِّدة عائشة رضي الله عنها سألت النبي عليه الصلاة والسلام : "أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ " سؤال طريف ، أي إذا كان للإنسان جار ، أو له صديق ، أو صاحب ، يعرف شخصاً أعلى منه في الدائرة ، أدنى منه ، صهر مثلاً ، أخ ، أب ، إذا وقعت عين الابن على أبيه يوم القيامة هل يعرفه ؟ " أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ " ، قال عليه الصلاة والسلام: " نعم يا أمَّ المؤمنين ، إلا في ثلاثة مواضع : عند الصراط ، وعند الميزان ، وإذا الصحف نُشِرَتْ " ، ففي هذه المواضع الثلاثة لا يعرف بعضنا بعضاً ، وفيما سوى ذلك لو وقعت عين الأمِّ على ابنها تعرفه فتقول له : " يا ولدي ، يا بني ، جعلت لك صدري سِقاءً ، وبطني وعاءً ، وحجري وطاءً ـ أي فراشاً ـ فهل من حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم ؟ أي أن أمُّه تتسوَّل منه حسنة ، فيقول : يا أمَّاه ليتني أستطيع ذلك إنني أشكو مما أنتِ منه تشكين"..

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20)وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ(21))

(سورة الذاريات)

السيِّدة عائشة رضي الله عنها بعد أن سمعت قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ !!! قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةُ ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ))

[مسلم]

معنى غُرلاً أي على حالهم قبل أن يطَّهروا ، أي حالهم قبل الختان .. فقالت يا نبي الله : أو يرى بعضنا بعضاً هكذا ؟ " ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا عَائِشَةُ ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ))

الأمر أخطر بكثير من أن يلتفتوا إلى بعضهم بعضاً .

إذاً :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ)

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ

الخسارة مطلقة يوم القيامة :

أروع ما في هذه الآية أنَّ نوع الخسارة لم يذكره الله سبحانه وتعالى في الدنيا قد يخسر الإنسان محلَّه التجاري ، شقت المحافظة شارعاً مرَّ بمحله فأعطوه بدلاً له خمسة آلاف ليرة ، بينما فروغ محلَّه خمسمائة ألف ، أعطوه خمسة آلاف فقط ، أي أنه خسر المحل ، لكن صحَّته سالمة ، و له بيت ، وله أولاد ، وله أرض ، وله محل ثانٍ ، وعنده بناية يؤجِّرها ، خسر محلَّه التجاري فقط ، فالخسارة محدودة، أحياناً الإنسان يخسر ولدًا من أولاده ، إذا كانوا يريدون أن يواسوا الأب يقولون له : بضاعة مخلوفة ، أحياناً يخسر الإنسان بيته من جراء قرار إخلاء ، فيبقى هو وأسرته في الطريق ، يستأجر بيتًا، خسارة الدنيا محدودة ، لكنَّ يوم القيامة ربنا سبحانه وتعالى قال :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ)

خسروا ماذا ؟ كل شيء ، خسروا أنفسهم ، خسروا هذه السعادة الأبديَّة ، خسروا دهرهم إلى الأبد ، خسروا الجنَّة ، خسروا القُرب من الله عزَّ وجل ، خسروا كل شيء ..

" ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتُّك فاتك كل شيء ، وأنا أحبَّ إليك من كل شيء " .

هذه :

(قَدْ خَسِرَ)

في الدنيا الخسارة محدودة ، مقيَّدة ، خسر ماله ، خسر زوجته ، خسر أحد أبنائه ، خسر منصبه ، خسر بيته ، خسر محلَّه التجاري ، لكن يوم القيامة الخسارة فادحة :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

فالأمور بخواتيمها ، ومن شبَّ على شيءٍ شاب عليه ، ومن شاب على شيءٍ مات عليه ، ومن مات على شيءٍ حُشِرَ عليه " ، " ومن هوي الكفرة حُشِرَ معهم ، ولا ينفعه عمله شيئاً " .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ

إلى الله مرجع العباد للحساب :

أي أن الله عزَّ وجل شهيدٌ على ما يفعل العباد ، سواء أأدركت ذلك أم لم تُدْرِك ، و :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

يمكن أنت تعاشر صديقاً لك ظالماً فالله عزَّ وجل يمُدَّه ، فمن الممكن أن هذا الإنسان ينتهي أجله وصديقه في أوج قوَّته ، على الله عزَّ وجل الحساب ..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

أي سواءٌ عليك أشهدت نهاية الكفَّار أم لم تشهدها فنهايتهم محتومة ، سواءٌ عليك أشهدتها أنت بأمِّ عينك أم لم تشهدها ، سواءٌ عليك أكان في العمر بقيَّةٌ تشهد بها مصير الكفَّار ، أم لم يكن في العمر بقيَّة تشهد خلالها مصير الكفَّار ..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ)

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

فانظروا الفاء للترتيب على التعقيب ..

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

أما ثم : فهي للترتيب على التراخي ، يمكن أن يأكل الإنسان يأكل مال حرام ، ويعتدي ، ويبغي والله يمد بعمره إلى فترة طويلة ، فالإنسان إذا رأى له صديقاً أو جاراً تجاوز الحدَّ المعقول، لا يصلي ، وكلامه بذيء ورغم ذلك يزداد قوَّةً ومالاً ، فإن هذا الموقف يجب ألا يحملِك على الشك بقواعد الدين ..

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ(46)وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ

1 ـ من تمام هداية الله للعباد إرسالُ الرسل :

من تمام هداية الله عزَّ وجل ، ومن تمام رحمته أنه قيَّض لكل أمةٍ رسولاً ، هذا الرسول يشهد لهم ويشهد عليهم ، يشهد لهم في الدنيا ، ويشهد عليهم في الآخرة ، يذكر لهم الحقيقة في الدنيا ، أي يعرِّفهم بالله عزَّ وجل ، بآياته القرآنيَّة ، بآياته الكونيَّة ، بأسمائه الحُسنى، بمصيرهم بعد الموت ، بنشأتهم ، بجدوى الحياة ، بجوهرها ، هذا النبيّ ، النبي عليه الصلاة والسلام وكل نبي ..

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151))

(سورة البقرة)

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة آل عمران : من الآية 164)

أي يطهِّرهم هذه وظيفة النبي ووظيفة الدعاة إلى الله من بعده ..

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ(46)وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ)

2 ـ يوم القيامة كلُّ أمّةٍ مع رسولها :

يوم القيامة هذه الأمَّة أين رسولها ؟ يأتي رسولها ، هل أبلغتهم ؟ نعم ، إذاً يستحقُّون العذاب ، أغلب المفسِّرين حمل هذه الآية على هذا المعنى ..

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى)

(سورة الزمر : من الآية 71)

طبعاً :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ)

أي بالعدل ..

(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

ويقول الكفّار :

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

الكفار يستنكرون وعيد الله :

هذا ليس استفهاماً ، علماء التفسير حملوا هذا الكلام على محمل الاستهزاء والسخرية ، هذا الوعد متى؟ استنكاراً لهذا الوعد والوعيد ، واستهزاءً به ، واستبعاداً له ، استهزاءً واستنكاراً واستبعاداً ..

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

الجواب القرآني : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا

1 ـ لا أحد يملك لنفسه ضرا ولا نفعا :

فالله سبحانه وتعالى أمرَ نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)

أي إن كنت أنا لا أملك لنفسي التي بين جنبي نفعاً ولا ضرّاً أفأملك هذا النفع والضُرَّ لكم ؟

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

2 ـ كل شيء بمشيئة الله :

هذه الجملة :

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

قال العلماء : " استثناء المشيئة محمولٌ على أن الأشياء ثابتة لا بذاتها ، ولكن بمشيئة الله سبحانه وتعالى " ، فأنت مثلاً ترى هذه الطاولة من الخشب تتركها مئات السنين تبقى على حالها كما هي ، هذا الخشب له صفات ثابتة ، أي أن قِوامه متين ، ولا يتأثَّر بالهواء ، ولا بأي شيءٍ آخر ، ماذا تظن ؟ أنها ثابتة على حالها بذاتها ، يجب أن تقول : إلا ما شاء الله ، أي أنها ثابتة على حالها بمشيئة الله لا بذاتها ، كما أنك تقرأ آية قرآنية :

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(107))

(سورة هود)

هذا ليس استثناء ، هذا ليؤكِّد أن الأشياء ثابتةٌ لا بذاتها ، ولكن بمشيئة الله ، فأنت معمِّرٌ بيتاً في الطابق السابع ومطمئن ، وهذا البيت مُلك لك ، ودفعت ثمنه ، وانتهيت ، وأسعاره ارتفعت ، وإسمنته مسلح بالحديد ، وفي المتر المربَّع وضعت سبعة أكياس من الإسمنت ، فتماسك الإسمنت بمشيئة الله عزَّ وجل، وبقاء الحديد حديداً بمشيئة الله عزَّ وجل ، تقول : هذا البيت قِوامه جيد إلا ما شاء الله ، معنى إلا ما شاء الله أي ليس بذاته قائماً ، لكنَّه قائمٌ بمشيئة الله ، فلو أن الله سبحانه وتعالى غيَّر صفات الحديد لوقع البناء، ولو غيَّر تماسك الإسمنت لوقع البناء ، ولو غيَّر استقرار الأرض لوقع البناء ، فالإنسان المؤمن الموحِّد ولو سكن بيتاً ووضع في أساساته أربعة أضعاف الكميات القانونيَّة ، والحديد بثخانة اثنتي عشر ميليمتراً فهذا بمشيئة الله ، وهذا الاستثناء الذي أراده الله سبحانه وتعالى إذا تحدَّث عن شيءٍ دائم قال :

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود : من الآية 107)

وإذا دخل أحد الجنة فبقاؤه فيها بمشيئة الله .

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48))

(سورة الحجر)

بقاؤك في الجنَّة ليس ذاتياً بذاتك ، بل برضاء الله عنك ، وبمشيئة الله التي سمحت لك بالبقاء ، فلو أن الله شاء لك غير ذلك لما بقيت فيها ، مثل موظَّف فوقه أعلى منه ، هذا الموظَّف الأدنى حر بالحركة والتصرُّف ، ويمارس صلاحيَّاته ما دام الذي فوقه راضٍ عنه ، وينوي له أن يبقى في منصبه ، فإذا أراد الذي أعلى منه أن يُعزل عن منصبه عزل فوراً ، إذاً :

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(48)قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ

1 ـ لكل شيء أجلٌ محدَّد لا يُقدَّم ولا يؤخَّر :

أي لكل واحدٍ من آحاد هذه الأمَّة أجل ، ليس المقصود أمَّة بكاملها ، لكل واحدٍ من آحاد هذه الأمَّة أجل..

(إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

بعض المجلات أحياناً تنشر مقالات مضحكة ، أنه تم اختراع دواء يُطيل العمر ، هذا الكلام خلاف القرآن الكريم ، الإنسان العاقل لا يقرأ شيئاً خلاف كتاب الله ، لأنه كلام فارغ ، وجهد ضائع ، وبذل طاقة في غير محلِّها ، وهذا المقال ينطلق من الباطل ..

(إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

2 ـ العناية بالصحة مطلوبة ، لكن لا يغني حذرٌ عن قدَرٍ :

العناية بالصحَّة ليست سبباً لطول العمر ، لا ، ولكن العناية بالصحَّة من أجل أن تمضي هذا العمر سالماً عافياً قائماً فقط ، لكن العمر لا يزيد ولا ينقص ، سواءٌ عليك أكانت عنايتك بالصحَّة ممتازة أم سيئة ، وبعض الناس يعاني مثلاً من حالة مرضية بالقلب ، فيعيش خمساً وأربعين سنة بعد حدوث هذه الحالة ، معنى هذا أن مرض القلب لا يميت ، ولا الضغط يميت ، بل لا يميت إلا الله سبحانه وتعالى ، هذا اعتقاد الإنسان المؤمن ، و إذا اعتنى بصحَّته ، أكل طعاماً معتدلاً ، اهتم بجسمه ، بحركات جسمه ، بعضلاته ، بأمعائه ، بجسمه ، بنظافته فهذه العناية من أجل أن يستمتع بصحَّته طوال العمر الذي رسمه الله له ، فإنه يبقى واقفاً في عافية ، أي أنه يبقى جنديَّاً في خدمة الحق ، أنت عندك خدمة ثابتة وخدمة مسلَّحة ، وإذا كنت بصحَّتك التامَّة فعليك خدمةٌ في سبيل الله أجرها كبيرٌ جداً ..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ

1 ـ احذروا عذاب الله :

مدينة في كولومبيا بأمريكا الوسطى ، مدينة سكَّانها يزيدون على خمسين ألفاً ، وهي في مكان جميل .. كما سمعت .. لم أر صورها ، وعلى مقربة منها بركانٌ خمد منذ مائة وخمسين عاماً ، وعَلَتْه الثلوج المتراكمة ، ثار هذا البركان ، أذاب الثلوج فانهمرت المياه على شكل سيول فأغرقت سكَّان المدينة ، غرقوا في المياه والوحل ، ثم جاءت الحُمَمُ من فوهة البركان فغطَّت المدينة أربعة أمتارٍ من هذه الحُمم الملتهبة ، فلمَّا حاول بعضهم إنقاذ من سمعوا له أنيناً جاءت الحُمم الأخرى فوقهم فولَّوا هاربين وكتبوا : هذه المدينة مقبرةٌ لأصحابها بإذن ، الله عزَّ وجل ..

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف : من الآية 59)

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

آيات كثيرة :

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(58))

(سورة الإسراء)

وقبلها في مكسيكو أيضاً حصل زلزال مشابه ، لكن هذه المدينة التي في كولومبيا قالوا : خمسة وثلاثون ألفاً أُبيدوا عن آخرهم ، في خلال دقائق معدودة ..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا)

2 ـ لا أحدَ يعلم ساعة العذاب من ليل أو نهار :

يعني أن بعضهم كان نائماً مطمئناً ، أغلق بابه وأوى إلى فراشه والبيت دافئ ، وصباحاً لديه مشاريع كثيرة سيبادر لإنجازها ، ونام وهو مطمئن ، فجاءت المصيبة ..

استعجالهم إذاً استعجال إنكارٍ وسخريّةٍ واستبعاد ..

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ)

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ

لا ينفع إيمان بعد فوات الأوان :

إنّ منتهى البلاهة والغباء أن تؤمن بالشيء بعد وقوعه ..

هناك غدير ماءٍ فيه سمكاتٍ ثلاث ؛ كيِّسةٌ وأكيس منها وعاجزة ، مرَّ بالمكان صيَّادان ، نظرا في الغدير فأبصرا ما فيه من السمك ، أُعْجِبا بالسمك ، تواعدا أن يرجعا ومعهما شباكها ليصيدا ما فيه من السمك .. هذه القصَّة رمزيَّة .. فسمعت السمكات قولهما ، أمَّا أكيّسهن أي أعقلهن فقالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها .. هذا العاقل .. فلم تعرج على شيءٍ حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت وارتاحت وأراحت ، وأما الكيِّسة أي الأقلُّ ذكاءً فبقيت في مكانها حتى عاد الصيَّادان ، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سُد فقالت : فرَّطت ، وهذه عاقبة التفريط ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ثم إنها تماوتت فأخذها الصيَّادُ ، فوضعها على الأرض بين النهر والغدير ليأخذها عند فراغه ، فوثبت في النهر فنجت ، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدت .. قال عليه الصلاة والسلام :

((الْكَيِّسُ ـ أي العاقل ـ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عن شداد بن أوس]

وهذا معظم حال المسلمين ، تجده يقول : الله يتوب علينا ، نحن عبيد إحسان ، ولسنا عبيد امتحان ، ماذا سنفعل ؟ حتى الله يتغمَّدنا برحمته ، هذا كلام فارغ ، هو مقيم على شهواته كلها ، مقيم على معاصيه كلها ، ليس مستعدا أن يتحرَّك نحو الحق ، ليس مستعداً أن يتوب إطلاقاً ، لكن كلامه لطيف ومحدّر ، قال

((لَقَدْ خَلَقْتُ خَلْقًا أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ ، فَبِي حَلَفْتُ لأُتِيحَنَّهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا))

[الترمذي عن ابن عمر]

الكلام ليس كلاما ألطف منه ، أما من حيث السلوك فإن بعضنا يأكل بعضاً ، يستغل بعضنا بعضاً ، يسحق بعضنا بعضاً من أجل الدنيا ، وكلامهم لطيف ..

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ)

هذه العاجزة بعد أن جاءها الصيَّاد ، وألقى القبض عليها ، وبدأ يضعها على النار ليأكلها عرفت أنها مخطئة ، لكن متى ؟ بعد فوات الأوان..

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ(158))

(سورة الأنعام)

لكن الكيِّسة قالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، والأقلُّ ذكاءً حينما واجهتها المشكلة احتالت لها ونجت لكن بعد أن حطَّمت أعصابها..

(ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (12-17): تفسير الآيات 53 – 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-12-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ)

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ

وعدُ الله واقعٌ لا محالة :

أي هذا الوعد الذي تعدنا ، وهذا الوعيد الذي تتوعدنا ، أحقٌ هو ؟ بمعنى أواقع ؟ أمُنْجَز؟ سوف نأتيه ؟

(قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

أي آمنتم أم لم تؤمنوا ، أعرفتم أم لم تعرفوا ، أصدقتم أم لم تصدقوا ، أكنتم أقوياء أم ضعفاء ، أأغنياء كنتم أم فقراء .

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

2 ـ لا أحد يفلت من يد الله تعالى :

أي لن تستطيعوا أن تفلتوا من يد الله عزَّ وجل .

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

هذا كلام خطير ، بعض المنافقين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قال كلمة ، قال : " لو أن محمداً صادقٌ فيما يقول لكنا أجهل من الحُمُر " ، لو كان صادقاً ، وهذا كلام ينطبق على كل مكانٍ وزمان ، إن كان هذا الكلام الذي يقوله الله عزَّ وجل حقاً ، وحِدنا عنه ، فإذا هو في شك قاتلٍ ، مُدمّر فهذا منتهى البعد عن الموضوعية ، منتهى الغباء ، منتهى الشقاء، عذابٌ أليمٌ بيأسٌ أبدي ولا نتقيه ! بينما وعدنا الله جنةٌ عرضها السماوات والأرض وأفلا نعمل لها !! حياة الدنيا كلمح البصر ، كساعةٍ من ساعات النهار لذلك :

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

3 ـ كيف تتوازن نفسيا وأنت تعصي الله وتخالف أمرَه ؟

فالذي أتمناه عليكم أن تحددوا موقفكم من هذا الكتاب ، إما أنه حقٌ من عند الله ، فمعنى هذا أن مخالفته شقاءٌ أبدي ، وإما أنه ليس من عند الله ، أين البرهان ؟

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة المؤمنون : من الآية 117)

كيف تستقر نفس الإنسان ؟ كيف يتوازن داخلياً ؟ كيف ينام ملء عينيه وهو يعلم أن هذا الكتاب حق وأنه لا يطبقه ؟ كيف ؟ كيف يحقق توازناً داخلياً ؟ كيف يقول لك : الحمد لله ، كيف تقول هذا الكلام ؟ وأنت تعلم علم اليقين أن هذا القرآن الكريم من عند الله تعالى وفيه من المواعيد ما فيه ..

(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ(6))

(سورة الذاريات)

أي ما جاء به من وعدٍ ووعيد إنه لحق ، كيف تقبل أن تأكل درهم ربا والله سبحانه وتعالى يقول :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 276)

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : من الآية 279)

كيف تطلق بصرك في الحرام والله سبحانه وتعالى يقول :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور : من الآية 30)

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

فملخص الكلام أن الإنسان يجب أن يأخذ موقفاً واضحاً ، فلم يعد خافياً أن هذا الكتاب من عند الله ، وهو حق اليقين ، وسوف يتحقق وقوعه في المستقبل ، فكل من حاد عنه قد شقي في الدنيا وشقي في الآخرة ، أما إذا كنت لست متأكداً من أنه من عند الله ، أو لا تعبأ بما فيه من مضامين ، وما فيه من تشريعات ، وما فيه من وعيد ووعد ، إن كنت كذلك أين البرهان ؟ إما أن تقبله على بينة ، وإما أن ترفضه على بينة ، أما أن تترك نفسك هكذا بشكلٍ غير واضح ، هذا ليس من الإسلام في شيء ، وليس من المنطق في شيء .

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ)

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ

كثيراً ما نقرأ كلمات ونمر عليها هكذا ، دون أن يغيرها اهتماماً ، ولكنها قد تحمل في طياتها النذر ، أو تحمل البشائر ، ومثالنا الحي الواضح الآية السابقة .

إن متراً مربعاً ببعض الأسواق الرائجة ثمنه مائتان وخمسون ألف ليرة ، وإن كان ثلاثين متراً فهو محل تجاري له قيمته ، وقد يكون لك محلان ، أو أنك قد تملك محلين وطابقين ، وإذا كان هذا الشارع كله لك من أول بناء لآخر بناء ، وعلى الطرف الثاني أيضاً ، وشارع آخر ، وشارع ثالث ، وشارع رابع ، ولك شارع مماثل له في مدينة أخرى رائجة ، إذا كانت قيمة كل متر ربع مليون ليرة ، وعندك مجموعة شوارع ، وإذا كانت المدن الكبرى كلها ملكك ، مكاتبها ، ومحلاتها ، وأبنيتها ، والشركات الرائجة في العالم كلها ملكك ، جميع الفنادق ملكك ، كذلك وجميع شركات الطيران ملكك ، وجميع شركات الأسلحة ، هذه التي حققت أعلى ربح في العالم ملكك ، وحينما يرى الإنسان العذاب يتمنى أن يتنازل عنها كلها وينجو ، ولكنه لا ينجو .

(وَلَوْ أَنَّ)

إن التفصيل أحياناً يعمِّق المعنى ، أحياناً يكون الإنسان مزهواً بمستودع فيقول لك : أريد ثمناً له ستمائة ألف ، وقد يكون مزهواً بطابق ، يقول لك : أريد ثمنه مليونين ، تصور أبنية دمشق كلها لك ، جميع الأبنية السكنية ، والتجارية ، والسياحية ، دمشق ، ولندن ، وباريس ، وواشنطن ، وهذه العواصم الكبرى ، وجميع الشركات الكبرى في العالم لتنازلت عنها في ثانيةٍ واحدة لتنجو ، اقرأ قوله تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ)

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ

إسرار الندم عند رؤية العذاب :

العلماء قالوا : أن الكبراء الذين سببوا هلاك من كان حولهم ، أو سببوا هلاك أتباعهم ، حينما رأوا العذاب أسروا الندامة ، ولم يظهروها ، لأنهم إذا أظهروها فإنهم يصغرون في أعين أتباعهم .

مثلاً : إذا كان الإنسان لا يحاسب ، وارتكب غلطة كبيرة لا يعبر عن ندمه أبداً ، يُسِرُّ ندمه ، أحياناً الأب في البيت يرتكب غلطا ، ولا يجرؤ أحد على أن يحاسبه ، هو في أعماقه ندم ، لكنه لا يعترف بهذا الندم ، هذا يقع منهم قبل أن يأتي العذاب ، أما إذا مسهم العذاب وأسروا الندامة بمعنى أظهروها ،

وهناك معنىً ثالث أسروا الندامة أي ظهرت الندامة على سرائر وجوههم .

أول معنى : قبل أن يذوق العذاب أسر الندامة حفاظاً على مكانته أمام متبوعيه ، بعد أن مسَّه العذاب أعلن الندامة ، وفي كل الأحوال علائم وجههم تفصح عن ندامتهم الشديدة .

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

نحن في دار عمل ، وغداً دار الجزاء ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((عش ما شئت فإن ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارق ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به))

والله سبحانه وتعالى يقول :

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت : من الآية 40)

ليس هذا من باب أن الأعمال كلها مباحة ، ولكن هذا من باب التهديد .

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت : من الآية 40)

كل عملٍ سوف تحاسبون عليه .

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُون

1 ـ لا يُظلَم عند الله أحدٌ :

حتى الشاة التي نطحت أختها يقتص منها يوم القيامة ، حتى العصفور الذي قُتِلَ من باب التسلية ، اصطيد من باب التسلية يقول : يا رب سله لم قتلني ؟ فكل أعمال الإنسان سوف يحاسب عليها .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

أما أن تدعو الله عزَّ وجل وتقول : يا ربنا لا تسألنا عن شيء ، هذا كلام مخالف لكتاب الله ، هذا دعاء لا ينسجم مع كتاب الله ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

2 ـ لا يضيع عملٌ عند الله أحدٌ :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[الترمذي]

أي أنك لو وقفت في سيارةٍ عامة لشيخٍ كبير توقيراً لسنه ، وأجلسته مكانك فإن هذا العمل لا يضيع جزاؤه عند الله عزَّ وجل ، وأبلغ آيةٍ قول الله سبحانه وتعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

لو تدبرت آيةً واحدة لكفيت :

قال :

((يا رسول الله عظني وأوجز ، فتلا عليه هذه الآية قال : قد كفيت ، قال : فقُهَ الرجل))

[ورد في الأثر]

هذا الكتاب من ستمائة صفحة لو تدبرت آيةً واحدة لكفتك ، لو تدبرت قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

لكفتك .. لو تدبرت قوله تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

لو تدبرت قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية : من الآية 21)

لكفيت ، لو تدبرت قوله تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : من الآية 61)

لكفيت ، فإذا كان الإنسان صادقاً في توجهه تكفيه آية ، يكفيه حديثٌ شريف ..

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه))

((ابن آدم أطع ربك تسمى عاقلاً ، ولا تعصه تسمى جاهلاً))

هذا الحديث يكفي ..

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله))

[ورد في الأثر]

هذا الحديث يكفي ، وصادق الإيمان لا يحتاج لكلام كثير ، وصادق النية المخلص بها تكفيه كلمة ، وأحياناً يكفيه لفت نظر من الله عزَّ وجل ، أي أن الله بعث له مصيبة ، وكان قبلها في ذنب ، انتهى ، العلم حرف ، والتكرار ألف ، فهذه المصيبة توضحت لك بسبب هذا المال الحرام ، أتقع فيها مرة ثانية؟ إذا كان الإنسان لم يستفد من تجربته يكون أحمق ، ليست المصيبة أن يصاب المرء بمصيبة ، ولكن المصيبة كل المصيبة أن يصاب بمصيبة ، ولا يتعظ بهذه المصيبة ، لذلك قالوا : " من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر " .

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

1 ـ كلَّ شيء بتصرف الله :

كل شيءٍ في السماوات والأرض ملك الله عزَّ وجل ، إيجاداً وتصرفاً ومصيراً ، هو أوجده فهو ملكه ، وهو يتصرف بشؤونه .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ)

(سورة الأنفال : من الآية 17)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من الآية 123)

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38))

(سورة المدثر)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر : من الآية 2)

هذه :

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

نحن لله خلقاً ، ونحن لله تصرفاً ، ونحن لله مصيراً ، خلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً ، الأسباب بيده ، والوقائع بيده ، والنتائج بيده .

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83))

(سورة القصص)

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

1 - وعدُ الله واقعٌ :

أي واقع ..

(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ(6))

(سورة الذاريات)

الحقائق التي جاء بها القرآن واقعة ، وإن لم تؤمن بها ، عدم إيمانك بها لا يلغيها ، وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود ، فالأمر مستمر ..

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا(62))

(سورة الأحزاب)

(وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا(77))

(سورة الإسراء)

قوانين السقوط قائمة ، مطبَّقة ، منفَّذة ، إن آمنت بها وهبطت من الطائرة بالمظلة أنقذت نفسك ، وإن لم تؤمن بها ، وضربت بها عرض الطريق فإنك تموت ، قوانين الهندسة قائمة ، إذا استشرت المهندس ، ووضعت الكميات المناسبة ، والحديد المناسب ، ينجو بناؤك من الانهيار ، فإن لم تستشر فلابدَّ من أن ينهار ، لأنك إذا لم تعترف على علم المهندسين فعلمهم قائم ، وإن اعترفت على علمهم استفدت منه ، وإن لم تعترف فالحقائق التي يقولونها واقعة ، البناء قد ينهار .

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

1 ـ أنت مع مَن ؟

إذا كان أكثرهم لا يعلمون ، فأنت مع من ؟ مع الأكثرية أم مع الأقلية ؟

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا)

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 116)

فهل يقبل منك أن تقول : هكذا شأن الناس كلهم يا أخي ، وأنا واحد من الناس ، هكذا التقاليد الآن ، هكذا العادات ، هكذا ما تعارف عليه الناس ، هكذا نشأنا يا أخي ، هكذا العادات ، هكذا التقاليد ، كل الناس مخطئون ؟

اسمع قوله تعالى :

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(49))

(سورة الزمر)

يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، يعلمون التجارة والصناعة ، والزراعة ، وكسب المال ، وانتهاز الفرص ، وأصول الحياة ، وكيف يتنعمون بها ، وكيف يشترون الأجهزة المتنوعة في البيت ، هذا كله يعرفونه ، ولكنهم يجهلون المصير ، يجهلون ساعة يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فالعبرة أن تعرف الحقيقة كلها لا أن تعرف شطرها ، الله سبحانه وتعالى لم ينف عن الكفار شطر الحقيقة قال :

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

2 ـ الكثرة مذمومة في القرآن :

قد تلتقي بدكتور يحمل شهادة بورد ، ومع ذلك لا يعلم عن الآخرة شيئاً ، يعيش لحظته ، يعيش حياته الدنيا ، لا يستطيع أن يفكر أبعد من الموت ، يظن الموت نهاية الحياة ، ولا شيء بعد الموت ، هذا ليس علماً ، هذه حرفة ، وليس علماً ، العلم أن تعرف الحقيقة كلها ، فقوام البناء حديد وإسمنت ، إذا تعلمت أن الإسمنت له نسب معينة وطبقتها ، وأغفلت الحديد ينهار البناء ، البطولة أن تعرف الحقيقة كلها من كل جوانبها .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(49))

(سورة الزمر)

كن ابن نفسِك :

لذلك أيها الأخ الكريم لا تستأنس إذا كان الناس جميعاً في ضلال يقول لسان حالك ، أخي أنا مثل هؤلاء الناس ، أنا ابن عصري ، قال بعض علماء النفس : صحيحٌ أن الإنسان ابن بيئته ، وصحيحٌ أنه ابن محيطه ، وصحيحٌ أنه ابن ثقافته ، وصحيحٌ أنه ابن دراسته ، ولكنه في النهاية ابن نفسه ، أي ابن اختياره ، لذلك قد نجد عظماء في بيئاتٍ متخلّفة ، وعلماء في بيئاتٍ جاهلة ، والإنسان إذا اختار شيئاً لن يقف شيءٌ في طريقه ، وإن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلما تنقضه الأيام إذا كان صادراً حقاً عن إرادةٍ وإيمان .

أنَّك إذا أردت أن تكون مستقيماً في هذا الزمان كنت كذلك ، وكلمة : لا أستطيع كلمة مضحكة ، قد يقولون لك : استقم ، فهو خير ، فتقول : لا أستطيع ، وهذه كلمة مضحكة ، لأنك قد تفعل أشياء أخرى تبدو مستحيلة ، ولكنك بتصميمك عليها فعلتها ، ولو أنك صممت على أن تكون مستقيماً لبلغت الاستقامة ، لو صممت على أن تعرف كتاب الله لعرفته ، لو صممت على أن تصلي قيام الله لصلَّيته ، الذي تفعله صادقٌ فيه ، والذي تتوهم أنك لن تستطيع أن تفعله لست صادقاً في ادعائك ، التفسير العلمي لشيءٍ تقول عنه : أنا ليس بإمكاني أن أفعله ، هذا التفسير هو أنك لست صادقاً فيه ، ولو أنك صدقت في طلبه لحصَّلته .

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ

القرآن كما سيدنا علي : << حَمَّالُ أوجهٍ >> .

المعنى الأول :

يحيى هذا الجسد ويميته ، لذلك تعريف الموت حتى الآن غير واضح عند الأطباء ، هل يكفي توقف القلب ليموت الإنسان ؟ لا هل يكفي توقف النشاط العصبي ليموت الإنسان ؟ لا ، لا يزال تعريف الموت لغزاً من الألغاز .

إن الطبيب له علمٌ يدل بــه إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انقضت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقيــرُ

فالموت يخلقه الله عزَّ وجل ..

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

فكم من فتى مات من غير علةٍ وكم من عليلٍ عاش حيناً من الدهر

تزوَّد من التقوى فإنك لا تــدري إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجر

فكم من عروسٍ زينوها لزوجــها وقد قبضت أرواحهم ليـلة القدر

وكم من أناسٍ يرتجى طول عمرهم

أي أنهم ماتوا قبل الأوان .

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

المعنى الثاني :

المعنى الآخر أن الله سبحانه وتعالى يحيي هذا القلب بأنواره ، ويميته بالبعد عنه ، لأن هناك حياة من نوع آخر ، الحياة حياتان ، حياة الجسد وحياة القلب ، حياة الجسد معروفة ، ما دام هناك حركة وتفكير، وتنفس ، وخفقان قلب ، وتناول الطعام والشراب ، فهذه علامات الحياة ، وأما الموت فمعروف ، لكن حياة القلب من نوعٍ آخر .

ليس من مات فاستراح بميت ٍ إنما الميت ميت الأحياء

***

أحد العلماء واسمه إنشتاين ، هو الذي جاء بالنظرية النسبية ، وهي من أدق النظريات في الفيزياء ، قال : " كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوةً هي أقوى ما تكون ، رحيمةً هي أرحم ما تكون ، حكيمةً هي أحكم ما تكون ، هو إنسانٌ حيٌ ولكنه ميت " .

قال علي رضي الله عنه : << يا كميل ، العلم خيرٌ من المال ، لأن العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق ، يا كميل مات خُزَّان المال وهم أحياء >> .. خزان المال في أوج نشاطهم أموات .. ربنا عزَّ وجل قال :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل : من الآية 21)

هذا الذي لا يعرف إلا الطعام والشراب وكسب المال والانغماس في الشهوات هذا ميت .

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

وهذا الذي عرف ربه ، وأحبه ، وأقبل عليه ، وتقرَّب إليه ، وجعل حياته كلها في طاعته ، وجعل طاقاته كلها مسخرةً لخدمة عباده هذا الحي ، لذلك : << يا كميل ، مات خُزَّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة >> .

" كن عالماً ، أو متعلماً ، أو مستمعاً ، أو محباً " .. " ويظل المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل " ..

هناك رجل من الصالحين علم طلابه من سن السابعة عشرة إلى سن السابعة والتسعين ، أي ثمانين عاماً ، وكان إذا سار في الطريق ، ورآه أحد تلامذته يقول له : أنت فلان ، وكان أبوك تلميذي ، وكان جَدُّك تلميذي ، وكان يتمتع بصحةٍ جيدة ، من سمع مُرْهَف ، إلى بصرٍ حاد ، إلى ظهرٍ مستقيم ، إلى أسنانٍ كاملة ، حتى إن خده كان متورِّداً ، وذاكرته قوية ، فكان تلامذته يقولون : يا سيدي ما هذه الصحة ؟ أتمها الله عليك ! فكان يقول قولته الشهيرة : " يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر ، من عاش تقياً عاش قوياً " ، هذا الذي يقرأ القرآن لن يصاب بالخرف .

((من تعلم القرآن متَّعه الله بعقله حتى يموت))

[ورد في الأثر]

فلذلك :

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(49))

(سورة الزمر)

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

موت القلب بسبب المعاصي والذنوب :

قد يحيا هذا القلب ، وإذا أقبلت على الله أحيا الله قلبك ، فإذا أدبرت عنه مات قلب الإنسان ، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ ، وَاسْتَغْفَرَ ، وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ :

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)))

[الترمذي]

لما يسرف الإنسان على نفسه في المعاصي ، و ينغمس في الدنيا كأن هناك طبقةً تغطي قلبه ، إلى أن يصبح قلباً مغلفاً ..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ)

(سورة البقرة : من الآية 88)

يقول أحدهم : لم نتأثر ، هذه الحقائق لا تهز مشاعرنا ، نحب الدنيا ، قال الله تعالى :

(بَلْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

(سورة البقرة : من الآية 88)

لأنهم كفروا أصبحت قلوبهم غُلْفاً .

إذاً :

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

بالمعنى الأولي يحيى هذا الجسد ، يبث فيه الحياة ، وهو في بطن أمه ، فإذا جاء الأجل سلب الحياة فأصبح جثة هامدة .

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(56)يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ

1 ـ الحياة تعبٌ ونكدٌ :

الحياة متعبة ، والحياة فيها ثُقلات كثيرة ، فيها مزالق ، وفيها مواقف حرجة ، وفيها متاهات ، فيها ظنون ، وفيها فساد ، فإن لم يعتصم الإنسان بالإيمان الصحيح فسوف يضيع مع الناس ، سوف تنزلق قدمه ، سوف تزل قدمه ، وتهوي به في مكان سحيق .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ)

2 ـ المؤمن يرضى بقسمة الله له :

أحياناً تقرأ مقالة فتحس بضيق لا يعلمه إلا الله ، المقالة تأتي بإحصاءات عن مستقبل العالم ، ارتفاع أسعار ، شح في المواد ، أما المؤمن فيقرأها ولا معنى لها عنده ، لأن له رباً كريماً يحبه ، غنياً قديراً ، الناس كلهم بيده ، هل يخشى عدواً .

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِي(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ)

(سورة هود)

يكون بيته صغيرا ، رطبًا ، ثم يمر أمام بيت ثمنه خمسة أو ستة ملايين ، يطل على أربع جهات ، يقرأ الآية الكريمة :

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ(198))

(سورة آل عمران)

فتجده يرضى بهذا البيت ، وقد يكون ليس له أولاد فيرضى بقضاء الله :

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(49)أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا)

(سورة الشورى)

هذا من عند الله ، هكذا إرادته ، وهذه حكمته ، وهو يحبني ، وهذا أمثل شيءٍ إلي ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ، فتنتهي مشاكله ، اقرؤوا القرآن :

(وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور)

3 - القرآن شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور :

لا تبقى لدى المؤمن وسوسة ، ولا همّ ، ولا حزن ، ولا ضيق ، ولا قَلَق ، ولا يأس ، ولا شيءٍ من هذا القبيل ، هذا التمزُّق الداخلي ، انفصام الشخصية ، الخَوَر ، الضعف ، الخنوع ، هذه الأمراض التي فتكت بالناس ، ونحن مع ما عندنا من إيمان ، مع قراءتنا لهذا الكتاب في نعمةٍ كبيرة .

عُقِد مؤتمر للأمراض النفسية في بعض المدن الأجنبية ، وذهب من سوريا دكتور في علم النفس ، فلما جاء دوره في إلقاء الكلمة قال : أقول لكم ببساطة ليس في شرقنا أمراضٌ نفسية بالشكل الذي تعرفونه ، وبالعدد وبالحدة التي تعرضونها ، والجواب على هذا بسيط : لأننا مؤمنون بالله ، فمثلاً هذه التي لم تتزوج ، تؤمن أن الله لم يكتب لها أن تتزوج ، تجدها تصلي ، وتصوم ، وتحج مرتين أو ثلاثاً ، مواظبة على وردها وصلاتها ، وتخدم أخيها وأولاد أخيها ، تعيش مع إيمانها بسعادة كبرى ، أما الثانية التي في بلاد الغرب فإنها تنتحر :

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور)

إن قارئ القرآن لا يحزن ، فلا يمكن أن تحزن إذا قرأت القرآن بشكل صحيح وفهم لآياته واضح ، إذا كنت تقرؤه ، وتعقله ، وتفهمه ، وتطبِّقُهُ ، لا يمكن أن تحزن ، فهل من الممكن أن يحزن طفل أبوه ملِك، يخاف ألا يعطيه مصروفه كل يوم صباحاً مثلاً ، أو يخاف أن لا يجد بيتاً عندما يريد الزواج ؟ أبوه ملك ، أفلا يجد غرفة يسكن فيها ؟ بل يعطى ما يشاء ، نعطيك القصر كله ، هل يخاف الطفل الصغير من ارتفاع بعض الأسعار إذا كان أبوه ملكًا مثلاً ؟ هكذا المؤمن ..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

في بعض الآثار : يا عبدي ، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال له : يا رب ، لقد أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي أنك خيرٌ حافظاً ، وأنت أرحم الراحمين ، فقال : يا عبدي ، أنا الحافظ لأولادك من بعدك .

حتى إذا كنت مسافراً تقرأ دعاء السفر :

((اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى ، وَمِنْ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا ، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ))

[مسلم عن ابن عمر]

تبقى مطمئناً طيلة أيام غيابك ، وإذا لم يقرأ أحد الدعاء عند سفره يبقى قلقاً طيلة غيبته ، هل خرج ابني من البيت باندفاع شديد ، فمرت سيارة مسرعة فدُهِس ، هل أصابه مكروه ؟ كأن يكون إبريق الشاي انقلب على وجهه فحرقه ، لا تعرف ، يظل الإنسان قلقاً ، لكنه إذا سلم أمره لله عزَّ وجل فهو في راحةٍ نفسية واطمئنان ، وهذا من علامات الإيمان التوكل على الله ، والتفويض لأمر الله ، والتسليم لقضاء الله، والرضا بقضاء الله ، توكل ، وتفويض ، وتسليم ، ورضا ، هذه كلها من علامات الإيمان مزيد من الاطمئنان ، قالوا لأبي الدرداء : << يا أبا الدرداء ، لقد احترق دكانك ، قال : ما كان الله ليفعل ، يا أبا الدرداء ، لقد احترق دكانك ، قال : ما كان الله ليفعل ، إلى أن جاءه الخبر الصحيح ، لم يحترق دكانك ، قال : أعلم ذلك >> ، فهو مطمئن ، فقد فوّض أمره إلى الله سبحانه ، وتوكل عليه ، ثم غادر دكانه ، فكان الله خليفته في حفظ دكانه .

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

4 - القرآن موعظة وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ :

للناس موعظة وشفاء ، أما للمؤمن فهو هدى ورحمة ، الهدى أي أن طريقه واضح ، طريق الحياة واضح ، هذه حرام ، هذه حلال ، هذه تجوز، هذه لا تجوز ، عنده نور في قلبه ، فالله عزَّ وجل قال :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد : من آية 28)

إذا آمنت بالله ورسوله يؤتك كفلين من رحمته ، أي ضمانة في الدنيا وضمانة في الآخرة ، ويجعل لك نوراً تمشي به في الناس ، يريك الخير من الشر ، فالهدى ، هذا النور الإلهي الكشَّاف ، والرحمة ، هذا التجلي الذي يتجلى به الله على عباده المؤمنين .

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

1 ـ المؤمن يفرح بفضل الله عليه والكافر همّه الدنيا :

طبعاً الله سبحانه وتعالى يحب الرجل المؤمن إذا فرح بعطاء الله ، أما إذا فرح بالدنيا فهذا دليل سخفه ، وما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب ، علمه سخيف ، وهو شهواني ، أرضي ، يحب الدنيا ، يحب المُتَع الرخيصة ، مادي ، أناني ، همُّه بطنه ، قبلته زوجته ، إن رآه كذلك عاقبه عقاباً أليماً ، ما مرضه ؟ لا ، لا ندري ، والحقيقة هي أن الله تركه وشأنه تقوده نفسه الأمارة بالسوء فحظر عليه العلم والأدب ، هذه ليست لك ، هذه اتركها ، اتركها لعبادي الصالحين ، لا علم ولا أدب ، غليظ ، وقح ، ساخر ، متكبِّر ، لئيم ، لا علم ولا يفقه عن الآخرة شيئاً ، يأتي لك بكلام هراء من كلام العامة ويسألك : أهذه آية في القرآن ، أي آية هذه ، هذه آية ؟!! لا يفهم شيئاً ، لا يفهم الآية من الحديث من قول العامة ، يقول لك : خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود ، ويقول لك : أليست هذه الآية في القرآن ؟ هذه آية ؟! ما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب ، فهو جاهل ، وتركه الله في عماية الجهل واللؤم ، أما قال قارون :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

(سورة القصص : من الآية 78)

قال له قومه :

(قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76))

(سورة القصص)

2 ـ الله يحب الفرحين بالدنيا :

طبعاً الآية لها تفسير ، لا يحب الفرحين بالدنيا ، لأنها مؤقتة زائلة ، لكنه يحب الفرحين بالآخرة ، فلما يحقق الإنسان هدفه الأخروي ، ويفرح فوالله معه الحق ، وإنه على الحق ، لكن قبل تحقيق هدفه الأخروي الفرح لا معنى له ، هذا فرح ساذج ، فرح الأطفال بلعبة ، لكن الكبار يفرحون بشهادة عُليا ، يفرحون بمنصب رفيع ، يفرحون بزوجة تقيه ، يفرحون بمنزل واسع مناسب ، هذا شأن الكبار ، أما المؤمنون فإنهم يفرحون بعطاء الله ، يفرحون برضى الله عنهم ، إن رسول الله اللهم صلّ عليه وسلم

غادر مكة إلى الطائف ثمانين كيلو متراً على قدميه ، وسمع كلاماً مرذولا ، واستخفافاً ، ورداً قبيحاً ، وسخرية ، وتكذيباً من أهل الطائف ما يهُزُّ الجبال ، اتجه إلى الله عزَّ وجل وقال :

((يا رب ، إني أشكو إليك قلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا رب المستضعفين ، إلى من تكلني ؟ أإلى عدوٍ ملَّكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

الطفل يفرح بالخشخيشة ، باللعبة ، يفرح بحبة حلوى تعطيها له ، تكون دمعته على خده فيضحك ، والكبير يفرح ببيت ، بسيارة ، بوظيفة ، بزواج ، أما المؤمن فيفرح برضاء الله عزَّ وجل ، فما هناك منصب أرفع عند الله من أن يقال : فلان رضي الله عنه .

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح : من الآية 18)

ليس ثناء من الله أبلغ ولا أعظم من قوله تعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

لم يكن في بيته شيء ، دخل عليه عدي بن حاتم فلم يجد شيئاً من متاع إلا وسادة ، قال عدي : " فقذف لي وسادةً من أدمٍ محشوةً ليفاً " قال : " اجلس على هذه " ، قلت : " بل أنت "، قال : " بل أنت " ، فجلست عليها ، وجلس هو على الأرض ، ليس عنده شيء ، كان إذا صلى قيام الليل أمر السيدة عائشة أن تحوّل رجليها بعض الشيء ، لأن حجم الغرفة ضيّق ، ولا يتسع لنومها وصلاته ، قال له :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

اضطجَعَ على الحصير فأثَّرَ في جنبه الشريف ، قال عمر :

((فدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ ، فَجَلَسْتُ ، فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ قَالَ : فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ ، قَالَ : مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى ، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ ، فَقَالَ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا قُلْتُ بَلَى))

[متفق عليه]

أنا لست ملكاً ، هذه نبوة .. ثم إن أحد الخلفاء بني أمية سأل أحد التابعين فقال له : " أنا خليفةٌ أم ملك ؟ " قال له : " إن كنت قد جبيت درهماً من غير حقه ، وأنفقته في غير حقه فأنت ملك ، ولست خليفة " ، وقال له مذكّرا إياه : إنما هي نبوةٌ وليست ملكاً .

في رواية ثانية :

((أما ترضى يا عمر أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا))

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي]

الدنيا هينةٌ على الله ، يعطيها لمن يحب ، ولمن لا يحب ، هناك ثماني آيات في كتاب الله ، ثماني آيات حصراً ، المترفون هم الكافرون .

(كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة المؤمنون : من الآية 33)

هذا المترف الذي يعيش في بحبوحة مذهلة ينفق أموالاً بغير حساب ، هؤلاء لا شأن لهم عند الله عزَّ وجل .

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

لذلك قال الله عزَّ وجل :

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

تعال ألهُ معنا يا محمَّد .. كان طفلاً صغيراً .. قال لهم : " لم أخلق لهذا " ، أنا خلقت لأعرفه وأتقرب إليه ..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا

الحرام ما حرّمه الله والحلال ما أحلّه الله :

العلماء استنبطوا من هذه الآية ، أن الحرام ما حرَّمه الله ، والحلال ما أحلَّه الله ، ولا يحقُ لبني البشر أن يحللوا هم أو أن يحرِّموا ، بل إنه ليس تحريم الحلال بأقلّ ذنباً وافتراءً على الله من تحليل الحرام ، الحلال ما أحلَّه الله ، والحرام ما حرمه الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (13-17): تفسير الآيات 61 – 70
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-12-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ

1 ـ للإنسان حالٌ ومقالٌ وعملٌ :

من خلال هذه الآية بدا أن للإنسان حالاً ومقالاً وعملاً ، وقد قالوا عن النبي عليه الصلاة والسلام : " إن الشريعة أقواله ، والتقوى أفعاله ، والحقيقة أحواله " ، وكلٌ منَّا له قالٌ ؛ له لسان ، له علم ، وله حال، وله عمل ، فإذا تطابق القال مع الحال ومع العمل فهذا هو الكمال بعينه ، أن يكون قالك كحالك وكعملك ، وقد تجد إنساناً علمه أعلى من حاله ، وقد تجد إنساناً آخر حاله أعلى من علمه ، وقد تجد إنساناً آخر عمله أرقى من علمه ، وهكذا ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

2 ـ حالُ الإنسان مكشوفة لله :

الشأن هو الحال ، في حال الرضا ، في حال الشكر ، في حال الخوف ، في حال المراقبة ، في حال التوكُّل ، في حال الخَشْيَة ، في حال الإعراض ، في حال البعد ، في حال السخط ، في حال حب الذات، في حال المَكْر ، حالة الإنسان مكشوفةٌ أمام الله عزَّ وجل ، والقرآن كما قلنا من قبل : له خاصٌّ وله عام ، فإن توجَّهت هذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام فلا يمنع أن تخصَّ غير النبي ..

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

أي أن حالك في علم الله ، سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام حينما أزمع قومه أن يلقوه في النار جاءه جبريل فقال : " يا إبراهيم ألك حاجة ؟ " قال : " منك ؟! " قال : " لا ، من الله عزَّ

وجل " فقال : " علمه بحالي يغني عن سؤالي .

وإذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

الشأن هو الحال ، ولله عزَّ وجل شأن .

(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ(29))

(سورة الرحمن)

أي أن شأنه مع العبد متبدِّلٌ بتبدُّل شأن العبد ، إن كان شأن العبد إقبالٌ فشأن الله مع العبد إكرامٌ ، وإن كان شأن العبد مع الله إعراض ، شأن الله مع العبد معالجةٌ ، فلك شأنٌ ولله شأن ، شأن الله متبدِّل بتبدُّل أحوالك ..

(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد)

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف)

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

والإنسان يستطيع أن يغُشَّ الناس جميعاً إلى أمدٍ قصير ، ويستطيع أن يغشَّ واحداً إلى أمدٍ طويل ، لكنَّه في كل الحالات لا يستطيع أن يغشَّ نفسه لحظةً ، ولا أن يغشَّ ربَّه لحظةً ..

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

والله سبحانه وتعالى يعلم سرَّكم وجهركم ..

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى(7))

(سورة طه)

السر ما تخفيه عن الناس ، ولكنَّ الأخفى هو الذي يخفى عنك أنت بالذَّات ..

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

فَلِمَ النفاق إذاً ؟ تنافق لمن ؟ خالق السماوات والأرض يعلم شأنك ، تغطّي على من ؟ تُدَجِّل على من ؟ تخادع من ؟ ..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء : الآية 142)

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(30))

(سورة الأنفال)

هذه الآية :

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)

أي أن شأنك مكشوفٌ أمام الله عزَّ وجل ، لا تخفى عليه خافية ..

(وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ)

وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ

1 - الله أعلمُ بنيتك حين تتلو القرآن :

وإذا قرأت القرآن فهو في علم الله هل تقرؤه عبادة ؟ هل تقرؤه تفكُّراً ؟ أم تقرؤه تدبُّراً ؟ أم تقرؤه تقرُّباً؟ أم تقرؤه رياءً وسمعةً ؟ أم تقرؤه لتنتزع إعجاب الناس ؟ حالتك في أثناء قراءة القرآن مكشوفةٌ عند الله عزَّ وجل ..

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ)

2 - القول عملٌ تحاسَب عليه :

لذلك القول من العمل .. ربَّ كلمةٍ صالحةٍ أنبتت نباتاً طيّباً ..

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

(سورة إبراهيم)

(وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ)

وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ

الله يعلم كلّ ما يتعلّق بعملك :

العمل ، دوافعه ، أهدافه ، ملابساته ، وسائله ، نواياه ، حجمه ، حجم التضحيات التي بُذِلت من أجله كلُّه في علم الله ، حالتك ، وأقوالك ، وتلاوتك ، وأعمالك الباطنة والظاهرة ، الصغيرة والكبيرة ، المعلنة وغير المعلنة ، دوافعها ، وسائلها ، أهدافها ، حجمها ، تضحيَّاتها ، كل هذا في علم الله .

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً)

الله سبحانه وتعالى شهيدٌ علينا ، شهيدٌ على كل الخلق ، شهيدٌ على كل ذرَّةٍ في الكون ، يشهد لها ، ويشهد عليها ، ويشهدها .

(إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ)

إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ

معنى : تُفِيضُونَ فِيهِ

أفاض في العمل أي انطلق إليه ، فإذا فتحت باب دارك ، وانطلقت بحالة أية حالةٍ ، فماذا كان حالك ؟ فهو معلوم عند الله بحالة كسب المال الحلال ، هذه الحالة معروفةٌ عند الله عزَّ وجل ، بحالة خداع الناس لتأخذ أموالهم ؟ فهذه معلومةٌ عند الله أيضاً ، وهكذا كل حال ، قال عليه الصلاة والسلام :

((من تزوَّج امرأةً على صداقٍ وهو ينوي ألا يؤدّيه لها ـ من يعلم هذا ؟ لا يعلم هذا إلا الله ـ لقي الله وهو زانٍ ، ومن أخذ مالاً وهو ينوي ألا يؤديَّه لقي الله عزَّ وجل وهو سارق))

[الطبراني بسند صحيح عن ميمون الكردي عن أبيه]

هذه الحالة من يكشفها ؟ الله سبحانه وتعالى وحده ..

(وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء)

وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء

احذر فإن الله وسع علمه كل شيء :

أي أنه إذا استرق الطبيب النظر وهو يفحص امرأةً إلى مكانٍ لا يؤْلمها هذا من يعلمه ؟ الله سبحانه وتعالى ، وإذا استرق الرجل النظر إلى امرأةٍ في الطريق من يعلم هذا ؟ الله سبحانه وتعالى ..

(وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء)

أي : مهما بدا لك العمل طفيفاً ، ومهما بدا لك الحال يسيراً ، ومهما بدت لك الكلمة قليلةَ التأثير فإنها لا تعزب عن الله سبحانه وتعالى .

(وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ

1 - كل شيء في كتاب :

هنا شيءٌ دقيقٌ جداً ، أي أن أحوالك وأقوالك وأعمالك مسطورةٌ في كتابٍ مبين ، كأنَّ لك عند الله ملف.. كما يقولون .. فيه صفحةٌ لأحوالك ، وصفحةٌ لأقوالك ، وصفحةٌ لأعمالك ، وفي ضوء هذا الكتاب المبين الذي كُتِبَ فيه كل شيء يعاملك الله سبحانه وتعالى بالإكرام أو بالمعالجة ..

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ)

(سورة الحديد)

هذه المصيبة ليست ارتجاليَّة ، بل في كتاب ، لك عند الله كتاب فيه أحوالك وأقوالك وأعمالك ، في ضوء هذا الكتاب المبين الذي سُطِّرت فيه كل أقوالك وأحوالك وأفعالك قضى الله لك قضاءً ما ، إما تشجيعاً ، وإما تحذيراً ، وإما تأديباً ، وإما قصماً ، وإما تصحيحاً ، وإما دفعاً ، وإنا كشفاً ، في ضوء هذا الكتاب المبين الذي سُطِّرت فيه أقوالك وأحوالك وأعمالك فالله سبحانه وتعالى يقضي لك ، لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الإيمان بالقدر يُذهِب الهمَّ والحزن))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند غير صحيح]

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ)

(سورة الحديد)

الكتاب جاء هنا تفصيله ..

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

هذا الكتاب المبين الذي سَطَّر الله فيه أحوالك وأعمالك وأقوالك هو الكتاب الذي ورد في قوله تعالى :

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)

(ها)تعود على المصيبة ..

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(22))

(سورة الحديد)

إن ذلك على رحمته الله يسير لا على قدرته ، على قدرته شيء بديهي ، على رحمته أي ما يتناقل إلى سمعك من فيضانات مثلاً ، ومن زلازل ، ومن عواصف مدمِّرة ، ومن شُحٍّ في السماء ، ومن أمراض، ومن متاعب ، هذا كلُّه من أجل مصلحة الإنسان .

(فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

شأن الله سبحانه وتعالى بحسب شأن خلقه ..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف)

(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ(29))

(سورة الرحمن)

(وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{61} ألا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

ألا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ

1 ـ كن وليّاً لله وخذ كل مَيِّزات هذه المرتبة :

كن وليّاً لله وخذ كل مَيِّزات هذه المرتبة ، فحينما يعطى أحد الطلاب الشهادات العُليا فهو قد استحقَّ كل امتيازات هذه الرُتبة العلميَّة ، فكلمة وليًّا لله ، وهذه أعلى مرتبة .

2 ـ معنى الوليّ :

ما معنى الوليّ لله ؟ أي أنه استسلم لله فتولَّى الله هدايته ، وتولَّى الله إرشاده ، وتولَّى الله إسعاده ، وتولَّى الله حفظه ، وتولَّى الله الأخذ بيده من خيرٍ إلى خير ، ولا ينتهي به المطاف إلا في الجنَّة ، واستسلم لله ، هذه هي حقيقة الإسلام ؛ أن تستسلم لله ، أن تُفَوِّضَ له ، أن تتوكَّل عليه ، إذا استسلمت له تولَّى الله شأنك ..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 257)

3 ـ احذروا ولاية الشيطان :

لا يزال الشيطان يتولَّى أولياءه ، ويغريهم بالمعاصي ، ويورِّطهم بالجرائم إلى أن يصعدوا سُلَّم المشنقة، هذا من عمل الشيطان ، ولا يزال الله سبحانه وتعالى يتولَّى أولياءه بالحفظ ، والهداية ، وتنوير القلب ، والإرشاد ، والإسعاد حتى يأخذ بيدهم إلى الجنَّة ، فليس هناك حالٌ ثالثة ، إما أن يكون الرجل وليَّاً لله عزَّ وجل ، وإما أن يكون وليَّاً للشيطان ، إذا استسلمت لله عزَّ وجل تولَّى الله إرشادك ، وحفظك، وهدايتك ، وإسعادك..

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

ليس للوليّ شيء من هذا :

1 ـ الوليّ لا يملك النفع والضر :

أتلو على مسامعكم بعض الآيات القرآنية التي تصف سيِّد الأنبياء ، وهو النبي عليه الصلاة والسلام ، سيد الأولياء قال الله عنه :

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف)

إذاً لا يحقُّ لمن يدَّعي أنه وليٌّ أياً كان أن يدَّعي أنه يملك النفع والضُر ، يقولون : الولي الفلاني نَظَرَ في فلان فاهتدى ، هذه ليست لأحد ، ولا لرسول الله ، اقرأ قوله تعالى :

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص : من الآية 56)

2 ـ الوليّ لا يسقط عنه التكليف :

الولي الفلاني تجاوز مرحلة التكليف .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(13))

(سورة الزمر)

سيِّد الأولياء يخاف إن عصى الله عذاب يومٍ عظيم .

3 - الوليّ لا يعلم الغيب :

سيد الأولياء لا يعلم الغيب ..

(قُلْ لا أقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أعْلَمُ الْغَيْب)

(سورة الأنعام : من الآية 50)

سيِّد الأولياء لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضُراً ، إذا كان سيد الأولياء لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، وإن كان سيد الأولياء لا يعلم الغيب ، وإن كان سيد الأولياء يخاف إن عصى الله عذاب يومٍ عظيم ، فهل يستطيع وليٌّ على وجه الأرض أن يدَّعي خلاف ذلك ؟ هذا هو الحجم الحقيقي ، سُئل الإمام الجنيد رضي الله عنه : " من ولي الله ؟ أهو الذي يطير في الهواء ؟ قال : " لا " ، قالوا : " أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ " ، قال : " لا " ، فقالوا : " من هو ولي الله إذاً ؟ " قال : " هو الذي تجده عند الحلال والحرام " .

حتى إن ولي الله لو قال لك : إني رأيت المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقال لي : كذا وكذا ، فإن كان في هذه الرؤيا تطابق مع الشرع نقبلها منه ، وإلا يثبتُ الشرع ، وتردُّ الرؤيا ، بعد النبي عليه الصلاة والسلام لا يحقُّ لأحدٍ كائناً من كان أن يشرِّع ، وقد قال أبو بكر الصديق : << إنما أنا متَّبعٌ ولست بمُبْتَدِع >> .

العلماء الكبار قالوا : " نحن مُقَيَّدون بكتاب الله ، نعم كلّنا مقيَّدون ، إذا سمحنا بالشطحات والاجتهادات من دون ضبطٍ من كتاب الله فقد ضاع الدين ، وتلاشت معالمه ، وتخلَّف المسلمون .

(ألا إنَّ أوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

تعريف الوليّ في الكتاب والسنة :

النبي عليه الصلاة والسلام يُعَرِّف وليّ الله فيقول :

((الذين يُذكَر اللهُ برؤيتهم ، أولياء أمَّتي إذا رُؤوا ذُكِر الله بهم))

[ورد في الأثر]

تقع عينك عليه فتذكر الله سبحانه وتعالى ، هذه علامة .

علامةٌ أخرى كما قال عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ ، وَلا شُهَدَاءَ ، يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى))

[أبو داود عن عمر]

هذا تعريفٌ آخر .

تعريفٌ ثالث :

((هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ ، عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ ، وَلا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا ، فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ ، وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ ، لا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ ، وَلا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ))

[سنن أبي داود عن عمر بن الخطّاب]

مقياسٌ دقيقٌ جداً ، إذا خاف الناس جميعاً لا يخافون ..

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

المصلي لا يخاف ، ولا يحزن ، وقارئ القرآن لا يحزن ، لِمَ الحزن ؟ الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض ، الغني ، القوي ، العزيز ، الرحيم ، السميع ، المجيب ، وهو معك .

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدًّا(96))

(سورة مريم)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((لا يحزن قارئ القرآن))

[ورد في الأثر]

من علامات أولياءّ الله أنهم لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، إذاً : ولي الله هو الرجل الذي استسلم لله عزَّ وجل ، حينما استسلم لله عزَّ وجل تولَّى الله هدايته ، وإسعاده ، وحفظه ، وما يزال الله سبحانه وتعالى يأخذ بيد وليِّه حتى يدخله الجنَّة ، وحجم وليّ الله لا ينبغي أن يزيد على حجم سيد الأولياء ، فالنبي عليه السلام لا يملك للناس نفعاً ولا ضرَّاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورا .

يزعمون مثلاً أن أحد الأولياء توفي أحد تلاميذه ، فقال له : قم ، فقام ، فما هذه الخرافة ؟ إنها خرافة مفضوحة ، وكذلك من خرافاتهم رجل توفي فدخل في القبر ، فجاءه الملكان ، فإذا بشيخه يدفع الملكين من صدرهما ، ويقول لهما : " قوما عنه ، أمثل هذا يُسأل ؟ هذا تلميذي " ، لا ، لا ليس هذا صحيحاً ، بل هذا تخريف وافتراء ، سيد الأولياء لا يملك نفعاً ولا ضراً ، سيد الأولياء لا يعلم الغيب ، سيد الأولياء يخاف إن عصى الله ..

فأحبابنا اختاروا المحبَّة مذهباً وما خالفوا عن مذهب الحُبِّ شرعنا

***

لئلا تضيع معالم الدين ، كي يكون الدين كما بدأ ناصعاً واضحاً ..

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض]

لا تُعطوا الأولياء حجمًا لا يستحقونه :

هذا هو الدين ، عودوا إلى ينابيعه الأولى ، عودوا إلى كتاب الله ، إلى سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام، أما هذه القصص المزعومة ، وهذه الخرافات المفضوحة التي يذكرها بعض الناس عن أولياء الله فهذه ما أنزل الله بها من سلطان .

للولي كرامة هذه لا تُنكر ، أما أن يملك الولي هداية الناس ، نظر إليه فاهتدى ، لِمَ لم ينظر النبي إلى أبي لهب كي يهتدي وهو عمّه ؟ لمَ لم ينظر لأبي جهل كي يهتدي ؟ ما هو الضلال ؟ هو أن تعطي الإنسان حجماً أكبر من حجمه ، أو أن تُقلّل من حجمه ، أناسٌ أعطوا الأولياء أكبر من حجمهم هداهم الله ، وأناسٌ أعطوا الأولياء أقلَّ من حجمهم هداهم الله عزَّ وجل ..

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

في الدنيا لا يخافون .

من علامات المؤمن الصادق أن يقول لك : والله الذي لا إله إلا هو إنني أسعد الناس ، على دخله المحدود ، وعلى بيته الصغير ، وعلى متاعبه الكثيرة ، لأنه سعد بالله عزّ وجل .

مرَّة أخ كريم قال لي : ليس في الأرض من هو أسعد منّي إلا أن يكون أتقى مني ، والله أعجبتني هذه الكلمة ، فهو صادق ، لذلك :

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

(سورة آل عمران)

الخوف من غير الله من علامات البعد عن الله :

من علامات البعد عن الله الخوف من غير الله ، ومن علامات الشرك الخوف من غير الله ، أنت تقول: لا إله إلا الله ، تقولها مئات المرَّات ، ما معنى لا إله إلا الله ؟ أي أنه لا مسيّر في الكون إلا الله ، أي إليه يرجع الأمر كلُّه ..

(وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل : من الآية 51)

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

(سورة غافر : من الآية 20)

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ..

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

إذا ابتعد الإنسان عن الله عزَّ وجل ألقى الله الخوف في قلبه فانقلبت حياته جحيماً ، وانقلب غناه فقراً ، فأنت من خوف الفقر في فقر ، وأنت من خوف المرض في مرض ، وتوقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها، وما من مرضٍ يفتك بالناس اليوم في بقاع الأرض كالقلق ، وهناك كتابٌ أُلِف في أمريكا عنوانه " دع القلق وابدأ الحياة " ، طُبع منه خمسة ملايين نسخة ، لأن كل الذين اشتروه قلقون ، خائفون ، وجلون ، وكل بلد فيها مجموعة مُقْلِقَات ، في هذا البلد القلق من السرطان ، ومن الإيدز ، ومن مرض القلب ، وفي ذاك البلد الفلاني قلق من قائمة مخاوف ، حيثُما توجَّه الإنسان المُعْرِضُ البعيد أكلت قلبه المخاوف، أما الولي فلا خوفٌ عليهم ، لا يخاف ..

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي فأنا في غنى

إذا كان الله معك فمن عليك ؟! ..

(لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

(سورة التوبة)

عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ :

((مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟))

[البخاري ومسلم]

هذا هو الإيمان ..

(لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

أولياء الله لا يحزنون على الدنيا :

لا يحزنون على تركها ، ومن ضيق أفق الإنسان أنه يجد بيته مرتَّباً منظَّماً ، معتنى به ، أموره منظَّمة

، دخله كبير ، صحَّته طيبة ، لكنه يخاف من الموت ، يخاف أن يذهب إلى القبر ، إن كنت مؤمناً فأنت كما قالوا : " الرجل المؤمن يخرج حينما يموت من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما يخرج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا " .. حجم الرحم صغير ، يولد هذا الجنين ، ويكبر ، ويركب الطائرات ، يذهب إلى أمريكا ، يذهب إلى كندا ، يذهب إلى اليابان ، يذهب في نزهة إلى مصيف ، يأتي ويذهب ، يغوص في أعماق البحار ، يصعد إلى القمر ، كم النسبة بين حجم الرحم وحجم الأرض والسماء ؟ قالوا: " إن المؤمن يخرج حينما يموت من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما يخرج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا " .. لذلك :

(وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

على بيت تركَه مساحته ثلاثمائة متر ، لأنه أتى جنَّةً عرضها السماوات والأرض ، أو حزين على زوجة .

صحابي جليل ألحَّت عليه زوجته بشيءٍ لم يفعله النبي عليه الصلاة والسلام فلم يستجب لها ، فغضِبَت فقال لها : "اعلمي يا فلانة أن في الجنَّة من الحور العين ما لو أطلَّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أُضَحِّي بكِ من أجلهن أهون من أن أضحي بهنَّ من أجلكِ " ، يأخذ الزوج موقفاً حازماً ..

((إِذَا كَانَ أَمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا ، وَإِذَا كَانَ أَمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

مما وصف به النبي الناس في آخر الزمان أن قبلتهم نساؤهم ..

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

من علامات الإيمان الصادق أنك لا تخاف في الدنيا ، ولو لاح شبح الموت ، كأن تكون قد شعرت بألم في الصدر ، أو جاءت جلطة ، وكنت مؤمناً فمرحباً بلقاء الله ، لأن العبد المؤمن إذا مات استراح من عناء الدنيا .

واكربتاه يا أبتِ ، قال : " لا كرب على أبيكِ بعد اليوم غداً نلقى الأحبَّة محمَّداً وصحبه " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

(وَرَحْمَةٌ ربك خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(157))

(سورة آل عمران)

من الأموال الطائلة ، من البيوت الفاخرة ، من النساء الجميلات ، من البساتين المُزْدانه ..

(وَرَحْمَةٌ ربك خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(157)وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

إلى أين أنت ذاهب ؟ إنسان أمسكوا به وجرَّوه إلى أمِّه أينبغي أن يبكي ؟! إلى أين أنت ذاهب ؟ إلى بيت أهلك حيث الدفء ، والطعام ، والشراب ، والعطف ، والإكرام ، وكل شيء ..

(ألا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

بالمناسبة : لا يوجد في الدين كما يقول بعضهم : نحن رجال دين ، يجب أن يكون كلٌ منكم وليّاً لله ، أخي هؤلاء أولياء الله ، يجب أن تكون أنت من أولياء الله ، إذا أطعت الله طاعةً تامَّة فأنت من أولياء الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ..

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)

الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ

1 - الوليّ آمن بالله وهو مستمر على تقواه إلى الممات :

آمنوا فعل ماض ، عرف الله عزَّ وجل فآمن به ، لكن يتَّقون فعل مضارع ، والمضارع يفيد الاستمرار، أي طوال حياته يتقي الله ، يتقي أن يعصيه ، هذه مرتبة ، يتقي أن ينقطع عنه هذه مرتبة أعلى ، يتقي أن يكون في قلبه سواه ، مرتبة ثالثة ، وعندنا صيام عامَّة الناس عن الطعام والشراب ، وصيام المؤمنين هو صيام الجوارح عن المعاصي ، وصيام الأتقياء وهو صيام القلب عمَّا سوى الله ، فالولي يتقي أن يعصي الله ، ويتقي أن ينقطع عن الله ، ويتقي أن يكون في قلبه غير الله ..

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)

بجهود مستمرَّة ، يبذلون جهوداً كبيرةً لا تنقضي ..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة)

ِ تتجافى أي لا يرتاح في نومه بحياته ، يخاف أن يفوته الصبح ، لا يرتاح العصر بنومه لأنه يخاف أن تفوته صلاة العصر ، إذا جلس وسهر ، وتكلَّموا في شؤون شتى ، وخاضوا في الدنيا يشعر أن السهرة بلا طعم ، هذا كله كلام فارغ إذا لم يكن هناك ذكر لله عزَّ وجل ، أي أنه إن ضيَّع ساعةً من حياته لم يذكر الله فيها ، فحياته خسارة ..

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)

لكن الله رحيم بالمؤمنين .

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ

(لَهُمُ الْبُشْرَى)

1 ـ في القرآن والسنة بشرى للمؤمنين :

أول رحمته أنه بعث إليهم نبياً رسولاً ، وأنزل عليه قرآناً فيه بشارةٌ للمؤمنين ..

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه(19)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة المعارج)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15)آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16)كَانُوا قَلِيلا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17)وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(18)وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19))

(سورة الذاريات)

إذاً : في القرآن الكريم بشائر ، النبي عليه الصلاة والسلام بشَّر المؤمنين بالجنَّة فقال :

((مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ))

[الترمذي عن ابن عمر]

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

أي أن أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام كثيرةٌ جداً وكلُّها فيها بشارات للمؤمن ، والله سبحانه وتعالى أحياناً يتولَّى مباشرةً تبشير المؤمن بالجنَّة عن طريق الرؤيا الصالحة ، فالمؤمن أحياناً يكون مكسور القلب حزيناً ، يحزن على شيء واحد ؛ هو ألا يكون عند الله مرضياً ، هذا سبب حزنه الوحيد ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((الحزانى في كنف الله))

[ورد في الأثر]

((إن الله يحب كل قلبٍ حزين))

[ورد في الأثر]

((الحزانى معرَّضون للرحمة))

[ورد في الأثر]

الذي يغلب عليه الحزن بسبب قلقه حول ما إذا كان الله راضياً عنه أو غير راضٍ ، هذا الإنسان يتولى الله سبحانه وتعالى بشارته برؤيا صالحة ، يرى النبي عليه الصلاة والسلام يناديه باسمه ، يثني عليه ، يصافحه ، وأحياناً يقبِّله ، أحياناً يرى سيدنا الصدِّيق في المنام ، أو سيدنا عمر ، هؤلاء الأناس الأكارم الأولياء ، أحياناً يرى مرشده في المنام يبتسم له ، ويهش له ، هذه البشرى ..

(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)

2 - في القرآن والسنة بشرى للمؤمنين :

ففي الآخرة كيف تكون البشرى ؟ إذا بُعِثَ مَن في القبور بشَّر الله المؤمنين بالجنَّة ، أي أنه بين البعث ودخول الجنَّة هناك مسافة ، لئلا يبقى هؤلاء قلقين تأتيهم البشرى من الله عزَّ وجل فور بعثهم من مراقدهم .

(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ)

لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ

لا يتخلف وعدُ الله وكلماتُه أبدا :

أي أن زوال الكون أهون عند الله من تبديل كلماته ، كلمات الله الوعد والوعيد والقواعد الثابتة التي جاء بها القرآن ، أي :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

هذه إحدى كلمات الله الثابتات .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

أي في الستة آلاف مليون إنسان الذي يسكنون الكرة الأرضية اليوم إذا كان فيهم شخصٌ واحدٌ عمله طيّبٌ ، وكان مستقيماً ، ولم يكن سعيداً لا يكون هذا الكلام قرآناً ، لو أن حالة واحدة من ستة آلاف مليون حالة لم تنطبق على هذا الإنسان فهذا الكلام ليس كلام الله ، لكن :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

وإن وجدت واحداً مُعْرِضاً عن الله عزَّ وجل وهو سعيدٌ بإعراضه فهذه الآية ليست من كتاب الله ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125))

(سورة طه)

هذه الآية من كلمات الله .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية)

وهذه من كلمات الله ..

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

هل يُعْقَل أن ترى الكافر حكيماً ، رقيقاً ، منصفاً ، متواضعاً ؟ لا يُعْقَل ..

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

هذه من كلمات الله ..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

هذه من كلمات الله .

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من الآية 276)

هذه من كلمات الله ..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

هذه من كلمات الله ، أي أن القواعد الثابتة والوعد والوعيد ، كلمات الله تعني تلك القواعد الثابتة التي لا تتبدَّل ، ولا تتغيَّر ، ولا تُعدَّل ، ولا تُعطَّل ، ولا تُغَيَّر ، هذه كلمات الله..

(لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هذا هو الفوز العظيم ..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(58))

(سورة يونس)

(وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ)

وَلاَ يَحْزُنكَ قوْلُهُمْ

وقف لازم عند كلمة قولهم ، ولو وصلنا التلاوة لفسد المعنى .

(وَلاَ يَحْزُنكَ قوْلُهُمْ)

من عرف نفسه ما ضرَّته مقالة الناس فيه :

أي إذا استخفُّوا بك ، أو ردّوا دعوتك ، أو فنَّدوها ، أو اتهموك بالسحر ، أو اتهموك بأنَّ لك مقاصد دنيويَّة ..

(وَلاَ يَحْزُنكَ قوْلُهُمْ)

من عرف نفسه ما ضرَّته مقالة الناس فيه ..

(وَلاَ يَحْزُنكَ قوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً)

إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً

سبحانك إنه لا يذلُّ من واليت ولا يعزُّ من عاديت ، العزَّة لله جميعاً..

اجعل لــربِّك كل عزِّك يستقر و يثـبت

فإذا اعتززت بمن يموتُ فإنَّ عزَّك ميِّتُ

***

أي أن هؤلاء الذين يدعون من دون الله لا يتَّبعون شركاء حقيقيِّن ، فالله سبحانه وتعالى لا شريك له .

(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ)

نفعُ الشريك وهمٌ وظنٌّ :

متوهِّم أنه شريك لله ، لكنَّ هذا توهُّمٌ ، وليس حقيقة .

(إِلاَّ يَخْرُصُونَ{66} هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً

الليل للهدوء والنهار للحركة والنشاط :

الليل بسكونه ، النهار بضيائه ، النشاط والحركة في النهار ، وكسب الرزق في النهار ، وفي الليل سكون ، وهدوء ، وطاعة ، وصلاة ، ومناجاة ، لذلك ..

" إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار ، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل " .

إن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا فرساناً في النهار رُهْباناً في الليل ، وسيدنا عمر رضي الله عنه رأى رجلاً لا يعمل ، يقرأ القرآن في النهار ، فقال : << إنما أُنْزِلَ هذا القرآن ليُعْمَل به ، أفتَّخذت قراءته عملاً ؟ >> ، اقرأه في الفجر :

(إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78))

(سورة الإسراء)

قيمة الرجل ما يُحْسِنه ، يجب أن يكون لك عمل تنفع به المسلمين ، اختصاص تقضي به حاجة المسلمين ..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{67} قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ)

قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ

1 ـ الولد دليل نقص وعجز :

لماذا يتَّخذ أحدنا ولداً ؟ يرجو ولداً ؟ يتزوَّج من أجل الولد ؟ من أجل أن يكون ابنه استمراراً له ، يقول لك : هذا المال من الذي سيأخذه ، ابني يرثه ، تريد ولداً ليحيا ذكرك من بعد موتك ، هذا معقول لأننا نحن ميتون ..

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ(30))

(سورة الزمر)

أو أنك تريد ولداً يعينك إذا كبرت سنّك ، وشاب شعرك ، وضعف بصرك ، وانحنى ظهرك ، حينئذ تحتاج إلى ولد يعينك .

(سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ)

ربنا سبحانه وتعالى باقٍ على الدوام .

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ)

(سورة القصص)

هو الحي الباقي ..

(مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا(3))

(سورة الجن)

إذاً :

(قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا

1 ـ السلطان هو الحجَّة :

السلطان هو الحجَّة .

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(11))

(سورة المؤمنون)

السلطان هو الحجَّة ، الحجَّة تعطي صاحبها سلطاناً ، قال النمرود لسيدنا إبراهيم : من ربك؟ قال :

(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت)

(سورة البقرة)

أعفو عن شخصٍ فأحييه ، وآمر بقتله فأميته ، سيدنا إبراهيم كان فَطِناً ، أدرك أن متابعة النقاش في هذا الموضوع طريق مسدود ، قال :

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)

(سورة البقرة)

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام)

2 ـ كلّ مؤمنٍ صادق معه حجَّة على خصمه :

ولكل مؤمنٍ نصيبٌ من هذه الآية .. ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلَّمه .. ما من مؤمنٍ صادق إلا ومعه حجَّة يُفْحِمُ بها الخصوم ، ويُهَدِّم بها الباطل ..

(إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا)

أي ما عندكم من سلطانٍ بهذا ، أنتم بدون حجَّة ..

(أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{68} قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ)

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ

1 ـ افتراء الكذب من أجل الدنيا الزائلة :

أحياناً يكون أناس ضالّون مضلّون يفترون على الله الكذب من أجل الدنيا ، فكم ديانة وثنيَّة موجودة ؟ بجهات التبت والصين كان هناك ديانة ، وهذا الذي كان اسمه .. الداي لاما كان يجبي أموال الناس كلها إليه ، ويعيش في بحبوحةٍ كبيرة والناس جياع ، وهم يؤلّهونه ، هذا الافتراء على الله ، وهذا هو الكذب، كم يستفيد منه ؟ في الدنيا فقط ، إذا جاء الموت دخل إلى النار وبئس المصير ، وإذا دجَّل الإنسان، أو كذب ، أو افترى ، أو سحر ، أو فعل شيئاً خلاف الحق من أجل كسب المال فقط ، فمصيرهم كما قال ربنا عزَّ وجل :

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ)

فإذا أفتى الإنسان بشيء لا يرضي الله إرضاء لجهة من الجهات ، وكسب بسببها مالاً كثيراً .. يناله من هذه الجهة .. فهذا المال كم ينفعه ؟ ما دام حيَّاً ، فإذا مات انتهى ، شيء دقيق جداً ..

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ{69} مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا)

أي أن هذا الذي كسبوه من افترائهم على الله ..

(مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)

هؤلاء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، عندما يُسَخّر الإنسان الدين لمصالح شخصيَّة ، أو يوظّف الدين لمنافع دنيويَّة ، أو يَسْكُت عن الحق وينطق بالباطل من أجل دنيا عريضة ، من أجل مال ، من أجل زوجة ، من أجل بيت ، من أجل شيءٍ من حُطام الدنيا ، هذا الذي جناه من افترائه على الله الكذب لا ينفعه إلا في الدنيا ، والدنيا زائلة ، وشيكة التحوُّل ، كل حالٍ يزول ولا يبقى إلا حسابه العسير ..

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ{69} مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (14-17): تفسير الآيات 71 – 73
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-12-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

1 ـ موضوعات القرآن :

ذُكر في السورة قصَّتان : القصة الأولى ، وهي قصة سيدنا نوحٍ عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام ، والثانية قصة سيدنا موسى عليه السلام ، قبل الشروع في شرح القصتين لابدَّ من مقدمة . كتاب الله سبحانه وتعالى الذي بين أيدينا يضم موضوعاتٍ متعددة ، لو تتبعنا هذه الموضوعات لوجدنا في مقدمتها الآيات الكونية الدالة على عظمة الله تعالى ، هذا موضوع ، وهناك آيات التشريع ، وهذا موضوعٌ آخر ، وهناك مشاهد الجنة والنار ، موضوعٌ ثالث ، فلو قسَّمنا آيات القرآن إلى موضوعات لوجدنا أن بعضها يتحدث عن ذات الله سبحانه وتعالى من خلال خلقه ، بعضها يتحدث عن تشريعاتٍ دقيقة كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، بعضها ينقلنا إلى الدار الآخرة ، مشاهد الجنة وما فيها من نعيمٍ مقيم ، ومشاهد النار وما فيها من عذابٍ أليم ، وهكذا .

2 ـ القصة أسلوب تعليمي قرآني :

لكن عرض هذه الموضوعات له أشكال ، فمثلاً هذهِ الكأسُ لها شكلٌ وفيها مضمون ، الشكل: هذه الكأس بهذه الخطوط ، أما المضمون فهو ماء ، هذا الماء قد يوضع في كؤوس مختلفة ، ذات أشكال مختلفة ، ربنا سبحانه وتعالى حينما عرض موضوعات القرآن الكريم ، عرضها أيضاً بأشكالٍ مختلفة ، أحد هذه الأشكال السَرْد المُباشر ، ثاني هذه الأشكال المَثَل ، ثالث هذه الأشكال القصة ، فالقصة شكلٌ تعبيري من أشكال الأسلوب القرآني ، والله سبحانه تعالى يقول :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى)

(سورة يوسف : من الآية 111)

فلما يقرأ الإنسان كتاب الله ينبغي أن يعرف ما في السورة من موضوعات ، في هذه السورة موضوع البعث يوم القيامة مثلاً ، وفي تلك السورة موضوع بدء خَلْق الإنسان ، أما هذه السورة ففيها موضوع

الطلاق ، فالموضوعات إذاً متعددة ، لكن الموضوع الواحد يمكن أن يُعْرَضَ بأساليب متعددة ، فالله سبحانه وتعالى قال :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 276)

هذا سردٌ مباشر ، لكنك لو استمعتَ إلى قصة مُرابٍ انتهى ماله في النهاية إلى الزوال والهلاك ، وهذا شكلٌ آخر عُرِضَ به موضوع الربا ، إنه شكل قصصي ، والحقيقة أنك إذا قرأت القصة وجدت متعةً بالغةً في متابعتها ، ولو استمع الإنسان إلى قصةٍ لن ينساها أبداً ، أما لو استمع إلى محاضرةٍ ربما ينسى منها معظم أفكارها ، لأن طريقة عرض المحاضرة طريقة السَرْد المباشر ، أما طريقة القصة فطريقة الحدث والرواية وعرض الشخصيات ، وما شاكل ذلك ، ولو أن أحد كبار النُقَّاد درس ما في القرآن الكريم من قصص لوجد العجب العجاب .

قصةٌ واحدة كقصة سيدنا موسى ، عرضت في كتاب الله سَبْعَ عشرة مرة ، لكل مرةٍ زاويةٌ عُرضت منها ، وفي كل مرةٍ ضَوْءٌ سُلِّطَ على جانبٍ من جوانبها ، فهناك بداية القصة ، وعقدتها ، ونهايتها ، هناك الأحداث ، هناك الشخصيات ، هناك البيئة ، هناك الحوار ، فحينما تدرسون أو تقرؤون قصةً في كتاب الله ، ترون أن هذه القصة قد عرضت بأرفع أسلوب .

اختلاف الناس في التعامل مع القصة :

لكن الذي أريد أن أقوله لكم هو أن الإنسان حينما يقرأ قصةً يفقد خطوط دفاعه ، فكل إنسان له أفكار يؤمن بها ويصدقها ، إذا قرأ قصةً ما يمكن أن تتسرب إليه قِيَمُ هذه القصة من دون أن يشعُر ، من هنا كانت عظمة فائدة القصة وخطورتها في وقتٍ واحد ، فمثلاً قد تقرأ قصة تجد من خلالها أن كاتب القصة أسْبَغَ على إنسان معين صفات البطولة ، من شجاعة ، من ثبات ، من جُرأة ، من تضحية ، من بذل ، فإذا صوَّر لك هذا البطل الإيجابي بأنه يشرب الخمر مثلاً تسرَّب إلى نفس القارئ ، وهذا أخطر ما في القصة أن شُرْبَ الخمر من لوازم البطولة ، لذلك مِثْلُ هذه القصص تدمر جيلاً بكامله .

القصة فكرةٌ مع البرهان عليها :

إذا قرأت قصةً أو قصيدةً ، أو عملاً أدبياً وشعرت أنه حرَّك مشاعرك العليا فأنت أمام أدبٍ رفيع ، كما أن القصة سلاحٌ خطيرٌ جداً بيد الجهلة ، أو بيد المارقين مِن الدين ، أو بيد تُجَّار الأدب ، أو بيد من سوَّلت لهم أنفسهم إضلال المجتمع ، القصة في القرآن الكريم حَوَتْ أسلوباً تعبيرياً رائعاً جداً يأخذ

بقلوب القارئين ، فالذي لا يهتدي عن طريق البيان المباشر قد يهتدي عن طريق القصة .

هذا مثلٌ مِن واقعنا : لو أننا جمعنا سائقي السيارات في بلدةٍ ما ، وألقينا عليهم محاضرةً عميقةً جداً عن مضار السرعة ، فهؤلاء السائقون يتأففون ، يتململون ، لا ينتبهون ، يصرون على أنهم قادةٌ مهرة وسائقون يقظون ، فإذا رأى أحد السائقين المتهورين حادثاً مروِّعاً مؤلما ، وقد سالت فيه الدماء ، وبُتِرَت فيه الأعضاء فهذا المنظر يدخل في نفسه إلى المكان الذي يؤثِّر فيه ، ويتعظ ، فالإنسان بالقصة يتعظ ، فأن ترى حادثاً مروعاً بسبب السرعة أبلغ من أن تقرأ كتاباً عن مضار السرعة ، لأن هذا شيء حيوي ، ومثل حي ، لذلك قالوا : " القصة هي فكرةٌ مع البرهان عليها " .

يمكن أن أحدثك عن مُرابٍ كيف تَدَمَّرَ مالُه ، وهذا الحديث أبلغ من أن أقول لك : الربا حرام ، لذلك المُرَبِّي ، المعلم ، الأب في البيت ، يستطيع أن يستغل طاقة القصة التربوية إلى أقصى الحدود ، إذا جلس أب مع أولاده ليحدِّثهم ، وكانوا صغاراً ، حتى ولو كانوا كباراً يستطيع أن يسلك معهم أسلوب القصة ، قصة شاب استقام على أمر الله ، فرفع الله شأنه ، سيدنا يوسف مثلاً ، شاب ، عبدٌ في قصر ، لا يملك من أمره شيئاً ، ماذا فعل ؟ لم يفعل إلا أنه خاف الله رب العالمين ، و :

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(23))

(سورة يوسف)

فكافأه الله أن جعله عزيز مصر ، فأيها الأب ، أيها المعلم ، أيها الموجِّه ، أيُّ إنسان هو في موقع التوجيه ، عندك محل فيه خمسة عمال ، وأنت لك إشراف عليهم ، عندك أسرة ، أنت معلم بمدرسة ، موظف تحت يدك سبعة موظفين ، لك صفة الإشراف ، صفة التوجيه ، فكل إنسان في موقع التوجيه أو الإشراف قد يستخدم القصة كما استخدمها ربنا سبحانه وتعالى ليعظنا بها ، فبالقصة تصل إلى أعمق ما في الإنسان ، وبالقصة تصل إلى مكان التأثير ، فربنا عزَّ وجل في قصة نوحٍ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ

1 ـ القلّة إنْ كانت على حقٍّ فهي المنتصرة :

العجيب أن هذه القصة وردت في أماكن أخرى ، والأعجب من هذا أن أبرز أحداثها وهي السفينة ،

والطوفان ، لم يذكرا هنا إطلاقاً ، كأن الله سبحانه وتعالى سَلَّطَ الضوءَ على الحلقة الأخيرة فيها ، بعض المفسرين قالوا : " هذه القصة تؤكد حقيقةً واحدة ، وهي أن الأقلية إن كانت على حق ، سوف تنتصر على الأكثرية إن كانت على ضلال " ، فلما يؤمن الإنسان بالله ، ويستقيم يرى نفسه أحياناً وحيداً ، فيمكن أن يتواجد بمكان يلتقي فيه بثمانية أشخاص لا يصلّون ، قام وصلى وحده ، يكون في رحلة مع تسعةِ أشخاص شربوا ما حرم الله ، أما هو فقال : لا أشرب ، إني أخاف الله رب العالمين ، أحياناً يرى الإنسان أن أهل الحق قلة قد يخاف ، وإن رأى أهل الباطل كثرة قد يغريه هذا بالانضمام إليهم ، هذه القصة تُسَلِّطُ الضوء على هذه الحقيقة ، وهي أنك إذا كنت مع الله مهما كنت ضعيفاً ، ومهما كانت حيلتك ضعيفة ، ومهما كنت معدوم القوى ، أعزل ، فالله سبحانه وتعالى معك ، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله ، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك .

2 ـ نوح عليه السلام والمؤمنون به ضعفاء مستضعفون :

قوم نوحٍ على كثرتهم ، وعلى قوتهم ، وعلى استعلائهم ، وعلى كفرهم ، وعلى تمرُّدهم ، وعلى استخفافهم ، أغرقهم الله سبحانه وتعالى عن آخرهم ، وسيدنا نوح الذي كان قومه يسخرون منه .

(وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ)

(سورة هود : من الآية 38)

سَخِرُوا مِنْهُ ، ومن بناء السفينة ، حتى إنه قال لابنه :

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ(42)قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ(43))

(سورة هود)

فسيدنا نوح كان ضعيفاً ، والذين آمنوا معه ضعاف ، لذلك سيدنا النبي اللهم صلِّ عليه ، حينما أسلم عدي بن حاتم قال له :

((لَعَلَّك يَا عَدِيّ إنّمَا يَمْنَعُك مِنْ دُخُولِ فِي هَذَا الدّين مَا تَرَى مِنْ حَاجَتِهِمْ فَوَاَللّهِ لَيُوشِكَنّ الْمَالُ أَنْ يَفِيضَ فِيهِمْ حَتّى لَا يُوجَدُ مَنْ يَأْخُذُهُ وَلَعَلّك إنّمَا يَمْنَعُك مِنْ دُخُولِ فِيهِ مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ عَدُوّهِمْ وَقِلّةِ عَدَدِهِمْ فَوَاَللّهِ لَيُوشِكَنّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَرْأَةِ تَخْرُجُ مِنْ الْقَادِسِيّةِ عَلَى بَعِيرِهَا حَتّى تَزُورَ هَذَا الْبَيْتَ لَا تَخَافُ وَلَعَلّك إنّمَا يَمْنَعُك مِنْ دُخُولِ فِيهِ أَنّك تَرَى أَنّ الْمُلْكَ وَالسّلْطَانَ فِي غَيْرِهِمْ ـ لعل أن يكون هذا أحد الموانع ـ وَأَيْمُ اللّهِ لَيُوشِكَنّ أَنّ تَسْمَعَ بِالْقُصُورِ الْبِيضِ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ))

[السيرة النبوية لابن هشام]

فأحياناً الإنسان الضعيف تجده ينكص على عقبيه بسبب عقبات في طريق الإيمان توضع أمامه ، ويجد أن المؤمنين قلة ، وليس في أيديهم شيء ، وهم مستضعفون ، وأعداؤهم كثيرون ، فلا يملكون حيلةً ، ولا وسيلةً ، ولا شيئاً يظهرون به ، فيا أيها الإنسان ضعيفاً كنت أم قوياً كن مع الحق ولا تبالِ ، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟

النبي عليه الصلاة والسلام أسوة في الثبات على الحق :

ربنا سبحانه وتعالى في مواطن دقيقة جداً يرينا قدرته وتأييده لمن يصمد في وجه التيار ، فقد تعرض النبي الكريم إلى مواقف حرجة ، في الطائف سار على قدميه ثمانين كيلو متراً ، ليلقى عداوةً ، وسخريةً ، واستخفافاً ، وكفراً ، وردًّا ، وغير ذلك من الأذى ، ومع هذا بقي ثابتاً على المبدأ ، قال أحدهم : " ألم يبعث الله إلينا رجلاً سواك ؟ " ، فقال عليه الصلاة والسلام : " إن الله ناصر نبيِّه " ، حينما اجتمعت قريش ليثنوه عن دعوته ، عرضوا عليه زواجاً من أجمل امرأةٍ ، عرضوا عليه مالاً ، عرضوا عليه سيادةً ، قال :

((يَا عَمّ ، وَاللّهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أنْ أتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللّهُ أوْ أهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ))

[السيرة النبوية لابن هشام]

في معركة أُحُد شُجَّ النبي عليه الصلاة والسلام وانكسرت رباعيته ، وظل صابراً ، محتسباً ، ولم يثنه هذا عن مبدئه .

في الخندق اجتمع عليه العرب كلُّهم ، وجاءوا بجيشٍ لم يُجيَّش في الجزيرة مثله ، عشرة آلاف مقاتل جاءوا ليستأصلوا النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، ليست القضية قضية نصرٍ أو هزيمة ، قضية حياةٍ أو موت ، اليهود نقضوا عهدهم مع النبي ، حتى إن أحدهم قال : " أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته " ، أي دجلٍ هذا ؟ تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، ونحن على وشك الموت بعد ساعات ، على وشك أن نُباد كلياً ، لكن هذا الذي قال هذا الكلام لا يعرف الله ، ربنا عزَّ وجل يعرِّض الإنسانَ أحياناً لمواقف صعبة حتى يمتحن إيمانه ، سيدنا موسى حينما كان فارّاً من فرعون وقومه ، لما دنا من البحر قال أصحاب موسى :

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ(62))

(سورة الشعراء)

فهذه القصة تتحدث عن قومٍ بأكملهم ، أمةٍ بأكملها ، كفروا ، وكذبوا ، واستخفوا ، واستعلوا ، والنبي الكريم مع أصحابٍ قِلَّة كانوا على الحق ، لمن كانت الغلبة في النهاية ؟ ولمن كان النصر ؟ له

ولأتباعه، إذاً أنت حينما تؤمن بالله عزَّ وجل اعرف مع من تتعامل ؟ مع خالق الكون ، مع الذي بيده ملكوت كل شيء ، مع مَن :

(رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ)

(سورة الرعد : من الآية 2)

مع من :

(إِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود : من الآية 123)

مع الذي لا يقع شيءٌ في الكون إلا بإذنه ، مع الذي بيده حياة كل مخلوق ، أنت تتعامل مع الإله الحق ، فإذا استقمت على أمره ، إذا أحببته ، إذا أخلصت له ، إذا عملت الصالحات إرضاءً له ، هنيئاً لك في الدنيا والآخرة ، فالموضوع ليس موضوع أنْ آمِن ، أؤمن أو لا أؤمن ، الموضوع حياة أو موت ، سعادة أو شقاء ، صعود أو هبوط ، خلود في نعيمٍ مقيم أو في عذابٍ أليم .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ)

إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ

1 ـ ثقة نوح عليه السلام بربّه :

معنى كَبُرَ عليكم بمعنى ثَقُلَ عليكم ، أي أن دعوتي إلى الله تضايقتم منها ، ضِقْتُم ذرعاً بها ، لم تحتملوها ، إن كان كذلك فعلى الله توكَّلت ، أي افعلوا ما تشاءون ، فكأن الله سبحانه وتعالى يعرض علينا أعلى مستوى من الثقة بالله عزَّ وجل ، أي افعلوا ما شئتم .

من سحرة لفرعون إلى مؤمنين بموسى :

إنّ فرعون لما استقدم السحرة من أطراف البلاد ، بل إنه استقدم مهرة السحرة ، ووعدهم بمناصب عليا إن هم أعانوه على دحض دعوة سيدنا موسى ، فقالوا :

(أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ(41)قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(42))

(سورة الشعراء)

فكان هناك إغراء كبير جداً ، فجاء سيدنا موسى :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ(107))

(سورة الأعراف)

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120)قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121)رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122))

(سورة الأعراف)

إيمانهم نزلَ على فرعون كالصاعقة ..

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(123)لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ(124))

(سورة الأعراف)

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

هذا هو الإيمان ، المؤمن الحق لا تأخذه في الله لو لائم ، المؤمن الحق لا يخاف إلا الله ، أتخشون الناس ، والله أحق أن تخشوه ، لكن من هذا الذي يستطيع ألّا يخاف وهو لا يعرف الله سبحانه وتعالى ؟

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

هذا المصلي لا يخاف ولا يبخل ، والتِبْرُ عنده كالتُراب .

إذاً :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي)

2 ـ إذا أردتَ أن تعرف مقامك فانظر فيما أقامك :

فهذا المقام ، لو أن واحداً أقامه الله في مقام فلينظر في مقامه متفحصاً ، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما أقامك .. كلمةٌ موجزة إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما أقامك ، هل عملك الذي تعيش منه يعود بالخير على الناس أم بالأذى ؟ إن كان يعود بالأذى على الناس فهذا شر مقام ، وفي الأثر : " الخير بيدي ، والشر بيدي ، فطوبى لمن قدَّرتُ على يده الخير ، والويل لمن قدرتُ على يده الشر " .

إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك ، فإذا كان الإنسان في عمله عطاء للناس وفيه خدمة ، فهذا من دواعي السعادة ، وإذا كان عمله مبنياً على سَلْب أموال الناس ، وعلى بَثِّ الرُعب فيهم ، وعلى ظلمٍ ، فهذا مِن دواعي الشقاء ، كل إنسان له مقام ، أحياناً الإنسان يعيش من مصلحة دنيئة ، من مصلحة فيها معصية ، من طريقة في التعامل مع أُناس فاسقين ، فلو أن أحداً مثلاً فتح ملهى ، وباع فيه الخمر ، وباع فيه اللذَّة ، وجَمَّع ملايين ، هذا بنى رزقه على شقاء الناس ..

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة : من الآية 191)

احذر الفتنة فإنها أشد من القتل :

لأن هذا الذي يَقتل قد يموت شهيداً ، أما الذي يَفْتِنُ الناس فإلى جهنم وبئس المصير ، فهذه الكلمة يجب أن نعرف بالضبط حدودها ، كل إنسان يمتحن مقامه ، ألك عند الله مقام ؟ هذا المقام محبب ، إذا جعلك في خدمة الخلق ، المقام غير محبب يعني أنه جعل تأديب الخلق على يديك ، فالإنسان قبل أن يوافق على عملٍ ما يجب أن يعد للمليون ، هل في هذا العمل أذى للمسلمين ؟ هل فيه ضرر ؟ هل فيه شيء يتعبهم ؟ أم أن فيه نفعاً للمسلمين ؟ يمكن أن يقوم إنسان مقاماً يبيع حاجاتٍ تفسد حياة الناس ، تفسد عقائدهم ، تفسد إيمانهم ، تفسد وجهتهم إلى الله عزَّ وجل ، قبل أن تقبل عملاً ما عُدَّ للمليون ، أي ابحث، هل في العمل وجه حرام ، أله مؤدَّى حرام ؟ له آثار محرمة ؟ له أسباب محرمة ؟ لأنه لما يكون عمل الإنسان نظيفاً وبيته نظيفاً فأغلب الظن أنه يسعد ، أغلب الظن أن العقبات الأخرى تغدو ثانوية جداً ، ما دام العمل نظيفاً وبيتك نظيفاً فلا أي مشكلة ، أما إذا كانت الزوجة فاسقة ، أي غير منضبطة ، فهذه تسبب شقاء لا ينتهي ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إياكم وخضراء الدِمَن ، قالوا : وما خضراء الدِمَن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء))

[كنز العمال]

شيئان لاصقان في الإنسان : عملك وزواجك ، فإيَّاك أن تتسرع في موافقتك على الزواج من امرأةٍ ما، قد تكون شريرة ، قد تكون فاسقة ، قد تكون نبتت نباتاً سيِّئاً ، وقد تكون نشأت في بيئةٍ سيئة ، دنيئة ، لذلك : النبي عليه الصلاة والسلام حذَّرنا من المرأة الحسناء التي نشأت في منبتٍ سيئ ، فأنا علقت هذا التعليق على كلمة مقامي ، فكل إنسان يعرف ما مقامه عند الله .

هناك قول آخر : " إذا أردت أن تعرف مالك عند الله فانظر ما لله عندك " .

المقام المحمود للنبي ، ولكل مؤمن مقام عند الله :

وفي آية أخرى :

(وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79))

(سورة الإسراء)

هذا المقام المحمود ، هو مقام أوحد لا ينبغي إلا لرسول الله صلّى الله عليه وسلم :

((سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، وَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ))

[من سنن الترمذي عن عبد الله بن عمرو]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ ، وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[البخاري]

هذا أعلى مقام ، لكن لا يمنع هذا من أن يكون لكل مؤمن عند الله مقام ، أنت دعوت الناس إلى الله فَهَدَيْتَ ثلاثةً منهم ، مقامك قوته ثلاثة ، هديت خمسة ، فمقامك قوته خمسة ، وإذا كانوا مائة تضاعف مقامك إلى مائة ، أو إلى ألف ، سيدنا عمر قال : << ما أنا إلا حسنة من حسنات أبي بكر >> ، كل حجم سيدنا عمر حسنة من حسنات سيدنا أبي بكر ، قال عليه الصلاة والسلام :

((لو وزن إيمان الخلق مع إيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر))

[ورد في الأثر]

قال :

((ما ساءني قط))

[ورد في الأثر]

و قال عليه الصلاة والسلام :

((أعطاني ماله ، وزوجني ابنته ، ولا ساءني قط ، فاعرفوا له ذلك))

[ورد في الأثر]

قال :

((تسابقت أنا وأبو بكر فكنا كهاتين))

[ورد في الأثر]

هذه أعلى شهادة لسيدنا الصديق رضي الله عنه ، قال :

((ما صُبَّ في صدري شيء إلا وصببته في صدر أبي بكر))

[ورد في الأثر]

ما صُبَّ في صدري شيء من تجليات ، من علم ، من رَحَمات ، إلا وصببته في صدر أبي بكر ..

((لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ))

[البخاري عن أبي سعيد الخدري]

قرأت هذا الحديث الشريف في بعض زوايا الحرم النبوي الشريف فاقشعر جسمي .

العمل الشريف مقام كبير عند الله والناس :

ابن مسعود رضي الله عنه صافحه النبي عليه الصلاة والسلام ذات مرةً ، فرأى يده خشنة .. إذا كان أحدنا عمله بالحديد أو بالنجارة تجد يده خشنة ، أما إذا كان يعمل في الحرير فيده ناعمة .. وكان بيد ابن مسعود جرحٌ من عمل يده ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام :

((إن هذه اليد لا تمسُّها النار))

[ورد في الأثر]

هذا تقديس للعمل ، لا تكن عالةً على أحد .

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى))

[البخاري عن حكيم بن حزام]

((لأَنْ يَحْمِلَ الرَّجُلُ حَبْلا فَيَحْتَطِبَ بِهِ ، ثُمَّ يَجِيءَ فَيَضَعَهُ فِي السُّوق فَيَبِيعَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْنِيَ بِهِ فَيُنْفِقَهُ عَلَى نَفْسِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ))

[أحمد عن الزبير بن العوام]

قيمة المرء ما يحسنه ، وقد قال عمر : << إني إذا سمعت أن الرجل لا عمل له سقط من عيني >> .

الصحابة الكرام رأوا رجلاً قُبَيْل الشمس يغدو خارجاً من بيته ، فاتهمه بعضهم بحب الدنيا ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : " إن كان خرج في هذا الوقت ليسعى على عياله فهو في سبيل الله " .

[ورد في الأثر]

وقال عليه الصلاة والسلام :

((من بات كالاً في طلب الحلال بات مغفوراً له))

[ورد في الأثر]

ولحكمةٍ بالغة جعل الله سبحانه وتعالى الرزق الحلال صعبٌ ، وجعل الرزق الحرام سهلٌ ، وتعرفون أنتم تفصيل هذا الكلام ، من أجل أن تكسب رزقاً حلالاً صحيحاً مائة في المائة لابدَّ من أن تبذل جهداً كبيراً ، وإذا اخترت الطريق غير المشروع فربما قبضت في يومٍ واحد ما لا تأخذه في سنة بشكلٍ غير مشروع ، فلذلك قدَّس النبي الكريم العمل ، رفع من شأن الذي يكسب قوت يومه ، قال :

((لا تسألوا الناس شيئاً))

[ورد في الأثر]

سيدنا أبو بكر كان يركب ناقته ، وكان خليفة رسول الله .. أي قمة المجتمع .. وقع زمام الناقة ، وحوله أصحابه ، فنزل من على الناقة ليأخذ زمام الناقة ، فعجب أصحابه وقالوا : " نكفيك ذلك " قال : << لا ، أمرني حبيبي ألا نسأل الناس شيئاً >> .

((... وَلا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ))

[من مسند أحمد عن أبي كبشة]

قيمة المرء ما يحسنه .

يجب أن يكون لك عمل تعيش منه من أجل أن تضرب للناس مثلاً أعلى في البذل والعطاء .

سيدنا رسول الله أول ما نشأ أخذ مال خديجة وتاجر به ، وقال علماء الفقه : هذه أولُ شركةِ مضاربةٍ في الإسلام ، هي بمالها وهو بجهده ، وكان راعياً ، ولما يتقن الإنسان عمله تطمئن نفسه ، ويكون دخله حلالاً ، وأنا أقول لكم : إتقان العمل جزءٌ من الدين ، لا يتجزَّأ .

((إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند صحيح]

إنما أهلك الصُنَّاع

(الصَنَعَة)

قول غدٍ وبعد غدٍ .

إتقان العمل ، وتنفيذه في وقته المضروب جزءٌ أساسيٌ من دين الإسلام ، ويحسب الجهلة أن الدين بالصلاة والصوم فقط ، لا والله ، الدين في إتقان عملك ، الدين في إنجازه في الوقت المحدد ، الدين في الصدق ، الدين في المعاملة ، الدين في الورع ، الدين في خدمة الناس .

((الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[الطبراني عن أنس ، وفي سنده ضعف]

وربنا عزَّ وجل بالمرصاد يحاسب كلاً على عمله .

دخل شخص له سيارة فيها عطل على خبير بهذا العطل ، طلب منه الخبير عشرة آلاف ليرة ، صاحب السيارة لا دراية له بتصليح السيارات فرضي بهذا المبلغ ، فلما خرج قال هذا الرجل الغاش لجاره : هكذا الربح ، هكذا البيع والشراء ، هكذا المُشارطة ، قال له جاره : حرامٌ عليك ، سعرٌ فاحشٌ جداً ، قال: هو لا يعلم ، ابن هذا الرجل يعمل في مخرطة دخلت نثرة فولاذٍ في عينه فكلفته عشرة آلاف ليرة في اليوم التالي ، قال رجل عاصٍ : " يا رب لقد عصيتك ، ولم تعاقبني ، قال له : عبدي ، لقد عاقبتك ولم تَدْرِ " ، كله محسوب .

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

فلذلك الإنسان لما يتعامل مع الناس عليه أن يضع خوف الله بين عينيه ، فإذا خاف الله في تعامله مع الناس لن يبعث الله له أحداً يخيفه ، أما إذا استغلهم ، استغل حاجتهم ، رفع السعر ، أعطاهم بضاعة مغشوشة فإن ربك بالمرصاد .

أعطى صيدلي دواءً منتهياً مفعوله ، محل التاريخ ستة وثمانين ، مسحه أو حكه ، انتهى مفعوله ، باعه، بعتَ شيئاً فاسداً ، بعت شيئاً على أنه تصنيع هذه الدولة ، وهو تصنيع دولة أخرى ، هذا كله غش.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا ، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ ؟ قَالَ : أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي))

[مسلم]

على كلٍ ، كلمة مقام :

(إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي)

3 ـ التطبيق العملي لهذه الآية :

التطبيق العملي لهذه الآية فيه اختيار لكل واحد منا ليمتحن مقامه عند الله ، ألك مقام ؟ فإذا وقفت بالبيت لتصلي هل تحسُّ بصلة بالله ؟ هل تنهمر من عينيك الدموع ؟ هل يقشعر جلدك لخشية الله ؟ ألك مكانة ، هل تحس أنك غالٍ على الله عزَّ وجل ؟ هل تحس أنك بأعيننا ؟ .

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

هل تحس أن الله يدافع عنك ؟ هل تحس أن الله ينصرك ؟ هل تحس أن الله معك حيثما تحركت ؟ هل تحس أن الله يلهمك ؟ يسدد خطاك ؟ هذا هو المقام ، فكل واحد منا له مقام بحسب عمله ، وإذا أردتم تفصيلاً لذلك فعندنا في القرآن آيتان :

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79))

(سورة الإسراء)

هذه صلاة الليل تسبب رفع المقام ، هذه واحدة .

الآية الثانية :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام : من الآية 132)

كل إنسان له عند الله درجة بحسب عمله .

(إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ)

افعلوا ما بدا لكم ، افعلوا ما شئتم ، كان واثقاً من نفسه إلى أبعد الحدود ، واثقاً من طهارة قلبه ، قال :

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة النمل : من الآية 79)

لماذا ؟ قال :

(إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

من دواعي التوكل على الله أنك على الحق المبين ؟

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ)

فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً

1 ـ معنى : فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ

أي جنِّدوا كل طاقاتكم ، وارسموا خططاً أنتم ومن معكم ..

(وَشُرَكَاءَكُمْ)

(فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً)

2 ـ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً

كلمة الغَم من معانيها المادية الستر ..

((فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ))

[متفق عليه]

معنى غمَّ عليكم ، أي كان هناك سحابٌ يحجب القمر .

وأحياناً الغَم هو ضيق النفس ، وهناك علماء وفّقوا بين المعنيين ، الغم هو الستر ، والغم هو ضيق النفس ، إذا الإنسان وقع في ورطة ولم ير حلاً لها ، يُصاب بضيق النفس ، فالاتصال بين المعنى المادي وهو الستر ، والمعنى المجازي وهو ضيق النفس أن الإنسان إذا وقع في مشكلةٍ عويصة ليس لها حل يفكر في مخرج فلا يجد ، إذا سدت عليها المخارج ، أي لم ير مخرجاً ضاقت نفسه ، فهذه الآية حملت على معنيين ..

(إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً)

أي لا تفعلوا شيئاً بالسِرِ ، اكشفوا عن نياتكم ، فأنا لا أخاف منكم ، صَرِّحوا بذلك ، أعلنوا ذلك ، هذا منتهى الثقة بالله عزَّ وجل ، منتهى الثقة بأن الأمر كلَّه بيد الله ..

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

(سورة غافر : من الآية 20)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف : من الآية 54)

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد : من الآية 41)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ)

خططوا ونَفِّذوا ولا تنتظروا ، ولا تأخذكم بي شفقة ، ولا يأخذكم بي عطف ، ولا تخفوا عني شيئاً ، افعلوا ما بدا لكم تحت ضوء الشمس ، النبي الكريم قال :

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

كن واضحاً ، كن صريحاً ، لا تُخْفِ شيئاً ، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً ، قال رجل لسيدنا عمر : " هل تحبني ؟ " قال له : " والله لا أحبك " .. بصراحة .. قال له : " هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ " قال له : " لا والله " ، فالمحبة شيء ، وأن يصل حقك إليك شيءٌ آخر .

إذاً :

(إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ)

من القراءات قراءة فاجمعوا أمركم ، تعني أَجْمَعْتُ صِدْقَهُ ، أي عزمت على صدقه .

(فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ)

وأمر شركائكم ، تعاونوا جميعاً على إيقاع الأذى بي ، تعاونوا جميعاً أنتم وشركاؤكم ..

(ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ)

(ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً)

لا تأخذكم بي شفقة ، لا تستتروا ، لا تحسوا بالضيق بما تفعلون ، افعلوا .

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ)

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

أيْ لم تؤمنوا بي ، لم تصدقوني ، لم تأخذوا بكلامي ، لم تقدروا هذه الدعوة ..

(فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ)

1 ـ الداعي إلى الله لا يسأل الناس أجرًا :

مثلاً : لو أنني أتقاضى على توجيهكم أجراً باهظاً ، وأعرضتم عني فإنه يأتيني ضيق لقلة الرزق ، كطالب يأخذ درسا عند أستاذه ، كل ساعة بمائتين وخمسين ليرة ، الخميس لم يأت هذا الطالب ؛ فيتضايق الأستاذ ، خسر مائتين وخمسين ليرة ، لمَّا يبلغه أنَّ الطالب لا يريد أن يكمل دروسه عند الأستاذ ، وانتهى حضوره ينزعج أكثر ، يقول : لعله مريض اليوم ، أما الطالب فيقول : لا أريد الدروس نهائياً ، يتضاعف ألمه ، فهذا النبي الكريم ، وهؤلاء الدعاة الصادقون ماذا يأخذون منكم ؟ .. إن آمنتم فلكم وإن أعرضتم فعليكم .. الذي تدفعه اقطعه .

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)

2 ـ لا تبتغ الأجر إلا من الله :

لو أنني أسألكم أجراً لفُسِّرَ قلقي عليكم قلقاً على الأجر أن يضيع .

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(72)فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ)

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ

قصة وعبرة :

يروون قصة قد تكون رمزية ، ومغزاها أن امرأة آمنت بسيدنا نوح ، وحينما علمت أن هناك طوفاناً كبيراً يعم المنطقة ، ولن ينجو أحدٌ منه رَجَتْه بإلحاحٍ أن يذكرها قبل الطوفان حتى تركب معه السفينة ، تروي هذه القصة الرمزية أن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام وهو في السفينة والموج كالجبال ، وقد تم إهلاك كل الناس عدا مَن في السفينة تذكر المرأة ، فأسِفَ أشد الأسف ، وتألم جداً لأنه نسيها ، فلما انتهى الطوفان .

(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(44))

(سورة هود)

الله ينجي المؤمنين :

جاءت هذه المرأة إلى سيدنا نوح فقالت له : " يا نوح متى الطوفان ؟ " ، أي أن الله عزَّ وجل لا ينسى أحداً ، لا تخف فالإنسان ينسى ، أما الله فلا ينسى ، إذا كنت معه ينجيك ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قرر إهلاك ستة آلاف مليون إنسان عدا واحد ينجو بقدرة الله ، بمعجزة منه سبحانه .

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

فأنا الذي أراه أن الذي يثبِّت المؤمن على الحق هو الله ، غير أن الحق منطقي ، والحق يلبي كل حاجات فكره ، وغير أن الحق يعطي تفسيراً متكاملاً للحياة ، نعم تفسيراً متكاملاً ، يفسِّر الحياة ، وما بعد الحياة ، الموت ، وما بعد الموت ، طبيعة العمل الصالح ، الأسرة ، فضلاً عن أن الحق يُعْطي تفسيراً شافياً ، كاملاً ، متماسكاً ، صحيحاً ، وفضلاً عن أن الحق يلبِّي حاجة الفكر البشري ، وفضلاً عن أن الحق منطق وواقعي ، الذي يثبِّت المؤمن على الحق أن الله سبحانه وتعالى يعامله بعد توبته معاملةً جديدة ، يوفِّقه ، يقول لك أحدهم : كان بيتي جحيماً فصار نعيماً ، كنت أشكو من عللٍ كثيرة فشفاني الله منها ، كان عملي صعباً فصار سهلاً ، كانت نفسي تزيغ في الطريق فتوحَّدت وجهتها ، كان لي مع زوجتي كل يوم مشكلة فأصبحت زوجتي مثالية ، وأصبحنا زوجين سعيدين ، هذا كله بفضل الحق ، فلما يتوب الإنسان توبة نصوحاً يعامله ربنا عزَّ وجل معاملة خاصة ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد : من الآية 11)

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ(72)فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ(73))

النتيجة : فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ

فالإنسان يكون مع الأقلية المؤمنة لا مع الأكثرية الفاسقة ، الكلمة الوحيدة الآن : يا أخي الناس كلهم هكذا ينقسمون إلى فريقين ، هل أنت وحدك جيد ؟ كن مع الأقلية المؤمنة لا مع الأكثرية الفاسقة .

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 116)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

حقيقة قالها علماء التفسير : أن الله سبحانه وتعالى حينما قال :

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

لا يهلك الله قوما إلا بعد إنذارهم :

لِمَ لمْ يقل : فانظر كيف كانت عاقبة المكذبين ؟ وقالها في آيات أخرى ، استنبط العلماء أن الله سبحانه وتعالى لا يهلك قوماً إلا بعد أن ينذرهم ..

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

بعد الإنذار يأتي الهلاك ، وهذا الشيء المنطقي ، يُروى أن سيدنا عمر جاءوا إليه برجل قد سرق ، فقال : " والله يا أمير المؤمنين هذه المرة الأولى " ، قال : " كذبت إن الله لا يفضح من أول مرة " ، فلما أجرى تحقيقاً معه كانت هي المرة الثامنة ، إن الله لا يفضح من أول مرة ، الله رحيم ، الإنسان يغلط ، الله يعطيه مهلة .

علمت أن إنساناً كان يركب سيارته أصيب بأزمة قلبية وهو يقودها ، أول عمل بعد أن أفاق من النوبة القلبية طلب مسجلة حتى يصرِّح أن المحل الفلاني ليس له وحده ، بل له ولإخوته جميعاً ، وإخوته فرحوا بذلك ، لأن هذا الاغتصاب قد انتهى ، بعد أن صحا وانتعش وذهب إلى البيت ، وأزيحت عنه هذه الأزمة ، وعاد إلى ممارسة عمله التجاري ، أنكر حقهم في ذلك ، وطوَّب المحل التجاري باسمه الشخصي ، وبعد ثمانية أشهر مات ، فقلت في تحليل هذه القصة : سبحان الله ! إنَّ الله عزَّ وجل أعطاه فرصة ، هذه الأزمة الأولى فرصة ليتوب ، الهلاك يكون بعد الإنذار دائماً ، الإنذار أولاً ، ثم الهلاك ثانياً ، فلما يرى الإنسان مناماً مخيفاً ، يكون له عمل منحرف ، ماله حرام ، إنه معتدٍ ، ظالم ، فيه انحراف ، إثم ، وفجور ، فحشاء ، رأى مناماً مخيفاً جداً ، عليه أن يأخذ بهذا المنام ، وأن يَحْمِلَهُ على محمل الجد ، وإلا فسوف يقع .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (15-17): تفسير الآيات 74 – 82
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-12-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، بعد أن وردت قصَّة سيدنا نوحٍ عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ، وكيف أنَّ قومه كذَّبوه فأغرقهم الله قال الله سبحانه وتعالى :

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

1 - إرسال الرسل دليل على رحمة الله بالعباد :

الحقيقة أنَّ خلق السماوات والأرض يدلُّ على أسماء الله الحُسنى ، ومن بين هذه الأسماء الحُسنى قوَّته ، وغناه ، وعلمه ، وحكمته ، وإرسال المُرسلين إلى البشر يدلُّ على رحمته بالعباد ، فمثلاً أبٌ إن كان له ابنٌ شاردٌ لا يدَّخِرُ وسعاً في نصحه وإرشاده صباح مساء ، ليلا ونهارا ، فإرسال الأنبياء والمرسلين إلى البشر دليل رحمة الله سبحانه وتعالى ..

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ)

أي :

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

2 - لكل قوم نبي يهديهم بطريقته :

وبعضهم فهم هذه الآية فهماً موسَّعاً ، لكل إنسان طريقةٌ يهتدي بها ؛ هذا يهتدي بالإقناع ، وهذا يهتدي بالتضييق ، وهذا يهتدي بالخَوْف ، وهذا يهتدي بمصيبةٍ تصيب ماله ، وهذا يهتدي بالمرض :

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

ولكل قومٍ رجلٌ يدعوهم إلى الطريق الصحيح ، الشيخ محي الدين يقول :

لكل عصرٍ واحدٌ يسمو به وأنا لهذا العصر ذاك الأوحدُ

***

إذاً :

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

3 ـ من سمات دعوة الأنبياء الوضوح :

أي أن الشيء البارز في دعوة الأنبياء الوضوح ، قال عليه الصلاة والسلام :

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 83)

و ما اتخذ الله وليّاً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه .

((إن الله عالِمٌ يحبُّ كل عالِم))

[ورد في الأثر]

من سمات دعوة الأنبياء البارزة الوضوح ، الأمور واضحةٌ جداً ، هناك تفسيرٌ كاملٌ للكون ، تفسير للحياة ، للموت ، للبعث من بعد الموت ، لما قبل الحياة ، لما بعد الحياة ، تفسير للعمل ، تفسير لكل شيء ، الأنبياء يقدِّمون تفسيراتٍ متكاملة لكل مظاهر الحياة ، بينما النظريَّات الأخرى تقدِّم تفسيرات مجتزأة ، مبتورة ، ناقصة ، غير كاملة ، لا تشفي الغليل ، الحق يثبت والباطل يبطُل أي يزول ..

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

لأن هذه النظريَّة الوضعيَّة ليست مستندة إلى أساسٍ متين ، لذلك لا تقف على قدميها ، تتلاشى سريعاً ، تتداعى سريعاً ..

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

4 ـ البينات هي المعجزات :

بعضهم فسَّر البينات بالمعجزات ، والمعجزة دليلٌ قاطع على أن هذا الإنسان مرسلٌ عند الله ، لأن إحياء الميت لا يستطيعه أحد من بني البشر ، فإذا أحيا سيدنا عيسى ميّتاً فهذا بإذن الله ، إذاً هو رسول الله ، أن تنقلب العصا إلى ثعبانٍ مبين هذا لا يستطيعه بشر ، لابدَّ من أن هذا الذي فعل ذلك هو رسول

الله ، الذي جعل البحر طريقاً يبساً هذا ينبغي أن يكون رسول الله ، الذي جاء بهذا التشريع المُعْجِز الذي لم يغادر صغيرةً ولا كبيرة هذا أيضاً رسول الله ..

(فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

إذاً بعض تفسيرات البيِّنات المعجزات التي أيَّد الله بها أنبياءه .

5 ـ البينات هي الحجج القاطعة :

وبعضهم قال يضيف إلى هذا المعنى : " البينات هي الحجج القاطعة " ، كيف يُقال : إن محمداً سحر أصحابه ، بماذا سحرهم ؟ بالمنطق ، بالحق الذي لا يُرَدُّ عليه ، ماذا قال بعض الأعراب ؟ قالوا : " والله ما قال النبي شيئاً وقال العقل خلاف ذلك " ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((قِوام الرجل عقله ، ومن لا عقل له لا دين له ، ومن لا دين له لا عقل له))

[ورد في الأثر]

((وتبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً ، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرُّهما وصومهما وصلاتهما ، ويختلفان في العقل كالذرَّة جنب أحُد))

[ورد في الأثر]

عندما خلق الله العقل قال له :

((أقْبِلْ فأقْبَلْ ، ثم قال له : أدْبِر ، فأدْبَر ، فقال : وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبَّ إليَّ منك بك أعطي وبك آخذ))

[ورد في الأثر]

فإذا استخدم الإنسان عقله استخداماً صحيحاً لحظةً واحدة ، وأجرى محاكمةً منطقيَّة سَعِدَ إلى الأبد ، فإذا عطَّل عقله أو أساء استخدامه شقي إلى الأبد ، مناط السعادة والشقاء .. بك أعطي ، وبك آخذ .. فاستخدام العقل بشكلٍ صحيح مناط السعادة ، ومناط الشقاء تعطيله أو إساءة استخدامه ..

(فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

6 ـ المؤمن له من هذه الآية نصيب :

المؤمن له من هذه الآية نصيب ..

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 83)

مؤمن ، مخلص ، صادق معه حجَّة ، ويمشي على بيّنة ..

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : من الآية 108)

علامة المتبع لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم أنه يدعوك على بصيرة ، الأمور عنده واضحةٌ تماماً ..

(فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ)

فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

التكذيب صفة للأمم الكافرة قديما وحديثا :

لهذه الآية مجموعة تفسيرات ، أوجه هذه التفسيرات : أن الكفر هو هُو ، قديماً وحديثاً ، كل أمةٍ كفرت بربها لها موقفٌ من الحق ثابت هو التكذيب ، التكذيب في الأمم جميعاً مهما اختلفت عصورها وأمصارها..

(فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا)

هذه الصيغة أشدُّ أنواع النفي ، لا تنفي الحَدَث إنما تنفي الشأن ، قلت هذا كثيراً سابقاً : إذا قلت : فلان لم يسرق فأنت بهذا نفيت عنه الحدث ، أما إذا قلتَ : فلان ما كان له أن يسرق نفيتَ عنه إمكانيَّة السرقة، فهذا الذي يغرق في بحر شهواته ، وينغمس في الباطل ، ويعتدي، ويطغى ما كان له أن يؤمن ، فإذا أمضى الإنسان كل وقته في الملاهي ما كان له أن يكون طبيباً ، لا ننفي عنه حيازته لهذه الشهادة بل ننفي عنه إمكانيَّة أن يكون طبيباً ، هذا تقريب للواقع ، فهؤلاء الأقوام :

(فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ)

هذا الذي كذَّب به أسلافهم هم سيكذِّبون به ، ولم يؤمنوا ولن يؤمنوا لأن إمكانيَّة الإيمان وهم على ما هم عليه معدومة ، كأن تنظر إلى إنسانٍ غارق في ملذاته وفي شهواته ثم يقول لك : سأكون مهندساً ، تقول له : ما كان لك أن تكون مهندساً ، إنَّك في وادٍ والعلم في وادٍ آخر ، فهذا النفي المراد منه أشدُّ أنواع النفي ، المبالغة في النفي ..

(فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ

1 ـ الطبع على القلب نتيجة لكسب الإنسان :

أي أن الإنسان أحياناً لضيقٍ في أفقه أو لسرعةٍ في فهمه يظنُّ أن الله سبحانه وتعالى ختم على هذا القلب فلا يهتدي أبداً ، يقول لك : الأمر بيد الله ، فعلاً بيد الله هذه كلمة حق ، لكن إذا قلت في مَعْرِض الهداية ، إذا اعتذرت بعدم هدايتك أن الأمر بيد الله فهذه كلمة حقٍّ أريد بها باطلٍ ، أودُّ أن أضرب لكم بعض الأمثلة : فإذا دخلت إلى بيت صديقٍ لك يحمل الدكتوراه ، وهذه الشهادة معلَّقةٌ على الحائط ، فقرأتها فإذا فيها : " لقد منح مجلس الجامعة فلاناً الفلاني درجة الدكتوراه في الطب ، أو في الهندسة ، ونال حقوق هذه الشهادة وامتيازاتها "، أنت في هذا العصر هل تفهم من هذا الكلام أن رئاسة الجامعة طرقت أحد الأبواب ، وقالت لفلان : تعال لنعطيك الدكتوراه ، أم أن هذا الذي مُنحَ هذه الشهادة كان أهلاً لها ؟ أُلِّفَتْ لجنةٌ للإشراف على أطروحته ونُوقِشت هذه الرسالة ، وقد مضى على تأليفها سنواتٌ عدَّة ، وكان قبلها قد حاز الماجستير ، وقبلها قد حاز اللّيسانس ، وقبلها قد حاز الثانويَّة بعلاماتٍ مرتفعة، فهل تفهم أيها الأخ الكريم من كلمة : منح مجلس الجامعة فلان الفلاني الدكتوراه ، هل تفهم من هذه الكلمة أن هذا المنح بلا مقابل ؟ بلا استحقاق ، بلا جهد ، بلا تعب ، بلا كسب ، بلا أهليَّة ، بلا اصطفاء ؟ أخي : الله جعل فلاناً نبيَّاً ، هذه النبوَّة هبة من الله ..

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

بالمقابل إذا قرأت في بعض البلاغات : يُحْرَم فلان الفلاني من التقدُّم للامتحان ، فهل تظن أن مجلس الجامعة يحرم طالباً بلا سبب ؟ لا بل حرمه إما لانقطاعه عن الدوام ، أو لتطاوله على بعض المدرِّسين؟ أو لإساءته للنظام ، فكلمة مُنِحَ وكلمة حُرِمَ بالبديهة من دون تعقيد مقابلها أعمال قام بها هذا الذي مُنْحَ الشهادة ، وأعمال سيِّئة قام بها هذا الذي حُرِمَها ، إذاً عندما يقول ربنا عزَّ وجل :

(كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

لا ينبغي لك يا أخي الكريم أن تفهم كلمة نطبع بمعنى أن الله عزَّ وجل شاءت إرادته أن يختم على قلب فلان فلا يهتدي ، لا ، الإنسان من بني البشر يترفَّع عن ذلك ، لا يَحْرِم ، ولا يعاقب ، ولا يفصل ، ولا يطرد ، ولا يمنح إلا ذا استحقاق ، فهل يُعقَل أن الله سبحانه وتعالى و بلا سبب طبع على قلب فلان ؟ إن طبع على قلب فلان فلا بد من سبب ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ

(كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)))

[سنن الترمذي]

2 ـ الفعل من الله والسبب من العبد :

إذاً : ربنا عزَّ وجل إذا عزا الفعل إليه فمعنى ذلك : أن هذا الفعل من حيث التنفيذ بيده ، أما من حيث السبب بيد فلان ، كأن تقول : المعلّم رَسَّبَ فلاناً الفلاني ، قرار الترسيب بيد المعلّم ، وهو الذي كتب رَسَبَ في صفّه ، وهو الذي وقّع ، لكن هذا الطالب رسب لاستحقاق ، لأنه كسول ، فإذا رأيت فعلاً في القرآن قد عُزِيَ إلى الله لا يذهبنَّ بك الظن إلى أن الله شاءت إرادته أن يفعل بفلانٍ كذا وكذا من دون اختيارٍ منه ، نحن مخيَّرون في إرادتنا ، ومسيَّرون في أعمالنا ، وتسييرنا لما اخترنا .

تسيير الله عزَّ وجل يُحْمَلُ على ثلاث احتمالات ، إما أن يسيرنا الله سبحانه وتعالى لتحقيق اختيارنا ، فهذا التسيير تجسيدٌ لاختيارنا ، وإما أن يسيرنا لتشجيعنا على نيات طيّبة أو عملٍ طيّب ، فهذا إكرام ، وإما تسييرٌ يؤدِّبنا فيه على تقصيرنا ، إذاً التسيير من الله تعالى إما تجسيد ، أو تشجيع ، أو تأديب ، وعمل الإنسان مبنيٌّ على اختياره ، والإنسان مخيَّر ، لكنَّه إذا اختار معصية الله عزَّ وجل يسيِّرُهُ الله لتحمُّل نتائج عمله ، كما لو أن مواطناً اختار أسلوباً خاطئاً في التعامل ، والقوانين تحظِّر هذا الأسلوب.. مثلاً .. هو اختار ذلك ، وبعد أن اختار ذلك ليس مخيَّراً بعدها في أن لا يلقى نتائج أعماله ، لابدَّ من أن يلقى نتائج أعماله بحسب اختياره ، فكلمة :

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

إذا عُزِيَ الطبع إلى الله عزَّ وجل فلأسبابٍ تعود كليَّةً إلى العبد لقوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : من الآية 5)

3 ـ الذي يعتدي لا بد له من عقاب :

هناك معنى آخر يُستنبط من هذه الآية ، وهو أن الذي يعتدي .. بالمعنى الواسع لا بد له من عقاب ..

العدوان هو تجاوز الحد :

الكلمات في القرآن الكريم تأخذ معنىً ضيّقاً ومعنىً واسعاً ، فالعدوان في القرآن بمعناه الواسع كل تجاوزٍ للحقوق ، لو تجاوز الإنسان على حقِّ إنسانٍ ما فقد اعتدى عليه ، لو جعلت إنساناً ينتظر بلا سبب ساعةً فقد اعتديت على وقته من دون سبب ، إذا سمحت لنفسك أن تأخذ من ماله فوق ما تستحق فقد اعتديت على ماله ، إذا نظرت إلى امرأةٍ لا تحلُّ لك فقد اعتديت على زوجها ، هذه عِرْضُهُ ، واعتديت عليه ، واعتديت على نفسك فَحَرَمْتَها الإقبال على الله عزَّ وجل ، فالعدوان بهذا المعنى واسعٌ جداً ، إلقاء نظرةٍ على امرأةٍ لا تحلُّ لك نوعٌ من أنواع العدوان ..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(7))

(سورة المؤمنون)

تجاوَزَ الحد ، إذا أساء إنسانٌ إليك فرددت عليه بإساءةٍ أكبر فأنت معتدٍ ..

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

(سورة الشورى : من الآية 40)

4 ـ المعتدي لا يهتدي :

الملخَّص : المعتدي لا يهتدي ، لماذا ؟ تفسير ذلك أنه بعدوانه منقطعٌ عن الله عزَّ وجل ، وأنت تعرف الله بنور الله ، وتهتدي إلى الله بالله ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، فالمعتدي بعدوانه محجوبٌ عن رَبِّه ، وإذا حُجِبَ عن الله عزَّ وجل حُجِبَ عن أنواره ، أنَّى لأنوار الله عزَّ وجل أن تدخل إلى قلبه ؟! ..

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

لذلك :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

هو نفسه ..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : من الآية 50)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

انتهت الآية ، أي أن هذا الذي ينهاك عن الصلاة لا تُجَشِّم نفسك مشقَّة سماع كلامه إطلاقاً ، وليكفك منه أن تنظر إلى أفعاله الدنيئة ، إلى انحرافاته ، إلى شذوذه ، إلى أنانيَّته ، إلى حبِّه لذاته ، إلى استعلائه، إلى بناء مجده على أنقاض الآخرين ، إلى بناء غناه على فقرهم ، إلى بناء حياته على موتهم، هذا الذي ينهاك عن الصلاة لا تنظر إلى كلامه ، لا تنظر في فحوى كلامه ، بل انظر إلى أفعاله ، أفعاله تؤكِّد لك أنه ليس على الحق ، لو أنه على الحق لأمرك بالصلاة ..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10)أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11)أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12))

انظر إلى أخلاقه ، إلى ورعه ، إلى عقَّته ، إلى كماله ، إلى شجاعته ، إلى كرمه ، انظر، لو لم يكن للمؤمن لسان فَعَمَلُهُ ينطق بأنه مؤمن ، ولو بقي الكافر صامتاً فَعَمَلُهُ وحده ينطق بأنَّه كافر ، فيه لؤم ، يقابل الإحسان بالإساءة ..

أعلِّمه الرماية كل يـومٍ فلمَّا اشتدَّ ساعده رماني

وكم علَّمته نظم القوافي فلمَّا قال قافية هـجاني

***

فلذلك :

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

بمعنى أن المعتدي لا يهتدي ، لذلك لا تُحمِّل نفسك مشقَّة مناقشة المعتدي لأنه لن يهتدي ..

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى(9))

(سورة الأعلى)

ولكن شَمِّر لهداية المُستقيم فإنه قريب المأخذ ، سريع التأثُّر ، سريع الاستجابة .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

1 ـ هذا هو فرعون بطغيانه :

من فرعون ؟ ماذا قال فرعون ؟ قال فرعون :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص : من الآية 38)

هذا قاله في المرة الأولى ، أما في المرَّةِ ثانية :

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

فربنا عزَّ وجل قال :

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى(25))

(سورة النازعات)

يعجب المفسِّر لماذا بدأ الله بالآخرة وثنَّى بالأولى ، مع أن الترتيب المنطقي الأولى والآخرة ، لأن قوله الآخر الثاني كان أشدَّ كفراً من قوله الأول ، فالله سبحانه وتعالى بدأ بالأقوى .

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى(25))

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ(51))

(سورة الزخرف)

رجل بدأ يناجي ربَّه فقال متعجباً : يا رب ..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا)

(سورة طه)

2 ـ مع ذلك فلابد من اللين والرفق :

نبيٌّ كريم .. هو سيدنا موسى .. يأمره الله سبحانه وتعالى أن يُلين القول لمن قال :

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

ولمن قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص : من الآية 38)

فأنت أيها الأخ الكريم المؤمن إذا كان فرعون على ما هو عليه من الكفر يجب أن تقول له قولاً ليناً ، فما قولك إذا دعوت إنساناً إلى الله عزَّ وجل ؟ فهل تقسو أنت عليه ؟

يروي التاريخ أن أحد الأمراء جاءه واعظ فقال له : " أيها الأمير سوف أعظك بغلظة " ، فقال هذا الأمير : "ولِمَ الغلظة يا أخي ؟ لقد أرسل الله مَن هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌّ مني ، أرسل موسى إلى فرعون فقال له :

(فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا)

(سورة طه من الآية 44)

إذاً : مَن أمر بمعروفٍ فليكن أمره بمعروف ..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

ولن تستطيع أن تؤثّر في قلوب الناس إلا بإحسانك قبل لسانك ، وقلوب أهل البلاد المفتوحة فُتِحَت للمسلمين قبل أن تُفْتَح بسيوفهم ..

((رأس العقل بعد الإيمان بالله التودُّد إلى الناس))

((بُعِثْت بمداراة الناس))

[ورد في الأثر]

والمداراة بذل الدنيا من أجل الدين ، بينما المُداهنة بذل الدين من أجل الدنيا ، لذلك التودُّد إلى الناس ، لين القول ، الرحمة ، العمل الطيّب ، الخدمة ، هذه رسل الهدى ، قبل أن تنصحه بالصلاة أرِهِ من شخصك مثلاً أعلى في التعامل ، كن صادقاً معه ، كن رحيماً به ، كن عطوفاً عليه ، ابذل من وقتك ومالك لخدمته حتى يهتدي بهداك .

إذاً :

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

حتى الكافر ..

وفي الأثر : " لو يعلم الكافر انتظاري لتركِ معاصيه لتقطَّعت أوصاله من حبّي ، و لمات شوقاً إليّ ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف إرادتي بالمقبلين " .

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44))

(سورة طه)

قال أحد العلماء : علمت رحمتك بمن قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص : من الآية 38)

فكيف رحمتك بمن قال : لا إله إلا الله ؟!

هذه الآيات تعلّمنا الأدب ، تعلمنا اللطف في الدعوة إلى الله ، والآية الكريمة تكفي ..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159))

(سورة آل عمران)

جاءه أعرابيٌّ وقال له : " أعطني مما أعطاك الله " ، فأعطاه النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له : يا أعرابي هل أحسنت إليك ؟ " قال : " لا ولا أجملت " ، فهبَّ أصحاب النبي ليقتلوه لأنه تجاوز الحدود ، فقال النبي: " دعوه " ، أخذه إلى البيت وزاده من العطاء ، فقال : " يا أعرابي هل أحسنت إليك ؟ " ، قال : " نعم وأجملت " ، قال : " لقد جئتنا فسألتنا فأعطيناك ، فقلت ما قلت ، وفي نفوس أصحابي من قولك شيء ، فإذا خرجت إليهم فقل لهم مثلما قلت إلي " ، فلمَّا خرج إليهم قال النبي الكريم : " إنَّ هذا

الأعرابي سألنا فأعطيناه فقال الذي قال ، فلمَّا زدناه قال غير ذلك ، أهكذا يا أعرابي ؟ " قال : " نعم أحسنت وأجملت " . ثمَّ انطلق في سبيله ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : " مثلي ومثل هذا الأعرابي كرجلٍ له ناقة شردت عنه فجعل أصحابه يتبعونها فزادوها نفوراً فقال : خلُّوها إليّ ، تبعتها ووضعت لها من خشاش الأرض وأرحلتها فانقادت إليّ ، لو تركتكم وشأنكم لهلك وهلكتم " .

[ورد في الأثر]

هذه رحمته صلَّى الله عليه وسلَّم .

قال أعرابي جلف للنبي : " والله ما عدلت يا محمَّد " ، فقال عليه الصلاة والسلام وقد نبض عرقٌ في جبينه ، وكان هذا العرق إذا غضب ينبض ، قال له : " ويحك فمن يعدل إن لم أعدل ؟ " . مَنْ في الأرض يعدل إن لم أعدل ..

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

3 ـ علية القوة قدوة لغيرهم :

إلى فرعون ومَلَئه ، ليس فرعون وحده هو المقصود بل عليَّة قومه ، هؤلاء الذين هم قدوةٌ للناس ، يميل الناس حيث يميلون ، إن سيدنا عمر رضي الله عنه كان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصَّته قبل كل شيء وقال : " إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير ، إن رأوكم وقعتم وقعوا ، وايم الله لا أوتينَّ بواحدٍ وقع فيما نهيتُ الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني " ، فعلَّق بعضهم على هذه القصَّة بقوله : " فصارت القرابة من عمر مصيبة " ، مصيبةٌ كبيرة أن تكون قريباً من عمر ، لأن العقاب سوف يتضاعف .

المقصود إذاً فرعون وملئه ، هؤلاء الذين ينظر الناس إليهم .. ويجلونهم .

(بِآيَاتِنَا)

الدالَّة على الرسالة والنبوَّة ؛ العصا ، وشقُّ البحر ، واليد البيضاء..

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِين

1 ـ من أسباب الكفر الاستكبارُ ، والتواضع علامة الإيمان :

أحد عوامل الكفر الكِبْر ، ومن علامات المؤمن التواضع ، تواضعوا لما تتعلَّمون منه ، وتواضعوا لمن

تعلّمونه ، والتواضع لابدَّ منه في التعلُّم والتعليم ، وقال أحد العارفين بالله لبعض تلامذته وقد تجاوز حدَّه: " يا فتى نحن إلى أدبك أحوج منَّا إلى علمك " .

الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

2 ـ تواضع النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه :

اخفض جناحك ، كان عليه الصلاة والسلام يُكْرِمُ أصحابه كثيراً ، كان يحبُّهم ، كان يثني عليهم ، كان يعرف أقدارهم .. " والله يا معاذ إني لأحبُّك " .. ولسيدنا سعد : " هذا سعدُ ، هذا خالي أروني خالاً مثل خالي ".

سيدنا أبو عبيدة أمين هذه الأمَّة ، كل صحابيٍّ جليل أعطاه النبي عليه الصلاة والسلام وصفاً يليق به .. " لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر " .. "تسابقت أنا وأبو بكر فكنَّا كهاتين ، ما صُبَّ في صدري شيء إلا وصببته في صدر أبي بكر " ، هكذا يجب أن تحبَّ من تعلّمه ، تحبَّهم ، أن تعرف أقدارهم ، أن تنزلهم منازلهم ، أن تقدِّر أعمالهم ، تضحيَّاتهم ، ورعهم ، استقامتهم لكي يحبُّوك ، يحبَّهم ويحبُّونه ..

(فَاسْتَكْبَرُوا)

أمَّا فرعون وملؤه فقد استكبروا ، والكِبْر مدمِّر ..

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

[مسلم عن عبد الله بن مسعود]

ما من فاتحٍ على وجه الأرض فتح بلدةً إلا وأخذه التيهُ ، وأخذته الغطرسة والاستعلاء والعلو ، وما شاكل ذلك ، إلا النبي عليه الصلاة والسلام حينما فتح مكَّة دخلها مطأطِئَ الرأس ، فلمَّا جمعهم ، وكان بإمكانه أن يقضي عليهم وَاحداً واحداً ، هؤلاء الذين كذَّبوه ، هؤلاء الذين أخرجوه ، هؤلاء الذي ائتمروا على قتله ، هؤلاء الذين عذَّبوا أصحابه ، هؤلاء الذين قتَّلوا أصحابه ، هؤلاء الذين حاربوه ليستأصلوا شأفته ، هؤلاءِ هؤلاء لمَّا كانوا في قبضته وكان بإمكانه أن يقضي عليهم، وأن يدمِّرهم عن آخرهم قال لهم : " ما تظنُّون أني فاعلٌ بكم ؟ " ، قالوا : "أخٌ كريم وابن أخٍ كريم " . قال : " اذهبوا فأنتم الطُلقاء ". هكذا الرحمة ، هكذا الحكمة .

أبو سفيان قُبيل إسلامه قال له : " والله ما أعقلك ، ما أحكمك ، ما أرحمك ، ما أوصلك!"، قال عليه الصلاة والسلام : " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن " .. أي أن هذا زعيم قريش ، فجعل له شأناً .. من دخل الكعبة فهو آمن ، ومن دخل بيته فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .. فلمَّا عَلِمَ أبو

سفيان قال : " ما أعقلك ، ما أرحمك ، ما أحكمك ، ما أوصلك ! " .

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

عدي بن حاتم عندما رأى النبي يكلِّم امرأةً مسنَّةً ، ضعيفةً ، فقيرةً وقف معها طويلاً قال : " والله ما هذا بأمر ملك " ، هذا ليس ملك ، دخل إلى البيت وليس في بيت النبي الكريم إلا وسادة من أدمٍ محشوَّةً ليفاً ، قال له النبي : " اجلس عليها " ، قال : " بل أنت " ، قال : "بل أنت ضيفنا " ، قال : " فجلست عليها وجلس هو على الأرض " .

يا محمَّد أتحبُّ أن تكون نبيَّاً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ قال له : " بل نبيّاً عبداً أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره " ..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

(سورة الأحزاب)

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

3 ـ أكبر جريمة أن تجرم في حق نفسك :

فكلمة جريمة لا يوصف بها إنسان لم يدفع فاتورة الهاتف أبداً ، هذا يقال له : مُقَصِّر، إن لم يدفع الفاتورة يقطعوا عنه التيار ، يدفع الغرامة مع الفاتورة ، هل تصف إنساناً خالف القانون مخالفة طفيفة بأنه مجرم ؟ لا ، كلمة مجرم للقصم ، لعمل كبير ، لعمل له مضاعفات خطيرة ، تقول : هذه جريمة يا أخي ، هذا مجرم قتل إنساناً بريئاً ، يجب أن يُقْتَل ، فإذا وصف الله سبحانه وتعالى إنساناً ما بأنَّه مجرم فمعنى هذا أنَّ جريمته كبيرةً جداً ، وهل مِن جريمةٍ أكبر من أن تكون مجرماً بحقِّ نفسك ؟ هذه النفس التي ملَّكَكَ الله إيَّاها ، جعلها أمانةً بين يديك ..

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

إنسان حضر مجلس علم ، تعرَّف إلى الله ، تعرَّف إلى شرع الله ، تعرَّف إلى أحكام القرآن ، تعرّف إلى هذا الدين الصحيح ، وطبَّقه والتزم به فسعِد وأسعد ، هذا زكَّاها ، أما هذا الذي بقي جاهلاً ، وتاه في شهواته ، وانغمس في ملذَّاته ، وأكل من مالٍ حرام ، واعتدى وطغى وبغى ، ونسي المبتدى والمنتهى هذا مجرم ، ما قتل قتيلاً ، ما آذى أحداً ولكنه لَحِقَ شهواته ، هذا مجرمٌ بحقِّ نفسه ، هذه النفس بدل أن تَخْلُدَ في الجنَّة جعلها تخلد في جهنَّم ، وهل من جريمةٍ أكبر من أن يكون الإنسان مجرماً بحقِّ نفسه ؟ يكفي ألا تصلي ، ألا تذكر الله سبحانه وتعالى ، يكفي أن تدع نفسك وما تشتهي ، يكفي ألا تحاول تطهير نفسك من عيوبها ، فأنت بحقِّ نفسك مجرمٌ ..

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ(75)فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا)

مِنْ عند مَنْ ؟ من عند خالق الكون ، خالق السماوات والأرض ، رافع السماء بلا عمد ، من عند الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون..

((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه .

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا)

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ

تهمة السحر قديمة متجددة :

من عند الذات العَلِيَّة ، مِن عند الرحمن الرحيم ، من عند الحكيم العليم ، من عند الغني ، من عند القوي ، من عند العزيز ، من عندنا ، لذلك قال بعضهم : " لا تنظر إلى صِغَر الذنب ، ولكن انظر على من اجترأت " ..

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)

قالوا عن سيدنا موسى : إنَّه ساحر ، وقالوا عن سيدنا رسول الله : إنَّه ساحر ، وشتَّانَ بين المعجزتين ، تشابهت قلوبهم وتشابهت أقوالهم .

مرَّةً طُلِبَ من بعض البلاد الإسلاميَّة أن تُوفِد إلى عاصمة أوروبيَّة بعض المنشدين وبعض قُرَّاء القرآن ليُتلى في هذه العاصمة الأوروبيَّة على أنَّه فلكلور أي على أنه فن شعبي ، أي أنه مثل الرقص الشعبي.. تشابهت قلوبهم ، سحر ، تقاليد ، عادات ..

(إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)

أهذا سحر ؟! كتاب هداية يقال له : سحر ؟ لو عرفه البشر لآمنوا به ولسعدوا به ، سحر ؟! ..

(قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ

هكذا تقولون ؟ حقٌّ واضحٌ كالشمس ، دلائل واضحة ، حجج قاطعة، معجزات ، أهذا سحر ؟

(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

استمعوا الآن إلى حجَّتهم في ردِّ الحق :

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ

1 ـ تهمة تغيير العادات والتقاليد :

أي أنت يا موسى هدفك أن تغيِّر عاداتنا وتقاليدنا ، أن تغيّر معالِم البيئة ، أن تغير طبيعة العلاقات فيما بيننا ، وهذا كلامٌ يقوله الناس اليوم ، هكذا نشأنا يا أخي ، هكذا رُبّينا ، أنت مِن أين جئت بهذا الدين الذي يفرِّق بيننا ؟ الإنسان المُعْرِض يحب أن يستمر على خطئه ، على ضلاله ، المفكّر ليس له حق في أن يتقبَّل البيئة إلا إذا تطابقت مع كتاب الله ، ما هذه الدعوة الباطلة ؛ بيئة ، محيط ، تراث ، معطيات ، المحيط الخارجي ، المؤثّرات ، التفاعل بين البيئة والمحيط ؟ لا يوجد إلا الحق ، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال .

جلس شاب مسلم على كرسي إلى جانب زوجته الشابَّة أمام مائتي امرأةٍ في أبهى زينة ، ما هذا ؟ عادات ، هكذا الأصول ، يصمد أمامهم ، فيقول عاقل ناصح ، ولكن لا يجوز ذلك ، فيجيبوه : لا لكي لا يتكلَّموا علينا نحن أهل الفرح ، يجب أن نري الناس أنَّ عندنا عروساً لائقاً ، أتعبد البيئة ؟ أتعبد التقاليد؟ أتعبد العادات ؟ يجب أن تكون التقاليد غير الإسلاميَّة تحت أقدامنا ، أترتدي زوجتك هذه الثياب التي تبيّن خطوط جسمها ؟ هكذا الموضة ، أتعبدها من دون الله ؟ لا يجوز ، المسلم لا يبالي لا بتقاليد ، ولا بعادات ، ولا بأعراف ، ولا بأساليب ولا أنماط معيشة زائفة ، لا يبالي إلا بما في الحق من حق ، إلا بما في كتاب الله من دلائل ، وما عداه لا أفعله .

قالت أم سيدنا سعد له : " يا بني إن لم تكفر بمحمَّد لن أذوق الطعام حتى أموت " ، فقال سيدنا سعد : " يا أم لو أنَّ لكِ مائة نفسٍ فخرجت واحدةً وَاحدةً ما كنت لأكفر بمحمَّد ، فكلي إذا شئتِ أو لا تأكلين " ، بعد ذلك أكلت .

أحد الصحابة طلبت منه زوجته حاجةً لم يفعلها النبي عليه الصلاة والسلام فقال لها : " والله يا فلانة إن في الجنَّة مِنْ الحور العين ما إنْ أطلَّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فَلأن أضحّي بكِ مِن أجلهن أفضل مِن أن أضحي بهنّ مِن أجلكِ " ، هكذا المؤمن حازم ، مواقفه صلْبَة ، مواقفه واضحة ، لا يلين ، يلين في الدنيا أما في أمور الدين فلا يلين .

(قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ(77)قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

أخي هذه تقاليد موروثة ، هكذا أصول الاحتفال بالزواج ، هكذا فعل آباؤنا وأجدادنا ، من أنت ؟

(وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ)

2 ـ تهمة السعي وراء الجاه والرياسة والمنازعة عليها :

ظنَّ فرعون وملؤه بموسى الظنون ، ظنُّوه مثلهم يحبُّ الكِبْر ، لا فقد قيل : " إن الطيور على أشكالها تقعُ " ، الإنسان دائماً يظنُّ ما في نفسه ، الكذَّاب لا يُصدِّق الصادق ، يظنّه كذَّاب ، والصادق يصدِّق الكاذب ، ويظُنّه صادقا ، وإن الطيور على أشكالها تقع ، ففرعون اتهم سيدنا موسى بأنه إنما جاء بهذه الدعوة لينازعه على الكبرياء في الأرض ..

(وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ(78)وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ

التحدي الفرعوني :

أي أنَّ فرعون حوَّل هذه الدعوة إلى الله ، وهذه البينات ، وهذه المعجزات حوَّلها تحويلاً آخر ، ووصفها بأنَّها سحر ، أي أنَّ هذه الدعوة العظيمة كما يقال : فرَّغها من مضمونها ، ووصفها بوصفٍ ساذج ، بل ماكر خبيث ، وادعى أن هذا سحر ، وأنا عندي سحرة وسوف يردُّون عليك ..

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ(79)فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ(80)فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ

1 - لا نجاح للمفسد :

أي أنه لا يمكن المفسد أن يحقّق النجاح في الحياة ، المفسد لن يحقّق النجاح لهذه الآية :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

هؤلاء السحرة أرادوا إفساد هذه الدعوة الإلهيَّة فَسِحْرُهُم باء بالإخفاق ، سحرهم أبطله الله سبحانه وتعالى ، طبعاً القرآن الكريم من إعجازه أن الآية القرآنيّة الواحدة لها معنى في السياق ، فإذا نزعتها من بين أخواتها أصبحت مبدأ عاماً ، قاعدة ثابتة ، دعنا من هذه القصَّة كلّها ، وانزع هذه الآية وحدها ، واكّتبها على لوحة ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

كل عمل هدفه الإفساد فأنت الذي تؤدي الثمن جراء إفسادك ، تبوء بالإخفاق ، لن يُصلِح الله عملك ، ما دامت النوايا سيئة ، ما دام الهدف دعم الباطل ، ما دام الهدف تبديل دين الله عزَّ وجل وشرعه ، إطفاء نور الله فلن يُصلِح الله عملك ، لماذا ؟ لأنك تخالف سنَّة الكون ، ما معنى الحق ؟ الشيء الثابت ، ما معنى الباطل؟ الشيء الذي سوف يبطُل ، لا يقف على قدميه ، سرعان ما يتهاوى ..

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

2 - الباطل زهوق :

أي أن من صفات الباطل الثابتة الزُهوق ، الزُهوق والباطل مترابطان ترابطاً وجودياً ، هذه فكرة دقيقة جداً ، فلنضرب الطائرة مثلاً تقول : شكل الطائرة كبير ، هناك بيت كبير أيضاً ، و بناء كبير ، و ساحة كبيرة ، هذا وصف غير صحيح ، ليس وصفاً جامعاً مانعاً ، صفها أيضاً تقول لي : فخمة ، هناك بيت فخم ، وهناك أثاث فخم ، وهناك سيَّارة فخمة ، هذا الوصف ليس صالحاً ، لازلت تقول كذا وكذا ، إلى أن تقول : تطير ، كلمة تطير هذه صفةٌ مترابطة مع الطائرة ترابطاً وجوديَّاً ، فإذا أُلغي الطيران أُلغيت الطائرة ، القرآن الكريم عبَّر عن هذه الحقيقة ، عن الترابط الوجودي بفعل كان التام .

فعل كان له معنيان ، توجد عندنا كان الناقصة مثل قولك : كان الجو ماطراً ، وأصل الجملة الجو ماطرٌ ، تركيب اسمي إسنادي ، إذا قلت : كان الجو ماطراً ، فأنت بهذا نقلت هذا التركيب الاسمي إلى الزمن الماضي ، فكان أفادت معنى المضي فقط ، ولم تفد معنى الحدث ، من هنا قالوا : فعل ماض

ناقص ، لكنْ هنا كان ذات دلالة أخرى ، وهي كان التامَّة قلَّما ينتبه لها الناس ، وهي مثل : ما كان الإنسان ليظلم أخاه ، وهذه بمعنى ما وُجِدَ الإنسان ليظلم .

الآن :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

أي منذ أن وُجِدَ الباطل صفته اللازمة المترابطة معه ترابطاً وجوديَّاً أنه زاهق ، فإذا كنت مع الباطل عقيدةً فأنت زاهقٌ معه ، وإن كنت مع رجل مُبْطِل فأنت زاهقٌ معه ..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

أي أن الحق ثابت منذ الأزل وإلى الأبد ، وكلمات الله سبحانه وتعالى تبَيِّن الحق وتُحِقُّه وتوضِّحه ، وسوف نتابع هذه القصَّة إن شاء الله في درسٍ قادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (16-17): تفسير الآيات 83 – 93
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-01-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في قصة سيدنا موسى في سورة يونس إلى قوله تعالى :

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ)

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

قبل هذه الآية :

(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

كلمات الله ثابتة وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ :

فهذه الكلمات التي بين أيدينا تعني أن المقصود بها القواعد الثابتة التي سنها الله سبحانه وتعالى ، هذه الكلمات ثابتة ، راسخة ، سوف تتحقق .

(وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

فالمجرمون أعجبهم أم لم يعجبهم فكلمات الله ثابتة ، وعده حق ، ووعيده حق ..

(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)

قد يستقيم الرجل على أمر الله ، فيناله وعد الله بالحياة الطيبة ، أأعجب الكفار أم لم يعجبهم ، أرضوا بهذا أم لم يرضوا ، ما دام قد طبق أمر الله عزَّ وجل فقد نالته هذه الآية ، فالآيات التي تأخذ شكل القواعد الثابتة أو شكل العلاقات الثابتة ، هذه الآيات الله سبحانه وتعالى يسميها كلمات :

(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

أحياناً يتوهم الكافر أنه هو الأذكى ، وهو الأقوى ، وبيده الأمر كله ، لكن الحقيقة غير ذلك ، الأمر بيد الله ، وأن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالعطاء الجزيل ، وأن العاقبة للمؤمنين ، وأن الويل والدمار للكفار المشركين ، هذه كلمات الله .

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ)

معنى : فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ

المعنى الأول :

بعض المفسرين يقول : إن الذين عاصروا سيدنا موسى لم يؤمنوا ، والدليل أنهم بعد أن اجتاز بهم البحر ، وبعد أن رأوا أن عصاه قد أصبحت ثعباناً مبيناً ، وبعد أن رأوا فرعون يغرقُ في اليَم قالوا :

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

(سورة الأعراف : من الآية 138)

إذاً : هؤلاء عَطَّلوا تفكيرهم ، أو أساءوا استعماله فلم يهتدوا إلى الحقيقة ، لذلك هذا الجيل الذي نشأ على المعصية ، وعاصر سيدنا موسى لم يؤمن ، إنما أبناؤهم الذين أنجبوهم هم الذين آمنوا بسيدنا موسى من بعدهم ، هذا بعض معاني قوله تعالى :

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ)

المعنى الثاني :

وبعض المفسرين على أن هذه الذرية تعود إلى فرعون ، من قوم فرعون ، فعبارة : من قومه اشتملت على هاء الغائب ، وهذه الهاء إما أن تعود على سيدنا موسى ، أو تعود على فرعون ..

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ)

المقصود بالذين آمنوا بموسى امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون ، وبعضٌ من حواشي فرعون كانوا قد آمنوا بسيدنا موسى .

المعنى الثالث :

وتفسير ثالث ، هو أن هذه الذرية التي آمنت من قومه هم بعض الأقباط الذين تزوَّجوا من بني إسرائيل، على كلٍ فالمؤمنون قلة ..

(عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ)

عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ

1 ـ ثمن الإيمان كبير :

أي أن الإيمان ثمنه باهظ ، وهذا الثمن الباهظ قد يكون متاعب ، قد يكون قلقاً ، والإنسان أحياناً من أجل الدنيا فقط يفتح محلاً تجارياً ، وتكون بضاعته ليست نظامية مائة بالمائة ، وهو يتحمّل الأخطار ، خطر المصادرة ، وخطر السجن ، وخطر الغرامات ، من أجل الدنيا يتحمَّل كل هذه المخاطر ، فكيف بك من أجل حياةٍ أبديةٍ ؟ ألا تستدعي هذه الحياة الأبدية أن يتحمل الإنسان من أجلها بعض المتاعب ، بعض المخاوف ؟ فمن قال لك : إن طريق الإيمان مفروشٌ بالورود ؟ لكن هذا الذي يأتي إلى الدنيا ، ويؤمن بالله عزَّ وجل ، ويتحمَّل من أجل إيمانه المتاعب والمخاوف ، ويجاهد نفسه وهواه ، هذا له عند الله أجرٌ لا يعلمه إلا الله ..

((ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَة ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّة))

[الترمذي عن أبي هريرة]

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : من الآية 92)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

طلب الجنة بغير عملٍ ذنبٌ من الذنوب .

إذاً كلمة :

(عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ)

2 ـ البلاء كشف للحقيقة وتعظيم للأجر :

فكلمة خوف وردت في سياق الآية نكرة ، أي أن الخوف يقدّره الله سبحانه وتعالى ، وهو الذي يسمح به ليتعاظم الأجر ، فكما أن هناك أعمالاً أجرها بسيط ، فكذلك هناك مخاطر أجرها كبير ، فسائق السيارة يأخذ راتباً أقل بكثير من رُبَّان السفينة ، وربان السفينة راتبه أقل من راتب قائد الطائرة ، كلما كانت هناك مسؤولياتٌ جسام ، وكلما كانت هناك مخاطر فالأجر يرتفع ، فإذا جعل الله عزَّ وجل للإنسان في مسار الإيمان بعض المخاوف ، بعض المخاطر ، بعض المُقلقات ، فهذه كلها من أجل أن

يتعاظم أجره ، ومن أجل أن يكشف على حقيقته ، ومن أجل أن يظهر صبره وثباته على المبدأ .
لو أن طريق الإيمان كما يشتهي بعضهم مفروشٌ بالورود ، أين أجر الصحابة الكرام في نشر هذا الدين ؟ هاجروا مرةً إلى الحبشة ، ومرةً إلى المدينة ، وضيَّقت عليهم قريش ، وحاربتهم ، وقاطعتهم ، ونكَّلتْ بهم ، وعذبتهم ، وأخرجتهم ، وائتمرت على قتلهم ، لكن هؤلاء الصحابة بلغوا عند الله منزلةً لا يعلمها إلا الله بفضل ثباتهم على المبدأ ..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا(23))

(سورة الأحزاب)

والله سبحانه وتعالى هو هُو في كل زمانٍ ومكان ..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(4))

(سورة الحديد)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

هذه الآية مستمرةٌ إلى آخر الزمان ، إذاً هذا كله على كلمة :

(عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ)

فالإنسان مثلاً من أجل المال يتحمل المخاوف ، هذا الذي يأتي بالبضاعة ، ويبيعها ، وليست وفق الأصول ، ألا يتحمل مخاطر كبيرة جداً ؟ من أجل المال فقط ، من أجل المال يتحمَّل المخاوف والمتاعب والمقلقات ، وقد يتعرَّض للسجن ، من أجل كسب المال فقط ، فكيف إذا كان الهدف نبيلاً والعطاء جزيلاً والآخرة أبدية ، ألا تستأهل الآخرة أن يتحمل الإنسان بعض المخاوف ؟!

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ)

أي مع هذه المخاوف يتضاعف الأجر عشرات المرَّات ، ليسوا سواءً ، من آمن قبل الفتح وغيره ممن آمن بعد الفتح.. هذا الذي آمن قبل الفتح تحمل المتاعب والمخاوف ، أما الذي دخل بعد فتح مكة ، وكان الأمر قد استتب للمسلمين ، وكلمتهم هي العُليا ، وبيدهم مقاليد كل شيء ، فالدخول في الإسلام بعد فتح مكة يسمى نوعاً من أنواع التغطية ، أو يسمى نوعاً من أنواع الانتهاز ، الدخول في الإسلام بعد فتح مكة حالةٌ ضعيفة ، خاف على حياته ، خاف على مصالحه ، خاف على مستقبله ، خاف على ماله فأسلم مع من أسلم ، ولكن البطولة أن تُسْلِمَ في الوقت العصيب ، في الوقت الذي إذا أسلم الإنسان يخاف على حياته ، أو على ماله ، أو على مكانته ، أو على عمله .

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ)

3 - فرعون وراءه رجال أشداء :

بعضهم تساءل : لمَ لمْ يقل الله عزَّ وجل : على خوفٍ من فرعون وملئه ؟ بل قال :

(وَمَلَئِهِمْ)

أي أن فرعون ليس وحده فهو يعتمد على رجال أشدَّاء ، وعلى رهط ، وعلى أتباع ، وعلى مؤيِّدين ، هؤلاء كلهم فراعنة أيضا ..

(عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ)

أي أنهم خافوا أن يفتنهم عن دينهم ، خافوا أن يضيِّقُ عليهم فيتركوا دينهم حفاظاً على حياتهم وهذه هي الفتنة ، لكن :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ)

(سورة الحج : من الآية 11)

الإنسان عليه أن يعبد الله في الأعماق ، إذا عبده على حرف تأتي موجةٌ صغيرةٌ فتسقطه في اليَمِّ ، أما إذا كان يعبده في الأعماق فلن يهتز ، ولن يتأثر ، ولن ينصرف عن هدفه مهما احلوْلَكَ الليل .

(وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ)

وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ

1 - الإسراف يقتضي الخروج عن الحق :

أي أنه متكبر ، ومسرف ، مسرف في كل شيء ، والإسراف يقتضي أحياناً الخروج عن الحق ، مثلاً ربنا عزَّ وجل قال :

(فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ)

(سورة الإسراء : من الآية 33)

فهذا الذي قُتِل أخوه ، أو أبوه ، أو ابنه ، هو ولي القتيل ..

(فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ)

فَسَّر العلماء الإسراف في القتل: أن يقتل اثنين بواحد ، وفسره بعضهم أن يقتل غير القاتل ، هذا هو الإسراف ، فالإسراف مجاوزة الحد المعقول ، مجاوزة الحد الصحيح إلى العدوان .

(وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ)

2 ـ فرعون ذو نفسية متعالية وأعمال مسرفة :

أوصاف ربنا عزَّ وجل دقيقة ، ففرعون كما وصفه الله سبحانه نفسيته متكبرة وأعماله مسرفة ، والإنسان عامة له حال وله عمل ، أما نفسيته ففيها علوٌ في الأرض واستكبارٌ واستعلاءٌ ، وعمله فيه إسراف في كل شيء ، في عطائه إسراف ، وفي منعه إسراف ، وفي عقابه إسراف ، وفي قمعه إسراف ، والأخذ بحقائق الدين يهذب ويصلح .

(وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ

1 ـ التوكل على الله من كمال الإيمان :

العلماء قالوا : من كمال الإيمان التوكل على الله ، فهناك إيمانٌ ضحلٌ درجته غير كافية لإسعاد صاحبه من هنا كان قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ)

(سورة النساء : من الآية 136)

من هنا كان قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران : من الآية 102)

من هنا كان قوله تعالى :

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج : من الآية 78)

فليس كل إنسان آمن بوجود الله عزَّ وجل ، وآمن بالآخرة يملك درجة من الإيمان كافية كي تُنَجِّيهِ من عذاب النار ، لا ، فالإيمان له درجات دنيا لا تكفي ، وله درجات تكفي ، وله درجات عُليا ، على كلٍ الإيمان ما وقر في القلب ، وأقر به اللسان ، وصدَّقه العمل .

((وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[مُتَّفَقٌ عَلَيهِ]

((الإِيمَانُ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ بَابًا ، أَرْفَعُهَا وَأَعْلاهَا قَوْلُ : لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

الإيمان أن تَكُفَّ جوارحك عن المعاصي .. هذا هو الإيمان ، فلذلك :

(وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا)

2 ـ عدم التوكل على الله دليل ضعف الإيمان :

عندنا قضية محرجة ، فإذا كنت مؤمناً أن الأمر كله بيد الله ، وإذا كنت مؤمناً أن الله سميعٌ بصير ، وإذا كنت مؤمناً أنه ما من حركةٍ ولا سكنةٍ إلا بأمر الله تعالى ، وإذا كنت مؤمناً أنه بيده الأمر كله ، وأنه بيده ملكوت السماوات والأرض ، وأن عدوك بيده ، فإن لم تتوكل بعد كل هذا ففي الإيمان ضعف ، و في الإيمان خلل ، من علامة الإيمان الصحيح التوكل على الله ، والتفويض لله ، والتسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، هذه من علامات الإيمان الصحيح ، التوكل على الله ، والتفويض لله ، والتسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله .

(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا)

ألست مؤمنا أن بيده كل شيء ؟ نعم ، توكل عليه إذاً ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله))

[ورد في الأثر]

فالمؤمن أقوى مخلوق على وجه الأرض ، بمعنى أنه مع الخالق ، ما دام هذا المؤمن مع خالقه ، والخالق بيده كل شيء فهو أقوى من كل شيء ، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتَّق الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك .

(فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

1 ـ المعنى الأول : إذا قصر المؤمن سلط الله عليه من لا يخافه :

هذا دعاء مهم جداً ، هذا الدعاء يعني أشياء كثيرة ، يعني أول ما يعني أن المؤمن إذا قَصَّرَ في علاقته مع ربه سَلَّطَ عليه من لا يعرفه ليعيده إلى جادة الصواب ، وفي الأثر : " إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني " .

" أنا ملك الملوك ومالك الملوك قلوب الملوك بيدي ، فإن العباد أطاعوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسُخْطَةِ والنقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك وادعُوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم " ، فإذا قصر المؤمن سلط الله عليه من لا يخافه ، هذا أحد معاني هذه الآية ..

(لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

القوم الظالمون إذا رأوا مؤمناً ، وكان فيما بينه وبين ربِّه مقصراً أصابوه بالأذى ليشفوا غليلهم ، هذا المعنى الأول .

2 ـ المعنى الثاني : لا تجعل الكافرين فوق المؤمنين :

يا رب لا تجعل الكافرين فوقنا في الدنيا فيظنوا أنفسهم أنهم على حق ، ونحن على باطل ، الكافر إذا قوي ، وتَغَلَّبَ على المؤمن بماذا يُفَسر هذا التغلب ؟ بأنه على حق ، وأن المؤمن على باطل ، ولو كان على حق لما انهزم أمامه ، أيضاً هذه فتنة ، فتنة للظالمين وللمظلومين ، للظالمين يتوهَّمون أنهم على حق ، وللمظلومين يكاد المظلوم أن ييأسَ من روح الله.

(لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

اللهم لا تجعلني عبرةً لأحد من خلقك :

هذه الآية يجب أن يدعو بها الإنسان فيما بينه وبين ربه لئلا يكون عبرةً لمن يعتبر ، فأحياناً يصبح الإنسان المقصر وسيلة إيضاحٍ للناس ، لذلك بعضهم إذا دعا يقول : اللهم لا تجعلني عبرةً لأحد من خلقك ، فلا أكون أنا الدرس ، لا أكون أنا القصة ، ولا الأحدوثة ، ولا أكون أنا طريقة من طرق توضيح الحقائق .

(لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

لا تجعلني عبرةً لأحدٍ من خلقك ، لما يقصّر الإنسان ثم يبتليه الله عزَّ وجل بعد ذلك بعقابٍ بَئيس تصبح قصته متداولةً بين الناس ، وكأن هذه القصة أصبحت وسيلة إيضاح للحق .

(فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(85)وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

المخاوف تلجئ العبدَ إلى الله :

أي أن هذه المخاوف في الدنيا من أجل أن تزيد التجاء المؤمن إلى ربه ، أحياناً يكون الطفل في الطريق شارداً عن أمه ، بعيداً عنها ، مُتَلَهِّياً بحاجاتٍ لا تنفعه ، فيلمح جرواً مخيفاً فيركض إلى أمه ملتجئاً إليها ، ما الذي دفعه إلى أمه ؟ خوفه من هذا الجرو ، إذاً هذا الجرو ساقه الله إليه لحكمةٍ بالغة ، أحياناً تكون المخاوف مُلْجِئَةً إلى الله عزَّ وجل ، هذه المخاوف وسيلة من وسائل تقوية ارتباط الإنسان بالله عزَّ وجل ، ولله في خلقه شؤون ، أحياناً شُحُّ المطر يُلْجئ الفلاح إلى الدعاء ، وكساد البضاعة يلجئ التاجر إلى الدعاء ، ومرض الابن يلجئ الأب للدعاء ، وغياب الزوج يلجئ الزوجة إلى الدعاء ، والمرض يلجئ إلى الدعاء ، ولله في خلقه شؤون ، إذاً هذه المخاوف تحثُّ الإنسان على الاتصال بالله اتصالاً صحيحاً .

(وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(86)وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ)

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا

1 ـ أمرُ الله لموسى باتخاذ البيوت قبلة :

لهذه الآية أيضاً تفسيراتٌ عديدة ، أوجه هذه التفسيرات أن الله سبحانه وتعالى أوحى لسيدنا موسى أن يتخذ قومه من بيوتهم مساجد ، ولتكن هذه البيوت متجهةً إلى بيت المقدس ، واتضح من هذه الآية أن التوجُّه في الصلاة إلى قبلةٍ ما شيءٌ ثابتٌ في الأديان كلها ، وقالوا : إن اليهود على عهد سيدنا موسى توجَّهوا إلى الكعبة ، وقيل توجَّهوا إلى بيت المقدس .

2 ـ لا تجعلوا بيوتكم قبوراً :

والحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نجعل بيوتنا قبوراً ، متى يكون البيت قبراً ؟ إن لم يُصَلَّ فيه ، فالنافلة يزيد أجرها إن أدِّيَتْ في البيت ، لأن في النوافل رياءً ، فمن تمام الإخلاص أن تؤدي النافلة في البيت ، السنة القبلية يصح أن تصلى في البيت ، والسنة البعدية يصح أن تصلى في

البيت ، أما المكتوبة فتصلى في المسجد ، إن لم يكن هناك عذرٌ قاهر ، إذاً النبي عليه الصلاة والسلام مما اختصه الله به أن جعل له الأرض طهوراً ومسجداً ، جعل الله لأمة سيدنا محمد الأرض طهوراً ومسجداً ، وبنو إسرائيل على خوفهم من فرعون أن يفتنهم جاءهم الأمر أن يصلوا في بيوتهم ، وليتجهوا نحو القبلة ، وقد اختلف فيها وفي أرجح الأقوال إلى بيت المقدس .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ(87)وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

1 ـ عطاء الدنيا ليس دليل محبة الله :

عطاء الله سبحانه الإنسان في الدنيا ليس دليل المحبة ، هذه قاعدة ، لأن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، فالعطاء في الدنيا لا يُعَدُّ أبداً دليل المحبة ، لكن الآخرة لا ينالها إلا المحبوب .

2 ـ أفضلُ عطاءٍ العلمُ والحكمة :

شيءٌ آخر .. العطاء الثمين العلم والحكمة ..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22))

(سورة يوسف)

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة : من الآية 2)

" وما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب " .

فالعطاء السليم هو العلم والحكمة ، أما الدنيا ومالها فلا شأن لها عند الله .

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا)

3 ـ لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بدنيا الكافر:

هذا الغنى الفاحش ، وهذه الزينات ، وهذا الترف ، وهذا الانغماس في الملذَّات ، وهذه الأموال الطائلة

التي قد تنال الكافر ليس للمؤمن أن يغترَّ بها ولا أن يتمنَّاها ..

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص : من الآية 80)

إذا رأيت الدنيا مُقبلةً على إنسان بأبهى زينة وتمنَّيْتها لنفسك فهذا خللٌ في إيمانك ، والنبي عليه الصلاة والسلام كلما وقعت عينه على مظاهر الدنيا وعلى زينة الدنيا قال يقول :

((اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَهْ))

[البخاري عن سهل]

(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا)

لذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)

(سورة آل عمران)

الله سبحانه وتعالى يقول في بعض الآيات :

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

في آيةٍ أخرى :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77))

(سورة النساء)

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

(سورة النساء : من الآية 78)

(لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ)

لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ

المعنى الأول للآية :

هذه الآية دقيقة جداً ، أن تفهم الآية أن الله سبحانه وتعالى آتى فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ليضلوا عن سبيله ، هذا المعنى مستحيل ، وهذا المعنى فاسد ، الله سبحانه وتعالى إذا أعطى إنساناً مالاً أو زينةً أو جاهاً لا ليضل عن سبيله بل ليهتدي إليه ، أما هذه اللام أعربها علماء التفسير لام المآل، أو لام الصيرورة ، مثلاً :

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

(سورة القصص : من الآية 8)

سيدنا موسى ، حينما التقطه آل فرعون لماذا التقطوه ؟ ليسعدوا به ، ما الذي حصل في النهاية ؟ أن ملك فرعون تقوَّض على يد هذا الغلام ، فكانت نهاية ملك فرعون أنه تقوَّض على يد سيدنا موسى ، فهذه اللام ليست لام التعليل إنما هي لام المآل والصيرورة ، وهذه اللام أيضاً على هذه الشاكلة ، أي أن الله سبحانه وتعالى إذا أعطانا صحة ، من أجل أن نتعرف بها إلى الله ، إن أعطانا مالاً ، من أجل أن نشكره ، إن أعطانا عقلاً ، من أجل أن نستخدمه في التعرف إليه ، إن أعطانا أولاداً ، من أن أجل أن نربيهم تربيةً صالحة ، إن وهبنا زوجةً صالحة ، من أجل أن نأخذ بيدها إلى الجنة ، هذا هو الهدف النبيل ، ولكن الكافر يأخذ هذه النِعَم ويحوِّلها إلى نِقَم ، يأخذ هذه النعم ويتقوَّى بها على معصية الله ، فيكون في النهاية هالكاً عن طريق هذه النعم ، فالذي حصل أن فرعون استخدم هذا المال ، وهذه القوة ، وتلك الزينة ليضل عن سبيل الله ، وفي آية آخرة مطمئنة يقول تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال : من الآية 36)

المعنى الثاني للآية :

وبعضهم فَسَّرَ هذه الآية :

(إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ)

فهل يعقل هذا أن يفعلوه ؟ إما أنه استفهامٌ إنكاري من دون أداة استفهام ، كما ورد هذا في بعض آيات القرآن الكريم ، وإما أن هذه اللام لام المآل والصيرورة وليست لام التعليل .

دعاء موسى عليه السلام على فرعون وقومه :

1 - رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ)

أي بدد أموالهم ، أهْلِك أموالهم ..

2 - وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ

(وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

ضيِّق عليهم قلوبهم ..

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

(سورة التوبة : من الآية 118)

العوام يقولون : ضاق قلبي ، هذا عقاب من الله ، " إذا قصر العبد بالعمل ابتلاه الله بالهم والحزن " ، أحياناً جميع وسائل السرور متوافرة والقلب في ضيق ، حتى إن بعض المفسرين حينما فسر قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

كيف نفسر هذه المعيشة الضنك بالنسبة إلى رجلٍ غنيٍ جداً ، يسكن في أجمل بيت ، ويأكل ألذ أنواع الطعام ، ويرتدي أجمل الثياب ، ويركب أفخر السيارات ، ويسيح في كل صيف في أنحاء أوروبا ، ويذهب في الشتاء إلى إفريقيا ، ويفعل ما يفعل ، فكيف نفسر هذه الآية بحق هذا الغني ؟ قال علماء التفسير :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

أي ضيق القلب ، في قلبه ضيق ، واكتئاب ، وسوداوية ، وقلق ، وخوف ، وذعر ، ورعب ، ما لو وزِّع على أهل بلد لكفاهم ، لأتعسهم ، هذه هي المعيشة الضنك بالنسبة للأغنياء أو الأقوياء .

(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ)

أما أنه ينكر عليهم ذلك ، فلأنه لا يُعقل أن يكون هذا المال أعطاهم الله إياه لإضلال الناس عن الحق ، أو أن الذي حصل أن هذا المال صار قوةً لهم فضلوا بها عن سبيلك .

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

من علامات تعطيل الفكر أن الإنسان لا يتحرَّك إلا عند الإحساس بالألم :

لماذا ؟ لأن هؤلاء من نوع لا يخافون إلا بأعينهم ، فمن علامات الغباء ، ومن علامات تعطيل الفكر أن الإنسان لا يتحرَّك إلا عند الإحساس بالألم ، فمثلاً : يقوم بزيارة دورية للطبيب ، لا ، ولكن حينما يحس بألم شديد يذهب إليه ، ينصحه الناس بعدم التدخين ، لأن الدخان يضيِّق الشرايين ، وأن أكثر أمراض القلب والأوعية الآن مبعثها التدخين ، فيدخن ، ويدخن إلى أن يأخذوه في حالة إسعاف إلى

المشفى ، إلى غرفة العناية المشددة ، الآن يقلع عن التدخين ، إن هذا التصرف علامة الجهل ، علامة الغباء ، وأن الإنسان عند الألم الشديد يعرف خطورة أعماله ، أحياناً يكون البيت في خطر ، ينصحونه، يبلغونه ، يحذرونه ، ينذرونه فلا يعمل شيئاً ، حتى يسقط البيت فوق أولاده ، ثم يقول : والله كان معهم الحق ، العوام يقولون : يخاف من عَيْنِهِ فقط ، إلى أن يرى الخَطَر يخاف ، أما المؤمن فأذكى من ذلك ، المؤمن يُعِدُّ لكل شيءٍ عدته قبل أن يقع ، ومن تمام العقل أن تصل إلى نتائج الأشياء قبل أن تصل إليها ، أن تصل إلى النتائج بفكرك قبل أن تصل إليها بجسمك .

(فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

3 ـ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

ينحرف حتى يصاب بمرض ليس له حل ، مرض عضال ، عندئذٍ يؤمن أن هذا المرض كان عقاباً على هذا الانحراف ، تراه يأكل الربا ، ويظن أنه لن يحدث له أي شيء ، حتى يأتي يوم يتبدد فيه ماله ، ويهلك ماله ، عندئذٍ يؤمن بأن الربا حرام ، ويمحق الله الربا ، يتساهل في علاقته مع النساء حتى يقع في الزنا ، يتساهل مع زوجته حتى تخونه ، يتساهل بعمله حتى يُفْصَل منه ، لا يخاف إلا بعينه ، أما العاقل فيخاف بعقله قبل عينه .

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

هؤلاء من النوع الذي إذا رأى العذاب يقول : آمنت ، أما أن يأخذ موقفاً منطقياً منصفاً قبل فوات الأوان فلا يفعل ذلك ..

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

قال الله عزَّ وجل :

(قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا)

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا

موسى عليه السلام يدعو وهارون يؤمِّن :

من الداعي ؟ الداعي سيدنا موسى .

(وَقَالَ مُوسَى)

لماذا قال الله عزَّ وجل :

(قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا)

لأن سيدنا هارون كان معه ، فلما دعا سيدنا موسى عليه السلام قال هارون : آمين ، والتأمين دعاء ، التأمين على دعاء الداعي دُعاء ..

(قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

1 ـ لا تستعجلوا إجابة الدعاء :

قال العلماء : بين الدعاء والإجابة أربعون عاماً ، الزمن عند الله هو من خلق الله ، لقد صدر الأمر من الله سبحانه باستجابة هذا الدعاء ، ولكن لكل شيءٍ أوان ، وتلبية الدعاء مرهونة بمشيئة الله ، فمن تَعَجَّلَ الشيء قبل أوانه عوقِبَ بحرمانه ، لكن اطلب من الله واستسلم ..

(فَاسْتَقِيمَا)

المعنى الأول :

بعضهم حمل هذه الآية على الثبات على الاستقامة ، هما مستقيمان ، ما معنى قولك لطالب مجتهد : اجتهد ؟ أي داوم على اجتهادك ، استمر على اجتهادك ، اثبت على اجتهادك .

(فَاسْتَقِيمَا)

المعنى الثاني :

تابعا نُصْحَ فرعون ، المعنى الأول : اثبتا على تلك الاستقامة ، المعنى الثاني : تابعا نصح فرعون .

(وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

هؤلاء الذين لا يعلمون يستعجلون قضاء الله وقدره ، والإيمان بالقدر يُذهب الهمَّ والحزن ، ولكل شيءٍ أوان ، لكل شيءٍ قَدَر ، الأمور بمواقيتها ، فالإنسان يجب ألا يتجاوز حدوده في تعيين وقت الإجابة ، ادع الله ثم اترك الأمر لله سبحانه..

(قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(89)وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا)

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا

1 ـ البغي والعدوان صفتان أهلكتا فرعون :

البغيُ صفةٌ نفسيةٌ هدفها الكِبْر ، والعَدْو : العدوان ، أي أنَّه كان مستعلياً عليهم بنفسه ، معتدٍ عليهم بيده..

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ)

2 ـ هكذا أغرق الله فرعون وجندَه :

يقولون : إن سيدنا موسى دخل في البحر هو وقومه ، وتردد فرعون في دخول البحر ، هكذا يقال : تردد ، كأنه شعر أن في هذا النزول فَخًّا ، تردد ، ثم تراءى له هامان أمامه ينطلق في البحر فتبعه ، وقال بعضهم : إن الله أرسل أحد الملائكة على شكل هامان وهو يمتطي فرسه ، ويُغْري فرعون بالنزول في البحر ، فنزل فرعون وجنوده ، فلما خرج آخر من كان مع سيدنا موسى عاد البحر بحراً فأدركه الغرق .

قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ

1 ـ لم ينفع فرعونَ إيمانُه بالله حين أدركه الغرق :

حينما أدركه الغرق قال :

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

2 ـ كلُّ إنسان يعرف الحقيقة في وقت لا ينفعه ذلك :

بعد فوات الأوان ، هذا سوف يحصل لكل إنسان ، كل إنسانٍ سوف يعرف الحقيقة ، ويؤمن ، ولكن في وقتٍ لا ينفعه إيمانه .

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام : من الآية 158)

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

وأنا متأكّد أن كل إنسانٍ منحرفٍ ، وأن كل إنسانٍ عاصٍ إذا جاءته مصيبة خلال ثوانٍ يعرف أن هذه المصيبة عقابٌ من الله عزَّ وجل .

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ

المعنى الأول :

بعضهم قال : هذا كلام فرعون نفسه ، نفسه حدَّثته : الآن تؤمن ، دُعِيتَ قبل أربعين عاماً إلى الإيمان فلم تؤمن ولو أنك آمنت لمكّنك الله في الأرض ولرفع شأنك ، الآن تؤمن ؟ .

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

خاطب نفسه بهذا الخطاب .

المعنى الثاني :

وقيل : إن الله سبحانه وتعالى قال هذا الكلام :

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

المعنى الثالث :

وقيل : إن الملائكة ، هي التي قالت ، فَنَصُّ الآية إما أنه قول الله عزَّ وجل ، أو أنه قول الملائكة ، أو أنه قول فرعون نفسه .

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

الحكمة من إنجاء فرعون ببدنه :

فلشدة رهبته في قلوب الناس ، وشدة استعلائه في الأرض ، ولشدة اعتقاد الناس أنه ربُّهم الأعلى ، ولشدة ما بثَّهُ في قلوب الناس من دُعر ، لم يصدق أحد أنه غرق ، فأخرجه ربنا من البحر وألقاه على

شاطئ اليَمِّ ليراه القاصي والداني ، وأن هذا هو فرعون بلحمه ودمه ، فرعون نفسه مُلْقَىً على شاطئ البحر ميتاً غرقاً ..

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

وأغلب الظن إن لم يكن مائة بالمائة أن فرعون موسى مُحَنطٌ في الأهرامات ، والذي يصوَّر في الصحف هو فرعون موسى نفسه الذي نجَّاه الله ببدنه ليكون لمن خلفه آية ، وقد بلغني أن علماء كباراً وصلوا إلى مصر ، وفحصوا الجثة المحنطة ، واستنبطوا منها أنها ماتت غرقاً ، وقد نُقِلَ فرعون إلى فرنسا لينال بعض الترميم لجثمانه ، وأعيد إلى مصر ، وأغلب الظن أن هذا هو نفسه فرعون موسى ، ولأن كلام الله حق ..

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)

وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ

الناس يؤخذون بالباطل ، يؤخذون بالوهم ، يؤخذون بالظن ، يؤخذون بما يقال لهم ، وهذه هي الحقيقة، الإنسان ضعيف لا يقوى على النجاة بنفسه ، الإنسان إذا عرف الله تضاءلت نفسه ، فإذا جهل تعاظمت نفسه .

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ(92)وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

بنو إسرائيل كانوا يعلمون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام :

أي أن بني إسرائيل كانوا أول الناس إيماناً بالنبي عليه الصلاة والسلام ، و قبل أن يأتي ، قبل أن يأتي كانوا يقولون : سيبعث نبيٌ في العرب ، واسمه كذا ، وهذا مكتوبٌ عندنا في التوراة ، والله سبحانه وتعالى قال :

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 146)

فلما جاءهم الحق من عند الله كفروا به ..

(فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(93)فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ

مِنْ الْمُمْتَرِينَ(94)وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنْ الْخَاسِرِينَ(95)إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ(96)وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

تعليق على قصة موسى :

التعليق الأول :

هذه الآيات نتابع تفسيرها إن شاء الله في درس الجمعة القادم ، والتعليق الطفيف على هذه القصة : أن هذه القصة ليست روايةً لأحداثٍ مضت ، لكنها مناطٌ للعبرة ، كل إنسان لابدَّ من أن يموت ، ولابدَّ من أن تُكْشَفُ له الحقائق عند الموت ، فإذا عرفت الحقيقة قبل الموت فأنت من السعداء ، وإذا عرفتها أثناء الموت فهذا من الشقاء الأبدي .

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

على مستوى حياتنا الدنيا ، بعد ما دُمِّر المال ، آمنت أن الربا حرام ، الآن آمنت ؟ بعد ما الزوجة خانت ، آمنت أن الاختلاط حرام ؟ بعد ما المصيبة وقعت ، آمنت أن هذا السلوك منحرف ؟ أما العاقل فيتعظ بغيره .

التعليق الثاني :

فرعون موسى ليس هو رمسيس الثاني الذي عولج في فرنسا ، وليس مدفوناً في أهرامات مصر ، فهو محنَّط ومحفوظ في قاعة المومياوات بالمتحف المصري مع فرعون موسى الذي مات غرقا ، والذي أثبتت التحاليل وجود آثار من الرمال البحرية والقواقع في داخل جسده ، واسمه(امننفتاح)وهذه أحدث نظرية إلى الآن ، والله أعلم بالحقيقة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يونس 010 - الدرس (17-17): تفسير الآيات 94 – 109
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-01-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في تفسير سورة يونس إلى قوله تعالى :

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ)

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ

لمَن الخطاب في هذه الآية ؟

بالتأكيد ليس الخطاب لرسول صلى الله عليه وسلَّم ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن في لحظةٍ واحدة في شَكٍّ مما أُنْزِلَ إليه ، ولكن هذه الطريقة في التعبير القرآني فسَّرها بعض المفسِّرين : أي قل لهم يا محمَّد :

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ)

المعنيّون بهذه الآية هم عبدة الأوثان في عصر النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان أهل الكتاب في ذلك الزمن يتمتَّعون بمكانةٍ مرموقةٍ عند هؤلاء ، عند عبدة الأصنام ، لأنهم أصحاب كتاب ، فأُمِرَ النبي عليه الصلاة والسلام أن يخاطبهم بأنهم إذا كانوا في شكٍ من هذا القرآن الكريم فليسألوا أهل الكتاب : ألم يَرِد في كتبهم هذا الذي جاء به القرآن الكريم من قصص الأنبياء ، ومن الوَعْدِ والوعيد ، ومن الجنَّة والنار ؟

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ)

لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ

1 ـ الشك حالة خطيرة :

لا تكونَنَّ من الممترين أيضاً النهي قُصِدَ به هؤلاء الذين في شك ، والحقيقة أن الشك حالةٌ خطرة ،

والشَّاكُّ لا هو مؤمنٌ فيفيد من إيمانه ، ولا هو ملحدٌ كافرٌ فيُضْرَبُ اسمه من قائمة المؤمنين ، لا هو مؤمنٌ فيفيد ، ولا هو غير مؤمن فيُقْطَعُ الأمل منه ، إنه بينَ بينْ ، هذه الحالة من أخطر حالات الإنسان، إنه متردِّد .

مثلاً : لو أنك متأكّد من أنه لو افتتح اكتتابٌ لبناء البيوت ، وثمن البيت لا يزيد على مائة ألف ، بيت صحّي ممتاز بمائة ألف ، والمبلغ معك ، لو كنت مُتَيَقِّناً من أن هذا المشروع سوف يُنْجَزْ في الوقت المناسب ، ووفق المواصفات التي أُعْلِنَ عنها ، وأن هذا المبلغ لا يعدل خُمْسَ ثمنه الحقيقي ، ماذا تعمل؟ إنك تبادر إلى دفع المبلغ ، هذه حالة اليقين .

2 ـ اقطع الشكَّ باليقين :

كل إنسان لم ينطلق إلى العمل فهو في شَكٍ من هذا الكتاب ، ما دام الإنسان يقف موقف المتفرِّج ، ما دام الإنسان متردِّداً يقول لك : والله شيء يحيّر ، تجلس مع إخوة الإيمان فتقتنع ، تجلس مع أهل الدنيا فتقتنع ، معنى هذا أنك في شك ، والذي يعيق حركتك هو الشك ، لذلك قالوا : " اقطع الشكَّ باليقين " ، وأيَّةُ حالةٍ أفضل من هذه الحالة ، إما أن تقول : ما جاء في هذا الكتاب حقٌّ من عند الله ، إذاً انطلق إلى تطبيقه ، وإما أن تأتيني ببرهانٍ على أنه ليس من عند الله ..

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117))

(سورة المؤمنون)

3 ـ العاصي فيه اختلال توازن وانفصام شخصية :

حالة الشك حالة خطيرة ، والإنسان عندئذٍ عزيمته مثبَّطة ، قدراته معطَّلة ، نشاطه موقوف ، إمكاناته مُفَرَّغة ، اهتماماته أرضيَّة ، أهدافه ضبابيَّة ، هذه هي حالة الشك ، وهذا الحال يصيب معظم المسلمين، قل لمسلمٍ : هل أنت موقنٌ أن هذا العمل فيه معصيةٌ للنبي ؟ يقول لك : الله يتوب علينا ، قل له : هل هناك حسابٌ دقيق ؟ يقول لك : طبعاً ، فماذا تفعل ؟ كيف توقن أن هناك حساباً ، وأن هناك جنَّةً وناراً ، وأنَّ هذا العمل غير صحيح ، وكيف إذًا أنت مقيمٌ عليه ؟! شيء عجيب ، لذلك أسعد الأشخاص هم المتوازنون عقليًّا ، هذا المسلم الذي يعصي الله هو مسلم مختل ، عنده اختلال داخلي ، ما حقَّق توازناً في نفسه ، عنده انفصام شخصيَّة ، عقيدته في واد ، وعمله في واد آخر ، تمنيَّاته في واد ، وواقعه في واد ، عنده خلل داخلي .

مثلاً : على مستوى الصحَّة ، عندما يكون عند الإنسان مرض عُضال ، ويعطيه الطبيب أوامر مشدَّدة،

مثلاً : ألا يأكل المِلح إطلاقاً ، عندما يكون عنده مرض عُضال ، وهذا المرض يزيده تناول الملح ، فعندما يأكل الإنسان صحناً واحداً فيه ملح يشعر بانقباض نفسي ، لأن هذا الصحن سوف يُسْهم في تفاقم المرض ، عندما يمتنع عن الملح إطلاقاً يشعر براحة نفسيَّة ، لأن الامتناع عن الملح سوف يُسْهم في شفائه من هذا المرض ، فالإنسان عندما يقنع أن الملح سوف يؤذيه أذىً كبيراً ، ثم يأكل الملح فهذا أمره عجيب ، فإما عنده انفصام في شخصيَّته ، أو غير متوازن ، أو عنده خلل ، أو تمنيَّاته في واد ، وواقعه في وادٍ آخر .

إن هذه الشخصيَّة الازدواجيَّة هي الشخصيَّة السائدة في العالم الإسلامي ، عواطف المسلم مع الدين ، تمنيّاته دخول الجنَّة ، مخاوفه دخول النار ، وعمله يؤدِّي به إلى النار ويبعده عن الجنَّة ، وينام قرير العين ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((عجبت لثلاث : عجبت لغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه ، وعجبت لمؤمِّلٍ والموت يطلبه ، وعجبتُ لضاحكٍ ملء فيه ولا يدري أساخطٌ عنه الله أم راضٍ))

[ورد في الأثر]

جزء كبير من السعادة يتحقَّق من الانسجام بين عقيدة الإنسان وعمله ، إذا حصل انسجامٌ وتناسق تحصل السعادة ، وكل مسلم مقصِّر عنده انفصام في شخصيَّته ، عنده خلل داخلي ، عنده صراعات مزمنة ، والصراعات المزمنة تؤدِّي إلى حالةٍ أخطر من الصراع وهي اللامبالاة .

ليكن موقفك واضحاً ، هذا الكتاب إما أن تتأكَّد أنه من عند الله ، وأن ما فيه من وعد حقٌ ، وأن ما فيه من وعيد حقٌ ، وإما أن تأتي ببرهان قاطع على أنه ليس كتاب الله ، عندئذٍ افعل ما تشاء ، أما أنك معتقد أنه من عند الله ، وعملك لا ينطبق عليه ، أو معتقد أن ما فيه هو الحق وتخالفه ، كيف تستسيغ هذه الحالة ؟

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ(94)وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنْ الْخَاسِرِين

1 ـ التكذيب بآيات الله سبب الخسران :

والحقيقة هي أن الله سبحانه وتعالى بيّن أن سبب الخسران الكبير هو التكذيب بآيات الله ، و التكذيب بآيات الله يعيق الإيمان بالله ، وسبب الخسارة التكذيب بآيات الله ، والمعنى المعاكس المُسْتَفَاد من هذه

الآية : طريق الإيمان بالله هو الإيمان بآيات الله ..

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(104))

(سورة النحل)

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

كلمات الله هي القواعد الأساسيَّة في تعامل الله مع الخلق :

هذه الآية دقيقة جداً ، بعضهم قال : " أي أن هذا الذي كتب الله عليه أن يكون كافراً منذ الأزل فلن يؤمن في الدنيا " ، فما ذنبه ؟ لكنَّ بعضهم قال في تفسير هذه الآية : " كلمات الله هي القواعد الأساسيَّة التي يبني الله على أساسها تعامله مع الخلق " .

الآن طلاب الجامعة ما الذي ينظِّم العلاقة بينهم وإدارة الجامعة ؟ النظام الداخلي ، لو بلغ الغياب عن هذا المقرَّر مثلاً عشر مرَّات يُحْرَم من أداء الامتحان ، لو أدخل ورقةً فيها بعض الإجابات يُحْرَم ست سنوات ، تنظيم العلاقة بين الطلاب وإدارة الجامعة يتم عن طريق نظام داخلي ، فالعلاقات واضحة فيه، فكل مخالفةٍ لهذا النظام تقتضي العقوبة .

ولكن العلاقة بين العبد وربِّه ما الذي ينظِّمها ؟ كلمات الله ، آيات الكتاب تنظِّم العلاقة ، فإذا أخَلَّ الإنسان بهذه القوانين فلن يؤمن ، من هذه القوانين أنه يجب أن تفكّر بآيات الله ، إن لم تفكّر فلن تؤمن ، من هذه القوانين أنه يجب أن تستقيم على أمر الله ، إن لم تستقم فلن تؤمن ، من هذه القوانين أنه يجب التقرُّب إلى الله بالعمل الصالح إن لم تفعل ذلك لن تؤمن ..

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)

أي إذا انطبقت حالةٌ على مخالفةٍ لكلمات الله فالنتيجة اليقينيَّة أن هذا الإنسان لن يؤمن ، فمثلاً : لن يصبح الطالب طبيباً إلا إذا دخل في كليَّة الطب ، فالذي لا يدخل في هذه الكليَّة لن يكون طبيباً ، هذا هو الطريق ، طريق الطب أن تكون طالباً في كليَّة الطب ..

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ(96)وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

لإعراض نفوسهم عن الله عزَّ وجل ، ولاختيارهم الدنيا مهما أريتهم من آية فلن يؤمنوا بها ، لكن

العذاب الأليم هو الذي يخيفهم ، وهو الذي يحرِّكهم ، كما قلنا في درس سابق :

(فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ(88))

(سورة يونس)

1 ـ من طبيعة الكافر أنه حسِّي :

من طبيعة الكافر أنه حسِّي ، يتعامل مع المحيط بحواسِّه فقط ، وليس عقليًّا ، فحتى تقع الخيانة في بيته يوقن أن الاختلاط مخالفةٌ لقواعد الدين ، حتى يُتلف ماله كلُّه يؤمن بقوله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من الآية 276)

حتى يرى النتائج المؤلمة رأي العين ، وحتى تكون النتائج مدمِّرةً له عندئذٍ يؤمن ، فتعامل الكافر مع الأشياء تعامل حسّي ، لكن المؤمن يتعامل مع الأشياء تعاملاً عقليًّا ، يرى النتائج قبل أن يصل إليها فيتلاءم معها في الوقت المناسب ، والعاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، والغبي والأقل عقلاً يحتاط للأمور حين وقوعها ، والعاجز هو الذي لا يحتاط للأمور لا قبل وقوعها ، ولا حين وقوعها ، ولا بعد وقوعها ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[سنن الترمذي عن شداد بن أوس]

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ(96)وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

الكافر حسي في تعامله مع المحيط ، والمؤمن عقلي يعرف النتائج قبل أن يصل إليها ..

(فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ

1 ـ قوم يونس انتفعوا بإيمانهم :

أي أن قوم يونس نموذج لقومٍ كانوا في تيهٍ ، وفي ضلالٍ ، وفي عصيانٍ لله عزَّ وجل ، وضلالهم وعصيانهم وظُلمهم أوردهم موارد الهَلَكَة ، واستحقّوا به العذاب الأليم ، عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، فلمَّا آمنوا كشفنا ما بهم من ضر ..

(وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

2 ـ هذه الآية تنطبق على كل مؤمن :

وإذا انطبقت هذه الآية على قوم يونس فإنها تنطبق على كل مسلمٍ مؤمنٍ في أي مكانٍ وزمان ، إنسان معذَّب ، دخله قليل ، عنده أمراض ، في بيته شقاق زوجي ، بين أولاد من هو عاق ، لديه منغِّصات في العمل ، يعاني من متاعب صحَّية ، ومتاعب اجتماعيَّة ، متاعب مع الجيران ، أزمات خانقة ، لو أن هذا المُسْلِمَ تاب توبةً نصوحاً ، وأخلص لله إخلاصاً تامَّاً ، واستقام على أمره ، وفعل الصالحات ، عندئذٍ لابدَّ من أن يبدِّل الله له حياته تبديلاً جذريَّاً ، لذلك أنا أقول دائماً : هؤلاء الذين يلتصقون بالدين التصاقاً شديداً ، يتمسَّكون به ، يحرصون عليه ، لماذا هم كذلك ؟ لا لأنهم قانعون بأن ما جاء به الدين هو الحق فحسبُ ، بل لأنهم رأوا رأي العين النتائج الباهرة لمن يتَّبع قواعد الدين .

أحياناً يكون هناك قناعة أن هذا المحل التجاري الموجود في هذا الشارع الفلاني ، بهذه البضاعة سوف يربح أرباحاً طائلة ، هذه قناعات ، لكن الذي يفتح هذا المحل ، ويملؤه من هذه البضاعة ، ويباشر البيع والشراء ، ويرى غلَّته كل يومٍ خمسين ألفاً ، والتمسُّك الشديد بهذا المحل ليس لقناعاته فحسب ولكن لهذه الغلَّة الكبيرة التي يجنيها كل يوم ، لذلك يحرص عليه كحرصه على روحه ، فعندما يستقيم المؤمن على أمر الله ، ويتبع قواعد الدين ، ويجد أن حياته تبدَّلت تبدُّلاً جذرياً ؛ صار سعيداً في بيته بعد أن كان شقيَّاً، صار في عمله مطمئناً بعد أن كان قلقاً ، صار في صحَّته متوازياً ومتوازناً بعد أن كان مضطرباً، إذا تبدَّلت حياة الرجل تبدُّلاً جذريَّاً فهذه علامة صحَّة إيمانه وصدقه في طلب الحق ..

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء : من الآية 147)

" إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهِّرهم من الذنوب والمعايب".

إذاً : قوم يونس عندما آمنوا بما جاء به يونس عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام ، واتَّبعوه بإحسانٍ وصدقٍ ..

(كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

شتان بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن :

أي أنك أيها المؤمن موعودٌ من قِبَل الله عزَّ وجل خالق السماوات والأرض أن يمتِّعك إلى حين ، أن يمتِّعك بصحَّتك ، أن يمتِّعك بسمعك ، أن يمتِّعك ببصرك ، أن يمتِّعك بعقلك ، أن يمتِّعك بأجهزتك المختلفة ، أن يمتِّعك بزوجتك ، بأولادك ، ببيتك ، بعملك ، بدخلك إلى حين ، إلى أن ينقضي الأجل ، لذلك لو وازنا بين حياة المؤمن وحياة الكافر فشتَّان ما بينهما ..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

دع الآخرة ، دع ما بعد الموت ، وانظر لما قبل الموت ، ما قبل الموت شتَّان بين حياة المؤمن وحياة الكافر ، حياة المؤمن لها طعمٌ خاص ، لها مذاقٌ خاص ، تُخيِّم عليها الطمأنينة ، تخيِّم عليها السعادة ، ينعم المؤمن بالثقة بالله عزَّ وجل ، تراه هادئاً ، مستسلماً ، متوكِّلاً ، مفوِّضاً ، قانعاً ، راضياً ، راكعاً ، ساجداً ، صابراً ، متفائلاً ، متطلِّعاً للآخرة ، زاهداً في الدنيا .

3 ـ قوم يونس مَثَلٌ لكل قوم ضاقت بهم السُبُل :

إذاً : قوم يونس مَثَلٌ لكل قومٍ ضاقت بهم السُبُل ، واحْلَوْلَكَتِ الحياة في وجوههم ، وأصابهم ما أصابهم، وكل قومٍ في آخر الزمان يعانون من عذاب شتَّى ، يعانون من أزماتٍ شتَّى ، إنهم لو فعلوا كما فعل قوم يونس لكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولمتَّعهم إلى حين ، وهذه الآية تنطبق على الجماعات كما أنها تنطبق على الأفراد ..

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

1 ـ الإيمان تحت الإكراه لا يُسعِد الإنسان :

مثلاً : إذا كان مدرِّس يدرِّس اللغة العربية ، وله ابن عنده في الصف ، وفي الامتحان الحاسم ، وهو امتحان نهاية العام ، لو شاء هذا المدرِّس أن يملي على ابنه الأسئلة قبل يوم ، وأن يعرِّفه بالأجوبة ، ألا يستطيع هذا الابن أن ينجح نجاحاً باهراً في اليوم التالي ؟ لا شك ، ولكن لو أنه أملى عليه الأسئلة والأجوبة ، وبقي جاهلاً في هذا الكتاب ، وما فيه من حقائق هل هذا النجاح له قيمة عند الابن ؟ لا ، ولا عند الأب ؟ ولا ، عند الناس ؟ لا ، لو أن إدارة الجامعة جاءت ، وأنعمت على أحد المواطنين بلقب الدكتوراه من دون أن يكون أهلاً لها ، هل لهذه الشهادة قيمةٌ عند صاحب الشهادة ؟ لا والله ، ولا عند أترابه ، ولا عند أقرانه ، ولا عند أهله ، ولا عند أصحابه ، ولا عند الناس ؟ ولا عند أحدٍ أبداً ، فالله سبحانه وتعالى لو شاء لأكره الناس على الإيمان ، ولكن إكراه الناس على الإيمان لا يُسْعِدُهم ، لذلك فالله سبحانه وتعالى قال :

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة : من الآية 256)

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا)

هل القضية قضية إيمان أو عدم إيمان ؟ القضيَّة قضيّة سعادة أو شقاء ، الإيمان القسريُّ لا يسعد الناس، لا يسعدهم إلا أن يأتوا لله عزَّ وجل طائعين بمحض اختيارهم ، لا يسعدهم إلا أن يحبُّوه ، فلو أكرههم فإنهم لا يحبُّونه ..

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ)

يا محمَّد أفأنت ..

(تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

لا ..

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : من الآية 272)

تعود كلمة يشاء على العباد ، أي أن العبد إذا شاء الهُدى يهتدي ، أما أن تجبره على الهدى هذا مخالفٌ للسنَّة ، هذا مخالفٌ لسنَّة الله في الأرض ..

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : من آية 272)

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص : من الآية 56)

إذاً كأن في هذه الآية تسليةً للنبي عليه الصلاة والسلام ..

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

2 - هدى الناس ليس وفق مشيئة البشر :

هذا الكلام أحياناً يوجَّه إلى الآباء ، قد تجد أباً يكاد قلبه ينفطر حزناً لأن ابنه ليس على شاكلته ، نقول له : لا تحزن كل هذا الحزن ، هُدَى ابنك ليس وفق مشيئتك بل وفق مشيئته هو ، فإن لم يشأ الهدى لن تستطيع أن تلزمه أن يكون مهتدياً ، كل إنسان له اختيار ، أنت وضِّح ، وبيِّن ، وعرِّف ، وأنذر ، وحذِّر، وراقب فإذا أصرَّ الابن على موقفه فهذا اختياره ، وسوف يُحَاسَب عليه .

إذاً :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(99)وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

معاني الحروف المقطّعة :

هذه الآية من الآيات المتشابهات :

أيضاً هذه الآية من الآيات المتشابهات ، أي أن هذه النفس لن تؤمن إلا إذا سلكت السبيل التي رسمها الله ، بهذا المعنى ، إذن فالله ليس عمله اعتباطيّاً ، إذن فالله ليس تصرفه مزاجيًّا ، إذاً فالله يقضي وفق خطَّةٍ دقيقةٍ رسمها للإنسان..

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(104))

(سورة النحل)

فلذلك :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

والله لا يأذن لنفس أن تؤمن إلا إذا دفعت ثمن الإيمان وكانت أهلاً للإيمان ، إن كانت أهلاً للإيمان ودفعت الثمن يأذن الله لها أن تؤمن .

مثلٌ من واقع الناس يفسر الآية :

مثلاً : نقول للطلاب الذين تخرَّجوا حديثاً من الشهادة الثانويَّة : قدِّموا الأوراق للجامعة ، واختاروا الفروع التي ترغبونها علماً بأن المعدَّلات هكذا ؛ الطب علامته كذا ، الهندسة ، الصيدلة ، العلوم ، الرياضيات ، فهذا الذي نال مجموع مائة درجة أو مائة وخمس درجات كتب في استمارة القبول طب ، هو اختار الطب ، ولكن تأتي مشيئة الجامعة فترفض هذا الطلب ، لماذا ؟ لأنه لم يحقّق المجموع الذي يؤَهِّلَ صاحبه أن يدخل كلية الطب ، إذاً :

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا(19))

(سورة المزمل)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الإنسان : من الآية 30)

أي أن مشيئة الإنسان مشيئة اختيار ، لكن مشيئة الله عزَّ وجل مشيئة فحصٍ واختبار ، هل هو أهْلٌ لهذا الفرع الذي كتبه ؟ هل حقَّق المجموع الذي يناسب هذا الفرع ؟ إن كان كذلك تأذن إدارة الجامعة بدخول هذا الطالب ذلك الفرع ، وإن كان ليس كذلك يُرْفَض الطلب ، إذاً : الأمر كله ينفذ بإذن الله ، وهذا الإذن وفق قواعد ثابتة ، ليس إذناً مزاجيًّا ، ولا اعتباطيًّا ، ولا كيفيًّا ولكنَّه إذنٌ مقنَّن .

(وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ

1 ـ تعقيبٌ مفسِّر لصدر الآية :

هذا التعقيب فسَّر صدر الآية ، أي أن هؤلاء الذين يعقلون يأذن الله لهم بالإيمان ، وهؤلاء الذين لا يعقلون هم الذين يرفضهم الله عزَّ وجل ، ولا يأذن لهم إطلاقاً بدخول الجنَّة ..

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

هذا هو الإذن قد وضِّح ، فإذن الله متعلّقٌ بالعقل فإن عقلت أذِنَ الله لك ، وإن لم تعقل لم يأذن الله لك ، لمَّا خلق الله العقل قال له : " أقْبِلْ فأقْبَل ثمَّ قال له : أدْبِر فأدْبَر ، قال : وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبَّ إليَّ منك بك أعطي وبك آخذ " ، من استخدمك فأحسن استخدمك يستحقُّ سعادة الدنيا والآخرة ، ومن عطَّلك وأساء استخدامك يستحقُّ شقاء الدنيا والآخرة .. إذاً :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

2 ـ من لم يتبع الحق ابتع هواه وشهواته :

إذا لم يعقل الإنسان الحقائق سوف يلتفت إلى الشهوات ، فليس هناك إلا هاتان الحالتان ، إما أن تكون مع المعقولات ، أو أن تكون مع الشهوات ، فالذي لا يعقل لابدَّ من أن ينغمس في الشهوات إلى قمَّة رأسه ، عندئذٍ يستحقُّ لعنة الله ، ويناله رجسٌ من الله عزَّ وجل ، أين الطريق إذاً ؟ جاء الطريق :

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ

النظر في الكون طريق الإيمان :

أي أن الإنسان إذا دخل إلى محلٍ تجاري ويريد منه حاجة ليست في هذا المحل ، كل البضاعة في المحل لا يراها ، لأن هذه البضاعة ليست متصلة بحاجته ، فأحياناً ترى ولا ترى ، ترى الشيء ولا تراه لأنك مشغولٌ عنه بغيره ، أحياناً يزورك زائر فتقول : زارني فلان ، اسأل نفسك ماذا كان يرتدي

من الثياب ؟ والله لا أتذكَّر ، لا تذكر لا نوع الثياب ، ولا لونها ، ولا بعض مظاهره إطلاقاً ، أنت ملتفت لذاته ، زارك ، وتحدَّثت معه ، وتحدَّث معه ، وتركك ، ألم ترَ ثيابه حينما كان عندك ؟ كنت تراها ، فلِمَ لمْ تذكرها ؟ لأنك لم تكن مهتماً بالثياب بل كنت مهتماً به ، إذاً أنت رأيت الثياب ، وكأنَّك لم ترها .

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

إذا التفت الإنسان للشهوات ، التفت للدنيا ، انغمس في حمأتها ، جعل إلَهَهُ هواه ، لو رأى الشمس ، ورأى القمر ، ورأى المجرَّات والمذنَّبات ، وعرف أن الأرض كرويَّة ولها محور مائل ، ولها دورة حول نفسها ، ودورة حول الشمس ، والشمس والقمر يجريان إلى أجلٍ مسمّى ، لو رأى كل هذا لا يراه إلا كما ترى ذلك البهائم ، لو وضعت أمام دابَّةٍ حجراً لحادت عنه ورأته ، رؤيتها لهذا الحجر كرؤيتك له ؟ لكن لو وضعت أمام دابَّة فلَّةً تقضمها وتأكلها ، فهل عرفت أنها ليست للأكل إنما هي للشمِّ ؟ لا ، فعندما يكون الإنسان بعيداً عن الحقائق لا يرى الأشياء على حقيقتها..

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ(101)فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ

المعرض ينتظره علاج من الله :

حينما يُعْرِضُ الإنسان عن الإيمان ، وحينما لا يبالي بقواعد الدين ، ولا يتَّبع لتعليمات الدين ماذا ينتظره ؟ تنتظره العلاجات التي عالج الله بها الأقوام السابقة ، هذا الذي يدير ظهره للدين ماذا ينتظره ؟ ينتظره علاج ربِّ العالمين ؛ التضييق إما بدخله ، أو بصحَّته ، أو بحياته الزوجيَّة ، أو بعمله ، لابدَّ من ذلك ، وإذا أصرَّ على موقفه لابدَّ من إهلاكه ، كما أهلك الله قوم عادٍ وثمود وقوم فرعون من بعدهم ..

(فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

إذاً : كأنَّ الله سبحانه وتعالى يَعِدُ الكفَّار المصرّين على كفرهم بالهلاك الشامل ، لكنَّ هذا الهلاك الشامل ليس شاملاً كل الناس قاطبةً بل الكفَّار حصراً ، والدليل قوله تعالى :

(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ

1 ـ لن يؤخذ الطائع بالعاصي :

أي أن الله عزَّ وجل لو قرَّر تدمير قرية تدميراً شاملاً ، وفيها رجل مؤمن ، لابدَّ من أن يجعل له حاجة خارج القرية ، فإذا ما خرج منها جاء التدمير ، فاطمئن ، لن يؤخذ الطائع بالعاصي كما يفعل الناس أحياناً ..

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : من الآية 164)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(35)فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(36))

(سورة الذاريات)

ثم دمَّرنا ، إذاً : البلاء خاصٌّ ، والرحمة خاصَّة ، ولن يؤخذ إنسان بجريمة إنسان ..

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ)

(سورة العنكبوت : من الآية 40)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ(17))

(سورة سبأ)

اطمئنَّ ، كن مؤمناً واستحقَّ حفظ الله لك ..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنا فإنَّا منحنا بالرضا من أحبَّنا

ولذ بحمانا واحتم بجنابنا... لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)

2 ـ الحكمة من استعمال الفعل ننجي مضارعًا :

جاء الفعل ننجي بصيغة المضارع ، ومن معاني الفعل المضارع الاستمرار ، أي إلى نهاية الحياة ، في كل مكانٍ على وجه الأرض ، في كل زمان ، في كل عصر ، في كل مصر ، في كل صقع ، في كل بلد ، في كل قرية ، على اليابسة ، على ظهر البحر ، على مَتْنِ الجو ، في أيّ مكانٍ كنت إن كنت

مؤمناً تستحقُّ النجاة من الله عزَّ وجل .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

1 ـ لا تحمِّل نفسك مشقّة إقناع الجاحد والمكابر بالدين :

إن كنتم في شكٍّ من ديني فلكم دينكم ولي دين ، لا تحمِّل نفسك مشقّة أن تقنع الجاحد والمكابر بالدين ، إن كنت في شكٍ من هذا الدين فلك دينك ولي ديني ، هذا جوابٌ حاسم ، إن كنت في شكٍ مما أعبد فلك ما تعبد ولي ما أعبد ، لن أُسأل عنك ولن تُسأل عني ، لك ما كسبت ولي ما كسبت ، لي عملي ولك عملك ..

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

2 ـ التشكيك في الدين لا يحمل المسلم على التخلي عنه :

أي أن الإنسان أحياناً إذا شكّك بمعتقداتك ، أو شكّك بقيمك ، هل معنى ذلك أنك تتخلّى عن هذه القيم ؟ أو تتخلّى عن هذه المعتقدات ؟ أو أن تغيِّر خطَّ سيرك في الحياة ؟ أو أن تتنكَّب الصراط المستقيم ؟ هذا منتهى الغباء ، إن شكَّ فليشك ، وعدم الوجدان لا يدلُّ على عدم الوجود ، إن كان عمىً في قلبه ماذا أفعل له ؟ ..

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود)

إذا كان الله يرحمك وهذه الرحمة عُمِّيَت على بعض الناس وأنكروها عليك فهل تتخلّى عنها ؟

(فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ)

وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم

1 ـ لقد متَّ وتمتَّع ورثتك بمالك :

رجعوا من المقبرة وتركوك ، رجعوا إلى البيت ، وتناولوا على روحك ما لذَّ وطاب ، وأظهروا الحزن والألم ، ولكنَّ قلبهم يرقص فرحاً ، وما هي إلا أيام أو أسابيع حتى نزعوا ثياب الحزن ، وتمتَّعوا بهذا المال ، وشرَّقوا به وغرَّبوا ، وأنت تُحَاسب عنهم ، كيف جمعت هذا المال وكيف أنفقته ؟ هنا المصيبة.. " رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحيُّ الذي لا يموت " ..

(وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ)

2 ـ علاقتك بمن يتوفاك :

لو تعاملت مع مائة ألف رجل ، وكلُّهم لا علاقة لهم بوفاتك ، لا شأن لهم فلن تفيد منهم شيئاً ، عليك أن تتعلَّق بمن يتوفَّاك ، بمن مصيرك إليه ، بمن نهايتك عنده ، بمن إليك مرجعه ، بمن بيده الموت ، اعبُدِ الله ..

(وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

شيء جميل ، أي أنك عليك أن تعبد الذي يتوفَّاك ، أما الإنسان لا يملك أمر وفاتك ولا أمر حياتك ، ولا أمر رزقك ، ولا أمر سعادتك ، ولا أمر شقائك ، فلمَ تعبده إذاً ؟

أحد الناس دخل إلى دائرة حكوميَّة ، ومعه معاملة تحتاج إلى توقيع ، والتوقيع من حقِّ المدير العام ، أليس من الغباء أن يتجه إلى مستخدم ويرجوه أن يوقِّعها له ؟ ليس بيده توقيع هذه المعاملة ، فمن الغباء أن تتجه إليه ، أو أن ترجوه ، أو أن تستجير به ، أو أن تكرمه ، لا ، اذهب إلى من بيده التوقيع ، اطلب من الله عزَّ وجل ..

(وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(104)وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا)

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

اتجه بجميع جسمك إلى الدين :

هذه آية دقيقة جداً ، أنا أنظر إلى هذه الجهة جهة اليمين قليلاً ، هذا النظر إلى جهة اليمين مثلاً مع أن صدري بهذا الاتجاه ، جهة اليسار ، لا يقال عن هذا إقامة الوجه لهذه الجهة ، جهة اليمين التي مثلنا بها أي يجب أن تتجه لا بعينيك ولا برأسك ، ولكن بكلّك إلى الدين .

(وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا)

أحياناً قد يتجه إنساناً إلى الدين اتجاهاً يسيراً ، يحضر درس الجمعة ، يحضر الخطبة ، يقول لك : هناك درس في الساعة الثالثة أحب أن أسمعه .. لكن له نشاطاته المخالفة للدين ، له نزهاته ، له اختلاطاته ، له حركاته ، له انغماسه في الدنيا، لا يقال عن هذا الإنسان : إنه أقام وجهه للدين ، لو نظر إلى الدين بعينيه ما أقام وجهه ، لو نظر إليه بوجهه لا يكفي ، لابدَّ من أن يقيم وجهه كلّه ، والوجه هنا بمعنى وجْهَتَهُ ، والوجهة أي جسمه بكامله يجب أن يكون باتجاه الدين ، أي أن الدين لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً .

(وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ

احذر الشرك بجميع أنواعه :

هناك شركٌ في القلب ، وهناك شركٌ في الجوارح ، وهناك شركٌ في الوجهة ، وهناك شركٌ في الاعتقاد ، وهناك شركٌ في النيَّة ..

(وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

لا تكن مشركاً بأي نوعٍ من أنواع الشرك .

(وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ)

أي أنه غباءٌ ، و سخفٍ ، و ضلالٍ ، و سوء تقديرٍ ، و ضيق أفقٍ أن تدعو من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرُّك .

(فَإِنَّكَ إِذًا مِنْ الظَّالِمِينَ)

لنفسك ، إن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرُّك إنك إذاً من الظالمين ..

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ

أتمنَّى عليكم أن تدقّقوا في هذه الآية :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)

المعنى الأول للمفارقة بين المس والإرادة :

لماذا قال الله عزَّ وجل في موضوع الضر : يمسسك ، وقال في موضوع الخير : يردك؟ قال بعض المفسِّرين : " إن كل إرادةٍ لله عزَّ وجل لابدَّ من أن تقع " ، الإنسان قد يريد وهذه الإرادة قد لا تقع ، ولكن الله إذا أراد وقع ما أراد ، فالتبديل بين المَس والإرادة تبديل يعني أن كلاً منهما يغني عن صاحبه ، لو أنَّ الإرادة وقعت لنُفِّذَتْ ، ولو أن شيئاً وقع على وجه الأرض لكان بإرادة الله ، الذي وقع إنما وقع بإرادة الله ، وإذا أراد لشيءٍ أن يقع وقع ، التبديل إذا أراد الله لشيءٍ أن يقع فلابدَّ من أن يقع ، وإذا وقع شيءٌ ما كان له أن يقع إلا بإرادة الله ، هذا المعنى الأول للمفارقة بين المسِّ وبين الإرادة .

المعنى الثاني :

المعنى الثاني : الضُرُّ ليس مقصوداً لذاته من قِبَل الله عزَّ وجل ، إنما هو وسيلة للخير ..

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)

الخير مقصودٌ لذاته ، والضُرُّ ليس مقصوداً لذاته إنما هو وسيلةٌ لردِّك إلى الحق ، الخير من قِبَل الله ، والشرُّ من الله تنفيذاً بسبب أفعالنا إرادةً ، فالخير مقصودٌ لذاته ، أما الشر فمقصودٌ لغيره .

مثلاً : متى يستخدم المعلّم العصا ؟ هل ضرب التلاميذ مقصودٌ لذاته ؟ لا ، تعليمهم وتأديبهم ورفع مستواهم هو المقصود لذاته ، فإذا قصَّروا نضربهم ، والضرب وسيلة ، وليس غاية ، نضربهم كي يجتهدوا ، ونضربهم كي يتأدَّبوا ، إذاً :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(107)قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

الخير لك ثماره ، والشر عليك وزره

الخير لك ثماره ، والشر عليك وزره .

(وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلا عَلَيْهَا)

(سورة الأنعام : من الآية 164)

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة : من الآية 286)

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

واتبع ما يوحى إليك أمرٌ من عند الله .

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

(وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ)

لابد من الصبر حتى إلى أن يتحقق وعد الله ووعيده :

أي إلى أن تتحقَّق النتائج عليك أن تصبر ، الله وعدك بالعطاء ، ووعد العصاة بالعذاب ، أنت تصبر على وعد الله ووعيده ، لابدَّ من مسافةٍ بين الوعد وتنفيذه ، وبين الوعيد وتنفيذه لينكشف الإنسان على حقيقته ، من كان مُصدِّقاً ، ومن كان مُكَذِّباً ..

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(109))

أي أن العاقبة للمتقين ..

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1))

(سورة المؤمنون)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14))

(سورة الأعلى)

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

لكنَّ هذا الفوز قد لا تراه رأي العين ساعة البدء بالاستقامة ، لكن اصبر فلابدَّ من تكون النهاية لك ، لابدَّ من أن تدور الأمور لمصلحتك ، لابدَّ من أن تسعد في الدنيا والآخرة ..

(وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

لأن حكمه يعود بالخير على كل الناس ، وبهذا انتهت سورة يونس .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (01-16): تفسير الآيات 01 – 05
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-01-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، السورة الجديدة اليوم هي سورة هود وهذه السورة فيها مقطعٌ من آيات الله تعالى تتحدَّث عن الإيمان بالله ، وعن الإيمان برسالة رسول الله، وعن اليوم الآخر، وفيها مجموعة قِصص من قِصص الأنبياء تؤكِّد هذه الحقائق ، ثمّ تنتهي هذه السورة بمُلخَّص بالحقائق المستنبطة من هذه القصص ، فالله سبحانه وتعالى في هذه السورة يقول :

(الر)

(سورة هود)

معاني حروف أوائل السور :

قد تحدَّثنا بالتَّفصيل في مطلع سورة يونس عن معنى هذه الحروف وكيف أنَّ هناك اجْتِهادات عِدَّة في تفسيرها ، مِن أوْجه هذه التفسيرات أنَّها أوائل لأسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، لأنَّ الذي جاء بعدها يُشير إلى ذلك ، فهو أحْمَدُ الخلق ، وهو اللطيف ينقل الخلق إلى الله عز وجل بِلُطْفٍ بالغ ، وهو الرحيم بِأُمَّتِهِ ، بل هو أرْحَمُ أُمَّة محمّد بها . قال تعالى :

(كِتَابٌ)

(سورة هود)

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ

هذا القرآن الذي بين أيدينا كتاب ، والتَّنْكير هنا كما يقول بعض العلماء تنكير تعظيم ، قال تعالى :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)

المعنى الأول :

آياتهُ مُحْكَمَةٌ ، ومعنى مُحكمةٌ أيْ مُترابطة ، فبين الآيات علاقة سبب بنتيجة ، وعلاقة مُقَدِّمة بمُؤخِّرة ، وعلاقة مُقابلة ، إذا ذكر الله عز وجل مَشاهِد أهل الجنَّة ، ذكر مشاهِدَ أهل النار ، وإذا ذكَرَ الله الدنيا ذكَر الله الآخرة ، وإذا ذكَر واقِعَ الحياة ذكَر مآلها ، على كُلّ كلمة أُحْكِمَت آياته واسِعَةُ المعنى .

فَمِن معانيها أنَّ الآيات القرآنيَّة مترابطة فيما بينها ، ومن آتاه الله عِلْمًا بهذا الكتاب وفهْمًا لِحَقائقِهِ يرى

هذا التَّرابط ، وهذه العلاقة ، ومن كان في عَمًى عن كتاب الله يراهُ مُفَكَّكًا ، بل يزْعُمُ أنَّ هذا القرآن يحتاج إلى تنسيق ، وتبويب ، وتفصيل ، وهذا هو المعنى الأوّل ، ومن خِلال تفسير كتاب الله فيما مضى بُيِّنَ لكم بعض هذا الإحكام .

المعنى الثاني :

أنَّ آيات القرآن الكريم مُحْكمةٌ ، بمَعنى أنَّها موجَزَة أوجز الله سبحانه وتعالى أحيانًا ، ثمَّ فصَّل هذا الموجَز ، مثلاً ، قال تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : من الآية 16)

هذه حقيقة جاءَت بِشَكلٍ موجَز ، ثمّ جاءَتْ قِصَّة يوسف عليه السلام ، وهذه القِصَّة على ما فيها من تفصيلات ، إنَّما تؤكّد ما أوْجز الله سبحانه وتعالى في القَوْل ، فقِصَّة يوسف تؤكّد أنَّه لا إله إلا الله مِن خِلال الحَدث ، والوصْف ، والحِوار ، وتعقيب الأحداث ، ثمّ انتِهائِها إلى وضْعٍ مُعَيَّن ، فربُّنا سبحانه وتعالى يوجزُ حينما يُقَرِّر الحقائق ، ويُفصِّل حينما يأتي بالتَّطبيقات العمليَّة .

المعنى الأوَّل ؛ معنى الإحكام يعني الترابط ، والمعنى الثاني ؛ معنى الإحكام أيْ الإيجاز.

المعنى الثالث :

والمعنى الثالث أحْكَمَ الشَّيء أتْقَنَهُ ، أيْ كتابٌ آياتهُ لا يأتيها الباطل ، ولا الخلل ، ولا النَّقْص ، ولا الزِّيادة ، ولا الخطأ ، ولا الخلط ، متناسِقَةٌ ومَضْبوطة ، وهذا المعنى الثالث .

المعنى الرابع :

ومعنى الإحكام الرابع ، مِن الحِكْمة ، أيْ ذَكَرَ أشياء لِحِكمة بالغة ، وأمرَ بأشياء لِحِكمة بالغة ، ونهى عن أشياء لِحِكمة بالغة ، وسكَتَ عن أشياء لِحِكمة بالغة ، فالإحكام من الحِكْمة ، والإحكام من الترابط ، والإحكام من الإيجاز ، والإحكام مِن دِقَّة الصِّياغة ، قال تعالى :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)

القرآن يحتاج إلى نفس صافية ودقة نظر :

لكنَّ هذا الكتاب هو على الظالمين عمًى ! قال تعالى :

(وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ولا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا(82))

(سورة الإسراء)

هذا الكتاب يحتاج فَضْلاً عن دِقَّة الفَهْم وإحكام النَّظر ، يحتاج إلى نفسٍ صافِيَةٍ ، وقلبٍ سليم ، بل إنَّ بعض العلماء حينما فسَّرَ قوله تعالى :

(لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ(79))

(سورة الواقعة)

وجَّه الآية توجْيهًا إضافيًّا يزيدُ عن معناها المادّي ، وجَّهَهَا توجيهًا إلى أنَّ طاهِرَ النَّفس هو الذي يُدْرِكُ معاني القرآن الكريم ، ولهذه الحقيقة تفسير واضِح ، الإنسان المُتَلَبِّس بالرِّبا لا يستسيغُ أن يفهمَ آيات الرِّبا كما هي عليه ، يُحاوِلُ أنْ يُزَوِّرَها ، وأنْ يفْهمها فهمًا خاطئًا ، كي يُغَطِّي نفسَهُ ، هذا عنده خللٌ داخلي يُحاوِلُ أن يُصْلِحَ هذا الخَلَل ، وأن يُقيمَ توازنهُ من توجيه الآيات توجيهًا خاطئًا ، فالمُتَلَبِّسُ بالمعاصي ، إذًا : لا يُمْكنُ أن يفْهم كتاب الله تعالى على حقيقته ، ولن يفْهمهُ على حقيقتِهِ إلا مَن كان مستقيمًا على أمرهِ ، لذلك قال تعالى :

(لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ(79))

(سورة الواقعة)

مَن كان طاهِرَ النَّفس ، طاهِرَ السُّلوك ، ونقِيَّ القلب ، إذا قرأ القرآن الكريم يفْهَمُهُ على حقيقتِهِ ، أما من تلبَّس بالمعْصيَة ، وزيَّف ، وانْحاز وخرَجَ ، وطغى وبغى ، هذا قلبهُ مُغْلَقٌ بالمعْصِيَةِ أوَّلاً ، ويُحاوِلُ أن يجرّ الآيات إلى تغْطِيَة انْحِرافاته ثانيًا ، فهو إذًا لن يستطيع فهْمَ كِتاب الله .

ملخَّص المعاني الأربعة للإحكام :

كِتاب الله آياتُهُ مُحْكمةٌ ، بمَعنى أنَّ في ذِكْرها حِكْمَةٌ بالغة ، فالله عز وجل سَكَتَ عن أشياء كثيرة ، سَكَتَ عن نوع الثِّياب ، وسكَتَ عن نوْع الطَّعام ، وسكتَ عن نوع الأثاث ؛ هذه أشياء مُتَبَدِّلة ، ومُتَغَيِّرة في كلّ عَصر ، وسكَتَ عن نسبة الرِّبْح ، لأنَّه لو حدَّدَها لَهَلَكَ الناس ، هناك أشياء كثيرة في الكتاب ذكرها لِحِكمة بالغة ، ونهَى عن بعضِها لِحِكمة بالغة ، وسكَتَ عنها ، ولو أنَّ إنسانًا لديه فراغ كثير ، وتتَبَّعَ الحِكمة في سُكوت القرآن عن بعض الموضوعات لوَجَدَ في هذا السُّكوت حِكْمةً لا تَقِلّ عن حِكمة الذي أمرنا به أو نهانا عنه .

أُحْكِمَتْ آياته ، أيْ الآيات مُفْعَمَةٌ بالحِكمة ، المعنى الأوّل ، وأُحْكِمَت آياته أيْ ترابَطَتْ ، في السورة الواحِدَة عرْضٌ لِحَقائق التَّوحيد ، ثمَّ قِصَّة فيها تطبيق عملي لهذه الحقائق ، ثمَّ وصْفٌ لمَشاهِدِ الآخرة ، وهي العِقاب الذي ينتظر المنْحَرفين والثَّوَاب الذي ينتظر المستقيمين ، فَذِكْرُ حقائق التَّوحيد ، ثمَّ ذِكْرُ

قِصَة تُجَسِّدُها ، ثمَّ ذِكْرُ المآل مِن جنَّة أو نار ؛ هذا ترابط ، أحيانًا تأتي آيات العذاب فَتَخاف النفس لكي لا يُفضي بها الخوف إلى اليأس تأتي آيات الرَّحمة فَتَقْلِبُها من التَّشاؤُم إلى التفاؤل ، والله سبحانه وتعالى جعلَ هذا الكتاب كِتاب تفاؤُلٍ وهداية ورشاد ، فيه تَبْيينٌ للحلال والحرام ، وتبْيينٌ لِعَظمة الله عز وجل عن طريق آياته الكَوْنِيَّة ، وفيه ذِكْرٌ لِما مضى ، وذِكْرٌ لما سيَكون وفيه وصْفٌ لِمَشاهِدِ يوم القيامة ، وفيه آياتٌ كَوْنِيَّة .

ومعنى الحِكمة والإحكام ، ومعنى الإحكام الترابط ، ومعنى الإحكام دِقَّة الصّنع ، ومعنى الإحكام الإيجاز ؛ كلّ هذه المعاني الأربعة تنْضَوي تحت كلمة كتاب أُحكِمَتْ آياته .

قال تعالى :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)

ثُمَّ فُصِّلَتْ

1 ـ معنى : فُصِّلَتْ

فُصِّلَت سُوَرًا ، وفُصِّلَت السُّوَر آياتٍ ، وكلّ آيةٍ لها معنى قائمٌ بذاته ، لو نزَعْتَ هذه الآية مِن السِّياق لكان لها معنى قائِمٌ بذاته ، قال تعالى :

(وَلا تُؤْمِنُوا إلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أنْ يُؤْتَى أحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 73)

لو جاءَت هذه الآية في سِياق الآيات لها معنى ، فلو نُزِعَتْ مِن سِياق الآيات لكان لها معنى آخر ، فهذه فُصِّلَت آياتٍ ، وفُصِّلَت سُوَرًا ، وفصِّلَت أحكامًا ، وفصِّلَت حلالاً وحرامًا ، ووعْدًا ووعيدًا ؛ هذا كلّه أيضًا ينضَوي تحت كلمة فصِّلَت .

2 ـ الحكمة من كلمة (ثُمَّ) :

أمّا ثمّ ، فهذه الكلمة للتَّرتيب ، لا للتَّرتيب الزمني ، بل للتّرتيب الرُّتَبي فأنت في الكتاب تذكرُ في المقدِّمة مِحْور الكتاب ، ومُجْمَلَ النَّظريَّات التي طرحها ، ثمَّ تأتي فُصول الكتاب لِتَشرح هذه النَّظريَّات، وتُوَسِّعها ، وتذكرَ أصلها وتُعَلِّلها ، وتؤيِّدها بالشَّواهد ، وتُقيم موازنات بينها وبين غيرها ؛ هذا هو التَّفصيل ، فالإحكام هو الإيجاز ، والتَّفصيل هو التَّوسيع ، قال تعالى :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

(سورة هود)

مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ

1 - القرآن غنى ما بعدة غنى :

كيف لا تكون آيات الكتاب مُحْكمة ، وهي من عند الحكيم ؟! كيف لا تكون آيات القرآن مترابطة ، والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق المنطق ؟ وكيف لا تكون آيات القرآن الكريم دقيقة في صِياغتها ، والله سبحانه وتعالى هو المطلق ، كمالهُ مُطْلق ، وعلمُهُ مطلق ، وقُدْرتُهُ مطلقة ، وبيانُهُ مُطلق ، إذا تعامَلْتَ مع كِتاب الله فاعْلَم أنَّك تتعامَلُ مع كلام الله وفضْلُ كلام الله على كلام خلقهِ ، كَفَضْل الله على خلْقِهِ ، فالحرف الواحد في القرآن له معنى ، والحركة في القرآن لها معنى ، أنْ يَعْدِل الله سبحانه وتعالى عن رفع بعض الآيات المتعاطفة إلى نصْب إحداها ، هناك معنى دقيق جدًّا ، فإذا ضيَّعْت الحياة كلّها في فهْم كتاب الله فهذا هو الغِنى الحقيقيّ ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((القرآن غِنًى لا فقْر بعده ، ولا غنىً دونه))

[ورد في الأثر]

هو الغِنَى الحقيقيّ ، ولذلك أهل القرآن أهل الله ، ومَن تعلَّم القرآن متَّعَهُ الله بعَقلِهِ حتى يموت ، ولا يَحْزنُ قارئ القرآن ، وخيرُكم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمَه .

2 - القرآن والكون :

إنّ الله سبحانه وتعالى جعَلَ الكون كلّه في كِفَّة ، وجعل هذا الكتاب في كِفَّة أخرى ، قال تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)

(سورة الأنعام : من الآية 1)

وقال تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا(1))

(سورة الكهف)

قال تعالى :

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(77)فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(78)لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(79))

(سورة الواقعة)

قال تعالى :

(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لا تُبْصِرُونَ(39))

(سورة الحاقة)

يُقْسِمُ الله سبحانه وتعالى بالكَون كلّه ، ويأتي موضوع القسَم أنَّ هذا الكتاب كريم ، إنَّه لقرآن كريم ، فالكون في كفَّة ، والقرآن في كفَّة .

بشَكلٍ آخر قد تمْلِكُ جِهازًا بالغَ التَّعقيد ، وباهظ التكاليف ، ولن تستطيع تشْغيلهُ إلا إذا اطَّلَعْت على دْفترٍ مطبوعٍ فيه تعليمات التّشغيل ! إنَّ هذه التعليمات لا تَقِلّ شأنًا عن هذا الجِهاز ، بل إنَّ استِعمالها مصيري، ولو لم تستَعمِل هذا الجِهاز وفق هذه التعليمات لأتْلفْتَ الجِهاز ! إذًا لهذه التعليمات قيمة كُبْرى ، وهذا الكون العظيم بِمَجَرَّاته المترامِيَة ، بِمَسافاته التي لا تُعْقَل لِحِدَّة بُعدِها ، شمْسُهُ أرْضُهُ سماؤُهُ ، وما في الأرض ، وما فوقها وتحتها ، مِن مخلوقات دَقَّتْ أو جلَّت ، صَغُرَت أو كَبُرَت ، تَعَقَّدَت أو انْبسَطت ؛ كلّ هذا يُقابلهُ هذا الكتاب الذي فيه تفسير لِهذا الكون ونشأة هذا الكون ومصيرهِ ، وبيان لِجَدْوى وجود الإنسان على الأرض ، ومُهمَّتُهُ الأساسيَّة ، أين كان ؟ وإلى أين ذاهِب ؟ قال تعالى :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

(سورة هود)

خبير بِنُفوسنا ، يعْلَمُ ما يُصلِحُها ، وما يفْسِدُها ، ويعلمُ الذي يُسْعِدُها ، والذي يُشْقيها ، يعْلَمُ ما نُسِرّ ، وما نُعْلِن ، إنَّه حكيم خبير ، هذا الكتاب مِن الدَّقَّة إلى أختها كما يقولون ، مِن سورة الفاتحة إلى سورة الناس ذكر اللهُ سبحانه وتعالى فَحْواه ومضمونه ، فقال تعالى :

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة هود)

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّه

1 ـ ملخّص القرآن : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

طبعًا هذا الملخَّص ! أما قِصص الأنبياء وآيات الكون ، والحديث عن الأُمَم السالفة ، ومشاهِد القيامة ، هذا كله تفصيل كي تَصِل إلى هذه الحقيقة الكبرى ، ألاّ تعبدوا إلاّ الله ، فما العبادة ؟ بعضهم يظنّها الطاعة ؛ إنَّها كذلك وليس كذلك !! العبادة هي الطاعة ، وليْسَت قاصِرَة على الطاعة ، إذا أشْهَرْتَ على أحدٍ سِلاحًا ، وأمرتَهُ أن يُطيعَك فإنَّه يُطيعُك ؛ فهل هذه عِبادة ؟! العبادة هي الطاعة المَبْنِيَّة على معرفة الله سبحانه وتعالى ، وهذه الطاعة ليْسَت هدفًا بذاتها ، إنّما نتيجتها هي الهدَف ، ونتيجتها هي السَّعادة

تعرفُهُ فَتُطيعُهُ فتَسْعَدُ به في الدنيا والآخرة ، وإلى الأبد .

الخُلاصة أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان على وجْه الأرض كي يتعرَّف إليه ، فإذا تعرَّف إليه طبَّقَ منهَجَهُ ، وإذا طبَّقَ منهجه سَعِدَ بقُربهِ ، فالكتاب كلّه ملخَّصه أن لا تعبدوا إلا الله ، لذلك ربنا عز وجل قال في آيات أخرى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ))

[رواه الإمام مالك]

2 ـ حقيقة : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

لأنَّك إذا ما قلت : لا إله إلا الله ، ثُمَّ رأيْت أنَّ هناك آلهة غير الله ، فإنَّك سوف تُطيعُهم فيما يُسْخِط الله ، وإنَّك سوف تخاف منهم ، وسوف ترْجوهم وهم لا شيء ، تنتظر عندهم السَّعادة ، وهم لا يمْلِكونها لأنفسهم ، وتنتظر منهم أن يُخَلِّصوك ، وهم لا يستطيعون تخليص أنفسهم ! وليس شرطًا أن تقول : فلانٌ إله ! لا ، إذا اعْتَقَدْت أنَّ بيَدِ فلان نفْعك وضرّك فهذا هو الشِّرك ، فأنت إن قلت : لا إله إلا الله ، واعْتَقَدْت أنَّ فلانا ينفعُكَ ويضرّك ، وأنّ أمْركَ بيَد فلان ، ومصيرك بيَدِهِ ، وأنَّ فلانا إذا رضي عنك أسْعَدكَ ، وإذا غضب عليك أشْقاك ، إذا تصوّرْت أو توهَّمْت هذه الحقائق فهذا هو الشِّرك .

إن كلمة : ألاّ تعبدوا إلا الله ، هي كلمة محدودة نقولها ، ولكنّ مَضْمونها كبير جدًّا ، يعني أنَّ محصّلة معرفة الله أن تعبدَه وحده ، لذا قال بعض العلماء : إنَّ أعلى رُتْبةٍ بلغها إنسانٌ هي رتبة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ ما هي هذه الرُّتبة ؟ رتْبة العبوديَّة ، العبودِيَّة لله هي الخضوع التامّ لله ، وأنت لن تخْضع إلا إذا عرفْت أنَّ خُضوعك هذا يُحَقّق لك كلّ السَّعادة ، لذا قال تعالى :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا(36))

(سورة الأحزاب)

تختار أنت هذا البيت أو ذاك ، وهذه الزوجة أو تلك ، وتختار عملاً حُرًّا أو وظيفةً ، أما أن تختار شيئًا نهى الله عنه ، وأن تقول : أفْعل ولا أفعل في شيء نهى الله عنه ، فهذا ليس من صفة المؤمن ، قال تعالى :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا(36))

(سورة الأحزاب)

ألا تعبدوا إلا الله ، فَمَضْمون هذا الكتاب بمُوجَزِهِ وتفْصيلِه ، وبمُحْكَمِهِ ومُتشابِهِهِ ، مضمون هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله ، فلو أنَّ الإنسان قرأ هذا الكتاب وتفسيرهُ ، وأتْقَنَهُ وقرأهُ ، وجوَّدَهُ ، وعبدَ غير الله ، لما استْفاد منه ! الاسْتِفادة من الشيء مرْهونة بتَحصيل النَّفع من ذاك الشيء ونَفْعُ هذا الكتاب ألا تعبد إلا الله ، قال تعالى :

(ولا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(51))

(سورة الذاريات)

3 ـ رسالة النبي توضيح معنى : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

هذه رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلّم ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(45))

(سورة الأحزاب)

تشْهَدُ للناس بالحقائق ، وتُبشِّرُهم إذا اتَّبَعُوها ، وتُنْذِرُهم إذا خالفوها ، هذه هي الحقيقة منْ طبَّقَها سَعِدَ ، ومن حادَ عنها شَقِيَ ، قال تعالى :

(ولا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(51))

(سورة الذاريات)

ففي هذه الآيات توضيح لِمُهمَّة النبي عليه الصلاة والسلام في أُمَّتِهِ ؛ أن يكون بشيرًا لِمَن أطاعه ، ونذيرًا لِمَن عصاه ، بشيرًا لِمَن اتَّبَعَ سنَّتَهُ ونذيرًا لِمَن حاد عن أمره .

4 ـ معنى آخر لقوله : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّه

هناك معنى آخر لهذه الآية ، هنا حمَّلناها معنى التَّفسير ، أي هذا الكتاب مُلَخَّصَه ، ومضمونه ، وفَحواه، ألاّ تعبدوا إلا الله ، هناك تفسير آخر ، وهو أنَّ عبادته هي مفْعولٌ لأجله ، أيْ أنَّ هذا الكتاب فُصِّل وأُحْكِمَ وبُيِّن مِن أجل أن تعبُدَهُ ، فإذا عبَدْتَهُ فقد قرأتَ هذا الكتاب ، وإذا لم تعْبُدْهُ فإنَّك قد جَهِلْتَ مَضْمونه ، ولو ردَّدْتَهُ بلسانِكَ ، قال تعالى :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ

1 ـ معنى الاستغفار :

الاسْتِغفار هو الأصل ، وهو طلبُ المغفرة ، والمغفرة هي الشِّفاء من الذُّنوب ، والإنسان بين حالتين ؛ إن كان في إقبال على الله عز وجل فنَفسُهُ طاهِرَةٌ مُطَهَّرة ، لأنَّ إقباله على الله يشْفي نفْسَهُ ، قال تعالى :

(إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(45))

(سورة العنكبوت)

الإقبال على الله بالاستغفار يُكسِب الصفاءَ :

قطعةُ حديدٍ باردة جدًّا ضَعها في الشَّمس ، بعد ساعة تجدها فقَدَتْ شيئًا ، واكْتَسَبتْ شيئًا ، فقَدَت البرودة ، واكْتسَبَت الحرارة ، وكلّ نفسٍ تُقبلُ على الله عز وجل إقْبالاً صحيحًا فلا بدّ مِن أن تَفْقد شيئًا ، وإنّ الأدْرانَ والكِبْرَ والأنانيَّة ، وحُبّ الذات ، والاسْتِعلاء والحِقْد ، والضَّغينة والحسَد والنَّميمة هذه صِفات ذميمة ، وهي أعْراضُ الإعراض ! ليْسَت أمراضًا ، ولكنَّها أعراضٌ لِمَرضٍ واحد ، وهو الإعراض ، فأنت إذا أقْبَلْت تحلَّيْت بالكمال، وإذا أعْرضْت بَدَتْ منك هذه العُيوب .

الناس إما تقي وإما فاجر :

الناس رجلان : بر تقيّ كريم على الله ، وفاجر ، وكلّ تقسيمات الأرض باطلة ؛ يقولون لك : الشُّعوب الآريَّة ، والشُّعوب الساميّة ، والبيض والسود ، والأغنياء والفقراء ، كلّ هذه التَّقسيمات باطلة ، الناس رجلان : رجل أقْبَلَ على الله تعالى فاصْطَبَغَ بالكمال ، ورجل أعْرضَ عنه فاصْطَبَغَ باللُّؤْم ، فأبو لهب عمّ النبي عليه الصلاة والسلام فلأنَّه أعرض عن الله عز وجل كان كُتلة من اللُّؤْم والخِفَّة ، وبلال رضي الله عنه أقْبَلَ على الله عز وجل فامتلأ كرمًا وعِفَّة ، وطهارةً ، وإخلاصًا ، وشَجاعةً ، وهذا هو التَّقسيم الصحيح ، فأنت قد تُحبّ الغني لشِدَّة سخائه وتواضُعِه وتكرَهُ الفقير من شِدّة فقرهِ واسْتِعلائه ، هذه التقسيمات باطلة ، فلا مدني ، ولا قَرَويَّ ، ولا غِنَى ولا فقير ، وهذا أصله إنجليزي ، وهذا ألماني، ونحو ذلك ، وقد قالَ هيتلر مثلاً : نحن أعلى درجة في الشُّعوب ، وجعل العرب مع البرابرة ، هذه كلّها تقسيمات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان ، ولكنّ التقسيم الصحيح رجل عرف الله فأقْبَلَ عليه ، فأصبَحَ كاملاً ، ورجل أعْرض عنه فأصبَح ناقصًا لئيمًا ، والمروءة مَجْمعٌ لصِفات حميدة ، واللُّؤْم مَجمعُ

لِصفات ذميمة قال تعالى :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

فالاستغفار طلب المغفرة ، و المغفرة شفاء من هذه الذنوب ، فكلُّ إنسان له إقبال على الله عز وجل تراه كريما متواضعا مؤنسا حليما كريما شجاعا ودودا تحبُّه ، أنا أرى هذا المقياس ، وعلامة صدق المؤمن أنه يجب أن تحبَّه ، و لا بدَّ أن تحبَّه ، و محبَّته واجبة لأنه اصطبغ بكمالات الله عز وجل ، ولماذا أحبَّ أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم محمّدًا صلى الله عليه وسلم ؟ ما رأيت أحدا يحب أحدا كحبِّ أصحاب محمدٍ محمدًا ، اللهمّ صلِّ عليه ، لكماله الرفيع ، و لماذا أحبَّ الناسُ أصحابَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؟ لكمالهم الرفيع ، ولماذا أحبَّ الناسُ المؤمنين ؟ لتواضعهم ولكمالهم ، ولإنصافهم ، وعِفَّتهم وطهارتهم وسُمُوّهم ، ولماذا يكره الناس الكافر ؟ لِفَظاظَتِهِ ، ولُؤْمِهِ وخِفَّتِهِ ، ودناءتِه ، وحبِّه لِذاته ، فهذه الصِّفات كلّها أعراض لِمَرَضٍ واحد وهو أعْراضُ الإعْراض ، والكمالات كلّها ثِمارٌ لِعَملٍ واحد ، وهو الإقبال على الله عز وجل ، وإنَّ مكارم الأخلاق مَخزونة عند الله ، فإذا أحبَّ الله عبدًا منَحَهُ خُلُقًا حسنًا .

2 ـ الاستغفار أحد أهداف الدِّين الكبرى :

إن الله تعالى أمر بالاستغفار ، وهو أحد أهداف الدِّين الكبرى ، وأحدُ أهداف الدِّين الكبرى أن يسْمو بهذا الإنسان ، الناس فَهموا في هذا العصر الدِّينَ فهمًا ضيِّقًا ، فَهموهُ ركعاتٍ تؤدَّى في المسجد ، وفَهموه دُرَيْهمات تُعطى للفقير ، وفَهموه سِياحةً مُتَّجِهَةً نحو البيت الحرام ! وكفى !! صلاة وصِيام وحجّ وزكاة ، وانتهى الأمر ، ليس هذا هو الدِّين ، ولكن الدّين أن تنقلب النَّفس رأسًا على عَقِبَ ، وأن تسْمو ، وتصْطَبِغَ بالكمال ، قال جَعْفَرُ بْنُ أبي طَالِبٍ :

((أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ...))

[أحمد عن أم سلمة]

هذه هي الجاهليّة ، وهذا هو البعد عن الله عز وجل والإعراض عنه ، وهذا هو اللُّؤْم بِعَيْنِهِ ، حتى أتى النبي عليه الصلاة والسلام فأمر ونهى ، الدِّين سُمُوّ النَّفس ، وعُدُكَ دقيق ، وعَمَلُك مُتْقَن لا تكذب ، ولا تغشّ ، لو صلَّيْت وصُمْت آلاف الرّكعات ، وصلَّيت وصمتَ طوال حياتك ، وغَشَشْت مسلمًا واحدًا بطل معنى ما تفعله .

جوهر الدين الاستقامة :

إن رجلا خاض بدْرًا وأُحُدًا ، وباع شيئًا بثَمَنين بلغ السيّدة عائشة فقالتْ : قولوا له : إنَّه أبْطَلَ جِهادهُ مع رسول الله ! جَوْهر الدِّين الاستقامة ، ومعْدنه العمل الطيّب ، وشرفه السموّ الأخلاقي ، هذا هو الدِّين فإن فَهِمْتهُ هكذا أحبّ الناس كلّهم الدِّين ، وإن فَهِمْتَ الدِّين صلاةً وحجًّا ، وصِيامًا ، وزكاةً وإيذاءً للخلق، وأخْذًا لأموالهم ، واسْتِعلاءً عليهم ، وخذلاً ، وكذبًا واحْتِيالاً ، إن فَهِمت الدِّين هكذا نفر الناس من الدِّين ، وهناك أُناسٌ كثيرون لا يستطيعون سَمَاعَ كلمة الدِّين ؛ لماذا ؟ لأنَّ لهم تَجارب مُرَّة مع بعض الدَيِّنين ، يَحُجّ كلّ عام ، ويُصلّي صلاة الضُّحى وقيام الليل ، ويفعل في النهار ما يفعل !

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ ...))

[أحمد]

تَرْكُ دانِق من حرام خير من ثمانين حجَّة بعد حجّة الإسلام ، ولأنْ أمْشِيَ مع أخٍ في حاجته خير من صيام شهرٍ ، ومن اعْتِكافِه في مسجدي هذا ! لن تذوق طعْم الإيمان إلا إذا كنتَ مستقيمًا ، ولن تذوق طعْم الإيمان إلا إذا كنتَ مُحْسِنًا ، ولن يعرف الناس لك قيمة الدِّين إلا إذا كُنْتَ طاهرًا ، وكريمًا ، إنَّ هذا الدِّين قد ارْتَضَيْتُهُ لِنَفسي ، ولا يُصْلِحُه إلا السَّخاء ، وحُسْن الخلق ، فأكْرِموه بهما ما صَحِبتُموه .

ما هذا السرّ الدَّفين ؟! ألف أو يزيدون من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فتَحوا الآفاق ، ورفْرفَتْ راياتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، ووصَلوا إلى الصِّين ، وفتَحوا قبرص ، وإلى القسطنطينيَّة ، وإلى فيينا ، وإلى الأندلس ، كيف وصلوا إلى ما وصلوا إليه ؟! بأخْلاقيَّتهم ، ففي فْيينا هناك مَتْحف لِرَسَّامِين كِبار إحدى هذه اللَّوْحات مضمونها أنَّ الجنود المسلمين حينما وصَلوا إلى فيينا فاتِحين كانوا يشْترون عنَبًا من بعض الفتيات من فيينا ، الرَّسام يُصَوِّر هذه الظاهرة ؛ يَدْفَعُون لهم الثَّمَن ، ويَغُضُّون الطَّرْف عن النَّظَر إليْهنّ ! بهذه الأخلاق وصلوا إلى فيينا ، فلمَّا نظروا تراجَعوا !

العرب في الأندلس حينما أرادوا فَتْح هذه البلاد ، وبثّ الهدى والفضيلة ، فتحوها واسْتَقرُّوا فيها ، فلمَّا التَفَتوا إلى الغناء ، واصْطِحاب القِيان ، وصَنَعوا الموشَّحات ، وغرقوا في الملذَّات خرَجوا منها ، وآخر مُلوكهم حينما خرج من قصْرِهِ صار يبكي ! فقالت لهم أُمُّه عائشة :

ابْكِ مثل النِّساء مُلْكًا مُضاعًا لم تُحافِظ عليه مثل الرِّجال

حينما كانوا مع الله كان الله معهم ، وقال تعالى :

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(12))

(سورة المائدة)

مَعِيَّتُهُ تعالى مَشروطة ، كُنْ مع الله تَرَ اللهَ معك ! الآن على مُسْتوى فرْدي ، كُنْ معه ، وانْظُر كيف يكون معك ، وكيف يُدافِع عنك ويَحْفظُك ويؤيِّدُك ؟ وكيف ينصرك ؟ وكيف يُسْعِدُك ويرفع شأنَك ؟ وكيف يُوَفّقك لما تحبّ وترضى ؟

حينما فتَحوا البلاد فَتَحوها بِنِيَّة الفضيلة ، وبثّ الهدى وإسعاد الخلق ، فأعانهم الله عز وجل ، فلمَّا ركنوا إلى دُنياهم واستمرءوا الشَّهوات ، وانْغَمَسوا في الملذَّات أخرجهم الله منها ! أنتم لسْتُم أهلاً لذلك ، أنتم فقَدْتُم هَوِيَّتَكُم ، وفقَدْتم الرِّسالة التي جئتم من أجلها ، وضيَّعتموها ، فأخرجناكم ، قال تعالى :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

الاستغفار هو المقصود ، وهو طلب المغفرة وهي الشِّفاء ، يقول تعالى بعدها :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

التوبة طريق الاستغفار :

هنا التَّوبة طريق الاستغفار ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى كما يقول بعض المفسِّرين : قدَّم الاستغفار على التَّوبة لأنَّه هو المقصود ، والتوبة طريق الاستغفار ، إذا تُبْت إلى الله توْبةً نصوحاً تُقْبلُ عليه ، فإذا أقْبلتَ عليه يشْفيك من كلّ الأمراض ، علاقات عِلْميّة وعلاقات سَبب بِنَتيجة ! إذا تُبْت إليه توبةً نصوحًا أقْبلت عليه ، وذهب عنك الخَجَل والحِجاب ، إن تُبْت إليه أقْبلتَ عليه ، فإذا أقْبلتَ عليه شَفاك من كلّ الأمراض ، قال تعالى :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا)

(سورة هود)

يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا

1 ـ معنى : يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا

بعضهم قال :

(يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا)

أي يُوَسِّع أرزاقكم ، ويُطيّب معيشتكم ، ويُسْعِدكم بأهلكم ، ويرْفع ذِكْركم ، تَسْعدون في الدنيا ، وهذا مِن وعْد الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(97))

(سورة النحل)

2 ـ الاستغفار والتوبة سبب الرزق :

قال أحدهم للإمام الحسن البصري : إنِّي أشْكو الفقر ! فقال : اسْتَغفر الله تعالى ، فجاءه رجل آخر : وقال يا إمام ، إنَّ زوجتي لا تُنْجب ! فقال : اسْتغفر الله ، وجاء رجل ثالث ، فقال : يا إمام ، إنّا نشْكو قحْط السماء فقال : اسْتغفروا الله ، فقال بعض من حضر هذا الكلام : يا إمام ، أو كُلَّما جاءك رجل ، وشكا لك همَّه تقول له : اسْتغفر الله ؟! فقرأ عليهم قوله تعالى :

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

(سورة نوح)

وقال تعالى :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجنّ)

مدينة دمشق كانَ معدَّل أمطارها السَّنَوي مائتين وخمسين ميليمترًا ، وبعد سنواتٍ طويلة رضوا بمُعدّل مائتين ، الآن يرْضَون بمائة وثمانين !! وفي أيامنا هذه لا يصل معدل الأمطار السنوي خمسةٍ وأربعين ميليمترًا ! وقال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

(سورة الأعراف)

فهذه كلّها مُعالجات من الله ، فالاستغفار هو الهدف ، والتَّوبة هي الطريق ، وإذا فعلتم هذا يُمَتِّعنا الله تعالى متاعًا حسنًا ، فإذا لم يفعله المجموع ، وفعله واحدٌ فقط فإنَّ هذه الآية تُصيبُهُ ، هذه الآية كلام الله وكلام خالق السماوات والأرض ، وكلام من بيَدِهِ كلّ شيء ، قال تعالى :

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا)

(سورة هود)

3 ـ إذا لم يتب الناس عامة لابد من توبة الفرد :

يُمَتِّعك بصِحَّتك ، ويُمَتِّعُك بزَواجك ، ويُمَتِّعُك بأولادك ، ويُمَتِّعُك بعَملك ويُمَتِّعُك بمَكانتك ، تسْعَدُ ، وتُسْعِد ، تُرْضي ، وتَرْضى .

على مستوى جماعي وفردي ، وإذا كان الناس في غفلة فَكُن أنت في صَحوَة ، إذا كان الناس في جَهل فَكُن أنت على عِلْمٍ ، وإذا كان الناس في ضَياع فَكُن أنت على هُدَى ، إذا رأيْت أُناسًا غارقين في مِياه آسنة ، وأنت نظيف مُعافًى من هذه المياه الآسنة ، فهل تقول : ما دام الكل في هذه المياه الآسنة ، فلا بدّ أن أُشاركهم ! هذا حُمقٌ من الإنسان وغَباءٌ ، فالناس إن لم يرجعوا عن غيهم وضلالهم يُرجعهم الله إليه، ولا تمسهم رحمته ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(105))

(سورة المائدة)

إذا لم يتب الناس ، ولم يستغفروا كان عليك أنت أن تتوب وتستغفر ، فإذا فَعَلْت قيَّض الله لك حياةً خاصَّة لا تنتمي إلى حياة الآخرين ، فالناس في قلق وأنت في طمأنينة ، والناس في ضيق وأنت في بَحْبوحةِ الناس في خوف ، وأنت في أمْنٍ ، الناس في شيءٍ يشْغلُهم ، وأنت خالي البال . قال تعالى :

(يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة هود)

إلى أجَلٍ مُسَمًّى

التمتيع مؤقت :

فالمتاع ليس دائمًا ، إلى أن تنتهي الحياة وإلى أن ينتهي الأجَل ، وإلى أن ينتهي العُمر :

إنَّ الطبيب له عِلمٌ يُدِلَّ بـــه إن كان للناس فـي الآجال تأخير

حتى ما إذا انْقضَت أيام رحلته حار الطبيب و خانتْهُ العقاقيــر

***

فأنت في رحلة ، وإلى أن تنتهي هذه الرِّحلة تُمَتَّعُ متاعًا حسنًا ، ويُؤتي كلّ ذي فضْلٍ فضله ، فإن ربَّيت أولادكَ تربيَةً صالحة ، فهذا فضل يُؤتيك الله فضلاً يكافئه ويزيد عليه ، وإذا تصدَّقت بمالٍ حلال يُؤتيك فضلاً يكافئه ، ويزيد عليه إذا استقمت ، وأيُّ عمل تفعله يؤتك ثوابه في الدنيا والآخرة .

معنى : وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ

المعنى الأول :

بعض المفسِّرين ، بل إن جلَّ المفسِّرين قالوا : إن هذه الآية متعلّقةٌ بالآخرة .

المعنى الثاني :

لكنّ بعضهم قال : لا ، المطلق على إطلاقه ، يؤتي كل ذي فضل فضله في الدنيا و الآخرة ، أي إذا فعلتَ الخير في الدنيا تلقاه في الدنيا و الآخرة ، لذلك من آثر دنياه على آخرته خسرهما معًا ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معًا ، قال تعالى :

(يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ)

(سورة هود)

فلا تمننْ على الله بشيء ، والذي تفعله من خير يؤتيك إياه و زيادة . قال تعالى :

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

(سورة هود)

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ

الوعدُ و الوعيدُ ملخَّصُ الكتاب ، صفاتُ الكتاب ، و ملخَّصه و رسالة النبيِّ عليه الصلاة و السلام و الطريق إلى السعادة التوبة ثم الاستغفار ، و الوعد قال تعالى :

(يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ)

(سورة هود)

والوعيد قال تعالى :

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

(سورة هود)

وهذا الشيء لابدَّ أنه واقع بسبب ، قال تعالى :

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة هود)

هناك أشرطة في المطارات محرِّكة للحقائب ، إذا وضعتَ هذه الحقيبة على هذا الشريط المتحرِّك لا بدَّ من أن تصل إلى نهاية الطريق فالإنسان على شريط متحرِّك لا بدَّ من أن ينتهي به هذا الشريط إلى الموت ، والأنبياء ماتوا ، وزعماء الشرك في مكة ماتوا ، أبو جهل وأبو لهب وأميَّة بن خلف كلهم ماتوا ، والفقراء ماتوا ، والأغنياء ماتوا ، والصالحون ماتوا ، والطَّالحون ماتوا ، والأقوياء ماتوا ، والضُّعفاء ماتوا ، قال تعالى :

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة هود)

إذًا ما لنا سوى الله ولابد من العودة إليه . قال تعالى :

(أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ)

(سورة هود)

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ

1 - السرائر لا يعلمها إلا الله :

يعني : يظنون أن لهم سرائر لا يعرفها أحدٌ ، عُمَيْرُ بن وهبٍ خرج مع صفوان بن أمية بن خلف إلى ظاهر مكة في الصحراء ، قال : والله لولا أطفال صغار أخاف عليهم الفقر ، ولولا ديون ركبتني لا أطيق سدادها لقتلتُ محمدا ، وأرحْتُكم منه ، فقال له صفوان : أما أولادك فهم أولادي ما امتدَّ بهم العمُر، وكان غنيًّا ، وأما ديونك فعليَّ بلغتْ ما بلغتْ ، فامضِ لما أردتَ ، فمضى عميرٌ ، وأخذ سيفه ، وسقاه سُمًّا ، ووضعه على عاتقه ، وجهَّز راحلةً ، وامتطاها ، وذهب إلى المدينة ، هذا بعد بدرٍ ، وله غطاء لنيته الماكرة ليفدي أخاه ، ليدفع الفديةَ ويأخذ أخاه ، وصل المدينة فرآه عمرُ فقال : هذا عدوُّ الله عمير بن وهبٍ ، جاء يريد شرًّا ، قيَّده بحمَّالة سيفه ، واقتاده إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، النبيُّ عليه الصلاة والسلام كان رقيقا قال : يا عمر ، أطلِق سراحَه ، فكَّ القيد ، قال : يا عمر ، ابتعِد عنه ،

فابتعد عنه ، قال : يا عميرُ أدنُ مني ، اِقترِب مني ، فلما دنا منه قال : ألا تسلِّم علينا ؟ قال : عِمتَ صباحا يا محمد ، قال له : قُل السلام عليكم ، قال : لستَ بعيدَ عهدٍ بالجاهلية ، هذا سلامي ، قال : يا عمير ، ما الذي جاء بك إلى هنا ، قال : جئتُ لأفديَ أخي ، قال : وهذا السيف الذي على عاتقك ؟ قال: قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتْنا يوم بدر ؟ ألم تقل لصفوان بن أميَّة بن خلف : لولا دُيون ركبتني لا أُطيق سَدادها ، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت لذَهَبتُ ، وقتلتُ محمَّدا ، وأرَحْتكم منه ! كان جالسًا فَوقَفَ ، فقال : والله إنّ هذا الذي قُلتهُ لِصَفوان لا يَعْلَمُهُ أحد في الأرض إلا الله ، وأنت رسول الله! أسْلَمَ وقَبِلَهُ النبي ، فلمّا خرجَ قال سيدنا عمر رضي الله عنه : والله ، لقد دَخَلَ عُمَير على رسول الله والخِنزيرُ أحبُّ إليّ منه ، وخرج مِن عنده ، وهو أحبّ إليّ من بعض أولادي ! لكن صفوان بن أُميَّة بن خلف مسرور جدًّا ينتظر خبرًا سارًّا فكان يقول للكفار بمكة : انتظروا خبرًا سارًّا ! انتظروا خبرًا سارًّا! مضى يوم ويومان وأسبوع وأسبوعان ، ولم يأت هذا الخبر السارّ فخرَجَ إلى ظاهر مكَّة ينتظر الرُّكبان المسافرين ، فلمَّا سألهم عن عُمَير ، قالوا : أسلم ! فربُّنا عز وجل قال :

(أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

(سورة هود)

2 ـ الله يعلم كل شيء في الخلوة والجلوة :

أنتَ مستلقٍ بالبيت على البيت ، قلتَ : أعملُ غدًا كذا وكذا ! أنت مكشوف ، أنت أمام الله تعالى خواطرك مكشوفةٌ ، وحديث نفسك ، وصِراعاتك الداخليَّة وتمنِّياتك كلّ هذا معروف ، نياتك ، بل أبلغ من ذلك أنه يعلم السرّ وأخفى ، فأنت لك جهْر ، ولك سِرّ ، ولك شيءٌ ثالث ، فالجهر معروف ، وهو مواقفك المعلنَة ، والسرُّ مواقفُك الداخليَّة الحقيقيَّة ؛ ما تُبطِنُهُ عن الناس ، ما تُحَدِّث به نفسك ، ولا تنطق به ؛ هذا السرّ ، وشيءٌ ثالث لا تعرفه أنت خَفِيَ عنك أنت ، مثلاً عَلِمَ ما كان ، وعلم ما يكون لو كان كيف كان يكون !! تقول : لو كان معي ألف مليون لعمّرتُ بكلّ مدينة جامعًا ! هذا تقوله أنت ، لكنّ الله تعالى يعلم ما إذا كنتَ أنت بهذا الغِنَى تفعل هذا أم لا ؟ تقول : لو جاءني أولاد ذكور لكنتُ أحسن مؤمن! لو كنتُ مولودًا في عهد الصحابة لكنت مِن الصحابة الكبار !! لا ، أنت أنت الباب مفتوح الآن وسابقًا ، فلذلك الإنسان مكشوف ، وأسراره مكشوفة ونياته وطموحاته ، وصِراعاته ، وخواطره وحديث نفسِهِ الداخلي ، لذا التعامل مع الله تعالى ليس فيه مزحٌ أبدًا ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

وقال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

وقال تعالى :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(4))

(سورة الحديد)

إذا دخلتَ البيت وحدَكَ ، هو معك ، فُتِحَ باب ، فُتِحَت نافذة من بيت الجيران ، وأطلَّتْ منها امرأة ، فنَظَرْتَ إليها ، هو يراك ، كلّ مظاهر الصَّلاح خارج البيت لا قيمة لها! مَنْ لم يكن له ورعٌ يصدّه عن معصيَة الله إذا خلا ، لم يعْبأ الله بشَيء من عمله ، وركعتان من وَرعٍ خير من ألف ركعة من مُخَلّط ! إيَّاكم ومُحقّرات الذنوب فإنَّهنَّ يجتمعن على الرجل حتى يُهلِكنه! فلا تقل : أنا لا أسرق ، وأنا لا أشرب !! لكنّ الصَّغائر التي لا تهتمّ لها تغدو كبائر مع الإصرار و التمادي ، اللهمّ إنِّي أعوذ بك مِمَّا أهتم له ، ومما لا أهتمّ له ، تُسلِّم على أخت زوجتك ، ثمّ تقول : ما فعلتُ شيئًا ، وتذهب للصلاة ! هذه المعاصي إن اجْتَمَعَت على الرجل تُهْلِكهُ ، فإذا ظَنَنْتها صغائر فلا صغيرة مع الإصرار ، ويجب أن تقْلِعَ عنها فَوْرًا ، فإذا بقيتَ عليها انقَلَبَت إلى كبائر .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (02-16): تفسير الآية 6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-01-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي من سورة هود ، عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

مقدمة بين يدي الآية :

هذه الآية قادَتْني إلى موضوع دقيق جدًّا في الإسلام ، هذا الموضوع سأُسَلْسِلُهُ وَفق الترتيب التالي :

1 - الدِّين له جَوْهر :

أوَّلاً : ما هو جَوْهر الدِّين ؟ في الدِّين أشياءُ مُتَعَلِّقة في الجوهر ، وأشياء متعلقة بِجُزئيَّات لا علاقة لها بالجوهر ، فسيِّدُنا ابن عمر رضي الله عنه حينما رأى بدَويًّا يرْعى شِياهًا ، وقال له : بِعْني هذه الشاة ، وخُذْ ثمنها قال : ليْسَتْ لي ، فقال ابن عمر : قُلْ لصاحبها ماتتْ أو أكلها الذئب، فقال : والله لو قلتُ لِصاحِبِها ماتَتْ أو أكلها الذئب ، لصدَّقني ، فإنِّي عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟! هذا البدَوي قد تكون معْلوماته الفقْهيَّة محدودة ، وقد تكون معلوماته في فقه المواريث معدومة ، وقد لا تجد في خَيْمتِهِ مكتبة ، ولكنّه خشي الله تعالى في الغيب ، هذا البدَوي وضَعَ يدهُ على جوهر الدِّين .

قد تلتقي بإنسان يحْمِلُ أعلى الشهادات ، وفي بيته مكتبة عامرة ، وآتاه الله تعالى ذكاءً ولِسانًا طليقًا ، ومع ذلك ، ومع كلّ هذا الاطّلاع ، وهذا العِلْم الظاهري ، وهذه الشهادات قد لا يضَعُ هذا الإنسان يدَهُ على جوْهر الدّين !

الدِّين له جوهر ، لمّا عرف أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام جوهر الدِّين فتَحوا الآفاق ، ونفَّذ الله وعدهُ ، قال تعالى :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(55))

(سورة النور)

جوهر الدّين لمسه أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فَسَعِدُوا وأسْعَدوا ودانَتْ لهم الأرض ، ورفَعَ الله ذِكْرهم ، وأعزَّهم ومكَّنَ لهم دينهم ، وبدَّلهم من بعد خوفهم أمنًا ، وقد تجدُ الصحابة الكرام لا يزيدون على ألف ، وقد تجد ألف مليون من المسلمين في بيتِ معظمِهم مكتبات عامرة ، وسائر المعلومات متوافرة بين أيديهم ، ومساجدهم فَخْمةٌ ومُزَيَّنة ، وجميع وسائل نقل المعرفة متوافرٌ في عصرهم ، ولكنّ معظم هؤلاء ما وضَعوا أيديهم على جوهر الدِّين ، فخَذَلهم الله سبحانه وتعالى ، وجعلهم في آخر الأمم ، وجعل كلمتهم ليْسَت هي العليا ، فالذي أريد أن أقوله لكم : إنّ في الدِّين حقائق متعلّقة بجَوهره ، فعَنْ مَسْرُوقٍ قَال :

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

[رواه أبو داود]

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاَتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِى جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ : هِيَ فِي النَّار ...))

[أحمد]

ما جوهر الدِّين ؟ انتَهَيْتُ الآن إلى أنَّ في الدِّين جوهرا ، وفي الدِّين عرَضا ، كما أنَّ في السيارة محرِّكًا هو المعوّل عليه في حركتها ، وهناك أشياء كثيرة تزيّنها وتحسّنها ، ولكن لا علاقة لها بتَحريكها ، إذا كان في السيارة شيء أساسي ، وتعطّل تعطّلت ، وفيها أشياء ثانويّة لا تُقدّم ولا تؤخّر ، فأين جوهر الدِّين ؟ ليس من عندي شيء ، من عند الله ، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

2 ـ جوهر الدين عبادة الله وحده :

الأديان كلّها التي جاء بها الأنبياء الكرام كلُّها جوهرُها

(لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

((... وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))

[الترمذي عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

ولا إله إلا الله لا يسبقها عمل ، ولا تترك ذنبًا ، والأنبياء جميعًا كما تجد في بعض السور كلامُهم موحَّد ؛ أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هذه الكلمة كلمة التوحيد يقولها الإنسان في اليوم عشرات المرات ، بل مئات المرات ، والأديان كلّها متعلّقة بهذه الكلمة ، لا إله إلا الله تعني أنّ الأمر كلُّه لله ،

وإليه يرجع الأمر كلّه ، قال تعالى :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

وقال تعالى :

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

قال تعالى :

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

وقال تعالى :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ(11))

(سورة الرعد)

وقال تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ(19))

(سورة محمد)

وقال تعالى :

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ(107))

(سورة البقرة)

3 ـ كلمة التوحيد بين الجانبين النظري والتطبيقي :

جوهر الدِّين أن تعتقد أنَّ الأمور كلها كبيرها وصغيرها ، جليلها وحقيرها بيَدِ الله سبحانه وتعالى ، هذا الكلام فِكْرة يسْهُل إدراكها ، أما حَقيقةٍ تعيشها النّفس فهذا يحتاج إلى جهد كبير ، أنْ تُدْرِكَ بعَقلِكَ وفِكرك أنّ الأمور بيد الله قضيَّة سهلة ، ولكن أن تعيش هذه الحقيقة فلا ترى مع الله أحدًا ، وترجو الله ، ولا تعلّق الأمل على غير الله ، ولا تخْشى إلا الله ، ولا تخاف من غير الله ، ولا تحبّ غير الله ؛ هذا هو التوحيد ، وما تعلمَّت العبيد أفضل من التوحيد ، لذلك قال تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106))

(سورة يوسف)

أخوف ما أخاف على أُمَّتي الشرْك الخفي ، أما إنِّي لستُ أقول : إنَّكم تعبدون صنمًا ولا حجَرًا ، ولكن شهوةٌ خَفِيَّة ، وأعمال لغير الله والشِّرك أخفى بأحدكم من دبيب النملة السوداء على الصَّخرة الصمّاء في الليلة الظلماء ، لذا جوهر الدّين التوحيد ، والتوحيد يقتضي معرفة ربوبيّة لله سبحانه وتعالى ، وأنَّه ربّ العالمين ، وألوهيّته وأسماؤُهُ الحسنى تقتضي ألّا يُسلم أمرَك لإنسان ، و لو أنه أسلم أمرَك لإنسان كيف يقول لك :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

كيف يطالبك أن تعبده وحدَه ، وبعضٌ من أمرك بيد فلان وفلانٌ كما تدَّعي ؟ أو كما تظنُّ ، أو كما تتوهَّم بيده أمرُك ، و بيده حياتُك ، أو موتك ، وبيده رزقك ، و بيده إسعادُك ، وبيده النفع والضرُّ ، إذا كان فلان وفلان ، وزيد وعُبيد بيدهم شيء من أمرك فالآية كيف تقبلها ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

لماذا تعتقد شيئا وتفعل شيئا ؟ إما أن تعتقد أن الأمر كله بيد الله ، وهذا يقتضي ألّا تخاف إلا من الله ، و ألّا ترجوَ إلا الله ، و ألّا تعتقد أن في الكون فاعلا إلا الله ، و ألّا تخشى إلا الله ، و ألّا تحبَّ غير الله ، فهذه الحقيقة ، حقيقة التوحيد تقتضي أن أمرك كله بيد الله ، لكنَّ بعض العلماء وقفوا عند قوله تعالى :

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ(53))

(سورة الشورى)

تساءل بعضُهم ، إذا آلتْ الأمور إلى الله يوم القيامة ، ففي الدنيا بيد مَن كانتْ ؟ سؤالٌ دقيق ، هم تساءلوا ، و هم أجابوا ، فقالوا : الأمور كلها بيد الله في الدنيا والآخرة ، و لكنه في الدنيا يبدو لعامة الناس أن الأمور بيد فلان أو فلان ، ولكنه في الحقيقة الأمر كله لله ، قال تعالى :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(17))

(سورة الأنفال)

وقال تعالى :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

وقال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(84))

(سورة الزخرف)

وقال تعالى :

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(51))

(سورة النحل)

الأمر كله لله في الدنيا والآخرة ، ولكنَّ هذه الحقيقة مستترة في الدنيا ، تحتاج إلى كشف ، المؤمن كشف الحقيقة ، وغيرُ المؤمن متعلّق بظواهر الأشياء ، ولكن في الآخرة تغدو هذه الحقيقة المستترة واضحةً لكل الناس ، في الدنيا يُمَيَّز المؤمن عن غير المؤمن بأنَّ المؤمن كُشف له الحجابُ ، وعرف أن الله وراء كلِّ شيء ، كُشِف له الحجابُ فعرف أن يدَ الله فوق أيديهم ، و كُشِف له الحجابُ فلم يَرَ مع الله أحدًا .

الآن يقتضي التوحيدُ أنَّ أمرك كلَّه بيد الله ، ومعنى كلّه ، أمر ُصحَّتك إلى أمر عملك إلى زوجك و إلى أمر بيتك و إلى أمر مكانتك إلى أمر تعقيداتك الاجتماعية ، إلى أمر ما سيكون ، إلى أمر ما هو كائن إلى أمر ما يجب أن يكون ، هذا كلُّه بيد الله .

الآن نعود إلى آية الدرس ، قال تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

الآن أبرزُ هذه الأمور ، ألم يقل الله عز وجل :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا

1 ـ أمرُ الحياة والموت :

أبرز هذه الأمور أمرُ الحياة والموت وأمر الرزق ، وهل يعصي الناسُ ربَّهم إلا من أجل حبِّهم للحياة ، وخوفهم من ضيق الرزق ، وفي الأثر : " خلقتُ لك ما في السماوات والأرض ، ولم أعيَ بخلقهن ، أفيُعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين ؟ و عزَّتي و جلالي إن لم ترضَ بما قسمتُه لك فلأُسلّطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي " .

إذًا : الموضوعان الكبيران اللذان يحملان الناسَ على المعصية والكذب والدَّجل والخداع والاغتصاب ، وأكل المال بغير الحق هو خوف الموت و خوف ضيق الرزق .

2 ـ آيات خاصة بذكر الموت :

بحثتُ في القرآن الكريم عن الآيات المتعلّقة بالموت ، آياتٌ كثيرة ، فانتقيتُ لكم أبرزَها .

الآية الأولى :

ربُّنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ(145))

(سورة آل عمران)

أشدُّ أنواع النفي في القرآن الكريم هذه الصياغة ، و ما كان ، يعني أنه مستحيل :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّه)

(سورة آل عمران)

أمر الموت بيد الله .

من لم يمُتْ بالسيف مات بغيره تنوَّعت الأسباب والموتُ واحدٌ

قال تعالى :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّه)

(سورة آل عمران)

فلان عمره ثلاثة وسبعون عاماً وتسعة شهور وثلاثة أسابيع وأربعة أيام وتسع ساعات و أربع دقائق وعشر ثوانٍ ، كتابا مؤجَّلًا لا يزيد ولا ينقص ، لذلك قرأتُ كلمةً ترك في نفسي أثرا بليغا خلاصته : كلمةُ الحق لا تقرِّب أجلا ولا تقطع رزقا ، من علامات المؤمن أنه لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ .

الآية الثانية :

قال تعالى :

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا(44))

(سورة النجم)

لم يقل الله : وأنه أمات وأحيا ، بل قال :

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا(44))

(سورة النجم)

تأكيد بالضمير هو ، الذي يميت هو الله ، و الذي يحيي هو الله ، ولا يملك إنسانٌ كائنًا من كان على وجه الأرض أن يحيي وأن يميت .

الآية الثالثة :

قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258))

(سورة البقرة)

الآية الرابعة :

وقال تعالى :

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ(23))

(سورة الحجر)

الآية الخامسة :

وقال تعالى :

(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81))

(سورة الشعراء)

لذلك :

إن الطبيب له علمٌ يُدِلُّ بــه إن كان للناس في الآجال تأخيرُ
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حار الطبيبُ و خانته العقـاقيرُ

3 ـ أمرُ الحياة والموت بيد الله :

هناك طائرةٌ احترقتْ فوق جبال الألب على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدمٍ احترقت وانفجَرَت ، من مكان التَّصدّع وقع راكب ، لم ينتَهِ أجلهُ ، وبعد أن نزلَ مِن على ارتِفاع ثلاثة وأربعين ألف قدَم ، ووصَلَ إلى غابات يُجَلِّلها الثَّلج بِسَماكة خمسة أمتار ، فكانت هذه الأمتار الخمسة ، وأغصان الصَّنوبر اللَّيِّنة قد امْتصَّت كلّ هذه الصَّدمة ، ونزل واقفًا على الأرض ، لم ينتَهِ أجلهُ بعد ، إنسانٌ خاض معركة ،

فدَخَلَتْ رصاصة في بطنه ، وهذه الرصاصة دخلت من بطنه ، وخرجت من ظهره ، أما كيف سارَتَ بخَطٍّ متعرِّج فلم تثقِب الأمعاء ، فلا أحدَ يعرف ، خرجَت وأمعاؤُهُ بقيت سليمة ولم يمت .

سيّدنا خالد رضي الله عنه قال : << خُضْت مائة معركة أو زهاءها ، وما في بدني موضع شِبْر إلا وفيه ضربة بسَيفٍ ، أو طعنة برُمْحٍ وها أنا ذا أموت على فراشي >> .

فرعون رأى في المنام أنَّ طِفلاً من بني إسرائيل سوفَ يقضي على مُلكِهِ فقال : القضيَّة سهلة ؛ سأقتل جميع أبناء بني إسرائيل ، أما الطِّفل الذي قضى على مُلْكِهِ فقد ربَّاه في قصره .

هذا هو التوحيد ؛ الإيمان بأنَّ لك أجلاً لا يزيد ولا ينقص ، لا ينقص ثانِيَةً واحدة ، ولا يزيد ثانيَةً واحدة هذا يبثّ في نفسك الطمأنينة والشَّجاعة ، والتَّوكّل والرّضا ، والتوازن فأحَدُ أسباب القلق عند الناس شُعورهم أنَّ حياتهم تمتلكُها عوامل عديدة فالمرض لا يُميت ، واسمع قول القائل :

حتى إذا ما انقضَت أيام رحلتِهِ حار الطبيب وخانته العقاقير

***

قال الطبيب : المريض ميؤوس من حياته ، ما هي إلا ساعة أو تزيد ، ويكون في عِداد الموتى ، فانطلق الأهل لِيَضَعوا مُسْودَّة النَّعْي ! وانطلَق الآخرون لِيَشْتروا الكفن ، وتوزّع الإخوة الكُثر لِيَنْعوا مريضهم ، وبعد ساعة قويَ النَّبض قليلاً ، وارتفع الضغط قليلاً ، وما هي إلا ساعات حتى اسْتعاد هذا المريض صِحَّتَهُ ، ثمّ بعد أشهر عديدة صار صحيحًا صِحَّة تامّة ، والذي كتب النّعي هو الآن تحت الثرى !!

طبيب صديق لي حدثني قال : اسْتُدعيتُ لإسعاف امرأة ميؤوس من حالتها ، وما هي إلا دقيقة أو دقيقتان حتى فارقَت الحياة ، فقلتُ لهم : عظَّمَ الله أجركم ، وليأتِ أحد منكم إلى عِيادتي لأُعطيه ورقة الوفاة ، كيف عرف هذا الطبيب أنَّ هذه المرأة قد تُوُفِّيَت ؟ الضَّغط صفر ، والنَّبض متوقف ، وحدقة العين لم تستَجِب للضَّوء ، والمرآة على فم المريضة لم تتأثَّر بِبُخار الماء ، والأطراف باردة ، والجسم أزرق ، كلّ علامات الوفاة موجودة ، فغادر الطبيب البيت ، ونزل إلى سيارته ، وعَقِبَ مغادرته بقليل سَمِع صوتًا يُناديه ؛ تعالَ أيُّها الطبيب فقد تحرَّكت رجلها ! فقال لي : عُدْتُ إلى المريضة ، ووضَعتُ السماعة على صدرها ، فقال لي : كلّ دقيقتين نبضة واحدة ، وتسارعَتْ هذه النَّبَضَات إلى أن أصبح نبضها طبيعِيًّا ، وقال لي : وزارتني بعد ثلاثة أعوام من هذه الحادثة في عِيادتي !! فأمرُ الحياة والموت بيَدِ الله .

4 ـ عمرُ الإنسان في الدنيا هو الأنسب له :

هناك موضوع دقيق ، وهو أنَّ هذا العُمر الذي سطّره الله لنا ، وأعطانا إياه أنه كذا سنة ، يا ترى هل بُنِيَ على حقيقة أو أساس ، أو حِكمةٍ ؟ الجواب : نعم ، عمرُ الإنسان في صالحه ، فحينما يقوم الناس لربّ العالمين ، يرَون أنّ هذا العمر الذي عاشوه في الدنيا هو أمثل عُمرٍ لهم ، فهذا الذي يموت في سنٍّ مُبكّرة يقول الناس عنه : مِسكين ! ولكنّ هذا المِسْكين بالذات حينما يأتي يوم القيامة يرى أنَّ هذا العمر القصير هو أنسبُ عمر له ، فالأعمار بيَدِ الله وكذا الآجال ، ولكلّ مِنَّا أجل محتوم ، ومحدود ، ولكن يجب أن نعتقد أنّ هذا الأجل المحتوم المحدود الذي سطَّرهُ الله عز وجل هو في صالحنا عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ : مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْمُسْتَرِيحُ ، وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ : الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

[رواه البخاري]

الشيء الظاهري أنَّه مات ، ولكنّ الحقيقة أنَّهُ بهذا الموت استراح من عناء الدنيا ، ودخل جنَّة عرضها السماوات والأرض .

2 ـ الرزق :

الموضوع الأوّل هو الموت ، والموضوع الثاني هو الرِّزق .

1 ـ آيات قرآنية في ذكر الرزق :

الآية الأولى :

ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(40))

(سورة الروم)

ما دام هذا الفم يتكلّم فله عند الله تعالى رزق .

الآية الثانية :

وقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(172))

(سورة البقرة)

بالمناسبة لفَتَ نظري آيتان ، الآية الأولى :

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(172))

(سورة البقرة)

الآية الثالثة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ)

(سورة البقرة)

أنت مأمور بالإنفاق من هذا الرِّزق الحلال الذي أعطاكه الله ، كما أنَّك مأمور أن تأكل منه، فيجب أن تأكل وأن تُطْعم .

الآية الرابعة :

قال تعالى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

(سورة الأنعام)

إن كان الفقرُ حقيقةً واقِعة ، لا تخشَ الفقرَ ولو كان واقعًا بك ؛ نحن نرقكم وإياهم !

الآية الخامسة :

وقال تعالى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا(31))

(سورة الإسراء)

الآية السادسة :

وقال تعالى :

(وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(212))

(سورة البقرة)

إذا أعطى الله تعالى أدْهش .

الآية السابعة :

وقال تعالى :

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(3))

(سورة فاطر)

إذا شحَّت السماء بالأمطار ، كلّكم يرى أنّ انقطاع الماء بسبب شحّ الأمطار ، وانقطاع الكهرباء بسبب شح الأمطار ، قِلّة الموارد بِسَبب شحّ الأمطار ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ الله هو المُسَعِّر .

حدَّثني صديق عنده مزرعة ، يزرعها تفاحًّا ، قال لي : في إحدى السَّنوات ثلاثمائة دُنُم مزروعة من صنف التفاح لم تُنْتج إلا ثلاثة عشر صندوقًا ، وفي بعض السَّنوات أنتَجَت الشجرة الواحدة طنًّا وربعًا ، قال تعالى :

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(3))

(سورة فاطر)

الآية الثامنة :

قال تعالى :

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ(21))

(سورة الملك)

هؤلاء الذين قالوا : استغنينا عن رحمة السماء ، نقول لهم : فمن يرزقنا إن أمْسَكَ رزقه ؟! في إفريقيا خلال سبع سنوات كانت مجاعة ، مات أُناسٌ كثيرون وماتَتْ الماشية ، وجفَّ النبات ، ويبسَت الأشجار ، ولم يبْق على الأرض شيء .

الآية التاسعة :

قال تعالى :

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(31))

(سورة يونس)

بالمناسبة ؛ إنّ الله عز وجل إذا قنَّنَ فَتَقْنيئُهُ تَقنين تأديب ومعالجة ، لا تَقنين عَجْزٍ كما نُقنِّنُ نحن ، نحن إذا قَنَّنا فهو تَقْنين عَجْزٍ ، لكنّ الله تعالى إذا قنَّن فتقنينه تقنين معالجة وتأديب ، والدليل قوله تعالى :

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(27))

(سورة الشورى)

الآية العاشرة :

قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

((إنّ روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها و أجلها ...))

[الحاكم عن أبي أمامة]

الآية الحادية عشرة :

ربنا عز وجل قال :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

الآية الثانية عشرة :

وقال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

(سورة الأعراف)

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ ، قَالُوا : وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ ؟ قَالَ : يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ))

[رواه الترمذي]

شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعِزُّه اسْتِغناؤُه عن الناس ! ويقول عليه الصلاة والسلام :

((ابْتغوا الحوائج بعِزّة الأنفس فإنّ الأمور تجري بالمقادير))

[ورد في الأثر]

في موضوع الرِّزق أحاديث كثيرة ، فهذا الصحابي الجليل الذي جاء المدينة مهاجرًا ، فقال له : يا أخي ، دونَكَ مالي فَخُذْ نصفهُ ، فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : بارك الله لك في مالك ، ولكنْ دُلَّنِي على السوق ! عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ))

[رواه البخاري]

وما فتح عبدٌ باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقرٍ ، وأبى الله أن يرزق عبدهُ المؤمن إلا من حيث لا يحْتَسِب ، وإنّ الله حييٌّ كريم يستحي من عبده إذا بسط إليه يديه أن يردّهما خائِبَتين ، فاتقوا الله عباد الله فيما تدعون .

2 ـ الاعتقاد بأجل الموت وكتابة الرزق سبيل للعزة :

عَوْدةٌ إلى الآية التي وصلنا إليها ، إذا اعْتَقدنا أنّ حياتنا بيَدِ الله ، وموتنا بيَدِ الله ، ورزْقنا بيَدِ الله ؛ رفعنا رؤوسنا ، وكُنَّا أعِزَّةً ، وقد قيل للإمام الحسن البصري : " ما سرّ عِزِّك يا إمام ؟ فقال : عَلِمتُ أنّ رزقي لا يأخذه أحد غيري فاطمأنَّتْ نفسي " .

الرزق له أسباب :

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل للرِّزق أسبابا ، وما لم نأخذ بالأسباب فنحن لسْنا مُتَّبعين لِهَدي الله الكريم ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[رواه الترمذي]

أما أن يبقى هذا الطَّيْرُ في عُشِّه ، ويظنّ أنّ الله يرزقه فليس هذا من نواميس الكون في شيء ، قال تعالى :

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(25))

[سورة مريم]

فلا بدّ من حركة ، إنّ الله كتب عليكم السَّعيَ فاسْعَوا ، وسيّدنا عمر رأى أُناسًا محتاجين ، فقال : << مَن أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكّلون ! فقال كذبتم ، المتوكّلُ من ألقى حبَّة في الأرض ثمّ توكّل على الله>>.

أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام رأوا شابًا ينطلق من بيته مُبكّرًا ، فقال بعضهم : لو كان هذا الشباب في سبيل الله !

فقال عليه الصلاة والسلام :

((لو أنّ هذا الشابّ خرج من بيته يسعى على أطفال جياع فهو في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

3 ـ كسب الرزق جزءٌ من طاعة الله :

كَسْبُ الرّزق جزء من طاعة الله عز وجل ، من باتَ كالاً في طلب الحلال بات مغفورًا له ، كسْبُ الرِّزق من طريق مشروع ، وبشَكل لا يطغى على العبادة هو أحدُ أنواع العِبادة ، والآية الكريمة :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

[سورة هود]

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ

1 ـ ما هي الدابّة ؟

الدابة كلمة واسعة جدًّا ، فكُلُّ مخلوق يدبّ على وجه الأرض فهو دابّة ، أحيانًا وأنت تكتب على دفترك ترى نقطةً لا يزيد قطرها على عُشر الميليمتر ! نقطة لا تكاد تراها قد تَلفتُ النَّظر ، لأنّ هذه النقطة تتحرّك ، إذًا هي مخلوق ، هذه دابَّة ، والجراثيم دابّة ، والفيروسات دابّة ، وحيوان وحيد الخلية دابة ، والرَّخَويَّات دابة وديدان الأرض دابّة ، والبعوضة دابّة ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

[سورة البقرة]

كل ما يدبّ فهو دابة ، صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها :

هذه البعوضة التي إذا قتلتها لا تشعر بوَخز الضمير أبدًا ، لأنها هيِّنة على الناس ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي]

فهذه البعوضة التي تحتقرها فيها جهاز رادار تعرف النائم على الوسادة مِن الوسادة ! فتنطلق إليه مباشرة ، وفيها جهاز تحليل الدمّ ، دم هذا النائم يناسبها ، ودم ذاك النائم لا يناسبها . قد ينام أخوان على الفراش فيستيقظان ؛ أحدهما قد لدِغ من الناموس ، والثاني معافى من لدغه ! فيها جهاز رادار ، وجهاز

تحليل دم ، وجهاز تخدير ، تُخدِّر الإنسان حين تُدْخل خرطومها في جلده ، وفيها جهاز تمْيِيع دم ، ولها ثلاثة قلوب ! وأجنحتها ترفّ أربعة آلاف رفَّة في الثانية الواحدة ، وليس لها صوت ، بل لها طنين ، وهو هذا التواتر في أجنحتها ، ولها في أرجلها مخالب ، إذا كان السَّطح خشِنًا لتثبت نفسها عليه ، ولها محاجم إذا كان السَّطح أمْلس ، هذه دابّة رزقُها مِن دم الإنسان .

والحوت الذي يزن مائة وخمسين طنًّا ، وطوله أربعون مترًا ، وفيه خمسون طنًّا دهنًا ، وخمسون طنًّا لحمًا ، وتسعون برميل زيت ، ووجْبتُهُ المعتدلة أربعة أطنان ، وولده يرضع ثلاثمائة كلغ ، هذا الحوت أيضًا له رزق من الله تعالى ، رزقه في اليوم عشرة أطنان إلى خمسة عشرة طنًّا من السَّمَك .

وهذه الدابة الصغيرة التي لا تُرى بالعَين رزقها على الله تعالى ، وهذا الحوت الكبير رزقه على الله ، وهذا الفيل رزقه على الله ، والإنسان رزقه على الله ؛ ما من دابَّة ! والدابّة كلّ ما يَدِبُّ على وجه الأرض ، صَغُرَتْ أم كَبُرَت ، رأيتَها أم لم ترها ، دخلتْ في علمك أم لم تدخل ، إنَّ الله يرى دبيب النَّمْلة السوداء ، على الصَّخرة الصَّماء ، في الليلة الظلماء .

هناك بعض الوُعول تعيش في قِمَم الجبال ، وفي قِمَم الجبال شيءٌ لا يُصَدَّق ، في قِمَّة الجبل نبْعٌ ، كيف نُفسِّر وُجود هذا النَّبْع في قِمَم بعض الجِبال ؟ لا بدّ أن يكون خزَّان هذا النّبْع في جبلٍ آخر أعلى منه ، وهناك تَمديدات دقيقة من الجبل الكبير الأعلى إلى الجبل الصغير ، أو إلى قِمَّة الجبل الصغير ، لأنّ هذا الوعل الذي يعيش في قِمم الجِبال رزقه على الله ، لولا أطفال رُضَّع ، وشُيوخٌ رُكَّع ، وبهائم رُتّع ، لَصُبَّ عليكم العذاب صبًّا ، قال تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

[سورة هود]

فَكَلِمَة دابّة جاءت هنا منوَّنة ، وهذا التَّنْوين تنوين الشُّمول ، كلّ أنواع الدواب على وجه الأرض على الله رِزْقها .

2 ـ الفائدة من حرف من تنكير دابة وإيراد (مِن) :

أما كلمة مِنْ ، فقد قال العلماء : مِن للاسْتِغراق ، اسْتِغراق أفراد كلّ نَوْعٍ على حِدة ، فقد تقول : طلاَّب هذا الصَّف مدْعوُّون إلى حفلة ، الطلاب ثلاثة وأربعون ، فإذا قلنا : ما من طالب إلا و هو مَدْعُوٌّ إلى هذه الحفلة ، أي أنَّك تُبَلِّغُهم واحدًا واحدًا ، وهناك دعوة عامَّة قد لا تُعَلّق أهَمِيَّة على حضور الطلاب جميعًا أو بعضهم ، أما إذا قلتَ : ما من طالبٍ إلا و هو مَدْعُوٌّ لِهذا الاحتِفال ، فَمِنْ هذه لاسْتِغراق أفراد كلّ نَوْعٍ على حِدَة ، فإذا قلنا : عالم النَّمْل على الله رزقهُ ، أما قولنا : ما من نملة إلا على الله رزقها ، أيْ لو أحصَينا النِّمال على وجْه الأرض نمْلة نملة ؛ كلّ نملةٍ على الله رزقها ، فتنكير كلمة دابَّة هو

تنكير الشُّمول ، يعني أنواع الدَّواب قاطبةً ، وأما مِن فلاسْتغراق أفراد كلّ نوعٍ على حِدَة ، أما كلمة ما مِنْ إلا ؛ هذه الصِّياغة هي صِياغة قَصر ، فلو قلنا الدَّواب على الله رزقها ، يعني رزقها على الله ، وقد يكون رزقها على غير الله ، فإذا قلتَ : هذه الآلة لي ، هذه العِبارة تعني أنَّ هذه الآلة لي ، ولا يمْنعُ أن تكون هذه أيضًا لي ، ولكن إذا قلتَ : ليس لي إلا هذه الآلة ؛ فهذا قَصْر ، فنحن لمّا قلنا : الدّواب على الله رزقها ، أيْ قد يكون على الله ، وعلى غيره رزقها ! أما إذا قلنا : ما من دابّة إلا على الله رزقها فيعني أن الرِّزق مَقصور حصرًا على الله سبحانه وتعالى ، وأنواع الدّواب وأفراد كلّ نوعٍ على حِدَة ، والرّزق مقصور على الله وحدهُ .

3 ـ الفائدة من الحرف (على) :

أما كلمة على ، فتعني الإلزام ، إنَّ الله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفسهُ مختارًا برزْق العِباد ، لو لم يقل على، وقال : ما مِن دابّة إلا والله يرزقها ! يرزقها أو لا يرزقها ، ولكن ما من دابّة إلا وعلى الله رزقها فتعني عليه رزقها على وجه الإلزام ، والله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفسهُ مختارًا برزْق العِباد ، قال تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

[سورة هود]

وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا

1 ـ مستقر ومستودع الإنسان معلومان عند الله :

كلّ إنسان أين مستقرّه ؟ مَعلوم عند الله تعالى ، وأين مستودَعُ رزْقه ؟ مَعلوم عند الله تعالى .

أحيانًا تكون فِرْقة عَسْكريّة موجودة بالمكان الفلاني ، لها مستودعات للإمداد والتَّموين ، فكلّ إنسان مستقرّه ومكانه معلوم عند الله ، ومستودع رزقه معلوم عند الله ، لذلك في الأثر : " عبدي ، لي عليك فريضة ، ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أُخالفك في رزقك " ! فهذا هو الذي يبعث في نفسك الطمأنينة ، وهو أنّ رزقك على الله ، ولكن يحتاج إلى سعي ، لماذا ؟ لأنَّ سنّة الله في الخلق أنَّه أودع في الأرض الأرزاق ، وأودع في التربة العناصر المغذيّة للنبات ، وأنزلَ من السماء ماءً وخلق البذور .

2 ـ النبات معجزة من معجزات الرزق :

إن معجزة النبات وحدها رائعة ! تأكل الفاكهة وفي نواتها بذرة ، إذا زرعتها أنْبَتَتْ لك فاكهة جديدة ، وتأكل الخضراوات ، وفيها بذور تزرع البذور فتُنْبت خضراوات أخرى ، فَنِصفُ غرامٍ من بذور البندورة ينتج خمسمائة كيلو .

سألت مزارعًا ، و كان الفلاحون يزرعون الخيار بذورًا ، كم تنتج هذه البذرة ؟ فقال اثني عشر كيلوا إلى خمسة عشرة ، ومدّ القمح في سنوات الاستقامة ينتج مائة مدًّا ! أما الآن فعشرة أمدد ، قال تعالى :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

شجرة التفاح تنتج طنًّا أو أكثر ، فَفِكرة أن الله أودعَ في التربة المواد المغذية ، وأنزلَ من السماء ماء ، وخلقَ البندورة وأعطاها الحياة فكرة مطمئنة للناس على أرزاقهم ، ففي البذرة رُشَيم ، وهو الجزء الحي من البذرة ، إذا جاءته رطوبة ينبت سُوَيق وجُذَير ، ويستهلك هذا الرُّشيم ما في البذرة من مواد غذائيّة إلى أن يخلق الله له جذيرًا يمتصّ له الغذاء من الأرض ، فتكون هذه الحبّة قد فرغَت ، ضَع حبّة فاصولياء في قطن مبلّل تَرَ أنَّ هذه الحبّة نما لها سوَيْق ، ونما لها جُذَير ، إلى أن يُصبحَ الجذير قادرًا على امتِصاص الغذاء من التربة ، وترى أنّ الحبّة من الفاصولياء أصبَحت فارغة ، هذا النشاء الموجود في حبّة الفاصولياء صارَ سُويقًا وجذيرًا ، ويأتي الغذاء من الأرض ، والماء من السماء فيَنْبُت ! لذا كلمة رزق كلمة واسعة جدًّا .

3 ـ الإنسان له قدرات على طلب الرِّزق :

الشيء الآخر أنَّ الله تعالى أعطى الإنسان قدرات على طلب الرِّزق ألْهَمَ كلّ إنسان مصلحة ، هذا يزرعها ، وهذا يحرثها ، وهذا يحصدها ، وهذا يبذرها ، والإنسان بحاجة إلى آلاف الحاجات ، جعل الله سبحانه وتعالى كل إنسان يتقن واحدة من هذه الحاجات ، وبها يكسب رزقه ، مَن الذي جعل الحرّ يرتفع قليلاً ؟ يرزق مِن الحرّ مئات الألوف بل الملايين الذي يعيشون على انخفاض الحرارة ، وإذا خلق الله حشرةً زراعيّة فالذين يعيشون بفَضلها كثيرون ، يبحثون عن دواء لها ، والمِضَخَّات ، ونقل الأدوية ، والاستيراد ، والحمولات ؛ كلّ هذا بفضل هذه الحشرة ، فربنا عز وجل خلق في الإنسان إمكانات لِكَسب الرّزق ، ومعايشَ ، وسُبلاً ووزَّع الرّزق على العباد توزيعًا فيه حكمةٌ بالغة ، وهذا كله نفيدُهُ من قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

4 ـ كلّ إنسان له رزقه المحدَّد فليطمئِن :

آخر فقرة ؛ أنّ كلّ إنسان له رزقه عند الله ، فهذه الشَّجرة كأنّ كلّ تُفاحة كُتبَ عليها اسم آكِلِها ، كأنَّ كلّ خوخة كُتِب عليها اسم آكلها ، فواكه مسوَّمة ، وانتقال هذا الطَّعام إليك باختيارك ، قد تأخذه شراءً ، وقد تأخذه هديَّةً ، وقد تأخذه ضِيافةً ، وقد يأخذه بعض المنحرفين سرقةً وتسوُّلاً واغتِصابًا ، وقد يأكله دناءةً ، فانتقال هذا الطعام باختيارك ، علمت أنّ رزقي لا يأكله أحد غيري فاطمأنَّت نفسي ، وإذا أحرزَت النَّفس قوتها اطمأنَّت ! فأيَّة فِكرة تبعث على الطمأنينة كهذه الفِكرة ؟ حياتك و موتك ، ورزقك بيد الله ، وكلمة الحق لا تقرّب أجلاً ، ولا تقطعُ رزقًا ، فَكُن مع الله ولا تبالِ ، ولا تخش في الله لومة لائم ، قال تعالى :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

(سورة آل عمران)

وأبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (03-16): تفسير الآيات 07 – 11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-01-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

تذكير بفوائد الآية :

1 ـ الحياةُ والموت والرِّزق بيد الله :

بيَّنا في الدرس الماضي أنَّ كلمة الحق لا تقطع رزقًا ، ولا تقرِّب أجلاً ، وأنَّ شؤون الإنسان كلّها بيَدِ الله سبحانه وتعالى ، ومن أبرز هذه الشؤون : الحياةُ والموت والرِّزق ، وهذه الآية متعلّقة بالرِّزق .

2 ـ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا

أي ما مِن كائن حيّ على وجه الأرض يَدِبّ ، كلمة دابّة شَمَلت أنواع الدواب كلّها .
أما كلمة مِن فلاستغراق كلّ نوعٍ على حِدة ، ما من دابّة إلا على الله رزقها ، فالنَّفي والاستثناء لِتَأكيد أنَّ الرِّزق قاصرٌ على الله سبحانه وتعالى ، وليس على جهة أخرى .
وأما كلمة " على " فَمِن باب أنَّ الله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفسه برزْق العباد ، " ابنَ آدمَ لي عليك فريضة ، ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أُخالفْك في رزقك ! وعِزَّتي وجلالي إن لم ترْضَ بما قسَمْتُهُ لك فلأُسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ فيها ركض الوحْش في البريّة ، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسَمْتُهُ لك ولا أُبالي ، وكنتَ عندي مذمومًا " !

3 ـ من أسباب المعصية خشية الفقر ، والطاعة سبيل الغنى :

لو تتبَّعْت الأسباب الكبرى التي تدفع الناس إلى المعصيَة ، لوجدت أنَّ مِن أبرزها خشية الفقر ، وخشيَة نقصان الرِّزق ، مع أنّ الرزق بيد الله سبحانه وتعالى ، والرّزق بيد الله حقاً ، والله سبحانه وتعالى ربطه بالاستقامة ، قال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

(سورة الأعراف)

وقال تعالى :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

قال تعالى :

(وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

(سورة هود)

4 - وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا

هذه الدابة التي على الله رزقها يعلم مستقرّها ومستودعها ، قال بعض العلماء : أين هي الآن ؟ وأين سوف تموت ؟ هذا هو مستودعها إلى أن يأتي يوم الدِّين ، مستودع هذه الدّابة إلى أن يأتيَ يوم الدِّين يعلمه الله سبحانه وتعالى يعلمهُ ، قال تعالى :

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(8)عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ(9))

(سورة الرعد)

قال تعالى :

(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(34))

(سورة لقمان)

قال تعالى :

(وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

(سورة هود)

بعضهم قالوا : يعلم مستقرّ هذه الدابة ، وأين مستودعُ رزقها ؟ وبعضهم قال : أين مستقرّها ؟ وأين مستودعها ، بِمَعنى في أيِّ أرضٍ تموت ، كلٌّ في كتاب مبين ، كما قال الله عز وجل في كتابه :

(لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى(52))

(سورة طه)

قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

1 ـ عظمة الكون :

إذا قلنا : السماوات والأرض فنعْنِي بهنّ الكَون ، نحن على الأرض ، وكلّ ما علانا فهو سماء ، فإذا صَعِدْنا إلى القمر ، وكان هذا الصُّعود يُشْبِهُ أن يكون إنجازًا كبيرًا للإنسان ، ماذا قطعنا ؟ ثانيَةً واحدة ، كم تبْعُد الشَّمس عنَّا ؟ ثماني دقائق ضَوْئيَّة ، فالضَّوء يسير في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر ! كم يبلغُ قطر المجموعة الشَّمسيّة ؟ ثلاثَ عشرة ساعة ، وكم يبعُدُ أقرب نجْمٍ لنا ، نجم القطب ؟ أربعة آلاف سنة ضَوْئيَّة ! وكم تبعدُ عنَّا بعض المجرّات ؟ وكم يبلغ طول درب التبانة ؟ هذه المجرّة التي نحن فيها ، على شَكل مِغْزلي ، كم يبلغ قطرها الأطْوَل ؟ مائة وخمسون ألف سنة ضَوْئيَّة ! وكم يبلغ قطرها الأصغر ؟ خمسة عشر ألف سنة ضَوْئيَّة ، وهناك بعض المجرَّات تبعُدُ عنَّا ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة ! نجم العقرب يتَّسِع للأرض والشَّمس مع المسافة بينهما ! فإذا قلنا : وهو الذي خلق السماوات والأرض أي هو الذي خلق الكون ؛ أعَرَفْتَ مَنْ هُوَ ؟! هو الذي خلقهنّ .

كلمة " وهو " أعرَفْتَهُ مَنْ ؟ هذا الذي يدْعوك لِطاعته ، هذا الذي يدْعوك أن تستقيم على أمره ، هذا الذي يدْعوك لِتَعْبدَهُ ، هذا الذي ينصحُك بطاعته ، هذا الذي يُحَذِّرُكَ مِن مَعْصِيَتِهِ ، هذا الذي يدعوك للإيمان به ، أعَرَفْتَهُ مَن هو ؟ إنّه الذي خلق السماوات والأرض ، وحتى يتذوَّق الإنسان هذه الآية :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة هود)

2 ـ الذي خلق السماوات والأرض هو الرازق :

فهذا الذي تكفَّل لك بالرِّزْق ؛ مَنْ هو ؟ الذي خلق السماوات والأرض وما مِن دابَّة إلا على الله رزقها ، مَنْ هُوَ اللهُ ؟ هو الذي خلق السماوات والأرض ؛ الكون بأكمله ، هل يُعْجِزُهُ أن يرزقَكَ ؟ خلقتُ السماوات والأرض ، ولم أعْيَ بِخَلْقِهِنّ ، أفَيُعْيِيني رغيفٌ أسوقهُ لك كلّ حينٍ ؟!

هذا الذي تكفَّل لك بالرِّزق ؛ هل عرفْتَهُ ؟ إنَّه الذي خلق السماوات والأرض ، والإنسان حتى الآن لا يستطيع تصوّر الكون ، ثمانية عشر ألف سنة ضوئيّة بعض المجرَّات ، والمجرة المُسلسلة ثلاثة عشر ألف مليون ! فلو أنَّنا رصَدْنا هذه المجرَّة ، كانت في مكانها قبل ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوْئيَّة ،

ولكن الآن أين هي ؟ لا ندري !! كانت في هذا المكان الذي يبعدُ عنَّا هذه المسافة قبل ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوْئيَّة ، أما الآن أين هي ؟! قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة هود)

أحيانًا ، ولله المَثَل الأعلى شركةٌ كُبرى تقول : إنَّ هذه الشركة هي التي بَنَتْ أطْوَلَ جِسْرٍ في العالم ، وهي التي بَنَتْ أطولَ ناطِحَة سحابٍ في العالم ، وهي التي بنَتْ هذه الناقلة التي تحمِلُ ثلاثمائة ألف طنٍ من البترول ، إذا قالت لك هذه الشركة : إنَّ هذه الأعمال الضَّخمة هي التي صَنَعَتْها مِن أجْلِ ماذا ؟! مِن أجل أن تعرف إمكاناتها اللامتناهِيَة ، فالإنسان يفْعل هذا ، ويشمخ بنفسِهِ فكيف بخلق الله سبحانه ؟ وربُّنا عز وجل تكَفَّل لك بالرِّزق .

هل تعلم أيها الإنسان من الذي تكفَّل لك بالرِّزق ؟ إنَّه الذي خلق السماوات والأرض ، " خلقتُ السماوات والأرض ، ولم أعْيَ بِخَلْقِهِنّ ، أفَيُعْيِيني رغيفٌ أسوقهُ لك كلّ حينٍ " ؟! فهذا الذي يقول : انفِجار سُكاني ، ونقص المواد الغِذائيّة ، والعالم ينتظر مجاعة كُبرى ، هذا كلام تخريفٌ في تَخريف ، الله سبحانه وتعالى لحِكْمة بالغة قد يُقَتِّر الأرزاق ، وقد يُضيِّق على الناس ، وقد تشح السماء ، ولكنّ هذا بِتَقدير عزيز حكيم ، قال تعالى :

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(38))

(سورة يس)

هناك شخص جعل هذه الآية وِرْدَهُ ، قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

(سورة هود)

3 - وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء

ما قبل خلق الإنسان نقتصر فيه لما ورد به النص :

كان عرشُهُ على الماء ، هنا ننتقِلُ إلى ما قبل الحياة ، وما قبل الحياة لا نعرف عنه إلا بالقدر الذي ذكره الله تعالى في القرآن الكريم ، فأنت مثلاً تسكن في دمشق ، فإذا رأيتَ كتابًا عن الشام تقرؤُهُ بِشَغَفٍ ومتعةٍ ، ولكنّ طوال قراءتك توازن بين ما في الكتاب والواقع ، لأنَّك مؤهَّل كي تتوسَّعَ في معلومات الكتاب ، قد يذكر المؤلف معلومات محدودة عن موضوع مُعيّن ، ولكن من أجل أنَّك مِن سُكان دمشق قد تعرف أشياء أكثر من ذلك ، ولكنَّك إذا قرأت كتابًا يتحدَّث عن مدينة لا تعرفها إطلاقًا ، فمعلوماتك

عن هذه المدينة محدودة بقَدْر النصّ فقط ، فحتى لا يسمح الإنسان لِنَفسه التجاوز في الحديث عمَّا لم ندْرِكْهُ نحن ، وعمَّا كان قبل الحياة ، فما كان قبل الحياة لا نعرف منه إلا بالقَدْر الذي ذكره الله سبحانه وتعالى ، ولكنَّنا مأمورون في الدنيا أن نفكّر في ملكوت السماوات والأرض ، ونحن مأمورون في الدنيا أن نفكّر في مخلوقات الله ، وهذا الباب واسعٌ جدًّا ، تفكَّر في ملكوت السماوات والأرض ما شاء لك التَّفكّر ، لأنَّك كلَّما زدت هذا الموضوع فِكرًا زادك معنًى ، كلَّما تعمَّقت في التَّفكّر في آيات الله ازْدادت معرفتك بالله ، وكلما تعمَّقت في التَّأمّل في آيات الله ازْدادَتْ خَشْيَتُكَ لله تعالى ، ففي هذا المجال فَكِّرْ ولا حرَجَ ، لكنَّك إذا وصَلْت إلى عالم ما قبل الخلق ؛ عالم الغيب والأزل فاكْتَفِ بما ورَدَ في القرآن الكريم ، لأنَّ الحقائق محدودة بالقدر الذي سمَحَ الله به ، لذلك فإنّ ربنا عز وجل قال :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

(سورة هود)

4 ـ مفهوم ستة أيام :

بعضهم يقول : في ستَّة أيام كما تفهمونها على ظاهرها ، ولِحِكمة بالغة ، وبعضهم يقول : في ستَّة أدْوار ، فاليوم هو الدَّوْر ، فالليل والنهار يومان ، والصيف والشتاء والخريف والربيع أربعة أدْوار ، وهناك آيات تؤكّدها ، قال تعالى :

(وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ(10))

(سورة فصلت)

قد نستأنس بتِلك الآية على فهْم هذه الآية ، فَيُصبِحُ معنى قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

(سورة هود)

أي هو الذي صمَّم السماوات والأرض ليلاً ونهارًا ، وصيفًا وشتاءً ، وربيعًا وخريفًا ، والحقيقة مِن تعاقب الليل والنهار ، والصيف والشّتاء والربيع والخريف تُنْبتُ الأرض النبات ، وتُمطر السماء المطر ، فكأنَّ هاتين الآيتين مترابطتان ، قال تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(6)وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

(سورة هود)

لولا الليل والنهار لما بقيَت حياة على وجه الأرض ، لو أنَّ الأرض ثابتة لا تدور لكانت الحرارةُ في وجهها مائتين فوق الصفر ، وفي الوجه الآخر مائتين وخمسين تحت الصّفر ، أو ثلاثمائة وخمسين تحت الصّفر ، ولانتهَت الحياة بعد ذلك ، فالذي خلق الليل والنهار مِن أجل أن نحْيا ، ومن أجل أن

نأكل، ولو لم يكن هناك فُصول لما نبَتَ نباتٌ ، فلا بدّ إذاً مِن صيف وشِتاء وربيع وخريف ، إذًا كأنَّ هناك علاقة بين هذه الآية والتي قبلها .

لأنَّ الذي تكفَّل لها بالرّزق هو الذي خلق السماوات والأرض في سِتَّة أيام ، و فيها ليل ونهار ، وصيف وربيع وخريف وشتاء ، وإن شئتَ أنْ تفهَمَها على ظاهرها ، أنَّ الله سبحانه وتعالى لِحِكمة بالغة خلق السماوات والأرض في ستّة أيام فهذا أيضًا مقبول .

قال تعالى :

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

(سورة هود)

5 - وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

الماء مستند الحياة :

هكذا قال سبحانه وتعالى ، يا ترى إنَّ خلق السماوات والأرض مُتَعَلّق بالماء ؟ فقد يكون ذلك ، قال تعالى :

(وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(30))

(سورة الأنبياء)

العلماء يقولون : هناك عصور مطيرة شكّلت البحار ؛ قد يكون ذلك ، فالله سبحانه وتعالى قال :

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

(سورة هود)

قد يكون هذا يعني أنَّ الحياة تستند إلى الماء ، يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(30))

(سورة الأنبياء)

6 - العرش :

أما العرش فكما يقول ابن عباس : " مِن معاني العرش العلم الإلهي ، أي ربّنا عز جل صمَّم الحياة كي تكون مُتَعَلّقة بالماء ، على كُلٍّ الله تعالى أعلم ، لأنَّ هذه الآية نافذة نُطِلّ بها على ما كان قبل أن نكون ! ففي حُدود هذه الآية إما أن نفهم أنَّ هناك عصورًا مطيرةً كما يؤكّد العلماء هي التي شكّلت البحار ، وشكّلت الغابات الضَّخمة والحيوانات العِمْلاقة ، والتي ساهَمَتْ في تهيئة الحياة لِبَني البشر ، أو أنَّ

طبيعة الحياة مَبنِيَّة على الماء ، فلا بدّ من الماء كَوَسِيط للحياة .

قال تعالى :

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة هود)

7 ـ وقفة مع : لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

الوقفَة الدقيقة عند هذه الآية في اللام " لِ " هذه لام التعليل ، مثلاً تقول : أنا أدرسُ لأنجَحَ أي عِلَّة الدِّراسة النَّجاح ، والحافز هو النَّجاح ، والسَّبب هو النجاح ، والهدف والنتيجة هما النجاح ، فحيثما وردَت لام التعليل ، كما في قوله تعالى مثلاً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(183))

(سورة البقرة)

التقوى إذًا هي عِلَّة الصِّيام ، ربنا عز وجل قال :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة هود)

خَلْقُ اللهِ للعباد من أجل الابتلاء :

فنحن حينما جاء الله بنا إلى الدنيا لِعِلَّة واحدة هي أن يمْتَحِننا ، فالدنيا دار امتِحان وابتِلاء ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((إنّ هذه الدنيا دار التِواء لا دار استِواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لِرَخاء ، ولم يحزن لِشَقاء ، قد جعلها الله دار بلْوى ، وجعل الآخرة دار عُقبى ، فجَعَل بلاء الدنيا لِعَطاء الآخرة سببًا ، وجعل عطاء الآخرة مِن بلْوى الدنيا عِوضًا ، فيأخذ لِيُعطي ، ويبْتَلي لِيَجْزي)).

[ورد في الأثر]

وآيات كثيرة تؤكّد هذا المعنى ، فالهدف من الخلق الابْتِلاء ! قوله تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

لابدّ إذاً مِن أن تنكشف على حقيقتك ، ولا بدّ من أن ينكشف معْدنك ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

كلّ إنسان جاء إلى الدنيا لِيُؤكّد ذاته ، ذاته الخَيِّرَة ، أو ذاته الشرِّيرة ، وليظهر ما إذا كان أمينًا أم خائنًا، صادقًا أم كاذبًا ، مُحْسنًا أم مسيئًا ، مؤمنًا أم كافرًا ، رحيمًا أم قاسيًا ، منصِفًا أم ظالمًا ؛ طبيعة الحياة ، وطبيعة الأعمال ، وطبيعة الشهوات ، وطبيعة الأموال ، وطبيعة العلاقات الاجتماعيّة ؛ هذا كلّه يكشف الإنسان ، فيوضع كلّ يوم أمام امتِحانات صعبة ؛ إما أن ينْحاز إلى الحق أو إلى الباطل ، إما أن ينضمّ إلى مبدئِهِ ، أو إلى مصلحته ، إما أن يضَع مبدأهُ تحت قدمِهِ ، وإما أن يضع شهوته تحت قدمه، قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

كلّ واحد منَّا يوضع في مواضع كثيرة يُمْتحَنُ بها ، يُمْتَحَنُ صبرُهُ ، ويُمْتحنُ توكّله ، ويُمْتحنُ تفويضه، ويُمْتحنُ استسلامه لله عز وجل ، وتُمْتحنُ قوّة إرادته ، قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

كأنّ الله سبحانه و تعالى قد خلقنا في عالم الأزل ، وجاء بنا إلى الدنيا لِيُثبت كلّ مِنَّا ذاته وصفاته ، وخيره أو شرّه ، والحياة الدنيا دار ابتلاء ، لذلك قال العلماء : الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف ، والدنيا دار امتِحان ، والآخرة دار العطاء ، والدنيا إعداد ، والآخرة رشاد ، فالإنسان في الآخرة يسْعد ، ولكن في الدنيا يُمتحن ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا ، فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِيَدِهِ إِلَى الْأَرْضِ :

((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلَاثًا ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ ، وَمَا مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ إِيمَانًا))

[رواه أحمد]

ولِحِكمة بالغة فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى جعل كسْب الحلال صعبًا ، وقد يجعل الحرام سهلا ، ولو كان الحلال سهلاً لأقبل الناس على الحلال لِسُهولته ، ولكنّ حِكمة الباري أنَّ الحلال صعب ، والحرام سهل، بهذا يُمْتَحَن الناس ، فمن كان منهم يعرف الله ، ويصبر على طاعته ، ويصبر عن معصيته فهو الفائز الأوّل في الحياة الدنيا ، إذا كما قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة هود)

أنت ممتحَنٌ في كل شيء :

قد تقول لك أمّك : يا بنيّ ، أعْطِني مبلغًا من المال ، فتُمْتحن بهذا الطلب ، إما أن تؤثر رضاها ، وإما أن تؤثر لذَّتَك وشهوتك على رضاها .

تمتحن في علاقتك مع ربّك ، وتُمتحن في علاقتك مع أبيك ، وفي علاقتك مع زوجتك ، تمتحن في علاقتك مع جيرانك ، وتمتحن مع زبائنك ، وتُمتحن في علاقات العمل ، وتمتحن في العلاقات الخاصة، قال الله سبحانه وتعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك)

فهنيئًا لِمَن امْتَحَنه الله عز وجل ونجَحَ في الامتحان ، قد يضيق دَخلك ماذا تقول : الحمد لله رب العالمين ، أو تقول على الله ما لا يليق ، أنت في البحبوحة مؤمن ، وصادق وتقول ما تقول ، أما في البلاء فماذا تقول ؟ ، قال تعالى :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(11))

(سورة الحج)

فالله عز وجل يعرفك تمام المعرفة ، ولكنه إذا امتحنك لِتَعْرف أنت ذاتك وحجمك الصحيح والحقيقي ، ولكيلا تتوهَّم أنَّك مؤمن كبير توضَع في امْتِحانات صعبة فيَنْكشف هذا الإيمان ، هذا الذي يضيق برزقِهِ امتحَنَهُ الله ورسب في الامتحان ، وهذا الذي لا يرضى عن قِسمة الله له في زوجته ، هذه الزوجة التي اخْتارها الله لك هي التي أرادها الله ، فهل أنت مسْتَسْلِمٌ لِمَشيئته ؟ وهل أنت راضٍ بحُكمِهِ ؟ وهل أنت صابرٌ على بلائِهِ ؟ تُمْتَحَنُ بالزَّوجة ، وتُمْتحن بالغنى ، وتُمتحن بالفقر ، الغِنى والفقر مَطِيَّتان إلى الله عز وجل ، قال عمر رضي الله عنه : << لا أُبالي ما إذا كنتُ غَنِيًّا أو فقيرًا >> ! لأنَّ الغنى والفقر مَطِيَّتان إلى الله عز وجل ، فالفقير الصابر مَطِيَّتُهُ إلى الجنَّة صبرُهُ ، والغنيّ الشاكر مَطِيَّتهُ إلى الجنَّة شكرهُ ، وليس الفقير الصابر بأعْظمَ أجرًا من الغنيّ الشاكر، قال تعالى :

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة هود)

الابتلاء يكشف حقيقة الإنسان :

الغنى امتِحان ، فهذا الرجل الذي كان صحابيًّا ؛ " ثعلبة "، و كانَ يقال له : حمامة المسجد ، و هو الذي كان يُصلّي خلف النبي عليه الصلاة والسلام ، لا تفوتُهُ تَكبيرة الإحرام خلف النبي عليه الصلاة والسلام ، جاء النبي مرَّةً فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : كيف حالك يا ثعلبة ؟ فشكى ثعلبة الفقر فقال يا ثعلبة : قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تؤدّي شكره ، فقال : أُدْعُ الله لي أن يُغْنِيَني ، فقال : يا ثعلبة إنّ الغنى غنى النَّفس ، فقال : أُدْعُ الله لي أن يُغْنِيَني ، فقال : يا ثعلبة ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكنّ الغنى غنى النَّفس ، فقال : أُدْعُ الله لي أن يُغْنِيَني ، فرفَعَ النبي الكريم يَدَيْه ، وقال : اللهمّ أغْنِ ثعلبة بما شئتَ ، وكيف شئت ، وما هي إلا فُصول حتى أصبح له وديانٌ مِن الغَنَم ، أين ثعلبة ؟ غاب ثعلبة ! أين حمامة المسجد ؟ غاب ! منغَمِسٌ في تِجارته ، وتحصيل أمواله ، وحِساباته ، بعث له النبي رسولاً لِيَأخذ منه زكاة ماله ، ويسأل عنه ، فلمَّا لَقِيَ رسول النبي قال : قُلْ لِصاحِبِكَ - يعني محمَّدًا صلى الله عليه وسلم - ليس في الإسلام زكاة ! فقال له : أوَ ما تراهُ صاحِبًا لك ؟! قال تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ(75))

(سورة التوبة)

فثعلبة هذا امْتَحَنه الله عز وجل ، ورسَبَ في الامْتِحان .

قد تقول : يا ربّ ، زوجة أصون بها نفسي ، تأتيك الزَّوجة فتنسى بها المسجد ! أين المسجد ؟ وأين مجلس العلم ؟ فالزَّوجة امتِحان ، والغِنى امْتِحان ، والفقر امْتِحان ، وقوّة الجسد امْتِحان ، والضَّعف امْتِحان والصِّحة امْتِحان ، والمرض امْتِحان ، ورفْعة القَدر امتِحان ، والخمول امتحان ، هل تضيق ذرعًا لأنَّ الناس لا يعرفونك ، سيّدنا عمر رضي الله عنه جاءهُ رسول يُخْبرُهُ أنَّ أُناسًا كثيرين من المسلمين ماتوا في بعض المعارك ، فقال له عمر رضي الله عنه : << يرحمك الله ، من هم ؟ فقال : إنَّك لا تعرفهم ، فبكى عمر رضي الله عنه ، وقال : ما ضرَّهم أنّي لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم >> ! أيْ إذا كنت غير معروف ، وليس لك هذا الصيت العريض والسمعة والشهرة ، ولم يكن لك شأن كبير في المجتمع ، وكنتَ إنسانًا مغمورًا ، ولا أحد يعرفك ، فهل هذا مِمَّا يُثبِّط عزيمتك ؟ لا ، مَن عرف نفسهُ ما ضرَّتْهُ مقالة الناس به .

هل تدري من هو أشهر مخلوق على وجه الأرض ؟ الشيطان ، ما مِن أمّة ، وما مِن شعب ، وما من لغة إلا وفيها اسم الشيطان على ألسنتهم ، فالشُّهْرة وحدها ليسَتْ مِقياسًا ، ولكن البطولة أن تكون طائِعًا لله عز وجل ، فأن تكون عالي الذّكر ، امتحان ، وأن تكون خامل الذّكر امتِحان ، والفقر والغنى والصحّة والمرض والزواج كلها امتحانات فالمتزوّج ممتَحن ، وغير المتزوّج يُمْتَحَن ، هل يصبر عن

الحرام حتى يأتيه الحلال أم لا يصبر ؟ هناك ربّ يُحاسِب ، فهذه الآية دقيقة جدًّا ، قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة هود : من الآية 7)

يضيق الدَّخْل ، ويضيق ، ويضيق إلى أن تحسّ أنَّك في فقر مُدْقِع ، ثم يأتيك عَرْضٌ مِن المال مِن طريق غير مَشروع ؛ امتِحان صعب ، فإما أن تبقى مُتماسكًا ، وتقول : لا ، لا آكل إلا مالاً حلالاً ، وإما أن تنهار مُقاومتُك فتأكل المال الحرام ، أُمتُحِنتَ ، ورسبتَ في الامتِحان ، تقول لمن ينصحك : واللهِ أنا مضطر ، وعندي أولاد ، ومثلي مثل هؤلاء الناس كلُّهم ، إذاً رسبتَ ، و لو قلتَ : إني أخاف اللهَ ربَّ العالمين لنجحتَ ، و لو قلتَ : من ترك شيئا لله عوَّضه اللهُ خيرا منه في دينه ودنياه ، لنجحتَ .

ربُّنا عز وجل له آلاف الأساليب في وضع الإنسان في ظرف ينكشف على حقيقته ، يقول لأمه : يا أمَّاه لو تزوَّجت لكنتُ أنا وزوجتي في خدمتك ، كلام طيِّب ولطيف ، يتزوج ، ويأتي في أحد الأيام فيرى خصاما بين زوجته وأمه ، يقول لأمه : أنتِ كذلك ، بالغْتِ في ذلك ، وكلُّ البلاء منك ، هذا الذي قلتَه امتحنك اللهُ به ، لم تحسن تصرُّفا ، ولم تحسن صنعا ، ولم تكن بارًّا بأمِّك ، فلا تنسَ حقَّ زوجتك ، ولا تهضم حقَّ أمِّك ، أُمتُحِنت ولم تنجح .

الموضوع طويل ، ولكن تأكد أن في كلّ حركة من حركاتك ، وكلِّ سكنة من سكناتك تُمتحَن ، و أنت لا تدري ، قل ما شئت ، و لكنَّ الأحداث تكشفك على حقيقتك ، تحدّثْ عن ورعك ما شئت ، و توضَع في مكان لا أحد يراك و تمرّ امرأةٌ فهل تنظر إليها ؟ إذا نظرت ، و من لم يكن له ورع يصدّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله ، أُمتُحنتَ و رسبتَ .

قد ينسى البائع معك مبلغا من المال ، تقول : أنا أحاسب على الدرهم ، هل تعود إلى البائع لتنقده ما له معك ، مثلاً خمسون ليرة ، وفي الجمع كان خطأ هل ترجع إليه ، تُكتشَف في هذا على حقيقتك ، على كلِّ إنسان أن ينتبه لأحواله كلها ، في كل حركة ، و في كل سكنة ، و في نومه و يقظته ، و في صلاته، تحدِّث الناس أن الصلاة يجب أن تكون مُتقنةً ، أتفعل هذا أنت ؟ رسبتَ في الامتحان ، أو نجحتَ ، تحدَّث الناسَ عن قيام الليل ، فهل تصلِّي قيام الليل ؟ تحدِّث الناس عن الصدقة فهل تدفع الصدقة أنت بسخاء ؟ قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

وقال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

فهذِهِ اللام "ليبلوكم " لام التعليل ، علَّة خلق السماوات والأرض وعلَّة مجيئنا إلى الدنيا الابتلاء ، قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

وقال تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

وقال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

أبدا فالامتحانات مستمرة ، في المدارس الامتحان مَرَّتان في السنة ، وهناك امتحان فصلي على النظام الجديد في الجامعة ، وهناك امتحان ثانوي ، وهناك مذاكرات ، ولكنَّ امتحانات الله سبحانه وتعالى مستمرة مع الحياة كلَّ يوم تُمتحن ، أذَّن الصبحُ ، و أنت في فراشك ، والفراش وثير ، و الدفء عميم ، والجو باردٌ ، وليس عندك عملٌ ، وليس هناك مواعيد ، هل تركن إلى النوم ، وتقول : أصلِّي بعد الشمس ، أم أنت كما قال تعالى :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(16))

(سورة السجدة)

تُمتحن ، تقول : ليتني أصلِّي قيام الليل ، اللهُ سبحانه و تعالى يوقظك في الساعة الثالثة و الربع ، تفتح عينيك ، وأنت صاحٍ مرتاح ، تفضَّل ، و صلِّ قيام الليل ، لا تقوم ، وإذا خطَرَ ببالك خاطر : ليتني أصلِّي قيام الليل ، يوقظك اللهُ سبحانه و تعالى في الوقت المناسب ، وتبقى نائما ، لا تُعِد هذه الكلمة مرة ثانية ، أُمتُحنت و رسبتَ في الامتحان ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

الكافر رجلٌ حسيٌّ مادي :

لو قال النبيُّ لكفار قريش : إن هناك بعد الحياة حياة لقالوا : إن هذا إلا سحر مبين ، وقال تعالى :

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

(سورة هود)

فهؤلاء الكفار كما قلت قبل قليل : حسِّيُّون ، ما داموا في بحبوحة وفي صحة جيِّدة يقولون : ليس هناك حساب ، وليس هناك عذاب ، وليس هناك عقاب ، أين هو العقاب ؟ إيتِ به إن كان صحيحا ، هذا رجل حِسِّي ، قال تعالى :

(أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

(سورة هود)

أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

لا رادَّ لعذاب الله :

إذا جاء أمر ربّك فلا رادَّ لِمَشيئتهِ ، قال تعالى :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ(11))

(سورة الرعد)

وإذا أخذ الله أخذ أخْذَ عزيز مُقتَدِر ، وإنَّ الله يُمْهِل ، ولا يُهْمِل ، يُرْخي الحَبل ، ولكن إذا أخذَهُ لم يُفْلِتْهُ، يقول الكافر : أين الله ؟ أين العذاب ؟ أين العِقاب ؟ إذا جاء العِقاب فلا مردَّ له ، إذا قبضَهُ الله فلن يُفْلِتَهُ ، قال تعالى :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

أحدهم طغى وبغى ، وفسقَ وفَجَر ، وتزوّج زوْجةً صالحة فجعَلها سافرة ، وحملها على الاخْتِلاط ، وأفسدَها ، ورقَصَتْ له الدنيا كما يقولون ؛ ثم لم يلبث أن آلمَتْهُ عَيْنُهُ ذات يومٍ فتفاقَمَ الألم ، انتَقَل من

طبيب إلى طبيب ، إلى أن قلعت عينه ، ووجد عيْنَهُ في كفّه ، فخَنَعَ عندئذٍ ؛ أين العذاب ؟ أين العِقاب ؟ هذا نموذج من العقاب ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ)

(سورة هود)

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ

1 ـ هذه هي حال الجاهل في النعمة والفقر :

هذا الإنسان الجاهل أكرمه الله عز وجل بنِعمة الصحّة ، وأكرمه بنِعمة الزَّوجة ، وأكرمه بنِعمة البيت، أكرمه بنِعمة العمل وبنِعمة الأولاد ، إذا نزعَ الله إحدى هذه النِّعم منه ينقمُ على الله عز وجل ، ويئْأسُ من رحمته ، ويتكلّم كلامًا لا يليق بالله عز وجل .

أنت عبْدُ الله أم عبد الدنيا ؟ أنت عبْدُ الفتاح أم عبدُ الفَتْح ؟ هذا الذي استَمْرأ الحياة واطْمأنَّ لها ، وشَعَر بخُلودٍ لها ، إذا نزَعَ الله منه صِحَّتَهُ يخْتَلُّ توازنَهُ ، وإذا حرَمَهُ الزَّوجة لا يطيق حياةً بعدها ، إذا حرمه نِعمة الولد ، أوْ قبض أحد أولاده إليه يئْقم على الله عز وجل ، يقول كلامًا لا يليق ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ)

(سورة هود)

ماذا ينبغي أن يقول إذا نُزعَت منه النعمة ؟ ينبغي أن يقول : إنَّ لله ما أعطى ، وله ما أخذ ، قال أحد الصحابة وكان قد سافر ، وترك ابنه مريضًا مرضًا شديدًا ، فلما جاء تلقَّتْهُ زوجته بالترحاب ، والتَّطمين ، وأعدَّتْ له الطعام ، وهيَّأت له نفسها ، فقال : يا فلانة كيف ابني ؟ فقالت : هو في أهدأ حال، اطْمئِنّ ، فاطْمأنَّ ، في اليوم التالي قالت له : إنَّ الجيران إن أعْطَوْنا حاجةً ، ثمَّ طلبوها مِنّا ، فقال: هي لهم ، وما شأنُكِ بهم ، فقالت : كذلك فعَلَ الله عز وجل ؛ وَهَبنا الله عز وجل ولدًا ثمّ استَرَدَّهُ ! أيْ هي نقَلَتْ له الخبر تقسيطًا ، وبالتَّدريج ، فالمؤمن يؤمن أنَّ لله تعالى ما أعطى ، وله ما أخذ ، قال تعالى:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ(9)وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

(سورة هود)

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ

فهذا الإنسان الغافل الشارد على الله سبحانه وتعالى هذه هي صفاته إذا أذاقهُ رحمةً ثمَّ نزَعَها منه إنَّه يئوس كفور ، يئوس من رحمة الله جاحدٌ لِفَضله ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

(سورة هود)

1 - الإنسان في حال الفرح ينسى ربه :

إذا جاءتْهُ الدنيا كما يشتهي ، وربحَ في تِجارتِهِ ، واقْتَرَن بزَوجة تروق له ، واشترى بيتًا مناسبًا ، وركب سيارة فارهة ؛ نَسِيَ الله ، ونسيَ الحِساب ، ونسيَ الذي يُراقبه ويُحاسبه ، تراه يفرح الفرح كله ، لذلك فإنَّ الفرح الفرَحُ بالدنيا مِن نَقْص العَقل ، مَن عرفها لم يفرحْ لِرَخاء ، ولم يَحْزن لِشَقاء ، ماذا قال قومُ قارون لِقَارون ؟! قال تعالى :

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76))

(سورة القصص)

2 - لا تدوم نعمة في الدنيا :

هذا الذي يفرحُ بالدنيا هو ضَيِّقُ الأفق ، وهذا الذي يفرح بالدنيا ، ويرضى بها ، ويطمئنّ لها لا يعرف الله سبحانه وتعالى ؛ إنَّها زائلة .

جاء رجلٌ لسيّدنا علي رضي الله عنه ، فقال له : << يا أمير المؤمنين ، أكْتُب لي عَقْد شِراء لِهذا البيت ، نظر إليه فإذا الدنيا متربِّعة على قلبه ، فقال له : هات القلم ، وكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اشْترى ميِّتٌ مِن ميِّتٍ ! بيتًا في دار المذنبين ، وسِكَّة الغافلين ، يحُدُّ هذه الدار أربع جِهات ، فَجِهة إلى الموت ، وجهة إلى القبر ، وجهة إلى الحِساب ، وجهة إلى الجنة أو النار >> ، وقدَّم له هذا العقد !!

الموت لا بدّ واقِع ، ولا بدّ أن تترك هذا البيت ، وجهة إلى القبر ، وجهة إلى الحِساب ، وجهة إلى الجنة أو النار .

3 ـ من علامة الجاهل الفرح بالدنيا والركون لها :

مِن علامة الجاهل أنَّه يفرح بالدنيا ، ويتباهى بها ، وقيمة المرء متاعُهُ ، وهذا يكون في آخر الزمان ، فلا العلم والخُلُق لهما قيمة عنده ، ولا الإيمان ، بل متاعُهُ نوعُ داره ، ومساحتها ، وفخامتها ، ونوعُ سيّارتِهِ ، ومحلُّه التِّجاري ، وفي أيّ شارعٍ يقع ، وما مساحته ، وما نوع البضاعة التي يتعامل بها ؟ هذه من علامات قيام الساعة ؛ أنّ قيمة الرجل متاعه فقط ! قال تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

(سورة هود)

عند الله تعالى عِلاجات لا يعلمها إلا الله ، عند الله أدْوِيَةٌ لا تُعَدُّ ولا تُحْصى ، لِكُلّ بلدٍ ، ولكلّ إنسان ، ولكلّ مجتمعٍ دواءٌ يُصيب موطن الداء ، قال الله تعالى :

(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(سورة هود)

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ

1 ـ الصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى قضاء الله وقدره :

هؤلاء الذين صبروا عن المعاصي ، وصبروا على الطاعات ، وصبروا لحُكم الله ، وهؤلاء الذين عملوا الصالحات في السراء والضراء ، وفي الغِنى والفقر ، وفي الأثر : " أُحِبُّ ثلاثًا ، وحُبّي لِثلاثٍ أشدّ ، أُحبّ الطائعين وحُبِّي للشابّ الطائع أشدّ ، وأحبّ الكرماء ، وحُبِّي للفقير الكريم أشدّ ، وأحبّ المتواضعين ، وحُبي للغني المتواضِع أشدّ وأبغُض ثلاثًا وبُغضي لِثَلاثٍ أشدّ ، أبغض العصاة ، وبُغضي للشيخ العاصي أشدّ ، وأبْغُض المتكبِّرين ، وبغضي للفقير المتكبّر أشدّ ، وأبغض البخلاء ، وبُغضي للغني البخيل أشدّ " ، قال الله تعالى :

(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(سورة هود)

صبروا على الطاعات و عن المعاصي ، وعلى حكمة الله ، شاءَتْ حِكمتُهُ أن يكون أولادك جميعًا إناثًا، الحمد لله، لو كُشِفَ الغِطاء لرأى أن أمره في خير ، لو صبَرَ على أنّ زوجته لا تروق له ؛ هذه قِسْمتهُ ، وصبر على أنَّ أولادهُ ليسوا كما يريد هكذا شاءَتْ حكمة الله عز وجل ، وصبر على دَخْلِهِ المَحدود ، منزله الضيق ، وعلى عِلَّة في جسده ، صبر على الطاعات وعن المعاصي ، وعمل

الصالحات في الرخاء والشّدة ، والغنى والفقر ، وفي إقبال الدنيا أو إدبارها لكان في عداد الصابرين ، وله ثوابهم ، قال تعالى :

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : من الآية 10)

أما المؤمن حقاً فالعمل الصالح دَيْدَنُهُ ، ومطِيَّتهُ إلى الله تعالى ، ولا يبْخل بما أعطاه الله ، فهؤلاء ليسوا كَهَؤُلاء ، إنَّ الكافر إن جاءَتْهُ الدنيا مشي تيهًا ، وعُجْبًا ، و زها غروراً ، وما عرف الله من خلال النعمة فرسب ، وإن زُوِيَتْ عنه ضاقَتْ نفْسُهُ وكفَرَ بالله ، ويئِسَ مِن رحمة الله عندما امْتَحَنَهُ الله سبحانه وتعالى ورسَبَ في الامتِحان أيضاً فكان راسباً في كلا حالتيه ، عند إقبال الدنيا عليه و عند إدبارها عنه، فكانت عاقبته الخسران و البوار .

2 ـ الصابر له جزاء كبير في الدنيا والآخرة :

الشيء الآخر ، قال تعالى :

(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(سورة هود)

هؤلاء الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير مغفرة في الدنيا ، و المغفرة شِفاءٌ من كلّ أمراضهم ، وأجر كبير في الآخرة ينْعُمون به إلى أبد الآبدين .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (04-16): تفسير الآيات 12 – 24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-02-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ، وصلنا في الدرس الماضي في تفسير سورة هود إلى قوله تعالى :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة هود)

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ

1 - النبي عليه الصلاة والسلام ضاق صدره من قول الكفار :

النبي عليه الصلاة والسلام ضاق صدره بالكفار ، لأنَّهم لم يُقَدِّروا رسالته ، ولم يعرفوا نُبْلَ هدفه ، ولم يُعْطوهُ أُذُنًا صاغِيَةً ، بل سألوه أسئلةً سخيفة ، وطالبوه بأدِلّة لا يليق به أن يُطالبَ بها ، جاءهم بالحق فقالوا :

(أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ)

(سورة هود : من الآية 12)

جاءهم بالحق فقالوا كما قال اليهود :

(أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً)

(سورة البقرة : من الآية 153)

2 - القرآن معجزة :

فأخذتهم الصاعقة ، فالكفار دائمًا إذا دُعُوا إلى الله سبحانه وتعالى يتحجَّجُون ، ويُطالبون بالمعجزة ، مع أنَّ الكون كلّه معجزة ، وحَسْبُكُم الكون معجزةً ! هذا الذي يُريد خرقًا لِقوانينه متَعَنِّتًا ، غاب عنه أنَّ خلقهُ معجزة ، أنَّ خلقه من ماءٍ مهين ، وأنَّ أولاده ، طعامه ، وشرابه والبيت الذي يأوي إليه والزوجة التي يسْكنُ إليها ، ما حوله ، وما أمامه ، وما وراءهُ ، في كلّ شيءٍ له آية تدلّ على أنَّه واحِدُ ، لذلك قال بعضهم : لم أجِد أشدَّ صمَمًا مِن الذي يريد ألا يسْمع ، فالذي يتكلّم عن الله سبحانه وتعالى إنَّما يتكلَّم لإقبال الناس عليه ، وبِتَشْجيعِهم له ، وبِقَبُول كلامه ، وبإصْغائِهم إليه ، فإذا صَدُّوا وأعْرَضُوا وتعنَّتوا

وطالبوا وسَخِروا ، واسْتخَفُّوا وتتبَّعوا بعض الهَنات ، فإنَّ المتكلِّمَ تَضيقُ نفسهُ ، ولا ينطلقُ لِسانهُ ، لأنَّ المُسْتَمِع ليس مُصَدِّقًا ، إنَّما هو متعَنِّت ، لذلك هناك سائلٌ يسأل سؤالَ من يريد أن يعلم ، سؤال المستفهم، فتُجيب عنه بِنَفْسٍ رَضِيَّة ، ولكن سؤال المتعنِّت تُجيب عنه ونفسُكَ ضيِّقَةٌ به ، ولما طال تعنت الكفار أراد الله سبحانه وتعالى أن يُبيِّن للنبي صلى الله عليه وسلم تعنُّتهم وسُخفهم ، ومطالبتهم له عليه الصلاة والسلام بأشياء مِن باب التعجيز ، هذه حقيقة ، والله سبحانه وتعالى في الوقت نفسه أيضاً أراد أن يُسَلِّي نبيّه عليه الصلاة والسلام ويثبِّتهُ ، ويَدْعوه أن يُواجه هذه المتاعب بِثَباتٍ وأنَّ حِسابهم ليس عليه إنَّما على الله رب العالمين ، قال تعالى :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ)

(سورة هود)

مثلاً حينما أسْرى الله به مِن مكَّة المكرّمة إلى بيت المقدس ، كان النبي عليه الصلاة والسلام يخشى أن يقول الذي حدث معه فيزيد الناس له تَكْذيبًا ، وكلَّما أراه الله آيةً من آياته الكُبرى كانتْ نفسُهُ تضيق عن أن يذكرها خشيَة التكذيب وخَشْيَة التَّعَنّت ، ومطالبتِهم بالمُسْتَحيلات ، قال تعالى :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ)

(سورة هود)

أحيانًا يُسأل الإنسان سؤالاً عن حُكْم الشرع في هذا الموضوع ، فيقول المسؤول : ليْتَهُ لم يسألني هذا السؤال ، لأنّني إذا أجبته وفْقَ الحق قد لا يتحمَّل هذه الإجابة ، وإن قلتُ له : إنَّ هذا العمل حرامٌ فإنه يقول : هذا عملي ، فماذا أصنعُ به ؟ لو كان الإيمان بدَرَجةٍ أكبر لضحَّى الإنسان بكُلّ شيء اتِّجاه مرضاة الله ربّ العالمين ، فالإنسان في أوَّل الأمر ليس له أن يُكْثِرَ الأسئلة ، لأنَّه إن أكثرها ضاق عليه الشرع ، وضاق إلى درجة أنَّه قد لا يحْتمِلُ مُتابعة الطريق ، فالإنسان كما قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(101))

(سورة المائدة)

إذا عرفت الآمر قبل الأمر هان عليك أمرهُ :

لأحدهم محلٌّ تجاري ، والبضاعة كلها حرام ، تعاملُهُ كلّه حرام ، فإذا سألك عن شرْعِيَّة هذا العمل فأنت ليس لك خِيار ، فلا بدّ أن تقول الحق كائنًا ما كان ، وليَكُن ما يكون ، فالإنسان في أوَّل الطريق عليه أن يتعرّف إلى الله رب العالمين ، وأن يلْتَفِت إلى الكون لِيَرى عظمة الخالق ، فإذا عرف عظمة الخالق هانَ عليه طاعتهُ مهما كان ثمنها باهظًا ، فلو تعرَّفْت على إنسان يستطيعُ أن يُمِدَّك بآلاف

الملايين ، وقال لك : سلّم هذا المحلّ ، فُروغُهُ خمسون ألفًا إذا عرفْت حجْم ماله ، وحِرْصهُ على منْفَعَتِك وصِدقهُ في وعدهِ ، وغِناهُ إذا عرفْت كلّ هذه الحقائق يهون عليك إذا وجَّه لك أمرًا أن تُسلّم هذا المحل أنْ تستجيب له ، لذلك المشكلة دائمًا أن تعرف الآمِرَ قبل أن تعرف أمرهُ ، فإذا عرفت الآمر قبل الأمر هان عليك أمرهُ ، فإذا تعرَّفْت إلى أمرهِ قبل أن تتعرَّف إليه صَعُب عليك أمره وهذه هي المشكلة ، النبي عليه الصلاة والسلام أمضى مع صحابته الكرام بضْع عشرة سنة يُعَرِّفهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ويَلْفِتُ نظرهم إلى الكون ، قال تعالى :

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ(101))

(سورة يونس)

وقال تعالى :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1)وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2)وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3)وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5)وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6)وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

وقال تعالى :

(وَالْفَجْرِ(1)وَلَيَالٍ عَشْرٍ(2)وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ(3)وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ(4))

(سورة الفجر)

هذه الآيات إذا التَفَتْنا إليها ، وعرفنا مدلولاتها ، وعرفنا الخالق العظيم الذي خلقها والمُرَبِّي الكريم الذي أمدّها ، والمُسيِّر الحكيم الذي سيَّرَها ، إذا عرفناه حقّ المعرفة هان علينا أن نترك كلّ شيءٍ من أجله ، تقول رابعة العدويّة :

فليتَكَ تحلو و الحياة مـريرةٌ و ليتك ترضى والأنام غِضاب
وليت الذي بيني وبينك عـامر وبيني و بين العالمين خـراب
وليَت شرابي مِن ودادِكَ سائـغٌ وشُربيَ مِن ماء الفرات سراب
إذا صحّ منك الوصل فالكلّ هيّن وكلُّ الذي فـوق التراب تراب

***

الذي أتمنَّى عليكم أن تتَّجِهوا بكُلّ طاقاتكم إلى معرفة الله ، فإذا عرفتموه حقّ المعرفة هانَ كلّ شيءٍ في سبيله .

فلو شاهَدَت عيناك من حسننا الذي رأوْهُ لما ولَّيْت عنَّا لِغَيرنـا
ولو سَمِعت أذنك حُسْن خِطابنا خَلَعْتَ عنك ثِيابَ العُجْب وجِئتنـا
ولو ذُقتَ من طعْم المحبّة ذرَّةً عَذَرْتَ الذي أصحى قتيلاً بحُبِّنـا

ولو نسَمَتْ مِن قُربنا لك نسْمةٌ لَمُتَّ غريبًا واشْتِياقًا لِقُربنـــا

فما حُبُّنا سهل وكلّ من ادَّعى سهولته قلنا له قد جهلتنـــا

فأيْسَرُ ما في الحبّ للصدّ قتله وأصعبُ مِن قتل الفتى يوم هجرنا

***

أنت طالبٌ وُدَّ الله عز وجل ، وطالب وُدَّ خالق الأكوان ، ويجب أن تدفعَ الثَّمَن ، ألا إنَّ سِلعة الله غالية، ألا إنَّ سِلعة الله الجنَّة ، قال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

وقال تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

لا بدّ مِن أن تُمْتَحَن ، ولا بدّ مِن أن يمتحن إيمانك ولا بدّ من أن يُمْتَحَن توكّلك وصبركَ ، ولا بدّ من أن يُمتحن حبّك ، مثلاً لو أنَّ أُمًّا تسْكنُ عند ابنها ، وهو يملأ سمعها من ألفاظ الإخلاص والوُدّ والطاعة ، وما شاكلَ ذلك ، فقالتْ لهُ مرّةً : أعْطِني هذه الغرفة أختص بها ؟ فقال : لا أستطيع !! هذا الكلام الذي يقوله تلاشى أمام رفضِه لِهذا الطَّلب ، لأنَّه حينما رفض طلبها تبيّن أنّ البقاء بهذه الغرفة أغلى عليه من رضاها ؛ هذا مثلٌ ، وأحيانًا يعصي الإنسان ربّه من أجل شَهْوةٍ ، ماذا يعني ذلك ؟! يعني ذلك أنَّ هذه الشَّهوة أغلى عليه مِن ربِّه ، إذا قال لك واحدٌ من الناس : لا أستطيع أن أغضّ بصري ، هل تعرف ماذا تعني هذه الكلمة ؟ تعني أنّ اسْتِمتاعه بالنَّظر إلى النِّساء أغلى عليه مِن رضاء الله رب العالمين ، قال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

فلما يتعرّف الإنسان إلى الله عز وجل معرفةً حقيقيّة ثم سمع أمره طبَّقه طواعِيَةً ، وليس في حياةِ المؤمن شيءٌ مستحيل ، ما دام يُرضي الله رب العالمين ، ذهب إلى الطائف مشيًا على قَدَميه ، وتهجَّم عليه أهل الطائف ، وردُّوه وكذَّبوه ، واسْتَخَفُّوا به ، ثم قال :

((إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولكن عافيتَك أوسَعُ لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

وكُلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى ، فما مِن مؤمن على وجه الأرض إلا ويدَّعِي محبّة الله عز وجل ، ولكنّ المحبّة لها ثمن ، آيات كثيرة بهذا المعنى ، قال تعالى :

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(124))

(سورة البقرة)

الآن تستحقّ أن تكون إمامًا ؛ بعد أنْ امْتَحَنْتُكَ ، وبعد أن نجحْت في الامتِحان ، فلا بدّ من مرحلة مكّيَّة في كلّ عصرٍ ، ولا بدّ مرحلةٍ مدنيَّة في كلّ عصرٍ ، ففي المرحلة المكيّة نتعرّف إلى الله عز وجل ، وفي المرحلة المدنيّة نتعرّف إلى أوامره ، فإذا جاءَت معرفة الله قبل أوامره هان علينا تطبيق أوامره ، فإذا جاء تعريف الناس بالأوامر قبل معرفتهم بالله تملّصُوا منها كما يتملّص المُخادع من أمْرٍ نزَلَ به ، فَكُلُّكُم يعلم كيف أنَّ الناس يحْتالون على الشَّرْع ، فالشخص الذي يضع أمام دكانه صندوقًا من الشاي ، ويأتيه رجل ليستقرض منه دَيْنًا بالربا ، يقول له : بكَم تبيعني هذا الصندوق من الشاي ؟ فيقول مثلا : بألف ، فيقول : اشْتريتُ ، سجِّلهُ عليّ دينًا ، ثمّ يقول له : أتشتري منِّي هذا الصندوق فيقول له : نعم ، فيقول : بكَم ، فيقول الآخر : بثمانمائة نقدًا ، فهذه عمليّة ربا ، هذا الصندوق يبقى سنوات وسنوات ، لا ينتقل لا إلى المشتري ، ولا إلى البائع ، بل يباع ويشتري عشرات المرات ، وهو مكانه لا يتزحزح ، والأمر كله ربا ، فإذا عرفتَ الأمر الإلهي قبل أن تعرف الآمر تحتال على الأمر ، كيف يستطيع الإنسان أن يرى زوجة أخيه ؟ هذه لها فتوى ! لابدّ أن تأخذ بنتًا من الجيران ، ترضّعها امرأة أخيك ، ثمّ تعقدُ عليها ، ثمّ تطلّقها ، تصبح زوجة الأخ أمّ زوجتك بالتقليد ، حرمتها مؤبَّدة ، وحينها تسكن مع أخيك في بيت واحد !! الذي شرَّعَ لنا أيَخفى عليه هذا الاحْتِيال ؟! إذا عرفتَ الأمر الإلهي قبل أن تعرف الآمر تحتال عليه كما فعل اليهود حينما نُهُوا عن الصَّيْد يوم السبت ، فَحَفَروا الحفر إلى جانب البحر ، ودخلتها الحيتان يوم الجمعة ، وأغلقوها يوم السبت ، واصطادوها يوم الأحد !! نفَّذوا الشرع ، لكن مع الاحْتِيال !! لذلك لا بدّ من أن نعرف الله سبحانه وتعالى الذي لا تخفى عليه خافيَة ، قال تعالى :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ)

(سورة هود)

شبهة الكفار في صدق النبي :

1 ـ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَك

كان فقيرًا عليه الصلاة السلام فقال : جاءني جبريل فقال لي : يا محمّد أتحبّ أن تكون نبيًّا ملِكًا ، أم نبيًّا عبْدًا ؟ فقلت : بل نبيًّا عبدًا ، أجوعُ يومًا فأذكرهُ وأشبَعُ يومًا فأشْكرهُ ، دخل عليه عمر بن الخطاب مرّة فرآه مسْتَلْقِيًا على الحصير ، وقد أثَّرَ على خدِّه الشريف فبكى عمر، قال : يا عمر ، ما يُبكيك ؟!

فقال عمر : كِسرى ملك الفرس ينام على الحرير ورسول الله ينام على الحصير ! فقال : يا عمر ، إنما هي نبوّة وليسَتْ مُلكًا !! وفي الآية هنا قالوا : لولا أنزل عليه كنزٌ ، لو كان غنيًّا ، أو له مظهر فخم ، أو جاء معه ملك ، يُؤيِّدُهُ ، ويُصدِّقهُ ، لكنا آمنا به .

2 ـ الردّ الإلهي : إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل

قال ربنا عز وجل :

(إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ)

(سورة هود)

وعلى الله تعالى الباقي ، قال تعالى :

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

قال تعالى:

(إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة هود)

هذا الذي لم يصدق لن تحاسب عنه ، وهذا الذي كفر لن تُسأل عنه ، قال تعالى :

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

ومعنى النذير أنَّ مهمَّتك يا محمّد تنتهي بالبيان .

قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(سورة هود)

تهمة قديمة متجدِّدة :

1 ـ يَقُولُونَ افْتَرَاه

من التُّهَم التي ضاق النبي عليه الصلاة والسلام بها ذرعاً أنَّهم قالوا : إنَّ هذا القرآن من صنعِهِ ، ومِن نَظْمِه وصِياغَتِهِ ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(سورة هود)

أي هذا كلام من صُنْع البشر ، وهذا بمَقدور البشر أن يفعلوا مثله .

2 - الردُّ الإلهي :

قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ)

(سورة هود)

الحقيقة أنَّ ربنا عز وجل تحدَّاهم ثلاث مرات ؛ تحدَّاهم مرَّة أن يأتوا بمِثل هذا القرآن بكَامله ، وتحداهم أن يأتوا بعَشر سُور مثله ، وتحدَّاهم أن يأتوا بسُورة واحدة ، والحقيقة أنَّ التحدِّي الأوّل كان بكلّ القرآن، ثمّ بعَشر سُوَر ، ثمّ بسُورة ؛ ليس هذا هو القَصْد ، القصْد تَحَدِّي النّوع ، وليس تَحَدِّي الكمّ ، أي لن يستطيعوا أن يأتوا بكَلامٍ مثل كلام الله عز وجل ، لا سورة ولا عشر سُوَر ، ولا القرآن بكَامِلِه ، إنَّ النَّوع مستحيل عليهم ؛ صِياغة كلامٍ كَكَلامِ الله سبحانه وتعالى ؛ هذا يتعذَّر على العِباد ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة هود)

أي أنتم ومن معكم ، ومن حولكم ، واستَعينوا بالخُبراء ، واللُّغَويِّين والأدباء والعلماء ؛ لن تستطيعوا أن تأتوا بعَشر سُوَرٍ مِن مثل هذا الكتاب ، قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة هود)

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ

1 - القرآن حوى جميع أنواع الإعجاز :

الحقيقة هل تستطيع أن تُلقي على الناس محاضرة ، ثمّ يُكتشف من هذه المحاضرة أنَّ فيها كلمات متوازية مع كلمات أخرى ، مثلاً عدد حروف الجر (الباء)كعدد حروف الجر (من) ؟ هذا فوق طاقة البشر ، فإنك تجد في القرآن الكريم كلمة اليوم مذكورة فيه ثلاثمائة وخمساً وستين مرَّة بالضَّبط ، وكلمة شهر مذكورة فيه اثنتي عشرة مرَّة ، وكلمات الملائكة تُكافئ كلمات الشياطين ، وكلمات الجنّة تُكافئ كلمات النار ، وكلمات الدنيا تكافئ كلمات الآخرة ، هذا فوق طاقة البشر ، فلو تتبَّعنا تَكرار الكلمات الحِسابي ، لوَجَدنا العَجَب العُجاب ، فهناك إعجاز حِسابي ، وهناك إعجاز رياضي ، وهناك إعجاز

بياني ، وهناك إعجاز تشريعي ، وهناك إعجاز لُغوي ، لأنَّ الله عز وجل كماله مطلق ، فكما أنّ كماله مطلق فكمال كلامه مطلق ، قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة هود)

2 ـ هل أنتم مستَسْلِمون لما في القرآن من حقائق ؟

لا مُسيِّر إلا الله ولا خالق إلا الله ، ولا مُربِّيَ إلا الله أنتم ماذا تنظرون ؟ فهل أنتم مسلمون ؟ أيْ مستَسْلِمون لما فيه من حقائق .

أحيانًا يكون الإنسان مريضًا ، فيأتيه الطبيب ، ويصِفُ له دواءً ، إذا تيقَّن المريض أنّ هذا الطبيب عالم، وأنّ هذا الدواء يشفيه من مرضه ، وأنّ اتّباع تعليمات الطبيب لِمَصلحته يستسلم لأوامر الطبيب ، وهذا الاستِسْلام مهمّ جدًّا ، فالناس الآن لم يستَسْلِموا لله عز وجل ؛ هذا يأكل الربا ! إذًا : هو ما استسلم لأمر الله ، والآخر يؤثر الاختلاط ، فهذا لم يستسلم لأمر الله أيضاً ، وغيره لا يبالي بأغلاط وأخطاء لِسانه ؛ من غيبة إلى نميمة إلى فحشٍ ؛ إذًا : لم يستسلم لله عز وجل ، فالإسلام الأوَّل أن تستسلم لأوامر الله صغيرها وكبيرها .

جاء صحابي جليل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله ما الإسلام ؟ ما هذا السؤال ؟! فقال عليه الصلاة والسلام : الإسلام أن تُخلِّي لله نفسَك ، هذا القلب وِعاء ، عليك أن تخرج منه كلّ شيء ، وألا يبقى في قلبك إلا الله ، وفي الأثر : " عبدي ، طهَّرتَ منظر الخلق سِنين ، أفلا طهَّرتَ منظري ساعة ؟ ما وَسِعني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبْدي المؤمن " ! هذا القلب بماذا ملأتَهُ ؟ قال تعالى :

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

(سورة الأحزاب : من الآية 4)

لك قلب واحد ، ولا يتَّسِع إلا لشيء واحد ، ما هذا الشيء الذي يملأ قلبك ؟ قد تكون الدنيا ، فالدنيا إذًا رأس كلّ خطيئة ، وقد يكون حبّ المال أو الجاه أو حبّ العلوّ في الأرض ، أو حبّ الحياة بأوْسع معانيها ، أو حبّ الملذات ، أو حبّ السمعة ، أو حبّ ما في الحياة من مالها وأولادها ونسائها ، ما الذي يملأ القلب ؟ الدعاء الكريم : اللهمّ لا تجعلها في قلوبنا ، واجعلها في أيدينا ، إن كانت في القلب أعْمَت وأصمَّت ، وحُبّك الشيء يُعمي ويُصمّ ، وإن كانت في اليدين كانت قوَّة لك على أمر دينك ودنياك ، قال تعالى :

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة هود)

3 ـ الإيمان مراتب متفاوتة :

هل أنتم منقادون لهذه الأوامر ؟ على كلّ الإيمان مراتب ، هناك أُناسٌ مشغولون بمُدافعة التدنِّي ، وهناك أُناس مشغولون بمُتابعة الترقي وشتان بين الفريقين ! مِن الناس شُغلهُ الشاغل ألا يقع في الغلط والأخطاء ، وألا ينظر إلى النّساء ، وألا يكذب ، مشغول بمُدافعة التدنِّي ؛ هذه مرتبة العابدين ، ولكنّ في الإيمان صنفًا آخر مشغولٌ بمُتابعة الترقّي ، ماذا عرفت عن الله اليوم ؟ كيف تقرَّبْت إليه ؟ وماذا فعلت من أجله ؟

موضوع الاستقامة موضوع مفروغ منه ، فأنت بين أن تكون مشغولاً بمُدافعة التدنِّي ، وأن تكون مشغولاً بمُتابعة الترقي ، وهذه مرتبة المؤمنين الصادقين .

قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ)

(سورة هود)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ

مَن طلب الدنيا وجَدَها :

إذا أصْرَرْت على طلب الدنيا تأتيك الدنيا ، إذا أصْرَرْت على أن تكون غنيًّا فسوف تكون غنيًّا ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى حينما جاء بك إلى الدنيا وعدَكَ أن يُعْطِيَكَ سُؤْلَكَ ، قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18))

(سورة الإسراء)

وأنا أقول لكم هذا الكلام : أُطلب من الله بصِدْق ، لا بدّ من أن تناله ، أُطلب المال الوفير تُصبح غنيًا ، أُطلب الجاه العريض يصبح لك شأن كبير ، ولكن كما قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18))

(سورة الإسراء)

بعض العلماء وجَّهوا هذه الآية توجيهًا بليغًا دقيقًا .

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قال تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

1 ـ الصدق والعدل ينظمان علاقة العبد بربه :

يا عبادي ، هما كلمتان تنظِّم العلاقة بيني وبينكم ، الصِّدْق والعَدل ، فمنكم الصِّدق ومنِّي العَدل ، أي إن طلبتم منِّي طلبًا بصِدق لا بدّ من أن تنالوه ، وأنا أعْدلُ بينكم ، قال تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

لذلك لو جئتَ في آخر العمر ، وتولَّدَ في نفسك طلبٌ للحق وحبّ لله عز وجل ، لا بدّ من أن تتقلَّب في معارج القدس ، لا بدّ من أن تسْمُوَ نفْسك ، فأنت في كلّ زمان ومكان ، وفي كلّ عصرٍ ، وفي أيِّ مِصْرٍ ، إذا صدقت في طلب معرفة الله عز وجل لا بدّ من أن تعرفه ، قال تعالى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

(سورة العنكبوت)

قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

(سورة هود)

إذا طلبتها وكان صادقًا في هذه الإرادة كأن يحتاج إلى بيتٍ فخمٍ ، بيت مساحته ثلاثمائة وخمسون مترا ! بيت ذو بهاء وزينة ، وفيه جميع الأجهزة الكهربائيّة ، وسيارة من نوعٍ خاصّ ، وإذا أراد أن يخطب فإنه يحبّ امرأة من مواصفات خاصَّة ، مواصفاتها من خمسين شرطاً !! قال تعالى :

(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ)

(سورة هود)

تأتيه الدنيا كما شاء ، خُذْها كما تريد ، فهذا الذي أمضى ثلاثين عامًا يفكّر في كيفيّة كسْب المال ، لا بدّ من أن يكون غنيًّا كبيرًا ، وهذا الذي أمضى أربعين عامًا يفكّر في نجاح مشروع ما ، لا بدّ من أن ينجح هذا المشروع ، الأعمال الضَّخمة التي صنعها أقطاب الكفر في أوروبا أعمال جبارة ، وصلوا إلى الفضاء ، ولكنَّهم حينما تحدَّوا الفضاء ، فاحترقت المركبة الفضائيّة ! حينما قالوا : نحن نتحدَّى الفضاء!

بعد كذا ثانية أصبحت هذه المركبة كتلةً من اللَّهب ، قال تعالى :

(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ)

(سورة هود)

2 - القرآن غِنًى لا فقر بعده ، ولا غنًى دونه :

لكنّ المشكلة أنَّك إذا طلبت من الله الدنيا ، وجاءتك الدنيا ؛ فهل أنت رابحٌ ؟! لا ، والله ، القرآن غِنًى لا فقر بعده ، ولا غنًى دونه ، لو كان دخلك مليوناً باليوم ، فهل أنت رابح ؟ لا ، والله ! قال تعالى :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26))

(سورة الرحمن)

قال تعالى :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(57))

(سورة العنكبوت)

وقال تعالى :

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(88))

(سورة القصص)

فالأنبياء ماتوا ، أين رجالات العمل الإسلامي الذين نعرفهُم جميعًا ، أين النبي عليه الصلاة والسلام ؟ وهو أسعدنا ، توفَّاه الله ، قال تعالى :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ(30))

(سورة الزمر)

وأين صحابته رضي الله عنهم ، الصديق وصحبه .

ثم أين أبو جهل ؟ أين أبو لهب ؟ ماتوا جميعًا ، ولكنّ سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه الكرام منذ أن توفَّاهم الله فهم في سعادةٍ ما بعدها سعادة ، مضى عليهم في هذه السعادة ألف وأربعمائة عامٍ ، وأبو جهل وأبو لهب وأمثالهما منذ أن ماتوا في شقاءٍ ما بعدهُ شقاء ، ومضى لهم في هذا الشقاء ألف وأربعمائة عامٍ ، قال تعالى :

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

(سورة غافر)

ألف وأربعمائة سنة ، ضرب ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا ، ضرب اثنان صباحًا ومساءً ! إذًا لو نَجَحْت في الدنيا ؛ هل أنت من الفالِحِين ؟ لا ، ولو وَصَلْت إلى أعلى مرتبةٍ عِلْميَّة في الجامعة ، ولم تكن تعرف الله سبحانه وتعالى ؛ هل أنت من الفائزين ؟ لا ، لو وصلتَ إلى أعلى مرتبةٍ اجتماعيَّة ، ولو

وصلتَ إلى أعلى مرتبةٍ ماليَّة ؛ ماذا فعَلْتَ ؟ حصَّلْت الدنيا والدنيا فانيَة ، الدنيا دار من لا دار له ، ولها يسعى من لا عقل له .

مرَّ النبي عليه الصلاة والسلام في طريقه مع أصحابه على جيفةٍ نَتِنَة فماذا قال ؟ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ ، فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ شَائِلَةٍ بِرِجْلِهَا ، فَقَالَ :

((أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى صَاحِبِهَا ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا))

[ابن ماجه]

فلو أنّ واحدًا كانت عنده قطعة لحم متفسِّخة ، هل لها قيمة ؟ على القمامة فورًا .

3 ـ المؤمن معنوياته مرتفعة :

المؤمن معنويَّاته عالية جدًّا ، معنويَّاته العالية نابعة مِن أنَّه عرف الحقيقة الكبرى ، والهدف الذي خلق مِن أجله مِن أنَّه على طريق مستمرّة إلى الأبد ، طريق السعادة مهما تكن حياته متواضعة ، ومهما يكن دَخلهُ قليلاً ، ومهما تكن المتاعب مُحيطة به من كلّ جانب فإنه يرضى بها ، لأنَّ هدفه الأكبر تحقَّق ، أجوع يومًا فأذكرهُ ، وأشبعُ يومًا فأشكرُه .

سيّدنا الصدِّيق كان خليفة المسلمين ، جاءتهُ قضيَّة فحوَّلها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، سيّدنا عمر حكمَ فيها حكمًا اغتاظ منه أصحابها ، فذهبوا إلى الصدِّيق لِيُوقِعُوا بينه وبين عمر ، فقالوا : فعَلَ كذا وكذا ، فالخليفة أنت أم هو ؟ فقال : هو إذا شاء ! هيِّنةٌ عليه ، فأنت إذا عرفت الله سبحانه وتعالى هانَتْ عليك الأمور ، وهانَتْ عليك الدنيا ، إنك لم ترضَ عن الله عز وجل ، ولن يرضى الله عنك إلا إذا رضيتَ عن الله ، وقد قال رجلٌ وهو يطوف : " يا ربّ ، هل أنت راضٍ عَنِّي ؟ فقال له الشافعي : وهل أنت راضٍ عنه حتى يرضى عنك ؟! قال : سامحك الله ! من أنت يرحمك الله ؟ كيف أرضى عنه ، وأنا أتمنَّى رِضاه ؟! فقال له الشافعي : إذا كان سُرورك بالنِّقْمة كَسُرورك بالنِّعْمة فقد رضيتَ عن الله " هذا مِقياس الرضا ! فهل أنت راضٍ عن الله ؟ قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ(15)أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا

1 ـ هذا مصير مَن أحَبَّ الدنيا يوم القيامة :

أحبُّوا الدنيا وانتهى الأمر ، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ : جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ ، وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُوَ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

2 ـ الإخلاصَ الإخْلاصَ :

الإخلاصَ الإخْلاصَ أيها المؤمنون ، يا معاذ أخْلِصْ دينَكَ يكْفِكَ القليل من العمل ، فمع الإخلاص ينفع كثير العمل وقليله ، ومن غير الإخلاص لا ينفع قليل العمل ولا كثيره ! إذا أراد أحد الدنيا وصل إليها ، هل لك عندي شيء ؟ ماذا تريد ؟ أردْت الدنيا فأعطيناك ، هذه الآخرة لِمن أراد الآخرة ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19))

(سورة الإسراء)

وقال تعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

(سورة القصص)

لذلك إذا كنت أنت أيها الأخ الكريم مؤمنًا فأنت مِن مُلوك الدار الآخرة ، قال تعالى :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

تخفض أناسًا ، وترفع آخرون ألا يا ربّ نفسٍ جائعةٍ عاريَةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمة يوم القيامة ، ألا يا ربّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمة جائعةٍ عاريَةٍ في الآخرة في الدنيا ، ألا يا ربّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين ، ألا يا رب مهين لِنَفسه وهو لها مكرم ، فالبطولة كما قال تعالى :

(إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(1)وَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا(2)وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا(3)يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(4)بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(5)يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(6)فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

البطولة في عمل الخير والتقوى والصلاح ، قال تعالى :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

3 - معنى حبط :

يُقال : حبِطَت الناقة ، أيْ انتَفَخَ بطنها انْتِفاخًا شديدًا ، ثمَّ ماتَتْ ، والإنسان الكافر في الدنيا له عمل في الظاهر كبير جدًّا ، أما ذو الأعمال السيِّئة فيأتي يوم القيامة ، وقد أهْلَكَهُ هذا العمل ، قال تعالى :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

قال تعالى :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

4 - معنى باطل :

معنى باطل : أنَّه لا استقرار له ، ولا دوام له ، الشيء الباطل هو الذي يتلاشى ، قال تعالى :

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة هود)

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً

1 ـ نظائر هذه الآية في القرآن الكريم :

هذه الآية تُشْبه آيات كثيرة تزيد على عشرين آية ، قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

وقال تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

وقال تعالى :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ(9))

(سورة الزمر)

وقال تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)

(سورة هود)

2 ـ الوقت هو كلّ شيء في الدنيا :

الأمور عنده واضحة ، يعلم أين كان ، وماذا كان ، هناك يوم مفقود ؛ انتهى ، لا يؤسف عليه ، ولا تقل: كنتُ كذا وكذا ، ولا تقل : فعلتُ كذا وكذا ، ويوم مشهود ، ويوم موعود ، ويوم مورود ، ويوم ممدود!

ما مضى فات والمُؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها .

***

أيها الإخوة الأكارم ، لا تملكون إلا الوقت ، هذه الساعة التي نحن فيها ، أما كيف كنت ، فهذا مضى ، سأتوب بعد كذا وكذا ؛ هذا قد لا يكون ، قد لا يأتي ذلك اليوم ، المؤمَّلُ غيب ، لذلك ففي كلّ يومٍ يُصبح الإنسان فيه يُنادي عليه ملكٌ يقول متحدِّثًا بلِسان اليوم : أنا خلقٌ جديد ، وعلى عملك شهيد ، فاغتنم منِّي قبل الرحيل ، استيقظتَ صباحًا ، ولم تصلّ بعد الصبح ، فاتك الوقت ، وخسرت ما خسرت ، أما اليوم فقد فاتتْك الصلاة كلها ، جلست ، ولم تفعَل شيئًا ، وما تقرَّبت إلى الله عز وجل ، وما خَدَمتَ أحدًا ، وما تلَوْت القرآن ، فأنت استَهلكتَ اليوم استِهلاكًا رخيصًا ، هذا من دون سيِّئات ! كأن يقدِّم الواحد امتِحاناً في مادَّة أساسية ، وبقي ساعةٌ من دون حركة ! فلما الإنسان يستهلك يومه استِهلاكًا رخيصًا يكون أحمق ، ويوم القيامة لا يندم المؤمن إلا على شيءٍ واحد ؛ على ساعةٍ مرَّتْ لم يذكر الله فيها ، هذا الذي يندم على الزمن قد خسر الكثير ، فهذا اليوم يقول للإنسان أنا خَلْقٌ جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوَّد منِّي قبل الرَّحيل ، وهذا هو اليوم المشهود الذي لا تملك غيره ، وهناك اليوم الموعود ، نحن وُعِدْنا بسَاعة اللّقاء ، وساعة الموت ، وهناك يوم مورود ؛ وهو يوم القيامة ، وهناك يوم ممدود إما في الجنَّة أو النار ، وهذا اليوم لا نهاية له ، وإلى الأبد واليوم الموعود هو الموت ، وكلّ واحد له ساعة لا بد آتية، وأنّ ملَكَ الموت قد تخطَّانا إلى غيرنا ، وسيتخطَّى غيرنا إلينا ، كلّ يوم تمشي في الطريق ترى نعوات كثيرة ، الشاب والشابة ، ورب البيت ، والطبيب والمحامي ، ووُجهاء البلد ، لكن هناك يوم لا بدّ من أن يأتي ؛ يقف الناس لِيَقرؤوا النَّعْي .

قال تعالى :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

(سورة هود)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ

1 ـ الكذب أسوأ خُلُق :

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد]

قبيحٌ بالإنسان أن يكذب ، أما إذا كذب على الله فهذا أقبح أنواع الكذب ؛ أن تكذب على الله الذي خلقَكَ ولم تكن شيئًا ، قال تعالى :

(وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

(سورة هود)

2 ـ الكاذبُ ظالمٌ لنفسه :

هنا ربُّنا عز وجل بدَّل كلمة الكاذب بالظالم ، أيْ كلّ إنسان يكذب يظلم نفسهُ بهذا الكذب .

قال تعالى :

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

(سورة هود)

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

1 ـ الكافر همُّه الأول الصدّ عن سبيل الله :

لا يوجد وصْفٌ أبلغُ مِن هذا الوَصْف ، الكافر في الدنيا همُّه الأوَّل أن يصدّ عن سبيل الله ، ويقطع الطُّرُق التي توصِل إلى الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

(سورة هود)

أيْ يُحِبّ الأمر المُلْتوي ، وغير الصحيح والوسيلة غير المباشرة ، قال تعالى :

(أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة هود)

2 ـ لا يعجز اللهَ أحدٌ في الأرض ولا في السماء :

أي لا بدّ أن يموتوا ، لم يسبقوا الله سبحانه وتعالى ، هم بِقَبْضة الله عز وجل ، كُنْ فَيَكون ، قال تعالى :

(أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)

(سورة هود)

3 ـ السمع والبصر مرهونان باستعمالهما :

الإنسان إذا كان مزوّداً بسَمع أو بصرٍ ، فإذا استخدم السمع والبصر في معرفة الحقّ كان سميعًا بصيرًا، فإن لم يستخدمهما هو والذي لم يعطهُما سواء ، إذا كانت معك بوصلة ، ولم تستخدمها أنت والذي لا يملكها سواء ، إذا أكرمنا الله عز وجل بالفِكر ، وسخَّرناه للشَّهوات ، ولِكَسْب المنكرات فقط ، وأسأنا اسْتِخدامه فكأنَّنا لا نملك فِكرًا ، قال تعالى :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

(سورة هود)

4 ـ المفتري على الله خاسرٌ :

لأنَّ شهواتهم أغلقت عليهم منافذ السَّمع والبصر ، لو ضيَّع أحدهم ألف ليرة ، ألا يتألَّم ؟ فكيف إذا ضيَّع مائة ألف ؟ وكيف إذا ضيَّع كلّ ثروته ؟ هل يقول لك : الحمد لله ، الأهل موجودون ، والكلّ يُعَوَّض ! وإن فقَدَ زوجته يقول لك : أتزوج غيرها ، وإن فقَدَ ابنًا له يقول لك : عسى الله أن يرزقنا غيره ، أما إن أحاط به الموت ، فإذا مات الإنسان فهناك آخرة ، فإذا كان عملكَ طيّب فالحمد لله ، فإذا خسِرَ نفسهُ في الآخرة فهذه أكبر خسارةٍ في الكون ، أن تخسر نفسَكَ ، ، لذا قيل : من لم تُحْدث المصيبة في نفسه عظةً ، فمُصِيبَتُهُ في نفسه أعظم ! وأكبر خسارة في الكون أن تخسر الحياة الأبدِيَّة التي خلقك الله من أجلها ، لذلك يقول الإمام عليّ : << يا بنيّ ، ما خيرٌ بعدهُ النار بخَير ، وما شرّ بعده الجنّة بشرّ >> ! فمهما بلغت من الخير في الدنيا ، إذا انتَهَت بك إلى النار فهذا ليس خيرًا ، مهما كان المرء في الدنيا معذَّبًا ، فإذا انتهى به المطاف إلى الجنة فهو في سعادة كبرى ، << وكلّ نعيم دون الجنَّة مَحقور ، وكلّ بلاء دون النار عافيَة >> ، فأكبر مشكلة أن يخسر الإنسان نفسه ، فكلّ الخسارات معوَّضة إلا خسارة النَّفس ، لأنَّها هالكة ليس في الدنيا فقط ، بل وفي الآخرة ، وإلى الأبد ، قال تعالى :

(لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ)

(سورة هود)

هذا له المعنى ذاته فالذي خسر نفسه حقّق أكبر خسارةٍ في الكون ، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة هود)

من صفات المؤمنين الناجين :

1 - الإيمان والعمل الصالح :

هؤلاء الذين عرفوا الله عز وجل واستقاموا على أمره ، وفعلوا الطيّبات ، وانقادوا إليه ورضُوا به ربًّا، واستقرُّوا في رحمته .

2 - الإخبات إلى الله :

قال تعالى :

(وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

1 - المؤمن سميع بصير ، والكافر أعمى أصمّ :

يمكنك أن تقول للمؤمن : أنت سميع بصير ، وتقول للكافر : أنت أعمى أصمّ ، قال تعالى :

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(18))

(سورة البقرة)

لا يرى الحقائق ، ولا يستمع إلى المواعظ ، والضال يرى صور الأشياء ، كمن يستمع إلى صدى الكلمات ، وهناك كلمات خطيرة ، فلو قال أحدهم : هذا البيت سقفه في خطِر ، وأخذت كلامه بالمزاح ! وفي إحدى الليالي وجدت السقف يتحرّك ، فإنك ما سمعت كلام صديقك ، ولكن سمعت صدى كلامه ! أما لو أخذت كلامه على مَحْمل الجدّ لتركت البيت منذ أن قال لك ذلك ، لذلك :

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

2 - المؤمن يرى الحقيقة ويستمع إلى الموعظة :

المؤمن سميع بصير ، بمَعنى أنَّه رأى الحقيقة واسْتَمَع للموعظة ، فأثَّرَتْ فيه ، والكافر أصمّ وأعمى ، لذلك قال الله عز وجل :

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(5))

(سورة الجمعة)

لو حمَّلت على دابّة كتاب فيزياء ! ولو سألتها عما فيه هل تعلم ؟!! هكذا تعامل الناس مع كتاب الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (05-16): تفسير الآيات 25 – 28
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-02-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في سورة هود إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

1 ـ الإرسال دليل رحمة الله بعباده :

الإرسال أوَّلاً دليل رحمة الله سبحانه وتعالى ، فالمُعَلِّم يُدرِّسُ طلابه ، فإذا وجَدَ في أحدهم تَقصيرًا هل يدَعُهُ إلى الامتحان كي يرْسب ؟ لا بدّ من أن ينْصحَهُ ، ولا بدّ من أن يضيّق عليه ، فَمُجرّد إرسال الأنبياء للعِباد دليل رحمة الله سبحانه وتعالى ، وإنَّ الله أمر عباده تخييرًا ، ونهاهم تَحذيرًا ، وكلّف يسيرًا ، ولم يُكلّف عسيرًا ، وأعطى على القليل كثيرًا .

2 ـ الفائدة من التكلم بصيغة الجمع :

أما كلمة أرسلنا بضَمير الجَمع ، معنى ذلك أنَّ أفعال الله سبحانه وتعالى تدخل فيها كلّ أسمائه ، فأيّ فِعْلٍ لله عز وجل فيه رحمة ، وفيه لُطْفٌ وفيه عَدْلٌ ، وفيه غِنًى ، وفيه تَقْديرٌ ، وفيه عِلْمٌ ، وفيه خِبْرةٌ ، فإذا تحدَّث الله سبحانه وتعالى عن ذاته استخدم ضمير المفرد ، قال تعالى :

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة هود)

رحمة وعلما ، وخِبرة ، وحكمة ، وقوّة ، ولُطْفًا ، كلّ هذه الأسماء الحسنى مجتمعة في(نا) الدالة على الفاعلين ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة هود)

3 ـ الأنبياء صفوة الخَلق :

هذا الذي أرسله صَفْوَةُ القوم ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

فالأنبياء هم صفوة الخلق كما قال الله سبحانه وتعالى :

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ(26))

(سورة الأنبياء)

صَفْوَة الخلق الأنبياء ، وصَفْوَةُ الصَّفْوَة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلَّم ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة هود)

4 ـ الانتساب إلى الأنبياء شرف بشرط اتباعهم :

نُسِبوا إليه تشريفًا لهم ، قَوْمِهِ ، ونحن مِن أُمَّة سيّدنا محمَّد صلى الله عليه وسلَّم نُسِبْنا إليه تَشْرِيفًا لنا ، تشَرَّفْنا به فإن نُسْبْنا إليه ينبغي أن نكون عند أمره ونهْيِهِ ، قال تعالى

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

1 ـ ما هو الإنذار ؟

ما معنى الإنذار ؟ هو بيان الأخطار ، وبيانُ طُرُق الوقاية منها هذا هو الإنذار ، والإنذار لا يكون بعد فوات الأوان ، لابدّ مِن أن يأتي في الوقت المناسب ، فالإنذار بيان الأخطار ، ولكن هذا الإنذار مُبين ، أحيانًا ينهاك الطبيب عن المِلْح ويسكت ، أنت لا تعرف لِمَ ينهاكَ ؟ فلو كان طبيبًا حكيمًا لبيَّنَ لك مضارّ المِلح ، المِلح الزائِد يحْبس في الجسد سوائل زائدة ، والسوائل الزائدة تجعل الشرايين منتفخة ، فيرتفع الضغطُ فيجهد القلبُ بالملح الزائد ، فإذا أنذرتَ المريض بمغبّة تناوله الملح ، وبيَّنت له كيف أن الملح يرفع الضغط ، ويجهد القلب فهذا إنذارٌ مع تبيين ، فالإنذار وحده لا يكفي ، ربُّنا عز وجل حينما ينذرنا

يبيِّن لنا أخطار مغبَّة الذي ينذرنا ، ويحذرنا منه ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

الإرسال رحمة من الله ، و (نا) دليل أن أسماء الله الحسنى كلها داخلة في هذا الإرسال ، (نوحا) صفوة القوم ،

(إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

من صفات الإنسان الكامل الخلقُ الحسنُ :

الله سبحانه وتعالى كماله مطلق ، لذلك الكامل لا يقرِّب إليه إلا الكامل ، أما بنو البشر فلأسباب خاصة ولأسباب تتعلَّق بمصالحهم يقربون إليهم من هم ليسوا في مستوى هذا التقريب ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى لا يقرِّب إليه إلا مَن كاملا رحيما ، لذلك فالنبيُّ عليه الصلاة والسلام كان أرأفَ وأرحم الخلق بالخلق ، استخلف أبا بكر ، وقال : أرأف أمتي بأمتي أبو بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، وقال : أرحم أمتي بأمتي ، هؤلاء الكُمَّل لا يقرِّبون إليهم إلا من كانوا على شاكلتهم ، لذلك طرق القرب من الله عز وجل أسبابها الكمال ، أما الإنسان فقد يقرِّب إليهم من كان شرِّيرا ، ومن كان ناقصا لمصلحة ما ، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا اصطفى الأنبياء فهم صفوة البشر ، لذلك دُعِي النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلى التمثيل بقتلى قريش لشدّة ما عاندوه حينما كانوا أحياء ، ولشدَّة ما أساءوا إليه ، ولشدَّة ما ضيَّقوا عليه ، ولشدة ما تآمروا على قتله ، ولشدة ما أخرجوه من بلده فقيل له : مثِّلْ بهم ، فقال عليه الصلاة و السلام: لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ، ولو كنت نبياً ، ولقد جاءه جبريل ، وقد ردّه أهل الطائف فقال : يا محمد ، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك ، لو شئتَ لأطبَقت عليهم الجبلين ، قال : اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، لا يا أخي ، عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد اللهَ ، هكذا الأنبياء ، وهكذا الصدِّيقون ، وهكذا المؤمنون ، ولن يكون المؤمن مؤمنا إلا إذا كان كاملا ، قال عليه الصلاة و السلام :

((مَن حدَّث الناسَ ، ولم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، وعاملهم فلم يظلمهم فهو ممن كملت مروءته ، و ظهرت عدالته ، و وجبت أخوَّته ، و حرمت غيبته))

[القضاعي في مسند الشهاب عن علي ، وقد ذكر العلماء أنه موضوع غير صحيح]

صار مقياس الرفعة في سلَّم الإيمان الخلق الحسن ، وما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن ، ولم يُوصف النبيُّ عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم إلا بصفة واحدة ، وهي الخلق الحسن ، قال تعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

وما جاء الأنبياء إلا ليرقوا بأتباعهم إلى المستوى الرفيع ، قال عليه الصلاة و السلام :

((وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا))

[ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو]

وَعَنْ مَالِك أَنَّهُ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاق))

[رواه مالك]

فالخلق الحسن ، والسُّموُّ النفسي هذا هو الهدف الأكبر من الدين ، تسمو نفوسنا فنصبح أهلا لأن نكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، تسمو نفوسنا كي نكون أهلا لجنة عرضها السماوات والأرض ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة هود)

الإنذار تبيان الأخطار ، وتبيان طرق الوقاية منها ، وتبيان مضار الأذى وأخطاره ، قال تعالى :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ

1 ـ الفائدة من صيغة النفي والاستثناء : لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

لم يقل الله عز وجل أن اعبدوا الله هناك آيات أن اعبدوا الله ، أما الآية هنا :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة هود)

هذا النمط الإزدواجي ، فقد يعبد الإنسانُ ربَّه ، ويعبد مع ربه جهةً أخرى ، هذا هو الشرك ، أما النهي هنا :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

يجب أن تعبد الله ، ولا أحد مع الله ، والعبادة الطاعة التي يسبقها معرفةٌ بالله عز وجل ، وتعقبها سعادة بسبب القرب منه ، قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

وقال تعالى :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

2 - : إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ

إذا تورَّطتم في عبادة غير الله فلا بد من يوم فيه عذاب أليم ، لكنَّ الحبل مرخى ، والجاهل يغترُّ بإرخاء الحبل ، ولكن إذا أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ، يُشدُّ الحبلُ و يقع الإنسان فريسة عمله السيئ ، قال تعالى :

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40)عَنْ الْمُجْرِمِينَ (41))

(سورة هود)

لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً :

العاقل هو الذي يحتاط للأمور قبل وقوعها ، والجاهل هو الذي يعيش لحظته ، يعيش وقته يعيش عصره كما يقولون ، مع الناس ، و مع ضلالاتهم ، و مع انحرافاتهم ، مع علاقاتهم المشبوهة التجارية، مع أكلهم الحرام ، مع أكلهم الربا ، مع الاختلاط ، يقول : أنا مع الناس ، فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً ، تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[رواه الترمذي]

و ما أنا إلا من غزية إن غوت ْ غويتُ و إن ترشد غزيةُ أرشدِ

***

هذا الذي يقول : أنا مع الناس ، مع العادات التقاليد مع ظروف البيئة ، مع معطيات الحياة ، مع تيارات الحياة ، مع عصر العلم ، مع عصر الانفتاح ، هذا الذي يضع الشَّرعَ وراء ظهره ، و يضع هذا الكتاب الذي أنزله ليكون دستورا لنا يضعه خارج اهتمامه ، ويعيش وقته و لحظته ، و يأخذ ، و يعطي ، و يفعل ما يحلو له من دون ضابط من كتاب الله ، و من دون أن يكون وقَّافاً عند كتاب الله ، أمره خطير ، فسيِّدنا عمر رضي الله عن عمر كان وقَّافا عند كتاب الله ، والمؤمن في ليله ونهاره يطرح على نفسه هذا السؤال ، هل هذا العمل الذي أفعله مطابق للشرع ؟ وهل يرضى الله عنه ؟ وهل فيه زيغٌ ؟ وهل

فيه انحراف ؟ و هل فيه تقصيرٌ ، وهل فيه تجاوزٌ ؟ وهل فيه بغيٌ ، وهل فيه عدوانٌ ؟ هل فيه خروجٌ ، وهل فيه فسقٌ ؟ هذا الذي لا يسأل لا يبالي ، وإذا بالَ فمِن بال يبول ، ولا يبالي ، وإذا كان عمله صحيحا أم غير صحيح ، أكان مستقيما أم غير مستقيم ، أكان عمله مطابقا للشرع أم غير مطابق ، كلمته الثابتة أنه لا يبالي ، فالله سبحانه و تعالى يقول :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

3 ـ لا تعبد مع الله غيره :

إذا كنت تصلي ، و تصوم ، و تحج ، و تزكي فأنت لا شك تعبد اللهَ ، و لكن هل : لا تعبدوا إلا الله ، إن فعلتَ هذه العبادات فأنت تعبده ، ولكنَّ المهمَّ النهيُ : ألا تعبد إلا الله ، هل تعبد مع الله جهةً أخرى ؟، إنه من ضعف اليقين أن ترضيَ الناسَ بسخط الله ، هذا من ضعف اليقين ، ربُّنا عز وجل و صف حالتين مَرَضيتين : الحالة الأولى ، وهي قوله تعالى :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ(10))

(سورة العنكبوت)

دقة الآية متناهية ، قال تعالى :

(فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ)

(سورة العنكبوت)

جعل ما يفعله الناسُ معه تضييقا عليه كعذاب جهنم ، فعندئذٍ يُحجم عن الطاعة خوفا من الناس ، يحجم عن حضور مجلس علم لكلمة قالها أحدُهم ، يحجم عن عمل صالح لكي لا يُظنَّ به كذا كذا ، يحجم عن قول المعروف لئلا يُظنَّ به كذا كذا ، النبيُّ عليه الصلاة و السلام أثنى في بعض الأحاديث على الرجل الذي إذا تكلَّم غنِم ، وإذا سكت سلم ، ولكنَّ أهل الدنيا يتكلمون فيأثمون ، و يسكتون فيأثمون ، يتكلمون بالباطل فيأثمون ، ويسكتون عن الحق فيأثمون ، لكن المؤمن هذا حاله : رحم اللهُ عبدًا تكلم فغنم ، أو سكت فسلم ، و قال تعالى :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(57))

(سورة القصص)

هذا الذي يقول مثل هذا الكلام هو منافق لا شك ، هذا الذي يقول إذا طبَّقتُ الشرع أخاف على نفسي ، أو أخاف على دخلي ، أو أخاف على رزقي ، و لو حضرتُ معكم مجلس علم أخاف على رزقي أن ينقطع ، هذا الذي يقول هذا منافق و ربِّ الكعبة ، قال تعالى :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(57))

(سورة القصص)

هكذا يجب أن تكون أخلاق عباد الله عز وجل ، هذا الذي أطاعه هذا الذي استقام على أمره ، وهذا الذي دخل بيته ليتعلم شرعه ، و ليتعلم قرآنه أيفعل الله به ما تظنون ؟

قال تعالى :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

(سورة آل عمران)

لا تخافوهم ، ألا تعبدوا إلا الله ، فرقٌ كبير بين أن يقول الله سبحانه وتعالى : أن اعبدوا الله ، وبين أن يقول سبحانه وتعالى :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة هود)

فرق كبير بين أن تقول : نعبد اللهَ ، وبين أن تقول : " إياك نعبد " ، حينما تقدَّمت إياك على نعبد أفادت الحصرَ ، يعني لا نعبد إلا الله ، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(1)لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(2)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(3)وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ(4)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(5)لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6))

(سورة الكافرون)

المؤمن متميز عن غيره في كل شيء :

لا بدَّ من التمايز ، إذا كنتَ مختلطًا مع الكفار فهذا يذيب الإيمانَ كما يذوب الملح في الماء ، تذوب فيهم، تتعلم منهم فيسحبونك إلى صفهم ، ويقلّبونك كما يريدون ، أنت مؤمن يجب أن تبقى متميِّزا عنهم، و لا تذهب حيث يذهبون ، ولا تجلس حيث يجلسون ، ولا تخض في حديث كما يخوضون ، ولا تنظر كما ينظرون ، ولا تسمر كما يسمرون ، هذا معنى قوله تعالى :

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(2)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(3)وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ(4)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(5)لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6))

(سورة الكافرون)

إن تميَّزت عنهم حفظك الله عز وجل ، قال تعالى :

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا(16))

(سورة الكهف)

قال تعالى :

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

فإذا تورَّطتم ، وعبدتم غير الله ، قال تعالى :

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(فَقَالَ الْمَلَأُ)

(سورة هود)

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا

1 ـ الملأ :

الملأ هم علِيَّة القوم الذين يملئون السمع و البصر ، قال تعالى :

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون)

ثيابهم فاخرة ، وبيوتهم واسعة ، ومركباتهم فارهة ، وحياتهم ناعمة هؤلاء علية القوم ، الأغنياء منهم ، قال تعالى :

(فَقَالَ الْمَلَأُ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا)

(سورة هود)

2 ـ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا

الرسول بشر كسائر البشر :

أي أنت واحدٌ منا تأكل كما نأكل ، وتشرب كما نشرب ، وتمشي في الأسواق ، وتأكل الطعام ، ومن

قال : إن الأنبياء لا يأكلون الطعام ، ولا يمشون في الأسواق ، فهم مفتقرون إلى الطعام ، ومن أجل تأمين الطعام هم مفتقرون إلى العمل ، هذا الإنسان يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، بشريتهم حجبتهم عن حقيقتهم ، إذا التقيتَ بأكبر جرَّاح قلب في العالم ماذا سوف تُريك عيناك منه ؟ أترى له رأسين ؟ لا ، سترى رأسا واحدا ، أربع أيدٍ ؟ لا ، بل له يدان اثنتان مثلك ، إنه مثل أيِّ إنسان آخر ، إنه أكبر جرَّاح قلب في العالم ، وقد أجرى مائة ألف عملية قلب مفتوح ، ونجحت كلها ، وهو الذي امتلأ علما و خبرة في القلب ، لكنه له عينان كعيني فلان ، له أذنان كأذني فلان ، له رأس كرأس كل إنسان ، له قامة منتصبة ، إذاً هو كغيره من الناس ، امتاز عنهم بعمله وخبرته ، وكذلك الأنبياء هم في أجسامهم كغيرهم من الناس ، لكنهم امتازوا برسالتهم ونبوتهم ؟! هؤلاء الكبراء هؤلاء علية القوم ، هؤلاء الذين يملئون عين أهل الدنيا ، هؤلاء الملأ ، قال تعالى :

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

(سورة هود)

أنت مثلنا ، والله سبحانه و تعالى قال :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة فصلت)

بمعنى أن في جوانحي عواطف و أحاسيس ، اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر ، و أرضى كما يرضى البشر ، يجوع النبي ويعطش ، و يشعر بالحرِّ و يشعر بالقرِّ ، و يشعر بالدفء ، ويتزوج ، و يأتيه أولاد ، إنه بشر ، و لكن لا كالبشر ، محمدٌ بشرٌ ، و ليس كالبشر ، بل هو جوهرة ، و الناس كالحجر ، الجوهرة حجر ، و ليست كالحجر ، حجر كريم قطعة الماس بحجم الحِمصة يزيد ثمنها على سبعين ألف ليرة ، واذهب إلى سهول حوران ، وانظر كم فيها من أحجار ؟ محمَّدٌ بشر ، و ليس كالبشر، بل هو ياقوتة ، و الناس كالحجر

فإن تفُق الأنامَ فأنت منـهم فإن المسكَ بعض دم الغزال

***

أي أنت منهم ، ولكنك فقتَهم ، قال تعالى :

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

(سورة هود)

فإذا قيل لك : فلان مؤمن كبير ، ماذا ترى فيه ؟ له جسد كسائر الناس ، سيدنا ابن مسعود كان أسمر اللون ، قصير القامة ، صعد شجرةً فخفق الريحُ بثوبه ، فعَن ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنْ

الْأَرَاكِ ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ ، فَجَعَلَتْ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مِمَّ تَضْحَكُونَ ؟ قالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ ، فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ))

[أحمد]

سيدنا ابن الوليد رضي الله عنه أبو سليمان خالد بن الوليد كان قصير القامة أسمر اللون ، لكنه خاض مائة معركة أو زُهاءها ، و ما في بدنه كما يقول ، وهو على فراش الموت موطن شبر إلا و فيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، عزلَه سيدنا عمر فجاءه إلى المدينة فقال : يا أمير المؤمنين ، لِمَ عزلتني ، خاف أن يكون قد اقترف إثمًا ، أو فعل شيئًا ، لأنَّ رضاء عمر مِن رضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضاءُ رسول الله مِن رضاء الله ، هكذا قال سيّدنا عمر : << كنتُ سيف رسول الله المَسْلول ، وكنتُ جِلْواذهُ وخادمه ، فكان يُعْمدني إذا شاء ، وتُوُفيّ وهو عنّي راضٍ ، فالحمد لله على هذا كثيرًا ـ فهذا رأى رضاء رسول الله عنه أكبر ثَرْوَة يَحْمِلها ـ ثمّ جاء أبو بكر ، وكنت خادمه وجِلواذه ، وسيف الله المسلول ، فكان يغمدني إذا شاء ، وتُوفّي وهو راضٍ عنّي فالحمد لله ، لقد صَعِد عمر المِنبر لِيَخطب بعد أبي بكر ، انتبَهَ الناس أنَّه هبط درجة ، ثمّ قال : ما كان الله لِيَراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر ، فكان يقف على درجة أدنى من آخر درجة ، لأنّ هذه الدرجة الأخيرة هي مقام سيّدنا أبي بكر ، فما بالك في الأيام هذه ؛ فعلى الناس أن يحفروا خندقًا إذا قاموا خطباء ! ما كان الله لِيَراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر >> ! علماء حكماء كادوا أن يكونوا مِن فقههم أنبياء ، قال تعالى :

(مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا)

(سورة هود)

وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا

3 ـ معنى الأراذل ومدلولها :

معنى كلمة أراذلنا ، هذه الكلمة لها معنى لغوي ؛ تعني ضعفاءنا وفقراءنا ، وهذه الكلمة فيها استعلاء ، هؤلاء الذين اتَّبعوك من الطبقة الدنيا في المجتمع فقراء أصحاب مصالح ، أصحاب حِرف ، يكسبون قوت يومهم ، ولا شأن لهم ، بيوتهم صغيرة ، أموالهم قليلة ، حياتهم خشنة ، هؤلاء لا نرضى أن نجلس معهم ، ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، قال عليه الصلاة والسلام ، وقد دخل عليه صحابيّ فقير :

((أهْلاً بمَن خبَّرني جبريل بقُدومه ! قال : أو َمثْلي ؟! قال : نعم ، يا أخي ، خامل في الأرض ، علَمٌ في السماء))

[ورد في الأثر]

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي]

قال تعالى :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

قال : أتُحِبّ أن تكون نبيًا ملِكًا ، أم نبيًّا عبْدًا ؟ فقال : بل نبيًا عبْدًا ؛ أجوع يومًا فأذْكُره ، وأشبعُ يومًا فأشكرهُ !

النبي كان أشد الناس تواضعًا :

دخل عليه عمر رضي الله عنه فرآه مضطجعًا على حصير ، وقد أثّر في خدِّه الشريف ،

((وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ ، فَبَكَيْتُ ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيكَ ؟ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ))

[متفق عليه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

قال تعالى :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(17))

(سورة السجدة)

وقال تعالى :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ(12))

(سورة محمد)

قال تعالى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

قال تعالى :

(مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا)

(سورة هود)

هؤلاء ضِعاف ، فقراء ولهم حِرفٌ قميئة لا نرضاها ، ولا نجلس معهم ، وليْسُوا في مستوانا ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ ، فَقَالَ لَهُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كانت تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[رواه ابن ماجه]

لا طبقية في الإسلام :

ودخل سيدنا عمر المسجد فداس على يد أحد المصلين ، ويبدو أنه تألَّم فقال : أأعمى أنت ؟ قال : لا ، فقال له مَن معه : أيخاطبك هكذا ؟ قال : سألني فأجبته ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام كان متواضعا ، فكان يجلس جلسة العبد ، وكان يخصف نعله ، و يرفو ثوبه ، و يحلب شاته ، و كان في مهنة أهله ، و كان يصغي الإناء للهرة ، و ربما أخذت بيده الجارية الصغيرة فقادته في أطراف البيت ، هكذا كان الأنبياء ، أما الذين يستعلون في الأرض فإنهم ينبذون ، فقال تعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

(سورة القصص)

سيدنا بلال عبدٌ حبشي ، كان عبدا مملوكا عند أمية بن خلف ، وكان يعذِّبه لأنه آمن ، ويقول : أحَد أحَد، أراد الصدِّيق رضي الله عنه أن يشتريه ، ويعتقه ، فذهب إلى سيِّده ، ونقده الثمن ، و أراد أن يعلن عن أخوَّته ، فوضع يدَه الكريمة تحت إبط بلال ، وأن تضع يدك تحت إبط أخيك هذه رمز المودَّة والأخوَّة والتساوي ، فاغتاظ أمية والد صفوان ، وقال : واللهِ لو دفعتَ به درهما واحدا لبعتُكَهُ ، فأراد الصدِّيقُ أن يرفع من شأن بلال ، قال : واللهِ لو طلبتَ له ثمنا مائة ألفٍ لأعطيتُكَها ، هذا أخي حقًّا ، هذا الإسلام ، طبقة واحدةٌ ، الطبقية غير موجودة بين المسلمين ، قال تعالى :

(مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا)

(سورة هود)

لا طبقية في الإسلام ، مقياس رفعة الإنسان عند الله طاعتُه لله ، كان يقول عليه الصلاة و السلام إذا دخل عليه سعد قال توَدُّدا له :

((هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ))

[الترمذي عن جابر]

عيَّنه سيدُنا أبو بكر قائدا لجيش القادسية ، وقال له : << يا سعدُ ، لا يغُرَّنك أنه قد قيل : إنك خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه و بينهم قرابة إلا طاعتهم له >> .

على جنب النبيِّ الأيسر كان يجلس رجل عظيم الشأن في قومه ، جاءه ملكُ الموت فطلب قميص رسول الله ، فقال : " أعطوه قميصي ، الآن استقرَّ في جهنم ، كأنه حجرٌ يهوي سبعين خريفا إلى قعرها" ، فمهما كنتَ قريبا جسميا من رسول الله فلا ينفعك إلا عملُك ، قال تعالى :

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِي الرَّأْيِ)

(سورة هود)

4 - بَادِي الرَّأْيِ

بادي الرأي ، يعني هم تسرَّعوا ، وآمنوا ، بدا لهم أن دعوتك حقٌّ فآمنوا بها ، لم يتعمّقوا ، ولم يحلّلوا النيات ، ولم يتفهموا ، هؤلاء الكفار الماكرون يشوّهون كلَّ شيء ، ويظنون السوء بكلِّ شيء ، كلما دعوتَهم إلى الله عز وجل قالوا : ماذا يريد من هذه الدعوة ، و ماذا يبتغي منها ، أن يعلُوَ علينا ، وأن يستعليَ في الأرض ، وأن يخضعنا ، قال تعالى :

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِي الرَّأْيِ)

(سورة هود)

يعني هم اتّهموا هؤلاء الرَّعاع على حدِّ زعمهم أن رأيهم متسرِّع ، بدا لهم سريعا أن هذه الدعوة على حقٍّ فآمنوا بها ، لم يحلّلوها ، و لم يتريَّثوا ، و لم يتدبَّروا ، لذلك هؤلاء الذين حلَّلوا ، و قالوا : هذا النبيُّ رجلٌ ذكيٌّ يريد أن يجمع قومَه ، وأن يستعليَ علينا ، فكفروا به ، فكانوا في جهنم ، و بئس المصير ، فإذا دُعِيتَ إلى الحقِّ فاستجِبْ ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(24))

(سورة الأنفال)

باديَ الرأي يعني أنهم قالوا : اتخذوا هذا الرأي السريع ، و اعتنقوه ديناً وعقيدة لم يكن رأيهم متعمِّقا ، و لم يحلّلوا ، و لم يشكّكوا ، قال تعالى :

(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)

(سورة هود)

5 - وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ

دائما هذه كلمة الكفر ، و الكفار يعلنون دائما ، أن المؤمنين ليسوا أفضل منهم ، يقول أحدهم : صحيح أنا لا أصلّي ، ولكن قلبي نظيف ، ونسي أن الصلاة عماد الدين ، من أقامها أقام الدين ، قال تعالى :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

راقِبْه أين يسهر ، و كيف معاملته للناس ، إذا اقترض منهم مالاً فهل يؤديه لهم ؟ نفسُه الدنيئة و مواعيده التي يخلفها ، حبُّه لِذاته ، استعلاؤه وأنانيته ، قال تعالى :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

قال تعالى :

(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

(سورة هود)

6 - بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ :

من صفات الكفار أيضا التحفُّظ والتشكيك في التعبير ، وأحدهم يقول : يبدو لي أن هذا القول منطقيٌّ ، و لكنَّني مُتشكِّك ، ويقول : أنا متفائل ، ولست متفائلاً ، فهو بَين بين ، ولستُ متفائلا ، كيف أنت إذًا ، لقد حيَّرتَنا ، دائما يقول عبارات لا تستطيع أن تفهم منها شيئا عن موقفه ، ولا أن تفهم منها شيئا عن حاله ، قال تعالى :

(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(27)قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود)

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ

1 - الأنبياء معهم حُجة وبينة :

يعني معي هذا الكتاب ، ومعي هذه الحجّة ، ومعي هذا المنطق ، قال تعالى :

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

(سورة هود)

تجلَّى على قلبي ، أسعدني رفعني رفع ذِكري ، قال تعالى :

(فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ)

(سورة هود)

2 ـ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

لم يقل الله عز وجل : فعمَّاها الله عليكم ! لا ، فَعُمِّيَتْ عليكم ، أيْ حبّكم للدنيا حجَبَكم عن هذه الحقيقة ، وحبّكم للعلوّ في الأرض حجَبَكم عن هذه الحقيقة ، قال تعالى :

(أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

3 ـ المؤمن سعيد في جميع أحواله :

المؤمن في سعادة ينكرها عليه المنافق ، أو الكافر ، لِسان حال المؤمن أن يقول : أنا سعيد بهذا الدَّخْل القليل ، وبهذا البيت الصغير ، وبهذه الزوجة ، وبهذا العمل المتواضع ، مالي حلال ، وأنام مطمئنًا ، لم أبنِ ثروتي على فقر الآخرين ، ولم أبْنِ مجدي على أنقاضهم ، ورفعتي على تعاستهم ، وحياتي على موتهم ، وأنا سعيد راضٍ عن الله ، والله راضٍ عنِّي ! لا ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

فهذا الزَّعم الذي يزعمه الكفار لأنَّهم يروا أنفسهم في مستوى أرفع من عامة الناس هو زعْمٌ باطل ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، والناس رجلان : برّ تقي كريم على الله ، وفاجر شقيّ هيّن على الله ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

(سورة الحجرات)

اسمعوا وأطيعوا ، ولو تولّى عليكم عبْد رأسُه كالزبيبة ، وأنا جدّ كلّ تقيّ ، ولو كان عبداً حبشيّا ، فعَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ : لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا أَبَا ذَرٍّ ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))

[رواه البخاري]

كلّنا لآدم ، وهذا هو الإسلام ، فأبو ذرٍ ساوى غلامه بنفسه عندما ألبسه مثل حلته .

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

على بيّنة ، تركتكم على بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، والأمور واضحة جدًّا في الدِّين ، أين كنَّا ؟ وما سِرّ وُجودنا في الأرض ؟ وما الشيء الذي ينفعنا في الدنيا ؟ وماذا ينبغي أن نكون ؟ وإلى أين نحن ذاهبون ؟ ماذا بعد الموت ؟ الأمور واضحة ، تركتكم على بيضاء نقيَّة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

4 ـ المؤمن راحمٌ مرحوم :

المؤمن مرحوم ، رحم الله عبْدًا سَمحًا إذا باع ، سمحًا إذا اشترى ، سمحًا إذا قضى ، سمحًا إذا اقتضى، ورحم الله رجلاً قام من الليل فصلّى ، الله سبحانه وتعالى يرحمه ، قال تعالى :

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

(سورة هود)

لا يعرف رحمة الله إلا من كان محسنًا ، ولا يعرف رحمة الله إلا من كان مستقيمًا ، ولا يعرف رحمة الله إلا من كان مقبلاً ومخلِصًا ، فاسْتَقِم واعْمَل صالحًا وأخْلِصْ وأقْبِل ، عندئذٍ قل لي : ما الرحمة ؟ من أخلص لله أربعين صباحًا تفجَّرَتْ ينابيعُ الحِكمة في قلبه ، وأجراها الله على لِسانه ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

(سورة هود)

5 ـ المؤمن يؤثر الآخرة على الدنيا :

أنتم لا تريدونها ، أنتم آثرتم الدنيا ، آثرتم جمْعَ الدِّرْهم والدِّينار ، آثرتم بيتًا بالحرام ، ومحلاً تِجاريًا محرَّماً ، وبضاعة محرّمة ، وعلاقة ماليّة محرّمة وآثرتم الاختلاط ، وسرتم في مسارب أهل الغرْب ، وتقليد الأجانب ، وآثرتم شهواتكم ، و آثرتم عاجل دنياكم ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

عندما يدخل شخص عند الطبيب يجد عنده حوالي ثلاثين مريضاً ، وكلّ مريض له تخطيط ، وكشف بمائتي ليرة ، يجمع ويطرح ، فيجد دخله باليوم أربعة أو خمسة آلاف ليرة ! فلعله يحسده ، ولكن لما كان هو يدرس ليلا ونهارا ، أنت أين كنت ؟! هو آثر العِلم ، وأنت ماذا آثرْت ؟ الكسل والخمول ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

لا إكراه في الدِّين ! يجب أن تأتي إلى مجلس العلم طواعِيَة ، ومبادرةً منك ، وأن تؤثر رضاء الله ، وأن تؤثر ما يبقى على ما يفنى ، وأن تؤثر طاعة الله ، فإذا آثرت هذا رحمك الله .

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا

من علامات الصدق الترفعُ عن الدنيا :

هذه علامة الصادقين ، قال تعالى :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

قال تعالى :

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا(9))

(سورة الإنسان)

علامة الإخلاص الترفّع عن الدنيا ، فلا تبتغي أجرًا ولا شكرًا ، ولا ذِكرًا ولا تنويهًا ، ولا تلميحًا ، ولا تصريحًا ، ولا إشادةً ، ولا شيئًا من هذا القبيل ،

خاتمة :

فهذه قصّة من قصص الأنبياء اطلعنا عليها ، ولكنّ قصص القرآن الكريم كلها وقائع ونحياها ، لأنَّ الإنسان هو الإنسان ، والكافر هو الكافر ، والمؤمن هو المؤمن ، والحق هو الحق ، والباطل هو الباطل، وقديمًا قالوا : التاريخ يعيد نفسه ، فأنت إن دعوتَ إلى الله أصحاب المال المترفين عارضوك ، وأما إن دعوت المفكّرين الصادقين المستبصرين اتَّبعوك ، وهذه سنَّة الخلق ، سنَّة الله في خلقه ، وقيمة الإنسان بإيمانه ، وأخلاقه ، ولو كان من أراذل القوم أي من فقرائِهم ، ولو كان من كبرائهم ، وكان بعيدًا عن الله عز وجل فهو في أسفل سافلين .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (06-16): تفسير الآيات 29 – 34
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-02-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي في سورة هود إلى قوله تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود)

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

المؤمن في سعادة عميت على غيره :

أيْ أنَّ هذا الرحمة لا يعرفها إلا من ذاقها ، كما أنَّ العلماء يتمتّعون في الدنيا بسَعادة لا يعرفها الأغنياء، فإذا أنكر الأغنياء على العلماء سعادتهم فَمِن قبيل الجَهل ، هذا في الدنيا ، ولكنّ الأنبياء والصدّيقين وكِبار المؤمنين يتمتَّعون بسَعادة لا يعرفها إلا من ذاقها ، فإذا نطقوا بها أنكرها عليهم أهل الدنيا ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود)

أنتم لا تعرفونها ، ولم تذوقوها مِن قبلُ ، ولا تعرفون حقيقة الإيمان ، وحقيقة السعادة التي يتمتَّع بها المؤمن ، قال تعالى :

(أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

1 ـ المالُ شيء عزيز على الكافر :

يبدو أن المالَ شيء عزيز جدًّا على الكافر ، فإذا كلَّفتَه مالاً ، أو إذا طالبتَه بمالٍ قد يستغني عن الهداية كلها ، لذلك سيِّدنا نوح طمأنهم إلى أن استجابتكم لهذه الدعوة ، وإيمانكم بالله سبحانه وتعالى ، واستماعكم إليَ لا يكلِّفكم مالاً .

2 ـ من علامة الدعية الصادق أنه لا يسأل مالا مقابل دعوته :

والقرآن الكريم في آيات كثيرة تحدَّث عن علاماتٍ للصادقين ، فمن هذه العلامات قال تعالى :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

هذه علامة كبرى على صدق الداعي ، لا يسألكم أجرا ، لا أجرا ماديًّا ولا معنويا ، لا مباشرا ولا غير مباشر ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)

(سورة هود)

3 ـ خشية الله وحده :

علامة أخرى من علامات الصدق في الدعوة إلى الله ، قال تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا(39))

(سورة الأحزاب)

إذا خشيَ الداعي غيرَ الله نطق بغير الحق ، وسكت عن الحق ، فإذا سكت عن الحق و نطق بالباطل فماذا بقيَ من تبليغ رسالات الله ؟ لم يبقَ شيءٌ .

إذاً العلامة الأولى : قال تعالى :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

والعلامة الثانية : قال تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا(39))

(سورة الأحزاب)

والعلامة الثالثة : قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(108))

(سورة يوسف)

4 ـ تبليغ الدعوة على بصيرة وعلمٍ :

فعلامة المتَّبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدعوك على بصيرة ، فالأمور واضحة تماما ، والهدف من الخلق واضحٌ ، هناك انسجام بين الآيات والأحاديث ، هناك هدف كبير يوضِّحه لك ، وهناك شرائع دقيقةٌ يبيِّنها لك ، هناك تعليلات منطقيَّةٌ للعبادات ، قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(108))

(سورة يوسف)

هذه العلامة الثالثة .

5 ـ أفعال الداعية تشهد له على صدقه :

و أما العلامة الرابعة فقوله تعالى :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(18))

(سورة آل عمران)

الله سبحانه هو الذي تشهد لك عدالته ، وتشهد لك أسماؤه الحسنى فهو يفسِّر أفعاله بما يتوافق مع أسمائه الحسنى ، وكذا العالم الصحيح فمن علامات العالم الصادق : قال تعالى :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(18))

(سورة آل عمران)

فالعالم الصحيح تشهد له أفعاله على صدق دعوته وفعالته .

6 - النجاح في الابتلاء والامتحان :

علامة أخرى قال تعالى :

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(124))

(سورة البقرة)

أي أن النجاح في الامتحان علامة كبرى من علامات صدق الداعي وصدق الدعوة ، يُمتحن الإنسان بماله ، ويمتَحن في صحَّته ، يُمتحَن في رزقه فيصبر ، ولا يرى إلا الله ، ويرى حكمة الله كما يرى رحمة الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(124))

(سورة البقرة)

7 - الصبر :

علامة أخرى ، قال تعالى :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ(24))

(سورة السجدة)

هذه بشارات لك أيها المؤمن :

الصبرُ والنجاح في الامتحان ، وخشية الله وحده ، و تبيان عدالة الله عز وجل ، هذه كلُّها من علامات الدعوة الصادقة ، لذلك : " إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم " .

[رواه مسلم من قول ابن سيرين]

ويقول عليه الصلاة و السلام لابن عمر :

((يا ابنَ عمر ، دينَك دِينَك ، إنه لحمُك ودمُك ، خذْ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[رواه الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية في علم الرواية ، وفي سنده ضعف]

فما أكثرَ الذين مالوا عن طريق الحق ، وما أكثر الذين زيَّفوا الدينَ ، وما أكثر الذين أدخلوا في الدين ما ليس منه ، وما أكثر الذين جعلوا من الدين شيئًا يذوب في الحياة العصرية جعلوه وفق أهوائهم ، خُذْ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا ، والنبيُّ عليه الصلاة و السلام في بعض الأحاديث الشريفة يقول :

((لا تجلسوا عند كل عالمٍ إلا عالما يدعوكم من الخمس إلى الخمس ، ومن الشكِّ إلى اليقين ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد))

[ورد في الأثر]

فإذا كنتَ قبل أن تحضر هذه المجالس راغبا في الدنيا ، ثم أصبحتَ زاهدا فيها فهذه بشارة لك ، ولمن يدعوك إلى الله عز وجل ، وإذا كنت قبل أن تحضر هذه المجالس تؤثر الرياء على الإخلاص ، ثم أصبحتَ مخلصا فهذه بشارة لك ، ولمن يدعوك إلى الله عز وجل ، وإذا كنت قبل أن تحضر هذه المجالس تؤثر العداوة على النصيحة ، ثم أصبحتَ نصوحا لله و لرسوله ولعامة المسلمين فهذه بشارة لك ، وإذا كنت قبل أن تعرف الله متكبِّرا ، ثم تضاءلتْ نفسُك فأصبحت متواضعا ، فهذه علامة طيِّبة لك ، ولمن يدعوك إلى الله عز وجل ، وإذا كنت متشكّكا من بعض الأمور ، ولستَ متأكّدا ويخامرك الشكُّ في بعض المعتقدات ، ثم بلغتَ مستوى اليقين الناصع كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ :

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ قَالَ : قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ))

[رواه أحمد]

فهذه بشارة طيِّبة لك ، ولمن يدعوك إلى طريق الله سبحانه وتعالى ، إذًا دينَك دينَك إنه لحمُك ودمُك ، خذ عن الذين استقاموا ، و لا تأخذ عن الذين مالوا ، إن هذا العلم دينٌ فانظروا عمن تأخذون دينكم ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

مجالس العلم والدعوة لا تكلف مالاً :

اطمئنوا ، هل تستطيع أن تقابل محاميا ، وتستشيره في موضوع ما من دون أن تدفع له ثمن الاستشارة؟ وهل تستطيع أن تضرب موعدا لدرس خاص في أيِّ مادة من المواد الدراسية دون أن تدفع

الثمنَ ؟ و هل تستطيع أن تزور طبيبا و ليس في جيبك مالٌ ؟ و هل تستطيع أن تتلقَّى خدمة أو استشارةً أو شيئا من أشياء الدنيا من دون ثمن إلا إذا جئتَ إلى مجالس العلم فتجدها مجَّاناً ؟ والدعوة عامة ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

إذا كان الإنسان حريصا على المال أو كان ماله قليلا فليطمئن ، إن حضورك مجلس علم لا يكلّفك مالا، هذا الذي يدخل إلى دُور اللهو ألا يدفع ثمنا باهظاً ، هذا الذي يدخل إلى المسارح ليتلقَّى الفساد أحيانا ألا يدفع ثمن هذا الدخول ؟ إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن زوَّارَها هم عمَّارُها ، فطوبى لعبدٍ تطهَّر في بيته ثم زارني ، وحُقَّ على المزور أن يكرم الزائر ، لن تدفع شيئا ، بل سوف يكرمك الله سبحانه وتعالى ، وحُقَّ على المزور أن يكرم الزائر ، أنت تزور اللهَ سبحانه و تعالى ، من أقبل عليَّ منهم تلقَّيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودَّتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أُقنِّطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، إذا رجع العبد إلى الله عز وجل نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِّئوا فلانا فقد اصطلح مع الله ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

مالكُم دعوه لكم ، لا أسألكم عليه مالا ، قال تعالى :

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة هود)

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا

1 ـ الكبراء يستنكفون عن مجالسة الفقراء :

هناك عقبتان ، العقبة الأولى خوف هؤلاء الكفار في عهد نوح أن يكون هناك التزام مالي ، فجاءت الآيةُ ، وبشَّرتهم بأن الالتزام المالي ليس موجودا إطلاقا ، ليس هناك التزام مالي ، بقي هناك عقبة ثانية أن هؤلاء الكبراء ، هؤلاء الأغنياء ، هؤلاء الوجهاء الذين ينغمسون في النعيم إذا حضروا مجلس نوح

عليه السلام يترفَّعون ، ولا يجالسون الضعفاء ، ولا الفقراء الذين يزعمونهم أراذل القوم بالمعنى اللغوي ، فقال سيدُنا نوح كما حكى عنه الله تعالى :

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة هود)

معنى : إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ

المعنى الأول :

أنا لا أستطيع طردهم ، لماذا ؟ قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)

(سورة هود)

هؤلاء الذين تزدرونهم هؤلاء الذين لا ترونهم في مستواكم المعاشي ، وهؤلاء الذين تحتقرونهم لقلة دخلهم ، أو لوضاعة شأنهم ، أو لفقرهم ، أو لأنهم غير معروفين ، بل هم مغمورون ضعفاء أتقياء أخفياء ، هؤلاء الذين تترفّعون عنهم قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)

(سورة هود)

تكفي هذه ، ملاقوا ربهم ، أي سوف يكرمهم الله عز وجل إذا انقلبوا إليه سوف يجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون ، قال تعالى

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)

(سورة هود)

سوف يرجعون إلى الله عز وجل ، وسيكرمهم ، ويعلي شأنهم ، ويرفع ذكرهم ، ويقرّبهم منه ، ولا قيمة لفقرهم في الدنيا ، إن هذه الدنيا عرض زائلٌ ، يأكل منه البرُّ و الفاجر ، والآخرة وعدٌ صادق ، يحكم فيه ملِك عادل ، والذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنَّة أو النار ، قال تعالى :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

قال تعالى :

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

هل يجرؤ نبيٌّ كريم أن يطرد مؤمنا لفقره ، أو لأنه مغمور غير مشهور ، أو لأنه من طبقة اجتماعية دنيا ، أو لأن له حرفة يترفَّع عنها الغنيُّ ، كل عمل شريف ، الشرف أن تطيع الله عز وجل و الدناءة أن تعصيه ، قال تعالى :

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

هؤلاء على موعد مع الله عز وجل ، هؤلاء سوف يرحمهم الله ، وسوف يكرمهم ، وسوف يصبحون في الآخرة أعلاما ، وسوف يتألَّق نجمُهم في سماء الآخرة ، هؤلاء ملوك الدار الآخرة ، قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

نحن نحكم بالظاهر ، واللهُ يتولَّى السرائر ، يبدو لي منهم أنهم صادقون ، أنهم مخلصون ، أنهم مطيعون ، و لا علم لي بما تنطوي عليه نفوسهم ، قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي)

(سورة هود)

اللهُ يحاسبهم لا أنا ، أنا أحكم بالظاهر ، واللهُ يتولَّى السرائر ، قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي)

(سورة هود)

قال تعالى :

(إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

2 ـ المترَفِّع عن الناس جاهلٌ :

هذا الذي يترَّفع عن الناس ، وهذا الذي يستعلي عليهم ، هذا الذي يرى نفسه فوقهم ، هذا الذي تأبى نفسه أن يجلس بجانبهم ، هذا جاهل ، قال تعالى :

(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

النبي r أشد الناس تواضعا :

مَن أنتم ؟ دخل أعرابيٌّ على النبيِّ صلى الله عليه و سلَّم فأصابته الرعدة من شدَّة الهيبة ، فعَنْ أبي مَسْعُودٍ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ ، فَقَالَ لَهُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه]

ودعاه صحابيٌّ جليل إلى خبز وخلٍّ ما قولُك ؟ إذا دُعيت إلى وليمة ، وقدَّم لك الداعي خبزا وخلًّا ، وقال لك تفضَّلْ ، ما قولك ؟ فقال عليه الصلاة و السلام :

((نِعْمَ الْأُدُمُ ، أَوْ الْإِدَامُ الْخَلُّ))

[مسلم عن عائشة]

قال عليه الصلاة و السلام من باب التواضع قَالَ :

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ ، أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

[رواه البخاري]

وفي رواية أخرى : لو دعيت إلى كراع في مكان ناءٍ ـ يعني في أطراف المدينة ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

[رواه البخاري]

حينما دخل مكة فاتحًا دخلها مُطأطِئ الرأس ، وحينما سمع رجلا يقول لرجل : يا ابن السوداء قال : إنك امرؤ فيك جاهلية ، هذا هو الإسلام ، حينما قيل للنبيِّ الكريم مثِّل بهم هؤلاء الذين أخرجوك ، وعذَّبوك ، وتآمروا على قتلك فقال : لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ، و لو كنتُ نبيًّا ، قال تعالى :

(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

هذا الذي يرى نفسه فوق الناس هو جاهل ، ضع في نفسك هذه الحقيقة هذا الذي تراه دونك قد يكون فوقك يوم القيامة ، هذا الذي تراه دونك مالا ، أو دونك جاهاً ، أو دونك صحةً ، أو دونك شأنا ، قد يكون فوقك يوم القيامة ، من يدري ؟ قال تعالى :

(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

(سورة هود)

من علامة المؤمن التواضع ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبْر ، والمتكبِّر جاهل ، لأنه لم يرَ عظمة الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

إن طردتُهم لأرضيكم أتحمونني من الله عز وجل ؟

أرسل رجلٌ إلى سيدنا عمر بن الخطاب كتابا قال فيه : << أما بعد ؛ فإن أناسا قد اغتصبوا مالا ليس لهم ، ولستُ أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسَّهم بالعذاب ، فإن أذِنتَ لي فعلتُ ، فقال سيِّدنا عمر : أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ ـ أنا أُستأذن في هذا الموضوع ، وهل أنا لك حصن من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ـ أقم عليهم البيِّنة ، فإن قامت فخُذهم بالبيّنة ، ثم ادعُهم إلى الإقرار ، فإن أقرُّوا فخذهم بإقرارهم ، ثم ادعُهم لحلف اليمين ، فإن حلفوا فأطلقْ سراحهم ، وايمُن اللهِ ، لأن يلقوا اللهَ بخياناتهم أهون من أن ألقى اللهَ بدمائهم >> ، من أنا حتى تستأذنني في تعذيبهم ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

إذا استعليتَ على إنسان فهذا ظلم .

يبدو أن رجلا غنيًّا طرق بابَه سائلٌ ، وكان يأكل دجاجا ، فهمَّتْ زوجتُه أن تعطيه شيئا من الدجاج ، فنهرها ، و قال : اطرديه ، فطردته تنفيذا لأمره ، وبعد سنوات عدَّة نشب خلافٌ بين الزوجين ، و طلَّقها ، و أكرمها الله بزوج آخر أفضل منه ، وعاشت معه سنوات ، وبينما هما جالسان يتناولان دجاجا إذ طرق البابَ طارقٌ ، فذهبتْ لتفتح الباب ، فعادت مضطربة ، قال : من الطارق ؟ قالت : سائلٌ ، لماذا اضطربْتِ ؟ قالت أتدري من السائل ؟ إنه زوجي الأول ، فقال : أتدرين من أنا ؟ أنا السائل الأول.

وهذا مثال آخر : أرادت امرأةٌ أن تغيظ ضرَّتَها فقالت لها : في بطني ولدٌ ، وعلى يدي ولدٌ ؛ طبعا ذكر صبي ، وكذلك على الأرض ولد ، لها ثلاثة صبية ، وضرَّتها عاقر ، لا تلد ، لم تمضِ سنوات حتى مات الولدُ الأوَّلُ والثاني والثالث ، ورزق اللهُ ضرَّتَها صبيًّا أول ، و ثانيا وثالثا ، قال عليه الصلاة و السلام :

((الذنب شؤمٌ على غير صاحبه ، إن ذكرَه فقد اغتابه ، و إن عيَّره ابتُلِيَ به ، و إن رضي به شاركه في الإثم))

[الجامع الصغير عن أنس ، وفي إسناده ضعف]

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

إذا رددْتَ سائلا هل تعرف ما سيكون ؟ اللهُ أعلمُ ، الذي أعطاك المالَ يأخذه منك ، أتدري من السائل ؟ قالت : زوجي الأول ، أتدرين من أنا ؟ أنا السائل الأول .

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة هود)

وقال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ

1 ـ الأنبياء أصحاب صدق وموضوعية مع الناس :

انظُرْ إلى الأمور النظرة الموضوعية ، هذا الذي يوهم الناس أنه فوق البشر إنما هو مراءٍ ظالمٍ ، قال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

لا أملك شيئا ، لستُ غنيًّا ، ولا أستطيع أن أمنح الغنى لأحد ، الخزائن ليست عندي ، هي عند الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

[سورة الحجر : من الآية 21]

قال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

2 - الأنبياء لا يعلمون الغيب :

هذا ادَّعاء ، لا يعلم الغيب إلا الله ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ))

[رواه أحمد]

ومن أتى ساحرا فلم يصدقه لم تُقبَل له صلاة أربعين صباحاً ، لأنه لا أحد يعلم الغيب إلا الله .

أقرأ أحيانا في بعض الدول عن شخصيات كبيرة تذهب إلى بعض المُنجِّمات ، وتسألها عن المستقبل ، وقد يحمل هذا السائل دكتوراه ، شيءٌ مضحِكٌ أن يكون الإنسان محصِّلا شهادة عالية في الدنيا ، ويذهب إلى منجِّمة ليطمئن من خلال كلامها على مستقبله ، قال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

أنا لا أنكر بشريتي أنا بشر ، أجوع وأعطش ، وأتعب ، وأمشي في الأسواق ، وآكل الطعام ، اللهم إني بشر أرضى كما يرضى البشر ، و أغضب كما يغضب البشر ، وحينما كان الغزو في أيام الصيام أفطر النبيُّ عليه الصلاة والسلام ، لأنه بشر ، صلى مرة قاعدا لأنه بشر ، غضب مرة لأنه بشر ، اللهم إني بشر أنسى كما ينسى البشر ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[متفق عليه]

سيدنا نوح أعطى نفسه حجمه الحقيقي ، لستُ غنيًّا ، ولن أستطيع أن أمنح الغنى لأحد ، و لا أعلم الغيب ، ولا أدَّعي أنني فوق البشر ، إنني بشر ، النبيُّ الكريم اللهم صلِّ عليه جمع أصحابه وخطبهم لتصحيح مفهوم كبير ، فعن الْمُغِيرَةَ بْن شُعْبَةَ يَقُولُ : انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى تَنْكَشِفَ))

[رواه مسلم]

لا علاقة لكسوف الشمس بموت إبراهيم ، بل الأمر ظاهرة طبيعية .

الآن لو أنَّ رجلا يبتغي الرفعة عند الناس ، وقال له الناس : هذه الظاهرة من أجلك ، تقول له : بارك الله بك يا ولدي ، يؤكِّدها ، ويرضى بها ليزداد رفعة عند الناس ، لكنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال : لا ، هذا هو الحجم الحقيقي ، هذا الذي يدعوك إلى الله ، لا يعلم الغيب ، ولا يملك لك نفعا ولا ضرًّا ، و

يخاف إن عصى ربَّه عذاب يوم عظيم ، استمعوا لآيات القرآن الكريم ، قال تعالى :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(15))

(سورة الأنعام)

وقال تعالى :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

وقال تعالى :

(وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(188))

(سورة الأعراف)

هذا حجم النبيِّ ، فهل يستطيع وليٌّ أن يدَّعيَ حجما أكبر من هذا ؟

3 ـ ليس هناك رجل فوق النبي مهما كان :

هناك قصص كثيرة لا طائل منها تُروَى عن بعض العلماء ، إنها ليست من عندهم ، إنها لُفِّقتْ على ألسنتهم ، وهم بريئون منها ، مثلاً : يقولون : هناك بعض العلماء إذا نظر إلى إنسان اهتدى ، هذا دجل وتزوير ، هذه لم يملكها النبيُّ الكريم ، إذاً : حسب ادعائهم هناك من هو فوق النبي !! قال تعالى :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(272))

(سورة البقرة)

وقال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56))

(سورة القصص)

وإذا كان النبيُّ عليه الصلاة والسلام لا يهدي من أحبَّ ، أفيأتي رجلٌ من أتباعه ينظر في الرجل فيهديه ؟!

عالمٌ آخر كان في الحمَّام ، طُرق بابُ الحمَّام ، وأعطيَ ورقةً فيها أسئلةٌ غمسها في الماء ، فكانت الأجوبة على الطرف الثاني ، تفضَّلْ أليس هذا بهتان ؟ اللهُ سبحانه وتعالى قال :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ)

(سورة هود)

هذه الخوارق المزعومة لا تُجدي ، و الحديث عنها لا يجدي ، وقعتْ أم لم تقع .

قال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا)

(سورة هود)

وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا

1 ـ الكبراء مخطئون في تصوراتهم :

هؤلاء الكبراء يحسبون أن الدنيا لهم والآخرة لهم ، ويحسبون أن الله سبحانه وتعالى يحبِّهم دون سواهم، حتى إذا ذهب أحدُهم في نزهةٍ إلى مشارق الأرض ، ومغاربها ، قال لك بالحرف الواحد : إذا أحبَّ اللهُ عبدَه أراه ملكَه ، وقد يذهب من فندق إلى فندق ، ومن معصية إلى معصية ، ومن شبهة إلى شبهة ، ويقول لك : إن الله يحبُّني ، هؤلاء لا يحتملون أن يكونوا عند الله عز وجل ، بل شأنهم كشأن غيرهم ، مَن أنا ؟ قال تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(18))

(سورة المائدة)

التواضع علامة الإيمان ، قال الشاعر :

فانظُرْ إلى الأكحال و هي حجارة لانَتْ فصار مقرُّها في الأعين

قال تعالى :

(وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا)

(سورة هود)

هؤلاء الذين تنظرون إليهم بازدراء ، قال تعالى :

(لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنْ الظَّالِمِينَ)

(سورة هود)

2 ـ شأن العباد وأمْرهم إلى الله تعالى وحده :

هذا من شأن الله عز وجل ، لا تسألني عن شخص ، جيِّد أم سيء ، هذا من شأن الله لا من شأني ، من يعلم الغيب إلا الله ؟ من يعلم ما في نفسه .

الآن كلُّكم في هذا المسجد ، كلُّ واحد حضر من هذا الحضور له مطلب ، الذي جاء يطلب رضاء الله وحده له درجة ، والذي يأتي من باب الفضول له درجة ، والذي جاء ولديه فراغ فإنه يأتي ليقضيه في هذه الأمسية ، يقول : نذهب إلى الجامع لنتسلَّى ، له درجة ، هذا له درجة ، و الذي يأتي إلى هنا من مكان بعيد يقصد رضاء الله عز وجل له درجة ، ومن يعلم ما في النفوس ؟ قال تعالى :

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنْ الظَّالِمِينَ)

(سورة هود)

أحدُ الأصحاب الكرام في بعض الغزوات تبع مشركا ، وحينما كان السيفُ فوق رقبته قال : أشهد أن لا إله إلا الله فقتله ، بلغ ذلك النبيَ صلى الله عليه و سلم فغضب غضبا شديدا ، فقال : يا رسول الله قالها تقيَّةً لينجو من الموت ، قال : أشققتَ على قلبه ؟ أشققتَ على صدره ؟ نحن نحكم بالظاهر ، و اللهُ يتولَّى السرائر ، فلا يعلم ما في النفوس إلا الله .

قال تعالى :

(قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

(سورة هود)

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ

1 ـ من وسائل معارضة الكفار للأنبياء إغلاق باب النقاش :

أي بالغتَ في الجدال وبالغت في الخصومة ، ومللْنا من هذه الموضوعات ، دعْنا منها ، و ضعْ حدًّا لها، وأقفِلْ باب النقاش فيها إلى متى ؟ قال تعالى :

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

(سورة هود)

2 ـ من وسائل معارضة الكفار للأنبياء العنف والتهديد :

وحينما يفلس الإنسان فكريا يلجأ إلى وسيلة أخرى ، إما إلى التهكُّم ، وإما إلى الضرب ، هذا الذي يفقد الحجَّة يلجأ إلى العنف ، ولا يستخدم العنفَ بعد المناقشة إلا من خسِرَ المناقشة ، لذلك يقول الإمام الغزالي : ما ناقشني عالمٌ إلا غلبْتُه ، ولا ناقشني جاهل إلا غلبني ! لأنّهُ لا يناقش وفْقَ أُسسٍ صحيحة .

قال تعالى :

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

(سورة هود)

3 ـ من وسائل معارضة الكفار للأنبياء طلب العذاب من الأنبياء :

من أنا ؟ أنا لا أقدر أن آتيكم بما يعِدُكم الله ، أنا عبْدٌ فقير ، ومخلوق عاجز ، ولكن هذا بِيَدِ الله عز وجل ، قال تعالى :

(قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ

1 ـ العذاب بيد الله نوعا وكمًّا وزمانا ومكانا ومعَذَّبا :

الله عز وجل حكيم ، ويعرف متى يرسل العذاب ؟ ومتى يوقفهُ ؟ ومتى يمْنعهُ ؟ هو الذي يتصرَّف ، قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

2 ـ الله لا يعجزه شيء :

أمرُ الإنسان متوقف على الله :

إذا كانت آلة كهربائيّة فيها مفتاح كهربائي ، فمهما علا صوتها فبضَغطة زرّ توقِفُها ، وهكذا الإنسان مهما علا وتكبَّر ، ومهما بدا للناس قويًّا إذا قطعَ الله عنه الإمداد ثانيَةً واحدة أصبح جثَّة هامدة !! فهذه الحركة من الله عز وجل ، وهو الذي أمدَّك بها ، فإذا قطع عنّه هذا الإمداد ثانيَةً واحدة أصبح الإنسان جثَّة هامدة .

يُرْوى أنَّ سيّدنا سليمان - هذه قصّة - جاء إليه ملكُ الموت ، وعنده رجل ، فصار ملكُ الموت يُحدِّق في هذا الرجل تحديقًا غريبًا ، قال : يا نبيّ الله ، من هذا الذي يُحدِّق فيّ ؟! فقال : هذا ملكُ الموت !! فانْخَلَعَ قلبهُ خوفًا ، وقال : خُذْني إلى أقصى الدنيا ، وقد أوتي الرياح ، فنَقَلَهُ إلى الهند ، وهناك قُبضَتْ روحُه ، فلمَّا سأل نبيّ الله سليمان ملكَ الموت ؛ لماذا فعلت هذا ؟ وحدَّقتَ فيه هذا التحديق !! فقال :

عَجِبْت للأمر ، فأنا موكّل بقَبض روحه في الهند ، فلما رأيْتُهُ هنا قلتُ : ماذا يفعل هنا ؟!! قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

هؤلاء الذين أرادوا أن يغزو الفضاء ، ونجحَتْ لهم ستّ أو سبع رحلاتٍ ، وبعد اثنتين وسبعين ثانية من إقلاعهم برحلة جديدة أصبحَتْ المركبة التي وزنها ثلاثة آلاف طنٍّ كرةً من اللَّهَب !! قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

في بعض المعامل معامل الصلب يُنقل الحديد الخام من مكان إلى آخر برافِعة مِغناطيسيَّة ، عبارة عن دائرة من الحديد لُفَّ حولها وشيعة ، فإذا سرى التيار في الوشيعة أصبح هذا الحديد ممَغْنطًا يحمل عشرة أطنان ، إنَّك لن تستطيع إنزال قِطعة حديد مهما أوتيتَ من قوَّة من شِدَّة الجذب ، فإذا ضغط عامِلُ هذه الرافعة الزرّ وقطع التيار الكهربائي ، فهذه الأطنان العشرة تقع فوْرًا ؛ ضغطة زرّ ، فهذا الذي تراه كبيرًا وقويًا إذا قطع الله عنه الإمداد ثانيةً واحدة أصبح جثَّةً هامدة ، فلذلك يقول الله عز وجل:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

مهما علوْت ، وأينما ذهبت .

لا تأمن الموت في طرْفٍ ولا نفسٍ وإن تمنَّعْت بالحجاب و الحـرس
فما تزال سهام المـوت نافـذة في جنب مدَّرع منها ومتـّرسٍ
أراك لسْت بوقـاف ولا حـذِرٍ كالحاطب الخابط الأعواد في الغلس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكـها إنّ السفينة لا تجري على اليبـس

قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة هود)

وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ

1 ـ تأويل الآية :

هذه الآية من الآيات المتشابهات تحتاج إلى تأويل دقيق ، هذا الإنسان إذا أعرض عن الله سبحانه وتعالى امتلأ قلبه شهواتٍ خبيثةً ، فإذا أصرَّ على هذه الشهوات ، وكانت هذه الشهوات حِجابًا بينه وبين الله سبحانه وتعالى أصبحت هذه الشَّهوات وقرًا في أُذُنَيه ، وغِشاءً على عَيْنيه ، وإنَّ أحْكَمَ ما يكون أن تخرج هذه الشَّهوات إلى حيِّز التنفيذ ، فإذا رأيْتَ أنَّ ابنك تعلَّق بهذه اللُّعبة ، ولن يسمعَ منك كلمةً ، ولن يفتح كتابًا ، ولن يذهب إلى مدرسةٍ ، ما لم يُفَكِّك هذه اللعبة ، ويستمتع بها ؛ أنت كأبٍ مربٍّ ترى من الأنسب أن تُعْطِيَهُ سؤْلهُ لِتَشْفيه من هذه الشَّهْوَة ، فإذا شفِي منها عندئذٍ يُصْغي إليك ، فقد تقتضي حِكمة الله سبحانه وتعالى لإنسانٍ أصرَّ على المعصيَة ، وتشبَّث بها ، وجعلها كلّ همِّهِ ، أن يُعينهُ الله على تنفيذ هذه الشَّهوة ، في أثناء هذه المرحلة ؛ هذا الإنسان أصمّ أعمى لا يستجيب لِنَصيحة ، ولا يصغي إلى خير ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ)

(سورة هود)

2 ـ لا ينفع نصحٌ لمن تعلق بالدنيا وشهواتها :

أيْ إذا تعلَّقتُم بالدنيا ، واسْتحكَمَت الشَّهوات في نفوسكم إلى درجة أنَّها أصبَحَت غِشاءً على أعينكم ، ووقْرًا في آذانكم ، عندئذٍ نُصْحي لا ينفعكم ولا يُجدي ، ولن تتأثَّروا به ، ولن تستجيبوا له ، والله سبحانه وتعالى هو الذي يتولَّى مُعالجتكم بإخراج هذه الشهوات من نفوسكم ، فهذا الذي امتلأ قلبه من شهوات الدنيا الخسيسة ، ولتَكُن الزنا مثلاً ، لن يستطيع أن يستمع إليك حتى تخرج هذه الشهوة من قلبه ونفسه ، يسوقهُ الله إلى زانيَةٍ مثله ، ثمّ يأتي العِقاب الأليم ، فيصاب بالإيدز ربّما يستفيد بعدها ؛ وإذا أخْرجَ الإنسان شهوته التي أصرّ عليها ، ثمّ جاءهُ العِلاج الأليم ربّما تاب ، وربّما أصغى للحق ، وأحيانًا ترى شخصًا في عمى ، وشهوته صارَتْ حِجابًا ، ولا يعي خيراً ، ويرى ذاته مضخَّمة ، ولا يرى معها أحدًا ، هذا لا يُجديه النُّصْح حتى تخرج هذه الشهوة الخسيسة من نفسه عندئذٍ يُصغي ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ)

(سورة هود)

3 - إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ

بمعنى يُخْرِج هذه الشهوات التي امتلأتْ قلوبكم بها ، أحيانًا قد يتجمَّع قيْحٌ تحت الجلد ، ماذا يفعل الطبيب ؟ يضعُ مرْهمًا ، أو دواءً ليزيد هذا التجمّع تمهيدًا لِشَقّ الجلد ، وإخراج القيح كلّه ، وهذه العمليّة البسيطة مثلٌ بسيط لما يفعله الله في النفوس ، تمتلئ النفس شهواتٍ خسيسة ، ويصرّ عليها الإنسان ، ويتشبّث بها ، ويضعها حجابًا أمام عيْنيه ووقْرًا في أُذنيْه ، ولا يعي على خير ، ويسوق الله له الشيطان، ويزيّن له هذه الشهوة حتى تخرج منه فيَشْفى منها ، وكم من إنسانٍ تابَ بعدما أخرج ما في نفسِه من شهوات ، وكم من إنسان أناب بعد أنْ استراحَتْ نفسُهُ مِن ثِقَل الشهوات التي يحملها ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ)

(سورة هود)

نصائح الطبيب الوقائيَّة بعد أن يقع المرض الخطير لا تُجدي ، الآن يُجديه أن يدخل إلى المستشفى . إذا كان في بيتٍ من البيوت مُبيد زراعي ، وكان في متناوَل أيدي الأطفال ، وقد شَرِب بعض الأطفال هذا المُبيد ، وبدأ فِعْلُ هذا السمّ القاتل في الأحشاء ، في هذه اللحظة هل ينفع هذا النّصح ؟ وهل يُجدي العِتاب ؟ ماذا ينبغي أن نفعل ؟ يجب أن نأخذ هذا الطّفل إلى المستشفى ، ونُجْري له غسيل معِدَة ، هذا الكلام وهو النُّصْح ؛ متى يجب أن يكون ؟ قبل أن يشْرب هذا المبيد ، ولكن بعد الشّرب الكلام ، والعتاب والنّصح لا يجدي ، إلا أنّ قبله قد يجدي ؛ ضَعْ هذا المبيد في مكانٍ بعيد ، انْتبه لمكان وجوده ، وحين استِعماله ، فهذا الذي امتلأتْ نفسُه شَهَواتٍ لا يُجدي معه إلا أن تخرج هذه الشهوات من قلبه ونفسه كَغسيل المعدة تمهيدًا لِتَوبتِهِ ، فقد ترى طالباً غافلا عن الدراسة والعلْم ، والنتائج والمستقبل ، وهو غارق في بعض الشهوات ، هذا لن يُعطيك أُذنًا صاغِيَة إلا بعد ضرْبةٍ قاسِيَة مِن قِبَل الله عز وجل، وكذلك منحرفٌ إذا أوْدى به انحِرافهُ إلى عُقوبةٍ بالغة عندئذٍ يُصغي إليك ، وهذا هو المعنى الدقيق لهذه الآية .

أما أن تظنّ أنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يُغْوِيَ الإنسان من دون ذَنْبٍ ارْتَكَبهُ فهذا لا يليق بِحَضرة الله سبحانه وتعالى ، ولا يتناسب مع أسمائه الحسنى ، والدليل قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(5))

(سورة الصف)

لأنَّهم فاسقون زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ، فهذه الآية تقترب من هذه الآية ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ)

(سورة هود)

هُوَ رَبُّكُمْ

1 ـ دِقّة القرآن :

دِقّة القرآن هو ربكم فإذا قلنا : شاءَت الأمّ أن تمْنَعَ ابنها طعامها اللذيذ فهي أُمّه ، أقرب الناس إليه ، وأكثرهم عطفًا عليه ، وأكثرهم حنانًا ، وما من أحدٍ يحبّه كحبها فهي أمه ، فالتعقيب هنا : هو ربّكم ، ولم ينتبه بعض الناس إلى هذا التعقيب ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ)

(سورة هود)

يعني هو الذي يرْعاكم ، هو الذي يُربِّيكم ، هو الذي يُربّي نفوسكم ، هو الذي يضيّق عليكم من أجل صلاحكم ، هو الذي يُذيقكم هذا العذاب من أجل ألا تقعوا في عذاب أكبر ، قال تعالى :

(هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة هود)

2 ـ إغواء رب العالمين تمهيد للشفاء :

كلمة ربّكم تكفي لإلقاء الضوء على كلّ هذه الآية ، لو فرضنا أنَّ إنساناً صار معه التِهاب الزائدة ، ماذا يفعل أقرب الناس إليه ؟ وأشدّهم عطفًا عليه ؟ أكثرهم رحمةً به ؟ يأخذه إلى المستشفى الذي يستدعي طبيبًا ماهرًا لِفَتح بطنِهِ يُخدّره فَيُغْمى عليه ، ويفتح بطنه ويسيل الدم ، تؤخذ هذه الزائدة وتستأصَل ، وهذا ما يفعله الأب الرحيم ، والأم الحنون ، وهذا ما يفعلهُ الأخ ، فالإغواء مِن قِبَل الله تعالى هو الشِّفاء فإخراج هذه الشهوات تمهيدًا للشّفاء ، ففي هذه المرحلة مرحلة إجراء العمليّة الجراحيّة لا ينفعُ النّصح ، قال تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ)

(سورة هود)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (07-16): تفسير الآيات 35 – 49
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-02-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في قصة سيّدنا نوح عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة هود)

ثمّ يقول تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)

(سورة هود)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ

1 ـ التفاتٌ من قصة نوح إلى النبي عليه الصلاة والسلام :

هذا في أُصول التعبير اسمه الالتِفات ، وبينما نحن في نَشْوة قصّة سيّدنا نوح ، الله سبحانه وتعالى يلتفت إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، ويقول :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(سورة هود)

2 ـ جريمة قريش في رميهم القرآن بالافتراء :

زعماء قريش وكفارها يتَّهمون النبي عليه الصلاة والسلام بأنّ هذا القرآن من عنده ، أو أنَّ قصّة نوح مِن نسْجِ خَيالِهِ ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي)

(سورة هود)

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وصَفَ الافتراء على الله سبحانه وتعالى ، بأنَّه جريمة ، أن تفتري على الله هذه جريمة ، أن تقول على الله ما لا تعلم ، أن تقول على الله كذبًا ، وأن تقول : أُوحِيَ إليّ ،

ولم يُوحَ إليك ، أن تقول : رأيتُ في المنام كذا وكذا ، وتنسب ذلك كله لله ولرسوله وللدين ، وأن تقول : حدَّثني قلبي عن ربِّي !!

فأحبابنا اختاروا المحبّة مذهبًا وما خالفوا عن مذهب الحبّ مذهباً

قيل للجُنَيْد : " من هو وليّ الله ؟ أهُوَ الذي يطير في الهواء ؟ أم الذي يمشي على وجه الماء ؟! فقال : الوليّ الذي تراه عند الحلال والحرام " ، فلو أنَّ إنسانًا قال : رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في المنام، وقال لي كذا وكذا ، وهذا القول مخالف للشَّرْع ، يثبت الشَّرْع وتُرَدُّ الرؤيا ، ديننا لا يؤخذ عن المنامات ، الرؤيا يُسْتأنس بها ، أما أن يُبْنى عليها تَشريع فحاشا لله تعالى ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي)

(سورة هود)

3 ـ أساس الضلال الافتراء على الله :

فأهل الافتراء على الله سبحانه هم الذين ضلّوا وأضلّوا ، وأساس الضلال في الأرض أنَّ إنسانًا افترى على الله الكذب ، فمثلاً تجد أن فلاناً قال : رُفِعَتْ عنكم الصلاة فلا تصلوا ! وإنساناً آخر ألغى الصّيام ، وثالثاً ادَّعى النبوَّة ، فهذا الذي يفتري على الله الكذب وصفه الله سبحانه وتعالى بأنَّه مجرم ، فالحقّ حسب ما جاء في هذا الكتاب ، والباطل كل ما حاد عنه ، تركتم على بيضاء نقيّة ليلها كنهارها لا يزيع عنها إلا هالك ، وقال الإمام مالك : " ما جاءنا عن صاحب هذه القبّة الخضراء ـ يعني النبي عليه الصلاة والسلام ـ فعلى العَين والرأس ، وما جاءنا عن سواه فهم رِجال ونحن رِجال " ، وكلّ إنسان يؤخذ منه ويُردّ عليه إلا صاحب هذه القبّة الخضراء ، وما من إنسان أكبر من أن يُنْقَد ، وما من إنسان أصغر مِن أن يَنْقُد ، لذلك من افترى على الله الكذب فقد أجرم .

هذا الذي يُوجّه الآيات توجيهًا يتوافق مع هواه هو مُجْرِم ، وهذا الذي يقول لك : لا تأكل الربا أضعافًا مضاعفة ، أيْ أنَّ الله تعالى رخَّص في القليل منه ، ونهانا عن النسب العالية ، هذا مجرم ؛ لأنّه دفع الناس إلى أكل الربا ، وهذا الذي يقول : الخمر ليْسَت محرّمة ، وليس في القرآن آيةٌ تحرِّم الخمر ، إنما قال سبحانه وتعالى :

(فَاجْتَنِبُوهُ)

[سورة المائدة : من الآية 90]

هذا مجرم ، لأنَّه افترى على الله الكذب ، لأنه وجَّهَ الآية توجيهًا يتوافق مع الهوى ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي)

(سورة هود)

4 ـ المفتري على الله عليه إجرامه :

هذه جريمة ، فلو أنَّني افتريْتُ هذا القرآن من عندي ، أو لو أنني تأوَّلت القرآن بالكذب سوف أُحاسب عند الله بِجَريمة ، قال تعالى :

(وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)

(سورة هود)

وهذا الذي يكذّب بالحق ، ولا يعبأ به ، ولا يصدّقه ، ولا يأْتَمِرُ بما أمر الله ، ولا ينتهي عمَّا نهى عنه الله ، يستخفّ بالدِّين وبِقَواعِدِ الدِّين يأخذها على سبيل الهزل ، لا يعبأ بِمَن يعلّمه الحق ، هذا عند الله مجرم أيضًا ، فأنْ تفتري على الله جريمة ، وأن تردّ الحقّ جريمة ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(24))

(سورة الأنفال)

قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)

(سورة هود)

أنا مُبرَّأٌ مِن مواقفكم ومِن خِذلانكم ، ومن تكذيبكم ، ومن ردِّكم للحق ، ومِن سعْيكم لإطفاء نور الله ، أنا بريء من هذه الجريمة ؛ جريمة التَّكذيب ، وبريء من جريمة الافتراء على الله سبحانه وتعالى .

5 ـ هذه الآية من حيث خصوص سياقها وعمومه :

بعض المفسِّرين قال : هذه الآية تتعلّق بسيِّدنا نوح ، مراعاةً للسِّياق العام ، وبعضهم قال : هذا التفات من الله سبحانه وتعالى للنبي عليه الصلاة والسلام لِتَسْلِيَتِهِ والتخفيف عنه حينما شعرَ بالضِّيق مِن جرَّاء تكذيب قومه له ، فالآية هذه تُحْمَلُ على مَحْمَلَيْن ، والقرآن الكريم كما قال الإمام عليّ كرّم الله وجهه حَمَّالُ أوْجُه ، قال تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(سورة هود)

أي يقول كفار قوم : نوح إنّ هذا النُّصح الذي نصحهم إياه افتراه على الله ، وهو من عنده ، قُلْ لهم يا نوحُ : إن افتَرَيْتُهُ فعليَّ إجرامي ، والأقرب إلى النصّ اللّغوي أن تكون هذه الآية التفاتٌ كريم من الله سبحانه وتعالى إلى النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام مسلّيًا إياه ، ومُخَفِّفًا عنه ، ومثبِّتًا لِعَزيمته ،

يُذكِّرُهُ بأنّ هؤلاء الذين يتَّهمونه بالكذب إنَّما هم مجرمون في حقّه ، وأنَّه بريءٌ من هذه الجريمة.
قال تعالى :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

1 ـ طُرقُ هدايةِ الله لخَلقه :

الحقيقة أنّ الله سبحانه وتعالى يستخدم كلّ الطُّرُق للهداية الحق ، طريقة بثّ الآيات في الأرض ، هذه طريقة ، وطريقة بثّ الآيات في السماء ، وبثّ الآيات في الطعام والشراب ، وبثّ الآيات في النبات ، وبثّ الآيات في الحيوان ، وبثّ الآيات في ظواهر الكون ، وظواهر الأرض ، هذه طريقة مثلى ، وهي أولى الطرق .

طريقةٌ ثانية : إرسال الأنبياء ، وإنزال الكتب .

وهناك طريقة ثالثة هي : تسخير الناس ليعِظ بعضهم بعضًا .

وطريقة رابعة ؛ المصائب والهموم والأحزان ، والشدّة والفقر والمرض .

إنّ كلّ هذه الطُّرُق استخدمها الله سبحانه وتعالى لِيَلفِتَ هذا الإنسان إليه ، ومع كلّ هذه الطُرق يبقى الإنسان كافرًا جاحدًا ، ومُدْبِرًا معْرِضًا ، أي أن الله سبحانه وتعالى يستنفذ كلّ الوسائل لهداية الإنسان ، فإذا لم تُجدِ معه كلّ هذه الوسائل أهلكه الله سبحانه وتعالى .

2 ـ استنباط من الآية : الله لا يهلك إنسانا فيه بقيةُ خيرٍ :

يُستَنبَطُ من هذه الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُهْلك إنسانًا فيه ذرَّة خير ، وما دام في هذا الإنسان ذرَّة من خير فإنَّ الله يمدّ بأجله ، ويمهلهُ ، ويُعطيهِ فرصةً كي يتوب مما اقترفت يداه ، وينيب إلى الله سبحانه وتعالى ، والآيات الأولى في سورة البقرة تؤكّد هذا المعنى ، وهو أنَّ من المنافقين كما قال تعالى :

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ(17))

(سورة البقرة)

فإلى أن تصبح الدنيا لديه في أبهى زينة ، وإلى أن يمتلك من المال ما شاء ، ومن الجاه ما شاء ، ومن وسائل الدنيا ما شاء ، وإلى أن ينغمس في الملذات ما شاء يقبض الله روحه فجأةً ، قال تعالى :

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(17))

(سورة البقرة)

هذه الدنيا العريضة ، وهذا المال الوفير ، وهذا البيت الفخم ، وهذه المكانة الرفيعة ، وهذه الأدوات الحديثة ، هذه الحفلات ، وهذه السهرات وهذه النزهات وهذه الرّحلات ، هذا العزّ ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنُورهم ، أي أهلكهم ، قال تعالى :

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

(سورة القصص)

فهذا نوعٌ من أنواع المنافقين يَقْصمُهم الله سبحانه وتعالى قصماً ، ويهلكهم ، لأنَّه لا خير فيهم ، قال تعالى :

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(19))

(سورة البقرة)

وهناك صِنفٌ آخر من المنافقين إذا لاحَتْ لهم الجنَّة ، وإذا قرؤوا في القرآن وصفَ الجنَّة اشتاقَتْ نفوسهم للجنة ، ثم نكسوا على رؤوسهم قال تعالى :

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(20))

(سورة البقرة)

إذا كلَّفتهم بغَضّ البصر ، وإذا كلفتهم بتحرير الدَّخل ، وإذا كلَّفتهم بعَدم الاختلاط أبوا ، وركبوا مطايا الهوى ، أما إذا جاء الشرع موافقًا لِشَهواتهم ، يقول لك : الزواج سنَّة !! أو ليس غضّ البصر كذلك من السنَّة ؟! إنها نزوة الهوى ، إذاً قال تعالى :

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ)

(سورة البقرة)

لكنّه لم يذهب لا بسَمعهم ولا بأبصارهم ، لماذا ؟ لأنَّ فيهم بقِيَّة خير ، ما دام البرق قد أضاء لهم فمشَوا فيه ، فهذا يعني أنَّ فيهم بارقة أمل ، واستنبط علماء التفسير من هذه الآية أنَّ الإنسان أيّ إنسان ما دام فيه بارقة أمل فلن يهلكه الله سبحانه وتعالى ، قال عليه الصلاة والسلام :

((وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ))

[مسلم]

فالطالب متى يفصل من المدرسة ؟ إذا نال في كلّ المواد صفرًا، ولا أمل فيه ، أما إذا كانت مادّة أو مادَّتَان أو ثلاث فيوضع خطّ أحمر تحت هذه المادة ، ويُستدعى الوليّ ، ويؤخذ عليه تعهّد ، ويضيّق على الطالب ، ما دام هناك أمَل ، وهناك عمل ، فإذا ذهب الأمل حقّ الهلاك ، والذي أريد أن أُثبِّتهُ في أذهانكم أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُهْلِكُ إنسانًا فيه بقيَّة خير ، إذًا معنى قوله تعالى :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

الله خبير عليم ، خبير بنُفوس عباده ، حينما استنفذ الله سبحانه وتعالى كلّ الوسائل ، وحينما حكم عليهم بعَدم الإيمان قرَّر إهْلاكهم ، قال تعالى :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

3 ـ أمرُ الله نوحًا بعد الحزن على قومه الضالين :

أيْ لا تَحزَن من تكذيبهم إيّاك فهؤلاء ليس في قلوبهم ذرَّة خير ، وليس في أدْمغتهم ذرّة من عقل ، لا عقل ولا خير ، قال تعالى :

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

معنى آخر لقوله : فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

وهناك تفسير آخر لهذه الآية : أنّني إذا أهلكتهم فلا تبتئِس عليهم لأنّني أُهلكهم باسْتِحقاق ، قال تعالى :

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ(42))

(سورة الأنفال)

إنما أُهلكهم بعدما اسْتَحكم الكفر في قلوبهم ، وبعد أن سَدُّوا آذانهم ، ووضَعوا على أعينهم غِشاوَةً ، وصرفوا أنفسهم عن الحق فاسْتَحَقوا الهلاك ، قال تعالى :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

تروي القصص أنّ نفرًا لا يزيد على سبعين رجلاً من قومه آمنوا به ، وهم من ضِعاف القوم ، من الفقراء ، من أصحاب الحِرَف ذات المستوى الأدنى ، قال تعالى :

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

عليك أن تدْعُوَ إلى الله ، ولكن ليس عليك هُداهم ، ولكنّ الله يهدي من يشاء ، قال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56))

(سورة القصص)

لا يهتدي المهتدي بتَعَلّق إرادتك بهُداه ولكنّ المهتدي يهْتدي إذا أراد هو الهُدَى قال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56))

(سورة القصص)

آية في القرآن تؤكّد هذا المعنى ، قال تعالى :

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(88))

(سورة الأنعام)

من يشاء من العباد الهدى يهتدي ، قال تعالى :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

لا تبتئس يا نوح بتَكذيبهم ، ولا تبتئس يا نوح بمُعارضتهم ، ولا تبتئس يا نوح بسُخريتِهم ، إنهم جاهلون ، إنهم فاقدو الوعي ، وفاقدو الإدراك ، وإنَّهم صمَّموا البقاء على الكفر ، وإنَّهم اختاروا الكفر ، إنَّهم انْغَمسوا في الشهوات .

قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ)

(سورة هود)

أعطاه الله سبحانه وتعالى أمْرًا أوَّلِيًّا ، قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة هود)

وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا

1 ـ حفظُ الله لنوح عليه السلام :

جمْعُ العين هنا جمع تعظيم لا جمع تكثير ، قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة هود)

أيْ أنت يا نوح بِعَين الله عَيْنُ الله تحرسك ، وعين الله تدفع عنك أعداءك ، وعين الله تحفظك ، وعين الله تكلؤك .

2 ـ لكلّ مؤمن من هذه الآية نصيب :

وأنا أقول : إن لكلّ مؤمن من هذه الآية نصيب ، قال تعالى :

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

المؤمن له من هذه الآية نصيب ، أنت في حفظ الله ، " يا عبدي ، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال: يا ربّ أنفقته على كلّ محتاج ومسكين لِثقتي بأنَّك خير حافظًا ، وأنت أرحم الراحمين ، قال : يا عبدي، أنا الحافظ لأولادك من بعدك " ، فإذا كنت في عين الله فَنَمْ مُطمئنًا :

وإذا العناية لاحظتك جفونها نَمْ فالمخاوف كلهنّ أمان

ما مِن إحساس يفوق إحساس المؤمن بالأمن ، كيف لا ؟ والله سبحانه وتعالى الذي بيَدِهِ ملكوت كلّ شيء راضٍ عنك ، لذلك(رضي الله عنه) مرتبة لو يعلم الناس ما فيها من عز واطمئنان ، إنَّها أعلى مرتبة في الوجود ، أن يكون الله راضيًا عنك :

فليتك تحْلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غِضاب

ليتك ترضى عنِّي يا رب ، والأنام غِضاب ، قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة هود)

ينادى له في الكون أنا نحبّه فيسمع من في الكون أمر محبّه

3 ـ حفظ الله للأنبياء :

سيّدنا موسى قال الله في حقّه :

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي(41)اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي(42)اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44))

(سورة طه)

سيّدنا إبراهيم ألقوه في الجحيم ، فقال تعالى :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

(سورة الأنبياء)

سيّدنا موسى تبعه فرعون وجنوده ، والبحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من ورائهم ، قال تعالى :

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ(62))

(سورة الشعراء)

فانفلق البحر ، وصار طريقا يبساً ، سيّدنا يونس دخل في بطن الحوت في ظلمات ثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ! قال تعالى :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان في غار ثور مع صاحبه أبي بكر ، فعَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ :

((لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

فقال : ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(198))

(سورة الأعراف)

ولكل مؤمن من هذه الآيات نصيب ، إن كنت صادقًا في محبّة الله ، وفي طاعتك لله ، وإن كان عملك طيِّبًا ، ولسانك رطبًا بذِكر الله ، ومخلصًا لله عز وجل فلا بدّ من أن يكون لك من كلّ هذه الآيات نصيب، ولو استمعتَ إلى مؤمن يروي لك كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى يُنَجِّيه ، قال تعالى :

(قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ(64))

(سورة الأنعام)

ما من مؤمن كريم إلا ويعرف مئات القصص ، كيف أنّ الله نجاه من عدوِّه ؟ وكيف وفّقه ؟ وكيف نصره وحفظه وسدَّده ؟ وكيف أكرمه ؟ هذه قِصص وقعت ، وسوف تقع مع العباد في أثناء حياتهم

وأمثالها يقع ، قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة هود)

4 - معنى : بِأَعْيُنِنَا

أي بحِراستنا ، وبحفظنا ولطفنا ، فمثلاً : أن الأم إذا كان ابنها يلعب أمامها فإنها ترقبه ، وتحرسه ، وتخاف عليه ، فنقول : إنّ هذا الطفل بعَين أُمِّه ، فكلّ حركاته وسكناته تحت رقابة ِعَيني أُمّه ، قال تعالى :

(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)

(سورة هود)

5 - معنى : وَوَحْيِنَا

الوحي هنا الإرشاد ، أي أن الله سبحانه وتعالى تولى إرشاد سيّدنا نوح لِصُنع السفينة كيف يصنعها ؟ وكيف يُصمِّمها ؟ وكيف يصنع بالأخشاب ؟ وكيف يصنعُ هيكلها ، قال تعالى:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة هود)

وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُون

1 - آخرُ العلاج الكيُّ :

لمْ أرَ مثالاً أقرب لفهم هذه الآية من أنّ أحد الناس له ابن ، وأصابه مرضٌ الموات (الغرغرين)، وبدأ ينتشر في قدميه ، فسارع إلى الطبيب فقال له : لا بدّ من قطعهما ، وليس لك أن تعترض ، فمهما توسّل هذا الأب لهذا الطبيب فلا جدوى ، إذ ليْسَت القضيّة قضيّة توسّل ، ولكنّ القضيّة قضيّة عِلْم ، إنّ هذا المرض سريع الانتشار ، ولا بدّ مِن بتْر العضو ، قال تعالى :

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة هود)

أي أنَّ الله سبحانه وتعالى قرَّر إهلاكهم بعد أن استنفذ كلّ السُّبُل ، وبعد أن حكم عليهم بأنهم لا يهتدون، وبعد أن عرف من طويَّتهم أنَّهم لا يستجيبون ، إذًا : هلاكهم لا محيد عنه ، قال تعالى :

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة هود)

إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له ، ليس معنى لا مردَّ له أي أنّ الله تعالى لا يعْفو ؛ لا ، ليس من هذا القبيل ، ولكن لأنَّ هذا المرض الذي فشا فيهم لا بدّ من معالجته ، وبثر هذا العضو ، فلو كان الطبيب مختصّ بهذا المرض ، وابنه فلذة كبده أُصيب بهذا المرض الموات ، لا بدّ من أن يقرّر الأب الطبيب قطع هذه اليد ؛ لكيلا يسري هذا المرض في بقيّة الأعضاء ، فالله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ، لا بدّ من ساعة يُحاسب فيها الإنسان ، ولا بدّ من ساعة يدفع ثمن المعاصي باهظة ، قال تعالى :

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ)

(سورة هود)

حكاية الله لصناعة نوح للسفينة :

1 ـ حكاية حال نوح مع السفينة على اليابسة :

نقَلنا الله سبحانه وتعالى إلى صورة أمام أعْيُنِنا عن طريق الفعل المضارع ، ويصنع الفلك ، أي بدأ نوح بصِناعة الفلك ، قال تعالى :

(وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ)

(سورة هود)

يعني بحَسب معطياتهم أنّ هذه السفينة تصنع على اليابسة ، لو أنّ إنسانًا في تدمر أراد صُنْع سفينة ماذا تفعل السفينة هناك ؟ فلا بحر ولا نهر هناك ! بحَسب معطياتهم وتفكيرهم ، قال تعالى :

(وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ)

(سورة هود)

2 ـ استهزاء قوم نوح به :

يا نوح أأصْبحت نجارًا بعد أن كنتَ نبيًّا ؟ أتخَلَّيْت عن النبوَّة ؟ أسْتبْدلْتَ بها هذه الصَّنعة ، قال تعالى :

(وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

(سورة هود)

3 ـ الفائزُ مِن يضحك في الأخير :

من هو البطل ؟ الذي يسخر في آخر الأمر ، وليس في أوّله ، من الذي يسخر في النهاية ؟ قال تعالى :

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110))

(سورة المؤمنون)

وفي آية أخرى قال تعالى :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

فالبطولة أن تضحك بعد أن كشفت الحقيقة ، وظهر الحق جلياً من الذين ضحكوا منك باطلاً وعماية ، قال تعالى :

(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(82))

(سورة التوبة)

4 ـ في هذه الآية تسلية للمؤمن :

أما المؤمن فيبكي قليلاً ليضحك كثيرًا ، فسيّدنا نوح نبيّ كريم سَخِروا منه ، ولك به أُسوةٌ حسنة ، لو أنّك امتنَعْتَ عن مُصافحة امرأةٍ ، وسَخِر منك أصدقاؤك فلا تبتئس أبداً ، ولك بهذا النبي الكريم أُسوة حسنة ، ولو أنّك امتنعت عن أكل الربا ، وسخر منك أصدقاؤك فلك بهذا النبي الكريم أُسوة حسنة ، لو أنّك امتنعت عن رحلة مختلطة ممتعة على حدّ قول أهل الدنيا ، وسخر أصحابك منك ، فلك بهذا النبي الكريم أُسوة حسنة ، لو أنّك رفضْت أن تبيع دينًا بسِعْرٍ مرتفع ورَعاً وخوفًا مِن الله عز وجل ، وسخر منك كلّ من في السوق ، وقالوا لك : هذا هو العُرْف التّجاري ، إذا سخروا منك فأنت الرابح الأكبر ، قال تعالى :

(قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

(سورة هود)

في الجامع الصغير حديث صحيح إذا فُهم على ظاهره يوقع في حَيْرة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((اطّلعت على أهل الجنّة فرأيت عامة أهلها من البُله))

[الجامع الصغير عن أنس ، وسنده ضعيف]

البُله هم الأغبياءّ ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((المؤمن كيّس حذر فطِن))

[الجامع الصغير عن أنس ، وهو موضوع]

وما اتَّخذ الله وليًّا جاهلاً لو اتَّخذه لعلَّمه ، فكيف يكون أهل الجنّة من البُله ؟! بعض علماء الحديث وجَّه هذا الحديث توجيهًا رقيقًا لطيفًا ، قال : إنّ هذا المؤمن في نظر أهل الدنيا أبله ! يعني أن يمتنعُ عن وضع ماله ليأخذ عليه فائدةً كبرى ، يقال لك : هذا المليون فائدته مائتا ألف ! امْتَنَعْتَ أنت عن قبض هذا المبلغ ورعًا ؟ إنك أبله في نظرهم ، هذا العمل يجلب لك مئات الألوف ، لأنه في مكان حسّاس ، يدخل إلى جيبك كل يوم مائة ألف ليرة إذا تساهلتَ ، تشتري البيوت والسيارات ، وتعيش حياة البذخ ، هذا الذي امتنع عن أكل المال الحرام في نظر أهل الدنيا أبله ، عُرِض على شخص أن يذهب إلى بلد فاسد ، و يقيم في هذا البلد أسبوعين يتعرّف على معالمها السياحية ، لكنه يخشى على دينه وعلى نفسه الموصولة بالله ، فيمتنع عن الذهاب يُقال عنه : إنه أبله ، والحقيقة أنهم هم البُله ، وهو العاقل فيهم ! قال تعالى :

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(80)فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ(81))

(سورة القصص)

وقال تعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

(سورة القصص)

ألا يا رُبَّ نفس في الدنيا طاعمة ناعمة جائعةٌ عاريةٌ يوم القيامة ، ألا يا رُبَّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة ، ألا يا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مُهين ، ألا يا رُبَّ مُهين لنفسه وهو لها مكرم ، قال تعالى :

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

(سورة هود)

بعضُ العلماء في أوربا اكتشف كروية الأرض ، و لكنَّ قومه آذَوْه ، وسخروا منه وقد عُرِضتْ هذه المسرحية حديثًا في بعض المدن الأوربية ، فالمشاهدون يسخرون اليوم ممَّن يسخرون من هذا الإنسان بالأمس ، سخرية مزدوجة ، فإن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، و لا بدَّ من أن نسخر منكم في وقت ما ، قال تعالى :

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

(سورة هود)

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ

1 ـ المستهزئ المنحرف ينتظره عذاب دنيوي يخزيه وأخروي مقيم :

يعني : هذا العاصي هذا المنحرف ، وهذا الفاسق ، وهذا الكافر ، وهذا الماجن ، وهذا المكذِّب ، و هذا المنافق لا بدَّ من أن يأتيه عذابٌ يخزيه في الدنيا ، و لا بدَّ من أن يُكشَف عن حقيقته ، ولا بدَّ من أن يُفتَضح أمرُه ، ولا بدَّ من أن يهبط من حيث المكانةُ الاجتماعية ، قال تعالى :

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

(سورة هود)

لا بدَّ من أن يصبح حديث الناس ، حديث القوم ، لا بدَّ من أن يصبح حديثا بعد أن كان شخصا ، قال تعالى :

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

(سورة هود)

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

1 ـ صدور الأمر الإلهي بالإهلاك :

ويحل عليه في الآخرة عذاب مقيم ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة هود)

القرار صدر بإهلاكهم ، وله أجلٌ زمني لتنفيذه ، فقد يصدر القاضي حكما بالإعدام على هذا المجرم ، ويتأخر موعد تنفيذه ، لقد أُصدِرَ الحكم على قوم نوح ، و صُدِّق الحكم ، وبقيَ تنفيذ الحكم ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَفَارَ التَّنُّورُ)

(سورة هود)

2 - وَفَارَ التَّنُّورُ

والتنور من معانيها وجه الأرض ، أي فارت الأرض بالينابيع ، ومن معانيها أنَّ تنورا في بيت سيدنا نوح جُعِل علامة لبدء الطوفان ، يفور الماء من وسطه ، أو أن فار التنور : كناية ككناية "حميَ الوطيس" ، يعني اشتدَّ الأمر ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

(سورة هود)

3 - قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

القراءة هكذا "من كلٍّ زوجين اثنين " لم يقل الله سبحانه و تعالى : " من كلِّ زوجين ، ولو أن الله سبحانه و تعالى قال : من كلِّ زوجين" أي من كلِّ مخلوق زوجين ، لما اتَّسعتْ هذه السفينة لكل مخلوقات الله في الأرض ، لكن من كلٍّ ، سوف تحتاج إلى غنمة واحدة وفحلها وشاة ، واحدة وفحلها ، و بقرة واحدة وفحلها ، وهي الحيوانات التي يحتاجها الإنسانُ لقوام حياته ، قال تعالى :

(احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)

(سورة هود)

4 - وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

أي زوجتك وابنك ، قال تعالى :

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10))

(سورة التحريم)

قال تعالى :

(احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة هود)

طبعا زوجين أي مثنى ، إذا قلت : أخذتُ زوجين من الأقلام ، يعني قلمين ، لأن كل واحد يُسمَّى زوجًا، ولكنَّ الزوج هو الشيء الذي لا يستغني عن قرينه ، قال أحدهم : بكم ثمن هذا الحذاء ، فقال البائع : بأربعين ، فقال : الزوجين معًا ، هذه الأولى يُستغنَى بها عن الثانية ، أتكفي ؟ لا تكفي ، فمعنى زوج هو الشيء الذي لا يُستغنَى عن قرينه ، لكن الزوج تعني واحدًا ، الواحد يتكامل مع الزوج الآخر، قال تعالى :

(احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)

(سورة هود)

يعني امرأته وابنه هما اللذان سبق عليهما القول فلا يؤمنان ، قال تعالى :

(وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة هود)

5 - وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ

يعني احمل فيها من كل زوجين ، و أهلك ، و من آمن بك ، قال تعالى :

(وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة هود)

يعني أنت ومعك الأقلّية المؤمنة ، قال تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(116))

(سورة الأنعام)

و قال تعالى :

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(سورة يونس)

قال تعالى :

(وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)

(سورة هود)

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا

للكلمتين قراءات عديدة ، على كلٍّ ، قال تعالى :

(بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة هود)

1 ـ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا

المجرى مكان الجري ، والمرسى مكان الإرساء ، فإما أن تعني هذه مكان بدء الرحلة ، ومكان استقرارها ، أو زمان بدئها ، و زمان استقرارها ، والمَجرى اسم زمان ، أو اسم مكان على وزن مفعَل، المَجرى اسم مكان أو اسم زمان من فعل ثلاثي ، جرى مَجرى ، أما أجرى يُجري مُجرَى ، أما رسا ، يرسو مَرسى ، و أرسى يُرسي مُرسى ، فاسم المكان الرباعي على وزن مُفعَل بضم الميم ، قال تعالى :

(بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة هود)

2 ـ بِاسْمِ اللَّهِ

قال بعضهم ، أي إذا قلتَ : باسم الله مَجراها ، يعني أُجريها باسم الله ، أي تجري بأمر الله ، أي بشرع الله ، إذا ركب الواحد سيارته ليذهب إلى نزهة فيها معصية ، لا يسمي ، لأن هذه التسمية خلاف هذه المعصية ، إذا ركبتَ السيارة لتنطلق منها إلى عملك فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا ركبت السيارة لتخدم بها إنسانا فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال تعالى :

(بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة هود)

و معنى باسم الله ، أي أنا أفعل هذا الشيء مرضاةً لله ، و بأمر الله ، ووفق شرع الله ، و مخلصا لله ، هذا هو معنى باسم الله ، قال تعالى :

(بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة هود)

3 ـ مِن آداب السفر وركوب الدابة :

فالإنسان إذا ركب دابة أو سيارة أو طائرة يقول كما علّمنا الله تعالى :

(سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13)وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ(14))

(سورة الزخرف)

إن الإنسان يسافر أحيانا ، و لكن هناك سفر بعيد ، و سفر قريب ، السفر الذي يعود منه سفر قريب ، و هناك سفرةٌ واحدة يذهب و لا يعود ، و هذا هو السفر البعيد ، فإذا رأيت جنازة فاعلم بأن بداخل النعش مسافراً سفراً بعيداً غادر البيت ، و لن يعود .

كلُّ ابن أنثى و إن طـالتْ سلامتُه يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملتَ إلى القبور جنـــازةً فاعلم بأنك بعدها محمـول

قال تعالى :

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)

(سورة هود)

مشاهد عظيمة من قصة نوح :

1 - وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

هذه الآية لا يتذوَّقها إلا من ركب البحر ، و هاج به البحرُ ، و رأى كلَّ موجة كالجبل و كاد قلبه يقف من شدَّة الخوف قال تعالى :

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)

(سورة هود)

ربُّنا يقول : كالجبال ، المتكلِّم هو الله سبحانه و تعالى ، قال تعالى :

(وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ)

(سورة هود)

2 - نداء نوح ابنَه ليركب معه :

أي في معزل عنه قال تعالى :

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا)

(سورة هود)

اركب و اخْزِ الشيطان ، دعْ ضلالتك ودع كفرك ، واركَب معنا وانجُ ، ولا تكن مع الكافرين ، قال تعالى :

(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ)

(سورة هود)

3 ـ اعتراض ابن نوح على كلام أبيه :

وهذه قصّة الناس اليوم ؛ فهذا يستغني بماله عن الله ، فيأتيه الله من حيث لا يحتسب ، ويأتيه مرض لا ينفعُ معه المال ، كنتُ عند بعض الأطباء ، وقد جاءتْهُ مخابرة سمِعْتُ الطبيب يقول : لا جدوى ، وبعد أن وضعَ السماعة مكانها قال لي : إنّ مريضهم مُصاب بمَرض خبيث ، وعرضوا عليّ أن نأخذه إلى أيّ مكانٍ في العالم ، وأن يدفعوا لمعالجته من المال مهما بلغ بالملايين ، فقلتُ لهم : لا جدوى ! أحدهم فتح دار سينما ، وكسب منها المال الوفير ، وجمّع ، ثمّ جلس على فراشه يبكي ، دخل عليه ابن أُخته ، وكان طالبًا عندي ، قال له : يا خالي ما لك تبكي ؟! وكان معه مرضٌ خبيث ، فقال : جمعت المال كلّه كي أعيش سنوات في هناءةٍ ويُسْرٍ ، ولكنّ هذا المال لن ينفعني بعد أن أُصِبْتُ بهذا المرض ، قال تعالى:

(قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ)

(سورة هود)

4 ـ جواب نوح ابنَه : قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ

واستنبط العلماء أنَّه لا يجوز أن يُعذَّب الابن أمام أبيه ، ولو كان مستحِقًّا هذا العذاب ، رحمةً من الله أهلكه بعيداً عن عين أبيه ، وجعل موجةً تحول بين نوحٍ عليه السلام وبين ابنه ، قال تعالى :

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ)

(سورة هود)

5 ـ مصير ابن نوح : وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ

هذه نهاية الكافرين ، يا عتبة بن رْبيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أُميَّة بن خلف أوَجَدْتُم ما وعَدَ ربّكم حقًّا ؟! فإنّي وجدتُ ما وعدني ربِّي حقًّا ، قالوا : يا رسول الله ، أتُخاطب قومًا جيَّفوا ؟! فقال : ما أنتم بأسمَع لي منهم ولكنَّهم لا يُجيبونني ، قال تعالى :

(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)

(سورة هود)

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

كناية لطيفة ، استقرَّت سفينة نوح على جبل في منطقة الموصِل من أرض العراق يُقال له الجودي قال تعالى :

(وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة هود)

هذه نهاية الكفر ، هلاكٌ مُدمِّر ، وانتهى الأمر ، قال تعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

(سورة القصص)

قال تعالى :

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)

(سورة هود)

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ

1 ـ قرابة النسبِ بلا إيمان لا فائدة منها :

بمعنى أنَّ أهلَكَ مَن آمنوا بك ، فالذين لم يؤمنوا بك ليْسُوا من أهلك ، بل القرابةُ قرابةُ دين ، وقرابة عقيدة ، لا قرابة نسب ، بل قرابة النسب لا قيمة لها ، قال تعالى :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2)سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(3)وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(4)فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ(5))

(سورة المسد)

مع أنَّه عمّ النبي صلى الله عليه وسلّم ، وسلمان مِنَّا آل البيت ، ونعم العبد صهيب إنه يخاف الله فلم يعصهِ ، الحِبّ ابن الحِبّ أُسامة بن زيْد ، ففي الإسلام النسَبُ هو نسَبُ الإيمان ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، قال تعالى :

(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة هود)

2 ـ عتاب الله لنوح حين سأله عن ابنه :

لو أنَّك رجَوْتني في ابنك الذي مات كافرًا لكنت من الجاهلين ، قال تعالى :

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ(67))

(سورة الزخرف)

تقعُ عَيْنُ الأمّ على ابنها يوم القيامة فتقول له : يا بنيّ ، جعلتُ لك صدري سقاءً وبطني وعاءً ، وحجْري وِطاءً ، فهل من حسنة يعود عليّ خيرها اليوم ؟ يقول لها : ليتني أستطيعُ ذلك يا أمَّاه ، إنَّما أشْكو مِمَّا أنتِ منه تَشْكين !! قال تعالى :

(إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(46)قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ(47)قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة هود)

وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ

أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهم ، يقول لك يا أخي : بلاد كالجنَّة ؛ الطرقات والحدائق ، وتحت الأرض مواصلات ، والأبنية الشاهقة والدَّخْل مرتفِعٌ جدًّا ، وكل شيء متوفر ، والعيش رغيد ، قال تعالى :

(وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة هود)

أي هناك أُمَم يمتِّعُهم الله تعالى في الدنيا ؛ بلاد خضراء ، وأمطار غزيرة ، وفِسْق لا حدود له ، والزنا يرتكب على قارعة الطريق ، ليس هناك شيء عندهم حرام ، والدنيا واسعة عطاؤها عريض ، قال تعالى :

(وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة هود)

في هذه الآية كفاية من قصصٍ وأبناء ، وفي الآية الأخيرة عزاءٌ أيُّما عزاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود)

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا

1 ـ قصص الأنبياء تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام :

ومن ثم جاءت هذه الآية مطمئنة مع التَّسلية والسلوان لمحمد عليه الصلاة والسلام ، والنبي عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى :

(فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود)

2 ـ خلاصة قصة نوح : فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

والله الذي لا إله إلا هو ، لو لم يكن في هذه القصّة إلا هذه الكلمات فاصبر ! ربٌّ كريم يقول لك : فاصْبر إنّ العاقبة للمتقين ، وأنت أيها الأخ الكريم ، اصبر على بعدك عن المعصيَة ، واصبر على الطاعة ، واصبر على تربية الله لك ، أن العاقبة للمتقين يا رسول الله أُدْعُ الله أن يرحمني ، فقال : يا ربّ ارْحَمْهُ فقال : كيف أرحمه مِمَّا ألمَّ به ؟ وعِزَّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أُحبّ أنْ أرحمهُ إلا ابْتلَيْتُهُ بِكُلّ سيّئة كان عملها ، سُقْمًا في جسدِه ، أو إقتارًا في رِزْقهِ ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذرّ فإذا بقي عليه شيءٌ شدَّدْتُ عليه سَكَرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدتْهُ أُمّه ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ! إن لم يكن لك أولاد ذكور ؛ اصْبر ، عقيم ؛ اصْبر ، دخلك محدود ؛ اصْبر ، عملك شاقّ ؛ اصْبر ، زوجة مُشاكسة ؛ اصْبر ، بيتك صغير ؛ اصْبر ، مرض طفيف أو مرض كبير ؛ اصْبر ، قال تعالى :

(فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود)

والصَّبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان ، فاصبر إن العاقبة للمتقين .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (08-16): تفسير الآيات 50 – 60 ، قصة عاد وأخيهم هود - التوحيد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-03-07

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الإخوة المؤمنون ، درسنا اليوم قصّة عاد وأخيهم هود ، وقبل أن أمضي في توضيح فقرات القصّة أودّ أن أذكر لكم :

الإنسان بين حرية الاختيار وتوجيه الله له :

إنّ الله سبحانه وتعالى مع أنَّه أعطى الإنسان قضيّة الاختيار ، ومع أنه خلق الكون ليعرِّفه بذاته من خلال خلقه ، و مع أنه أنزل الكتب السماوية ، وأرسل الرسل والأنبياء ، إلا أن اللهُ سبحانه وتعالى لو رأى أن إنسانا اختار اختيارا غير صحيح لأدَّبه وعالجه لأنه ربُّه .

وتوضيح هذه الفكرة بالمثال التالي : أحيانا هناك جامعة تطبع الكتب ، ويلقي المدرِّسون المحاضرات ، ولا تحاسب الطلاّب إلا في الامتحان الأخير ، هناك طلابٌ يهملون ، ويضيِّعون أوقاتهم ، ولا يدركون مغبَّة إهمالهم ، هؤلاء في نهاية العام يرسبون ، وهناك جامعات تجري كلَّ أسبوع مذاكرات ، وتحاسب الطلاب على غياب درس أو درسين ، ودائما تتابع مراقبة الطلاب ، وتقويم أعمالهم ، وأغلب الظن أن نسبة النجاح في مثل هذه الجامعات مرتفعة جدًّا ، إذا غاب عن حصَّة مرةً أو مرتين أو ثلاثاً يفصل ، و كلُّ أسبوع هناك مذاكرة ، وتقيَّم علاماته ، ويُخبَر بعلاماته ، ويُوجَّه له إنذار ، وربُّنا عز وجل أعطانا حرِّية الاختيار ، ولو أنه تركنا وشأننا ، ومن دون تربية ، ومن دون معالجة ، ومن دون متابعة ، ومن دون محاسبة لهلك معظم الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالى مع أنه أعطانا حرية الاختيار ، ومع أنه وهبنا هذا العقل والتفكير ، ومع أنه أنزل الكتب السماوية ، ومع أنه أرسل الرسل فإنه لم يدعنا وشأننا ، بل يربِّينا ، والتربية على نوعين ؛ تربية جسمية ، أن يمدَّنا بكل ما نحتاج إليه من هواء وماء ، و طعام و شراب ، و نساء و بنين ، و حاجات و معادن ، و طاقة وشمس وقمر ، وكلما انحرفت نفوسنا يقوِّم اعوجاجها ، وكلما نسيت يذكِّرها ، وكلما غفلت يوقظها ، و كلما قصَّرت يدفعها ، و كلما تاهت يرشدها، و كلما ضلَّت يهديها ، قال تعالى :

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(64))

(سورة غافر : من الآية 64)

تأكيدا لهذه المعاني من أن الله سبحانه هو ربُّ العالمين ، بمعنى أنه يربِّي أجسامنا ، ويربِّي نفوسنا ، وبمعنى أننا مخيَّرون ، فإن اخترنا شيئا مناسبا شجَّعنا عليه ، وإن اخترنا شيئا غير مناسب عالجنا ، و أدبنا ، و ضيق علينا ، و أرشدنا إلى الطريق الصحيح .

الآيات التي تؤكّد هذا كثيرة ، قال تعالى :

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(16))

(سورة الفتح)

فربُّنا عز وجل يقول :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ)

(سورة هود)

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ

1 ـ من رحمة الله بالعباد إرسال الرسل من بني البشر :

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الأنبياء من بني البشر ، يحسُّ النبي كما تحسُّ ، و يفكّر كما تفكّر ، و يخاف من الذي تخاف ، و يرجو ما ترجو ، هذه نعمة أولى ؛ أن يكون النبيُّ من بني البشر .

2 ـ من رحمة الله بالعباد أن يكون الرسول من قومه :

والنعمة الثانية أن يكون النبيُّ من القوم الذي أرسل إليهم ، و لو جاءنا إنسان من غير أمَّتنا ، ومن غير قومنا لتهيِّبْنا ، وشككنا ، و لوجلنا ، و لتحفظنا ، و لسكتنا ، و لنقضنا ، ولكن الأنبياء في الأغلب الأعمِّ يأتون من قومهم الذين أرسلوا إليهم ، قال تعالى:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

أخوَّة نسبية ، و أخوة قومية ، وأخوة إنسانية ، من أجل أن نطمئن ، قال جعفر يخاطب النجاشي :

((يا أيها الملِك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، و نأتي الفواحش ، و نسيء الجوار ، و نقطع الرحم ، و يأكل القويُّ منا الضعيف ، حتى بعث الله فينا رجلا نعرف أمانته و صدقه و نسبه ، فدعانا إلى الله لنعبده و نوحِّده))

[أحمد عن أم سلمة]

إذًا : من فضل الله علينا أن الله سبحانه و تعالى جعل الأنبياء و المرسلين من بني البشر ومن أقوامهم ، قال تعالى :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

3 ـ مهمة الرسول إصلاح عقيدة قومه :

هذا الذي أرسله اللهُ عز وجل إنما أرسله ليصحِّح عقيدة قومه ومنهجهم ، فقد ضلوا ، وتاهوا ، فجاء هذا النبيُّ الكريم ليصحِّح انحراف قومه ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

فحوى الرسالات : اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

هذه الآية تلفت النظر إلى أن الله سبحانه و تعالى صاغ هذه الكلمات ليعبِّر بها عن فحوى الرسالات ، رسالات الأنبياء كلهم ومضمونها عندهم جميعاً واحد ، وملخَّصها ، قال تعالى :

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

لو دقَّقنا في هذه الكلمة ، لوجدنا فيها جانبا نظريا و جانبا عمليا ، قال تعالى :

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

هلاكُ الناس في الشرك :

جانب نظري ، لا إله إلا الله ، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد ، وهذا يعني أن الذي يهلك الناسَ أن يتَّخذوا مع الله آلهة أخرى ، قال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

والذي أدى إلى شقاء الناس ، وضلالهم تيههم وانحرافهم ، وأنهم دعوا مع الله آلهة أخرى ، فهذه الكلمة التي قالها سيدنا هود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة و السلام :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

ما لكم من إله غيره ، فمثّل الجانب النظري ، كما تمثل الجانب العقدي ، اعبدوا الله ، هذا الجانب العملي ، إذًا لا تنجح ، و لا تفلح ، و لا ترقى ، و لا تفوز ، و لا تسعد إلا إذا عرفت أنه لا إله إلا الله ، و إلا إذا عبدت الله ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

التوحيد هو سبيل النجاة :

إذا دقّقت النظر ، وتأمّلت في الكون ترى أنه لا إله إلا الله ، و الذي يشقي الإنسانَ أن يتّبع ، أو أن يستجيب لدعوة مبنية على الشرك ، قال تعالى :

(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ(78))

(سورة غافر)

و قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(123))

(سورة هود)

و قال تعالى :

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

و قال تعالى :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

و قال تعالى :

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

و قال تعالى :

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(4))

(سورة السجدة)

و قال تعالى :

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

هذا هو التوحيد ، فمن جعل الهموم همًّا واحدا كفاه الله الهموم كلها ، واِعمل لوجه واحد يكفِك الهموم كلها ، و من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين ، و أنت تريد ، و أنا أريد ، فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، و إن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد ، و كنْ لي كما أريد أكنْ لك كما تريد ، و اطلُبني تجدْني ، فإذا وجدتني وجدت كلَّ شيء ، و إن فِتُّك فاتك كلُّ شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كلِّ شيء ، هذا هو التوحيد ، و الدين كلُّه يُلخَّص في التوحيد ، قال سيدنا عبد الله بن عمر لغلام : << بعني هذه الشاة ، و خذْ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها : ماتت أو أكلها الذئب ، قال : ليست لي ، وواللهِ ، إنني لفي أشدِّ الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت له : ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني ، وإني عنده لصادق أمين ، و لكنْ أين الله ؟ >>

هذا هو التوحيد ، هذا البدوي وضع يده على جوهر الدين ، رغم أنه لا يقرأ ، و لا يكتب ، وضع يده على جوهر الدين مع بساطته ، و لو قرأت آلاف الكتب ، و ألَّفت مئات المؤلفات ، و لم تنته عما نهى الله عنه ، و لم تأتمر بما أمر الله به فلستَ ديِّناً ، و إنما أنت مثقَّفٌ ثقافة دينية ، و شتَّان بين الثقافة و الهدى ، فالهدى شيء ، و الثقافة شيء آخر ، والثقافة معلومات وأفكار وعلاقات و تنظيمات ونتائج وأشياء طريفة وممتعة ، ومحاورات ومناقشات ، و مؤلفات وملخَّصات ، هذه هي الثقافة ، و لكنَّ الهدى سمُوٌّ في النفس وطمأنينة وسعادة واستقرار ومحبة ، وتوكُّل واستسلام ، وصدق و إيثار ، و إن صحَّ التعبير : للمؤمن معنويات لو اطَّلع عليها الناس لسعدوا ، فمعنوياته عالية جدًّا ، بصرف النظر عن وضعه المادي ، أكان غنيا أو فقيرا مرتاحاً ، أو غير مرتاح في حياته ، ذا دخل قليل أو دخل كثير ، دخله محدود أو غير محدود ، متزوج أو غير متزوج ، بيته مْلكْ له ؟ أو بيته بالأجرة ، كل هذه الظروف الموضوعية المادية لا تؤثر في حياة المؤمن ، له معنويات إن الثقافة معلومات ، و لكنَّ الهدى قربات ، و المثقف يدافع التدنِّي ، بينما المهتدي يتابع الترقِّي ، و شتان بين الحالين ، وفي قلب المؤمن ثقة بالله ، يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما ، في معركة حنين بقي النبيُّ وحده يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطَّلب

هذا هو الإيمان ، ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنِّي ، ليس الإيمان بسملة يكتبها على باب محله ، و إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، و مسبحة و مسواك ، لا ليس هذا هو الإيمان ، و لكن الإيمان ما وقر في القلب ، و أقرَّ به اللسان ، و صدَّقه العمل .

الإنسان بين الثقافة ومعرفة حقيقة وجوده :

كثير من الناس عندهم ثقافة إسلامية ، ولكنَّ الهدى شيء آخر ، الهدى سعادة في الدنيا والآخرة ، الهدى معرفة ، تعرف لماذا خلقك الله عز وجل ؟ تعرف ما الذي يسعدك في الدنيا ؟ تعرف أن الله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد والعقيم الوالد والظمآن الوارد ، ولماذا الله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده ؟ إذ ليس لهذا الحديث من معنى لو لم يكن الإنسان مخيّراً ، ولكن الإنسان مخيَّر ، فحينما يختار الإنسان معرفة الله والاستقامة على أمره ، والتقرُّب إليه يتحقَّق الهدف الذي خلقه الله من أجله ، لذلك يفرح الله سبحانه وتعالى ، وإذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنّئوا فلانا فقد اصطلح مع الله ، ومشكلات المسلمين تتلخَّص في كلمة واحدة ؛ الصلح مع الله ، هذا على مستوى المسلمين جميعا ، وعلى مستوى المسلم وحده ، لو أنه اصطلح مع الله عز وجل لحُلَّت كلُّ مشكلاته ، لقوله تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

لماذا العذاب ؟ ولمصلحة مَن ؟ ولماذا الضيق ؟ قال تعالى :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

وقال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

(سورة الأعراف)

قال تعالى :

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(32))

(سورة المؤمنون)

وقال تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(103))

(سورة يوسف)

وقال تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(103))

(سورة يوسف)

إذا قلتَ : فلان بيده النفع والضرُّ ، وفلان بيده إسعادي أو شقائي فهذا هو الشرك ، وأخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي ، أما إني لست أقول : إنكم تعبدون صنما ، ولا حجرا ، ولكن شهوة خفية ، وتأتون أعمالاً لغير الله ، وإن الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء ، قال تعالى :

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(32))

(سورة المؤمنون)

4 ـ بين العبادة والطاعة :

وبعد فالعبادة شيء ، والطاعة شيء آخر ، يجب أن تعرفه أولاً ، ثم تطيعه ثانيا ، ثم تسعد بهذه الطاعة ثالثا ، لذلك قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

الهدف الأكبر من خلقك أن يسعدك بعبادته ، ولن تسعد بعبادته إلا إذا عرفته ، لذلك أصل الدين معرفة الله ، يا ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كلَّ شيء ، خلقت لك السماوات والأرض ، ولم أعيَ بخلقهن ، أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَ حين ؟ خلقت السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقّي عليك لا تتشاغل بما ضمنتُه لك ـ و هو الرزق ـ عما افترضته عليك ـ وهي المعرفة والطاعة والسعادة ، قال تعالى :

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(32))

(سورة المؤمنون)

5 ـ ما أمرَنا الله بعبادته إلا بعد أن طمأننا أن الأمور كلها بيده :

إذًا وحَّدت الله تعبده ، ولن تعبده قبل أن توحِّده ، وإن أشركت به تعبده ، وتعبد هؤلاء الذين أشركتهم معه ، والله سبحانه و تعالى قال :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

إذًا : كل أمورك راجعة إلى الله فاعبده ، وتوكلْ عليه ، ولو أن أمرا من أمورك يعود إلى إنسان لما صحَّتْ هذه الآية ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

أطِعْ أمرنا نـرفعْ لأجلك حجبنا فإنا منحنا الرضا لـمـن أحبَّنا
ولُـذْ بحمانا و احتـمِ بـجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خـلقنا
و عن ذكرنا لا يشغلنك شـاغل و أخلِصْ لنا تلق المسرَّة و الهنا
وسلِّم إلينا الأمر في كل ما يكن فما القربُ والإبـعاد إلا بـأمرنا
يُنادى في الكون أنا نـحبـه فيسمع من في الكون أمر محـبِّنا
ومن أطاع اللهَ أطاعه كلُّ شيء و من عصى الله عصاه كلُّ شيء

و من أطاع الله هابه كلُّ شيء ، ومن لم يطع الله أهابه اللهُ من كلِّ شيء ، يخاف من ظله ، ويخاف من أدنى إنسان يواجهه .

6 - إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

سيدنا هوداً أقام في قومه سنوات طويلة يدعوهم إلى الله عز وجل ، وملخَّص هذه الدعوة ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

ثم قال تعالى :

(إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

(سورة هود)

أنتم حينما تكذِّبون ، وحينما تتَّهمونني بأنني مفترٍ أنتم مفترون ، والدليل قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50)يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة هود)

يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ

1 - المؤمن لا يبتغي من دعوته أجرا دنيويا :

لا أسألكم عليه أجرا ، علامة المؤمن أن يبتغي أجراً هو حَبّ الله له ورضاه ، ببذْلِ طاقاته وإمكاناته

وخدماته ، ويدعو إلى الله ، ويعلّم الناس ، ويعينهم على أمر دنياهم ، ويعاون الفقراء ، ويعود المرضى، ويقدِّم خبراته وخدماته في سبيل الله ، قلّما يعنيه الأجر ، قلّما يعلّق أهميّة على المادة ، ولكنّ الذي بعُد عن الله سبحانه وتعالى لا يتحرّك حركة صغيرة ولا كبيرة إلا بالأجر ، ولا يُقدِّم نصيحةً إلا بأجْرٍ ، ولا يُعطي إشارةً إلا بأجرٍ ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50)يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا)

(سورة هود)

وهذه علامة صدقه ، لو أنّني أُطالبكم بأجرٍ لظُنَّنتم أنَّ لي مصلحةً بهذه الأُجرة ، لو أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام فرض على أصحابه مبالغ من المال ، أو خدمات عليهم يؤدُّونها لظُنّ أنَّه يبتغي بهذا عرض الحياة الدنيا ، لكنّ الله يؤكّد صِدْق الأنبياء وصِدق الدعاة الصادقين أنَّهم بريئون من المطامع الماديّة ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

الذي يؤكّد صِدق الداعي ترفّعه عن أيّ مكْسبٍ مادّي ، أو معنوي ، أو ثَنَاء ، أو أي شيء من هذا القبيل ، لا أسألكم عليه أجراً ، ولكن أُنظر إلى إنسانٍ لا يعرف الله سبحانه وتعالى لا يُمكن أن يقدِّم خِدْمةً لأحدٍ إلا بأجر ، فلو أنَّه ذهب مع إنسان إلى السوق مثلاً واشترى هذا الإنسان حاجةً يُطالب بالعُمولة ، ولو أنّ آخر طرَقَ بابه لرَدَّهُ ، ولو أنّك دخلتَ إلى خمسين محلاً تِجاريًا لِتصْرف مائة ليرة لسمِعتَ السبّ والاعتذار ! قال تعالى :

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

(سورة النساء)

أفضل المعروف إغاثة الملْهوف ، لا أحدَ يتحرّك إلى إغاثة الملهوف ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50)يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة هود)

2 - أجر المؤمن على الله :

لو أنّ شخصًا ثريًّا كلّف إنسانًا آخر أن يقدِّم خدمات لِجهةٍ من الجهات ، وقال له : عليّ المبلغ مهما بلغَ، ضع الرقم الذي تريده ، فهل يُعقل أن يطالب هذا الذي يقدّم له خدمة بالأجر ؟ الأجر على الذي كلّفه هذه المهمّة كذلك الله سبحانه وتعالى هو الذي كلّفك بهذه المهمة ، وهو الذي يجزيك أتَمّ الجزاء ، فالله عز وجل حينما يأتي المؤمن إليه ، يرى اللّقمة التي أطعمها في سبيل الله كجَبَل أُحد ، حينما يقدم على

الآخرة ، ويرى ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، قال تعالى :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(17))

(سورة السجدة)

إذا قَدِمْت إلى الجنّة تعرف معنى قوله تعالى :

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)

(سورة سبأ)

لذلك قد تأتي من مكان بعيد لِتَسْتمِعَ إلى درسِ عِلْمٍ ؛ إن أجري إلا على الله ، قد تنفق على إخوتك الصغار الأيتام ، وقد تنكر ذاتك ؛ إن أجري إلا على الله ، قد تخدم والدتَك سنواتٍ طويلة خِدْمةً شاقّة ؛ إن أجري إلا على الله ، وقد ترْعى أُختَكَ العانس ، وتبقى عندك في البيت ؛ إن أجري إلا على الله ، وقد تسير مع أخٍ في حاجته ؛ إن أجري إلا على الله ، وقد تعود مريضًا ؛ إن أجري إلا على الله ، طبيب طرق باب بيته الساعة الثانية ليلاً لِيَذْهب مع الطارق إلى حالة إسْعاف ، والطارق فقير ، فسار معه مشْيًا إلى مكانٍ بعيد ، ودخل على المريض ، وهو يُعاني آلامًا شديدة ، فبَقِيَ معه ساعات طويلة إلى أن زال الخطر عنه ، وكتبَ الوصفة ، وفي أثناء خروجه أعْطَوْهُ مبلغًا يسيرًا يسيرًا من مصروف البيت ، أخذ هذا المبلغ ، وأوى إلى فراشه ، تحرَّكت نفسُهُ ، أخذْت هذا المبلغ من مصروف البيت وعنده أدويةٌ في البيت ، فجَمَعَ الأدوية التي وصفها لهم ، وعاد إلى هذا المكان البعيد فأعطاهم الأدوية ، والمبلغ الذي أخذه منهم ، ومبلغًا من عنده أيضاً ؛ إن أجري إلا على الله .

لا أحَدَ يذوق معنى العمل الصالح إلا وتغمره السعادة القلبية ، وكان هناك في أحد أحياء المدينة طبيب صالح إن شاهد المريض فقيرًا ، يوقّع في ذيل الوصفة ، ويبعثه إلى صيدلية معينة ، ويصرفها مجانًا ؛ إن أجري إلا على الله ، وهذا طبيب ، وكذا المحامي والمدرّس ، والمهندس ، لِيَكن لكلٍ عمل خالص لله عز وجل .

قال لي أحد سائقي التاكسي : شاهدتُ امرأة مُسِنَّة ، ولا أحدَ يقف لها فوَقَفتُ لها ، وأوْصلتها حيث تريد، فتحَتْ قِماشًا داخل قماش داخل قماش قد صُرَّ صرّاً ، وأعطتْهُ عشرة قروش - والقصّة قديمة - فقال لها : أنا أطلب منك الدعاء ! ولم يلبث أن جاءهُ رجل ، وقال له : خُذني إلى المكان الفلاني فأخذه ، ثمّ قال له : قِفْ ، فوقَفْتُ ، ثمّ قال لي: انتظِرْ ، فانتظرتُ حتى فرغ من شؤونه ، ثمّ أعاده إلى حيث كان، فأعطاه مبلغًا يزيدُ عن عمل يومين ! إن أجري إلا على الله ، فأحيانًا لماذا يعجِّل الله للإنسان بالجزاء ، وقد يكون الإنسان ضعيفًا كما أنّه قد يكون قويًا ؟ حتى لا تتوانى النفوس وتتقاعس عن فعل الخير ، ولكن لو أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يُعَوِّض عليك سريعًا فلتقل : إن أجري إلا على الله ، يجب أن يكون لك عمل تبتغي به وجه الله لا ترجو منه مالاً ولا سُمعةً ولا جاهًا ، ولا مكانةً ، ولا جزاءً ، ولا

ثوابًا ، وكلٌّ منّا له عمل ومهنة وكسبُه ، يجب أن يُبقي فيه شيء لله تعالى .

صاحب مطعم يبيعُ فولاً ، وثمن الصّحن ثلاث أو خمس ليرات ، أحد الأطفال طلبَ منه أن يبيعه فولاً برُبع ليرة ، فقال له : تفضَّل ، وملأ له صحنه ! إن أجري إلا على الله ، كلما ارتقت النفس في الإيمان كلما ازدادت أعمالنا صلاحاً ، فالمال وسيلة لكسب رضا الله ، وما عُبِدَ الله بأفضل من جَبْر الخواطر .

البذل يُسعِد المؤمن ، والأخذ يُسعِد المنافق :

إن أجري إلا على الله فلذلك الأنبياء والصدِّيقون ، وكبار المؤمنين يذوبون سعادة إذا بذلوا ، فعلامة المؤمن أنه يسعد بالبَذْل ، والمنافق يسعد بالأخذ ، والأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، والشِرِّيرون أخذوا ولم يعطوا ، وعامة الناس يأخذون ، ويعطون ، يا مَن جئتَ الحياة فأعْطيتَ ولم تأخذ ، والشرِّيرون يأخذون كلّ شيء ، ولا يعطون شيئًا ، فأنت مِمَّن ؟ مِمَّن يعطي أم مِمَّن يأخذ ؟ قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50)يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة هود)

هذا يؤكّد صِدْق دعوتي ، لو أنَّني أرجو مالاً لشُكّ في دعوتي ، لو أنَّني أرجو جاهًا لشُكَّ في نِيَّتي ، ولكنَّني لا أرجو منكم شيئًا .

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

1 ـ الاستغفار مقرون بالتوبة :

ما الذي يحصل ؟ قد يستغفر الإنسان ربّه ، ولكن لا يتوب إليه ، يذهب لأداء فريضة الحج فيحصل له صفاء ، ويذهب إلى العمرة لحصل له صفاء ، ولكن البطولة أن تتوب إلى الله بعد الاستغفار ، أنْ تستغفره ، أيْ أن تطلب منه الشِّفاء ؛ شِفاء النفس ، لأنَّ أمراض النفس مهلكة ، أما أمراض الجسد فتنتهي بالموت ، ولكن أمراض النفس تبدأ بعد الموت ، والناس نِيام إذا ماتوا انتبهوا ، فلذلك يسعى الإنسان لِتَطهير نفسه ، قال تعالى :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88))

(سورة الشعراء)

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

أي استقيموا على توبتكم ، وتابِعُوا أمره ، انتهوا عمَّا عنه نهى ، قال تعالى :

(يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)

(سورة هود)

2 ـ الاستغفار سبب الرزق :

إذا كانت كميّة الأمطار بدمشق مثلاً بالشكل الاعتيادي مائتين وخمسين ميليمتراً ، ثمّ تتناقص إلى الستّين ميليمتراً في بعض السنوات، فإن ذلك يدعو إلى مراجعة الناس قلوبهم وإيمانهم ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)

(سورة هود)

حتى يكثر الخير ، وصدق الله تعالى :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ)

(سورة هود)

3 ـ الاستغفار سبيل القوة بكل أنواعها :

وبعد فهذه الآية دقيقة جدًّا ، إن الواحد منا يتمتّع بالشباب ، فإذا عرف الله ، وأطاعه يدوم له هذا الشباب مثلاً إلى نهاية الحياة ، من عاش تقيًّا عاش قويًّا ، من غضَّ بصره عن محارم الله يزده الله قوَّة إلى قوَّته، ويُمَتّعُهُ الله بهذه العين إلى نهاية الحياة ، ومن كفّ عن سماع الغناء زاده الله قوة إلى قوته ، يُمَتِّعه بهذه الأذن إلى نهاية الحياة ، من سار إلى طاعة الله يَزِدْهُ قوَّة إلى قوّته ، يتمتَّع بحركته ونشاطه إلى

نهاية الحياة ، ومن أطاع الله في زواجه يَزدهُ قوَّة إلى قوَّته يسْعَدُ بزَوجته أضعاف ما يسعد أهل الدنيا بزَوجاتهم ، أحدهم كان له مطعم يباع فيه الخمر واللحم ! فذهب لأداء فريضة الحجّ ، ونصحه أصدقاؤُهُ أن يكفّ عن بيع الخمر ، وبين أخذ وردّ ، وحَيْرةٍ وصِراع ، اتَّخَذ في النهاية قرارًا بالكفّ عن بيع الخمر في مطعمه ، ما الذي حدث ؟ أنَّه تضاعفت غلَّته وتضاعفت أرباحه ، ويَزِدْكم قوَّة إلى قوَّتكم ، لو تركتَ هذه الشبهة في هذا العمل التِّجاري ، لزادَك قوَّة إلى قوَّتك ، لو أطعتَ الخالق و عصيت المخلوق لزادك قوة إلى قوتك ترتقي مكانتك عند هذا الذي عصيْتَهُ من أجل الله ، وتكبر في عَيْنِهِ رغم أنك عصيته ، ولم تستجب له ، وأمرك فلم تأتمِر ، وقلت : إنِّي أخاف الله رب العالمين تقول في نفسك : أنا أصبحت مهدَّدًا بالخطر من هذا الرجل ! لا ، يَزيدْك الله قوَّة إلى قوَّتك ، تزداد عنده مكانةً ، هذه سنّة الله في الخلق ، إنِّي أخاف الله رب العالمين ، قال تعالى :

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(23))

(سورة يوسف)

وصار بعدها عزيز مصر ، إنه سيدنا يوسف ، ولما مرَّ موكبه ، كانت جاريةٌ قد رأتْهُ في قصْر العزيز خادمًا ، ورأته الآن وقد صار عزيز مصر يمشي في موكب الإمارة فقالت : سبحان من جعل العبيد ملوكًا بطاعته ! وسبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيتِهِ ! قال تعالى :

(وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ)

(سورة هود)

من ابتغى أمرًا بمعْصِيَةٍ كان أبعَدَ مِمَّا رجا ، وأقرب مِمَّا اتَّقى ، وهذا في عملك في زواجك ، وفي صحّتك ، وفي بيتك وفي أولادك ، وفي سفرك وفي إقامتك ، وفي علاقاتك ، وفي كلّ شيء ، إن أطعتَ الله سبحانه وتعالى يزدك قوّة إلى قوتك ، ومن عاش تقيًا عاش قويًا ، ومن تعلَّم القرآن متَّعَهُ الله بعقله حتى يموت ، فهذه الدنيا وحدها مسْعدةٌ للمؤمن فكيف إذا جمعت الدنيا والآخرة ؟

ما أجمل الدِّين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلات بالرجل

***

قال تعالى :

(وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

(سورة هود)

من منكم يُصدِّق أنّ الذي يتولى عن الهُدى ، يتولى عن سماع الحق ، ويتولى عن طريق الله عز وجل، يتولى عن طاعة الله ، ويتولى عن محبَّته ، ويتولى عن الإقبال عليه ، يُعَدُّ عند الله مجرمًا بحَقّ نفسه قبل كلّ شيء ، وبحَقّ أهله وبحَق أولاده ، وبحق من حوله ، الذي يتولى عن طاعة الله ، وعن الإقبال عليه ، ويتولى عن محبّته يُعدُّ عند الله مجرما ، وقوله تعالى يؤكّد ذلك :

(وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ)

(سورة هود)

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ

1 ـ رد الجاهل والسفيه :

أي بِسَبَبِ قولك ، والمفسّرون قالوا : إنّ هذا هو الغباء بِعَينه ، فكلّ هذه البيّنات ، وكلّ هذه الدلائل وكلّ هذا المنطق ، وكلّ هذه الأسباب المؤدِّية لهذه النتائج ، وكلّ هذا الكون لم يُؤثّر فيهم ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ)

(سورة هود)

لذلك فإن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قال : " ما ناقشني جاهل إلا غلبني ! ولا ناقشْتُ عالمًا إلا غلبْتُهُ " ، وأبو حنيفة كان يُدَرِّس درسًا في الفقه ، ويبدو أنّ في رجله ألمًا شديدًا - وكذا تروي القصة - فكان يمدّها مضطرًّا فدخل عليه في هذه الأثناء رجل بادي الهيئة ، طويل القامة ، واسع المِنْكبَين ، فاسْتحيا منه ، وضم رجله إليه ، وكان موضوع الدرس صلاة الفجر ، وشرح الإمام أبو حنيفة ملابسات صلاة الفجر ، والفجر الصادق ، والفجر الكاذب وطلوع الشمس ، فهذا الرجل ذو الهيئة بادر الإمام وسأله : ويا سيّدي ، كيف نصلّي الصبح إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟! فقال الإمام أبو حنيفة : آن للإمام أبي حنيفة أن يمُدَّ رجله ثم قدَّمها !! قال تعالى :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

لو وضعتهم في دائرة المنطق لظهر لك الغباء المستحكم ، وإنها لشهوات أغلقت عليهم منافذ الحق ، وعلى قلوبهم أكِنَّة ، وفي آذانهم وقر ، وعلى عيونهم غِشاوة ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ(53)إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ)

(سورة هود)

إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ

أي هذا الذي تقوله هذيان ! وهذا الذي تقوله تلقيه على عوامهم ، إنما جاءك بسبب لوثة أصابتك من آلهتنا ، قال تعالى :

(قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

(سورة هود)

حتى النبي عليه الصلاة والسلام قالوا عنه ساحر ومجنون ، قال تعالى :

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2)وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3)وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

1 ـ الهدى أكبر نعمة :

هذه الآية تنطبق على كلّ مؤمن ، نعمة الهدى أثمنُ نعمة في الأرض ، إن كنت عرفت الله فلْيَفُتْك من الدنيا ما يفوتك ، وهناك كلمة كنتُ أقرأها عن سيّدنا أبي بكر يقْشعِرّ منها جلدي : ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قطّ ! تجد الناس مشققة قلوبهم ، موزعة أحلامهم وعقولهم ؛ زوجته على غير ما يريد ، نصيبه في الحياة أنَّه موظّف ، ودخلهُ محدود ، ودائمًا يشْكو ، أما العارفون بالله فلا يندمون على شيء فاتهم من الدنيا قطّ ، والدنيا جيفة ، وطلابها كلابها ، والدنيا دار من لا دار لها ، ولها يسعى من لا عقل له ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

يا شيبة بن ربيعة ، ويا عتبة بن ربيعة ، ويا أُميّة بن خلف ، أوَجَدْتم ما وعدكم ربكم حقًا ، فإنِّي وجدتُ ما وعدني ربِّي حقًا ! لقد كذَّبتموني وصدَّقني الناس ، وخذلتموني ، ونصرني الناس ، وأخرجتموني ،

وآواني الناس ، قالوا : يا رسول الله ، أتُخاطبُ قومًا جيَّفوا ؟! قال : ما أنتم بأسْمع بي منهم ، ولكنّهم لا يجيبونني ، إن نعمة الهدى لا تعدلها نعمة ! قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22))

(سورة يوسف)

أعطى الله سبحانه فرعون الملك ، وهو لا يحبّه ، وأعطى قارون المال ، وهو لا يحبّه وأعطى الأنبياء العلم والحكمة ، فَمِن أيِّ نوعٍ عطاؤُك أيّها الأخ الكريم ؟ وما استرذل الله عبدًا إلا حظرَ عليه العلم والأدب ، فعلامة خِذلان المسيء أن يحْجر عليه العلم والأدب ، فمن كان له مكان في هذا المجلس أو في أيّ مجلس ، ومن كان له رغبة في معرفة الحق ، فهذا هو الفلاح ، قال تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4))

(سورة المؤمنون)

وقال تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14))

(سورة الأعلى)

ولم يقل : قد أفلح الأقوياء ولا الأغنياء ! لأنَّ كلاً منهما سيموتون ، ولكن المؤمنين سيَسْعدون في الدنيا، وإلى الأبد ، أيضاً في جنات النعيم .

قال تعالى :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ

إذا كان الله معك فأنت الأقوى :

استمعوا إلى رجل واحدٍ يُواجه أُمَّةً بأكملها ، هات إيمانًا كإيمانه ، وخُذْ نصرًا كنَصْرِهِ ! واحد قال : فكيدوني جميعًا !! أنتم ومن معكم ، ومن وراءكم ومن يعينكم ، ومن على شاكلتكم ، ولا تأخذكم بي رأفة ، ولا إشفاق ، ولا تتردَّدوا ، ولا تنتظروا ، ولا تقلّبوا الأمر ، فلن تصلوا إلى ضري ، ولن فقدروا على إيذائي ، قال تعالى :

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

(سورة هود)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ قال تعالى :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ)

(سورة هود)

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا

1 - كل المخلوقات بيد الله :

كلمة دابة في هذا الموطن تعني كل مخلوقات الله تعالى على هذه الأرض ، و هذا الذي تخافون منه دابة ، وناصيتها بيَدِ الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ومؤدى هذه الآية أن كل دابة لا تتصرف حركة ولا سكنة إلا بمشيئة الله ، أما أنْ تقول : إنَّ الله سبحانه وتعالى قد يضعُ إنسانًا في النار ، وقد أمضى حياته كلّها في طاعته ، لأن الله يتصرَّف في ملكه بما شاء، فليس هذا مدلول الآية السابقة ، بل قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

2 - إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الله لا يظلم أحدًا :

ولن يظلم أحداً أياً كان ، فالله سبحانه وتعالى على كلّ شيء قدير ، وعلى صراط مستقيم في الوقت نفسه ، فهو قدير على وضْع الطائع في جهنّم لأنه قادر ، ولكنَّه على صراط مستقيم فلن يفعله ، إنِّي حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا ! أنْ يمضي الإنسان حياته كلّها في طاعته ، وقبل أن يموت بساعات يسبق عليه القول فيعْمل بعَمل أهل النار فيدخلها !! لِهذا الحديث تفسير آخر يحتاج هذا الحديث إلى تأويل ، فقد يمضي حياته كلّها منافقًا ، فهو ليس من أهل الجنَّة ، إنَّما يعمل بعَمل أهل الجنَّة فيما يبدو للناس ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه القول ، أيُّ قولٍ ؟ وهو أنَّ الله سبحانه وتعالى يكشف الإنسان على حقيقته ، إذاً فهو لم يكن مؤمنًا ، إنَّما كان يعمل بعمل

أهل الجنَّة ، ظاهراً وفيما يبدو للناس لكنَّه كان منافقًا ، ويرتزقُ بظاهِر دينه ، ويخفي في قلبه نفاقاً ، وفي نفسه كفراً ، فلا يمكن لله تعالى أن يظلم أحدًا ، قال تعالى :

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

وقال تعالى :

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر)

وقال تعالى :

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

وقال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(40))

(سورة العنكبوت)

ثمَّ تقول بعدها : إن الله يضعُ إنسانًا أمضى حياته كلّها في طاعته في النار ، وأنَّه يتصرَّف في ملكه بما شاء ، ولأنَّه لا يُسأل عما يفعل ! وهم يُسألون فهذه الآية تفسيرها أنَّ عدله يسكت الألسنة ، وأنّ إحسانه للعباد يُسكت الألسنة ، لذلك لا أحد يسأله فالأمر يتلخَّص كما يلي : مجموعة الحيوانات المخيفة مربوطة جميعًا بأزمّة متينة ، بيد إنسان حكيم خبير رحيم منصِفٍ ، هل تخاف منها أم تخاف منه ؟ تخاف منه ، لأنَّه إذا أرخى الزِّمام وصل هذا الوحش إليك ، فعلاقتي ليست مع هذا الحيوان ، لكن بمَن بيده زمامها ! قال تعالى :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ملخَّص هذه الآية ، هات لي إيمانًا كإيمان هذا النبي العظيم ، وخُذْ نصرًا وتأييدًا ، وحفظًا ورعايةً كما أخذ هو ، قال تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

(سورة هود)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ

إما أن تؤمن أو يؤمن غيرُك :

إن آمنتَ فلك ، وإن لم تؤمن فعليك ، إن آمنت تستفِد ، إن لم تؤمن يأتِ من يؤمن فيستفيد ، فالقضيَّة متعلّقة بك ، قال تعالى :

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(17))

(سورة الحجرات)

بعض العارفين بالله يقول : يروح الزاهد ، ويأتي العاشق ! فإن تولّوا أي تتولّوا ، هناك تاءٌ محذوفة ، قال تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

(سورة هود)

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ

إذا جاء العذاب نجّى الله من يستحق في الدنيا والآخرة :

فلا ظلم ، ولا بلاء عام ، فالبلاء خاص ، والرحمة خاصَّة ، ونجاهم الله مرَّتين كما في الآية ، وقد قال العلماء : مرَّة في الدنيا ، ومرَّة في الآخرة .

لما جاء أمرنا أي الهلاك والريح العقيم نجينا هودًا ومن معه ، وهذا في الدنيا ، ونجيناهم من عذاب يوم غليظ ؛ وهذا يوم القيامة، فكلّ مؤمن له نجاتان ؛ نجاة في الدنيا ، ونجاة من عذاب غليظ يوم القيامة ، قال تعالى :

(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا)

(سورة هود)

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا

1 ـ عادٌ كفروا بالله وعصوا رسله :

حُمِلت هذه الآية على الكُفر ، أيْ كفروا بآيات ربِّهم ، قال تعالى :

(وَعَصَوْا رُسُلَهُ)

(سورة هود)

2 ـ الكفر برسول واحد كفرٌ بالجميع :

هناك سؤال : جاءهم رسول واحد ، فلماذا قال الله سبحانه وتعالى : عصوا رسله ؟ لأنّك إذا أطعت رسولاً واحدًا ، فكأنّك أطعت رُسل الله كلّهم ، وإن عصَيتَ رسولا واحدًا فكأنّك عصيت جميع الرسل ؛ لأنَّ دعوتهم واحدة ، لا نفرّق بين أحد من رسله .

وتلك عاد وجاء اسم الإشارة مؤنّثاً (تلك)! لأنّه حُمِل على القبيلة أي قبيلة عاد ، قال تعالى :

(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

(سورة هود)

3 ـ من هو العنيد ؟

من هو العنيد ؟ هذه صفة مذمومة في الإنسان ، فأحيانًا الإنسان لا يتراجع عن غلطه مع أنه يرى عمله، ويرعاه مسيئًا وغير صحيح ، ولا جدوى منه ، يربط هذا العمل بكَرامته فلا يتراجع ، هذا عنيد ، والعنيد من صفات الجبابرة قال تعالى :

(وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(59)وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً)

(سورة هود)

4 ـ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً

أُتبعُوا لعنةً ، ففي زواجهم ملعونين ، وفي عملهم ملعونين ، وفي أفراحهم وفي أتراحهم ملعونين ، وكذا في نزهاتهم ، حيثما تحرّك فهو ملعون ، أيْ بعيد عن الله تعالى ، ومطرود من رحمته ، فاللَّعْن يتْبعهم كظلّهم ، قال تعالى :

(وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)

خاتمة :

هناك نقاط دقيقة في هذه السورة أتمنى أن تعودوا إليها في البيت ، وأن تتذاكروا في المعاني التي وردت في هذه الآية مع أهليكم ، ومع أصدقائكم ، مع من يلوذ بكم ، بحسب القرابة أو الجوار ، لأنَّكم إن عُدتم بهذه إلى البيت زادَت رسوخًا ، وانتقلت من عقولكم إلى قلوبكم ، فإذا انتقلت إلى القلوب كانت هدى ونورًا في الحياة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (09-16): تفسير الآيات 61 – 68
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-03-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الإخوة المؤمنون ، في سورة هود وفي قصة سيدنا نوح عليه السلام جاءت الآياتُ الأخيرة تنبئ أن هناك أُمَماً سوف يمتِّعهم الله ، ثم يمسهم عذاب أليم .

قد يرى الإنسانُ أمةً بمقياس العصر راقيةً ، مشكلاتها معظمُها محلولة ، رخاءٌ ودخلٌ كبير ، آلاتٌ حديثة ، ورفاهٌ منقطع النظير ، إن كانت هذه الأمة إنما بَنَتْ رفاهها ودخلها الكبير ، واستمتاعها بالحياة على ظلم أو على قهر للشعوب الأخرى فربّنا سبحانه وتعالى يقول :

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(48))

(سورة هود)

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً

1 ـ قصة سيدنا صالح مع قومه :

من هذه الأمم التي متَّعها الله سبحانه و تعالى ، ثم مسَّها عذاب أليم هذه الأمة التي أرسل الله سبحانه وتعالى إليها نبيًّا كريما هو سيدنا صالح عليه السلام ، فقال تعالى :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً)

(سورة هود)

بعد أن أهلك اللهُ عادا ، وقد أرسل فيهم سيدنا هودا عليه السلام ، و بعد أن أهلكهم جاء من بعدهم قومُ ثمود ، فحينما استعلوا في الأرض ، و ضلوا ، وأضلوا ، وتاهوا عن طريق الحق ، أرسل الله إليهم أخاهم صالحاً .

2 ـ كل نبيٍّ يُبعث من قومه :

حدّثتكم في الدرس الماضي كيف أنّ حكمة الله سبحانه وتعالى تتجلى في أن يكون النبي الرسول من بني البشر ، تربطه بقَومه الأخوّة الإنسانيّة ، وكيف أنَّ قرابة أخرى يجب أن تربطه بقومه ؟ يجب أن يكون منهم ، نشأ بين ظهرانيهم ، رأوْهُ ، ورأوا صدقه ، ورأوا أمانته ورأوا عفافه ، وعرفوا نسبه ، واطمأنوا إليه ، قال تعالى :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

3 ـ كلمة أجمع عليها كلّ الأنبياء : اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ

لعل أحدنا يظنّ أنّ سيّدنا صالحًا عليه الصلاة والسلام قال لقومه هذه الكلمة ! هذا الذي قاله ملخَّصٌ لِحديث طويل ، ولأدلة طويلة ، ولِجُزئيات ولتفصيلات ، والذي دعاهم إليه يتلخَّص بهذه الكلمات النيِّرات ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

أي ملخّص دعوته أن أعبد الله ، واعرفوه وأطيعوهُ ثانيًا ، كي تسْعدوا بقُربه ثالثًا ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

أموركم كلّها بيده ، في هذه الكلمة شيء نظري وعَقَدي ، وشيء سُلوكي فلا بدّ أن تؤمن أولاً أنَّه لا إله إلا الله ، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : من الآية 19)

4 ـ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قولٌ وعملٌ ، وليس كلاما وتمنيات :

بعض الناس يظنّ إذا قالها فقط دخل الجنَّة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((من قال : لا إله إلا الله بحَقّها دخل الجنَّة ، قيل : وما حقّها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم ، وإسناده لا يصح]

يجب أن يكون واضحًا في أذهان الإخوة الأكارم أنَّ كلمة تقولها لا تستحقّ الجنَّة عليها ، بشَكل عابر ، وأنت عاداتك ليْست إسلاميّة ، وتصرّفاتك ليست إسلاميّة ، وسلوكك ليس إسلاميًا ، تنساق إلى نفسك ،

وتتمنّى على الله الأماني ، وتعطي نفسك هواها ، ولا تنضبط بالشَّرع ، فَمِثل هذا الإنسان ولو قال : لا إله إلا الله ، لا يستحقّ بها الجنَّة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((من قال : لا إله إلا الله بحَقّها دخل الجنَّة ، قيل : وما حقّها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم ، وإسناده لا يصح]

في مقاييس الأرض هل يكفي أن يقول الطالب كلمة لينال بها درجة دكتوراه ؟! يقول كلمة ، وينال بها شهادة عليا يستحقّ بها التبجيل والتعظيم في مجتمعه ؟ هذا مستحيل ، هذا في مقياس البشر ، ألا إنّ سلعة الله غالية ، هذا الذي يظنّ الإسلام كلمات تردَّد وطُقوس تمارس وهو مع شهواته ، هذا بعيد بُعْد الأرض عن السماء عن أن يفْهم الدِّين ، الدِّين انضِباط وسُموّ روحي ، الدِّين عمل وتضحية ، والدِّين ورع ، والدين معاملة ، والدِّين صِدْق ، أن يكتفي الإنسان بقول : لا إله إلا الله ، فهذا فهْم ساذج لا يتناسب مع عظمة الله ، ولا مع كمال الله ، يؤكّد هذا قوله تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : من الآية 92)

من وقتك الثمين ، ومن مالك الذي حصّلتَهُ بعَرق جبينك ، ومن الشيء الغالي عليك ، والعزيز عليك ، هذا يجب أن تنفقهُ في سبيل الله ، أما أن تُتْبعَ نفسك هواها ، وأن تعيش مع الناس بعاداتهم وتقاليدهم ومرحهم وطربهم ، وتستمعُ ما يستمعون ، وتنظر إلى ما ينظرون ، وتلهو كما يلْهون ، وتستيقظ كما يستيقظون ، ويعنيك ما يعنيهم ، ويؤْلمُكَ ما يؤلمهم ، وثم تقول : أنا مسلم ، وتتمنى على الله الأمانيّ ! الله سبحانه وتعالى يقول :

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ)

(سورة النساء : من الآية 123)

وقال تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة : من الآية 18)

وقال تعالى :

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(111))

(سورة البقرة)

وقال تعالى :

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(80))

(سورة البقرة)

فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ

هذا كلام الله ، وهو غاية في الوضوح ، ولكيلا يغترّ الإنسان بالله سبحانه ، فقد قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

لا تغترّ بالدنيا ، أيْ إياك أن تنظر إليها بحَجم أكبر من حجمها ؛ هي يسيرة وعند الله صغيرة ، ولا شأن لها ، سريعة الزوال ، وشيكة الانتقال ، لا تدوم لإنسان ، قال تعالى :

(كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

(سورة الكهف)

إياك أن تنظر إلى الدنيا بحَجم كبير ! وإياك أن تنظر إلى الدنيا فتملأ قلبك ! إياك أن يكون علمك منتهيًا عند الدنيا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ، ولا مبلغ علمنا ، إياك أن تجعلها في قلبك ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

(سورة فاطر)

وأما معنى قوله :

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

فمعناه : إياك أن تسمح للشيطان أن يوهِمَك عن الله أشياء ليسَتْ صحيحة ، إذا قال لك : طالبٌ كسول : إنّ هذا الأستاذ إذا قدَّمْت له هديَّة في آخر العام يقدِّم لك الأسئلة قبل يوم ! هذا كلامٌ باطل ، والأستاذ فوق ذلك ، وأرقى من ذلك ، وهذا تغرير بك ، وهذا سوء معرفة بالأستاذ ، أو أن يقول لك : إنَّ هذا القاضي يرتشي ، وبهَدِيّة بسيطة يُصْدر حُكْمًا إلى جانبك ، فهذا كذلك كلام ساذج ، فالقاضي فوق ذلك ، وأنزهُ من ذلك ، وهذا معنى قوله تعالى :

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

إياك أن تسمح للشيطان أن يوهمك أنَّ الله على خلاف ما جاء في كتاب الله ، قال تعالى :

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40)عَنْ الْمُجْرِمِينَ (41)مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42)قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

(سورة المدثر)

وقال تعالى :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

هذا هو الحق ، إنَّ لكل حسنة ثوابًا ، ولكل سيِّئة عقابا ، ليس هذا من باب التشديد ، ولكن هذا من باب الواقع ، فلذلك قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

ملخّص الرسالة اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، بدَل أن تقول : لا إله إلا الله ، فاعلم أنَّه لا إله إلا الله ، شتّان بين القول والعِلم ، العِلم يحتاج إلى بحث ، وتدقيق ، ملخَّص دعوة سيّدنا صالح أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

قال تعالى :

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ)

(سورة هود)

هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

1 ـ أصل خَلق الإنسان من التراب :

أي أنشأكم أصْلاً ، وأنشأكم أفرادًا ، أصْلاً سيّدنا آدم إنَّما خلقه الله من طين الأرض ، قال تعالى :

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(29))

(سورة الحجر)

أما أنت أيها الإنسان فقد خُلِقت من تراب الأرض ، حينما يولدُ الإنسان لا يزيدُ وزنهُ على ثلاثة كيلو غرامات ، وكلّ مِنَّا وزنه ستون فما فوق ، هذا الوزن من أين جاء ؟ من الطعام والشراب ، وهذا الطعام والشراب من أين جاء ؟ من التراب ، الأرض تنبت هذه الفواكه والخضراوات والكلأ الذي يأكله الحيوان ، ونأكله نحن في النِّهاية ، إذًا الله سبحانه وتعالى خلقنا من تراب أصلاً وأفرادًا ، قال تعالى :

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى(55))

(سورة طه)

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ)

(سورة هود)

هو الذي أنشأكم ، وجعلكم تُعمرون هذه الأرض ، أعطاكم هذا الفِكْر ، بِهِ بحثتم عن طعامكم ، وبه زرعتم الأرض ، وألقيتم الحبّ في الأرض حصدتم النبات ، درستم القمح ، عجنتم الطحين ، خبزْتموه خبزًا ، كلّ هذا عن طريق هذا الفِكر الذي وهبهُ الله إيانا ، فعن طريق الفِكر نسجنا وغزلْنا ولبسْنا ، وعن طريق الفِكر سكنَّا ، وأعطانا إمكانيّة الاستفادة ممَّا خلق الله في الأرض ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود)

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا

1 - الاستعمار بالمفهوم القرآني والمعنى الهامشي :

أي جعلكم تعمرونها ، ألْق نظرةً على مدينة ترى فيها بنيانًا ، وفيها طرقات وفيها جُسور ، وفيها معامل وفيها مدارس ، وفيها جامعات وفيها دوائر حكوميّة ، وفيها أنظمة ، وفيها مستودعات وفيها وقود ، وفيها أغذية ، وفيها ملبوسات ، استعمركم فيها ، هؤلاء الذين قالوا : الإنسان أصلهُ قِرْد ، أنظر إلى مجتمع القِردَة هل تطوَّر مجتمعهم من وضع إلى وضع عبر آلاف السنين ؟ القرد هو القرد ، أما الإنسان فتطوَّر في أسلوب حياته ومعاشه فقط ، قال تعالى :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود)

وعلى سبيل المثال : ركب الطائرة ، و وصل إلى القمر ، و غاص في أعماق البحار ، ووصل إلى قيعان البحار ، و تعرّف إلى بني جنسه في كل مكان ، إلى المخلوقات ، وعرف الحيوانات و النباتات ، و بيَّن ووصف ، و ألَّف ودرَّس ، قال تعالى :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود)

فكلمة الاستعمار هنا لها معنى لغوي ، وبالمناسبة الكلمات قد يكون لها معنى لغوي في الأصل ، وقد تكتسب مع الأيام معنى هامشيًّا ، فالاستعمار بمعناها الهامشي ؛ أن تأتي قوةٌ غاشمة تحتلُّ أرضًا لتأخذ خيراتها ، و تقهر أبناءها ، هذا المعنى الهامشي الذي أصاب هذه الكلمة ، ولكنَّ الاستعمار بالمعنى القرآني هو إعمارُ الأرض ، قال تعالى

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود)

انظُر إلى البيت ، له أساسات وهندسة ، هناك هندسة تصميم ، وهندسة تنفيذ ، وهندسة مدنية ، وهندسة جمالية ، وهناك بلاط وملاط ، وطلاء و مواسير ماء ، و تمديدات كهربائية ، و تزيينات وأساس ، وهذا كلُّه بفضل الله سبحانه وتعالى ، هو الذي أعطى الإنسان هذه المواهب ، و جعله يحتاج إلى ملايين الأشياء ، وجعله يتقن صنعة أو أكثر ، ويحتاج لأخيه الإنسان في صنعة أخرى ، هكذا طبيعة الحياة .

2 ـ لا يستطيع الإنسان أن يحيا وحده على الأرض :

استعمركم فيها ، فلا يستطيع الإنسان أن يحيا وحده فيها ، ولو كُلِّفتَ أن تصنع رغيفَ خبز ، تصوَّر ؛ يجب أن تشتري أرضًا ، ويجب أن تستخرج الحديد من الأرض ، ويجب أن تصنع محراثا ، ويجب أن تقتنيَ بقرةً أو ثورا ، ويجب أن تحرث الأرض ، وأن تلقيَ الحَبَّ ، وأن تسقيَ الزرع ، وأن تحصد ، وأن تدرس الحصاد ، وأن تنظّف ، وأن تطحن الحبَّ ، وأن تعجن ، هذا شيءٌ مستحيل أن تفعله وحدك ، لكنك تشتري الخبز جاهزا ، آلاف الرجال ساهموا في صنع الرغيف ، كذلك الثياب ، فالقطن و الصوف جُمِع كل منهما ، وغُسِل ، وصار غزلا ، وصُدِّرَ ، وصار خيوطا ونُسج ، وخاطه لك الخيَّاطُ ، ولبسته أنت ، قال تعالى :

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود)

هذه آية من آيات الله الكبيرة ، كل هذا يُقدَّم لك ، و أنت مكرَّم تسكن في بيت ، وتنام على سرير ، وعلى السرير غطاء ، من صوف شتاءً ، ومن قطن صيفا ، ولك زوجة ، ولك أولاد ، و تأكل ، و تشرب ، ولك عمل تكسب منه رزقك ، و تتعامل مع الآخرين ، قال تعالى :

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

1 ـ اقتران الاستغفار بالتوبة دليل الصدق :

يعني اطلبوا منه الشفاء ، و طهِّروا أنفسكم بالقرب منه ، واستقيموا على هذا ، ولا تكن هدايتك ومضات ، فإن هذا الذي يتوب ، ثم ينقض التوبة ، يهتدي ثم ينتكس ، هذا لا خلاق له عند الله ، و إذا تعاملت مع الله سبحانه وتعالى فكنْ صادقا ، قال تعالى :

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23))

(سورة الأحزاب)

هذا قرار تتَّخذه مع الله سبحانه وتعالى ، مع الله رب العالمين ، أتعود عنه ؟ أتندم عليه ؟ أتغيِّر ؟ أتبدِّل؟ ضعاف الإيمان يعبدون الله على حرف ، فإن أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم مصيبة انقلبوا على رؤوسهم ، وذلك هو الخسران المبين ، أما المؤمن فلا يغيِّر ولا يبدِّل ، قال تعالى :

(فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود)

أقبلوا عليه ، و طهِّروا أنفسكم بالقرب منه ، ثم تابعوا الطريق إلى نهايته ، قال تعالى :

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ)

(سورة العنكبوت)

قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)

(سورة هود)

إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيب

1 ـ معنى : قَرِيبٌ مُجِيب

حبَّذا لو تُدرس هذه الأسماء الحسنى دراسة دقيقة ، قَرِيبٌ مُجِيبٌ : فقريب اسم واضح ، و مجيب أيضا واضح المعنى ، أما قريب مجيب فإليك أيضاً حالها ، هناك من يتخَّذ شريكا من دون الله ، هو قريب ، و لكنه لا يجيبك عند الحاجة ، إما لأنه لا يستطيع ، أو لأنه لا يريد ، قد تستجير بإنسان ، و يقول لك : لا أستطيع ، هذا فوق إمكاناتي ، و قد يستطيع لا يجيبك لسبب أو لآخر ، إنه قريب منك ، وقد يكون المجيب بعيدا عنك ، و لو أنه سمعه لأجابك ، ولكنه لن يسمعك ، قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)

(سورة هود)

قريب منك ، قال تعالى :

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(16))

(سورة ق)

2 ـ الله قريب من العبد من كلِّ شيء :

إذا أمسكتَ آلة تعمل على الكهرباء ، وضممتها إلى صدرك ، وأحطت بها ، أنت أقرب إليها أم الكهرباء ؟ الكهرباء التي في داخلها أقرب منك إليك ، ولو فرضنا مسجلة لو أمسكتها بيديك الكهرباء التي بداخلها تحرِّك أقراصها أقرب إليها منك ، فربنا سبحانه وتعالى أقرب إلى الإنسان من روحه ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(16))

(سورة ق)

و قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

فربنا عز وجل قريب و مجيب ، قال تعالى :

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر : من الآية 60)

من لا يدعوني أغضب عليه ، و إن الله يحب الملِحِّين في الدعاء ، و قال تعالى :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

(سورة البقرة)

قال تعالى :

(ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا)

(سورة هود)

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا

1 ـ هذا ما قاله قوم صالح لنبيهم :

أي حينما دعوتنا إلى عبادة الله تغيّرتْ نظرتُنا إليك ، كنتَ قبل هذه الدعوة معقد الآمال ، وكنا نتوسَّم

فيك الصلاح ، وكنا نعلّق عليك الآمال ، و كنا ننتظر منك أن تكون معينا لنا ، أمَا وقد دعوتنا إلى أن نعبد اللهَ ، و ندع ما يعبد آباؤنا فقد خيَّبتَ ظننا ، فالإنسان الكافر هو الإنسان الكافر لا يتغيَّر ، و لا يتبدَّل ، هذا القول الذي قاله قومُ صالح لسيدنا صالح حينما دعاهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

قصة إسلام عبد الله بن سلام وموقف اليهود منه : حادثة وعِبرٌ :

هذا القول ذكَّرني بقصة كنتُ قد ألقيتها على الإخوة في بعض دروس الأحد ، وهي قصة عبد الله بن سلام ، هذا رجل من اليهود أدرك بعثة النبيِّ عليه الصلاة و السلام ، لا أريد أن أطيل عليكم ، سأقرأ لكم قصته كما رواها هو يقول عبد الله بن سلام : << لما سمعت بظهور النبي صلى الله عليه و سلم أخذت أتحرَّى عن اسمه ونسبه وصفاته وزمانه ومكانه ، وأطابق بينها وبين ما هو مطوّر من الكتب عندنا ، حتى استيقنتُ من نبوَّته ، أنظُر إلى صدقه ؛ يبحث ، ويدقّق ، ويحقّق ، ويتأمل ، ويسأل حتى استيقنتُ من نبوَّته ، وتثبَّتُ من صدق دعوته ، ثم كتمتُ ذلك عن اليهود ، وعقلتُ لساني عن التكلُّم فيه، إلى أن كان اليومُ الذي خرج فيه النبيُّ عليه الصلاة والسلام من مكة قاصدا المدينة ، فلما بلغ يثرب ، ونزل بقباء ، أقبل رجلٌ علينا ، وجعل ينادي في الناس معلنا قدومَه ، وكنتُ ساعتئذٍ في رأس نخلة لي أعمل فيها ، و كانت عمَّتي خالدة بنتُ الحارث جالسةً تحت النخلة ، فما أن سمعتُ الخبرَ حتَّى هتفتُ اللهُ أكبرُ ، فقالت لي عمتي حين سمعتْ تكبيري : خيَّبك اللهُ ، و اللهِ لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادما ما فعلتَ شيئا فوق ذلك ، فقلت لها : أيْ عمَّتي ، إنه واللهِ أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، وقد بُعِث بما بُعث به ، فسكتت ، وقالت : أهو النبيُّ الذي كنتم تخبروننا أنه يُبعَث مصدِّقا لمَن قبله ، و متمِّما لرسالات ربه ؟ فقلتُ : نعَم ، قالت : فذلك إذًا ، ثم مضيتُ من توِّي إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، فرأيتُ الناس يزدحمون ببابه ، فزاحمتُهم حتى صِرتُ قريبا منه ، فجعلت أتفرَّس فيه ، وأتملَّى منه ، فأيقنتُ أن وجهه ليس بوجه كذَّاب ، ثم دنوتُ منه ، و شهدتُ أنه لا إله إلا الله ، و أن محمدا رسول الله، فالتفت إليَّ ، وقال : ما اسمُك ؟ فقلت : الحُصين بن سلام فقال : لا بل أنت عبد الله بن سلام ـ هذا من عادة النبيِّ كان يبدِّل الأسماءَ إلى أسماء أحسن منها ـ فقلتُ : نعم عبد الله بن سلام ، والذي بعثك بالحق ما أحبُّ أنَّ ليَ به اسما آخر بعد اليوم ، ثم انصرفتُ من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتي ، و دعوتُ زوجتي وأولادي وأهلي إلى الإسلام ، فأسلموا جميعا ، وأسلمتْ معهم عمَّتي خالدة ، وكانت

شيخة كبيرة ، ثم إني قلتُ لهم : أكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود ، حتى آذَنَ لكم ، فقالوا : نعم ، ثم رجعتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلتُ له : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهتانٍ وباطلٍ ، وإني أحب أن تدعوَ وجوههم إليك ، وأن تسترني عنهم في حجرة من حجراتك ، ثم تسألهم عن منزلتي عندهم قبل أن يعلموا بإسلامي ، ثم تدعوهم إلى الإسلام ، فإنهم إن علموا أني أسلمتُ عابوني ، و رموني بكلّ ناقصة ، وبهتوني ، فأدخلني النبيُّ عليه الصلاة و السلام في بعض حجراته ، ثم دعاهم إليه، وأخذ يحضُّهم على الإسلام ، و يحبِّب إليهم الإيمان ، ويذكِّرهم بما عرفوه في كتبهم من أمره ، فجعلوا يجادلونه بالباطل ، ويمارونه في الحق ، و أنا أسمع ، فلما يئس من إيمانهم قال لهم : ما منزلة الحُصين بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا ، وابن حبرنا وعالمنا ، فقال : أفرأيتم إن أسلم أفتسلمون ؟ قالوا : حاش لله ما كان ليسلم ، أعاذه اللهُ من أن يسلم ، فخرجتُ إليهم ، وقلت لهم : يا معشر اليهود ، اتقوا اللهَ ، واقبلوا ما جاءكم به محمَّدٌ ، فو اللهِ إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وتجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته ، وإني أشهد أنه رسول الله ، وأؤمن به ، وأصدِّقه ، وأعرفه ، فقالوا : كذبتَ ، واللهِ إنك لشرُّنا ، وابن شرنا ، وجاهلنا وابن جاهلنا ، و ما تركوا عيبا إلا عابوني به ـ فالكافر هو الكافر ـ فقلتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أقل لك إن اليهود قوم بهتان و باطل ، و إنهم أهل غدر و فجور >> ، وهذا يعني أن أحدهم يمدح ذكاءك ، و يمدح علمك ما دمتَ متحلّلا من الدين ، فإذا عرف أنك ديِّنٌ قال : خيَّبتَ ظني فيك ، هذا ما يقوله الناس ، والكافر هو الكافر، قال تعالى :

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(سورة هود)

أأنت عبدُ التقاليد ؟ أنت عبد البيئة ، أنت عبد المجتمع أم أنت عبد الله ؟ تعس عبد الدرهم و الدينار تعس عبد البطن ، تعس عبد الفرج تعس عبد الخميصة ، و سعِد عبد الله ، أنت عبد مَنْ ؟ هذا الذي يعصي اللهَ من أجل التقاليد ، ويعصي اللهَ من أجل ما هو معروف عند الناس ، هذا الذي يستحيي من الناس ، ولا يستحيي من الله ، هذا الذي يخشى الناسَ ، و لا يخشى الله ، هذا لا يعرف اللهَ إطلاقا ، قال تعالى :

(وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

2 ـ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ

نحن نشكُّ في دعوتك ونحن لا نصدِّق ما جئتَ به ، ونحن نعبد ما يعبد آباؤنا ، ونحن متعلّقون بالتقاليد والعادات والتراث والقيم الجاهلية ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ)

(سورة هود)

فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُه

1 ـ لا أحدَ ينصرك من الله :

مَنْ يضمن لي إن عصيتُ اللهَ أن ينصرني ؟ أموري كلُّها بيد الله سبحانه وتعالى ، ومن يستطيع أن ينصرني من الله ؟ و من يستطيع أن يمنعني من الله ؟

أحدُ الولاة جاءه رجلٌ تابعيٌّ جليل ، وكانت قد جاءت الوالي رسالةٌ من أمير المؤمنين تأمره بما لا يرضي اللهَ ، فقال : يا أيها العالِم الجليل ، ماذا أفعل ، هذا أمر من يزيد أمير المؤمنين يأمر بما لا يرضي اللهَ أفأطيعه أم أعصيه ؟ فأجابه التابعيُّ بكلماتٍ وجيزات ، قال : " إن اللهَ يمنعك من يزيد ، ولكنَّ يزيد لا يمنعك من الله " ، فإذا أطعتَ صديقَك ـ وجه التقريب ـ وعصيتَ اللهَ سبحانه وتعالى فإني محق ، فإذا جاء المرضُ العُضالُ مثلاً فماذا يفعل الصديقُ ؟! قد يتكرَّم عليك بالزيارة ، وإن كان صديقا حميما قد يزورك مرَّتين ، وإن كان أشدَّ من ذلك قد يأتي معه بهديَّةٍ ، وإذا جاءت المنيَّةُ يبعث لك بإكليل وردٍ ، هذا كلُّ ما عنده .

2 ـ كلُّ شيء بيد الله :

أما من يملك لك الصِّحة ؟ ومن يملك الحياة السعيدة في الدنيا ؟ ومن يملك لك قوَّةً ؟ ومن يملك لك رخاءً ؟ اللهُ سبحانه وتعالى ، إنَّ الله يمنعك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ، فلذلك قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ)

(سورة هود)

مَن يستطيع أن يحول بيني وبين عقاب الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد)

ومَن يستطيع أن يمنع عني قضاءَ الله ، قال تعالى :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد)

و قال تعالى :

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر)

و إذا أعطاك فمن يمنعه ، ثم مَن يعطي إذا هو منعك ، قال تعالى :

(فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)

(سورة هود)

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ

أي ، أنا إن اتَّبعتُ أهواءكم ، واستجبتُ لكم ، وتخليتُ عن هذه الدعوة ، وعصيتُ اللهَ لأرضيكم أكُن من الخاسرين ، ضع في ذهنك قوله تعالى :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد)

ضعْ في ذهنك هذه الآية ، قال تعالى :

(فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(49))

(سورة هود)

مهما دارت الأيامُ ، فإن المؤمن في النهاية هو الرابحُ ، وكفاك على عدوِّك نصرا أنه في معصية الله ، وما دمتَ في طاعة وعدوُّك في معصية فأنت منتصر عليه لا محالة .

وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً)

(سورة هود)

1 ـ الناقة معجزة صالح :

يبدو أنهم أصرُّوا على كفرهم ، و استعلوا وركبوا رؤوسهم ، واتَّهموا نبيَّهم الكريم بالكذب والأغراض الشخصية ، وقالوا : له أغراض شخصية من هذه الدعوة ، إنه يريد أن يستعليَ علينا ، وأن يتفضَّل

علينا ، وأرادوا أن يتحدَّوه ، وأرادوا أن يضعوه في وضعٍ حرجٍ ، إن كنتَ تدَّعي أنك رسول الله ، وهذا مستحيل ، إن كنتَ كذلك فأخرج من هذا الجبل ناقة ، فدعا الله تعالى أن تَخرُج الناقة ، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعوته ليثبت نبوَّته ورسالته ، فانفلق الجبلُ فخرجت منه ناقةٌ عظيمة ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً)

(سورة هود)

حسبكم الكونُ معجزة :

وبالمناسبة حسبكم الكونُ معجزة ، فالكون بوضعه الطبيعي ، والأرض بدورانها على نفسها ، والشمس بإشراقها وغيابها ، والليل والنهار ، والأمطار والبحار ، والجبال ، خلقُ الإنسان ، وخلق الحيوان ، وخلق النبات ، هذا الكون هو أكبر معجزة ، فإذا طلب الإنسانُ بعدها معجزة ، و لم يؤمن بها استحقَّ الهلاك الفوري ، لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا يهلك إنسانا وفيه بقيَّة من أملٍ لهدايته ، إذا طلب شيئا خارقا للعادة شيئا فوق التصوُّر شيئا غير طبيعي ، و كان قد علَّق إيمانه على هذا الشيء ، وجاء النبيُّ بهذا الشيء ، ولم يؤمن به فلا معنى لحياته إطلاقا ، واستنفد الله سبحانه و تعالى معه كلَّ الفرص ، لذلك حقَّ هلاكُه ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً)

(سورة هود)

لكنَّ هذه الناقة التي طلبوها كانت تأكل في أرض الله ، وكانت قد شربتْ في يوم واحد الماء كلَّه ، وهذه معجزة أخرى ، وتركتْ لقوم صالح الماءَ في اليوم التالي ، قال تعالى :

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)

(سورة هود)

2 ـ كيف تعامل قوم صالح مع الناقة ؟

طلبوا الناقة متحدِّين ، وجاءت الناقة ، ولم يعجبهم ذلك ، وأرادوا أن يقتلوها ، خاف عليهم نبيُّهم صالحٌ عليه الصلاة والسلام ، خاف عليهم إن قتلوها أن يهلكهم الله سبحانه وتعالى هلاكا مُبرَماً ، قال تعالى :

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة هود)

هنا سؤال ، قوم صالح جميعا عقروها ، كيف ؟ الذي عقرها واحدٌ ، والعلماءُ استنبطوا ، أنه إذا أقرَّ الإنسان عملا شائنا فقد شرك الفاعل في الإثم ، وأشقى قوم صالح عقَر الناقة ، وإقرارهم لهذا العمل

يعني أنهم كانوا شركاءَ في الإثم و الجريمة ، لذلك سيدنا عمر استنبط أن أهل قرية لو ائتمروا على قتل واحدٍ لقتلَّهم جميعا ، لأنهم جميعا قتلة ، لذلك قال تعالى :

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة هود)

ربنا سبحانه و تعالى أي أن شقيَّ قوم صالح حينما عقر الناقة عبَّر عنهم جميعا ، وحقَّق آمالهم جميعا ، وأرضاهم جميعا لأنهم دفعوه جميعا ، فجاءت الآية ، قال تعالى :

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة هود)

ثم قال تعالى :

(فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ)

(سورة هود)

3 ـ مصير قوم صالح بعد عقر الناقة : فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ

من طلب معجزةً ثم جاءته فكفر بها استحق العذاب :

انتهى ، بعد أن عقروا الناقة ، وعلى وجه التقريب تقول : يا رب إنْ نجحت واللهِ لأصلِّين ، فينجح بمعجزة ، ويكون ضعيفا في هذه المادة ، ويأتيه سؤالٌ يتوقَّعه ، و قد درسه ، و لما يأتي السؤال كما يتوقع و ينجح و لا يصلي يستحق العذاب الأليم ، ولئن أنجيتني من هذا المرض لأكونن طائعا لك يا رب ، و ينجيه الله من هذا المرض ، ويخلف وعده الله ، لذلك يأتي العذاب الأليم ، فإذا علَّق الإنسانُ إيمانه على شيء من الله عز وجل ، و جاء هذا الشيءُ فلم يؤمن ، و لم يتُبْ فلينتظرْ مصيبةً كبيرةً قياسا على هذه الحقيقة ، قال تعالى :

(فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ)

(سورة هود)

أي استحقوا الهلاك ، وقُضِي الأمرُ ، فبقيَ الموضوع ثلاثة أيام ، العلماء وقفوا عند هذا الإيمان حتى بعد أن عقروا الناقة ، ولو أنهم ندموا على فعلتهم ، وتابوا إلى ربهم لعفا اللهُ عنهم ، هذه مهلةٌ أخيرة ، كفروا ، و استكبروا ، و استعلوا ، و تحدَّوا ، و طلبوا معجزة في ظنهم أنها مستحيلة ، هل تخرج ناقة من الجبل ، خرجتْ ، فلم يعجبهم ذلك ، و لم يرضوا بها لماذا ؟ لأنها بدأت تجلب ضعافَ الناس إلى سيدنا صالح ، وبدأت تزلزل عقائدهم بكفرهم ، و بدأت تشيع في الناس أن هذا نبيٌّ عظيم ، و لم يرضوا

أن تبقى هذه الآية مستمرة ، ولم يرضوا أن ينصرف الناسُ إلى نبيِّهم الكريم ، عقروها فاستحقوا الهلاكَ، وأعطاهم اللهُ مهلة ثلاثة أيامٍ ، و لو أنهم تابوا ، و عادوا ، و رجعوا ، و أنابوا لقبلهم اللهُ ، فإذا قال العبدُ : يا رب ، و هو راكع قال : لبَّيك يا عبدي ، فإذا قال العبد : يا رب ، وهو ساجد قال : لبِّيك يا عبدي ، فإذا قال العبدُ : يا رب ، وهو عاصٍ قال : لبَّيك ، ثم لبَّيك ، ثم لبَّيك ، ولو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطَّعت أوصالُهم من حبِّي ، ولماتوا شوقا إليَّ ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف إرادتي بالمقبلين ؟ قال تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

(سورة هود)

جاء وقت إنجاء صالح ومن آمن معه :

مَن كان مع الله العزيز كان عزيزا :

كنْ مع القويِّ العزيز تكنْ عزيزا ، و تنجُ من كلُّ همٍّ و ألمٍ :

اجعلِ لـربِّك كلَّ عزِّك يستقرُّ و يثـبت

فإذا اعتززْتَ بمن يموت فإن عزك ميِّتُ

إذا أردتَ العزة فاعتزَّ بالله سبحانه وتعالى ، سبحانك إنه لا يذلُّ من واليتَ ، و لا يعزُّ من عاديتَ ، قال تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

(سورة هود)

القويُّ الذي لا يُدان بقوته ، و العزيز الذي لا يُنال جانبُه ، قال تعالى

(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

(سورة هود)

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ

بيْن مخَلَّد الذّكر وخبر في طي النسيان :

صيحةٌ واحدة كأن لم يغنوا فيها ، كأنهم لم يكونوا ، صفحةٌ و طُويتْ ، والإنسان يحيا إن عصى اللهَ سبحانه و تعالى و ظلم و بغى ، فيأتِي الموتُ فينهيه كأن لم يكنْ ، ويصبح خبراً ، وبعد أيام يُنسَى ، و انتهى الأمر ، و بقي في العذاب إلى الأبد ، و لكنَّه إذا جاء للدنيا ، و أطاع اللهَ عز وجل خلَّد اللهُ له ذكرَه ، و جعله في قلوب المؤمنين .

كيف أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام بعد ألف و خمسمائة عام تقريبا ؟ اِذهبْ اليوم إلى المدينة المنورة ، و ادخُلْ إلى مسجد النبيِّ عليه الصلاة و السلام ماذا ترى ؟ ترى الشيءَ الذي يُبكِي ، أناس من كلَّ قوم، و من كلِّ عِرق ، و من شرق آسيا ، و من مشارق الأرض ومغاربها ، و من إفريقيا ، و من بلاد العرب ، و من الشرق الأوسط ، كلُّهم يناجونه ، و يبكون ، ماذا فعل النبيُّ عليه الصلاة و السلام ؟ دعانا إلى الله سبحانه و تعالى ، إذًا : إذا عرفتَ اللهَ في الدنيا جعل اللهُ ذكرَك في قلوب الناس ، و يحيي ذكرَك ، و تكون مع السُّعداء ، فإذا جاء الإنسانُ للدنيا ، و انغمس في شهواته يأتي الموتُ ، و يُطوَى ، و كأنه لم يكن ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس)

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ

كأن لم يغنوا فيها ، أين بيوتهم ؟ وأين مساكنهم ؟ وأين صولتهم ؟ وأين جولتهم ؟ وأين مكانتهم ؟ وأين عزُّهم ؟ و أين حفلاتهم ؟ و أين سهراتهم ؟ قال تعالى :

(كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ)

(سورة هود)

بعُدوا عن الله سبحانه وتعالى ، وأبعدهم ، ولعنهم ، فصاروا مع الأشقياء .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (10-16): تفسير الآيات 69 - 83
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-03-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في سورة هود إلى قصّة سيّدنا إبراهيم وقصّة سيّدنا لوط ، يقول تعالى :

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

(سورة هود)

قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام :وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى

1 ـ إبراهيم عليه السلام كان في فلسطين :

قوم لوط يسكنون في أطراف الشام ، وسيّدنا إبراهيم يسكن في فلسطين ، الملائكة الكرام الذين أوكلهم الله سبحانه وتعالى بإهلاك قوم لوط مَرُّوا في طريقهم إلى بلاد الشام ، مروا على سيّدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى)

(سورة هود)

2 ـ ما هي البشرى التي جاءت بها الملائكة ؟

ما هي البشرى ؟ العلماء فسَّروا هذه البُشْرى بأحد معْنييْن :

المعنى الأول :

أنَّ سيّدنا إبراهيم له مِن هاجر إسماعيل الذبيح عليه السلام ، أما امرأته سارة فقد كانت عقيمًا لا تلِد ، وأراد إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام أن يكون له ولد من امرأته الأولى سارة ، فجاءت الملائكة ، وبشَّرتْهُ بالولد الطيِّب إسحاق الذي أصبح نبيًّا ، والذي جاء مِن نَسْله سيّدنا يعقوب عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ، فهذه هي البشرى .

المعنى الثاني :

المعنى الآخر للبشرى أنّ الملائكة أخبروه بأنَّهم مُهْلِكوا قوم لوط المفسدين .

3 ـ أفضل كسْب الرجل ولدُه :

إذًا : يُعدُّ الغلام بشرى لِما قد يفتح الله على يديه ، لحديث أبي هُرَيْرَةَ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[رواه النسائي]

النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أفضل كسْب الرجل ولدُه ...))

[الطبراني عن أبي بردة بن نيار ، وإسناده ضعيف كما في الجامع الصغير]

فحينما تبذلُ مجهودات كُبْرى في رعايَة أولادك بقَصْد أن يُعينوك في كِبَرك فهذا موضوع ، أما إذا بذلت عِناية كُبرى في تعليمهم القرآن ، وتفقيههم بأحكام الدِّين ليكونوا دُعاةً إلى الله تعالى من بعدك ؛ فهذا موضوع آخر ، فهذا هو الكسب الذي لا ينقطع ، وهذه هي الصدقة الجارية ، أفضل كسب الرجل ولده ، فالبشرى إذًا : إما بالولد أو إهلاك القوم الفاسقين ، وكلاهما بشرى ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا)

(سورة هود)

4 ـ السلام تحية الإسلام في الدنيا وفي دار السلام :

طرحُ السلام سنَّة لكنَّ ردَّ السلام فرضٌ ، وإذا حيِّيتم بتَحيّة فحيُّوا بأحسن منها علماء النحو قالوا : إنَّ كلمة سلامًا شيء ، وسلامٌ شيء آخر ! الضمّ أقوى من الفتح ، وكلّكم يعلم أنَّ أقوى الحركات الكسر فالضمّ فالفتح فالسكون ، فحينما قال : سلامٌ ، وكانوا قد قالوا سلامًا ؛ قال : سلام ، فحيَّاهم بتَحِيَّة أحسنَ منها ، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا بإفشاء السلام ، فأحيانًا يكون الإنسان يمشي بطريق مُسْتوحَش، فإذا مرَّ به رجل يكاد قلبه ينخلعُ خوفا ، فالراكب يُلقي على الماشي ، والقويّ على الضعيف، وكلمة السلام عليكم تبْعث الطمأنينة في النَّفس ، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا بإفشاء السلام ، وأن نُسلِّم بسَلام الإسلام : السَّلامُ عليكم ! والسَّلامُ اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ)

(سورة الحشر : من الآية 23)

والآخرة دار السلام ؛ لا نغصَ ولا تعب ، ولا هم ولا حزن ، ولا قلق ولا خوف ، ولا وجل ، ولا كِبَر ولا مرض ، قال تعالى :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

(سورة يونس : من الآية 25)

اللهمّ أبلِغْنا دار السلام بِسَلام ، فإفشاء السلام سنَّة نبويّة مطهرة ، ولكنّ ردَّ السلام فرض ، والأولى أن يُردَّ بأحسن منها .

قال تعالى :

(قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69))

(سورة هود)

قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69)

1 ـ من آداب الضيافة تعجيل الطعام والقِرَى :

الله سبحانه وتعالى في هذه القصة يُعلّمنا آداب الضِّيافة ، أوّلاً الاستِعداد للضّيْف ، وقتٌ قصيرٌ جدًّا بين دُخولهم عليه ، وبين تقديم العِجل الحنيذ لا بدّ أنَّه مستعدّ للضِّيافة ، والشيء الثاني أنَّه من آداب الضِّيافة السرعة في تقديم الطعام ، قد يأتي المسافر من مكان بعيد ، وقد يكون جائعًا ، وأنت تُدْخِلُهُ غرفة الضيوف ، وينتظر إلى أن يكاد أن ينفجر ، أما السنَّة المطهّرة فما لبثَ ! أيْ سريعًا ما جاء بالطعام ، قال تعالى :

(فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69))

(سورة هود)

2 ـ معنى : بِعِجْلٍ حَنِيذٍ

الحنيذ هو العِجْل المشويّ على الحجَر ، وقالوا : العِجل السَّمين ، على كُلٍّ قدَّم سيّدنا إبراهيم لِضيوفه أطْيَب الطعام ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((المؤمن كالنَّحلة لا تأكل إلا طيِّبًا ، ولا تُطْعِمُ إلا طيِّبًا))

[ورد في الأثر]

هذا الذي يُقدِّم طعامًا لا يأكله ، مُحاسَبٌ عند الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(69))

(سورة هود)

يعني أن العجل سمينٌ مشوي ، ثمَّ يقول تعالى :

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ)

(سورة هود)

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ

1 - ضيوف إبراهيم من الملائكة :

لا تنظر إلى الضيف وهو يأكل :

يُكرهُ أن يتأمَّل صاحبُ الدعوة ضيوفهُ كيف يأكلون ؟ يُرْوى أنَّ أعرابيًّا جلس عند رجل وأكل عنده ، فقال هذا الرجل المُضيف : في لقمتك شَعرة ! فقال : تنظرُ إليّ حتّى ترى الشَّعْرة في لُقمتي ، أنا لا آكُل طعامك أبدًا ، فتأمّل الضيف ، وهو يأكل ليس من آداب الإسلام ، ولكنّه أحيانًا يجب أن تخْتلسَ النَّظر إليه فلعلّه لا يأكل ! ولعلّهُ في خجَل ، ويبْدو أنَّ سيّدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام اخْتلسَ النَّظر إليهم ، فرآهم لا يأكلون ، قال تعالى :

(وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً)

(سورة هود)

2 - وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً

لأنَّ من عادة أبناء الرِّيف الكرام أنَّهم كُرماء ، وأنَّ أحدًا إذا لم يأكل من عندهم يظنُّون به الظُّنون ، لأنَّك إذا أطْعمْتَ إنسانًا ، أو أكلتَ عند إنسانٍ صار بينك وبينه كما يقال خبزٌ وملح ، وهذا الخبز والملح يمْنَعُ الخِيانة والغَدْر ، والقنْص ، ما دام أكل عندك ، وأكلتَ عنده فبينكما عهْدٌ ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ الله يسأل العبد عن صُحبة ساعة))

[ورد في الأثر]

إذاً : سيّدنا إبراهيم رأى أيْدِيَهم لا تصل إليه ، لا يأكلون ، هذا الذي لا يأكل عند مُضيفِهِ يَنْوي شرًا ، أو يُزْمِعُ أمرًا خطيرًا ، قال تعالى :

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ)

(سورة هود)

والعلماء قالوا : من آداب الضِّيافة أن تُسْرِعَ في تقديم الطعام ، ومن آداب الضَّيْف أن يُسْرِع في الإجابة، قال تعالى :

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً)

(سورة هود)

حينما رأوْهُ خائفًا منهم ، وظنَّ بهم الظنون ، أوْجسَ في نفسِهِ خيفة ، قال تعالى :

(قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ)

(سورة هود)

قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ

تطمين الملائكة لإبراهيم :

نحن لسْنا من بني البشر ، نحن لا نأكل هذا الطعام ، هذا طعام البشر ونحن ملائكة ، قال تعالى :

(إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ)

(سورة هود)

لا تخف إن أرسلنا إلى قوم لوط ، وقال بعض العلماء : لماذا لم يُخْبروه منذ أن دخلوا أنَّهم ملائكة ، كيف يبْدو كرمهُ عليه الصلاة والسلام ؟ لو أنَّه علِمَ أنَّهم ملائكة لا يظهر هذا الكرم الذي ينْطوي عليه ، لكنَّهم أخَّروا تعريفهم بأنفسهم إلى أنْ بدَا كرمُهُ الشَّديد وحِرْصهُ على إطعام الضَّيف ، وفي بعض الأحاديث الشريفة أنَّ الضيف يأتي برزْقه ، ويرْتَحِلُ بذُنوب القوم ! قال تعالى :

(إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70)وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ)

(سورة هود)

وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ

1 ـ المرأة قائمة في خدمة الزوج :

لو تعلم المرأة حقّ الزَّوج ما قعَدَتْ ما حضر طعامه أو غذاؤه بل ظلّت قائمة لِخِدمتهِ وخدمة ضُيُوفه ، ولكنّ في بعض التفاسير ، وهو تفسير القرطبي قال : قائمة خلفَ السِّتار ، أما أنْ تدخل المرأة لِتُقدِّم الطعام للضيوف فهذا يتناقض مع سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام ، ومع حقائق الإسلام ؛ هذه امرأة

وهي زوجة ، في هذا التفسير ، هكذا ورَدَ ، و امرأتهُ قائمة خلف السِّتار لِلخِدمة ، وعلى كلّ الذي يدْعو إخوانه إلى الطعام لا يذهبنّ به الظنّ إلى أنَّ الأجر له وحدهُ ؛ الأجر منقسِمٌ إلى أقسام ثلاثة فهو له منه الثلث ، ولزوجته التي بقيَتْ تُعدّ الطعام لِساعات طويلة لها الثلث الثاني ولأولاده الذين قدَّموا الطعام ، وخدموا الضيف الثلث الباقي ، وبعض الأحاديث تُشير إلى هذا المعنى ، قال تعالى :

(وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ)

(سورة هود)

أي قائمة بِخِدمته ، وخِدمة ضيوفه .

لي صديق تُوُفِّيَت أُمّه فذَهَبْتُ لأُعزِّيَه ، وقد مكثتُ طويلاً عنده إلى أن انْتَهَتْ التَّعزِيَة ، وانْفضَّ المُعَزُّون ، فكان أبوه يبْكي بُكاءً مُرًّا ، أُمُّه مُتقدِّمة بالسنّ ، وأبوه كذلك ، وقد أمْضَيا معًا أكثر من خمسين عامًا ، ما هذا البكاء المرّ ؟! حينما حاول بعض الأهل أن يهونوا عليه المصاب قال : والله أمْضَيْتُ معها خمسين عامًا ، ما نِمْتُ ليلةً واحدة وأنا غاضبٌ عليها ! وهكذا كان السلف الصالح .

ثمَّ يقول تعالى :

(فَضَحِكَتْ)

(سورة هود)

2 ـ فَضَحِكَتْ

مِمَّ ضَحِكَتْ ؟! هنا معنى آخر ، وهي أنَّ المرأة الصالحة تتعاطف مع زوْجها تعاطفًا كبيرًا ، مأساتُهُ مأساتها ، ومسرَّاتُه مسرَّاتُها .

أوْصَتْ امرأةٌ ابْنَتها قبل أن تُزفَّ إلى زوجها فقالتْ لها : " اتَّقِي الفرَح بين يديه إن كان ترحًا ، والترح بين يديه إن كان فرحًا ، فإنَّ الخصْلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير " .

يبْدو أنَّها لما علِمَت أنَّه قلقٌ من هؤلاء الضيوف ، حينما علمتْ قلقهُ وخوفهُ قلقَتْ لِقَلقِه ، وحزنَت لِحُزْنِهِ.

خطب إنسانٌ امرأةً من أُسرةٍ صالحة ، فلمَّا دخل بها إلى غرفة الزوجية وجدَ كمالاً وصلاحًا ، فصلى ركْعتين شُكرًا لله على نِعمة الزَّوجة الصالحة ، قال : فلمَّا سلَّمْتُ من صلاتي وجدتها تُصلِّي بِصَلاتي ، وتُسلِّم بِسَلامي ، وتشْكُر بشُكري ! والنبي قال : المرء على دين خليله ، وكان الإمام الشعراني رحمه الله يقول : أنا أعرف مقامي عند الله من أخلاق زوجتي ، قال تعالى :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(21))

(سورة الروم)

هذا هو الأصل ، وهذا هو التصميم الإلهي ، وهذه هي هندسة الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(21))

(سورة الروم)

فما بال معظمُ بيوت المسلمين فيها المُشاحنة والبغضاء ، والمُشاكسة والخِصام والشِّقاق ؟ السَّبب بسيط جدّا ، إذا أطاع الزوجان ربّهما تولّى الله سبحانه وتعالى التوفيق بينهما ، فكان هذا البيت جنَّة صغرى ، وإذا عصيَا الله سبحانه وتعالى تولّى الشيطان التفريق بينهما قال تعالى :

(وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ)

(سورة هود)

قائمة لخدمته وخدمة ضيوفه ، وقائمة من وراء السِّتار ، حينما علِمَت قلقه قلِقَتْ لِقَلَقِهِ ، وحينما عَلِمَتْ حُزْنَهُ حزَنَتْ لِحُزْنِهِ ، فلما بُشِّر من قِبَل هؤلاء الملائكة أنَّهم ملائكة قد أُرسلوا إلى قوم لوط زال حزنه ، وقلقهُ ووجلهُ ، فَعَلِمتْ بذلك فَضحِكَت ، هذا هو التعاطف ، والمشاركة الوجدانيّة ، أنت هي ، وهي أنتَ. قال تعالى :

(فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ)

(سورة هود)

3 ـ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ

العلماء استنبطوا أنَّ الذبيح هو إسماعيل ، وهو أسنّ من إسحاق ، وإسماعيل الذبيح ، وهو من ولدِ هاجر ، وهذه سارّة ، قال تعالى :

(فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)

(سورة هود)

الله لا يعجزه شيء ، وهو خالق الأسباب :

الآن هناك موضوع جديد ، هذه امرأةٌ مُتَقَدِّم في السنّ ، وقد انْقَطَعَت دوْرتها منذ عشَرات السِّنين ، فأنَّى لها أن تلِد ؟! الله سبحانه وتعالى جعلَ لِكُلّ شيءٍ سببًا ، وهو مُسبِّبُ الأسباب ، ومن أجل أن تعرفَ أنّه مُسبِّب الأسباب يُعطِّل أحيانًا بعض الأسباب ، ولو أنَّها لم تُعطَّل لظُنّ أنّ الأسباب هي التي تخلق المُسبَّبات ، والله هو مُسَبِّبُ هذا السَّبَب ، فمادام السّبب من خلْق الله يُعطِّلُهُ متى يشاء . قال تعالى :

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا)

(سورة هود)

قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا

استغراب امرأة إبراهيم من بشرى الملائكة بالولد :

يا ويْلتا !!! هذه من ألفاظ التعجّب ، الله عز وجل جعل هناك نِظام التَّوالد أنْ يكون هناك أبٌ وأُمّ وزواج وهذه هي الحالة العامة للتوالد ، ثم إن هناك مولوداً من دون أب ؛ هو سيّدنا عيسى عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ، وهناك مولود من دون أمّ ، وهي أمّنا حواء ، وهناك من يتزوّج بامرأة ولا ينجبُ أولادًا ، بمعنى أن أحدهما أو كلاهما عقيم ، وسيّدنا آدم من دون أب ومن دون أمّ ، هذه هي الحالات الأربع للخلق والتوالد ، امرأةٌ واحدة يجوز لنا النظر إليها جميعنا ، وهي أُمّنا حواء ، وحينما يُعطِّل الله الأسباب فهذا إشارة منه سبحانه إلى أنَّه مُسَبِّب الأسباب ، قال تعالى:

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ)

(سورة هود)

جملة وأنا عَجوزٌ : جملة حالِيَّة ، قال تعالى :

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)

(سورة هود)

كُنْ فيكون ، زُلْ فيَزُول ، قال تعالى :

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)

(سورة هود)

فالبحر صار طريقًا يبَسًا على يدي سيدنا موسى ، والنار كانت برْدًا وسلامًا على إبراهيم فلم تُحْرِق والناقة خرجت من الجبل ، وهذه الأشياء لها معنى كبير ، وهي أنَّ الله سبحانه وتعالى يجعلُ لكلّ شيءٍ سببًا ، وقد يُلْغي هذا السَّبب ، إذًا هذا السَّبب بيَدِهِ فهو مُسَبّبُ الأسباب ، لو أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يخرق هذه الأسباب ماذا يُظَنّ ؟! أنَّ هذه الأسباب هي التي تخلق المُسَبَّبات ؛ أطِبَّاء مثلاً يقولون لك : هناك حالة نادرة تُسمَّى الشِّفاء الذاتي ، لماذا ؟ لأنَّ الشِّفاء يحتاج إلى سبب ، والله خالق السَّبب ، من أجل أن تعرف أنَّ تأثير هذا السَّبب بالشِّفاء عن طريق الله سبحانه وتعالى قد يخلق الشِّفاء بلا سبب ، والأطباء سمَّوهُ الشِّفاء الذاتي ، أي من عند الله مباشرةً .

قال تعالى :

(قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ)

(سورة هود)

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ

نساء الرجل من أهله ، فأزواج النبي عليه الصلاة والسلام من أهل البيت ، وهنَّ أُمَّهات المؤمنين ، قال تعالى :

(رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ)

(سورة هود)

1 ـ الرحمة هي التَّجلي :

الرحمة هي التَّجلي ، والقُرْب من الله يُسبِّب الشعور بالرحمة ، لذلك عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّه عَنْه أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى))

[رواه البخاري]

فهذا الذي يُعامل الناس باللِّين يرْحمهُ الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ(56))

(سورة الأعراف)

هذا هو التَّجلي ، ورحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعًا ، وكلّ حديث فيه رحِمَ الله ، أيْ أنَّ الله سبحانه وتعالى يتجلَّى على هذا الإنسان بتَجَلٍّ يُسبِّبُ شعورًا بالرّحمة ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، البركات النُّمُوّ والزِّيادة ، قال تعالى :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ(56))

(سورة الأعراف)

وقال تعالى :

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(1))

(سورة الملك)

إنسانٌ مُبارك يعني خيرهُ عميم .

ثمّ يقول تعالى :

(إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ(73))

(سورة هود)

2 - إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

أفعاله سبحانه وتعالى يُحمدُ عليها في النِّهاية ، ما من حدث يقعُ على وجه الأرض ، منذ أن خلق الله الأرض ، وحتى قيام الساعة ، إذا كشف الله للبشر عن أسبابه ، وعن حِكمته لا يمْلِكُ البشَرُ إلا أنْ يقولوا : الحمد لله رب العالمين ، قال تعالى :

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(10))

(سورة يونس)

عدل الله مطلق لا يشوبه ظلمٌ :

الله سبحانه وتعالى مطلق ، معنى مطلق أنَّ عدالته مطلقة ، وحكمته مطلقة ، ورحمته مطلقة ، فالمطلق لا يُحْتَمل منه أدنى نقص مهما كان صغيرًا ، ستَّة آلاف مليون إنسان على وجه الأرض ، لو أنَّ إنسانًا واحدًا ظُلِم لكان هذا يتناقض مع ألوهيّة الله سبحانه وتعالى ، ولا يظلم ربك أحداً ، فعَنْ أبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلَا تَظَالَمُوا))

[مسلم عن أبي ذر]

قال تعالى :

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

وقال تعالى :

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(17))

(سورة غافر)

وقال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(40))

(سورة العنكبوت)

الله عز وجل لا يغفل عن مخلوق ، ويعطي كلّ ذي حقٍّ حقَّه بالكمال والتَّمام ، فإذا قدِمنا على ربِّنا يوم القيامة وكشف لنا الحقائق ، فلا نمْلكُ إلا أنْ نقول : الحمد لله رب العالمين ، لذلك فإن الإمام الغزالي رضي الله عنه عبَّر عن هذه الحقيقة فقال : " ليس في الإبداع مما كان

" ، بعضهم فسَّرها فقال : ليس في إمكاني أبدعُ مِمَّا أعطاني ، هذا الذي أنت عليه اليوم هو أكْمَلُ شيءٍ لك ، وأنسبُ شيءٍ لك وأحكمُ شيء لك ، أعونُ شيءٍ لك على إسْعادك في الآخرة ، ليس في إمكاني

أبدعُ مِمَّا أعطاني .

قد تحمدُ إنسانًا لا ينْتَزِعُ إعجابك ، وقد تُعجَبُ بإنسان لا تُحِبّه ، في حياتنا اليوميّة قد تلتقي بإنسانٍ ذكيّ جدًّا إلا أنَّه لئيم ، ينتزعُ إعجابك بذكائه إلا أنّ قلبك يمقُته لِلُؤْمِهِ ، وقد تلتقي بإنسان ينْتزعُ محبَّتك بلُطْفِهِ، ولكنّك لا تُعْجبُ به لِضَعف تفكيرهِ ، ولمحدوديَّته ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى حميدٌ مجيد ، عُلُوّه لا حدود له ، ومع ذلك يُعاملُكَ معاملةً تحمدُهُ عليها ، هذا يفسِّر قوله تعالى :

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(78))

(سورة الرحمن)

قد يأخذ الإنسان شهادات عليا ، وقلبهُ معلَّق بوالدَتِه ، ولكنَّ والدته غير متعلِّمة ؛ يُحبّها ولكنَّه إذا طرح معها موضوعًا فكريًا لا تنال إعجابه في أسلوب حديثها ، وأسلوب مناقشتها ، وقد يلتقي بأُستاذٍ قدير ، وقاسي القلب يُعْجبُ به ، ولا يحترمه ولا يحبُّه ، وقد تحبّ إنسانًا ولا تحترمهُ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى الذات الكاملة ؛ ذو الجلال والإكرام ؛ عظيم لا حدود لعظمته ، وكريم لا حدود لكرمه ، تُحبّه وتعظّمه ، لذلك يا رب ، أيّ عبادك أحبُّ إليك حتى أُحبّه بِحُبِّك ؟ قال : أحبّ العباد إليّ تقيّ القلب نقيّ اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسُوء ، أحبَّني ، وأحبَّ من أحبَّني ، وحبِّبني إلى خلقي ، قال : يا ربّ ، إنَّك تعلم أنِّي أُحبّك وأحبّ من يُحِبُّك ، فكيف أُحبِّبُك إلى خلقك ؟ قال : ذكِّرْهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي ، ذكرهم بآلائي من أجل التعظيم ، وبنعمائي من أجل المحبة ، وبلائي من أجل الخوف .

لا بدّ من أن يجتمعَ في قلبك محبَّةٌ وإجلال ، وخوف ، فالخوف حتى لا تعصيه ، والمحبّة حتى تُقبلَ عليه ، والتعظيم حتى تنصرف إليه وتدَعَ ما سِواه إجلالاً وخوفاً ومحبَّةً .

قال تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)

(سورة هود)

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ

1 - معنى : يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ

سيّدنا إبراهيم يُجادل الله سبحانه وتعالى من خلال مجادلته للملائكة الذين قدموا عليه بخبر قوم لوط الذين أراد الله إهلاكهم ، هنا المجادلة تعني أشياء كثيرة ، أحيانًا الطبيب يقرِّرُ قطْع هذه اليد ، لأنَّ مرض المُوات بدأ يتغلْغلُ فيها ، فإن لم تُقْطع اليوم من هنا قُطِعت بعد يومين من مكان آخر أدنى إلى جسمه ! فقرار الطبيب لا رَجْعة فيه ، لأنَّه مَبْنيّ على علم ، وحكمة ودِقَّة تقدير ، من الذي يُجادل

الطبيب ؟ الأب ، ينطلق الأب من رحمة ، لكنَّ عِلم الأب لا يرْقى إلى عِلم الطبيب ، لذلك يُجادله فربّنا عز وجل أراد إهلاكهم ، ولكنّ سيّدنا إبراهيم لما انطوى في قلبه من رحمة ومحبّة للبشر يُجادلنا في قوم لوط ، قال تعالى :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)

(سورة هود)

2 ـ هذه بعض صفات إبراهيم عليه السلام : حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيب

هذه صفات الأنبياء ، كاد الحليم أن يكون نبيًّا ، والحلمُ سيِّد الأخلاق ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيْتُم كثيرًا .

الأم التي لها ابن مريض لا تضحك ، الأخ يضحك ، ولكنّ الأم لا تضحك ، الأم التي لها ابن مسافر تبْدو قلقة بشَكل مُسْتمرّ ، والأم التي لها ابن مريض تبْدو قلقة ، لأنَّ قلب الأم لا يعرف القسْوة ، وقلب الأم يسعُ كلّ الأولاد ، ولكنّ الابن إذا كان مُعافًى يضحك ، ويقول : أخي مريض ، الله يشفيه ، وماذا أستطيع أن أفعل له ؟ قال تعالى :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)

(سورة هود)

معنى منيب راجعٌ إلى الله سبحانه وتعالى في كل أحواله ، قال تعالى :

(يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)

(سورة هود)

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا

1 ـ أمرُ اللهِ إبراهيمَ بترك جدال الملائكة :

أيْ لا تُجادلني ، لأنَّ الله تعالى قال :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

وردت كلمة الرحمة نكرة في الآية السابقة ـ آية آل عمران فهي تتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم ، أما في الآية التالية من سورة هود فقد وردت معرفة ، وقال تعالى :

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمْ الْعَذَابَ)

(سورة الكهف : من الآية 58)

لأن الله سبحانه وتعالى صاحب الرحمة الكبرى ، ومع ذلك قال تعالى :

(يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

(سورة هود)

2 ـ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُود

أحيانًا يُقرَّر إعدام إنسان ارتكبَ جريمة كبيرة ، وحينما يصْعد مِنصّة المِشْنقة ، فإن بكى أو لم يبْك ، ورجا أو لم يرْجُ ، تأوَّه أو ضحك ، كلّ هذا سيَّان ، هذا أمْرٌ لا مردَّ له ، البطل هو من يحتاط للأمور قبل وُقوعها ، قبل أن يقعَ أمْرٌ لا مردَّ له ، لأنَّه إذا وقع الأمر الذي لا مردَّ له ؛ إن شئت فاضْحك ، وإن شئتَ فابْك ، وإن شئتَ فتوسَّل ، وإن شئْت اُسْكُت ، كُلُّه سيَّان ، أمر غير مردود ، فالبطولة أن تنْجُوَ من هذا العقاب الذي لا مردَّ له ، البطولة وأنت مُعافى ، وأنت في بحبوحة ، و أنت في شبابك ، وأنت في قوَّتك ، وأنت في غِناك ، وأنت في صحّتك تعَرَّف إلى الله في الرخاء من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له ، هذه ساعة عصيبة ، قال تعالى :

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10))

(سورة المدثر)

قال تعالى :

(وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

(سورة هود)

هؤلاء الرسل انتقلوا من فلسطين ، إلى أطراف الشام إلى أرض قوم لوط ، قوم لوط كانوا يحْتلون مجموعة أماكن ، في أطراف بلاد الشام ، تروي بعض القصص أنَّ الله سبحانه وتعالى صوَّر بعض هؤلاء الملائكة على شكل شباب جميلي الوُجوه ، دخل هؤلاء الملائكة على صورة شبانٍ جميلي الصورة ، دخلوا إحدى قُرى قوم لوط ، بنتان لِسَيِّدنا لوط كانتا تجلبان الماء ، فسألوهما عن هذه القرية ، فقالتا : إنّها قرية تعمل الخبائث ، وإنَّهم فساق ، فقالوا لهما : أليس في هذه القرية بيت نضيف عنده ؟! فدلَّتْ إحداهما هؤلاء الملائكة على بيت أبيها لوط ، فلما دخلوا على سيّدنا لوط سيئ بهم ، أي أصبحَ هؤلاء على ذِمّتِه وفي جواره ، ويعلم من قومه أنَّهم فاسقون فاجرون ، إنْ رأوْهُم تهافتوا إليه لِيَفْعلوا معهم الفاحشة !! سيئ بهم عندئذٍ ، وضاق بهم ذرعًا ، وقال سبحانه :

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)

(سورة هود)

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ

1 ـ الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام :

تروي القصص أنَّ امرأة لوط ذهبت إلى قومها ، وأخبرتهم خِفْيَةً أنَّ عند زوجها شبابًا جميلي السورة ، فإن شئتُم فأتوا لوطًا ، قال تعالى :

(وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ)

(سورة هود)

2 ـ إسراع قوم لوط إلى مكان الملائكة :

معنى يُهْرعُ أي يُسْرِعُ ، مع اقتراب من غضب أو رغبة أو خوف ، قال تعالى :

(وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود)

جاءوه ، قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)

(سورة هود)

موقف لوط : قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ

1 ـ معنى : هَؤُلَاءِ بَنَاتِي

عند هذه الآية وقفة لا بدّ منها ، فلا يُعْقل أنَّ سيّدنا لوط عليه السلام ذلك النبي الكريم يريد أن يُزوِّج بناته من هؤلاء الفجرة ، ولكنَّ العلماء قالوا في كلمة

(هَؤُلَاءِ بَنَاتِي)

يقْصِد بهنّ مطلق النِّساء ! فليس المقصود بناته هو ، ولكنّ المقصود جِنْس النِّساء ، هذا طريق شاذّ ، هذا طريق قذر ، أن تضع البذْرة في بيئة نجسة ، ليس هذا وفق الأصول ، أعدّ الله سبحانه وتعالى مكانًا طاهرًا تضعُ فيه ماء الحياة ، وهؤلاء القوم منحرفون ومرضى السريرة ، وشاذُّون ، فهؤلاء بناتي هنّ أطهركم ، فكلمة بناتي في هذه الآية تعني مطلق النساء ، وبعضهم قال : هؤلاء بناتي ، أي النبي الكريم يُمَثِّل الأبُوّة العامّة ، فإذا كانت للإنسان مكانة اجتماعيّة أو مكانة دينيّة ، يُحِسّ أنَّ بنات إخوانه جميعًا

هنّ بناته ، هذا شُعور ثابت ، فإما أن نفهم كلمة بناتي يعني هؤلاء النساء في هذه البلدة هنّ أطهر لكم ، أو أنَّه دافع من دون أن يقصْد التَّزْويج ، لأنه متأكّد أنّهم لن يرْضَوا ، وهذا من باب المدافعة ؛ فهذه هي المعاني الثلاثة التي تحتملها كلمة بناتي في الآية الكريمة .

2 ـ معنى : أَطْهَرُ

أما كلمة أطْهَرُ ، فليس معناها أنَّ اللّواط شيء طاهر ، والزواج أطْهر منه ، هذه حملت على قوله الله أكبر ، فلا مجال للتفضيل هنا إطلاقًا ، وكذا هنا الهمزة في أطهر ليْسَتْ للتفضيل .

قال تعالى :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي)

(سورة هود)

3 ـ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي

الوضع صعب ، هؤلاء الشباب ضيوفه ، وعلى ذِمَّته وفي جواره ، ودخلوا بيته آمنين ، كيف يطْمعُ قومه المنحرفون أن يصلوا إلى هؤلاء الشباب ؟ قال تعالى :

(أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)

(سورة هود)

4 ـ تهييج العقول والفطر السليمة :

إذاً : هذا حُمْق ، قبل شهرين تقريبًا أعلن أن خمسة عشر مليون إصابة الإيْدز في أمريكا !! انحلال المناعة ، سَرَتْ إلى أوروبا ، وصلت إلى تركيا ، ووصلت إلى بعض دول الخليج ، فهذا عقاب عاجل من الله عز وجل ، أن قوم لوط عاجلتهم العقوبة ، وأهلكهم الله عز وجل ، ويبْدو أنَّ كلّ من سار على شاكلتهم يهلكه الله عز وجل تحت سمعنا وبصرنا اليوم ، نجد أنه ما من مجلة إلا وفيها مقالة عن مرض الإيدز ! وهذا إهلاك آخر نعيشه اليوم نعاينه ، ونسمع أخباره ، حتى إنَّ طبيبًا حدَّثني أنَّ مريضًا تُوُفِّيَ قبل أيام ، وكان سيئ السمعة ، بعد تحليل دمه وجدوا انعدام الكريات البيضاء كليًّا ! عقاب عاجل ، مرض الهربز ، ومرض الإيدز ، الأمراض الجنسيّة كالزهري ، والسلس ، هذه عقوبات عاجلة في الدنيا قبل أن يأتي عقاب الله عز وجل ، أليس منكم رجل رشيد يحول بينكم وبين هذا العمل ؟ أين أنتم ؟ وكيف أنتم ؟ وسبحان الله ما قرأتُ مقالة عن مرض الإيدز إلا ووجدتُ أنَّ شُغْل الغربيِّين الشاغل هو

البحث عن مصل لإبادة هذا الفيروس ، وهم يذكرون في مقدّمة المقال أنَّ أسباب هذا المرض الشذوذ واللّواط وما شاكل ذلك !! أليس في علمائهم رجل رشيد ، فإذا اختلّط في مدينة مياه المجاري مع مياه الشُّرْب ، وأُصيب الناس بأمراض فتاكة ، وهذه الأمراض معْدِية وانْتشَرَت ، لم يكن من مسؤوليّ هذه القرية والبلدة إلا أن أوْفدوا إلى أوروبا الأطباء ، واستخدموا التجهيزات والآلات ، هذا عمل مضحك !! فما عليهم إلا أن يمْنعوا اختلاط المياه الآسنة بمِياه الشرب وانتهى الأمر ، هذا هو العِلاج ، ولكنّهم لا يفكّرون فيه إطلاقًا ، وإنَّما يُفَكّرون عن مصْلٍ لإبادة هذا الفيروس ، وكان الأولى منْع العلّة من أساسها!

إذا أحدنا ارتفعَت حرارة ابنه كثيرا ، فماذا يفعل ؟! إن وضع على رأسه كمامات باردة ، أو وضعه في غرفة باردة ! الحرارة أصلها من الداخل ، هناك أسباب داخليّة ، هناك التهابات ، هناك انتانات ، فلا بدّ من معالجتها داخليًا ، أن تضع يدك على جبين ابنك هذه أعلى الحرارة ، والحرارة أعراض لأمراض كثيرة ، فالبحث عن عِلّة الحرارة هو التشخيص الصحيح ، ولكنّ تسكينها لا يُسمَّى علاجًا ، فالقضيّة أعقد من ذلك .

قال تعالى :

(قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ)

(سورة هود)

جواب السفهاء : وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ

هنا قال بعض المفسِّرين أنَّهم طلبوا بعض بناته فرفض ، ومن عادات بعض الشعوب قديماً: أنَّ الأب إذا رفض تزويج ابنته لا يحقّ للخاطب أن يعيد خِطبتها مرَّةً ثانية ، قال تعالى :

(وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)

(سورة هود)

نريد الفاحشة ، نريد الاعتداء على هؤلاء ، قال تعالى :

(قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

(سورة هود)

لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ

1 ـ أمنية لوط في تلك الساعة الحرجة :

تمنَّى هذا النبي الكريم أن يكون من بين هؤلاء من يعينه عليهم ليثنيَهم عن مُرادهم ، ويحول بينهم وبين

فعْلتهم الشنيعة .

2 - يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ :

النبي عليه الصلاة والسلام لما تلا هذه الآية :

(أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

(سورة هود)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ))

[متفق عليه]

3 - الله عز وجل هو الركن الشديد :

الله عز وجل هو الركن الشديد ، فالقصد أنَّ الإنسان قويّ بأخيه ، وهو كان ضعيفًا في قومه ، استضعفوه ، ولم يجدْ واحدًا منهم ينْهاهم للكف عن فعْلتهم ، فتألَّم أشدَّ الألم ، وقال: لو أنَّ لي بكم قوّة !! عشيرة ، أو قوّة أستخدمها لتحول بيني وبينكم ، ولكنّ هو في الحقيقة آوى إلى ركن شديد ، لقد أوى إلى الله سبحانه وتعالى ، والدليل سيأتي .

الحكمة من عدم إخبار الملائكة لوطا عن أنفسهم :

والآن هناك سؤال يطرح نفسه : لو أنَّ هؤلاء الضيوف حينما دخلوا عليه قالوا له : نحن ملائكة ، ولا تخْشَ أحدًا ، ما الذي يحدث ؟! لا تبدو غيرتهُ ، ولا يبدو حرصُه لا يبدو وفاؤُه ، لا يبدو صبرُهُ ، لا يبدو ورَعُهُ ، لا يبدو صحته ؛ كلّ هذه الصفات الراقية لا تبدو ، لكنّهم أخَّروا هذا الخبر إلى الوقت العصيب ، ففي بعض التفاسير أنَّ قومه أرادوا أن يدخلوا عليهم عُنْوةً ، خرجَ إلى قومه يجادلهم ، ويناقشهم ، ويدعوهم إلى ترْك هذا العمل القبيح ، لكنهم استمروا في ضلالهم إلى أن تكاتفوا ، وهمُّوا أن يدخلوا عليه عنوَّةً ، هنا الوقت العصيب ، وهنا العقدة ، يبدو أنَّهم أزاحوه جانبًا ، وحطَّموا الباب ، ودخلوا على هؤلاء الملائكة ، وهم يبْغون أن يفْعلوا معهم الفعل القبيح ، عندئذٍ قال هؤلاء الضيوف كما قال تعالى :

(قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ)

(سورة هود)

قالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ

1 ـ حقيقة الضيوف :

نحن لسنا أشخاصاً عاديِّين ، نحن ملائكة ، لن يصلوا إليك ، قال تعالى :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ)

(سورة هود)

2 ـ ساعة الهلاك :

فأوحى الله تعالى له أن خُذْ أهلكَ ، ومن آمنَ معك ، بِقِطْعٍ من الليل ، أيْ في منتصف الليل الثاني ، قال تعالى :

(وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ)

(سورة هود)

إياكم أن تلتفتوا إلى متاعكم إلى بيوتكم ، أو إلى قومك الهلكى ، قال تعالى :

(وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ)

(سورة هود)

3 ـ معنى الاستثناء : إِلَّا امْرَأَتَكَ

هنا تفسير دقيق جدًّا المعنى الأول فأسْر بأهلك إلا امرأتك والمعنى الثاني : ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، ولإيضاح المعنى الثاني يقول : إنَّ هذا النبي الكريم أمر أهله إذا ساروا بقِطع من الليل أن يتَّجهوا نحو القرية الثانية دون أن يلتفتوا ، لكنَّ امرأته سارت معهم ، فلما سمعَتْ وقْع الحجارة على قومها ، التفَتَتْ فأصابها حجرٌ فقتلها ، قال تعالى :

(إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ)

(سورة هود)

4 ـ إيّاك أن تحب عير المؤمنين :

التفاتها إلى قومها تعبير عن اتّجاهها إليهم سابقًا ، وتعاطفها معهم وحبّها لهم ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((مَن هَوِيَ الكفرة حُشر معهم ، ولن ينفعه عمله شيئًا ...))

[ورد في الأثر]

إذا ذهب الإنسان إلى دولة أجْنبيّة ، ورجع محبًّا لها ، ومعْجبًا بأهلها على كفرهم وفِسْقهم وانْحِطاطهم ، وشيوع مرض الإيدز فيهم ، وتفتت أسرهم ، وشرب الخمر ، إذا رجع وهو لا يفتر عن مدحهم ؛ من هوِيَ الكفرة حُشر معهم ، ولا ينفعه عمله شيئاً ، فهذه امرأة لوط لا تحبّ الانحراف ، ليس في مصلحتها أن يكون الرجل منحرفًا ، ولكنّ تعلّقها بقومها جعلها تهلكُ معها ، قال تعالى :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

(سورة هود)

الليل مـهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر

قال تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)

(سورة هود)

جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا

1 ـ احذروا سخط الله وغضبه :

نسمع الآن قرية في سفح جبل والثلج على الجبل بارتفاع خمسة أمتار ثار بركاناً فجاءت الحمم مع السيول الجارفة فأهلكتْ أربعين ألف في يومين !! كولومبيا ، وقبلها المكسيك ، قال تعالى :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

كما قال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة هود)

2 ـ مَن عمِل عمَلَ قوم لوط قُتل كما قتلوا :

لذلك استنبط علماء الفقه من هذه الآية أنَّ الذي يثبت عليه عمل قوم لوط يقتل ، بطرائق عِدَّة إحداها أن يُلقي من رأس جبل ، إلا أنّ بعض الدوَل ومنها المتقدمة حضارياً أباحت اللّواط ، وجعلته عملاً لا يعاقب عليه القانون !! قال تعالى :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ(81)فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ)

(سورة هود)

3 ـ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ

إنه الحجر القاسي والصَّلب متتابع كأنهما المطر ، قال تعالى :

(مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ)

(سورة هود)

معنى : مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ

1 ـ المعنى الأول :

لها معنيان ؛ المعنى الأول أنَّ لها شكل خاص ، فليست هذه الحجارة من حجارة هذه البلاد ، بل حجارة خاصة من السماء .

2 ـ المعنى الثاني :

كلّ حجرة عليه اسم من سيصيبه ويقتله ! هذا لفلان ، وذاك لفلان ، وهذا هو معنى مسوَّمة ، وعند الله تعالى لا تجد الغلط ، فهذه الشظيّة لفلان ، وتلك لفلان ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد]

فلا ظلم ولا خطأ . قال تعالى :

(وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)

(سورة هود)

قاصمة الظهور : وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ

أما هذه الآية فإنها تقصم الظهور ، فهذا الذي حدث لِقَوم لوط ، ثم طويت صحيفتهم من بعد ، لكنّ هذه الحجارة ما هي من الظالمين بِبَعيد ، أيْ كلّ من سار على نهْجهم ، وانْحرفَ انْحِرافهم ، سيأتيهم نوع من الحجارة كذلك فقد تكون شظايا ، وقد تكون حجارة ، وقد يكون مرضاً داخلياً ، وهذا ما نراه ، ويقع تحت سمعنا وبصرنا ؛ إما حجارة من السماء كما فعل الله بقوم لوط ، أو دمار ببراكين أو زلازل ، أو أمراض داخليّة فتاكة ، وما هي من الظالمين ببعيد .

حدّثني أخ أنَّه كان في قرية من القرى رجل شادّ أخلاقيًا ، كلّما سافر رجل من أهل هذه القرية تسوَّر جدار منزله ، ونزل على أهل بيته ، واغْتصَبَهم ، كان شرِّيرًا ، وكان مجرمًا إلى أن أُصيبَ بمَرضٍ خبيث في العضو الذي يستخدمه للزنا ؛ إنه مرض السرطان قال تعالى :

(وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)

(سورة هود)

فهو مخيّر في الانحراف أو عدمه ، أما إذا انحرف فهو ليس مخيّر في ردّ العقاب أو عدم ردّه !! وهذا تحت سمعكم وبصركم ، الأمراض الفتاكة والعقوبات العاجلة ، هناك أفعى يقال لها : أفعى الزنا ، رأيتها مكبّرة بثلاثمائة وستّين ألف مرة في صورة المجهر الإلكتروني ، هذه تدخل من دون إحداث أيّ شيءٍ ، وهي تتوضَّع بالجسم ، فإذا استقرَّت بالدِّماغ يحدث خلل فيه ، وخمسة نزلاء في مصح الأمراض العقليّة مُصابون بالزهري في الدماغ من جرَّاء الزنا ، وإن توضَّعت بالعين تسبِّب العمى ، وهذه عقوبات عاجلة للزناة جزاءً وفاقاً ، قال تعالى :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا(32))

(سورة الإسراء)

والشيء الغريب الذي يأخذ بالألباب أنَّه لم يثبت في العالم كلّه أنَّ إنسانًا أُصيب بمرض جنسي من جراء الزواج ، الزواج علاقة طاهرة ، وعلاقة مشروعة ، وعلاقة قدّسها الله سبحانه وتعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (11-16): تفسير الآيات 84-86
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-03-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في سورة هود إلى قصّة جديدة هي قصّة سيّدنا شعيب عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ، قال تعالى :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)

(سورة هود)

قصة سيدنا شعيب مع أهل مدين :

1 - أين هي مدين ، ومَن هم أهلها ؟

هذه الآية تضيف إلى القصص السابقة قصة جديدة ، هي قصة مدين ، والمقصود بمدين قوم مدين ، ومدين اسم القوم ، وهم من العرب يسكنون في شمال الجزيرة العربية ، وهم إنما سُمُّوا بهذا الاسم إما نسبةً لمدينتهم مدين ، أو نسبة إلى رجل اسمه مدين .

على كلٍّ ، قال تعالى :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

(سورة هود)

2 - وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا

اليوم مع قصة سيدنا شعيب ، أما أنه أخوهم ، فهناك أخوَّةٌ إنسانية ، وهناك أخوَّة متعلّقة بقومه ، أي منهم يعرفونه ، ونشأ بين ظهرانيهم ، مطمئنون إليه ، ولا يشكُّون في نسبه ، و" أخاهم " منصوبة ، هذه من الأسماء الخمسة ، تقول : جاء أخوهم ، ومررت بأخيهم ، ورأيت أخاهم ، ما الذي نصبها ، أي و أرسلنا إلى مدين أيضا أخاهم شعيبا .

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

3 ـ فحوى جميع الرسالات : اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

المعرفة الفكرية والمعرفة النفسية :

هذا هو ملخَّص الديانات الثلاث ، ملخَّص رسالات السماء ، وجوهر الدين ، أن تعرف أنه لا إله إلا الله، وأن تعبده ، ولا تعبده إلا إذا عرفته ، ولا تعرفه إلا إذا نظرت في الكون ، فمعرفته تكون من خلال آياته ، هذه معرفة فكرية .

أما إذا أقبلت عليه فهذه معرفة نفسية ، وشتَّان بين المعرفتين ، إما أن تستنبط بفكرك أن هذا الإله قويٌّ، و أنه عدلٌ ، ورحيم ، وإما أن تتذوق رحمته ، أن تتذوقها يعني أن يتجلَّى عليك باسم الرحيم فتعرف رحمته ، و قد يتجلَّى عليك باسم القوي فتعرف قوَّته ، و قد يتجلَّى عليك باسم الجميل فتعرف جماله ، هذه معرفة ، معرفةٌ تتأتَّى من الإقبال عليه ، و إذا فكَّرت في آيات الله تعرفه عن طريق الفكر ، معرفة فكرية ، و معرفة نفسية ، المعرفة الفكرية وحدها لا تكفي ، فإذا أُضيف إلى المعرفة الفكرية تلك المعرفة النفسية المبنية على الإقبال عليه ، وبعد هذه المعرفة ليس هناك انتكاسة أبدا .

قال تعالى :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود)

إذا فكَّرتم ، و دقَّقتم ، و نظرتم ، و استقصيتم في أرجاء هذا الكون ، و في أنفسكم ، وفي طعامكم ، و في النباتات ، و الحيوانات ، و في ظواهر الطبيعة ، و في الكواكب ، و في المجرَّات استنبطتم أنه لا إله إلا الله ، إذا استقمتم على أمره ، و أقبلتم عليه عرفتموه معرفة نفسية .

فلو شاهدت عيناك من حسنـنا الذي رأوه لمَّا ولَّيتَ عنا لغـيرنا

ولو سمعتْ أذناك حسنَ خطابنا خلعتَ عنك ثياب العجب و جـئتنا

***

و لو أنك تذوّقت ما عند الله لزهدت فيما سواه ، و لكن البطولة أن تعرفه ، فإذا عرفته أقبلت عليه ، و زهدت فيما سواه .

قال تعالى :

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود)

4 ـ السبب الذي من أجله أهلك قوم مدين :

ما السبب الذي دعا إلى إهلاك هؤلاء ؟ أنهم أنقصوا المكيال و الميزان ، والله سبحانه وتعالى أهلك قوم لوط لأنهم فعلوا الفاحشة ، وأهلك قوم شعيب لأنهم أنقصوا المكيال والميزان ، وأهلك الأقوام السابقة بذنوب اقترفوها ، فكيف بنا لو أن كل هذه الموبقات وُجدت في مجتمعنا ؟ قال تعالى :

(وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ)

(سورة هود)

5 ـ معنى نقض المكيال والميزان :

المكيال هو وعاء الكيل ، بعضهم يزوِّر هذا الوعاء ، يعطيه حجما أقلَّ من حجمه ، وبعضهم يضع في المكاييل صفائح تقلّل من حجمها ، هذا من إنقاص المكيال ، وبعضهم يغشُّ الحليب فيجعل فيه ماءً ، فكأنه أدَّى ثلثي هذا الحليب ، لأنه أضافه إليه ماءً ، هذا أيضا من إنقاص المكيال والميزان ، وبعضهم يبدِّل و يغيِّر في الميزان ، وبعضهم يضيف مادة ليست من جنس المبيع ، أي يعطيك جبنا فيه مائتا غرام من الماء ، وهذا من إنقاص الميزان ، يبيعك فولاً فيه مرَقٌ يعادل الربع ، هذا من إنقاص الميزان ، يبيعك لبنا مصفًّى وهو غير مصفًّى ، هذا من إنقاص الميزان ، يضع البضاعة في عبوة لها وزن ثقيل لبضاعة غالية الثمن ، هذا من إنقاص المكيال ، وإما أن يضيف مواد مغايرة أو يغش البضاعة أو ما شاكل ذلك .

و يقاس على المكيال والميزان الأطوال ، يبيع القماش بالطول يشُدُّه إذا باعه ، فإذا اشترى قماشا يجعل القماش على شكل خط منحنٍ ، يشتري القماش وهو مُرخى ، و يبيعه وهو مشدود ، هذا من إنقاص المكيال والميزان تجوُّزا .

والمساحات فيها غش كذلك ، فهناك من ينقص في المساحة ، يضع الجدار على أرض جاره ، هذا من إنقاص المساحة ، بدلاً أن يضعهُ على أرضه ، وإن كان سورًا يجب وضعه بين أرضين ، تجده يضعه على أرض جاره ، هذا من إنقاص المساحة ويُحْمَلُ على هذا اللَّعِبُ في العدادات ، وكذا عدادات الوقود، وإضافة نوعٍ من الوقود رخيص مع نوعٍ غال الثَّمَن ، فَيُتلف المحرّكات ، وهذا كلّه من إنقاص المكيال والميزان ، فالإنسان هو الإنسان ، والمنحرف هو المنحرف في شتَّى العصور ، وفي كلّ الأمصار .

قال تعالى :

(وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود)

6 - إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ

ما هو الخير الذي عبّر عنه هذا النبي الكريم ؟ قال بعض العلماء : الخير وَفْرةُ المواد ، ورُخص الأسعار هذا هو الخير ، إن كان هذا الخير موجودًا مع المعصية فهذا خير سيأتي بعده شرّ لا محالة .

الخير يدوم بالطاعة والشكر ، ويذهب بالمعصية والكفر :

أحيانًا يستخدمون عبارة في بعض البلاغات : هدوء حذِر ، أيْ هذا الهدوء سيأتي بعده قصّف عَشوائي، وهذا الخير إذا توافرت المواد بأسعار رخيصة ، والناس غارقون في المعاصي فهذا الخير لا يدوم ، لا بدّ من أن يأتي بعده شرّ ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

إذا رأيْتَ الله يُتابعُ نِعَمَهُ عليك ، وأنت تعصيهِ فاحْذَرْهُ ، هذا هو الهدوء الحذر ، وسيأتي بعد هذا الهدوء شرّ ، إن لم نشْكُر ، وإن لم نتُب ، وإن لم نستَقِم على أمره ، وإن لم يُحِبّ بعضنا بعضا ، وإن لم يرحم بعضنا بعضا ، فالعاقبة وخيمة ، وكل آتٍ قريب .

قال تعالى :

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود)

وهذا الخير لا يدوم ، وهذا هو المقصود من الآية الكريمة السابقة ، أنتم في بحبوحة ونِعَمٍ ، في بعض البلاد الأوربيَّة التي يرخص فيها اللَّحم البشري إلى درجة مذهلة حدَّثني طالب لي أنَّه خرج من الفندق في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل متوجِّهًا إلى المطار ، وفي أيام الشِّتاء ، فرأى صفًّا من الناس في هذا الوقت المبكّر يزيد طوله على أربعة كيلو مترات ، فسأل سائق التاكسي لمَ يقفُ هؤلاء في هذا الوقت المُبَكّر ؟ فقال : هناك توزيع اللَّحم في الساعة الثامنة ، إذا رخص لحْم البشر غلا لحم الضَّأن !

إن رأيْت حاجتك في متناول يدك فاحْفظ هذه النِّعمة ، واشْكُر ربّك على هذه النعمة ، وأطِع ربّك شكرًا على هذه النعمة ، يا عائشة أكْرمي مجاورَة نعم الله ، فإنَّ النِّعمة إذا نفَرت قلَّ ما تعود ، وإذا كان الإنسان في بحبوحة ، وإذا كان في يُسْر ، وكان مستقيمًا على أمر الله ، فلا يخشى شيئًا ، لقوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد : من الآية 11)

إن كنت في بحبوحة وأنت شاكر مستقيم وطائعٌ ، ولك عمل طيّب فلا تخشَ أن تزول عنك هذه النِّعمة، لا تزول أبدًا لأنَّ الله يحفظك ويحفظها لك ، إن لم تُغَيِّر فلن يُغَيِّر ، قال تعالى :

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم : من الآية 7)

قال تعالى :

(وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)

(سورة هود)

7 - وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ

معنى العذاب المحيط :

إن تعودوا ، وإن لم تتوبوا ، وإن لم تُنيبوا ، فإنِّي أخاف عليكم عليك عذاب يوم محيط ، ومعنى مُحيط أي لا مندوحة مِن تحمّل نتائجه الوبيلة ، ولا مندوحة من تحمّل مغبَّته ، كيف يُحاط بالإنسان ، وكيف يضرب على إنسان طوقٌ ؟ إن اتَّجَه إلى هناك يرى الطريق مسدودًا ، وإن اتَّجَه إلى هنا يرى الطريق مسدودًا ، وهذا هو العذاب المحيط .

قد يُصاب الإنسان بمَرضَيْن ، أدْوِيَة هذا المرض تزيدُ من ذاك المرض ، وأدْوية ذاك المرض تزيد من هذا المرض ! هذا هو المحيط ، قد يفقد الإنسان المال ، وقد يفقِد الزوجة ، ويفقد حريَّته في وقت واحد !

العلماء لهم في تفسير هذه الآية مذاهب شتى ، عذاب محيط ، قال بعض العلماء : غلاء الأسعار ، وعذاب محيط الاسْتِئصال من الدنيا ، وعذاب محيط هو عذاب النار ، فإما غلاء الأسعار ، وإما عذاب الاستئصال ، وإما عذاب النار ، فأنا أراكم بخَير ، ولكنَّكم تنقصون المِكيال والميزان ، ولا تؤدُّون للناس حقوقهم ، قال تعالى :

(وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ

1 ـ الحكمة من الأمر بوفاء الكيل والوزن بعد النهي عن ضدِّه :

تساءل بعض المفسِّرين ؛ حينما ينهى الله سبحانه وتعالى عن أن يُنْقَصَ المِكيال والميزان ، أليس في معنى هذا النَّهي وفاءُ المِكيال والميزان ؟ فلِمَ أعاد الله سبحانه وتعالى علينا الكرَّة وقال : وأوفوا المكيال والميزان !! قال : هذا من باب التأكيد ، فقد وصف لك أولاً بشاعة إنقاص المكيال والميزان ، ودفعك ثانياً إلى الوفاء بالتمام والكمال للمِكيال والميزان .

2 ـ معنى : بِالْقِسْطِ

أما كلمة بالقسط ، فتعني أنك لسْتَ مُطالبًا أن تزيد على الحدّ الصحيح ، ولسْتَ مُطالبًا أن تبيع الكيلو ألفاً ومائتي غرام ، فبالقِسط أيْ لسْتَ مُطالبًا أن تزيد في الوزن والكيل عن الحدّ المعروف ، إن كان الله سبحانه وتعالى نهاك عن أن تنقص عن الحدّ المقبول ، فهو تعالى كذلك لم يأمرك أن تزيد على الحدّ غير المعقول ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

دخل رجل إلى هذا المطعم ليأكل طعاماً ، قدَّمت له قطعة اللحم مائة وخمسين غرامًا على أنَّها مائتان ، ماذا فعلت أنت أيها البائع ؟ أنْقصْت المكيال ، وبخسْت المال ، فدفع الطاعم مبلغًا باهظًا ، ولم يكْتفِ بهذا الطعام ، بخسْت أيها البائع الناس أشياءهم ، إن أراد أن يبيعك شيئًا أنقصَه ، قال عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ أطْيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدّثوا لم يكذبوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا ائتُمنوا لم يخونوا ، وإذا باعوا لم يُطروا ، وإذا اشْتروا لم يذمُّوا ، وإذا كان عليهم لم يَمْطِلوا ، وإذا كان لهم لم يُعَسِّروا))

[الجامع الصغير عن معاذ ، وفي سنده ضعف]

هؤلاء الذين يحْفظهم الله من هزَّات تُصيب معظم التجار .

قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

1 ـ الزيادة على الشيء أو النقص منه من البخس :

قال بعض المفسِّرين : من نواحي بخْس الناس أشياءهم أن تنقص الكميَّة ، دفع لك مبلغًا على أنَّ هذه الكميّة وزنها كذا ، أو حجمها كذا ، أو مساحتها كذا ، أو طولها كذا ، فإذا هي أقلّ من هذا ، أما فيما يتعلق بالمساحات كمسْح الخشب ، أو مسح الألمنيوم ، أو مسح الأرض بالبلاط ، فأحيانًا يزيد صاحب هذه الصِّنعة بالمساحة ، تم الاتفاق على أن المتر بألف ليرة ، هذا اتّفاق شرعي ، فكيف كسِبَ مالاً حرامًا ؟ بزيادة المساحة ! فمساحة البيت مائتا متر ، فقدرها زوراً بمائتين وثلاثين ! هذا مِن بخس الناس الأموال .

2 ـ من البخس إخفاءُ العيوب :

الشيء الآخر إخفاء العيوب ، إذا بعت البضاعة أخْفيْت عَيبها ، فإذا اشْتريتها دققت في عيبها ، وبالغت في تقدير العيب وهوّلت حاله ، حتى إنَّ صاحب هذه البضاعة تنهار معنويَّاته ، ويخشى أن تكْسد ، فيبيعُك إياها برأس مالها ! هذا من بخس الناس الأشياء ، قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

ألا تنقص المكيال والميزان ، وثانيا ألا تخفي العيب إذا بعت ، وألا تُبالغ في هذا العيب إذا اشْتريت .

مثلاً : رجل شاهدَ غرفة نومٍ مناسبة ، لها سريران ، فقال للنَّجار : أنا أريد سريرا واحدا ، كم تحْسم لي، يقول : خمسمائة ليرة ، لو أتاه إنسان آخر ، وشاهد غرفة نوم بسرير واحد ، وقال له : أريد فيها سريران ، كم تزيد ؟ يقول : ألفي ليرة !! لماذا حسَمْت للأوَّل خمسمائة ، وأضفت على الثاني ألفًا ؟! إنَّك إذا بِعْتَ بمِقْياس ، واشْتريت بمِقياس ، فهذا بخس ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، إن كنت شاريًا تُبالغ في هذا العيب ، إلى أن تسْودَّ البضاعة في عين صاحبها ، وإن كنت بائعًا لا تبالي بهذا العيب وتهوّن من شأنه ، وتقول له : هذا لا قيمة له ، فهذا من بخس الناس أشياءهم ، إن لم تعط الأجير أجره فقد بخسْته جهده ، وإن لم تُعط الخبير ثمن خبرته ، فقد بخسْته خبرته وإن لم تعط الطبيب أجره فقد بخسْته علمه ، وإن لم تعطِ المهندس ما اتَّفقت عليه فقد بخستهُ علمه ، إن لم تُعط صاحب الحاجة حقَّه فقد سرقت منه حاجته ، قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

احذرْ فـ : إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ

العوام يقولون : هناك لصوص النهار ، هؤلاء هم الذين إذا شعروا أنَّ إنسانًا يبيعُ حاجةً لِضَرورة قصوى اشْتروها منه نهْبًا ! قال لي صديق : اضْطررتُ لِبَيْع سجَّادة ، فأتى بِخَبير سجَّاد إلى بيته ، وقال له : كم ثمنها فقال : عشرة آلاف ليرة ، وجاء بآخر : فقال له هذه ثمنها مئة ألف !! فهذا الأوَّل جسّ نبضه أهُوَ جاهلٌ أم واعٍ ؟! فإن كان جاهلاً أخذها منه بِثَمن بخْس ، قال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

هذا الذي تأخذه حرامًا تدفعه أضعافًا مضاعفة ، وقد يذهب بِصاحبه ويدمره ويتلفه ، قالوا : المال الحلال يذهب ، ولكنّ المال الحرام يذهب ويذهب بأهله ، ويتلفه الله سبحانه وتعالى ، ومن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّ الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله !

قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

أحيانًا تبدي عدم رغبة بهذه الحاجة ، كأن تعرض عليك بِضاعة ثمينة وأنت في أمسّ الحاجة إليها ، تبدي تمثيلاً بارعًا أنّ هذه البضاعة مضى وقتها ، وهذا ليس موعدها ، وفيها عيوب ، وأنك لستُ بحاجةٍ إليها ، وتقول لصاحبها : إن شئت فخُذْ هذا الثَّمَن ، هذا يحْسبهُ الناس مهارة ، وذكاء ، وقدرة على سلْب الناس أشياءهم ، ولكنّ هذا الفعل هو الحمق بعينه ، قال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

كان السلف الصالح ينظرون في الأمر ، فإن كان بائع هذه الحاجة لا يعرف قيمتها ، فإن من يعرف قيمتها منهم يُعرّفه بقيمتها وحقيقة ثمنها .

رجل صالح له ابن شابّ ، كلَّفه بشراء حاجة من بعض أسواق دمشق ، فاشْتراها ، ولما أبلغ أباه بالسِّعر قال له الأب : هذا غلط ، هذا السعر رخيص جدًّا ، فرجع الابن ، وقال للبائع : إن أبي يقرئُك السلام ، ويقول لك : إنّ هذه الحاجة قد ارتفع ثمنها ، وخُذ الفرْق ، فقال له : أبقِيَ في الدنيا أمثال والدك؟! خُذْ هذه الحاجة بِثَمنها الأوّل ، وأنت مُسامَح !

إنسانٌ آخر أعْطوْهُ أرضًا ، وصلتْ إليه بطريقة غير مشروعة ، سأل هذا الإنسان شيخًا له ، فقال له شيخُهُ : هذه الأرض حرام عليك ، ولا بدّ من أن تدفعَ الثَّمَن لصاحبها ، ذهب لِصاحبها ، وعرض عليه

أن يدفع له ثمنها ، نظر إليه وقال له : والله ضاعَ مِنِّي أربعمائة دنُم من الأراضي ، ولم يأتِ واحدٌ لِيَعْرض عليّ هذا العرْض ، هي هِبَةٌ لك ! اِزْرَعها بارك الله لك فيها ، الذي يعرف الله سبحانه وتعالى لا يأخذ مالاً حرامًا ، ولو عُرِضَ عليه بسَخاء ، قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

3 - تلقّي الركبان من البخس :

ومِن بخْس الناس أشياءهم أن تُحاول تلقّي الرُّكبان ، والنبي عليه الصلاة والسلام نهى عن تلقّي الركبان، تذهب إلى ظاهر المدينة ، تتلقّى من معهم بضاعة من غذاء أو سمن أو زيت أو جبن ، لئلا يصل صاحب البضاعة إلى المدينة فيعرف السِّعْر الحقيقيّ ، تأخذ منه هذه الحاجة بثَمنٍ بخْس ، وأحيانًا يبيعُ الإنسان بيتًا ، وليس عنده فكرة دقيقة عن أسعار البيوت ليشْتريَ بيتًا أكبر ، يأتي الدلال أو المشتري فيدفع له ثمناً ، في نظر البائع هو ثمن معقول جدًّا ، ومغرٍ ، فيبيعُهُ ، فيذهب لِيَشتري بيتًا بدَلَ بيته فيرى أنَّ الأسعار مرتفعة لا تُحْتمَل ، وهذا أيضًا من بخس الناس أشياءهم .

حدَّثني رجل من قطر عربي أنَّ بدَويًّا معه حجَّة بأرض ، يعني أوراقاً رسمية بملكية الأرض ، فجاء إلى المدينة لِيَعرضها على بعض سماسرة الأراضي ، فعرفوا أنَّه جاهل ، فاشْتَرَوها منه بثَمنٍ بخْس ، وأقاموا عليها بناءً ، بلغَ ارتفاعهُ أكثر من عشرين طابقًا ، وكانوا شركاء ثلاثة ، أما الأوّل فقد ماتَ إثر حادث سيارة مؤْسِف ، وأما الثاني فقد وقعَ من على ظهر هذا البناء ، فمات حتْف أنفه ، وأما الثالث فَشَعَرَ أنَّ شريكيْه ماتا بسَبب أنَّهما نهبا من هذا البدوي أرضه ، وهو شريكهما في عملية النهب ، وتضليل البائع ، و بخسه حقه ، فبقي يبحث عنه أكثر من شهرين ، إلى أن عثَرَ عليه ، وأعطاهُ ثمن الأرض بقيمتها الحقيقيّة ، فقال له هذا البدوي : أما أنت فقد لحَّقْتَ حالك ! يعني تداركت أمرك قبل أن يقع بك ما وقع بشريكيك ، قال تعالى :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

(سورة هود)

وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

1 ـ ما هو الفساد ؟

الفساد : أن تقول : برتقالة فاسدة ، أي أصابها العفن ، وتقول : قطعة لحْمٍ فاسدة ، أصبحَت متفسِّخة هذا هو الفساد المادي ، فالأولى متعفِّنة والثانية متفسِّخة ، الفساد أن تفسُدَ العلاقة بين زوجين ، إياك أن تفسِد علاقةً بين زوجين ، فأحيانًا كلمة تفسد هذه العلاقة .

2 ـ الفساد طريق الهاوية والهلاك :

إياك أن تفسد علاقة بين شريكين ، فأحيانًا كلمة تفسد هذه العلاقة ، وإياك أن تفسد علاقة بين أُمٍّ وابنها، أو بين أخ وأخيه وبين جار مع جاره إياك ثم إياك ، وإذا نظرتَ إلى النساء أفسدْت العلاقة بينك وبين الله ، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنْكسِرَ أضلاعه ، ويتحطم أهون من أن يسقط من عين الله .

إذا أطلقت بصرك إلى محارم الله أفسدْت العلاقة بينك وبين الله ، وأيَّة معصيةٍ ترتكبها تفسد علاقتك مع الله ، هذه المعصيَة تُشَكِّل حِجابًا بينك وبين الله ، وكلّما كبرتْ هذه المعصيَة ازداد هذا الحِجاب كثافة ، ويصْعب هتكه بعد ذلك ، لذلك أخطر شيءٍ أن تفسد علاقتك بالله عز وجل ، قال الله تعالى :

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

(سورة الأنعام : من الآية 124)

قال تعالى :

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا(44))

(سورة الفرقان)

قال تعالى :

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون : من الآية 4)

وقال تعالى :

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50))

(سورة المدثر)

3 ـ الفساد مانعٌ من العلم والأدب :

ما اسْترذل الله عبْدًا إلا حظرَ عليه العِلم والأدب ، إذا فسدَت العلاقة بينك وبين الله ، فالعِقاب الصارم أنَّ الله سبحانه وتعالى يحْضر عليك العِلْم والأدب ، كُلْ كما تأكل البهائم وتمتَّع ، ونَمْ نومًا عميقًا مريحًا، اسْتيقِظ الساعة الحادية عشرة ، وافعل ما تشاء ، واذْهب إلى حيث تشاء ، ولكنَّه محظور عليك العلم والأدب ، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

أثمنُ عطاءٍ يُعطاهُ الإنسان ؛ العِلم والحكمة ، أما أن يكون غنيًا فالله تعالى أعطى قارون المال ، وهو لا يحبّه ، وقد تفسدُ العلاقة بين الإنسان وعقله ، فلا يستخدم عقلهُ ولا يُطوِّرُ مفاهيمه في إدراك الأشياء ، ولا يُنَمِّيها ، ويسيء استخدام قدراته العقلية ويعطّلها ، فإما أن لا يستخدمه إطلاقاً ، وإما أن يستخدمه في الإيقاع بين الناس ، وإما أن يرفض نموّ عقله وانفساحه ، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

إذاً : تراه إما أن يُعَطِّله ، وإما أن يُسيء اسْتخدامه ، وإما أن يجمِّده ، ومَن فعل هذا فقد فسدت علاقة الإنسان مع عقله ، وأخطر أنواع الفساد أن تفسد العلاقة بينك وبين رَبِّك ، وقد تفسد العلاقة مع زوجتك، إذا أطلقت بصرك للحرام يغدو بيتك جحيماً ، أما الذي يغضّ بصرهُ عن محارم الله فإن الله يورثه في قلبه حلاوةً إلى يوم يلقاه ، وأوّل ثمنٍ لهذا الغضّ أن يُوَفِّق الله بينك وبين زوجتك ، فإذا أقام الزوجان الشرع في البيت تولى الله التوفيق بينهما ، وإذا خالف الزوج والزوجة شرع الله تولى الشيطان الإيقاع بينهما ! وتفسدُ العلاقة بينهما ، ويزداد الخرق اتساعاً بينهما يوما بعد يوم ، وتسوء العاقبة .

الذي يأخذ رَشْوَةً يفسُد ويُفسِد ، والذي يؤديها يُفْسِدُ ويفسُد ، يفسد هذا الموظّف معيشته ، ويجعله يعيش في بحبوحة وسعة لا يرضى أن ينزل مستواها بعد ذلك ، فيُحافظ على أكل الحرام ، والذي يُبالغ بالزِّينة يغرسُ حبّ الدنيا في قلوب الناس ، فإن كانوا مثله قادرين تنافسوا على حُطام الدنيا ، وإن كانوا فقراء أوْدَعَ الله في قلوبهم حُرْقةً طوال حياتهم ، قال تعالى :

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

(سورة هود)

هذه الآية واسعة جدًّا ، فأيَّة معصيةٍ تفسدُ بها مجتمعًا ، وتفسدُ علاقتك بالله عز وجل ، لذلك : ألا يا ربّ شهوة ساعةٍ أوْرَثَتْ حزنًا طويلاً !

قال تعالى :

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)

(سورة هود)

معنى : بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ

1 ـ هامش الربح المشروع :

هذه آية دقيقة جدًّا ، ما بقيّة الله ؟ أيْ إذا أدَّيْت الوزن الصحيح ، أو الكيل الصحيح ، أو الطول الصحيح أو المساحة الصحيحة ، وإذا كان العداد صحيحًا ، ولم تضف ، ولم تغشّ ... كما حدَّثتكم من قبل إذا فعلْتَ هذا فهامشُ الرِّبْح المشروع الذي يبقى لك ، أن يُبارك الله لك فيه ، فهو تعالى يحفظك من أمراضٍ وبيلة ، ومن أجور أطباء ، وأجور تحاليل وهدْر الوقت ، إذا أكلت الحلال بارك الله لك بهذا المال .

أحدهم ذهب ليُصلِّح مركبته ، فقال له المُصلِّح : هذه تكلِّفك عشرة آلاف ليرة ، يبْدو أنَّ صاحب المركبة غشيم كما يقولون ، وجاهل ، وحريص على هذه المركبة ، فاتَّفَق معه ، فلما ولَّى صاحب المركبة مُدْبرًا قال المصلح لجاره : هكذا الرِّبْح !! وهكذا العمل !! فقال له : والله هذا حرام ، وكان ابن هذا المُصلِّح يعمل في مخرطة دخلت نثرة فولاذ في عينه فأخذه إلى المستشفى في بلد مُجاور ، ودفع عشرة آلاف ليرة كي تُسْتخرج هذه النثرة من عَين ابنه ! فالإنسان حينما يحتال ، حينما يغشّ الناس ليس ذكياً ولا فهيماً ، فالله سبحانه وتعالى بالمرصاد ، لو أخذ ألف ليرة بدل عشرة آلاف ليرة من وجه صحيح فهذا الهامش فيه بركة من الله تعالى .

وأما الذي يُغيِّر ، ويبدل ، ويغشّ ، ويُضيف فإن الله سبحانه وتعالى يُتلفُه مع ماله ، قال تعالى :

(بَقِيَّةُ اللَّهِ)

(سورة هود)

بعض المفسِّرين قال : البقية هي هامش الرِّبْح المشروع ، هذا الذي أبقاه الله لك ، والله سبحانه وتعالى يُبارك لك فيه .

2 ـ طاعة الله :

وبعضهم قال : طاعتك لله عز وجل هي بقيّة الله تعالى ، وهي خير لنا .

3 ـ حِفْظ الله للعبد :

وبعضهم قال : حِفْظ الله لك هذه بقيّة الله ، وهي خير لك من الرِّبح غير المشروع .

4 ـ رحمة الله :

وبعضهم قال : رحمة الله التي يتجلّى بها على قلبك خير لك من هذا المال الحرام ، فالرِّبْح الحلال ، أو طاعة الله ، أو حفظ الله ، أو رحمة الله ، أو رزق الله خير لك من هذا الرّبح غير المشروع ، ومن هذا المال الحرام .

قال تعالى :

(إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

المؤمنون يعلمون أن المستقيم هو الرابح :

هذا لا يعرفهُ إلا المؤمنون ، فغيرهم يرفضون هذا الكلام ، أما المؤمنون الصادقون يعرفون أنّ المستقيم هو الرابح في النهاية ، والعاقبة للمتقين .

حدَّثني أخ عمِلَ مع أُناسٍ كسبوا مالاً حرامًا فقال لي : والله مضى عليهم ثلاثون عامًا وهم يأكلون أموالاً من الحرام ، وفي النِّهاية ما مِن واحدٍ منهم إلا ومدَّ يدهُ إلى الناس قبل موته !! أقسمَ لي !

هذا الذي أبقاه الله لك ؛ إما الرِّبح المشروع ، أو رحمته أو توفيقه أو حفظه أو رزقه ، هذا خير لك ، ولكن لا يعرف هذا إلا المؤمن . قال تعالى :

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود)

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ

1 ـ عليك بمراقبة الله :

الإنسان إذا شعر أنّ عليه مراقبة يُضَبِّط الوزن ، وإن لم تكن هناك مراقبة ، أشرك وهو لا يشعر ! المؤمن يضبط من دون مراقبة ، من لم يكن له ورعٌ يصدّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ بِشَيءٍ من

عمله أكان حلالاً أم حراماً ، ويستحيل أن يراقب الإنسانُ الإنسانَ ! مهما ضبطْت الأمور ، من يضبط هذا العامل في الفرن ؟ إذا دخل بيت الخلاء أن يغسل يديه !! لا يوجد إلا الله ، وحتى المراقب يحتاج إلى مراقب !! فهل نضع المراقب في كل مكان ؟ لن نستطيع !! إن لم يكن هناك وازع داخلي فالقضيّة لا نهاية لها ، ففي غياب الإيمان لا بدّ من أجل ضبط الأمور من مراقبة دقيقة ، ولكنّ هذه المراقبة مهما دقّتْ لا تستطيع أن تغطّي كلّ الأشخاص وجميع الأوقات .

2 - شتان بين الوازع والرادع :

مثلاً : في بعض البلاد التي تسمَّى بالمتقدّمة ! انقطع تيار الكهرباء في إحدى الليالي ببعض المدن ، فارْتُكِبَت في هذه الليلة مائتا ألف سرقة !!! إذًا الأنظمة الوضعيَّة تعتمد على الرادع ، بينما الأنظمة الإلهيّة تعتمد على الوازع ، وشتان بين الرادِع والوازع .

سيّدنا عبد الله بن عمر ، وأنا أكرر هذه القصّة مئات المرات ؛ التقى بِبَدَويّ وقال له : بعْني هذه الشاة ولم يكن صاحبها بل كان راعياً فقال : ليْسَت لي ، قال : قُلْ لِصاحبها ماتَتْ أو أكلها الذِّئب ! فقال : ليْسَت لي ، فقال : خذْ ثمنها ، ودع عنك صاحبها فقال : والله إنَّني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلتُ لِصاحبها ماتتْ أو أكلها الذِّئب لصدَّقني ، فإنِّي عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟! هذا الذي نطمحُ إليه؛ أن يُراقب العبد ربَّه ، ولا تُحَلّ مشكلاتنا إلا إذا حلَّ الوازع محلَّ الرادِع ، فأنْ يخشى الإنسان ربَّه ، ويراه يراقبهُ في كلّ حركاته وسكناته .

بعضهم قال : كلّ ما نستطيع أن نفعله مع المدرِّس أن نجعله يدخل الصفّ الساعة الثامنة ، فإذا كان مع الطلاب ؛ فهل يُدرِّسهم ؟ وهل يعتني بهم ؟ وهل يُتْقن عمله ؟ هل يُعنى بِتَطَوُّرهم وتقدّمهم ؟ هذا عائدٌ إلى وِجْدانه المسلكي ، فمهما ضبطْت الأمور ؛ دخل الساعة الثامنة ، وانتهى الأمر ! جاءهُ المفتّش في السنة مرّة أو مرَّتين ، وإذا علم مسبقًا بقدومه بدا كأحسن مُدَرِّس ، ولكنّ المعلّم الذي يعرف الله سبحانه وتعالى يراقب الله في كلّ العام ، فبدل أن يكون له درس واحد نموذجي أمام المفتش ، تكون كلّ الدروس نموذجيّة على مدار العام ، هذا إن عرف الله .

إذاً هذا شأن المعلّم ، وكذلك الطبيب والمحامي والمدرّس ، وكذلك العامل ، إذا عرفت ربّك استقمْت على أمره ، وهذا هو الحلّ ، وما من حلّ آخر ، فمهما دقّقت في المراقبة ، والمراقَبْ قد يكون أذْكى من المُراقِب .

مثلاً : كانوا يستخدمون ميزانا ليعرفوا أنَّ الحليب كامل الدسم ، فلجئوا إلى نزع خير الحليب ، ووضْع النشاء مكانه ، فإذا وضعت الميزان بدا وكأنَّه كامل الدَّسم ، استُقْدمَت أجهزة معقَّدة لِكَشف الدَّسم ،

فأصبح الخلل في الذي يعمل على الجهاز ، إذا قبضَ مبلغًا رشوةً يقول : الحليب جيّد ، فالقضيّة إذاً لا حلّ لها إلا أن يكون في القلب الإيمان ، وأن يخشى الإنسان ربَّه .

مُحَلّلٌ تأتيه عيّنة لِيَفْحصها ، يضعها على الطاولة ، ويكتب : النِّسبة صحيحة مائة بالمائة ، ليقبض الثَّمَن حراماً !!

وقد تجد الأخطاء من أصحاب الخِبرات والمثقَّفين بشكّل أخطر ! إن لم يكن في القلب إيمان فسدت الحياة ، فلا بد من الإيمان كي تصلح أمور الناس ، ولا بدّ من الصلح مع الله ، وإذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أنْ هنِّئوا فلانًا فقد اصطلَح مع الله !!

ما قولكم أنَّ بعض بائعي العصير يضعون خمسين إبرة من الماء للبرتقالة الواحدة وهناك من يمزج الزيت النباتي بالبلدي ، فلا بدّ من الإيمان بالله ، ولا بد من مراقبة الله كي تستقيم الأمور ، أما على أساس الرادع فلا يمكن أن تُغطّي المراقبة كلّ الناس في كلّ الأوقات .

وفي درس آخر إن شاء الله تعالى نتابع قصَّة سيّدنا شعيب ، وصلنا إلى قوله تعالى :

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (12-16): تفسير الآيات 87 – 95
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-04-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

(سورة هود)

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ

1 ـ معارضة قوم شعيب لنبيهم :

قوم شعيب الذين كذَّبوه وعارضوه ، وردُّوا الحق الذي جاء به ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ)

(سورة هود)

يذكر بعض المفسِّرين أنَّ سيّدنا شعيبًا عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام كان كثير الصلاة ، فالذي بدا لهم من هذا النبي الكريم الصلاة ، أو كثرة الصلاة ، فلما جاءهم بمنهج ربَّاني يأمرهم وينهاهم عارضوه .

الشهوات بين الطريق الصحيح والقنوات المنحرفة :

كلّ منهج إلهي فيه أوامر ، وفيه نواهٍ ، وقد جعل الله النفس البشريّة نزاعة إلى الشهوات ، منقادة إليها ، مائلة إلى الهوى ، كما أنه فطرها على حب الخير ، فلا بد إذاً من المكابرة ، فإذا طبَّقت هذا المنهج الرباني فإنَّها تأخذ من هذه الشهوات الشيء المسموح به ، وتدعُ ما نهى الله عنه ، وأيّة شهوة أودعها الله فينا إلا وجعل لها قناةً نظيفة شرعيّة ، نظيفة صحيحة فيسعد الإنسان بها ، ويشكر ربّه عليها ، كما أنَّ للشهوات قنوات قذرة ومنحرفة مؤذيةٌ قد تؤذيك ، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة ومشروعة ومعزّزة ومبجّلة ومكرّمة ، وما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا ولها طريق قذرة قد يتزوّج الإنسان امرأة وتحمل هذه المرأة فيفرح الزّوج ، ويفرح الأهل وينتظر هؤلاء جميعًا المولود القادم ، و يُعِدُّون له السرير والمهاد ، كما يُعِدُّون له كلّ حاجاته ، يأتي المولود ، ويأتي المهنئون ويقدّمون الهدايا ، وتكون لدى الأهل أفراح ، أما إذا جاء مولود من طريق غير مشروع ، فإما

أن يوضع في حاوية القمامة ، وإما أن يوضع على أبواب البيوت ، أو على قارعة الطريق ، أو الحديقة، وهذا هو الطريق غير المشروع ، فبالطريق المشروع تتزوَّج ، فإذا تقدَّمَت السِنّ بالزَّوجة صارَتْ جدَّةً أحبَّها أحفادها ، وأقبلوا عليها ، وأكرموها وخدموها ، فإذا تقدَّمت بها السنّ أيضًا صار أولادها شبابًا ، وأحفادها شبابًا ، وكانت موضع احترام وتبجيل ، وإكرام ، فإذا اختطَّت امرأة طريق الزنا في شبابها ، فماذا فيها مسْحة من جمال أقبل المنحرفون عليها ، فلما ذوى جمالها نبذت كنواةٍ في عرض الطريق ، لا كرامة ولا سلامة ، بل حياة ازدراء ، فهذا طريق الزواج ، وذاك طريق الفاحشة والخفاء ، وكذلك الحال بالنسبة للمال ، فإما أن تكسبه عن طريق مشروع تسْعدُ به ، وتُحصِّن به نفسكَ، وتكفي عِيالك ، وتتقرّب به إلى ربّك ، وإما أن يؤخذ من طريق غير مشروع فيتْلفُ ، ويُتْلِفُ صاحبه ! فالله سبحانه وتعالى رسمَ للإنسان منهجًا فيه أوامر وفيه نواهٍ ، مبدئيًّا هذا المنهج لا يحْرم الإنسان شيئًا إلا أنَّه يُحِلّ لهم الطيّبات ، ويحرِّمُ عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التي كانت عليهم ، أغلال الشّهوات وهذه القيود التي تُقيِّد الإنسان ، وهذه الشّهوات التي تُذِلُّه وترْديه ، وتهلكُه أما المنهج الرباني فيرسُم لك الطريق الصحيح ، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة)

لو أنَّ إنسانًا يسكن في بيتٍ قديم ، وهو صفر اليدين ، وفقير مُعْوِز ، وتحت هذا البيت كنزٌ عظيم ، لو استخرجهُ لأغناه إلى أولاد أولاده ، ولكنَّه لا يدري ! بوجود هذا الكنز ، فإنْ رأى ورقةً فيها إشارةً إلى هذا الكنْز ؛ أيُّهما أثمنُ هذا الكنز أم تلك الورقة ؟ الجواب تلك الورقة ، لأنَّه لولا هذه الورقة ما عرف الكنز هو فوق الكنز ، وهو لا يدري ، ولكنّ هذه الورقة نبّهتْهُ إلى هذا الكنز فَسَعِدَ به كذلك فما قيمة الحكمة إذاً ؟ الحكمة أثمن من الدنيا بأكملها ، لأنَّه بالحكمة تعرف كيف يعيش في الدنيا ؟ وبالحكمة تعرَّف إلى الله سبحانه وتعالى ، وبالحكمة يستقيم على أمره ، وبالحكمة تعرف إلى أثمنَ ما في الدنيا وهو العمل الصالح ، وبالحكمة يصل إلى مصدر السعادة ، وبالحكمة يسْعدُ إلى الأبد ، فهل الحكمة أثمنُ أم هذه الدنيا ؟!! الحكمة أثمنُ من الدنيا .

قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(سورة هود)

2 ـ اعتراض السفهاء في كل زمان ومكان :

وهذا القول نسْمعه في كلّ زمانٍ ومكان ، يقول لك أحدهم : أديْنُكَ يأمرنا ألا نستْغِلَّ أموالنا ؟! تصور

هل أقرض شخصاً مبلغاً ثم استرده كما قدَّمته ؟ أمجنون أنا ؟!!! هذا مال لا بدّ من استثماره فإن أقرضتُه أحداً كان عليّ أن آخذ فائدته ! قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(سورة هود)

هكذا تريد ! أديئُك يريد أن تفرَّق الأسرة إلى فريقين ؛ نساء ورجال ! هم يحِبُّون الاختلاط ، أدِينُكَ يأمرنا أنْ ندعَ هذه التقاليد وذاك التراث ؟ لذلك الكفار هم الكفار في كلّ زمان ومكان ، ويرَوْن في الدِّين قيودًا ، مع أنَّ الدِّين حدود ، فإذا كنتَ تمشي في حقلٍ ، وقرأتَ لائحة كُتِبَ عليها : ممنوع تجاوز هذه اللوحة ، فالحقل حقل ألغام ، بماذا تُحِسّ في نفسك ؟ أتُحِسّ أنَّ هذه اللوحة فيها تقييد لِحُريّتك ، وحدّ من حركتك ، أتُحِسّ أنّ هذه اللواحة فيها ظلم لك ، أم تحسّ إن هذه اللَّوحة ضمان لِسَلامتك ، وحدّ للخطر ، وإن رأيْتَ عمودًا كهربائيًّا عليه توتر عالٍ ، وكتِب عليه : خطر الموت ، ألا ترى أنَّ هذه اللوحة فيها رحمة لك ؟ رحمة تنبّهك إلى خطر مُميت ، وتحذرك منه قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(سورة هود)

3 ـ العادات السيئة منبوذة :

هؤلاء المتعلّقون بالتراث ، المتعلّقون بالتقاليد ، المتعلقون بالعادات ، ولو أنَّها غير صحيحة يسيرون وراء كل ناعق ، سمعتُ أنَّ بعض من الناس إن جاءهم رجل من البادية لِيَبيعهم صوفًا بيْعًا سَلَمًا ، أي مُقدَّمًا يشترونه منه بأرخص الأثمان ، فقد قال لي أحدهم : هكذا ألفنا ! وهكذا كان أجدادنا !! صوف هذا البدوي ثمنه مائة ألف ليرة ، تشترونه منه بخمسين ألف ليرة ، من أجل أنَّه محتاجٌ لِثَمن العلف ، أتستَغِلُّون حاجته إلى هذا الحدّ البشِع ؟ هذا أشدّ أنواع الربا يقولون لك : هكذا ألفنا منذ زمن آبائنا ، وهكذا اعتدنا أن نشتري الصوف !! كلّ إنسان له عادات وتقاليد ، وله أشياء ألِفَها خلاف الحق فهي منبوذة ، فمِن العادات السيّئة أن يجلس العروسان على مِنَصَّة مرتفعة جنبا إلى جنب ، وأمامه حشْدٌ كبير من النساء المدعوات بأبهى زينة ! أأنْت مسلم ؟ أهذا هو الإسلام ؟ يقول لك : هكذا العادات ، وهكذا نشأنا ، وهكذا فعل ابن عمي وابن خالي وجاري ، وإن لم أفعل هذا أُتّهم أنّي ناقص ومتخلّف ، تستحي بي زوجتي أمام الدعوات ، هذا الذي يتعلّق بالتقاليد ، وما توارثه الناس إن كان مُخالفًا للحق فليس في قلبه ذرَّة من إيمان ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(سورة هود)

قال تعالى :

(أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ)

(سورة هود)

4 ـ الأموال خاضعة للشرع في التعامل :

الربا مُحرَّم ، بيع التقسيط إذا كان الثَّمن قد زاد عن الثمن الذي تبيع فيه البضاعة نقدًا فهذا أيضًا حرام، يقول لك التاجر : كيف تُريدني أن أبيع هذه الحاجة لأجلٍ ، وأقبض ثمنها كما لو بعتها نقدًا ؟ أمجنون أنا؟! قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

(سورة هود)

5 ـ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ

بعضهم قال : يبْدو أنَّ هذا النبي العظيم كان على خُلُقٍ عظيم ، ومجاراته شيء لا نقدر عليه ، هذا الذي قاله يعني أنه ملتصق بالدين والخلق ، والأنبياء كلهم كانوا كذلك ، ولا من السير على نهجهم ، فهم القدوة وهم سفراء العناية الإلهيّة ، هم سفراء وحي السماء ، والأنبياء قِمم في الأخلاق ، ولا بدّ أن يكون النبي هكذا ، لأنَّه يمثّل الكمال الإلهي ، وأيَّة قصَّة ، وأيّ خبرٍ ، وأيّ كتابٍ ، وأيّ تفسير يقْدح في كمالهم ، أو يجعلهم كعامَّة الناس أو يجعل همَّهم النِّساء ، كما قال بنو إسرائيل عن سيّدنا داود ، أيّ كتاب أو أي تفسير ، أو أية قصّة أو أية رواية تقدحُ في كمالهم ، وتقدح في طهرهم وفي عفافهم ، وفي إخلاصهم وفي رِفْعتهم فهذا افتراء وضلال ، قال تعالى :

(أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ)

(سورة هود)

لسْتَ حُرًّا حرية متجاوز فيها حدود الدين الحنيف أيُّها الأخ الكريم ، فإن هناك علاقات ماليّة محرَّمة ، علاقة الربا محرَّمة ، كلّ قرْضٍ جرَّ نفعًا فهو ربا ، البيع لأجل يجب أن يكون بالسِّعْر الذي تبيع فيه البضاعة نقْدًا وإلا وقعْت في الحرمة ، والقرض كذلك يجب أن يكون قرضه خالصًا لوجه الله عز وجل، وحسمُ السَّندات يوقِعُ الإنسان في الربا ؛ أن تقبض مبلغًا حالاً أقلّ من قيمته الآجلة ؛ هذا كلّه محرَّم ، لذا قال سيّدنا عمر : << تفقَّهوا قبل أن تدخلوا الأسواق >> ، لأن مئات العلاقات المشبوهة ، ومئات العلاقات المحرَّمة هذه كلّها تُتْلِفُ المال قال تعالى :

(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

(سورة هود)

6 ـ قوم شعيب أردوا الحرية في أموالهم :

يبدو أنّ سيّدنا شعيبًا كان في نظر قومه ـ وهو كذلك ـ حليم رشيد ، وهذا هو المعنى الأول ، أيْ أنت يا شُعيب نعْهَدُكَ حليمًا رشيدًا ، فكيف تأمرنا أن نُجمِّد أموالنا ؟ وألا نستفيد منها؟ وإذا أقرضناها أحداً أفلا نستفيد من إقراضها ؟ وكيف تأمرنا أن نبيع شيئًا مؤجَّلاً بِسِعر المعجّل ؟! قال تعالى :

(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

(سورة هود)

لذلك بعض أوامر الله عز وجل تبدو عند بعض الناس غريبة ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ابْتَعْتُ زَيْتًا فِي السُّوقِ ، فَلَمَّا اسْتَوْجَبْتُهُ لِنَفْسِي لَقِيَنِي رَجُلٌ فَأَعْطَانِي بِهِ رِبْحًا حَسَنًا ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَضْرِبَ عَلَى يَدِهِ فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْ خَلْفِي بِذِرَاعِي ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فَقَالَ :

((لَا تَبِعْهُ حَيْثُ ابْتَعْتَهُ حَتَّى تَحُوزَهُ إِلَى رَحْلِكَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى أَنْ تُبَاعَ السِّلَعُ حَيْثُ تُبْتَاعُ حَتَّى يَحُوزَهَا التُّجَّارُ إِلَى رِحَالِهِمْ))

[رواه داود]

هناك نهْيٌ نبوي من أن تبيع البضاعة قبل أن تصل إلى مستودعاتك ، وإلا وقعْت في المضاربة ، والمضاربة بيعٌ وهمي من شأنه أن يرفع الأسعار دون أن يستفيد الناس شيئًا ، فالمضاربة أن تشتري شيئًا تبيعه ، وتشتريه عشرات المرات ، وهو هو ، أنت ربحتَ أموالاً طائلة ، فماذا قدَّمْت لهذا المجتمع؟! هذا الذي صنعَ بابًا قدّم خِدمةً ، وهذا الذي خاط لك ثوبا قدَّم لك هذا الثوب ، هذا الذي زرع أرضه قدَّم لك خدمةً ، وهذا الذي قدَّم لك حاجةً من صنعه قدَّم لك خدمةً ، أما هذا الذي باع واشترى والبضاعة هي هي فما الخدمة التي قدّمها ؟ هذا إذاً الذي أهلك البشريّة الآن ؟

المضاربات العالمية ، كذا ألف طن من البنّ في مستودعاتها في البرازيل تُباع وتشترى ، من جهة إلى جهة وهي هي في مستودعها !! هؤلاء الذين ربحوا ماذا فعلوا ؟ ما كلّفتهم إلا مكالمة هاتفيّة أو برقيّة أو تلكس ، وجاءه جواب فاشترى ، أو عرض فباع ، والبضاعة في مكانها هي هيَ ،

((لَا تَبِعْهُ حَيْثُ ابْتَعْتَهُ حَتَّى تَحُوزَهُ إِلَى رَحْلِكَ))

[رواه داود]

إذا نقلت البضاعة إلى مستودعاتك فأنت جادّ في خدمة مجتمعك ، إذا طرحت هذه السِّلعة حللْتَ بها مشكلات الناس ، وقرّبْت الحاجات ، وخفضْت الأسعار ، أما إذا بعْت واشْتريْت ، ولم تفعل شيئًا فهذا سُلوكٌ تجاري يُسبِّب متاعب تُصيب الناس جميعًا ، لذلك قال تعالى :

(أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ)

(سورة هود)

لا يجوز بيْعُ المعدوم ، بيتٌ في الهواء تشتريه ، من الذي يضمن لك أن تصل البناية إلى الطابق الخامس ؟ دفعْت مالك الذي هو عصارة جهدك ، فماذا فعلت بنفسك ؟ إن الذي وقَّعتَ معه العقد غادرَ البلاد ، وبقيَتْ حُقوق العباد معلَّقة فالبيوع دقيقة جدًّا فبيع المعدوم منهيّ عنه ، ونهى الشارع عن بيع التمر حتى يشتد ، وعن بيع العنب حتى يسْودّ ، ونهى الشارع أيضاً عن بيع الثمر حتى يبْدُوَ صلاحُه ، نهى تلقّي الركبان ، أكثر من أربعين أو خمسين علاقة في البيع محرَّمة ، وهذه كلّها تُسَبِّب متاعب للمجتمع ومنازعات خطيرة ، لذلك ينبغي أن تفعل في مالك كما يشاء الله لا كما تشاء أنت .

هناك علاقات محرَّمة ؛ تشتري بيتًا ، وتشتري حِصَّة من بيت ، وتؤدي أجرة بيت تسكنه وتسترد منه بعد حينٍ المبلغ ذاته مقابل إخلائك البيت ، وإن أصابّ هذا البيت الذي اتبعته ، أو استأجرته تلف ، أو وقع تحت تنظيم معيَّن تقول : لا أعترف ، أريد حقي ، وأنا أُطالبك بالمبلغ الذي أديتهُ لك ، ولا أحسم منه شيئًا ، فهذا هو الربا تحت اسم الإيجار ! أدّيتَ ثمنًا وأخذت أجرةً ، والثمن مضمون وما دام الثَّمن مضمونًا فهذه علاقة رَبَويَّة ودِرهم ربا أشدّ عند الله من ستّ وثلاثين زنية في الإسلام !!! لأنَّ المال بالربا يصبح دُولةً بين الأغنياء فقط ، و الأموال تتجمَّع بأيْدٍ قليلة ، ويصبح المجتمع بطبقتين ؛ طبقة مترفةٍ تحارُ في صرْف المال ، وطبقة مدقعة تحار في كسب الرِّزق ! كلّ هذا عن طريق الربا والفوائد، المركّبة والبسيطة ، فآية :

(أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ)

(سورة هود)

هذه آية دقيقة جدًّا ، لسْتَ حُرًّا أن تفعل في مالك ما تشاء ، أنت عبدٌ ، والعبدُ مُقَيَّد بيَدِ سيِّده ، وهذه العلاقة حرام ، وهذه تجوز ، وتلك لا تجوز ، وهذه العلاقة صحيحة ، وتلك باطلة . قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود)

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي

1 ـ المؤمن على بينة من ربه :

في الحقيقة إن المؤمن اقْتِداءً بالنبي العظيم إنما هو على بيِّنة من ربِّه ، قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)

(سورة يوسف : من الآية 108)

الأمور واضحة جدًّا ، والعلاقات واضحة ، والحرام واضح بيِّنٌ ، وكذا الحلال ، وطريق الحق واضح، وطريق الباطل واضح وطريق الجنّة واضح ، وطريق جهنّم واضح ، وطريق السعادة مستبين وطريق الشقاء واضح ، لذلك تركتكم على بيضاء نقيّة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، قال تعالى:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود)

نحن على بيِّنة إن شاء الله ، ما دام هذا الكتاب بين أظهرنا ، وما دُمنا نقرأُهُ ، وما دمنا نُطبِّقُهُ ، فنحن على بيِّنة ، وشتَّان بين من هو على بيّنة ، وبين من هو في ضلال مبين !! قال تعالى :

(فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(22))

(سورة الملك)

قال تعالى :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(9))

(سورة الزمر)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا)

(سورة هود)

معنى : وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا

المفسِّرون على رأيَيْن في تفسير هذه الآية .

المعنى الأول :

فبعضهم يقول في تفسير : رزقًا حسنًا يعني أُوتيتُ مالاً وفيرًا ، فإذا افتخَرَ النبي بمَاله على ضوء هذا

المعنى حُقَّ لأغنياء العالم اليوم أن يفتخروا ، ومن حقهم عندئذٍ أن يقولوا : ونحن لنا كرامتنا عند الله ككرامة شُعَيب .

المعنى الثاني :

ويقول بعضهم : إذا نُسب الرزق الحسن للأنبياء والصدِّيقين فهو الهدى والنبوّة والحكمة ، وهذا هو الرّزق الحسن ، قال تعالى :

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

(سورة آل عمران : من الآية 37)

قال بعض العلماء : هذا الرزق يعني فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وهذا يفعله الأغنياء اليوم ، فقد يُقدِّم لك فاكهة الصَّيف وأنت في الشّتاء ، وقد يقدِّم لك فاكهة الشتاء ، وأنت في الصَّيف ، فهل هذا رزق حسن ؟ لا ، هناك ثلاجات ، هناك طريقة دقيقة في حفظ الفواكه ، فإن كان الرِّزق الحسن هو هذا ؟ فإنه لا يرقى إلى مستوى كتاب الله تعالى ، لكنّ الرِّزق الحسن هو الهدى والحِكمة ، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

التفسير الأوجه في رزقني منه رزقًا حسنًا الهدى والنبوّة والعلم والحكمة والخلق الرفيع ، هذا هو الرزق الحسن .

قال تعالى :

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

(سورة هود)

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ

1 ـ احذر أن تخالفَ أقوالُكَ أفعالَك :

هذه الآية مهمّة جدًّا ، كيف يستطيع النبي أن يؤثّر في أُمَّته ويقنعها ، إن لم يطبّق كلامه على نفسه ؟ ما الذي يضع الدعاة اليوم في مواقف لا تقدير لهم ولا احترام ؟ هو أنَّ الكلام شيء ، والسُّلوك شيءٌ آخر ، ما يقولونه بألسِنَتِهم لا يُطبِّقونه بأفعالهم ، لذلك قال سيدنا عليّ كرَّم الله وجهه : << قِوام الدِّين والدنيا أربعة رجال : عالم مستعملٌ علمه ، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم ، وغنيّ لا يبخل بماله ، وفقير لا يبيعُ

آخرته بدُنياه ، فإذا ضيَّع العالم علمه واستنكف الجاهل أن يتعلَّم ! وإذا بخل الغنيّ بماله باع الفقير آخرته بدُنياه ضاع الحق >> ، واضطرب الأمر واختلت موازيين المجتمع ، ما الذي يُزهِّد الناس في الحق ؟ أنَّ الدُّعاة إليه لا يُطبِّقونه ، وأنت إن حدَّثتهم في القِيَم يقولون : هذا كلام مثالي ، نريد شيئًا واقعيًّا نعيشه في يومنا ، لأنَّ الناس تركوا التطبيق ، وصارت القيمُ مثاليَّةً ، ولكنَّ الصحابة الكرام حينما طبَّقوا دينهم جعلوا دينهم واقعيًّا ، ولن تفلح هذه الأمة حتى يكون دينها واقعيا ، ولا ينبغي أن يبقى الدِّين في القرآن أو في الكتب ، أو في الخطب ، ولكن ينبغي أن ترى الدِّين في الأسواق وفي البيع والشراء ، وفي الإيجار والاستئجار ، وفي الوعد والعهد ، وبين الزوج وزوجته ، وبين الأخ وأخيه ، والجار وجاره ، وفي السَّفر والحضر ، وفي كل نشاطات الحياة ، يجب أن ترى الدّين هنا ، ومن لم يكن له ورعٌ يصدّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّار))

[أحمد]

وترْك دانق من حرام خير من ثمانين حجّة بعد حجّة الإسلام ، ولأنْ أمشيَ مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر ، واعتِكافٍ في مسجدي هذا ، هذا هو الدِّين ، ورأس الدِّين الورع ، والدِّين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، إنَّ الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه ، وإتقان العمل جزء من الدِّين ، يا أصحاب المهن ، ويا أصحاب الحِرَف ، ويا أيها الموظَّفون إتقان العمل وتلبيَة المواطن ، والصِّدق ، وعدم الغشّ ، وعدم المواربة وعدم الخداع ، هو جوهر الدِّين ، وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلّط!!

2 ـ كثرة المَظاهر لا تنفع إن لم يتبعها تطبيق :

كان رجل يجلس جنب النبي عليه الصلاة والسلام كتفًا بكَتف ، فجاءتْهُ المنيّة فطلب قميص رسول الله ليكفن به ، قال : أعطوه قميصي ، ولن يغني عنه قميصي شيئًا ! الآن استقر في جهنَّم حجَرٌ كان يهوي سبعين خريفًا ، ماذا يُجدي أن يكون لك مظهرٌ ديني ؟ وماذا يُجدي أن تتواجدَ في مجالس العلم ؟ وأنت لا تطبّق الدِّين ، هذه الكثرة الكثيرة من المسلمين في بقاع الأرض ؛ ألف مليون ، مع أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((يَا أَكْثَمُ ، اغْزُ مَعَ غَيْرِ قَوْمِكَ يَحْسُنْ خُلُقُكَ ، وَتَكْرُمْ عَلَى رُفَقَائِكَ ، يَا أَكْثَمُ ، خَيْرُ الرُّفَقَاءِ أَرْبَعَةٌ ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[رواه ابن ماجة عن أنس]

أي إذا كان في أمَّة الإسلام اثنا عشر ألف مسلمٍ صادق لن يُغْلبوا ! فعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ، قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، يَنْتَزِعُ اللهُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ، قَالَ : قُلْنَا : وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الْحَيَاةِ ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[رواه أحمد]

صارت الدنيا أغلى على المسلم من كلّ شيء ، فهذه إذاً قاصمة الظهر ، يمسي مؤمنًا ، ويصبح كافرًا ، ويصبح كافرًا ، ويمسي مؤمنًا ، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا قليل ، قال تعالى :

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

(سورة هود)

يا عيسى ابن مريم عِظ نفسك ، فإذا وعضتها فعِظ غيرك ، وإلاَّ فاستح مِنِّي ، قال تعالى :

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

(سورة هود)

هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام ، كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته لفّ ثوبه لكي لا يوقظ أهله ، ويكنس بيته ، ويرفو ثوبه ، ويحلب شاته ، وكان في مهنة أهله ، وكان متواضعًا ، كما في حديث :

((وعليّ جمع الحطب ...))

[ورد في الأثر]

حينما كان متوجهاً إلى بدر أمر كلّ ثلاثة من أصحابهِ أن يتعاقبوا على ناقة واحدة ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ :

((كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ ، كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : فَقَالَا : نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ ، فَقَالَ : مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي ، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد]

هذا الذي طرحه النبي خلال حياته كان مطبِّقًا له في عمله ، قال تعالى :

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ)

(سورة هود)

أريد صلاح الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة : من الآية 2)

3 ـ صلاح الدنيا بالبرّ ، وصلاح الآخرة بالتقوى :

البرّ صلاح الدنيا ، والتقوى صلاح الآخرة ، فكّر في صلاح الدنيا ، فكّر في تأمين بيتٍ لإنسان مؤمنٍ، وفكّر في حلّ مشكلة لمؤمن ، فكّر في إزالة عقبة ، فكّر في أن تعيش أنت وإخوانك المؤمنون في حياة منظّمة ، فكّر في تنظيم الحياة ، فكّر في إعانة اللهفان ، فكّر في الضمان الاجتماعي ، فكّر في أخيك المسلم ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره جوعان وهو يعلم !! أتدرون ما حقّ الجار؟ إذا استعان بك أعنْته ، وإن استقرضَك أقرضته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن مرض عُدْته ، وإن مات شيَّعْته ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الرّيح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهةً فأهْد له منها، فإن لم تفعل فأدْخِلها سرًّا ، ولا يخرج بها ولدك لِيَغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بِقُتار قِدرك ، إلا أن تغرف له منها .

فكّر في مشروع تؤْوي به هؤلاء الشباب الذين هم في أمسّ الحاجة إلى الزواج ، ووالله الذي لا إله إلا هو لتأمين شابّ وشابة مسلمين في بيت أفضل عند الله من حجّة إلى بيته الحرام ، ماذا يفعل هذا الشابّ؟ وقد أصبح ثمن البيت فوق المعقول ! كيف يصون نفسه عن الحرام ؟ وكيف يحصّن نفسه ؟ فإذا بخل الغني بمَالِهِ باع الفقير آخرته بدُنياه ، وباع نفسه للشيطان ، وآمن بالمذاهب الإلحاديّة من أجل تأمين حاجته ، الأغنياء أوصياء ، والفقراء عِيال ، فمن منعَ ماله العِيال الفقراء أذاقهُ الله عذابه ! قال تعالى :

(إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ)

(سورة هود)

صلاح الدنيا ، وصلاح الآخرة ، صلاح الدنيا بالعدل ، وصلاح الآخرة بالعبادة ، يجب أن تكون جنديًا للحق ، وأن تسعى لتَوفير الحاجات أن يسعى لتحقيق الخدمات للناس ، وأن تسعى لِهدايتهم ولِصَلاحهم ، ولرشادهم ما استطعت قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

4 ـ التوفيق من الله :

ليس في القرآن الكريم في هذا الموضوع إلا هذه الآية ، أيّ هدف على وجه الأرض لا يُحَقّق إلا إذا سمح الله به ، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

اطمئنّ !! قال تعالى :

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

قال تعالى :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

لا تعزُ التوفيق إلا لله ، وإلاّ فإنك خاسر :

دخلت الجامعة ، فلا تقل أنا متفوّق ، وأنا مجموعي كان مرتفعًا ، أنا أُدرك ما يتكلم المدرس بسُرعة فائقة ، و إذا قرأت الكتاب فهمته بسرعة فائقة ، لا تقل هذا ، بل اجعل كل شأنك مرتبطاً بتوفيق الله لك، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

أحدهم قال مخاطباً ربه قبيل الامتحان : يا رب ، عليّ الجبر ، وعليك الهندسة !! فدعاه في الهندسة فقط فرسبَ فيهما ، فقال : يا رب ، علي الهندسة وعليك الجبر ! وأناب بعد فوات الأوان ، فلم يُفد شيئاً، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

[سورة هود]

يفتح أحدهم محلاً تِجارياً ، ويظن أنَّه اختار موقعًا مناسبًا وبضاعة جيّدة ، وبعد شهر تجد لوحة على المحل برسم التسليم ، ويشتري الواحد سيارة ليشتغل عليها ، ويظنّ أنَّ دخله باليوم خمسمائة ليرة أو أكثر ، فإذا بحادث يدفع فيه نصف رأس ماله بالتصليح ، لم ذلك ؟ لأنه لم يتوكل حقَّ التوكل على الله ، ويسأله التوفيق ، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

وفي مجال الزراعة يزرع الفلاح أحسن البذور ، ويرش المبيدات الجيّدة ، ويسمد الأرض بالأسمدة ، فإذا بطائفٍ يأتي ، فلا تُغِلُّ عليه عشرة آلاف ، وكان المفروض أن تكون غِلّتها مائتي ألف ، قال تعالى:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19))

(سورة القلم)

يكون عنده حقل أو بيت بلاستيكي زراعي فيغْفل عنه ليلة واحدة ، فإذا بصقيع يذهبه كلّه ! أحدهم خسر بساعة واحدة مائتي ألف ليرة ، تَلِفَ النبات كله بسبب الصقيع ، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

وفي مجال الوظيفة وفي غيرها ، تمسك جهازاً مثلاً وتقول : سوف أصلحه ، فإذا بك تخربه ! أما إن قلت : بسم الله الرحمن الرحيم وُفِّقْت .

طبيب نسائي بلغ قمَّة الشهرة في التوليد ، في أثناء التوليد قطع الرحِم ، وقطع الأمعاء ، وكاد يُميت المرأة ، وبعد حين ماتت بسبب ما جرى لها ، و لولا أنه أخذها ، و أسعفها لسُحبت منه الشهادة ، قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

الحياة فيها مطبَّات ، و فيها مزالق ، فإياك أن تعتدَّ بنفسك ، فمن اتَّكل على نفسه أوكله الله إليها ، اللهم إني تبرَّأتُ من حولي و قوَّتي و علمي ، و التجأتُ إلى حولك و قوتك و علمك ، يا ذا القوة المتين ، هكذا المؤمن ، إياك أن تقول : أنا ، فمن أنت ؟ أنت لا شيء ، والله هو كلُّ شيء

و ما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

و ما لي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددتَ فأيُّ باب أقرع

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإن كان عليك فمن معك ؟ إياك أن تقول : أنا ، قالها إبليس فأهلكه الله، وإياك أن تقول : عندي ، قالها قارون فأهلكه الله ، إياك أن تقول : لي ، قالها فرعون فأهلكه اللهُ .

قال تعالى :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(سورة هود)

ثم قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)

(سورة هود)

وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ

لابد من الفصل بين الإسلام والمسلم :

أحيانا الإنسان يكره رجلا ديِّنا في مظهره لكنه كذّاب ، فمن الممكن أن يكون شخص له زيٌّ ديني ، و نفسه ليست في مستوى مظهره ، مخبره لا كمظهره ، فإذا كرهتَ هذا الإنسان الكاذب تكره الدين ، هذا غباء في الإنسان ، و ما دخل الدين في هذا ؟ اِفصِل بين هذا الإنسان و بين الدين ، و الإسلام بريء من هذا ، افصِل بين الإسلام و المسلمين ، افصِل بين الدين و رجال الدين ، افصِل بين التديُّن و بين هذا المتديِّن ، إن لم تفصل تقع في غلط كبير ، الدين في عليائه ، الدين في السماء ، وهذا الذي يدّعي الدِّين هو في الوحل ، لا يمْنعنَّك كل ذلك أن تحق الحق ، ولا تجعل هذا حجَّة في أن تدَعَ الدِّين كلّه فهذا غباءٌ في الإنسان .

لو أنَّ طالبًا في كليّة الطبّ في الصف الرابع على وشك التَّخرّج وأزعَجَهُ أحد الطَّلبة ، هل يدعُ الكليّة ؟! لا ، فإن مصيره هنا ، ومستقبله ومهنته ، ومكانته وشهادته ، هاتوا لي طالبًا واحدًا في إحدى الكليات بسبب نزاعٍ بينه وبين طالبٍ آخر ترك الجامعة كلّها !! مستحيل ، يقول لك : ما دخْلُ فلان ؟ وما لي وفلان ؟ هنا مستقبلي ، هنا نجاحي ، هنا شهادتي ، هنا عملي ، لماذا أنت في الدنيا لا تنسحب من الجامعة ، ولو آلمك أحد أساتذتها ؟ بينما لِخِلاف تافهٍ بينك وبين إنسان تترك مجالس الدين والعلم .

قال لي أحدهم : لن آتي للدرس ! فقلت له : لماذا ؟ فقال لي : أزعجني أحد الحاضرين !! فقلت له : أين يجلس ؟ فقال لي : بالجهة الفلانية ، فقلتُ له : اجْلس بالجهة الأخرى والجامع كبير ، فالإنسان عليه أن يفصل بين خِلافاته الشخصية ومجلس العلم ، هذا لله عز وجل ، وهذه مائدة الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ(89)وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ(90))

(سورة هود)

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ(90)

إنه رحيم بالخلق كافة ، وودود لِمَن أحبّه من المؤمنين ، والله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيِّبًا ، فالأب مثلاً يرحم أولاده جميعًا ، ولكنّ قلبه معلّق بالابن الأخلاقي ، بالابن البار ، والابن المحسِن والمتفوِّق ، قلبهُ مُعلَّق هنا ، أما إحسانه فللجميع ، فالله تعالى رحيم بالخلق كلّهم ، ولكنّه ودود للمؤمنين ، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا(96))

[سورة مريم]

فالله سبحانه وتعالى لا يُحِب الخائنين ، ولا يحبّ الكاذبين ، ولا يحبّ من كان مُختالاً فخورًا ، ولا يحبّ المنحرفين ، ولا يحبّ المنافقين ، لا يحبّ هؤلاء ، ولكنّه يرْحمهم ، لأنَّ رحمة الله وسِعَت كلّ شيء .

كما أسلفنا في مثال الأب ، من باب التقريب والإيضاح ، وكذا الأم ، يرضيان عن فلان بالذات من أبنائهما ، ويسكتان عن بقية الأولاد ، وهذه الأم إن جاءوها تُطعمهم ، ولكنها لا تحبّهم إلا إذا كانوا في المستوى المطلوب ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

(سورة هود)

قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ

1 ـ الراسب يتَّهم الأستاذ ولا يتَّهم نفسه :

فالراسب يتَّهم الأستاذ ولا يتَّهم نفسه ، قال تعالى :

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

(سورة هود)

2 ـ تهديد قوم شعيب لنبيهم بالرجم :

أي لرجمناك إما بالقول أو الحجارة ، لكن العقبة دونك رهْطك ، وإننا نحْسب لهم حسابًا .

مرّة قال لي مدرّس ملء السمع والبصر : قالت لي أمي : صم ، فصرت أصوم !! الله عز وجل لا قيمة له عندك ، بل صمت فقط من أجل الأم !! قال تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ)

(سورة هود)

3 ـ جواب شعيب : قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ

أي قومي أغلى عندكم من الله .

قال تعالى :

(وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

(سورة هود)

4 ـ هجر القرآن تطبيقا :

الناس اليوم اتّخذوا القرآن مهجورًا يتلونه صباح مساء ، ويستمعون إليه ، ولكنّهم لا يطبّقونه ، فالهجران هنا هجران التطبيق ، كلك الكافر والمنافق لا يعبأ بأوامر الدِّين ، وهي وراء ظهره ، ولا يلقي لها بالاً ، كذلك ويستخفان بها ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ)

[سورة هود]

كلّ إنسان يعمل وفق مكانته ، ومكانته يعني مقامه ، وقد يكون مقامه عالٍ جدًّا ، امرأة جاءت أميرًا فأمر بإكرامها ، فقال له بعض من كان عنده : يا أيها الأمير إنَّه كان يرضيها القليل ، فقال : إن كان يرضيها القليل فأنا لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي ! قال تعالى :

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا(84))

(سورة الإسراء)

حصّل مرتبة وهو يعمل وفقها ، قال تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ(93)وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(94)كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)

(سورة هود)

جاء وقت العذاب فلا مفرَّ لأحدٍ :

1 ـ تكفيهم صيحة واحدة :

صيحة واحدة فقط ، كانوا بعدها جثثاً هامدة ، صرعى بغيهم وعتوهم ، فأنت لا تقل : قاتلتُ النملة ، النملة لا تحتاج إلا إلى ضغطة ، والكفار لم يحتاجوا إلا إلى صيحة فقط ، قال تعالى :

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29)يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(30))

(سورة يس)

قال تعالى :

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)

(سورة يس : من الآية 29)

2 ـ احذروا صيحة أخرى يا أشبه قوم شعيب :

في أثناء البيع والشِّراء والحركة اليوميّة وعقد الصَفقات تأتي هذه الصَّيْحة تأخذهم جميعًا ، قال تعالى :

(وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(94)كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)

(سورة هود : من الآية 24)

قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (13-16): تفسير الآيات 96 – 104
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-04-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في سورة هود إلى آخر قصةٍ من مجمل القصص التي أوردها الله سبحانه و تعالى ، التي أوردها لتكون لنا درسا بليغا ، فالسعيد ـ كما يقال ـ من وُعِظ بغيره ، و الشقيُّ لا يتَّعظ إلا بنفسه .

قصة موسى عليه السلام :

قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

الآيات هي المعجزات التي أجراها الله على يديه ، كأن تصبح العصا ثعبانا مبينا ، هذه الآيات لا يستطيعها بشر ، فرعون جمع السحرة ، ووعدهم أن يجعلهم وزراءه المقرَّبين إذا هم أبطلوا هذه المعجزة ، فلما رأوا هذه العصا قد أصبحت ثعبانا مبينا ألقي السحرة ساجدين ، قال تعالى :

(إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

قد يأتي الساحر بحبل يلوِّنه ، ويحرِّكه ليوهم الناس أنه ثعبان ، لكنَّ السحرة رأوا بأم أعينهم هذه العصا أصبحت ثعبانا حقيقيا مبينا ، وأن هذه ليس من عمل السحرة ، إنه معجزة أجراها الله على يد هذا النبي الكريم ، وحينما أعملوا تفكيرهم آمنوا بموسى وهارون ، استخدمهم فرعون ليبطلوا هذه المعجزة ، فكانوا أول من آمن بها .

تتابع الرسل :

قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا)

(سورة هود)

في معنى هذه الآية تتابعُ الإرسال ، أرسلنا صالحا ، قال تعالى :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)

(سورة هود)

قوم عاد وقوم ثمود وقوم تبَّع ، سيِّدنا شعيب ، هؤلاء كلهم أُرسلوا من قِبَل الله عز وجل ليكونوا منذرين ومبشِّرين .

حجج الأنبياء :

قال تعالى :

(وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

فما هو السلطان ؟ العلماء قالوا السلطان هو الحُجَّة ، أو هي الحُجَّة ، قال تعالى :

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(117))

(سورة المؤمنون)

و قال تعالى :

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا(144))

(سورة النساء)

السلطان الحجَّة ، فالنبيُّ الكريم إضافةً إلى هذه المعجزات التي جاء بها يملك الحجة على قومه ، وقال تعالى :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(83))

(سورة الأنعام)

وقد سمَّى الأوَّلون الحاكم سلطانا ، لأنه يملك الحجة ، لأنه أعلم أهل زمانه ، له الحجة على من يحكمهم ، فالسلطان إما أن تُؤخذ من الحجة ، وإما أن تؤخذ من السلطة ، وعلى كلٍّ صاحب الحجة القوية يملك السلطة .

مثلاً :

إذا ذهبتَ إلى طبيب ، وفحص أعضاءك ، وأعطاك تعليمات دقيقة ، نظرًا لِثِقَتِك بعِلمه ، ونظرًا لأنَّك واثق من حجّته ، ولأنّ هذا الطعام لا يجوز أن تأكله ، وهذا البيت المرتفع لا يجوز أن تبقى فيه ، أُنظر إلى نفسك تجدها تنصاع إلى أمره ، فلأنَّه يمْلك الحجّة صار له سلطان عليك .

إذا ذهبت إلى محامٍ ، وأنت واثق من علمه ، ومن خبرته بالقوانين ، ونصحك أن تدفع الأجرة في الوقت المناسب ، لماذا تنصاعُ له ؟ لأنَّه يملك الحجة ، ولأنه ملكَ الحجة ملكَ عليك السُّلطة ، فكلمة سلطان مأخوذة من الحجّة البيِّنة ، مُضافًا إليها السلطة ، ولا تنبعُ السُّلطة إلا من الحجّة ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى خالق الكون ، وخالق البشر أعلم بما ينفعهم ، لذلك لهم سلطان عليهم ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من الآية 123)

أما الآية الكريمة :

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا(144))

(سورة النساء)

هذا الإنسان إذا انحرف ، أو طغى ، أو بغى ، أو عصى ، أو خالف صار لِزامًا أن يُعالَج ، لأنَّ الله تعالى رحيم ، ولأنَّه رحيم فلا بدّ من أن يُعالجه ، لم يتركه هملاً ، أصبح معنى السلطان الحجة ، ومن مقتضيات الحجة السلطة ، فلذلك قال ربنا عز وجل :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

معه آيات بيّنات ، فتح طريقًا في البحر يبسًا ، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، قال تعالى :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى(49)قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى(50)قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى(51)قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى(52))

(سورة طه)

حجة المؤمن :

المؤمن معه حجة ، فهو يعرف مَن خلق الكون ، ولماذا خلقه ؟ وأين كنا ؟ وما جدوى حياتنا ؟ وإلى أين المصير ؟ يعرف قيمة كلّ شيء ، وحقيقة كلّ شيء ، ما اتَّخذ الله وليًا جاهلاً ، ولو اتّخذه لعلَّمهُ ، المؤمن على بيّنة من ربّه ، والأمور عند المؤمن واضحة كالشمس ، يعرف طريق الخير من طريق الشر ، ويعرف طريق الفلاح من طريق الشقاء ، ويعرف كيف يُعامل زوجته وفق الشرع ، وكيف يُعامل جيرانه ؟ وكيف يُربِّي أولاده ؟ هذا كلّه من الحجّة التي آتاه الله إياها ، قال تعالى :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(83))

(سورة الأنعام)

إذا كنت موظفًا ، واتّخذت قرارًا ، واستدعاك رئيسك لِيُحاسبك ، فإن كان معك حجة مقْنِعَة سكت ، لماذا فعلتَ كذا ؟ ولماذا نقلت فلانًا من هذا المكان إلى هذا المكان ؟ يقول : لهذه الأسباب ، فتجِدُه يسكت ، السؤال اللطيف : أيّ فِعْلٍ تفعله في الدنيا تصوَر أنَّ الله سبحانه وتعالى سيُحاسبك عنه في الآخرة ، أمَعَكَ حجَّة ؟ لماذا طلَّقتها ؟ هل معك جواب ؟!! لماذا فعلْتَ بِجِيرانك ما فعلت ؟ لماذا أوْقَعت بهم الأذى ؟ لماذا فرَّقت بين هذا الزَّوْج وزوجته ؟ لماذا رفعت السِّعر على هؤلاء الناس ؟ ما حجّتك ؟ المشكلة أنَّك إذا ملكت على كلّ تصرّف حجّة نجوْتَ ، فإن لم تمْلك الحجّة فالويل لك .

التبعية :

هذه الآية فحْواها أنّ اتِباع الناس ِبَعضهم لبعض ، الناس مراتب فيهم القويّ والضعيف ، وفيهم الغني والفقير ، وفيهم المتبوع والتابع ، وفيهم من شهرته واسعة ، ومن هو مغْمور ، قال تعالى :

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(253))

(سورة البقرة)

ففي الحياة تابع ومتبوع ، لا حجّة للذين يتَّبعون بعضهم بعضًا أمام الله عز وجل ، لو أنَّك في مكانٍ تستطيع بحُكْم عملك أن توقع الأذى بفُلان ، ولا أحدَ يُحاسبُك ، إنَّما أعطاكه من هو أعلى منك ، من قوّة على من هو أدنى منك ، لا يُعْفيك من المسؤوليّة اتّجاه الله عز وجل ، تبعيَّة الناس لبعضهم بعضًا لا يُعْفيهم من مسئوليتهم اتّجاه خالقهم ، أحدهم كان يطوف بالبيت ويقول : يا ربّ ، اغْفِر لي ذنبي ، ولا أظنّك تفْعل ! فسمِعَهُ رجل من ورائِهِ ، فقال : يا هذا ، ما أشدَّ يأسَكَ من رحمة الله !! فقال : ذنبي عظيم، دخلَ إلى بيتٍ لِيَسلبه فرأى فيه رجل فقتلهُ ، فرأى امرأةً ومعها ولدان ، فقال : أعْطِني كلّ ما عندك ، فأعطتْهُ سبعة دنانير من الذهب فقَتَلَ الولد الأوّل !! فلما رأته جادًّا في قتْل الثاني أعْطتْهُ دِرْعًا مذهَّبًا فأمْسكَها وتأمَّلها ، وأعجبتْهُ هذه الدِّرْع ، ثمّ قرأ عليها بيتان من الشّعر فَوَقَعَ مغْشِيًّا على الأرض ، قرأ على هذه الدِّرْع :

إذا جـــار الأمير وحـــاجِباه وقاضي الأرض أسْرفَ في القضاء

فـوَيْلُ ثمَّ ويـلٌ ثمّ ويـــل لِقاضي الأرض من قاضـي السماء

***

إذا الواحد استطاع أن يوقعَ بين الناس بحُكم عمله ، لِيَذْكر هذا القول :

فـوَيْلُ ثمَّ ويـلٌ ثمّ ويـــل لِقاضي الأرض من قاضـي السماء

***

سمعتُ أنَّ رجلاً أوْقَعَ أذًى كبيرًا بإنسانٍ هو بريء ، وهو يعلم أنَّه بريء ، ولكن هكذا! مضى ثلاثون يومًا ، كان يرْكب سيارةً مُسْرعًا بها فأصابتْهُ غفْلة فدَخَل في شاحنة ، فَنُزِعَ رأسُهُ من المقعد الخلفي ! والآية الكريمة :

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ(79))

(سورة الزخرف)

هكذا قرَّرت ، إذًا انتظر قرارنا ! فالآية ملخَّصها أنَّ تَبَعِيَّة الناس بعضهم لبعض لا تعفيهم مِن مسئوليتهم اتِّجاه خالقهم .

إن كنتَ تكتب هذا الضبط التمويني لِتُخالف هذا البائع وأنت توقِنُ أنَّ بريء ، وأنّ رأسَ مال هذه البضاعة مرتفِعٌ ، إن كتَبْتَ هذا الضَّبْط ، وأنت واثقٌ من أنَّ بريء إرْضاءً لِمَن هو فوقك ، فإنَّ هذا العمل لا يُعفيك من مسئوليتك اتِّجاه خالقك ، وهذا في أيِّ عملٍ ، وفي أيّ وظيفة كنت ، ولو كنت مُغطًّى من قِبَل القانون ، يجب أن تكون مُغطًى مِن قِبَل الله عز وجل ، لذا قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ(96)إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

(سورة هود)

أمره ليس برَشيد ، أمره يؤدِّي بهم إلى الهلاك ، أمره يُبعدهم عن الله سبحانه وتعالى ، أمرهُ لن يستطيع أن يحول بينهم وبين العذاب الذي أعدَّه الله لهم ، قال تعالى :

(فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

(سورة هود)

أحد الوُلاة كان عنده بعض التابعين ، فجاءهُ توجيهٌ مِن يزيد بن مُعاويَة ، وهذا التوجيه قد لا يرضي الله سبحانه وتعالى ، وقَعَ هذا الوالي في حيرَة فسأل هذا التابعي الجليل ، وقال : ما أفعل ؟! فقال هذا التابعي كلمةً تُكتب بِماء الذّهب : " إنَّ الله يمْتَعُكَ مِن يزيد ، ولكنَّ يزيد لا يمنعُكَ من الله " ! فأنت في أيِّ مجال ، سلْ نفسكَ هذا السؤال : هذا الذي أمرني أن أعصي الله ، أو هذا الذي أمرني أن آخُذَ مال فلان ؛ إنَّ الله يَحْميني منه ، ولكنّه لا يحميني من الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة هود)

هم كما قال الله عز وجل في آية أخرى :

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(54))

(سورة الزخرف)

فلأنَّهم كانوا قومًا فاسِقين أطاعوه ، ولأنَّهم أطاعوه كان دليلهم إلى النار ، قال تعالى :

(فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ(97)يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة هود)

كما أنَّه قاد قومه في الدنيا يقودهم في الآخرة إلى جهنَّم ، اتَّبعوه ، ولم يُحَكِّموا عُقولهم ، اتَّبعوه ، وقد عطَّلوا عقولهم ، اتَّبعوه حُبًا في الدنيا واتَّبعوه ، ولم يُفكِّروا في هذا الاتِّباع ، قال تعالى :

(فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ(97)يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

(سورة هود)

من باب التقريب :

إذا كان للإنسان محلّ تِجاري ، وله زوجة وأولاد ، ويسكن في بيتٍ مريح ، ويبيعُ ويشتري ، وهو في بَحْبوحةٍ ، ومطْمئنّ البال ، جاءهُ رجل فقال له : هل لك في تغيير هذه البضاعة وهذه المصلحة إلى مصلحة أكثر ربْحًا ؟ فقال : وما هي ؟ فقال : كذا وكذا ، فغيَّر ترتيب المحلّ ، وبدَّل هذه البضاعة ببضاعةٍ ممنوعة ، ضُبط متلبِّسًا ببَيْع هذه البضاعة ، قيدَ إلى السِّجْن ، ففرضوا عليه غراماتٍ باهظة ، واضْطرُّوه أن يبيع بيته ، وهو في السِّجْن باع البيت ، ودفَعَ المبلغ الباهظ ، وهو يُعاني سنوات طويلة في السِّجن ؛ ماذا يقول في نفسه ؟! كنت في بحبوحة ، وكنت في يُسْرٍ ، وكنت في راحة بال ، وجاء هذا ودلّني على عملٍ أوصلني إلى ما أنا فيه ، عندئذٍ يتمنَّى أن يُقطِعه إرْبًا إربًا !

فرعون يقْدُم قومه يوم القيامة ويوردهم النار ، قال تعالى :

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

(سورة هود)

النار كأنَّها نبْعُ ماءٍ ، جاء بهم لِيَردوها فإذا هي نارٌ محْرقة ، قال لهم : ماء نمير عذْبٌ فرات ، تعالوا معي ، وامْشوا ورائي ، واقتفوا أثري ، فلما وصلوا إذا هي نارٌ محْرقة .

قال تعالى :

(وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)

(سورة هود)

أيْ أتبعوا لعنةً في الدنيا ولعنةً يوم القيامة ، واللَّعْنُ هو الإبعاد ، فالله سبحانه وتعالى يلْعنهم ، ومعنى يلعنهم ، أي لأعمالهم المنحطّة ، ولأنَّهم عطَّلوا تفكيرهم ، واتَّبعوه بالباطل لعنهم الله ، وأبعدَهم عن جنابه العالي إنّ الله طيّب ولا يقبل إلا طيِّبًا ، وما استرذل الله عبدًا إلا حضَرَ عليه العلم والأدب ، قد يُعطيك الله مالاً وفيرًا ، وقد يعطيك صحة كالحصان ، وقد يُعطيك جمالاً لا مثيل له ، وقد يعطيك ذكاءً وقادًّا ، وقد يعطيك قربًا منه ، هذا القرب أثمنُ شيء في الأرض ، إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين ، هذا القرب هو أثمن ما تملكُه ، إنَّ الله يعطي الصحّة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنّه يعطي السكينة بِقَدَرٍ لأصْفِيائه المؤمنين . قال تعالى :

(بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)

(سورة هود)

الرِّفْد هو العطاء ، والمرفود هو المُعْطَى ، بئس هذا المكان الذي أوْصَلهم إليه ، وبئس هذا العطاء الذي أعطاهم إياه ، قال تعالى :

(وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)

(سورة هود)

هذه القصّة على إيجازها الشديد ، وعلى عرضها السريع ، إنَّما تعني أنَّ اتّباع الناس بعضهم بعضًا لا يُعْفيهم من مسئوليتهم اتّجاه خالقهم .

مثلاً :

إنْ قالتْ لك أمّك : طلّق هذه الزَّوجة ! فطلّقتها إرضاءً لها ، فهذا لا يُعفيك من المسؤولية اتّجاه الله سبحانه وتعالى ، إن قال لك تعالى : لمَ طلّقت زوجتك ؟ تقول : إرضاءً لأمِي ! فيقول لك : وهل كان لِزامًا عليك أن تُرْضِيَها في معصية الله ؟ قال تعالى :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا(23))

(سورة الإسراء)

كل إنسان يعمل بِعَمل إن سمحَ له عمله أن يوقع الأذى بالناس ، وهو مغطّى من قِبَل من هو أعلى منه لِيذكر أنّه محاسب من الله حِسابًا شديدًا ، وأنّ اتّباعه لِمَن هو أعلى منه لا يُعْفيه من المسؤوليّة اتّجاه خالقه ، فإذا كنت تبيعُ وتشتري ، وكلّما جاءك إنسانٌ لِيَشتري خفْتَ من الله أن تغشَّه ، وخفتَ من الله أن تبْخس ماله ، وخفْت من الله أن تكتم عليه هذا العيب ، فالله سبحانه وتعالى يَحميك ، ويحْفظك مِمَّا منه الناس وجِلون ، ومنه خائفون ، ومن خاف الله خافه كلّ شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كلّ شيء .

الغاية من القصص القرآنية :

إذًا المغزى من هذه القصّة القصيرة أنَّك مسؤول اتّجاه الخالق وحده ، وأنَّه لا طاعة لِمخلوق في معصية الخالق ، وأنَّ أيّ عمل تعمله في بيتك ، ومع زوجتك ، ومع أولادك ، كتبْتَ هذا البيت لهذا الولد، ما حجتك يوم القيامة إذا سألك الله عز وجل : لمَ فضّلت هذا على هذا ؟ إن كان معك حجّة بها ونعمت ، وإلا فالويل لك ! حرمْت البنات من الإرث ! لماذا ؟ أأنْت المشرِّع أم الله ؟ الله كتب لهم نصيبًا من الإرث ، إذا قلت : هذا المال تعبْت عليه أفيأخذه الأصهار ؟! أأنت أعلم أم الله ؟!! إذا حرمْت البنات من الإرث تذكَّر وقفتك يوم القيامة ، عبدي أعطيْتُك مالاً فماذا صنعْت فيه ، يقول : يا ربّ ، لم أنْفق منه شيئًا مخافة الفقر على أولادي من بعدي ! يقول الله عز وجل : ألم تعلم أنّي أنا الرزاق ذو القوة المتين ، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد ألحقته بهم !! ويقول لِعَبدٍ آخر : أعطيْتُك مالاً فماذا صنعت

فيه؟ يقول : يا رب ، أنفقتُهُ على كلّ محتاجٍ ومسكين ، لِثقتي أنَّك خير حافظًا ، وأنت أرحم الراحمين ، فيقول الله تعالى : أنا الحافظ لأولادك من بعدك ! الذي أريده من هذه القصّة أيُّ حركة أو سكنةٍ ، وأيّ إجراء أو سلوك أو تصرّف ، أو تقسيم ، ما حجَّتُك أمام الله عز وجل ، يعلم السرّ وأخفى ، لعن الله الذواقين والذواقات ! لم حرمت هذه البيت من الإرث ؟ وما حجّتك ؟ قد تلبّس من يطلب منك النصيحة بضاعة كاسدة بسِعر مرتفع، وتظنّ أنَّ هذه ذكاء ، وأنّ هذا ذكاء ، وأنّ هذا هو البيع ! فالويل لك إذا وقفت بين يدي الله عز وجل ، وقال لك : لقد استنْصحك ، لِمَ لمْ تنْصحْهُ ؟؟

إذا غفل الإنسان عن الله عز وجل يقَعُ في شرّ عمله ، الذي أرجوه ، وأن يكون واضحًا أنَّ هيأ الحجّة اتّجاه الله تعالى بكُلّ عمل ، لا تعبأ بقَول الناس ، ومن عرف نفسه ما ضرَّتهُ مقالة الناس به ، اعْبأ بمُحاسبة اله عز وجل ، قال تعالى :

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(24))

(سورة الصافات)

وقال تعالى :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

إنَّ لكلّ حسنة ثوابًا ، ولكلّ سيِّئة عقابًا ، فابْحث عن الحجّة لكي لا تقع تحت هذه الآية ، حجَّتهم داحضة عند ربِّهم .

انْتهت القصص التي جاءت في هذه السورة ، والآن إلى نهاية هذه القصة وفيها مجموعة من التعقيبات والتعليقات ، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ)

(سورة هود)

الإنسان إذا قرأ التاريخ ، أو إذا قرأ القرآن يجب أن يستنبط من أخبار الماضين مواعظ بليغة ، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)

(سورة هود)

بعضهم قال : منها قائم ؛ الذين يعيشون هذه الأيام ، وحصيد الذين أهلكهم الله عز وجل ، وبعض العلماء قال : منهم قائم ؛ الذين أهلكهم الله ولهم أثار باقية ، فأهرامات تدلّ على الفراعنة ، وبعض القصور تدلّ على الأنباط ، وآثار تدمر تدلّ على التدمريِّين ، منها قائم وحصيد ، إما لهم آثارًا تدلّ على عظمة ملكهم ، وإما أنَّ الله سبحانه وتعالى أهلكهم ومحا آثارهم .

ظلم الإنسان لنفسه :

قال تعالى :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)

(سورة هود)

عرَّفَ العلماء الظلم أن تضعَ الشيء في غير موضعِهِ ، فلو كان عندك أوراق امتِحان ، وفي السؤال مسألتان ، والطالب حلَّ مسألتين ، أعطيْتَهُ صفْرًا ، والذي لم يحلّ المسألتين أعطيْتَهُ علامةً تامَّة ! فهذا ظُلْمٌ ، بِمَعنى أنك أوْقَعْت الشيء في غير موضعِهِ ، فالعلامة التامة لِمَن حلَّ المسألتين ، وعلامة الصِّفر لِمَن لم يحلّهما ، وعلامة الخمسون لِمَن حلّ واحدة ، فالظُّلم أن تضَع الشيء في غير موضعِهِ . الله سبحانه وتعالى أوْدَع فينا بعض الشَّهوات ، فإذا أفْرغْت هذه الشهوة في موضِعِها الصحيح فهذا هو العَدْل ، قال تعالى :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(29)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(30))

(سورة المعارج)

إذا نظرْت إلى امرأةٍ لا تحِلّ لك ، وسألتها وسألتك ، وأدَرْتَ معها حديثًا ممْتِعًا فهذا ظُلم لأنَّ هذا الحديث الممْتِع كان يجب أن تُديرهُ مع زوْجتك التي خصَّها الله لك ، فالظُّلْم أن تضَع الشيء في غير موضعِهِ ؛ إنْ في العلاقات الاجْتِماعيّة ، أو في العلاقات الاقتصادية ، أو في العلاقات الأخرى ، إذا وضَعت الشيء في مكانه الصحيح فهذا هو العدل ، وإن لم توقِع في مكانه الصحيح فهذا هو الظلم ، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)

(سورة هود)

كلمة وما ظلمناهم ؛ هذا كلام الله ربّ العالمين ، فإذا قلتَ أنت : فلان والله مظلوم ، وفلان لا يستأهل هذه العقوبة ، فكأنَّك مِن طرْفٍ خفيّ تطْعنُ في عدالة الله سبحانه وتعالى ، ربّنا قال :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

(سورة هود)

لا في الدنيا ولا في الآخرة ، قال تعالى :

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

وقال تعالى : لا ظلم اليوم ، وقال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(40))

(سورة العنكبوت)

وفي الحديث القدسي عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلَا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم]

ستة آلاف مليون من البشر لو أن واحدا منهم ظُلِم لما كانت هذه الآية صحيحة ، لأن الله سبحانه و تعالى كمالُه مطلق ، قد نقول للقاضي : إنك عادل إذا كانت أكثر أحكامه عادلة لأنه بشر ، قد يغلط ، ولكن هذا لا يصحّ بحَقّ الله تعالى ، الله تعالى مطلق ، عدالته مطلقة ، ورحمته مطلقة ، فلو أنّ إنسانًا واحدًا من بين ستة آلاف مليون من البشر ظُلِمَ ، لما كانت هذه الآية صحيحة ، ربّنا قال :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

(سورة هود)

((يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي

إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم]

ذلك لأنّ عطائي كلام وأخذي كلام ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه ، ما من عثرة ولا اختِلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدَّمَتْ أيديكم وما يعْفو الله أكثر ، قال تعالى :

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا(59))

(سورة الكهف)

قال تعالى :

(وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(117))

(سورة آل عمران)

إذا اعْتقدت أو توهَّمْت أو ظننْتَ ، أو تخيَّلْت أنَّ في الأرض ظلمًا فهذا عَيْنُ الضَّلال ، فقد يكون في الأرض ظُلْمٌ ظاهري ، وقد يظلم إنسانٌ إنسانًا ، ولكنّ هذا الظالم جعله الله سَوْطًا ينتقمُ به ، ثمّ ينتقم منه ، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(129))

(سورة الأنعام)

فالظالم سوط الله ينتقم به ثمّ ينتقم منه ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

(سورة هود)

هؤلاء الذين اتَّبعوا من هم أعلى منهم في معصية الله تعالى ما منعوهم من عذاب الله ، وما خلَّصوهم من عقاب الله ، بل زادوهم خسارةً على خسارة .

نهاية كل ظالم :

قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

(سورة هود)

أخبار البراكين والزلازل والفيضانات وأخبار الصِّراعات الداخليّة ، والتي يذهب ضحيّتها آلاف الناس؛ هذه الأخبار ليْسَتْ عنكم ببَعيد ،

قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

(سورة هود)

جملة وهي ظالمة حاليّة ، أيْ حالة هذه القرية الظلم ، فأخذها الله أخْذ عزيز مقتدر ، فبعض المدن السِّياحيّة على الشاطئ الأطلسي تمتدّ المسابح التي يسبح الناس فيها عراةً إلى أربعين كيلو متر ! أصابها زلزال جعلها رُكامًا في ثلاثة دقائق ، كلّ يوم نسمع نبأ فيضان أو بركان أو نبأ زلزالٍ ، أو نبأ صراع بين الشعوب أودى بآلاف الضحايا ، فإن علمْتَ عِلْم اليقين أنَّ هذه القرى ما كان الله لِيُهْلكها إن كانت على الحق ، وعلى صراط مستقيم ، قال تعالى :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

(سورة هود)

إنَّ الله يمْهل ولا يهْمل ، وإنَّ الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1))

(سورة الحج)

لا تنس هذه الآية :

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

(سورة هود)

تأتي المصائب مجتمعةً ؛ مصيبة في الجسد ، ومرضان متعاكسان ، دواء هذا المرض يؤذي هذا المرض ودواء هذا المرض يؤذي ذاك المرض زوجة مشاكسة ، ودَخْلٌ قليل ومشكلات بعضها فوق بعض ، أولاد عاقُّون ، قال تعالى :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

يوم القيامة :

الويل لِمَن لا يخاف من الله عز وجل ، لأنَّه أحمق ،

قال تعالى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)

(سورة هود)

هذا اليوم الذي وعدنا الله به ، لا بد من أن يقع ، قال تعالى :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

سُمِيّت واقعة لأنها لا بدّ من أن تقع ، ترفع أُناسًا ، وتخفض أناسًا آخرين في الدنيا مقاييس ، والله سبحانه وتعالى يُطَبّق على الناس يوم القيامة مقاييسه ، مقياس الاستقامة والخير ، والطُّهْر والإخلاص ، أما في الدنيا فهناك مقاييس كمِقْياس المال ، يرفعُ إنسانًا ، ويخفض آخر ، ومِقياس القوة يرفعُ إنسانًا ، ويخفض آخر ، ولكنّ المقياس عند الله تعالى مِقياسٌ أخلاقي ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي]

قال تعالى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)

(سورة هود)

المؤمن العاقل لا يغيب عنه يوم الدِّين ؛ يوم القيامة ولو دقيقة ، وفي كلّ حركة ؛ في تبَسُّمِهِ ، وفي كلامه ، وفي مُزاحِهِ وفي جِدِّه ، وفي عمله وفي بيته ، وفي الطريق ، والنّزهات ، وفي المعمل ، ووراء مكتبِهِ لا يغيب عنه ساعة الحِساب ، ساعة أن يقف بين يدي الله عز وجل ، ويسأله : لمَ فَعَلْتَ كذا وكذا ؟! وما حجّتك ؟ هذه ليْسَت حجة ، لماذا كنت تابعًا له ؟ أين عقلك ؟ أين تفكيرك ؟ لو أنَّ واحدًا ذهب إلى مركز الشرطة وادّعى أنَه أوْقَعَهُ في حفْرةٍ من المياه الآسنة ! قال له المحقّق : أدَفَعَكَ إلى هذه الحفرة ؟ تقول : لا ، أشَهَرَ عليك سِلاحًا وقال لك : انزلْ ! قلت : لا ، قال : حمَلَكَ وأوْقَعَكَ فيها ؟ قلت : لا ، فقال : لمَ تشتكي عليه ؟ يقول : لأنَّه قال لي انزل فنَزَلْت !! هذا يحتاج إلى مشفى المجانين ، قال تعالى :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22))

(سورة إبراهيم)

لا تقل : فلان قال لي ذلك ! هذا كلام مرفوض ، لما خلق الله العقل قال له أقْبِل فأقْبلَ ، ثمّ قال له أدْبِر فأدْبر ، قال : وعِزَتي ، وجلالي ما خلقت خلقًا أحبّ إليّ منك ، بك أعْطي ، وبك آخُذ ! أين عقلك ؟ وأين محاكمتك ؟ أين تفكيرك ؟ لِمَ اتَّبَعْتَهُ على ضلال ؟ الإنسان عليه أن يُفَكِّر ، وعليه أن يكون حُرًّا في تفكيره ، إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّة ، وإنا على آثارهم مقتفون ، قال تعالى :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70)قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71)قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72)أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74)قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79))

(سورة الشعراء)

إذًا : الإنسان لا يُعْفى من المسؤوليّة إذا قال : فلان قال لي ، أحدُ العلماء الكبار قال : ما جاءنا عن رسول الله فعلى العين والرأس ، وما جاءنا عن غيره فنحن رجال وهم رجال ! قلتَ لي : افْعَل هذا فهل هناك آية تثبتُ ذلك ؟ وقلت لي : لا تفعل هذا ! فهل هناك آية تمنع من ذلك ؟ هل هناك حديث صحيح في الكتب المعتمدة ينهى عن ذلك ؟! أم أنَّك تتَّبعُ الهوى ؟ قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(102)إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)

(سورة هود)

أجل محدَّد ، أما ما يُقال من أنّ بعض العلماء لقّموا بعض الحاسبات الإلكترونيّة آيات القرآن الكريم فعرفوا يوم القيامة ، فهذا كلام مرفوض ، وهذا كلام لا يقبله العقل ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(34))

(سورة لقمان)

قال تعالى :

(وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ)

(سورة هود)

أصحاب الحجج :

في الدنيا هناك أشخاص عندهم طلاقة لِسان ، وعندهم قدْرة على إقْناع الآخرين ، وعندهم قدرة على قلْب الحق باطلاً ، والباطل حقًا ، إذا تكلّموا أنْصت إليهم ، وأدْلوا بحُجَى قويّة ، أنت تعلم أنَّهم مخطئون، فإذا تكلّموا علمت أنَّهم مصيبون ، هؤلاء الذين يُلَفِّقون ، ويُزَيِّفون ، ويُزَوِّرون ، إذا وقفوا يوم القيامة

بين يدي الله عز وجل لا ينطقون ، قال تعالى :

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(65))

(سورة يس)

هذه الحجة والطلاقة وقوة الإقناع هذه في الدنيا ، أما إذا وقف العبد المذنب يوم القيامة بين يدي الواحد القهار لا يستطيع أن يكذب ، ولا أن يُزَوِّر ، ولا أن يُغَيِّر ، قال تعالى :

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(24))

(سورة الصافات)

لذلك السكوت هناك من تمام العدالة الإلهيّة فيسْكُت ، قال تعالى :

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14))

(سورة الإسراء)

قال تعالى :

(يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

(سورة هود)

الإنسان مخير ومسير :

سامح الله من يقول :

إنَّ الإنسان من عالم الأزل كتبَ عليه الشقاء ، فإذا جاء إلى الدنيا لا بدّ من أن يعصي الله تنفيذًا لِحُكم الله فيه ، ولا بدّ من أن يدخل إلى النار إلى الأبد تنفيذًا لِحُكم الله فيه ، وهذه الآية من الآيات المعضلة في القرآن الكريم ، ولا يكفي هذا الوقت القليل المتبقّي من الدرس للخوض فيها ، وتبيان مراد الله فيها الآية:

(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

معضلات هذه الآية كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى قيَّد البقاء في النار ، والبقاء في الجنة ببَقاء السماوات والأرض ، ولو أنّ السماوات والأرض زالتا أتنتهي الجنة والنار ؟!

هذا سؤال مهمّ .....

والسؤال الثاني :

إلا ما شاء ربّك ، أيَدْخل أهل النار الجنة في النِّهاية ؟

السؤال الثالث والأهمّ :

هؤلاء الذين هم في الجنة هناك اسْتِثناء إلا ما شاء ربك ، أيَدْخلون النار بعدها ؟

هذه الأسئلة الدقيقة نرجئها إلى الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

أنتم فكّروا فيها قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

(سورة هود)

سأنهي الدرس بها .

النص لِسَيدنا الحسن بن عليّ عليهما رضوان الله ، قال سيّدنا الحسن :

(من حملّ ذنبه على ربِّه فقد فجَر) أيْ إذا قال : إن الله قدَّر عليّ ذلك .

جيء بشارب خمر إلى عمر بن الخطاب ، و قد شرب الخمر فقال : أقيموا عليه الحدَّ ، قال : واللهِ أيها الأمير إن الله قدَّر عليَّ ذلك ، قال : أقيموا عليه الحدَّ مرَّتين ، مرة لأنه شرب الخمر و مرة لأنه افترى على الله ، قال : ويحك إن قضاء الله لم يخرجك إلى الاختيار إلى الاضطرار ، أنت مخيَّر .

فسيدنا الحسن يقول :

(من حمل ذنبه على ربه فقد فجر ، إن الله تعالى لا يُطاع استكراها ، ولا يُعصى بغلبة ، فإن عمل الناس بالطاعة ، لم يحل بينهم وبين ما عملوا) أي إن عملت بالطاعة فلا بد من أن تقطف ثمارها ، والله سبحانه وتعالى أعزّ وأكرم من أن يحول بينك وبين ثِمار طاعتك ، قال تعالى :

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

وإن عملوا بالمعصية فليس هو الذي أجبرهم ، قال تعالى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

هذا كلام الشِّرك ، أن تفعل المعصيَة وتقول : الله قدّرها عليّ ، فهذه ثلاث كلمات قالها سيّدنا الحسن :

(ولو أجبرهم على الطاعة لسقط الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لأسقط العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عَجْزًا في قدرته)

كأن يهمل الأب ابنه ، فها دليل على عجزه ، فإن عملوا بالطاعة فله المِنَّة عليهم ، وإن عملوا بالمعصيَة فله الحجّة عليهم ، خلقهم وأمدّهم وأرشدهم وهداهم وقدّر عليهم الخير ، وإن عملوا بالمعصية فلهم الحجّة عليهم ، قال تعالى :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

وقال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(148))

(سورة البقرة)

وقال تعالى :

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(43))

(سورة ق)

بعد أن فعلوا وأصرُّوا على فعلهم يُسَجِّلهم عليهم ، لا أن يكتب عليهم قبل أن يفعلوا ، أكان مسيرنا إلى الشام بِقَضاء وقَدَرٍ ، قال سيّدنا عليّ : ويحَكَ لعلّك ظننتَ قضاءً لازمًا ، أو قدرًا حاتِمًا ، إذًا لبطل الوعد والوعيد ، ولانتفى الثواب والعقاب ، إن الله أمر عباده تخييرًا ونهاهم تحيرًا ، وكلّف يسيرًا ، ولم يكلّف عسيرًا ، وأعطى على القليل كثيرًا ، ولم يُعْصَ مغلوبًا ، ولم يُطَع مغلبًا ، ولم ينزِّل الأنبياء عبثًا هذا هو الحق ، وهذا هو معنى فمنهم شقيّ أو سعيد ، فلماذا حمَلَ بعض المفسّرين على أنَّ الشقيّ من شقِيَ في الأزل ، وأنّ السعيد من سعد في الأزل ، وعلى كلٍّ لنا عودة لهذه الآية في الدرس القادم إن شاء الله بِشَكل تفصيلي .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (14-16): تفسير الآيات 105 – 109
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-04-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ

(يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

(سورة هود)

السعادة والشقاء مرهونان بعمل الإنسان في الدنيا :

كانوا في الدنيا ، الذين استقاموا وعملوا الصالحات ، بعد أن عرفوا الله عز وجل يأتون إلى الله يوم القيامة سُعداء ، والذين غفلوا ، وجهلوا ، وعَصَوا ، وأساءوا في الدنيا هم يوم القيامة أشقياء ، كأن يدخل الطلاب الامتحان ، فمنهم ناجحٌ لأنه درس ، ومنهم راسبٌ ، لأنَّه قصَّر ، قال تعالى :

(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ(105)فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

(سورة هود)

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ

الزفير والشَّهيق كِنايةٌ عن بذْل الجهد الذي لا يُحْتَمل في تَحَمّل العذاب كِنايةٌ عن بذل الجهد في تَحَمّل العذاب ، قال تعالى :

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

(سورة هود)

حينما يبْذل الإنسان جهدًا كبيرًا يزداد وجيب قلبه ، ويزداد خفَقَان رئتَيْه ويَعْلو زفيرُهُ وشهيقُهُ ، قال تعالى :

(خَالِدِينَ فِيهَا)

(سورة هود)

أيْ خالدين في جهنَّم قال تعالى :

(مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(107)وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

موضوعات مستنبطة من هذه الآية :

موضوعات كثيرة في هذه الآية :

1 - الموضوع الأول : حرية الاختيار وتبعاته :

أنَّ الله سبحانه وتعالى أعْطانا الخِيار قال تعالى :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

وقال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(148))

(سورة البقرة)

ما دام الله سبحانه وتعالى أعْطانا الخِيار فنحن سوف نتحمّل تَبِعَة اخْتِيارنا ، وتَبِعَةُ اخْتِيارنا شَقاءٌ إلى الأبد ، أو سعادة إلى الأبد هذه تَبِعَة الاختيار ، ما يَنْتج عن الاختيار ، إن صحَّ اختيارك وحسُنَ ، وأصاب اختيارك فأنت من السُّعداء ، وإن أسأتَ في اختيارك فهذا صاحب الإساءة في الاختيار من الأشقياء .

2 - الناس فريقان في الدنيا ويوم القيامة بتقسيم الكتاب والسنة :

يوم القيامة يفرز الناس إلى فريقين ، هم في الدنيا آلاف الأنواع ، بيضٌ وسود ، وصُفْر ، ومن العِرق السامي ، ريفيُّون أو مَدَنِيُّون ، أغنياء ، فقراء ، أقوياء ، ضعفاء متحضِّرون ومتوحِّشون ، متقدِّمون ومتخلِّفون ، منتجون أو مستهلكون أرستقراطِيُّون كادِحون ؛ في الدنيا تقسيمات لا نهاية لها ، ولكنَّ البشر جميعًا على اختلاف عِرْقهم ، وعلى اختلاف أجناسهم وألوانهم ، وعلى اختلاف مشاربهم ومللِهم، وعلى اختلاف نِحَلهم وأصلهم ، وعلى اختلاف ألوانهم ولغاتهم ؛ شَقِيّ وسعيد ، لذلك عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا ، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ ن وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ ن وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ))

[رواه الترمذي]

هذا تقسيم النبي عليه الصلاة والسلام ، و ليس في القرآن الكريم إلا نوعان ، قال تعالى :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(9))

(سورة الزمر)

وقال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

كأنّ القرآن الكريم يُقَسِّم البشر على اختلافهم إلى نوعين ؛ مؤمن وكافر ، ومقبل ومدبر ، متَّصِل ومنقطع ، ومحسن ومسيء ، مخلص وزائغ ، هذا التقسيم الأساسي في الدنيا كما قسَّمه النبي عليه الصلاة والسلام ؛ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا ، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ، قَالَ اللَّهُ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)))

[الترمذي]

هذا التقسيم نتائجه في الآخرة ، وهو أنَّ منهم شقيًّا وسعيدًا ، فهذا الذي تسمعونه الآن يُسمَّى في المصطلح الحديث كلاما مصيريًّا ، يُحدِّدُ مصيرنا ، فإما أن يكون مصيرنا إلى السعادة الأبديّة ، وإما أن يكون مصيرنا إلى الشقاء الأبدي ، قال تعالى :

(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ(105)فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

(سورة هود)

3 ـ الجهل هو السبب الأول للشقاء :

شَقُوا بِبُعْدهم عن الله عز وجل ، وشَقُوا بِجَهلهم ، شَقُوا بانْحِرافهم وإساءتهم ، وشَقوا بِطُغْيانهم ، وشَقُوا بِتَجاوُزهم الحدود ؛ هذه أسباب الشقاء ، وعلّة العلل الجهل ، أعْدى أعداء الإنسان الجهل ، جهلوا الله وما عرفوه ، فَشَقوا بِجَهلهم ، ابن آدم اطْلبني تَجِدني فإذا وجدتني وجدت كلّ شيء ، وإن فِتُّكَ فاتَكَ كلّ شيء ، وأنا أحبّ إليك من كلّ شيء ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

(سورة هود)

كما قلتُ قبل قليل كِنايَة عن العذاب الأليم الذين يتحمَّلونه ، إنَّهم يبْذلون جهدًا كبيرًا في تَحَمّل آلام النار، وفوق ذلك هم خالدون فيها كما قال تعالى :

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

1 ـ وقفة مع : مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

أما كلمة ما دامت السماوات والأرض ، ما هنا مصدريّة ظرفيّة كما أعربها العلماء ، تؤوَّل على الشكل التالي : خالدين فيها مدّة دوام السماوات والأرض .

المعنى الأوّل المستنبط من هذه الآية : أنَّ هذه كناية على لغة العرب ، وهي كناية عن الأبديّة ، لو قلتُ لواحِدٍ منكم : أعطيك هذا المال كل شهر ما أشرقَتْ شمس ، إذا ربطتُ هذا العطاء بسُنّة كونيّة ثابتة فهذا العطاء دائم أبدي سرمدي ، فكلمة ما دامت السماوات والأرض كناية عن الأبديّة ، ولكنّ بعضهم يقول في قوله تعالى :

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ(104))

(سورة الأنبياء)

وقال تعالى :

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2))

(سورة التكوير)

وقال تعالى :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا(105))

(سورة طه)

قال تعالى :

(وَحُمِلَتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(14))

(سورة الحاقة)

2 ـ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ليست دائمة :

بعضهم يقول : السماوات والأرض ليستا مستمرتين ، لا بدّ من يوم تنتهي السماء وتنتهي الأرض . وبعض العلماء قال : السماء والأرض اسم جنس ، فأيّ شيءٍ تستقر عليه قدمُكَ هو أرض ، وأيّ شيءٍ يظلّك هو سماء وفي الجنة أرض وسماء ، أهل الجنة ألَيْسوا على أرض الجنة ؟ أليس فوقهم سماء تُظِلّهم ؟ إذًا في الجنة أيضًا أرض وسماء ، والدليل قوله تعالى :

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(48))

(سورة إبراهيم)

الأرض في الجنة غير هذه الأرض ، والسماء في الجنة غير هذه السماء ، ولكن في الجنة أرض وسماء ، وما دامت أرض الجنة أرضًا ، وسماء الجنة سماءً فأنت في الجنة منعَّمٌ فيها ، وهذه أيضًا كناية عن الأبديَّة ، والأبديّة يصعب تصوّرها ، أشرحها شرحًا رياضيًّا .

مثال لتقريب الأبد : خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

وسأشرحها شرحًا تمثيليًا : لو كان معك رقم الواحد في دمشق والأصفار إلى القطب الشمالي ! ووضعت هذا الرقم صورة على كسرٍ قيمته لا نهاية ، فهذا الرقم قيمته صفر ، فأيّ رقم مهما كبر إذا نُسِبَ إلى اللانهاية فهو صفر ، فإذا عاش الإنسان ألف مليون مَليون مليُون حتى ينقطع النفس ، هذه إذا قستها بالأبديّة فهي لا شيء .

لو أتَيْتَ بكِيس طحين ، ووضَعت أصبعك بعد أن بلّلتها ، فكم ذرَّةً عَلِقَتْ على أصبعك ؟! آت بمُكَبِّر وعُدَّها ! لو أخذتَ مِلعقةً من طحين أو كأسًا من طحين ، هذا الكيس كم ذرَّة ؟ لو أنَّ كلّ ذرّة من هذا الكيس ترمز إلى ألف مليون سنة ، هذا الرقم في النهاية محدود ، ليْسَتْ هذه هي الأبديّة ، الأبديّة ما دامت السماوات والأرض فما دام في الجنة أرض تُقِلّك ، وسماء تظلّك فأنت في الجنة ، لو فكّرنا في الأبديّة لزَهِدنا في الدنيا .

إنها سنوات معدودة يُمْضيها الإنسان في نصَبٍ وتعبٍ ، وهمّ وحزن ، وقلق وخوف ، وهو متعلّق بها ! لو فكّرنا في الأبديّة لهانَتْ الدنيا علينا ، ولصَغُرَت في أعيينِنَا ، ولانْتَقَلت من قلوبنا إلى أيدينا ، من عرف الله زَهِدَ فيمَن سِواه ، من عرف ما عند الله من نعيم زَهِد في الدنيا وما فيها من لذّات ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

[البخاري]

فكّروا في الأبديّة !!!

أيها الإخوة المؤمنون ، فَكّروا في الأبديّة ، فكّروا في حياةٍ لا تنقضي وحياة الإنسان كَيَومٍ أو بعض يوم، مضى مِن عمرنا كذا سنة ، أغلبُ الظنّ بالنِّسبة لبعضنا أنَّه لن يعيش بِقَدْر ما مضى من حياته ، الحياة قصيرة تمضي سريعًا ، وإلى أن تستقرّ تحتاج إلى أربعين سنةً من الجهد والتَّعب والكدّ ، لِيَأتي ملكُ الموت في السِّتين ، أو السَّبعين ، لن تستمتع في الحياة بِقَدْر ما بذلْت لها ! هكذا الحياة !! لم نُخْلَق للدنيا ، خُلِقْنا لِحَياةٍ أبديّة .

حينما كان النبي عليه الصلاة والسلام يُدْعى إلى اللَّهْو كان يقول : لم أُخْلَق لهذا ، هذا هو السرّ ، إما أن تظنّ أنَّك خلقْت للدنيا ، فهذه المصيبة الكبرى ، والجهل الفاضِح ، وهذه هي الطامّة الكبرى ، البُطولة أن تعرف أنَّك لم تخلق للدنيا ، وأنَّك خلقْت للآخرة ، والله سبحانه وتعالى يقول في الأثر القدسي : خلقْتُ لك ما في السماوات والأرض فلا تتْعَب ، وخلقْتُك من أجلي فلا تلْعَب ، فَبِحَقّي عليك لا تتشاغَل بما ضَمِنْتُهُ لك عمّا افترضْتُهُ عليك ، مهما فكّرنا في الأبديّة ؛ حياةٌ لا تنقضي ، ألف مليون سنة وألف ألف مليار سنة !! هذا العدد لا يُساوي الأبديّة ، والأبديّة لا تنقضي ولذلك ربّنا عز وجل عبَّر عن هذه الأبديّة ما دام هناك سماءٌ في الجنّة تُظِلّ أهل الجنّة ، وما دام في الجنة أرض تُقِلّهم فهم خالدين فيها .

3 ـ معْنًى آخر لدوام السماوات والأرض :

معْنًى آخر ؛ أنَّ السماوات والأرض مخلوقات ، وكلّ مخلوقٍ خلِقَ من نور العرش ، ونور العرش لا يفْنى ، كلّ مخلوقٍ في الجنّة خلق من نور العرش ، ونور الله سبحانه وتعالى لا يفنى ، وهو الباقي على الدوام إذًا هذا هو معنى الأبديّة .

سيّدنا ابن عباس رضي الله عنه يقول مؤيِّدًا هذا المعنى : << لِكُل جنة سماء وأرض >> ، يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى :

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(48))

(سورة إبراهيم)

إذًا في الجنة أرض ، وفي الجنة سماء ، وما دامت أرض الجنة أرضًا ، وسماء الجنة سماءً فأنت في الجنة ، وهذا معنى تقييدُ البقاء بدَوام السماوات والأرض ؛ أيُّ سماءٍ ؟ سماء الجنّة ، وأيّ أرضٍ ؟ أرض الجنّة ، وإن أخذتها على المعنى القريب حتى أرض الدنيا وسماؤُها تعْنِيان الدَّوام ، ما دامت

السماوات والأرض كِناية يستخدمها العرب عن الدَّوام والبقاء والاستمرار ، لكن كما قال تعالى :

(إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

1 ـ الخلود في الجنة والنار مقيَّد بمشيئة الله :

هنا استثناء ، وهذه لها معنى دقيق ، العلماء قالوا : الخلود في النار والجنة مُقيّد بِمَشيئة الله ، حتى لا يقول الإنسان : أنا مستحقّ هذه الجنّة سوف أبقى فيها إلى الأبد ! لا ، هذا الفضل الإلهي مُقيّد بمَشيئة الله تعالى فالخلود في النار أو الجنّة مُقيّد بِمَشيئة الله ، ومشيئة الله اقْتَضَتْ هذه السنّة ، ولكنّ هذه السنّة لا تُقيِّد مشيئة الله ، فهذا لا يُقال ، فمثلاً : لو أراد الإنسان أن يُسافر فَعَلِمَ أنَّه إذا دفَعَ صدقةً فالله سبحانه وتعالى يحْفظهُ في هذه السَّفْرة دفعَ صدَقَةً ، وظنّ أنَّ العلاقة حَتْمِيَّة بين هذه الصَّدقة وسلامته في هذه السَفرة ! وأنَّ هذا المبلغ الذي دفعَهُ وحْده يكفي لحِفْظه فاطْمأنَّ بهذه الصَّدقة واعْتزّ بها ، واعتدّ بها ، وظنّ أنَّه لن يُصيبهُ مكروه !! لا ، مشيئة الله لا تقيّد بهذه الصَّدَقة ، لا بدّ من أن تبقى مع الله في هذه السَّفْرة حتى يحفظك فإذا نسيته ، وغفلْتَ عنه ، ولو أنَّك دفعْت هذه الصَّدَقة قد تُعالجُ أثناء السَّفر من قِبَل الله عز وجل ، المعنى دقيق جدًّا فمشيئة الله لا تُقيّد ، لو أنَّ إنسانًا قال : أنا دفعْت هذه الصّدقة ولن يُصيبني مكروه ، نقول له : لا ، لن يُصيبكَ مكروه بِمَشيئة الله ، وحِفْظ الله ، هذه الصَّدقة سبب ، وهذه الصَّدقة لا تخلق المُسبَّب ، ولا وتخلق النتيجة ، ولكنّها تُعبِّر عن رجائِكَ ، وطلبك ، وسؤالك لله عز وجل ، فإذا صلى الإنسان ، وقال : أنا أصلّي ، وفعلَ الخير ، وظنّ أنَّه فعلهُ من تِلْقاء ذاته ، وأنَّه يستحقّ قطْعًا أن يُعَوِّض الله عليه أضعافًا كثيرة دون أن ينظر إلى فضْل الله عز وجل ، وإلى توفيق الله، وإلى كرم الله عز وجل ، وقعَ في نوعٍ من الشِّرك ، مشيئة الله سبحانه وتعالى لا تُقيّد ، ومن هذا القبيل قال عليه الصلاة والسلام :

((وَاللَّهِ مَا أَدْرِى وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَاذَا يُفْعَلُ بِي))

[البخاري]

2 ـ مشيئة الله نافذة في كل شيء :

الله سبحانه وتعالى له نِظام ، مثلاً : لو اشترى رجلٌ حديدًا ، وأشاد به بناءً ، يقول لك : أنا وضَعْتُ النِّسَب النِّظامية في الإسْمنْت ، من جعل لهذا الحديد قوّة التَّماسك ؟ الله سبحانه وتعالى ، والذي أعطى قوّة الحديد التماسك قادِرٌ في كلّ لحظة أن يسْلبَ الحديد خواصّه ؛ ينْهارُ البناء ! فإذا بقِيَ البناءُ متماسكًا فهذا بمَشيئة الله ، وليس بعيدًا عن مشيئته تعالى ، الذي أعطى الحديد هذا الصّفات ، وكذا الإسمنت قادِرٌ في كل لحظة أن يسْلب الحديد والإسمنت كلّ صفاته فإذا البناء في الأرض ، ولكن شاءَتْ حكمة الله أن يثبِّت خواصّ الأشياء ، وقلمَّا اقتضَتْ مشيئتُهُ أن يُعَدِّل بعض الخواص ، أن يجعل البحر طريقًا يبسًا جعله ، كما فعلَ لِسَيّدنا موسى ، وعلماء التوحيد يقولون : عندها لا بها ! فالنار لا تُحْرق ، ولكنّ مشيئة الله تعالى تجعلها تحرق ، والسّكين لا تقطع ، عند مشيئة الله لا بها ، والأفعى لا تلدغ ، ولكن عند مشيئة الله تلدغ ، فالله سبحانه وتعالى أعطى لكل شيء خاصّة ، فهناك مواد فيها فعاليّة ، وهذه المواد لا تفعل فِعْلها إلا إذا شاء الله ، فإذا لم يشأ لا تفعلُ فِعْلها ، قد يأخذ المريض الدواء ، ولا يشْفى ، وقد يأخذ مريضٌ آخر هذا الدواء فيشْفى ! شاء الله لهذا الدواء أن يكون فعالاً في فلان ، وأن يكون عاطلاً في فلان ، وهذا هو التوحيد ، لا شيء يغلبُ مشيئة الله عز وجل فعَّالٌ لما يريد ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالإنسان لا يظنّ أنَّه ملكَ شيئًا ما دام أنّه استقام على أمر الله لا بدّ من أن يحفظه الله تعالى؛ هذا معنى آخر ، بفعَل الله ووفائه وكرمه يحفظك الله ، ولكن هذا ليس قهْرًا ، مِنَّةً ، وفضلاً ، وفرْق بين أن يكون الحفظ قهرًا ، وبين أن يكون الحفظ مِنَّةً ، وفضلاً ، فهؤلاء الذين هم في النار ، قال تعالى:

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

3 ـ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

لم يقل الله عز وجل : إلا من شاء ربّك ، وقال : ما شاء ربك ! يعني هناك عدد ، فـ (ما)تعني العدد ، و(من)تعني الأشخاص ، بعض المفسِّرين قالوا : هناك عدد من أهل النار يمضون فيها حِقَبًا من الزَّمَن ثمّ ينتقلون إلى الجنة لِقول عليه الصلاة والسلام : عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ))

[رواه البخاري]

قال تعالى :

(فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ(13))

(سورة الحديد)

4 ـ معنى آخر من معاني هذه الآية :

يُفتحُ نحو الجنّة باتِجاهٍ واحد ، فَرُبَّما أمضى من كان في قلبه ذرة من إيمان حِقَبًا كثيرة في جهنّم ، تطهَرَتْ نفسُهُ ، ونما هذا الخير ، ونما إلى أن أصبح غالبًا عليه فاستحقّ دخول الجنّة ، وهذا معنى آخر من معاني هذه الآية قال تعالى :

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

لا يخلد في النار إلا من شرد على الله شرود البعير ليس فيه ذرّة من خير ، ولم يفكّر في حياته كلّها بشرَبه ، ولم يعمل عملاً صالحًا في حياته كلها .

قال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ

1 ـ لا أحد يسأل الله عما يفعل :

الإنسان قد لا يستطيع أن يفعل ما يريد ، ولكنّ ربّك فعَّال لما يريد ، فليس أحدٌ فوقه ، وليس من إلهٍ غيره ، ولا يُسأل عمَّا يفعل ، ولا أحدَ في الكون يُحاسِبُه ، فعَّال لما يريد ، قال تعالى :

(وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(117))

(سورة البقرة)

ما شاءه الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، قال تعالى :

(إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

مشيئة الله لا يحدّها شيء .

قال تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

1 ـ الأمور الثابتة الدائمة مُقيّدة بمَشيئة الله لا بطبيعتها :

الأمور الثابتة الدائمة مُقيّدة بمَشيئة الله لا بطبيعتها ، دَقِقوا في هذا الكلام : شروق الشّمس مثلاً ، منذ أن كنَّا في هذه الدنيا وحتى الآن ، ما من يوم إلا وأشْرقتْ فيه الشَّمس ، ما من مكان إلا وفيه هواء ، الماء دائمٌ مفيد ، التفاح دائمًا حُلْوُ الطَّعم ، المولود دائمًا يأتي من نوع الأب والأم ، ما مرّ أنّ إنسانًا يلد حيوانًا !! الإنسان يلد إنسانًا ، والحيوان يلِدُ حيوانًا ، الدجاجة تبيض بيضةً ثم تنتهي إلى دجاجة ، هذه سُنَن ثابتة ، ليْسَت ثابتة بذاتها بل بمَشيئة الله وبفضله ، فالله هو الذي ثبَّتها ، ولو شاء لغيَّرها .

المطر مثلاً ما ثبَّته الله ، تأتي الأمطار في عامٍ غزيرة ، وتنقطع في عام آخر ، هذه بيَد الله لو تعمَّقت في الأمور لوجدْت كلّ شيءٍ كالمطر ، لكنْ شاءَتْ مشيئة الله أن تجعل نزول المطر متغيّرا ، أما شروق الشمس فثابت ، لكنّ شروق الشمس ، هذه السنّة الثابتة ليْسَتْ بطبيعتها ثابتة ، ولكن بمَشيئة الله ثابتة وبفَضْل الله وبمِنَّة الله تعالى ، وبكَرم الله ، فأنْ ترى أنَّ زوْجتك أنْجبَتْ مولودًا من البشر ، هذه بفَضْل الله ، ولو شاء الله لأنْجَبَتْ حيوانًا لكنّ الثبات يوحِي للناس أنَّ هذا شيئًا طبيعيًا ، ثباتُ خواص الأشياء يوحي للناس أنّ هذا شيئًا طبيعيًا ، وأنَّ السِّكين تقطعُ دائمًا هذا بمَشيئة الله تعالى فالموضوع توحيدي دقيق ، مشيئة الله سبحانه وتعالى لا يحدُّها شيء ، ولا يُقَيِّدُها شيء ، والأشياء كما هي عليها لا بذاتها ، بل بالله عز وجل ، وهذا معنى قول الله تعالى :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

قيام الشيء بالله عز وجل ، الكائنات الحيّة حياتها بيَدِ الله ، هذه الشجرة من بثَّ فيها الحياة ، وهذه البزرة تبقى خمسة سنوات ، تزرعها في الأرض فتنبتْ ؛ من بثَّ في رشيْمِها الحياة ؟! الله عز وجل .

أما معنى كلمة القيُّوم فيعني أن الحديد قائمٌ بالله ، خواصّهُ بيَدِ الله ، ولو شاء الله سبحانه وتعالى أن يسْلبَهُ خواصَّه لكان كالماء !! كلّ شيءٍ قائم بالله تعالى ، وحيٌّ بالله تعالى ، قال الله تعالى :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

قال تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

2 - لا شيء يحدّ مَشيئة الله :

إنسانٌ دفع الزكاة ، وهو يظنّ أنَّه بدَفع الزكاة لن يتْلفَ مالهُ ، فمالنا نجد بعض الأشخاص وهم قِلّة يدْفعون زكاة مالهم ، ويُتْلِفُ الله مالهم ؟! وعلى الرغم من دفعها !!

الله سبحانه وتعالى شرعَ لنا شرْعًا ، وقال على لِسان النبي عليه الصلاة والسلام :

((حصِّنوا أموالكم بالزكاة))

[الطبراني عن ابن مسعود]

((مَا تَلَفَ مَالٌ فِي بَرٍّ ، وَلاَ بَحْرٍ إلاَّ بِحَبْسِ الزَّكَاةِ))

[الطبراني والبيهقي عن عمر]

لو أنَّ تاجرًا دَفَعَ زكاة ماله واعْتدَّ بهذه الزكاة ، وتساهَلَ في بقيّة الأوامر ، وأكل مالاً حرامًا ، ومدَّ عَيْنيه إلى ما لا يَحِلّ له ، وسافرَ فطغى في هذه السَّفْرة ، وهو يظنّ أنَّهُ دفعَ زكاة ماله ، ولن يُتْلفَ مالهُ ! لا شيءَ يَحُدّ مشيئة الله عز وجل ، وقد يرجعُ إلى بلده ، وقد طغى وبغى في سفره ، فإذا مالهُ مُصادَر ، أو تالفٌ ، أو مالهُ محترقٌ ، تفسير ذلك أنّ مشيئة الله لا يحدّها شيء ، لا يُنْجيك من الله إلا أن تكون معه فقط ! لا ينجيك من الله إلا أن تقبل عليه ، وتتَّصل به ، وأن تكون يقظًا ، أما أن تعتمد على سنّة سنَّها الله ، وتُهْمِلَ أشياء كثيرة ، عندها إلا ما شاء ربّك .

3 - الاستثناء في المشيئة حتى تعتمد على اتصالك بالله :

إذًا مَن دفَعَ زكاة ماله فالله سبحانه وتعالى يحفظ ماله إلا ما شاء ربّك ، وعلى هذا فَقِسْ ، فهذا الاستثناء استثناء المشيئة من أجل أن لا تعتمد على الطاعة ، بل على صلتك بالله عز وجل ، كن مع الله ترى الله معك ، لا تتَّكل على فعلٍ فعلتَهُ ثمّ تغفلُ عنه ، إذا غفلت عنه فإنّ هذا الشيء الذي فعلتهُ لن يُنجيك .

طالبٌ جاء إلى المدرسة ومعه باقة ورْد إلى معلّمه ، أثنى عليه ، وأثنى على لطفِهِ ، وعلى ذوْقِهِ ، وعلى أدبِهِ وأخلاقه ، في اليوم الثاني هذا الطالب الذي قدَّم هذه الهديّة لم يكتب الوظيفة ، أتَرَوْن أنَّ هذا المعلّم تقيّده هذه الهديّة عن معالجة هذا الطالب ؟ لو أنَّ هذا المعلّم مقابل هذه الباقة تركهُ وشأنه طوال العام ، كأنَّ هذه الباقة قيَدَتْ مشيئتهُ ، وقيَّدَتْ خِبْرتهُ ، وقيّدت رحمته ومعالجته !! لا ، ولو أنَك قدَّمْتَ هذه الباقة ، ففي اليوم الثاني إن لم تكتب الوظيفة فلا بدّ من التحذير والتَضييق ، أتُراكَ بهذه الباقة

تُعطِّلني ، وتعطِل خِبرتي في التربية ؟! وعلى هذا فقيسوا الآيات كلّها ، ولكن هل يُعْقل أنَّ الذي دخل الجنّة يخرَجُ منها ؟ لا والله والدليل قوله تعالى :

(وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا)

(سورة المائدة : من الآية 37)

فكيف نوفّق بين هذه الآية قوله تعالى :

(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ

1 ـ عطاء الجنة غير مقطوع :

هذا العطاء الذي استحقّه أهل الجنة لن يزول عنهم ، ولن يقْطع ، جدَّ بمَعنى قطَعَ ، عطاءً غير مجذوذ ، ففي الآية الأولى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ(106)خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(107)وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

2 ـ الجنة ندخلها برحمة الله ونقتسمها بالأعمال :

اطْمئِنُّوا ؛ إذا دخلتم الجنّة فلستُم منها بخارجين ، وهذه الآية مثلٌ آخر يوضّح لنا لك : والدٌ وعدَ ابنه أنَّه إذا نجح سيشتري له درَّاجة من النوع الجيِّد ، فهذا الابن على تفكيره الضعيف والضيّق ، نجح وأخذ ورقة الجلاء وهو ناجح ، وتوجَّه توًّا إلى بائع الدراجات ، وقال له : أعطني هذه الدراجة ، وخُذ هذا الجلاء !! هذا لا يعقل ، فهذه الدراجة لا يتملكها إلا إذا دفع أبوه الثَّمَن ، لا يكفي هذا الجلاء ، فلا بدّ مِن أن يدفَعَ أبوه الثَّمَن ، فالجنّة ندخلها برَحمة الله ، ونقتسمها بالعمل ، قال تعالى :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

بالعمل يُسْمحُ لنا بدُخولها ، ولكنّ دخولها برَحمة الله تعالى ، نجاحهُ أهَّلَهُ لِهذه الدراجة ، ولكنّ هذه الدراجة لن يتملَّكها إلا إذا دَفَعَ أبوه الثَّمَن ، وهذا هو التوفيق بين قوله تعالى :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

وبين قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، قالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قالَ : لَا ، وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ ، فَسَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ))

[رواه البخاري]

سيّدنا جعفر يقول : << ادخلوا الجنة برحمة الله ، واقتسموها بأعمالكم >> .

قال تعالى :

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(سورة هود)

3 - لا تتكئ إلا على رحمة الله وفضله :

إذًا : هذه الآية تعلّمنا أشياء كثيرة ، إذا ذهب الواحد إلى الطبيب ، وبجِسْمه أشياء ، وأقام تحاليل ، فإذا التحليل يشير إلى أنه صحيح مائة بالمائة ، والنِّسَب كلّها نِظاميّة ، لا يتّكِئ عليها ، ولكن على فضل الله عز وجل ، وما أدراك أنَّ بعض المواد في التحليل غير فعَّالة ، وأنّ هناك نِسَب مرتفعة من بعض النِّسب التي لا يجوز أن تكون مرتفعة في الإنسان ؟ الإنسان لا يتّكئ إلا على فضل الله ، فإذا اتَّكأ على شيء آخر فهذا أحد أنواع الشِّرْك ، إذا اتَّكأت على علمك فهذا شِرْك ، إذا اتَّكأت على علمك فهذا شرْك، اللهم لا علم لي إلا ما علَّمتني ، ويظلّ المرء عالمًا ما طلبَ العلم ، فإذا ظنَّ أنَّه قد عَلِم فقد جهل ، إذا اتَّكأت على أولادك فإنهم يُخَيِّبون ظنَّك ، إذا اعتمَدْت على زوجتِكَ يظهر منها مواقف لئيمة ، وإذا اعتمدْت على مالك تأتيك مشكلة لا تُحل بالمال ، أيّ شيءٍ تعتمد عليه لا يحدُّ مشيئة الله عز وجل ، لذلك يؤتى الحَذِرُ من مأمَنِه !

طبيب متخصِّص بأمراض جهاز الهضم يعرف ما يجوز وما لا يجوز ، وما يُصْلِحُ المعدة وما يفْسدها، فإذا هو يُصابُ بقَرْحةٍ في المعدة ، اعْتمَدَ على علمه ، ومعه(بورد)، في أمراض جهاز الهضم ، ومعه قرْحة !!! وطبيب آخر متخصِّص في أمراض القلب ، يعرف بالضَّبط ما يصلحُ القلب وما يفسدُه ، اتَّكأ على عِلمِهِ ، فأُصيبَ بأزْمةٍ قلبيَّة ، لذلك الإنسان أيّ شيءٍ يتَّكأُ عليه يخيِّب الله ظنه فيه ، حتى يُعَلِّمَهُ التوحيد ، لقد أشْركْت ، إيَّاك أن تُشْرك ، قال تعالى :

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

(سورة لقمان)

قد يعتمد الإنسان على ذكائه ، فيرْتَكِبُ عملاً فيه حُمْقٌ لا يوصَف ، يُقال له : كيف فعلْتَ هذا ؟ أمِثْلُكَ يفعلُ هذا ؟! قد يعتمد الطالب على دراسته ، ففي المواد التي هو واثقٌ منها يأخذ علامات قليلة ، وفي المواد التي اعتمَدَ فيها على الله عز وجل تأتي الأسئلة بِشَكلٍ موافق لِمَعلوماته .

إذًا : ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

عندها لا بها ، هذه كلمات الأشعريِّين ، عند الإرادة وليس بالشيء .

قال تعالى :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)

(سورة هود)

فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ

هذه الآية دقيقة جدًّا ، هؤلاء المشركون الذين عاصروا النبي عليه الصلاة والسلام يعبدون أصنامًا ، وآلهةً من دون الله تعالى ، استقرار الإنسان وهو على مصيبَة ، وبقاؤُه حيًّا وهو على معصيَة ، وبقاؤُه حيًّا وهو على معصيَة لا ينبغي أن يُزَلْزِل المؤمن ، إنسانٌ يكفر بالله ، ويتمتَّع بصِحَّة جيِّدة ، ويتمتَّعُ بمَوْقفٍ قويّ ، وبمكنٍ مرموق ، وهو في معصيَة الله ، لا ينبغي للمؤمن أن يهتزّ لهذا ، قال تعالى :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)

(سورة هود)

1 - معنى : نَصِيبَهُمْ

العلماء في كلمة نصيبهم على ثلاثة أقوال :

المعنى الأول : نصيبهم من الرزق :

بعضهم قال : نصيبهم من الرِّزْق ، عبْدي لي عليك فريضة ، ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في

فريضتي ، لم أُخالفْك في رزقك ، الكفار يأكلون ويشربون ، ويتمتَّعون ، ويسرحون ويمرحون ، ويسهرون ويسمرون ، يفعلون ما يشاءون بحَسب الظاهر ، إياك أن ترى هؤلاء وقد تمتَّعوا في الدنيا ، واسْتَعلوا فيها ، إياك أن تراهم على حقّ ، قال تعالى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

الآية الكريمة :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ)

(سورة هود)

المِرية هي الشك ، وهؤلاء ليْسوا على حق ، ولو طال بهم العمر ، ولو كثرتْ أموالهم ، ولو عَمَرُوا الأرض ، قال تعالى :

(مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ)

(سورة هود)

هؤلاء الذين أهلكهم الله قوم لوط ، وعاد وثمود ، قال تعالى :

(وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)

(سورة هود)

لهم علينا رزق ، قال تعالى :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة)

ليس فقط من آمن ، ولكن من كفر كذلك ! إنَّ هذه الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منه البرّ والفاجر ، فلْينظر ناظرٌ بعَقلِه أنَّ الله أكْرمَ محمَّدًا أم أهانهُ حينما زوى عنه الدنيا ، فإن قال : أهانه فقد كذب ، وإن قال : أكرمه ، فقد أهان غيره حينما أعطاه الدنيا ، يا بنيّ ، ما خير بعده النار بخير ، وما شرّ بعده الجنة بشَرّ ، وكلّ نعيم دون الجنة محقور ، وكلّ بلاء دون النار عافِيَة ، لذلك إذا رأيْت الله يُتابِعُ نِعَمهُ عليك ، وأنت تعصيهِ فاحْذَرْهُ ! قال تعالى :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)

(سورة هود)

أوَّل معنى مُوَفُّوهم رزقهم ، عبْدي لي عليك فريضة ، ولك عليّ رزق فإذا خالفتني في فريضتي ، لم أُخالفْك في رزقك .

المعنى الثاني : نصيبهم من العذاب :

وإنا لَمُوَفُّوهم نصيبهم من العذاب ، أيْ كما عذَّبنا قوم عادٍ وثمود ولوط ، هؤلاء العاصون المنحرفون لا بدّ من أن يصيبهم مثل ما أصاب أسْلافهم ، ولا مندوحة ، مهما امْتدَّ بهم العُمر ، ومهما طال بهم الأمد ، ومهما اسْتَعْلَوا في الأرض ، يقول الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام : هؤلاء كفار مكَّة ، ولو رأيْتهم قد رسخوا في الأرض ولو رأيتَهُم يتمتَّعون بالأولاد والجاه والقوّة والسلطان ، فلا بدّ من أن يُصيبهم ما أصاب أسْلافهم المكذِّبين ، هذا المعنى الثاني .

المعنى الثالث : الوعْدُ والوعيد :

وإنا لَمُوَفُّوهم نصيبهم غير منقوص ؛ يعني الوعْدُ والوعيد ، الشيء الذي وعد الله به لا بدّ من أن يقع ، والشيء الذي توعَّد الله به لا بدّ من أن يقع ، وهذا هو معنى هذه الآية .

نكتة بلاغية مستنبطة من الآية : الإعراض عن حطاب الكفار لقلة شأنهم :

إلا أنَّ علماء البلاغة لفتوا النَّظَر إلى شيء بليغ في هذه الآية ؛ لو فرضنا طالبًا مقصِّرًا وقف المدير مع المعلّم ، فيقول له : أما هذا الطالب فسوف نفْصِلُه عن المدرسة ، الحديث يدور بين المدير والمعلّم على مَسْمَعٍ من الطالب لِقِلَّة شأن الطالب غفلنا عنه ، ولم نوجِّه الحديث له ، فالحديث يدور بين المدير والمعلّم ، وهذا أُسلوب فيه تأثير بليغ ، أيْ أنت بهذا الذَّنْب لا شأنَ لك عندنا ، ولن تسْتحقّ أن نُوَجِّه لك الخِطاب ، قال تعالى :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)

(سورة هود)

أسلوب الحكيم في هذه الآية أنَّ الله يُخاطب النبي عليه الصلاة والسلام ، ويُحَدِّثُهُ عن هؤلاء المشركين، قال تعالى :

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)

(سورة هود)

فكما أنَّ الأقوام السابقة كذَّبوا أنبياءهم فاسْتَحَقُّوا الهلاك ، هؤلاء أيضًا سيُصيبُهم ما أصاب أسْلافهم ، ولكن إدارة الحديث مع النبي عليه الصلاة والسلام دون توجيه الخِطاب إليهم ؛ هذا لِهَوانهم على الله ،

وهذا أفْعلُ في نفوسهم ، لو أنَّ القاضي الْتَفَت إلى مسْتشاره عن يمينه ، وتشاوَر معه فيما يُقَرر من عقوبة بحَقّ هذا المذنب والمذنب يستمِعُ ؛ إنَّ مُشاوَرَة القاضي لِزَميلهِ على مَسْمَعٍ من المذنب أشدّ أثرًا في نفسه ممَّا لو توجَه له بالحُكْم ، كذلك ربّنا عز وجل يُعلِمنا الأسلوب الحكيم .

قال تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

في أكثر من موطن في القرآن الكريم فيه إشارة إلى هذه الكلمة ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

1 ـ العذاب له أجل مسمَّى :

ما هذه الكلمة ؟ هذه الكلمة تأتي في القرآن كثيرًا ، نرجأئ الحديث عنها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

لزامًا إهلاكهم !

2 ـ هل تعلم ما هي الكلمة التي لولاها لاستحق الناس العذاب ؟

ما هذه الكلمة التي لولاها لاستحقّ الناس الهلاك ؟! سؤال دقيق ، كلمة قالها الله عز وجل لولاها لاستحقّ الناس العذاب ، ولدمَّرهم الله عز وجل عن آخرهم ، ولكنّ هذه الكلمة تؤخِّرهم إلى أجل مسمَّى ؛ فما هذه الكلمة ؟ هذه الكلمة طُبِّقت على أتباع سيّدنا موسى ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(110)وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة هود)

آية في هذه السورة شيَّبت رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، إنَّ هذه الآية سيأتي دورها في التفسير في الدرس القادم ، فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شِبْتَ ، قَالَ : شَيَّبَتْنِي هُودٌ ، وَالْوَاقِعَةُ ، وَالْمُرْسَلَاتُ ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ))

[رواه الترمذي]

قال تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة هود)

أحد العلماء وقف لِيُصلّي ، صلّى خلف إنسان ، فلما قرأ هذه الآية وقعَ مَغْشِيًا عليه ، فَسُئِلَ : لماذا أُغْمِيَ عليك ؟ الإجابة في الدرس القادم ، قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(113)وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(114)وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة هود)

هذه الآيات هي التي شيَّبت سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيجب أن نقف عندها في هذا الأسبوع.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول سورة - هود 011 - الدرس (15-16): تفسير الآيات 110 – 117
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-04-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُم

بعضهم آمن بالتوراة وبعض آخر كفر بها :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

بعضهم صدَّقه ، وبعضهم كذَّبه ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُم

1 ـ وردَ لفظ (كلمة)في ستَّة وعشرين موضِعًا من القرآن الكريم :

هذه الصِّياغة وردَتْ في القرآن الكريم في ستَّة وعشرين موضِعًا .

مِن أبْرَز هذه المواضع ، قوله تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا)

(سورة الأنعام : 115)

وقال تعالى :

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(40))

(سورة التوبة)

وقال تعالى :

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(33))

(سورة يونس)

وقال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

وقال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(19))

(سورة يونس)

وقال تعالى :

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171)إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ(172)وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(173))

(سورة الصافات)

قال تعالى :

(وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام)

وقال تعالى :

(لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(64))

(سورة يونس)

2 ـ علّة الخلق إسعاد الخلْق :

فما هي كلمات الله ؟ الله سبحانه وتعالى مِن أسمائه الحق ، فإذا قال كلمةً فَكَلِمَتُه هي الحق ، وإذا وَعَدَ وعْدًا فَوَعْدُهُ هو الحق ، وإذا توعَّدَ تَوَعُّدًا فَتَوَعُّدُهُ هو الحق ، وإذا أقرَّ مبدأً فَمَبْدؤُهُ هو الحق ، فالله سبحانه وتعالى مِن كلماته :

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

علّة الخلق إسعاد الخلْق ، هذه كلمة الله سبحانه وتعالى ، لذلك ليس الهَدَف أن يُعاقِبَ خلْقهُ بِذُنوبِهم ، ولكنّ الهدف أن يُسْعِدَهم بأعمالهم الصالحة ، لذلك كان حليمًا عليهم ، ورؤوفًا بهم ، ويُطاولهم ويُمْهِلُهم، لأنَّ كلمة الله اقْتَضَتْ أنّه خلقهم لِيُسْعِدَهم .

المُعَلِّم الذي يضيقُ ذرْعًا بِطلابه ، ويُحاسِبُهُ على كلّ غلْطةٍ حِسابًا عسيرًا إلى أن يُخْرِجَهُ من المدرسة في أسْبوعَين ! هذا ليس معلّمًا ، الهدَف الأكبر إسْعادُ الخلْق ، ولولا هذا الهدف لقضى الله بين عِبادهِ فيما هم فيه يختلِفون ، ولولا هذا الهدف العظيم لعَجَّل لهم العِقاب ، ولولا هذا الهدف لأهْلَكَهُم ، لولا هذا

الهدف لقصَمَ الكافرين ، وأراحَهم وأراحَ منهم ، ولكنَّ الهدف الكبير إسْعادُ الخلْق لذا يُطاولُهم ، مثلاً قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

3 ـ لولا كلمة من الله لكان لِزامًا إهْلاكهم :

لكان لِزامًا إهْلاكهم ، لولا أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقَهم ليُسْعِدَهم لأهْلَكَهُم قبل استِنْفاذ الفُرَص ، فالله سبحانه وتعالى لا يُهْلكهم إلا بعد أن يستنفذ كلّ الفُرَص لِهدايَتِهم ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

وقال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(19))

(سورة يونس)

وانتهى الأمر .

إذًا : هذه الكلمة التي ورَدَ ذِكْرها في القرآن كثيرًا ؛ أنَّ عِلَّة الخَلْق إسْعادُ الخَلْق ، أيْ سببُ الخَلْق إسْعادُهم ، لذا ليس الهدف معاقبتهم ، بل الهدف أن يهديهم ، من هنا كان الحِلْم ، ومن هنا كانت الرَّحمة، والمُطاولة ، عبدي لو جئتني بمِلء السماوات والأرض ذنوبًا غفرتها لك ولا أُبالي ، ولو قال العبدُ : يا ربّ ، وهو راكِع لقال الله : لبَّيْك ، ولو قال العبْد : يا ربّ ، وهو ساجد لقال الله : لبَّيْك ، ولو قال العبد : يا ربّ وهو عاصٍ ، لقال الله : لبَّيْك ، ثمّ لبَّيْك ، ثمَّ لبَّيْك !!

أتمنَّى أن تكون هذه الفكرة قد اتَّضَحَتْ لكم ، فالهدف إسْعادُ الخَلْق ، وليس الهَدَفُ أن يأخذهم على ذُنوبهم ، وأن يأخذهم بمَعاصيهم ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى(129))

(سورة طه)

لكان لِزامًا إهلاكهم ، وقال تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

(سورة هود)

حُسْن الظنّ بالله ثَمَن الجنَّة ، أنا عند ظنِّن عبدي بي فلْيَظُنَّ بي ما يشاء .

وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

1 ـ لكلِّ عمل صغير أو كبير ثواب أو عقاب :

قال تعالى :

(وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة هود)

كما قال تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

مهما بدا لك هذا العمل صغيرًا فالله سبحانه وتعالى سيُثيبُ عليه ، ومهما بدَتْ لك هذه المُخالفة يسيرةً فالله سبحانه وتعالى سيُحاسِبُ عليها ، يا رسول الله عِظْني وأوْجِز ! فقال عليه الصلاة والسلام :

(((فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))فقال هذا البدوي : قد كُفيت ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقُهَ الرَّجل ...))

[ورد في الأثر]

لم يَقُلْ : فَقِهَ الرَّجل ، لأنَّ فَقِهَ بمَعنى عَرَفَ الحُكْم ، ولكنَّ فَقُهَ بمَعنى صارَ فقيهًا ، قال تعالى :

(وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا)

(سورة هود)

لمَّا بمَعنى إلا ، قال تعالى :

(وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة هود)

2 ـ الله يعلم كل عمل حجمَه ونيتَه :

يعني هذا العمل يعرف الله حجمه ونيته ، وكم بُذِلَ من أجله ، ويعرف هدفه وباعثه ، وواقِعَهُ ، ويعرف عنه كلّ شيء ، قال تعالى :

(إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة هود)

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

1 ـ شَيَّبَتْني هودٌ :

أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام فقال : يا رسول الله قلتَ ، إنَّ هودًا شَيَّبَتْكَ فما الذي شَيَّبَكَ مِن هود ؟ أخبار الأمم فيها وهلاكهم ؟ قال : لا ، ولكنَّ الذي شَيَّبني قوله تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة هود)

لذلك الآية التي تَلَتْ تلك الآية قوله تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة هود)

2 ـ الله يأمر نبيَّه والمؤمنين بالاستقامة :

فاستقم كما أمرت ! الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام أوَّلاً ، ولأمَّتِهِ ثانيًا ، والأمر هو الشَّرْع ، والأمْرُ هو القرآن ، هذا الكتاب الذي بين أيدينا ، وهذا الشَّرْع الذي شرَّفنا الله به هو الأمر .

وأما فاسْتَقِم ؛ أيْ كُنْ على هذا الأمْر ، فَمِن معاني كما : على ، وكما تعلمون في الرياضيات أنَّه بين نقْطتَين لا يمرّ إلا مستقيمٌ واحد ، فالاستقامة تعني التَّطابق التام مع أمْر الله سبحانه وتعالى .

3 ـ الاستقامة أساسُ الدِّين :

الحقيقة أنّ الاستقامة أخْطَرُ شيءٍ في الدِّين ، ففي الدِّين صلاة وصِيام وفي الدِّين حجّ وزكاة ، وفي الدِّين عِبادات أخرى ، ولكنَّ الاستقامة أخْطَرُ ما في الدِّين ، لأنَّه إذا تصوَّرْنا أنَّ طريقًا إلى الله سبحانه وتعالى فكلّ مُخالفةٍ يرْتَكِبُها المسلِمُ إنَّما هي عقبةٌ كؤود في طريقه إلى الله سبحانه وتعالى ، وحجْمُ هذه العقبة بِحَجْم معْصيَتِهِ ، فَكُلَّما كَبُرَتْ معصِيَتُهُ كبرَت هذه العقبة ، لذلك مَن كان لهُ معْصِيَةٌ أو مُخالفةٌ عن أمر الله ، أو زَيْغٌ أو تجاوُز أو طُغيانٌ ، فإنَّ عقبةً كَؤُود تَقِفُ في طريقه إلى الله سبحانه وتعالى ، عندئذٍ لا يُجْدي مع المعصيَة شيئًا ، لا تُجْدي صلاته ، ومن لم تنْهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعْدًا ، ولا يُجْدي الصِّيام ، فمن لم يَدَعْ قَوْل الزُّور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدَعَ طعامه وشرابه ، ولا تُجْديه الزَكاة ، قال تعالى :

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ(54))

(سورة التوبة)

لا يُجْدي شيءٌ ما دامتْ الاستقامة مُعَطَّلة ، لذلك المشكلة الكبرى في العالم الإسلامي أنَ العبادات متوافرة ، وأنَّ المكتبة عامرة ، وأنَّ الجوامع ممتلئة ، وأنَّ الخطب رنَّانة ، واجْتِماع المصلّين صارخٌ جدًّا ، ولكنَّ فقْدَ الاسْتِقامة جَعَل في طريق المسلمين إلى الله عَقَبات كؤُود ، فلِذلك إذا أكْثرْتُ من ذِكْر الاستقامة فلأنّها أساس الدِّين ، وسيّدنا عمر رضي الله عنه يقول : << من شاء صام ، ومن شاء صلّى، ولكِنَّها الاستقامة >> .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُفْيَانَ الثَّقَفِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مُرْنِي فِي الْإِسْلَامِ بِأَمْرٍ لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ، قَالَ : قُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ ، قَالَ : قُلْتُ : فَمَا أَتَّقِي فَأَوْمَأَ إِلَى لِسَانِهِ))

[رواه أحمد]

إن لمْ ترْضَ أن تستقيم فاسْتَعِدَّ للبَلاء ، أنت تطْلبُ من الله الكرامة ، وهو يطلبُ منك الاستِقامة ، فليس الوليّ الذي يطير في الهواء ، فالطائر يطير في الهواء ، وليس الوليّ الذي يمشي على وَجه الماء ، ولكنَّ الوليّ كلّ الوليّ هو الذي تجده عند الحلال والحرام ، فأساس الدِين الاستقامة ، ومِن دون استقامة لا شيءَ يُجدي ، ولا شيء يرفع صاحبه ، ولا شيءَ ينفعُ من دون أن تستقيم ، لأنّك إذا استقَمْتَ أزَحْتَ كلّ العقبات التي في طريقك إلى الله عز وجل ، هذا معنًى دقيق .

4 ـ العمل الصالح دفعٌ إلى طريق الاستقامة :

ماذا بقيَ عليك ؟ بقي عليك التَّحرّك إلى الله عز وجل ، ما الذي يحملك إلى الله عز وجل ؟ عملك الصالح ، فالاستقامة تمهيد للطريق ، والعمل الصالح دَفْعٌ لك على هذه الطريق فكأنَّ الدِّين يقوم على الاسْتِقامة والعمل الصالح ، بالاستقامة تُنظّف الطريق ، وبالعمل الصالح تندفع إلى الطريق ، الذي يدْفعُك أو الذي يرفعُك أو الذي يوصِلُك هو عملك الصالح ، قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(19))

(سورة الأحقاف)

قال تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود)

اسْتَقِم كي تُزيحَ العقبات اسْتَقِم كي تهْتك الحُجُب ، اسْتَقِم كي تَصِحَّ الوِجْهة ، واسْتَقِم كي يكون الطريق إلى الله سالكًا ، وإذا أردْت أن يكون الطريق إلى الله سالكًا فاسْتقِم ، وإذا أردْت أن يكون الطريق إلى الله سالكًا بصُعوبة فَبَعْضُ المخالفات تجعلهُ سالكًا بصُعوبة ، إذا أردْت أن يكون الطريق مَسْدودًا فارْتَكِب بعض المعاصي ، فيصبحُ الطريق مَسْدودًا إلى الله عز وجل ، فلا ينْفعُ الحج ، ولا تنفعُ الزكاة ، ولا ينفعُ الصّيام ، ولا تنفع الصلاة .

5 ـ لن تُحْصوا خَيْرات الاستقامة :

والاستقامة عَيْنُ الكرامة ، قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((ابْنَ عمر ، دِينَكَ دينَكَ ، إنَّه لحمكَ ودَمُكَ ، خُذْ عن الذين اسْتقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[ابن عدي]

إنَّ هذا العِلْم دين فانْظُروا عمَّن تأخذون دينكم .

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

[ابن ماجه]

أيْ لن تُحْصوا الخَيْرات التي سوف تأتيكم من الاستقامة ، قال تعالى :

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

قال تعالى :

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(144))

(سورة الأعراف)

وهذا هو معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

فإن اسْتَقَمْتُم على أمر الله لن تُحْصُوا الخيرات أهِيَ في صِحَتِكم ؟ في صِحَّتِكم ، أهِيَ في زواجكم ؟ في زواجكم ، أهِيَ في أُسْرتكم ؟ في أسرتكم ، أهِيَ في عملكم ؟ في عملكم ، أهِيَ في سعادتكم ؟ في سعادتكم ، أهِيَ في كِيانكم ؟ في كِيانِكم ، أُريد أن أكون صريحًا معكم ، مهما كانت الظروف صَعبةً ، فإنَّ المستقيم على أمر الله استقامةً تامّة يشْعر أنَّه غارقٌ في نِعَم الله ، ويشْعر أنَّ أحدًا في الأرض لن يكون أسْعَدَ منه على الرغْم من كلّ الصُّعوبات التي يُعاني منها الإنسان في العصور الحديثة ،

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

قال سيّدنا سَعْد : << ثلاثة أنا فيهنّ رجل : ما سَمِعتُ حديثًا من رسول الله إلا علمْتُ أنَّه حقّ من الله تعالى >> .

يحلو لي أحيانًا أن أسأل بعض الإخوة الأكارم عن أحوالهم المعيشيّة ، وعن معيشتهم الزَّوْجيَّة ، وعن أعمالهم ، الذي يُثْلِجُ الصَّدْر ، أنَّ المستقيم منهم يؤكّد لك أنَه في خَيْر لا يوصَف !! وفي سعادة لا توصف ، وفي سرور وطمأنينة ، وفي راحة قلبيّة ، وفي توكّل ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى يُعاملهُ معاملةً خاصَّة ، صدق الله العظيم ، قال تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

صدق الله العظيم في قوله تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

قال تعالى :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35))

(سورة القلم)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

قال تعالى :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(9))

(سورة الزمر)

قال تعالى :

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(22))

(سورة الملك)

حديث واحد ضَعوهُ في غرفتكم الخاصّة ،

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

قَوْلُ النبي عليه الصلاة والسلام لك معاملة خاصّة ، الأمور تدور كلها لمَصلحتك ، والظروف تهيَّأ لِخدمتك ، والأعداء يعملون لإكرامك :

يُنادى له في الكون أنَّا نحبّـه فيسْمعُ من في الكون أمر محبِّنا
أطِعْ أمرنا نرْفعْ لأجلك حجبنا فإنا منَحْنا بالرِّضا من أحبَّنــا
ولُذْ بحِمانا واحْتَمِ بجَنابنــا لِنَحْميك مِمَّا فيه أشرار خلقنــا

***

ما من مخلوق يعْتَصِمُ بي من دون خلقي أعرفُ ذلك من نِيَّتِهِ فَتَكيدُهُ أهل السماوات والأرض إلا جعلْتُ له مِن بين ذلك مَخْرجًا ، وما مِن مَخلوقٍ يعتصِمُ بمَخلوقٍ دوني أعرفُ ذلك مِن نيَّتِهِ إلا جعلْتُ الأرض هَويًّا تحت قدَمَيْه ، وقطَّعْتُ أسباب السماء بين يديه .

6 ـ لابد من الاستقامة في المعاملة :

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

الدِّين في البيْع والشِّراء ، وحقيقة الدِّين تظهر في الأسواق ، وحقيقة الدِّين تظهر في البيت الزَّوْجي ، وحقيقة الدِّين تظهر في الجِوار ، حقيقة الدِين تظهر في المحاككة بالمال ، حقيقة الدِين تظهر في السَّفر ، أتَعْرِفُه ؟ قال : نعم ، فقال : هل سافرْتَ معه ؟ قال : لا ، قال : هل جاوَرْتَهُ ؟ قال : لا ، قال : هل حاككْتَهُ بالدِّرْهم والدِّينار ؟ قال : لا ، فقال : أنت لا تعرفهُ ! هذا هو الدِّين .

مِن تعريفات النبي عليه الصلاة والسلام الجامعة المانعة : الدِّين المعاملة ، الدِّين النصيحة ، الدِّين الورعُ ، وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلِطٍ ! الدِين أن تنصَحَ لله ، ولرَسوله وللأئمَّة ، وللمسلمين ، أن تنصحَهُ ، هذا الذي يقول لك : انْصَحْني فلا تنْصَحُهُ ، لسْتَ دَيِّنًا ، وهذا هو الدِّين ، أن تكون نصوحًا ، وأن تكون ورِعًا ، وأن تكون مخلِصًا .

ابن عباس رضي الله عنه قال له أحدُ أصحابه : يا ابن عباس أوْصِنِي ؟ فقال ابن عباس : عليك بالاستقامة ، اتَّبِعْ ، ولا تبْتَدِع ! كلّ الناس هلكى إلا العالمون ، وكل العالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطرٍ عظيم ! إنَّها الاستقامة ، قال تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود)

يجب أن ينطبقَ السُّلوك والتّصرّفات والعادات والتقاليد ، وما يجْري في الأفراح والأتراح ، وعند المصيبة والمسرَّة وفي الزَّواج ، وفي البيع والشِّراء ، وفي علاقتك بنَفسك ، وفي علاقتك برَبِّكَ ، وفي علاقتك بأهلكَ وفي علاقتك بجيرانِكَ ، وفي علاقتك بمَن هو أعلى منك ، وبمَن هو أدنى منك ، وفي علاقتك بالحيوان ، يجب أن تكون مستقيمًا استقامةً تامَّة ، ولأنّ الاستقامة شرْط أساسي لِكُلّ إنسان ، قال الله عز وجل :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود)

إنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، الحدّ الأدنى للسَلامة هي الاستقامة ، الاستقامة إلْزامِيَّة ، لكنّ العمل الصالح اختياري ، العَدْل إلزامي ولكنَّ الإحسان نِسبي .

وَلَا تَطْغَوْا

قال تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا)

(سورة هود)

المعنى الأول : الطغيان مجاوزة الحد :

الطُّغْيان مُجاوزة الحدّ ، قال تعالى :

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ(11))

(سورة الحاقة)

الطُّغْيان مجاوَزة الحدّ ، فلا تطغى على زوْجتك ، لا تَطْغى على ولدك ، ولا تطغى على جيرانك ، لا تطغى على زبائنك ، لا تطغى على من يُراجِعُكَ وأنت خلف المكتب ، لا تطغى على أحد ، الطُغيان منْهي عنه بكلّ مراتبه ، وبكُلّ وأنواعه ، بكلّ صوره ، وبكلّ مستوياته ، ولا تطْغَوا .

2 ـ المعنى الثاني : إيَّاك أنْ تزيد في الاسْتِقامة على حدّها المشروع :

بعض العلماء حملَ هذا النَّهْي محْمَلاً آخر ، إيَّاك أنْ تزيد في الاسْتِقامة عن حدّها الذي أمر الله به ، فهناك إنسان مثلاً يمْنَعُ زوْجته مِن أن تظهر أمام صِهْرِهِ !! هذا طُغيان ، لأن الله سبحانه وتعالى أحلّ للصِّهْر أن يرى أمَّ زوْجته على التَّأبيد ، هناك أُناسٌ يزيدون على الحدّ الذي أمرَ الله به .

إذًا : كلمة لا تَطْغوا لها مَعنيان : إياكم أن تتجاوزوا الاستقامة إلى الانحراف والخروج ، فكأنّ الاستقامة خطّ مستقيم ، والخروج عن هذا الخط المستقيم طُغيان ، في كلّ شيء ، إذا اقْترضْتَ مبلغًا من المال ؛ لا تطغى ، لا تُمْطِل في ردِّه ، إذا أقْرضْتَ مبلغًا من المال ولا تطْغَ ، ولا تُكَلِّف هذا الذي اقْترَض شيئًا فوق الذي اقْترَض ؛ حينها ينقلب القرض إلى ربا ، ولا تَطْغَوا ، وإذا عامَلْت الزَوجة فلا تطْغى في معاملتها ، ولا تهْضِمها حقوقها .

والمعنى الثاني : إيَّاك أن تزيد في اسْتِقامتك على الحد الذي أمرَ الله بهِ ، إنّ لِجَسَدِكَ عليك حقًا ، هذا الذي يصوم الدَّهْر ما صام !

عَن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ :

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا ، فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[مسلم]

فهذا الذي نذر أن لا يتزوّج طغى ، وهذا الذي نذر أن لا يأكل لحْم حيوانٍ فقد طغى ، قال تعالى :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5))

(سورة النحل)

هذا الذي نذر أن يصوم الدّهر فقد طغى ، وهؤلاء الذين حرَّموا الزّواج على أنفسهم طغوا ، قال تعالى:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)

(سورة الحديد : 27)

قال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

(سورة المائدة)

الطُّغْيان له معْنيان ؛ إما التقصير ، وإما مُجاوزَة الحدّ ، إما التقصير عن الحدّ المقبول ، وإما مُجاوَزة الحد المقبول . قال تعالى :

(وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة هود)

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ

قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

(سورة هود)

1 ـ ما هو الظلم ؟

أحد التابعين صلّى خلف إمام فقرأ الإمام هذه الآية ، فوَقَعَ مَغْشِيًّا عليه ، فلمَّا أفاق مِن إغْمائِهِ قيل له : ما الذي جعَلَك هكذا ؟ قال : هذا الذي ركنَ إلى الظالم فكيف الظالم نفسه ؟!! من هو الظالم ؟ ما تعريف الظالم ؟ إذا كان في البيت طعامٌ نفيس ، وتناوَلْتَ قبل هذه الوجْبة النَّفيسة طعامًا من الدَّرجة الدنيا ، وأضَعْت عليك هذا الطعام فها أحدُ أنواع الظُّلْم ، إذا حرمْتَ نفسَكَ الشيء الثَّمين ، واستَهلكْت الشيء التافه فهذا ظلْم ! وظُلْم النَّفْس أشدّ أنواع الظُّلْم ، قال تعالى :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)

(سورة هود)

فَظُلْمُ النَّفْس أنْ تحْرِمَها الخَير ، فكلّ من يُبْعدُ نفسه عن الله سبحانه وتعالى ، وكلّ من يُبقي نفسَهُ جاهِلَةً، وكلّ من يصرفُ عن طريق الحق ، وكلّ مَن يُديرُ ظَهْرهُ للدِّين ، وكلّ من يعْصي الله حتى يبْتَعِدَ عنه ، هذا أشدّ أنواع الظلاّم ، وهذا الذي ظلمَ نفسه ، فإذا ظلَم نفسه ، فَمِن باب أولى أن يظلم غيره ، لذلك ترى الزَّوْج الذي لا يُصلّي كثيرًا ما يظلمُ زوجته ، هذا حرمَ نفسهُ الخير ، فَحِرْمان الخير حملهُ على أن يَحمِلَ مَن حوله الخَير .

فكلمَة ظالم تبدأ بالذي يُفْرط أو يُفَرِّط على نفسه ، فَيُوصِلُها إلى الشقاء في الدنيا أو الآخرة ، هذه بداية الظُلم ، وينتهي الظُّلْم بأن يبْنِيَ الإنسان مَجْدهُ على أنقاض الآخرين ، أو يَبْنِيَ غِناه على فقْره ، أو حياته على موتهم ، أو أن يبْنِيَ أمْنَهُ على خوْفِهم ، ما مِن كلمةٍ أوسع في العلاقات الاجْتِماعِيَّة من كلمة الظُلْم ، أنْ تضَعَ الشيء في غير موضِعِه ، وأن تضَع الجَوْهرة في المطبخ ؛ هذا ظُلْمٌ لها !

أن تستخدم شيئًا ثمينًا لِمُهمَّة تافِهَة هذا أحدُ أنواع الظلْم ، لذلك الظُّلْم أنْ تضَعَ الشيء في غير موضِعِه ، ربّنا سبحانه وتعالى لم يقل : ولا تركنوا إلى الظالمين !

2 ـ الظلم بين الكثرة والقلة :

فما معنى الظالمين ؟ وما معنى الظُلام ؟ وما معنى الذين ظلموا ؟ قد يكذب الإنسان مرَّة واحدة في حياته فَيُقال لقد كذب فلان ، فإذا عُهدَ عليه الكذب يُقال له : كاذِب ، فإذا عُهدَ عنه كثْرة الكذب يُقال له : كذَّاب ، فالذي يكذِبُ مرَّة واحدة نستخدِمُ الفِعل ، أما الذي يُعْهَدُ عنه الكذب نستخْدِم اسم الفاعل ، أما إذا أكْثر من الكذب نستخدم صِيَغَ مبالغة اسم الفاعل كَفَعَّال وفعول ، وفعيل ، وفَعِل ، ومِفْعال ، صِيَغ مبالغة اسم الفاعل ، إن كَثُرَ اتّصاف الفاعل بهذه الصِفة ، فإذا عُهِدَ عنه هذه الصّفة نستخدم اسم الفاعل الطبيعي ، فإذا كذب مرَّة واحدة نقول : كذب ، فالله سبحانه وتعالى قال :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

(سورة هود)

لو أنَّ هذا الإنسان ظلمَ أمامك مرَّةً واحدة إيَّاك أن تركنَ إليه ، نَفْيُ حالة مفردة ، فكيف لو اتَّصَفَ هذا الصَّديق بالظُّلم ؟ وبأنَه كثير الظُّلم ، وقد اتَّضَح معنى الظُّلم أنْ تضعَ الشيء في غير موضِعِه ، وأن ترْخيَ الحَبْل للزَّوْجة حتى تطْغى عليك ؛ هذا ظُلْم ، أو أن تُبالِغَ في القسْوة حتى تسْحَقها ! هذا هو الظُّلْم أنْ تضعَ الشيء في غير موضِعِه ، والظُّلْم كما قلنا مسْتَوَيات أقلّ مستوياته أن يقعَ منط ظلْمٌ لِمَرَةٍ واحدة، فالنَّهي في قوله تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

(سورة هود)

ما هو الركون ؟

المعنى الأول :

ما هو الرُّكون ؟ هذا بحْثُهُ يطول ، ولكن قبل أن نُفصِّل في قوله تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا)

(سورة هود)

معنى توجيه الأمر إلى من يفعله ولمن لا يفعله :

العلماء قالوا في قوله تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود)

الأمر إذا وُجِّهَ إلى من يُطبِّقُه فالمعنى المداومة عليه ، وإذا وُجِّه لِمَن لا يُطبِّقُه ، فالمعنى أن يفْعَلَهُ ، فإن قلتَ للكَسُول : ادْرُسْ ، معنى اُدْرُس أيْ اُدْرُسْ حقيقة ، أما إذا قلت للمُجْتَهد : ادْرُس فَمَعنى ذلك داوِم على اِجْتِهادك ، فإذا أمرَنا الله عز وجل بالاستِقامة ، وكُنَا مستقيمين فالأمر ينصبّ إلى المداومة عليها .

نعود إلى : ولا ترْكَنوا ، العلماء لهم في هذه الكلمة تفسيرات كثيرة جدًّا من تعريف الرُّكون إلى الظالم الميْلُ اليسير له ، لك صديق في العمل ولك جار ، ولك قريب ظالمٌ لِنَفسِهِ ، وقد يشْرَبُ أحيانًا ، إذا ركَنْتَ إليه ومِلْتَ إليه ودعاك إلى غذاءٍ ثمين ، ودعاك إلى نزْهة ، أو قدَّم لك هدِيَّة رَكَنْتَ إليه ، ومِلْتَ إليه مَيْلاً يسيرًا ، ما الذي يحْصل ؟ تمسّنا النار ! كيف ؟ بعد قليل ! أما الآن ، ما معنى لا تركنوا ؟

العلماء قالوا : ولا تسْكُنوا ، ولا تستَنِدوا ، ولا تعتمِدُوا على هؤلاء ، قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ(23))

(سورة التوبة)

إذا ركَنْتَ إليهم ، وطاب لك العيش معهم ، وإذا استَمْرأتَ نمَطَ معيشتِه فأنت منهم ، قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(51))

(سورة المائدة)

هذا هو المعنى الأوّل ؛ لا تسْكنوا إليهم .

المعنى الثاني :

لا تطْمَئِنُّوا لهم ، قال تعالى :

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

المعنى الثالث :

لا تُداهنهم ، لا تُجاملْهم ، ولا تُثنِ عليهم ، لأنَّك إذا داهَنْتهم ، أوْهَمْتَ الناس أنَهم على حقّ ، وإذا داهنْتهم رفعتهم ، وإذا داهنْتهم حملْت الناس على أن يقْتدوا بهم .

لك صديق لا يُصَلِي ؛ فإذا أثنَيْتَ على أخلاقه ، وقلتَ : لطيف وناعم وأخلاقي !! إذًا أنت تكفر بالدِّين ، أخلاقي وهو لا يُصَلِي !! ما قيمة الدِّين ؟ شيءٌ لا قيمة له ، لا تداهنوهم ؛ المداهنة في تعرف العلماء بذْلُ الدِّين من أجل الدنيا ، وأما المدارات بَذْل الدنيا من أجل الدِّين ، قال عليه الصلاة والسلام :

((بُعِثْتُ بمُداراة الناس))

[البيهقي في شعب الإيمان]

دارهِم وأعِنْهم ، وقدِّم لهم خِدْمةً ، ابْذِلْ مِن وقْتك وجهدك ومالك ، لعلَّهم يُحِبُّوك ، فإذا أحبُّوك أحبُّوا الله عز وجل ، أولياء أمَّتي إذا رأوا ذُكِرَ الله بهم ، لا تُداهِنوهُم ، قال تعالى :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(9))

(سورة القلم)

من أعان ظالمًا سلَّطَهُ الله عليه ، العقاب العاجل من الله أنَّ هذا الذي أعَنْتهُ على ظلْم سوف تكون أنت الضَحِيَّة ، لا تمْدحوهم فإنّ الله يغضب إذا مُدِحَ الفاسق .

لك صديق فاسقٌ لا يُصَلّي ، إيَّاك أن تمْدحهُ أو تعينهُ على معْصِيَة ، أو تداهِنَهُ ، يقول لك : الصَّلاة لا فائدة منها !! ثمَّ تقول له : الحقّ معك !! أقْررْتَهُ على فِكرة غير صحيحة ، وأقْررْتهُ على الباطل ، أحْبِبْ حبيبك هَوْنًا ما عسى أن يكون بغيضَ يومًا ما ، ولا ترْضَوا عن أعمالهم ، قال عليه الصلاة والسلام :

((الذَّنْب شوْم على غير صاحِبه ؛ إنْ عيَّرَهُ ابْتُلِيَ به ، وإن ذكرهُ فقد اغْتابَهُ ، وإن رضِيَ به فقد شَرِكَهُ في الإثْم))

[كنز العمال عن أنس]

إنْ قيل لك : فلان فعلَ كذا وكذا ، وأخذ مبلغًا كبيرًا من المال من غير وجْه حقّ ، فقلْتُ : والله قد أفلح!! هذه الكلمة تجعلكَ شريكًا له ، لا تسْكنوا إليهم ، ولا تطْمئِنُّوا لهم ، لا تُداهِنوهم ولا تُعاوِنوهم ، ولا تمْدحوهم ، ولا ترْضَوا عن أعمالهم ، ولا تودُّوهم ، ولا تقيموا معهم علاقة حميمة ، لا تسْهر معهم إلى منتصف الليل ، ولا تذهب معهم إلى النّزهة ، السَّهْرة والنّزهة والحفلة تدلّ على العلاقة الحميمة ، ولا تليق هذه العلاقة لِغَير المؤمن ، فلا ترْكنوا بمَعنى لا تُطيعوهم ، ولا ترْكنوا بمَعنى لا تميلوا إليهم ، ولا تنْحطُّوا في هواهم ، هم في الحضيض ، وهم في حفْرةٍ ما لها من قرار ، قَذِرون ، لا تنْحطّوا إلى قذارتِهم ، ولا تنْحطّوا إلى دناءَتِهم ، ولا تنْحطُّوا إلى أنانِيَتِهم ، لا تنْحطّوا إلى ضيق أُفقهم ، لا تنحطّوا إلى شهواتهم ، ولا تنقطِعوا إليهم تلتفِتون إليهم ، وتعرضون عن المؤمنين ، لا تُصاحِبوهم ، ولا تُجالسوهم ، ولا تزورهم ، ولا تتشبَّهوا بهم .

لا تمدَّنَ عينيك إلى متاع الكافر :

لك قريب درس بأوروبا ، وعاد إلى البلد ، وأقام حفلاً مختلطا !! بعدها عيد زواجه ، وبعدها عيد ميلاد ابنه ! لا تتشبَّهوا بهم ، فهذه عادات ليْسَتْ للمسلمين ، وما أنزل الله بها من سلطان .

جاء الصَّديق في غِياب الزَوْج فاسْتَقْبلتهُ الزَّوجة ، ويقول لك : هذا تحضَّر ورقيّ !! إيَّاك أن تقلّدهُ ، أُقيمتْ حفلة عرْسٍ مختلطة ، إذا قلّدتموهم وتشبَّهْتم بهم ، حتى إذا لبسْتم أزياءهم ، وسيّدنا عمر نهى عن لبْسَتَين ؛ لبْسةٍ مَشْهورة ، وعن لبسة مهْجورة ، فهذا المؤمن الذي يرْتدي أحْدث صرعات الأزياء هو ليس مؤمنًا ، هذا تقليد كبير ، لا تمُدُّوا أعينكم إلى ما عندهم ، ما هذا البيت ؟ ما هذه الحديقة ؟ وما هذه المزرعة ؟ وما هذا البستان ؟ ما هذه السيارة ؟ قال تعالى :

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104))

(سورة المؤمنون)

قال تعالى :

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ(55))

(سورة التوبة)

لا تمد عينك إلى ما عنده من رفاه ، إنَّك إن مددْت عينك إليه فهذا رُكون إليه ، ولا تقل هنيئًا لهم !! فإنّك إن قلتها فأنت لا تعرفهم ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى(126))

(سورة طه)

لا تذكروهم ، وترفَّعوا عن ذكرهم ، ولا تعظِّموهم ، ولا تُؤنِسوهم ، إذا جلسْت معهم وأثْنَيْتَ على أعمالهم ، وأطْرَيْتَ على أخلاقهم فقد آنسْتَهُم هم مسْتَوْحِشون ، إذا جلسْت مع هذا الصَّديق الذي لا يصلِّي ، وأقمْت معه علاقة حميمة ، وأثْنَيْت على ذكائه وعمله ، وعلى تِجارتِه ، فقد آنسْتهُ وهو مسْتَوْحِش ، وفي ضيق ، وأنت خفَّفْت عليه ! لا تؤنسوهم ، ولا تُقِرُّوهم على أعمالهم ، هذا كلّه مِمَّا توحي به كلمة :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)

(سورة هود)

فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ

إذا زار الإنسان صديقًا لا يُصلِي أو ظالمًا لِنَفسِه ، أو يسْتَخِفّ بالصَّلاة ، أو يأكل مالاً حرامًا ، أو دخْلُه غير مَشْروع ، وكان في الغرفة مكيِّف ، فكيف تمسَّكم النار ؟! ما معنى تمسَّكم النار ؟ إنَّ في قلبه نارًا مشْتَعِلة ، إذا أقبلْتَ عليه ، واتَّصلْت به ، وأحْبَبْتَهُ ، وأقمْتَ علاقة بينك وبينه ، انْتَقَلَتْ النار التي في نفسهِ إليك تخرج من عنده ، وأنت تحس بالضِّيق !! تضيقُ بك الدنيا ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

(سورة التوبة)

الضِّيق تشْعر أنَّ قلبك يلْتهب ويشْتعل ، ما الذي أصابك ؟ لقد ركنْت إليه قال تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(1)لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(2)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(3)وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ(4)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(5)لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6))

(سورة الكافرون)

قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)

(سورة هود)

إذا اتَّصلْت بهذا الظالم ، وركنتَ إليه ، وأحْبَبْتَهُ ، ومِلْتَ إليه ، وسكَنْت إليه مسَّتْك النار المشتعلة في قلبه ؛ نار البُعْد والضَّياع ، ونار القلق والخوف ونار الضَّعف ، وهذه النار التي في قلبه أصابتْكَ ، لذلك بذِكْر الصالحين تتنزَل الرَّحمة ، وإذا ذكرْت أهل الفُجور تضيقُ النَّفس .

قال تعالى :

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

(سورة هود)

وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ

أنت ركَنْتَ إليه لِمَنْفعَةٍ مادِّيّة ؛ ضاقَتْ نفْسُكَ ، وفاتَتْك المنْفعة المادِّيَّة فالقلب ضاع ، والدنيا ضاعَت ، قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

(سورة هود)

إذا ركن الإنسان إلى هذا الفاسق أصابه ما أصابه ، فكيف حال الفاسق نفسه ؟ قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(114)وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(115)فَلَوْلَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ(116)وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

خاتمة :

قرأتُ في بعض التفاسير أن الله تعالى لو شاء لجَمَع الناس كلّهم على الهدى ، ولكِنَّه لم يشأ َ فيا تُرى لماذا لم يشأ ؟!! لو شاء لهدى الناس جميعًا ، ولجَمَعهم على الهدى ، ولو شاء لجَعَلهم مؤمنين ، لو شاء لجعلهم جميعًا من أهل الجنَّة ، ولكنَّه لم يشأ ! فلماذا لم يشأ ؟ أليس هذا سؤال كبير ؟ قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

وهذه آيات من الآيات المعضلة في القرآن الكريم تحتاج إلى دِقَّة في النَّظر ، وتوجيه سديد ، وتأويل يتناسب مع أسماء الله الحسنى ، فلو نظرْت إلى غريق يستجير بك ، تقول له : أنا لو شئْت لأنْقذْتُكَ ، ولكِنِّي لم أشأ !! هل يرضى عنك ؟ يكاد يموت غرقًا ، وأنت تقول له : لو شئْتُ لأنقذْتُك ، قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

فكّروا في هذه الآية خِلال هذا الأسبوع ، وابْحَثوا عن إجابة لأسئلةٍ كثيرة ولماذا لم يشاء ؟ وما ضرَّ لو آمن الناس جميعًا ، ودخلوا الجنَة جميعهم ، لماذا لم يكن كذلك ؟ ولماذا شاء ربّك أن يختلفوا ؟ لماذا تمَّت كلمة ربّك لأملأنَّ جهنّم من الجِنَّة والناس أجمعين ؟ حسن الظن بالله ثمن الجنّة ، وأن تعرف أنّ أسماء الله كلّها حسنى دليل الإيمان ، إن كنتَ كذلك أوِّل هذه الآية ، وهذه وظيفة للدرس القادم ، تأمَل هذه الآية ، وابْحث عن خباياها ، وتأويلاتها ، ووفّق ، لأنَّك إن عرفت مدلولها الحقيقي فأنت مؤمن ، أما إذا أخذتها على ظاهرها وقلتَ : لم يشأ لنا الهدى ، وشاء لنا دخول جهنم ، هذا المعنى لا ترتاح إليه النّفس .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة هود 011 - الدرس (16-16): تفسير الآيات 113 – 123
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-05-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي في سورة هود إلى قوله تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(113)وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

(سورة هود)

وَأَقِمْ الصَّلَاةَ

في الإنسان نشاط :

معنى ذلك أنَّ في الإنسان نشاطًا ، وقوَّة محرِّكة ، الله سبحانه وتعالى أوْدَعَ في الإنسان شَهواتٍ عِدَّة ، وهذه الشَّهوات تَجعلهُ يَنْدَفِعُ إلى تحقيقها الشَّهوات طريقهُ إلى الجنّة ، لولا أنّ الله سبحانه وتعالى أوْدَعَ في نفْسِ كُلٍ مِنَّا شَهْوةً لما كانت جنَة ، ولما كانت نار ، فالإنسان يَنْدَفِعُ إلى تحقيق شَهواته ، وليس سُكونِيًّا ، ولكن متحرِّك ، قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(113)وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

(سورة هود)

لا بدّ مِن حركة ، ونفسك إن لم تَشْغلْها بالخير شَغَلَتْكَ بالشرّ .

وَأَقِمْ الصَّلَاةَ

قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود)

معنى إقامةِ الصلاةِ :

الوقْفَة عند قوله أقِمِ الصّلاة ، كيفَ يُقام البناء ؟ لا بدّ من أساس ، ولا بدّ مِن عِلْمٍ ، ولا بدّ مِن مواد

أوَّليَّة ، ولا بدّ من خبرة ، ولا بدّ من بناء ولا بدَّ مِن تخطيط ، فإقامة الصَّلاة ، ليس معناها أن تُصلّي ، معناها أن تستَعدَّ لهذه الصَّلاة ثمّ تُصلّي ، أيُّ إنسانٍ يدخل إلى الامتِحان ، ولكنّ دخول الامتِحان لا يعْني أن تدخلهُ ، ولكن أن تستَعِدَّ لهذا الدُّخول ، وفَرْقٌ كبير بين أن تتوضَّأ وتقف للصَّلاة ، وهناك مخالفات ، وهناك تقصيرات وهناك حُبٌّ للدنيا ، وهناك انْغِماسٌ فيها ، وتَعَلّق بها ، إنّ هذه الحالة لا تسْمحُ لِصَاحِبِها أنْ يُصَلّي ، فالله سبحانه وتعالى لم يأمرْنا بالصَّلاة ، ولكن أمرنا بإقامة الصَّلاة ؛ أيْ أن تستقيم على أمْر الله حتى تستطيع أن تُصَلّي ، لأنَّ المعاصي حُجُب ، وأن تعملَ صالحًا حتى تستطيع أن تُصلّي، وأن تلتزمَ الشَّرْع في كلّ حركاتك وسكناتك ، حتى تستطيع أن تُصَلي ، أن تكون وقَّافًا عند كتاب الله حتى تستطيع أن تصلّي ، أن تكون منضبطًا بشَرْع الله حتى تستطيع أن تصلّي ، فليس الصلاة أن تقف في مسْجد ، أو في زاوية في بيتك ، وترفعُ يديك ، وتقرأ الفاتحة تركع ، وتسْجد ، ونفْسك ساهِيَة لاهِيَة غارقة في مشاكل الدنيا ، ليسَتْ هذه هي الصَّلاة ! فلا بدّ من أن تُقيم الصَّلاة ، ولا بدّ من أن تستعِدَّ لها قبل دُخول وقتها ، والاستعداد لها ؛ حِفاظك على استقامتك ، وعلى طهارتك ونقاوتِك ، وحِفاظك على عملك الطَّيِّب ، إذا كنت كذلك فقد أقمْت الصلاة .

لا تستطيع أن تزور فلانًا إلا إذا كانت لك سابقة إحْسانٍ إليه ، إن كانت لك سابقة إحسانٍ إليه تستطيع أن تطرق بابه ، وأن تدخل عليه في أيّ وقت ، كذلك إن كان لك عمل طيِّب ، واستقامة تامَّة ، وإن كان لك قَول حسَن ، وإن كان الناس يُحِبُّونك فقد اقتربْتَ من إقامة الصَّلاة ، إيَّاك أن ترْكَنَ إلى الذين ظلموا، فأهل الدنيا يتَّصلون مع أهل الدنيا وكبرائِها وأهل الآخرة يتَّصِلون برَبِّهم .

النَّفْس كما أردْتُ أن أبدأ الدَرس فيها حركة ، وبمُصطلح آخر هي ديناميكِيَّة ، هناك حركة انْدِفاع نحو تَحقيق تِلْك المُيول التي زرعها الله فينا ، فإمَّا أن تتَّصِلَ بأهل الدنيا ، وتتملَّق لهم ، وتُقَدّم لهم خدماتٍ جُلَّة ، كي يقبلوها ويرفعوها ، ويمْنحونها مِمَّن عندهم ، وإما أنْ تتَّصِلَ بالله ربّ العالمين فيَمْنحُها سعادةً في الدنيا ، وسعادةً لا تنقضي في الآخرة ، قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(113)وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

(سورة هود)

أنت مؤهَّل أن تتَّصِلَ بالله عز وجل ، خلقْتُ لك ما في السماوات والأرض ، فلا تتْعَب ، وخلقْتُك من أجلي فلا تلْعب ، فَبحَقّي عليك لا تتشاغَل بما ضَمِنْتهُ لك عمَّا افْتَرَضْتُهُ عليك ! فالحيوان يسْعَدُ بالشَّهْوة ولكنَّ الإنسان يسْعدُ بقُرْبهِ من الله عز وجل ، خلقكَ الله من أجله ، طهَّرْتَ منظر الخلق سِنين أفلا طهَّرْتَ منظري ساعة !! قال تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(113)وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

(سورة هود)

إيَّاك أن تطْمحَ إلى ما عندهم ، إيَّاك أن تُقِم علاقةً معهم ، أقِم هذه العلاقة معي ، واتَّصِل بالله عز وجل، تقرَّب إلى الله عز وجل ، وإلى وُدِّه تعالى ، اخْدُم عِبادهُ ، وعامِلْهُ ، وأقْرِضْهُ قرضًا حسنًا ، وأكْرِم عبادهُ من أجله ، اِنْصَحهم من أجله ، كُنْ معهم مستقيمًا من أجله ، أحْسِن إليهم من أجله تعالى ، من أجل هذه الصِّلة ، ومن أجل أن تُقيم هذه الصِلة ، قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

(سورة هود)

وفرْق بين أن يُقال لك : صلِّ وبين أن يُقال لك : أقم الصلاة ، كيف أنَّ البناء يُقام ؟ أن يقوم البناء هذا عملٌ ضَخم ، يحتاج إلى إعداد وأرض وأساسات ومواد أوَّلِيَّة ، وإلى مهندسين ، ومهندس تصميم ، ومهندس تنفيذ ، ومهندس إشراف ، وإلى يد عاملة ، وإلى بنَّاء ، وإلى أعمال مختلفة ، هذه هي معاني إقامة البناء .

قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ)

(سورة هود)

معنى : طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ

المعنى الأول :

العلماء في هذه الآية على مذاهب شتَّى ، فطرفي النَّهار قال بعضهم : صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ، هذه الأوقات الثلاثة طرفا النَّهار وزلفًا من الليل هما صلاة المغرب والعشاء ، ومعنى زلفًا الساعات المتقاربة من بعضها ، قال تعالى :

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

[سورة الزمر]

الزُّلَف ؛ الشيء المتقارب .

المعنى الثاني :

وبعضهم قال : طرفي النَّهار صلاة الفجر وصلاة العصر .

المعنى الثالث :

وبعضهم قال : طرفي النهار صلاة الفجر ، وصلاة المغرب .

هذه الآية تنطوي جمعت الصلوات الخمس :

على كُلِّ العلماء أجْمَعوا على أنَّ هذه الآية تنْطوي فيها الصَّلوات الخمس ؛ الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود)

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ

1 ـ الصلوات كفّارات للذنوب :

وهذه الآية لها معنًى دقيق ، فالصَّلوات هي الحسنات ، والنَّفْس وما فيها من أمراض هي السيِّئات ، فإذا جاءت الحسنات محت السيّئات ، والصلاة نور ربَّاني تُطَهّر القلب البشري من كلّ دنس ورجس ، والصَّلوات الخمس يمْحو الله بهنّ الخطايا ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟ قَالُوا : لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ، قَالَ : فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا))

[متفق عليه]

قال تعالى :

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود)

2 ـ الأخلاق الحسنة منبعها الاتصال بالله :

هناك نقطة أريد أن تكون واضحة لديكم : إنَّ مكارم الأخلاق من كرمٍ ومن سخاءٍ ، ورحمةٍ ، وإنصاف، ومحبّة ، وعَفْوٍ ، ومن إقْدام ومروءة ومن إغاثةٍ ونجْدة ، مكارم الأخلاق مخزونة عند الله سبحانه وتعالى ، فإذا اتَّصَلْت به منحَكَ بعضها ، ليْسَ هناك مِن خلُقٍ أصيل إلا عن طريق الاتّصال بالله سبحانه وتعالى ، هناك أخلاق مُزَيَّفة ؛ هناك أخلاق التُّجار الذين يُرَحِّبون بالزَّبون ، ويُقدِّمون له الضِّيافة ، ويَدْعونه إلى طعام الغذاء ، ويحْترمون مشاعرهُ ، هذه أخلاق التُّجار المبْنِيَّة على المصالح هذه أخلاق اسْتَوْرَدْناها من الغرب ، ما دام هناك مصْلحة فَهُناك خُلقٌ كريم ، فإذا انْقطعَت المصلحة انقلب الإنسان إلى وحْشٍ لئيم ، لكنّ الله تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود)

3 ـ النفس الدنيئة بعيدة عن الله :

أيْ النَّفس ببُعْدها عن الله عز وجل قد تتحمَّل السيّئات ، وقد تُحِبّ ذاتها وقد تُصْبحُ أنانيَّة ، وقد تصبحُ جبانةً ، وحريصةً ، وقد ترضى أن تُقيم غِناها على فقْر الآخرين ، ومجدها على أنقاض الآخرين ، هذا كلّه في حالات البُعْد عن الله عز وجل ، ولكن حالة القُرْب تعني مكارم الأخلاق ، فإنَّ الحسنات يُذْهِبْن السيئات ، فعَنْ أبي ذرٍّ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

[الترمذي]

4 ـ لابد من إتباع السيئة بالحسنة :

أحيانًا يقعُ المؤمن في مخالفة فَتَزِلَّ قدمهُ ، قد يسْبقُه لِسانه ، وقد يثور ثورةً نفْسِيَّة ، وقد يغْضب ، وينطق بكَلمةٍ قاسيَة ، وقد تخونهُ عَيْنُه فتَسْترُ النَّظَر إلى امرأة ، وقد يقعُ في بعض المخالفات ، هذه سيِّئات ؛ ما الحلّ ؟ إنَّ الحسنات يذهبن السيّئات ! بادِرْ إلى عملٍ طيِّب ، وبادِر إلى صدقةٍ وبادِر إلى خِدْمة ، وإلى صدقةٍ تطفئ بها غضب الربّ ، لأن صدقة السر تطفئ غضب الربّ ، بادروا إلى الصَّدَقة فإنَّ البلاء لا يتخطَّاها ، الله سبحانه وتعالى يُسْترضى ، لأنَّه رحيم ، فمَن بدرَت منه بادرة سيئة ، ووقعَ في غفلةٍ ، من خانتْهُ عَيْنُه أو أذُنه ، ومن سبقهُ لِسانُه إلى كلمة قاسِيَة ؛ هذه كلّها سيئات :

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

لو أسأتَ إلى إنسانٍ ، ثمَّ قدَّمْت له هَدِيَّة ، وكما قال عليه الصلاة والسلام :

((تَهَادَوْا فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

وقال عليه الصلاة والسلام :

((تَهَادَوْا تَحَابُّوا))

[البيهقي والطبراني عن أبي هريرة]

فإذا نشِبَ بينك وبين زوْجَتِكَ خِلاف ، وقَسَوْتَ عليها في الكلام ، فالقضِيَّة لها حلّ طيِّب ، بادِرْ ، وقَدِّم لها هَدِيَّة تُطيب لها بها قلبَها ، إذا بَدَرَتْ منك كلمة إلى صديق فَنَفَرَ منك ، إنَّ الحسنات يُذْهبْن السيِّئات ، إذا وقعْت في ذنب مع الله سبحانه وتعالى ، كنت في مجلسٍ وتحدَّث الحضور عن إنسان وشاركْتهم في الحديث ، وقَعْتَ في الغيبة وأنت لا تشعر ، عُدْتَ إلى البيت فاشْتعلَ قلبُكَ فرقًا من الله عز وجل ، كيف سَمَحْتَ إلى نفسك للاستماع إلى الغيبة ؟ وكيف سمَحْتَ لِنَفْسِكَ أن تُسْهم في هذه الغَيبة ؟ إنَّ الحسنات يُذْهبْن السيِّئات ، القضِيَّة محلولة ، الله سبحانه وتعالى يُسْترضى إلا إذا فَهمتَ من هذا الكلام أنَّه إذا هممْتَ بمَعْصِيَة تقول : أنا أعرف كيف أسْترضي الله بعدها !! لا ، إن كنتَ كذلك فلن يرْضى الله عنك ، إن لم تقصِد ، إن سبقَكَ لِسانك ، وخانتْكَ عينُك ، إن تألَّمْت بذَنْب لم تنْوه ، في مثل هذه الحالات الله سبحانه وتعالى يُسْترضى ، يُسْترضى بصَدقة ، يُسْترضى بخِدمة ، يُسْترضى بعَملٍ صالح ، إنّ الحسنات يهبن السيئات ، هذا المعنى الثاني ، والمعنى الأوَّل الحسنات هنّ الصَّلوات الخمس ، فإذا الله تعالى يمْحو بهنّ الخطايا ، فإذا أحْكمْت صِلَتك بالله عز وجل فإنّ هذا القلب يطْهُر ، ويصبحُ سليمًا من كلّ عَيب ، طاهرًا من كلّ ذنب : يا طاهرًا من الذُّنوب ، يا هاديًا إلى علاَّم الغيوب . قال تعالى :

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(114)وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة هود)

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

1 - لابد من الصبر على الطاعة :

لكنّك إذا حاوَلْتَ أنْ تُصلّي ، ولم تمْلك هذه الصلاة التي تحدَّث الله عنها لا تكن لجوجًا ، اِصْبر :

أخْلِق بذي الصَبْر أن يحظى بحاجته ومُدْمِن القرع للأبواب أن يلِجَا

***

من علامات الصادق أنَه يطرق باب الله عز وجل ، ويطرق إلى أن يُفْتَحَ الباب ؛ لا يكلُّ ولا يمَلّ ، ولا يتحوَّل ولا يتَمَلْمَل ، لأنَّه صادق ، ولو أنَّه كاذب طرق الباب لم يفْتَح له فتَحَوَّل عنه ، هذه صِفات الكاذبين ، واصْبر !

وقفْتَ لِتُصَلِي ولم تشْعر بشَيء ، فهل معنى ذلك أنْ تَدَعَ الصَّلاة ؟ لا ، اصْبِرْ ، لعلّها تصلح في صلاة قادمة ، لعلّها تحدث هذه الصِّلة في وقت آخر ، قال تعالى :

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(5))

(سورة العنكبوت)

أحيانًا ربنا سبحانه وتعالى يُعَطِّش هذه النَّفْس للقُرْب منه ، تعطيشُها هو تهيئ لإقبالها ، قال تعالى :

(وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة هود)

2 ـ لا يضيع عند الله شيء :

أيُّ جُهْد مادِيٍّ ، أو عضَلِيٍّ ، نقليٍّ أو نقْدِيٍّ أو عِلْمِيٍّ ، اجْتِماعِيّ ، تبْذُله من أجل التقرّب إلى الله عز وجل فالله سبحانه وتعالى لا يُضَيِّعُهُ عليك ، قال تعالى :

(وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة هود)

الآن ننتقل إلى مقْطعٍ آخر مِحْورُهُ ؛ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر قال تعالى :

(فَلَوْلَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)

(سورة هود)

فَلَوْلَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ

1 ـ إيَّاكم والفسادَ والأرض :

لولا أداة حظّ ؛ أيْ حبَّذا ، لو كان فيكم أيُّها الناس أُناسٌ يأمرون بالمعروف ، وينْهَوْن عن المنكر ، والفساد في الأرض ، فسادُ ذات البَيْن هي الحالقة ، لا أقول : حالقة الشَّعر ، ولكن أقول حالقة الدِّين ! أن تُفْسِدَ العلاقة فيما بينك وبين الله بالمعاصي ، وأن تُفسِد العلاقة فيما بينك وبين الناس بالإساءة ، وأن تُفسِد العلاقة فيما بينك وبين عقلك بالتَّعطيش ، وأن تُفسِد العلاقة فيما بينك وبين نفسك بالظُّلم ، هذه

العلاقات إذا فسَدَت لم يبْقَ للحياة معنى ، وتبقى الحياة حياةً حيَوانِيَّة طعامٌ وشراب ، ثمَ موت زُؤام ، ولكنَّ العلاقات إذا صلحَت ؛ إذا صَلَحَت علاقتك بالله عز وجل ، سَعِدْتَ بالقُرْب منه ، وإذا صلحَتْ علاقتك بالناس سَعِدْتَ بهم وسَعِدوا بك ، وإذا صَلَحتْ علاقتك بزَوجتك سَعِدتَ بها وسَعِدت بك ، إذا صلحَت علاقتك بأولادك هَدَيْتَهم إلى طريق الحق فإيَّاكم وفسادَ ذاتِ البَيْن فإنَها الحالقة ، لا أقول : حالقة الشَّعر ، ولكن أقول : حالقة الدِّين ! فالغيبة تفْسِدُ العلاقة بين الناس ، النَّميمة تُفْسِدُ هذه العلاقة ، وحبّ الظُّهور والاسْتِعلاء يُفْسِدُ هذه العلاقة ، وأن تخرج على الناس بأبهى زينة لِتَزْرعَ في قلبهم حبّ الدنيا ، وتجعلهم في صَغارٍ أمامك ؛ هذا إفساد في الأرض ، لذلك قال تعالى :

(فَلَوْلَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)

(سورة هود)

2 ـ النهي عن الفساد يُبعِد عقاب الله :

لو كان في الأمم السابقة أُناسٌ ينْهَون عن الفساد في الأرض لما أهْلَكَهم الله سبحانه وتعالى ، والدليل أنَّه ما دام في الأمَّة مُصْلِحون ، وما دام في الأمّة دعاة إلى الله تعالى ، وما دام في الأمّة أُناسٌ يَنْهَون عن الفساد فالله سبحانه وتعالى لا يُهْلِكُهم ، قال تعالى :

(فَلَوْلَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)

(سورة هود)

3 ـ الناهون عن الفساد في الأرض قليلون :

معنى القرون يعني الأمَم ، وليس معنى هذا أنَ ليس في الأرض أُناسٌ يَدعون إلى المعروف ، ويَنْهون عن المنكر ، ولكنَّهم قِلَّة ، وعددهم لا يكفي ، قال تعالى :

(إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)

(سورة هود)

لِضَعف الدَعوة إلى الله عز وجل ، وضَعف الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، أنْ يقول الإنسان : ما لي وله ، عليَّ بنَفسي ! من يقول ذلك فليس بمُسلِم ، ومن لم يهْتمّ بأمْر المسلمين فليس منهم ، يجب أنْ تهتمَّ بهم وتهْتمَّ بقَضاياهم ، أنْ تهتمَّ بما يُسْعِدهم ، ولما يسقيهم ، وهذه هي علامة المؤمن ، قال تعالى:

(فَلَوْلَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ)

(سورة هود)

4 ـ الظالم يتبع ترف الدنيا ومتاعها :

ما أُتْرِفوا فيه بِمَعنى أنَّ هذه الدنيا التي ملكَت قلوبهم ، غرِقوا في نعيمها واتَّبعوها ، وجعلوها هادِيًا لهم، وجعلوها إمامًا وقبْلةً ، في كلمة اتَّبعوها معنى دقيق ، قال تعالى :

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ)

(سورة هود)

همُّه الأوَّل والأخير بيْتٌ فخْم ، وزوْجةٌ جميلة ، وسيَّارة كبيرة ، ودَخْلٌ غير محدود وبيتٌ في مكانٍ جميل ، منتزهٌ في الصَّيْف ، وأنْ يعْلُوَ في نظر الناس ويتيه عليهم ، قال تعالى :

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ)

(سورة هود)

أيْ هذا التَّرَف صار إلهَ الناس يعْبدونه من دون الله ، إنسانٌ اشْترى بيتًا جاهزًا للسَّكَن ، وكلّ هذه الكِسْوة التي كلَّفَت مئات الألوف كسَّرها ، ولم يُعْجِبْهُ هذا البلاط ! وهذا الرُّخام لا يعْجِبُه ، وهذا الترتيب لا يعْجِبُه قال تعالى :

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ)

(سورة هود)

لمَا تصبح الدنيا أكبر همّ الإنسان ، ومَبْلَغَ عِلْمِهِ ، فقد انتهى ، واسْتَرْذَلَهُ الله ، وإذا اسْتَرْذَلَ الله عبْدًا حضَرَ عليه العِلْم والأدَب ، اسْتَرْذَلَهُ ورآه أرضيًا وشَهَوانِيًّا ، ورآهُ دُنْيَويًّا ، ولكنّ خَلَدَ إلى الأرض واتَّبَعَ هواه ، قال تعالى :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية : 23)

جعله إلهه ، قال تعالى :

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ

علاقة هذه الآية بالسِّياق العام :

علاقة هذه الآية بالسِّياق العام أنَّ أيَّة أمَّة ما دام فيها مصْلحون ، ودُعاة إلى الله عز وجل مخلصون ، وما دام فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ما دام فيها من يمْنعُ الفساد في الأرض ، وما داموا كذلك فالله سبحانه وتعالى لن يُهْلكها ، أما إذا فعَلَ الناس المعاصي ، وغرقوا في الشَهوات ، واسْتَحَلُّوا الحرام ، وأكل القويّ منهم الضَّعيف ، ولم يوجد فيهم من يأمر بالمعروف ، ولا من ينهى عن المنكر عمَّهم الله بالبَلاء ، كما قال تعالى :

(إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

(سورة هود)

طرحتُ في الدرس الماضي حول هذه الآية مجموعةً من الأسئلة ، قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ

1 ـ معنى الآية :

أوَّلاً في بعض التفاسير قال المفسِّر : لو شاء الله لجَمَعَ الناس على الهُدَى ، وكانوا أُمّة واحدة مهْتَدِيَة ، ولكنَه لم يشأ ! من دون تعليق أو شرْح أو إضافة ، لو شاء لجَمَعهم على الهدى ولكنَّه لم يشأ .

وبعض المفسِّرين وجدوا أنَّ هذه الآية تُشير إشارةً واضِحَة إلى أخْطر شيءٍ يمْلكُه الإنسان ألا وهو الاختيار .

الإنسان له حرية الاختيار :

مثلاً : لو شاءَت إدارة الجامعة أن تطرَح على ألف طالب في كليّة أسئلة مرفقةً بأوراق عليها الأجوبة ! ولا يُكَلَّف الطالب إلا كتابة اسمه !! جُمِعَت هذه الأوراق ، وصُحِّحَتْ فنالَتْ كلّها علامةً تامَّة ، لو شاءَت الجامعة أن تجعل الطُّلاب جميعًا يُحْرِزون علامة المائة لفعَلَتْ ، والقضيَّة سهلةٌ جدًا ، تطرح مع السؤال الإجابة الكاملة ، فهل تؤدِّي الجامعة بهذه الطريقة رسالتها ؟! لا ، ليْسَت العِبْرة في توحّد النتائج ، ولكنَّ العبرة في تطابق المقدِّمات مع النتائِج ، هناك بالجامعة مرتبة مقبول ، وهناك جيّد ، وهناك جيِّد جدًّا ، وهناك امْتِياز ، وهناك شرَف ، وهناك الراسب ، فالعظمة في تطابق المقدِّمات مع النتائِج ، هؤلاء الطلاب مختارون ، بعضهم يدرس ، وبعضهم لا يدرس ، بعضهم يؤثر أن يمضي عامه الدِراسي في النزهات والحفلات وأصحاب السوء ، وبعضهم يقبعُ في غرفته ، ويُطالعُ كتابه إلى أن يفْهمهُ ، فإذا دخَل في الامتحان تفوَّقَ فيه ، فلأنَّ الطُّلاب مختارون ، وكلّ طالبٍ جامعي مُخَيَّر في الدِّراسة أو عدمها جاءَتْ النتائج متفاوِتَة ، فالذي اختار الدِّراسة الجيِّدة نال علامةً جيِّدة ، والذي اختار أن يَنْجحَ مقبولاً نال هذه الدَرجة ، والذي اختار عدم الدِّراسة رسَبَ ، فالاختلاف يعني الاختيار ، لولا أنَ هؤلاء العباد مختارون لما اختلفوا ، أما أنَّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لسَلَبَهُم الاختيار فكانوا جميعًا في مستوى واحد حينما يأخذ نجَّار كبير تعهّدًا بصُنْع ألف طاولة يشتري الخشب ويقطّعه لِيَجْعلهُ طاولاتٍ ، هل تمْتنِعُ إحدى قطَع الخشَب أن تكون طاولة ؟ هذه مادَّة والمادَّة لا خِيار لها ، لذلك تأتي كلّ طاولات متشابهة هذا يظهر في المعامل ، إنتاج المعامل كلّه متشابه ، فلو أنَّ الله سبحانه وتعالى سلَبَنَا حرية الاختيار لما اختلفنا ؛ هناك مؤمن وكافر ومنافق وفاجر ، وملحد وعاص ، ومذنب ، وآخر محْسنٌ ومسيء ، وهذا يريد أن يكون عالمًا ، وهذا يحبّ أن يكون تاجرًا ، هذا يحبّ أن يكون ضابطًا وهذا يحبّ أن يكون صانعًا ، وهذا يحبّ أن يكون محْسنًا ، وهناك من يحب أن يؤذي الناس ، قال تعالى :

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

(سورة هود)

2 ـ هذه الآية أصلٌ في حريَّة الاختيار :

هذه الآية أصلٌ في حريَّة الاختيار ، لولا أنّ الناس مختارون لما اختلفوا ، كيف أنَّ المواد التي تدخل

المعْمل تخرج على هَيْئةٍ واحدة ، وعلى شَكلٍ واحد ، ولا فرْق بين قِطعةٍ وأخرى ، لأنَّ الحديد والخشب ليس لهُ حُريّة الاختيار ، أما الإنسان فمُختارٌ ، قال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56))

(سورة القصص)

كلّ هذا العِلم ، وكلّ هذا الحِلم ، وكلّ هذا الخُلق العظيم ، إنَك لا تهدي مَن أحْبَبْت ، ولكنَّ الله يهْدي من يشاء ، يعود فاعل يشاء على العِباد ، من شاء الهُدَى يهْتدي ، ومن شاء الضلالة ضلَّ ، قال تعالى :

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8))

(سورة الشمس)

أيْ ألْهَمَها أنَّ هذا طريق الحق ، وأنّ هذا طريق الفُجور ، قال تعالى :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

لو سَلَبَ الله سبحانه وتعالى حريَّة الاختيار لما كانت هناك جنَّة أو نار ، ولسقَطَ الوعد والوعيد ، ولسَقَط الثَّواب ، ولا فضْل للطائِع ، ولا إثم على العاصي ، لأنَّ الاختِيار قد سُلِبَ ولا مسؤوليَة ولا تَبعَة ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى وهَبَنَا شيئًا لا يُقدَّر بِثمن ؛حُريَّة الاختِيار ، ولكنَّ هذه الهبَة العظيمة يُقابلها أنّنا نتحمَّل تَبعَة الاختيار ، وهبَنَا حُريَة الاختيار ، وجعلنا نتحمَّل تَبعَة الاختيار ، هنا المشكلة ! وهذه بِتِلْك ، فهذه المغانم بِتِلك المغارم ، قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(سورة هود)

3 - وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً

على شاكلة واحدة ، وعلى طبْعٍ واحد ، وعلى مَيْلٍ واحِدٍ ، وعلى هُدًى واحِد ، ولكنَّه لو فعَلَ هذا ، وجعلهم أمَة واحدة ، وسلبَهُم حُريَّة الاختيار ، وجعلها كالبضاعة فَقَدَتْ هذه الأمَّة سعادتها ، والإنسان يسْعَد بعَمل طيِّبٍ فَعَلَهُ مُختارًا ، فإذا فَعَلَهُ قهرًا ، أو إكْراهًا عندئذٍ لا يسْعَدُ ، ولا فضْلَ له ويمتلأ غَيظًا ، وضيقًا ، قال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(سورة هود)

ولكن لأنَّهم مختارون ، قال تعالى :

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

(سورة هود)

القصْد من هذا الاختيار أن تأتيَ إلى الله تعالى طائعًا كي تسْعَدَ بها القُرْب ، قال تعالى :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)

(سورة هود)

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ

الله خلق الخلق ليرحمهم :

إلا أُناسًا تطابَقَ اختيارهم مع الهدف من خلْقِهم ، فَرَحِمهم الله سبحانه وتعالى ، وسَعِدوا بهذه الرَّحمة ، تطابق اختيارهم مع الهدف من خلْقِهم فرحمهم ، وتجلَّى عليهم ، قال تعالى :

(وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

من أجل هذه السعادة التي لا تنتهي خلقهم الله سبحانه وتعالى ، ومن أجل هذا القُرْب الذي لا يوصَف خلقهم الله سبحانه وتعالى ، بعض المفسِّرين يقول :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

خلقهم تعود على قوله تعالى :

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

(سورة هود)

خلقهم لِيَختلفوا ، ولكنَّ التفسير الأوْجَه أنَه خلقهم ليرْحمهم ، أيْ لِيُسْعِدَهم .

إذًا:

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

خلقهم ليسعدهم ، أعطاهم حرية الاختيار ، فإذا اختاروا ما خلقهم الله له رحمهم الله عز وجل ، و حقَّقوا الهدف من خلقهم ، و إذا اختاروا خلاف ما أراد الله لهم ، قال تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

1 ـ الإنس والجن مكلّفون :

لماذا من الناس والجِنّة ، لأن الله سبحانه وتعالى عرض على صنف الجن والإنس الأمانة ، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

(سورة الأحزاب)

و قال تعالى :

(يا معشر الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(33))

(سورة الرحمن)

الإنس والجن مخاطَبون بحمل الأمانة ، قال تعالى :

[سورة هود]

إن وافق اختيارك مراد الله رحمك الله ، و سعدت بقربه ، وإن لم يوافق فقال تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ)

(سورة هود)

2 ـ كلمة الله قانون نافذ :

الكلمة القانون ، أي أن الله سبحانه و تعالى قوله الحق ، و قوله مبدأ ، فتمَّت كلمةُ الله أن يدفع كلُّ مَن أخذ حرية الاختيار تبعَة اختياره ، أي أن هذه الميِّزة بتلك المسؤولية ، قالب تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

أي هؤلاء الذين لم يختاروا ما أراد الله لهم النار مأواهم ، قال تعالى :

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود)

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ

القصص القرآنية لتثبيت قلب الإنسان :

هذه القصص تُثَبِّت ، لذلك الإنسان قد يهتدي بآيةٍ كَوْنِيَة ، وقد يهْتدي بآيةٍ قرآنيَّة ، وقد يهتدي بِقِصَّة يسْمعها ، قال تعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

وقال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

قال تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

تتبَّع حياة المستقيم ، أنْظر إلى حياته ، أنظر إلى سعادته وطمأنينتِهِ أنْظر إلى اسْتِقراره ، أنْظر إلى ثِقَتِهِ بالله عز وجل ، وانْظر إلى غير المستقيم وإلى قلقه ، وإلى فُجوره وخوفِهِ وإلى ضَياعِهِ ، وإلى شَقائِهِ ، قال تعالى :

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ

1 - إياكم والقصص التي تثبط العزائم :

الإنسان أحيانًا لا يروي قِصَّة تُثَبِّتُ العزائِم ، لا يرْوي قِصَّة فَحْواها ظلمٌ ، هذه القصَّة غير صحيحة ، لأنّ هذا الذي تظنّه قد ظُلِمَ لابدّ من حِكمةٍ بالغة ساقت له هذا الظُّلم ، فإذا روَيْتَ قِصَّة من دون تَمحيص، ومن دون تدقيق ، ومن دون اسْتيعاب ، ومن دون إحاطة ماذا فعلْت ؟ أعطَيْتَ للناس درسًا

على شَكل قِصَّة .

إذا استَقَمْتَ على أمر الله فحْوى هذه القِصَّة ؛ سوف تموت من جوعِكَ ! إن لم تقسُد مع الناس لا تعيشُ معهم ، هذه قِصَّة خطيرة ، يُقابلها إذا روَيْتَ قِصَّة أنَ الذي أطاع الله عز وجل أطاعه كلّ شيء ، وأنَّ الذي آثر ما عند الله أكْرمه الله بالدُّنيا والآخرة ، مثل هذه القصص ترْفعُ مَعْنويَات الإنسان ، وكفى بالمرء إثمًا أن يُحَدِّث بكُلّ ما سَمِع ، أحيانًا تجلس بمَجلس ، وتقول : فلان الفلاني أخلاقه عالية ، وإيمان وتقوى ، وصلاح وورَع واستِقامة جاءتْهُ قصّة تُحَير العُقول ، القِصَّة ما مغْزاها ؟ أنت أسْبَغْتَ عليه صِفات مُبالغ بها ، جمعت التقوى إلى الورع إلى الحِلم إلى الاستقامة ... قد ظُلِمَ ظلمًا شديدًا ! فلا بدّ من حِكمةٍ إلهيّة عظيمة بليغة جَعَلَتْ هذه المصيبة تَصِلُ إليه ، لعلّ هذه المصيبة ردْعٌ أو قصْمٌ ، لعلّها دَفْعٌ أو رفْعٌ أو كَشْفٌ ، هذه أنواع المصيبة ، هناك مصيبة قَصْم ، الإنسان إلى شرّه مستطير .

2 ـ القصص القرآني تثبيت لقلب المؤمن المبتلى :

كلّما عاشَ يومًا ارْتَكَبَ أعمالاً فضيعة ، هذا ربّنا سبحانه وتعالى قد يسوق له مصيبة قَصمٍ وينتهي ، وهناك مصيبة ردْعٍ ، فقد ينْحرف الإنسان فتأتيه مُصيبة لا يستطيعُ تَحَملها ، وهذا من أجل أن يُقْلِعَ عن هذه المعْصِيَة نِهائيًّا فهذه مصيبة ردْع ، وقد يكون مستقيمًا ، ولكنَّه مقصِّر فتأتيه مصيبة دَفْع إلى الأمام ، وقد يكون مستقيمًا وليس مقصِّرًا ، ولكن بإمكانه أن يرقى إلى مرتبةٍ علِيَّة ، فيبْتَليهِ ببَعْض المصائب فإذا صبَرَ عليها ارْتقى ، وهذه للصِّديقين ، وأما الأنبياء فمصائِبُهم من نوْع الكَشْف ، لا تُكْشفُ حقيقتهم، ولا يبْدو ما يَنْطَوُون عليه من كمالٍ رفيع إلا ببَعْض الظُّروف الحَرجَة ، لذلك عَنْ فَاطِمَة أَنَّهَا قَالَتْ :

((أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ ، فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنْ حَرِّ الْحُمَّى ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[رواه أحمد]

فالقِصَّة خطيرة جدًا ، إن كنت غير مَدروسة وسَمِعتها ونقَلْتها لا تنسَ هذا الحديث الشريف ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[رواه مسلم]

أحيانًا يقرأ الواحد قِصَّة بمَجَلَّة ، أحدهم ذهب عند بيتِ صديقه فَوَجَدَهُ مَقْتولاً ، فخَرَجَ مذْعورًا ، والجار الذي يسْكن اتّجاهَ هذا البيت يعْمَلُ في سِلْك الشُّرْطة ، فرآهُ خارجًا مذْعورًا ، فألقى القبْض عليه فَوَجَدَ إنسانًا مَقْتولاً ! فساقَهُ إلى السِّجْن وحُوكِمَ ، وحكمَتْ عليه المحْكمة بعِشْرين أو ثلاثين عامًا سِجْنًا !!

تقول: سبحان الله !! هذا بريء ، لو سألتَ هذا الذي حُكِمَ عليه خطأً ؛ أفَعَلْتَ شيئًا تستحقّ عليه الحُكم القاسي ؟! يقول : إي وربِّي ، فالقِصَّة إذا رَوَيْتَها من دون أن تعلمَ خَلْفِيَّتَها وملابساتها وفُصولها كلّها ، تكون كمن أضلل الناس ، فالقِصَّة إما أن تهديهم بها ، وإما أن تضلِّهم بها ، لا ترو قِصَّة لا تعرف كلّ فُصولها ، لا ترْوي قِصَّة لا تعرف حِكمة الله منها ، لا ترْوِي قِصَّة يبْدو لك مِن أحداثها أنَّ منطقها مُخالفٌ لِما جاء به القرآن ، قلْ : لا أعْلم ، أما إذا كان عندك قِصَّة تثبتُ آيةً ، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(97))

(سورة النحل)

إن كان عندك قصَّة تؤكّد هذه الآية ، وإن كان عندك قصَّة تؤكّد قوله تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

احذروا مخالفة الشرع :

حدَّثني اليوم إنسان ، وقال لي : لي أخٌ غير منضَبطٌ بقَواعِدِ الدِّين ، فكان يزور أصدِقاءهُ ، ويطلب إليهم أن تكون هذه السَّهرة مختَلِطة ، فإذا زاروهُ في بيتِهِ أمرَ زوْجته أن تبْرُزَ إليهم ، الشيء الذي حصَلَ أنَّ أحدَ أصْدِقائِهِ أُعْجِبَ بِزَوْجَتِهِ ، ونشأتْ علاقة بينهما غير مَشْروعة ، انْتَهَتْ إلى الطَّلاق وضَياع أربعة أولاد !! هذا هو جزاء المخالفة ، فهذه القِصَّة تُرْوَى لأنَّها تؤكّد أنَّ هذا الشَّرْع من عند الله تعالى ، وأنّ كلّ من خالفهُ دفَعَ الثَّمَن باهِظًا في حياته ، وكاد قلبهُ يحْترِق ، وكاد قلبهُ يُصْعَق من هذه الزَّوجة الخائنة ، فهذا جاهل ، ولكن حينما سمَح لِنَفسِهِ أن يزور أصدِقاءهُ على شَكل اختِلاط ، وحينما زارهُ أصْدِقاءهُ ، وأمر زوجته أن تبْرُزَ إليهم كان ما كان !!

3 ـ القصة أداة خطيرة :

القِصَّة أداة خطيرة ؛ إما أن تُهدِم بها الحق ، وإما أن تبْنِيَ بها الحق ، فَقصَّة لا تعرف ملابساتها ، لا ترْوِها ، وقل : الله أعلم ، ولله حِكمة بالغة ، أحيانًا تجد الناس مُغْرَمون بأن يُظْهروا لك شخْصًا مستقيما استقامة تامَّة ، وطاهراً ، وإذا بمُصيبة تأتيه فوق تَحَمّله ! ويقْصِدون أنَّه لا إله يعينه !!! الله عز وجل هو الحقّ ، وهذه القصَّة خِلاف الحقّ ، من أسماء الله تعالى أنَّه حق وعادل ، فلذلك ربّنا عز وجل قال :

(وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ)

(سورة هود)

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ

1 ـ أعمال الإنسان تجسِّد مكانته عند الله :

كلّ إنسان له مكانة عند الله ، أعماله تجْسيد لها ، وتنفيذ لها ، وتَحقيق لها ، فالمؤمن أعماله كلّها تؤكِّدُ إيمانه ، اسْتِقامته ونزاهته ، وإخلاصه وأمانته ، وحبّه للخير ، وبذْلُهُ وتَضْحِيَتُه ، هذه مكانتهُ ، وهذا حالهُ ؛ حالُ العبْد المتواضِع وحال العَبْد المفْتَقِر ، وحال العبْد المُحِبِّ لله عز وجل أعماله تؤكِد أفعاله ، وأعماله وَجهٌ آخر لأحواله ، أحواله وجه ، وأعماله وجه آخر والكافر أعماله كلّها تؤكِّد دناءتَهُ ، تؤكِدُ أنانيَّتَهُ ، وتؤكّد جهْلهُ وتؤكِّد حبَّه لِذاتِه ، أعماله تجسِّد انْحِرافهُ النَّفسي ، قال تعالى :

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

(سورة هود)

2 ـ ليس للمنحرف مكانة رفيعة عند الله :

أنتم لن تستطيعوا أن تفعلوا إلا شيئًا يُجَسِّد نفْسِيَّتكم ، فالكافر لن يستطيع أن يكون مخلصًا ولا طاهرًا ، ولا مخلصًا لأنَّ مكانته الانحراف ، وبُعْدُه عن الله سبحانه وتعالى جَعَلَ مكانتهُ عند الله منحرفة ، وأعماله تَجسيد لانْحِرافه النّفسي . قال تعالى :

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

(سورة هود)

كلّ إنسان ينتظر من إنسان غير مؤمن الإنصاف ، أو الرَحمة ، أو المساعدة ، والإحسان ، فهو لا يعرف هذه الآية ، قال تعالى :

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ)

(سورة هود)

ونحن أيُّها المؤمنون نعملُ على مكانتنا ، ولم يخْرجَ مِنَّا إلا الخير ، ولن نتعاملَ مع الناس إلا بالحقّ ، ولن نأخذ شيئًا ليس لنا ، ولن نستَعْلِيَ على خلق الله ، ولن نبْنِيَ مَجْدنا على أنقاض الآخرين ، ولن نفعلَ

شيئًا يُغْضِبُ الله عز وجل ، أما الشيء الذي يأخذ بالألباب ، قوله تعالى :

(وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)

(سورة هود)

وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ

1 ـ ماذا تنتظرون ؟

أنتم ماذا تنتظرون ؟ ماذا ينتظر أحدكم من الدُّنيا ؟ هؤلاء المعرضون ماذا ينتظرون ؟ غِنًى مطغِيًا أو فقرًا منسيًا ، أو مرضًا مفسِدًا ، أو هرمًا مفنِّدًا ، أو موتًا مجْهزًا ، أو الدَّجال فَشَرُّ غائبٍ يُنْتَظر ، أو الساعة والساعة أدْهى وأمرّ !!! ماذا ينتظر المؤمنين ؟ توفيق الله ، ورضْوان الله سبحانه وتعالى ، والتَّقلُّب في رحمة الله ، والطمأنينة ، والرِّضا ، والسعادة ، الحبّ ، والإكرام ، قال تعالى :

(وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)

(سورة هود)

2 ـ كلّ إنسان ينتظر نتيجة عمله :

إذا طمح طالب أن يكون الأوَّل على القطر ، قدَّم الامتحان ، وطالب كَسول قدَّم الامتحان ، بين انتِهاء الامتحان ، وإعلان النتائِج ، هناك فاصِل زمني ، ثلاثون يومًا مثلاً ، هذا ينتظر وهذا ينتظر ، هذا ينتظر نبأ إحراز الدَّرجة الأولى ، واسْتَحَقَّ تَكريم الحكومة ، وذاك ينتظر الرُّسوب واشْمِئزاز الناس منه، قال تعالى

(وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)

(سورة هود)

وقال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(51))

(سورة التوبة)

فيا أيّها المؤمنون انْتظروا الخير وكلّ الخير ، في الدنيا والآخرة ، ويا أيّها الذين عَصَوا ربَّهم لا تنتظروا - إن أصْرَرْتُم على المعصيَة - إلا كلّ خبرٍ مؤْلِم ، وكلّ خبرٍ سيئ ، غِنًى مطغِيًا أو فقرًا منسيًا، أو مرضًا مفسِدًا ، أو هرمًا مفنِّدًا ، أو موتًا مجْهزًا ، أو الدَّجال فَشَرُّ غائبٍ يُنْتَظر ، أو الساعة والساعة أدْهى وأمرّ !!!

هنيئًا للمؤمن فهو ينتظر الخير ، في كل مراحل الحياة ، في الدنيا قبل الآخرة ، والويل للكافر ينتظر المصيبة تلو المصيبة ، قال تعالى :

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ(31))

(سورة الرعد)

من بلوى إلى أخرى ، ومن ضيقٍ إلى خوف ، ومن مرض إلى فقر وهذا العذاب الصُّعد . قال تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة هود)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

ما سيكون غَيب ، ما مضى فات ، والمؤمَّل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ

1 - الأمور كلها بيد الله :

ما من عثرة ، ولا اختلاج عِرْق ، ولا خدْش عود ، إلا بما قدَّمَت أيديكم الأمر كلّه ؛ أمْر زوجتك ومركبتك ، وأمر من هم فوقك ، ومن هم دونك ، وأمْر رزقك ، وأمر خوفك وسعادتك الأمر كلّه ، يَنطوي تحت هذه الآية مليون بنْد ! بل أكثر ، آلة فيها قطعة كُسِرَتْ ! إليه يرجع الأمر كلّه ، تعطَّلت أسبوعَين ؛ إليه يرجع الأمر كلّه ، حادِث ؛ إليه يرجع الأمر كلّه ، عبدي ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، كن لي كما تريد ولا تعْلِمني بما يُصلِحُك ، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفَيْتُك ما تريد ، وإن لم تُسَلِّم لي فيما أريد أتْعَبْتُكَ فيما تريد ثمَّ لا يكون إلا ما أريد ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود)

أي وحدهُ ، قال تعالى :

(وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(84))

(سورة الزخرف)

قال تعالى :

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(51))

(سورة النحل)

لا إله إلا الله ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

2 ـ التوكل على الله وحده :

قال تعالى :

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

إذا أردْت أن تكون أقوى الناس فَتَوَكَّل على الله ، ولا يعرف حال المُتَوَكِّل إلا المُتَوَكِّل ، فهو لا يخاف في الله لَوْمة لائِم ، لأنّ الله تعالى معه ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

3 ـ الله لا يغفل عن عمل العباد جميعهم :

لا يغْفلُ عن عملك ، قد تفْتَعِلُ شيئًا لِتَحقيق شَهْوةٍ ، لا يغْفَلُ عن هذا العمل ، وتفْتَعِلُ شيئًا لِتروْي شهوتك، فالله لا يغفل عنه ، وقد تُسَبِّب الأذى للإنسان من دون أن تكون مسؤولاً قد نفعلُ شيئًا ، ولا تُحاسب عليه في الدنيا ، ولكنّ هذا الشيء سبَّب الأذى ، قال تعالى :

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

لو وقفنا عند هذه الآية لكَفَتنا ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (01-11): تفسير الآيات 1 – 3 ، بين يدي سورة يوسف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-05-16

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف

سبب التسمية :

أيها الإخوة المؤمنون، سورة اليوم هي سورة سيدنا يوسف عليه السلام، هذه السورة سميت بهذا الاسم لاشتمالها على قصة سيدنا يوسف، وقصة سيدنا يوسف أطول قصة في القرآن الكريم .

سورة يوسف ترسيخ لعقيدة التوحيد :

إنّ هذه القصة بموضوعها وحوادثها، وشخصياتها وحبكتها، وحوارها وبيئتها، وكل خصائصها الفنية مطوعة ومسخرة لتأكيد وترسيخ عقيدة أساسية في الأديان، ألا وهي عقيدة التوحيد، فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : 19)

وهذه القصة بأكملها تؤكد أنه لا إله إلا الله، لأن الناس حتى ولو وصفوا بأنهم مؤمنون فأكثرهم عند الله مشركون، قال تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

فلعل الإنسان إذا قرأ هذه القصة، ووقف على دقائقها، واستنبط من آياتها بعض الحقائق يهتدي إلى التوحيد، ليس في فكره بل في سلوكه، لأن التوحيد كفكرة واضح جداً، ومعقول جداً، و لكن كسلوك وكممارسة يومية بعيد عن معظم الناس .

سورة يوسف مقدمات وخاتمات :

اللغة العربية لغة القرآن :

شيء آخر في هذه القصة، مقدمة فيها بعض الموضوعات وخاتمة فيها بعض التعقيبات، من موضوعات المقدمة، قال تعالى :

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(1)إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(سورة يوسف)

صرحت هذه الآية أن لغة كتاب الله هي اللغة العربية، ولماذا اللغة العربية بالذات؟ وما هي خصائص هذه اللغة حتى تكون أداةً وقالباً لكلام الله سبحانه وتعالى، قال عليه الصلاة والسلام :

((أحبوا العربية لثلاث، لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي))

الطبراني عن ابن عباس

ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

(سورة يوسف : 2)

اللغة العربية من أرقى اللغات :

لابد من أن تكون اللغة العربية لها خصائص موضوعية تجعلها من أرقى اللغات الإنسانية، وإذا قلّ شأنها في العصور الحديثة فلضعف شأن أصحابها، وإذا قيل: إنّ هذه اللغة تعد أوسع لغة في العالم فلأن أصحابها اعتنوا بها، ورفعوا من شأنها، لكنّ اللغة العربية باعتراف فقهاء اللغة الأجانب من أوسع اللغات الإنسانية تصرفاً ومن أرقاها، وسوف أبين لكم بعض خصائص هذه اللغة .

سيدنا عمر يقول: << تعلموا العربية فإنها من الدين >>، وتعلم اللغة العربية وتعلم الدين شيء واحد، بل إنّ اللغة العربية والدين صنوان لا يفترقان .

بعض العلماء قسم اللغات الإنسانية إلى أقسام ثلاثة: اللغات المنعزلة، واللغات الإلصاقية، واللغات التحليلية .

معنى المنعزلة: هذه اللغة تشبه لغة أهل الصين، أي أن الكلمة لا تتبدل، ولا تتغير، ولا يضاف عليها، ولا تصرف، وليس منها فعل، ولا فاعل، ولا اسم فاعل، ولا فعل مضارع، ولا فعل أمر، ولا مصدر، ولا صفة مشبهة، ولا اسم مكان، ولا اسم زمان، هذه الكلمة لا سواها، هذه لغات الشعوب البدائية،

ويمكن أن تنطوي لغة الصين تحت هذا القسم .

وهناك نوع آخر من اللغات، إنها اللغات الإلصاقية، منها اللغة اليابانية، واللغة التركية، أي أنها تضيف حرفاً فتغير المعنى، وكلكم يعلم ما معنى كلمة أدب سيس، عقل يوك، يعني هذه لغة إلصاقية تضيف حرفاً أو حرفين فتعطي عكس المعنى .

لكنّ اللغة العربية وبعض اللغات التحليلية تعد من أرقى اللغات الإنسانية، مثلاً:(عرف)فعل ماض، (يعرف)فعل مضارع، (اعرف)فعل أمر، (عرّف) هذا فعل مزيد، نقول: قطع وقطّع، كسر وكسّر، وغلّقتِ الأبواب، غلّق الباب بمعنى أرتجه، أما أغلق الباب بمعنى رده، إذاً: هناك وزن فعل ووزن فعّل، هناك وزن تفاعل، فاعل، كاتب، راسل، قاوم، دافع، فهناك مشاركة، فعرف، وعرّف، وتعرّف، وتعارف، وعرف، والعُرف، والعرف، والأعراف، والعراف، والتعريف، والعرفان، والمعرفة، والعارف، أي أنّ الكلمة الواحدة يوجد منها فعل ماض، فعل مضارع، فعل أمر، مزيد على الثلاثي بحرف، مثلاً فعّل، بحرفين تفاعل، بثلاثة استفعل، هناك اسم فاعل عارف، اسم مفعول معروف، اسم آلة، اسم تفضيل أعرف، اسم زمان، اسم مكان، صفة مشبهة لاسم الفاعل، هذه كلها مشتقة من مادة عرف، وعلى هذا فقس علم، يعلم، اعلم، عالم، معلوم، علاّم، عليم، تعليم .

فاللغة العربية تمتاز بأنها لغة تحليلية متصرفة، فمثلاً باللغات الأجنبية الكتاب book، والطاولة table، وكتب write، أما في اللغة العربية كتب، مكتب، كتاب، من أسرة واحدة .

لا أريد من هذه التفصيلات أن يكون الدرس في اللغة العربية، ولكن أريد أنّ أقول: حينما جعل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم عربياً فإنّ في اللغة العربية خصائص موضوعية تجعلها من أرقى اللغات الإنسانية .

ظاهرة الإعراب في اللغة العربية :

شيء آخر، في اللغة العربية الإعراب، الإعراب يعني حركة واحدة تغير المعنى، مثلاً: قال تعالى :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : 28)

العلماءُ فاعل مؤخر، ولفظ الجلالة منصوب على أنه مفعول به مقدم، بوضع الضمة على كلمة العلماء معناها هي الفاعل، ووضع الفتحة على لفظ الجلالة معناها مفعول به منصوب على التعظيم، إذاً: بحركة واحدة يتبدل المعنى .مثلاً :

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

(سورة التوبة : 40)

بحسب التصور: وكلمةُ الله هي العليا، لو قلنا: كلمةُ الله هي العليا يكون المعنى فاسدًا، لأنه جعل كلمة الذين كفروا السفلى، فيعني أنها كانت عليا فجعلها سفلى، وكلمة اللهِ هي العليا يعني أنها كانت سفلى فجعلها عليا، فالمعنى فاسد :

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

(سورة التوبة : 40)

فتحريك أواخر الكلمات بحركات هي حروف مد مخطوفة، هذا شيء يضفي على اللغة العربية دقة بالغة، لذلك ظاهرة الإعراب ظاهرة أساسية في اللغة العربية، من هنا قالوا: إنّك تفهم النص فتقرأه صحيحاً، لكنك في بعض اللغات الأخرى تقرأ فتفهم، أما عندنا فتفهم فتقرأ، لابدّ من أن تكون عينك على كلمة لاحقة حتى تحسن قراءتها، قالت له: يا أبت ما أجملُ السماءِ، قال: نجومها، قالت: لست أريد هذا، أريد أنّ السماء جميلة، قال: قولي: ما أجملَ السماءَ! بينما أجملُ السماء لها معنى، وما أجملَ السماء لها معنى آخر .

فظاهرة الإعراب ظاهرة راقية جداً في اللغة العربية، مثلاً: إذا أردت أن تقول: إنّ زيداً ضرب عمروأ، من دون إعراب يجب أن تقول: إنَّ الذي ضرب عمروأ هو زيدٌ، إذا قلت: ضرب زيدٌ عمروأ بهذه الضمة جعلته فاعلاً، وبهذه الفتحة جعلته مفعولاً به، إذاً: ظاهرة الإعراب ظاهرة دقيقة جداً .

ظاهرة تحريك الحرف بالحركات :

هناك التحريك أيضاً مثلاً البَر والبُر والبر، البَر يعني اليابسة، والبُر هو القمح، والبر هو الإحسان، بالبر يستعبد الحُر، قدَم وقدُم وقدِم، قدَم بمعنى سبقه بقدمه، وقدُم أصبح قديماً، وقدِم بمعنى حضر، خلْق وخُلُق وخلِق، خلِق بمعنى مضطرب، خُلُق بمعنى الأخلاق، الخلْق بمعنى البنية، كان عليه الصلاة والسلام حَسَنَ الخَلْقِ والخُلُق، أمثلة كثيرة يَثني لها معنى و يُثني لها معنى، يَثني بمعنى يطوي، أما يُثني فبمعنى يمدح، الفرق حركة واحدة .

إذاً: هذه الحركات تضفي دقة بالغة على الكلمات، هذه ظاهرة من ظواهر اللغة العربية :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

(سورة يوسف : 2)

ظاهرة مناسبة الحروف :

شيء آخر، قال بعض علماء فقه اللغة: إنّ هناك ظاهرة في اللغة العربية دقيقة جداً وهي مناسبة الحروف لمعانيها، أي كل كلمة فيها حرف سين فيها شيء داخلي، إحساس داخلي، كأن تقول: نفس،

حس، إنس، لمس، همس، وسوسة، سر، أية كلمة فيها حرف السين فيها شيء داخلي يجول في النفس، وأية كلمة فيها حرف غين مثلاً غائب، في غيبوبة، ليس أمامنا، غيبة تتحدث عنه في غيبته، غيب شيء لم يقع بعد، غامض غير واضح، غريب، ليس من هذا البلد، فتلاحظون أنّ أية كلمة فيها حرف الغين فيها معنى الغيبوبة والاستتار، أية كلمة فيها حرف الراء فيها معنى التكرار جرّ، مرّ، كرّ، فرّ، والذي يغرق قال بعض العلماء: لِمَ نقول للذي يغرق غرق، لأنّه غاب عن الأنظار، فوضعنا الغين، تتالى سقوطه وضعنا الراء، ارتطم بقاع البحر وضعنا القاف، طرق، لصِق، عبق، هناك حركة عنيفة في القاف، هذه الظاهرة اسمها مناسبة الحروف لمعانيها، واللغة العربية وحدها تنفرد بهذه الظاهرة، كوسوسة، زقزقة، كلمة زقزقة، لو لم تعرف معناها أصوات هذه الكلمة تشعرك بمدلولها .

ظاهرة الاشتقاق الكبير والكُبَّار :

هناك أيضاً الاشتقاق الكبير، كما قلت قبل قليل: هناك اسم فاعل، اسم مفعول، هناك صيغ مبالغة لاسم الفاعل، نقول: فعّال ككذّاب، يعني كثير الكذب، كذوب على وزن فعول، رحيم على وزن فعيل، فاروق على وزن فاعول، حذِر، قلِق، مرِن، قذِر، على وزن فعِل، أي أنّ هناك صيغَ مبالغة لاسم الفاعل، واسم فاعل، اسم مفعول، اسم مكان، اسم زمان، اسم آلة، قال تعالى :

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ)

(سورة الإسراء : 80)

لم يقل الله عز وجل: مَدخل صدق، المَدخل اسم مكان من دخل، أما مُدخل اسم مكان من أدخل، مادام إدخالا إذاً هو مُدخل، إخراج مُخرج، إن كان إخراج قصري هذا مُخرج، إذا خروج طوعي هذا مَخرج، عندنا أيضاً اشتقاق كُبّار، هو النحت، مثلاً سبحل، سبحان الله اختصرت بكلمة سبحل، أدام الله عزك اختصرت بكلمة دمعز، لا حول ولا قوة إلا بالله اختصرت بكلمة حوقل، لا إله إلا الله اختصرت بكلمة هلل، الله أكبر اختصرت بكلمة كبّر، سبحل، ودمعز، وحوقل، و هلل، وكبّر، وحمدل، وحيعل، أي قال: حي على الفلاح .

إذاً: في اللغة العربية اشتقاق صغير وكبير وكبّار، وتصريف وتكبير، مثلاً: كل واحد منا يستطيع أن يصوغ مصدراً صناعياً، أية كلمة أضف إليها ياء مشددة وتاء مربوطة تصبح مصدراً صناعياً، الجمهورية الشعبيّة، الطلابيّة، العنصريّة، الوطنيّة، القومية، إذاً: هذا الذي أنقله لكم لا على سبيل الحصر، بل على سبيل المثال .

الأصوات في اللغة العربية ثابتة :

شيء آخر، أنّ أصوات هذه اللغة ثابتة فهم يسمون لغتنا لغة الضاد، لأنّ أوسع مدْرج صوتي في لغات العالم هي اللغة العربية، ليس في لغات الأرض لغة واحدة فيها حرف الضاد:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

(سورة يوسف : 2)

عندنا في اللغة العربية الضاد، وعندنا الدال، الطاء حرف مفخم، والتاء حرف مرقق، كل واحد حرف، والصاد حرف مفخم، والسين حرف مرقق، عندنا صاد وسين، عندنا ضاد ودال، عندنا طاء وتاء، عندنا سين وزاي، هذه حروف منوّعة .

الشعر الجاهلي دليل على ثبات اللغة العربية :

عندنا شيء آخر، ليس في لغات الأرض كلها من دون استثناء أمة يقرأ طلابها شعراً قيل قبل ألف وخمسمائة عام إطلاقاً، طلابنا في الصف العاشر يقرؤون شعر امرئ القيس، وقد قيل قبل ألف وخمسمائة عام، أما الإنكليز فشكسبير شاعرهم الشهير توفي في القرن السادس عشر، ولا يستطيع إنسان بريطاني واحد أن يقرأ شعر شكسبير كما كتبه، شعر شكسبير مترجم من اللغة الإنكليزية القديمة إلى اللغة الإنكليزية الحديثة، أما أن يقرأ طلابنا شعراً قيل قبل ألف وخمسمائة عام فهذا ثبات في اللغة العربية، ثبات أصواتها، ثبات كلماتها، ثبات قواعدها :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

(سورة يوسف : 2)

ظاهرة الترادف في اللغة العربية :

ترادف اللغة العربية ظاهرة فريدة، مثلاً: تقول نظر إلى الشيء معروف، معلوم عندكم معنى هذا الفعل، لكن عندنا فعل رأى، رأى تشمل النظر بالعين ورؤية القلب، عندنا فعل حدّج أي نظر مع المحبة، قال عليه الصلاة والسلام :

((حدِّث القوم ما حدّجوك بأبصارهم))

ورد في الأثر

حدّج أي نظر مع المحبة، رنا نظر مع الاستمتاع، نظرت إلى البحر تقول: رنوت إليه، شخَص نظر مع الخوف، قال تعالى :

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الأنبياء : 97)

نظر شزراً مع الاحتقار، استشف نظر مع اللمس، استشرف نظر مع التمطي، حدّج نظر مع المحبة، بحلق اتسعت حدقة العين، حملق ظهر حملاق عينه، هناك حملق وبحلق وحدّق وحدّج، ونظر شزراً، وشخّص، واستشف، واستشرف، ونظر، ورأى ورنا، كل فعل يعني حالة خاصة من حالات النظر، قال تعالى :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

(سورة يوسف : 2)

ينبغي أن نعتز بهذه اللغة، أنا أتحدى أي طالب جامعي يحمل شهادة ليسانس أن يقرأ القرآن بلا غلط، الناس متهافتون على تعلم اللغات الأجنبية حباً بالمال، حباً بالتجارة، حباً بالاستيراد، حباً بالتعامل، حباً بالوظيفة، ولكنّ المؤمن ينكب على تعلم اللغة العربية لأنها من الدين: << تعلموا العربية فإنّها من الدين>> .

وقف أمام النبي الكريم رجل يقرأ فلحن في قراءته فقال عليه الصلاة والسلام :

((أرشدوا أخاكم فإنّه قد ضلْ))

كنز العمال عن أبي الدرداء

كان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب، لذلك قال العلماء: إنّ أفصح كلام بعد القرآن الكريم كلام النبي عليه الصلاة والسلام :

((أنا أفصح العرب ، قال بيد أنّي من قريش))

كنز العمال عن بريدة

قريش أفصح القبائل، وهذا أسلوب اسمه أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش .

((إنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا))

البخاري عن ابن عمر

((إنَّ مِنْ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً))

ابن ماجه عن أبي بن كعب

هكذا قيل .

ظاهرة الاشتراك اللفظي :

في اللغة العربية ظواهر غريبة جداً، مثلاً: عندنا ظاهرة اسمها المشترك اللفظي، فكلمة يشري لها

معنيان متعاكسان، يبيع ويشتري، قال تعالى :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

(سورة لقمان)

جاءت هنا بمعنى يبيع، كلمة المولى مثلاً، تأتي بمعنى السيد والعبد، مولاي يا سيدي، ومولاي عبدي، كلمة ظنّ بمعنى تأكد أو حسب، قال تعالى :

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة : 46)

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

(سورة الحجرات : 12)

ظاهرة التضادّ والترادف في اللغة العربية :

عندنا ظاهرة في اللغة اسمها التضاد، مثلاً: سميت الصحراء المخيفة مفازاً، والإنسان لا يفوز فيها، بل يضيع، سميت مفازة على عكس واقعها تفاؤلاً لمن كان فيها بالفوز، وسمي الملدوغ من أفعى أو عقرب سليماً تفاؤلاً له بالسلامة، هذا التضاد .

وفيها ترادف، وقد عدّ العلماء أكثر من ستة آلاف اسم للجمل، وهذا اتساع العربية في التعبير، هذا غيض من فيض، هناك كتب تزيد على أربعمائة صحيفة كلها في خصائص اللغة العربية، البحث متعلق بعلم اسمه علم فقه اللغة، هذا العلم يؤكد أنّ الله سبحانه وتعالى اختص هذه اللغة لكلامه، فشَرُفت بكلام الله، وشَرُفنا بانتسابنا لهذه اللغة، وانتسابنا لهذه الأمة، فإذا خصص الإنسان جزءاً من وقته لتعلم العربية فسوف يجد أحكاماً دقيقة جداً، وفهم كتاب الله يحتاج إلى تعلم اللغة العربية، لمعرفة الكلام، أنواع الكلام، ماذا تعني هذه الكلمة، ماذا تعني هذه العبارة، لمَ هذه الكلمة منصوبة؟ لمَ هي مفتوحة؟ لمَ مجرورة .

على كلٍ؛ أردت من هذه المقدمة اللغوية أن أؤكد لكم أنّ كلام الله سبحانه وتعالى اختاره الله، اختار اللغة العربية قالباً له، لأنّ اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية باعتراف كبار علماء اللغة الأجانب، يرون أن اللغة العربية من أوسع اللغات الإنسانية في التعبير، ومن أشدها مرونة وقدرة على استيعاب كل الأشياء الغريبة عنها، واللغة العربية الآن استوعبت كل منجزات العصر الحديث، ومع ذلك ترى من الناس من يستعلي باستخدام الكلمات الأجنبية، وهذه نزعة شعوبية نعوذ بالله منها .

شيء آخر، في قصة هذا النبي الكريم سماه النبي عليه الصلاة والسلام الكريم ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسف بن يعقوب عليه السلام بن إسحاق بن إبراهيم، لن أبدأ بتفسيرها في هذا اللقاء، ولكن سوف أضع بعض الحقائق بين يدي هذه السورة الكريمة .

خصائص القصة

العنصر الإنساني وأثره في قصة يوسف :

هذه السورة فيها مقدمة تتحدث عن أنّ القرآن عربي، وقد شرحت لكم قبل قليل شيئاً من ذلك، ثم فيها إشارة إلى أنّ أسلوب القصة يعد من أرفع أساليب التوجيه، لذلك الذي يملك قدرة على رواية قصة يملك القدرة على الأخذ بالقلوب، ربنا عزّ وجل يقول :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)

(سورة يوسف : 3)

في القصة خصائص تجعل الإنسان يهفو إليها .

حب الأب لابنه :

العنصر الإنساني عنصر بارز في القصة، فالقصة تتعلق بالإنسان، بعواطفه، بمشاعره، بمواقفه، بارتفاعه، بانحطاطه، بقوته، بضعفه، بأحزانه وأفراحه، بمآسيه ونكباته، وبمنجزاته، أبرز ما في القصة العنصر الإنساني .

لذلك ما الذي سوف نجده في هذه القصة، نجد الحب الأبوي :

(وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

لا يعرف الحزن إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

***

لو قرأ هذه القصة أبٌ كريم لذابت نفسه تفاعلاً معها، لأنها تتحدث عن عواطفه تجاه ابنه، في هذه القصة الحب الأبوي في أسمى صوره :

(وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

(سورة يوسف)

قلق الأب، شوق الأب، فرح الأب، فارتدّ بصيراً، حينما ألقوا عليه قميص يوسف ارتد بصيراً، هذا هو الأب، هذه هي الرحمة التي أودعها الله في قلب كل أب، ولكنها تزيد على مثيلاتها في المؤمن، وتزيد على مثيلاتها في الأنبياء .

الغيرة والحسد من أشد الأمراض فتكا :

الغيرة والحسد أوسع أمراض البشر انتشاراً، لو أردت أن تحلل معظم المشكلات بين الناس والخصومات، والعداوات، وأنواع الطلاق، والأعمال التي تسبب الأذى لوجدت أنّ السبب الرئيسي هو الغيرة والحسد :

(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة يوسف)

سوف نكيد له .

التفاوت في التصرفات والمواقف :

التفاوت في التصرف :

(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

(سورة يوسف)

التفاوت في المواقف، الإنسان مخيّر، هذا وقف موقفاً إجرامياً، وهذا وقف موقفاً معتدلاً، وهذا وقف موقفاً مستنكراً، تفاوت في ردود الفعل في بني البشر .

المكر والخداع والشهوة :

يتضح في هذه القصة أيضاً المكر والخداع :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

وفي آية أخرى :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

(سورة النساء)

الشيطان وطغيانه وصف الله كيده بأنه كان ضعيفاً، وأما النساء فوصف الله كيدهنّ بأنّ كيدهن عظيم، فالمرأة تستطيع أن توقع الفساد بين مائة أسرة، توقع الشقاق بين الإخوة، بين الآباء والأبناء، بين الآباء

والأمهات، بين الشركاء، وكم من قصة أفسدت العلائق سببها امرأة، والذين يتابعون جرائم الناس، ويعملون في تقصي المجرمين عندهم قاعدة، هي أنّ كل جريمة وراءها امرأة، يقولون: فتش عن المرأة.

المكر والخداع ظهر أيضا حينما واجه العزيز امرأته وهي تراود فتاها عن نفسه، قالت :

(قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

هي التي راودته، وأوهمت زوجها أنه هو الذي راودها، وكيف أدخلته السجن بالمكر والخداع والشهوة، كيف أنّ الإنسان إذا بعُد عن الله عز وجل صار عبداً لشهوته، كيف أنّ الشهوة تَطغى وتُطغي وتردي صاحبها .

ندم الجاني وعفو المظلوم :

كيف أنّ مشاعر الندم قد تغمر الإنسان، وهذا أيضاً مضمون من مضامين هذه القصة الكريمة، وكيف أنّ الإنسان يرتفع حتى يعفو عن خصومه الذين كادوا له وهو في أشد حالات القوة، وهو أقدر ما يكون على أن ينتقم منهم :

(قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة يوسف)

هناك آلاف العِبر، وآلاف الدروس، وآلاف الاستنباطات، في الحياة الاجتماعية والحياة الأسرية والحياة الشخصية وعلاقة الإنسان مع غيره، ومع مجتمعه، ومع أقربائه، ومع خالقه، كل هذا يتضح من قصة هذا النبي الكريم .

سورة يوسف تصوير لبيئة معينة :

وهناك تصوير في هذه القصة للبيئة، لبيئة المجتمع المتحضر، وما فيه من علاقات متفسخة أحياناً، وكيف القوي والضعيف ، وكيف هو المكر والكيد، إنّ كل هذه المعاني من مضامين هذه القصة التي تعد أطول قصة في القرآن الكريم .

قصة يوسف لم تتكرر في القرآن الكريم :

وهناك ميزة أخرى؛ أنّ قصص الأنبياء لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى جاءت في مواطن متعددة من

كتاب الله، وجاءت على شكل مختلف، فقصة سيدنا موسى تكررت سبع عشرة مرة، وفي كل مرة تُعجب بطريقة العرض والسرد، في كل مرة لها طريقة تختلف عن طريقة قيلت فيها في موضع آخر، لو وقفت عند هذه الطرائق في العرض والطرائق في الرواية لأخذك العجب العجاب، ولكنّ قصة يوسف لم تتكرر إطلاقاً، ولم يستطع أحد تطوير هذه القصة لأنها كما يقولون: نسيج وحدها، هذه قصة لم تتكرر، وتلك قصص قد تكررت، والإعجاز في التكرير وفي عدم التكرير .

موقف بعض اليهود عند سماعهم قصة يوسف :

شيء آخر، طائفة من اليهود حينما سمعوا هذه القصة أسلموا لمطابقتها لما ورد عندهم في التوراة، لذلك تعد هذه القصة من دلائل نبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام، والدليل قال تعالى :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ)

(سورة يوسف)

وفي نهاية القصة، قال تعالى :

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

من أعلمك بهذا لاشك أنّك رسول الله .

إذاً: في هذه القصة دلائل على نبوة ورسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام ورسالته .

قصة يوسف فيها كل مقومات القصة :

والشيء الذي يلفت النظر أنّ القصة كفن أدبي بلغت أعلى مستواها في هذه العصور، وتعد القصة الآن أكبر فنون الأدب وأوسع الفنون انتشاراً، ولها مقومات فنية دقيقة دقة بالغة، هناك مجلدات تدرس فنّ القصة، بحث الشخصيات، تصوير الشخصيات، الشخصيات التحليلية، الشخصيات التمثيلية، بحث عن الحوار وأنواع الحوار والسرد والوصف والحوار التمثيلي، والحوار التحليلي وعرض خبايا النفس من خلال الحوار، وبحث عن البيئة وتفاعلها مع الشخصيات والحوادث، وبحث عن حبكة القصة، وعن تقديم هذا الحدث وعن تأخيره .

إنّ قصة سيدنا يوسف فيها كل المقومات الفنية للقصة الحديثة من دون إخلال بالغرض الديني، بالعكس إنّ الخصائص الفنية لهذه القصة تعد في خدمة الغرض الديني لها، هذا درس لنا إذا أردت أن تدعو إلى الله عز وجل ليكن كلامك بليغاً، ليكن كلامك رائعاً، ليكن مسبوكاً سبكاً حسناً، فإذا سخّرت خصائص الفن التعبيري لمضمون بليغ فقد حققت هدفاً نبيلاً، ماذا تجد؟ تجد شاعراً كبيراً سخّر طاقاته اللغوية

والأدبية لأهداف خسيسة، لوصف نزواته الشخصية، لوصف مشاعره تجاه امرأة، لوصف امرأة، هذه القدرات البلاغية واللغوية والأدبية سخّرت لأغراض دنيئة، وقد تجد إنساناً يؤمن بالله عز وجل، وينطوي على أفكار وعقائد في غاية الأهمية، إذا أراد أن يعرضها لا يقوى على عرضها عرضاً بيانياً رائعاً، لذلك يُنَفِّرُ الناس منها، فإذا سخرت القدرات اللغوية والأدبية والفنية لعرض الحق عرضاً واضحاً دقيقاً جذاباً مؤثراً سحرياً فقد حققت الكمال في المضمون والشكل، لذلك : " تعلّموا العربية فإنّها من الدين " .

أنا أغريكم؛ ولو تقدمت بكم السن، ولو تجاوزت سنين الدراسة أن يكون لكم في الأسبوع جلسة مع هذه اللغة التي تقرؤون القرآن بها، لغتكم لغة آبائكم وأجدادكم .

مضمون قصة يوسفهو التوحيد :

شيء آخر في هذه القصة أنّ مضمونها كله حول التوحيد وقد جاء مغزاها في آية واحدة، قال تعالى :

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمْتَ لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تُسَلِّمْ لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد .

يجب أن تؤمن إيماناً راسخاً أنّه إذا أردت ما أراده الله سعدت في الدنيا، وإن لم ترد ما أراده الله أتعبك الله في الدنيا، ثم لا يكون إلا ما أريد .

ماذا أراد أخوة يوسف؟ أن يقتلوه، أرادوا أن يضعوه في الجب، أن يعزلوه عن أبيه، أرادوا به كيداً، وأراد الله له أن يكون نبياً، أن يكون عزيز مصر، خرج مرة في موكبه فرأته جارية تعرفه يوم كان عبداً في هذا القصر فقالت قولتها الشهيرة: سبحان الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته .

هذا الموقف :

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف : الآية 23)

هذا الموقف رفعه إلى أعلى عليين، جعله نبياً، جعله عزيز مصر، جعله في قمة المجتمع، ودخل عليه أخوته وهم صاغرون قال تعالى :

(قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا)

(سورة يوسف : من الآية 90)

فقالوا له : يا أخانا اغفر لنا ذنبنا، فأجابهم: لا تثريب عليكم اليوم، ماذا أراد الله له، أرادوا أن يقتلوه، وضعوه في الجب ليكون عبداً طوال حياته، وأراد الله له أن يكون نبياً وعزيزاً وحاكماً .

إذاً :

كن مع الله تر الله معك و اترك الكل وحاذر طمعك

و إذا أعطاك من يمنعه ثـم من يعطي إذا ما منعك

***

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

الله سبحانه وتعالى أمره هو النافذ من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام :

((ماضٍ فيّ حكمك أبداً ، عدلٌ فيّ قضاؤك))

أحياناً أخ كبير يغتصب ثروة أخيه الصغير، يموت الأب ويترك ميراثاً واسعاً، وهناك أخ كبير وصغير، يأتي الكبير فيغتصب مال الصغير، هكذا أراد، ولكنّ الله له إرادة أخرى، هذا الصغير يوفقه الله فيشتري من الكبير، حتى يصبح الكبير فقيراً وهو أجير عند الصغير .

قد تُطلق هذه المرأة ظلماً، تريد أن تحطمها، أن تسحقها، أن تجعلها في أسفل سافلين، يأتي إنسان آخر فيتزوجها، ويرفع شأنها، ويكرمها، وقد تكون أنت أجيراً عنده، وقد يستخدمك لنقل حاجاته إلى البيت، تفتح لك الباب، تقول لك: ضع الأغراض هنا، أنت ماذا أردت حينما طلقتها؟ أن تحطمها، ماذا أراد الله؟ أراد أن يرفعها، " أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد " .

حتمية نصر الله :

شيء آخر، في القصة إشارة إلى حتمية نصر الله سبحانه وتعالى :

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا)

(سورة يوسف : من الآية 110)

إذا قرأت هذه القصة يمتلئ قلبك ثقة بنصر الله، يمتلئ قلبك ثقة بأنّ الله سبحانه وتعالى لابد من أن يفرِّج عن عباده، حتى إذا استيئس الرسل، يعني حتى أنّ اليأس وصل إلى الرسل، كانوا آخر الناس يأساً، قال تعالى:

(وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة يوسف : من الآية 110)

وهذا مما تشتمل عليه هذه القصة الكريمة .

لفت نظر الناس إلى الكون :

شيء آخر، هناك إشارات في هذه القصة إلى موضوعات عدة، منها لفت نظر إلى الكون، قال تعالى :

(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

دعوة إلى التفكر في آيات الله التي بثها الله في السماوات والأرض .

تقريع للشرك وأهلِه :

شيء آخر، في القصة تقريع لهؤلاء المؤمنين الذين هم في تصرفاتهم مشركون، في عقيدتهم مؤمنون، وفي تصرفاتهم مشركون، هذا الذي يعصي ربه خوفاً من إنسان هو مشرك، هذا الذي يتقاعس عن مجلس علم خوفاً من إنسان أو إرضاءً لإنسان عند الله مشرك، قال تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 103)

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الإشارة إلى التاريخ :

شيء آخر، هناك إشارة إلى التاريخ، قال تعالى :

(أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)

(سورة يوسف)

دعوة إلى الاتعاظ بأحداث التاريخ السابقة .

كلّ أمة كافرة لابد من هلاكها :

وفي القصة إشارة إلى أنّ كل أمة لا تستقيم على أمر الله، وتكذب بآيات الله لابد من أن يهلكها الله سبحانه وتعالى :

(أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)

(سورة يوسف)

علامة الدعاة الصادقين :

وفي نهاية المطاف إشارة إلى علامة سابقة من علامات الدعاة الصادقين، قال تعالى :

(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : من الآية 108)

علامة الداعية الصادق أنه يدعوك على بصيرة لا على عمى .

خاتمة :

في القصة مقدمة فيها إشارة إلى قيمة اللغة العربية، وإلى قيمة أسلوب القصة في التوجيه، والقصة لها مغزى كبير، وهو وحدانية الله سبحانه وتعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : من الآية 19)

وفي القصة تعقيبات وإشارات كثيرة أتيت على ذكرها، وسوف نبدأ بشرح هذه القصة في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (02-11): تفسير الآيات 4 – 10 ، لماذا هي أحسن القصص؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-05-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، ربنا سبحانه وتعالى قال في سورة هود :

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة هود)

بين يدي سورة يوسف :

سورة يوسف تثبيت لقلب النبي عليه الصلاة والسلام :

في سورة هود قص ربنا سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قصص الأنبياء، وما عانوه من أقوامهم، وفي هذه السورة قصة سيدنا يوسف يقص عليه هذه القصة ليثبت به فؤاده، لأنّ هذا النبي الكريم لم يعان من قومه، بل عانى من إخوته، فإذا كانت المعاناة من الأقوام فالنبي صلى الله عليه وسلم له بالأنبياء الصادقين أسوة حسنة، وإن كانت المعاناة من الأقربين فله في سيدنا يوسف أسوة حسنة، ونحن إن جاءتك المتاعب من الأباعد فهذا درس يوضع أمامك، وإن جاءتك المتاعب من الأقارب، من الأهل، من الإخوة فلك في هذا النبي الكريم أسوة حسنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(1)إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(2)نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ)

(سورة يوسف)

لماذا سميت هذه السورة أحسن القصص؟

لماذا سمى ربنا سبحانه وتعالى هذه القصة أحسن القَصص؟ قال بعضهم: لأنّ مغزاها يقوم على العفو والتسامح والرأفة والرحمة، موقف سيدنا يوسف في نهاية القصة من إخوته الذين كادوا له وائتمروا على قتله، ثم وضعوه في الجب، كان موقفه موقفاً إنسانياً رقيقاً رحيماً .

وقال بعضهم: لأن فيها ذكرى الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والعلماء والتجار، فيها ذكر الحب الأبوي، والغيرة، والمكر والخداع ،والعفو والفرح، وفيها ذكر البيئات بيوت الملوك، وقصور الملوك والأسواق والسجن، فيها أشياء منوعة جداً، ومواقف إنسانية، وبيئات بشرية، وما إلى ذلك .

(وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ)

(سورة يوسف)

تحدثت في الدرس الماضي عن هذه الآية، وكيف أنّ النبي عليه الصلاة والسلام جاء بقصص لا يعلمها أحد مما نثبت به نبوته، وقد جاءت في الكتب السابقة .

مشاهد قصة يوسف عليه السلام :

الآن مع المشهد الأول إن صحّ أنّ لهذه القصة مشاهد :

المشهد الأول :

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

(سورة يوسف)

منزلة الابن عند والديه :

سيدنا يعقوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام له ولدان من زوجة، وأحد عشر ولداً من زوجة أخرى، سيدنا يوسف وأخوه من زوجة كانا صغيرين، وكانا أثيرين على قلبه، كان يحبهما حباً جماً لأسباب كثيرة، قد سئلت أم: أيّ أولادك أحبُ إليك، قالت: " الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يرجع، والمريض حتى يشفى "، على كل، كان هذا الابن وما حباه الله من وسامة وجمال، ورقة ونعومة، وتحبب إلى قلبه، كان سيدنا يوسف آثَرَ الأولاد إلى قلب أبيه، رأى رؤيا، والرؤيا لها بحث يطول، ما منا واحد إلا ويرى في المنام رؤى، هل هذه الرؤى باطلة؟ وما فائدتها؟ ولماذا يرى الإنسان ؟

الرؤيا حياة نفسية :

بادئ ذي بدء، حينما يرى الإنسان في المنام رؤيا لا شك أنّ نفسه تنفصل عن جسده، مما يثبت الحياة النفسية أنّك قد تكون نائماً فتنتقل من مكان إلى مكان تفرح أو تحزن، تسعد أو تشقى، تتألم أو تُسر، كل هذا وأنت في الفراش، إذاً: لك حياة نفسية ثابتة، والله سبحانه وتعالى حينما جعل الرؤيا من لوازم بني

آدم، من لوازم النفس الناطقة، الرؤيا من لوازم النفس الناطقة، حينما جعل الرؤيا من لوازم النفس الناطقة جعل لها هدفاً كبيراً .

الرؤيا ثلاثة أنواع :

العلماء قالوا: الرؤيا من الله عز وجل، أو من المَلك، أو من الشيطان، بعضهم قسمها تقسيماً آخر: رؤيا من الشياطين، هي أضغاث أحلام، لا معنى لها، تناقض، تضارب، يصعب تفسيرها، أغلب الظن أنّها تأتي بعد عشاء دسم، أو أنّ الرؤيا تعبير عن رغبات جامحة تعسر على صاحبها أن يحققها في النهار، رغبات مكبوتة يراها الإنسان في منامه، الرغبات المكبوتة هي أضغاث الأحلام، أو الرؤى أو المنامات التي يراها الإنسان من قِبَل الشياطين هذه خارج موضوعنا اليوم، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد يتفضل على إنسان فيريه رؤيا من عنده، قالوا: هذه الرؤيا التي من عند الله سبحانه وتعالى لا تحتاج إلى تفسير لشدة وضوحها، والرؤيا التي تكون من قِبَل المَلك تحتاج إلى تأويل ، من هنا كان تأويل الرؤيا .

الرؤيا الصالحة من المبشرات :

وفي الحديث عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَنْ يَبْقَى بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ، فَقَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوْ تُرَى لَهُ، جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ))

موطأ مالك

النبي عليه الصلاة والسلام والأنبياء جميعهم عليهم الصلاة والسلام يأتيهم الوحي، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يبشر عبده المؤمن، أو أن يحذره، أن يعلمه بمقامه، أن يشجعه، أن يخيفه، أن يبعده عن معصية، ما الطريق لنقل هذه البشارة أو هذا الإنذار؟ هذا التخويف، هذا الوعد، هذا الوعيد، هذا التعريف، هذا الإعلام، ما الطريقة؟ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَنْ يَبْقَى بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ، فَقَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوْ تُرَى لَهُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ))

موطأ مالك

أحياناً يراك أخوك في المنام بحالة راقية، وأنت تدعو إلى الله، وأنت تفعل الصالحات، وأنت في الحج، وأنت في العمرة، هذه الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له، على كلٍّ؛ الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه رأى في المنام مَلَك الموت فقال: يا مَلَك الموت، كم بقي لي في الحياة؟ فأشار مَلَك الموت بكفه هكذا مبينا لها خمسة، فلما أفاق وقع الإمام مالك في حيرة شديدة، أترى بقي له خمس

سنوات، أم خمسة أشهر، أم خمسة أيام، أم خمس ساعات، أم خمس دقائق، أو خمس ثوان؟ فتوجه إلى ابن سيرين، وكان عالماً بالتأويل، فقال: يا ابن سيرين، رأيت كذا وكذا، فقال: يا إمام، يقول لك مَلَك الموت: إنّ هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله .

فالرؤيا حق، ولولا أنّها حق لما جعلها الله سبحانه وتعالى من لوازم ابن آدم، والشيء الثابت أنّ الرؤيا تؤكد الحياة النفسية، فالإنسان قد ينام نوماً مُسعداً، قد يستيقظ على رؤيا صالحة يتمنى أن لا يفيق، يتمنى أن تبقى حاله أياماً طويلة، يزعجه أن يرى نفسه في الفراش، أن يرى نفسه في البيت، وقد يرى رؤيا مخيفة تبث في قلبه الرعب، وترتعد فرائصه، على كل بعض العلماء قالوا: الرؤيا على أربعة أقسام، إن كنت مستقيماً على أمر الله ورأيت رؤيا سعدت بها فهذه بشارة من الله سبحانه وتعالى، وإن كنت مستقيماً على أمر الله ورأيت رؤيا فزعت منها، فهذا تخويف من الشيطان لا تلتفت إليها، من رأى رؤيا حسنة فليقصها على من يحب، ومن رأى رؤيا غير حسنة فلا يقصها على أحد، وليستعذ بالله منها، لا تقصها على أحد .

ماذا يفعل مَن رأى رؤيا مفزعة؟

وشيء آخر، كان عليه الصلاة والسلام يأمرنا أننا إذا رأينا رؤيا أفزعتنا فلنقم ولنصلّ، بشكل مختصر الرؤيا وسيلة من وسائل الاتصال بين المؤمن والله سبحانه وتعالى، وبشكل أوسع بين العبد وبين ربه، لأن العبد الضال الشارد قد يرى رؤيا تتحقق، على كل إذا رأى رؤيا أفزعته وكان غير مستقيم على أمر الله فهذه من الرحمن، فإذا كان منحرفاً ورأى أنّه يلبس ثياباً بيضاء وفي بستان جميل فهذه الرؤيا من الشيطان، إنّها توريط له .

أحياناً يأتي الشيطان لبعض الأقارب وقد توفي قريبهم فيراه في المنام بشكل حسن، فيقول: فلان في هيئة طيبة، وقد أكرمه الله ودخل الجنة، ويكون قد أكل المال الحرام، وفعل الموبقات، فهذه الرؤيا من الشيطان، الأصل أن تنظر إلى سلوك هذا الإنسان وعمله، فإن كان مستقيماً ورأى رؤيا أفرحته فهي من الله بشرى، وإن رأى رؤيا أفزعته فهي من الشيطان تخويف، وإن كان منحرفاً ورأى رؤيا أفزعته فهذه من الرحمن تحذير، وإن رأى رؤيا أفرحته فهذه من الشيطان تغرير، أربع حالات .

لكنّ هناك ملاحظة ينبغي أن تعرفوها؛ هي أنّك إذا رأيت رؤيا لا سمح الله أفزعتك فاعلم علم اليقين أنها من الشيطان، ولكن عليك أن تؤمن بالرؤيا لأنّ الله سبحانه وتعالى ذكرها في القرآن الكريم في أماكن عدة .

هذا النبي الكريم، هذا الطفل الوديع، هذا الغلام الوسيم، قال :

(يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

(سورة يوسف)

عناصر رؤيا يوسف : أحد عشر كوكبا والشمس والقمر

أما كلمة(رأيتهم)فلو أنّ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر هي على حقيقتها أحد عشر كوكباً وشمساً وقمراً فيجب أن يقول: رأيتها، هذه جمع مَن لا يعقل، أما حينما قال: رأيتهم، فقد حمل الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً على محمل العقلاء، إذاً فَهِمَ سيدنا يعقوب من هذه الرؤيا أنّ لهذا الغلام الوسيم مستقبلاً كبيراً وشأناً عظيماً في ميدان الدين، وميدان القرب من الله عز وجل، وبعضهم قال: إنّ تفسير هذه الرؤيا أنّ إخوته الأحد عشر وأمه التي هي الشمس، وقيل: خالته زوجة أبيه، لأنّ الخالة بمقام الأم، وقد توفيت أمه، والقمر أبوه ،

(رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

رؤيا الأنبياء حق لابد أن تتحقق :

أي خاضعين .

وبعضهم قال: إنّ الشمس جزأها الأعلى انحنى نحو الأسفل، وهذا معنى السجود، والقمر كذلك جزأه الأعلى انحنى نحو الأسفل، فهذه الرؤيا تعبِّر عن أنّ هذا الغلام الوسيم سيكون له مستقبل في ميدان القرب من الله عز وجل يفوق أباه وأمه وإخوته أجمعين، هذه هي الرؤيا .

(يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ)

فهناك تكرار، إنّي رأيت رأيتهم، ورؤية الأنبياء حق، قال تعالى :

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

(سورة الصافات)

رؤيا الأنبياء حق :

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ)

(سورة يوسف)

نصيحة يعقوب لابنه باخفاء أمر الرؤيا عن إخوته :

عرف هذا الأب الشفوق، وهذا الأب الرحيم، أنّ أخوة يوسف قد تقع في قلبهم الغيرة، وقد يقع في قلبهم الحسد، والشيء الثابت أنّ الأب والأم فقط لا يحسدان ابنيهما، ولا يغاران منه، أما الإخوة فقد تأكل قلبهم الغيرة، وقد يدب الحسد فيما بين الإخوة :

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ)

(سورة يوسف)

من هنا استنبط العلماء أنّ على المرء ألا يظهر ما عنده، وألا يظهر فضله، وألا يبالغ في إظهار علمه، وإظهار المقدرات التي وهبه الله إياها، فلعل أحداً يحسده، ولعل أحداً يتمنى زوال النعمة عنه، وأن تتحول إليه .

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ)

على كل قال عليه الصلاة والسلام :

((استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان))

ورد في الأثر

وقال بعض الشعراء :

ليس الغبي سيداً في قومه لكنّ سيد قومه المتغابي

***

من الذكاء أحياناً أن تبدو وكأنك غبي، إذاً: ليس من المستحب أن تظهر كل ما عندك، أن تزهو على الناس بما وهبك الله عز وجل :

(فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

(سورة يوسف)

الشيطان يحب أن يوقع العداوة والبغضاء فيما بين الناس، وفيما بين الأقارب، وفيما بين الزوجين، وفيما بين الأخوين، وفيما بين الشريكين .

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ

(وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ)

(سورة يوسف)

النبوة اجتباء واصطفاء :

معنى كلمة (يجتبيك) أي يختارك ويصطفيك، وبعضهم فهم أنّ النبوة هبة من الله سبحانه وتعالى، وهي كذلك، لكنها من دون كسب، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

معنى (اصطفى)يعني اختار من بين خلقه المتفوقين، اختار من بين خلقه الصادقين، اختار منهم أنبياء، إذا نظر المعلم في الصف، وتفرس وجوه التلاميذ واحداً واحد فاختار منهم أشدهم أخلاقاً، أرقاهم أخلاقاً، وأعمقهم وعياً، وأشدهم إدراكاً، وأكثرهم تحصيلاً، اختاره، وجعله عريفاً على زملائه، هل نقول: إنّ هذا الاختيار محض صدفة؟ لا إنّه اصطفاء، هل نقول: إنّ العَرَافة هبة؟ نعم ولا، هو اختاره، ولكن لماذا اختاره بالذات؟ لأنّه متفوق :

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

(سورة الأنبياء)

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ)

(سورة يوسف)

لا فرق بين العباد إلا بالطاعة :

يجب أن تعلم علم اليقين أنّ الخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بين الله وبينهم قرابة إلا طاعتهم له :

كُن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب

((أنا جد كل تقيٍ ولو كان عبداً حبشياً))

ورد في الأثر

((ليس بين الله وبين خلقه قرابة، بل القرابة طاعتهم له))

ورد في الأثر

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

البخاري

حينما كان بلال رضي الله عنه يقدم إلى المدينة كان سيدنا عمر الخليفة الراشد يخرج لاستقباله، سيدنا أبو بكر رضي الله عنه أعتقه، اشتراه من سيده وأعتقه، قال سيده: لو دفعت به درهماً واحداً لبعتكه، لقلة شأنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه : << والله لو طلبت ثمنه مائة ألف درهم لأعطيتكها >>، وضع سيدنا الصديق يده على كتفه تعبيراً عن الأخوة، وقال: << هذا أخي حقاً >> .

سيدنا عمر كان بلال وصهيب يدخلان عليه بلا استئذان، جاء أبو سفيان زعيم قريش فوقف في بابه ساعات فلم يؤذن له، فلما دخل عليه عاتبه، قال: << بلال وصهيب يدخلان بلا استئذان ، وأبو سفيان يقف في بابك الساعات الطوال، فقال: يا أبا سفيان أنت مثلهما ! >>، أين الثرى من الثريا؟ أين كنت حينما كانا يعذبان في الله، أين كنت حين كانا يجاهدان في سبيل الله؟ أين كنت حين كانا يخدمان رسول الله؟

ليس بين الله وبين عباده أية قرابة إلا الطاعة، لو أنّك أطعت الله عز وجل لسبقت مائة ألفِ ألف إنسان:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات : من الآية 13)

هذه الآية تكفي :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات : من الآية 13)

بدرت كلمة من سيدنا أبي ذر في ساعة غضب، فقال لصحابي: << يا ابن السوداء، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن غضب غضباً شديداً وأعرض عنه، وقال :

((يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ))

البخاري

فلم يرضَ أبو ذر إلا أن يضع رأسه على الأرض ليطأ رأسه بلال بقدمه حتى كفّر عن سيئته .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ:

((مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

الترمذي

فما بال الناس اليوم يسهرون وينهشون بأعراض بعضهم بعضاً .

يجتبيك ، أي اختارك على علمك ، اختارك لصدقك ، اختارك لما تنطوي عليه من محبة له ، من إخلاص ، من طهر ، من عفاف

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)

(سورة يوسف)

وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

تعبير الرؤيا فضل من الله عظيم :

ويبدو أنّ تأويل الأحاديث شيء عظيم، الله سبحانه وتعالى يتفضل به على بعض خلقه، تأويل الأحاديث أن تعرف ما الذي يعنيه هذا الحديث، ما القصد البعيد من هذا الحديث، هذا شيء عظيم، مما اختص به هذا النبي الكريم تأويل الأحاديث .

معنى التأويل :

ومعنى أوّل مأخوذ من فعل أوَلَ، وأوَلَ يعني أرجعَ الحديث إلى أصله، إلى مقصد قائله، ماذا أراد الله بهذا الكلام :

(وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)

(سورة يوسف)

وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

نِعم الدنيا بلا هدى نِقَمٌعلى صاحبها :

العلماء قالوا: تمام النعمة الهدى، لو أنّك تملك نعم الأرض كلها ولم تكن مهتدياً فهذه كلها ليست نعماً، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

(سورة الدخان)

ليست نعمة، يمكن أن تمثل الهدى بواحد، والمال بصفر أمامه، المال والهدى نعمتان متكاملتان، يمكن أن تمثل الزوجة الصالحة بصفر آخر، صاروا مائة، يمكن أن تمثل الأولاد الأبرار بصفر ثالث، صاروا ألفا، يمكن أن تمثل البيت الواسع بصفر رابع، صاروا عشرة آلاف، يمكن أن تمثل المركب الوطيء بصفر سادس، صاروا مليونا، يمكن أن تمثل أن يكون رزقك في بلدك بصفر سابع، فإذا حذفت الواحد فكل شيء أصبح أصفاراً، تمام النعمة الهدى :

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

هذه مقولته، وليس قوله صحيحاً، ليس هذا إكراماً، يعد المال إكراماً إذا كنت مهتدياً، لأنك إذا كنت مهتدياً أنفقته في طاعة الله فكان زاداً لك إلى الأبد، صار المال نعمة، يمكن أن تكون الزوجة الصالحة نعمة إذا عرفت ربها، وكانت محجبة، وكانت مصلية، وكانت طائعة لزوجها، إذاً هذه نعمة، وكان هذا على يدك إذاً تسعد بها إلى الأبد، فإن لم تكن كذلك تشقى بها إلى الأبد، قد يكون الابن نعمة إذا تولى الأب تربيته، وأفلح في ذلك، أما إذا أهمله جاء يوم القيامة يقول: يا رب، لا أدخل النار حتى أُدخل أبي قبلي، فمن تمام النعمة في الدنيا أن تكون زوجته صالحة، وأولاده أبراراً، ومنزله واسعاً، ومركبه وطيئاً، ورزقه في بلده، لكنّ هذه النعم المتعلقة بالدنيا إن لم يكن معها الهدى فلا قيمة لها، إنّ الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

(سورة يوسف)

عليم باصطفاء أنبيائه، حكيم، فهذا النبي الكريم العلامات الدالة على نبوته كثيرة، وإذا سألت عنها فإليك هذه الآية :

(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة يوسف)

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا

الشيطان يشعل نار الفتنة في قلوب إخوة يوسف :

إخوة يوسف اجتمعوا، يبدو أنّ هذه الرؤيا وصلت إليهم، نقلت إليهم بشكل أو بآخر، أو أنّ حبّ أبيهم له وتعلقه به وإيثاره عليهم هو الذي جعل في نفسهم هذا الحسد والضغينة، على كل :

(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ)

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ :

نحن رجال أشداء، نحن عون لأبينا، يجب أن يلتفت إلينا، يجب أن يحبنا نحن مكان يوسف، نحن الذين نعينه، وندافع عنه، ونلبي حاجاته، فما باله يُعنى بأخينا الصغير؟ فاتهم أنّ هذا الصغير بشّره الله سبحانه وتعالى بمستقبل عظيم، وكانت علامات الوسامة والنجابة والوداعة والرقة والنعومة بادية عليه،

قال تعالى :

(اقْتُلُوا يُوسُفَ)

(سورة يوسف)

هذا ما استقر عليهم رأيهم ابتداء : اقْتُلُوا يُوسُفَ

إيّاكم وسفكَ الدم الحرام :

جاء الرأي أن يقتلوه ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا))

البخاري

(مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة المائدة)

إن قتلها لعل هذه المقتولة تكون شخصية خطيرة في المجتمع، لعل هذه النفس المقتولة تكون مصلحاً اجتماعياً، عالماً كبيراً ربانياً، فإذا قتلتها قتلت الناس جميعاً، وإذا أحييت نفساً بالهدى فكأنك أحييت الناس جميعاً، قد يهتدي الإنسان على يديك، ويهتدي بهداه مائة ألف أو يزيدون، إنّك سبب هداية كل هؤلاء، حينما هدى الله بك هذا الإنسان، لذلك لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، خير لك من حُمَر النعم، خير لك من الدنيا وما فيها، ما بال الناس يزهدون بهذا العطاء المغري، هذا عرض مغر، خير لك من الدنيا وما فيها، خير لك مما طلعت عليه الشمس، لو أنك تملك بيوت الشام كلها، كل بيت بمليونين وسطياً، كم تملك؟ لو أنك تملك الأسواق التجارية كلها، كل متر بمائتين وخمسين ألفاً، كم تملك؟ لو أنك تملك المدن كلها، المعامل الضخمة كلها، كم تملك؟ هذه المعامل الضخمة التي يوزع إنتاجها في أنحاء العالم، لو أنك تملك بيوت الأرض، والأراضي في كل أنحاء القارة، والمدن بأسواقها ومحلاتها وحدائقها وجسورها ومتنزهاتها، لو أنك تملك المعامل كلها :

عَنْ ابْنَ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((وَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

سنن أبي داوود

هذا العرض المغري لماذا يبتعد الناس عنه؟ لذلك إذا تعلمت فعلّم، إذا فهمت آية فعلّمها :

عَنْ عُثْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

صحيح البخاري

لا يحزن قارئ القرآن، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، العلم خير من المال، لأنّ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تُنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، << يا كُمَيل مات خُزّان المال وهم أحياء ـ في أوج حياتهم ميتون ، في أوج شبابهم ميتون ـ والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة >>، لذلك :

(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ(7)إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(8)اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا)

(سورة يوسف)

بعض الشر أهون من بعض : أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا

(أرضاً)هذه نكرة، اطرحوه أرضاً ، يعني أرضاً لا يعرفها أحد لئلا يعود إلى أبيه.

(يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

(سورة يوسف)

يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ

تفكير غير صحيح : قصد المعصية ابتداء والتوبة انتهاء :

في هذه الآية شيء دقيق جداً، مثلاً: يستطيع أحدنا أن يقول: أنا أفعل هذه المعصية، وبعدها أتوب إلى الله عز وجل، ويقبل توبتي، وأكون من الصالحين، هذا مستحيل، لا تقبل التوبة إلا إذا ارتكب الذنب عفواً عن غير قصد، إذا ارتكب عن قصد وتصميم فهيهات أن يتوب صاحب هذا الذنب، إنّ هذا تخطيط، بعد أن نقتل أخانا يخلُ لنا وجه أبينا، وبعدها نتوب إلى الله، يقبلنا الله عز وجل، نكون من بعده قوماً صالحين، شيء مضحك، لا تقبل التوبة إلا إذا كان ارتكاب الذنب عن غير قصد وتصميم، أما إذا كان هناك تخطيط فهذا استهزاء بالله عز وجل، والتوبة مرفوضة، قال تعالى :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الأنعام)

يجب أن يكون عمل السوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح، أما أن أفعل هذه المعصية وبعدها أتوب، وتقبل توبتي، وأكن من الصالحين فلا، قال لي ذات مرة رجل: إذا فعلت هذا العمل هل هو حرام أم حلال؟ قلت له: حرام، قال: أفعله وأتوب، قلت: هيهات أن تتوب، لن تتوب، فهؤلاء إخوة يوسف قالوا :

(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

(سورة يوسف)

تفاوت المواقف عند الناس :

القائل منهم يبدو أنّه أعقلهم، وقيل: أكبرهم، وهذا يؤكد تفاوت المواقف، أي أن الإنسان مخير، بعضهم رأى أنّ القتل أولى، بعضهم رأى أنّ شيئاً آخر هو التغييب عن الأب :

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ)

(سورة يوسف)

رأي آخر :أَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ

بئر على طريق القوافل، ضعوه في البئر بحيث لا يستطيع الصعود، ولابدّ من أن تمر قافلة، إن أدلت بدلوها يتعلق بهذا الدلو، وتأخذه على أنّه بضاعة، فتبيعه في سوق العبيد، وعندئذ لن يرجع إلى أبيه :

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ)

(سورة يوسف)

السيارة هنا القافلة التي تسير .

(إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

(سورة يوسف)

فكأنّه يقول: إن صرفتم النظر عن هذا كله فهذا أولى، أما إذا كنتم مصرين على فعلتكم فهذا العمل أفضل من أن تقتلوه .

خاتمة :

قال الله سبحانه وتعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟

" ما من مخلوق يعتصم بي من دون خَلْقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هويّاً تحت قدميه، وقَطّعت أسباب السماء بين يديه، عبدي خلقت لك ما في السماوات والأرض، ولم أعيَ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين؟ وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأُسَلِطَنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، عبدي لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سَلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد " .

أرجو الله عز وجل ألاّ تكون قراءتنا لهذه القصة كقراءتنا لأية قصة، هذه قصة يتلوها علينا ربنا، وليست العبرة أن نعرف أحداثها، ولا أن نكشف شخصياتها، ولا أن نعرف عقدتها ولا مغزاها، الأولى أن نتخذ منها درساً بليغاً، كن مع الله تر الله معك، سيدنا يوسف غلام صغير لا حول له ولا قوة، ولا شأن، ولا يملك حيلة، ضعيف ألقي في غيابت الجب، في البرية، في الفلاة، حيث لا إنسان، جاءت سيارة أرسلوا واردهم أدلى دلوه، قال: يا بشرى هذا غلام، أسروه بضاعة، اشتراه عزيز مصر، دخل القصر، مكّن الله له في الأرض، رأى الملك رؤيا فسّرها له، رفعه الله إلى مرتبة عزيز مصر، وأين إخوته؟ يقفون على بابه من أجل أن يأخذوا نصيبهم من القمح، للقصة تفصيلات طويلة نأخذها في درس قادم إن شاء الله تعالى، والذي أظنه أنّ هناك استنباطات عديدة لم أتمكن من نقلها لكم في هذا الدرس، أرجو من الله عز وجل أن أنقلها لكم في درس قادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (03-11): تفسير الآيات 11 – 21 ، العناية الربانية لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-05-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون .

وصلنا في قصة سيدنا يوسف إلى أنّ إخوة يوسف استقر قرارهم على قائلهم الثاني :

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

(سورة يوسف)

اقتراحات إخوة يوسف للتخلص من أخيهم :

الاقتراح الأول قتل هذا الغلام الصغير، والاقتراح الثاني وضعه في بئر على طريق القوافل، فإن مات كان هذا هو المراد، وإن أنقذ وأخذ إلى بلاد أخرى كان هذا هو المراد، والمراد أن يفصلوا بين الأب وابنه ليخلو لهم وجه أبيهم، وفي الحديث عَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

سنن الدارمي

من فرّق بين أب وابنه، أو بين أم وابنها، أو بين أخ وأخيه فليس من أمة سيدنا محمد .

ليس في القرآن دليل على أنّ الأسباط أنبياء، أما بعض الآيات التي تذكر كلمة الأسباط عقب ذكر الأنبياء فهذا محمول على أنّ هؤلاء إنّما هم من ذرية بني إسرائيل، وليسوا إخوة يوسف على وجه التحديد .

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ

استدراج إخوة يوسف لأبيهم :

الآن بعد أن أحكموا الخطة، وكادوا لأخيهم، واتفقوا جميعاً، بل وأجمعوا، انتقلوا إلى أبيهم، يبدو من خلال السياق أنّ أباهم ما سمح لهم في الماضي أن يصحبوا يوسف، لقولهم: يا أبانا ، وكلمة(يا أبانا)فيها تحبب، (يا أيها الأب)فيها جفاء، يا أبانا فيها تحبب :

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ)

(سورة يوسف)

هذا استدراج ذكي، سيدنا يعقوب ما خطر في باله أن يأتمروا على قتله، كأن تقول لمن تدعوه على طعام: لعلك لا تحب الطعام، فيقول لك: لا، والله الطعام طيب، ولكنني اكتفيت، سيدنا يعقوب ما خطر في باله أن يقتلوه، فلما قالوا له :

(مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ)

نفى عنه هذه التهمة .

(مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ)

ثم أسرعوا وقالوا :

(وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

أخونا، نحن إخوة له، ثم تابعوا وقالوا: إن كنت تأمنّا :

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ)

(سورة يوسف)

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ

معنى : يَرْتَع :

ما معنى يرتع؟ رتع يعني جلس في مكان جميل وأكل وشرب، تماماً كما تفعل في النزهة تختار مكاناً جميلاً، تجلس فيه، تفتح الزاد وتأكل منه ما لذّ وطاب، هذا هو الرتع، وأساسه الأكل، ترتع البهيمة في الحقل أي تأكل، لكنّ الرتع إذا نُسِب للإنسان كان بمعنى النزهة، واللعب معروف، والنبي صلى الله عليه وسلم أجاز للرجل أن يلاعب أهله كي يستجلبهم، أجاز للرجل أن يلاعب فرسه، أجاز للرجل أن يلاعب أولاده، كان عليه الصلاة والسلام يركب الحسن والحسين على ظهره، ويقول :

((نِعم الجمل جملكما ، ونِعم الحملين أنتما))

كنز العمال عن جابر

قال تعالى :

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ)

(سورة يوسف)

فائدة من قوله : غَدًا

معنى غداً ، من غدا إلى عمله ، إذا ذهب إليه فيما بين طلوع الفجر وشروق الشمس، وراح بمعنى عاد إلى منزله بعد الغياب، فكلمة راح باللغة الفصحى تعني العودة، فلو طرق بابك طارق وقال لك: أأخوك هنا؟ قلت له: والله راح، وهو داخل البيت فقال لك: سلِّم عليه، هل أنت صادق أم كاذب؟ كلمة راح تعني أنه عاد، وأخوك في البيت نقول له: أنت صادق لغة وكاذب شرعاً، لأن الشرع يدور على النتيجة، ماذا فهم منك؟ فهم أنه ليس في البيت، قال تعالى :

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة يوسف)

هذا أخونا، قال سيدنا يعقوب قال تعالى :

(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ)

(سورة يوسف)

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ

شدة حب يعقوب ليوسف :

يعني: إنه ليحزنني أن أفارقه، إنني لا أحتمل أن يبتعد عني، إني لا أطيق فراقه، إني ليحزنني أن تذهبوا به، قال تعالى :

(وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ)

(سورة يوسف)

عذرُ يعقوب لأبنائه :

يبدو أنهم طلبوا من أبيهم أن يأخذوه إلى ظاهر المدينة إلى بادية، إلى صحراء، وإنّ أخوفَ ما في الصحراء ذئابها، ثم عقب سيدنا يعقوب وقال :

(وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

(سورة يوسف)

يعني أنا لا أتهمكم أنتم، أخشى أن تتغافلوا عنه، أن تنشغلوا عنه بسواه فيأكله الذئب،

جواب أبناء يعقوب عن عذره :

كان جوابهم، قال تعالى :

(قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ)

(سورة يوسف)

نحن عشرة رجال أشداء، إن أكله الذئب وهو بين أظهرنا، وهو في حفظنا، وهو على ذمتنا، وهو في عهدتنا، نحن إذاً جبناء، نحن إذاً ضعفاء، نحن إذاً لسنا جديرين أن نرعى غنماً، قال تعالى :

(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

(سورة يوسف)

شدة حرصه عليه وشدة تطمينهم له .

قال تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ)

(سورة يوسف)

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ

أول بوادر المكر والخداع :

ذهبوا به، وقيل: إنّه ودّعهم إلى مسافة من الطريق طويلة، وفي أثناء توديعه إياهم كانوا يحملونه على أكتافهم إرضاء لأبيه، فلما فارقهم أبوهم ألقوه على الأرض، وجعلوا ينتهرونه، ويقولون له: ألم ترَ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر، اتضح أن هذه الرؤيا التي رآها سببت لهم كل هذا الضيق، وكل هذا الحسد، وكل هذه المؤامرة، قال تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ)

(سورة يوسف)

إجماعهم على إلقاء يوسف في البئر :

معنى أجمعوا يعني صمموا .قصةٌ من واقعنا :

حدثني رجل قال لي: كنت أشتري الصوف من البادية، سولت لي نفسي أن أتلاعب بالميزان، فكنت أبلّغ صاحب الصوف رقماً أقلَّ من الرقم الحقيقي عند كل وزنة، فلما انتهيت شعر صاحب البضاعة أنّ

وزنها أقلّ مما يتوقع، فقال لي كلمات خوّفتني، ثم تابعت طريقي إلى الشام، قال لي: في أثناء الطريق أنا في صراع نفسي بين أخذٍ وردٍّ، أأعود إليه وأنقده بقية الثمن أم أسكت؟ أؤجل هذا إلى رحلة قادمة، لازلت في أخذ ورد، وسؤال وجواب، وصراع وحوار، إلى أن كنت في مكان ما في الطريق، ما الذي يحدث؟ هكذا كان، قال: والله الذي لا إله إلا هو ما هي إلا دقائق حتى رأيت نفسي ملقىً على الأرض وسط بحرة من الدم، لقد تدهورت بي السيارة .

كلمة سأجمع تعني إذا ما وقع أحد بمعصية لا يصر عليها، ليطلب من الله التوبة، ليطلب العفو والمغفرة، أما إذا أصرّ عليها فالجزاء يكون وقتئذ عاجلاً، قال تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا)

(سورة يوسف)

طبعاً هناك بعض التفاصيل، تفصيلات طويلة جداً، وحوار ،وسؤال وجواب، وتوسل من أخيهم ألا يجعلوه في غيابت الجب، ارحموا ضعفي، ارحموا والدي، كيف آكل؟ كيف أشرب؟ كيف أنام؟ أنا ضعيف؟ أنا أخوكم الصغير، لكنهم كانوا مصممين على وضعه في هذا المكان، قال تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا)

(سورة يوسف)

بشرى الله ليوسف : لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا

لابد من أن تكبر، لابد من أن تنجو من هذه الورطة، الله سبحانه وتعالى طمأنه، لابد من أن تنجو من هذا المكان، ولابد من أن تكبر، ولابد من أن تنبئهم بفعلتهم هذه وهم لا يشعرون، قد يقابلونك وهم في أمَسِّ الحاجة إليك، ولا يعرفونك أنك يوسف، وقد تفاجئهم بفعلتهم الشنيعة، ولا يشعرون بهذا :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة يوسف)

غفلة إخوة ليوسف :

وهم لا يشعرون أن الله معه ، وهم لا يشعرون أن العاقبة لأخيهم الصغير الذي كان أقربهم إلى الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)

(سورة يوسف)

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ

البكاء سلاح من أسلحة الكذب:

أولاً: بكاؤهم كذب، فيا أيها القضاة لا تصدقوا متهماً أنه بريء إذا بدأ يبكي، فالبكاء قد يكون سلاحاً من أسلحة الكذب .

(وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)

وضعوه في الجب، وكانوا قد أرادوا قتله، ومع ذلك جاءوا يبكون، هذا أول استنباط .

مجيئهم ليلا دليلُ كذبهم :

الاستنباط الثاني: جاءوا عشاءً، ليلاً، والليل أستر لحالهم، أستر لملامح وجوههم، أستر لفعلتهم الشنيعة، قال تعالى :

(وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ(16)قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

(سورة يوسف)

الحُجة الواهية : فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ

قالوا: هذا دم يوسف، قال تعالى :

(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

(سورة يوسف)

يكاد المذنب أن يقول: خذوني، والكاذب يختل توازنه، عرفوا أنهم كاذبون، لذلك أشعروا أباهم بأنهم كاذبون حينما قالوا :

(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا)

(سورة يوسف)

لن تصدقنا، معناها أنتم كاذبون، قال تعالى :

(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

(سورة يوسف)

هذا دليلٌ عليهم : وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

إن كنا صادقين كنت لا تصدقنا، فكيف لو كنا كاذبين حقيقة، قال تعالى :

(وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ)

(سورة يوسف)

قالوا: خلعوا عنه قميصه الموشى، وذبحوا شاة، ووضعوا بعضاً من دمها على هذا القميص، أمسكه سيدنا يعقوب، وقال: أيّ ذئب هذا؟ ما أحكم هذا الذئب! ألم يخدش هذا القميص؟ ألم يمزقه؟ أكل ابني، وترك القميص كما هو، أي ذئب هذا؟ هنا يستدل أنّ الطريق الوحيد لاكتشاف الحقائق العلامات، علامة كذبهم وعلامة افترائهم أن هذا القميص لم يُمسَّ بأذى، كان سليماً، وأن هذا الدم دمٌ مزور، من هنا يستنبط قضاة التحقيق بعض الحقائق من خلال أدلة قد تبدو في نظر الناس تافهة، إنّ هذا الدليل التافه عند قاضي التحقيق دليل مرَجح وكبير . أمّا :

(إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ)

التسابق المشروع :

فقال العلماء: التسابق مشروع، لأنه فيه تدريب للإنسان، وتدريب للدواب أيضاً، فإذا أردت أن تعدّ الخيل للمعركة يجب أن تضمرها، أي تدربها على الجري، والنبي عليه الصلاة والسلام استبق مع السيدة عائشة رضي الله عنها، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلْ اللَّحْمَ، وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا ،فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ : هَذِهِ بِتِلْكَ))

يستنبط من هذه القصة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل بيته بسّاماً ضحّاكاً، كان يقول :

((أَكْرِمُوا النِّسَاءَ فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتِ الْغَالِيَاتِ))

ورد في الأثر

كان يقول :

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي))

الترمذي عن ابن عباس

وكان إذا دخل بيته كان يكنس أرضه، ويرفو ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويضع الإناء للهرة، وربما ماءت الهرة ففتح لها الباب وهو يصلي،

قال تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ)

(سورة يوسف)

لكنّ الاستباق على رهن محرم شرعاً، هذا السباق سباق الخيل، إعطاء الخيل أرقامًا، والمراهنة على هذه الخيل، وتوزيع جوائز ضخمة، هذه من نوع القمار واليانصيب تماماً، وهذا محرم، السبق البريء من دون رهان هذا الذي أحلّه الشرع، قال تعالى :

(وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا)

(سورة يوسف)

استنباط وفراسة : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا

استنبط أنّ هذه قصة ملفقة، وأنّ هذا القميص قد خلع منه خلعاً، وأنّ هذا الدم مزور، وأنّ هناك مؤامرة حاكها إخوته، وأنّ الذي أحس به من قبل قد تحقق، فاتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله، وينطق بتوفيق الله، شَعَرَ أبوه من دون تفصيلات أن إخوته لا يريدون به خيراً، وكأن قلبه أحس بهذا .

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

ما هو الصبر الجميل؟

ما هو الصبر الجميل؟ الصبر الجميل هو الذي لا ترافقه شكوى إلى الخلق ، ويعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم، الصبر الجميل ألا تشكو إلى أحد شكوتك، إن شكوت إلى كافر فكأنما اشتكيت على الله، وإن شكوت إلى مؤمن فكأنما شكوت إلى الله، وشتان بين من يشتكي على الله ومن يشتكي إلى الله، والصبر الجميل لا شكوى لا إلى مؤمن ولا إلى كافر .

(إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

لأنك إذا شكوت مصيبتك لمؤمن حزن لحزنك، وهو عبد فقير لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وإذا شكوت همك إلى كافر شمت بك، لذلك من الدعاء الشريف : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلاَءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ))

صحيح البخاري

والشكوى لغير الله مذلة .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ : << سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)>> .

صحيح البخاري

وكلما ارتفع مستوى الإيمان تجد أنّ المؤمن يستحيي أن يشكو مصيبته لغير الله، ليكن هذا النبي الكريم أسوة لنا في المصائب :

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ : << سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)>> .

صحيح البخاري

هناك أناس إذا ألمت بهم ملمة ملؤوا الدنيا صياحاً وصخباً، ما من أحد يلتقون به إلا ويبثونه شكواهم، يشكون الزمان، يشكون قلة الدخل، من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه .

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

إذا أحبّ الله عبدا ابتلاه :

إذا أحبّ الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه، وإذا لم يحبه تركه هملاً، أنت إذا سمعت من طفل في الطريق كلمة نابية لا تقول شيئاً، بل تقول: مالي وله، أما إذا نظرت إلى القائل فإذا هو ابنك، ماذا تفعل؟ تؤدبه تأديباً شديداً، تقيم قيامته، لماذا فعلت به ما فعلت؟ من شدة حبك له وحرصك عليه، فلذلك الذي يحبه الله سبحانه وتعالى يعالجه، إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له بالعقاب، إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه، إذا أراد الله بعبد خيراً سيّر حوائج الناس إليه، إذا أراد الله بعبد خيراً عاتبه في منامه، فهذا الذي يتابعه الله سبحانه وتعالى على كل ذنب، يتابعه على كل تقصير، يتابعه على كل خروج عن طريق الحق، ليفرح لأن الله يحبه، عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ))

مسند الإمام أحمد

هذا الذي تعالجه سيقدم لك أجزل آيات الشكر، فإذا أصابت أحدنا مصيبة ـ لا سمح الله ـ وما زاد عن أن قال: الحمد لله فقد نجح، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، إِذَا قَالَ حِينَ

يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ))

صحيح البخاري

هذه سجلت لك، لقد ابتلاك الله فنجحت في الامتحان .

قد تجد إنساناً تأتيه مصيبة تافهة جداً فيسبّ كل شيء، يسب الذات الإلهية لمصيبة تافهة، واللهِ رأيت رجلاً خُدشت سيارته خدشاً سبّ الإله سباباً وسب الأنبياء، فقلت: سبحان الله! لخدش طفيف لا يكلف ليرات، لكن يعقوب فقد ابنه، وائتمر إخوته عليه، فقال:

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

(سورة يوسف)

الحِلم سيد الأخلاق :

كاد الحليم أن يكون نبياً، والحلم سيد الأخلاق، والحلم له سبب، ترى أن هذا الفعل من الله، وأنّ هذه المصيبة ساقها الله إليك، وهي محض فضل ورعاية واستحقاق، قال تعالى :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران)

ما من عثرة، ولا اختلاج عِرق، ولا خدش عود، إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفُو الله أكثر .

ليكن هذا النبي الكريم أسوة لنا في المصائب، والمصائب مِحَكُ الرجال، قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

قال تعالى :

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ)

(سورة يوسف)

هذه القصة قصة الذئب غير صحيحة وملفقة، أنتم أردتم له الشر، قال تعالى :

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(18)وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ)

(سورة يوسف)

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ

العناية الربّانية :

تصور أن طريق القوافل طريق في الصحراء، قد تمر به قافلة أو لا تمر، وطفل في ريعان الشباب، في عمر الأزهار أُلقي في بئر ما لها من قرار، كيف أُلقي؟ أُلقي بحبل فالصعود مستحيل، وهناك قرائن أنه ألقي في البئر وقد خُلع قميصه، في البئر الحيّات، والعقارب، والوَحشة، وضيق التنفس، والظُلمة، لا معين، ولا مغيث، ولا دليل، ولا قريب، لا صديق، ولا أب، هذه مصيبة، ولكنّ الله سبحانه قال للنبي عليه الصلاة والسلام :

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : الآية 48)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

***

سيدنا موسى قال تعالى :

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص)

مستحيل، طفل صغير رضيع، يوضع في صندوق ويلقى في اليم! هذه مجازفة ومغامرة، قال تعالى :

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

أمران ونهيان وبشارتان، إذا خفت عليه فألقيه في اليم .

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

سيدنا إبراهيم أُلقي في النار، قال تعالى :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

قال المفسرون: لو أنّ الله قال: برداً، لمات من شدة البرد، ولكنه قال: برداً وسلاماً، الإله هوَ هو، موجود في كل زمان، هاتِ إيماناً كهذا الإيمان، وخذ رعاية وحفظاً كهذه الرعاية .

سيدنا يونس دخل بطن الحوت، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر الموحش، وفي ظلمة الليل، هات مصيبة أشد من هذه المصيبة، لم يبق أمل هنا، وبعض المصائب فيها أمل، كمن احترق محله، لا يزال هناك أمل بأن يشتري غيره، ويعيد تأسيسه، توفيت زوجته فيتزوج غيرها، مات ابنه يستطيع إنجاب غيره، معه مرض السكري يتعايش معه، صار معه مرض فبترت يده لا يزال هناك واحدة أخرى، ويُرَكِّب يدا أخرى اصطناعية، لكن دخل بطن الحوت في ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، هنا البطولة، قال تعالى :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

هذه الآية لنا جميعاً، الفقرة الأخيرة قلبت القصة قانوناً، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

لا تخلو حياتنا من مشكلات، من أزمات وشبح مصيبة، من مرض لم يكن متوقعاً، قل: يا ربِ إنّي كنت من الظالمين، تبت إليك .

فلنعد إلى قصتنا، قال تعالى :

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً)

(سورة يوسف)

من هو الوارد؟

واردهم هو الرجل المكلف بجلب الماء لهم، من ورود الماء أي ذهب إليه، قال تعالى :

(فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ)

(سورة يوسف)

ألا يجب أن يقول الله عز وجل: فلما رفع الدلو، هذا شيء بديهي، العرب تقول: كل كلام تفهمه إذا لم يذكر يجب ألا يذكر، فالبلاغة في الإيجاز، ولولا الحذف والتقدير لفهم كلام العرب الحمير، هكذا قالوا، هناك حذف دقيق، قال تعالى :

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ)

(سورة يوسف)

الحرُّ لا يباع بأيّ ثمن :

يا بشراي، كان يريد شيئاً من الماء، فإذا في الدلو غلام، قال تعالى :

(فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً)

(سورة يوسف)

هذه بضاعة غير نظامية لأنّ الحر لا يباع، وأكل ثمن الحر حرام، وهم يعرفون ذلك فأخفوه كبضاعة، وطمعوا أن يبيعوه في سوق العبيد، ويأكلوا ثمنه، قال تعالى :

(قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

(سورة يوسف)

هو الذي ساق السيارة، الله الذي ساقها في الوقت المناسب، قال تعالى:

(ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)

(سورة طه)

قال تعالى :

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ)

(سورة يوسف)

لماذا بخس؟ لأنهم أخفوه كبضاعة، لا ينبغي أن يباع، هذا لقيط، واللقيط حر، وحينما باعوه فقد خالفوا النظام العام، لذلك أرادوا أن يتخلصوا منه بأبخس الأثمان، إذا كان معك بضاعة غير نظامية تبيعها سريعاً لتنجو من مسؤوليتها، وهذا الذي حصل، قال تعالى :

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ)

(سورة يوسف)

الدراهم كانت تعدّ إذا كانت قليلة، وتوزن إذا كانت كثيرة، مادامت الدراهم معدودة إذاً هي قليلة، وشروه بثمن بخس .

معنى : شَرَوْهُ

معنى شروه باعوه، شرى بمعنى باع، واشترى في الوقت نفسه، قال تعالى :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : من الآية 207)

يعني من يبيع نفسه، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ)

(سورة التوبة : من الآية 111)

تقديم بذل المال على النفس :

والغريب أن في القرآن الكريم ثماني آيات على وجه الحصر قُرِنَ فيها بذل المال مع بذل النفس، وَقُدِّم بذل المال على بذل النفس :

(وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ)

(سورة التوبة : من الآية 20)

والعلماء قالوا: قُدِّم بذل المال على بذل النفس لأنّ بذل المال أهون من بذل النفس، إلا في آية واحدة قُدِّم فيه بذل النفس على بذل المال، هذا في عقد البيع يُذكر الأهم على المهم، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 111)

قال تعالى :

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)

(سورة يوسف)

ما علموا حقيقة يوسف ، لذلك :

كَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِين ما عرفوا أنّ هذا الطفل الصغير الذي باعوه بثمن بخس سيغدو نبياً عظيماً وحاكماً كبيراً لمصر، ما عرفوا ذلك، لذلك الصغار لا يقلل أحد من شأنهم، فهذا الذي أمامك قد يكون مصلحاً اجتماعياً، قد يكون عالماً كبيراً، قد يكون فيلسوفاً، قد يكون داعياً إلى الله عز وجل، قال تعالى :

(وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ(20)وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ)

(سورة يوسف)

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ

من فصولالعناية الربانية بيوسف :

هذا الذي اشتراه إلى اللآن لا ندري من هو، هذه هي العقدة، لا نعلم من هو، قال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ)

(سورة يوسف)

أكرميه شيء ، وأكرمي مثواه شيءٌ آخر، المثوى مكان الثوي وهو الإقامة، إذا كان مكان الثوي مكرماً فكيف بصاحب المقام؟ هذه مبالغة في الإكرام، لم يقل: أكرميه، بل أكرمي مثواه، قال تعالى :

(أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)

(سورة يوسف)

عزيز مصر يتبنى يوسف :

هذا الإكرام مشوب بالمنفعة، وقد يكرم الإنسان أحياناً ليس ابتغاء الإكرام بذاته، ولكن ابتغاء منفعة ما، هذا الإكرام مَشُوب لا قيمة له، لا تغتر بمن يكرمك لمنزلة أو سلطان، فإنها أوشك أمور الدنيا زوالاً، ابحث عن من يكرمك لذاتك لا لما عندك :

رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب

***

قال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)

(سورة يوسف)

استنبط العلماء أن عزيز مصر الذي اشتراه لم ينجب أولاداً، فأراد أن يجعله ابناً له بالتبني، انتهت أول مرحلة من القصة .

قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة يوسف)

من بئرٍ إلى قصرٍ !!!

انتقل من البئر إلى القصر، ومن جفوة الإخوة إلى إكرام السيد .

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ)

هذه بمعنى إذا كان الله معك فمن عليك؟ هذه :

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

هذه :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

أنت تريد، وأنا أريد، والله يفعل ما يريد، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

قال تعالى :

(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ)

(سورة الأنبياء)

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

أرادوا أن يقتلوه فما استطاعوا، أرادوا أن يجعلوه في غيابت الجب فجعله الله في قصر العزيز، نجّاه منهم ومن كيدهم، ومكّن له في الأرض، وهذا هو بعض من مغزى القصة، قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

هذا من مغزى القصة فانتبهوا فإن الأمور اشتباه :

أحياناً أخوان، الأخ الأكبر يأكل كل الميراث، ولا يبقى لأخيه الأصغر شيئاً، الله سبحانه وتعالى يزيد الصغير نجابة وتوفيقاً وغنىً، ويفقر الكبير إلى أن يقف الكبير بباب الصغير، قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

تزوجت امرأة رجلاً فطرق الباب طارقٌ قال: من مال الله، فهمّت أن تعطيه شيئاً من الطعام، وكانا يأكلان دجاجة، فنهرها زوجها وعنّفها، وقال: اطرديه، فطردته، ودارت الأيام، ونشب الخلاف بينهما، وكذلك الشقاق، إلى أن طلقها، وخطبها إنسان ذو مكانة وشأن وغنىً فتزوجته، وبينما هي مع زوجها الجديد طرق الباب طارق، فذهبت لتفتح الباب فاضطربت، قال لها زوجها: من الطارق، قالت: سائل، قال: لماذا اضطربت؟ قالت: لاشيء، قال: قولي، قالت: أتدري من الطارق؟ قال: من؟ قالت: زوجي الأول، زوجي الذي طلقني ظلماً، فقال: أوَ تعلمين من أنا؟ أنا السائل الأول، قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

شريكان اتفقا على تجارة في بلد مجاور، ودفع كلٌ منهما مبالغ طائلة لإنشاء معمل، أحدهما نوى نية سيئة لشريكه، الأول معه مال وفير، معه حرفة، فلما تمكّن الأول من دخائل هذه الصنعة وخصائصها

وخباياها بدأ يزعج شريكه حتى يخرجه من هذه الشركة، فلما علم شريكه بهذا الأمر قال له: أعطني مالي، أعطاه ماله مع أرباحه كلها عداً ونقداً، وكان هذا في لبنان، أخذ هذا ماله جميعه، وعاد به إلى بلده الشام، وما هي إلا أيام حتى نشبت الحرب الأهلية هناك فاحترق المعمل، وسُرق المال، قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

كن عبد الله المظلوم، ولاتكن عبد الله الظالم، لأنّ الله بالمرصاد، هذه بين شريكين، بين أخوين، بين جارين، بين صديقين، بين زوجين، أحياناً يطلقها ظلماً فيرزقها الله عز وجل زوجاً صالحاً خيراً منه، ويرزقه زوجة لا يرى في الدنيا بلاءً أشد منها، تريه النجوم ظهراً، هذه الزوجة تأخذ حق الأولى التي ظلمها، هكذا هو ربنا عز وجل .

هذه القصة ليست للتسلية، وليست لرواية الأحداث، وقعت وانتهت ما لنا ولها، ولكنّ هذه القصة من أجل أن تستنبط منها موعظة وعبرة، الله سبحانه وتعالى مع المظلوم دائماً، فإذا كنت مظلوماً فالله معك، وهو على الظالم، قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة)

فالله على الظالم ومع المظلوم، قال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

لا تكن مع الأكثرية :

لذلك يجب على الواحد منّا أن لا يكون مع الأكثرية التي لا تعلم، لو أخذت الآن ثلاثة آلاف مليون في الأرض الأكثرية لا تعلم، الأكثرية مع الدنيا ، تبحث عن المال وعن المجد في الدنيا، وعن المتعة الرخيصة، قال تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

أنت مع من؟ مع الأكثرية أم مع الأقلية؟ كن مع الأقلية العالمة، ولاتكن مع الأكثرية الجاهلة، كن مع الأقلية المستقيمة، ولاتكن مع الأكثرية المنحرفة، كن مع الأقلية المنصفة، ولاتكن مع الأكثرية الظالمة، كن مع الأقلية، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَطَلَعَتْ الشَّمْسُ فَقَالَ :

((يَأْتِي اللَّهَ قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورُهُمْ كَنُورِ الشَّمْسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَحْنُ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّهُمْ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَقَالَ: طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، فَقِيلَ: مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَاسٌ صَالِحُونَ فِي نَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ))

أحمد

السيئون كثيرون، ومن علامات قيام الساعة تفيض الدنيا لؤماً، يكون المطر قيظاً، والولد غيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً، كن مع الكرام القلة، ولاتكن مع اللئام الكثرة .

هذا هو المشهد الثاني من هذه القصة العظيمة، قصة هذا النبي الكريم حينما ألقوه في غيابت الجب، ثم كيف صار في قصر العزيز معززاً مكرماً، هذا ابتلاء، وربما كان الابتلاء الذي بعده أشد من هذا، من هذا الابتلاء قد يموت جوعاً فيدخل الجنة، قد يموت عطشاً فيدخل الجنة، قد يأكله ذئب حقيقي، قد تلدغه حية في الجب، هذا الابتلاء أهون من الابتلاء الذي سوف يليه .

ابتلاء آخر :وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا

قال تعالى :

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا)

(سورة يوسف)

لو أنّه فعل لدخل النار، لذلك قال الله تعالى :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة : من الآية 191)

لو أنه مات لمات شهيداً، ولكنه حينما يفتن يموت شقياً .

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذا الموضوع .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (04-11): تفسير الآيات 22 – 29 ، الموازنة بين العفيف وسقط المتاع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-06-06

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير :

أيها الإخوة المؤمنون، تحدثنا في درس سابق عن المحنة الأولى والابتلاء الأول والامتحان الأول الذي مرّ به هذا النبي الكريم يوسف عليه السلام، ومهدت في الدرس الماضي إلى أنه بعد أن نقله الله عز وجل من البئر إلى القصر، ومن الوحشة إلى الأُنس، كان قد تحقق بعض ما في رؤياه، والآن إلى ابتلاء آخر وامتحان آخر .

يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

هذه الآية تم شرحها في الدرس الماضي، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

أقوال العلماء في سن الأشُدّ :

وقف العلماء في حيرة من تحديد سن هذا الوصف : فقال بعضهم: في الثلاثين.

وقال بعضهم : في الخامسة والعشرين .

وقال بعضهم: في الثالثة والثلاثين .

وقال بعضهم: إذا كان خط الإنسان البياني في صعود فقبل أن يهبط هو أشُدّ الإنسان، يعني في أوج فتوته وأوج شبابه وأوج صحته .

وقال بعضهم: حينما ينبت شعر ذقنه .

وقال بعضهم: حينما يحتلم .

وقال بعضهم: حينما يبلغ سن الرشد .

هناك أقوال كثيرة، ولكنّ المضمون واحد، حينما بلغ هذا النبي الكريم سن الرشد، وأوج شبابه وقوته وفتوته عندئذ جاء الابتلاء .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

العمر الزمني والعقلي والانفعالي والاجتماعي :

هناك شيء، آخر بالمناسبة، فإنّ علماء النفس يفرقون بين أعمار الإنسان، هناك عُمرٌ زمني، افتح بطاقتك الشخصية، واطرح سنة الولادة من السنة الحالية تحصل على رقم هو عمرك الزمني، وقال معظم العلماء: إنّه أتفه أعمار الإنسان لماذا؟ هناك عُمر عقلي، قد ترى إنساناً ناضجاً، تصرفاته حكيمة، فهذا العمر العقلي أخطر من عمر الإنسان الزمني، وهناك عمر انفعالي، انفعالاته منضبطة، متوازن، لا ينهار بسرعة، هذا عمر انفعالي، وهناك عمر اجتماعي، علاقاته الاجتماعية جيدة جداً، الناس جميعاً يحبونه، هذا عمر اجتماعي، وهناك عمر تحصيلي، أي تناسب عمره الزمني مع صفه الدراسي، وكما قلت قبل قليل: العمر الزمني أتفه هذه الأعمار كلها، لأنّ العالِمَ شيخٌ ولو كان حدثاً، والجاهل حَدَثٌ صغير ولو كان شيخاً، على كل في هذه الآية إشارة إلى أنّ هناك فرقاً بين بلوغ الأشد وبين النبل العقلي، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

بلغ أشده تنصرف إلى القوة العضلية، إلى فتوته، إلى شبابه، أما استوى إلى نضجه الانفعالي، ونضجه العقلي، ونضجه الاجتماعي، وما إلى ذلك، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

ما هو الحكم ؟

1 ـ التمكين في الأرض :

أما كلمة الحُكم فتعني أشياء كثيرة، إنها تعني من جملة ما تعنيه أن الله سبحانه وتعالى مكنه في

الأرض، جعله الوزير الأول عند الملك، جعله حاكم مصر، هذا المعنى الأول، ولكنه لن يصل إلى هذا المنصب إلا بعد أن كان عالماً .

أي آتيناه علماً في طريقة الحُكم، أتيناه علما، كيف يحكم، الحكم علم، والدولة تمثل رأس الأمة المُفكر، هذا المعنى الأول، المعنى الأوسع، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

2 - العقل :

الحكم هو العقل، لو ألقيت محاضرة على طاولة هل تفهم شيئاً، الإنسان إذا ألقيت عليه محاضرة يفهم، لأنّ الله سبحانه وتعالى زوده بإمكانية التعلم، هنا الحكم إمكانية التعلم، ما قيمة العلم بلا هذه الإمكانية؟ الله سبحانه وتعالى وصف الفكر البشري بأنه الميزان، فقال تعالى :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

ما قيمة الكون وعظمته من دون ميزان تعرف عظمة الخالق من خلاله؟ ما قيمة الميزان من دون كون؟ الكون والعقل متكاملان، بالعقل تعرف عظمة الخالق من خلال خلقه، وبالكون يتبدى للعقل عظمة الخالق، لابد من صنعةٍ مُعجزة، ولابد من جهاز يدرك هذا الإعجاز .

إذاً :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

3 - الرؤية الصحيحة :

معنى آتيناه حكماً أي الفهم، أي قابلية الفهم، قابلية التعلم، قابلية الكسب، أي آتيناه عقلاً وفكراً، هذا المعنى الثاني، المعنى الثالث الحُكم هو الرؤية الصحيحة، الإنسان أحياناً يدمر ذاته من رؤية مغلوطة، قال تعالى :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

إذا امتلك الإنسان رؤية صحيحة فقد امتلك كل شيء، أحياناً يرى الإنسان أن المغنم في كسب المال الحرام، هذا أعمى القلب، والمؤمن يرى أنّ الغنيمة في كسب المال الحلال، أحياناً يرى الإنسان أنّ الغنيمة في العدوان على أعراض الناس، و يرى المؤمن أن الغنيمة في قناعته بما آتاه الله، إذاً الفرق

بين السعيد والشقي، الفرق الجوهري بين أن تكون في الأوج وأن تكون في الحضيض، هذه الرؤية الصحيحة .

فمن معاني الحُكم أنّ الحُكْمَ إصابة الحُكْم، الحُكم على الأشياء، قد تحكم على إنسان كسب مالاً حراماً بأنه ذكي هذا هو العمى بعينه، وقد تحكم على إنسان كسب مالاً حراماً بأنه غبي هذا هو الحكم الصحيح، فالحكم أن تصيب الحكم الصحيح على الأشياء، أي أن تكون تقديراتك صحيحة، أن تأتي مطابقة للواقع، هذا هو المعنى الثالث، الحكم من القدرة على إصابة الحكم الموضوعي .

4 ـ الحكمة:

والمعنى الرابع: الحكم هو الحكمة، وهو أن تكون متعلماً علماً ومطبقه في الوقت نفسه، فالعالِم الذي يعمل بعلمه هو الحكيم، أما إذا تعلم المرء علماً ولم يطبِّقه في حياته فليس بحكيم، العلم حجة عليه، لا يكون العلم حجة له إلا إذا طبّقه .

والمعنى الأخير للحكم: من الحكمة، أي أن تضع كل شيء في موضعه، أن تكون قاسياً في موطن القسوة، وأن تكون متسامحاً في موطن التسامح، أن تكون رحيماً في موطن الرحمة، أن تكون متشدداً في موطن الشدة، أن تكون كريماً في موطن الكرم، أن تكون حريصاً في موطن الحرص، الأحمق حيث يجب أن يكون كريماً وبخيلاً، وحيث يجب أن يبخل يتكارم، حيث يجب أن يعفو ينتقم، وحيث يجب أن ينتقم يعفو، فالحكمة أن تضع كل شيء في موضعه الصحيح، أن تكون لك مواقف حكيمة .

نعيد على أسماعكم المعاني العدة المستنبطة من كلمة الحكم :

الحكم أولاً: أن تكون حاكماً، ولما بلغ أشده واستوى جعلناه عزيز مصر، والحاكم يحتاج إلى علم، لأن الحاكم عقل الأمة، دماغها المفكر، أي علمناه كيف يحكم أو جعلناه حاكماً لأنه كان عالماً، هذا هو المعنى الأول .

والمعنى الثاني: الحكم بمعنى أن تكون عالماً عاملاً مطبّقاً، كل الناس هلكى إلا العالمين، والعالمون هلكى إلا العاملين، والعاملون هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم .

والمعنى الثالث: الحكم هو إمكانية الفهم، هذا الذي آتاه الله قدرة فائقة على الفهم السريع والإدراك الخاطف والإدراك العميق والإدراك الدقيق والإدراك الصحيح، هذه نعمة كبرى ينعم الله بها على بعض عباده .

شيء آخر، الحكمة أن تضع كل شيء في موضعه، تعرف متى تبتسم، متى تُقَطِّب، متى تسمح، متى تحاسب، متى تعفو، متى تصفح، متى يجب أن تكون قوياً، متى يجب أن تكون ضعيفاً أو أن تبدو

ضعيفاً، متى يجب أن تُظهر أنك غبي .

ليس الغبي سيداً في قومه لكنّ سيد قومه المتغابي

***

من الذكاء البارع أن تبدو في بعض المواقف الحرجة أنك غبي، من الذكاء اللامع أن تبدو وكأنك مسكين في بعض الحالات، فحينما تضع لكل شيء موضعه، حينما تسلك السبيل الصحيح فأنت حكيم، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

العلم :

والعلم واسع جداً، إنّ الله عالِمٌ يحب كل عالم، العلم بالله وعلامته خشيته، والعلم بالله من أرقى العلوم، والعلم يشرف بشرف موضوعه، فأي علم تعلمته؟ فلان تعلّم الفيزياء، الموضوع القدرة والطاقة والمادة وتحولاتهما، متعلم علم كيمياء، هناك صفات كيميائية تطرأ على العنصر تعلّمِها وتعلّم قوانينها، هناك عالِم بالطب، هناك عالِم بالفلك، هناك عالِمٌ بالرياضيات، هناك عالِمٌ بالشرع، وهناك عالِم بالله، فإذا كان العلم يشرف بشرف موضوعه فأرقى العلوم جميعاً أن تكون عارفاً بالله سبحانه وتعالى، هذا هو أرقى العلوم قاطبة، ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً، علماً بنا، علماً بشرعنا، وعلماً بتفسير الرؤى، وعلماً بأمور الدنيا، قال تعالى :

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

فكأن كلمة علم هنا شملت العلم بالله، والعلم بأمر الله، والعلم بمخلوقات الله، أو العلم بالحياة، قال تعالى:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

لو أن الله سبحانه وتعالى أنهى الآية عند هذه الكلمة، إذاً ليس هذا الكلام كلام الله، لماذا؟ لماذا آتيته علماً وحكماً يا رب؟ لكن ربنا عز وجل قال :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

عطاء الله يجري بأسباب وقوانين :

بيّن الله سبحانه وتعالى أن عطاءه وفق أسس ثابتة، أنّ عطاءه يجري مجرى القانون، عطاء الله سبحانه وتعالى ليس جزافاً، ملك الملوك إذا وهب بعضهم يقول: لا تسألنّ عن السبب، ليس هناك قاعدة، هذا كلام مغلوط ، عدّلت هذا البيت تعديلاً طفيفاً :

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألنّ عن السبب

الله يـعطي من يشاء فقف على حدِّ الأدب

عطاء الله سبحانه وتعالى وفق أسس ثابتة، كيف تمنح الدولة منحاً للموظفين؟ أسس، من كان راتبه كذا وكذا، يأخذ على المائة الأولى كذا، والمائة الثانية كذا، والمائة الثالثة كذا، وعلى كل ولد كذا، هذا عطاء إنسان .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

العطاء سببه، إنّ هذا العطاء لم يكن جزافاً، إنما كان وفق أسس عادلة صحيحة، هذا المعنى الأول .

قصة يوسف قانون :

والمعنى الثاني: وكذلك نجزي المحسنين ، قلبَ هذه القصة إلى قانون ثابت ، والعلماء يقولون : إنّ كلمة وكذلك نجزي المحسنين تصنف في كتاب الله تحت عنوان كلمات الله ، يعني نواميسه في خلقه ، الأسس الكبرى التي يعامل بها عباده.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

أنت أيها الإنسان، يا فلان الفلاني، يا من تعيش في عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين، يا من تعيش في هذا العام، إن الذي انطبق على سيدنا يوسف ينطبق عليك، كن محسناً، وانظر كيف يعاملك الله سبحانه وتعالى، لا أجد آيات في كتاب الله أشفى للغليل من هذه الآية، قال تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية)

هذا من خامس المستحيلات، قال تعالى :

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

(سورة الجاثية)

بيت هذا كبيت هذا، لا والله، زوجة هذا كزوجة هذا، لا والله، دخل هذا كدخل هذا، لا والله، أولاد هذا كأولاد هذا، مكانة هذا كمكانة هذا، قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

(سورة ص)

فلذلك هذه بشرى للمؤمنين، كما أن هذا النبي الكريم بلغ ما بلغ بإحسانه، وصل إلى ما وصل إليه باستقامته، رفعه الله مكاناً علياً لعفته، الباب مفتوح، والطريق سالك، والإله موجود، والله هو هوَ، ومعاملته هي هيَ، وقوانينه هي هيَ، لا تتبدل ولا تتغير ،ولا تعدّل ولا تجمد، ولا توقف، ولا يضاف عليها، ولا يحذف منها، أبشروا، كن له كما يريد يكن لك كما تريد، سلّم له فيما يريد يجعل حياتك كما تريد، لذلك قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

هكذا نجزيهم على مر الأيام، على مر العصور، في كل الأصقاع، في كل الأقاليم، في كل البلاد، في البلاد المتقدمة و البلاد المتخلفة، وفي شرق الأرض وفي غربها، في شمالها وفي جنوبها، على البر وفي البحر وفي الجو، قد تحترق طائرة، ولا ينجو منها إلا واحد، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 22)

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : الآية 48)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : الآية 38)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدًّا)

(سورة مريم)

هكذا هذه الآية، يجب أن تكون في قلوبكم جميعاً، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

ما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب، إذا استرذله، رآه رذيلاً، تافهاً، سخيفاً، شهوانياً، أنانياً، مستعلياً، دنيء النفس، شهواني السلوك، ماذا يفعل معه؟ يبقيه غنياً، يبقيه قوياً، يعطيه الدنيا كما يشتهي، يفتح له أبواب الدنيا كلها، قال تعالى :

(فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : الآية 44)

ولكنه يحظر عليه شيئين فقط العلم والأدب، ما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب، فإذا أحبه آتاه حكماً وعلماً، إنّ الله أعطى فرعون المُلك وهو لا يحبه، وأعطى قارون المال وهو لا يحبه، وأعطى الأنبياء العلم والحكمة وهو يحبهم، فانظر أيها المؤمن عطاؤك من أي نوع علم وحكمة؟ علم وأدب؟ أم مال وجاه ؟

أحد العلماء قال: من أحسن عبادة الله في شبيبته، أي الشباب، آتاه الله الحكمة في اكتهاله، إذا صار كهلاً تجده وقوراً، حليماً، حكيماً .

الآن دخلنا إلى عقدة القصة، قال تعالى :

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

امتحان آخر : وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ

المراودة :

راودته امرأة العزيز، وبعض العلماء يقولون: إنّ هناك نظرات وإغراءات وأخذاً وردّاً من امرأة العزيز، ولكنّ الله سبحانه وتعالى اكتفى بالموقف الأخير لأنه أشد المواقف جرأة وأشدها وقاحة، وأشدها حتماً

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

ومعنى راودته: بمعنى دعته دعوة رقيقة هادئة، دعته إلى نفسها، وراودته التي هي في بيتها عن نفسه، دعته إلى أن يكون كزوجها، قال تعالى :

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ)

(سورة يوسف)

إحكام غلق أبواب القصر :

لمَ لمْ يقل الله سبحانه وتعالى: غَلّقت، بل غَلّقت، لأن فيه مبالغة، قال العلماء: وزن فعّل يفيد التكثير، إما تكثير الأبواب أو المبالغة، فإذا كان لهذا المسجد سبعة أبواب، أو خمسة أبواب نقول للقيِّم عليه: أغلّقت

الأبواب، لا نقول له: غَلّقت الأبواب، لأن الأبواب كثيرة، أغلّقتها، وإذا كان باب الصندوق الحديدي وفيه ثروة طائلة نقول له: أغَلّقته، يعني أقفلته، فإما وزن فعّل في الإغلاق يعني المبالغة الإرتاج، وإما يعني كثرة الأبواب .

يروى أنّ رجلاً راود امرأة عن نفسها، وغلّق الأبواب كلها، فقالت له كلمة جعلته يقع مغشياً عليه، قالت: انظر، هناك باب واحد لا تستطيع أن تغلقه، لو غلّقت كل الأبواب فهناك باب واحد لا تستطيع أن تغلقه؛ إنّه باب السماء، عندئذ وقع مغشياً عليه، وأدركته الخشية، وترفّع عن هذا العمل .

امرأة العزيز غلّقت الأبواب، وراودته التي هي في بيتها عن نفسها، ودَعته إلى المعصية الكبيرة، دعته إلى خيانة زوجها، قال تعالى :

(وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ)

(سورة يوسف)

وَقَالَتْ هَيْتَ

هناك سبع قراءات لـ (هيت)، قالت : هَيْتَ لك، أي تعال وأقبل، وهِيْت لك، وهَيْتِ لك، وهِئْتُ لك، أي تهيأت لك، إما تعال وأقبل، أو تهيأت لك، هِئْتَ لك، وهِئْتُ لك، وهِئْتِ، وهَيْتَ، وهَيْتِ، كل هذه دعوة صريحة إلى أن يرتكب المعصية معها، قال تعالى :

(وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ)

(سورة يوسف)

جواب المخلَصين :مَعَاذَ اللَّهِ

أعوذ بالله أن أفعل هذا، هذا موقف الأنبياء، هذا موقف المؤمنين، فما قولكم بالأنبياء؟ قال تعالى :

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان)

هذه ليست (لا)الناهية، لم يقل الله عز وجل : ولا تزنوا، بل قال :

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان)

ينفي عنهم الزنى، فمستحيل في حقهم أن يزنوا، لكن بعض المفسرين سامحهم الله أورد روايات ما أنزل الله بها من سلطان، أنه بلغ منها مبلغ الرجال، وكان على وشك أن تقع الفاحشة، لولا أنّ الله سبحانه وتعالى أخرج له أباه من الجدار، وعضّ على إصبعه، لولا أنّ ملكاً نزل من السماء، ودفعه في

صدره فخرجت الشهوة من أنامله، لولا أنّه حينما استلقى رأى آيات القرآن مكتوبة على السقف، هذه روايات إسرائيلية ما أنزل الله بها من سلطان .

مثلاً: إذا عرضت على أحد ما مبلغا من المال كرشوة وقال لك: أعطني إياه، عدّه، وضعه في جيبه، وبعد ساعة، أو بعد نصف ساعة قال لك: لا والله لا آخذه، هذا نقص كبير لمجرد أنّه تردد في الأمر، لمجرد أنّه همّ أن يأخذه، لمجرد أنّه قَبِلَ أن يأخذه مبدئياً فقد وقع في نصف الذنب، فإذا قلنا: إنّ هذا النبي العظيم أغرته سيدته، وهمّ أن يواقعها، وبلغ منها مبلغ الرجال، وتفصيلات ما أنزل الله بها من سلطان، إلى أن رأى أباه في الحائط يعض على إصبعه، إلى أن رأى السقف قد كُتِب آيات قرآنية، إلى أن جاء ملك، ودفعه من صدره فأخرج بذلك الشهوة من أنامله، لا والله ما أنزل الله بهذا من سلطان، قال تعالى:

(وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ)

(سورة يوسف)

أعوذ بالله أن أفعل هذا، مستحيل أن أفعل هذا، هذا لا يليق بي، قال تعالى :

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف)

إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ

هذه لها تفسيران :

المعنى الأول :

رب العزة الذي نقلني من البئر إلى القصر، من الوحشة إلى الأنس، من الجوع إلى الشبع، من العطش إلى الري، من الضياع إلى العناية، أنا أعصيه؟! أتجاوز أمره؟ أفعل ما نهاني عنه معاذ الله؟

المعنى الثاني :

أما التفسير الثاني: ربي يعني سيدي، هل أخون سيدي؟ زوجك الذي رباني وأنشأني في هذا القصر، وأكرمني أخونه في زوجته، معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي وأخونه؟ أهذا هو الكرم أن أرد على الإحسان بالإساءة؟ معاذ الله :

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

قال عليه الصلاة والسلام :

((الإيمان عفة عن المحارم))

ورد في الأثر

((الإحسان عفة عن المحارم ، عفة عن المطامع))

ورد في الأثر

((الإيمان عفيف عن المحارم ، عفيف عن المطامع))

ورد في الأثر

والعلماء فرّقوا بين اللذة والسعادة، اللذة تأتي من ممارسة الشهوة، ولكنّ السعادة تأتي من ترك الشهوة، إذا تركت شهوة لا ترضي الله عز وجل تسعد إلى الأبد، ألا يا رُبّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً، ألا يا رُبّ أكلة منعت أكلات، قال تعالى :

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة يوسف)

الزنى ظلمٌ :

الزنى ظلم، ظلمٌ للنفس قبل كل شيء، لأن الزاني محجوب عن الله عز وجل، مقطوع، سيدنا عثمان كان على المنبر فقال : << أيدخل أحدكم وأثرُ الزنى بين عينيه؟ فقيل: يا خليفة رسول الله، أوَحيٌ بعد رسول الله؟ قال: لا، اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله >>، وينطق بتوفيق الله، فالمستقيم تظهر استقامته في وجهه، سيماهم في وجوههم، لو أنّ الوجه الحسن رجلٌ لكان رجلاً صالحاً، العفيف في وجهه، البريء في وجهه، الصافي في وجهه :

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 21)

الزنى ظلم، ظلم للإنسان، والزنى ظلم للمزنيِّ بها، هذه التي زنيت بها لا سمح الله لو جاءتك يوم القيامة، وقالت لك: أنا أختك في الإنسانية، إنك بهذا العمل مرّغتني في الوحل، وجعلتني أشقى نساء الأرض، حينما ذهب جمالي نبذني الناس إلى قارعة الطريق، صرت متسولة، أهذا يرضيك؟ لو كنت الآن زوجة لخمسة شباب بعضهم أطباء، بعضهم صيادلة، بعضهم تجار، هذا جاءني، وقال: يا أمي، هل لك حاجة، ولي بنات زوجتهم، كنت سيدة أسرة كبيرة .

قال لي شخص: طرق الباب الساعة الرابعة فجراً فتحت فلم أجد أحداً، فلما وقعت عيني على الأرض رأيت محفظة كبيرة، فتحتها فوجدت غلاماً، طفلاً مولوداً لتوه، قلت: سبحان الله! حينما يتم زواج شرعي، وتحمل المرأة الأهل يفرحون، يُعد لهذا المولود، يجهز له مهاده، تجهز له ملابسه، تعيش

الزوجة في حلم الولد بعد أشهر والأب كذلك، يأتي المولود، يأتي الناس مهنئين، تأتي الهدايا، يفرح الناس، هذا هو الطريق المشروع، فإذا كان المولود من زنى فقد يوضع هذا المولود في حاوية القمامة، على قارعة الطريق، في الحديقة العامة، والحدائق العامة في أوروبة يجمع منها اللقطاء بالعشرات والمئات والألوف العام، وقال بعضهم: حوالي ثلث بعض الشعوب في أوروبة من أولاد الزنى، هذا ما ذاق حنان الأب، ما ذاق حنان الأم، هؤلاء الذين يديرون حروباً طاحنة يعيشون على أنقاض البشرية، يقتلون في المستعمرات الألوف المؤلفة، هؤلاء قد يكونون ما ذاقوا حنان الأب، ولا حنان الأم، ولا العطف، فلذلك :

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 21)

الزنى ظلم للزاني ، وظلم للمزني بها ، وظلم للمجتمع ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ)

(سورة يوسف)

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ

أي همت به، همت بجذبه .

إيّاكم وشطحات المفسرين في هذه الآية :

سامح الله بعض المفسرين الذين توهموا أن هَمّهُ بها كهمِّها به، إذا رأيت في الغرفة أفعى هي تهم أن تلدغ إنساناً، وهو يهم أن يقتلها، يا تُرى هل همه كهمها؟ إذا رأيت أفعى في غرفة، نقول لك: لقد هممت بها، وهمت بك، ماذا تفهم من هذا؟ همت باللدغ، أما أنت فهممت أن تقتلها لا أن تلدغها، لابد من يكون همك غير همها، ولقد همت به، أغرته، جذبته، تهيأت له، وهمّ بها همّ بدفعها، أو همّ بالهروب منها، هذا التفسير الوحيد الذي يليق بهذا النبي الكريم، قال تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا)

(سورة يوسف)

لم يهم بها همّ فعل، ولم يهم بها همّ نفسٍ، ولم يهمّ بها همّ الرجل بزوجته، ولكنه همّ بها همّ ردٍ، وهم دفعٍ، بل وهم ضرب، لشدة حرجه، هذا المعنى الذي يليق بهذا النبي الكريم . قال تعالى :

(وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

(سورة يوسف)

وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ

لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، لو أتيت بمائة رجل ووضعتهم في ظرف سيدنا يوسف، كم منهم مَن يقول: معاذ الله؟ لا تعرف كم، ربما واحد أو اثنان، لماذا؟ لأنهم لم يروا برهان ربهم، ما كان في قلبهم نور يهديهم إلى الطريق الصحيح، هذا هو النور، الصلاة نور، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، الكافر يرى الحق باطلاً ويرى الباطل حقاً، وإذا رأى الحق حقاً لا يستطيع أن يتبعه، وإذا رأى الباطل باطلاً لا يستطيع أن يجتنبه، والدعاء المأثور كما ورد في مختصر تفسير ابن كثير حيث لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

" اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه " .

قال تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

(سورة يوسف)

في الكلام تقديم وتأخير :

هذا التفسير مقبول، يعني لولا أنك جئتني لجئتك في البيت، أنا هل أتيتك إلى البيت؟ لا، لأنك أتيتني، هذا هو المعنى الدقيق .

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

هناك تقديم وتأخير، أي: ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، و(لولا)حرف امتناع لوجود، لولا المطر لهلك الزرع، امتنع هلاك الزرع لوجود المطر، قال تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

(سورة يوسف)

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ

السوء والفحشاء :

السوء ما يسوؤه في نفسه، والفحشاء ما يفضحه بين الخلق، السوء داخلي، والفحشاء خارجي، إذا ورد إلى خاطر الإنسان خواطر سيئة فهذه تسوؤه إذا تصور نفسه في معصية، هذا الخاطر يسوؤه، لكنه إذا

فعل هذا الخاطر هذه فحشاء، هذه تفضحه، هناك شيء يسوؤك، وهناك شيء يفضحك، الخواطر السيئة تسوء، لكنّ المعاصي تفضح :

(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

مَن هم المخلَصون؟

كنت أظنّ أنها المخلِصين فإذا هي المخلَصين بالفتح، يعني أخلَص لله فصار مُخْلَصاً من كل شائبة، مخلِص اسم فاعل، ومخلَص اسم مفعول، أخلص لله فأخلصه الله من كل شائبة، وجعله نقياً طاهراً، قال بعضهم: المؤمن طفل كبير بل ذاتي، صافٍ لكنه عاقل وناضج، فإذا أردت أن تجمع بين ميزات الطفولة ببراءتها و صفائها وميزات الرجولة برجاحة عقلها فهي في المؤمن، المؤمن يجمع بين الصفاء والبراءة، والطهر والعفاف، والحكمة والنضج، والعقل والفهم، << لست بالخب ـ لست من الغباء ، لست من الخبث بحيث أكون خباً أي خادعاً ، ولست من الغباء بحيث أكون مخدوعاً ـ ولا الخب يخدعني >>، قال تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(24)وَاسْتَبَقَا الْبَابَ)

(سورة يوسف)

قانون عام :كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ

نصرف عنه، وليس هذا التصرف خاصاً بهذا النبي، إنّ هذا قانون أيضاً، كل من كان مخلِصاً فصار مخلَصاً صرف الله عنه السوء والفحشاء، ما يسوؤه في نفسه وما يفضحه بين خلقه أبداً، هذه قاعدة عامة، كل من كان مخلِصاً صار مخلَصاً، وصرف الله عنه السوء والفحشاء . قال تعالى :

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ)

(سورة يوسف)

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ

من الدين الفرارُ من الفتنة :

حينما شعر أن الموقف حرج جداً، وأنها مصرِّة ما كان منه إلا أن استبق الباب، واستبقا، وليس استبق،

وإنما استبقا مثنى، تسابقا هو وهي إلى الباب؛ هو لينجو، وهي لتقبض عليه لتحمله على الزنى، أيضاً الاستباق مختلف، لو أن الاستباق في سباق الهدف واحد وهو بلوغ الهدف، أما هنا فله معنى آخر، هو أراد بهذا الرفض أن ينجو من الباب، وهي أرادت أن تبقيه في الغرفة، طبعاً أدركته، وأمسكته من قميصه من خلفه فانجذب منها عنيفاً فتمزق القميص .

ومن غرائب الصدف أنّ زوجها جاء إليهما عن غير قصد، الله عز وجل قال :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

(سورة يوسف)

وقال أيضاً :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف : الآية 28)

قال تعالى :

(مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا)

(سورة يوسف)

مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا

صدق مَن قال: ضربني وبكى ، وسبقني واشتكى :

هناك علماء استنبطوا أنها لا تحبه، فرقوا بين الشهوة الجنسية والحب الشريف، لو أنها أحبته لما أوقعته في هذه الورطة الكبيرة، إنها لا تحبه لنفسيته، تحبه لشكله، هذا حب شهواني، هناك حب روحي، وهناك حب شهواني، والدليل أنه حينما امتنع منها أرادت أن تسحقه، أن تجعله أمام زوجها خائناً، أن يبدو لزوجها وقد خانه، قال تعالى :

(مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

قال تعالى :

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ)

(سورة النساء)

إلا في حالة واحدة ما هي ؟

(إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

(سورة النساء)

قال سيدنا يوسف :

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)

(سورة يوسف)

مرحلة الدفاع عن النفس : قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي

أنا بريء، فإذا ظُلم أحد فلا ينبغي عليه أن يسكت، وإلا يكون أحمق، فلان فعل كذا، ولست أنا، إذا اتهمت أنك فعلت كذا وكذا، ولم تفعل شيئاً فلان فعله، وهذه ليست غيبة، إذا ما اتهمك أحدٌ تهمة باطلة، وأنت بريء منها، وفعلها إنسان آخر فقل له : فلان فعلها، قل له: لم أفعلها أنا، قال :

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)

(سورة يوسف)

برودة الطبقة المخملية :

يقولون: إنّ عزيز مصر، هذه الطبقة الأرستقراطية الراقية عندها برودة وما عندها غيرة، قال لي: ماذا أفعل وجدت عندها شخصاً لا حول ولا قوة إلا بالله، فهذا ليس برودة، هذا تلبد الحس، يبدو أنه يأكل لحم خنزير حتى خنزر، تعجب العزيز، هو أم هي؟

هذا دليل كالشمس ، ثم ماذا ؟

استشار أحد المخلِصين له، وكان قريباً لها، قال تعالى :

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ)

(سورة يوسف)

أي أقبل عليها فدفعته، قال تعالى :

(فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ(26)وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ)

(سورة يوسف)

أي هرب منها فتبعته فأمسكته فَقُدَّ قميصه من دبر، قال تعالى :

(فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

(سورة يوسف)

هذا تحقيق، الله علمنا التحقيق الجنائي، قال تعالى :

(فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

ما الذي فعله؟ لاشيء، أبقاها، انزعج قليلاً من هذه الخيانة الزوجية .

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ

قال تعالى :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ(28)يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ)

(سورة يوسف)

أين أنت أيتها العفة؟

أعرض عن هذا، أي استرنا، كل هذه الرفعة التي حصّلها هذا النبي الكريم بفضل هذا الموقف الأخلاقي، كل هذه الرفعة بفضل هذه العفة، شيء ثمين جداً أن تكون عفيفاً، من السهل جداً أن يكون المرء دنيئاً، ومن البطولة أن يكون عفيفاً، لو أنه فعل ما دعته إليه ما كان سيدنا يوسف أساساً .

قال لي شخص قد حجّ في سن مبكرة، وفتح مكتبة بأحد أحياء دمشق أمام المكتبة ثانوية بنات، قال لي: يظهر أنه يوجد بنت فاسقة جداً، لا أهل لها، وليس لها تربية، وقفت على المكتبة في ضحك وابتسام، وكلام وغزل، فأغلق المحل ولحق بها، قال لي: في الطريق قلت لنفسي: أنا قد حججت، وبفعلتك هذه تُذهب حجتك، حسب الظاهر أنه قد غلب عليه الورع، وتصور حجته، وكان هناك (الترام)، ينزل ببطء فركب به ورجع، هذا الإنسان أقسم بالله العظيم أنه في اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي فقال له: يا بني، هل أنت متزوج ؟ فأجابه: لا، فقال له: لك عندي فتاة تناسبك، قال لي: ظننت أنّ عنده ابنة سوداء عوراء كتعاء عرجاء، وقال لي: أرسل أهلك ليروها يا بني، أرسل أهله فإذا هي قمة في الكمال والجمال، في اليوم الثالث زاره مرة أخرى قال له: كيف وجدوها، فقال له: والله على العين والرأس، ولكن ليس معي أي شيء، فقال له: هذا ليس شغلك، الرجل كان مليئاً، ميسور الحال، زوجه هذه الفتاة وشاركه في العمل، ولا يزال حياً يرزق، وهو أحد تجار الزيت الآن، بفضل أنه قد ركب (الترام)،وعاد إلى المحل .

أحد الطلبة الكرام قال لي : إنه مر له على التخرج من الجامعة أربع أو خمس سنوات، ولم يتمكن من الزواج، فضاقت نفسه، والزواج حاجة طبيعية، ليس هناك بيوت ودخله محدود، وقال لي: إنه كان في حماة يقضي الخدمة الإلزامية، ولا يوجد باص للشام ، فركبت إلى حمص، من حمص وجدت ميكرو باص فركبت به، جلس بجانبي رجل ما عرفته، بعد حوالي نصف ساعة من السير قال لي: ما اسمك، فقلت له: فلان، فسألني ماذا أعمل؟ فأجبته بأني مُدَرّس، فقال لي: هل أنت متزوج يا بني؟ فقلت له: لا،

فقال له: أنا عندي بيت و زوجة لك، شيء غريب، قال لي: كان الدعاء بحماة، وبعد ساعة من الدعاء الله عز وجل استجاب لي، فإذا كان الإنسان عفيفاً عن محارم الله فمع الله لا تضيع هذه العفة، سوف تجد شيئاً يسعدك طوال الحياة، تأتيك زوجة تسرك إذا نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إذا أمرتها، هناك جارية عندما رأت سيدنا يوسف عزيز مصر، وكانت تعرفه عندما كان عبداً هي كبيرة غي السن، قالت مقولتها الشهيرة: " سبحان الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته " .

هذه القصة ليست للمتعة، لكنها للتطبيق، كن عفيفاً، غض بصرك عن محارم الله، قال تعالى :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

(سورة طه)

لا تنظر، الله سبحانه وتعالى يكرمك، ويجبرك، ويسعدك إذا كففت عن محارمه .

والحمد لله رب العالمين

لا تفرح بجمال يأكله الدود !!!

هناك قول لا أعرف مدى صحته مبثوث في كتب التفاسير، قالت له امرأة العزيز: ما أحسن صورة وجهك! فقال يوسف عليه السلام: في الرحم صورني ربي، قالت: ما أحسن شعرك! قال: هو أول شيء يبلى مني في قبري، قالت: ما أحسن عينيك! قال: بهما أنظر إلى ربي، قالت: ارفع بصرك، وانظر في وجهي، قال: إني أخاف العمى في آخرتي، قالت: أدنو منك، وتبتعد مني، قال: أريد بذلك القرب من ربي، قالت: القيطون فرشته، أي السرير، قال: القيطون لا يسترني من ربي، قالت: الفراش من حرير، قال: يذهب بنصيبي من الجنة، المؤمن الله أغلى عليه من كل شيء، يحس بسعادة من عفته لا توصف والله، ولا يعرفها إلا من ذاقها، هذا الشهواني، العوام يعبرون عنه أنّ نفسه خضراء، تجده دنيء النفس، محتَقَراً، تافهاً، أما المؤمن فعفيف، حتى كان النبي الكريم عليه الصلة والسلام أشد حياءً من العذراء في خدرها، هكذا كان النبي الكريم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (05-11): تفسير الآيات 30 – 42 ، ابتلاءات يوسف عليه السلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-06-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في قصة سيدنا يوسف إلى قوله تعالى :

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

من شخصيات قصة يوسف : عزيز مصر وامرأته :

الحقيقة أننا أول مرة نعرف أنّ سيدنا يوسف كان في بيت عزيز مصر، وأنّ المرأة التي راودته عن نفسها هي امرأة العزيز، وهذه طريقة في حبكة القصة رائعة جداً، أخّر إعطاء القارئ هوية هذا الرجل الذي اشتراه :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ)

من ؟ لا نعرف .

(لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ)

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا)

بعد مرحلة متقدمة من القصة، عرفنا أنّ هذه المرأة التي راودته عن نفسها هي امرأة العزيز، وأنّ هذا الرجل الذي اشتراه هو عزيز مصر، قال تعالى :

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ)

(سورة يوسف)

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ

هكذا يشيع لخبر فاحذر!!!

يبدو أنّ هؤلاء النسوة هنّ من الطبقة الراقية، رقياً دنيوياً، من طبقة الأغنياء والمقربين إلى القصر .

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ)

يبدو أنّ قصة هذا النبي الكريم قد شاعت في المدينة وسريعاً ما تناقلتها الألسنة، ورجفت بها القلوب، قال تعالى :

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ)

(سورة يوسف)

مكر النسوة في الكلام : امْرَأَةُ الْعَزِيزِ!!!

كأنهم يقصدون أن امرأة العزيز المرأة الثانية في هذا المجتمع، المرأة الأولى امرأة الملك، وامرأة العزيز هي المرأة الثانية، على علو قدرها، وعلى عظم شأنها تراود فتاها عن نفسه، قال تعالى :

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)

(سورة يوسف)

وصل حبها له إلى شغاف قلبها، وصلت محبته إلى أعمق ما في قلبها، مَلَك عليها قلبها، استحوذ عليها، وذهب بها كل مذهب، قال تعالى :

(قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة يوسف)

قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

كأنهن يترفعن عن هذا المستوى، كأنهن يقبحن عملها، ويزرين بها، وينحن عليها باللائمة :

(إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

ردُّ الفعل :

لكنّ امرأة العزيز امرأة ناضجة عرفت أبعاد هذه الفضيحة، وكيف أنّ قصتها مع فتاها قد شاعت في المدينة، وقد لهجت بها الألسنة ولاكتها، وتناقلها الناس، ولاسيما فيما بين الطبقة الراقية، المجتمع الراقي بالمقياس الدنيوي، من خلال هذا المجتمع المقرب إلى العزيز، قالت في نفسها: لابد من مكر يطفئ هذه القصة، قال تعالى :

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ)

(سورة يوسف)

دقة القرآن :بِمَكْرِهِنَّ

كأن نقل هذا الحديث مكر منهن، كأن نقل هذا الحديث وإشاعته وتناقله شفاء لما في صدورهن، كأن هناك منافسة بين امرأة العزيز وبقية النساء المقربات، هناك منافسة خفية، وهذا يؤكده قوله تعالى :

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر)

حقيقة الرقي والحضارة :

الكفار إذا بدوا لك متجمعين فهم في الحقيقة متفرقون، إذا بدوا لك متحدين فهم في الحقيقة متنافسون، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر)

فامرأة العزيز أرادوا بها كيداً عن طريق نقل هذه القصة وترويجها وإشاعتها وكثرة الحديث فيها من أجل أن يحطمن سمعتها، إذاً هناك عداءٌ خفي، فلما سمعت بمكرهن دبرت لهن خطة وكيداً محكماً، أرسلت إليهن، الحقيقة هذا المجتمع الراقي يسمونه المجتمع المخملي، هذا المجتمع الراقي في نظر الناس هو عند الله ليس راقياً، لأن هناك نظافة المظهر وهناك نظافة المخبر، قد تعيش في بيت فخم، وقد ترتدي أجمل الثياب، وقد تستعمل أغلى العطور، وقد تركب أجمل السيارات، وقد تأكل ما لذ وطاب، وقد يكون وقتك ممتلئاً بالمواعيد واللقاءات والحفلات والسهرات الممتعة والنزهات، ولست عند الله شيئاً مذكوراً، وقد يأتي إنسان فقير لا يعرفه معظم الناس فيخلص العبادة لله عز وجل، ويستقيم في معاملته فهو عند الله نظيف .

مثلاً: إنسان يعمل في مهنة عضلية مجهدة لو أنه يعمل في تصليح السيارات مثلاً، ويرتدي ثياب سوداء مثقلة بالشحوم، لو أنه جاءته سيارة فأحكم إصلاحها، وأتقنه، وأخذ أجراً معتدلاً، وقدّم خدمة، هذا الوضع الذي هو فيه وضع نظيف جداً، إنه نظيف من الداخل، وقد قال لي رجل لا أشك أنّ غرفته التي يجلس فيها يزيد ثمن ما فيها من أثاث على مئات الألوف قال لي: إنّ عملي قذر، يرتدي أجمل الثياب، ويتكئ على أفخم الأثاث، ويستعمل أفخر العطور، وقال لي بالحرف الواحد: إنّ عملي قذر، فالقذارة والنظافة أيها الإخوة من الداخل، المؤمن نظيف من الداخل؛ استقامته وعفته، ومروءته وشجاعته، ونزاهته وأعماله الطيبة، هذه التي ترفعه عند الله، أما هذا المجتمع الذي يبدو لك مجتمعاً راقياً يتقلب في ألوان النعيم فليس عند الله بشيء، قال تعالى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

قال تعالى :

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف)

أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً

إياكم ومكر المرأة ، فإنها تغلب ذا اللبّ :

وجهت إليهن دعوة إلى قصرها لتناول طعام أو فاكهة، وليس في القرآن الكريم ما يؤكد هذا أو ذاك، قال تعالى :

(أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً)

(سورة يوسف)

أي جعلت لهن أماكن مريحة جداً، أثاثا فاخرا، طنافس وثيرة، متكآت من ريش النعام، قال تعالى :

(وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا)

(سورة يوسف)

من أجل أن تستعملها في تقطيع الفاكهة أو تقطيع اللحم، على كلٍّ قدّمت لهن طعاما أو فاكهة ثمينة، قال تعالى :

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف)

وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ

امرأة العزيز تعتذر للنسوة بالواقع :

أمرته وهو الغلام في قصرها، وعليه أن ينفذ ما تأمره به، أمرته أن يخرج أمام هؤلاء النسوة اللائى يمثلن نخبة المجتمع الراقي، قال تعالى :

(وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ)

(سورة يوسف)

الله أكبر ، لقد قطّعن أيديهن لرؤيته :

يعني عظّمنه، دُهشن لجماله، وهناك مفسرون كثيرون ورواة كثيرون أجهدوا أنفسهم في وصف هذا النبي الكريم، وفي خلع صفات الجمال عليه، مع أنّ المرأة لا يستهويها في الرجل جمال بني جنسها، بل يستهويها صفات خاصة به، سيدنا موسى قال تعالى عنه :

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص)

رأس مال الرجل : القوة والأمانة :

ما الذي أعجبها فيه؟ أعجبها قوته وأمانته، هو ما الذي أعجبه فيها حياؤها، قال تعالى :

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

(سورة القصص)

فالمرأة تحب في الرجل القوة والعفة، والأمانة والقوة، والحماية والرعاية والشجاعة، فإذا بالغ الرجل في التزين والتجمل، والتعطر والتكسر، وترفيع الصوت، وتزيين صدره ببعض الحلي ومعصمه ببعض السلاسل تقليدا للنساء في زيِّهن، فهذا الرجل لعنه الله عز وجل، لقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

((لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ))

مسند الإمام أحمد

قال تعالى :

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص)

بينما أعجبه فيها حياؤها ، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((من علامات قيام الساعة أن يرفع الحياء من وجوه النساء، وتذهب المروءة من رؤوس الرجال))

ورد في الأثر

إلا الديّوث أعيت مَن يداويه !!!

لا مروءة عند الرجال، و لا حياء في وجوه النساء .

((والديوث لا يروح رائحة الجنة ، فقيل يا رسول الله : وما الديوث ؟ قال الذي لا يغار على عِرضه ويرضى الفاحشة في أهله))

ورد في الأثر

هذا الذي يسمح لزوجته أن تخرج إلى الشرفة بقميص النوم هذا عند الله ديوث، لأنه لا يغار على عرضه، هذا الذي يسمح لزوجته أن تتزين وهي معه في الطريق هذا لا يغار على عرضه، هذا الذي يسمح لزوجته أن تقدم المشروب لضيوفه ديوث لا يغار على عرضه، إن كان الذين يرضون الفاحشة في أهلهن قلائل، فالذين لا يغارون على أعراضهن كثر، إذاً: حينما بالغ المفسرون والرواة في وصف هذا النبي الكريم بصفات جمالية منتزعة من صفات النساء وقعوا في وهم كبير، إنّ الذي أعجبها فيه عفته، إنّ الذي أعجبها فيه قوته، إن الذي أعجبها فيه طهارته، وكان جميلاً، لكن أن نقصر ميزاته على جماله وحده فهذه مبالغة ليست واقعية، على كلٍّ، قال تعالى :

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)

(سورة يوسف)

معنى تقطيع الأيدي :

لئلا يذهب بكم الظن إلى أنهن قطّعن أيديهن تقطيعاً تاماً، لا، معنى قطّعن أيديهن في اللغة جرحن أيديهن، الإنسان أحياناً يستعمل سكيناً حاداً، ويلهو مع إنسان في حديث، فإذا به يجرح إصبعه، معنى قطّعن أيديهن أي جرحن أصابعهن، قال تعالى :

(وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا)

(سورة يوسف)

كمال الأنبياء :

إنه فوق البشر لكماله، والأنبياء كذلك ، قال الشاعر :

وأجمل منك لم ترَ قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء

خُلقتَ مبرّأً من كل عيب كأنك قد خُلقت كما تشاء

***

الله سبحانه وتعالى يهب أنبياءه جمال الخَلق والخُلُق، أصحاب محمد الكرام سحروا به أُخذوا به، أخذ كل قلوبهم، قال أحدهم: " ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً "، سُحروا بكماله

ورقته، وحلمه وشجاعته، وذكائه وفطنته، ورحمته وعدله وإنصافه، وهكذا المؤمن، لا أقبل أن يكون المؤمن بغيضاً عند الناس، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، كيف يكون هذا صحيحاً وهو متصل بالله عز وجل، ولله الأسماء الحسنى، وكل من اتصل بالله عز وجل لابد من أن يشتق من أسمائه الحسنى، يجب أن يكون المؤمن محبوباً لتواضعه وإنصافه وعفته لاستقامته، قال تعالى :

(وَقَالَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ(31)قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ)

(سورة يوسف)

فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ

عزيز تواجه النساء بالواقع الذي لا يصبرن عليه :

هذا هو، إنكم تحدثتم عني في غيبتي، وأنحتم عليّ باللائمة من دون أن تعرفوا حقيقة هذا الفتى الذي شغف قلبي به حباً، هذا الذي شغف قلبي به حباً أمعي حقٌ بهذا؟ قال تعالى :

(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

منتهى الوقاحة :

منتهى الوقاحة أن تعلن عن شغفها، وعن غريزتها، وعن حاجتها إليه أمام نسوة من علية القوم، قال تعالى :

(وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)

(سورة يوسف)

وهذه أول براءة له عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فاستعصم، لا كما يقول بعض المفسرين: ولقد همّ بها، أي بلغ منها مبلغ الرجال، لا، هو همّ بدفعها، أو همّ بالهروب منها، أو همّ بضربها، على قول بعض المفسرين، لأن عملها كان في منتهى الوقاحة، قال تعالى :

(وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

(سورة يوسف)

مرحلة التهديد : وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ

لا زالت مصرة على أن تراوده عن نفسه مرة ثانية، لا زالت مصرة على أنها لابد من أن تصل إليه إما بالحسنى، وإما عن طريق السَجن والتعذيب، قال تعالى :

(وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ(32)قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

(سورة يوسف)

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ :

السجن بدل المعصية والفتنة في الدين :

لم يقل الله عز وجل: مما تدعوني إليه، كان مع واحدة فصار مع المجموع، في بعض التفسيرات أنّ كل من حضر هذا الحفل البهيج بدأ يقنعه على حدة أن يستجيب لنزوتها، لنزوة امرأة العزيز، كان مع واحدة، فصار مع المجموع .

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

هنا نقف قليلاً، إذا أُمرت بمعصية أين أنت من هذا النبي الكريم، هل تقول: لا أستطيع يا أخي؟ ما تمكنت، أمرتُ بهذا، أم تقول:

(رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

هذا امتحان دقيق، قد يوضع إنسان في موضع صعب، قد يُؤمر بمعصية الله، قد يؤمر بعمل لا يرضي الله، يجب أن يكون موقفك واضحاً، يجب أن لا تأخذك في الله لومة لائم، يجب أن ترى أنّ الله هو كل شيء قدير، ولا إله إلا الله، قال تعالى :

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : الآية 2)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : الآية 84)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد : 4)

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف : 54)

(لَهُ الْحُكْمُ)

(سورة القصص : الآية 70)

(وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة يوسف : 64)

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

(سورة غافر : الآية 20)

(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)

(سورة الأحزاب : الآية)

قال تعالى :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف)

وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ

قمة التوحيد والاستسلام لله :

هذا هو التوحيد، يا رب، أنا أصمد أمام كيدهن، وأمام إغرائهن بمعونتك، فإذا تخليت عني فلا أستطيع أن أصمد أبداً، إنّ مقاومتي تنهار إذا تخليت عني، كما قال تعالى :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول عن معصية الله إلا بالله، ولا قوة على طاعته إلا به، هذا هو التوحيد، هذا الذي يقول أنا لا أفعلها أبداً، هذا مشرك، يا رب أعني على طاعتك، يا رب لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، يا رب أنا بك و إليك، من أنا حتى أقول أنا لا أفعلها، هذا هو الشرك، أي أشركت نفسك مع الله عز وجل، لو عرفت ما عند الأنبياء من تواضع لله عز وجل ومن افتقار إليه، ومن استسلام لأمره لتأدبت بهذا الأدب :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف)

كيد المرأة عظيم :

ربنا عز وجل قال في هذه القصة بالذات :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف : الآية 28)

وقال في موطن آخر :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

(سورة النساء)

الشيطان ومن معه كيده ضعيف، لكن المرأة كيدها عظيم، لأن لك عند المرأة حاجة، وقد تكون هذه المرأة زوجتك، لك عندها حاجة فتستغل هذه الحاجة لتحملك على معصية، لتنفذ مأربها، لتفعل ما تشاء، لتكون هي المسيطرة، لتسير البيت وفق أهوائها، لتفعل ما تفعل من أجل أن تظهر، فإذا هذا على حساب دينك، لذلك إياك أن تنهار مقاومتك أمام كيدهن :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف : الآية 28)

قال تعالى :

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ)

(سورة يوسف)

جاء الفرَجُ : فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ

لماذا استجاب له ربه فصرف عنه كيدهن؟ لشيء واحد، لأنه كان صادقاً في هذا الطلب، أنت أيها الأخ الكريم لا تملك إلا الطلب، إن عرف الله عز وجل صدق طلبك وإصرارك على طاعته، و إصرارك أيضاً على بعدك عن معصيته يستجب لك، لذلك جاء في الحديث الشريف :

((ما كان الله ليعذب قلباً بشهوة تركها صاحبها في سبيل الله))

ورد في الأثر

إذا أنس الله منك صدقاً في طلب طاعته وصدقاً في البعد عن معصيته أعانك على طاعته، وصرف عنك معصيته، فإن كنت ضعيفاً، إن كنت متردداً، إن كنت ميّالاً إلى المعصية تخلّ عنك، فتغلب عليك الشيطان، ففعلت المعصية، ليكن هذا النبي الكريم قدوة لك في مواجهتك للمغريات، قال تعالى :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ(33)فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ)

(سورة يوسف)

إنّ صرف الله عز وجل كيدهن عنه كان بطريقين:

الأول: أنّ الله عز وجل ألقى في قلوبهن اليأس من الوصول إليه .

والطريق الثاني: أنّ الله سبحانه وتعالى ألقى في قلبه بغضهن، هو كرههن وهنّ يئسن منه، هذا فعل الله عز وجل، قال تعالى :

(فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة يوسف)

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

سميع لقولك، ولو لم تقل، هو عالم بحالك، لو أنك لم تقل، لكنه في نفسك، في أعماق نفسك لا تريد أن تعصي الله، الله عليم، إن تقل، وإن لم تقل يعلم ما في نفسك .

أحياناً الإنسان ينسى تعقيبات الآيات في القرآن الكريم، ويقول لك: إنه هو الغفور الرحيم، غير مضبوطة، إنه هو السميع العليم، لأنك أيها الإنسان إما أن تدعوه فيسمعك، وإما أن تسكت فيعلم حالك، إنه هو السميع العليم، إذا واجه أحدنا مشكلة أو ضغطاً أو إكراها أو إغراءً يستطيع أن يدعو الله سراً وشفتاه مضمومتان في قلبه، يا رب ليس لي إلا أنت :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

اصرف عني هذا الشر، قال تعالى :

(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ)

(سورة يوسف)

الامتحان المُوَالي : السجن :

دقة القرآن :بَدَا لَهُمْ

لم يقل الله عز وجل: بدا لهن، بدا لهم، دخل العزيز في هذا الموضوع، العزيز زوجها والمستشارون والخبراء والمقربون إليه تداولوا في هذه الفضيحة، وهذه السمعة السيئة التي جلبت لهم المذمة والعار، ماذا يفعلون؟ إنّ هذه الزوجة تحت سمع زوجها وبصره، ويا له من زوج غيور! تحت سمعه وبصره مصرة على أن تصل إليه، ولقد دعت النسوة في المدينة أيضاً تحت سمعه وبصره، ولابد من أنّ قولها قد وصل إليه :

(وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ)

فأي زوج هذا؟ وأية رجولة هذه؟ وأية غيرة ينطوي عليها؟ هذا عزيز مصر، لكنه استشار المقربين والأباعد، والكبراء والصغار ومن في الحاشية، بدا لهم جميعاً أنه من أجل إطفاء هذه الفتنة، وتطويق هذه الحادثة، وتقليص هذه الإشاعة، لابد من أن يسجن هذا الفتى البريء، لم يستطع أن يصل إلى زوجته، ويسيطر عليها، فكان الحل ظالماً، أمر بسجن هذا الفتى البريء الذي ما خانه قط، والذي يقطر براءة وطهراً وعفافاً :

(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ)

اعجب للآيات التي حكمت على يوسف بالسجن!!!

أية آيات؟ آية أنّ قميصه قدّ من دبر ؟

آية :

(وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)

كل هذه الآيات الدالة على طهارته وعفته واستعصامه بالله عز وجل على الرغم من كل ذلك بدا لهم أن يسجنوه، قال تعالى :

(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

(سورة يوسف)

المهمّ أن يغيب عن أنظار الناس :

إلى أجل غير مسمى، إلى أن تنطفئ الفتنة، إلى أن ينقطع الحديث في هذا الموضوع، إلى أن تنسى امرأة العزيز هذا الغلام، ودخل السجن، سوف نستنبط بعد قليل أنه كان في السجن نبياً، كما أنه نبي خارج السجن هو نبي داخل السجن بمعرفته، بإحسانه، بمعاونته للآخرين، برحمته، الإنسان هو هوَ، هذا الذي تتبدل أخلاقه من ظرف إلى ظرف أخلاقه مزيفة، هذا الذي يبدو في الرخاء وديعاً، و في الشدة وحشاً هذا ليس أخلاقياً، هذا الذي يبدو في الغنى سموحاً وفي الفقر بخيلاً ليس كريماً، لكن البطولة أن تكون أنتَ أنت في الرخاء والشدة، في النعيم والشقاء، في الصحة والمرض، في القوة والضعف، في إقبال الدنيا وإدبارها، خارج السجن وداخل السجن هو هوَ نبي، قال تعالى :

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ)

(سورة يوسف)

فصل آخر في السجن : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ

مَن هما الفتيان ؟!!

هناك قصة يرويها القرطبي في تفسيره: أن الملك كان عنده طباخ كرئيس الطهاة، ورجل يقدم له الشراب، يبدو أن هذا الملك عمّر طويلاً ودام حكمه طويلاً، فائتمر عليه بعضهم في قتله عن طريق دس السم في طعامه وشرابه، فالطباخ وضع السم في الطعام، أما صاحب الشراب فأبى، فلما قدم الطعام للملك جاء صاحب الشراب وقال: احذر يا مولاي أن تأكل الطعام فإنه مسموم، فقال الطباخ: يا مولاي والشراب أيضاً مسموم، قال الملك: اشرب فشرب صاحب الشراب، فتأكد الملك أن صاحب الشراب صادق، فأمر الطباخ أن يأكل من الطعام فأبى، فلما أبى أُطعم الطعام لحيوان فمات من توه، فأمر الملك أن يساق الفتيان إلى السجن ريثما يتم التحقيق .

قال تعالى :

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا)

(سورة يوسف)

رؤيا الفتيين في السجن :

معنى الخمر :

الخمر هنا يعني العنب، هذه كأن تقول مثلاً: رعينا الغيث، يعني رعينا كلأ أنبته الغيث، عصرنا عنباً فصار خمراً، قال تعالى :

(قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا)

يعني أرى في المنام، قال تعالى :

(وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ)

(سورة يوسف)

ما تأويل هذه الرؤيا؟ قال تعالى :

(إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

يوسف المحسن وهو في السجن :

هو محسن حتى في السجن، وهو في آلامه محسن، وهو في تقييد حريته محسن، وهو مع السجناء محسن، قال تعالى :

(إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

هذا الذي يسيء ويصلي معنى ذلك أنه لم يصل، جوهر الدين في الإحسان، هذا الذي يكرهه الناس ليس مسلماً، هذا الذي يبغضه الناس ليس مؤمناً، هذا الذي يتأذى منه الناس لا يعرف الله عز وجل، هذا يصلي صلاة شكلية لا شأن لها عند الله، هذا يصوم صياماً شكلياً لا قيمة له عند الله، من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله، من شاء صام، ومن شاء صلى، ولكنها الاستقامة .

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

الطبراني عن ابن عباس

عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

البخاري

قال تعالى :

(وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

استمعوا أيها الإخوة الأكارم إلى هذا القول الفصل في الدعوة إلى الله، نبي كريم يُسأل عن تفسير الرؤيا وهو في السجن، هو في أشد حالاته ضعفاً، لا ينسى الله عز وجل، يدعو إليه، هذا يذكرني بدعاء سيدنا يونس عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وهو في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، في ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، قال تعالى :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء : الآية 87)

افحص نفسك في ساعات الشدة أتذكر الله عز وجل؟ فاستجاب له ربه .

قال تعالى :

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

وهذا النبي الكريم وهو في السجن، هنا استنباطات كثيرة جداً، أولاً: هذان الفتيان جاءاه بسؤال، فالسؤال يشغل بالهما، فكي يطمئنا وكي يستمعا إليه، كي يصغيا إليه، قال تعالى :

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا)

(سورة يوسف)

مقدمة دعوية بين يدي تفسير رؤيا الفتيين :

1 ـ قضاء أشغال المدعو أوّلاً :

تفسير هذين المنامين سيحصل بعد قليل، سأفسر لكما هذين المنامين قبل أن تأكلا الوجبة الثانية اطمئنا. إذا جاءك إنسان بحاجة، وأنت أردت أن تعظه لا يستمع إليك، اقض له الحاجة أولاً، ثم عظه ثانياً، أو عِده بإنجاز هذه الحاجة حتى يطمئن، عندئذ قدّم له الدعوة الخالصة، هذه النفس مشغولة، قلبه مشغول، مغلق، فالذي يعظ الناس في الأوقات الحرجة وهم مشغولون هذا لا يملك حكمة أبداً، لابد من أن يكون القلب فارغاً لك، لابد من أن تكون ساحة النفس فارغة لموعظتك، لابد من أن يكون هناك فراغ كي يتلقى الإنسان هذا الحق، فإذا كانت ساحة النفس مشغولة، أو كان القلب منشغلاً لابد من قضاء حاجته قبل دعوته إلى الله، سيدنا يوسف كان حكيماً جداً، وطمأنهما، قال تعالى:

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا)

(سورة يوسف)

2 ـ نسبة الفضل إلى الله :

نبأتكما أنا بتأويله، لكنه موحّد، قال تعالى :

(ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)

(سورة يوسف)

إذا كان الإنسان في بحبوحة، أو على شيء من العلم، أو على شيء من الوسامة والجمال، أو على شيء من الجاه، إذا قال: أنا، فقد أشرك، إذا قال: لقد تفضل الله علي، لقد أكرمني ربي، لقد يسّر الله لي هذا البيت، لقد أكرمني، ونجحت في هذه الشهادة، لقد حباني الله بهذه الوظيفة، لقد متعني الله بهذه الصحة، لقد رزقني الله هذه الزوجة، هكذا المؤمن، ليس من باب الأدب، ولكن من باب الحقيقة، هذه هي الحقيقة، قال تعالى :

(ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

(سورة يوسف)

3 ـ بيان الباطل :

عاش سنوات طويلة في قصر عزيز مصر، هؤلاء وصفهم هذا النبي الكريم بصفتين دقيقتين، قال تعالى :

(إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة يوسف)

لا يؤمنون بالله، يؤمنون بالملذات، يؤمنون بالدنيا، يؤمنون بما فيها، أما بالله فهم عنه غافلون، هم عنه معرضون، جعلوا كتاب الله وراء ظهورهم، جعلوا قيم الله عز وجل وراء ظهورهم، جعلوا أوامره خارج اهتمامهم، جعلوا نواهيه ضمن رغباتهم، قال تعالى :

(إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(37)وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة يوسف)

4 ـ نفي الشركوالتحذير منه :

جوهر هذه الدعوة هو التوحيد، الدين كله توحيد، الدين كله ملخّص في قوله تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : الآية 19)

هذا هو الدين، ما كان لنا، يعني يستحيل علينا، مستحيل أن نشرك،(ما كان)من أشد أنواع النفي، لا نشرك، ولا نريد أن نشرك، ولا يمكن أن نشرك، ولا يعقل أن نشرك، كل هذه الأدلة الدالة على عظمة الله وبعدها نشرك؟ قال تعالى :

(مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ)

(سورة يوسف)

5 ـ النعم كلها من الله :

هذه النعمة التي أنتم فيها نعمة سماع الحق، نعمة الهدى هذه هي الفضل الحقيقي، ومهما تناولنا من الطعام ما لذ وطاب، ومهما كانت بيوتنا فاخرة، ومهما كانت أموالنا طائلة، ومهما كنا سعداء في بيوتنا، ومهما كان دخلنا كبيراً فلابد من مفارقة الدنيا، وكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت،

لابد من أن نوسد الثرى، تقول الأرض: يا من تمشي على ظهري لابد من أن أضمك إلى صدري، لابد من أن أضمك إلى بطني، اذهبوا إلى المقابر تجار، علماء، موظفون، أشخاص مهمون، كانوا أحياء مثلنا، لهم بيوت، لهم زوجات، لهم مكانة اجتماعية، كانوا يأكلون ويتنزهون ويسهرون ويمرحون، هم تحت أطباق الثرى، ونحن سوف نكون مثلهم إن عاجلاً أو آجلاً، ذلك من فضل الله علينا، هذا هو الفضل الحقيقي، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

هذه طريقة في الدعوة إلى الله بليغة، طرح عليهم سؤالاً، قال تعالى :

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ)

(سورة يوسف)

6 ـ الدعوة إلى توحيد الله :

تحبباً لهما، وإيناساً لقلبهما، ناداهما بالصاحبين .

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

أي أن تخاف من زيد، ومن عبيد، ومن سعيد، ومن عمر، ومن خالد، أم أن تخاف من الله وحده؟ أن ترضي زيدا أو عبيدا أو فلاناً أو علاناً، أو أن ترضي الله وحده ؟ من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، قال تعالى :

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ)

(سورة التوبة : الآية 13)

اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس، من حسنت سريرته جعل الله علانيته حسنة، قال تعالى :

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

(سورة يوسف)

معنى القهار أمره هو النافذ أمره هو الذي يطبق، قال تعالى :

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة يوسف)

7 ـ الآلهة أسماء لمسميات باطلة :

في اليابان يعبدون الميكادو، يرونه إلهاً، في لبنان وضعوا على قمم الجبال تماثيل للعذراء، وقالوا: هذه سيدة لبنان، إنها تحميه، هل حمته من الحرب الأهلية ؟

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

ليس لها قوة عقلية مقنعة، وليس لها قوة مادية آثرة، ليست منطقية ولا واقعية، إن هي إلا أسماء سميتموها، فإذا قام أحدكم، وكتب اسمه، وكتب تحت اسمه مثلاً: وزير دفاع، هل يعني ذلك أنه أصبح وزير دفاع؟ هي كلمة كتبتها، هل لها حقيقة؟ هل هناك من أحد يأتمر بأمرك؟ هل هناك من أحد يستجيب لك؟ هل تأخذ على هذه البطاقة درهماً واحداً؟ إن هي إلا أسماء سميتموها، إذا كتبت كلمة بحر على قطعة من ورق، هل هذا هو البحر، هذه كلمة بحر، كلمة هذه إن كأساً من الماء يبل ثوبك، أما إذا كتبت مليون بحر، اكتب المحيط الأطلسي مع المحيط الهادي مع البحر المتوسط مع القطب الشمالي، وضع هذه الورقة في جيبك تبقى جيبك جافة، هذه كلمة حبر على ورق، فهذا الذي يعبد إنساناً من دون الله :

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

ما أعطاها الله قوة، لم يعطها قوة عقلية مقنعة، وهذه القبيلة التي جعلت رباً لها من تمر فلما جاعت أكلته، فقالوا: أكلت ودٌ ربها، وهذا الذي جاء ليعبد صنماً فرأى على رأسه بللاً، وعرف أن ثعلباً قد بال على رأسه، فقال :

أربٌ يبول الثعلبان بــرأسه لقد ضل من بالت عليه الثعالب

***

غير مقنع، البقرة في الهند إذا سارت في عرض الطريق قطعت السير ساعات طويلة، إذا دخلت إلى بقالية تأكل هذه البقرة ما لذ وطاب من الفاكهة، وصاحب البقالة ممتن أشد الامتنان لأنها مقدسة، يأخذون روث البقر، ويضعونه في غرف الاستقبال في الأعياد تبركاً بها، يكحلون أعينهم ببولها ، هذه خرافات، قال تعالى :

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

(سورة يوسف)

هذه الآلهة كلها باطلة، لا تقدم ولا تؤخر، ولا تنفع ولا تضر، كله باطل في باطل .

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

حتى السحر .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

مسند الإمام أحمد

كما قال أيضاً :

((من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً ، ولا دعاء أربعين ليلة))

ورد في الأثر

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

هذا المتشائم من رقم معين، من لون معين، هذا باطل، قال تعالى :

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

8 ـ هذا هو الدين القيّم :

هذا هو الدين القيّم، الدين الخضوع، فلا تخضع إلا للحق، ولا تخضع إلا للذي خلقك، لا تخضع إلا لمسير الكون، وهو الله رب العالمين، لا تخضع إلا لمن بيده الأمر، لا تخضع إلا لمن بيده الحكم والحياة والموت، لا تخضع إلا لمن بيده الرزق، قال تعالى :

(أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

(سورة يوسف)

هذا هو الدين، عندما لا تأخذ الإنسان في الله لومة لائم ، لا يطيع مخلوقاً في معصية الخالق، هو مع الله دائماً، مع أمره حيث أمره، وإذا نهاه عن شيء ابتعد عنه، تقول لي: عادات، تقاليد، تيار عام، هناك ضرورات، المجتمع هكذا يريد، زوجتي صعبة، بناتي لم يرضوا معي، هذا كله كلام مردود :

(أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

أنت بذلك تساوي المخلوق بالخالق تماماً كمن يدخل في سلك الجيش، ويتلقى أمراً من قائد الجيش، وأمراً من عريف، وأمر العريف متناقض مع أمر قائد الجيش، فيستجيب لأمر العريف ويعصي قائد الجيش، ولا يعرف مغبة هذا العمل، هذا مثل قريب؛ خالق الكون قال لك: افعل ولا تفعل، يأتي إنسان جاهل، مغرض، فانٍ، ويقول للذي أمرك الله أن تفعله: لا تفعله، وللذي نهاك أن تفعله : افعله، أين أنت؟ أين عقلك؟ أين تفكيرك؟ جاء الآن الوقت المناسب لتفسير الرؤيا، قال تعالى :

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا)

(سورة يوسف)

تعبير رؤيا الرجلين :

أما أحدكما فينجو، ويخرج من هذا السجن، ويعود إلى عمله في القصر ساقياً للملك، قال تعالى :

(وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

(سورة يوسف)

لابد من أن يُقتل، ومن معجزات هذا النبي الكريم أنّ الله سبحانه وتعالى أطلعه على بعض الغيب، قال تعالى :

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

هذا أخذٌ بالأسباب ، ولا تلتفت إلى قول آخر :

هذا النبي هكذا قال: قضي الأمر، وهذا الأمر كأنه وقع وانتهى، سيدنا يوسف الآن حينما عرف أنّ أحد هذين الصاحبين سينجو وسيعود إلى عمله في القصر، قال تعالى :

(وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)

(سورة يوسف)

أي أظهر للملك قصتي وبراءتي ومظلمتي، هنا حول هذا الموضوع وقف المفسرون وقفات طويلة ، بعضهم قال: إنّ الله سبحانه وتعالى عاقب هذا النبي الكريم لأنه طلب من هذا الرجل أن يذكره عند الملك، ونسي أن يطلب هذا من الله عز وجل، هذا بعض الآراء، لذلك في بعض التفاسير كلمات يمكن أن نقرأها عليكم: جاءه جبريل فقال: يا أخا المنذرين، مالي أراك بين الخاطئين، يا طاهرُ ابن الطاهرين يقرئك ربك السلام ويقول لك: أما استحييت إذ استغثت بالآدميين، وعزتي لألبثنك في السجن بضع ، قال: يا جبريل أهو عني ؟ قال: نعم، قال: إذاً لا أبالي ، بعضهم قال: جاءه جبريل فقال له: يا نبي الله من خلصك من القتل على أيدي إخوتك؟ قال: الله، قال: فمن أخرجك من الجب؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال: الله تعالى قال: كيف وثقت بمخلوق وتركت ربك؟ فلم تسأله؟ وجاء في بعض الأحاديث الشريفة أن :

((رحم الله أخي يوسف لولا الكلمة التي قالها: اذكرني عند ربك ، ما لبث في السجن بضع سنين))

كنز العمال

لكن الحقيقة أن هذا الحديث ضعيف جداً، هكذا قال الحافظ بن كثير، ضعيف جداً، والعلماء يقولون: الإنسان مطالب أن يسعى، إذا كان في ضائقة وفي مظلمة، وعرف أن هناك شخصاً له يد طولى، فإذا عرض عليه مظلمته فلا ضير عليه، إذاً نحن نرجح أنّ هذا النبي الكريم ما وقع في خطأ أبداً، هذا من باب السعي، هذا من باب الأخذ بالأسباب، ثم التوكل على الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (06-11): تفسير الآيات 50 – 57 ، الفرج بعد الشدة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-06-20

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ

الملِك يأمر بإطلاق سراح يوسف :

أيها الإخوة المؤمنون، حينما سمع الملك تفسير الرؤيا التي رآها، وكان تفسيراً دقيقاً معبراً خطيراً، قال عندئذ :

(ائْتُونِي بِهِ)

أي أطلقوا سراحه، أريد أن أراه، استعظم علمه، وهاله هذا التفسير الدقيق، فقال :

(ائْتُونِي بِهِ)

فلما جاءه الرسول ليخرجه من السجن بعد بضع سنين قدرها العلماء بسبع سنين، قال:

(ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ)

موقف يوسف : إظهار البراءة ثم الخروج :

هاتوا لي سجيناً واحداً يمضي في السجن سبع سنين، ثم يأتي أمر الإفراج عنه، ويرفض أن يخرج من السجن حتى تظهر براءته، لأنه دخله مظلوماً، مضطهداً، فإذا خرج من السجن كانت حريته أغلى من سمعته، لكن سمعته وطهارته وبراءته وعفافه وإخلاصه أغلى عنده من حريته، لذلك رفض أن يخرج حتى يتأكد الملك من براءته، قال تعالى :

قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ

(قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ)

(سورة يوسف)

أي إلى سيدك، هل يقول له: إنّ امرأة العزيز هي التي راودتني عن نفسي، لا زالت في مكانها، ولازالت قوية، هل يقول له: إن امرأة العزيز هي التي راودتني عن نفسي، عندئذ يفتضح أمر زوجها، وهو الذي أكرمه، وأحسن مثواه .

بلاغة يوسف وحسن اختياره العبارة :

دققوا أيها الإخوة في العبارة التي قالها هذا النبي الكريم، قال تعالى :

(ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ)

(سورة يوسف)

لو أن هذا النبي الكريم قال: ارجع إلى ربك فأبلغه أني بريء، ليس في هذا الكلام إثارة، لو أن هذا النبي الكريم أعلم الملك بالقصة، ارجع إليه، فقل: القصة كذا وكذا، الملك قد يصدقها وقد لا يصدقها، قد يقول: ما من سجين إلا وهو يظن أنه بريء، لو أن هذا النبي الكريم تلا على هذا الرسول قصته، وأوكله أن يبلغها للملك، ما كان بهذا الكلام بليغاً ولا حكيماً، لو أنه أعلمه مجمل البراءة، فاسأله، وجّه له سؤالاً، لو قال: ما شأن امرأة العزيز؟ لقد فضح سيده، وأحرجها فأخرجها عن طورها، قال تعالى :

(قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)

(سورة يوسف)

فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

أهمية الانتفاع من الفراغ :

لم يذكر هذا النبي الكريم موضوع المراودة، ولا موضوع الخيانة، لا من قريب ولا من بعيد، إنما غيّر وجهة الحديث :

(فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)

أي أن هناك حادثة فريدة من نوعها تلفت النظر، نسوة قطعن أيديهن في قصر عزيز مصر، اسأل سيدك، اسأل هذا الملك ما تفصيلات هذه القصة؟ ما ملابساتها؟ ما نتائجها؟ قال تعالى :

(قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

هذا العمل سماه هذا النبي الكريم كيداً، إن ربي بكيدهن عليم .

اطمئن فإن الله يعلم كيد الكائدين :

أنت أيها الأخ الكريم إذا كان هناك من يدبر لك كيداً يكفيك طمأنينة، ويكفيك ثقة بالله عز وجل أن الله عليم بهذا الكيد، لذلك قال بعضهم: كفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله، مهما كاد لك، ومهما دبر لك إن هذا الكيد بعلم الله، إن هذا الكيد سوف يحبطه الله عز وجل، قال تعالى :

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15)وَأَكِيدُ كَيْدًا)

(سورة الطارق)

وقال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج)

وقال :

(إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

يوسف يقطع الطريق عن كلّ عدوّ :

الحقيقة لو أنّ هذا النبي الكريم يوسف عليه السلام خرج من السجن، وعفا عنه الملك ومكنه في الأرض فإنّ أي حاسد له يستطيع أن يصل إلى الملك، ويقول: هذا خائن، لقد خان سيده عزيز مصر، لكنه حينما رفض أن يخرج حتى تثبت براءته، وحتى يثبت للملك براءته فعل هذا حتى يقطع الطريق على كل حاسد واشٍ من أن يصل إلى الملك ، إنها حكمة بالغة في عدم خروجه من السجن .

شيء آخر، لو أنه قال للملك: اسأله ما قصتي، الملك قد ينسى الموضوع، اسأله لماذا دخلت السجن؟ هو رجل دخل السجن، لكن حينما ذكر له بعض التفصيلات، ما بال النسوة التي قطعن أيديهن؟ جعله في موطن الجواب، فالملك لا ينبغي أن يكون جاهلاً فيما يجري في ملكه، حثه على التحقيق، أعطاه حادثة غريبة تستدعي التأمل، ستر امرأة العزيز إكراماً لزوجها، وستر العزيز، ذكر نسوة لا دخل لهن في الموضوع، ولسن متهمات في المراودة، إنما هن شاهدات على براءة يوسف، إذاً: في هذه الكلمة التي قالها هذا النبي الكريم حكمة ما بعدها حكمة، وسداد ما بعده سداد، وهذا شأن الأنبياء، قال تعالى :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة)

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ

ملك يبدأ التحقيق :

يبدو أن الملك استفزه هذا السؤال و استثاره، فجمع النسوة اللاتي حضرن هذه القصة، ويبدو أنّ امرأة العزيز كانت معهن، وسيأتي الدليل، وسألهن، قال تعالى :

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

من هنا استنبط العلماء أيضاً أن هؤلاء النسوة حينما أردن أن ينصحن يوسف أن يستجيب لامرأة العزيز، استغللن هذا الموقف وراودنه عن نفسه، إذاً: هذه تهمة مشتركة، قال تعالى :

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ)

(سورة يوسف)

جواب النسوة :

هذا جواب النسوة مجتمعات، هذا اسمه التواتر، أي جمع غفير يروي قولاً واحداً، يروي جواباً واحداً، لذلك القاضي أحياناً يفرق الشهود، فإذا اضطربت أقوالهم، وتناقضت عُدت شهادتهم باطلة، فإذا قالوا جميعاً رواية واحدة فهذا يؤكد صدق روايتهم، جميع هؤلاء النسوة قلن :

(قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ)

(سورة يوسف)

الإقرار سيد الأدلة :

عندئذ قالت امرأة العزيز :

(الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ)

(سورة يوسف)

أي ظهر الحق .

(أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ)

أنا المذنبة، وهو بريء وعفيف، قال تعالى :

(أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

(سورة يوسف)

يوم قال:

(هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)

(سورة يوسف : الآية 26)

لا تضع نفسك موضع التهمة :

حينما قال هذه المقولة أمام العزيز كان صادقاً، والصدق ما شهدت به الأعداء، النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجعل نفسه موضع التهم))

ورد في الأثر

لا تقف موقف التهم، ثم تلوم الناس إذا اتهموك، والعلماء قالوا: إن الاجتهاد في نسج التهمة واجب وجوب الدفاع عن المذنب البريء، إذا كنت بريئاً من الذنب وجب أن تدافع عن نفسك، هذا لاشك فيه، هناك واجب آخر وهو ألا تضع نفسك موضع التهمة، أن لا تدخل إلى بيت ليس فيه رجل، أنت بريء ولكن يُظن بك الظنون، أنت وضعت نفسك موضع التهمة، لا تدخل إلى محل تجاري صاحبه غائب، تدخل وتقلب في البضاعة، ثم تخرج، فإذا فقد شيء يُقال له: رأينا فلاناً في محلك في غيبتك، لا تضع نفسك موضع التهمة، ثم تلوم الناس إذا اتهموك، والنبي عليه الصلاة والسلام كان في أحد ليالي رمضان معتكفاً، جاءته أم المؤمنين صفية رضي الله عنها، فحينما أراد أن يذهب معها إلى البيت ليوصلها رآه صحابيان جليلان فعن صَفِيَّة زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَلَى رِسْلِكُمَا؛ إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ !!! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا))

متفق عليه

إذا كنت في محل تجاري، ودخلت أختك، وسألتها عن صحتها، وعندك صديق، فقل له: هذه أختي، لئلا يظن بك الظنون، البيان يطرد الشيطان، لا تضع نفسك موضع التهمة، ثم تلوم الناس إذا اتهموك .

إذاً: الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء مظانها، هكذا قال العلماء، وقال عليه الصلاة والسلام:

((إياك وما يعتذر منه))

مصنف ابن أبي شيبة

لو أنك سافرت، و أوكلت أخا زوجتك في رعاية شؤون البيت، فأعلِم الجيران أن لزوجتي أخًا سوف يأتي في غيبتي لئلا يذهبن بهم الظن مذاهب لا تليق بك، دائماً العاقل والحكيم لا يسمح في تصرفاته للشك والظن .

إذا جئت إلى سوق في ساعة متأخرة من الليل، و أنت مضطر أن تأخذ ورقة أو سندا، و كنت في اليوم التالي مسافراً، فأعلم حارس السوق أنني جئت لآخذ هذا السند لئلا يظن بك الظنون، فالعاقل دائماً واضح قال عليه الصلاة و السلام :

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

ابن ماجه عن العرباض بن سارية

رأي النبي عليه الصلاة والسلام من رفض يوسف الخروج من السجن :

سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول :

((وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، ثُمَّ جَاءَنِي الرَّسُولُ أَجَبْتُ ، ثُمَّ قَرَأَ :

(فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)))

ابن ماجه عن أبي هريرة

فكيف يقول النبي عليه الصلاة والسلام هذا القول؟ العلماء حللوا هذا القول، أي هذا الذي فعله يوسف شيء يطيقه نبي، لكن عامة المؤمنين، لو كان الإنسان في سجن، وأمضى به سنوات عديدة، وجاءه أمر إطلاق سراحه، وكان مظلوماً، لو قال: أنا لا أخرج حتى تظهر براءتي، فهناك احتمال كبير أن يقول من بيده الأمر: دعوه إذاً، فكأن النبي عليه الصلاة و السلام أراد أن يخفف عن أمته، قد لا يستطيع المؤمن العادي أن يرفض الخروج من السجن، فقال عليه الصلاة و السلام انطلاقاً من قوله الكريم :

((سيروا بسير أضعفكم))

ورد في الأثر

((وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، ثُمَّ جَاءَنِي الرَّسُولُ أَجَبْتُ))

ابن ماجه عن أبي هريرة

عندنا رخص، وعندنا عزائم، سيدنا يوسف نبي، سمعته كنبي أغلى عليه من إطلاق سراحه، لكن لو أنه إنسان ضعيف، و دخل السجن ظلماً، و جاءه أمر إطلاق سراحه قد لا يكلفه أن يرفض الخروج حتى تظهر براءته، لذلك جاء النبي عليه الصلاة و السلام وغطى هذه الناحية، وأعطى لأتباعه من بعده سماحاً أن يخرجوا إذا ضاق بهم السجن، و ضاق عليهم الأمر، قال تعالى :

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة يوسف)

توبة امرأة العزيز وتبرئتها ليوسف :

يستنبط من هذا القول أنها تابت .

(وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ)

ذلك ليعلم أي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب، أي حينما قلت للعزيز سيدي :

(مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا)

أنا افتريت على يوسف، ألصقت به تهمة الخيانة، إنما فعلت هذا ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب :

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

هنا ليعلم، أي ليعلم زوجي، الفاعل هنا زوجي، و بعض العلماء وجه هذا الفعل ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، كأنها تعتذر ليوسف بأنها في غيبته بالسجن ما ألصقت به تهمة باطلة، أي بعد أن ألصقت به التهمة بزوجها ندمت ثم قالت :

(وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ)

على كل، لنا أن نفهم ذلك: ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب، أو ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، أي في غيبته لم أبالغ في الحديث عن خيانته، بل برأته من هذه التهمة، لكن :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 52)

قاعدة عامة : وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ

هذه قاعدة :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

هذا مبدأ، وهذه سنة من سنن الله في الأرض باقية على الدوام، الله سبحانه و تعالى يكشف الخائن، ويوقعه في شر عمله يفضحه بين خلقه، يحبط عمله، مبدأ ثابت، الله سبحانه وتعالى لا يحب من كان خواناً أثيماً، لا يحب الخيانة :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

إخوة يوسف خانوا أباهم، وخانوا أخاهم فكانوا في أسفل سافلين، يوسف رفعه الله إلى أعلى عليين، امرأة العزيز خانت زوجها، ففضحها الله عز وجل :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

امرأة العزيز وقعت في الخيانة :

وقال العلماء: هذا تعريض بامرأة العزيز، أي أن امرأة العزيز كانت خائنة، وهذا تعريض بالعزيز نفسه، كيف يسمح العزيز لنفسه بعد أن تأكد من براءة هذا النبي الكريم حينما قال تعالى :

(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ (26)وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ (27)فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)

(سورة يوسف)

أي استرنا يا يوسف، أنت يا عزيز مصر تيقنت من براءة هذا الغلام الطاهر، كيف تزج به في السجن؟

هذه الآية تعرّض بهذا النبي الكريم، وتعرّض بالعزيز نفسه، لأن العزيز خان الأمانة، أمانة الحكم، قال تعالى :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي)

(سورة يوسف)

الآن مع حوار، لكن الحوار منسوب إلى شخص معين :

(وَقَالَ الْمَلِكُ)

هذا قول الملك .

(قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ)

هذا قول امرأة العزيز .

أما :

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ)

(يوسف : الآية 52)

فليس قبل هذه الآية كما في سابقتها قال فلان، هذا حوار، ولكن لم يذكر ربنا عز وجل من قال هذا الكلام، وهذا أبرع نوع في الحوار، أن يأتي في القصة حوار لم يُذكر من قاله، ويحتمل أن يقوله أحد الطرفين، ففي حوار آخر أن يوسف عليه السلام قال :

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ)

(يوسف : الآية 52)

لماذا قلت :

(هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)

(يوسف : الآية 26)

لماذا قلت :

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

يمكن أن يكون هذا الكلام لسيدنا يوسف ، على كل سنتابع الحوار على أنه لامرأة العزيز ، قال تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52)وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي)

(سورة يوسف)

من قبل اتّهمته زوراً، رغبت فيه، وهذه خيانة، واتهمته ظلماً، وهذه خيانة، يعني أني ارتكبت خيانتين؛ خيانة المراودة وخيانة الظلم .

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ

قال تعالى :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

(سورة يوسف)

الأنفس ثلاثة أنواع :أمارة بالسوء ولوامة ومطمئنة :

العلماء قالوا: في القرآن الكريم أنفس ثلاث: نفس أمارة بالسوء، هي نفس الجاهل، نفس المُعرض، نفس المنقطع عن الله عز وجل، ونفس لوامة، وهذه نفس المؤمن، قال تعالى :

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1)وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

من ساءته سيئته، وسرته حسنته فذلكم المؤمن، من علامات الإيمان الصادق أن تسوؤك سيئتك، وأن تسرك حسنتك، هناك علامات كثيرة، المنافق ذنبه كذبابة دفعها، والمؤمن ذنبه كالجبل جاثٍ على صدره، علامة الإيمان أن يكبر عليك ذنبك، وعلامة النفاق أن ترى ذنبك صغيراً، علامة الإيمان أن ترى نفسك صغيراً، وأن يراك الناس كبيراً، وعلامة النفاق أن ترى نفسك كبيراً، ويراك الناس صغيراً، وقد قال عليه الصلاة والسلام من أدعيته الشريفة :

((اللهم أرني بعين نفسي صغيراً ، وبأعين الناس كبيراً))

ورد في الأثر

أما المنافق فيرى نفسه كبيراً، وهو عند الناس صغير، قال ربنا عز وجل :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

هكذا هذه بنيته لمصلحته، فحيث وردت كلمة النفس من دون تقييد، أو حيثما وردت كلمة الإنسان يعني الإنسان المنقطع عن الله عز وجل بحسب بنيته، أما المصلي فليس جزوعاً ولا منوعاً ولا هلوعاً :

(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

(يوسف : الآية 53)

إجراء قوله : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) أنه من يوسف

وإذا أجرينا هذا الكلام على أنه لسيدنا يوسف قال تعالى :

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ)

(سورة يوسف : الآية 53)

دافعت عن نفسي، وقلت :

(هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)

(يوسف : الآية 26)

ليعلم سيدي الذي أحسن مثواي :

(لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(يوسف : الآية 52)

تعريض بامرأة العزيز وبالعزيز نفسه، وبالتعريض بلاغة عن التصريح .

يروى مرة أن الأحنف بن قيس كما يصفه الواصفون كان قصير القامة، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، ضيق المنكبين، أسمر اللون، أحنث الرجل، أي يعرج، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، كان دميماً، تتفاداه الأعين، وتنبو عنه الأبصار، وكان مع ذلك سيد قومه، إن غضبَ غضب لغضبته مائة ألف سيف، لا يسألونه فيم غضب؟ لعظم شأنه عندهم، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه، حضر مرة مجلس معاوية بن أبي سفيان، وكان قد جمع وجهاء القوم ليأخذ البيعة لابنه يزيد، وتكلم الناس، وأطروا، وأثنوا، ومدحوا، وبالغوا كما هي عادتهم، فلما بقي الأحنف ساكتاً أربك المجلس، وأحرج معاوية، فقال له معاوية: تكلم يا أحنف، ما رأيك؟ قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فكان تلميحاً أبلغ من تصريح، وهناك مواقف حرجة الإنسان يستطيع أن يكني، من دون أن يصرح، أن يعرِّض من دون أن يبين، قال تعالى :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

(سورة يوسف)

الله خلق الشهوة في النفوس :

تحليل أمارة بالسوء، أي أنّ الله سبحانه وتعالى خلقها أمارة بالسوء، إن كان خلقها كذلك فنحن لنا حجة عندئذ، يا رب، نحن لم نعمل شيئاً، أنت خلقت أنفسنا أمارة بالسوء، ففعلنا شيئاً فطرتنا عليه، وجبلتنا عليه، فما ذنبنا ؟

الحقيقة أنّ الله عز وجل خلق في نفوسنا أو أنفسنا شهوات، قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران : الآية 14)

حينما أودع الله في قلوبنا وفي أنفسنا هذه الشهوات أودعها لنرقى بها إلى الله، هذا أصل الخلق، كيف ترقى عند الله حينما تغض بصرك عن امرأة حسناء لا تشتهيها في الأصل؟ لا قيمة لهذا الغض، كيف ترقى عند الله إذا أنفقت مائة ليرة وليس المال محبباً عندك؟ لا ترقى، لا يمكن أن تكون جنة من دون شهوات .

حديث ومعناه :

حتى إنّ في الحديث :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

صحيح مسلم

هذا الحديث له معنى دقيق، حتى لا يظن السامعون أن الإنسان عليه أن يذنب، ليس هذا هو المعنى ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

صحيح مسلم

المعنى الأول: الذنب هنا يعني الإحساس بالذنب، إذا أحس الإنسان على ذنبه فهو طاهر، إذا ظهر على ثوبه بقعة سوداء صغيرة جداً فمعنى هذا أن ثوبه أبيض، فإذا كان ثوبه أسود اللون، وممتلئاً بالأقذار لا تظهر عليه بقعة سوداء، إذاً لو لم تذنبوا بمعنى إن كنتم طاهرين، إن كنتم تنطوون على حاسة أخلاقية واقترفتم ذنباً تحسون بهذا الذنب، هذا المعنى ذكرته من قبل .

هناك معنى آخر: هذه الطاولة لا تحب ولا تكره، ولا تشتهي، ومادامت هذه الطاولة لا تشتهي، ولا

تكره، ولا تحب لا ترتقي، ولا ترتقي إلا إذا كنت تشتهي، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

لأن النوم محبب والفراش وثير يجلب الإنسان إليه كانت قيمة صلاة الصبح ، قال تعالى :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة : الآية 16)

فالنفس في طبيعتها مزودة بهذه الشهوات، أنت حينما تعطي سلاحاً لجندي، إنّ هذا السلاح تعطيه لهذا الجندي كي يدافع به عن نفسه في ساحات الحرب، أو يقتل عدوه الذي يريد قتله، فإذا جاء الجندي بهذا السلاح، وقتل أحد أقربائه فهذا الخطأ ليس في السلاح، وليس في إعطائك السلاح له، لا، فالخطأ خطؤه هو، فالنفس حينما زودها الله بهذه الشهوات إنما زودها بها لترقى، ولا ترقى إلا بالشهوات، وهذه حكمة بالغة، ولكن الإنسان من دون أن يقبل على الله عز وجل يقع في العمى، وإذا وقع في العمى وقع في الخطأ، فالخطأ بسبب إعراضه .

الشهوة حيادية متوقفة على استعمالها :

إنّ السيارة وهي منطلقة بسرعة عالية مادام وراء المقود سائق يقظ ماهر متمكن من قيادته فالسيارة تحقق هدفها الذي صنعت من أجله، لكن السائق إذا كان أرعن أو جاهلاً أو غافلاً أو أصابته سِنة من النوم فلابد من أن يخرج عن خط الطريق الصحيح، فخروج سيارة عن خط سيرها وتحطمها أثلام الشركة على ذلك؟ لا، حينما زودت هذه السيارة بمحرك قوي من أجل أن تنقلك إلى هدفك لا من أجل أن تنزل به إلى الوادي، فغفلتك أوقعتك بالوادي، فحتى لا يظن الإنسان لأن النفس أمارة بالسوء هذا كلام يتناقله العامة، خلق لنا نفساً أمارة بالسوء، أكثر الناس يفعلون المعاصي، ويغطون أنفسهم بهذه الآية :

(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

هذا هو التفسير، لابد من أن تكون النفس مشتهية، لابد من أن تزود بالشهوات كي ترقى إلى رب السماوات، لكن إذا كانت الشهوة، ومعها النور الإلهي شهوة النساء تنقلب إلى أسرة سعيدة، أسرة المؤمن جنة .

الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ :

قرأت قصة عن أحد العلماء كان غنياً، فكان يرتدي أفخر الثياب، ويركب أجمل الأحصنة، فرآه يهودي يعمل عملاً قذراً ، وهو فقير، شقي، جائع، وقد سمع هذا اليهودي حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

مسلم عن أبي هريرة

فلما وقعت عين هذا اليهودي على هذا العالِم الذي يركب حصانه، ويرتدي أجمل ثيابه، بدرت منه هذه الكلمة، قال له : أي سجن أنت فيه، وأية جنة أنا فيها؟ شيء محير ، يقول نبيكم :

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

مسلم عن أبي هريرة

فأي سجن أنت فيه وأنت على ما أنت عليه من غنى ورفاه وعز وشأن؟ وأي جنة أنا فيها على فقري وشقائي وحرماني وتعاستي؟ فأجابه هذا العالِم إجابة أسلم من فوره، قال له: إنّ حالك هذه التي تشكو منها إذا قيست بما ينتظرك من عذاب أليم فأنت في جنة، وإنّ حالي التي تراها إذا قيست بما ينتظرني من نعيم مقيم فأنا في سجن .

الحقيقة عندما يتأكد الإنسان من هذا الحديث :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

متفق عليه هن أبي هريرة

إذاً: طبيعة النفس أودع الله فيها الشهوات، مثلاً: الهرة ترغب أن تأكل اللحم إذا أعطيتها قطعة من اللحم، وأمرتها أن توصلها إلى البيت الفلاني، ماذا تفعل في الطريق؟ تأكلها، هي لا تعقل، وليس فيها فكر تفهم به كلامك، وليس عندها قيم لتحافظ على هذه القطعة، شيء طبيعي، نفس الكافر كهذه الهرة، مشتاقة إلى حاجات، حيثما رأى طعاماً يأكله، سواء أكان له أو ليس له، هذه سرقة، وحيثما رأى امرأة يشتهيها، كانت تحل له أو لا تحل، قال تعالى :

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

(سورة الحجر)

هذا الذي ينساق مع شهواته هو حيوان، عودة إلى الحيوانية، دائماً وأبداً أنا أرفض نظرية داروين، وأرد عليها، إلا في الأيام الأخيرة بدأت أقتنع بها، لكن على شكل معكوس، أي أنه كان هذا الإنسان إنساناً فصار قرداً من شدة تهافته على الشهوات، وانغماسه في الملذات، وضربه عُرض الطريق بالقيم والمبادئ، كان إنساناً فصار قرداً، مُسخ قرداً بعد أن كان إنساناً، قال تعالى :

(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)

(سورة يوسف)

المؤمن نفسه لوامة، قال تعالى :

(وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

المؤمن نفسه لوامة، والتقي نفسه مطمئنة، و البعيد عن الله عز وجل نفسه أمارة بالسوء، إن النفس إذا قطعت عن الله لأمارة بالسوء، قال تعالى :

(لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة يوسف)

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي

قناعة الملك ببراءة يوسف :

تحقق الملك، وسأل، وتبين، ووصل إلى قناعة تامة بأن هذا السجين الفتى كان بريئاً وطاهراً وعفيفاً، وأنه دخل السجن ظلماً، سمع من علمه، ورأى من عفته، فماذا بقي على الملك أن يقول، قال تعالى :

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)

(سورة يوسف)

في المرة الأولى قال فقط :

(ائْتُونِي بِهِ)

(سورة يوسف : 54)

أما الآن فتابع قائلاً :

(أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)

(سورة يوسف : 54)

الملك يريد تقريب يوسف منه :

لأجعله من المقربين، لأجعله من خاصة حاشيتي، لأجعله عندي الوزير الأول عزيز مصر، فلما كلمه رأى علماً، قالوا: المرء مخبوء بين ثوبين، ورأى منطقاً، ورأى حكمة، فهو نبي حدّث عنه ولا حرج، ما ظنكم لو أن الله سبحانه وتعالى جمعنا بنبي يستهوينا ويسحرنا بكماله، برقته، بتواضعه، بعلمه، بذكائه، بفطنته، ويجب أن يكون المؤمن على شيء من ذلك، عفة إلى إنصاف، إلى حلم، إلى عفو، إلى

كرم، إلى شجاعة، إلى دقة، إلى عدالة، قال تعالى :

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)

(سورة يوسف)

إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

أنت الآن بأقوى مركز، من البئر إلى القصر خادماً، إلى قصر الحكم عزيز مصر، قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

(سورة يوسف : الآية 100)

هذه القصة تنطبق على كل مؤمن :

والله الذي لا إله إلا هو هذه القصة تنطبق على كل مؤمن إلى يوم القيامة، كن عفيفاً لابد من أن تكافأ بأحسن زوجة في الأرض، كن أميناً لا بد من أن تعيش في بحبوحة، كن صادقاً لابد من أن تعيش في مكانة علية، كل شيء تحاسب عليه في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى :

(إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)

(سورة يوسف)

كل دواعي الوقوع في الفاحشة متوفرة :

بعض العلماء حلل عقدة سيدنا يوسف، مثلاً: لو أنّ شيخاً طاعناً في السن راودته امرأة العزيز، فقال: معاذ الله، تجاوز هذه المرحلة، له أجر، ولكن ليس كأجر هذا الشاب، فالعلماء جمعوا نقاطاً دقيقة جداً ترفع من قيمة هذه العفة، أول نقطة قالوا: إن حب النساء طبع ركّبه الله في الإنسان، وكثير من الناس يحب الشهوات من النساء، ومع ذلك قال: معاذ الله .

شيء آخر، كان هذا النبي شاباً، فلو كان شيخاً كبيراً لما كان له أجر هذا الشاب، لذلك ما من شيء أحب إلى الله تعالى من الشاب التائب، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب التائب، يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد .

يا معشر الشباب، هذه السورة لكم، هو بشر، إذاً ركّب الله به حب النساء، ومع ذلك خالف الهوى، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

الذي ركّبه الله فيه .

شيء آخر، كان شاباً، ولا يخفى ما عند الشباب من توقُّد، ومن فتوة، ومن شهوة متّقدة، وكان شاباً عازبا، لو كان متزوجاً وقال: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، لكان له أجر، ولكن ليس كأجر هذا الأعزب الذي ما عرف النساء، وكان غريباً، والإنسان الغريب تدعوه نفسه إلى المعصية أكثر مما تدعوه إذا كان مقيماً، لذلك كلما كان المجتمع قليل العدد كان منضبطاً، الإنسان معروف، أخلاق القرية أرقى من أخلاق المدينة، لأنه معروف في قريته، أما في المدينة فهناك أمم لا يعرفها إلا الله، إذاً: كان بحكم أنه بشر مركب فيه هذه الشهوة، وكان شاباً، وكان عازبا، وكان غريباً، ودعته امرأة، لم تدعه امرأة دميمة، قبيحة، دعته امرأة ذات منصب وجمال، ولم تكن هذه المرأة ذات المنصب والجمال متأبيّة عليه، بل كانت خاضعة له، وهذا مما يسهل له اقتراف هذه الشهوة، ولم يكن هو الطالب، بل كانت هي الطالبة، ولم تكن متأبية عليه، وكانت ذات منصب وجمال، وكان غريباً، وكان عازبا، وكان شاباً، وقد ركب فيه هذا الطبع، وكان في دارها، وغلّقت الأبواب، وكانت متأكدة من كتمان الأمر، وكان لا يخشى أن تشكوه إلى أحد، لأنها هي التي طلبت، وإذا شكته تقع في شر عملها، وكان مملوكاً يُلقى عليه الأمر بيدها ضمن سلطتها، واستعانت عليه بنسوة كثر، حينما أقنعته أن يستجيب لها، وتوعدته بالسجن، وزوجها ليس غيوراً، هو مطمئن، قال تعالى :

(قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

هذا الذي فعله زوجها، بدل أن ينفجر، بدل أن يبعده عنها، أبقى كل شيء على حاله، وقال، قال تعالى :

(إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)

(سورة يوسف)

إذاً بدا الزوج ليس غيوراً، بل متساهلاً، قال تعالى :

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54)قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ

القرآن ما ذكر أن الملك استجاب له أم لم يستجب، لكن العلماء استنبطوا أن مكانته القوية والعلية عند الملك تجعل طلبه محققاً فوراً، أي عدم ذكر أن الملك استجاب له ووافق على اقتراحه تكريم لهذا النبي الكريم، وشيء بديهي، يقول لك أحدهم: كنا بالحرب الفلانية وانفجر لغم أمامنا، تقول له: هل مت أنت،

كيف ذلك؟ وهو أمامك يتكلم إليك، طبعاً كل شيء إذا فهم من دون أن يذكر لا ينبغي أن يذكر، البلاغة في الإيجاز .

استنباط لطيف : هل يجوز تزكية النفس ؟

أما كلمة :

(إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

أيجوز أن يزكّي المرء نفسه ؟ هذا سؤال دقيق ، ربنا عز وجل قال :

(فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ)

(سورة النجم : الآية 32)

إياكم أن تزكوا أنفسكم .

استثناء مهم :

العلماء استثنوا، فإذا كان الناس في ورطة، وليس أحد يستطيع أن ينقذهم منها، وكان الرجل واثقاً من قدرته، يجب أن يقول: أنا أستطيع أن أنقذكم منها، هناك حالات شاذة، لو أنّ في البلدة منصب لقاضٍ، ولم يتقدم أحد لشغل هذا المنصب، وكان أحد الرجال واثقاً من علمه، واثقاً من نزاهته، واثقاً من عدالته، وقال: أنا أشغل هذا المنصب، هذا يجوز، في الأصل :

(فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ)

(سورة النجم : الآية 32)

هذه واحدة .

لا تزكِّ على الله أحدًا :

والأصل الثاني: لا تزكِّ على الله أحداً، كان أحد العلماء إذا طُلبت منه تزكية رجل يقول: أعلم فلانا كذا وكذا وكذا، والله أعلم، فإن بدّل وغيّر، كلام سيدنا الصديق فهذا علمي به، ولا أعلم الغيب، أنا أعلمه أرحم أمة محمد بأمة محمد، حينما ولاّه الخلافة من بعده، خوّفه بعض الناس، وقالوا: كيف تولي عمر، وعمر من الشدة كما تعلم؟ قال: أتخوفونني بالله؟ أقول: ربي وليت عليهم أرحمهم .

سيدنا عمر قال له أبو ذر: إنّ الناس خافوا شدتك فبكى ،فقال: والله يا أبا ذر لو علم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكنّ الأمر لا يناسبه إلا كما ترى، لابد من شدة ظاهرة كي ينصاع

الناس، إنّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن .

إذاً: يجوز أن تقول إذا كان الناس في ورطة وفي أزمة: أنا أفعل كذا وكذا، هذا بإمكاني وبقدرتي، هذه حالة استثنائية، قال تعالى :

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

الحفظ والعلم مقياسان للمسؤولية :

حفيظ عليم مقياس خالد، فإذا أردت أن تعين موظفاً فلابد من صفتين اثنتين، الأولى الكفاءة، أي هو أهل لهذا المنصب، والثانية الأمانة والإخلاص، مخلص لمبدئك، وكفءٌ في عملك، سيدنا عمر أخذ من قوله تعالى :

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص)

كتب كتاباً عين به أحد الولاة وقال له: " خذ عهدك وانصرف إلى عملك، واعلم أنك مصروف رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال، فاختر لنفسك؛ إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعفك، وسلمتك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك، وأوجعنا ظهرك، وأحسنا أدبك، وإن جمعت الجرمين الضعف والخيانة جمعنا عليك المضرتين العزل والتأديب، وإن وجدناك أميناً قوياً زدناك في عملك، ورفعنا لك ذكرك، وأوطأنا لك عقبك "، أي أعداءك، إني حفيظ أي أمين ، عليم أي كفء ، الحفيظ يعني المخلص، أحافظ على العهود والمبادئ، عليم خبير بهذا الأمر .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ

قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)

(سورة يوسف)

يوسف له الحرية المطلقة في التصرف في مصر :

أيّ مكان يذهب إليه هو حر طليق، تقول بعض الروايات: إنّ ملك مصر ترك الملك كله له، وجد علماً وحكمة، وشخصية وطهراً، وعفافاً وعدالة، فسلمه قياد مصر كلها، وانزوى في قصره، قال بعضهم: أيجوز أن تعمل عند ظالم كافر؟ الجواب نعم ولا، أما نعم إذا أعطاك الحرية المطلقة، وكلّك قاضياً،

وقال لك: احكم بين الناس بالعدل، يا حبذا هذا المنصب، بهذا أحقق العدالة في المجتمع ولو كنت معيناً من قبل حاكم ظالم، أما إذا تدّخل في شؤونك اليومية، احكم في هذه القضية كذا وكذا، أصدر حكماً ببراءة فلان، أصدر حكماً باتهام فلان، فهذا لا يجوز، والعلماء وصلوا إلى حلّ كيف عمل هذا النبي الكريم عمل رئيس وزراء عند فرعون أو عند الملك؟ وأغلب الظن أن هذا الملك لا يعرف الله عز وجل، هل يجوز؟ ما دام قد أطلق صلاحيته فنعم، قال له :

(وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)

(سورة يوسف)

ما دام قد أطلق يده في أن تفعل ما تشاء ، يجوز ، لو قيده لا يجوز ، قال تعالى :

(يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

ولأجر الآخرة، هنا دقة بالغة؛ أن هذا النبي الكريم كان في البئر، ائتمر عليه إخوته، وصل إلى القصر خادماً، دخل السجن، ثم بعدها صار عزيز مصر، مصر كلها بيده، مقدراتها بيده، أمره نافذ، وأيّ مكان ذهب إليه يستقبله على الترحاب، هذه للدنيا والدنيا زائلة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (07-11): تفسير الآيات 58 – 76 ، بداية النهاية الحزينة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-06-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

يوسف على رأس خزائن مصر :

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي في سورة يوسف وقصته إلى قوله تعالى :

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)

(سورة يوسف)

قال العلماء في هذه النقلة من قوله تعالى :

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

(وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(56)وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

(سورة يوسف)

تولى يوسف عليه السلام وزارة التموين إن صح التعبير، وجاءت سبع سنوات خيِّرات، فغلَّت الأرض غلات لم تكن في الحسبان، وتولى هذا النبي الكريم الحفيظ العليم تخزين هذه الغلات لسبع سنوات أخريات عجاف، وجاءت السنوات العجاف، وعمّ القحط بلاد مصر والشام، وضاقت المكاسب بأهلها، فتوجه أبناء الشام في أرض كنعان إلى مصر ليشتروا القوت و القمح، كل هذا الكلام نُقل بين آيتين، وجاء إخوة يوسف؛ أرسلهم أبوهم ليشتروا القمح من مصر، جاءوا مصر فدخلوا عليه - والفاء تفيد الترتيب على التعقيب - بينما ثم تفيد الترتيب على التراخي، وفي هذه الآية إشارة إلى أن هذا النبي الكريم ، وذلك الحفيظ العليم كانت أموره ميسرة، فليس على أبوابه حجّاب يمنعون الناس من الوصول إليه، ما إن جاءوا مصر حتى دخلوا عليه، قال تعالى :

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ)

(سورة يوسف)

يوسف يعرف إخوته لأول نظرةوهم لم يعرفوه :

قد يقول قائل: لقد عرف أنهم إخوته فأمر بإدخالهم قبل غيرهم، الجواب: فدخلوا عليه فعرفهم، عرفهم بعد أن دخلوا عليه، جاء إخوة يوسف كمواطنين عاديين فدخلوا عليه، مَنْ توِّهم بعد أن دخلوا عليه عرفهم، ومِنْ استخدام هاتين الفاءين إشارة إلى أنّ هذا النبي الكريم كان بابه مفتوحاً للناس كلهم، أي إنسان يستطيع أن يصل إليه من دون تعقيد :

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ)

(سورة يوسف)

كيف عرفهم؟ لأنه حينما كان صغيراً كانوا هم قد اكتملت بنيتهم، واتضحت معالمهم فصورتهم هي هيَ، لكنه كان صغيراً، كَبُرَ، وصار عزيز مصر، فاختلفت ملامحه من سن إلى سن، هم لم يعرفوه لكنه عرفهم، لم يعرفوه لأنهم تركوه في غيابة الجب، وتوقعوا أنه قد مات، أو أنه قد أخذه بعض السيارة فباعوه عبداً رقيقاً، أما أن يكون هذا الذي تركوه في غيابة الجب عزيز مصر فهذا لم يكن في حسبانهم، حينما جاءوا مصر من بلاد الشام دخلوا عليه مباشرة فعرفهم بعد أن دخلوا عليه :

(فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)

(سورة يوسف)

الذي نستفيده من هذه الآيةعمليًا :

لكن الذي قاله العلماء في هذه الآية: إنّ هذا النبي الكريم ذاع صيته في الخافقين من حيث الرحمة والرأفة واللين والعطف والتواضع والمودة والإنصاف والعدل، نبيٌ كريم كيف تكون أخلاقه؟ وإذا كان من علاقة بيننا وبين هذه الآية، إذا كنت أيها الأخ الكريم موظفاً، إذا كنت مؤمناً، لابد من أن يتحدث الناس عن إحسانك، وعن تواضعك، وعن إنصافك، وعن حبك للخير، وعن حبك لخدمة الناس والمواطنين، ولاسيما المراجعين، إذا كنت موظفاً مؤمناً، وقال الناس: ليس لهذا الموظف مثيل لا في تواضعه، ولا في خدمته، ولا في تسهيله على الناس أمورهم .

دخل مواطن على موظف ومعه معاملة، فرأى تعقيدات ليست في الحسبان، هذه لا يمكن أن نوافق عليها، وهذه لا يمكن، فقال له: يسِّرها، فقال: ألا تعلم أن شعارنا هنا ربي عسِّر ولا تيسِّر .

إذا كنت مؤمناً، وكنت موظفاً لابد من تيسير أعمال الناس، وتسهيل مهماتهم، لابد من خدمتهم، من التواضع لهم من إنصافهم، أما إذا استعليت عليهم، وعقدّت عليهم الأمور، ووضعت أمامهم شروطاً تعجيزية كي يدفعوا، فهذا الموظف من المغضوب عليهم ومن الضالين:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة)

فهذا النبي الكريم ذاع صيته، وتحدث الناس عن إحسانه، وسار الركبان بأخباره، ذاعت أعماله الطيبة في مصر والشام، أتوه من أطراف الدنيا ليأخذوا منه القمح والشعير وقوتهم.

وقد قيل: إنّ هذا النبي الكريم كان يباشر توزيع الأقوات بنفسه، وعلى حسب رؤوس الأسرة، وكان هذا النبي الكريم فيما ترويه الكتب قد آثر أن يأكل في اليوم وجبة واحدة، ليضع نفسه مع الناس، مادام هناك شدة وقحط، وهناك قوت يسير ونزر قليل، آثر أن يضع نفسه مع الناس، فألزم نفسه أن يأكل وجبة واحدة .

هكذا كان سيدنا عمر :

سيدنا عمر رضي الله عنه جاءه رسول من أذربيجان وصل المدينة في ساعة متأخرة من الليل، كره هذا الرسول أن يطرق باب أمير المؤمنين في هذه الساعة المتأخرة، فتوجه إلى المسجد، فإذا في المسجد صوت وبكاء، سمع هذا الصوت يقول: رب، أنا واقف ببابك، واقف بين يديك، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزيها؟ فقال هذا الرسول: من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا عمر، قال: أمير المؤمنين! قال: نعم، قال: ألا تنام الليل؟ قال: إن نمت ليلي كله أضعت نفسي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي، بقي هذا الرسول مع أمير المؤمنين حتى صلاة الصبح، فلما انصرف عمر من المسجد اصطحبه معه إلى البيت إكراماً له، دخل إلى البيت قال: يا أم كلثوم ما عندك من طعام؟ قالت: والله ما في بيتنا إلا خبز وملح فقط، فقال: هاته لنا، أكل وأطعم ضيفه وحمِد الله وأثنى عليه، ثم سأل هذا الرسول: ما الذي أقدمك إلينا؟ قال: هدية بعثها لك عاملك على أذربيجان، قال: افتحها، فتحها فإذا هي حلوى نفيسة، فقال: يا هذا أيأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام؟ قال: لا، هذا طعام الخاصة، قال: أوَ أعطيت الفقراء في المدينة مثل ما أعطيتني؟ قال: لا، هذه لك خصيصى، قال: اذهب فوزعها على فقراء المدينة، وحرام على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يأكله عامة المسلمين .

سيدنا يوسف ألزم نفسه أن يأكل وجبة واحدة في سنين القحط، وسيدنا عمر مرة حرم نفسه طعام اللحم أشهراً طويلة حتى قرقر بطنه، فقال لبطنه: قرقر أيها البطن أو لا تقرقر؛ فوالله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين.

حينما بعث هذا الخليفة بوالٍ إلى بعض الأمصار أراد أن يمتحنه فقال له: << ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، ثم قال: إنّ الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإذا وفينا لهم

ذلك تقاضيناهم شكرها ، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية >> .

في الحقيقة الرؤيا التي رآها الملك وقعت، جاءت السنوات العجاف بعد السنوات الخيِّرات .

وشيء آخر؛ هذا النبي الكريم حينما عرف إخوته ضيّق عليهم لحكمة بالغة، قال: أنتم عيون أي جواسيس، قالوا: معاذ الله، إنما جئنا إليك لنشتري طعاماً لنا، قال: كم أنتم؟ قالوا: نحن عشرة، قال: هل خلفتم أحداً في بلادكم؟ قالوا: نعم، نحن كنا اثني عشر أخاً، واحد منا ضاع في البرية - هكذا قالوا - ضاع في البرية، والثاني تركناه عند أبيه لشدة حبه له وحرصه عليه؛ فهذا الذي ضاع في البرية، وهذا الذي تركناه من أم واحدة، ونحن العشرة من أم ثانية .

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ

سيدنا يوسف ضيّق عليهم حتى حملهم على أن يذكروا له تفصيلات كثيرة عن أحوالهم، وهذا النبي الكريم حينما جهزهم بجهازهم :

(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ)

(سورة يوسف)

ماذا أعطى يوسفُ إخوتَه؟

أي أعطاهم القمح الذي جاءوا من أجله، ثم قال لهم: لابد من أن تحضروا معكم ذلك الأخ من أبيكم :

(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ)

(سورة يوسف)

قال بعضهم: إنه أعطاهم الكيل وزيادة، وقال بعضهم الآخر: إنه أرخص لهم في السعر فكثر نصيبهم من القمح :

(أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ)

(سورة يوسف)

أكرم ضيافتهم، أكرم مثواهم، أسكنهم في قصره وأطعمهم وسقاهم، وأعطاهم زاداً لرواحلهم وزاداً لهم وزيادة :

(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ(59)فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ)

(سورة يوسف)

الجمع بين اللين والحزم :

إن أتيتم في العام القادم من دون هذا الأخ من أبيكم فلن أعطيكم شيئاً، ولن أسمح لكم بدخول قصري؛ هذه سياسة حكيمة أن تجمع بين الإكرام والتهديد، أن تكون مرغوباً ومرهوباً ، أن يحار الناس فيك، لا ييأس الناس من رحمتك، ولا يتجاوزون حدودك، من السهل جداً أن تكون قاسياً، ومن السهل جداً أن تكون ليناً، لكن البطولة والحكمة في أن تجمع بين اللين وبين الحزم، أكرمهم، أسكنهم في قصره، أطعمهم أحسن الطعام؛ أحسن وفادتهم، أعطاهم الكيل وزيادة، إما أنه أرخص لهم السعر، وإما أنه رفع لهم الكمية، وهددهم قال :

(فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ)

(سورة يوسف)

يبدو أنه كان سائداً في ذلك الوقت نظام البطاقات، كيف توزع هذه الأرزاق على سبع سنين؟ لو طرحت في الأسواق دفعة واحدة لاشتراها المحتكرون والمستغلون، وخزنوها ، وضاعفوا أثمانها، لابد من توزيع مقنن محدود على مدار السنوات السبع، ولابد من كمية لا تزيد على الحد المعقول يأخذها كل إنسان ،.

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ

وشيء آخر؛ أنه حينما طلب منهم هذا الأخ رأوا من الصعوبة بمكان أن يأخذوه، لأن تجربة سيدنا يعقوب معهم كانت تجربة مُرّة، إنه لن يصدقهم بعد ذلك، لقد جرحوه، لقد آلموه، لقد حرموه من هذا الابن الكريم، تصوروا أنه لن يعطيهم إياه، لذلك قالوا :

(قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

(سورة يوسف)

قضية معقدة جداً؛ تكاد تكون مستحيلة :

(وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

وقال لغلمانه الذين يعملون في قصره :

(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ)

(سورة يوسف)

هذا ما صنعه يوسف مع إخوته حتى يرجعوا مرة أخرى :

البضاعة هنا تعني ثمن القمح، لكنّ بعض المفسرين يرجحون أنّ كلمة البضاعة هنا تعني أنهم لا يملكون نقداً لثمن القمح فجاءوا ببعض الحاجات من الشام كالجلود وما شاكل ذلك، وبدل أن يشتروا قمحاً قايضوا على القمح ببضاعة من عندهم، أمر فتيانه أن يعيدوا لإخوته ثمن القمح، أو هذه البضاعة التي جاءوا بها كثمن للقمح :

(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة يوسف)

استنباط لطيف من هذه الآية :

بعضهم فسّر هذا الموقف تفسيرات عدة، فهو يعلم أن أباه نبي كريم، وأنّ هذا الأب الكريم لا يمكن أن يأكل مالاً حراماً، فإذا وضع ثمن القمح مع القمح فلابد من أن يعودوا إليه مرة ثانية ليعطوه الثمن، هذه بعض التوجيهات .

شيء آخر؛ لعله أعطاهم ثمن بضاعتهم ليتمكنوا في العام القادم من شراء البضاعة، توقع أنهم لا يملكون ثمنها فأعطاهم ثمن البضاعة الحالة ليشتروا بها بضاعة في العام القادم، هذا توجيه آخر .

وبعضهم قال: استنتج العلماء أنه ما كان للابن أن يأخذ من أبيه ثمن شيء، أبوه وإخوته أمِنَ المروءة أن يأخذ منهم ثمن الطعام، أعاد لهم ثمن الطعام في رحالهم .

وبعضهم قال: إنما أعاد لهم ثمن الطعام كي يحبوه وكي يطمعوا فيه وكي يعودوا إليه، أربع تفسيرات لوضع هذا النبي الكريم ثمن القمح في بضاعتهم :

(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة يوسف)

لعلهم يرجعون حباً، ولعلهم يرجعون تأدية، ولعلهم يرجعون ليشتروا ما يلزمهم في العام القادم .

عودة الأبناء إلى أبيهم :

(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ)

(سورة يوسف)

تقديم الأبناء العذرَ لأبيهم في منعهم الكيل :

أي لن يسمح لنا بعد هذا العام أن نتوجه إلى مصر لنشتري القمح :

(يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ)

إن لم ترسله معنا منع منا الكيل :

(وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة يوسف)

لكن هذه الكلمة لن تؤثر في هذا الأب، لأنهم قالوها من قبل، ووضعوه في غيابت الجب ، والإنسان يكذب مرة واحدة ويصدق مائة مرة، وفي المائة مرة يكذبه الناس، إذا كذب مرة وصدق مائة مرة في المائة مرة القادمة يكذبه الناس، أنا أظن أنهم حينما قالوا :

(وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة يوسف)

كانوا صادقين في قولتهم، ولكنهم لأنهم قالوها من قبل وقد كذبوا فهذا النبي الكريم لن يصدقهم في مقالتهم هذه، فقال :

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة يوسف)

موقف يعقوب من إرسال ابنه مع إخوته :

يبدو أن الأب رأى أنه لابد من إرساله، الطعام شيء أساسي، إذا لم يرسله فلا طعام ولا قمح، لابد من إرساله :

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

جاء في بعض الآثار أن سيدنا يعقوب حينما قال:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لأردنّ عليك ابنيك معاً بعد أن توكلت علي .

يقول الله تعالى يوم القيامة: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول هذا العبد: يا رب لقد أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، فقال: عبدي أنا الحافظ لأولادك

من بعدك، أي أن العمر ليس بالذكاء ولكن بتوفيق الله وحفظه .

قرأت خبراً عن طائرة احترقت فوق جبال الألب على ارتفاع يزيد على ثلاثة وأربعين ألف قدم، وهذا ارتفاع الطيران النظامي، احترقت في الجو، عندما احترقت تصدعت، وقع راكب منها، يبدو أن عناية الله حفت هذا الراكب، سقط من ثلاثة وأربعين ألف قدم على غابة مكسوة بالثلج، سماكة هذا الثلج خمسة أمتار فوق أشجار الصنوبر، فنزل على قدميه ولم يصب بأذى .

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

طائرة أخرى تشيكية احترقت قبل مطار دمشق، لم ينج منها إلا راكب واحد وطفل صغير، لم يضعا حزام الأمان، فلما تصدعت نزلا من الطائرة إلى الأرض، والباقون قد احترقوا، كما قال الشاعر :

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهن أمان

إذا الإنسان سافر فهناك دعاء السفر :

((اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد))

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

إذا توجهت إلى سفر، إذا دخلت إلى بيتك، إذا خرجت إلى عملك، إذا حقّت بك المخاطر ، قل :

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(64)وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ)

(سورة يوسف)

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ

بعضهم قال: الفضة، كان ثمن القمح فضة، وبعضهم قال بضاعة .

على كل هذا الثمن الذي دفعوه لسيدنا يوسف أعيد إليهم مع بضاعتهم :

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي)

(سورة يوسف)

تقديم عذر آخر لإرسال الأخ معهم :

ماذا نريد أكثر من ذلك؟ ماذا نطمح أكثر من ذلك؟ ما نبغي؟

(مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا)

(سورة يوسف)

هذه المبالغ التي جمعناها لنشتري بها قمحاً ردت إلينا مع القمح الوفير .

(وَنَمِيرُ أَهْلَنَا)

أي إذا ذهبنا في العام القادم نأخذ قمحاً مرة ثانية، ونعاهدك أن نحفظ أخانا، لقد كنا عشرة فأصبحنا أحد عشر .

(وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)

طلبه أن نأتي بأخينا .

بعضهم قال: إن هذا النبي الكريم ما كان يعطي الإنسان إلا كيل بعير طول العام، يبدو أن الإنسان يحتاج بطعامه إلى كيل بعير، قدروا ما يحتاجه الإنسان إلى قمح طوال العام كيل بعير :

(ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ(65)قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ)

(سورة يوسف)

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ

اشتراط يعقوب لأبنائه الكفالة والموثق :

أي هذه المرة لا بد من كفالة، العلماء قالوا: في الأشياء العينية كفالة، وفي الأشخاص موثق، والكفيل ضامن، كفيل المال ضامن للثمن، وكفيل الشخص ضامن لدفع الدية، أو لتحمل ما يترتب على غريمه من قصاص :

(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)

(سورة يوسف)

استثناء مهم : إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ

فسر العلماء أن يحاط بكم، إلا أن تموتوا، أو تهلكوا بحادث، أو أن تُغلبوا، إذا حاربتم من أجله فغُلبتم فهذا من قبيل أن يحاط بكم ، والإنسان يقول لك: قل: إن شاء الله - يقولها عامة الناس استخفافاً بها - إذا أرادوا أن لا يأتوا في الموعد المحدد يقولون: إن شاء الله، وإذا أرادوا أن لا يدفعوا يقولون: إن شاء الله، بعد أسبوعين أعطيك إن شاء الله، إنهم بهذه الكلمة يتهربون من الوعد الصحيح، لكن هذه الكلمة لها معنى قرآني، إذا كنت مصمماً تصميماً أكيداً على دفع المبلغ أو على الحضور تقول: إن شاء الله، يعني أنا مصمم إلا أن يحاط بي .

تذكر دائما هذه الآية :إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ

الإنسان قد يحاط به، قد يموت ولا يلبي الدعوة .

كنت مرة في الثانوية، فجاء كتاب من وزير التربية يطلب من بعض المدرسين أن يبرر سبب تغيبه عن التصحيح في الامتحانات، وينذر هذا الكتاب ذلك المدَرس بعقوبة حازمة إن لم يأت بتقرير طبي، فكان الجواب الذي أجاب به المدير: لقد مات هذا المُدرس، ماذا تفعل؟

(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)

الإنسان قد لا يدري :

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جنّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجر

كلمة :

(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)

فيها أدب مع الله عز وجل، تقول: أنا، من أنت؟ مادام هذا القلب ينبض، أنت، فإذا توقف عن النبض صار المرحوم، كان السيد فلان، فلان بك، فلان أفندي، فلان طبيب بورد أو غيره، كان فصار المرحوم فلان، فلذلك :

(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)

فيها معنى التواضع والتوحيد والعبودية، ففي كل شيء تفعله قل: إن شاء الله، إلا إذا قيل لك: هل أنت مؤمن؟ فإذا قلت: إن شاء الله فهذه مسألة خلافية، أكثر العلماء يقولون: لا ينبغي عليك أن تقول: إن شاء الله، إن قيل لك: هل أنت مؤمن؟ قل: نعم ورب الكعبة أنا مؤمن :

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

(سورة يوسف)

كلمة عظيمة : اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

احذر إذا وكَّلك مظلوم إلى ربك :

بعض الباعة يقول لك: الله وكيلك، هذه كلمة تجري على اللسان، والله لو عرفت قيمتها و أبعادها و حدودها لقصم ظهرك، يجعل الله وكيله؛ خالق السماوات والأرض، السميع البصير، من بيده كل شيء، تجعله وكيلاً لخصمك، وتخونه وتغدر به وتغشه، وتحتال عليه تخدعه، والله وكيله .

(اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

هناك كلمتان: الكلمة الأولى: إذا قال لك أحدهم: شكوتك إلى الله، إن كنت تعرف أبعاد هذا الكلام ينبغي أن لا تنام الليل عن أَنَس بْن مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ))

مسند الإمام أحمد

إذا قيل لك: شكوتك إلى الله، وتعرف ماذا تعني كلمة شكوتك إلى الله، وتعرف أن الله عز وجل بيده كل شيء، أحياناً معامل الدم في نقي العظام تطرح في الدم في كل ثانية مليونين ونصف كرية حمراء في كل ثانية، ولآن جلسنا في هذا المجلس من نصف ساعة فرضاً، أي ثلاثين دقيقة، والدقيقة ستون ثانية، أي ألف وثمانمائة ثانية، حوالي أربعة آلاف مليون كرية حمراء طرحت في دم كل منا في هذا المجلس، معامل نقي العظام قد تتوقف عن العمل، ما السبب؟ لا أحد يعلم حتى الآن، توقف مفاجئ، هذا المرض سماه العلماء فقر دم لا مُصَنِّع، فقر في الدم ليس عن أسباب معينة، بل عن أن معامل نقل الدم توقفت عن العمل، المرض الثاني توقف الكليتين عن طرح البول بلا سبب، هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، فهذا الذي تجعله وكيلاً لخصمك، وتغش خصمك، وتحتال عليه، وتكذب عليه، توقع به؛ الله وكيله .

كلمة: شكوتك إلى الله لا يعرف معناها إلا من عرف الله، والكلمة الثانية أن تقول: الله وكيلك، إذا قلت: الله وكيلك ينبغي أن تكون معه دقيقاً دقة بالغة، أو يتولى الله سبحانه وتعالى محاسبتك عنه، قال تعالى :

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(66)وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ)

(سورة يوسف)

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ

لابد من اتخاذ الأسباب لاتقاء العين :

المدينة في مصر كان لها أبواب، دمشق نفسها لها باب الجابية، باب السلام، باب توما، كان لكل مدينة سور وأبواب تغلق في الليل، قال لهم لا تدخلوا من باب واحد ، خاف عليهم العين، عشرة أولاد أشداء، أصحاء، أقوياء، ملء السمع والبصر، يدخلون جميعاً من باب واحد وهم لأب واحد .

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ)

والعلماء استنبطوا من هذه الآية أن على الإنسان ألا يظهر ما عنده، لأن عين الحاسد قد تفعل فعلها :

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(1)مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(2)وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ(3)وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ(4)وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

(سورة الفلق)

هل للحاسد فعل مستقل عن الله عز وجل، أين التوحيد؟ الجواب إنه ليس للحاسد فعلٌ مستقل عن الله عز وجل، لكنّ المحسود الغافل يستحق العقاب على غفلته من قِبَل الله عز وجل عن طريق الحاسد، فإذا كنت مع الله لا تؤثر فيك عين حسود، لكنه من باب الاحتياط لا تبدي ما عندك للناس، لا تفتخر، لا تظهر في زينتك، لا تعرض متاعك، لا تعرض أموالك، لا تتحدث عن أرباحك لأن من الناس من يحسدك، فإذا كنت غافلاً أصابتك عين الحسود، قال الشاعر :

قل لمن بات لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعله إذ لم ترضَ لي ما وهـب

وملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن الســـبب

بل قم فاسألن عن السبب، البيت : لا تسألن عن السبب، وصوابه: قم فاسألن عن السبب :

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة يوسف)

الغفلة عن الله طريق إلى تأثير الحسد والعين والسحر :

لو أنكم دخلتم من أبواب متفرقة، واستحق العبد التأمين من الله، لا يغنيه هذا الاحتياط شيئاً، وذكاؤك لا ينفعك إذا أراد الله بالإنسان سوءاً، لكن من باب الاحتياط على الإنسان ألا يعرض ما عنده للناس، فلعل في الناس حسود تصيب عينه المحسود الغافل، وعَن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ :

((إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ))

صحيح البخاري

أي عين الحسود، وربنا عز وجل قال :

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : 102)

هذا هو التوحيد، لكن إذا كان الإنسان غافلاً عن الله عز وجل وعرض ما عنده، أحياناً الإنسان يطلع الضيف على شيء نفيس اشتراه، هذا المضيف غافل، يتيه على الضيف بهذه الثياب، والحلي، بهذا الجهاز يتيه عليه، ما إن يخرج الضيف حتى يقع الجهاز وينكسر، ماذا حصل؟ عرضت ما عندك للضيف وكنت غافلاً عن الله، لم ترَ فضل الله عليك، رأيت مالك وذكاءك فهذا الضيف اشتهى هذا الجهاز، واستكثره عليك، ووقع في نفسه؛ فأراد الله أن يؤدبك فحرمك هذا الجهاز، أحياناً ترتدي ثياباً

تتيه بها، وتظن أنه ليس أحد يشبهك في هذا الجمال، وهذه الثياب الرائعة، فما هي إلا ساعة حتى تمزق هذه الثياب الجديدة بشيء أو بآخر، وقعت عين الحسود وكنت أنت غافلاً، لو كنت مع الله لتواضعت، لو كنت مع الله لرأيت فضل الله عليك، لو كنت مع الله لتأدبت، لما دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة فاتحاً دخلها مطأطئ الرأس تواضعاً لله عز وجل، فالإنسان المؤمن علامة إيمانه أنه إذا أعطاه الله عز وجل الدنيا، أو شيء من الدنيا، لا تزيده الدنيا إلا تواضعاً، يرى فضل الله عليه لا يتيه به على أحد من خلقه، يُحْشَرُ الأغنياء أربع فرق يوم القيامة، فريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، حسابه قصير، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، حسابه قصير، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، فحسابه قصير، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، هذا حسابه طويل، فيقال قفوه فاسألوه: هل ضيّع فرض صلاة؟ هل تاه على جيرانه بما عنده؟ هل قال لمن حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا؟ هذا حسابه طويل، هذا الذي جمع مالاً من حلال وأنفقه في حلال، حسابه طويل .

إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ

إذاً :

(وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة يوسف)

كان هذا النبي موحداً :

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

لو لم يكن في كتاب الله غير هذه الآية لكفتنا :

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

لك قضية عند إنسان ترى هل يوافق أم لا يوافق؟ إن الحكم إلا لله، إن كانت خيراً لك ألهمه أن يوافق، وإن كانت ليست كذلك ألهمه ألا يوافق، واخترع حجة واهية لعدم الموافقة لأن الحكم إلا لله ،

((لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه))

أحمد

قال تعالى :

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ)

(سورة يوسف)

التوكل الصحيح يعني الأمنوالطمأنينة :

التوكل على الله يضفي على حياة الإنسان أمناً، إن الله يعطي الذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، والمتوكل في نعيم وطمأنينة، المتوكل لو يعلم ملوك الأرض ما عليه من السعادة لقاتلوه عليها بالسيوف :

(وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا)

(سورة يوسف)

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

فهذا الاستثناء ليس من الفقرة الأولى بل من الفقرة الثانية، أي ولما دخلوا من حيث أمرهم أباهم دخلوا من أبواب متفرقة ما كان يغني عنهم من الله من شيء لو أن الله أراد أن يؤدبهم لأدبهم، ولو طبقوا وصية أبيهم، هذه الحكمة التي في نفس يعقوب أملاها عليهم فطبقوها :

(وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ)

(سورة يوسف)

وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ

رتبة لعلم عالية :

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، ورتبة العلم أعلى الرتب وما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلمه .

(وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ)

قال بعضهم: إنه لذو تطبيق لهذا العلم الذي علمناه، لأنه ذكر الله عز وجل مؤدى سبب التطبيق، سبب العمل مثلاً :

(وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ)

(سورة يوسف)

القرية لا تسأل، أي واسأل أهل القرية، قد نقول: قرر مجلس الوزراء، والمجلس هو المقاعد، جلس يجلس مجلساً، والمقصود من على المقاعد، وهذا التفسير دقيق جداً :

(وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ)

العلم معناه العمل :

أي إنه لذو عمل بما علم و لذو علم لما علمناه، أي ذو تطبيق لما علمناه، والله سبحانه وتعالى لا يثني على الإنسان إلا إذا عمل بما علم، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(2)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف)

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر : الآية 10)

ولما دخلوا على يوسف :

(وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

إذا علمك الله علماً فأنت مقرب إلى الله كثيراً، إن الله عز وجل يمنح العلم لمن يحب، يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، ولكن العلم لا يمنحه إلا لمن يحب، ما استرذل الله أحداً إلا حظر عليه العلم والأدب، قد يجعله قوياً وغنياً، وقد يؤتيه من الأولاد ما يشتهي، ولكن يحظر عليه العلم والأدب :

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ)

(سورة يوسف)

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ

قال العلماء: أكرمهم فجعلهم في كل غرفة مثنى مَثنى، هم عشرة، احتلوا خمس غرف، وبقي أخوهم الذي من أبيهم قال: وهذا دعوه لي، وكره أن ينام وحيداً فضمه إليه، لما ضمه إليه أسر إليه أني أنا أخوك :

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة يوسف)

يروى أنه لما علم أن عزيز مصر أخوه قال: دعني عندك، لا ترجعني معهم، قال تعالى :

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(69)فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ)

(سورة يوسف)

ما السبيل إلى إبقاء يوسف أخاه عنده ؟

لكن يبدو أن سيدنا يوسف لا يستطيع أن يخرج على قوانين البلاد، ومن قوانين البلاد أنه لا يجوز لعزيز مصر أن يحجز أحداً من دون بينة، من دون سبب، لأنه ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك، أي في نظام الملك؛ لا يستطيع عزيز مصر وهو رئيس وزرائها أن يحجز أحداً من دون سبب، فلا بد من حيلة، مادام أخوه قد ألح عليه أن يبقيه عنده، وقد رسم خطة في ذهنه كي يستقدم أهله، وربما أوحى الله له بهذه الفكرة، وهذا قول معظم العلماء؛ أن الله سبحانه وتعالى أوحى له بهذه القصة، لابد من حيلة :

حيلة صواع الملك :

(فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ)

(سورة يوسف)

صواع الملك إناء من الذهب، أو من الفضة كما تروي الكتب، ويستخدم لكيل القمح، والقمح شيء ثمين جداً، فلتقديسه وتعظيمه اكتالوه بصواع الملك، فهذا النبي الكريم جعل صواع الملك في رحل أخيه :

اتهام إخوة يوسف بالسرقة :

(ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

(سورة يوسف)

أيتها القافلة إن فيكم سارقاً، كان هذا القول كالصاعقة، قال تعالى :

(قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ)

(سورة يوسف)

ما الأمر؟ ما الذي تفقدونه ؟

(قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

(سورة يوسف)

يوسف جعل جائزة لمن يجيء بالصواع :

الكفالة وشرطها في الفقه الإسلامي :

هذه هي الجعالة، فإذا قلت أنت: من يأتيني بفلان فله مئة ألف، هذه جُعالة، من يأتيني بهذه الحاجة له مئة ألف ليرة؛ الجعالة عقد، طرفه الأول معلوم، وطرفه الثاني مجهول، لا تعرف من الذي سيأتيك به، عقد الإيجار لا يصح إلا إذا كان الطرفان معلومين، أما عقد الجعالة فيصح أن يكون طرفه الأول معلوماً وطرفه الثاني مجهولاً، لكنّ العلماء قالوا: يجوز للمجعول له أن يفسخ هذا العقد قبل الشروع بالعمل أو بعده، أي من يأتيني بهذه الحاجة فله مئة ألف، هذا الذي بدأ بالبحث عنها يصح أن يتنازل عن حقه، ويفسخ العقد بعد الشروع بالعمل أو قبل الشروع، لكنّ الجاعل لا يستطيع أن يلغي عقده إذا بدأ المجعول له بالعمل :

(قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

(سورة يوسف)

معنى زعيم أي كفيل، أنا أكفل أن أؤدي لمن يأتيني بصواع الملك حمل بعير .

حوار بين المتهم والمتهَم :

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

(سورة يوسف)

فعلاً هم بريئون على مرأى من سيدنا يوسف :

(قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ)

(سورة يوسف)

لو أننا وجدنا هذا الصواع في رحلكم فما جزاء من نجد عنده هذا الصواع؟ أنتم احكموا قبل أن نفتش، هم واثقون بأنهم ما جاءوا ليسرقوا :

(قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ)

(سورة يوسف)

استرقاق الذي سرق :

أي هو نفسه يصبح رقيقاً، يصبح عبداً، وهذا في شرع الأنبياء من قبل سيدنا محمد، الذي يضبط بسرقة يفقد حريته يصبح عبداً، فالجزاء أن يفقد حريته، ويصبح عبداً عند من أخذ منه الصواع، وهم واثقون :

(كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

(سورة يوسف)

الأمر بتفتيش الرواحل :

حكمة يوسف في طريقة تفتيشه للرواحل :

أي هكذا نعامل الناس في بلادنا، فأمر بالتفتيش، لكن هذا النبي الكريم كان على قسط وافر من الذكاء، بدأ بأوعيتهم، فتشوا هذا الرحل، فتشوه فلم يجدوا شيئاً، هم واثقون من أنفسهم، فتشوا هذا الرحل، فلما وصل إلى رحل أخيه قال: لا هذا دعوه، ما كان له أن يسرق، هذا فتى صغير، قالوا: لا والله، فتشوا هذا الرحل، لا نغادر مصر حتى تفتشوا هذا الرحل، هم واثقون من أنفسهم، قال تعالى :

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ)

(سورة يوسف)

فتحوا رحل هذا الغلام فإذا فيه صواع الملك، دهشوا، سُقِط في أيديهم، ألجمتهم المفاجأة، فقالوا لأخيهم: أأنت أخذت الصواع؟ قال: لا والله، قال: من وضعه في رحلك؟ فقال لهم: فيما تروي بعض الكتب: الذي وضع بضاعتكم في رحلكم وضعه في رحلي .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (08-11): تفسير الآيات 76 – 100، ميثاق إخوة يوسف مع أبيهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-07-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في قصة سيدنا يوسف إلى قوله تعالى :

(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ(78)قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ(79)فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ)

(سورة يوسف)

فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا

بين استيئس ويئس :

لم يقل الله عز وجل: فلما يئسوا، بل قال:

(فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا)

لأن الاستيآس أبلغ من اليأس، استيأس على وزن استفعل، فمن معاني وزن استفعل المبالغة، أي طلبوا منه فرفض، رجوه فرفض، استعطفوه فرفض، خضعوا له فرفض، عندئذ استيأسوا :

(فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا)

(سورة يوسف)

معنى :خَلَصُوا نَجِيًّا

معنى خلصوا: أي عقدوا اجتماعاً مغلقاً، وهذه حكمة، قد تضطر أن تعطي رأياً أو قراراً أو سلوكاً، لابد من تقليب الرأي، لابد من المشاورة، لابد من أخذ الرأي، لذلك عقدوا اجتماعاً مغلقاً، وتداولوا الأمر، انتهوا من اجتماعهم من تدويل الأمر إلى قول أحدهم، وهو أكبرهم، قال :

(فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ)

(سورة يوسف)

تذكّر إخوة يوسف ميثاقهم مع أبيهم وتفريطهم في يوسف:

أي لسنا ببعيدي عهد بالموثق الغليظ الذي أخذه أبونا علينا :

(أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ)

(سورة يوسف)

أي هذه الثانية، أخذ عليكم موثقاً في يوسف ففرطتم فيه، ثم أخذ عليكم موثقاً آخر في أخيه فنفرط فيه ؟

(وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ)

بعضهم يقول : (ما)هذه زائدة ، وبعضهم يقول : هذه (ما)موصولة ، أي ومن قبل تفريطكم في يوسف .

موقف الأخ الأكبر :

(فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ)

من شدة الألم وشدة الخجل وشدة الخزي أمام الأب الوالد قال :

(فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ)

أي لن أغادرها، أنا هنا، إما أن أعود مع أخي، وإما أن أبقى هنا :

(فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

(سورة يوسف)

يحكم الله لي أن آخذ أخي معي، أو أن أقاوم وأستخدم أسلوب العنف، إما أن أنتصر، و إما أن أخذل، فإذا خذلت ينطبق علي قول أبي:

(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)

إذا دافع الإنسان عن حقه وغُلب فقد أحيط به، فإما أن أرجع مع أخي، وإما أن يأذن لي أبي، وإما أن أستخدم السيف، فإن أخذته بالقوة أخذته بالقوة، وإلا فقد أحيط بي، وقد أُعذرت :

(وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

(سورة يوسف)

يبدو من هذا الموقف أنه يقطر ألماً، وندماً، وخجلاً، وحياءً وشعوراً بالتقصير :

(ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ)

(سورة يوسف)

اقتراح الأخ الأكبر على إخوته بالرجوع وذكر الحقيقة للأب :

أنا هنا لن أغادر هذا المكان لشدة الخجل :

(ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

(سورة يوسف)

أي رأينا بأعيننا صواع الملك في رحله، هذا الذي شهدناه، وشهدنا حيثما علمنا أنه قد وجد صواع الملك في رحله، قال تعالى :

(إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

(سورة يوسف)

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ

ما كنا نعلم أن هذا الحدث المهم سيقع بنا، ما كنا نعلم أن أخانا سوف يسرق، ما كنا نعلم أنه متهم حقيقة أو بريء، وأنه في بعض الروايات قال لهم: إن الذي وضع بضاعتكم في رحالكم هو الذي وضع صواع الملك في رحلي، هم ليسوا متأكدين من أن أخاهم قد سرق .

(وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

نحن لا نعلم حقيقة الذي جرى، أكان متهماً فعلاً أم كان بريئاً، ولا نعلم بما سيكون، وهذه الآية إشارة إلى أن الإنسان أحياناً - على الرغم من ذكائه واحتياطاته وخبرته ومعلوماته الدقيقة وإمكاناته وقوته - قد يقع في ورطة لا خلاص منها، قد يقع في مأزق لا خلاص منه .

الإنسان ليس بذكائه، ولكن بتوفيق الله عز وجل، فهناك قصص كثيرة الإنسان بريء مائة بالمائة، ومع ذلك يلبس تهمة ما كان له أن يدفعها عنه :

(وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

(سورة يوسف)

فالإنسان إذا اتكل على علمه أوكله الله إليه، إذا اتكل على قوته، أوكله الله إليها، إذا اتكل على جاهه أوكله الله إليه، إذا اتكل على خبرته أوكله الله إليها، فقط اتكل على الله عز وجل .

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، من اتكل على ماله ذل، من اتكل على علمه ذل، وأما من اتكل عليك يا رب فلا زل ولا ضل :

(ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ(81)وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

محاولة الإخوة إقناع أبيهم بالحقيقة :

أي إن لم تصدقنا يحق لك أن لا تصدقنا لخبرة مؤلمة سابقة منا، إن لم تصدقنا لأننا في الماضي لم نكن كما تريد، إن لم تصدقنا فاسأل القرية التي كنا فيها أي اسأل سكان القرية - هذا مجاز عقلي - اسأل سكان القرية أي المكان الذي كنا فيه، والعير التي أقبلنا أي هذه القوافل التي جاءت إلى مصر لما جئنا له، وقد حملت القمح وهي في طريقها إلى أرض كنعان، اسألها، فقصتنا مشهورة والشهود كثيرون :

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا)

(سورة يوسف)

موقف يعقوب :

بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا

أي عرف أن في شرع سيدنا يعقوب أن الذي يسرق يؤخذ هو شخصه بسرقته، إنه هو يصبح رقيقاً بعد أن كان حراً، لماذا أوضحتم للعزيز أنه في شرعنا من سرق أخذ جزاء سرقته؟ لعلكم أردتم أن تبعدوا ابني الثاني عني :

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

(سورة يوسف)

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

ما هو الصبر الجميل؟

الصبر الجميل ألا تشكو مصيبتك إلى أحد، أن لا تقول كلاماً لا يليق بالله عز وجل، ليس الحزن محظوراً، و لكن العويل والبكاء، وضرب الوجه، و تمزيق الثياب، و التفوه بكلمات فيها اعتراض على قضاء الله و قدره هذا هو المحرم، أما أن يحزن القلب فهذا شيء لا بد منه :

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

(سورة يوسف)

الصبر الجميل قال عليه الصلاة و السلام فيما يرويه عن ربه :

((إذا أحب الله عبده ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن شكر اقتناه))

ورد في الأثر

الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد؛ فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، الإيمان نصفان: نصف صبر و نصف شكر، علامة إيمانك أن ترضى بقضاء الله و قدره، الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين .

" يا رب هل أنت راض عني ، قال : عبدي هل أنت راض عني حتى أرضى عنك ؟ قال : و كيف أرضى عنك و أنا أتمنى رضاك ؟ فقال الإمام الشافعي : إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله أبداً " .

امتحن إيمانك عند الشدائد، عند المصائب ماذا تقول؟ إذا قلت كلاماً لا يليق بالله عز وجل فأنت لا تعرف الله، أما إذا قلت حسبي الله و نعم الوكيل، لا حول و لا قوة إلا بالله، يا رب لك الحمد على قضائك، الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، فأنت مؤمن و رب الكعبة، قال تعالى :

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا)

(سورة يوسف)

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا

هما اثنان، يوسف وأخوه، و هذا الأخ الثالث الكبير الذي بقي في مصر، ولن يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه ، صاروا ثلاثة، قال تعالى :

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

(سورة يوسف)

لابد من الرجاء في الله مهما اشتد البلاء :

هذا هو الرجاء، رجاء المؤمن بالله عز وجل مهما احلولكت الأيام، مهما ضاقت الأمور، مهما نزلت الشدائد، مهما اشتدت الأزمات، فالمؤمن واثق بنصر الله، المؤمن واثق بفرج الله عز وجل، النبي عليه الصلاة والسلام وصل الأمر بالإسلام إلى أن ينتهي بعد ساعات في غزوة الخندق، جاءت الأحزاب من كل جانب، الجزيرة العربية بأكملها اجتمعت على قتل محمد و أصحابه، واليهود نقضوا عهدهم مع النبي فانكشف ظهر المسلمين، وأصبح الإسلام موضوع ساعات وينتهي، إلى أن قال بعض الضعاف: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر و كسرى و أحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟ قال تعالى :

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا(11)وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة الأحزاب)

هذا الذي حصل لأصحاب النبي يحصل لكل إنسان، ولكل مؤمن تضيق به الأمور، يبث الله في قلبه الخوف ماذا يفعل؟ أيترك هذا الطريق الذي اختطه لنفسه، تضيق به الحيل، يأتيه الضيق من كل جانب، تضيق به الأرض بما رحبت، ماذا يفعل؟ قال تعالى :

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

(سورة يوسف)

إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

يعلم أين هم، وإبعادهم عني لحكمة أرادها الله عز وجل، عليم حكيم، أي يعلم أين يوسف، وأين أخوه، وأين أخوهم الثالث وما أحوالهم؟ و حكيم بهذا الإبعاد، قال تعالى :

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ)

(سورة يوسف)

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ

أي أعرض عنهم، و تفتقت جروحه الماضية ، تذكر يوسف، و قال :

(يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ)

قال تعالى :

(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

داء الزرق :

أما ابيضاض العين فهو مرض يسميه علماء الطب داء الزرق، فالقرنية مادة شفافة تتغذى بالحلول، حينما يرتفع ضغط الدم بسبب ضغط الهم تضطرب الأوعية الشعرية في العين، وتصبح القرنية الشفافة ظلمية بيضاء، تعيق الرؤية، ويصاب الإنسان بالعمى بسبب الحزن، وهذا مرض يعرفه الأطباء،

قال تعالى :

(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

الصديق يتألم والعدو يشمت :

إنّ الحزن الذي في قلبه لم يبح به لأحد لعلمه أن الله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى، وأن الإنسان إذا أبحت له حزنك ماذا يفعل، لا يستطيع أن يفعل شيئاً، الصديق يتألم والعدو يشمت، لذلك من تمام العقل أن تبث شكواك وحزنك إلى الله فقط، وإذا ضاقت بك الأمور فبث شكواك للمؤمن، فإذا بثثت شكواك لمؤمن فهذه شكوى إلى الله، أما إذا بثثت شكواك لكافر فهذه شكوى على الله، إياك أن تشكو همك لكافر، إياك أن تشكو حزنك لكافر، إياك أن تشكو مصيبتك لكافر، إنه يشمت بك، أول ما يقوله لك: ألم أقل لك: دعك من هذا الطريق، هذا طريق الإيمان، هو الذي جلب لك المتاعب، انظر إلي؛ أنا طليق لست مثلك، إنه يشمت بك ، قال تعالى :

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

كثرة الهموم سبب لأمراض القلب :

قال لي طبيب صديق: إن الأمراض في هذه الأيام بلغت حداً غير معقول، ولا سيما أمراض القلب، فقلت: لماذا ؟ قال: لكثرة الهموم، وكثرة المتاعب، إنا نعيش في مجتمع فيه بحبوحة، ولكن الآلام النفسية ضاغطة، أما أجدادنا فكانت حياتهم خشنة، لكنهم كانوا مرتاحين نفسياً، بينهم المودة والمحبة والإخاء، والصفاء والثقة، والأمانة والصدق والإخلاص، والبذل والتضحية والتعاون، وفي مجتمعنا الحسد والضغينة، والحقد واللؤم، والتنافس والترقب والوشاية، وكل شيء يهد الأعصاب، لذلك كثرت أمراض القلب عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

صحيح البخاري

إذا آمنت بالله يستريح قلبك المادي، هذا القلب الذي ينبض، من الأذينين والبطينين، ومن الشريان الأبهر والشريان التاجي، هذا القلب الذي ينبض إذا آمنت بالله، واستسلمت له ،ورضيت بقضائه، ونزعت من قلبك حب الدنيا، وتعلقت بالآخرة، ورضيت من الدنيا باليسير، فإن في هذا الإيمان صحة لقلبك المادي، فإن صح القلب صح كل شيء في الجسد، وإن فسد هذا القلب فسد كل شيء، لذلك صحتك أغلى عليك من الدنيا، وصحة إيمانك أغلى من صحة جسمك، من أروع ما قاله الإمام علي كرم الله وجهه : << إن الفقر مصيبة، وإن أشد من الفقر المرض، وإن أشد من المرض الكفر، وإن الغنى نعمة، وإن أفضل من الغنى صحة الجسد، وإنّ أفضل من صحة الجسد الإيمان >> .

لابد من التعلق بالله وحده :

أول نعمة على وجه الأرض أن تكون مؤمناً، ولأنك إذا كنت مؤمناً فلا شيء في الدنيا يعدل الإيمان، أحد الصالحين كان يتلو كتاب الله عز وجل فوصل في سورة يس إلى قوله تعالى :

(إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة يس)

ففاضت روحه إلى بارئها، فتعجب أصحابه كيف ختمت له هذه الخاتمة، فرآه بعضهم في المنام فقال: يا سيدنا ما فعل الله بك، كيف ختمت لك هذه الخاتمة؟ قال: جاء الملكان في القبر فقالا لي: من ربك؟ فتابعت قراءة القرآن، قال تعالى :

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)

(سورة يس)

فقالا لي: قال تعالى :

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

(سورة يس)

قيل: ادخل الجنة، فعندما تتعلق روح الإنسان بالله عز وجل يتجلى الله على قلبه سعادة ينسى معها كل شيء، قال تعالى :

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(84)قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ)

(سورة يوسف)

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ

إياك أن تفرق بين اثنين :

أي أبعد يوسف من بالك، لن يعود إليك، لقد مات، لا تزال تذكره، لا تزال تتشوق إليه، انتهى أمره، حتى تكون حرضاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((ليس منا من فرق))

ورد في الأثر

أي إذا فرقت بين أم وولدها، أو بين أب وولده، أو بين أخ وأخيه، أو بين صديق وصديقه، أو بين شريك وشريكه، أو بين جار وجاره، فلست من أمة سيدنا محمد، إذا فرقت مادياً بينهما، لست من أمة سيدنا محمد، وإذا فرقت معنوياً بينهما، إذا أوقعت بينهما الضغينة والشقاق والخصومة والعداوة فلست من أمة سيدنا محمد :

((لعن الله من فرق والدة عن ولدها))

ورد في الأثر

قال تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ)

(سورة يوسف)

معنى : حرضًا :

حرضاً أي هالكاً، فالهلاك الأول معنوي، أي هلاك اليأس، والهلاك الثاني الموت .

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

قال تعالى :

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

(سورة يوسف)

الشكوى لله الرحيم :

قال بعضهم: ويعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم، يعاب أن تشكو الله إلى إنسان لا يرحم،

الشكوى لله عز وجل، الشكوى لله إذا ألمّ بك أمر فبث شكواك إلى الله، وإذا ظلمك إنسان فاشكه إلى الله عز وجل، فإن في شكواك إلى الله أبلغ شكوى، قال :

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي)

معنى البث :

البث هو الألم، والحزن هو الألم الشديد، قال تعالى :

(وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

أي أعلم أن ذهاب أولادي عني لحكمة بالغة لابد من أن تكون، وأعلم أن هذا رحمة بي، وأعلم أن هذا حرص علي، وأعلم أن هذا قد يزول، وقد يعود إلي أولادي، أعلم من رحمة الله ما لا تعلمون، أعلم من حكمته ما لا تعلمون، أعلم من رأفته ما لا تعلمون، أعلم من حبه ما لا تعلمون، أعلم من تصريفه الأمور ما لا تعلمون .

يَا بَنِيَّ ادْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ

قال تعالى :

(وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(86)يَا بَنِيَّ ادْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ)

(سورة يوسف)

معنى التحسس :

معنى تحسسوا: أي تتبعوا أخبارهم، اذهبوا، وإن الله كتب عليكم السعي فاسعوا .

لا تفقد الأمل من شيء ضاع منك :

قال لي شخص: إنه قد أضاع مبلغاً كبيراً في سيارة، فلما دخل إلى بيته، واعتصر قلبه الحزن، أكثر الناس قالوا له: هذا المبلغ لن يعود إليك، إلا واحدا منهم قال له: اذهب فلعل الله يجمعك بالمبلغ، فذهب إلى المطار، وسأل عن سائق صفته كذا وكذا، فقالوا له: و الله لقد أخبرنا أنه قد رأى في سيارته مبلغاً

كبيراً، لذلك يجب على الإنسان أن لا ييأس، ولو بدا لك أن الأمر مستحيل، وأن لا سبيل إلى رده، وأن القضية شبه مستحيلة، اذهبوا، عاد إلى الشام، وأخذ المبلغ، و كان السائق أميناً، رد له المبلغ بالعد والتمام، قال تعالى :

(يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

(سورة يوسف)

اليأس ينافي الإيمان :

اليأس من روح الله لا يتناسب مع الإيمان بالله :

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

عودة ثالثة إلى مصر :

وصلوا إلى مصر مرة ثالثة، قال تعالى :

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ)

(سورة يوسف)

شكوى الإخوة ليوسف من الجوع وسوء بضاعتهم :

البضاعة هنا النقد، ما يشترى به البضاعة، إما نقد وإما شيء يدفع مكان البضاعة، مزجاة بعضهم قال: قليلة، وبعضهم قال: فيها عيب لا تقبل، قال تعالى :

(بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ)

(سورة يوسف)

أي أعطنا بها قمحاً كما لو كانت بضاعتنا كثيرة، أو كما لو كان نقدنا جيداً، لأننا قد مسنا الضر، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

(سورة يوسف)

طلبهم المؤونة والصدقة :

أعطنا الكمية المقررة كما لو كان النقد صحيحاً، أو كما لو كانت البضاعة كثيرة، وتصدق علينا بأخينا، أي ردّه إلى أبيه، قال بعضهم: يجوز إذا أصابك الضر أن تشكو إلى من بيده الأمر، هذا من باب الأخذ بالأسباب، ليس من باب الشرك .

نبأ كالصاعقة : قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ

يبدو أن سيدنا يوسف رأى من المناسب أن يلقي عليهم بالنبأ العجيب، آن الأوان وحان الوقت لكي يعرفهم من هو؟ جاءوه أول مرة، وجاءوه في المرة الثانية، وفي المرة الثالثة وهم يحسبونه عزيز مصر، مرة أحبوه لكرم الضيافة، ومرة امتنوا منه، لأنه جعل بضاعتهم في رحالهم، ومرة تألموا منه لأنه طبق القانون عليهم تطبيقاً دقيقاً، ولم يتساهل معهم، وجاءوا في هذه المرة يائسين، أو جاءوا راجين، عندئذ آن الأوان لهذا النبي الكريم وعزيز مصر أن يلقي عليهم بالنبأ، وسيكون عليهم كالصاعقة، قال تعالى :

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)

(سورة يوسف)

من يوسف؟ من أعلمك بما فعلنا بيوسف؟ هم في زعمهم أن هذه القصة لا يعلمها أحد إلا الله ويوسف، لأنه الضحية، قال تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)

(سورة يوسف)

احذروا فإن الله لا يخفى عليه شيء :

هذا الذي قالوه رسمياً لأبيهم، عشرة إخوة اتفقوا على رواية واحدة، ولا يعلم بما جرى إلا الله ويوسف، لأنه الضحية .

صفوان بن أمية التقى بعمير بن وهب، وقال له عمير بعد أن التقى به في الصحراء خارج مكة: والله لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أبناء صغار أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، فوقف صفوان وقال: يا عمير، أما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت علي أداؤها، وأما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر، فامض لما أردت، اذهب واقتله، وأرحنا منه، وكان ابن عمير عند رسول الله أسيرًا، فأسقى سيفه السم، وركب راحلته وانطلق إلى المدينة، رآه عمر رضي الله

عنه قال: هذا عمير بن وهب عدو الله، جاء يريد شراً، قيده بحمالة السيف، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب جاء يريد شراً، فقال: أطلقه يا عمر، أطلقه، قال: ابتعد عنه، فابتعد عنه، فقال عليه الصلاة السلام لأصحابه: هل أعددتم له طعاماً؟ هذا صعق، بعد أن أكل قال: ادن مني يا عمير، فدنا منه، قال له: ألا تسلّم علي؟ قال: عمت صباحاً يا محمد، قال: سلّم علينا بسلام الإسلام، قال: لست بعيد عهد بالجاهلية، قال: ما الذي جاء بك يا عمير؟ قال: جئت أفدي ابني، قال: وهذه السيف التي على عاتقك، قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر؟ قال: ألم تقل لصفوان بن أمية: لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، قال: والله ما يدري بأحد من هذا إلا الله، وأنت رسول الله، حينما قال لهم صفوان بدا عليه البشر في مكة، وكان يقول لمن حوله: انتظروا أخباراً سارة، وبدأ ينتظر هذا الخبر السار قتل محمد، مضى يوم ويومان وثلاثة أيام وأسبوع، وكان يقف على مشارف مكة ينتظر الركبان، ويسألهم ماذا حدث؟ فيقولون له: ما حدث شيء، إلى أن سألهم: ما فعل عمير؟ فقالوا: أسلم عمير، فهذا سيدنا يوسف قال :

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)

(سورة يوسف)

اقشعر بدنهم، صعقوا، تأملوا فيه حينما كانوا ينظرون إليه من قبل، أخذوا به كعزيز مصر، فلما قال لهم :

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)

تأملوا في ملامح وجهه، في خطوط جبينه، في حركاته، في نظراته، فإذا هي يعرفونها إنه يوسف، قال تعالى :

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ)

(سورة يوسف)

أدب التماس العذر :إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ

لكن النبي الكريم برقته وكماله وأدبه اعتذر عنهم، قال عليه الصلاة والسلام :

((التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة))

ورد في الأثر

التمس لهم عذراً، واعتذر عنهم، ماذا قال لهم؟ قال تعالى :

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

(سورة يوسف)

ما من عذر أبلغ من الجهل، ما كنت أعرف إذ أنتم جاهلون، كلمة :

(إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

اعتذار من سيدنا يوسف عنهم لئلا يحرجوا، لئلا يخجلوا، لئلا تضيق بهم الأرض، لأنه أكرمهم، أكرم وفادتهم، أكرم ضيافتهم، أعطاهم القمح، مع ثمن القمح في المرة الأولى والثانية، وها هو ذا يعرفهم بنفسه .

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

إذ أنتم جاهلون اعتذار عنهم، هكذا أخلاق النبوة، التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة، قال عليه الصلاة والسلام :

((لا تحمروا الوجوه))

ورد في الأثر

لا تحرج إنساناً، لا تخجله، لا تضيق عليه بالأسئلة، لا تسأله ماذا أكلت البارحة؟ ربما كان لم يأكل، ماذا طبخت اليوم؟ ماذا عندك من طعام من أجل أن تضيفنا؟ المؤمن لا يحرج أحداً، إلى أين أنت ذاهب؟ أين كنت؟ قال تعالى :

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي)

(سورة يوسف)

قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي

تواضع المؤمن :

هذا الذي حجزته أخي إكرام له، سيدنا الصديق لما اشترى سيدنا بلالا من أمية بن خلف قال له أمية: << والله لو دفعت به درهماً لبعتكه >> ، قال : " أما أنا لو طلبت ثمناً له ألف درهم لدفعتها لك " ، وضع يده تحت إبط سيدنا بلال وقال : << هذا أخي >> .

المؤمن متواضع، أحياناً يدخل أب طيب على ابنه في منصب رفيع فيقال له: من هذا؟ فيقول لهم: هذا آذن عندي، وهذا أخي قد منّ الله علينا بالنجاة، منّ علينا بالهدى، منّ علينا بالمنى، من علينا بالملك، منّ علينا بكل شيء، قال تعالى :

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ)

(سورة يوسف)

إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ

اصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى القضاءوالقدر :

أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو هذه القصة يمكن أن تنطبق على كل واحد منا :

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ)

اصبر على أمر الله، اصبر عن معصية الله، اصبر على مصيبة نزلت بك، واتق أن تعصي الله، ثم انظر كيف يبدل الله حياتك كلها سعادة وأمناً، وبحبوحة وتوفيقاً وسروراً .

ليست العبرة أن نتلو عليكم هذه الحوادث، العبرة أن نستنبط منها الحقائق، وأن نستنبط منها القوانين، وأن نستنبط منها السنن، وأن تكون هذه الحوادث تكشف عن حقائق نهتدي بها في حياتنا، في عملك دعيت إلى معصية قل: معاذ الله، دعيت إلى كسب حرام قل: معاذ الله، دخلك قليل قل: أصبر عليه، قال تعالى :

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

المحسن لا يضيع أجره أبدا :

والله الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يضيع أجر المحسنين، أحياناً يكون الإنسان باراً بأمه وإخوته لا يفعلون فعله، يأتيه الشيطان فيقول له: هي أمك وحدك، هم مرتاحون من خدمتها، طليقون، يذهبون إلى النزهات، يسهرون، وأنت مرتبط بها، اقرأ هذه الآية، قال تعالى :

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

هناك رجل خدم أمه تسع سنين متتالية إلى أن ضاق به الأمر، وتبرم، واشتكى، وبدأ يصيح، وبدأ يُسمع، حتى بلغ به الأمر أن جمع إخوته جميعاً، وقال: هذه أمي وأمكم، إما أن تأخذوها عني، و إما أفعل كذا وكذا، تحت الأمر الواقع، وتحت ضغط التهديد أخذوها عنه، في اليوم الثاني ماتت عند أخيه، يوم واحد، أذهب الله عمله كله، هناك رجل أعرفه، وهو حي يرزق، كان يرعى أرملة، رعاها عشرين عاماً، ثم انتقل إلى حي بعيد، فصار يأتي مشياً من هذا الحي البعيد إلى مكان إقامة الأرملة يكنس لها أرض الغرفة، ويصنع لها الطعام، ويقدم لها كل الحاجات، ضج أهله إلى متى أنت تخدمها؟ أليس في الناس أحد غيرك يخدمها؟ ضغطوا عليه، فلما رأوا إصراره، وأنه لا يمكن إلا أن يذهب إليها كل يوم،

وقد تقدمت به السن، صار في السبعين، عندئذ نزلوا عند الأمر الواقع وقالوا: ائت بها إلى هنا، إلى البيت، اخدمها هنا، قال: اذهبوا أنتم إليها وادعوها، فذهبوا إليها ودعوها، جاءت وأقامت عنده يومين ثم ماتت، هكذا العمل الصالح .

هذه الآية تركت في نفسي أثراً بليغاً، قال تعالى :

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

إذا كنت صادقاً، إذا بذلت من مالك، و بذلت من وقتك، وبذلت من صحتك وخبرتك وجاهك فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قالوا : يا عبد الرحمن بن عوف، نخشى أن يؤخرك كثرة مالك عن اللحاق برسول الله، فقال عبد الرحمن: والله لأدخلن الجنة خبباً، أي هرولة، وماذا أفعل إذا كنت أنفق مائة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء، ماذا أفعل؟ والله ما حرمت مالي مسكيناً ولا محتاجاً، تدفع من مالك، وتصبح فقيراً، الشيطان يعدكم الفقر، تأتي إلى مجلس العلم من أجل أن تتعرف إلى الله، و تأتيك المتاعب من هذا المجلس، لا والله، ليست هذه أخلاق الله عز وجل، الوفاء كله من الله، تأتيه إلى بيته ليتعبك بعدها لا والله :

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

تستقيم في تجارتك، وتفلس لا والله، تختار امرأة صالحة دينة، وتؤثرها على امرأة جميلة جداً، وتشقيك هذه المرأة، لا و الله، بل تسعد بها، إن الله مع المحسنين، هم أساءوا إليه، هو كان محسناً، ألقي في البئر، ثم صار عزيز مصر، هم كانوا في أوج قوتهم فصاروا يقفون أمامه أذلاء، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ)

(سورة يوسف)

انظروا إلى المواقف، كان صغيراً، ألقوه في الجب، بقسوة بالغة دفعوه دفعاً، وحينما مرت الأيام والليالي وقفوا أمامه أذلاء، هذا كله من قوله تعالى :

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

درست في هذا المجلس ساعة والطريق ساعة، ساعتان طريق وساعة حضور، هذا المجلس والله الذي لا إله إلا هو لو يوفر الله عليك في الأسبوع عشرين ساعة كان من الممكن أن تذهب سدى، أن تضيع مع الغيظ مع الضيق، تأتي إلى مجلس العلم يوفر الله لك وقتاً :

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عُمّارُها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

ورد في الأثر

عندئذ شعروا أين هم وأين هو، هم فقراء خائفون أذلاء، يستحون أن يأخذوا قمحاً ، وهو في منصب عالٍ، ملك مصر على العرش، قال تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا)

(سورة يوسف)

اعتراف لابد منه :

تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا

أحياناً يكون هناك أخ مؤمن فقير، وإخوة أشداء أقوياء أغنياء في أوج نجاحهم يسخرون منه، ما هي إلا سنوات وتدور الأيام، فإذا بهذا الأخ الصغير الفقير يصبح ملء السمع والبصر، وإذا بهم وقد ضاقت بهم الدنيا، وقد تخلفت بهم الحياة .

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا)

هذه القصة تتكرر كل يوم، الله سبحانه وتعالى يؤثر المؤمن، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، قال تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)

(سورة يوسف)

من الغباء أن تعصي الله : وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ

هذا هو الغباء أن تعصي الله عز وجل، إذا عصيته في عملك ستدفع حوالي خمسين ألف مصادرة، من أين أتتنا هذه؟ حساب قديم، جاءه زبون قال له: عشرة آلاف، ذهب فقال له صاحبه: كان ألفان، فقال له: هكذا العمل، في اليوم الثاني وضع عشرة آلاف لابنه، دخلت نثرة فولاذ في عينه، كان يكفيه ألفان فأخذ عشرة، قال له: أهكذا البيع والشراء؟ العاصي هو الغبي، لا يعصي الله إلا أحمق وغبي، لماذا؟ لأنه سوف يدفع الثمن غالياً، قال تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ(91)قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)

(سورة يوسف)

لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ

محا من قلبه كل حقد، وكل ضغينة، وكل ألم وكل حزن، هكذا هو المؤمن صافٍ عفيف، كأن شيئاً لم يحدث .

(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)

النبي عليه الصلاة والسلام قمة في العفو :

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حينما دخل مكة فاتحاً، من هم أهل مكة؟ هم الذين كذبوه، هم الذين قالوا عنه : ساحر مجنون، هم الذين ضيقوا عليه، وقاطعوه، وعذبوا أصحابه، هم الذين ائتمروا على قتله، هم الذين أخرجوا أصحابه إلى الحبشة ثم إلى المدينة، هم الذين اتفقوا على قتله، هم الذين حاربوه في بدر وأحد والخندق، كادوا له، شهروا به، هجوه بألسنتهم، دخل عليهم فاتحاً، وكان بإمكانه أن يقتلهم واحداً واحداً، أن يبيدهم عن بكرة أبيهم، قال :

((ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت، قال: أقول لكم ما قال أخي يوسف:

(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ)

، اذهبوا فأنتم الطلقاء))

السيرة النبوية

قال سيدنا عمر: << لما سمعت مقالة النبي كدت أذوب خجلاً >>، لمَ؟ قالوا: لأنه حينما دخل مكة من بعض أبوابها قال: سوف أنتقم منكم، سوف أقتلكم، فلما رأى كمال النبي عليه الصلاة والسلام قال: << كدت أذوب خجلاً من مقالة النبي لا تثريب عليكم اليوم >>، وهذا شأن النبي، ليس في قلبه حقد على أحد، ولا ضغينة ولا ضيق، إنما هو سلام في سلام، قال تعالى :

(قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(92)اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا)

(سورة يوسف)

قميص يوسف يعود مرة أخرى :

طبعاً سألهم عن أبيهم ما فعل أبي؟ قالوا: فقد بصره حزناً عليك، وقال العلماء: إن الله أوحى إليه أنك إذا أرسلت قميصك إليه سأرد أنا بصره، وليس القميص من سيرد بصره، إذا ألقيت على وجه أعمى قميصاً أيرد بصره، أوحى الله إليه أن أرسل قميصك إليه، وأنا سأرد إليه بصره إكراماً لك، قال تعالى :

(اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة يوسف)

سيدنا يعقوب وأبناءه اكتشفوا فجأة أن أخاهم ملك مصر، فرحة ما بعدها فرحة، قال تعالى :

(فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ(93)وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

(سورة يوسف)

قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ

التخاطر النفسي :

علماء النفس المعاصرين قالوا: هذه الحادثة اسمها التخاطر النفسي، سيدنا عمر يقف على المنبر ويخطب، فإذا به يقطع خطبته ويقول: << يا سارية، الجبلَ الجبل >>، سارية قائده في العراق، يقول لأصحابه: استمعوا، أسمع صوت أمير المؤمنين يحذرني الجبل، هذا ليس اللاسلكي .

بعضهم ينكر هذه الحادثة، العلم اليوم أثبتها، كنا في الجامعة فقال لنا أستاذ علم النفس: إن هناك حادثة اسمها التخاطر النفسي، امرأة في إيطاليا رأت ابنها وقد دهسته سيارة، وابنها في باريس، بعد سبعة أيام جاء نعش ابنها مع تقرير يفيد بأنه في اللحظة التي رأت فيها ابنها كان قد دهس، شيء وقع، تفسيره أن هذه النفس طليقة، إذا أحبت شيئاً تعلقت به، الأم أحياناً يسافر ابنها قلبها عنده، ماذا أكل؟ كيف نام؟ بمن التقى؟ هل يبرد أو لا يبرد؟ فلذلك قلب الأم آية من آيات الله عز وجل، وقلب الأب كذلك، قال تعالى :

معنى : فَصَلَتْ الْعِيرُ

(وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ)

(سورة يوسف)

لما غادرت العيرُ أرضَ مصر قال أبوهم :

(إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

معنى : تُفَنِّدُونِ

إني أشم رائحة يوسف لولا تفندوني، والتفنيد أن تعيّبوا علي هذه الفكرة، أي تسفهونها .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا؟ أَوِ الدَّجَّالَ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوِ السَّاعَةَ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

سنن الترمذي

الإنسان إذا تقدمت به السن يسخر الناس من آرائه، تفندون أي : لولا أنكم تسفهون هذا الرأي فإني :

(إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

هكذا كان جواب الأبناء :

(قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)

(سورة يوسف)

لازلت تهذي بهذه الأفكار، أين يوسف؟ يوسف مات وانتهى الأمر، ألم نقل لك: أكله الذئب، هذا ضلال في ضلال، وهذا من عقوق الأب، أن تقول لأبيك : إنك في ضلال، قال تعالى :

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا)

وصول الدليل على صدق كلام يعقوب :

بعضهم قال: الذي جاءه بقميص يوسف وعليه دم كذب رجاهم أن يمسك بقميصه الحقيقي لتكون هذه بتلك، واحدة بواحدة .

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا)

يروي التاريخ أن سيدنا يعقوب قال له: ماذا أكافئك على هذه البشارة، وليس عندي شيء، سأدعو لك أن يخفف الله عنك سكرات الموت، قالوا: هذا أثمن دعاء؛ أن يخفف الله عن الإنسان سكرات الموت، قال تعالى :

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

المؤمن ينتظر من الله الإكرام :

سيدنا أبو الدرداء قيل له: احترق دكانك يا أبا الدرداء، قال: ما كان الله ليفعل، احترق دكانك، قال: ما كان الله ليفعل، احترق دكانك، قال: ما كان الله ليفعل، فلما تحققوا وجدوا أن دكان جاره هي التي احترقت، فلما أخبروه قال: أعلم ذلك، أي أنك أنت مؤمن إذا كنت مستقيماً على أمر الله، مطيعاً له، محباً

له، باذلاً ما تملك من أجله، ماذا تنتظر منه، كل إكرام، تنتظر السلامة والإكرام والتوفيق والصحة والوفاق الزوجي، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : الآية 97)

هذا هو الظن، حسن الظن بالله ثمنه الجنة، قال تعالى :

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

(سورة الفتح : الآية 6)

قال تعالى :

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

الذي أعرفه لا تعرفونه، الذي أعرفه عن كرم الله وعن محبته وعن توفيقه وعن حكمته وعن علمه وعن خبرته لا تعرفونه .

قال تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ(97)قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي)

قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ

أهمية الاستغفار :

العلماء وجهوا هذه الآية أنه من عادته أن يقوم الليل قبل آذان الفجر فهذه ساعة مباركة، ساعة استجابة، فأرجأ الاستغفار إلى ساعة الإجابة، لأنه إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا فقال: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من طالب حاجة فأقضيها له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ حتى ينبلج الفجر، كلما ضاق بك أمر استيقظ قبل صلاة الفجر قم وصل ركعتين لله عز وجل، وفي السجود اطلب من الله حاجتك، فإن كان في أدائها خيراً فالله سبحانه وتعالى لابد من أن يجيبك عليها، قال تعالى :

(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(98)فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ

أدب يوسف في استقباله أهله :

من آداب هذا النبي الكريم أنه خرج لاستقبالهم، قال تعالى :

(فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا)

(سورة البقرة)

الله سبحانه وتعالى وهو خالقنا ينتظر منا أن نذكره كذكر آبائنا لشدة عظم حق الأب، لا تمش أمامه، ولا تجلس قبله، قال تعالى :

(وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)

وأي أمن ينعم به إنسان أبوه ملك البلاد؟ أيخاف من أحد؟ قال تعالى :

(وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ(99)وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ)

في مطار القاهرة مكتوب على بوابته الكبيرة: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، لكن شتان بين من يدخل الآن إليها وبين هذا النبي الكريم الذي دخلها حين كان ابنه عزيز مصر .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ

ما هو العرش ؟

ورفع أبويه على العرش، العرش أي سريره، مكان جلوسه، تعظيماً لهم وتوقيراً لهم قال: اجلسوا على هذا العرش، إذا جاءك ضيف عزيز جداً أجلسه مكانك، في مكان تكرمتك، أجلسهم على مكان جلوسه، والعرش إذا نسب إلى الملك هو سرير المُلك، أو مكان جلوس الملك، قال تعالى :

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا)

ما طبيعة هذا السجود ؟

هنا لابد من الإيضاح، بعض العلماء قالوا وهم محقون: وخروا له أي لله عز وجل سجداً جميعاً، يوسف وأبواه وإخوته الأحد عشر كوكباً، وبعضهم قال: هذا سجود التحية، كان تقليداً في مصر، انحناء الرأس، حينما ينحني الرأس قليلاً هذا اسمه عند أهل مصر سجود ، لا سجود عبادة، بل هو سجود

تحية، عندها قال يوسف عليه السلام :

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)

تحقّق رؤيا يوسف الأولى :

كما في أول السورة إذ قال تعالى :

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

الشمس أبوه والقمر أمه والأحد عشر كوكباً إخوته، قال تعالى :

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ)

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ

إغفال الإلقاء في الجب أدبٌ كبير :

لمَ لم يقل: إذ أخرجني من البئر، لأنه إذا قال: إذ أخرجني من البئر يذكرهم بجريمتهم وقال الصوفيون: ذكر الجفا وقت الصفا من الجفا، أي أنه ذكره بجريمته، إذا أساء أحدهم إليك وصار بينك وبينه مودة فيما بعد، هل تذكر يوم عملت معي كذا وكذا، بذلك تخجله وتحرقه حرقاً، فسيدنا يوسف لكماله ولأدبه الرفيع لم يقل: وقد أحسن بي إذ أخرجني من البئر، بل قال :

(إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (09-11): تفسير الآية 101
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-07-11

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ

إنه أدبٌ رفيع :

أيها الإخوة المؤمنون، ملاحظة، سيدنا يوسف لكماله ولأدبه الرفيع لم يقل: وقد أحسن بي إذ أخرجني من البئر، لا لم يقل ذلك، بل قال :

(إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ)

(سورة يوسف : الآية 100)

وقال بعضهم: كان البئر أهون عليه من السجن لأنه كان في البئر مع الله، وكان في السجن مع الوحوش، وفي السجن مصيبتان أنك تفقد حريتك، هذه مصيبة أولى، والثانية تجلس مع أناس دونك بكثير؛ مع سارقين، مع محتالين، مع شاربي خمر، مع لوطيين، شيء صعب جداً .

بعضهم قال: كان في البئر مع الله، وفي السجن مع اللصوص، وكان أسعد في البئر منه في السجن، هذا توجيه آخر، قال تعالى :

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ)

(سورة يوسف)

مَن بدا جفا :

من نعمة الله عز وجل أن يكون الإنسان في مكان فيه مجلس علم، لأن مَن بدا جفا، البادية أجمل، الريف أجمل، لكن ليس هناك مجالس علم، لو أن أحدهم أخذ بيتاً بمكان جميل، وسكن فيه، وانقطع عن الحق فهو الخاسر الأكبر، من بدا جفا، وفي أية قرية أو مدينة فيها مجلس علمٍ فالسكنى فيها أولى، قال تعالى :

(مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ)

(سورة يوسف)

لطفُ الله :

أي أن الله عز وجل أعطاه، لكن على المدى البعيد، سيدنا يوسف كان في البئر فصار عزيز مصر، ليس بين عشية وضحاها، لا، وإنما خلال أربعين عاماً، قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ)

(سورة يوسف)

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)

(سورة العنكبوت)

لا تستعجل، لأن من تعجل الأمر قبل أوانه عوقب بالحرمان، قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

(سورة يوسف)

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

عندئذ التفت هذا النبي الكريم إلى الله عز وجل وقال :

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

(سورة يوسف)

تمني يوسف لقاء ربه وهو في أوج عطائه :

قال بعضهم: لقد تمنى لقاء الله عز وجل وهو في أوج ملكه، سيدنا عمر بن عبد العزيز قال مرة: " تاقت نفسي إلى الإمارة، فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الخلافة، فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الجنة "، أي أن مطمح المؤمن دخول الجنة، فإذا أمضى حياته في طاعة الله، أمضى حياته في الدعوة إلى الله، بذل من ماله، ومن وقته، ومن جهده في سبيل الله فلا شيء أحب إليه من الانتقال إلى الدار الآخرة .

سيدنا أبو سفيان بن الحارثة حينما كان على فراش الموت بكى أهله فقال: << لا تبكوا علي، فوالله ما عصيت الله منذ أسلمت، لا تبكوا علي، أنا في جنة >>، فساعة اللقاء عند أهل القرب لا تعدلها ساعة، ساعة اللقاء هي عرس المؤمن، لا تبكِ على أبيكِ بعد اليوم، غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه .

لا تتمنوا الموت فإن طول العمر وحسن العمل نعمة :

لكن النبي عليه الصلاة والسلام نصحنا فقال :

((لا تتمنوا الموت))

[ورد في الأثر]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ:

((مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[سنن الترمذي]

إن كانت حياتنا فيها زيادة من الخير فأحينا، وإن كان فيها زيادة من غير الخير فأمتنا وتوفنا .

قال تعالى :

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

(سورة يوسف)

ولاية الله للمتقين :

وقال أيضاً :

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة : الآية 257)

شتان بين المؤمن وغير المؤمن، الله ولي المؤمن، والشيطان ولي الكافر، المؤمن من خير إلى خير، من رؤية إلى رؤية، من قربٍ إلى قرب، من طاعةٍ إلى طاعة، من سعادة إلى سعادة، من شأنٍ إلى أعلى، من مكانة إلى أكبر، وغير المؤمن من ورطة إلى ورطة، من سيئة إلى أكبر، من شقاءٍ إلى شقاء، من أزمة إلى أزمة، إلى أن يأت الموت، فيلقى في جهنم، قال تعالى :

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

(سورة يوسف)

إذا أحب الله عبدا رزقه عملا صالحا فتوفاه عليه :

لذلك :

((إذا أحب الله عبده عسله ، قيل : وما عسله يا رسول الله ، قال: يرزقه عملاً صالحاً ثم يتوفاه عليه))

[ورد في الأثر]

حدثني أخ في الجامع عندنا هنا، له والد يعمل مؤذناً، وبعضهم قال: ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله هم المؤذنون، أذن لصلاة الظهر، وأقام الصلاة، واقتدى بالإمام، وصلى الركعة الأولى والثانية والثالثة، وفي سجود الرابعة توفاه الله عز وجل، وهناك أناس يموتون وراء أجهزة اللهو في أبشع ميتة .

((إذا أحب الله عبده عسله ، قيل : وما عسله يا رسول الله ، قال: يرزقه عملاً صالحاً ثم يتوفاه عليه))

[ورد في الأثر]

مَن شبّ على شيء شاب عليه :

لكن من شب على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه، ومن مات على شيء حشِر عليه، هذا كلام دقيق جداً، من شب على شيء شاب عليه، إذا ألِفَ الإنسانُ في شبابه المعاصي، ألِف إهدار الوقت في أشياء لا ترضي الله عز وجل تصبح هذه المعاصي جزءاً من حياته، تصبح عادات ثابتة، قال الرسول الكريم :

((من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتبوأ مقعده من النار))

[ورد في الأثر]

من شبّ على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه، ومن مات على شيء حُشِر عليه، يقول ربنا عز وجل :

((عبدي، شاب شعرك، وضعف بصرك، وانحنى ظهرك فاستحي مني، فأنا أستحي منك))

[ورد في الأثر]

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدرت مسؤول

****

إلى متى أنت بالمعاصـــي تسير مرخى لك العنـــان

عندي لك الصلـح و هو برِّي و عندك السيف والسنـــان

ترضى بأن تنقضـي الليالي وما انقضت حـربك العوان

فاستحي من شيبة تــراها في النار مشجونة تهــان

هناك مناجاة :

يا رب هذي ذنوبي وأنت بالخطب مستعان

***

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيـــرنا

و لو سمعت أذناك حُسن خطابنا خلعت عنك ثياب العزل و جئتنـا

ولو ذقت من طعم المــحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولو نسمت من قربنا لك نــسمة لمُتّ غريباً و اشتياقاً لقـــربنا

فما حبنا سهل و كـل من ادعى سهولة قلنا له : قد جهـــلتنا

فأيسر ما في الحب للصب قتـله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

***

خاتمة :

آخر كلمة: ليس في الكون إلا الله، وأي شيء يقربك إليه فهو حق، وأي شيء يبعدك عنه فهو باطل، أي فكرة أو عادة أو سلوك أي شيء يقربك إليه فهو حق، وأي شيء يبعدك عنه فهو باطل، وليس إلا الله، وما توفيقي إلا بالله، ولا تتحقق الأهداف إلا بالله، والآية الأخيرة، قال تعالى :

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(39)وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(40)ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)

(سورة النجم)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (10-11): تفسير الآيات 102 - 108

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-07-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، في الدرس الماضي انتهت قصة يوسف عليه السلام، وقد ذكرت لكم في أول درس في هذه السورة أنّ هذه السورة فيها مقدمة وقصة وتعقيب، والآن الآيات المتبقية من هذه السورة تعقيبات أساسية على هذه القصة، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)

(سورة يوسف)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ

قصة يوسف دليل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام :

هذه القصة لا تعلمها أنت، لم تكن في زمنها، لم تكن في مكان وقوعها ولا في زمان وقوعها، بينك وبينها مئات السنين، بل آلاف السنين، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

أولاً: ربنا سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة يقول :

(وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ)

(سورة يوسف)

معنى الغافلين: أي لا تعلم أحداث هذه القصة، فإذا جاء نبي في آخر الزمان يحدث بحديث ذي تفصيلات وحوادث وأشخاص وأمكنة وأزمنة لا يمكن أن يحصِّلها بخبرته، ولا بثقافته، ولا بعلمه، إذاً: هي من عند الله عز وجل، فكأن هذه القصة تثبت نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ

المكر لابد له من اجتماع وتخطيط :

الحقيقة أن المكر لا يتم إلا في اجتماعات مغلقة، والإنسان إذا أراد أن يمكر، أو أن يدبر، أو أن يخطط، أو أن يبحث، فلا بد من اجتماع مغلق، فإخوة يوسف اجتمعوا فيما بينهم، ومكروا بيوسف، ثم اجتمعوا فيما بينهم، ومكروا بأبيهم، قال تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)

(سورة يوسف)

قصة يوسف حلقات من المكر :

وإخوة يوسف اجتمعوا بعد أن حُجِز أخوهم الصغير، واتفقوا فيما بينهم، وامرأة العزيز مكرت بيوسف، والنسوة في المدينة تحدثن عن امرأة العزيز، امرأة العزيز جمعت النسوة، كأن في هذه القصة حلقات كثيرة من التدبيرات أو من المكر، سيدنا يوسف دبر تدبيراً كي يحجز أخاه عنده، فجعل صواع الملك في رحله، فربنا عز وجل كأنه حينما قال :

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

أبرز ما في هذه القصة حلقات عديدة من المكر والتدبير، إن كانت لصالح بعضهم أو كانت لغير صالح بعضهم، على كلٍ حلقات عديدة من المكر، لذلك جاءت هذه الكلمة لتعبر عن أبرز أحداث القصة وهو المكر .

تكرار قوله :

في القرآن :

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ)

قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ)

(سورة يوسف)

لا في زمانك ولا في مكانك، الأرض ليست أرضك، والوقت ليس وقتك، ومع ذلك تأتيهم بقصة دقيقة متطابقة مع ما في كتبهم من التوراة والإنجيل، إذاً: أنت نبي، إذاً: هذه القصة دليل على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رسالته، فكل رسول نبي، والعكس غير صحيح .

شيء آخر، العلماء قالوا: ليس القصد نفي حضوره بل إثبات نبوته، كلمة :

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ)

هذه متكررة، هذا المعنى جاء في القرآن خمس مرات، قال تعالى :

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا)

(سورة القصص : 46)

قال تعالى :

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ)

(سورة القصص : 44)

قال تعالى :

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

(سورة آل عمران)

قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

هذه القصة بأحداثها وشخصياتها، وعقدتها وملابساتها، وبدايتها ونهايتها كانت غائبة عنك، وهذه القصة لا تعلمها، ولا يمكن أن تعلمها إلا أن توحى إليك، إذاً: أنت نبي، وهذه القصة كما ذكرتها وردت عندهم في التوراة والإنجيل، إذاً: المصدر الذي جاء منه القرآن الكريم والتوراة والإنجيل هو مصدر واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(102)وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة يوسف)

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ

بعضهم يقول: إنّ اليهود تحدوا النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا له: إن كنت نبياً كما تزعم فاتل علينا قصة يوسف، فلما تلاها عليهم كفروا، وكان من الممكن أن يؤمنوا، كانت تلاوة هذه القصة حجة عليهم، لذلك جاءت هذه الآية ، وعلاقتها بالآية قبلها أنه :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

الأكثرية ليست مؤمنة، والأقلية مؤمنة .

كن مع الأقلية ، ولا تكن مع الأكثرية :

يا أيها الأخ الكريم لا تكن مع الأكثرية، لا تكن مع التيار العام، لا تكن مع الخط العريض، لا تكن مع صرعات الناس، لا ينبغي أن يشغلك ما يشغلهم، ولا أن يؤلمك ما يؤلمهم، ولا أن يسعدك ما يسعدهم، يجب أن تكون منفصلاً عنهم لأن هذا الخط العريض في المجتمع، أو هذه الأكثرية الساحقة هذه تتبع شهواتها، وتعنيها الدنيا، غافلة عن الآخرة، راغبة في الدنيا ، متعلقة بحطامها، متنافسة من أجلها، غائصة إلى قمة رأسها في متعها، لذلك لا تكن مع الأكثرية، كن مع الأقلية، قال تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : الآية 116)

انظر إلى الأحجار في بعض المحافظات؛ إنها تغطي الأرض، وما أكثرها، أما قطع الماس فما أقلها، الشيء الثمين قليل، والشيء الكثير لا قيمة له، لا تكن مع الدهماء، لا تكن مع السوقة، لا تكن مع الرعاع، الإمام علي كرم الله وجهه يقول : << يا بني، الناس ثلاثة، عالِم رباني، و متعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم>>، لا تكن مع الرعاع، لا تكن مع أتباع كل ناعق، لا تكن مع الدهماء، لا تكن مع السوقة، كن مع الأقلية الواعية، كن مع الأقلية صاحبة المبدأ، كن مع الذين يعنيهم أمر آخرتهم، كن مع الذين يضعون مصلحتهم تحت أقدامهم إذا تعارضت مع مبادئهم، لا تكن مع الذين يغوصون في الدنيا إلى أعماقهم، قال تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

(سورة الأنعام)

قال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(102)وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة يوسف)

لذلك إذا اختار الإنسان الهدى تكفيه أبسط الآيات، و إذا اختار طريق الدنيا وطريق الشهوات لو رأى بأم عينه كتاباً نزل من السماء، لو كلمهم الموتى، لو حشر الله عليه كل شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمن، قال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

(سورة النمل)

هؤلاء موتى، مقبورون في شهواتهم، مقبورون في مصالحهم، مقبورون في أهدافهم الرخيصة .

إذاً :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ)

الهدى على الله :

يا محمد لو جهدت، ولو بذلت كل ما في وسعك لتوضح وتبين وتستقصي وتضرب المثل، قال تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة يوسف)

بمعنى أنك :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : الآية 272)

الآية الثانية قوله تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص)

الإنسان مخير، أُعطي المشيئة، فإذا شاء الهدى آمن من تلقاء ذاته، آمن من كأس الماء رآه آية على عظمة الله، البحر ملح أجاج، وهذا عذب فرات، من جعل هذا الملح الأجاج عذباً فراتاً؟ الله سبحانه وتعالى، الذي يختار الإيمان يؤمن من خلال الآيات التي بثها الله عز وجل في الأرض، قال تعالى :

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ(68)أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

(سورة الواقعة)

الماء آية، خلق الإنسان آية، الشمس آية، القمر آية، ابنك آية، الثمرة آية، الفواكه آية، المحاصيل آية، الخضراوات آية، البساتين والأشجار المثمرة آية، الحيوانات آية، الأنعام آية، هذه الغنمة التي سخرها الله سبحانه وتعالى لنا نستفيد من لحمها ومن صوفها ومن لبنها وجلدها وأحشائها ومن كل شيء فيها وقد ذللها الله لنا، جعلها مذللة، قال تعالى :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(71)وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس)

إذاً: كما قال تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة يوسف)

لذلك الرأي العام قد لا ينطبق على الإيمان، الناس يتجهون إلى الدنيا، إلى بيوتها، إلى أراضيها، إلى متعها، إلى شهواتها، إلى زخرفها، إلى بهرجها ويضربون بالقيم عُرض الحائط، يقول لك: من الآن وحتى الموت يخلق الله ما لا تعلمون، غداً أتوب .

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ

قال تعالى :

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

(سورة يوسف)

الأنبياء والدعاة الصادقون لا يبتغون أجرا من دعوتهم :

أي أن النبي عليه الصلاة والسلام غني عن إيمانهم، لو أنهم آمنوا لما حقق فائدة مادية منهم، لأنهم لا يعطونه شيئاً، ولا يأخذون منه شيئاً إذا كفروا .

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)

هل هناك أحد منا يستطيع أن يدخل على محام من دون مبلغ يدفعه استشارة؟ من منا يدخل إلى طبيب من دون أن يملك أجرة المعالجة؟ من منا يدخل إلى صيدلي من دون أن يملك ثمن الدواء؟ ما من خدمة تقدم لك في الدنيا إلا ولها مقابل، لا تستطيع أن تدخل إلى محل إلا وتملك الثمن، إلا أنك تستطيع أن تدخل إلى مجلس العلم لتستمع إلى الحق الذي يمكن أن ينقذك من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة من دون أن تدفع شيئاً، الحق مبذول للناس كلهم .

الآن لو أن قسط الجامعة يزيد على عشرة آلاف ليرة أيستطيع دخول هذه الجامعة إلا الأغنياء؟ إن كان للجامعة قسط مرتفع معنى ذلك أنّ التعليم الجامعي صار حكراً على الأغنياء، لو أن الله سبحانه وتعالى كلف طلاب العلم أقساطاً باهظة أو نفقات كبيرة لكان طلب العلم قاصراً على الأغنياء، ولكن الله سبحانه وتعالى لحكمة أرادها جعل الحق بلا مقابل، جعل الحق مبذولاً للخلق كلهم، لذلك قال تعالى :

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)

(سورة يوسف)

لو سألتهم أجراً لشكُّوا في نياتك ومبادئك، ولكنك لا تسألهم أجراً، إذاً: هو منزه عن الأجر .

عندما كان سيدنا جعفر بن أبي طالب في الحبشة، وسأله النجاشي عن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام قال: << أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونأتي الفواحش، ونضيع الأمانة، ويأكل القوي منا الضعيف >>، هذه الجاهلية، هذه الجاهلية الأولى، وهذه الجاهلية الآخرة، وهذه هي طبيعة الجاهلية، وأي مجتمع أعرض عن الله عز وجل هذه صفاته، << نعبد الأصنام، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، ونضيع الأمانة، ويأكل القوي منا الضعيف >>، هذه الجاهلية، وهناك جاهليات على مر العصور والدهور، << حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه، ونسبه وعفته، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده، ونخلع ما يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء >>، هذا هو الدين، الدين خلق، بني الإسلام على خمس، هذه الخمس ليست هي الإسلام، وإنما هي دعائم الإسلام، الإسلام بناء آخر، الصلاة دعامة، والصيام دعامة، والزكاة دعامة، والحج دعامة، والشهادتان دعامة، والإسلام بناء أخلاقي بني على هذه الدعائم، فإذا أزيح البناء فهل هذه الدعائم هي الإسلام؟ لا والله، من صلى، وصام، وزكّى، وحج، وزعم أنه مسلم، وكان في عمله سوء، وكانت أمانته مخدوشة، وعدالته مجروحة، واستقامته مشكوك فيها، أهذا هو الإسلام؟ قال تعالى :

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)

(سورة يوسف)

حتى إن الله سبحانه وتعالى جعل علامة الداعية الصادق أنه لا يسألك أجراً، لا قليلاً ولا كثيراً، لا معنوياً ولا مادياً، لا آجلاً ولا عاجلاً، قال تعالى :

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)

(سورة الإنسان)

لو أن الداعية إلى الله عرف الله لما طمع بأحد، لأن الله سبحانه وتعالى إذا أعطى أدهش، أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني، قال تعالى :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة يس)

الأنبياءأعطوا ولم يأخذوا :

علامة صدقهم، وعلامة أنهم على حق أنهم لا يسألونكم أجراً أبداً، إنما أنا رحمة مهداة، علامة النبي أنه يعطي ولا يأخذ، وعلامة الكافر أنه يأخذ ولا يعطي، كالأخطبوط يأخذ ولا يعطي، أما النبي الكريم

فيعطي ولا يأخذ، لذته في العطاء لا في الأخذ، والمنحرف الخطير يأخذ ولا يعطي، وعامة الناس بينَ بين، يأخذون ويعطون، " فيا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود ورعيت قضية الإنسان، يا من زكيت سيادة العقل ونهنهت غريزة القطيع، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع، فعشت واحداً بين الجميع "، هذا إهداء قرأته في كتاب يتحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام .

راقب نفسك أتحب الأخذ أم العطاء؟ هناك من يحبون الأخذ، من يحبون أن يغنوا ولو على حساب الناس، أن يشبعوا ولو على جوع الناس، أن يكبروا ولو على أشلاء الناس، أتحب أن تسعد الآخرين؟ أتحب أن تخدم الناس؟ أتحب أن تكون مفتاح الخير لا مفتاح الشر؟ أتحب أن تُقضى حوائجهم على يدك؟ إذا أحب الله عبداً جعل حوائج الناس إليه، الخير بيدي، والشر بيدي، فطوبى لمن قدرت على يده الخير، والويل لمن قدرت على يده الشر، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، راقب عملك، هل عملك فيه عطاء أم فيه أخذ؟ هل عملك يبنى على إيذاء الناس أم على إكرام الناس؟ شتان بين العملين، لذلك :

((وَإِنَّ الرُّوحَ الأمِينَ نَفَثَ فِي رُوْعِي ، أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَلاَ يَحْمِلْكُمَ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ فَإِنَّهُ لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ))

[ابن أبي شيبة عن ابن مسعود]

واستجملوا مهنكم، لا ترض بمهنة سيئة، اختر مهنة صالحة فيها نفع عميم، لا تجعل مهنتك فتنة، الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، هناك أعمال مبنية على إثارة الفتن، أو على فتنة النفوس في الدنيا، أو على بيع بضاعة محرّمة، أو على التعامل بمواد محرّمة :

((وَإِنَّ الرُّوحَ الأمِينَ نَفَثَ فِي رُوْعِي ، أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَلاَ يَحْمِلْكُمَ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ فَإِنَّهُ لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ))

الحق مبذول لجميع الناس :

شيء آخر، مما يدل على عدالة الله عز وجل أنه جعل الحق مبذولاً، الخلق كلهم عيال الله، << يا سعد، لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له >> .كلكم مدعوون إلى الحق، أبيضكم وأسودكم، عربيكم وأعجميكم، كبيركم وصغيركم، أيّ إنسان، قال تعالى :

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه)

فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص : الآية 38)

والذي قال :

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف : الآية 51)

هذا هو نفسه دعاه الله إليه :

(فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا)

(سورة طه : الآية 44)

لذلك من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف، قال تعالى :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 159)

لابد من الرفق بالناس في الدعوة :

قال بعض العلماء: من تصدر للإرشاد فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه، فالورع حسن، لكن في العلماء أحسن، هذا الذي تدعوه إلى الله يجب أن تكون قدوة له، يجب أن تكون سباقاً إلى الخير، يجب ألا يأخذ الناس عليك مأخذاً، قال تعالى :

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة : الآية 124)

يجب أن تصبر، ويجب أن تضحي، ويجب أن تبذل، ويجب أن تتواضع، ويجب أن ترحم من أجل أن يشرفك الله لأن تكون جندياً من جنود الحق، ما من حرفة أرقى في الأرض من أن تكون داعياً إلى الله عز وجل، قال تعالى :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

وسيأتي بعد قليل آية خطيرة جداً، بمعنى أن الذي لا يدعو إلى الله ليس مؤمناً، من سمات المؤمن أنه يدعو إلى الله، فلو تخلى عن الدعوة فقد إيمانه .

نفي الشيء إثبات لضده :

الآن هناك قاعدة نفي الشيء إثبات لضده، فإذا كان للإنسان غرض دنيوي من دعوته إلى الله، إذا أثبتنا هذا الغرض نفينا الإخلاص عنه، فإذا نفينا هذا الغرض أثبتنا الإخلاص، فإذا نفيت عن إنسانٍ أن تكون له مآرب من دعوته الدنيوية فهذا النفي هو في حد ذاته إثبات في إخلاصه، قال تعالى :

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ(104)وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ

الآيات الكونية دالة على الله :

من منا لا يأكل، هذه المائدة التي توضع أمامك في اليوم ثلاث مرات، هل فكرت فيها؟

انظر إلى ما فوق مائدة طعامك :

هل فكرت في كأس الماء؟ قال تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة الملك)

لو أن سنوات القحط والجفاف استمرت، ما قيمة هذه الطوابق العليا؟ ما قيمة هذه البيوت الفخمة لو لم يكن فيها ماء؟ ما قيمة الشام؟ لا قيمة لها لولا الماء، إذا جلست إلى الطعام فهذا الخبز الذي تأكله هل تعلم أن هذا القمح غذاء كامل للإنسان، ما هذا التوافق بين بنية القمح وبنية الجسم، هذا الحليب الذي تشربه غذاء كامل، من جعل هذا التوافق بين حليب الغنم وحليب البقر وحاجة الجسم؟ هذا اللحم الذي تأكله من سخره لك هذه الخضراوات التي تأكلها من زرعها لك، قال تعالى :

(أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

(سورة الواقعة)

الثمار :

تلقي الحبة وتذهب إلى البيت، هذه الحبة والرشيم والسويق والجذير من يشق الحبة عن الرشيم؟ كيف ينمو هذا الرشيم؟ كيف تنبت الأوراق؟ كيف تظهر الأزهار؟ كيف تنعقد الثمار؟ كيف تصبح هذه الثمار ناضجة؟ هذه الفواكه التي تأكلها تصميم من؟ بستان فيه التفاح وفيه العنب والإجاص وفيه المشمش وفيه التوت والدراق، وفيه الكرز يسقى بماء واحد، قال تعالى :

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

(سورة الرعد : الآية 4)

آيات دالة على عظمة الله، ما الفرق بين الكرز والدراق؟ فرق كبير، اكتب الفرق كتابة، لن تستطيع، هذا حلو وهذا حلو، ولكن حلاوة الكرز غير حلاوة الدراق، غير حلاوة الإجاص، غير حلاوة التفاح، غير حلاوة العنب، غير حلاوة التمر .

التمر :

التمر، هذه الشجرة التي تعيش أكثر من ستة آلاف عام، هناك أشجار نخيل قبل سيدنا عيسى بكثير، قبل الميلاد، هذا التمر الذي فيه مادة سكرية، تتمثل في أقل من عشرين دقيقة، من الفم إلى الدم في عشرين دقيقة، فيه مادة تمنع النزيف، فيه مادة تمنع الكتم، ملينة ، فيه مادة تغذي الدماغ أي آيات بليغات عن التمر .

العنب :

هذا العنب لو أمسكت بعنقود العنب بكلتي يديك، وشددته وتعلقت به لما انقطع، فإذا فعلت هكذا انقطع، تصميم من هذا؟ مهما هبت الرياح فلا يقع العنب، لكنك إذا حركت العنقود حركةً معاكسةً لزاوية ذنبه ينقطع فوراً، هناك تصميم .

نضج الفواكه والخضر تباعا :

من جعل هذه الفواكه تنمو تباعاً، الكرز أولاً، ثم المشمش، ثم الدراق، ثم الإجاص، ثم التفاح، ثم العنب، ثم التين، لو أنّ هذه الفواكه تنضج جميعاً في يوم واحد، أو في أسبوع واحد لأتلفت، ولما استفدنا منها، نستفيد منها إذا نضجت تباعاً، والفاكهة الواحدة تنضج أيضاً على مدى شهر، على مدى أربعة

أسابيع، التفاح على مدى شهرين، من جعل هذه الخضراوات تنضج تباعاً، كل يومين قطف كوسا، الكوسا والباذنجان والبندورة كل يومين قطف، لو أنها كالقمح تنضج في يوم واحد ماذا نفعل بها؟ لكنّ القمح لو أنه نضج تباعاً كيف نحصده؟ مستحيل، الحمص والقمح والعدس والشعير هذه المحاصيل من آيات الله الدالة على عظمته أنها تنضج في يوم واحد رحمة بنا، قال تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا)

(سورة يوسف)

الكواكب والنجوم :

القمر آية ، قلب العقرب آية ، يسع الأرض والشمس مع المسافة بينهما، الشمس آية يزيد حجمها عن حجم الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، أي أن الشمس تتسع لمليون وثلاثمائة ألف أرض، ويزيد لسان اللهب طولاً عن مليون كيلو متر، الشمس آية، درب التبانة آية إذ يبلغ طوله مائة وخمسون ألف سنة ضوئية، بينما القمر يبعد عن الأرض ثانية ضوئية واحدة، هؤلاء الذين قالوا: غزونا الفضاء، ما تجاوزوا من الفضاء إلا ثانية ضوئية واحدة، بينما درب التبانة طوله مائة وخمسون ألف سنة ضوئية، أقرب نجم إلينا نجم القطب، أربعة آلاف سنة ضوئية، لو ركبنا إليه سيارة لاحتجنا كي نصله إلى سبعة وعشرين مليون مليون سنة، أقرب نجم في الكون إلينا هو نجم القطب، وهناك مجرات تبعد عنا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، قال تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

العين :

في العين مادة مضادة للتجمد لو ذهبت إلى فلندة إلى سيبيريا، وكانت الحرارة دون خمسين تحت الصفر، لولا أنّ في العين هذه المادة لعمي الناس كلهم هناك، هذا الماء الذي في العين يتجمد، لكنّ في ماء العين مادة مضادة للتجمد، هذه آية من آيات الله، هذا الماء الذي نشربه عنصر، ليس في الأرض من عنصر إذا تجمد إلا انكمش إلا الماء إذا تجمد توسع .

كثافة الماء :

لولا هذه الخاصة لما كنا جميعاً في هذا المسجد، ولما بقي على وجه الأرض إنسان ولا حيوان ولا

نبات، لأن هذا الماء لو أنه تجمد فانكمش أي زادت كثافته لغاص في أعماق البحار، إذا تجمد البحر على السطح يهبط إلى الأسفل، على مدى مائة عام تصبح البحار كلها متجمدة، فإذا أصبحت البحار متجمدة انعدم التبخر، ومع انعدام التبخر تنعدم الأمطار، فيموت النبات، ويموت الحيوان، ويموت الإنسان، هذه الخاصة توسع الماء إذا تجمد، ترى البحار الشمالية المتجمدة الطبقة السطحية متجمدة، أما البحار فماء دافئة تسبح فيها الأسماك، لو أنّ الماء إذا تجمد غاص في أعماق البحار لنشأت مشكلة كبيرة جداً، قال تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

الأغنـاموفوائدها :

هذه الأغنام إذا قلنا: إنّ كل خمسة آلاف إنسان يصيبهم في اليوم رأس غنم واحد يجب أن يذبح كل يوم مليون رأس غنم، على مدار السنة ثلاثمائة وخمس وستين مليون رأس، لو مثلنا هذا الرقم بنهر لكان نهراً يفوق أضخم أنهار العالم غنم للطعام، لو مثلنا الحليب الذي يحلب من الأبقار كلها في أنحاء العالم لكان نهراً يزيد على نهر الأمازون، ثلاثمائة ألف متر مكعب بالثانية، هذا عطاؤنا، نهر من الحليب، ونهر من الغنم، ونهر من المحاصيل .

دمشق، هذه البيوت، اصعد إلى جبل قاسيون، وألق نظرة على دمشق من علٍ، ما من بيت إلا وفيه سكر وشاي وبن ورز ومونة، من وزع هذه الأقوات؟ الله سبحانه وتعالى، قال تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105)وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ

هذه الآية :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ)

شركٌ وإيمانٌ!!!

هي مركز الثقل، مؤمن يشهد أن لا إله إلا الله وهو مشرك، يصلي وهو مشرك، يزكي وهو مشرك،

يحج البيت وهو مشرك، يقول: أنا مسلم وهو مشرك، أؤمن بالله، وهو مشرك، أؤمن بالجنة وهو مشرك:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

أقوال العلماء في هذه الآية :

العلماء لهم في هذه الآية أقوال عديدة، بعضهم قال: يؤمن أكثرهم باللسان، وهم مشركون بالقلب، وهم مشركون بالعمل، يؤمنون في الشدة ويشركون في الرخاء، باللسان والعمل، باللسان والقلب، بالشدة والرخاء، والعلماء قالوا: هناك شرك بالطاعة، فالذي يطيع غير الله هو عند الله مشرك، وهناك شرك في النية، الذي ينوي في قلبه التقرب إلى فلان من دون الله عز وجل فهو مشرك، وهناك شرك في الوجهة، الذي يتوجه بكليته إلى غير الله فهو مشرك، وهناك شرك في العمل، الذي يعمل لغير الله فهو مشرك، والحقيقة أنه ليس في الكون إلا حقيقة واحدة وهي الله، فإذا عرفتها فأنت مؤمن، وإذا جهلتها فأنت مشرك، إذا تقربت إليها فأنت مؤمن، وإذا تقربت إلى غيرها فأنت مشرك، إذا خفتها فأنت مؤمن، وإذا خفت من غيرها فأنت مشرك، إذا عملت لها فأنت مؤمن، وإذا عملت لغيرها فأنت مشرك .

الشرك نوعان أصغر وأكبر :

لكنّ العلماء قالوا: الشرك نوعان: شرك كبير لا يُغفر، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

(سورة النساء)

أن تعبد مع الله إلهاً آخر، أن تطيع إنساناً في معصية الخالق، هذا شرك أكبر لا يُغفر، أن تتخذ إلهاً غير الله، ولو كان من بني البشر، أن تعبد غير الله، أن تطيع غير الله، أن ترضى بقربة غير القربة من الله عز وجل .

وقال بعضهم: هذا الشرك هو النفاق، ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله، وهناك حديث قدسي يقول:

((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه))

[التفسير للإمام القرطبي]

لا أقبله، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، ومن كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثواب هذا العمل من عند غير الله، فإن الله أغنى الأغنياء عن الشرك، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ:

((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ))

[سنن ابن ماجة]

وهذا من الشرك أيضاً ، و" الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيء من الجور، وأن تبغض على شيء من العدل " .

إذا أحببت صديقاً لك ليس مستقيماً، جائراً قليلاً، منحرفاً قليلاً إذا أحببته فأنت مشرك، وإذا نصحك ناصح، وكان في نصيحته منصفاً فكرهته فأنت مشرك، قال تعالى :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)

(سورة البقرة : الآية 165)

هذا من الشرك، قال تعالى :

(تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(97)إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الشعراء)

هذا هو الشرك، قيل: كيف يسوى من خُلِق من تراب برب الأرباب، كيف يسوى العبيد بمالك الرقاب، أي أنت إذا أطعت فلاناً، وعصيت الله هل تعلم أنك جعلت من هذا الإنسان خالقاً؟ رفعته إلى مستوى الخالق، وهذا شرك كبير، قال تعالى :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

الشرك بأنواعه أمرٌ عظيم :

هو القديم الأزلي السرمدي الأبدي، لا شيء قبله، ولا شيء بعده، بيده الأمر تعصيه، وتطيع مخلوقاً يفنى، يموت، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، أيعقل هذا، أيعقل أن تسوي رب العالمين ببعض البشر؟ أو أن تسوي بعض البشر برب العالمين، سبحان الله، إن الشرك لظلم عظيم، ظلم لهذه النفس، أنت في هذا العمر الثمين تتجه بكليتك، بإمكاناتك، بعقلك، بتفكيرك، بعلمك، بخبرتك، بقيمك، بمبادئك، تتجه للإنسان، وتدع الله عز وجل يغضب عليك، أهذا هو العقل، ما قولكم من حلف بغير الله فقد أشرك، بأولادي، أأولادك أغلى عليك من الله، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ: سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ رَجُلاً يَحْلِفُ لاَ وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ))

[سنن أبي داوود]

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَهْطٌ فَبَايَعَ تِسْعَةً، وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايَعْتَ تِسْعَةً، وَتَرَكْتَ هَذَا، قَالَ :

((إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا فَبَايَعَهُ، وَقَالَ: مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ))

[مسند الإمام أحمد]

وضع حدوة، وكتب: " عين الحاسد تبلى بالعمى " ، هذا شرك، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُكَ، ولاَ طَيْرَ إِلاَّ طَيْرُكَ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ))

[مسند الإمام أحمد]

أراد أحدهم أن يسافر، ولم يجد غير يوم الأربعاء ليسافر، فقال: أنا لا أسافر يوم الأربعاء، أتشاءم من هذا اليوم، هذا شؤم، لا تشاؤم ولا طيرة، ولا حدوة ولا هامة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَسَنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أحمد]

وعَنْ صَفِيَّةَ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا))

[مسند الإمام أحمد]

هذا كله شرك، إذا قرأت في المجلات حظك هذا الأسبوع، أنت ولدت في كانون الأول، وكان برجك الدلو مثلاً تنظر إليه، فهذا شرك، إذا جلست إلى ساحر ولم تصدقه لم تقبل لك صلاة أربعين صباحاً، رقم الستة عشر لم يعجبني، هذا شرك، دخل صديقك على المحل فلم تتم البيعة فقلت: إن هذا الشخص قدمه نحس، هذا شرك، ليس له علاقة، هذا كله كلام لا معنى له، فلذلك باب الشرك واسع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ :

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ))

[سنن ابن ماجة]

أن تقول: أنا، فهذا شرك، أن تقول: فلان، فهذا شرك، أن تقول: هذا الطبيب أنقذ ابني من موت محقق، فهذا شرك، التقيت بإنسان عجبت؛ له حينما تكلم وضع يده هنا، وضغط زراً فتكلم، قال: أنا استؤصلت حنجرتي، وذكر دولة أجنبية، هؤلاء الذين أنقذوا حياتي، أنقذوني من السرطان، ركبوا لي هذه الحنجرة، هم إنسانيون وأصحاب مبادئ، عزا كل الفضل إليهم، ونسي الله عز وجل، هذا شرك، ويقول الله عز وجل :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

قلّ من ينجو من الشرك، طبعاً الشرك الكبير هذا لا يغفر، لكن الشرك الصغير أن تحب إنساناً، وفيه بعض الانحراف، تحبه محبة بالغة، ولكن لم يصل العصر أمامك، ولا زلت على محبته، هذا شرك، نصحك أحدهم نصيحة انزعجت، تجرأ علي، هذا شرك، أحببت إنساناً ونسيت الله عز وجل، هذا شرك، قال تعالى :

(أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة يوسف)

الفضل كلّه لله :

هذا الذي أشرك فلاناً، أحبه وعصى الله، أطاعه وعصى الله، أرضاه وأغضب الله، تقرب إليه وابتعد عن الله، تعلق به ونفر من الله، هذا الذي أحب مخلوقاً، ونسي الخالق، هل يأمن من عذاب الله ؟ أحد الولاة جاءته رسالة من الخليفة، وفيها توجيه بظلمٍ، وعنده أحد التابعين، فقال: " ماذا أفعل يا فلان؟ هذا أمر من يزيد، ماذا أفعل؟ فقال هذا التابعي كلمة تكتب بماء الذهب، قال : " إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " ، أي إذا أطعت فلاناً وعصيت الله، والله سبحانه وتعالى قدّر عليك مرضاً عضالاً، ماذا تفعل؟ فلان ينجيك، لا يزيد على أن يبعث لك باقة ورد متمنياً لك الشفاء العاجل، وقد لا يكون هذا الشفاء، الكليتان بيد من لو توقفتا عن العمل؟ وحتى هذه الساعة لا يعرف العلم سبب هذا التوقف، هذا مرض خطير اسمه توقف مفاجئ، هبوط مفاجئ في عمل الكليتين، يحتاج في كل أسبوع مرتين غسيل دم، يخرج الدم بكامله إلى كلية صناعية يبقى ثماني ساعات وستة ساعات انتظار، ويدفع ألفي ليرة تقريباً أو سبعمائة ليرة، أو تريد إعفاء، تأخذ عشرة أسابيع بهذه اليد حتى ينثقب جسدك، وعشرة باليد الأخرى، وعشرة بالرجل الأولى، وعشرة بالثانية، فلم يبق أماكن، فتح شريان، وأخذ دم بكامله وغسيله، لو توقفت هاتان الكليتان عن العمل فجأة ما الذي تفعله ؟

لو توقف نقي العظام عن صنع الكريات الحمراء ماذا تعمل؟ لو نمت بعض الخلايا نمواً عشوائياً، وأخذت خزعة إلى التحليل، وقيل: هذا ورم خبيث، هذا الذي أطعته من دون الله ماذا يفعل معك؟ هل يقول لهذه الخلايا: قفي عن النمو، هل يقدر أن يفعل ذلك؟ طبعاً لا يقدر، لو تعب هذا القلب هذا الذي أطعته من دون الله ماذا يفعل، ماذا يقدم لك؟ إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكنّ يزيد لا يمنعك من الله، لذلك من البديهيات أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

جاء بعض الخلفاء إلى الحج، وكان في الحرم المكي، فالتقى بعالِمٍ جليل، فقال لهذا العالِم: سلني كل

حاجتك، فقال: والله أستحي، وأنا في بيت الله أن أسأل غير الله، فلما التقى به خارج الحرم قال له: سلني كل حاجتك، قال: والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها، قال له: سلني كل حاجتك، فقال له: أنقذني من النار، قال : هذه لا أملكها، قال: إذاً ليس لي عندك حاجة ، وقد قيل: " استغن عن الرجل تكن نظيره، وأعط من شئت تكن أميره، واحتج إليه تكن أسيره "، قال له: " يا أبا حنيفة، لو تغشيتنا نأنس بك، ونسعد بقربك، ونفتخر بك، قال: ولِمَ أتغشاكم وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه؟ وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء؟ " ، لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير، شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 213)

لا تنام الليل، والله لم أقل هذه الكلمة، من قال: إني قلتها، كيف سأرضيه؟ لا تنام ليلتك، الإنسان لئيم ومعلوماته قاصرة، فقد يسمع فيك قولاً ما قلته، ويحكم عليك وأنت بريء، لذلك قال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 213)

إرضاء الناس غاية لا تدرك، قال تعالى :

(أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة يوسف)

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

احذروا نقمة الله :

أي تحت سمعنا وبصرنا، كولومبيا في قمة جبل الثلج بخمسة أمتار، ثار بركان ذابت الثلوج، وشكّلت سيولاً أغرقت المدينة، وبعدها جاءت الحمم فأحرقتها، خمسة وثلاثون ألف إنسان ماتوا في دقائق، والمكسيك قبلها، وأغادير قبلها، و قبلها ميلانو، وقبلها بكين، قال تعالى :

(أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأعراف)

لا يأمن بأس الله إلا القوم الضالون، لا يأمن بأس الله إلا الغبي .

كان أحدهم يركب سيارة وهو ظالم لنفسه، كسبه حرام، بنى ثروة من أموال الناس غصباً، استعلى

عليهم، ضايقهم، كان يمشي في سيارته عندما نزل المطر بشكل بطيء، وضع قدمه على المكبح، دار قليلاً، واصطدم بسيارة شحن، نزعوا رأسه من المقعد الخلفي، في ثوان قليلة بحركة، أحياناً ينفجر شريان في الدماغ ويكون الرجل جالساً، وفي غضون ثانية واحدة يكون قد انتهى، هذه سكتة دماغية ينفجر فيها شريان في الدماغ، يرتفع الضغط قليلاً للاثنين وعشرين، ينفجر الشريان، فيمشي الدم في الدماغ وينتهي، هناك مليون طريقة، إذا عصى أحدنا الله عز وجل ولم يبال بالدين، ولم يهتم بالآخرة، ما هو الإنسان؟ من أي سبب يأتيه ملك الموت، قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة يوسف)

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي

سبيل الله واحدةوسبل الضلال كثيرة :

هذه سبيلي، ليس في الأرض إلا سبيل واحدة، وما سواها باطل، قال تعالى :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام : الآية 153)

بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، أما المنحنيات والمنكسرات فيمر ألف خط، الباطل متعدد، والحق واحد، هناك باطل غربي وباطل شرقي، باطل شهواني باطل عقائدي، باطل سلوكي باطل لهو، فالباطل أنواع منوعة، أما الحق فواحد لا يتبدل، ولا يتغير :

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

(سورة يونس : الآية 32)

إذا كنت تسير على طريق، وخرجت منه فهذا هو الضلال :

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

(سورة يونس : الآية 32)

الحق واحد ، قال النبي الكريم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ

أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً، قالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي))

[سنن الترمذي]

<< إنما أنا متبعٌ ولست بمبتدع، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني >>، هذا كلام سيدنا الصديق .

قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف)

متبع النبي يدعو إلى اللهعلى بصيرة :

ومن اتبعني، من اتبعني يدعو إلى الله، ومن لا يدعو إلى الله لا يتبعني، لا يتّبِعُني ولا يتْبَعُني، لا يتّبِعُني، أي لا يقتفي أثري، ولا يتْبَعُني أي لا ينتمي إليّ، وعلامة أنك متّبِعٌ للنبي عليه الصلاة والسلام أنك تدعو إلى الله، لكن على بصيرة، معك الدليل، معك البرهان، لا كما يقول بعض رجال الأديان الأخرى: الإيمان فوق العقل، أي أن الإيمان غير معقول، بالإيمان لا تفكر، سلّم فقط، هذه فرية من الشيطان، من لا دين له لا عقل له، من لا عقل له لا دين له، تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، إنّ الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما، ويختلفان في العقل كالذرة جنب أحد، عندما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منك، بك أعطي وبك آخذ، قوام الرجل عقله، العقل أصله دين، لذلك :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ)

هذا العمل من الدعوة فلا تحتقره :

العلماء قالوا: كل من ذكر الحجة وأجاب على الشبهة فقد دعا إلى الله، وضحت آية، فسرتها تفسيراً صحيحاً، وضحت حديثاً شريفاً، وجهته توجيهاً صحيحاً، ذكرت حكماً فقهياً، أمرت بمعروف، نهيت عن منكر، دعوت إلى ذكر الله، بينت معنى الإخلاص، معنى التوكل، معنى الصبر، ذكرت شيئاً من أسماء الله الحسنى، معنى اسم الله الرحيم، العليم، اللطيف، الجامع، المانع، القوي، الغني، هذا كله دعوة إلى الله، إذا ساهمت في تقريب العبد من ربه فقد دعوته إلى الله، ومن لوازم الإيمان الدعوة إلى الله، قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة يوسف)

لست مشركاً، وعلامة الإيمان عدم الشرك .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يوسف 012 - الدرس (11-11): تفسير الآيات 109 -111
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-07-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

علامة الإيمان عدم الشرك :

أيها الإخوة المؤمنون، توقفنا في الدرس الماضي عند قوله تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة يوسف)

لست مشركاً، وعلامة الإيمان عدم الشرك .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى

قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)

(سورة يوسف)

لا نبي ولا رسول من النساء :

لم يثبت أن الله أرسل امرأة نبية ، النبوة محصورة في الرجال، بدليل قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا)

(سورة يوسف)

النبي من البشر :

والنبوة محصورة ببني آدم، لن يكون الملك نبياً، لو كان نبياً لقال الناس: هذا ملك، نحن بشر يا أخي، عندنا شهوات، قال تعالى :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ)

(سورة التوبة : الآية 128)

يحب ما تحبون، ويكره ما تكرهون، ويغضب لما تغضبون، يأكل الطعام، يمشي في الأسواق، أكّدت به الشهوات التي عندكم، ولكنه ضبط نفسه، وأحب ربه ودعا إليه، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)

(سورة يوسف)

من بدا جفا:

النبي الكريم قال:

((مَنْ بَدَا جَفَا))

[مسد أحمد عن البراء]

من عاش في البادية فقد جفا، ومن عاش في القرية فالقرية أكثر تحضراً، وقد يوجد فيها عالم أو مجلس علمٍ، لذلك يفضل أن يسكن الإنسان في التجمعات السكانية، لا يسكن الإنسان وحده، لأن الإنسان إذا سكن وحده ماذا يستفيد؟ لا ينفع ولا يضر، ولا يرتقي، ولا يزداد علماً، ولا يزداد عملاً ولا قرباً من أهل القرى، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة يوسف)

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ)

حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ

هذا وهمٌ غير صحيح :

بعض الناس يتوهمون أن هذه الآية تعني أن الرسل يئسوا من الله عز وجل، هذا مستحيل، قال تعالى :

(وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

(سورة يوسف)

يستحيل على الأنبياء والرسل أن ييأسوا من الله عز وجل، لكنّ يأسهم من قومهم، يأسوا من قومهم، دعوهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، صباحاً ومساءً، في الرخاء والشدة، قال تعالى :

(وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا)

(سورة الإسراء)

فلذلك هنا اليأس من هداية الناس، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا)

(سورة يوسف)

وقال بعضهم: ليس النبي أكثر الناس يأساً من هداية بعض الناس، ولكنه آخرهم يأساً، ليس أكثرهم بل آخرهم، ومعنى آخرهم، أي قلما ييأس، والدليل ما بعد هذه الآية قوله تعالى :

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا)

(سورة يوسف)

أي كُذبوا، ولم يؤمن بهم أحد عندها جاءهم نصرنا .

نصر الله لابد له من ثمن :

من أجمل التعليقات على هذه الآية: أنّ نصر الله ثمين، ثمنه باهظ، لو قلنا الآن: إن كل طالب معه بكالوريا إذا تقدم بطلب إلى الجامعة يُمنح دكتوراه على الطلب فقط، يرجى منحي شهادة دكتوراه في الطب، في اليوم الثاني تقام حفلة ضخمة، وتمنح هذه الشهادة، معنى ذلك أنه يأخذ الدكتوراه مليون طالب، ولا قيمة لهذه الشهادة، لكن سبع سنوات، وتحضير دبلوم ، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه وتأليف، حتى يمضي عليه أربعة وثلاثون عاماً، ويشعر بأنه قد فني، عندها يمنح هذه الشهادة، هذه الشهادة لها قيمة كبيرة جداً، لأن ثمنها كان باهظاً، فنصر الله عز وجل ثمنه باهظ، ثمنه الصبر والجَلد، وتحمل الأذى، وتحمل المعارضة والمكر، ثمنه هذه المضايقات، هذه المحن التي ابتلي بها الأنبياء، أخرجوه من مكة، ائتمروا على قتله، لحقوه في الهجرة، جعلوا مائتين من الإبل جائزة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، حاربوه في بدر، وحاربوه في أحد، وحاربوه في الخندق، كادوا له، قاطعوه، تكلموا عنه، هجوه بأشعارهم، إلى أن جاء نصر الله، قال تعالى :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ)

(سورة النصر)

دخل مكة فاتحاً، كان بإمكانه أن يبيدهم، أن يقتلهم عن آخرهم، قال:

((ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[السيرة النبوية]

هذه القصة تتكرر مع كل مؤمن، يُعارَض، يُقاوَم من أهله، من أبيه، من أمه، من إخوته، من أصحابه، من جيرانه، ماذا حصل لك؟ أين عقلك؟ أضعت مستقبلك، تضيق به الدنيا إلى أن ينصره الله، ويرفع شأنه، هذه القصص تتكرر، وإذا آمن أحدهم واستقام وطلب أن يستقيم استقامة كاملة ولقي معارضة من أهله فله برسول الله أسوة حسنة، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة يوسف)

النصر يظهر المؤمن وغير المؤمن :

عندما يأتي نصر الله يعرف الذين كفروا أي منقلب ينقلبون، ويعرف المؤمنون أي مكانة يرتقون، ويعرف الناس عندئذ من هو الذكي، قال تعالى :

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

(سورة المؤمنون)

وهناك آية أخرى، وهي قوله تعالى :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

البطولة يوم يأتي ملك الموت، تفتح له بعض أبواب الجنة فيقول: ما رأيت شراً قط .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[صحيح البخاري]

لذلك النصر ثمنه باهظ، ألا إن سلعة الله غالية، إذا آمن شخص فعليه أن يوطد العزم على تحمل الشدائد، لأن العطاء الذي سيأخذه فوق التصور، هذا العطاء لا يعقل أن يكون بلا ثمن، وثمنه باهظ، ثمنه الصبر، والجَلَد، والاستقامة، والصبر عن الشهوات، والصبر على الطاعات، والصبر على معالجة الله عز وجل، والصبر في مجالس العلم، والصبر على تنفيذ أمر الله، هذا هو الثمن، هذا قانون ربنا عز وجل، هذا النصر ثمنه باهظ جداً، إلى أن ييأس الرسل من هدى أقوامهم، إلى أن يظنوا أنّ أحداً لن يؤمن بهم، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة يوسف)

خاتمة :

هذه قصة مليئة بالعبر والحكم والاستنباطات والحقائق والقواعد، قال تعالى :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة يوسف)

ما بين يدي النبي من التوراة والإنجيل، جاء هذا الكتاب مصدقاً لهما، إذاً: هذا الكتاب من عند الله، كما أنّ التوراة والإنجيل من عند الله فهذا الكتاب من عند الله، يبين بعض ما في التوراة والإنجيل، ويصحح بعض ما اختل في التوراة والإنجيل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 – 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-07-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرعد مكية :

أيها الإخوة المؤمنون، سورة اليوم سورة الرعد، وهي سورةٌ مكيَّة، والسور المكيَّة تلفت النظر إلى آيات الله الدالَّة على عظمته، وتتحدَّث عن اليوم الآخر، وترسِّخ الإيمان بالله سبحانه وتعالى .

معاني الحروف المقطعة في أول السور :

ففي هذه السورة يقول الله سبحانه وتعالى :

(المر)

وقد تحدَّثنا عن هذه الحروف بالتفصيل في دروسٍ سابقة، وقد اختلف العلماء في تفسيرها، من قائلٍ: " الله أعلم بمُرَادِه "، إلى قائلٍ: " إن القرآن الكريم من هذه الحروف، ومع ذلك فالبشر لا يستطيع أن يأتي بمثله "، ومن قائلٍ: " إنها أسماء أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلَّم "، إلى ما هنالك من تفسيراتٍ، فالقرآن كما تعرفون ليس ملك أحد، والقرآن حمَّال أوجه .

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

الكتاب منهج الحياة :

الكتاب بمعناه الدقيق القرآن الكريم، بمعناه الواسع الكُتُبُ التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رُسله لتكون منهجاً للبشر في حياتهم، آلةٌ صغيرة إذا اشتريتها تجد مُرفقاً معها نشرةً توضِّح لك طريقة استعمالها، ما من آلةٍ مهما تبدو لك بسيطةً غير معقَّدةٍ لابدَّ من نشرةٍ يوضِّح فيها صانعها طريقة استعمالها، وطريقة صيانتها، وطريقة إصلاحها، وما يصلح لها، وما لا يصلح، ماذا يؤذيها، ما ينفعها، إن كانت الآلة التي لا يبلغ ثمنها إلا مبلغاً زهيداً فإنها تحتاج إلى نشرةٍ تفصيليَّة .

فهذا الإنسان الذي كرَّمه الله سبحانه وتعالى، وجعله خليفةً له في الأرض، وعرض عليه الأمانة فحملها، وأعطاه حريَّة الاختيار، أودع فيه شهواتٍ هي في الوقت نفسه أداه لرقيِّه، وفي الوقت نفسه أداةٌ لتدميره، خلق له الكون، بَثَّ في الكون آياتٍ عظيمةً دالَّةً على مُلْكِهِ، أنزل له الكتاب ليكون منهجاً له في حياته، فحيثما وردت كلمة الكتاب في القرآن الكريم فإنها تعني الكُتُبَ السماويَّة التي أنزلها الله على رُسله لتكون منهجاً للبشر، فهذا الإنسان إما أن يشقى، وإما أن يسعد، يأتي الكتاب يقول له: افعل كذا ولا تفعل كذا، إما أن يرقى وإما أن يسْفُل، يأتي الكتاب يقول له: افعل كذا من أجل أن ترقى، ولا تفعل كذا من أجل أن لا تسفل .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

الشيء الذي يعدل خلق الكون هو إنزال الكتاب :

ربنا سبحانه وتعالى قال :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)

(سورة الأنعام : من الآية 1)

خَلْقُ السماوات والأرض يقابله الظلمات والنور، أي الحق والباطل .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(سورة الأنعام : من الآية 1)

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

(سورة الفرقان : الآية 1)

فكأنَّ الكون يعدل هذا الكتاب .

(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لا تُبْصِرُونَ(39)إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(40))

(سورة الحاقة)

إذاً: يجب أن تعلم علم اليقين أن الشيء الذي يعادل خلق السماوات والأرض هو هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيِّه ليكون هادياً لنا في حياتنا .

من اشترى آلةً بالغة التعقيد، جهازاً إلكترونيا لتحليل الدم، ولم ترسل له الشركة كتيِّباً فيه طريقة الاستعمال، ماذا يفعل؟ إن استعمله من غير هدى عطَّله، وإن تركه بلا استعمال جمَّده، هذه النشرة التي فيها تفصيلاتٌ عن طريقة استعمال هذا الجهاز الغالي هي لا تقلُّ قيمةً عن الجهاز أبداً، بل قد تكون أثمن من الجهاز لأنه من دونها يُعْطَبُ الجهاز .

إذاً :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

أي كتابٍ هذا ؟

(وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

كتاب البشر لا سلم من الخطأ والباطل :

أي أن هذا الكتاب ليس من صنع بشر، ادخل إلى مكتبة ترى فيها آلاف الكتب، ما من كتابٍ إلا وفيه صوابٌ وخطأ، ما من كتابٍ إلا وفيه حقٌّ وباطل، ما من كتابٍ إلا وفيه نقطةٌ عميقة ونقاطٌ ليست عميقة، ما من كتابٍ إلا وفيه خلل، ما من كتابٍ إلا وفيه رَيْب إلا كتاب الله سبحانه وتعالى، لذلك فضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على خلقه .

كتاب الله لا تنتهي فوائده :

مثل آخر.. لو أنك قرأت كتاباً، لو أتقنت كتاباً معيَّناً ما الفترة الزمنيَّة التي يمكن أن تستفيد منها أو فيها من الكتاب؟ لو قرأت كتاباً قيِّماً فتعلَّمت من خلاله صنعةً ما، لو قرأت كتاباً قيماً فتعلَّمت من خلاله حرفةً ما، مهما كان دخل هذه الحرفة كبيراً متى تنتهي فائدة الكتاب؟ عند الموت، لو أنَّك ألَّفت كتاباً أو قرأت كتاباً، أو طالعت كتاباً، ودرَّ عليك هذا الكتاب تأليفاً، أو مطالعةً، أو دراسةً، أو حفظاً ألوف الملايين، متى تنتهي فوائد هذا الكتاب؟ تنتهي عند الموت؛ لكن هذا الكتاب إذا قرأته، وفهمته، وطبَّقته، متى تنتهي فوائده؟ لا تنتهي فوائده، هذا كتابٌ أبديٌّ سرمدي، إذا قرأته وفهمته نفعك نفعاً لا حدود له . فلذلك الإنسان يقيِّم الشيء بمدى نفعه، أو بزمن نفعه، أو بحدود نفعه، أو بحجم نفعه، فإذا قرأت كتاب الله، وعرفت منهجك في الحياة فإن هذا الكتاب لا تنقضي فوائده ولا بالموت، بل إن الموت نقطة تحوِّلٍ يسيرة في طريق الحياة الأبديَّة .

(وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

علاقة الربوبية بإنزال الكتاب :

لماذا قال الله عزَّ وجل :

(مِنْ رَبِّكَ)

لأن اسم الرَّب يعني المُمِدّ، يعني الذي يمد هذا الجسد بما يحتاجه، والذي يرعى النفس ويوجِّهها إلى طريق سعادتها، فاسم الرب له علاقةٌ وشيجةٌ بإنزال هذا الكتاب، الله سبحانه وتعالى لا يدع عباده من دون توجيه، لا يدعهم من دون منهج، لا يدعهم من دون دستور يسيرون عليه، حتى إنك لو رأيت شارعاً قد شُقَّ حديثاً تجد بعد حين وضِعَت عليه علاماتٌ ولافتاتٌ، هنا منعطفٌ خَطِر، وهنا تقاطعٌ خطر، وهنا منزلق، وهنا طريقٌ ذات اتجاهين، هذه اللافتات التي توضع على الطريق بعد شقّها توضع رحمةً بالناس، رحمةً بهم .

إذاً :

(آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

كلام الله حقلأنه صادر عن الحق :

فلو أن هذا الكلام كلام بشر لكان لنا منه موقفٌ آخر، ولكنَّه كلام الله سبحانه وتعالى لا ريب فيه، لا خلل فيه، لا كذب فيه، لا مبالغة فيه، كتابٌ حكيم، كتابٌ أُنزل من عند الله فيه سعادتنا، فيه نبأ من كان قبلنا، فيه نبأ ما سيكون بعدنا؛ من علمٍ للساعة، من حديث الموت، من حديث البعث والنشور، فيه آياتٌ بيِّنات، فيه طريقٌ إلى الله سبحانه وتعالى .

(وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

فالحق اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى قديمٌ أزلي، أبديٌّ سرمدي، لا شيء قبله ولا شيء بعده ..

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : من الآية 88)

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26))

(سورة الرحمن)

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران : من الآية 185)

فالشيء الباقي على الدوام هو الله سبحانه وتعالى، هو الحي الباقي الذي لا يتغيَّر، ولا يتحوَّل، ولا يُغيَّر، ولا يُبَدَّل .

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : من الآية 88)

فإذا كان هو الحق فهو الدائم على الدوام .

معنى الحق :

أما معنى كلمة الحق فتعني الشيء الثابت الذي لا يتغَّير، لو بُنِيَ هذا البناء على أسسٍ صحيحة فإن البناء يبقى قائماً، إذاً كأنَّ هذا البناء بني على حق بمعنى أنه بني وفق قواعد هندسيَّة صحيحة، لو بني وفق قواعد هندسيَّة غير صحيحة، أو لو كان هناك خلل في بنائه لوقع البناء، صار البناء باطلاً، فمعنى الحق الشيء الثابت، حقَّ الشيءُ: أي استقرَّ، وبطل الشيء: أي ذهب وتلاشى، فما معنى كلمة الحق؟ الحق معناه أن هذا الكتاب ما فيه من قواعد، ما فيه من مبادئ، ما فيه من سُنَن، ما فيه من وعد، ما فيه من وعيد، لن يطرأ عليها تغيير، ولا تبديلٌ، وعده حق، وعيده حق، الجنَّة حق، النار حق، فكل شيءٍ جاء في هذا الكتاب هو الحق، أي شيءٌ ثابت، شيءٌ مستقر .

علامة الحق :

قال بعضهم : " علامة الحق أنه يطابق الواقع، وعلامة الحق أنه يطابق العقل "، الله سبحانه وتعالى وضع في الأرض سنناً، وركَّب العقل وفق سُننه، فعقل الإنسان لا يفهم الأشياء التي حوله إلا وفق مبدأ السببيَّة، فكل شيءٍ له سبب، فعقلنا جميعاً لا يستطيع أن يفهم شيئاً بلا سبب، كذلك خَلْقُ الله سبحانه وتعالى، ركَّب الخلق وفق أسباب، فالمطر له سبب، والرياح لها سبب، وإنبات النبات له سبب، لابدَّ من بذرة، ولابدَّ من أن يكون في البذرة رُشَيْم، ولابدَّ من ماء، ولابدَّ من تربة، ولابدَّ من جو، لابدَّ من حرارة من برودة.. إلخ، فإنبات النبات له أسباب، هبوب الرياح لها أسباب، نزول الأمطار لها أسباب، ففي الكون سُنَّة السببيَّة، وفي الكون سنَّة الغائيَّة، ما الغائيَّة؟ أي كل شيءٍ له غاية، كل شيءٍ خَلَقَهُ الله سبحانه وتعالى خلقه لغايةٍ أرادها، كذلك العقل لا يفهم الأشياء إلا وفق غايات .

إذا اطلعت على آلةٍ، ورأيت فيها مفتاحاً تحسُّ بحاجةٍ دقيقةٍ وماسَّةٍ إلى معرفة هدف وجود هذا المفتاح، هكذا العقل لا يفهم الشيء إلا بسبب، ولا يفهم الشيء إلا بغاية، ولا يقبل التناقض، هذه مبادئ العقل، وهذه مبادئ تنتظم الخلق في الأرض، تطابق مبادئ العقل على مبادئ خلق الله سبحانه وتعالى هو ما يجعل من الشيء حقاً أي واقعاً، لو قلت لك: هذا الشيء بلا سبب، تقول لي: هذا باطل، هذا كلامٌ مرفوض، لا يقبله عقلك .

كلّ ما في القرآن هو بمنزلة الأمر المشاهَد بالعين :

إذاً :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

أي أن هذا الكتاب حق، لذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة المائدة : من الآية 116)

هذا الكلام يقوله الله سبحانه وتعالى لسيدنا عيسى يوم القيامة، فلماذا استخدم الله الفعل الماضي؟ لأن الذي سيكون في كتاب الله في حكم الكائن، في حكم المحقَّق ..

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

(سورة الفيل)

لم أرَ، كأن هذا السؤال من الله عزَّ وجل استفهام تقريري، لماذا؟ لأن هذا الذي يخبرك عنه الله سبحانه وتعالى في حكم الرؤية .

معنى الحق، أي إذا وعد الله في الكتاب إنساناً بالحياة الطيِّبة فالوعد حق ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

وعده حق، لابدَّ من أن يحيا حياةً طيِّبة، ووعد الله سبحانه وتعالى بالمَحْق ..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من الآية 276)

أوعدهم بحربٍ من الله ورسوله، وعده حق ووعيده حق، الجنة حق، النار حق، فلذلك :

(وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

شيء ثابت، شيء مستقر، شيء لابدَّ من أن يقع، فالذي يقوله الله سبحانه وتعالى بحكم الواقع ..

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

الناس فريقان :

أي أن الناس خَيَّرَهُم الله سبحانه وتعالى بين الهدى والضلال، بين الخير والشر، بين الإيمان والكفر، لكنَّ بعضهم آمن، وبعضهم كفر، بعضهم شكر، وبعضهم كفر، بعضهم سار على منهج الله، وبعضهم

تنكّب هذا المنهج ..

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

لا تكن مع الأكثرية :

إذاً: لا تكن مع الأكثريَّة الكافرة، وكن مع الأقليَّة المؤمنة، كن مع الأقليَّة التي عرفت ربَّها، من هو ربك الذي أنزل على رسوله هذا الكتاب؟ من هو؟ من هو ربك الذي بعث لك رسولاً معه كتابٌ منهجٌ لك تهتدي به؟ الله صاحب الأسماء الحسنى ..

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ)

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ

حجم الكتاب بحجم صاحبه :

فإذا جاءك كتاب من صديق فلهذا الكتاب حجم، إن جاءك الكتاب ممن هو أعلى منك لهذا الكتاب حجم، إذا جاءك الكتاب من ملك فلهذا الكتاب بحجمٌ كبير، تقول: أهذا خطُّه؟ يقال لك: لا هذا ليس خطَّه، هذا توقيعه؟ يقال لك: نعم هذا توقيعه، إذاً: تأخذه مأخذاً عظيماً، فكيف إذا جاءك كتابٌ من ملك الملوك؟! أيقاس كلام البشر بكلام الله رب العالمين؟!

أحياناً يأمرك إنسانٌ بأمرٍ، ويتوعَّدك، وإن لم تفعل تُطبَّق عليك المادَّة الفلانيَّة التي تنصُّ على كذا وكذا، تبادر سريعاً إلى تطبيق مواد القانون، فكيف إذا أمرك خالق الكون؟ ماذا تنتظر ؟

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد : من الآية 16)

عجبًا لأمر هذا الإنسان !!!

عجيبٌ أمر هذا الإنسان، أمر البشر يأخذه مهتمَّاً، ملء سمعه وبصره، يطبِّقه بحذافيره، يخشى مَغَبَّة مخالفته، أما أمر خالق البشر، أمر الذي بيده ملكوت كل شيء، أمر الذي إليه يُرْجَعُ الأمر ركلُّه، أمر الذي خلقك من ترابٍ، ثم من نطفةٍ، ثم سوَّاك رجلا، أمر الذي إليه المصير، أمر الذي إليه مصيرك إلى الأبد، هناك تلكُّؤٌ في تطبيق أمره، من عند مَن هذا الكتاب؟ من عند ربِّ العالمين، مَنْ ربُّ العالمين ؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

فلو أنَّك التقيت بمهندس، وقال لك صديقك: هذا فلان، ماذا يفعل اسمه؟ تقول له: تشرَّفنا، قال لك: هذا المهندس فلان، كلمة المهندس فلان ربَّما رفعته في نظرك إلى مستوى أعلى، إذا قال لك: هذا المهندس أنشأ أطول جسرٍ في العالَم بين قارَّتين، جسرٌ معلَّق تسير من تحته السفن مهما عَظُمَت، جسرٌ بين آسيا وأوروبا على البوسفور، إذا قيل لك: هذا هو فلان الفلاني الذي صمَّم ونفَّذ هذا الجسر، تمتلئ تعظيماً له، فإذا قيل لك: وهو الذي أنشأ نفقاً تحت البحر بين فرنسا وبريطانيا، تحت بحر المانش، نفق تحت البحر تسير فيه السيَّارات، يقول لك: هذا هو، وهو الذي أنشأ قاعدةً في بحر الشمال لاستخراج النفط، في البحر قاعدة فيها موظفون، وفيها آبار، وفيها نفط، وهو الذي نقل بناءً من مكانٍ إلى آخر، بناء ارتفاعه عشرون طابقاً نقله مائة متر، كيف نقله؟ كلَّما ذكر لك هذا الصديق عن هذا المهندس أعمالاً ضخمة قام بها يكبُر في عينك، وتمتلئ نفسك إعجاباً به، هذا مهندس، فإذا قال الله عزَّ وجل :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

عظمة النجوم والكواكب :

ما حجم الشمس؟ مليون وثلاثمائة ألف مرَّة تزيد على حجم الأرض، أي أن الشمس وحدها تتسع إلى مليون وثلاثمائة ألف أرض، فما حجم الأرض؟ انظر إلى سوريَّا على الخارطة، أو انظر إلى سوريا على الكرة الأرضيَّة المُجَسَّمَة، حجمها لا يتسع لكلمـــة (Dmascus)، حجم سوريَّا كلها لا يتسع لاسم عاصمتها، إذا نظرت إلى سوريا على الخارطة حجمها إلى آسيا صغير، هنا آسيا، وهناك أوروبا، وهناك إفريقيا، وهناك أمريكا، وهناك أستراليا، وهناك القارَّة السادسة في الجنوب، وهذه القارَّات الخمس تعدل خُمُسَ الأرض وأربعة أخماسها بحر، والأرض شبَّهوها بذرَّةٍ عالقةٍ في هواء الغرفة في أيَّام الشتاء، إذا دخلت الشمس إلى غرفتك، وكَنَسْتَ أرض الغرفة ترى في جوِّ الغرفة ذرَّاتٍ لا وزن لها عالقةً في سماء الغرفة، الأرض أحد هذه الذرات .

فإذا نظرت إلى قلب العقرب.. هكذا قال عنه العلماء.. الشمس والأرض مع المسافة بينهما يتسع لهما هذا النجم الذي اسمه قلب العقرب، إذا نظرت إلى مجرَّتنا درب التبَّانة فيها مليون مليون كوكب أو نجم، طولها مائة وخمسون ألف سنة ضوئيَّة، بيننا وبين القمر ثانيّةٌ ضوئيّةٌ واحدة، بيننا وبين الشمس ثماني دقائق، المجموعة الشمسيَّة ثلاث عشرة ساعة، درب التبَّانة طوله مائة وخمسون ألف سنة ضوئية، من هذه المجرَّة هناك مليون مليون مجرَّة .

قبل أيَّام قرأت في صحيفةٍ مقالاً مترجماً إلى اللغة العربية عن أحدث مجرةٍ تمَّ اكتشافها، قال: هذه المجرَّة كانت في مكانها الذي أرسلت منه ضوءها قبل اثني عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة، الآن أين

هي؟ لا نعرف، هذا الضوء كان قبل اثني عشر ألف مليون سنة الآن وصل إلينا، وقالوا: لابدَّ أن هناك مجرَّات منذ أن خُلقَت وحتى الآن لم يصلنا ضوءها بعد، لازال ضوءها في الطريق، والضوء يقطع ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة .

(اللَّهُ)

صاحب الأسماء الحُسنى ..

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ)

فهذه المجرَّات، أقرب نجم إلينا هو القطب، أربعة آلاف ستة ضوئيَّة، أجريت قبل شهر حساب على آلة حاسبة ترجمت هذا الرقم.. أربعة آلاف سنة ضوئيَّة.. ترجمته إلى زمن نستغرقه في السفر إليه عن طريق السيَّارة.. فرضاً.. نحتاج إلى سبعة وعشرين ألف مليون مليون سنة كي نصل إليه بالسيارة ..

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

لهذه الآية معنيان :

المعنى الأول للآية :

لا توجد أعمدة، بقدرته، فأنت إذا رأيت في محل تجاري قميصاً معلَّقاً بلا خيوط يأخذك العجب وتقول: كيف عُلِّق؟ إلى أن تكتشف أن هناك خيطاً شفَّافاً دقيقاً جداً عُلِّقَ فيه، إذا رأيت شيئاً معلَّقاً بلا عمود، بلا قاعدة يأخذك العَجَب العُجاب، هذه السماوات من رفعها ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

يمسك السماء أن تقع على الأرض ..

(وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر : من الآية 67)

هذه السماوات من رفعها ؟

المعنى الأول: أنه رفعها بقدرته من دون عَمَد، ترونها بلا عمد .

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

انتهى المعنى ..

(تَرَوْنَهَا)

في مجال رؤوسكم، ترونها كل يوم .

المعنى الثاني :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

نظام الجاذبية :

أي أن هناك عمدًا لكنَّكم لا ترونها، نوضِّح هذا، لو جئت بقطعتين من المغناطيس ذات حجم واحد، وقد وضعت هاتين القطعتين على سطحٍ كهذه الطاولة، وكلَّفناك أن تضع بينهما كرةً حديديَّة بحيث تستقرُّ هذه الكرة، لا تنزاح إلى هذه القطعة ولا إلى تلك، إنك قبل كل شيء تبحث عن المسافة بين هاتين القطعتين، ثم تبحث عن منتصف هذه المسافة، لو أنَّ الكرة الحديديَّة انجذبت ميليمتراً واحداً إلى الجهة اليمنى لتابعت انجذابها، أن تضع كرةً مستقرَّةً بين قطعتي مغناطيس، هذا شيءٌ يصعب عليك، فإن كانت القطعتان متفاوتتين في الحجم فهذه تحتاج إلى حسابات معقَّدة جداً، لأن الانجذاب له علاقة بالكتلة والمسافة، هذه كتلتها أكبر وهذه كتلتها أصغر، يجب أن تحسب التفاضل بين الكتلتين، ثم تختار مكاناً، ثم تفاجأ أن هذا المكان غير صحيح، بدليل أنها انجذبت، هل تستطيع أن تضع كرةً في نقطةٍ لا تنجذب لا إلى هذه الكتلة ولا إلى هذه؟ أمرٌ صعبٌ جداً .

لو أنك كُلِّفت أن تضع كرة بين ثلاث كتل متفاوتة في الحجوم لكان هذا مستحيلاً، مستحيل أن تجعل كرة حديديَّة تستقر بين ثلاث كتل مغناطيسيَّة متفاوتة في الحجم، لو كلَّفناك أن تضع هذه الكرة في الفضاء بين كتلتين عموديَّاً، هذا شيء يبلغ حدَّ المستحيل، لو حرَّكنا هذه الكُتَل وقلنا لك: اجعل هذه الكرة تستقر مع التحريك، لكان هذا شيءٌ عجيبٌ جداً .

فكيف بهذا الكون الذي في كل مجرَّة مليون مليون نجم له حجم خاص، وله قوَّة جذب خاصَّة، وله مسار خاص، وله طبيعة خاصَّة؛ هذا طبيعته غازيَّة، هذا طبيعته صُلبة، هذا كوكب ملتهب، هذا كوكب منطفئ، وكيف أن محصِّلة هذه الكواكب أنها مستقرَّة استقراراً حركياً، وهذا من أعظم أنواع الاستقرار.. الاستقرار الحركي.. الاستقرار السكوني سهل جداً، ضع هذا الشيء على الطاولة يستقر، لكنَّ هذه الكواكب كلها تدور بحجومٍ متفاوتة، بمساراتٍ متفاوتة، بطبيعةٍ متفاوتة، بقوَّة جذبٍ متفاوتة .

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا

الله سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى يقول :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

قد يتبادر إلى الذهن أن معنى كلمة (تزول)أي تتلاشى، لا، إنَّ زوال الشمس عن كبد السماء يعني انحرافها، أي أن كل كوكبٍ في الكون له مسارٌ يسير عليه، لا يحيد عنه ولا درجة، لو حاد عنه درجة لاختل نظام الكون، فهناك مسار دقيق جداً، والدليل أنك تعرف قبل شهور أن الأرض سوف تشرق عليها الشمس يوم ثمانية وعشرين من أيلول مثلاً الساعة ستة وأربع دقائق، لولا أن الأرض لها مسارٌ دقيق لا تحيد عنه ولا درجة خلال آلاف ملايين السنين لما أمكن بني البشر أن يتنبئوا بأوقات الشروق والغروب، أدق ساعة في العالم تضبط على مسير بعض النجوم، يقول لك: هذه الساعة تخطئ في العام ثلاث ثوان، أما هذا الكوكب العملاق الذي يقطع ملايين الألوف فلا يحيد عن مساره ولا درجة !! مذنب هالي هذا المذنب كشفه العلماء قبل الميلاد بستة قرون تقريباً، أي في القرن السادس قبل الميلاد، ومع ذلك منذ أن كشفه العلماء مساره ست وسبعين سنة لا تزيد ولا تنقص، فربنا عزَّ وجل قال :

(اللَّهُ)

هذا القرآن من عند رافع السماوات بغير عمد :

هل تعرف هذا الكتاب من عند من؟ فأحياناً تقول لإنسان: هل تعرف أن هذا الأمر من عند مَن؟ إذا كنت في الخدمة الإلزامية، وكان هذا الأمر من عند عريف فله وقع عندك، أما إن كان من عند أعلى رتبةٍ في الكتيبة فله وقع آخر، هل تعرف هذا الكتاب من عند من ؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

إما أن تأخذ المعنى الأول .

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

بقدرته ..

(تَرَوْنَهَا)

ترونها أيها البشر بغير عمدٍ .

أو :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

إذا قلنا : بغير عمد ترونها، أي هناك عمد لا ترونها، وهذه العمَد هي قوى التجاذب بين الكواكب، قوة الجاذبية، ما الذي يجعل هذه القطعة تسقط؟ أن كل شيءٍ على الأرض ينجذب إلى مركزها .

ارتباط الأشياء بالأرض من نعم الله :أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا

هذه آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته، لو أننا ركبنا مركبةً فضائية نصل في الفضاء بين الأرض والقمر إلى نقطة تسمَّى نقطة انعدام الجاذبية، يصبح الشيء بلا وزن، تمسك هذا المنديل فيبقى في مكانه لا يسقط، تمسك شيئاً ثقيلاً يبقى في مكانه، فارتباط الأشياء بالأرض من نعم الله سبحانه وتعالى ..

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل : من الآية 61)

من جعل الأشياء تستقر عليها؟ أليس الله سبحانه وتعالى الذي أعطاها قوة الجذب .

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل : من الآية 61)

كل شيء يستقر على الأرض، تضع هذه القطعة هنا تبقى في مكانها، تضع هذه الطاولة هنا تبقى في مكانها، تضع هذا الكرسي هنا، لو أنك جئت إلى البيت، ورأيت الكرسي في السقف، كيف تنزله، لولا قِوى الجذب لوقعت في حيرةٍ كبيرة، تضع الأشياء قبل أن تخرج في مكانها، تعود فإذا هي في السقف كلها، فهذا شيء صعب جداً ..

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل : من الآية 61)

جعل كل شيءٍ مرتبطاً بالأرض ، هذا معنى أول ..

المعنى الثاني :

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل : من الآية 61)

أي أن هناك استقرارا تاما، أرقى أنواع الطائرات لابدَّ من أن تهتز، أرقى أنواع السيارات، أحدث موديل، أوزن نوع لابدَّ من بعض الاهتزاز في السير، هل تستطيع أن تضع فنجان قهوة على مقعد السيارة وهي تسير؟ لابدَّ من أن يقع، لكن الأرض تسير في الثانية الواحدة ثلاثين كيلو متراً، فنحن الآن منذ أن بدأ الدرس وحتى الآن.. بدأنا قبل نصف ساعة تقريباً، ثلاثين دقيقة.. ثلاثون دقيقة في ستين ألف وثمانمائة ثانية، ألف وثمانمائة ثانية ضرب ثلاثين، قطعنا حوالي ستين ألف كيلو متر في هذه النصف ساعة، بالاحساب ثلاثون كيلو مترا بالثانية، شيء دقيق جداً، ومع ذلك استقرار، لو تحركت الأرض درجة واحدة لرأيت في البناء تشققات، هذا البناء يقول لك: معمر من خمسين سنة، من مائة سنة، من ألف سنة، لا تجد فيه شقاً واحداً، هذا دليل الاستقرار التام مع الحركة السريعة .

(اللَّهُ)

هل عرفتني يا عبدي ؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

فقوى التجاذب وحدها أكبر دليلٍ على عظمة الله سبحانه وتعالى، هذا الاستقرار، ربط الأشياء بالأرض.

دورة الأرض حول الشمس :

شيء آخر، دورة الأرض حول الشمس، تدور الأرض دورتها حول الشمس في مدار إهليلجي، والشكل الإهليلجي البيضوي كما تعلمون ليس متساوي البعد عن المركز، أما محيط الدائرة فبعده عن مركزه واحد، لذلك ترسم الدائرة عن طريق الفرجار، لكن الشكل البيضوي لا يرسم إلا بطريقةٍ معقدة، بمركزين وخيط وقلم، هذا الشكل البيضوي له بعدٌ أعظمي وبعدٌ أصغري، فإذا كانت الأرض في بعدها الأصغري عن مركز مدارها، ماذا يحصل؟ لابدَّ من أن تجذبها الشمس، لأن قوى التجاذب متعلقةٌ بالحجم والمسافة، فإذا قَلَّتِ المسافة زادت قوة الجذب، لو لم يكن لهذا الكون إله ماذا حصل؟ في أثناء مسار الأرض حول الشمس وفي المكان الذي يعد فيه البعد أصغرياً عن مركز المسار، أو عن الشمس، لابدَ من أن تنجذب الأرض إلى الشمس فتنتهي الأرض، ماذا يحصل؟ هكذا قال العلماء: الأرض تزيد من سرعتها فينشأ من هذه الزيادة قوةً نابذةً تقابل القوة الجاذبة، فتبقى الأرض في مسارها ..

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

أي يمسك الأرض أن تزول عن مسارها، إذا زالت عن مسارها انجذبت إلى الشمس فتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، الأرض كلها إذا ألقيت في الشمس تبخرت في ثانيةٍ واحدة، لو أنها لم تزد سرعتها، أو لو أن الله سبحانه وتعالى لم يزد في سرعتها لانجذبت إلى الشمس، وتبخرت في ثانيةٍ واحدة، وتبخرنا نحن معها، طبعاً إذا كان الصخر سيصبح بخاراً فما قولك بالبشر؟ لكن الله سبحانه وتعالى يزيد من سرعتها .

هناك آية ثانية، لو أنه زاد من سرعتها فجأةً لانهدم كل ما على الأرض، تقول: هنا كان يوجد مدينة اسمها لندن، هنا كان يوجد مدينة اسمها دمشق، هذه الأبنية الشاهقة تنهار في ثانية، لو أن الأرض زادت من سرعتها في ثانيةٍ واحدة فجأةً، لكن الله اللطيف يزيد من سرعتها تدريجياً، وينقص من سرعتها تدريجياً، الزيادة التدريجية تؤكد اسمه اللطيف، والنقص التدريجي يؤكد لطفه، والزيادة

والنقصان يؤكدان علمه، والتحريك يؤكد قدرته، الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى .

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

المعنى الأول للاستواءعلى العرش :

الاستواء معلوم والكيف مجهول، بلا تجسيدٍ ولا تعطيل، هناك من جَسَّد، وهناك من عَطَّل، وأهل السنة والجماعة لا يجسدون ولا يعطلون، استوى على العرش بلا كيف، أما الاستواء في أوجه معانيه العلو، وهو العلي الأعلى، والعرش في أوجه معانيه فوق الكون، شيءٌ فوق الكون، هذا معنى .

المعنى الثاني :

معنى آخر.. أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون ثم بثَّ فيه الحياة، من بعض التفسيرات أن العرش هو الكون، ومن بعض التفسيرات الأخرى أن العرش شيءٌ فوق الكون، والاستواء هو العلو، والله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى الوهاب، وللعلماء في هذه الآية أقوالٌ كثيرة، واستغرقت هذه الآية عشرات الصفحات وأوقاتاً طويلةً بين العلماء بين أخذٍ ورد، على كلٍ نكتفي بما قاله الله عزَّ وجل لا نزيد عليه ولا ننقص منه، لا نعطل هذه الآية، ولا نجسِّد الذات الإلهية :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

الشمس مسخَّرة لنا، لو لم تكن مسخرةً لنا لأحرقتنا، لو لم تكن مسخرةً لنا لأهلكتنا، لكنها مسخرةٌ لنا .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

كلّ الكواكب تجري إلى أجل مسمى :

كلٌ، لا تشمل الشمس والقمر فقط، بل إنها تزيد على الشمس والقمر، أي أن كل كوكبٍ في الكون يجري لأجلٍ مسمى، العلماء فسروا هذا الأجل تفسيراتٍ عِدَّة، بعضهم قال: كل كوكبٍ له مسارٌ لا يحيد عنه، ويقطع هذا المسار في وقتٍ لا ينقص ولا يزيد، وبعضهم قال: لكل كوكب وقتٌ تنتهي عنده

وظيفته .

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2))

(سورة التكوير)

أي أن هذا الكوكب انتهت وظيفته ، له عمر ..

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(38)وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(39)لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40))

(سورة يس)

حتى إن بعض العلماء استنبط من هذه الآية أن نظام الذرة منطوٍ في هذه الآية .

(وَكُلٌّ)

أي كل ذرةٍ خلقها الله عزَّ وجل تتحرك حول نواةٍ .

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40))

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

أمرُ الكون كله بيد الله :

من يدبِّر الأمر؟ الله سبحانه وتعالى، من يحرِّك الرياح؟ الله سبحانه وتعالى، من يجعل هذا البحر يتبخَّر؟ يشَكِّل السحاب الثقال يسوقه إلى بلدٍ ميت، يحيي به الأرض بعد موتها؟ الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى يدبر الأمر، من ينبت المزروعات ؟

(أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ(64))

(سورة الواقعة)

من يعقد الثمار؟ من يحرِّك السوَيْق؟ من يحرك الجُذير؟ من يجعل هذا الغذاء ينساب إلى هذا النبات؟ من يجعل هذه الفواكه في طعوم مختلفة؟ الله سبحانه وتعالى، من خلق محاصيل القمح؟ الله سبحانه وتعالى، من خلق الهواء؟ الله سبحانه وتعالى، من خلق الماء؟ الله سبحانه وتعالى .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ)

الله لا يشغله تدبيرُ الأمر عن تفصيل الآيات :

أي لا يشغله تدبير الأمر عن تفصيل الآيات، ولا يشغله تفصيل الآيات عن تدبير الأمر، فالطبيب الجرَّاح إذا كان منهمكاً في إجراء عمليةٍ جراحية لا يستطيع في هذا الوقت العصيب أن يعلِّم طُلاَّبه، والذي يعلم طلابه وهو منهمكٌ في المحاضرة لا يستطيع أن يفحص مريضاً، أما أن ترى طبيباً يجري

عمليةً جراحية وفي الوقت نفسه يعلمِّ طلابه طريقة إجراء هذه العملية، فهذا عنده قدرات فائقة تفوق حد البشر، ربنا عزَّ وجل ولله المثل الأعلى .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ)

في الوقت نفسه يخلق، ويدبِّر، ويمد، ويعلم.. كل ذلك ..

(لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ

أسعد لحظات المؤمن ساعة لقاء ربه :

لعلك ترى أن لقاءك مع الله هو أسعد شيءٍ في الحياة، يجب أن تعلم علم اليقين أنه ما من شيءٍ في الأرض يسعدك إلا أن تكون مع الله سبحانه وتعالى، إلا أن تلتقي به، اللقاء مع الله لا يعني الموت، فعامة الناس يفهمون أن فلاناً لقي ربه أي مات، يقول لك: لا راحة لمؤمنٍ إلا بلقاء وجه ربِّه، فكأن الحياة كلها متاعب، بعضهم وجه هذا القول: لا راحة لمؤمنٍ إلا أن يتصل بربه، إذا التقى مع الله عزَّ وجل ولقاء الله له ثمن، ثمنه العمل الصالح ..

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا)

(سورة الكهف : من الآية 110)

إذا قال لي أخٌ كريم: أشعر بضيق، أشعر بجفوة، أنا منقطع عن الله عزَّ وجل، لقاء الله ثمنه محدد، باب الله مفتوح على مصراعيه، أيُّ عبدٍ في أي مكانٍ وزمان إذا أراد أن يلتقي بالله عزَّ وجل فالباب مفتوح .

العمل الصالح ثمن الجنة :

أما الثمن فهو العمل الصالح ..

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : من الآية 110)

لابدَّ من استقامةٍ ولابدَّ من عملٍ صالح، فلذلك اللقاء مع الله مسعد، فإذا اتصل الإنسان بالله عزَّ وجل يقول كما قال أحد العارفين بالله: " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف "، فوالله الذي لا إله إلا هو ما من علامةٍ صادقةٍ على إيمانك كأن تكون سعيداً بلقاء الله، فالمؤمن الصادق لا يتمنَّى

الدنيا، لا يتمنى الرفاه العريض، لا يتمنى الجاه العريض، لا يتمنى المال الوفير، يتمنى لقاء الله عزَّ وجل .

فما مقصودهم جنات عـدن ولا الحور الحسان ولا الخيام

سوى نظر الحبيب فذا مُناهم و هذا مطلب القوم الكـرام

مَن عرف ما عند الله زهد في الدنيا :

أي أن هؤلاء العارفين بالله عرفوا أثمن ما في الكون، عرفوا الله، فزهدت نفوسهم فيما سواه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

أرَضيتَ بها، إذا دخلت على ملك تقول له: أتوسَّل إليك أن تعطيني قلم رصاص، هذا يعجبك؟! ترضى به؟! فكيف إذا وقفت بين يدي ملك الملوك أترجو منه الدنيا وهي زائلة؟ أعطاها لأعدائه، أعطاها لمن يحب ولمن لا يحب .

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاء))

[سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

النبي عليه الصلاة والسلام رأى شاةً ميتةً قد انتفخ بطنها، وفاحت رائحتها الكريهة، فقال عليه الصلاة والسلام :

((انظروا إلى هذه الشاة كم هي هينة على أهلها، والذي نفس محمدٍ بيده الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها))

[الحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد]

لا شأن لها عند الله، " فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حينما زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا " .

" يا بُنَي، ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية " .

إذا عرفت الله سبحانه وتعالى فأنت أسعد السُعداء، سيدنا علي كرم الله وجهه يقول: " المال نعمة، وأفضل من المال نعمة الصحة، وأفضل من نعمة الصحة نعمة الإيمان، والفقر بلاء وأشد من الفقر المرض، وأشد من المرض الكُفر "، فإذا كنت مؤمناً فعلى الدنيا السلام، هذا الذي عرفك يا رب ماذا فاته؟ والله ما فاته شيء، وهذا الذي لم يعرفك يا رب ماذا حَصَّل؟ والله لم يحصّل شيء . " ابن آدم،

أطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء " .

هذا هو الله فاعرفه بآثاره في الكون :

فليس في الكون إلا حقيقة واحدة هي الله، فإذا عرفته فقد نجحت، وإذا غاب عنك أو غِبت عنه فقد شقيت، وعندئذٍ لا تنفع الدنيا ولا ما كان من الدنيا .

(لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

خلق لك شمساً ..

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

خلق نجوماً، خلق مجرَّات، خلق مذنَّبات، خلق أمطاراً، خلق رياحاً، خلق نباتاً، خلق أطياراً، خلق أسماكاً، خلق إنساناً، خلق لك من نفسك زوجة، أنجبت طفلاً لك كالزهرة تعرف أصله، من ماءٍ مهين، هذا الطفل يتكلم، يتحرك، يضحك، يبكي، له دماغ، له عينان، له شفتان، له لسان، له أذنان، له قلب، له رئتان، له أمعاء، له معدة، له أعصاب، له عضلات، له عظام، له أجهزة، له أعضاء، خلقك من أجل أن تعرفه، ما عرفته، أرسل زلازل، أرسل فيضانات، آثار براكين ..

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

من أجل أن تعرفه، ما عرفته ..

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام : من آية " 65)

من أجل أن تعرفه، ما عرفته ..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

ما عرفته ..

(وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

ما عرفته :

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

أرسل لك محنة، ضيَّق عليك، أرسل لك مالاً، وهبك طفلاً، غاب عنك هذا الطفل، من أجل أن تعرفه .

إذاً :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(2)وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ

المعنى الأول :

جعلها ممتدة، ليس في الأشكال الهندسية إلا شكل واحد، الخطوط السطحية ممتدة لا تنقطع، وهو الشكل الكروي، هذه الآية دليلٌ على أن الأرض كرة، امسك قلماً من الرصاص، وامسك كرةً، وخط على هذه الكرة خطاً، وتابع الحركة الخط لا ينقطع، لا ينقطع أبداً، الخط ممتد .

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

هذا المعنى الأول .

أي أن الشكل الهندسي الوحيد الذي تمتد عليه الخطوط بلا انقطاع هو الشكل الكروي، إذاً: الأرض كرة.

المعنى الثاني :

من رحمة الله بك جعلها كرةً كبيرة، فالأرض أمامك منبسطة، وكأنها منبسطة، إذاً: مد الأرض جعلها ممتدة أمامك، ليسهل عليك زرعها، وبناء بيتك فيها، والسكنى فيها، والحركة، هذا الذي يشتري أرضاً من سفح جبل، يجد صعوبةً كبيرة في زراعتها ..

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

إذاً: جعلها ممتدة، جعلها منبسطة، جعلها كروية .

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ)

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ

أهمية الجبال في ثبات الأرض :

فلولا هذه الجبال كيف تتحرك الأنهار؟ وفق نظام الأواني المستطرقة، لولا الجبل لما سال النهر، لأن

الجبل مكان مرتفع، وبحسب نظام الجاذبية الماء يتحرَّك من الأعلى إلى الأدنى .

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ)

الأرض من دون الجبال تضطرب في دورانها، تأتي الجبال فتجعل دورانها مستقراً .

شيءٌ آخر في الجبال ..

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

(سورة النحل : من الآية 15)

هذا هو المعنى، والجبال أيضاً جعلها الله أوتاداً، معنى أوتاداً أن هذه الطبقات السطحية لولا الجبال لاضطربت بفعل الدوران، لأن الدوران يسبب حركةً في طبقات الأرض، وكل طبقةٍ لها قوامها، ولها كثافتها، فإذا اختلفت كثافة الطبقات تحرَّكت حركات متباينة، فاضطربت الأرض، تأتي الجبال كالأوتاد تثبِّت هذه الطبقات بعضها ببعض، فالله سبحانه وتعالى جعل الجبال أوتاداً، وجعل الجبال رواسي أن تميد بكم .

الحكمة من ذكر الأنهار بعد الجبال :

والشيء الغريب أنه حيثما وردت في الأعم الأغلب كلمة الجبال أردفها الله بالأنهار، لأن مستودع الأنهار في الجبال، فلو أن أحدنا دخل إلى بعض المغارات السياحية.. في لبنان مغارة.. هذه المغارات هي مستودعات للماء العذب، صخورٌ إسفنجية، هذه الصخور فيها مواد معدنية تنحل في الماء، فإذا انحلَّت في الماء صار الماء معدنياً صالحاً للشرب، فيه فلور، وفيه كالسيوم، فيه منغنزيوم، لذلك المياه التي تحلَّى من البحر ليست صالحةً للشرب إطلاقاً، لماذا؟ لأنها خاليةٌ من هذه المعادن، لكن الله سبحانه وتعالى جعل المياه في أعماق الجبال، وحَلَّ فيها بعض المعادن من أجل أن تكون هذه الأملاح المعدنية فيها قوام حياتنا، لولا الفلور لما بقي في فم أحدنا سِن، المادة التي تقي نخر الأسنان هي الفلور، يجب أن تكون في الماء بنسبٍ قليلةٍ جداً، فالفلور، والكالسيوم والمنغنيزيوم، كلها محلولة في الماء، فربنا عزَ وجل جعل الجبال مستودعات للمياه العذبة .

لكن هذا المستودع لو تصورنا أنه مستودع مجوَّف كما يتخيَّل بعضنا، لكان من جرَّاء ذلك أن ضغط الماء يصدِّع الجبل فتخرج المياه دفعةً واحد فتُغْلِقُ المدينة، لكنه من أجل أن لا تنطلق المياه من الجبل دفعةً واحدة جعل الله سبحانه وتعالى طبيعة الجبل من الداخل إسفنجية، فالماء يرشح رشحاً، فهذا المستودع الكبير يُفْرِغُ محتواه على مدار العام بأكمله، هذه الينابيع، يقول لك: هذا الينبوع، نهر الأمازون كثافته ثلاثمائة ألف متر مكعب في الثانية على مدار العام، تقل أحياناً، نبع الفيجة كثافته ستة عشر متر مكعب في الثانية، ينزل للمتر، للنصف متر أحياناً.

إذاً: حيثما ذكر الله الجبال ذكر معها الأنهار لأن الجبال مستودعات لمياه الأنهار .

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا)

والجبال أيضاً مصدَّات للرياح .

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِجَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

الثمرات أنواع كثيرة :

التفاح أكثر من ثلاثة آلاف نوع، مَرْكز في دوما لإجراء البحوث الزراعية، أعلمني صديقٌ لي أن ثمة ثلاثمائة نوع من العنب، ما من ثمرة إلا ولها أنواع منوَّعة، المشمش، التفاح، الكمثرى، الدرَّاق، هذه الأنواع المنوعة مبالغةٌ في إكرام الإنسان .

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

كم نوع للبطيخ؟ كم نوع للتفاح؟ سكري، شتوي، الأصفر، الأحمر، أنواع كثيرة، في الأشكال والحجوم والطعوم .

إذاً :

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

النبات ذكر وأنثى :

أحدث اكتشاف أنه ما من نباتٍ إلا وفيه ذكرٌ وأنثى، حتى النباتات التي كان يظن أنها وحيدة الجنس اكتشف أنها مؤلفةٌ من أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنَّثة في النبات الواحد .

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

حتى الكمأة التي يظن أن لا بذر لها .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (2- 9) : تفسير الآية 3 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-07-25

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

النبات ذكر وأنثى:

ما من نباتٍ إلا وفيه ذكرٌ و أنثى، حتى النباتات التي كان يُظن أنها وحيدة الجنس اكتشف أنها مؤلفة من أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة في النبات الواحد.

(ومِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

حتى الكمأ التي يظن أنها لا بذر لها، لها بذرٌ، والبذر ينعقد من جَرّاء تلقيح الذكر بالأنثى.

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

النبات آية من آيات الله في الأرض:

إذاً: أبرز آية في الأرض النبات.

الأشجار، أشجارٌ سخرها الله بخشبها، يقول لك: هذا خشب زان، هذا خشب سنديان، هذا خشب بلوط، هذا خشب سويد، وأشجارٌ خلقها الله للزينة، الأشجار الحراجية تعمِّر مائة عام، وأجريت بعض الدراسات أن الشجرة الواحدة تقدِّم خدمات للإنسان ما يزيد على مائتين وتسعين ألف مليون دولار في مائة عام، تسميد التربة، وترطيب الجو، لو أردنا أن نُرَطِّب الجو آلياً، أرقام مذهلة، هناك أشجار للزينة، أشجار حراجية، أشجار حدوديّة، أشجار من أجل أن تقطف ثمارها، ما ثمارها؟ ليف، أشجار من أجل أن تنظِّف أسنانك بها، عود الآراك، أشجار من أجل أن تنظف ما بين الأسنان الخُلّة، أشجارٌ من أجل أن تأكل من ثمراتها، نباتاتٌ من أجل أن تأكل من ثمراتها أيضاً، الخضروات، نباتاتٌ تعطيك المحاصيل القمح والشعير، فالحديث عن النبات لا ينتهي، الله سبحانه وتعالى جعل أبرز آيةٍ في الأرض هي النبات..

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ

والليل والنهار آيةٌ كبرى في الأرض، معنى ذلك هناك دوران حول النفس، هناك دورة الأرض حول نفسها، وهناك الشمس، فمن جرّاء الشمس والأرض ودورة الأرض حول نفسها، ينشأ الليل والنهار.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

التفكر عبادة عظيمة:

صار التفكر عبادة، صار التفكر فرض، صار التفكر طريقٌ إلى الله سريع، فكِّر في هذه الآيات، دقق فيها، استكشف عظمة الله من خلالها.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 28)

إنما أداة قصر، وأداة حصر، فالعلماء وحدهم، ولا أحد سواهم يخشون الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 4 – 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-08-01

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بما سبق:

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في سورة الرعد إلى قوله تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

قبلها:

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

أي أن هذا الكتاب مِنْ ربك، مَنْ ربُّك ؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(2)وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(3) وَفِي الْأَرْضِ)

أي وخلق لكم في الأرض، ومن آياته الدالّة على عظمته، أعَرَفْتَ مِنْ عند مَنْ هذا الكتاب؟ من الذي رفع السماوات بغير عمدٍ ترونها؟ من الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي ؟ من جعل في الأرض قطعاً متجاورات ؟

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ)

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ

الأراضي أنواع:

أي أراضٍ بعضها غبار، بعضها كلس، بعضها خَصيب، بعضها مالح، بعضها مزروع، بعضها مُهْمَل، فحيثما سرت في الأرض ترى أنواعاً منوّعة من التُرَب، تربة لَحْقِيّة، تربة غضاريّة، تربة كلسيّة، تربة

بازلتيّة، تربة بركانية، تربة غنيّة بالحديد، تربة غنيّة بالكالسيوم، تربة تسقى بعلاً، تربة تسقى بماء النهر، تربة مزروعة، تربة تنجح فيها هذه الفاكهة، تربة تنجح فيها هذا المحصول..

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ)

الأعناب والزرع والنخيل:

النخيل باسقة، والأعناب متسلِّقة، والزرع أرضي، أي الخضراوات، المحاصيل هذه زروع، والأعناب متسلِّقة، والنخيل باسقة، أي أنها أنواع منوّعة، أشجار دائمة الخضرة، أشجار مثمرة، أشجار قصيرة العمر، أشجار مديدة العمر..

(وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ)

لو ذهبت إلى حقل زيتون للفت نظرك ظاهرة في الزيتون، أن كل شجرة من الزيتون ينبت في أطرافها فسائل، قد لا يقف الإنسان عند هذه الظاهرة، ولكن لو فكّر فيها لعرف حكمة الله سبحانه وتعالى، لأنك إذا زرعت بذر الزيتون لاحتجت إلى سنواتٍ طويلةٍ طويلة كي تُصبح هذه البذرة فسيلة، ولكن الله سبحانه وتعالى توفيراً للوقت أخرج مع كل زيتونةٍ ضخمةٍ عدّة فسائل حولها، ما عليك إلا أن تقطع هذه الفسيلة من جذر الزيتونة، وتزرعها فإذا هي شجرةٌ بعد سنواتٌ عدّة.

معنى: صنوان:

قد تجد نخلتين من أصلٍ واحد، وقد تجد للأصل الواحد نخلةً واحدة..

(صِنْوَانٌ)

أي أخوان..

(وَغَيْرُ صِنْوَانٍ)

ومعنى كلمة الصنو أي الأخُ..

(صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ

فهذه الآية من أعظم الآيات الدالّة على عظمة الله عزّ وجل، لو اتفق أن في بستانٍ واحد شجرة كَرَز، وأخرى مُشمش، والثانية تفّاح، والثالثة درّاق، والرابعة خَوْخ، وما شاكل ذلك، التربة واحدة، الجو واحد، الهواء واحد، السماد واحد، السقي واحد، الأمطار واحدة، الثلج واحد، البرد واحد، الحر واحد،

طَعْم الدراق غير طعم الكرز، غير طعم العنب، غير طعم المشمش، غير طعم التفّاح، غير طعم الأجاص..

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

لو قيل لك: صف طعم التفّاح لا تستطيع، تقول: التفّاح تفّاح، صف طعم الأجّاص، لن تستطيع..

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

فاكهة تُباع بليرتين، فاكهة تُباع بخمس عشرة ليرة.

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

هذه فستق، هذه لوز، هذه فستق عبيد.. مثلاً.. أنواع منوّعة.

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

الأُكُل هنا أي الطعم، نفضّل بعضها على بعض في الطعوم، طعم هذا غير طعمِ هذا، وسعر الفاكهة دليل اختلاف طعومها، في فواكه رخيصة، في فواكه غالية..

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

آيات الكون تنفع من كان له قلب حي:

قبل قليل:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

في هذه الآية:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

قال تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَعْقِلُونَ بِهَا)

(سورة الحج: من الآية 46)

فالعقل مكانه القلب، والتَفَكُّر مكانه الرأس، فالإنسان يتفكّر في الآية فيقنع بها، فإذا تعمّق في فهمها عقلها، فإذا عقلها انتقلت من فكره إلى قلبه..

" وإنما الدين هو العقل ومن لا عقل له لا دين له ".

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

فمعظم الناس يتوهّمون أن الموت نهاية الحياة، مع أن الحقيقة أن الموت بداية الحياة، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(22)وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى(23)يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

الموت بداية الحياة، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً))

[ورد في الأثر]

(فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(26))

(سورة الفجر)

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

ليست الحياة كل شيء:

حينما يظنُّ الإنسان أن الحياة هي كل شيء، وأن السعيد فيها من كان غنيًّا، وأن الشقي فيها من كان فقيراً، وأن الموت نهايتها، هذه النظرة التي ينظر الناس من خلالها إلى الدنيا هي نظرةٌ مُهْلِكَة، لأنَّك نقلت كل اهتماماتك إلى الأرض، إلى الدنيا، والدنيا قد تأتي وقد لا تأتي، قد تقبل عليك فيختلُّ توازنك، وقد تُدبر عنك فتيأس، لكنَّك إذا نقلت اهتمامك إلى الدار الآخرة عندئذٍ يرضيك فيها كل شيء، قال النبي عليه الصلاة والسلام في بعض خُطَبِه:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[كنز العمال]

فما من واحدٍ منَّا إلا وله فلسفة شاء أن أبى، كانت هذه الفلسفة عن وعيٍّ أو عن غير وعيٍّ، فالذي يظنُّ أن الدنيا كل شيء يُقْبِلُ عليها بنهمٍ شديد، ينام ويحلم بمباهجها، ببيوتها، بنسائها، بمالها، والذي يظنُّ الآخرة كل شيء هو العاقل.

مثلاً: لو أن إنساناً كان على وشك الموت عطشاً، وبقي له كي يموت عطشاً ساعة، وقيل له: هناك سبعة أمكنة يُظَنُّ أن فيها ماء، وتحتاج إلى ساعة لتصل إلى كلٍ منها، والماء في واحدٍ منها، فأي خطأٍ في التوجُّه معناه الموت المحقَّق، يوشك هذا الإنسان أن يموت عطشاً، والأطبّاء قدّروا له ساعة، بعد هذه الساعة يلفِظُ أنفاسه الأخيرة، هو في صحراء قيل له: في هذا المكان نبع، أو في هذا المكان، أو في هذا المكان، أعطوه سبعة أمكنة ثم قالوا له: حقيقةً الماء في مكانٍ واحد من هذه السبعة، فهل ينطلق الإنسان إلى أحد هذه الأمكنة قبل التروّي وقبل البحث؟ لأن انطلاقه إلى أحد هذه الأمكنة قبل التأكُّد من

أن الماء فيها معناه موتٌ محقّق، فلذلك الإنسان في الدنيا..

" إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ".

فشيء خطير جداً يقال عنه: مصيري، أي مصيرك إلى الأبد، سعادتك إلى الأبد، شقاؤك إلى الأبد منوطٌ بهذا الكتاب، هذا منهجك في الحياة، فربنا عزّ وجل جعل الدنيا دار تكليف وجعل الآخرة دار تشريف، أي أن العطاء في الآخرة، والنعيم المقيم في الآخرة، والجنّة التي عرضها السماوات والأرض في الآخرة، لكن الدنيا دار عمل، دار جدٍ، دار كسبٍ..

" شمّروا فإن الأمر جِد، وتأهّبوا فإن السفر قريب، وتزوّدوا فإن السفر بعيد، وخفّفوا أثقالكم فإن في الطريق عقبةً كؤود، وأخلصوا النيّة، فإن الناقد بصير ".

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

إنكار البعث فلسفة الجهلة والسفهاء:

لو فكّروا في خلق السماوات والأرض لما قالوا هذا الكلام، لو رأوا صنعة الله عزّ وجل فعرفوا من خلالها عظمة الخالق لما شكّوا في أن الله سبحانه وتعالى سيحقّق وعده ويبعث من في القبور، لو فكّروا في ملكوت السماوات والأرض، لو فكّروا في خلقهم، لو فكروا في طعامهم، في شرابهم، لو فكروا في مظاهر الطبيعة التي أمامهم لما قالوا:

(أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

هذا القول يقوله الجاهل، أنت أمام صاحب معمل ضخم لصناعة أعظم الآلات تقول له: هل تستطيع أن تصنع آلةً صغيرة؟ لو وقفت أمام صناعته الدقيقة والكبيرة والجبّارة لما سألت هذا السؤال، دليل أنّك لا تعرفه إطلاقاً، لأنك طرحت هذا السؤال فإنك لا تعرفه.

(وَإِنْ تَعْجَبْ)

إنه لقول عجيب:

الله سبحانه وتعالى لم يقل: فيعجب ربُكم، لأن الله لا يعجب، الله فوق أن يعجب، لأنه ليس كمثله شيء، أما هناك عجبٌ من قولهم، هذا العجب من عدم فهمهم لعَظَمَة الله عزّ وجل.

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ)

فقولهم يدعوكم إلى العجب يا بني البشر..

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

الخلق الأول دليل عظمته، والخلق الثاني دليل عدالته:

الحقيقة أن الخلق الأول دليل عظمته، والخلق الثاني دليل عدالته، لأن في الخلق الأول عظمةً ما بعدها عَظمة، هناك الفقير والغني، هناك القوي والضعيف، هناك الظالم والمظلوم، هناك الصحيح والمريض، فهذا المريض لو أن هذه الدنيا هي كل شيء أليس له على الله عَتَبٌ شديد؟ يا رب أنت الذي خلقتني، هذا الفقير الذي لا يجد قوت يومه وكانت الدنيا هي كل شيء وانتهى الأمر، أليس له عند الله عتبٌ شديد؟ في الدنيا فقير، في الدنيا غني، في الدنيا ضعيف، في الدنيا قوي، في الدنيا ظالم، في الدنيا مظلوم، في الدنيا صحيح، في الدنيا مريض.

الخلق الأول لحكمةٍ بالغة، والخلق الثاني لتحقيق العدالة المطلقة.

الحساب على الجميع:

فالغني سيُحاسب على غناه، والفقير سيُسأل عن صبره، والقوي سيُحاسب عن قوّته كيف استخدمها، أتعسّف بها، والضعيف سيُسأل عن توحيده، والمريض سيسأل عن صبره، والصحيح سيسأل عن قوّته كيف استعملها..

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ؟))

[سنن الترمذي عن أبي برزة الأسلمي]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: من الآية 115)

جامعة، قاعات محاضرات، مكتبة ضخمة، حدائق، جهاز تدريسي من أرقى مستوى، مخابر كلّفت ألوف الملايين، ليس هناك امتحان؟ هكذا أدخل إلى الجامعة، وأخرج منها من دون امتحان؟ من دون مسؤوليّة؟ مستحيل، لا يفعلها إنسان..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

تعالى أن يخلق الناس عبثاً..

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(16))

(سورة الأنبياء)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة ص: من الآية 27)

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

نحن في الدنيا في ظل الأنظمة الوضعيّة، أيضرب إنسان إنساناً، أيقتله ويذهب إلى بيته هكذا؟ ليس هناك شرطة، ليس هناك دوائر مباحث جنائيّة؟ هكذا..

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

عند مخلوق لا تنجو، عند مخلوق محدود العلم لا تنجو، عند الخالق ؟! تأكل مال فلان، تنتهك عِرض فلان، تخادع فلانا، تغشُّ فلانا، تحتكر هذه السلعة، تؤذي المسلمين، تأخذ أموالهم بغير حق وتُتْرَك سدى؟ هكذا ببساطة، بلا حساب، بلا مسؤوليّة، بلا عذاب ؟

ليست العبرة أن ينجح جميع الطلاّب في الجامعة، ولكن الشيء الرائع أن تتطابق النتائج مع المقدّمات، هذا هو الشيء الرائع أن يكون هناك حسابٌ دقيق..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف: من الآية 19)

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

إيمانك الصحيح أنك لو أنقذت نملة، أنك لو ابتسمت ابتسامةً بمقدار ثانية واحدة سخريةً من إنسان لحُوسِبْتَ عليها، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

[الترمذي]

كلمة قصيرة، فلان.. (وأشار إلى ياقة قميصه)، ما حكيــت شيئا.. فلانة.. (وأشار إلى ياقة قميصه) ما حكيت شيئا.. إنك تُحاسب على ذلك، أمتأكِّدٌ أنت أنها منحرفة؟ أعندك دليل؟ أجاءك أربعة شهود، أم أنها قصّةٌ سمعتها فنقلتها ؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم، أبو داود]

لابدَّ من تمحيص.

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ)

حساب الدنيا قبل حساب الأخرة:

واللهِ إن الحساب في الدنيا قبل الآخرة، لو تتبعت أهل الدنيا وانحرافاتهم، ورأيت كيف أن الله سبحانه وتعالى يجازيهم عن أعمالهم في الدنيا قبل الآخرة لعجبت العجب العُجاب، أبداً.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة طه)

يعني كنت أعمى في الدنيا..

(أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى(126))

(سورة طه)

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ)

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

الإيمان بالله واليوم الآخر متلازمان:

لأنهم كفروا بربّهم أنكروا البعث، وكأن الإيمان بالله وباليوم الآخر متلازمان، إذا آمنت بالله تقتضي عدالته أن هناك يوماً آخر، إن لم تؤمن بالله تُنْكِرُ يوم البعث، لذلك من أركان الإيمان الإيمان بالله واليوم الآخر، أبداً، الإيمان باليوم الآخر من مستلزمات الإيمان بالله عزّ وجل، كما أن الإيمان بالفحص من مستلزمات الجامعة، لا جامعة بلا امتحان، لأن هناك إلقاء محاضرات، وهناك تفاوت بين الطلاّب في فهم هذه المحاضرات، تفاوت في الدوام، تفاوت في الفَهم، تفاوت في البذل، تفاوت في الجُهد، تفاوت في الدراسة، ما الذي يميّز هذا التفاوت؟ الامتحان، فالامتحان شيءٌ لازمٌ للجامعة، كذلك اليوم الآخر لابدَّ

منه في نهاية الحياة.

(وَأُوْلَئِكَ)

أي أن هؤلاء الذين يقولون:

(أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ)

لو عرفوا ربهم من خلال خلقه لما كفروا به:

لو أنّهم عرفوا ربّهم كيف أمدّهم بالهواء، هذا الهواء نستنشقه نأخذ منه الأكسجين ونطرح غاز الفحم، يأتي النبات فيأخذ غاز الفحم يُثَبِّت الفحم في الأوراق ويطرح الأكسجين، نأكل نحن النبات فتنشأ في أجسادنا طاقة هي الحركة، بسبب احتراق المواد ـ التي أكلناها ـ في خلايانا مع الأكسجين الذي أخذناه من عملية التنفُّس، يطرح من هذا الاحتراق غاز الفحم، يأتي النبات يأخذ غاز الفحم، يثبّت الفحم في الأوراق ويطرح الأكسجين، ومن أخذ الأكسجين وطرح غاز الفحم، وأخذ غاز الفحم وطرح الأكسجين ينشأ هذا التوازن في الأرض، وإلا لانتهى الأكسجين، لو فكّروا في ربّهم كيف خلق لهم الهواء بهذه النسب الدقيقة، وكيف جعلهم يتكاملون مع النبات.

لو فكّروا في الماء كيف صفّاه الله عزّ وجل وحلاّه، هو في البحر ملحٌ أجاج، وفي الينابيع ماءٌ عذبٌ فرات، لو فكروا في تخزين المياه..

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22))

(سورة الحجر)

لو فكّروا في ظاهرة النبات، النبات أكبر ظاهرةٍ في الأرض، أن تزرع حبّةً فتصبح شجرة، لكن أين البرمجة؟ قال لي واحد: بذرة مبرمجة، قلت له: جميل، تعال أناقشك بهذا الموضوع، لو أردت إنشاء بناءٍ ضخم، وذهبت إلى أعظم المهندسين، ووضع لك مخطّطاتٍ تفصيليّة، مخطط للأساسات، مخطّط للطابق الأول، للطابق الثاني، الثالث، الرابع، الخامس، هندسة نسب ومقاييس، وهندسة شكل ومظهر، وهندسة كهرباء، وهندسة مياه، إلخ... وجمعت هذه الخرائط، وهكذا سمكها ضعها على أرض البناء، وانتظر كم سنة حتى يظهر البناء، نحن في عالم الواقع، هل تكفي الخرائط المبرمجة التي فيها حسابٌ دقيق لهذا البناء، هل تكفي هذه الخرائط ليظهر البناء؟ تقول: لا إنه لا يظهر، نحتاج إلى ماذا؟ إلى مواد أوليّة، آت بهذه المواد الأوليّة؛ آت بالإسمنت، وبالحديد، وبالبلاط، وبالطلاء، وبكل شيء، دعه في أرض البناء، هل يظهر البناء؟ تقول: يد عاملة، إذا كان بناء فيحتاج إلى خارطة ومواد أوليّة ويد عاملة، فهل يمكنك من بذرة مبرمجة تنبت شجرة ؟

بذرة التين كرأس الدبوس، هذه البذرة فيه رشيم، وفيها مواد مغذّية للرشيم، والرشيم حي، كيف تصبح هذه البذرة شجرة؟ حبّة قمحٍ زُرِعَت فأنبتت ثلاث آلاف حبّة رأيتها بأمّ عيني، خمس وثلاثون سنبلة من حبّة قمح واحدة، وكل سنبلة فيها ستون أو سبعون حبّة، في مزرعة في الغوطة، نادرة، بذرةٌ واحدة، حبّة قمحٍ واحدة أصبحت ثلاث آلاف حبّة، فيَدُ مَنْ؟ المزارع يلقي الحبّة إلى الأرض، ويذهب إلى البيت، من أودع في هذه الحبّة الحياة؟ من جعل الرشيم حينما جاءته الرطوبة ينبت له سويقٌ دقيق وجذيرٌ دقيق، من جعل الجذر يتجه نحو الأسفل والسويق يتجه نحو الأعلى؟ ما هذا التوافق الدقيق بين انتهاء المواد الغذائيّة في البذرة وإمكانيّة الجذير أن يأخذ من التراب ما يحتاج؟ ما هذا التوافق العجيب؟ فالنبات ظاهرة.

فالهواء آية، والماء آية، والنبات آية، والحيوان آية، وهذه المخلوقات؛ الطيور، الأسماك، الأنعام، الإبل، الغنم، الماعز، البقر.

هذه البقرة لو أنّ حليبها خلقه الله لوليدها فقط فإن وليدها يكفيه اثنان كيلو في النهار كله، البقرة تعطي ثلاثين كيلو حليب، معنى هذا أن الحليب لنا خصيصى، خُلِقَ لنا..

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ(66))

(سورة االنحل)

أنت تأكل جبنة صباحاً ولبناً مصفّى، قشطة، هذا كلّه من الحليب، سمنة بلدي، من صمّمه ؟ من صنعه؟ يدُ من صنعته ؟

(أُوْلَئِكَ)

أي أن هؤلاء الذين يقولون:

(أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

هذا الذي يقول هذا ما فكّر في ربّه، لو فكر في رب العالمين، وكيف خلقه وأمدّه لما أنكر البعث والنشور..

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ)

وَأُوْلَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ

المعنى الأول: المجرم لا بد من تقييده بالأغلال:

بعضهم وجّه هذه الآية إلى يوم القيامة:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30))

(سورة الحاقة)

المجرم يقيَّد..

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)

هذا المعنى الأوّل.

المعنى الثاني: الكافر مقيد بالشهوات:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ)

هذا الكافر مقيَّدٌ بالشهوات، شهوته تذلّه وتسحقه، هو عبدٌ لها..

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

هؤلاء عبيد الشهوات، كان رجل بعد أن هداه الله سبحانه وتعالى يقول: **" كنت عبداً فأصبحت حرّاً، وكنت حرّاً فأصبحت عبداً "**، قيل له: فسّر هذا الكلام، قال: " كنت عبداً لشهوتي فأصبحت متحرّراً منها، ثم كنت حراً بمعنى أنني غير منضبط، فأصبحت عبداً لي ربٌّ، ولي منهجٌ أسير عليه "، **" كنت عبداً فأصبحت حرّاً، وكنت حرّاً فأصبحت عبداً ".**

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(5)وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ

استهزاء الكفار بوعيد الله:

هؤلاء الكفّار يستهزئون بوعيد الله سبحانه وتعالى، ليعذّبنا ربُّك، أين العذاب؟ ليأتي..

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ)

فإذا جاء العذاب رأيتهم يصرخون كالكلاب، لكنّهم لجهلهم.. الحيوان من صفاته أنه يخاف بعينه فقط، أي لا يخاف حتى يرى الخطر بعينه يخاف..

الإنسان العاقل يخاف بفكره لا بعينه:

أما الإنسان فكرّمه الله عزّ وجل، يجب أن يخاف بفكره، يجب أن يرى الخطر المتوقّع قبل أن يقع الخطر، فالذي يخاف بعينه هذا متخلِّف، هذا ينتمي إلى صنف الحيوان، لا يخاف إلا إذا رأى الخطر، ما دام في صحّة جيّدة، ما دام في مال وفير هو مع شهواته يستعلي على الناس في الأرض، يأكل حقّهم، يغتصب أموالهم، ينتهك حرماتهم، يعتدي على أعراضهم مادام فيه قوّة، فإذا وقع في مرضٍ قلبيّ عُضال صار يعوي كالكلاب، يقول: أنقذوني، أين كنت ؟

يقولون: إن مَلَك الموت حينما يوضع الميت ويُغَسّل يقول: **" يا ابن آدم، أين سمعك؟ ما أصمّك! أين ريحك؟ ما أفسدك! أين قوّتك؟ ما أضعفك! ".**

الموت فيه موعظة بالغة، لو أنك رأيت إنساناً ممدداً على خشبةٍ المُغْتَسَل، جثّةٌ هامدة، قبل قليل كان ملء السمع والبصر، أصبح حديثاً، أصبح نعيا على جدران الطرقات بعد أن كان ملء السمع والبصر.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ)

الإنسان تحت ألطاف الله عزّ وجل، من يدري ماذا في بطنه، هؤلاء الذين اكتُشِفَ في بطونهم مرض خبيث هل كانوا يعلمون ذلك من قبل؟ دمٌ لو أنه انفجر في الدماغ لقضى على الإنسان في أربع ثوانٍ، شريان واحد لو انفجر في الدماغ، هذا القلب لو تعطّل بعض دسّاماته تحتاج إلى ثمانمائة ألف ليرة عمليّة بأمريكا، وقد تنجح وقد لا تنجح، هذه الشرايين لو تصلّبت، هذا الضغط لو ارتفع، هتان الكليتان لو تعطّلتا، هاتان الرئتان لو أصيبتا بذات الجَنب، هذا الكبد لو تشمّع، هذه الحركة لو شُلّت، هذا البصر لو ذهب، هذا السمع لو ذهب، هذا العقل لو اختل لأخذوه على القُصير، أقرب الناس إليك يخافون منك، نعمة العقل، نعمة الصحّة..

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ)

وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ الْمَثُلَاتُ

الدهرعبر وأمثال:

أي العبر، كيف أن الله أهلك القرون من قبلهم؟ هذه القصص تحت سمعهم وأبصارهم.. كولومبيا دولة في أمريكا، فيها مدينة في سفح جبلٍ، الجبل مغطّى بالثلوج، الجبل أخضر، المسارح، الفنادق، الشوارع، الحدائق، الحياة بأوجها، انفجر البركان، وذاب الثلج، وقُذِفت هذه المدينة بالحُمم البركانيّة، خمسةٌ وثلاثون ألفاً قُتِلوا فوراً.. أين الإنسان؟ أحياناً طائرة تحترق في السماء، وبسبب خلل بسيط وقد مات جميع ركّابها، ثلاثمائة وخمسون راكبا، خلل بسيط في أجهزتها، نحن تحت رحمة الله..

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ الْمَثُلَاتُ)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ

آية غاية في الرجاء:

قال بعض المفسِّرين: **" هذه أرجى آيةٍ في كتاب الله ".**

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)

ليس القصد أن يحاسبهم، بل القصد أن يرحمهم، لذلك يمهلهم، لو أن القصد أن يحاسبهم لحاسبهم، وقضى عليهم، وأهلكهم، وانتهى الأمر، ولكنّ إمهالهم وحلمه عليهم من أجل أن يرحمهم، فلذلك إذا كان الإنسان في بحبوحة وهو بعصي الله فليرتقب العقاب، إذا كان الله يكرمك وأنت تعصيه فاحذره، لأن الكيل قد طف، جاوزت الحد..

إلى متى أنت باللذّات مشغولُ وأنت عن كل ما قدّمت مسؤولُ

تعصي الإله وأنت تُظْهر حبّه ذاك لعمري في المقال بديــعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعتـه إن المحبّ لمن يحبُّ يطيــع

****

أيا عبدنا ما قرأت كتابنا ؟

أما تستحي منّا ويكفيك ما جرى

أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً

وتنظر ما به جاء وعدنا

إلى متى أنت ؟

عندي لك الصلح وهو بري و عندك السيف و السِنـانُ

ترضى بأن تنقضي الليالي و ما انقضت حربك العوان

تستحي من شيبةٍ تـراها في النار مسجونة تـهانُ

***

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)

المغفرة مقيدة بالتوبة:

هناك علماء قيّدوا هذه الآية فقالوا:

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)

إذا تابوا، وإذا عادوا، وإذا أنابوا، وإذا أقلعوا، وإذا ندموا، وإذا اتصلوا، وإذا بذلوا.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)

إذا أصرُّوا، أي لا تأخذها بفهم ساذج..

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)

((وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً))

[مسلم عن أبي ذر]

بشرط أن تأتيني، أن تعود إلي، أن ترجع إلي، أن تُقبل علي، أن تتوب من ذنبك.

لكن احذر وأكمل الآية: وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

أما إذا أصررت:

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)

ويعاقبك من أجل أن يرحمك، من أجل أن تعود إليه قسراً بعد أن أبيت أن تعود إليه طوعاً.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

السفيه يسأل عن الآيات وهي تحت سمعه وبصره:

يا سبحان الله! الآيات في الأرض وفي السماوات لا تُعَدُّ ولا تحصى..

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

(سورة الذاريات)

أنت آية، خلقك آية، ابنك آية، زوجك آية، طعامك آية، شرابك آية، الطير في السماء آية، السَمَكُ في البحر آية، البحر آية، النهر آية، الجبل آية، الصحراء آية، الغَوْرُ آية، السَهْل آية، الشمس آية، القمر آية، الجراثيم آية من آيات الله، الأمراض..

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدٌ

***

مدرّس ـ مثلاً ـ كتب نظريّة على السبورة، وبرهن عليها بثلاثين برهانا، بعد أن انتهى من إلقاء المحاضرة رفع طالب أصبعه، وقال له: يا أستاذ، ما البرهان على صحّة هذه النظريّة؟ أي برهانٍ هذا ؟ يروى أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه كان يدرّس طلابه في بعض المساجد، والدرس كان درس فقه، والدرس كان عن صلاة الفجر، وكان في رجله مرضٌ، وكان يمدُّها بالإذن من تلاميذه، دخل شيخٌ معمّم طويل القامة، عريض المنكبين، فاستحيى منه أبو حنيفة فرفع رجله، فجلس هذا الشيخ الوقور في مجلس هذا العالِم الجليل، تحدّث عن صلاة الفجر، وعن الفجر الصادق والكاذب، وعن الصلاة في غلس أو في سحر.. وإلخ، بعد أن انتهى الدرس رفع أصبعه هذا العالِم الشيخ المعمم الوقور، وقال له: يا سيدي، كيف نصلي الصبح إذا طلعت الشمس قبل الفجر؟ فقال أبو حنيفة: " عندئذٍ يمدُّ أبو حنيفة رجله.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)

الكون معجزة:

الكون هو المعجزة، وليس خرق آيات الله في الأرض هو المعجزة، الكون هو المعجزة، فأنت أحياناً أمام آلة ضخمة جداً تؤخذ بها فتقول: ما أعظم الذي صنعها! أو تقول: إن كانت هذه الآلة عظيمة شغِّلوها بلا طاقة، هذا كلامٌ فارغ، مع أن هناك مأخذاً للطاقة فعظمتها فيها، فخرق القوانين ليس هو المعجزة، الكون بحدِّ ذاته في حالته الطبيعيّة، في حالته الراهنة هو المعجزة، خلق الإنسان المعجزة، أن

تمرض فتشفى المعجزة كيف لا تمرض، الإنسان عندما يقول: أنا اليوم صحّتي طيّبة، معنى هذا أنه هناك آلاف الأجهزة تعمل بانتظام.

فكر في جسمك لترى عظمة الله:

مرّة رأيت كتابا في مكتبة فيه حوالي ألفَا صفحة، عنوانه بسيط هو: (أمراض الدم)، معنى هذا بالتحليل عندك ثلاثة وعشرون بنداً؛ الشحوم الثلاثيّة، والكولسترول، والبولة... إلخ، وكل مادّة لها نسب معيّنة، حد أدنى، حد أقصى، حد مرضي، حد خَطِر، حد غير خطر، الدم فقط عالَم قائم بذاته.

فالأمراض العصبيّة، أمراض العضلات، أمراض جهاز الهضم، أمراض المعدة، أمراض الاثنى عشر، أمراض البنكرياس.. السكر.. أمراض الكبد، أمراض الجهاز التنفسي، أمراض القلب، وعن القلب قرأت كتاباً شيء يحيّر العقول، دسّاماته، والأذينين، والبطينين، والشريان الأبهر، والتوتر الشرياني، وأسباب التوتر الشرياني، إذا قلت: ما من مرض فأنت المعجزة، على قدر ما هنالك من أجهزة تعمل بانتظام وتنسيق.

إذا رأى أحد حيّة فما الذي يحصل؟ العين تنطبع عليها صورة الأفعى، هذه الصورة تنتقل إلى الدماغ، الدماغ يدرك أن هذه أفعى خطرة، يعطي الدماغ خبرا للغدّة النخاميّة عن طريق وسيطٍ بين الدماغ والغدّة النخاميّة اسمه الجسم الذي تحت السريري.. هذا الجسم وسيط بين الدماغ والغدّة النخاميّة، الغدّة النخاميّة مَلِكة الجهاز الهرموني تعطي أمراً إلى الكظر بأن هناك خطرا فتصرّف، الكظر يصدر أمراً هرمونيّاً بتسريع ضربات القلب أول شيء، فإذا خاف إنسان يصير قلبه يدق مائة وأربعين دقّة من دون أن يشعر، الكظر يصدر أمراً هرمونياً بتضييق لمعة الشرايين، جميع الشرايين في الإنسان حولها أعصابٌ إذا تنبّهت ضيّقت لمعتها، فإذا ضُيقت لمعتها اصفرّ الإنسان، من أجل أن يُوفّر الدم للعضلات، الآن لا تحتاج إلى خد وردي، الآن يريد أن ينجو من هذه الأفعى، فلذلك أول أمر لتضييق لمعة الشرايين يصفر الخائف.

الأمر الثاني تسريع القلب، لأن النبض السريع يحرّك الدم بسرعة في الشرايين.. سيارة إسعاف، وتمشي بسرعة الخمسة والعشرين؟ هذا لا يجوز.. فالقلب ينبض بسرعة، والشرايين تضيق لمعتها، يصدر أمرا هرمونيا ثالثا للرئتين فيزداد خفقان الرئتين كي تتوافقا مع القلب من أجل التصفية، تصدر أمراً رابعاً لتحرير كميّة إضافيّة من السكر في الدم، لو فحصت دم خائف تجد فيه سكراً بنسبٍ مرتفعة، أنت ما عندك علم فقط رأيت أفعى، أو عقربا، أو إنساناً معه سلاح، أو سيارة كادت أن تصطدم بك، تجد القلب دقّ مائة وأربعين دقّة، صارت حركة الرئتين سريعة، اصفرار، الدم فيه سكّر، أنت آية،

وأنت في حالتك الطبيعيَّة آية..

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

المعنى الأول:

أي أن وظيفتك يا محمَّد تنتهي عند التبليغ، وفي بعض التفاسير: الله هو الهادي..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

فهذا يهتدي بمرضٍ عُضال، هذا يهتدي بسجنٍ طويل، هذا يهتدي بالتعذيب، هذا يهتدي بالفقر، هذا يهتدي بالذل، هذا يهتدي بالإكرام، هذا يهتدي بالمُهتدي، هذا يهتدي بالسَمَاع..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

هذه بعض المعاني.

المعنى الثاني:

المعنى الآخر: كل قومٍ لهم من يهديهم وَفْقَ طريقتهم، ووفق مقاييسهم في الحياة، ففي عصر العلم يحتاج الذي يتصدَّى لهداية الناس إلى مزيدٍ من العلم، يحتاج أن يستخدم سلاح العصر، وفي عصر السحر جاء موسى بالسحر، وفي عصر الطِب جاء سيدنا عيسى بالطب، وفي عصر البلاغة جاء النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الكتاب المُعْجِز..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

كل قومٍ لهم هادٍ يناسب قيمَهم وطباعهم ومقاييسهم في الحياة.

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)

اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى

انظر إلى موقع (ما) في هذه الآية لتفهم معناها:

لم يقل الله عزّ وجل: الله يعلم من تحمل، هناك مشكلة يقولون لك: إن العلماء قد توصّلوا إلى معرفة جنس الجنين أذكرٌ هو أم أنثى؟ الله سبحانه وتعالى يقول:

(اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)

لم يقل: مَنْ ذكر أم أنثى بل إنه قال: ما، أي تحت هذا الحرف تنضوي معانٍ كثيرة، هذا المولود ذكرٌ أو أنثى، وسيمٌ أو دميم، ذكيٌّ أو غبي، مليحٌ أو قبيح، مصلحٌ أو مفسد، فهذه أسئلة كثيرة جداً، يشبه أباه أو لا يشبهه، قالوا: في العُرَى الملوّنة.. الكروموزومات.. أوامر بتخليق الإنسان، هذه الأوامر لو كتبت على ورق لضاقت بها أكثر الكتب أو الموسوعات اتساعاً، هناك أوامر دقيقة، تجد طفلاً شعره كثيفٌ في ظهره، هذا أمر، وجهه مستطيل، مربّع، دائري، على شكل كمثرى، على شكل كرة، على شكل صندوق، شعره كثيف، خفيف، أسود، خرنوبي، كَستناوي، أشقر، جَعِد، سَبِط، حاجباه، عيناه، خدُّه، فمه، لسانه، نبرة صوته.

فهناك دقائق دقيقة جداً لا يعلمها إلا الله، الله وحده يعلم ما تحمل كل أنثى، موضوع ذكر أو أنثى موضوع تافه جداً إذا قيس بما تعنيه هذه الآية:

(اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)

وعلى وجه اليقين لا أحد يعلم..

(اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ)

معنى: وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ

الرحم إذا غاضَت أي انقطع منها دم الحيض، أي صار في حمل، أو يزيد هذا الدم بعد الولادة.

(تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ)

كنايةٌ عن الحمل، أو تغيض الأرحام لا تحمل فتكون عقيمة، أو تزداد فتلد التوائم، كلاهما يصحُّ في هذه الآية..

(اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(8)عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

أي أن فلاناً جاء بأولاد ذكور، بأولاد إناث، فلان عقيم، فلان أنجب ولداً واحداً ثم توفي، أنجب ولداً ذكيًّا وولداً أقلّ ذكاءً، ولداً مصلحاً ولداً مفسداً..

(وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(8)عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ

لا يعلم الغيب إلا الله:

لا يعلم الغيب إلا الله، عالِمُ الغيب، ما سيكون، النبي عليه الصلاة والسلام قال الله عنه:

(قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام: من الآية 50)

(وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(188))

(سورة الأعراف)

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

الله هم الكبير المتعالي في العظمة:

متعالٍ في عظمته، مهما تحدّثت عن عظمته فهو أعظم، مهما عرفت من كماله فهو أكمل، مهما عرفت من قدرته فهو أقدر، مهما عرفت من رحمته فهو أرحم، مهما عرفت من لطفه فهو ألطف..

(الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

أي المتعالي، سبحانه وتعالى تعالى عن أن يشبه أحداً من خلقه، ليس كمثله شيء.

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ

الله يعلم العلن والسر وأخفى:

أي إذا كان هناك فكرة أبقيتها في ضميرك أو نطقت بها، أخفيتها أو أعلنتها، أسررتها أو أظهرتها..

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ)

من هو المستخفي بالليل و السارب بالنهار:

أي يتوارى عن الأنظار..

(وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

يمشي في الطريق، هكذا من دون خوف، من دون وجل، أي أن هذا المستخفي في علم الله، وهذا الذي لا يستخفي في علم الله، هذا الذي يُسِرُّ أمراً هو في علم الله، وهذا الذي يفضحه هو في علم الله..

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ)

أي أن علم الله سواء أأخفيت أم أسررت، أعلنت أم أظهرت، صرّحت أم أشرت، سواءٌ بسواء.

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

هذا الإنسان الذي أسرّ القول أو جهر به، أو الذي استخفى بالليل أو ظهر بالنهار..

(لَهُ)

كل إنسان معه ملائكة تتعقب أعماله:

أي أن الله سبحانه وتعالى قَيَّض له، قيّض لهذا الإنسان ملائكة تتعقّب أعماله..

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

أينما ذهب، وأينما جلس، وأينما سافر، أينما حل، وأينما ارتحل، عن يمينه، أم عن شماله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (4- 9) : تفسير الآية 11 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-08-08

بسم الله الرحمن الرحيم

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

(سورة الرعد: الآية 11)

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

المستخفي بالليل والسارب بالنهار له ملائكة تحصي عليه كل شيء:

هذا الإنسان الذي أسرّ القول أو جهر به، أو الذي استخفى بالليل أو ظهر بالنهار.

(لَهُ)

أي أن الله سبحانه وتعالى قيّض له، قيّض لهذا الإنسان ملائكة تتعقّب أعماله..

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

أينما ذهب، وأينما جلس، وأينما سافر، أينما حل، وأينما ارتحل، عن يمينه، عن شماله..

(مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ)

يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ

معنى الحفظ من أمر الله:

هذه لها معنيان، إما أنهم يحفظون عمله، أو أنهم يحفظونه ـ من الحفظ ـ هذا أجله لم ينته، يُحْفَظ من أي حادث، يقول لك: كنت سأموت، يحفظونه إما أنه حفظ العناية، أو حفظ الرَقابة..

(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

هؤلاء الملائكة من أمر الله يحفظونه..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

إنّ اللّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ

نحن جميعاً نُحِبُّ أشياء ونكره أشياء، فإذا أطعنا الله عزّ وجل أعطانا ما نحبُّ وصرف عنّا ما نكره، وإذا عصينا الله عزّ وجل زوى عنّا ما نحب وساق إلينا ما نكره ذلك:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أنّ أوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَفلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[صحيح مسلم: عن " أبي ذر]

فإذا أطعنا الله عزّ وجل ساق لنا ما نحب و صرف عنّا ما نكره، وإذا عصيناه ساق إلينا ما نكره وما أكثر ما نكره، وصرف عنّا ما نحب، وكما جاء في الحديث القدسي:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب المُلُوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسخطة والنِقْمَة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

[ورد في الأثر]

هذه الآية تحل آلاف المشكلات:

(إِنّ اللّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ)

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

(إِنّ اللّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

غير ما بك حتى يغير الله:

الله لا يغيّر حتى تغيّر؛ إذا كنت في بحبوحة وفي سعادة، في وفاق زوجي، في عمل مريح دخله كبير، ولم تغيّر، بقيت مستقيماً على أمره، شاكراً لهذه النِعَم، مجاهداً لنفسك وهواك ؛ الله لا يغيّر من حسنٍ إلى أحسن، وإن كان الإنسان في ضائقة، في مشكلة، في أزمة، فالله سبحانه وتعالى لا يزيح عنه هذه الأزمة حتى يغيّر، حتى يتوب.

الآية لها معنيان متعاكسان: إن الله لا يغيّر حتى تغيّر، لا يغيّر من حَسَن إلى أسوأ حتى تغيّر من طاعة إلى معصية، ولا يغيّر من سيئ إلى حَسَن حتى تغيّر من معصية إلى طاعة، لا يغيّر حتى تغيّر، أنت

الأصل، غيّر يغيّر، لا تغيّر لا يغيّر:

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال: من الآية 19)

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

القضيّة واضحة كالشمس..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

إذا ما غيّروا ما بأنفسهم..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ

لا أحد يضر إلا بإذن الله:

لو أن أهل الأرض اجتمعت على أن يمنعوا عنك شيئاً قدّره الله عليك لا يستطيعون.

فرعون رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على مُلكه، فأمر بقتل أطفال بني إسرائيل كلِهم، أما الذي سوف يقضي على مُلكه ربّاه في قصره..

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

(سورة القصص: الآية 8)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

لأتفه الأسباب تدفع أبهظ الأثمان، لأتفه الأسباب، بغلطة، أحياناً ترى واحداسها فصار في حالةٍ يرثى لها في الطريق، غفل فنام، سيارته، أولاده، زوجته، هذه ميتة، وهذه كسر، وهذه مستشفيات، سهوة خفيفة، لأتفه سبب تدفع أبهظ ثمن..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

يؤتى الحذر من مأمنه:

((إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

" يؤتى الحذر من مأمنه ".

يجعل الله تدميره في تدبيره، يفكِّر فيفكِّر فيفكِّر، ويدبّر ويدبّر ويدبّر فيكون هلاكه في هذا التدبير.. أغنى أغنياء العالَم روتشلد اليهودي عنده مستودع ضخم للذهب.. سبائك الذهب.. كانت الحكومة البريطانيَّة تقترض منه أحياناً، دخل إلى المستودع فأُغْلِقَ الباب وراءه، صاح ولم يسمعه أحد، أمضى أيّاماً ثلاثة في داخله، أوشك على الموت، فجرح أصبعه وكتب على الجدار: " أغنى رجل في العالَم يموت جوعاً "، مات جوعاً.

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

تسمع خبراً أن هذه الطائرة احترقت ومات كل ركّابها، باب الطائرة لم يكن مغلقاً إغلاقاً محكماً، أو الجهاز الفلاني تعطّل..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

أحياناً مزرعة تكون تكلِفتها خمسمائة ألف..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19))

(سورة القلم)

خلال دقائق ينزل صقيع فتحترق كل الثمار..

(فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ)

(سورة البقرة: الآية 266)

فالإنسان..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

هذه الآيات تكفي..

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 12 – 16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-08-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي من سورة الرعد إلى قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا)

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا

الله يعرِّفنا بذاته :

أما كلمة هو فكمثيلاتها ..

(المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

هذا الذي أنزل إليك من ربك، أي هذا القرآن من عند ربك، مَنْ ربك ؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ)

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ)

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ)

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)

لا زال الله سبحانه وتعالى يعرفنا بذاته ، أي أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا، هذا المنهج الذي أنزله الله إلينا هو من عنده من عند خالق السماوات والأرض، من عند رافع السماوات بغير عمد .

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا)

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا

البرق فيه خوف من عقاب وطمعٌفي غيث وماءٍ :

خوفاً من أن يكون صاعقة قاتلة، وطمعاً في أن يكون وراءه سحابٌ ثقيل، مُثْقَلٌ بالأمطار، تخافون الصاعقة أن تميتكم، وتطمعون بالماء أن يحييكم .

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا)

الإنسان في الدنيا بين الطمع والرجاء :

والإنسان في هذه الدنيا يجب أن تكون حالته النفسية مع الله سبحانه وتعالى بين الخوف والطمع، بين الرجاء وبين الحَذَر، بين التفاؤل وبين القلق، التفاؤل المفرط يهلك صاحبه، والتشاؤم الشديد يُثَبِّطُ عزيمة صاحبه، لابدَّ من تفاؤلٍ وتشاؤم، من رجاءٍ وخوف، من قلقٍ وطمأنينة .

الله سبحانه وتعالى جعل البَرْقَ فيه صاعقة قاتلة، وفيه سحابٌ ثقال، مُثْقَلَةٌ بمياه الأمطار .

(يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

بعد البرق ينشأ السحاب المثقل بالماء :

في أعقاب البرق ينشأ السحاب الثقيل بالمياه التي إذا نزلت على الأرض اهتزت وربَت، وأنبتت من كل زوجٍ بهيج، معنى الثقال أي هذا السحاب ثقيلٌ بالمياه، حيثما كانت المياه كانت الحياة، وحيثما قلَّت المياه بدا القلق على الوجوه، بساتين كثيرة في الغوطة مهددة باليَبَس، لأن شح المياه في هذا العام كان إلى حدٍ كبير ..

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

(سورة الذاريات)

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ)

حتى الرعد يسبح بحمد الله :

الرعد شيء، والبرق شيءٌ آخر، احتكاك السحب بعضها ببعض له ظاهرتان؛ الرعد ظاهرة، والبَرق ظاهرة، الرعد صوت البرق، والبرق ضوء الرعد؛ ولأن الرعد صوتٌ، والصوت ينتقل ثلاثمائة

وثلاثين متراً في الثانية الواحدة، بينما الضوء ينتقل ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، لذلك نحن نرى ضَوْءَ البرق قبل أن نسمع صوت الرعد، يؤيد هذا قوله تعالى :

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)

(سورة السجدة : الآية 12)

حينما قدَّم الله سبحانه وتعالى البصر على السمع؛ معنى ذلك أن سرعة الضوء أكبر بكثير من سرعة الصوت .

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

هذا هو الله ربُّ العالمين .

هذا السحاب من صنعه، وهذا البرق من صنعه، وهذا الرعد من صنعه، والله سبحانه وتعالى يتجلَّى باسم القوي فيكون الرعد، كأن آلاف القنابل تتفجَّر في جو السماء، قد يظن الإنسان أن قصفاً شديداً حل بالمدينة حينما يستمع إلى صَوْتِ الرعد، وأما البرق فمن شدة اللَّمعان يخطف الأبصار، البرق ضوء الرعد، والرعد صوت البرق، والصوت والضوء متباينان في السرعة .

معنى تسبيح الرعد بحمد الله :

أما قوله تعالى :

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ)

بعض العلماء قالوا: يسبِّح سامع صوت الرعد بحمده .

وبعضهم قال: الرعد نفسه نَفْسٌ يسبِّحُ بآلاء الله .

وبعضهم قال: إن صوت الرعدِ دليل كمال الخلق؛ فكمال الخلق تسبيحٌ لعظمة الصانع، لو أنك رأيت فاكهةً نضرةً، كبيرة الحجم، زاهية الألوان، طيِّبَة الرائحة، عذبة المذاق، يقول عامة الناس: تسبح الذي خلقها، كيف تسبح؟ أي أن كمال صنعتها كأنه ينطق لك ويقول: سبحان الذي خلقني، فالتسبيح حمله العلماء على معانٍ ثلاثة ..

المعنى الأول :

أن سامع هذا الصوت يسبِّح بحمد الله، إذا أقبلت السحب من الغرب وكانت سوداء دَكْنَاء، وكنا على جفافٍ شديد، وعلى انتظارٍ مديد للأمطار، فلمع البرق وقصف الرعد معظم الناس يسبحون بحمد الله، يا

ربِ لك الحمد، الذي أغثتنا، فتسبيح الرعد أي تسبيح سامع الرعد، سامع هذا الصوت، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

أن لكل شيءٍ خلقه الله سبحانه وتعالى نفسًا، لقوله تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)

(سورة الإسراء : الآية 44)

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا)

(سورة الأحزاب : آية " 72)

معنى ذلك أن الجبل نفس، والأرض نفس، والشمس نفس، والبحار نفس، والهواء نفس، نفوسٌ بثَّها الله سبحانه وتعالى ، لكن أكرمها عليه هو الإنسان ..

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء)

فالمعنى الثاني: أن الرعد نفسه نفسٌ تسبح بحمد ربها، فإذا كان الطير يسبِّح الله، والنمل تحت الأرض يسبِّح بحمد الله، والحوت في البحر يسبِّح بحمد الله، وكل شيءٍ ينطق بالحمد، ويلهج بالتسبيح، فما بال هذا الإنسان الغافل الذي خُلِقَت كل هذه المخلوقات من أجله وسخَّرها الله له؟ ما بالها تسبِّح وهو يجحد؟ ما بالها تسبِّح وهو يكفر؟ ما بالها تسبح وهو يُعْرِض ؟!

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ)

المعنى الثالث :

المعنى الثالث: أن كمال الخلق في حَدِّ ذاته تسبيح، لو وقفت أمام قطعة أثاثٍ متقنةٍ إلى حد الخيال تتأملها، تُحِسُّ أنها تنطق، تنطق بدقة صنعة صانعها، فكمال الخلق تسبيح، وكل شيءٍ يسبح، أو سامع صوت الرعد يسبح .

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ)

التسبيح بين المعنى السلبيوالمعنى الإيجابي :

والتسبيح أيها الإخوة الأكارم له معنيان :

المعنى السلبي :

له معنى سلبي، وهو تنزيه الذات الإلهية عما لا يليق بها، سبحان الله عما يقولون .

(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

(سورة االبقرة)

ما أبعد ذات الله العليَّة عن هذا الوصف الباطل! الله سبحانه وتعالى ليس بحاجةٍ إلى ولد، لم يلد ولم يولد، ليس كمثله شيء، هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، لا يُسْأل عنه أين هو؟ لأنه خالق المكان، ولا يسأل عنه متى كان؟ لأنه خالق الزمان، عَلِمَ ما كان، وعَلِمَ ما يكون، وعَلِمَ ما سيكون، وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ليس كمثله شيء، ليس مُتَبَعِّضاً ولا مُتَجَزِّأً ولا مَعْدوداً، فالحديث عن ذات الله حديثٌ يطول، هذا معنى التسبيح، سَبِّحْه؛ أي أن نزِّهه عما لا يليق به .

المعنى الإيجابي :

المعنى الآخر هو معنى إيجابي، سبَّح الله؛ أي جال في عظمته، فكَّر في علمه، فكر في قدرته، فكر في جماله، من أسماء الله الجميل، يتجلَّى على طائر فيأخذ بالألباب، لا تستطيع أن تصرف النظر عنه لجماله، يتجلَّى باسم القوي فيكون الرعد، يتجلى باسم الواسع فيكون البحر، يتجلى باسم العليم فيكون بعض علم البشر، فأسماء الله سبحانه وتعالى كلها حسنى .

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف : الآية 180)

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء : الآية 110)

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ(12)وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ)

الخوف الخوف درجات :

والخَوف درجات؛ قد يخاف العَبد عقاب سيِّدِهِ، هذه درجة، وقد يخاف العاشق أن تنقطع الصِلَةُ بمعشوقه، وهذا خوفٌ من مستوى أرقى، وقد يخاف المؤمن أن تنقطع صلته بالله عزَّ وجل، رأس الحكمة مخافة الله، الحكمة كأنها جسد أنبل ما فيها رأسها، رأس الحكمة مخافة الله، لذلك الذي يخاف الله هو العاقل، والذي لا يخافه هو الأحمق وهو الغبي، وهل يعقل أن ترى إنساناً حَصَّلَ أعلى الشهادات

وهو يعصي الله؟ نعم، نقول: هذا الإنسان حَصَّلَ شهاداتٍ عُليا ابتغاء الدنيا، ولكن لأنه لم يستقم على أمر الله فإنه موسومٌ بالغباء أو بنوعٍ من أنواع الغباء، لقوله عليه الصلاة والسلام :

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله ، وكفى به جهلاً أن يعجب بنفسه))

[الجامع الصغير عن مسروق مرسلا]

(وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ)

وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ

خطورة الصواعق :

هذه الصاعقة قد سمعت أنها أحياناً تبلغ عشرات ألوف الفولطات، نحن إذا كان شدة التيار مائتين وعشرين فولطاً فهو خطر، مائة وعشرة أسلم، لكن هناك ستة آلاف فولط، وعشرة آلاف فوط، فالصاعقة تكفي أن تجعل الإنسان قطعةً من الفحم في ثانية واحدة، وأحياناً تصيب الصاعقة منزلاً فتحرقُهُ، لذلك يضعون في أسقف المنازل عموداً حديدياً ليأخذ الصاعقة وينقلها إلى باطن الأرض، يضعون في أسفل بعض الشاحنات قطعةً من حديد كي تنقُل الصاعقة إلى الأرض، هذه الصاعقة تيارٌ عالٍ جداً إذا أصاب شيئاً أحرقه عن آخره .

(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ

معنى : شديد المِحال :

معنى المِحال أي المَكر، ومكر الله سبحانه وتعالى غير مكر الإنسان، الإنسان قد يمكر ليوقع الشر، قد يمكر ليقوى على خصمه، إذاً هو ضعيف، قد يَمْكُر ليصل إلى هدفٍ خسيس، ولكن الله سبحانه وتعالى يمكر لصالح الإنسان ..

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

أي أن الله سبحانه وتعالى يعود مكره بالخير على كل الناس، كما أن القاضي إذا أصدر حكماً بالإعدام على إنسان، لا يسمَّى القاضي قاتلاً، وإنما يسمَّى حاكماً، كذلك ولو أن الله سبحانه وتعالى قال في قرآنه

الكريم، في كتابه العزيز .

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

ولكنه لا يجوز أن تشتق من هذا الاسم أو من هذا الفعل اسماً لله سبحانه وتعالى، لا يقال: الله ماكر، لأن مكر الله سبحانه وتعالى من طبيعةٍ وهدفٍ مختلفٍ عن طبيعة مكر الإنسان وهدفه، من طبيعةٍ أخرى، مكر الله أقرب إلى التدبير ..

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

إن الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا، فإذا مكر المشركون أو الكفار بمؤمنٍ؛ الله يمكر له، معنى يمكر له؛ أي يدافع عنه، يُحْبِطُ خططهم، يُنهي مؤامراتهم، يُعيق إرادتهم، لا يوقعها، لا يسمح لها أن تقع، مكر الله سبحانه وتعالى لصالح المؤمن، ولصالح الكافر؛ لصالح المؤمن يحميه من خطة الكافر، ولصالح الكافر يرديه لعله يتوب إلى الله سبحانه وتعالى .

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

خطر في بالي مثل.. لو أن مواطناً رأى على أحد جدران المدينة قراراً يمنع التجوُّل، تحت طائلة إطلاق الرصاص؛ لو أنه وقف أمام هذا البلاغ وقرأه بتمَعُّن، ودرس نوع الخط، ودرس نوع الورق، وبدأ يجادل أهذا التوقيع صحيح أم غير صحيح، مزور، هذا خط مطبعة، خط خطاط، صف حروف، كيف طبع؟ أين طبع؟ متى طبع؟ إلى أن جاءت رصاصة فأردته قتيلاً ..

(وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ)

الجاهل يجادل في الله :

يناقشك في آخرة، لا يوجد آخرة، بعد أيام نعيه على الجدران، يأخذه الله وهو يجادل، يأخذه وهو يرد الحق، يأخذه وهو يشكك في الدين، يأخذه وهو يضل الناس، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

لذلك الإنسان له حدود، ومن تجاوز حدوده وقع في شَرِّ أعماله، رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، ولم يتعدَّ طوره، حدود الإنسان تتضح في آيتين، الأولى قوله تعالى :

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

مهمة الإنسان أن يعبد الله :

تنحصر مهمة الإنسان في طاعة الله سبحانه وتعالى، فإذا أطاع الله سبحانه وتعالى جاءته الخيرات من كل جانب، إذاً عليه أن يشكر المولى على كل ما أولى .

مهمَّتُكَ أن تعرفه، فتعبده، فتشكره، لا تحشر أنفك في شؤونه، فلان كافر أم مؤمن؟ هذا من شأن الله سبحانه وتعالى، لا تزكّوا أنفسكم، ولا تزكوا على الله أحداً .

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

آيةٌ ثانية في المعنى نفسه :

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ)

(سورة البقرة : الآية 134)

أعمالها لها، وأعمالكم لكم، لن ينفعكم عملها، ولن يضُرَّكُم عملها، أما أنتم ما عملكم؟ فلذلك ربنا عزَّ وجل يقول :

(وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

أي اعبده واشكر نِعَمَهُ، هاتان المهمتان التي أمرك الله بهما .

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ)

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ

المعنى الأول : الحق واحد ، والباطل متعدِّد :

الحق واحد لا يتعدد، والحق من الحق سبحانه وتعالى، ولا حق إلا من الحق، الحق من الحق، الحق ما جاء به ربنا سبحانه وتعالى، ما جاء به في كتابه ..

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

(سورة يونس : الآية 32)

بين نقطتين لا يمر إلا مستقيمٌ واحد، المستقيم الثاني يجب أن ينطبق على الأول، المستقيم الثالث يجب أن ينطبق على الأول والثاني، إذا كان الخط مستقيماً، ولكن بين هاتين النقطتين تمرُّ آلاف الخطوط المنحرفة والمنحنية والمنكسرة، لذلك :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام : الآية 153)

معنى ذلك أن الباطل متعدد، الباطل متنوِّع، الباطل نسبي، الانحراف نسبي، أما الحق فواحد، الحق قَطْعِي، الحق له حدٌ لا يزيد ولا ينقص .

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ)

الحق من عنده، وليس من غيره، فأي مذهبٍ في الأرض لا يعتمد منهج الله منطلقاً فهو باطل ..

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(سورة المائدة : الآية 47)

وفي آية أخرى :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(سورة المائدة : الآية 45)

وفي آية أخرى :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المائدة : الآية 44)

لأن الحق هو الحق لا يتبدل ولا يتغير ولا يتعدد .

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ)

هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : لا يستجيب لك إلا الله :

المعنى الثاني: أنك لن تدعو أحداً في الكون ويستجيب لك إلا الله، الدعوة له، الدعاء له وحده، فإذا دَعَوْتَ غيره أصابك الإحباط، إذا دعوت غيره فلن تستفيد شيئاً .

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ)

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف لك من نيته، فتكيده السموات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه، وأرسخت الهوى من تحت قدميه، وما من عبد يطعيني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني))

[من الجامع الصغير : عن " كعب بن مالك]

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ)

أي أن الحق من عنده وحده، والدعاء إليه وحده، والرغبة إليه، والخوف منه، والرجاء له، والمحبَّة له، والإقبال عليه، والسعي له، لذلك قال عليه الصلاة والسلام في دعاءٍ بالغ الإيجاز :

((اللهم أنا بك وإليك))

أي أنا قائمٌ بك وقصدي إليك، أنا بك وإليك .

أما :

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ)

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ

أحياناً هذا الذي تدعوه من دون الله لا يسمعك، وإذا سمعك لا يستجيب لك، وإذا أراد أن يستجيب لك لا يستطيع، على ثلاث مراحل، قبل كل شيء لا يسمعك، فإذا سمعك جدلاً لا يستجيب لك، فإذا أراد أن يستجيب لك لن يستطيع أن يستجيب لك، لأن الله يحولُ بينه وبين ذلك .

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ)

كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ

ضربُ المثل بالماء بلاغة عظيمة :

لو أنني بسطت يدي إلى هذا الكأس من الماء، وطلبت منه أن يأتي إلى فمي ماذا يحدث؟ الماء لا يتحرَّك، لا يستجيب، لكن الله سبحانه وتعالى بهذا المثل البليغ أعطى الماء صفتين، الصفة الأولى أنه لا يسمع، ولا يعقل، ولا يفهم، والصفة الثانية أنه لو سمع وعقل وفهم لا يستطيع أن يأتي إلى عندي من تلقاء ذاته، فهذا الذي تدعوه من دون الله أصَمُّ لا يسمع دعاءك، أبكمُ لا يجيبك، كسيحٌ لا يستجيب لك .

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ)

الفائدة من زيادة الباء :

هذه الباء زائدة زيادة نحويا، أما في البلاغة فتفيد التأكيد، أي: وما هو بالِغُهُ، فإذا قلنا :

(وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ)

فزيادة هذه الباء لتأكيد عدم نسبة هذا المبتدأ إلى ذلك الخبر .

(وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

الدنيا سنوات معدودة فاغتنمها :

هناك مثل أريد أن أطرحه أمامكم.. لو أن إنساناً بلغ به العطش أنَّه أوشك على الموت، وقد قدَّر له الأطباء ساعةً من الزمن إن لم يشرب الماء مات من فوره، وأمامه سبعة طُرُق، ينتهي كل طريقٍ بمكان، الماء في أحد هذه الأمكنة، فاختيار الطريق أليس اختياراً مصيرياً؟ لو سار في طريق ليس فيه ماء لأمضى الساعة في الطريق وفي نهاية الطريق مات عطشاً، ما دام هناك ساعة من حياته إذا صرفها في طريقٍ لا ماء فيها هَلَك، إذاً: مثل هذا الإنسان الذي يوشك أن يموت عطشاً، والذي أمامه سبعة طرق، والماء في مكانٍ في أحدها فقط، كيف يختار أحد هذه الطُرُق؟ كله آذان كما يقولون، لكن الحياة الدنيا هي أخطر من هذه الحالة ..

الدنيا سنواتٌ معدودة، إما أن تمضيها في طاعة الله فتسعد إلى الأبد، وإما أن تستهلكها استهلاكاً رخيصاً فيمضي هذا العُمُر، وتنتهي الحياة، ويجد الإنسان أن جهنم مأواه خالداً فيها أبداً، بحريقها، وعذابها، وشدَّتها لا يموت فيها ولا يحيا، لا يُفَتَّرُ عنهم العذاب، فلذلك القضية خطيرة جداً، فالقضية أخطر من أن أحدكم جاء إلى هذا المسجد، واستمع إلى درس ممتع وانتهى الأمر، هذا الشيء الأمر أخطر بكثير، الأمر مصيري، أي إما أن تسعد إلى الأبد، متى؟ منذ هذه اللحظة وإلى الأبد، وإما أن يصم الإنسان أذنيه فيشقى في حياته الدنيا وإلى الأبد .

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

(سورة الانفطار)

الآية مطلقة، في الدنيا في نعيم، وفي الآخرة في نعيم ..

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

(سورة الإنفطار)

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ

السجود هنا له معنيان :

المعنى الأول للسجود :

كل مخلوقٍ يسجد لله عزَّ وجل، معنى يسجد؛ أنه محتاجٌ لفضل الله، محتاجٌ لإمداد الله .

فالنبات يسجد لله بمعنى أنك لو قطعت عنه الماء يَبس، والحيوان يسجد لله، بمعنى لو أن الله سبحانه وتعالى قطع عنه الإمداد يموت، والجَبَلُ يسجد لله سبحانه وتعالى بمعنى أن الله لو لم يشأ لذرَّاته أن تكون جبلاً لما كانت جبلاً، فهو قائمٌ بالله، فلو أن الله سبحانه وتعالى قطع عنه إمداده ما بقي الجبلُ جبلاً، ولا الحديد حديداً، ولا الخشب خشباً، ولا الماء ماءً .

إذاً: الله سبحانه وتعالى يسجد له كل شيء، سجود الافتقار، سجود الحاجة، فالكافر بهذا المعنى يسجد، لو أنه ضاق نَفَسَهُ لصاح مذعوراً، لو أنه مُنِعَ عن الطعام والشراب لأكل القمامة، لو أنه منع عن الماء لشرب بوله، هذا ما يحدث، فالإنسان مفتقر، الله موجود، والإنسان موجود، كيف يفترق الإنسان في الوجود مع الله سبحانه وتعالى؟ فرقٌ كبير، وجود الله ذاتي، لكن وجود الإنسان فيه افتقارٌ إلى الله سبحانه وتعالى.. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.. فنحن مفتقرون .

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ)

(سورة الإخلاص)

معنى الصمد أنه ذاتيُّ الوجود، ليس وجوده مفتقراً إلى غيره .

إذاً :

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذا سجود الحاجة، سجود الافتقار، لكن المؤمن يسجد لله طوعاً، هذا سجود العبادة، أي أنك إذا وقفت في الصلاة، وقرأت الفاتحة وسورة، وركعت، وبعدها سجدت فهذا سجود العبادة، هذا السجود الطَوْعِي، ولكن حاجتك إلى الماء، وإلى الهواء، وإلى الطعام، هذا سجود الإكراه، كل مخلوقٍ يسجد لله سبحانه وتعالى مُكرهاً، لكن الإنسان المؤمن يسجد له طوعاً، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني للسجود :

المعنى الآخر قالوا : سجود المنافق كرهاً ، والمؤمن يسجد طوعاً. وقال بعضهم : سجود الكافر كرهاً، والمؤمن طوعاً، على كلٍ السجود بمعناه الواسع الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى، إما أن تعرف أنك فقير، فتعلن عن فقرك لله عزَّ وجل، وهذا سجود العبادة، وإما أن تجهل هذا الفقر، فحينما تُحِسُّ به، وأنت في الشدة فهذا سجود الإكراه .

وهناك علماء قالوا: إن الكافرين إذا ألمَّت بهم الشدة دعوا الله مخلصين، إذا كان في طائرة، وقال ربان الطائرة: إننا في خطر، ضعوا أحزمة الأمان، ترى الوجوه قد اصفرت، والألسُنَ قد لَهَجَت بالدعاء، وقد يكون الدَّاعي مُلْحِداً، وقد يكون الذي يرجو ربَّه كافراً، يقول: يا رب، حتى إذا أدرك الخطر قال: يا رب!! هو في الأرض لا يعرف الله سبحانه وتعالى، فإذا ركب البحر، أو ركب مثنَ الجو أحس بالخطر!! هذا المعنى الرابع، سجود الكافر عند الضرورة سجود إكراه، ولكن المؤمن يعرف الله في الرخاء قبل أن يعرفه في الشدة، من عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة .

(وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ

أي أنك تسجد أنت وظلك، والظل يسجد معك، حتى الظل شيء وهمي، فالظل ليس شيئاً لكن حجب الضوء يعد ظلاً، حتى الظل يسجد معك .

(بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

أي صباحاً ومساءً، كناية عن الديمومة والأبدية .

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ

سؤال وجواب :

الله سبحانه وتعالى يسأل البشر :

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

بعضهم قال :

(قُلْ اللَّهُ)

أي أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيَّهُ عليه الصلاة والسلام أن يجيب هذه الإجابة، أي إن هذا السؤال، هذا جوابه، وبعضهم قال: إن هذه الآية تعني أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما توجَّه بالسؤال لكفار قريش :

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

قالوا: الله، كيف تقولون: الله، وتتخذون من دونه أولياء؟! هذا هو التناقض، فأبشع صفةٍ في العقل البشري هو التناقض، كيف تقول: أنا مسلم وتعصي الله؟! كيف تقول: هناك آخرة ولا تعمل لها؟! كيف تقول: هناك موت ولا تخاف الموت ولا تستعد له؟! فهذه المسافة الكبيرة بين ما تقول وبين ما تفعل، بينما تعتقد وبين ما تسلك، فهذه مسافةٌ تجعل من الإنسان إنساناً متناقضاً، والتناقض صفةٌ ليست مقبولةً في الإنسان، الانسجام بين المعتقد والسلوك، بين المُنْطَلَق والهدف، بين القيم وبين المطالب انسجام واجب، فلذلك :

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

معنى الربوبية :

معنى الرب؛ المُمِد، مَن يمد السماء بهذه الكواكب؟ مَن أعطى الشمس هذه القدرة؟ لا زالت متَّقدة منذ خمسة آلاف مليون سنة على تقدير بعض العلماء، ويتوقع العلماء أنه لخمسة آلاف مليون سنة قادمة تبقى متألّقة، مَن أمدها بهذه الحرارة؟ من أمد الكواكب السيَّارة بهذه القدرة على الحركة؟ من خلق الهواء؟ من جعله متوازناً؟ من أمَدَّنا بهذه الحيوانات نأكل منها، نستخدم جلودها، أوبارها، أصوافها، ألبانها، أحشاءها، لحمها، من يمد؟ من أمدنا بهذه الأسماك؟ من جعل البحر ملحاً أجاجاً؟ وجعل الأنهار عذباً فراتاً؟ من؟ الله سبحانه وتعالى :

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

من خلق الطير؟ من خلق الحيتان في البحر؟ من خلق الجبال؟ من خلق الشمس والقمر؟ من أمد الأرض بالحركة؟ والشمس بالحرارة؟ والإنسان بالحياة، والنبات بالنمو، والحيوان بالحركة ؟

(قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

هؤلاء لا يملكون النفع والضر لأنفسهم فكيف يملكونه لغيرهم؟

يا لله لبلاغة القرآن! لم يقل الله عزَّ وجل: لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ..

(لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ)

إن كانوا لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فمن باب أولى أنهم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرا، هذا الذي تعبده من دون الله لا يملك أن يعيش ساعة، لو توقَّفت إحدى كليتيه لصار في حالةٍ يرثى لها، لو تجمَّدت نقطة دمٍ في شرايين مخه لأصيب بالشلل، أو العمى، أو الصمم، أو اختل عقله، أو ضعفت ذاكرته .

توفي صديق ـ رحمه الله ـ له معمل، خرج من معمله بسيَّارته متوجِّهاً إلى بيته، ضاع عن بيته، بقي ساعتين يبحث عن بيته، هذا أدق مرض في الذاكرة، أصاب صديق جزءاً من الذاكرة، يعرف بيت ابنه، زار ابنه، أما بيته فما عرفه، ذهب إلى ابنه، وقال له: يا بني أين بيتي؟ بعد أشهر توفي ..

(لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

لا تزال أمراض مستعصية على معرفة السبب.. الكليتان تتوقفان فجأةً عن العمل تحت اسم: هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، لماذا؟ لا نعرف.. نقي العظام يتوقف فجأةً عن صنع كريات الدم الحمراء، ينتهي الإنسان، لماذا؟ لا نعرف، الخلايا تنمو نمواً عشوائياً في أي مكان في الجسم، في الدم، في العظام، في الأحشاء، في اللسان، في الحَنْجَرَة، في أي مكان، لِمَ؟ لا نعرف، متى؟ لا نعرف، ما السبب؟ لا نعرف، فهؤلاء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً كيف نعبدهم من دون الله؟

أحد الأمراء قيل أنه أراد أن يوقع ببعض النجَّارين، فأمره أن يأتِ بخمسين كيس من النشارة خلال يومٍ واحد، وهذا شيء مستحيل فإن لم يأت يقتله، عرف أنه مَيِّتٌ لا محالة، فتوجَّه إلى البيت، وأوصى، وودع أولاده، وهو ينتظر أن يأتوا به ليقتلوه، لاستحالة أن يأتي بهذا العدد الكبير، في الصباح الباكر طرقوا بابه، قيل له: تعال، مستعد، لكنهم قالوا: تعال اصنع تابوتاً لهذا الأمير لقد مات!! هذا الذي تخافه، أو هذا الذي ترجوه، أو هذا الذي تعمل له، أو هذا الذي تُرضيه، أو هذا الذي تسعى إليه، أو هذا الذي تعلّق كل الآمال عليه، هذا إنسان لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، ولا حياةً ولا نشورا، ولا رزقاً ولا أي شيء .

(قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)

كيف تتخذون مثل هؤلاء أولياء؟!

أحياناً الإنسان يَتَّكِئُ على والده، يكون والده ميسور الحال وله مكانة اجتماعية كبيرة، فيتكئ على والده، بين لمحة عينٍ، في لمح البصر يصبح أبوه في عداد الموتى، أحياناً يتكئ على قريبٍ له في مركز مهم، يموت هذا القريب، فأي إنسانٍ تتخذه من دون الله، أحياناً الإنسان يعتمد على زوجته اعتماداً كبيراً، يصيبها مرضٌ عضال، قد يعتمد على ابنه، فيسافر ولا يعود، إلى أن صار في هذه السِن بذل الغالي والرخيص، فإذا صار في بلدٍ أجنبي، تجنَّس بجنسيةٍ أجنبية، وتزوَّج هناك ولم يعُد، خَيَّبَ ظن أبيه،

فلذلك :

(قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

لا تطع أحدا في معصية الله :

أحدهم عليه زكاة ماله، منعته زوجته، حملته على أن لا يدفع زكاة ماله، أقنعته، أولاده صغار، أولاده بحاجة ماسة، وهو يملك النصاب، ما الذي حدث؟ وهو يقود سيارته أرتكب حادثاً دفع لإصلاح السيارة المبلغ الذي كان سيدفعه زكاة ماله بالضبط، بالتمام والكمال، هل مَلَكَت زوجته أن تمنعه من هذا الحادث؟ لا، لذلك حينما طَلَبَتْ زوجة أحد أصحاب رسول الله شيئاً لا يرضي الله، قال: " اعلمي يا فلانة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلَّت إحداهُن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أضحي بهن من أجلكِ " .

سيدنا سعد قالت له أمه: " لا آكل الطعام حتى تكفر بمحمد "، فقال هذا الصحابي الجليل: " يا أماه لو أن لكِ مائة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد، فكلي إذا شئت أو لا تأكلي "، لكنها أكلت بعد ذلك .

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُأَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّور

لا يستوي المؤمن وغير المؤمن :

هل الأعمى والبصير يستويان؟! المؤمن بصير، والكافر أعمى، اعمل موازنة في حياتنا بين البصير وبين الأعمى، هل يتمتَّع الأعمى بلون الأزهار، هل يعرف جمال الربيع؟ هل يعرف جمال زُرْقَة السماء؟ زرقة البحر؟ خضرة الأرض؟ هل يعرف جمال الوجه الصبيح؟ هل يرى طريقه؟ هل يرى ألوان الطعام وقد ازَّيَنَت؟ لا يرى شيئاً، هل يعرف أن هذه السجادة ثمينة؟ منظرها غائبٌ عنه .

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

المؤمن بصير، والكافر أعمى .

(أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ)

الكافر في ظلمات بعضها فوق بعضها إذا أخرج يده لم يكد يراها، لا يرى شيئاً .

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة : الآية 257)

المؤمن بعد أن عرف الله، وعرف كتابه يسير على هدى، ولكن الكافر كالناقة العشواء تسير في هذا الطريق فإذا هو مسدود، من هذا الطريق فإذا فيه هاوية، من مصيبةٍ إلى آخر، من إحباطٍ إلى آخر، من مشكلةٍ إلى مشكلة، من ورطةٍ إلى ورطة، من شقاءٍ إلى شقاء، يطلّق زوجته، ويضيِّع أولاده، ويرتكب مخالفةً في عمله، يُطْرَد من وظيفته، تحيقُ به المصائب، تحيط به المِحَن .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ)

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ

سخرية القرآن من المشرك :

هذا من باب السُخْرِيَة بالكافر، هل لآلهةٍ أخرى خلقٌ كخلقي، وأنت في حيرة من أمرك؟ لو أن هناك آلهة ولهم نجوم خاصة بهم، ولهم كواكب خاصَّة بهم؟ لهم أنواع من النباتات هم خلقوها، أنواع من الحيوانات هم خلقوها تقع في حيرة، أخي والله احترت، من أعبد؟ هذا خَلْقُ من؟ أي إلهٍ خلقه؟ لو أن هذا وقع معك بعض الحقِّ في حيرتك، ولكن للكون خالقاً واحداً، إلهاً واحداً، رباً واحداً، منهجاً واحداً، نبياً واحداً، فهو كل شيء، والذين تعبدونهم من دون الله ليسوا شيئاً إطلاقاً، الله كل شيء وما سواه لا شيء .

أحياناً الإنسان يحتار.. ثلاثة شركاء اختلفوا، هذا الثالث يحتار هذا أم هذا؟ هذا أقوى، هذا المحل باسمه، هذا مليء أكثر، هذا ثري، هذا أنْعَم، فتجده يحتار، هذا شيء وهذا شيء، لكن الله سبحانه وتعالى كل شيء وما سواه لا شيء، لو أن هناك آلهة خلقوا كخلقه، تشابه الخَلْقُ عليهم، فهناك ما يبرر حيرتهم.

(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

أتمنَّى والله أن أنقل إليكم هذه الحقيقة، هذا الكون، هذه الأرض بحار ويابسة، اليابسة خمس قارات،

القارات فيها دول، فيها بيوت، فيها معامل، فيها مراكز قوى، فيها مشاريع، إذا قلت لكم: ليس في الكون إلا الله، وكل ما سوى الله سبحانه وتعالى يأتمر بأمر الله، بيد الله، لا يتحرَّك إلا بأمره، فمن الغباء والحُمْق، والسخف، أن تتجه لغير الله، يضيعُ وقتك، ويتلف عمرك الثمين، وفي النهاية تأتي يوم القيامة صِفْرَ اليدين، ليس إلا الله، إن عرفته عرفت كل شيء، وإن فاتك فاتك كل شيء، أي شيءٍ يدنيك من الله فهو حق، وأي شيءٍ يبعدك عنه فهو باطل .

أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

بقيت آيةٌ واحد أُرْجِئ شرحها لدرسٍ قادم، ولكن سأقرأها لكم :

(أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)

لا فائدة من الزبد :

يعني على هذا السيل زبدٌ يطفو، ويعلو، وينمو، ويكبر حتى أنك تراه شيئاً كبيراً، وقد لا ترى الماء ..

(فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)

مثل آخر :

(وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ)

العاقل يختار الذهب على الزبد :

أي الذهب، والفضة، والحرير، يؤخذ فلزات، توضع هذه الفلزات في أفران عالية الحرارة فتصهر، فسائل الحديد أو الذهب أو الفضة يعلو هذه السوائل، وما أكثرها تعلو، تطغى، تكبر، تنمو، حتى تحجب الناظر عن الحديد أو الذهب أو الفضة، قال :

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً)

الباطل يذهب ويبقى الحق شامخا :

في السيل الزبد يذهب جفاءً، وأما الماء يمكُث في الأرض فينبت الزرع، وهذا المعدن الثمين الذهب، يصبُّ في قوالب، أو في سبائك، وأما هذه الشوائب فتلقى في قارعة الطريق لا يلتفت إليها ..

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

فالماء الذي ينساب في الأودية من دون صوت، من دون ضجيج، من دون أن تراه، ويتغلغل في باطن التربة، فتَخْضَر الأرض، وينمو العشب، وتورق الأشجار، وتنعقد الثمار، وأما هذا الزَبَد الذي على السيل يُلقى، لا يلتفت إليه، وكذلك سبيكة الذهب توضع في الصدور، توضع في الأماكن الحساسة، توضع في الخزائن، وأما شوائب هذا المعدن والأخلاط، والتراب وما خالطه هذا يلقى في الأرض .

القصد من هذا المثل :

ماذا قصد ربنا سبحانه وتعالى بالماء؟ وماذا قصد بالذهب والفضة والحديد؟ وماذا قصد بهذا الزَبَد إن كان على الماء أو على المعادن الثمينة؟ الله عزَّ وجل لم يبيِّن ما الذي يعنيه بالماء والمعادن الثمينة، ولا الذي يعنيه بالزبد، لكن شيء ثمين، نفيس، ينفع الإنسان، يبقى في الأرض، يمكُث إلى أمدٍ طويل . وشيءٌ آخر، يعلو، ويعظم، وينمو، ويطغى، ولكنه لا قيمة له، لا شأن له، لا يلتفت إليه، لا أحد يعبأ به، يُلقى في مكانٍ مهمل، لا أحد يأخذه، ما هذا الذي يبقى في الأرض، وينفع الناس وهو ثمين من دون ضجيج، وهذا الذي يصخب ويمقته الناس، ويلقونه خارج بيوتهم؟ هذا نجيب عنه في الدرس القادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 17 – 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-08-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... وصلنا في الدرس الماضي في سورة الرعد إلى قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(16)أَنزَلَ)

الواحد القهَّار هو الذي ..

(أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا)

أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا

كلُّ شيء في الكون بقدر وميزان :

الأودية هي السيول ، والأودية مَجْرَى السيول ، ربنا سبحانه وتعالى حكيمٌ عليم ، الأمطار بقَدَر ، والأنهار بقدر ، والينابيع بقدر ..

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر)

ما من شيءٍ في الأرض زاد عن حدِّه إلا انقلب إلى ضدِّه؛ بُعْدُ الأرض عن الشمس، بُعْدُ الأرض عن القمر، بُعْدُ الشمس عن بقيَّة المجرَّات، نِسَبُ الهواء، طبيعة الماء، عتبة الحواس، نِسَبُ الأغذية في الفواكه والثمار، ما من شيءٍ إلا والله سبحانه وتعالى يخلقه بقدر ..

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر)

فهذه الأمطار تنزل من السماء بِقَدْرِ الأودية التي تسيل فيها ..

(أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

هذا الماء من الله :

مَنْ فاعل أنزل؟ الواحد القهَّار، أنت كمؤمن حينما ترى المطرَ تنهمر كيف تفهم المطر؟ أن هناك منخفضاً جوياً متمركزاً فوق قبرص؟ توجَّه نحو الشرق الأدنى؟ أم ترى أن الله سبحانه وتعالى أنزل من السماء ماءً؟ لا يتعارض التفسير العلمي والتفسير الديني للظواهر الطبيعيَّة، لا يتعارضان، ولكنَّهما يتكاملان، إذا فَهِمْتَ أن المطر بفعل المنخفضات الجويَّة فهذا شركٌ بالله عزَّ وجل، أما إذا رأيت أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل المطر عن طريق هذه الأسباب، وهو مُسَبِّب الأسباب فهذا هو التوحيد، أن ترى أن الله سبحانه وتعالى أنزل، الواحد القهَّار أنزل من السماء ماءً، ماءً طهورا .

هذه هي خصائص الماء :

الماء لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة له، سريع التبخُّر، سريع الذوبان، بمعنى أن أي شيءٍ يوضع فيه يذوب عدا بعض العناصر، أي أن قابليَّته لذوبان المواد فيه، هذه كلُّها خصائص لو ألغيت واحدةً منها، لو أن للماء طعماً لأصبحت جميع المأكولات بهذا الطعم، لكرهت الماء وكرهت كل شيء، لو أن للماء رائحةً لما احتملت الماء، لو أن له لوناً لأصبح كل شيءٍ بهذا اللون لأن الماء داخلٌ في كل شيء..

(وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأنبياء)

ما دام الماء أحمر اللون وهو داخلٌ في تركيب الفواكه كلِّها، إذاً جميع الفواكه ترونها حمراء اللون، لو أن للماء رائحةً وهو داخلٌ في جميع المواد الحيويَّة لرأيت هذه الرائحة مشتركة، لكرهت الماء، لو أن له طعماً، لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة له .

لو أن الماء يتبخَّر بدرجة مائة، إذا نظَّفت البيت بالماء فإن هذا البيت لا يجفُّ أبداً إلا إذا سَلَّطت عليه ناراً، لكنَّ الماء يتبخَّر بدرجة أربع عشرة فقط، سريع التبخُّر، سريع الانسياب، يدخل الماء في أدقِّ المَسام، لو لم يكن كذلك أي لو أنه لزج كالقطر مثلاً كيف ننظِّف به؟ كيف يكون هذا الماءُ ماءً طهوراً؟ مستحيل، يجب أن تنظِّف الأشياء من الماء عندئذٍ .

(أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

بهذه الخواص، لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، سريع التبخُّر، قابليَّته لذوبان العناصر فيه، انسيابه في أدَقِّ المسامات، هذه كلُّه من خواص الماء ..

(أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)

فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

ما هو الزبد ؟

أي على وجه السيل زبدٌ، حشائش، أشياء كثيرة تعلو، وتكبر حتى تحجب عن الناظر منظر الماء، قال عليه الصلاة والسلام :

((يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أبو داود عن ثوبان]

فهذا الشيء الذي يعلو سطح السيل هو الزبد، أو هو الغثاء، في هذه الآية سمَّاه الله سبحانه وتعالى :

(زَبَدًا رَابِيًا)

يعني عالياً، نامياً، كثيراً، كبيراً قد يحجُب عنك منظر الماء، وسمَّاه النبي عليه الصلاة السلام :

((غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ))

لا قيمة له، لا وزن له، لا ثمن له، لا ينفع الناس، لا يستخدمه الناس، لا يعبأ به الناس، لا يُعْنَوْنَ به..

(فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ)

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ

أهمية تخليص الذهب والحديد من الشوائب :

أي فلزات الذهب وفلزات الفضَّة إذا وُضِعَت في الأفران العالية من أجل أن تتميَّز الشوائب عن الذهب الخالص، وكذلك ابتغاء حليةٍ أي الذهب والفضَّة ..

(أَوْ مَتَاعٍ)

أي الحديد، أي أن هذه المعادن لو أن الله سبحانه وتعالى جعلها على شكل سبائك صافية، لو أن جبلاً من الحديد تصوَّر أنه يستحيل استخدام هذا الحديد، لكنَّ الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل الحديد على شكل فلزات مع التُراب، تحفر التراب، وتنقل التراب، تضع التراب في الأفران العالية، ينصهر الحديد، يرسو في قعر الفرن، ويبقى الزبد في الأعلى، بهذه الطريقة يمكن استخدام هذه المعادن النافعة

التي أوجدها الله على شكل فِلزات مختلطة بالتراب ..

(وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ)

لو نظرت إلى الفرن العالي لرأيت الشوائب، والتراب، والأجسام الغريبة التي لا علاقة لها بالحديد تعلو، وقد تنتفخ، وقد تربو حتى لتحجب عنك منظر الحديد نفسه، أو منظر الذهب نفسه، أو منظر الفضَّة نفسها ..

(وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ)

زبد السيل وزبد المعادن الثمينة ..

(كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ)

مضرب المثل :

الحقُّ كالماء، الحقُّ كالذهب، الحقُّ كالفضَّة، الحقُّ كالحديد، والباطل كالزبد الذي يعلو الماء، وكالزبد الذي يعلو الحديد والفضَّة والذهب ..

(كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً)

يذهب الزبد ويبقى المعدن :

يُلْقَى، يزهد الناس فيه، لا ينتبهون له، لا يُباع ولا يُشترى، لا قيمة له، لا ثمن له ..

(وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)

يبقى الماء الذي يُنْبِتُ النبات، يبقى الحديد الذي فيه منافع للناس، يبقى الذهب كوسيلةٍ لتقييم المواد، أي يبقى الذهب والفضَّة نقدان تُقَيَّمُ بهما المواد، ولحكمةٍ بالغة الله سبحانه وتعالى جعل الحديد كثيراً، وجعل الذهب والفضَّة قليلاً! فلو عُكِسَتْ الآية لاختلَّ الأمر، هذا الذي يُستخدم كنقدٍ يجب أن يكون قليلاً، ولو أنه كان كثيراً لما كان صالحاً أن يُستخدم نقداً أو حليةً، له صفاتٌ عالية .

أما الحديد فلأنَّ استعماله كثير يدخل في كل شيءٍ إذاً كان كثيراً، والحديد يصدأ، وصدأه نعمةٌ كبرى، لأن الحديد لولا أنه يصدأ لما عشنا نحن، الحديد يدخل في تركيبنا، يدخل في تركيب الكُريات الحمراء في دمنا، كيف يدخل؟ أملاح الحديد، لولا أنه يتفاعل مع الأكسجين لما كان للحديد أي فائدة لجسم الإنسان، الحديد داخلٌ في مجموعةٌ كبيرة من المواد الغذائيَّة، فالعَدَسُ غنيٌّ بالحديد، التفَّاح والسفرجل غنيَّان بالحديد والدليل: أنك لو قطعت تفَّاحةً وعرَّضتها للهواء تفاعل أكسجين الهواء مع الحديد في التفَّاحة فاسودَّت، اسودادها واسوداد السفرجل واسوداد أي فاكهةٍ فيها حديد دليل وجود الحديد، وكذلك

بعض الخضراوات، إذاً تأكسده نعمةٌ كبرى من نعم الله سبحانه وتعالى .

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً)

كذلك يذهب الباطل ويبقى الحق شامخا :

أي أن الباطل له جولةٌ ثمَّ يضمَحِل، الباطل موقَت، الباطل طارئ، الباطل عارض، الباطل يأتي ويذهب، لكنَّ الحق مستقر ومستمر، الحقُّ يأخذ صفة الديمومة، الحق يأخذ صفة الاستمرار، الحق لا يتبدَّل، ولا يتغيَّر، ولا يقبل التعديل، ولا الحذف، ولا الإضافة، ولا التبديل، من علامات الحق أنه يَحِقُّ أي؛ يستقر .

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

هنيئاً لمن كان مع الحق، والويل لمن كان مع الباطل، لأنك إذا ربطت نفسك بالحق فالحقُّ أبديٌّ سرمدي، وإذا ربطت نفسك بالباطل فالباطل موقَّتٌ زائل ..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

من صفاته الأساسية المُلازمة له التي إذا فُقدت أُلغي الباطل أنه سريع الزُهوق، سريع الزوال، وشيك التحوُّل، سرعان ما ينكشف خلله، سرعان ما ينكشف خَطَلُهُ .

آيةٌ ثانية :

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى)

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى

يا سعادة من آمن لله :

يا الله، الذي استجاب لله، سارع إلى تطبيق أمره، سارع إلى تنفيذ شرعه، الذي قرأ القرآن فعمل به، الذي سمع الحق فوعاه، الذي التزم الحق، الذي سمع مُنادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمن، هؤلاء الذين استجابوا، دعاهم الله فاستجابوا، دعاهم إلى ما ينفعهم فاستجابوا، دعاهم إلى ما يسعدهم فاستجابوا..

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى)

ما هي الحسنى ؟

ما تعريف الحُسنى؟ قال بعض المفسِّرين: " خير الدنيا والآخرة، السعادة في الدنيا والآخرة " .

الحسنى هكذا على إطلاقها، الحسنى في صحَّتك، الحسنى في بيتك، الحسنى في عملك، الحسنى في نفسيَّتك؛ طمأنينة، واستقرار، وثقة، وتفاؤل، الحسنى في دخلك، الحسنى في سمعتك، الحسنى في كرامتك، الحسنى في عزَّتك ..

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى)

والحُسنى في الدنيا قبل الآخرة، وعلامة صدق إيمانك، دقَّة استقامتك، ومن نتائج استقامتك سعادتك في دنياك ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدًّا)

(سورة مريم)

هكذا ..

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة : من الآية 51)

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : من الآية 47)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

من السعادةِ الطمأنينةُ وعدمُ الخوف :

هذه الآيات ومدلولاتها إذا آمنت بها فهي في حدِّ ذاتها صحَّة، صحَّةٌ لجسدك لأن أحدث البحوث الطبيَّة أن معظم أمراض القلب، وأمراض الشرايين، وأمراض الكليتين، وأمراض الجهاز الهضمي، وأمراض الجهاز العصبي، معظم هذه الأمراض سببها نفسي، القلق، الخوف، الهَم، الحَزَن، التشتُّت، التبعثر، الخوف ..

" أنت من خوف الفقر في فقر، أنت من خوف المرض في مرض، توقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها "..

هذا الخوف المدمِّر الذي دمَّر حياة إنسان القرن العشرين، هذا القلق المدمِّر علاجه الإيمان بالله عزَّ وجل، تستقر، الإيمان بالله بحدِّ ذاته صحَّة.. قال لي طبيبٌ في هذا الأسبوع: إن ضغط الدم يجب أن يسمَّى ضغط الهم لا ضغط الدم.. ارتفاع ضغط الدم يعني على رأي الأطبَّاء أن عمر الإنسان يتناقص، لابدَّ من استعمال أدويةٍ بشكلٍ مستمر، أما أحدث الكشوف فإن الاسترخاء والراحة النفسيَّة، والثقة والتفاؤل هذه الحالات النفسيَّة كافيةٌ وحدها أن تعيد ضغط الدم إلى مستواه الطبيعي، وأن تعيد ضربات القلب السريعة إلى وضعها المُعتدل .

الإيمان بالله صحة ، والشرك عذاب :

من السعيد

أيها الإخوة الأكارم... الإيمان بالله صحَّة، صحَّةٌ لهذا الجسم لأن ضغط الهموم، ضغط المُقْلِقَات، الخوف، الشرك بالله، الرغبة في إرضاء الناس كلِّهم، هذا بحدِّ ذاته يسبِّب قلقاً، وحزناً، وهمًّا يضغط على الأجهزة فيصيبها بالعطب والعطل، لذلك الزُهد راحة، والتوكُّل راحة، والاستسلام لله راحة، والثقة برضاء الله راحة، والراحة صحَّة، فلو أن الإنسان آمن إيماناً صحيحاً لَصَحَّ جسده ..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

والعذاب سببٌ لمجموعةٍ كبيرةٍ من الأمراض الوبيلة .

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى)

يكفي أن تؤمن أن لك عند الله أجلاً لا ينقُص ولا يزيد، هذا الإيمان يَهَبُكَ راحةً ما بعدها راحة، لي عند الله أجل لن يتقدَّم ثانيةً واحدة، ولن يتأخَّر ثانيةً واحدة .

الإمام مالك رأى في المنام ملك الموت فقال: " يا ملك الموت كم بقي لي في حياتي؟ " فقال ملك الموت: " وأشار له بهكذا.. أي خمسة.. "، فلمَّا أفاق زادت حيرته أهي خمس سنوات؟ أم خمسة أشهر؟ أم خمسة أسابيع؟ أم خمسة أيَّام؟ أم خمس ساعات؟ أم خمس دقائق؟ فلمَّا سأل الإمام ابن سيرين عن تفسير هذه الرؤيا قال له: " يا إمام، إن سؤالك هذا من خمسة أشياءٍ لا يعلمها إلا الله "، إن لك عند الله أجلاً لا يزيد ولا ينقص، هذا يريح الإنسان.. "، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً "، الآمر هو الضامن ..

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى)

يجب أن تُحِسَّ بالحُسنى، يجب أن تشعر بالحسنى، يجب أن تذوق الحسنى، ذاق طعم الإيمان، الإيمان له طعم ..

(وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ)

وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ

المعرضون خضعوا لأهوائهم وأفكارهم :

أعرضوا عنه، أعرضوا عن الدين، أعرضوا عن كتاب الله، رفضوا هذا الشرع جملةً أو رفضوه تفصيلاً، أو رفضوه جملةً وتفصيلاً، هؤلاء الذين لم يستجيبوا له، قالوا: هذا الدين لا يصلُحُ لهذه الأيَّام، قالوا: هذا الدين يطرح طُروحاتٍ غيبيَّة، قالوا: هذا الدين لا يتناسب مع عصر العلم، هؤلاء الذين لم يستجيبوا له ..

(لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ)

لا ينفع المعرضين فدية ولو كانت ملء الأرض ذهبا :

لو أنَّ واحداً يملك مائة مليون وقال: ادفعوها كلَّها وأنقذوني من هذه الورطة، كم هي الورطة كبيرة؟ كم هي كبيرة لو قال لك واحد: خذ ثروتي كلَّها وأنقذني من هذه الورطة؟ يجب أن تعلم أنت علم اليقين أنه في ورطةٍ كبيرة، لو أن لهؤلاء الذين لم يستجيبوا لله عزَّ وجل ..

(مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

شركات الأرض التجارية الرابحة كلها له، والأسواق الرائجة في العواصم الكبرى كلها له، والفنادق الكبرى في الأرض كلها له، وكل البيوت له.. تصوَّر لو أن للإنسان شارعاً بأكمله على الصفين، كم هو غني! لو أنه يملك مائة شركة في العالم من الشركات الرائجة التي تبيع بضاعتها في كل أنحاء العالَم، كم هي ثروته !

(وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

ثروات البحار كلّها، ثروات النفط كلّها، ثروات المعادن كلّها، شركات الطيران كلها، الفنادق كلُّها، الأراضي كلها، القصور كلها، البيوت كلها، الذهب والفضَّة كلها، المعادن الثمينة كلها، الماس كلُّه، قطعة ماسٍ واحدة ثمنها مائة ألف، لو أن ماس العالَم كله له ..

(وَمِثْلَهُ مَعَهُ)

ضرب اثنين ..

(وَمِثْلَهُ مَعَهُ)

لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه وافتدوا به لن يُقْبَل منهم ذلك، فكم هم في ورطة، " إن أهل النار يبكون ، وإنهم ليبكون الدم ، ولو أن السفن جرت في دموعهم لجَرَتْ فيها "، أي أن السفن تجري في دموعهم، هذا العذاب ألا يُتَّقى، نعيش للدنيا فقط؟ نعيش لسنواتٍ معدودة تمضي سِراعاً؟ نعيش ليومنا؟ نعيش لحظتنا، كما قال الوجوديّون: " نعيش لحظتنا فقط "، هذا هو الحُمْقُ بعينه، هذا هو الغباء بعينه، أنت تعيش من دون أن تنظر إلى الأمام، ما العقل؟ أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه .

هذه السمكات الثلاث التي في الغدير، مرَّ بها صيَّادان فتواعدا أن يرجعا ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك، فسمع السمكات قولهما، أما أكيسهن فإنها ارتابت وتخوَّفت وقالت: " العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها "، ثم إنها لم تَعْرُج على شيءٍ حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فَنَجَتْ، وأما الكيِّسة.. الأقلُّ عقلاً، الأقلُّ ذكاءً.. فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سُدْ فقالت: " فرَّطت وهذه عاقبة التفريط "، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ثم إنها تماوتت فطفَتْ على وجه الماء فأخذها الصياد ووضعها على

الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر فَنَجَتْ، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ إدبارٍ حتى صيدت .
الناس كَيِّسٌ، وكَيِّسٌ جداً، وعاجز ، فالكَيِّس العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، والأقل عقلاً يحتاط لها في أثناء وقوعها، والغبي لا يحتاط لها لا قبل وقوعها ولا في أثناء وقوعها، فلم تزل تخطو يمنةً ويسرةً حتى أخذها الصيادان وأكلاها ..

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى)

يجب أن تذوق طعم الإيمان :

يجب أن تذوق طعم الإيمان ، يجب أن تقول لمن سألك: الحمد لله أنا من أسعد الناس، والله قال لي رجل كان في الحج وسعد بحجَّته، قال لي: والله الذي لا إله إلا هو ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني .

أيها الإخوة الأكارم... إذا استقمتم على أمره، واتجهتُم إليه، وجلستم في مجالس العلِم، وقرأتم كتابه، واتصلتم به، وذقتم حلاوة القرب، وحلاوة المناجاة، وحلاوة الشعور بأن الله معكم، وحلاوة الشعور بأن الله يدافع عنكم، وحلاوة الشعور بأن لكم عنده مقعد صدق، هذه المشاعر إذا ذقتموها تماماً تقولون كما قال بعض العارفين: " والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " .

علامة إيمانك أنك سعيدٌ بإيمانك، علامة إيمانك أنك تحس أنك سبقت الناس جميعاً إن لم يؤمنوا ..

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص : من الآية 80)

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ)

بعذابها المادي، بحريقها، لا يخفَّف عنهم العذاب، لا يُفَتَّر عنهم العذاب ..

(فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

(سورة البروج)

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)

(سورة النساء)

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى)

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى

العاقل يختار السعادة الأبدية :

أحياناً تخيَّر بين شيئين متقاربين، بين سيَّارتين، أو بين بيتين متقاربين في السعر فتقع في حيرةٍ من أمرك، لكنَّك إذا خُيِّرت أن يُهدى لك سيارةٌ أم درَّاجة، هل تقع في حيرةٍ من أمرك؟ هل تبقى طول الليل ساهراً أيهما أختار؟ هذا غير معقول، إذا خيرت بين شيئين متقاربين فلابدَّ من الحيرة، لكنك إذا خيرت بين شيءٍ زهيد الثمن وشيءٍ باهظ الثمن ما أن ينتهي الذي يخيرك من كلامه حتى تقول: سيَّارة ـ بديهي ـ إذا خُيِّرْتَ بين الشقاء الأبدي والسعادة الأبديَّة، بين أن تسعد إلى أبد الآبدين، وبين أن يكون الإنسان في جهنَّم وبئس المصير

(لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

(سورة البقرة)

(وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ(77))

(سورة الزخرف)

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي)

(سورة المؤمنون)

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

(سورة المؤمنون)

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى)

الإنسان كالآلة لابد من اتباع تعليمات الاستعمال :

آلةٌ ثمينة معها نشرة استعمال، هذا الذي يقرأ النشرة، ويستعمل هذه الآلة وِفْق تعليمات الشركة، فاستعملها، واستفاد منها، وربح منها أرباحاً طائلة، وبقيت هي هي يصونها ويعتني بها، كمن يستعمل هذه الآلة من دون تعليمات فأعطبها؟ وخسر ثمنها؟ وفات عليه ربحها؟ هذا كهذا ؟

أخٌ كريم قال لي: صفقةٌ عُقِدَت مع شركةٌ أجنبيَّة لتوريد بعض الآلات الدقيقة العالية المستوى، الآلات وردت ولم ترد معها نشرات الاستعمال، إلى أن وردت النشرات عُدَّت الشركة متخلِّفَةً عن تسليم الأجهزة في وقتها المناسب، لأن الأجهزة لا قيمة لها من دون هذه التعليمات، والإنسان لا قيمة له من دون هذه التعليمات، دفعت الشركة غراماتٍ طائلة لأن التسليم باطل، وصلت الآلات في الوقت المحدَّد، ولكن التعليمات لم تصل، واستخدام هذه الآلات من دون التعليمات مستحيل، إن استخدمناها من دون التعليمات عطبناها، فعُدَّت الشركة متخلِّفةً عن تسليم الآلات ..

هذا الإنسان من أعقد الآلات، يسعد أو يشقى، ينفع أو يؤذي، يكون مصدر خير أو مصدر شر، إن طبَّق التعليمات يصبح مصدر خير، وإن خالفها يصبح مصدر شر، هذه التعليمات ألا ينبغي أن تُقرَأ؟ هذه هي بين أيديكم ، كتابٌ كريم ..

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت : من الآية 42)

(لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة السجدة)

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى)

العالم بصير والجاهل أعمى :

معنى هذا أن الذي يعلم مبصر، وأن الذي لا يعلم أعمى ..

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(19)وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(20)وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(21)وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ)

(سورة فاطر)

آيةٌ دقيقةٌ جداً ..

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

المؤمن بصير، والكافر أعمى ..

(وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ)

الحق نور، والباطل ظلمات بعضها فوق بعض ..

(وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ)

الحق مُسْعِد لأنه ظلٌ ظليل، والباطل مشقي كأنه نارٌ ملتهبة ..

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ)

(سورة فاطر : من الآية 22)

في النهاية المؤمن حي، والكافر ميِّت ..

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل : من الآية 21)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور)

(سورة فاطر)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة : من الآية 5)

" يا كُمَيْل، العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تُنْقِصُهُ النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا كُمَيْل مات خزَّان المال وهم أحياء "، وهم في أوج حياتهم ميِّتون، وهم في شبابهم وقوَّتهم، وغناهم، وفي شأنهم العالي في المجتمع، أموات لأنهم ما عرفوا الله سبحانه وتعالى ..

" ابن آدم، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء " .

" مات خزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة "، هذا هو العلم يحيي القلب، ما من رتبةٍ في الأرض أعلى من رتبة العلم، رتبة العلم أعلى الرُتَب ..

" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم " .. "، إن الله عالمٌ يحبُّ كل عالم " .. " ما اتخذ الله وليَّاً جاهلاً لو اتخذه لعلَّمه " .. " يظل المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظنَّ أنه قد علِم فقد جهل " .. " العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلَّك فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً " ..

((علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[ورد في الأثر]

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

هذا عطاء الأنبياء حُكماً وعلماً، ماذا أوتي فلان؟ بيتاً ومالاً زائلان، مالك ما لك، المال سمي مالاً لأنه ما لك، أي ليس لك ..

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ)

أصحاب العقول الراجحة، هؤلاء :

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ)

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ

أهل العلم والعقول الراجحة يوفون بعهد الله :

عهد الله في هذه الآية أي يلتزمون أوامره وينتهون عن نواهيه، عهد الله هذا الكتاب الذي بين أيدينا، شرع الله عَهِدَ إلينا به أن نطبِّقه، أوامر الله عهد إلينا بها أن نطبِّقها، هذا هو عهد الله، فالذي يطيع الله عزَّ وجل يلتزم عهد الله أي ينفِّذ هذا العهد .

وهناك معنى آخر: أن عهد الله هو العهد الذي وثَّقته مع أي جهةٍ وكان وَفْقَ الشرع، حُسْن العهد من الإيمان ..

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[مسند أحمد عن أنس بن مالك]

هؤلاء أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله من دون إكراه، يؤدُّون ما عليهم من دون حكم قضائي، يفي بعهد الله، الوفاء بعهد الله من صفات المؤمن، والذي يُخِلُّ بعهد الله يدخل في شعبةٍ من شُعَبِ النِفاق .

((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

من كان فيه خصلةٌ من هذه الخصال كان فيه شعبةٌ من شُعَب النِفاق، كان السلف الصالح يقول له: " اسمح لي أن أذهب إلى البيت لأودِّع أهلي وأولادي، وأكتب وصيَّتي، ولك عهد الله أن أرجع "، يرجع إلى الموت ليفي بعهد الله !!! هكذا كانوا، هكذا كان المؤمنون الصادقون، المؤمن إذا عاهد وفى ..

(وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ)

أهل العلم والعقول الراجحة لا ينقضون عهد الله :

الميثاق الذي واثقنا الله به، الميثاق أن نأتي إلى الدنيا فنستقيم على أمر الله، الميثاق أن نعتصم بحبل الله، الميثاق أن نقتفي أثر النبي عليه الصلاة والسلام، الميثاق أن نلتزم حدود الشرع .

أهل العلم والعقول الراجحة يصلون ما أمر الله به أنْ يوصل :

(وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ(20)وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان : من الآية 15)

أمرٌ إلهي ..

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان : من الآية 15)

اتصل به، احضر مجالسه، كن معه، كن عوناً له ..

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف)

هذا يبتعد عنه ، وذاك يتصل به ..

((ابن عمر، دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20)وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

الصلة التي أمر الله بها عامة ومتعددة :

أمرك الله أن تصل رحمك، أمرك الله أن تصل من قطعك، أمرك الله أن تكون مع الذين صدقوا، أن تكون مع المؤمنين ..

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

هذا هو الأمر الإلهي، حتى إن بعض المفسِّرين قال معنى قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

كل شرع الله يجب أن تصله بالطاعة ..

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)

أهل العلم والعقول الراجحة يخشون ربهم :

لا يخشون في الله لومة لائم، إن أتاحت له وظيفته أن يبطش بأخيه يبطش به، ولا يرقبُ فيه إلاً ولا ذمَّة، إلا إذا خاف الذي أعلى منه عندئذٍ يبتعد عن إيذائه .

كيف تخشى العبد ولا تخشى الرب ؟

يا الله، أتخشى إنساناً ولا تخشى ربَّ العالمين؟! هذا الذي دخل إلى بيته ..

قُمِعَت بعض الفتن في العصور السالفة، فأباح أمير الجند لجنوده المدينة، دخل أحد الجنود إلى بيتٍ من بيوتها فرأى امرأةً وزوجها، قتل الزوج، وقال للمرأة: أعطني كل ما عندك، أعطته سبعة دنانير، فأمسك أحد أطفالها وذبحه، وقال: أعطني كل ما عندك، فلمَّا رأته جادَّاً في قتل الثاني أعطته درعاً مُذْهَبَة، فلمَّا أمسكها أعجبته ورآها ثمينةً جداً، تأمَّلها فإذا عليها بيتان من الشعر ما إن قرأهما حتى وقع مغشياً عليه ..

إذا جــار الأميــر و حاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فويــلٌ ثمَّ ويــلٌ ثمَّ ويــلٌ لقاضي الأرض من قاضي السـماءِ

***

أتخشى إنساناً ولا تخشى الله ربَّ العالمين؟! الذي قلبُك بيده، ورئتاك بيده، وكليتاك بيده، والشرايين كلها بيده، والدم كلُّه بيده، لو جمَّد نقطة دمٍ كرأس الدبوس في بعض شرايين المخ لأصيب الإنسان بالشلل، في مكان آخر يصاب بالعمى، بمكان ثالث يصاب بالصمم، بمكان رابع ينام في مستشفى المجانين، بمكان خامس يفقد ذاكرته، هذا الذي بيده كل شيء؛ بيده صحَّتك، وأجهزتك، وحياتك، وموتك، بيده الجراثيم، بيده من حولك، بيده من هو أعلى منك، من هو أدنى منك، بيده رزقك، تعصيه ولا تستحي منه ؟! .

واحد سأل أحد العارفين قال: إنني أريد أن أعصي الله، قال : " لا بأس عليك اعصِهِ عدا بعض الملاحظات: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، قال: وأين أسكن إذاً؟ قال: تسكن أرضه وتعصيه! أنت على أرضه وتعصيه، قال: هات الثانية، قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تأكل رزقه، قال: وماذا آكل إذاً؟ قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه!! قال: هات الثالثة، قال: إذا أردت أن تعصيه فاجهد أن تعصيه في مكانٍ لا يراك فيه، قال :

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الحديد)

قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ؟!

تعصي الإله و أنت تظهر حبَّه ذاك لعمري فـي المقال بديعُ

لو أن حبَّك صـادقاً لأطعته إنَّ المحبَّ لمـن يحبُّ يطيعُ

***

أما تستحي من الله ؟

أما تستحي منَّا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تُقْلِع عن الذنب راجعاً وتنظر مـا بـه جاء وعـدنا

****

إلى متى أنت في اللذَّات مشغولُ وأنـت عن كل ما قدَّمت مسـؤولُ

أيا غافلاً تبدي الإساءة والجهل متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام وأنت لا ترا هـا كـأن العيـن عميـاء أو حولى

لأنت كمزكومٍ حوى المسك جيبه ولكـنَّـه المحـروم ما شمَّه أصلا

****

هذا هو الله الخالق الذي يجب أن تخشاه :

قبل يومين سمعت أن حيوان الدلفين يعيش على شواطئ البحار، وهو من أذكى الحيوانات قاطبةً، وأنه حيوانٌ أليفٌ جداً صديق الإنسان، وأنه حيوانٌ اجتماعي يعيش جماعاتٍ جماعات، وأن هذا الحيوان سخَّره الله لإنقاذ الغرقى على شواطئ البحار، فما إن يشعر هذا الحيوان أن سابحاً أدركه الغَرَق حتى يأتي اثنان فيرفعانه إلى أن يصيب الهواء ، وينقلانه إلى الشاطئ .. أما تستحي من هذا الفضل ؟ أي شيءٍ في الكون فيه نقصٌ ؟!

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1)الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3)وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى(4)فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)

(سورة الأعلى)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

هل تعلم أن قناة الدمع لو سُدَّت لأصبحت الحياة لا تُطاق، قناةٌ دمعيَّةٌ دقيقةٌ دقيقة لو سُدَّت لصار الدمع مُخَرِّشاً للخد، ولاحتجت إلى كل دقيقةٍ أن تمسح الدموع من على خدِّك، لو أن المثانة بلا عضلات لاستغرق تفريغها عشر دقائق وأنت في بيت الخلاء، لكن مع العضلات في خلال دقيقة واحدة، أو نصف دقيقة .

لو أن الكليتين اتصلتا مباشرةً بمخرج البول، كل عشرين ثانية تحتاج إلى أن تذهب إلى المرحاض، كل عشرين ثانية نقطتا بول، أو تحتاج إلى فوط، هذه المثانة أليست من فضل الله علينا؟ هذه الحركات، هذه المفاصل، لولا هذا المفصل كيف نأكل؟ لابدَّ من أن نضع الصحن على الأرض وننبطح ونأكله بفمنا مباشرةً، لولا هذا المفصل .

هذا الشعر، ربع مليون شعرة، لكل شعرٍ عصبٌ، وشريانٌ، ووريدٌ، وغدَّةٌ صبغيَّةٌ، وعضلةٌ، لكل شعرة، هذا الدماغ فيه مائة وأربعين مليار خليَّة سمراء لم تُعْرَفُ وظيفتها بعد .

العين فيها مائة وثلاثون مليون مخروط من أجل أن ترى رؤيةً دقيقةً ملوَّنةً بالحجم الطبيعي، أما المصوِّر فيقول لك: تعالَ غداً لنحمِّض لك الصورة، أما أنت فتحميض فوري، تنظر فترى الشيء بألوانه الدقيقة، أنت بهذه العين ترى مائة لون حنطي، أما في الآلة التصويريَّة فالألوان كلها متقاربة، عينٌ دقيقة، أذنٌ مرهفة، أنفٌ جميل، لسانٌ ناطق ..

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

وجهٌ جميل، أعضاءٌ، جلدٌ، شعرٌ، عضلات، أوردة، شرايين، زوجة، أولاد، كل هذا لا يكفي أن تلتفت إليه ؟!

(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

مطلق أوامر الله ..

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)

يوم الحساب لا يبرح ذاكرة المؤمن :

إنّ المؤمن لا تبرح ذاكرته هذه الساعة .

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

(سورة المدثر)

فإذا مات الإنسان وتوجَّه فريقٌ إلى طبع النعي، وفريقٌ آخر إلى تسيير معاملة الدفن، وفريقٌ ثالث إلى تأمين الطعام ومستلزمات التعزية مساءً، وتوجَّه فريقٌ رابعٌ إلى المقبرة، واشترى قبراً، وتوجَّه الحفَّار ليحفر هذا القبر ..

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)

الميِّت مُسَجَّى في غرفته، ومكتب دفن الموتى أرسل السيارة لتجهِّز الميت، والقبر يُحْفَر هذه هي الساعة العصيبة التي ينسى فيها الإنسان كل ملذَّات الدنيا، كل الأيام التي قضاها في الدنيا مسروراً ..

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

(سورة الانشقاق)

كان، أما الآن ليس مسروراً، الآن يتمنَّى أن تُسَوَّى به الأرض، يتمنَّى أن يكون تراباً تدوسه الأرجل، لا ..

(وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)

" يُحشر الأغنياء أربع فرقٍ يوم القيامة: فريقٌ جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام فيقال: خذوه ...

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 25 – 29
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-09-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

الحكمة من وصف الله المؤمنين والكافرين في القرآن :

الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يصف تارةً المؤمنين، ويصف تارةً الكفار، سؤالٌ يطرح عليكم: ما الحكمة من وصف المؤمنين؟ وما الحكمة من وصف الكافرين؟ هذه الصفات التي ذكرها الله للمؤمنين إنما ذكرها لتكون مقياساً نقيس بها إيماننا، فإن لم نكن كذلك، إنما ذَكَرَهَا لتكون هدفاً نسعى إليه، فصفات المؤمنين التي أُدْرِجَت في كتاب الله إنما جعلت مقياساً لنا أو هدفاً نسعى إليه ..

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

(سورة الأنفال)

هل نحن كذلك؟ مقياسٌ أو هدف ..

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

(سورة المؤمنون)

المؤمن كذلك؟ يُعْرِضُ عن اللغو؟ في صلاته خاشعٌ؟ إلى الزكاة مُسْرِعٌ؟ في الزلازل وقورٌ؟ في الرخاء شكورٌ؟ هكذا المؤمن؟ فحيثما ورد في كتاب الله سبحانه وتعالى أو في السنة المطهرة وصفٌ دقيق للمؤمن فهذا مقياسٌ لك، كن جريئاً مع نفسك، قِس نفسك بهذا المقياس ..

(وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

(سورة الأنفال)

أأنت متوكلٌ عليه؟ أم قلبك فارغٌ كقلب أم موسى، راضٍ بقضائه؟ مستسلمٌ لمشيئته؟ تقول كما قال الإمام الغزالي: " ليس في الإمكان أبدع مما كان " .

تقول: الحمد لله في السرَّاء والضرَّاء، في الصحة والمرض، في القوة والضعف، في إقبال الدنيا أو إدبارها ؟

من صفات المؤمنين :

صلة ما أمر الله بصلته :

قال ربنا عزَّ وجل :

(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

أية صلةٍ أمرها الله سبحانه وتعالى يصلونها ..

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)

خشية الله والخوف عند القيام بين يديه :

هل يأتي على المؤمن خواطر يوم القيامة؟ خواطر الوقوف بين يدي الله عزَّ وجل؟ هل يتصور في كل عملٍ يعمله أنه سَيُسْأل عنه ؟

(وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ(21)وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ)

الصبر وطاعة الله:

صبروا على الطاعات، وصبروا عن المعاصي، وصبروا على البلاء ..

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(22)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ(23)سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

من صفات الكافرين :

تم شرح هذه الآيات في الدرس الماضي، بالمقابل :

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ)

نقض عهد الله :معنى نقض العهد :

عهد الله: جئت إلى الدنيا وعاهدته أن تطيعه، فإذا عصيته فقد نقضت عهد الله .

معنى نقض العهد :

ما معنى :

(يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ)

أي يعصونه، لأنهم حينما جاءوا إلى الدنيا عاهدوه على الطاعة، فإذا عصوه فقد نقضوا عهدهم معه، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنكَسِرَ أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، قد تكون فقيراً وأنت كبيرٌ في عين الله، قد تكون مريضاً وأنت كبير في عين الله، يحبك الله، يتجلَّى عليك، يوفِّقُكَ، يفتح لك أبواب رحمته، وقد تكون قوياً، وقد تكون غنياً، وقد تكون ذا سيطٍ عريض ونَجْمٍ متألِّق، وقد يكون هذا الإنسان ساقطاً من عين الله، لذلك أكبر نجاحٍ يحققه الإنسان على وجه الأرض أن ينال رضاء الله عزَّ وجل .

هناك أناسٌ داسوا بأقدامهم أرض القمر، وهناك مخترعون اخترعوا أجهزةً عجيبة، هناك مخترعون اخترعوا أسلحةً فتَّاكة، هناك من يصنع القنابل الجرثومية، هناك من يصنع السلاح الكيميائي، هناك من صنع القنبلة النووية، ومع ذلك ساقطون من عين الله، والمؤمن إذا عرف الله سبحانه وتعالى، واستقام على أمره، وتقرَّب إليه بالعمل الصالح، فهو مُقَرَّبٌ عند الله، له مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر ..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(54)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا)

(سورة مريم)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

يحبهم ويحبونه، جاء جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال له : قل لأبي بكر: " يا أبا بكر قل لصاحبك: إن الله راضٍ عنه، فهل هو راضٍ عن الله ؟ هذا مقام ..

فيا أيها الإخوة الأكارم، ما من نجاحٍ على وجه الأرض أثمن من أن تفوز برضاء الله سبحانه وتعالى..

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس : من الآية 58)

برحمة الله، بطاعة الله، بمعرفة الله .

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات)

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة يونس : الآية 58)

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران)

هؤلاء ينقضون عهد الله، يعصونه، يعصون الله، ولا يأبهون لهذه المعصية، يعصون الله جهاراً، يفتخرون بالمعصية، يتبجَّحون بها ..

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

قطع ما أمر الله بوصله :

أمرهم الله أن يصلوا أرحامهم فقطعوها، أمرهم الله أن يعطفوا على الفقراء والمساكين فقاطعوهم، أمرهم الله أن يستقيموا ، أيّ شيءٍ أمرهم الله به يخالفونه ..

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

النبي عليه الصلاة والسلام جاءه رجلٌ وقد مات والداه فقال: " يا رسول الله، هل بقي علي شيءٌ من برِّ والدي بعد موتهما؟ " ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((نعم، أربعة: أشياء أن تدعو لهما ـ رب اغفر لي ولوالدي، رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ـ وأن تصلي عليهما.. صلاة الجنازة.. وأن تنفذ عهدهما، وأن تصل صديقهما، وأن تصل الرحم التي لم يكن لها صلة إلا بهما، فهذا الذي بقي عليك من برِّهما بعد موتهما))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

((أهل ود أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك))

هناك حديثان :

((أهل ود أبيك لا تقطعه))

وفي حديث آخر :

((ود أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك))

[ورد في الأثر]

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

الإفساد في الأرض :

الفساد واسع ومتعدّد المجالات :

والفساد في الأرض واسعٌ جداً، إفساد العَلاقة بين اثنين من صفات الكفار، قد تفسد هذه العلاقة بكلمة، قد تفسد العلاقة بين أخوين بكلمة تقولها لأحدهما، قد تُفْسِد العلاقة بين زوجين بكلمةٍ تقولها للزوج، أو بكلمةٍ تقولها للزوجة، وقد تفسد العلاقة بين شريكين بكلمةٍ واحدة تقولها لأحد الشريكين، وقد تفسد العلاقة بين أسرة مُتآخية بشيءٍ تفعله، بدنيا تعرضها، بحديثٍ تتبجح به، بوصفٍ كاملٍ تصفه، وقد تفسد العلاقة بينك وبين عقلك، فتعطله أو تسيء استخدامه، أو ترفض نموه، فيكون الجهل والتجهيل، والكذب والتزوير، وهذا أعدى أعداء الإنسان، قد تفسد العلاقة بينك وبين نفسك فيبحث الإنسان عن أشد الوسائل انحطاطا لأشد الأهداف قذارةً عندها فتكون أزمة الأخلاق المدمرة، ويكون الشقاء الإنساني، وقد تفسد العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فيكون النصر للأقوى ولو كان صاحب البُطْل، ويكون صاحب الحق بعيداً عن حقه، وهذه أزمةٌ حضارية تعيق تقدم الأمة وتقوِّض دعائمها .

إنّ فساد العلاقة واسعٌ جداً، لابدَّ من أن تَصِحَّ العلاقة مع عقلك، ولابدَّ من أن تصح العلاقة مع نفسك، ولابدَّ من أن تصح العلاقة مع أخيك، ولابدَّ من أن تصلح بين اثنين .

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ)

(سورة الحجرات : من الآية 11)

السخرية تفسد العلاقة .

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)

(سورة الحجرات : من الآية 12)

الغيبة تفسد العلاقة .

(وَلَا تَجَسَّسُوا)

(سورة الحجرات : من الآية 12)

التجسس أي تتبع الأخبار السيِّئة يفسد العلاقة .

ولا تحسسوا ..

(يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)

(سورة يوسف : من الآية 87)

والتحسس تتبع الأخبار الطيبة، ربما كان هذا فضولاً وقد يفسد العلاقة ..

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[سنن الترمذي عن أبي هريرة]

هؤلاء يفسدون في الأرض، ومن الفساد في الأرض أن تخرج على الناس في زينتك، أن تريهم ما عندك من أثاثٍ فخم، يزورك إنسان فتعرض كل ما عنده أمامه، يخرج من عندك وهو كسير القلب .

" من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط " .

عن عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، وَلا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

[سنن الترمذي عن عائشة]

الفساد أيضاً أن تتبجَّح بنزهاتك، ورحلاتك، وأفراحك، والمصاريف الباهظة التي أنفقتها، هذا من الفساد في الأرض، من الفساد في الأرض أن تُطْلِع أخيك الفقير على شيءٍ نفيس فتجعل في قلبه الحُرْقَة، الفساد في الأرض أن تسأل ابنتك: ماذا قدَّم لك زوجك في العيد، فإن لم يقد لك شيئاً تذمه، توقع في قلبها الحسرة، توقع في قلبها بغضه، هذا كله من الفساد في الأرض، لذلك هؤلاء :

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

لا تعظِّم نفسك فما أنت إلا نطفة من ماء مهين :

حدثني عن نفسه ، ولو عرف الله حق المعرفة لفني في ذات الله، ولرأى نفسه أحقر من أن يتحدث عنها، من أنا؟ هذا الكون العظيم الذي ينبئ عن خالقٍ عظيم، من أنا حتى أتحدث عن نفسي؟ عبدٌ ضعيف، فنقطة دمٍ إذا تجمدت في أحد شرايين المخ شللٌ، عمًى ، صمم، جنون، أية عظمةٍ لهذا الإنسان، أوله نطفة وآخره جيفة، أية عظمة؟ كنت قبل أيام أُشَيِّع جنازةً، وقد وضع الميت في قبر قريبه الذي مضى على وفاته ثمانية أعوام، لم نجد في القبر إلا بعض العظام، أي عظمةٍ كانت لهذا الميِّت، كان ملء السمع والبصر، كان غنياً، كان مُترفاً، كان الناس يتقرَّبون إليه، بضع عظمٍ ملقاةٌ في قبر، علامَ الافتخار ؟

أيها الإخوة الأكارم، طوبى لمن ذكر المبتدى والمنتهى، هذا الذي ذكر مبتداه نطفةٌ تخرج من عورةٍ إلى عورة وتخرج من عورة، من ماءٍ مهين، وهذا الذي نظر إلى أخراه فرأى نفسه عِظاماً نخرة في قبرٍ من قبور الشام، من أنت؟ لذلك حالة الفناء التي وصفها الصوفيون تعني أنك تستحيي أن تقول: أنا وأنا، قالها الشيطان فأهلكه الله، قال :

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة ص : من الآية 76)

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ)

جزاء هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات :

اللعن والطردمن رحمة الله :

اللعنة هي البعد عن الله سبحانه وتعالى، وما من شي أثمن من القرب من الله سبحانه وتعالى، وما من شيءٍ أشقى للإنسان من أن يكون ملعوناً، فهذه الكلمة: لعن الله فلاناً، فلان ملعون، هذه الكلمة تدور على الألسنة، ولو عرف الإنسان معناها، معناها أنه مطرودٌ من رحمة الله، أنه بعيدٌ عن تجلي الله ..

(أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ)

هذا الإنسان إذا عرف ما عند الله من نعيمٍ مقيم، وكان مطروداً عن هذه الرحمة فهذا هو الشقاء بعينه .

يا عجبًا كيف لو ذاقوا رحمة الله!!!

قال فرعون للسحرة :

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ)

(سورة طه : من الآية 71)

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى(71)قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

(سورة طه)

ذاقوا من رحمة الله آثروها على كل شيء .

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

(سورة يوسف : من الآية 33)

ذاق رحمة الله، " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " ..

فلو شـاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لـما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

و لو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

و لو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقــربنا

ولو لاح مـن أنوارنا لك لائحٌ تركت جميع الكائنات لأجلـنا

هذا الذي يذوق من رحمة الله يضحي بالدنيا كلها من أجلها ..

فليتك تحلو و الحياة مـريرة وليتك ترضى و الأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خـراب

***

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

(أَوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ)

في الدنيا، الكافر بعيد، شقي، قَلِق، في قسوة في حياته، قلبه مقفر كالصحراء، مشاعره بليدة، نفسه تؤْثر ذاتها على كل شيء، يحب الأخذ ويكره العطاء، يتمنى أن يعيش وحده، ويهلك الناس جميعاً، يمقت الناس ويمقته الناس؛ المؤمن يألف ويؤلف، يحب الناس كلهم، يؤثرهم على نفسه، يتمنَّى لهم النجاح والتوفيق، هينٌ لينٌ، حييٌ، كريمٌ، المؤمن غرٌ كريم، والكافر خَبٌ لئيم .

(أَوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

سوء الدار والمنقلب :

قال عليه الصلاة والسلام :

((الناس رجلان: تقيٌ كريم كريم على الله، وفاجر لئيم هين على الله))

[ورد في الأثر]

لا شأن له عند الله، والناس إذا ضاقت بهم الدنيا، وغلت فيهم الأسعار، وشحَّت علهم أمطار السماء لا لشيء إلا لأن الله هان عليهم، هانت عليهم معصيته، هان عليهم خَرْقُ حدوده، هان عليهم الاستهزاء بدينه، هان عليهم نقض مواثيقه، هان عليهم أن يعصونه جهاراً، هان عليهم أن يضربوا بكتاب الله عُرْضَ الطريق، هان عليه أن يسخروا من شرعه، فهانوا على الله، هانوا عليه؛ ضاقت بهم السبل،

وانقطعت بهم الأسباب .

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا

الإنسان يفرح بالحياة وهو لا يعلم حقيقة ذلك :

أيها الإخوة الأكارم، ربنا سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى يوضِّح هذه الآية :

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر : الآية 15)

الإنسان أحياناً يتوهَّم أنه إذا كان غنياً، وكان في بحبوحة، وكان صحيحاً، قوياً، ذا شأنٍ ووجاهة، قد يتوهَّم الإنسان أن الله يحبُّه إذا أعطاه، فإذا ضاق رزقه وضعُفَ جسمه، وضعف شأنه قد يتوهَّمُ أنه مهانٌ عند الله، والحقيقة عكس ذلك ..

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر : الآية 15)

هو هذه مقولته، ولكنها ليست صحيحة، هذه دعواه، هذا زعمه، هذا توهُّمُهُ .

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

لا، يا عبادي، ليس عطائي إكراماً، ولا ابتلائي إهانةً، إنما عطائي ابتلاءٌ، وحرماني معالجة .

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

معنى : يبسط و يقدِر :

معنى يَقْدِر أي يُضَيِّق، والمعنى الثاني: يقدر أي يجعل رزق العبد على قدر حاجته، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

أي يكفيه، لا يحوجه إلى أحدٍ، لكن هذا الرزق ليس فيه فضلٌ يزيد على حاجته، فمن أوتي رزقاً كفافاً فليَحْمَدِ الله .

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ)

إذا أعطى أدهش .

العطاء الدنيوي ليس دليلَ حب الله للإنسان :

لكن هذا الذي يعطيه الرزق الوفير لا ينبغي أن يتوهَّم أن الله يحبه، قد يحبه وقد لا يحبه، هذا الغني الذي أوتي مالاً كثيراً لا ينبغي أن يستنبط من غناه أن الله يحبُّه قد يحبه وقد لا يحبه، قد يحبه إذا كان مستقيماً محسناً، متواضعاً سخياً، جاء في الحديث القدسي " :

((أحب ثلاث وحبي لثلاثٍ أشد أحب، الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، وأحب الكُرماء وحبي للفقير الكريم أشد، وأحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد؛ وأبغض ثلاثاً وبغضي لثلاثٍ أشد، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد، وأبغض المتكبِّرين وبغضي للفقير المتكبر أشد، وأبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد))

[ورد في الأثر]

إذا كنت غنياً لا يستنبط من هذا أن الله يحبُّك، عوامُّ الناس يقولون: " إذا أحب الله عزَّ وجل عبده أطلعه على ملكه "، القضية سهلة، اركب طائرةً وجُلْ بها في أقطار الأرض معنى هذا أن الله يحبك، هذا استنباط مضحك، استنباط سخيف، النبي عليه الصلاة والسلام ما رأى من الأرض إلا مكة والمدينة وأطراف الشام، ما رأى أوروبا ولا أمريكا، ماذا يستنبط من هذا ؟ استنباطٌ مضحك، لذلك :

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

أي أن الله سبحانه وتعالى يعطي وقد لا يعطي، قد يضيِّق وقد يعطيك الكفاف .

((إن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر فلو أغنيته أفسدت عليه دينه))

[ورد في الأثر]

أي أن الله عزَّ وجل عليمٌ خبير، معنى خبير: خبير بهذه النفوس، هناك إنسان على الدخل المحدود من مسجدٍ إلى مسجد، فإذا زاد دخله من ملهى إلى ملهى، حينما يُكْشَفُ الغطاء يوم القيامة، ويرى العبد الفقير أن الفقر كان أنسب شيءٍ له يذوب خجلاً ومحبةً لله عزَّ وجل، والغني إذا أفقره الله سبحانه وتعالى ربما كفر، فطبيعة نفسه تقتضي الغنى، والدنيا مؤقتة، والدنيا ساعة اجعلها طاعة .

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

بمعنى يُضَيِّق أو يرزق الكفرة .

(وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

قد يكون الشر كامنًا في الخير :

فالآية الكريمة :

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

هناك رجل تزوج امرأةً في المدينة، فلما دخل عليها لم تعجبه، أمضى معها الليلة، ثم هام على وجهه في أطراف الدنيا، من شدة ضيقه من هذه المرأة غاب عنها عشرين عاماً، هكذا تروي القصة.. حينما دخل عليها، ولم تعجبه كانت عالمةً فقيهه قالت له : " يا فلان، قد يكون الخير كامناً في الشر ".. لا تدري.. فلما عاد بعد عشرين عاماً إلى المدينة، ودخل أحد مساجدها فرأى عالماً تحلَّق الناس حوله، فلما سأل عنه إذا هو ابنه، فلما دخل البيت ذكَّرته امرأته بقولها له حينما رآها .

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

فهذا الذي قسمه الله لك؛ شكلك رزقٌ قسمه الله لك، طولك، لون جلدك، صحَّة أعضائك، زوجتك، أولادك، حرفتك، دخلُك، أمك، أبوك، حيُّك، مدينتك ..

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الزخرف : من الآية 32)

هذا أنسب شيء لك، هذا بتقدير الله ..

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة الأنعام)

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الفرح بالدنيا دليل على قلة العقل :

قل لي بربك: ما الذي يفرحك أقل لك من أنت؟ هناك من يفرح بالدرهم والدينار، هناك من هو عبدٌ لبطنه، هناك من هو عبدٌ لفرجه، هناك من هو عبدٌ لخميصته، هناك من هو عبدٌ للدرهم والدينار، قال عليه الصلاة والسلام :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ))

[سنن ابن ماجة : عن " أبي هريرة]

هذا الذي يفرح بالحياة الدنيا؟ قال عليه الصلاة والسلام :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضًا ، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

إذا فرحت بالحياة الدنيا فهذه وصمة عار، قال :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص : من الآية 78)

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص : الآية 76 - 77)

هذا قارون ..

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

(سورة القصص)

فرحوا بالحياة الدنيا، من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضًا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي .

(وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

علامة النفاق الفرح بالدنيا، والمؤمن يفرح بفضل الله سبحانه وتعالى، يفرح إذا عرف الله، إذا فهم كتابه، إذا استقام على أمره، إذا عمل الصالحات، إذا رزقه الله عملاً صالحاً، سيدنا موسى لمَّا سقى لهما تولى إلى الظل :

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(سورة القصص)

الفقر فقر العمل الصالح، والغنى غنى العمل الصالح، والغنى والفقر بعد العرض على الله .

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ

هذه هي قيمة الدنيا :

النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

[ورد في الأثر]

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

ألا تصدق الجليل يقول لك :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

سنواتٌ عشر حتى يستطيع الإنسان أن يسترخي، أن يستمتع للحياة الدنيا لابدَّ من أن يصل إلى أربعين عاماً، ولا سيما في هذه الأيام العصيبة؛ إلى أن يشتري البيت، ويكسو البيت، ويؤسس البيت، ويبحث عن عملٍ مريح، إلى أن يتزوَّج، إلى أن تحل مشكلاته المادية في الأربعين، وأكثر الذي يموتون الآن في الخمسين، عشر سنواتٍ فحسب يضيِّعُ من أجلها الآخرة كلها، " من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً " .

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

إذا تألَّمت من سِنِّك، تذكَّر وأنت في حالة الألم الطعام الفاخر الذي أكلته قبل يومين أين هو؟ تذكر النزهة التي أمضيتها قبل أسبوع أين هي؟ تقول: إن ألم الضرس أنساني كل شيء، وحينما يقدم الإنسان على القبر ويوضع في هذه الحفرة، ويقول الله له :

" عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت " .

ليذكر الإنسان السهرات الممتعة التي أمضاها، والولائم الفاخرة التي أكل منها، والنُزُهات التي ذهب إليها، أين هي؟ هكذا الدنيا، الدنيا تغر وتضر وتمر، الدنيا تمر كلمح البصر .

قبل يومين وأنا أراجع بعض الخطب التي كنت أكتبها من قبل عثرت على الخطبة الأولى التي ألقيتها، وكان تاريخها في الثاني والعشرين من شهر آب عام ألفٍ وتسعمائة وأربعةٍ وسبعين، قلت: سبحان الله! كيف مضت هذه السنوات الاثنتا عشرة؟ كلمح البصر، تاريخ، وقد مضى على هذه الخطبة اثنا عشر عاماً بالضبط، كيف مضت؟ وهكذا تمضي الحياة الدنيا ..

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ(112)قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ(113)قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(114)أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

حينما شَيَّعْتَ جنازةً قبل أسبوع، السيارة التي وضع فيها النعش وضعوا آياتٍ من كتاب الله، الآيات هي:

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ(26)وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ(27)وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ(28)وَالْتَفَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ(29)إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)

(سورة القيامة)

وهذا الميت الذي أمامنا تنطبق عليه هذه الآية، إلى ربِّك، رحلةٌ أبدية، يحاسب فيها الإنسان عن كل شيءٍ فعله في الحياة الدنيا، عن كل نظرةٍ، عن كل درهمٍ من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه ؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)

(سورة القيامة)

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

أي أنها لذَّاتٌ عابرة سريعاً ما تنقضي .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

كيف تطلبون آية والآياتلا تخفى على أحد ؟!

كل هذه الآيات وكل هذه الدلالات لا تكفي الكافر .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)

عجيبٌ أمر الكفّار ..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

حسبكم الكون معجزة، كل هذه الآيات أينما تحركت، جسمك آية، ابنك آية، كأس الماء آية، صوتك آية، الهواء آية، الماء آية، الرياح آية، الأمطار آية، الجبال آية ..

وفي كل شيء له آية تدلّك على أنه واحد

ومع كل هذا :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُوَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ

هذه الآية ينبغي أن نقف عندها، الله سبحانه وتعالى :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

إذا قابلنا بين الآيتين وجدنا أن الله :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

المعنى الأول : الله يضل المتكبرَ الذي لا ينيب :

إذاً: من الذي يضلُّه؟ الذي لا ينيب، المتكبر، المستنكف عن طاعة الله، إذا كانت معك معلوماتٌ قيمة لإنسان، وهذا الإنسان يسخر منك، ولا يعترف بعلمك، ولا يقدِّر هذه المعلومات، ولا يرضاها، ولا يقيم لها وزناً كيف تعطيه إيَّاها؟ مستحيل، هذا بعض معاني هذه الآية ..

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

لأن هذا الذي أضلُّه لم يُنِب إليه، لم يرجع إليه، لم يستعن به، لم يستهدِ به، لم ير ما عنده خيراً، لم ير قرآنه في حل لكل المشكلات، أعرض عنه، ازْوَر، استكبر، استعلى، إذاً الله سبحانه وتعالى لم يعطه شيئاً، شيء طبيعي، هذا بعض المعاني، يضل الذي لا يُنيب إليه، والقسم الثاني من الآية يوضِّح القسم الأول ..

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

الذي يعود إليه، يقبل عليه، يلتجئ إليه، يستهديه، يسترشده، يستغفره، يتوبُ إليه، يفوِّضُ له، يستسلم له، هذا الذي يهديه الله سبحانه وتعالى، فهذا المعنى دقيق جداً، إذا أعرض العبد عن ربه، واستنكف عن

طاعته، ولم يلتجئ إليه، ولم يستهد بهديه، كيف يهديه الله عزَّ وجل ؟

لو أنت معك معلومات دقيقة لهذا المريض، وهذا المريض لا يأبه لك بل يسخر منك، كيف تعطيه إيَّاها؟ ولو أعطيته إياها لألقاها في الطريق، لألقاها في سلة المُهملات .

أحياناً على مستوى طبيب، يكون الطبيب ناشئا معه معلوماتٌ قيِّمة عن هذا المرض، يزور قريباً له، يلقي عليه هذه التعليمات، ثقة هذا المريض بطبيبٍ آخر، لو أملاها عليه لا يطبقها ولا يتبعها، فهذا الذي أعرض عن الله سبحانه وتعالى كيف يهديه الله؟ مستحيل ولو ألقى عليه الهدى، الهدى بين أيدينا، هذا كتاب الله بين أيدينا، كم من البشر يقرأه، ويهتدي بهديه، ويراه الحق الفَيْصَل، قلةٌ قليلة، وهؤلاء الذين إذا فتحوا المذياع، وطاشت إبرة المذياع على القرآنِ الكريم سريعاً ما يحوِّلونه، كيف يهديهم الله سبحانه وتعالى كيف؟ إذا ألقيت على مسامعهم كلمة الحق سريعاً ما يزورّوا يقول لك: ليس عندنا وقت هذا كلام فارغ، هذا كلام لا معنى له في هذه الأيام، فالذي يعرض عن الله سبحانه وتعالى لا يهديه الله، هذا المعنى من بعض المعاني التي تستنبط من هذه الآية .

المعنى الثاني : الله يضل إذا اختارالعبد الضلالَ لنفسه :

معنى آخر: الله سبحانه وتعالى يضل من يشاء، لكن في آيات كثيرة، وضح هذه المشيئة ..

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : من الآية 52)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

(سورة غافر)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المنافقون)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الجمعة)

إذا كان في الآية في إيجاز فهناك آياتٌ أخرى فيها تفصيل، الظالم لا يهديه الله سبحانه وتعالى، الفاسق لا يهديه الله سبحانه وتعالى، المسرف الكذَّاب لا يهديه الله سبحانه وتعالى، المُختال لا يهديه الله، المتكبر لا يهديه، المسيء لا يهديه، العاصي لا يهديه .

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس)

فإذا قال الله عزَّ وجل :

(إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

هناك آياتٍ تزيد على خمسين آية فَصَّلَ الله سبحانه وتعالى من هؤلاء الذين لا يهديهم؟ الظالمون، الفاسقون، المتكبِّرون، الكاذبون، الخائنون، المختالون، هذا المعنى الثاني .

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

أنا أقول للطلاب مثلاً: آخذ معي إلى النُزهة من أشاء لكنني لن آخذ الكسول، توضَّحت مشيئتي، توضح أنني آخذ المُجتهد .

(إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

إذاً: من الذي يضله؟ الذي يعرض عنه، آية واضحة كالشمس، لكن أهل الكفر والضلال يأخذون هذه الآية ليتَّخذوها حجةً وهي حجة عليهم وليست لهم، يقولون: يا أخي الله يضل من يشاء، إذاً فأكمل الآية :

(وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

(سورة البقرة : من الآية 105)

أكمل الآية، فضله واسع، يسع الخلق كلهم، إذاً: من يشاء هنا تعود على الإنسان .

(بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)

من البشر ، لأن ..

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

(إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(27)الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

لا يعرف الأمن والسكينة إلا من ذاقها :

إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والجمال، والمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينةُ لا يعرفها إلا من ذاقها .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

فنعمة الأمن لا يعرفها إلا من ذاقها .

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

(يَامُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ(10)إِلَّا مَنْ ظَلَمَ)

(سورة النمل)

أي أن الذي يظلم نفسه يخاف، والذي يظلم من حوله يخاف، يقذف الله في قلبه الرعب .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)

المؤمن آمنٌ مطمئنٌ لأنه يعلم أن الأمر كله بيد الله :

المؤمن سبب طُمأنينته أنه يرى أن الأمر كله لله، وأن الأمور كلها ترجع إلى الله، وأن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وأنه إليه يرجع الأمر كله، وأنه في السماء إله، وفي الأرض إله .

وأنه :

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر : من الآية 2)

انتهى الأمر، اجعل الهموم هماً واحداً يكفك الهموم كلَّها، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ما لك لك ، وما ليس لك ليس لك :

((ألا وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ رِزْقٍ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لا يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلا بِطَاعَتِهِ))

[البيهقي عن ابن مسعود]

" إن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً " .

فعند المؤمن طمأنينة لو وزِّعَت على أهل بلد لكفتهم، وفي قلب الكافر خوفٌ وقلقٌ وذعرٌ ورعبٌ لو وزِّع على أهل بلدٍ لأفزعهم .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)

يا فلان لقد احترق متجرك، ابتسم وقال: ما كان الله ليفعل، لا، لم يحترق متجري، أبو الدرداء، " يا أبا الدرداء لقد احترق حانوتك " قال: " ما كان الله ليفعل "، ثم جاءه آخر فقال: " لم يحترق حانوتك احترق الحانوت الذي إلى جانبه "، قال: " أعرف ذلك.. مطمئن إلى رحمة الله.. ذلك مرضٌ ما كان الله ليصيبني به "، أعرف صديقاً مؤمناً استيقظت زوجته وقد رأت ابنتها مشلولة فصرخت فقال: اسكتي ما كان الله ليصيبني بهذا المرض، وفعلاً هناك مرض مشابهٌ تماماً لهذا المرض يزول بعد يومين، مطمئن.

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

أنت في رعاية الله، في ظل الله، في حفظ الله، في توفيق الله، إن الله يدافع عنك ..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور)

(سورة البقرة : من الآية 257)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة فصلت)

إذا كان الله عزَّ وجل هو ملك الملوك يقول :

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

من تخاف ؟ من تخشى؟ من ترهب؟ لماذا تقلق؟ قارئ القرآن لا يحزن .

((لا يحزن قارئ القرآن))

[ورد في الأثر]

من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً مما أوتي فقد استصغر ما عظَّمه الله، حَقَّر ما عَظَّمه الله، إن كنت مؤمناً فنم ولا تبال، هنيئاً لك أنت من ملوك الدار الآخرة، إن المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما يخرج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، ساعة الموت عُرس المؤمن، " لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه " .

والله الذي لا إله إلا هو يأتي على المؤمن في ساعة الموت سعادة لو عرفها أهله لضحكوا، لفرحوا، لأقاموا الزينات في البيت، إلى أين أنت ذاهب؟ إلى رحمة الله، يقول لك المُلقِّن: اللهم أبدله أهلاً خيرا من أهله، وداراً خيراً من داره، وزوجةً خيراً من زوجته، ولقِّه الأمن والبشرى والسلامة والزلفى، اللهم نقه من الخطايا كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدنس "، هذا التلقين لنا وليس للميت، لنا نحن، هناك حياةٌ أبديةٌ لا نغص، لا قلق، لا ارتفاع أسعار، لا ندرة مواد، لا خوف، لا حزن، لكن :

((أعددت لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري]

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

لذلك :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)

علامة إيمانك أنك تطمئن بذكر الله، ترتاح نفسك، تستقر مشاعرك، لا تقلق، لا تحزن، لا تخاف، لا تخشى، تتوكّل، ترى أن الأمر كله لله، وأنه لا يقع شيءٌ إلا بأمر الله، وأن كل من تخافه بيد الله ..

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

هذا التوحيد .. ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

هذا التوحيد يورث في الإنسان الطمأنينة، فقال عليه الصلاة والسلام :

((برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله))

[ورد في الأثر]

فإذا اطمأننت إلى ذكر الله، واطمأن قلبك فأنت مؤمن، لذلك المؤمن يتغنّى بكتاب الله، ولا يستطيع أن يتغنى بشيءٍ آخر، لا يستطيع، المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالعصفور في القفص، لكن كلمة عصفور كثيرةٌ عليه، خطأ المثل، لكنه محبوس، متضايق .

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(28)الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ

معنى : طوبى :

طُوبى على وزن كُبرى، من طاب يطيب، طابت حياتهم في الدنيا والآخرة، طابت من كل نغص .

(طُوبَى لَهُمْ)

حياةٌ لا توصف لشدة ما فيها من سعادة ..

(طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

معنى : حُسْنُ مَآبٍ :

أي عودة مشرفة إلى الله عزَّ وجل، ما فيها خزي، الكافر ..

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(1)وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(2)عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ(3)تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً(4)تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ(5)لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

(سورة الغاشية)

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران : من الآية 106)

(تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ(41)أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)

(سورة عبس)

فهذا شر مآب، أما المؤمن يستقبل كضيف ..

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

(سورة الحجر)

هنيئاً لكم طبتم ..

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

(سورة الحجر)

إذاً :

(طُوبَى لَهُمْ)

أي طابت حياتهم في الدنيا والآخرة .

(وَحُسْنُ مَآبٍ)

وإذا انقلبوا إلى الله عزَّ وجل ينقلبون إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 30 – 32

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-09-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في تفسير سورة الرعد إلى قوله تعالى :

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

إرسال الرسل سنة خالية في الأمم السابقة :

أنْ يبعث الله سبحانه وتعالى رسولاً إلى الأمة العربية شيءٌ طبيعي، لأن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى كل أمةٍ رسولاً، فإرسال هذا النبي الكريم لهذه الأمة شيءٌ له ما يقابله في الأمم السابقة ..

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ)

كل أمةٍ بدافعٍ من رحمةٍ أو حرصٍ أو رغبةٍ في إسعادٍ الله سبحانه وتعالى أرسل لها رسولاً يهديها سواء السبيل .

الله محمودعلى خلق الكون وعلى إنزال الكتب :

الله سبحانه وتعالى يقول :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : من الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)

(سورة الكهف)

فكأن خلق السماوات والأرض لا يقابله إلا إنزال هذا الكتاب، أي أن الله سبحانه وتعالى لرحمته، وللطفه، ولحرصه على سعادتنا خلقنا، أنعم علينا بنعمة الإيجاد، وأنعم علينا بنعمة الإمداد ..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)

(سورة الرحمن)

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

الحكمةمن كون النبي أميًّا :

لِمَ جعل الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام أُميًّا؟ لو أنه تعلَّم من ثقافة عصره، ثم جاءه الوحي من الله عزَّ وجل لاختلط الأمر على الناس، أهذا من الوحي أو من ثقافته؟ ولكن حكمة الله البالغة جعلت النبي عليه الصلاة والسلام أميًّا، لأن كل الذي سيقوله وحيٌّ من عند الله، إما أنه وحيٌ متلوٌ وهو هذا الكتاب الكريم، وإما أنه وحيٌ غير متلوٍ، وهذه هي السُنَّة المُطَهَّرة .

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل : من الآية 44)

على كلٍ :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

حينما نعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الكتاب من عند الله، من عند خالق السماوات والأرض ..

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت : من الآية 42)

لا ريب فيه، إذا اعتقدنا هذا الاعتقاد وجب أن نُعنى بكل كلمةٍ، وبكل حرفٍ، بل وبكل حركةٍ في هذا الكتاب .

لو طبَّق الناس ما في القرآن لسعدوا في الدنيا والآخرة :

أحياناً تقرأ كلمةً على ورقةٍ، ولكنَّ هذا الكلام خطير، مثلاً: لو قرأت على ورقةٍ طريقة تفجير القنبلة النوويَّة.. فالكلمات حبرٌ على ورق، ولكنَّ هذه الكلمات لو طبِّقت لكان حدثاً عظيماً، وعلى شكلٍ آخر كلمات لو طُبِّقت لسَعِدَ البشر كلُّهم، هذه الحروب الطاحنة التي تشقي البشريَّة، هذا الشقاء الذي شقي به الناس، لأنه من صنع أيديهم، ولو أنهم قرأوا هذا الكتاب وطبَّقوه لكان أثر هذا الكتاب إلى درجةٍ فوق التصوُّر ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : من الآية 9)

للتي هي أصلح، والمطلق على إطلاقه، أقوم في كل شيء، في حياتك الخاصَّة، وفي حياتك العامَّة، فلذلك :

(لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

وقيمة الكتاب من قيمة مُرْسِلِهِ، فكيف إذا كان من عند الله؟ وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، فهل يوازى كتابٌ في مكتبة مع كتاب الله؟ لا يوازى، هذا الكتاب .. فكتاب البشر.. فيه خطأ وفيه صواب، وفيه موضوعات توسَّع في بحثها، وموضوعات اختصر في بحثها، و قد نجد تناقضاً، و قد نرى خللاً، وقد ننظر عدم انسجامٍ أو نشعر بضعف، ولكن كتاب الله سبحانه وتعالى لا ريب فيه ..

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ)

هؤلاء الذين جاءهم الكتاب ليهديهم إلى سواء السبيل، لينقذهم من الظلمات إلى النور، و ليخرجهم من الظلمات إلى النور، و من الشقاء إلى السعادة، ومن حول الشهوات إلى قمم الطاعات، هؤلاء يكفرون بالرحمن، والكفر هنا لا يعني إنكار الوجود إنما يعني الإعراض ..

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

(سورة التوبة)

يصلي ويُنفِق وهو كافرٌ بالله، أي معرضٌ عنه ..

(وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ)

وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ

اسم " الرحمن " :

الرحمن اسم الله الجامِع، أي لطفه من رحمته، وقبضه من رحمته، وبسطه، ومنعه، وعطاؤه، ورَفعه، وخَفضه، وعزُّه، وذلُّه كل ذلك من رحمته، فإذا أذلَّ إنساناً فهذا من رحمته .

فالرحمن اسم الله الجامع، والله اسم الله الأعظم، علمٌ على الذات الكاملة، والرحمن اسم الله الجامع، فالرحمن يجمع أسماء كثيرة ..

(وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ)

وقد تلتقي بإنسان يرى الدنيا عنده كبيرة ولها أهميَّةٌ قصوى، لكن الله سبحانه وتعالى سواءٌ أعرفه أم لم يعرفه، أأرضاه أم لم يرضه، أتقرَّب إليه أم تباعَد عنه، أكان عمله وفق الشرع أم خلاف الشرع، فإنه لا يبالي، و لا يعبأ، ولا يهاب الله عزَّ وجل، و لا يخشاه، فلمَّا هان الله على الناس هانوا على الله، و ضَيَّق عليهم، و شَحَّت السماء، و غَلَت الأسعار، و حينما ينحرف الناس عن الله سبحانه وتعالى يؤدِّبُهُم ويعالجهم .

(قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ

معنى الرب ودلالاته :

ومعنى ربي أي الذي يمدُّني، و ما من كلمةٍ أقرب إلى الإنسان من كلمة رب، كأنك إذا ربَّيت نبتةً، و رعيتها، و وراقبتها، و ولاحظتها، وأمددتها بالماء وبالسماد، وقلَّمتها، وحاولت أن تقدِّم لها كل شيء، فإذا أيْنَعَت ثمارها، واخضرَّ عودها شعرت بجدَّةٍ من السعادة لأنك قدَّمت لها شيئاً ثميناً، والمربي في المدرسة؛ يلاحظ، ويوضِّح، ويقوِّم، ويؤدِّب، ويكافئ، ويجازي ..

(قُلْ هُوَ رَبِّي)

سمعت مرَّة كلمة من إنسان قال يخاطب آخر: إن لم يكن له أب أليس له رب؟ إن كنت يتيماً، أو لم يكن لك رب بيده كل الأمور .

(قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

أي لا مسيِّر لهذا الكون إلا هو، هذا هو التوحيد، فكأنَّ هذا الكتاب كلَّه ينطوي على حقيقة واحدة، وهي أنه لا إله إلا الله، وهذه كلمة الإسلام الأولى، و كلمة التوحيد، فلماذا تعصي الله؟ لأنك رأيت أن هذا الذي تفعله أثمن من الله وأغلى، أما إذا عرفت أنه لا إله إلا الله فإنك لا تطيع إنساناً في معصية الله .

(قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

التوكل على الله قوة وغنى :

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى

المعنى الأول :

تروي كتب التفسير أن بعض كفّار قريش سألوا النبي عليه الصلاة والسلام أن يُسَيِّر جبال مكّة، ويباعد فيما بينها كي تتسع الأرض، وتكون أرحب لهم، وسألوه أيضاً أن يُسَخِّر لهم الريح فينتقلوا بها إلى بلاد الشام غدواً وعشيًّا، وسألوه أيضاً أن يحيي لهم أجدادهم ليكلّموهم، ويستنبئوهم عن الدار الآخرة وعن الجنَّة والنار، و هذا بعض ما قاله المُفَسِّرون، وهناك معانٍ أخرى تُستفاد من هذه الآية ..

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)

حذف جواب (لو)وفائدة ذلك :

لم يأتِ الجواب لأن كلمة (لو)أداة شرطٍ غير جازمة، أي أنها تحتاج إلى فعل شرطٍ وجواب شرط، لو جئتني لأكرمتك، ولو أعطيتني لكافأتُك، و لو أقبلت علي لزرتك، فلو أداة شرطٍ غير جازمة، ولها معنى دقيق حرف امتناعٍ لامتناع، أي امتنع وقوع جوابها لامتناع وقوع شرطها، لو جئتني لأكرمتك، أنا لم أكرمك، امتنع الإكرام بامتناع المجيء ..

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)

لا جواب، قال بعض المفسِّرين: " الجواب مُقَدَّر، وكل كلامٍ فُهِمَ من دون أن يُذْكَر والأوْلى أن لا يُذْكَر، لأن البلاغة في الإيجاز " . إذاً :

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)

لو رأوا كل الآيات لما آمنوا :

لَمَا آمنوا، لماذا؟ لأنهم حينما غفلوا عن هذه الآيات الكبرى التي بثَّها الله في الأرض وفي السماء، إذا غفلوا عن كل هذه الآيات أفيؤمنون ببعض؟ إذا غفلوا عن الكل أفيؤمنون بالجُزء؟ أي أن الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض ..

وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحدٌ

فحيثما التفت، و حيثما نظرت، وأينما ذهبت ترى الآيات طافحة ..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

(سورة الطارق)

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(1)وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا(2)وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا(3)وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

(سورة الشمس)

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25)ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا(26)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(27)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(28)وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(29)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(30)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(31)مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

(سورة عبس)

فالنبات آية، والحيوان آية، وجسمك آية، وأسرتك آية، والطعام آية، والماء آية، والجبال آية، وفي كل شيءٍ له آية، كل هذه الآيات غفلوا عنها وما رأوها، وما فكَّروا فيها، وما دقَّقوا، وما تأمَّلوا، أفيؤمنون ببعض آياتٍ طالبوا بها تعجيزاً وليس استفهاماً؟ لذلك حسبكم الكون معجزة .

كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يؤكّد أن الذي لا يفكّر في الآيات التي بثَّها الله وهي على وضعها الراهن، ما كان له أن يؤمن بالله من خلال خرقٍ لنواميس الكون، إذا كانت نواميس الكون لا تكفي كي تؤمن بالله فإن خرق هذه النواميس لا يكفي أيضاً، إن خرق النواميس لن يحملك على الهدى ما دامت النواميس كلُّها لم تجد فيها ما يكفي كي تؤمن بالله سبحانه وتعالى .

المعنى الثاني :

المعنى الثاني: أن هذا القرآن لو أُنزل على جبل لسار الجبل، لو أنزل على الأرض لقطّعت الأرض و لو أنزل على الموتى لتكلّموا، وأنتم أيها الناس ألم يهُزَّ هذا القرآن عقولكم؟ ألم يهُزَّ مشاعركم ؟

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر : من الآية 21)

على جبل، والقرآن بين أيدينا فيه ذكر ما قبلنا، وذكر ما بعدنا، هو حبل الله المتين، لا يبلى على كثرة الترداد، كلّما زدته فكراً زادك معنى، لا يحزن قارئه، و من تعلَّم القرآن متَّعه الله بعقله حتى يموت ..

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)

وهو كذلك، لو تصوَّرتم أن هذا الكتاب إذا تُلِيَ على جبل سار، وإذا تلي على أرضٍ تقطَّعت، وإذا تلي على ميِّتٍ تكلَّم، وهو كذلك، فلو طبَّقتموه لقَلَبَ حياتكم رأساً على عقِب، و لو طبَّقتموه لحُلَّت كل مشكلاتكم، ولو طبَّقتموه لانتقلتم من الشقاء إلى السعادة، ومن الضياع إلى الوجود، و من سفاسف الأمور إلى عظائم الأمور، و من جهلٍ إلى علم، ومن تعبٍ إلى راحة، ومن قلقٍ إلى طمأنينة، و من شعورٍ بالفقر إلى شعورٍ بالغنى، و من شعورٍ بالتفاهة إلى شعورٍ بالأهميَّة، هذا هو القرآن .

(بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)

المعنى الثالث :

شيءٌ آخر في هذه الآية: أن هذا القرآن الكريم.. هذا المعنى الثالث.. لو جاء به النبي الكريم، فحينما قرأه سارت جبال مكَّة، و حينما قرأه تقطَّعت الأرض أو قُطِعَت به الأرض ..

معنيان: إما أنها تقطعَّت أو قُطعت، لو جاء النبي الكريم بهذا الكتاب فتلاه على الميِّت لنطق هذا الميت، ومع كل هذا لا يؤمن هذا الإنسان إلا إذا سار في الطريق التي رسمها الله له .

تقريباً لهذا المعنى: لو أن إنساناً اشترى كل المجلات الطبيَّة، وقرأها لا يكون طبيباً، ولو أنه قرأ كل المسرحيات لا يكون مؤلفاً، إلا أن يسلك الطريق المحدودة التي رسمتها الجامعة كي تمنح هذا الإنسان هذه الشهادة، فإن لم يفكِّر الإنسان بهذه الآيات التي بَثَّها الله، إن لم يستنبط منها أن هناك إلهاً عظيماً، رحيماً، سميعاً، بصيراً، عليماً، قديراً، قدَّر فهدى، وخلق فسوَّى، إن لم تستقم على أمره، و إن لم تتقرَّب إليه فإن الآيات لا تقدِّم ولا تؤخِّر .

لو أن طالباً نظر إلى مدرسٍ قدير، وهو يحلُّ مسألةً عويصة في الرياضيات، أترى هذا الطالب لو نظر إلى هذا الأستاذ هكذا أيصبح عالماً بالرياضيات؟ لا، ما لم يفتح الكتاب ويقرأ، ما لم يحل المسائل تلو المسائل، و ما لم يسأل، وما لم يحفظ، و ما لم يجرِّب، و ما لم يخطئ ويُصيبْ فلن يكون عالماً بالرياضيات .

هناك طريق رسمها الله عزَّ وجل؛ إن لم نسلكها فلا جدوى من كل ما نفعله من ظواهر العبادات، هناك صلاةٌ يصليها الناس، و هناك صومٌ يصومه الناس، و هناك حَجٌّ يحجُّه الناس، إن لم نكن في الطريق التي رسمها الله عزَّ وجل فلن نقطف ثمار هذا الدين، ولن نسعد لا في الدنيا ولا في الآخرة .

إذاً: في هذه الآية ثلاثة معان .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)

تعقيب لطيف :

الأمر كلُّه لله، فمن الممكن أن تسيَّر الجبال، ولكن ليس هناك جدوى منها ..

مرَّةً قال لي مدرِّس: إن ابنه طلب إليه أن يكتب له موضوعاً في التعبير، والأب أستاذٌ في اللغة العربية، وابنه في صفٍ انتقالي، وليس شيءٌ أهون على الأب من أن يمسك القلم، ويكتب هذا الموضوع في خمس دقائق ليأخذ ابنه غداً علامةً تامَّة، ولكن هذا الأب رفض هذا الطلب، لا لشيء إلا لأن هذا العمل لا يجدي، ولا يرفع مستوى ابنه في اللغة ولا شعرة .. أما إذا كتب الابن الموضوع، وارتكب أغلاطاً كثيرة، وصُحِّحت له فقد يرقى أسلوبه، فحينما يمتنع الأبُ عن كتابة هذا الموضوع لابنه فلا يعني هذا أنه لا يستطيع، حاشا لله، ولا يعني هذا أنه لا يريد نفعه، إنه يستطيع، ويريد نفع ابنه، ولكنَّه لعلمه وخبرته وحكمته رأى أن كتابة هذا الموضوع لابنه من دون أن يبذل الابن جهداً لا يجدي إطلاقاً في رفع مستواه اللُّغوي .

إذا أردت أن أعقِّب مرَّةً رابعة على هذه الآية: أي أن الله سبحانه وتعالى حينما لم يسيِّر جبال مكَّة بهذا الكتاب، ولم تقطَّع به الأرض، ولم يكلَّم به الموتى لا لأن الله لا يستطيع، حاشا له، ولا لأن الله لا يريد الهداية، إنه يستطيع ولو فعل ذلك لما اهتدوا بل زادهم هذا كفراً، ولكنَّهم لو تأملوا وفكَّروا، واستقاموا وتقرَّبوا، وأصغوا واختاروا وأرادوا لاهتدوا، وهذا هو الطريق الذي رسمها الله سبحانه وتعالى لعباده كي يهتدوا إلى الله سبحانه وتعالى ..

(بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)

بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا

الأمر كلُّه بيدِ الله، كن فيكون، زُل فيزول، تحريك الجبل بكلمة، وبحرٌ عظيم بكلمة واحدة صار طريقاً يبساً ..

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِي)

(سورة الشعراء)

سُراقَة بن مالك حينما تبع النبي ليقبض عليه، ويأخذ الجائزة غاصت قدما فرسه في الرمال، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كل شيء في الأرض على الله يسير .

((لو أن أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

نارٌ أضرمها قوم سيدنا إبراهيم سبعة أيام إلى أن كانت كالجبل، كلمة واحدة :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

انتهى الأمر، سيدنا رسول الله اللهمَّ صلِّ عليه وهو في الغار، قال سيدنا أبو بكر : " يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا "، قال :

((يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما " . فلمَّا وقعت عينهم على عين أبي بكر ، العين بالعين أصابه دُعْر وقال : " يا رسول الله لقد رأوني" قال : ألم تقرأ قوله تعالى : وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ(198))))

[ورد في الأثر]

لا يرون، انتهى الأمر، كل شيءٍ بيدِ الله عزَّ وجل، كن فيكون، حتى أجهزتك، تعمل فحصاً فيقول لك: هناك ضيق في الدسَّام الفلاني، لو شاء الله عزَّ وجل لوسَّعه من دون عمليَّة، ولكن هات ثقة بأن الله على كل شيءٍ قدير، وخذ هذا الشفاء من الله عزَّ وجل .

والله أعلم أُناساً كثيرين وضعوا كل ثقتهم بالله عزَّ وجل والتجئوا إليه فشفاهم الله سبحانه وتعالى، وهذا يسمِّيه الأطبَّاء الشفاء الذاتي، فحينما يدرس طلاَّب الطب بعض الأمراض يأتي ذكر الشفاء الذاتي ..

(بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)

فالدماغ بيد الله عزَّ وجل و العضلات بيد الله، و السمع و البصر بيد الله، وهذا سيدنا عمر وهو على المنبر يقول : << يا سارية، الجبلَ الجبلَ >>، و سارية قال : << أسمع صوت أمير المؤمنين يحذِّرنا الجبل >>، الآن تحتاج إلى أجهزة، وأجهزة اتصال، وأجهزة معقَّدة، " يا سارية الجبل الجبل "، من المدينة إلى العراق، كن فيكون ..

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

((لَوْ أَنّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

(بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا

الهدى القسريلا يسعِد صاحبه :

أيها المؤمن، آن لك أن تعرف الهدى القسري، فلو أن الله سبحانه وتعالى أنزل بهم نازلة، ولم يرفعها عنهم إلا إذا اهتدوا، أو صلوا مثلاً فيصلون خوفاً من هذه النازلة، فهل معنى هذا أنهم قد اهتدوا؟ لا والله، ليس هذا هو الهدى، وشيءٌ يسيرٌ عليه أن يهديهم هدىً قسرياً، ولكن هذا الهدى لا يسعدهم، ولا يرفعهم .

إن كتابة موضوع التعبير من قِبَل الأب المدرِّس شيءٌ يسيرٌ على الأب، ولكن كتابة هذا الموضوع لا تُجدي، ولا تنفع الطالب شيئاً، لو أن الله هداهم لأصبحوا ملائكة، ولماذا، لأن طبيعة الإنسان أنه مخيَّر، ومعنى مخيَّر أنه مبتلى، فإذا كان الهُدى قسرياً تعطَّلت علَّة الابتلاء ..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك)

فطبيعة المدرسة هناك امتحان، فلو أنَّك ألغيت الامتحان، أو وَزَّعْتَ على الطلاب أوراقاً مكتوبة بالإجابات الكاملة، لو جئت إلى هذه الأسئلة.. مثلاً.. وكلَّفت كبار المدرسين بكتابة أجوبةٍ عنها، ثم بُعِثَت أوراق الإجابة إلى المطبعة، وطُبِعَت الإجابة التامَّة، ووُزِّع على الطلاب أوراق الأسئلة وأوراق الأجوبة مطبوعةً في المطبعة، وما على الطالب إلا أن يكتب اسمه ورقمه، ويغلق الورقة ويقدِّمها للمراقبين، أهذا امتحان أم هذا نجاح؟ أو أيعدُّ الذي نجح ناجحاً؟ أو يسمى هذا امتحاناً؟ كلا.. فتصوَّر أن إدارة جامعة وزَّعت أوراق الأسئلة وأوراق الإجابة مطبوعاً عليها الإجابة بشكلٍ أمثل كالكتاب تماماً، وما على الطالب إلا أن يكتب اسمه ورقمه فقط تقول: هذا امتحان؟ إن شيءٌ مضحك، أأنت ناجح؟ أتستهزئ به، أهذا نجاح؟

لو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يهدي الناس هدىً قسرياً لكان مثل هذا النجاح لا قيمة له، و لا يسعد، و لا يرفع صاحبه، و لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يسعدنا سعادةً أبديَّة، فجعلنا نختار، و جعلنا نُبْتَلى..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك)

علَّة الخلق الابتلاء، و لو كان الهُدى عامَّاً قسرياً لتعطَّلت علَّة الخلق، ولفقد الإنسان هويَّته، فمن أنت؟ هل أنت إنسان؟ لست ملك، لأن الملك لم يُبْتَلَ، ولم يكن مختاراً، بل كان مسيَّراً لا مخيَّراً ..

(أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

كأن تقول الأم لزوجها المدرس: يا أخي أعطِ الأسئلة لابنك، إنه مسكين، يقول لها: ألا تعلمين بأن إعطاء الأسئلة لا يجدي، و لا يرفعه، وأنا الذي سأفحصه، و إن أعطيته الأجوبة، وكتبت ما أعطيته فما قيمة هذا النجاح؟ دعيه يدرس .

(أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

القضيَّة سهلة، ولكن غير مجدية ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ)

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ

الإنسان حرٌّ في اختياره :

أما هذه الآية ففيها نقطة دقيقة جداً، أي أن الله سبحانه وتعالى لا يتدخَّل أبداً باختيار الإنسان، لكنه يتدخُّل بالظروف المحيطة به، أي رحمة الله تقتضي أن الله عزَّ وجل إذا رأى عبداً قد انحرف، وحوله صعوباتٌ في حياته، فهو مختار، فلو أن كرةً على منبسط لا يمكن أن أمسك بالكرة، وأضعها في المكان الذي أريد، و لو فعلت هذا لأبطلت حريَّة اختيارها ، ولكنني أُغَيِّر طبيعة الأرض، فأضع أمامها عقبات، أو أسهِّل الطريق أمامها فرحمة الله سبحانه وتعالى تنصبُّ على الظروف المحيطة بالإنسان، أما لو تدخَّل الله في اختياره لأبطل الابتلاء، ولأبطل عِلَّة الخلق في الدنيا، ولما كان لهذه الأمانة من معنى ..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

فما الأمانة؟ إنها التكليف، وما التكليف؟ إنه الاختيار، أنت مخيَّر، فالله عزَّ وجل يتدخَّل في الظروف المحيطة، إذا اخترت اختياراً صحيحاً شجَّعك الله ويسَّر أعمالك ..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

" أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد " .

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ)

معالجة الله للعبد إذا انحرف :

أي مصيبةٌ ..

(أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ)

لو فرضنا أباً خيَّر ابنه فقال له: يا بني، إن شئت أن تدرس فأنا مستعد لدفع كل النفقات، وإن شئت أن لا تدرس فأنا مستعد لدفع مصروفك، خيَّره، لكنَّ الأب عالِم بقيمة العلم، و مع أنه خيَّره لو أن الابن اختار أن لا يدرس لضيَّق عليه لقد نصحه، وبيَّن له، و وبَّخه قرَّعه، وأنَّبَهُ، ووجه نظره، و حرمه المال، و ضربه ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ)

المعالجة مستمرَّة، أما لو أن الله سبحانه وتعالى خيَّرنا وتركنا، فاختار واحدٌ منَّا طريق الضلال فأمدَّه الله بالقوَّة، والمال، والصحَّة، والوجاهة، وغَرِقَ في شهواته والاستمتاع بالملذَّات إلى أن انتهى أجله، فجاء ملك الموت، فإذا هو في جهنَّم، ينشأ في نفس هذا الإنسان عتبٌ على الله شديد يقول له: يا رب أنا جاهل، ذكِّرني، ونبِّهني، و أدبني، و عالجني، و ضيِّق علي، و أمرضني، و خوفني ..

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

(سورة طه)

إذاً: هذه المصائب لابدَّ منها ..

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

تقتضي رحمته أن لا يردُّ بأسه عن أحد، فإذا أحبَّ الله عبداً عَجَّل له بالعقوبة، وإذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه.

((إن الله ليحمي صَفِيَّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

[ورد في الأثر]

المصائب سببها عمل الإنسان :

المؤمن مبْتَلى ..

(بِمَا صَنَعُوا)

فيضان ..

(بِمَا صَنَعُوا)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا)

قوارع التأديب كثيرة ومتنوعة :

وهناك حيوان اسمه السَمَك الهُلامي، غزا شواطئ فرنسا وإيطاليا واليونان، وكثافته في البحر على الشواطئ في كل متر مكعَّب خمسة وعشرون سمكة هُلاميَّة، شريط من هذا السمك طوله كيلو متران فيه مليارات من السمك الهُلامي، ثمان وتسعون بالمائة منه ماء، على شكل قنديل، له أرجل على شكل خيوط دقيقة جداً مجوَّفة يمرُّ فيها السُم، هذه الخيوط على شكل حلزوني نابض له زند، وإذا مسَّ هذا السمك جسماً ما انطلقت ملايين الخيوط لتنفث السُم في جسم الضحيَّة، و بعض السبَّاحين في اليونان وصف ما حلَّ به، فقال : " شعرت بلسعةٍ حارَّةٍ في رُكبتي كأنها لسعة مكواةٍ حامية، وبعد دقائق شعرت كأن دبابيس تُغْرَسُ في رأسي، و بعدئذٍ غبت عن الوعي، وحينما أُسْعِفْت قيس ضغطي فإذا هو صفر، " وبعض أنواع هذه الأسماك تقضي على الإنسان في دقيقتين، أما الشيء الذي جذب نظري في هذه المقالة أن كاتب المقالة يقول: " إن علماء الحياة البحريَّة لا يجدون منطقاً أو قاعدةً أو هدفاً في تَحَرُّك هذه الأسماك ".

الطيور لها منطلق من الصيف إلى الشتاء، من بلادٍ باردة إلى بلادٍ حارَّة، من الشمال إلى الجنوب، أكثر الحيوانات، الأسماك، الحيتان هناك قاعدة تحكم تحرُّكاتها، أسماك السلمون، ثعابين المياه، إلا أن هذه الأسماك الهُلاميَّة.. قناديل البحر.. وليس هناك أية قاعدة في تحرُّكاتها، شيءٌ عجيب، قلت: سبحان الله! إذا كان علماء الحياة البحريَّة لم يكتشفوا قاعدةً في تحرُّك هذه الأسماك في المحيطات والبحار، لكن علماء التوحيد يرون أن هناك قاعدةً واضحةً ثابتةً تحكُم تحرُّكات هذه الأسماك، إنها تتجه نحو الشواطئ التي كَثُرَ فيها الفساد، طبعاً هذه القاعدة ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا)

بفسقهم وفجورهم ..

(قارِعَة)

قبل أسابيع غزا الجراد بعض بلاد أفريقيا، فسمعت أنه أكثر من مائة مليون طن من المواد الغذائيَّة، أو المحاصيل، أو النباتات يلتهمها الجراد في يومٍ واحد وهذه مصيبة ثانية ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قارِعَة)

في بلاد أمريكا هناك أعاصير تدمِّر كل شيء، مدينةً بأكملها لا يبقى منها شيء، وهناك سفنٌ ضخمة يَدَّعي صانعوها أنها لا تغرق ففي أول رحلةٍ لها غرقت، قالوا: " إن القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة "، في أول رحلة عليها ثلاثة آلاف مسافر هم قِمَم المجتمع الأوروبي في القرن التاسع عشر، أغنياؤهم، عليَّة القوم، لقد غرقت في أول رحلة ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ)

أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ

الزلازل ..

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

إذاً رحمة الله تقتضي أن يصيب الذين كفروا بقارعةٍ ..

(أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ)

فإذا أردت أن تنجو فكن مؤمناً ..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

عندما دخل سيدنا يونس إلى بطن الحوت ..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

الله ينجي من مصائبه وقوراعه من يشاء من عباده :

أبْشِر، والله الذي لا إله إلا هو لو أن مصيبةً كُتِبَت على ستَّة آلاف مليون إنسان، أي على جميع سكَّان الأرض إلا واحداً الله سبحانه وتعالى يُنَجِّي هذا الواحد بقدرةٍ فائقة .

طائرةٌ تُحَلِّقُ فوق جبال الألب على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم احترقت، فمات جميع ركَّابها إلا واحداً وقع في المكان الذي تصدَّعت منه الطائرة، فنزل على غابةٍ من الصنوبر مجللةٍ بخمسة أمتارٍ من الثلج، فكانت خمسة الأمتار وأغصان الصنوبر المرنة كامتصاصٍ لهذه الصدمة، نزل واقفاً على قدميه، وكذلك إذا أراد الله عزَّ وجل أن ينجي إنساناً فلابدَّ من أن ينجو، فحينما تأتي المصائب، والكوارث

والزلازل، والفيضانات، والجراد والأسماك الهُلاميَّة فالمؤمن وحده ينجو لأنه ما عصى الله على البحر ولو أنه عصاه لجاءته هذه الأسماك ..

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ)

إذا أتى وعد الله فلا ينفع اعتذار :

حينما يأتي وعد الله لا يستطيع هذا الكافر أن يقول: ربي لو ذكرتني، ذكَّرتك مليون مرَّة، ربي لو أنذرتني، لو حذَّرتني، لو وبَّختني، لو قرَّعتني، لو أدَّبتني، لو عالجتني، كل يوم عندك خمسون درساً وأنت أصم وأعمى ..

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

فإذا تابعه الله عزَّ وجل وضَيَّق عليه وعالجه فعليه أن يفرح، لأن معنى هذا أن فيه خيراً، فإذا تركه هملاً فمعناه مقطوعٌ منه الرجاء ..

(حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

هنيئاً لمن اتعظ قبل أن يأتي وعد الله ، هنيئاً لمن عرف الله قبل فوات الأوان ..

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

(سورة الأنعام)

" من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر " .

فالذي تأتيه المصائب، ويفسِّرها تفسيراً أرضيَّاً فهذا مصيبته في نفسه أكبر إذ نفسه هي المصيبة ..

(وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ

الإمهال وإرخاء الحبلبداية النهاية :

الكافر أحياناً يُمَد، و يُمْهَل، و يُرْخَى له الحبل حتى يظُن أن الله يحبه، أو حتى يتوهَّم، ولكن مقياس محبَّة الله ليست عدم نزول المصيبة، ولكن انطباق سلوك الإنسان على شرع الله، أناسٌ كثيرون يُمدُّ الله

لهم مدًّا، فتجد أن الدخل كبير والمعاصي كثيرة، ويظن أن هذه الحياة هكذا، ولا يوجد حساب ..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

فحينما تأتي الضربة القاصمة عندئذٍ يتذكَّر الإنسان ..

(وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

(سورة الفجر)

لا تنفعه عندئذٍ الذكرى، فمقياس محبَّة الله لك شيءٌ واحد، هو انطباق عملك على الشرع، أما سلامتك من المصائب فهذه قد تكون إمداداً وإمهالاً، واسترسالاً، وإرخاء الحبل، الحبل مُرْخَى، لكن إذا شُدَّ الحبل وقعت في الفخ فعلى الإنسان ألا يطمع، فإذا رأيت الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره، لأن في هذا موعظةً بليغة ..

(وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ

وهناك صاحب معمل حلويَّات في لبنان، من أشهر أصحاب معامل الحلويات، كانت طائرة يوميَّة تُرسل إلى بلاد الحجاز من إمداد معمله، طائرة شحن بكاملها يومياً، دخل إلى معمله مرَّةً فلم يعجبه عمل بعض العمَّال، فأمسك عجينة المعمول ووضعها على الأرض وداسها بأقدامه، وقال لهذا العامل: هكذا تُعْرَكُ العجينة، فقال: يا سيدي أبأقدامك؟! قال: نعم الناس تأكل من تحت أقدامي، مضى على هذه الحادثة أربعون أو خمسون يوماً أصيبت رجلاه بمرض الموات.. الغرغرين .. فقُطِعَت رجلاه من الرُكبتين، والآن يجلس في لندن ..

(فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

أيأكل الناس من تحت أقدامك؟ أهكذا تهين نعمة الله عزَّ وجل؟ أهكذا بلغ بك الغرور؟ قُطِعَت رجلاه من ركبتيه ..

(فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

الله عزَّ وجل يُمهل، ولا يُهمل، حتى إذا أخذه لم يفلته، الله سبحانه وتعالى هذا الذي يستهزئ برسل الله قد يجعل تدميرَه في تدبيره، يفكِّر يفكِّر ويدبِّر، فيدمَّر في تدبيره ..

(وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

ما قولك؟ فالسعيد من اتعظ بغيره، والشقي لا يتعظ إلا بنفسه، السعيد من عرف الله في الرخاء، والناجي من عرفه بعد الشدَّة، ولكنَّ الشقي كل الشقي الذي لم يعرفه لا في الرخاء ولا في الشدَّة .

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

في درسٍ قادم إن شاء الله وفي آية مهمَّة جداً أرجأتها لهذا الدرس :

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

وبهذه الآية تجسيد، واحد واقفٌ فوق رأسه ، أحياناً يقف المراقب فوق رأس الطالب، بينه وبينه ثلاثون سنتيمترا.. وهكذا.. يراقب كل حركةٍ، و كل همسةٍ، و كل نظرةٍ، و كل شيءٍ ..

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

إن شاء الله تعالى في درسٍ آخر قادم نشرح هذه الآية بتوفيقٍ من الله وفضله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرعد 013 - الدرس (9-9): تفسير الآية 33 – للأخير

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-09-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في سورة الرعد إلى قوله تعالى :

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

الشكل الحسي لمعنى الآية :

هذا المعنى كان من الممكن أن يكون بشكلٍ تجريدي، لكن الله سبحانه وتعالى عرضه علينا بشكلٍ حسي، كيف إذا وقف إنسان فوق إنسان يتفحَّص عمله حركةً حركة، فأدنى حركة و أدنى إشارة و أدنى عبارة و أدنى كلمة و أدنى نَفَس مسجلٌ عليه، وسوف يحاسبه عليه، الله سبحانه وتعالى قائمٌ على كل نفسٍ بما كسبت .

(يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ)

(سورة الأنعام : من الآية 3)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد : من الآية 4)

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

كالأعمال والنيات والمطامح وما يخفيه الإنسان و ما يعلنه ..

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

الجواب محذوف، لأن ما قبله يدلُّ عليه .

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

كلٌّ مخلوق تحت مراقبة الله :

ويحاسبُها على عملها، قائم بمعنى يعلم ويجزيها على عملها، كمن ليس كذلك، هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله أهم هكذا، فما من إنسان على وجه الأرض وما من حيوان، وحتى النباتات، حتى كل المخلوقات إنما تُحاسب حساباً دقيقاً، لا تُقتل البهائم إلا بغفلة .

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

المراقبة تبعث على الاستقامة :

فهذا المعنى لو أن الإنسان تمثَّله لاستقام على أمر الله، آيةٌ واحدة تبين حكمة الحج :

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة : من الآية 97)

أي أنك إذا علمت أن الله يعلم حُلَّت كل المشكلات، لأنك إذا علمت أنك مراقب تستقيم فلو جاءك خبر أنك مراقب تنضبط انضباطاً عجيباً، هذا إذا كان الذي يراقبك إنساناً، فكيف لو تأكَّدت أن خالق السماوات والأرض يراقبك، وقائمٌ على نفسك، يراقبها، ويراقب مسعاها، و تحركها، و نياتها، و مطامحها، و أمانيها، و رغباتها، و ما تعلنه، و ما تظهره، و ما تسرُّه، و ما تخفيه ..

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

كيف يعصي الإنسان ربَّه و هو يعلمأنه يراقبه وسيحاسبه ؟!

والله الذي لا إله إلا هو شيءٌ واحد يدعو إلى العجب؛ أن ترى إنساناً يعصي الله، كيف لا يرى أن الله معه؟ أن ترى إنساناً يخدع إنساناً، يأكل ماله، و يعتدي عليه، و يتجاوز حدوده معه ويظلمه، فكيف لا يرى أن الله يراقبه، وسوف ينتقم منه، وسوف يحاسبه حساباً عسيراً ؟

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

أي إن ربنا عزَّ وجل كل شيء مكشوف أمامه، فليس الموضوع موضوع علم فقط بل، الموضوع أخطر من ذلك، موضوع علمٍ وموضوع جزاء، يعلم ويجازي إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

ويجزيها بما كسبت، كمن ليس كذلك، لذلك قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

(سورة النساء)

وقوله تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

وقوله تعالى :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد : من الآية 4)

وقوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة المجادلة)

هذه الآيات الكريمة التي توضح أن الله معنا، وهذه الآيات لو عقلنا معناها لاختلفت خطتنا في الحياة كلها، فانتهى الكذب، وانتهى الخداع والتدليس، والانحرافات، والمعاصي، فالعبرة أن تعلم أن الله يعلم .

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

أحياناً الإنسان يكسِبُ عملاً، فيخطط له، و يختاره، و يدفع ثمنه ..

(بِمَا كَسَبَتْ)

فالإنسان يكسب الخير أو الشر، أما الذي لا دخل لك به، ولم تكتسب به إرادةً فهذا له موضوعٌ آخر .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ

الشركاء أسماء لا حقيقة لمسمياتتها :

أي هم بتفاهتهم، طبعاً الشركاء لها أسماء، اللات والعزى، لكن المقصود من هذه الآية أن هؤلاء الشركاء لتفاهتهم و لضعفهم ولجمودهم، إنهم لا يسمعون، و لا ينطقون، و لا يجيرون، ولا يعلمون، لا يتحركون، ولتفاهتهم لا يستحقون الأسماء، فإذا قال الله عزَّ وجل :

(قُلْ سَمُّوهُمْ)

أي ما صفاتهم؟ هل لهم صفات تؤهِّلهم أن يعبدوا من دون الله؟ إن كانت كذلك فما هي؟ وهل لهم تصرف في الكون؟ وهل يسمعون؟ وهل يجيبون؟ وهل يَرَوْن؟ وهل يعلمون؟ وهل يتحركون؟ وهل

ينطقون؟ وهل ينجدون أتباعهم؟ وهل يحفظونهم؟ وهل يدافعون عنهم؟ وهل ينقذوهم؟ وهل يميتوهم؟ وهل يحيوهم ؟

(قُلْ سَمُّوهُمْ)

ما أسماؤهم؟ إنهم لتفاهتهم أتفه من أن يوضع لهم اسم، لأن كلمة اسم تعنى أن تصفه بصفةٍ أساسيةٍ فيه، فحينما تسمَّى الطيارة طيارة لأنها تطير، فإذا قلت لهذا الجسم الكبير الجاثم على أرض المطار سمها، قل له: طيارة ،لأنها تطير، وقد تسمى بعض الأشياء المهمة بأسماء، لكن هذه الآلهة الأحجار التي نحتت وعبدت من دون الله أتفه من أن تسمى .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ)

أي هم أتفه من أن يسمَّوا، وإن كنتم تعتقدون أنكم تعبدونهم لأهليةٍ فما هي هذه الأهلية ؟

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ)

أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ

علمُ الله وسع كل شيء في الأرض والسماء :

الذي يعلم السر وأخفى، وما تسقط من ورقةٍ إلا هو يعلمها، إذا كانت ورقة الزيتون قد سقطت يعلمها الله سبحانه وتعالى ..

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ)

لمجرد أن الله لا يعلمهم إذاً هم غير موجودين، أكبر دليلٍ على عدم وجودهم أن الله الذي يعلم كل شيء لا يعلمهم، إذاً غير موجودين، و معنى موجود أي له تصرُّف .

أحياناً يكون في دائرة شخص موجود، لكنه غير موجود، لأنه لا يفعل شيئاً لا يقدِّم، ولا يؤخِّر، ولا يمنع، ولا يعطي، و لا يوافق، ولا يرفض، فالوجود وجود تحرُّك، وهذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تستطيع أن تفعل شيئاً، إذاً غير موجودة ..

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ)

فإذا وحَّدت استراح قلبك ..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

في أي زمانٍ، وفي أي مكان، لمجرد أن ترى أن في الأرض إنساناً يستطيع أن يفعل شيئاً ما، فهذا شرك، والشرك من لوازمه العذاب ..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْلِ)

أَمْ بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْلِ

هذه آيةٌ رائعة، فمعنى :

(أَمْ بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْلِ)

الأسماء الكاذبة لا تغير من حقيقة مسمياتها :

أي اسمٌ على غير مُسَمًّى، ما قولك لو كتبت على قطعة خشب: سفينةٌ عابرةٌ للقارات مثلاً، هذه الكلمة الضخمة الفخمة هل تغير من حقيقة هذه القطعة من الخشب؟ لا، ظاهرٍ من القول، أي قول ليس له أساسٌ من الواقع، ولو أن واحداً من عامة الناس ممن لا يحمل أية شهادة ذهب إلى المطبعة، وطلب من صاحب المطبعة أن يطبع له بطاقة عليها: دكتور في جراحة القلب من جامعة كذا في أمريكا مثلاً، فهذه العبارة هل تجعله طبيباً؟ هل تغيِّر من حقيقته شيئاً، فهذا هو ظاهر القول، كلامٌ ليس له رصيد، ولا ينطبق على الواقع، ولا تدعمه الحقيقة، فإذا قلت هذا الإله إله المطر، وهذا الإله إله الرياح، هذا كلام ظاهر القول، هو قطعة حجرٍ منحوتة ليس إلا، لا تستطيع أن تفعل شيئاً، وعلى هذا فقس .

قل: فلان يستطيع أن ينفعني، ظاهرٌ من القول، هو عبدٌ ضعيف، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الضر، ولا أن يجلب لها الخير، لو أن الخلايا نمت نمواً عشوائياً فهذا الذي تعبده من دون الله ماذا يفعل؟ يصاب بالذعر، ولو أن مجموعة كريات حمراء تجمَّدت في بعض الشرايين فاختل توازنه، أو اختل سمعه، أو بصره، أو محاكمته، أو تفكيره، أو أصيب بالشلل، ماذا يفعل؟ هذا الذي تعبده من دون الله، أو تخافه، أو ترجوه، أو ترى أن بيده شيئاً ما، هذا لا يستطيع أن يحرِّكَ ساكناً، ولا أن يدفع عن نفسه الضر، ولا أن يجلب لها النفع، كيف تعبده من دون الله ؟

(بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

الكافر زُيِّن له عمله فأعرض عن الله :

هذا الذي كفر، معنى كفر أي أعرض عن الله سبحانه وتعالى، التفت إلى الدنيا، وأدار ظهره للدين، و أعرض عن الله، وعن وعده، وعن وعيده، وعن جنَّته، ورضاه، رغب في الدنيا، فقط، فحالة الإعراض عن الله سبحانه وتعالى هي حالة الكفر، وإذا أعرض الإنسان عن الله سبحانه وتعالى تصبح الشهوات محركاً له ليس غير، فالشهوات يتمنى أن يرويها بالحق أو بالباطل، وبالخير أو بالشر، و بالأسلوب الصحيح أو بالعدوان .

إذاً: هذا الكافر حينما أعرض عن الله عزَّ وجل زُيِّنَ له سوء عمله، فنفسه تنطوي على شهوات، والمؤمن ضبط شهواته وفق الشرع، أما الكافر فحركته شهواته فقط، فأصبحت محركاً لأفعاله، إذاً بدافع من شهوته، وبسبب عمى قلبه، وإعراضه عن الله عزَّ وجل، رأى أن يروي هذه الشهوات من أي طريقٍ كان، وقع في الزنا، وفي الكسب الحرام، والنِفاق، والكذب، والخيانة .

إذاً :

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ)

كلّ حركة الإنسان وراءها رؤية :

فإعراضهم عن الله، وجهلهم به، وبعدهم عنه، وإقبالهم على الدنيا، وجعل الشهوات هدفاً لحياتهم، جُعِلَ مكرهم يبدو لهم مزيناً، والحقيقة أنّ وراء أي سلوك رؤية .

سيدنا يوسف حينما دعته امرأة العزيز قال : معاذ الله، تحليل علمي، لماذا قال: معاذ الله، رأى أن الشقاء كله في الزنا، و رأى في الزنا بعداً عن الله عزَّ وجل، و رأى خيانة الزنا، و رأى انحراف الزاني، و رأى دناءة الزاني، فقال: معاذ الله، ولو ملك الناس رؤيةً كرؤية هذا النبي الكريم لأعرضوا عن الزنا، و هذا الذي يسرق لماذا يسرق؟ رأى أن هذه السرقة خير له، رأى فيها خيراً، فقد رأى أن المال الوفير يأخذه بلا مسؤولية، وغاب عنه أنه سوف يُكْشَف، وسوف يحاسب، وسوف يغضب الله عزَّ وجل، وسوف يَعتدي، وسوف يُعتدى عليه، هذا لم يره .

إذاً: ما من تحركٍ للإنسان إلا وراءه رؤية، فطوبى لمن كانت رؤيته مطابقةً للحق :

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[ورد في الأثر]

هذا الذي يعتدي على أعراض الناس يرى في ذلك متعةً، ومكسباً وغنيمةً، لكنه لو رأى الحق لرآها مغرماً، فالبطولة أن تمتلك الرؤية الصحيحة، فهذه بطولة في زمانٍ عَمِيَت فيه البصائر، وغلبت الشهوات، وصار هم الرجل بطنه، وفرجه، وخميصته، والدرهم والدينار في زمن العمى، في زمن البعد عن الله عزَّ وجل ..

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ))

[الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني]

في هذا الزمن إذا امتلكت الرؤية الصحيحة فأنت بطل :

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

يجب أن ترى أن المال الحرام لا خير فيه، ولا نفع فيه، ولا يسعد، بل يشقي، يذهب ويذهب معه صاحبه، نهاية المال الحرام هو الدمار، فيجب أن ترى هذه الرؤية، ويجب أن ترضى بألف ليرة، وأن تعرض عن مئة ألف ليرة بالحرام، يجب أن ترى أن ألف ليرة تكسبها بالحلال يبارك الله لك فيها، ويسعدك، ويوفِّر عليك نفقاتٍ أنت في غنى عنها، يحفظ صحتك، وصحة زوجتك، وصحة أولادك، ويبارك لك فيها، خيرٌ لك من مئة ألف ليرةٍ تذهب، ويذهب صاحبها معها .

الاتصال بالله تصحيح للرؤية :

الرؤية أيها الإخوة المؤمنون تحتاج إلى اتصالٍ بالله عزَّ وجل، فإذا اتصلت بالله، قال عليه الصلاة والسلام :

((وَالصَّلَاةُ نُورٌ))

[مسلم عن ابي مالك الأشعري]

فأنت موجودٌ على وجه الأرض، مزودٌ بشهواتٍ كثيرة، والشهوات قِوى تدفعك نحو جهةٍ ما، تجوع فتنطلق لتأكل، تجوع جوعاً من نوع آخر فتنطلق لإرواء هذا المَيْل، فالشهوات تحرِّك، فإذا كان مع هذه الحركة نورٌ كشَّاف وهي التقوى، كان هذا التحرُّك سليماً، تنطلق السيارة بسرعةٍ فائقة وقوةٍ شديدة، فإذا كان وراء المقود سائقٌ ذو عينين نفَّاذتين، وأذنين مرهفتين، وحكمةٍ في القيادة، ينطلق بهذه السيارة من مكانه إلى هدفٍ آخر، وتحقق له نفعاً، فإذا أغمض عينيه، وسد أذنيه، وثَمِلَ في قيادته كانت نهايته الدمار، فالشهوات حركة، والتقوى نور، إذا اجتمعت الحركة والنور أدتا إلى السلامة، فإذا انعدم النور مع الحركة لابدَّ من حادث .

فلذلك فإن هؤلاء الذين كفروا بإعراضهم عن الله عزَّ وجل انقطعوا عنه، وبانقطاعهم عنه أصبحوا في

عمى، بقيت الشهوة وحدها تحركهم، والشهوة عمياء .

إنّ الهرة إنْ وضعت لها قطعة لحمٍ تنقضُّ عليها لا تملك بصيرةً، ولا شرعاً، ولا فقهاً، ولا شيء من هذا القبيل، تنقض على اللحم ولو لأي سبب، لكن الإنسان قد يجوع، ولا يأكل إلا حلال، هناك شرع ورؤية و نور وبصيرة .

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ)

أي صدوا أنفسهم عن السبيل ..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : من الآية 5)

المعنى الأول :

الآية من قبيل أنك إذا سرت في أول الدرب بلغت آخره، لمجرد أن تمشي في هذا الطريق سوف تصل إلى نهايته ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

أن الله سبحانه وتعالى يعزى إليه أمر الصد فعلاً، ويعزى إلى الإنسان كسباً، كأن تقول: المعلم قرر أن يُرَسِّب الطالب فلاناً، فالمعلم يعزى إليه الرسوب فعلاً، تنفيذاً، ويعزى إلى الطالب كسباً .

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ)

من كان على طريق الحق فليفرح :

أي من كان على طريق الحق فليفرح، فيجب أن نهنِّئ بعضنا بعضاً إذا كنا على طريق الحق، فنعمة الهدى تمتد إلى الأبد، ولكن أية نعمةٍ في الأرض تنتهي بالموت، ولو أن إنساناً عاش مائة عامٍ في صحةٍ تامة فهذه النعمة التي يلهج بها الناس تنتهي بالموت، ولو كان غنياً فنعمة الغنى تنتهي بالموت، ولو كان ذا شأنٍ فنعمة الشأن العالي تنتهي بالموت، ولكن نعمة الهدى تمتد معكم إلى الأبد، لذلك قيل: تمام النعمة الهدى، قال بعض العلماء في قوله تعالى :

(وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ)

(سورة المائدة : من الآية 6)

تمام النعمة الهدى، لو أنك اهتديت إلى الله عزَّ وجل لهانت عليك الدنيا، فمن عرف الله زهد فيما سواه ولا شيء يعدل الهدى، فإذا اهتديت فلا تثريب عليك، فلا تندم على شيءٍ فاتك من الدنيا، الدنيا عاريةٌ مستردة .

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس : من الآية 58)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

الإضلال جزاء للضلال :

أي استغنى عن الله سبحانه وتعالى فاستغنى الله عنه، سلك سبيل الضلال فوصل إلى آخره، أضل نفسه عن الله عزَّ وجل وحرمها الخير، فحرمها المعرفة، وإذا اخترت طريق الضلال فلا أحد في الأرض يستطيع أن يهديك لأنك مخيَّر، وأنت اخترت هذا الطريق، وأيُّ إنسان ينصحك تستهزئ به .

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ)

أي من أضل الله بسبب أنه سلك طريق الضلال، فلن تجد له ولياً مرشداً ..

(فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(33)لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ)

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ

الدنيا فيها من أنواع العذاب ما لا يُحتمَل :

في الحياة الدنيا عذاب لا يحتمل، وآلام لا تحتمل، وأحياناً يصاب الإنسان بمرضين متضادين، أدوية هذا المرض تزيد هذا المرض سوءاً، وأدوية هذا المرض تزيد هذا المرض سوءاً، ولذلك يقف الأطباء حائرين، ويرفعون أيديهم، ويقولون: لا حيلة للطب في هذين المرضين .. ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا

به.

هناك في الدنيا أمراضٌ لا تحتمل وآلامٌ لا تحتمل، ومشكلاتٌ لا تحتمل، وهناك فقرٌ مدقع كاد أن يكون كفراً، وهناك حاجةٌ إلى لئيم، وذُل، في الأرض وعذاب لا يعلمه إلا الله، فالجسم وحده مسرح لملايين الأنواع من العذاب، وآلام الرأس، وآلام الضغط في المعدة، والأورام الخبيثة، وآلام الظهر، وآلام الأعصاب، فكل مريض يظن أن مرضه من أشد الأمراض، لأن جميع الأمراض صعبة .

(لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

قد يعذَّب الإنسان بالفقر، وقد يعذب بالإهانة، وبالوحشة، قد يعذب بالهم، وبالقلق، وبالجفاف، وبنقصٍ في الأموال والأولاد، وبموت أحد أقربائه، وقد يُبتلى الإنسان بنفسه وبولده وزوجته وباله ومكانته وسمعته .

(لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ)

عذاب الآخرة أعظم وأشقّ :

أشق بكثير، لو أن امرأ اطَّلع على النار، يصيح صيحةً لو سمعها من في الأرض لصعقوا لشدة الهول..

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ

أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن :

ربنا عزَّ وجل إذا ذكر صورةً منتزعة من عذاب النار يُتْبِعُها بصورةٍ من أحوال أهل الجنة حتى نعبد الله خوفاً وطمعاً ورغبا ورهباً .

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ)

المؤمن موعودٌ بالجنة :

وإن شاء الله سبحانه وتعالى المؤمن موعودٌ بالجنة ..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : من الآية 61)

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ)

(سورة التوبة : من الآية 111)

إذا انطبقت على المؤمن صفات المؤمنين انطبقت عليه أيضاً الوعود التي وعده الله بها، فإذا وعِدَ المؤمن بجنةٍ عرضها السماوات والأرض، لا ينبغي أن يبالي في الدنيا، من بلغ الأربعين دخل في أسواق الآخرة، لا ينبغي أن يهتم للدنيا، ومن جعل الدنيا أكبر همه خسرها ومن جعل الآخرة أكبر همه ربح الدنيا والآخرة، والأول خسر الدنيا والآخرة، فلذلك :

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

الأوصاف التي جاءت بكتاب الله عن الجنة هي الأوصاف التي سَمح لنا الحديث عنها، لأن الغيب لا نعرفه إلا بالخبر الصادق، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

أنهار الجنة كثيرة ومتنوعة :

فإذا أردنا أن نُكَنِّي بالأنهار الخيرات، إذا كان هناك أنهارٌ من لبن لم يتغيَّر طعمه، واللبن إذا تغير طعمه تشمئز النفس منه، وأنهارٌ من عسلٍ مصفى، وأنهار من خمر لا غول فيها لذة للشاربين، إذا كانت الجنة تجري من تحتها الأنهار، الخيرات، أي شيءٍ، أي فاكهةٍ، أي طعامٍ، أي متعةٍ ..

طعام الجنة دائمٌ غير مقطوع :

(أُكُلُهَا دَائِمٌ)

فاكهة الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، لا تأتي نوبات نوبات، بل مستمرة، ولا يوجد شيء ممنوع دخوله للجنة، لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة ..

(أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

عاقبة مؤمن الجنة وعاقبة الكافر النار :

أي هذه العاقبة كهذه العاقبة ؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا)

(سورة السجدة : من الآية 18)

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر : من الآية 9)

هل يستوي أهل الجنة وأهل النار ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ

فرحُ المؤمنين بنزول القرآن :

هذا الفرح فرح تطابق الرؤية مع النفس، أحياناً ترى رؤيةً بسبب اتصالك بالله عزَّ وجل، فإذا جاء النص القرآني، وأكَّدها، وصدَّقها تفرح فرحاً لا يعرفه إلا من فرح ذلك الفرح .

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)

والأصحاب الكرام في آيةٍ أخرى وصِفوا بأنهم يفرحون بما أنزل إليهم، سمت نفوسهم، حتى إذا نزل قوله تعالى :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور : من الآية 30)

هم يغضون أبصارهم قبل نزول الآية، سمو نفوسهم حَمَلَهُم على هذه الطاعة، فلما جاءت في نص الكتاب فرحوا، فالمؤمن إذا اتصل بالله عزَّ وجل، وهذه ثقتي لو لم يقرأ كتاب الله لكان في مستواه، لطبقه ومن دون أن يدري، من دون أن يشعر، لأنه ارتفع إلى مستواه، وهذا الذي يتلوه صباح مساء، إن لم يتصل بالله عزَّ وجل فهو في واد وكتاب الله في وادٍ آخر، يتلو كتاب الله ويستمع إلى الغناء ويَطْرَبُ له، فما هذا؟ أبغير كتاب الله تتغنَّى؟ أتستطيع أن تستمع إلى غير كتاب الله؟ أيطربك صوتٌ غير صوت القارئ للقرآن أو المادح بالمديح، وكيف تتفاعل مع هذه المعاني، كيف تطرب لها ؟

((من استمع إلى صوت قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيامة، قيل: وما الآنك؟ قال: الرصاص المذاب))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

فلذلك :

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)

فلو أن إنساناً استقام على أمر الله، وتقرَّب إليه، واتصل به اتصالاً عميقاً، تراه يفعل شيئاً مطابقاً لما في كتاب الله من دون أن يدري، سمو نفسه حمله على هذا، لذلك كانت موافقات عمر رضي الله عنه إذ كان الوحي ينزل موافقاً لآراء عمر رضي الله عنه ..

(وَمِنْ الْأَحْزَابِ)

غيرُ المؤمن ينكر القرآن أو ينكر بعضه :

فسرها بعضهم باليهود والنصارى، أو بأهل الكتاب عامة ..

(مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ)

قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ

تطبيق تعليمات الصانع رقيٌّ بمستوى الإنسان :

فمركز الثقل في هذه الآية أنك إذا سموت إلى الله عزَّ وجل، وارتفعت إلى مستوى كتاب الله تطبقه، وأنت لا تدري، فلذلك قال ربنا عزَّ وجل :

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)

(سورة المائدة : من الآية 48)

الشرعة هي هذا الشرع الحنيف الشريف وهذا المستوى الراقي، فإذا سلكت المنهاج ترتفع نفسك إلى مستوى الشرع، وهناك من يعرض عن سماع الغناء خوفاً من الله عزَّ وجل، وهناك من يعرض عن سماع الغناء اشمئزازاً، هذا الذي يعرض عنه اشمئزازاً سمت نفسه، وهناك من يكظم غيظه خوفاً، وهناك من يتصرف بحلمٍ شديد والحلم الشديد دليل رقي النفس، افحص نفسك من حين لآخر، فهل أنت في مستوى الشرع؟ أم أنت في واد والشرع في وادٍ آخر ؟

(وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا

المعنى الأول :

ولا واق يقيك، ولا ولي يتولى أمرك إن اتبعت أهواءهم، كأن هذه الآية موجهةٌ إلى المؤمنين، إن اتبعت أهواءهم، وأحياناً يسلك الإنسان مسلكاً بدافع الهوى، فيعرف أن هذا حرام، وأن هذا لا يرضي الله، ولكن نفسه تغلبه وهذا الذي يفعل هذا بعيدٌ عن الإيمان الصحيح بعداً كبيراً .

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)

المعنى الثاني :

المعنى الآخر لهذه الآية: أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما ارتفع إلى هذه المنزلة العلية بورعه واستقامته، ولو فعل خلاف ذلك لهبط مقامه.

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(44)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

(سورة الحاقة)

فلو أن النبي عليه الصلاة والسلام داس نملة بغير حق لحاسبه الله عليها، " يا رسول الله مَثَّل بهم لقد اضطهدوك، وأخرجوك، وقتلوا أصحابك "، قال :

((لا أمثل بهم فيمثل الله بي، ولو كنت نبياً))

[ورد في الأثر]

فكمال الله سبحانه وتعالى يقتضي أنه لن يستطيع أحد أن يتقرَّب إليه إلا بالكمال، لكن ليس هناك علاقات أخرى، فالله لا يحابي أحداً، ولا يرتقي الإنسان عند الله إلا باستقامته، ولو أن سيد الأنبياء مَثَّل بأعدائه لمَثَّلَ الله به، أما أهل الدنيا فقد يقربون إنساناً مبطلاً لمصلحةٍ ما، وقد يقربون منحرفاً أو معتدياً أو ظالماً، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يقرِّب إليه إلا من كان مستقيماً .

(وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

(سورة الكهف)

لا أتخذهم عضداً .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً

الأنبياء بَشَر :

الأنبياء بشر ..

محمدٌ بشرٌ وليس كالبشر لأنه جوهرةٌ والناس كالحجر

***

هل الجوهرة حجر؟ لا ليس حجراً، حجر كريم، فالنبي عليه الصلاة والسلام بشر، فيجوع ويشعر بالحر، ويشعر بالبرد، ويغضب .

((إنما أنا بشر أنسى كما ينسى البشر))

[ورد في الأثر]

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة فصلت : من الآية 6)

((أنام وأقوم ، أصوم وافطر أتزوج النساء، فمن رغب عنها فليس من أمتي))

[البخاري عن عائشة]

النبي بشر، ولئلا يظن أنه إله يتزوج، وينجب ذرية، ويأكل الطعام، بحاجةٍ إلى أكل الطعام، ووجود النبي ليس ذاتياً، بل مفتقرٌ إلى فضل الله، ويمشي في الأسواق، ومشيه في الأسواق له معنى دقيق، أي إلى الكسب، محتاجٌ إلى الطعام وإلى كسب الطعام ..

هو بشرٌ وليس كالبشر لأنه جوهرةٌ والناس كالحجر

***

فالنبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق، لكنك إذا غلوت ورفعته إلى منزلةٍ فوق ما وصفه الله بها فقد حدت عن الطريق، وأشهد أنا سيدنا محمداً عبده ورسوله .

(قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

(سورة المائدة : من الآية 77)

من بشرية النبي عليه الصلاة والسلام :

الشمس كُسِفَت، ووافق كسوفها موت سيدنا إبراهيم بن النبي عليه الصلاة والسلام، فظن أصحاب النبي أن الشمس كُسِفَت له، وبلغ ذلك النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: كَسَفَتْ الشَّمْسُ

عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ النَّاسُ : كَسَفَتْ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ))

[البخاري ومسلم]

ليس هناك علاقةٌ أبدا بين كسوف الشمس وموت إبراهيم، وهذا هو الموقف العلمي، ليس فيه دجل، ولا تزوير، ولا إيهام، ولا تدليس، ولا رغبة في أن يرتفع الإنسان إلى مستوى فوق المستوى الذي أهَّله الله به، وكل إنسان له حجم، وإذا أراد أن يصور الناس أنه بحجمٍ أكبر من حجمه فهذا هو الضلال .

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه]

ودَّعه سيدنا عمر قبيل ذهابه إلى العمرة فعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعُمْرَةِ فَأَذِنَ لِي وَقَالَ:

((لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ))

[أبو داود]

هكذا النبي، متواضع، مفتقر إلى الله عزَّ وجل، وحينما فتح مكة ما استطاع أحدٌ أن يرى وجهه لشدة إطراقه والدموع تبلل خده ولحيته الشريفة، دخلها مُطأطئَ الرأس تواضعاً لله عزَّ وجل، هكذا النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا الذي يتكبر على ماذا؟ هذا الذي يقول لك: أنا وأنا، فعلت كذا وفعلت كذا، هو الحُمق بعينه وهو الغباء بعينه .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ

مطالبة قريش النبي بالمعجزات المادية :

ويبدو أن كفار قريش طالبوا النبي عليه الصلاة والسلام بمعجزاتٍ كالتي جاء بها سيدنا موسى وسيدنا عيسى وسيدنا صالح، فربنا عزَّ وجل قال: زمن المعجزات المادية انقضى وقته ،الآن زمن المعجزات العقلية، هذا الكتاب هو المعجزة .

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

الجواب الإلهي : لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ

أي لكل كتابٍ أجل، أي أن كل زمنٍ له صفاته، والنبي دائماً يأتي بلسان قومه، وليس بمعنى بلسان قومه أنه يخاطبهم بالعربية إن كانوا عرباً، وبالعبرية إن كانوا عبريين، لا، معنى بلسان قومه فضلاً عن هذا المعنى الذي يُفهم بديهةً أنه جاءهم بما هو متعارفٌ عليه في عصره، ففي زمن السحر جاء سيدنا موسى بالسحر، وفي زمن الطِب أحيى سيدنا عيسى المَيِّت، وفي زمن البلاغة والبيان جاء القرآن الكريم ليكون معجزة النبي عليه الصلاة والسلام إلى نهاية الدوران .

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

هذه الآيات ليست اختياره، وليست عائدة إليه إنما هي بإذن الله .

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

أي لكل كتابٍ أجل .

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ

هذه الآية في السياق لها معنى، وإذا نُزِعَت من السياق لها معنى آخر "

المعنى السياقي للآية :

معناها في السياق: أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل عصرٍ معجزاته المتعلّقة به، ففي عصورٍ سابقة كان أفضل شيءٍ أن يأتي النبي بالعصا، أصبحت ثعباناً مبيناً، وفي زمنٍ آخر كان إحياء الموتى أفضل شيءٍ يُقنع الناس بنبوة سيدنا عيسى، لكن هذا الزمان محا الله تلك المعجزات، وأثبت مكانها معجزاتٍ أخرى لحكمةٍ يراها الله عزَّ وجل، سياق هذه الآية :

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

المعنى العام للآية :

لها معنى آخر، وبعض العلماء قالوا: أحياناً يتجه إنسان يتجه وجهةً معينة، وهذه الوجهة يستحق عليها العقاب التالي المناسب، فإذا عدَّل وجهته محا هذا العقاب، أي أن الأشياء كلها معلقة ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد : من الآية 11)

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال : من الآية 19)

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف : من الآية 96)

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة : من الآية 66)

إذاً غَيِّر يُغَيِّر، عُد يعُد، استقم عندئذٍ لا تحصي الخيرات .

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ)

كتابة الأشياء أزلا في أم الكتاب :

فأنا مكتوب عنده بالأزل شقي؟ عُد إلى الله تعدْ لك الخيرات، استقم، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، فالآية بالسياق لها معنى، ولها معنى مستقل، لو نزعتها من السياق فلها معنى آخر .

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

أم الكتاب أي أن هذه الكتب مرجعها إلى الله سبحانه وتعالى، الذي محاه مرجعه إلى الله، والذي أثبته مرجعه إلى الله .

(وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ

مهمة النبي البلاغ ، وعلى الله الحساب :

أنت أيها النبي ليس من مهمتك أن تنتظر ما سيحل بهؤلاء الكفار، هذه لله عزَّ وجل، يعذبهم عاجلاً أو آجلاً، يأخذهم الآن، أو يأخذهم بعد أمد، وهذا ليس من مهمتك، مهمتك أن تبلّغهم الحق .

(وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

فهذا الذي ينحرف تقول عنه: لابدَّ من ضربةٍ قاصمة، قد تراها، وقد لا تراها، هناك آيتان ..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

هذه الفاء للترتيب والتعقيب، فأحياناً يحلف الإنسان يميناً غموساً، ما إن يخطو خطوةً خارج المحكمة حتى يقع مشلولاً، هذه وفق الآية الأولى ..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

أحيانا أخرى يحلف الإنسان يميناً غموساً يقتطع بها حق امرؤ مسلم، وتمضي الشهور والسنوات، وبعد عشرين عاماً تأتيه الضربة القاصمة، هذه على الآية الثانية :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

أحياناً يقول لك الإنسان: فلان لم يحدث معه شيء، لي رفيق في المدرسة يشرب الخمر مثلاً، وماله حرام، وينكر وجود الله عزَّ وجل، ومضى عليه عشرون سنة، ولم يحدث له شيء وهو مثل البغل .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هذه ثم، هذا ليس شغلك، تدخُّل بشؤون الله عزَّ وجل .

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

عملك أن تبلّغه الحق وانتهى .

(قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ برِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

لماذا لم يحاسب الله سبحانه وتعالى فلاناً؟ لماذا لم ينتقم من فلان؟ لماذا أمد لفلان؟ هذا تدخُّل في شؤون الله عزَّ وجل، رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، ولم يتعدَّ طوره.. هذا موقف سيدنا عيسى :

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة)

وأحدهم قال لعبد: بلغني أن سيدك سيبيعك، قال له: هو يعرف ما يريد، قال له: لعلي أشتريك، فقال: تعرف شغلك، قال له: أهرب، قال له: أنا أعرف شغلي، كل إنسان يعرف، فهذا من مهمة الله سبحانه وتعالى .

(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ(40)أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا

بقيت آياتٌ قليلة ننهيها في هذا الدرس :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)

المعنى الأول :

بعضهم فسَّر هذه الآية بأن المسلمين في فُتوحاتهم يتوسَّعون، وأرض الكفار تنقص شيئاً فشيئاً، وهذا دليل أن الله سبحانه وتعالى ينصر أنبياءهُ .

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

كيف نصرنا النبي عليه الصلاة والسلام ؟

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)

المعنى الثاني :

المعنى الثاني: أن لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ، فالعلماء يموتون، الأغنياء يموتون، وكلما امتد الزمان نقصت من أطرافها وتجَّار هذا السوق رحلوا واحداً بعد واحد، والعلماء في عصرٍ ما رحلوا واحداً بعد واحد، فالمعنيان متقاربان .

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

لا أحد يستأنف أو يعقب على حكم الله :

القاضي يحكم، والخصم يستأنف، ويأتي قاضي الاستئناف فيعقّب على حكمه، ويبطل حكمه، فالقاضي الاستئناف يحكم، وتأتي محكمة النقض، فتنقض هذا الحكم، ومحكمة النقض تُبْرِمُ هذا الحكم، ويقوم الخصم بإقامة دعوى على القضاء، لكن الله سبحانه وتعالى إذا حكم ليس في الكون جهةٌ تستطيع أن

تعقّب على حكمه لأن حكمه مُبْرَم .

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

الله سريع الحساب :

الحساب سريع، لا يتذوق هذه الآية إلا من دخل إلى قصر العدل، وبقي فيه تسع سنواتٍ من أجل قضيةٍ صغيرة .

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41)وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا)

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا

مكرُ الكفار مكشوف لا يخفى على أحد :

مكر الكفار مكشوف، والمكر قوّته في عدم كشفه، فإذا انكشف انتهى.. فالله :

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

كل شيء بإذن الله :

إذاً: ليس في الأرض مكرٌ ينجح إلا إذا أذِنَ الله له، وليس في الأرض كلها مكرٌ ينجح إلا إذا سَمَحَ الله له، لأن الأمر جميعاً بيد الله .

(وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا)

المكر له، ينفذه أو يبطله .

(يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ

العبرة من يضحك في الأخير :

السين للاستقبال، أي سوف نرى من هو الناجح؟ ومن هو المفلح؟ ومن هو الذكي؟ ومن هو العاقل؟

ومن هو المتفّوق؟ ومن هو الذي عرف الحقيقة؟ سوف نرى ..

(وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

كفاك نصراً على عدوِّكَ أنه في معصية الله ..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

الآية الكريمة :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

(سورة الصافات)

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

(سورة الصافات)

جاءت العنكبوت، ونحن في يوم الهجرة فنسجت :

(وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)

(سورة العنكبوت : من الآية 41)

نصره الله بأضعف خلقه، أما سُراقة فجعل الله قدمي فرسه تغوصُ في الرمال، فالله سبحانه وتعالى كيف يشهد للنبي أنه نبي؟ بنصرته إيَّاه، بالخندق ..

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ(10)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب)

بعدئذٍ جاء الله برياحٍ عاتية، أطفأت نارهم، وقلبت قدورهم، وقلعت خيامهم، ودبَّت الفرقة فيما بينهم ..

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)

(سورة الأحزاب)

فنصره الله في بدر وفي الخندق، في أحد ونشر هذه الدعوة وهذا الدليل، فإذا كان الله عزَّ وجل راضياً عن إنسان يدعمه، وينصره ويوفقه، فكأن الله عزَّ وجل يقول: أنا أشهد له أنه نبي .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ(43))

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًاقُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

الآية لها معنيان :

المعنى التقريري :

معنى تقريري: والذين هم من أهل الكتاب الصادقون يعلمون أني نبي، لأن ذكري موجودٌ عندهم في التوراة والإنجيل .

المعنى التعريفي :

والمعنى الثاني: وتعريفي لكم بهذا الكتاب، وبياني لهذا الكتاب شهادةٌ أخرى، الله يشهد لكم بتوفيقه ونصره ودعمه، وأنا بتبياني لهذا الكتاب أشهد لكم أني نبي .

(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ(43))

وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ

هذه استفهامية ..

النبي عليه الصلاة والسلام بيَّن هذا الكتاب أوسع بيان، وأحاديثه الشريفة التي تزيد على مائة ألف حديث فيما يقدِّر علماء الحديث تشهد للنبي الكريم أنه نبيٌ مرسل .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة يونس 010 - الدرس (17-01): تفسير الآيتان 1 – 2..... 1

سورة يونس 010 - الدرس (17-02): تفسير الآيات 2 –4 21

سورة يونس 010 - الدرس (17-03): تفسير الآيات 5 –9..... 40

سورة يونس 010 - الدرس (17-04): تفسير الآيات 9 –11..... 56

سورة يونس 010 - الدرس (17-05): تفسير الآيات 12 –17..... 74

سورة يونس 010 - الدرس (17-06): تفسير الآيات 17 –23..... 94

سورة يونس 010 - الدرس (17-07): تفسير الآيات 23 –27..... 113

سورة يونس 010 - الدرس (17-08): تفسير الآيات 31 – 36..... 131

سورة يونس 010 - الدرس (17-09): تفسير الآيات 33 –38..... 149

سورة يونس 010 - الدرس (17-10): تفسير الآيات 39 –48..... 168

سورة يونس 010 - الدرس (17-11): تفسير الآيات 42 –51..... 182

سورة يونس 010 - الدرس (17-12): تفسير الآيات 53 –59..... 200

سورة يونس 010 - الدرس (17-13): تفسير الآيات 61 –70..... 218

سورة يونس 010 - الدرس (17-14): تفسير الآيات 71 –73..... 238

سورة يونس 010 - الدرس (17-15): تفسير الآيات 74 –82..... 255

سورة يونس 010 - الدرس (17-16): تفسير الآيات 83 –93..... 273

سورة يونس 010 - الدرس (17-17): تفسير الآيات 94 –109..... 292
سورة هود 011 - الدرس (16-01): تفسير الآيات 01 – 05..... 310
سورة هود 011 - الدرس (16-02): تفسير الآية 6..... 328
سورة هود 011 - الدرس (16-03): تفسير الآيات 07 – 11..... 346
سورة هود 011 - الدرس (16-04): تفسير الآيات 12 – 24..... 363
سورة هود 011 - الدرس (16-05): تفسير الآيات 25 – 28..... 383
سورة هود 011 - الدرس (16-06): تفسير الآيات 29 – 34..... 401
سورة هود 011 - الدرس (16-07): تفسير الآيات 35 – 49..... 421
سورة هود 011 - الدرس (16-08): تفسير الآيات 50 – 60..... 443
سورة هود 011 - الدرس (16-09): تفسير الآيات 61 – 68..... 464
سورة هود 011 - الدرس (16-10): تفسير الآيات 69 – 83..... 481
سورة هود 011 - الدرس (16-11): تفسير الآيات 84 – 86..... 502
سورة هود 011 - الدرس (16-12): تفسير الآيات 87 – 95..... 517
سورة هود 011 - الدرس (16-13): تفسير الآيات 96 – 104..... 534
سورة هود 011 - الدرس (16-14): تفسير الآيات 105 – 109..... 551
سورة هود 011 - الدرس (16-15): تفسير الآيات 110 – 117..... 569
سورة هود 011 - الدرس (16-16): تفسير الآيات 113 – 123..... 587
سورة يوسف 012 - الدرس (11-01): تفسير الآيات 1 – 3 608

سورة يوسف 012 - الدرس (11-02): تفسير الآيات 4 – 10 624
سورة يوسف 012 - الدرس (11-03): تفسير الآيات 11 – 21 638
سورة يوسف 012 - الدرس (11-04): تفسير الآيات 22 – 29 656
سورة يوسف 012 - الدرس (11-05): تفسير الآيات 30 – 42 674
سورة يوسف 012 - الدرس (11-06): تفسير الآيات 50 – 57 695
سورة يوسف 012 - الدرس (11-07): تفسير الآيات 58 – 76 714
سورة يوسف 012 - الدرس (11-08): تفسير الآيات 76 – 100 732
سورة يوسف 012 - الدرس (11-09): تفسير الآية 101 755
سورة يوسف 012 - الدرس (11-10): تفسير الآيات 102 – 108 760
سورة يوسف 012 - الدرس (11-11): تفسير الآيات 109 – 111 781
سورة الرعد 013 - الدرس (9-1): تفسير الآيات 1 – 3 786
سورة الرعد 013 - الدرس (9-2): تفسير الآية 3 807
سورة الرعد 013 - الدرس (9-3): تفسير الآيات 4 – 13 809
سورة الرعد 013 - الدرس (9-4): تفسير الآية 11 829
سورة الرعد 013 - الدرس (9-5): تفسير الآيات 12 – 16 833
سورة الرعد 013 - الدرس (9-6): تفسير الآيات 17 – 21 852
سورة الرعد 013 - الدرس (9-7): تفسير الآيات 25 – 29 871
سورة الرعد 013 - الدرس (9-8): تفسير الآيات 30 – 32..... 892

سورة الرعد 013 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 33 الى اخر السورة 909

الفهرس.....932

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

القرآن الكريم

تفسير من إبراهيم حتى الإسراء

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 – 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-09-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، سورة اليوم سورة إبراهيم أبي الأنبياء عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام .

(الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

الإنسان بين الظلمات والنور :

في هذه الآية مركز ثِقَل، الظلمات والنور، ربنا سبحانه وتعالى كَنَّى عن الهدى بالنور، وكنَّى عن الضلال بالظُلمات، فالكافر في ظلماتٍ بعضها فوق بعض ..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة : من الآية 257)

لو أن الرجل دخل الأسواق وباع واشترى وليس له معرفةٌ في الله فهو في ظُلُمات، أغلب الظن أنه يكسب مالاً حراماً، أغلب الظن أنه يُسيء للآخرين، فإذا كان مؤمناً، مهتدياً، متَّبعاً لكتاب الله فهو في نور، يكسب ماله كلَّه حلالاً ..

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[الطبراني في المعجم الأوسط عن ابن عباس]

فحضور مجالس العلم ليس من باب أن نضيف إلى مُتعنا متعةً جديدة، لا، حضور مجالس العلم فرضٌ لسلامتنا، وفرضٌ لسعادتنا، وفرضٌ لدخولنا الجنَّة، لأن الجاهل لا يستوي مع العالم ..

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر : من الآية 9)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

الرجل الذي يتزوَّج ولا يعرف الله سبحانه وتعالى قد يُخْرِبُ حياته بنفسه، بيديه، لأنه جاهل لا يعرف كيف يعامل الزوجة، في ظلمات، لساعة غضب يحلف عليها يميناً بالطلاق، قد يتساهل في أشياء، ينشأ

اختلاط، تنشأ محبَّةٌ، تنشأ خيانةٌ، كل ذلك بسبب أنه في ظلمات بعضها فوق بعض، فالزوج المُنْقَطِعُ عن الله عزَّ وجل في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، والتاجر المنقطع عن الله عزَّ وجل في ظلماتٍ بعضها فوق بعض .

مهمة الأنبياء إخراج الناس من الظلمات إلى النور :

ما مهمَّة الأنبياء؟ كأنَّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حدَّد مهمَّة النبي عليه الصلاة والسلام :

(لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور)

الضلال ظلمات، والهدى نور، الجهل ظلمات، والعلم نور، المعصية ظلمات، والطاعة نور، الانقطاع عن الله ظلمات، والاتصال به نور، هذه مهمَّة الأنبياء، وهذه مهمَّة النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه مهمّة الدعاة الصادقين من بعده ..

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : من الآية 108)

(لِتُخْرِجَ النَّاسَ)

والله الذي لا إله إلا هو ما من تشبيهٍ وتمثيلٍ أوضح من أن يُشبَّه العلم بالنور والضلال بالظلمات، المهتدي يُحِسُّ بأنَّ الجاهلَ في ظلمات، يتخبَّط خَبْطَ عشواء، ينفعل من دون سبب، يرضى من دون سبب، يسيء علاقاته مع الناس لأنه جاهل، فإذا كنت مهتدياً فأنت على بصيرة ..

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : من الآية 108)

لذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : من الآية 219)

((ما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب))

[ورد في الأثر]

أثمن شيءٍ يمنحك الله في الدنيا أن تعرفه وأن تكون أديباً معه ومع خلقه ..

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ))

[سنن الترمذي عن أبي هريرة]

أثمن شخصيَّةٍ في الحياة شخصية المؤمن لأنه عرف الله، سَمَتْ نفسه، تفتَّح عقله، تيقَّظ حسُّه، نمت

مشاعره، يرى ما لا يراه الناس، يسمع ما لا يسمعون، يحتكم إلى القِيَم، تحكمه القيم، هذه صفات المؤمن، المؤمن شخصيَّةٌ فذَّة، كلمة مؤمن لقبٌ علمي ..

((ما اتخذ الله وليّاً جاهلاً لو اتخذه لعلَّمه))

[ورد في الأثر]

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ))

[سنن الدرامي عن مسْروق]

لقبُ مؤمنٍ لقبٌ جمالي، المؤمن سعيدٌ بالله عزَّ وجل، مطمئنٌّ إلى عدالته، راضٍ بقضائه، مستسلمٌ لقدره، مصدِّقٌ لوعده، يخاف من وعيده ..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية : من الآية 21)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : من الآية 61)

فلذلك :

(لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

هل أنت في نور؟ هل تُحسُّ أنَّكَ مهتدٍ؟ هل ترى الأشياء واضحةً؟ هل ترى كيف تتخذ القرار في شأن زوجتك؟ في شأن عملك؟ في شأن أصدقائك، في شأن جيرانك؟ في شأن صحَّتك؟ ..

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)

القرآن يخرج الناس من الظلمات إلى النور :

يا أيها الإخوة الأكارم ... كتاب الله بين أيدينا نقرأه، ونحفظه، ونستمع إليه، ونستطيع أن نستمع إلى تفسيره، إذاً هذه مائدة الله سبحانه وتعالى، يدعوكم الله إليها، هذا كتابه، هذه آياته، هذه كلماته، كتابٌ :

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت : من الآية 42)

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)

الهدى ثمنه طاعة الله :

لأن الإنسان إن لم يأذن الله له بالهدى لا يهتدي، وإذن الله سبحانه وتعالى له قاعدة، القاعدة هي أنك إذا دفعت الثمن قبضت الجائزة، الهدى ثمنه طاعة الله عزَّ وجل، ثمنه أن تكون وَرِعاً ..

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعة من مُخَلِط))

[الجامع الصغير عن أنس]

ثمنه أن تجاهد نفسك وهواك، جاهد تُشاهد، ثمن الهدى مبذولٌ للناس كلّهم، فمن دفع الثمن قبض الجائزة، فضل الله سبحانه وتعالى واسع ..

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)

الهدى أمنٌ وسلامة:

من يشاء من العباد، يشاء يعود فاعلها على العباد ..

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

(سورة البقرة : من الآية 105)

فالله سبحانه وتعالى لا يأذن إلا للصادق، لا يأذن للكاذب، لا يأذن للمنافق، لا يأذن للمُرائي، لا يأذن للفاسق، لا يأذن للمُخَلّط .. الفاسق، والمخلّط، والمُرائي، والفاجر، والمنافق هؤلاء جميعاً لا يأذن الله لهم بالهدى .. ولو قرؤوا كتب الثقلين، ولو حفظوها عن ظهر قلب، الثقافة شيء والهدى شيءٌ آخر، الثقافة تبقى في الدماغ، تُكْسِبُ صاحبها حَذْلقة لا قيمة لها بعد الموت، لكن الهدى يتغلغل في كل خليةٍ من خلايا جسدك، قلبُك مهتدٍ، جوارحك في طاعة الله، اهتماماتك في مرضاته، قلقك على رضاه، رغبتك في القُرْبِ منه، فالهدى سعادة، الهدى رؤية، الهدى انضباط، الهدى سموّ، الهدى خُلُق، الهدى تفاؤل، الهدى أمن، شعورٌ بالأمن ..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

الفرق بين السلامة والأمن هو أن السلامة ألا تُصاب بمصيبة، ولكنَّ الأمن أثمن من السلامة وهو ألا تتوقَّع المصيبة ..

أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرضٍ، وتوقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا كتاب الله سبحانه وتعالى، منهجنا، دستورنا، فيه نبأ مَن قبلنا، ونبأ من بعدنا، حبل الله المتين، فيه نظامٌ لحياتنا، تقنينٌ لعلاقاتنا، توضيحٌ لمنهجنا في الحياة ..

الله عزيز لا يُذلُ من يطيعه :

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

اختار الله عزَّ وجل من أسمائه الحُسنى في هذه الآية اسم العزيز، العزيز الذي لا يُنال جانبه، أي أنك إذا كنت مع العزيز فأنت عزيز .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

(سورة فاطر : من الآية 10)

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة المنافقون : من الآية 8)

((إنه لا يذلُّ مَن واليتَ ولا يعزُّ مَن عاديتَ))

[أبو داود عن الحسن بن علي]

إذا كنت تبتغي العزَّة فإن العزَّة لله جميعاً ..

(إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ)

هو عزيز أيْ : منيع الجانب، لا تستطيع جهةٌ في الكون أن تصل إليه، ولا أن تنال منه، فإذا كنت معه فأنت أقوى الناس، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، إذا أردت أن تكون عزيزاً فكن مع العزيز، كن في حماية العزيز، لُذْ بالعزيز ..

الله يُحمدعلى كل شيء :

(الْحَمِيدِ)

ومع أنه عزيز، ومع أن أحداً لا يستطيع أن ينال منه، ومع أن أحداً لا يستطيع أن يصل إليه، ومع أن أحداً لا يستطيع أن يعقّب على حكمه، ومع أن أحداً لا يستطيع أن يشركه في الحكم ..

(الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

هو حميد، أغلب الظن أن بعض الأشخاص الذين إذا قوي شأنهم لَمْ يبالوا أن يمدحهم الناس أو أن يذمُّوهم، لكن الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحُسنى، فمع أنه عزيزٌ هو حميد، يُحْمَدُ على أفعاله كلِّها، يُحْمَد على تصرُّفاتِه كلِّها، ليس في الإمكان أبدع مما كان ..

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

يوم القيامة الله سبحانه وتعالى يكشف للرجل عن كل شيءٍ ساقه إليه في الدنيا، فلا يسعه إلا أن يقول : الحمد لله رب العالمين، يحمده على الضرَّاء، يحمده على الفقر، يحمده على فقد البصر، يحمده أن جعله

عقيماً، يحمده أن جعل له أولاداً إناثاً جميعاً، يحمده أن جعله فقيراً، يحمده أن جعله مريضاً، يحمده أن جعله مُعَذَّباً، لأن الله سبحانه وتعالى يكشف للمرء يوم القيامة عن كل شيء ساقه إليه فلا يسعه إلا أن يحمد الله عزَّ وجل، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله، هذه من كلمات الإسلام الكبرى، فأنت تقول في الصلاة :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الفاتحة)

إما أن تقولها بلسانك، وإما أن يقولها قلبك، فهل ترى أن كل شيءٍ ساقه الله لك يُحْمَد عليه؟ هل أنت راضٍ عنه؟ .. أعرابيٌّ يطوف بالكعبة ويقول: " يا رب ارضَ عني "، فقال له الإمام الشافعي وكان وراءه: " يا هذا هل رضيتَ عن الله حتى يرضى عنك؟ " . فقال : " سبحان الله مَن أنت؟ " . قال : " أنا الشافعي "، قال: " وكيف أرضى عنه وأنا أتمنَّى رضاه؟ " . قال : " إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله " ..

أن ترضى عن الله في الرخاء شيءٌ لا يكلِّف شيئاً، شيءٌ بديهي ولكن البطولة، ولكن الإيمان الصحيح أن ترضى عنه في الشدَّة، وعند الصدمة الأولى أن تقول : يا ربي لك الحمد، يا ربي لك الحمد على كل حال، النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أصابته ضرَّاءٌ صَبَرْ ، وكان إذا أصابته سَرَّاءٌ شَكَرْ، وليس هذا لغير المؤمن ..

((إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرًا))

[مسند أحمد عن صهيب]

(صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

أي أنك إذا اهتديت بهذا الكتاب نقلك من الظلمات إلى النور، وبهذا النور رأيت الطريق إلى الله عزَّ وجل، والطريق إلى الله طريق الخلود، قبل أيَّام ذكرت في مجلسٍ خاص أن نعمة الصحَّةِ نعمةٌ ثمينة جداً إلا أنها تنتهي عند الموت، فلو عاش الإنسان مائة وعشرين عاماً لا يشكو شيئاً يأتي الموت فيضع حداً لهذه النعمة، ولو كان غنيَّاً وأنفق طول حياته إنفاقاً هائلاً، وكان دخله أكبر بكثيرٍ من مصروفه، ومْا ذاق طعم الحاجة طِيلة حياته، ولا ذاق طعم الفقر، فلو عاش مائتي عام يأتي بعدها الموت فيضع حداً لهذه النعمة .

ولكن نعمة الهدى تستمرُّ إلى الأبد، إذا جاء ملك الموت وكنت مهتدياً فهنيئاً لك إنك في جنَّاتٍ ونعيم، إنك في مقعدٍ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، إنك في القُرب من الله سبحانه وتعالى، فلذلك نعمة الهدى أثمن نعمة ..

(صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(1)اللَّهِ)

اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

صاحب الأسماء الحُسنى، اسم الذات الأعظم ..

(اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

الكون كله لله ملكًا وتصرفًا ومصيرا :

له، هذه اللام لام المُلْكِيَّة، أي أنَّ ما في السماوات والأرض مِلْكٌ له، مُلْكًا وتصرُّفًا ومصيراً، فكيف تعبد غيره؟ كيف تسعى إلى غيره؟ كيف يهمُّك رضاء غيره؟ كيف تخاف غيره؟ كيف تسعد بغيره؟ كيف تبذل عمرك الثمين من أجل غيره؟!

(اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

هذا ما ينتظر الكافر :

الويل هو الهلاك، كنت مرَّةً قد ضربت مثلاً : أن سائقاً يقود سيَّارته في طريقٍ هابطة وفيها انعطافاتٌ حادَّة، وعلى جوانب الطريق وديانٌ سحيقة، فجأةً اكتشف أن المِكْبَحَ قد تعطَّل وأن سرعته كبيرة، قبل أن يقع في الوادي يقول : قد هلكت، قد ينادي بويله، ما الويل؟ الهلاك المحقَّق، قد يقول هذا السائق : متنا، هو لم يمت بعدُ ولكن يقولها لأن الموت محقَّق..

(وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

موتهم محقَّق، هلاكهم محقَّق، شقاؤهم محقَّق، دخولهم النار محقَّق، فالمسألة مسأله وقت إلى أن يتوقَّف القلب عن الخفقان، إلى أن يأتي الأجل، إلى أن تُكْتَب النعوة، إلى أن تنتهي السنوات، والأشهر، والأيام، والسَّاعات، والدقائق، والثواني التي منحها الله للعبد، إن الحياة دقائقٌ وثوانٍ، أنت بضعة أيَّام كلَّما انقضى منك يومٌ انقضى بضعٌ منك ..

كل ابن أنثى وإنْ طالتْ سلامته يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ

فإذا حملتَ إلى القبور جنازةً فاعلمْ بأنَّك بعدها محمولُ

العاقل يضع ساعة الموت أمامه :

أيها الإخوة الأكارم، العاقل مَن يضع هذه الساعة نُصْبَ عينيه، ساعة الموت، ساعة نزول القبر، ساعة دخول المسجد في نَعْشٍ، ساعة الصلاة عليك، لا أن تصلي في الناس، كل إنسانٍ لابدَّ من أن يدخل المسجد مرَّةً في حياته، كل إنسان مسلم يدخله ليُصلَّى عليه ..

(وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

ألا تصدِّق الله سبحانه وتعالى؟ ألا تخشى هذا اليوم؟ ألا تخشى هذا العذاب الشديد؟ ما بالك تخشى تهديد إنسان؟ ما بالك تصدِّق وعيد إنسان؟ لو أنَّك خشيت الله عزَّ وجل كما تخشى إنساناً تخاف منه وأنت تعلم أنه إذا قال فعل، لو خشيتَ الله عزَّ وجل كما تخشى إنساناً لدخلت الجنَّة، من هؤلاء الكافرون الذين توعَّدهم الله بالعذاب الشديد؟

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ

هذه هي الدنيا التي يلهث الناس وراءها :

أرادوا الدنيا مع أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها همًّا))

[ورد في الأثر]

((من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

[ورد في الأثر]

((الدنيا جيفة طلابها كلابها))

[كنز العمال عن علي موقوفا]

((الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ))

[أحمد عن عائشة]

قال عليه الصلاة والسلام : وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسَ رضي الله عنهما قَالَ :

((مَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم بِشَاةٍ مَيْتَةٍ قَدْ أَلْقَاهَا أَهْلُهَا ، فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

[أحمد]

عديّ بن حاتم أنه

((جاء النبي عليه الصلاة والسلام، فرحَّب به النبي وكان ملكاً في شمال الجزيرة، فلمَّا انفضَّ المجلس أخذ بيده إلى البيت، وهذا من إكرام النبي له، قال عدي: في الطريق استوقفت النبي الكريم امرأةٌ مسنَّةٌ ضعيفة فقيرة، فوقف معها طويلاً تكلّمه في حاجتها، فقلت في نفسي: " والله ما هذا بأمر مَلِك، فلمَّا دخلتُ البيت ـ انتبهوا، النبي عليه الصلاة والسلام قمَّة المجتمع الإسلامي، هو في القمَّة ـ تناول وسادةً من أدمٍ محشوَّةً ليفاً وقال : " اجلس عليها "، قلت : " اجلس عليها أنت " قال: "بل أنت "، فجلست عليها وجلس هو على الأرض))

[ورد في الأثر]

لو كانت للدنيا قيمة لملكها الأنبياء :

إذاً: ليس في بيته كلّه إلا وسادةٌ واحدة، فلمَّا جلس عليها ضيفه جلس هو على الأرض، فهل للدنيا شأنٌ عند الله؟ لو أن لها شأناً لأعطاها لحبيبه، فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا؟ فإن قال : أهانه فقد كذب، وإن قال : أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا .

دخل عليه عمر رضي الله عنه فرآه نائماً على الحصير، وقد أثَّر الحصير في خدِّه الشريف، فبكى عمر، قال :

((... وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ مَا يُبْكِيكَ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ))

[البخاري عن ابن عباس]

أما ترضون أيها الإخوة أن تكونوا في الآخرة من السعداء؟ أن تكونوا في الحياة الأبديَّة في الجنَّة؟ أن تكونوا في مَرْضاةِ الله عزَّ وجل، أن تكونوا في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر؟ أن تكونوا في ظلِّ الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه؟ أن تتمتَّعوا برؤية الله سبحانه وتعالى .. " ينظر المؤمن إلى الله عزَّ وجل نظرةً يغيب بها خمسين ألف عامٍ من نشوة النظرة

((أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ))

[أحمد عن أنس]

أما ترضى أن يكون الله راضياً عنك؟ أما ترضى أن يكون نصيبك في الدنيا معرفة الله عزَّ وجل؟ أن تكون مستقيماً؟ ما لك تتمنَّى ما عند الناس ؟

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة النساء : من الآية 32)

ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

((عبدي، خلقت لك ما في السماوات والأرض ولم أعْيَ بخلقهن، أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين؟ وعزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلّطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، لي عليك فريضة، ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

[ورد في الأثر]

أيها الإخوة الأكارم، كن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، انقل همومك كلها إلى الدار الآخرة ..

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ))

[ابن ماجه عن ابن مسعود]

((اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلَّها))

[ورد في الأثر]

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

لا تأخذ الفانية وتترك الباقية :

يريدُ الدنيا، يريد مالها، نساءها، مركباتها الفخمة، بيوتها الفخمة، يريد بيتاً فيه تدفئةٌ مركزيَّة، يريد بيتاً مكيَّفاً في الصيف، يريد أثاثاً فخماً، يريد فُرُشاً نفيسةً، يريد طعاماً فاخراً، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((نِعْمَ الإدام الجوع))

[ورد في الأثر]

كن جائعاً وكفى، أيُّ طعامٍ تأكله تَرَهُ طيّباً ..

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

فإذا حصَّلت بيتاً، وزوجةً، ودخلاً، ومركبةً من طريقٍ مشروع فذلك مقبول، أما أن تحصِّل الدنيا عن طريق المعصية، وعن طريق الكذب والنفاق والتزوير والتدليس، وعن طريق غش المسلمين، تُحَصِّل الدنيا بمعصية والدنيا فانية، تفنى الدنيا وتبقى المعصية، تحصَّل الدنيا بغضب الله، تذهب الدنيا ويبقى غضب الله .

فيا أيها الإخوة الأكارم ...

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

صفات الكفَّار أنهم يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة، أما المؤمن فإن الدنيا تنتقلُ من قلبه إلى يديه، نعم تنتقل مِن قلبه إلى يديه، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((إن أكيسَكم أكثرُكم للموت ذكراً، وأحزمَكم أشدُّكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزوُّد لسكنى القبور، والتأهُّب ليوم النشور))

[ورد في الأثر]

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

هذا الذي أحبَّ الحياة الدنيا إذا رأى ابنه يصلي، ويغضُّ بصره عن محارم الله، وامتنع عن رؤية زوجة أخيه لأن القرآن يمنع ذلك، يقيم عليه النكير، ويريد أن يصدُّ ابنه عن سبيل الله، إذا رأى شريكه يترفَّع عن أكل مالٍ حرام، أو عن حسم السندات، أو عن البيع بسعرين، يقيم عليه النكير ليصدَّه عن سبيل الله، همُّه الأوحد أن يبعد الناس عن طريق الحق، أن يكرِّهُهُم بطريق الحق، أن يرغِّبهم في الدنيا، هؤلاء الكفَّار هم :

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

العوج عند أصحاب الدنيا :

في بيعهٍ عِوَج، يُدَلِّس، يكذب، يبالغ، في علاقته بزوجته عِوَج، يسلك الطريق غير المشروع، في علاقته بالناس يسلك طريق العِوَج، يكذب، ويدلِّس، ويحتال، ويختال، ويوهم ..

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

فوصف ربّنا دقيق ..

(يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

الطُرُقُ المشروعة مغلقةٌ، الطرق غير المشروعة مفتَّحة، أي أن صاحب العمل لا يسمح لك أن تأخذ حَقَّك، لكنَّك إذا غافلته وأخذت حقَّك وهو لا يدري بقي صامتاً راضياً، فلِمَ منعته الحق؟ ..

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

الضلال البعيد :

قد تسير في طريقٍ خطأ، تسير فيه مائتي كيلو متر، نقول لهذا الذي ضلَّ الطريق: لقد ضلَّ ضلالاً بعيدا، وقد تكون لوحةٌ كبيرةٌ توضِّح وجهة الطريق، مع أنّك قرأتها، ومع أنك رأيتها سرت في طريقٍ آخر، نقول: هذا ضلالٌ مبين، هناك ضلالٌ مبين، وهناك ضلالٌ بعيد، فالكفَّار لحبِّهم للدنيا، وإيثارهم

لها، وصدِّهم عن سبيل الله، وابتغاء العِوَجَ في علاقاتهم كلَّها، الكفَّار بهذا قد ضلوا ضلالاً بعيداً عن طريق الحق، عن طريق السلامة، عن طريق السعادة، عن طريق الخُلود ..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ

المعنى الأول :

المعنى الأول المستفاد من هذه الآية : أن كل نبيٍّ ينطق بلغة قومه وإلا فمستحيل أن يكون مع النبي مترجمون ليترجموا لأقوامه، مِن رحمة الله بعباده أن يجعل أنبياءَهُ ينطقون بلغتهم، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

ولكن المعنى الآخر: أن " لغة القوم " تعني " قوَّة العصر " .

في عهد سيدنا عيسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام كان الطبُّ متقدِّماً جداً، فكانت معجزة هذا النبي الكريم أنه يُحْيي الموتى، وإحياء الميّت مستحيلٌ في الطب ..

إن الطبيبَ له علمٌ يدلُّ بــه إن كان للناس في الآجالِ تأخيرُ

حتى إذا ما انتهتْ أيَّام رحلتِه حار الطبيبُ وخانته العقاقيــرُ

***

فمستحيلٌ في الطب أن يحيي الطبيب الميت، فجاء سيدنا عيسى وأحيا الميِّت ولكن بإذن الله، ليكشف الله لهم أن هذا رسول، هذا رسولٌ من عندي . وفي عهد سيدنا موسى كان السحر متقدِّماً جداً، فالذي جاء به موسى أنه ألقى العصا فإذا هي ثعبانٌ مبين ..

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ(46)قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(47)رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ(48)قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الشعراء)

الآيات طويلة، ولكن في نهايتها ..

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

إذاً: جاء موسى بلسان قومه أي بقوَّة العصا، وجاء النبي عليه الصلاة والسلام في عصر البلاغة، في عصر البيان، في عصر الشِعْر، كان الشاعر مرتبته بعد شيخ القبيلة، أي أن الشاعر له المنصب الثاني بعد المنصب الأول في القبيلة، وقد يكون شيخ القبيلة شاعرها لشدَّة رِفْعَةِ الشعر، المُعَلَّقات قصائد كُتِبَت بماء الذهب وعُلِّقَت على جدران الكعبة، جاء النبي عليه الصلاة والسلام ومعه كتابٌ فيه إعجازٌ في إيجاز، ما هو بشعر ولا هو بنثر إنه كالسحر، وهذا الكتاب على قدر ورعك، وعلى قدر استقامتك، وعلى قدر اتصالك بالله تنكشف لك حقائقه، إنه لا يَبلى، لا يَخْلَق على كثرة الترداد .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)

على الداعية أن يستوعب ثقافة عصره :

وفي هذا العصر يحتاج الداعية إلى الله عزَّ وجل أن يستوعب ثقافة العصر، أن يسلك المنهج العلمي لأن العلم مما يتميَّز به هذا العصر ..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20)وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

(سورة الغاشية)

هذه الآيات الكونيَّة تستطيع أن تشرحها وهي بابٌ واسعٌ تدخل منه إلى الله سبحانه وتعالى ..

(فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

الهدى الجزائي والضلال الجزائي :

من يشاء الهُدى يهديه الله سبحانه وتعالى، ومن يشاء الضلالة بمعنى أنه ينطلق في طريق الضلالة فلابدَّ من أن يصل إلى نهاية الطريق فيضلّه الله لأن هذا طلبه، وهذه رغبته، وهذه إرادته، وهذا كَسْبُهُ، الجامعة تأتي قيمتها لا من نجاح جميع الطلاب، لا، ولكن أن تأتي النتائج متوافقة مع المقدِّمات ..

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الله عزيز حكيم ، أفعاله فيها حكمة وعزة :

عزيزٌ حميد، وعزيزٌ حكيم، لأنه حكيمٌ هو عزيز، لو لم يكن حكيماً لما كان عزيزاً، لأنه يضع الأشياء في مواضعها، ما من شيءٍ وقع إلا وفي وقوعه حكمةٌ بالغة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((لا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

هذه هي مهمة النبي عليه الصلاة والسلام، إنها مهمة كل نبي، بل ومن بعدهم مهمة العلماء أيضاً :

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

إذاً: مهمَّة الأنبياء أن يخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وسيدنا موسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام أيضاً أُمِرَ أن يُخْرِجَ الناس من الظلمات إلى النور، والعلماء من بعد النبي عليه الصلاة والسلام مهمَّتهم أن يُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ

ما هي أيام الله؟

أيَّام الله ؛ الأيَّام التي نصر الله بها قوم سيدنا موسى، فحين نجَّاهم من فرعون، حين صار البحر لهم طريقاً يبسا، هذه أيَّام الله لقوم موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

أيَّام الله للمؤمن قد تكون في امتحانٍ عصيب، وتدعو الله سبحانه وتعالى فيستجيب لك، هذا يومٌ من أيَّام الله .

قد يكون ابنك في مرضٍ عُضال، وتدعو الله سبحانك وتعالى فيستجيب لك ويشفيه، هذا يومٌ ثانٍ من أيَّام الله، قد تكون في ضائقةٍ ماديَّةٍ خانقة فيأتيك رزقٌ من حيث لا تحتسب، هذا يومٌ من أيَّام الله، قد تسأل الله الهدى فيجمعك برجلٍ على حق، هذا يومٌ من أيَّام الله .

قد تسأل الله زوجةً صالحة فيرزقك الله زوجة صالحة، هذا يومٌ من أيَّام الله .

قد تسأل الله بيتاً يؤويك فيهبك الله هذا البيت، هذا يومٌ من أيَّام الله، قد تقع في ورطة وترى الهلاك فيها فتدعو الله مخلصاً فينجّيك منها ومن كل كرب، هذا يومٌ من أيَّام الله ، فالمؤمن لا ينسى أيَّام الله، يذكرها

دائماً، يطأطئ رأسه تواضعاً لله، وكلَّما ذكر أيَّام الله تزدد لله شكراً ..

((ألم تكونوا ضُلاَّلاً ـ هكذا قال عليه الصلاة والسلام للأنصار ـ أما أنتم فلو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم به : أتيتنا مكذباً فصدَّقناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك ـ هذا حق ـ لو قلتم هذا لصدقتم ولصُدِّقتم به، يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ـ هذا يومٌ من أيَّام الله ـ ألم تكونوا أعداءً فألَّف الله بينكم؟ ألم تكونوا عالةً فأغناكم الله ؟))

[أحمد]

إذا فتح شخص دفتراً وكتب فيه أيَّام الله عنده، يوم نجَّاهُ الله عزَّ وجل من المرض الفلاني، يوم زوَّجه فلانة، يوم أعطاه هذا المحل التجاري، يوم هَيَّأ له هذا المنزل، يوم وقع في مشكلة كبيرة جداً فنجَّاه الله منها، فإن ذلك يحفزه على دوام الشكر، ذكِّر نفسك بأيَّام الله .

كن عن همومك معرضاً و كِلْ الأمور إلى القضا
و أبشر بخيرٍ عاجـلٍ تنس به ما قـد مضى
فيا رُبَّ أمرٍ مُسخـطٍ لك في عواقبه رضـا
ولربَّما ضاق المضيق و لربَّما اتسع الفضـا
الله يفعل ما يشـــاء فلا تكونَنَّ مُعتـــرضا
الله عوَّدك الجميـل فقس على ما قد مضى

الله عوَّدك الجميل .. في تذكرك أيام الله يتراءى لك هذا الجميل

فكل واحدٍ منَّا مدعوٌّ إذا أمكن أن يكتب لنا على دفتر أيَّام الله، يذكِّر نفسه بها، فالله أمرنا أمراً، فقال :

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

من أجل أن تحبَّه، من أجل أن تطمئنَّ له، من أجل أن تعرف أنَّ الذي أنقذك فيما مضى سيحفظك فيما هو آتٍ، فلا تقلق ..

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

الصبر من الإيمان :

الإيمان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ، أما هنا فصبَّار، أي كثير الصبر عن المعصية، وعلى الطاعة، وعلى قضاء الله وقدره .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 5 – 12
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-09-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في سورة إبراهيم إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

هذا تذكير بما سبق :

مهمة الأنبياء والدعاة إخراج الناس من الظلمات إلى النور :

بَيَّنْتُ في الدرس الماضي أن مهمة الأنبياء ومهمة العلماء من بعد الأنبياء أن يخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، من ظلمات البُعْدِ إلى نور القُرْب، من ظلمات الشقاء إلى نور السعادة ..

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

أيام الله :

وذكرت أن لبني إسرائيل مع ربهم أياماً، منها؛ كيف نجَّاهم الله من فرعون، كيف أورثهم الله الأرض من بعد فرعون، هذه من أيام الله، لكنَّ لكل مؤمنٍ يوماً أو أياماً من أيام الله، فحيثُما وقع المؤمن في ضائقةٍ، ودعا الله عزَّ وجل واستجاب الله له، فهذا يومٌ من أيام الله، ضائقة مالية، ضائقة أسرية، مشكلة اجتماعية، مرض عضال، حاجة ..

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

وتمنَّيت عليكم في الدرس الماضي أن تسجلوا على دفترٍ خاص بعض أيام الله، كلما ألقيتَ على هذا الدفتر نظرةً زادت محبتك لله عزَّ وجل، كيف أنقذك؟ كيف اختار لك هذه الزوجة؟ كيف يسَّر لك شراء البيت؟ هذه نعمٌ بمقياس الناس، ولكن أكبر نعمةٍ: كيف سَهَّلَ لك طريق معرفته؟ كيف عرفته؟ كيف جمعك مع أهل الحق؟ كيف أسمعك الحق؟ كيف اهتديت إليه؟ كيف طبَّقْتَ أمره؟ هذه من أيام الله .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

منزلة الصبر في الإسلام :

الصبَّار على وزن فَعَّال، صيغة مبالغة لاسم الفاعل، أي كثير الصبر، هناك صبرٌ على الطاعة، هناك صبرٌ عن المعصية، هناك صبرٌ عن الشهوة، هناك صبرٌ عمَّا لا يرضي الله، هناك صبرٌ على أمر الله، فالصبر أنواع والله سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر)

((الإيمان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ))

[ورد في الأثر]

((الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان))

[ورد في الأثر]

((الصبر معرفة))

[ورد في الأثر]

إذا ذهبت إلى الطبيب، طبيب الأسنان وجلست على الكرسي ووضع لك إبرةً في اللثَّة تشعر بألمٍ شديد لكنك تصبر، لماذا تصبر؟ لأنك موقنٌ أن هذا لمصلحتك، وأن هذا الألم مؤقَّت ، وتتبعه راحة طويلة، إذاً تصبر وتشُدَّ بيدك على طرفي الكرسي، ولا تنبس ببنت شَفَة، بينما الطفل الصغير يصرخ ويبكي ويرفع صوته، فالصبر معرفة، إذا عرفت الله صبرت على أحكامه، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من الآية 48)

لو أن حكم الله وفق ما تريد، وفق ما ترتاح له، لا حاجة لأن يقول الله عزَّ وجل :

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من الآية 48)

لكن حكم الله أحياناً لا ترضاه النفس، أو لا تقبله النفس الجاهلة، لكن المؤمن يقبل أمر الله، ويصبر عليه، ويرضى به، " وإذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه " ..

علامة معرفتك بالله عزَّ وجل أنك تصبر على حكمه .. وأنك ترى كما قال الإمام الغزالي : " أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان "، وأن هذا الواقع الذي تعيش فيه هو أنسب وأحكم واقعٍ لك، وأن نفسك لا تسير إلى الله إلا بهذه الوسائل، فلذلك الصبر معرفة، إذا عرفت الله صبرت على أحكامه، فإن لم تعرفه لَجَجْت .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

الشكر يحفظ النعم :

وشكور أيضاً من صِيَغ مبالغة اسم الفاعل، أي كثير الشكر .

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا آل بيتي لحبي، قالوا : من هم آل البيت ؟ قال : كل تقيٍ من آل البيت))

[ورد في الأثر]

فالشكر كما جاء في كتاب الله عمل، قال تعالى :

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ)

(سورة سبأ)

آيةٌ أخرى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء : من الآية 147)

اتضح من هذه الآية أن الإيمان وحده لا يكفي، لابدَّ من أن يكون مع الإيمان شكرٌ حتى تكون في مَنْجَاةٍ من عذاب الله، لأن الشكر دليل رؤية النعمة، قال : " يا رب كيف شكرك ابن آدم ؟ "، قال : " عَلِمَ أنه مني فكان ذلك شكره "، فإذا أردنا أن نوزِّع الشكر في درجات فإنَّ أقلَّ هذه الدرجات أنْ تعرف أنَّ هذه النعمة مِن الله عزَّ وجل، وليست من جهدك، ولا من علمك، ولا من ذكائك، ولا من خبرتك، ولا من طول باعك في هذا الموضوع، الشيطانُ يقول : أنا، وأمَّا قارون فقد قال :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة القصص : من الآية 78)

لكن المؤمن هذه العبارة لا تفارق لسانه أبداً، "هذا من فضل الله عليّ " من فضل الله عليّ أنني فعلت كذا وكذا، من فضل الله عليّ أنه مكَّنني من أن أعمل صالحاً، من فضل الله عليّ أنه هداني، كلمة : من فضل الله عليّ يجب ألاَّ تفارق لسانك البَتَّة، لو فارقت لسانك ونسبت هذا الفضل إليك فهذا أحد أنواع الشرك ، ومَن اتكل على نفسه أوكله الله لها . إذاً :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

فالصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان والصوم نصف الصبر .. إذاً صوم رمضان ربع الإيمان ..

((وَالصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ))

[سنن الترمذي عن جُرَيٍّ النهدي عن رجل من بني سليم]

((الإيمان نصف صبرٌ ونصفٌ شكرٌ))

[ورد في الأثر]

((والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان))

[ورد في الأثر]

كيف أصبر؟

لكن أقول لك، أو تسألني : كيف أصبر ؟ أريد الطريق، أقول لك: الصبر معرفة، إذا عرفت الله تصبر، كيف ؟ إن هذا المريض الراشد يصبر على ألم طبيب الأسنان لأنه يعلم أن هذا لمصلحته، والمؤمن من علامة إيمانه أنه يعلم أنه لا يقعُ شيءٌ إلا لمصلحته، إما أن تكون هذه المصلحة ظاهرةً أو خفيةً، لذلك بعض العلماء قال عند تفسير هذه الآية :

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان : من الآية 20)

النعم الباطنة هي المصائب، أنت بالمصيبة تعرف الله، بالمصيبة تستقيم على أمر الله، بالمصيبة تتوب إلى الله، ما كان لك أن تتوب لولا هذه المصيبة، ما كان لك أن تستقيم لولا هذه المصيبة، ما كان لك أن ترجع إلى الله لولا هذه المصيبة، لكن أرقى من ذلك أن تعرفه في الرخاء من دون مصيبة، أن تعرفه وأنت قوي، وأنت شاب، وأنت في أوج نجاحك في الحياة، أن تعرفه وتستقيم على أمره .

((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ))

[مسند أحمد عن ابن عباس]

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

هذا ما فعله فرعون بقوم موسى :

هذا مما يسلطه العلى العباد :

فرعون حينما قَتَّلَ أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم أي أبقاهم أحياءً للخدمة، حينما ذَبَّحَ أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم كان بهذا مُسَلَّطاً عليهم من قبل الله تعالى .

((إذا عصاني مَن يعرفني سَلَّطت عليه مَن لا يعرفني))

[ورد في الأثر]

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك؛ قلوب الملوك بيدي، فإن العبادُ أطاعوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العبادُ عَصَوْني حولت قلوب ملكوهم عليهم بالسُخْطةِ والنِقْمَة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم))

[ورد في الأثر]

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء : من الآية 90)

إذاً: هذا تسليطٌ من قبل الله عزَّ وجل .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

الصواعق، البراكين، الأمطار الشديدة .

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

الزلازل، الانهدامات ..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

هذا من تسليط الله عزَّ وجل ..

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

المصائب لها هدف وحكمة :

لولا أن الإنسان عنده إمكانية الهدى وهو على وجه الأرض لكانت كل هذه المصائب التي يسوقها الله سبحانه وتعالى للعباد منذ أن خلق الأرض وحتى يوم القيامة، لكانت هذه المصائب عبثاً لا جدوى منها، وحاشا لله أن يسوق للعباد مصيبةً من دون هدف، لعلهم يضَّرَّعون، لعلهم يذَّكرون، لعلهم يرجعون .

إذاً هذه المصائب كلها هادفة، اللهم أرنا نعمك بكثرتها لا بزوالها، يغفل الناس عن النعم فتقل هذه النعم، تقل مياه الأمطار، تَجِفُّ الآبار، تغيضُ الينابيع، يموت الزَرْع، هذا كلُّه تذكيرٌ وتحذير .

(وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ(6)وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

بالشكر تدوم النعم :

هذه الآية أصلٌ في أن الشكر يستدعي المزيد من النِعَم، فإذا أردت أن تزيد النعم التي لله عليك فاشكرها، وقد قلتُ قبل قليل : أن الشكر درجات أقلها أن تعرف أن هذه النعمة من الله، وأوسطها أن تقابل هذه النعمة بعملٍ صالح تخدم به عباد الله، وأرْقاها أن ترى أن الشكر على النعمة في حد ذاته نعمةٌ تستوجب الشكر عليها .. اللهم ألهمنا الشُكر .

سيُدنا إبراهيم وصفه الله تعالى بقوله :

(شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورةالنحل)

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم)

هل تشكر الله عزَّ وجل ؟ كان عليه الصلاة والسلام تَعْظُمُ عنده النعمة مهما دَقَّت، لو شربتَ كأس ماءٍ ورُويتَ به ثم خرج هذا الكأسُ من دون عمليَّات جراحية، من دون آلام، فهذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها، نعمة شرب الماء، إذا وجدت في بيتك كأس ماءٍ عذبٍ فراتٍ باردٍ فهذه نعمةٌ سوف تُسْأل عنها، إذا دخلت إلى بيتك وأويت إليه هذه نعمةٌ لا يعرفها إلا مَن فقدها، إذا كانت لك زوجةٌ صالحة هذه نعمةٌ لا تعرفها إلا إذا فقدَّتها، فالأغبياء يرون النعم عندما تزول، والمؤمنون يرونها وهي موجودة، من دون أن تزول .

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ)

أي أعلمكم ربكم ..

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

عَوِّد نفسك أن تشكر الله عزَّ وجل على كل شيء، على نعمة الصحة، على نعمة البيت، على نعمة الزوجة، على نعمة الأولاد، على نعمة العقل، لك عقلٌ راجح تعيش به في الناس، على نعمة القوة، كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل الخلاء ثم خرج منه قال :

((الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني))

[ورد في الأثر]

لو أنَّ رجل شلَّت لديه عضلة المستقيم، كيف يخرج ؟ لا يستطيع، لابدَّ من إنسانٍ يأتي ليعينه على إخراج هذه الفضلات، مَن يرضى، كم مِن المبالغ يرضى كي يزيل هذه الفضلات ؟ هذه نعمة، نعمة

عضلة المستقيم، التي تعينك على إخراج الفضلات، هذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدها، نعمة أن الرئة تتحرَّك بشكلٍ آلي، لو أن الله سبحانه وتعالى أوكلها إليك فلن تستطيع النوم أبداً، إذا نام هذا الإنسان فإنه يموت، يجب أن يبقى يقظان لتشغيل الرئة .

طبيبٌ في هذه البلدة أصيب بهذا المرض، هاتان الرئتان تخفقان بسبب مركزٍ في المُخَيْخ، يأتيه غاز الفحم في الدم الراجع إلى الرئتين فينبِّه هذا المكان تنبيهاً نَوْبِيًّا، لذلك هناك حركة للرئتين عفوية لا إرادية، هذه الحركة لو تعطَّلت! هناك حركة إرادية وهي الشهيق والزفير، لو تعطل هذا التحريك اللاإرادي لوجب أن تبقى يقظان طوال الليل، يقال مثلاً : إن هناك دواءً حديثاً جداً تأخذه كل ساعة، مفعوله ساعة، تأخذه الساعة ثمانية عند النوم، ثم تفيق الساعة التاسعة لتأخذه، ثم عند العاشرة تفيق لتأخذه، إحدى عشرة، اثنتا عشرة، الواحدة، وهكذا دواليك إلى أن تصير الساعة السادسة فتستيقظ، وقد أصيب طبيب بهذا المرض، مرض نادر، فاشترى أربعة منبهات، وإذا لم يفق يموت، إذا لم يستيقظ ويأخذ الدواء يموت، وكان ابنه مسافراً فلمَّا حضر سهر سهرة طويلة معه، ونام أهل البيت بما فيهم ابنه، ورغم أنه ربط المنبهات الأربعة فلم يفق على رنينها، ولمَّا استيقظوا صباحاً وجدوه ميتاً .

هذه نعمة أن الرئتين تخفقان من دون إرادةٍ منك، نعمة المثانة، نعمة الكليتين ..

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم : من الآية 34)

نعم الله لا يحصيها محصٍ ، ولا يعدُّها عادٌّ :

لِمَ لمْ يقل الله عزَّ وجل: وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها، نِعَم لم يأتِ بها بصيغة الجمع، ولكن لماذا نعمة؟ النعمة الواحدة لو أمضيت حياتك كلَّها في معرفة فروعها لما كفت مدة حياتك لمعرفتها، فروع النعمة الواحدة لن تحصيها، فكيف بالنِعَم كلِّها ؟

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم : من الآية 34)

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل الخلاء ثم خرج يقول :

((الحمدُ أته الذي أذْهَبَ عني ما يُؤذيني ، وأمْسَكَ عليَّ ما ينفعُني))

[ابن أبي شيبة عن طاووس]

وكان يقول إذا أكل الطعام :

((الحمد لله الذي أذاقني لذته ـ أي الطعام ـ وأبقى فيَّ قوته، وأذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير]

إذاً: الخروج نعمة كبرى، الحركة، نعمة ثانية لا يعرفها إلا من فقدها، هناك نعم كثيرة لا تعرفونها أنتم، في بالدم كريات حمراء، كريات بيضاء، وفيه صفائح، وهناك بكل ميليمتر مكعب سبعمائة ألف صفيحة دموية، هذه الصفائح إذا حدث جرحٌ في مكانٍ ما تأتي وتسُدُّ هذا الجرح، لو فُقدتْ هذه الصفائح لمات الإنسان مِن ثقب إبرة، لو ثقب بعض شرايينه بإبرة ينزف دمه كله ..

أعرف شخصاً تعطَّلت معامل نِقي الدم عن تصنيع الصفائح الدموية، فلما ذهبتُ لعيادته وجدت على أنفه أربطة يكاد ثُخنها يبلغ عشرة سنتيمترا هكذا، قلت : لماذا هذا كله؟ قال: نزيف، رعاف مستمر، ليس عنده صفائح دموية، ومات بهذا المرض ..

حينما تتعطل معامل نِقي الدم عن تصنيع الصفائح الدموية يموت الإنسان، وهناك أمراضٌ كثيرة لا نعرفها، فقر الدم اللامُصنَّع، يتعطل تصنيع كريات الدم الحمراء فيموت الإنسان، إذا استيقظت صباحاً وأنت متمتِّعٌ بقوتك فهناك مليون شرط متوافر في هذا الجسد .

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ)

الله لا ينتقم لذاته :

الله سبحانه وتعالى لا ينتقم لذاته، لا، بل يحرص على سعادتنا، فلذلك حينما نكفر يسوق الله لنا العذاب، سَوْقُ العذاب من أجل أن نشكره، فإذا شكرناه سعدنا بقربه، فشتان بين أن تظن أن الله يعذبنا إذا لم نشكره؟ لا، بل يعذبنا كي نشكره من أجل أن نسعد بقربه .

(وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(7)وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

ربنا عزَّ وجل في حديثٍ قدسي طويل يقول :

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ

وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

(وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

الله غني عن تعذيب الناس :

هو غني، غنيٌ عن عباده، واحدٌ أحد، فردٌ صمد، وجوده ذاتي ليس متعلقاً بجهةٍ خارجةٍ عنه، غني أما نحن لسنا أغنياء، نحن مفتقرون إلى الهواء، فلو مُنْعَ منا ثلاث دقائق لانتهت حياتنا، ومفتقرون إلى الماء، إلى الطعام، إلى الشراب، هناك حاجاتٌ كثيرة نفتقر إليها، فوجودنا ليس ذاتياً، فربنا عزَّ وجل غني، وأما حميد أفعاله كلها يحمد عليها، نَعَم أفعاله كلها، فما من فعل أياً كان إلا ويحمد عليه، ومعنى ذلك أنك إن سمعت عن زلزالٍ، أو عن كارثةٍ، أو عن وباءٍ، أو عن مرضٍ، أو عن بركانٍ، أو عن حربٍ فقل : الحمد لله، هذا كله بتقدير الله ولو كُشف الغطاءُ لاخترتم الواقع ..

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

والإمام علي كرم الله وجهه يقول : << والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازدت يقيناً >>، يقينه برحمة الله قبل كشف الغطاء كيقينه برحمة الله بعد كشف الغطاء .

الله غني حميد :

الآن ربنا عزَّ وجل غني وحميد، الآن اجتماع هذين الاسمين معاً..

(لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

أي هو غنيٌ عنكم، ومع أنه غنيٌ عنكم لا يعاملكم إلا معاملةً تحمدونه عليها، صار لدينا معنىً ثالث مأخوذ من اجتماع الاثنين معاً، غنيٌ عنا وحميد، وغنيٌ حميد أي غنيٌ عنا، ومع أنه غنيٌ عنا يعاملنا معاملةً نحمده عليها .

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

الحق كالشمس لا يخفى على أحَدٍ :

الحق بَيِّن، واضح كالشمس ..

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة يوسف)

فمن علامات الحق أنه بيِّنٌ ظاهر، أبْلَج كالشمس في رابعة النهار، هذا هو الحق، والباطل مِعْوَج، الباطل له مداخل ومخارج، فيه ثُرُّهات، فيه أغاليط، فيه تدليس، فيه إيهام، أما الحق واضحٌ كالشمس ..

(جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ)

بمثل هذا استقبل الكفار الحقّ :

بعضهم قال : ردّوا أيديهم في أفواههم بمعنى أنهم أشاروا إلى الأنبياء أن يسكتوا، لا نريد هذا الكلام، لا نتأثّر به، لا يعنينا، لا يهمنا، لا نسمح لكم بالكلام به .

(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ)

أي أن أيدي الكفار رُدَّت إلى أفواه الأنبياء كناية عن أنهم رفضوا هذه الدعوة، أعرضوا عنها، استخفّوا بها، أداروا لها ظهورهم، لم يعبئوا بها ..

(وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

من عادة الكفار الشك في دعوة الأنبياء :

قال الكفار :نحن نشك بنواياكم، فأنتم تريدون أن تتفضلوا علينا، تريدون أن تكونوا زعماء لنا، الكفار إذا سمعوا الحق ردّوه على الشكل التالي : اتهموا الداعية بتهمٍ هو بريئ منها، اتهموه بالتسلُّط، اتهموه بابتغاء الرفعة بين الناس وبالغوا باتهامه، ولو كان كذلك لأسكته الله عزَّ وجل، لمنعه من أن يتكلم بكلمةٍ واحدة .

(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

نشك في حقيقة هذه الدعوة، نشك في جدِّيتها، نشك في دلالاتها .

(مُرِيبٍ(9)قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

الكون ينطق بعظمة الله :

أدعوكم لمن؟ لخالق هذا الكون، هذا الكون كله يشهد له بالعظمة، هذا الكون كله ينطق لكم بعظمة الله، ينطق لكم برحمته، ينطق بعلمه، ينطق بخبرته، ينطق بغِناه، ينطق بقدرته، فالعلماء الفلك: هناك ثقب أسود في الفضاء الخارجي.. وهذا الثقب اكتشفوه من فترة قريبة، منذ أقل من سنة.. الثقوب السوداء في الفضاء أماكنُ ضغطٍ عالٍ جداً، لو أن الأرض بكاملها دخلت في هذا الثقب لأصبح حجمها كحجم البيضة تماماً، بالوزن نفسه، تصور الأرض كم وزنها؟ عشرة آلاف مليون مليون مليون طن، هذا الرقم الكبير يصوِّرُه رقم عشرة وفوقها ثمانيةٌ وعشرونَ صفراً، هذه الأرض إذا دخلت في هذا الثقب تصبح كالبيضة تماماً في حجمها مع بقاء وزن الأرض على حالِهِ .

بعض المجرات سرعتها مائتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، فهذه المجرات تقترب سرعتها من سرعة الضوء .

بعض المجرات كشفت حديثاً، بعدها عنا ثمانية عشرَ ألف مليون سنة ضوئية، مع أن القمر يبعد عنا ثانية ضوئية واحدة، والشمس ثماني دقائق، والمجموعة الشمسية ثلاثَ عشرةَ ساعة، والمجرة درب التبانة طولها مائة وخمسون ألف سنة ضوئية، نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية بعده عنا، هذه المجرة ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، هذا الكون ينطق بعظمة الخالق وبوجوده .

الماء الذي نشربه، ماء، من منكم يصدِّق أنك لو وضعت ماءً في مكان مُحْكَم الإغلاق وضغطت هذا الماء ووضعت فوق الماء مليون طن، الماء غير قابل للانضغاط، لو وضعت فوق الماء مليون طن لا ينضغط ولا ميليمترا ، وإذا أراد الماء أن يتمدد لا شيء يستطيع أن يقف في وجهه، أشد أنواع المعادن تنشطر عند تمدد المياه، فكيف هذه الأرض تدخل في هذا الثقب الأسود فتصبح كالبيضة ؟

(أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذا الحيوان .. الخروف الذي نأكل لحمه، مَن فطره هذه الفطرة، فهو وديع، مسالم، لا نخاف منه، مستأنس، مذلل، هكذا خلق ؟ أليس الله سبحانه وتعالى هو الذي فطره؟ مَن فطر الطفل الصغير على صفاتٍ معينة نحبه بها ؟ صفاؤه، ذاتيَّتُهُ، سرعة نسيانه، انفعاله السريع، براءته، لولا هذه الصفات لانعكس الأمر عنده، و لو أن طباع الكبار مركبةٌ في الصغار لما أحب أبٌ ابنه، ولا ربَّاه أساساً .

(أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

مَن فطر هذه السماوات والأرض على هذا الشكل ؟ من أعطى هذه الشمس تلك الحرارة المعتدلة ؟ لو أنك في القمر لوجدت العَجَبَ العجاب، في النهار تصل درجة الحرارة إلى ثلاثمائة وخمسين درجة مئوية، في الليل تنخفض إلى مائتين وخمسين درجة تحت الصفر، ثلاثمائة وخمسون فوق الصفر في النهار، أيعاش على القمر؟ مستحيل، مَن جعل هذه الأرض بهذا الشكل ؟ من أخرج ماءها ومرعاها ؟ مَن جعل الجبال أوتاداً ؟ وجعل الجبال رواسي لئلا تميد بنا ؟ الله سبحانه وتعالى .

(أَفِي اللَّهِ شَكٌّ)

فلو كان شيء يحتاج إلى دليل وتوفَّرَ عليه دليلان لكانَ أقوى، وإذا توفَّر ثلاثة أدلَّة كان أقوى، فكيفَ إذا عندك مليار مليار مليار دليل إلى الأبد فهي أدلةٌ على عظمة الله عزَّ وجل، وعلى أنه خالقنا، ومربينا، ومسيِّرنا، وإلهُنا، رحمنٌ رحيم، ملكٌ، قدوسٌ، سلامٌ، مؤمنٌ، مهيمنٌ، عزيزٌ، جبارٌ، متكبِّر ..

(أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ)

الله يدعو إلى المغفرة والسعادة :

يدعوكم لماذا ؟ ما لكم عنده ؟ ليس لكم عنده شيء، يدعوكم ليسعدكم، ليشفيكم من أمراضكم، ليطهِّركم من ذنوبكم، ليسعدكم في الدنيا والآخرة، ليمتِّعَكم في الدنيا متاعاً حسناً، ويؤتي كل ذي فضل فضله، لماذا يدعوكم ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 24)

أيْ أنَّ الكافر ميِّت حسبَ نص هذه الآية ..

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل : من الآية 21)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون : من الآية 4)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة : من الآية 5)

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50)فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)

(سورة المدثر)

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف : من الآية 176)

هذا هو الكافر ؛ تارةً كالخَشَب المُسَنَّدة، تارةً كالبهائم، تارةً كالأنعام، تارةً كالحمار، تارةً كالكلب، عديم الإحساس، عديم القِيَم .

(يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ)

لينقلكم من مرتبة الحيوان إلى مرتبة الإنسان، من الشقاء إلى السعادة .

أمَّا :

(يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

فائدة في (من)التبعيضية :

هذه مِنْ للتبعيض، أيْ أنَّ الله سبحانه وتعالى يغفر لكم الذنوب التي بينكم وبينه، أما الذنوب التي بينكم وبين العباد فلا تغفر هذه الذنوب إلا إذا سُوِّيَتْ مع العباد، إلا إذا صالحتَ عليها مع العباد، سوَّيتها مع العباد عندئذٍ يغفرها رب العباد، الذنب الذي بينك وبين الله عزَّ وجل يغفره الله مباشرةً، وأما ما بينك وبين العباد فلا يغفرها الله عزَّ وجل إلا إذا سُوِّيت العلاقة بينك وبين العباد .

(يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)

النبي بشر كالبشر :

طبعاً ما كان للنبي إلا أن يكون بشراً مثلنا، لو كان ملكاً لقلت : أنت مَلك يا أخي وأنا بشر، أول كلمة يقولها الإنسان إذا دعاه النبي إلى الهُدى وطلب إليه أن يغض بصره عن النساء فيجيبه قائلاً : أخي أنت مَلك وأنا بشر، أنا أوْدَعَ الله فيَّ هذه الشهوة أمَّا أنت فملك . لذا لا يمكن أن يكون النبي إلا بشراً يحس بما نحس، ويغضب لما نغضب، ويرضى لما نرضى، ويشتهي ما نشتهي، ويكره ما نكره، ما قيمة النبي لو أن له جِبِلَّةً خاصة ؟

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف : من آية 110)

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ))

[صحيح مسلم عن أم أنس]

(قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

الكفار يطلبون الحجة على سبيل التعنت :

أي ائتونا بحجةٍ قاهرة، حجةٍ قاطعة، غَيِّروا معالم الأرض، فَجِّروا الأنهار، الكفارُ دعوا هؤلاء الرسل إلى تغيير خلق الله إثباتاً لرسالاتهم ..

(قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

جواب الرسل :

أي أن هذا لا نملكه، فنحن بشر، إذا أعطانا الله سلطاناً أيْ معجزةً فهذا مِن فضل الله علينا، هذا بإذن الله، ومِن صنع الله، وفيه بيانٌ لقدرة الله، أما نحن فلا نستطيع أن نفعل شيئاً .

(وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ)

وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا

كن عن همومك معرضاً و كِلِ الأمور إلى القضا

و أبشرْ بخيرٍ عاجـلٍ تنسَ به ما قـد مضى

فلربما أمرٌ مسخـطٌ لك في عواقبه رضـا

و لربما ضاق المضيق ولربما اتسع الفضـا

الله يفعل ما يشـاء فلا تكونَنَّ معترضـا

الله عودك الجمـيل فقس على ما قد مضى

(وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا)

الله هدى عباده :

أي أنَّ الله سبحانه هدانا إليه في الأمور الكُبرى، أفلا نتوكَّل عليه في الأمور الصغرى ؟ ما دام قد هدانا إليه إذاً هو وَلِيُّنَا، هو ربنا، فمن باب أولى يجب التوكُّلُ عليه .

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ)

معنى التوكل :

المتوكّلُ هنا بمعنى ؛ أنَّك إذا أردت أن تتكل على جهةٍ ما فعلى الله توكّل فحسبُ، الناس قد يتوكّلون على إنسان، ولحكمةٍ بالغة لمجرد أن تتوكل على هذا الإنسان فإن الله سبحانه وتعالى يُلْهِمُهُ أن يخيِّب ظنَّك ..

((ما مِن مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك مِن نيَّته إلا جعلت الأرض هَوْياً تحت قدميه، وقطَّعت أسباب السماء بين يديه، وما من مخلوق يعتصم بي مِن دون خلقي أعرف ذلك مِن نيَّته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً))

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

الآية الكريمة دقيقة جداً :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

المعنى دقيق : أيْ أنك في ضائقة وأنه قد ضُربَ حولك نطاقٌ محكم، ليس لك مخرج، فإذا اتقيت الله عزَّ وجل فتح لك مخرجاً، أحياناً تكون في نِطاق من الضائقة المالية، الطُرُق كلها مسدودة، فإن تتق الله يجعل لك مخرجاً، تبحث عن زوجة مثلا فلا تجدها، كأنَّ يأسك من الزواج الشرعي نطاقٌ ضُربَ حولك، فإذا اتقيت الله عزَّ وجل يجعل لك مخرجاً، معنى مخرج : أيْ مضروب حولك نطاق محكم، ربنا عزَّ وجل أحياناً من أجل أن تلتجئ إليه يحكم حولك الحصار، تُحاصَر، الأبواب كلها مغلقة، الأصحاب كلهم يعتذرون، مَن كنت تثق بهم يخيِّبون ظنَّك، حتى تيأس مِن الخلق كلهم وتتجه إلى الله عزَّ وجل عندئذٍ يجعل لك مخرجاً ..

ضاقتْ فلما استحكمت حلقاتها ، ضاقتْ، مولاي ضاقتْ ..

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرجتْ وكان يظنُّها لا تُفرج

***

أحياناً بالصحة، مرض شديد، أول طبيب قال لك: لا يوجد أمل، ثاني طبيب، ثالث طبيب، فلما يئست من الأطباء، ومن الطب، ومن الدواء، ولم تجد لعلتك شفاءً عندئذٍ تتجه إلى الله عزَّ وجل، لمجرد أن تتجه إلى الله سبحانه وتعالى يخلق لك مخرجاً، يأتي الشفاء على يد طبيب مغمور، متواضع، ويشفيك الله شفاءً تاماً، فلمَّا تكون أمور الإنسان مُعَسَّرة، والنطاق مضروب حوله، ويكاد يظن أنه لا أمل، حينما يرى المستقبل مظلماً، والتشاؤمُ يستحوذ على قلبه، فإذا اتجه إلى الله عزَّ وجل خلق له من الضيق فرجاً،

ومن الضعف قوةً، ومن اليأس أملاً، فلذلك ربنا عزَّ وجل خالق كل شيء، بمعنى أنَّ الخوفَ شيء، والله سبحانه وتعالى يخلقه في نفس الإنسان، والأمل شيء كذلك يخلقه في نفس الإنسان، واليأس شيء، والطمأنينة شيء، والأمن شيء، والقلق شيء، الله عزَّ وجل خالق الأشياء المادية كلَّها، وخالق الأشياء المعنوية كلَّها كذلك .

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 154)

ألقى في قلوبهم السَّكينة، فالسَّكينة شيء يُخلَق ..

(وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 13 – 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-09-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي من سورة إبراهيم عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا

معركة الحق والباطل أزلية :

أي أن المعركة بين أهل الإيمان وأهل الكفر أزليَّةٌ أبديَّة، معركةٌ قديمة، إنَّ هؤلاء الكفَّار وهم الأكثريَّة وأصحاب القوَّة خَيَّروا المؤمنين بما فيهم رسل الله الكرام الذين دَعَوْهُم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، خيَّروهم بين أن يعودوا في ملَّتهم أو أن يخرجوهم مِن أرضهم ..

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

مصير الظالمين الهلاك :

ليس في الكون إلا الله، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ وإذا أردتَ أن تكون أقوى الناس فتوكلّ على الله، حُسْبُكَ الله ونِعْمَ الوكيل ..

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر : من الآية 51)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 64)

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

مساومة ساذجة :

كلمَة تعودوا هنا لا تعني كنا وسنعود، بل هي بمعنى صار، أيْ : إمَّا أنْ تصبحوا على ديننا وَفق ملّتنا، أو لنخرجَنَّكم مِن أرضنا، ورأيٌّ آخر هو أن الكفّار توهَّموا أن المؤمنين كانوا على ملّتهم فآمنوا فعليهم أن يعودوا لما كانوا عليه ..

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(13)وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)

وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ

العاقبة للمتقين :

طبعاً ربنا سبحانه وتعالى ووَفْقَ سننه الثابتة يقول ..

(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأعراف : من الآية 128)

الأرض يرثها عبادي الصالحون ..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

وللباطل جولةٌ ثمَّ يَضْمَحِل، فلذلك بعد إهلاك الظالمين ..

(وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ)

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور : من الآية 55)

هذا وعدُ الله الثابت .

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص)

(وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ

معنى : استفتحوا

معنى استفتحوا: أن هؤلاء الرسل الكرام طلبوا مِن الله الفتح، أيْ طلبوا من الله النصر، إني مظلومٌ فانتصر يا رب لدينك ..

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)

(سورة القمر)

الاستفتاح هنا طلب الفتح ..

(وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

الجبار العنيد :

الجبَّار المتكبِّر عن طاعة الله عزَّ وجل، والعنيد هو المصرُّ على خطئه وعناده وكفره، الجبَّار العنيد صفتان تلازمان الكافر ؛ جبَّارٌ، مستعلٍ، عنيد : لا يتراجع عن خطئه .

(وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

معنى : خاب

معنى خاب أي أخفق في مسعاه، رأى نتيجة عمله أمامه، وصل إلى نهاية أعماله ..

(وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(15)مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)

مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ

هذا هو شراب الكافرين والعياذ بالله :

الجروح أحياناً تَنِزُّ قيحاً، هذا الماء لا يستطيع المرء أن يفكّر في قُبْحِهِ، أو قذارته، أو كراهيَّته، إن هذا الماء سوف يُسقى منه الكافرون ..

(وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ(16)يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ)

الحقيقة أنه لا موت يوم القيامة :

أيْ أنَّ هذه حالةٌ صعبةٌ جداً أن تتوافر كل أسباب الموت ولا موت، الموت مريحٌ أكثر من هذه الحالة ..

(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

الآن، الآية الكريمة :

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

انظر إلى هذا المثل القرآني العظيم :

هذا مِن أمثال الله البليغة : أهل الكفر الذين كفروا بربِّهم الذي يُمدُّهم بالحياة، يُمدُّهم بكل ما يحتاجونه، ربهم الذي خلقهم، والذي دعاهم إليه كفروا به بمعنى أعرضوا عنه، بمعنى لم يأبهوا لشرعه، لم يُقْبِلوا عليه، لم يُعْنَوا بكلامه، لم يبحثوا عنه، لم يسألوا عن منهجه، لم يَعْنِهم خلقُه ..

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ)

الكافر معرض عن ربه :

أيْ أنهم ازْوَرُّوا عنه، أعرضوا عنه، جعلوا كلامه وراء ظهورهم، فلم يبالوا بالإقبال عليه، وما هابهم الانقطاع عنه، ورغبوا في رضاه، كل هذا جعلوه وراء ظهورهم .

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُم)

طبعاً الأعمال الساذجة، أو الأعمال التي لا شأن لها ولا قيمة الأعمال التافهة هذه لا تُذْكَر لا عند الناس ولا عند الله، ولكنَّ المقصود من هذه الآية أعمالهم الكبيرة، هذه الإنجازات الضخمة التي يزعمون أنها ضخمة .

(أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

أعمال الكافر كرماد في يوم عاصفلا يستقر منها شيء :

رياحٌ هوجاء تثير العواصف والأتربة، حفنةٌ من رماد وُضِعَت في مهبِّ الرياح، أين هي ؟ تلاشت، وربنا عزَّ وجل في آياتٍ أخرى يقول :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان)

وفي آيةٍ أخرى :

(أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)

(سورة النور : من الآية 39)

أيْ أنَّ هذه الإنجازات الضخمة التي يتبجَّح بها الكفَّار لا شأن لها عند الله، لا قيمة لها عند الله، لا تُسْعِدُ أصحابها يوم القيامة، يبحثون عنها فلا يجدونها .

مقياس الأعمال الحقيقي هو عند الله لا عند الناس :

لو أن طالباً وقف أمام امتحانٍ شفهي وطُرِحَ عليه سؤالٌ دقيق، فلم يملك الإجابة عنه ووَقَعَ في حرجٍ شديد، وصار مصيره بالنجاح مهدَّداً، ثم تذكَّر أنه البارحة تناول طعاماً طيِّباً، وأمضى في إعداده الساعات الطِوال، هذا العمل أو صنعه لهذا الطعام الطيِّب، واستهلاكه وقته الثمين في إعداد هذا الطعام، فهل يستطيع هذا العمل الذي قام به البارحة أن ينجِّيه مِن هذا المأزق الحرج؟ لا يستطيع، هؤلاء الكفَّار لهم أعمالٌ ضخمة بمقياس الناس، فالفراعنة الذين أشادوا الأهرامات أين هم؟ ما قيمة هذا الإنجاز الضخم إن كان صاحب هذا الإنجاز يُعَذَّبُ على أعماله السيئة؟

هناك أعمالٌ إنشائيَّةٌ ضخمة قام بها بعض الناس، سور الصين مضرب المثل، آثار الأنْباط، آثار التدمريين، المسارح التي أقامها الرومان أين هي ؟ وأين هم ؟..

(أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ)

(كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

(سورة النور : من الآية 39)

نابليون احتلَّ أوروبا بأكملها، ووصل إلى أعماق روسيا ثم تراجع وصار أسيراً في جزيرةٍ في البحر المتوسِّط، أين هي هذه الأعمال ؟ الأعمال الإنشائيَّة، وكذلك الأعمالُ الفنيَّة: فالذيَن تركوا مسرحيّاتٍ كثيرة، والذين تركوا قصصاً رائعة أين هم الآن؟ هذا يبقى في الدنيا ويذهبون ليلاقوا نتيجة أعمالهم، هذا الذي كان يملك أسطولاً من البواخر، وكان يمتلك بعض الجزر في سواحل إفريقيا أين هو؟ توفي .

(أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

الكفار أخسر الناس أعمالا :

هذه الدول الصناعيَّة التي تُتْحِفُ الناس بالصناعات الراقية إذا مات أصحاب هذه المعامل أين هم ؟ ما قيمة هذه الأعمال؟ بقيتْ في الدنيا وانتهتْ، أي أن ربنا عزَّ وجل يقول: أنت في الدنيا في مهمَّةٍ خطيرة فإذا غابتْ عنك هذه المهمَّة فأنت في خسرانٍ كبير ..

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف)

بالأخسرين أعمالاً، هذا " نوبل " اخترع الديناميت، وبعد أن اخترع الديناميت شعر أنه اخترع شيئاً مؤذياً للبشريَّة، فكم من قتيلٍ في أطراف الأرض ؟ كم من قتيلٍ بريء؟ كم من طفلٍ؟ كم من امرأةٍ ماتت وقضت نحبها بسبب هذا المخترَع الذي اخترعه نوبل؟ هل يسمَّى هذا إنجازاً ضخماً ؟

(أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

قرأت مقالةً قبل أسبوعين لكاتبٍ أرسل هذه المقالة وتوفّي، كانت آخر مقالة يرسلها إلى إحدى المجلات، المقالة مطوَّلة عن أناسٍ يمشون على النار، فما قيمة هذا العمل؟ إذا تمرَّن الإنسان على المشي فوق النار، فماذا فعل؟ ماذا قدَّم للإنسانيَّة؟ كلامٌ دقيقٌ جداً أُحِبُّ أن أقوله: إن الأعمال التافهة لا قيمة لها لا عند الله ولا عند الناس، ولكنَّ الأعمال التي تبدو بمقياس الدنيا عظيمة إن لم تَعُد بالخير على البشريَّة لا قيمة لها يوم القيامة، وصلنا إلى القمر ماذا استفاد الناس مِن هذا الإنجاز الضخم؟ أيْ أن كل عملٍ لا يؤدي إلى نفع الناس، إلى هدايتهم، إلى تأمين حاجاتهم، إلى إسعادهم، إلى إقرار العدالة بينهم، إلى نشر الفضيلة فيما بينهم، كل عملٍ لا يعود بالنفع على الأمَّة هذا العمل لا قيمة له في الآخرة ..

(أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ)

المركبة التي وصلت إلى القمر، أول مركبة، كلَّفت أربعة وعشرين ألف مليون دولار، قال بعض الخبراء الماليين: " إنَّ دول العالم كُلَّها ساهمت في دفع هذه النفقات عن طريق التلاعب بأسعار هذه العملة الدوليَّة " ..

(أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

فالأعمال التافهة لا قيمة لها، والأعمال الكُبرى إن لم تَعُد بالنفع على الأمَّة لا قيمة لها يوم القيامة .

أعمال الكافر الإنسانية من أجل السمعة والشهرة والمال :

أما الأعمال الإنسانيَّة التي يقوم بها الكفَّار، مثلاً : نجحوا في زرع كليةٍ، ويتقاضون تكلفة هذه العمليَّة مليون ليرة، اضطُر صاحب هذه العمليَّة أن يبيع بيته وأن يفتقر كي يدفع تكلفة هذا العمل، هذا عمل إنساني، لكن نظراً لثمنه الباهظ فقد دَمَّر هذا المريض، دمَّره ماليّاً، فإذا كان هناك بعض الأعمال التي تعود بالنفع على بعض الأفرادُ، فإنَّ أثمانها الباهظة جعلتها سلعةً تجاريَّة يفعلها صاحبها بُغْيَة الربح الوفير، والذي لا يعرف الله سبحانه وتعالى يعمل أعمالاً قد تبدو إنسانيَّة ولكنَّه يبتغي منها السمعة، والشهرة، والسمعة الحسنة، وأن يكون نجمُهُ متألّقاً في سماء المعرفة، لذلك، فالأعمال إن لم تكن خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى، وإن لم تعد بالنفع على الأمَّة..

(كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

كل إنسان له عمل فَليفحصْ عملَه، بل أولاً لِيفحصْ نواياه من عمله، ماذا ينوي من هذا العمل ؟ ينوي مالاً، ينوي ربحاً، ينوي ثناءً، ينوي مديحاً، يبغي رفعةً، يبغي مجداً، أم يبغي أن يرضَى الله عنه ؟ إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ..

وما مقصودُهم جنَّات عدنٍ ولا الحور الحسان ولا الخيامْ

سوى نظر الحبيب فذا مـُـناهم وهذا مطلب القومِ الكرامْ

***

هذه الآية واللهِ وقفتُ عندها طويلاً، هناك أعمال ضخمة بذلوا من أجلها عشرات السنوات، دُفِعَت من أجلها مئات مئات ملايين اليرات، وفي النهاية :

(كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

ما كان للدنيا لا ينفع يوم القيامة :

هذا الذي نجح في الزراعة، أو نجح في الصناعة، أو نجح في التجارة وحقَّق أرباحاً طائلة، عاش في بحبوحة وفي رفاهٍ عجيب، يأتي يوم القيامة فيقول الله له: ماذا فعلت مِن أجلي؟ ماذا فعلت من أجل هذه الحياة الأبديَّة ؟ بماذا خدمت العباد؟ ماذا قدَّمت لهم؟ يقول: يا رب، فعلت هذا العمل، فيقال له: هذا تقاضيتَ عليه أجراً باهظاً، أرهق الناس، ماذا فعلت من أجلي؟ هل رحمتهم؟ هل أنصفتهم؟ هل

أكرمتهم؟ هل كان قلبك رقيقاً لمآسيهم، أم أنك عشت وحدك؟ هذا كلُّه يوم القيامة، فالنتيجة خطيرة جداً، الإنسان لا ينظر لمظهر العمل، هناك أحاديث كثيرة :

((أندم الناس يوم القيامة عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنَّة ودخل هو بعلمه النار))

[ورد في الأثر]

يرونه يوم القيامة فيقولون: ألستَ فلاناً؟ يقول بلى، ما الذي جاء بك إلى هنا في جهنَّم؟ يقول: كنت آمُرُكم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه، قضيَّة العمل قضيَّة من أخطر قضايا الإنسان، لا يوجد واحد منَّا إلا وله عمل، إذا كان عمله طالحاً فهو طالح، سيئ سيُحَاسَب عليه، أما المشكلة إذا كان صالحاً، حتى العمل الصالح يحتاج إلى إخلاصٍ لله عزَّ وجل .

((مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ))

[سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ، قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

الآن عن الأعمال الصالحة، الأعمال السيئة مفروغ منها، هذه سيحاسب عَليهْا الإنسان، الأعمال التي تبدو للناس طيّبة ما النوايا التي وراءها؟ ما الباعث الذي وراءها؟ فلذلك ربنا عزَّ وجل يقول :

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ)

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ

كيف إذا كانت الأعمال طالحة؟

هذا إذا كانت الأعمال صالحة، فإن كانت طالحة فقال عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فُلانًا قَتَلَنِي عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ))

[مسند أحمد عَنْ الشَّرِيد]

يؤتى بالعصفور يوم القيامة وله دويٌ كدوي الرعد يقول هذا العصفور: يا رب، سله، يقصد مَنْ صاده، سله لمَ قتلني؟ أقتلني لمأكلةٍ أم قتلني عبثاً؟ العصفور الذي صاده الصيَّاد لغير مأكلةٍ يأتي يوم القيامة وله دويٌ كدوي الرعد يقول: يا رب سله لمَ قتلني ؟

((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ))

[صحيح البخاري عن ابن عمر]

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة)

فيا أيها الإخوة الأكارم ... العملُ مَطِيَّتُك إلى الله عزَّ وجل، والقبر صندوق العمل، وقيمة العمل تَنْبُعُ من شيئين: أن يكون ذا نفعٍ عام، وأن تكون نواياه خالصة لوجه الله عزَّ وجل، هناك انحرافٌ حتى في الأعمال الصالحة، قد يتعلَّم الإنسان العلم ليقال عنه عالم، قد يخدم الإنسان الناس لينتزع ثناءهم واستحسانهم وتشجيعهم، هنا النوايا مشوبة، فلذلك الأعمال التافهة تافهةٌ، والأعمال الجليلة لابدَّ لها من شرطين؛ أن تعود بالنفع على الناس، وأن يكون الذي فعلها إنما فعلها تقرُّباً إلى الله عزَّ وجل، فدعاء العارفين بالله: " إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي " .

(لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ)

العمل للدنيا ينتهي بالموت:

أيْ أنَّ هذا العمل لأنه لم يكن عملاً قيِّماً، لأنه لم يُعُد بالنفع على الناس، لأنه تافه، لأنه كان للدنيا، وقد انتهى بالموت، أو لأن نيات صاحبه كانت ليست خالصة لله عزَّ وجل، يأتي يوم القيامة يبحث عن هذا العمل فلا يجده، وإذا وجده فلا يقدر أن يُقْبِل به على الله سبحانه وتعالى لسوء نيته، وإذا وجده فنيَّته السيئة أَحْبَطَتْهُ، أذهبت مفعوله، أبْطَلَتْ عمله، أذهبت قيمته، فتَّته، أزالته عن مكانته ..

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)

ولكنَّ هذا العمل كلَّفك الجهد الكبير، والمال الوفير، وتأتي يوم القيامة ولا تجده، وإذا وجدته وجدت نواياه السيئة قد أحبطته وأبطلت قيمته وجعلتهمع الأعمال السيئة .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

أَلَمْ تَرَ

كلمة ألم ترَ تعني أنَّ هذه الآية تحت بصر الناس كُلِّهم، في متناولهم، ألم ترَ، قد أقول لواحدٍ من الناس: ألم تر أن الشمس ساطعة؟ هل يقال هذا القول في الليل؟ هل يصحُّ هذا القول في الليل؟ أو هل يصحُّ هذا القول للأعمى؟ ما دام هذا الإنسان الذي أمامي له عينان، وما دامت الشمس ساطعةً في كبد السماء، عندئذٍ إذا قلت له: ألم تر الشمس ساطعةً، فمعنى قولي: ألم ترَ الشمس ساطعةً أيْ أنَّ الشمس ساطعةٌ، ويستطيع أن يراها، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

انظر إلى مخلوقات الله تر أن الكون مخلوق بحقٍ وحكمة ودقة :

أي أن الأرض حَجْمُها بالحق، حجمُها حدَّد جاذبيَّة الأشياء إليها، نحن في القمر ينقص وزننا ستَّة أمثال، وإذا كنَّا في كوكبٍ آخر يصبح وزن الإنسان خمسة آلاف كيلو تقريباً، أما حجم الأرض فهو حجمٌ مناسب، حجم اليابسة إلى البحر حجمٌ مناسب، تركيب الهواء مناسب، طبقة الأوزون التي تمنع الأشعَّة القاتلة مناسب أيضاً، نحن على الأرض حواسُّنا لها عتبة، هذه العتبة مناسبة ..

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر)

أي أن كل شيءٍ بلغ من الحكمة غايتها، ومن دقَّة الموضع غايته، وليس في الإمكان أبدع مما كان، طعامنا، شرابنا، النبات الذي من حولنا، نظام الأسرة، نظام البذور، أيُّ نظامٍ تراه عيناك فهو على أبدع ما يكون، هذا معنى بالحق، أحياناً تُحَرِّك العدسة إلى أن تصبح الصورة واضحةً جداً هذا الموضع الدقيق بالحق، لو غيّرت مكان العدسة لأصبحت الصورة ضبابية، لو قرَّبتها أو بَعَّدَتها، في هذا المكان الدقيق الدقيق نقول: هذا المكان بالحق، أي أنه يعطي الصورة واضحةً أمامنا، فكل شيءٍ خلقه الله عزَّ

وجل من صغير المخلوقات إلى كبيرها، من جليلها إلى حقيرها أخذ وضعه الكامل .

فبالحق تعني كمال كل شيء ودقته، أي أن كل شيءٍ لو غيّرت صفاته الفيزيائيَّة أو الكيميائيّة لاضطرب الأمر مثلاً .

لو أن الحديد لا يصدأ ليس بالحق، إذاً صدأ الحديد بالحق، عدم صدأ الذهب بالحق، لينُ الرصاص بالحق، كون الهواء على نسبٍ ثابتة بالحق، قُدْرَة العين على الرؤية بالحق، عين الصقر تزداد قدرة رؤيتها ثمانية أضعافٍ بالحق، أي شيءٍ خلقه الله بالحق، معنى بالحق أي بالوضع الأكمل، بالحكمة البالغة، بالدرجة المناسبة، بتقدير العزيز العليم، معنى بالحق أي ليس في الإمكان أبدع مما كان ..

(أَلَمْ تَرَ)

لَوْ أنَّ الماء إذا بَرَد كغيره من عناصر الأرض يتجمَّد، وإذا تجمَّد انكمش أي قلَّ حجمه، وزادت كثافته، فَلَوْ أن هذه الظاهرة المفترضة على كل عناصر الأرض كانت بالماء لما كنَّا في هذا المكان، لما كان على وجه الأرض إنسان، الماء لو جَمَد وقلَّ حجمه وازدادت كثافته غاص في أعماق البحار، معنى هذا أن البحار بعد سنين لا ندري كم هي تنقلب إلى بحارٍ متجمِّدةٍ من سطحها إلى أعماقها، وإذا تجمَّدت انعدم التبخُّر، وإذا انعدم التبخُّر انعدمت الأمطار فمات النبات، مات الحيوان، مات الإنسان، فهذا الماء من درجة ثلاثين أو أربعين إذا بردَّته ينكمش إلى درجة زائد أربع، عند هذه الدرجة يحصل تطوُّر عجيب في الماء، تنعكس خواصُّه فإذا جَمَّدَّته يزداد حجمه، فإذا ازداد حجمه قلَّت كثافته، إذا قلَّت كثافته طفا على سطح الماء، فالبحار المتجمِّدة الشماليَّة التجمُّد سطحي فقط، أما أعماق البحار فَمياهٌ دافئة تجوب بها الأسماك من كل حدبٍ وصوب، إذاً تجمُّد الماء بالحق .

هذه العين أودع الله فيها مادةً مضادَّةٌ للتجمُّد، لو ذهبت إلى فنلاندا أو إلى ألاسكا، أو إلى القطب الشمالي وكانت البرودة تزيد عن سبعين درجة تحت الصفر ماذا يحصل ؟ تحس ببردٍ شديد، لا شكَّ أنك ترتدي معطفاً سميكاً وقفَّازاتٍ صوفيَّة، وغطاءً للرأس، وواقية للأنف، بقي العينان، هل تستطيع أن تغطيهما بشيءْ صوفي ؟ كيف تمشي في الطريق؟ لابدَّ من أن تبقى العينان معرَّضتين للهواء مباشرةً، فإن لم تكن فيهما هذه المادَّة المُضادَّة للتجمُّد معنى ذلك أن كل إنسانٍ هبطت الحرارة في بلده، أو في بيته، أو في بيئَتِهِ عن الصفر تجمَّد ماء العين وفقد البصر، فهذه المادَّة التي أودعها الله في العين والتي تمنع التجمُّد، يعني أن الله سبحانه خلقها وأودعها للعينْ بالحق .

رؤية الإنسان محدودة، لو أنَّك ترى كل شيء كالميكروسكوب لما أمكنك أن تشرب كأس الماء لأنك ترى الكائنات، والبكتريات، والديدان، والعصيَّات تجري فيه فتعاف نفسك شرب الماء، فدرجة النظر مقدرة ومحسوبة بالحق .

لو أن هذه الأذن تسمع أكثر مما تسمع لما أمكنك أن تنام الليل، ولسمعت صوتَ اصطدام الهواء بجسمك، لو أن الأمواج الصوتيَّة لا تتخامد لما أمكن الحياة على وجه الأرض، أصوات المعامل كلّها من شتَّى بقاع الأرض في أذنك، أصوات الأمواج الصاخبة في شتَّى بحار الأرض في أذنك، الضجيج، لكن هذه الأصوات من نعمة الله بعد ثلاثين، أربعين، خمسين متراً تتخامد فينعدم الصوت، بالحق إذاً، أي أنَّ تخامد هذه الموجات بالحق .

وبعدُ فهذه الآية، واللهِ الذي لا إله إلا هو، لو ألّفنا عليها آلاف الكتب لما كَفَتْ، كل شيء تراه عينك بالحق، أيُّ شيءٍ تقع عينك عليه بالحق، هذه البعوضة التي إذا وقفت على يدك قتلتها .

هل تعرف هذه البعوضة التي قتلتها ماذا فيها؟ فيها جهاز رادار، إذا كنت نائماً على وسادة وكان الظلام دامساً، وكانت في أعلى الغرفة تطير إلى جبينك مباشرةً من دون أن تخطئ الهدف، والظلام دامس، فيها جهاز تحليل دم، تحلّل هل هذا الدم يناسبها، ينام أخوان على فراشٍ واحد، يقوم أحدهما وقد لدغه البعوض طوال الليل، ويقوم الآخر ولا شيء، ما تفسير ذلك ؟ تملك هذه البعوضة جهاز لتحليل الدم فإذا وقعت على الجلد خَدَّرت الموضع، جهاز تخدير، من أجل ألا تقتلها قبل أن تأخذ الدم، والدم له لزوجة لا تعينها على امتصاصه، فتفرز مادَّةً لتمييع الدم، جهاز رادار، وجهاز تحليل، وجهاز تخدير، وجهاز تمييع، وجناحا البعوضة يَرِفَّان في الثانية الواحدة أربعة آلاف رَفَّة، عندئذٍ يصبح صوتها طنيناً تسمعه في أذنك، ولهذه البعوضة ثلاثةُ قلوب : قلبٌ مركزي، وقلبٌ لكل جناح، وإذا وقفت البعوضة على سطحٍ أملس فلها محاجم تعتمد على تفريغ الهواء، وإذا وقفت على سطح خشن لها مخالب تعينها على الوقوف على مكان خشن ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة : من الآية 26)

ولغاية حكيمة ذكرها الله عزَّ وجل في القرآن، " هذا خلق الله "، ومهما دققت النظر فإنَّك :

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك : من الآية 3)

فيا أيها الإخوة المؤمنون ... " كلمة بالحق " . والله الذي لا إله إلا هو تنقضي السنوات ولا ينقضي الحديث عنها، بالحق، لو أن هذا الظُفْر له أعصاب حس، إلى أين أنت ذاهبٌ يا أخانا ؟ والله إلى المستشفى لأجري تخديراً موضعيَّاً لكي أقلّم أظافري، لا يوجد غير هذا الحل، إلى أين أنت ذاهبٌ ؟ إلى المستشفى، لماذا ؟ لأجري تخديراً حتى أقصَّ شعري، لو أن للشعر أعصاب حس، أو للأظفار أعصاب حس لكن هذا الخلق عندئذٍ ليس بالحق .

لو أن شعر الأنف في الفم لكان هذا ليس بالحق، لو أن العين هنا على الجبين، لما نجا من العمى إلا واحد بالألف، لكنَّها في حصنٍ حصين، العين في المحجر، والدماغ وهو أخطر عضوٍ في الإنسان في الجمجمة، وبين الدماغ والعظم سائل لامتصاص الصدمات، والجمجمة لها مفاصل ثابتة على شكل خط مُنْكَسِر، هذه المفاصل الثابتة إذا وقع الطفل على الأرض هذه المسافات البينيَّة الدقيقة تمتصُّ الصدمة، بالحق، والقلب وسط القفص الصدري، بالحق، والنخاع الشوكي وسط العمود الفقري، والرحم وسط الحوض، وأخطر معملٍ في الإنسان .. معمل الكريات الحمراء .. داخل نِقْي العظام، بالحق، هذه الآية تمضي السنوات ولا ينتهي شرحها، بالحق .

فكّر، العلم حرف والتكرار ألف، ليكن لك جولاتٌ في هذا الكون، هذا البطيخ الذي نأكله كيف نقطفه ؟ هل نُكَلّف صاحب الحقل أن يمسك هذه البطيخة ويغزُّها ويضربها ليعرف ما إذا كانت ناضجة أو لا؟ خيطٌ من النبات، بعد مكان انفصالها بأمِّها، على شكل حلزون إذا نضجت تراه يابساً، فإن كانت فجَّةً تراه طريَّاً، بالحق، الله قال :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل)

موسم الفواكه يكون في الصيف، فلو أنَّهُ نضج الكرزُ، والمشمش، والتفَّاح، والأجاص، والدرَّاق، والتوت في يومٍ واحد، ماذا نفعل؟ كيف نجني هذه الفاكهة؟ كيف نوَضِّبها؟ كيف نسوِّقها؟ كيف نبيعها؟ كيف نستهلكها؟ مستحيل، كل أسبوعين أو ثلاثة مواسم، أول شيء الكرز، وبعد ذلك المشمش، بعده الدرَّاق، ثم الأجاص، والتفَّاح، أي خلال أربعة أشهر وعلى التوالي .. وبعد هذا يأتي موسم العنب ..

وقبلها الزيتون، توزُّع هذه المحاصيل وهذه الفواكه على فتراتٍ مديدة كل ذلك بالحق، الفاكهة الواحدة لو أنها تنضج في يومٍ واحد، هل نأكل في اليوم مائة كيلو مشمش؟ نأكل هذه الفاكهة خلال شهر تقريباً، كل يوم نأكل كيلوينْ، معقول، هذه الفواكه تنضج بالتسلسُل .

قال لي بعض الأشخاص: ضمنت حقلاً للبطيخ، قال: والله قطفت منه تسعين قطفة كل يوم قطفة، كل يوم أملأ شاحنة، مَن جعل هذا المحصول ينضج على التدريج ؟ بالحق .

لو أن القمح ينضج بالتدريج لكان نضجه بالباطل، وعندئذٍ تمسك كل سنبلة فتنظر إذا كانت نضجت، فتصبح عملية انتحار، لكنَّ المحاصيل تنضج في يومٍ واحد، وتحصدها في يومٍ واحد، بالحق، هذه السنبلة ساقها يعدُّ غذاءً أساسياً للحيوان، مهما اشتريت للحيوان علفاً يبقى التِبْنُ سيِّد العلف بالنسبة للحيوان، مَن جعل هذا النبات ثماره للإنسان وساقه للحيوان؟ بالحق .

هذا الشجر " الحور الطويل " الذي نستخدمه كجسور، قال العلماء: جذره ليفي، له كمية جذور قليلة جداً لأن يُزْرَع كي يُقْلع، ليُسْتَفَاد من خشبه، أما أشجار الزيتون، الأشجار المثمرة التي تُعَمِّر مديداً هذه

تبقى جذورها ضاربةً في أعماق الأرض، بالحق .

أيها الإخوة الأكارم ... فكّروا، هذا الفكر الذي وهبه الله لنا، وهذا الكون المعجز الذي أكرمنا الله به من أجل أن نعرف الله من خلاله، لا من أجل أن نأكل كما تَأكل الأنعام ..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد)

(أَلَمْ تَرَ)

أيها الإنسان ألم ترَ بعدُ ..

(أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(19)وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

بين إثبات القدرة والتهديد :

هذه الآية بعضهم قال: " إنها تثبت قدرة الله على بعث الإنسان بعد الموت " .

وبعضهم قال: " إنها تهديدٌ لهذا الإنسان الضال كي يعود إلى رشده .

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

من مشاهد يوم القيامة :

الحقيقة هذه الآيات تمثّلاً مشهد رهيباً خطيراً واقعاً من مشاهد يوم القيامة ساقه الله قبل أن يقع رحمةً بنا، فلو أن عملاً من الأعمال التي يقوم بها إنسان تُعرض عليه فيلماً يصوِّر له مصير هذا العمل ..

مثلاً: حينما كنَّا في التدريس أُخِذَ الطُلاَّبُ إلى إحدى الثانويَّات، وأطلعوهم على أفلامٍ علميَّةٍ تبيِّن آثار التدخين، فَرأى الطُلاب إنساناً وقد فُتِحَت رئتاه، وكيف بدا الورم السرطانيُّ في رئتيه بسبب التدخين..

هذا الذي يدخِّن نريه نتائج التدخين، هذا من باب التمثيل، والله سبحانه وتعالى يعرض يوم القيامة مواقفَ يقع بها الناس اليوم ليريهم سوء أفعالهم قبل أن يحين موعد هذا المشهد .

ربنا عزَّ وجل صوَّره لنا قبل أن يقع لكي نستخلص العبرة مسبقاً ونحتاط لأنفسنا ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا

الخلق كلُّهم ؛ صغيرهم كبيرهم، قويهم ضعيفهم، صحيحهم مريضهم، من كان ذا شأنٍ منهم من كان ضعيف الشأن ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)

حوار بين الضعفاء والمستكبرين :

يقول الضعفاء : نحن قلّدناكم، قلّدناكم في معتقدكم، قلدناكم في مذهبكم، قلدناكم في أفكاركم، قلدناكم في قيَمِكم، قلدناكم في نماذج حياتكم، قلدناكم في عاداتكم، قلدناكم في تقاليدكم، قلدناكم في احتفالاتكم، قلدناكم في كل شيء ..

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

بحثوا عن الذين استكبروا فوجدوهم في النار، النار مثواهم، هؤلاء الذين تبعوهم أين هم ؟ تعالوا إنَّا اتبعناكم في الدنيا، قلدناكم، كنَّا ضعفاء، أين أنتم ؟ خلّصونا من هذه الورطة ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ)

المستكبرون يتبرؤونمن الضعفاء يوم القيامة :

قال الذين استكبروا : كنَّا ضالّين مثلكم، ولو كنَّا مهتدين لهديناكم، كنَّا ضالين فكان الضلال على يدنا ..

(لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

الحقيقة هذه الآية دقيقة جداً، لكن هؤلاء الضعفاء من جعلهم ضعفاء؟ إذا كان الله قد جعلهم ضعفاء، وجعل معهم أقوياء، فالأقوياء استعبدوا الضعفاء، فقلّدوهم، أو حملوهم على تنفيذ رغباتهم، فهؤلاء الضعفاء لماذا يُحَاسَبون؟ وكيف يحاسبهم ربهم؟ هذا السؤال لن أجيب عنه اليوم، أجيب عنه في الدرس القادم ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)

الأصح أن أقول لكم ما معنى الضعيف؟ من هو الضعيف؟ الذي لا قوَّة له؟ الذي لا شأن له؟ الذي لا مكانة له؟ إذا عرفتم معنى الضعيف تُحَلُّ المشكلة، لغز هذه الآية يُحَل إذا عرَّفتم أو عرفتم معنى الضعف، هل هو من صنع الله عزَّ وجل أم من صنع الإنسان؟ من هو القوي ومن هو الضعيف؟

والضعف بماذا؟ وما أسباب الضعف هل هو كسبيٌّ أم فطريٌّ ؟

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)

أيْ : استعْلَوْا ..

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

وجاء رأس الفتن والمصائب !!!

وجاء الشيطان، جاء الشيطان ليلقي على الناس الضالين الذين أضلَّهم موعظةً في التوحيد، وبعد أن وَسْوَسَ لهم في الدنيا إذا هو الآن يُلقي عليهم المواعظ ..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

لماذا تلعن الشيطان بعدما استجبت لدعوته؟

أي أنك لا ترى إنساناً يقع في غلط إلا ويقول : لعن الله الشيطان، فيا أخي إنَّ الشيطان ليس له علاقة، الشيطان قال كلمة، وأنت لأنَّك اتبعته بها فأنت المسؤول، الشيطان له ليس عليك من سلطان أبداً، ما كان الله ليجعل للشيطان علينا سلطاناً، فهذا مستحيل، فهناك ضلال في العقائد، فكلما غلط الإنسان أو عصى تجده يقول: الله يلعن إبليس، الأصح أن يلعن العاصي نفسه، إبليس دعاه فاستجاب له، العاصي ينبغي أن يلعن نفسه، وأن يعزو الخطأ إلى نفسَه لا إلى الشيطان، هذا هو الموقف الصحيح، الشيطان سيتكلَّم يوم القيامة الحق :

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي)

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

من سلاح الشيطان التخويف بالفقر :

الشيطان يخوِّف الإنسان، يعده بالفقر، يأمره بالفحشاء ..

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

هذا الكتاب كتاب خالق الكون، كلٌّ ما فيه من كلام هو الحق الصرف، وإنَّ الحقَّ الذي لا محيدَ عنه هو هذا الكلام، فعلى الإنسان أن يراقب أعماله، يراقب تصرُّفاته، يراقب أقواله في أثناء الأسبوع وعلى الدوام، فقد تكون أقواله خلاف هذه الآيات، فصار هذا باطلاً وحاشى لله أن يكون باطلاً، فلذلك أدعوكم إلى التأمُّل فيها .

والسؤال الدقيق: إذا كان الله قد خلقنا ضعفاء وخلق غيرنا أقوياء، فبحكم قوتهم وضعفنا اتبعناهم، فما ذنبنا ؟ لهذا السؤال جوابٌ دقيق أجيب عنه إن شاء الله تعالى في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 21 – 30
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-10-03

بسم الله الرحمن الرحيم

صورٌ حيةٌ من مشاهد يوم القيامة :

البروز لله تعالى ، والقيام بين يديهللسؤال والحساب :

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في سورة إبراهيم إلى قوله تعالى :

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

الخلائق كلهم منذ آدم وحتى يوم القيامة ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

أي أن لا شيء يستر أحداً من الخلائق عن الحِساب، فإنهم وقفوا على أرضٍ ممهدة، لا شيء يسترهم، لا مكان يختبئون فيه، لا شجرة يتوارون خلفها.

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

كل واحد منا سوف يبرز لله، وتعرض عليه أعماله التي اقترفها في الدنيا عملاً عملاً، وكأنها شريط .

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

فهذا الموقف يغفل عنه الناس، هذا الموقف حينما يقوم الناس لرب العالمين، حينما يقف الناس ليحاسبوا عن كل أعمالهم ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

يسأل الذي ظلم لم ظلمت؟ ويسأل الذي عصى لم عصيت؟ ويسأل الذي طغى لم طغيت؟ ويسأل الذي تجاوز الحدود لم تجاوزت ؟

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

لا حجة لك في اتباع الأقوياء والمستكبرين، فأنت حر في اختيارك:

لكن هناك في هذا الموقف الرهيب خصومة بين الضعفاء وبين الأقوياء، وإذا فهمنا الضَعف في هذه الآية ضعفاً مادياً فهذا الفهم ينقُلنا إلى متاهات، ولكن الضعف في هذه الآية ليس هو الضعف المادي بل هو ضعف النفس، وتخلّي الإنسان عن الحرية التي وهبه الله إيَّاها، خلقنا الله سبحانه وتعالى سواسيةً كأسنان المشط، وهب الله كلاً منا فكراً يميز به الخير من الشر، والحق من الباطل، والصالح من الطالح، حينما يُعَطِّلُ الإنسان فكره ويجمده، أو يسئ استعماله، ويتبع الأقوى بعقيدته، وتفكيره، وقَيَمِهِ يكون قد تخلى باختياره عن حرية الاعتقاد التي منحه الله إيَّاها، وليس في الأرض كلها جهةٌ تستطيع أن تلزمك على أن تعتقد بعقيدةٍ ما، لأن هذه الجهة مهما قويت لا تستطيع أن ترى ما في فكرك من عقيدة.

أعطاك الله سبحانه وتعالى حرية الاعتقاد، وجعل ما تعتقده مستوراً عن كل الخلق، فإذا تخلَّيت أنت باختيارك وبإرادتك عن هذه الحرية الثمينة التي وهبك الله إيَّاها، وعطَّلت تفكيرك الذي جعله الله ميزاناً تزين به الأمور، عطَّلت هذا التفكير وقلَّدت في العقيدة الكُبراء، بأفكارهم، بمزاعمهم، بمعتقداهم، بقيمهم، بعاداتهم، بتقاليدهم فأنت هنا الضعيف، ليس الضعف هنا ضعفاً مادياً ولكن الضعف هنا ضعف الإنسان أن يعتقد الحقيقة التي أراه الله إياها، والتي منحه الله من أجل أن يعتقد بها حريةً لا يطّلع عليها أحد .

إذاً خلق الله سبحانه وتعالى الخلق سواسيةً كأسنان المشط، ولم يجعل لأحدٍ في الأرض سلطاناً على أحد في العقيدة ..

(إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)

(سورة النحل : من الآية 106)

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة : من الآية 256)

الذي تعتقده لا يستطيع بشرٌ في الأرض مهما أوتي من قوةٍ أن يطَّلِعَ عليه فضلاً عن أن يُغَيِّرَهُ، هكذا منحنا الله سبحانه وتعالى حرية الاعتقاد، وحرية الاختيار، ومنحنا إرادةً حرة، هؤلاء الضعفاء تخلَّوا بإرادتهم، وباختيارهم عن حريتهم في الاعتقاد وقلَّدوا الكبراء، قلدوا الأقوياء، في عقائدهم، وفي تفكيرهم، وفي مذاهبهم، وفي قيَمِهم، وفي منطلقاتهم، وفي أهدافهم، وفي عاداتهم، وفي تقاليدهم، وفي أنماط سلوكهم، فكانوا مقلدين من هنا اتُّخذت هذه الآية أصلاً في أنه لا يجوز التقليد في العقيدة، لا يجوز أن تقلِّد إنساناً في العقيدة .

لا علاقة للضعف المادي بالآية :

أما لو أن معنى الآية أن الضعفاء بمعنى الضعفاء مادياً، هذا الضعف المادي لا علاقة له بالإيمان، إن كنت قوياً أو ضعيفاً تستطيع في كلا الحالين أن تؤمن بالله عزَّ وجل وأن تطيعه على كلا الحالين، وإذا ضاقت الأرض التي تسكن بها فبقية الأرض واسعة ..

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)

(سورة النساء : من الآية 97)

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

آمن سحرة فرعون بالله وأطاعوه، ولم يستطع فرعون أن يفعل بهم إلا شيئاً ..

(إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

الحياة أبدية، لذلك حينما قال الله تعالى :

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

استمع إلى هذا الحوار وانتفع به قبل أن يصيبك :

وقفوا أمام الله عزَّ وجل، وقفوا موقفاً للحساب ..

(فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)

للكبراء، للأقوياء ..

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)

نحن آمنا كما آمنتم، واعتقدنا بما اعتقدتم، وصدقنا ما قلتم، وسلكنا سلوككم، وذهبنا مذهبكم ..

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

نحن اتبعناكم، أين أنتم ؟ تعالوا خلصونا، تعالوا خففوا عنا العذاب، تعالوا ادفعوا عنا العذاب ..

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)

قلدناكم في أفكاركم، في عقيدتكم، في مذهبكم ..

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ)

أي نحن كنا ضالين، كنا ضالين مضلين، ضللنا وأضْللنا، فسدنا وأفسدنا، كنا معكم، كنا مثلكم، لو هدانا الله لهديناكم ..

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ

في هذا الموقف يستوي فيه الضحك والبكاء :

نعوذ بالله من هذه المواقف، حينما يقترف الإنسان في الدنيا جريمةً، ويحاكم على هذه الجريمة، ويصدر قرارٌ بإعدامه، ويصدَّق هذا الحكم، ويساق هذا المجرم ليشنق في إحدى ساحات المدينة، ويصعد درجات المشنقة، وهو على إحدى درجات المشنقة سواءٌ عليه أبكى أم ضحك، سكت أم صاح، استجاب، استنجد، استغاث، أي شيءٍ يفعله، إن أي شيءٍ يفعله لا ينجيه من حبل المشنقة ..

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا)

إن جزعنا لا ننجو، وإن صبرنا لا ننجو، إن استغثنا لا ننجو، إن سكتنا لا ننجو، هذا موقفٌ عظيم . أيها الإخوة الأكارم، ما دام هذا القلب ينبض فباب التوبة مفتوح، باب الإصلاح مفتوح، كل شيءٍ له حَل ما دام في الحياة بقية، فإذا جاء ملك الموت وخُتِمَ العمل أنت رهن عملك ..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ(40)عَنْ الْمُجْرِمِينَ(41)مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(42)قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(43)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(44)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

(سورة المدثر)

أي كنا مع التيار العام، ارتدى النساء في أوروبا هذا الزي، نرتديه نحن هذا هو الرقي، أن ترتدي ما يرتديه الناس في أوروبا ..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ))

[مسند الإمام أحمد]

هذا التقليد الأعمى، كأن هذه الآية تنبِّه المسلمين إلى التقليد الأعمى وإلى أخطاره، أنت مسلم كيف تسمح لزوجتك أو لأختك أن ترتدي ثياباً تثير مشاعر الناس، وأنت مسلم ؟ تقول : هكذا الثياب، هذه الأيام أهذا جواب ؟! أتستطيع أن تجيب بهذا الجواب يوم القيامة ؟ إذاً :

(جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ)

فسَّره بعض المفسرين : " لو سلكنا طريق الهدى لهدانا الله " ..

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

ما لنا من محيص، ما لنا من نجاة، وقعنا وانتهى الأمر .

لا تقلّد الأقوياءفإن الله أعطاك عقلا تميز به :

إذا وهبك الله فكراً تستطيع أن تُمَيِّزَ به الحق من الباطل، والخير من الشر، والصالح من الطالح، فلا تقلّد يا أخي، لا تقل : أنا مع الناس، إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت، هذا هو الإمَّعة، قال الشاعر الجاهلي ..

وما أنا إلا من غزيةٍ إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

إذا سألت أكثر الناس اليوم : لم تفعل هذا ؟ يقول لك : هكذا يفعل الناس جميعاً، لم تغش يا أخي ؟ هكذا الناس كلهم عندي أولاد، لم تأكل مالاً حرام ؟ هكذا الناس جميعاً، التقليد ضارٌ في كل الحالات، أما التقليد في العقيدة فهو خَطِرٌ، لأن المُقلّد قد يكون ضالاً، قد يكون المُقَلَّدُ منحرفاً، قد يكون أعمى، فإذا قلّدته كنت مثله، والتقليد يعني أن يتخلّى الإنسان بملء حريَّته عن حرية الاعتقاد التي منحها الله له، هذا هو التقليد، أي أن الله سبحانه وتعالى منحك حرية الاعتقاد وها أنت تتخلّى عن هذه الحرية، هذا هو الضعف، وليس الضعف أن تكون مستضعفاً ..

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

(سورة الواقعة)

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[من صحيح مسلم : عن " أبي هريرة]

ليس الضعيف الذي لا يملك قوةً، ولكن الضعيف هو الضعيف نفسياً الذي عطّل فكره وقلّد الكبراء في معتقداتهم، هذا هو الضعيف، إذاً الضعف هنا جريمة، جريمة يحاسب عليها الضعيف يوم القيامة لأنه اختار ..

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

أعطاك ميزاناً دقيقاً، عطّلته وقلّدت الكافرين، قلدت الضالّين، قلدت المنحرفين، صدَّقت ما يقولون، اعتقدت ما يعتقدون، ذهبت مذهبهم، قلدتهم في عاداتهم، في تقاليدهم، هذا الضعف إذاً كسبيٌ، وما دام كسبياً فهو من اختيارك، وما دام هذا الضعف باختيارك سوف يحاسب عليه الضعيف حساباً عسيراً، كما تنطق هذه الآية ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ)

لو سلكنا طريق الهدى لهدانا الله ..

(لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

ما لنا من نجاة ..

أيها الإخوة الأكارم، نعوذ بالله أن نصل إلى هذه النقطة، الطريق المسدود، إن جزعت، وإن صبرت، وإن استغَثْتَ، وإن فرحت، وإن حزنت، كل هذه الأحوال سِواء..

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

ومن أشَدِّ الأشياء إيلاماً للنفس شماتة العدو، وهاهو ذا الشيطان أعدى أعداء الإنسان يقف ليشمت بالذين أضلَّهم .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ)

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ

معنى : قضي :

معنى قضي الأمر أي أن أهل الجنة دخلوا الجنة، وأهل النار دخلوا النار ..

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

(سورة الزمر : من الآية 70)

بعد أن يحاسب الإنسان حساباً دقيقاً، ويوفى جزاء عمله يأتي الشيطان ليشمت بالذين أضلَّهم ..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)

وعدُ اللهحقٌّ ووعد الشيطان سراب وباطل :

كان وعده حقاً، وكان وعد الله مأتيَّاً ..

(إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا)

(سورة مريم)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة : من الآية 111)

الوعد الذي جاء في كتاب الله في حكم الواقع .

لا تحسد أهل الدنيا :

أيها الإخوة الأكارم ... الذي وعدنا الله به كأنه وقع، كيف أصبحت يا فلان ؟ " قال : " أصبحت كأني بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل النار يتصايحون، وبأهل الجنة يتمتعون "، قال : " عبدٌ نوَّر الله قلبه بالإيمان عرفت فالزم "، هذه هي الرؤية .

إذا رأيت إنساناً منحرفاً وهو يتقلَّب في أنواع النعيم، فمن العمى أن تحسده على نعيمه، والبصر أن ترى مصيره الأسود، هذا هو الإيمان أن ترى الشيء قبل أن تصل إليه، أن تخترق بصيرتك ظواهر الأشياء فتصل إلى نتائجها، لو أن سارقاً سرق وقتل، وظن أنه نجا، وأنت أيقنت أنه في قبضة العدالة، وأنه مراقب، وأنه سيلقى القبض عليه بعد قليل، ألا ترى نتيجته وهو معلقٌ على حبل المشنقة؟ البطولة أن تصل إلى النتائج قبل أن تصل إليها، هذه الرؤية الصحيحة، الناس نيام، يفرح الناس بالمال، والمال ظلٌ زائل، يفرح الناس بالجاه، يفرح الناس ببيتٍ فخم، مع أن هذا هو بيتٌ مؤقَّت، واقرؤوا النعي: " وسيشيَّع إلى مثواه الأخير " .

إذاً: هذا البيت الفخم الذي يسكنه مثوى مؤقَّت، يفرح الناس بالمال ولو كان من طريقٍ غير مشروع، ستحاسب عنه درهماً درهماً .

((لا تَزُولُ قدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَا وَضَعَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟))

[سنن الدارمي عن عن معاذ بن جبل]

((اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ))

حينما أرى في المسجد شاباً والله أغبطه لأن الشباب فيه قوة، فيه حيوية ..

((اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ))

[الحاكم عن ابن عباس]

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ)

كلام الشامتين ..

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)

فوفَّى لم يقل الله: فوفى هذا الوعد، لأن أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فكلمة فوفَّى لا معنى لها، حشوٌ لا طائل منه ..

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)

وها أنتم قد رأيتم بأمِّ أعينكم كيف أن وعد الله قد وقع ..

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

(سورة يس)

إله يعرف، أليس لك ثقةٌ بوعده؟! إلهٌ خالق السماوات والأرض يعدك بالجنة إن أحسنت، وبالنار إن أسأت، ولا تعبأ بهذا الوعد والوعيد؟ تصدق إنساناً ضعيفاً لئيماً ..

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

تمعَّن بدقة :وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

لم يقل: وعدتكم بالباطل، لأن وعد الشيطان لم يقع إذاً هو باطل، الإعجاز في الإيجاز ..

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)

وها أنتم قد وجدتم وعده حقاً ..

(وَوَعَدْتُكُمْ)

طبعاً بالباطل ..

(فَأَخْلَفْتُكُمْ)

وعدتكم أنه لا جنة ولا نار، وها هي ذي الجنة والنار، وعدتكم أن لا حساب، وهذا هو الحساب، وعدتكم أنه لا إله، هذه عقائد الضعفاء في الدنيا، هذه غيبيات نحن في غنى عنها، المادة كلُّ شيء، وما الإنسان إلا مظهرٌ معقدٌ للمادة، وعدتكم أن هذه المعتقدات تخدِّر الناس ..

(فَأَخْلَفْتُكُمْ)

هذه الأفكار التي يعتقد بها بعض الناس تنطبق عليها هذه الآية ..

(وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ

ليس للشيطان سلطان على أحد:

هذا كلام رب العالمين، وأية قصَّةٍ، وأي تفسيرٍ، وأي كلامٍ يتناقض مع هذا القول فهو باطل، الشيطان ليس له سلطانٌ على الإنسان، ومعنى السلطان شيئان إما الحجة وإما السلطة .

ضربت سابقاً مثلاً يوضِّح هذه الآية ذكرته كثيراً وها أنا ذا أعيده توضيحاً لهذه الآية:

لو أن إنساناً يرتدي ثياباً أنيقةً جداً، وقع في حفرةٍ فيها مياه آسنة سوداء، وكان إلى جانبه رجل، فانطلق

إلى مخفر الشرطة ليشتكي على إنسانٍ يدعي أنه هو السبب، فلما سأله المحقق أدفعك إلى هذه الحفرة دفعاً ؟ قال له: لا، قال هل أمسكك ووضعك فيها؟ قال له : لا، قال: هل شَهَرَ عليك سلاحاً وأمرك أن تنزل فيها؟ قال له : لا، قال : لم تشتكي عليه إذاً؟ قال: لأنه قال لي : انزل فنزلت!! هذا يحتاج إلى مستشفى للمجانين ..

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)

بطاقة دعوة واستجابة سريعة :

هذا كل ما في الأمر، لذلك لا ينبغي للرجل إذا وقع في معصية أن يلعن إبليس، عليه أن يلعن نفسه فقط، ليس لإبليس دخل في الأمر، قال لك : اعصِ الله، لم استجبت له، ما دام الشيطان ليس له علينا سلطان، ليس معه حجة، وليس معه سلطة، فإذا اتبعته فهذا الذي يتبعه هو ضال، وهو مسؤول وسيحاسب عن عمله، ولا يعفى من المسؤولية بحجة أن الشيطان وسوس له، طبعاً وسوس، أنت في تعاملك مع القوانين والأنظمة، إذا قال لك شخص : خالف القانون، وتعلم أن جزاء هذه المخالفة السجن، هل تستجيب له؟ ترفض هذه الدعوة، يقول لك: أنا أعرف ما لا تعرف، لماذا في أمور الدنيا لا نستمع إلى شيءٍ يضر بنا وفي أمور الدين نستمع إلى ما يضرنا؟

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

هذه الآية يجب أن تبقى في أذهانكم طوال الحياة ..

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

ألق اللوم على نفسك قبل أن تلقيه على إبليس :

كلما فعل معصية لعن إبليس، مع أنه ليس لإبليس دخل في الموضوع أنت المؤاخذ، إبليس وسوس لك، لم استجبت له ؟ ليس له عليك من سلطان ..

(إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

إذا أعطاك شخص دواء وقال لك: هذا الدواء يفيدك، وأنت لا تعرف الشخص، قد يكون مؤذياً، قد يكون مغرضاً، قد يكون عدواً، قال لك : مفيد، تأخذه رأساً ؟ اسأل طبيباً، اسأل خبيراً، اقرأ نشرته، لاحظ هو مختوم أم لا (من صنعه؟ ما استطباباته؟)، فكيف تأخذ الدواء بسرعة ؟ قد يكون سُماً قاتلاً، أتتعامل أنت في الدنيا بهذه الطريقة ؟!

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

أي أن الشيطان لن يستطيع أن يضل أحداً إلا أن يكون الذي أضله ضالاً في الأصل ..

(مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)

الشيطان لا ينقذ أحدا ولا ينقذه أحد :

أي أنا لا أستجيب لكم إذا صرختم، وأنتم لا تستجيبون لي إذا صرخت ..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

(سورة المدثر)

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : من الآية 164)

(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

التفنن الشيطاني في البراءة من أتباعه :

هذا الذي يصدِّق الشيطان ويستجيب لوساوسه أشركه مع الله عزَّ وجل، وها هو ذا الشيطان يكفر بهذا الشرك ..

(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

هذه الآية أصلٌ في حقيقة الشيطان، يوسوس ولكنه لا سلطان له على الإنسان، فالذي يستجيب لوساوس الشيطان إنما يستجيب لهوى نفسه، في الحقيقة يستجيب لهوى نفسه لا لوساوس الشيطان، بل إن الأصح من ذلك أن هوى نفسه تطابق مع وساوس الشيطان، فاستجاب له، لا يستجيب الرجل إلى وساوس الشيطان إلا إذا توافقت هذه الوساوس مع هواه ..

(وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

الصورة المقابلة لأصحاب الجحيم :

هذا العطاء له ثمن :

هذه الصورة المقابلة، هؤلاء الذين استعملوا حريتهم في العقيدة، واستعملوا حريتهم في الإرادة، وعرفوا ربَّهم، وأطاعوه، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، هؤلاء الذين وحَّدوا ربَّهم، هؤلاء الذين رأوا أن كل من في الدنيا لا يستطيع أن يدفع عنهم ضُراً ولا أن يجلب لهم نفعاً، هؤلاء الذين رأوا أن يد الله فوق أيديهم، هؤلاء الذين رأوا أنه لا إلهه إلا الله، ولا معبود بحقٍ إلا الله، ولا رافع ولا خافض، ولا مُعِزَّ ولا مُذل، ولا مانع، ولا معطي، ولا قابض، ولا باسط إلا الله، جعلوا همَّهم هماً واحداً فكفاهم الله الهموم كلها .

((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِين))

[الترمذي عن أبي سعيد]

هؤلاء الذين عرفوا الله في الدنيا، هذا جزاؤهم يوم القيامة ..

(وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

الجنة سليمة من كل منغِّص :

أي ادخلوها بسلامٍ آمنين، سلامٌ من كل نغص، سلامٌ من كل قلق، من كل هم، من كل حزن، من كل ما يخيف الناس في الدنيا، لا قلق على صحةٍ، ولا على دخلٍ، ولا على مالٍ، ولا على أولادٍ، ولا على زوجةٍ، هم في سلامٍ من كل منغصات الدنيا ..

(تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

والسلام اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى ..

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً

الكلمة الطيبة فروعها طيبة :

الكلمة الطيبة مضمونها طيِّب، وطيبها يأتي من أنها توافق عمل صاحبها، ومؤدَّاها طيب، معناها طيب، تطابقها مع العمل طيبٌ، نتائجها طيِّبة، هذه الكلمة الطيبة، دعوت إنساناً إلى الله عزَّ وجل، دعوته إلى طاعة الله، دعوته إلى إحقاق الحق، وإبطال الباطل، دعوته إلى طاعة الله بغض البصر عن محارمه، دعوته إلى تحرير دخله من الشبهات، دعوته إلى أن تكون زوجته وبناته محجَّبات، دعوته إلى ترك سماع الغناء، دعوته إلى ما يرضي الله عزَّ وجل .

شيءٌ ملخصٌ أقوله لكم : ليس في الكون إلا الله، وكل شيءٍ يوصلك به فهو حق، وكل شيءٍ يبعدك عنه فهو باطل، فالكلمة الطيبة هي الكلمة التي توصلك بالله عزَّ وجل عن طريق آياته، عن طريق طاعته، عن طريق العمل الطيب ..

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً)

من طيب الكلام تقريب الناس من الله وتعريفهم بنعمه :

الكلمة الطيبة أن تتكلم كلاماً يقرِّب الناس من الله عزَّ وجل، " يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ "، قال: يا موسى أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي "، فقال موسى: " يا رب، إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ " قال: " يا موسى ذكِّرهم بآلائي ونعمائي وبلائي " .

هذه الكلمة الطيبة أن تذكرهم بآلاء الله، بعد انحباسٍ طويل في هطول الأمطار الله سبحانه وتعالى لا كما يقولون : منخفضات آتية من القطب الشمالي، تفضَّل الله سبحانه وتعالى علينا بهذه الأمطار، هذه كلمة طيبة، إذا عزوت الأمطار إلى الخالق هذه كلمة طيبة، فإذا عزوتها إلى شيءٍ آخر هذه كلمة تبعد الناس عن الله سبحانه وتعالى، أين أنتِ أيتها المنخفضات ؟ تعالي، ولو من القطب الشمالي، أهي آلهة ؟

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

(سورة النحل : من الآية 65)

فالكلمة الطيبة، ذكِّرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي، أي كلامٍ يقرِّب الناس من الله، يزيدهم معرفةً به، يزيدهم حباً به، يزيدهم استقامةً على أمره، يزيدهم بذلاً من أجله، يزيدهم اتصالاً به، أي كلامٍ يؤدي إلى إقبال الناس على الله عزَّ وجل هو ما تعنيه هذه الآية: كلمةٌ طيبة، وهذه الكلمة الطيبة .

(أَصْلُهَا ثَابِتٌ)

من صفات هذه الكلمة الطيبة :

أَصْلُهَا ثَابِتٌ

أي مبنيةٌ على حقائق ثابتة، مبينةٌ على واقعٌ راهن، مبنيةٌ على منطق، أصلها ثابت .

إذا قلت : المعادن تتمدد بالحرارة، هذا قانون علمي، هذا قانون ثابت، لا يتبدَّل، ولا يتغير، ولا يعدل، ولا يُعطل، فالكلمة الطيبة في أساسها منطلقةٌ من حقائق، من واقع، من منطق، من شيءٍ تقبله النفس، يرضاه العقل، فالأديان تنطلق من أصلٍ ثابت ..

(وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ

أصلها ثابت وفرع هذه الكلمة في السماء، أي أن الكلمة الطيبة تنتج عملاً طيباً بسموه ورفعته هذا الإنسان المستقيم على أمر الله عمله في السماء، مشاعره في السماء، أعماله في السماء، أقواله في السماء، فالسماء كناية عن السمو، والثبات، والأصل الثابت كناية عن أن هذه الكلمة الطيبة تنطلق من حقائق، من واقع، من منطق ..

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ

(أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة المائدة : من الآية 32)

إذا هدى الله على يديك واحداً، هذا الواحد يهدي آخراً، والآخر يهدي آخراً، فإذا أنت بعد مدةٍ يسيرة كنت سبباً في هداية مجموعة كبيرةٍ من الناس، لهذا قال الله عزَّ وجل :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

(سورة المائدة : من الآية 120)

والنبي صلوات الله عليه أمة، ألف مليون مسلم، هو واحدٌ ..

(تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

أنت اهدِ واحداً، وانظر كيف أن هذا الواحد هدى زوجته، وهدى أولاده، وهدى جيرانه، كان واحداً فصار عشرة، والعشرة عشرين والعشرين خمسين ..

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

السماء رمز السمو، أي أن هذا المهتدي مشاعره سامية، أقواله طيبة، أعماله طيبة، مستقيم، لا يغش، لا ينمِّق، لا يكذب، لا ينحرف، لا يباع، ولا يشترى، صاحب مبدأ، يخاف الله يطيعه في كل أمر .

(أَصْلُهَا ثَابِتٌ)

حق، الباطل مهتز ..

(تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(25)وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ)

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ

خطورة الكلمة الخبيثة على صاحبها :

تجده يقول : أعلمني من مات، ورجع، وقال لك: إن هناك آخرة؟!! هذه كلمة خبيثة، أخي ضع رأسك بين الرؤوس وقل: يا قطّاع الرؤوس، مثلك مثل الناس، الناس كلهم يغشون، وكن أنت مثلهم، هذه كلمة خبيثة،

(وامش بجنازة ولا تمش بزواج)

((أفضل الشفاعة أن تشفع بين اثنين في النكاح))

[ورد في الأثر]

((من مشى في تزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمةٍ قالها، وكل خطوةٍ خطاها، عبادة سنةٍ، قام ليلها وصام نهارها))

[ورد في الأثر]

الغيبة كلمة خبيثة فرَّقت بين اثنين، والنميمة كذلك فرقت بين شريكين، بين أمٍ وابنتها، بينِ أخٍ وأخ، بين صاحبٍ وصاحب، بينِ جارٍ وجاره، الغيبة والنميمة تجعل المجتمع مفتتاً، أعداء، خصومات، حقد، كلمة خبيثة، إذا قلت لأختك : ماذا قدَّم لكِ زوجك في هذا العيد ؟ وكان زوجها ضيِّق ذات اليد لم يقدم لها شيئاً، فحزنت، وارتبكت، وندبت حظها، فهذه كلمة خبيثة، إذا حمَّرت الوجه بكلمة فهذه كلمة خبيثة .

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفا))

[الترمذي]

عَنْ أَبِي حُذَيْفَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

[الترمذي ، أبو داود]

كلمة خبيثة، أحزنته على نفسه، سألته عن دخله، قلت له : قليل، أهذا هو دخلك فقط؟ هذه كلمة خبيثة، أسخطته على ربه، سيدنا عمر يقول: << من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط >>، يحزنونك على حالك، لا يوجد عندك شيء، بيتك صغير، دخلك قليل، لا يوجد عندك شيء ثمين، وعندهم شيء فخم وثمين، فالكلمة الخبيثة كلمة تبعد عن الله، تجعلك تحب الدنيا، تجعلك تفعل المعصية من أجل هذه الكلمة، كل كلمة تورث في نفسك سخطاً على الله عزَّ وجل فهي كلمة خبيثة .

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

من صفات الكلمة الخبيثة :

ليس لها جذور :

ليس لها جذور، شجرة خبيثة مقطوعة، ثمرتها خبيثة كالحنظل، ولا جذور لها، الباطل ليس له أصل، يبنون نظرية على عدم وجود إله، كل شيء مبني على هذا المبدأ باطل، غير صحيح، الكلمة الخبيثة ليس لها أصل، أي ليس لها حقيقة تستند إليها، الواقع لا يصدقها، المنطق لا يناصرها، لا منطق، ولا واقع، ولا حقيقة، باطل، ومعنى باطل لابدَّ من أن يَبْطل، أي أن يتلاشى، الحائط الباطل هو المائل، لابدَّ من أن يقع، ليحق الله الحق ويبطل الباطل، الباطل هو الشيء الذي لابدَّ من أن يزول، لا يستقر، لا يقوم على قدمين، فهذه الكلمة الخبيثة لا أصل لها لا من واقع، ولا من حقيقةٍ، ولا من مضمون ..

سريعة الزوال ليس لها قرار :

(مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

سريعاً ما تزول ..

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

ما هو القول الثابت ؟

ما هو القول الثابت؟ كتاب الله عزَّ وجل، ما الذي يثبتنا على دين الله؟ وعد الله ووعيده، ما الذي يجعلك تستقيم؟ قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : من الآية 30)

إلهٌ عظيم يَعِدُ المستقيم بالسعادة ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

هذا القول الثابت، وعد الله بالحياة الطيبة، وعد الله بالسعادة، وعد الله بالتوفيق، وعد الله بالفوز، بالنصر، هذا هو القول الثابت ..

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

القول الثابت هو قول الله عزَّ وجل لأن الخالق أزليٌ أبدي ..

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : من الآية 88)

قول الله أثبتُ شيءٍ :

ما من شيءٍ في الكون أثبت من قول الله عزَّ وجل، أما الإنسان قد يقول أقوالاً كثيرة، هذه الأقوال مرتبطة به، فإذا زال الإنسان زالت أقواله وبطل مفعوله، لكن الله حيٌ على الدوام، هو الحي الباقي على الدوام، فكلامه ثابت، وعده ثابت، وعيده ثابت، أي شيءٍ قاله في كتابه ثابت، لماذا يكون المؤمن مطمئناً؟ لأنه يتعامل مع أشياء ثابتة، مشاعر الكافر المقلقة بسبب تعامله مع أشياء غير ثابتة، ربط مصيره بإنسان، ربط مصيره بكتاب، الكتاب قد لا ينشر، قد ينشر، قد يظهر كتاب آخر ينقض ما فيه، أما المؤمن ربط مصيره مع القرآن، والقرآن قول ثابت، وعده صحيح، وعيده صحيح، قوانينه صحيحة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((لا يحزن قارئ القرآن))

[ورد في الأثر]

تعامله مع أشياء ثابتة، في كل مكان، في كل زمان، في كل مجتمع، في كل بيئة، في كل ظرف، في كل سِن، وعده ثابت، وعيده ثابت، قوانينه ثابتة، كلماته ثابتة، لا تعدَّل، لا تغيَّر، لا تبدل، لا تجمَّد، لا تعطل .

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

قال الله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من الآية 276)

الله عزَّ وجل يرخي الحبل، تربح، ثم بعد ذلك ضربة واحدة، أين؟ هذا القول الثابت ..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 276)

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

قول ثابت، أية خيانةٍ لا تفلِح ولا تنجح ولا تسعد صاحبها ..

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

أي إساءةٍ تعود على صاحبها، أية خيانةٍ تعود على صاحبها، أي مكرٍ يعود على صاحبه ..

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء : من الآية 142)

أي خداعٍ يعود عليه، هذا قول الرب الثابت ..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

إن كنت ذا قلبٍ سليم فهنيئاً لك، هذا القول الثابت، اقرأ كتاب الله كلَّه، اقرأ ما فيه من قوانين قطعية الثبوت قطعية الدلالة، قطعيُّ الثبوت قطعيُّ الدلالة، فالمؤمن أحد أسباب سعادته أنه يتعامل مع كلام الخالق والخالق كلامه قطعي، حقٌ ثابت .

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

فإذا وعدك الله عزَّ وجل بحياة طيبة ما من ظرف يعطل هذه الآية لا يوجد ظرف صعب، ولا أزمة خانقة، ولا قهر، ولا أي ظرف معين في الأرض يعطِل هذا الوعد الإلهي .

((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم : عن " أبي ذر]

((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ))

[الترمذي عن ابن عباس]

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : من الآية 2)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد : من الآية 11)

هذا القول الثابت، اقرأ القرآن كله قول ثابت، تعامل مع هذه القوانين، ترتاح وتريح، لم يبق قلق، ولم يبق حقد، لا هم، لا حَزَن لا خوف، لا وَجَل، إله يعدك، خالق السماوات والأرض يعدك بالنصر، والتأييد ..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

هذا القول الثابت، اقرأ كتاب الله فهو كله قولٌ ثابت، جرِّب، ما من وعدٍ وعده الله إلا وقع، وما من وعيدٍ توعد الله به إلاَّ وقع، فالمؤمن يتعامل مع القول الثابت، وأما قول البشر فقولٌ باطل، وهذه هي القاعدة : هذا الشيطان :

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

قولٌ باطل، وها هم الكبراء :

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

قولٌ باطل، معتقدٌ باطل، قِيَمهم باطلة، أفكارهم باطلة، مذهبهم باطل، فالمؤمن عليه أن يرتبط بالقول الثابت، لا بأهل الباطل، لأنه إذا كان مع أهل الباطل هلك مثلهم .

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ)

الظالم لنفسه، من عمل موجبات الضلال ..

(وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ(27)أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ(28)جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ

وإنْ كنت مسؤولا عن عشرة أشخاص :

فكل إنسان له إشراف على مجموعة أشخاص، كالأب مثلاً إذا سيَّر أسرته في طريق باطل، علَّمهم على المعصية، وعلى التهتك، وعلى الاستهتار بالقيم الجميلة، وأقنعهم أن الدنيا هي كل شيء، وأن عليهم أن يأخذوا حظهم منها، وأعطاهم الحرية المطلقة، إذا فعل هذا فسيحاسب حساباً خاصاً يوم القيامة، لأنه بدَّل نعمة الله كفراً وأحل من تبعه دار البوار..

(وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ(28)جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ(29)وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ

سيدنا إبراهيم قال :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة البقرة: من الآية 126)

قال الله عزَّ وجل :

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة: من الآية 126)

(قُلْ تَمَتَّعُوا)

إذا كان أحدهم ذا مال حرام، منحرفاً أخلاقياً، وكافراً بالله عزَّ وجل، ورأيته جالساً وله مظهر فخم، إياك أن تقول : هنيئاً له ..

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

الطريق معروف، أركبت واحداً سيارة فخمة جداً وهو ذاهب إلى المشنقة، أتقول : هنيئاً له ؟ .

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

المصير واضح معروف، فالمؤمن هو الذي يسعد بهذا الوعد الإلهي.

أقم الصلاة تعرف الحق من الباطل :

وفي درس قادمٍ إن شاء الله عزَّ وجل نبدأ بقوله تعالى :

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

حتى لا يقع الإنسان في الضلال ويتعامل مع القول الباطل، عليه أن يقيم الصلاة ويؤمن بالله عزَّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (5-9): تفسير الآية 31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-10-10

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي وفي سورة إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

قُلْ : إشارة إلى مقام الرسالة :

أما كلمة قل فتشير إلى مقام الرسالة، أو مقام التبليغ، فهناك مقام النبوَّة، وهناك مقام الرسالة، والنبوَّة مقامٌ يرى فيه النبي الحق، يتنبَّأ به، وأما الرسالة فهي مقامٌ فيه تكليفٌ بالتبليغ ..

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة : من الآية 67)

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

[مسلم عن أبي هريرة]

المؤمن مكلَّف بالتبليغ :

فأنت مؤمن مكلَّفٌ بنصِّ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إذا فهمت آيةً، إذا فهمت حديثاً، إذا فهمت حكماً شرعيَّاً مكلّف أن تبلّغه للناس، لأنه ما من صدقةٍ أفضل عند الله من قول الحق، وقد مرَّ بنا في الأسبوع الماضي كيف أنَّ الكلمة الطيّبة ..

(كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

(سورة إبراهيم)

وأنه من أحياها أي النفس الإنسانيَّة فكأنَّما أحيا الناس جميعاً ..

((وما أحدث رجل أخاً في الله إلا أحدث له الله درجةً في الجنَّة))

[ورد في الأثر]

((ومن أسلم على يديه رجل وجبت له الجنَّة))

[ورد في الأثر]

فمقام التبليغ مكلَّفٌ به كل مؤمن، علِّم بالقدر الذي تعلَّمت ..

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[البخاري عن عثمان]

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الذاريات)

((ليس مني إلا عالمٌ أو متعلِّم))

[ورد في الأثر]

((كن عالماً أو متعلِّماً أو مستمعاً أو محبَّاً، ولا تكن الخامسة فتهلك))

[ورد في الأثر]

فالنبي عليه الصلاة والسلام مأمورٌ أن يبلِّغ رسالة ربِّه، ونحن إذا قمنا بزيارته المشرَّفة تقول أمام مقامه الشريف: " يا سيدي يا رسول الله، أشهد أنك بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، ونصحت الأمَّة، وكشفت الغمَّة، ومحوت الظُلمة، وجاهدت في الله حقَّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد " .

مقامك عند الله بحجم عملك الصالح :

فالإنسان المستمع فقط هذا مستهلك، أما الإنسان الداعية إلى الله عزَّ وجل فهذا منتج، إن مقامك عند الله بحجم عملك الصالح، ما من رجلٍ إلا وله عند الله مقامٌ معلوم، وهذا المقام المعلوم حجمه بحجم عمله الصالح، قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف : من الآية 19)

الدعوة إلى الله أعلى مقاماتالعمل الصالح :

فأنت لك عند الله مقام، هذا المقام يتحدَّد بمقدار عملك الصالح، وإذا سلسلنا الأعمال الصالحة تقع هداية الخلق في رأس القائمة، أي ما من عملٍ صالح يفوق أن تنقذ إنساناً من الظلمات إلى النور، من الضياع إلى الهدى، من الشقاء إلى السعادة، ما من عملٍ صالح يفوق هذا العمل، والله سبحانه وتعالى شاكرٌ عليم، يشكرك وهو ربُّ العزَّة على أنك دعوت إليه، وعلى أنك وجَّهت الناس إلى طاعته ..

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة : من الآية 67)

معنى يعصمك من الناس أي يحفظك، ولن يستطيع أحدٌ أن يصل إليك لأنك بأعيننا، ولكل مؤمنٍ من هذه الآية نصيب، إذا كنت مخلصاً لله عزَّ وجل تولّى الله سبحانه وتعالى حفظك من كل مكروه، ما دامت النيَّة طيّبة وما دام العمل مخلصاً لله عزّ وجل فأنَّى لأحدٍ أن يصل إليك ؟!

من صفات الداعية الصادق :

وصف ربنا عزَّ وجل الدعاة الصادقين فقال :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

(سورة الأحزاب : من الآية 39)

يُبَلِّغُها ..

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب : من الآية 39)

هذه الصفة في الدعاة جامعةٌ مانعة، لأن الداعية إذا خشي غير الله لن يستطيع أن يقول ما يرضي الله، عندئذٍ يقول ما يرضي هذا الإنسان الذي خشيه من دون الله، فإذا قال الباطل إرضاءً لمن خشيه من دون الله، وسكت عن الحق خوفاً من هذا الذي خشيه من دون الله فليت شعري ماذا بقي من إبلاغ رسالات الله ؟ لم يبق شيء، إذاً ربنا سبحانه وتعالى حينما يصف وصفه جامعٌ مانع .

(قُلْ لِعِبَادِي)

دقّق :قُلْ لِعِبَادِي

لِمَ لَمْ يقل الله عزَّ وجل: قل للمؤمنين؟ قل للناس، قل لهؤلاء، قل لمن حولك، قل لقريش ..

(قُلْ لِعِبَادِي)

الفائدة من إضافة العباد إلى الله :

عبادي فيها كلمتان : عباد جمع عبد وياء المتكلّم، كأن الله سبحانه وتعالى أضاف العباد إليه، أضاف العباد إلى ذاته إضافة تشريف لا إضافة تعريف، حينما قال :

(قُلْ لِعِبَادِي)

شرَّفهم بأنه أضافهم إلى ذاته، كأن تقول لإنسانٍ : أنت ابني، أو أنت أخي، أضفته إليك إضافة تشريف، حينما تقول لرجلٍ أمامك يعرف أن هذا الطفل ابنك، تقول له: هذا ابني، هل أنت بهذا القول تُعَرِّفه أنه

ابنك؟ لا والله، إنَّك تقول له: انتبه هذا ابني، أحْرَصُ عليه، أحبُّه، أدافع عنه، فلو أن في القلب إحساساً رقيقاً، لو أن في القلب شفافيَّةً وسمع العبد هذه الكلمة :

(قُلْ لِعِبَادِي)

العباد سواسية ، مكرَّمون مكلَّفون :

نحن عباد الله ..

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

كل الخلق عبادٌ لله عزَّ وجل، الناس سواسية كأسنان المِشط .

((يا سعد لا يغرَّنَّك أنه قد قيل : خال رسول الله، فالخلق كلُّهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له))

[ورد في الأثر]

باب الله مفتوح .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

باب اللقاء مع الله مفتوحٌ لكل الخلق بشرط أن يدفعوا الثمن، والثمن هو العمل الصالح، فمن كان عمله صالحاً قَبِلَهُ الله عزَّ وجل وتجلَّى عليه ورَحِمَهُ ..

(قُلْ لِعِبَادِي)

فإذا كنت عبداً لله عزَّ وجل وسمعت هذه الآية تُحِسّ أن الله سبحانه وتعالى كرَّمك ..

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

(سورة الإسراء : من الآية 70)

بنو آدم مكرَّمون عند الله، سخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ودائماً المسخَّر له أكرم من المسخَّر، إذا سُخِّر شيءٌ لك فأنت أكرم من هذا الشيء بآلاف المرَّات ..

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية : من الآية 13)

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة لقمان : من آية 20)

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء)

إذاً :

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا)

تقييد العباد بالإيمان والفائدة منه :

لم يقل : قل لعبادي (دون أن يحددهم بقوله : الذين آمنوا)، لأن العبد إذا لم يعرف الله عزَّ وجل لا يأتمر بأمره، ولا ينتهي بنهيه، لذلك يجب أن نعرف الآمر قبل الأمر، فإذا سلك الدعاة في تعريف الناس بأمر الله عزَّ وجل قبل أن يسلكوا معهم طريق معرفة الله عزَّ وجل فالمحصِّلة أن هؤلاء لا يطيعون الله عزَّ وجل، يجب أن تعرف ما عنده من سعادةٍ إذا أقبلت عليه، ويجب أن تعرف ما عنده من شقاءٍ إذا أدبرت عنه، فلذلك :

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا)

أسئلة تطرح نفسها :

الذين آمنوا هم الذين يسمعون، هم الذين يستجيبون، وأما الذين آمنوا، فكلمة آمنوا فعل وهذا الفعل يدلُّ على حدوث عمل، فإذا قلت : إنك قد آمنت، متى؟ متى آمنت؟ إذا كان الإيمان خارج اهتماماتك؟ إذا ولدت من أبوين مسلمين وكنت مسلماً بحكم العادة، وتلقَّيت الإسلام بشكلٍ عفوي، فلمَّا كبرت وتيقَّظت الشهوات فيك سرت مع شهواتك، فأيُّ إسلامٍ هذا؟! أي إيمانٍ هذا؟ فالمؤمن هو الذي آمن، والإيمان فعل وحدوث عمل، هل جلست تفكِّر في آيات الله عزَّ وجل حتى يقال إنك قد آمنت .

هل فكَّرت في خلقك حينما كنت نطفةً في بطن أمِّك؟ هل فكَّرت في طعامك وشرابك؟ هل فكَّرت في هذه الحيوانات التي ذلَّلها الله لك؟ هل فكَّرت في الشمس والقمر؟ هل فكرت في البحار؟ هل فكَّرت في الأنهار؟ هل فكرت في كأس الماء الذي تشربه؟ هل فكرت في المحاصيل؟ هل فكرت في الأشجار المثمرة؟ هل فكرت في الفواكه والثمار؟ هل فكَّرت في الخضراوات؟ هل فكَّرت في المجرَّات؟ متى آمنت؟

هل قرأت كتاب الله؟ هل حضرت مجالس العلم؟ هل سألت؟ هل بحثت؟ هل تأمَّلت؟ متى آمنت؟ أخي فلان مؤمن، متى؟

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا)

معنى الذين آمنوا أي تحقَّقوا بوجود الله عزَّ وجل، وتحقَّقوا بأسمائه الحُسنى، و " الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل " ، هذا هو الإيمان، أي أنك لمجرَّد أن تعصي الله

عزَّ وجل كأنَّك لا تعرف الله عزَّ وجل، لو عرفته لما عصيته، فكأنَّني أقول لكم : يجب أن نؤمن والدليل قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ..

(آمِنُوا بِاللَّهِ)

(سورة الحديد : من الآية 7)

يا من تظنُّون أنفسكم مؤمنين آمِنوا بالله، يا من تلقّيتم الإيمان عن طريق الوراثة، بحكم العادة، عن طريق التقليد آمِنوا بالله، لأن الإيمان الذي تأخذه بفعل الوراثة لا يصمد أمام الشهوات، لا يصمد أمام الضغوط ولا أمام الإغراءات، الإيمان الذي يصمد والذي لا تزحزحه الضغوط مهما كَبُرَت، ولا المُغْريات مهما تألّقت هو إيمانٌ بني على بحثٍ ذاتي، أما الإيمان الذي تأخذه عفواً من دون تفكُّر، من دون بحث، من دون تأمُّل فهذا الإيمان لا قيمة له و ..

من أخذ البلاد بغير حربٍ هان عليه تسليم البلادِ

***

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا)

يا محمَّد أنت رسول ..

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا)

هؤلاء عبادي ..

((لو يعلم المعرضون عني انتظاري إليهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطَّعت أوصالهم من حبّي ولماتوا شوقاً إلي، يا داود هذه إرادتي في المعرضين عني فكيف إرادتي في المقبلين علي ؟))

[ورد في الأثر]

((خلقت لك السماوات والأرض، ولم أعي بخلقهن أفيعيني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟))

[ورد في الأثر]

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا)

يا رسول الله أتلقي هذه المرأة بولدها إلى النار ؟ فَقَالَ :

((للَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا))

[صحيح البخاري عن عمر ابن الخطَّاب]

((إني والإنس والجنَّ في نبأٍ عظيم أخلق ويُعْبَد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرُّهم إليَّ صاعد، أتحبَّب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغَّضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيءٍ إليّ، من أقبل عليَّ منهم تلقّيته من بعيد، ومن أعرض عني منه ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودَّتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنِّطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهِّرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها

وأزيد، والسيِّئَةَ بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأمِّ بولدها، عبدي وحقّك إني لك محب فبحقّي عليك كن لي محبًّا))

[ورد في الأثر]

إذاً :

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

منزلة الصلاةفي الإسلام :

ما قيمة الطعام النفيس إن لم تتذوَّقه؟ ما قيمة البيت الفخم إن لم تسكنه؟ ما قيمة السيَّارة الفارهة إن لم تستعملها؟ ما قيمة الإيمان بالله عزَّ وجل إن لم تُقبل عليه؟ الله ذاتٌ كاملة مسعدة، أية نفسٍ أقبلت عليه سَعِدَت إلى الأبد، فإذا آمنت بوجوده، ولم تسعد بقربه فما قيمة هذا الإيمان؟

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

((الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[ورد في الأثر]

((لا خير في دينٍ لا صلاة فيه))

[ورد في الأثر]

((الصلاة ميزان، فمن وفَّى استوفى))

[ورد في الأثر]

((الصَّلاةُ نُورٌ))

[سنن ابن ماجة عن أبي مالك الأشعري]

((الصلاة طهور))

[ورد في الأثر]

((أرَأَيْتُمْ لَوْ أنَّ نَهْرًا ببَابِ أحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قالُوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا))

[مسلم عن أبي هريرة]

إذاً :

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

بين الصلاة وإقامة الصلاة فرق :

لم يقل : قل لهم يصلّوا، أي أن وضع شريط حريري وقصَّه عمليَّة سهلة جداً، لكن قبل أن يوضع هذا الشريط، ويُقَص يستغرق هذا المشروع عملاً طويلاً، وجهداً بالغاً، وسنواتٍ طويلة، وأموالاً طائلة عندئذٍ يضعون الشريط الحريري ويقصُّونه، يا أخي قصَّ هذا الشريط، إنَّ قصَّه سهل، أن تذهب إلى المغسلة وتتوضَّأ، وتقف وتقرأ الفاتحة وسورة، وتركع وتسجد فهذه قضيَّة سهلة جداً، لكن ربَّنا عزَّ وجل لم يقل : قل لعبادي ليصلُّوا، بل إنه قال :

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي أنك إذا استقمت على أمره، إذا تعرَّفت إليه، إذا طبَّقت أمره، إذا ضحيّت من أجله، إذا نهيت نفسك عن الهوى من أجله عندئذٍ تذهب لتصلي فإذا أنت مصلٍّ، فإذا أنت تتصل، فالعبرة لا أن تقف لتصلي، بل العبرة أن تقيم الصلاة، وإقامة الصلاة أن تستقيم على أمر الله، من إقامة الصلاة أن تفعل الخيرات، من إقامة الصلاة أن تنهى نفسك عن الهوى، من إقامة الصلاة أن تتفكَّر في خلق السماوات والأرض ..

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

يا من ضيع الصلاة واتبع الشهوات :

قل لهم: ليقيموا الصلاة، ليتصلوا بي كي يسعدوا، هذا الأمر العظيم، هذا الأمر الكبير، هذا الأمر الأوَّل في الإسلام ضَيَّعَهُ المسلمون ..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

لا أدري أهم قد ضيَّعوا الصلاة لأنهم اتبعوا الشهوات أم اتبعوا الشهوات، لأنهم أضاعوا الصلاة؟ كِلا الحالين صحيح، لماذا اتبعوا الشهوات؟ لأنهم أضاعوا الصلاة، لماذا أضاعوا الصلاة؟ لأنهم اتبعوا الشهوات ..

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

وهؤلاء الذين أضاعوا الصلاة يلقون غيًّا تحت سمعنا وبصرنا، يكفي أن يتألَّم الإنسان، يكفي أن يقول لك : إني مظلوم، يكفي أن تضيق به الدنيا، يكفي أن يرى المصائب تأتيه من كل مكان ..

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

جاء الغي .. " يا رب كم عصيتك ولم تعاقبني "، قال :" يا عبدي كم عاقبتك ولم تدر" ..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

لو أنَّنا أحكمنا الصلاة الصحيحة لكانت حالنا غير هذا الحال، لكنَّا في سعادة، لكنَّا في سرور، لكنَّا أعِزَّة، لكانت الحاجات متوافرة، الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فإذا حرمنا الله منها فحرمانه حرمان تأديب لا حرمان عَجْزٍ، ولا حرمان بخلٍ إنما هو حرمان تأديب ..

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سبحان الله! كيف يقيمون الصلاة؟ كيف تستطيع أن تقيم الصلاة؟ جاء التفسير :

(وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

إنما رزقك الله لتنفق :

الأصل أن الله سبحانه وتعالى رزقك من أجل أن تُنْفِقْ، يفهم الناس اليوم أن هذا المال الذي تكسبُه هو من أجل أن تنفقه على رفاهيّتك، المالُ من أجل المتعة، الزواج من أجل المتعة، الدخل الكبير من أجل البحبوحة والترف، البيت الفخم من أجل التباهي، السيَّارة من أجل تحقيق المُتعة، لذلك في آخر الزمان قيمة الرجل متاعه، في آخر الزمان يستمدُّ الرجل قيمته من متاعه فقط، من موقع بيته، من مساحة بيته، من أثاث بيته، من نوع مركبته، من ثمن الحِلي التي تضعها المرأة على صدرها، لا أخلاق، ولا علم، ولا قيم، ولا تعاطف، ولا تراحم، ولا مروءة .

من علامات آخر الزمان أن يذهب الحياء من وجوه النساء، وترفع النخوة من رؤوس الرجال، وتنعدم الرحمة من قلوب الأمراء، لا رحمة في القلوب، ولا حياء في الوجوه، ولا نخوة في الرؤوس، هذا من علامات آخر الزمان .

فالإنفاق في سبيل الله أعطاك الله سبحانه وتعالى المال كي تنفقه في طاعته، أعطاك هذه الزوجة كي تأخذ بيدها إليه، أعطاك هذا الابن كي تربّيه تربيةً صالحة، أعطاك هذا العلم كي تنفقه، أعطاك هذه الخِبْرَة كي تخدم بها المسلمين فترقى عند الله عزَّ وجل، يقول لك الآن: هذه العمليَّة تكلّف ثمانين ألفاً، وهذه ثمانمائة ألف، أين أجْرُهُ عند الله؟ تقاضى ثمنها أضعافاً مضاعفة حتى أنهك المريض، وحتى جعله يبيع بيته، (أخي الطب عمل إنساني)، عمل إنساني إذا كان أجره معقولا، أما إذا كان المريض سيضَّطر إلى بيع بيته من أجل إجراء عمليّةٍ يأخذها الطبيب ليضيف رقماً فوق ثروته، لم يعد هذا الطبُّ

عملاً إنسانيًّا، بل صار ابتزازاً، وكذلك كل المهن الراقية التي يسمّيها الناس راقية إن لم يكن علمك مسخَّراً لخدمة الخلق تقرُّباً إلى ربِّهم فهذا العلم لا أجر لك به، هذه حرفة تحترفها وتصبح من خلالها غنيًّا مُثْرَفًا، فالإنسان بلا عمل صالح لا قيمة له في الدنيا، لا شأن له عند الله، صغيرٌ في عين الله، أخذ عن كل حركةٍ وسكنةٍ وكلمةٍ مبلغاً طائلاً، يسأل يوم القيامة: يا رب ما لي عندك؟ يقول الله له: ما لك عندي شيء، هل فعلت شيئاً من أجلي؟ أبداً، فلذلك :

(وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

الصلاة تكتمل بالإنفاق :

لن تستطيع أن تصلي إلا إذا أنفقت، الاستقامة تُمَهِّدُ لك الطريق، إذا استقمت على أمر الله أزلت كل العقبات من طريقك، فكل معصيةٍ هي عقبة تحول بينك وبين الإقبال على الله عزَّ وجل، كل معصيةٍ عقبةٌ كَؤود تسدُّ عليك الطريق إلى الله، تجد أن الطريق إلى الله ليست سالكة بل فيها حواجز، أما إذا استقمت على أمر الله فقد أزلت كل هذه العقبات هل انتهى الأمر ؟ لا لم ينته الأمر، لابدَّ من السير، لابدَّ من التحرُّك، التحرُّك هو العمل الصالح، والعمل الصالح يرفعك، والعمل الصالح يدفعك، العمل الصالح محرِّك والاستقامة تعبيد الطريق، إذا عُبِّدَ الطريق، ودار المحرّك وصلت إلى الهدف ..

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

حرفتك تستطيع أن تصل إلى الله :

ما من واحدٍ منَّا إلا وله حرفة يستطيع من خلال حرفته أن يصل إلى الله عزَّ وجل عن طريق إتقانها، وعن طريق نصح المسلمين، وعن طريق إسعادهم، وعن طريق الإخلاص لهم، هذه الخبرة التي أعطاك الله إياها كن صادقاً فيها، لا تكذب، لا تغش، لا تدلّس، لا تخادع، لا تحلف كذباً، لا يكن همُّك جني المال، ليكن همُّك نصح المسلمين، خدمتهم، إذاً بالعمل الصالح أنت ترقى وهذا هو نصيبك من الدنيا ..

(وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : من الآية 77)

أما الكفَّار فيقال لهم يوم القيامة ..

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا)

(سورة الأحقاف : من الآية 20)

أنتم استهلكتم هذا الذي جعلتكم فيه خلفاء، بالمال ترقى، استهلكته على متعتك الرخيصة، بالزوجة ترقى وتدخل إلى الجنَّة استخدمتها لمتعتك الشخصية، ولم تبال بدينها، أصلَّت أم لم تصلِّ، أتحجَّبت أم لم تتحجَّب، أعرفت ربَّها أم لم تعرفه، المهم أنها في خدمتك وتحقق رغبتك في الحياة، إذاً ضيَّعت الزوجة وكان من الممكن أن تكون سبباً لك إلى الجنَّة، ضيّعت المال وأنفقته في المعاصي، وكان من الممكن أن يكون سبباً لك في دخول الجنَّة، لذلك:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

هذه مقالة العبد، والله سبحانه وتعالى لم يوافق عليها، يقول بعدئذٍ: كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إنما عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، إذا ضاقت عليك الدنيا لا تظنُّ أن هذا إهانةً لك حاشا لله، إذا ضيَّق الله عليك ..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

.. مريضٌ سأل النبي عليه الصلاة والسلام : " يا رسول الله ادعُ الله أن يرحمني "، فتوجَّه النبي عليه الصلاة والسلام إلى الله عزَّ وجل وقال: " يا ربِّ ارحمه "، فقال الله عزَّ وجل في الحديث القدسي :

((كيف أرحمه مما أنا به أرحم؟ وعزَّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُّ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيِّئَةٍ كان عملها سُقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدَّدت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

الله سبحانه وتعالى لا ينسى أحداً من فضله، وهو المعطي لا يسأل، وهو الغني لا يبخل، وهو الحليم لا يعجز، إذاً :

(وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

أنفق ينفق الله عليك :

أنفِق أُنفِق عليك، عبد أنفِق أُنْفِق عليك ..

أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

(سورة البقرة : من الآية 245)

ربُّ العزَّة في عليائه يسأل عبده أن يقرضه لا عن حاجة، ولكن عن تفضّلٍ عليه، أقرضني يا عبدي، اجعل هذا العمل خالصاً من أجلي، ارحم المسلمين، وفّر لهم حاجاتهم، تلطَّف بهم، خفّف من آلامهم، ارفع عنهم مآسيهم، اقرض الله قرضاً حسناً، افعل المعروف مع أهله، ومع غير أهله فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله ..

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص : من الآية 77)

اجعل علمك في طاعة الله، ابذل علمك للناس، ابذل خبرتك، ابذل مالك، ابذل جاهك، الناس أحياناً بحاجةٍ إلى جاهك، إلى مكانتك، إلى قوَّتك، ابذلها في طاعة الله، انصر الضعيف بها ..

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة البقرة : من الآية 245)

هل تغيث الملهوف؟ دخل رجلٌ على حجرة النبي عليه الصلاة والسلام كُتِبَ في هذه الحجرة من الداخل حديثه الشريف :

((أفضل المعروف إغاثة المَلهوف))

[ورد في الأثر]

أفضل أنواع المعروف، هل تغيث الملهوف ؟ هل تتقرَّب إلى الله عزَّ وجل بخدمة خلقه من دون أن تعرفهم من هم، من هم ؟ هذا الذي أمامك من خلق الله، الله خلقه، يحبُّه، هو عبده ولو كان مجوسيَّاً، اخدمه فلعلَّه يُسْلِم ..

(وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

الإنفاق مطلق، انفق من مالك، من علمك، من قوَّتك، من جاهك، من مكانتك، من خبرتك .

(سِرًّا وَعَلَانِيَةً)

الإنفاق في السروالعلانية :

لأن هذا الذي تعطيه عبدٌ لله عزَّ وجل وكرامته على الله غالية فإذا أعطيته علانيَّةً فقد جرحته، أنفق سرَّاً صوناً لكرامة الإنسان، وأنفق علانيَّةً إذا كان هناك مشروع، بناء مسجد مثلاً، قد يفكّر أحدهم في دفع خمسين ليرة فلمَّا دفعت أنت ألف ليرة يقول: لا، عليّ أن أدفع أكثر من ذلك، إذا كان الدفع لا يمسُّ إنساناً ليكن هذا الدفع علانيَةً، وإذا كان الدفع يمسُّ إنساناً ليكن هذا الدفع سرَّاً، أنفق سرَّاً وعلانيَّةً .

كيف هو الإنفاق سرا وعلانية :

بعضهم قال : " الفرض يؤدَّى علانيَّةً، والنفل يؤدَّى سرّاً "، أي أن الزكاة تؤدَّى علانيَّةً، أما الصدقة تؤدَّى سرّاً .

بعضهم قال : " الإنفاق في السر يُطْفِئ غضب الرب "، صدقة السر تطفئ غضب الرب ولكن لماذا؟ لأنها تؤكّد إخلاصك لله عزَّ وجل .. لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك ..

(وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً)

من قبل أن يأتي الموت ..

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

اعمل قبل أن يأتي يوم لا عمل فيه :

الآن نحن في الدنيا كل شيءٍ له حَل، لو أنَّ لك ذنوباً بلغت عَنان السماء وقلت : يا رب، يقول لك الله عزَّ وجل : " لبّيك يا عبدي "، يا رب أنا قد تُبْت، فيقول لك: " وأنا قد قَبِلْت ، يا ربي قد ندمت، " وأنا قد عفوت " ..

((وإذا رجع العبد إلى الله عزَّ وجل نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

والله الذي لا إله إلا هو لو تمَّ الصلح مع الله لكنتم في سعادةٍ لا توصف، إذا تُبْتَ إلى الله توبةً نصوحاً، وعاهدته على الطاعة التامَّة عندئذٍ يتجلَّى على قلبك، وإذا تجلَّى على قلبك ليت شعري ماذا خسرت؟ يا رب ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك؟ الذي وجدك ماذا ضاع منه؟ ضاع منه بيتٌ في الطابق الثالث، لم يضع فيه شيء، تأتيك الدنيا وهي راغمة ، يتجلَّى الله على قلبك فتنسى الدنيا وما فيها، قال أحد العارفين: " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " ..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبَّنا

ولذ بحمانا واحتمي بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

****

فما القرب والإبعاد إلا بأمرنـا فلو شاهدت عيناك من حسننـا

الذي رأوه لما ولَّيت عنَّا لغيرنا ولو سمعت أذناك حسن خطابنا

****

خلعت عنك ثياب العُجب وجئتنا ولو نسمت من قربنا لك نسمة

لمتَّ غريباً واشتياقاً لقربـــنا ولو ذقت من طعم المحبَّة ذرَّةً

***

لو يعلم الإنسان ما عند الله لزهد في الدنيا، من عرف الله زهد فيما سواه، هؤلاء الذين عرفوا الله وأفنوا عمرهم في طاعته، وفي محبَّته، وفي التقرُّب إليه كانوا هم الرابحين، والذين التفتوا إلى الدنيا وحسَّنوها، وزيَّنوها، وزخرفوها، وانغمسوا في مباهجها هم الخاسرون..

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان)

فالشيء الوحيد الذي يندم عليه المرء عندما يموت هو أنه في الدنيا لم يتخذ إلى الله سبيلاً مع الرسول، أثمن ما في الدنيا أن تكون في طريق الحق بصحبة عارفٍ بالله، بصحبة دليلٍ على الله عزَّ وجل، تُحَلِّل وتُحَرِّم وحدك، تفكِّر تفكيراً شخصياً فتقول: هذه حلال ليس فيها شيء، فإذا هي تقطعك عن الله عزَّ وجل، قد تحرِّم ما أحلَّ الله لك، وقد تحلِّل ما حرَّم الله عليك، وقد تتيه في الأرض، لكنَّك إذا كنت بصحبة عالمٍ كبير، قال الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف : من الآية 28)

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(27)ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً(28)فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)

(سورة الفجر)

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[مسند أحمد عن النعمان بن بشير]

أي أن هذا الدرس الأسبوعي يشحن الإنسان بالإيمان، تجد المؤمن بعده يوم السبت، الأحد، الاثنين مثلاً يندفع إلى الصلاة، يغضُّ بصره ، يحرِّر دخله، يخدم الناس، يدعو إلى الله، يوم الاثنين تبدأ الهمَّة بالفتور الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، يأتي يوم الجمعة لأخذ شحنةٍ جديدة، فإذا تُركَت الجمعة مرَّتين نكتت نكتةٌ سوداء في قلبه ثم يكون الران، حافظوا على هذه المجالس، وهذه المجالس مائدة الله سبحانه وتعالى، هذه مائدتي، كتاب الله سبحانه وتعالى، وليس من شيءٍ أثمن في الأرض من أن تعرف كلام الله عزَّ وجل .

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ)

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

(سورة المدثر)

الموت أقرب شيء للإنسان :

الموت والله الذي لا إله إلا هو أقرب إلى الإنسان من لمح البصر، كنت مع رجل من أهل العلم جلس إلى جانبي .. رحمة الله عليه .. وتحدَّثت معه وبعد أقل من أربعين دقيقة كان ميتاً، بأكمل صحَّةٍ، وأكمل وضعٍ، وأكمل هيئةٍ، كنَّا في مكان تحادثنا ثم خرج إلى البيت، وصل إلى البيت فشعر بضيقٍ فاضَّطجع على سريره، ذهبوا لإحضار الطبيب فلما عادوا إذا هو قد فارق الحياة، لا مرض ولا شيء إطلاقاً .. الموت أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله ..كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

[صحيح البخاري من قول سيدنا أبو بكر الصديق]

قد يكون الإنسان في أوجّه ويأتيه ملك الموت، فعلى الإنسان أن يستعد، عليه أنه إذا أصبح أن يقول : قد لا أُمسي، وإذا أمسى قد لا أصبح، وإذا خرج قد لا أعود، وإذا دخل قد لا أخرج، وإذا اشترى بيتاً قد لا أسكنه .

حدَّثني صديق يبيع غرف نوم قال لي: جاءني رجل يريد شراء غرفة نوم من أعلى نوع، سمع أن خشب الجوز أحسن شيء، ذهبنا واشترينا الخشب، وعتَّقهم سنتين حتى نشفوا، وظل ستَّة أشهر ينتقي نماذج حتى وجد نموذجاً جميلاً جداً، وكان يزورني في الأسبوع مرَّة أو مرَّتين يتفقَّد الشغل، قال لي: انبطح مرّة تحت الغرفة مخافة أن يكون في الأرجل عقدة من الداخل، بعدما انتهت صار على الغرفة طلب لأنها جميلة جداً، تعال خذها يا فلان، إنني أُدَهِّن الغرفة، دهَّن الغرفة، وركَّب ستائر، تعال خذها، أمهلنا يومين آخرين، بعد هذا الموعد اتصل النجار هاتفياً يوم الخميس فسمع في البيت وضعاً غير طبيعي، فلمَّا أصرَّ، قيل له: مات صاحبها، ثلاث سنوات يهيئ غرفة نوم، ما تمكَّن أن ينام عليها ليلة، قال لي: انبطح انبطاحاً لكي ينظر هل هناك عقدة في الرجل من الداخل؟ أين هو؟ الموت أقرب لأحدنا من شِراك نعله، يجب أن يستعد الإنسان، يستعد بالعمل الصالح، بالاستقامة التامَّة، بتحرير الذمَّة، بإعطاء الناس حقوقها وإلا يكون حسابه عندئذٍ عسيراً ..

((من حاسب نفسه حساباً يسيراً كان حسابه يوم القيامة عسيراً، ومن حاسب نفسه حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيرا))

[ورد في الأثر]

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

معنى : الخلال :

الخلال أي المودَّة، أحياناً يقع الإنسان في ورطة كبيرة ويكون له صديق قوي بمقياس أهل الأرض يتدخَّل فينقذه من هذه الورطة، هذه خلال، وقد يقع في ورطة فيدفع مبلغاً كبيراً فتزاح عنه، إذاً قد تُحَلُّ المشكلات في الدنيا إما بالصداقات وإما بالمراهم أي الدراهم، وأما في هذا اليوم لا بيعٌ فيه ولا خلال، لا وساطة، ولا أن يقال لك: هذه تكلّفك عشرة آلاف هل ستدفعها؟ لو كانت الأرض كلُّها لك، وافتديت بها لا تنجو من عذاب الله عزَّ وجل، فكلمة :

(لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

تعني الشيء الكثير، لا المال ينفع ولا الصداقات تنفع، لا خلَّةٌ ولا شفاعة ..

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ)

(سورة البقرة : من الآية 254)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (6-9): تفسير الآية 32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-10-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي في سورة إبراهيم عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (32)وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(33)وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

إذا قرأت في الكون عرفت الله :

أيها الإخوة الأكارم ... خلق الله سبحانه وتعالى الكون، وبثَّ فيه آياتٍ دالَّةً على عظمته، فإذا قرأت في هذا الكون عرفت الله عزَّ وجل، والكون بسمائه، وأرضه، وشمسه، وقمره، وليله، ونهاره فيه بابٌ واسعٌ كبير من أبواب معرفة الله سبحانه وتعالى، هذا الكتاب يقرؤه كل إنسان، صفحاته كبيرة، كلماته كبيرة، حروفه كبيرة، أينما تحرَّكت، حيثما ذهبت تُطَالِعُكَ آيات الله عزَّ وجل .

ربنا سبحانه وتعالى في هذا المقطع من سورة إبراهيم يذكِّرنا ببعض الآيات الدالَّة على عظمته، فهو سبحانه وتعالى يقول :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

السماوات والأرض (الكون):

فكلمة السماوات والأرض تعني الكون كلَّه، لأننا على الأرض وما سوى الأرض سماء، هذا الكون أو هذه الأرض التي نحن عليها ما حجمُها؟ تعلمون أنَّ اليابسة هي قارَّاتٌ خمس، إفريقيا، وآسيا، وأمريكا، وأوروبا، وأستراليا، هذه القارات الخمس لا يزيد حجمها جميعاً على خُمُسِ الأرض، والبحر أربعة أخماس، وحجم الأرض بالنسبة إلى الكون كذرَّةٍ في هواء غرفة، لو أنَّك كَنَسْتَ غرفةً في الشتاء، وكانت أشعَّة الشمس داخلها ترى بعض الذرات العالقة في سماء الغرفة، ما حجم الأرض بالنسبة إلى الكون إلا كحجم هذه الذرَّة التي لا وزن لها بالنسبة إلى بيتك أو إلى مدينتك ؟

استقرار الأرض بكل معانيه نعمة عظيمة :

هذه الأرض التي نحن عليها جعلها الله قراراً بمعنى أنَّ الأشياء مرتبطةٌ بها، لولا نظام الجاذبية لما استقرَّ شيءٌ على الأرض، من فضل الله سبحانه وتعالى العميم أنه جعلها قراراً .

وشيءٌ آخر أنه جعلها مستقرة استقراراً تاماً بحيث تبني عليها البيت فوق البيت فوق البيت، وترتاح وتطمئن إلى سكونها، وما الزلازل التي تحدث في بعض بقاع الأرض إلا دليلٌ على استقرارها، لو أن الأرض مهتزةٌ كالزلزال لاستحال العيش عليها .

يعرفنا الله سبحانه وتعالى بعض النعم بأضدَّادها، وبضدِّها تتميَّز الأشياء، لولا أن الأرض تهتز هزاً عنيفاً مما (يقوِّض كل ما عليها)لما عرفت نعمة سكونها التام واستقرارها .

والله سبحانه وتعالى جعلها قراراً بمعنى ثالث، وهو أن الله بث فيها جميع الحاجات إليها، أنت محتاجٌ إلى الهواء، وإلى الماء، وإلى معادن، وإلى طعام، وإلى شراب، وإلى حيوانات، وإلى مواد، وإلى سهول، وإلى جبال، الله سبحانه وتعالى جعلها قراراً تستقر أنت عليها لتوافر كل الحاجات فيها، وجعلها قراراً بمعنى أنها مستقرة، وجعلها قراراً بمعنى أن كل شيءٍ عليها مُنْجَذِبٌ إليها .

شكل الأرض :

شيءٌ آخر .. أما شكل الأرض فهو شكلٌ كروي وهو الشكل الوحيد الذي تمتد عليه الخطوط من دون أن تقف، أي ليس للأرض حروف، المكعب له حرف، والهَرَم له حرف، والمتوازي المستطيلات له حروف، لكن الأرض بشكلٍ دائري، قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

(سورة الرعد : من الآية 3)

أي جعلها ممتدة، جعلها متصلة، أينما سرت تعود إلى نقطة البدء .

حركة الأرض :

وشيءٌ آخر جعل ربنا سبحانه وتعالى الأرض متحركة حركاتٍ عدة، يقول ربنا عزَّ وجل :

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً)

(سورة الحج : من الآية 5)

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

(سورة النمل : من الآية 88)

تدور حول نفسها، وتدور حول الشمس، ويدور محورها المائل حول نفسه في كل خمسة وعشرين ألف عام، ويدور مستوى دورانها حول نفسه، وقد أحصى العلماء لها دوراتٍ عديدة لا نعرف إلا بعضها، فربنا سبحانه وتعالى خلق الأرض التي نعيش عليها، وقال في آيةٍ أخرى :

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

(سورة طه)

إذاً أودع الله سبحانه وتعالى تحت الثرى ثرواتٍ ثمينةً وكثيفةً وهائلةً، والله سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

أي أن الأرض لها مسارٌ حول الشمس، لا تحيد عن هذا المسار، بقدرة قادر، لولا أن الله سبحانه وتعالى يحرِّكها بقبضته لخرجت عن مسارها، ولو أنها خرجت عن مسارها لانتهت، لارتطمت بكوكبٍ آخر وانتهت الحياة من على ظهرها .

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

حتى إن مسار الأرض حول الشمس يأخذ شكلاً إهليلجياً، هناك بعدٌ أصغر وبعدٌ أكبر، وفي البعد الأصغر يزيد جذب الشمس للأرض، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يزيد من سرعتها كي ينشأ من هذه السرعة قوةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة، لانجذبت الأرض إلى الشمس ولانتهت الحياة من على ظهرها، ولو أن الأرض انجذبت إلى الشمس كما يقول بعض العلماء ودخلت فيها لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، من الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا؟ معنى تزول أن تخرج عن مسارها، ومنه زوال الشمس عن كَبِدِ السماء، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

هل عرفته ؟

العناصر الصلبة والغازية والسائلة في الأرض :

شيءٌ آخر، نحن على سطح الأرض نستنشق الهواء، ونستعمل الماء ونشربه، ونبني على الأرض الصُلبة، إذاً في الأرض عناصر صلبة، وعناصر سائلة، وعناصر غازية، من الذي جعل العناصر التي خلقها الله في الأرض متفاوتةً في درجة انصهارها؟ لو أن العناصر كلها متساويةً في درجة انصهارها لكانت الأرض كلها إما جسماً صلباً، وإما سائلاً، وإما غازاً، الأرض منوَّعة فيها أجسام صلبة، فيها صخر، فيها حديد، فيها أجسام سائلة، فيها عناصر غازية، هذا أيضاً من فضل الله عزَّ وجل ..

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً)

(سورة الحج : من الآية 63)

أما رأيت هذه الآية أيها الإنسان؟ ويقول الله سبحانه وتعالى يقول :

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ)

(سورة الإسراء : من الآية 44)

انتبه إلى هذه الحقيقة : الأرض لها نفس تسبِّح :

أي أن الأرض نفسٌ تُسَبِّحُ لله عزَّ وجل ..

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ)

(سورة الإسراء : من الآية 44)

أما يستحي الإنسان أن يكون الجماد أعقل منه؟ أما يستحي الإنسان أن يكون الجماد أقرب إلى الله منه ؟

شيءٌ آخر مما يؤكد أن الأرض نفسٌ، قال تعالى :

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)

(سورة الدخان : من الآية 29)

الأرض تتبارك بالمؤمن، فإذا مات غير المؤمن ما بكت عليه السماوات ولا الأرض، و السماوات هي ما سوى الأرض .

قلت لكم قبل قليل: إن السماوات والأرض تعني الكون، وهذه العبارة وردت في كتاب الله مئات المرَّات، وكأن الله سبحانه وتعالى يعني بالسماوات والأرض الكون، والكون ما سوى الله، كان الله ولم يكن معه شيء، فالكون مُحْدَثٌ من قِبَل الله عزَّ وجل .

شيءٌ آخر، قال تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ

العلماء فهموا هذه الآية على ثلاثة مستويات :

المعنى الأول :

مواقع النجوم هذه الفراغات، هذا الفضاء الخارجي الذي لا يعلم إلا الله إلى أين يمتد، أحدث معلوماتٍ

عرفها الإنسان عن مجرةٍ بعدها عن الأرض ثمانية عشرة ألف مليون سنة ضوئية، مع أن القمر يبعد عنا ثانيةً ضوئيةً واحدة، والشمس تبعد عنا ثماني دقائق، وقطر المجموعة الشمسية كلها ثلاث عشرة ساعة، ودرب التبَّانة، وهي المجرة التي نحن فيها طولها كلها مائة وخمسون ألف سنةً ضوئية، أما هذه المجرة التي عثر عليها علماء الفلك فهي تبعد عنا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، ومعنى أنها تبعد عنا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، أي أن ضوءها قد وصل إلينا الآن، وكانت قبل ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية في هذا المكان الذي رأيناها منه، قال ربنا عزَّ وجل :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

هذا الفراغ، وهذا الفضاء الخارجي لا يعلم إلا الله أين ينتهي، لا يعلم إلا الله كم يمتد، كلما تقدم العلم عرف العلماء بعض المجرات الجديدة، بل إن بعض المجرات لا تُرى بالتلسكوبات، وإنما تعرف ببعض الإشعاعات الصوتية التي تلقَّتها بعض الأجهزة .

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

المعنى الثاني :المعنى الثالث :

المعنى الثاني أن مواقع النجوم، هذه النجوم الكبيرة، لها مواقع كبيرة، فنجم قلب العقرب حجمه بحجم الشمس والأرض مع المسافة بينهما، وهناك نجومٌ في السماء يزيد حجمها على حجم شمسنا آلاف المرات .

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

والمعنى الثالث أنها مواقع، وليست موقعاً واحداً، إن هذه النجوم لها مساراتٌ تسير وفق نظامٍ دقيق، ما من نجمٍ في السماء إلا وينطلق في مساره حول كوكبٍ آخر، وهذه آيةٌ كبرى لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الكون متجاذباً فيما بينه وفق قانونٍ دقيق تحكمه المسافة والكتلة، أو مربع جداء الكتلتين، هذا القانون .. قانون التجاذب .. لولا حركة النجوم لتجمع الكون كله في كتلةٍ واحد وانتهت الحياة، تنشأ بالدوران القوى النابذة التي تكافئ القوى الجاذبة، ويبقى الكون على ما هو عليه بفضل الدوران الدائم .

الله سبحانه وتعالى حينما وصف السماء قال :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

(سورة الطارق)

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ

أي أن كل كوكبٍ في السماء ينطلق في مسارٍ ويرجع إلى نقطة البدء، إذاً جميع المسارات دائرية أو بيضوية ..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

(سورة الطارق)

لولا هذه الحركة الدائبة من النجوم لأصبحت النجوم كلها كتلةٍ واحدة .

حجم الكون :

شيءٌ آخر، حجم الكون لا يعلمه أحد، فإذا سأل سائل: من خلق الله عزَّ وجل؟ نقول له : أأحطت أنت بالكون أولاً؟ أعرفت نهاية الكون؟ أوصلت إلى حدود الفضاء الخارجي؟ أعرفت عدد المجرَّات التي خلقها الله عزَّ وجل على سبيل الحصر؟ أوصلت إلى نهاية الكون حتى تطرح هذا السؤال؟ الكون الذي يبدو لنا لا نهاية له، له نهاية لأنه مخلوق، ولكن فيما يبدو لنا لا نهاية له .

فلذلك قال بعض العلماء : إن في الفضاء الخارجي ثقوباً سوداء فيها ضغطٌ مرتفعٌ جداً، لو دخلته الأرض لأصبحت كالبيضة بالوزن نفسه، ووزن الأرض الذي لا يعقل لو دخلت الأرض في بعض هذه الثقوب السوداء لأصبح حجمها كحجم البيضة بالوزن نفسه، فلا يحيط بهذه الآيات إلا الله سبحانه وتعالى، ولو أمضينا الساعات الطوال، والأيام والشهور، والسنوات والحِقَب لا نستطيع أن نصل إلى تعداد آيات الله التي بثها الله في الأرض، ولكن إعطاءُ القليل خيرٌ من ترك الكثير يقول الله سبحانه وتعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

أي هل عرفته ؟ هل عرفت أن السماوات والأرض من خلق الله عزَّ وجل ؟ هذا الذي يدعوك لعبادته، يدعوك لطاعته، يدعوك لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، هو الذي خلق السماوات والأرض، أما قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

تقديم لفظ الجلالة في الآية يفيد الحصر والقصر :

له معنى دقيق، فهناك اختلاف كبير، لو أن الله سبحانه وتعالى قال : خلق الله السماوات والأرض، وبين قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

مسافةٌ شاسعة، إن تقديم لفظ الجلالة في هذه الآية يعني أن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده تقديمٌ على سبيل القصر والحصر .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

وخلق السماوات والأرض هو نعمةٌ ذكرها العلماء ألا وهي نعمة الإيجاد، وفي آيةٍ أخرى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : من الآية 1)

نحن موجودون لهذه النعمة التي أوجدها الله عزَّ وجل، شيءٌ آخر..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

خلقاً أولياً، وسوف يعيد الخلق مرةً ثانية لقوله تعالى :

(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

(سورة الروم : من الآية 11)

خلق السماوات والأرض فحقق أسماءه الحسنى، جَسَّدَ أسماءه الحُسنى في خلق السماوات والأرض، وفي إعادة الخلق سيتحقق العدل المُطْلَق، فالفقير والغني، والقوي والضعيف، والصحيح والمريض كل هؤلاء سينالون جزاء أعمالهم بالتمام والكمال .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً

نعمة الماء :

أما إنزال الماء من السماء فهذه نعمةٌ أخرى يتفضل الله بها علينا وهي نعمة الإمداد، أوجدنا وأمدنا، أمدنا بنِعْمَةِ الطعام والشراب، ونعمة الطعام والشراب أساسها أنه :

(وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)

الله سبحانه وتعالى الذي خلق السماوات والأرض هو نفسه أنزل من السماء ماءً، الذي خلق أمد، الذي خلق رَزَقَ .

(وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

وإنزال الأمطار من السماء موضوعٌ دقيقٌ جداً، تدخل فيه أشعة الشمس، ويدخل فيه تبخُّر ماء البحر، وتشبُّع الهواء ببخار الماء، وتجميع السحاب، وتحريك السحاب، وتفاوت السحاب، وعصر السحاب ..

(وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)

(سورة النبأ)

يتم إنزال المطر عن طريق اختلاف درجات الحرارة، وعن طريق اختلاف الشحنات الكهربائية بين السحب، إن إنزال المطر من السماء موضوع معقّد جداً، لكن في الآيات شيء يُلْفِتُ النظر هو أن الله سبحانه وتعالى ثبَّت أشياء في خلق السماوات والأرض وحرَّك أشياء، فدورة الأرض حول نفسها ثابتة منذ أن خلقت، ودورتها حول الأرض ثابتة منذ أن خلقت، وحركة الشمس ثابتة، وأشياء تَثْبُت لا تتغير ولا تتبدَّل، هذا الثبات من أجل انتظام الحياة، ولكن في الأرض أشياء أخرى حرَّكها الله سبحانه وتعالى، منها إنزال المطر .

عملية إنزال المطر دليل القدرة :

عملية إنزال المطر عملية بالغة التعقيد، ولكنك أيها الإنسان لا تعرف متى تنزل المطر، قد تشِحُّ السماء بالماء، وقد تنزل الأمطار كأفواه القُرَب، وقد ينزل في ليلةٍ واحدة ما يهْطل في عامٍ بأكمله، هطل قبل أربعة أسابيع في ليلتين ما يساوي نصف أمطار العام الماضي حصراً، إذاً الأشياء التي ثبَّتها الله عزَّ وجل من أجل انتظام الحياة في الأرض، والأشياء التي حركها من أجل أن يبقى الإنسان معلَّقاً بالله عزَّ وجل، لو أن الله سبحانه وتعالى ثبَّت هطول الأمطار على الأرض لاستغنى الإنسان عن ربه وشقي باستغنائه، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمةً بالعباد لم يجعل للأمطار نظاماً ثابتاً، تكون الأمطار غزيرة في عام، وفي عامٍ آخر تَشِحُّ السماء من أجل أن يتضرع الخلق إلى الله عزَّ وجل .

خصائص الماء :

الماء، هذا الماء الذي أنزله الله من السماء، ماءٌ طاهر، لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، هذا الماء يتبخَّر بدرجاتٍ متدنية، فهو يتبخر في الدرجة أربعة عشر، ولولا هذه الدرجة إذا نظَّفت أرض البيت بالماء يبقى هذا الماء طوال الشتاء، ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى جعل تبخُّر الماء في درجاتٍ دُنيا، وجعلته يغلي في درجة مائة، وهذا من فضل الله عزَّ وجل كي نستعين به على إنضاج طعامنا، والله سبحانه وتعالى جعله يتبخَّر، ولولا تبخُّرُهُ لما أُشْبِعُ الهواء ببخار الماء، والهواء فيه نسبةٌ من الرطوبة، وهذه مهمةٌ جداً في إنبات النبات، النبات لا ينضج إلا بثلاثة شروط، توافر الرطوبة، والحرارة، والضوء، تبخُّرُ الماء أي تشبع الهواء ببخار الماء هو الذي يعين على إنبات النبات .

شيءٌ آخر تعلمون أننا إذا برَّدنا الماء ينكمش، إلا في الدرجة (+4)فما دون إذا برَّدْنَاهُ يزداد حجمه،

ومن ازدياد حجمه تقل كثافته، إذاً يطفوا الماء المتجمد على سطح البحار وبذلك تبقى البحار دافئة، وتبقى الأسماء حية، وعندما يذوب هذا الجليد السطحي تعود البحار إلى وضعها السائل، وتعود عملية التبخر كما كانت، ولولا هذه الظاهرة لانعدمت الحياة من على سطح الأرض، وهي ظاهرة أن الماء إذا بلغ درجة (+4)يزداد حجمه إذا برَّدته .

والماء كما تعلمون لا ينضغط، وإذا تمدد فلا شيء في الأرض يقف في وجهه، إنه يستطيع أن يشُقَّ أقسى أنواع الفولاذ، لذلك يستخدمون الماء الآن في بعض مقالع الرُخام فيبرِّدونه فيتمدد فيشقُّ الرخام، بهذه الطريقة يستفيدون من هذه الخاصَّة بقلع الرخام من الجبال .

شيءٌ آخر، هذا الماء الذي لا طعم له ولا رائحة له ولا لون له، هذا الماء الذي لا ينضغط، والذي إذا تمدد لا يقف عند حد، هذا الماء له صفة النفوذ، ولولا هذه الصفة لما عاش النبات، إن الماء يمرُّ من أدقِّ المسامات ومن أدق الأوعية والماء أيضاً له صفاتٌ أخرى .

(وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ)

بالماء يخرج النبات :

هذه الباء كما يقول العلماء للسببية .

(فَأَخْرَجَ بِهِ)

لذلك الله سبحانه وتعالى جعل لكل شيءٍ سبباً، فالنبات لا ينبت إلا بالماء أخرج به، إنه دَلَّكَ على الأسباب، ثم أمرك أن تتوكَّل على رب الأرباب، دلك على الأسباب ..

(فَأَخْرَجَ بِهِ)

مبدأ السببية :

الفكر البشري لا يفهم الأشياء بلا سبب، ولا يفهمها بلا غاية، ولا يقبل أن تكون متناقضة، وهذه المبادئ الثلاث هي مبادئ العقل البشري ؛ مبدأ السَبَبِيَّة، مبدأ الغائيَّة، مبدأ عدم التناقُض، إنك لن تستطيع أن تسكت عن مصباح متألقٍ في بيتك إذا عُدَّتَ إلى البيت بعد أن خرجت منه وأطفأت بنفسك كل المصابيح، فإذا عُدت إلى البيت ورأيت مصباحاً متألّقا فمعنى هذا أن إنساناً دخل إلى البيت وأشعل هذا المصباح، لا يستطيع عقلك أن يفهم تألُّقَ المصباح إلا بسبب، كما أنك إذا اشتريت آلةً لا تستطيع أن تفهم بعض أجزائها إلا بالغاية التي صنع من أجلها، هكذا طبيعة الإنسان، يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ)

باء السببية ..

(مِنْ الثَّمَرَاتِ)

نعمة تنوّع الثمار وكمياتها الاقتصادية :

أنواع الثِمار، هذه الثمرات التي خلقها الله سبحانه وتعالى، أولاً كما يقول علماء الاقتصاد : اقتصادية، بمعنى أن شجرة التفّاح، مثلاً لو أنتجت أربع تفاحات في العام هذا الإنتاج لا يكفي، لا أحد يزرع الأشجار، لابدَّ من أن يكون عدد الثمار عدداً اقتصادياً يغطي كل نفقات المزرعة، فمن منا فكَّر في هذه الناحية .

إن حجم إنتاج أشجار التفاح، أشجار الكرز، أشجار الدُرَّاق، العنب، حجم اقتصادي، بمعنى أن الفلاح يَدْأبُ ويتعب ويجني بعد هذا أرباحاً معقولةً تجعله متفرِّغاً لهذا العمل.

لو أن الدجاجة باضت في العام بيضة، لكان ثمن البيضة خمسمائة ليرة، أو مائة ليرة، لا أحد يشتري هذا البيض بهذا السعر، إذاً كون الدجاجة تبيض كل يومٍ بيضةً هذا اسمه في علم الاقتصاد إنتاج اقتصادي، بعد قليل سيمرُّ معنا أن في كل كيلومتر مكعب من البحر أربعة كيلوات من معدن الذهب، إذا كان ثمن كيلو الذهب ثلاثمائة ألف، فمعنى ذلك أن لدينا في كل كيلومتر مكعب من البحر، مليون ليرة أو أكثر، ولكن لا تستطيع استخراج غرام واحد من الذهب إلا إذا عالجت مائتين وخمسين مليون لتر من ماء البحر، ومعالجة هذا الماء بهذه الكثافة أغلى من ثمن غرام الذهب، إذاً ربنا عزَّ وجل جعل هذه الثمرات بكميةٍ اقتصادية .

لو فكَّرت في هذه الأشجار لوجدت الله :

شيءٌ آخر .. لو أن هذه الشجرة تموت كل عامين، إلى أن تصبح شجرة تحتاج إلى سبع سنوات، تثمر عامين وتموت، قضية غير اقتصادية، لكن أشجار البلح أو التمر تعيش سبعة آلاف عام، وأشجار الزيتون تعيش أربعة آلاف عام، وهناك أشجارٌ كثيرة معمِّرة، وأقل أنواع الأشجار عمراً تعيش عشر سنوات أو عشرين سنة أو ثلاثين سنة، وأيضاً عمر الشجرة متناسب مع حاجة الإنسان .

شيء آخر .. سهولة الإشراف عليها، تزرع الشجرة وتسقيها وانتهى الأمر، ما يجري في داخلها من نمو الخلايا وتفرُّع الجذور، ولكل جذر جذير وله قلنسوة، وله مواد تذيب الصخر الذي أمامه، وكيف تأخذ الشجرة غذاءها من التُراب، وكيف تأخذ حاجتها من الهواء عن طريق الأوراق، وكيف تنمو إلى الأعلى، وكيف تتفرَّع، وكيف تنعقد الأزهار، وتنعقد الثمار، هذا شيءٌ لا دخل لك به .

حدَّثني رجل مختص بالزراعة قال لي: الشيء الذي يلفت النظر ما الذي يحدث إذا امتنع البستاني عن ريِّ الشجرة بالماء ؟ تستهلك الشجرة أول ما تستهلك ماء أوراقها، أول شيء، لذلك بعد أيامٍ عِدَّة أو بعد أسابيع تَذْبُلُ أوراقها، وهذا تنبيهٌ لصاحبها، كأنها تقول له : أنا عطشانة من ذبول أوراقها، فإذا لم يسقها البستاني استهلكت ماء أغصانها الصغيرة، فأغصانها الكبيرة، ففروعها، فجِذْعِها، وآخر ماءٍ تستهلكه الشجرة ماء الجذور، وهذا عكس ما يتبادر إلينا، إذا امتنع البستاني عن ري الشجرة بالماء، بحسب المنطق يجب أن تأخذ ماء الجذور، فلو استهلكت ماء الجذور ويبسَت الشجرة تموت فوراً، لكن رحمة الله بالإنسان جعل هذه الشجرة تسلُك طريقاً عكسياً، تستهلك ماء الأوراق أولاً، ثم ماء الأغصان، وماء الفروع، وماء الجذع، وآخر شيءٍ تستهلكه ماء الجذور، فإذا استهلكته يبسَت وماتت، أي أن البستاني يستطيع أن يتلافى أمره في كل هذه المراحل عدا المرحلة الأخيرة .

(وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)

انظروا إلى الثمار حجمها وطعمها ولونهاونوعها :

وحجم الشجرة وحجم الثمرة حجمٌ منطقي ومعقول، انظر إلى حجم التفاحة لو أنه أكبر، لو أن التفاحة كالبطيخة، قطعت نصفها وتركت نصفها الثاني لليوم الثاني، فإذا هو مُسْوَد، ذهبت شهيَّتك، حجم التفاحة يمكنك من أكلها في دفعةٍ واحدة، انظر إلى حجم كل ثمرة، إلى حجم الزيتون، إلى حجم التفاح، إلى حجم الدُراق، إلى حجم العنب، لو كان العنب كالبطيخ بهذا الغشاء الرقيق مستحيل أن نأكلها، كيف نأكل العنب؟ جعل الله سبحانه وتعالى كل فاكهةٍ بحجمٍ مناسب، ولو كان حجم البطيخ كالجوز مثلاً، كيف تأخذ بأصبعك اللب الداخلي، مستحيلة، أنظر إلى الحجوم، تجد أن الحجوم مناسبة جداً .

شيء آخر غلاف الثمار، غلاف الدُراق، غلاف الإجاص، غلاف التفاح، غلاف البطيخ غلافٍ قاسٍ، يضعون في السيَّارة ما يزيد على خمسة طن من البطيخ، هذا الذي في الأسفل يبقى سليما بفضل قساوة هذه القِشرة، البطيخ ماء مجمَّد، البطيخ ماء مجمّد في شرايين، لو عصرت البطيخ لكانت نسبة الماء ثمانية وتسعين بالمائة، جعل لها هذه القشرة الصُلبة لتحفظها، موضوع القشور وحده يحتاج لمجلدات كاملة .

موضوع ارتباط الفواكه بالأم، بحث قائم بذاته، لو أمسكت عنقود العنب، وتعلقت به لا ينقطع، فإذا حرَّكته بعكس اتجاهه ينقطع، من المُصَمِّم؟ تمسك التفاحة بكل قوَّتك لا تنقطع، فإذا نضجت ما أن تضع يدك عليها حتى تصبح في كفك، ما الذي أضعفها ؟ الله سبحانه وتعالى .

لو أن الله عزَّ وجل خلق كل هذه الفواكه ولم يخلق البذور ما كنا أحياء إلى هذه الساعة، لو خلق مع

الإنسان كميَّاتٍ ضخمة من الطعام والشراب، لنفدت، أما البذور فهي لاستمرار الحياة، والبذور لها وضعٌ اقتصادي .

حدثني رجل أن غراماً من بذور البندورة يُنْبِتُ طناً من البندورة، الغرام ينبت أضعاف مضاعفة، فالحقيقة فعالم النبات يحوي آيات لا يصدِّقها العقل.

ثم إن طعم هذه الفاكهة، لو كان طعماً كريهاً لا نأكلها، لو كان شكلها قبيحاً لا نأكلها، لو كانت لها رائحة كريهة لا نستخدمها، لو كانت ذات شكلٍ جميل وطعمٍ طيب ورائحة فوَّاحة وليس فيها غذاء كيف نتحرَّك، أين الطاقة؟ ما الذي جمع في الفاكهة الطعم والشكل والرائحة والقِوام والغذاء؟ وهذه المواد التي نطرحها من الفواكه مواد مفيدة جداً، لذلك يُخْطِئ من يتناول الفاكهة عصيراً ، لأن هذا التفل مفيدٌ جداً في امتصاص أكثر ما في الأمعاء من مواد دهنية وكوليسترول، أي يجب أن نأكلها كما خلقها الله عزَّ وجل لا ينبغي أن نغيِّرَ خلق الله عزَّ وجل .

(وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)

وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ

شيءٌ آخر :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

نعمة الفلكوسيرها في البحر بأمر الله :

أي ما الذي جعل هذه البواخر التي تمخُر عباب البحار تطفو على سطح البحار؟ إنها من الحديد، أمسك قطعة من الحديد وألقها في الماء ترسب في أسفله، ما الذي جعل الباخرة تطفو؟ إنه القانون الذي كشفه بعض العلماء، وهو أن في الماء قوةً تدفع الأشياء نحو الأعلى، فإذا أزاحت السفينة ماءً أكبر من حجمها طفَت على وجه سطح الماء، من خلق قوة أكبر الدفع التي في الماء نحو الأعلى ؟ لولا أن الله خلقها لما رأيت سفينةً على البحار، ولكانت البحار أماكن قَطْع بين القارَّات بينما هي الآن هَمْزاتُ وصل، إن أجدى الطرق في العالم هي الطرق المائية، لا تعبيد، ولا تزفيت، ولا صيانة، ولا عناية، ولا تحديد، ولا مسارات، إذا صنعت السفينة تمخُرُ في عبابه حيثما تريد، فالبحار لها وظيفةٌ، وهي همزة اتصالٍ بين القارات إذاً :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

ماذا عن البحر؟!

أذكر لكم بعض الأرقام عن البحر : يوجد في الكيلو متر مكعب من مياه البحر خمسة وثلاثون مليون طن من مِلح الطعام، ولا يزال العلماء حتى الآن في حيرةٍ في تفسير سبب ملوحة مياه البحر، كما يوجد في مياه البحر ما يزيد على ثمانية وستين معدناً من هذه المعادن؛ الكبريت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والفسفور، واليود، والحديد، والألمنيوم، والرَصاص، والقصدير، والنحاس، والذهب، بمئات الأطنان في كل كيلومتر مكعب، ما هذه الآية الكبرى التي خلقها الله عزَّ وجل، مياه البحار؟

جعل الله سبحانه وتعالى الأرض متفاوتة في ارتفاعها، ولو سوِّيَت لغمرتها البحار من كل جانب لم يبق على وجه الأرض قطعةٌ يابسة، لو سويت هذه المرتفعات مع المنخفضات، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل مرتفعاتٍ، ومنخفضات، ووديانا، وسهولاً، وما شاكل ذلك .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

لا تظن أيها الإنسانأن الفلك يجري بقانونك وذكائك :

سخرها، لكن بأمره، فإذا ظن الإنسان أنها تجري بأمره هو غرقت، صنعت في القرن التاسع عشر باخرة من أضخم بواخر العالم، وقد زوِّدَت بأحدث ما في الحضارة الغربية، من أثاث، ومن ثريات، ومن فخامة، وفي أول رحلةٍ لها من بريطانية إلى أمريكا غرقت، ولم تزوَّد هذه الباخرة بقوارب للنجاة، غرقت لأنهم قالوا حينما صنعوها: إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة ..

(لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

فإذا ظن الإنسان أنها تجري بأمر الإنسان غرقت .

صنعوا قاعدة استخراج نفط في بحر الشمال والمشروع يفوق حد الخيال لضخامته، مدينةٌ فوق سطح البحر، وظنوا أن هذه المدينة صامدة، جاءتها عاصفةٌ بحريةٌ فكسَّرتها، كلما قال الإنسان: أنا، حَجَّمَهُ الله سبحانه وتعالى، هذه الباخرة التي غَرِقَتْ كان غرقها درساً من السماء إلى أهل الأرض ..

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ)

وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ

اعرف قيمة الأنهاروما فيها :

والحضارات نشأت مع الأنهار، ما قيمة الشام بلا مياه بردى والفيجة؟ ما قيمة مصر بلا نهر النيل؟ ما قيمة أوربا بلا نهر الدانوب؟ ما قيمة أمريكا بلا نهر الأمازون؟

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)

مياهٌ عذبة، أين مستودعاتها ؟ مستودعاتها تفوق حد الخيال .

إن الجبال تحوي أنواعاً منوعةً من الصخور، يقولون: هذه مياه معدنية، فيها كالسيوم، فيها مغنيزيوم، فيها بوتاسيوم، فيها أملاح، فيها مواد، فيها يود، فيها كلور، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى حينما خَزَّنَ مياه الأنهار في الجبال حَلَّ فيها بعض الصخور من أجل أن تغدو هذه المياه صالحةً للشرب .

في بعض دول النَفْط يكررون مياه البحار ويحلّونها، ويكلّف اللتر الواحد من هذه المياه ما يزيد على ثلاث ريالات، أي أكثر من اثني عشر ليرة سورية، هذه المياه ليست صالحةً للشرب، لأنها مياه مقطَّرة، أما مياه الآبار، مياه الأنهار، مياه الينابيع فهي مياه معدنية، فيها يود من أجل الغدة الدرقية، فيها كلور من أجل الأسنان، فيها كالسيوم من أجل العِظام، يقول لك: مياه معدنية، فهذه المياه آيةٌ من آيات الله عزَّ وجل، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر)

هذا الماء ما أنتم له بخازنين :

أي إن تخزين الماء آيةٌ أخرى، لو أن الله سبحانه وتعالى وَكَلَ إلينا تخزين مياهنا عن كل عام، لاحتجنا إلى مخازن بحجم بيوتنا، ولكن الله من رحمته تولّى هو تخزين هذه المياه، وقال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر)

فعذوبة الأنهار، والمعادن المنحلة فيها، وطولها كلها آيات دالة على عظمة الله، فنهر النيل من أطول أنهار العالم، ونهر الأمازون من أكثف أنهار العالم، ثلاثمائة ألف متر مكعب في الثانية، هذه كثافة نهر الأمازون، والله سبحانه وتعالى بَثَّ في كل مكانٍ أنهاراً كي يعيش الناس من حولها .

والجُزُر التي خلقها الله، في كل جزيرةٍ ينبوع ماء، وهذا الينبوع لابدَّ من أن تكون خزَّاناته في مكانٍ آخر غير الجزيرة، ولابدَّ من أن تكون المياه تسير في أقنيةٍ تحت البحر، هذا كلامٌ قطعي، جزيرةٌ منبسطة فيها ينبوع ماء لابدَّ من أن يكون هذا الماء يسير إليها من تحت سطح البحر من خزانٍ مرتفعٍ يقع في اليابسة، في بعض الدول أربعة آلاف جزيرة، في كل جزيرة ينبوع ماءٍ يتناسب مع حجمها، هل هذه قشرة تبرَّدت أم هو خلق محكم ؟ إنها تسخير من قبل الله عزَّ وجل

خاتمة استنتاجية :

على كلٍ الذي أرجوه أن الله سبحانه وتعالى ذَكَرَ في هذا الكتاب الكريم آياتٍ كثيرة، ما ذكرها باطلاً إنما ذكرها كي نفكّر فيها، والتفكُّر في هذه الآيات عبادةٌ من أرقى العبادات، إن أوسع الأبواب لمعرفة الله عزَّ وجل باب الكون، والآيات التي تدلُّك عليه موجودة حولك، حيثما تحركت، أينما جلست، كيفما التفت تجد الآيات تحيط بك من كل جانب، قال تعالى :

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

عوِّد تفكيرك أن يجول في ملكوت السماوات والأرض، عوِّد نفسك أن تعرف الله من خلال آياته، لأنك إذا عرفته عَظَّمْتَهُ، وإذا عظمته استقمت على أمره ..

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : من الآية 28)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

(190)

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

لا عبادة كالتفكُّر، تفكر ساعةٍ خير من عبادة ستين عاماً ..

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر : من الآية 67)

أردت من هذا الدرس أن تكون هذه الحقائق بين أيديكم نموذجاً لتفكُّرنا في خلق السماوات والأرض، فخلق السماوات والأرض، المطر، النبات، البحر، الأنهار هذه آياتٌ بيِّناتٌ دالةٌ على عظمة الله سبحانه وتعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 32 – 34
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-10-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي في سورة إبراهيم إلى قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ(32)وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(33)وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

هل قابلت هذا الإكرام بتعظيم الله؟

الشمس على عظمتها، والقمر على عظمته مُسَخَّران للإنسان، أيهما أعظم عند الله مكانةً المُسَخَّرُ له أم المُسَخَّر؟ إنه المُسَخَّرُ له، الله سبحانه وتعالى جعل كل ما في الكون مسخراً من أجلك أيُّها الإنسان، أنت ماذا فعلت؟ كيف قابلت هذا الإكرام؟ هل قابلت هذا الإكرام بالطاعة أم بالمعصية؟ هل قابلت هذا الإكرام بالشكر أم بالجحود؟ هل قابلت هذا الإكرام بالعمل الصالح أم بالعمل السيئ؟ هل قابلت هذا الإكرام بذكر الله أم بالغفلة عن الله؟ كيف قابلت هذا الإكرام؟

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ)

لا حياة إلا بالشمس :

ما من واحدٍ منَّا إلا وهو يعلم أنه لا حياة من دون الشمس، إنها تَهَبُ الأرض ومن على الأرض الحرارة، ولولا الشمس لأصبحت الحرارة على وجه الأرض أقلَّ من مائتين وخمسين درجةً تحت الصفر، ولأصبحت الأرض كوكباً متجمِّداً لا حياة فيها، والشمس تهب الأرض الضوء، والنبات لا ينبت إلا بالضوء، ولولا ضوء الشمس لما أكلت شيئاً، إذا مات النبات مات الحيوان وتبعه الإنسان .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ)

تستنيرون بضوئها، وتدفئون بحرِّها، والشمس تقتل البكتريات، لأن الكائنات الضارَّة لا تعيش إلا في الظلام فإذا جاءت الشمس طهَّرت كل شيءٍ يؤذيك، والشمس كما تعلمون تبعد عن الأرض مائة وستاً

وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، والشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرَّة، أي مليون وثلاثمائة ألف أرض توضع في الشمس، والأرض انظر إليها، تأمَّل حجمها، تأمَّل أبعادها .

وتزيد حرارة الشمس السطحيَّة على ستة آلاف درجة، بينما تزيد حرارة نواتها على عشرين مليون درجة، ولو وُضِعَت الأرض في الشمس لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، ويقدِّر العلماء عمر الشمس بخمسة آلاف مليون سنة .وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

الشمس والقمر مُسَخَّران للإنسان، ربنا عزّ وجل قال على لسان سيدنا إبراهيم حينما خاطب النمرود، قال :

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ)

(سورة البقرة : الآية 258)

كأنك تنفخ في الرماد :

هل تستطيع قوَّةٌ على وجه الأرض أن تغيّر مسار الشمس ؟ أو أن تعطِّل شروقها ؟ أو أن تمنع غروبها؟ أو أن تغيِّر توقيتها ؟ .

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)

معنى : دائبين

أما معنى قوله تعالى :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ)

شيءٌ دقيقٌ جداً هو أن الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ أرادها ثَبَّتَ أشياء وحَرَّكَ أشياء، شروق الشمس، وغيابها، وتوقيتها، ومسارها، وفلكها ثابتٌ لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، ولا يتحوَّل، ولا يُعَدَّل، ولا يُعطَّل، هكذا أراد الله عزّ وجل من أجل أن تنتظم حياتنا، لولا شروق الشمس في أوقاتٍ منتظمة لاضطربت حياتُنا، ثبَّت الله عزَّ وجل أشياء كثيرة، لا أحد يقلق أن يستيقظ في اليوم التالي والشمس لم تُشْرِق، وليس في الشرع دُعاء الشروق، هناك دعاء الاستسقاء ولكن لا يوجد دعاء الإشراق، لأن الله عزَّ وجل جعل الشمس هكذا، وأرادها أن تكون ثابتة، ودائبة من أجل استقرار حياتنا، من أجل انتظام حياتنا لأن حركة الشمس، وحركة الأرض، وحركة القمر يتبعها نظام الزمن، فكلمة :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ)

بمعنى استمرار الحركة، عدم تغيُّر الحركة، ثبات نظام الشمس هذا من نِعَم الله عزَّ وجل، ثبَّت ربنا أشياء كثيرة، ثبَّت البذور، إذا زرعت بذر التفَّاح ينبت التفَّاح، ما أحد في تاريخ البشريَّة زرع بذراً ونبت نبات آخر، ثبات إنتاج البذور هذه من نعم الله عزَّ وجل، وهناك أشياء حرَّكها، حرَّك الأمطار، السماء قد تُمْطِر وقد لا تُمْطِر، قد تأتي سنواتٌ خصبة وقد تأتي سنواتٌ شحيحة، لو أن الله سبحانه وتعالى ثبَّت كل شيء بما في ذلك الأمطار، بما في ذلك أجهزة الجسم لاستغنى الإنسان عن ربِّه، وباستغنائه عن ربِّه يشقى بهذا الاستغناء .

تثبيت الأشياء وراءه حكمة بالغة :

دقِّق، وراء الأشياء التي ثبَّتها الله عزَّ وجل حكمةٌ بالغة، ووراء الأشياء التي حرَّكها حكمةٌ بالغة، ثبَّت الشمس والقمر دائِبَيْن، البشريَّة لم تقلق ولا تقلق ولن تقلق من جهة الشمس لأنها مسخَّرة، لكن :

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة يس)

لكل بداية نهاية :

لابدَّ من يومٍ تنتهي به وظيفة الشمس ..

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

(سورة التكوير)

الإنسان الغافل يستضيء بنور الشمس، وينعم بدفئِها، ولكنَّه لا يعرف الله من خلالها، إذاً استمتاع الإنسان الغافل بالشمس كاستمتاع البهيمة بالشمس، ولكنَّ المؤمن إذا نظر إلى الشمس رأى الله من خلالها، دَلَّته على الله لأن الشمس آيةٌ من آيات الله الدالَّة على عظمته ..

(لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ)

(سورة فصلت : من الآية 37)

انتقل من المخلوق إلى الخالقفإن المخلوق مسخَّر :

الأقوام السابقة الغافلون عن الله عزَّ وجل عبدوا الشمس، لماذا عبدوها؟ لِمَا رأوا من خيراتٍ ناتجةٍ عنها، لو دقَّقوا، وتأمَّلوا، وفكَّروا لانتقلوا منها إلى خالقها ..

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

(سورة الأنعام)

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)

إلى أن قال :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

انتقل سيدنا إبراهيم من الشمس إلى الله، والمؤمن ينتقل من كل شيءٍ إلى الخالق، لذلك استمتاع المؤمن بالشمس استمتاعٌ بحقيقتها، واستمتاعٌ بموجِدِها، أي حينما يتأمَّلها ينتقل منها إلى موجدها فيخشع قلبه، فإذا خشع قلبه، انهمرت دموعه، وأقبل على الله عزَّ وجل وعرف أن الشمس كانت دليلاً له إلى الله عزَّ وجل ..

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)

(سورة النحل : من الآية 12)

الآية الثانية :

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ)

أي كل ما في السماء ..

(مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)

مسخَّراتٌ للإنسان بأمر الله، تأتمر بأمر الله، تتحرَّك، تشرق، تغيب، لها فلكٌ دقيق بأمر الله عزَّ وجل .

يقول الله عزَّ وجل في آية أخرى :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

(سورة يونس : من الآية 5)

الشمس ضياء، ضوءها شديد، ضوءها كشَّاف، لكن القمر نور فقط الإنسان يرغب أحياناً إذا أوى إلى فراشه أن يبقى في الغرفة بصيص ضوءٍ يريه معالم الأشياء، كذلك ربنا سبحانه وتعالى من رحمته بنا..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

(سورة يونس : من الآية 5)

أي جعل القمر (نواصة)في الليل .. إذا أطللت من نافذتك إلى الحقل الذي جانب غرفتك ترى معالم الأشياء بضوء القمر ..

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة الزمر : من الآية 5)

أي إن هذا السير له حَدْ، هذه الشمس وسيلة إيضاح إلى أن يأتي يوم الامتحان تُرفع هذه الوسائل، ويُمتَحن الإنسان، ويظهر عمله . شيءٌ آخر :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ)

(سورة الفرقان : من الآية 45)

الظل دليل على الشمس وحركتها :

هذه آية من آيات الله عزَّ وجل، تكون جالساً في بستان فترى ظلَّ الشجرة، يتحرَّك، يكون أصغر من الشجرة بُعَيْدَ الظُهر، ثم يمتدُّ الظل إلى أن يصبح في طولٍ مثل طول الشجرة، إلى أن يصبح قدر طولين أي ضعفي طولها، إلى أن يصبح ممتدَّاً إلى مسافاتٍ بعيدة، من الذي حرَّك هذا الظل ؟ حركة الأرض الحقيقيَّة أو حركة الشمس الظاهرة، هذه آية، يجب أن تستنبط أنَّ هناك حركة، هناك شيء يتحرَّك، الإنسان الساذج ينظر بعينيه، لكن الإنسان المفكّر يرى بفكره أشياء لا تراها عينه، هذه العين لا ترى حركة الأرض، ولا ترى حركة الشمس، لكنَّها ترى حركة الظل، وما دام الظل متحرِّكاً فلابدَّ من حركةٍ ما من قِبَل الشمس أو من قِبَل الأرض .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا)

(سورة الفرقان : من الآية 45)

سكون الظل يعني وقوف الأرض عن الحركة، أو وقوف الشمس عن الحركة ..

(ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)

(سورة الفرقان : من الآية 45)

لولا أشعَّة الشمس لما عرفت حركة الأرض ..

(ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)

(سورة الفرقان : من الآية 45)

الشمس دليلٌ على الحركة .

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

هذا الكون بعظمته يسير بنظام عال لا يحيد عنه :

أي أنه تنظيم، الآن لابدَّ للطائرات من قيادةٍ حكيمة في أبراج المطارات، هذه الطائرة تُعطى الخط الأول، خط دمشق باريس مثلاً ، هناك خطوط في الجو، لو أن موظَّفي الأبراج في المطارات أخطئوا وأعطوا طائرتين خطَّاً واحداً لكانت كارثةً مروِّعة، وهذا ما حدث من قبل، طائرتان كل طائرة فيها أربعمائة راكب تحطَّمتا، ومات جميع ركَّابها، لماذا؟ لأن موظَّف البرج أعطى طائرتين خطاً خطَّاً واحداً، لا تستطيع الطائرةُ أن تُقْلِعَ من المطارِ إلا بعد أن تأخذ خطاً من برج إقلاعها وبرج وصولها، هذا الخط تستقلُّ به، فإذا طارت طائرةٌ أخرى تُعْطى خطاً آخر أعلى أو أدنى، كم طائرة موجودة في الأرض؟! لنفرض أنهم خمسة آلاف طائرة، أو خمسين ألف طائرة، عدد الموظفين في كل مطار الذين

يعملون على تنظيم حركة هذه الطائرة؟!

كل مجرَّة فيها مليون مليون نجم، وفي الكَوْن العدد الأولي التقريبي حتى الآن التقدير مليون مليون مجرَّة، أي مليون مليون ضرب مليون مليون، أي اثني عشر صفر باثني عشر صفر، أي واحد أمامه أربعة وعشرين صفر، ولم يحدث أن ارتطم نجمٌ بنجم ..

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

كل نجمٍ له فلكه، كل نجمٍ له مساره، هناك آية أخرى توضِّح هذا المعنى :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

معنى تزول أي أن تخرج عن خطِّ سيرها ..

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

أي أن تبقى الأرض في مسارها، والشمس في مسارها، والقمر في مساره، والنجوم في مسارها هذه آيةٌ كُبرى من آيات الله عزَّ وجل، لو أن قطاراً خرج عن سِكَّتِهِ لكانت كارثةً كبرى، لو أن قطاراً يمشي على طرف وادٍ سحيق وخرج عن سكَّته لكان كل من في القطار ضحايا، ماذا يحدث؟ لو أن الأرض خرجت عن خطِّ سيرها ودخلت في خطٍّ آخر وارتطم النجمان، لا يبقى على وجه الأرض شيء من عِظَمِ الصدمة .

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

(سورة الرحمن)

هناك حسابٌ دقيق، قال العلماء: " حدثت بعض الانفجارات في الشمس، فارتفعت حرارتها، وذابت الكتل الجليديَّة في القطبين، لارتفع البحر إلى مسافة ثلاثةٍ وتسعين متراً فوق مستواه الحالي"، ولغَمَرَ ثُلُثَي اليابسة، لو أن انفجاراً حدث في الشمس أذاب هذا الانفجار الجبال الثلجية في القطبين، لارتفعت مياه البحر ثلاثةً وتسعين متراً، ولانغمر من الأرض أو من اليابسة ثُلُثاها .

إذاً :

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

(سورة الرحمن)

الآن بعد الشمس عن القمر، بعد الأرض عن الشمس، بعد الأرض عن القمر، بعد القمر عن الشمس، هذه كلُّها وَفَق حساباتٍ دقيقةٍ دقيقة، يقول الله عزَّ وجل في آيةٍ أخرى :

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

(سورة نوح)

الشمس مُتَألّقة، القمر عاكس ..

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

(سورة نوح)

أي آن الأوان أن ينطلق هذا الفكر من عِقاله، آن الأوان أن يجول هذا الفكر في ملكوت السماوات والأرض ليتعرَّف إلى عظمة الله، ليخشى قلبه، ليستقيم على أمره، ليعمل الصالحات تَقَرُّباً له، ليسعد في الدنيا والآخرة .

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : من الآية 28)

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ)

الشمس والقمر، لا حياة من دون الشمس، لا ضوء، ولا دفء، ولا تعقيم، الحياة تنتهي، فالشمس مسخَّرةٌ لنا .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

قال ربنا عزَّ وجل :

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ)

(سورة الإسراء : من الآية 12)

سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ ؟

يستمتع أهل الدنيا بالنهار المُشْمِسْ في أيَّام الربيع والخريف، فينطلقون إلى النُزُهات، يستمتعون بالليلة القَمْراء، ينطلقون إلى السَهَرات، إنهم يستمتعون بالليل والنهار كما تستمتع البهائم، ولو أن الإنسان فكَّر في الليل والنهار لرأى الله من خلالهما، لذلك:

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)

سيدنا النبي اللهمَّ صل عليه كان يقول :

((سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ ؟))

[أحمد]

تجد ظلاماً دامساً، الأشياء لا تُرى، قلق، خوف، إذا سار الإنسان في غابةٍ ليلاً يرى آلاف الأشباح، ينخلع قلبه من الخوف أحياناً، فإذا سار في هذه الغابة نهاراً اطمأنَّ قلبه .

((سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ ؟))

[أحمد]

عندما تكون مسافراً والشمس مشرقة يكون الطريق واضح المعالِم، وأنت مطمئن، فإذا جاء الليل بدأت تُبَحْلِقُ في الطريق، وتتوهَّم أن هذه المركبة قادمةٌ نحوك، وهذه تبتعد، والطريق من اليمين، أين النهار إذا جاء الليل؟ يقول ربنا عزَّ وجل :

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة المؤمنون)

اختلاف لها معنيان، إما أن الليل يَتْبَعُ النهار، اختلاف الليل والنهار، وإما تفاوت الليل والنهار في الطول والقِصَر، من جعل الليل يطول في الشتاء والنهار يطول في الصيف ؟ من جعل اختلاف الليل والنهار ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، قد يستمتع الإنسان في الشتاء بالليل، يؤدِّن العشاء في وقتٍ مبكِّر، وكما قال عليه الصلاة والسلام :

((الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ))

[مسند أحمد عن أبي سعيد]

((طال ليله فقامه، وقصر نهاره فصامه))

يأتي الصيف حيث النهار الطويل، إن كنت في عملك في الصيف ترى أن الوقت ممتد والليل قصير، وفي الشتاء ترى أن النهار قصير والليل مُمْتَد، فلذلك :

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة المؤمنون)

هذا عائدٌ له، من تقديره وحكمته .

الحكمة من إيلاج الليل في النهار :

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)

(سورة آل عمران : من الآية 27)

أوْلَجَ بمعنى أدخل، انظر ساعة الغروب كيف أن الليل يأتي من هاهنا، والنهار يُدْبِر من هاهنا، إذا نظرت إلى الأفق الغربي ترى أثر ضوء الشمس، ترى الشفق الأحمر، فإذا نظرت إلى الأفق الشَرقي ترى الظلام، تنعكس الآية عند الفجر إذا نظرت إلى الأفق الشرقي ترى خيطاً أبيض، فإذا نظرت إلى الأفق الغربي ترى الظلام دامساً، فربنا عزَّ وجل يقول :

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)

(سورة آل عمران : من الآية 27)

وإيلاج الليل في النهار من أعظم الآيات، ما قولك لو أن الشمس غابت فجأةً ؟ ففي بعض القرى حيث محرِّكات الكهرباء تدور وتتوقَّف في الساعة الثانية عشر ليلاً، تنطفئ الكهرباء قبل الساعة الثانية عشر بعشر دقائق لدقيقةٍ واحدة ثم تعود، إشعاراً إلى أنه قد قَرُبَ وقت انقطاع النور فهيِّئ نفسك للنوم، كذلك لو أن الشمس تنطفئ فجأةً لوقع الإنسان في متاهة، أغراضه مُبَعْثَرَة، أغنامه متفلِّتة، حاجاته لم تجتمع بعدُ، أولاده، لكن الشمس تغيب بالتدريج، يغيب قرص الشمس وتبقى الأرض مُنيرة لساعةٍ وربع تقريباً، إلى أن يغيب الشفق الأحمر فهذا هو العشاء، كذلك الشروق، لو أن الشمس تُشْرِق فجأةً لحدث انبهار للعيون، لكن حكمة الله عزَّ وجل حينما تشرق الشمس وحينما تكون على مستوى النظر أن تكون الشمس حمراء اللون لا تؤذي شبكيَّة العين، فإذا ارتفعت في السماء أبْيَضَّ قُرص الشمس وصار النظر إلى الشمس يؤذي العين، حينما تكون الشمس فوق الرأس تكون متوهِّجة، فإذا كانت مقابل العينين كانت الشمس لطيفة، هذه آية من آيات الله عزَّ وجل .

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

(سورة آل عمران : من الآية 27)

(وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا)

(سورة الأنعام : من الآية 96)

الليل سكنٌ وراحة :

الليل سكون، ترى السكون قد خَيَّمَ على أشدُّ البيوت ضجيجاً في الساعة الثانية ليلاً، لا ترتاح أعصاب الإنسان إلا بالسكون، وسُمِّي المسكنُ مسكناً لأن الإنسان يسكن فيه، ترتاح أعصابه في بيته . الفضل لله عزَّ وجل في أنه جعل في الأرض نظاماً موحَّداً، حينما تغيب الشمس تأوي المخلوقات إلى أوكارها، والإنسان إلى بيته، والنبي عليه الصلاة والسلام كَرِهَ السهر إلا في حالاتٍ نادرة في طلب العلم، أما أن يسهر الإنسان يمضي هذا الوقت الذي أعَدَّه الله لراحته، أعدَّه الله لاسترجاع نشاطه، أعدَّه الله لصحَّته، يمضي هذا الوقت في حديثٍ فارغ، وفي علاقاتٍ ساذجة لا قيمة لها هذا مخالفٌ للسنَّة، كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يتكلَّم بعد العشاء أبداً إلا في حالاتٍ نادرة، لكنَّ هذه الإنارة الشديدة وهذه الأجهزة في البيوت تدعو الناس إلى أن يصبحُ نهارهم ليلاً وليلهم نهاراً، لا يستيقظ قبل الساعة الحادية عشرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا))

[مسند أحمد عن علي]

و ..

((ساعة في أوَّل الليل لا تعدلها ثلاث ساعاتٍ في آخره))

[ورد في الأثر]

(وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا)

(سورة الأنعام : من الآية 96)

قرأت ذات مرَّة مقابلة مع طبيب وهو أستاذ في الجامعة، أعرف أن هذا الطبيب ليس له أيُّ اتجاهٍ دينيٍّ إطلاقاً، إلا أنه قال:

[من عاداته التي يصرُّ عليها النوم باكراً والبعد عن السهر حفاظاً على صحَّته]

لو أن الإنسان ألزَمَ نفسه أن ينام باكراً لذاق طعم الحياة، لأن ..

((لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

((لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكْفِكَ النهار كلَّه))

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا)

(سورة المزمل)

(أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)

(سورة الإسراء)

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

(سورة الرعد : من الآية 3)

يأتي الليل كالغشاء يُغَشّي الأرض ..

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(1)وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا(2)وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا(3)وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

(سورة الشمس)

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)

(سورة يونس : من الآية 67)

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)

(سورة الإسراء : من الآية 12)

الليل راحة ..

(وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا)

هذه لام التعليل ..

(لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

(سورة الإسراء)

تصوَّر يا أخي لو لم يكن هناك ليل ولا نهار، ألغيت الحسابات كلَّها، كم عمرك يا أخي؟ أي عُمُرٍ هذا ؟ لا يوجد عمر، لا أدري، لو أن الشمس مشرقة دائماً لا توجد حركة ..

(لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ

اختلاف الليل والنهار من أجل معرفة الفصول والشهور والأيام :

لولا دورة الأرض حول نفسها لما كان ليلٌ ولا نهار، لو أنها دارت على مستوىً أفقي لما كان ليلٌ ولا نهار .. لو دارت هكذا والشمس من هنا لصار هذا النصف مشرقاً إلى الأبد، وهذا النصف الآخر مظلمٌ إلى الأبد، لو دارت هكذا .. لا يكفي أن تدور، لابدَّ من أن تدور على محمورٍ غير محور دورانها، إن كان محور الدوران مطابقاً لمستوى محور دورانها حول الشمس يبقى الليل سرمديَّاً والنهار سرمديَّاً ولكنَّها إذا دارت على محورٍ عموديٍ على مستوي الدوران يكون ليلٌ ونهار، ولكن لا يختلف الليل والنهار، النهار بطول الليل تماماً وتنعدم الفصول .

ما الذي يجعل الفصول ؟ إن محور الأرض مائلٌ هكذا، فالشمس تأتي عموديَّةً على نصف الكرة الشمالي فيكون الصيف، وتأتي مائلةً على نصف الكرة الجنوبي فيكون الشتاء، فإذا دارت الأرض حول الشمس هكذا جاءت الشمس عموديَّةً على نصف الكرة الجنوبي فكان الصيف، وجاءت مائلةً على نصف الكرة الشمالي فكان الشتاء، لولا ميل هذا المحور لما كان صيفٌ ولا شتاء، ولا ربيعٌ ولا خريف، لولا دوران الأرض لما كان ليلٌ ولا نهار، لو دارت على محورٍ أفقيٍّ موازٍ لمستوى دورانها لألغي الليل والنهار، إذا كان المحور مائلاً كان الليل والنهار، وكان اختلاف الليل والنهار، وكانت الفصول الأربعة، تصميم من ؟ هندسة من ؟ ترتيب من ؟ تنظيم من ؟ الله سبحانه وتعالى .

(وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)

(سورة الإسراء : من الآية 79)

الليل راحة من مشقة النهار :

من نعمة الليل أن الإنسان في أثناء النهار يكون في محلَّه، في عمله، في وظيفته، في معمله، في تجارته، مشكلة وراء مشكلة، وراء مشكلة، وراء قضيَّة، وراء قضية، في عملٍ دائب، لولا الليل لكان الإنسان في عملٍ دائب إلى أن يموت، يأتي الليل، يعود إلى البيت، يجلس، يبدأ التأمُّل، يبدأ التفكير، أين

كنت؟ وإلى أين المصير؟ من خلقني؟ قال ربنا عزَّ وجل :

(وَمِنْ اللَّيْلِ)

حيث السكون، الأولاد نائمون، الزوجة نائمة، الأعمال معطَّلة، المحل مُغْلق، الهاتف لا تستعمله، الأمور كلُّها ساكنة ..

(وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)

(سورة الإسراء : من الآية 79)

بعض الليل للتهجد والعبادة :

كأنَّ الله عزَّ وجل قد خلق الليل من أجل التَهَجُّد، من أجل التأمُّل، من أجل العبادة، لذلك :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

(سورة القدر)

لم يقل في نهار القدر، النهار فيه عمل ..

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

(سورة القدر)

(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

(سورة النور : من الآية 44)

حياتنا منوَّعة ؛ فيها ليل، فيها نهار، فيها صيف، فيها شتاء، فيها ربيع، فيها خريف.

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا)

(سورة الفرقان : من الآية 47)

الليل سُبات :

الليل سُبات، هذا الجهاز العصبي يُسْتَهلك في النهار، فإذا جاء الليل واستراح، وتباعدت الخلايا العصبيَّة، وانقطعت السيَّالة الكهربائيَّة، نام الإنسان، يستيقظ وكأنه لم يتعب من قبل، استعاد كل نشاطه .

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا)

(سورة الفرقان : من الآية 47)

حدَّثني أخ سافر إلى بلد أوروبي أنه فقد النوم دون أن يدرس ما السبب، أول يوم، ثاني يوم، في اليوم الثالث، الرابع، قال لي : عشرين يوماً ما ذُقْتُ طَعْمَ النوم، ذهب إلى الطبيب الأول، فالطبيب الثاني، إلى مستشفى، حاروا في أمره، فاضطرَّ أن يعود إلى بلده، في أول ليلةٍ عاد إلى بلده نام نوماً عميقاً، شيءٌ يحيِّر !!

لو أن الله سبحانه وتعالى سلب الإنسان النوم، وهذا الكلام لا يعرفه إلا من سُلِبَ هذه النعمة، لأن الأرق لا يُحْتَمِل، يكاد الإنسان ينفجر، هذا الذي يذهب إلى فِراشِه ويضع رأسه على الوسادة وينام هذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها .

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا)

(سورة الفرقان : من الآية 47)

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً)

(سورة الفرقان : من الآية 62)

أنت في أثناء النهار في عملك، بالليل في بيتك، بالنهار هناك نشاط وبالليل همود ..

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)

(سورة الفرقان : من الآية 62)

هذا الذي قلته قبل قليل، حكمة الليل أن تذكر الله فيه، والآية الدقيقة جداً :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

(سورة القصص)

أرأيت لو كان الليل سرمديًّا؟!

لو أن الله سبحانه وتعالى أعطى الأمر إلى الأرض وهي بأمره، أن تقف عن الدوران، فبقي الليل مستمرًّا، ماذا يفعل سكَّان الأرض؟ لو اجتمعوا واتخذوا قراراً ماذا يفعلون؟ هل تستطيع أقوى جهةٍ على وجه الأرض أن تأمر الأرض بالحركة ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

(سورة القصص)

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)

(سورة يس)

شيء دقيق جداً، الأصل هو الظلام، الفضاء الخارجي مظلمٌ ظلامٌ دامس، والشمس استثناءٌ من هذه القاعدة . إذاً :

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)

(سورة يس)

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

(سورة الفجر)

الليل يسري، يتحرَّك ..

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

(سورة الفجر)

ما من ثانيةٍ على وجه الأرض إلا وقد دخل فيها الليل تواً، أبداً، ما من ثانية، الأصحُّ من ذلك أن كل مكانٍ على وجه الأرض له توقيتٌ خاصٌّ للشروق والغروب، ما دامت الأرض كرةً والشمس من هاهنا والأرض تدور إذاً النهار تدريجي والليل تدريجي، ربنا عزَّ وجل قال :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ(32)وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

لا تنسوا كلمة لكم، أي أن الليل والنهار صُمِّما خصيصا لكم أيُّها البشر، هل أنتم شاكرون ؟ هل أنتم ذاكرون ؟ هل أنتم طائعون ؟

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ

هل أنتم سألتموه معشر البشر حتى أعطاكم الكون ؟

قال العلماء: " آتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه "، فهل أنتم سألتموه النجوم؟ هل سألتموه المجرَّات؟ هل سألتموه الشمس والقمر؟ هل سألتموه أنواع الأطعمة المنوَّعة؟ هذه الدابَّة تأكل نوعاً واحداً طوال حياتها، هل عرفتم قبل أن تُخْلَقوا أن هناك أنواعاً منوَّعة من الطعام سألتموه إيَّاها؟ لا، استنبط العلماء من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى ابتدأنا بالنِعَم من دون أن نسأله إيَّاها، فلمَّا خُلِقْنا على وجه الأرض سألناه بعضها ..

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)

ما دام توجد "من" للتبعيض، ومن كل ما لم تسألوه .

هل هذا السؤال بلسان الحال أم بلسان المقال ؟

شيءٌ آخر، هذا السؤال يا تُرى بلسان الحال أم بلسان القال؟ الإنسان أحياناً يسأل الله عزَّ وجل مثلاً: يا رب ارزقني، عملاً صالحاً أتقرَّب به إليك، يا رب ارزقني زوجةً صالحة تُعينني على أمر ديني، هذا

دعاء، يا رب ارزقني بيتاً آوي إليه، ارزقني ولداً ينفع الناس من بعدي، ارزقني مالاً حلالاً أتقوَّى به على طاعتك، هذا سؤال، لكن الإنسان أحياناً لا يسأل، فإذا ربنا سبحانه وتعالى ييسِّر له حاجاته، هو محتاج إلى شيء يقيه البرد، خلق له الصوف، مهما كان البرد شديداً ترتدي هذا اللباس الصوفي فتشعر بالدفء، فجسمك يسأل الله عزَّ وجل بلسان الحال لا بلسان المقال، يأتي الصيف تشعر بالحر فتشتهي فاكهة مفعمة بالماء، يأتي البطيخ، يأتي الشتاء تشتهي الدفء، خلق الله لك الوقود، الحَطَب، أو الوقود السائل، حينما تدخل غرفة تشتعل فيها المدفأة وكنت في بردٍ شديد تُحِسُّ بالنعيم وتقول: والله النار فاكهة الشتاء، هذا الجسد يحتاج إلى الدفء فخلق الله له ما يسدُّ هذه الحاجة، قد يحتاج الرجل إلى إنسانٍ يسكن إليه له تفكير، وله مشاعر .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(فسألتموه)

إما أن تسأله بلسان الحال وإما أن تسأله بلسان المقال، إذا رأى الأب الرحيم ابنه محتاجاً إلى معطف والشتاء قد اقترب، من دون أن يدري الابن، من دون أن يسأل، يأتي هذا الأب الرحيم بمعطفٍ لابنه قُبيل فصل الشتاء، فالابن لم يسأل لكن حالته تقتضي معطفاً ..

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)

سألتموه بلسان الاستعداد :

شيءٌ آخر، قال بعض المفسِّرين : " وآتاكم من كل ما سألتموه بلسان الاستعداد " .

أحياناً يكون لدى الإنسان إمكانيَّات عالية يجد شيئاً يسدُّ هذه الإمكانات، أحياناً يتوقُ إلى المعرفة فيجد من العلوم ما يسدُّ هذه الحاجة، سألتموه إما بلسان القال، أو بلسان الحال، أو بلسان الاستعداد، أحياناً يوجد عند مخترع شوق إلى أن يخترع شيئاً، فالله سبحانه وتعالى يلهمه الاختراع، لذلك الشيء الثابت أن كل المخترعات الحديثة التي كشفها الإنسان إنما هي في الحقيقة إلهامٌ من الله عزَّ وجل، لأن هذا المخترع عنده استعداد، فجاء الله سبحانه وتعالى وآتاه سؤلَهُ .

سُئل أحد المخترعين واسمه أديسون عن الاختراع فقال: "الاختراع تسعٌ وتسعون بالمائة عرق، بذل جهد، وواحد في المائة إلهام "، أي أن الله سبحانه وتعالى ألهم المخترعين فكرة الطائرة، وفكرة أي جهازٍ يخترعونه، والدليل قوله تعالى :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

مَن طلب شيئا بصدق نال مراده :

ألهم الفكرة، وخلق المواد، وخلق الوقود، إذاً تُعْزَى إليه، إذاً إنك تسأله بلسان المقال، أو تسأله بلسان الحال، أو تسأله بلسان الاستعداد .

مثلاً: لو أن الطالب صدق في حلِّ مسألة عويصة في الرياضيّات لألهمه الله حلَّها، كأنني أنتقل بهذا الموضوع إلى موضوع الاختيار، أي حينما خلق الله الإنسان على وجه الأرض تَعَهَّد الله عزَّ وجل أن يؤتيه سؤلَهُ، لو أن إنساناً طلب من الله أن يطير في الأجواء لألهمه وسائل هذا الطيران، لو أنه طلب أن يغوص في أعماق البحار آتاه سؤله، لو أنه طلب أن ينقُل صورةً من قارَّةٍ إلى قارَّة لألهمه سؤله، فأي شيءٍ تقع عليه عينك في هذه الأرض إنما هو إلهامٌ من الله عزَّ وجل، ولكن على حسب الطلب، ليس على حسب الطلب غير الصادق بل على حسب الطلب الصادق، أي اصدق في أي شيء تنله، هذا ملخَّص الملخَّص، أيّ شيءٍ إذا صدقت فيه يمكن أن تناله ..

طفل في قرية من القرى النائية حيث العلم معدوم هناك، صار في مستقبل أيَّامه رئيساً للجامعة، انتقل مشياً من قريته إلى أقرب مدينة، عمل في مدرسةٍ بطعامه فقط كي يصبح فيها مدرِّساً، تقلَّب من مدرسة إلى مدرسة إلى أن نال أعلى الشهادات وصار رئيساً للجامعة، لماذا صار كذلك؟ لأنه طلب من الله ذلك..

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

استمعوا :

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

(سورة الإسراء)

أقول لكم : اصدقوا في طلب أي شيء فلابدَّ من أن يحقَّق لكم، أما الشيء الذي لم تصل إليه فلست صادقاً في طلبه، الشيء الذي وصلت إليه أنت صادقٌ في طلبه، والذي لم تصل إليه لست صادقاً في طلبه .

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

إنْ كنت عاقلا فاسأل الله الجنة :

إذاً اطلب من الله ما شئت ولابدَّ إن كنت صادقاً في طلبك من أن يحقِّق الله طلبك، لكنك إذا كنت عاقلاً فاسأله نعيماً مقيماً، اسأله الدار الآخرة، اسأله شيئاً لا ينتهي بالموت، أي شيءٍ في الدنيا ينتهي بالموت

إلا معرفة الله عزَّ وجل، لذلك لم يسمّ الله سبحانه وتعالى الدنيا عطاءً، إنها أحقر من ذلك ..

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاء))

[سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَرَّ بالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ، فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟ فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ : أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ : فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ))

[مسلم]

اسأله ما شئت، أي شيءٍ تسأله إيَّاه بصدقٍ يحقّقه لك، ولكن إن كنت عاقلاً اسأله ما لا يفنى، إذا سألته ما يفنى فقد استهلكت هذا العطاء الكبير في أمدٍ يسير، لكنك إذا سألته ما يبقى سعدت بهذا العطاء إلى الأبد .

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا

شيءٌ آخر .

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

الفائدة من إفراد لفظ النعمة :

نعمة، بعض المفسِّرين قالوا : الله لم يقل نعم الله، ولكنه قال :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ)

أي وإن تعدوا الخيرات من نعمةٍ واحدة وهي البصر لا تحصوها، لا تعدُّ خيرات نعمة السمع، لا تعد خيرات نعمة الزوجة، نعمة الأولاد، نعمة الصحَّة، نعمة الخَلْق .

مَن لا يحصي النعمَ عدًّا لا يبلغها شكرا :

شيءٌ آخر في الآية، إن كنتم لا تستطيعون إحصاءها فهل تستطيعون شكرها ؟ أنتم عاجزون عن إحصائها فما بالكم في شكرها، أنتم عاجزون عن إحصائها فقط لا النعم كلها، نعمة واحدة، يعجز البشر جميعاً مجتمعين ومتفرِّقين عن إحصاء خيرات نعمةً واحدة، فكيف بكل الخيرات؟ وكيف بالشُكر؟ أي

نحن عاجزون عن إحصاء خيرات نعمة واحدة ..

فمثلاً المثانة، لو لم تكن المثانة لكانت حالة الإنسان صعبةً جداً، لو كانت ولم تكن مزوَّدةً بالعضلات لكانت حالة الإنسان صعبةً جداً، نعمة طَرْح الفضلات، كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أكل طعاماً يقول :

((الحمد لله الذي أذاقني لذَّته، وأبقى فيَّ قوَّته وأبعد عني أذاه))

[ورد في الأثر]

نعمة طرح الفضلات، نعمة أن الرئتين تعملان وحدهما بتقدير عزيزٍ عليم، لو أن الله عزَّ وجل أوْكَل هذا العمل لك لما وُجِدَ النوم أبداً تنام فتموت، نعمة ضربات القلب ليست إراديَّة، وإلا ما بقي أحد حياً يقف قلبه لأي سبب فيموت، القلب لا يأتمر بأمرك، هذه نعمة، أي أن نعمة الله لا تحصى ..

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

الإنسان ظلوم لنفسه كفَّار يجحد خالقه :

حينما يغفل عن ربِّه، وحينما يغفل عن آخرته، وحينما يغفل عن المهمَّة التي جاء من أجلها، وحينما يغفل عن معاده، إنه ظلوم يظلم نفسه، وكفَّار يجحد خالقه، أي يظلم نفسه ويجحد نِعَمَ خالقه ..

(إِنَّ الْإِنسَانَ)

إذا غفل عن هذه النِعَم، إذا غفل عن الله، إذا غفل عن الآخرة، إذا انغمس في الدنيا ..

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

يظلم نفسه، وظلمُ النفس أشدُّ أنواع الظلم، ويكفر ربَّه، وليس من جريمةٍ أبشع من أن يكفر الإنسان بربه الذي خلقه من قبل ولم يكن شيئاً .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 35 – 46
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-10-31

بسم الله الرحمن الرحيم

المقطع الأخير : دعاء إبراهيم :

أيها الإخوة المؤمنون ... المَقْطَعُ الأخير من سورة سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مؤلف من مجموعة أدعيةٍ لهذا النبي العظيم، أبي الأنبياء .

الدعاء هو العبادة :

وقبل الحديث عن مضامين هذه الأدعية لابدَّ من وقفةٍ سريعة في موضوع الدعاء ، فالدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[الترمذي عن أنس]

أي أن أبرز ما في العبادة الدعاء، أصل العبادة الدعاء، جوهر العبادة الدعاء، والدعاء صلاة، والصلاة دعاء، إذا دعوت الله عزَّ وجل من كل جوارحك فأنت تصلي بنوعٍ من أنواع الصلاة، وإذا صلَّيت صلاةً صحيحة فأنت تدعو ..

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر : من الآية 60)

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة)

إجابة الله دعاء العبد بعد استجابة العبد لربه :

إذا آمن العباد بربِّهم واستجابوا له بطاعته ثم سألوه فلابدَّ من أن يجيبهم، إلا إن كانت الإجابة ليست في صالحهم، عندئذٍ يدَّخِرُ الله لهم ثواباً في الآخرة ..

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة)

إلى الدعاء الصحيح .

إن الله عزَّ وجل يحب الملحِّين بالدعاء، إن الله عزَّ وجل يحب من العبد أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، من لا يدعني أغضب عليه، فالدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[الترمذي عن أنس]

والدعاء صلاة، والصلاة دعاء، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله .

((ولا ينفع حذرٌ من قدر ، ولكن ينفع الدعاء))

[ورد في الأثر]

مهما كنت ذكياً، مهما أخذت الاحتياطات المشددة ..

((ولا ينفع حذرٌ من قدر ، ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل))

[ورد في الأثر]

ما هدف الدعاء؟

سؤالٌ دقيق أعرضه عليكم : الأب الرحيم إذا رأى ابنه بحاجةٍ ماسة إلى شيء، هل ينتظر الأب من ابنه أن يدعوه، أم أنه يلبي حاجته قبل الدعاء؟ الله سبحانه وتعالى رحيم، وسميعٌ وبصير، ويعلم السر، وأخفى فلماذا يطلب منا أن ندعوه؟ من هنا يستنبط أن هدف الدعاء ليس قضاء الحاجة، ولكن هدف الدعاء هو انعقاد الصِلةِ مع الله عزّ وجل قد يجعلك الله سبحانه وتعالى مفتقراً إلى الحاجة من أجل أن تدعوه، فإذا دعوته واتصلت به، وسعدت بقربه لبَّى حاجتك لقد جعل الله الحاجة وسيلةً لاتصالك، الأصل في الدعاء ليس قضاء الحاجة ولكن الاتصال بالله عزَّ وجل، لذلك :

((ولا ينفع حذرٌ من قدر ، ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل ، فادعوا الله عباد الرحمن))

[ورد في الأثر]

فالدعاء مخ العبادة، نحن مع هذا النبي العظيم أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم ..

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا

نعمة الأمن في البلاد :

نعمة الأمن لا يعرفها إلا من فقدها .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

الأمن نعمةٌ لا يعرفها إلا من ذاقها، ولا يعرفها إلا من فقدها، والأصحُّ لا يعرفها إلا من فقدها .

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

ما هو الأمن ؟

نعمة الأمن هي عدم توقُّع المصيبة، تعريف الأمن : عدم توقع المصيبة، لأن توقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها، أنت من خوف المرض في مرض، أنت من خوف الفقر في فقر، توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، نعمة الأمن لا يعرفها إلا المؤمن، إن الله يُعْطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، أنزل الله على رسوله السكينة، السكينة أيضاً هي الأمن، هي الشعور بالطمأنينة .

لو أن الإنسان عاش حياةً خاليةً من المصائب، لكن هذه الحياة لا تطاق إن كانت مفعمةً بالقلق، ينبغي أن تكون السلامة مُرافقةً للأمن، والأمن من عطاءات الله الثمينة للمؤمن، ولكن المؤمن إذا ظَلَمَ قَيْدُ أنْمُله يفقد هذه النعمة الكبيرة، ألا وهي نعمة الأمن .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ)

(سورة الأنعام)

قانون الأمن : لا تظلم :

هل تريد قانوناً للأمن : إيَّاك أن تظلم تشعر بالأمن، فإذا ظلمت الناس، فإذا ظلمت من هم دونك، فإذا ظلمت زوجتك، فإذا ظلمت زبائنك نَزَعَ الله عزَّ وجل من قلبك الأمن، يصبح الفؤاد فارغاً، يصبح قلقاً، يخاف من كل شيء، يتوهم الخوف .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا)

من الأدعية المأثورة :

((اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، وآمنا في أوطاننا، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخاءً وسائر بلاد المسلمين))

[ورد في الأثر]

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ

نعمة التوحيد :

هذا دعاءٌ آخر، نعمة التوحيد، يخاف هذا النبي العظيم الشرك بالله إذا عبد الأصنام كائنةً ما كانت، الأصنام القديمة تلك التماثيل التي عكف القُدامى على عبادتها، والمال صَنم القرن العشرين، والشهوة صنم، وكل شيءٍ تعبده من دون الله صنم .

الأصنام أنواع :

إن الله عزَّ وجل يقول :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية : من الآية 23)

هذا الذي يتبع هوى نفسه يعبد الهوى، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أي جهةٍ تعبدها من دون الله كائنةً من كانت، شيئاً مادياً أو معنوياً أو شهوةً خفية، قال عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ أخْوَفَ مَا أتَخَوَّفُ عَلَى أمَّتِي الإشْرَاكُ باللَّهِ، أمَا إنِّي لَسْتُ أقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أعْمَالا لِغَيْرِ اللَّهِ وَشَهْوَةً خَفِيَّة))

[ابن ماجة عَنْ شَدَّادِ بْن أوْس]

الشهوة صنم، حب الظهور صنم يعبد من دون الله، حب المال صنم، حب العلو في الأرض صنم، الشهوة صنم، الهوى صنم .

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

افتقر إلى الله تكن أغنى الناس :

لك إلهٌ واحد لا إله إلا هو، هو الحقيقة الكبرى في الكون ولا حقيقة سواه، هذا النبي العظيم يُبدي افتقاره إلى الله عزَّ وجل، إذا افتقرت إلى الله عزَّ وجل فأنت أغنى الأغنياء، وإن استغنيت عن الله عزَّ وجل فأنت أفقر الفقراء ..

ومالي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

ومالي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رَدَدتَّ فأي باب أقرع

افتقر إلى الله عزَّ وجل يجعلك الله عزَّ وجل أغنى الأغنياء، استغنِ عن الله يجعلك أفقر الفقراء، من اتكل على نفسه أوكله الله إليها ليعَرِّفَهُ قدرها .

الشركظلمٌ وشقاء :

هذا النبي الكريم يرجو الله عزَّ وجل أن يجنِّبه عبادة الأصنام، لأن فيها شقاءً كبيراً، لأن فيها شقاء الدنيا والآخرة، الإنسان لا يشقى إلا إذا عبد غير الله، لأن غير الله لا يملك له شيئاً، لا نفعاً، ولا ضراً، ولا حياةً، ولا موتاً، ولا نشوراً، ولا تجلياً، ولا إسعاداً، إطلاقاً.

(يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

(سورة لقمان)

أشد أنواع الظلم أن تشرك بالله عزَّ وجل، فالأمن نعمة الدنيا، والتوحيد نعمة الدنيا والآخرة .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(35)رَبِّ إِنَّهُنَّ)

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ

هذه الأصنام ..

(أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ)

الأصنام بجميع أنواعها تضل الإنسان :

يحسب الإنسان أن المال كل شيء، يفني حياته في جمع الدِرهم والدينار، ثم يكتشف في آخر الحياة، وفي خريف العمر، وبعد فوات الأوان أن المال ليس كل شيء، إنما هو شيء، وهناك أشياء كثيرة أثمن منه، وليس بالخبز وحده يحيى الإنسان، وليس بالمال وحده يحيى الإنسان، إذا تجلَّى الله على قلبه كان أسعد الناس، وإذا حرمه نعمة التجلّي كان أشقى الناس .

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ)

أي إن هؤلاء الناس المتهافتين على الدنيا، على شهواتها، على زينتها، على بهرجها، على نسائها، على أماكن العلو فيها، هؤلاء الناس الغارقون في الهوى إنهم ضالون مضلون .

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي)

فَمَنْ تَبِعَنِي

الخطيئة والذنب والسيئة والمعصية :

من تبعني ووحَّدَكَ فهو مني، ومن عصاني وأشرك بك فإنك غفورٌ رحيم تغفر له، كيف ؟ المغفرة شفاء النفس من الذنب والتكفير أن تنسى السيِّئة، والعفو أن يعفو عنك الذي اقترفت بحقه الذنب، فرقٌ دقيق بين العفو، والتكفير، والغُفران، كل سيئةٍ لها أثرٌ في النفس، أثر داخلي، هذا الأثر هو الحجاب بينك وبين الله، إذا غفر الله لك هذه السيئة، أو هذا الذنب محا عنك هذا الأثر، وأما السيئة هذا العمل الذي يسوءك، قد يرزقك الله عملاً صالحاً تنسى به هذه السيئة، هذا هو التكفير، من عمل سيِّئَةً كيف يكفِّرها الله عنه؟ يرزقه عملاً صالحاً يجعله ينسى هذه السيئة ..

كمن شتم إنساناً، ثم رآه في اليوم التالي قد غرق في نهرٍ، وهو يستغيث فألقى بنفسه وأنقذه، إنقاذه من الموت المُحقق ينسي هذا الإنسان شتيمة الأمس، هذا هو التكفير، أن يهبك الله عملاً صالحاً تنسى به العمل السيئ، كفر عنهم سيئاتهم، أما السيئة نفسها فلها أثر داخلي في النفس، والمغفرة حينما يأتي نور الله عزَّ وجل، ويشفي هذه النفس من هذا الأثر السيئ الذي يُقِضُّ مضاجع الإنسان، أما العفو فهو أن يعفو عنك الذي ارتكبت الإثم بحقه، أما الشيء الأخير وهو الخطيئة فهو سلوكٌ أخطأ الطريق إلى السعادة، طريق السعادة من هنا فأخطأت الطريق، وسرت باتجاهٍ آخر، فالخطيئة شيء، والذنب شيء،

والسيئة شيء، والمعصية شيء، السيئة تُكَفَّر، والذنب يُغْفَر، والسيئة يُعْفَى عنها، والخطيئة تُصَحَّح .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

هذه العلاقة التي قَدَّسها الله عزَّ وجل، يقول الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات الكريمة :

(فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا)

(سورة البقرة : من الآية 200)

منزلة الأبوة :

كم للأب من مكانة عند الله عزَّ وجل، كأن الله عزَّ وجل يريد منا أن نذكره كما نذكر آباءنا، والعرب في ماضي عهودهم كانوا إذا أرادوا أن يسبوا رجلاً قالوا له: لا أبا لك، إذاً العلاقة المقدسة بين الآباء والأبناء أقرَّها الله سبحانه وتعالى، من علامات قيام الساعة أن يَعُقَّ الرجل أباه ويَبَرَّ صديقه، مع صديقه ملاك ومع أبيه شَرِس، من كان مع أبيه شرساً ومع أصدقائه ملاكاً فهذه علامة من علامات قيام الساعة، يكون الولد غيظاً، والمطر قيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيضُ الكرام غَيْضاً .

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(35)رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)

(قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)

(سورة هود : من الآية 46)

المخالف لطريق النبي ليس من أهله ولو كان ابنه :

ابنه .. ليس من أهلك ..

((سلمان منا آل البيت))

[ورد في الأثر]

((أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

[ورد في الأثر]

هذه علاقات النسب الدينية، أنت منسوبٌ إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ما دُمت تقياً، فإن لم تكن كذلك :

((يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئا، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)

هذه هي العلاقة الواضحة في الإسلام، سيدنا عمر رضي الله عن عمر قال: << يا سعد لا يغرَّنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له >> .

الطاعة وحدها تدنيك، والمعصية تبعدك، وقد سُئِلَ الجنيد رضي الله عنه: " مَن ولي الله، أهو الذي يطير في الهواء أم الذي يمشي على وجه الماء؟ قال: " أن تجده عند الحلال والحرام "، فالولاية هي الالتزام .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال : من الآية 72)

الأصل العمل .

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)

((أنا جَدُّ كل تقي ولو كان عبداً حبشيا))

[ورد في الأثر]

من تبعني فإنه مني ..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 31)

(وَمَنْ عَصَانِي)

باب التوبة مفتوح :

فتح هذا النبي الكريم باب التوبة ..

(وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

((أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم))

[ورد في الأثر]

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله عزَّ وجل نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

((لو جئتني بملء السماوات والأرض ذنوباً غفرتها لك ولا أبالي))

[ورد في الأثر]

((إذا قال العبد : يا رب وهو راكع، قال : لبيك يا عبدي، فإذا قال : لبيك وهو ساجد قال : لبيك يا عبدي، فإذا قال : يا رب وهو عاصٍ قال الله عزَّ وجل : لبيك لبيك لبيك))

[ورد في الأثر]

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَطَلَبَهَا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا، فَتَسَجَّى لِلْمَوْتِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةَ الرَّاحِلَةِ حِينَ بَرَكَتْ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا هُوَ بِرَاحِلَتِهِ))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد والعقيم الوالد والظمآن الوارد))

[ورد في الأثر]

(فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

تخلقوا أيها الإخوة الأكارم بهذا الخلق النبيل، إن رأيت إنساناً على معصية فلا تيأس منه، كن حليماً، تأكد أنه إذا رجع إلى الله عزَّ وجل أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه، إذا رجع العبد إلى الله عزَّ وجل عفا الله عنه، عفا الله عما سلف، الإسلام يهدم ما كان قبله .

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ

هذه هي مكة أول مرة :

مكة المكرمة وادٍ غير ذي زرع، لا نبات فيها، ولا أنهار، ولا شلاّلات، ولا غابات، ولا جبال خضراء، ولا وديان، ولا سهول خصبة.

(بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)

لماذا كانت مكة واديًا غير ذي زرع؟

يا رب ما حكمة ذلك ؟ لو أن هذه البلد الطيب، لو أنك جعلت مكة المكرمة بلاداً جميلة؛ جبالاً خضراء، ودياناً سحيقة، بُحَيْرات، أنهاراً، شلاّلات، لأمها الناس جميعاً، ولكن لا يعرف عندها السائح من الحاج .

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ

الشيء الوحيد هناك هو الاتصال بالله عزَّ وجل، هذا الذي تتمناه من جمال المكان يُعيق الصلة، يحجُزَكَ عن الصلة .

إذاً: المبالغة في زخرفة المساجد ليس مستحباً، لأن الزخرفة الكثيرة والرائعة قد تصرف المصلي عن صلاته .

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

هذا البيت بيتك، وهذا الحَرم حرمك، وهذه الأرض أرضك .

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

إذاً: أثمن ما في حياة الإنسان أن يقيم الصلاة، أن يتصل بالله عزَّ وجل، لذلك البلد الحرام أحب البلاد إلى الله عزَّ وجل، لأن العباد في هذا البلد يُقيمون الصلاة، فإذا ذهب الحاج إلى هناك وكان تائباً، مستقيماً، مُخْلصاً، وأقام الصلاة، وقال: لبيك اللهم لبَّيك، تجلى الله على قلبه فأذاقه حلاوة الإيمان، أذاقه حلاوة القُرْب، أذاقه حلاوة المعرفة، يعود الحاج من هذه الأمكنة الحارة الجرداء، والتي لا نبات فيها، ولا ماء، وقد أفعم صدره سعادةً، ما هو السر ؟

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

من ذاق عرف، هل طفت البيت؟ قال: يا سيدي طفت بالبيت ولم أطف برب البيت، قال له أستاذه : لم يصح حَجُّك، في مرة الثانية طاف برب البيت ونسي الأشواط التي طافها، فقال : يا سيدي طفت برب البيت ولم أطف بالبيت، قال : لم يصح حجك يا ولدي، إلى أن قال له: يا سيدي طفت بالبيت وربِّ البيت.

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

حكمةٌ بالغة، هذه الأماكن لا يرتادها إلا المؤمنون، لا يبتغيها إلا المخلصون، لا يرجوها إلا الذين يرجون رحمة الله عزَّ وجل .

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

ليس الخبرُ كالمعاينة :

من ذهب إلى بلد الحرام يعرف معنى هذه الآية .

(وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ)

أي أن ثمرات الأرض كلها تأتيهم، استجاب الله دعوة أبينا إبراهيم إلى نهاية الدوران .

(وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ)

ما من حاجٍ إلا ويذكر لك أنه رأى فاكهةً لم يرها في حياته، أنواع الفواكه التي تُجْبَى إلى هذه البلد هي استجابة الله عزَّ وجل لدعاء أبينا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ(37)رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ)

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ

قل ما شئت ، وافعل ما شئت فإنك تحت نظر الله :

نفس الإنسان صفحةٌ مكشوفةٌ أمام الله عزَّ وجل، أيَّةُ حركةٍ، أية سكنةٍ، أي خاطرٍ، أي تفكيرٍ، أي هدفٍ، أي طموح، أي صراعٍ، أي مناقشةٍ، أي رغبةٍ، أي نيتةٍ مكشوفةٌ لله عزَّ وجل .

(إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ)

قل ما شئت، هذا الذي تقوله يَعْلَمُهُ الناس، ولكن الذي لا تقوله يعلمه الله عزَّ وجل، من عرف أن الله عزَّ وجل مُطَّلِعٌ عليه طَهَّر سره كما يطهر علانيته، من عرف أن الله مطلعٌ على قلبه طهر علانيته وفق الشرع وطهر سره وفق الحقيقة، هناك الشريعة وهناك الحقيقة، الشريعة تُعْنَى بتطهير الجوارح والاستقامة على شرع الله، والحقيقة تعنى بتطهير النفس من الشوائب ومما سوى الله عزَّ وجل، أوجه تفسيرٍ قاله المفسرون في قوله تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون)

اللغو كل ما سوى الله ..

ألا كل شيءٍ ماخلا الله باطل وكل نعيمٍ لا محالة زائل

***

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائقٌ وثواني

***

يمكن أن تُحصى دقائق الإنسان، من عاش ستين عاماً يمكن أن تحصى دقائقه وثوانيه، إذاً كل دقةٍ يدق بها قلبك مضت من حياتك، ما مضى فات، والمؤمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها .

(رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ)

هناك أشخاصٌ لهم موقفٌ حقيقي ولهم موقفٌ مُعْلَن، العبرة بالموقف الحقيقي والله يعرفه .

(وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

أصغر شيءٍ في الكون يُسَمَّى شيئا، وهذه من حرف جر زائد .

(مِنْ شَيْءٍ)

أي أن ساق النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء لا تخفى على الله، ليست النملة بل ساق النملة .

(وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

هذا الذي لا يخفى عليه شيء، ولا من شيء، وبيده كل شيء، وإليه مصير كل شيء، وهو أول كل شيء، ألا تعبده ؟ ألا تتعرف إليه ؟ ألا تخشاه ؟ ألا تطيعه ؟

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ

قدرة التصنع النتائج :

على الكِبَر، الله عزَّ وجل على كل شيءٍ قدير، الأسباب أيها الإخوة في علم التوحيد لا تصنع النتائج، إنما قدرة الله عزَّ وجل ومشيئته تصنع النتائج، والأسباب ما هي إلا أشياء رافقت حصول النتائج، لذلك يمكن أن يهبك الله على الكبر غلاماً، ويمكن أن يشفى المريض من مرضٍ عضال، كل شيءٍ على الله هين، هو على الله هين .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)

إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ :

أيها الإخوة الأكارم ... ما من مؤمن صادق إلا وله مع الله خِبْرةٌ في هذا الموضوع، يدعوه من كل جوارحه، يسأله فيستجيب الله له ليعرفه أنه استمع إلى دعائه، وأجابه، وهو بيده كل شيء، هذه هي حكمة الدعاء أن تعرف أن الله معك، حاضرٌ، ناظرٌ، سميعٌ، قريبٌ، مجيبٌ، وحينما يستجيب لك من أجل أن تحبه، من أجل أن تثق به، من أجل أن تكون معه، من أجل أن تخافه وحده ولا تخاف من دونه أحداً.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ(39)رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ)

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ

تواضع الأنبياء :

هؤلاء الأنبياء العظام على علو قدرهم متواضعون، ماذا قال سيدنا يوسف :

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

سيدنا إبراهيم :

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ)

يقع الإنسان أحياناً بذنب خطير جداً، هو ذنبٌ، وليس بذنب في نظره، إنه العُجْبُ، " رُبَّ معصيةٍ أورثت ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعة أورثت عزاً واستكباراً "، " لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر .. ما الذي يا رب هو أكبر من الذنب؟ العجب .. "، فالأنبياء بمعرفتهم بعظمة الله عزَّ وجل ورؤيتهم الصحيحة متواضعون، مفتقرون، موحِّدون .

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي)

ألا تقرؤوا في الفاتحة كل يوم :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

استعن على عبادة الله بالله، استعن على طاعة الله بالله، استعذ من معصية الله بالله، لا ملجأ منك إلا إليك، كن له مفتقراً .

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ(40)رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ

التقى أحد الصحابة النبي عليه الصلاة والسلام وقد توفي والداه فقال :

((يا رسول الله، هل بقي علي شيءٌ من بر والدي؟ قال: " نعم أربعة أشياء أن تدعو لهما ـ هذا هو الدعاء، رب اغفر لي ولوالدي، رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ـ وأن تصلي عليهما ـ صلاة الجنازة ـ وأن تنفذ عهدهما ـ إن عهدوا إليك بشيء ـ وأن تصل صديقهما، وأن تصل الرحم التي لم يكن لها صلة إلا بهما، فهذا الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ(41)وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ

أيها الظالم لا تغفل ، فهناك من ينتقم منك :

لو أن إنساناً ظلم زوجته وهو في أوج قوته، وفي أوج بأسه، ونشاطه، وغناه، هو يظن لجهله أن الله عزَّ وجل غير مطَّلع عليه أو لن يحاسبه، هذا هو الحمق بعينيه، ولكن الحبل مُرخى له، فإذا آن الأوان شُد الحبل فكان في قبضة الرب، عندئذٍ أذاقه العذاب ضعفاً، والذُل أضعافاً، والفقر أضعافاً .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

أحياناً الإنسان لضعف ثقته بالله عزَّ وجل، لضعف يقينه، لضعف توحيده يظن أن الأمور هكذا، لا حساب .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى)

(سورة القيامة)

لا شيء يُترك سدى :

مستحيل، جامعةٌ ضخمة، أبنيةٌ شاهقة، قاعات للمحاضرات، مكتبةٌ ضخمة، حدائق، ملاعب، ولا امتحان، هكذا، أي إنسان دخل لهذه الجامعة يمنح شهادتها، أم لابدَّ من امتحان ؟ والإنسان هكذا .

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

أيعامل المحسن كالمسيء؟ والبخيل كالكريم؟ والشجاع كالجبان؟ واللئيم كالحليم؟ ومن كان في طاعة الله كمن كان في معصية الله؟ من أمضَّى الليل متهجداً كمن أمضَّاه في معصية الله؟ من أمضى الليل متهجداً كمن أمضاه على طاولةٍ حمراء أو خضراء؟ هذا كهذا؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

(سورة الجاثية : الآية 21)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

يروى أن رجلاً كان مع امرأته يأكلان دجاجاً، طرق الباب طارق قال لزوجته : افتحي الباب، فتحت فإذا بالباب سائل، يقول: من مال الله، همَّت أن تعطيه من هذا الدجاج، فنهرها زوجها وشتمها وطرده، كبراً، وعتواً، وظلماً، واستعلاء، ما هي إلا أشهرٌ وسنوات حتى دَبَّ الخصام بينهما وطلَّقها، وانتظرت في بيتها عدة أشهر إلى أن خطبها خاطب، وتزوَّج بها، وكان غنياً ولطيفاً وحليماً، وكانا يجلسان على مائدة، وطرق الباب طارق، فقال لها زوجها الجديد: افتحي الباب، فتحت وعادت مُضطربة، فقال: ما بك؟ قالت: لا شيء؛ سائل يسأل، قال: ما بك؟ قالت: أتدري من السائل؟ إنه زوجي الأول .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

قال : أتدرين من أنا؟ أنا السائل الأول .

أحياناً الزوج يستعلي، ويُطلِّق لأتفه سبب، هو أحمق، لو يعلم أن الله سبحانه وتعالى سوف يقتص لهذه المرأة المظلومة، وسوف يذله، وسوف يفقره، وسوف يجعل من نصيبه امرأةٌ تنسيه طعم السعادة، تُريه النجوم ظهراً كما يقولون لتأخذ حق الأولى .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

قف على هذا أنت، الظُلم ظلمات يوم القيامة، اظلم من شئت، لو أن الإنسان آذى حيواناً ظُلماً وعدواناً، قد يفقد بصره، قد يُدهس تحت سيارةٍ فيُنَكِّلُ الله به .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

حدثني .. صديق لي توفيت أمه، ورآها في المنام بحالةٍ سيئة، قَلِقَ من أجلها، رآها خلال ثمانية أعوام بحالةٍ لا ترضي، مُقَطِّبَةِ الجبين مزعوجة كأنها تحترق، إلى أن رآها في المنام بحالةٍ طيبة، فقال: يا أُمَّاه ما فعل الله بكِ؟ قالت: كوب الحليب يا ولدي، هو يعرف هذه القصة، كان له أخ من أبيه وكانت تسقي

ابنها من زوجها كوب حليب وابن زوجها نصف كوب حليب وتضيفه ماءً، هذا ظلم، ابنها يجب أن يشرب كوب حليبٍ بأكمله، ابن زوجها نصف كوب، والباقي ماء، ثمانية أعوام كانت تعذَّب في البرزخ إلى أن غفر الله لها .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

كم من امرأةٍ تظلم زوجة ابنها، تظلمها، تُحَمِّلُها ما لا تطيق، تقسو عليها، وكم من زوجٍ يظلم زوجته، وكم من امرأةٍ تظلم زوجها، وكم من أخٍ يظلم أخاه، وكم من بائعٍ يظلم المشتري إذا كان صغيراً أو مسترسلاً، أي (غشيم).

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42)مُهْطِعِينَ)

معنى : مهطعين

أي مسرعين ..

(مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)

مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ

فؤاده هواء أي فارغ من شدة الخوف، وبصره مُسَمَّرٌ في الأرض من شدة خجله وخوفه .

(وَأَنذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

وَأَنذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ

.. هذا الموقف العصيب، هذا الموقف الذي سيقفه الإنسان يوم القيامة

(رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

استجب قبل أن تدعو الله بتأخير الأجل فلا تُجاب :

وها أنتم أيها الإخوة الأكارم تُدْعَوْنَ إلى الله عزَّ وجل، تدعون إلى الله ورسوله واتباع سنته، فإن لم

تفعلوا قلتم هذا القول يوم القيامة :

(رَبَّنَا أَخِّرْنَا فَيُقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)

الكافر يظن أنه خالد في الدنيا ولا يرى اليوم الآخر :

كأن الكافر سبحان الله يظن أنه مُخَلَّدٌ في الدنيا لا يزول عنها، يعتني ببيته إلى درجة كأنه سيعيش فيه ألف عام، يقول لك: (هذا مواتي)، يعتني بحاجاته كأنه لن يفارق الدنيا .

(أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)

كنتم تقسمون أنكم في الأرض، ولن تزولوا عنها، هكذا قلتم، وها أنتم أولاء تركتم دنياكم، وتركتم ما خلّفتم وراء ظهوركم، تركتم البيت، والزوجة، والمال، والمركبة، والمتجر، والمكانة، والأولاد، وهذه الليالي التي كنتم تمضونها في معصية الله، كل هذا تركتموه وراءكم ظهرياً .

(أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(44)وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)

وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ

ابتعد عن مساكن الذين أهلكهم الفهي للعظة والعبرة :

بدل أن نتعظ نقول: هذا مُدَرَّج روماني، ماذا يعني ذلك ؟ هذه آثار التدمريين، ماذا يعني ذلك ؟ هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فدمَّرهم الله، ألم تتعظوا بهم ؟ الأنباط مدائن صالح، قوم عاد، قوم ثمود، الأهرامات، هذه الآثار تركت لحكمةٍ بالغة من أجل أن نتعظ بمن قبلنا.

خاتمة :

لا تسخو نفسي أن أقرأ الآيات المتبقية من هذه السورة الكريمة فهي آياتٌ مهمةٌ جداً، وسأعود لها إن شاء الله في الدرس القادم بدءاً من قوله تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42)مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ(43)وَأَنْذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا فَيُقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا

أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(44)وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ(45)وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46)فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(47)يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(48)وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ(49)سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ(50)لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(51)هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ(52))

هذه الآيات أواخر السور دائماً فيها تلخيصٌ دقيقٌ للسورة كلها، فأرجو الله عزَّ وجل أن يمكننا في الدرس القادم من شرح هذه الآيات بالتفصيل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (9-9): تفسير الآية 42 – للآخر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-11-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

أيها الإخوة المؤمنون ... يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

ما الحكمة من هذا النهي؟

هذه اللام ناهية، والإنسان متى يَنْهَى؟ متى تنهى أخاك عن القلق؟ إن رأيته قلقاً، هذا النهي يعني أن هناك أناساً كثيرين يظنون أن الله غافلٌ عما يعمل الظالمون، لأن هناك أناساً كثيرين يظنون ويتوهمون أن الله غافلٌ جاء قوله تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا)

إذاً النهي في هذه الآية يقتضي أن هناك من يظن أن الله غافلٌ عما يعمل الظالمون .

كيف يظن الإنسانُ أن الله غافل؟

كيف ظنَّ هذا الإنسان أن الله غافلٌ؟ فكيف تظن أن فلاناً نائم؟ إن رأيته قد أغمض جفنه، لابدَّ أن هذا الذي ظننته نائماً بدا لك منه شيءٌ توهَّمت من خلاله أنه نائم، فإذا أغمض الرجل عينيه وتوهَّمته نائماً فقال لك: لا تحسبني نائماً، فربنا عزَّ وجل ما دام ينهانا عن أن نظنَّه غافلاً عما يعمل الظالمون، هناك أناسٌ كثيرون يتوهَّمون خطأً، يظنون خطأً أن الله غافلٌ عمَّا يعمل الظالمون .

ما الذي بدا لهم من الله حتى توهموا أنه غافل؟ يبدو أن الذي بدا لهم من الله حتى توهموا أنه غافلٌ أنه أمَدَّ الكفار بالمال والبنين والقوة، يقول ربنا سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

يؤكد في آياتٍ كثيرة الله جل جلاله أنه يمدُّ للظالمين مدا، أيضاً، يقول سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة)

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

إذاً: آياتٌ كثيرة في كتاب الله تؤكّد أن الله سبحانه وتعالى يُمِدُّ للكافر، يمده بالصحة، يمده بالقوة، يمده بالمال، يمده بالبنين، لا يزال الله يمد الكافر بالحياة، والقوة، والمال، إلى أن يظن هذا الكافر أن الله سبحانه وتعالى غافلٌ عنه، أو أن الله سبحانه وتعالى لن يحاسبه، و هذا هو الغَلَطُ الكبير .

لماذا يمدّ اللهُ الكافرَ بالقوة وأسباب الرفاه؟

الآن سؤال دقيق: لماذا يمد الله الكافر بالقوة والمال وأسباب الرفاه إلى أن يظن هذا الكافر أن الله غافلٌ عنه؟ إذا كان عندك صانعٌ في محلك التجاري، وأنت من عادتك أنك تأتي هذا المحل في الساعة الثامنة تفتحه بيدك، وتجلس خلف الصندوق حتى نهاية الدوام، ولا يستطيع هذا الصانع أن يقترب إلى الطاولة التي أنت عليها ولا ثانيةٍ واحدة، هل تستطيع أن تكشف ما إذا كان خائناً أم أميناً ؟ لا، مستحيل، لم تتح له فرصةً كي يكشف حقيقته، لكنك إذا تغافلت عنه يظهر ما إذا كان أميناً أو خائناً، لا تظهر أمانته، لا يظهر معدنه إلا إذا تغافلت عنه، فهذا التغافل تربوي، ربنا عزَّ وجل يتغافل بمعنى يُمِدُّ الكافر بالمال والبنين والصحة ليمتحنه، هذا المعنى الأول، أي أنه ما كان لهذا الكافر أن يظهر على حقيقته، ما كان لهذا الكافر أن يُكْشَفُ معدنه إلا إذا شعر أن الله غافلٌ عنه، لو أن الله سبحانه وتعالى عاقب العباد على كل غلطةٍ بعقابٍ مباشرٍ تواً وفوراً لما ظهر صدق الصادق ولما ظهر كذب الكاذب، ولما عصى إنسانٌ الله سبحانه وتعالى، لا يعصونه لا خوفاً ولا حباً، ولكن ابتغاء السلامة من العقاب السريع، ربنا سبحانه وتعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : من الآية 2)

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

علَّة الخلق الابتلاء، والابتلاء لا يكون إلا إذا ظننت أن الله غافلٌ عنك، مع أن الله ليس بغافلٍ عن أحد .

إنها كلمة سبقت من الله إلى أجلها :

شيءٌ آخر، آيةٌ ثانية تلقي ضوءاً على هذه الآية، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه)

أي كان لزاماً إهلاك العصاة، كان لزاماً إهلاكُ الكافرين، كان لزاماً تدمير المنحرفين .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه)

ما هذه الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل ؟ أنه خلقنا ليسعدنا، فمدير الثانوية الناجح الذي يتمتع بقلبٍ كبير، وحرصٍ بالغٍ على مصلحة الطُلاب، لا يتخذ قراراً بفصل الطالب لأول سببٍ أو لأول ذنبٍ يرتكبه، ليس القصد فصله، القصد تهذيبه وتعليمه، لذلك يتأخَّر في إنزال العقوبة القانونية بالطالب المقصر، لأنه حريصٌ على مستقبله، هذا مثل .

لو أن العبد ارتكب ذنباً يستحق الهلاك، فأهلكه الله لمات كافراً ولدخل النار إلى الأبد، ولكن هذه الكلمة؛ وهي أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم، هذا الذي يؤخِّر العقاب، هذا الذي يجعل الكافر يتوهَّم أن الله غافل، الله ليس بغافل، ما من شيءٍ، ما من حركةٍ، ما من سكنةٍ، ما من لفظٍ إلا والله سبحانه تعالى عليه رقيبٌ وشهيد .

حينما يتوهَّم الإنسان أن الله غافلٌ يكون قد ارتكب حماقةً ما بعدها حماقة، حينما يظن الإنسان أن الله غافلٌ عن عمله يكون قد وقع في خطأٍ كبير، حينما يتوهَّم الإنسان أن الله لن يحاسب أحداً، ولن يعاقب أحداً، لأنه يرى أن الله يعطي فلاناً صحةً ومالاً وجمالاً وذكاءً، وهو يزداد كفراً وفسقاً وفجوراً، إياك أن تستنبط من هذا أن الله غافل، إياك أن تستنبط، أن الله إذا أعطى الإنسان قوةً ومالاً وجمالاً وذكاءً هو غافلٌ عنه .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

إياك أن تظن أن الله غافل :

يقول ربنا سبحانه وتعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا)

(سورة الأنعام : من الآية 11)

معنى ثم هذه على التراخي .

(كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

أي أن هذا المكذِّب قد يمده الله بالمال، وبالقوة، وبالذكاء، وبالجمال، ويزداد علواً في الأرض، وينغمس في الملذات والشهوات، ولكن بعد حين تأتي البَطْشَةُ الكبرى، يقول الله سبحانه وتعالى :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

فمن البلاهة، والغباء، والحُمْق أن يتوهم الإنسان أن الله غافل :

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)

(سورة الأحزاب)

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(سورة المجادلة)

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

(سورة ق)

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

(سورة الأنفال : من الآية 24)

نفسك صفحةٌ مكشوفةٌ عند الله عزَّ وجل، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، إن الله يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

إذا ظلمت إنساناً، وظننت أن الله غافلٌ فهذا هو محض الحُمْق، هذا الذي يظلم زوجته، يظلم شارياً من دكانه، يبيعه بضاعةً فاسدة، يبيعه بضاعةً قد انتهى مفعولها، يوهِمه أنها من مصدرٍ وهي من مصدر آخر، ويظلمه بهذا، ويظن أن هذا ذكاء، وهذا بيعٌ وشراء، وهكذا التجارة، فهو في حمقٍ شديد، سيدفع

الثمن غالياً، سيكال له الصَّاعُ صاعين .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

هذا الذي يظلم زوجته، يُرْهِقُها بما لا تطيق، يظلمها بالنفقة، يظلمها بالعمل، ويظن أن هذه الزوجة لا أحد من أقرباء يستطيع أن يدافع عنها فقد وقع في غَلَطٍ كبير .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

والقِصَصُ على هذه الآية لا تعدُّ ولا تحصى، وقد سمعت عن إنسانٍ عَذَّبَ حيواناً لسببٍ تافه، وبعد عشرين عاماً عُذِّبَ هذا الإنسان بالطريقة نفسها التي عَذَّبَ بها الحيوان، كيف مات هذا الحيوان على يديه كانت موتة هذه الإنسان على يد إنسان آخر بالطريقة نفسها .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا، وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[البخاري]

لو أنك تلبَّسْتَ بظلم هِرَّةٍ فالله سبحانه وتعالى لا يغفل عنها، لا يغفل عن هذا الظلم .

((يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته محرماً بينكم فلا تَظَّالموا))

مسلم عن أبي ذر]

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

(سورة النساء)

(وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة الروم : من الآية 9)

مستحيل أن يظلمهم الله عزَّ وجل ..

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

إذاً: هناك من يتوهَّم أن الله غافلٌ عما يفعل الإنسان، إذا عاملت حيواناً، إذا عاملت هرةً، إذا عاملت طفلاً، إذا جاءك طفلٌ يشتري حاجة، هذا الطفل لا يستطيع أن يحاسبك، إذا ظلمته فسيأتي من يقول لك كلاماً ترتعد له فرائصك، هذا الذي يأتيك، وأنت في غفلة يقول لك: أين وثيقة هذه البضاعة، أين

هويَّتك؟ هذا قد يأتي بعد أن تكون قد تلبست بظلمٍ .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

في بيعك، وشرائك، في بيتك، في طريقك، في أية حركة، في أية سكنة، في أية علاقة، في أية معاملة، إياك أن تظن أن الله غافلٌ .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

ضع يوم الحساب نصب عينيك قبل أن يشخص بصرك فيه :

هذا هو اليوم الموعود، يوم الحساب .

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة يس)

هذا اليوم يوم الدين، يوم الدينونة، يوم يدين الإنسان للحق سبحانه وتعالى ..

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة المؤمنون)

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

(سورة المؤمنون)

(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

شخوص البصر كِنايةٌ عن شدة الخوف، من شدة الخوف يَشْخُصُ بصره .

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(1)وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(2)عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ(3)تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً(4)تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ(5)لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

(سورة الغاشية)

إذاً ..

(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

لذلك الإمام علي كرَّم الله وجهه قال: << الغنى والفقر بعد العرض على الله >> .

تُبقبل أن يُغلق الباب فلا يُفتَح :

البطولة أن تقف في هذا اليوم وأنت قد زُحْزِحْتَ عن النار :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

ليست البطولة أن تدخل مع خصمك في المحاكم حتى تنتزع منه البيت وتقول : أنا بطل، لا، البطولة أن تنجو غداً من عذاب الله، أن تنجو غداً من نار جهنم، أن تقف بين يدي الله عزَّ وجل ولا شائبة عليك.

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

(سورة الحجر)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ(19)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ)

(سورة الحاقة)

أيها الإخوة الأكارم، نحن أحياء جميعاً، وما دمنا أحياء فباب التوبة مفتوح، باب الإصلاح مفتوح، أيُّ ذنبٍ مهما عظم يُغْفَر ما دام في القلب نبضٌ، ما دام قلبك ينبض فأكبر ذنبٍ يغفر، أما إذا جاء ملك الموت فلا توبة عندئذٍ ..

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

(سورة النساء : من الآية 18)

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس : من الآية 91)

قال فرعون آمنت برب هارون وموسى .

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس : من الآية 90)

قال :

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس : من الآية 91)

هذا إيمانٌ جاء بعد فوات الأوان، لا فائدة منه، البطولة أن تؤمن وأنت صحيحٌ شحيح، وأنت في أوْجِ شبابك، وأنت في أوج قوتك، وأنت في بحبوحة، وأنت في صحة، وأنت في سلام، هذا هو الإيمان العظيم، ما دام القلب ينبض فباب التوبة مفتوح .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42)مُهْطِعِينَ)

انظر إلى حال الكفار يوم الحساب :

مسرعونإلى الحساب كرهًا :

أي مسرعين إلى تلبية نداء ربِّهم بالحساب، ليس هناك تلكُّؤ، قد تدعى أنت في الدنيا لحسابٍ ما، تدعي أنك مشغول، تتهرَّب من التبلغ، تقول: لست متفرِّغاً لهذا الحساب، هذا يحدث في الدنيا، أما يوم القيامة حينما يُدعى الناس للمثول بين يدي الله عزَّ وجل لا يستطيعون التخلُّف، ولا التأخُّر .

(مُهْطِعِينَ)

بمعنى مسرعين ..

رافعون رؤوسهم من شدة الخوف :

(مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ)

أي رافعي رؤوسهم من شدة الخوف .

(لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ)

تطرف أعينهم خوفا :

أعلى درجات الخوف ألا تطرُف عين الإنسان .

(لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)

قلوبهم فارغة :

هذا وصفٌ دقيق، معنى هواء أي فارغة، وهذا يؤكد أنه لا فراغ تام في الأرض، أي فراغٍ يشغله الهواء مباشرةً، أي فراغٍ يشغله الهواء .

(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)

بمعنى أنها فارغة، خائفة، وجِلة .

(وَأَنذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

وَأَنذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ

هذه مقولة الكسالى :

هذا الذي يقع فيه الناس في المستقبل، قولتُهم المشهورة كما يقول الطُلاَّب الكُسالى في الصف إذا جاء وقت الامتحان: يا أستاذ أخِّر لنا الامتحان، لا يطالب بتأخير المذاكرة إلا الطالب الكسول، وهؤلاء يوم القيامة يطلبون عبثاً :

(رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

الإخبار بهذا المشهد من رحمة الله بالعباد :

هذه رحمة الله، فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى قبل فوات الأوان عمَّا سيكون قبل أن يكون، ما قولك بإنسان أعطى الأسئلة قبل الامتحان، أي استعد لها، والله سبحانه وتعالى من رحمته أخبرنا ونحن في الدنيا عن المفاجآت الصاعقة التي سوف يُصْعَقُ لها الناس يوم القيامة، أما قول الظالم الذي ظَلَمَ من حوله، أما قول الكافر :

(رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

لابد من اتباع الرسل :

إذاً لابدَّ من اتِّباع الرُسُل، يجب أن تجيب دعوة الله بالإيمان به والتعرُّف على أسمائه، وأن تتبع الرسول فيما يأمرك به ..

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر : من الآية 7)

(نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

الجواب الإلهي :

يأتي الجواب من قِبَل الحضرة الإلهية :

(أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)

لسان حال ومقال أهل الدنيا : الدنيا كلُّ شيء :

يقول أهل الدنيا: الدنيا هي كل شيء، السعيد فيها من كان غنياً، والشقي من كان فقيراً، من الذي مات، ورجع فأخبرنا أن هناك آخرة وحساب وعقاب؟ هذه هي الدنيا، هي كل شيء ..

(مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا)

(سورة الجاثية : من الآية 24)

(وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة الأنعام)

(أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)

أي أنَّكم تتصرفون في الدنيا وكأنَّكم خالدون فيها، أعمالكم، بيوتكم، مشاريعكم تُنْبئ أنكم فيها مخلَّدون، وأنه لا موت، وكأن الموت على غيرنا كُتِبْ، إذا مات إنسان قلنا: مسكين لماذا مات؟ ما المرض الذي أصابه؟

لابد من ساعة الموت :

من لم يمتْ بالسيف مات بغيره تنوَّعت الأسباب والموت واحدُ

لابدَّ من الموت .

***

الليل مهما طال لابدَّ من طلوع الفجر والعمر مهما طال لابدَّ من نزول القبر

***

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ

فإذا حملت إلى القبور جنــازةً فاعلم بأنَّك بعـدها محمولٌ

***

لابدَّ من ساعةٍ يُسَجَّى فيها الإنسان على طاولةٍ من خشب يغسَّل عليها، لابدَّ من خروج من هذا البيت بشكلٍ أفقي مرَّةً واحدة في الحياة، لابدَّ من أن تأخذ على جواز سفرك تأشيرة خروج بلا عودة، وبشكل

إجباري، لابدَّ من مفارقة الزوجة مهما راقت لك، لابدَّ من الخروج من هذا البيت مهما بالغت في تزيينه، لابدَّ من ترك هذه المكانة الرفيعة مهما جهدت في دعمها، لابدَّ من ترك هذا المال الوفير مهما حَرِصْتَ على زيادته .

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم: قَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ :

((يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ لاَقِيهِ))

البيهقي في شعب الإيمان]

(أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(44)وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا)

ألم تذهبوا إلى بعض الآثار؟ ألم تذهبوا إلى تدمر ؟ هذه آثار التدمريين، أين هم الآن ؟ تحت أطباق الثرى، ألم تذهبوا إلى بعض المدارج الرومانيَّة ؟ هذه آثار الرومان، أين هم ؟ تحت أطباق الثرى، ألم تشاهدوا الأهرامات ؟ هذه آثار الفراعنة، أين هم ؟ تحت أطباق الثرى ..

(وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)

أي أن الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل هذه الآثار باقية لتكون درساً بليغاً، وموعظةً بليغةً لنا ..

(وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ)

وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ

في السابقين قصص للاعتبار :

وفي حياتنا جميعاً كل إنسان بحسب محيطه لابدَّ من شخصٍ في حياته؛ قريب، صديق، جار، قد تجاوز الحد المعقول فبطش الله به، هذا ما من واحدٍ منَّا إلا ويعرف قِصَصاً عديدة عن أناسٍ تجاوزوا الحدَّ المعقول، طغوا وبغوا فأنزل الله بهم العقاب السريع .

(وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ(45)

(سورة النحل)

هذه أمثالٌ باقية، أمثالٌ حيَّة، أي أن هناك مصحفاً ينبئك بالحقائق، وهناك كونٌ ينبئك بالحقائق، وهناك حوادث يوميَّة تنبئك بالحقائق، الكون بما فيه من آياتٍ بيِّنات، والقرآن بما فيه من آياتٍ بيِّنات، والحوادث اليوميَّة بما فيها من آياتٍ بيِّنات كلُّها تتطابق وتؤكِّد لك أن الله عزَّ وجل ليس غافلاً عمَّا يعمل الظالمون .

(وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ(45)وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ

مكرُ الكافرين مذ بدأ لم ينته :

أي أن هؤلاء الكفَّار منذ القِدَم، وحتى يوم القيامة يجهدون في المكر والكيد للمؤمنين، إيَّاك أيُّها الأخُ الكريم أن تتفاجأ بأنَّ الكافر يَمْكُرُ بك، هذه سنَّة الله في الخَلق، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى أعطى كل مخلوقٍ سؤْلَهُ، وأعطى كل مخلوقٍ خياراً في أن يفعل حقاً أو باطلاً، خيراً أو شرَّاً، أن يمشي سوياً على صراطٍ مستقيم، أو أن ينحرف في سلوكه، فكل عملٍ له عند الله جزاؤه، والله سبحانه وتعالى يبلو بعضنا ببعض، ويمتحن بعضنا ببعض، فلذلك :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ)

وقد قيل : " لا يكْمُل إيمان الرجل حتى يُبْتَلى بأربع، بطعن الجهلاء، وبلوم الأصدقاء، وبشماتة الأعداء، وبحسد العلماء ... "، فلابدَّ من طعن الجهلاء، ولابدَّ من شماتة الأعداء، ولابدَّ من حسد العلماء، ولابدَّ من .. لوم الأصدقاء، والنبي عليه الصلاة والسلام عانى من قومه ما عانى.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ)

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ)

المكر قوته في كتمانه :

دائماً وأبداً يجهد أهل الكفر في المكر بالمؤمنين، ولكنَّ هذا المكر قوَّته في كتمانه، قوَّة المَكر في كتمانه، لو أن ملكاً عنده قائدٌ لجيشه، فإذا أراد هذا القائد أن يمكُر بالملِك متى تنتهي قوَّته؟ إذا كُشِفَت خطَّته، المكر قوته في كتمانه، وما دام الله لا يخفى عليه شيء ..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ

أيها المؤمن اطمئن كل تخطيطات الكفار معروفة عند الله :

أي أن المكر الذي يمكرونه هو عند الله معروف، معلوم، مكشوف، واضح، الله مطلع عليهم وهم يفكرون، الله مطلع عليهم وهم يمكرون ويكيدون .

((يا صفوان بن أميَّة، لولا ديونٌ ركبتني، ولولا أولادٌ أخشى عليهم العَنَت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه "، كان يقول هذا خارج مكَّة المكرَّمة أي في ظاهر المدينة، لا أحد يسمعه، فقال صفوان: " أما أولادك فهم أولادي ما امتدَّ بهم العمر، وأما ديونك فهي عليَّ بالغة ما بلغت فامض لما أردت "، مضى هذا الرجل وهو عمير بن وهب إلى المدينة وفي نيَّته أن يقتل النبي عليه الصلاة والسلام فقد ضمن أولاده بعد موته، ضمن ديونه جعلها على عاتق صفوان، أسقى سيفه السُم، ركب راحلته وتوجَّه بها إلى المدينة، رآه عمر رضي الله عنه بفِراسته قال : عدوُّ الله عمير جاء يريد شراً"، قيَّده بحمَّالة سيفه وقاده إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال : " يا رسول الله هذا عدو الله عمير جاء يريد شرَّاً "، قال النبي: ابتعد عنه يا عمر " ابتعد عنه، " أطلقه " فأطلَقه، " ادن مني يا عُمير " اقترب منه، " اجلس "، جلس، " سلِّم علينا "، قال : عمت صباحاً يا محمَّد، قال : " قل السلام عليكم " قال : لست بعيد عهدٍ بالجاهليَّة، قال : " ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ " قال: جئت أفدي أخي، قال : " وهذا السيف التي على عاتقك ؟ " قال : قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال : " ألم تقل لصفوان بن أميَّة لولا ديونٌ ركبتني، وأطفالٌ أخشى عليهم العنت، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه ؟ " فوقف وقال : أشهد أنَّك رسول الله، قلت هذا القول ولا أحد يسمعني إلا الله وصفوان ..))

[ورد في الأثر]

ليس هذا هو القصد، القصد أن صفوان بن أميَّة أمضى أياماً في نشوةٍ عارمة، لماذا؟ لأنه ما هي إلا أيام وحتى يأتي نبأ مقتل محمد عليه الصلاة والسلام، فكان يقول لكفَّار قريش: " انتظروا خبراً سارَّاً "، مضى يومٌ ويومان، وأربعة أيَّام، وأسبوع ولم يأت هذا الخبر السار، إلى أن صار يقف في ظاهر مكَّة يتلقَّى الركبان، فسألهم : " ما فعل عُمَيْر " ؟ قالوا: " أسلم عمير " ..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ

المعنى الأول :

أي أن هؤلاء الكفَّار يضعون مكراً تزول منه الجبال لشدَّته، ولعنفه، ولقسوته، ولخطورته .

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

هذا المعنى الأوَّل، أي لو أن إنساناً أعدَّ خطَّةً على ورقةٍ ليكيد لعدوِّه، هذه الورقة خلال ساعة كانت عند عدوِّه وهو أقوى منه، فمكر هذا العدو كان عند العدو ..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

أي أنهم مكروا وهذا المكر مكشوف عند الله عزَّ وجل .

المعنى الثاني :

وعند الله جزاء مَكْرِهِم، قد يقول قائل : لك عندي حساب، لك عندي جزاء، لك عندي عقاب، لك عندي ثواب .

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

أي أنهم عند الله سوف يُحاسبون على مكرهم ..

(وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46)فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ

هناك من يظن أن الله أخلف وعده رسله :

هذه آيةٌ ثانية، إذاً هناك من يظن أن الله قد أخلف وعده، فالنبي عليه الصلاة والسلام في معركة بدر انتصر على أعدائه، في أحد انتصر بنوعٍ من الانتصار، جاءت معركة الخندق، جَيَّشَ الكفَّار أكبر جيشٍ عرفته الجزيرة، عشرة آلاف مقاتل أحاطوا بالمدينة، حُفِرَ الخندق، ظهر المسلمون قد فُتِحَ عليهم، نقض اليهود وهذه عادتهم عهدهم مع النبي وتواطؤا مع الكفار على أن يأتي الكفار من خلف ظهور المسلمين، أحدق بهم الخطب، احلولكَت الأيَّام، بدا اليأس على بعض المسلمين ..

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب)

حتى قال قائلٌ منهم: " أيعدنا صاحبكم أن تُفتَح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟! "، أي أن هناك من كفر بمحمَّد، هناك من رأى وعوده لا معنى لها .

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب)

تأخير النصر لحكمة ربانية بالغة :

ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ بالغة يؤخِّر النصر، ليكشف الناس على حقيقتهم، هذا يكفر، هذا يقول : " ما وعدنا إلا غروراً "، هذا يقول: الدين شيء خرافي، هذا يقول : أين الله لِمَ لا ينصرنا ؟ كل إنسانٍ يظهر حسن ظنِّه بالله، أو سوء ظنه، وهذه حكمةٌ أخرى، لابدَّ من تأخير النصر ..

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا)

(سورة يوسف: من الآية 110)

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)

لا يتخلف وعد الله أبدا :

والله الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يُخْلِفَ وعداً وعده لمؤمن، إذا وعدك بالحياة الطيِّبة فأبشر لابدَّ من أن تحيا حياةً طيِّبة، إذا وعدك بالتوفيق لابدَّ من أن تُوَفَّق، إذا وعدك بالنصر لابدَّ من أن تُنْصَر، إذا وعدك بجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض لابدَّ من أن تصل إليها .

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)

عليك بحسن الظن باللهوالثبات في الابتلاء والامتحان :

إيَّاك أن تحسب هذا، هذا سوء ظنٍّ بالله، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((حسن الظنِّ بالله ثمن الجنَّة))

ورد في الأثر]

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)

أنت مستقيم، دخلك قليل والله عزَّ وجل وعدك بالحياة الطيبة في الدنيا، إيَّاك أن تزيغ عيناك، إياك أن تزلَّ قدمك، إياك أن تقول: أين هذا الدخل الكبير الذي وعدني الله به؟ أين هذا التوفيق في التجارة؟ الأسواق باردة، أين التوفيق في الزواج، لا أعثر على زوجة؟ أين هذا الوعد الإلهي؟ إياك أن تستبطئ

وعد الله، إياك ..

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)

لابدَّ من أن يؤخِّر الله وعده من أجل أن يمتحنك ماذا تقول ؟ ما الذي يخطر في بالك؟ أترتدُّ كما كنت؟ أتنكص على عقبيك؟ أتُسيء الظن بالله عزَّ وجل؟ أتقول: أين الله؟ لِمَ لا ينصرني؟ لِمَ لا يرزقني؟ أين وعده؟ تأخير النصر ابتلاءٌ للإنسان، وامتحانٌ له، وكشفٌ لحقيقته النبي عليه الصلاة والسلام انتصر على أعدائه، ولكن متى؟ بعد أن صبر، قال في الطائف :

((يا رب، أشكو إليك ضعف قوتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا ربَّ المستضعفين، إلى من تكلني ؟ إلى غريبٍ يتجَهَّمني أم إلى عدوٍ ملَّكته أمري، يا رب، إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى لكنَّ عافيتك أوسع لي))

الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

قد ينزل مرضٌ بالمؤمن، هذا المرض لكي يُمْتَحن به، أيقول : أين الله؟ لماذا أمرضني ؟ ماذا فعلت معه ؟ سقط بالامتحان، أم يقول الحمد لله على كل حال ؟ يا رب أنا راضٍ عن فعلك، راضٍ بقضائك، ماضٍ فيَّ حكمك، سارٍ فيَّ قضاؤك ..

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ

انتقام الله من الكافر من لوازم عزَّته :

لابدَّ من أن ينصر رسله، سبحانك إنه لا يذلُّ من واليت ولا يعزُّ من عاديت، مستحيل أن يعزَّ من عاديت، ومستحيل أن يذلَّ من واليت..

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة المنافقون : من الآية 8)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

(سورة فاطر: من الآية 10)

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

لو لم ينتقم الله من الكافر المجرم الذي طغى وبغى ما كان الله عزيزاً، هو عزيز لأنه ذو انتقام، وترى المجرمين ..

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ)

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة :

تغيُّر الأرض والسماوات :

هذا يوم الدين، يوم الجزاء، يوم الدينونة ..

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ)

لا جبال فهي قد نُسِفَت، البحار قد سُجِّرت، والوحوش قد حُشِرَت ..

(وَالسَّمَاوَاتُ)

لا شمس فهي قد كوِّرت، ولا نجوم قد انكدرت ..

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ)

وصفٌ لهذا اليوم الذي تُعَطَّلُ فيه السنن الأرضيَّة، تعطَّل فيه دورة الأرض حول نفسها وحول الشمس، تُنْسَفُ جبالها ..

(فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا)

(سورة طه)

تُكَوَّرُ الشمس، يُخْسَفُ القمر، تنكدر النجوم، تُفْتَحُ السماء ..

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

البروز لله تعالى :

سبحان من قهر عباده بالموت، مهما علا الإنسان لابدّ من أن يموت، قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((سبحان الله إن للموت لسكرات))

[الطبراني في المعجم الكبير]

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

معنى البروز بين يدي الله :

معنى برزوا أي ظهروا على حقيقتهم، قد يخفي الإنسان في الدنيا شيئاً ويظهر شيئاً، قد يخفي عملاً قبيحاً ويُظْهِراً عملاً جيِّداً، هذا في الدنيا أما في الآخرة لابدَّ من أن يظهر الإنسان على حقيقته ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(48)وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

المجرمون مربوطون بالأصفاد :

الأصفاد هي القيود، مقرَّنين أي جُمِعَ بعضهم إلى بعض، الزناة مجموعة، شاربوا الخمر مجموعة، المرابون مجموعة، المُفسدون مجموعة، النمَّامون، المغتابون، آكلوا المال الحرام مُقَرَّنين، قرناء ..

(الْأَصْفَادِ(49)سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ)

جلود المجرمين مصابة بالجرب مطلية بالقطران :

أي أن جلودهم أصابها الجَرَب وهو من أبشع أمراض الجلد، ودواء الجَرَب القطران وهو من أسوأ الأدوية، له ريحٌ نتن ومنظرٌ قبيح ..

(سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ)

تعلو وجوههم النار :

النار في القرآن تطلع على الأفئدة، على القلوب، أي أن أشرف عضوٍ باطني هو القلب، تصله النار، ويصاب الوجه وهو أشرف عضوٍ ظاهري، قد تصاب يد الإنسان بمرض الموات فتُقْطَع، تصاب رجله فتقطع، أما إذا أُصيب رأسه هل يُقْطَع؟ إذا قُطِعَ رأسه انتهى، لأن الله سبحانه وتعالى جعل في الرأس أشرف الأجهزة؛ الدماغ، والسمع، والبصر، والنطق، هذا العضو المُكَرَّم تلفحه النار ..

(وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ)

ولا ينكر عذاب النار إلا كافر، عذاب النار العذاب المادي ..

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

(وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ)

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء : من الآية 56)

أما قوله تعالى :

(وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ(49)سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ(50)لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ)

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ

لابد من الحساب :

هذه اللام لام التعليل، أي لابدَّ من الجزاء، إن لكل سيئةٍ عقاباً، ولكل حسنةٍ ثواباً .

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ)

((إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفِّيكم إياها، من وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))

[مسلم عن أبي ذر

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

معنى : ِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

سريع الحساب لها معنيان :

المعنى الأول :

أن الله عزَّ وجل إذا حاسب العباد فهو سريع الحساب، لا يشغله عبدٌ عن عبدٍ، لا يشغله حسابٍ عن حساب، أما المُحاسب فقل له: أعطني كشف حساب لفلان، ينهمك في كتابة الكشف، قل له: أعطني لفلان أيضاً، يقول لك: انتظر، أنا الآن مشغول بهذا الموضوع، الإنسان يشغله شيءٌ عن شيء، لكنَّ الله سبحانه وتعالى سريع الحساب، يحاسب العباد كلَّهم دفعةً واحدة، لا يشغله شيءٌ عن شيء، ولا حسابٌ عن حساب، هذا المعنى الأول أي أنه إذا حاسب العباد فهو سريع الحساب، ولا يتذوَّق هذه الآية إلا المحاسبون لأنهم يرون أعباء المحاسبة فوق طاقتهم ..

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

المعنى الثاني :

أنه إذا فعل الإنسان عملاً قد يقصمه الله عزَّ وجل مباشرةً، قد يحاسبه في الدنيا حساباً سريعاً، قد تمتد يده للحرام فتُقطع، قد يتحدَّى القُدرة الإلهيَّة فيُقضى عليه ..

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

إذاً: إما أنه سريعٌ في محاسبة الخلائق إذا حاسبهم، أو أن العقاب قد يأتي إثرَ المعصية مباشرةً، قد يحلف الإنسان يميناً غموساً فيُشَلُّ فوراً ..

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

تأخير العقاب الدنيوي وتعجيله كلٌّ لحكمة ربانية :

لدينا آيتان: الأولى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

الفاء هنا للترتيب مع التعقيب، وهناك آية أخرى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا)

(سورة الأنعام : من الآية 11)

قد تقتضي حكمة الله أن يؤخِّر الحساب، هذه على ثم، الحساب إما على معنى الفاء للترتيب مع التعقيب أو على معنى ثم .

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(51)هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ)

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ

معنى بلاغ لها معنيان :

المعنى الأول :

إما من البلوغ وإما من التبليغ ..

(هَذَا بَلَاغٌ)

أي أن الله عزَّ وجل قد أبْلَغَ الخلق في الوقت المناسب قبل فوات الأوان، أبلغ الخلق أن هناك جنَّة، وأن هناك ناراً، وأن هناك حساباً، وأن مع الحياة موتاً، وأن مع العزِّ ذُلاً، وأنه لكل شيءٍ رقيب، ولكل شيءٍ حسيب، هذا بلاغ .

المعنى الثاني :

أن الله سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن الكريم بُلْغَةً للناس، أي يكفيهم، وإذا أردت أن أوضِّح هذا المعنى فوالله الذي لا إله إلا هو إن الآية الواحدة من هذا الكتاب تكفي الإنسان طوال حياته .. جاء أعرابيٌّ النبي عليه الصلاة والسلام قال : " يا محمد عظني وأوجز"، قال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة)

قال : " لقد كُفيت "، هذه تكفيني طوال حياتي، فقال عليه الصلاة والسلام :

((فَقُهَ الرجل))

ورد في الأثر]

هذه الآية تكفي وحدها ..

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

(سورة النساء)

تكفي وحدها ..

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

تكفي وحدها ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

تكفي وحدها ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

(سورة طه : من الآية 124)

تكفي وحدها ..

(هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ)

هذا بلاغ للناس، إما أنه من التبليغ أو من البلوغ ..

(هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 – 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-11-14

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الحجر :

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)

الكتاب جنس لجميع الكتب السماوية:

فالكتاب كما قال بعض العلماء ينطبق على كل كتاب سماوي، مطلق الكتب المنزلة على أنبياء الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل عليهم الكتاب، خلقهم، وأنزل إليهم منهاجهم، فلذلك تأتي كلمة الكتاب في القرآن الكريم لتشمل كل الكتب السماوية .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

الآية هي العلامة :

الآيات جمع آية، والآية هي الدليل والعلامة، فاصفرار الفاكهة علامة نضجها، وظهور بعض السحب في السماء علامة المطر الكثير .

لكل شيء آية :

ربنا سبحانه وتعالى جعل لكل شيء علامة، وقال :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل)

البلوغ له علامة، والنضج له علامة، واقتراب الشتاء له علامة، واقتراب فصل الربيع له علامة، وكل شيء له علامة، هذه علامات على أشياء، فما الدلائل أو العلامات الدالة على الله سبحانه وتعالى ؟

الآيات كونية وتكوينية وقرآنية :

الآيات التي تدل على الله سبحانه وتعالى على ثلاثة أنواع :

الآيات الكونية :

هناك الآيات الكونية، خلقُك دليل على أسماء الله الحسنى، هذا القلب الذي بين جوانحك يضخ في كل نبضة سبعين سنتيمتراً مكعباً، اضرب هذه السبعين في ستين مرة كي تعرف كم ينبض في الدقيقة، اضرب هذا الرقم في ستين كي تعرف كم يضخ في الساعة، اضرب الناتج الأخير في أربع وعشرين كي تعرف كم يضخ في اليوم، بعضهم بدأ يضرب إلى أن ضرب الرقم الأخير بعمر تقريبي، فكان حجم الدم الذي يضخه القلب طيلة عمر الإنسان شيء لا يصدق، الرقم لا يصدق، هذا القلب، هذه الآلة التي بين جوانحنا لا تفتأ عن الضخ، ولا تكل، ولا تتعب، القلب آية من آيات الله سبحانه وتعالى .

اللسان آية، وكل حرف ينطق به اللسان تسهم في هذا النطق سبع عشرة عضلة، فالكلمة المؤلفة من خمسة حروف كم عضلة تسهم في حركتها ؟ والدرس الذي يلقى خلال ساعة كم مرة تحركت العضلات بشكل أو بآخر حتى جعلت هذا الكلام يلفظ فيسمعه الناس .

فالآيات على ثلاثة أنواع، آيات كونية، أي شيء حولك ينطق بعظمة الله، حيثما التفت، وأينما نظرت، إلى السماء، أو إلى الأرض، وإلى الجبل، إلى أي شيء نظرت، إلى الماء، الماء كما قال بعض العلماء لا ينضغط، ولأنه لا ينضغط فله وظائف كثيرة يؤديها، الماء إذا بردته إلى درجة +4 يزداد حجمه، ازدياد حجم الماء تتوقف عليه الحياة على وجه الأرض، لولا أن حجم الماء يزداد عند التبريد لما كنّا وإياكم في هذا المكان، فازدياد حجم الماء في هذه الدرجة بالذات دليل وآية على عظمة الله عز وجل .

فحينما وصلت إلى كلمة :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

الآيات على ثلاثة أنواع :

الآيات الكونية، كأس الماء آية كونية، رغيف الخبز آية كونية، البذور آية كونية، النبات آية كونية، تخزين الماء آية كونية، الأنهار آية كونية، الينابيع آيات كونية، هذه عناوين موضوعات للتفكر .

المؤمن الصادق لا يمر على هذه الآيات مراً سريعاً، بل يقف عندها، يتأمل فيها، يتعرف إليها، يستنبط أن لها خالقاً عظيماً، هناك من يأكل كما تأكل الأنعام، هناك من يتعامل مع المخلوقات كما تتعامل الأنعام مع بعضها، همه أن يأكل، وأن يشرب، وأن ينام، ولا يعرف أن هذا الصوف الذي ينام عليه من خلق الله سبحانه وتعالى، وأنه خلق خصيصى له، ولا يعرف أن هذا الثوب الصوفي الذي يقيه البرد إنما هو

من خلق الله سبحانه و تعالى، وأن شعرة الصوف صنعت بشكل عجيب، صنعت مجوفة، وبطول محدود، يعين على غزلها، فإذا غزل الصوف بهذا الطول له فوائد يعرفها الخبراء بالخيوط، لذلك فإن الخيوط الصناعية التي يمكن أن تنتج مستمرة تقطع إلى أطوال تساوي أطوال الصوف الطبيعي، من أجل أن تكون لها ميزة في غزلها، فماذا أقول لكم ؟

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

هذا الموضوع لا حد له، لا يحصر بكلمات، لكن الذي يعنينا منه أن كل مؤمن مدعو إلى التفكر في آيات الله الكونية، ليتفكر بعينه، هذه العين، جميع خلايا الجسم البشري تتغذى عن طريق الشعيرات الدقيقة، إلا قرنية العين يتم غذاؤها بطريقة عجيبة، بطريقة الحلول، الخلية الأولى تأخذ الغذاء، فينتقل غذاؤها وغذاء جارتها عبر الغشاء الخلوي إلى الخلية الثانية، كل هذا من أجل الرؤية الصافية .

العين في شبكيتها مئة وثلاثون مليون مخروط، الذي عد هذه المخاريط نال جائزة نوبل في عام 1967، مئة وثلاثون مخروطًا، وسبعة ملايين عصية من أجل استقبال المؤثرات الضوئية، ونقلها إلى الدماغ كي تنقلب إلى صور، فالعين آية، العصب البصري مؤلف من أربعمئة ألف عصب .

السمع آية، الشم آية، اللمس آية، القلب آية، جهاز الهضم آية، جهاز التنفس آية، جهاز الدوران آية، جهاز التصفية آية، الجهاز التناسلي آية، العضلات آية، والعظام آية، قال لي طبيب : إن عظم الجمجمة مشدود إلى الداخل بحيث لو تمكنا من بعض سطوح الجمجمة، وأردنا أن نسحب هذه السطوح إلى الخارج لاحتجنا إلى قوة تزيد على أربعمئة كيلو غرام، هذه السطوح الثلاثة التي ركبت بشكل مفصل متداخل مسنن هذا التركيب مشدود إلى داخل الجمجمة، ولا يفك إلا بقوة كبيرة، وذلك إذا استطعنا أن نمسك ببعض هذه السطوح، لذلك في عمليات فتح الجمجمة للوصول إلى الدماغ أهون على الطبيب أن ينشر العظام نشراً من أن يفك هذه المفاصل، وهذه المفاصل عند الولادة تتداخل بعضها ببعض، فإذا لم تتداخل لا يوجد جهة حتى الآن تستطيع أن تصنعها، سطوح مسننة تتداخل مع بعضها تتعشق كما يقول الميكانيكيون، وإذا تعشقت كانت مفصلاً ثابتاً، ما فائدة هذا المفصل الثابت ؟ لمص الصدمات، حينما يسقط الطفل على الأرض تسمع رنين رأسه على البلاط بشكل واضح، ما الذي يقي هذا الرأس من أن ينكسر ؟ هذه المفاصل الثابتة .

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة الأنعام)

والله الذي لا إله إلا هو لو بقينا سنوات متصلات نتحدث عن آيات الله لما توصلنا إلا إلى شيء قليل جداً .

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

(سورة الإسراء)

لكنني والله الذي لا إله إلا هو، وأنا ناصح لكم أدعوكم إلى التفكر في آيات الله، لماذا كان غضروف الأنف في الطفل قاسياً؟ وبعدئذ يصبح غضروفاً ليناً، لماذا كان عظم الأنف إلى هنا وسط الأنف، والقسم الباقي غضروفي؟ هذا السؤل أجب عنه وحدك .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

هؤلاء المتقون، هؤلاء المؤمنون يتفكرون في خلق السماوات والأرض، هذا الكأس من الماء التي تشربها كان ماؤها ملحاً أجاجاً فصار عذباً فراتا، قدرة من حولته من هذه الحال التي تمجها النفس إلى تلك الحال التي تستسيغها النفس ؟ الله سبحانه وتعالى .

هذا القسم الأول هو الآيات الكونية، وربنا عز وجل ذكر بعضها، وترك لنا التفكر بالباقي، وأما الآيات الثانية فهي الآيات القرآنية .

الآيات القرآنية :

هناك آيات كونية، وهناك آيات قرآنية، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، هل يوازن خالق بمخلوق ؟ كذلك لا يوازن كلام الله بكلام الناس، فالذي يمضي حياته في دراسات تتعلق بكلام الناس فقد ضيع عمره سدىً، والذي يمضي حياته بفهم كلام الله والتعرف إلى دقائقه، ومدلولاته، واستنباط القواعد الثابتة، ومعرفة طريق سعادته فهو من السعداء، آيات القرآن الكريم آيات دالة على عظمة الله سبحانه وتعالى، حتى إن بعض العلماء قال : القرآن كون ناطق، والكون قرآن صامت، وبعض العلماء يقول : إن لله في أرضه كتابين، إن لله في خلقه كتابين، الكون كتاب، والقرآن كتاب .

الآيات التكوينية : الحوادث :

وأما الآيات ذات النوع الثالث فهي الحوادث، الحوادث أيضاً آيات دالة على عظمة الله سبحانه وتعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

تتبع إنساناً مؤمناً، تتبع حياته الخاصة، تَتَبَّع حياته العامة، تَتَبَّع حياته النفسية، تَتَبَّع حياته الاجتماعية، تَتَبَّع علاقاته العامة تر أنه سعيد، تَتَبَّع حياة المنحرف العاصي الشقي تر أنه في جحيم لا يطاق .

فهذه الحوادث التي يصنعها الله سبحانه وتعالى قرآن ثالث، قرآن مطبق، أيّ آية في كتاب الله هناك ما يدل عليها في الكون تَتَبَّع، وهناك ما يدل عليها في الحياة .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

هذه آية قرآنية، لو تتبعت الحياة الاجتماعية لوجدت أن الله موجود مع الناس يحاسبهم، ويقضي بينهم بالحق، ويجزي المحسن منهم، ويعاقب مسيئهم، من كان ماله حراماً أتلفه الله، ومن كان ماله حلالاً رزقه الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

[البخاري]

فهذه الآيات مطبقة أيضاً في الأرض .

عودة إلى هذه الآية، الآية هي العلامة، التفاح يكون أخضر اللون، فإذا اصفر وشح بلون أحمر فهذا الاصفرار، وهذا الوشاح دليل أنه قد نضج، فعلامة نضجه اصفراره، فالاصفرار علامة أو هو دليل على نضجه .

الآيات الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى، آيات الله في الكون المجرات، المجموعة الشمسية، الشمس والقمر، النجوم، الأرض ... إلخ، القرآن آيات، وأفعال الله في الأرض آيات .

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)

معنى : مبين :

معنى مبين مِن أبان أي : وضّح، فالآيات واضحات، عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ :

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ))

[أحمد]

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[متفق عليه]

الحلال بين، الحرام بيّن، الشرع بيّن، ما أمر الله به، وما نهى عنه بيّن، هذا القرآن بيّن، حينما قال الله عز وجل :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة)

آية واضحة كالشمس، قال :

((يا رسول الله، عظني وأوجز، فقال له الرسول الكريم:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

قال الأعرابي: قد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فقه الرجل))

أنا أؤكد لكم أن آية واحدة تكفيكم جميعاً طوال الحياة، آية واحدة هي :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

من اتبع هدى الله عز و جل فهو في ضمان الله عز وجل، ضمان من الله خالق الكون ألاّ يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ومن منا لا يتوق إلى هاتين المرتبتين، ألاّ يضل، وألاّ يشقى .

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ(1)رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ

معنى (رُبَّ):

أقف قليلاً عند كلمة: (رُبَّ)، لأن بعض الناس إذا تعلموا العربية في المدارس تعليماً ناقصاً يتوهمون أن كلمة : (رُبَّ)تفيد التقليل، أينجح فلان ؟ فيجاب : ربما ينجح، هذا العلم ناقص، فرجعت إلى كتب النحو حول كلمة (ربّ)، ربّ من حروف الجر، وهذا الحرف كما جاء في أوسع كتاب للنحو يفيد

التكثير كثيراً، ويفيد التقليل قليلاً، وكلمة (ربّ)تشابه كم الخبرية، كم كتاب عندي، يعني ما أكثر الكتب التي عندي .

فربنا سبحانه وتعالى قال :

(رُبَمَا)

بالتخفيف، والأساس (ربّ)بالتشديد، (ربّ)لا تدخل إلا على الأسماء، ربّ ضارة نافعة، فإذا أردنا أن ندخلها على الأفعال تحتاج إلى (ما)، تقول : ربما قام فلان، ربما سافر فلان، لكن ربّ لا تدخل على الفعل المضارع أبداً إلا في كتاب الله، لماذا أدخلت في كتاب الله على الفعل المضارع؟ لأن المضارع في القرآن كالماضي تماماً، من باب تحقق الوقوع، فإذا وعدك الله بوعد في المستقبل فكأنه قد وقع، فقد يعبر الله سبحانه وتعالى عن شيء سيقع يوم القيامة بالفعل الماضي، وتوجيه هذا التعبير أنه من باب تحقق الوقوع .

فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(رُبَمَا)

والأكثرون على تشديدها (ربّما)، وبعضهم (ربما)بالتخفيف، لكنها في قراءة عاصم جاءت مخففة .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

هذه الآية أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفقني إلى توجيه مدلولاتها .

المعنى الأول : يود الكافر في الدنيا لو كان مسلما :

وهذا يعني كثيراً ما يتمنى الذين كفروا لو أنهم كانوا مسلمين، وبعض العلماء قال : هذا التمني في الدنيا، يعني الكافر الذي جمع المال الحرام، وأتلفه الله في ساعة خيبة الأمل، وفي ساعة الإحباط، وفي ساعة المصيبة، وفي ساعة الندم يتمنى لو كان مسلماً، فكسب المال الحلال، وبارك الله له فيه، وعاش حياة سعيدة رغيدة .

قد يتزوج الكافر امرأة تعجبه، ولا يبالي بدينها، فإذا اقترن بها، ورأى من فظاظتها وانحرافها ما أقضّ مضجعه عندئذ يتمنى لو كان مسلماً، فيهيئ الله له زوجة صالحة مثله يسعد بها، هذا المعنى الأول .

كلما وقع الكافر في مصيبة في ماله إن كان حراماً، في بيته إن كان اختياره للزوجة على أساس غير ديني، لأنه من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، فعليك بذات الدين تربت يداك .

فهذا الكافر كثيراً ما يتمنى لو أنه مسلم، لو كان مسلماً لكانت حياته طيبة :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : 21)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم : 35- 36)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه : 124)

إذاً: الكافر وهو في الدنيا حينما يرى نتائج عمله ونتائج المال الحرام الذي كسبه، وكيف دمره الله، ودمر أولاده، وحينما يرى نتائج الزواج الفاسد، حينما يرى نتائج الخوض فيما لا يعنيه، حينما يرى نتائج الكذب يتمنى لو كان مؤمناً، بل كثيراً ما يتمنى لو كان مؤمناً .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

المعنى الثاني : يود الكافر يوم القيامة لو كان مسلما :

قيل: هذا في الحياة الدنيا، ويوم القيامة ربما يتمنى الكافر أن يكون مسلماً، حينما يعرض على النار، قال تعالى :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنعام)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا(27)يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)

(سورة الفرقان)

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

(سورة المؤمنون)

الكافر حينما يعرض على النار، وحينما يرى مصيره يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقتهم، والكافر أيضاً يتمنى لو كان مسلماً، وهو على فراش الموت يختم عمله ، ويطلع على ما أعد الله له من عذاب أليم، لذلك أهل الكفر حينما يأتيهم ملك الموت يضطربون ويصيحون ويستغيثون، ولكن لا مغيث. هذه فرصة أعطيت لنا، هذا الكلام يقال، ونحن في بحبوحة، ونحن كلنا قلب ينبض، ما دام الإنسان حيًّا فكل شيء له حلّ .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

المعنى الثالث : رُبّ طاعم في الدنيا جائع يوم القيامة ...

والمعنى الآخر لهذه الآية قال عليه الصلاة والسلام :

((يا ربّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، يا ربّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، يا ربّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، يا ربّ مهين لنفسه وهو لها مكرم، يا ربّ متخوض فيما لا يعنيه ما له في الآخرة من خلاق))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي البجير]

المعنى الرابع : حين يصيح الكافر من عذاب النار :

شيء آخر في معنى كلمة (ربما)، النبي عليه الصلاة والسلام بين لنا أن أهل النار وهم يصيحون فيها قد يجتمع فيها المشرك بمن آمن بالله، ثم انحرف عن طريق الحق، آمن، ولم يستقم على أمر الله، آمن وفعل السيئات، قد يشمت هذا المشرك بهذا المؤمن، يقول له: ما نفعك إيمانك شيئا، فبعض الآثار تروي أن الله سبحانه وتعالى بعد حقب طويلة جداً يخرج المؤمن من النار، ويدخله الجنة، عندئذ يتمنى الكافر أنه لو كان مسلماً في الدنيا، ولو بنوع ما من الإسلام، لأنه صح في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((يُخْرَجُ مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ الْإِيمَانِ))

[الترمذي وأحمد]

ولكن متى؟ لا يعلم إلا الله، بعد مليون سنة مثلاً، الله أعلم، لكن في النهاية يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، حتى هذه الذرة من الإيمان يتمناها الكافر، وهو في النار، هذا هو المعنى الرابع .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

المعنى الخامس : الآية بشارة للنبي عليه الصلاة والسلام :

والمعنى الخامس: في هذه الآية بشارة للنبي عليه الصلاة والسلام، أي: يا محمد، لا تثريب عليك، لا بدّ من أن يأتي اليوم الذي ينصرك الله فيه نصراً عزيزاً، وعندئذ يتمنى الكفار لو كانوا مسلمين .

عكرمة بن أبي جهل أهدر النبي عليه الصلاة والسلام دمه، فلما فتحت مكة هام على وجهه، وتمنى لو كان مسلماً، صفوان بن أمية، كذلك هند التي كادت للنبي عليه الصلاة والسلام تمنت يوم فتح مكة أنها لو كانت مسلمة، الكفار الذين كادوا للنبي عليه الصلاة والسلام، وأخرجوه من بلده مكة، وعذبوا أصحابه، وائتمروا على قتله عندما فتحت مدينتهم، وكانوا في قبضة النبي عليه الصلاة والسلام تمنوا لو كانوا مسلمين .

المعنى السادس : الكافر يتمنى لو أسلم مبكِّرا :

المعنى الذي بعده : أن الكافر الذي أسلم، وحسن إسلامه يتمنى لو أنه أسلم في وقت مبكر، يعني هذا الذي أسلم، وعرف الله، واستقام على أمره، وهو في ريعان الشباب فأفنى عمره في طاعة الله، وأفنى وقته في العبادات والقربات وحضور مجالس العلم، هو الذي أحرز الخير كله، أما الذي عرف الله في سن متأخرة، عرف الله في الأربعين، في الخمسين يتمنى دائماً وأبداً لو كان قد أسلم في سن مبكرة، فيحظى بشرف الإسلام في الشباب .

فيا أيها الشباب، إن كنتم كما يريد الله عز وجل فاشكروا الله، فالإيمان في سن مبكرة لا يعدله شيء، لكن من بلغ الأربعين، ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار، لأنه من شبّ على شيء شاب عليه طوال حياته، ألِف أن ينظر إلى النساء، وفي سن الخمسين أصبح من الصعب أن يغض من بصره، أما إذا نشأ الشاب على غض البصر فبعد سنوات يصبح هذا السلوك بنية من بناه النفسية، وانتهى الأمر، ومن شاب على شيء مات عليه، بل من مات على شيء حشر عليه، ألِف طوال حياته لعب الطاولة، وسهر الليالي فعلى هذا ماذا استفاد ؟ في الأربعين إذا قيل: اذكر الله، واقرأ القرآن، يقول: النبي قال : ساعة لك، وساعة لربك، هذا ليس حديثاً، ومن قال لك: إن هذا الكلام حديث ؟

فمن بلغ الأربعين، ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار، فهذا الذي يسلم في وقت متأخر يتمنى

طوال حياته لو أنه أسلم في وقت مبكر، لأن سبعة يظلهم الله ظله يوم لا ظلّ إلا ظله، ومنهم شاب نشأ في طاعة الله، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب مستقيم، والتوبة شيء حسن، لكن في الشباب أحسن، أبواب رحمة الله مفتحة على مصارعها، الدنيا مطية الآخرة .

النبي الكريم عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نسبّ الدنيا، لماذا؟ لأنها مطية المؤمن إلى الله عز وجل، بها ترقى إلى رضوان الله، بهذه الشهوة التي أودعها الله فيك إن كبَحْت جماحها فإنك ترقى إلى الله، بحبك للمال تنفقه في طاعة الله ترقى حينما تنفقه على الفقراء والمحتاجين، بحبك للنساء تغض البصر عنهنّ ترقى، فتتزوج وفق ما أمرك الله .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

المعنى السابع : الآية تثبيت للنبي عليه الصلاة والسلام :

والمعنى الذي بعده : أن هذه الآية تثبيت للنبي عليه الصلاة والسلام، أيها النبي لا بدّ من أن ينصرك الله عز وجل، وهذا الكلام لنا الآن، أيها المؤمن لا تهن، ولا تضعف، ولا تيأس، ولا تقنط، النبي عليه الصلاة والسلام حينما التقى عدي بن حاتم قال :

((يا عدي، لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، أي : من فقر هؤلاء المسلمين، وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج هذا البيت على بعيرها لا تخاف، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة للعرب))

[كنز العمال]

فهذه الآية تثبيت لك إن كنت مسلماً، فأبشر بأنه سيأتي على الناس ساعة يتمنون أن يكونوا مثلك، أنت من النوع النادر، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَلَعَتْ الشَّمْسُ، فَقَالَ :

((يَأْتِي اللَّهَ قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورُهُمْ كَنُورِ الشَّمْسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَحْنُ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا، وَلَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّهُمْ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَقَالَ : طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، فَقِيلَ : مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَاسٌ صَالِحُونَ فِي نَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ))

[أحمد]

هؤلاء الذين يحبهم رسول الله عليه الصلاة والسلام سمّاهم أحبابه، وصفهم فقال: القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

(الترمذي، وأحمد)

لو أن الشاب المؤمن أراد أن يقيم أمر الله في بيته من يعارضه؟ أقرب الناس إليه، أمه تقول: ما ألفنا هذا الدين، هذا تزمت، يا أمي هذه آية في كتاب الله، لا، لا تشذ عن قواعد الأسرة، من يعارضه؟ أبوه، جاره، صاحبه، زميله، قريبه .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

إن كنت مسلماً حقاً فأبشر، لأن هؤلاء الناس الذين تقع عينك عليهم لا بدّ من أن تأتي عليهم ساعة، ويا هول تلك الساعة، يتمنون لو كانوا مسلمين .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

الكافر يتمنى أن يكون مسلماً في الدنيا حينما يفشل في زواجه، وحينما يدمر ماله، وحينما يصاب بمرض عضال يجعله مفتقراً لكل إنسان، ويتمنى أن يكون مسلماً عند الموت، حينما تلوح له نهايته الحزينة، ويتمنى أن يكون مسلماً حينما يعرض على الله عز وجل، وحينما يعرض عمله على الله عز وجل، ويتمنى أن يكون مسلماً حينما يعرض على النار .

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

(سورة غافر 46)

وهذه الآية بشارة للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكل مؤمن في هذا الزمان، أبشر، واصبر، واثبت، فلا بدّ أن يأتي على الذين يخاصمونك ويعادونك ساعة يتمنون أن يكونوا مسلمين .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ(2)ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

ذَرْهُمْ : تهديد ووعيد :

معنى (ذرهم)هذا تهديد، تقول أحياناً لابنك : افعل ما تريد، هل تأمره أن يفعل ؟ لا والله، إنك تهدده، ذرهم يا محمد، دعهم يأكلوا ويختاروا أطيب الأطعمة، دعهم يجلسوا في أجمل الأماكن، ويأكلوا في هذه الأماكن ما لذّ وطاب، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، هم يحسبون أنهم قد أفلحوا، وقد فازوا، وقد تفوقوا، وقد نجوا من الفقر .

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا)

بنسائهم اللائي يحللن لهم، أو باللاتي لا يحللن لهم، يتمتعوا بكل شيء بالمناظر الخلابة، بالشهوات الدنيئة، بالانحرافات بكل شيء، ذرهم يأكلوا، ويتمتعوا .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(ذرهم)، اتركهم، فقد وعظتهم ما فيه الكفاية .

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : 272)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص : 56)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(11)وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا(12)وَبَنِينَ شُهُودًا(13)وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا)

(سورة المدثر)

اتركه، دعه لي، أنا أتولى معالجته، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

(البخاري)

دعهم يأكلوا، ويتمتعوا بالدنيا، بمباهجها، وبزينتها، برحلاتها الطويلة، بفنادقها الفخمة، ذرهم يتمتعوا بهذه الحياة، ذرهم يسبحوا مختلطين، يتمتع بعضهم ببعض .

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ)

الكافر ذو أمل طويل في الدنيا :

ولو شققت على خاطر كل منهم لوجدت نفسه مفعمة بالآمال، هذا ينام على مخطط لبيت جميل على مقصف جميل، يحلم به طوال سنوات طويلة، كيف سيجعل أرضه؟ كيف سيجعل التبريد فيه؟ كيف سيجعل التدفئة في الشتاء لو أنه ذهب إلى هذا البيت شتاءً ينبغي أن يكون دافئاً، كيف يفعل هذا؟ كيف ستكون الحديقة أمام البيت ؟

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ)

النبي عليه الصلاة والسلام له في موضوع الأمل أحاديث شريفة، قال عليه الصلاة والسلام :

((أربعة من الشقاء، جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا))

(الديلمي في الفردوس عن أنس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : أخرجه البزار)

إذا جلست في فراشك ما الذي يخطر في بالك؟ هذا يحلم ببيت، وذاك يحلم بمتجر في شارع جيد، والآخر يحلم بعمل يدر عليه أرباحاً طائلة يعينه على التمتع بالدنيا، وكل هذه آمال، الأمل مرض خطير، أن يعيش الإنسان لوقت قد لا يدركه .

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

***

جلست مرة مع شخص خلال ساعة قال لي بالحرف الواحد: سئمت هذه الوظيفة، وسأطلب إعارة إلى البلد الفلاني، إلى الجزائر، وسأمضي فيه خمس سنوات، أما في الصيف فلن آتي إلى هنا، سأمضي كل صيف في بلد أوربي كما يحلو لي، سأمضي صيفاً كاملاً في فرنسا أتمتع بها بمناظرها بمقاصفها، وأطلع على الحياة الاجتماعية هناك، وفي الصيف الذي بعده سأمضيه في إيطاليا، وهكذا، وحينما أعود إلى بلدي أقدم استقالتي من وظيفتي، وأتقاعد، وأكون قد جهزت مبلغاً معقولاً أفتح به محلاً تجارياً أبيع فيه التحف والهدايا، لأن هذه لا تكسد، وأجلس في هذا المحل، ويكون أولادي قد كبروا فيعملون معي في هذا المحل، وعندئذ أمضي حياة سعيدة أنا وزوجتي ... والله هذا الذي يقول هذا الكلام مثقف ثقافة عالية، وله اختصاص، تركته، وذهبت إلى البيت، وبعد قليل نزلت إلى البلد لشأن من شؤوني، وفي طريق عودتي والله الذي لا إله إلا هو وجدت نعيه على الجدران .

هذه نتيجة الأمل، وذلك آمال عشرين سنة إلى الأمام، وعشيةً نام في القبر .

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

صاحب الآمال الدنيوية سيعلم يوم القيامة جسامة خطئه :

سوف يعلمون أنهم كانوا مخطئين، وسوف يعلمون أنهم كانوا مغبونين، وسوف يعلمون أنهم لن يفلحوا، لأنهم لم يكونوا أذكياء، والله الذي لا إله إلا هو لو اطلعت على حياة أغنى أغنياء العالم كيف يأكل، وكيف ينام ؟ كيف ينتقل من جزيرة إلى جزيرة ؟ كيف يمضي الليالي الحمراء ؟ لو اطلعت على حياة أحد هؤلاء الأغنياء في العالم لرأيت أن أفقر مؤمن في الأرض أسعد منه وأذكى منه، لماذا ؟ لأن هذا الغني المترف يسير في طريق مسدود ينتهي بالموت، وما أدراك ما بعد الموت من عذاب مقيم، وأما هذا المؤمن الفقير فيمشي في طريق مفتوح إلى الأبد، خطه البياني صاعد، فالبطولة أن تكون مؤمناً،

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتق الله البطــل

***

هذا هو البطل، أن تعرف الله قبل فوات الأوان، وفي الوقت المناسب، لأن الإنسان إذا توفته الملائكة غافلاً عرف كل شيء، ولكن عرف كل شيء بعد فوات الأوان .

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر)

قال عليه الصلاة والسلام :

((صلح أمرُ أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل))

[البيهقي في شعب الإيمان، والسيوطي في الجامع الصغير عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، إذا قال: غداً سأشتري معطفاً إن شاء الله، وقال: إن شاء الله فهو مؤمن طبعاً، أما إذا قال: غداً أشتري معطفاً، وهو موقن أنه سيعيش إلى الغد فقد أساء صحبة الموت .

سيدنا الحسن رضي الله عنه يقول : << ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل >> .

فكلمة (ذرهم)فيها معنى التهديد، وفيها معنى الترك، أي : دعهم لا تشغل نفسك بهم، هؤلاء ليسوا في مستواك، لن يقتدوا بك دعهم .

أبو الدرداء رضي الله عنه أقام في الشام، وذات مرة خطب بأهل الشام فقال: << يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح؟ إنه من كان قبلكم جمعوا كثيراً، وبنوا مشيداً، وأملوا بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وبنيانهم قبوراً، وأملهم غروراً >> .

النبي عليه الصلاة والسلام قدم عليه وفد الأزد، فعن علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي قال حدثني أبي عن جدي قال: وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما دخلنا عليه، وكلمناه أعجبه ما رآه من سمتنا وزيّنا (السمت الهدوء والوقار، والزي النظافة والأناقة)فقال: من أنتم؟ قلنا: مؤمنون ورب الكعبة، فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال : إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم؟ (مؤمنون ما البرهان؟ ما كان النبي عليه الصلاة والسلام يرضى أن يأخذ الأمور هكذا)، فقلنا: خمس عشرة خصلة، خمس منها أمرتنا رسلك، أن نؤمن بها، وخمس منها أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية، فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام: ما الخمس التي أمرتكم بها رسلي؟ قلنا: أمرتنا رسلك أن نؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه، والبعث بعد الموت، فقال عليه الصلاة والسلام: وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟ قلنا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلا الله، وأن

نقيم الصلاة، وأن تؤتي الزكاة، وأن نصوم رمضان، وأن نحج البيت إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً، فقال عليه الصلاة والسلام: وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟ فقلنا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء، فقال عليه الصلاة والسلام: حكماء عقلاء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، ثم قال عليه الصلاة والسلام: وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة، إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً زائلون،

((يمضي سبع عشرة سنة في المحاكم من أجل دكان، وبعد ذلك يموت قبل أن يصدر القرار الأخير)، واتقوا الله الذي أنتم إليه ترجعون، وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون، وبه ستخلدون، فانصرفوا، وقد حفظوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعملوا بها))

[ورد في الأثر]

ملخّص الآية :

ملخص هذه الآية : إياكم وطول الأمل، فإنه يفسد العمل، دع خواطرك لمّا تجلس مع نفسك في حديث داخلي، هذا الحديث الداخلي اجعله في طاعة الله، كيف أكون في مرتبة أعلى من هذه المرتبة ؟ كيف أحفظ كتاب الله، وكيف أعمل به ؟ كيف أتقرب إلى الله عز وجل ؟ كيف أهدي الناس ؟ اجعل خواطرك من هذا النوع، أما إذا جعلتها كما فعل الأعرابي الذي اضطجع تحت شجرة، وإلى جانبه قدر عسل، وقال : غداً أبيع هذا القدر، وأشتري به غنماً، وهذا الغنم يتوالد، ثم أصبح غنياً، فأشتري بيتاً، وأتزوج، وإن أغضبتني زوجتي ضربتها بعصاي هذه، فرفع العصا فكسر قدر العسل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 4 – 15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-11-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الحجر، ووصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ(4)مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ

حينما يصل إلى علمنا أن قرية أهلكها الله عز وجل بأيّ نوع من أنواع الإهلاك، قد تهلك القرية بزلزال، وقد تهلك ببركان، وقد تهلك بمجاعة، وقد تهلك بحرب .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ)

المعنى الأول : الإهلاك ليس بالصدفة :

المعنى الأول : لهذه الآية أن هذا الإهلاك مقدر بزمن معلوم من قِبل الله عز وجل، وأن هذا التقدير له أساس، والله سبحانه وتعالى من أسمائه الحكيم، ومن أسمائه العليم، ومن أسمائه السميع البصير، ومن أسمائه القوي، فهذا الأجل الذي أجلها الله إليه بتقدير عزيز عليم .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد]

كل شيء بقضاء وقدر، والإيمان بالقضاء والقدر يذهب الهمّ والحزن .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم]

هذا هو المعنى الأول: أي: إن هذا الإهلاك لم يكن صدفة، لم يكن من غير حكمة، لم يكن من غير علم، لم يكن تعسفاً، إنما هو إهلاك بتقدير عزيز عليم، في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، وللأسباب

المناسبة .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ)

المعنى الثاني : لكل إنسان كتاب فيه عمله :

المعنى الثاني : كيف أن لكل إنسان أو لكل موظف في الذاتية إضبارة فيها حسناته وسيئاته، إنجازاته وعقوباته ومكافآته، كل حركة كل سكنة، كل عمل طيب، كل عمل سيئ مسطر في هذا الكتاب، يؤيد هذا المعنى قوله تعالى :

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا(13)اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء)

وقال سبحانه :

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

والمقصود به كتاب الأعمال .

هذه القرية إن كانت تتعامل بالربا، إن كانت تستبيح المحرمات، إن كان الفقير فيها مظلوماً، إن كان الغني فيها بخيلاً، إن كان الأمير فيها قاسياً، هذه القرية إن كان كسبها حراماً، إن أباحت المنكرت، إن فعلت الفواحش، إن اضطهد الفقير، واستعلى الغني، هذه القرية لها عندنا كتاب معلوم، أعمالها، انحرافاتها، تقصيراتها، معاصيها، تجاوزاتها، كل هذا في الكتاب المعلوم .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ)

أهلكت بموجبه، وبموجب أعمالها المسطورة في هذا الكتاب، فإذا سمعت عن كارثة، أو عن زلزال، أو عن فيضان، عن خسف، عن بركان، عن قهر، هذا إهلاك من الله عز وجل، والإهلاك له كتاب معلوم .

هذه القرية، أو هذا المجمع السكاني هذه المدينة لها عند الله كتاب معلوم يتقرر إهلاكها في ضوء هذا الكتاب، تستحق الهلاك في ضوء معطيات هذا الكتاب، في ضوء ما سطر عليها في هذا الكتاب .

الإهلاك إذاً ليس عشوائياً، ولا صدفة، ولا مزاجياً، ولا مرتجلاً، إنما إهلاك بتقديرٍ من عزيز عليم .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ(4)مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

لكل أمة أجل ووقت مسمًّى :

إذا رأيت أمة أو مجتمعاً يزداد قوة واستعلاء، ويزداد معصية انحرافاً وفجوراً فلا تقل : لمَ لم يهلك الله هذه القرية؟ إن لها عند الله كتاباً معلوماً، هذا المعنى الثالث، فلا تستبطئ إهلاك القرية الفاسدة الفاجرة المنحرفة، فإن لها عند الله كتاباً معلوماً .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه)

إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم، ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً إهلاكهم في أجل مسمى، فلكل أمة أجل .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ(4)مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

الإهلاك له قانون :

الحقيقة : هناك من يستنبط من المفسرين أن إهلاك القرية أو إهلاك الأمة له عند الله قانون، مادام فيها ذرة من خير فالله سبحانه وتعالى يبقيها، فلعل هذا الخير ينمو، ولكن متى تستحق الأمة الهلاك ؟ إذا أصبحت عاتية عن أمر ربها، ولا خير فيها، ولا مثقال ذرة من خير فيها، إذا شردت عن الله شرود البعير، إذا عصت، واستعلت في عصيانها، إذا عصت، ورأت أن المعصية هي الصواب، وأن الدين شيء لا يصلح لهذا الزمن التي هي فيه، وأنه غيبي، وأن العلم هو كل شيء، إذا بلغت الأمة هذا المبلغ فلا خير فيها، لا خير يرجى من أبنائها، إذا استنفد الله كل أسباب الهداية، وشردوا على ربهم شرود البعير عندئذ تستحق الأمة الهلاك، ولا يهلك إلا هالك .

فلا تقل: لو حينما تهلك الأمة، أو تهلك القرية، فلا خير يرجى منها، قال :

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ(31)قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ(32)لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ(33)مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(34)فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(35)فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة الذاريات)

أخرجنا هذا البيت، وأهلكنا الباقين، إذاً يمكن أن نستنبط من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى لا يهلك قرية إلا بعد أن يستنفد كل أسباب الهداية، حينما ترد الحق، حينما يضطهد الفقير، حينما يستعلي القوي، حينما يأكل القوي الضعيف، حينما تفجر فإنها تستحق الهلاك .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

(سورة الإسراء)

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

(سورة هود : 102)

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12)إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

(سورة البروج)

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ

هذا قول الملأ من قريش :

من الذين قالوا هذا؟ كفار قريش، زعماء الشرك، علية القوم، الملأ من قريش، أصحاب الحول والطول، الأغنياء المترفون، هؤلاء قالوا تهكماً واستهزاءً، واستخفافاً : إنك تزعم أنه نزل عليك الذكر، هذا بزعمك، بل إنك لمجنون، يبدو أنهم غارقون في ملذاتهم، في حفلاتهم، في حياتهم الدنيا، غارقون في مآكلهم، ولبس أجمل الثياب، يأكلون الربا، ويفعلون الموبقات، نظروا إلى هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام فوجدوه عازفاً عن الدنيا، بعيداً عن شهواتها، مترفعاً عن حطامها، وجدوه حسب قيمهم الزائفة أنه مجنون .

لذلك مرَّ في بعض الأحاديث في الجامع الصغير قوله صلى الله عليه وسلم :

((اطلعت على أهل الجنة فوجدت عامة أهلها من البله))

[البزار، والسيوطي في الجامع الصغير]

قد يقع الإنسان في حيرة، كيف يكون المؤمن أبلهَ، وهو الكيس الفطن الحذر؟ لا بدّ أن يكون أبلهَ في نظر الناس، إذا أتيح لإنسان أن يأخذ مليوناً من الليرات بحركة بسيطة، بملاحظة يكتبها، بغض بصر يغضه عن مخالفة ما، فإذا ترفع، ورفض، ورضي بدخله اليسير مؤثراً هذا الدخل اليسير على هذا المال الوفير، لأنه من حرام، إن هذا الإنسان الورع النزيه ذا القيم، ذا المبادئ، يتهم في نظر زملائه ومن حوله بأنه مجنون أو أبله، نعم إنه أبله في نظر البله، ويا حبذا أن يكون المؤمن أبله في نظر أهل الدنيا .

هذا هو المعنى : هم غارقون في دنياهم الرخيصة، ونظروا إلى هذا النبي النظيف العفيف، الطاهر الحامد، المحمود، نظروا إليه نظرة شهوانية، نظرة منطلقة من قيمهم الأرضية، من خلودهم إلى الدنيا، فقالوا :

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

لابد من الصبر :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَلَعَتْ الشَّمْسُ، فَقَالَ :

((يَأْتِي اللَّهَ قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورُهُمْ كَنُورِ الشَّمْسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَحْنُ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا، وَلَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّهُمْ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَقَالَ : طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، فَقِيلَ : مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَاسٌ صَالِحُونَ فِي نَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ))

[أحمد في المسند]

وهؤلاء الأحباب أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم نوّه لهم النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

(الترمذي)

مثلاً: حينما يزمع التاجر أن يطبق شرع الله في تجارته يصبح أضحوكة بين الناس، مجنونا، أتبيع بضاعة نسيئة بسعر غير نسيء؟ أي: كما تبيع نقداً، إذا أراد التاجر أن يكشف عيب البضاعة يصبح أضحوكة بين زملائه، إذا أراد الرجل ألا يأخذ مالاً حراماً، وهو متاح له فهو عند الناس يعد مجنوناً .

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

وقال تعالى :

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(1)مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

الله يدفع عن نبيه فرية الجنون :

إذا منحك الله رحمة عميت على من حولك، هم في وادٍ، وأنت في واد، هم لهم أذواق، وأنت لك ذوق، هم يسعدهم الطعام والشراب، وأنت يسعدك القرب من الله سبحانه وتعالى، هم تسعدهم الدنيا، وأنت يسعدك العلم بالله، ورتبة العلم أعلى الرتب .

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(1)مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

النبي عليه الصلاة والسلام فيما جاء في الأثر أنه رأى في الطريق مجنوناً، فقال أصحابه رضي الله عنهم : هذا مجنون، فقال عله الصلاة والسلام :

((لا تقولوا هكذا، بل هذا مبتلى، المجنون من عصى الله))

[ورد في الأثر]

هذا هو المجنون :

المجنون من باع الآخرة الباقية بالدنيا الفانية، المجنون من آثر دنياه على آخرته فخسرهما معاً، والعاقل من آثر آخرته على دنياه فربحهما معاً، المجنون من سار في طريق مسدود ينتهي بالموت، والعاقل من سار في طريق الإيمان الذي يوصله إلى روضات الجنان .

العقل أصل الدين، كما قال عليه الصلاة والسلام، ومن لا عقل له لا دين له، من لا دين له لا عقل له، وأرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، فتبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما، ويختلفان في العقل كالذرة إلى جانب أحد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين، وإن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدكم له استعداداً، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور، فازداد عقلاً تزدد من ربك قرباً .

الشيء الوحيد الذي يميز الإنسان عن الحيوان عقله، سيدنا خالد حينما أسلم قال عليه الصلاة والسلام :

((عجبت لك يا خالد، أرى لك فكراً))

[ورد في الأثر]

لمَ لم تستخدمه؟ العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن يصل إليك، فالمجنون من التفت إلى الدنيا على حساب الآخرة .

فالإنسان أحياناً حينما يسلم، حينما يسير في طريق مستقيم، حينما يلتزم الإسلام التزاماً صحيحاً قد يثور عليه أهله في البيت، قد تتعبه زوجته، قد يتعبه أبناؤه، قد يعارضه أبوه، قد تعارضه أمه، تقول له: غيرت خطة حياتنا، نشأنا على غير هذا، فرقت الأسرة .

أم سعد قالت لابنها سعد: يا بني، إما أن تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإما أن أصوم حتى أموت، فقال: يا أمي، لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة وَاحدة ما كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم، فكلي إن شئت، أو لا تأكلي .

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة لقمان)

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف 28)

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(6)لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ

مسلك التعجيز : أرنا الملائكة :

أين الملائكة؟ الآن الآيات سلكت مسلكاً خاصاً، فهؤلاء الكفار إن لم يؤمنوا باختيارهم فلن يؤمنوا، ولو شاهدوا كل شيء، الإنسان مخير، ولن يؤمن إلا إذا أراد الهدى .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى)

(سورة البقرة 148)

ما دمت يا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ تزعم أن ملكاً اسمه جبريل يأتيك بهذا الكتاب فأين هذا الملك؟ دعنا نراه كي نؤمن بك،(لو)بمعنى لولا أداة حَصّن .

(لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

يروى أن إنساناً معه ثروة كبيرة أراد أن يضعها عند شخص أمين بشرط أن يأكل ملعقة من الملح، هذه قصة يرويها الناس، فجاء رجل فقال: أنا آكل كل هذه الملعقة، قال: تفضل، وضع إصبعه في فمه، ولعق لعقة واحدة من الملح، وقال: أكلتها، قالوا: كيف؟ قال: من لم يؤثر به القليل لن يؤثر فيه الكثير .

الآيات مبثوثة في الكون فلماذا رؤية الملائكة؟

ملايين الآيات: الشمس آية، القمر آية، النجوم آية، المجرات آية، الأرض والجبال آية، الصحارى، السهول، الوديان، الأغوار، الأنهار، الينابيع، الأسماك، الأطيار، المواشي، الأنعام، الوحوش، زوجتك ابنك، السحاب، الأمطار، كل هذه الآيات الدقيقة أين هي ؟ ما فكرت فيها، تريد أن ترى الملك الذي يأتي بالوحي، وجاء بهذا الكتاب، إذا كنت في عمىً عن كل هذه الآيات فلن تؤمن بالله حتى لو رأيت الملائكة كلهم أجمعين .

هذه المثانة تتسع للتر ونصف من البول، من جعلها بهذا الحجم ؟ من الممكن أن تمضي ثماني ساعات في عمل دون أن تحتاج إلى أن تفرغها، هذا يحفظ لك شأنك بين الناس، يحفظ لك مكانتك، علماً أن الكليتين تقذفان في هذه المثانة في كل دقيقة نقطتين، فلولا المثانة لكانت حالة الإنسان لا تطاق، ولكانت كرامته مهدورة، من زود هذه المثانة بالعضلات ؟ لو لم يكن فيها عضلات والماء، إن لم يكن فوقه ضغط هوائي لا ينزل، والدليل مستودع الوقود لو كان محكم الإغلاق من أعلى الصنبور، فإنه لا يسمح

للوقود أن ينزل من أسفله، فهذه المثانة لولا هذه العضلات لا تفرغ .

هذه المثانة كيف يتم تفريغها ؟ هناك أعصاب في جدرانها تتحسس بالضغط، فإذا امتلأت بالبول ضغط البول على جدران المثانة، فتنبهت أعصاب الحس، فأرسلت إشارة إلى النخاع الشوكي أن قد امتلأت، يأتي النخاع الشوكي فيعطي أمرين، أمراً لعضلات المثانة بالتقلص، وأمراً للفتحة التي في أسفلها المضبوطة بعضلة بالاسترخاء، هذه العضلات تتقلص كي تدفع البول، وهذه العضلة المحكمة تسترخي كي تفتح الصنبور .

ومن ثم، فهل هذا الفعل منعكس شرطي، يعني أنه يتم في النخاع الشوكي ؟ الجواب : لا، فلو كان كذلك لفتح الصنبور، وهو لا يشعر، وهو في أحرج الأوقات، لا، هذا الأمر بإفراغ المثانة لا يتم إلا إذا صدق من المراجع العليا من الدماغ، في منطقة الوعي والمحاكمة والإدراك، وتأتي الموافقة على إفراغها في الوقت المناسب، أما إذا تعنتت هذه المراجع العليا، ولم توافق على إفراغها، وأصرت على قرارها عندئذ يقع الإنسان في خطر التسمم بالبول، يعود البول من الحالبين إلى الكليتين، فيختلط بالدم عندئذ تكون المصيبة الكبرى، في هذه الحالة المركز العصبي في النخاع الشوكي يعطي أمراً بإفراغ المثانة من دون أن يرجع إلى المراجع العليا فتفرغ المثانة.

تصميم من؟ هذه آية، القلب آية، المعدة آية خمس، فيها ثلاثون عصارة هاضمة، العين آية، فيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط في الشبكية، العدسة آية، العدسة مرنة يزداد تقعرها وتحدبها من أجل أن يبقى الخيال على الشبكية، وهذه العملية المعقدة تسمى المطابقة، هذه آية، الدماغ آية، الجمجمة مشدودة إلى الداخل بقوة تعادل أربعمئة كيلو، لو أنك أردت أن تفتح هذه الجمجمة فتحاً، أن تفكها من مفاصلها، وتمكنت من أحد سطوحها لاحتجت إلى أربعمئة كيلو كي تشدها بها، من جعل بين الجمجمة والدماغ سائلاً يقيه الصدمات، يوزع هذا السائل الصدمة على كل السطح على مبدأ الهيدروليك تماماً ؟ يأتي الضغط من جهة فيوزع على كامل السطح فلا يؤذي الدماغ، هذه كلها آيات .

هذه الأصابع آيات، هذه الخطوط والتجاعيد في الجلد آية، لولا هذه التجاعيد لما كان بإمكانك أن تثني أصابعك، كون بطن كف اليد خال من الشعر آية، لو كان الشعر هنا لكانت الحياة لا تطاق، لاضطررت أن تحلق ذقنك وباطن كفك كل يوم من الشعر، ليس في الفم شعر، هذه آية، ليس في الشعر أعصاب حس، هذه آية، لو أن في الشعر أعصاب حس لاضطررت أن تذهب إلى المستشفى كل يوم تحلق فيه ذقنك ليجريَ لك تخديراً، وبعد التخدير يأتي الحلاق ليحلق لك .

كل هذه الآيات التي لا تعد ولا تحصى، ألم يرها الإنسان فيأخذ منها العبرة ؟ بل يقولون : أين الملك الذي ينزل عليك يا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى تؤمن لك ؟ إن لم تؤمن بكل هذه الآيات فلن تؤمن بخرق العادات، إن لم تؤمن بهذه الآيات المعجزات فلن تؤمن بخرق قوانين الكون .

(لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ(7)مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ)

مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِين

لا تنزل الملائكة إلا بالعذاب في حينه :

الملائكة تنزل مرة واحدة بالعذاب، وبعد العذاب ينزل البلاء والهلاك، فلا عودة، ولا رجوع، ولا توبة، ولا توقف، لو أن الملائكة نزلت على قوم لنزلت بالعذاب المبين، وحينما تنزل الملائكة :

(مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ(8)إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون

اطمئن فإن القرآن محفوظ لا يُغيَّر :

هذه الآية تطمئننا أن هذا الكتاب تولى الله سبحانه وتعالى حفظه رغم كيد الكائدين، رغم تزوير المبطلين، محاولات تلو المحاولات جرت لتحريف هذا الكتاب، كل هذه المحاولات كشفت في وقت ولادتها، وانتهت .

المستعمرون حينما كانوا هنا في سوريا طبعوا خمسين ألف نسخة من كتاب الله، وحذفوا كلمة واحدة مؤلفة من ثلاثة أحرف، قال تعالى :

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

(سورة آل عمران)

حذفوا كلمة(غير)، العملية كشفت في وقتها، وأتلفت المصاحف، وأحرقت .

شيء عجيب، إذا تولى الله سبحانه وتعالى حفظ هذا الكتاب فإنه يوفر له أناساً مخلصين يحفظونه، ويهتمون بدقائقه، وبمحكمه بمتشابه وبآياته، فربنا عز وجل تكفل حفظ هذا القرآن .

طبعاً هناك قصص كثيرة حول هذا الموضوع، يروى أن أحد الخلفاء التقى رجلاً من أهل الكتاب، وكان يهودياً، فدعاه إلى الإسلام فأبى، بعد عام رآه، وقد أسلم فقال : يا هذا ما حملك على إسلامك ؟ قال: أخذت التوراة، ونسختها، وبدلت، وزدت، وأنقصت، وبعتها في كنُس اليهود، فاشتروها مني، وقبلوها، وجئت بالإنجيل، وحذفت، وبدلت، وبعته في كنائس النصارى فاشتروه مني، وقبلوه مني، ثم جئت بالقرآن، فحذفت، وبدلت فيه، وغيرت، ولما أردت أن أبيعه للوراقين تصفحوه، فعرفوا كل ما

فعلت فيه، فردوه، ولم يشتره أحد :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

إذا تولى الله سبحانه وتعالى حفظ الكتاب فلا تستطيع جهة في الأرض أن تنتقص منه جزءاً، ولا حركة، ولا علامة وقف، ولا أن تزيد فيه، هذا الكتاب تولى الله حفظه، ماذا فعل الكائدون للإسلام ؟ كادوا في تفسيره، لذلك قال :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس : 39)

احذروا الإدلاء بالرأي في آيات القرآن :

إذاً: ليحذر الإنسان من أن يقرأ تفسير آية أو حديث لمغرض، كادوا الكيد في تفسيره، كان في الكتاب الإسرائيليات وهي قصص اليهود عن أنبيائهم ما أنزل الله بها من سلطان تتناقض مع كتاب الله تناقضاً كبيراً، فمن افتراءاتهم أن سيدنا داود مثلاً أحب تسعاً وتسعين امرأة، وتزوجهن، ثم علم أن أحد قواده له زوجة جميلة فدفعه إلى القتال، وطلب منهم أن يقدموه كي يموت فيأخذ زوجته، هذه بعض الإسرائيليات.

ربنا عز وجل ينفي عن نبينا هذه القصص، تقوّلوا على سيدنا يوسف أقوالاً هو منها بريء، تقوّلوا على سيدنا موسى، على سيدنا عيسى، كذلك، ولهذا حفظ الله نص القرآن، أما في تفسيره فيجب أن يكون الإنسان حذراً لئلا يدخل عليه من تفسير المغرضين والكائدين للإسلام والمسلمين .

انتبهوا إلى الأحاديث فمنها ما هو موضوع غير صحيح :

أمّا الحديث الشريف فهناك وضّاعون كثر وضعوا في الحديث مئات الألوف من الأحاديث الباطلة، وضعوها فحرموا بها الحلال، وحللوا بها الحرام، لذلك يجب أن ننتبه انتباهاً جيداً حينما نقرأ الحديث، أهو متواتر، أهو صحيح، أهو حسن، أهو ضعيف، أهو موضوع ؟ أما أن نقرأ الحديث هكذا من دون تصحيح، من دون تخريج، فهذا قد يدخل على الإسلام ما ليس فيه .

باب التبديل والتغيير في كتاب الله مغلق :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

بقي الباب مفتوحاً للتأويل وللحديث وضعاً وتأويلاً .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9)وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ(10)وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ(10)وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام :

هذه الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، هذا شأن المنافقين، وشأن الكفار يستخفون بالحق، يستخفون بالدعاة، يستخفون بالرسل، ويستهزئون بهم .

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(14)اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة البقرة)

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ

المعنى الأول : الكفار كذبوا بالقرآن عن علمٍ به :

هذه الآية دقيقة جداً، وأوجه تفسير وجدته لها أن الله سبحانه وتعالى كما أنه أفهم المؤمنين كتابه الكريم كذلك سلك القرآن في قلوب المجرمين، فقد وضح لهم الحق، فإذا كذبوا به فقد كذبوا به عن علم .

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

(سورة فصلت 53)

هذا الكافر مستهدف من الله عز وجل، ومطلوب منه أن يؤمن، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إليّ، يا داود هذه إرادتي في المعرضين، فكيف إرادتي في المقبلين ؟

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

يعني أن الله عز وجل يضع المجرم في ظرف، ويسمعه الكتاب، ويسمعه تفسيره أحياناً، فإذا أصرّ على كفره فقد تولى أن يسمعه هذا الكتاب، ورغم ذلك كابر، وعاند، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : المجرم غارق في شهواته :

المعنى الثاني : أن المجرم الغارق في شهواته، لو قرأ القرآن يفهمه فهماً معكوساً، لأن فيه قيوداً وحدوداً يرفضها، لذلك إذا قرأ الظالم القرآن كان عمىً عليه .

(أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79)وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)

(سورة الإسراء)

وقال سبحانه :

(وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)

(سورة الإسراء)

الظالم لنفسه البعيد الشهواني المنحرف، لو قرأ القرآن لوجده عمىً عليه، يفهمه فهماً معكوساً، ويزيده ضلالاً، هذا المعنى الثاني، هكذا يستخفون به .

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(12)لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ

سنن الله وقوانينه نافذة في خلقه :

قوانين الله نافذة، فإما أن تؤمن بها فتنجو، وإما أن تسخر بها فتهلك، لو كلفنا إنساناً أن ينزل من الطائرة، وهو في الجو، فالهواء له قوانين، والسقوط له قوانين، الثقالة لها قوانين، إما أن يفهم هذه القوانين، ويتأدب معها، ويحترمها، فيستخدم المظلة، فينزل إلى الأرض سليماً، وإما أن يستخف بها، ويحتقرها، ويهزأ منها، فلا يستخدم المظلة، فينزل إلى الأرض مكسراً، القوانين نافذة، قوانين السقوط نافذة، لن تعطل، ولن تبدل، القرآن الكريم قوانينه نافذة .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

شيء قطعي، إما أن تؤمن بهذه الآية فتذكر الله عز وجل، فتسعد بقربه، وإما أن تتجاهلها فتشقى .

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

خلت يعني مضت .

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ)

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ

لو أن السماء فتحت، وصعد هؤلاء إليها، ورأوا ما لا عين رأت، ورأوا ملكوت السماوات والأرض، ورأوا كل شيء :

(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ

إن لم يكن الإيمان نابعاً من اختيارك، من إرادتك، فإن الإيمان القسري لا فائدة منه .

لو أن الله سبحانه وتعالى فتح لهم السماء، وعرجوا فيها، ورأوا ملكوت السماوات والأرض ما آمنوا، ماذا يقولون ؟

(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

الهدى أن تأتي مطيعا لله :

منعنا عن النظر، رأينا خيالات ليست حقائق، هذه الآية دقيقة جداً، لو أن هذا يجعلهم مؤمنين لفعله الله سبحانه وتعالى، ولكن هذا لا يجدي، ولا ينفع، الهدى أن تأتي إلى الله طائعاً .

آيات كثيرة تبين أنه لن يهتدي الإنسان إلا إذا سلك الطريق الذي رسمه الله سبحانه وتعالى، فإذا اقترح هذا الإنسان على الله طريقاً للهدى فإن هذا الطريق لا يجدي، هم اقترحوا، وقالوا :

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(6)لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

هم الذين اقترحوا أن يروا الملائكة، الله سبحانه وتعالى يجيبهم : ولو أننا فتحنا السماء أبواباً، وعرجوا فيها، ورأوا كل الملائكة دفعة واحدة، بل رأوا ملكوت السماوات والأرض :

(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

لذلك نعود لقوله تعالى :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال)

القرآن لا يهتدي به إلا المستقيمون :

أما معنى قوله تعالى :

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

يعني هذه الكتاب لا يهتدي به إلا المطهرون .

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(77)فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ(78)لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

(سورة الواقعة)

لا يهتدي به إلا المستقيم، أما المنحرف فإن الله سبحانه وتعالى يسلكه في قلبه كما يسلكه في قلوب المنافقين .

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(12)لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ(13)وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

كلمة حول قوله تعالى :

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

المعنى الدقيق للآية :

المعنى دقيق : أن ربنا عز وجل من رحمته بعباده حتى الكافر والمعرض مستهدف من قِبل الله عز وجل، مدعو للإيمان، مدعو لمعرفته، كيف قال تعالى :

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه)

معنى أول للآية : كلّ إنسان مستَهدف من الله :

إذاً: كل إنسان على وجه الأرض مهما يكن كافراً، مهما يكن منحرفاً، مهما يكن مجرماً فهو مستهدفٌ من قِبل الله عز وجل، فلا بدّ من أن يتوضح لهذا المجرم بشكل أو بآخر حقيقة هذا الكتاب، بعد أن يعرف الحقيقة هو، فإما أن يستجيب أو لا يستجيب، وإن لم يستجب، وبعد أن عرف الحقيقة، فالحجة قائمة عليه، وليست له، هذا التفسير وجدته في كتاب محاسن التأويل .

والمعنى الأول : أن المجرم لإجرامه ولبعده وانغماسه في شهواته وإصراره على معاصيه إذا سمع آيات القرآن يستهزئ بها، لماذا ؟ لأنه إن لم يستهزئ بها حاصرته نفسه، ووقع في حرج داخلي، فهو يخطط أن يعيش في الدنيا فقط، الدنيا عنده كل شيء، فإذا سمع آيات القرآن تنقله للآخرة، وما فيها من

عذاب أليم، ومن نعيم مقيم يختل توازنه الداخلي، فيرد على هذا الاختلال بإنكاره هذا الكتاب أو الاستخفاف به، المعنيان دقيقان .

إما أن الله سبحانه وتعالى الفعل فعله والكسب كسب العبد، كأن تقول : رسب المعلم الطالب، الفعل فعل المعلم، والكسب كسب الطالب، تنفيذ الترسيب كان من قِبل المعلم .

(كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

معناه أن هذا المجرم لبعده عن الحق، وانغماسه في الشهوات بعيد عن أن يفهم كتاب الله، ولو فهمه لاختل توازنه، يرد على هذا الاختلال بالاستهزاء به، هذا هو المعنى الذي عند أكثر المفسرين .

معنى آخر للآية :

أما في تفسير محاسن التأويل يرى أن الله سبحانه وتعالى يسلك هذا القرآن في قلوب المجرمين كما يسلكه في قلوب المؤمنين، يوضح لهم كل شيء، يعني أن المنحرف يوضع في ظرف يستمع إلى الحق، ويكون مدعواً إلى حفلة كتاب مثلاً، حفلة قران، يقوم شخص، ويتكلم كلمة، الله يسمعه الآيات وما فيها من الإنذار والوعيد، ويسمعه أن هناك آخرة بعد الحياة الدنيا، فالآية تحتمل المعنيين .

(كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

وأما أن تفهم من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى منعهم من الهدى، ثم أدخلهم النار خالدين فيها فهذا المعنى لا يقبله ذو عقل سليم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 16 – 19
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-11-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ(15)وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

العلاقة بين الآيتين :

فما العلاقة بين هاتين الآيتين؟ الآية الأولى كما فسرت في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى يقول: لو أن الله عز وجل فتح لهؤلاء الكفار المعاندين باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون في السماوات السبع، ومن خلال عروجهم في السماوات السبع، ورأوا آيات الله كلها :

(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ(15))

خرق نظام الكون لا يفيد الكافر في شيء :

إنّ خرق نظام الكون لا يفيد الكافر شيئاً، المعجزات التي تعتمد على خرق لنظم الكون لن تحمل الكافر الذي أصر على كفره، والذي أراد أن ينقاد لهوى نفسه لن تحمله على الإيمان، ما الذي يحمله على الإيمان؟ أن يفكر في خلق السماوات والأرض ابتداءً .

فالعلاقة بين الآيتين :

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ

بدل أن تطلبوا الملائكة، أو أن تعرجوا في السماء، أو أن يعود الميت حياً فيتكلم، بدل أن تطالبوا النبي عليه الصلاة والسلام بالمعجزات فكروا في خلق السماوات والأرض، الطريق أن تفكر في ملكوت السماوات والأرض، في الكون آلاف المعجزات خلق السماوات والأرض معجزة، وحسبك الكون معجزة .

فربنا عز وجل يقول :

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا)

دورة الأرض حول الشمس :

كلكم يعلم أن الأرض تدور حول نفسها في أربع وعشرين ساعة تقريباً تدور دورة واحدة، والأرض تدور حول الشمس في ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً وربع، هذه الأرباع تجتمع فتكون السنة الكبيسة، يعني يكون شباط تسعة وعشرين يوماً، والأرض لها دورات كثيرة حول نفسها، وحول الشمس، ومحورها المائل يدور حول نفسه في كل خمسة وعشرين ألف سنة دورة، وفي أثناء دورته يشكل أقواساً صغيرة، كل قوس يستغرق ثمانية عشر عاماً، وهذا المحور المائل تتغير درجة ميلانه من أربع وثلاثين إلى اثنتين وعشرين درجة في كل أربعين ألف سنة مرة، ودورة الأرض حول الشمس تشكل مستوى، هذا المستوى يدور حول نفسه في كل ألف ومئة عام دورة، وهناك دورات لا تعد ولا تحصى. يعنينا من هذه الدورات دورة الأرض حول الشمس، في كل شهر يظهر لسكان الأرض برج من الأبراج، فربنا عز وجل يقول في سورة أخرى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

الانتقال من برج إلى برج :

هذه السماء الدنيا التي نحن بصددها حينما تدور أرضنا حول الشمس تنتقل عبر دورتها من برج إلى برج، فهناك برج الحمل، وبرج الثور، وبرج الجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، سميت هذه الأبراج بهذه الأسماء لأن هذا البرج يشبه العقرب، وهذا البرج يشبه الثور، وهذا البرج يشبه الحوت، وهذا البرج يشبه الميزان، فربنا عز وجل قال :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

لو أن الإنسان له إلمام بالفلك، أو له رغبة في تحديد الأبراج لعرفها من خلال بعض الكتب، بعض الكتب ترسم لك البرج، وأنت ما عليك إلا أن تنظر إلى قبة السماء في الشهر الفلاني فترى البرج كما صوره القدماء بهذا الشكل الذي سموه به . فربنا عز وجل جعل السماء ذات أبراج، والأرض تدور حول الشمس، وتمر على هذه الأبراج برجاً بُرجاً في كل شهر برج .

ما هي الأبراج؟

وبعضهم قال: الأبراج هي المجموعة الشمسية، عطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، هذه النجوم التي تشكل بمجموعها المجموعة الشمسية، عطارد، يومه ثمانية وثمانون يوماً من أيام الأرض، يدور حول نفسه في ثمانية وثمانين يوماً، لو أن الأرض كذلك، يعني أن النهار أربع وعشرون ساعة ضرب ثمان وثمانين ماذا نفعل طوال النهار؟ كم مرة سوف ننام؟ كيف ننظم حياتنا؟ من يعمل ومن لا يعمل؟

عطارد يومه ثمانية وثمانون يوماً أرضياً، الزهرة يومها غير معروف، لكن سنتها مئتان وأربعة وعشرون يوماً، أما المريخ فسنته ستة وثمانية وثمانون جزءاً بالمئة، حوالي سنتين تقريباً، المشتري يومه تسع ساعات، وسنته أحد عشر عاماً، إلى أن يدور المريخ حول الشمس دورة يستغرق أحد عشر عاماً، وزحل يومه عشر ساعات، وسنته تسعة وعشرون عاماً، أورانس يومه عشر ساعات، وسنته أربعة وثمانون عاماً، فإذا قام إنسان أربعة وثمانين عاماً على أورانس يحصل هناك ربيع واحد، وصيف واحد، وشتاء واحد، وخريف واحد فقط، إذا عاش أربعين سنة يقول : ما رأيت ربيعاً، بل سمعت به .

هذا من فضل الله علينا، وليبتون يومه خمسة عشر يوماً، وسنته مئة وأربعة وستون عاماً، وأما بلوتون فسنته مئتان وثمانية وأربعون عاماً، وهي مدّة دورة هذا النجم حول الشمس .

بعضهم قال: الأبراج هي نجوم المجموعة الشمسية، وبعضهم قال: بل هي الأبراج المعروفة التي عرفها الفلكيون من قبل وصوروها، وسموها بأسماء مشابهة للحيوانات التي سميت بها، ربنا عز وجل قال :

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

الزينة مبدأ مطّرد في الخلق :

الزينة مستهدفة من قِبل الله عز وجل .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل : 8)

أحياناً يركب الإنسان فرسه فيتباهى به، يركب فرسه لا لينتقل من مكان إلى مكان، بل ليظهر أمام الناس بهذه الزينة .

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

فكلمة (زينة)في السماء وفي الأرض، تعني أن الجمال مستهدف من الله عز وجل، كأن الله يحب العبد النظيف، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ))

[أبو داود عن سهل بن الحنظلية]

كأن الله سبحانه وتعالى يحب من العبد أن يكون مطهراً، أو طاهراً نظيفاً ذا رائحة طيبة، هندامه حسن، ثيابه أنيقة، عندما أقول : أنيقة فلا أعني غالية الثمن، لا والله، إذا اشتريت ثياباً فاجعلها مقبولة، سيدنا عمر نهى عن لبستين، نهى عن لبسة مهجورة، ونهى عن لبسة مشهورة، فكلمة :

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

منظر السماء منظر بهيج، منظر جميل، منظر ممتع، هذه المتعة مستهدفة من قِبل الحق جلّ وعلا .

لماذا حياتك فيها فوضى،أيها المسلم ؟

إذاً: لعلك عرفت لماذا يعيب الكفار على المسلمين فوضوية محلاتهم التجارية، لماذا لا يكون محلك التجاري منظماً، مرتباً، نظيفاً، فيه نظام، وفيه توزيع نوعي للبضاعة ؟ كما عرفت أيضاً لماذا يعيب الكفار على المسلمين بيوتهم غير المرتبة؟ فالترتيب والتنظيم والتزيين في الحدود المعقولة هذا من واجبات المسلم .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ)

وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ

طبعاً هذا من اختصاص الله سبحانه وتعالى شؤون السماء، وشؤون الملائكة، وشؤون الجن، هذا شيء لا نعرفه إلا بالقدر الذي ذكره الله لنا فيه .

مثلاً: في الكون قال تعالى :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(1)وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

(سورة الشمس)

لكن الكون فيه مجرات أخرى، فيه درب التبانة، فيه المرأة المسلسلة، فيه مجرة ماجلان، هذه لم تذكر، الله عز وجل ذكر شيئاً، وترك لك بقية الأشياء، ذكر لك آية على وجه المثال لا على سبيل الحصر .

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس 101)

أمرك أن تنظر ماذا في السماوات والأرض، ذكر الزيتون، وذكر النخل، وذكر الرمان، ولم يذكر التفاح، مثلاً، هل أنت مكلف أن تفكر في التفاح ؟ نعم .

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

في الكون ذكر لنا الله شيئاً، وترك لنا الأشياء، ذكر لنا هذا الشيء لا على سبيل الحصر، بل على سبيل المثال، لكنه في شؤون الغيب الذي ذكره هو المصدر الوحيد لمعرفة ما في السماوات والأرض، هذه شؤون مغيبة عنّا، مصدرها الخبر الصادق،

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء : 87)

الشهب :

الشهب لها تفسير علمي لا يتناقض مع التفسير القرآني، كوكب هش انتهت حياته، وخرج من مداره، وصل إلى جو الأرض، فاحتكاكه بطبقة الهواء جعلته يتشهب، ثم يتلاشى، هذا التفسير العلمي للشهب . والعلماء فرقوا بين الشهب والنيازك، إن النيزك تصل كتلته إلى الأرض، بينما الشهاب يتشهب، ويتلاشى في جو السماء، ولا يصل منه شيء إلى الأرض، إن وصل فهو نيزك، وإن لم يصل فهو شهاب، هذا التفسير العلمي يتكامل مع التفسير الديني، كالزلزال مثلاً، ربنا عز وجل قال :

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)

(سورة الحجر :74)

يعني أن الله عز وجل أهلك قوم لوط بهذه الطريقة، لكن الزلزال له تفسير علمي، والتفسير العلمي يتكامل مع التفسير الديني .

الجن يُمنع عنهم بلوغ أخبار السماء :

فربنا عز وجل فيما يبدو من هذه الآيات ذكر أن الشياطين شياطين الجن والإنس، بل شياطين الجن على وجه الخصوص محظور عليهم أن يصلوا إلى السماء، مجال عملهم الأرض، أما السماء فموطن الملائكة، والملائكة من نوع، والجن من نوع آخر، لذلك لا يسمح للجن أن يصلوا إلى السماء، فيسترقوا السمع، الله عز وجل جعل السماء محفوظة من أن يصل الجن إليها، وبما أن الجن مخلوقات تتميز

بسرعة الحركة، فقد تحدّى الله عز وجل الجن والإنس فقال :

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

(سورة الرحمن)

بدأ بالجن في هذه الآية، لأنها أقدر على خرق السماوات والأرض، وحينما قال الله عز وجل :

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

(سورة الإسراء)

بدأ بالإنس في آية الإسراء، لأنها أقدر على صياغة اللغة .

إذاً: الجن لهم طبيعة، هذه المخلوقات لها طبيعة تتحرك بموجبها بسرعة، قال تعالى :

(قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)

(سورة النمل)

يبدو أن الجن لو أراد أحدهم أن يصعد إلى السماء ليسترق السمع، وليعرف أسباب الوحي، وأسرار الملائكة، ومهمات الملائكة لما استطاع، لأن هذا ممنوع عنه، و لو أنه حاول لأتبعه شهاب ثاقب وأحرقه، العلماء قالوا : هذا الشهاب يتبعه، وقبل أن يحاول، قبل أن يستمع، وبعضهم قال : بعد أن يستمع، بعضهم قال : هذا الشهاب يميته، وبعضهم قال : بل يحرقه، على كلٍّ لا نملك في هذا الموضوع إلا هذه الآيات المحدودة التي ذكرها الله عز وجل .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16)وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17))

معنى : رجيم

ومعنى رجيم بمعنى مرجوم، وزن فعيل في اللغة بمعنى مفعول، تقول : جريح بمعنى مجروح، قتيل بمعنى مقتول، فهذا الشيطان رجيم بمعنى مرجوم، ومعنى مرجوم أي : مبعد عن حضرة الله سبحانه وتعالى .

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

أكبر عقاب يناله الإنسان المسيء أن يطرد من رحمة الله، أن يبعد عن ذات الله المقدسة، البعد هو الشقاء، والقرب هو النعيم، فلذلك هذا الشيطان رجيم، أي : مرجوم، أي : مبعد عن الله سبحانه وتعالى، وكفى بهذا شقاءً للشيطان .

(وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(18))

إن حاول أحد الجن أن يسترق السمع حينما يسمع إلى الملأ الأعلى والملائكة الذين أوكلهم الله بمهمات هذه المهمات لا يستطيع الجن أن يسمعوا إليها، لو فعلوا ذلك لأتبعهم شهاب مبين فأحرقهم .

مسالك اليقين أربعة :

إن مسالك اليقين أربعة مسالك، مسلك اليقين الحسي، ومسلك الاستدلال العقلي، ومسلك اليقين الإخباري، ومسلك الإشراق الروحي، فاليقين الإخباري هذا مسلك صحيح، فأنا أؤمن بالجن والملائكة، وأن هذه الشهب حينما يصعد أحدهم إلى السماء يأتيه شهاب فيحرقه، من خلال اليقين الإخباري الذي أخبرني الله به في هذا الموضع، وفي مواضع أخرى من كتاب الله .

لا تنسوا أن من هذه الأبراج برج العقرب يشبه العقرب تماماً، وأن في هذا البرج نجماً أكثر تألقاً، وأميل إلى اللون الأحمر سماه علماء الفلك قلب العقرب، وأن قلب العقرب قدر علماء الفلك حجمه بحجم الأرض والشمس مع المسافة بينهما .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16)وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(18))

هذا هو البديل لطلب المعجزات من النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ(15))

هذا الطريق مسدود، ذا الذي تعرض عليه المعجزة، وهو لا يريد الهدى فلن يؤمن بها، رغم عرضها عليه، لكن الذي يريد أن يهتدي فإن في الأرض والسماء آيات لا تعد ولا تحصى للموقنين .

لو تركنا السماء بنجومها، وكواكبها، وأبراجها، وشمسها، وقمرها، ومذنباتها، وكويكباتها، ومجراتها الكبيرة، والسماء بثقوبها السوداء، هذا الموضوع الذي كشفه العلماء حديثاً، مناطق ذات ضغط يفوق حدّ التصور، لو أن الأرض بأكملها دخلت في هذا الثقب الأسود لأصبحت بحجم البيضة مع بقاء وزنها كما هو .

مواقع النجوم :

بعضهم قال : البروج هي مطلق النجوم، وبعضهم قال : البروج مواقع النجوم، والله سبحانه وتعالى يقول :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76))

(سورة الواقعة)

مواقع النجوم هي المسافات البينية بين النجوم، بعض المسافات ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئية، أحدث مجرة اكتشفت اليوم تبعد عنا ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئية، علماً بأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية، فالقمر يبعد عنّا ثانية ضوئية واحدة، والضوء يجتاز المسافة بين الأرض والقمر في ثانية، الشمس في ثماني دقائق، قطر المجموعة الشمسية ثلاث عشرة ساعة، أقرب نجم إلينا نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، وهناك مجرات تبعد عنا مسافة مليوني سنة ضوئية، وهناك مجرات تبعد عنا ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئية، واللهِ هذه آية كبيرة، إذاً :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76))

ما من نجم في السماء إلا وله فلك يسير خلاله، لذلك ربنا عز وجل وصف السماء بوصف جامع مانع فقال :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11))

(سورة الطارق)

الرجع يعني أن أيّ نجم يدور دورة، ويرجع إلى مكان انطلاقه، ثم يدور دورة، وهكذا، وفي عام 1910 رأى سكان الأرض مذنب هالي، وفي عام 1986 رأى سكان الأرض مذنب هالي مرة أخرى، إذاً هذا المذنب ينطلق من مكان ما ليرجع إلى المكان نفسه .

فمعنى مواقع النجوم أي: الأماكن المتعددة التي تمر بها خلال دورتها حول أحد الكواكب .

الآن إذا انتقلنا من السماء إلى الأرض نقرأ قول الله تعالى :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا

الخطوط على الأرض كلّها ممدّدة :

يا سبحان الله! الخطوط كلها على الأرض ممددة، أينما سرت رأيت الطريق أمامك مفتوحاً، لو سرت إلى جهة الغرب رأيت البحر، ولو ركبت سفينة لوجدت الطريق مفتوحاً تصل إلى أوربة، ثم إلى أمريكا، وبعدها تصل إلى المحيط الهادي، ثم إلى شرق آسيا، الطرق كلها ممددة، ولا تتوافر هذه الخاصة إلا في شكل هندسي واحد، وهو الكرة، أي شكل هندسي آخر الخطوط تنتهي، ففي متوازي المستقيمات تنتهي الخطوط، في الموشور تنتهي الخطوط، في الأسطوانة تنتهي الخطوط، في القطع الناقص تنتهي الخطوط، في الهرم تنتهي الخطوط، أما في الكرة فالخطوط كلها متصلة، وهي الشكل

الهندسي الوحيد الذي لا تنقطع فيه الخطوط، وربنا عز وجل قال :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)

بعض العلماء ـ سامحهم الله ـ ظنوا أن هذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كروية، هكذا قرأت في التفسير، مع أن هذه الآية برهان على أن الأرض كرة .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ

الجبال من آيات الله العظيمة :

هذه الجبال آية من آيات الله سبحانه وتعالى، والأرض التي تدور حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو مترًا في الثانية .

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

(سورة النمل)

الآن المجموعة الشمسية تدور حول نفسها في المجرة بسرعة 250 كم/ثا، الشمس، والأرض، وعطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل، وليبتون، وبلوتون، وكل الكواكب هذه تشكل المجموعة الشمسية، وهي كتلة واحدة تدور حول مركزها في المجرة بسرعة 250 كم/ثا .

درب التبانة مجرتنا الضخمة هذه المجرة تسير في الفضاء الكوني بسرعة 240,000 كم/ثا، سرعة المجرات تقترب من سرعة الضوء، الأرض ثلاثين كيلو مترًا في الثانية، الشمس والمجموعة الشمسية 250 كم/ثا، المجرة 240,000 كم/ثا، هذه حقائق تدرس في الجامعات على أنها مسلمات، هذه أشياء تجاوز العلم البحث في صحتها، ولكن هذا السكون الدائم من لطف الله عز وجل، وكذلك الاستقرار والجدران هي هيَ، بينما الحركة مذهلة .

الجبال ضمان لاستقرار الأرض :

قال بعض العلماء : هذا بفضل الجبال، فمثلاً العجلة إذا حركتها بسرعة اضطربت، فتوزن بميزان دقيق، ويوضع في بعض الأماكن قطعة من الرصاص لئلا تضطرب على السرعة العالية، الجبال التي جعلها الله على الأرض رواسي من أجل أن تدور الأرض حول نفسها، وحول الشمس والشمس، حول

مركز المجرة والمجرة في الفضاء الكوني أربع دورات، كل هذه السرعات، وأنت تجد أن المحصلة سكون تام بفضل هذه الجبال التي وضعت في أماكن محددة، وبحجوم محددة، بحيث يصبح المآل استقراراً

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)

تأمّل في قوله : ألقينا

أما كلمة (ألقينا)فهل يلقى الجبل إلقاءً ! يا سبحان الله، معظم الجبال البركانية تشكلت من إلقاء الحمم من أعماق البراكين، كلمة (إلقاء)تعني أن الجبل ألقي إلقاءً، وهذا ينطبق على الجبال البركانية والرسوبية .

(وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)

هذا تفسير .

الجبال أوتاد :

الجبال أيضاً ذكرها الله عز وجل في آيات أخرى بأنها أوتاد، لأن الأرض مجموعة طبقات، وهذه الطبقات متفاوتة في الكثافة، لو أن كل طبقة في الأرض دارت فإن لها عطالة خاصة، ومعنى عطالة أي: إنها تستجيب للحركة بسرعة بحسب كثافتها، فلولا الجبال لاضطربت الأرض في دورانها، أما الجبال فقد جعلها الله أوتاداً، فالجبل يربط طبقات الأرض بعضها ببعض، فيجعلها كتلة واحدة، والجبال كالبيضة التي تديرها، فهي قبل أن أسلقها تضطرب، لأن فيها بياض، وفيها صفار، وفيها قشر، كل طبقة في البيضة لها عطالة خاصة، فإذا أدرتها تضطرب، وتقع، أما إذا سلقت فإنها تدور كالبلبل، وهذا دليل أنها تجانست . فهذا الجبل كالوتد، يجعل طبقات الأرض كلها متجانسة،

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا)

(سورة النحل : 81)

الجبال مصدَّات للريح :

أي : مصدات للرياح، الله عز وجل جعل مناطق دافئة بفضل جبال تكون كالمصدات، فتمنع الرياح الشرقية أو الغربية، في بعض المنافذ على البحر كحمص مثلاً الأشجار كلها مائلة بسبب النافذة التي فتحت بين سلاسل الجبال، فالجبال جعلها الله عز وجل أكناناً كالمصدات، في يوم شديد الرياح الغربية

اصعد إلى جبل قاسيون، وانتقل إلى الجهة الشرقية منه ينعدم الهواء كلياً . ربنا عز وجل عن طريق الجبال نوع مناخات الأرض، الجبل مصد، ففي سفح الجبل منطقة دافئة، وفي قمته منطقة باردة، يقصد الناس الجبال في أيام الصيف، ويسكنون في سفوحها في أيام الشتاء .

الجبال خزّان للمياه :

والجبال أيضاً جعلها الله عز وجل خزانات للمياه، لا أدري إلى أين تنتهي حدود نبع الفيجة، بعضهم قال : إلى مشارف حمص شمالاً، وإلى سيف البادية شرقاً، وإلى أواسط لبنان غرباً، وبعضهم قال : يمتد جوف هذا النبع إلى مناطق شاسعة شرقاً، قد تصل إلى إيران، من جعلها خزانات لهذا الماء الذي نستعمله كل يوم ؟ فربنا عز وجل قال :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ

كلّ شيء موزون :

والله الذي لا إله إلا هو كلمة (موزون)أردت أن أفصل فيها، ولكن والله هذه الكلمة لا يكفي عام بأكمله كي يفصل في هذه الكلمة، شيء موزون، موزون مع ماذا؟

النبات موزون، سكان الأرض كم طنًّا من القمح يحتاجون في العام، الله عز وجل ينبت لهم من القمح ما يكفي حاجتهم .

القمح موزون :

هذا القمح مادة أساسية في الحياة، معنى موزون قال العلماء : هناك ثلاثة عشر ألف نوع من القمح، يجب أن ينبت في الجبال، وفي السهول، وفي السواحل، وفي أعماق الأرض، وفي المنطقة الحارة والباردة والمعتدلة، وفي كل أنحاء الأرض، لأنه غذاء أساسي للإنسان، لذلك فالله عز وجل جعله بكميات تكفي حاجة سكان الأرض، وجعله بأنواع منوعة تغطي كل المناطق المختلفة .

القمح كما يقول بعض العلماء: فيه العجب العجاب، لو أخذنا قمحة لها غلاف خارجي يزن تسعة بالمئة من وزنها، ولها غلاف داخلي يزن ثلاثة بالمئة من وزنها، وفي داخل القمح مادة نشوية تزن خمسة

وثمانين جزءاً من المئة من وزنها، والرشيم يزن أربعة بالمئة من وزنها، أودع الله في قشرة القمحة الخارجية فيتامين (ب1، ب2، ب6)وفيتامين (o)، وأودع في القشرة الخارجية الفسفور والحديد والكالسيوم واليود والبوتاسيوم والصوديوم والمغنيزيوم، ونحن متحضرون ننزع عن القمحة قشرتها، ونأكل اللب فقط وهو النشا، والفائدة كلها في قشر القمحة.

(مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

هذا الفيتامين من أجل تنشيط حركة الأمعاء، هذا الفيتامين من أجل قوة البصر، هذا الفيتامين من أجل ليونة الأوعية والشرايين، هذه النخالة ندعها، ونأخذ لب القمح، ونأكله، وهو كالغراء كما قال بعض الأطباء، ربنا قال :

(مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

هذه القمحة متوازنة توازناً دقيقاً مع حاجة الإنسان، تحتاج إلى فيتامين ب1 من أجل حركة الأمعاء، تحتاج إلى فيتامين ب2 من أجل شبكية العين، تحتاج إلى فيتامين ب6 و فيتامين ب ب، وفيتامين o، والفسفور كغذاء للدماغ والأعصاب، كما نحتاج إلى الحديد غذاء لكريات الدم الحمراء، إلى الكالسيوم غذاء للعظام، إلى السليكون، إلى اليود غذاء للغدة الدرقية، للبوتاسيوم غذاء لبعض الغدد الصماء في الجسم، إلى الصوديوم غذاء لمصل الدم، إلى المغنيزيوم، هذا كله ندعه جانباً، ونأخذ لب القمح، ونأكله .

هذا معنى موزون، أي : إن خالق الإنسان هو ذاته خالق القمح، فتركيب القمح يتناسب تناسباً دقيقاً معجزاً مع تركيب الإنسان .

اللفت موزون :

اللفت على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، أحد النباتات التي تحتوي على أكبر كمية من الكالسيوم، من يشكو ضعف وتقوس وهشاشة العظام فهذا النبات فيه أكبر كمية من الكالسيوم، وفيه كمية من المغنزيوم تقيه الأورام السرطانية، وفيه آزوت ينقي الدم، ويحصن العضوية، وفيه بوتاسيوم يجنب العضوية تراكم الشحوم، وفيه زرنيخ يسهم في تكوين الكريات البيض، وفيه فسفور يقوي الخلية العصبية، وأوراق اللفت غنية بالحديد والنحاس وباليود وبالفيتامين A ,B,C، وعصير اللفت يسهل تفتيت الحصى في الكليتين، ومغلي اللفت يطهر المجاري التنفسية، ويقي من الدمامل والخراجات والبثور الجلدية .

فربنا عز وجل خلق اللفت موزونًا، وهذه الآية تفسيرها لو اطلعت على كتب الطب كلها أو كتب الأغذية، ودرست كل غذاء ماذا يحتوي لكان هذا الموضوع تفسيراً متواضعاً لهذه الآية :

(مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

التمر موزون :

التمر مثلاً فيه فيتامين A، هذا يساعد على نمو الأطفال، وعلى ازدياد أوزانهم، ويحفظ رطوبة العين وبريقها، ويعين على الرؤية الصحيحة، ويقي العمى الليلي، فيه مادة تترسب على الشبكية، هذه المادة تقي العين من العمى الليلي، وهذا الفيتامين يقوي الأعصاب، ويساعد على السكينة والدعة، كله من هذا الفيتامين الموجود في التمر .

لا أستطيع إلا أن أورد بعض الأمثلة، أكثر كلمة تثير الإعجاب كلمة (موزون)، هذا النبات الذي خلقه الله لنا وصفه بأنه موزون، يتناسب تناسباً دقيقاً جداً مع خلق الإنسان وبنيته وحاجيته.

في مصر، وفي بعض القرى أقام طبيب ثلاث سنوات، ولم يجد حالة واحدة من أمراض القلب، تعجب، فإذا هذه القرية تأكل الترمس، وعندما حلل العلماء هذا النبات وجدوا فيه مادة مميعة للدم .

الملوخية الغذاء الوحيد المرمم للغشاء المخاطي في الأمعاء .

الثوم خافض للضغط مطهر للأمعاء .

البصل موزون :

البصل، قال أحد الباحثين إنه أجرى دراسة على مئة وخمسين صنفاً للنباتات القاتلة للجراثيم، فتبين له أن البصل في مقدمة هذه النباتات، يفوق التفاح في قيمته الغذائية، فيه كالسيوم عشرين ضعفاً عما في التفاح، فيه فسفور ضعفا ما في التفاح، فيه حديد وفيتامينات وكبريت، فيه مادة تعادل الأنسولين، هذه المادة الهامة جداً في الوقاية من أمراض السكر، في البصل مقوية للقلب وللدورة الدموية، فيه مادة مدرة للبول والصفراء، فيه مادة ملينة للأمعاء، فيه مادة مقوية للقدرة الحيوية، شيء موزون، البصل موزون هكذا طبيعة تركيبه، الثوم موزون، السبانخ فيها حديد، العدس فيه حديد، الترمس فيه مادة مميعة للدم، الملوخية فيها مادة مرممة للغشاء المخاطي في الأمعاء، هذا غيض من فيض .

لو أردت أن أعرض ما في هذا الموضوع لاستغرق تدريسه سنوات، كل مادة بنيتها تركيبها فوائدها الغذائية والعلاجية فسبحان الله ! .

فكلمة (موزون)لو أن العلماء في الأرض اجتمعوا على دراسة النباتات واحداً وَاحداً وتحليلها ما زادوا بعد كل هذه الدراسات على أنهم فسروا هذه الكلمة .

(وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

الحليب موزون :

الحليب موزون، حليب البقر موزون، حليب الغنم موزون، التفاح موزون، هذا المعنى الأولي، معنى بنية الفاكهة أو النبات .

معنى آخر : الحجم الكلي موزون، لو كانت كل شجرة من أشجار التفاح تنبت خمس تفاحات، فهذا الإنتاج غير موزون، ولا يتناسب مع حجم الأرض، فكلمة (موزون)تعنى كمية الفاكهة، وتعني أيضاً نوعية الفاكهة، هناك عنب للعصير، وعنب يكون فاكهة نفيسة جداً، وعنب للزبيب، وعنب بلا بزر، أنواع منوعة، ما من نوع من أنواع الفاكهة والخضار إلا ولها أنواع منوعة، البصل الأبيض طيب، لكن لا يُموَّن، هذا يؤكل مباشرة، أما للتموين فالأصفر هو الأجود، هذه المعلومات تحتاج إلى خبراء .

كلمة (موزون)كم من أنواع فاكهة الموجودة ؟ كم نوعًا من الخضراوات ؟ كم نوعًا من المحاصيل ؟ كميات الأنواع وعدد الأنواع، التفاحة مثلاً الشكل موزون، واللون بهيج جذاب، الحجم موزون، لو كانت التفاحة بحجم البطيخ لأكلنا قسماً واسودَّ الباقي، لو كان البطيخ بحجم العنب و نصفها قشر لكان هناك إشكاليات كثيرة، العنب له حجم، والكمثرى لها حجم، والقمح له حجم موزون، لو كان القمح ينضج تباعاً كبقية الفواكه لعُدَّ غير موزون، إذاً المحاصيل من القمح ونحوه تنضج في يوم واحد، والفواكه تنضج تباعاً، وهذا حقاً شيء موزون، فسبحان الله الذي أحسن كل شيء خلقه، وقدره تقديراً !.

الشيء الذي يخزن أغلب الظن ينضج في يوم واحد، والشيء المستهلك ينضج تباعاً، فكلمة (موزون)يمكن أن تفكر فيها لسنوات، هذا الطعام الذي تأكله كله موزون .

(وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

عندنا موضوعات عن التمر والثوم والبصل والفجل، وموضوعات عن بعض الفواكه والثمار، والمعلومات لا يتسع لها درس في المسجد ولا ساعة من ساعات دروس التفسير، لكن المؤمن يمسك بطرف الخيط يتابع البحث، لو أتيح لك أن تقرأ عن الفواكه والثمار فلا تتردد، اقرأ تعرف المزيد مما يعنيه قوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21)وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22)وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

هذه الآيات إن شاء الله تعالى نحاول أن نفسرها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 20 – 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-12-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الحجر .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(18)وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ(19)وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21)وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22)وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

مظاهر الإعجاز في المخلوقات

ترون معي أن هذه الآيات بمجملها تتحدث عن مظاهر الإعجاز في الخلق، وكيف أن التفكر في الآيات الكونية هو الطريق إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، ثم إن الله سبحانه وتعالى قال قَبْل هذه الآيات :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

خرق النظم الكونية لا يجدي فتيلاً، ولكن التفكر في الآيات الكونية هو الطريق لمعرفة الله سبحانه وتعالى، وقد تحدثنا في الدرس الماضي عن بعض الآيات في السماء، ثم أتبعها الله سبحانه وتعالى بآيات في الأرض، كيف أن :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

وقفنا عند هذه الآية، لكن توضيحاً لآية سبقت لابد منه، وهي قوله تعالى :

(وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ)

عالَم الغيب لا يدرك بالحواس بل بالخبر الصحيح :

في درس العقيدة أشرت إلى أن الشيء إذا ظهرت عينه أدركناه بحواسنا، وأن الشيء إذا غابت عينه، وبقي أثره أدركناه بفكرنا، أما إذا غابت عينه وأثره فلا يمكن أن نعرفه إلا بالخبر الصادق، فالشمس ظاهرة للعيان، هذه ندركها بحواسنا، والروح تبدو لنا آثارها، فنستدل على وجود الروح في الإنسان

بحركته ونطقه وسمعه وبصره، وأما الشيء الذي غابت عنا عينه، وغابت عنا آثاره فلا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق الخبر الصادق .

عالم الجن مغيب عنا، والدليل قوله تعالى :

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف 27)

إذاً عالم الجن مغيب عنا، السبيل إلى معرفة هذا العالم هو الخبر الصادق، والله سبحانه وتعالى أخبرنا أن الجن مكانهم في الأرض، والملائكة مكانهم في السماء، فإذا أراد الجن أن يجاوزوا الحدود ليسترقوا السمع، وليعرفوا أخبار السماء يأتي شهاب ثاقب فيحرق هذا الجني الذي سولت له نفسه أن يسترق السمع، كل ما نملك من معلومات حول هذا الموضوع هي هذه الآيات، لذلك لا أنا ولا غيري يستطيع أن يزيد عليها شيئاً، إلا أن الذي قلته في الدرس الماضي هو أن الشهب لها تفسير علمي، وهذا التفسير العلمي لا يتناقض مع كتاب الله بل يتكامل معه .

الشهب كويكبات خرجت من مدارها، فسقطت في جو الأرض، في أثناء احتكاكها بطبقة الجو تشهبت وتلاشت، النيازك تصل إلى الأرض، لكن الشهب تتشهب في جو السماء، هذا هو التفسير العلمي للشهب، وهذا لا يمنع أن يكون الشهاب هو شهاب ثاقب يرصده الله سبحانه وتعالى لكل من أراد من الجن أن يتجاوز الحدود .

على كلٍّ، هذا الموضوع لا نملك فيه إلا ما قال الله عز وجل، موضوع الجن، موضوع الملائكة، موضوع عالم الأزل، موضوع عالم الآخرة، هذه العوالم مغيبة عنا بذواتها وبآثارها، إذاً لا تعرفها إلا من طريق الخبر الصادق، لكنك إذا فكرت في الكون فإنه تحت سمعك وبصرك، المجال في التفكر والدرس والتأمل والتبحر والاستقصاء والمشاهدة والاستنباط والملاحظة مجال واسع جداً، وفي الأثر : تفكروا في المخلوقات ولا تفكروا في الخالق فتهلكوا.

التفكر في ذات الله باب محظور :

باب آخر محظور علينا الدخول فيه، وهو التفكر في ذات الله، لأن العبد عبد والرب رب، لا يعرف الله إلا الله، نحن سمح لنا أن نتفكر في الكون لكي نتعرف إلى طرف من أسماء الله الحسنى، أما أن نفكر في ذاته كيف يرى ؟ كيف يسمع ؟ كيف يحاسب الناس دفعة واحدة ؟ هذا من باب التفكر في ذات الله وقد نهينا عنه . أما بقية الآيات الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى، والتي وردت في هذه السورة الكريمة فقوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ

ما هي المعايش ؟

المعايش جمع معيشة، والمعيشة تحتمل معاني عدة، وجعلنا لكم فيها هذه الهاء تعود على الأرض، لقوله تعالى :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ(19)وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

المعنى الأول : في الأرض ثروات لا يعلمها إلا الله :

فيها أي : في الأرض، وأما وجعلنا لكم أي : هذا الذي ذكره الله سبحانه وتعالى خلق خصيصى لكم، من أجلكم وتكريماً لكم .

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

يعني أن الله سبحانه وتعالى أودع في الأرض ثروات لا يعلمها إلا هو .

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

(سورة طه)

المعادن:

جعل في الأرض المعادن : الحديد، النحاس، الفضة، الذهب، القصدير، الرصاص، وجعل أشباه المعادن، هذه كلها يستخرجها الإنسان، ويصنعها ليعيش بها وعن طريقها، يعيش بها أي : تصبح هذه المعادن وأشباه المعادن وسيلة للعمل .

الأخشاب :

خلق الله الأخشاب، واستخدم الإنسان الخشب لصناعة الأبواب، وصناعة الأثاث، وصناعة ما لا يحصى من المصنوعات، لولا الخشب لتوقفت كل الصناعات المعتمدة عليه، لولا الحديد لتوقفت كل النشاطات البشرية المعتمدة على الحديد .

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

الأخشاب عالم، كما قال لي بعضهم : أكثر من ألف نوع للخشب، هناك حاجات لا يصلح لها إلا خشب خاص، النوافذ معرضة للحر والقرّ والشمس والمطر، أيّ خشب آخر لو وضع مكان الخشب الذي تصنع منه النوافذ لساء الأمر، وهناك خشب يستخدم للأثاث، وهناك خشب يستخدم كجسور للبيوت، وهناك خشب يستخدم للصناعات الخفيفة، وهناك خشب يستخدم كدواء .

أنواع الخشب لا يعلمها إلا الله، ولكل نوع خصائص، هناك خشب يستخدم كقاعدة تحت الآلات، لأن أليافه تجمع بين المرونة والليونة، فألياف هذا الخشب بمرونتها تمتص الصدمة، فالخشب معايش، والحديد والنحاس والقصدير، وكل هذه الثروات الباطنة التي أودعها الله في الأرض إنما جعلت مجالات للعمل .

النباتات :

أما النباتات، فهناك نباتات دوائية، وهناك نباتات تزيينية، وهناك نباتات غذائية، والغذاء أنواع محاصيل، وخضراوات وفواكه، لكل نوع من هذه النباتات مواسم وخصائص وأشياء دقيقة جداً يتعامل بها الإنسان، عالم النبات من المعايش .

الأسماك :

وعالم الأسماك من المعايش، كم من البشر يعيش على صيد الأسماك! كم من البشر يعيش على تصنيع الثروة البحرية! كم من الناس يعيش على النباتات! كم من البشر يعيش على المعادن !

الله سبحانه وتعالى جعل الأرض بجبالها وبسهولها، بمعادنها بثرواتها بحيواناتها بأطيارها بأسماكها، بكل شيء أودعه فيها جعلت هذه الأشياء معايش، يعني مجالات للعمل .

هكذا يكسب الناس رزقهم ، بعضهم من بعض :

ارتفاع الحرارة، كم من البشر يكسب رزقه من التبريد، والمكيفات والمراوح والألبسة الحريرية والمرطبات والثلج، كم من البشر يكسب رزقه من التدفئة، المدافئ والبسط والسجاد والألبسة الصوفية والطعام الذي يناسب الشتاء .

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

كم من البشر يعيش أو يكسب رزقه من خلال طول شعر الإنسان، كم من البشر يعيش بفضل حشرة خلقها الله عز وجل يكافحها المزارعون، وتصنع لها الأدوية، يختص لها المختصون، وتنشأ لها المعامل

لصناعة هذه الأدوية، ثم تنقل هذه الأدوية، ولها مكاتب تجارية وسيارات وشحن، يعني كم من إنسان عمل في نقل الدواء وتصنيعه وبيعه وتوزيعه بسبب هذه الحشرات التي خلقها الله سبحانه وتعالى .

كم من البشر يعيش على وسائل رعاية صحة الإنسان، لولا المرض كم مليوناً يموتون جوعاً ؟ بناء المستشفيات وتأثيثها، الموظفون الإداريون، الأطباء، الممرضون، كم من البشر يعيش على موضوع المرض، فالمرض سبب للرزق، والحرارة سبب للرزق، والبرودة سبب للرزق، والحشرات النباتية سبب للرزق، والمعادن التي أودعها الله في الأرض سبب للرزق، وأشباه المعادن والعناصر والأسماك والأطيار والحيوانات والجراثيم والعصيات والفيروسات، إذاً فالله عز وجل أودع في الأرض كل شيء وجعل هذه الأشياء مجالاً للعمل، وهذا الموضوع لا ينتهي في هذا الدرس، هذه نماذج يعني فكّر ملياً وانظر وتأمّل .

أحياناً الرياح العاتية تكسب الناس أرزاقهم، أحياناً بعض النكبات مصائب قوم عند قوم فوائد، سبحان رازق العباد، سبحان الله كيف يرزق عباده، هذه معايش .

المعنى الثاني : في الإنسان إمكانات لكسب الرزق :

الشيء الثاني، والأخطر أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان إمكانات كسب الرزق، أعطاه الفكر، أعطاه قدرة على التعلم، أعطاه قدرة على أن ينمى قدراته، التعلم والخبرات والمعارف والمهارات والأعمال اليدوية ذات الصناعة الفائقة، هذا كله من فضل الله سبحانه وتعالى، كلما شاهدت إنساناً يتقن عمله، أقول في نفسي: سبحان من أعان كل امرئٍ على صنعته! يبدو لك هذا العمل مستحيلاً، لكنه بالنسبة لصاحبه فسهل جداً، هذا يعمل في الأقمشة، وهذا يعمل في اللحوم، وهذا يعمل في الخياطة، وهذا يعمل في الحلاقة، وهذا يعمل في المناجم، وهذا يعمل في تقطيع الرخام، وتقطيع الرخام من الجبال هذا أمر يكاد يكون مستحيلاً، لكن على أصحابه وأربابه شيء سهل، وهذا يغوص في أعماق البحر ليصطاد اللؤلؤ، وهذا يطير في الجو، وهذا يخترع، وهذا يكتشف، سبحان الله! فإنه أعطى الإنسان قدرات عامة، وقدرات خاصة، وإمكانات التعلم، وإمكانات الاستفادة من التجارب، أعطاه القدرة على الإبداع، هذا كله من فضل الله سبحانه وتعالى، وهذا يدخل في قوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

المعنى الثالث : الله هو خالق الرزق :

شيء آخر، خلق الله الرزق، هذا هو المعنى الثالث، المعايش جميع المواد التي يتعامل معها الإنسان التي يكسب بها قوته، والمعايش الإمكانيات التي أعطاها الله للإنسان، بئر للنفط في بعض البحار، تصور كيف غاص الإنسان، وعرف النفط في هذا المكان؟ وكيف وصل إليه؟ وكيف أنشأ هذه البئر في قاع البحر؟ وكيف استخرجه؟ من أعطاه القدرة على ذلك؟ الله سبحانه وتعالى .

لذلك حتى هذه الإمكانيات التي زود الله بها الإنسان هي من خلق الله سبحانه وتعالى، ومن توفيق الله، ومن إلهام الله، حتى الفكرة التي يكتشفها العلماء هي إلهام من الله عز وجل يعترف بهذا جميع الناس، جميع العلماء يقولون: إشراق، قفزة في المجهول، اكتشاف .

المعنى الثالث للمعايش: أن الله خلق هذا النبات لتأكله، خلق القمح، خلق الشعير، خلق العدس، خلق كل أنواع المحاصيل، خلق كل أنواع الخضراوات، خلق كل أنواع الفواكه بشكل وحجم وطعم ورائحة وقوام مناسب للإنسان، وقد فصلنا في الدرس الماضي في قوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

كل شيء بحجم ولون وشكل وطعم :

فالله سبحانه وتعالى جعل هذا الرزق بحجمه وبكميته ولونه وشكله وطعمه وطريقة الوصول إليه، وطريقة نقله، وطريقة حفظه، وطريقة فساده كذلك، فساد المحاصيل نعم من نعم المولى، لولا فساد المحاصيل لاحتكرت المحاصيل، ولكن السوس يفسد هذه المحاصيل فلا بدّ من بيعها في الوقت المناسب، وإلا تفقد قيمتها، كل شيء له آية تدل على أنه واحد، فهذه المعايش هي ما خلقه الله في الأرض، وما تحت الأرض، وما على سطح الأرض، ومن المعايش كذلك الإمكانيات التي زود الله بها الإنسان .

كيف يقطع الحديد؟ كيف ينحت الصخر؟ كيف يصنع القماش؟ كان قطناً كيف غزله؟ كيف جعله خيوطاً؟ كيف نسجه كيف صبغه؟ إمكانات أعطاها الله للبشر .

كل حاجة في الإنسان لها ما يقابلها في المخلوقات :

الله خلق الطعام والشراب، وخلق الماء، وخلق لكل حاجة في جسمك شيئاً في الأرض، قد تحس أن هناك مغصاً معوياً خلق لك الكمون، قد تحس أن هناك التهاباً في حلقك خلق لك الزهورات، قد تحس أن

هناك كتماً في أمعائك، خلق لك الملينات، هناك مواد تهدئ، ومواد تلين، ومواد تسكن، وما هذه الأدوية التي تراها عينك في الصيدليات قد يسبق الوهم إلى خاطرك أنه من صنع البشر، لا والله، إن تعليبها من صنع البشر، ولكنها مواد خلقها الله في الأرض، اكتشفها الإنسان، وعرف خصائصها، وعرف استطباباتها، وصنعها، وحفظها، وباعها .

الصيدلية على اتساع أنواع الأدوية فيها، إن هذه الأدوية كلها أساسها مواد نباتية أو كيميائية، خلقها الله سبحانه وتعالى، هذه المادة توسع الشرايين، هذه المادة تنظم ضربات القلب، هذه المادة تعين على إدرار البول، هذه المادة تغلف المعدة من الداخل بغلاف يمنع عنها التقرح، هذه المادة تهدئ الأعصاب، هذه المادة مرممة لقرنية العين، سبحان الله اقرأ نشرات الأدوية تجد من ميزات هذه المادة الفعالة كذا وكذا، من أودع فيها هذه الميزات ؟ الله رب العالمين، كل شيء تراه عينك ينطق بحمده، ويسبح بعظمته، هذه معايش .

هذا البلد الأمين كل شيء فيه، فأنت بحاجة إليه قد تحتاج إلى شجرة تظلك أمام البيت، هناك أشجار مهمتها الوحيدة أن تكون مظلة لك، أوراقها دائمة الخضرة وحجمها مناسب منظرها جميل، هناك أشجار مهمتها أن تعطيك عود الأراك كي تنظف به أسنانك، سبعون مادة أودعها الله في السواك، معطرة، ومطهرة، ومقوية للثة، إلى ما لا يعد ولا يحصى، هناك نبات خلق كي تنظف به ما بين أسنانك، وهو الخلة، هناك نبات خلق من أجل أن تنظف بثماره جلدك، هذا هو الليف الطبيعي، هناك نبات جعل لك من أجل إمتاع العين، أنواع الأزهار، أنواع الأبصال، ألوان تأخذ بالألباب، أنواع لا تعد ولا تحصى نبات يعيش في الصالونات من أجلك، إذا جلست في غرفة الجلوس فهناك نباتات خاصة لهذه الغرفة من أجل أن تمتع عينيك بها، وتسبح الذي خلقها، وهناك نباتات تعيش في الصحراء، ونباتات تعيش في الأنهار وفي البحار، وفي كل مكان هناك نباتات لها طباع تتآلف مع جو الأرض، هذه معايش .

ينتهي الحبر ولا تنتهي كلمات الله :

والله الذي لا إله إلا هو هذا غيض من فيض، أحس أن قدرة اللغة عاجزة عن توضيح كل شيء، وأن ضيق الوقت لا يكفي لتوضيح كل شيء، وأن كل كلمة في كتاب الله مشحونة بطاقات تعبيرية لو أمضينا كل حياتنا لما استنفذناها، وهذا يؤكده قوله تعالى :

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

(سورة الكهف)

بحار الأرض، البحار المحيطة والمحاطة، البحار في الأرض أربعة أخماس مساحة الأرض، وما القارات الخمس إلا خمس الأرض، وهذه البحار تزيد أعماقها في بعض الأماكن على اثني عشر كيلو مترًا تحت الأرض، لو أن البحار كلها ومثلها أيضاً كانت مداداً أي حبراً لكلمات الله سبحانه وتعالى ما نفدت .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

(وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ برَازِقِينَ)

وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ برَازِقِينَ

كل دابة على الله رزقها :

قال بعض المفسرين : إنها الحيوانات التي يتولى الله سبحانه وتعالى رزقها، في الأرض حيوانات، وفي الجبال حيوانات، في أعماق البحار حيوانات، في كل مكان حيوانات تسبح ربها، ويتولى الله رزقها.

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود)

الدابة جاءت نكرة، وهذا التنكير تنكير الشمول، و(من)لاستغراق أفراد كل نوع على حده، ما من دابة إلا على الله رزقها حصراً، وعلى الله تعني : على سبيل الإلزام، لأن كلمة(على)إذا اقترنت بلفظ الجلالة فهي تعني أن الله سبحانه ألزم نفسه .

كل أعضاء الإنسان على الله رزقها :

هذه الأعضاء التي في جسدك الله يرزقها، البنكرياس له رزق خاص يأتي به الدم، وقرنية العين لها رزق خاص، وخلط العين الزجاجي له رزق خاص، والأشعار لها رزق خاص، والعظام لها رزق خاص، والعضلات لها رزق خاص، والأمعاء لها رزق خاص، والغدة النخامية لها رزق خاص، وكل عضو وكل جهاز وكل غدة في جسدك لها رزق خاص يأتيها عن طريق الدم وأنت لا تدري .

(وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ برَازِقِينَ)

هل تعرف كيف يتغذي دماغك؟ لا والله، هل تعرف كيف تتغذي أعصابك؟ لا والله، هل تعرف كيف يتغذى الجنين عن طريق المشيمة ؟

(وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ برَازِقِينَ)

هل تعرف كيف تتغذى الأسماك في البحار؟ لا والله .

(وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ برَازِقِينَ (20)وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

أي شيء يخطر في بالك فخزائنه عند الله، لكن هذا التقنين الذي تراه عينك ما هو تقنين عجز، وإنما هو تقنين حكمة، وتقنين تأديب .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ

كل شيء بقدر وحكمة :

هذا القدر هو القدر المناسب بحسب علم الله، وبحسب حكمته، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

(سورة الشورى)

(وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

وهذا من علم الله وحكمته، ويجب أن يعلم المؤمن علم اليقين أن الرزق من عند الله وأن هذا القدر المعلوم الذي نزله إنما هو في منتهى الحكمة، لذلك عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ))

[ابن ماجه]

اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، اصبر عن الحرام يأتك الحلال .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

لا يعرف مدلول هذه الآية إلا من كان عمله بمواد يفتقدها أحياناً، يتمنى لو أن هذه المادة متوافرة، يتمنى لو أن لهذه المادة سيولة لا تنقطع، لكن اختناقات المواد الأولية تجعل فهمنا لهذه الآية فهماً دقيقاً .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

التقنين الإلهي بحكمة ولحكمة وتأديب :

يجب أن تعلم علم اليقين أن التقنين الإلهي يختلف اختلافاً جذرياً عن التقنين البشري، التقنين الإلهي بسبب علم وحكمة وتأديب، وأما التقنين البشري فبسبب عجز فقط .

في ليلة واحدة نزل من الأمطار ما يعادل أمطار سنة كاملة في منطقة دمشق، بل إن في بعض المناطق في الجنوب نزل في يومين أو ثلاثة مئتا ميليليتر، أي: ما يعادل ما نزل في دمشق مرتين في العام الماضي، نزل في منطقة دمشق ثمانون ميليليترا .

إذاً :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

لو أن الله سبحانه وتعالى رفع نسبة الفواكه الناضجة لأصبحت بلا ثمن، هناك أدلة أحياناً تشير إلى أن بعض النباتات تنتج محاصيل فوق التوقع، ذات مرة قبل سنوات عدة أنبتت الأرض من القمح ما لا تتسع له كل المستودعات في القطر، فاضطرت الدولة إلى بناء مستودعات إضافية تستوعب هذه الكمية.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

قبل عامين أنتجت أشجار الفواكه من المشمش ما جعل سعره يفوق حد التصور، أو يقل عن الحد الأدنى بسبب وفرة الإنتاج، وفي العام الماضي كان إنتاج البطاطا يزيد على حاجة القطر بثلاثة أمثال فبيع بثمن بخس .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

كن فيكون :

((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[مسلم عن أبي ذر]

ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام :

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

هذا يشتهي الذكور ، وعنده تسع بنات، فلان عنده ثلاثة عشر ذكراً، وذاك عقيم، هذا نصيبه البنات فقط، هذا الذكور فقط، أما ذاك فقد زوجهم الله ذكوراً وإناثاً، يجب أن تعلم إذاً أن الله على كل شيء قدير، وأن هذا الذي تراه عينك من تقنين في الأمطار أو في المواد ما هو إلا بسبب حكمة بالغة لو

اطلعت عليها لذابت نفسك شكراً لله .

لذلك من اتكل على حسن اختيار الله له ما تمنى حالة إلا الحالة التي هو فيها، لأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، أي ليس في إمكانك أيها الإنسان أبدع مما أعطاك الله سبحانه وتعالى .

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ

أرأيتم إلى هذا الماء ، ما أنتم له بخازنين :

نهر الأمازون غزارته في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية الواحدة، أين الخزانات لهذا النهر ! أي جبال تتسع لهذه المياه !

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

وللإيضاح أذكر أنه أنشئ خزانان متواضعان جداً يشبهان إلى حد ما طريقة التخزين الإلهية، بعمق أربعمئة متر تحت سطح الأرض لكل خزان، ويتسع لاستهلاك دمشق ليومين أو ثلاثة، هذا كلف ألف مليون، خزان متواضع جداً كي يسد الحاجة لأيام عدة كلف ألف مليون، أين خزان نهر التايمز مثلاً؟ خزان نهر الدانوب؟ خزان نهر النيل؟ أين هذه الخزانات؟ إذا كان خزان نبع الفيجة يمتد من دمشق إلى حمص، ومن وسط لبنان إلى سيف البادية، هذا خزان نبع الفيجة الذي غزارته ستة عشر متراً مكعباً في الثانية، فإلى أي مدى تصل خزانات الأنهر المذكورة قبل قليل ؟

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

هذه رحمة الله بالعباد في الماء :

لو أن الله سبحانه وتعالى ألغى الينابيع والأنهار، وجعل الأنهار وحدها طريقة لتخزين المياه، واضطررنا أن نجمع مياه الأمطار، ونخزنها في بيوتنا لكي نستهلكها على مدار العام، كيف نصنع هذه الخزانات؟ إن كل بيت يحتاج إلى مثل مساحته، ومثل حجمه خزاناً، ولا يخفى عليكم أن هذه المياه تفسد بعد أسبوعين، تنبت فيها الطحالب، وتتولد فيها الجراثيم، والحيوانات والكائنات الدقيقة، إلى أن يصبح ماؤها آسناً لا تستطيع أن تنظر إليه، فضلاً عن أن تشرب منه .

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ)

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ

الرياح تلقح السحاب فينزل الماء :

قال بعض المفسرين : تلقح السحابة ببخار الماء، إذ يساق بخار الماء إلى السحب، فتشحن به، ثم تلاقي هذه السحب سحباً أخرى ذات شحنة كهربائية معاكسة، ويأتي ارتفاع الضغط وانخفاضه ليجعل بخار الماء الذي تحمله السحب ماءً طهوراً ينزل على الأرض الميتة فيحييها .

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ)

هل إذا شربت كأس الماء تقول: الحمد لله رب العالمين؟ هل إذا شربت كأس الماء ترى فضل الله عليك بكأس الماء ؟ وإن بعض الخلفاء سأله وزيره : يا مولاي بكم تشتري هذه الكأس من الماء إذا منعت عنك ؟ قال بنصف ملكي، قال فإذا منع إخراج فضلاتها، قال : بنصف ملكي الأخر، فقال : أيها الخليفة: إن ملكك كله يعدل كأساً من الماء .

انظر إلى نعمة الله ، ثم اشكرها قولا وعملا :

الآلام التي يعانيها من تعطلت كليتاه عن إفراز البول فيرتفع الأوريه في الدم فيصاب الإنسان بأمراض لا توصف، يصبح شرساً كالوحش، ارتفاع الأوريه في الدم يسبب اضطرابات نفسية، واضطراباً في السلوك لا يوصف، قد يضرب كل شيء، قد يحطم كل شيء إذا ارتفعت نسبة الأوريه في الدم، حتى الذين تتعطل كليتاهم عن العمل الأوريه ويذهبون للمستشفى من أجل الغسيل في الأسبوع مرتين ، وتبقى نسب قليلة من الأوريه في الدم لا تستطيع المصافي الصناعية أن تصفيها ، وهذه النسبة الضئيلة تغير نفسياتهم وأمزجتهم .

هذه الكأس من الماء ماذا تفعل إذا منع إخراج فضلاتها، من آلام حصر البول لا توصف، آلام الكليتين لا توصف، آلام انسداد المستقيم لا توصف، لذلك :

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

لا تستطيعون خزن الماء، هذا يفوق طاقتكم، هذا فوق إمكانياتكم .

إن تحلية الماء فقط، كما بلغني أن لترًا من الماء الذي يحلى من مياه البحر يكلف الدولة أربعة ريالات ضرب ستة، يعني كل لتر ماء يحلى من مياه البحر يكلف ما يقارب خمسًا والعشرين ليرة، فهذه الكأس من الماء كم يكلف ؟ بعض السذج يتوهم أنه دفع ثمن الماء، هذا الذي تدفعه لمؤسسة مياه عين الفيجة

هذا ليس ثمن الماء، هذا ثمن بعض الخدمات، مها حفظ هذه الينابيع وإيصالها إلى المدينة، ثمن الماء لا يقدر بثمن، فإذا شربت كأس ماء فقل: الحمد لله رب العالمين، لو أن الماء كله ملح أجاج ماذا نفعل .

(فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22)وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ

الأرض ومن عليها لله ، وهو الوارث :

لا تقل : هذا بيتي، هذا البيت ليس لك، إن الله يرث الأرض، ومن عليها، ومن فيها، ليس هذا البيت بيتك، وليس هذا المحل محلك، وليس هذا المال مالك، إنها عارية مستردة، أحد الأعراب كان يقود قطيعاً من الإبل، سئل : لمن هذا القطيع، قال : هو لله في يدي .

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

هذه الأرض ثمانية وثمانون دنماً، وثلاثمائة دنم لا أبيعها بخمسة ملايين، هي لك ملكاً مادام القلب ينبض، فإذا توقف عن النبض فهي ليست لك، بل يملكها غيرك .

لابد من التفكر في آيات الله :

أيها الإخوة، هذه الآيات التي ساقها الله سبحانه وتعالى لتكون دالة على عظمته يجب أن نفكر فيها، يجب أن نتدبرها، لما قال ربنا عز وجل :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

يجب أن نفكر في هذه الآية، أن نتأمل فيها، أن ندرك أبعادها، لأنك إذا عرفت الله سبحانه وتعالى عن طريق الكون، فإن هذه المعرفة تصمد أمام الإغراءات وأمام الضغوط، أما المعرفة التقليدية فإنها تلقي الأفكار من دون تأمل، من دون بحث، ومن دون تدقيق، هذا التلقي لا يصمد أمام الضغوط ولا أمام المغريات، إذا عرفت الله من خلال الكون قال تعالى :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : 28)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

آيات الله بين تعامل البهائم وتعامل الإنسان العاقل :

هناك من يتعامل مع الآيات تعامل البهائم، وهناك من يتعامل معها تعامل الإنسان، الحيوان يشرب الماء، والإنسان يشرب الماء، فإذا شرب الإنسان الماء، ولم يفكر من الذي أنزله من السماء ماءً طهوراً؟ من الذي أودعه في الجبال ؟ من الذي فجره ينابيع ؟ من الذي جعله أنهاراً ؟ هذا الذي يشرب، ولا يشكر، ولا يعرف هو كالبهيمة .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد)

فكلمة :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

آية، وكلمة :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

وبعد؛ يجب أن تعلم علم اليقين أن هذه الآيات الكونية إنما خلقت من أجل أن ترى الله من خلالها، وتزداد يقيناً .

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 24 – 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-12-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ(23)وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ

للمفسرين في هذه الآية ثمانية اتجاهات :

المعنى الأول : المخلوقون وغير المخلوقين :

أن الله سبحانه وتعالى علم الذين خلقوا من قبل، ويعلم الذين لم يخلقوا بعد، كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: << علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون >>.
والله سبحانه وتعالى من أسمائه العليم، كل ولد حتى هذه اللحظة يعلمه الله عز وجل، والذين لم يخلقوا بعد يعلمهم أيضاً .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

المعنى الثاني : الأموات والأحياء :

أن الله سبحانه وتعالى علم الأموات، وهم المستقدمون، وعلم الأحياء وهم المستأخرون، هذا الاتجاه الثاني .

المعنى الثالث : المتقدمون من الأمم والمستأخرون :

علم الله سبحانه وتعالى من تقدم من الأمم عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ويعلم من يتأخر عن هذه الأمة من الأمم، وأنه يأتي بعد أمة هذا النبي أمم وشعوب وحضارات، وحروب وفتن، ودنيا مبهرجة وصراعات، ومصائب، هذا الذي سيكون يعلمه الله سبحانه وتعالى .

المعنى الرابع : المستقدمون في الطاعة والمستأخرون عنها:

الله سبحانه وتعالى يعلم المستقدمين في الطاعات والخيرات، فلان تقدم إلى الطاعة والخير، وفلان تأخر عن الطاعة، وتأخر عن الخير، فوقع في المعصية والضرّ والأذى، التقدم إلى الطاعة و الخير يعلمه الله، والتأخر عن الطاعة إلى المعصية وعن الخير إلى الشر يعلمه الله سبحانه وتعالى، وهذا هو المعنى الرابع .

المعنى الخامس : المتقدمون في الجهاد في سبيل اللهوالمستأخرون ::

وأما في صفوف الحرب فالله سبحانه وتعالى يعلم المتقدمين الذين يضعون أرواحهم على أكفهم، ولا يهابون الموت، والذين يبيعون أنفسهم في سبيل الله، ولقد علمنا المستقدمين منكم في الحرب، ولقد علمنا المستأخرين الذين يخشون الموت .

هذا الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن رواحة حينما جاء دوره في قيادة الجيش، يعني صاحباه قتلا فلما جاء دوره يبدو أنه تهيب، فتردد ثلاثين ثانية، فقال :

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت وإن توليت فقد شقيــت

***

فركب فرسه، وقاد الجيش، وحمل الراية، وقاتل بها حتى قتل .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

قال عليه الصلاة والسلام وهو في المدينة :

((أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم سكت النبي عليه الصلاة السلام، فقلق أصحابه على أخيهم عبد الله بن رواحة، فقالوا : يا رسول الله : ما فعل عبد الله ؟ قال : ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازورارا عن صاحبيه))

يعني هبط مقامه درجة بهذا التردد .

[القصة بلفظها وتمامها في السيرة النبوية لابن هشام]

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

أحياناً يعرض عليك عمل صالح تقول: دعني أفكر، وتتردد، وأحياناً يعرض على آخر عمل صالح، فيبادر دون تردد .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

فمن معاني هذه الآية : المستقدمين في الطاعة والخير، والمستأخرين عن الطاعة إلى المعصية، وعن الخير إلى الشر، ولقد علمنا المستقدمين في صفوف الحرب، والمستأخرين المتقاعسين عن لقاء العدو .

المعنى السادس : المستقدمون في الصلاةوالمستأخرون عنها :

والمعنى السادس : ولقد علمنا المستقدمين في الصلاة، هذا الذي يلبي نداء المؤذن، ويصلي الصلاة في أول الوقت، أو هذا الذي يصلي في أول صف، أو هذا الذي يصلي قرب الإمام، فمن أدرك الصلاة في أول الوقت، وفي الصف الأول، وقرب الإمام فقد حاز ثلاث فضائل : فضيلة تلبية النداء، والصلاة في أول الوقت، وفضيلة الصلاة في الصف الأول، وفضيلة الدنو من الإمام .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

المعنى السابع : أول الخلق وآخرهم :

والمعنى الأخير: أن المستقدمين هم أول الخلق، والمستأخرين هم آخر الخلق، كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: << القرآن حمال أوجه >>، القرآن ذو وجوه .

لكن مرة قال لي أحدهم: لم لا تذكر لنا بعضاً من أسباب النزول؟

أنا أتمنى أن أقدم لكم أجمل ما في الكتب، وأوجه ما في الكتب، لكن سبباً من أسباب النزول إن لم يصح سنده، ولم تثبت روايته، ربما أفسد المعنى، فإني لا أذكره، فمثلاً جاء في أسباب نزول هذه الآية أنه كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي امرأة حسناء من أحسن الناس وجهاً، تصلي خلف رسول الله، وخلف صفوف الرجال، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في صف الرجال المتأخر، حتى إذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله عز وجل :

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

هذا شيء لا يصح في حق أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، هؤلاء العلماء الحكماء الذين كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، مع أن الفقهاء اتفقوا جميعاً على أن المرأة إذا حاذت الرجل فسدت الصلاة، ولتكن الزوجة، أو لتكن الأخت، فكيف تصلي هذه المرأة الحسناء التي هي من أحسن الناس وجهاً خلف رسول الله بين الصحابة، وصحابي يتقدمها لئلا يراها، وصحابي يتأخر بنية أنه إذا ركع نظر إليها من تحت إبطه، هذا لا يليق بأصحاب رسول الله، ولعل هذه الرواية لا تصح، أو لم تثبت من

حيث السند، أو أنها قد دست في هذا الكتاب، على كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوان الله عليهم كانوا علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، كانوا ورعين .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

أفضل أوقات الصلاة أول الوقت :

شيء آخر، تدل هذه الآية على أن أفضل وقت الصلاة أن تصلى في أول الوقت، وقد قرأت حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه من أخر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره، فإن كنت غير مشغول فالأولى أن تصلي الصلاة في أول الوقت، أن تلبي نداء المؤذن، يقول لك: حي على الصلاة، حي على الفلاح، أي: أقبل، حي اسم فعل أمر، معناه أقبل، يعني أيها الإنسان أقبل على الصلاة، أقبل على الفلاح، الله سبحانه وتعالى يدعوك كي تقف بين يديه لتتصل به، وتقبل عليه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[متفق عليه]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثَلَاثًا، وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ))

[مسلم]

هؤلاء الذين يجلسون في الصف الأول يجب أن يكونوا من النخبة، ومن صفوة القوم، لأن هذا المكان القريب له أهله، من هنا يروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول لفلان: تقدم، ولفلان تأخر .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ(24)وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

لابد من المحشر :

وبعد؛ فلا بدّ من المحشر كما أخبر الله سبحانه وتعالى، فلو أن الإنسان مات غرقاً، أو مات حرقاً، أو مات في الجو، يقال مثلاً: الطائرة سقطت، وقد مات جميع ركابها، يعني احترقوا في الجو، إن الإنسان كيفما تكون ميتته فلا بدّ أن يحشره الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:

(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تمنعت بالحجاب والحـــرس

فما تزال سهام الموت نـــافذة في جنب مدرع منها و محتــرس

أراك لست بوقاف ولا حـــذر كالحاطب الخابط الأعواد في الغلس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكــها إن السفينة لا تجري على اليــبس

***

(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

عملك مسجل صورة وصوتاً، وبالألوان الطبيعية، وسوف يعرض عليك يوم القيامة، فإن كان هذا العمل كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، والقبر صندوق العمل، اعمل ما شئت فإنك مجزي به، من هو الفائز ؟ الذي له عمل يرضي الله عز وجل، من هو الشقي ؟ الذي له عمل يسخط الله سبحانه وتعالى، ولأن يسقط الإنسان من السماء فتنكسر أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله .

(وَإِنَّ رَبَّكَ)

مدلول كلمة الرب :

كلمة (رب)الذي أمدك بالحياة، الذي أمدك بكل شيء، أمدك بزوجة وبنين، أمدك بهذا الفكر تعيش به، أمدك بهذه القوة، أمدك بهذه المحاكمة، أعطاك الخبرة، أعطاك إتقان عمل تعيش به، الذي أمدك، والذي عالجك في الدنيا، وكلما انحرفت قوم انحرافك .

(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

الرب يعلم كلَّ شيء :

يعني يعلم السر وأخفى، قد يحشر الإنسان لإنسان، ولكن هذا الذي حشر إليه لا يعلم ماذا اقترف، هو يحشرهم إنه حكيم عليم، يعلم ما يكون، وما كان، يعلم خائنة الأعين، يعلم كل شيء .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ

آدم أول البشر ، ومحمد عليه الصلاة والسلام أفضلهم :

الإنسان في هذه الآية المقصود به سيدنا آدم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ، وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَلَا فَخْرَ))

[الترمذي]

النبي عليه الصلاة والسلام أول خلق الله رتبة في الفضل، وأن آدم عليه السلام يليه في المرتبة، يعني سيدنا آدم أفضل الناس كلهم إلا النبي عليه لصلاة والسلام، النبي في الأول، وسيدنا آدم بعد النبي، آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة ولا فخر .

وسمي آدم آدمَ لأنه خلق من أديم الأرض، وأديم الأرض ترابها .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ)

المقصود بالإنسان آدم عليه السلام .

الصلصال والحمأ المسنون :

والصلصال هو الطين اليابس .

(مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

والحمأ هو الطين الحر الأسود، والمسنون المتغير، وإليكم بعض ما قاله العلماء حول معنى كلمات هذه الآية :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

الصلصال الطين الحر، خلط بالرمل، فصار يتصلصل إذا جف، معنى يتصلصل: يرن، ويحدث صوتاً كالصلصال، فإذا طبخ في النار فهو الفخار، من حمأ، وهو الطين الأسود، المسنون المتغير، هذا شيء مغيب عنا، ولا سبيل إلى معرفته إلا الخبر الصادق، والله سبحانه وتعالى وهو خالقنا وخالق آبائنا وأجدادنا، وخالق أبينا آدم عليه السلام يقول :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ

في رأي بعض المفسرين أن الجان هو أبو الجن، كيف أن آدم عليه السلام هو أبو الإنس، والجان هو أبو الجن .

(وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ)

الجن مخلوق قبل الإنس :

يعني أن الله عز وجل خلق الجن أولاً، ثم خلق الإنسان ثانياً، لذلك لما ربنا عز وجل قال :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)

(سورة البقرة :30)

كيف عرفوا ذلك ؟ معنى ذلك :

(وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة :30)

معنى ذلك أن الجن خلقوا قبل الإنس، وأن الملائكة قاسوا على الجن .

(وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)

من نار السموم :

والسموم الريح الحارة التي تحرق كل شيء، أو النار التي لا دخان فيها .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(28)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ

الله خلق كل شيء في أحسن تقويم :

خلقته على أحسن مثال، خلقته في أحسن تقويم، خلقته خلقاً لا يحتاج إلى تعديل، ولا إلى تبديل .

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ(1)وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ(2)وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ(3)وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(4)عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(5)يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(6)الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ(7)فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

(سورة الانفطار)

معنى تسوية الخلق :

معنى سويته يعني أن الأيدي مسواة، المفاصل في الأماكن المناسبة، هذا الرسغ مكانه مناسب، وحركته مناسبة، وهذا المفصل يقف عند هذا الحد يقفل هنا، أما الركبة فتقفل نحو الأمام، خلقك فسواك، الرقبة تدور 170درجة، وهناك حكمة بالغة من دورنها 170 درجة لا 180درجة، وكيف أن العمود الفقري، وهو الذي يحوي النخاع الشوكي عبارة عن فقرات متمفصلة تمفصلاً جزئياً حيث يستطيع الإنسان أن ينحني .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

كيف أن الجمجمة قد خلقت على شكل سطوح منحنية متداخلة بعضها في بعض، وأن هذه المفاصل الثابتة تقي الإنسان كسر الجمجمة، لأن الضربة الشديدة تجعل هذه المفاصل تتداخل، هذا التداخل هو امتصاص للصدمة، خلقك فسواك .

كيف أن هذا الفك الأسفل يتحرك، لو أن هذا الفك الأسفل ثابت مع الرقبة، والذي يتحرك هو الأعلى لكان منظراً بشعاً وقبيحاً، الأنف في مكانه الصحيح، وفي الطول المناسب، والمقدمة غضروفية، لو أن العظم ينتهي إلى هنا، يعني إلى مقدمة الأنف فلا بدّ عندئذٍ من كسر بشكل أو بآخر، لكن المنطقة الحساسة التي يمكن أن تصطدم مؤلفة من مادة غضروفية خلقك فسواك .

وأن هذه العين جعلها الله في مغارة، حصن حصين، لو تلقى الإنسان ضربة، أو وقع على الأرض فعينه في مأمن، هذه العين خطيرة الشأن جداً جعلها الله في مأمن، وهذا الدماغ خطير جداً جعله الله في مأمن وبينه وبين الجدار سائل يمتص الصدمات .

وهذا القلب البالغ الأهمية جعله الله في القفص الصدري، وهذا النخاع الشوكي الخطير جداً جعله الله في العمود الفقري، وهذا الرحم الخطير جداً جعله الله في الحوض في مكان مكين، ومعامل كريات الدم الحمراء خطيرة جداً جعلها الله داخل العظام .

وعظام الفخذ تنتهي برقبة، هذه الرقبة تتحمل مئتين وخمسين كيلوًا ضغط، والإنسان يتحمل نصف طن ضغطًا من الأعلى، ولا تنكسر هذه العظام، هذه الغضاريف، هذه المفاصل، محافظ المواد السائلة الهلامية، الروابط، العضلات .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)

هل بلغكم أن الإنسان طرأ على خلقه تعديل، صنع الإنسان آية كبرى على عظمة الله سبحانه وتعالى، انظر إلى سيارة أول ما صنعت، شيء يضحك أن العجلات من الخشب، وأن الإضاءة عن كطريق الفوانيس، وأن لهذه السيارة حركة واحدة بطيئة، ولها صوت يملأ الدنيا صخباً، وانظر إلى سيارة

صنعت في عام 1986، الإنسان صنعته تتكامل، لكن الله سبحانه وتعالى هو المطلق، فخلق الإنسان كامل لم يطرأ عليه لا تغيير، ولا تبديل، ولا تعديل، ولا إضافة، ولا حذف .

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل 88)

إتقان الصنعة دليل على وجود الله عز وجل .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

للإنسان روح :

هذا الإنسان من عظام ولحم، ودم وشرايين، وأوردة وأجهزة، ما الحياة ؟ كيف يمشي ؟ كيف يتكلم ؟ كيف يفكر ؟ كيف يرى كيف يدرك ؟ كيف يحاكم ؟ كيف يسمع ؟ إلى أخره هو الحياة، هذا الذي فقد روحه ماذا فقد ؟ لم يفقد أي شيء مادي، لكن الروح فقدت فأصبح جثة هامدة، الإنسان يملأ البيت أنساً وجمالاً، فإذا مات يتمنى أقرب الناس إليه أن يخرجوه من البيت، وأن يدفنوه قبل أن تتفسخ جثته . حدثني أخ عن بيروت أيام الحوادث أن شخصاً توفي في بيته، والطرقات كلها مقطوعة، والقنص على أشده، والحركة واقفة، تحمّله أهله يومين، ثم ألقوه من الشرفة إلى الأرض، أب يملأ البيت أنساً وسعادة، فلما سحبت منه الروح، ماذا فعل أقرب الناس إليه من زوجته وأولاده؟ قرروا أن يلقوه من الطابق الرابع، هكذا على الأرض، لأن الطرق مقطوعة، لم يتحملوا رائحته بعد الموت .

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(6)الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

(سورة الانفطار)

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل 88)

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)

الروح تكريم للإنسان :

هذه الروح من أوجه التفسيرات أنها هي الحياة، الله سبحانه وتعالى نفخ فينا من روحه، أما كلمة (من روحي)فهذا تكريم للإنسان، وتشريف له، واصطفاء له، نسب الروح لذاته .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)

هو مكرم، لقد قبل أن يحمل الأمانة، قال تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

فلما حملها الإنسان استحق أن يكون مكرماً .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء)

أنت مكرَّم فاعرف شأنك وقدرك :

أنت مكرم، ليتك تعرف نفسك، ليتك تعرف شأنك عند الله، ليتك تعرف المهمة التي خلقت من أجلها، ليتك تعرف أنك ابن عمرٍ، فكيف تمضيه ؟ وليتك تعرف طريقة لتمضي بها هذا العمر، وأن هذا الوقت وهو عمرك سيحدد مصيرك، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار محرقة تنضج الجلود، وتلفح الوجوه، لا ينفد عذابها، ليتك تعرف من أنت ؟

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة ؟.

(نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

(سورة الحشر : 19)

أنساهم الله أنفسهم، يعني لما نسيت الله فقد جهلت نفسك من أنت؟

قد يقول لك قائل: الإنسان حيوان ناطق، من قال لك: إن الإنسان حيوان؟ الإنسان إنسان مكرم، هذه الحيوانات أمام عينيك، نوع القردة، نوع الدواب هل تغيرت حياتهم؟ هل أعطوا هذا الفكر الذي أعطيته؟ هل طوروا حياتهم؟ هل سكنوا في البيوت؟ هل ارتدوا الثياب؟ هل نظموا حياتهم؟ الإنسان ليس حيوانًا ناطقًا، وليس حيوانًا اجتماعيًّا، الإنسان إنسان .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

أمر الله للملائكة والجن بالسجود لآدم سجود تحية :

العلماء قالوا : هذا السجود سجود التحية والتكريم، وليس سجود العبادة .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ))

[مسلم]

والإمام علي كرم الله وجهه يقول: << ركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الإنسان من كليهما، فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإذا سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان >> .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

إن الإنسان إذا عرف الله عز وجل فاق بهذه المعرفة الملائكة المقربين، ما من مخلوق يفوق الإنسان المؤمن، فإذا هوى كان في أسفل سافلين .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(6)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

إما أن يكون الإنسان خير البرية، وإما أن يكون شر البرية، والإنسان إما أن يكون براً تقياً كريماً على الله، وإما أن يكون فاجراً شقياً هيناً على الله .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

يعني أمر بالسجود، سجود التكريم لعلمه بأسماء الله الحسنى .

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

من قال لكم: إن الشيطان من الملائكة فقولوا له: ليس كذلك، والدليل هذه الآية :

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(30)إِلَّا إِبْلِيسَ)

هذا الاستثناء يسميه علماء النحو استثناءً منقطعاً، يعني أن الملائكة وإبليس اشتركا في أمر السجود، ولم يشتركا في طبيعة الخلق، كأن تقول: حضر الطلاب إلا المدرس، فالمدرس ليس طالباً، المعلم معلم، والطالب طالب، إلا أنهما اشتركا في الحضور، فاستثنيت المعلم استثناءً منقطعاً .

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(30)إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(31)قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(32)قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

هذا هو الوهم الذي جعل إبليس يأبى السجود :

توهم إبليس الذي خلقه الله من النار أن النار أشرف من الطين، لذلك كبره واستعلاؤه ونظره لذاته حجبه عن حقيقة آدم، فأبى أن يسجد له، هذا الكلام ماذا يفيدنا؟

لا ينبغي للمؤمن أن يجعل بينه وبين الحق حجابا :

أحياناً يكون مال الإنسان حجاباً له عن اتباع الحق، هذا الذي يتكلم فقير، وأنا غني، أيعقل أن أجلس في مجلسه ؟ هذا الذي يتكلم ضعيف، وأنا قوي، أيعقل أن أستمع له، لا تجعل المال والجاه حجاباً يحجبك عن الحق، إبليس ما الذي أهلكه؟ أنه نظر إلى النار وتوهمها أنها خير من الطين، فكيف يعقل أن يسجد له؟ أما المؤمن فلا يجعل شيئاً يحجبه عن الحق .

فهذا سيدنا العباس عم رسول الله، سئل مرة : أيكما أكبر أنت أم رسول الله ؟ فقال رضي الله عنه : هو أكبر مني قدراً بلا شك، وأنا ولدت قبله.

المؤمن الصادق لا يجعل من السن حاجزاً، ولا من المال حاجزاً، ولا من الجاه حاجزاً، ولا من النسب حاجزاً، ولا من القوة حاجزاً، اسمعوا، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((اسْمَعُوا، وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

[البخاري]

أنت عبد للحق، أينما كان الحق فأنت تابع له .

في بعض الأحيان يرى الإنسان عُلوَّ نسبه، ويقول : أنا منسوب، لكن عملك غير طيب .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ، وَخَصَّ، فَقَالَ :

((يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

[مسلم]

هذه الآية مغزاها أن الإنسان قد يهلكه نسبه، أو ماله، أو علمه، يحمل شهادة عليا، هذه الشهادة جعلته يتوهم أنه أعظم الناس، وهو ليس كذلك، شهاداته أو نسبه أو أمواله أو وظيفته أو قوته، هذه كلها أقنعة مزيفة .

عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ : لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ...))

[البخاري]

هذه جاهلية، أن تعتد بنسبك، أو بمالك، أو بقوتك، أو بصحتك، أو بشكلك، أو بمنصبك، أو باختصاصك، هذه كلها حجب .

ربنا عز وجل ذكر حجاباً واحداً، وعلى هذا فقس، ذكر حجاباً واحداً، وأنت قس على هذا الحجاب كل الحجب، ويا عبد الله، إياك أن تغترّ بهذه الأقنعة المزيفة، هذه كلها تنتهي عند الموت .

لا تقل : أصلّي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(32)قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(33)قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

معنى : رجيم :

معنى رجيم أي : أنت في الأرض، ولن تستطيع أن تصل إلى السماء، فإذا سولت لك نفسك أن تصعد إلى السماء جاءك شهاب ثاقب فأحرقك، إذاً ابق في الأرض، السماء محرمة عليك، هذه للملائكة، ولعبادي المؤمنين .

(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(34)وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

معنى اللعنة :

اللعنة تعني البعد، والله الذي لا إله إلا هو لو أنك حصلت الدنيا بأكملها، وأبعدك الله عن حضرته فأنت أشقى الأشقياء، ولو خسرت الدنيا كلها، وقربك الله إليه فأنت أسعد السعداء .

(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(34)وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ(35)قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(36)قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنْظَرِينَ(37)إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(38قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

المقولة الإبليسية على لسانسفهاء الإنس :

من يقول : إن الله أغواه فشيخه في هذه المقولة إبليس، لأن إبليس ماذا فعل؟ نسب غوايته إلى الله عز وجل .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا)

(سورة الأنعام 148)

وهذا إبليس يقول : بما أغويتني، مع أن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود 119)

خلقنا ليرحمنا .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

ليعبدوني، ليتعرفوا عليّ فيستقيموا على أمري، فأسعدهم .

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)

معنى الإغواء :

يعني أغريهم في الدنيا، أجعل أحلامهم كلها في الدنيا، يحلم ببيت فخم مزين، يحلم بسيارة فاخرة، بزوجة جميلة، بمنصب مرموق، بجاه عريق، بنزهات بحفلات بسهرات، بأماكن الاصطياف الجميلة، يعني يحلم بالدنيا .

(لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

هذا هدف الشيطان، أن يحبب الدنيا إلى الناس، وأن يغريهم بها، وأن يغشهم بها، مع أن الدنيا تغر وتضر وتمرّ، أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدري، وتمرري، وتضيقي على أوليائي حتى يحبوا لقائي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا))

وَفِي رِوَايَة :

((كَفَافًا))

[مسلم]

هذه دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

أيها الإخوة الأكارم، كلمة(بما أغويتني)لا بدّ من توضيحها بمثل .

طالب في صف مدرسي يقصر، لا يدرس، ولا يكتب، ولا يذاكر، ولا يحفظ، يأتي الامتحان فيأخذ علامة الصفر، إذاً يستحق الرسوب، فيأتي المعلم، ويكتب على جلائه : رسب في صفه، من الذي رسبه؟ المعلم، لماذا رسبه ؟ لأنه كسول، فالرسوب كسب من الطالب وفعل من المعلم، فإذا قال الطالب للمعلم : لقد رسبتني فكلامه صحيح، والمعلم هو الذي رسبه، ولكن لماذا رسبه ؟ لأنه كسول .

فكل شيء ينسب إلى الله فعلاً، من فعل هذا ؟ الله سبحانه وتعالى، لماذا فعله ؟ وفق العدل والاستحقاق، هذا أوضح مثال يفسر هذه الآية .

(رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي)

الغواية فعلاً، كأن يقول: لمَ رسبتني؟ قصر في الدراسة، فاستحق الرسوب، فرسبه المعلم، فقال للمعلم: بالذي رسبتني به سأغري جميع الطلاب ليكونوا كسالى مثلي .

(قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنْظَرِينَ(37)إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(38)قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(39)إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ)

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ

هؤلاء المخلصون لا أستطيع أن أفعل معهم شيئاً، المخلَص اسم مفعول، والمخلِص اسم فاعل، المؤمن مخلِص ومخلَص، لأنه مخلص لله عز وجل، أقبل عليه، فطهر نفسه من كل أدرانها، فصار مخلصاً من كل شائبة، أخلص من أجل أن تخلص، كن مخلِصاً من أجل أن تكون مخلَّصاً، إذا أخلصت في طاعتك أقبلت على ربك، فإذا أقبلت عليه فإن نوره طهر قلبك، فأصبح قلبك مخلَصاً له اسم مفعول .

(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ(40)قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ(41)إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ

الفائدة من إضافة العبد إلى الله :

أيضاً عباد الله الذين عرفوه، وعبدوه، وانقادوا له، نسب العبد إلى الله نسبة معرفة بعبوديته، ونسبة طاعة له، ونسبة محبة له، ونسبة اهتداء بهديه، إن عبادي هؤلاء الذين عبدوني هؤلاء الذين عرفوني، هؤلاء الذين استقاموا على أمري، هؤلاء الذين أقبلوا علي، هؤلاء الذين تقربوا إلي بالأعمال الصالحة .

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

لن تستطيع إن تفعل معهم شيئاً .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم 22)

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ)

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : 5)

غوى فاتبع الشيطان، إذاً الشيطان لا يضل أحداً، لا يضل إلا الضال، إذا ضل الإنسان عن الله عز وجل يأتي الشيطان فيضله، بمعنى يزين له الدنيا، ويغريه بالسيئات والمعاصي، لا يستطيع الشيطان أن يصل إليك إلا إذا كنت ضالاً من قبل .

(إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ(42)وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ(43)لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ)

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ(43)لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ

معنى الأبواب السبعة :

من التفاسير اللطيفة أن هذه الأبواب ليست على مستوى أفقي واحد، لا، بل فوق بعضها بعضاً، مثل الفرن، له أبواب بعضها فوق بعض، أعلى النار باب جهنم، وفوق جهنم في الأسفل، (الرتب في النار متنازلة لا متصاعدة) ، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها اللظى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، سبع دركات، وليست درجات، الدرجات في الجنة، والدركات في النار .

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ)

(سورة النساء 145)

(لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ)

وفي الدرس القادم إن شاء الله نتحدث عن المتقين الذين وصفهم الله بقوله :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(45)ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46)وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47)لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48)نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 45 – 77
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-12-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(45)ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ(46)وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ(47)لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48)نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

ربنا سبحانه وتعالى لحكمته كلما ساق لنا وصفاً أو مشهداً من أهوال يوم القيامة ساق لنا صورة مشرقة من أحوال أهل الجنة، فكما أن هناك صورًا مخيفة مرعبة فهناك صور مشرقة محببة.

ففي الدرس الماضي ربنا سبحانه وتعالى وصف أحوال أهل النار، وفي هذا الدرس يقول ربنا عز وجل

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

المتقون على نورٍ من ربهم :

من هم المتقون ؟ اتقى الشيء أي : تجنبه، كيف تتقي الأخطار ؟ لا بدّ من نور يكشف لك الطريق حتى تتقي به الأخطار، وهذا النور هو نور الله سبحانه وتعالى، قال عليه الصلاة والسلام :

((الصَّلَاةُ نُورٌ))

[مسلم عن أبي مالك الأشعري]

إنك إذا اتصلت بالله سبحانه وتعالى قذف الله في قلبك النور، بهذا النور تنكشف لك الحقائق، ترى الخير خيراً والشر شراً، الحق حقاً والباطل باطلاً، الضر ضراً والنفع نفعاً، قال تعالى :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

هناك البصر، وهناك البصيرة، فمن وهبه الله سبحانه وتعالى بصيرة فقد سعد في الدنيا والآخرة، قال تعالى :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : الآية 269)

المتقون عندهم رؤية صحيحة :

من أين تأتي الحكمة؟ من الرؤية الصحيحة، لماذا قال يوسف عليه السلام :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف : 23)

لأنه كان يملك الرؤية الصحيحة، من أين جاء بهذه الرؤية الصحيحة؟ من الله سبحانه وتعالى عن طريق الصلاة :

((الصَّلَاةُ نُورٌ))

[مسلم عن أبي مالك الأشعري]

كيف يقف الإنسان في الدنيا مواقف مشرفة؟ كيف يكون عفيفاً؟ كيف يترفع عن المال الحرام؟ كيف يستقيم على أمر الله؟ كل هذا بسبب رؤيته الصحيحة، من أين جاءت هذه الرؤية الصحيحة؟ من النور الذي قذفه الله في قلبه، من أين جاء هذا النور؟ من الصلاة، كيف اتصل بالله عز وجل؟ لأنه استقام، كيف استقام؟ لأنه فكر، تفكر فإنك تهتدي إلى أن لك رباً عظيماً، وهذا أمره، تستقيم على أمره، وتعمل الصالحات فتقبل عليه، فإذا أقبلت عليه قذف الله في قلبك نوراً، بهذا النور ترى الحق من الباطل والخير من الشر، عندئذ تصبح متقياً، المتقي هو الذي اهتدى بنور الله .

مرتبة التقوى فوق مرتبة الإيمان :

مرتبة التقوى فوق مرتبة الإيمان، يا من أقبلت على الله ارتقوا إلى درجة أعلى ألا وهي الرؤية .

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

(سورة الأنعام)

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الإسراء)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى)

(سورة طه)

إذاً ... المعول عليه أن تمتلك رؤية صحيحة، وهذه الرؤية الصحيحة تحتاج إلى نور إلهي .

أيها الإخوة الأكارم، كيف أن هذه العين ثمينة جداً، ولكن ما قيمتها من دون هذا الضوء، لو أنك تملك عينين براقتين حادتين من أعلى مواصفات العين جيدة جداً، ودخلت إلى غرفة مظلمة ما قيمتها !، كذلك

الفكر ما قيمته إن لم يكن معك نور من الله عز وجل، الفكر وحده يضل، ويزل، أما الفكر إذا دعمه النور الإلهي فإنه يرى الحق حقاً والباطل باطلاً .

فهؤلاء المتقون الذين تعرفوا إلى الله في الدنيا، وفكروا في ملكوت السماوات والأرض، فكروا في خلقهم، فكروا في طعامهم وشرابهم، فكروا في كل شيء حولهم، فاهتدوا إلى الله عز وجل، طبقوا أمره، وأقبلوا عليه فقذف الله في قلوبهم النور بهذا النور رأوا الحق حقاً، والباطل باطلاً، فصاروا متقين .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

مثلاً: كيف أن المجرم حينما يقدم على قتل رجل في هذه اللحظة يكون أعمى، لو أنه رأى أنه لا بدّ من أن يقبض عليه، وأن يساق إلى المشنقة ما أقدم على هذا العمل، إذاً هو في عمى، وعلى هذا فقس، ما من معصية يقترفها الإنسان إلا بسبب عمىً في قلبه، وما من طاعة يفعلها الإنسان إلا بسبب من الله سبحانه وتعالى قذف في قلبه النور .

فمواقف الإنسان خطيرة جداً، البشر جميعاً من بنية واحدة، ومن طبيعة واحدة، مفطورون على حب الكمال والسلامة، مفطورون على طلب السعادة، ولكن الأعمى منهم يضل سواء السبيل، والذي اهتدى بنور الله يرى الخير خيراً، والشر شراً، فلذلك :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

إنها جنات وليست جنة واحدة :

من معاني الجنات : أنها ليست جنة واحدة، لو أن الجنة التي وعدنا الله إياها جنة واحدة تمل، ما من شيء مهما بلغ مرتبة الإتقان الأمر يمل منه، لأن النفس الإنسانية تواقة إلى التجديد، فربنا عز وجل قال:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

جنة تلو جنة، وحالة فوق حالة، وسعادة بعد سعادة، هناك تطور، وتجدد مستمر، لولا هذا التجدد في الجنة لانقلبت الجنة جحيماً .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

كيف أن جهنم لها سبعة أبواب، الجنة لها عيون، عين الماء، عين ماء فرات عذب، وأنهار من عسل مصفى لذة للشاربين، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، أنهار من أنواع متباينة، ومختلفة، وفوق هذا كله نظرة إلى وجه الله الكريم، لذلك قال تعالى :

(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

من دون هذه الحالة الراقية جنة في الدنيا وجنة في الآخرة .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45)ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

معنى : ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ

تلقي السلام :

ادخلوا الجنة بسلام، بعضهم قال: يسلّم عليكم، يتلقون السلام من السلام، والسلام اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، الله عز وجل يلقي عليهم السلام .

السلامة من كل عيب :

وبعضهم قال :سالمين من كل عيب، لو أن فيهم عيباً لجعلهم في النار، لا يدخلون الجنة إلا إذا سلمت نفوسهم من السوء .

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

حالة السلام التي في أنفسهم هي حالة لا توصف، والأمن .

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

أهل الدنيا إذا حصلوا منها ما يشاءون فإن في أعماقهم قلقاً ووجلاً، إن في أعماقهم خشية من أن تزول عنهم الدنيا، من أن يموتوا يخافون الموت، ويخافون زوال هذه النعم، ويخافون أن يزحزحوا عن مكانتهم، ويخافون أن يفقدوا هذا الدخل الكبير، ويخافون أن تصاب زوجاتهم بأمراض وبيلة، إن قلقاً عميقاً في نفوسهم، ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يسمح للمؤمنين الأتقياء بدخول الجنة يدخلونها بسلام آمنين، ونعمة الأمن لا يعرفها إلا من فقدها .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ

لا شيء يعكر صفو أهل الجنةلأن الصحبة صافية قلوبها :

الغل هو الحقد، مما يعكر صفاء الدنيا المشاحنات والبغضاء، والحسد والغيبة، والنميمة والحقد، هذه كلها صفات تجعل من الدنيا شقاء، أما في الجنة :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ)

إن الإنسان أحياناً يسعد بنزهة، لا لأن المكان جميل، ولا لأن الطعام جيد، ولكن لأن الذين معه محبّون، الإنسان يسعد بصفاء إخوانه، وصدق طويتهم ومحبتهم، فمن فضل الله على المؤمنين في الجنة إضافة إلى عيون وجنات تجري من تحتها الأنهار، ومن متع لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إضافة إلى كل ذلك هؤلاء الذين هم في الجنة نزع الله ما في قلوبهم من غل، فلا حسد ولا غيرة، ولا حقد ولا شحناء، ولا استعلاء ولا ترفع، ولا بغضاء، كل هذه الأمراض التي يعاني الناس منها في الدنيا، وتنغص عليهم عيشهم فأهل الجنة في الجنة مبرؤون منها .

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا)

حتى إنك إذا سعدت في الدنيا فبسبب أن الذين من حولك يحبونك، وتحبهم ويثقون بك، وتثق بهم، ويؤثرونك على أنفسهم، وتؤثرهم على نفسك، هذا من أبرز أسباب السعادة في الدنيا، أما في الآخرة فهذه محققة تحقيقاً كاملاً .

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

نعمة التقابل في الجنة :

في الدنيا هناك مراتب، قد يكون هذا أعلى من هذا، إن فرق المرتبة تسيء للصغير، وتعطي الكبير حجماً فوق حجمه، لكن المؤمنين في الجنة يحتلون مناصب أو مراتب متساوية، أحوالهم في داخلهم، مراتبهم في إقبالهم ، وإقبالهم في الجنة بعضهم على بعض :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

حتى إن بعض المفسرين قال : لا يرى بعضهم ظهور غيرهم، دائماً متقابلين، هذا الوجه المقبل الوجه المشرق الوجه المنير هو الذي يواجه الأخ في الجنة .

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ)

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ

لا تعب في الجنة :

ليس هناك تعب، أي أنواع التعب منفي عن أهل الجنة، في الدنيا لو أن الإنسان حقق نجاحاً في الدنيا قد يقول : والله قد بذلت جهداً كبيراً، وكنت أسهر طوال الليل على إجراء الحسابات، لا بدّ من بذل الجهد حتى مع النجاح في الدنيا، لا بدّ من النصب لا بدّ من التعب، هكذا طبيعة الحياة الدنيا، لكن الجنة لا نصب فيها ولا تعب، حتى أبسط أنواع المس ملغي في الجنة .

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

لا خروج من الجنة :

عندما يكون الإنسان في مكان جميل فإنه يقلق حين يتركه ويغادره، أما أهل الجنة إذا دخلوا الجنة فما هم منها بمخرجين، هذه طمأنينة ما بعدها طمأنينة.

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)

(سورة الإنسان)

الله عز وجل سمى الجنة التي ينالها الإنسان ملكاً كبيراً، بفضل طاعته لله في الدنيا، دفع ثمن الجنة، فاستقامته في الدنيا، وعمله الطيب هو ثمن الجنة، لذلك قال الإمام علي كرم الله وجهه : " طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب " .

من السفاهة طلبُ الجنة من غير عمل :

من الذنوب أن تطلب الجنة من غير عمل، والمسلمون اليوم يتمنونها بالأمل، والله سبحانه وتعالى يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء 123)

ليست الجنة بالتمني ولكنها بالعمل :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 32)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

لكن لا ينبغي لكم أن تفهموا من كلامي هذا أن الجنة ليست برحمة الله، إنها بالعمل وبرحمة الله في وقت واحد، فالتوفيق بين المعنيين بسيط، فإذا وعد الأب ابنه أن يشتري له دراجة ثمينة إذا نجح بدرجة أولى، فإن مجرد النجاح لا يكفي للحصول على الدراجة، لو أن هذا الابن أمسك الجلاء، وذهب إلى بائع الدراجات هل يعطيه البائع دراجة لأنه نجح ؟ لا بدّ من أن يدفع الأب الثمن، فهذه الدراجة باجتهاد الابن وبفضل الأب، والمعنيان لا يتناقضان .

إذا قلت في بعض الدروس : ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون، فهذا لا يتناقض مع قول النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قالَ : لَا، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ))

[متفق عليه]

يعني ادخلوا الجنة بفضل الله، واقتسموها بأعمالكم، العمل والفضل يتكاملان، ولا ينقض أحدهما الآخر، إذاً :

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ(46)وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

سر سعادة المؤمنين في الدنيا كونهم إخوانا :

يستنبط من هذه الآية أن سرّ سعادة المؤمنين في الدنيا أنهم إخوان، هناك أخوة بينهم ومحبة، وإخلاص وتضحية ومودة، الإنسان قد يواجه متاعب الحياة كلها عن طريق مودته مع إخوانه المؤمنين، وقد تقسو الحياة على أحدهم ولو كان في بحبوحة إذا كان وحيداً مشرداً، لا يعرف قيمة الأخوة بالله إلا من ترك إخوانه المؤمنين، وسافر إلى بلد بعيد يحس بوحشة ما بعدها وحشة، يحس أن أثمن ما في الدنيا أخ في الله يمحضك المحبة والمودة، ثم يقول الله عز وجل :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

الغفور يغفر ويشفي من الأمراض النفسية :

الحقيقة أن الغفور الرحيم اسمان من أسماء الله سبحانه وتعالى، الاسم الأول أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يشفي النفس من أمراضها، فإذا كان الإنسان يعاني من أمراض نفسية يقول لك: أنا أحقد، أنا فوق

الناس، أنا أحب كل شيء لنفسي هذه الأعراض، هذه الأمراض لحسد الغيرة الاستعلاء الكبر الأنانية، لو أقبلت على ربك لشفاك منها، فهو الغفور يغفر لك، ويشفيك منها شفاءً أصيلاً .

الرحيم يتجلى على المؤمن بالنور :

أما الرحيم فيتجلى عليك بأنواره فتغدو من أسعد الناس، لا بدّ من أن تقول إذا كنت مؤمناً حقاً : أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحد أتقى مني، فإن لم يكن أحد أتقى مني، فأنا أسعد الناس .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

الإقبال على الله تطهير للنفس من كل مرضقلبي :

هذه النفس إذا ابتعدت عن ربها امتلأت شهوات خبيثة، تمتلئ أمراضاً وبيلة، لو أنك اطلعت على إنسان مقطوع عن الله هذا إنسان مريض، حقده مرض، استعلاؤه مرض، حسده مرض، كبره مرض، قسوة قلبه مرض، هذه كلها أعراض الإعراض، إذا أقبلت على الله غفر لك هذه الأمراض، وشفاك منها، وإذا أعرضت عنه ظهرت أمراض ما بعدها أمراض .

لذلك لو كان المرء ذكياً، لو كان في بحبوحة فإذا حاككته ترى البخل ترى الشح ترى الأنانية والاستعلاء، وترى الكبر، فإذا أقبل الإنسان على الله عز وجل طهره من كل هذه الأمراض .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

أقبل تر، أقبل تطهر، أقبل تسعد :

إلى متى وأنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول .

***

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

يقول: أنا الرحيم، أتجلى على قلوب عبادي المتقين فيذوقون طعم القرب، ومن ذاق طعم القرب عرف، والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف .

ألا تقولون في صلاتكم على النبي الكريم: اللهم صلِّ على أسعدنا محمد، هو أسعد الخلق قاطبة، وكلما اقتربت منه سعدت، والسعادة تتناسب طرداً مع إقبالك على الله، وإقبالك على الله يتناسب طرداً مع استقامتك وعملك الصالح، واستقامتك وعملك تتناسبان طرداً مع معرفتك، اعرف طبق أقبل تسعد .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

كل هذه الأحوال السيئة، تكون بسبب البعد عن الله سبحانه في بعض الأحيان تجد الإنسان يعيش بوحشة متشائماً سوداوي المزاج، يرى الشر في كل شيء، يرى الدنيا مظلمة، يرى المستقبل مغلقاً بسبب البعد عن الله عز وجل، لو أنه عرف الله لما تشاءم، لو أنه عرف الله ما كان سوداوي المزاج .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

أغفر لهم ذنوبهم أي : أشفيهم منها، وأرحمهم أي :أتجلى عليهم فيسعدون، وإذا تجلى الله على الإنسان اصطبغ بصبغته، وفي الأثر: " تخلقوا بأخلاق الله " .

المقبل على الله يشتق من أسمائه :

فكما أن الله عز وجل من أسمائه الرحيم لا بدّ للذي يقبل عليه من أن يشتق شيئاً من هذه الرحمة، علامة المصلي رحيم، إذا أقبلت على الكريم لا بدّ من أن تكون كريماً، إذا أقبلت على الحليم لا بدّ من أن تكون حليماً، إذا أقبلت على اللطيف لا بدّ أن تكون لطيفاً، إذا أقبلت على العدل لا بدّ من أن تكون عدلاً، فلذلك الإيمان ليس بالصلاة والزكاة، ولكن بالخلق الرفيع الذي يشتقه المصلي من جناب الله سبحانه وتعالى .

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

(سورة العنكبوت)

الصلاة تنهى، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[الطبراني في المعجم ، والسيوطي في الجامع الصغير]

الصلاة في جوهرها تطهر النفس من أدرانها، وتزكيها إلى خالقها، ولكن يا ترى هذا الرب الكريم الغفور الرحيم ماذا يفعل بعباده المعرضين الذين ابتعدوا عن جادة الصواب، الذين أداروا ظهورهم لهذا القرآن الكريم، الذين نبذوه وراء ظهورهم، الذين سخروا من دين الله سبحانه وتعالى، الذين اقترفوا المعاصي، ماذا يفعل الله بهم ؟ قال تعالى :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ

ائت طوعا قبل أن تأتي كرها :

إما أن تأتيني طوعاً فأغفر لك ذنوبك، وأطهرك، وأتجلى على قلبك، وأسعدك، وإلا فلا بدّ من أن أحملك على أن تأتيني، إما أن تأتيني طوعاً، وإما أن تأتيني كرهاً، إما أن تأتيني في سلام، وإما أن تأتيني بعد العذاب الأليم، إما أن تأتيني، وأنت معافى، وإما أن تأتيني بعد المصيبة الأليمة .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

لكنك أيها العبد إن لم تأتِه طواعية، إن لم تأتهِ من تلقاء نفسك، إن لم تأتهِ مبادرة منك، إن لم تأتهِ كذلك حملك على أن تأتهِ .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

من الممكن أن يصاب الإنسان بمرض عضال يجعله يتوب توبة نصوحاً، ممكن أن يفقد الإنسان ماله الحرام فيحمله على التوبة، ممكن أن يقذف الله في قلبه الخوف فلا ينام الليل، ممكن أن يصيبه بأعز أولاده، إن لم تأته طوعاً أتيته كرهاً .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو إن الله عز وجل عنده من الأدوية ما لا يعد ولا يحصى، ملايين من الأدوية، يعني كل شيء بيده، ممكن جهاز بأجهزتك يعطل ليس له حل، يمكن لحياتك الزوجية أن تفسد، دخلك يقل إلى درجة دون الخط الأحمر، كل شيء بيده، إذا تعطل شيء في الدماغ، وبينما أنت سائر في الطريق تفقد توازنك، تحذر من أن تمسك آلة لأنه لو جاءتك هذه النوبة والآلة في يدك قتلت نفسك، هناك أمراض وبيلة تصيب القلب والشرايين والدماغ والعضلات والأجهزة جميعها، أمراض تصيب من حولك من أفراد أسرتك، وأنت عنهم مسؤول .

وكذلك بالعمل، وبعلاقتك، بمن فوقك، ومن دونك من الزملاء، فالله عز وجل أدويته ناجحة وفعالة، الدواء دائم ومتوافر، فلما الإنسان ينحرف يأته الدواء من الله عز وجل .

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

هذا معنى الآية، عذاب الله عز وجل عذاب أليم بمنزلة الدواء لمن أعرض عن الله عز وجل .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

(وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ

الآن ربنا عز وجل سوف يورد لنا مجموعة من القصص، كل هذه القصص تؤكد أنه غفور رحيم، وأن عذابه هو العذاب الأليم .

(وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ(51)إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)

إبراهيم مع ضيفه :

ضيف إبراهيم امتنع عن الأكل:

طبعاً هذه القصة وردت في أماكن أخرى، في سورة هود وردت بالتفصيل، دخلوا عليه فقدم لهم طعاماً فلم يأكلوا، لما امتنعوا عن الأكل، وجل منهم، واضطرب من حالهم .

(إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)

خوف إبراهيم منهم :

أي : خائفون، لماذا لم تأكلوا ؟ قالوا :

(قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)

بشرى الملائكة لإبراهيم بالولد :

سيدنا إبراهيم بلغ من الكبر عتياً، بلغ سناً في المألوف والعادة لا ينجب فيها الأولاد، وبلغت زوجته سناً لا تنجب فيها الأولاد، ومع ذلك بشروه بغلام عليم، هو يتعجب فقال :

(قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ)

تعجب إبراهيم من هذه البشرى :

هذا استفهام مع تعجب، يعني كيف يكون ذلك ؟ أنا تجاوزت السن التي أنجب فيها الأولاد، وامرأتي كذلك فكيف تبشرونني بغلام عليم ؟

(قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ(54)قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنْ الْقَانِطِينَ)

الله على كل شيء قدير :

ربنا عز وجل الذي خلق الأجهزة التناسلية في الإنسان هو الذي جعل لها حداً، هو نفسه قادر على أن يرفع لها هذا السقف، وربنا عز وجل وضع في مبيض المرأة عدداً معيناً من البيوض كل شهر تنطلق بيضة من المبيض، وتشكل الدورة الشهرية إلى أن يأتي سن اليأس تنقطع الدورة، ما معنى انقطاع الدورة ؟ أن هذه البيوض التي في مبيض المرأة قد انتهت، وهذا من حكمة الله سبحانه وتعالى، لو أن للمرأة بيوضاً تتوالد كالرجل تماماً إذاً لأنجبت في أية سن، تصور امرأة في سن تسع وتسعين سنة حامل، لكن ربنا عز وجل لحكمة بالغة ورحمة منه بالأمهات جعل في مبيض المرأة عدداً محدوداً من البيوض، هذا العدد يستهلك في سن معينة، وسطياً في الأربعين تنتهي البيوض، فيقال: إن المرأة وصلت إلى سن اليأس، الذي خلق هذه البيوض قادر أن يخلق مزيداً في أية سن .

فبالعقل القضية سهلة، ويمكن عقلاً أن الذي صمم هذا التصميم أن يغير هذا التصميم، والذي رسم هذه الخطة أن يعدلها، قالوا :

(قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنْ الْقَانِطِينَ)

هذه والله آية لو عقلناها لسعدنا، هي قول الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم :

(قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ

لا تلتفت إلى كلام المثبطين :

وأنا أقول لكم هذا الكلام: أي إنسان يقول لك: الأمور صعبة، ونحن مقبلون على أزمات، العالم كله مقبل على كساد، مقبل على ارتفاع أسعار، مقبل على تضخم نقدي، هذا كلام بكلام، ولكن الله عز وجل يخلق من الضعف قوة، ومن الضيق فرجاً .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

وربنا عز وجل قال في آية دقيقة المعنى واضحة الدلالة :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

كلمة(مخرجا)معناها كان الأمر مغلقاً، إذا كان هناك أبواب مفتحة تقول: أين المخرج؟ متى تقول: أين المخرج؟ إذا كانت الأبواب كلها مغلقة، فربنا عز وجل لحكمة بالغة أحياناً يغلق لك الأبواب كلها، من أجل ماذا؟ من أجل أن تقرع باب السماء، أن تقرع الأرضي هناك نزعة أرضية، هناك شرك خفي فتغلق الأبواب إلى أن تقول: الأبواب كلها مغلقة، عندئذ تنظر إلى السماء، تقول : يا رب، ليس إلا أنت.

يروى أن رجلاً راود امرأة عن نفسها، وغلق الأبواب، فقالت له كلمة جعلته يخر مغشياً عليه: إن هناك باباً لا تستطيع أن تغلقه، إنه باب السماء، الله مطلع عليك .

فربنا حباً بنا يغلق الأبواب الأرضية كلها في وجوهنا من أجل أن نفتح بأيدينا باب السماء، من أجل أن نصطلح معه، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة .

(يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

كلمة (مخرجا)تعني أن هناك شيئًا مغلقًا، الطرق كلها مسدودة، والآمال كلها معدومة، إلى أن تقول: يا رب، فيقول لك الله : لبيك يا عبدي، لذلك إذا رجع العبد إلى الله عز وجل نادى مناد في السماوات والأرض : أن هنئوا فلاناً، فقد اصطلح مع الله .

أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو لو كان الصلح مع الله على مستوى ، أيّ واحد منكم لو أنه اصطلح مع الله تماماً، فتخلى عن كل المخالفات والمعاصي، وأخلص قلبه لله لحلت كل مشكلاته الأرضية، لقوله تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء)

لمصلحة من يعذبك الله عز وجل ؟ لا لمصلحة أحد إذا كنت على أمره مستقيماً، أبى الله إلا أن يجعل رزق عبد المؤمن من حيث لا يحتسب .

ورب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت و كان يظنها لا تفرج

***

كن عن همومك معرضاً وكِلِ الأمور إلى القضا
وابشر بخير عاجــل تنسَ به ما قد مـضى
فلرب أمر مسخـــط لك في عواقبه رضـا
ولرب ما ضاق المضيق ولرب ما اتسع الفضـا

الله يفعل ما يشـــاء فلا تكن معـــترضا

الله عودك الجمـــيل فقس على ما قد مضى

***

حوار بين إبراهيم عليه السلام والملائكة :

(قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ(56)قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

إبراهيم عليه السلام يسأل عن مهمة الملائكة عنده :

ما مهمتكم؟ ما شأنكم ؟

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ)

مهمة الملائكة إنجاء لوط وإهلاك قومه :

أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم، لندمرهم عن آخرهم .

(إِلَّا آلَ لُوطٍ)

هؤلاء المؤمنون سيدنا لوط ومن حوله من أتباعه الذين آمنوا معه، واستقاموا على أمر ربهم هؤلاء مستثنون من هذا البلاء، وهذه عقيدة أصيلة ينبغي أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى إذا أرسل بلاء عاماً، وكنت مستقيماً على أمره ينبغي أن تعلم أن الله سوف ينجيك من هذا البلاء .

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

الله ينجي المؤمنين في كل مكان وزمان :

قاعدة مطردة، مبدأ ثابت، الله عز وجل ينجي المؤمنين من كل كرب، كن مع الله تر الله معك، هذه الآيات القرآنية التي تأخذ شكل قواعد ثابتة وعامة، هذه الآيات مطبقة في كل مكان وزمان، مجتمع فيه اختناقات، وفيه أزمات فالمخرج تقوى الله سبحانه .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وعد إلهي، الوعد الإلهي هل يعطل؟ أو يلغى؟ أو يؤجل هذا مستحيل، الوعد الإلهي محقق في كل مكان على وجه الأرض، كن في أي مكان شئت لا بدّ من تنفيذ وعد الله .

قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

تشح السماء بالأمطار، فتنشأ نظريات مضحكة، هناك تصحر، هناك انتقال لخطوط المطر، تأتي أمطار فتسمع من يقول : سبحان الله، لم يأتِ كانون الثاني بعد، ولا موسم الثلوج والأمطار، إنهم نسوا أن الأمر بيد الله، أين هذه التوقعات السوداوية ؟ أين هذا التعديل لنظرية الأمطار ؟ كلها تلاشت .

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ(57)قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ(58)إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ(59)إِلَّا امْرَأَتَهُ)

قوم لوط سيدمرون عن آخرهم، إلا آل لوط، لأنهم عرفوا ربهم، واستقاموا على أمره .

(إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ(59)إِلَّا)

هناك استثناء في النجاة :

استثناء مركب، لك عندي عشرة دراهم إلا ثلاثة دراهم، إلا درهم، كم لك عندي؟ لك عندي ثمانية دراهم، لأن الاستثناء الثالث من الثاني، فامرأة لوط مدمرة مع قومها لماذا ؟ أعمال هؤلاء أعمال الفاحشة الشاذة، فما علاقة امرأة لوط، إنها لا ترضى هذا العمل بحكمها امرأة ؟ قال إنها تعاطفت مع قومها، ودافعت عنهم وأحبتهم، لذلك كل نفس تحشر على هواها، فمن هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، ومن أقام مع المشركين فقد برئت منه ذمة الله .

إذا كان قلبك معلقًا بالكفار وهاوياً لهم، مشيداً باختراعاتهم، تراهم أناساً يستحقون الحياة، إذا كان هذا حالك فهذا حال خطير، انظر إلى انحطاطهم الخلقي، انظر إلى انتشار الفاحشة عندهم، إلى تبادل الزوجات فيما بينهم، انظر إلى الخمور إلى المخدرات، إلى تفسخ العلاقات الاجتماعية، إلى انهيار الأسرة، انظر إلى الوجه الآخر من الصورة لا تكتفي بالأبنية الشاهقة والمواصلات والمعامل والسيارات انظر إلى شيء آخر، انظر إلى الوجه الآخر من الصورة .

إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ الْغَابِرِينَ

لهذا السبب حقَّ عليها العذاب :

لذلك امرأة لوط استحقت الهلاك، لا لأنها تفعل فعل قوم لوط، إنها امرأة، وهذا يتناقض مع طبيعتها، بل لأنها أحبت قومها، ودافعت عنهم، وأحبتهم، ووالتهم، وانتمت إليهم فاستحقت الهلاك معهم .

(إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ الْغَابِرِينَ)

معنى الغابرين يعني : أصابها غبار قومها، تقول : هذا شيء غابر، أي قديم، من أين جاء هذا المعنى؟ جاء هذا المعنى من أن الشيء القديم يعلوه الغبار، فإذا رأيت شيئاً يعلوه الغبار فهذا شيء قديم .

من أحَبَّ قوما ظالمين أصيب بغبارهم :

المعنى المستنبط من هذه الآية: أن محبتها لقومها جعلتها تصاب بغبارهم، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا آكِلُ الرِّبَا فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ))

[أحمد]

هناك غبار للربا، يقول بعضهم لك : ليس هناك بركة، لأن غبار الربا أصاب الناس جميعاً، العلاقات أكثرها ربوية .

(فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ(61)قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

حوار لوط مع الملائكة :

لوط لم يعرف أن ضيفه الملائكة :

معنى منكرون أي: ما عرفنا من أنتم، لأنهم لم يأكلوا ما عرف هويتهم .

(قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ)

الملائكة تخبر لوطا بوعيد الله لقومه :

نحن أتينا لنحقق الوعيد الإلهي الذي وعدهم به، وكانوا منه يضحكون، والآن تعد المرابي بهلاك ماله فيضحك، ويسخر من هذا الوعيد، وحينما يأتي هلاك المال يعرف أن الله حق .

(قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ)

هذا الوعيد الذي أو عدتهم به على لسان الله سبحانه وتعالى كانوا به مستهزئين، كانوا به ممترين .

(وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

وهلاكهم حق، والوعد صادق .

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ)

الملائكة تأمر لوطا بالخروج مع أهله ليلا :

سر بهم بعض الليل، سر وراءهم، واحفظهم، ولاحظهم، ولا تدع أحداً يفوتك منهم .

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ)

إياكم أن تلتفتوا إلى أرضكم إنها سوف تدمر عن قريب .

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ(65)وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ)

الله عز وجل أطلعه على أن قوم لوط سوف يهلكون عن آخرهم مصبحين، مع أول خيوط الفجر، عندما أقرأ مقالات عن تدمير هيروشيما فهذا شيء مذهل، مدينة مطمئنة ساكنة لمع في السماء ضوء خفيف قضى على ثلاثمئة ألف شخص في ثماني ثوانٍ .

(وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)

الشذوذ عند قوم لوط :

قوم لوط أسرعوا إلى بيته لإيذاء ضيفه :

تروي كتب التفسير أن امرأة لوط حينما رأت الملائكة على شكل شبان جميلي الصورة ممشوقي القوام أرسلت إلى قومها تدعوهم إليهم .

(وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(67)قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ)

جاءوهم ليفترسوهم .

لوط يذكّر قومه بحق الضيف :

قال :

(قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ)

والضيف مقدس حقه في الضيافة، وحقه الوفادة .

تهديد قوم لوط له :

(قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ(68)وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي(69)قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ الْعَالَمِينَ)

ألم نحذرك من أنها يجب أن تحول بيننا وبين ما نريد .

(قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ

هذه الآية بين الفهم السقيم والفهم الصحيح :

الحقيقة هناك أشخاص أساءوا فهم هذه الآية، لا يعقل لنبي كريم أن يقدم بناته ليفجر بهن أناس فجار فسقة، هذا شيء مستحيل لا يليق بالأنبياء، لكن العلماء حملوا هذه الآية على أن هناك بديلاً مشروعاً، يعني من أراد هذه الشهوة من طريق منحرف فهذا عمل إجرامي، هناك طريق مشروع، وهو طريق الزواج، الخالق الذي أودع في الرجال هذه الشهوة جعل لها طريقاً نظيفاً، وهي الزوجة، أما هم يريدون طريقاً آخر طريقاً قذراً منحطاً مخجلاً .

(قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

نكاح المرأة هو الطريق المشروع لإرواء الشهوة :

بمعنى أن المرأة هي الطريق المشروع لتحقيق هذه الشهوة، الزواج يهن وهذا ما تعنيه الآية الكريمة، وبعضه يقول عن هذه الآية : إن النبي الكريم يحس أن كل النساء في مجتمعه بمثابة بناته، يعني توبوا إلى الله، واستقيموا على أمره، ثم تزوجوا من النساء الطيبات المؤمنات، إما أن الآية حملت على معنى

أن كل فتيات قوم لوط هن بمنزلة بنات هذا النبي الكريم فتزوجوهن، أو أن كلمة بناته كناية على أن المرأة الزوجة هي الطريق المشروع لتحقيق هذه الشهوة، وهذا أمر فطري مشروع، وأما ما يريده قومه فهو طريق منحرف ينحدر بالإنسانية أغواراً في مهاوي الخنا ومسارب السَّفه .

(قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

عندئذ جاء القسم الوحيد في القرآن الكريم قال الله عز وجل :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ

الله يقسم بعمر النبي :

خالق السماوات والأرض يقسم بعمر النبي صلى الله عليه وسلم، هذا العمر الثمين الذي ما ضيع منه ثانية واحدة، انظروا إلى أعمارنا هناك أعمار تافهة، هناك أوقات طويلة يمضيها الناس في اللهو، في كلام لا طائل منه، قال عليه الصلاة والسلام :

((إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها))

(ورد في الأثر)

العلماء قالوا: ما من مخلوق، وما من نبي في القرآن كله أقسم الله بعمره إلا النبي عليه الصلاة والسلام، من هنا استنبط بعضهم أن هذه إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم هو سيد الخلق وحبيب الحق .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

أهمية العمر :

الواحد منا ألا يغار؟ هذا العمر كيف تمضيه؟ هل تسهر إلى الساعة الثانية في الليل تلعب النرد؟ هذا هو العمر الثمين ! لا والله، هل تمضي أياماً طويلة في مشاحنات لا طائل منها ؟ هل تدخل مع مسلم القضاء لتمضي ثماني سنوات في الخصام السفيه من أجل أن تمرغ أنفه في التراب؟ أهذا هو الإسلام! أهذا هو العمر الثمين! هل تقرأ قصة لا طائل منها؟ هل تقرأ كتاباً لا يقدم، ولا يؤخر، مثلاً تاريخ الإغريق؟ اقرأ عن تاريخ أصحاب رسول الله، هناك كتب غير مجدية، وعلم لا ينفع، إن رسول الله عليه الصلاة والسلام دخل إلى مسجده، ورأى الناس متحلقين حول رجل فقال :

((من هذا؟ قالوا: هو نسابة، فقال: وما نسابة؟ قالوا: هو رجل يعرف أنساب العرب، فقال عليه الصلاة والسلام : ذلك علم لا ينفع من تعلمه، ولا يضر من جهل به))

[ورد في الأثر]

وكان يدعو ويقول :

((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن عين لا تدمع، ومن أذن لا تسمع، ومن نفس لا تشبع))

[أبو داود عن أبي هريرة]

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

العاصون في سكرتهم يعمهون :

لو أنك رأيت إنساناً مندفعاً بدراجة في طريق منحدر، وفي نهاية الطريق حفرة سحيقة مليئة بالوحوش، هل تقول : هنيئاً له على هذا الاندفاع ؟ لا، تقول : الويل له .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

هؤلاء العصاة، هؤلاء المنحرفون، هؤلاء المقصرون،هؤلاء الزناة، هؤلاء المرابون، هؤلاء شاربو الخمر :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

أمامهم يوم تشيب لهوله سود النواصي، أمامهم يوم تشيب لهوله الولدان، البطولة أن تصل إلى هذا اليوم وأنت معافى .

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

والله إنه كلام يؤثر في الإنسان، هذا العمر كيف تمضيه؟ لك صلاتك، ولك وردك، ولك ذكرك، ولك قراءة القرآن، هل تمضي وقتاً في معرفة الله ؟ هل تفكر في آيات الله ؟ هل تدعو إلى الله ؟ ماذا تعمل ؟ نخوض، ونلعب كما يخوض الناس ويلعبون .

(قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(71)لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72)فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(73)فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)

بداية النهاية :

كل يوم نسمع بمثل هذه القصص :

لا تقل: هذه قصص ما سمعناها، تسمعها كل يوم، ثار بركان، واندفع ببولونيا فمات خمسة وثلاثون ألف إنسانٍ في ليلة واحدة، ثار البركان، وذابت معه الثلوج، وتشكلت الفيضانات والحمم تتساقط من أعلى، إما أن يموت المرء غرقاً أو حرقاً، بين الحين والحين نسمع أخبار الفيضانات والبراكين والزلازل والصواعق وما شابه ذلك، وربنا عز وجل قال :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72)فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(73)فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)

من شابه قوم لوط عوقبوا بمثل عقابهم :

لذلك فإن الفقهاء استنبطوا أن من يفعل فعل قوم لوط يجب أن يقتل بهذه الطريقة، و في كتب الفقه كلها أحكام مشابهة لهذا، فالذي يفعل فعل قوم لوط يلقى له من شاهقة، أو يلقى فوقه حجارة كما جاء في هذه الآية .

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74)إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

الذين يبحثون عن الحق، ويتوسمون الحق، فهذه آيات دالة على الحق يجدون فيها بغيتهم .

(وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ(76) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ(77)وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)

وأصحاب الأيكة نتحدث عنهم في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 72 – 84
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-12-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(67)قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ(68)وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ(69)قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ الْعَالَمِينَ(70)قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(71)لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ

هذه الآية كلام معترض بين آيتين، في سياق القصة قال الله عز وجل مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم مقسماً بعمره الثمين :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

كيف يمضي الإنسان عمره الثمين ؟

فهذا العمر الذي يعيشه الإنسان ستون أو سبعون عاماً، هذا العمر الذي كتبه الله لهذا الإنسان كيف يمضيه ؟

الأنبياء أمضوا هذا العمر في هداية البشرية، في نقلهم من الضلالة إلى الهدى، من الشقاء إلى السعادة، في تخليصهم من عقائد الوثنية، من ضلالات الشرك، من وحول الشهوات، من الخرافات والخزعبلات، وهناك أشخاص منهم هتلر مثلاً عاش عمراً، وانتهى هذا العمر، وترك وراءه خمسين مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية، إذا كان لكل قتيل أقرباء يزيدون على خمسة فمئتان وخمسون مليونًا من البشر قد أعطبهم، هذا عمر، فبم يذكر؟ وعمر النبي عليه الصلاة والسلام بهذه السنوات الثلاث والستين التي عاشها أنقذ الناس خلالها من الظلمات إلى النور، من الضلال إلى الهدى، من الانحراف إلى الاستقامة، من الشقاء إلى السعادة، لذلك استحق أن يقسم الله رب السماوات والأرض بعمره الثمين .

وهذا الكلام لنا علاقة به، هذا العمر الذي وهبنا الله إياه، وأحياه كيف أمضيه؟ ما الموضوعات الكبرى التي تستغرقه؟ كسب المال، تأمين الحاجات، الرفعة بين الناس، أم لك في الحياة رسالة تؤديها؟ ما رسالتك؟ ما الذي يعنيك في الحياة؟ هناك أناس لا تزيد اهتماماتهم على تأمين حاجاتهم، لذلك أحد

الشعراء في عهد سيدنا عمر قال بيتاً من الشعر نال به من كرامة بعض الناس فأدبه عمر رضي الله عنه وأدخله السجن بسببه، إذ قال لأحد الأشخاص متهماً إياه باستغراق وقته في الطعام والشراب مجرداً عن المحامد :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

من كان اهتمامه لا يزيد على تأمين الطعام والشراب وتامين حاجاته والخلود إلى الراحة والزينة، وما إلى ذلك فإن هذا العمر فارغ وتافه، عش سبعين أو ثمانين أو تسعين، هذه السنوات كلها لا تعني شيئاً إلا إذا كانت عامرة بالخير، إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها ودنيها، اسأل نفسك يا أخي هذا السؤال: أن ماذا فعلت؟ سؤال حرج، حجمك عند الله بحجم عملك، ما العمل الذي تستطيع أن تلقى الله به؟ ما العمل الذي تستطيع أن تعرضه على الله عز وجل ؟ ماذا فعلت ؟

لا أنسى مرة حينما حضرت فيها جنازة، وقام أحد العلماء ليؤبّن الميت، فقال: فلان مؤذن فقط، ما تمكن أن يضيف كلمة واحدة، مع أنني أعرف فلاناً رحمه الله كان يحضر معنا أحياناً، كانت حياته مرفهة، وكان دخله كبيراً، وكان يحب أهل العلم، وكان، لكن ماذا فعل ؟ هل هدى واحداً؟ هل أنقذ إنساناً؟ هل خلف علماً؟ هل خلف ولداً صالحاً ينتفع الناس به ويدعو له؟ هل ترك صدقة جارية؟ كان على المؤبّن في كلمته أن يذكر قبل هذه الأعمال إن وجدت .

هذا العمر لفت نظري في هذه الآية كلمة(لعمرك)، الله سبحانه وتعالى في عليائه يقسم بعمر هذا النبي الثمين .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

أردت أن أفصل في شرح هذه الآية، هناك عمر تافه، من العمل إلى البيت، يجمع المال، وينفقه على أهله من دون توجيه ولا تربية، ومن دون تأدية رسالة، دينه الدرهم والدينار، فهذا دينه الشهوات، أما هذا فدينه النفع في الأرض، وما إلى ذلك، لذلك فهذا الشخص الذي لا يفعل خيراً لا يساوي عند الله شيئاً، لا تعجب بهؤلاء الفارغين من فعل الخير لا بأموالهم، ولا بأولادهم، ولا ببيوتهم، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا، ولكن اعجب من الذي أمضى حياته في طاعة الله، وفي هداية الخلق، وفي التقرب إلى الحق .

عمر النبي كله خير :

النبي عليه الصلاة والسلام عاش هذا العمر، ما من كلمة نطق بها، وما من تصرف، وما من سكوت إلا كان له به هدف، حتى إن سكوته تشريع اللهم صلِّ عليه، إذاً نطقه تصرفاته سكوته كله خير ونفع وبر .

عرَّف علماء الحديث الشريف بأنه أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وإقراره، فمثلاً: لو أنه نظر إلى صحابي يفعل شيئاً، وسكت فسكوته تشريع، لأنه إذا سكت فمعنى ذلك أنه أقره على هذا العمل .

امرأة من خلف الستار كانت تمدح زوجها المتوفى في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام، فَعَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ امْرَأَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ، وَغُسِّلَ، وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي؟ قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[البخاري]

ما سكت عليه الصلاة والسلام، ولو سكت لكان قولها صحيحاً .

إذاً: هذا النبي الكريم أقواله أفعاله سكوته تصرفاته كلها كانت تشريعاً، جاء إلى الحياة وغادرها، وما أخذ منها شيئاً، لأن الدنيا جيفة طلابها كلابها، والدنيا دار من لا درا له، ولها يسعى من لا عقل له .

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي]

العمر أثمن شيء :

هذا الزمان الذي تمضيه هو أثمن ما تملك، فإذا انتهى فلا تملك شيئاً، وحينما تجلس على طاولة في الامتحان العام في صف التخرج، ويتوقف على تخرجك تحقيق آمال عريضة، إن هذه الساعات الثلاث هي وقت مصيري، فإذا أمضيت هذه الساعات في بعض الرسوم التي لا علاقة لها بالسؤال فهذا تضييع للوقت، لأن أثمن ما تملك هو الوقت، وهذا الكلام لكم أيها الإخوة، لأن أثمن شيء تملكونه هو الوقت .

أحد الصالحين كان يمشي في الطريق فرأى مقهى، ورأى أناساً يقبعون فيه يلعبون النرد، فقال : يا سبحان الله لو أن الوقت يشترى من هؤلاء لاشتريته منهم، المؤمن يتمنى أن يكون النهار خمسين ساعة حتى يحقق طموحه، يتمنى أن يتعلم كل شيء، يتمنى أن يخدم الناس جميعاً، يتمنى أن يصلي كل ليلة قيام الليل، يتمنى أن يحفظ القرآن غيباً، يتمنى أن يفهم التفسير فهماً كافياً، يعني نية المؤمن خير من عمله يحتاج هذا إلى وقت .

فالوقت أيها الإخوة، أثمن ما تملكونه، بل إن رابعة العدوية رضي الله عنها سئلت : ما الإنسان ؟

فقالت: هو بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه .

وأنت بين أيام ثلاثة، يوم انقضى لا يعود، ويوم مقبل مغيب عنك، ويوم تعيشه،

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

***

لك هذه الليلة، والليلة السابقة ليست لك، إن كانت في خير أو كانت في شر، إن أطعت الله فيها مضت، وإن عصيته فيها مضت، لا تندم على ما فات، ولا تقل : غداً، غداً لا تملكه فهو غيب، لا تملك إلا اليوم الذي أنت فيه، لذلك كلما استيقظ الإنسان صبيحة يخاطبه هذا اليوم فيقول : أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود .

وكلما استيقظ الإنسان من نومه يجب أن يأتي على خاطره ما يلي : لقد سمح الله لي أن أعيش يوماً أخراً في حياتي، ما دام قد استيقظ، فقد سمح الله به .

أيها الإخوة الكرام، لي صديق ذهب إلى فراشه الساعة الحادية عشرة، زوجته في الساعة الثانية بعد منتصف الليل مست يدها يده، فإذا هي باردة، فانتفضت من الفراش، فإذا هو ميت .

إذا استيقظ الإنسان من نومه صباحاً يجب أن يخطر على باله هذا الخاطر: لقد سمح الله لي أن أعيش يوماً آخر، أضيف إلى عمري هذا اليوم ماذا أفعل به؟ راقب نفسك كيف تمضي هذا اليوم؟ قد يمضي بأشياء تافهة، بمشاحنة فارغة، بخصومة سخيفة، بأعمال لا جدوى منها، بحديث فارغ، بجمع مال، بالحديث عن الدنيا وعن حطامها، هذا إذا لم يكن هناك معصية، هذا إذا أمضيت اليوم فيما لا يغضب الله عز وجل فأنت خاسر، فكيف إذا أمضيت اليوم في معصية؟ كيف إذا كنت غافلاً؟ كيف إذا كنت منحرفاً ؟ كيف إذا تجاوزت حدك إلى ما لا يرضي الله عز وجل؟ لذلك في الدعاء: لا بورك لي في يوم لم أزدد فيه من الله قرباً، ولا بورك لي في يوم لم أزدد فيه علماً، والمغبون من تساوى يوماه، ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان .

لا تفوِّت فرصة عمل صالح :

هذا التوجيه هادف، ولا ينبغي أن ينتهي مع نهاية الدرس، يجب أن تبقى هذه المعاني معكم طوال الأسبوع، هذه شحنة، غداً السبت استيقظت إن شاء الله، ماذا سأفعل اليوم من عمل يرضي الله عز وجل؟ ماذا سأفعل من عمل أدخره لآخرتي، ولما بعد الموت؟ إذا جاء ملك الموت فلسان حالك يقول: يا رب، قدمت هذا العمل، عدت هذا المريض لوجهك، عاونت هذا الفقير رغبة في مرضاتك، جلست في مجلس العلم حتى أتعرف إليك، قرأت القرآن، بررت أمي، خدمت والدي، دعوت إلى الله، أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، إذا استيقظت من منامك فانتبه أن هذا اليوم يوم جديد أضيف إلى عمرك، ولن يعود، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود، أمسك سيدنا عمر تفاحة فقال : أكلتها ذهبت أطعمتها بقيت .

ركبت سيارتك، ورأيت إنساناً يحتاج إلى أن توصله إلى مكان بعيد، ومعك وقت، هذه فرصة لعمل صالح لا تفوت، لك جار مريض عدته، وجدته بحاجة إلى طبيب، فأتيت له بالطبيب، وجدته بحاجة إلى الدواء، فأحضرت له الدواء، هذا عمل تدخره لما بعد الموت .

اعمل لما بعد الموت :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

معظم الناس يعملون لما قبل الموت، والمؤمن يعمل لما بعد الموت، إذا كان عملك لما قبل الموت عظيماً فينتهي بالموت، مهما كان عملك عظيماً ينتهي بالموت، مهما تركت من ثروة طائلة تنتهي بالموت .

يا أهلي يا، ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناءة لكم، والتبعة عليّ .

فهذا النبي الكريم كما قال عن نفسه صلى الله عليه وسلم :

((إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا))

[الجامع الصغير عن عطاء]

((أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني))

[الترمذي عن أنس]

ما غفل عن الله لحظة، ما نامت عينه، دائم الذكر، دائم الالتجاء، دائم الدعاء، دائم الرجاء، دائم التوكل، دائم التفويض، دائم التسليم، دائم الصبر دائم الشكر، هذا حال النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك استحق

أن يقسم الله بعمره الثمين .

معلوم لدى الجميع أن النبي عليه الصلاة والسلام بلغ سدرة المنتهى، وبلغ المقام المحمود، وكان أكرم الخلق على الحق، لا يحتاج إلى اعتراف بهذا المقام هو غني عن هذا، ولكننا نحن المحتاجون، إذا قلت: إنه أقسم بعمره الثمين فإنك لا تضيف شيئاً إليه، هو هكذا، هذه مرتبته وهذا مقامه، وقد فاز ونجح وكان سيد الخلق وحبيب الحق وانتهى الأمر، لن تضيف شيئاً بكل ما تقول، ولكن الذي يعنيني أنت الذي تعيش، الذي بين جوانحك قلب ينبض، أنت المعني كيف تمضي هذا العمر ؟ كيف أتحضر مجالس العلم! أمجلس العلم أغلى عليك من كل شيء ! معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى عظيم عندك .

أيها الإخوة الأكارم، هناك عمر تافه، وهناك عمر مليء بالشر والتجاوزات والطغيان، وهناك عمر مليء بالخيرات . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[الترمذي]

الذي أحب أن أقوله لكم، والحقيقة مرة دائماً، والأسئلة محرجة: اسأل نفسك: ما هو عملي الذي ألقى الله عليه؟ ما هو عملي الذي أدخره لآخرتي؟ ما العمل الذي يمكنني أن أعرضه على الله عز وجل؟ إذا كان مقامي عند الله عز وجل بحجم عملي فما هو عملي؟ هل تظن أنك إذا حضرت مجلس العلم، ولم تكن في مستواه أنك فعلت شيئاً عظيماً! ولكن ماذا فعلت من أجلي؟ هكذا في الحديث الشريف، هل واليت في ولياً؟ هل عاديت في عدواً؟ ماذا أنفقت من مالك من أجلي؟ ماذا أعطيت، هل منعت من أجلي؟ هل أعطيت من أجلي؟ ماذا فعلت من أجلي ؟

((يا رسول الله : جئت لتعلمني من غرائب العلم، قال : وماذا صنعت في أصل العلم، قال : وما أصل العلم، قال : هل عرفت الرب ؟ قال : ما شاء الله، فقال : ماذا فعلت في حقه ؟ قال : ما شاء الله، قال : هل عرفت الموت ؟ قال : نعم، قال : فماذا أعددت للموت ؟

[مسند الربيع عن ابن عباس]

هذا كله مستوحى من قوله سبحانه وتعالى :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

معنى : سكرتهم :

أما معنى سكرتهم : قال أحد الشعراء :

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى أفاقت من به سكران

السكر أنواع :

والسكر أنواع فبعض أنواع السكر أن يشرب الإنسان الخمر فتسكره، وبعض أنواع السكر أن يهوى شيئاً فهو سكران في محبته، وحبك الشيء يعمي ويصم، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، هذا سكران بحب الدنيا، وهذا سكران بحب متاعها وشهواتها، وللسكر نوع ثالث .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

(سورة الحج)

الناس أحياناً يسكرون بالعذاب، لشدة الهول يذهلون عن أنفسهم وعن أعز الناس عليهم، والهوى سكر، وهؤلاء قوم لوط سكارى بهذه الشهوات المنحرفة .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ)

هم الآن سكارى، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

قال ابن عباس رضي الله عنه : ما خلق الله، وما ذرأ، وما برأ نفساً أكرم على الله عز وجل من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره .

السكرة هي الضلال :

أما سكرتهم، فقال بعض المفسرين : ضلالهم .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

هم في ضلال ويلعبونى .

السكرة هي الحيرة :

وبعضهم قال : سكرتهم أي : حيرتهم، و يعمهون يترددون، إنهم لفي حيرتهم يترددون .

السكرة هي الشهوة المنحطة :

وبعضهم قال : سكرتهم أي : شهوتهم المنحطة هم سكارى بها، وقد تلتقي بإنسان سكران بشهوة ما، غائب عن كل شيء لا يرى سواها، لا يتحدث إلا عنها، لا يعنيه إلا أخبارها، لذلك الشهوات إذا

استحوذت على القلوب حجبتها عن علام الغيوب، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

وبعضهم فسر هذه الآية بأن هذه القبور هي قبور الشهوات، والإنسان قد يدفن في الحياة الدنيا في قبر شهوته، فإذا هو أعمى .

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

(سورة البقرة)

إنه مدفون في قبر الشهوة، هذا بالنساء، وهذا بالمال، وهذا بالعلو في الأرض، وهذا بمباهج الدنيا، وهذا بمتعها الرخيصة، وهذا بقصورها، وهذا بأسواقها .

كلّ شيء أقسم الله به فهو عظيم :

شيء آخر، هذا يقودنا إلى موضوع القسم، الله سبحانه وتعالى أقسم بعمر النبي صلى الله عليه وسلم، وبعض العلماء فهم هذا القسم فهماً دقيقاً فقال : ما من شيء أقسم الله به إلا وهو ذو شأن، فإذا أقسم الله عز وجل بعمر النبي صلى الله عليه وسلم فهل أقسم الله بشيء أعظم منه، لا، الإنسان حينما يقسم يقول: والله العظيم، فالإنسان إذا أقسم يقسم بشيء أعظم منه، لكن الله إذا أقسم فقسمه له معنى آخر .

قال بعض العلماء : ما من شيء أقسم الله به إلا ليدل على فضله على ما يدخل في عداده، يعني من يدخل في عداد المصطفى ؟ البشر كلهم لأنه بشر، فإذا أقسم الله بحياته فليدل بقسمه هذا على أن هذا الإنسان متميز على سائر البشر، إذا قال :

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

(سورة التين)

على هذا المعنى هناك أشجار كثيرة، لكن التين والزيتون يقعان في المقدمة، أشجار معمرة، وتؤدي غايات كثيرة، ولها منافع جمّة، وكذلك في السماء نجوم كثيرة، فإذا أقسم الله قال :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

فهذا القسم ليلفت نظر عباده إلى السماء، وأقرب النجوم لنا الشمس، فإذا أقسم الله بشيء فليدل على أنه أفضل مما يدخل في عداده، هذا بعض توجيه الأقسام الإلهية .

توجيه قسم الله بالمخلوقات :

وبعضهم قال : إذا أقسم الله بالشمس فهو يقول : ورب الشمس، ورب القمر، ورب السماء، ورب محمد، ورب هذا العمر الثمين، إما أن توجه القسم بإضافة كلمة (رب)

وإما أن القسم يفيد أن هذا الشيء الذي أقسم الله به يفوق كل ما دخل في عداده، وإما أن يقسم الله عز وجل بشيء هو بالنسبة لنا عظيم، لكن إذا قيس بالله عز وجل فو لا شيء، بالنسبة إلينا يقسم بالنسبة إليه لا يقسم، يقول :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الحاقة)

الكون كله دخل فيه .

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

فهذا توجيه ثالث، إذا أقسم بشيء فهذا الشيء بالنسبة إلينا، وإذا لم يقسم بشيء فهذا الشيء بالنسبة إليه، وإذا أقسم فليدلل أن كل ما دخل في عداده دونه، أو لك أن تضيف مع الأقسام الإلهية كلمة و (رب)، هذه ثلاثة توجيهات للقسم الإلهي في القرآن الكريم .

على كلٍّ، ما من شك أن جميع العلماء اتفقوا على أن المقصود بهذا القسم هو عمر النبي صلى الله عليه وسلم، وأن هذا تشريف وتعظيم لعمر النبي صلى الله عليه وسلم، وتأكيد، أي : أيها الإنسان اقتدِ بهذا النبي العدنان، أمض عمرك بهذه الطريقة في طاعة الله .

إذا عاش الإنسان سنوات طويلة، ونظر إلى الماضي، ورأى أن هذه السنوات أمضاها في طاعة الله، وفي عمل الصالحات، وفي تعلم العلم، ونشره والله الذي لا إله إلا هو عندئذٍ تعمر قلبه سعادة ما بعدها سعادة، فإذا شعرت أنك أمضيت هذا العمر في طاعة الله، فمن أسعد منك وأهنأ، لذلك عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ ؟))

[ترمذي]

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72)فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ

صيحة واحدة، مشرقين، أي : وقت شروق الشمس، وهذا أن الإنسان لا يدري متى يأته الأجل، حالة الوفاة غريبة، مع شروق الشمس، مع طلوع الفجر، فالإنسان يستعد كراكب القطار، قد يأتي موظف، ويمسك بيده، ويقول له : انزل، هكذا جاء الأمر، فالراكب الذكي يستعد ويهيئ أمتعته، وهو ينتظر هذه اللحظة، فإذا قيل له : تفضل، يقول أنا جاهز، هكذا المؤمن تائب من كل الذنوب راض لله عز وجل عمله مستقيم قائم بعبادته يتعلم العلم وينشر العلم فإذا جاء ملك الموت يقول: مرحباً بلقاء الله، واكربتاه يا أبت، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه، والذي لا إله إلا الله تأتي على قلب المؤمن ساعة عند الموت لا تسعه الدنيا وما فيها من شدة الفرح، أهله يبكون ويندبون حظهم وهو في روضات الجنات .

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ)

(سورة يس)

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72)فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(73)فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)

هي صيحة واحدة، فإذا عاليها سافلها، وهذه نعرفها، كم من زلزال أحال مدينة في أوج ازدهارها ونشاطها إلى أكوام من الأنقاض، أغادير في ثلاث دقائق أصبحت قاعاً صفصفاً، فيها فندق ثلاثون طابقاً غاص كله في الأرض، وبقي الطابق الأخير مع اسم الفندق على مستوى الأرض .

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)

الآن نسمع، ونشاهد عن زلازل دمَّرت المدن بدقائق محدودة .

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)

معنى : حجارة من سجيل :

لهذه الكلمة معنيان :

المعنى الأول :

أن السجيل هو الطين اليابس .

المعنى الثاني :

أن السجيل من السجل، حجر سجل عليه اسم صاحبه، بمعنى أنه في ملكوت السماوات والأرض ليس هناك شظية طائشة، فكل حجر عليه اسم صاحبه الذي يستحقه من سجيل، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد]

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ

من هم المتوسمون ؟

من هم المتوسمون؟ روى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تفضل علينا رسول الله، وفسر هو نفسه هذه الكلمة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

قَالَ أَبُو عِيسَى : وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

قَالَ : لِلْمُتَفَرِّسِينَ .

[الترمذي]

أي : الذي يتفرس الحقيقة، ويتعرف إليها، ومن ملامح العقلاء، وأصحاب العقول أنه يكشف الحقيقة .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

لذلك فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ))

[الترمذي]

وينطق بتوفيق الله .

بعض المفسرين أضاف إلى هذا فقال: المتفرسون هم المتفكرون .

وبعضهم قال: للناظرين .

وبعضهم قال: للمتبصرين .

من علامات العاقل النظر والتبصر والتفرّس :

من علامة العاقل أنه يتبصر، يتفكر، يدقق، يحقق، يتريث قبل أن يقبل، قبل أن يتهافت، قبل أن يلقي نفسه في جحيم هذه الشهوة ينتظر هل ترضي الله أم تغضبه؟ هل عملي صحيح؟ ينطبق على الشرع، هل فيه مخالفة؟ هل توعد الله من فعل هذا بعذاب أليم؟ قبل أن تأكل الربا هل قرأت قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(278)فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : 279)

قرأت هذه الآية، العاقل هو الذي يقف عند كتاب الله، سيدنا عمر كان وقافاً عند كتاب الله، لا تتسرَّع، قبل أن توقع العقد مع شريكك هل تعلم أن هذه البضاعة فيها مادة حرام يحرمها الشرع، قبل أن تأخذ هذا المبلغ هل علمت أن هذا المبلغ قد يكون حراماً، قبل أن تطلق هذه الزوجة هل تعلم أن هذا الطلاق يرضي الله عز وجل، أم أن فيه سخط الله عز وجل، قبل أن تتزوج هل اخترت المرأة الصالحة، من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، من تزوجها لمالها أفقره الله، من تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، قبل أن تسجل اسمك في هذه الرحلة هل تعلم ما في هذه الرحلة من معاصٍ وانحرافات، هل أنت تملك نفسك في هذه الأماكن، قبل أن توافق كن متوسماً، توسم الحقيقة قبل أن تصل إليها، العاقل هو الذي يصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه، يصل إليه بفكره قبل أن يصل إليه بجسمه .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

هذا أيضا من المتفرّسين :

قال بعضهم : المتوسم هو الناظر إليك من فرقك إلى قدمك، هذا متوسم يتفرس، المؤمن كذلك يتفرس، إنسان يكلمك كلاماً قد يكون مغرضاً، قد تكون له نية سيئة، قد يكون يحاول خداعك، كن متوسماً .

دخل رجل إلى مجلس سيدنا عثمان رضي الله عنه فقال : أيدخل أحدكم إلى المجلس وعليه آثار الزنا، فقالوا : يا خليفة رسول الله أوحي بعد رسول الله ؟ قال : لا، ولكنها فراسة صادقة .

والتوسم كما قال العلماء : التثبت والتفكر، لذلك ورد في الأثر أن الحزم سوء الظن، وسوء الظن عصمة، واحترس من الناس بسوء الظن، وكان عليه الصلاة والسلام يحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي بشره عن أحد، كان بشره للجميع، ولكن يحذر أحياناً .

شروط التوسم والفراسة :

والعلماء قالوا : التوسم يحتاج إلى شروط : إلى جودة القريحة، وحدة الخاطر، وصفاء الفكر، وتفريغ القلب من حشو الدنيا، وتطهير النفس من أدران المعاصي، وفضول الدنيا، هذا المتوسم قلبه شفاف فارغ من حب الدنيا، فارغ من شهواتها وحطامها، المتوسم إنسان حاد الفكر والخاطر، صافي النفس، بعيد عن المعاصي، مطهر عن الدنس، إذا كنت كذلك يؤتيك الله هذه الفراسة الصادقة .

والسادة الصوفية قالوا : التوسم هو الكرامة، كرامة الله لهذا الصوفي يعطيه هذه القدرة على كشف الحقائق، أحد أحوال الصوفية الكشف، ينظر إلى الشخص فكأنه يعرف ما يخبّأ له .

وقال بعضهم : التوسم هو الاستدلال بالعلامات، إما علامات ظاهرة، أو علامات باطنة .

وبعضهم عدّ التوسم إدراكاً دقيقاً جداً عن طريق استدلال دقيق، سيدنا الصديق رضي الله عنه حينما سمع قوله تعالى، أو حينما نزلت هذه الآية صار يبكي، قال تعالى :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)

(سورة النصر)

صار يبكي، البكاء ليس له معنى، فقد عرف أن في هذه الآية نعيًا للنبي صلى الله عليه وسلم، انتهت رسالته، حقق الهدف، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي بِأَنَّهُ مَقْبُوضٌ فِي تِلْكَ السَّنَةِ))

[أحمد]

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ(75)وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ)

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ

وإن آثار هؤلاء القوم في طريق العرب من مكة إلى بلاد الشام، ديار لوط على طريقهم، وكيف جعل الله عاليها سافلها، وإن هذه الآثار تنطق بظلم هؤلاء، تنطق بما فعلوا، والسبيل هو الطريق، كما أن

أهرامات الفراعنة شواهد عليهم، وعلى حضارتهم، وكيف دمروا، وأهلكهم الله عز وجل .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ(77)وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ

من هم أصحاب الأيكة ؟

أصحاب الأيكة أصحاب البساتين، والأيكة هي الشجرة العظيمة ملتفة الأغصان، وأصحاب الأيكة هم قوم سيدنا شعيب .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ)

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ

يعني آثار قوم لوط، وآثار قوم شعيب أمام المسافرين جيئةً وذهاباً على طريق مكة الشام .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ(79)وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ)

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ

من هم أصحاب الحجر ؟

وأصحاب الحجر بعضهم قال : الذين نحتوا بيوتهم من الصخر، هؤلاء الأنباط إذا زرت مدينتهم، ولا تزال قائمة حتى الآن، إنها مدينة رائعة، بيوتها محفورة في الصخر، بيوت غرف نوافذ أماكن للتهوية، حماماتهم أماكن لهوهم، بيوت أمرائهم، أنا رأيتها بأم عيني .

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ(80)وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

أحياناً وصدفة في أثناء تقليب الإذاعات يسمع الذي يدير هذا الجهاز القرآن الكريم، فسريعاً ما يزيح الإبرة عنه، فهو لا يريد أن يسمع القرآن، بل يريد الغناء، لو أنك نصحته لتثاءب أمامك، فإذا حدثته عن الدرهم والدينار، وعن المشاريع تراه أذناً مصغية، إذا قبض المال كان يقظاً، فإذا استمع إلى مجلس علم تأخذه سنة من النوم، هل رأيت في حياتك كلها إنساناً يقبض الآلاف وهو نائم! لا ينام، بل هو في كامل الصحوة والنشاط واليقظة، فربنا عز وجل قال :

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ(80)وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ

شأن المقبل على الدنيا الإعراضُ عن آيات الله :

الآيات جعلوها وراء ظهورهم، ولم يلتفتوا إليها، يقول قائل : هذا الموضوع لا يعنينا، هذا الموضوع عفا عليه الدهر، يقول لك : حدثنا عن الدرهم والدينار، حدثنا عن الشهوات، حدثنا عن شيء نتوق إليه، ودعنا من شيء لا يعنينا الآن.

(فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(81)وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)

وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ

ظنوا أنهم بهذه الطريقة يأمنون من جائحات الزمان، أو يأمنون من الموت، أو أن هذه المدينة محصنة، إن الطريق إليها ممر إجباري بين جبلين لا يتسع إلا لفرس أو فرسين، إذاً أي عدو يصل إليهم يحاصرونه .

(وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ(82)فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)

نهاية أصحاب الحجر : فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ

أخذتهم الصيحة، صاح الله بهم فدمروا عن آخرهم .

(فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ(83)فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

لا يغني عن عذاب الله شيء من الدنيا :

هذه المدينة، وهذه البيوت، وهذا المسارح، حتى إن البيت الكبير هو لمن يدير شؤونهم، مساحته ثلاثون متراً في ثلاثين متراً في ثلاثين متراً عمقاً، نُحِت من الصخر في لب الجبل، وعلى مدخل هذا القصر الأعمدة والتيجان والأقواس، شيء لا يصدق .

(وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ(82)فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ(83)فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

والآن لو أن الإنسان أشاد بناءً، لقال: أنا اعتنيت بالكسوة اعتناءً تاماً، كنت أنتقي أحسن أنواع المواد من البلاط والطلاء والأثاث وغيره، فإذا جاء ملك الموت يدعه كما هو، ثم يحملونه إلى المثوى الأخير، والله الذي لا إله إلا هو لو تبصر الناس بما كتب على النعي لارتعدت فرائصهم، اقرأ النعي: وسيشيع فلان إلى مثواه الأخير، إذاً: هذا البيت الذي يسكنه ماذا يسمى؟ مثوى مؤقتا، بيتا مؤقتا، اعتن به ما شئت، سنوات معدودة، ثم ترحل عنه .

أعرف رجلاً مضى عليه وهو يكسو بيته سنتان لشدة وسوسته، وشدة حرصه على أن يكون بيته مثالاً في الجمال والذوق، بعد أن سكنه بشهرين توفيت زوجته، وبعد ستة أشهر توفي هو، إذاً عمل سنتين، ثم لم يسكن فيه إلا سبعة أشهر، فلذلك :

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

ابن بيتاً في الآخرة، ادفع من مالك في سبيل الله، ادفع من مالك للفقراء والمساكين، أحسن إلى الخلق يحبك رب العالمين .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ

المقرون بالمحبوب محبوب والمقرون بالمبغوض مبغوض :

روى الإمام البخاري رحمه الله عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ :

((نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ عَامَ تَبُوكَ نَزَلَ بِهِمْ الْحِجْرَ عِنْدَ بُيُوتِ ثَمُودَ، فَاسْتَسْقَى النَّاسُ مِنْ الْآبَارِ الَّتِي كَانَ يَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَعَجَنُوا مِنْهَا، وَنَصَبُوا الْقُدُورَ بِاللَّحْمِ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَهَرَاقُوا الْقُدُورَ، وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عُذِّبُوا، قَالَ : إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ))

[البخاري، مسلم ، أحمد]

العلماء استنبطوا من هذا الحديث الشريف الصحيح أنه لا يجوز دخول مقابر الكفار، وأنه لا يجوز استعمال هذه الأماكن، وأن يطعم فيها الإنسان ويشرب، كما أنه يجوز أن تعلف الناقة أو الحيوان الشيء الذي ينبغي ألا نأكله نحن، لأن الإبل والبهائم لا تكليف عليها .

أما الاستسقاء من بئر الناقة فكان هذا على سبيل التبرك بآثار الأنبياء الصالحين، لكن الجمادات غير

مؤاخذة، إلا أن المقرون بالمحبوب محبوب، والمقرون بالمبغوض مبغوض .

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب

***

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار و ذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

***

هناك استنباطات لطيفة، إن أماكن اللهو والفجور حتى ولو كانت خالية من المعاصي لا ينبغي أن تقف فيها، أحياناً نجري حفلة عقد قران في نادٍ، هذا النادي تشرب فيه الخمور، وتقام فيه الحفلات الراقصة، لكن في هذه الساعة لا يوجد شيء من المنكرات، بل فيه منشدون، وقراءة، قرآن، لا، هذا المكان ما دامت تقام فيه المعصية لا ينبغي أن تجلس فيه، هذا الاستنباط الذي أردت منه هذه الحقيقة .

وقد منع العلماء الصلاة في هذا المكان دار سخط وبقعة غضب، وقد منع العلماء الصلاة في المزبلة والمقبرة والمجزرة وقارعة الطريق والحمام، وفوق بيت الله الكعبة، وفي الدار المغصوبة، والكنيسة، والبيت الذي فيه تماثيل، أو في موضع تستقبل فيه وجه أدمي، أو جدار عليه نجاسة، وقد روي : أخرجوا من الموضع الذي أصابتكم فيه الغفلة.

مكان أصابتك فيه غفلة، أو وقعت فيه في معصية وانحراف، هذا المكان لا ينبغي أن تعود إليه، لأنك إذا عدت إليه ذكرك بالمعصية، وربما ساقك إلى معصية ثانية، فالأماكن التي غفل منها الإنسان، أو أخطأ، أو عصى الله عز وجل لا ينبغي أن يقربها، النبي عليه الصلاة والسلام من هذه الأحاديث أرشد إلى أن أماكن الفجرة والكفار وأماكن المعاصي والفجور لا ينبغي أن ترتادها، ولو في وقت الصباح، فمثلاً قد تدخل إلى مكان صباحاً ولا أحد، ولكن مساءً كانت فيه معاصٍ، إن للمعاصي رائحة تفوح منه .

مثلاً كأس ماء في مكان موبوء، هذه الكأس قد يوضع فيها الخمر، فإذا شربت فيه ماء فهذه الكأس فيها آثار الخمر، لا ينبغي أن تكون في هذه الأماكن.

الإمام الجنيد رحمه الله سئل: " من ولي الله؟ إذ قيل له: هل ولي الله الذي يطير في السماء، قال لهم: لا، قالوا: هل ولي الله الذي يمشي على وجه الماء، قال لهم: لا ثم قال: الولي الذي يتوقف عند الحلال والحرام " .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (8-9): تفسير الآيتان 85 – 86
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-01-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ

هذه الآية فيها كلمة هي مركز الثقل وهي كلمة(بالحق)، فما معنى قوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

معنى : بالحق

بعض المفسرين يفسر القرآن بالقرآن، في القرآن الكريم آيتان:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)

(سورة ص 27)

فالحق هنا ضد الباطل .

وفي آية أخرى :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

فكلمة (بالحق)يقابلها بالباطل، أو لاعبين، فالحق ليس باطلاً، والحق ليس لعباً، فالباطل كل شيء طارئ، كل شيء زائل،

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

الحق شيء ثابت ، والباطل زائل :

من صفات الباطل الثابتة التي تترابط معه ترابطاً وجودياً أن الباطل زاهق، فالجدار الذي يبنى بشكل مائل هذا جدار باطل، لأنه لا بدّ من أن يقع، والتنظيم الذي فيه إجحاف لإنسان هو باطل وزائل، فلو أن تركة وزعت بين أربعة أولاد، وكان هذا التوزيع مجحفاً بحق بعضهم فهذا التوزيع باطل، بمعنى أنه لن

يطبق، ولن يستمر، ولن يعترف به، ما دام هذا التوزيع فيه إجحاف لولدين، ومحاباة لولدين فهو توزيع باطل، والشيء الباطل لا يستمر ولا يستقر .

الباطل الشيء الذي يزول، لأن فيه خللاً، وضعفاً، وظلماً، وفيه نظرة من جانب واحد، الباطل هو الشيء الذي يزول، فالحق هو الشيء الثابت على مرّ العصور والدهور، على اختلاف الأزمان والأوقات، في كل الأمصار والأصقاع، في كل البيئات والظروف، عند كل الناس، لأن الحق حق، وهو الشيء الثابت الذي لا يتزحزح .

فمن معاني الحق أنك إما أن تكون متبعاً للحق، وهو الشيء الثابت، وإما أن تكون متبعاً للباطل، وهو الشيء الزائل، الحق ثابت، لأنه بني على قواعد صحيحة، ثابت لأنه بني على العدل، ثابت لأنه بني على المنطق، ثابت لأنه استند إلى حقيقة، وهذا باطل، لأنه بني على خرافة، أو على كذب، أو على تزوير، أو على ظلم، أو على بغي، فالشيء الباطل هو الشيء الزائل لخلل فيه، والشيء الحق هو الشيء الثابت، لأنه يستند إلى حقيقة، إلى واقع، إلى دعم من الله رب العالمين، هذا المعنى الأول .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

الحق يتنافى مع الباطل، لو أن الله عز وجل خلق السماوات والأرض، وخلقنا على هذه الأرض، وعاش الناس كما تعرفون ستين عاماً أو سبعين عاماً، هذا عاش فقيراً، ومات فقيراً، ولم يتح له من متاع الدنيا شيء، هذا عمر عمراً طويلاً، هذا ما استوفى دراسته حتى وافته المنية بحادث، فهذه الحياة القصيرة، أكلّ هذا الكون لحياة قصيرة مليئة بالمتاعب، ألهذا خلقنا ؟ لا بدّ أن الله سبحانه وتعالى خلقنا لهدف كبير، خلقنا بالحق، والحق هو الشيء الدائم، الشيء الثابت المستقر، لا بدّ من أن خلق السماوات والأرض كان لحياة أبدية سرمدية دائمة .

أما أن يحيا الإنسان حياة يعد نفسه خلالها للعمل، فما إن يتسلم عمله حتى يموت بعد سنوات، هذا الشيء لا يتناسب مع عظمة الكون، لا بدّ من حياة أخرى ينصف فيها الإنسان، يؤخذ على يد الباغي، وينصر فيها المظلوم، لا بدّ من حياة يتحقق فيها معنى العدالة . إذاً:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

إذاً هذا المعنى الأول .

الله تعالى منزَّه عن العبث :

والمعنى الثاني مستنبط من الآية الثانية وهي :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

اللعب هو العبث، الإله جل شأنه لا يعقل أن يعبث بالخلق، خلقه ليس عبثاً .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

العبث هو العمل الذي لا يتوخى منه صاحبه هدفاً، من تعاريف اللعب : هو عمل آني، ليس له هدف، الغرض تمضية الوقت، فالله سبحانه وتعالى جلّ عن أن يعبث .

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

هكذا، من دون حساب، من دون مسؤولية، من دون تدقيق، إذاً :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

الحق هو الحكمة الثابتة :

شيء آخر، جاء في بعض التفاسير أنه بالحق أي: بالحكمة الثابتة، يعني هناك حكمة ما بعدها حكمة، هناك حكمة من خلق السماوات والأرض حكمة ثابتة لا تقبل التغير، قد ترتئي أنت، وأنت الإنسان الضعيف أن هذا العمل هو أحكم ما يكون، وبعد أن تكبر ترى أن هذا العمل أخرق، وأن الحكمة عكس ذلك، لكن خلق السماوات والأرض كان بالحق، بمعنى أن هناك حكمة ثابتة من خلق السماوات والأرض، ما هي هذه الحكمة؟ قالوا: هي الاستدلال بالسماوات والأرض على صانعها، أيعلى خالقها، آيات تدل على الخالق، السماوات والأرض بدءًا من الذرة، وانتهاء بالمجرة، السماوات وما فيها والأرض وما فيها، وما بين السماوات والأرض، كل الكون مخلوق ليجسد أسماء الله الحسنى .

إذاً: الهدف الأول أن تعرفه من خلال الكون، ما هي الحكمة الثابتة التي خلق الكون من أجلها؟ أن يكون هذا الكون دليلاً على الواحد القهار، أن يكون هذا الكون دليلاً للإنسان على خالقه، هذه هي الحكمة الثابتة .

لماذا جعله الله دليلاً على ذاته؟ لأنك إذا عرفت ذاته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه إلى الأبد، وهذا هو الهدف من خلق السماوات والأرض .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق فعرفتهم بي، فبي عرفوني .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود 119)

يجب أن تعرف الهدف الذي خلق الله من أجله الكون :

شيء مهم جداً أن تعرف لماذا خلق الله السماوات والأرض؟ وما من شيء يعلو على هذا الهدف، لماذا أنت على وجه الأرض؟ من أنت؟ أين كنت؟ وإلى أين المصير؟ لماذا هذه السماء وما فيها من مجرات؟ لماذا الشمس والقمر؟ لماذا الأرض؟ لماذا الجبال؟ لماذا هذا التنويع الهائل في المخلوقات؟ لماذا هذا الجمال في الأرض؟ لماذا تنويع الغذاء؟ لماذا الحياة والموت؟ أسئلة كبيرة .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

معنى الحكمة الثابتة :

والحق هو الحكمة الثابتة، ومعنى الحكمة الثابتة أن هذا الكون خلق من أجل أن يكون دليلاً على الواحد القهار، والله سبحانه وتعالى لا نستطيع أن نراه في الدنيا لا تدركه الأبصار، ولكن الأبصار ترى خلقه، والعقول تستنبط من هذا الخلق أسماءه الحسنى وصفاته .

إذاً الحكمة الثابتة أن نستدل على الله بالسماوات والأرض، وماذا يعني أن نستدل على الله بالسماوات والأرض؟ إذا عرفته عبدته، وقادتك هذه المعرفة إلى تطبيق أوامره ونواهيه، وهذا هو الإسلام .

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

(سورة آل عمران 19)

يعني أن تنقاد في كل أقوالك وأفعالك وتصرفاتك إلى أمر الله سبحانه وتعالى، هذه هي حقيقة العبادة، إذاً :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

الكون كله تعريف بالله :

أي: خلق الكون لعلة المعرفة، كي تعرف الله سبحانه وتعالى، هذا ملخص الملخص، هذا الكون من أجل أن تعرفه، فإذا عرفته عبدته، فإذا عبدته سعدت بقربه إلى أبد الآبدين، إذاً الهدف الأكبر من خلقك أيها الإنسان أن يسعدك الله سبحانه وتعالى سعادة، لا تزول، ولا تحول، ولا تتناقص، سعادة مستمرة متزايدة .

هذا الهدف النبيل العظيم، وهو أن يكون الكون أداة لتعريفك بالله، وتعريفك بالله طريق لعبادته، وعبادته طريق إلى سعادتك الأبدية، هذا الهدف النبيل لا يتناسب مع الفساد في الأرض، لا يتناسب مع

الانغماس في الشهوات، وترك معرفة رب الأرباب، لا يتناسب هذا الهدف النبيل مع الركون إلى الدنيا، والاستمتاع بها .

إرسال الرسل داخل في الحكمة الثابتة :

لا بدّ أن يرسل الله سبحانه وتعالى رسلاً مبشرين ومنذرين ليحذروا الناس من غفلتهم، وسقوطهم في وحول الشهوات، فإرسال المرسلين بالحق يعني انسجاماً مع الحق الذي خلق الله الكون من أجله، هذا الحق أي : هذا الهدف العظيم هو الذي يدعو إلى إرسال الأنبياء والمرسلين، وهو الذي يدعو أيضاً إلى إهلاك الفجرة الفاسقين .

إذاً: خلق السماوات والأرض بالحق، وإنزال الكتب بالحق، وإرسال الرسل بالحق، وإهلاك الأقوام الطاغية كذلك بالحق .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

معنى الباء في قوله : بالحق:

هذه الباء في كلمة : (بالحق)قال عنها العلماء : هي للمصاحبة والملابسة، يعني خلق السماوات والأرض صاحَبَه هذا الهدف العظيم دائماً وأبداً، خلق السماوات والأرض متلبس بالحق، الحق مواكب لخلق السماوات والأرض .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

الدليل على خلق الكون بالحق : وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ

والدليل أنها خلقت بالحق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، هذه الساعة التي تلقى فيها جزاء عملك، هذه الساعة التي ينصف فيها المظلوم، هذه الساعة التي يحاسب فيها الإنسان عن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيمَ أنفقه ؟ هذه الساعة التي يفصل الله فيها بين الخلائق .

إن الذي يكمل خلق السماوات والأرض أن الساعة آتية لا ريب فيها، لو لم تكن هناك ساعة آتية لتعطلت بعض أسماء الله الحسنى، وهو أن الله حق، وقد يكون في الأرض باطل، وقد يكون في الأرض البغي والعدوان، لو لم يكن هناك ساعة آتية لتعطلت أسماء الله، أو بعض أسماء الله سبحانه وتعالى، فالذي يؤكد أن خلق السماوات والأرض بالحق هو أن الساعة آتية، هذه الساعة يفصل الله بها بين

الخلائق، يعطي كل إنسان جزاء عمله، إن خيراً، فخير وإن شراً فشر، وإن الساعة آتية، وكل متوقع آت، وكل آت قريب .

نحن الآن في هذا عام جديد مثلا، وما هي إلا فترة لا نحس بمرورها حتى يأتي العام التالي، والعام الذي يليه، ثم يأتي الموت، وينسى هذا الإنسان، ويلقى عمله، ويحاسب عليه .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ)

هذا يؤكد آية أخرى :

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)

(سورة الروم 27)

بدءُ الخلق تجسدت به أسماؤه الحسنى، وإعادة الخلق يتحقق بها اسم الحق، لأن الحق لا يتحقق إلا يوم الدين .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(3)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة)

يوم يدين كل الخلق لله عز وجل، يخضع الخلق له خضوع الرجل أمام القاضي، لم فعلت كذا؟ لمَ لم تفعل؟ لم قلت كذا، ولمَ لمْ تقل؟ ماذا عملت بكتابي؟ هل طبقته؟ لمَ لم تطبقه؟ وهكذا .

(وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ

الفرق بين العفو والصفح :

العلماء قالوا : هناك فرق بين العفو وبين الصفح، فالعفو أن تتجاوز هذا الذنب فلا تعاقب عليه، لكن الصفح أن تنساه كلياً، أن تعفو عن صاحبه، ولا تعاتبه إطلاقاً، فربنا عز وجل أمر النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً له :

(فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

بعض علماء اللغة يقول : الصفح ترك التثريب، والتثريب هو اللوم، وترك التثريب أبلغ من العفو، فقد يعفو المرء ولا يصفح، قوله: عفوت عنه أي: لم يصفح عنه، لقد أساء إلي فعفوت عنه، ولم أعاقبه، هذا تثريب، فهذا تذكر أنك لا تنسى هذا العمل، فعفوت عنه، ولكن تذكر ذنبه وعفوك عنه، فهذا ليس صفحاً جميلاً .

(فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

ما هو الصفح الجميل ؟

الصفح الجميل، أي: أن تعرض عن صفحة ذنبه، هذه صفحة ذنبه تطويها، وانتهى الأمر، هذه هو الصفح، أو أن تفتح له صفحة جديدة في تعامله معك، والصفح هو العفو مع ترك التثريب، وترك الملامة والذكر والامتنان .

النبي عليه الصلاة والسلام يأمره الواحد الديان أن يصفح الصفح الجميل، اصفح، فتخلقوا عباد الله بأخلاق الله .

(فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

كأن الله عز وجل يقول: ما دام الله بصيراً بحالهم، وسيحاسبهم على أعمالهم، لأن الساعة آتية، فاصفح عنهم الصفح الجميل، يعني هذا الذي أساء إليك لا بدّ من أن يقف يوم القيامة ليحاسب على إساءته، ولا بدّ من أن يندم على فعلته، ولا بدّ من أن يلقى جزاءه، إذاً أنت فاصفح عنهم .

إذا ارتكب رجل مخالفة، وكتب فيه ضبط، وأحيل إلى القضاء، فلماذا أنت مهموم؟ لا بدّ من قاض حَكَمٍ فصلٍ يحكم في هذه القضية، لذلك قال بعض الشعراء :

حر ومذهب كل حر مذهبي ما كنت بالغاوي ولا المتعصب
يأبى فؤادي أن يميل إلى الأذى حب الأذية من طباع العقرب
لي أن أرد مساءة بمساءة لو أنني أرضى ببرق خلب
حسب المسيء شعوره ومقاله في سره يا ليتني لم أذنب

***

(فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

مَن أحَبَّ الله فليطبق هذه الآية :

من أحب الله سبحانه وتعالى يطبق هذه الآية، إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، إنسان أساء، وأنت عفوت عنه، شيء جميل، ولكن أرقى من العفو عنه أن تنسى هذا الذنب كلياً، ثم تقلب صفحة، و تطوي صفحة ذنبه، وتفتح له صفحة جديدة، وكأنه ما فعل معك شيئاً

(فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

وما دام الله بصيرًا بحالك، فلتكل الأمر إلى الله تعالى، فإن الله بصير بالعباد .

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (17))

(سورة الإسراء)

بصير بحالهم، سيحاسبهم على أعمالهم، وأنت اصفح عنهم الصفح الجميل .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

الحق، يعني معنى مهمًّا جداً، خلقت كي تسعد به، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فُتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، يا رب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟ خلقت لتسعد بقربه، ولا تسعد بقربه إلا إذا عبدته، ولا تعبده إلا إذا عرفته، ولا تعرفه إلا إذا تأملت في خلق السماوات والأرض، لذلك :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

خلقت السماوات والأرض كي تعرف الله من خلالهما .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق : 12)

الكون وسيلة إيضاح :

العلم هو علة خلق السماوات والأرض، خلق الله السماوات والأرض لتعلم أن الله على كل شيء قدير، آيات كثيرة تؤكد أن علة خلق السماوات والأرض أن تعرف الله سبحانه وتعالى، لذلك لو رأيت حاجة من حاجات الدنيا ولو أنك لم تقتنِها .

مثلاً: لو أنك لم تذق العسل في حياتك، لكنك قرأت عنه وعن فوائده، وعن نظام النحل، وعن هذا النظام المعجز في خلق هذه الحشرة، وخشع قلبك، وانهمرت دموع عينيك فقد تحقق الهدف لديك من خلق هذه النحلة، وهو أنك عرفت الله من خلالها، مع أنك لم تذق طعم العسل، فأن تذوق طعم العسل شيء ثانوي بالنسبة لمعرفة الله من خلال الكون، لأنك إذا عرفته فسوف تدخل الجنة، وفي الجنة أنهار من عسل مصفى، وأنهار من لبن، إذاً النحلة خلقت من أجل أن تعرفه، وهذه الوردة وجدت من أجل أن تسبحه، وهذا البحر من أجل أن تمجده، وهذه الجبال من أجل أن توحده .

إذا عرفت أن الكون خلق من أجل أن يكون وسيلة إيضاح، وأداة تعريف، فقد حققت الهدف من خلقك، فإذا استمتعت بالدنيا، وملكت الأموال الطائلة، وانغمست في نعيمها، وفي شهواتها، وفي زينتها، ولم تعرف الله سبحانه وتعالى، فكأنك عطلت علة خلق السماوات والأرض .

هذا الذي يشتري كتاباً، ويجلده، ويكتب عليه اسمه، ويوقع تحت الاسم، ولا يقرأ فيه، ماذا فعل ؟ عطل الهدف من تأليف الكتاب، الكتاب حينما ألف من أجل أن تقرأه، أنت افتخرت باقتنائه، ووضعته في مكان بارز في مكتبتك، وطبعت عليه اسمك بماء الذهب، ولم تقرأه، فأنت إذاً عطلت الهدف من تأليفه .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(85)إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

(خلاّق) صيغة مبالغة مبيّنة لإعادة الحلق والبعث :

هذه الآية بالسياق، الله سبحانه وتعالى خلاّق، وهذه الصيغة صيغة مبالغة، يعني قادر على أن يخلقك مرة ثانية، لو أن إنساناً احترق في طائرة، وأصبح ذرات من الهباب، لو أنه غرق في البحر، لو أن جثته حرقت في الهند، وبعثرت في أنحاء الأرض، هكذا في الهند، يحرقون الجثة، ويبعثرون رمادها في أطراف الدنيا، ومع ذلك :

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

لا يعجزه في إعادة خَلقك شيء، ولا بدّ من أن تخلق مرة ثانية لتلقى جزاء عملك، لتحاسب على ما قدمت وما أخرت، لتدفع الثمن باهظاً عن كل المخالفات .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

(خلاّق) صيغة مبالغة مبيّنة لأطوار المخلوقات :

وإذا نظرنا إلى هذه الآية وحدها من دون السياق، فلها معنى آخر، يعني انظر إلى خلق النبات، انظر إلى الشجرة كيف تكون حطباً يابساً في الشتاء، فيأتي الربيع فتزهر، وتنعقد الثمار، وبعد أسابيع ترى حبيبات صغيرة قد خلفتها الأزهار، هذه هي الثمار، ثم تكبر، وتكبر إلى أن تصبح تفاحة شهية، من خلقها لك ؟ أأنت خلقتها، انظر إلى هذه الفواكه، انظر إلى هذه المحاصيل، انظر إلى هذه الأشجار، إلى هذه الخضراوات كيف يخلقها الله عز وجل .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

هذه النقطة من ماء مهين، بعد تسعة أشهر تصبح طفلاً وزنه ثلاثة كيلوات، لحم، فيه معدة، ومريء، وأحشاء، وأمعاء، هذا الجسم مليء بالأجهزة المتنوعة، حيوان منوي واحد دخل في بويضة، وبعد تسعة أشهر إذا هو طفل يستجيب للضوء والصوت، يأكل ويشرب، يمص ثدي أمه، ينام يستيقظ، إذا كَبُر قليلاً يسلك سلوكاً معيناً، يرفض يتكلم، يضحك ويبتسم، ثم هو يتعلم بعض الآيات، وبعض السور، ثم هو يفكر، ثم هم يؤدي الامتحان، ثم هو يصبح شاباً، ثم ينمو حتى يصبح وزنه ثمانين كيلواً، ثم يغدو

شخصية مهمة جداً .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

مَن خلقه ؟

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الواقعة)

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

هذا الإنسان في خلقه ونموه، ومثله الحيوان كذلك، اشتر بقرة تجدها عُشراء، وبعد فترة تلد عجلاً صغيراً يكبر، ويصبح بقرة، كل يوم أتعطي ثلاثين كيلوًا من الحليب تقريباً .

الدجاجة تعطي البيض، الله هو الذي خلق البيض، من خلق الحليب في ثديي البقرة ؟

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

خلق الكواكب، خلق الثمار، خلق الأزهار، خلق الأطيار، خلق الأسماك، خلق كل شيء على هذه الأرض، خلقك ولم تكن من قبل شيئاً .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

قال لي شخص: خلال أيام العيد جاء أقربائي، بناتي، وأولادهن، وأولادي وأولادهم كان مجموعهم خمسة وعشرين شخصاً، قال لزوجته: قبل خمس وعشرين سنة كنا اثنين، والآن أصبحنا سبعة وعشرين، طيب هؤلاء من أين أتوا؟

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

هذا الطفل الصغير الذي وزنه ثلاثة كيلو، في الثامنة عشرة صار وزنه ستين كيلواً، هذا الوزن عضلات، وعظام، وأجهزة، من أين هذا ؟

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

راقب نمو النبتة، راقب نمو الخضراوات، بذرة خيار هذه تنتج خمسة وعشرين كيلوًا، غرام البذر من بعض الخضراوات ينتج طناً، أي: مليون ضعف وزناً .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

هذه السماوات والأرض، هذه الأمطار، سبعين مليليتر، هل تعلم ماذا يعني هذا الرقم؟ يعني ما هطل في ليلة واحدة من الأمطار شيء كثير، إن الإنسان أحياناً يضطر أن يسافر فيشاهد المنخفض الجوي يغطي القطر كله، وهو المطر الذي سيعم القطر كله .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

فهذه الآية وحدها لها معانٍ كثيرة، وأما في السياق :

(وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(85)إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

لو أن ذرات هذا الجسد أصبحت هباء منثوراً، لو أنها صارت ملقاة في الصحراء، لو أن الإنسان احترق في الجو، غرق في البحر، أكله السمك،

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

يخلقه ثانية ليقف بين يديه، ويحاسب على أعماله كلها، فإن كانت هذه الأعمال كريمة أكرمه الله، وإن كانت سيئة حاسبه الله .

الاشتغال بهموم الدنيا تضييع لحقائق الآخرة :

الحقيقة عندما ينهمك الإنسان في هموم الدنيا، ويغيب عن هذه الحقائق يكون قد ضيع كثيراً، وفي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[الترمذي]

خلقت لك ما في السماوات والأرض، ولم أعي بخلقهن، أفيعييني رغيف خبز أسوقه إليك كل حين؟ لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضة لم أخالفك في رزق، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي .

إذا غاب الإنسان عن هذا الهدف النبيل، لماذا أنا في هذه الدنيا؟ الناس في غفلة، الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا، نذهب إلى أعمالنا، ونعود إلى البيت، نأكل، وننام، ونستيقظ على بعض المعاصي، نلهو، نسهر، ثم ننام متأخرين، نستيقظ بلا صلاة، نذهب إلى أعمالنا إلى أن يأتي الموت فجأة، فيكتب النعي على الجدران، ويدفن هذا الإنسان في التراب، ولا يدري ماذا حل به بعد الموت، إلى أين ذهب؟ كيف سيحاسب؟ متى يلغى وجوده؟ لا يلغى وجوده أبداً .

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(سورة الزخرف)

كيف يستسيغ الإنسان حياة قصيرة مليئة بالمتاعب، ويضيع من أجلها حياة أبدية وعدنا الله بها ؟ ثمة قول وجدته لبعض الصحابة رضوان الله عليهم يتعلق بالموت، قال هذا الصحابي: << ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت، ثم لا يستعدون له كأنهم له شاكون >> .

هل بقي أحد من الأولين؟ هل بقي نبي من الأنبياء؟ فالنبي يموت، الغني يموت، الصحيح يموت، المريض يموت، والشك حال معظم الناس، موضوع الموت خارج كل اهتمامه، يريد أن يدهن البيت والديكور والفرش، ولكني أذكرك بالموت، هذه الرحلة الأبدية، هذه التأشيرة على جواز السفر، تأشيرة خروج بلا عودة، ما موقفك منها ؟

أواخر السورة ملخص لها :

أيها الإخوة الأكارم، الملاحظ أن أواخر السور فيها آيات كأنها ملخص السورة كلها، فنهاية سورة الحجر :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(85)إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(86)وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ(87)لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ(89)كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ(90)الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ(91)فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93)فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ(94)إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ(95)الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(96)وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(97)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ(98)وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

أتمنى على الإخوة الأكارم التأمل في هذه الآيات في هذا الأسبوع، يعني ما هي السبع ؟ وما هي المثاني ؟ وأي أزواج هؤلاء ؟ من هم المقتسمون ؟ ما معنى :

(الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ)

ما معنى :

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99))

لديك أسئلة مهمة جداً فلتجبْ عنها، أرجو أن تتأملوا في هذه الآيات، لأنكم إذا تأملتم، وتوقفتم فهذا يعين على أن ترسخ المعاني في نفوسكم، وأن تنقلب إلى مواقف، إذا انقلبت المعاني إلى مواقف فهذا أكبر مردود من قراءة القرآن، إن تقرأ القرآن، وتتفاعل معه، وتتأثر بمعانيه، ثم تطبقه في حيلك اليومية فقد سعدت به طيلة عمرك، وفي الحديث الصحيح عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[البخاري]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 87 – 99
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-01-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ(87)لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

علاقة الامتنان بإتيان القرآن مع الأمر بالصفح الجميل :

قال بعض العلماء : لما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يصفح الصفح الجميل ذكره بالنعمة العظمى التي أنعمها عليه، فإذا كنت في نعمة عظمى كان سهلا عليك الصفح الجميل ، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(85)إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(86)وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ

ما هي المثاني ؟

ما المثاني ؟

قال العلماء: المثاني القرآن كله .

وقال بعضهم: المثاني كتب الله كلها، يؤيد هذا المعنى قوله تعالى :

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ)

(سورة الزمر : 23)

إذاً المثاني هي القرآن العظيم، ولمَ سمي القرآن العظيم مثاني ؟

أولاً: المثاني جمع مثنى، مِن الثني والاثنين، وهذا المصدر يشير إلى العدد، أو لمطلق التكرار .

ما معنى التكرار في القرآن الكريم ؟

ما معنى التكرار في القرآن الكريم ؟ كتاب الله سبحانه وتعالى كتاب هداية، لذلك من أجل أن تتوضّح الحقائق، وأن ترسخ المعاني، وأن يتعظ الإنسان، وأن يهتدي به ربما جاء المعنى الواحد في المواضع المتعددة، وهذه صفة من صفات القرآن الكريم، قصة سيدنا موسى وردت في كتاب الله سبع عشرة مرة، معانٍ عديدة وردت في مواضع متعددة، فالتكرار في القرآن الكريم له هدف تربوي،

مقالة السفهاء : تصنيف القرآن بحسب الموضوعات :

قد يقول قائل: لماذا لا نصنف آيات القرآن تصنيفاً موضوعياً؟ فالآيات التشريعية في فصل، وآيات القصص في فصل إلى آخره، هذا قول سادج، لأن القرآن ليس كتابا علمياً يحتاج إلى تبويب وتقسيم، إنه كتاب هداية .

هذه النفس البشرية تأتي بعض آيات فتصف لها عظمة الله سبحانه وتعالى، وآيات تقص عليها أحوال الذين عرفوا الله، وكيف أكرمهم الله في الدنيا والآخرة، ثم الذين أعرضوا عن الله عز وجل، ثم طريق الإيمان إلى الله عز وجل، فهناك حركة نفسية، وهناك تموَّج نفسي، لا بدّ من آية كونية تعظم بها المولى جلّ وعلا، ولا بدّ من قصة تجسد لك هذه القيم، ولا بدّ من تحذير يبين لك مغبة الانحراف عن كتاب الله.

فالقرآن الكريم فيه تنويع آيات كونية، مشاهد من يوم القيامة، قصص، وعبر، وأمثال، تشريعات، قوانين، ومبادئ، فالذي يقول : ليت القرآن الكريم قد بُوّب أو جمعت موضوعاته بحسب أنواعها، فالجواب : لا، لأن القرآن الكريم كتاب هداية، وكذلك لو قال قائل : إن هذه القصة وردت في أماكن عدة: أولاً: وردت في أماكن عدة كي تفعل هذه الأماكن العدة فعلها في نفس القارئ، فترسخ المعني، وتثبت القيم .

وثانياً: من أدراك أن هذه القصة كلما وردت في كتاب الله عرضت من زاوية خاصة ؟ ولو ذهبت لتوازن بين طريقة عرض القصة في كل موضع لأخذك العجب العجاب .

إن القرآن الكريم سماه الله سبحانه وتعالى مثاني، من التثنية أو التكرار، والتكرار له هدف تربوي .

كلُّ كتاب إلى زوال سوى القرآن :

شيء آخر، أيّ كتاب يؤلف فلا بدّ من أن يندثر، أو أن ينقطع، أو أن يهمل، لكن هذا الكتاب، القرآن

الكريم فيه صفة الاستمرار والتجدد، ومعنى الاستمرار والتجدد مما توحي به كلمة المثاني، يعني يتكرر ويتجدد، وكلما زدته ذكراً زادك معنىً، لا يبلى على كثرة التكرار، عَنْ الْحَارِثِ قَالَ: مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الْأَحَادِيثِ؟ قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ)، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))

[الترمذي وأحمد]

كلما قرأته رأيته جديداً، كلما قرأته عرفت منه معاني لم تكن تعلمها من قبل، وهذه صفة ثابتة في كتاب الله سبحانه وتعالى، آياته لا تندثر، ولا تنقطع، ولا تنسى، ولا تلغى، ولا تعطل، هو كلام مستمر متجدد، كلما قرأته رأيته جديداً، أي شيء آخر اقرأه مرات عديدة تمل منه، وتسأم وتضجر منه، أي كتاب أعجبك لمؤلف من بني البشر اقرأه مرتين تشعر أنك قد أشبعت منه، اقرأه ثلاثاً تضجر منه، أما كتاب الله لو تلوت آياته آناء الليل وأطراف النهار طوال حياتك فلا تمل منه، لأنه مثاني، كلما زدته قراءة زادك معنىً، كلما عدت إليه انكشفت لك معانٍ لم تكن تعرفها من قبل، إنه مستمر متجدد، لا ينقطع، لا يتعطل، لا يلغى .

من معاني المثاني : التجدد حالا بعد حال :

شيء آخر، قال بعض العلماء : من معاني المثاني أنه يتجدد حالاً بعد حال، كلما جدّ ظرف جديد، أو مشكلة جديدة، أو موضوع خاص رأيت آية في كتاب الله تغطي هذه الحالة، كلما سمعت خبراً، أو ألمت بك ملمة، أو ظهر حدث في العالم وجدت في القرآن الكريم ما يغطي هذا الحدث، إنه يغطي كل جديد .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل : 8)

الآن في الدنيا طائرات، وفيها سفن ضخمة جداً، وقطارات سريعة جداً، ومركبات فخمة، قال :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل : 8)

هو متجدد، كلما زدته ذكراً زادك معنىً، ويغطي كل جديد.

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

قال العلماء : هذا وصف لنظام ينتظم الكون كله، بدءاً من الذرة وانتهاء بالمجرة .

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

اكتشف العلماء أن في الفضاء منطقة تعيد الأمواج الكهرطيسية إلى الأرض، قال تعالى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

(سورة الطارق)

واكتشف العلماء أيضاً أن كل كوكب في الكون له مدار ومسار وفلك، وهذا الفلك بيضوي أو دائري، إذاً في حركته لا بدّ من أن يعود إلى مكانه الأول، وهذه صفة تنتظم الأجرام السماوية كلها، قال تعالى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

(سورة الطارق)

كلما زدته ذكراً زادك معرفة، لا تبلى جدّته، ولا يُمحى لا ينسى، يغطي كل جديد، لذلك قال الإمام علي كرم الله وجهه : << في القرآن الكريم آيات لما تفسر بعد >>، مع تقدم العلوم قد يكتشف العلم تفسيراً دقيقاً لهذه الآيات .

إذاً: من معاني المثاني التكرار، والتجدد والاستمرار، والانتقال من حال إلى حال .

المثاني : تكرار الألفاظ والمواعظ و القصص :

بعضهم قال : تتكرر ألفاظه ومواعظه وقصصه، كل هذا الكلام يؤخذ من قوله تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي)

المثاني : الانثناء :

والمعنى الآخر للمثاني : هو الثني والانثناء، يعني كل آية تنثني على أختها لتوضحها، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، يوضح بعضه بعضاً، يدعم بعضه بعضاً، هذه خاصة في كتاب الله، مثلاً :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

(سورة الحجر : 85)

ما هو الحق ؟

ما تعريف الحق ؟ من آية أخرى :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

إذاً الحق ضد اللعب .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)

(سورة ص : 27)

إذاً الحق ضد الباطل، الباطل الشيء المؤقت الطارئ الزائل الزاهق، واللعب الشيء الذي لا جدوى منه، فآيتان فسرتا هذه الآية .

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

قد ينصرف ذهن القارئ إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام كأنه يتمنى ما عند أهل الدنيا، الآية نفسها في سورة الحجر :

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)

هو لا يتمنى أن يكون مثله، بل هو يحزن عليهم، هذه الآية وضحت هذه الآية، وضربُ الأمثال حول هذا الموضوع أمر يطول، لكنه من صفات كتاب الله عز وجل أنه مثاني، يعني كل آية تنثني على أختها، توضحها، وتبينها، وتزيل الغموض عنها .

من معاني المثاني : الثناء :

المعنى الثالث : هو الثناء، إما من التثنية التكرار، أو من الانثناء واللّيّ والانعطاف، أو من الثناء .

قال بعض المفسرين: يظهر منه، أي: من القرآن الكريم ما يدعو إلى الثناء عليه، تقرؤه فتثني على هذا الكتاب، وعلى من يتلوه، وعلى من يتعلمه، وعلى من يعلمه، وعلى من يعمل به، فإن قرأته، إن تعلمت أحكامه، إن علمته، إن عملت به، أي علاقة لك به تصبح موضع ثناء بين الناس، أهل القرآن أهل الله عز وجل .

القرآن ثناء على الله :

معنى آخر مشتق من المعنى الثالث: وهو أن في القرآن الكريم ثناء على الله سبحانه وتعالى :

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الملك)

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

مثني فيه على الله بما هو أهله من صفاته العظمى وأسمائه الحسنى، فكلما قرأت هذه الآية :

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي)

فإما من التكرار، التكرار التربوي والتجدد، وأنك لا تمل قراءته، ولا يبلى، ولا تسأم منه، ولا تنتهي معانيه .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

(سورة الكهف)

خلاصة معاني المثاني ؟

من أوجه تفسيرات هذه الآية يعني شرح الكلمات، الكلمات محدودة في هذا الكتاب، لكن شرح آيات الله لو أن البحر كله كان حبراً لشرح كلمات الله لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي .

إذاً : مثاني، لا تسأمه، بل يتجدد، وتأتيك معانٍ لم تكن تعرفها، ويغطي كل جديد، هذا أول قسم .

المعنى الثاني: أن كل آية تنثني على أختها لتوضحها، وقد ضربت لكم بعض الأمثلة .

والمعنى الثالث: أن كل من قرأه، أو جوده، أو تلاه حق تلاوته، أو علمه للناس، أو تعلمه، أو عمل به فهو موضع ثناء من الله عز وجل، ومن الخَلق، أو أن الله سبحانه وتعالى أثنى به على نفسه .

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي)

ما هي السبع المثاني ؟

1 - الآيات السبع من سورة الفاتحة :

من أوجه تفسيرات السبع الفاتحة، لأنها سبع آيات بما فيها البسملة :

(بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(1)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(3)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(4)إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(5)اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

سبع آيات، قال بعض العلماء: جمع القرآن في الفاتحة، وجمعت الفاتحة في :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

خلاصة الخلاصة: خلقك كي تعبده، ويؤكد هذا المعنى قول النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ))

[البخاري]

وفي رواية الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ ـ أي الفاتحة ـ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي))

النبي عليه الصلاة والسلام يشرح السبع المثاني :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي))

2 ـ الأمر والنهي الوعد والوعيد والأمثال والأنباء والبشارة والنذارة:

وبعضهم قال : السبع المثاني ما في القرآن الكريم من أمر ونهي، وتحذير وتوعد، وأمثال، ونعم وأنباء، لكن التفسير الأول هو أوجه التفسيرات .

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي)

سبعُ آياتٍ جمع القرآن كله فيها، والمثاني صفة لكتاب الله الكريم .

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ

(وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)

هذه الواو ليس لعطف المتغايرين، بل لعطف الصفة على الموصوف .

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى)

(سورة البقرة)

لعطف الصفة على الموصوف .

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي)

وهذه المثاني هي القرآن العظيم، عطف الصفة على الموصوف .

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ(87)لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ

هذه في الحجر، أما في طه :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

مقتضى الصفح الجميل عدم الالتفات إلى الدنيا :

قال بعض العلماء : يقتضي الصفح الجميل ألا تنظر إلى حياتهم، وإلى ما عندهم، وألا تحزن عليهم، وأن تكون نذيراً لهم، وأن تخفض جناحك للمؤمنين .

في هذه الآية أمران ونهيان، وقد فسرت معنى الصفح الجميل، الصفح الجميل يقتضي :

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

هذا بعض أقوال العلماء في تفسير هذه الآية .

بين مدِّ العين ومدّ البصر :

وقال بعضهم: ولا تمدن عينيك، الإنسان يمد بصره، أما أن يمد عينه فصورة غريبة، صورة وعبرة فيها خيال، لا تمدن عينيك، تصور أن رجلاً خرجت عيناه من مكانهما تتبعان شيئاً، هذا منتهى الاهتمام.

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

قال بعضهم: هذا نهي عن أصل النظر، بالإضافة إلى مدّ النظر،

قال عليه الصلاة والسلام :

((إياك وفضول النظر فإنه يبدر الهوى))

[ورد في الأثر]

وهو التأمل فيما عند الناس من بيوت ومركبات ومحلات من بساتين من حدائق .

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

النهي عن مد البصر دليل على عدم التعلق بالدنيا :

قال بعضهم : عدم التعلق، والرغبة بما في أيدي الكفار كالمال والشوكة، أي : القوة، والسمعة، أي: الصيت، وفي الآية نهي الرجل أن يتمنى ما عند صاحبه .

ملخص الآية :

ملخص الآية أن الله عز وجل ينهانا نحن من خلال خطابه لنبيه عليه الصلاة والسلام، وهذه الطريقة فيها مغزى، لكيلا تظن أنك متهم كان هذا النهي عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم، كيف أن السيدة عائشة رضي الله عنها تكلم الناس في حقها، وهي بريئة، لتكون مثلاً وأسوة وتسلية لكل امرأة تأتي بعدها يتكلم الناس عنها بالباطل، وهي بريئة، كذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن ينهانا عن أن يتمنى أحدنا ما عند صاحبه .

أيها المؤمن بهذه الآية منهي أن تقول: ليت عندي مثل هذا البيت الذي لفلان، ليت لي مثل هذا المحل التجاري، ليت لي مثل هذه المركبة، ليت وليت، نهي قاطع أن يتمنى أحدنا ما عند صاحبه، هذا هو الأدب، ليس بالإمكان أبدع مما كان، ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، هذا الذي أقامك الله فيه هو عين الكمال بحقك، ولو كنت أستحق فوق ذلك لأعطاني الله عز وجل، ولكن الله حكيم وعادل في الوقت نفسه.

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

المتعة شيء طارئ زائل :

أما الأزواج، أما ما متعنا به، الآية دقيقة جداً، ليس ما أعطينا هو عين العطاء، لأن عطاء الله لا يسلب، الله ما سماه عطاء، بل سماه متعة، والمتعة الشيء الموقت .

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

كلمة (متعة) تعني الشيء الطارئ، الشيء السريع الزوال، وشيك الانقلاب والتحول، سنوات معدودة.

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

(سورة الكهف)

اسأل نفسك كيف أمضيت هذه السنوات الثلاثين؟ تقول: ما شعرت كيف مضت، وهذه الدنيا متاع الغرور، لا يستمتع بها إلا المغرور، إلا الساذج، إلا المحدود ضيق الأفق، الغبي يراها شيئاً ثميناً .

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

معنى أزواجا منهم :

(أزواجاً منهم)، لها معانٍ عديدة، أوجه هذه المعاني أن هذا الإنسان لشدة تعلقه بالدنيا صار زوجاً لها وهي زوجة له، هذا متعلق بالمال، فهما زوجان، المال يسري في دمه، وفي هواجسه وخواطره وخططه، إذاً هو زوج للدنيا، وهي زوجٌ له، وهما زوجان، وهذا يتعلق بالملذات الرخيصة، فهي كل شيء في حياته، وهذا يتعلق بنسائها، وهذا بشوكتها، وهذا بسمعتها، على كل أزواجاً منهم .

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

أنت كونك مؤمنًا فهذه الآية لنا، إذا رأيت بيتاً فخماً، أو أثاثاً فخماً، أو رأيت محلاً تجارياً في موقع ممتاز، وله أرباح طائلة، إياك أن تقول في نفسك : ليتني مكان فلان، هذا التمني يتناقض مع إيمانك .

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

(سورة القصص)

لذلك :

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

المعنى الأول :

لا تحزن على عدم إيمانهم :

لا تحزن عليهم يا محمد إن لم يؤمنوا، السبب لأنهم اختاروا هذا، ولأنهم مخيرون، اختيارهم ليس خاضع لاختيارك، هم مستقلون عنك بالاختيار، ولا تحزن عليهم هذا الذي أرادوه .

المعنى الثاني :

لا تحزن عليهم إذا واجهوا العذاب :

المعنى الثاني : ولا تحزن عليهم إذا واجهوا العذاب، لأن عذاب الله لهم مما تقتضيه عدالته، فإذا قتل رجل رجلاً ظلماً وعدواناً، وسيق إلى المحاكمة، وحكم عليه بالإعدام، وسيق إلى المشنقة هل تحزن عليه ؟ هذا مما تقتضيه العدالة، لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا، ولا تحزن عليهم إن عذبهم الله عز وجل، فهذا العذاب مما تقتضيه عدالة الله سبحانه وتعالى .

يقول عليه الصلاة والسلام :

((من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد حقر ما عظم الله))

[ورد في الأثر]

إذا منّ الله عليك بحضور مجالس العلم، وتعرفت إلى الله خالق السماوات والأرض، وعرفت أسماءه الحسنى، عرفت كتابه، عرفت القواعد الثابتة التي يعامل بها خلقه، واستقمت على أمره، وسعدت بقربه، ثم تقول : ليس عندي بيت أسكنه، فهذا ليس لك، يا سبحان الله ! .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ))

[متفق عليه]

التغني من معانيه الخاصة الذي يستغني بكتاب الله عز وجل عن كل شيء، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((القرآن غنىً لا فقر بعده))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

إذا وعيت القرآن فإنك لا ترى أحداً أسعد منك، ولا ترى أحداً أوتي خيراً مما أوتيت، ولا ترى أحداً أفضل منك إلا أن يكون أتقى منك، أتشتهي أن يكون عندك ما عند أهل الدنيا من متع من مال عريض ؟ لا والله، لأنك وعيت القرآن، واغتنيت به، هذا حال المؤمن الحق،

((القرآن غنىً لا فقر بعده))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

لو جمعت مال الدنيا، ولم تعرف كتاب الله، أو لم تهتدِ إلى الله فهذا ليس غنىً .

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر : 15)

هو قال هذا، كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إنما عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، لذلك لا ينبغي للمؤمن أن يهتم بما عند أهل الدنيا، أن يسأله : من أين اشتريت هذه ؟ وكم ثمنها ؟ يا الله ما

أجملها ! ليس هذا من أخلاق المؤمن، أنت فوق ذلك، هناك شيء يعنيك فوق ذلك، لا ينبغي أن يهتم بما عند أهل الدنيا وألا يستجمل ما عندهم، ولا أن يتمنى ما عندهم، لأن ما عندهم ظل زائل، وعارية مستردة، وما دام هذا القلب يخفق فهذا البيت لهم، فإذا توقف القلب عن الخفقان فإن مصيرنا جميعاً إلى القبر، والقبر نستوي فيه جميعاً، أغنى الأغنياء يستوي في القبر مع أفقر الفقراء، لا تطمع بزخارف الدنيا، وعندك معالم الموالى، كلام الله تحفظه، وتفهمه، وتطبقه، وتعمل به، وتعلمه، وتقول : ليس عندي هذا .

إن من صفات الأولياء الصالحين ما قرأته عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، يقول الواحد منا : ما اشتريت بيتاً، فلانة خطبتها، وترددت، ثم أخذها غيري، والله كانت خير زوجة، بقيت حرقة في قلبي إلى الموت، لا تقل هذا، فإن من صفات الأولياء الصالحين أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم]

ليس في قاموس المؤمن كلمة(لو)، فإن كلمة لو تفتح عمل الشيطان، لا تحزن عليهم، يا محمد :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة 272)

لا تحزن عليهم إن عذبهم الله عز وجل، لأن هذا العذاب مما تقتضيه العدالة .

إذاً: الله سبحانه وتعالى في هذه الآية نهانا عن أن نتمنى ما عند غيرنا من خلال نهي النبي عليه الصلاة والسلام تطييباً لخواطرنا .

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

قال عليه الصلاة والسلام :

((تواضعوا لمن تعلمونه))

[السيوطي في الجامع الصغير]

لابد من التواضع للمؤمنين :

يجب أن تخفض جناحك لهم، يجب أن تحبهم، يجب أن يعنيك ما يعنيهم، يجب أن تقلق لمصابهم، يجب أن تعيش مشكلاتهم، يجب أن تسعى لرفعتهم، يجب أن تكرمهم إذا أردت أن تهديهم إلى الله عز وجل، أما أن تحدثهم فقط فهم شبعوا كلاماً، وأما أن تلقي عليهم مواعظ فقط، وأنت لا تتعظ بها فإنهم يكشفونك على حقيقتك

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

كن متواضعاً لهم، زر مريضهم، صِل مسكينهم، أعِن ضعيفهم .

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه]

كان مع أصحابه في مكة، فأرادوا أن يذبحوا شاة، قال أحدهم :

((علي ذبحها، وقال الثاني: علي سلخها، وقال الثالث: علي طبخها، وقال عليه الصلاة والسلام: وعلي جمع الحطب، فقيل له: يا رسول الله، نحن نكفيك ذلك، قال: أعرف ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أحد من أقرانه))

[ورد في الأثر]

يوم غزوة بدر الرواحل قليلة فأعطى النبي عليه الصلاة والسلام أمراً أن يركب كل ثلاثة على راحلة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ :

((كُنَّا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ مِنَّا عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ عَلِيٌّ وَأَبُو لُبَابَةَ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا كَانَ عُقْبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَا: ارْكَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ، فَيَقُولُ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد]

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

إذا أردت أن تهديهم، إذا أردت أن تفتح قلوبهم فاخفض لهم جناحك وواسهم، اسألهم عن مشكلاتهم، عن أعمالهم، عن أولادهم، كيف يعنيك ما يعنيهم وأنت بعيد عنهم؟

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

خفض الجناح كناية عن التواضع والرأفة والرحمة :

هذا كناية عن التواضع، عن الرأفة، عن الرحمة، جاءته فعَنْ عَائِشَةُ قَالَتْ :

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ:

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)))

[ابن ماجه]

إذا لم تحس بمشكلات إخوانك المسلمين فلست مسلماً، امرأة تشكو إليه زوجها، ووقف النبي عليه الصلاة والسلام يستمع إليها .

استوقفته امرأة في الطريق فوقف معها طويلاً يستمع إليها .

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

ليس في الإسلام استعلاء، وليس في الإسلام كبر ولا انزواء، الإسلام دين الفطرة، دين المحبة، دين التعاون

(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ

لأن الناس منحرفون عن طريق الحق، وهنا لم يقل: إني أنا البشير، بل قال :

(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

لأن الانحراف يقتضيه الإنذار .

(كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ

الاقتسام على مخالفة الأنبياء وإطفاء نور الحق :

هؤلاء الذين أقسموا، واتفقوا على القسم على أن يخالفوا الأنبياء، اجتمعوا، واتفقوا على أن يطفئوا نور

هذه الدعوة، في كل زمان ومكان .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأنعام)

المقتسمون الذين أقسموا فيما بينهم على أن يطفئوا دعوة الحق في كل عصر .

(كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ)

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ

معنى (عضين)ودلالته :

عضين جمع، ومفرده عضة، يعني قطعوه، وقالوا : هذا سحر، وهذه أخبار مأخوذة عن بني إسرائيل، وهذا كهانة، وهذا نرفضه، وهذا نقبله، هذا يعجبنا، وهذا لا يعجبنا، هذا لا يتناسب مع هذا العصر، كل من يقبل منه شيئاً، ويرد منه شيئاً فقد جعله عضين، مثل الإنسان الذي يقول: أنا أريد الرأس فقط، لما قطعت الرأس انتهى ومات،هناك علاقة عضوية، علاقة حيوية بين أجزائك.

فهؤلاء المقتسمون الذين أقسموا أن يطفئوا نور الله عز وجل، أن يطفئوا هذه الدعوة، هؤلاء فرقوا هذا الكتاب، هذا القرآن فيه أخبار مأخوذة من فلان، فيه قصص مأخوذة من بني إسرائيل، هنا فيه سحر، هنا فيه كهانة . وقال بعضهم: الذين آمنوا ببعضه، وكفروا ببعض هم الذين جعلوه عضين .

بعضهم: اليهود والنصارى، قسموا كتبهم، وحوروها، وغيروها، وبدلوها .

العضة هو البهتان والكذب :

وقال بعضهم : العضة الكذب والبهتان، الذين كذبوا به كلياً، وقالوا: هذا ليس من كلام الله، هذا من كلام البشر، هذا من اختراع البشر، هذا من كلام محمد عليه الصلاة والسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام عبقري .

(الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ)

وقالوا : هذه الآية معقولة، وهذه غير معقولة، ولا تتماشى مع هذا الزمان .

هؤلاء المقتسمون الذين أقسموا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، هؤلاء أنفسهم جعلوا القرآن عضين، إما أنهم جعلوه خرافة، وسحراً، أو بهتاناً، وكذباً، وإما أنهم فرقوا بين آياته، فقبلوا

بعضها، ورفضوا البعض الآخر .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لا يخفى عليكم أنه مما يقتضيه السؤال الجزاء، سؤال مع الجزاء .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الموقف العظيم : سؤال الله لعبده يوم القيامة عن كل شيء :

قال عليه الصلاة والسلام: يقول الله عز وجل للرجل يوم القيامة :

((ماذا غرك مني بي ؟ ماذا عملت فيما علمت ؟ ماذا أجبت المرسلين ؟))

[ورد في الأثر]

الآن هناك تسريب أسئلة، هناك أسئلة سوف نسأل عنها: ماذا أجبت المرسلين؟ ماذا عملت بما علمت ؟ ما الذي غرك بي ؟ قلت : إن الله لا يحاسبني، ما الذي جعلك تغتر بي ؟ الشيطان أم الدنيا، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟))

[الترمذي]

لا بدّ أن تسأل: لم فعلت؟ ولم لم تفعل؟ الشيء الذي فعلته لمَ فعلته؟ الذي لم تفعله لمَ لمْ تفعله؟ الله عز وجل لن يسألك: هل فعلت هذا؟ لأنه يعلم ما فعلت، هذا السؤال غير موجود، سيدنا عمر قال: << هل صحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ الإنسان يسأل: أفعلت هذا أم لم تفعل؟ لكن الله عز وجل يعلم ما نفعل، سؤاله فقط: لمَ فعلت هذا ؟

إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى عن كحل عينيه، وعن الفتيل، فإذا سحب الرجل خيطاً من قماش يتسلى فَنَسَله فيسأل: لمَ نَسَله ؟

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ :

((بَعَثَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاعِيًا ثُمَّ قَالَ : انْطَلِقْ أَبَا مَسْعُودٍ، وَلَا أُلْفِيَنَّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَجِيءُ وَعَلَى ظَهْرِكَ بَعِيرٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ رُغَاءٌ قَدْ غَلَلْتَهُ، قَالَ : إِذًا لَا أَنْطَلِقُ، قَالَ : إِذًا لَا أُكْرِهُكَ))

[أبو داود]

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ

النبي عليه الصلاة والسلام يتمثل هذه الآية :

كان عليه الصلاة والسلام يتمثل هذه الآية :

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ)

اجهر بالحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم، لا تنظر إليهم، ولا تخف منهم، ولا يشغلك أمرهم .

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ(94)إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ

المستهزئ بالدين مآله القصم :

هذا الذي يستهزئ بدين الله عز وجل لا بدّ من أن يقصمه الله عز وجل، وهذا في كل زمان ومكان . ، فنزلت عليه صاعقة فأحرقته وحدهيروى أن رجلاً أراد أن يستهزئ بدين الله فسمى ابنه الله، وقعت هذه الحادثة في عهد النبي .

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)

إياك أيها العبد أن تكون في صف المستهزئين، لأن المستهزئ يقصمه الله عز وجل، ويجعله عبرة لمن يعتبر .

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ(95)الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

المعبودات من دون الله لا تملك نفعا ولا ضرا :

يعبد بعضهم بعضاً، يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، يعزون النفع والضر إلى بعضهم، مع أن النافع هو الله، والضارّ هو الله، يضر لينفع، ويمنع ليعطي، ويخفض ليرفع، ويذل ليعز، هو الضار النافع، المعطي المانع، الرافع المذل، الذي لا إله إلا هو .

(الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(96)وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)

ماذا تفعل إذا ضاق صدرك بقول الكفار ؟

إذا قعد الإنسان مع منكِر كافر عنيد يستمع إلى حديثه السخيف الذي فيه اعتراض على الله عز وجل، فيه استهزاء بالقيم الدينية، وفيه تعالٍ وتطاول، فإنه يضيق ذرعاً به، فماذا يفعل عقب ذلك ؟

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(97)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

1 ـ تسبيح الله :

كلما ضاق صدرك يا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ سبح بحمد ربك، لذلك عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ :

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى))

[أبو داود، أحمد]

هذه سنة، سمعت خبراً مزعجاً، إنسان دس في قلبك شيئاً، رأيت شبح مصيبة قادماً عليك فبادر إلى الصلاة، اسجد ، وقل : يا رب، ليس لي إلا أنت، أنت وليّي في الدنيا والآخرة، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ)

2 ـ الصلاة :

لماذا سمَّى الله الصلاة سجودا ؟

بعضهم قال : كن من المصلين، لكن الله عز وجل سمى الصلاة سجوداً، لأن أشرف جزء في الصلاة هو السجود، ما أوحى الله إليه أن اجمع المال، وكن من المترفين، بل أوحى إليه أن :

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ)

إذاً: كن من المصلين، غير الفرائض الخمسة، كلما ضاق صدرك مما يقولون بادر إلى الصلاة، وكن من الساجدين . لكن آخر آية :

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

المعنى الأول : اليقين هو الموت :

بإجماع العلماء أن اليقين هو الموت، لمَ لمْ يقل الله عز وجل : واعبد ربك حتى يأتيك الموت ؟ كلمة اليقين التي تعني الموت، وهي أبلغ من كلمة الموت، سمي الموت يقيناً لأنه متيقن وقوعه، ولا ينجو منه أحد، لا بدّ من أن يموت الإنسان، كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران 185)

المعنى الثاني : عند الموت تعرف اليقين :

المعنى الثاني لليقين : أنك عند الموت تعرف اليقين، تتيقن من كل هذا الذي سمعته في الدنيا، في الدنيا كان الذي سمعته خبراً فصار عياناً، كان الذي سمعته في الدنيا غيباً فصار شهوداً .

أحياناً بعض الناس يقول المهندس لرجل: في سقف بيتك شق خطير، هذا يسبب انهيار البناء، إذا انهار البناء صار يقيناً، انقلب كلام المهندس إلى يقين، يقول طبيب لمريض: إن هذا الدخان يسبب جلطة في الدم، فإذا وقعت هذه الجلطة صار كلام الطبيب يقيناً .

سمي الموت يقينًا لأنه متيقن وقوعه، ولأنه به تنتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهود، ومن عالم الظن إلى عالم اليقين .

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(1)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(2)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(3)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(4)كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6)ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(7)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

عند الموت :

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا(27)يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)

(سورة الفرقان)

هذا هو اليقين، فاليقين من نوعين لا بدّ من الموت، الموت يقين، وفي الموت أي : عند الموت يظهر اليقين، لكن في الآية دقة بالغة :

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

اليقين هو الذي يأتيك ، ولا تعلم له وقتا :

اليقين هو الذي يأتيك، أكثر الناس يتوهم أن الموت في التسعينيات، اليقين يأتيه هو، قد يأتيه في الثلاثين، قد يأتيه في العشرين، قد يأتيه وهو يأكل، واليقين يأتيه على أي حال، ليس حتى تأتي اليقين، بل حتى يأتيك اليقين هو يأتيك، ولكن متى؟ لا نعرف، ليلاً أو نهاراً، وأنت في البيت، أو خارج البيت، في شبابك أو في شيخوختك، بعد الزواج أو قبل الزواج، بعد السكنى في البيت، رجل عمّر بيتاً فخماً، وكان مسافراً عاد إلى البيت، فقال : أنا متعب، أرجأ النظر في أجزائه الداخلية إلى أن يستريح، فكانت منيته في هذه الاستراحة، لم ير بقية الغرف .

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

إياك أن تظن أنك ذاهب إلى الموت في السبعينيات، لا هو آتٍ إليك .

إذا كان الرجل هاربا، ويلحق به شخص، وأمامه فراغ، والشخص وراءه، فلو أن هذا الذي يتبعه وجده أمامه يصعق، كذلك الموت هو الذي يلاقيك .

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة : 8)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (01-21): تفسير الآيات 1 – 3 ، عن عظمة الخالق من تحقيق الوعد والوعيد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-01-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة النحل :

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(1)يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

سورة النعم :

هذه السورة يسميها بعض العلماء سورة النِعَم، لأن معظمها فيها حديث عن النِعَم الكبرى التي أنعم الله بها علينا .

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ

وأما في مطلعها فقوله تعالى :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

معنى :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

الفائدة من استعمال الفعل الماضي للدلالة على المستقبل :

أي : اقتَرَبَ أمر الله ، ودنا، لكن القرآن الكريم في كثير من الأحيان يستعمل الفعل الماضي للدلالة على المستقبل، يستعمل ما كان على ما سيكون، مثال ذلك قوله تعالى :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ)

(سورة الأعراف : من الآية 44)

ونادى : فعلٌ ماضٍ . ومثال ذلك :

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

(سورة المائدة : من الآية 116)

حيثما استعمل الله سبحانه وتعالى الفعل الماضي مكان المستقبل فهذا يعني تحقق الوقوع، فالماضي والمستقبل عند الله سيان .

سائق السيارة إذا كان ينحدر بها في طريق هابطة، وهذه الطريق تنتهي بمنعطف خطر، وعلى يمين الطريق وادٍ سحيق، وعلى يساره كذلك، واكتشف أن المكبح قد انقطع، هو يقول: انتهينا، تدهورنا، مُتنا، هذا يستخدم الفعل الماضي ليؤكد أن ما سيكون لا بد من أنه يكون .

لو أن مستأجراً أجَّر بيتاً لا يحق له أن يؤجره، هو مستأجر، وصاحب البيت جاء بكشف فوري، وصور الحالة الراهنة، يقول المستأجر: أخلينا، لماذا استخدم الفعل الماضي؟ لتحقق الوقوع، إذا استخدمت الفعل الماضي لتحقق الوقوع، أي: إنه ما سيكون لا بد كائن، هذا هو المعنى، فربنا عز وجل يقول :

(أَتَى)

نَظَمَ المتوقع في سلك الواقع .

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

أتى بمعنى اقترب ودنا :

كما قلنا قبل قليل حول هذا الفعل: على معنى اقتَرَبَ، أو دنا، وإن كان بمعنى أتى فلا بد من أن يأتي، إما أنه اقتَرَبَ أو دنا، أو أنه لا بد من أن يأتي أمرُ الله .

ما معنى كلمة :

(أَمْرُ اللَّهِ)

معنى : أمر الله :

أمر الله وعد الله، ووعيدُه، وعد الله للمؤمنين، ووعيدُه للكافرين،

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

لكن قول تعالى :

(أَمْرُ اللَّهِ)

كما قال الله عز وجل :

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)

(سورة الشمس)

كما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((حمزةُ أسدُ اللهِ، وأسدُ رسولِه))

[الطبراني في الكبير عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن جده]

وكقوله صلى الله عليه وسلم :

((نِعْمَ عَبْدُ اللَّهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ))

[الترمذي]

ربنا عز وجل قال عن ناقة صالح :

(نَاقَةَ اللَّهِ)

(سورة الشمس)

وهنا :

(أَمْرُ اللَّهِ)

إضافة الأمر لله للتهويل والتعظيم :

حينما أضيف الأمر لله عز وجل فهذه إضافة تفخيم وتهويل وتحقيق .

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

(سورة البقرة : من الآية 109)

أي يأتي وعده ووعيده، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(سورة الزخرف)

حينما يعقد الإنسان العزم على فعلٍ ما، ويظن أنه ماضٍ في هذا الفعل، لا يدري أن الله سبحانه وتعالى أبرم أمراً آخر، فالمعوّل عليه هو أمر الله سبحانه وتعالى، الذي لا محالة واقع :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

شيءٌ آخر، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

أمر الله هو عقابه أيضا :

يعني إذا كان الأهل، وإذا كانت الزوجة، وإذا كان الولد، إذا كان الأخ، إذا كانت العشيرة، إذا كان المال، إذا كان المسكن، إذا كانت التجارة، أحب إليكم من الله ورسوله، وإذا أطعتم زوجتكم، وعصيتم ربكم، فهي أحب إليكم من الله ورسوله، إذا أطعتم إخوانكم أو شركاءكم، وعصيتم ربكم، فهم أحب إليكم من الله ورسوله، إذا وافقت ابنك في معصية فابنك أحب إليك من الله ورسوله، إذا وافقت أباك على معصية فأبوك أحب إليك من الله ورسوله، إذا آثرت هذا البيت على طاعة الله، فهذا البيت أحب إليك من الله ورسوله، إذا آثرت هذه التجارة المحرمة على رضوان الله عز وجل، فالمال المُتأتّي من هذه التجارة أحب إليك من الله ورسوله، ماذا يكون إذا كان شيء ما أحبَّ إليك من الله ورسوله .

(فَتَرَبَّصُوا)

يعني الطريق إلى الله مسدودة .

(حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

يعني بالعقاب الذي وعد به هؤلاء الذين آثروا الدنيا على الآخرة، الطريق إلى الله مسدودة، ولا بد من أن هذه التي أرضيتها، وأسخطت ربك فيها فلا بد من أن تنقلب عدوَّةً لك، وهذا الابن الذي وافقته، وأسخطت الله عز وجل لا بد من أن يكون عاقًّا، وهذا الأب الذي وافقته على معصية لا بد من أن يحرمك من الإرث، وهذا الأخ الذي قبلت منه هذه المعصية، وأسخطت الله عز وجل لا بد من أن ينقلب لك عدواً .

إذاً : أمر الله ما وعد به العصاة، بعضهم قال : أمر الله عقابه، فربنا سبحانه وتعالى قال :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

بمعنى اقترب، فالمراد : قل له : أتى أمر الله، يعني اقتربَ أن يدمر المال، بشِّر الزاني بالفقر ولو بعد حين، بشِّر كل عاصٍ بمغبّة معصيته ولو بعد حين .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

لابد من أن تدفع الثمن غالياً، إذا كان هناك مخالفة .

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

إلى كل متكبر، كل منحرف، كل فاجر، كل عاصٍ، قل له :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

يظن المرء أنه إذا أوتي ذكاءً، ومالاً، وجاهاً، فقد حقق كل شيء، يأتي أمر الله من جهة لا يحسب لها حساباً، يؤتى الحذِر من مأمنِه .

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

مَن المخاطَب بقوله : فلا تستعجلوه :

مَن هم المخاطبون بكلمة :

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

المخاطبون هم المشركون، لأن المؤمن لا يستعجل أمر الله عز وجل، أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء :

((اللهم خر لي في قضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت))

[الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة]

الاستعجال خصلة ذميمة :

من علامة المؤمن أنه لا يستعجل الله شيئاً، لا يستبطئ فرجاً، ولا يستعجل عطاءً، يرى أن الأمر كله بيد عليم حكيم، سميع مجيب، لكن هذا الاستعجال الذي يستعجل به المشركون هو استعجال سخرية واستهزاء، قال تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يونس)

وقال سبحانه :

(يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

(سورة الشورى)

غير المؤمن بالآخرة يستعجل هذا العذاب، يقول متى يأتي العذاب ؟

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمْ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة العنكبوت : 53)

المستعجِل للشيء غيرُ مؤمن به :

إذاً القاعدة : أن الذي يستعجل شيئاً غير مؤمنٍ به، إنما يستعجله استعجال سخرية، واستعجال استهزاء، لذلك ما كان لمؤمن أن يستعجل شيئاً، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[الترمذي]

((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم عن أبي هريرة]

الاستعجال هنا من قبل الكفار، استعجال سخرية، واستعجال استهزاء، لذلك جاء قوله تعالى :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

لماذا لا يعجِّل الله عباده بالعذاب ؟

لماذا لا يعجل الله عليهم بالعذاب ؟ لماذا لا يعجل الله عليهم القصْم، هناك حكمة بالغة،

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه)

لولا أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم، لولا أنه دعاهم ليعرفوه، دعاهم لعبادته، كلما وقع مخلوق في معصية قصمه الله عز وجل، ولكن لا يقصمه، لأن الله عز وجل لم يخلقه للقصم، إنما خلقه ليرحمه، لذلك يمهله، إمهاله إمهال رحمة، إن الله سبحانه وتعالى ينتظرهم، ينتظر أن يعبدوه، جاء في بعض الأحاديث القدسية :

((يا داود ، لو يعلم المعرضون عني انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف إرادتي بالمقبلين ؟))

إذاً: الإمهال حكمته أن الله سبحانه وتعالى يعطي مهلة، ويعطي فرصة لهذا الغافل كي يعود إليه، فيأتي هؤلاء، ويستعجلون العذاب سخرية واستهزاء، لكن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يدمرهم بصيحة واحدة .

(سُبْحَانَهُ)

سُبْحانه :

هذه الكلمة تستخدم في الأعم الأغلب لتنزيه الله عز وجل عما لا يليق به، ما هم عليه من شرك بالله سبحانه وتعالى، وما هم عليه من تصورات مستمدة من هذا الشرك، قد تنزه الله عنه تنزيهاً :

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)

هم حينما سخروا بوعد الله، ووعيده لهم، إن سخرت من شيء فلا بد من أن تعظم شيئاً آخر، يعظمون آلهتهم، يعظمون وجهاء القوم منهم، فلا بد من أن يكون في حياتك إنسان تعظمه، هذا شيءٌ لا بد منه، لا بد من إنسانٍ تعظمه، وإنسان تحتقره، وإنسانٍ تلتقي معه، فهذا الذي تعظمه من هو ؟ عند أهل الدنيا أرباب الدنيا، أرباب المال، أصحاب الشوكة والقوة، هؤلاء معظمون عند أهل الدنيا، ولكن كيف هم عند الله سبحانه وتعالى ؟ عند المؤمنين ؟ المؤمنون يعظمون مَن سبقوهم بالإيمان، قال لي أحدهم : ليس في الدنيا من هو أسعد مني إلا أن يكون اتقى مني .

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

في الآية التفات بلاغي والفائدة منه :

سبحانه كما قلنا : تنزيه وتمجيد، وهناك في الآية التفات دقيق من صيغة المخاطب إلى صيغة الغائب .

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

هذا التفات من المخاطب إلى الغائب، التفات بلاغي هدفه أن الله سبحانه وتعالى أعرض عنهم، استخفافاً بحالهم، إنهم ليسوا جديرين أن يخاطبهم الله سبحانه وتعالى، حينما تتحدث عن إنسان، وتراه ليس أهلاً لك، تقول لزميلك : هذا لا يفهم، تتركه، وتستخدم ضمير الغائب،

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

والله سبحانه وتعالى تبرأ عن أن يكون له شريك يدفع عنهم أمر الله، بماذا هم معتصمون ؟ ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[أخرجه الترمذي]

أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه، فلذلك :

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

الشركاء لا ينفعون ولا يضرون :

هؤلاء الذين أشركوهم مع الله عز وجل هل ينفعونهم ؟ هل يضرونهم ؟ قص علينا ربنا سبحانه وتعالى قصة سيدنا إبراهيم :

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ(70)قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(71)قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(72)أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(73)قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(74)قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(75)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ(76)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80)(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

(سورة الشعراء : 70 -82)

هذا الذي تعبده من دون الله ماذا يفعل؟ أحد الولاة كان عنده أحد التابعين، فجاءه كتاب من يزيد، هذا الكتاب فيه أمرٌ لا يرضي الله عز وجل، فقال هذا الوالي لذاك التابعيّ : ماذا أفعل ؟ فقال التابعي كلمة تكتب بماء الذهب، قال: إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله،

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

عندما الإنسان يتعرف إلى الله عز وجل، ويؤمن به، ويوحد، تنشأ عنده حالة نفسية من نوع الغنى، هذه الحالة لا يعرفها إلا من ذاقها .

أحد الرواة قال : دخلت على حمَّاد في بيته، كان عالماً، صادقاً عاملاً، دخلت على حمَّاد في بيته فلم أجد إلا حصيراً وهو جالسٌ عليه، وبيده مصحف يقرأ فيه، وجُرابًا فيه كتب، ومطهرة يتوضأ منها، وليس في البيت أثاثٌ، فمكثت قليلاً وأنا جالس أفكر في هذا الرجل، وفي بيته، فبينما أنا جالس دق الباب، فقال حماد لبعض إخوانه : اخرجْ، وانظر من الطارق ؟ فقال : رسول من سليمان إلى حماد من أمير المدينة، فأذن فدخل، فقال أما بعد : فصبَّحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة فأتينا نسألك عنها، والسلام، وظن هذا الرسول رسول الأمير أن حمادًا سيستجيب له، وسيفرح بهذه الدعوة، لكنه قال له : اقلب الكتاب، واكتب على ظهره، أما بعد : فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه، وأهل طاعته، إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً، فإذا وقعت لك مسألة فأتنا، وسل ما بدا لك، ولا تأتِ بخيلك، ولا برَجِلك، أي تعال وحدك، وصلَ هذا الكتاب كتاب الشيخ حماد إلى أمير المدينة سليمان، فتسرب في قلبه إخلاص حماد، وعزته للعلم والعلماء، وجاء يسعى إلى دار حماد، ليسمع الفتوى،

وينزل بمجالس العلماء، التي تحيى بها القلوب، وينجلي صداها، فدق الباب، فقال لأحد إخوانه: انظر من الطارق؟ فعاد وقال: سليمان أمير المدينة، فقال: لِيدخل وحده، فدخل سليمان غرفة حماد، وقد علت هيبته هيبة الملك، لا يدري من أين تسربت إليه ؟ وجلس محتشماً متهيباً كأنما هو أمام ملك عظيم مهيب، ثم قال وهو يتلعثم في كلامه : ما لي إذا نظرت إليك امتلأت رهبة ؟ فقال حماد : إذا أراد العالم بعلمه وجه الله هابه كل شيء، وإذا أراد بعلمه الدنيا هاب كل شيء، والقصة لها تتمه .

على كلٍ :

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

ليس إلا الله .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب نا فإنا منحنا بالرضا من أحبا

ولذ بحمانا واحتمِ بجنابنــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

ثم يقول الله عز وجل :

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

من رحمة الله إرسال الرسل :

الله سبحانه وتعالى المنزه عن الشرك لا يدَع الناس في ضلالهم، وأوهامهم وشقائهم، إنما ينزل عليهم من السماء ما يحييهم وينجيهم، كما أن الله سبحانه وتعالى ينزل من السماء ماء ليحيي به الأرض بعد موتها، كذلك ينزل من السماء روحاً من أمره ليحيي القلوب بعد موتها، ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها، ورسالات الأنبياء تحيي القلوب بعد موتها،

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ)

هذه الآية رد على منكري النبوة، الله سبحانه وتعالى لرحمته ولطفه وحرصه على عباده كلما ضل الناس بعث إليهم رسولاً يهديهم سواء السبيل، وفي الديانة الواحدة كلما فترت همة الناس، وضعفت عزيمتهم، ودخل على الدين ما ليس منه، بعث الله على رأس كل مئة عام من يجدد لها دينها .

القرآن روح :

هنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر)

وقلنا وقتها : إن اليقين هو الموت، وقلنا وقتها : إن الله سبحانه وتعالى سمى الموت يقيناً لتيقن وقوعه، ولأن فيه اليقين، يعلم المرء عند الموت علم اليقين، كذلك كان من الممكن أن يقول الله سبحانه وتعالى : ينزل الملائكة بالقرآن، الروح هنا القرآن، لماذا قال : الروح ؟ هذه تسمية هادفة، سمى الله سبحانه وتعالى القرآن روحاً ؛ لأنه حياة للقلوب، البيت الذي ليس فيه قرآن كالبيت الخرب، وفي الحديث عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ))

[الترمذي]

وفي الحديث :

((إن القلوب لتصدأ، قيل : وما جلاؤها ؟ قال : ذكر الله))

[الكامل لابن عدي عن ابن عمر]

هي قراءة القرآن، فالقرآن سماه الله روحاً، لأن فيه حياة النفوس، القرآن تحيى به القلوب كما تحيى بالماء الأبدان، والله سبحانه وتعالى يقول :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة فاطر : من الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا)

(سورة الكهف)

الكون في كفة، والكتاب في كفة، وما دام الله سبحانه وتعالى قد خلق الخلق فلا بد من أن يرشدهم، قد يشق الطريق، ويفرش أرضه بالإسفلت، وبعد ذلك توضع الإشارات الدالة على معالمه، خلق الله السماوات والأرض، وأرشد الخلق إلى طريق الحق،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة فاطر : من الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا)

(سورة الكهف)

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة : 75 - 77)

الكون في كفة، وهذا الكتاب في كفة، قد ترى جامعةً ضخمة، فيها أبهاء وقاعات، ومخابر، وحدائق، ومكتبات، ولها نظام داخلي، هذا النظام الداخلي لا يقل خطورة عن الأبنية الخارجية، فربنا سبحانه وتعالى لأنه منزه عن الشرك، لأنه حريص على هداية خلقه، لأنه خلق الإنس والجن ليعبدوه، لأنه خلقنا ليرحمنا، نزل علينا قرأناً هو بمنزلة الروح لنا، الإنسان من دون دين جسم بلا روح، نفسه مُؤَثرة، قلبه قاسٍ، تستوحش منه، يعيش ليأكل، ويشرب، ويتمتع، ليس له هدف نبيل، اهتماماته سطحية، وتافهة، فلذلك قال الله عز وجل :

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ)

هذه الباء باء المصاحبة، كأن تقول : خرجت بثيابي ؛ أي خرجت مع ثيابي،

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ)

أي بهذا الكتاب الذي فيه حياة النفس، وحياة القلب، وحياة الضمير، وحياة العقل، وحياة الأسرة، وحياة المجتمع، وحياة الأمة، وحياة الإنسانية .

من تمام النعم نعمة الهدى :

قالوا : تمام النعمة الهدى، يعني النِعَم كلها إذا كنت مهتدياً إلى الله عز وجل فيمكن أن نرمز لهذا الهدى بواحد، فإذا كان معك مال يعينك على أن تعيش بالحياة، فهذا المال صفر أمام الواحد، إن كانت لك زوجة تعينك على أمر دينك، فالزوجة صفر آخر، إن كان لك مأوى تأوي إليه، فهذا المأوى صفر ثالث، إن كان لك مورد رزق مريح، فهذا صفر رابع، فإذا ألغيت الواحد، كل الذي عندك أصفار، العلماء قالوا: تمام النعمة الهدى، من دون الهدى ليس هناك شيءٌ اسمه نعمة .

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(26)وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

(سورة الدخان : 25 - 27)

نَعمة، ليست نِعمة، بل هي نقمة .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

شيءٌ آخر، قال تعالى :

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

(سورة الفتح)

إذاً أنجاه من البئر، من الجب، أخرجه من السجن، لكن تمام النعمة أن يكون المرء مهتدياً إلى الله سبحانه وتعالى :

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

النبوة مقام اختيار واصطفاء :

من يشاء من عباده على الأنبياء، والله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته .

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

الله اصطفاهم، اختارهم على علم، فمقام النبوة، مقام اصطفائي، الله سبحانه وتعالى نظر في عباده نظرة، اصطفى منهم أكثرهم حباً له، أكثرهم حمداً، أكثرهم قرباً، أكثرهم نفعاً، فجعلهم أنبياء مُصطفَيْن على من يشاء من عباده، والنبي أيّ نبيٍ لا يزيد على أن يكون عبداً لله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، هم قالوا :

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)

(سورة الزخرف)

هم رشّحوا أناسًا من عليةِ القوم لينزل القرآن عليه، لكن الله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته :

(أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

(سورة النحل)

إنزال الملائكة للإنذار والتبشير :

لماذا لم يقل : أن بشروا؟

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ)

هذا الروح ؛ أي هذا الكتاب، القرآن أو بيانه، القرآن الكريم وما بيَّنه النبي عليه الصلاة والسلام منه، هذا فحواه :

(أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

الإنذار ؛ من تعاريف الإنذار أنه إخبار بالخطر، الإنذار إخبار فيه تخويف، أو إعلام بالمحظور، هذا هو الإنذار، وأما قوله تعالى :

(أَنْ أَنذِرُوا)

أي : ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده لينذروا، أن أنذروا بمعنى لينذروا :

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

لا إله ؛ أي لا معبود بحقٍ إلا الله، ليس في الكون جهة تستحق العبادة إلا الله، ولماذا ليس في الكون جهة تستحق العبادة إلا الله؟ لأنه ليس في الكون فاعل ومسيِّر إلا الله، لأن الأمر كله إليه، هو وحده يستحق العبادة، لأن الأمر كله إليه، إذاً هو وحده الذي يستحق العبادة، فالديانات السماوية كلها، فحواها:

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

(سورة النحل)

التوحيد هو أصل كل شيء :

التوحيد نهاية العلم، والتقوى نهاية العمل، كم في الأرض من علوم، نهاية العلوم كلها التوحيد، إذا عرفت أنه لا إله إلا الله، فقد عرفت كل شيء، وإذا غابت عنك هذه الحقيقة فقد جهلت كل شيء، التوحيد منتهى العلم، والتقوى منتهى العمل، يعني، مهما كنت ذكياً، إذا كنت أمام حفرة سحيقة، وأنت تمشي على طريق، مهما أقنعتني بعكس ما تريد فتفاديك لهذه الحفرة منتهى العمل الصالح، منتهى العلم أن تعرف أنه لا إله إلا الله، ومنتهى العمل أن تتقي الله سبحانه وتعالى، بمعنى أن تتقي معصيته، أو أن تتقي المضار بنوره، إما أن تتقي معصيته، وإما أن تتقي بنوره، تقبل عليه فيلقي في قلبك نوراً تتقي به، وترى به الخير خيراً، والشر شراً، فكلمة التوحيد لا إله إلا الله، وما يتبعها من عبادة أو تقوى هي فحوى رسالات الأنبياء جميعاً، يقول الله عز وجل :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء : 25)

ما دام الله سبحانه وتعالى واحد في الألوهية فهو وحده الذي يُتقى، ولا يُتقى أحد معه، ما دمت لا ترى إلهًا غيره إذًا لا يُتقى أحد معه، وهنا استنبط العلماء أن صلاح العمل مبني على صلاح الاعتقاد ، متى تتقون ؟ إذا عرفتم أنه لا إله إلا أنا، أيْ إن الإنسان لا يستطيع أن يتقي الله سبحانه وتعالى إلا إذا عرف أنه لا إله إلا الله، فصلاح العمل أساسه صلاح العقيدة، استقامة الرجل أساسها التوحيد، صلاح العمل أساسه أن تكون على هدى من ربك، فالتوحيد كما قال بعض العلماء روح الدين، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد حياة النفس .

(قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(54)مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود : 55 - 56)

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

الكون مخلوق لحكمة بالغة :

أذكركم ثانية بكلمة الحق التي وردت قبل درسين، يعني أنّ اللهَ لم يخلق السماوات والأرض باطلاً، بل خلقها بالحق، ولم يخلقهما لعباً، بل خلقها بالحق، الحق هو الشيء المضاد للعب، والمضاد للزوال، الشيء الثابت الهادف، الحكمة الثابتة، هذا هو الحق، فلذلك هناك هدف كبير من خلق السماوات والأرض، إن لم يكن هذا الهدف واضحاً بين عينيك، فالأمر خطير، إلى أين أنت تسير ؟ إذا كنت لا تعرف الهدف :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

سبحانه وتعالى عن أن يخلقها بالباطل، و سبحانه وتعالى عن أن يخلقها لعباً، أو عبثاً، أو سدىً .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(115)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

(سورة المؤمنون : 115 - 116)

الكون دليل على وحدانية الله :

الملِك الحق، دليل على عظمة الله سبحانه وتعالى، وعلى وحدانيته، وعلى أنه خلق السماوات والأرض بالحق . كلنا نمشي على الأرض، وكلنا ندخل أحياناً بعض الأراضي الزراعية، نرى تراباً قد أنبت عشباً، أو كلأً، أو محاصيل، أو خضراوات، أو أشجارًا مثمرة، فيا ترى من منا يصدق أن هذا التراب الذي نطأه بأقدامنا فيه عوالم من الكائنات الحية لا يعلمها إلا الله ؟

في مقالة عن التربة الزراعية وما فيها من كائنات حية شيءٌ لا يصدق، ذكرت في خطبة الجمعة، ورجاني أحدهم أن أعيده في هذه الدرس، ففي المتر الواحد المكعب من التربة الزراعية ما يزيد على مئتي ألف من الديدان العنكبية، وفي المتر المكعب الواحد من التربة الزراعية فيه ما يزيد على مئة ألف من الحشرات الفروية، وفيه من مئتان إلى ثلاثمئة من الديدان العادية، (الدود الصغير) وفي هذا المتر المكعب من التربة الزراعية آلاف الملايين من الجراثيم والكائنات المتناهية في الدقة، من منا يصدق، أن غراماً واحداً من هذه التربة فيه ما يزيد عن عدة مليارات من البكتريات، عند الصيدلي يوجد قطعة نحاس مربعة لا تزيد أبعادها على ميليمترات، هذه هي الغرام، فغرام من التربة فيه بضعة مليارات من البكتريا، يوجد بكتريا على شكل عصيات، بكتريات على شكل كريات، بكتريات على شكل حلزونيات، يوجد بكتريا تحتاج إلى أوكسجين، هناك بكتريا لا تحتاج إلى أكسجين، هناك بكتريا عارية، هناك بكتريا لها أهداب تنتقل عبرها، في الغرام الواحد من التربة الزراعية فيه ما يزيد على عدة مليارات من هذه البكتريا، شيءٌ غريب أن هذا المتر المكعب فيه مئتا ألف ديدان عنكبية، مئة ألف حشرة كروية، مئتان إلى ثلاثمئة دودة، آلاف الملايين من الجراثيم والكائنات المتناهية الدقة، وفي كل غرام من هذه التربة بضع مليارات من البكتريات، هذا مصنع يعمل بنشاط عجيب، لكن حتى الآن لم يعلم العلماء خطورة، أو مهمة، أو طبيعية عمل هذه الكائنات، لقول الله عز وجل :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

(سورة الإسراء : من الآية 85)

ولقول الله عز وجل :

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

فقالوا : إنها تقوم بمهمات من أكثر المهمات غموضاً، واستغلاقاً، وإن هذه الكائنات الحية في التربة الزراعية تقدم نفعاً يكاد يكون نفعاً مصيرياً، لو أنها توقفت عن العمل لتوقفت الحياة كلياً، وهذه الكائنات الدقيقة تلتهم الأوراق المتساقطة، الله عز وجل جعل لأوراق الأشجار عمراً، حينما ينتهي عمرها تتساقط، تأتي هذه الكائنات فتلتهم هذه الأوراق، وتأتي كائنات أكبر منها تلتهم فضلالتها، وتأتي كائنات أكبر منها تلتهم فضلات الثانية، بحيث تصبح هذه الورقة بعد حين سماداً عضوياً للتربة، فهذه الأوراق الخضراء تقوم بعملية حيوية، هي عملية التنسيب، والتحليل الضوئية، إن هذا الغذاء الذي نأكله، بعضه من الشمس، وبعضه من غاز الفحم، الذي أودعه الله في الجو، وبعضه من الماء، لذلك لا نبات من دون ضوء، مواد النبات تأخذها من الأوراق، فالأوراق كأنها معامل، يقدم النبات غاز الفحم الذي يأخذه من

الهواء بالتعاون مع أشعة الشمس، هذه الآيات ما منا إنسان إلا ويأكل شيئاً عن طريق النبات، حتى لو أكل اللحم، ماذا يأكل الحيوان الذي نأكله ؟ النبات، فالنبات أساس الحياة، والله سبحانه وتعالى يقول :

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

(سورة يس : 80)

الشجر الأخضر ؛ كيف نوقد هذا من الشجر الأخضر ؟ هناك سؤال، لا يوقد الشجر إلا إذا كان يابساً، لكن بعضهم قال : إن الشجر الأخضر كناية عن أن الشجر لولا أوراقه الخضراء لما كان شجراً، يعني أوراقه الخضراء هي التي تسهم في صنع النبات، وفي تكوين بنيته الأساسية، على كلٍ هذه الآيات الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى بثها الله في الأرض، تفكروا في خلق السماوات والأرض لأنه باب واسع لمعرفة الله سبحانه وتعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (02-21): تفسير الآيات 4 – 8 ، عن خلق الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-01-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

علاقة الآية بما سبقها من الآيات :

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

بعد أن بيّن الله لنا سبحانه وتعالى أنّ أمر الله قد أتى، بمعنى أنه قد دنا واقترب، وأنه سيحاسب الإنسان عن أعماله كلها، والله سبحانه وتعالى أنزل على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم كتاباً بمنزلة الروح لنا، حياتنا من دون هذا المنهج لا معنى لها، هذا الكتاب روح النفس، وروح العقل، وروح المجتمع، وروح الأمة، وروح الأسرة .

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

(سورة النحل)

والعلماء قالوا : نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، يعني فحوى كتاب الله سبحانه وتعالى :

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

طريق معرفة الله، الطريق الموصلة إلى أن تؤمن أنه لا إله إلا الله، ما دامت كلمة التوحيد نهاية العلم، وما دامت التقوى نهاية العمل، فما الطريق إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، وأنه لا إله إلا هو ؟ الطريق التي إذا سلكناها وصلنا إلى الإيمان بأنه لا إله إلا الله ، وأنه لا مسير لهذا الكون إلا الله، ولا معبود بحق إلا الله، ولا رافع ولا خافض، ولا معز، ولا مذل، ولا معطيَ ولا مانع إلا الله طريق الإيمان بـ (لا إله إلا الله)، كما قال المفسرون : نهاية العلم التفكر في هذه الآيات التي سوف يوردها الله سبحانه وتعالى :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

الحق نقيض الباطل واللعب والعبث :

وقد بينت لكم في الدرس الماضي والذي قبله أيضاً كيف أن الحق تعني نقيض الباطل، وكيف أن الحق

يعني نقيض اللعب، فاللعب هو العمل غير الهادف، والباطل هو الشيء الزائل، فالحق هو الشيء الثابت المستقر الهادف، الحكمة الثابتة، فالله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، والسماوات والأرض لفظ يرد في القرآن كثيراً، ويعني الكون .

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي لحكمة ثابتة، ولهدف كبير، من أجل أن تعرفه، فإذا عرفته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه إلى الأبد .

إذاً : العلة الأولى والأخيرة أن يسعدك بهذا الخَلق، خلقك ليسعدك، طريق السعادة العبادة، طريق العبادة المعرفة، طريق المعرفة خلق السماوات والأرض،

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

الشرك نقيض التوحيد :

ما الذي يناقض التوحيد ؟ الشرك، إما أن تكون موحداً، وإما أن تكون مشركاً، إذا قلت : فلان وعلان، فلان بيده أمري، فلان بيده نفعي، فلان بيده ضري، فهذا هو الشرك .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف : 106)

أكثر الذين يدَّعون الإيمان واقعون في الشرك وهم لا يدرون، فلذلك :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

لهدف كبيرٍ كبيرٍ، هو أن تعرفه، فتعبده، فتسعد به، إذاً لم يخلق السماوات والأرض عبثاً، بلا هدف، ولم يخلق السماوات والأرض لعباً، ولم يخلق السماوات والأرض باطلاً، لا باطلاً، ولا لعباً، بل خلقها إلى الأبد، وخلقها لهدف كبير .

فيا أيها الإنسان الكريم، أنت مكرم عند الله .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء : 70)

حياة الإنسان تبدأ بالموت :

لا تظن كما يظن معظم الناس أن حياتك تنتهي بالموت، لا والله، إنها تبدأ بالموت .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر : 24 - 26)

لو أن حياة الإنسان تنتهي بالموت لكانت هذه الفكرة مبعث ألمٍ شديدٍ جداً، ومبعث قلق شديد، ومبعث حيرة، كل هذا الكون من أجل سنوات محدودة معدودة، مشحونة بالمتاعب، والضيق والأخطار، والمُقلقات، والفقر أحياناً، والخوف أحياناً، أهكذا خَلْقُ الله عز وجل ؟

أليس الذي خلق السماوات والأرض بقادرٍ على أن يخلقنا من دون أن يزعجنا، من دون أن يخيفنا، من دون أن يفقرنا، من دون أن يتخذ بعضنا بعضاً سخريًّا؟ لولا الإيمان باليوم الآخر لكان خلق السماوات والأرض عبثاً، ولعباً، وباطلاً .

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

مخلوقة لهدف نبيل، أتظن أن إنشاء مَخبرٍ ضخمٍ للتسلية، أم لهدف نبيل؟ أن يحلل ما يَرِدُ إليه من حالات مَرَضية، هذا يحتاج إلى تحليل، إنشاء المنصات، إنشاء القوارير، تأمين الأجهزة، أليس هناك هدف نبيل ؟

خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

يا الله لهذه الآية !

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

الإنسان مخلوق من نطفة ثم هو يخاصم ويجادل ربّه :

هذه البداية، أما النهاية فهو شخصية مهمة، متبحرة في العلوم، تثبت عن طريق المحاضرات، أو عن طريق التأليف أنه ليس هناك خالق .

(فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

يخاصم الذي خلقه .

(مِنْ نُطْفَةٍ)

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

(سورة المرسلات : 20)

بعد أن صار إنساناً سوياً، له فكر، وله حواس، وله أجهزة ، وله إدراك، وله مكانة، وله شأن، صار يخاصم الله سبحانه وتعالى، إنها مفارقة عجيبة .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى)

(سورة القيامة : 36 - 37)

الله سبحانه وتعالى سماه ماءً مهيناً، أيْ محتقرًا، فإذا ظهر على ثوب الإنسان يستحي منه .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

الحيوانات المنوية :

الإنسان في اللقاء الزوجي يخرج منه أكثر من ثلاثمئة مليون حيوان منوي، بعض الكتب تقول : يخرج منه مئتان وخمسون مليون حيوان منوي، بعضها ثلاثمئة مليون حيوان منوي، الثابت أن النطفة شيء، والمني شيء آخر .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

ما هي الخلية ؟

من نطفة يعني من خلية .

ما هذه الخلية؟ والله الذي لا إله إلا هو هناك حقائق اكتشفها العلماء لولا أن هناك أدلة قاطعة عليها، ولولا أن هناك صوراً التقطتها مجاهر إلكترونية لكانت هذه الحقائق فوق حد التصور .

يقولون: إن الإنسان يتألف جسمه من مئة مليون خلية، ما الخلية؟ قالوا: كرة محاطة بغشاء رقيق، وهذا الغشاء الرقيق يحتوي سائلاً لزجاً، وسط هذا السائل كرية، أي كرة صغيرة أصغر من الأولى وأكثر كثافة، أبعاد هذه الخلية 2% من الميليمتر، الميليمتر قسمه إلى مئة جزء، أبعاد الخلية 2% من الميليمتر، كائن حي، بعضهم قال : الخلية ليست أصغر جزءٍ في الإنسان، بل هي أصغر وحدةٍ وظيفية، بمعنى أن الخلية أيضاً مقسمة إلى أجزاء، وعالم الخلية عالم قائم بذاته، والعلماء في أرقى الجامعات لم يصلوا إلى نهاية البحث في الخلية، هذه هي الخلية .

ممّ تتألف الخلية ؟

إذاً: هي تتألف من غشاء وسائل وكرية، الكرية اسمها النواة، الكرية تحتوي على أشياء اسمها كرموزومات، هذه الكروموزومات عبارة عن خيوط على شكل مِسبحة، عليها شيءٌ اسمه الجينات، على كل كروموزوم ثلاثة وعشرون زوجًا من الجينات، الجينات هي المورّثات، قالوا : هذه المورثات، هنا السؤال؟ كنت قد سمعت هذا الرقم شفهياً، وكنت أتهيب أن ألقيه في درس، إلى أن وصلت إلى بحث

علمي يؤكد هذا الرقم، هذه الجينات المورثات تحتوي على معلومات، أو أوامر، أو تعليمات مبرمجة، لو أردنا كتابتها في كتاب لاحتجنا إلى مليون صفحة، يعني إلى ألف مجلد، من مساحة دوائر المعارف، مجلدات دوائر المعارف بحجم كبير، على هذه الجينة أوامر، أو تعليمات مبرمجة، لو أردنا أن نفرغها في مجلد لاحتجنا إلى مليون صفحة، الرقم الذي سمعته من سنوات طويلة، سمعته من محاضر يقول : خمسة آلاف مليون معلومة، يعني خمسة آلاف مليون أمر في هذه الخلية، التي لا تزيد أبعادها على 2% من الميليمتر، وقد تكون أصغر من ذلك، والمحاطة بغشاء رقيق، وبعد الغشاء هناك سائل لزج، الهيولى هي داخل هذا السائل، كرية صغيرة أكثف وأصغر وأشد صلابة اسمها النواة، فيها كرموزومات على أحد هذه الجينات، في الجينة الواحدة ألف مجلد معلومات أو أوامر، أو تعليمات على شكل شفرات مبرمجة، يزيد حجمها لو كتبت على ألف مجلد أو مليون مَليون صفحة، أو خمسة آلاف مليون معلومة، لولا أن هناك صورًا عندي في البيت التقطتها مجاهر إلكترونية تكبر آلاف المرات لهذه الجينات لكان هذا الشيء أبعد من الخيال .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

البحوث بالنطفة لا تنتهي في ساعة أو ساعتين، تدرس في سنوات، بحوث البويضة، بحوث النطفة، بحوث الحيوان المنوي، بحوث الخلية .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

البويضة تختار حيوانا منويا واحدا :

الحيوان المنوي ثلاثمئة مليون في كل لقاء، يصل من هذه الحيوانات إلى عنق الرحم بضع مئات، من ثلاثمائة مليون إلى بضع مئات، معنى ذلك أنه لا يصل إلا الأقوى، والأجدر، والبويضة تختار حيواناً منوياً واحداً، لكن كيف تختاره ؟

هذا الحيوان المنوي له رأس مدبب، وله عنق، وله ذيل، إذا وصل إلى البويضة ارتطامه بها يمزق غشاءً رقيقاً جداً في قمة رأسه، هذا الغشاء يحتوي على سائل، هذا السائل يذيب جدار البويضة، ويدخل هذا الحيوان إلى البويضة، ويتم التلقيح، هذا السائل قال لي بعض الأطباء : إنه يتغذى من الزبيب، ليس من العنب، ومن اللفت .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

لو أردت أن أعرض عليكم معلومات الأطباء العاديين لما اكتفينا بجلسات .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

خمسة آلاف مليون أمر على الجينة الواحدة، المؤلَّف منها الكروموزوم في النواة، في الهيولى، الخلية، وتقول من الخالق ! من خَلقنا ! .

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى)

(سورة القيامة : 36 - 37)

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

هذا عن الرجل فماذا عن المرأة ؟

هذا عن الرجل، فماذا عن المرأة ؟ العلماء قالوا : إن الطفلة، وهي في بطن أمها يوجد في مبيضيها ستة ملايين بويضة، إذا ولدت هذه الطفلة، وبلغت سن الحيض يبقى في مبيضها ثلاثون ألف بويضة، فإذا اكتمل نضجها لا يبقى في مبيضها إلا أربعمئة بويضة، هذه البويضات تخرج كل شهر، حكمة بالغة، الله سبحانه وتعالى ينضج ثلاثًا أو أربعًا في كل شهر، ويرسل واحدة إلى الرحم، فإذا التقت بالحيوان المنوي في الطريق كان التلقيح، وكان الحمل، وإلا ستذهب هذه البويضة إلى الرحم فتحدث الدورة الشهرية، قال عليه الصلاة والسلام :

((إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله مَلكاً فقال : يا رب : مُخَلَّقة ؟ أم غيرُ مُخَلَّقة؟ فإذا قال : غيرُ مخلَّقة مجَّتها الأرحامُ دَماً))

[تفسير الطبري عن ابن مسعود، وانظر فتح الباري]

هكذا قال عليه الصلاة والسلام .

ويتفق كلامه مع أحدث النظريات الطبية في شأن الحمل والتلقيح، 87% من حالات التلقيح يتم سقوطها من دون أن تدري المرأة في ذلك، قد يكون السقوط من دون أن تشعر المرأة في ذلك، لذلك قال تعالى :

(هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة آل عمران : 6)

ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن .

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(49)أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

(سورة الشورى)

هذا هو الماء المهين :

المقدر كائن لا محالة، هذه الحيوانات المنوية، أو هذه النطفة يتم تصنيعها في الخصيتين، من منكم يصدق أن هذا الماء الذي خرج في اللقاء الزوجي مضى على تصنيعه أربعة أشهر؟ أربعة أشهر والأنابيب تعمل، والخلايا، والأجهزة الدقيقة في الخصيتين على تخليق هذا الحيوان المنوي، فإذا تم خلقه يوضع في التخزين، وقد قال لي طبيب: وفي أثناء التخزين تجري عليه تحسينات كثيرة، إلى أن يخرج مع سائل تفرزه البروستاتة على شكل مني .

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الواقعة : 59)

الله سبحانه وتعالى قال :

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

(سورة النحل)

هذا الكافر، هذا الملحد، هذا الفاجر، هذا العاصي، هذا المتكبر، هذا الذي يقول : ليس هناك إله، أو يقول: الدين لا قيمة له في الحياة، أو هذا القرآن ليس كلام الله، إنه كلام هذا العبقري محمد ـ e ـ كما يقول هو :

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

مَن يحدد نوع الجنين ؟

شيء آخر، العلماء انتهوا إلى أنَّ الذي يحدد نوع الجنين ذكراً أو أنثى هو الحيوان المنوي، وليس البويضة، فهذا الذي يغضب من زوجته إن أنجبت بنتاً فهو كتلة من الجهل .

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

(سورة النجم : 45 - 46)

الزوجان الذكر والأنثى مخلوقان من نطفة، لا من بويضة، من نطفة إذا تمنى، رجل في الجاهلية ولدت له زوجته بنتاً فغضب على زوجته وهجرها، وكانت شاعرة فقالت :

ما لأبي حمزة لا يـأتينا يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا تالله مـا ذلك في أيـدينا

و إنما نأخذ ما أعطينـا ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا

****

إذاً :

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)

ألا تعرف مَن شكّلك طفلا ؟

ألا يكفي خَلقُ الإنسان؟ لو أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس كلهم دفعة واحدة ما عرفنا كيف خَلقنا؟ لكن الله عز وجل لحكمة بالغة عرَّفك بخَلقك عن طريق ابنك، قد تقول أنت: أنا لا أعرف كيف خلقت، أنا حينما أدركت الحياة كنت شاباً، أو كنت طفلاً، والله لا أعرف كيف خَلقني الله في بطن أمي؟ شيء جميل، ألا تعرف ابنك وما أصله؟ هذا الذي أمامك، هذا الذي هو أطول منك الآن، ألم يكن نطفة من ماء مهين؟ مَن خَلقه في بطن أمه ؟

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الواقعة : 59)

من شَكَّله ؟ من جعل له السمع والأبصار والأفئدة ؟ من جعل له الدماغ ؟ والجمجمة ؟ والعمود الفقري؟ والنخاع الشوكي ؟ والعظام والعضلات، والأوردة، والشرايين، والغدد الصماء، والكبد والبنكرياس، والكظر، والنخامية، والدرقية، جهاز التناسل، جهاز التنفس، وجهاز الدوران، وجهاز طرح الفضلات، وجهاز البول، والمثانة، والكليتين، من ؟

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)

إذا تعامى الإنسان عن هذه الآية الكبرى .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ

ما هي الأنعام ؟

الأنعام كما قال العلماء: هي الجمال، الإبل، والبقر، والغنم والماعز، هذه هي الأنعام، كلها خيرات .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

ماذا لو تكن الأنعام مذلّلة ؟!

لكم يعني خُلِقت لكم خصيصى، ذكرت كلمة (لكم) في كلام الله كثيرا .

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس : 72)

لو أن الله سبحانه وتعالى ركَّب في الأنعام أخلاق الضباع، أو أخلاق الوحوش، أو أخلاق السباع، أو ركب بها سمًّا قاتلاً كالأفاعي والعقارب، أو جعلها متوحشة، كيف نستخدمها؟ كيف نعتني بها؟ كيف نذبحها؟ كيف نأكلها ؟

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

خُلِقتْ خصيصى لكم، لا يقل أحدكم: إن الله خلق هذه الحيوانات حتى نستأنس بها، لا من يستطيع أن يستأنس بحيوان متوحش حتى الآن؟ المتوحش متوحش، والأليف أليف .

شيء مهمٌ جداً، هذه الأغنام مثلاً لحمها طعامٌ طيب، سيد أنواع الطعام، جلدها له فوائد جمّةٌ، صوفها له فوائد جمّةٌ، شيءٌ لا يرى بالعين، طباعها أن الغنم يعيش على شكل قطعان، والكلاب تعيش فرادى، لو أن الله عز وجل ركب طباع الكلاب في الغنم كيف ترعاها؟ كيف تجمعها في قطيع ؟ الكلاب متفرقة، من أعطى الغنم حب التجمع، إذا نظرت إلى قطيع غنم، ورأيته كتلة واحدة، رؤوس بعضه في داخل بعض، تفزع الغنمة إذا اكتشفت أنها وحيدة، تركض إلى قطيعها بشكل مخيف، من جعل بها هذه الصفة؟ وهذا الطبع؟ إنه الله سبحانه وتعالى، من جعلها مذللة؟ الطفل يألفها، يلمسها، يداعبها، يمسكها، يحملها، لا يخاف منها، بينما عقرب صغير إن رآه رجل كبير قفز على الأرض خوفاً منها، لماذا نقفز عن الأرض من عقربٍ أو من أفعى، ونألف هذه الغنمة، والإبل، والناقة، والبقر، والماعز، والغنم ؟

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

فكِّروا في هذه الحيوانات :

هل فكرتم فيها؟ إذا تجاهلتم خَلقكم، إذا تجاهلتم أنكم خلقتم من نطفة من ماء مهين، ألا تأكلون كل يوم؟ ألا يذهب أحدنا إلى القصاب؟ ألا يرى هذا الغنم؛ عضلات، وعظامًا، وأوردة، وشرايين، وأحشاء، وأمعاء، وجمجمة، ورأسًا، ودماغًا، وعينين، وأنفًا، ولسانًا، وأذين، وقوائم، وجهازًا هضميًّا، وقلبًا، وكلية، وأمعاء دقيقة، وأمعاء غليظة ؟ ألا يُرى هذا أمامنا جميعاً ؟ ما الحكمة التي جعل الله بها بنية الحيوان الذي نأكله كبنية الإنسان تماماً ؟ إذا ذهبت إلى أخ كريم يبيعك اللحم فأنت أمام درسٍ في التشريح، في تشريح جسمك ، هكذا جسمك، عضلات، وأوردة، وشرايين، وعظام، ولوح الكتف، والعمود الفقري، تقول : أخي أريد مثله، أي العمود الفقري، اللحم المحيط بالعمود الفقري، هذا كله درس أمامنا،

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

لك أن تقف عند كلمة لكم .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

هذا ما نأخذه من الأنعام للدفء :

السجادة التي تجلس عليها لا تقدَّر بثمن، إنها تمنع عنك الرطوبة، وتمنع عنك البرد، هل بإمكانك أن تعيش في غرفة في الشتاء بلا سجادة؟ بلا بساط؟ بلا شيء صوفي ؟

(لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

وقد ترتدي ثياباً صوفية تحس أنك في دفء شديد، قد ترتدي ثياباً داخلية صوفية، هذه من وبر الجمل، غالية جداً، وهذا من نوع رقيق ناعم من الصوف، غالي الثمن، وقد ترتدي ثوباً أو معطفاً صوفياً، وقد ترتدي فروةً، في بعض أنحاء الريف، مهما كان البرد شديداً، إذا ارتديت هذه الفروة فكأنك في غرفة دافئة .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

السجاد، الألبسة الخارجية والداخلية، الخيام من وبر الجمل .

(لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

المسابل التي نضعها علينا في النوم، الدثر الصوفية .

(لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

من نعيم الدنيا أن تنام في الشتاء وفوقك دثار صوفي، هذا نعيم، تحس بالدفء مهما كانت الغرفة باردة، لو أنها غير مدفئة، هذا الدثار الصوفي يبعث في جسمك الدفء

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

الآن الخيوط الصوفية لا تقلَّد، هناك خيوط صناعية يحاول صانعوها أن ترقى إلى مستوى الخيوط الصوفية، الطريق مسدود، ثمن القطعة الصوفية عشرة أمثال، أو خمسة أمثال ثمن القطعة ذات الخيوط الصناعية، هذه إذا غسلتها تتسع، تتسع إلى مثلي حجمها، أما الصوف الصحيح الحقيقي فترتدي هذا المعطف سنوات طويلة وهي كما هي، من أعطى هذا الصوف خاصية أنها مفرغة من الهواء ؟ كيف تحجز هذا الهواء الساخن، ما هذا السر؟ اجلسْ على الجلد في أبرد أيام الشتاء تحس أن هذا الجلد يبعث الدفء في قدميك .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

هل شكرت الله على هذا الدفء ؟

هل تشكر الله عليها ؟ إذا ارتدى أحدنا معطف صوف هل يخطر بباله أنه الحمد لله الذي خُلقت لنا هذه المادة، نتدفأ بها في الشتاء

(لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

وجدت في غرفتك سجادة صوف، في أثناء الصلاة مريحة، ترتاح في الصلاة عليها ، تمشي عليها دون أن تحس بالبرد، تمنع عنك رطوبة الغرفة، هل تحس أن هذه النعمة من نعم الله سبحانه وتعالى، أم أنك اشتريتها بمالك، وحصلتها بجهدك، وانتقيتها بذوقك ؟

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ)

وَمَنَافِعُ

ما هي منافع الأنعام ؟

ما هي المنافع؟ المنافع أن هذه الدابة تأتيك بدابة أخرى كل سنة، ما أحد سمع أنه اشترى سيارة، وبعد سنة وجد واحدة أصغر منها على الباب واقفة، نبيع الكبيرة وتبقى الصغيرة عندنا .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ)

لها نسل، عندك بقرة لها نسل، عندك غنمة لها نسل، الغنم يلد مرتين في العام، هذا عطاء الله، فالمنافع هي النسل، والمنافع هي الركوب، والمنافع هي الحمل، والمنافع هي الألبان، والسَّمن، والحليب، والقشدة، والجبن، هذا كله من هذه الألبان المباركة، ألبان، وأجبان، وحليب، وركوب، وتحميل أثقال، ونسل .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ)

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ

فإذا ذبحتها تأكلها كلها، لا بل :

(وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

وصفُ ربِّنا دقيقٌ جداً، وصفٌ يأخذ بالألباب

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ

طبعاً هذه الصورة منتزعة من البيئة التي نزل فيها القرآن، الغنم والمعز، والبقر، والإبل، هي الأنعام، والأنعام المال الذي يرعى كما عرفه بعض العلماء، المال الذي يرعى، هذه أنعام .

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ)

منظرها يبعث في النفس السرور، الله عز وجل يحقق أهدافاً كثيرة في خلق واحد .

كل شيء في الأنعام فيه فائدة في الاستعمال :

الصوف ثمين جداً، فالقماش الصوفي الخالص أغلى أنواع الأقمشة، لأن له ميزات لا تعدلها أيُّ ميزات أخرى، سواء كان القماش بالذات، وإن كان ألبسة داخلية، وإن كان ألبسة عادية، وإن كان معاطف، شيء ثمين جداً، كي يعرف أحدنا قيمة الجلد الذي خلقه الله لنا، يشتري حذاء من البلاستيك لا ليلبسه، لكن ليعرف قيمة الجلد الذي خلقه الله لنا، فهناك أمراض تنتج عن استخدام هذه الأحذية، لأنه يوجد في الجلد مسام، فيه تنفس ومتانة، فيه مرونة، فيه راحة، إذاً الجلد مفيد، واللحم مفيد، والعظام تصنع منها السمن الآن، كلها من عظام الحيوانات، ولها استخدامات كثيرة جداً، حتى الأمعاء لها استخدامات، كل شيء في الغنم يستعمل، فهي خير كلها، حتى أن بَعر الغنم هو أغلى أنواع السماد، قال لي أحدُهم : إني سمَّدتُ بستاناً حوالي خمس دنمات، قال لي : كلفني عشرة آلاف ليرة، كيف ؟! قال لي : والله جئت بالغنم، قلت : سبحان الله ! كل شيء يأتي من الأنعام خير، كل شيء فيها من دون استثناء

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

الإنسان يجب أن يفكر إذا أكل قطعة جبن .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

شرب كأس الحليب صباحاً .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

أكل زبدةً مع عسل .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

دُعي إلى وليمة، فوضعوا له عصافير .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

أكل الحلوى .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

أكل لحماً مشوياً

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

اشترى علبة سمن .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

لبس معطف صوف .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

عنده سجادة في البيت .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

وضع غطاء صوف تحته فشعر بالدفء .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

هكذا المؤمن، كيفما تحرك، لاحظ نفسك بالنهار، كم مرة يجب أن تتلو هذه الآية :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

معنى : تُريحون :

أي حين تعودون بها إلى الإسطبل، أو الحظيرة .

(وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

معنى : تسرحون :

سرح بالغنم أخذُها ليرعاها، وأراحها أعادها إلى حظيرتها .

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ)

هذه الأحاسيس لا نعرفها نحن، يعرفها أبناء الريف، حينما يرى أن غنمه قد عادت إلى حظيرتها، ولها صوت، ولها ضجيج، ولها حركة يحس أن قلبه قد أفعم سروراً بهذا المال، كل غنمة ثمنها ألفي ليرة،

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

الفائدة من تقديم (تريحون)على (تسرحون):

العلماء قالوا: لماذا قدّم الله تريحون على تسرحون ؟ مع أن الترتيب المنطقي تسرحون وتريحون، قال: لأنك حينما تراها عائدة وقد امتلأت ضروعها حليباً، وامتلأت بطونها كلأ، تفرح أكثر، والعشب يبعث هذا المنظر السرور في نفسك، لذلك قدم رواحها على سراحها

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

ثم قال تعالى :

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ

لولا أن الأنعام تحمل الثقيل لهلك الإنسان :

الجمل يحمل حجرَ الطاحونة، قطر الحجر متر، من أثقل أنواع الأحجار يحملها،

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

الجمل عالٍ، لو أن الله عز وجل لم يجعل له هذه الثفينات، لو أنه يستريح على شق له، كيف تحمله ؟ مستحيل، إذا حملته وهو واقف يحتاج سلم، إذا انزلق هلكت أنت وهو، لكنه يجلس هذا الجمل جلسة نظامية، له ثفينة في بطنه، وثفينات على رجليه، تحمله وأنت مستريح، تضع هنا شجرة وهنا شجرة، تربطها بحبلين، تأمره بالوقوف فيقف

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ)

طبعاً هي مناظر، وقد كان في الشام منظر الجِمال محملة بالتبن الحاجات والأشجار منظرًا مألوفًا، الآن هذه المناظر قَلت جداً .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

وظيفة الخيل والبغال والحمير :

الخيل لها وظيفة، والبغل له وظيفة، هناك أماكن جبلية وعرة لا يصلح لها إلا البغال، حتى إن بعض الجيوش إلى الآن تستخدم البغال، لو أن جيشاً مقيماً بمنطقة جبلية وعرة، لا سيارة، ولا مدرعة يستطيع استعمالها، لابد من بغال، يركبها الإنسان فتسير به عبر الأخاديد في الجبال، البغل له صفات خاصة، وله ميزات، والحمير صبورة، إذا أراد صاحب البستان أن يبيع محصوله، فالحمار صبور، يقف ساعات طويلة من دون أن يتشكى، أو أن يتأفف، وظهره منخفض، والتعامل معه سهل، لو كان على بغل عالٍ، يأتي الواحد يسأل البائع : ماذا ؟ عندك فاصولياء ؟ الحمار مستواه منخفض، وصبور، وله ميزات كثيرة، يفتقر لها بعض الناس

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ)

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الْجَعْدِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

[متفق عليه]

الفرس صديق حميم في معاملته لصاحبه :

حدثني رجل قال: عنده خيل، وكانت ابنته على ظهر هذه الفرس، وكان قد أوقفها إلى جانب الطريق العام، وكانت هناك حافلات كهربائية، فلما جاءت حافلة اضطربت الخيل، وخافت، وأرادت أن تهرب، تذكرت أن على ظهرها ابنة صاحبها، ما كان منها إلا أن أناخت إلى الأرض، ودفعت بحركة هذه البنت عن ظهرها، وولت هاربة، من عنده خيل أو فرس يتعامل معها وكأنها صديق، هناك أناس كثيرون يقولون: إذا نام صاحبها على ظهرها، ورأت رجلا تنبّهه، ألم يقل عنترة يصف خيله :

فازور من وقع القنا بـلبانــه و شكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولو كان علم الكـلام مكلّمي

التعامل مع الخيل سهل، هو صديق، إذا ركب رجل سيارة، ونام هل تقول له السيارة: انتبهْ نمت، بل يطيح، وكذلك هل تنبهه إذا رأت عدواً أو حدث خطر؟!

أنا كنت ألمح على طريق درعا قوافل محملة بالتبن والمحاصيل، أصحابها نائمون على ظهر العربة، والبغال تمشي وحدها في الطريق، فالحيوان كائن حي له مشاعر، له إدراك،

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

إياكم أن تظنوا أنها رخيصة، بعض أنواع الخيل يزيد ثمنها على ملايين الليرات، ولا سيما النوع العربي .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)

هل يجوز أكل لحم الخيل والبغال والحمير ؟

هذه اللام التعليل، خلقت لتركبوها، بعض علماء الفقه استنبط أنه لا يجوز أكل لحمها، لأن الله عز وجل لم يذكرها مع الأنعام، بل ذكرها مع صنف آخر لتركبوها، وهو موضوع خلافي، وهناك أحاديث أخرى تجيز أكلها، طبعاً لحم البغال محرم، والخلاف على لحم الخيل .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

الإنسان عنده هدفٌ جمالي :

أما هنا فالإشارة دقيقة جداً، الإنسان عنده هدف جمالي، لو فرضنا غرفة الضيوف قد يأتي بألواح خشبية يضع عليها بعض الفرش، وهو مكان للجلوس جيد، لكن الجمال مبتغى، واللهُ عز وجل هكذا فطرنا، الإنسان يحب إلى جانب تحقيق الوظيفة أن يكون الشيء منظره جميلاً، فربنا عز وجل جعل للخيل منظرًا جميلا جداً، الآن في كثير من اللوحات الزيتية صورة خيل، ومنظر الخيل، تناسق الخطوط، لون الجلد أحياناً، خيل محجلة، لها أساور بيضاء في أرجلها، وفي رقبتها، لها غرة بيضاء، لها عيون كبيرة، لها منظر جميل، فربنا عز وجل توخى شيئين من خلق الفَرَس، توخى غاية وظيفية، وتوخى غاية جمالية

(لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

أحيانا إنسان يركب سيارة من دون دهن يخجل، ينزعج، يقول : ليست جميلة، طبعاً الهدف يكون في الشيء أن يكون جميلا،

وفي الحديث :

((إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ))

[مسلم عن ابن مسعود]

إذاً :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

هناك هدف وظيفي، وهناك هدف جمالي، وهذه فطرة الإنسان، وقد يتبادر إلى الذهن الآن سيارات فاخرة، وطائرات، وبواخر، وحوامات، وقطارات مريحة سريعة، على كلٍّ ربنا عز وجل يعلم ما سيكون، لذلك قال :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

فلئلا يظن الإنسان المعاصر أن هناك وسائل مواصلات تفوق في سرعتها، وفي إمكاناتها وفي اتساعها، وفي توافر الراحة فيها تلك الوسائل البدائية، قال الله سبحانه وتعالى :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

الله خلق أمورا لا نعلمها :

لكن الشيء الدقيق في هذه الآية أنه خَلق ما لا تعلمون من طائرات، وسيارات، وقطارات، وبواخر، وحوامات، هذا الخلق عُزِيَ إلى الله سبحانه وتعالى، لأن الله عز وجل لولا هذه المواد التي أودعها في الأرض، لولا المعادن، لولا أنه أودعها على شكل فلزات يسهل استخراجها، ولولا أنه يسَّر لنا إيقاد النار، لولا الأفران العالية، هل يمكن تحويل هذه الفلزات إلى معادن ؟ هناك معادن على شكل فلزات، وهناك أفران عالية، وهناك وسائل للتصفيح، والسحب، والتطريق، وما إلى ذلك، مواد هذه الوسائل، المواصلات من خَلق الله، والإنسان لولا أن الله أعطاه هذا الفكر لما أمكن أن يخترع طائرة، ولا سيارة، ولا باخرة، ولا قطارًا، ولا حوامة، ولولا أن الله ألهمه مبدأ المحرك الانفجاري، وألهمه مبدأ المحرك النفاث، وألهمه مبدأ المحرك التوربيني لما أمكن أن يركب البحر، ولا أن يطير في الجو، ولا أن يسير على الأرض، إذاً المواد مِن خَلق الله، طريقة وجودها في الأرض، كيفية وجودها في الأرض، من خَلق الله، طريق استخراجها من إلهام الله، الفكر من خَلق الله، الفكرة من إلهام الله، الوقود لهذه الوسائل من خَلق الله عز وجل، مَن الذي جعل هذه الحقول النفطية موجودة على أرض كتيمة ؟ لو أن هذه الأرض غير كتيمة لغارت في أعماق الأرض، وانتهى الأمر، جعلها على طبقات كتيمة، وجعل فوق هذه الطبقات ماء مالحاً لحكمة بالغة، وجعل النفط فوق الماء المالح، وجعل بين النفطِ وبين الطبقةِ الكتيمة غازاً مضغوطاً إلى درجة كبيرة، بحيث لو وصلت إلى هذا الحقل لتفجر النفط تفجراً، وخرج بلا مضخات، وبعد هذه الطبقة الكتيمة طبقة نفوذة، طبقة كتيمة، طبقة من الماء المالح، طبقة من النفط الخام، طبقة من الغاز، طبقة كتيمة، طبقة نفوذة، ومن أعطاك وسائل استخراج النفط ؟ الله سبحانه

وتعالى، فالمعادن، وأشباه المعادن، وجميع المواد التي صنعت السيارة، والطائرة، والباخرة، والقطار، مع الفكرة، والفكر، والوقود، واستخراج الوقود، كلها من خلق الله عز وجل، لذلك قال عز وجل :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ

ثم قال عزوجل :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

هذه آية خطيرة جداً .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

هذه مِنْهَا على أيّ شيء تعود ؟ على الخيل والبغال والحمير، أم على

يَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ أما على السبيل ؟

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

لمَ لمْ يهدنا أجمعين، هذه الأسئلة، وهذه الآية التي جرت بين العلماء حولها مناقشات كثيرة سوف نرجئ الحديث عنها إن شاء الله إلى الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (03-21): تفسير الآيات 9 – 14 ، عن نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ونعمة الإرشاد - ألزم الله نفسه بهداية البشر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-01-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

ثلاث نِعم عامة مذكورة في سورة النحل :

في هذه السورة بين الله لنا سبحانه وتعالى ثلاث نعمٍ كبرى امتن بها علينا .

1 ـ نعمة الإيجاد :

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

2 ـ نعمة الإمداد :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6)وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(7)وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد .

3 ـ نعمة الإرشاد :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ

هذا أول شيءٍ في هذه الآية، أنها جاءت بعد نعمتين، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، وفي هذه الآية بيان لنعمة الإرشاد .

الانتقال من المحسوسات إلى المعنويات :

شيءٌ آخر، هو أن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حينما يذكر الأشياء المادية يعقب عليها بالأشياء المعنوية، فحينما قال الله عز وجل :

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ)

(سورة البقرة : 197)

انتقلنا من الزاد المادي إلى الزاد المعنوي .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

(سورة الأعراف : 26)

الانتقال من المحسوسات إلى المجردات، من الماديات إلى المعنويات، من الحقيقة إلى المجاز، والآن هذه الخيل والبغال والحمير تركبوها وزينة، وهذه تسلك طرائق لحاجاتكم وأهدافكم .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

تركيب هذه الآية دقيق، والآية أصلٌ في العقيدة الإسلامية .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

السبيل هي الطريق :

السبيل هي الطريق .

سيدنا الصديق رضي الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثناء الهجرة، وكانا متخفِّيَيْن خشية المطاردين، فإذا رجل في الطريق يسأل سيدنا الصديق، يقول له : من هذا الرجل ؟ ويشير إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال هذا الصديق الكريم الفطِن : هو رجل يهديني السبيل، أي يرشدني إلى الطريق، فتوهم السائل أنه دليل طريق، وهو عنى به أنه يهديه السبيل إلى الله سبحانه وتعالى، فالسبيل في اللغة هي الطريق، والسبيل تُذكَّر وتؤنث .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

معنى : قصد السبيل :

ما معنى قصد السبيل ؟ القصد مصدر مِن فعل قصد، قصدت دمشق ؛ أي أردتها، قصدت حلب ؛ أي أردتها، اسم الفاعل منه قاصد، والمصدر قصد، فكلمة قصد السبيل أساسها سبيل قاصد، ومعنى سبيل

قاصد، أي طريق مستقيمة موصل، كلمة قاصد فيها معنيان : المعنى الأول : أنه سبيل مستقيم، طريق مستقيم .

والمعنى الثاني : أنه موصل، يعني نافذ، طريقة مستقيمٌ نافذة موصلة إلى الهدف .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

إلزام الله نفسه ببيان السبيل القويم وإمداد الناس بالرزق :

هذه (على)تفيد معنى الإلزام، مثلاً قال، تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود : 6)

ما من دابة، الدابة نكرة تفيد الشمول، من دابة، (مِن)لاستغراق أفراد كل نوع، ما من، وإلا تفيد القصر، لكن لو أن الله عز وجل قال : ما من دابة إلا الله يرزقها، ما الفرق الدقيق بين قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

وبين قوله : وما من دابة إلا الله يرزقها، فرقٌ كبير جداً، ما من دابة إلا الله يرزقها لا على وجه الإلزام، يرزقها أو لا يرزقها، لكن ما من دابة إلا على الله رزقها على وجه الإلزام، لا حاكم إلا الله في الكون، من يلزمه ؟ لا أحد، إنما ألزم نفسه، كما قال الله عز وجل على لسان سيدنا هود :

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود : 55 - 56)

ربنا سبحانه وتعالى ألزم نفسه أن يكون على صراط مستقيم، وربنا سبحانه وتعالى ألزم نفسه أن يرزق العباد .

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي، لم أخالفك في رزقك، إلزام ذاتي، الله سبحانه وتعالى ألزم نفسه بالصراط المستقيم :

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

وألزم نفسه برزق العباد :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

وألزم نفسه في هذه الآية أن يهدي عباده الطريق الموصل إليه، هذا عليه .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

آيات الكون هي مِن السبيل التي بيّنها الله للعباد :

على الله أن يجعل للعباد طريقاً موصلاً إليه، طريقاً مستقيماً، وطريقاً سالكة، وطريقاً نافذةً، وطريقاً موصلةً، وطريقاً تحقق الهدف لمن يسلكها على الله، هذه على الله، أين هي هذه السبيل التي جعلها الله عز وجل ؟

العلماء قالوا: خلق في الإنسان هذا العقل، وقالوا: نصب في الكون هذه الآيات، أي شيءٍ تقع عينك عليه آية دلالة على الله عز وجل، النجوم، الشمس والقمر، الليل والنهار، الجبال والسهول، الوديان والأنهار والبحار، أنواع النباتات، أنواع الأطيار، أنواع الحيوانات، أنواع المخلوقات، أنواع الأسماك، السبيل إلى الله، هذه الآيات التي بثها الله في الكون، وبثها الله في السماوات والأرض، وبثها الله في الأرض بالذات .

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات : 20)

هذه الآيات التي بثها الله في جسمك كيف خلقت ؟ كما تكلمنا في الدرس الماضي، الحيوان المنوي الواحد عبارة عن خلية لها غلاف، ولها سائل أسمه، ولها نوية، وعليها الجينات، وعلى الجينات خمسة آلاف مليون أمر، هذه تكتب في ألف مجلد، أو في مليون صحيفة، سمعك، بصرك، عضلاتك، شرايينك، أوردتك، هذه العين ترى بها الصور الدقيقة الواضحة، لأن خلاياها شفافة، من أين تستمد الغذاء ؟ العين وحدها تسمد الغذاء عن طريق الحلول، أول خلية في القرنية تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، وينتقل الغذاء عبر الخلايا القرنية لشيء واحد لكي تكون الرؤية صافية، هذا الشعر الذي جعله الله في رأسك، مئتان وخمسون ألف شعرة، لكل شعرة شريان ووريد وعصب، وغدة دهنيه، وغدة صبغية، وعضلة، السبيل التي جعلها الله إليه أنه أعطاك الفكر، والسبيل التي جعلها الله إليه أنه بث في الكون هذه الآيات، والسبيل التي جعلها الله إليه أنه أنزل الكتب السماوية، وأنه أرسل الرسل، وأنه ساق الحجج، وضيق على عباده، وأبرز شيءٍ في الكون أن السبيل إلى الله واضحة، وسالكة، وهي أهم ما في الكون .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

هذا على الله، على الله أن يجعل طريقاً مُفْضِيةً إليه، الآيات، والعقول، والكتب، والرسل والدعاة، والمصائب، والمضايقات، هذه كلها سبيل إلى الله عز وجل .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

بيت قصد السبيل والسبيل القاصدة :

لكن لمَ لم يقل : وعلى الله السبيل القاصدة ؟ لمَ جاءت كلمة قصد مكان قاصد ؟ أكثر المفسرين يقولون :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

أي: وعلى الله السبيل القاصدة، لماذا قال قصد مكانَ قاصد؟ لأن هذه هي السبيل إلى الله، لو أن معالمها اضطربت يوضحها الله عز وجل، لو أن هذه السبيل إلى الله انحرفت لبعث الله في هذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدد لها دينها، كلما ضاعت معالم الطريق، وكلما انحرفت الطريق يسخر الله لهذا الدين من يجدده، ومن يصحح مسيرته .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

شيءٌ آخر، أن الله عز وجل قال :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل : 12)

تبيان الطريق، وتوضيحه، ونصب الآيات، هذه من اختصاص الله سبحانه وتعالى، كيف أن الجهات المعنية تشق الطريق، وتضع عليه الإشارات، هناك منعطف خطر، هناك جسر ضيق، هناك طريق فرعية، هناك صعود شديد، هناك خطر الانزلاق، كلها إشارات رحمة بالسائقين .

إذاً :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

صار معنى القصد أنه لا بد من أن يكون في كل زمان، وفي كل مكان طريق إلى الله سالكة إليه، قد يكون هذا الطريق نبيًّا كريمًا، أو داعية مخلصًا، أو كتابًا واضحًا، أو آيات بينات، أو آيات طارئات بينات، يبغي هؤلاء فيدمرهم الله سبحانه وتعالى، هذه آية من آيات الله، على مستوى جماعي، على مستوى فردي، هذا يطغى فيمحق الله له ماله، هذا يتجاوز الحدود فيؤدب تأديباً شديداً، هذه كلها سبل إلى الله عز وجل .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

يعني سبيل الله سالكة، وسبيل الله مستقيمة، وسبيل الله هادفة، وسبيل الله موصلة إلى الهدف، وهذه السبيل دائماً وأبداً كلما ضاعت معالمها، وكلما انحرفت وضحها الله عز وجل، وأعادها إلى الطريق الصحيح .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[أخرجه أحمد]

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ)

معنى : وَمِنْهَا جَائِرٌ

ما معنى جائر ؟ أي منحرف، جار بمعنى انحرف، وجانَبَ الطريقَ، ربنا عز وجل يبين، كما أن هناك طريقًا إلى الله عز وجل سالكة، نافذة، مستقيمة، موصلة، هناك طرق أخرى منحرفة، هذه الطريق المنحرفة مسدودة، ومُشقية، ومهلكة .

مثلاً: طريق كسب المال، من ظن أن الدنيا هي المال، وكسب المال أذكى عمل، والغني هو الفالح، والناجح، والفائز، هذا الطريق يفاجئ عندما يأتي ملك الموت أن المال كله لا قيمة له، في هذه الساعة الحرجة، وأن كل الذي حصله في الدنيا تركه في البيت، وأنه أمام حفرة سيبقى فيها إلى يوم القيامة، وبعد يوم القيامة إما أن يكون إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفذ عذابها، عندئذ يقول :

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر : 24)

(يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)

(سورة الفرقان : 28)

عندئذ يفزع، عندئذ يكتشف أن هذه السبيل التي سلكها كانت جائرة، يعني كانت منحرفة، ومسدودة، انتهت عند الموت، فإذا توهم الإنسان أن طريق جمع المال، وجمع الثروات، والانغماس في الدنيا ليصبح غنياً، فهذا الطريق جائر، أول شيء منحرف عن طريق الحق والشيء الثاني أنه مسدود، ليس نافذاً، ليس مفضياً إلى السعادة، عندئذ حينما يوضع الإنسان في النعش، وتمشي جنازته، يقول : يا أهلي يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي .

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

لذلك ربنا عز وجل قال :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة الأنعام : 153)

في الآية إشارة دقيقة، هناك طريقٌ لله واحد، طريق الحق واحد لا يتكرر، ولا يتعدد، ولا يختلف، بين نقطتين لا يمر إلا خط مستقيم واحد .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

القضية خطيرة جداً، على أي طريق هو؟ أهو على الطريق الذي رسمها الله إليه؟ أهو في الطريق التي سنها الله، التي جعلها الله سالكة إليه، مستقيمة إلى جنابه، أم هو على طريقة جائرة ؟ في طريق جمع الدرهم والدينار، أم في طريق اقتناص اللذات المحرمة، أم في طريق العلو في الأرض، أم في طريق اللهث وراء الشهرة، على أي طريق هو ؟ وما منا واحد إلا ويعلم علم اليقين في أي طريق هو .

هذه الآية خطيرة جداً، بل إنها أصل في العقيدة الإسلامية .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

لكل عصر واحد يسمو به، كما قال لشيخ محي الدين رضي الله عنه، لكل واحد عصر يسمو به ، وأنا لهذا العصر، ذاك الأوحد، ربنا عز وجل قال :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة : 30)

لا بد من رجل لكل زمان، ينطق بالحق، وينقل لك الحق مشهوراً كان أو مغموراً، لا بد من رجل على حق .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ)

في أي طريق أنت ؟ الإنسان يمتحن نفسه، يصحح سيره، إن كان في طريقٍ جائر، فليعُد إلى الطريق المستقيم .

(الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32))

(سورة فصلت : 30 - 32)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

انتهى الأمر .

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

لكن في الآية دقة، ربنا عز وجل قال :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

لا يُنسَب الشر إلى الله :

ليس على الله أن ينصب طريقاً جائرة، الطريق الصحيحة على الله نصبها، وعلى الله جعْلها، وعلى الله شقّها، أما الطريق الجائرة فلم تنسب إليه تعالى، إذًا ما السبب ؟ هناك سبب وجيه جداً، بعض المفسرين قال : تأدباً مع الله عز وجل، فربنا عز وجل جعل طريقاً مهلكة، لكن تأدباً مع ذاته العلية لم تنسب إلى ذاته، والحقيقة أن الطريق المفضية إليه، السالكة إليه، الموصلة إليه مَن خلقها ؟ هو خلقها .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

يعني على الله أن يرسم لكم طريقاً إليه، أما الطريق الجائرة فلا تحتاج إلى من يوجدها، الدليل : تقول : إنسان راكب سيارته فسار في طريق الهاوية، هل المعنيون بالموصلات عبَّدوا طريقاً إلى الهاوية، لا، أبداً، حينما خرج عن الطريق المستقيم، عن الطريق المعبد، ونزل في الوادي، نقول : سار في طريق الهاوية، هذه الطريق التي سلكها، وتحطمت سيارته، لا يسمى طريقاً إلا مجازاً، خروجه عن الطريق هو الجائر، يعني الباطل، الفساد، والانحراف، والضلال لا يحتاج إلى خالق، لأنه سلبي، ليس إيجابياً، هناك طريق معبد مستقيم، حينما يخرج قائد المركبة عن هذا الطريق يهوي في الوادي، هل هويه في الوادي طريق ؟ لا، لا يسمى طريقاً، فربنا قال :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

الطريق المعبد يحتاج إلى نفقات، إلى من يشقها، لكن وقوع المركبة في الوادي، هذا السير إلى الوادي لا يحتاج إلى من يشق هذا الطريق، مجرد الخروج من طريق الحق هو طريق الهلاك، فربنا عز وجل قال :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

أما الطريق الجائر :

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

وإذا خرج الإنسان من هذه الطريق يصبح في طريقٍ منحرفة، مهلكة، مفضية إلى الدمار والهلاك .

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

يعني على الله عز وجل أن يشق الطريق، وعلينا أن نسير في الطريق .

وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ

(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

الفكرة مهمة جداً، إنسان يتوهم أحياناً .

(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

بيان الطريق الصحيح للناس جميعا ، والهداية لمن شاء الله :

تعلقت مشيئته بنصب هذا الطريق، ولم تتعلق مشيئته بهدايتنا أجمعين، فلماذا؟ أكثر المفسرون قالوا كلاماً طيباً، وكلاماً مقنعاً، وكلاماً عميقاً، قالوا: لو أن الحكمة تقتضي أن يهدينا جميعاً لهدانا إليه، ولكن الله يفعل ما يشاء، أما أن يشاء لنا الهداية جميعاً فهذا الشيء يتنافى مع حكمته .

لا انتفاع بالهدى القسري :

الله عز وجل لو هدانا إليه جميعاً هداية قسرية لأُلغِيَتْ الأمانة التي كلفنا بها، ولأُلغِيَتْ هويتنا كَبَشر، ويلغى عندئذ التكليف، ويلغى الاختيار، ويلغى الثواب، ويلغى العقاب، حيثما أُجبر الإنسان على طاعة الله عز وجل بطل الثواب، وحيثما أجبر على معصيته بطل العقاب، وحيثما أُجبر على طريق معينة بطلت حرية الاختيار، وحيثما بطلت حرية الاختيار بطل التكليف، وإذا بطل التكليف بطل الابتلاء، فلا ثواب، ولا عقاب، ولا اختيار، ولا تكليف، ولا ابتلاء .

حينما توزع الجامعة على طلابها وهم في الامتحان أوراق الأسئلة مع أوراق الإجابة، مطبوعة بالإجابات الكاملة التامة، يكلف الطالب عندئذ بكتابة اسمه ورقمه فقط، وينال العلامة التامة، إذا فعلت الجامعة هذا ألغي الامتحان، لا معنى لهذا الامتحان، لا معنى للدراسة عندئذ، لا معنى للتنافس، لا معنى لحرية الاختيار، لا معنى للتكليف، إذا أيقن الطالب أنه في نهاية العام حينما يدخل إلى قاعة الامتحان سيوزع عليه ورقة السؤال، وورقة الإجابة مطبوعة كاملة، وما عليه إلا أن يكتب اسمه ورقمه، هل لهذا النجاح قيمة؟ لا والله، هل لهذا النجاح قيمة عند الطلاب؟ لا والله، هل لهذا النجاح قيمة عند الأساتذة؟ لا والله، هل لهذا النجاح قيمة عند الأهل؟ لا والله، فالجامعة طبعاً لو تشاء مثلاً لوزعت مع أوراق الأسئلة أوراق الإجابة، ولنجح جميع الطلاب، ولكن هذا العمل ليس حكيماً، وليس مُجدياً، وليس له معنى، ولا جدوى منه، بل هو عمل غير حكيم، يعمل على تعطيل حرية التنافس بين الطلاب، يعطل فيهم الدافع إلى الدراسة، يعطل فيهم الدافع إلى طلب العلم، يعطل فيهم التنافس، يعطل فيهم تأكيد ذواتهم، هذه

المعاني الدقيقة، تأكيد الذات، حرية الاختيار، التنافس، قيمة تحصيل العلم بدافع شخصي، هذا كله يعطل لو شاءت إدارة الجامعة أن تنجح جميع الطلاب عن طريق توزيع أوراق الإجابة مع أوراق الأسئلة، هذا المعنى ليس كما توهم بعض الناس الذين يسيئون الظن بالله عز وجل، ويقولون: لو شاء الله هداكم، لكن لا يريد أن يهدينا، كلا ليس هذا المعنى، ليس من الحكمة أن يهدينا جميعاً هداية قسرية من عنده .

لو أن أباً يعمل في تدريس الرياضيات، وله ابن عنده في الصف، ألا يستطيع هذا الأب أن يعطيه قبل الامتحان بيوم الأسئلة، ويأخذ في اليوم التالي علامة كاملة ؟ يستطيع ضمن إمكانه، لو فعل ذلك لحطم ابنه، لو قال له في أول العام: لا تقلق يا بني، أنت ابني، وأنا أحبك، وسوف أعطيك السؤال قبل بداية الامتحان بساعة، عطل فيه الدافع نحو الدراسة، فالإنسان أولاً مخير، فلو هدانا أجمعين لتعطل اختيارنا، الإنسان مكلف، لو هدانا أجمعين لتعطل التكليف، الإنسان مبتلى، لو هدانا أجمعين لتعطل الابتلاء، الإنسان حمل الأمانة، لو تعطل التكليف لألغيت هويته، مَن الإنسان؟ مخلوق .

حينما قال الله عز وجل :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب : 72)

للإنسان حرية الاختيار :

هذا هو الإنسان، حمل الأمانة، وجُعِلت نفسه أمانة بين يديه .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس : 9 - 10)

جُعل مخيراً، جُعل مريداً، أُودعت فيه شهوات، دعي إلى الحق، فلا قيمة للهدى إلا إذا كان بدافع شخصي، بدافع من حرية الاختيار، أما لو ألزم الإنسان على الهدى لفقد الهدى قيمته، هذا معنى قوله تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

تفسير يضل عنه أكثر الناس :

هذا الموضوع ينقلنا إلى موضوع كثيراً ما يبحث عنه بعض الإخوة المؤمنين، كيف نفسر قوله تعالى ؟

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 93)

المعنى الأول :

بعضهم قال: إن الله عز وجل إذا أضل عباده فإنه يضلهم عن شركائهم، كما لو أن الإنسان رأى أن ابنه يتلهى بلعبة، وأخفاها عنه، أضله عنها، يتلهى بها عن نجاح مهمّ يتعلق به مستقبله، حينما يضل الله عبده يضله عن شركائه، لا عن ذاته، يهدَى إلى ذاته، ويضل عن شركائه، هذا المعنى الأول الذي يليق بالله سبحانه وتعالى :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف : 180)

المعنى الثاني :

وبعضهم قال: إذا أضل الله عبده، فمعنى ذلك أن هناك إضلالا جزائيًّا، وليس ابتدائيًّا، كيف ؟ الإنسان اختار الضلال، فجزاه الله عز وجل بالإضلال .

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة الصف : 5)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة فصلت : 17)

المعنى الثالث :

الضلال بمعنى آخر، أن الإنسان حينما يرفض طريق الحق يضلّ، فلو أن إنساناً ماشياً في طريق، ووصل إلى مفترق طرق، وعلى المفرق شخص دليل واقف، حريص على رواد الطريق، وقال هذا الدليل: الطريق من هنا، فقال له سائق المركبة: أنت إنسان كذاب، أنت إنسان جاهل، هل يعقل أن يضيف إليه معلومات جديدة، رفض دعوته كلياً، قال له : اذهبْ أينما تريد، فالإنسان حينما يرفض هداية الله عز وجل يقع في الضلال وقوعاً حُكمياً، إذا رفضتَ طريق النجاة وقعت في طريق الهلاك، إذا رفضت طريق الحق سرتَ في طريق الباطل، فهذا هو المعنى الذي يستفاد من قوله تعالى :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل : 93)

شيءٌ آخر، أن الله عز وجل يقول :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

قيمة الهداية ما كانت على قناعة واختيار :

الهداية لا قيمة لها إلا إذا انطلقت من إنسان مختار، بدافع من حرية الاختيار، هذه الآية آية أساسية في العقيدة، ودائماً الله سبحانه وتعالى تكفل لعباده على مدى الأيام والحقب، والسنوات، والدهور، أن يجعل طريقاً مستقيمة موصلة إليه، وهذه الطريق قد تكون بالكتب، وبالأنبياء، وبالآيات، وبالمصائب، وبالدعاة .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

وكلما انحرفت هذه الطريق، كلما ضاعت معالمها، يبعث الله سبحانه وتعالى من يجدد لهذا الدين طريقه إليه، لكن هناك طريق جائرة منحرفة

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

فنعوذ بالله أن نكون في الطريق الجائرة، كل إنسان يجب أن يعرف على أيّ طريق هو

(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

لو أن من الحكمة أن يهديكم جميعاً لهداكم، ولكن ليس هذا من الحكمة، لو فعل ذلك لتعطل الاختيار، والتكليف، وحمْل الأمانة، والابتلاء، ولتعطلت هوية الإنسان، ولأصبح الإنسان مخلوقاً آخر غير الذي هو عليه، ثم يقول الله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

هل شعرت يوما أن الله هو الذي أنزل هذا الماء الذي تشربون ؟!

أعَرَفْتَه؟ هذا الذي أنزل من السماء ماء، فإذا قرأت في الصحيفة اليومية نِسَب الأمطار في المحافظات هل تشعر أن الله هو الذي منَّ علينا بهذه الأمطار، يقول لك : في المكان الفلاني سبعون ميليمترً، والمكان الفلاني أربعة عشر، المجموع ألف ومئة، هناك أماكن المجموع فوق الألف، هل تحس حينما تقرأ هذه النشرة الجوية أن هذا من الله عز وجل، ومن فضل الله، وأن هذه الأمطار التي هطلت لا تقدر بثمن، وأنها تحي الأرض بعد موتها، وأن رزقنا معلق بها .

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

(سورة النحل : 65)

إن رأيت الأنهار قد ارتفعت نسب الماء فيها بماذا تشعر ؟ هل تحس أن هذا فضل من الله عز وجل .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ)

الماء لصالح الإنسان بطريق مباشر وغير مباشر :

لكم، خصِّيصى لكم، هذه السحب، وهذه المنخفضات الجوية المتمركزة فوق قبرص، كما تسمعون، وهذه السحب الملبدة بالغيوم، وهذا بخار الماء العالق في الجو، وهذه الرياح التي تسوق السحاب، وهذه العملية المعقدة حينما تصدم سحابة مكهربة بسحابة أخرى ينعقد ماء السماء ذرات لطيفة، هذا هو .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ)

كيف قال قبل قليل؟

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

(سورة النحل : 5)

كيف قال سابقا؟

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

(سورة لقمان : 20)

كيف قال :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الجاثية : 13)

كيف قال :

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس : 72)

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

(سورة الشورى : 11)

وهذه مثلها :

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

تفكَّروا في هذا الماء العذب الزلال وما فيه من معادن :

نشرب منه، بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنِع عنك، سؤال سُئل عنه بعض الملوك، قال : بنصف ملكي، قال : فإذا مُنِع إخراجه، قال: بنصف ملكي الآخر، هذا هو الماء، لو أن الماء نزل ملحاً أجاجاً، كل لتر

منه يكلف في بعض البلاد النفطية ما يعادل أربعاً وعشرين ليرة سورية، فهذه الأمتار المكعبة في كل ثانية عشرون متراً مكعباً، كم يكلف تحليتها؟ لو أنك كُلفت أن تحليها عن طريق التكنولوجيا، كيف ؟

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

هذا الماء معدني، يحتاج الإنسان إلى نسب من الفلور قليلة جداً للحفاظ على أسنانه، فيه فلور، فيه كالسيوم فيه يود، فيه مغنيزيوم، لذلك ماء التحلية المقطر لا يصلح للشرب، لا بد من خلطه بمياه الآبار، هذا الماء مدروس، جزء منه يفيد الغدة الدرقية، وجزء يفيد الأسنان، وجزء يفيد العظام، مدروس .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

جعله شفافاً لا لون له، لو كان لونه أحمر كل شيء في الأرض يصبح أحمر، الشجر أحمر، الطبخ أحمر، الصوف، الخيوط، فهو لا لون له، و لا طعم له، لو كان طعمه بطعم ماء الزهر دائماً فسوف تعاف من ماء الزهر مع الزمن ؛ في الشاي ماء زهر، في الطبخ ماء زهر، لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة له، ثم إن تبخره بدرجات دنيا، يتبخر بأربع عشرة درجة مئوية، تنظف البيت فيجفّ بسرعة، تضع ثيابك المبتلة على حبل فسرعان ما تجف، من فضل الله علينا أنه يغلي بدرجة مئة، ويثبت، لو كان مثل الزيت ترتفع درجة غليانه، ومن الصعب أن نستخدمه في الطبخ، لأن الطعام يحترق، لكن درجته ثابتة، غليانه في مئة درجة، يبقى غليانه في هذه الدرجة ثابتا .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ)

وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

الشجر هنا هو مطلق النبات :

هنا معنى الشجر، مطلق النبات، الكلأ شجر .

(فِيهِ تُسِيمُونَ)

معنى : تسيمون :

عندما يكون المرعى جيداً يكون موسم الغنم طيبًا، يقال : الحليب رخص سعره، والجبن نزل سعره، لأن المرعى جيد، فمهمّ كثيراً أن يكون المرعى جيداً، إذا كان الموسم في البادية جيداً فهذا يسهم هذا في انخفاض الأسعار .إذاً :

(لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

معنى تسيمون ؛ أي ترعون أغنامكم، وأبقاركم، ومواشيكم، وأنعامكم، لذلك يُعد المرعى مهمًّا جداً للحياة .

الآن الأعلاف من أخطر المواد الأساسية في حياتنا، لأن طعامنا مبني على الأعلاف، العلف ليس لنا، بل للحيوانات، ولولا الأعلاف لما نما الدجاج والخراف، والأنعام، إذاً :

(وَمِنْهُ شَجَرٌ)

العلماء قالوا : كلمة شجر تعني مطلق النبات، وهنا السياق يقتضي أن يكون المعنى الكلأ،

(فِيهِ تُسِيمُونَ)

ترعون أغنامكم .

وهذا الماء أيضاً :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

الزرع المقصود به المحاصيل، القمح، الشعير، العدس، والحمص، والبازلاء، والفول :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ)

أحياناً يكون في موسم الزيتون حجم حبة الزيتون صغيرًا جداً، مطر واحد قبيل قطافه يتضاعف حجم الزيتون، فهذا الزيتون ذكر بعد الزرع لأهميته، لأن الزرع هو الطعام الأساسي، والخبز من الزرع .

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ)

يوجد أشجار تعمر آلاف السنوات من الزيتون، قرأت مقالة عن زيت الزيتون، فهو المادة الدسمة التي لا تؤذي الشرايين، هناك كثير من الزيوت المهدرجة، أو سمون ذات نسب عالية من الإشباع، هذه تؤذي، لكن زيت الزيتون يعدّ من أسلم المواد الدسمة، التي لا تؤذي شرايين القلب، ولا تؤذي صماماته.

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ)

تحدثنا طويلاً عن النخيل .

(وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

هذه كلها آيات للتفكر والتذكّر :

كأنه ربنا عز وجل أعطانا عناوين للتفكر، هل فكرت في الزرع ؟ هذا الزرع يتم حصاده دفعة واحدة، من آيات الله الكبرى الزيتون، ينضج دفعة واحدة، النخيل ينضج دفعة واحدة، الأعناب

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

هناك كما ذكر لي ثلاثة آلاف نوع من التمر، وهناك ثلاثمئة نوع من العنب، وهناك أنواع منوعة من الزيتون، بعضه للمائدة، بعضه للعصير، بعضه ذو حبة كبيرة، بعضه نسب الأسيد فيه مرتفعة، أنواع منوعة، كل مادة الله عز وجل خلقها منوعة .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ

الكواكب من أعظم الآيات لمن يعقل :

أيضاً الليل والنهار، والشمس والقمر آيات دالة على عظمته سبحانه وتعالى، الليل سكن .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)

(سورة النبأ : 10 - 11)

في الليل ننام، وفي النهار نعمل، هناك نظام، هناك زمان، أين الزمان لولا الليل والنهار ؟

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

(سورة الإسراء : 12)

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

لو أن الشمس انطفأت فجأة لأصبحت الأرض قبراً جليديا، ثلاثمائة وخمسين درجة تحت الصفر، فمن يستطيع أن يجعل ضوءًا للأرض كلها ؟ إذا كان عندك بيت بخمس غرف وصالون، تحتاج كل غرفة إلى خمسة قضبان نيون تقريباً، أما الشمس فنجم واحد يضيء الأرض كلها، ومدفئة واحدة للأرض كلها، وتقويم واحد، مصباح واحد، وصيدلية واحدة، الشمس مطهرة، مدفئة، ومصباح، وتقويم، وصيدلية للأرض كلها

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

القمر تقويم شهري، الشمس تقويم يومي، شروق الشمس تعرف به وقت الشروق، والضحى، والظهيرة، والعصر، والمغرب، أما القمر فتقويم شهري، الشمس تقويم يومي، والقمر تقويم شهري .

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)

نهتدي بها في ظلمات البر والبحر، قال تعالى :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل : 16)

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

إذا أراد الإنسان أن يفكر في ملكوت السماوات والأرض، وصلى الصبح في وقته، وأراد أن يجلس ليفكر في هذه الآيات العظيمة، ليجعلْ من هذه الموضوعات التي ساقها الله له في هذه السورة موضوعات للتفكير، يجلس يفكر في القمر يومًا ويومين، حتى يحس أن هذه الآية تركت أثراً بليغاً في نفسه، في الفترة الثانية فكر في الشمس، بعد ذلك في الليل، في النهار، في النجوم، وإذا عاد قبل هذه الآيات فالزرع، والزيتون، والنخيل، والأعناب، والماء، هذه سورة النحل سورة النِعم .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ(4)وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6)وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(7)وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل : 4 - 8)

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(10)يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(11)وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

الإنسان إذا أكرمك، قدم لك شيئاً، أول مرة تقول له: شكراً، المرة الثانية تخجل، كلما تتالت النعم فلا بد من أن تشعر بالفضل، وأن يلهج لسانك بالشكر، فهذه الآيات ألا تؤثر فيك؟

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ

ما خلق لكم في الأرض، من مخلوقات، من حيوانات ، من نباتات، من أشجار، من أطيار، من أسماك، من جبال، من رخام ، من معادن، من أشباه معادن .

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ)

هذه الأرض كلها خيرات، وكلها مواد، وكلها نعم، وما على الإنسان إلا أن يشكر، لذلك ربنا عز وجل يقول :

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر : 66)

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف : 144)

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(13)وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

عالَم الأسماك من أعجب العوالِم :

هذه الأسماك التي خلقها الله في البحر كم نوعها؟ بعضهم قال: مليون نوع، تبدأ من سمك تراه في بعض الأحواض صغيرة جداً، وجميلة، بعضها فسفوري، بعضها شفاف، بعضها أسود فاحم، بعضها مزين ملون مزخرف، بعضها لها ذيل طويل، لها زعانف ملونة ، وتنتهي بالحيتان، وزنه مئة وثلاثون طناً، هل مئة وثلاثون طناً قليل؟ فيه من الدهن خمسون طناً، لحمه خمسون طناً، أحشاؤه ثلاثون طناً، فيه تسعون برميلاً زيتاً يخرج منه، رضعته الواحدة ثلاثمئة كيلو، الحيتان ترضع، طبعاً أولادها، كل رضعه ثلاثمئة كيلو، ثلاث رضعات بالنهار ألف كيلو ، تحدث أزمة حليب، هذا هو الحوت .

هناك سمك عريض، هناك سمك متوحش، هناك سمك صغير، وسمك لا يكبر كالسردين، وسمك ذو طعم طيب، مليون نوع من السمك في البحر .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

تفسير : يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

من أبسط التفسيرات لقوله تعالى :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل : 93)

يهدي قوماً اختاروا الهدى، ويضل قوماً اختاروا الضلال، الإنسان مخير . ولها تفسير آخر :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

آية محكمة فسرها الله في آيات كثيرة :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص : 50)

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المنافقون : 6)

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : 52)

ربنا عز وجل بإيجاز قال :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

هذه المشيئة وضّحها، الفاسق لا أهديه، والظالم لا أهديه، والخائن لا أهديه، فإما أن تفهم قوله تعالى :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

أي من أراد الضلالة أضله الله، ومن أراد الهدى هداه الله، أو أن تفهم أن هذه الآية أجملت وفُصِّلت في مكان آخر :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المنافقون)

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

أو أن تفسر الضلال بأن الله يضل عن شركائه، يهدي إلى ذاته، ويضل عن شركائه، أو تفسر الضلال بمعنى الجزاء .

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : الآية 5)

أو تفسر الضلال أن الإنسان قد يرفض هداية الله عز وجل، يرفضها كلياً، فكيف يهديه الله ؟ هذا الذي تحب أن ترشده إلى الطريق الصحيح يقول لك : أنا لا أثق بك، لا أريد أي شيء من كلامك، فهذا يضله الله عز وجل، فالله عز وجل قال :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف : الآية 180)

حتى اسم الضال هذا من أسماء الله الحسنى، إذا تأمله الإنسان، وتتعبه من خلال الآيات، وأراد أن يحمله على المعاني الصحيحة التي تليق بالله سبحانه وتعالى، وتتناسب مع كماله فإنه حينما يقرأ كلمة يضل من يشاء، ويهدي من يشاء تقع هذه الآية على قلبه برداً وسلاماً، أما بعض المشككين فيقولون: فلان ضال، الله أضله .. هكذا من دون تعليل، من دون تفسير، من دون توجيه، من دون فهم عميق .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللَّهِ))

[أخرجه الترمذي]

حسن الظن بالله ثمن الجنة، وربنا عز وجل يضل ليهدي، في اسم الضار النافع، المانع الجامع، الخافض الرافع، المعز المذل، وعلماء التوحيد يلزموننا أن نذكر المعز مع المذل، والمعطي مع المانع، والرافع مع الخافض، و الضار مع النافع، والمضل مع الهادي، لأنه يضلك عن شهواتك ليهديك إليه، ويضرك لينفعك :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[الديلمي في الفردوس عن ابن عمر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (04-21): تفسير الآيات 10 – 18 ، عن التفكر في نعم الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-02-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

ثم جاءت الآيات الكونية بعد هذه الآية تترى؛ أي تتابع، فقال تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(10)يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(11)وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(12)وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(13)وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(14)وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(15)وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(16)أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(17)وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

علاقة هذه الآيات بالآية قبلها :

سؤال : الآن هل من علاقة بين قوله تعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة النحل)

وبين هذه الآيات الكونية المتتابعة، قال تعالى يصف كتابه الكريم :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

(سورة هود : 1)

معنى أحكمت ؛ أي ترابطت، فالذي يتأمل في آيات القرآن الكريم لا شك أنه يؤمن أن بين الآيات التي تبدو منقطعة عن بعضها، لا بد أن يكون بين هذه الآيات ارتباط بنوع أو بآخر، فما هي العلاقة بين هذه الآيات وبين قوله تعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة النحل)

الآيات الكونية طريق موصِل إلى الله :

أغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى حينما قال: عليّ يا عبادي أن أبين لكم الطريق إليّ، عليّ دائماً وأبداً، في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل وقت، وفي كل عصر، وفي كل مصر، وفي كل حين، لا بد من أن يكون الطريق سالكاً إليّ، لا بد من أن يكون الطريق مستقيماً، وموصلاً إليّ، لا بد من طريقٍ إلى الله واضح المعالم، مستقيم الوجهة، واضح الهدف، يفضي إلى الله سبحانه وتعالى .

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا)

(سورة المزمل : 19)

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

من معالم هذه الطريق كما بينت لكم في الدرس الماضي، من معالم الطريق إنزال الكتب، من معالم الطريق إرسال الأنبياء، من معالم الطريق نصب هذه الآيات الكونية الدالة على عظمته، من معالم الطريق الشدائد التي يسوقها الله سبحانه وتعالى للناس في بعض الأحيان، من معالم الطريق هذه الآيات الدالة على عظمته .

إذاً: حينما قال الله سبحانه وتعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة النحل)

هذه هي معالم الطريق، معالم الطريق أن تتأمل في هذه الآيات التي ما خلقها الله سبحانه وتعالى إلا لتكون دليلاً عليه، ما خلق ذلك إلا بالحق، كيف أن كلمة الحق تعني أنه هناك هدفًا مستقرًّا، هناك هدف مستقر وراء خلق السماوات والأرض .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

إنك إذا أردت أن تفكر في آيات الله، خذ هذه الآيات التي ذكرها الله في كتابه، أولاً هو ما ذكر التفصيلات .

ربنا سبحانه وتعالى قال :

(اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

ترك لك أن تفكر في الليل والنهار، ثم قال :

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

ترك لك أن تفكر في الشمس والقمر، هذه عنوانات للآيات يطول البحث فيها، كما يطول الحديث عنها، هذه تركت لك أيها الأخ الكريم .

فربنا عز وجل قال :

(هُوَ)

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً

لا أدري ما إذا كان هناك من يتذوق كلمة (هو)، قد تقرأ أن منخفضاً جوياً يتجه نحو البلاد، هل ترى أنه (هو) الذي ساقه إلينا؟ قد تقرأ أن نسب الأمطار في الأربع والعشرين ساعة الماضية بلغت سبعين ميليمتراً في المكان الفلاني، هل تشعر أنه (هو) خالق الكون الذي ساق هذا المنخفَض، وجعله ينزل في هذا المكان بالذات ؟

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

في آيات أخرى يقول الله سبحانه وتعالى :

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأنبياء : 30)

الماء حياة الإنسان :

حياة البشر، وحياة النبات، وحياة الحيوان بهذا الماء الذي أنزله الله علينا من السماء .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

ولا بد من أن تتذوق أيضاً كلمة (لكم)، لم تستفد منه عرضاً، لم ينزل لغيرك فاستفدت منه، صمم الماء خصِّيصى لك أيها الإنسان .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

هذه اللام في اللغة العربية للاختصاص، تقول : هذا الكتاب لي، أي لي وحدي، فربنا عز وجل قال :

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ)

(سورة النحل : 10)

في معرض تبيان فوائد المياه قال :

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

في النهاية الماء للإنسان ولو استهلكه الحيوان والنبات :

لماذا لم يقل : أنزل من السماء ماء منه شراب لكم؟ الماء كله لكم، ولو سقى النبات فهو لكم، ولو شرب منه الحيوان فهو لكم، لأنك ستأكل الحيوان الذي يأكل النبات، فالماء الذي ينبت النبات، والنبات الذي يأكله الحيوان، هو في النهاية لك، إذاً الماء كله، ولو سقى الأرض، ولو نبت به الزرع، ولو نبت به الكلأ، لو شربه الحيوان، في المحصلة والنهاية الماء لكم .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

إن هذا الماء العذب الفرات، من هيّأه لنا لنشربه؟ البحار كلها ماء ملح أجاج، وكم من قصة قرأناها أو سمعناها عن أناس غرقت سفينتهم فاستخدموا قارباً للنجاة، وماتوا عطشاً، وهم على سطح البحر، لو أن الماء كان ملحاً أجاجاً، كيف نشربه؟ كيف قطر الله لنا هذا الماء بلا مقابل؟ هذا الماء :

(لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ)

لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

أغلب العلماء في هذه الآية على أنها تعني مطلق النبات، أو الكلأ، أو النبات الذي تأكله الأنعام،

(لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

معنى : تُسِيمُون :

تسيمون أي ترعون، إنكم ترعون أنعامكم بالكلأ الذي ينبت بسبب الماء، علاقة مركبة، من أجل أن تأكل الأنعام لا بد من أن تأكل الأنعام كلأ، ومن أجل أن ينبت الكلأ لا بد من أن تسقى الأرض بماء المطر، إذاً ماء المطر الذي أنبت الكلأ الذي أكله الحيوان، الذي أكلته أنت، هذه النعم كلها لك .

شيء آخر :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ)

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ

الزرع للأنعام :

بدأ ربنا عز وجل بالأنعام التي تأكل الكلأ، وهذه في رأس قائمة الغذاء، الفقهاء حينما تحدثوا عن الأغذية الأساسية التي ينبغي أن تكون متوافرة تحدثوا عن اللحم، فالله سبحانه وتعالى بدأ بالأنعام التي هي قوام غذائنا .

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ)

الزرع محاصيل غذاء الإنسان :

الزرع، المحاصيل كالقمح، والشعير، والحمص، والعدس، والبازلاء، والفاصولياء، والفول، هذه كلها محاصيل تعد غذاءً أساساً، وقد يستطيع الإنسان تحصيل نصيبه من البروتين عن طريق هذه المحاصيل.

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ)

المقصود بالزرع المحاصيل .

(وَالزَّيْتُونَ)

الزيتون :

هو الإدام، لأن الزيت أيضاً قوام الغذاء .

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ))

[أخرجه الترمذي]

(وَالنَّخِيلَ)

النخيل :

ثم ينتقل الله سبحانه وتعالى إلى ما يؤكل كحلوى، النخيل يعد غذاءً أساساً، ويعد حلوى، إذا أكلته بعد الغذاء فهو حلوى، إذا اكتفيت به فهو غذاء .

(وَالْأَعْنَابَ)

الأعناب :

حلوى فقط، زرع المحاصيل والإدام، ثم شجر تؤكل ثمارُه غذاء، وتؤكل كحلوى، ثم الأشجار التي يتفكه الإنسان بثمارها كالأعناب، ثم يطلق الله سبحانه وتعالى الأمر على أوسع أبواب هذه النعم فيقول :

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ :

كلما وقعت عينك على ثمرة، اشتريتها، أو أكلتها، أو قدمت لك، أو نظرت إليها وهي عند البائع، اعرف معرفة يقينية أن الله سبحانه وتعالى هو الذي تفضل وأنبتها .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

لماذا كلّ هذه الآيات الكونية ؟

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

قد يسألني سائل: إذا كانت هذه الآيات معالم الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، كيف نفكر فيها ؟ هكذا قد يسألني سائل : كأنك تقول فكروا في هذه الآيات، تأملوا بها، كيف نفكر فيها؟ كيف نتأمل بها ؟

من منهج التفكر النظر في الشيء وعدمه :

بعضهم قال: من منهج التفكير في هذه الآيات أن تفكر في الشيء وعدمه، لو لم يكن موجوداً، وأن تفكر في الشيء وأصله، وأن تفكر في الشيء وخلاف ما هو عليه، إذا اتخذت هذا المنهج يبدو لك التفكير أمراً يسيراً، فهذا الماء أصله من أين؟ هذا الماء الذي نشربه الذي أنزله الله من السماء، أصله من البحار، البحار مالحة، كيف تمت تصفيته ؟ كيف سلط الله أشعة الشمس على البحر؟ كيف أعطي

الماء إمكانية التبخر بدرجات اعتيادية؟ كيف أمكن للهواء أن يحمل ذرات بخار الماء؟ كيف سلطت الشمس على البحار؟ كيف تبخر الماء بدرجات دنيا؟ كيف أمكن للهواء أن يحمل ذرات الماء؟ كيف أمكن لبخار الماء أن يتصاعد للسماء؟ كيف تشكل سحباً؟ كيف تحركت هذه السحب ؟ كيف شحنت بعض السحب شحنات سلبية، وبعضها شحنات إيجابية؟ كيف حصل الاحتكاك؟ ثم كيف عصرت هذه السحب؟ قال تعالى :

(وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)

(سورة النبأ : 14)

إذا فكرت في أصل الماء، وإذا فكرت في حياتنا من دون ماء، وإذا فكرت في صفاتٍ للماء غير الصفات التي هي عليه، لو أن للماء طعماً، لو أن له رائحة، لو أن له لُزوجة، لو أن سريانه في المسام ضعيف، لو أنه تبخر بدرجة مئة، لا بالدرجة أربع عشرة، لو أن الماء لا يتمدد إذا تبرد، من منا يصدق أن حياة البشر، وحياة الحيوان، وحياة النبات متوقفة على خاصة واحدة للماء؟ إذا كان الماء يغلي، ثم بردته فإنه ينكمش، وينكمش، وينكمش، إلى الدرجة زائد أربع، عندها يزداد حجمه، وتقل كثافته، لولا هذه الصفة لما كنا نحن في هذا المسجد، لولا أن الماء إذا بردته زاد حجمه، وقلّت كثافته لما كنا في هذا المسجد، لماذا؟ لأن طبقات البحار العليا إذا تجمدت، لو أنها انكمشت وزادت كثافتها لغرقت في الماء، فكلما غرقت طبقة متجمدة تجمدت طبقة أعلى منها، إلى أن تصبح البحار كلها متجمدة، عندئذ ينعدم التبخر، وبانعدام التبخر تنعدم الأمطار، وبانعدام الأمطار ينعدم النبات، وبانعدام النبات ينعدم الحيوان وبانعدام الحيوان يموت الإنسان، فإذا فكرت في الماء ففكّرْ في أصله، وفكّر في حياةٍ من دون ماء، وفكّر في خلاف ما هو عليه الماء .

موضوعات كثيرة يجب التفكر فيها :

أتمنى عليكم أن تأخذوا بعض الموضوعات الكبرى للتفكر، الماء موضوع كبير، الهواء موضوع كبير، مبدأ النبات، أن تنبت الأرض نباتاً، هذه البذرة تأتيها رطوبة، يشق غلافها، ينمو رشيمها منها، لها سويق، وينمو لها وريقة، وتتغذى على ما في البذرة من مواد إلى أن تنضب البذرة، عندئذ يأخذ هذا النبات حظه من الغذاء عن طريق التربة، النبات ظاهرة تلفت النظر، أي أنواع النبات، الحشائش، والمراعي، والمزروعات، والمحاصيل، والبساتين، والأشجار المثمرة، والخضراوات، والغابات الكبيرة، والأشجار العملاقة، وأشجار الزينة والورود، والرياحين، والحشائش الطبية، كل أنواع النباتات آية كبرى على عظمته، تصور حياة بلا نبات، ماذا نأكل ؟ تصور نباتًا لا ينتج بذوراً، كيف نعيد زراعته ؟ تصور الحياة من دون هذا الشيء، تصور الشيء على خلاف ما هو عليه، تصور أصل

الشيء، من منكم أكل التين ؟ كم بذرة في هذه الثمرة، شعورك أنه يوجد طعم خشن، هذه كلها بذور، لا يعلم إلا الله كم في ثمرة التين من بذور، كل بذرة من هذه البذور يمكن أن تكون شجرة للتين .

إذاً :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

إذا أردت التفكر في آيات الله فهذه هي الموضوعات، وهذا هو المنهج، اتبع المنهج وتفكر في هذه الموضوعات، موضوع الماء، موضوع النبات، موضوع المراعي .

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1)الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3)وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى)

(سورة الأعلى : 1 - 4)

ارتفاع الأسعار بسبب المعاصي وانخفاضها بسبب الطاعة :

يقول قائل : لقد رخص الجبن، ما السبب؟ السبب أن الموسم طيِّب في البادية، توالدَ الغنم وكثر، وكثر بالتالي الحليب، من الذي جعل الأسعار تنخفض ؟ طبعاً هناك حديث شريف يقول عن التسعير، عَنْ أَنَسٍ قَالَ :

((غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ، الْقَابِضُ الْبَاسِطُ، الرَّزَّاقُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ))

[الترمذي، أبو داود، ابن ماجه، أحمد]

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى إذا تفضل علينا بسنة خصيبة، ومرعى خصيب، تزداد الأغنام، ويزداد نتاجها، وتنخفض الأسعار، إذاً ربنا سبحانه وتعالى أرادنا أن نفكر في هذه الآيات :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة النحل : 11)

ويتابع الله سبحانه وتعالى بقية الآيات :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

(سورة النحل : 12)

وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ

علاقة النبات بالليل والنهار والشمس والقمر :

هناك علاقة بين إنبات النبات والليل والنهار، هذه العلاقة لا يتسع هذا الدرس إلى بسطها، وهناك علاقة بين إنبات النبات والشمس والقمر .

قد يسأل سائل: كيف جاءت آية الليل والنهار والشمس والقمر بين آيات الزرع، والزيتون، والنخيل، والأعناب ومن كل الثمرات، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا، نحن في الأرض، لماذا انتقلنا إلى السماء، نحن في الأرض :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(11)وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

نظام الليل والنهار :

نظام الليل والنهار أن تكون الأرض كرة، وأن تكون بالحجم المناسب، وأن تدور حول نفسها، وأن يكون محورها مائلاً، من ميل المحور تنشأ الفصول، ومن دورانها على محورٍ شبه متعامد مع مستوى دورانها حول الشمس ينشأ الليل والنهار متعاقبين .

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

(سورة فصلت : 37)

لو أن محورها متوازٍ مع مستوى دورانها لكان هناك ليل ونهار، ولكنهما ثابتان، ليل إلى الأبد، ونهار إلى الأبد .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

(سورة القصص : 71)

لو أن الأرض وقفت، ولم تَدُرْ حول نفسها لكان هناك ليل ونهار، ولكن ليل سرمدي، ونهار سرمدي، أو أن الإنسان اضطر أن يهاجر في كل عام مرتين، من نصف الكرة إلى نصف الكرة، وفي هذا مشقة كبيرة، لو أن الأرض وقفت، لو أنها دارت على محور متوازٍ مع مستوى دورانها حول الشمس، دارت هكذا، والشمس من هنا، لكان هناك ليل ونهار، ولكن هذا الليل سرمدي والنهار سرمدي .

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

(سورة يونس : 6)

تعاقب الليل والنهار آية عظيمة :

الآية في الليل والنهار وفي اختلافهما، ومعنى اختلاف الليل والنهار أي : إن النهار يعقب الليل، والليل يعقب النهار، وهذه آية كبرى، وأنت في بلدك يأتيك النهار، ثم يأتيك الليل في الليل، فتستريح، وفي النهار تعمل، لو أن دورة الأرض حول نفسها كانت سريعة جداً لكان الليل ساعة والنهار ساعة، ما تفعل بهذه الساعة ؟ تستيقظ لتأكل طعام الصباح، وتنتقل إلى العمل، جاء الليل، ماذا تفعل ؟ تعود إلى البيت من أجل أن تأخذ قسطاً من الراحة، يأتي الصباح ! لكن سرعة دوران الأرض حول نفسها سرعة معقولة، اثنتا عشرة ساعة، تأكل، وتنتقل إلى عملك، وتبذل جهداً يستنفذ طاقتك، وتعود بعدها إلى البيت، عندئذ تغيب الشمس، إذاً الليل والنهار آية، دورة الأرض حول نفسها، دورتها حول محور شبه عمودي مع مستوى الدوران، دورتها حول محور مائل، لو لم يكن هذا المحور مائلاً لكانت هذه المنطقة صيفاً سرمدياً، وهذه المنطقة شتاء سرمدياً، وهذه المنطقة ربيعاً سرمدياً، لكن ميل المحور حينما تدور الأرض حول الشمس، بمحور مائل تنتقل عاموديه الشمس من منطقة إلى أخرى، تختلف أوضاع الأرض بالنسبة للشمس، عندئذ يكون الصيف والشتاء .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

فمن أجل أن تستطيع التأمل والتفكر في هذه الآيات تصور حياتنا من دون ليل أبداً، نهار سرمدي، أو تخيل أن حياتنا على وجه الأرض ليل سرمدي، ماذا تفعل؟ الآن تصور الشيء وعدمَه، تصور الشيء وخلافَ ما هو عليه، النهار ساعة، الليل ساعة، النهار ستة أشهر، كما هي الحال في القطب، ستة أشهر، إذا طال على إنسان الليل لا يأتي الصباح إلا بشق الأنفس، فإذا كان الليل ستة أشهر ماذا نفعل ؟

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

الشمس ، المصباح المنير :

والشمس هذا المصباح المنير ينير كل الأرض، هذه المدفأة المثالية لكل الأرض، هذا الدواء الناجح لكل الأرض، هذه الساعة اليومية لكل الأرض، مصباح، ومدفأة، ودواء، وساعة لكل الأرض، تخيل الحياة من دون الشمس، تنقلب الأرض إلى قبر جليدي، تهبط فيه الحرارة إلى ثلاثمئة وخمسين درجة تحت الصفر .

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

(سورة فصلت : 37)

مَن جعل الشمس مناراً؟ من نصبها ديناراً؟ من علقها بالجو ساعة؟ يدب عقربها إلى قيام الساعة، من ؟

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)

النجوم ، التقويم اليومي :

عندنا تقويم يومي، القمر تقويم شهري، والشمس ساعة يومية، والبروج تقويم سنوي، في كل شهر تمر الأرض على برج في السماء، في شهر كانون الثاني البرج الفلاني، شباط البرج الفلاني، قال تعالى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج : 1)

إنه تقويم يكلّف آلاف المجرات، مجرات كلها من أجل أن يكون لك تقويم، الشمس ساعة يومية، والقمر تقويم شهري .

مسار الأرض حول الشمس تقويم سنوي، تعرف في كل وقت أين أنت من السنة،

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج : 1)

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)

والإنسان في الليل كيف يهتدي إلى طريقه ؟ عن طريق النجم، مَن جعل هذا النجم نجم القطب في مكانه ثابتاً ؟ دائماً نحو الشمال، حيثما رأيته، واتجهت إلى سَمْته فأنت باتجاه الشمال، نجم القطب والدب الأكبر، والدب الأصغر، وما إلى ذلك .

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

هنا سؤال: لماذا في القسم الأول :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

وفي القسم الثاني :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

مرتبة الفكر ومرتبة العقل :

المرتبة الأولى : مرتبة التفكر، مرتبة التفكر محصلتها قناعة أن هذا الكون لا بد له من خالق .

المرتبة الثانية : مرتبة العقل، هذه المرتبة تعني أنك إذا تابعت التفكير، وأطلت أمده، وتعمقت فيه تنقلب هذه الحقائق من مستوى الفكر إلى مستوى القلب، قال تعالى :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ)

(سورة الأعراف)

فالقلب مكان المشاهدة، الرؤية القلبية، بعد الرؤية لا كفر ولا زيغ، ولا انحراف، ولا نكسة، فلذلك مرتبة العقل أعلى من مرتبة الفكر، تفكر فتعقل .

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ

سبحان الله! هذه الآية قَلَّ مَنْ يعرف قدْرها :

(مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)

نعمة اللون :

نعمة اللون لا يعرفها الناس إلا إذا فقدوها، لو أن لون الثمرة بلون الورقة، لو أن التفاح مثلاً لونه كلون أوراقه تماماً، تقطف نصف الثمر، ويبقى نصف الثمر الآخر على أمه، ولا تراه، ولكن اختلاف اللون، أصفر فاقع، والورق أخضر داكن، تهتدي إلى التفاح من لونه، وهذه تفاحة ذات طعم معين، لأن لونها أصفر، وهذه ذات طعم آخر، لأن لها لون أحمر، فقال العلماء : اختلاف الألوان دليلٌ على اختلاف الأنواع، الحديد له لون، النحاس له لون، القصدير له لون، الرصاص له لون، الكبريت له لون، اختلاف الألوان تهتدي به إلى اختلاف الأنواع، حتى الحديد له ألوان عديدة، له ألوان بعدد أنواعه، وبعدد مصادره، الحديد ليس نظامياً، ما هو الدليل ؟ مِن لونه، الذي تصنع المؤسسة له لون خاص، من مصدر، من دولة، وهذا له لون خاص، إذاً باللون تعرف كل شيء، تعرف صحة الإنسان من لونه أحياناً، تعرف نضج الفاكهة من لونها، تعرف أن هذه الثمرة يانعة من لونها، اللون علامة النضج .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

(سورة الأنعام : 141)

متى يثمر؟ متى ينضج؟ من غيَّر لونه؟

إذاً : وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ)

معنى ما ذرأ لكم ؛ أي ما خلق لكم .

(فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)

الأزهار كم من لون ؟ هذا النوع من الزهر منه أبيض، ومنه أحمر داكن، ومنه زهر، ومنه أصفر، كل إنسان يميل إلى شيء، الوردة الواحدة ألوان، اللون الواحد أنواع، النوع الواحد درجات، العين الإنسانية تفرق بين 800 ألف لون أخضر، فإذا أمكن أن ندرج اللون الأخضر 800 ألف درجة فالعين البشرية السليمة الصحيحة المدربة تستطيع أن تفرق بين لونين من هذه الألوان 800 ألف !

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)

ونحن لو التقطت لنا صورة لَظَهَرْنَا في الصورة جميعاً بلون واحد، لأن آلة التصوير عاجزة عن إعطاء الفروق الدقيقة بين الألوان، ولكن العين المجردة إذا نظرت إلى طلاب في صف، أو إلى أناس مجتمعين في مكان لوجدت أن هناك ألواناً تعلو جباههم بعددهم، كل إنسان له لون، وهذا من فضل الله على الإنسان، والإنسان فرد لا يتعدد .

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)

الخشب ألوان، لون الخشب المشمش لون جميل، يشبه لون اللحم، لو وضعت اللحم على خشب جوز لما كان هناك قابلية لتناوله، لون خشب المشمش له لون جميل، خشب التوت له لون، خشب الزان له لون، خشب الشوح له لون، السنديان له لون، خشب كل شجرة لون .

كل فاكهة لها لون، الفاكهة الواحدة ألوان، العنب كم من لون ؟ عنب أسود، وعنب بلدي أصفر، وعنب أخضر، وعنب متطاول، ألوان وأشكال، وطعوم، ونكهات، فصار اللون دليلاً اختلاف الأنواع، واختلاف الدرجات، واختلاف النضج

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

مرتبة التذكُّر :

هذا الذي فكر، ثم عقل، كلما وقعت عينه على شيء تذكّر بالمعرفة التي حصّلها، دائماً هو ذاكر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب : 41)

التذكر درجة عالية، باعتبار فكرٍ سابق وعقل، كلما وقعت عينه على شيء تذكَّرَ فضل الله، تذكّر رحمة الله، تذكّر حكمة الله، تذكّر لطف الله :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

الآن أكثر التحاليل الطبية عن طريق اللون، يعطي مادة لهذا المفرز مثلاً، يتغير لونها، إذاً يوجد معه سكر .

حتى علم الفلك مبني على اللون، أبعاد النجوم كلها عن طريق التحليل الضوئي، الطيف، طيف الشمس، نعرف من طيف الشمس مكوناتها، ومعادنها، وبعدها عنا، وحركتها، وسرعتها، علم قائم بذاته عن طريق اللون، فكلما تعمقت في اللون وجدت أن اللون نعمة من نعم الله الكبرى، لذلك الصورة الملونة أجمل بكثير من الصورة غير الملونة، ولا يعرف هذا إلا من يعمل في المطابع، يقول لك : فرز الألوان عملية معقدة جداً، ثم تحميض الصورة، ثم صنع لوائح لكل لون، فإذا انزلق اللون قليلاً شوهت الصورة، شيء دقيق جداً .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

البحر أربعة أخماس اليابسة :

هذا البحر أربعة أخماس اليابسة، عمقه في خليج مريانة في المحيط الهادي اثنا عشر ألف متر، بعض العلماء قال : لو أن كرة قطرها متر، وأردنا أن نمثل عليها أعلى ارتفاع على سطح الأرض، وأعلى انخفاض بالبحر، لما أمكننا أن يكون هذا التمثيل بسنتمتر واحد، أعلى منطقة بالأرض تشكل نصف سنتيمتر، وأعمق نقطة بالبحر تشكل نصف سنتيمتر آخر، إذا أخذنا كرة قطرها متر لنمثل عليها أعلى نقطة، وأقل نقطة .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ)

لكن البحر مسخر لنا، لو أنه هاج وماج لقضى علينا .

لو أن الكتلة الثلجية في القطبيين ذابت، لو أن انفجاراً حصل في الشمس فأذاب الكتل الجليدية في القطب الشمالي والجنوبي لارتفع البحر تسعين متراً، فغمر معظم المدن الساحلية، وكثيراً من المدن

الجبلية ! تصور إذا ارتفع البحر تسعين متراً، إلى أين يصل؟ يأكل مجموعة كبيرة من القرى والمدن على ساحل البحر، فربنا عز وجل سخره لنا، إلا إذا كان الذين يركبونه في ضلال مبين، عندئذ يريهم الله آياته عن طريق موج البحر، موج كالجبال .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)

الفائدة من طراوة لحم السمك :

هنا العلماء استنبطوا أن لحم السمك طري، إذا يجب أن يؤكل فوراً، لذلك هناك فرق كبير بين سعر السمك المثلج والسمك الطازج، وقد يسأل سائل : لِمَ هذا الفرق الكبير ؟ سبحان الله ! أكلُ السمك بعد أمد طويل من صيده لا طعم له، أما إذا أُكِل طازجاً فإن له طعماً عجيباً، من هنا أشارت هذه الآية إلى ذلك، لأنه طري، يجب أن يؤكل فوراً، أما كيف يؤكل طرياً ؟ هذا موضوع آخر .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا

ما هو اللؤلؤ ؟ هذا المحار يوجد في داخله حيوان، إذا دخل إلى المحار جسم غريب كيف يدافع المحار عن نفسه ؟ يفرز مادة كلسيه فسفورية، إلى أن تصبح هذه المادة على شكل كرة، هذه الكرة هي حبة اللؤلؤ، لكن هذا التفسير يبعدنا عن روح القرآن الكريم، الحيوان لم يفرز هذه المادة ليدافع بها عن نفسه، بل فرزها مسخرة من قبل الله عز وجل كي تكون لؤلؤة نتزين بها، فهذا الحيوان مسخر، لذلك صيادو اللؤلؤ يغوصون في أعماق البحار ، ويستخرجون هذه المحارات، ويفتحونها، من كل مئة محارة يجدون لؤلؤة واحدة، لهذا السبب اللؤلؤ غالي الثمن .

هذا الحبل مثلاً ثمنه ثلاثون ألفاً، بعض المختصين باستخراج اللؤلؤ خطر لهم خاطر، أن يأخذوا المحارات ويفتحوها، ويضعون فيها حبة من الرمل الصغيرة جداً، ثم يعيدونها إلى البحار، عن طريق صناديق، لها فتحات كبيرة، وهذه الصناديق مربوطة بحبال إلى السفن، يحركها من مكان إلى مكان، وبعد حين من الزمن، يستخرجون هذه الصناديق، فيفتحون المحارات فإذا بها لؤلؤة، لكن هذه اللؤلؤة سموها: " لؤلؤاً مزروعاً "، اللؤلؤ المصنوع غير المزروع، غير الطبيعي، الطبيعي إذا أخذوا محاراً من قاع البحر، وعثروا فيه على لؤلؤة، فهذا أغلى أنواع اللؤلؤ، أما إذا وضعوا بالمحارة حبة رمل، هذا اللؤلؤ أقل ثمناً بكثير من الطبيعي، لأن فيه سواداً، لأن اللؤلؤ شفاف تقريباً، لونه صدفي فسفوري

شفاف، أما المزروع ففيه نقطة سوداء، هذه التي تخفض من ثمنه، أما اللؤلؤ المطبوخ طبخاً فهذا ثمن الحبة رخيص جداً (بلاتين) .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

مَن يلبس الحليّ ؟

هناك سؤال: من يلبس الحلي ؟ النساء أم الرجال ؟ في الآية الرجال، هل رأيتم إنساناً وضع حبلَ لؤلؤ؟ ذهب إلى عمله وهو واضع حبل لؤلؤ على صدره؟ ليس هذا وارداً، فلمَ لمْ يقل الله عز وجل : وتستخرجوا منه حلية تُلبسونها نساءكم، أو تستخرجوا حلية لنسائكم تلبسنها ؟ قال تعالى :

(وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

أكثر المفسرين في هذه الآية على أن هذا الحلي التي تستخرج من البحار، وتتزين بها النساء من أجل الرجال، فالفائدة في النهاية تعود للرجال .

بعضهم قال: لشدة المخالطة بين الرجال والنساء، فأقرب إنسان للرجل زوجته، لشدة المخالطة، وكأنه هو يرتدي هذا الحلي، أو كأن الفائدة تعود إليه بهذه الزينة .

وهناك رأي آخر، لأن الله عز وجل أمر النساء بالحجاب، فلا ينبغي أن يذكر النساء في القرآن الكريم وهن متحليات باللؤلؤ، هذا يتنافى مع منطوق كتاب الله، فأخفى موضوع النساء، وقال :

(وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

وهناك شيء آخر :

(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ)

وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ

أين نظرية أرخميدس من نص القرآن ؟

هذه دافعة أرخميدس، إياكم أن تظنوا أن أرخميدس له الفضل فيها، الفضل لله عز وجل، اكتشف أرخميدس أن في الماء قوة نحو الأعلى، جربها ؛ املأ دلواً من الماء، إذا كان عندك بحرة بالبيت، ثم اغمس هذا الدلو المملوء ماء في هذه البحرة، تحس أنه ذهب نصف وزنه، أين ذهب وزنه ؟ في الماء قوة نحو الأعلى، لولا هذه القوة لما أمكن أن يكون البحر طريقاً دولياً بين القارات، أن تكون على البحر سفينة من خشب، أو من حديد، الآن أحدث باخرة مليون طن ! ألف ألف !! كنت أسمع ثلاثمئة ألف طن،

أربعمئة ألف طن، بالسبعينيات سبعمئة ألف طن، بالثمانينيات مليون طن، مليون طن من البترول تمخر عباب البحر !! لو أردنا أن نعمل طريقاً بين أمريكا وبين اليابان كم يكلف الطريق ؟ سمعت عن جسر، طريق بري بين دولتين عربيتين، إحداهما في البحر، البحرين والسعودية، سمعت أنه كلف ثلاثة آلاف مليون ريال أو دولار !! مبلغ ضخم .

هذه الطرق الممهدة في البحار، كل المحيطات طرق بين الدول .

(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وترى الفلك مواخر فيه يعني أن يكون البحر مسخَّراً، أن يستخدم طريقاً بين القارات، وبين الدول، وبين الشعوب، لذلك يعد الشحن البحري أرخص أنواع النقل للشحن، أما الطرق البرية فتكلّف كثيرا، يكلف شقّها، وتعبيدها، وصيانتها، ربنا عز وجل جعل البحر أداة اتصال بين القارات لا تكلف شيئاً، وجعل المراكب تتسع لأعلى نسب في الحمولات .

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

أي في التجارة، لنقل البضائع، وبيعها وشرائها، واستيرادها وتصديرها،

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أنت تشرب الشاي رغم أننا لا نزرعه، هذا مستورد، نُقِلَ عن طريق البحر، وأكثر المواد الأساسية، الحديد، الخشب، المواد الغذائية، الصناعية، المواد الأولية، كلها تصلنا عن طريق البحر، إذاً البحر من فضل الله سبحانه وتعالى .

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ

الآن بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن نعمة الماء، ونعمة النبات، ونعمة الحيوان، البر والبحر، وعرض في أثناء الحديث عن هذه النعم بالليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، تحدث عن الجبال فقال :

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

الجبال تثبيتٌ للأرض حتى لا تضطرب :

الأرض في أثناء الدوران لابد من مراكز ثِقَل عليها من أجل ألا تضطرب في أثناء الدوران، وهذا يعرفه جيداً من عنده عجلة، العجلات أثناء الدوران السريع تضطرب، لابد من وزنها، وضبطها بقطعة

من رصاص صغيرة من أجل أن تبقى مستقرة في دورانها، فربنا عز وجل جعل الجبال رواسي للأرض :

(أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

أي لئلا تميد بكم، لئلا تضطرب بكم، السكون كامل الدليل، أن هذا البناء إلى سنوات طويلة، لو أنه مضى على بنائه مئات السنين فهو هو ؛ لو كان في الأرض اضطراب لما بقي على حاله .

إذاً: الأرض تدور بسرعة هائلة، ومع ذلك فهي مستقرة بسبب هذه الجبال الرواسي .

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا)

وَسُبُلًا

أما حكمة كون الأنهار جاءت بعد الجبال، فلأن الجبال فضلاً عن أنها رواسي بالأرض فهي مستودعات لمياه الأنهار، فبعض الأنهار مثل الأمازون كثافته ثلاثمئة ألف مكعب في الثانية، من أين تأتي هذه الأمطار؟ أين مستودعاتها ؟

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا)

أهمية الانتفاع من الفراغ :

الطرق : هناك طرق بين القارات، بين البلاد، تجد سلسلة جبلية حادة في بعض الأمكنة مصدّعة بطريق، فهذه الطرق من صنع الله سبحانه وتعالى .

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(15)وَعَلَامَاتٍ)

وَعَلَامَاتٍ

كلّ شيء في الكون له علامة :

كل شيء له علامة، الكمأة هذا الطعام النفيس الذي يوجد تحت الأرض، كيف يُهتدى إليه ؟ من يعمل في هذا الحقل يخبرك عن ارتفاع في التراب أقل من سنتمتر، تحت هذا الارتفاع الصغير تجد ثمرة الكمأة، لا يوجد شيء في الأرض إلا وله علامة ؛ أنواع الخضراوات، أنواع المحاصيل، هذا القمح نوعه الفلاني له علامة، فربنا عز وجل جعل لكل شيء علامة، وهذا من فضل الله تعالى، لا تشتري

العنب حتى يسودَّ، والحبّ حتى يشتد، له علامة، العسل الصافي له علامة، المخلوط بالقِطر له علامة، الزيت الصافي له علامة، المخلوط بالنباتي له علامة، كل شيء له علامة، لولا العلامات لضاعت الأمور .

طبعاً التحليل أيضاً عن طريق العلامات .

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(16)أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

لا يستوي المخلوق مع الخالق أبدا :

هل يمكن أن يتوازى خالق مع مخلوق؟ كيف تطيع هذا المخلوق وتعصي الخالق؟! كيف ترضي هذا المخلوق، وتغضب الخالق؟! كيف تخاف من هذا المخلوق، ولا تخاف من الخالق ؟!

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

أيمكن أن يستوي خالق ومخلوق؟ خالق الأكوان، خالق الحيوان، خالق الإنسان، خالق النبات، خالق السماوات والأرض، خالق المجرات، خالق الشمس والقمر، خالق الليل والنهار، أيستوي هذا الخالق العظيم مع مخلوق؟ لا يملك لنفسه نفعاً أو ضراً؟ فضلاً عن أن يملك لغيره؟ أتعبده من دون الله؟ إنسان يطيع مخلوقاً، ويعصي خالقاً؟ كم هو أحمق؟! كم هو جاهل؟! كم هو خاسر؟! كم هو غبي ؟!.

(فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(17)وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

الفائدة من النكرة المضافة : نِعْمَةَ اللَّهِ

أجمل ما في هذه الآية أن الله تعالى لم يقل: وإن تعدوا نِعَم الله، لا، وإن تعدوا نعمة ؛ لو أنك ذهبت لتعدّ فوائد نعمة واحدة لم تحصِها، الهواء جزء في نعمة واحدة، الماء نعمة واحدة، عدم تقلص الماء، أو عدم ازدياد حجم الماء، لو أن هذه النعمة فُقِدَتْ، لا تحصي الخيرات التي تنعدم، من انعدام جزء النعمة، إذا ذهبت لتعدّ فوائد نعمة واحدة، نعمة البصر .

(لَا تُحْصُوهَا)

ما قولك ؟

هذه :

(لَا تُحْصُوهَا)

لن نحصي نعم الله فكيف نشكرها ؟

لها معنى دقيق، لم يقل الله عز وجل : لا تشكروها، بل قال :

(لَا تُحْصُوهَا)

إذا جاءت أحدَنا هدايا بمناسبة زواجه، ألا يمكن أن يحصيها ؟ أيهما أهون ؟ أن يحصيها أو أن يرد مقابلها ؟ إذا كان صعباً أن تحصيها فكم يكلفك الرد عليها ؟ أن تكافئ بمثلها ؟ فربنا عز وجل لم يقل : لا تشكروها، بل قال :

(لَا تُحْصُوهَا)

لم يقل : نعم الله، بل نعمة واحدة .

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

نعمة البصر، لو أنك أمضيت الحياة كلها في تعداد نعمة البصر فلا تحصي فوائدها، فضلاً عن أداء شكرها، فإن كنت لا تحصي فوائدها فمن باب أولى أنك لا تتمكن من أداء شكرها ، لذلك :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه الآيات اقرؤوها، أعيدوا قراءتها، احفظوها، اقرؤوها في الصلاة، اجعلوها منهجاً للتفكير، على مدار شهر، كل يوم فكر بواحدة منها، وفق المنهج، فكّر بالنعمة وعدمها، وفكر بالنعمة وخلاف ما هو عليه، وفكّر بالنعمة وأصلها، بالنعمة وعدمها، والنعمة وخلاف ما هي عليه، والنعمة وأصلها، إذا أمضيت كل أسبوع في آية واحدة التفكر الصباحي بعد صلاة الفجر، فإنك لا شك تكون قد حققت الهدف من ذكر هذه الآيات في كتاب الله سبحانه وتعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (05-21): تفسير الآيات 16 – 23 ، عن الموازنة الدقيقة لمعرفة الحق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-02-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(14)وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(15)وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(وَعَلَامَاتٍ)

وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ

حرص الله على هداية العباد لمنافع الدنيا والآخرة :

هذه وحدها دليل على رحمة الله سبحانه وتعالى جل شأنه، فقد جعل لكل شيءٍ علامة، فإن كان حريصاً على أن نهتدي بالعلامات إلى الأشياء التي نحن بحاجة إليها فحرصه على أن نهتدي إليه أشد . حينما قال الله سبحانه وتعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة النحل : 9)

هو أخذ على نفسه أن يكون في الأرض طريق سالك إليه، موصل مستقيم، هنا :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

لكل شيءٍ جعل له علامة لكي تهتدي إليه، فإن كان حريصاً على أن يهديك إلى الأشياء ؛ فحرصه على أن يهديك إلى ذاته من باب أولى، حريص على أن تهتدي إليه، وحريص على أن تهتدي لحاجاتك، ينبوع الماء له علامة، أماكن الفلزات لها علامة، لو درست وسألت، وتحققت لوجدت أن لكل ظاهرة في الكون علامة، الأمراض لها علامة، الحالات الصحية لها علامة، المعادن لها علامة، الفواكه لها علامة ؛ نضجها له علامة، طعمها الحلو من طعمها المر له علامة،

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

وهذه الآية جامعة مانعة :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

إذاً هو حريص على أن يهدينا إلى الأشياء، كما هو حريص على أن يهدينا إلى ذاته .

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

ليس هناك مجال للموازنة بين الخالق والمخلوق :

هناك معنى دقيق أتمنى أن يكون واضحاً لديكم، الإنسانُ اليومَ يوازي بين فرعين في الجامعة، أيهما أولى؟ أن أكون طبيباً أم مهندساً، أم مختصاً بالتاريخ، كلها فروع علمية، ربنا عز وجل يقول :

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

ليس هناك مجال للموازنة، أن تكون عالماً أو أن تكون جاهلاً، ليست الموازنة بين فرعين بالجامعة، بين العلم والجهل، بين السعادة والشقاء، بين التوحيد والشرك، بين التوفيق والتعسير، بين السعادة الأبدية، وبين الشقاء الأبدي .

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

إذا كنت مع الذي يخلق فأنت في حمايته، وأنت في رعايته، وأنت في توفيقه، وأنت تسعد بقربه، في الدنيا والآخرة، وإذا كنت مع من لا يخلق ماذا ينفعك؟ ماذا يضرك؟ ماذا يفيدك؟ هل يدفع عنك ضيماً؟ لا والله، هل يجلب لك نفعاً؟ لا يستطيع .

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

التشبيه المعكوس في الآية :

العلماء قالوا: هذه الآية فيها تشبيه معكوس مقلوب أساسها: أفمن لا يخلق كمن يخلق، هؤلاء الشركاء الذين تزعمونهم من دون الله، هؤلاء يوازنون مع خالق الكون؟ يخيرك أحد بين نوعين من الطعام، تختار الأطيب، لكن بين أن تأكل طعاماً نفيساً، وبين أن يأكل الإنسان سماً ناقعاً فرقٌ !! بهذا الطعام يزداد صحة وقوة، وبهذا السم يهلك نفسه .

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

كيف يقبل الإنسان أن يكون مع مخلوق؟ أن يهب حياته لمخلوق؟ أن يهب ذكاءه وإمكاناته لمخلوق؟ هذا المخلوق الذي يتوجه إليه هو في حدّ ذاته لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، أيعقل أن يكون المخلوق مكان الخالق ؟ أيعقل أن يطاع المخلوق ويُعصى الخالق؟! أيعقل أن نتجه إلى المخلوق ونعرض عن الخالق؟!

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

الفرق كبير جداً بين البياض والسواد، الفرق حاد جداً، وليس الفرق بالدرجة، ليس الفرق بين لونيين أحمرين، إنما بين الأبيض الناصع والأسود القاتم، بين التوفيق والتعسير، بين الأمل والإحباط، بين السعادة والشقاء، بين العلم والجهل، بين أن تشعر بصحة نفسية، وبين أن تشحن النفس بمئات الأمراض النفسية .

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

مَن كان مع الله كان في الركن القوي :

إن كنت مع من يخلق فأنت قد التجأت إلى ركن ركين، وإن كنت مع من لا يخلق فقد عذت بضعيف فانٍ، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق لم يكن شيئاً مذكوراً، ضعيفٍ، يجوع، يعطش، يصيبه البرد، يغضب، هذا يعتصم به ؟! وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً من تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء من بين يديه .

أنتم الآن مدعوون إلى الخالق، وهناك من يدعوكم إلى مخلوق، إذا دعيت إلى إرضاء زوجتك ومعصية ربك فأنت آثرت المخلوق على الخالق .

إذا دعيت إلى طاعة شريك من أجل كسب المال الحرام فأنت قد آثرت مخلوقاً على خالق .

هذه الآية يجب أن تقفوا عندها :

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

هذا هو الخالق فكيف تعصيه ؟

أيوازن؟ أتزهد بالذي يخلق؟ أتهمل أمره؟ أتعرض عنه؟ أتستخف بدينه؟ ماذا قال الغزالي رحمه الله؟ قال كلمة مخاطباً بها نفسه: " يا نفس، لو أن طبيباً منعك من أكلة لذيذة، ووعدك إن أكلتها بالمرض الشديد ـ وما من واحد منا يذهب إلى طبيب، ويقول له: هذا الطعام دعه، من أجل قلبك، من أجل شرايينك، من أجل الضغط يقول الطبيب: دع الملح كلياً، والطعام بلا ملح لا يؤكل ولا طعم له، لكن من

أجل الحفاظ على صحتك، وعلى شرايينك، وعلى قلبك، وعلى ضغطك، تدع الملح كلياً! طبيب يقول لك: دع الملح وإلا فالوضع خطير، خالق الكون يقول لك: غض بصرك وإلا فالحساب عسير، أتصدق طبيباً وتكذب خالقاً؟! ـ هكذا أقنع الغزالي نفسه حين قال: " يا نفس، أيكون الطبيب عندك أصدق من الله عز وجل؟ إن كان كذلك فما أكفرك!! أم أن المرض أخوف عندك من نار جهنم؟ إن كان كذلك فما أجهلك !! بالمنطق، أيكون الطبيب أصدق من الله عز وجل ؟ أيكون إنسان يمنع شيئاً فينفذ أمره بحذافيره؟ أيكون هذا الإنسان الذي منع شيئاً أصدق عندك من رب العالمين؟ من رافع السماوات من غير عمد؟! إن كنت كذلك، إن كانت النفس كذلك فما أكفرها!! أو أن يكون المرض أخوف عندك من جهنم؟ وإن كان الأمر كذلك، هذه النفس التي تؤثر صحتها على حياتها الأبدية فما أجهلها!!

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(17)وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

هل الإنسان يحب ربه أولاً ، أم أن الله يحب العبد أولاً ؟

هنا نقطة دقيقة ؛ يا ترى أيهما يبدأ بالمحبة؟ الإنسان يحب ربه أولاً؟ أم أن الله سبحانه وتعالى يحب العبد أولاً؟ بعضهم استنبط من قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة المائدة : 54)

أن محبة الله سبقت محبة العبد لربه .

بعضهم يقول: الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، أعطاه الحواس الخمس، أعطاه الأجهزة الكاملة، أعطاه أماً وأباً يحنوان عليه، أعطاه الهواء، أعطاه الماء، أعطاه الغذاء، أعطاه الطعام، أعطاه الفكر، أعطاه الذاكرة، أعطاه التخيل، هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، بل إن النعمة الواحدة لا تحصى، وإذا كنت عاجزاً عن إحصائها، فأنت عن شكرها أعجز !! ألا يقتضي أن تحب خالق هذه النعم ؟ فهناك ألف سببٍ وسبب، مليون سبب وسبب يدعوك لمحبة الله سبحانه وتعالى، ولكن الله متى يحبك ؟ إذا رأى منك عفةً، إذا رأى منك استقامةً، إذا رأى منك انضباطاً، إذا رأى منك طاعةً، إذا رأى منك تقرباً، إذا رأى منك عملاً طيباً ؛ فالمحبة ميلٌ مبني على المجانسة .

محبة الله للعبد شيء عظيم :

قد يكون عند الأب أولاد عديدون، يعطف عليهم جميعاً، يطعمهم جميعاً، يكسوهم جميعاً ؛ ولكن أحدهم لأخلاقه العالية، ولبرّه، وطاعته، وأدبه، أمالَ قلب الأب له، فمحبة الله شيءٌ ثمين جداً، لا يناله العبد إلا إذا دفع الثمن، ثمن محبة الله أن تكون كاملاً، وهذا الكمال لا يكون إلا باتصالك بصاحب الكمال، ولا تتصل بصاحب الكمال إلا إذا كنت مستقيماً على أمره، ولن تستقيم على أمره إلا إذا عرفته، تعرفه، فتستقيم على أمره، فتقبل عليه، فتشتق من كماله؛ عندئذ يحبك .

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ :

((أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي لأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ، فَقُلْتُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي كُلِّ صَلاةٍ : رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))

[أخرجه النسائي]

هل تعرفون معنى هذه الكلمة؟ والله الذي لا إله إلا هو لو حاز سيدنا معاذ على أعلى شهادات في العالم، لو أن الدنيا كلها بملكه، لا يرقى إلى هذه المرتبة،

((إِنِّي لأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ))

فإذا شعر أحدنا أن الله يحبه فهذه أعلى مرتبة يبلغها إنسان على وجه الأرض، خالق الكون يحبك، لماذا يحبك ؟ لأنه رأى فيك كمالاً، من أين جئت بهذا الكمال ؟ لأنك أقبلت عليه، كيف أقبلت عليه ؟ لأنك استقمت على أمره، كيف استقمت على أمره ؟ لأنك تفكرت في مخلوقاته فعرفته، عرفته، فخشيته، فاستقمت على أمره، فأقبلت عليه، فتجلّى على قلبك بالكمال ؛ عندئذ يحبك .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ قَالَ :

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[أخرجه البخاري]

دين بلا محبة دين ميت :

أيها الإخوة الأكارم، دين من دون محبة جسدٌ ميت، ثقافة ، طقوس، عبادات، كهنوت، ولكن المؤمن يخفق قلبه بمحبة الله سبحانه وتعالى، كل إنسان لا بد له من أن يحب، هذا الذي يحب الدرهم والدينار هو عبد له، وهذا الذي يحب النساء إن كان منحرفاً، أو زوجته إن كان مستقيماً، فهو عبد لها، وهذا يحب العلو في الأرض، وهذا يحب المظهر الحسن، وهذا يحب الأثاث الفاخر، وهذا يحب التحف، وهذا يحب الرحلات، وهذا يحب الطوابع مثلاً، وهذا هوايته الرياضة، وهذا يلعب التنس، والمؤمن يحب الله سبحانه وتعالى .

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

فما مقصودهم جنات عدن و لا الحور الحسان ولا الخياما

سوى نظر الحبيب فذا مناهم وهذا مطلب القوم الكراما

***

الإنسان يحاسب نفسه، هل نزلت من عينيك دمعة في يوم ما؟ شوقاً لله عز وجل، هل بكت عينك من خشية الله؟ هل اقشعر جلدك من تعظيم الله؟ هل تُليت عليك آية فازددت إيماناً؟ هل وضعت رأسك على الوسادة فتفكرت في ملكوت السماوات والأرض؟ هل استيقظت صباحاً والآخرة أكبر همك؟ هل أنت قلق في الحياة الدنيا، تخاف ألا تكون مرضياً عند الله عز وجل؟ أين أنت ؟

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154)أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة الصافات : 154 - 155)

ما الذي يشغلكم عن الله سبحانه وتعالى ؟

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

***

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

لن تحصي نعمة واحدة عدًّا لفوائدها وشكرا للمنعم بها :

ذكرت في الدرس الماضي إعجاز هذه الآية، أن النعمة الواحدة لو أمضيت حياتك كلها في تعداد فوائدها، لانقضت حياتك، ولم تنقض فوائدها، فإذا كنت عاجزاً عن إحصاء النعم فأنت عن شكرها أعجز .

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النحل)

غفور على ماذا؟ على عجزكم عن إحصائها، وعلى عجزكم عن شكرها .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ

هذه الآية :

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

واضحة كالشمس، لكن هناك معانٍ خلف السطور، هناك استنباطات دقيقة :

الله يعلم ما تخفيه وتنويه فإياك وظلم الناس وخداعهم :

الله سبحانه وتعالى يعلم الذي تعلنه للناس، ويعلم الذي تخفيه في نفسك، وإذا كان الله يعلم فمن باب أولى أنه يحاسب، الذي يعلم يحاسب، الإله إذا علم شيئاً حاسب عليه، فأنت محاسبٌ على ما تُسِرُّ، وعلى ما تعلن، فإذا أعلنت لهذا الصانع أنك سوف تدخله في شركة هذا المحل فذهب هذا الصانع امتلأ قلبه فرحاً، وحضوراً، واطمأن إلى مستقبله فأنت أعلنت ذلك، هل تعلم أن هذا الإعلان صار دَيناً عليك؟ الله يعلم أنك أعلنت ذلك، فكيف لا تفي بعهدك؟

أنت أعلنت حينما كنت في العمرة أنك لن تعصي الله عز وجل، إذاً سوف يحاسبك على إعلانك ؛ هل كنت عند هذا العهد؟ أم خنت هذا العهد ؟

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ)

الشيء الذي تخفيه .

شاركت هذا الإنسان، وفي نيتك أن تتعلم منه هذه الصنعة، فإذا أتقنتها وضعته خارج المحل، لذلك احتطت مسبقاً بأن تسجل المحل باسمك وحدك، وقلت له وقتها: القضية شكلية جداً، لا قيمة لها، وأنت تضمر في نفسك أن تستقل بالمحل .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

تزوجت هذه المرأة لما لها من أموال طائلة، لكنها تكبرك سناً، وفي نيتك أنك إذا حصلت من أموالها شيئاً ثميناً عندئذ تفتعل معها مشكلة، وتفجر الوضع، إلى أن تطلقها، ويبدو الطلاق وقتها مبرراً، وأنك لن تحتمل هذه الحياة، وأنها ذات طباع سيئة .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

هذا الذي يتزوج امرأة وفي نيته أن يطلقها لو أمضى معها ثلاثين عاماً، فهذه الأعوام الثلاثون يمضيها معها زنىً ؟ لأن الزواج على التأبيد، لا يصح عقد الزواج إلا على نية التأبيد، قد تطلقها بعد يومين، لكنك حينما قبلت، حينما أجبت مأذون المحكمة بأنك قبلت هذا النكاح ؛ فيجب أن يكون على نية التأبيد .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

لذلك المؤمن نفسه صافية كالشمس، بيضاء نقية، لماذا بيضاء نقية ؟ لأنه يعلم أن الله يراقبه، وأن قلب الإنسان منظر الله عز وجل ؛ ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[رواه مسلم]

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء : 88 - 89)

الله سبحانه وتعالى ناظر دائماً إلى قلبك، هل فيه احتيال؟ فيه مخادعة؟ فيه غش؟ فيه نيات سيئة؟ هل هناك موقف يعلن عنه، وموقف خاص ضمني؟ هل هناك ازدواجية في المواقف؟ أيوجد تملق؟ نفاق؟ تدليس؟ مخاتلة؟ على الوجه ابتسامة صفراء، وفي القلب حقد دفين؟ كل هذا يعلمه الله عز وجل، وسيحاسب عليه، فافعل ما بدا لك، قال تعالى :

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة فصلت : 40)

البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان، لذلك قال بعضهم : " الله سبحانه وتعالى ربّ النيات " .

زرع رجل بستانين على ضفة نهر واحد، والذي زرع البستانين رجل واحد، والخبرات واحدة، والماء واحد، وكل شيء فيه مشترك، بستان يكاد القمح يزيد ارتفاعه على ارتفاع الإنسان، والثاني لا يزيد طول سوق القمح على أربعين سنتيمتر، فسأل هذا الرجل الزائر: ما السر في هذين البستانين؟ بعد بحث وتدقيق، وبعد اطلاعٍ واستحلافٍ، وجد أن البستان الأول يملكه رجل له أولاد أخ أيتام، في نيته أن يعطيهم نصف المحصول، فأنبت الله له القمح مضاعفاً ـ الله رب النوايا ـ والبستان الثاني لرجل مرابٍ، يقرض الناس، ويبتز أموالهم، فأتلف الله له المحصول، الله رب النوايا، أخطر شيء في الدين هذا

القلب.

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[أخرجه البخاري]

هذه الآية فيها تهديد :

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

وينجم عن علمه العقاب، والحساب، والجزاء، والتوفيق، والتعسير، والهلاك .

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ

كلّ جهة تُعبَد من دون الله تشملها هذه الآية :

هؤلاء الأصنام إن كانوا أحجاراً، وهؤلاء الأصنام إن كانوا من نوع آخر، كل جهة تعبدها من دون الله فهي مما تنطوي تحت هذه الآية، فإذا اتكأ الإنسان على إنسان له مكانته، وظن أن هذا الإنسان يحميه من كل مكروه، وأنه يرفعه إلى الأوج، وأنه يجلب له المنافع، وأنه يبعد عنه المضار، فهو ممن ينطوي تحت هذه الآية :

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

(سورة النحل)

لا يكون الخالق مخلوقا ولا المخلوق خالقا :

أيعقل أن يكون الإله مخلوقاً، من أولى لوازم الإله أن يكون خالقاً، أتعبد مخلوقاً ؟ وتدع الخالق ؟!.

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ(20)أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ

لهذه الآية معنيان :

المعنى الأول :

أن هذه الأصنام التي تعبد من دون الله ميتة، لا حياة فيها، لا سمع، لا بصر، لا حركة، لا تعاطف، لا عقل، ميتة، حجر .

المعنى الثاني :

أن الذين يعبدون هذه الأصنام من دون الله ميتون، ولو أن فيهم بقية حياة لكرهوها، ولعافوها، ولعافت نفسهم عبادتها .

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

المعرضون عن الله أموات القلوب وإن كانوا أحياء الأبدان :

وهذا وصف دقيق، فكل من أعرض عن الله عز وجل فهو ميت .

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنـما المـيـت ميـت الأحيـاء

***

أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة .

فالموت والحياة يأخذان معنى آخر، حياة القلب بمعرفة الرب، وموته بجهله، غذاء الروح الاتصال بخالق الكون، وموتها انقطاعها عنه، لذلك ربنا سبحانه وتعالى قال :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

الموت بيد الله وليس بيد غيره :

هذه آية دقيقة، زمام المبادرة ليس بأيديهم، أنت تقول : أنا بعد عشر سنوات سأفعل كذا وكذا، هذا كلام فيه غباء، ليست الأمور بيدك، ومن يضمن لك بعد هذه السنوات أن تبقى حياً ؟

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

حينما يأتي الأجل يتعطل كل شيء .

إن الطـبيب له علم يدل به إن كـان للنـاس فـي الآجـال تأخـير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلتــه حــار الطبيب وخــانته العقاقيـر

***

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

من منا يضمن أن يعيش إلى ساعة قادمة ؟ أناس كثيرون كانوا معنا ـ بالعشرات ـ الآن تحت أطباق الثرى، حينما كانوا معنا أكانوا يتوقعون أنه لن يمضِيَ هذا العام إلا وهم تحت أطباق الثرى ؟ لا والله .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

جلست مع أناس كثيرين، جاء أجلهم، حينما كنت معهم حدثوني عن أعمال سوف يفعلونها بعد سنوات طويلة، هم الآن تحت الثرى، فموضوع الموت ـ لحكمة بالغة ـ أخفى الله ميعاده عن الإنسان، لا يدري، يا ترى هل يأتي عليه رمضان آخر ؟ هل يدرك عيد الفطر ؟ وعيد الأضحى ؟ هل يدرك الشتاء القادم ؟ هذا البيت الذي وَقَعَ عقده على الخارطة هل يراه في الطابق الثالث ؟ أم يموت قبل أن يراه ؟ لا يعرف، هذا الذي اشترى هذا البيت هل يسكن فيه ؟ لا ندري .

هذه الزوجة التي عقد قِرانه عليها هل يُزَفَّ إليها ؟ لا أحد يعرف، كم من إنسان مات قبل عرسه، هذه الشهادة الدكتوراه التي حصلها في بلد أجنبي، هل يتاح له أن يعود إلى بلده بعدها، وينادى باسم دكتور ؟ قد يموت في الطائرة، قد يموت هناك، قد يموت قبل إعلان النتائج .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

لا أحد يعلم زمان ومكان وطريقة موته :

فالإنسان لا يعرف متى يموت؛ هل يموت في هذا البيت؟ إذا مات في هذا البيت أين يُغَسَّل؟ هل يموت في بيته؟ أم في الطريق؟ هل يموت صباحاً؟ أم مساء؟ أم في منتصف الليل؟ هل يموت فجأةً؟ أو بعد مرض طويل؟ وإذا مات أين يدفن؟ في المقابر الجديدة؟ أم في القديمة؟ الله أعلم .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

(إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

مسيِّر الكون هو الله وحده :

هذه الآية أيضاً دقيقة جداً، الإله هو المسيِّر، مسيِّر الأرض واحد .

أوْضَحُ هذه الآية بمثل: أنت حينما تركب هذه السيارات العامة، كان هناك جابٍ يقطع للركاب، ثم حلت الآلة محل الجباة، لو سافرت إلى محافظة نائية، ووجدت النظام نفسه مطبقاً هناك، معنى ذلك أن كل

هذه الشركات ؛ شركات النقل، تدار من العاصمة، فهذا الذي وجدته في هذه المحافظة يشبه ما وجدته في دمشق؛ إذاً، هناك إدارة عامة مركزية تعمم هذه الأوامر .

أحياناً يشعر الإنسان أن هذا الإجراء على مستوى القطر، وأن الذي أمر به واحد، فيجب أن تعلم علم اليقين أن كل شيء في الأرض في بلدنا وفي غير بلدنا ؛ الرياح، الأمطار، الثلوج، الزلازل، البراكين، غزارة الأمطار، غزارة النبات، عوامل المرض، الفيروسات، كل شيء يدار بيد واحدة، وإلهكم أيها البشر، ومسيِّركم إله واحد، حركة الأرض حول نفسها، حول الشمس، الليل والنهار، الشمس والقمر، الصيف والشتاء، والخريف، والربيع، الأمطار، الرياح، العواصف، الزلازل، الصواعق، إنبات النبات، علاقتنا ببعضنا؛ هذا أقوى من هذا، هذا قوي على هذا، هذا قهر هذا .

(إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ)

قال تعالى في آية أخرى :

(وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـانُ الرَّحِيمُ)

(سورة البقرة : 163)

ألوهية الخالق تبعث الطمأنينة في النفوس :

هذه الآية تبث في النفس الطمأنينة، أمور الكون كلها، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها بيد واحدة،

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : 17)

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود : 123)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف : 84)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الحديد : 4)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر : 2)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[أخرجه الترمذي]

الأمر كله لله .

(يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)

(سورة آل عمران : 154)

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

(سورة غافر : 20)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 26)

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة الرعد : 41)

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

كلّ أمورك بيد الله الرازق وحده :

كل شؤونك؛ زوجتك ممتازة، بفضل الله عز وجل، مشاكسة بتقدير الله، لهدف كبير، عملك مريح، بفضل الله، متعب، بتقدير الله، دخلك كبير، هو الرزاق ذو القوة المتين، دخلك قليل لحكمة الله .

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر : 15 - 16)

الرزق، والصحة، والمرض، والحياة، والموت، والسعادة والشقاء، والانشراح الداخلي، والانقباض، والقوة، والضعف، والسعادة الزوجية، والشقاء الزوجي، أولاد أبرار، أولاد مشاكسون، جيران متعبون، جيران مريحون .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود : 123)

(إِلَهُكُمْ)

أيها العباد .

(إِلَهٌ وَاحِدٌ)

كل شيء منه، هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

لذلك إذا قلت: فلان؛ فهذا شرك! عِلان؛ شرك! أعطاني؛ شرك! منعني؛ شرك! قهرني؛ شرك! ظلمني؛ شرك !

((لا يخاف العبد إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه))

[أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، والبيهقي في شعب الإيمان من قول عليٍّ]

إذا سقطت ورقة زيتون من على الشجرة يعلمها الله، سِرْ في حقل زيتون في أيام الخريف، وافتح ورقة، واكتب كم ورقة زيتون تسقط ؟ ربنا عز وجل قال :

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة الأنعام : 59)

فإذا كان سقوط ورقة يعلمها، فمن باب أولى أنك إذا ضيق عليك هذا بعلمه، وبتقديره، وبرحمته .

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ)

فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ

غير المؤمن بالآخرة منكر بأسماء الله وكتبه ورسله :

لم يؤمن بالآخرة، أي لم يؤمن بيوم الحساب، وإن لم يؤمن بيوم الحساب فقد أنكر اسم الحق، في الحياة قوي وضعيف، عالم وغير عالم في الأرض، في الحياة غني وفقير، في الحياة صحيح ومريض، لا بد من يوم يحق فيه الحق ؛ فإذا أنكرت هذا اليوم فقد أنكرت اسماً من أسماء الله سبحانه وتعالى، فالذي ينكر يوم القيامة كأنه ينكر وجود الله عز وجل، وإذا آمنت أن هناك إلهاً حقاً عدلاً فلا بد من يوم يحاسب فيه الناس .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(3)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة : 2 - 4)

من لوازم الإيمان بالله عز وجل الإيمان باليوم الآخر، كيف تؤمن بالله، ولا تؤمن باليوم الآخر ؟ إنك تلحد بأسمائه، تلحد بعدالته، تلحد بأنه سيجمع الناس ليوم لا ريب فيه، تلحد بيوم الفصل، بيوم الدين، بيوم يقوم الناس لرب العالمين .

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا(17)يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا)

(سورة النبأ : 17 - 18)

فإذا أنكرت اليوم الآخر فقد أنكرت اسماً من أسماء الله، فلذلك :

(فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ)

منكرة لهذا الكتاب، ولهذا الحق، ولهذا الشرع .

(وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

أخذتهم العزة بالآثم .

(لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ(23)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

كلمة قديمة متجدِّدة : أساطير الأولين :

هذه غيبيات، الآن يعبِّرون عن الدين بالغيبيات؛ غيبيات، خرافات، خزعبلات، أوهام، مظاهر ضعف الإنسان .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هذه المشاعر مشاعر التدين أساسها ضعف الإنسان أمام قوة الطبيعة، فلما قهر الطبيعة، وغزا الفضاء ليس بحاجة إلى هذه المشاعر .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هذا العصر عصر العلم، لا يصلح فيه التدين، والعلم نفسه يؤكد وجود الله سبحانه وتعالى .

أحد أكبر علماء الذرة اكتشف نظرية لا يزال معظم العلماء يجهلونها، يقول هذا العالم : كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون، رحيمة هي أرحم ما تكون، عليمة هي أعلم ما تكون، حكيمة هي أحكم ما تكون فهو إنسان حي، ولكنه ميت .

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(24)لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

المضلّون يحملون أوزار من أضلوهم :

إذاً: إذا قلت فكرة مغلوطة، إذا قلت الباطل، وسمعك إنسان وصدقك، كل أعماله التي يعملها وفق هذه المقولة يسجَّل وزرها في صحيفتك، كل ضلالة تكتب على شخصين ؛ على قائلها، وعلى سامعها، فإياك أن تقول ضلالاً، لأنك إذا فعلت ذلك سجل إثمه عليك،

(لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

لماذا لا يحب الله المستكبرين ؟

لماذا لا يحب الله سبحانه وتعالى المستكبرين؟ لأن المستكبر يعطي نفسه حجماً غير حجمه، من ادعى أنه يحمل دكتوراه وهو لا يقرأ ولا يكتب، أليس هذا جريمة ؟ لأنه لو كان يحمل هذه الشهادة، وقال: إنه يحمل هذه الشهادة، فلا مانع، أما إذا ادعى أنه يحمل هذه الشهادة وهو لا يقرأ ولا يكتب فقد أجرم !!

إذاً : الاستكبار ادعاء، هذا الادعاء حجاب له عن الله عز وجل، المستكبر محجوب، حجبه كِبره واستكباره، فلذلك من علامات المؤمن التواضع، ومن علامات غير المؤمن التكبر، فربنا عز وجل لا يحب المستكبرين .

انظروا في الآيات التي تنتهي بقوله : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

وأتمنى عليكم إذا قرأتم كتاب الله أن تستخرجوا منه الآيات التي تنتهي بقوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة الحجرات : الآية 9)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(سورة البقرة : الآية 190)

انظروا في الآيات التي تنتهي بقوله : إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ

فإذا أردت أن يحبك الله فافعل ما يحب، ودع ما لا يحب، بطريقة سريعة جداً احص الآيات التي يحب :

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

(سورة النحل)

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

(سورة الروم : 32)

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

(سورة آل عمران : 57)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة الحجرات : 9)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة : 222)

يحب المستقيم، اجمع الآيات التي فيها : يحب، والتي فيها : لا يحب، افعل ما يحب، ودع ما لا يحب .

امرأة عاقلة مؤمنة لما تزوجت قالت: " أما بعد؛ يا أبا أمية، إني امرأة غريبة، لا أعرف ما تحب ولا ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه " .

عليكم بالأشياء التي يحبها الله واجتنبوا ما يبغضه :

ربنا عز وجل أمركم ونهاكم، قال لكم ماذا يحب، وما الذي لا يحب، فإذا أردتهم حبه، أن يحبكم، فافعلوا ما يحب، محبته مقننة، لها قوانين، لها قواعد، ليست مزاجية اعتباطية فوضوية، إن الله يحب القوم الصادقين .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

(سورة لقمان : 18)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا)

(سورة النساء : 107)

يحب الأمانة لا الخيانة، يحب الصدق، لا يحب الكذب، يحب الإخلاص، لا يحب النفاق، يحب الإحسان.

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران : 134)

يحب العلم، وهكذا .

إذاً :

(لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ(23)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(24)لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

(سورة النحل)

أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ

أيّ حِمل يطيقه المضلون يوم القيامة :

هذا الذي يضل بغير علم، لو علم لما أضل أحداً، لهدى الناس، فالعلم من لوازمه الهدى، والجهل من لوازمه الإضلال .

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

أصعب الأحمال يوم القيامة أن يكون الضلال عن طريقك، أن يكون الإنسان ضالاً مضلاً، أن يشيع فكرة غير صحيحة، أن يدعو إلى معصية، أن يدعو إلى ضلالة، أن يدعو إلى بدعة، أن ينكر حقيقة جاء بها الدين، أن يزور، أن يخدع، أن يدلس، أن يغير الحق إلى باطل .

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

إن هذه الأوزار سوف تسوءهم يوم القيامة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (06-21): تفسير الآيات 24 – 29 ، عن العاقبة للمتقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-02-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(24)لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أيها الإخوة المؤمنون، في الدرس السادس من سورة النحل وصلنا إلى قوله تعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24)لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

هذا هو ظن الكفار بالدين :

هؤلاء الكفار يظنون أن الدين خرافة، وأن الدين سلوك الأقدمين، وأنه تعبير عن ضعف الإنسان أمام قوة الطبيعة، وأنه طقوس لا معنى لها، وأنه غيبيات، وأنه حجر عثرة في سبيل تقدم الإنسان، والكفار هم الكفار، في كل زمان ومكان، لذلك قال الله سبحانه وتعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هؤلاء حينما كفروا، أي أعرضوا عن الله سبحانه وتعالى، هم بشر، زودهم الله بالشهوات من أجل أن يرقوا بها إلى رب السماوات، فلما ابتعدوا عن الله سبحانه وتعالى كانت شهواتهم محركاً لهم إلى طريق تحقيقها، ولما كانوا في عمىً، وفي بُعدٍ عن الله سبحانه وتعالى فلا بد وهم يحققون شهواتهم من أن يأخذوا ما ليس لهم، ومن أن يعتدوا على غيرهم، فلذلك هؤلاء الذين :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هؤلاء :

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ)

الإثم وتحمل الوزر ملازمان للكفر :

فصار الإثم وتحمل الوزر شيئا ملازما للكفر .

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون : 1 - 2)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص : 50)

هناك تلازم عجيب بين الذي ينكر الدين كنظام إلهي أنزله الله سبحانه وتعالى ليسعد الناس جميعاً في الدنيا والآخرة ومن يسيء إلى الناس، ولن تجد إنساناً واحداً أعرض عن الله سبحانه وتعالى وله عمل طيب، بل له عمل سيئ ؛ يفرق بين الناس، يقيم العداوة فيما بينهم، يستعلي عليهم، يأخذ ما ليس له، يعتدي على أموالهم، يعتدي على أعراضهم، هذه صفات الكافر ؛ بل إنها من لوازم الكفر .

تقسيمات البشر لا أساس لها من الصحة :

هذا الكلام كلام الله سبحانه وتعالى، أينما ذهبت، حيثما حللت، أينما اتجهت، الناس رجلان ؛ بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، كل تقسيمات البشر تقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان، أبناء الريف، وأبناء المدينة، تقسيم باطل، أيّ مخلوق تعرف إلى الله سبحانه وتعالى تشرف قلبه بهذه المعرفة، الأغنياء والفقراء، تقسيم باطل، الأقوياء والضعفاء، تقسيم باطل، العِرق الآري والعِرق السامي، تقسيم باطل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمْ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْجُعَلِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الْخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ))

[رواه الترمذي

((الخَلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود، وأبو يعلى في مسنده عن أنس]

((سلمان منا آل البيت))

[رواه الطبراني في المعجم الكبير عن عمر بن عوف المزني]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد)

من قريش! هذا كله يؤكد قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات : 13)

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ...)

[رواه أحمد في مسنده]

هذا هو الإسلام .

((الناس كأسنان المشط))

[رواه القضاعي في مسند الشهاب]

أحد أصحاب رسول الله في ساعة غضب توجه إلى عبد مملوك له، فغلبته نفسه على تعييره فعَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ : لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ : إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ...))

[متفق عليه]

هذا هو سر الإسلام، هذا هو من عظمة الإسلام .

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ذهب ليشتري بلالاً، وينقذه من تعذيب سيده أمية بن خلف، قال سيده لأبي بكر رضي الله عنه : والله لو دفعت فيه درهماً واحداً لبعته لك! لهوانه على سيده، فما كان من أبي بكر رضي الله عنه إلا أن قال لأمية بن خلف: والله لو طلبت به مئة ألف درهم لأعطيتكها، إنه بلال، فلما أخذه وضع يده في يد تحت إبطه تأكيداً للأخوة في الإسلام، فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ عُمَرُ يَقُولُ :

((أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا، يَعْنِي بِلَالًا))

[رواه البخاري]

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخرج إلى ظاهر المدينة لاستقبال بلال، خليفة المسلمين يخرج إلى ظاهر المدينة ليكون في استقبال سيدنا بلال!! بلال وصهيب يدخلان ويخرجان بلا استئذان على سيدنا عمر ؛ جاء أبو سفيان فوقف على بابه ساعات طويلة فلم يؤذن له، فلما دخل عليه عاتبه فقال: أبو سفيان سيد قريش يقف ببابك ساعات طويلة ؟! وصهيب وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان ؟! قال : يا أبا سفيان أنت مثلهما؟! أين الثرى من الثريا ؟! أين أنت، وأين هم ؟! هذا هو الإسلام .

إذا شعرت أنك فوق الناس فلست مسلماً! إذا شعرت أنك خير من فلان وعلان فلست مسلماً ! قال لي أحدهم، وأعجبني قوله : حج البيت الحرام فشعر بسعادة ما بعدها سعادة، قال لي : ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني، هذا هو الدين .

فهؤلاء الكفار هم الكفار، في كل زمان وفي كل مكان، حينما كفروا انقطعوا، وحينما انقطعوا حرّكتهم شهواتهم، وحينما حرّكتهم شهواتهم أخذوا ما ليس لهم، طغوا، وبغوا، واعتدوا على الأموال والأعراض

فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ)

أي : للكفار :

(مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(24)لِيَحْمِلُوا)

لكافر كيفما تحرك يرتكب الإثم، إذا تكلم استعلى، وإذا نقل الخبر أفسد العلاقة بين الاثنين، وإذا تحدث عن نفسه حقّر الآخرين، هذه كلها أوزار .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً)

هناك كتاب لكل إنسان لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها :

أما كلمة (كاملة)فتعني الشيء الكثير .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 49)

كل أعمالك، كل حركاتك، كل سكناتك، كل تصرفاتك، كل مواقفك، كل طموحاتك، هذا كله مسجل في الكتاب .

(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً)

الحساب هو الحساب، لو أن لك حساباً عند بائع يسجِّل كل شيء، حتى ثمن الشمعة، يقول لك : الشمعة بثلاثين قرشاً، وقد أخذ منك مئة ألف ! هكذا الحساب، الحساب فيه تسجيل لكل شيء، لذلك قيل : " يا أبا ذر، جدد السفينة فإن البحر عميق، وأكثر الزاد، فإن السفر بعيد، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود، لا يجتازها إلا المخفون، وأخلص النية فإن الناقد بصير " .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

ما هو الوزر عموما ؟

إذا جمعت بين اثنين على معصية فذا وزر، إذا اغتبت فالغيبة وزر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحجرات : 12)

الغيبة وزر، النميمة وزر، الكذب وزر، التنابز بالألقاب وزر .

(ولَا تَجَسَّسُوا)

تقصي الأخبار السيئة وزر، أوزار اللسان لا تعد ولا تحصى .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، ولا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أخرجه أحمد]

عَنْ مُعَاذٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((... ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[أخرجه أحمد]

ما تقول ؟

بقي أمرُ العين .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى، وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَيُكَذِّبُهُ))

[أخرجه البخاري]

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً)

تدخل على دكانه امرأة، فيتأمل محاسنها، ويصافحها، يدير معها حديثاً لطيفاً، هذا كله آثام

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يبيع ويشتري، يخفي العيب .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يبيع البضاعة نسيئة، فيزيد في الثمن .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يقيم وليمة فيها رجال ونساء .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يذهب إلى بلد أجنبي، فيرخي الحبل ويعطي لنفسه العنان،

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

من استمع إلى صوت قينة صب الآنك في أذنيه يوم القيامة، فقيل : يا رسول الله، وما الآنك ؟ قال : الرصاص المذاب .

يملأ عينيه من الحرام، فيملؤها الله من جمر جهنم .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يرسل ابنه إلى بلد أجنبي ليتعلم اللغة الأجنبية، فيعود ابنه زانياً .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يقول هذا الابن: يا رب، لا أدخل النار حتى تدخل أبي قبلي .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يزوج ابنته من رجل غني طمعاً بماله ومركبته وجاهه، فيطلق هذا الزوج للزوجة العنان فتفعل ما تشاء؛ تختلط مع الرجال، تترك الصلاة، وهو يظن أنه بهذا الزوج قد حصل عزاً ومالاً وفيراً .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

ما أكثر المعاصي، في البيع والشراء آلاف المعاصي، في سيرك في الطريق المئات، إذا دخلت البيت، وأدرت جهاز اللهو على شيءٍ يغضب الله ورسوله وقعت في المعاصي .

لكن الآية فيها ما يقصم الظهر :

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

هل تعلم أنك تأخذ وزر غيرك ؟

إذا استمتعت أنت ببرنامج يغضب الله ورسوله، وشاهد هذا البرنامج ابنك وابنتك الشابان، وانحرفا انحرافاً لم تعلم به .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

لكن كلمة :

(بِغَيْرِ عِلْمٍ)

قاصمة الظهر : بغير علمٍ :

تأخذ بالألباب، هذا الذي يضل بغير علم، يظن أن هذا حضارة، هذا شيءٌ عصري، لا ينبغي أن نحرم منه، يضل الناس، وهو يحسب أنه ينفعهم، يؤذيهم في أخلاقهم، وهو يظن أنه ينفعهم، يحبب إليهم الدنيا،

وهو يظن أنه يخدمهم بغير علم، هذا الذي! يَضِل بغير علم، وهذا الذي يُضل بغير علم، ولا جهل في القانون، مبدأ عام في القضاء، لا جهل بالقانون، كذلك لا جهل عند الله، الإنسان إذا جهل يحاسب على جهله، لِمَ لم تتقصَّ الحقائق؟ لِمَ لم تتبع سبيل من أناب إلي؟ لمَ أتبعت سبيل أهل الدنيا؟ لمَ صدقتهم؟ لمَ عطلت فكرك؟ لِمَ لم تقرأ القرآن؟ لِمَ لم تحضر مجالس العلم؟ لماذا بقيت جاهلاً؟ لماذا أتبعت هواك؟ لماذا استمعت إلى وسواس الشيطان ؟

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

عَنْ جَرِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا، وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا))

[أخرجه ابن ماجة]

مبدأ المسؤولية :

(سورة يس : 12)

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)

آثارهم ؛ هذا الذي فعلت، سننت في أسرتك، وأنت عميد هذه الأسرة لقاء أسبوعياً مختلطاً، شيء جميل ! سننت هذا اللقاء، واستمر هذا اللقاء بعد وفاتك، وتابعه الأهل، كان جدُّنا يفعل هذا، هذا الاختلاط إلى يوم القيامة، ما الذي نتج منه من اشتهاء، من زنى النظر، من طلاق زوجة، هذا الاختلاط الذي سننته في أسرتك سوف تتحمل تبعاته إلى يوم القيامة :

((وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا))

[أخرجه ابن ماجة]

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

هنا سؤال: لِمَ لم يقل الله سبحانه وتعالى: ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة وأوزار؟ قال : ومن أوزار، هذا الإنسان الآخر له معاصٍ هو وحده مسؤول عنها، وله معاصٍ كانت بسببك، فهذا الذي كنت أنت سبباً في حصوله تحاسب عليه، يُضَم إلى أوزارك، فكل وزر يقع في إنسان آخر فعله بسببك، بتشجيعك، بدلالتك، بتوجيهك، برضائك، بسكوتك، فهو يكتب على فاعل الوزر، ويكتب ثانية في صحيفتك .

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

قد يكون الإنسان ضالاً، وهو لا يعلم، وقد يقع عليه الضلال وهو لا يعلم .

من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري، فهذا جاهل فعلموه، ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فهذا شيطان فاحذروه، هذا الذي يَضِل بغير علم، ويُضِل بغير علم يظن هذا حضارة، يظن هذا رقياً، يظن هذا رقة، يظن هذا ذكاءً، يظن هذا عقلاً متفتحاً، نفساً مرنةً، هذا كله ضلال في ضلال .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)

(سورة الأحزاب : 36)

لا خيار لك، أنت عبد، العبد عبد، والرب رب، هذا هو الشرع، هذا هو القرآن، هذا هو الدستور، هذا هو الكتاب، فالذي حرمه حرام إلى يوم القيامة، والذي أحله حلال إلى يوم القيامة، الحرام ما حرمتَ، والحلال ما أحللتَ، والدين دينك، والشرع شرعك يا رب .

(وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ

هذا الذي يحملونه سوف يسوءهم، لو أعطاك إنسان ظرفاً صغيراً سميكاً قال لك : خذه، ضعه في جيبك، هو هدية مني لك، أنت حملته وفرحت به، وقفت في مكان ما وفتشوك، فإذا في هذا الظرف حشيش، وساقوا من حمله إلى السجن، وحكموا عليه بثلاثين سنة مع الأشغال الشاقة، ألم يسوء هذا الذي حمله ؟ هذا الذي حمله في جيبه ألم يكن سبباً في دماره ؟ هذا مثل، وفي بعض البلاد، إذا ضبط الإنسان يحمل مادة مخدرة يعدم فوراً،

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

إذا كان هذا عند البشر فكيف عند خالق البشر؟! هناك أعمال لو اقترفتها، وسجلت في صحيفتك سوف تسوءك، سوف يسوء الإنسان ما يحمل .

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

هذا مثل بسيط، لو حملت شيئاً ممنوعاً، وضبطت بأنك تحمله، وعليه وزر ثقيل، ألا تلعن الساعة التي التقيت بها هذا الإنسان ؟

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِه

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

مكر الماكرين مكشوف :

أيُّ مكر عند الله مكشوف، هذا الذي يمكر، ويمكر، ويظن بأنه بهذا المكر يفلح، ويفوق، ويتفوق؛ هذا الذي يمكر، الله سبحانه وتعالى أرخى له الحبل، فإذا جاء أجله :

(فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ)

صورة مؤلمة .

إذا اهتز الأساس تداعى البناء :

فإذا اهتز الأساس تداعى البناء؛ هذا مكر الكفار، ولو أن إنساناً بنى بناء شامخاً بلا أساس، واعتنى بجدرانه، واعتنى بغرفه، واعتنى بطوابقه، ثم زينه، وبالغ في تزيينه، وأنفق عليه ما لا يحصى، ثم انهار الأساس، فتداعى البناء، كم هي الصورة مؤسفة، وكم هي مضحكة، وكم يعد هذا الإنسان غبياً، وساذجا !! هكذا الفاسق :

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

يؤتى الحذِر من مأمنه :

ولحكمة بالغة لا يؤتى الكافر إلا من جهة أمنه، مطمئنٌ إلى صحته، يعتني بها أشد العناية ؛ فلا يأتيه الألم إلا من جهة صحته، مطمئنٌ من جهة ماله، فلا يأتيه العذاب إلا من جهة ماله، مطمئنٌ لمكانته، إذا هي تزلزل من تحت قدميه، يؤتى الحذر من مأمنه .

عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَلَكِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ عِبَادَ اللَّهِ))

[أخرجه أحمد]

يؤتى الحذر من مأمنه، قد يختص الطبيب باختصاص دقيق، ويذهب إلى بلاد الغرب ليأخذ أعلى الشهادات في هذا الاختصاص، ويعود، ويعتني بصحته إلى أقصى الحدود، فإذا كان غافلاً عن الله سبحانه وتعالى لا يصاب إلا بمرض من اختصاصه، عندئذ تنهار قواه ! يؤتى الحذر من مأمنه، وأيّ جهة أنت مطمئنٌ لها، مستغنٍ بها عن الله سبحانه وتعالى، تتكل عليها، تراها قوة لك، لا يأتيك الدمار إلا من هذه الجهة،

(فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ)

معنى: فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ

أي أهلكهم .

(فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ)

فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ

لو ذهبت لتكسر سقف البناء لطال بك الوقت، لكنهم إذا أرادوا هدم بناء زعزعوا دعائمه، فيخر السقف من فوق، هذه أسهل طريقة، كل هذا البناء الشامخ إذا زلزلت دعائمه خرّ السقف من فوق، صورة رائعة .

(فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ)

الكافر قد يجعل تدميره في تدبيره ؛ ينقلب تدبيره إلى وسيلة لتدميره، يُدَمَّرُ بتدبيره، لذلك المؤمن يقول: اللهم أغننا باختيارك عن اختيارنا، وبتدبيرك عن تدبيرنا،

(فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(26)ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ

عذاب الخزي شيء لا يحتمَل :

عذاب الخزي شيء لا يحتمل، هناك عذاب عظيم، وهناك عذاب أليم، وهناك عذاب مهين، قد يخزى الإنسان، قد يقف في موقفٍ يتمنى أن تشق الأرض وتبتلعه، قد يقف في موقف يتمنى لو كان هباء منثوراً، قد يقف في موقف يتمنى أن لم تلده أمه قط، هو العذاب المهين عذاب الخزي .

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ)

لذلك ..

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : 185)

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة الزخرف : 83)

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور : 45)

إذا توقفت المركبة العامة فجأة، وصعد المفتش، وطالب الركاب ببطاقاتهم، وأحد الركاب لم يقطع بطاقة، انظر إلى وجهه، انظر إلى لون وجهه، انظر إلى ارتباكه، انظر إلى خجله، انظر إلى موقفه إن كان أنيقاً، إن كان ذا مكانة، ماذا يفعل ؟ هذا من أجل مخالفة لا تزيد على عشر ليرات سورية، فكيف لو وقف الإنسان أمام الخلائق كلها يوم القيامة، وعرضت عليه أعماله مصورة، ورأى فضل الله سبحانه وتعالى عليه ؟ وكيف واجه هذا الفضل بالجحود والنكران؟! وقد أكل مال هذا، وشتم هذا، وآذى هذا، وخَوَّفَ هذا ؛ يحاسبه الله سبحانه وتعالى، أهكذا فعلت بعبادي؟ أهذا جزاء الإحسان؟ ألهذا خلقتُك؟ ألهذا بعثت بك إلى الدنيا ؟

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ)

وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ

إياكم والشريك فإنه سيعاديكم يوم القيامة :

هذه الآية دقيقة جداً، تعني اتخاذهم الشريك لله عز وجل، فلان يتخذ فلاناً من دون الله شريكاً، فإذا قال له أخوه: أنت مخطئ يا أخي، صبّ عليه جامَ غضبه ؛ تشاقق مِنْ أجل من؟ من أجل شريك ما أنزل الله به من سلطان؟! كل يدافع عن باطله، ويؤذي من حوله من أجل هذا الباطل، يؤذي من حوله، يعاديهم، يرتكب الآثام من أجل الدفاع عن الذي أشركه مع الله سبحانه وتعالى، أمثل هذا يفعله إنسان ؟!

(وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ)

ويعني بهذه الآية كفار قريش، لأن النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام سبّوا هذه الآلهة، هذه الأصنام، هذه الأحجار الجامدة الميتة، لأنهم فعلوا كل هذا ؛ أقام الكفار عليهم الدنيا ولم يقعدوها،

حاربوهم في بدر، وحاربوهم في أحد، وحاربوهم في الخندق، وقاتلوهم، وأخرجوهم، وهم أقرباؤهم، وأبناء جلدتهم، ومن أرحامهم، شاقوا الناس من أجل الشركاء، أيعقل هذا؟!

كفار مكة لماذا عادوا النبي عليه الصلاة والسلام؟ لماذا أخرجوا أصحابه؟ لماذا قاطعوهم؟ لماذا مكروا بهم؟ لماذا أخرجوهم؟ لأنهم سبوا آلهتهم، وعابوا دينهم، أتمتلئ غيظاً من أجل شريك ما أنزل الله به من سلطان، أهكذا يكون ؟

(وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ)

أين هبل ؟ أين اللات ؟ أين العُزى ؟ أين يعوق ؟ أين نَسر ؟ يا كفار مكة، شاققتم من أجل هؤلاء الأصنام ؟! من أجل هذه الأحجار ؟! من أجل هذه التي ما أنزل الله بها من سلطان ؟! قطعتم أرحامكم ؟ أخرجتم نبيكم ؟ آذيتم أصحابه ؟ أهكذا يكون ؟ وعلى هذا فقس :

قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ

(قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

العذابان معاً، عذاب الحريق، وعذاب الخزي، إذا سيق المجرم ليعدم، أو ليعذب، ماذا يذوق ؟ إذا صوره المصورون ترى وجهه تعلوه الغَبَرَة، ترهقه ذلة، وفوق الذلة عذاب أليم، كذلك الإنسان يوم القيامة، يتحمل العذاب، ومع العذاب عذاب الخزي الأليم :

(إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ(27)الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة البقرة : 57)

هؤلاء الذين :

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

لأنهم ظلموا أنفسهم :

ما عرفوا اللهَ سبحانه وتعالى، ظلم أحدُهم نفسه فجعلها جاهلة، ظلم نفسه فلم يزكّها، لم يُعَرِّفْها بمهمتها، لم يُعَرِّفْها بخالقها، لم يُعَرِّفْها بطريقها إلى الجنة، لم يحضر مجالس العلم، ما قرأ القرآن، ما سأل عن نفسه: أين كان؟ ولا أين سيكون؟ ما التفت إلى خالق الأكوان، شُغِل بالدرهم والدينار، انغمس في الشهوات، قاتل هذا، وسبّ هذا، وأكل مال هذا، حتى جاءه الموت :

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام سمع أحد أصحابه وقد بلغه نبأ وفاة أحد الأشخاص، سمع أحد أصحابه يقول: لقد استراح فلان، فغضب النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال : وما أدراك أنه استراح ؟! من أدراك؟ إنما يستريح من غفر له .

الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر :

هذا العالم الجليل الذي كان يركب فرساً في العهود الغابرة، وعليه ثياب جميلة جداً، وحوله بعض تلامذته يحفون به، ويكرمونه، نظر إليه يهوديٌ فقيرٌ، في حالة قميئةٍ بائسةٍ، وقد سمع هذا اليهودي بحديث أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

[أخرجه مسلم]

فحار في هذا الحديث، فلما لقي هذا العالم في موكب في الطريق قال : يا سيدي : يقول نبيكم :

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

فأي سجن أنت فيه؟ أي سجن هذا؟ وأي جنة أنا فيه؟! هو مسحوق، أنت في سجن، وأنا في جنة؟! فقال هذا العالم الجليل: يا هذا إن حالتك البائسة التعيسة، إذا قيست بما ينتظر الكافر من عذاب أليم يوم القيامة فأنت في جنة، وإن حالتي التي ترضيك، إذا قيست بما وعد الله المؤمنين يوم القيامة فأنا في سجن، ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي]

يا بني، ما خَيْرٌ بعده النار بخير، وما شَرٌّ بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية، يا بني العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، ألا يا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا ربَّ نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا ربَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا ربَّ مهين لنفسه وهو لها مكرم، ألا يا ربَّ متخوض ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له عند الله من خلاق، ألا يا ربَّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً :

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلَاثًا، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ))

[أحمد عن ابن عباس]

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

الغنى والفقر بعد العرض على الله .

(فَأَلْقَوْا السَّلَمَ)

فَأَلْقَوْا السَّلَمَ

عند الهزيمة النكراء تُرفع الراية البيضاء :

كيف أن المجرم حينما يؤخذ سلاحه منه، ويلقى القبض عليه بأيدٍ شديدةٍ متينة، كيف أنه يستسلم ؟ تنهار قواه تخور، عزيمته، يصفر وجهه، يكاد يقع على الأرض .

هؤلاء الكفار ظالمو أنفسهم، حينما تأخذهم الملائكة عند الموت ألقوا السَلَم، ألقوا سلاحهم، ورفعوا أيديهم، هم ينتظرون عقابهم الأليم، هم ينتظرون ما يفعل بهم،

النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن انتهت موقعة بدر بالفوز والنصر توجه إلى قتلى المشركين، خاطبهم بأسمائهم واحداً واحداً، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ :

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ، فَقَامَ عَلَيْهِمْ، فَنَادَاهُمْ، فَقَالَ : يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَسْمَعُوا ؟ وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا ؟ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا، فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ))

[مسلم]

هذه ساعةٌ عصيبة، ساعةٌ لو نسمع صياح من جاءته لصعقنا جميعاً، يصيح الكافر، يوم تأتيه الملائكة لتقبض روحه يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا جميعاً

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ)

انظروا إلى الكلام الفارغ :

كلام فارغ، والله أنا بريء، هذه كلمة كلِّ المجرمين، حينما يلقى القبض عليه، ما فعلت هذا، أنا بريء ! أنا مظلوم !

(مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى)

لا يُظلَم عند الله أحد :

ربنا سبحانه وتعالى يكذبهم :

(بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

أعمالكم كلها مسجلة عليكم، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها،

(بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

المصير المحتَّم للكفار : جهنّم :

هؤلاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، خلق الإنسان ضعيفاً، يتكبرون فيها بغير الحق، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ))

[مسلم]

(فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

هذا هو المثوى الأخير، فلذلك :

ليس من يقطع طرق بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

إذا كنت بطلاً حقاً تأتي يوم القيامة ناصع الجبين، أبيض الوجه، صادق القول، طيب القلب، سليم القلب، هذه هي البطولة، أما أنك حصلت المال الفلاني، عمرت هذا البيت، أنشأت هذا المعمل، أقمت هذه المزرعة، أملك كذا وكذا، عندي من المال ما لا تأكله النيران، فعلت كذا وكذا، سافرت إلى كذا وكذا، أكلت كذا وكذا، هذا لا ينفعك عند الموت، إلا من أتى الله بقلب سليم .

بئس مثوى الكافرين جهنم :

(فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص : 83)

لا علو ولا فساد، لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

العاقبة للمتقي، للمستقيم، للمؤمن، للذي يخاف الله سبحانه وتعالى، للذي يرجو الله واليوم الآخر، العاقبة له، الفوز له النجاح له، الفلاح له، الجنة له .

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي]

لو أن الإنسان سها ولها عن الله سبحانه وتعالى، غفل عنه، وانكب على الدنيا، فلا بد من يوم يستيقظ فيه على خبر مؤلم، إن في صحته، أو في ماله، أو في أولاده، أو في زوجته، أو في حريته، لا بد من خبر مؤلم، أما إذا عرفت الله سبحانه وتعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة : 51)

من خير إلى آخر، ومن رقي إلى رقي، ومن سعادة إلى أعلى، ومن عقل إلى أوسع، لا بد من التطور نحو الأعلى، في عقلك ومعرفتك، وحالك النفسي، ومكانتك، وحبك، وإقبالك، وصلاتك، وعبادتك، كلما زدت في العمر يوماً زدت قرباً، وزدت مكانة، وزدت حصافة، وزدت عقلاً، يقابل هذا أن أهل الدنيا لا بد من أن تأتيهم الأخبار المفزعة، لا بد من أن يُصْعَقُوا قبل أن يموتوا، لا بد من أن يقصمهم الله سبحانه وتعالى، لا بد من أن يُفْزِعهم، هؤلاء :

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

وفي الحديث :

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ـ فَقْرًا مفاجئا ـ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ـ يخرج صاحبه من الاستقامة ـ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ـ يفسد على الإنسان حياته ـ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ـ يصبح أضحوكة بين أقربائه، يخرف ـ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي]

إذا كنت تحب نفسك، إذا كنت مفرطاً في حب نفسك، فانتبه لهذه الحقائق، القرآن يحذرك مما سيكون .

أما القسم الآخر من الآيات :

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ(30)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ

يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ(31)الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32)هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

فسنتناولها في درس قادم، إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (07-21): تفسير الآيات 30 – 34 ، عن فطرة الإنسان ـ الرؤية الصحيحة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-02-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قول تعالى :

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ(30)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ)

من مشاهد أهل الإيمان في القرآن :

في الدرس الماضي كان المشهدُ مشهدَ أهل الكفر، وما ينالهم يوم القيامة من عذاب مقيم، وفي هذا المشهد الثاني مشهد أهل الإيمان، هؤلاء الذين اتقوا، هؤلاء الذين حصلت لهم الرؤية، الرؤية القلبية لقوله تعالى :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج : 46)

أهل الإيمان لهم رؤية صحيحة :

ما من واحد منا إلا وله رؤية، هذه الرؤية تحدد موقفه، هذه الرؤية تجعله يستقيم، أو ينحرف، يرحم أو يقسو، ينضبط أو يتفلت، إنها الرؤية، إذا صحت صح العمل، وإن كانت الرؤية بلا غاية، أو منحرفة، أو خاطئة انحرف العمل، وإذا انحرف العمل هلك الإنسان .

هذا من فطرة الإنسان التي فطره الله عليها :

وما من إنسان أيها الإخوة إلا ويحب نفسه، هذه فطرة الإنسان .

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم : 30)

فطرنا على حب أنفسنا، على توخي السلامة لها، على توخي الرفعة لها، فطرنا على طلب السعادة، فطرنا على طلب الخير، على حب الخير .

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

بنو البشر من أقاصي البلاد إلى أقاصي البلاد، من جبلة واحدة، ومن طينة واحدة، يا داود، ذكر عبادي بإنعامي عليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، الإنسان جُبل على حب ذاته، وجُبل على توخي السلامة لذاته، و جُبل على توخي الخير لذاته، وجُبل على حب المحسن، وعلى بغض المسيء، هذه جِبلّة الإنسان، فبدافع من هذه الجبلّة لن تقع في الشر إلا إذا رأيته خيراً، إذا رأيت الشر شراً لن تقترفه، وإن رأيت الخير خيراً بادرت إليه، بدافع من فطرتك .

في أمور الدنيا الناس يحرصون على دنياهم، يستشيرون، يسألون، يدققون، يمحصون، يوازنون، يقابلون من أجل سلامة المال، من أجل نموِّه، من أجل صحة الجسد، لو أنهم طَّبقوا أساليبهم التي يتبعونها في دنياهم على أخراهم لفازوا بالدنيا والآخرة، فهؤلاء المتقون هم الذين أقبلوا على الله عز وجل، وقذف الله في قلبهم النور، فرأوا الخير خيراً والشر شراً، استنارت قلوبهم، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((وَالصَّلَاةُ نُورٌ))

[رواه مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ]

هذا الذي تَعرض عليه مبلغاً حراماً، وهو في أمسّ الحاجة إليه، يقول لك : لا، ورب الكعبة، الله الغني، لا أفعل معصية، ماذا يرى ؟ وهذا الذي يبحث عن المال الحرام يأكله من أيّ طريق، وبأيّ أسلوب، ومهما كلف الثمن، ومهما ضحى بقيمه، أو بمبادئه، أو بقناعته، ماذا يرى ؟ هذا الذي يقدم على قتل إنسان ليأخذ ماله، لماذا أقدم على هذه الجريمة، ماذا رأى ؟

سيدنا يوسف حينما عرضت امرأة العزيز نفسها عليه، وكانت ذات منصب وجمال، وكانت سيدة مطاعة في قصرها، وكان عبداً عندها، وكان شاباً، وكان غريباً، وغير متزوج، وفي بيتها، وتلقى منها أمراً، وليس من صالحها أن تنشر الخبر، وسيدها ضعيف الشخصية، عشر عوامل تضافرت جمعياً كي يستجيب لها، ومع ذلك قال : معاذ الله، ماذا رأى .

كل فعلٍ وتركٍ يُبنَى على رؤية :

تأكدوا أيها الإخوة أن أحد منكم لا يفعل شيئاً، ولا يدع شيئاً، إلا بناء على رؤية رآها، هذه الرؤية إما أن تكون صحيحة، وهذا هو الهدى، وإما أن تكون باطلة، وهذا هو الضلال، الذي يُعرض عليه مال حرام فيأبى أن يأخذه، هذا رأى أن الأمر كله بيد الله، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنه إذا أخذ مالاً حراماً يوشك الله أن يتلفه مع ماله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[رواه أبو نعيم عن ابن عمر مرفوعا]

وأن الله إذا أعطى أدهش، وهو المعطي، فلا يسأل، وهو الكريم، فلا يبخل، وهو الحليم، فلا يعجل، كل هذا الرؤى اجتمعت في نفس هذا الإنسان حينما عرض عليه مال حرام، فقال : لا، ورب الكعبة، كلمة لا وراءها رؤية، لماذا يبالغ الطبيب في غسل يديه قبل الطعام ؟ لأنه رأى بعينه من خلال الميكروسكوب الجراثيم، ورأى المرضى، هذا مريض بالعدوى، وهذا مريض بالجرثوم الفلاني، إن رؤية الطبيب لحقائق الأمور تجعله يبالغ في تنظيف يديه .

كيف يفعل الإنسان شيئا يدمِّره :

أيها الإخوة الأكارم، نحن جميعاً وبنو البشر جميعاً، وكل ولد آدم منذ أن خُلقنا على سطح الأرض، وحتى يوم القيامة مفطورون على جِبلَّة واحدة، نحب الخير لأنفسنا، نحب السلامة، نحب الخلود، نحب النماء، هذه الفطرة، كيف يفعل الإنسان شيئاً يدمره؟ يفعل هذا الشيء الذي سيدمره لأنه لا يملك رؤية صحيحة، يرى الدنيا كل شيء، ويرى أن المال كل شيء، ويرى أن الحياة لذيذة، وأن الموت بعيد، وأنه لا شيء بعد الموت، هذه الرؤية تحمل صاحبها على اقتراف الآثام، وأكل الأموال، والطغيان، رأى الحياة الدنيا هي كل شيء، ولا شيء بعد الحياة الدنيا، لذلك هذه الرؤية الخاطئة حملته على اقتراف الآثام، هل تصدقون أن أكبر عدوٍ لكم هو الجهل، أكبر عدوٍ للإنسان أن يجهل حقيقة الأشياء، من منا إذا شاع أن هذا الشيء ملوث، ويسبب أمراضاً خبيثة، من منا يأكله؟ لا أحد، بدافع من فطرتنا، من منا يأكل طعاماً ملوثاً بالإشعاع الذري؟ لا يأكله مهما كان جائعاً، بدافع من الفطرة، من منا على مشارف مرض خطير يخالف نصيحة الطبيب؟ لا أحد ، هذه الرؤية الصحيحة .

يا أيها الإخوة الأكارم، موقفك من الله عز وجل، موقفك من الربا، موقفك من العمل، موقفك من كسب المال، موقفك من زوجتك موقفك من أمك، موقفك من جارك، موقفك من صفقة مشبوهة، هذا تحدده رؤيتك، إما أن تكون هذه الرؤية صحيحة، وإما أن تكون هذه الرؤية منحرفة، نور الله عز وجل إذا ألقي في قلبك من خلال الصلاة جعل لك هذه الرؤية الصحيحة .

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا

فلذلك هذه هي التقوى، التقوى أن تنظر بنور الله، التقوى أن تملك رؤية صحيحة، التقوى ما تعنيه الآية الكريمة :

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ)

(سورة الأنعام : 75)

ما هي التقوى ؟

التقوى أن يجعل الله لك نوراً تمشي به في الناس، التقوى أن يكون لك فرقان، تفرق به الحق من الباطل، والخير من الشر، وما يجوز، وما لا يجوز، لذلك لا ينبغي أن نقعد عن طلب مرتبة التقوى، فإذا بلغنا هذه المرتبة فنحن في أمان الله، وبدافع من فطرتنا لا نفعل إلا ما ينفعنا .

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا)

فَكَّر في ملكوت السماوات والأرض، حصلت له قناعة أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، ينبغي أن يُعبد، عبده، فإذا عبَده فهذا هو الإسلام ، المسلم من استسلم لله في كل أوامره ونواهيه، الانقياد الكلي لأوامر الله عز وجل، بعد أن انقاد كلياً للأوامر أقبل على الله، اتصل به، بهذا الإقبال، وبهذا الاتصال حصلت له هذه الصلة، فهذا هو الإيمان، إذا استمرت هذه الصلة ، وتعززت، وبلغت حداً معيناً انقلبت إلى تقوى، والتقوى رؤية نفسية بسبب من نور إلهي ألقي في قلب المؤمن في أثناء الصلاة هذا الإقبال يجعلك من أهل التقوى، إذاً أنت تملك الرؤية الصحيحة .

ما من مشكلة، ما من مصيبة على وجه الأرض إلا وراءها معصية، وما من معصية إلا وراءها عمل سيئ، وجهل، وانقطاع عن الله سبحانه وتعالى .

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا)

إنزال القرآن هو إنزال الخير :

هذا القرآن لخصه الله تعالى بكلمة واحدة، عنوانه:

(قرآن كريم)

كلمتان، أما في هذه الآية فلخصه كله في كلمة واحدة :

(قَالُوا خَيْرًا)

إذا قرأته، إذا قرأت آياته الكونية، وخشع قلبك لعظمة الله، وعقدت العزم على التوبة فهذا خير، وإذا قرأت آياته التشريعية، ونفذتها في علاقاتك اليومية فهذا خير، وإذا قرأت آيات الزواج، واتبعت ما جاء فيها، في علاقتك مع زوجتك، فهذا خير، وإذا تفكرت في مشاهد القيامة وأهوالها، فاتعظت من هذه المشاهد، وعقدت العزم على الاستقامة، فهذا خير فكل ما في هذا الكتاب خير، قراءته خير، تلاوته خير، معرفة مضامينه خير، تدبره خير، تطبيقه خير، لكن أعلى أنواع الخيرات أن ينقلب هذا القرآن إلى سلوك، سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أخلاق النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ :

((يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ : أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قُلْتُ : بَلَى، قَالَتْ : فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ))

[رواه مسلم عن زرارة]

تطبيق القرآن هو الخير كله والإعراض عنه هو الشر والضلال :

إلى أن يصبح هذا الكتاب سارياً في علاقاتك اليومية، تتلو قوله تعالى :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور : 30)

تطبق هذه الآية، فإذا أنت من أسعد الناس في البيت، هذا كلام رب العالمين، كلام هو قانون، ومعنى القانون أن العلاقة ثابتة بين شيئين، هناك علاقة ثابتة بين غض البصر والسعادة الزوجية، وهناك علاقة ثابتة بين إطلاق البصر والشقاء الزوجي، تطبق هذه الآية فتكون أسعد الأزواج، تمضي حياتك كلها مع زوجتك في سعادة وهناء، ووفاق، ومودة، ومحبة، وطهر، ووفاء، وبر، وحب، فإذا أطلق الإنسان بصره صار بيته جحيماً لا يطاق ، وصارت حياته نكدًا، وصارت معيشته نكدا أيضاً، وكانت الآية الكريمة منطبقة عليه .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه : 124)

رجل له هواية واحدة، في أيام الصيف بالذات يقطع بعض الطرقات المزدحمة بالنساء مرتين، أو ثلاث مرات ذهاباً وإيّابًا، يُمتّع عينيه بالنظر إلى النساء، وهن يخطرن في الطرقات كاسيات عاريات، مائلات مميلات، وله أولاد شبان، وله بنات متزوجات، وكان له جار ينصحه كثيراً ؛ أن يا جار، لا يليق هذا بالمسلم، لا يليق هذا بمن زوج بناته ، واستقبل أصهاره، وعنده أولاد هو قدوة لهم، هذه العادة المستحكمة لا يدعها، إلى أن أصيب بمرض عضال اسمه ارتخاء الجفون، لا يستطيع أن يرى إنساناً إلا بعد أن يمسك جفنه، ويفتحهما بيده، فإذا تركه عاد من تلقاء نفسه مغمضاً، فلو أنه طبق هذه الآية :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور : 30)

المؤمنون طبقوا هذه الآية فعاشوا في سعادة، في خيرات .

وفي كسب المال ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

(سورة البقرة : 276)

لو الإنسان تلا هذه الآية، وتدبرها، وعرف أبعادها، وطبقها لحفظ الله له ماله، وعاش في بحبوحة، وفي أمن، ولكن الله سبحانه وتعالى يتلف للذين يكسبون مالاً حرامًا أموالهم، بأسباب تافهة، قد ينسى مصباحاً متألقاً في الليل فيحترق محله التجاري كله، بسبب تافهٍ جداً، قد ينسى دخينة على الطاولة، تسبب أتلاف ماله، قال عليه الصلاة والسلام :

((ما تلف مال، في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة))

[أخرجه الطبراني في الأوسط عن عمر بن الخطاب، قال الهيثمي : فيه عمرو بن هارون وهو ضعيف]

لو طبق قوله تعالى :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(سورة البقرة : 43)

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

لكان تطبيق هذه الآيات عائدًا عليه بالخير .

سيدنا أبو الدرداء رضي الله عنه قيل له : إن دكانك قد احترقت، فذكر جوابًا فيه فتور، قال : ما كان الله ليفعل، قيل : يا أبا الدرداء، إن دكانك قد احترقت بذاتها وعينها، قال : ما كان الله أن يفعل، فلما ذهبوا إلى دكانه وجدوها لم تحترق، التبس عليهم الأمر، احترقت الدكان التي إلى جانبه، فلما عادوا إليه، وقالوا : لمْ تحترق دكانك، قال : أعلم ذلك .

لماذا المؤمن سعيد ؟

ما من مؤمن صادق تسأله عن أحواله إلا ويسمعك كلمات يطمئنك عن أحواله، في غاية السرور، وغاية السعادة، وغاية الطمأنينة، وغاية الرضا عن الله عز وجل، لأنه انشغل بمعرفة الله :

((ومن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[البزار في المسند والبيهقي في الشعب عن عمر]

هذه رابعة العدوية حينما كانت تناجي ربها وتقول :

فليتك تحلو و الحياة مريـــرة وليتك ترضى والأنام غضـاب

وليت الـــذي بين و بينك عامر وبيني وبين العالـمين خـراب

إذا صح منك الوصل فالكل هيـن وكل الذي فوق التراب تـراب

***

بماذا كانت تشعر ؟

هذا الصحابي الجليل، وأظن اسمه ربيعة، النبي عليه الصلاة والسلام بعد غزوة أحد سأل أصحابه، وكان حريصاً عليهم، رحيماً بهم، قال : ما فعل ربيعة ؟ لم يجب أحد، فندب أحدهم ليذهب إلى أرض المعركة لتفقده، أفي الأحياء هو أما في الأموات ؟ فلما وصل بحث عنه فإذا هو على وشك الموت، في النزع الأخير، يلفظ أنفاسه الأخيرة، فقال هذا الصحابي الذي ندبه رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا ربيعة، لقد أرسلني رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتفقدك أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فما كان من هذا الصحابي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويودع الدنيا، وكان شاباً في مقتبل العمر ـ تصوروا ماذا يقول إنسانٌ على وشك الموت وهو في مقتبل العمر، سألت طبيباً قلت له : بربك، صف لي ميتاً جاءه الموت تحت سمعك وبصرك، قال : يصفر وجهه، ويندب حظه، ويبكي، ويصرخ بويله، وما شأن هذا الصحابي حينما قيل له : إن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرني أن أتفقدك، أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : قل له : إني في الأموات، وقل له : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، ما نسي في هذه اللحظة، وربما كانت هذه اللحظة أسعد لحظات حياته، ما نسي فضل النبي عليه الصلاة والسلام، قال له : أقرئ رسول الله مني السلام، وقل له : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه : لا عذر لكم عند الله، إذا خلص إلى نبيكم، وفيكم عين تطرف، يعني إذا بقي فيكم واحد تطرف عينه، وقد خلص إلى نبيكم، لا عذر لكم عند الله .

هذه حالة موت، هذه حالة من يفارق الدنيا، هذا هو الإسلام الذي يبث في قلب المرء سعادة لا توصف.

أيها المؤمن لا تحزن ولا تضعف :

والله الذي لا إله إلا هو مهما ضاقت الدنيا على المؤمن، قد يجوع المؤمن، وقد يلبس ثياب خشنة، وقد يسكن بيت صغيراً، لا يرى النور، وقد يكون دخله أقل بكثير من مصروفه، وقد يعيش أزمات الناس، ولكنه لا يحس بها، لأن هدفه الكبير قد تحقق، خَلَقه في الأرض ليعرفه، وليطيعه، وليتقرب إليه، وها قد فعل، حقق الهدف من خَلق السماوات والأرض :

((الدنيا جيفة طلابها كلابها))

[فيض القدير]

الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[أخرجه الترمذي]

قال سيدنا علي رضي الله عنه: " يا دنيا غرّي غيري، طلقتك بالثلاث، شأنك قليل، وأمدك قصير، لقد طلقتك طلقة لا رجعة بعدها " .

من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[أخرجه الترمذي]

و :

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[أخرجه البخاري في التاريخ، والبزار في المسند، والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب]

و :

((من طلب العلم تكفل الله له برزقه))

[أخرجه الخطيب في التاريخ عن زياد بن الحارث الصدائي]

هذا الحديث الشريف ترك في حياة سيدنا أبي حنيفة النعمان رَضِيَ اللَّه عَنْه انعطافاً خطيراً، يروي التاريخ أن هذا الإمام العظيم كان يحج بيت الله الحرام، وقد سمع هذا الحديث من أحد علماء البيت الحرام فسبَّب هذا الحديث عنده انعطافاً في حياته فطلب العلم .

اطلبوا العلم، أمضِ وقتك الثمين، والله الذي لا إله إلا هو لتأتينك الدنيا وهي راغمة، وليسِّرنَّ لك الله أمورك، وليباركن لك في وقتك، وليتأتينك رزقٌ كثير بجهد يسير، ذلك حقٌ على الله عز وجل، ادفع زكاة وقتك، اجلس ساعة على قدميك، استمع إلى كتاب الله، إلى تفسير كتاب الله، وسيعفيك الله من وقفات طويلة بلا طائل، في أماكن أخرى، اجلس على ركبتيك، وتعلم كتاب الله، وسيحفظك الله، من جلسات طويلة تحت الكلية الصناعية .

قال لي رجل : أتمنى الموت، قلت لماذا؟ قال : حياتي شقاء لا يوصف، قلت ما السبب ؟ قال : عندي كل أسبوع جلستان مطولتان لتصفية الدم، إلى أن يأتي دوري أنتظر بضع ساعات، وأجلس تحت التصفية ثماني ساعات في كل مرة، وأدفع نفقات باهظة .

فأنت اجلس على ركبتيك، واستمع إلى تفسير القرآن، والله عز وجل يحفظك، فمن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت .

لماذا الحزن؟ الأمر كله بيد الله، والله أسماؤه حسنى، الأمر كله بيد الله، وهو رحيم، وسميع، وبصير، وعليم، وحكيم وخبير، ورؤوف، هذه أسماؤه، والأمر كله بيده، من أين يأتيك الحزن ؟ لا يحزن قارئ القرآن .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 97)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

(سورة فصلت : 30 - 31)

خالق الكون، خالق الأكوان يقول لك :

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

أتخشى من إنسان، والواحد الديان وليك ؟! أتخشى من إنسان ورافع السماوات من غير عَمد وليك ؟!

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

(سورة الحج : 38)

أليست هذه الآيات تشجعك أن تكون مع الله، أن تتوب إليه، إذا رجع العبد العاصي سطع نورٍ بين السماء والأرض، ونادى منادٍ من قِبَل الحق جل وعلا : أن أيتها الخلائق هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، والله الذي لا إله إلا هو لا تحل مشكلة إلا إذا اصطلح مع الله، والصلح يتم في لمح البصر، تقول : يا رب، يقول لك : لبيك يا عبدي، إذا قال العبد : يا رب، وهو راكع قال الله : لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد : يا رب وهو ساجد، قال : لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد : يا رب وهو عاص قال الله عز وجل : لبيك، لبيك، لبيك يا عبدي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب .

إلى متى أنت باللذات مشـغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

****

فيا خجلي منه إذا ما قال لـــي أيا عبدنا أما قرأت كتابنـــا

أما تستحي منا و يكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً إلينا و تنظر ما به جاء وعدنـا

****

فرح الله بتوبة العبد :

أيها الإخوة الأكارم، الذي لا يتوب إلى الله عز وجل في الدنيا أحمق، باب التوبة مفتوح، لله أفرح بتوبة عبده، من الضال الواجد والعقيم الوالد، والظمآن الوارد .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم]

وفي رواية أخرى في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ، وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ : أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ، فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ))

[متفق عليه]

أيا غافلاً تبدي الإســاءة والـجهلا متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام و أنت لا تـراها كأن العين عميـاء أو حــولا

لأنت كمسكون حوى المسك جيبه ولكنه المحروم ما شـمه أصــلا

***

كيف قال أبو يزيد البسطامي: " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف " ؟ بماذا كان يشعر هؤلاء المؤمنون، هؤلاء الأتقياء، هؤلاء الأولياء، بماذا يشعرون ؟ وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ لو قسمت السعادة التي في قلوبهم على أهل الأرض لسعدوا، تقبل عليه وتشقى ؟

(لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)

(سورة الليل : 15)

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل : 5 - 7)

من ذاق حلاوة القرب آثر الله على كل شيء، من عرف الله زهد فيما سواه .

فلو شاهدتك عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عـــنا لغيرنا

***

هذا يلحق المال، فلان متجه نحو الشهوات المنحطة، هذا يمضي وقته في لعب النرد، هذا يمضي وقته في الحديث عن الدنيا، هذا يقيم حفلات مختلطة يمتع عينيه بالنساء، هذا يفعل المنكرات .

فلو شاهدتك عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـــــا

ولو سمعت أذنك حسن خطابنـا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنـــا

ولو ذقت من طعم المحبـة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـــا

ولو نسمت من قربنا لك نسمــة لمتّ غريباً واشتياقاً لقربنـــا

و لو لاح من أنوارنا لك لائــح تركت جميع الكائنات لأجلنـــا

فـما حبنا سهل وكل من ادعى سهولته قلنا له قد جهلتنـــــا

فأيسر ما في الحب بالصب قتلـه وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنـــا

***

هذا القلب منظر الرب، لا تدنسه بالذنوب، املأه محبة لله، املأه صفاءً، املأه خشيةً، املأه مودةً للذي خلقك من قبل، ولم تكن شيئاً .

كلمة (خيرا)وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ نفسي لا تسخو أن أغادرها، القرآن بكامله ملخص في كلمة واحدة :

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)

هذا القرآن إذا طُبق غنىً لا فقر بعده، ولا غنىً دونه .

داؤك المعصية ، ودواؤك الطاعة :

داؤك منك، ودواؤك فيك، داؤك المعصية، ودواؤك الطاعة، لا تقل : ظروف ضيقة، حياة صعبة، قدر ساخر، قلب ليّ الدهر ظهر المجن، حظي تعيس، كل ذلك كلام فارغ، ليس له معنى هذا الكلام : حظي تعيس ما هو الحظ ؟ قلب ليّ الدهر ظهر المجن، من هو الدهر ؟ الدهر إله آخر ؟ لا إله إلا الله، ظروفي صعبة، ما الظروف الصعبة ؟ جعلها الله صعبة كي تعود إليه، هو الذي جعلها صعبة .

فلذلك حينما يقول الإنسان : ظروف ضيقة، وصعوبات، وحياة خشنة، وأبواب مسدودة، وآمال معدومة، ونفسي في ضيق، والدهر غدار، والأيام تقلب لك ظهر المجن، والحظ تعيس، هذه كلها كلمات أهل الشرك، لا معنى لها، لا يوجد إلا آية وحدة .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل : 5 - 10)

إن كنت مع الله عز وجل مستقيماً على أمره فأمورك من تيسير إلى تيسير، من توفيق إلى توفيق، من درجة إلى أعلى، تأكد أيها الأخ الكريم أن لكل منا خطًّا بيانيًّا، إما أن يكون صاعداً، وإما أن يكون هابطاً، إما أن يصعد صعوداً حاداً ليهبط هبوطاً مفاجئاً، وإما أن يصعد صعوداً مستمراً، تأكد أن خط بيان المؤمن في صعود مستمر إلى الأبد، وما الموت إلا نقطة على هذا الخط، هذا الأبد .

(قَالُوا خَيْرًا)

تلاوته خير، وتجويده خير، وحفظه خير، وفهمه خير، وأهمّ ما في الخير تطبيق هذا القرآن، تطبيقه في حياتك اليومية .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)

المحسن له في الدنيا حسنة :

للمحسن في الدنيا حسنة، لا بد من حياة طيبة، لابد من أن تنتظرك حياة طيبة، وادعة، هانئة رغم صعوبة الظروف، رغم الأزمات الحادة، رغم كل شيء تقوله، لا بد من حياة طيبة يضمنها الله لك بعد أن تجتاز الامتحان، لأنك قد تستقيم طمعاً لما في الاستقامة من خير، هذه استقامة مشوبة، يجب أن تستقيم حباً بالله، يجب أن تستقيم ابتغاء مرضاة الله، لا غير، أما إذا استقمت بما علمت من أن المستقيم يعيش في بحبوحة، فإنك تستقيم، ولن تعيش في بحبوحة، لا بد من امتحان، وبعد الامتحان يأتي العطاء،

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة البقرة : 201)

يا أبت أعرفُ حسنة الآخرة، فما حسنة الدنيا؟ قال: يا بنيتي الزوجة الصالحة، قال بعض المفسرين : الزوجة الصالحة هي الحسنة في الدنيا :

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ)

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ

إنه انتقال من لا شيء إلى كل شيء :

ينتقل الوليد من الرحم إلى سعة الدنيا، هذا الانتقال يشبه انتقال المؤمن من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، الرحم كالبيضة تماماً، 7.5 سنتيمتر مكعب، تصبح 750 سنتيمترًا بعد الحمل، تسعة أشهر، وهذا الصغير، كل الحجم الذي يسعه 700 سنتمتر مكعب، وحينما ينتقل هذا الطفل إلى الدنيا، يكبر ويسافر، ويركب طائرات، وينتقل من قارة إلى قارة، اجعل نسبة بين الرحم وبين الدنيا، بين من ركب طائرة سافر إلى أمريكا، وإلى الصين ، وإلى القطبين، أو ركب مركبة فضائية فحلق في الفضاء الخارجي، كان في الرحم، كذلك المؤمن يخرج من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

[رواه الطبراني في الكبير عن المستورد]

إبرة اغمسها في مياه البحر وانظر بمَ ترجع من مياه البحر ؟

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ(30)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ)

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ

أنت الآن في الدنيا هل يكون لك ما تشاء؟ هل أي شيء تشاؤه تجده أمامك؟ ما أكثر الأشياء التي تشاؤها ولا تجدها، ولكن أهل الجنة أي شيء يشاؤونه إذا هو أمامهم، على الخاطر :

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31)الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

ساعة الموت أحلى لحظات المؤمن :

ما من ساعة أجمل في حياة الإنسان من ساعة الموت إذا كان الميت مؤمناً، وطيباً، وطاهراً .

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

(سورة الحجر : 46)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ :

((لَمَّا وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَرْبِ الْمَوْتِ مَا وَجَدَ قَالَتْ فَاطِمَةُ : وَا كَرْبَ أَبَتَاهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ، إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ مِنْ أَبِيكِ مَا لَيْسَ بِتَارِكٍ مِنْهُ أَحَدًا، الْمُوَافَاةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه الترمذي وأحمد]

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ)

(سورة يس : 26 - 27)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ :]فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [ ))

[متفق عليه]

أنت ضيف الرحمن، ضيف الله، الإله العظيم الذي أطعته طوال عمرك هو الآن ينتظرك، من اشتاق إلى لقاء الله اشتاق الله إلى لقائه،

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

كل الفلاح، وكل التوفيق، وكل الفوز، وكل النجاح، وكل التفوق، حينما يأتي الإنسان ملك الموت وهو طيب القلب .

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ)

هذه هي البطولة :

ليس من يقطع الطرق بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

إذا أعددت لهذا اليوم عدته فأنت بطل .

عن عبد الله بن المسور أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

((يا رسول الله، علمني من غرائب العلم، قال : ما فعلت في رأس العلم فتطلب الغرائب ؟ قال : وما رأس العلم ؟ قال : هل عرفت الرب ؟ قال : نعم، قال : فما صنعت في حقه ؟ قال : ما شاء الله، قال : عرفت الموت ؟ قال : نعم، قال : ما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله، قال : انطلق فأحكم هاهنا، ثم تعال أعلمك من غرائب العلم))

[أخرجه أبو نعيم في الحلية]

ماذا أعددت لهذه الساعة ؟

هذا سؤال خطير، لو أن أحداً سألك : هل تعرف الله ؟ تقول له : نعم، وما الموقف الذي وقفته من أجل هذه المعرفة؟ ماذا تركت من أجله؟ ماذا فعلت من أجله؟ من عاديت من أجله؟ من واليت من أجله؟ ما الشيء الذي تركت من أجله؟ ما الشيء الذي فعلت من أجله؟ ما الصديق الذي صادقته من أجله؟ ما المجلس الذي حضرت من أجله؟ ماذا فعلت من أجله؟ ماذا صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله، قال : هل عرفت الموت؟ قال: نعم، قال : فماذا أعددت له؟ هذا سؤال ثانٍ، لو أن أحداً سألكم : هل أنتم موقنون أننا سوف نموت؟ تقول: نعم، وماذا فعلت من أجل هذه الساعة؟ ماذا أعددت لهذه الساعة؟ هل تفكر أن إنساناً ينوي السفر ولا يعد حقيبة! ولا يعد مبلغاً من المال! ولا يعد معلومات! أين سأذهب؟ أين سأنام؟ من يستقبلني؟ تأخذ أرقام هواتف، تتصل بالمطار، بأصدقائك، بأقربائك، من يذهب بلا خطة؟ بلا زاد؟ ماذا أعددت للموت؟ هل أعددت استقامة؟ هل أعددت مالاً حلالاً؟ هل أعددت نفساً طيبة؟ هل أعددت عبادة خالصة؟ هل أعددت علماً نافعاً؟ هل تركت ولداً صالحاً؟ هل عملت عمل خيرٍ؟ هل تركت أثراً طيباً في الأرض؟ ماذا فعلت؟ لو أن أحداً أراد أن يؤبّن أحداً ميتاً، ماذا يقول؟ لو أن هذا الميت أمضى حياته في الدنيا وشهواتها، ماذا يقال في هذه الساعة؟ ماذا فعلت، لم يفعل شيئاً، فلذلك :

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

يأتيك ملك الموت في أحسن حال، يأتيك ملك الموت على صورة أحب الناس إليك، هي ساعة الفوز العظيم، أن يأتي ملك الموت، وأنا محب لله، وأنا مطيع له .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ

هذا ما ينتظره المعرضون عن الله : الموت أو الساعة :

الآية الثانية للذين أعرضوا عن الله، للذين أحبوا الدنيا، للذين كرهوا لقاء الله، للذين انصبوا عليها، تهافتوا على مالها على نسائها، على بيوتها، على مزارعها، على مركباتها، على مناصبها، على حطامها، على مباهجها، هؤلاء الذي انغمسوا فيها إلى قمة رأسهم، ماذا ينتظرهم في الدنيا، استمعوا :

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ)

أي ملائكة الموت،

(أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ)

أي قيام الساعة .

هذه الآية وضحها النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[خرجه الترمذي]

ماذا ينتظر أحدنا من الدنيا؟ هل ينتظر المعرض ـ المؤمن ينتظر كل خير ـ المعرض هل ينتظر من الله إلا هذه الأشياء السبعة .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

أين أبو جهل ؟ أين أبو لهب ؟ إذا كان النار .

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر : 46)

1500 سنة، ضرب 365، ضرب 2، والخير سيزداد .

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

هذه هي المصيبة الكبرى، حينما يخسر الإنسان نفسه .

(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

هذه سنة المعرضين منذ الأزل :

عاد، وثمود، والمؤتفكات، وأصحاب الأيكة، وقوم صالح، هؤلاء عصوا، وفجروا، وبغوا، وطغوا، أين الرومان؟ أين الفراعنة؟ أين التدميريون؟ كل هؤلاء الذين فسقوا وعصوا، وجهلوا، وفعلوا المنكرات، انتهوا .

(وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(33)فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

الله لا يظلم أحدا ، ولكن كل نفس مرهونة بعملها :

هذا الذي كانوا يستهزؤون به كفرهم حاق بهم، أي قيدهم، قال تعالى :

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ)

(سورة المدثر : 38 - 39)

هؤلاء مقيّدون، كفرهم قيّدهم .

فيا أيها الإخوة الأكارم، هذا كتاب الله بين أيديكم، وهذه السورة، سورة النحل تحت سمعكم وبصركم، وهذه المعاني واضحة لكم، ما بقي علينا إلا التوبة، والاستقامة، والعمل الصالح، ومعرفة الله عز وجل، وخدمة الخلق، لعل الله سبحانه وتعالى يرحمنا في الدنيا والآخرة .

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : 61)

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، كل يوم اعمل حساباً، ماذا فعلت من عمل صالح ؟ هذا اليوم كيف مضى ؟

((لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قرباً، لا بورك لي في طلوع يوم لم أزدد من الله علماً))

[ذكر نحو هذا الحديث ابن عدي في الكامل عن عائشة]

عندك شيئان، العلم والقرب، العلم علم، والقرب عمل صالح، لا بد من العلم، ولا بد من العمل الصالح، والعمل الصالح يرفعك .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (08-21): تفسير الآيات 35 – 36 ، عن القضاء والقدر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-03-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(35)وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

هذه الآية اصل من أصول العقيدة :

أيها الإخوة المؤمنون، هذه الآية تمس العقيدة، بل إنها أصل من أصول العقيدة، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

الحديث عن الكفار، هل ينظرون فأصابهم سيئات ما عملوا، لو أنه قال : وقالوا لو شاء الله ما عبدنا، لماذا في هذه الآية سماهم ربنا مشركين ؟

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

لا يقول هذا الكلام إلا مشرك :

إذاً : هذا القول لا يقوله إلا مشرك، بل هي عقيدة المشركين .

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

فمن اعتقد بهذا القول فهو مشرك، فمن قال هذا القول، فهو مشرك، فمن أضمر هذه العقيدة فهو مشرك،

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)

هو قدّر علينا أن نعبد غيره، هو قدّر علينا أن نعصيه، هو قدّر علينا أن نخرج عن أمره، هو قدّر علينا الشقاء قبل أن نولد، هذا تقديره، ونحن ما فعلنا إلا أن نفذنا قضاءه "

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)

وقفة متأنية عند قوله : لَوْ شَاءَ اللهُ :

أما كلمة:(لو شاء الله)يجب أن نقف عندها وقفة، لأن كلمة المشيئة خطيرة جداً، إذا ظن الإنسان أن الله عز وجل شاء للكافر أن يكون كافراً فلمَ أمرَه أن يؤمن ؟ ولمَ أمَره أن يطيعه .

من الآيات الموضحة لمشيئة الله قوله تعالى :

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا)

(سورة المزمل : 19)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة التكوير : 29)

المعنى الأول للمشيئة :

في هذه الآية مشيئة العبد ومشيئة الرب، مشيئة العبد مشيئة اختيار، الإنسان مخير في دائرة كبيرة، في حياته هو مخير، ربما قال قائل : إنه ليس مخيراً في أشياء، وهذا صحيح، لماذا ولد من هذا الأب ومن هذه الأم ؟ وفي هذا الزمان وفي هذه المدينة؟ المكان والزمان والأب والأم هذا لا علاقة له به، لا دخل لاختياره فيه، لكن علماء التوحيد يؤكدون أن القدر والقضاء الذي يقع عليك، والذي لا دخل لإرادتك فيه هو لصالحك، الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، كل شيءٍ يقع على العبد من دون أن تكون له جريرة به؛ أي غير مختار بتحقيقه هو لمصلحته، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران : 26)

العطاء خير، والمنع خير، والعز خير، والذل خير .

(إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران : 26)

من أبسط معاني القضاء والقدر، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نخوض في القضاء والقدر، وفي بعض الأحاديث الشريفة أن هذا الموضوع تُرك لشرار أمتي، نهانا عن أن نخوض فيه، هو سر من أسرار الله سبحانه وتعالى، سيأتي يومٌ هو يوم القيامة يُكشَف للإنسان سر القضاء والقدر، ولو كُشِف الغطاء لاخترتم الواقع .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس : 10)

فالقضاء هو الحكم، والقدر هو التقدير، فالطبيب إذا حكم على هذا المريض أن في معدته التهابا، يمنع عنه الطعام المخرش، فالقضاء حكم، والقدر تقدير، القضاء حكم، والقدر إجراء، معالجة، وتشجيع مبنيٌ على هذا القضاء، فربنا سبحانه وتعالى ناظر إلينا، فمن وجد فيه خيراً شجّعه، ومن وجد في نفسه سوءًا حذّره، ونبهه، وعالجه، وقدّر عليه بعض المصائب، ليرده إليه .

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : 21)

آية واضحة وضوح الشمس : وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى)

كل عذاب الدنيا، العذاب المادي، الأمراض، الفقر، القهر، كل أنواع العذاب في الدنيا، عذاب سماه الله عز وجل :

(مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ)

وهو عذاب الخلود في النار .

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

فإذا رجعت إلى الله عز وجل طواعية، بمبادرة منك، فلماذا العذاب ؟ قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء : 147)

فالقضاء هو الحكم، والقدر هو التقدير، نظر الطبيب إلى حالة المريض، فرأى في المعدة التهاب حاد، هذا هو القضاء، أما القدر فهو أمر الطبيب مَن في المستشفى أن يمنعوا عنه كل طعامٍ مُخرِّش، أعطى تعليمات للممرضة أن تطعمه الطعام الفلاني، فالقضاء حُكم، والقدر معالجة، الذي يقول لو شاء الله ما عبدنا، لله مشيئة، وللعبد مشيئة ، مشيئة العبد مشيئة اختيار، ومشيئة الحق جل وعلا مشيئة فحص واختبار .

بأبسط مثل، لو أن طالباً نال علامات دنيا، وقدّم طلباً إلى رئاسة الجامعة كي يدخل كلية الطب، هذا الطالب اختار هذه الكلية، شاء أن يكون طبيباً، ولكن إدارة الجامعة عندها أُسس، لا بد لكلية الطب من مجموع عالٍ، لأن الذي يطمح لهذه المهنة يجب أن يكون ذا قدرات عالية في الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، وذا مجموع مرتفع فإرادة الجامعة لها مشيئة، لكنها ليست مشيئة اعتباطية، ليست مشيئة

مزاجية، إنما هي مشيئة العلم، ومشيئة الحكمة، فهذا الطالب المقصر لا تشاء له إدارة الجامعة أن يدخل كلية الطب .

مشيئة الإنسان مشيئة حرية واختيار، ومشيئة الحق جل وعلا مشيئة فحص واختبار .

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا)

(سورة المزمل : 19)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة التكوير : 29)

الله عز وجل ينظر، هذا الذي يطلب الجنة هل استقام على أمر الله ؟ إن استقام على أمر الله يشاء له الجنة، هذا الذي طلب الجنة هل حرر دخله من الحرام ؟ إن فعل ذلك شاء له الجنة، هذا المعنى الأول، فمشيئة العبد مشيئة مختارة، ومشيئة الرب مشيئة فاحصة، من أجل أن تعطي كل ذي حق حقه، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني للمشيئة :

الله سبحانه وتعالى قد يشاء شيئاً، ولا يرضاه، فالأب مثلاً حينما تلتهب الزائدة عند ابنه يشاء الأب أن يأخذه إلى المستشفى، وأن يأتي الطبيب الجراح، ويُعمِل مبضعه في جلد ابنه، ويفتح البطن، وينشر الدم، ويمزق الأنسجة، ليصل إلى الزائدة كي يستأصلها، هل يريد الأب أن يرى ابنه في غرفة العمليات، وقد فُتِح بطنه، وخرج الدم غزيراً من شرايينه، ومزقت عضلاته ؟ لا والله، لا يشاء ذلك، ولكن حكمته تقتضي ذلك، الله سبحانه وتعالى قد يشاء شيئاً، ولا يرضاه، ولا يرضى لعباده الكفر، لكن حكمته اقتضت هذه المشيئة، شاء ولم يرض .

أول فكرة: مشيئة العبد مشيئة حرية واختيار، ولكن مشيئة الرب مشيئة فحص واختبار .

الفكرة الثانية : إن الله سبحانه وتعالى قد تتعلق حكمته بأن يسوق لهذا الإنسان مصيبة، فيشاء له المصيبة، ولكنه لا يرضاها له، لأنه خلقه ليسعده، خلقه ليهتدي إليه،

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : 21)

مِن بُعْدِ الناس عن ربهم، وانحرافهم عن طريق هدايتهم، وبُعدِهم عن طريق الجنة، وانغماسهم في المحرمات والشهوات يسوق الله لهم من الشدائد، هذه الشدائد تعلقت بها حكمته، لكنه لم يَرْضَها لعباده، لكن انحرافهم، وغفلتهم، وتقصيرهم، ومعاصيهم اقتضت هذه المعالجات كلها، وفي الأثر: " أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن

لم يتوبوا فأنا طبيبهم "، هذه مشيئة الرب، شاء ولم يرد، شاء ولم يرض، أما إذا كان هناك إكرام فشاء ورضي، إذا عرفته، واستقمت على أمره، وأقبلت عليه، وسعدت بقربه شاء لك الإكرام، ورضيه له، إذا ابتعدت عنه، وانحرفت أعمالك، وانحطت ميولك، وسفلت أهدافك، وطغيت، وبغيت، شاء الله عز وجل لهذا العبد المنحرف المصائب والتضييق، والأمراض، والقهر كي يرده إليه، شاء ولم يرض، وشاء ورضي، هذا هو المعنى الثاني .

المعنى الثالث للمشيئة :

أن مشيئة الله مشيئة تنفيذية، لكن مشيئة العبد مشيئة اختياريه، فمجرد أن يختار العبد طريق الحق، يشاء الله له ذلك ، وكما قيل : لله رجال إذا أرادوا أراد، والمثل واضح جداً .

أب عالم كل آماله في الحياة أن يكون ابنه مثله، فبمجرد أن يتفوه ابنه بكلمة واحدة تعبر عن رغبته في طلب العلم، فالأب بكل إمكاناته، وبكل طاقاته، وبكل ما يملك، يضع كل هذه الإمكانات في خدمة الابن ليحقق هذا الطلب، بمجرد أن تشاء الهدى، يشاء الله لك، لأنه خلقك لتعرفه .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات : 56)

إذاً المشيئة الإلهية مشيئة تنفيذية، بينما مشيئة العبد مشيئة طلبية، اطلب تعط، لله رجال إذا أرادوا أراد، هذا هو المعنى الثالث .

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ

اللهُ بيَّن طريق الحق فمن ضلَّ فقد حقت عليه الضلالة :

شيء آخر، الله سبحانه وتعالى رسم للهدى طريقاً، فأيّ عبدٍ سار في هذا الطريق شاء له الهدى، وأيّ عبد حاد عن هذا الطريق حقت عليه الضلالة .

المعنى دقيق جداً، الطريق أن تكون طبيباً معروف، أي طالب سلك هذا الطريق من الشهادة الثانوية إلى كلية الطب، تابع السنوات كلها إلى أن تخرج، يمنح شهادة الطب، وترخيصاً بمزاولة مهنة الطب، لماذا شاءت الجهات المعنية لهذا المواطن أن يكون طبيباً ؟ لأنه سلك الطريق التي رسمتها الجهات المعنية لمهنة الطب، فإذا خرج الإنسان عن هذا الطريق، ترك الجامعة، وبدأ يطالع بعض المجلات، فهل تشاء الجهات المعنية لهذا الطالب أن يكون طبيباً ؟ هل يمنح الشهادة ؟ لا والله، هل يعطى

ترخيصًا؟ لا و الله .

إذاً : هناك طريق للهدى، لو سلكه شاء الله له الهدى، من حاد عنه حقت عليه الضلالة، أيْ وجبت عليه الضلالة، فمن قرأ الكتاب عرف ما فيه، ومن لم يقرأه لا بد من أن يكون جاهلاً، نقول: حقت عليه الجهالة، ليس الموضوع موضوع قهر، لا والله، وليس الموضوع موضوع جبر، لا، الموضوع أبسط من ذلك، من قرأ الكتاب عرف ما فيه، ومن لم يقرأه حق عليه الجهل، فكان الجهل ملازماً له، كان الجهل نتيجة حتمية لفعله، بعض الآيات التي تؤكد هذه الحقيقة،

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

(سورة النحل : 36)

الله عز وجل، من الذي يهديه، قال تعالى :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 258)

الذين حقت عليهم الضلالة لماذا حقت عليهم الضلالة ؟ لأنهم ظالمون، ولأنهم فاسقون .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 26)

والذين حقت عليهم الضلالة لمَ حقت عليهم الضلالة؟ لأنهم عصاة، والذين هداهم الله، لماذا هداهم الله؟ لأنهم محسنون .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت : 69)

والذين هداهم الله، لماذا هداهم الله؟ لأنهم جاهدوا فينا .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

فكأن الهدى والضلال إذا عزي لذي الجلال كان المعنى أن الهدى جزائيٌّ، جزاء سلوك طريق الهدى والضلال، أي جزاء سلوك طريق الضلال، فمن سلك طريق الهدى هداه الله، ومن سلك طريق الضلال، استحق عليه الضلال، أو حق عليه الضلال .

إذاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ)

وقفت عند كلمة (لو شاء)، الله عز وجل خلقنا ليسعدنا .

قلت لكم سابقاً: إن قوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

علة الخلق العبادة لله وحده :

العبادة طاعة طوعيه، تسبقها معرفة يقينه، تفضي إلى سعادة أبدية، هذا تعريف العبادة، يقول الله عز وجل :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

أيْ : علّة الخَلق أن يعبدوني، فإذا عبدوني سعدوا بقربي، وعلة الخَلق أن يسعدهم الله إلى الأبد، هذا هو هدف الخَلق، وهذه مشيئته سبحانه، فمن أجل تحقيق هذا الهدف يشاء الله للعبد المصيبة لترده إليه،

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

أمّا أن يشاء الله للعبد الكفر، ويرضاه له من غير ذنبٍ، أو من دون جريرة، فهذه عقيدة أهل الشرك، وهذه عقيدة فرقة ضالة تسمى الجبرية، أي إن الإنسان مجبورٌ على أعماله، وسوف يحاسب عليه .

استمعوا أيها الإخوة، سيدنا الحسن بن علي رَضِي اللّه عَنْهما يقول: " من حمل ذنبه على ربه فقد فجر، إن الله تعالى لا يطاع استكراهاً، ولا يعصى بغلبة، فإن عمل الناس بالطاعة لم يَحُل بينهم وبين ما عملوا، وإن عملوا بالمعصية فليس هو الذي أجبرهم، ولو أجبرهم على الطاعة لسقط الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لسقط العقاب، ولو أهملهم لكان عجزاً في القدرة، فإن عملوا بالطاعة فله المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليه "، هذا كلام أهل التوحيد، هذا كلام نابع من توجيه النبي عليه الصلاة والسلام .

إذاً :

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ)

لا تعلّل ضلالك بضلال آبائك :

فهذا الذي يقول لك: ترتيبه، أقام العباد فيما أراد، كلمة حق يراد بها الباطل، أحياناً يقول : إن الله قدر عليه شرب الخمر، والزاني قدّر الله عليه ذلك، وما هو أقبح من القبح ؟ سؤال، ما هو أقبح من القبح ؟ أن تريد القبح، قد يقع منك فعل قبيح، والفعل قبيح، لكن أقبح من هذا الفعل القبيح أن تريده، وأن تخطط له، أو أن تجبر الناس عليه، فهل يليق بحضرة الله سبحانه وتعالى، وهل يليق بأسمائه الحسنى أن يريد لعباده الفحشاء، وأن يحملهم على الزنى، وأن يحملهم على شرب الخمر ؟

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف : 28)

لا يقول : إن الله أجبر العصاة على المعصية إلاّ مشرك، بنص هذه الآية :

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا)

وأجدادنا، هذه الأمم الضالة، الله شاء لها ذلك، ولا راد لقضائه، كلام صحيح، لكن الله عز وجل لم يشأ لعباده الكفر .

في سورة الأنعام آية مشابهة، قال تعالى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام : 148)

والخرص أشد أنواع الكذب، وأقبح أنواع الكذب .

الإنسان خلقه الله وفيه استعداد للهدى واستعداد للضلال :

شيءٌ آخر، المعنى الإيجابي أن الله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق الإنسان وفيه استعداد للهدى، واستعداد للضلال، كهذه السكين يمكن أن تقطع بها الخضار والفواكه، ويمكن أن تجرح بها إصبعاً، ففي السكين استعداد للخير، واستعداد للشر، فالله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق إنساناً فيه استعداد للهدى واستعداد للضلال، منحه بادئ ذي بدء حرية الاختيار،

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : 3)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة فصلت : 17)

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس : 7 - 8)

أوجه تفسير لهذه الآية : ألهمها أن هذا الطريق التي هي فيه طريق الفجور، جاء الملك، فألهمها أن هذا العمل لا يرضاه الله عز وجل، هذا العمل يشقي، ألهم النفس الفاجرة أنها فاجرة، كأن تجد ابناً لك مقصراً في الدراسة، يقول له الأب : كل يوم يا بني أنت مقصر، وهذا التقصير سوف يجر عليك متاعب كبرى في حياتك المستقبلية، هذا معنى ألهمها، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وخلق فيه استعداداً للهدى والضلال، وأعطاه حرية الاختيار .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب : 72)

الإنسان حمل الأمانة، أيْ حمل حرية الاختيار، لا الملك مخير، ولا الحيوان مخير، لكن الإنس والجن وحدهما مخيَّران، ولكن هذا الخيار كيف يستخدمه ؟ مِن كرمِه جل وعلا أنه زودنا بعقل نعرف به الخير من الشر، والحق من الباطل، والحسن من القبيح، والنافع من الضار، ولكن هذا العقل، بالإضافة إلى أنه جهاز يعد أثمن ما في الكون بثّ الله سبحانه وتعالى في الأرض آياتٍ دالةً على عظمته، ودالةً على أسمائه الحسنى، فإذا فكر الإنسان بعقله في آيات الله التي بثها في السماوات والأرض عرف الله عز وجل، فإذا عرفه استقام على أمره، وعبده، وسعد بقربه، وخشية أن يضل هذا العقل تكرَّم الله عز وجل مرة رابعة فأنزل الكتب من السماء .

يعطي المدرس مسألة للطلاب، ويقول لهم: هذا الرقم الفلاني هو الجواب، هذا الرقم، حلوا المسألة، فإذا انتهيتم من حلها إلى هذا الرقم فحلُّكم صحيح، العقل جال في هذه المسألة، فإذا وصل إلى هذا الرقم فحلُّه صحيح .

فالله سبحانه وتعالى خَلق في الإنسان استعدادًا للهدى والضلال، وأعطاه حرية الاختيار، ومنحه العقل الذي يميز به الحق من الباطل، والخير من الشر، والصالح من الطالح، والقبح من الحسن، وفضلاً عن ذلك أنزل إليه الكتب السماوية ليكون التشريع مقياساً للعقل، وفضلاً عن ذلك أرسل رسلاً هداة مبشرين، صدقوا الحق، جعلهم نماذج تغري كل إنسان بالهدى، فأنت مخير، ولك عقل، ويوجد كون، وكتاب، وإنسان عظيم طبق هذا الكتاب، فكان إنساناً كاملاً، جعله الله قدوة لك، جعل لك قدوة، وجعل لك منهجاً، وجعل لك عقل، وجعل لك كوناً، وجعلك مختاراً، وبعد هذا وذاك تقول : لم يشأ الله لي الهدى ؟! ما هذا الكلام ؟! هذا كلام لا يقوله إلا مشرك .

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ

ليس على النبي هداية الناس :

يا محمد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة القصص : 56)

الإنسان مخير، لذلك أبو جهل، وأبو لهب، عم النبي عليه الصلاة والسلام :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2)سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(3)وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(4)فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

(سورة المسد : 1 - 5)

أما سلمان :

((سلمان منا آل البيت))

[الطبراني في المعجم الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

وصهيب :

((نعم العبد صهيب))

[فتح الباري]

و:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى))

[أحمد في المسند عن أبي نضرة عن رجل من الصحابة]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((اسْمَعُوا، وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

[البخاري]

((الناس سواسية كالمشط))

[القضاعي في مسند الشهاب عن أنس]

و :

((الخَلق كلّهم عِيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[الطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود، وأبو يعلى في مسنده عن أنس]

إنه مقياس واحد . لا تقل : أصلّي وفصلـــي إنما أصل الفتى ما قد حصل

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ ...))

[الترمذي]

حينما كان النبي عليه الصلاة والسلام على مشارف مكة قبيل فتحها، ورأى أبو سفيان الذي وقف مناوئاً لهذه الدعوة عشرين سنة أو تزيد حارب النبي عليه الصلاة والسلام في بدر، وحاربه في أحد، وحاربه في الخندق، وحاربه في مواقف أخرى، حينما رأى المسلمين يزحفون إلى مكة المكرمة فاتحين، وحينما رأى أن الأصنام لم تنفعهم من الله شيئاً،

وحينما سمع أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ))

[أبو داود عن ابن عباس]

تفاعلت في نفس أبي سفيان هذا الكمال النبوي، فقال لسيدنا محمد عليه أتم الصلاة والسلام، يا محمد ما أعقلك، وما أحكمك، وما أرحمك وما أوصلك، النبي رحمة مهداة، قد يحملك على الهدى، أن ترى مؤمناً مستقيماً، عفيفاً، ورعاً، متواضعاً، حليماً، كريماً، سخياً، رؤوفاً، رحيماً، هذا من متممات الهدى، وشاء الله أن يخلقنا ليرحمنا، هذه نعمة الإيجاد .

في بعض الخطب أقول : الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، يعني الحمد لله على نعمة الإيجاد، ثم الحمد لله رب العالمين، هذه نعمة الإمداد، ثم الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، هذه نعمة الإرشاد، أنتم في نعم ثلاث، نعمة الإيجاد :

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان : 1)

ماذا أنت قبل مئة عام؟ هل لك اسم في السجلات ؟ هل لك هوية في النفوس؟ من أنت؟ لا شيء، أوجدك الله من العدم، وأمدك بهذا الطعام والشراب، والهواء، والماء، جعل لك أماً رؤوماً، وأباً رحيماً، أمدك بكل شيء، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ثم دعاك إليه، ثم شرفك بمعرفته، فيا رب كفاني عزاً أن أكون لك عبداً، وكفاني فخراً أن تكون لي رباً .

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

لماذا يحتجّ الإنسان بالقدر ؟

الآن لدينا موضوع صغير جداً، لماذا يحتجُّ الإنسان بالقدر، الناس إذا أمرتهم بالطاعة، أو نهيتهم عن معصية يحتجّون بالقدر، فلو أنهم فعلوا شيئاً وَفق مصالحهم يقول لك أحدهم : أنا فعلت كذا وكذا، أنا بحسب خبرتي وجدت من المناسب أن أفعل كذا وكذا، لماذا إذا فعلت شيئاً لمصلحتك لا تعزُوه إلى الله عز وجل؟ وتقول: أنا فعلت كذا وكذا، وإذا اجتنبت خطراً تقول: أنا أعلم أن هذا خطر فابتعدت عنه، فإذا كنت غارقاً في شهوة ، ودعيت إلى طاعة الله أتقول: إن الله قدر عليك ذلك؟ هذا من التناقضات البشعة، إذا فعلت شيئاً لمصلحتك تقول: أنا فعلت كذا وكذا، وإذا ابتعدت عن شيء لمصلحتك تقول: أنا ابتعدت عن كذا وكذا، فإذا دعيت إلى طاعة الله، إذا دعيت إلى عمل صالح، إذا دعيت لمجلس علم، إذا دعيت إلى جنة عرضها السماوات والأرض تقول: الله عز وجل لم يشأ لي ذلك؟ لم يهدني بعد؟ من قال لك ذلك؟ سيدنا عمر سيق له رجل شارب للخمر، فقال هذا الرجل قبيل أن ينزل به الحد: " واللهِ يا أمير

المؤمنين إن الله قدّر عليّ ذلك، فقال رَضِي اللَّه عَنْه: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال له: ويحك يا هذا، إن قضاء الله، لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار"، الله عز وجل جل وعلا عن أن يجبرك على معصية .

بعض المشككين في عهد أبي حنيفة النعمان رَضِي اللَّه عَنْه سألوه أسئلة ثلاثة، وكان فطناً ذكياً، قيل له: يا إمام، كيف يقدّر الله علينا المعصية، ويحاسبنا عليها؟ وكيف نعبده، ونحن لا نراه؟ وكيف يعذب الجن بالنار، وهم من النار؟ أسئلة ثلاثة، رأوها حجة قاطعة، هكذا تروي بعض الكتب، ولست في صدد التثبت من هذه القصة، لكن لهذه القصة مغزى، قالوا: فأخذ الإمام أبو حنيفة حجراً، أو كدرة من طين يابس، ورمى بها أحدهم، فشج جبينه، هذا الرجل ذهب إلى القاضي، ورفع أمامه قضية، طبعاً قال أبو حنيفة للقاضي: يزعم أننا نعبد الله، ولا نراه، فالألم الذي تألمت منه، وحملك إلى أن تذهب إلى القاضي، هل رأيته؟ قال: لا، ثم إنك إن كنت تعلم أن الله قدر عليك ذلك، لماذا اشتكيت عليّ، ألست من طين؟ وهذه من طين، فكيف تألمت بها؟ أعطاه ثلاث حجج، إنك من طين، وهذه من طين، فكيف تألمت؟ والألم كيف حملك على أن تشتكي عليّ، وأنت لا ترى الألم؟ وإن كنت مقتنعاً أن الله قدر عليك ذلك لمَ شكوتني ؟

بصرف النظر عن صحة هذه القصة فإنّ لها مغزى، الذي يحتج بالقدر هو العاصي، هو الذي يريد الدنيا، ويرفض الآخرة، يقول لك: لم يشأ الله لي أن أصلي، لم يهدني الله بعد، الاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة، باتفاق كل ذي عقل ودين في العالمين، والمحتجّ بالقدر لا يقبل هذه الحجة من غيره، هذا الذي يقول لك: الله الذي قدر علي هذه المعصية، اضربه، يثور عليك، لماذا تثور علي؟ الله قدر عليك، هذا لا يرضى بهذه الحجة، الذي يحتج بالقدر لا يرضى بهذه الحجة، إذاً هو كاذب بحجته .

قال بعض العلماء: لو كان القدر حجة لم يحصل فرق بين العالم والجاهل، والعادل والظالم، والصادق والكاذب، والبر والفاجر، هذا قدر الله عليه أن يكون باراً، وهذا قدر عليه أن يكون فاجراً، لا البر لهذا ميزة، ولا الفجر لهذا سيئة .

إذا كان عندك طالبان، فأعطيت للطالب الأول السؤال والجواب، فأخذ علامة تامة، وأعطيت للطالب الثاني سؤالا فوق مستوى المنهاج، من غير كتاب، من غير صف، فما عرف الجواب، فأعطيت الأول علامة تامة، وأعطيت الثاني علامة الصفر، فلا هذه العلامة التامة مفخرة لهذا، ولا هذا الصفر تهمة لهذا، فالمدرس أعطى الطالب سؤالاً مع الجواب، فأخذ عليه علامة تامة، وأعطى الآخر سؤالا فوق مستوى الطالب فأخذ صفراً .

لو كان القدر حجة لم يكن هناك فرق إطلاقاً بين العالم والجاهل، هذا علّمه، وهذا لم يعلّمه، ولا بين العادل والظالم، هذا أجبره أن يكون عادلاً فكان عادلاً، وهذا أجبره أن يكون ظالماً فكان ظالماً، ولا بين

الصادق والكاذب، ولا بين البر والفاجر، فإذا آمنت بأن الله عز وجل يفعل هذا فقد ألغيت الدين كله، وألغيت الرسل كلهم، وألغيت الكتب كلها .

أحدهم سأل الإمام علي كرم الله وجهه: " أكان مَسيرُنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ وكأنه يعني أن القضاء لازم، قال له : ويحك يا هذا، لو كان قضاءً لازماً وقدراً حاتماً، إذاً لبطل الوعد والوعيد "، لماذا الوعد؟ لماذا يَعد الله المؤمنين بالجنة؟ علام يعدهم؟ هو قدّر عليهم أن يكونوا مؤمنين .

لبطل الوعد والوعيد، لانتهى الثواب والعقاب .

" إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مكروراً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يُنزل الكتب عبثاً، ولم يبعث الأنبياء لعباً " .

لو أنك آمنت بعقيدة أهل الشرك هؤلاء :

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)

لكان إنزال الكتب لعباً، وإرسال الأنبياء لهواً، ولبطل الثواب والعقاب، ولانتفى الوعد والوعيد، ولتعطل كل شيء .

المشركون يقاتلون من يأخذ لهم حقاً، وعندئذ لا يحتجون بالقدر، والمشركون إذا أخذ حق لهم يقاتلون، ولا يحتجون بالقدر، إذاً هم حين يحتجون بالقدر هم كاذبون، الاحتجاج بالقدر في ترك حق ربهم، لا في ترك حق أنفسهم، لو كان لك حق عند فلان لاشتكيت عليه، ولطالبته به، ولا تقول : الله قدر علي ذلك، إذا تركوا حق ربهم احتجوا بالقدر، فإذا ترك حقهم طالبوا به، ولم يحتجوا بالقدر .

ملخص القول : إنه لا يحتج بالقدر إلا الجهلة، ولو كان عندهم علم أو هدى لم يحتجوا بالقدر، والاحتجاج بالقدر تعطيل لرسالات الأنبياء، وللكتب السماوية كلها .

الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل كلها على الآيات المحكمات :

آخر فكرة في الموضوع، أن علماء الأصول، علماء أصول العقائد قالوا : إن الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل كلها على الآيات المحكمة، لو أن في القرآن الكريم آية واحدة محكمة تحمل عليها كل الآيات المتشابهة، فإذا كان هناك آية يشتبه أن فيها جبرًا، وهناك آية محكمة تنفي الجبر، فالآية المتشابهة تحمل على الآية المحكمة .

أوضح لكم ذلك بمثل : إذا قلت : إن القمح مادة خطرة في حياة الإنسان، أو خطيرة في حياة الإنسان، فكلمة (خطيرة)تعني أنها مادة مؤذية، وتعني أنها مادة أساسية، فكلمة خطيرة كلمة متشابهة، تشبه أن تكون خيرة، وتشبه أن تكون ضارة، قال أحدهم : القمح مادة خطيرة في حياة الإنسان، يا ترى مادة

مؤذية ؟ سامة ؟ مادة متفجرة ؟ أو أنها مادة مهمة جداً في حياته، غذاء أساسي، بعد سطرين جاء قول آخر للقائل نفسه : القمح مادة أساسية في حياة الإنسان، ولا يستطيع أن يستغني عنها، إذاً كلمة خطيرة نحملها على القول الثاني .

فالآيات المتشابهة، مهما كثرت ـ هكذا قال علماء الأصول ـ تحمل على الآية المحكمة، فهذه الآية محكمة في نفي الجبر، ولو أن في القرآن مئة آية يُشتم منها معنى الجبر فإنّ كل هذه الآيات بحسب علم الأصول يجب أن تحمل على هذه الآية، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية ينفي الجبر كلياً، ويصف المشركين بأنهم يعتقدون عقيدة الجبر .

الإنسان مخير، والله سبحانه وتعالى يعلم ما سيكون بلا كيف، والإنسان مخير، وعلم الله سبحانه وتعالى لا يؤثر في اختيار الإنسان، إذا كنت في مكان، ورأيت إنساناً في مفترق طرق، وعلمت أين هو؟ وإلى أين سيتجه ؟ إن علمك باتجاهه لا يؤثر في اتجاهه .

لا تخوضوا في القضاء والقدر ، بل سلّموا تسلَموا :

علم الله لا يؤثر في اختيار الإنسان، الإنسان مخير، والله عز وجل يعلم ما سيكون بلا كيف، وأما الغوص في هذا الموضوع فقد نهينا عنه في أحاديث صحيحة متواترة في المعنى، والذي أعتقده أن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يكشف للخلائق سر القضاء والقدر :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، لا يتمنى الفقير أن يكون غنياً حينما يكشف له، أما الآن فيتمنى، أما حينما يكشف الغطاء فلا يتمنى العليل أن يكون صحيحاً، ولا الضعيف أن يكون قوياً، ولا القوي أن يكون ضعيفاً .

لخص الإمام الغزالي رَضِي اللَّه عَنْه هذا كله في كلمات فقال : " ليس في الإمكان أبدع مما كان "، أي ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وأيُّ عقيدة غير هذه العقيدة فإما أن تخرج إلى القدرية، أو إلى الجبرية، أو إلى المعتزلة، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، المعتزلة يقولون: الإنسان خالقٌ لأفعاله، حاش لله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، قولاً واحداً هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، والتي يجب أن نعتقد بها .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (09-21): تفسير الآيات 35 – 36 ، عن القضاء والقدر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-03-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

الفائدة من تنكير (أمة)و(رسولا):

بعثنا بمعنى؛ أرسلنا في كل أمة، والأمة هنا نكرة، والتنكير تنكير الشمول، أي ما من أمة على الإطلاق إلا وبعثنا فيها رسولا .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا)

رسولاً أيضاً نكرة، إما أن تكون هذه الكلمة بالمعنى العام، فكل من دعا إلى الله تنطبق عليه هذه الكلمة، أو بالمعنى الاصطلاحي الفقهي الدقيق لكلمة رسول .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا)

إرسال الرسل من رحمة الله بعباده :

فالله سبحانه وتعالى برحمته الواسعة لم يترك خَلقه من دون رسل، لا بد في كل أمة من رسول يدعو إلى الله عز وجل، وبعضهم فَهِمَ قوله تعالى :

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة : 30)

أي : لابد من أن يكون على وجه الأرض رجلٌ يدل الناس على الله سبحانه وتعالى .

ملخَّص دعوة الأنبياء : عبادة الله وحده :

على كلٍ: دعوة الأنبياء جميعاً، ودعوة الرسل جميعاً ملخصة في هذه الكلمة: أن اعبدوا الله .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات : 56)

العبادة هي الهدف الأكبر لإرسال الرسل .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

ما هو الطاغوت ؟

بعض المفسرين قال: الطاغوت هو الشيطان .

وبعضهم قال : كل من طغى عن طريق الحق ؛ أي خرج عنه، كل من طغى وبغى، وتجاوز الحد الذي رسمه الله عز وجل فهو طاغوت، وَاللَّه سبحانه وتعالى يأمرنا أن نجتنبه، والاجتناب أبلغ من الترك، أمرنا ربنا سبحانه وتعالى أن نجتنب الخمر، واجتناب الخمر أبلغ من تركها، لأنك إذا جلست في مكان فيه خمر فأنت آثم، إذا صاحبت رجلاً يشرب الخمر فأنت آثم، إذا تعاملت بها كبضاعة فأنت آثم، لعن الله شاربها، وبائعاها، وحاملها، والمحمولة إليه، فالاجتناب يعني شيئاً أكبر من الترك، فالطاغوت يجب أن تضع بينك وبينه هامش أمان، وكل من خرج عن طريق الحق، وخرج عن الصراط المستقيم، كل من طغى، كل من بغى فهذا طاغوت يجب أن تجتنبه .

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

(سورة هود : 113)

أن تركن إليه، أن تقيم بينك وبينه علاقات حميمة، أن تمضي معه ساعات طويلة، أن تستشيره، هذا ليس اجتناباً .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

الإيمان مرتبة علمية جمالية أخلاقية :

قلت لكم في درس سابق: من أدق معاني العبادة لله عز وجل أن العبادة طاعة طوعية، تسبقها معرفة يقينية، تنتهي بسعادة أبدية، شقٌ معرفي، وشقٌ سلوكي، وشقٌ نفسي، فأنت إذا عرفته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه، فكلمة (مؤمن) تعني أنه ذو مرتبة علمية، لأنه ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلمه، كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، والمؤمن ذو مرتبة أخلاقية، يستقيم على أمر الله، يفعل الخيرات، وكلمة

(مؤمن) تعني مرتبة جمالية، فهو أسعد الناس، وأعلمهم، وأكثرهم انضباطاً، أما أن تظن أن المؤمن إنسان تعلق بالأوهام، واتكل، وتواكل، وقعد، ورضي بالقليل، وكان متشائماً، هذا ليس من الإيمان في شيء، لأن علو الهمة من الإيمان، وما من إنسانٍ على وجه الأرض لم يعرف الله سبحانه وتعالى إلا وله خريف عمر، يذوي عوده، تنحط قواه، يميل إلى الراحة، ينسحب من المجتمع، إلا المؤمن، فكلما ازداد عمره سنة ازداد نشاطاً، وازداد إقبالاً، وازداد طاعةً، وازداد معرفة، وازداد مكانةً، لذلك قالوا : المؤمن لا يشيخ، يشيخ جسمه، ولا تشيخ نفسه، لأن هدفه كبير، وهدفه أكبر من حاجاته، أما أهل الدنيا إذا حصل على مبلغٍ وفير، وبيتٍ كبير وفراشٍ وثير اطمأن، وقعد، لكن المؤمن لا يشغله شيء عن طاعة الله عز وجل .

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

(سورة النور : 37)

قال سعد: " ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس، ما صليت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ما سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أن أنصرف منها، ما سمعت حديثاً من رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا علمت أنه حق من الله سبحانه وتعالى " .

فالإنسان له عمر زمني، وهذا من أتفه الأعمار، وله عمر عقلي، وله عمر انفعالي، وله عمر تحصيلي، وله عمر إيماني، وعمره الإيماني من أثمن الأعمار .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر : 72)

أقسم الله سبحانه وتعالى بعمر نبيه الثمين، فهذا العمر كيف تمضيه ؟ هل تقول إلى من يدعوك إلى لهوٍ، أو تضييع وقت، أو إلى عملٍ سخيف لا طائل منه، هل تقول له : لم أُخلق لهذا ؟ " إن ساعة تمضي في غير ما خُلقتُ له لجدير أن تطول عليها الحسرة يوم القيامة "، هذا قول الإمام الغزالي .

فلذلك: العبادة معرفة، وطاعة، وسعادة، جانب عقلاني، وجانب أخلاقي، سلوكي، تعاملي، وجانب نفساني، فالمؤمن عالمٌ، وأخلاقيٌ، وسعيدٌ، إن لم تكن كذلك فابحث عن وسائل يرقى بها إيمانك .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ

مِن الناس التي أرسلت إليهم الرسل، من هؤلاء الناس مَن هدى الله، ومِن هؤلاء الناس مَن حقت عليهم الضلالة، لكن السؤال الدقيق: لمَ لمْ يقل الله عز وجل: فمنهم من هدى الله، ومنهم من أضل الله، أو لمَ لم يقل: منهم من حق لهم الهدى، ومنهم من حقت عليهم الضلالة ؟

انظروا إلى دقة القرآن وبراعته :

لماذا في موضوع الهدى قال الله عز وجل :

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ)

وفي موضوع الضلالة قال الله عز وجل :

(وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

الحقيقة ليتضح الفرق بين التعبيرين لا بد من طرح المثل .

لو أن معلماً مخلصاً بذل جهداً كبيراً في إعداد الدروس، وفي توضيح الحقائق، وفي ضبط التلاميذ، وفي متابعة وظائفهم، كان يمضي ساعات طويلة يعدّ الدروس، ويأخذ الدفاتر ليصححها في البيت، ويجلس مع كل طالب ليوضح له أغلاطه، فإذا مضى عام والمدرس يفعل هذه الجهود الجبارة من أجل أن يرقى بتلاميذه إلى المستوى المطلوب فالفضل عائد لمن ؟ لهذا المدرس، لكن الطالب الذي لم يداوم أيكون المدرس قد حرمه ؟ لا والله، قوانين التربية والتعليم طبيعة والتعلم تقتضي أن يبقى هذا الطالب جاهلاً، لأنه لم يداوم، فالضلال حق عليه، بمعنى أن بُعْده عن قاعة الدرس، واستنكافه عن الدوام جعله في جهالة، فحقت عليه الجهالة، وحقت عليه الضلالة، يجب أن يرسب، لا لأن المعلم حرمه من النجاح، لا، الذي داوم استفاد فائدة ما بعدها فائدة من المعلم، والذي أبى أن يداوم، أبى أن يلتحق بهذه المدرسة، حقت عليه الضلالة، وهذا شيء طبيعي .

إن اهتديت إلى الله عز وجل فالفضل عائد إليه، وإن ضل الإنسان فقد استحق الضلالة، لأن الأنظمة انطبقت عليه، أيعقل لطالب لم يدخل قاعة الدرس أبداً أن ينجح، مستحيل، طبيعة التعليم وقوانين التربية والتعليم لا تسمح لهذا الطالب أن ينجح، فالمدرس فعل جهده، فعل ما عليه، لو أنه داوم في هذا الصف لاستفاد كما استفاد الآخرون،

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

موضوع الهدى والضلال موضوع شائك، هناك أناس يتسرعون، فيعتقدون اعتقاداتٍ باطلة وفاسدة في موضوع الهدى والضلال، فبعض الناس يعزو الضلالة إلى الله سبحانه وتعالى، يقول : هو أضلَّ

الناس، في موضوع الهدى والضلال ما يزيد على أربعمئة آية في كتاب الله، أربعمئة آية في كتاب الله تتحدث عن الهدى والضلال، مِن استقصائها، والوقوف عند بعضها، وتصنيفها يتضح الموضوع جداً .

تعريف الهدى كما جاء في القرآن :

أولاً : تعريف الهدى، ما تعريفه ؟ ربنا سبحانه وتعالى في بضع آيات أعطى معنى الهدى، فقال :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

(سورة الحديد : 26)

ما الذي يقابل الهدى؟ الفسق، فالمهتدي لا يكون فاسقاً، فمن لوازم الهدى الانضباط السلوكي، والاستقامة على شرع الله، فالذي يقول لك : أنا مهتد، وهو يعصي الله عز وجل، هذا كاذب بنص هذه الآية :

(فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

تعريف آخر للهدى : قال تعالى :

(أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة : 157)

أيها الأخ المهتدي، يا من تزعم أنك مهتد، هل تشعر بصلوات الله تنزل على قلبك ؟ هل تشعر بتجلّيات الله تملأ نفسك ؟ هل تقول : أنا أسعد الناس ؟ أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحد أسعد مني، بمعنى أتقى مني، هل تحس أن قلبك مفعم بالسعادة، راضٍ عن الله، راضٍ عن حكمه، راضٍ بقضائه، مستسلم له، من صفات الهدى :

(أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة : 157)

من لوازم الهدى :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام : 82)

هل تحس بالأمن؟ توقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها، أنت من خوف الفقر في فقر، أنت من خوف المرض في مرض، هل تحس أن الله يدافع عنك؟ هل تحس أنك في حفظ الله؟ في عنايته؟ هل تحس أن الله عز وجل لن يتخلى عنك؟ وأنه يعاملك معاملة خاصة، هل أنت مصدق قوله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 97)

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام : 82)

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

(سورة الأنعام : 56)

من علامات المهتدي أنه لا يتبع الهوى، لأن اتباع الهوى هوان .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات : 40)

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

(سورة يونس : 45)

وهذا الذي يقول لك: تنتهي الحياة بالموت، ولا شيء بعد الموت، هو في ضلالٍ كبير، فصار الهدى أن تؤمن أن بعد الحياة حياة أبدية، وأنها هي الحياة، لو أنك تعلم الحقيقة .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر : 24)

من لوازم الهدى :

من لوازم الهدى : ألاّ تنقاد للهوى .

ومن لوازم الهدى : أن تحس بالأمن .

ومن لوازم الهدى : أن تكون منضبطاً، مستقيماً على أمر الله .

ومن لوازم الهدى : أن تحس بصلوات الله، ورحمته نازلة على قلبك .

هذه الآيات توضح جانباً من معاني الهداية .

من آثار الهداية :

شيء آخر، آثار الهداية، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة يونس : 108)

إنك إن اهتديت لا تفعل شيئاً مع الآخرين، كل ما تفعله عائد إليك .

(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ)

(سورة يونس : 108)

من آثار الهداية :

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

من لوازم الهدى : أنك لا تندم على ما فات، ولا تخشى مما هو آت، أمنٌ، وطمأنينة .

من آثار الهدى : قال تعالى :

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

(سورة طه : 47)

السعادة والأمن والرخاء مطلب المهتدي :

حياتك في سلام، في دعة، في رضى .

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

(سورة يس : 58)

السلام من أسماء الله، السلام عليك أيها المهتدي، والسلام على من اتبع الهدى، هذا من آثار الهدى .

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه .

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى)

(سورة العلق : 11)

المهتدي له شخصية متميزة، صادق في كلامه، وفيٌّ لوعوده، يحفظ عهده، يفي بوعده، لا يكذب، لا ينافق، يرحم، يحلم ولا يفجر، يعطي ولا يمنع، هذه صفات أساسية .

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى(11)أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(12)أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

(سورة العلق : 11 - 13)

كيف هي مواعيده؟ وكيف هي عهوده؟ وكيف هي علاقاته؟ وكيف هو قلبه؟ مفعم بالقسوة، هناك فرق صارخ بين الهدى وبين الضلال، بين المهتدي وبين الضال .

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك : 22)

الآيات الأولى كأنها عرَّفت طبيعة الهدى، والآيات الثانية كأنها بينت نتائج الهدى، من منا لا يتمنى أن يكون آمناً، مطمئناً، موفقاً، سعيداً، في سلامٍ، ورخاءٍ، وإقبالٍ، وأنوارٍ، هذا هو الهدى، لذلك دائماً أنا أفرق بين الثقافة والهدى، لو أنك تطالع الكتب، وتقرؤها، وتحفظها، ولست مستقيماً على أمر الله، ولست مقبلاً عليه، إن دماغك يمتلئ بالمعلومات القيمة، ولكنك لا تسعد بهذه المعلومات، الثقافة شيء، والهدى شيء آخر، الثقافة مجموعة معلومات دقيقة، كثيرة، محشوة في دماغك، هذه هي الثقافة، الثقافة تجعلك متحلقاً، الثقافة تجعلك تنزع إعجاب الآخرين، ولكن الهدى يجعلك سعيدًا، ويجعلك مسعِدًا، تسعد أولاً، وتسعد ثانياً، فشتان بين الثقافة والهدى، شتان بين الجمع وبين النبع .

شيءٌ آخر :

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك : 22)

ربنا عز وجل قال :

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ)

(سورة النحل : 36)

مَن هذا الذي يهديه الله ، والذي لا يهديه الله ؟

مَن هذا الذي يهديه الله؟ هذه كلمة موجزة، هل هناك آيات تفصيلية توضح من الذي يهديه الله سبحانه وتعالى ؟

هناك آيات كثيرة توضح من الذي يستحق الهدى، القرآن فيه إجمالٌ وتفصيل، إذا قرأت قوله تعالى .

(فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر : 8)

فهذه آية مجملة، تفصيلاتها في خمسين آية .

(فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

من هذا الذي يهديه؟ ومن هذا الذي يضله؟ الله عز وجل يقول :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 258)

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

من هذا الذي حقت عليه الضلالة؟ هو الظالم، لقوله تعالى :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

الظالم لا يهديه الله سبحانه وتعالى، فقط الظالم !

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 264)

كلمة الظالم واسعة جداً، من معانيها الواسعة ظلم النفس، من معانيها الضيقة ظلم الآخرين .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المائدة : 108)

لا يهدي الكافرين، ولا يهدي الظالمين، ولا يهدي الفاسقين، فمن كان متلبساً بالفسق، أو متلبساً بالكفر، أو متلبساً بالظلم فلن يهديه الله سبحانه وتعالى، وهذا تحق عليه الضلالة .

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : 52)

أيّة خيانة فصاحب الخيانة محجوب بخيانته، لن يهتدي إلى الله عز وجل، خيانته حجاب بينه وبين الله،

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

(سورة الزمر : 3)

الكذب أيضاً حجاب بينك وبين الهدى، فالظلم، والكفر، والفسق، والخيانة، والكذب، هذه الصفات إذا تلبّس بها الإنسان حَرمته الهدى، وكانت حجاباً بينه وبين الله سبحانه وتعالى .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

(سورة غافر : 28)

الإسراف في أخذ الحق، الإسراف في النفقات، الإسراف في التعدي، الإسراف في الظلم، أي أنواع الإسراف حجاب بينك وبين الله سبحانه وتعالى، الله عز وجل لا يهدي الظالم، ولا الكافر، ولا الفاسق، ولا الخائن، ولا الكاذب، ولا المسرف .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة النحل : 104)

وهذا الذي يدير ظهره لآيات الله في الكون، لا يفكر إلا في مصالحه، إلا في قوت يومه، إلا في رزقه، أما أن يفكر في كأس الماء، كيف جعله الله عذباً فراتاً بعد أن كان ملحاً أجاجاً، أما أن يفكر في طعامه، أما أن يفكر في خَلقه، في بدء خَلقه، أما أن يفكر في الشمس والقمر، في الليل والنهار، في السماوات والأرض، في الجبال والسهول، في البحار والأنهار، في الأسماك والأطيار، في هذا الذي يرتدي، في هذا الذي يجلس عليه، أن يفكر في خَلقه، من خلال خَلق ابنه، أن يفكر في هذه الطباع التي طبع الله بها مخلوقاته .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ)

الإيمان بآيات الله طريقٌ للهدى .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)

(سورة الإسراء : 94)

أشياء تمنع من الهدى :

مِن موانع الهدى أن تقول : فلان مثلي، أعرفه حينما كان صغيراً، كيف صار يهدي الناس ؟ الكِبْر أحياناً، والحسد، والاستعلاء يمنعك أن تهتدي، هذا من موانع الهدى، ألم يقل الله عز وجل :

(مِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

تحق الضلالة على الظالم، وعلى الكافر، وعلى الفاسق، وعلى الخائن، وعلى الكذاب، وعلى المسرف، وعلى الذي لا يؤمن بآيات الله، وعلى الذي يستعلي، ويستكبر، وعلى الذي يخاف خوفاً لا مبرر له .

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص : 57)

غير المؤمن يقول: لأنه يطيع الله سبحانه وتعالى يتوهم أن أخطاراً جسيمة سوف تصل إليه، الخطر يأتيك من طاعة الله! هذا كفر بالله، كيف تعبده وتسيء الظن به ؟ أيدعك لأعدائك، أيسلمك لخصومك ؟ أيتخلى عنك وأنت تطيعه ؟

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص : 57)

هذه المقولة منعتهم من الهدى، وكل من يقول: لو أنني فعلت كذا وكذا أخاف على مستقبلي، أخاف على مستقبل حياتي، أخاف على أولادي، أخاف على دخلي، أخاف على رزقي، إذا أطعت الله عز وجل ينقطع رزقك؟! كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً، أتخاف على رزقك من طاعتك لله عز وجل؟! طاعة الله تسبب تلف رزقك .

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

شيءٌ آخر، مشاقة الرسول سبب للضلال، فالله سبحانه وتعالى يحق على العبد الضلال إذا كان فاسقاً، ظالماً، كافراً، كذاباً مسرفاً، خائناً، مستعلياً، لا يعمل فكره في آيات الكون، يخشى من غير مبرر، يستجيب للشيطان حينما يخوفه .

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 175)

هذه بعض الأسباب التي وردت في كتاب الله، والتي إذا وجدت إحداها في الإنسان استحق الضلال .

(مِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

متى يستحق الإنسان الهدى من الله ؟

الآن سؤال : متى يستحق الإنسان الهدى من الله عز وجل ؟

(مِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ)

هذه آية محكمة، موجزة، مجملة، أين تفصيلاتها ؟ قال تعالى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت : 69)

هل بذلت مالك؟ هل بذلت وقتك؟ هل ضبطت مشاعرك؟ هل إذا حركت مشاعرك شهوة فقلت: إني أخاف الله رب العالمين؟ هل بكت عينك من خشية الله ؟هل قلت: أين الله؟ لا أفعل هذا، معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي، هل تجاهد في سبيل الله؟ هل تجاهد نفسك وهواك؟ كما قال عليه الصلاة والسلام :

((رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى))

[ذكره المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير]

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

أيها الإخوة الأكارم، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ لو أنكم تحركتم إلى الله شبراً، أو ذراعاً، أو باعاً، فإن الله سبحانه وتعالى يزيدكم من فضله، ويعطيكم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[متفق عليه]

ما إن تتحرك نحو الله سبحانه وتعالى، ما إن تعقد العزم على التوبة حتى يتلقاك الله بالبشر، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض : أن هنئوا فلاناً، فقد اصطلح مع الله .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

قبل قليل ذكرت لكم موانع الهدى، ما الذي يمنع الإنسان من أن يهتدي؟ متى تحق عليه الضلالة؟ الكفر، والفسق، والظلم، والخيانة، والكذب، والإسراف، والاستعلاء، وتعطيل الفكر، ووسوسة الشيطان، ومشاقة الرسول، هذه كلها موانع الهدى، موجبات الهدى مجاهدة النفس والهوى، هل تغض بصرك عن محارم الله؟ هل تمتنع عن سماع أغنية تغضب الله عز وجل؟

((من استمع إلى قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيامة))

[ابن عساكر عن أنس]

فهل تمنع نفسك من غيبة ممتعة يضحك لها الناس ؟ هذه غيبة لأخ مؤمن، هل تمنع نفسك من نميمة؟ من شتيمة؟ من فحش؟ من إيقاع للشقاق بين الناس ؟

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

من موجبات الهدى :

من موجبات الهدى :

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة المائدة : 16)

دائماً وأبداً أنت تعرف من دون معلم أن هذا العمل يرضي الله، وذاك العمل يغضب الله، لو قال لك أحدهم: اصرف لي هذه الليرات الخمس، والدرج مليء بالقطع الصغيرة، تعلم علم اليقين أنك إذا قلت له : ليس عندي، تعلم أن هذا العمل لا يرضي الله، وأنك إذا فرَّجت همه فإن هذا يرضي الله، تعلم علم اليقين أن أمك إذا طلبت منك حاجة، وقد عدت إلى البيت مُنهَك القُوى، تعلم علم اليقين أنك إذا قلت لها: لا أستطيع، أو هذه الحاجة غير موجودة، أو المحلات أغلقت، أو هذا الدواء مفقود، فأنت بهذا أرحت جسمك، لكن الله لا يرضى عنك، وتعلم علم اليقين أنك إذا خرجت من البيت ثانية، واتجهت إلى الصيدلية المناوبة، وأتيت لها بالدواء تنام وَاللَّهُ راضٍ عنك، في كل حركة وسكنة، المشتري يقول لك : انصحني، فإذا نصحته بشيءٍ كاسدٍ عندك تعلم أن هذا يغضب الله، وأنك إذا نصحت بأحسن ما عندك فهذا يرضي الله، تعلم هذا بالفطرة، ولو لم تحضر مجلس علم، بالفطرة تعلم أنت ما الذي يرضي الله عز وجل، وما الذي يسخطه، في علاقتك بزوجتك، علاقتك بأولادك، علاقتك بجيرانك، علاقتك بإخوانك، بأصدقائك، بزبائنك، بمن تعرف، أنت في كل لحظة تمتحن، فإما أن تتبع ما يرضي الله، وإما أن تتبع ما يسخط الله، إذا دعيت إلى سهرة مختلطة فاعتذرت، فإن هذا يرضي الله، فإذا استجبت فإن هذا يسخط الله عز وجل، إذا دعيت إلى كسب حرام فأغراك المبلغ الكبير، فهذا يسخط الله سبحانه وتعالى .

فربنا عز وجل ذكر من موجبات الهدى :

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

(سورة المائدة : 16)

هل تتبع رضوان الله؟ هل أنت حريص على رضاء الله عز وجل؟ هل تقول: يا رب، أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، هل ترى أن رضاء الله عنك هو أثمن ما في الحياة؟ هل ترى أن أعلى مرتبة في الكون أن تقول: رضي الله عن فلان، هل أنت ممن ترضي الله، فإذا كنت كذلك فالله يهديك .

الموجب الثالث :

(وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا)

(سورة الجن : 13)

هل تصغي إلى الهدى؟ هل تستجيب إلى الهدى .

(رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

(سورة آل عمران : 193)

هل عندك تعطُّش إلى الحق؟ بحيث لو سمعت الهدى استجبت له، أم أن هذا الكلام لا يحرك فيك شعوراً، ولا وجدانًا، ولا محبة، ولا شوقاً، وأنت غارق بالملذات .

(وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ)

(سورة الجن : 13)

الموجب الرابع : يهدي به من أناب، من عاد إلى الله عز وجل، هل عُدتَ له بالتوبة ؟ هل عدت إليه بالطاعة ؟ إذا عدت إليه بالتوبة، وعدت إليه بالطاعة فأنت ممن يستحق الهدى .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

(سورة يونس : 9)

لماذا هداهم ربهم بإيمانهم؟ لأنهم عملوا الصالحات، لم يكتفوا بالقول، بل أتبعوا القول بالعمل، حينما أتبعوا القول بالعمل استحقوا أن يهديهم ربهم بإيمانهم .

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة آل عمران : 101)

إذا ألمّت بك الملمّة، إذا بدا لك شبح مصيبة، بمن تعتصم؟ بزيد أو عبيد، أو بمالك الوفير، أم بجاهك العريض، أم تقول له : يا رب، بالمناجاة، ليس لي إلا أنت، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه .

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

(سورة النور : 54)

ثمن الهدى أيضاً طاعة الله، في المنشط و المكره، فيما عرفت حكمته، وفيما لم تعرف، هذا من موجبات الهدى .

من موجبات الضلالة :

ومن موجبات الهدى :

(فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

(سورة البقرة : 150)

من موجبات الضلالة : الذين يقولون :

(إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص : 57)

أما طبقت قوله تعالى :

(فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي)

فهذه الخشية لله على حساب خشية الناس من موجبات الهدى .

الشيء الذي يجب أن يعرفه الإنسان أنه إذا كان مهتدياً حقاً فلا يعنيه أمر الناس، أكانوا مهتدين أو ضالين ؟ لو أن الناس كلهم ضلوا فإحساسه بقيمة الهدى تجعله يحافظ عليه حفاظه على روحه، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة المائدة : 105)

لو أنك في مجتمع كلهم فسقة، كلهم فجرة، كلهم يسخرون من الدين، كلهم لا يصلُّون، وقد هُديت إلى الله عز وجل، فأنت أسعد الناس بهذا الهدى، فإذا نكس الإنسان على رأسه، وقال: أنا مع الناس فليسمع :

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[الترمذي]

أيْ: من كان مع الخط العريض . قال تعالى :

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(سورة يونس : 36)

اتباع أكثرية الناس هذا اتباع للضلال، كن مع الأقلية المؤمنة، ولا تكن مع الأكثرية الفاسقة، كن مع الأقلية المؤمنة، ولا تكن مع الأكثرية العابثة، كن مع الأقلية المؤمنة، ولا تكن مع الأكثرية الضالة .

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام : 116)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

(سورة يونس : 36)

طبيعة الهدى :

شيء آخر، ما طبيعة الهدى؟ هناك آيات كثيرة تبين طبيعة الهدى :

فمن طبيعة الهدى أن الهدى اختيار، لو شاء الله لهدى الناس أجمعين، لكن هذا الهدى القسري لا قيمة له، كما لو أن الجامعة وزعت أوراق الأسئلة مع أوراق الإجابة، ينجح جميع الطلاب، لكن هذا النجاح لا قيمة له، ولا شأن له، وليس مجدياً في بناء الأمة، لذلك قال تعالى :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : 3)

فالهدى اختيار، وليس إجبارًا .

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة فصلت : 17)

(لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة النور : 46)

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأنعام : 88)

الهدى اختيار، وليس إجباراً .

السير في طريق الهدى فيه زيادة هدى :

شيء آخر، من سار في طريق الهدى زاده الله هدى، هذه نقطة مهمة جداً، قال تعالى :

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا)

(سورة مريم : 76)

إذا دخلت الجامعة، وقبلت أن تكون طالباً جامعياً، عندئذ هناك المكتبات، وهناك المساعدات من قبل الأساتذة، وهناك المحاضرات، وهناك الندوات، هناك أشياء كثيرة تزيدك معرفة، إذا قبلت أن تدخل

الجامعة .

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)

(سورة مريم : 76)

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الكهف : 13)

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

(سورة محمد : 17)

الهدى بيدك أنت إن شئته :

من لواحق موضوع الهدى أن الهدى ليس بيد أحد، بل بيدك أنت، ومن أعظمُ من النبي عليه الصلاة والسلام ؟ قال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة القصص : 56)

وقال تعالى :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : 272)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو قمة البشر، وهو أعلى مخلوق في بني البشر، يقول الله له :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

إذاً: الهدى بيدك أنت، وليس بيد أحد سواك، إذا أردت الهدى فالله سبحانه وتعالى يهديك، إذا شئت الهدى يشاءه الله لك، فإن أبيت الهدى حقت عليك الضلالة، إن شئته شاءه لك، وإن أبيته حقت عليك الضلالة .

مَن هو المهتدي :

شيء آخر : من هو المهتدي ؟

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

***

كل فرقة تدعي أنها على حق، كل دين سماوي يظن أصحابه أنهم على حق .

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة المائدة : 18)

من هو المهتدي؟ قال تعالى :

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى)

(سورة النجم : 30)

الله وحده يعلم، فأنت غير مؤهل تعرف، أنت لك الظاهر، والله يعرف السرائر، احكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، لكن الله وحده يعلم من هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى .

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا)

(سورة الإسراء : 84)

فحسبك أن يكون الله راضياً عنك، ومن عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس في، لا تحكم على أحد بالضلال، قل : الله أعلم، هذا تدخل في شؤون الله سبحانه وتعالى، لا أحد يعرف من هو المهتدي إلا الله، أنت لك الظاهر، و الله يتولى السرائر، هذا أدبٌ نبوي،

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى)

(سورة النجم)

لا تزكِّ على الله أحداً، لا تزكِّ نفسك ولا تزك أحداً، قل الله أعلم .

أحد العلماء طُلب إليه أن يشهد شهادة طيبة لإنسان، فقال : فلان أعرف منه الصلاح والتقوى، والله أعلم، فهذا الرجل انزعج من كلمة (والله أعلم)، طبعاً والله أعلم، سيدنا الصديق حينما استخلف سيدنا عمر قال : << فهذا علمي به، فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب>>، والله أعلم، فلا تزكِّ على الله أحدًا، ولا تزكِّ نفسك، قل : الله أعلم، لأن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى، أما نحن فلنا الظاهر، والإنسان مادام مستقيماً على أمر الله إذاً هذا أخي في الله، ما دام مطبقاً لشرع الله لم يخرق الاستقامة، لم يأكل مالاً حراماً، لم يترك الصلاة فهذا أخي في الله، أما أن أحاسبه عن أشياء لا أعلمها فهذا ليس من اختصاص المسلمين .

الهدى سيعمّ الأرض شاء مَن شاء وأبى من أبى :

شيء آخر في موضوع الهدى : إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

(سورة التوبة : 33)

هذه الآية بشارة إلى أن الهدى سوف يعمّ الأرض، أما إذا أردت أن تهدي الناس فهناك شروط صعبة جداً .

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة : 24)

الهدى يحتاج إلى ابتلاء وصبر :

لا بد لك من أن تصبر على حكم الله، وعلى أمر الله، وعن معصية الله، وعلى من تهدي، اصبر على طاعته، واصبر عن معصيته، واصبر على من تهديه، واصبر على حكم لا تفقه مراده، واصبر على الطاعة في السراء والضراء، حتى تستحق أن تنال مقام الهداية :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة : 24)

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ)

بعد أن أتَمَّهُنَّ .

(قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 124)

فالهدى يحتاج إلى ابتلاء، وإلى نجاح في الابتلاء .

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت : 33)

لا بد من أن يكون عملك صالحاً حتى تستحق كلماتك أن تصل إلى القلوب، فإن كان العمل سيئاً فالهداية لا تتجاوز الآذان، ولا بد من أن تترفع عن الدنيا، وعن كل شيءٍ فيها، قال تعالى :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة يس : 20 - 21)

ولا بد من أن تكون عالماً، وأن تجلس الساعات الطوال كي تعرف الله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (10-21): تفسير الآيات 37 – 40 ، عن القضاء والقدر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-03-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

وكنا قد فسرنا في الدرس الماضي قوله تعالى :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

مصادر الحقيقة والمعرفة :

نقف عند هذه الآية التي مررنا عليها سريعاً في الدرس الماضي :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

الحقيقة يمكن أن تستنبطها من مصادر ثلاثة .

المصدر الأول : الكون :

قال تعالى :

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس : 101)

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25)ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا(26)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(27)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(28)وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(29)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(30)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(31)مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

(سورة عبس : 24 - 32)

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(6)يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(7)إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

(سورة الطارق : 5 - 8)

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(18)وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(19)وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

(سورة الغاشية : 17 - 20)

الله سبحانه وتعالى يدعونا في آيات كثيرة إلى النظر في الكون، فالكون قرآن صامت، فإذا أردت أن تعرف الحقيقة فابحث عنها من خلال آيات الله التي بثها في السماوات والأرض .

وفي كل شيء له آية تـدل على أنه واحد

***

هذا طريق، وهذا مصدر، أحد مصادر الحقيقة الكون، لأن الكون كما قلت في درس سابق: تجسيد لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، أو مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، فإذا تأملت في آيات الكون انتقلت منها إلى أسماء الله وإلى صفاته، فعرفته، فإذا عرفته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه، هذا هو المصدر الأول .

سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام نظر في الكون :

(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ(88)فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)

(سورة الصافات : 88 - 89)

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ(76)فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ(77)فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

(سورة الأنعام : 76 - 78)

ثم انتقل من آيات الكون إلى فاطر الكون، فقال :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام : 79)

فمن شاء أن يعرف الله سبحانه وتعالى فـ :

في كل شيء له آية تـدل على أنه واحد

***

وظيفة المخلوقات وعلاقتها بالإنسان :

كل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى إنما له وظيفتان، الوظيفة الأولى والرئيسة: أن يعرفك بذاته سبحانه وتعالى، والوظيفة الثانية : ما يقدم لك من خدمات، عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ :

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ : هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا، وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

[أبو داود]

خير نعرف به عدد السنين والحساب، ورشد يرشدنا إلى ربنا .

فكأس الماء آية على رحمته، الهواء الذي نستنشقه، الحواس الخمس، الأعضاء، الأجهزة، أنواع النباتات، أنواع الأطيار، أنواع الأسماك، الجبال، الوديان، السهول الصحارى، البحار، الأنهار، كل شيء يدل عليه، بما هو كبير، وبما هو صغير .

المصدر الثاني : الكتاب العزيز :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

(سورة الأنعام : 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا)

(سورة الكهف : 1)

إذا قرأت القرآن الكريم تعرفت إلى الله رب العالمين، فمن قرأ آياته، وفهمها، وتدبرها، وعرف أبعادها، وطبقها، كان كتاب الله مصدرًا ثانياً للمعرفة .

المصدر الثالث : الحوادث في الكون : فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا

الكون مصدر، والقرآن مصدر، والحوادث التي تجري مصدر ثالث، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

هؤلاء الذين كذبوا الرسل، وكذبوا بهذا الكتاب، هؤلاء الذين رأوا أن ما أنزله الله على النبي عليه الصلاة والسلام لا يصلح لهذا الزمان، هؤلاء الذين أداروا ظهورهم للدين، هؤلاء الذين آمنوا بنظريات أخرى غير هذا الدستور الذي سنه الله لنا، هؤلاء حينما تفلتوا من الشرع الإلهي، وحينما تحللوا من القيم التي جاءت في كتاب الله، اتبعوا شهواتهم، وساروا وراء مصالحهم فطغوا وبغوا، ماذا كانت النتيجة؟ أن الإنسان في الدنيا يهلك، وإذا انقلب إلى الله عز وجل إلى اليوم الآخر تنتظره النار، وبئس المصير :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

تستطيع أن تستشف من خلال الأحداث التي تجري في الأرض، أي من خلال أفعال الله سبحانه وتعالى في عباده، تستطيع أن تستشف الحقيقة .

مثلاً :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : 21)

تستطيع أن توازن بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن، لا بد من أن يكون هناك فرق شاسع، ومفارقة حادة، بين حياة فيها طمأنينة واستقرار، فيها سعي نحو معرفة الله عز وجل، حياة مقدسة، حياة عفيفة، حياة نظيفة، حياة سامية، حياة علوية، وبين حياة إنسان شهواني يبحث عن مصالحه بأيّ ثمن، ومن أيّ طريق، يدوس من أجل مصالحه كلَّ القيم، ما مصير هذا؟ وما مصير ذاك؟ لا شك أنه هناك فرقًا شاسعاً.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : 21)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 97)

دقق في حياة المؤمن، ألا تراها طيبة؟ ألا تراه سعيداً في بيته وعمله وعلاقاته، وطموحاته؟ إنه في الأفق الأعلى، والناس في الوحول، انظر إلى حياة أهل الدنيا، خصومات، مشاحنات، شهوات، تجاوزات، تعديات، بغي، ظلم، تحلل، مشاكسة، سوء ائتمان، قسوة، هذا حال أهل الكفر، وهذا حال أهل الإيمان، لو نظرت إلى الذي يأكل مالاً حراماً ما مصيره، لا بد من أن يدمر ماله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

[البخاري]

قال الله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

(سورة البقرة : 276)

دقق في كسب المال وحده، هذا الذي كسب مالاً حلالاً، دقق في حياته، كيف أن الله سبحانه وتعالى يبارك له في صحته، وفي أهله، وفي أولاده، وفي تجارته، وفي كسبه، وفي أعماله كلها، وانظر هذا الذي كسب مالاً حراماً، كيف أن هذا المال سيذهب، وسيذهب معه صاحبه، كيف أن حياة الذي يكسب المال الحرام مصحوبة بالمصائب والأخطار، بالإفلاس أحياناً، بالأمراض، ربنا عز وجل قال لنا :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا)

وفي آيات أخرى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا ـ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا

هذه الفاء حرف عطف، يفيد الترتيب على التعقيب، بينما ثم حرف عطف يفيد الترتيب على التراخي، والآيتان في كتاب الله، كل آية تعني شيئاً، فلو أن إنساناً طغى وبغى، و أكل مالاً حراماً، وبنى مجده على أنقاض الآخرين، وبنى حياته على موتهم، وبنى أمْنه على خوفهم، بنى غناه على فقرهم، بنى سعادته على شقائهم، هذا الذي يسلك هذا الطريق انظر كيف تكون عاقبته، ربنا عز وجل قال :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص : 83)

العاقبة للمتقين، العبرة في خريف العمر، العبرة في هذا العمر كيف ينتهي؟ ينتهي إلى دمار، ينتهي بفضيحة كبيرة، ينتهي بمصيبة أسرية، كيف ينتهي هذا العمر؟ هذا المال الذي كسبه الإنسان بالحرام كيف أودى بصاحبه؟

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا)

إذا قال الله عز وجل :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا)

معنى ذلك أن هناك حالات كثيرة يأتي العقاب مباشرة بعد الانحراف، ما أن ينحرف حتى يأتي العقاب الإلهي، وإذا قال الله عز وجل :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا)

معنى ذلك :

(يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران : 196 - 197)

قد يمد الله للكافر، قد يعطيه الصحة، والذكاء، والمال والجمال، ولكنه يسلبه الطمأنينة، والسعادة، والصفاء، والإقبال .

إذاً: الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يأمرنا أن ننظر، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أمرني ربي بتسع، خشية الله في السر والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرة))

[رواه القضاعي في مسند الشهاب]

لا تدع هذه القصص التي تسمعها تمر هكذا ، فكّر فيها، واعرضها على كتاب الله، ابحث لماذا يُكبّ هذا الإنسان؟ ما المخالفة التي كان يرتكبها؟ لماذا حفظ الله مال فلان؟ وأتلف مال فلان؟

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

كلّ ما يحدث في الأرض مصداق لما في الكتاب العزيز :

إذاً: يمكن أن تستنبط الحقيقة من مصدر ثالث، ألا وهو الحوادث، الحوادث وحدها تنبئك بالحقيقة، لذلك ربنا عز وجل أحياناً يشهد لنا أن هذا الكلام كلامه، شيءٌ عجيب، الله سبحانه وتعالى متى شهد لنا؟ لأن كل ما يحدث في الأرض مصداق لما في هذا الكتاب، هذا الكتاب قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، فأي شيء يحدث في الأرض يصدق ما جاء في هذا الكتاب .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود : 117)

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)

(سورة مريم : 64)

آية أخرى :

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

(سورة الكهف : 59)

فلو تتبعت قرية أهلكها الله عز وجل لوجدتها ظالمة .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

التفسير الصحيح للحوادث :

الحقيقة ما يجري في الكون يجري، وما يَقع يقع، ما يقع يعرفه الناس جميعاً، ولكن البطولة في القدرة على التفسير، كل إنسان إذا حصل زلازل في مكان معين تتناقله الأنباء، وتنشره الصحف، وتصوره المجلات، يطلع عليه الناس جميعاً، فالناس لا فضل لواحد على آخر في تلقي الخبر، الخبر سهل تلقيه، لكن المؤمن يملك التفسير الصحيح لهذا الخبر، شتان بين أن تتلقى نبأ، وبين أن تملك القدرة على تفسيره، فالمؤمن يملك القدرة على تفسير ما يجري وَفق آيات الكتاب، وَفق هذه القواعد الثابتة التي وردت في القرآن الكريم :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

هناك تفسير إلهي، تفسير قرآني، تفسير ديني، لهذه النكبة التي ألمّت بهذه القرية .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

(سورة الأنعام : 65)

إذاً: هناك التفسير، فإذا عرفت الله عز وجل، إذا عرفت ما في كتابه من حقائق، إذا تدبرت آياته، إذا كشفت القواعد الثابتة التي وردت في كتاب الله، عندئذ تملك صحة التفسير، قال لما ربنا عز وجل :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه : 124)

هناك علاقة ثابتة بين الحياة الضنك والإعراض عن ذكر الله، فحيثما سمعت قصة، أو مشكلة، أو مأساة، أو قضية، وعرفت أن هذا الذي دُمِّرتْ حياته معرضٌ عن ذكر الله، تملك عندئذ التفسير الصحيح ما الذي يقلقك؟ ألا تملك تفسيراً لما يجري؟ لكنك إذا ملكت التفسير الصحيح ارتاح قلبك، واطمأنت نفسك، فالمؤمن فضلاً أنه عرف الله من خلال الكون، وهذا الباب الأول، ومن خلال الكتاب، وهذا الباب الثاني، ومن خلال ما يجري من حوادث، وهذا الباب الثالث، تتبع .

قال لي أحدهم: ما من شخص عاصرته، وقد كسب مالاً حراماً إلا دمر الله ماله قبل أن يموت، طبعاً هذا استنباط استنبطه من القصص التي وصلت إلى سمعه، فربنا عز وجل يقول :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى:

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

النبي حريص على هداية قومه :

النبي عليه الصلاة والسلام حريص حرصاً بالغاً على هداية قومه، والدليل أن الله سبحانه وتعالى يصفه بهذه الصفة :

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ)

الهدى متعلّق باختيار العبد :

الجواب: أن هداهم ليس متعلقاً بحرصك، أو عدم حرصك، هداهم متعلق باختيارهم .

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة القصص : 56)

ليس هدى الإنسان متعلقًا بمشيئة النبي عليه الصلاة والسلام ، لو أن هدى كل إنسان متعلق بمشيئة النبي عليه الصلاة والسلام لشاء النبي عليه الصلاة والسلام لعمه أبي لهب أن يهتدي، ولكنّ عمه أبا لهب هو الذي أراد أن يبقى ضالاً، لذلك قال الله عز وجل :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

(سورة المسد : 1 - 2)

فالهداية في أصلها عمل طوعي، اختياري، ليست الهداية متعلقة بحرص النبي ، أو عدم حرصه، فالله سبحانه وتعالى يثني على نبيه في هذه الكلمة، وفي الوقت نفسه يبين له الحقيقة، أن الهدى عمل اختياري .

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة فصلت : 17)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : 3)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة : 148)

الهدى الاختياري والهدى الجزائي :

الهدى عمل اختياري، عمل من اختيار الإنسان، لذلك فإن علماء التوحيد قالوا: هناك هدى ابتدائي، وهناك هدى جزائي، فالإنسان إذا اختار الهدى قدر الله له الهدى، فاختياره للهدى الأول هو الهدى الاختياري، والهدى الذي قدر الله له دله على أهل الحق، فتح بصيرته، ألهمه رشده، شرح الله صدره للإسلام، جمعه مع أهل الهدى، هذه كلها من الله عز وجل، وهي بناء على اختيار الإنسان، فهناك هدى ابتدائي، أي إن الإنسان اختار الهدى، وهناك هدى جزائي، أي إن الله سبحانه وتعالى بعد أن علم منه هذه الإرادة، وهذا الاختيار يسَّرَ له سبل الهدى، ودلّه على أهل الحق، وشرح صدره للدين، فهناك ضلال ابتدائي، وضلال جزائي، فإذا اختار الإنسان طريق الضلال، أو إذا أبى أن يسلك طريق الهدى ضل باختياره .

إنّ الضلال في تعريفه الدقيق: خروج عن طريق الهدى، أو عدم السير في طريق الهدى، إذا أبى أن يسير في طريق الهدى، هذا هو الضلال، عندئذ يستحق الضلال، كما قال الله عز وجل في الآية التي قبلها :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

(سورة النحل : الآية 36)

موانع الهدى وموجباته :

وذكرت لكم في الدرس الماضي أنَّ ما يقارب مئات الآيات المتعلقة بالهدى، كيف أن الهدى له موجبات، وأن الهدى له موانع، والله سبحانه وتعالى :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المائدة)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : الآية 258)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

(سورة غافر : الآية 28)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 264)

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 52)

ثمانية عشر شيئاً إذا تلبَّس بها الإنسان مُنع من الهدى .

وهناك موجبات للهدى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت : الآية 69)

فربنا عز وجل يقول : يا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ)

من اختار الضلال أوكِل إليه :

هذا الذي اختار طريق الضلال، أو هذا الذي أضل نفسه عن طريق الحق، صرفها إلى الدنيا، صرفها إلى الشهوات، صرفها إلى جمع الدرهم والدينار، صرفها إلى العلو في الأرض، هذا الذي أضل نفسه عن طريق الحق، أو هذا الذي استحق الضلال الجزائي بعد أن اختار الضلال الابتدائي، هذا لا يهديه الله بحكم نواميس الكون التي خلقها الله عز وجل، الجامعة لها نظام، نظام داخلي، تقول : هذا الطالب رفض طلبه استنادًا إلى المادة الثالثة من نظام الجامعة، هذا الطالب رسب في سنته استنادًا إلى المادة الخامسة من نظام الجامعة، فربنا عز وجل خلق الكون، وخلق مع الكون سنناً، فهذه السنن هي التي تنظم علاقة العباد بربهم، فربنا عز وجل يقول :

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ،

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ))

كلام واضح كالشمس،

((فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ))

أبواب الهدى مفتحة، فما عليك إلا أن تدخل فيها، سبيل الله عز وجل سالك، وما عليك إلا أن تسير فيه، والآيات نصبها ربنا عز وجل فما عليك إلا أن تفكر فيها، الأوامر معروفة، ما عليك إلا أن تنفذها، المنهيات معروفة، ما عليك إلا أن تنتهي عنها، فليس لك إلا أن تستجيب .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال : 24)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : 38)

هل أنت مصدق ربك أيها الأخ الكريم؟ يقول لك الله سبحانه وتعالى: كل ما في الدنيا متاعه قليل إذا قيس بما عند الله رب العالمين .

(وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ(60)أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : 60 - 61)

الذي خلق لك ما في السماوات والأرض الذي أعدّ لك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ألست مصدق ربك بهذا؟

(وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ)

الضالّ يدفع ثمن ضلاله غاليا :

ينصرونهم من دون الله إذا جاء جزاء الضلال، الضلال له جزاء، قد يظن أحدكم أن فلاناً اهتدى ـ وفلاناً ضل .

سيارة مندفعة بأقصى سرعتها، وتسير في طريق كلها انعطافات، ومن حول الطريق وديان سحيقة، هل تعرف ما هو الضلال في حق هذا السائق؟ أن يغمض عينيه، أتظن أنه إذا أغمض عينيه يبقى مغمضاً عينيه؟ أو أنه لا بد أن يهوي في وادٍ سحيق ما له من قرار!؟ هذه الحقيقة مهمة جداً، ليس

الموضوع أن فلاناً اهتدى، وفلاناً ضل، إنك مزود بشهوات تدفعك نحو إروائها، إذا كنت على هدى أحسنت السير، وإذا كان الإنسان ضالاً وفيه عمى فلا بد من أن يقع في الإساءة، لابد من أن يقع في الظلم، لابد من أن يقع في الهلاك، لابد من أن يكون تدميره في تدبيره، ليس الموضوع أنه ضلال وكفى، ما بعد الضلال، لذلك هذا الذي يضل نفسه عن الله عز وجل، ويختار طريق الدنيا، وطريق الشهوات، ويتنكر طريق الهدى، اختار الضلال، ليس الأمر كذلك، لابد من أن يدفع ثمن ضلاله غالياً، لذلك جاء قوله تعالى :

(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

حينما يغمض السائق عينيه، وهو في طريق خطرة، وسيارته مندفعة، هل هو أغمض عينيه فقط؟ أم أهلك نفسه؟ أهلك نفسه، مما ينتج عن إغماض عينيه تدهور السيارة، وعندئذ إذا تكسرت أضلاعه، أو يفقد حواسه، أو تنقطع سلسلة ظهره، عندئذ لا يستطيع أحد أن ينجيه من هذا الثمن الباهظ، من هنا جاء قوله تعالى :

(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

إذا عرفت الحق نجوت، فإن لم تعرف الحق هلكت، لماذا؟ لأنك لست كهذه الطاولة سكونيًّا، إنك إنسان متحرك، فيك شهوات، فيك ميول، فيك دوافع، فيك حوافز، فيك حاجات، فيك فتن متألقة، فتن من حولك، وشهوات في داخلك، وحاجات، وميول وحوافز، وطموحات، هذه الحركة المستمرة من دون هدى لابد من أن تطغى، لابد من أن تبغي، لابد من أن تأكل ما ليس لك، إذاً لابد من العقاب، من هنا جاء قوله تعالى :

(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ

انظرْ كيف أقسموا بالله ثم وصفوه بالعجز !!!

الحقيقة هم أقسموا بالله، أقسموا بعظمة الله عز وجل، ثم وصفوه بالعجز عن أن يبعث من يموت، مع أن خلق الإنسان مرة ثانية أهون على الله عز وجل مِن بدأ الخلق .

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)

(سورة الروم : 27)

فكان بدءُ الخلق مظهراً لأسمائه الحسنى، وسوف يعيد الخلق، ليحقق اسم الحق، لتجزى كل نفس بما كسبت، ليأخذ كل ذي حقٍ حقه .

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى)

البعث حق لا ريب فيه :

بلى لإيجاب النفي، أي سيبعث من يموت :

(بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ لو أيقن الإنسان أنه سيقف يومًا ما بين يدي الحق جل وعلا ليحاسبه على كل كلمة، وعلى كل حركة، وعلى كل سكنة، لاستقام على أمر الله، الحقيقة الكبرى حقيقة الموت التي يغفل عنها الناس .

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة الزخرف : 83)

هذه الساعة لابد آتية، الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى منه يوم انقضى بضع منه، البطولة أن تكون مهيئاً لساعة الحساب، البطولة كل البطولة أن تعدّ لهذه الساعة عدتها .

عن عبد الله بن المسور أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

((يا رسول الله، علمني من غرائب العلم، قال: ما فعلت في رأس العلم فتطلب الغرائب؟ قال: وما رأس العلم؟ قال: هل عرفت الرب؟ قال: نعم، قال: فما صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله، قال: عرفت الموت؟ قال: نعم، قال: ما أعددت له؟ قال: ما شاء الله، قال: انطلق فأحكِم هاهنا، ثم تعال أعلمك من غرائب العلم))

[ورد في الأثر]

ماذا أعددت لما بعد الموت حين تلقى ربَّك ؟

هذا سؤال مهم جداً، ما الذي صنعت في حق الله؟ ماذا أعطيت من أجله؟ ماذا منعت من أجله؟ من واليتَ مِن أجله؟ من عاديت من أجله؟ ماذا فعلت؟ ماذا بذلت؟ ماذا ضحيت؟ ماذا عملت من أجل الله عز وجل، فقال : ما شاء الله، قال : هل عرفت الموت؟ قال نعم، قال : فماذا أعددت له؟ ماذا أعددت لهذه الحفرة حيث يقول الله عز وجل للإنسان وهو في قبره أول ليلة : عبدي رجعوا، وتركوك وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، لماذا كان الصالحون من أجدادنا يشترون قبورهم في حياتهم، هذا هو

المثوى الأخير، هذا هو البيت الأخير، هنا المصير، لا بد من نزول القبر، كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، سبحان من تفرد بالبقاء، اقرأ التاريخ الناس جميعاً قد ماتوا .

كل ابن أنثى و إن طالت سلامته يومًا على آلة حدباء محمــول

فإذا حملت إلى القبور جنــازة فاعلم بأنك بعدها محمــول

***

ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله، وانقطع رزقه ألقى عليه غم الموت، فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والصارخة بويلها، والممزقة ثيابها، يقول ملك الموت: ممَّ الفزع، وفيمَ الجزع؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً، فو الذي نفسه محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم، إلى أن تخرج الجنازة فترفرف عليها نفس الميت، تقول : يا أهلي ويا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي، إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب إلى يوم النشور .

يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة، فريق جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، يقال : خذوه إلى النار، حسابه سريع، وفريق جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال، فيقال : خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام، فيقال : خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال، وأنفقه في حلال، فيقال: قفوه فاسألوه، هل قصر في فرض صلاة؟ هل تاه على من حوله؟ هل قال أهله : قصَّر في حقنا، يا رب، أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا، فقال عليه الصلاة والسلام : وما زال يسأل ويسأل .

أيها الإخوة الأكارم .

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

البطولة أن يأتي ملك الموت، وأنت مستعد لهذا اللقاء، وفي الحديث عن النبي :

((أتاني جبريل فقال : يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس))

[أخرجه الحاكم في المستدرك، والطبراني في الأوسط عن سهل بن سعد]

(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ(37)وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا)

يعني الجنة، نرجو الله أن نكون من أهلها .

حوار بين المؤمنين والمكذّبين بالبعث :

في الجنة يجري حوار طريف ممتع فيه سرور بين المؤمنين، يقول أحد المؤمنين : إنه كان لي قرين، كان لي قرين، أيْ صديق جار، أعلى، أدنى، قريب، بالدنيا .

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)

(سورة الصافات : 51 - 53)

هل أنت مصدق هذا الكلام؟ أم تقول : هذا خرافة، هذا غيبيات، هذا طرح غيبي، أنت متعلم مثقف، أتؤمن بهذا الكلام؟

(يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)

(سورة الصافات : 52 - 53)

ثم يخطر ببال هذا المؤمن أن يطلع على صديقه .

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ(55)قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِي(56)وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(57)أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(58)إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

(سورة الصافات : 54 - 59)

كان يدّعي هذا الذي في جهنم أنه لا شيء بعد الموت، ليس هناك إلا الموت، ولا شيء بعد الموت .

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(60)لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات : 60 - 61)

هذا هو الفوز، يقول سيدنا علي رَضِي اللَّه عَنْه: << الغنى والفقر بعد العرض على الله >>، لا يسمى الغني في الدنيا غنياً، هذا المال مؤتمن عليه، هذا المال ابتلاء، أما الغنى الحقيقي والفقر الحقيقي فهو غنى العمل الصالح، وفقر العمل الصالح، والغنى والفقر بعد العرض على الله .

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

قاصمة الظهر : وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

لو أنك نظرت إلى أحوال الناس، لا يمكن أن يفعلوا ما يفعلون وهم مؤمنون بأن بعد الحياة حياة، أبداً، هذا الذي يأخذ ما ليس له، هذا الذي يتلذذ بإيذاء الناس، هذا الذي يظلمهم، هذا الذي يظلم أهله، هذا الذي يأخذ مال أخيه، هذا الذي يعتدي على أعراض الناس، لا يمكن أن يفعل ما يفعل وهو يعلم أن بعد الحياة حياة، لكنه يتوقع أن الحياة هي كل شيء، والمال فيها كل شيء، فإذا جاء الموت انتهى كل شيء، والحقيقة أنه بدأ كل شيء .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر : 24)

(لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)

كل الناس يدعي أنه على حق، كل فرقة .

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

كل جماعة، كل حلقة، كل جهة، كل أمة، كل حضارة، كل مجتمع، يظن أنه محور العالم، البوذيون يحسبون أنهم على حق، والهندوس يحسبون أنهم على حق، والسيخ يحسبون أنهم على حق، والمسلمون يحسبون أنهم على حق، وغير المسلمين يحسبون أنهم على حق، ولا بد من أن يأتي يوم يبين الله لخلقه كلهم مَن هم على حق ، ليتحقق اسم الحق .

(لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ

تعبٌ من أجل شعارات تذهب أدراج الرياح :

حضارات قامت، ثم بادت، مبنية على الكذب، مبادئ كبرى ظهرت، ثم اضمحلت، أساسها الكذب، مفاجأة صاعقة أن يفاجئ الإنسان أن هذه الفكرة التي أعتنقها في حياته، وآمن بها، وسعى من أجلها، ودفع من أجلها الغالي والرخيص، والنفس والنفيس إنما هي فكرة خاطئة كاذبة، غير صحيحة، لا أساس لها من الصحة، وَاللَّهِ لهي صاعقة، ومفاجأة كبرى أن يعتقد الإنسان شيئاً غير صحيح .

إذاً حينما يعتنق الإنسان فكرة، أو مبدأ، ويسعى طوال حياته لنشر هذا المبدأ، والعمل من أجله، حينما يكتشف يوم القيامة أن هذا المبدأ خاطئ كاذب، بُني على الكذب، فهذه غلطة كبيرة جداً، عندئذ يصعق الإنسان، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ : << إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ >> .

[أخرجه مسلم]

وعن ابن عمر أن النبي قال له :

((يا ابن عمر، دينَك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذي استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[ذكره الخطيب البغدادي في الكفاية في علم الرواية]

فما ظن الإنسان حينما يأتي يوم القيامة ليرى أن كل الذي آمن به بالدنيا باطل في باطل، لذلك :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأنعام : 112)

زخرف القول، نظريات منمقة، مرتبة، مبوبة، مطبوعة، مبنية على باطل تكشف يوم القيامة، علة يوم القيامة، علة الدار الآخرة :

(لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ(39)إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

العودة سهلة، لو أن إنسانًا مات في طائرة، وأصبح جثة أشلاء، أي ذرات من الرماد، وطارت في الجو، كن فيكون، تعود هذه الذرات إلى بعضها، ليعاد خلقها يوم القيامة، لو أن الإنسان مات في البحر، أو مات في حريق، الله سبحانه وتعالى كن فيكون، يعيده تارة أخرى، وفي المركبة الفضائية (تشالنجر)بعد أن أقلعت بسبع دقائق أصبحت كتلة من اللهب، وكان على متنها سبعة رواد، أين هم؟ المركبة كلها لم يعد لها أثر، عثروا على بعض أجزاء من هيكلها في البحر .

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

التصديق باليوم الآخر من أركان الإيمان :

انتهى الأمر، لذلك الإيمان باليوم الآخر، وهو من أركان الإيمان، لأنك إذا لم تؤمن باليوم الآخر تكون قد ضللت ضلالا بعيداً، هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبب، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي .

إذا عرفت حقيقة الحياة الدنيا عرفت طريق السعادة، فإذا لم تعرف حقيقة الحياة الدنيا فالأمر خطير، لا بد من الضلال، ومع الضلال الهلاك .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (11-21): تفسير الآيات 41 – 47 ، عن الموعظة الحسنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-03-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ

الإخلاص في العمل شرط لقبوله :

ربنا سبحانه وتعالى يصف الذين هاجروا في الله، كلمة (في الله) تدل على الإخلاص في الهجرة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول كما في حديث عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[أخرجه البخاري وأبو داود وابن ماجة]

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

يعني أن قيمة العمل متعلقة بنيته، فقد يكون للرجل عمل كبير، ونيته من هذا العمل كسب سمعة، أو ارتقاء منزلة، أو شيء من هذا القبيل، هذا العمل الإنساني الكبير إذا كان بهذه النية فلا قيمة له أبداً عند الله، قال تعالى :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان : 23)

عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين بعثه إلى اليمن :

((أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ))

[أبو نعيم في الحلية]

لا يستحق أحد على وجه الأرض أن تخلص له إلا الله عز وجل، ليس في الأرض كلها جهة تستحق أن تبيع نفسك لها، أو أن تُجَيّر قدراتك لها، أما الله سبحانه وتعالى فهو أهل التقوى، وأهل المغفرة، فلذلك من أخلص بعمله سعد في الدنيا والآخرة، ومن أراد بعمله الطيب دنيا يصيبها، أو مكانة يحتلها، أو منزلة يرقى إليها، أو سمعة يصيبها، فقد خسر خسران مبيناً، فالعمل الطيب بنية طيبة كالماس، والعمل الطيب بنيِّة غير طيبة كالبلور، فَقَدَ قيمته، كقطعة ماسٍ ثمنها مئات الألوف، فإذا كانت من البلور فثمنها عشرات الليرات .

لذلك يقول الله عز وجل :

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ)

الهجرة بمعناها الواسع :

الهجرة بمعناها الواسع كما قال عليه الصلاة والسلام :

((... وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عَمْرو]

إذا تركت المنكر فأنت مهاجر، إذا قلت: إني أخاف الله رب العالمين فأنت مهاجر، وبمعناها الضيق التاريخي الهجرة هي الانتقال من مكة إلى المدينة، بمعناها الضيق المستمر هجر بلدٍ أُجبرت فيه على معصية الله إلى بلد آخر تستطيع أن تقيم فيه شعائر الله، إذا كان باب الهجرة قد أغلق من مكة إلى المدينة، فباب الهجرة مفتوح بين كل بلدين يشبهان مكة والمدينة، فالهجرة بمعناها اللغوي ترك مكان إلى مكان، بمعناها الديني الواسع هجر ما نهى الله عنه، بمعناها التاريخي الانتقال من مكة إلى المدينة، بمعناها المستمر الضيق أن تهجر بلداً أجبرت فيه على معصية الله لتقطن في بلد تستطيع أن تقيم فيه شعائر الله .

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)

الحكمة من تقدير الأذى على المؤمنين :

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يحمي عباده المؤمنين من دون أن يُظلموا، لكن صبرهم ومحبتهم وإصرارهم، هذه الصفات الراقية لا تظهر، لذلك يسمح لأعدائهم أن ينالوا منهم أحياناً، من أجل أن يثبتوا، أن يصبروا، أن يتوكلوا، أن يتابعوا طريقهم إلى الله عز وجل، كان من الممكن ألا يكون

لأنبيائه عدو، ولا لأوليائه عدو، ولكن هذه المضايقات، وهذا التضييق، إنما من أجل أن يكتشف معدن الإنسان، لذلك يوم الخندق .

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : 23)

فالمؤمن ثابت على إيمانه، وعلى حسن ظنه بالله، وعلى استقامته وعلى عمل الطيب في كل الأحوال .

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

[أخرجه مسلم وأحمد في مسنده]

الآية الكريمة :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة : 155 - 157)

الإنسان عندما يتحمل الشدة في سبيل الله، لأنه قال: لا إله إلا الله، أو لأنه دعا إلى الله، أو لأنه آثر رضاء الله عز وجل، فهذه شدة لا تعدّ مصيبة، إنما تعدّ وسيلة لمضاعفة أجره .

لذلك كان من الممكن أن يعيش المؤمن في بحبوحة ويسر، ولكن أنى لهذه الصفات الراقية أن تظهر، أنى لهذا الصبر أن يظهر، أنى لهذا التوكل أن يظهر، أنى لهذه المحبة أن تظهر، أنى لهذا الرضا بقضاء الله أن يظهر، يقول الإمام علي رضي الله عنه : " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".

المصائب محكّ الرجال :

إذاً: من الخير العميم أن يبتلى الإنسان فيصبر . عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قَالَ : الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

[أخرجه الترمذي]

سيارة لها محرك جبار بثمانين حصانًا، مثلاً، وهذا المحرك لا تظهر قوته إلا إذا كان الصعود حاداً، هل تبدو قوة هذا المحرك في منحدر، أو في سهل، لا، أيّ محرك آخر يمشي في السهل، وينطلق في

أقصى سرعته في المنحدر، ولكن الصعود الحاد به تمتحن قوة المحركات .

فلذلك المصائب محكّ الرجال، الإنسان يوطن نفسه، قد يبتلى بشدة في ماله، قد يبتلى في مصيبته في ماله، في أولاده، في نفسه، بخوف بقلق، بحزن، هذا من باب مضاعفة الأجر، لأن هذا الإيمان العالي، وهذه النفس المُحِبّة لا تبدو إلا في الظروف الصعبة .

كيف تمتحن صديقاً عزيزاً عليك؟ إذا كنت تكرمه دائماً، فكلما عاملك وأكرمته يحبك، ولكن الصديق الوفي :

إن الصديق الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

***

أردت من هذا الكلام أن أوضح هذه الفكرة :

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)

كيف سمح الله لأعدائهم أن يظلمونهم؟ سمح لأعدائهم أن يظلمونهم ليظهر حقيقتهم، إنهم يحبون الله في الرخاء والشدة، في الغنى والفقر، في إقبال الدنيا وإدبارها، أحياناً لسبب من طاعة الله عز وجل تفقد عملك، أجبرت على معصية فقلت : لا، تفقد عملك، وتظل تبحث عن عمل أشهراً طويلة، أليس بالإمكان أن تجد عملا بعد يوم واحد، ممكن، لكن الله سبحانه وتعالى يؤخر الفرج ليظهر معدنك الثمين، إنك صادق، إنك راضٍ، إنك احتسبت هذا لوجه الله عز وجل، وقد تأتي مصيبة، وطّنوا أنفسكم على تحمل الشدائد، النبي عليه الصلاة والسلام يذكر أنه ما أصاب عبد مصيبة إلا بإحدى خلتين، بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بتلك المصيبة، أو بدرجة لم يكن الله ليبلغه إياها إلا بتلك المصيبة .

يا أخي الكريم، إذا أصابتك مصيبة وأنت مستقيم على أمر الله فلها تفسير واحد، إنها مصيبة ترقية، لا بد من أن ترقى من درجة إلى درجة، عن طريق هذه المصيبة، صبرك عليها، يرفعك عند الله، استسلامك لأمر الله يرفعك عند الله، تفويضك لله يرفعك عند الله ، توكلك على الله يرفعك عند الله، رضاك بقضاء الله يرفعك عند الله فمصيبة العصاة مصيبة ردعٍ، ومصيبة المؤمنين مصيبة رفعٍ، وشتان بين الردع والرفع، الله سبحانه وتعالى يسوق الشدائد للعصاة ليردعهم عن معصيتهم، ولكنه إذا ساق الشدائد للمؤمنين فيجزيهم أجرهم بأحسن ما صبروا .

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : 10)

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

أجر المهاجر في الله :

إذا تركت بلدك، بالمعنى الضيق، إذا تركت بلدك حيث مكانتك، حيث مالك، حيث بيتك الذي شيدته، واعتنيت به، وأسسته، حيث أهلك، حيث متجرك، حيث أملاكك غير المنقولة، إذا تركت هذا البلد، وقد أجبرت فيه على معصية، وانتقلت إلى بلد آخر منطلقاً من الصفر، الله سبحانه وتعالى يعدك أن يمنحك حياةً طيبة،

(لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

نعوذ بالله من الهجرة فيلا سبيل الشيطان :

ولكن الهجرة المعاكسة نعوذ بالله منها، تكون في بلد يذكر فيه اسم الله، تقام فيه مجالس العلم، لك مجلس علم تتزود به .

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ)

(سورة البقرة : 197)

لكن لإغراءٍ مادي طفيف تنتقل إلى بلد آخر، فيه المعصية على قارعة الطريق، لا ترى من يذكر اسم الله عز وجل، المادة كل شيء، الشهوات مستعرة، الفتن يقظة، الانحرافات ميسرة، هذا البلد من أقام فيه فقد برئت منه ذمة الله، من ترك بلد تقام فيه شعائر الله، ويذكر فيه اسم الله كثيراً، تقام فيه مجالس العلم، له دخل معقول، يسكن مع أهله، إذا أنتقل إلى بلد يُكفر فيه جهاراً، تُرتكب فيه المعاصي جهاراً، انتقل إليه انتقل إليه ابتغاء نفعٍ من الدنيا، ابتغاء حطام الدنيا، فهذه هجرة في سبيل الشيطان :

((أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِمَ ؟ قَالَ : لَا تَرَايَا نَارَاهُمَا))

وفي رواية سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تُسَاكِنُوا الْمُشْرِكِينَ، وَلَا تُجَامِعُوهُمْ، فَمَنْ سَاكَنَهُمْ أَوْ جَامَعَهُمْ فَهُوَ مِثْلُهُمْ))

[الترمذي وأبو داود والنسائي عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

لا بد أن يعيشوا حياة طيبة في هذا البلد الذي هاجروا إليه، لا بد من أن يوفَّقوا في أعمالهم، لا بد من أن يوفَّقوا في معارفهم،

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

لا تعدل الدنيا عند الله جناح بعوضة :

لكن الدنيا كلها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، الدنيا كلها أصغر من أن تكون ثواباً لمسلم، لو أنك عملت أعمالاً كالجبال، وأراد الله أن يثيبك عليها في الدنيا ماذا يعطيك ؟ لقيمات تقمن صلبك، بيتًا يؤويك، ثوبًا يسترك، هذه كل الدنيا، عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ :

((أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ:]أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ [قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ؟ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ؟ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟))

[مسلم]

الدنيا كلها أصغر من أن تكون ثواباً للمؤمن، لكن ربنا عز وجل يقول :

(وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث يحدثنا عن الجنة، وفي هذا الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ :]فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [ ))

[أخرجه البخاري]

ثلاث دوائر: الدائرة الأولى دائرة المرئيات، أنت لك دائرة مرئيات، قد تعرف بلدك دمشق، وبعض المدن الأخرى، دائرة المرئيات محدودة، سافرت إلى حلب، سافرت إلى بيروت، سافرت إلى عمان، سافرت إلى بلد أجنبي، هذه المرئيات محدودة، لكن الحديث القدسي يقول :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ))

الدائرة الأوسع :

((ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ))

دائرة المسموعات أوسع بكثير من دائرة المرئيات، تسمع أنت ببلد اسمه كندا، وببلد اسمه أمريكا، أستراليا، واليابان، وبالمريخ تسمع بعطارد، تسمع بالمجرة الفلانية، هذه كلها مسموعات، ودائرة المسموعات أوسع من دائرة المرئيات بألوف ملايين المرات ، ودائرة المسموعات إذا قيست بدائرة الخواطر ليست بشيء، فأي شيء مهما يبدو لك غريباً قد يخطر على بالك، فانتبهوا لهذا الحديث :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

فلذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

[مسلم]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

الدنيا سجن ضيق جداً، لو أنه أكل أكلاً زائداً عن حاجته لاضطر إلى تخفيف وزنه، وأصيب بأمراض وبيلة، لو أنه استمتع بشيء استماعاً مبالغاً فيه لدفع الثمن بالغاً، هذه الدنيا مصممة لتكون مزرعة الآخرة، هذه الدنيا مصممة لتكون إعداداً لحياة أبدية .

فلذلك :

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

لا نستطيع أن نأتي بوصف للآخرة كوصف مَن قال : " ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر " .

المخيط إبرة، اغمسها في البحر المتوسط، واسحبها، بماذا رجعت؟ ما الماء الذي حمله المخيط؟ أقلّ من قطرة، أقلّ من نصف قطرة، أقلّ من عشر قطرة، قس، انسبْ هذا الذي حمله المخيط إلى مياه البحر كله، هذه الدنيا، وتلك الآخرة، فربنا عز وجل أحياناً يشفق علينا فيقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : 38)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

(سورة النساء : 77)

هكذا ينبئك الجليل أن متاع الدنيا قليل، ألا تصدقه ؟ سنوات ويأتي ملك الموت، من أجل أن تبدأ الحياة كما تشتهي في الأربعين، والأربعون سن النذير، بعد الأربعين يوجد متاعب صحية، يوجد شعور بالضعف، يوجد انحناء بالظهر، شيب بالشعر، ضعف في البصر، ضعف بالذاكرة، طبعاً هذا لمن وصل إلى ما يبتغي، فكيف بمن لم يصل ؟

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : 77)

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

لزوم صفتي الصبر والتوكل في المؤمن :

قال المفسرون: " إن هاتين الصفتين؛ الصبر والتوكل هما ألزم صفتين بالمؤمن " .

(الَّذِينَ صَبَرُوا)

الصبر للمؤمن معالجة ربانية :

لماذا هم يصبرون؟ لأن الله عز وجل يتولى معالجتهم، ونقلهم من مرتبة إلى مرتبة، لا تظن أن حياة المؤمن رخيصة على الله عز وجل، حياة المؤمن غالية على الله، لذلك: وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أريد أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتارًا في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدت أمه .

وازن بين طفل في الحضانة وعالم جليل، عالم كبير، هذا العالم كم من ليل سهر؟ كم من عمل قام به؟ كم مرة جاهد نفسه وهواه؟ كم من مجلس علم جلس فيه على ركبته ساعات طويلة حتى أصبح بهذا العلم؟ أهكذا تكون الدنيا؟ لابد من أن ينقلنا الله عز وجل من مرتبة إلى مرتبة، من حالة إلى حالة، لا بد من معالجة، هذا الذي يبدأ طريق الإيمان يحتاج إلى معالجات طويلة، عنده شيء من الكبر، هذا يحتاج إلى معالجة، عنده شيء من التفريط، والإسراف، عنده اعتزاز قارب الشرك، اعتزاز بنفسه، هذا كله يحتاج إلى معالجة، لذلك المؤمن يقلبه الله عز وجل، فالذين صبروا على معالجة الله لهم نجحوا، وما مِن مصيبة بلا هدف، هذه مستحيلة .

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى : 30)

فالمصيبة للمؤمن معالجة، تنقية، وترقية، ودفع، وكشف، ورفع للمؤمن، أما لغير المؤمن فالمصيبة قصم وردع، فهذه المصيبة تقتضي الصبر، إذا أهمل الإنسان أسنانه، فنخر بعضها، فذهب إلى الطبيب، وأراد أن يعالج هذا السن، ألا يحتاج الطبيب إلى مخدر، أو إلى حفر هذا السن، قد تصل آلته إلى العصب، فيصيح المريض من شدة الألم، لكن العملية كلها في مصلحته، لماذا يصبر المريض؟ لأنه موقن أن ما يجري في أسنانه لمصلحته، وأن هذا الذي يفعل ما يفعل في أسنانه إنما هو طبيب عالم،

خبير، إنه يؤلمه، ومع هذا يعطيه الأجر، ويشكره على عمله، كما تصبر عند طبيب الأسنان فيجب أن تصبر على الواحد الديان، لأنه يعالجك بعلم وخبرة ورحمه .

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

المخاوف كثيرة فلذلك لزم الصبر :

لأن المخاوف في المستقبل أكثر من أن تحصى، وأكبر من أن يحتملها إنسان، ففي مجتمع الكفر هناك مخاوف لا تعد ولا تحصى، كل جهة مصدر قلق ، كل حركة، كل سكنة، كل كلمة يقرؤها الإنسان يتسرب الخوف إلى قلبه، لكنك إذا عرفت الله عز وجل، وآمنت بالله بث الله الطمأنينة في قلبك، وشعرت بسكينة لا يعرفها إلا من ذاقها، تكفي أن تقرأ قوله تعالى :

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

(سورة الطور : 48)

لتشعر أن الدنيا كلها لا تعدل هذه الحالة .

يكفي أن تقرأ قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت : 69)

يكفي أن تقرأ قوله تعالى :

(هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

يكفي أن تقرأ قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : 21)

نعمة الصبر لا يعرفها إلا من ذاقها :

نعمة الصبر والتوكل الحقيقي لا يعرفها إلا من ذاقها .

الحقيقة دائماً أقول لكم: قل مئة مليون، قل : مئة ألف مليون، بين أن تقولها بلسانك، وبين أن تملكها بيدك، ما أبعد الحالتين، كل واحد منا بإمكانه أن يقول : مئة ألف مليون، ولكن امتلاك هذا المبلغ شيء،

وأن تلفظ هذا الرقم شيء آخر، فأن تقول : توكلت عليك يا رب، وأنت غير متوكل، وأنت تخاف من زيد أو عبيد، ترجو فلاناً أو علاناً، هذا كلام تقوله، ولكنك إذا كنت متوكلاً يقع الشيء الذي لا يصدق .

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء : 61)

بالمنطق فرعون من ورائهم، بجيشه، ورجاله، وعتاده، والبحر من أمامهم، وهم قلّة مستضعفة تهيم على وجهها .

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

سيدنا إبراهيم ألقي في النار، قال تعالى :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء : 69)

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام دخل إلى غار ثور، عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهم قَالَ :

((قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

[أخرجه البخاري]

ثم وقعت عين أحد المطاردين على عين أبي بكر، العين على العين، هو صدِّيق، لكنه دون مرتبة النبوة، فقال : يا رسول الله، لقد رأونا، قال له : يا أبا بكر، ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف : 198)

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

ثم ضع نفسك بالذل له قبل أن النفس قهراً تضعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك ؟

****

كنت لا شيء فأصبحت به خير شيءٍ، فلا يعرف لذة التوكل إلا من ذاق طعم التوكل .

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهن أمان

****

الحياة العصرية مليئة بالمقلقات، في كل المجتمعات تقريباً، كراكب مركبته، هناك أخطار كثيرة، أن ينام السائق فيدخل فيه سائق آخر، أخطار لا تعد ولا تحصى، إذا ركب مركبته، إذا دخل إلى دكانه أخطار، إذا استعمل جهازاً كهربائياً .

فمصادر القلق لا تعد ولا تحصى، فإذا كان الأجداد بحاجة إلى التوكل قيراطًا، فنحن بحاجة إلى التوكل آلاف المرات .

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

ثم قال عزوجل :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

سبب نزول الآية :

جاء في أسباب نزول هذه الآية أن بعض المشركين قالوا: إن الله أجل وأعلى أن يبعث رسولاً بشراً، خالق السماوات والأرض يبعث رسولاً من البشر! فقال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا)

الرسول بشر :

أيْ أنت رسول من البشر، والذين أرسلوا من قَبْلك رسل من بني البشر، لأنه لولا أن يكون الرسول من بني البشر لم تقم الحجة على العباد، أول كلمة تقولها : هذا ملك، وأنا بشر، أول كلمة يقولها من تدعوه إلى الله، إذا دعا الملك البشر إلى الله قالوا: أنت ملك، لا تشتهي، نحن بشر نشتهي، لذلك يجب أن يكون الرسول من بني البشر، لأنه يشتهي ما يشتهون، ويرضيه ما يرضي الناس، ويغضبه ما يغضبهم، ويحب ما يحبون، ويكره ما يكرهون، بشر، يجوع، يعطش، يتعب، يضنى .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ)

لا تكون المرأة نبيا ولا رسولا :

واستنبط العلماء من هذه الآية أنه لا يمكن أن تكون المرأة نبيَّة .

(يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(سورة آل عمران : 43)

بلغت المرأة مرتبة الصديقيّة، قال تعالى :

(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ)

(سورة المائدة : 75)

هذا عن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فالمرأة بلغت أعلى مستوى لها، بلغت مرتبة الصديقة، أما النبوة فهي في الرجال فقط، طبعاً لا لأن الرجال من نوع آخر، ولكن طبيعة المرأة لا تناسبها لتكون نبية، أحياناً يتلقى الإنسان درساً من مدرِّسة، قد ينصرف ذهنه لا إلى كلامها، إلى شيء آخر، هذه مفسدة .

لذلك :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

وجوب سؤال أهل الذكر عند عدم العلم :

هذه الآية أمر إلهي، والأمر الإلهي يقتضي الوجوب، بمعنى أن كل إنسان مكلف أن يسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم، لأن أهل الذكر هم أهل العلم .

العصمة للأنبياء :

بالمناسبة أجمع العلماء على أن العصمة للأنبياء فقط، وأما أهل الذكر فليسوا معصومين، ومن الممكن لإنسان أن يكون من أهل الذكر، وقد يغلط، فالعصمة للأنبياء، ومع ذلك فأنت أمرت أن تسأل أهل الذكر، هناك غلط في الجزئيات أحياناً، قد يحصل سهو، يحصل نسيان، يحصل خطأ، أما الأنبياء فهم معصومون عصمة كاملة، لكن أهل الذكر ليسوا معصومين، ولا يمنع عدم عصمتهم من أن نسألهم، ونقتدي بهم، وأن نتعلم منهم، أما أن يدعي إنسان بعد النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يخطئ فهذا ادعاء مرفوض، لأن أهل الذكر ليسوا معصومين، والله سبحانه وتعالى أمرنا أن نسألهم :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

الذين يذكرون ما تجهلون، هذه العلاقة هل هي علاقة ربوية، أم هي علاقة مشروعة ؟ اسألوا أهل الذكر، هذه الطريقة في البيع صحيحة أم فاسدة ؟ اسأل أهل الذكر، هذا عقد الزواج صحيح أم باطل؟ صحيح أم فاسد؟ اسأل أهل الذكر، هذه الزكاة لمن أدفعها؟ اسأل أهل الذكر، هذه الآية ما معناها؟ اسأل أهل الذكر، هذه الزوجة كيف أعاملها؟ اسأل أهل الذكر، هذه الديون كيف أحصلها؟ أأحسم السندات؟ اسأل أهل الذكر :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

السؤال استعارة لعقل المسؤول :

إن كنت لا تعلم فغيرك يعلم، لذلك أنا أعجب ممن لا يسأل ، وإذا سألت إنساناً فقد استعرت كل عقله، وذكائه، وخبرته في الحياة، وعلمه، وفضله، بهذا السؤال بلا مقابل، اسأل يا أخي، كم من إنسان وقع في ورطة كبيرة، سلك طريقاً شائكاً، وقع في انحراف مهلك، ضاع منه ماله كله، لأنه لم يسأل، اسأل كيف أقرضه هذا المبلغ؟ كيف أكتب هذا العقد؟ كيف أحدد هذه الشركة؟ كيف أحل هذه الشركة؟ كيف أعامل شريكي؟ اسأل يا أخي، في العلاقات المالية، في عملك، في حرفتك، في بيتك، مع أولادك، مع زوجتك، مع جيرانك، مع من هم أعلى منك، مع من هم أدنى منك، أحياناً الإنسان يترك شيئاً هو حلال يتوهم أنه حرام، فيتركه، يبقى بلا دخل، يصبر شهرًا، ثم ينتكس، اسأل أهل الذكر قبل ترك هذا العمل، اسأل أهل الذكر، هل يجوز أن أتركه بلا عمل آخر، هل أتركه فوراً أم على التراخي؟ اسأل أهل الذكر، سؤال أهل الذكر يعني أنك استعرت منهم علمهم، وخبرتهم ، والنور الذي أودعه الله فيهم، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((ما خاب من استشار، ولا ندم من استخار))

[ذكره العجلوني في كشف الخفاء]

الاستشارة لأهل الخبرة من المؤمنين، والاستخارة لله عز وجل، ففي كل أمر يباح استخر الله أولاً، واستشر من تثق بدينه ثانياً .

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

هذه خاصة بالعلماء، حدثك عالم سنوات طويلة بكلام استفد منه، مرة مثلاً ألقى على سمعك حديثاً راجَعْته، فإذا هو ضعيف، هو من أهل الذكر، لأنه ليس معصوماً، هو بشر، من أهل الذكر، لو كان نبيًّا حاسبه حساباً شديداً، هو ليس معصوماً، فلا تعط الإنسان حجماً فوق حجمه، إنسان يبذل وسعه ليقدم لك ما يستطيع، أما أن تحاسبه على كل حركة وسكنة فأنت لا تعلم هذه الآية .

إذاً :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

يمكن لمدرِّس رياضيات شهير أن يضع محل إشارة الزائد إشارة الناقص سهواً، أتضرب عن حضور دروسه؟ لا، أنبهه إلى هذه الغلطة، وقد تكون سهواً، وأتابع الحضور عنده لأستفيد منه .

فالإنسان لا يرفع الناس إلى حجم فوق حجمهم، هذا هو الشرك، كل إنسان له حجم،

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

نصف العلم (لا أدري) والغلط وارد :

قال بعضهم : نصف العلم لا أدري، إذا قلت : لا أدري فأنت نصف عالم، عرض عليك سؤال قل : لا أدري، سأراجعه، هل من المفروض أن تعلم كل شيء، من ادعى أنه يعلم كل شيء فلا يعلم شيئاً، فهناك أناس متبحرون في المواريث، وهناك أناس متبحرون في الفقه، وهناك أناس متبحرون في التوحيد، هناك أناس متبحرون في التفسير، هناك أناس متبحرون في علم الحديث، هناك أناس متبحرون في العلم بالله، وهذا أعلى مستوى، طبعاً العالم ملِمٌّ بكل فروع العلم إلماماً إلى حد ما، أما أن يحاسب على كل كلمة فهو ليس معصوماً، فإذا الإنسان وضع الناس في حجمهم الحقيقي سهل التعامل معهم، أما إذا رفعهم إلى حجمٍ يفوق حجمهم عندئذ يقع في أزمات حادة في أثناء التعامل معهم، قال :

((اللهم إني بشر أنسى كما ينسى البشر))

[ورد في الأثر]

يمكن أن تصلي الظهر ثلاث ركعات سهواً، لماذا شرع سجود السهو ؟ لأن البشر قد يسهون :

((اللهم إني بشر أنسى كما ينسى البشر))

أحياناً يحتكم عندك اثنان، أحدهما ألحن بالحجة من الآخر، فتقضي لصاحب الحجة، وقد يكون ظالماً، أنت بشر، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ، وَلَا أَمْلِكُ))

قَالَ أَبُو دَاوُد : يَعْنِي الْقَلْبَ .

[أبو داود، الترمذي، النسائي، ابن ماجه]

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[متفق عليه]

هذا شأن البشر، ينسى، يغلط، يتسرع أحياناً، لكن لا يمنع هذا من أن تأخذ من علمه وأن تستفيد منه، لأن الإنسان خُلق ضعيفاً، طبيعة الإنسان ضعيف، أحياناً ينسيه الله حتى يحجمه، قد ينسيه الله عز وجل حديثاً هو في أمسّ الحاجة إليه، لأنه دخل ليلقي على الناس درساً، ولم يفتقر إلى الله افتقاراً كافياً، لم يقل قبل أن يدخل: اللهم إن أعوذ بك من حولي وقوتي، وألتجئ إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين، على قدر افتقارك يكون المدد، فكلما افتقرت إلى الله أكثر كلما كان التجلي والمدد أكثر .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(43)بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

الأنبياء جاؤوا بالبينات والمعجزات :

جاؤوا أقوامهم بالبينات، البينات هنا المعجزات الظاهرات، يعني أن تنقلب العصا إلى أفعى، هذا شيء يفوق طاقة البشر، هذا الكتاب من البينات، طبعاً فرَّق العلماء بين البينات وبين الزبر، الزبر الكتب السماوية، بينما البينات المعجزات الظاهرة، فالنبي غالباً أو الرسول مزوَّد بمعجزة يؤكد بها أنه مرسل من عند الله، ومزود بكتاب يوضح للناس طريق الخير من الشر،

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

الذكر هو القرآن ، وفيه بيانُ كلِّ شيء :

هذا الذكر هو القرآن، فيه ذكر كل شيء، فيه ذكر الأقوام السابقة، فيه ذكر ما سيكون في قيام الساعة، فيه ذكر الحلال والحرام، فيه ذكر الحق والباطل، فيه ذكر الخير والشر، فيه مشاهد من يوم القيامة، فيه كل ما نحتاج، هو كتاب هداية ورشد، كل شيء يحتاج الإنسان في الدنيا ليهتدي إلى الله عز وجل يجده في هذا الكتاب، لذلك :

(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

العلاقة بين الزوجين مذكورة في القرآن الكريم، العلاقة بين الإخوة مذكورة في القرآن الكريم، العلاقة بين القوي والضعيف مذكورة في القرآن الكريم، العلاقة بين الشريكين مذكورة في القرآن الكريم، أصول البيع مذكورة، الزواج والطلاق، وكل شيء نحتاجه مذكور في القرآن الكريم، لذلك :

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

إذاً التدبر في هذا الكتاب أمر إلهي، فالله سبحانه وتعالى ينتظر منا أن نقرأه بتمعّن، وتدبر، وتفهم، وتعقل، لا أن نقرأه قراءة جوفاء لا معنى لها، والدليل هذه الآية :

(وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

فيما نزل إليهم، تفكر في هذه الآيات .

أحاديث النبي الصحيحة تبيان لما في القرآن :

شيء آخر، استنبط العلماء من هذه الآية أن النبي عليه الصلاة والسلام في كل ما قاله من أحاديث شريفة تنطوي تحت هذه الآية، النبي عليه الصلاة والسلام يبن للناس ما نزل إليهم :

((إياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن ؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء))

[القضاعي في مسند الشهاب عن أبي سعيد الخدري]

الله عز وجل قال :

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

(سورة البقرة : 221)

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فمن تزوج المرأة لجمالها أذله الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، فعليك بذات الدين تربت يداك، هذا الحديث يبين هذه الآية .

و:

((إياكم وخضراء الدمن، قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء))

هذا الحديث يبين هذه الآية، فكل أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشكل أو بآخر هي تبيان واسع جداً، وتفصيلٌ كبير لِما في القرآن الكريم :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(45)أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ(46)أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ

احذرْ نقمة الله يا مَن يمكر السيئات :

هذه الآية تقصم الظهر، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ)

والعياذ بالله هذا الذي يمكر السيئات، هذا الذي يبني مجده على أنقاض الناس، هذا الذي يؤذي الناس،

هذا الذي يتلذذ بمصائب الناس، هذا الذي يبث الخوف في قلوب الناس، بلا شيء، هذا الذي يمكر السيئات، كيف يأمن مكر الله عز وجل؟

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

للعذاب مصادر خفية على الإنسان :

للعذاب مصادر خفية على الإنسان، قد يذهب إلى نزهة، فيفاجأ بحادث قضى عليه، أو جعله مشلولاً، أو جعله مصاباً إصابة بالغة، أو جعله ذا عاهة دائمة، فهذا الذي يمكر بالناس السوء لو يعلم أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه حساباً عسيراً ماذا كان يفعل ؟ من يعتدي على حيوان أحياناً يدفع الثمن غالياً .

سمعت عن رجل دهس كلب تسلية لعباً، بعد أسبوع قطعت يداه بحادث، بعد أسبوع واحد

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

هذه المدن الضخمة التي كانت تمكر السيئات، كيف أصابها الزلزال فأصبحت قاعاً صفصفا، أصبحت أثراً بعد عين،

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

هناك أخبار تأتي كالصاعقة، فجأة يقال له: إن كل ما تملكه قد احترق، هناك أخبار قد لا يحتملها الإنسان، أطباء القلب عندهم حالات من هذا القبيل، أكثر الأزمات القلبية أسبابها نكبات لا يستطيع الإنسان تحملها، يصاب بنوبة قلبية، يؤخذ إلى المستشفى .

لذلك ربنا عز وجل قال: هذا الذي يمكر السيئات ألا يخاف أن يخسف الله به الأرض ؟

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(45)أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ

المعنى الأول : مجيء العذاب والناس في مشاغلهم منهمكون :

هم في حياتهم اليومية، في محلاتهم التجارية يبيعون ويشترون، في سهراتهم، في ندواتهم، في نزهاتهم، في احتفالاتهم، في مرحهم، في فرحهم، في أوقات راحتهم، في أوقات جدهم، في أوقات عملهم،

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : مجيء العذاب والناس يتقلبون في النعم :

وهم يتقلبون في النعم، قد يأخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ

العلماء في هذه الآية لهم تفسيرات .

المعنى الأول : الخوف من المحذور :

إن الإنسان أحياناً يصاب بالخوف، يخاف من جهة ما، يخاف، هذا الخوف يتصاعد، ويتصاعد إلى أن يقع المحذور، هذا شيء يقع، يقول لك: أخاف أن يسألوني، وأخيراً سألوه، ووقع المحذور .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)

المصيبة إما أن تقع عن غير توقع، كما قال تعالى :

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

أو تقع بعد التوقع :

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)

المعنى الثاني : النقص في الموادّ :

التخوف النقص، نقص في المواد، نقص في الخيرات، نقص في المحاصيل، نقص في المواد الأولية، شبح مجاعة، ثم يؤخذون، فالتخوف إما أن يأخذهم بمصيبة يتوقعونها، أو أن يأخذهم أخذاً بطيئاً، إلى أن يتلاشى الإنسان .

على كل هذا الذي يمكر السيئات لا بد من أن يخسف الله به الأرض، أو أن يأتيه العذاب من حيث لا يشعر، أو أن يأخذه وهو في قمة نشاطه، أو عمله، أو أن يأخذه على تخوف،

(فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

علاقة خاتمة الآية بصدرها :

ما علاقة آخر هذه الآية بصدرها ؟ العلاقة أن الله عز وجل قادر دائماً وأبداً أن يأخذ هذا الإنسان بشرّ عمله، لماذا يؤخره؟ رأفة به ورحمة، يعطيه فرصة كي يتوب، قد يفعل الإنسان عملاً يستحق الهلاك، و الله سبحانه وتعالى لا يهلكه، لماذا لا يهلكه؟ رأفة به ورحمة، لعله يعود، لعله يرجع، لعله يصحو، لعله يذكر، لعله يندم، لعله يفكر .

(فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

بمعنى أن الله عز وجل لم يأخذهم على تخوف، أو لم يأخذهم بعد وهم لا يشعرون، أو لم يخسف الله بهم الأرض بعد، لأنه رؤوف بهم ورحيم، لكن إذا استمروا، وأصروا فلا بد من أن تقع هذه الآيات واحدة واحدةً، أن يخسف الله بهم الأرض، الزلازل، الصواعق، البراكين،

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

الأمراض، أو يأخذهم في تقلبهم، مفاجأة، وهو في عمله وقع مغشياً عليه، أصيب بشلل دائم،

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)

يعني قبل أن تأتي المصيبة، ينخلع قلبه لها مئات المرات قبل أن تأتي، أو هذا الموت البطيء، نقص المواد يغضي إلى التلف،

(فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (12-21): تفسير الآيات 45 – 55 ، عن الموعظة الحسنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-04-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

نعمة الأمن لا يعرفها إلا المؤمن :

الحقيقة أن نعمة الأمن لا تعدلها نعمة، أن تطمئن إلى أنه لا يصيبك مكروه، هذه النعمة لا يعرفها إلا المؤمن، قال تعالى :

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام : 81-82)

السلامة ألا يقع الشر، ولكن الأمن ألا تتوقع حدوث الشر، وشتان بين السلامة والأمن، قد يكون الإنسان في أقصى درجات السلامة، ولكن قلبه يكاد ينخلع قلقاً، مرض العصر هو القلق .

ثمة كتابٌ حديث عنوانه:(خوف الموت)، يذكر فيه المؤلف أن في حياتنا أشياء نحبها، وأشخاصا نحبهم، وأوقاتاً نألفها، وأماكن نتوق إليها، وفي حياتنا أشياء، وأشخاص، وأوقات، وأماكن نخاف منها، ونكرهها، قال مؤلف هذا الكتاب: لو جمعت كل المخاوف، وكل المقلقات، وكل الأشياء التي تبعث في النفس الذعر، لو جمعتها كلها لا تعدل ذرة من قلق الموت، لماذا؟ لأن المرض قد ينتهي بالشفاء، وأن هذه الورطة قد تنتهي بالسلامة، وأن دخول السجن قد ينتهي بإطلاق سراح السجين، وأيّ مصيبة تحيط بالإنسان لا بد من فرجة ينفذ منها إلى الطمأنينة، ولكن الموت إذا أصاب الإنسان انتهى كل شيء، لذلك في الساعة التي يتيقن الإنسان أنه سيغادر الدنيا يتسرب إلى قلبه من الحزن ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، ولكن هذا الكتاب الذي ألّف تحت عنوان: (قلق الموت)أعجبني فيه شيء واحد، أن المؤلف لم ينس أن يستثني المؤمن من قلق الموت، إنه يقول: إلا المؤمن، فإن الموت يعد بالنسبة إليه مصدر سعادة وطمأنينة .

تروى، وهذه قصة رمزية، أن ملك الموت حينما أتى إبراهيم عليه السلام، وعرف إبراهيم هذا النبي العظيم أنه لا شك ميت، فقال لملك الموت : أيمكن أن يميت الحبيب حبيبه ؟ فأوحى الله له : أن يا إبراهيم أيكره المحب لقاء حبيبه؟ الموت بالنسبة للمؤمن مصدر سعادة وطمأنينة، لأن كل حياته بما فيها من طاعة، وبذل وتضحية، واستقامة، وانضباط، هذه كلها سوف يلقى نتائجها عند الموت .

أحد أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سعد بن الربيع تفقده النبي فلم يجده، فكلف صحابياً جليلاً للبحث عنه، وكان هذا في أعقاب معركة أحد، فعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ :

((لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ؟ فَقَالَ رَجُلٌ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَطُوفُ بَيْنَ الْقَتْلَى، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : بَعَثَنِي إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِآتِيَهُ بِخَبَرِكَ، قَالَ : فَاذْهَبْ إِلَيْهِ، فَاقْرَأْهُ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُ أَنِّي قَدْ طُعِنْتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ طَعْنَةً، وَأَنِّي قَدْ أَنْفَذْتُ مَقَاتِلِي، وَأَخْبِرْ قَوْمَكَ أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَاحِدٌ مِنْهُمْ حَيٌّ))

[مالك في الموطأ]

ما هذه السعادة التي انغمس فيها هذا الصحابي الجليل؟ لذلك خوف الموت لا يصيب المؤمن، إن الموت عرسه، وإن الموت تحفة المؤمن، وفي الموت يسعد الإنسان بلقاء الله عز وجل .

فلذلك :

(أَفَأَمِنَ)

الإنسان في خوف وقلق :

هل أنت مطمئن؟ أغلب الظن أن أهل الدنيا لا يطمئنون، ولو كانوا في أوج نجاحهم، وفي أوج قوتهم، وفي أوج غناهم، إن القلق يأكل قلوبهم، قال بعضهم: " توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، وأنت من خوف المرض في مرض، وأنت من خوف الفقر في فقر "، وإن المرض الذي يعاني منه العالم أجمع المنقطع عن الله عز وجل هو القلق، شبح السرطان في أمريكا وأوربة يأكل القلوب، شبح مرض الإيدز يخيف الناس، شبح أمراض القلب، شبح الحوادث، شبح الحريق، إن حياة الناس من دون إيمان حياة مشحونة بالمقلقات، لذلك الكتب التي تؤلف حول موضوع القلق يباع منها مئات الملايين، هناك قلق عميق، فهؤلاء الذين يمكرون السيئات هل يأمنون؟ هل يطمئنون؟ هذا الذي يفكر كيف يؤذي زيداً، أو كيف يؤذي عبيداً، أو كيف يأكل مال فلان، هذا الذي يضع أمام إنسان عراقيل كي يبتز ماله، هذا الإنسان هل يدري ما سيكون ؟ هل يدري بماذا سيفاجأ بعد حين، هذا الذي يفكر كيف يؤذي، وكيف يأخذ ما ليس له، وكيف يفعل، ويفعل، وكيف يبني مجده على أنقاض الناس، وكيف يأخذ مما عندهم من

دون حق، هذا الذي يمكر السيئات هل يدري ما سيكون؟ هل يدري بماذا سيفاجأ بعد أيام؟ أو بعد أسابيع؟ أو بعد أشهر؟ أو بعد سنوات ؟

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

رب السماوات والأرض، رافع السماوات بغير عمد يقول :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

مدن كثيرة خسف الله بها بسبب المعاصي :

مدن من أجمل مدن العالم تستقبل السياح الأجانب، وهذه المدن على سواحل البحار، وفيها المنتجعات، وفيها الفنادق، وفيها الغرف المفروشة، وفيها المتنزهات، وفيها الشواطئ والنوادي، هذه المدن في ثلاث دقائق أصبحت أثراً بعد عين، مدينة أغادير في ثلاث دقائق، فندق ارتفاعه ثلاثون طابقا خسف به، ولم يبق على وجه الأرض إلا الطابق الأخير، وعليه لافتة كتب عليها اسم الفندق .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ)

بعض البلاد سمعنا عنها في الأخبار في كولومبيا ضربها زلزال، أو ثار فيها بركان، زاد في الثلوج مع ثورة البركان، وانهمرت السيول، فأغرقت المدينة، وجاء بعدها السحاب البركاني فأحرقها، أغرقها، ثم أحرقها، في سويعات كان عدد الضحايا يزيد على خمسة وثلاثين ألفاً .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

في بعض البلاد حصل زلزال، قضى على عشرات الألوف، بل مئات الألوف، قيل وقتها : إنهم لا يملكون وسائل علمية لمعرفة وقت الزلزال، فبقي الناس ينتظرون أخباراً دقيقةً عن الهزة الثانية، قبعوا في منازلهم، أو قبعوا في الطرقات، وفي الحدائق العامة حتى يئسوا من وقوع الهزة الثانية، فلما دخلوا إلى بيوتهم جاءت الهزة الثانية، فقضي على عشرات، بل مئات الألوف الأخرى .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ)

إنسان يسكن في بيت اشتراه بمليون ليرة، هذا البيت بقاؤه منوط برحمة الله، لو أن هزةً طفيفة أصابت القشرة الأرضية لأصبحت كل هذه البيوت قاعاً صفصفاً .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا(105)فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا(106)لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا)

(سورة طه : 106)

تقول: أنا أملك هذا البيت، الملك لله، هذا البيت قائم برحمة الله، لو أن هزة أرضية أصابت أي مكانٍ لتداعت البيوت، ولأصبحت فوق بعضها، قس على هذه الحالة أن الإنسان إذا ركب مركبة، إذا ركب باخرة، إذا ركب طائرة، ما لذي يضمن له أن يصل؟ ألم نسمع دائماً أن هذه الطائرة احترقت، ومات جميع ركابها، ألا نقرأ في أكثر النعي إثر حادث أليم، فهذا الذي يمكر السيئات هل يدري كيف يموت؟ أيموت في حادث؟ أيموت حريقاً؟ هناك وسائل كثيرة، هذه الآية طبقها على كل الحالات :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ)

قد يقول قائل: لمْ نر أن الأرض قد خسفت فيما حولنا، وهناك حوادث فردية، إن لم تر حادثاً جماعياً فهناك حوادث فردية، فالذي يمكر السيئات لابد من أن يهلكه الله، أو لابد من أن يقصمه الله عز وجل . لذلك نعمة الأمن لا يعرفها إلا من ذاقها .

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش : 4)

وقال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

فإذا عرفت الله، واستقمت على أمره، وكان عملك طيباً، أذاقك الله عز وجل طعم الأمن، وهذا الطعم لا يوصف، لكن من ذاقه يعرفه، في قلبك طمأنينة لو وزعت على العالم لكفتهم .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

***

تشعر بالراحة والطمأنينة، تقرأ قول الله تعالى :

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

(سورة الطور : 48)

لا تسعك الأرض، خالق الكون يتعهدك بالرعاية .

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

(سورة الحج : 38)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدًّا)

(سورة مريم : 96)

هل تخشى أحداً؟ لا تخشى إلا الله، فهؤلاء الذين مكروا السيئات، هؤلاء الذين يفكرون أن يوقعوا الأذى بالآخرين، هؤلاء الذين يفكرون في اغتصاب أموال الناس، توفي الأب، وترك مالاً طائلاً، كبير الإخوة أراد أن يغتصب مال إخوته، هذا الأخ الأكبر، وهو يفكر في اغتصاب مال إخوته هل يضمن أنه سيعيش كي يستفيد من هذا المال ؟ الله سبحانه وتعالى قد يقصمه .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

مصادر العذاب لا تعد ولا تحصى .

مصادر العذاب لا تعدّ ولا تُحصى ولا يُشعَر بها :

أعرف شاباً في ريعان الشباب بدأ يحس بآلام مبرحة في مفاصله، ذهب إلى الأطباء، توقعوا أن معه فقر دم، لأن آلام المفاصل من أعراض فقر الدم، فحص دمه فإذا النسبة منخفضة، ما السبب ؟ قصة طويلة، ملخصها أن الطحال الذي هو مقبرة لكريات الدم الحمراء بدل أن يأخذ الكرة الحمراء الميتة فيحللها إلى هيموغلوبين، وإلى حديد، صار يأخذ الكرة الميتة، والكرة الحية، أخذت خزعة منه إلى بلاد غربية لفحصها، فرط نشاط في الطحال، ليس ورماً خبيثاً، لا، ليس كفًّا عن العمل، لا، فرط نشاط في الطحال، وانتهى به الأمر إلى الوفاة، أي خطر؟ يوجد مليار خطر، إذا توقف الطحال عن العمل مشكلة، وإذا عمل عملاً فوق الحد المعقول مشكلة الطحال والبنكرياس مشكلة، والمعدة مشكلة، والأمعاء مشكلة، والكبد مشكلة الطحال والجملة العصبية، والمخ، والمخيخ، والبصلة السيسائية، والنخاع الشوكي، والجملة الودية، ونظيرة الودية، والشرايين والأوردة، والأجهزة، والقلب والدماغ، يوجد مليون خطر بالجسم، وبالعمل، وبالحركة، وبعلاقتك مع الآخرين، لولا الإيمان بالله عز وجل، لولا الطمأنينة إلى عدالة الله، وإلى حفظ الله، وإلى توفيق الله، وإلى أن الله يدافع عن الذين آمنوا، لولا هذه التطمينات لانقلبت حياة الناس إلى جحيم، ولكن المؤمن مستسلم لله عز وجل، راضٍ بحكمه متوكل عليه .

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

أعرف رجلاً أعماله سيئة جداً، يحب كسب المال من أي طريق، من طريق حلال، من طريق حرام، بشكل مشروع، بشكل غير مشروع، وهو تاجر كبير، ويزداد غنىً، وعنده أموال طائلة، حادث طفيف في البيت وقف على كرسي، فانزلق به الكرسي، أحدث في مقعده جرحاً بليغاً، انتهى به الأمر إلى الموت خلال ثلاثة أيام، ما كان هذا الخطر خاطراً بباله .

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

تكون النهاية على أتفه سبب بسبب تافه جداً بسبب طارئ .

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

هذا الذي يمكر السيئات، هذا الذي يفكر كيف يؤذي الناس، كيف يأخذ أموالهم، كيف يعتدي على أعراضهم، كيف يستغلهم، كيف يفعل بهم ما يفعل، هل يأمن مكر الله عز وجل ؟

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

فجأة، العوام يستعيذون من ساعة الغفلة، ويظنون أن ساعة الغفلة هي الساعة التي يأتي بها العذاب من حيث لا يشعر الإنسان، ولها معنى آخر، ساعة الغفلة عن الله تسبب خبراً يأتيك على غفلة، ساعة الغفلة تسبب مصيبة تأتي على غفلة، فلذلك :

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45)أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ

الإنسان بين بيته وعمله، ومتجره، ودائرته، في أثناء البيع، في أثناء الشراء، في أثناء عقد صفقة، في أثناء دفع الثمن، في أثناء قبض الثمن، قبل بيع الأرض، بعد بيع الأرض، وهو في الطريق، وهو في النزهة، وهو على ساحل البحر، وهو في فندق، وهو في مكتبه الفخم، وهو في بيته،

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

الإنسان لا يعرف، إذا كان منحرفاً، أو معتدياً، أو عمله سيئ، كيف يأخذه الله؟ يأخذه وهو نائم، يأخذه وهو مسافر، يأخذه وهو في متجره، يأخذه وهو يعقد صفقة، وهو يقبض الثمن .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

وهم في نشاطهم اليومي، وهم في أوج نشاطهم .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

كن فيكون .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم]

أيّ انحراف ثمنه باهظ :

أنا أردت أن أعيد هذه الآية مؤكداً لكم أن أيّ عمل سيئ، أيّ انحراف عن الطريق الصحيح، أيّ أكل للأموال بالباطل، أيّ عدوان على الأعراض، أيّ إيقاع بين الناس، أيّ انحراف، هذا ثمنه باهظ، فالله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل .

هذه قصة رمزية، شوحة التقت بسيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام، قال له يا نبي الله، اسأل ربك أهو مهول أم عجول؟ فلما سأل هذا النبي الكريم ربه قال : يا رب، إنها تسألني، أمهول أنت أم عجول؟ فقال الله عز وجل: قل لها: إني مهول، يعني على الإمهال، اطمأنت هذه الشوحة، انقضت على قطعة لحم تشوى على جمر، أخذتها وطارت بها اغتصاباً، علق بقطعة اللحم بصيص من الفحم المشتعل، لما وضعت قطعة اللحم في عشها احترق العش، فعادت إلى سيدنا سليمان، قالت له: يا نبي الله، ألم أسألك بأن الله مهول أم عجول؟ فقلت لي: إنه مهول، هاهو ذا قد احرق العش تواً، هكذا القصة، قصة رمزية، فقال الله عز وجل لهذا النبي : قل لها : هذا حساب قديم، كل شيء مسجل :

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من قول أبي بن كعب]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى : 30)

إذاً :

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ(46)أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

هذه حالة ثالثة .

الأولى : خسف الأرض .

الثانية : أن يأخذهم من جهة لا يتوقعونها .

والثالثة : أن يأخذهم وهم في نشاطهم اليومي .

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ

والرابعة :

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)

الخوف من المصيبة :

أي : وهم هم خائفون، يتوقعون هذه المصيبة، يتوقعونها ثم تقع، يموتون مئة موتة قبل أن تقع، إلى أن تأتي فتأخذهم، هذه أصعب حالة، يتوقعون المصيبة، وينتظرونها، ثم تأتي .

نقص المواد :

وقال بعض المفسرين : التخوف هو النقص، قد تقلّ المواد، يغلو سعر الطعام، كل شيء ينحسر، ويرتفع سعره، إلى أن يصيب الناس بلاء عظيم، هذا هو التخوف .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ)

هذا كله لأنّ ربكم غفور رحيم :

هنا آخر فقرة في الآية دقيقة جداً، لماذا لم يفعل الله عز وجل هذا؟ لأنه رؤوف رحيم، هو يعطيكم مهلة كي تتوبوا، فإذا فعل الإنسان ذنباً، ورأى الله عز وجل قد تركه وشأنه، لم يعاقبه، لا يطمع، لقد أعطاه الله فرصة .

لكن هناك قصة أخرى في حق المؤمنين، يروى أن مؤمناً تعلم من أساتذته أن لكل سيئة عقاباً، ولكل معصية جزاء، في ساعة غفلة وقع في معصية، فحسب ما سمع من أساتذته بدأ ينتظر العقاب، مضى يوم ويومان أو ثلاثة، ولم يحدث شيء، فناجى ربه: أن يا رب، قد عصيتك، ولم تعاقبني، فوقع في قلبه: أن يا عبدي، قد عاقبتك، ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ ألا تكفيك هذه العقوبة، أتطمع وأنت المحب بعقوبة أكبر منها، فالذي له مع الله صلة فإن انقطاع هذه الصلة وحدها أكبر عقوبة، الابن الذي بينه وبين أبيه مودة بالغة أيطمع أن يكون عقاب الأب له أكثر من إعراضه عنه، إذا كان ذو حساسية فهذا يكفي، أيا عبدي، قد عاقبتك، ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي؟ ألم تبق في نار البعد ثلاثة أيام؟ ألم تحترق في نار الجفاء؟ لقد عاقبتك ولم تَدْرِ .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(47)أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ

علاقة الآية بما قبلها :

لماذا هؤلاء يمكرون السيئات؟ هنا سؤال دقيق، ما العلاقة بين الآيتين؟ يبدو أنه ليس هناك علاقة .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(45)أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ(46)أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(47)أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)

هؤلاء الذين يمكرون السيئات لم يتفكروا في خلق الأرض والسماوات، لو تفكروا في خلق الأرض والسماوات لم يمكروا السيئات، ولعرفوا أن لهذا الكون إلهاً، عادلاً، لا تضيع عنده الحقوق، فهذا الذي يمكر السيئات لا يعرف رب الأرض والسماوات، لو أنهم فكروا في هذه الآيات لعرفوا الله .

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

الآيات الكونية تحت بصر وسمع الإنسان :

حيثما وردت هذه العبارة في القرآن الكريم :

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

فليكن معلومًا لديكم أن هذه الآيات تحت سمع الناس وبصرهم، آيات دالة على عظمة الله،

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ)

كل شيء له ظل يسجد لله :

الجبال لها ظلال، الأشجار لها ظلال، أي شيء ثابت له ظلال، من أقامه؟ من نصبه؟ من خلقه؟ من أمده بهذه القوة؟ وكأن الله عز وجل يقول: تفكروا في هذه الجمادات، تجد مقلع رمل في جبل عمره ثلاثون عاماً، ولم يؤثر في شكل الجبل، كم في الجبال من؟ مواد كم فيها من صخور ؟

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ)

هذه الجبال الشامخة، جبال همالايا، جبال الألب في أوروبة، جبال طوروس في تركيا، الجبال في سوريا، هذه الجبال الشامخة من نصبها؟ من جعلها مستودعات للمياه؟ هذه الجبال من خلقها؟

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ)

لماذا أفرد اليمين وجمع الشمال ؟

المفسرون تساءلوا: لماذا اليمين مفرد، والشمائل جمع؟ لأن الشمس إذا شرقت، أو إذا أشرقت وظهرت من الشرق فإن الأشياء لها ظل، هذا الظل في طريقه إلى التلاشي إلى أن تصل الشمس إلى كبد السماء، فالظل في تناقص، لكنها إذا زالت عن كبد السماء فالظل في ازدياد، إلى أن يبلغ الظل أقصى طول له قبيل الغروب، فالظلال من الزوال إلى الغروب تزداد، والظلال من الشروق إلى الزوال تتناقص، لذلك عبر الله عز وجل عن هذه الحقيقة بإفراد اليمين، وجمع الشمائل .

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ)

الظلال آية من آيات الله :

شيء آخر، الظلال بحد ذاتها آية من آيات الله، الظل يمشي، ما الذي يجعله يمشي ؟ أن هناك حركة لا ندري ما هي، الشمس أو الأرض تتحرك إحداهما، اجلس في غرفة، ترى أشعة الشمس في منتصفها، أدِرْ مع صديق لك حديثاً خلال دقائق تجدها زاحت عشرة سنتيمترات، ربع ساعة انحسر الظل، أو ازداد الظل، تحرك الظل، أليس هو آية من آيات الله عز وجل ومن آياته الدالة على عظمته ؟ هناك شمس، هناك أرض، هناك حركة، ما الذي يثبت لك حركة الأرض؟ تنقل الظل من جهة إلى جهة .

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ)

هذه (ما)في قوله :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا)

استعمال (ما)للعاقل وغيره :

هذه في كتاب الله تشمل العاقل وغير العاقل، أي شيء يشكل حيزاً مادياً له ظل، وهذا الظل متحرك، وحركته دليل حركة الأرض، ما الذي يؤكد لك حركة الأرض ؟ تنقل الظل من مكان إلى آخر، هذه من آيات الله الدالة على عظمته .

أما :

(سُجَّدًا لِلَّهِ)

السجود نوعان :

هذا السجود على نوعين، الأشياء كلها تسجد لله عز وجل سجود افتقار، بينما الإنسان يسجد لله عز وجل سجود العبودية، وشتان بين سجود الافتقار وسجود العبودية، لكن بشكل أو بآخر كل شيء له حيز مادي تتفيأ أيها الإنسان ظلاله ساجدًا لله عز وجل، مفتقرًا إلى إمداده، مفتقرًا إلى فضله، فالنبات مفتقر إلى الهواء، من دون هواء يموت النبات، مفتقر إلى الضوء، من دون ضوء يموت، مفتقر إلى الماء، من دون ماء يموت، فسجود النبات لله عز وجل أي حاجته المستمرة إلى الهواء، وإلى الماء، وإلى النور، الضوء .

(وَهُمْ دَاخِرُونَ)

كلّ شيء خاضع لله تعالى :

أي : صاغرون، والله سبحانه وتعالى بيده ملكوت السماوات والأرض، وكل شيء خاضع له سبحانه .

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

السنن الكونية لا تتعطل :

خطر في بالي مرة أن للسقوط قانوناً، فلو أن إنساناً ركب طائرة، وأعطي أمراً أن ينزل من الطائرة وهي في السماء، للسقوط قانون، إذا آمن به أو لم يؤمن، إذا عرفه أو لم يعرفه، إذا تأدب معه أو استخف به، إذا صدقه أو كذبه، إذا أخذ به أو لم يأخذ فالقانون مطبق، فإن صدقه يستخدم المظلة، فيصل إلى الأرض سالماً، وإن استخف بهذا القانون فالقانون مطبق، إذا استخف الإنسان بقانون فلا يعني إلغاء القانون، الفكرة دقيقة، إذا استخف الإنسان بأمر إلهي فلا يعني أن استخفافه يعطل هذا الأمر، الأمر مطبق، فإما أن تعرفه، وتأخذ العدة لتطبيقه، وإما أن ينفذ عليك، لأن لله عز وجل :

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

السنن التي سنها الله عز وجل مطبقة دائماً وأبداً، في كل مكان، وفي كل زمان، لا تتعطل، ولا تلغى، ولا تعدل، ولا تتوقف، فما عليك إلا أن تعرفها، كي لا تنطبق عليك .

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ)

كلّ شيء يسجد لله طوعا وكرها :

(مِن) لاستغراق أفراد النوع، فأيّ شيء يدبّ على وجه الأرض، بدءًا من النملة، بدءًا من الدويبة، أحياناً ترى على الكتاب أو على الدفتر نقطة تتحرك، هذا أصغر مخلوق تقع عينك عليه، دويبية، بدءًا من هذه الدويبية إلى أكبر فيل، أو إلى أكبر حوت، أي شيء يدب على وجه الأرض .

(يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)

واللهُ من ورائهم ومن فوقهم، من ورائهم محيط، تدبيره يحيط بتدبيرهم، ومكره يطوق مكرهم، وهو من فوقهم، مشرف عليهم، بيده نواصيهم، إليه يرجع الأمر كله .

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ

إذا فعلت هذا فقد اتخذت إلهين اثنين :

إذا أطعت زوجتك، وعصيت ربك فقد اتخذته إلهين اثنين، صليت له، وعصيته إرضاء لزوجتك، إذا أرضيت شريكك في بيع مخالف للشرع طمعاً بالمال فقد اتخذت إلهين اثنين، وأنت لا تدري،

(إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

إذا أطعت إنساناً، وعصيت الله عز وجل فقد اتخذت إلهين اثنين، وهو إله واحد، فهذا الإله الذي اتخذت من دون الله لن ينفعك، ولم يمنع عنك شراً، ولم يجلب لك نفعاً، لكنك أغضبت الله من أجله، فخسرت الدنيا والآخرة، كنت أقول دائماً : بين أن تقرأ الآية، وبين أن تفهمها، وبين أن تكون في مستواها بون شاسع .

قل الآن: ألف مليون ليرة، هذه كلمة، شتان بين من يلفظ هذه الكلمة، وبين من يملك هذا الرقم، فرق كبير جداً، أيّ واحد منكم بإمكانه أن يقول : ألف مليون ليرة، ألف ألف مليون ليرة، مَليار مليار مليون، سهل، لكن بين أن تملك الرقم وبين أن تلفظه بون شاسع، كذلك بين أن تقول : هذه الآية معناها دقيق :

(لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ)

وبين أن تكون موحداً، بون شاسع، وفرق كبير بين أن تنطق بكلمة التوحيد وبين أن تكون مع الموحدين، ما من مسلم على وجه الأرض إلا وينطق بكلمة التوحيد مئات المرات في اليوم الواحد، وهو غارق في الشرك إلى رأسه .

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ)

فإذا خوفك إنسان فمنعك من أن تصلي فقد اتخذته إلهاً، وأنت قد اتخذت إلهين اثنين، إذا خوفك إنسان على أن يمنع عنك رزقك، وصدقته فقد اتخذته إلهاً، وأنت قد اتخذت إلهين اثنين، فهذا هو الشرك، كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرِّب أجلاً .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود : 123)

هذا هو الدين، الدين كله توحيد، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لكن الذي أتمناه عليكم أن يكون واضحاً لديكم، هو أن النطق بكلمة التوحيد لا يكفي، فعن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قِيلَ : وَمَا إِخْلاَصُهَا ؟ قَالَ : أَنْ تَحْجُزَهُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ))

[الطبراني في الأوسط]

لو أنك نطقت بلا إله إلا الله مليار مرة، وعصيت خالقك من أجل إرضاء مخلوق فأنت لم تقلها ولا مرة، لو قلت: الله أكبر يوم العيد ألف مرة، منذ طلعت الشمس بدأت بالتكبير، ثم انطلقت إلى المسجد وأنت تكبر، وعدت منه وأنت تكبر، وفي صلاة الظهر، كبرت والعصر كبرت، أول يوم، وثاني يوم، وثالث يوم، وأرضيت زوجتك بسهرة مختلطة، أو وليمة مختلطة، وعصيت الله عز وجل فأنت لم تكبر ولا مرة، لأنك رأيت إرضاءها أثمن من إرضاء الله، لم تقل: الله أكبر، هي عندك أكبر من الله، وليس الله عز وجل، فهذه الكلمات كلمات الدين، الحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وسبحان الله، والحمد لله، هذه الكلمات ينطق بها المسلمون جميعاً، وشتان بين النطق بها وبين أن يكون في مستواها، كمن ينطق بكلمة مئة مليون، ولا يملك أجرة الحافلة، شتان بين من يملكها وبين من يلفظها .

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(51)وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ

الكون كلّه لله خلقًا ومُلكا وتدبيرا ومصيرا :

كل ما في السماوات والأرض له، خَلقاً، وملكاً وتدبيراً، ومصيراً له، لذلك :

((... إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى ...))

[متفق عليه عَنْ أُسَامَةَ بْن زَيْدٍ]

والذي أخذه له، سألوا إعرابياً يقود قطيعاً من الإبل: لمن هذه؟ قال: لله في يدي، هل هذه العين لك؟ لا هي لله، والدليل: في ثانية واحدة تفقد البصر .

(فَلَوْلَا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ(86)تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الواقعة : 86 - 87)

أنت مدين لله بروحك، بحواسك، بقلبك، بأجهزتك، بدماغك، بعقلك، بتوازنك .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

أي : واجباً، والدين لله وحده، وليس في الأرض جهة تستحق أن يدان لها إلا الله، هذه الجهة أيّ جهة كانت، لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشوراً، ولا تعلم، ولا تسمع، ولا ترى، ولا تحاسب، فأيّ جهة لا تملك لك شيئًا، كيف تعبدها من دون الله .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

أي الدين يجب لله وحده .

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

إذا علمتم كلَّ هذا ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ

أتضع إمكاناتك، فكرك، ثقافتك لمصلحة جهة غير الله عز وجل؟ أليس هذا امتهانًا لمكانتك؟ أليس هذا احتقارًا لذاتك؟ أنت مؤهل أن تعرف الله، وأن تخضع له وحده، وأن تعبده وحده، وفي الأثر: " خلقت السماوات والأرض ولم أعيّ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك ، خلقت السماوات والأرض من أجلك، وخلقتك من أجلي، خلقت السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنت لك عما افترضته عليك " .

(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا

الدين لله وحده عز وجل، أنت أن تكون خاضعاً لإنسان، لامرأة، لزوجة، لصديق، لإنسان أعلى منك، تقدم له كل شيء، وهو لا يملك لك شيئاً، لا نفعاً، ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، ويتخلى عنك يوم القيامة، ويشمت بك، وعلى رأسهم الشيطان .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم : 22)

هذا هو الشيطان .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ(52)وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ

كل نعمة من الله وحده :

قال سيدنا موسى: " يا رب كيف أشكرك؟ قال: يا موسى، تذكرني ولا تنسني، إنك إذا ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني "، لا تقل: أنا بذكائي حصلت هذه المكانة، لا تقل: أنا تعبت على نفسي كثيراً حتى حصلت هذه الشهادة .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

حدثني آخ يركب سيارة عامة، قبل أسابيع رجل من ركاب الحافلة خلع ثيابه كلها أمام الركاب قطعة قِطعةً، مجنون، يقول : أخي فلان قوي الشخصية من الله، إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب، ما قيمة المال إذا فقد الإنسان عقله ؟

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

نعمة العقل، نعمة التفكير، نعمة الحركة نعمة السمع، نعمة البصر، نعمة الهضم، نعمة الدوران، نعمة الأجهزة، نعمة جهاز تصفية البول .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

تقرأ أحيانا في الجريدة إعلانًا، فلان الفلاني يطلب ممن يرغب كلية من كليتيه، وله جائزة كبيرة، يرى هذا المصاب أن كل الدنيا لا تعدل كلية تعمل بانتظام، فالذي تعمل كليتاه بانتظام هذه نعمة كبيرة، الذي يعمل قلبه بانتظام نعمة كبيرة، الذي يملك محاكمة صحيحة نعمة كبيرة،

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ

هكذا هو الإنسان إذا مسّه الضرّ :

قال لي أحدُهم ركب من دمشق إلى القامشلي بطائرة، يظهر أنها طائرة من نوع قديم ، مروحتين، القصة قديمة، الآن كل الطائرة نفاثة، فأحد المحركين تعطل، فعرف الركاب ذلك، بعد تعطل المحرك صادفت جيباً هوائياً، فكان راكباً بجانبه شخص جرى بينهما نقاش في أثناء الطريق، يقول هذا الراكب : إنه ليس هناك إله، الدنيا مادة، الإنسان مادة معقدة، ولا شيء بعد الموت، والإله خرافة وأكذوبة، هذا النقاش في الطائرة، قبل تعطل أحد المحركين، وقبل الجيب الهوائي، فلما تعطل أحد المحركين، وهبطت الطائرة في هذا الجيب الهوائي، قال لي : أقسم بالله، يقول : الله، الله، الله يضع يديه على ركبتيه ويقول : الله، الله، قبل قليل كنتَ تقول : ليس هناك إله .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

هذا لا يعرفه إلا ركاب الطائرات في الأحوال الجوية السيئة، في الجيوب الهوائية، في بعض الأزمات، تجد الوجوه كلها صفراء، وكلهم يقولون : يا الله،

(ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

أي : ترفعون الصوت بالدعاء .

(ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

واللهِ هناك طيار أعصابه قوية، لولا هذا الطيار لمتنا جميعاً، على الأرض يقولها، وفي الجو يقول: يا الله، في الأرض صارت أعصاب قوية .

(ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(54)لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

(سورة إبراهيم : 30)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : 61)

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (13-21): تفسير الآيات 45 – 61 ، عن الإيمان الصحيح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-04-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ

لله الكون خلقا ومُلكا وتصرفا ومصيرا :

أما أن ما في السماوات والأرض له، فهذا معناه أن ما في السماوات والأرض ملكه، وتصرفه، ومصيره .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

مُلكاً، وتصرفاً ومصيراً، قد تملك ولا تحكم، وقد تحكم ولا تملك، قد تملك بيتاً، وليس في إمكانك الانتفاع به، وقد تنتفع ببيت وليس ملكك، أما أن يكون الشيء تابعاً لك ملكاً، وتصرفاً، ومصيراً فهذا أوسع معاني الملكية .

هذه اللام للاختصاص، أو لام الملكية، نحن في ملكه، وكل شؤوننا بيده، ومصيرنا إليه .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لكن هذه كلمة، لو تفكر الإنسان في خلق السماوات والأرض لتحقق منها، شتان بين أن تكون فاهماً لآية، وبين أن تكون معتقداً بها، وبين أن تكون في مستواها، فمن تفكر في خلق السماوات والأرض عرف أن هذا الكون عائد له، ملكاً، وتصرفاً، ومصيراً، فبعض الناس يعتقدون أن الله عز وجل خلق، وانتهى الأمر، وأعطى كل إنسان طاقة أو قوة، يتحرك بها، ولكن هذه العقيدة فاسدة .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر : الآية 62)

(قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 26)

فلذلك :

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

كيف تتجه إلى مَن لا يخلق ولا يملك ولا يتصرف وليس المصير بيده : :

فكيف يسوغ لك أن تتجه إلى إنسان لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشورا؟ عليك أن تعبد الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وعليك أن تعبد الذي إليه يرجع الأمر كله، وعليك أن تعبد الذي بيده حياتك، وبيده صحتك، وبيده أمر عدوك، وبيده أمر صديقك، وبيده كل من حولك، عليك أن تعبده .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

الدين بمعنى الخضوع، دان دينا ودينونة، بمعنى خضع، فلا ينبغي للإنسان أن يخضع لغير الله، لأنه لا يليق به، وقد أكرمه الله بالحرية، وأكرمه الله بالعقل، إذا خضع لغير الله فقد ضل ضلالاً مبيناً، وإذا خضع لغير الله فقد خسر خسراناً مبيناً، مادامت السماوات والأرض له ملكاً، تصرفاً ومصيراً، وله الدين، فالخضوع له وحده، لذلك عَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أحمد في مسنده]

هذا الذي تطيعه وتعصي الله، هل يمنعك من الله؟ هل يجلب لك نفعاً؟ هل يدفع عنك ضراً ؟هل يسعدك إذا تقربت إليه؟ هل يسمعك إذا استجرت به؟ هل يتدخل ليحول بينك وبين مصيبة واقعة؟ سبحان الله أين عقل الإنسان !

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

(سورة المدثر : 18 - 19)

كيف قدر أن هذه الجهة تصلح أن تعبد من دون الله، مع أن هذه الجهة فقيرة، ضعيفة، عاجزة، فانية؟ ربنا عز وجل يذكرنا :

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لذلك :

(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا

معنى : واصبًا :

معنى واصبا أي: دائما، ومعنى واصبا أي واجبا، فيجب أن تخضع له على الدوام، أن تدين له، أن تستسلم لأمره .

فكلمة :

(وَلَهُ الدِّينُ)

تعني شيئين :

الشيء الأول : أن الله عز وجل هو الحق، وقد خلق السماوات والأرض بالحق، ودينه هو الحق، وقرآنه هو الحق .

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

(سورة فصلت : 42)

فبحكم أن الله وهبك العقل المميز يجب أن تخضع له، فلو أن إنساناً عرض عليك مقولتين، الأولى صحيحة، والثانية مغلوطة، إلى أيّ مقولة تخضع؟ إلى الصحيحة، فلأن دعوة الله بالحق، ولأن دينه هو الحق، ولأن كتابه هو الحق، ولأن رسوله هو الحق، يجب عليك أن تخضع له على الدوام، ليس في وقت دون آخر، وليس في وقت الرخاء دون الشدة، وليس في وقت الشدة دون الرخاء، فالمؤمن خاضع لله عز وجل .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)

(سورة الأحزاب : 36)

إذا قضى الله ورسوله في موضوع ما حكماً، قضى أمراً في موضوع ما :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

إذا قضى الله ورسوله أمراً، فمن عرف معنى الدين خضع لله، فالدين هو الخضوع، الخضوع لمن يستحق الخضوع، لكن الناس أحياناً يخضعون لجهة لا تستحق أن يُخضع لها، قد يخضعون لشهواتهم، قد يخضعون لمصالحهم، قد يضعون معتقداتهم تحت أقدامهم من أجل مصالحهم، لا ينبغي للرجل ذي العقل الصحيح أن يكون خضوعه لغير الله،

(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

لو أن الله عز وجل قال: الدين له، يعنى الدين له ولغيره، أما: له الدين فعلى سبيل القصر والحصر، له وحده :

(الدِّينُ وَاصِبًا)

واصباً ؛ أي واجباً، واصباً ؛ أي دائماً، يجب أن تخضع لله وحده على الدوام، لأن :

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

شيء منطقي، مثلاً: هل يطالب الإنسان إنساناً لا يملك؟ إذا أردت أن تشتري بيتاً، هل تطلبه من رجل لا يملك بيتاً؟ أليس هذا من الغباء؟ إذا أردت أن تشتري بيتاً يجب أن تذهب إلى مالكه الحقيقي، وتفاوضه، لأنك إذا فاوضت غيره، وعقدت معه عقداً، ونقدته الثمن، يقول لك الأول: أنا لم أبعك، هذا الذي دفعت له لا يملك البيت، أليس من الحمق والغباء والضعف والضلال أن تتجه لجهة لا تملك شيئاً؟ ليس لها ما في السماوات والأرض، لا ملكاً، ولا تصرفاً، ولا مصيراً المصير إليه .

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية : 25 - 26)

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

(سورة الشورى : 53)

عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت .

(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

الدين خضوع لله :

الدين أن تخضع خضوعاً عن قناعة، فلو أن الخضوع عن غير قناعة لكان هذا الخضوع قهراً لا ديناً، والفرق بين القهر والدين أنك بالقهر تخضع، لا عن قناعة، ولا عن رضا، ولكنك بالدين تخضع وأنت مقتنع، وأنت راض، وأن هذا الذي تخضع له يستحق أن تخضع له، وأن هذا الذي تعبده يستحق أن تعبده، وأن هذا الذي تستسلم له يستحق أن تستسلم له، فهو حق، ودينه حق، وقرآنه حق، وشرعه حق، والحلال ما أحلَّ، والحرام ما حرَّم .

(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

واصبا له معنيان متكاملان: واجباً، ودائماً، هناك أناس يخضعون لله في الرخاء، وأما في الشدة فيرتابون في أنه هو الإله، يقولون : أين الله ؟! كيف تخلى عنا ؟ كيف تركنا ؟ هؤلاء هم ضعاف

المؤمنين، فهناك أناس يخضعون لله في الشدة، ويعصونه في الرخاء، وهؤلاء هم المنتفعون، ولكن المؤمن يطيعه ويحبه في الرخاء، وفي الشدة .

إن من قواعد علم التوحيد أن الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

السماوات والأرض تعبير قرآني يشابه، أو يقابل مفهوم الكون، والكون ما سوى الله، فكل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى كون،

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

ينبغي أن تتقي وتطيع الله وحده :

أتتقي غضب إنسان لا ينفعك ولا يضرك؟ أترجو رضاه؟ أتتقي غضبه؟ أتطيعه وتعصي الله ؟

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة الصافات : 154)

إن من يطيع إنساناً ويعصي الله فقد سقط سقوطاً لا حدود له، فقد ضل سواء السبيل، وكان ضلاله مبيناً، وكان ضلاله بعيداً، وكانت خسارته كبيرة، كيف لا وقد خسر نفسه؟ ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء .

ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني فقد وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، يا رب ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك ؟

هذا الذي عرف الله، وعرف شرعه، واستقام على أمره، وتقرب إليه، ماذا فاته من الدنيا ؟ وَاللَّهِ ما فاته شيء، بل أصاب كل شيء، وهذا الذي جاءته الدنيا من كل أطرافها، وغفل عن ربه، وجاءه الموت ماذا أصاب ؟

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور : 45)

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

(سورة إبراهيم : 30)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة : 126)

البطولة أن تلقى الله وأنت على طاعته، فإذا كان هناك مبرر مسوغ أن تعبده فلأن له ما في السماوات والأرض .

تدخل أحياناً إلى دائرة، فما الذي يجعلك تطرق باب مديرها العام ؟ لأن الأمر كله بيده، سواء أحببت ذلك أم لم تحب، ليس في كل هذه الدائرة إنسان يستطيع أن يقول لك : مع الموافقة، إلا هذا المدير العام، فأنت إذا وقفت على بابه، وطرقته لأنك مضطر، إذ لا يستطيع أن يمنحك الموافقة إلا هذا الموظف، فهل تتجه إلى مستخدمٍ ترجوه أن يوقّع لك هذه المعاملة ؟ عندئذٍ تستحق أن تذهب إلى مشفى الأمراض العقلية .

فالله له كل شيء، فإذا كان هناك مسوغ أن تعبده فلأن له ما في السماوات والأرض، هذا مسوغ الاضطرار .

هناك مسوغ آخر :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ

كل نعمة مَسَّتْكَ فمن الله وحده :

هذا سبب آخر أرقى من ذلك السبب، إن كل ما أنت عليه من نعم فمن نعم الله، خذ نعمة العقل مثلاً . حدثني أخ كان يركب مركبة عامة، فإذا أحد الركاب يخلع ثيابه كلها، ويبقى كيوم ولدته أمه، أين عقله؟

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

نعمة العقل هذه نعمة لا تعدلها نعمة، نعمة الصحة، القلب يعمل بانتظام، والجهاز الهضمي يعمل بانتظام، وجهاز تصفية البول يعمل بانتظام، والعضلات، والحواس، والأجهزة، والغدد الصماء، وغير الصماء، وذات الإفراز الداخلي، والخارجي، والأعصاب، والشرايين، كلها تعمل بانتظام،

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

أنت وحدك أعقد مخلوق على وجه الأرض .

فلذلك :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

وهذه الزوجة التي في البيت من نعم الله عز وجل، هدية الله لك، وهذا الطفل الصغير الذي يملأ البيت مرحاً وفرحاً وحبوراً، هو من نعم الله عز وجل، وهذه الصنعة التي تتقنها هي من نعم الله عز وجل، وهذه الذاكرة التي تستخدمها في عملك من نعم الله عز وجل، وهذه الشخصية القوية التي جعلتك رفيع

المكانة بين الناس، إنها من نعمة الله عز وجل .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

الفتاة التي يخطبها إنسان مرموق من أهلها، قد تظن هذه المرأة جهلاً أنها مطلوبة، لكن الله سبحانه وتعالى لو أذهب عنها مسحة الجمال لما طرق بابها أحد .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

إذا كنت في البيت مرهوبَ الجانب فبنعمة هذا العقل، لو أن الله عز وجل سلبك إياه لما أبقاك أهلك في البيت ولا ليلة واحدة .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

الحركة نعمة، الوقوف نعمة، النوم نعمة، تناول الطعام نعمة، طرح الفضلات نعمة، شرب الماء نعمة، توافر الماء نعمة، توافر الهواء نعمة، أن يكون لك عمل نعمة، أن يكون لك دخل نعمة، أن تأوي إلى بيت نعمة، أن يكون لك زوجة نعمة .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

نعمة الإيجاد قبل كل النعم، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، هذه هي النعم الكبرى، وتمام هذه النعم الهدى :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

فإذا كان منطقك لا يسمح لك أن تخضع له من باب الاضطرار أفلا تخضع له من باب العرفان والشكر؟

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

من أي نوع أنت؟ إن كنت عاقلاً فاخضع له من باب الاضطرار، لأن الأمر كله بيده .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود : 123)

إذا كنت كريم النفس فاخضع له من باب العرفان والشكر، لأن كل النعم التي أنت فيها إنما هي من نعم الله عز وجل، ولأنه :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

آية أخرى تشابهها :

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

(سورة إبراهيم : 34)

نعمة واحدة لو أمضيت مدة حياتك في إحصاء فوائدها لما انتهيت، فإذا كنت عاجزاً عن إحصاء فوائد نعمة واحدة، فأنت عن شكر هذه الفوائد أعجز، وعن شكر النعم كلها أشد عجزاً .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ(52)وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ

فهذا الذي يلحد في آيات الله، هذا الذي ينكر، هذا الذي يعرض، هذا الذي يسخر، إذا جاءته المصيبة الكبيرة يقول: يا الله !

قد حدثتكم عن رجل جلس في طائرة إلى جنب رجل، يتناقشان، فإذا بالثاني ينكر وجود الله سبحانه وتعالى، فلما توقف أحد محركات الطائرة، ومرت فوق جيب هوائي، وانخفضت فجأة، قال صاحبنا: رأيت هذا الذي كان ينكر وجود الله قبل قليل يقول: يا الله، يا الله، يا الله .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

معنى تجأرون : ترفعون أصواتكم في الدعاء .

(ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ

بلغ اللؤم عند بعض الناس منتهاه :

ما أشد لؤم الإنسان، وهو يدعو الله عز وجل في أثناء المصيبة، ويرفع يديه، ويرفع صوته بالدعاء، فإذا تولى الله عز وجل شفاء ابنه، أو إنقاذه من ورطته، أو مرت هذه المصيبة بسلام، أو زال شبح المصيبة، أو انخفضت الحرارة، أو جاء التحليل إيجابياً، لا سلبياً، أو كان هذا الورم غير خبيث، عاد هذا الإنسان إلى ما كان عليه، من فسق وفجور، وزيغ، وضلال، واستخفاف .

(إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ(53)ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(54)لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

قال تعالى :

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

لكن بعض الناس إذا جاءتهم المصيبة، ودعوا الله مخلصين فرفعها الله عنهم، إذا هم بربهم يؤمنون .
حدثني أخ كريم قال : كنت في محنة شديدة، فدعوت الله من كل جوارحي، إنْ أنقذتني يا رب منها فلن أعصي لك أمرًا، وقد أنقذه الله منها، وها هو ذا فيما أعلم لا يعصي لله أمراً، ربنا عز وجل يقول :

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ)

ليس كل الناس، إذا أصابتهم المصيبة، ثم رفُعت عنهم كفروا، بعضهم يستجيب، وبعضهم يتوب، وبعضهم يخضع، وبعضهم يذوب حباً لله، وبعضهم لا ينسى فضل الله، ابن آدم اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة، أذكرك وتنساني ؟

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

كفرُ النِّعم :

وقد تكون هذه النعمة، نعمة الشفاء، أو نعمة السلامة أو نعمة البحبوحة التي جاءت بعد عسر، قد تكون هذه النعمة سبباً في كفرهم، فهذه اللام لام العاقبة، أو لام التعليل، أي إن هذه النعم التي ساقها الله لهم من بعد شدة، من بعد دعاء عريض، كانت هذه النعم سبباً في كفرهم وإعراضهم عن الله عز وجل .
فمن كان ينطوي على نفس راقية أخلاقية، إذا دعا الله متلهفاً فكشف الله عنه المصيبة، فهذا الإنسان يستحيي أن يعصي الله بعدها .

أطـع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضى من أحبنـــا
ولـذ بحمانا و احتم بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خـلقنـــا
وعن ذكـرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلقَ المسرة و الهنـــا
وسلم إليـنا الأمر في كل ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بأمـرنـــا

***

(فَتَمَتَّعُوا)

تهديد ووعيد إلهي : فَتَمَتَّعُوا

هذا فعل أمر معناه التهديد، أي : افعلوا ما بدا لكم، افعلوا كل شيء، اعملوا ما شئتم، عش ما شئت فإنك

ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به .

(فَتَمَتَّعُوا)

انغمِسوا في الملذات، فهناك من تستهويه الشهوات، فيؤثِرها على القربات، وهناك من تستهويه وحول الدنيا، فيؤثِرها على جنات عرضها السماوات والأرض .

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

في آخر المطاف سوف يعلم الخاسر الحقيقة :

سوف تعلمون من هو الفائز، ومن هو الخاسر، من هو الذكي، ومن هو الغبي، من هو الشقي، ومن هو السعيد، من هو العاقل، ومن هو الأحمق، من هو المفلح، ومن هو المخفق، سوف تعلمون هذا عند الموت، عندما تواجهون ملك الموت، عندما يقول الإنسان :

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر : 24)

عندما يقول الإنسان :

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر : 56)

عندها يندم الإنسان، ولات ساعة مندم .

عندما يقول الله عز وجل :

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33)وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(34)فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ(35)وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ)

(سورة الحاقة : 25 - 36)

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

كل مُتوقع آت، وكل آت قريب، ولا بد من ساعة تعرف الحقيقة، حينما أدرك فرعونَ الغرقُ قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس : 90)

قال الله عز وجل :

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة يونس : 91)

ماذا ينفع هذا الإيمان عند ساعة الموت ؟ ماذا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنتْ من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، البطولة أن تؤمن في الوقت المناسب، لا أن تؤمن بعد فوات الأوان، البطولة أن تعرف جواب الامتحان قبيل الامتحان، لا بعد الامتحان .

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

لذلك فالمؤمنون :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

(سورة السجدة : 16)

لا يستمتعون بالدنيا، يخافون أن يركنوا إليها، يخافون أن تصبح مبلغ علمهم، ومنتهى أملهم .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[أخرجه الترمذي]

فكلمة (تمتعوا)كما قال بعض المفسرين : فعل أمر يفيد التهديد

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

لا تركن إلى الدنيا، وانظر يوم توضع في كفنك، انظر إلى أنه لا بد من أن يكتب على ورقة النعي : وسيشيع فلان إلى مثواه الأخير، هذا هو المثوى الأخير، إن روح الميت ترفرف فوق النعش تقول : يا أهلي، ويا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي، لا تصل إلى هذا المأزق الصعب، لا تصل إلى هذه الساعة التي لا تنفع فيها الندامة .

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)

(لِمَا لَا يَعْلَمُونَ)

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ

العبادة عن جهل وتقليد خسارة لصاحبها :

أي: لآلهة عبدوها من دون الله، لا يعلمون أنها تنفع، ولا يعلمون أنها تضر، ولا يعلمون أنها لا تنفع، ولا يعلمون أنها لا تضر، لا يعلمون عنها شيئاً، إلا أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها فعبدوها .

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا)

لا يعلمون مطلقاً، لا يعلمون أنها تنفع أو لا تنفع، ولا يعلمون أنها تضر أو لا تضر، هذه الأصنام إن كانت من حجارة، أو إن كانت من لحم ودم، كلها أصنام .

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

يقدمون لهذه الأصنام القرابين، والأموال، ويعتقدون أن هذه الأصنام تمنعهم من الله عز وجل، أو تحميهم .

(تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)

تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ

هذا افتراء، هذا كذب، هذه خرافة، كيف اعتقدت بها، لِم لمْ تمحِّصها؟ لمَ لمْ تقف عندها؟ لمَ لم تتفحصها؟

(تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)

ثم قال عزوجل :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ

الله منزَّهٌ عن الولد :

يدَّعي المشركون أن الملائكة بنات الله، لذلك :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ)

أي : ما أعظم شأنه .

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء : 43)

هل هو بحاجة إلى ولد؟! هل هو بحاجة إلى بنات ؟!

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)

الذكور لهم، والبنات لله عز وجل !!

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ

لا علاقة للزوجة بنوع الولد فكيف تلام على إنجاب البنات ؟!!

فاسوداد الوجه كناية عن الغم الذي أصابه، عن الغم الشديد، والحزن الشديد، ولو علم الزوج أن المولود ذكراً كان أم أنثى شيء تابع له فقط، ولا علاقة لزوجته به لاختلف الأمر .

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

(سورة النجم : 45)

من نطفة لا من بويضة، فالنطفة في نواتها تحمل مجموعة عُرا، العروة الأخيرة إما على شكل(X)أو على شكل(Y)، النطفة وحدها تحدد نوع المولود ذكراً كان أم أنثى، لذلك امرأة بدوية غضب منها زوجها لأنها تنجب البنات، فقالت :

ما لأبي حمزة لا يـأتينا يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا تالله مـا ذلك في أيـدينا

و إنما نأخذ ما أعطينـا ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا

***

فهذا الذي يغضب إذا جاءه بنت هو أحمق، لأن تحديد نوع المولود جعله الله في الحيوان المنوي الذي منه .

البنات هبة من الله :

شيء الآخر، الله سبحانه وتعالى يقول :

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(49)أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

(سورة الشورى: 49 - 50)

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

حينما وُلدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم السيدةُ فاطمة ضمها إلى صدره، وتشممها وفرح بها، وبش لها، وقال:

((ريحانة أشمها وعلى الله رزقها))

[ورد في الأثر]

مخلوق وديع أكرمك الله به، تتأفف منه؟ يسودُّ وجهك؟ تتميز من الغيظ؟ ما ذنب هذه الزوجة؟ لا ذنب لها، ولا حيلة لها في ذلك .

قد تكون البنت أعظم بركة من الابن :

الآن في هذه الأيام إذا ولدت المرأة بنتاً لا أحد يتكلم مع هذه الزوجة، يعدُّون مَقْدَمَها شؤماً على زوجها، هذه جاهلية، وهذا جهل، وهذا بعدٌ عن الله عز وجل، وما يدريك أن الخير كله في هذه الفتاة؟ من يدريك؟ قال تعالى :

(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

(سورة آل عمران : 36)

من أنجبت مريم؟ سيدنا عيس عليه الصلاة والسلام، ما يدريك أن الخير كله من هذه الفتاة؟ من هذه البنت؟ لذلك عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تُكْرِهُوا الْبَنَاتِ، فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ))

[أحمد]

ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً، من أن أكون لئيماً غالباً .

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(58)يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

هذا هو ردُّ فعل الرجل الجاهل الذي يولد له بنت :

يستحي من هذه البشارة .

(أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ)

لمَ لمْ يقل الله عز وجل : أيمسكها، لأن هذه الهاء تعود على ما :

(يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ)

من سوء الذي بشر به، فهذا الذي بشر به أيمسكه على هون؟ على مضض، أم يدسه في التراب ؟

ما ذنب البنت حتى تدفن حية ؟

تصور كيف كان العرب في الجاهلية، كيف كان أحدهم يئد ابنته وعمرها كعمر الزهور والريحانة، يقودها إلى أطراف المدينة، ويحفر لها حفرة، ثم يرديها فيها، ويهيل عليها التراب، أي قلب هذا ؟!

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير : 8 - 9)

ما الذنب الذي ارتكبته هذه الصغيرة حتى يئدها أبوها ؟ إن الظلم يهتز له عرش الرحمان سبحانه .

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

كان أحدهم يروي للنبي عليه الصلاة والسلام كيف وأد ابنته، فظل النبي يبكي حتى أخضل لحيته الشريفة، كانت هذه الفتاة الصغيرة تداعب ذقن أبيها، وتدغدغها له، فما كان منه إلا حفر لها حفرة، وأرداها فيها .

تحريم قتل الولد للفقر أو خشية الفقر :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء : 31)

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

(سورة الأنعام : 151)

من إملاق، أي : بسبب الفقر الواقع، فجاءت الآية :

(نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

الآية الأولى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

أي بسبب فقر متوقع، فجاءت الآية :

(نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

(أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

هذا حكمهم، كيف هداهم النبي عليه الصلاة والسلام؟ قلوب أقسى من الصخر، كيف تعامل معها النبي صلى الله عليه وسلم؟ كيف نقلهم من الشقاوة إلى السعادة، من قسوة القلب إلى الرحمة ؟

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

الكافر بالآخرة له السوء من كل جوانبه :

فهذا الذي لا يؤمن بالآخرة لا يحسب حساباً ليوم الدين، ليوم الفصل، ليوم القيامة، ليوم الحق، ليوم الجزاء، عمله سيئ، أخلاقه سيئة، صفاته سيئة، عقيدته فاسدة .

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ)

المطلق على إطلاقه، سوء في كل شيء، هذا الذي لا يقيم للآخرة وزناً، ولا يحسب لها حساباً، ولا يؤمن بها، ولا يرجو لقاء الله واليوم الآخرة، له :

(مَثَلُ السَّوْءِ)

كله سوء ؛ عقله، وعقيدته، ومشاعره، وتصرفاته، وأعماله، وأقواله، وعلاقاته وشركته، وزواجه، وجيرته، له فيها كلها :

(مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى

أما إذا كنت مع الله فأنت تسعد به، وترقى نفسك، ويرقى عقلك، ويصلح عملك، وتصح عقيدتك،

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

بعض العارفين بالله ناجى ربه فقال :

يا من تقاصر شكري عن أياديه وكل كل لسان عن معانيــه

وجوده لم يزل فرداً بلا شبهـاً علا عن الوقت ماضيه و آتيه

لا دهر يخلفه لا قهر يلحقــه لا كشف يظهره لا ستر يخفيه

لا عد يجمعه لا ضد يمنعــه لا حد يقطعه لا قطر يحويــه

لا كون يحصره لا عين تبصره وليس في الوهم معلوم يضاهيه

جلاله أزلي لا زوال لـــه وملكه دائم لا شيء يضنيــه

***

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

الله لا يشبهه شيء :

كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك، ليس كمثله من شيء، لا دهر يخلفه، لا قهر يلحقه، لا كشف يظهره، لا ستر يخفيه، لا عدّ يجمعه، لا ضد يمنعه، لا حد يقطعه، لا قطر يحويه، لا كون يحصره، لا عين تبصره، وليس في الوهم معلوم يضاهيه،

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قل: سبحان الله تنزيهاً، وسبحان الله تمجيداً .

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

لو يؤاخذ الله عباده بما يفعلون ما بقي في الأرض حيّ :

خلقهم ليرحمهم، لو أنه أخذهم بذنوبهم، لو أنه حاسبهم على معاصيهم .

(مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ)

أي : لو أن الله عز وجل عجل للناس بالعقاب لأهلكهم جميعاً، ولكنه يمد لهم في العمر، وفي

الله يمهل عباده حتى يتوبوا :

الأجل لعلهم يتوبون، لعلهم يرجعون، لعلهم يستيقظون، لعلهم يصحون، هذه كلها من باب إعطاء مهلة للتوبة .

(وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه : 129)

ما هذه الكلمة؟ أنه خلق الخلق ليسعده، فإذا عجل عليهم العقاب، أو أخذهم بذنبهم، لتناقض هذا مع خلقهم، ولكنه خلقهم ليسعدهم، لذلك يحلم عليهم، ويمدُّ لهم، يعطيهم فسحة من الأجل، ومهلة في العمر، يدعوهم، ويضيق عليهم، يسمعهم الحق لعلهم يرجعون .

قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : 21)

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

إذا جاء الأجل انتهى كل شيء .

إن الطبيب له علم يدل بـــه إن كان للناس في الآجال تأخيرُ

حتى إذا ما انقضت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقيــرُ

الموضوع العلمي : المُخيخ آية من آيات الله العظيمة :

أيها الإخوة المؤمنون، من آيات الله الدالة على عظمته أن الله عز وجل زودنا بجهاز تابع للدماغ اسمه المخيخ، فهناك المخ، وهناك المخيخ، وهناك البصلة السيسائية، وحديثنا اليوم عن المخيخ .

من منكم يصدق أن كتلة من الخيوط العصبية لا يزيد وزنها على 1240 غرام تقوم بدور خطيرٍ جداً، إذْ لو تخرب جزء من المخيخ لأصبحت حياة الإنسان مستحيلة، ماذا يفعل هذا المخيخ ؟ قال العلماء : إنه مركز توافق وانسجام لحركات البدن، فلو أننا خربنا مخيخ طائر لما أمكنه الطيران، ولسقط فوراً، ولو تخرب مخيخ الإنسان لما أمكنه أن يقف على قدميه، ولما أمكنه أن يرى بعينيه، أو يحرك يديه، ولما أمكنه أن ينطق بلسانه، ولما توافقت حركات اليدين .

إصابة المخيخ بمرض خطر على الإنسان :

قد يقول الطبيب لمن يشك أنه مريض في مخيخه: ضع إصبعك على أنفك، تأتي على خده، أو تأتي على وجنته، فلا يستطيع المريض أن يضع أصبعه على أرنبة أنفه، ولا يستطيع المريض أن يقرأ سطراً واحداً، بل عيناه تزيغان، وتتأرجحان، وتتذبذبان، لا تستقران على الكلمة .

التوازن في المخيخ :

أما أخطر شيء يقوم به المخيخ فهو التوازن، ففي أذن الإنسان الباطنية جهاز خطير اسمه جهاز التوازن، يتألف من ثلاث قنوات نصف دائرية، موضوعة حيث تغطي اتجاهات الفراغ كله؛ الاتجاه الأفقي، والعمودي، والمائل، هذه القنوات فيها سائل، هذا السائل يتحرك مع حركة الإنسان، فإذا كان الإنسان نائماً فالسائل يملأ هذا الفراغ، وإذا كان الإنسان واقفاً فالسائل يملأ الجذعين، فجهاز التوازن في الأذن الباطنية يعرف المخيخ بوضع الإنسان أهو نائم ؟ أهو مستلقٍ على ظهره، أم على بطنه، أم على جنبه، أم هو قاعد، أم هو مضطجع أم هو واقف، لذلك فالمخيخ يعطي أمراً للعضلات بتعديل الوضع

بحيث يبقى التوازن صحيحاً، ولا يمكن لمن تخرب مخيخه أن يركب دراجة، لأنه إذا مال ليس هناك من يصحح هذا الميل، المخيخ هو الذي يصحح هذا الميل، يأخذ المعلومات من جهاز التوازن في الأذن، وإن كان هناك مَيلٌ أعطى أمراً للعضلات، فتعدل هذا الميل بشكل صحيح .

يأتي الأمر من الدماغ مثلاً بإدارة قرص الهاتف، فالدماغ يقول لك: أدر هذا القرص، هذا هو الأمر من الدماغ، لكن المخيخ يقدِّر أن إدارة هذا القرص تحتاج إلى طاقة عضلية كذا، فتجد أن الإصبع تبذل جهداً يتناسب مع تحريك قرص الهاتف، لكن الدماغ إذا أمر بفتح باب سيارة، فالعلماء قالوا: إن فتح باب السيارة يحتاج إلى جهد يزيد أربعمئة مرة على جهد إدارة قرص الهاتف، وإذا أردت أن تقلب صفحة تبذل جهداً يتناسب مع وزن الورقة، ومع حجمها، لكنك إذا أردت أن تزيح كيساً من القمح فتحتاج إلى جهد كبير .

قمْ بمثل هذا العمل حتى تعرف عمل المخيخ :

ومن أجل أن تعرف عمل المخيخ بشكل دقيق امسكْ دلواً، ووضعه تحت صنبور ماء، وافتح الصنبور، تشعر كيف أن العضلة تزداد قوتها مع ازدياد الماء في الدلو، فكلما ارتفع الماء بذلت العضلة جهداً أكبر في حمل الدلو، فمَن الذي يحدد هذا الجهد ؟ إنه المخيخ، وكأن المخ مهندس معماري، أعطى الأمر الكلي، وكأن المخيخ مهندس مدني، ومهندس حسابات، هذا الأمر يحتاج إلى هذا الجهد، فلو تخرب جزء من المخيخ لا يزيد على حبة العدس لأصيبت العينين بالرجفان، هذا المرض اسمه الرقرقة، ولأصيبت الأطراف بالزيغان، فلا يستطيع المصاب أن يضع يده في المكان الذي يريده، ولأصيب النطق بالحبسة، والفافأة، والثأثأة، هذا كله من أعراض تخرب المخيخ، فهل نعلم ذلك ؟!

العلماء قالوا: إن انتصاب الرجل قائماً على قدميه حركة بهلوانية عجيبة، تسهم أجهزة كثيرة في تأمينها، أن يقف الرجل على قدميه، هل تستطيع أن توقف رجلاً ميتاً على قدميه ؟ لأن هذا الأجهزة تعطلت، فالإنسان يوجد في جسمه آيات لا يعلمها إلا الله، من هذه الآيات المخيخ .

معلومات كثيرة لا يتسع الوقت لذكرها، ولا يكون المقام مناسبًا لشرحها، ولكنّ أخْذَ القليل خير من ترك الكثير، هذه بعض آيات الله في هذا الجزء، فلو نظرتم إليه لرأيتم خيوطاً بعضها فوق بعض، وزنها مئة وأربعون غراماً تقريباً، إنه أخطر جهازٍ في الإنسان يحقق التنسيق بين العضلات، والحركات والسكنات، أن تقف على قدميك، وأن تصيب بيدك أي هدف تشاء، وأن تمسك كأس ماء دون أن ترجف اليد، هذا بفضل الله علينا، وما زودنا به من أجهزة حساسة فينا .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (14-21): تفسير الآيات 62 – 69 ، عن عدم إلحاق صفة لا تليق بالله ـ إبداع الخالق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-04-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)

انظر إلى هذا التناقض الصارخ :

بعض العلماء قالوا :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)

أي: البنات .

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)

أي: الشريك .

هل يرضى أحدهم أن يشركه أحد في ماله؟ لا يرضى، فكيف تنسب لله عز وجل آلهة أخرى تشاركه في تسير الأمور ؟

لا تنسب إلى الله ما تكرهه نفسُك :

وبعضهم فهم هذه الآية على إطلاقها، فأيّ شيء تكرهه كيف تنسبه لله عز وجل؟ أتعاقب أنت إنساناً يعمل معك من دون أن يقترف ذنباً؟ أتعاقبه بلا سبب؟ أتودي بأعمال طيبة قدمت لك طوال عمرٍ مديد، تودي بها وتعاقب صاحبها ؟

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)

أتُكره أحدًا أمرته بأمر على مخالفته، ثم تعاقبه على ذلك ؟

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

(سورة النحل : 35)

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)

مِن أنهم نسبوا الملائكة الذين هم عباد الله، نسبوهم إلى الله على أنهم بنات .

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(سورة التوبة : 31)

أشركوهم في تدبير الأمور، كما أنهم يكرهون البنات، وكما أنهم يكرهون أن يشركهم أحد وأموالهم، أو أن الصفات التي يكرهونها بعرف عاداتهم وتقاليدهم، فكيف ينسبونها إلى الله عز وجل ؟

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ)

جعل الشريك لله نوع من الافتراء والكذب :

هذه الآية من الآيات البلاغية، بدل أن يقول الله عز وجل: ويقولون الكذب؛ أي يصف كلامهم نفسه بأنه كذب، كلامهم نفسه يصف أن مضمونه كذب .

(وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى)

ومع هذا فهم يدّعون أن لهم الحسنى في الآخرة :

يدّعون أن لهم الحسنى في الآخرة، هذا الذي يشرك بالله عز وجل، ولا يهتم بأمره، ولا يرجو ثوابه، ولا يخشى عقابه، يدّعي أيضاً أنه في الآخرة من أهل الجنة .

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)

لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ

معنى : مُفْرَطُونَ :

أي: إنهم يسارعون إليها، ومعنى: مُفْرَطون ؛ أنهم منسيون فيها، ومعنى: مُفَرِّطون؛ أي أنهم مهملون،

أفرط بمعنى أسرف، فرَّط بمعنى غفل، أو قصر، والقاعدة تقول: لا إفراط ولا تفريط، أي لا إسراف ولا تقصير .

أما:(مُفرَطون)هنا في هذه الآية فتعني أنهم يسارعون إلى النار، أو أنهم منسيون فيها، لأنهم تجاوزوا الحد المعقول، أو لأنهم قصروا في واجباتهم، فالمعاني كلها تستفاد من هذه الكلمة .

لا تنسب لله صفة لا تليق بجلاله :

إذاً: أيُّ صفة لا تليق بك فلا تنسبها إلى الله عز وجل، وأيُّ صفة تأبى أن تُنسب إليك فلا تنسبها إلى الله عز وجل .

بعضهم يقول : إن الله عز وجل يُدخل النار عبداً أفنى حياته في طاعته، يقول لك :

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

(سورة الأنبياء)

أترضى لله عز وجل أن يكون عبداً من عباده يعبده طوال حياته، ويفني عمره في طاعته وفي التقرب إليه، وفي خدمة عباده، وفي الدعوة إليه، أيعقل أن يضعه في النار؟! أترضى لنفسك هذه الأخلاق، أين قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7 - 8)

ألا تكره أن ينسب إليك الظلم؟ أتقبل أن تكون ظالماً؟ فكيف تنسب الظلم إلى الله عز وجل؟ كيف تعتقد أن الإنسان منذ أن خُلقَ خُلق شقياً؟ وأن كل ما يفعله في الدنيا مكتوب عليه؟ وأن كل المعاصي مقدّرة عليه؟ ولا سبيل إلى تلافيها، وأن الله سبحانه وتعالى سيعاقبه على تقصيره، وعلى معصيته .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تبتل بالماء

***

وهل ترضى هذا لنفسك؟ هل ترضى أن ينسب لك، وأنت تعلم الطلاب أن أحد الطلاب قبل أن يدخل المدرسة اتخذت قراراً بترسيبه؟ فمهما بذل من جهد، ومهما عمل من وظائف، ومهما درس فلا بد من أن يرسب، هذه عقيدة الجبر، أي إن الإنسان مجبور على أعماله، ولا اختيار له فيها، فإذا اعتقدنا بهذه العقيدة فكأنما نسبنا الظلم إلى الله سبحانه وتعالى، لا بد من أن يكون في الحياة اختيار، لأن الله سبحانه وتعالى لو كان كذلك لكان إرسال الأنبياء عبثاً، وإنزال الكتب لعباً، وإن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولو أجبر الله عباده على طاعته بطل الثواب، ولو أجبرهم على معصيته فقد بطل العقاب .

سيدنا عمر رَضِي اللَّه عَنْه حينما جيء إليه برجل شارب للخمر، قال له : يا أمير المؤمنين، إن الله قدّر علي ذلك، فقال رَضِي اللَّه عَنْه : أقيموا الحد عليه مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأن افترى على الله .

لذلك قال تعالى :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)

إما أن نفهمها على أنهم جعلوا الملائكة بنات الله، يكرهون البنات، فنسبوا البنات إلى الله، أو أن نفهمها على أن الإنسان يكره الشرك، فكيف ينسبه إلى الله عز وجل ؟ أو نفهمها بشكل مطلق، هذه الصفة التي تكرهها، والتي تتبرأ منها، والتي تترفع عنها، كيف تسمح لنفسك، أن تصف الله بها ؟

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ)

كلامهم يوصف بأنه كذب .

(أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى)

في الآخرة .

(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ)

مثل هؤلاء مصيرهم النار :

والله سبحانه وتعالى نفى مقولتهم، وأثبت مقولة أخرى :

(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)

يسارعون إليها، أو منسيون فيها، أو تجاوزوا الحد المعقول في العدوان والطغيان، أو قصروا عن واجباتهم، فاستحقوا دخول النار .

(تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ

الشيطان يزيّن أعمال الناس :

حينما يسمح الله للشيطان أن يزين للإنسان عمله السيئ يكون هذا العمل السيئ تعبيراً عن شهوة استحكمت فيه، وأن إخراج الشهوة خيرٌ من بقائها، فالإنسان يشتهي، ولكن هذه الشهوة لها مستويات، فإذا بلغت مستوى الإصرار كانت هذه الشهوة حجاباً بين الإنسان وبين الله، بين الإنسان والحق، بين

الإنسان والهدى، لذلك أحكم شيءٍ، وأنسب شيءٍ أن تخرج هذه الشهوة، من يتولى إخراجها ؟ يأتي الشيطان فيزين لمن استحكمت فيه شهوته، يزين له هذه الشهوة حتى تخرج منه عملاً يرى بشاعته، ويرى دناءته، ويعاقبه الله عليه، فلعل نفسه بعد هذا العقاب الأليم تصفو وتقبل، وكم من إنسان أصرَّ على شهوة، واستحكمت في قلبه، فجاء الشيطان فزين له شهوته، فانقلبت إلى عمل استحق عليه العقاب، ثم شفيت نفسه وطهرت، وأقبلت، وتابت، وصحت توبته .

(تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ)

تفسير هذه الآية :

هناك تفسيران لهذه الآية :

التفسير الأول :

هم يزعمون أن الشيطان وليهم في الدنيا، وكل إنسان بعيد عن الله عز وجل يتكئ على جهة في الأرض، ويقول لك: فلان بإمكانه أن يرفع شأني، وفلان بإمكانه أن يعطيني، وفلان يستطيع أن يضرني، فيتولاه، ويطيعه من دون الله، يواليه من دون الله .

(فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ)

فاليوم يا محمد هؤلاء الأمم التي تزعم، والتي زين لها الشيطان أعمالها تظن أن الشيطان وليها في الدنيا .

التفسير الثاني :

(فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ)

أي: معهم في النار، إما أن تكون هذه الولاية في الدنيا، يظنون أنه وليهم، في حين أنه لا ينفعهم ولا يضرهم، أو إن الشيطان معهم في جهنم .

(فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

كل شهوة محرمة يزينّها الشيطان :

ملخص هذه الآية أن الإنسان إذا أصر على شهوة محرمة، إذا اشتهاها إلى درجة الإصرار، يأتي الشيطان فيزين له عمله كي يفعله، كي تخرج هذه الشهوة إلى عمل، عندئذ تطهر نفسه منها بعد العقاب، وقد يتوب إلى الله عز وجل .

(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ

القرآن يرفع الخلاف الذي وقع فيه الناس :

وهناك من اختلف على السيد المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، جاء القرآن الكريم ليبين الحقيقة، والموضوعات المختلف عليها في الديانات السماوية قبل الإسلام، الموضوعات التي اختلف الناس عليها قبل بعثة النبي العدنان ، هذه الموضوعات جاء بيانها في القرآن حداً فاصلاً لكل خلاف .

(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

القرآن هدى ورحمة للمؤمنين :

الرحمة بمعنى التجلي الإلهي، فإذا قرأت القرآن تجلى الله عليك، وإذا أردت أن تحدث ربك فصلِّ، وإذا أردت أن يحدثك ربك فاقرأ القرآن .

يا موسى، أتحب أن أكون جليسك؟ فقال: يا رب، وكيف يكون ذلك؟ قال: أما علمت أني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني .

(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ)

وإذا وقعت خلافات لاحقة بين الأمم والشعوب، وبين الملل والنحل، وبين الفرق والمذاهب، وبين كل فئة تدعي أنها على حق، وتتهم أختها بأنها على باطل، هذه الخلافات يفصل الله سبحانه وتعالى بينها يوم القيامة، والقرآن الكريم، فضلاً عن أنه يبين الذي اختلفوا فيه فهو هدى .

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

(وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

مَن اتبع الهدى سعِد في الدنيا والآخرة :

الهدى استنارة عقلية، أما الرحمة فراحة نفسية، فهذا الإنسان المؤمن عقله مستنير، ونفسه سعيدة، وطيبة، هذه صفات المؤمن .

(وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

فلذلك، من أوصاف الله سبحانه وتعالى الجامعة المانعة لهذا الكتاب أنه هدى ورحمة، يهديك سواء السبيل، ويفسر لك ما في الكون، ويفسر لك التاريخ، ويفسر لك المستقبل، ويفسر لك الحوادث، ويعطيك لكل شيء محيرٍ تفسيراً، ويعرفك بالهدف من خلقك، ويعرفك بالمصير، ويعرفك بأثمن شيء تفعله في الدنيا، ويبين لك طريق السلام، طريق السعادة، طريق الطمأنينة، يبين لك وسائل الصحة النفسية، يبين لك التي هي أقوم هذا هدى، يبين لك كيف تكون علاقتك مع زوجتك، ومع أولادك، ومع أمك وأبيك، وإخوتك، وبناتك، وأصهارك، وجيرانك، شركائك، مع من هم فوقك، ومن هم دونك، مع من هم أضعف منك، ومع من هم أقوى منك .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء : 9)

إعجازه في إيجازه .

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

لو قرأت القرآن تعرف كيف تعامل زوجتك، أما هذا الذي يطلقها لأتفه سبب، أو يحلف يمين الطلاق لأتفه سبب، فهذا لم يقرأ القرآن، والذي يُخرج زوجته من بيته عقاباً لها ما قرأ القرآن، وهذا الذي يبغي ويظلم ما قرأ القرآن، وهذا الذي يكذب، ويغش، ويحتال، ويكسب مالاً حراماً ما قرأ القرآن، لأنه :

(وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

والآن تتوالى الآيات البينات التي توضح، وتذكرنا ببعض النعم الجليلة التي أنعم الله بها علينا، قال تعالى :

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

إبراز أهمية الماء بتقديم لفظ الجلالة إشعارا بالمنعِم :

فكلمة: واللهُ أنزل، لو قال الله عز وجل: وأنزل الله من السماء ماء ماذا تفيد؟ تفيد أن الله أنزل من السماء ماء، ولكن تقديم لفظ الجلالة على الفعل ليبرز أهمية النعمة، فهذا المطر الذي تتنعمون به، والذي أنبت لكم الزرع والزيتون، وأنبت لكم من كل الثمرات، وجعل الأرض مزدهرة بعد أن كانت هامدة :

(فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

الماء حياة للأرض بعد موتها :

هذا الغيث ليس مُنخَفضاً جوياً متمركزاً فوق قبرص، وهو يتجه نحو سوريا، لا، بل هو مجرد سبب،

(فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

هل رأيت هذه الحقيقة؟ تقديم لفظ الجلالة ليفيد التركيز على أن هذا الفعل من قِبَل الله عز وجل، من قِبَل الله وحده، تقديم الفاعل (الله)على الفعل (أنزل)، وليس هناك جهة أخرى تستطيع أن تفعل هذا الفعل.

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

الأرض اليابسة، والأرض القاحلة، والأرض المقفرة، والنبات على وشك اليَبْس على وشك أن يموت، والحيوان محتاج إلى علف، والعلف متعلق بماء السماء، فكل الحياة متوقفة على هطول المطر، والمطر ينبت الكلأ، والكلأ طعام للماشية، والماشية طعام للإنسان، فحياتك متعلقة بالمطر، لأن الله سبحانه وتعالى جعل الرزق كله في المطر .

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

ولذلك حينما تنزل أمطار من السماء تنزل معها دموع الفلاح فرحاً، لأنه ـ كما يقولون ـ حصّل على موسم طيب، والتاجر حينما تنزل أمطار السماء يفرح، لأن هناك قوة شرائية سوف تعود عليه بالنفع العميم .

بعضهم قال: إلا المرابي، هذا الذي له ربح ثابت يظن نفسه مستغنياً عن رحمة السماء، لذلك هو مقطوع عن رحمة السماء .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

السماع طريق من طرق الهداية :

فهي إشارة إلى أن السماع طريق من طرق الهداية، إما أن تفكر، وإما أن تعقل، وإما أن تسمع .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق : 37)

فأحد مظانّ المعرفة أن تحضر مجالس العلم، وأحد الطرائق إلى قلبك أن تلقي السمع، فالسماع باب واسع من أبواب الهدى، والتأمل والتفكر، وأن تعقل، وأن تدرس، ولكن السماع باب واسع من أبواب الهدى، لذلك قال الله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنبياء : 7)

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

إنزال الماء من السماء غاية في الإبداع :

لو فكرت بأن هذا المطر الذي ينزله الله من السماء هو إبداع، فكيف نسقي قطراً بأكمله؟ قد يأتي منخفض جوي يغطي سماء القطر بأكمله، وتنقلب هذه السحب إلى أمطار غزيرة كأفواه القرب، قد تسافر من أقصى البلاد إلى أقصاها، والأمطار تنهمر انهمارا، ما هذا الإبداع في الخلق؟ إن أرضاً يابسةً جافةً يأتي فوقها سحاب ينقلب إلى ماء غزير يحيي هذا العشب وهذا الزرع وهذه الأشجار المثمرة، واللهِ هذا من تصميم الله عز وجل، هذا من تخطيط الله عز وجل .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ

نعمة الأنعام :

الأنعام المقصود بها الجمال، والأغنام، والشياه، والأبقار، هذه الأنعام الله سبحانه وتعالى سخرها لنا، نستفيد من كل شيء فيها ، هذه من نعم الله، الجلود، واللحم، والعظم، والشحم، والدهن، والأمعاء، والجمجمة وما فيها، والأحشاء وما إليها، والأصواف والأوبار، كل هذا نستفيد منه .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)

الأنعام مسخَّرة مذلَّلة مطواعة :

شيء آخر، أن هذه الأنعام كيف هي مسخرة لكم، مذللة لكم، مطواعة لكم، تقدم لكم كل ما عندها، وأن هذا الإنسان الذي سخرت له هذه الأنعام يعصي الله، ويأبى أن ينفذ أمره، ويستنكف أن يطيعه، ما هذه المفارقة الحادة ؟!

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)

لماذا لا يكون الإنسان مطواعا وهذه صفة البهائم ؟!

أي: كونوا كالأنعام، طيعين لله عز وجل، كونوا في مستواها، بانقيادها إلى الله عز وجل، فتأبى نفسه أن يطيع الله، تأخذه العزة بالإثم، هذه الغنمة أشرف منك أيها المعرض، أيها الكافر، أيها الفاجر، أيها المنافق، أيها العاصي :

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)

هناك آيات أخرى تتحدث عن الأنعام، قال تعالى :

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس : 72)

أخلاق الأنعام محببة، تبعث الأنس في البيت، لا تخيف، لو أن أخلاق الضبع ركبت في الغنمة، فكيف تأكلها؟ وكيف تذبحها، وأنت تخاف منها؟ عندئذ تهرب منها، بدل أن تمسكها لتذبحها وتأكلها تولّي هارباً منها، لو أنها اقتربت منك، لو أن أخلاق الوحوش الضارية ركبت في هذه الأنعام كيف تأكل لحمها؟ وكيف تسخرها؟ وكيف تنتفع منها ؟

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)

هذا عطاء الله، لو أن لكل خمسة آلاف إنسان رأسًا من الغنم كل يوم، وهناك في الأرض ما يزيد على ستة آلاف مليون من البشر، لكان هناك أعداد من الغنم تفوق حد التصور، هذه كلها تذبح كل يوم، من سخرها؟ من جعلها تتوالد بهذه الطريقة العجيبة؟ من جعل كل ما فيها خيراً لنا، أصوافها وأوبارها وجلودها، وعظامها ولحومها وألبانها، وأحشاؤها، وجمجمتها، وكل شيء فيها، حتى ما تطرحه من فضلات يعد أسمدة من الطراز الأول .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ)

نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ

بهذه الطريقة يخرج اللبن من الضرع !!!

وهذه من آيات الله المعجزة، وهذا الطعام الذي يأكله الخروف مثلاً، يأكل هذا الحشيش، أنت تعلم أن هذا الحشيش يهضم في المعدة، أو في الأحشاء، وهناك نظام الاجترار، لأنه يهضم، وينقلب إلى سائل، والأشعار الماصة التي في الأمعاء الدقيقة تمتصه فيصبح دماً، هل تستطيع أن تأكل الدم؟ حاش لله، والذي يبقى يصبح فرثاً .

الذي يخرج منه طيب، من أين جاء اللبن ؟

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ)

لا تستطيع أن تأكل الدم، ولا أن تنظر إلى الفرث، ويسقيك الله سبحانه وتعالى .

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا)

اللبن خالص لا يشوبه فرث ولا دم :

ناصعاً في بياضه، لم يأخذ حمرة الدم، ولا دكنة الروث، ناصعاً في بياضه، طيباً مذاقه ، عظيماً نفعه، إما أن تشربه حليباً، وإما أن تجعله لبناً، وإما أن تجعله جبناً، أو زبداً، أو تجعله سمناً، أو تجعل منه ألواناً منوعة من الأطعمة والأشربة من هذا اللبن الخالص، خلص من حمرة الدم، ومن دكنة الروث، هذا اللبن الخالص نعمة عظيمة أنعم الله بها علينا، هل تستطيع جهة في الأرض أن تأخذ الحشيش، وتصنع منه الحليب؟ القضية واضحة كالشمس، هذه البقرة التي أمامك، تأكل الحشيش، وتعطي الحليب، إنها معمل صامت، يعمل بصمت، لا يزعجك، لا يثقل عليك، ولا يحتاج إلى عمال، أو إلى أي شيء من هذا القبيل، تأكل الحشيش فتعطي الحليب، وبعض الأبقار تعطي في اليوم ما يزيد على أربعين كيلو غرامًا من الحليب، أما وليدتها فلا تحتاج إلى أكثر من اثنين كيلو من الحليب .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

الحليب غذاء كامل ففكّر فيه حين تشربه :

يعد الحليب الغذاء الأكمل للإنسان، فالإنسان يستطيع أن يبقى على شرب الحليب طوال حياته، فيه من كل المعادن، ومن كل المواد الأساسية، البروتينية، والدهنية، والفيتامينات، والمعادن، وأشباه المعادن،

كله في الحليب الذي يخرج :

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

فلما يشرب الإنسان كأس حليب، أو يتناول لبناً، أو جبناً، أو سمناً، أو زبدةً، أو قشدةً، يجب عليه أن يفكر في طعامه، لا أن يأكله كالبهيمة .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد : 12)

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا

ثم تأتي الآيات الأخرى لتحدثنا عن ثمرات النخيل، والأعناب، وما في النخيل من بلح وتمر، وما شاكل ذلك، والأعناب وأنواعها المنوعة التي تزيد على ثلاثمئة نوع .

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

التدرّج في تحريم الخمر :

أما كلمة سكر، أولاً : هذه الآية تعد أول آية فيها إشارة إلى أن الخمر شراب ليس حسناً، أول إشارة، بعدئذ قال الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء : الآية 43)

ثم قال الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : 90)

لذلك جاء تحريم الخمر تدريجياً .

هل آية النحل هذه منسوخة ؟!

أول آية فيها إشارة إلى أن السَكر، كأن تقول: رشد، السُكر والسَكر، الرشُد والرشَد، رشُدٌ ورشَد، سكرٌ وسَكر، فالسَكر هو السُكر، والسُكر هو الخمرُ، فكان الناس يتخذون من الأعناب ومن ثمرات النخيل خمراً يشربونها، بعض العلماء قال: إن هذه الآية منسوخة بآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : 90)

وبعضهم قال : لا، هناك من عدّها آية محكمة ليست منسوخة، حينما قال : السَكر يعني الشراب الحلو، فأنت إذا وضعت حبات التمر في وعاء فيه ماء، وشربته صباحاً فهذا شراب سكري، حتى إنه في بعض التفاسير ورد الخشافات، قد تصنع من هذه الثمرات الحلوة طبخاً لذيذاً طيب الطعم، حلو المذاق، فإذا عددت هذه الآية محكمة، فالسكر هو الطعام الطيب، وهو شراب طيب، أصله من ثمرات النخيل والأعناب، بعضهم قال : السكر على لغة أهل الحبشة هو الخل، والخل له فوائد جمة، وبعض الأطباء قالوا : يجب ألا تخلو حياة الإنسان يومياً من الخل، ومن البصل، ومن التفاح، لأن هذه المواد تذيب كل ترسبات دهنية في شرايين الإنسان، وبعضهم يقول: عمر الإنسان من عمر شرايينه، فهناك من يفسر السَكر هو الخل، وهناك من يفسر السَكر هو الشراب الطيب الطعم، الحلو المذاق، أو الطبخ، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يضع بعض حبات التمر في وعاء ماء، ويشربه صباحاً، وكان عليه الصلاة والسلام يشرب العسل شربا لا لعقًا، إذ يذيب ملعقة عسل في كأس ماء، ويشربه صباحاً، يأتي ممدَّدًا لطيفاً، هيناً هضمه، ووقعه على المعدة خفيف، فكان عليه الصلاة والسلام يحب شربة العسل، فشربة العسل إن لم يكن شربة عسل فشربة من نقيع التمر أو نقيع العنب، فالشراب المصنوع من العنب، أو من التمر، أو الطبخ الحلو المذاق، أو الخل، هذه المعاني كلها مستنبطة من كلمة (سَكراً)على أن الآية محكمة، فإذا كانت إشارة إلى الخمر فالآية منسوخة بالآيتين الأخريين، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء : الآية 43)

المرحلة الثالثة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

وبعضهم قال : الآية موجهة إلى المشركين، أنتم أيها المشركون تتخذون من ثمرات النخيل والأعناب سَكراً، شراباً تشربونه يذهب عقولكم .

والقرآن كما يقول الإمام علي كرم الله وجهه حمَّالُ أوجُهٍ، أي كل هذه المعاني مستفادة من كلمة سكراً، لكن أوجه التفسيرات :

(سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

معنى ذلك أن السَكر ليس رزقا حسناً، مما يرجح أن تكون الآية تعني بالسَكر الخمر أنها ليست رزقاً حسناً .

إذاً: أيها المؤمنون، كلوا من ثمرات النخيل والأعناب، ولا تتخذوا منها سكراً، طبعاً في الآيات اللاحقة يتضح هذا المعنى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

ثم قال تعالى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(68)ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ

مملكة النحل آية تأخذ بألباب ذوي الألباب :

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني في الدرس القادم إلى توضيح مملكة النحل، وما فيها من عجائب، فمملكة النحل يصح أن نسميها مملكة، لأن فيها نظاماً عجيباً يعجز عنه البشر، ويعجز البشر أن يطبقوه على نفوسهم، إنه نظام عجيب، وآيات محكمة، ودلائل باهرة على عظمة الله سبحانه وتعالى، فهذه النحلة أين تعلمت ؟ وفي الهندسة أشكالاً، منها شكل المربع، والمخمس، والمسدس، والسباعي والثماني، والتساعي، كل هذه الأشكال إذا ضممتها إلى بعضها يبقى فيما بينها فراغات بينيه، إلا الشكل المسدس، فإذا ضممته إلى بعضه صار قطعة واحدة، فالشكل المسدس هو الشكل الهندسي الوحيد الذي إذا جمعته إلى بعضه بعضا لا يبقى فيما بينه أي فراغ بين، فمن علم النحلة بيوت عسلها على شكل مسدس؟ من؟ الحديث عن الشمع، وعن الخلية وعن الملكة، وعن الذكور، وعن النحلات العاملات، والنحلات الحارسات، والنحلات الوصيفات، والنحلات اللاتي يأخذن كلمة السر، وعن النحلات المنظفات، ورحلة النحلة، وطريقة مصها لرحيق الأزهار، ورقص النحل، وعن نوع العسل، وعن اختلاف ألوانه، وعن أنواع شفائه، فإنه موضوع شيق جداً، وفيه أدلة واضحة على عظمة الله عز وجل، يكفي أن أذكر لكم أن كيلو غراماً من العسل هو حصيلة طيران طوله أربعمئة ألف كيلومتر، فلو أننا كلفنا نحلة واحدة أن تصنع لنا كيلو غرامًا من العسل لوجب أن تطير حول الأرض في خط الاستواء عشر دورات .

العسل دواء :

أيها الإخوة الأكارم، العسل إلى أن يكون دواء أقرب منه إلى يكون غذاء، بل إن العسل كما وصفه بعض العلماء صيدلية كاملة، ألم يقل الله عز وجل :

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

هناك تفصيلات، وإشارات، وتوضيحات أسمعكم إياها في الدرس القادم فيما يتعلق بموضوع النحل والعسل، وليست العبرة أن نشتري العسل ونأكله، بل إن تفكرك في النحل، وفي طريقة صنع العسل هو وحده يقدم لك أكبر برهان على عظمة الله، وإذا فكرت في النحل، فقد حققت الهدف من خلقه من دون أن تأكله، فإذا أكلته كان نعمة يلزمك أن تشكر الله عليها، فأكل العسل شيء، والتفكر في عظمة خلق الله عز وجل شيء آخر .

الموضوع العلمي : الكرية الحمراء :

كما عودتكم في الدرس الماضي، هناك إخوة أكارم اقترحوا علي أن أعود إلى طريقتي السابقة في معالجة موضوع علمي في نهاية الدرس، ألزمت نفسي أن أعالج إن شاء الله تعالى في كل درس موضوعاً علمياً أذكره بشكل موجز في نهاية الخطبة في جامع النابلسي .

ماذا تعرف عن الدم ومكوِّناته ؟

موضوع اليوم كان عن الكرية الحمراء، من منا لم ير الدم، الدم معروف، وكل الحاضرين فيهم دم طبعاً، هذا الدم مؤلف من كريات، ففي الإنسان خمسة وعشرون مليون مليُون كرية حمراء، وفي الميليمتر المكعب ما يزيد على خمسة ملايين كرية حمراء، وقطر الكرية الحمراء سبع ميكرونات، وهذه الخلية الحمراء تصنع في مجموعة معامل، أبرزها نقي العظام، فحينما تشتري عظماً بلحمه، وتطبخ هذا العظم مع اللحم، ويأتي ابنك الصغير ليأكل لباب العظم، هذه الأسطوانة السوداء التي ينعم بها ابنك حينما يأكلها هي نقي العظام، هنا تصنع كريات الدم الحمر، وهذا المصنع يصنع في الثانية الواحدة اثنين ونصف مليون كرية، وهذه الكرية الحمراء تعمِّر مئة وعشرين يوماً، وبعدها تموت، وتجري مراسم الدفن في الطحال، فالطحال مقبرة للكريات الحمر، وفي كل يوم تجول ألف وخمسمئة جولة في الدم، تقطع في عمرها ألفاً ومئة وخمسين كيلومتراً، فالكرية الحمراء، التي قطرها سبع ميكرونات، والتي تعيش مئة وعشرين يوماً، تقطع في حياتها طريقاً طوله ألف ومئة وخمسون

كيلومتراً، وتنقل للأنسجة ستمئة لتر من الأوكسجين، أحياناً الإنسان يشعر أن يده نملت، أو تخدرت، يكون الدم قد قلّ وروده إلى الأنسجة، فيأتي الدم الذي يحمل الأوكسجين إلى الأنسجة والخلايا والأعضاء والأجهزة، وكل مكان في الجسم، وتأخذ هذه الكرية من ناتج الاحتراق غاز الفحم، وتعيده إلى الرئة ليخرج في الزفير، هذه العملية نقل الأوكسجين، وأخذ غاز الفحم، ولذلك سمّى العلماء كرية الدم الحمراء حمالاً لا يعرف التعب أبداً، منذ أن تلد إلى أن تموت .

تصنيع الكرية الحمراء :

الشيء الذي يلفت النظر أنه يتم صنعها من ثلاثة إلى خمسة أيام، فيها يجري تصنيع الكرية الحمراء، وكما قلت قبل قليل : مصانع الكريات الحمر في نقي العظام تنتج في كل ثانية واحدة اثنين ونصف مليون كُرية، وأنشط المراكز العمود الفقري، وبعدها ريش الصدر، وبعدها عظم القص، وبعدها تأتي عظام الأطراف، لكن الله سبحانه وتعالى لحكمة بالغة جعل لهذه المعامل معامل احتياطية، فلو أنها توقفت عن العمل يعود الطحال والكبد ليصنع كريات الدم الحمر، وفي أثناء عمل نقي العظام يصبح الطحال والكبد مستودعاً لكريات الدم الحمر، فإذا تلقى الكبد أمراً من الكظر بطرح كميات من الكريات في الدم، يأخذ من مخزونه، ويطرح في الدم، أما إذا توقفت المعامل عن العمل فينقلب الكبد والطحال إلى معملين يصنعان كريات الدم الحمر .

والشيء العجيب أن الإنسان فيه كمية دم محددة، فلو فرضنا أنه احتجم في هذه الأيام، أو أنه تبرع بالدم، خلال أربع وعشرين ساعة يعود الدم إلى حجمه الطبيعي، فأيّ آلية حصلت؟ وهناك مركز بالغ الحساسية يعمل على مراقبة الدم باستمرار، وهذا المركز موجود في الكليتين، فإذا نقصت كمية الدم عن حجمها الدقيق أرسل هذا المركز أمراً هرمونياً إلى معامل كريات الدم الحمر يحثها فيه على مضاعفة الإنتاج، وإذا زادت كمية الدم عن حدها الطبيعي، وارتفع الضغط، وكان الإنسان في حالة خطرة يصدر هذا المركز أمراً إلى معامل كريات الدم الحمر بتقليل الإنتاج، ولذلك أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نحتجم، لماذا؟ هناك أسباب كثيرة تحدثت عنها في خطبة سابقة .

موضوع الشقيقة، وموضوع آلام الرأس، وموضوع تميع الدم، وازدياد حجم الدم، وفي الحديث :

((مَنْ أَرَادَ الحِجَامَةَ فَلْيَتَحَرَّ سَبْعَةَ عَشَرَ، أَوْ تِسْعَةَ عَشَرَ، أَوْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَلاَ يَتَبَيَّغْ بِأَحَدِكُمُ الدَّمُ فَيَقْتُلَهُ))

[ابن ماجه عن أنس]

الحجامة و فقر الدم اللامصنع :

التبيّغ ثوران الدم، لكن السبب الرئيسي هو أنه كلما قلّت كمية الدم في الشرايين تنشطت المعامل، معامل الكريات الحمر، وهناك مرض خطير اسمه فقر الدم اللامصنع، وذلك أن الكليتين تتوقفان كلياً عن العمل، ويسمى هبوطًا مفاجئًا في وظائف الكليتين، كذلك يتوقف نقي العظام فجأة عن تصنيع الكريات من دون سبب، والعلماء إلى الآن لا يعرفون السبب، يقولون : هذا المرض مجهول السبب، فقر الدم اللامصنع، والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، أمرنا أن نحجتم في كل عام مرة أو مرتين، لأن نقص الدم في الشرايين يدعو مركز تعيير الدم في الكليتين إلى تنبيه المعامل لزيادة إنتاجها، وفي هذا تنشيط لها، وصيانة لها من الموت المفاجئ، ففي الحجامة صيانة، وتنشيط لمعامل نقي الدم، وهذا الذي قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ أَرَادَ الحِجَامَةَ فَلْيَتَحَرَّ سَبْعَةَ عَشَرَ، أَوْ تِسْعَةَ عَشَرَ، أَوْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَلاَ يَتَبَيَّغْ بِأَحَدِكُمُ الدَّمُ فَيَقْتُلَهُ))

[ابن ماجه عن أنس]

والشيء الأساسي هو أن العلاقة واضحة بين الكلية وضغط الدم، يُقال: ارتفع معه الضغط فجأة، لأنه معه التهاب كلوي، فما علاقة التهاب الكلية بارتفاع ضغط الدم؟ لأن مركز تعير الدم موجود في الكليتين.

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة لقمان : 11)

ماذا فعلوا .

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

(سورة النمل : 88)

والله سبحانه وتعالى أمرنا أن ننظر في هذه الآيات فقال سبحانه :

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات : 21)

أمراض الدم اختصاص كامل :

مرة وقفت أمام مكتبة فوجدت كتاباً يزيد حجمه على ألف صفحة، مكتوب عليه: أمراض الدم، قلت: سبحان الله! اختصاص كامل يعطى الإنسان أعلى درجة علمية، لأنه عرف طرفاً من أمراض الدم .

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

والآن يقول العلماء : كرية الدم الحمراء حينما تصنع تفقد نواتها، وهي الخلية الوحيدة التي تفقد نواتها، بينما أيّ خلية لا تعمل إلا بالنوية والنواة، والحكمة إلى الآن غير معروفة، والله سبحانه وتعالى دعانا إلى التفكر .

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

(سورة الطارق : 5 - 7)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (15-21): تفسير الآيات 66 – 70 ، عن فوائد المخلوقات - أو فضل الله علينا أن خلق لنا المخلوقات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-04-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة النحل .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ

في الدرس الماضي أشرت إلى أن الله سبحانه وتعالى وضع بين أيدينا آية دالة على عظمته، أننا نعتمد في غذائنا في الدرجة الأولى على الألبان ومشتقاتها، والألبان كما نرى بأعيننا نأخذها من الأبقار والأغنام، والإبل، في الدرجة الأولى من الأبقار والأغنام، وأن هذه الألبان كما قال الله تعالى تخرج :

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

(سورة النحل : 66)

عجبًا لو وقفت عند تركيب الحليب :

فلو وقفنا عند تركيب الحليب لأخذتنا الدهشة، إذ أن واحداً وتسعين في المئة من وزنه ماء، وهذا الماء هو الوسط الذي تجول فيه المواد الغذائية، والمعادن، والفيتامينات، وأشباه المعادن، وما إلى ذلك .

شيء آخر، في الحليب مواد دسمة على شكل كريات صغيرة جداً عالقة في هذا الوسط، وإن وزنها النوعي يجعلها تطفو على سطحه .

وفي الحليب أيضاً مواد سكرية، فإذا أردت أن تحلي كأساً من الحليب تحتاج إلى سكر قليل لا إلى كمية كبيرة، وهذا دليل على وجود السكر الذي يعد من أرقى أنواع السكريات .

وشيء آخر، في الحليب مواد بروتينية، وهذه المواد مرممة للخلية، أربعة أو خمسة أنواع من المواد البروتينية موجودة في الحليب .

وشيء ثالث، هناك معادن، وفي مقدمتها الكالسيوم والفوسفور، ولا يخفى عليكم أن الكالسيوم ، وهو الكلس، وهو مهم جداً في بناء العظام والأسنان، لذلك ينصح للرضيع والحوامل أن يشربن الحليب، لعلاقته بترميم العظام .

شيء آخر، هناك فيتامينات مهمة جداً في الحليب، فتامين ـ آ ـ ب ـ س ـ د، وهناك غازات منحلة في الحليب، غاز الكربون، والأوكسجين، والآزوت، ويعد الحليب غذاءً كاملاً .

أما الشيء الذي يحير الألباب فكيف يتحول الدم إلى حليب، أولاً : ضرع البقرة الذي ترونه بأم أعينكم، لو شرحناه لوجدنا في داخله غشاءً سميكاً يقسمه قسمين بالتساوي، وكل قسم من هذين القسمين فيه غشاء عرضاني يقسمه قسمين، فضرع البقرة مقسم إلى أربعة أقسام بالتساوي، وكل قسم مُثْنَهٍ بحلمة مؤلفة من عضلات دائرية ملساء، تغلق الفتحة إغلاقاً محكمة، وبآلية عجيبة، تفتح هذه الحلمة الطريق ليخرج اللبن إلى الوعاء الذي نحلب فيه، ولكن السؤال الكبير كيف يصبح الدم حليباً ؟

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ)

انظروا فإنه يخرج : مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ

هذا الوعاء، أو هذا الحوض الذي في ضرع البقرة في أعلاه غدد ثديية، هذه الغدد مقسمة إلى فصوص، وهذه الفصوص مقسمة إلى فصيفصات، وهذه الفصيفصات مقسمة إلى كريات، كل كرة اسمها سنخ، هذا السنخ عبارة عن كرة محاطة بخلايا غشائية، هذه الخلايا محاطة بشعريات دموية، مهمة هذه الخلايا حتى هذه الساعة مجهولة تماماً، خلية تأخذ من الشعريات الدموية ما تشاء، وتفرز إلى حوض الكرة الحليب الذي يتجمع في أقنية تصب في ضرع البقرة، سنأخذه مساءً عن طريق حلبها، كيف يتم انتقال الدم إلى الحليب عند عقدة معقدة هي هذه الخلية الغشائية المتوضعة على غشاء السنخ، ومجموعة الأسناخ تؤلف الفويصص، ومجموعة الفوصيفصات، تؤلف الفصوص، ثم الغدة الثديية ؟ يا سبحان الله ! خلية غير عاقلة تستطيع أن تأخذ من الدم الفوسفور، والكالسيوم، والفيتامينات، والسكريات، والبروتينات، والمواد الدسمة، وتخلطها مع بعضها خلطاً محكماً، مع البكتريات والخمائر، وتصبها في حوض السنخ، وأحواض الأسناخ تتجمع في قناة تصب في حوض رباعي، يعد ربع ضرع البقرة، هذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى .

كم هي كمية الدم التي يصنع منها الحليب ؟

أما السؤال الذي يطرح نفسه: كم هي كمية الدم التي يصنع منها الحليب ؟ لو حلبت البقرة مثلاً لتراً من الحليب، فكم لتراً في الشعريات من الدم حتى أنتج منه الضرع لتراً من الحليب؟ قال العلماء: من ثلاثمئة حجم إلى أربعمئة حجم من الدم تستطيع أن تصنع منها حجماً واحداً من الحليب، فإلى أن يمر ثلاثمئة

لتر من الدم في الشعريات المحيطة بالأسناخ حتى يصنع لترًا واحدًا من الحليب، هذه آية كبرى من آيات الله .

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

متى يكف الضرع عن إخراج الحليب ؟

شيء آخر يدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، حينما تولد البقرة، من ستة أيام إلى عشرة أيام يكف الضرع عن صنع الحليب، ويفرز الضرع مادة صفراء لزجة ذات قوام مر اسمها اللبأ، هذه المادة فيها كمية من المصول، واللقاحات، والمناعات، التي تملكها الأم ، وفيها مواد دسمة، ومكثفة، وفيها مواد بروتينية، من أجل أن تكون غذاء مكثفاً، ووقائياً للعجل في أول عهده بالرضاعة، فَيَدُ مَن التي أشرفت على صنع اللبأ، وأوقفت صنع الحليب؟ يقول العلماء : إن اللبأ يختلف في طبيعته وتركيبه الكيماوي اختلافاً كبيراً عن الحليب الطبيعي، اللبأ له رائحة قوية، وطعم يميل إلى المرارة، ولون أصفر محمر خفيف، ولزوجة عالية، ويحتوي على نسبة عالية من بروتينات المناعة، وبروتينات المصل، والأملاح المعدنية، بينما يكون الحليب الطبيعي سائلاً غير شفاف، أبيض اللون، أو ضاربًا إلى الصفرة، لا رائحة له، فاللبأ يناسب نمو الحيوان الرضيع، ويكسبه مناعة، وبعد الولادة بحوالي ستة أيام إلى عشرة تعود البقرة لإنتاج الحليب الطبيعي، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

الذي أريد أن أقف عنده أن حجماً واحداً من الحليب يحتاج إلى ثلاثمئة حجم من الدم، كل أربعمئة حجم، أو ثلاثمئة حجم من الدم يصنع منها حجم واحد من الحليب، فما هذا المصنع الذي أمام أعيننا؟ وما عظمة الخالق جل جلاله شأنه في تقديم هذا اللبن السائغ للشاربين؟ إنه آيه من آيات الله سبحانه وتعالى، يقول بعض العلماء: تعد الغدة الثديية المتطورة للبقرة المعمل الحيوي الذي يقوم بتكوين وإفراز الحليب، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ولذلك فالبقرة الآن يزيد ثمنها على سبعين أو ثمانين ألف ليرة، لأنها تدر كل يوم من ثلاثين إلى أربعين كيلو غراماً من الحليب، إنه معمل قائم بذاته، تأكل الحشيش، وتقدم الحليب، والحليب وما أدراكم عن بنيته وتركيبه، أملاح، ومعادن، وأشباه معادن، وبروتينات، وفيتامينات، وغازات منحلة، وسكر، ودسم وماء، هذا كله من تخطيط الله سبحانه وتعالى، ومن خَلقه العجيب .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

كيف يُصنَع اللبن في ثدي البقرة :

فالشيء الذي لفت نظري في نشرة تمّ إعدادها في موضوع اللبن، وكيف يصنع في ثدي البقرة، يقول بعض العلماء : إن تحول الدم من مكوناته الأساسية، ثم طرحه في تجويف السنخ، ومنه إلى قنوات الحليب، ثم إلى حوض الغدة، ومنه إلى حوض الحلمة، ثم إلى الخارج عن طريق فتحة الحلمة، بطريقة ما غير معروفة تماماً، فكيف أن هذه الخلية، هنا شعريات دموية، وهنا أقنية للحليب، فكيف تأخذ من الحليب ما تشاء ؟ وكيف يتم تصنيع اللبن في هذه الخلية ؟ حتى الآن هذا غير معروف تماماً .

أيها الإخوة الأكارم، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس : 24)

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق : 5)

انظر إلى خلقك، وانظر إلى طعامك، تعرف نعمة الإيجاد، وتعرف نعمة الإمداد، نحن مخلوقون، ولكن مَن أمدّنا بهذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟ إنه الله سبحانه وتعالى، ألا ينبغي أن نطيعه؟ ألا ينبغي أن نسجد له؟ ألا ينبغي أن نحبه؟ ألا ينبغي أن نخلص له ؟

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا

التمر آية عظيمة :

أيضاً موضوع النخيل موضوع قائم بذاته، فهناك حقائق مذهلة عن النخيل، إن النخلة قد تعمر ستة آلاف عام، وإن ثمرة النخيل، وهي التمر فيها ما يزيد على ثمانٍ وأربعين مادة غذائية ومعدنية ، تكاد التمرة أن تكون صيدلية، فمن مواد سكرية، وفيتامينات، ومعادن وأشباه معادن، وأملاح، وما إلى ذلك، وإن التمر بطبيعة تركيزه الشديدة فإنه لا يقبل التلوث، فيه مواد مسكنة، ومهدئة وقابضة، وموسعة للشرايين، وفيه مواد تعين على حركة الأمعاء، ومواد تمنع النزيف، لذلك لما ربنا عز وجل قال :

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(25)فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا)

(سورة مريم)

انتبه العلماء إلى أن الغذاء المثالي الذي ينتقل من فم المرأة التي توشك أن تضع إلى دمها في عشرين دقيقة، من الفم إلى الدم، مرت التمرة بالبلعوم، والفم، وبالمريء، والمعدة، والأمعاء الدقيقة، وامتصها الدم في أقل من عشرين دقيقة، وهذا التمر يعين على حركة الأمعاء، ويلينها، ويمنع النزيف، ويعين على تقلصات الرحم، ولذلك فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25)فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا)

(سورة مريم : 25 -26)

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

معنى : سَكَرًا

بينت لكم في الدرس الماضي كيف أن كلمة سَكر تحتمل معنيين، إما معنى الشراب المُسكر، أو ما فسره بعض العلماء من أنه الخل، أو أيّ شراب حلو الطعم والمذاق، إذا ألقينا بضع تمرات، أو عصير العنب في الماء وشربناه، فهذا ما تعنيه الآية، أما أن يكون مُسكراً فالآية منسوخة بقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : 90)

وإما أن هذه الآية فيها أول إشارة إلى أن الخمر ليس رزقاً حسناً .

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

فحينما وصف الرزق بأنه حسن إذاً هذا السَكر هو رزق ليس بحسن، فإذا حملنا معنى كلمة (سكراً)على أنه الشراب المسكر فالله سبحانه وتعالى جعل من هذه الآية إشارة أولية لطيفة إلى تحريم الخمر، وفي آيات لاحقة، إلى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)

(سورة النساء : 43)

وفي التحريم النهائي :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : 90)

أما أن نعد السكر هو الخل، أو كل شراب حلو المذاق، فهذا تفسير آخر مقبول، ويرجح أن كلمة(سكرًا)هو الشراب الحلو المذاق الذي لا يسكر أن الله سبحانه وتعالى لا يمتن على عباده فيما حرم عليهم،

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

وإذا أردنا من معنى كلمة (سكرًا)الشراب المسكر، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يخاطب المشركين، أهل مكة، وكانوا يشربون الخمر ليلفت نظرهم إلى ثمرات النخيل والأعناب،

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

ثم قال تعالى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ

وحيُ الإلهام :

فالوحي هنا ليس بمعنى الوحي المعروف للأنبياء، إنما هو وحي الإلهام،

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي)

هذا ما تفيده الياء في قوله : اتَّخِذِي

هذه ياء المؤنثة المخاطبة، إذاً: النحلات العاملات هن المعنيات في هذه الآية، من يعرف ذلك ؟ من في عصر النبي عليه الصلاة والسلام يعرف أن من النحل ذكوراً، ومن النحل إناثاً، ومن النحل ملكة، وأن الملكة لها مهمة خاصة، والذكور مهمتها تلقيح الملكة، وأن النحلات الإناث هن المعنيات بهذا الخطاب ؟

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

إما أن يتخذ النحل تجاويف الأشجار خلايا له، أو كهوف الجبال خلايا له، أو يتخذ له بيوتاً خاصة يصنعها الإنسان :

(وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

وهذه هي خلايا النحل .

(ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ

لا يبحث النحل عن الرحيق إلا بعد استقراره في بيته :

والعلماء يقولون : إن النحل لا يبدأ بالبحث عن رحيق الأزهار إلا بعد أن يستقر في بيته، ولذلك جاءت (ثم)هنا بالترتيب على التراخي، بعد أن يستقر النحل في خليته، أو في تجاويف الأشجار، أو في كهوف الجبال، عندئذٍ ينطلق من هذه الأماكن، ليبحث عن رحيق الأزهار، إذاً :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(68)ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

ماذا نعرف عن النحل عموما ؟ :

موضوعات عن النحل لطيفة، وقد أحصاها العلماء، ولكن لا سبيل إلى استقصائها في هذا الدرس، والنحلة كما يقول بعض العلماء : هي الحشرة الوحيدة التي تستطيع تخزين رحيق الأزهار من أجل الغذاء، فتنطلق النحلات العاملات من الخلايا، وتجوب الحقول والبساتين، من أجل أن تمتص رحيق الأزهار .

لا تقع النحلة على زهرة ممتصة الرحيق :

وأول ملاحظة أن هذه النحلة لا تقع على زهرة قد امتُص رحيقها، لأن النحلة التي امتصت رحيقها تترك أثراً أو علامة تشعر النحلة التالية أن هذه الزهرة قد امتص رحيقها، من أجل توفير الوقت والجهد.

كم تطير النحلة حتى تعطي العسل ؟

شيء آخر قاله العلماء: لكي تحصل النحلة على قطرة واحدة من الرحيق فإنها تضطر أن تزور من 500، إلى 1100 زهرة من أجل قطرة واحدة من الرحيق، وإذا أردنا أن نحصل على مئة غرام من الرحيق، فتحتاج النحلة إلى أن تزور مليون زهرة، أما من أجل أن نحصل على كيلو غرام واحد من العسل فتحتاج النحلة أن تطير مسافة تزيد على 400 ألف كيلو متر، فمحيط الأرض كلها 40 ألف كيلو متر، يجب أن تطير نحلة واحدة حول الأرض عشر مرات تبحث عن الأزهار من أجل أن تصنع لنا

كيلو غرامًا واحداً من العسل، والنحلة وهي تطير منطلقة إلى البساتين والحقول سرعتها تزيد على خمسة وستين كيلو متراً في الساعة، أما إذا عادت إلى الخلية محملة برحيق الأزهار عندئذٍ سرعتها لا تزيد على ثلاثين كيلو متراً، من يصدق أنها في طريق العودة تصنع العسل، وتفرز الخمائر من أحشائها، على مستودعات الرحيق، وتبدأ في صناعة العسل، وهي في أثناء الطيران في رحلة العودة ؟ والآن هناك بواخر تأخذ المواد الأولية من أستراليا، وتصنّعها في الطريق، وتتوجه البواخر إلى موانئ التصدير، ويعد هذا ذكاء بارعاً في هذه الدول المصنعة، أنها من أجل أن توفر الوقت والجهد ترسل معامل فوق البواخر، فتأخذ المواد الأولية من قارة، وتصنّعها في أثناء الطريق، و تبيعها في موانئ التصدير، أو موانئ الاستيراد .

يبدأ النحل إنتاج العسل في رحلة العودة :

هذه النحلة تبدأ بصنع العسل في رحلة العودة، من أجل توفير الوقت والجهد، وإذا كان هناك موسم طيب، فإن النحلة تدفع برحيقها عند باب الخلية إلى نحلة أخرى، وتعود أدراجها إلى الحقل، كي تستفيد من الوقت، وفي الخلية نظام رائع جداً .

أولاً : فيها ملكة مهمتها أن تبيض، وبيضها في اليوم بالمئات، بل بالألوف، وهذه الملكة تذهب إلى مكان الذكور فتلد الذكور، وتذهب إلى مكان العاملات الإناث فتلد الإناث، وتذهب إلى مكان الملكات فتلد الملكات، فمن أعلمها أن في بطنها ملكة؟ أو أنثى؟ أو ذكر؟ هذا من الأشياء التي تدعو إلى التأمل العجيب .

امرأة تحمل دكتوراه في الطب، لو أنها تزوجت، وحملت من زوجها، فهل تعرف نوع جنينها بنفسها ؟ لا، أما هذه النحلة الملكة فتعرف نوع المولود .

الملكة صاحبة حكمة فتنبَّه أيها الإنسان !!!

شيء آخر، للملكة حكمة، وهي أداة دفاعية، لا تستخدمها إلا في حالة واحدة، إذا قامت ملكة أخرى تنافسها على ملكها، ولا تلدغ الملكة الإنسان أبداً، ولا تلدغ أي جهة أخرى، لا تستخدم حمتها إلا في لدغ ملكة أخرى، ولها وصيفات، وقسم من النحلات العاملات موكل بخدمة الملكة، إذ تذهب هذه النحلات إلى أماكن الأزهار، فتأخذ غبار الطلع، وغبار الطلع غذاء دسم جداً، مفعم بالمواد البروتينية، تصب عليه رحيق الأزهار، وتعجنه، وتقدمه طعاماً ملكياً، نفيساً للملكة، هذه النحلات الوصيفات، وهناك نحلات حارسات لا تسمح لأية نحلة بدخول الخلية .

مجتمع النحل انضباط ونظام :

ولكل خلية كلمة سر، فلو أن في الحقول عشرة آلاف خلية نحل فلا يمكن أن تدخل نحلة إلى غير خليتها أبداً، عن طريق النحلات الحارسات اللاتي لا يسمحن لأية نحلة بدخول الخلية إلا إذا كانت النحلة تعرف كلمة السر .

هناك نحلات مهمتهن تجديد الهواء في الخلية، فإذا كان الجو صيفاً وقفت النحلات على باب الخلية، ورفرفت بأجنحتها، فنشأ تيار يدخل إلى الخلية، فيعدل من جوها، وإذا كان الجو بارداً وقفت هذه النحلات الموكلات بجو الخلية فأغلقت النوافذ من أجل الحفاظ على الحرارة .

هناك نحلات منظفات، أيّة نحلة عادت إلى الخلية قذرة تقتل، فجزاء القذارة عنده النحل القتل، وأيّة حشرة دخلت إلى الخلية تسحبها النحلات المنظفات إلى خارج الخلية، فإذا كانت الحشرة كبيرة، لا تستطيع النحلات سحبها إلى الخارج، تحيطها بطبقة شمعية، وتغلفها، وتمنع فسادها، وانتشار رائحتها الكريهة، إنه عالم قائم بذاته .

إذا عادت النحلة العاملة من حقل الأزهار، وكان حقل الأزهار يبعد عن الخلية خمسين متراً ترقص رقصةً تعلم رفيقاتها بأن البعد لا يزيد على خمسين متراً، ومسافة مئتي متر لها رقصة خاصة، وكذا أربعمئة متر، وستمئة متر، فإذا كانت المسافة تزيد على خمسة كيلو مترات فهناك رقصة خاصة، إنها أداة إعلامية رائعة جداً .

والنحلة الطليعية تذهب إلى الحقول، وتكتشف بُعدها عن الخلية، وعندما تعود ترقص رقصةً تحدد لبقية النحلات العاملات بُعْدَ حقول الأزهار عن الخلية .

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

النحلة السيدة المهندسة البنّاءة :

شيء آخر، هناك نحلات مختصات، مهندسات بصناعة البيت الشمعي، مَن علم النحلة أن أنسب شكل هندسي هو الشكل السداسي؟ فلو كان الشكل دائرياً لتركت الدوائر فيما بينها فراغات بينية، ولو كان الشكل مستطيلاً، أو مربعاً لما كان بقوة الشكل السداسي، والشكل المربع والمستطيل يترك في أطراف الخلية مسافات كبيرة، أما الشكل الذي لا يدع فراغات بينية، ولا فراغات على أطراف الخلية فهو الشكل السداسي .

والشيء الأعجب من ذلك أن النحلات المهندسات حينما يبنين البيت السداسي تبدأ كل فرقة من النحلات المهندسات ببناء القرص الشمعي من طرف، أشكال مسدسة بالغة الدقة، وتجتمع النحلات

المهندسات فتلتقي على بيت سداسي نظامي، فإذا كان هذا بإمكان الإنسان فأنا مستعد للمناقشة، أيستطيع معلم كبير في البلاط أن يبدأ بلاط هذا المسجد من ذاك المكان، ومعلم آخر يبدأ من هذا المكان، ويلتقي المعلمان على بلاطة نظامية، ذات أبعاد متساوية ؟ هذا مستحيل، يبدآن من هنا فيقصان البلاط، و يبدآن من هناك فيقصان البلاط، أما أن يبدآ من هنا، وبلاط من هنا، ويجتمعان على بلاط نظامي فهذا شيء مستحيل، وهكذا تفعل النحلات العاملات، نحلات مهندسات، نحلات ومنظفات، ونحلات حارسات، ونحلات لكلمة السر، ونحلات للتهوية، ونحلات لتكثيف الرحيق، وهناك نحلات تأخذ الرحيق، وتطير به في الجو فتكثفه، لأن العسل يبقى محافظاً على قيمته، وعلى قوامه سنوات طويلة بفضل لزوجته، فلو كانت الرطوبة أكثر من ذلك لفسد العسل .

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(68)ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا)

الآن النحلة مخيرة أن تأكل من كل الثمرات، من كل أنواع الأزهار، وتمتص رحيقها .

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا)

هنا الآية .

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا

النحل تسير بتقدير وهدى إلهي دقيق :

الآن طائرة تحتاج إلى أجهزة اتصال، وإلى بوصلة، وإحداثيات، وأماكن بث، ومحطات بث في الطريق، هذه المحطات تعلمها في مكانها أجهزة بالغة التعقيد، موجودة في الطائرة، اتصالات لاسلكية مستمرة مع المطارات من أجل أن يحدد الطيار موقع الطائرة، عنده خرائط، وأجهزة ارتفاع، وأجهزة مساحة ، وبوصلة، ولاسلكي، واتصالات، ومحطات بث، وهو يحمل شهادات عليا، أما هذه النحلة إذا غابت الشمس، أو قبل أن تغيب، إذا ابتعدت عن خليتها عدة كيلو مترات، وكانت التضاريس منوعة، كيف تهتدي إلى خليتها؟ هذا يتم عن طريق هداية الله سبحانه وتعالى :

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا)

فالله سبحانه وتعالى ذلل للنحلة طريق العودة، اذهبي إلى حقول الأزهار، وعودي إلى خليتك في أمان الله .

(اسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ)

يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُه

العسل أنواع وألوان مختلفة :

فهناك عسل أسود، وعسل بني، وعسل أصفر، وعسل قريب من اللون الأبيض، وعسل ذو لون زهري... وألوان ملونة، لكن العلماء اكتشفوا أن كل لون من ألوان العسل سببه اختلاف تربة الأرض، واختلاف رحيق الأزهار، و ربما كان كل لون يفيد في نوع ما من الشفاء أكثر من غيره .

(يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ)

العسل شفاء وعلاج فعّال :

هناك كتب كثيرة ألفت عن العسل شفاء، حتى إن بعض العلماء قال : العسل صيدلية كاملة، فالعسل قبل كل شيء وسط غير صالح لنمو الجراثيم، والبكتريات، والفطريات، فهو يقتل الجراثيم والفطريات، والبكتريات، لذلك جميع أمراض جهاز الهضم الإنتانية التي سببها الجراثيم، والتلوث، مثل الزحار، الدزنتري، وكل الأمراض المعوية الإنتانية علاجها بالعسل، وعندي صور لأمعاء فيها جراثيم بأعداد كبيرة جداً، وبعد يومين من تناول العسل اختفى معظمها، ومات، فالعسل بيئة قاتلة لكل الجراثيم، والبكتريات، والفطريات .

شيء آخر، العسل علاج لفقر الدم، فقر الدم متعلق بنسبة الخضاب في الدم، والإنسان الذي يشكو فقر الدم إذا تناول العسل ارتفعت نسبة الخضاب من سبع وخمسين بالمئة إلى ثمانين بالمئة، والعسل علاج للجروح .

حدثني طبيب جراح من كبار أطباء الجراحة قال لي : إذا جاءتني حالات عسرة من جروح متطورة، أفتح الجرح وأنظفه، وأضع فيه كمية من العسل، وهكذا تعلم في بريطانيا، أن الجروح المستعصية علاجها بالعسل، وربنا عز وجل قال :

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاس)

العسل يعد شفاء لأمراض جهاز التنفس، القسم العلوي، وكل أنواع الحمى الراشحة وضيق التنفس، والربو ، هذا كله يعالج بالعسل، والعسل أيضاً علاج ناجع لأمراض الرئة، وجهاز التنفس القسم العلوي، الرغامى، والحَنجرة، وقسم سفلي، الرئتان، العسل يعد علاجاً فعالاً لأمراض جهاز التنفس، ذات القسم العلوي، وذات القسم السفلي، ويعد العسل غذاءً ضرورياً لمرضى القلب، لأن عضلة القلب

غذاؤها الفعال هو العسل، والمادة السكرية ذات الأداء العالي في الإنسان هي العسل، لذلك مرضى القلب محتاجون إلى أن يتناولوا العسل كل يوم، ويعد العسل علاجاً لأمراض المعدة والأمعاء، فيستطيع من يشكو الحموضة العالية في أمعائه، وفي جهازه الهضمي أن يأكل العسل، فتعدل الحموضة، وتمتص المواد المخرشة في جهاز الهضم، ويعد العسل أيضاً علاجاً لأمراض الكبد، يقي تشمع الكبد، ويعد منشطاً من الطراز الأول لوظائف الكبد، ويعد العسل علاجاً لأمراض الجهاز العصبي، فيه مواد مسكنة، ومن يشكو اختلاجات في أعضائه، واضطرابات، وتوتر عالٍ فالعسل فيه مواد مهدئة، ومسكنة، ويعد علاجاً لأمراض الجهاز العصبي، وهذا الكلام كله مأخوذ من علماء أجانب، لا يعرفون الله إطلاقاً، ولم يقرؤوا هذا القرآن أبداً، بل عن طريق التحليل، والدرس، والتجريب، والبحث .

العسل مرهم للجلد :

شيء آخر، يستعمل العسل كعلاج للأمراض الجلدية، على شكل مراهم، فبعض الدمامل، وبعض البثور، والتخرشات، وبعض الأمراض الجلدية يستخدم لها العسل كضمادات، ويعد العسل علاجاً فعالاً لأمراض العين، ولاسيما التهاب القرنية، وعلاجاً فعالاً لمرض السكر، مع أنه حلو المذاق، وفيه كمية سكر عالية جداً، إلا أنه لا يزيد مرض السكر خطورة، وعلاجاً فعالاً لاضطرابات طرح البول، أي اضطرابات الكليتين، وعلاجاً فعالاً للأرق، وأمراض الجهاز العصبي .

هل تعلم أن النحّالين ليس فيه حالة سرطانية :

أما الشيء الغريب أنه لم يثبت وجود حالة سرطان واحدة في النحالين، الذين يعملون في المناحل، وتفسير هذه الظاهرة عجيب، كأن العسل أيضاً له علاقة بمرض السرطان الخبيث، والعسل فوق كل ذلك علاج للأمراض النسائية، ففي أول الحمل تمر فترة صعبة جداً على الحامل، تقيؤ وغثيان، وانحطاط قوى، وتشاؤم، وكآبة، فيعد العسل في هذه المرحلة غذاءً فعالاً، وعلاجاً للأمراض الطبيعية التي تنشأ عقب الحمل مباشرةً، وهذا الكلام تفسير لطيف، وسريع لقوله تعالى :

(يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

ويبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام من كلمة (شراب)كان يحب شرب العسل على لعقه، فكان يضع لعقة عسل في كأس ماء، ويذيبه، ثم يشربه،

(ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

لا يزال العلم لم يكشف الحقيقة الكاملة للعسل :

وهناك علماء ربطوا بين اختلاف ألوان العسل والشفاء، فبينوا أن العلم لا يزال قاصراً عن معرفة طبيعة كل لون في فعالية الشفاء، وكل لون من العسل له خاصة دقيقة في الشفاء، وهذا لا يزال رهن البحث، وكلمة :

(فِيهِ شِفَاءٌ)

لو أن الله سبحانه وتعالى قال : فيه الشفاء للناس، معنى ذلك أي مرض علاجه العسل، هذا كلام غير علمي، فربنا عز وجل جعلها نكرة، فقال :

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

والشفاء نكرة لا تعني الشمول هنا، بل تعني أن هناك أمراضاً كثيرة جداً يعد العسل علاجًا لها .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

هذا كلّه آية لمَن تفكّر :

موضوع النحل، ومملكة النحل، ونظام النحل، وخلايا النحل، وبيوت النحل، وأنواع النحلات العاملات، وطريقة جني الرحيق، وطريقة صنع العسل، وطريقة نظام الخلية، هذه كلها آيات دالة على عظمة الله سبحانه وتعالى، ألا ينبغي أن نفكر فيها ؟

واللهِ الذي لا إله إلا هو ما تكلمت من موضوع العسل إلا النزر اليسير، فأنا أعلم، وعندي مراجع أوسع بكثير من هذا الذي قلته، فطبيعة المقام لا تحتمل أكثر من هذه التفصيلات، ولكن هناك كتب موسعة جداً إذا قرأتها تخر لله ساجداً، ما هذا؟ إنها من آيات الله الكبرى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(68)ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

(ثم) وحدها تعني أن النحل لا ينطلق إلى جني الرحيق قبل أن يستقر في خلية .

(أَنْ اتَّخِذِي)

وبعد ذلك :

(كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

ولأنها تأكل من كل الثمرات يأتي العسل مختلف ألوانه .

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا)

هذه آية كبرى، كيف تهتدي النحلة إلى خليتها؟ هذا ما يزال هذا سراً، ولا يعرف علماء الحيوان كيف تهتدي هذه النحلة إلى خليتها، وقد ابتعدت عنها عشرات الأميال، وهناك حقائق تقول : قد تبتعد النحلة عن خليتها خمسة وعشرين كيلو متراً، أو أكثر، فكيف تهتدي إليها إنسان عاقل ؟ وقد يضيع الجغرافي في الطريق .

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

تفكروا في هذه الآية، اقرؤوا عن النحل، سبحوا الله سبحانه وتعالى، مجدوه، عظموه، خروا له ساجدين، أطيعوه، إذا فكرتم في النحل فقد حققتم الهدف من خلق النحل، ولو لم تذوقوا العسل، وإذا أكلتم العسل كل يوم، ولم تفكروا في النحل لم تحققوا الهدف من خلق النحل، في الدرجة الأولى يجب أن نعرف الله من خلال النحل، لأن النحل آية كبرى من آيات الله .

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ

نعوذ بالله من أرذل العمر :

نعوذ بالله من أن ندرك أرذل العمر، شيء لا يحتمل، حينما يخرف الإنسان، وتضعف قواه، يصبح في الحياة الاجتماعية هامشياً، ويسخر الناس منه، وتسوء علاقته مع أهله، ومع أولاده، ومع زوجته، وينبذه أهله، يخرف، ويتكلم كلاماً لا يحتمل .

قال لي أحدهم: والله والدتي أضعها على سرير، وأربط يديها نحو عنقها، قلت له: لماذا؟ قال: لئلا تأكل من فضلاتها، هذا أرذل العمر، أن يأكل الإنسان من نجسه .

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

عليكم بالقرآن والعلم لتتمتعوا بخريف العمر :

لذلك من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، لأنه ضمانة من الخرف، فأكبر ضمانة من الخرف أن تتعلم القرآن، من أراد ألاّ يُرَدَّ إلى أرذل العمر فليتعلم القرآن، وليحفظ الله في جوارحه .

أحد العلماء عمر سبعة وتسعين عاماً، وكان متمتعاً بقوته، وسمعه، وبصره، وذاكرته وأسنانه، وقوامه، فكلما سئل عن هذه الصحة يقول : حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً،

عاش قوياً، ومن أجل ألاّ نُردَّ إلى أرذل العمر يجب أن نطيع الله طاعة تامة، ومن أجل ألا نَخرف يجب أن نتعلم القرآن، وأن نحفظه، فمن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت .

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (16-21): تفسير الآيات 70 – 78 ، عن قدرة الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-05-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي، أو في الدرس قبل الماضي إلى قوله تعالى :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا

الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ)

خَلْقٌ ثم موت :

خُلقنا على هذا الشرط، خُلقنا على هذه الدنيا، ولابد من أن نموت، فالموت هو مصير كل حي، فالعاقل هو الذي يعد للموت عدته، والأحمق الذي هو ينسى هذه الساعة التي وعدنا الله بها .

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ)

نسيان الموت سببٌ للطغيان :

متى يطغى الإنسان؟ ومتى يتجاوز الحدود؟ ومتى يأخذ ما ليس له؟ ومتى يستعلي على عباد الله؟ حين ينسى هذه الساعة، حينما ينسى ساعة الوفاة، فتأخذه العزة بالإثم، حينما ينسى أنه لابد من أن يقف بين يدي الله عز وجل، ليحاسب عن كل صغيرة وكبيرة، حينما ينسى يطغى، بئس العبد عبد سها ولها، ونسي المبتدى والمنتهى، نسي كيف كان نطفة، خرج من عورة، ونسي كيف كان مخلوقاً ضعيفاً لا يعلم شيئاً، وكيف أن الله عز وجل أكرمه بأبيه وأمه، ولولا هذا النظام لما عاش مخلوق، بئس العبد عبد طغى، وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى .

الله كتب الموت على الجميع :

الله سبحانه وتعالى خلقنا، ثم يتوفانا، فالوفاة لابد منها، قال تعالى :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر : 30)

وقال سبحانه :

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران : 144)

فالنبي يموت، والرسول يموت، والغني يموت، والفقير يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والصحيح يموت، والمريض يموت، وكل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت .

الليـــل مـهما طـــال فلابـــد مـــن طلـــوع الفجر

والعمـر مـهما طـــال فلابـــد مـــن نـــزول القبر

***

كل ابن أنثى و إن طالت سلامتـه يوماً على آلةِ حدباءَ محـــمولُ

فإذا حملت إلى القبـور جنـــازة فاعلم بأنـك بـعدها مـحمـولُ

***

هذه الساعة فكر فيها، وأنا أضمن لك الاستقامة ؛ لأنك إذا فكرت في ساعة رهيبة تترك كل شيء، وتوضع تحت التراب، تحت الثرى، ويأتي الملكان ليسألانك : مَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وماذا فعلت؟ لِمَ فعلت؟ ولِمَ لم تفعل ؟

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ))

[أخرجه الترمذي والدارمي]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر : 92 - 93)

لذلك :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ)

الوفاة حق، والموت حق، والبرزخ حق، وعذاب القبر حق، وأن يكون القبر روضة من رياض الجنة حق، والصراط حق، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق ؛ بعث الناس يوم القيامة حق .

من الناس مَن يصل إلى أرذل العمر :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ)

أيْ : بعضكم :

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

نعوذ بالله من أرذل العمر، ينحني ظهره، ويضعف بصره، تضعف قواه، وتضعف ملكاته، ينسى علمه، ينسى خبرته، يرتد إلى عقلية الأطفال، يعيد القصة آلاف المرات، يحشر أنفه في كل شيء، يذم كل الناس، يغتابهم، يصبح عبئاً ثقيلاً عليهم، ينبذه أهله، يتأفف منه محبّوه، يتمنى الناس موته .

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

قد يخرج من بيته ولا يستطيع أن يعود إليه؛ يضيع كالطفل الصغير، قد لا يستطيع أن يبقى نظيفاً، فيزعج أهله، فيوبخونه، ويقرعونه، ويتمنون من أعماقهم أن يخفف الله عنه، يصبح عبئاً ثقيلاً في البيت.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

وقد تتطاول عليه زوجته، وقد يتطاول عليه ابنه، أو جيرانه، أو من حوله، أو قد يموت في بيت، وهو وحيد، فتفوح رائحته .

قال لي أحد الإخوة الأكارم، وقد دخل على رجل توفي في بيت، ومضى عليه أيام عدة: ما من رائحة على وجه الأرض أنتن ولا أبشع من رائحة الإنسان إذا مضى عليه أيام ولم يوسد في الثرى .

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

مَن حفِظ حدود الله في الصغر حفظه الله في الكِبَر :

كلمة (مِنْ)هنا للتبعيض، ومعنى كلمة التبعيض أنّ بعض الناس يردون إلى أرذل العمر، لكن مَن عرف الله في شبابه متعه الله في خريف عمره، من حفظ الله في صغره حفظه الله في كبره، من عاش تقياً، عاش قوياً ؛ متعه الله بعقله، وبسمعه، وببصره، وبقوته، وبصحته، وبأجهزته الهضمية، والإفرازية .

سئل أحد الصالحين: "ما هذه الصحة يا سيدي؟ قال: " يا بني، حفظناها في الصغر، فحفظها الله لنا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً " .

من خلال تجاربي الشخصية؛ ألتقي أحياناً بعض الأشخاص، أحدهم عمره خمسة وتسعون عاماً، أجرى فحوصاً شاملة على كل أجهزته، فكانت جميع الفحوص جيدة، قال لي: وَاللَّهِ لا أعرف الحرام في

حياتي؛ لا عرفت الحرام من طرف النساء، ولا من طرف المال، ما كسبت درهماً حراماً، ولا أعرف غير زوجتي، خمس وتسعون سنة أجريت له الفحوص، وأولاده ميسَّر حالهم، فحوصه كلها جيدة، وفي الدعاء الشريف عن النبي :

((وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا))

[الترمذي عن ابن عمر]

الأعمال الصالحة، الصدقات، غض البصر، إنفاق المال، حضور مجالس العلم، أن تجلس على ركبتيك ساعة أو أكثر ابتغاء وجه الله، لا تبتغي من مجيئك إلى هنا لا درهماً، ولا ديناراً، ولا وظيفة، ولا شيئاً، ولا بيتاً، ولا مكانة، ولا شيئاً، لا تبتغي شيئاً من الدنيا إطلاقاً، تبتغي وجه الله فقط، بذل هذا الجهد، والحرص على طاعة الله، أتكون كغيرك من الناس؟ لذلك ربنا عز وجل قال :

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

حدثني أخ كريم قال لي: له قريبة من سنوات أصيبت بشلل كامل، ثم ضعف تفكيرها، وخرفت، قال لي : نضعها على السرير، ونربطها بالحبال، قلت له: لماذا؟ قال : لكي لا تأكل من نجسها .

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

يجب على الإنسان ألاّ يتجاوز الحدود، وألاّ يعتدّ بقوته وهو شاب، وألاّ يتجاوزْ حقوق الله عز وجل، وألاّ يستعلِيَ على الناس .

قبل ثلاثين أو أربعين عاماً حدثني رجل فقال: إن شخصاً وصل إلى مراتب علية، خرج من بيته، ولم يعد، فاتصلت زوجته بأقسام الشرطة، عثر عليه في أحد أحياء دمشق الجنوبية تائهاً، ضائعاً، كالطفل الصغير .

بالمناسبة أنا أضمن لكم، لأن النبي عليه الصلاة والسلام هكذا قال ؛ قال :

((مَن جمَع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

[الجامع الصغير عن أنس]

إذا أردت أن تتمتع بعقلك كاملاً، أن تبقى إلى آخر ثانية في حياتك، وأنت قوي الشخصية، مرغوبَ الجانب معززاً، مكرماً، مبجلاً، محترماً من كل الناس، فتعلم القرآن الآن، فمن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، ولا يحزن قارئ القرآن .

(لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا)

ينسى الطبيب أنه كان طبيباً، ينسى أنه كان يحمل شهادة عالية، ينسى أن كان له كُتُب، وقد كان لي قريب وصل إلى أعلى مستوى، بقي قبل موته محجوزاً في غرفة سبع سنوات، لم يُسمح لأحد أن يدخل عليه، لأن منظره لا يطاق .

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(70)وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ

الناس متفاضلون في الرزق :

انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض في الدنيا، فهذا إنسان له رزق محدود، قد يكون أقل من حاجته بكثير، قد يكون أقل من حاجته بقليل، قد يكون مساوياً لحاجته، قد يزيد على حاجته قليلاً، قد يزيد عن حاجته كثيراً، قد يأتيه رزق لا يستطيع أن يحصيه، إن قارون كان غنيا، وهو من قوم موسى، فإياكم أن تظنوا أن هذه مَكرُمة ..

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص : 76 - 77)

المفاتيح فقط ؛ سبعة رجال أشداء لا يستطيعون رفع مفاتيح خزائنه .

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

إذاً :

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ)

التفضيل في الرزق لحكمة ربانية بالغة :

لكن هذا التفضيل وفق حكمة بالغة، " إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه " .

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر : 15 - 16)

في الدنيا يقول بسذاجة، بجهل، بعد علم، يقول :

(رَبِّي أَكْرَمَنِ)

لا، ليس هذا إكراماً ؛ لأن الدنيا منقطعة، الدنيا تنتهي بالموت، فيستوي فيها الغني والفقير، والقوي والضعيف، والصحيح والمريض، ليس هذا إكراماً ! هو يقول ذلك، معظم الناس يقول لك: الله عز وجل أكرمني، الله امتحنك، وما أكرمك، امتحنك بالمال، إذا أنفقته في طاعة الله؛ عندئذٍ ينقلب المال إكراماً .

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ)

ضاق دخله، يشعر أنه مهان، لا . عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ : لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا، وَأَجُوعُ يَوْمًا، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ))

[الترمذي وأحمد]

من رحمة الله بنا أنه يقلّبنا بين الغنى والحاجة، بين الصحة والمرض، بين الراحة والتعب، بين الطمأنينة والقلق، بين الخوف وعدم الجزع، كلما غفلنا جاءت المنذرات، لذلك : " كلا ليس عطائي إكراماً، ولا حرماني امتهاناً، إن عطائي ابتلاء، وحرماني دواء "، إياك أن تظن أن العطاء إكرام، إلا في حالة واحدة، إذا أنفقت هذا المال في طاعته، كان المال ابتلاءً، فصار إكراماً .

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)

فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ

هل يسوِّي الحُرُّ نفسه مع العبد فيشركه في ماله ؟!!

هؤلاء الذين أُعطوا من رزق الله، هل يعطون أموالهم لعبيدهم :

(فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)

أيساوون أنفسهم مع عبيدهم؟ لا، فكيف أنتم أيها العباد تجعلون من عدة أصنام آلهة، وتسوونها برب العالمين، أيرضى الله ذلك؟ أيرضى أن يكون مخلوقه شريكاً له في الملك؟ لو أن أحدكم له محل له قيمة كبيرة جداً، وعنده موظف يعطيه أجراً محدوداً أيقول : هذا المحل بيني وبينك مناصفة؟ من يفعل هذا ؟

(فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)

أنت لا ترضى أن تشرك خادمك، أو عبداً لك مملوكاً بمالك، فكيف ترضى أيها الإنسان أن تجعل لله

شركاء من مخلوقاته؟ إن كنت أنت لا ترضى فلا تعتقد هذا الاعتقاد .

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

الله عز وجل ضرب مثلاً يستنكره الإنسان، الإنسان يستنكر أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فكيف ترضى لله أن يكون مخلوق له شريكاً له في ملكه؟ إن كنت أنت لا ترضى، فكيف ترضى لله ذلك؟

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً

الزوجة من الإنس نِعمة من الله عظيمة :

هذه نعمة كبرى من نعم الله، هذه الزوجة التي هي أم أولادك من بني البشر، إنك تفكر، وهي تفكر، وهي تحس، وهي تدرك، لك عاطفة، ولها عاطفة، لك حاجات، ولها حاجات .

(مِنْ أَنفُسِكُمْ)

لو أن الله عز وجل جعل الزوجة من طبيعة دنيا، يضعون في المحلات التجارية هياكل لبيع الأقمشة، هل ترضى أن تكون لك زوجة من هذا النوع؟ شمع، بلاستيك، هل ترضى؟ تكلمها لا تكلمك، تسلم عليها تبقى صامته، تسألها لا تجيب، تأمرها لا تطيع، أليس هذا إكراماً من الله عز وجل؟ أن جعل لك الزوجة من طبيعتك، تسألها فتجيب، تحسن إليها فتشكر، تفكر، تشاركك مشكلاتك في الحياة، تبثها همك، تنقل لها طموحاتك، تعينك على متاعب الحياة، تنسيك متاعب النهار، أليس هذا من نعم الله عز وجل؟ الإنسان المؤمن إذا دخل إلى البيت، ورأى زوجته لا يسعه إلا أن يشكر الله عز وجل على أن أكرمه بزوجة، وكم من البشر لا يستطيع أن يتزوج، إما لعلة فيه، أو لضيق ذات يدٍ، أو لعدم وجود بيتٍ، فأسأل الله جل جلاله أن يهب لكل أعزب بيتاً، وزوجة صالحة، تسره إن نظر إليها، وتطيعه إن أمرها، وتحفظه إن غاب عنها، فلا تتكبر كثيرًا، هذه نعمة وقد تفقدها، أو قد تصاب الزوجة بمرض، إلى من تشتكي؟ حينما خطبتها كانت سليمة من كل عيب، ومرضت عندك .

قال لي رجل: منذ خمسة عشرة عاماً لا أستطيع أن أنام الليل، لنوبات حادةٍ تصيب زوجتي، أصبح وزنها عشرات الكيلو غرامات من شدة الآلام، ماذا يفعل بها؟ فإذا كانت لك زوجة معافاة فلا تقل : أنا ربكم الأعلى .

وقد روي :

((خَيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهنّ إلا لئيم))

[السيوطي في الجامع الصغير عن علي]

إيّاكم أن تكفروا بنعمة الزوجة :

هذه نعمة قد تفتقدها، إذا كفر الإنسان بنعمة الزوجة قد يجد نفسه في بعض الساعات يرتكب حماقة ما بعدها حماقة، يطلقها ! وتذهب إلى بيت أهلها، وتدع له خمسة أولاد في البيت، يضيق بهم ذرعاً، يحتاجون إلى طعام، إلى تنظيف، إلى حمام، إلى إعداد طعام، وهي عند بيت أهلها، ناعمة، مطمئنة، وأتاها خطيب فتزوجها، وأنت والأولاد في ضيق ما بعده ضيق، فإذا كفر الإنسان بنعمة الزوجة الصالحة، وحملها مالا تطيق، واستعلى عليها وتجبر، فقد يضعه الله في مأزق حرج، يغضب غضباً شديداً فيطلقها، وعندئذٍ تملك حريتها، وتأبى أن تعود، ويبحث عن بديل لها فلا يجد، أو قد يأتي البديل فيريه النجوم في الظهر، هذا البديل ليأخذ حق الأولى، فإذا كان عند الإنسان زوجة صالحة ليشكر الله على هذه نعمة .

((إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها دخلت الجنة))

[من الجامع الصغير عن أنس]

لا تحملها مالا تطيق، لا تحملها ذنباً لم تفعله، لا تحملها أخطاء أهلها، لا ذنب لها، لا تجعل بيتك صاخباً، لا تجعل حياتك ضنكاً، الله عز وجل قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة النساء : 19)

ومعنى المعاشرة بالمعروف لا أن تمتنع عن الإيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، وكان أحد الصالحين له زوجة سيئة جداً، فلما قيل له : طلقها، واسترح منها، قال : وَاللَّهِ لا أطلقها فأغشّ بها المسلمين .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

ليس هناك زوجة مثالية ، فارض بما قسم الله لك :

تصور وجود زوجة مثالية؛ لا يوجد زوجة مثالية! أحد الصحابة الكرام له زوجة أتعبته كثيراً، فتوجه إلى سيدنا عمر، وكان أمير المؤمنين، فطرق بابه، فسمع صياحاً في البيت، و خصاماً بينه وبين أهله، فولى مدبراً ولم يعقب، سمع عمر الباب يقرع، فتح الباب فلم يجد أحداً، نظر فوجد رجلاً ولى هارباً، فناداه بأعلى صوته، فأقبل، قال له: لِمَ جئت إليّ؟ فسكت، قال له: قل، فتبسم الرجل، قال له: قل، فقال: وَاللَّهِ جئتك أشكو مما أنت منه تشكو، فعندئذٍ قال عمر: يا أخي هذه زوجتي، أم أولادي، تكنس الدار، تطبخ الطعام، تغسل الثياب، ألا نتحملها؟ أعباؤها ثقيلة، أتحب أن تعرف قيمتها؟

أعطها إجازة إلى بيت أهلها مدة أسبوع، واعمل بدلاً منها، اغسل الصحون، اطبخ، وامسح البيت، اكو الملابس، حتى تعرف قيمتها، أعطها إجازة مدة أسبوع لتعرف قيمتها، فربنا عز وجل قال :

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

هذه من نعمة الله عز وجل .

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ)

نعمة البنين والأحفاد :

يمكن أن تطلب من ابنك في اليوم مئة مرة أن يجلب لك غرضاً؛ هات كأس ماء، هات الدواء، هات الكتاب، لو كنت أنت وزوجتك وحدكما قد لا تتحمل الزوجة! تقول لك: أخادمة أنا عندك؟ لكن ابنك صغير خفيف، حركته خفيفة، يحبك، وتحبه، تكلفه بالنهار بعشرين حاجة، أو ابنتك الصغيرة، هذه من نعم الله عز وجل .

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)

العلماء قالوا : البنين الأولاد، والحفدة أولاد الأولاد، وبعضهم قال : الأولاد والأعوان، أحيانا الإنسان له أعمال طيبة، له إيمان عالٍ، ليس عنده أولاد، يسخر الله له أصدقاء، إخواناً أكارم، يقدمون له خدمات تفوق خدمات الأولاد، لا يعترض أحد على حكم الله عز وجل أن أعطاه البنات فقط، هذه الحكمة البالغة، لو أن أحداً عنده أولاد ذكور يعاني منهم ما يعاني، وسمع عن أخٍ عنده بنات فقط، لكنه مرتاح معهن، يتمنى لو كان أبناؤه إناثاً، فلو أعطاك الله بنات فقط فقل: الحمد لله، وإذا لم يهبك شيئاً فقل: الحمد لله، الحمد لله على كل حال .

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)

الولد منك، لكن بعد أن استقر في رحم الأم، وانفصل منها، فجاءت الآية هكذا، بدقة بالغة، أساس الولد من الزوج، لكن هذه النطفة استقرت في الرحم، ونما في الرحم، ثم ولد من الأم .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ)

زيادة على الزوجة والبنين : وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ

ولم يكتفِ بخلقك أنت وزوجتك وأولادك دون أكل، بل رزقكم من الطيبات، تجد عندك الحبوب، عندك الخضار، عندك الفواكه، في آخر الشتاء، وأول الصيف الوقت صعب، فالمقياس ليس في هذه الأيام، لكن تجد في الصيف أن الفواكه منتشرة، والخضار مبذولة، كأس الماء نعمة كبيرة ! كأس الماء هذا لم يعرف أحد له قيمة، كنا قبل أعوام مهددين بكأس الماء، جفت الينابيع، يبس النبات، لولا فضل الله علينا في هذا بهذه الأمطار الغزيرة التي فجرت الينابيع لهلكنا، الماء موفور والحمد لله، أن تجد في البيت كأس ماء تشربه هذه نعمة كبرى لا يعرفها إلا من فقدها .

إنّه لحديثٌ عظيم :

لذلك النبي الكريم عودنا، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ))

[الترمذي، وابن ماجه]

النبي عليه الصلاة والسلام، سيد الخلق، وحبيب الحق، دخل إلى بيته لا يجد أحيانا ما يأكله، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ :

((دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ : هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟ فَقُلْنَا : لَا، قَالَ : فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ))

[مسلم]

يقول لك أحدهم اليوم: ليس عندنا شيء، وعنده أكل يكفيه ثمانية أشهر! اجمع المؤونة التي عندك، أيجب أن تأكل طبخاً كل يوم؟ لا تقل: ليس عندنا شيء، هذه الكلمة فيها سوء أدب مع الله عز وجل، إذا توفر لك الظهر قطعة جبن مع كأس من الشاي فهذه نعمة، عندك رغيف خبز وكأس من الشاي، وقطعة جبن فهذه نعمة :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ))

[الترمذي، وابن ماجه]

تعوّد شخص على المصروف الكبير، كشر عن وجهه، وقال: أنا لا يكفيني ثلاثمئة ألف ليرة مصروف السنة، فأصيب بمرض عضال، زاره رجل، وَاللَّهِ يكفيه ألف ليرة بالشهر بهذه الظروف الصعبة، يتمنى أن يعود إلى صحته، وينفق ألف ليرة فقط بالشهر، يتمنى ذلك، فالإنسان إذا كانت أجهزته كلها سليمة، لا يلزمك تخطيط، ولا تحليلات، ولا ذهاب إلى بلاد أجنبية، ولا زرع كلية، ولا استئصال كبد، إذا كان الواحد منا لا يلزمه شيء، وعنده قوت يومه، مهما كان القوت متواضعاً، مهما كان خشناً، ولم يكن عالقاً بمشكلة، أو ورطة كبيرة ليس لها حل، قد يباع بيته، أو تباع سيارته، أو يباع محله التجاري، ليدفع المصالحة، إذا لم يكن واقعاً بورطة، أو عالقاً مع إنسان لا يرحمه، وصحته طيبة، وعنده قوت يومه، ليقبّل الأرض، ويشكر المولى جل وعلا، هكذا المؤمن متواضع، المؤمن أخلاقه متواضعة، يعرف حجم النعمة، النبي الكريم كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت، شرب كأس ماء، الحمد لله الذي أعانني على شربه، وأعانني على أن أطرحه، إذا لم يطرح معا صرنا بحاجة إلى تخدير، شيء لا يحتمل، آلام حصر البول لا تحتمل .

أحياناً الإنسان يجد شدة في حياته، فيعيش في ضيق، ضيق ذات يد في عمله، دخله قليل، حاجاته غير موجودة، فلا يتبرم كثيراً، بل ليكن راضياً، لأن ربنا عز وجل يلون الحياة، لا تعرف النعم إلا بافتقادها، لا تعرف قيمة الحاجات إلا إذا قلّتْ، ليلزم الإنسان الصبر، وليلزم الشكر، وبالشكر تدوم النعم، يا عائشة أكرمي مجاورة نعم الله، فإن النعمة إذا نفرت قلما تعود .

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ)

وَاللَّهِ إذا أكل الإنسان صحن حمص، وكانت صحته طيبة يستمتع به أضعاف مضاعفة عن أنفس طعام وصحته عليلة .

أحد الأشخاص كان عند بعض الملوك، فأكل الملك طعاماً فأعجبه، قال : هذا الطعام طيب، قال : يا أمير المؤمنين طيبته العافية، الإنسان يأكل أحياناً أكلاً متواضعاً جداً، رخيصاً جداً، يشتهي أن يأكل أكلة شعبية، ما دامت الصحة موفورة فهناك استمتاع بالغ في هذا الطعام .

يروى على زمان العثمانيين دخل على والي الشام موظف كبير، كان مقر الوالي بمنزله في المرجة، دخل الموظف الكبير فوجد الوالي يطل من نافذة مكتبه على صحن المنزل، مكان بائعي حلويات اليوم، وكان هناك سجن قديماً، فبقي فترةً طويلة، يلقي النظر إلى صحن البناء، انتظر الموظف إلى أن شعر هذا الوالي بحركة، فالتفت، وقال له : أنت هنا منذ وقت؟ قال له : نعم، رأى على خده دمعة، قال له: خيرًا إن شاء الله، قال له: تعال انظر، أب وأم جاءا ليتفقدا ابنهما في السجن فلم يُسْمَحْ لهما، فجلسا على الأرض، وفتحا زوادةً، وأخرجا رغيفاً وبصلاً فقط، كسراه وأكلاه، قال: وَاللَّهِ أتمنى أن أتخلى عن كل ما حولي، وأن أستطيع أكل هذا الطعام بشهيتهما، معه علل بجسمه لا يقدر على الأكل، إذا أكل الإنسان

أكلة شعبية، وكانت صحته طيبة فهذه نعمة، فالإنسان دائماً عليه أن يتذكر أن الشكر يزيد النعم، وبالشكر تدوم النعم .

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم : 7)

انظر هناك نقطتان، دوام زيادة، بالشكر دوام للنعم، وبالشكر زيادة في النعم .

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم : 7)

(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ

الله أكبر على هذه المقابلة السيئة للنعمة :

بالأوثان؟ بالأصنام؟ بالشركاء؟ بهؤلاء الذين اتخذوهم أولياء من دون الله، بهؤلاء تؤمنون؟ وبنعمة الله يكفرون !

(وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

أهذا هو المنطق ؟

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

يعبدونه، يخضعون له، يعصون الله من أجله، يضعون كل إمكاناتهم من أجل هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله .

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا)

المعبودات سوى الله لا تملك رزقا في الأرض ولا في السماء :

لو أن السماء أقلعت عن إنزال المطر فأيّ جهة في الأرض تستطيع أن تتخذ قراراً بإنزال المطر؟ في الأرض كلها؟ هل الدول العظيمة بكل إمكاناتها لو أن السماء أقلعت عن المطر أن تنزله؟ أي جهة على

وجه الأرض مهما قويت تستطيع أن تأمر السماء بالمطر؟ مَنْ؟

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أمطار بالسماء موجودة، الحب ما أنبت، من خلق الرشيم؟ يعني القمح ؛ من جعله ينبت؟ الرشيم كائن حي، والذي يجعل القمح على ما هي عليه حياة الرشيم، فإذا مات الرشيم تعفنت البذرة فوراً، البذور تتعفن عند موت الرشيم، فالرشيم كائن حي، ثم هو طويل العمر، البذور يحفظوها في أماكن باردة بظروف دقيقة، تعيش خمس أو ست سنوات، وهذا الرشيم كائن حي بانتظار خدمتك، تضعه في التربة فينبت، صُنْع مَنْ؟ عندك فاصولياء هذه فيها حياة، كل شيء تأكله إذا أمكن أن تزرعه فينبت من أن فيه حياة ، لولا حياة الرشيم لما نبتت بذرة على وجه الأرض، من الذي أحيا الرشيم؟ أعطاه الحياة؟ لو كان الرشيم حياته ساعة، أو شهر، الآن القمح حصدناه، إذا ما زُرع القمح بعد شهر يموت، لم يبقَ زراعة، لا يمكن أن يحيا سنتين، ثلاثًا، أربعًا، خمسًا، هذه حكمة بالغة، لو أن حبة القمح تعطي حبة قمح أخرى، لا تزرع، فليس من مصلحة، أن تضع مداً، وتضع مقابله مداً، لا تضع شيئاً، نبقى بلا أكل، لو أن نسب الإنبات بحجم نسب الزراعة، بينما تزرع غرامًا من الطماطم يعطك طناً، مليون ضعف ! تزرع طناً بذرة خيار تعطك أربعين كيلو غرامًا، أربعون كيلو غرامًا من الخيار من بذرة وحدة، لو كان البذرة تعطيك كيلو غراما، أو نصف كيلو، أو خيارة واحدة، لما أكل الناس ، هذه البذرة ثمنها مبلغ، لذلك ربنا عز وجل قال :

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

السماء تمطر، والأرض تنبت، توجد خصائص، وبكتريات .

مرة تكلمت عن البكتريات، الأرقام فوق التصور، في السنتيمتر المربع أو الميليمتر المربع ألوف البلايين من كائنات دقيقة جداً، لولاها لما نبت النبات ! في اليابان في المكان الذي ألقوا عليه قبلة ذرية الأرض لا تنبت ؛ لأن الكائنات الدقيقة ماتت، التربة فيها بكتريات فيها ديدان، فيها آلاف المخلوقات، خلقت من أجلك، مسخرة لك .

(فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(74)ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ)

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ

يعني أصم، أبكم، إمكاناته محدودة، لا يملك شيئاً .

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

لماذا هذا المثلُ والتشبيه :

هذا مثل دقيق جداً، والخطاب موجَّه لمشرك، أنت تعبد صنماً، أبكمَ، أصمّ، هل ينفعك؟ هل يضرك؟ هل يسمعك؟ هل يستجيب لك؟ أما الله سبحانه وتعالى فحاضر، ناظر، رحيم غفور، سميع بصير، بيده كل شيء، غني، قوي، عطوف، توابٌ رحيمٌ، كل هذه الدنيا من رزقه، تَدَعُ الإله وتعبد ما لا يضرك ولا ينفعك؟

هذا مثل ضربه الله لنا :

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ)

كيف كان العرب يقفون أمام الأصنام، ويعبدونها من دون الله؟ وكيف الآن تتكئ على قريب لك؟ تعتمد عليه؟ تعبده من دون الله؟ ترضيه وتعصي الله؟ كيف؟ هذا عبد عاجز، ضعيف، فقير، قد يموت، قد لا يستطيع أن يقدم لك شيئاً ؛ قد يستطيع، ولا يقدم لك شيئاً بدافع من لؤمه ! أتعبده من دون الله؟

(هَلْ يَسْتَوُونَ)

لا يستوي المملوك مع المالك ، فلا يستوي المخلوق مع الخالق :

هذا العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، هذا يستوي مع عبد آخر رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً؟ هل يستوون عندكم؟ فكيف تسوون أيها البشر بين الأصنام وبين خالق السماوات والأرض؟

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

أوصاف دقيقة جداً، هذا الذي تعبده من دون الله :

(أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

في بلاد اليابان عندهم عقائد وثنية حتى الآن، أو الآن بلا عقائد، وعندهم ما يسمى الميكادو، هذا يعتبرونه إلهاً عندهم، طبيب هناك أسلم، لماذا أسلم؟ لأنه صار في جسم هذا الإله مليون علة، ليس فيه جهاز إلا ويحتاج إلى معالجة ! فكيف يعد هذا إلهاً؟ فهذا الطبيب الذي يعالج الميكادو أسلم ؛ لأنه رأى أن هذا الذي يعتقده الناس إلهاً هو عبد ضعيف، فقير، يحتاج إلى أدوية، يحتاج إلى علاج .

فلذلك الإنسان يجب أن يضع كل ثقته بالله عز وجل، وأن يضع كل رغبته، وكل إمكاناته في طاعة الله، حتى ينجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ

لا يعلم الغيب أحدٌ إلا الله :

الإنسان أحياناً يعد له الطعام ليأكله فلا يأكله، يموت قبل أن يأكله .

أول يوم من أيام العيد أسرة هيأت نفسها للسفر إلى مَصيف على البحر، واستأجروا البيت، وبقوا يومين أو ثلاثة يعدون الأغراض، وكل أنواع الحاجات، والملبوسات، وُضِعَتْ المحافظ بالسيارة، والزوجة نزلت، والأولاد نزلوا، والزوج لم يستطع مغادرة المنزل بسبب بسيط هو أن الله توفاه، الموت قريب جداً، كل شيء جاهز .

العام الماضي كان عندنا أخ كريم من إخواننا، وكنا مدعوين معه إلى نزهة، فما تمكنا إلا أن ندفنه قبل أن نذهب إلى النزهة! الموت قريب جداً، والإنسان يقول: أنا ـ إن شاء الله على أول الصيف أغير الأثاث، هل أنت ضامن أن تصل إلى أول الصيف؟ فمن عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت .

قال لي رجل: أنا أريد أن أترك التعليم، كان مدير ثانوية خاصة، وسوف أبحث عن طريقة أعير نفسي إلى دولة عربية، ذكر لي اسم الجزائر، قال لي : هناك قرب أوربة، وفي الصيف لا آتي إلى بلدي، أمضي أول صيفية في فرنسا، أنظر معالمها، وأماكنها السياحية، ومتاحفها، وفي الصيفية الثانية في إنجلترا، والصيفية الثالثة في إيطاليا، والرابعة في سويسرا، ذكر لي خمس سنوات إعارة، قال لي: أعود ويكون معي رأسمالي، آخذ محلاً تجارياً، ويكون أولادي قد كبروا، أبيع فيه بالتحف، وهكذا خفيف

نظيف، أجلس وأتقاعد، وكفى، والله الذي لا إله إلا هو من فمه إلى أذني، كنت عنده، وكان عندي ساعة فراغ، جلست عنده، فقال لي ذلك، الظهر انتهت ساعاتي فذهبت إلى البيت، لي عمل في المدينة مساء، وأنا في طريقي إلى البيت مشياً على الأقدام وجدت نعوته على الجدران، أول سنة في فرنسا، الثانية بإنجلترا، الثالثة بإيطاليا، الرابعة بسويسرا ... ومساء كان من أهل الآخرة .

قالوا: من جاوز الأربعين فقد دخل في أسواق الآخرة، إذا ذهب واحد إلى نزهة خمسة أيام، أول يوم في غاية السرور، ثاني يوم، ثالث يوم، رابع يوم، يفكر في الرجعة، بجمع الأغراض يؤمِّن المواصلات، أليس كذلك؟ فاليومان الآخران يتجه التفكير فيهما إلى العودة، إلى تأمين الركوب، إلى تأمين الحاجات، إلى تأمين جمع الأغراض، إلى إجراء الحساب، هذه في الأيام الأخيرة، فنحن إذا دخل أحدنا في الأربعين كأنه دخل في أسواق الآخرة، فيجب أن يكون أكبر همه الآخرة، كيف يعد العدة للقاء الله عز وجل .

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا

لا يعلم المولود إلا مصّ الثدي :

أحدث كتاب في علم نفس الطفولة، أن الطفل لا يعلم إلا منعكساً غريزياً واحداً ؛ وهو مص الإصبع، ليلتقم ثدي أمه فيعيش، لو أن الله عز وجل جرده من هذا المنعكس لمات ؛ لأن التقام ثدي الأم عملية معقدة تحتاج إلى إحكام، وتحتاج إلى سحب هواء، حتى يعيش زود الله سبحانه وتعالى المولود بمنعكس المص، اسمه بالعلم منعكس المَصّ .

(لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

لا أطوال، ولا حجوم، ولا ألوان، لا أصوات، ولا خبرات .

(لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

كل الذي تعرفه الآن هو مكتسب من تعاملك مع محيطك الخارجي .

(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (17-21): تفسير الآيات 77 – 89 ، عن عالم الغيب لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-05-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ

لا يعلم الغيب إلا الله :

لو أن الآية : وغيب السماوات والأرض لله، هذا شيء، وأن يقول الله عز وجل :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

شيء آخر .

في قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

قصرٌ، أيْ : غيب السماوات والأرض لا يعلمه إلا الله، ما من إنسان على وجه الأرض يعلم ما سيكون، الله سبحانه علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

على مستوى بني البشر، هذا المولود سيكون صالحاً أو طالحاً؟ خيرّاً أم شريراً؟ طويل العمر، أم قصير العمر؟ صحيح الجسم، أم مريض الجسم؟ كيف يموت؟ بأي أرض يموت؟ هذه الأرض ما مصيرها؟ هذا الجبل ما مصيره؟ هذا النهر هل سيجف؟ أم سيبقى .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

قال تعالى :

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا)

(سورة الجن : 26)

وقال سبحانه :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف : 188)

لا تصدق أحداً من بني البشر أنه يعلم الغيب، لا تصريحاً، ولا تلميحاً، ولا إشارة، ولا بأي طريقة كانت .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

إذًا علاقتك مع مَن يعلم الغيب وحده :

فأنت إذاً علاقتك مع مَنْ؟ مع من بيده غيب السماوات والأرض، مع من بيده مقاليد السماوات والأرض، مع من بيده الخير والشر، مع من بيده الرزق، مع من بيده الحياة والموت .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

مما يشقي البشر أنهم متعلقون بزيد أو عبيد، وفلان وعلان، وهم يحسبون أن هؤلاء ينفعونهم أو يضرونهم، يرزقونهم أو يحرمونهم، يرفعونهم أو يخفضونهم، إنهم بشر ضعفاء، عبيد، لا يستطيعون شيئاً .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الذين كانوا في أوج نشاطهم، وجاءهم مرض عضال فأودى بهم، من كان يعلم ذلك؟ ما من إنسان يموت هل يعلم أنه سيموت بعد ساعة ؟

طبيب كريم ذكر لي قبل يومين أن شابًا في الواحدة والثلاثين يحلق لحيته في البيت، ويمزح مع زوجته، فوقع في الحمام، فإذا هو ميت، من يعلم الغيب؟ من يعلم أن هذا الشاب سيموت بعد ساعة؟ أليس في ذهن الشاب آمال طويلة؟ قد يرجو أن يغير بيته، أن يغير عمله، أن يترك وظيفته، أن يعمل عملاً حراً، أن يدير تجارة عريضة، أن يذهب إلى البلاد الفلانية، أن يمضي الصيف في المكان الفلانية، أليس هذا في ذهنه؟

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لذلك اتق من بيده غيب السماوات والأرض، أطع من بيده غيب السماوات والأرض، ارجُ من بيده غيب السماوات والأرض، خف ممن بيده غيب السماوات والأرض، يا موسى خف ثلاثاً ؛ خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وكلام رسول الله في القرآن :

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الأحقاف : 9)

الذي يسافر هل يرجع؟ ذهب إنسان إلى بلد فتوفي في المطار، عندما هبطت الطائرة ودخل إلى قاعة المسافرين، وجلس على كرسي وقع فمات، إذا سافرنا هل نعود؟ وإذا خرجنا من بيوتنا هل نرجع؟ وإذا نمنا هل نستيقظ؟ وإذا استيقظنا هل ننام على هذا السرير؟ وإذا عمّرنا هذا البيت هل نسكنه؟ وإذا أخذنا هذه الشهادة هل نستخدمها؟ وإذا خطبنا هل ندخل؟ وإذا دخلنا هل ننجب؟ وإذا أنجبنا هل نرى أبناءَنا كباراً؟ وإذا رأيناهم كباراً هل نزوجهم؟ وإذا زوجناهم هل نرى أولادهم؟

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لا نعلم شيئاً، الله يعلم، فلا بد لنا من علاقة طيبة مع الله .

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود : 55 - 56)

إذا كانت علاقتك بالله طيبة فلا تخش في الناس لومة لائم، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به . بشكل أو بآخر ؛ لو أنك تملك قطعة من الذهب ثمينة، لو قال الناس عنها جميعاً : إنها حديد، هل تصبح حديدا، أم تبقى ذهباً؟ الذهب ذهب، والحديد حديد، وإذا كان معك قطعة من المعدن الرخيص، وأوهمت الناس أنها ذهب، وصدقوك، هل تصبح هذه ذهباً؟ لا، علاقتك مع نفسك، وعلاقتك مع الله .

((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ))

[أخرجه ابن ماجه]

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لا ندري بعد هذه الساعة ما سيكون، ما من حادث غريب إلا كان غريباً على أصحابه، ففوجئوا به .

من خلال مجموعة قصص سمعتها من طبيب دهشت ؛ أن الإنسان بينه وبين الموت شعرة، قال لي : كهرباء القلب ذا اضطربت يتوقف القلب، في ثانية واحدة يصبح من أهل القبور، وقد يكون تخطيطه جيداً، ولا يشكو شيئاً، وهو في أوج صحته، وأوج قوته أجهزته، كلها تعمل بانتظام، وهو في ريعان الشباب، تضطرب الكهرباء في القلب، فيقف القلب، فيموت الدماغ، فتشخص عيناه، وانتهى الأمر، اقلب صفحة، انتهى، أصبح خبراً بعد أن كان رجلاً، كان رجلاً فصار خبرًا على الجدران .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ)

أمر ساعتك أيها الإنسان :

(كَلَمْحِ الْبَصَرِ)

أمرُ الساعة بين الكاف والنون :

كن فيكون، زُل فيزول، ومن حِكم الله عز وجل أن هذا الإنسان الشديد، العتيد القوي، الجبار، المتكبر، حياته متوقفة على أسبابٍ تافهة جداً، فلو أن نقطة من الدم تجمدت في شرايين الدماغ لمات، يقولون : سكته دماغيه، لو أن شريانًا في الدماغ فرعياً انفجر يموت الإنسان فوراً، لو أن الشريان المغذي للقلب سُدَّ يضطرب القلب، ويموت الإنسان .

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ)

درس لنا كلنا، درس بليغ، بيننا وبين الموت شعرة، ثانيةٌ، وإذا شئتم فاسألوا، إذا شئتم زوروا المستشفيات، زوروا غرف العناية المشددة، زوروا الأطباء، اسألوهم عن الموت، ثانية واحدة، مريض في العناية المشددة، دخل عليه صديقه، جلس معه عشر دقائق، تركه وخرج من الغرفة، وهو يفتح باب الغرفة دخل زائر آخر، قال له : كيف فلان؟ قال له : والله بحالة جيدة، وصل بعد أمتار فقال له : إنه ميت، تعال انظر إليه، قبل ثانية كان حياً .

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ)

أنا لا أريد أن أخوفكم، أنا خائف معكم ـ والله ـ لا أريد أن أعطيكم صورة قاتمة، لكن هذا هو الواقع، من أجل أن تستقيموا على أمر الله، من أجل أن تقلعوا عن المعاصي، عن المخالفات، عن الشبهات، عن كل شيء يبعدك عن الله عز وجل، كن مستعداً للقاء الله، فأنت بطل .

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنمـا من يتقي الله البطل

***

أمد الله في حياتنا جميعاً، ورزقنا أعمالاً طيبة نلقى الله بها .

و في الحديث :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[من سنن الترمذي عن عبد الله بن بسر]

ولكنها الحقيقة، بين الإنسان وبين الموت ثانية واحدة، لا أريد أن أذكر أمثلة الأمثلة ؛ فهي كثيرة جداً .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ)

إما أنها ساعتنا نحن بالذات، أو أنها ساعة يوم القيامة، على كل هي كلمح البصر،

(أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ(83)وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ(84)وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ(85)فَلَوْلَا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ(86)تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الواقعة : 83 - 87)

هل تستطيعون أن ترجعوها ؟

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

هذا كلّه دليلٌ على قدرة الله :

توجد آلات طباعة حديثة جداً، وضخمة جداً، قد يزيد طولها على طول هذا المسجد، عملها كله على جهاز إلكتروني، هناك منبع ضوئي، وهناك مستقبل ضوئي، فإذا جاءت ورقة فحجبت الضوء تتوقف الآلة كلها على ضخامتها، أنت قد تستغرب، كل هذه الضخامة، وكل هذا الحجم، وكل هذه العظمة تتوقف كلها فجأةً بانقطاع ضوء خفيف؟ هكذا الإنسان، مهما كان قوياً، مهما كان كبيراً، مهما كان عظيماً، مهما كان مشهوراً، مهما كان له سمعة، العلماء الكبار، الأنبياء الكبار، الأنبياء جميعاً .

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر : 30)

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران : 144)

إذاً الموت قاسم مشترك بين جميع الخلق .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(77)وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا

المولود يخرج من بطن أمه جاهلاً :

أحدث نظرية في علم نفس الطفولة تؤكد هذه الآية، الإنسان لا يعلم شيئاً، الإنسان مزود بمنعكس واحد، هو منعكس المَصِّ، لولا هذا المنعكس لمات جوعاً، الآن أعطِ ولدًا إصبعا من أصابعك يحكم شفتيه حولها، ويشفط الهواء من حولها ! ألقِمْه ثدي أمه يرضع ! غير هذا المنعكس، الإنسان لا يعلم شيئاً، علماء الذرة الكبار، علماء الفيزياء، علماء الكيمياء، علماء الطبيعيات، علماء التشريح، علماء الطب، علماء الفلك، علماء الرياضيات، علماء الجيولوجيا، علماء التاريخ، علماء الجغرافية، علماء اللغة، علماء الفلسفة، قادة العالم الكبار، علية القوم، هؤلاء كانوا لا يعلمون شيئاً، لحكمة بالغة .

تروي بعض القصص أن شاباً عالماً درس في بغداد، وتحلق حوله الناس، وأعجبوا به، واستفادوا من علمه، فأثار هذا غيرة بعض العلماء ؛ فحسدوه، أراد بعضهم أن يحضر مجلسه ليسفهه أمام تلاميذه، فبعد أن انتهى الدرس وقف هذا العالم المشهور، وقال : يا فتى من أين هذا العلم؟ ما سمعنا به، من أجل أن يصغره، ويحجمه، ويظهر للناس أن هذا الكلام بدعة، من أين هذا العلم؟ ما سمعنا به؟ فما كان من هذا الشاب إلا أن قال لهذا العالم المشهور : وهل حصلت العلم كله؟ سؤال، فإذا قال : نعم، وقع في غلط شنيع .

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

(سورة الإسراء : 85)

وربنا عز وجل يقول :

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف : 76)

فاضطر هذا العالم إلى أن يقول: لا، سأله : هل حصلت العلم كله؟ قال له : لا، قال له : إذاً هذا الذي تكلمت به للناس من الشطر الذي لا تعرفه، إن كنت قد حصلتَ شطر العلم، فهذا العلم من الشطر الذي لا تعلمه .

فربنا عز وجل قال :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

الإنسان وخبراته، وعلمه، لو أن خللاً حصل في الدماغ لأخذه أهله إلى مستشفى الأمراض العقلية، ولتوسطوا حتى يدخل بآلاف الوسائط، من أنت؟ كلمة التوحيد، أن تقول : لا إله إلا الله، أنا من أنا .

إذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى

فأنتم هو الحق لا غيركم فيا ليت شعري أنا من أنا

***

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه؟ ثم من يعطي إذا ما منعك؟

***

كنت لا شيء فأصبحت به خير شيء، انظر إلى سني طفولتك، هل كنت تعرف شيئاً؟ الآن صرت إنساناً تقول : أنا، قل : الله تفضّل علي، بعد أن تطور الأمر بك، وتعلمت، وتثقفت، ونلت الشهادات العلية، وجلست في مجالس العلم، تقول : أنا؟!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة النور : 21)

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : 113)

المحجوب عن الله عز وجل يرى نفسه، يرى علمه، والذي يرى فضل الله عليه لا يرى نفسه شيئاً .

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

بعدها يجعل الله للإنسان سمعا وبصر وقلبا أدوات للتعلم :

الفؤاد هنا فيه أوجه التفاسير، المقصود به الدماغ، أي : العقل، يعني جعل لك سمعاً، تسمع الأصوات، لكنك بالدماغ تدرك معنى الأصوات، جعل لك عيناً ترى بها الصور ؛ لكنك بالدماغ تدرك معنى هذه الصورة، الطفل الصغير قد يرى حية، يراها كما تراها أنت، لا يخاف منها، ولا يهرب منها ؛ لأنه لم يدرك ما خطورتها، ولكنك إذا رأيت أفعى تقتلها، أو تولي منها هارباً ؛ لأن الدماغ أدرك خطرها ؛ فالله سبحانه وتعالى قال :

(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

عليك بشكر النِّعم :

الإنسان من أجل أن يعرف نعمة الله عليه ليتصور أنه لا عينين له، أو لا عين له؛ الألوان لا معنى لها، الأثاث بالبيت لا معنى له، جمال الأثاث لا قيمة له، جمال الطبيعة لا قيمة له، جمال الأزهار لا قيمة له، جمال الأطفال لا قيمة له، إذاً العين، السمع، والبصر والفؤاد، هذه من نعم الله الكبرى .

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ

ماذا تعلم عن عالم الطير :

هل درست عن الطير شيئاً؟ قال بعض العلماء : إنَّ أرقى طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطير ! فالطائرة مثلاً يجب أن تؤدي جهداً كبيراً جداً بأقل وزنٍ ممكن، هذا مبدأ الطائرة ؛ لذلك وقود الطائرة يزيد على مئة وخمسين طناً تستهلكها في خمس عشر ساعة ! وزن وقودها كوزنها بالضبط ! وزن الطائرة الكبيرة مئة وخمسون طناً، ووزن وقودها كذلك، إذاً فهي مهيأة أن تقوم بجهد كبير جداً، في الوقت نفسه أخف وزن ممكن هو وزن الطائرة، تنتقى من معادن متينة، وخفيفة، هذا هو الطائر، عظامه كلها مفرغة من أجل خفة الوزن، ولأنه يبذل جهداً عالياً فإن رئتي الطائر تصل إلى كل مكان في جسمه، والهواء الذي يستنشقه الطائر يصل إلى كل مكانٍ في جسمه من أجل تبريد العضلات، لأن الطائر يزيد على ست وثمانين ساعة طيراناً مستمراً ! قلب الطائر قلب عجيب، يضخ للجناحين دماً يعادل دم جسم الطائر كله، وبنية الطائر، عضلات الطائر، أجنحة الطائر، رئة الطائر، رأس الطائر، أجهزته شيء يأخذ بالألباب .

وأتمنى في درس قادم إن شاء الله أن أوسع لكم في بنية جسم الطائر .

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الله هو الذي زوّد الطير بصفات كثيرة :

من زود الطائر بهذه الصفات؟ هذا الريش، من جعله بهذا الوزن الخفيف، يقول لك : وزنه كالريشة، كأنه لا وزن لها ! من جعل هذا الأنبوب في وسط الريشة مقاوماً، وخفيفاً؟ ومن جعل الأشعار حول هذا الأنبوب ملتصقة من أجل أن تشكل مقاومة للهواء؟ من جعل للطائر قوادم طويلة وريشاً أقلّ؟ ثم أقلّ،

من جعل الزغب حول جسم الطائر؟ القوادم والخوافي، الخوافي قوةٌ للقوادم، من أعطاه هذه الإمكانية على معرفة الطريق؟ قد يطير الطائر سبعة عشر ألف كيلو متر ! يقطع الطائر رحلة الشتاء والصيف مسافة تزيد على سبعة عشر ألف كيلو متر ! من يهديه في ظلمات البر والبحر، لو أن زاوية الطيران اختلفت درجة واحدة مثلاً، عشّه في دمشق يأتي إلى بغداد، أو إلى القاهرة، الطيور التي تعشش في بيوت دمشق هذه الطيور تهاجر إلى إفريقيا، وتعود في فصل الشتاء من أعطاها هذه القدرة على معرفة الطريق؟ الله سبحانه وتعالى .

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

هل تعلم كيف يهتدي الطائر في طيرانه ؟

العلماء وضعوا نظريات كلها باءت بالإخفاق، ظنوا أن الطائر يهتدي بأشعة الشمس، فإذا به يهتدي ليلاً إلى هدفه، ظنوا أن الطائر يهتدي بتضاريس الأرض، فلما طار فوق البحر اهتدى إلى هدفه، ظنوا أن الطائر يهتدي بشيء مغناطيسي، كلما طرحوا نظرية جاءت التجارب تؤكد عكسها، ولا يزال اهتداء الطائر إلى عشه قاطعاً مسافات شاسعة لا يزال هذا لغزاً يحير العلماء !! بعضهم طرح نظرية ربما كانت أقرب ما تكون إلى الصواب، أن الطائر يهتدي بالساحة المغناطيسية الأرضية، لا الشمس، ولا التضاريس، ولا الضوء، ولا شيء من هذا القبيل .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا

البيت سكنٌ وراحة :

البيت تسكن فيه، ترتاح أعصابك، ترتاح من عناء العمل ومشقة كسب المال .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا)

البيت نعمة :

من أجل أن تعرف قيمة السكن سافرْ إلى بلد؛ فإذا كانت جميع الفنادق مشغولة، وأنت تدور في الطرقات حتى ساعة متأخرة من الليل، تريد أن تأوي إلى مكان، ولا تهتدي إليه، تعرف عندئذ قيمة

المأوى، لذلك عَنْ أَنَسٍ :

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا، وَسَقَانَا، وَكَفَانَا، وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ))

[مسلم]

معك مفتاح بيت، دخلت إلى البيت، خلعت الثياب، أخذت حماماً سريعاً، استلقيت على فراشك، نسيت تعب النهار، هذا البيت من نعم الله الكبرى، لك بيت خاص، من أجل أن تعرف قيمة المأوى الخاص لو أنك اضطررت أن تسكن مع أناس أسبوعاً، تضيق بهم ذرعاً، تشعر أن حريتك مقيدة، تريد أن تنام في الوقت الذي تشاء فلا تقدر، الناس ساهرون ، لا تعرف قيمة المأوى المستقل إلا إذا كان لك مأوى مستقل، هذه نعمة كبرى، إذا دخل الإنسان بيته فليقل : الحمد لله رب العالمين .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ)

بيوت جلود الأنعام خفيفة في الحلّ والترحال :

هذه البيوت؛ بيوت الشعر، أو بيوت الجلد، التي يستخدمها البدو في الصحراء، يسكنونها، وقد تكون هذه البيوت إذا أقيمت على أصولها بيوتاً منيعة .

(يَوْمَ ظَعْنِكُمْ)

أيْ : يوم سفركم .

(تَسْتَخِفُّونَهَا)

أي تجدونها خفيفة .

(يَوْمَ ظَعْنِكُمْ)

أيْ : يوم سفركم .

(يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ)

من أصواف الأنعام .

(وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا)

الصوف والوبر والشعر للأثاث واللباس :

الجمل له وبر، والماعز لها شعر، والغنم لها صوف .

(وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

قال لي شخص : توجد ألبسة داخلية شتوية ثمن القطعتين حوالي ألف ومئتي ليرة! قلت له : لماذا هذا السعر المرتفع؟ قال : لأنها من وبر الجمل، لها نعومة تفوق نعومة الحرير، تبث دفئاً يفوق حد التصور! قطعتان من الألبسة الداخلية للشتاء .

(وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

أثاثاً؛ الطنافس، البسط، الفرش، الفراش من الصوف، واللحاف، والغطاء، هذا كله من الأصواف والأشعار ومن الأوبار :

(أَثَاثًا وَمَتَاعًا)

متاعًا تتخذونها بضاعة تتاجرون بها، المتاع هو البضاعة التي تنمو بالبيع والشراء .

(وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

معنى : وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ

العلماء قالوا : هذا الحين نوعان، إما إلى حين أن تهترئ وتبلى، وإما إلى أن يموت صاحبها، متى تنقطع علاقتك بهذا الشيء؟ إما أن يهترئ هذا الشيء، وإما أن يموت صاحبه .

(وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

إذا توفي شخص يفتحون خزانته، فإذا فيها ثياب لم يلبسها، يوزعونها حتى لا يتذكروه، لا يتركون شيئاً! كل شيء متعلق بالميت يوزعونه، يخافون أن يتذكروه، حتى لا يتذكروا أنفسهم ومصيرهم، فالإنسان قد يشتري، ولا يلبس .

(وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

هذه الحين تقطع نياط القلب .

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

(سورة البقرة)

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا

الجبال مصدّات وظلال :

تجد هذا البلد دافئاً فيه مصدٌّ كبير للرياح، سلسة الجبال الغربية مصدّات للرياح، المدن التي خلف سلسلة جبال لبنان الغربية والشرقية، أما طقس حمص فطقس آخر، رياح عاتية، وهناك فتحة على البحر، القنيطرة لها طقس خاص، لأنها مفتوحة على البحر، أما مدن الداخل التي تقع إلى جانب الجبال فتُعَدُّ هذه الجبال أكناناً، اصعد إلى جبل قاسيون في أيام رياح عاتية، انتقل من طرف إلى طرف فإنك ترى الطقس يختلف اختلافاً كبيراً، إن كانت الرياح غربية، وانتقلت إلى سفحه الشرقي فكأنه ليس هناك رياح إطلاقاً، وإن كانت الرياح شرقية، وانتقلت إلى سفحه الغربي فكأن الرياح معدومة .

إذاً :

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا)

الأشجار من نعم الله الكبرى، هناك أشجار خلقت خصيصى كي تؤمِّن لكم الظلال، الآن طرقاتنا أكثرها مشجّرة، هذه أشجار زينة لا تثمر، لا يستفاد لا من ثمرها، ولا من ورقها، ولا من أزهارها، ولا من جذوعها، ولا من أخشابها، يستفاد من ظلالها، إذاً هذه خلقت خصيصى كي تمنحك الظل، لذلك من حكمة الله عز وجل أن أكثر أشجار الزينة ذات أوراق دائمة الخضرة، حجمها صغير تتراقص مع الرياح، شكلها دائري، منتظم، كأنها مظلة .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا)

أحياناً يسير الإنسان في طريق كله شمس، في أيام الصيف الحارة يصل إلى ظل شجرة فيجلس تحتها قليلاً، النسمات تحرك أوراقها، يقول لك : جلست تحتها جلسة لا أنساها، هذه من فضل الله عز وجل، جعل في الصحراء واحات، في كل مكان توجد أشجار، هذه تؤَمِّن لك الظل، ومع الظل النسيم العليل، ومع النسيم العليل المتعة، والراحة، والسكن،

(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ)

الثياب تقي من الحرّ :

هذه الثياب البيضاء، القطنية، هذه تعكس . والثياب الصوفية في الشتاء البارد تحس أنه لا شيء يعدل ثوباً صوفياً، يقول لك : دفءٌ عظمي، طبعاً، من خلق هذا الصوف يبث الدفء؟ ومن خلق القطن؟

يمتص الرطوبة؟ إنه الله سبحانه وتعالى .

(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ)

الثياب تقي من البرد أيضا :

العلماء قالوا : ذكر الحر، واستغنى به عن البرد، فالبرد ملحوظ بالآية، يعني هناك سرابيل تقيكم الحر، وهناك سرابيل تقيكم البرد، أو لأن الذين يخاطبون يعيشون في الصحراء الحارة، هم يحتاجون إلى ثياب يدفعون عنهم الحر أكثر مما هم محتاجون إلى ثياب يدفعون عنهم البرد

(وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ)

هذه الدروع، تأتي ضربة سيف فتمنع الدرع من أن تقطع الجسم .

(وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ(81)فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ

ليس على النبي إلا البلاغ :

أنت مبلِّغٌ .

(وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : 3)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة فصلت : 17)

(يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ)

يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ

هذه النعم من ينكرها؟ ماذا بقي عليك؟ أن تشكرها، أن تشكر الذي أنعم بها عليك، أن تشكر الذي من بها عليك، لذلك عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي))

[الترمذي]

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ

النبي يشهد يوم القيامة أنه بلغ الرسالة فلا حجّة لأحد :

هذا الذي بلغكم رسالات الله فيشهد عليكم، ألم تبلغهم؟ نعم يا رب قد بلّغتُهم .

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

(سورة المائدة : 116)

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

ماذا تقول؟ الحجة قد أقيمت عليك، الزم الصمت فهو أولى لك .

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ

الظالم يوم القيامة لا يخفف عنه العذاب ولا يؤخَّر :

مثلاً: هذا الذي ارتكب جريمة قتل، وحكم عليه بالإعدام، وصدِّق الحكم، وسيق إلى حبل المشنقة، هو يصعد درج المشنقة إن شاء أن يبكي فليبكِ، وإن شاء أن يضحك فليضحك، وإن شاء أن يتوسل فليتوسل، وإن شاء أن يرجو فليرجُ، وإن شاء أن يسكت فليسكت، وإن شاء أن يستعطف فليستعطف، لابد من تنفيذ الحكم فيه، هذا انتهى أمره ، هذا كله بعد فوات الأوان، فكّرْ قبل أن تقدم على الجريمة .

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

انتهى الأمر، قرار قطعي، غير قابل للطعن، وغير قابل للاستئناف، ولا للتمييز، ولا للنقض، مصدق جاهز، وبقي التنفيذ .

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ

لا ينفع البراءة من الشركاء يوم القيامة :

يتوهم الكافر أنه إذا أشار إلى الشركاء الذين عبدهم من دون الله فإن هذا سيخفف عنه العذاب، يا رب، هؤلاء الذين عبدناهم من دونك، عذِّبهم، يقول : لا، أنت لماذا عبدتهم؟ أنت لماذا اتخذتهم شركاء؟

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)

يا رب، هؤلاء كاذبون .

(وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

إنه يوم الاستسلام :

أحياناً المجرم يستسلم، يا ترى يعدمونه خلال أيام؟ بعد أسبوعين؟ بعد سنتين؟ يا ترى أيحكمون عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة؟ أشغال شاقة ثلاثين سنة، أمره مستسلم، ليس له قوة على أن يتكلَّم أي كلمة، يصورونه يضع رأسه في الأرض، مستسلم، هذا حال صعب .

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ(86)وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

أين هذه الأفكار التي كانوا يبثونها؟ أين هذه المعتقدات الفاسدة التي كانوا يعتقدون بها؟ أين هذه المبادئ المزيفة التي كانوا يؤمنون بها؟ أين هذه الفلسفات؟ أين هذه السخريات التي كانوا يسخرون من الدين؟

(وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

ثم قال سبحانه :

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

الكافر يعذَّب ويزاد له في العذاب :

الذين كفروا يعذَّبون، أما إذا صَدُّوا عن سبيل الله فيعذَّبون عذاباً آخر، يعذَّبون لأنهم كفروا، ويعذَّبون لأنهم صدوا غيرهم عن الدين .

(زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

بما كانوا يفسدون عقائد الناس، يضللونهم، يوقعونهم في متاهة .

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ

لكلِّ أمة شهيد عليها يوم القيامة :

يخاطب الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً له :

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ)

النبي الذي بعث في قومٍ، والعالِم الذي دعاهم .

(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)

القرآن تبيان لكل شيء فاتبعوه :

لماذا قال الله : تبياناً؟ لمَ لمْ يقل بياناً؟ لأن التبيان من المصادر التي تشير إلى المبالغة، الإنسان يبين الخطر بكلمة، بكلمتين، بعشر كلمات، بصحيفة، بصحيفتن، ربنا عز وجل بين الحق بستمئة صحيفة، والكون يبين لك أنه لا إلا إله الله .

مثلاً: لو شاهدت إشارة تشير إلى أن هناك تحويلة في الليل، وأنت مسرع، يضعون إشارة ؛ انتبه بعد ألف متر يوجد تحويلة على اليمين، تكفي إشارة وحدة، أحياناً يضعون إشارتين، أحياناً يضعون أربعًا ؛ ألف متر، سبعمئة وخمسون، خمسمئة، مئتان وخمسون، بعد ذلك سهم على اليمين، أنت مسرع بالليل ؛ هذه تبيان، أول إشارة، والثانية، والثالثة، والرابعة، لئلا تقع في الخطر .

معنى تبيان ؛ أن هناك آلاف الأدلة، ملايين الأدلة، لئلا تقع في الخطر ..

(تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

القرآن هدى ورحمة وبشرى للمسلمين :

الهدى النور الذي ترى به الخير خيراً، والشر شراً، والرحمة التجلي، فكأن الإنسان يمشي في طريق، الشاخصات هي التبيان، وضوء السيارة الوقاد هذا هو الهدى، والشعور بالطمأنينة والأمن هذه هي الرحمة، الطريق مكشوف، والإضاءة جيدة، والشاخصات واضحة، وأنت مرتاح نفسياً .

(تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (18-21): تفسير الآية 90 ، عن عالم الغيب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-05-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ

قيمة الأمر من قيمة الآمِر :

أيها الإخوة المؤمنون، قيمة الأمر من قيمة الآمر، فكلما كان الذي يأمرك عظيم الشأن، رفيع القدر، قوياً، غنياً، كان أمره كذلك لذلك هذه الآية مصدرة بلفظ الجلالة :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ)

انتبه، الأمر أمر الله، والله صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى، خالق الأكوان، رافع السماوات بغير عمد، مَنْ إليه المصير؟ من بيده مقاليد كل شيء هو ذاته يأمرك، لذلك قال بعضهم: " لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت "، فقد تكون المعصية طفيفة، ولكنك اجترأت بها على الله عز وجل، فخطورة المعصية لا لأنها صغيرة، ولكنك عصيت بها خالقك، ومربيك، ومن خلقك من قبل، ولم تكن شيئاً، فربنا عز وجل يقول :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ)

الأمر القرآني يقتضي الوجوب :

والأمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، وقد يتوهم بعض الناس أن أوامر الله سبحانه وتعالى هي الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، هذه أركان الإسلام، ولكن كل أمر في كتاب الله عز وجل يقتضي الوجوب، على وجه الإلزام، ولا خيار لك في ذلك .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)

(سورة الأحزاب : 36)

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)

ما هو العدل ؟

ما هو العدل؟ العدل من المعادلة، والعِدل : المساوي، ومعنى العَدل ؛ أن تعطي الناس حقوقهم، أن يأخذ الإنسان حقه، أن يأخذ أجراً يساوي جهده، أن تعامل الزوجة معاملة تساوي مهمتها ومكانتها، العدل من المساواة، والعدل ضد الظلم، والعدل أن تعطي ذي كل حقٍ حقه، لا تصلح الحياة من دون العدل، لن تستمر المجتمعات إلا بالعدل، لن يستقر البناء إلا بالعدل، لن تستمر العلاقة بين الزوجين إلا بالعدل، لن تستمر العلاقة بين الشريكين إلا بالعدل، لن يسود السلام الأرض إلا بالعدل، لن تطمئن إلا بالعدل، العدل يسع الجميع، وأساس بناء المجتمع .

فلذلك الزوج له حقوق، والزوجة لها حقوق، والعدل يقتضي أن تعطي الزوجة زوجها حقوقه، وأن يعطي الزوج زوجته حقوقها : أن يطعمها مما يأكل، أن يلبسها مما يلبس، ألا يضرب الوجه، ولا يهجر في الفراش، من حق الزوج على زوجته، أن تحفظه إذا غاب عنها، وأن تنفذ أمره إذا أمرها، وألا تمتنع عنه، وأن لا تخرج إلا بإذنه، وأن تحفظ ماله، هذا هو العدل، من حق الابن على أبيه ؛ أن يحسن تربيته، وأن يوفر له حاجاته ـ ضمن إمكانات الأب ـ ومن حق الأب على ابنه ؛ أن يرد الجميل بالجميل، أن لا يناديه باسمه، أن لا يمشي أمامه، أن لا يستسبه ـ أن يسبّب له السباب ـ هذا من حق الأب على ابنه .

لا تقوم الحياة إلا بالعدل :

الحياة لن تقوم إلا بالعدل، وأي مجتمع مهما كان قوياً حينما يلقي عرض الطريق بقيم العدل، هذا المجتمع لابدَّ من أن ينهار، بقاء المجتمعات مرهون بالعدل، بقاء الأفراد مرهون بالعدل، صحة العلاقة بين اثنين أساسها العدل، حق الأخ الأكبر على إخوته الصغار كحق الأب على أبنائه، هذا هو العدل، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ : جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا))

[الترمذي وأحمد]

حق المتعلم على المعلم أن يصبر عليه، وأن يتواضع له، وأن يكون رحيماً به، وأن يأخذ بيده كلما عثر، حق الأجير على صاحب العمل ؛ أن يقبض أجره قبل أن يجف عرقه، أن يأخذ ما يستحق، ألاّ تكلفه مالا يطيق، حق صاحب العمل على الأجير، أن يكون أميناً، صادقاً، ألاّ يؤذيه بالعمل، ألاّ يهمل، ألاّ يقصر، ألاّ يعتدي، حق الجار على جاره؛ إن استقرضك أقرضته، وإن استنصرك نصرته، وإن مرض عدته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، وإن مات شَيعّته، ولا تستطل عليه بالبناء، فتحجب عنه الرياح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فاهدِ إليه منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك، إلا أن تغرف له منها، والأربعون دارًا كلهم جيران؛ شرقاً، وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وارتفاعاً ..

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)

حق الصديق على صديقه، حق الأخ المؤمن على أخيه، ألاّ يغتابه، ألاّ يذكر عورته، ألاّ يشهر به، ألاّ يسرع بالحكم عليه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات : 6)

حق الأخ على أخيه؛ ألاّ يحقره، ألاّ يغشه، ألاّ يحتال عليه، أن يحفظ ماله، أن يحفظ عرضه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ))

[متفق عليه]

حق الأخ على أخيه ؛ أن تعامله كما تعامل نفسك، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، هذا هو العدل، كل مشكلاتنا، كل متاعبنا، كل مآسينا بسبب ترك مبدأ العدل، لو أن الزوج عَدَلَ مع زوجته، وعدلت هي مع زوجها .

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله))

أي : الجهاد في سبيل الله .

[من كنز العمال عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

(سورة الأحزاب : 33)

((أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها كانت في سخط الله تعالى حتى ترجع إلى بيتها، أو يرضى عنها زوجها))

[من الجامع الصغير عن أنس]

هذا هو العدل .

حق الأمير على رعيته أن يطيعوه في غير معصية الله عز وجل .

وحق الرعية على أميرهم، قال سيدنا عمر رَضِي اللَّه عَنْه يمتحن أحد الولاة: << ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً من جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل، فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه، لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإذا وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة، قبل أن تشغلك بالمعصية >> .

أيها الأب : أيها العم، صهرك له عليك حق؛ أن تترفق به، ألاّ تكلفه مالا يطيق، أن تأمر ابنتك أن تطيعه، لا أن تحرضها على أن تعصيه، أن تمنعها من مغادرة بيتها من غير إذنه، لا أن تجلبها إلى البيت لتغيظه، أيها الصهر، واجبك تجاه والد زوجتك أن تعرف قدره، وأن تقدر جميلة، ربى ابنته، حتى إذا بلغت أشدها قدمها إليك هدية لطيفة، هل تعرف قدره ؟ هذا هو الحق .

حق المالك في ملكه ؛ ألاّ يتعسف في استعمال هذا الحق، ألاّ يضيق على الناس، ألاّ يحملهم على أن يحتالوا عليه، أن يترأف بهم، حق المالك على من في ملكه، حق الشريك على شريكه، ألاّ يقطع أمراً دونه، أن يستشيره، أن يبذل جهداً مكافئاً لجهده، ألاّ يستأثر بشيء له، أن لا ينافسه في عمله ، في العمل نفسه .

حق المقرض على من أقرضه؛ أن يؤدي له القرض بالتمام والكمال في الوقت المحدد، لا أن يماطل، حق المقترض على من اقترض منه، ألاّ يحمله مالا يطيق، ألاّ يكلفه، أن يدفعه أن يدفع فائدة مرتبة، إن هذا ليس من العدل .

حق الشريك المضارب؛ ألاّ يدخر وسعاً في بذل كل الجهد، كي يحقق لرأس المال ربحاً جيداً، وحق صاحب المال ألاّ يستبد بما أتاه الله به، يجعله مبذولاً بين الناس كي ينتفعوا به وينفعوه .

حق المشتري؛ أن يدع مجالاً ليربح منه البائع، كيف يعيش إذاً؟ لا تزال تضيّق، وتفاصل، وتمحّص، إلى أن يضجر فيبيعك برأس ماله، وحق المشتري على البائع ألاّ يغشه، وألاّ يربح عليه أضعافاً كثيرة،

لو كشف رأس المال هل يرضى هذا المشتري ؟ البيع الشرعي ما كان عن تراضٍ بين المتبايعين، هذا هو العدل .

حق المقتول خطأ أن تدفع له الدية .

حق الزوج التي خطبتها، وعقدت عليها، وبقيت تزور أهلها أشهراً ثلاثة ؛ أن تعطيها نصف المهر، لا أن تبلغ أهلها، أنه يجب أن تسامحوني بكل شيء، وأن تعطوني كل ما قدمته من هدايا حتى أطلقها، هذا هو الظلم، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[البخاري]

حقوق الناس أمر عظيم يقصم الظهر :

أيها الإخوة المؤمنون، مع سيدنا عمر الحق في أن يقول : << ليت أم عمر لم تلد عمر >>، ليتها كانت عقيمة ؛ وَمعه الحق أن يقول : << ليتني أقدم على الله لا ليّ ولا عليّ >>، وَمعه الحق أن يقول: << وَاللَّهِ لو أن بغلة في العراق تعثرت لحاسبني الله عنها، لمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟ >> .

وَاللَّهِ الَّذِي لا إلَهَ إلا هو لو تأملتم بالحقوق المترتبة عليكم، وأنا معكم لوجدتموها شيئًا يقصم الظهر، هل أديت حقك تجاه زوجتك؟ هل كنت متعسفاً في استعمال حق الزوج؟ هل دللتها على الله عز وجل؟ أم استمتعت بها وكفى؟ هل عرفتها بخالقها؟ لها حق عليك، خدمتك، وحبست نفسها من أجلك، أفلا ينبغي أن تعرفها بربها؟ أفلا ينبغي أن تقودها إلى الجنة هل أديت حق أولادك ؟

الحقوق شيء مخيف يوم القيامة ؛ يوم تقف بين يدي الله عز وجل، ماذا فعلت في حق أمك ؟ هل عاملتها ؟ هل كافأتها بإحسانها إحساناً ؟ أم التفتت إلى زوجتك ونسيتها ؟ ورأيتها عبئاً ثقيلاً ؛ شيئاً قديماً؟ ليتها تموت ونرتاح منها! أهذا حقها عليك ؟!

هل عرفت حق أبيك ؟ تأكل ما لذَّ وطاب، وأبوك محتاج إلى الدرهم والدينار، ولا تزوره إلا أياماً قليلة بالشهر أو بالعام ؟ تقول له: أنا مشغول، أنسيت يوم كنت صغيراً ؟ محتاجاً إليه ؟

امرأة جاءت إلى رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشكو زوجها، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ:

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ :]قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ [ ))

[ابن ماجه، النسائي]

مرة عمر رَضِيَ اللَّه عَنْه وهو راكب بغلته مر بهذه المرأة فنزل عن دابته تأدباً معها، ووقف معها طويلاً تكلمه، فقيل له : أتكلم امرأة ضعيفة ؟ فقال : كيف لا أكلمها ؟ وكيف لا أستمع لها، وقد استمع لها الله من فوق سبع سماوات ؟

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[متفق عليه]

وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هو؛ لو ظلمت مجوسياً، لو ظلمت ملحداً، لحاسبك الله حساباً عسيراً، أليس هو عبداً لله؟ الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، من قال لك: إنه يباح لك أن تفعل ما تفعل مع من لم يكن من دينك؟ أهذا هو الدين؟ المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، ليس منا من غش إطلاقاً، ولو غششت أي إنسان، هذا هو العدل .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)

في بيتك، مع أولادك، مع جيرانك، مع من هم أعلى منك، مع من هم أدنى منك، مع أمك، مع أبيك، مع أقاربك، مع شريكك، مع كل من هو له علاقة معك، هذا هو العدل، والعدل قسري، بمعنى أنه ليس لك اختيار فيه، إما أن تفعله فتنجو، وإما أن تقصر فيه فتهلك .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

إذا ضاق العدل اتّسع الإحسان :

فإن ضاق العدل اتسع الإحسان، اشترى منك البضاعة، اشترى منك هذه السلعة، ولم يفتحها، ولم يجر فيها أي تعديل، وأصابه ندم على شرائها، وكان البيع صحيحاً مئة بالمئة، السعر معتدل، وتم الإيجاب والقبول، وتم التسلم والتسليم، ثم جاءك يرجوك أن تقيله من بيعته .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

أنت مأمور بالإحسان، كما أنك مأمور بالعدل .

رجل من عامة الناس يسكن أحد أحياء دمشق القديمة ـ هذه القصة قديمة جداً ـ له جار إمام مسجد، معروف بالتقى والصلاح، هذا الإمام رأى رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام، قال: يا فلان، بلغ جارك فلانًا أنه رفيقي في الجنة، من هو هذا الشخص ؟ شخص من عامة الناس، لا يؤبه له، إن حضر لم يعرف، وإن غاب لم يفتقد، فذهب إليه ليبلغه البشرى، دخل إلى بيته، وقال: لك عندي بشرى من

رسول الله ، والذي نفس محمد بيده لا ألقيها على مسامعك حتى تقول لي ماذا فعلت مع ربك حتى بشرك النبي عليه الصلاة والسلام أنك رفيقه في الجنة ؟ فأبى، ثم أبى، فلما ألح عليه قال : وَاللَّهِ تزوجت امرأة، وفي الشهر الخامس من الزواج كانت في شهرها التاسع من الحمل، فكان بإمكاني أن أطلقها، وبإمكاني أن أسحقها، وبإمكاني أن أفضحها، جئت بقابلة سراً وولدتها، وحملت المولود تحت عباءتي، وذهبت به إلى المسجد، وانتظرت حتى ينوي الإمام، دخلت، ولم يرني أحد، وضعت المولود خلف الباب، ونويت الصلاة، فلما انتهت الصلاة بكى المولود، تحلق الرجال حوله، دخلت بينهم، وكأن الأمر لا يعنيني، قلت: ما هذا؟ قالوا: تعال انظر، لقيط وضع هنا، قال : هاتوه، أنا أكفله، فأخذه، وأعاده إلى أمه، وسترها، فقال عليه الصلاة والسلام في الرؤيا: أبلغ جارك فلانًا أنه رفيقي في الجنة، هذا إحسان، وليس عدلاً، العدل أن تطلقها .

الإحسان أنت مأمور به، مأمور به تماماً، أقمت دعوة إخلاء على المستأجر، وصدر قرار بالإخلاء، والمستأجر لا يقوى أن يستأجر بيتاً آخر، ليس له الحق أن يأخذ منك شيئاً، أعطيته مبلغاً من المال كي يدبر أمره به؛ هذا إحسان .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

باب الإحسان واسع جداً، لا يحصى في كلمات، لا يعرف في ساعات .

المحسن محمود عند الله ممدوح في القرآن :

الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت : 69)

الله عز وجل بعظمته، بقوته، بكماله مع المحسن ..

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف : 56)

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

(سورة النحل : 128)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة المائدة : 8)

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

الإحسان مع الزوجة؛ لا أن تعطيها حقها، أن تحتمل الأذى منها؛ قيل لرجل من الصالحين، وكانت له زوجة سيئة الخلق : طلقها يا فلان، قال: وَاللَّهِ لا أطلقها فأغشّ بها المسلمين! هذا إحسان، بإمكانك أن تطلقها، ولكني لا أطلقها فأكسرها، لأن كسر المرأة طلاقها، وما عُبِدَ اللهُ في الأرض بأفضل من جبر الخواطر، لا أطلقها، لا أفرق بين اثنين، لا بين أخوين، أو شريكين، أو قريبين، أو جارين .

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

(سورة النحل : 128)

علامة إحسانك :

اسأل نفسك، هل أنت محسن في البيت؟ علامة إحسانك أن من حولك يتمنون دوام حياتك، وعلامة الإساءة أن أقرب الناس إليك يتمنى أن ترحل عنهم، فإذا جاء الطبيب ليفحص الأب، وقال الطبيب: حالته طفيفة، يتألم الأهل ألماً شديداً، ليته قال : حالته خطيرة، يتوقعون أنه يموت في هذا المَرض، سيعيش أيضاً؟ معنى ذلك أن هذا الأب غير محسن، كن محسناً تر الناس جميعاً مقبلين عليك، لا تبن مجدك على أنقاضهم، لا تأخذ مالهم، لا تعتدِ عليهم، لا ترتفع، ويُخفَضون، لا تغتنِ ليفتقروا، لا تسعد ليشقوا، كن محسناً، بث فيهم السلام .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)

من الإحسان إيتَاء ذِي الْقُرْبَى حقوقهم :

من الإحسان إيتاء ذي القربى، فلماذا ذكرها الله عز وجل؟ من الإحسان أن تؤتي ذوي القربى حقهم، أو المعونة لهم، قال العلماء: لقد خصت بالذكر لعظم شأنها، لا انطلاقاً من العصبية العائلية، لا، ولكن انطلاقاً من مبدأ التكافل الاجتماعي، فذا عرف كل إنسانٍ حق قريبه انتهى الأمر، كل إنسان له قريب، لو رعى كل قريب قريبه رعاية مادية، ومعنوية، واجتماعية، وإصلاحية، ودينية، لحلت مشكلات الأمة، لماذا خصّ الله سبحانه وتعالى بالذكر أولي القربى؟ لأن تحقيق هذا المبدأ يعني تحقيق التكافل الاجتماعي، لا ترى في المجتمع جائعاً، ولا فقيراً، ولا عرياناً ولا مضطهداً، ولا محروماً .

(وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)

لذلك إذا أزمع الإنسان أن يدفع زكاة ماله فعليه قبل كل شيء أن يبحث عن أقربائه، عن رحِمِهِ، لعلهم محتاجون، أدرى الناس بهم أنت .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)

أن تؤتي ذوي القربى، لك أخت بحاجة إلى مساعدة، لك عمة أرملة، لك خالة بائسة في حي بعيد، تجشم المشاق، واذهب إليها، تفقد أحوالها، أعطها من مالك، أو من زكاة مالك .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ)

وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ

الفحشاء :

الفحشاء؛ العمل الشنيع الذي تفوح منه رائحة نتنة، من يزني بحليلة جاره، من يغرر بفتاة، من يعتدي على أعرض الناس .

من يجعل بينهم هوة كبيرة، من العداوة والبغضاء، الفحشاء كل شيء تمجه الفطرة السليمة، كل شيء ينكره المجتمع الإنساني، في أي زمان ومكان، قيمة مطلقة، أي إنسان، من أي لون، أو أي عرق، أو أي دين، يأبى ذلك، من يقابل الإحسان بالإساءة، هذه فحشاء، من يسيء إلى أمه وأبيه، هذه فحشاء، من يخون زوجته هذا فحشاء، العمل الفاحش؛ الذي تمجه الطبيعة البشرية، وتسري أنباؤه في الناس باشمئزاز شديد، واحتقار كبير، وترفع بليغ .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ)

المنكَر :

المنكر ما أنكره الشرع، قد تطمس الفطرة، قد يشيع بين الناس أكل الربا، فإذا أكلت الربا لا أحد ينتقدك، لكن الربا أنكره الشرع، الفحشاء؛ ما تعارف الناس عليه، والمنكر ما أباه الشرع، في عهود الازدهار الديني تتطابق أعراف الناس مع قواعد الشرع، وفي عهود التخلف الديني يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، يصبح الخير شراً، والشر خيراً، يأمر الناس بالمنكر، وينهون عن المعروف، يصبح الكذب ظرفاً، والخيلاء تيهاً، يصبح الأمر بالمعروف حمقاً، والنهي عن المنكر وقاحة، يصبح النفاق لباقة، والكذب ذكاءً، والعدوان على الأعراض دماً خفيفاً ! تنعكس القيم !

إذا كنا في عصر انقلبت فيه القيم عندئذٍ المنكر ما أنكره الشرع، أن يدخل الإنسان في مجتمع مليء بالكاسيات العاريات، المائلات، المميلات، ويسمى إنساناً لبقاً، لطيفاً، مهذباً، يمتع عينيه بهن؟! يعتدي عليهن اعتداء معنوياً، ويسمى لطيفاً، مهذباً، لبقاً، حضارياً، مثقفاً! المنكر ما أنكره الشرع .

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور : 30)

فالفحشاء تدور مع الأعراف، والتقاليد، والعادات، ولكن المنكر يدور مع أحكام الشرع .

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

(سورة البقرة : 276)

البغي :

البغي العدوان، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

((يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ ـ أي الزنا ـ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

[ابن ماجه]

قبل أيام قرأت أن كل عشرة مصابين بمرض الإيدز في العالم الغربي، منهم تسعة شاذون أخلاقياً، وواحد موزع بين النساء العاهرات ومدمني المخدرات، متى ظهرت الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ؟ هذا مرض جديد لم يكن في الأسلاف، يهدد العالم الغربي الآن، يعد في العالم الغربي العدو الأول، هكذا قالت بعضُ سياساتهم، مرض الإيدز العدو الأول، ما أسبابه ؟ الفحشاء، أما دقة الحديث فقوله:

((حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا))

تابعت قراءة الخبر، قال: وفي أمريكا وحدها مليونان ونصف مليون شاذ شذوذًا أخلاقيًّا، تعرفونهم من هم، مسجلون في نوادٍ رسمية ! والمسجل من معهم بطاقات، لذلك فشا فيهم مرض الإيدز، ولقد أعلن قبل شهر أو أكثر أن كل المساعي، وكل البحوث العلمية، وكل الإمكانات باءت بالإخفاق، إن كل هذه الأدوية لم تستطع أن تقف في وجهه الرقم الأخير، أن هناك مليونين يحملون هذا المرض، مئات الألوف فتك بهم، والأمر يتفاقم باستمرار ! ربما انتقل المرض إلى اليابان وإلى أوربة الغربية، وإلى بعض البلاد النامية التي فيها فاحشة :

((وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ ـ أي الزنا ـ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ـ أي شدة الفقر ـ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا

مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

قال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

(سورة النحل : 90)

البغي العدوان، أن تأخذ ما في أيدي الناس، أن تأخذ أموالهم بالباطل، إما أن تأخذها بقوتك، أو بحيلتك، قد يكون الرجل ذكياً وضعيفاً، فيسلب أموال الناس لا بقوته بل بحيلته، وقد يكون غبياً قوياً، فيأخذ أموالهم بقوته، هذا كله عدوان وبغي .

(وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ)

أيّ معصية تفوح رائحتها النتنة بين الناس ينهى الله عنها، فإذا طمست فطرة الناس هناك مقياس الشرع، أي شيء ينهى عنه الشرع فهو محرم، والبغي ؛ هو أن تعتدي على أموال الناس، وعلى أعراضهم، وعلى ممتلكاتهم .

أحاديث عظيمة فافهموها واعرفوا قدْرها :

أيها الإخوة المؤمنون، دققوا في هذا الحديث، النبي عليه الصلاة والسلام حديثه كما يصفه علماء الأصول وحي غير متلو، لقوله تعالى :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم : 3 - 4)

لذلك أمرُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام يقتضي التطبيق، والوجوب .

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة الحشر : 7)

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ الْخَثْعَمِيَّةِ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ، وَاعْتَدَى، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ سَهَا، وَلَهَا، وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا، وَطَغَى، وَنَسِيَ الْمُبْتَدَا

وَالْمُنْتَهَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعٌ يَقُودُهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوًى يُضِلُّهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ))

[الترمذي]

تخيل نفسه عظيماً، واختال على الناس النبي الكريم مر على أحد الأشخاص يضرب غلامه، أحياناً الإنسان يتجبر على غلام عنده، على صانع، قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ :

((كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي : اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَضَبِ، قَالَ : فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ : اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قَالَ : فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ : اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ، قَالَ : فَقُلْتُ : لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[مسلم]

((بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ، وَاعْتَدَى، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ سَهَا، وَلَهَا، وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا، وَطَغَى، وَنَسِيَ الْمُبْتَدَا وَالْمُنْتَهَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعٌ يَقُودُهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوًى يُضِلُّهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ))

[الترمذي]

شيء مخيف أن تنطبق إحدى فقرات هذا الحديث على واحد منا،

((بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ))

أيها الإخوة المؤمنون، لا زلنا في آية :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

هذه هي علة النهي عن هذه الأشياء : يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

لعلكم تذكرون مهمتكم في الدنيا، لعلكم تذكرون شرع الله، لعلكم تذكرون يوم الحساب .

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة المطففين : 6)

يوم تقف البنت يوم القيامة تقول: يا رب، لا أدخل النار حتى تدخل أبي قبلي، لأنه أطلقني هكذا، لأنه لم يرعَ حقي، لم يعلمني، أطلقني على سجيتي، أنا جاهلة، فجئت إلى هذا المكان لأحاسب عن أعمالي كلها، وكان أبي هو السبب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (19-21): تفسير الآيات 91 – 94 ، عن الوفاء بالعهد لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-06-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا

ما هو عهد الله ؟

عهد الله، العهد الذي عاهده الإنسان في عالم الأزل، يوم قال الله عز وجل للخلائق :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

(سورة الأعراف : 172)

وإذا عاهدت ربك في الدنيا على الطاعة، وعلى العمل الطيب فهذا هو العهد المعني في هذه الآية، وإذا عاهدت رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من ينوب في مكانه في تبليغ العلم، إذا عاهدت رسول الله عليه الصلاة والسلام على السير في طريق الإيمان، وعلى الالتزام بأوامر الدين، وعلى الاستقامة على أمر الله، وعلى فعل الخيرات، وترك المنكرات فهذا هو العهد المعني في هذه الآية .

إذا عاهدت النبي عليه الصلاة والسلام، أو من ينوب منابه في تبليغ العلم، فهذا العهد مَعْنِيٌّ في هذه الآية الكريمة :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

(سورة النحل : 91)

وجوب الوفاء بالعهد :

وإذا اتفقت مع مسلم على بيع، أو شراء، أو أجار، أو استئجار، أو هبة، أو وديعة، أو أمانة، أي عقد عقدته مع مسلم وفق الدين، يجب أن تلتزم به، لحديث النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ))

[البخاري]

طبعاً فيما لا يتعارض مع أوامر الدين ؛ لو أنك أبرمت عقداً مع إنسانٍ على أن تعصي الله فهذا العهد لا ينبغي أن تفي به، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ))

[البخاري]

فعهد الله عز وجل الذي يجب عليك أن توفيه هو العهد الذي قطعته على نفسك حينما خلقت في عالم الأزل، حينما قال الله عز وجل :

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

(سورة الأعراف : 172)

أو إذا عاهدته في الدنيا على التوبة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(2)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف : 2 - 3)

وقال سبحانه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : 38)

الإنسان أحياناً في ساعات الشدة، في ساعات الضيق، في أوان المصائب، قد يتوجه إلى الله عز وجل، ويقول له: يا رب، أعاهدك على الطاعة، أعاهدك ألا أعصيك، ثم الله عز وجل بكرمِه، ولطفه، ورحمته، وحكمته، يرفع هذه الشدة ؛ فإذا رفع عنك الشدة إياك أن تنقض عهد الله عز وجل، إن ساق الله لك شدة، وكبرت عليك، وطلبت من الله عز وجل أن تستقيم على أمره على أن يرفعها عنك، ورفعها، إياك أن تنقض عهد الله عز وجل، إنك إذا فعلت ذلك كالمستهزئ بربه .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

الوفاء والسماحة مروءة ورجولة :

شابان في عهد عمر رَضِيَ اللَّه عَنْه دخلا عليه وهما يسوقان رجلاً قتل أباهما، فعقد هذا الخليفة العظيم مجلساً للحكم في هذه الجريمة، عقد مجلساً لمحاكمته، وبعد سماع أقوال الشهود، وإقرار القاتل، حكم عليه بأن يقتل .

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة : 179)

القتل أنفى للقتل، إذا علم القاتل أنه لابد من أن يقتل يحجم عن القتل، فيحقن دمه ودم المقتول، إذاً :

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

هذه من الآيات البليغة .

فسيدنا عمر رَضِيَ اللَّه عَنْه حكم على هذا القاتل بعد أن اعترف وأقر، والقصة طويلة، أن يقتل، لكن المحكوم عليه بالقتل طلب مهلة ثلاثة أيام، كي يذهب إلى أهله، ليعطيهم مالاً كان قد خبأه لهم، وليودع أولاده، وليكتب وصيته، فقال له عمر: ومن يضمنك؟ نظر إلى من حوله، بقي الجميع ساكتين، لا أحد يعرفه، ليس من المدينة، فلم يتكلم أحد، لأنه لا أحد يعرفه، فما كان من أبي ذر رَضِيَ اللَّه عَنْه إلا أن قال: أنا أكفله يا أمير المؤمنين، والكفيل قد ينفذ فيه حكم القتل، ومضت الأيام الثلاثة، وحضر الشابان ليشهدا مقتل قاتل أبيهما، لكن الرجل لم يحضر، إلى أن كادت الشمس أن تغيب، ثم غابت، وكاد سيدنا عمر ينفذ حكم القتل في أبي ذر، لأنه الكفيل، ثم لاح بالأفق شبح بعيد، انتظروا، فإذا الرجل الذي عاهد الله أن يعود ليقتل، وهاهو ذا قد عاد، قبيل تنفيذ حكم الإعدام، سأله عمر: يا هذا، لِمَ وفيت بوعدك وأنت تعلم أنه القتل؟ فقال هذا الرجل : إنما جئت ووفيت بوعدي لئلا يقال: إن الوفاء قد مات .

عندئذ التفت سيدنا عمر إلى أبي ذر رَضِيَ اللَّه عَنْه وقال: يا أبا ذر لِمَ ضمنته، وأنت لا تعرفه ؟ فقال سيدنا أبو ذر : إنما ضمنته وأنا لا أعرفه لئلا يقال : إن المروءة ماتت، وعندئذ قال الشابان : ونحن عفونا عنه، فقال عمر رَضِيَ اللَّه عَنْه: لمَ عفوتما عنه؟ فقالا: لئلا يقال: إن السماحة ماتت .

وفاء، ومروءة، وسماحة؛ وفاء بالذي ذهب، وعاد ليقتل، ومروءة بهذا الصحابي الجليل الذي ضمنه، وسماحة من هذين الشابين، لأنهما ما أرادا أن يكون الرجلان أكثر سماحة ووفاء ومروءة منهما !!!

أيها الإخوة الأكارم ... لو أخذ الناس بهذه الثلاثة؛ بالوفاء والمروءة والسماحة، ما كان بينهم جائع، ولا عريان، ولا مغبون، ولا مهضوم، ولأقفرت الجفون من المدامع، ولاطمأنت الجنوب في المضاجع، ولمحت الرحمة الشقاء، كما يمحو نور الصبح الظلام .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

الوفاء بالعهد ضمان لسلامة المجتمع ببقاء الثقة :

لماذا أمرنا الله عز وجل أن نفي بعهد الله إذا عاهدنا؟

لأن المجتمع الإنساني لا يستقيم، بل لا يقوم إلا على الثقة، إذا حذفت الثقة من مجتمعنا انهار المجتمع، لن يقوم عمل، لن تقوم تجارة، لن تقوم زراعة، لن تقوم صناعة، لن تقوم علاقة، إلا على الثقة بين البشر، فإذا محيت هذه الثقة، إذا نزعت هذه الثقة فقد انهار المجتمع .

يروى أن رجلاً كان يقطع رمال الصحراء المحرقة على فرس له، رأى في الطريق رجلاً بائساً فقيراً يمشي حافي القدمين، ويكاد الرمل لشدة حره يحرق رجليه، فحنَّ له، وعطف عليه، ودعاه إلى ركوب الفرس، ما إن ركب الفرس هذا الذي دعي لركوبها حتى ألقى صاحبها أرضاً، وعدا بها لا يلوي على شيء، فقال له صاحب الفرس: يا هذا، لقد وهبت لك الفرس، ولن أسأل عنها بعد اليوم، ولكن إياك أن يشيع الخبر في الصحراء، فتذهب منها المروءة، وبذهابها يذهب أجمل ما فيها .

في الزواج لو فقدت الثقة أصبح البيت جحيماً، لو أن الزوجة تفقد ثقتها بزوجها، أو أن الزوج يفقد ثقته بزوجته، لأصبح الزواج جحيماً لا يطاق، لا يقوم الزواج إلا على الثقة، يذهب إلى عمله، وهو واثقٌ أن زوجته عفيفة، حَصَان، شريفة، كريمة، تحفظه في نفسها وماله .

لولا الثقة لم تقمْ علاقة بين شريكين، ما الذي يمنع أحد الشريكين أن ينافس شريكه في العمل نفسه، وأن يربح من وراء ظهره ؟ الثقة والعهد الذي قطعاه على أنفسهما في الزواج، في الجوار، في التجارة، في أي عمل، حينما يأتي المريض إلى الطبيب، بماذا يأتي ؟ يأتي بثقة يمنحها إياه، يصف له الدواء الصحيح، ولا يكلفه ما لا يطيق .

إذا أتى الإنسان إلى محامٍ ؛ ما الشيء الثمين بينهما ؟ الثقة، أنه لا يعمل عملاً من وراء ظهره، لا يخونه في قضيته، لا يأخذ من خصمه، وينكل معه .

فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

هذه آية واسعة، عهد الله في الأجل، إلى عهده في الدنيا، إذا عاهدته على الطاعة في الدنيا، إلى أنك إذا عاهدت رسوله على الاستقامة على أمره، وعلى العمل بموجب كتاب الله، وسنة رسوله، إلى العقد الذي توقعه، إلى الوعد الذي تقطعه، إلى أية علاقة تقوم بين اثنين هي في أساسها علاقة مبنية على عهد الله .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

ما هي الأيمان ؟

الأيمان جمع يمين، فالذي يحلف بالله أن يفعل كذا ولا يفعل فقد حنث، والذي يحلف بالله ألا يفعل وقد فعل، فقد حنث، لذلك قسم العلماء اليمين إلى أقسام ثلاثة ؛ هناك يمين لغوٌ، كقولك : إي والله، لا والله، وأنت لا تنوي حلف اليمين، إنما سبق لسان، أو عادة كلامية سيئة تجري على ألسنة الناس في كل حالاتهم، وفي بيعهم وشرائهم ووعودهم ؛ هذه اليمين يمين لاغية، قال الله عز وجل :

(لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الْأَيْمَانَ)

(سورة المائدة : 89)

إذا قلت: واللهِ، وأنت تنوي حلف اليمين، وأنت تقصد حلف اليمين فهذه اليمين منعقدة، إذا حنثت بها فعليها كفارة، وكفارة اليمين عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين، أو صوم ثلاثة أيام، العتق والإطعام على الخيار، ولكن الإطعام والصوم على الترتيب .

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ)

فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

عهد الله نوع من اليمين :

ومن العلماء من استنبط أن العهد بحد ذاته يمين، لأن الله عز وجل يقول :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

يعني: ولا تنقضوا عهد الله، فعهد الله نوع من أنواع اليمين ؛ لكن الفرق بين العهد وبين اليمين أن اليمين لها كفارة، ولكن العهد إذا نقض لا كفارة له، بل إنه يخرج صاحبه من الإسلام، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا قَالَ :

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

لا إيمان لمن لا عهد له :

سبحان الله! ما لهؤلاء الناس فصلوا بين الإيمان وبين الخُلُق، مع أن الإيمان والخُلُق شيئان متلازمان، قال عليه الصلاة والسلام :

((الحياء والإيمان قُرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفعا جميعاً))

[الحاكم في المستدرك عن ابن عمر]

((لا إيمَانَ لِمَنْ لا أمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[أحمد]

هناك أحاديث كثيرة؛ ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله، فالبخيل ليس من أمة سيدنا محمد ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ))

[أبو داود، أحمد]

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ))

[أبو داود]

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ انْتَهَبَ نُهْبَةً فَلَيْسَ مِنَّا))

[الترمذي وابن ماجه]

أو أشار بالنهب أو السلب .

هناك أحاديث كثيرة مطلعها ليس منا، معنى ذلك أن هناك تلازمًا ضروريًّا، أو ترابطًا وجوديًّا بين التدين الصحيح والخلق القويم . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ :هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد]

الفرض فقط، الخمسة فروض، من دون صلاة الضحى وقيام ليل، والزكاة فقط، ورمضان فقط :

((وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

أحسن المسلمين إسلاماً أحسنهم خلقاً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

[الترمذي وأحمد]

فكيف فصل الناس بين الإيمان الصحيح وبين الخلق القويم ؟ أمر إلهي :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

عاهدت الله، أوفِ بعهدك، عاهدت رسول الله أوفِ بعهدك، عاهدت من ينوب عن رسول الله بإلقاء العلم، عاهدته على الطاعة لله ورسوله أوفِ بعهدك، وقعت عقد بيع أوفِ بعهدك، الأسعار ارتفعت، أنت قبضت ثمن البيت كاملاً ! في الوقت الذي كان السعر نفسه !! البيع تم من أربع سنوات، وقبضت المبلغ بأكمله، وبقي الإفراغ ! تقول : لا أفرغ لك إلا بمئة ألف ؟ أنت حر، أين العهد ؟ صار هدف الناس الكسب غير المشروع .

العرب في الجاهلية كانوا يقولون: المنية ولا الدنية، قد يأتي زمان يختار الإنسانُ الدنية لا المنية، فهو مستعد أن ينقض عهده في هذا البيع، ويجعل سمعته في الوحل من أجل أن يكسب مئة ألف ليرة زيادة .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

في البيع، في الشراء، في كل شيء تَعِدُ به، أو تصدر وعداً للناس .

(وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

معنى توكيد الأيمان :

قال بعض العلماء : توكيد الأيمان أن تعيدها مرتين، تقول : وَاللَّهِ، وَاللَّهِ، هذا هو التوكيد، أو أن تعقد العزم على أن تفعل هكذا كما قلت، فإذا لم تفعل فقد نقضت هذا اليمين، إذا صممت على ألاّ تفعل، وفعلت فقد نقضت اليمين .

(وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)

وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا

معنى كفيلا :

عامة الناس في البيع والشراء يقولون: الله وكيلك، لو عرف الناس معنى هذه الكلمة لارتعدت فرائصهم، الله وكيلك، خالق الكون الذي يعلم السر وأخفى! تجعله وكيلاً لهذا الشخص؟! ثم تغشه؟! ثم تكذب عليه؟! اليمين الكاذبة منفقة للسلعة، ممحقة للبركة، ومعنى قوله :(كفيلا)؛ أيْ حافظاً، وضامناً، وشهيداً .

(وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)

أجدادنا السلف الصالح كانوا بخير، لأن الكلمة كانت صادقة؛ إذا وعد وفى، وإذا أؤتمن لم يخن، إن أفضل الكسب كسب التجار؛ الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته .

المؤمن إذا قرأ هذه الآية، واستشعر أن الله سبحانه وتعالى ـ الذي خلقه ـ يأمره أمراً قطعياً بأن يفي بعهد الله، وعهد الله ؛ أي عهد تقطعه على نفسك، أيّ اتفاق بين مسلمين، أيّ وعد جرى بين مسلمين، فضلاً عن عهدك لرسول الله أن تطيعه، فضلاً عن عهدك لله أن تستقيم على أمره، فضلاً عن العهد الذي قطع عليك في عالم الأزل، حينما قال الله عز وجل :

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)

(سورة الأعراف : 172)

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)

كسب المال بنقض العهود حرام وسحتٌ :

لكنه ـ وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ ـ إذا بدا لك أنك نقضت العهد، كسبت مئة ألف ليرة ـ وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ ـ إنك إذا كسبتها كسباً غير مشروع، لسوف تدفع أضعافها في طريق غير مشروع؛ لأن هذا الكسب حرام، آلاف العقود التي نقضت ؛ عقود البيع لا لشيء، إلا لأن الأسعار قد ارتفعت، والمشتري لن يتمكن من هذا البيت، أو من هذه الدكان، أو من هذه الأرض، أين العهد ؟ إلا إذا كان هناك لم يدفع الثمن، تم العقد، ولم يدفع الثمن، وارتفع السعر، فهذا موضوع خلاف، لم أقصد هذا الموضوع، أما إذا دفع الثمن بكامله عداً ونقداً، بالتمام والكمال، وبعد سنوات جاء وقت الإفراغ، ثم تقول له : أنا لا أفرغ لك إلا بمبلغ من المال، ما السبب ؟ أين العهد ؟ وأنت وقعت .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)

كان السلف الصالح الواحد منهم بألف، و صار الناس في زمنٍ، الألف منهم بأف .

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

تهديد ووعيد :

يعلم خبايا أعمالكم، خبايا نواياكم، أحياناً يأتي النقض بشكل آخر، أنه وَاللَّهِ هذا البيت ليس لي ؛

وصاحبه لم يوافق على السعر، أنا معي وكالة فيه، يعطيك كلاماً فيه نقض للعهد ؛ لذلك :

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

هذا الذي تقوله حينما تزمع نقض العهد؛ هذا الذي تقوله إن كان مطابقاً للحقيقة أو غير مطابق، الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم ذلك .

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ

ناقض العهد كناقضة الغزل :

امرأة حمقاء تغزل الخيوط، وبعد أن تنتهي من غزلها، تنقضها لتعود كما كانت! ما الذي حدث؟ جهد ضائع! جهد كبير ذهب أدراج الرياح! عمل عظيم صار هباءً منثوراً ! فهذه :

(كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ)

أحياناً الإنسان يعاهد، يبرم اتفاقاً، أو يعقد عقداً، أو يعاهد عهداً، يلوح له بعد حين، زيادة أو ربحاً فينتهز الفرصة .

مثلاً: باع البيت، بعد أيام وقَع عقداً، وقبض دفعة أولى، وانتهى كل شيء، جاءه رجل، وقال له: أنا أشتريه منك بمئة ألف زيادة، ما الذي جعله ينقض العهد؟ هذا الإغراء، فربنا عز وجل يقول :

(تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ)

معنى : دَخَلًا بَيْنَكُمْ

معنى دخلاً؛ دغلاً، والدغل هو الغش والخديعة، يعني حلفت، وعقَّدت اليمين، وعزمت على تنفيذ ما قلت، لاح لك مكسب مادي، فنقضت العهد !!

طبعاً من أسباب نزول هذه الآية أن بعض القبائل عاهدوا رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رأوا قريشاً أكثر عدداً، وأكثر عدةً وأقوى جمعاً، ندموا على عهدهم، فنقضوا عهدهم مع رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتفاوضوا مع قريش، وانضموا إليها، فليس المقصود ـ وإن كان لهذه الآية أسباب نزول ـ ليس المقصود خصوص السبب؛ بل المقصود عموم اللفظ، فأي مغنم يلوح لك، وكنت قد أبرمت عهداً ووثقته، لا ينبغي أن تنقضه لمكسب مادي لاح لك سريعاً

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ)

اليمين على نية المستحلف لا على نية الحالف :

لذلك قالوا: اليمين على نية المستحلِف؛ لا على نية الحالف، إنسان استحلفك يميناً ؛ هذه اليمين على نية المستحلِف؛ لو أنها على نية الحالف بطل مفعول اليمين، تحلف بالله العظيم، وتنوي شيئاً مغايراً لهذا الذي استحلفت من أجله، لذلك قالوا: اليمين على نية المستحلف، لا على نية الحالف .

(تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ)

إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ

طبعاً الله عز وجل قال :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

(سورة العنكبوت : 2-3)

الابتلاء يكشف حقيقة الإنسان :

الله عز وجل لحكمة بالغة يضعك في ظرف صعب؛ تبرم عقداً، بعد العقد يأتي إنسان يقول لك: أنا أشتري منك هذا الشيء بأغلى من ذلك، هذا امتحان من الله عز وجل، امتحان من الله بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ابتلاء، فلذلك يقول المؤمن: لا، أنا بعت، وانتهى الأمر، وَاللَّهِ سبحانه وتعالى يعوضني خيراً من هذا، ومن ظن بالله هذا الظن الحسن فالله سبحانه وتعالى لا يخيب ظنه .

أعرف أسرة خطبت ابنتهم لشاب دَيِّن، مستقيم، له دخل جيد، يقيم في قطر عربي، جاءهم بعد أن تم العقد، وسافر الخطيب إلى بلده، ليمهد لاستقدام خطيبته، جاءهم خطيب أغنى، فنقضوا عهدهم معه، وانقطعوا عن مراسلته، وأعلموه أنه لابد من الفراق والمخالعة! وكان من نتيجة ذلك أن الثاني طلقها، ثم خطبت لثالث، والثالث طلقها، والآن مطلقة من رجلين، ومخلوعة من رجل هو الأول، هذه خيانة، صار هناك عقد، ورضيت بهذا الخطيب زوجاً لابنتك، وهو جيد ودين، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[الترمذي، ابن ماجه]

جاء خطيب غني، طمع الأهل في غناه، فنقضوا عهدهم مع الأول، فكان من جراء ذلك أن الله سبحانه وتعالى عاقبهم بأن الثاني طلق ابنتهم، زُوّجت من ثالث طلقها الثالث، وهي الآن مطلقة؛ هذا هو عقاب نقض العهد، وإذا تصورت أنك بنقض العهد سوف تحصل مالاً كبيراً، هذا هو عين الخطأ، المال يذهب، ويبقى نقض العهد، فإذا توكلت على الله، وأبرمت العقد، فالذي فاتك من حفاظك على العهد سيأتيك أضعافاً مضاعفة من طريق آخر .

فالإنسان في كل علاقاته، في علاقاته الشخصية، وعلاقاته التجارية، وعلاقاته مع الناس، إذا عاهد عهداً يجب أن يوفيه؛ وهذا من خلق المؤمن، ولا ينقض العهد إلا منافق، نقض العهد خصلة من خصال المنافق :

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ)

امتحان، هذا الامتحان؛ إما أن تنجح، وإما أن ترسب، فإذا رسبت فهذه هي الطامة الكبرى، لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه، أهون من أن يسقط من عين الله ! الذي ينقض عهده مع ربه يسقط من عين الله! لا شأن له عند الله .

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

(سورة الكهف : 105)

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : من آية " 124)

(إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

اعلموا أن هناك يوما للحساب فلماذا تعصي الله من أجل دنيا زائلة ؟

الحقيقة أن الناس خلقوا في الدنيا ليحاسبوا عن أعمالهم كلها ؛ صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، ما قولك أن يقف الإنسان يوم القيامة بين يدي الله عز وجل ليحاسبه عن أعماله كلها؟ لماذا نقضت العهد معه؟ ألم تعلم أني أنا الرزاق ذو القوة المتين؟ ربنا عز وجل أوقف رجلين من أهل الغنى، فقال لأحدهما: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ فقال: يا رب، لم أنفق منه شيئاً على أحد مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فقال الله عز وجل ألم تعلم بأنني:

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

(سورة الذاريات : 58)

إن الذي خشيته على أولادك من بعدك، قد أنزلته بهم .

وسأل عبداً آخر، قال: يا عبدي، أعطيتك مالاً فماذا صنع فيه؟ قال: يا رب، أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي أنك خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فقال: يا عبدي، أنا الحافظ لأولادك من بعدك .

تعاهد الله عز وجل ! تعاهد خالق الكون! رافع السماء بلا عمد، تعاهد الديان، تعاهد الحي الذي لا يموت، تعاهد الذي مصيرنا إليه جميعاً .

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية : 25 - 26)

كلمة واحدة ليس لها جواب: لماذا نقضت عهدك يا عبدي مع فلان؟ ما الذي فعله حتى نقضت عهدك معه؟ ينسحب على هذا؛ أن الذي يتزوج يجب أن تكون نية الزواج على التأبيد؛ فلو أن الزوج أضمر في نفسه أنه بعد كذا من السنين يطلقها، فهو زانٍ في كل مدة قضاها معها، هذا عهد أيضاً! هذه الفتاة التي خطبتها من بيت أهلها كانت في دعة، وراحة، وطمأنينة، غررت بها كي تجعلها بعد أيام مطلقة، أو بعد أشهر، أو بعد سنوات .

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

هذه الآية دليل على أن الإنسان مختار غير مجبَر :

مثل هذه الآيات في القرآن الكريم تعني أن الإنسان مخير، لولا أنه مخير، لكان الناس أمة واحدة، متشابهين، كمعمل يصنع بضاعة، يصنع مئة ألف قطعة، مئتي ألف قطعة، متشابهة، كلها على شكل واحد، ومن نمط واحد، لكن الإنسان مخير، لولا اختياره لكان الإنسان أمة واحدة، لكن الإنسان ما الذي يرفعه عند الله عز وجل؟ أنه مكلف .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب : 72)

الإنسان مكلف أن يعرف الله عز وجل، وأن يستقيم على أمره، في الإسلام عقيدة، وفي الإسلام شريعة؛ العقيدة يجب أن تؤمن بها بعد بحث ودرس، لأنه كما قال علماء الأصول: لا يُقبَلُ التقليد في العقيدة، وهناك شريعة ؛ يعني تنظيمات دقيقة جداً؛ في حياتك الشخصية، وفي زواجك، مع جيرانك، في

بيعك، في شرائك، في تجارتك، في صناعتك، في زراعتك، في الزكاة، مع الفقراء، علاقات دقيقة الإسلام عقيدة وشريعة .

الإسلام إيمان وعمل صالح، وربنا عز وجل قرن بين الإيمان والعمل الصالح في أكثر آيات القرآن الكريم :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

لولا أنكم مخيرون لكنتم أمة واحدة، لولا أنكم تتفاوتون في اختياركم لكنتم أمة واحدة، ولو أنكم أمة واحدة لما استحققتم هذا العطاء الكبير، طالما أنه لا اختيار معنى ذلك أنه لا رقي .

الاختيار يرفع الناس في الجنة ويسعِدهم :

ما الذي يرفع الناس في الجنة؟ أنهم جاؤوه مختارين، لو أن الله عز وجل أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أنه أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، و لو أنه تركهم هملاً لكان هذا عجزاً منه، لم يتركهم هملاً، و لم يجبرهم على طاعته، ولا على معصيته، بل جعلهم مكلفين، ومعنى مكلفين أيْ مخيَّرين .

أنت في المناقشة إذا قلت لصانع عندك في المحل: تعال باكراً، بربك قل لي: أليس معنى قولك لهذا الصانع : تعال باكراً ؛ أنه يستطيع أن يأتي متأخراً؟ لماذا قلت له: تعال باكراً؟ لأنه مخير، لأنه بإمكانه أن يأتي باكراً، أو أن يأتي متأخراً، فهذا الأمر منك يقتضي أنه مخير، لأنك أمرته فهو مخير، وإذا قلت لصانعك: لا تفعل كذا، لا تعمل كذا، أليس بإمكانه أن يعمل كذا؟ بمجرد أنك نهيته عن هذا العمل؛ هذا النهي عن العمل يقتضي أنه يستطيع أن يفعل ضده، فالإنسان مخير، ما دام أنه أمر ونهي موجودين، إذاً: هناك تخيير . ذلك :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

غير مخيرين، وإذا كنتم غير مخيرين فأنتم لا تسعدون في الجنة بهذا المستوى الرفيع الذي أعده الله لكم .

(وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

الضلال الاختياري والضلال الجزائي :

هذه الآية لها معانٍ عدة، أبسط معانيها، هناك ضلال ابتدائي من اختيار الإنسان، وهناك ضلال جزائي، يعني لو أصر الابن أن لا يدرس، بعد محاولات يائسة من الأب، أصر على عدم الدراسة،

عندئذٍ يخرجه الأب من المدرسة، ويدفعه إلى عمل معين، هل نقول: إنّ الأب جنى عليه فأخرجه ؟ لا، إخراج الأب لابنه من المدرسة جزاء إصراره على عدم الدراسة، فهذا الضلال الذي في هذه الآية، ضلال جزائي سبقه ضلال ابتدائي اختياري، اختار العبد الضلال، فأضله الله عز وجل .

(وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

من شاء الضلال أضله الله ، ومن شاء الهدى هداه الله :

وقد تُحمَلُ على أن الذي يشاء الضلال، هناك طريق للضلال، ومن يشاء الهدى، هناك طريق للهدى .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : 3)

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الأعمال لها حساب :

هذه الأعمال سوف نحاسب عليها حساباً دقيقاً .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر : 92 - 93)

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء : 47)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة : 7 - 8)

((يا رسول الله، عظني وأوجز، فقال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

قال: قد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فقه الرجل))

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ بَعْدَكَ قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[مسلم]

(وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : من الآية " 93)

أنت مخير :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

أنتم لستم كذلك، لأنكم مخيرون اختلفتم؛ هذا آمن، وهذا كفر، وهذا أحسن وهذا أساء، وهذا شكر، وهذا لم يشكر، هذا كان أميناً، وهذا كان خائناً، وهذا كان صادقاً، وهذا كان كاذباً، لأنكم مخيرون اختلفتم ؛ لو أنكم غير مخيرين لما اختلفتم .

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الاختيار يقتضي المسؤولية :

الاختيار يقتضي المسؤولية والتبعة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يَعصَ مغلوباً، ولم يُطعْ مكرهاً .

جيء برجل شارب خمر إلى سيدنا عمر فقال: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليَّ ذلك، فقال : أقيموا عليه الحد مرتين! مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله !

لذلك يقول الله عز وجل :

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة : 36)

هو مخير، ومكلف، وسوف يحاسب .

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(37)ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(38)فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(39)أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

(سورة القيامة : 37 - 40)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون : 115)

هذه الآية تعني أن الإنسان مخير، وسوف يحاسب على اختياره، لِمَ فعلت كذا ؟ ولِمَ لمْ تفعل ؟

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ

إيّاكم واليمينَ الغموس :

الإنسان يحلف يميناً كاذبة، العلماء قالوا: هناك اليمين الغموس؛ واليمين الغموس هي اليمين التي تحلف بها لتقتطع حق امرئ مسلم، أحياناً قد تدعي في القضاء على إنسان أن لك عنده مئة ألف ليرة، ولا تملك إيصالاً، أو سنداً، أو وثيقة، فحينما يدعى هذا المدين إلى القضاء، وليس عليه دليل مادي، يدعوه القاضي لحلف اليمين؛ هذه اليمين تسمى اليمن الحاسمة، فإذا حلفها انتهى كل شيء، لا شيء عليه، فإن لم يحلفها يعد عدم حلفه لها دليلاً على ثبوت هذا المبلغ، فلذلك قيل للكذاب: أتحلف اليمين، قال: جاء الفرج، نعم أحلف اليمين !!

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)

اليمين الغموس سببٌ في زوال القدم بعد ثبوتها :

زلة القدم ؛ أن تقع في المعصية، لذلك اليمين الغموس لا كفارة لها، لماذا ؟ لأنها تغمس صاحبها في النار، قولاً واحداً، لكن هناك ملاحظات، هناك من يحلف يميناً غموساً، وتمضي الشهور والسنوات، ولا يحدث له شيء! وهناك من يحلف يميناً غموساً، ولا يغادر قاعة المحكمة إلا وقد أصيب، كلتا الحالتين مذكورتان في القرآن الكريم .

سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا- سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

ثم ؛ تفيد الترتيب على التراخي .

والآية الثانية :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل : 69)

الفاء للترتيب على التعقيب، فقد تكون الحكمة أن يؤخر له في العقاب، وقد تكون الحكمة أن يعجل له في العقاب .

على كلٍ؛ اليمين الغموس، تلك اليمين التي يحلفها المرء ليقتطع بها حق امرئٍ مسلم لا كفارة لها، لأنها تغمسه في النار .

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)

الطاعة تثبيت والمعصية زلزال وزوال للإنسان :

الإنسان باستقامته يثبت في الإيمان، فإذا عصى الله عز وجل زلت قدمه، وطرد من دولة الإيمان سيدنا عمر ـ رَضِيَ اللَّه عَنْه ـ كان إذا أصابته مصيبة كان يقول : الحمد لله إذ لم تكن في ديني، كله سهل، ذهاب المال سهل، احتراق البيت، احتراق المحل، مصادرة المال، كل شيء لا علاقة له بالدين، فمصيبة هينة، فكان عمر رَضِيَ اللَّه عَنْه إذا أصابته مصيبة يقول : << الحمد لله إذ لم تكن في ديني>> .

(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)

والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها .

(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

ما علاقة الصد عن سبيل الله بحلف اليمين الكاذبة ؟

يا الله؛ هذه الآية دقيقة جداً، ما علاقة الصد عن سبيل الله بحلف اليمين الكاذبة ؟ لا أرى علاقة .

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)

واضحة :

(وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

ليس له علاقة بالموضوع هذا! هو حلف يمين كاذبة، كيف بهذه اليمين صد عن سبيل الله ؟ هذا الإنسان الآخر الذي يراك دَيّناً، والذي يظن بك أنك مؤمن، وحلفت أمامه يميناً كاذبة، كفر بالدين من أجلك، صددته أنت عن سبيل الله، صغَّرت الدين في عينيه، جعلت الدين تجارة تتاجر بها، أنت إذا حلفت يميناً كاذبة، ويعرف الناس عنك أنك دَيِّن، فقد جعلتهم يكفرون بهذا الدين، فقد جعلتهم يقولون : هؤلاء الذين يَدَّعون أنهم دينون هم كاذبون، لا تثقوا بهم، لا تصدقوهم .

لو أنك ألقيت ـ وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ وأنا واثق من هذا الكلام ـ ألف محاضرة في الصد عن سبيل الله، ما بلغت في الناس كما لو أسأت معاملتهم، لذلك قال الإمام الأوزاعي: " كان يقال : أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتين من قِبَلك " .

إياك أن تسبب للإسلام اتهاماً من قِبَلك؛ من نقضك العهد، من بعض الكذب، من بعض الإساءة، الآية دقيقة جداً :

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

إذا حلفت يميناً كاذبة صددت الناس عن سبيل الله، جعلتهم يرون الدين خرافة، أهذا هو الدين؟ أهكذا يأمرك الدين؟ أن تحلف يميناً كاذبة؟ لذلك هذا الذي يسيء معاملة الناس ويصلي أمامهم! هو الذي يبعدهم عن الصلاة! هو الذي يقول لهم: الصلاة كذب، أنا أصلي وها أنا أسيء لكم، هذا الذي يغش الناس في بيعه وشرائه، هذا الذي ينقض عهده مع الناس، هذا الذي يحتال عليهم، هذا الذي يغشهم، ويصلي أمامهم؛ إنه يصدهم عن الصلاة، يجعل الصلاة في نظرهم صغيرة، شيئاً لا قيمة له، يصلي ويفعل كذا؟! لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[القضاعي في مسند الشهاب عن ابن مسعود]

إذا استقمت على أمر الله تكن داعية إلى الله من دون أن تشعر، ولو لم تنطق بكلمة، لو بقيت ساكتاً، وأحسنت للناس .

الآن في إندونيسيا تقريباً حوالي مئة وخمسون مليون مسلم، نحن كأمة عربية مئة مليون، إندونيسيا فقط مئة وخمسون مليون مسلم، كلهم أسلموا عن طريق التجار، لم يسلموا عن طريق الدعاة، ولا عن طريق الفتوحات؛ بل أسلموا عن طريق التجار!

هذا التاجر الصدوق الذي لا يكذب، لا يغش، لا يحتال، لا يرفع السعر من أجل أن يرهق الناس، لا يحتكر البضاعة، لا يفرح أن يعيش هو وحده، ويشقى الناس، التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين يوم القيامة، الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا .

بلاد في شرق أسيا أسلمت جميعاً من خلال المعاملة الطيبة، أنت بالذات أين تسكن؟ بأي حي؟ إذا كنت جاراً مستقيماً تغض بصرك، وتحسن إلى جيرانك، لا بد من أن يقول لك بعض الجيران : خذنا معك إلى المسجد، أنت إنسان عظيم، أنت إنسان مستقيم، فإذا أسأت إليهم، وذهبت أمامهم إلى المسجد، ربما كرهوا المساجد، وكرهوا الصلاة من أجلك، أليس كذلك؟ هذه الآية :

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

ممن نخشى على الإسلام؟ هل نخشى عليه من أعدائه؟ لا والله، نخشى عليه من أتباعه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (20-21): تفسير الآيات 97 – 112 ، عن العمل الصالح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-06-12

بسم الله الرحمن الرحيم

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العشرين من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

ما هو العمل الصالح ؟

العمل الصالح؛ هو العمل بما جاء به القرآن الكريم، والسنة المطهرة، هو العمل بشرع الله سبحانه وتعالى، هو الانصياع لأمر الله سبحانه وتعالى، لذلك ربنا سبحانه وتعالى ذكر العمل الصالح مع الإيمان في أكثر آيات القرآن، مبيناً أن العمل الصالح من دون إيمان لا يكون، وأن الإيمان من دون عمل جنون، وأن العمل الصالح والإيمان متكاملان .

فلذلك قال الله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

العمل الصالح يشترك فيه الذكر والأنثى :

كلمة (مَنْ)تعني الذكر والأنثى، لو أن الله سبحانه وتعالى قال : من عمل صالحاً وهو مؤمن، معنى ذلك : من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى، لماذا ذكر الله الذكر والأنثى؟ ليؤكد لنا أن المرأة والرجل متساويان في أشياء كثيرة، متساويان في التكليف، متساويان في التشريف، أما في الطبيعة فللمرأة طبيعة، وللرجل طبيعة، هنا يختلفان، لا ينبغي أن يوضع الرجل مكان المرأة، ولا أن توضع المرأة مكان الرجل .

امرأة جاءت النبي عليه الصلاة والسلام تشكو إلى الله، وتستفتي النبي عليه أتم الصلاة والتسليم، فعَنْ عَائِشَةُ قَالَتْ :

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ :]قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ [ ))

[ابن ماجه]

أريد من هذه القصة أربع كلمات؛ لها منه أولاد، إن تركَتْهم إليه ضاعوا، وإن ضمَّتهُم إليها جاعوا، معنى ذلك أن الرجل مكلف بكسب الرزق، والمرأة مكلفة بتربية الأولاد، مكانه الطبيعي خارج المنزل، لكسب الرزق، ومكانها الطبيعي تربية الأولاد، لو أن الأولاد تركوا إليه لضاعوا، لأنه مشغول بكسب الرزق عن تربيتهم، ولو أن الأولاد ضُموا إليها لجاعوا، لأنها مشغولة بتربية الأولاد عن كسب الرزق.

إذاً هناك مساواة في البدايات، وهناك مساواة في النهايات، هناك مساواة في التكليف، وهناك مساواة في التشريف، لكن المرأة امرأة، والرجل رجل، ولعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال، وللرجل مجال حيوي، وحقل للعمل لا تستطيع المرأة أن تنافسه فيه، وللمرأة مجال حيوي وحقل للعمل لا يستطيع الرجل أن ينافسها فيه، فإذا نافست المرأة الرجل خسرت مرتين ؛ خسرت السباق، وخسرت أنوثتها .

فربنا سبحانه وتعالى قال :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

كان يكفي أن يقول: من عمل صالحاً فلنحيينه حياة طيبة، ولكنه قال :

(مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

الذكر والأنثى مكلّفان على السواء :

أي : إن الذكر مكلف بمعرفة الله معرفة يقينية، وبطاعته طاعة تامة مخلصة، وإن المرأة مكلفة بمعرفة الله معرفة يقينية، وبطاعتها لربها طاعة تامة مخلصة، متساويان في التكليف، ومتساويان في التشريف، من حيث الكرامة الإنسانية ؛ المرأة كالرجل، إنسان يتمتع بكامل حقوقه، لكن لها وظيفة، ولزوجها وظيفة، والقيادة للزوج .

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة البقرة : 228)

لهن حقوق كما عليهن واجبات .

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

درجة واحدة، فهذا معنى قوله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

أما :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

حينما تكون الفطرة سليمة كل واحد منا يعرف العمل الصالح من الطالح ؛ بفطرته، بحسه، بإحساسه، بحدسه، بضميره، يعرف أن هذا العمل صالح، وأن هذا العمل طالح، هذا معروف، وهذا منكر، هذا عمل جميل، وهذا عمل قبيح، هذا عمل حق، وهذا عمل باطل، هذا عمل خيّر، وهذا عمل شرير، بالفطرة ؛ لكن إذا انطمست الفطرة تأتي الشريعة .

العمل الصالح له مصادر :

هذا العمل له ميزان دقيق هو الشريعة، هناك آيات القرآن الكريم، ما كان منها محكماً، وما كان منها متشابهاً، وهناك السنة المطهرة، وهناك إجماع الأمة وهناك القياس ؛ هذه مصادر التشريع في الإسلام .

إن هذه المصادر يتفرع منها أحكام تفصيلية لا حدود لها، تغطي كل نشاطات الإنسان ؛ في بيته، وفي عمله، في حله وترحاله، في سلمه، وفي حربه، وفي كل نشاطاته، لذلك ؛ إذا انطمست الفطرة فهناك الشريعة، استفت هذا العمل أيوافق عليه الشرع أم لا يوافق ؟ ما حكم هذا العمل ؟ ما من تصرف يقوم به إنسان على وجه الأرض إلا ويجب أن يكون منطوياً تحت خمسة أحكام ؛ إما أن يكون واجباً، وإما إن يكون مندوباً، وإما إن يكون مباحاً، وإما إن يكون مكروهاً، وإما إن يكون محرماً .

الأصل في الأشياء الإباحة، هناك واجب يعاقب تاركه، وهناك حرام يعاقب فاعله، وهناك مندوب يثاب فاعله، وهناك مكروه يؤاخذ فاعله، وهناك مباح يستوي فيه الفعل والترك، ما من حركة، ولا سكنة، ولا كلمة، ولا تصرف، ولا عمل صغير أو كبير، سري أو علني، إلا وينطوي تحت هذه الأحكام الخمسة، فالعمل الصالح هو ما جاء به القرآن الكريم .

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)

(سورة البقرة : 83)

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران : 32)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا)

(سورة النساء : 36)

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ)

(سورة النساء : 148)

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

(سورة النحل : 128)

آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي العظيم مقياس دقيق للعمل الصالح .

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِوَابِصَةَ :

((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ، قَالَ : فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ، وَقَالَ : اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ، ثَلاثًا، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

[أخرجه الدارمي]

عندك مُفتٍ ينطق بالحق،

((وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ))

وكرهت أن يطلع عليه الناس، و :

((الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ))

تستطيع أن تخدع الناس كلهم بعض الوقت ! وتستطيع أن تخدع بعض الناس طول الوقت ! ولكنك لن تستطيع أن تخدع نفسك ولا ربك، ولا ثانية من الوقت، ولا ثانية واحدة .

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة : 14- 15)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

قد يقول لك قائلٌ: أخي أنا عملي طيب، القضية ليست بالصوم والصلاة! ولا بالإيمان! ولا بحضور مجالس العلم؛ القضية بالصدق، وبالوعد، والعهد، أنا خيّر، وهذا الذي يصلي يكذب، أنا لا أصلي، لئلا أكون مثله، هذه مقولة الشيطان .

العمل الصالح لا يقبل منك إلا إذا كنت مؤمناً بالله، لأنك إذا كنت غير مؤمن ؛ فهذا العمل نوع من التصرف الذكي، نوع من التكيف مع البيئة، نوع من تحقيق الأهداف الدنيوية بأيسر السبل، يجب أن يكون العمل الصالح مبنياً على أساس من الإيمان، ومعرفة الله عز وجل، ومعرفة التكليف، ومعرفة العبادة، لذلك :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

القرآن على إطلاقه .

الحياة الطيبة عامة :

ما الحياة الطيبة؟ أهي في وفرة المال؟ أم في تمام الصحة؟ أم في وجود الزوجة المطواعة؟ أم في وجود الأولاد الأبرار؟ أم في وجود المنزل الواسع؟ أم في وجود المركب الهين؟ وفي بعض الأحاديث عَنْ نَافِعِ بْنِ عَبْدِ الْحَارِثِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ))

[أحمد في المسند]

يا ترى أهذه هي الحياة الطيبة؟ ألا ترون مؤمناً معسراً في المال؟ ألا ترون مؤمناً سقيماً في الصحة؟ يعني لو أننا حصرنا الحياة الطيبة، بالبحبوحة، والصحة، ورفعة الشأن، والزوجة الصالحة، والأولاد الأبرار، لأخرجنا من الإيمان من كان يعاني بعض المشكلات، من كان ضَيِّق ذات اليد، من كان في مشكلة، في مصيبة، في ابتلاء، في امتحان .

لذلك، ذهب بعض المفسرين إلى أن الحياة الطيبة هي اللذة التي لا توصف، حينما يحصلها الإنسان من طاعته لله عز وجل، ومن عمله الصالح .

إن السعادة التي يجنيها المؤمن حينما يشعر أنه مستقيم على أمر الله، وأن الله راضٍ عنه، وأن خالق الأكوان ممتن منه، وأن الله عز وجل يجعل له وُدّاً، وأنه يدافع عن الذين آمنوا، إن هذا الشعور بصرف النظر عن طبيعة الحياة، عن كونها قاسية أو رغيدة، حلوة أو مرة، إن شعور الإنسان بأن الله سبحانه وتعالى راضٍ عنه، لعمري تلك هي الحياة الطيبة :

فليتك تحلو والحياة مريــرة وليتك ترضى والأنام غضابُ

و ليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خـرابُ

***

الإمام الشافعي رَضِي اللَّه عَنْه استنبط من قوله تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة المائدة : 18)

استنبط الإمام الشافعي رَضِي اللَّه عَنهْ أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحبابه، قد يمتحنهم، وقد يبتليهم، وقد يضيق عليهم لبعض الوقت، ولكن لا لطول الوقت، فحياتهم تستقر على الإكرام، تستقر على الإحسان، فالحياة الطيبة لك أن تفهمها حياة مادية، وفرة في الدخل، صحة في الجسم، زواج سعيد، أولاد أبرار، رزق في البلد نفسها، ولك أن توسع المعنى، فتفهم الحياة الطيبة ؛ أنها الأنسُ بالله، الإقبالُ

على الله، أن يكون القلب مهبطاً لتجليات الله، أن تشعر أنك أعظم الناس، وأسعد الناس، بأنك عرفت ربك، وعملت بطاعته .

فلذلك؛ الذين يطيعون الله عز وجل، ويعملون الصالحات تقرباً له، تتأتى على قلوبهم سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، ولا ينكرها إلا من حرمها .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

هذه الآية فوق المكان والزمان، يعني في أي مكان أنت؛ الآية مطبقة، أما أن تطبق هذه الآية في مكان دون مكان؛ مستحيل؟! في بلد دون بلد؟ مستحيل! في زمان دون زمان؟ مستحيل! في ظرف دون ظرف؟ مستحيل! في بيئة دون بيئة؟ مستحيل! كلام رب العالمين مطلق، لا يحده شيء، و الآية ليست مقيدة، في أي بلد كنت، وفي أي زمان وجدت، وفي أي بيئة عشت، وفي أي ظرف تعاني، إنك إذا كنت مؤمناً يجب أن تحيى حياةً طيبة، ويجب أن تقول، ويا ليتك تقول: ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني؛ هذا مقياس إيمانك :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

تطيب بها النفس .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[الترمذي وأحمد]

سمعة طيبة، تنتزع ثقة الناس، ثقة الناس لا تقدر بثمن، الناس جميعاً يثقون بك، يحبونك، يصدقونك، لست عندهم بكاذب، يأتمنونك على أموالهم، وعلى أعراضهم، هذه ثروة كبيرة، لا يعرفها إلا من ذاقها .

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لذلك يموت المؤمن بعرق الجبين، وما عرق الجبين؟ حينما يأتيه ملك الموت، ويطلعه على مقامه في الجنة، يخجل، لأن كل عمله مجتمعاً لا يعدل هذا المقام الرفيع في الجنة .

ثم قال عزوجل :

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

كيف يعيش الغني معيشة ضنكا ؟

قبل أن ننتقل لهذه الآية هناك آية أخرى، حينما تُذكر هذه الآية :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

يجب أن نذكر تلك الآية :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى)

(سورة طه : 124 - 126)

بعض المفسرين تساءل: كيف يعيش الغني معيشة ضنكاً؟ والمال بين يديه كالتراب، يستطيع أن يأكل ما يشتهي، وأن يلبس ما يشتهي، وأن يسكن في أي مكان يشاء، وأن يذهب حيث الجمال، وحيث الرفاه، فأيّ عيشة ضنك يعيشها هذا الغني ؟

أجاب المفسرون رَضِي اللَّه عَنْهم بأن المعيشة الضنك هي ضيق القلب، في قلب المعرض عن الله عز وجل ضيق لو وزع على أهل بلد لكفاهم، يضاف إلى هذا الضيق المعاناة المادية، إنك إذا قرأت القرآن قد يأتي الشيطان ليوسوس لك، قد يأتي الشيطان ليحول بينك وبين فهم كتاب الله، وبين العمل به، ليحول بينك وبين تدبره، تأتيك الوساوس وأنت تقرأ القرآن، لذلك :

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

استنبط العلماء أن هذه الآية مطلقة في أحكامها، حتى لو وقفت في الصلاة، أول شيء تقوله بعد دعاء الثناء، ثم الاستعاذة :

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

يقول تعالى بعد هذه الآية :

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

كلام واضح كالشمس، كلام لا يحتاج إلى تفسير، كلام مفَّسر .

(إِنَّهُ)

أي : الشيطان .

(لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا)

ليس للشيطان سلطان على المؤمن :

لذلك هذا الذي يقول: لعن الله الشيطان، ليلعن نفسه! لأن الشيطان ليس عليه سلطان .

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(99)إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ

معنى تولّي الإنسان للشيطان :

هذا الذي يتولى الشيطان، معنى يتولى الشيطان أيْ: يطيعه، يستجيب لوسوسته، لا تصلِّ لئلا يؤخذ عنك فكرة ما، فلا يصلي، أفطِرْ في رمضان لتثبت لهم أنك كذا وكذا، فيفطر، هذا الذي قبل واستجاب لأمر الشيطان الآن أصبح للشيطان عليه سلطان، يسيره حيث يشاء، إذا رأيت إنساناً قد علق على حبل المشنقة، قل: هذا من عمل الشيطان، تولاه، فتسلط عليه ـ تولاه الإنسان بمعنى أطاعه ـ فتسلط عليه فأهلكه في الدنيا، وأشقاه في الآخرة .

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة : 268)

وقال سبحانه :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 175)

(إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ

يعني يشركونه مع الله، يعزون إليه الفعل، يصدقون أنه بيده شيئاً يفعله .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة إبراهيم : 22)

ثم قال عزوجل :

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

الآية دليل على حكم النسخ في القرآن :

المفسرون حملوا هذه الآية على النسخ في القرآن الكريم، في القرآن الكريم آيات نسخت، وبقي لفظها، لحكمة بالغة أرادها الله، مرحلة معينة، تقتضي هذه الآية، هذه الآية استنفذت وظيفتها، فنسخت وحل محلها تشريع آخر، فحينما ذكرت، ذكرت لتنسخ، بمعنى ذكرت لينتهي حكمها، ويأتي حكم آخر، الله سبحانه وتعالى حرم الزواج بالكتابية، في وقت معين، ولحكمة بالغة، ثم سمح الزواج بالكتابية، والقبلة كانت نحو بيت المقدس، ثم حولت إلى الكعبة المشرفة، لحكمة بالغة، لو كان هناك وقت لبحث هذا الموضوع بالتفصيل لبحثناه؛ فما من آية ذكرت ثم نسخت إلا وهناك حكمة من نسخها، وحكمة من بقاء ذكرها .

قد يقول قائل: ما دامت قد نسخت لِمَ لمْ تمحَ؟ هناك حكمة من ذكرها أولاً، وحكمة من نسخها، وحكمة من بقاء لفظها، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة .

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ)

لماذا كان القرآن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام ؟

بعض العلماء قالوا: لماذا كانت آية رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الكتاب؟ ولماذا كانت آية موسى أن تكون عصاه ثعباناً مبيناً؟ وأن يشق البحر له؟ لماذا بدل الله الآيات المتعلقة بخرق قوانين الأرض؟ لماذا جاء محلها آيات متعلقة بالإعجاز البلاغي والتشريعي؟ كأن هناك من يعترض، لِمَ لم يكن مع رسول الله معجزات كمعجزات موسى؟ لِمَ لم يكن مع رسول الله معجزات كمعجزات عيسى عليه السلام؟ هذا المعنى الآخر للآية .

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ)

هذه الآية الرد :

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ)

الله هو المنزِّل ، والنبي ليس مفتريًا :

هو الحكيم، هو الإله القدير، لا نحيط بعلمه، ولا نرقى إلى حكمته .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ)

هذه من عندك، ما جاءت في كلام الله، أنت الذي نسختها، أنت الذي حورتها .

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة يونس : 15)

مستحيل ! شيء لا يمكن أن يقع ! أنا نبي مكلف برسالة، ليس في صلاحيتي أن أبدل آية مكان آية،

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي)

ثم يتابع تعالى الآيات فيقول :

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ

روح القدس هو جبريل :

القدس الشيء الطاهر، أو كأن تقول: الروح المقدسُ، والمقصود بروح القدس سيدنا جبريل عليه والسلام، إنه سيد الملائكة .

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ)

موضع بيان لتوحيد الربوبية :

لم يقل: مِن الله عز وجل ؛ لأن مناط الربوبية تربية الإنسان، وتوضيح الحقائق له، وتقديم التشريع له، والأخذ بيده، ومعالجته، هذا كله من صفات الربوبية .

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

حينما يكون هذا الكلام من عند الله عز وجل وفيه حقائق؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يهدي للتي هي أقوم، قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، غنىً لا فقر بعده، ولا غنىً دونه حينما يكون الكتاب كذلك، فيه قواعد ثابتة، فيه قوانين حتمية، فيه طريق إلى الله عز وجل، فيه ذكر الحلال والحرام، والخير والشر، والحق والباطل، فيه منهج الإنسان إلى دار السلام، حينما يكون القرآن كذلك فإنه :

(لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

القرآن تثبيت وهدى ورحمة للمؤمن :

من الأشياء المضحكة أن كفار قريش أرادوا أن يثيروا الشكوك برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، هناك غلام نصراني يتقن اللغات الفارسية، والرومية، كان مقيماً بمكة، يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام لقيه، فقالوا : عرفنا السر، إن هذا الغلام هو الذي يعلم رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذًا هذا القرآن قد أخذه من عند هذا الغلام، شيء مضحك، تهمة لا تقف على قدميها .

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ

النبي أميٌّ لم يعلِّمه أحد من البشر :

أبى القرآن أن يذكر اسم هذا الغلام؛ لأن الغلام ليس مقصوداً، لا يمكن لبشر كائناً من كان أن يعلم النبي العدنان ، ليس المقصود هذا الغلام بالذات، لا يمكن لبشر أن يعلم هذا النبي ، هذا النبي جعله الله أمياً ليقطعه عن ثقافة البشر، وليجعل كلامه كله من وحي الله عز وجل .

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم : 3)

لذلك كل ما أقره النبي عليه الصلاة والسلام فهو تشريع .

كان النبي عليه الصلاة والسلام عند أحد أصحابه، وقد توفي، اسمه أبو السائب، فعَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ وَهِيَ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَائِهِمْ بَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ :

((طَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي السُّكْنَى حِينَ اقْتَرَعَتْ الْأَنْصَارُ عَلَى سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ، فَاشْتَكَى فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّى تُوُفِّيَ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ فِي أَثْوَابِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، قَالَ : وَمَا يُدْرِيكِ ؟ قُلْتُ : لَا أَدْرِي وَاللَّهِ،

قَالَ : أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ مِنْ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ، قَالَتْ : أُمُّ الْعَلَاءِ : فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ، قَالَتْ : وَرَأَيْتُ لِعُثْمَانَ فِي النَّوْمِ عَيْنًا تَجْرِي، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ : ذَاكِ عَمَلُهُ يَجْرِي لَهُ))

[البخاري]

لو أن النبي عليه الصلاة والسلام سكت لكان هذا الكلام صحيحاً، لكنه صاحب التشريع قال :

((وَمَا يُدْرِيكِ))

بأن الله أكرمه ؟

((إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ مِنْ اللَّهِ ... أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ))

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر : 99)

((وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ))

إنّ كل أقواله، وإن كل أفعاله، وإن كل إقراراته وحي غير متلو، لقوله تعالى :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم : 3)

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ)

كيف يعلّم الأعجميُّ العربيَّ ، والقرآن عربي ؟!!

هذا الغلام أعجمي، لا يعرف العربية، ولا بيانها، ولا بلاغتها، ولا إعجازها .

(وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

ألا يكفي ذلك ؟

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

هل تعلم الطريق الوحيد الموصِل إلى الله ؟

هذه الآية خطيرة جداً، تبين أن الطريق الوحيد إلى الله عز وجل، تبين أن الطريق الوحيد إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، التفكر في آياته الكونية، أو تدبر آياته القرآنية .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)

هناك الآيات الكونية، الشمس والقمر، والليل والنهار، والنبات والحيوان، والسهل والجبل، والأسماك والأطيار، وخلق الإنسان، وما في الكون من آيات دالات على عظمته، أو آيات القرآن الكريم، مَنْ لم يؤمن بآيات الله الكونية بالتفكر، ومن لم يؤمن بآيات القرآن الكريم بالتدبر، فإن الله سبحانه وتعالى لا يهديه الطريق مسدود .

طريق معرفة الله الكون، وهذا الكتاب، إن لله في أرضه كتابين، الكون، والقرآن، فالكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، و يمكن أن تضيف باباً ثالثاً لمعرفة الله عز وجل، ألا وهي آيات الحوادث، إنما يجري في الحياة من إكرام المستقيم، ومن معاقبة اللئيم، ومن إكرام الشاكر، ومن محق الكافر، من توفيق المصدق، وتعسير المكذب، إن الحياة طافحة بالدروس والعبر .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل : 69)

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

الكافر بآيات الله له عذاب أليم في الدنيا والآخرة :

عذاب أليم في الدنيا والآخرة، وإذا قال العظيم : إن العذاب أليم، فيجب أن تعرفوا ماذا تعني كلمة أليم، العظيم يقول عن هذا العذاب : إنه عذاب أليم، يعني حينما يقطع عصب الضرس حين قلعه تعرف ما هو العذاب الأليم، لو قلع الضرس من دون مخدر، ألم الضرس وحده، ألم الرمال في الكليتين، ألم الاضطراب في الأمعاء، ألم الأورام الخبيثة، نعوذ بالله منها، هناك آلام لا تحتمل ! هذا عذاب أليم في الدنيا، فكيف الآخرة ؟! .

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ)

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ

ليس النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي يفتري الكذب، حاش لله !

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ)

الكافر كاذب :

الكذاب هو الكافر، لأنه بنى حياته على الكذب، بنى حياته على أفكار غير صحيحة، حينما انطلق إلى الدنيا وحدها، وقال: هي كل شيء ؛ فهذا كذب، حينما ظن أن الله لا يحاسبه فهذا كذب، حينما ظن أن الله يسوي بينه وبين المؤمن، فهذا كذب، حينما ظن أنه ليس في الأرض حق، كل إنسان يقول: أنا على حق، الأمور فوضى، لا .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة : 30)

فلابد من أن يكون في الأرض من هو على حق .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت : 69)

هذه مقولات الكفار؛ هي الكذب، الذي يبني حياته على الكذب، وعلى أفكار كاذبة ؛ هو الكذاب، إذا بنيت حياة الكافر على الكذب فأقواله كذب، إن قال لك : الدنيا هي كل شيء، اقتنص كل اللذات قبل أن يأتي الموت ؛ هذا كذب ؛ لأنه عد الموت نهاية الحياة، الموت بداية وليس نهاية، إذا قال لك : إن لم تملك المبلغ الضخم فلا قيمة لك، هذه هو الكذب، هذه فكرة ساذجة، هناك مصائب لا ينفعها المال .

إن شعور المؤمن بطاعة الله عز وجل يفوق شعور الغني بالغنى، ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس .

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

من بنى حياته على الكفر، وعلى الكذب، وعلى معتقدات زائغة، وضالة، وغير صحيحة ؛ هو الكذاب المبين .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ

هدف الأديان السماوية الحفاظ على الكليات الخمس :

الإسلام والأديان ـ الإسلام بشكل خاص، والأديان بشكل عام ـ جاءت لتحفظ خمسة أشياء ؛ لتحفظ الدين، وتحفظ العقل، وتحفظ النفس، وتحفظ المال، وتحفظ العِرض، فمن اعتدى على الدين بالارتداد،

ومن اعتدى على المال بالسرقة، ومن اعتدى على العرض بالزنى، ومن اعتدى على النفس بالقتل، ومن اعتدى على العقل بالخمر، فللخمر حد، وللزنى حد، وللسرقة حد، وللقتل حد، وللارتداد حد .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ)

خطورة الكفر بعد الإيمان :

من كان كافراً ولم يؤمن شيء، ومن كفر بعد الإيمان شيء آخر، من كفر بعد الإيمان فهذا اعتداء على الإيمان، اعتداء على الشريعة، اعتداء على الدين .

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة : 7)

لكن دخل في الدين ثم خرج منه، هذا عدوان .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)

إذا هُدِّدت حياة الإنسان جاز أن ينطق بكلمة الكفر غير معتقد بها :

إذا هُدِّدت حياة الإنسان، إذا خاف الإنسان على حياته خوفاً حقيقياً، لا خوفاً واهماً! إذا كان الذي يهددك في حياتك من الذين يفعلون ما يقولون، إذا غلب على ظنك أن حياتك مهددة بالقتل، أو أن أحد أعضائك مفقود، أو أن مالك كله مستباح، أجاز لك الشرع أن تنطق بكلمة الكفر! ـ لكن الكلام دقيق ـ إذا غلب على ظنك أن حياتك مهددة بالقتل، وأن أحد أعضائك مهددة بالبتر، أو مالك كله، هذه الشروط الثلاثة، غلب على يقينك، والذي تخاف منه يفعل ما يقول، عندئذ أجاز لك الشرع أن تنطق بكلمة الكفر! أو ما دونها، مثل أن تأكل لحم الخنزير .

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة البقرة : 173)

الضرورات تبيح المحظورات :

لم يأكل زيادة عن الحد المطلوب، حفظ نفسه من الموت .

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)

هذه الضرورات ـ قاعدة فقهية ـ الضرورات تبيح المحظورات، أي ضرورة هذه ؟ هنا المشكلة، توسع بعض الناس في الضرورات، حتى جعل لوم الناس من الضرورات، إنما هي : خوف فقد الحياة، أو خوف فقد أحد الأعضاء، أو خوف تضيع المال كله، هذه هي الضرورات فقط، ولا شيء سواه، ويجب أن يغلب على ظنك أن هذا الذي تخافه يفعل ما يقول، عندئذ لك أن تنطق بكلمة الكفر، أو ما سواها من المحظورات .

أما الحاجات غير الضرورات، أما المتممات، مثلاً ينقصه مكيّف، هذه متممات، والحاجات، تناول الطعام الأساسي، والضرورات حفظ الحياة، فعندنا ضرورات، وحاجات ومتممات، كلمة الكفر، أو فعل المحرمات، ليست مغطاة إلا في حالة تهديد الحياة، أو بتر العضو، أو مصادرة المال .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)

الاجتهاد في الأخذ بالرخصة أو العزيمة :

الصحابة اجتهدوا؛ بعض أصحاب رسول الله قُطِّعوا إرباً إرباً، ولم ينطقوا بكلمة الكفر، هكذا اجتهدوا، يا خبيب أتحب أن تكون في أهلك وولدك وعندك عافية الدنيا ونعيمها؟ ويصاب رسول الله بشوكة؟ قال: والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة، وقتلوه !

صحابي جليل كان عند ملك الروم، وأراد أن يحمله على ترك دينه، أوقد ناراً، وجعل فوقها قِدْراً كبيراً فيها زيت مغلي، وجاء بأسير، وألقاه في هذا القِدْر، إلى أن ظهرت عظامه وحدها، ذاب لحمه، وظهرت عظامه، فجعل هذا الصحابي يبكي، ففرح ملك الروم، وظن أنه قد انهارت قواه، قال له: ما لك تبكي؟ قال: أبكي لأن للإنسان نفساً واحدة، كنت أتمنى أن تكون لي أنفس عديدة، تموت هذه الميتة كل مرة، فأكسب عند الله أجراً عظيماً، عندئذ تركه .

هنا اجتهاد؛ إن حفظت حياتك فهذا الاجتهاد مباح لك، وهو مغطى شرعاً، وإن آثرت أن تكون كسيدنا بلال، وضعوا الصخرة على صدره، ليحملوه على الكفر فقال : أحد أحدٌ، فرد صمد، حتى جاء سيدنا الصديق، واشتراه من أمية بن خلف، قال له أمية : والله لو دفعت به درهماً واحداً لبعته لك ! قال الصديق : والله لو طلبت به مئة ألف درهم لدفعتها لك ! أخذ بيده، وقال : هذا أخي حقاً، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ :

((أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا، يَعْنِي بِلَالًا))

[البخاري]

حتى إن سيدنا عمر رَضِي اللَّه عَنْه كان إذا علم بقدوم بلال إلى المدينة خرج إلى ظاهر المدينة لاستقباله .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)

هذا مستثنى من الحكم .

(وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا)

من الكفر انشراح الصدر بالكفر :

أما هذا الذي يرتاح لأفكار الكفر؛ يرتاح للكافرين، يأنس بهم، يحب أن يكون منهم، يحب أن يجلس معهم، يجاملهم إلى أقصى الحدود، قد يسبقهم في مجاملته لهم، هذا الذي يرتاح للكفر، ولأهل الكفر، وينساق معهم في حديثهم، وفي أمسياتهم، وفي حفلاتهم، وفي نزهاتهم، وهو منهم، وهم منه ! هذا هو المعني بالآية :

(وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

العظيم يقول عن العذاب: إنه عظيم، فما مستوى هذا العظيم ؟

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

الميل إلى الكفار لهدف الدنيا ومفاتنها :

لماذا جاملوا الكفار؟ وعاشوا معهم؟ وسايروهم؟ وماشوهم؟ وسهروا معهم؟ وذهبوا إلى متنزهاتهم؟ وأقروهم على انحرافاتهم؟ وقدموا لهم كل غالٍ ورخيص؟ ونفس ونفيس ؟

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

دخل أبو حنيفة رَضِي اللَّه عَنْه على أبي جعفر المنصور فقال له المنصور: يا أبا حنيفة، لو تغشيتنا؟ قال: ولِمَ أتغشاكم، وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه؟ وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء؟ ربنا يقول :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

سيدنا الحسن البصري قيل له: " بمَ حصلت هذا العز، وهذه المكانة؟ قال: بشيئين؛ لحاجة الناس إلى علمي، واستغنائي عن دنياهم "، استغنى عن الدنيا، زهد بها، فرفعه الله عز وجل، لذلك احتج إلى الرجل تكن أسيره، واستغن عنه تكن نظيره .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

هذا الذي آثر الدنيا على الآخرة، الطريق إلى الله مسدود .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ :

((كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ))

[البخاري]

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

ثم قال تعالى :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

الطبع الابتدائي والطبع الجزائي :

كما قلت لكم سابقاً: هناك طبع ابتدائي، وهناك طبع جزائي، يعني حينما لا يداوم الطالب في المدرسة يوماً واحداً، يصدر مدير المدرسة أو رئيس الجامعة قراراً بفصله، وبحرمانه من الجامعة، هل هذا المدير، أو هذا الرئيس في الجامعة قد جنى عليه؟ إن قراره مبني على عمل الطالب، فهناك طبع جزائي، وهناك طبع ابتدائي .

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : 5)

فطبع على قلوبهم، لأنهم أعرضوا عن الله عز وجل، اتجهوا إلى الدنيا، انغمسوا فيها، جعلوها كل همهم، جعلوها مبلغ علمهم، لذلك طبع الله على قلوبهم .

(لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ

طعم الخسارة مؤلم :

الخسارة مؤلمة، لا يعرفها إلا من ذاقها، قد يشتري التاجر بضاعة، وتبقى عنده سنوات وسنوات، يبيع منها، ويحصل ثمنها، وينقلها، ويخبئها، ثم يخسر فيها ! طعم الخسارة مر، إذا خسرت المال، فالمال شيء جزئي، وإذا خسرت من تحب، فمن تحب جزء من كيانك، أما إذا رأيت أنه لا حياة إلا الحياة الآخرة، وأنها إلى الأبد، وأنك قد خسرتها؟! شيء يصعب تصوره، خسارة كل شيء وإلى الأبد !!

(لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

الخسارة الحقيقية هي خسارة الآخرة :

قال تعالى :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف : 103 - 104)

وقال سبحانه :

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ(1)حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6)ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا

الله غفور رحيم لمن تاب وجاهد وصبر :

حينما يتوهم الرجل أن الله غفور رحيم من دون جهد، من دون شيء إطلاقاً، فقط غفور رحيم، افعل ما بدا لك، وهو غفور رحيم، هذا معنى ساذج، هذا معنى شيطاني .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

اجمع آيات المغفرة تجد أن الله عز وجل غفور رحيم من بعد التوبة والإقلاع .

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

(سورة النساء : 146)

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

تابوا، وآمنوا، وعملوا الصالحات .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقال سبحانه :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

لم تعد إليه فعذابه أليم .

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(55)أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر : 53 - 56)

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

كل نفس يوم القيامة تدافع عن نفسها :

لو اتهم إنسان بتهمة كبيرة، وسيق للتحقيق ماذا يفعل؟ يدافع عن نفسه بشكل مضطرب، خوف العقاب! يقول كلاماً صحيحاً وغير صحيح، معقولاً وغير معقول! مقبولاً وغير مقبول .

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا)

تدافع عن نفسها، بغية أن تنجو من عذاب الله .

(وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

الحساب بالتمام والكمال من غير ظلمٍ :

بالتمام والكمال .

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(سورة الزمر : 70)

(وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

يبدو أن الله سبحانه وتعالى قد يعطي المؤمن في الدنيا عطاءً تشجيعياً، لكن أجره الكبير مدخر له في اليوم الآخر .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : 185)

الغنى والفقر بعد العرض على الله .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

أيّ قرية تنطبق عليها المواصفات تدخل في هذا المثل :

ليست قرية بعينها، أية قرية .

(قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

الرزق الوفير يُجبى إلى هذه القرية من جميع البلدان :

أمن، وطمأنينة، وخيرات من كل حدب وصوب، وتجارات رائجة، وبيوت فخمة، ومواد متوافرة، وغذاء رخيص، ولباس أنيق، وبيت فخم .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

قال نبي الله شعيب عليه السلام لقومه :

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود : من آية " 84)

قال بعض المفسرين: توافر المواد ورخص الأسعار .

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود : من آية " 84)

(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ)

المعاصي والكفر والذنوب تُذْهِب النعم :

أدارت ظهرها للدين، ضربت بأحكامه عرض الطريق، لم تقم حياتها وفق شريعة الله، لم تحكم بما أنزل الله، عدّت الدين شيئاً قديماً بالياً لا يصلح لهذا الزمان، أخذت عن الغرب فسقه وفجوره، وانحطاطه الخلقي، وإباحيته .

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

هذا هو جزاء هذه القرية فاعتبروا يا أولي الأبصار :

والأدلة والشواهد حولنا :

(فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

الجوع والخوف ..

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش : 4)

هذه أذاقها، ما أذاقها؟ الجوع والخوف، يا ليت! أذاقها لباس؛ يعني أن الجوع والخوف لباس ثابت لا ينزع عنهم، حيث ما تحركوا، وأينما اتجهوا، يخاف الرجل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (21-21): تفسير الآيات 119 – 128 ، عن الموعظة الحسنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-06-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي والعشرين والأخير إن شاء الله من سورة النحل .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا

العلاقة بين العبد وربه علاقة مسامحة مبنية على التوبة :

ربنا سبحانه وتعالى يطمئننا إلى أن الذي يعمل السوء بجهالة، ويتوب من بعد عمل السوء، ويصلح، ومعنى يصلح؛ أنه إذا كان الذنب بينك وبين العباد ؛ فهذه العلاقة مبنية على المشاححة، أما العلاقة بين العبد وبين ربه فمبنية على المسامحة، فالذنب الذي بينك وبين الله يغفره الله سبحانه وتعالى، لكن الذي بينك وبين العباد لا يغفر إلا بالإصلاح، أي بالتصحيح، برد الحقوق إلى أصحابها، بالاعتذار، بطلب المسامحة، بمحو السيئة بالحسنة، بتقديم شيءٍ ينسي صاحب الحق حقه .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)

معنى : عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ

ومعنى: عملوا السوء بجهالة؛ أي: إن الإنسان قد يجهل النتائج الخطيرة التي تؤدي إليها المعصية، لو أن الناس عرفوا إلامَ تنتهي بهم السيئات ما فعلوها، والدليل أن الناس أحياناً يرون بأم أعينهم ما يحل بمن يخالف تعليمات إنسان، لذلك يطبقون هذه التعليمات تطبيقاً حازماً، بسبب أنهم رأوا نتيجة من خالف هذه التعليمات، فكيف لو عرفت أن هذه التعليمات التي أمر الله بها سوف تشقي صاحبها في الدنيا والآخرة؟ لذلك لا يعصي ربه إلا جاهل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...))

[متفق عليه]

لو أنه كان مؤمناً ـ أي مقبلاً ـ لاستنار قلبه بنور الله، ورأى بهذا النور نتائج الزنى فكفَّ عنه .

إذاً :

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا)

إتباع التوبة الصادقة بالإصلاح ورد المظالم :

من بعد التوبة الصادقة، ومن بعد إصلاح الخلل، ورد الحقوق، والاستسماح .

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

لذلك هذا الذي يطمع بمغفرة الله من دون ثمن، أو من دون توبة، أو من دون ندم، أو من دون عزم أكيد على ترك الذنب، أو من دون إصلاحٍ، فهذا مغرورٌ، واقع بالأوهام .

على كلٍ؛ هذا الذي يعلم أن هذه معصية، وأنك إذا فعلتها وقعت في غضب الله عز وجل، كلما ازداد علمك بأنها معصية، وبأنها مهلكة ازداد الحجاب بينك وبين الله، وقلّتْ فرص التوبة ؛ لذلك فرص التوبة تزداد مع الجهل بالذنب، وتقل مع العلم به، فإذا كنت تعلم علم يقينياً أن هذه معصية تغضب الله عز وجل، وفعلتها وأنت تعلم ! أغلب الظن أن فرص التوبة تقلّ، وأن الحجب تكثر، وأن القطيعة محققة، هذا الحجب يحتاج لمراجعة.

التوبة لها شروط :

في موضوع التوبة تفصيلات دقيقة جداً ؛ العلماء ولا سيما الإمام الغزالي رَضِي اللَّه عَنْه قال : للتوبة شروط، أولها العلم والندم، والعزيمة، معنى العلم؛ يجب أن تعلم أن هذا ذنب، وأن هذه معصية، وأن هذا العمل خلاف الشرع، يجب أن تعلم أن هذه معصية، وأن هذا يغضب الله، وأن هذا يؤدي إلى عقاب في الدنيا قبل الآخرة .

هناك بعض الأشخاص يتوهم أن الآخرة بعيدة، وأن الله غفورٌ رحيم، لكن يجب أن يعلم هؤلاء أن لكل سيئة عقاباً في الدنيا قبل الآخرة والعقاب من نوع الذنب ؛ فالذي يأكل مالاً حراماً يعاقب بإتلاف ماله، والذي يخالف أوامر الله في صحته يعاقب بالمرض، والذي يخالف أوامر الله في زواجه يعاقب بالشقاق الزوجي، والذي يخالف أوامر الله في تربية أبنائه يعاقب بعقوق الأولاد، والذي يخالف أوامر الله في تجارته يعاقب بإتلافه، وإن لكل سيئة عقاباً، ولكل حسنة ثواباً، فيجب أن نعلم علم اليقين أن السيئات، والمعاصي، والمخالفات لها عقاب في الدنيا قبل الآخرة، وأن العقاب قد يكون أليماً، وأن الثمن قد يكون

باهظاً، وأن الإنسان حينما يواجه العقاب، أو يواجه الخسارة، عندئذ يقول: ليتني لم أعص الله، لأنه أصبح خاسراً، والذي حصله في المعصية دفعه أضعافاً مضاعفة عند العقاب .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

كيف يكون الرجل الواحد أمّة ؟

كيف نفسر هذه الآية؟ كيف يكون رجل واحد أمة ؟

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

بمعنى أن عنده في قلبه عزيمة على طاعة الله، وفي قلبه معرفة، وفي قلبه شكر، وفي قلبه صبر، وفي قلبه رحمة، لو وزعت على أمة لوسعتها .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

كان قوي العزيمة، كان شديد الورع، كان محباً لله، كان قلبه ممتلئاً رحمة ؛ حيث إن الذي حصله من الحق جل وعلا، لو وزع على أمة لكفاهم .إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

لو أن واحداً كان يملك أموال الدنيا، نقول: هذا يملك أموال الدنيا، لو وزع هذا المال على أبناء الأرض لكفاهم ؛ بهذا المعنى، هذا أحد معاني:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

لأنه دعا إلى الله وأراد هداية الخلق، وإسعادهم، أراد أن ينقذهم من الضلال إلى الهدى، من الشقاء إلى السعادة، من الضياع إلى الوجدان، من التشتت إلى التجمع ؛ لأنه أراد ذلك فصار في قلب كل إنسان، صار هذا النبي العظيم في قلوب أتباعه، أحبوه، واتبعوه، وشكروه، وأثنوا عليه، وجعلوه قدوة لهم ح هذا المعنى الآخر .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

هذا يسيرٌ وفي متناول كل مؤمن صادق :

وهذا شيء ميسر لكل مؤمن، حينما يخرج المؤمن من ذاته إلى هداية الآخرين، إلى نصحهم، إلى إكرامهم، إلى إسعادهم، إلى تقديم خدمة لهم، حينما يعطف عليهم، يرحمهم، حينما يقلق لمصيبة ألمت بهم، حينما يبذل وقته رخيصاً لأجلهم؛ عندئذ يحبونه، ويدخل قلوبهم، ويصبح في قلوب كل من أحبه ؛

هذا المعنى الآخر، فإذا أردت أن تسعد فاسعد الآخرين .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

بين أن تكون فرداً، وبين أن تكون أمة ؟ قد ترى جنازة لا يتبعها إلا رجلان أو ثلاثة ! وقد تسمع بجنازة تبعها مئة ألف شخص، طواعية، معنى ذلك أن هذا الميت ترك في نفس هؤلاء الذين تبعوه أثراً بليغاً، ومحبة صادقة، وإكباراً، وشكراً وامتناناً .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

أحياناً على مستوى الأسرة، يكون هناك كبير الأسرة، يحل مشكلاتها، يوفق بين المتخاصمين فيها، يقدم المعونة لفقرائها، هذا الشخص على مستوى أسرته يصبح في قلوب كل أفراد الأسرة، يقولون : عميد أسرتهم ؛ لأنه قدم خدمات لهم، لأنه رعى مصالحهم، وفق بين متخاصميهم، لأنه وفق بين زوجين متباعدين، وفق بين شريكين، وفق بين أخوين، قدم المساعدة، عطف عليهم، كان رؤوفاً بهم، إذاً هو عميد أسرتهم، وهذا شيء ميسر للمؤمن، أن يكون في قلوب الآخرين، أن يخرج من ذاته لخدمة الخلق ؛ لأنه إذا خدم الخلق أحبه الحق، والخَلقُ كلهم عيالُ الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعُهم لعِياله، وما من طريقة تتقرب بها إلى الحق كخدمة الخلق، لذلك :

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 110)

طريق التقرب إلى الحق خدمة الخلق .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

أمة واحدة بالإيمان والأخلاق الحسنة والإحسان إلى الخلق :

بصفاته الفضلى، بإيمانه، بكبر قلبه، برحمته، بتوبته، بطهره بورعه، باستقامته، بحبه للخير، كان فيه من الصفات ما يسع أمة، وكان أمة في قلب كل تابع من أتباعه، هل تستطيع أن تدخل إلى قلوب الناس قسراً؟ لا والله! ليس هناك قوة، لو ملكت قوى الأرض كلها على أن تدخل في قلوب الآخرين، لا تستطيع إلا بالإحسان! يا داود ذكر عبادي بإنعامي عليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها ..

(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال : 63)

لو أن أباً قسَا على أولاده وضايقهم، وحرمهم، وقال لهم: أحبوني، ورددوا ألفاظ المحبة، وأسمعوني كلمات المحبة، وقوموا لي إذا مررت بكم ؛ لو أنهم فعلوا ما أمرهم به هل يحبونه؟ لا، لن تستطيع أن تدخل إلى قلب إنسان إلا بالعمل الصالح، إلا بتواضعك، إلا بخدمتك، إلا بعلمك، إلا برحمتك، إلا بعطفك، إلا بحنانك، بهذا تدخل في قلوبهم، قد يفعلون ما تريد منهم قد يفعلون ما تأمرهم به قسراً وكرهاً، ولكنك تبقى بعيداً عنهم، ما الذي جعل أتباع النبي عليه الصلاة والسلام بعد ألف وأربعمئة عام يقدمون إلى قبره الشريف، يقفون مزدحمين، تنهمر دموعهم، كيف؟ ما رأوه، ما سمعوا كلامه، ما تلقوا منه خدمة معينة ؛ لكنهم سمعوا عن فضائله، وعن خلقه العظيم، وعن رحمته، وعن عطفه، وعن تواضعه، وعن تواصله، وعن كرمه، وعن حبه للناس، يا من كانت الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع، فعشت واحداً بين الجميع، يا أيها النبي .

يا أيها الأب، يا أيها الأخ، أشهد أنك بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الظلمة، وجاهدت في الله حق الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد، لماذا تقرأ سيرته فتبكي ؟ لماذا إذا حدثناكم عن ساعات وفاته كلكم تبكون ! لماذا ؟ تبكون محبة له، لأنه جاء إلى الدنيا، وخرج منها ولم يجمع منها درهماً ولا مالاً، لكنه ترك الهدى، ترك السعادة، ترك الفضيلة، ترك الرحمة بين الناس :

((إنما أنا رحمة مهداة))

[من الجامع الصغير عن ابن سعد]

لذلك تستطيع أن تدخل إلى قلوب الناس بأعمالك الطيبة، برحمتك، بتواضعك،

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

لا تكن فردا ، بل كن أمةً :

يا أخي الكريم لا تكن فرداً، لا تكن واحداً كن أمة، اخرج من ذاتك، معظم الناس سعيهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، جهدهم، طاقتهم، بذلهم كله من أجل أنفسهم، وعلى أحسن الأحوال من أجل أسرتهم، وانتهى الأمر، لا يزيد اهتمامهم على أمر أسرتهم، أما جاره، قريبه، يقول لك : لهم رب، أنا لست كافل العباد، لو شاء الله لأطعمهم، إذاً أنت لست أمة، أنت واحدٌ، وتأتي يوم القيامة واحداً، لكنك لو عملت الصالحات، وخدمت العباد، لا حباً من أن تعلو عليهم، لا حباً بأن يلتفت الناس إليك، لا حباً بأن تصرف

وجوه الناس إليك، لا، بل حباً بخالقهم، تخدمهم، تقرباً للذي خلقهم، هذا هو جوهر الدين، أن تحسن إلى الخلق محبة بالحق .

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)

(سورة الإنسان : 9)

هذا هو سر الدين، لذلك المؤمن تلقاه خَيِّراً، معطاًء، متواضعاً، يضحي، يبذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، يقول لك : حتى يرضى الله عني، كيف يرضى الله عني وأنا أؤذي خلقه ؟ لا بد من أن أتسامح معهم، لا بد من أن أعفو عنهم، لا بد من أن أقدر حاجاتهم، لابد من أن أقبل أعذارهم، لا بد من أن أقبل تنصلاتهم ؛ من أجل أن يحبني الله عز وجل

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

معاني هذه الآية :

المعنى الأول :

أن فيه من الكمال ما لو وزع على أمة لكفاهم، هذا أول معنى .

المعنى الثاني :

بإحسانه في قلب كل الناس ؛ إذاً هو في قلب أمة ؛ إذاً حجمه كحجم الأمة .

المعنى الثالث :

أنه إمام يُقتدى به، يأتمّ به الناس، لذلك إذا كنت أباً فأنت إمام لأبنائك، فإذا عصيت الله يعصونه أمامك، إذا عصيت الله يقتدون بك .

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(30)وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا(31)يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

(سورة الأحزاب : 30-32)

إذا عصى القدوة تحمَّل وزر غيره ممن تبعه في المعصية :

إذا عصى القدوة اقتدى الناس به، فتحمل إثم المعصية، وإثم كل من عصى الله اقتداء به، لذلك:

((التوبة حسن، لكن في الشباب أحسن، والسخاء حسن، لكن في الأغنياء أحسن، والحياء حسن، لكن في النساء أحسن، والصبر حسن، لكن في الفقراء أحسن، والعدل حسن، لكن في الأمراء أحسن، والورع حسن، لكن في العلماء أحسن))

[من كنز العمال عن علي]

ثمة قصة تناسب هذا المقام، يروى أن ملكاً أكره الناس على أكل لحم الخنزير ـ قصة قد تكون رمزية ـ فجيء برجل عالم ليأكل لحم الخنزير قسراً وإلا قتل، فالحاجب يعرف مقامه، ذبح له شاة خِفية، وقدمها إليه، وقال له : هذه شاة يا سيدي، كلها ولا تخف، فلما دخل قرب الناس ليأكلها فأبى أن يأكلها، قيل له : لمَ لمْ تأكلها ؟ قال له : الناس لا يعرفون ذلك، يعرفون أنه لحم خنزير، فإذا أكلته أمامهم اقتدوا بي، فالذي يتصدر لتعليم الناس له حساب خاص، حركاته، سكناته، تصرفاته، أقواله أفعاله، أحواله، كله مسجل عليه، إن عمل سيئة اقتدى الناس به، فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لذلك ؛ أندم الناس يوم القيامة رجل دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار !!!

مما يروى ؛ أنه يوم القيامة يفاجأ أهل النار برجل في النار كان من أهل العلم في الدنيا، وكان ذا صيت كبير، كان نجمه متألقاً في سماء العلم، كان له شهرة كبيرة يقولون، متعجبين : أأنت فلان ؟ يقول : نعم؟ أنت فلان ؟ يقول : نعم، يقولون : من الذي جاء بك إلى هنا ؟ ـ الحديث طويل، فعَنْ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ))

[البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم]

المعلم قدوة، إذا دخن أمام طلابه عدَّ الطلاب الدخان شيئاً عظيماً من صفات الرجولة، والاكتمال، فعليه إثم هذا العمل، وإثم من عمله من طلابه .

المعلم قدوة، الأب قدوة، الأم في البيت قدوة ؛ لو أنها تساهلت في فتح الباب، وفي الحديث مع الغرباء أمام ابنتها، لقد زرعت فيها أن هذا العمل لا بأس به، شيء مقبول .

الأم قدوة، والأب قدوة، والمعلم قدوة، وكل من يلي على أشخاص يحاسب حساب القدوة! لذلك ؛ كان سيدنا عمر رَضِيَ اللَّه عَنْه كان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصته وقال: " إني قد أمرت الناس بكذا،

ونهيتم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله، لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه، إلا ضاعفت له العقوبة لمكانته مني " ؛ فصارت القرابة من عمر مصيبة !!

أنت أبًا قدوة، أو أنك أخٌ أكبر، عندك أربعة أخوات، أنت قدوة لهم؛ إذا تأخرت إلى منتصف الليل يقلدونك، إذا علا صوتك على صوت أمك يقلدونك، إذا أخذت ما ليس لك يقلدونك، إذا تساهلت في البيع والشراء يقلدونك .

إذاً :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

كان في قلبه من الكمال ما يسع أتباعه جميعاً، فحجم كماله كحجم كمال أمة، لذلك :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

في قلوب أتباعه .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

كان قدوة لهم، كان إماماً لهم .

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 124)

ما هو الثمن ؟ أنه أتم أوامر الله عز وجل .

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة : 24)

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب : 39)

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة يس : 20 - 21)

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا)

معنى : قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا

أي : دائماً على طاعته، منقطعاً لعبادته، لا تشغله الدنيا عن ذكر الله، سيدنا سعد رَضِيَ اللَّه عَنْه قال: << في ثلاثةٍ أنا رجل، وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس ـ يعني أجوع كغيري من الناس، أشعر بالحر في أيام الحر كغيري من الناس، أغضب إذا استغضبت كغيري من الناس ـ لكن في ثلاثةٍ أنا فيهن

رجل، ما سمعت حديثاً من رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا علمت أنه حق من الله تعالى، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، ولا دخلت في صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها >>، كان بطلاً في هذه الثلاثة .

(قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا)

مائلاً إلى الله، تغلب محبة الله عليه .

خبيب بن عدي رَضِي اللَّه عَنْه كان من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقع في أسر قريش، وكان بإمكانه أن ينطق بكلمة الكفر ليفتدي نفسه منهم، لأنهم خيروه بين أن يصلبوه، وبين أن يكفر بمحمد لشدة حبه لله ورسوله، جاءه أبو سفيان عرض عليه الموت، أو أن يكفر بمحمد، ثم قال له : أتحب أن تكون معافىً في أهلك وولدك، وعندك عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة ؟ أتحب أن يكون محمد مكانك؟ قال: وَاللَّهِ لا أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة !! هل تحب أنت أهل الحق هكذا ؟ هل تحب رسول الله ؟.

تعصي الله وأنت تظهر حبه ؟! ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

***

حنيفاً يعني مال قلبه إلى الله عز وجل، يحب الله، ولا يحب أحداً سواه .

معنى قانتاً؛ أي: منقطعاً في عبادته إلى الله عز وجل ومعنى حنيفا؛ مائلاً قلبه إلى الله في كل أحواله .

لا ينبغي للقلب أن يميل إلاّ لله :

هذا القلب، والله لا ينبغي أن يحب غير الله، أن تحب زوجتك؟ لا بد من أن تتركها، أو تتركك، أبداً، لا بد من ذلك إما أن يموت الإنسان قبلها، أو أن تموت قبله، أتحب أولادك؟ لا بد من أن تفارقهم، أتحب هذا الصديق ؟

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت، فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[الطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد]

أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، يَعْنِي الْمَوْتَ))

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

لذلك لا ينبغي لهذا القلب أن يحب غير الله .

رابعة العدوية تقول :

فليتك تحلو والحياة مريــرة وليتـك ترضى والأنـام غضاب

ولـيت الذي بيني وبينك عامـر وبيني وبين العالمين خــراب

***

كلام سهل جداً، امتحنْ قلبك هل تحبه؟ هل تغض بصرك عن امرأة حسناء خوفاً منه ؟ لا أحد يراك، لا أحد يحاسبك، لا أحد في الأرض يحاسب على هذا، بالعكس، شيء طبيعي، من الذي يحاسب على أنك نظرت إلى النساء؟ هل تغض بصرك عن محاسن امرأة، لا تغضه إلا لله؟ هل تعطي فلاناً، لا تعطيه إلا لله؟ هل تمنعه، لا تمنعه إلا لله؟ هل تواليه لا تواليه إلا لله؟ هل تعاديه لا تعاديه إلا لله ؛ إذا كنت كذلك فالله يحبك، وأنت تحبه .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

احذروا الشرك الخفيّ :

والشرك كما تعلمون أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيء من الجور، وأن تبغض على شيء من العدل، هذا من الشرك، طبعاً هناك شرك أكبر، وشرك أصغر، وشرك خفي .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف : 106)

إذا اعتقدت أن هذا الطبيب هو الذي شفى ابنك، معه بورد، وصف له دواء ثلاثة، في أيام كان صحيحاً، هذا شرك، هذا لو لم يأذن الله له، لو لم يلهمه الصواب، لو لم يلهمه تشخيص الداء لكنت في متاهة، ذهب شخص إلى أشهر الأطباء، شعر بشيء غير طبيعي، شخصوا له أنه مرض خبيث، كاد هذا المرض أن يسحقه ! والتشخيص غلط كله ؛ هذا ممكن، فلا تعزُ الأشياء إلى غير الله، هذا شرك، من علامات الشرك أن تغضب إذا حرمك الناس، وأن تفرح إذا أعطوك، مع أن ما عند الله لا يجلبه لك حرص حريص، ولا يرده عندك كراهة كاره . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ : يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر : 2)

إن الله تعالى قطع العباد عن الآجال، وعن الأرزاق، فكلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً، تأكد أن رزقك بيد الله، وأن أجلك بيد الله، وأن هذا لا يملكه أحد إلا الله، من هنا تأتي شجاعتك، من هنا تأتي طمأنينتك، من هنا تأتي عزتك، من هنا تأتي كرامتك، لو اعتقدت أن الرزق بيد فلان لتذللت إليه، ولخضعت إليه، وانبطحت أمامه، وقبلت الأقدام، وتذللت، ونافقت، ولخنعت له، لو اعتقدت أن الرزق بيده أما إذا اعتقدت أن هذا الذي خلق الفرد خلق له الطعام والشراب .

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22)فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

(سورة الذاريات : 22 - 23)

اطمئنّ على رزقك فإنه ضُمِن لك يوم كنت في بطن أمِّك :

ما دام هذا الفم يتحرك فله عند الله رزق، لكن هذا الرزق قد يأتي صاحبَه بطريق غير مشروع .

أنا أضرب مثلاً مشهوراً فأقول: هذه التفاحة التي خلقت في المكان الفلاني، في البستان الفلاني على الشجرة الفلانية، في الغصن الفلاني، ترتيبها رقم أربعة، حجمها وزنها، لونها، هذه لفلان، اسم فلان عليها، قد يأخذها شراء، وقد يأخذها ضيافة، وقد يأخذها هدية، وقد يأخذها تسولاً، وقد يأخذها سرقة، وقد يأخذها غصباً، طريقة وصولها إليك باختياره، أما هي له، طريقة وصولها إليه بحسب استقامته، وغفلته، وتقصيره، وانحرافه، وبعده وقربه، أما هي ـ أي التفاحة ـ له، فمسكين هذا الذي يسرق رزقه، لو أنه صبر عليه لأكله حلالاً، اصبر على الحرام يأتك الحلال، إن رزق الله لا يجره إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهة كاره، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ))

[أخرجه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله]

اطمئن، لك عند الله عز وجل 890 أكلة مثلاً بالعدد ؛ يمكن لشخص أن يقوم بإحصاء طريف، أنا كم بيضة أكلت في حياتي، وكم بيضة متوقع أن آكلها قبل الوفاة ؟ لو فرضنا 8000 بيضة، 80000، لا أعرف كم العدد، لك عند الله هذا العدد، لا ينقص ولا واحدة ! اطمئن، توجد أزمات، لا توجد أزمات، لك عنده هذا العدد ! كم تفاحة، كم بيضة، كم من رغيف سوف تأكل، كله مسجل .

((أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ))

انتق مهنة راقية، شريفة، فيها خدمة للناس، فيها نفع للناس، قد يقول قائل : يا أخي لا أستطيع، لا يوجد غير هذا العمل! لا هذا غير صحيح، إذا كان العمل أساسه إيقاع الأذى بالناس دعه، ولا تأسف عليه، مهما كان الدخل كبيراً، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك،

((فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ))

ابحث عن عمل شريف فيه خدمة للآخرين، ولا ترض بعملٍ فيه معصية لله، ولا ترضَ بضاعة محرمة عند الله، ولا ترضَ عملاً فيه إيقاع الأذى بالناس ..

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(120)شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

(شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ)

كيف تشكر ربَّك ؟

يا رب كيف أشكرك؟ قال : يا موسى، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني، اذكرني ولا تنسني، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني، يا ترى ؛ هل تذكر الله كل يوم؟ كل أسبوع؟ كل ساعة؟ كل فترة؟ صباحاً؟ مساء؟ إذا أكلت هل تقول: الحمد لله؟ هل دخلت إلى بيتك؟ هل تذكر فضله؟ إذا وقعت عينك على أبنائك وهم في صحة جيدة، هل تذكر فضله؟ لو كان أحدهم مشوهاً تحس بانقباض لا يوصف، إذا دخلت إلى البيت، وفي البيت ماء زلال، وطعام، وشراب، وفراش وثير، ودفء في الشتاء، وجو معتدل في الصيف، هل تذكر الله عز وجل ؟ هل تشكره ؟ كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت .

(شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ)

معنى : اجْتَبَاهُ

اختاره، وهداه إلى صراط مستقيم، إذا كان الشخص على صراط مستقيم فهذه أكبر نعمة، سيدنا عمر إذا أصابته مصيبة كان يقول: << الحمد لله إذ لم تكن في ديني >>، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ ـ لو كشف الغطاء كان الذي على صراط مستقيم، هو أسعد الناس قاطبة، أعظمهم عند الله شأناً أكرمهم على الله، أسعدهم في الدنيا والآخرة الذي على الصراط المستقيم، تقول في الفاتحة كل يوم .

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة : 6-7)

(وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121)وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ)

في الدنيا حسنة .

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة المائدة : 18)

الإمام الشافعي رَضِي اللَّه عَنْه استنبط أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحبابه .

(وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

حسنة الدنيا :

سمعة طيبة، راحة بال طمأنينة، أمنًا، اطمئنانًا بذكر الله، إياكم أن تفهموا مني من أجل أن تكون هذه الآية مطبقة يجب أن تكون غنياً، صحيحاً، ذا زواج ناجح، لا، هذا ليس شرطاً، يجب أن تكون راضياً عن الله، فأنت أسعد الناس، قد تكون راضياً عنه وأنت مريض ! فأنت أسعد من الصحيح، وقد تكون راضياً عنه وأنت فقير، فأنت أسعد من الغني ! العبرة أن تكون راضياً عن الله، قال رجل من الصالحين: يا رب، هل أنت راضٍ عني؟! وكان يطوف حول الكعبة، ووراءه الإمام الشافعي رَضِي اللَّه عَنْه، قال له: يا هذا، هل أنت راضٍ عنه حتى يرضى عنك؟ فالتفت وقال: سبحان الله ! كيف أرضى عنه، وأنا أتمنى رضاه ؟ قال له : إذا رضيت عنه في مر القضاء، إذا كان سرورك بمر القضاء فأنت راضٍ عن الله، فلذلك :

(وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121)وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

المؤمن سعيد وكفى، سعيد وهو فقير ـ كلامي واضح ـ سعيد وهو غني، سعيد وهو مريض، سعيد وهو معافى، سعيد وعنده زوجة صالحة، سعيد وعنده زوجة سيئة، سعيد وعنده أولاد ذكور، سعيد وعنده أولاد إناث، سعيد وهو عقيم، سعيد وعنده أولاد مشاكسون، قلبه سعيد، عرف الله فأحبه، وانتهى الأمر، ليس شرطاً أن تتوافر كل الشروط حتى يكون سعيداً، وإذا كان الشخص اسمه " سعيد " فلا يكن شقياً، يشتد حزنه يوم القيامة، وإذا كان الواحد اسمه " كامل " فلا يكن ناقصاً، وإذا كان عبد الله فلا يكن عبداً لئيماً، اسمه " عبد الله " فيكون عبداً للئيم ؟ وإذا كان " عبد الرحمن " فلا يكن قاسياً، وإذا كان "عبد الغني" فلا يكن فقيراً، فقيراً للدنيا، شهوانياً، كيف أخشى الفقر، وأنا عبد الغني ؟!

الله يأمر نبيَّه محمد عليه الصلاة والسلام باتباع إبراهيم عليه السلام :

(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

كان هذا النبي العظيم أبا الأنبياء .

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

يوم العطلة ليس للراحة بل للاجتهاد في العبادة :

يوم السبت جُعِلَ يوم عطلة رسمية لليهود، وقد يتوهم البعض منه عطلة رسمية ؛ يعني ليغتسل، يغسل، يقمُّ، يريد أن ينظف، أن ينظم مكتبته، يستيقظ الساعة الحادية عشرة، اليوم جمعة، أيوجد عندنا دوام؟! يوم السبت يوم عطلة عند اليهود، يعني يجب أن يكون هذا اليوم خاصاً لله عز وجل، يجب أن تتفرغ في كل سبعة أيام يوماً لعبادة الله، وذكره ومعرفته، طبعاً نحن المسلمين يوم عيدنا الأسبوعي يوم الجمعة، فهذا اليوم يوم معرفة الله، وحضور خطبة الجمعة فرضٌ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلاثًا مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ))

[أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن قتادة]

هذا يوم ليس لقضاء الحوائج، تنظيم البيت، والاستيقاظ الساعة الثانية عشرة، والمشاحنة أحياناً، وبعض الأكلات الخاصة، الجمعة صباحاً أكلة حمص، وعند الظهر لحم مشوي ـ سابقاً طبعاً ـ لا، ليس هذا هو القصد، القصد أن هذا اليوم من أجل أن تعرف الله عز وجل .

أنا أتمنى على كل أخ أن يهيئ أموره الخميس، ويبقي هذا اليوم فراغاً لطاعة الله عز وجل، لسماع خطبة الجمعة، لحضور مجلس العلم .

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

احتيال اليهود في الصيد يوم السبت المحرم عليهم :

بعض اليهود احتالوا على الله عز وجل، حفروا حفراً على شاطئ البحار، وأغروا السمك لدخولها، بعد أن دخلت سدوا، يوم الأحد صادوا السمك؛ هذه حيلة شرعية، أول من احتالوا حيلة شرعية هم اليهود،

يوم عطلة! عطلة من أجل معرفة الله! من أجل العبادة، من أجل التأمل! من أجل الذكر! من أجل تلاوة الكتاب المقدس؛ من أجل التفكر في ملكوت السماوات والأرض، هذا كله يجب أن يكون يوم العطلة الرسمية! ماذا فعلوا؟ احتالوا على الله عز وجل، جعلوا حيتانهم تأتيهم شرعاً يوم سبتهم، الحيتان مطمئنة؛ هؤلاء يهود، والسبت معطلون، دخلت إلى هذه البرك، فلما دخلت سدوا عليها طريق الخروج يوم الأحد اصطادوها، فوبخهم الله عز وجل، وقرعهم، لأنهم بدل أن يكون هذا اليوم يوم عبادة، وتفكر، وذكر، وتلاوة، وعمل صالح، استخدموه لتحقيق مصالحهم الدنيوية، فإذا أجبر واحد صانعه على عمل يوم الجمعة يكون آثماً واللهِ، يقول : يا أخي عندنا موسم الآن! أي موسم هذا؟ كذلك في الآخرة موسم، هذا يوم موسم للآخرة، أجبر صانعه على البقاء في المحل، وإذا منعه أن يصلي الجمعة ؟ فإثمه أكبر !!

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(124)ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

الحكمة في الدعوة :

دخل أحدهم على أمير فقال : " إنني سأعظك بغلظة، كان الأمير أفقه منه، قال له : ولِمَ الغلظة يا أخي؟ إن الله أرسل من هو خير منك، إلى من هو شر مني، أرسل موسى إلى فرعون، فقال له :

(فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه : 44)

من معاني الحكمة :

من معاني الحكمة الكلام المحكم، كلام صحيح، كلام غير صحيح خرافة، قصة غير صحيحة، تفسير فيه شطحة مثلاً، حديث ضعيف، حديث موضوع، قصة سمعناها ليس لها أصل، فيها خرق لآيات القرآن الكريم، هذا ليس حكمة، أنت تدعو إلى الله، فيجب أن تدعو إليه بالحكمة، من معاني بالحكمة الكلام المحكم، القطعي الثبوت، القطعي الدلالة، كلام محكم، آية محكمة، هذا تفسيرها، أجمع العلماء على هذا التفسير، هذا تفسير الجمهور، حديث صحيح من الكتب الصحيحة، هذا تفسيره، قصة وردت في القرآن، قصة محكمة، آية كونية أشار إليها القرآن، محكمة، لا تحدِّث بكلام خرافات، أحاديث

ضعيفة، موضوعة، قصصاً غير صحيحة، لا تنقل شيئاً غير متأكد منه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[أخرجه مسلم عن خبيب بن عبد الرحمن]

لأنه توجد قصة غير صحيحة، هذه فيها طعن بآية قرآنية، هذه القصة خرافة، هذه القصة تعطل همة الإنسان .

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ)

أي : بالقول الحكيم، المسدد، الصحيح، القطعي، هذا معنى .

ومعنى بالحكمة؛ يعني اختر الوقت المناسب، أضاع أحدهم غرضاً مهماً قال: انظر آية!! يقول لك: الآن اذهب عني أي آية، انتق الوقت المناسب، عندما يكون صافياً، مرتاحاً، شبعان، نائماً، قل له كلمة، لكنه مشغول، عنده فحص، عنده عمل، مهموم بقضية، انصحه الآن، يقول لك: لست فارغاً الآن يا أخي، اختر الوقت المناسب، اختر العبارة اللطيفة، أخي أنت بهذا العمل كافر، أتدري معنى كافر؟ من كفَّر إنساناً فقد كفر، من أنت حتى تكفره؟ يا أخي هذا العمل غلط، قل له: غلط، لا تقل له: كافر، قل له: هذا العمل خلاف القرآن الكريم، أنت رجل مسلم، ذكره بأنه مسلم، والمسلم يطيع الله عز وجل، أنت من أسرة راقية، هناك آخرة، هناك حساب، هناك إله يحاسب، ادع بالحكمة، اختر العبارة المناسبة، اختر الوقت المناسب، اختر المكان المناسب، رأيته قاعدًا في مكان عام وسيارات عامة وازدحام، انصحه ؛ المكان لا يناسب، هناك أماكن غير مناسبة للدعوة إلى الله عز وجل، اختر مكاناً مناسباً، وقتاً مناسباً، عبارة مناسبة، لا تكن قاسياً .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

(سورة آل عمران : 159)

لا تقل له: كذاب، قل له: أعتقد هذا الكلام غير صحيح، أنا لي قناعات أخرى، يا أخي كذاب! هذه ليست حكمة، لا تعطه كل أخطائه، يقول لك : لم أعد أريد هذا الدين، أنت غلطان في هذه وتلك، وهذه معصية، وهذه كبيرة، لا تعطه قائمة، أعطه واحدة فقط، اتركه الآن، حدثه عن الله عز وجل، ثم لا تحدثه بشيء فوق مستواه :

((حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟))

[أخرجه البخاري عن علي]

أترى هذا الكأس؟ هذه ذرات تدور! يقول له: ما هذا الكلام؟ فهو غير دارس، هل أنت مجنون؟ هي فعلاً ذرات تدور، نترونات، وبرتونات، وكهارب، ومدارات، شيء لا يصدق!! قل هذا الكلام لمن معه

بكالوريا، معه كفاءة، سمع ما هي الذرة، أما غير المتعلم فيُمنع إطلاقاً، حتى لا يكذبك، ويقول: إن كلامك غير معقول .

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ)

اختر الكلام المناسب، المستوى المناسب، الوقت المناسب، العبارة المناسبة، المكان المناسب، الزمان المناسب، لا تكن قاسياً، لا تكفّر الناس، لا تقل له: أنت غارق في المعاصي، أنت ليس فيك أمل، إلى جهنم، دفعة واحدة، لا، هذا ليس كلاماً حكيماً، أنت هدفك أن تحطمه ؟ أم هدفك أن تهديه إلى الله عز وجل؟ خذ بيده، تلطف به، ورد أنه: إذا قال العبد: يا رب وهو راكع، قال الله: لبيك يا عبدي، وإذا قال: يا رب وهو ساجد، قال لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو عاصٍ قال: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك .

عن أنس بن مالك قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[أخرجه الترمذي]

ما معنى غفور رحيم؟ لكن بشرط التوبة، بشرط الاستقامة بشرط الإقلاع عن الذنب، والندم عليه .

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

حقيقة الدعوة بالموعظة الحسنة :

أحياناً تجد مخالفة بسيطة جداً، كطفل جالس في الصلاة، ما نصب قدمه اليمنى، ينهره أحدهم، الصلاة ليست هكذا! هذا جاء إلى الجامع حديثًا، أيحتاج إلى أن تنهره من أجل خطأ بسيط ؟ أهكذا الحكمة؟ تلطف به، أعطه هدية، أكرمه، أثن على صلاته، صلِّ أمامه، قل له : سوف أصلي أمامك يا بني، صلِّ أمامه، إذا صلى طفل إلى جانبك فلا تقل له : ارجع إلى الوراء، دعه يصلي أول صف، ماذا في الأمر؟ هذا طفل، الأطفال أحباب الله، اجعل الجامع شيئاً محبباً له، محبباً جداً، دعه معززاً مكرماً، أكرمه .

قال لي شخص دخل المسجد ليصلي، وهو طفل صغير، ضاع حذاءه فبكى، سمعه رجل فأخذه للسوق، واشترى له حذاءً جديداً، لقيه بعد عشرين سنة، قال له: يا عم أنت سبب صلاتي طوال حياتي، من بعد ما قدمت لي الحذاء ما قطعت الصلاة، هكذا الإنسان، أما أن تقول: الحق عليك، لِمَ لمْ تضعها جنبك؟ لِمَ ولِمَ؟ ضاعت، وانتهى الأمر، فلذلك :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

أحياناً يتعلم الواحد شيئاً من الدين فيأتي إلى أهله؛ هذا عملك كفر يا أبي! هذا الجهاز حرام! وأنتم فسقة؛ ما هذا الكلام؟ أهكذا علموك؟ أن تهاجم أهلك؟ هذا أبوك له حق عليك، لا يأتي بالموعظة معك، بل يأتي بالإحسان! هذا لا يأتي بالعنف، أنت ابنه بالعنف كنت صغيراً أمامه بالعنف أتعلمه أنت؟ صلِّ أمامه بالعنف كن خاشعاً، تلطف معه، اخدمه، بره حتى يلين قلبه لك بالعنف فيقول: والله أنت أحسن مني يا بني، أما أن تقول له: أنت لست ملتزمًا، أنت مرتكب للمعاصي، لا يرجى منك خير فها خطأ شنيع ! أعرف أشخاصاً لا حكمة عندهم، يسببون عليهم ثورة عليهم في البيت، أهكذا المؤمن ؟ يكون سيئ الأدب ؟ هذا لا يكون !!!

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

هذه الموعظة؛ فلا تأتِ بخرافات، مثلاً: ذهب إلى الحج، كان يأكل أموال الناس، وضعوا عنده مبلغاً من المال، وقد حجَّ اثنتا عشرة حجة، جاء الشخص، وقال له: ليس لك عندي شيء ! عنده ابن لم يحج بعد، بريء جداً، قال له: و الله يا أبي أعطاك أمامي، قال له: لا بد أن تحج أنت!! أهذه قصة؟ أتحكى هذه؟ ما مغزاها؟ معنى ذلك: أن كل من حج فهو غير مستقيم!! يضحكون الناس بقصص غير صحيحة. الله قال :

(وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

تحكي قصة فيها ظلم؟ إذاً فأين الله؟ تحكي قصة رجل لأنه سيئ، ثم صار في وضع جيد جداً، وأن الله رفع شأنه؟ لأن ماله حرام؟ لأنه جيد صار وراء الناس؟ أهذا توجيه؟ والناس عندهم رغبة أن يعطوك قصصًا خلاف القرآن، لأنه ملتزم بقي بلا بيت ! وصار وراء الناس، ما هذا الكلام؟ هذا كلام الشيطان، الله عز وجل قال :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

(سورة فصلت : 30 - 31)

لا بد أن تنصح الناس، تأتي بقصة لها مغزى عظيم، سيدنا يوسف قال تعالى عنه :

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة يوسف : 23)

صار عزيز مصر، هذه قصة ؛ لأنه استقام، لأنه كان عفيفاً رفع الله شأنه .

سيدنا عمر قال: كنتُ عميراً، فأصبحت عمراً، فأصبحت أمير المؤمنين، لأنه أطاع الله عز وجل، هذه قصة .

سيدنا أبو الدرداء قيل له: يا فلان، بيتك قد احترق، قال: ما كان الله ليفعل، يا أخي احترق، قال : ما كان الله ليفعل، فلما ذهبوا وجدوا كلامه صحيحاً ـ دكان جاره احترقت ـ قال: الذي احترقت دكان جارك، فقال: أعلم ذلك .

هذه قصة، المال الذي تؤدى زكاته يحفظه الله عز وجل، اذكر قصة أن الله يحفظ المال المزكّى، الله يوفق المستقيم، يرفع شأن المؤمن، أما لأنه مؤمن نزل إلى أسفل السافلين! كل قصة مغزاها خلاف كلام الله، فهذا الذي يلقيها شيطان، حتى ييئسك، يقول لك : الله عز وجل يطعم الحلاوة لمن لا أضراس له، يعني أن الله ليس حكيماً ؟ أليس كذلك ؟ هذا مؤدى الكلام، أن الله غير حكيم، الذي يلزم أن يكون معه مال ليس معه مال، الذي لا يلزم أن يكون معه يعطيه مالاً كثيراً؟ أهكذا ظنك بالله عز وجل؟ لا تحكِ قصة مغزاها خلاف كلام الله عز وجل .

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

المجادلة بالتي هي أحسن :

من غير مشاحنات، أنت تكلم برأيك فقط، اعرض الحق عرضاً جيداً، وانتهى الأمر، لا تكره الناس، ولا تقعد تناقشهم، لأن النقاش غير مجدٍ، إذا أردت أن تقنع الناس بشيء فاسلك أي طريق إلا المناقشة، فيها مشاحنة، وجرح كرامة، وهذا لا يصح .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (01-13): تفسير الآيات 1 – 10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-06-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الإسراء :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى

الحكمة من ابتداء السورة بقوله : سُبْحَانَ :

الموضوع متعلق بمعجزة الإسراء، لماذا بدأت هذه المعجزة بقول الله سبحانه وتعالى :

(سُبْحَانَ)

(سُبحان) مصدر بمعنى التنزيه والتقديس والتمجيد :

سبحان اسم ناب مناب المصدر، والمصدر ناب مناب الفعل، قد تقول: أشكرك، هذا الفعل، وقد تقول: شكراً، هذا مصدر ناب مناب الفعل، سبحان اسم ناب مناب مصدر، والمصدر ناب مناب الفعل، أي: سبّحْ، ومعنى سبحْ أي: نزّه، ومعنى سبّحْ أي: مجّد، نزّه ومجد .

السبب وحده لا يكفي لإحداث النتيجة :

ما علاقة التسبيح بهذه المعجزة التي كانت في حق النبي عليه الصلاة والسلام؟ العلاقة أن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الكون، خلقه وفق نظام، وجعل لكل سبب نتيجة، وجعل فيما يبدو لنا الأسباب تؤدي إلى نتائج، لكن الناس بعد أن ألِفوا أن هذه الأسباب تؤدي إلى النتائج، قد يغفلون عن أن مسبب الأسباب هو الله، وأن السبب وحده لا يكفي لإحداث النتيجة، لذلك قد تأتي النتائج من دون أسباب كافية، وقد تكون الأسباب، ولا تحقق النتائج المتوقعة .

إذا وجد السبب ولم يحقق النتيجة المتوقعة، كان هذا دليلاً على أن السبب وحده لا يكفي لتحقيق النتيجة، وإذا كانت النتيجة من دون سبب، معنى ذلك أن السبب ليس له دور حقيقي في إحداث النتيجة، لكن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، هذا يتضح بمَثَل :

الله سبحانه وتعالى جعل توالد البشر عن طريق الزواج، فلا بد من زواج بين رجل وامرأة لتنجب المرأة طفلاً، وهذا هو النظام العام، وهذا هو القانون المفترض، وإذا عطّل الإنسان فكره وتوّهم أن كل زواج يؤدي إلى مولود، عندئذ نجد حالة العقم .

رجل وامرأة، والرجل و المرأة لا ينجبان طفلاً، وقد خلق الله عز وجل آدم من دون أب ولا أم ! وخلق سيدنا عيسى من دون أب، وخلق السيدة حواء من دون أم، إذاً ما كل سبب يؤدي إلى نتيجة، معنى ذلك: أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، وما هذه الأسباب إلا قرائن رافقت النتائج، لكنها ليست هي الخالقة .

ثمة مَثَلٌ ضربه علماء التوحيد: أن مصباحاً كهربائياً موصولاً بشريط، والشريط ينتهي بمفتاح، والمفتاح بيد رجل، وهناك مفتاح كهربائي ليس موصولاً بالمصباح، جاء شخص اقترب من المفتاح، وضغطه فتألق المصباح، توهم هذا الداخل أنه هو الذي أشعل هذا المصباح، هذا العمل تكرر كلما وضع يده على هذا الزر، ضغط الرجل الزر الحقيقي فتألق هذا المصباح، إلى أن اعتقد هذا الإنسان بسذاجة وتوهم أنه هو الذي يشعل المصباح، ذات مرة دخل ووضع يده على المفتاح، لم يتألق المصباح، إذاً: هذه الضغطة على الزر غير كافية لتألق المصباح، وفي مرة ثانية تألق المصباح من دون أن يضغط على الزر، استنتجنا أن هناك جهة أخرى هي التي تشعل المصباح، وما هذا الزر إلا ترافق، كلما تألق المصباح رافق ذلك ضغط الزر .

إنّ السبب وحده غير كاف لإحداث النتيجة، هذا أول معنى، ولذلك فربنا عز وجل من حين لآخر يخرق هذه القوانين، يبطلها أو يعطلها، تأتي النتيجة بلا سبب أي : أبطلها، يكون السبب ولا تكون نتيجة، أي : عطّلها، وأحياناً هذه القوانين تبطل أو تعطل، من أجل أن تؤمن أنه لا إله إلا الله، وأن الله هو الخالق، وأن السبب وحده لا يكفي لإحداث النتيجة .

تعطّل قانون الزمان والمكان في معجزة الإسراء والمعراج :

لذلك أن ينتقل إنسان من مكة إلى بيت المقدس، وأن يعرج إلى السماوات، وأن يصل إلى سدرة المنتهى، وأن يعود إلى مكة في جزء يسير من الليل، هذا فوق طاقة البشر، لا يمكن أن يُحْدِثَ هذا إلا خالق الكون الذي بيده أن يعطل قوانين المكان والزمان، فالزمان له قانون، والمكان له قانون، الله سبحانه وتعالى عطّل قانون المكان، وقانون الزمان، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام، وانتقل بجسده

الطاهر وبروحه الشريفة من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى السماء، فالانتقال من مكة المكرمة إلى بيت المقدس إسراء، والانتقال من بيت المقدس إلى السماوات العلا معراج .

إذاً: جاءت كلمة

(سبحان)

أي نَزّه هذا الرب، وعظّمه، ومَجَّدَهُ، فهو الذي بيده كل شيء، بيده المكان، ولو شاء لألغى قوانين المكان، وبيده الزمان، ولو شاء لألغى قوانين الزمان، إذاً : (سبحان) تعني ما أعظم الخالق الذي بيده كل شيء، الأسباب صور، والنتائج صور، وهو كل شيء .

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : 10)

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : 17)

لا يحدث شيء إلا بأمر الله وعلمه وقدرته وتقديره .

إذاً: مناسبة أن تأتي كلمة (سبحان)في مطلع سورة تشير إلى معجزة تمت للرسول عليه الصلاة والسلام بانتقاله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن المسجد الأقصى إلى السماوات العلا، في جزء يسير من الليل، هذه معجزة فيها خرق لقوانين المكان والزمان، ولا يستطيع أن يفعلها إلا خالق الكون، وخالق المكان، وخالق الزمان .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

سبّح أيها القارئ، أيها المؤمن، أيها المسلم، ونَزِّه وَمَجِّد وَعَظِّم .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

معنى : أَسْرَى :

أسرى، يقال : سرى وأسرى، سرى مشى في الليل، سرى مشى في آخر الليل، وأسرى مشى في أول الليل، فإذا قال الله سبحانه وتعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

كان المعنى: أنه أسرى بعبده ليلاً .

معنى : لَيْلاً :

المعنى الأول :

لماذا جاءت كلمة ليلاً؟ العلماء قالوا: جاءت كلمة ليلاً لتؤكد أن الإسراء تم بالليل! كأن تقول :

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

(سورة النحل : 51)

إله تعني أنه واحد، إلهٌ مُفْرَد، لكن تأكيداً على أن المطلوب ليس معنى إثبات الألوهية، بل المقصود إثبات الألوهية والوحدانية .

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

اثنين توكيد، وواحد توكيد .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

تأكيد على أن هذه المعجزة تمت في الليل، أما كلمة ليلاً جاءت نكرة، ودليل أنها نكرة جاءت مُنَوَّنَة ليلاً، وهذه إشارة إلى أن هذه المعجزة تمت في جزء، هذا التنكير تنكير تبعيض، وهناك تنكير شمول، أو تنكير تمكين، هذا التنكير تنكير تبعيض، أي: لم تستغرق هذه المعجزة الليل كله لا، ليلاً، أي في جزء يسير من الليل .

كأن تقول :

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا)

(سورة الكهف : 58)

الرحمة معرفة بأل، أو تقول :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : 159)

أي: كل ما في قلبك من الرحمة يا محمد ما هو إلا جزء يسير من رحمة المولى القدير .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا)

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

في جزء يسير من الليل انتقلت في البيت الحرام من المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى، إلى السماوات العلا، وعدتِ ولا يزال الفراش ساخناً! هذا أول معنى .

المعنى الثاني :

لماذا قال الله عز وجل :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

أن الليل جاء ليؤكد أنه وقت المناجاة والتجلي والاتصال، وبعض العارفين بالله كان يناجي ربه : يا رب، قد هجعت الطيور إلى أعشاشها، وأغلقت الملوك أبوابها، وآوى كل حبيب إلى حبيبه، وأنا واقف ببابك، أرتجي جنابك يا رب .

الليل وقت المناجاة، ووقت الاتصال، ووقت التهجد، ووقت الإقبال والتضرع، سبحانك لا يطيب الليل إلا بمناجاتك، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك، لا تطيب الدنيا إلا بذكرك، ولا تطيب الآخرة إلا ببرك.

إذاً أول معنى: أن الليل تأكيد إلى أن الإسراء تم في الليل .

والمعنى الثاني: أن ليلاً المنكرة تنكير تبعيض دليل على أن هذه المعجزة التي تحتاج إلى سنوات وسنوات تمت في جزء يسير من الليل !

القمر يعد أقرب شيء للأرض، يكاد القمر والأرض يكونان كوكباً واحداً ! القمر يبعد عنا ثانية ضوئية، فإذا تألق ضوء في القمر وصل إلينا في ثانية واحدة، والشمس تبعد عنا ثماني دقائق، والمجموعة الشمسية قطرها ثلاث عشرة ساعة، وطول درب التبانة مئة وخمسون ألف ثانية ضوئية، وبعض المجرات تبعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية !

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

هذا القمر الذي يعد هو والأرض ككوكب واحد، يبعد عنا ثانية ضوئية، والمركبة التي توجهت إليه بقيت ثلاثة أيام بلياليها منطلقة إليه بأقصى سرعة ركبها إنسان، سارت أربعين ألف ميل في الساعة! والطائرة الحديثة جداً سرعتها ألف ميل، طائرات وركاب فسارت ألفًا، وبعضها ستمئة، بعضها تسعمئة، الحديثة ألف، أما هذه المركبة فتسير أربعين ألفاً في الساعة! ومع ذلك احتاجت هذه الرحلة إلى ثلاثة أيام! أما النبي العدنان عليه الصلاة والسلام فأسري به من مكة، إلى بيت المقدس، إلى السماوات العلا ذهاباً وإياباً وعودة، والفراش لا يزال ساخناً، وعُطِّلت قوانين الزمان، وعُطِّلت قوانين المكان، ولا يفعل هذا إلا الواحد الديان !

لا يوجد جهة أخرى، مهما كنت ذا قيمة وشأن فمن دمشق إلى حلب بالسيارة تقطعها في أرع ساعات أو ثلاث ساعات، هذه طاقة البشر، في الطائرة نصف ساعة، وهل تستطيع أن تكون في ثانية بحلب؟

كن من تكون فلن تستطيع ذلك! لا يخرق هذه القوانين إلا الله سبحانه وتعالى .

إذاً :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

السرُّ في وصف النبي بمقام العبودية :

أما كلمة (عبده)فهي أكمل المخلوقات خُلُقاً وعِلماً، وأكملهم عبودية! وأعلى مرتبة ينالها الإنسان على وجه الأرض أن يكون عبداً لله، إذا كمل علمه كملت عبوديته، وإذا قال: أنا فهو جاهل، من أنت؟ كنت لا شيء، فأصبحت به خير شيء، في الورى قد طبعك، إذا قال: أنا ذاكرتي قوية، فالله عز وجل قادر في لمح البصر أن يجمد قطرة دم في بعض شرايين المخ فيفقد ذاكرته! وإذا قال: أنا محاكمتي قوية، جمعت أعلى مجموع في الشهادة الثانوية، فالله عز وجل قادر أن يقوم بانفجار في بعض شرايين المخ فيصبح مجنوناً ونزيلاً في بعض المستشفيات العقلية! وإذا قال: أنا قوي أحمل كذا كيلو، وحَصل على رقم أولمبي مثلاً، فممكن أيضاً بشريان آخر تأتيه خثرة دموية فيغلق فيصاب الإنسان بالشلل!

أفضل مقامات العبد مقام العبودية :

إذاً: كمال علمك، يؤدي إلى كمال عبوديتك، وكمال خلقك يؤدي إلى كمال عبوديتك، إذا عرفت نفسك حقيقة فأنت عبد لله، ثلاث كلمات مهلكات: أنا، ولي، وعندي، قال إبليس :

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

فأهلكه الله عز وجل .

وقال قارون :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص)

وقال فرعون :

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الزخرف)

فكلما ارتقى علمك اقتربت من العبودية، وكلَّما ارتقت نفسيتك اقتربت من العبودية، فإذا بلغت قمة الكمال البشري فأنت عندئذ لا تزيد على أن تكون عبداً لله، وإذا كنت عبداً لله رفعك الله، وأعزك الله، وأمدك الله، وأغناك .

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

إذا كنت عبداً لله فأنت عزيز في الدنيا والآخرة، وإذا كنت عبداً لله فأنت غني بكل ما تعني هذه الكلمة، تحس بالغنى والغنى ليس عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغِنى غِنى النفس، لذلك :

اجعل لربك كل عز ك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزك ميت

***

كلمة (بعبده)أي: كلما تعمَّقْتَ بالتوحيد اقتربت من العبودية، والعبودية تعني أنك مِنْ أعز الناس، ومن أكرمهم، وأرفعهم شأناً، وهل في الأرض كلها إنسان أعزه الله كهذا النبي العظيم ؟

قال لي أخ كريم: إنه تمكن قبل سنوات بقدرة قادر، وبشكل غير طبيعي أن يدخل الحجرة النبوية! وأن يغسلها بنفسه! وقيل له: إياك أن تتلف هذه المناشف التي نشفت بها الحجرة، فهذه مباركة، فهذه الحجرة النبوية يتشرف الملوك بتنظيفها! فما قولك بصاحب هذا المقام المحمود والحوض المورود، والشفاعة العظمى؟

هذا من الحمق فتنبَّهوا :

إذا كنت أنت عبداً لله يرفع لك ذكرك، ويرفعك في العالمين، وكلمة عبد أرقى كلمة يوصف بها إنسان! أي: عالم، فلأنه عالم أصبح عبداً، ولو كان متكبراً لكان جاهلاً، فلو قال: أنا، معنى ذلك أنه أحمق وجاهل، لا يفهم شيئاً، ولو قال: عندي، فهذا أحمق، ولو قال: لي فهو أحمق، ولو قال: أنا أفعل كذا، فهو أحمق، إلى أن يقول: لا إله إلا الله، وأنا عبد الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي الله، ونعم الوكيل، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ولا معطي يا رب لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا رافع إلا أنت، ولا خافض إلا أنت، ولا رازق إلا أنت .. فعندئذٍ أنت عبد لله، وإذا عرفت حجمك الحقيقي رفعك الله في الدرجات العلا، وأمدّك الله بمددٍ من عنده .

أي مصلحة إذا قال صاحبها: أنا فَهِمٌ، فلا بد من أن يرتكب حماقة تسحقه، أو لا يوجد مثلي طبيبًا، أو لا يوجد مثلي مهندسًا، أو أنا أنفرد في البلد بهذه الخبرة ... فعندما يقول : أنا، فهو أحمق ! ولا يعرف أن كل ما يملكه بإذن الله عز وجل، فلذلك كلمة (عبد)تعد قمة العلو البشري .

يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سدرة المنتهى قال: يا رب، اجعلني عبدك، اجعلني متمثلاً صفات العبودية الحقّ، فالمؤمن متواضع يعرف حده فيقف عنده، ولا يتعدى حدوده، لا يدَّعي ما ليس له، لأنه عالم أصبح عبداً، فالعلم يقودك إلى العبودية، والعبادة أرقى درجات العمل، وأرقى درجات العلم أن تقول: لا إله إلا الله، وأرقى درجات العمل أن تعبد الله، ولذلك فالأنبياء جميعاً ملخص دعوتهم :

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة الأعراف : 59)

وهذه آية متكررة جدا .

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون : الآية 32)

ونهاية العمل أن تعبده، ونهاية العلم أن ترى أن لا إله غيره، لا إله إلا الله فاعبده .

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

لا يوجد إله غير الله عز وجل .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

شرفُ إضافة العبد إلى ربِّه :

بعبده، الهاء ضمير غائب يعود على الله سبحانه وتعالى، هل من تشريف أعظم من أن يضاف العبد إلى سيده؟ ومن أن يضاف إلى خالقه؟ ومن أن يضاف إلى الذات العلية ؟ وإلى صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، وإلى واجب الوجود، وإلى الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وإلى رافع السماوات بغير عمد بعبده، ولذلك عندما يكون قلب الإنسان صاحياً ويقرأ قوله تعالى :

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الزمر : 53)

أنت نُسِبْتَ إلى الله عز وجل، وأضِفْتَ إليه .

هذا الضمير المتكلم الذي يعود على الله عز وجل، إذا أضيف العبد إليه فهذا تشريف ما بعده تشريف، وإذا قال لك شخص رفيع المقام: هذا موظف عندي، وهذا لمكتبي الخاص، وهذا أقرب الموظفين إلي، وهذا أعلى مقام، أي أضيف هذا الإنسان إلى هذا الإنسان العظيم، فكيف بالمولى الكريم ؟

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

الكعبة مسجد حرام أصالة ومآلاً :

والكعبة كان فيها أصنام، فكيف سميت مسجداً؟ هذا سؤال، والأقصى كان هيكل سليمان، ولم يكن مسجداً، ولم يكن يوجد قبة، ولا محراب، ولا آيات، كما هي الحال اليوم، فكيف سماه الله مسجداً؟ والعلماء قالوا: المسجد مكان السجود، والأصل أن هذه الكعبة المشرفة بناها سيدنا إبراهيم لتكون مسجداً لله عز وجل طهوراً، هُدِمَت، ووُضِعَ فيها الأصنام .

وشيء آخر، اسمها على أصلها، أصل هذا المكان بني ليكون مسجداً لله عز وجل، وهيكل سليمان عليه السلام بني ليكون مسجداً لله جلّ وعلا .

إذاً: سمى الله عز وجل هذا المكان مسجداً .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

معنى : الحرام :

و معنى الحرام أن هذه الكعبة المشرفة، ومكة المكرمة، جعلها الله بلداً حراماً، يحرم القتال بها في الأشهر الحرم، ويحرم الصيد فيها، ويحرم قطع النبات فيها، لأنها بلد مقدس، ومن أجل أن تكون أمناً للناس، ومثابة، وكذلك المسجد الأقصى، المسجد البعيد، تقول : الشرق الأدنى، والشرق الأقصى، والمسجد الأقصى أي : المسجد البعيد عن أهل مكة، هنا يوجد إشارة إلى أن هذه معجزة .

(مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

بلاد الشام هي مَن حول المسجد الأقصى :

قالوا : حوله بلاد الشام، لذلك ورد في بعض الأحاديث :

((الشام صفوة الله من أرضه، وفيها صفوته من عباده، الداخل إليها فبرضائي، والخارج منها فبسخطي، طوبى لمن له فيها مربض شاة))

[أخرجه الحاكم في المستدرك، والطبراني في الكبير عن أبي أمامة]

مربض شاة، أي نصف هذه الطاولة، وكأن عمود الإيمان كما قال النبي العدنان عُمِدَ به إلى الشام في آخر الزمان، وما هذه المجالس الطيبة ... إلا دليل أن الله سبحانه وتعالى خصها بعنايته، وحفظها من كل سوء، فطوبى لمن له فيها مربض شاة :

((الشام صفوة الله من أرضه، وفيها صفوته من عباده))

لكن حتى لا يعتقد الإنسان أن دمشق بالتحديد، بل بلاد الشام المقصود بها هذه البلاد التي حول المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، ليس معنى هذا أن كل شيء موجود، الإنسان قد يكون عزيزاً على إنسان آخر، وهو في العناية المشددة، لأنك عزيز على أبيك، فباركنا حوله، القصد إذا كان هناك ضيق فبسبب أن يندفع الإنسان إلى المولى جلّ وعلا، جاء في بعض الآثار: " أن أوحى ربك إلى الدنيا أن تَمرري، وتكَدَري، وتضَيقي، وتَشَددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي " .

(الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)

البركة عامة ، دنيوية وأخروية :

وقد تكون البركات أخروية، ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان، قد يتوهم الإنسان أن البركات دنيوية، طبعاً هناك آيات أخرى، قال الله عز وجل :

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هو : 84)

العلماء فسروا هذه الآية أن الخير يعني وفرة المواد، ورخص الأسعار، ولكن ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان، قد تأتي شدة فترقى بها إلى المولى جلّ وعلا فهذه خير، ومحض خير، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، فالعطاء من العباد منعٌ، والمنع من الله إحسان !

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة : 216)

والإنسان أحياناً يخسر ماله كله، ويقول لك: لم يبق شيء! احترق محله، من أجل أن تنهمر من عينيه دمعة واحدة يندم بها على بعض المعاصي، إذا انتهى فَقْدُ المال كله بتوبة نصوح، فقد ربح ربحاً كثيراً .

((أحد أصحاب رسول الله اللهم صل عليه في طريق الهجرة ألقي القبض عليه، فترك في مكة مالاً كثيراً، فمن أجل أن ينجو بحياته، ويلتحق بالنبي الكريم قال لهم : إذا دللتكم على مالي في مكة أتدعونني؟ قالوا: نعم، فدلهم على ماله كله! ونجا بجسده إلى النبي الكريم، وحينما وصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام حدثه بما جرى، فقال عليه الصلاة والسلام: ربح البيع أبا يحيى))

[الحاكم في المستدرك عن صهيب]

غير أنه ضيّع كل ماله، لكنه نجا، وكسب دينه وآخرته، لذلك من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً!

ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، إنسان من دون شدة مستحيل، الشدة دليل، وامتحان لا بد منه .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

(سورة العنكبوت)

ولا بد من شدة، فبالشدة تظهر على حقيقتك، إن كنت مُدَّعياً يظهر ذلك، وإن كنت مخلصاً يظهر ذلك، فلذلك ربنا عز وجل يقول :

(الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)

المعراج إراءة الآيات للنبي خاصة بعد الشدة والضيق :

ولدي هنا سؤال! (لنريه)، إذاً هذه المعجزة خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءت بعد سنوات عجاف، بعد امتحان مرير، توفي عمه أبو طالب، وتوفيت زوجته خديجة رضي الله عنها، وكانت مؤنساً له، وخير زوجة مخلصة له .

وحينما انتقل النبي عليه الصلاة والسلام في أيام الفتح إلى مكة ما بقي في مكة إنسان إلا ودعاه إلى بيته، أبى ! وقال : انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة! وفاءً لها . عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذُكِرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، قَالَتْ : فَغِرْتُ يَوْمًا ! فَقُلْتُ : مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ ! قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا، قَالَ : مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ))

[مسند الإمام أحمد]

لا ينسى لها ذلك، كان وفياً، وهذا هو الوفاء، وكانت تكبره بخمس عشرة سنة، كانت بعمر أمه، هذا الوفاء: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة ، فإذا كان أحدكم متزوجاً امرأة أكبر منه أو بعمره إذا مرضت يتفاءل، ويقول في نفسه: سأتزوج غيرها، يتفاءل، يا ليتها كانت القاضية! أما النبي الكريم فكان وفياً، عليه أتم الصلاة والتسليم .

إذاً: (لنريه)بعد الشدة والضيق، والمعارضة والصد، والتآمر من قبل قريش، بلغ الخط البياني الحضيض، فجاء الإسراء والمعراج تسلية لهذا النبي العظيم، وإكراماً له، وتعريفاً بمقامه، وتعريفاً له بأنه سيد الأنبياء والمرسلين، وما كان يعرف ذلك قبل هذا التاريخ!

وحينما صلّى بالأنبياء على بعض الروايات في بيت المقدس عرف أنه سيد ولد آدم ولا فخر، وعرف أنه سيد المرسلين، وانه إمام المرسلين، وأنه المخلوق الأول .

(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)

(سورة الزخرف)

أول عابد لله عز وجل هو النبي عليه الصلاة والسلام، يا أول خلق الله، ليس أولية زمنية، بل أولية مقامية، من حيث المقام، أول خلق الله.

(الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

والله سبحانه وتعالى أطلع هذا النبي الكريم على مقامه العظيم، في هذا الإسراء والمعراج فُرضت الصلاة، التي هي معراج المؤمن، بها يعرج إلى الله عز وجل، كلما استقام قبلها، كلما تقرب إلى الله بفعل الخيرات، وكانت صلاته معراجاً له، وكما منَّ الله على هذا النبي العظيم بالإسراء والمعراج منَّ على سيدنا موسى بالكتاب .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا

الله يمتنّ على موسى بإنزال التوراة عليه :

مننا عليك، وعلى موسى، عليك بالإسراء والمعراج، وعلى موسى بالكتاب .

(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا)

فحَوَى الكتاب أن تعبد الله وحده .

(أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا)

لا تعتمد إلا على الله ، ولا تعبد إلا الله :

ألا تتخذ من دونه جهة تعتمد عليها، أو تركن إليها، أو تلجأ إليها، أو تقصدها، أو تطيعها.

(أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا)

أي: ألاّ تتخذوا من دوني رباً لكم، فربكم الله ولا رب سواه، ومن تضعضع أمام شخص ظاناً أنه ينفعه أو يضره أو يعطيه أو يمنعه، فقد اتخذه رباً، وقد أشرك بالله رب العالمين، لذلك من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه .

وشيء آخر: اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير، ولا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، له رب، وهذا الرب بيده كل شيء، مطّلِع عليك، وكلما اعتمدت عليه أكرمك، وكلما التجأت إليه حماك .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب نا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

و لذ بحمانا واحتم بجنابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

(أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا)

أي : رباً تدعونه، وتلوذون به، وتلتجئون إليه، وتحرصون على رضاه، لا إله إلا الله ولا رب سواه .

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ)

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ

نحن من ذرية مَن حملهم نوح في الفلك :

هذه الكلمة منصوبة، يا ذرية من حملنا مع نوح، أيها البشر نحن جميعاً ذرية من حملنا مع نوح، فسيدنا نوح هو الذي نجا، والذين آمنوا معه من الطوفان الذي عمّ الأرض، ولذلك لم ينج من طوفان نوح إلا سيدنا نوح ومن معه، ونحن ذرية له .

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ)

يا ذرية من حملنا مع نوح، يا أيها البشر الذين منَّ الله عليكم، وأنجاكم من الطوفان، وجعلكم أحياء، وخلقكم، وأوجدكم من العدم .

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

نوحٌ العبد الشكور، فكونوا يا ذريته من أهل الشكر :

كونوا كنوح شاكراً .

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

ما لكم لا تشكرون ؟

(إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

ما لكم لا تعترفون؟ ومالكم لا تطيعون؟ ومالكم لا تحبون ؟

(إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

يا ذرية من حملنا مع نوح إن جدكم نوح كان عبداً شكوراً، فماذا تفعلون أنتم ؟

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا

هذه الآية لا تتناقض مع مبدأ الاختيار :

الحديث الآن عن بني إسرائيل: هؤلاء في علم الله وهم مختارون، لا يتناقض أن الإنسان مختار، وأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما سيكون؟ الإمام علي كرم الله وجهه يقول: " علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون "، الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يعلم بلا كيف، والإنسان مخير، علم الله عز وجل لا يؤثر في اختياره .

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ)

عادة اليهود الفساد والعلوّ :

أول مرة، وثاني مرة .

(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

علوّ الاستكبار، علوّ الظلم، علوّ أن يبني الإنسان مجده على أنقاض الآخرين .

(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا(4)فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا)

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ

من سنن الله تسخير عباد لوقف الفساد ، أو العلاج بالمصائب :

الله عز وجل إذا حصل الفساد يقيض لهذا الفساد رادعاً، يقيض علاجاً، والعلاجات أنواع، قد يكون العلاج في الزلزال! وقد يكون العلاج في الفيضان! وقد يكون العلاج في جدب الأرض، وشحّ السماء! قد يكون العلاج في الطوفان، وفي المرض الشديد، وفي الفقر الشديد، وقد يذيق الله عباده بأس بعضهم بعضاً، وهذا أحد أنواع العلاج !

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

هذا علاج .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : 65)

فهؤلاء بنو إسرائيل بعد أن فسدوا، وطغوا، وعدوا، وتمردوا، وعلوا علواً كبيراً، فبعث الله عليهم عباداً لنا .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا)

أي بأمرنا وبتوجيهاتنا وبعلمنا عباداً لنا،

(أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا)

فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا

قتلوا من قتلوا، ونهبوا ما نهبوا، وسفكوا الدماء، وانتهكوا الأعراض، فَسُحِق بنو إسرائيل .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا)

جاسوا أي : داسوا، هذا الوعد قد نُفّذ .

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ)

بعد أن جاءت هذه المصيبة الساحقة وهذا الابتلاء العظيم، وهذا القهر تاب هؤلاء، ورجعوا واستقاموا .

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ)

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ

الحياة تحوّل وتغيير ، ولا تستقيم على حال واحدة :

أعاد الله لهم ملكهم ومجدهم وغناهم، ورزقهم من الأموال والأولاد ما تقر به العيون .

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)

الحياة كر وفر، البطل الذي إذا جاءته الدنيا لا يطغى، لأنه إذا طغى سوف يقهره الله سبحانه وتعالى، البطولة أن تكون مع الله وأنت في الرخاء، وأنت في أوج نجاحك، وأنت في أوج صحتك، وأنت في أوج وقوتك، وألا تنسى الله عز وجل، فهذه هي البطولة، أما كل إنسان ضيق الأفق أعمى، إذا جاءته الدنيا، وأصبح قوياً ينسى فيطغى، فيأتيه تأديب الله عز وجل، ضربة قاضية، فهذه سنّة الله في خلقه، يعطي الدنيا، يعطي الأموال، ويعطي الأولاد، والقوة، والخيرات من كل جانب، وهذا الإنسان يعلو فيعلو، فينسى، ويطغى، ويفسد، ويتجبر، ويظلم، فتأتيه ضربة الله القاصمة، فيتوب! ومادام قد تاب يعود الله إلى إكرامه، فإذا رجع إلى معصيته جاءه العلاج، أبداً، إن لكل سيئةٍ عقاباً، ولكل حسنةٍ ثواباً .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص)

إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني .

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

الظالم سوط الله، ينتقم به، ثم ينتقم منه .

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

هذا ملخص الآية :

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا(6)إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ)

هذا مبدأ عام، إذا وضع إنسان في الصندوق أموالا، والصندوق مفتاحه معه، وهو ملكه .

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ)

إنْ أحْسَنتُمْ أحْسَنتُمْ لِأنفُسِكُمْ

إنْ عملت صالح فلنفسك ، وأسأتَ فعلى نفسك تجني :

تستقيم لنفسك، تترفع عن المال الحرام لنفسك، تغض بصرك عن محارم الله لنفسك، وسيكون الزواج سعيدًا، تنظر إلى الحرام فزواج شقي! تكسب مالاً حراماً فيدمر المال، تكسبه حلالاً فينمو، تكون صادقاً يرفعك الله عز وجل، تكذب يَحُطُك، تكون أميناً يغنيك، تخون يفقرك، تزني يزنى بزوجتك، من يزن يُزنَ به! تنظر ينظرون إلى زوجتك، تلمس يلمسون، أبداً، حساب دقيق، إن أحسنتم تفكر بالكون، وتتعرف إلى الله عز وجل، وتعيش حياة سعيدة، وتلتفت إلى الدنيا يأتي خريف العمر ويحمل معه الشقاء الكبير .

(إنْ أحْسَنتُمْ أحْسَنتُمْ لِأنفُسِكُمْ)

إذا ملك رجل سيارة، وأحضر حجراً وكسر زجاجها، فمن يكون قد آذى؟ ومن غاظ؟ أغاظ نفسه! وإذا اعتنى بها فله، أراحته وأراحها، ووفَّرَت عليه نفقات كثيرة، وإذا أساء لها تسيء له، والقضية بمنتهى البساطة .

(إنْ أحْسَنتُمْ أحْسَنتُمْ لِأنفُسِكُمْ وَإنْ أسَأتُمْ فَلَهَا فَإذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ)

أي : هنالك نوع من الإيلام والإهانة .

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

التتبير هو التخريب والتدمير :

التتبير هو التخريب، والتدمير، أي أن أعدائكم هم الذين سَيُقَيِّضُون بتأديبكم على فسادكم .

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

وسيهدمون كل شيء .

(عَسَى رَبُّكُمْ أنْ يَرْحَمَكُمْ وَإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

عَسَى رَبُّكُمْ أنْ يَرْحَمَكُمْ وَإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا

هذه الآية وحدها تكفي، كأن الله عز وجل يخاطب كل واحد منكم .

(وَإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)

قاعدة مهمة : المعاملة بالمثل :

إن رجعت إلي رجعت إلى إكرامك، وإن نسيتني قيضت لك ما يرجعك، إن رجعت إلي طوعاً رجعت إلى إكرامك ورفع شأنك، وإذا نسيتني وكفرت بي قيضت لك ما يزعجك، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد .

كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك .

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ)

ولم ترجعوا صار الفساد الثاني، ولم ترجعوا سأقيض لكم عباداً لي يقهرونكم ويذلونكم،

(وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

يدمرون كل شيء .

(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ

يوجد آية قرآنية :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية 11)

هذا قانون، والله الذي لا إله إلا هو، لو لم يكن في هذا القرآن إلا هذه الآية لكفت!

رجل وقع في مشكلة لن يغير الله ما به حتى يغير، وحتى يتوب ويرجع إلى الله، ويصلي ويستقيم، ويعمل الصالحات، غيّر حتى يغير، وإذا كنت في بحبوحة وأمن وسلام وصحة وعافية ومكانة، وأنت لم تغير، فالله لا يغير، مهما اشتدت الظروف إن لم تغير فلن يغير غيرت يغير، هذه لها معنى عكسي .

(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

جهنم مكان يُحصَر فيه الكافر :

مكان يحصر به الكفرة، ليس القضية يوجد باب مفتوح وتسلل أحدهم من فوق السور لا يوجد ذلك .

(وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

تحصرهم حصراً .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

لا يوجد آية أبلغ ولا أجمل من هذه الآية :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ

المطبِّق للقرآن سعيد في الدنيا والآخرة :

إن طبقته بزواجك يصبح زواجك سعيداً، وطبقته في صحتك تتمتع بها إلى نهاية الحياة، وطبقته في علاقاتك المالية، ولم تأكل الربا يبارك الله لك في مالك، وطبقته في أمور المعاش في التجارة وفي الصناعة وفي الزراعة .. حيثما طبقت هذا الكتاب يهدك للتي هي أقوم، غضبت من زوجتك فلم تخرجها إلى بيت أهلها، طبقت الآية :

(تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق : 1)

يمر يوم أو يومان فيصطلحان، وينتهي الأمر، بقيتم في مكانتكم العلية، لا في ساعة غضب نسيت الآية، فطردتها إلى بيت أهلها شهرين أو ثلاثة أو أربعة .. أنت امتلأت وهم امتلئوا غيظاً، التفكير أصبح بالطلاق، ولديك أطفال منها، ولا يوجد من يرعى الأولاد، من غلطة واحدة أصبح الطريق إلى الهاوية مفتوحاً، إن طبق القرآن .

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

(سورة النساء : 34)

وتكون أعلى منها علماً وخلقاً وأدباً وصلاحاً، وتنفق عليها وتملك القيادة، فإذا كنت دونها ورعاً وعلماً وصلاحاً، وطمعت بمالها كانت لها القيادة عليك! فالقضية واضحة، هذا قرآن كريم، تجعل نفسك فوقها بمئة درجة تعدّ ظالماً، وربنا عز وجل قال :

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة البقرة)

درجة واحدة، وليس مليون درجة، ليس هي لا شيء، وأنت كل شيء، هي شريكة حياة، لكن القيادة لك.

أحياناً يلتقي ضابطان بالثكنة بنفس الرتبة، الأقدم يقود السرية أو الكتيبة، ربنا جعل الزوج أقدم دائماً، وأعلى درجة .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

فيه توجيهات صحية، فالله عز وجل قال :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

(سورة الأعراف)

هذه الآية تكفي .

ذهب رجل إلى دولة أجنبية، وفي أضخم مستشفى كتب باللغة الأجنبية : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع، التوقيع : محمد بن عبد الله.

قال : هذا الحديث يعد أصلاً في الطب الوقائي، إن طبقت القرآن في الطعام والشراب تقطف ثماره في الدنيا، وإن طبقته في الزواج تقطف ثماره، إن طبقته في التربية تقطف ثماره، وفي العمل وبالتجارة .. وفي أي شيء طبقته قطفت ثماره .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء)

أي للتي هي أصلح .

(وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء : الآية 9)

القرآن يبشِّر المؤمن العاملَ للصالحات بأجر عظيم :

من السعادة الدخولُ في الوعد :

مرة ضربت مثلاً مضحكاً: رجل فقير إلى درجة قصوى، دخله سبعمئة ليرة، عنده اثنا عشر ولداً، بيته بالأجرة في مثل هذه الأيام، له عم غني كبير، ليس له أولاد، توفي فترك ثمانية وخمسين مليوناً! هذه الأموال لهذا الإنسان! وبقي سنتين حتى استطاع أن يقبضها! سنتين بين وفاته وقبضه للمبلغ، هذا الإنسان الفقير هل تغيرت حياته؟ لم تتغير، طعامه تحسن؟ لم يتحسن، بيته غيره؟ لم يغيره، لماذا أصبح سعيداً؟ لأنه دخل في الوعد والأمل .

وهكذا المؤمن بالدنيا، مهما ضاقت دنياه فهو طامع في الجنة، هذا الإنسان الفقير مادام سيأتيه مبلغ ضخم كلما رأى بيتاً فخماً قال: سأشتريه، كلما رأى مركبة فخمة قال : هذه سأشتريها، وكلما رأى شيئاً جميلاً يقرر شراءه، لأنه أصبح موعوداً بمبلغ ضخم، لكن إجراءات قبض المبلغ تستغرق وقتاً، وهذا

المثل لم يقع بل هو من عندي، إنه مثل تركيبي، وليس مثلاً واقعاً، فدخل بالوعد، وأصبح سعيد، وأحد أسباب سعادة المؤمن أن الله عز وجل يعده بالجنة !

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (02-13): تفسير الآيات 10 – 20
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-07-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، إلى الدرس الثاني من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا

الإنسان خُلق عجولا ضعيفا هلوعا :

خلق الإنسان عجولاً، وخلق الإنسان ضعيفاً، وإن الإنسان خلق هلوعاً، هكذا خلق، هكذا فطره الله سبحانه وتعالى، خلقه عجولاً، وخلقه هلوعاً، وخلقه ضعيفاً، ولم يأتِ في كتاب الله من صفات الإنسان إلا هذه الصفات الثلاث .

(وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا)

(سورة النساء)

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(سورة المعارج)

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

(سورة الإسراء)

هذه الصفات الثلاث في مصلحة الإنسان :

لو دققنا في هذه الصفات، لوجدنا العجلة والضعف والهلع في مصلحة الإنسان، فلو أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان قوياً لاستغنى بقوته، ولشقي باستغنائه، فهذا الضعف الذي في الإنسان هو الذي يعينه على أن يتصل بالله عز وجل، وعلى أن يتوب إليه، وعلى أن يُقْبِلَ عليه، وعلى أن يخاف منه، ولولا الضعف لما خاف الإنسان ربه، ولما تاب إليه، ولما أقبل عليه، فالضعف في مصلحته .

إذا عَلَّقْنَا آمالاً كبيرة على أن يربِّي هذا الأب ابنه، كيف يربي الأب ابنه إذا كان الابن مستغنياً عن أبيه؟ لا! حاجات الابن كلها متعلقة بأبيه، يحتاج إلى الطعام والشراب، وإلى تأمين الحاجات، حاجات الابن

الكثيرة التي أودعها الله عند الأب تتيح للأب أن يربيه، فالضعف صفةٌ أودعها الله في الإنسان لمصلحته.

مثل آخر توضيحاً للحقيقة، لماذا يمرض الإنسان؟ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الإنسان من دون مرض، لو أن الله عز وجل خلق الإنسان من دون مرض فلماذا التوبة؟ ولماذا العودة إلى طريق الحق؟ ولماذا الإقلاع عن المعصية؟ ولو أنه شديد عتيد لا يخشى أحداً، صحة طيبة، لكن الأمراض أو شبح الأمراض هذه التي تضعف الإنسان تجعله يخضع لله عز وجل، ويتوب إليه يتضرع إليه، يقبل عليه بسبب أن الإنسان ضعيف، والإنسان أيضاً هلوع .

(الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

(سورة المعارج)

هلعه يجعله يحتمي بربه، كيف يعود الابن إلى أمه متشبثاً بأذيالها؟ لخوفه من الكلب العقور، فلولا خوف الطفل من الكلب لما التجأ إلى أمه، فهذا الهلع في مصلحة الإنسان، أما لماذا خلق الإنسان عجولاً؟ ولماذا كان عجولاً؟ لو كان الإنسان بشكل أو بوضعٍ آخر على نقيض العجلة، لو أنه يبحث عن المستقبل البعيد، لكان في تعلقه بالآخرة منسجماً مع طبيعته، ولما ارتقى بهذا التعلق، بل لأنه عجول، فإذا آثر الآخرة على العاجلة فقد خالف هوى نفسه، وخالف طبيعته، وبهذا يرقى .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

حينما يخالف الإنسان طبيعته يرقى عند ربه، صلاة الصبح فيها مغالبة لطبيعة الجسم، إذ أن طبيعة الجسم تنسجم مع البقاء في الفراش، لكن صلاة الصبح قبل الشمس تحتاج إلى إرادة قوية، أردت من هذا كله أن أصل إلى أن الإنسان حينما يخالف طبيعته يرقى عند ربه، فقد خلق الإنسان عجولاً، وآثر الآخرة على الدنيا العاجلة، بهذا يرقى عند الله عز وجل في الدرجات العلا . فربنا عز وجل يقول :

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

الإنسان يتمنى الشر بحماس كما لو كان خيرا :

أيّ إنسان، المقصود بها جنس الإنسان، ينطلق الإنسان، ويتحمس، ويقبل على الشر بحماس وصدق، وجلد وتصميم وإرادة، كما لو كان الشر خيراً، لأن في الشر كما يزعم مغنمٌ سريعاً، كسب عاجل،

الناس جميعاً تقريباً إذا رأى أحدهم بيتاً فخماً تتوق نفسه إليه، ولو كان تحصيله من حرام، يؤثر هذا البيت في الدنيا العاجلة على جنة عرضها السماوات والأرض ! وإذا عرض عليه مبلغ كبير من طريق غير مشروع يقبل عليه، ويأخذه، ويؤثره على جنة عرضها السماوات والأرض، إذاً هو آثر العاجلة على الباقية، وهكذا طبيعته، فلو أنه فكر، وتأمل، وتبصر، ودقق، وحقق، وحضر مجالس العلم، فلو عرف القرآن الكريم وما عند الله لآثر الآخرة على العاجلة .

إذاً: أن تؤثر الآخرة فهذا يحتاج إلى تفكر وتدبر، وتأمل، وإرادة وتصميم، وعلم وتقوى .

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ)

يتمنى الشر بالحماس والرغبة والإرادة والحرارة، كما لو كان خيراً .

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

إذاً: من خالف طبيعة نفسه ، وآثر آخرته على دنياه ارتقى عند الله عز وجل في جنات عرضها السماوات والأرض، وهذه المعاني الثلاثة: أن الإنسان خلق هلوعا، وأن الإنسان كان عجولا، وأن الإنسان خلق ضعيفا، هذه الصفات الأساسية لمصلحة الإنسان .

كيف أن الآلة الثمينة الغالية، التي نخشى أن يصيبها العطب نضع فيها ممراً كهربائياً ضعيفاً جداً، يعد هذا الممر نقطة ضعف للآلة، لكن هذا الضعف لمصلحة الآلة، فلو جاء التيار شديداً لساحت هذه النقطة، ولانقطع هذا التيار عن الآلة، فصنَّا الآلة من العطب والعطل، وهذا بعض ما في الضعف، وما في العجلة، وما في الهلع، من حكمة أودعها الله عز وجل في هذه الصفات التي أُوجِدَت في الإنسان لمصلحة إيمانه وسعادته في الدنيا والآخرة، فالإنسان أحيانا يدعو بالشر، يريد الدنيا، وفي الدنيا هلاكه، ويريد المال، وفي المال هلاكه، يريد أن يتزوج هذه المرأة، وقد يكون في زواجه منها شقاؤه، يريد أن يعمل هذا العمل الذي يدر عليه مبالغ طائلة، وقد يكون في هذا العمل شقاؤه، ويريد أن يذهب إلى المكان الفلاني حيث المتعة والجمال، والأنس والطرب والبهجة، وفي هذا فساد دينه .

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ)

في العجلة الندامة وفي التأني السلامة :

والله عز وجل يدعونا إليه، وهذا هو التبصر والتأمل، والتحقق والتدبر والتفكر، ولا ينبغي أن نقبل على الشر كما لو كان خيراً، لا ينبغي أن تفرح بمال عريض يوفر لك سعادة الدنيا، يأتي الموت فتخسر كل هذا المال، وأحياناً يستدين الإنسان مبلغاً ضخماً لشراء سيارة، وتحترق السيارة، ويبقى الدين عليه، هكذا الدنيا، يعمل ليلا ونهارا من أجل تحصيل دنيا عريضة ممتعة، يأتي الموت تذهب الدنيا، وتبقى

طبيعة العمل، ويبقى المال الحرام الذي حصَّلَه، فلا تكن ـ أيها الإنسان ـ عجولاً، ففي التأني السلامة، وفي العجلة الندامة، لا تسرع، وتوافق على هذا المال، فقد يكون حراماً، ولا تسرع، وتوافق على هذا الزواج فقد يكون مهلكاً، لا تسرع، وتوافق على عقد هذه الشراكة فقد يكون الشريك منحرفاً، لا تسرع، وتأخذ هذا البيت فقد يكون في أخذ هذا البيت اغتصاب .

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

ينبغي إذا جلسنا هذا المجلس أن نتعظ، فكل درهم من حلال خير من مئة ألف درهم من حرام، لا تكن عجولاً، ولا توافق على الشيء قبل البحث عنه، وهل يرضي الله عز وجل؟ وهل هو مطابق للشرع؟ وهل هو وفق السنّة النبوية المطهرة؟ اسأل أهل الذكر إن كنت لا تعلم، هذا العمل يدر عليَّ مبالغ طائلة، ما قولكم فيه؟ قد يكون هذا العمل مبنياً على إيذاء الناس، أو على إفساد أخلاقهم، أو على بيعهم شيئاً يثير الفساد فيهم .

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

أرجو الله عز وجل أن أكون قد وفقت إلى توضيح أن الإنسان لا ينبغي أن يكون عجولاً وفق طبيعة خلقه، الجسم يحتاج إلى الراحة، وأُمِرتَ أن تصلي الصبح قبل شروق الشمس، لا تستجب لرغبة جسدك، كذلك في العجول، لا تستجب لرغبة نفسك، في أن تأخذ الشيء الحاضر، ولو كان حراماً، وأن تدع جنة عرضها السماوات والأرض، وإن كانت بعيدة المنال!

معنى : وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا

المعنى الأول :

بعض علماء التفسير قال في هذه الآية :

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

أحياناً حينما تأتي إنذارات الله عز وجل، يقول الذين لا يعلمون: ائتنا بعذاب الله! أين عذاب الله؟ ليكن؛ نحن لا نخاف .

المعنى الآخر :

المعنى الآخر لهذه الآية :

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

أي : يستعجل عذاب الله من دون أن يعرف كُنْهَ هذا العذاب، وكيف أنه إذا أقبل لات حين مناص، فالإنسان معرَّض في أمر عمله إلى إغراءات كثيرة، يقول له أحدهم: دعك من هذه المصلحة، هذه فاقورة، أي تسبب الفقر، لنكن معاً في هذه المصلحة، ولكن هذه المصلحة فيها فساد، و إفساد لأخلاق الناس، وكل يوم الغلة ثمانية آلاف !

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

في بيعك، أو شرائك، أو زواجك، أو شراكتك، أو نزهاتك .. لا تختر شيئاً يغضب الله عز وجل، ولا تؤثر الدنيا الفانية على الآخرة الباقية .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

هذه هي العلاقة بين الآيتين : إذا عرفت الله فلن تكون عجولا :

قبل الحديث عن هذه الآية، ما علاقة قوله تعالى :

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

بقوله تعالى :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

هذا هو الهدي الإلهي .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

هذا هو الحال للهدى، الهدى يهدي للتي هي أقوم، فما حال المهتدي؟ هذا المهتدي قد يؤثر الدنيا العاجلة على الآخرة الباقية، وقد يؤثر الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، وقد يؤثر الدنيا القليلة على الآخرة الكثيرة، فما متاع الحياة الدنيا إلا قليل؟ حينما تحدث الله لنا عن الهدي الذي في هذا القرآن، وكيف أن هذا الهدى يقود صاحبه إلى التي هي أقوم، تحدث عن الإنسان المعني بهذا الهدى، فقال :

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

لو أن الإنسان تفكّر في خلق السماوات والأرض لعرف أن خالق السماوات والأرض خلقهم لهدف كبير، وليس لمدة يسيرة، لا يعقل أن تكون السماوات والأرض خلقت من أجل أن نعيش على هذه الأرض ستين عاماً، أو أكثر، أو أقلّ! هناك هدف أكبر من أن تعيش سنوات بعضها في الإعداد، وبعضها في المتاعب، فلو أنك تفكرت في خلق السماوات والأرض لعرفت أن الله عز وجل خلقهم بالحق ! ومعنى بالحق، أي: خلقها لهدف كبير، وخلقها لتبقى، أنت لم تُخْلَق عبثاً .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

وأنك لم تخلق سُدَىً، إنما خُلِقْتَ بالحق من أجل أن تسعد في الدنيا والآخرة، ولذلك فالله عز وجل يلفت نظر الإنسان إلى أنك إذا عرفت الله لم تكن عجولاً، ولم تدع للشر دعاءك للخير، كيف تعرف الله عز وجل؟

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)

معرفة الله من خلال آياته الكونية :

هذه الأرض، وهذه الشمس، لو أن الأرض ثابتة في مكانها لا تدور حول نفسها، لما كان ليل ولا نهار! ولكان نصفها الأول نهاراً سرمدياً، ونصفها الآخر ليلاً سرمدياً، ولكن دورة الأرض حول نفسها جعلت الليل والنهار .

إذاً: الليل والنهار آيتان دالتان على قدرة الله عز وجل، وعلى عظمته وحكمته .

تدور الأرض ليكون وقت الليل والنهار مناسبا :

الآن سرعة الدوران، ماذا نفعل بنهار لا يزيد على ساعة واحدة؟ وماذا نفعل بليل لا يزيد على ساعة واحدة؟ وماذا نفعل بنهار يزيد على مئة ساعة؟ وماذا نفعل بليل يزيد على مئة ساعة؟ كون الأرض تدور حول الشمس، هذه آية، وكونها تدور في سرعة مناسبة لطبيعة الإنسان، هذه آية ثانية، وكون الأرض تدور حول الشمس آية ثالثة، وكون محور الأرض مائلا هذه آية رابعة، دورتها حول نفسها آية، وحول الشمس آية، ومن خلال هذا كله كان الليل والنهار، الليل ذو الأمد المعقول، والنهار ذو الأمد المعقول، والصيف والشتاء والربيع والخريف .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ)

الليل والنهار آيتان فهل فكَّرت فيهما ؟

هل فكرنا فيهما؟ وهل استيقظنا في أحد الأيام على نهار لا شمس فيه؟ فيه خلل فني؟ لم تصل الشمس اليوم؟ هذا الثبات في الليل والنهار منذ مئات ألوف السنين .

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت : 37)

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)

سنة الله في الليل أنه راحة وسكون وهدوء :

الله سبحانه وتعالى جعل الليل مظلماً، كي ننام، وترتاح عضلاتنا، وأعصابنا، وأجهزتنا، وكي ننطلق في اليوم التالي إلى عملنا بنشاط واستعداد كافيين، فالليل من سماته أنه يعيق الحركة لسيطرة الظلام عليه، فلا حركة، ولا نشاط، ولا سعي، ولا كسب في الليل، وطبيعة الليل طبيعة ساكنة .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)

(سورة النبأ)

(فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)

ألغينا الحركة مع إلغاء الضياء، وألغينا الحركة مع الحاجة إلى النوم .

(فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)

لماذا النهار ضياء وإبصار ؟

العلة الأولى : النشاط وابتغاء الرزق :

النهار مضيء، كل شيء تراه في النهار، فالفلاح ينطلق إلى عمله في النهار، والصانع ينطلق إلى معمله في النهار، والموظف إلى دائرته، وكل أصحاب الحرف، وأصحاب المحلات، وأصحاب النشاطات، ينطلقون في النهار .

(فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ)

لتكسبوا رزقكم، الفلاح في أرضه، والعامل في معمله، والموظف في دائرته، والتاجر في متجره، والصانع في مصنعه، وكل إنسان يعمل في النهار بشكل طبيعي هو مرتاح، ومستعد للعمل، والإضاءة تعين على أداء العمل، هذه العلة الأولى .

(لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

معرفة الأيام والسنين والحساب :

والله الذي لا إله إلا هو، في دورة الأرض حول نفسها آية لا يعرفها إلا من عَقَلَهَا! فلو أن طبيعة الأرض لا تدور، وإذا لم تَدُرْ فليس هناك ليل ولا نهار، وكيف تتم حياتنا؟ قد تقول لإنسان: كم عمرك؟ يقول لك: لا أدري والله، متى سوف تفعل هذا؟ لا يملك جواباً! لكن دورة الأرض حول نفسها جعلت ليلاً ونهاراً، وأصبح في الزمن أسبوع وشهر وسنة، ليل ونهار، وأسبوع وشهر وعام .

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

فلان بلغ من العمر أربعة عشر عاماً، وفلان في الصف الثاني عشر، فلولا دورة الأرض حول نفسها لما كان فلان في الصف الثاني عشر، كيف يعرف أنه في الصف الثاني عشر؟ العبادات، أوقات الصلوات، الصيام، الحج، البيوع، التأجير، أخي استأجر هذه الحاجة لعامين، هل يمكن أن تقول: لعامين لولا الشمس والقمر، والليل والنهار؟

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

كل ما نحتاجه مفصَّل في الوحيين :

كل شيء تحتاجونه في أمر دنياكم ودينكم فصَّلناه لكم تفصيلا! كل شيء أنتم في أمس الحاجة إليه في أمر دنياكم: أحكام الزواج، وأحكام الطلاق، وأحكام البيع، وأحكام الإيجارات، وأحكام المضاربة، وأحكام المزارعة، كل شيء تحتاجونه في دنياكم وآخرتكم فصَّلناه تفصيلا، وهذا من نعمة الله علينا، ونعمة الإيجاد، والإمداد، والإرشاد، وكأن الله عز وجل أراد أن هذا الإنسان الذي يدعو بالشر دعاءه بالخير، لو فكر في خلق السماوات والأرض لعرف الله، ولدعا إلى الخير، وترك الشر !

من الذي يدعو بالشر دعاءه بالخير؟ الجاهل، من الذي يأكل مادة سامة؟ هو الجاهل، لو عرفها سامة لما أكلها، فيا أيها الذي تدعو بالشر دعاءك بالخير، تأمل في خلق السماوات والأرض، إذا تأملت في خلقهم لعرفت الله! عندئذ تبحث عما يرضيه، عندئذ تعرف لماذا أنت على وجه الأرض، وتعرف مهمتك في الدنيا، وتدع المعاصي وتفعل الخيرات .

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ

الطائر كناية عن العمل :

الطائر هنا كناية عن العمل! والعمل الذي تفعله اختياراً أنت ملزم به، ويجب أن تتحمل تبعته .

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

مبدأ المسؤولية والتبعية :

عملك الطيب الذي تفعله باختيارك، وعملك السيئ لا سمح الله الذي تفعله باختيارك، هذا العمل سوف يُطَوِّقُ عُنُقِكَ، كناية لطيفة، كيف أن القيد أحياناً يُطَوِّق عنق الإنسان، فلا يستطيع منه فِكَاكًا، إما أنه قلادة من الأحجار الكريمة تزين بها عنقك، وإما أنه قيد تجر به إلى مصيرك، وعلى كلٍّ فعمل الإنسان الذي يعمله باختياره من خير أو شر سوف يكون قيداً يقيد عنقه .

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

هذه الآية تؤكد مبدأ التبعة والمسؤولية .

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة البقرة)

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

كلّ عمل عملتَه طار منك :

والعرب كانت في الجاهلية إذا طار طائر عن يمينها تفاءلت، وإذا طار طائر عن شمالها تشاءمت، فكأن الطير في العرف الجاهلي رمز لما سيصيب الإنسان من خير أو شر، وهنا في الآية الطائر هو العمل، فإن العمل الذي كان في ملكك فطار منك، والإنسان قبل أن يعمل له الحرية؛ يعمل أو لا يعمل، يعصي أو لا يعصي، يفعل الصالحات أو لا يفعل، هذه الأعمال كامنة فإذا فعلها فهو تابع لها! وكأنها طارت منه .

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

هذا العمل يلزم الإنسان ويقيده، ويصبح الإنسان رهينة لعمله .

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

(سورة المدثر)

ولو أن الإنسان عمل عملاً يخالف القوانين والأنظمة يتحمل تبعة عمله، وقد يخسر حريته، وعمله أصبح قيداً له .

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)

كلّ عملك مسجَّلٌ في كتاب تقرأه بنفسك يوم القيامة :

كل عمل تعمله مسجل، وأغلب الظن أنه مسجل مع الصورة !

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ(18)وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ(19)كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

(سورة المطففين)

ومعنى (مرقوم)، أي: مُرَقَّم، ولها معنيان :

مرقم الصفحات، لا يمكن أن تنزع منه صفحة .

ومرقوم: بمعنى أن فيه صوراً من الرقيم، العمل مع صورته ! فما قولكم لو جئنا يوم القيامة، فإذا حياتنا منذ أن أدركنا سن البلوغ وسن المسؤولية إلى ساعة الوفاة؟ كل صغيرة وكبيرة، وكل عمل صالح وسيئ، وكل مخالفة، وكل طاعة، مسجلة مع صورة له !

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)

اقرأ كتابك .

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا

خذ الكتاب وحاسب نفسك بما فيه :

فأحياناً يدخل الموظف إلى مديره العام، شاكياً له، يستدعي هذا المدير موظف الذاتية، ويقول له: ائتني بإضبارة فلان! فتأتي الإضبارة، يفتحها له، باليوم الفلاني تأخرت، وفي صحيفتك توبيخ مسجل، وفي صحيفتك تقرير طبي خلبي غير صحيح، فيلزمه بأعماله كلها، فإذا هذا الموظف ينكمش، ويخجل، ويسقط في يده، هذا مثل .

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا(13)اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

فأنت حاسب نفسك عن هذه الأعمال .

قال لي شخص: ارتكب رجل جريمة، فقال له القاضي: أنت احكم على نفسك! قال: الإعدام! ارتكب جريمة بشعة، قتل فيها أماً وأطفالها، من أجل أن يسرق البيت، فلما وقع في قبضة العدالة، وبدأ قاضي التحقيق يفور ويهمد، وقال له: أنت احكم على نفسك، فقال: أستحق الإعدام !

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

عندما يعود الإنسان إلى فطرته السليمة، ويطَّلِع على عمله المؤذي كأن الله عز وجل يقول له :

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

لذلك إن العار ليلزم المرء يوم القيامة! فمن العار والخزي عندئذ أن يستحق دخول النار .

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

(سورة المؤمنون)

(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

الهدى عائد على صاحبه بالفوز ، والضلال عائد عليه بالخسران :

إذا كان مع رجل ثمن بيت، ووضعه في برميل، وصب عليه الزيت، وأحرقه، ستمئة ألف! من الذي يغتاظ؟ جاره؟ صديقه؟ بل هو نفسه .

(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

الهدى عائد عليك، والضلال عائد عليك، فإن اهتديت فما زدت على أن نفعت نفسك، وإذا ضللت فما زدت على أن ألحقت بنفسك الهلاك في الدنيا والآخرة .

(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

ألم يقل الله عز وجل :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

وأن الإنسان الجاهل يدعو بالشر دعاءه بالخير؟ وإن طريق معرفة الله .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ)

وأن الإنسان محاسبٌ عن عمله حساباً دقيقاً؟

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

وأن الإنسان حينما يعود إلى فطرته السليمة سوف يحكم هو نفسه على نفسه بالنار؟ والآن ربنا عز وجل يقول :

(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)

اعملوا ما شئتم، كل الذي تعمله تجده، كل الذي تفعله من معاصٍ تحاسب عليه، إن لكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

القرآن يقرِّر أصل الاختيار في الإنسان :

هذه الآية أصل في أن إنساناً لن يؤخذ بجريرة إنسان آخر ! وكل إنسان يحاسب عن عمله .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

أي: ولا تحمل نفس حمل نفس أخرى، كل إنسان يحمل حمله، ولو أن الأب كان مهتدياً، وجاء الابن ضالاً، إذا بذل الأب جهده في هداية ابنه، وأبى الابن الهداية لن يتحمل الأب من تبعة ابنه شيئاً، ولو كان الابن مهتدياً، وكان الأب ضالاً لن يتحمل الابن من ضلال الأب شيئاً، وكذلك الأخ والزوجة .

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10)وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة التحريم)

لا امرأة فرعون تتحمل من أوزار فرعون شيئاً، ولا سيدنا نوح وسيدنا لوط يتحملان من أوزار نسائهما شيئاً، وكل إنسان يحاسب عن عمله، هذا أصل في العدالة .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)

لابد في الأرض من دعاة وهداة للخير :

الكون وما فيه من آيات دالات على عظمة الله عز وجل، الكون كافٍ ليضعك أمام المسؤولية! والفطرة السليمة التي فطرت عليها كافية لتعرفك بربك وبمسئوليتك، ولكن رحمة الله عز وجل أبت أن يحاسب إنساناً، أو أن يعذب إنساناً بعد أن يبلغه رسالته، معنى ذلك : أن الله عز وجل لا يدع أهل الأرض من دون هداة ودعاة، ومن يعلم الناس أمر دينهم .

(كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(8)قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

(سورة الملك)

والله عز وجل في آيات كثيرة .

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر : 37)

لا بد من النذير، النذير كما قال القرطبي في تفسيره: هم الرسل، والنذير هم العلماء، والنذير هي المصائب، وسن الأربعين، والشيب، وموت الأقارب، ولا يعذب الله إنساناً قبل أن يبلغه رسالته، مع أن الكون يكفي لما فيه من آيات دالات على عظمة الله، ومع أن فطرة الإنسان تكفي، ولكن رحمته أبت أن يعذب مخلوقاً قبل أن يبلّغَه رسالة السماء .

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : 23)

إذاً: لا بد من أن يسمعهم مادام فيهم الخير .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا

الكناية بالقرية عن أهلها :

القرية هنا كناية عن سكان القرية، وقد ذكر الله القرية مكان أهلها إشارة إلى أن تدمير الله عز وجل لشدته يصيب العباد والبلاد !

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً)

إهلاك القرية له موجبه وسببُه :

أردنا إهلاكها، لأنها فعلت موجبات الإهلاك، والقرية أو أهل القرية، أو المجتمع الذي يفسد ويُعصى الله فيه، ويأكل القوي حق الضعيف، وتُفعل الفاحشة، وينعدم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ففي مثل هذا المجتمع الظالم يستحق الهلاك .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً)

لأنها فعلت المعاصي والموبقات بأن ضاع فيها الحق، وأكل القوي الضعيف، بأن انعدم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبأن كُذِّب الصادق، وصُدِّق الكاذب، وأُتمِن الخائن، وخُوِّن الأمين، فإذا فعل مجتمع ما من المعاصي والموبقات والانحرافات ما يكفي لهلاكه، أو ما يستحق إهلاكه في هذه الحالة .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً)

لا بد من أن نبعث فيها رسولاً، ليحذرها، وينذرها، ويبين لها عاقبة عملها، ومغبة معصيتها .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

أمَرنا مترفيها بالطاعة فعصوا :

أمرناهم بالطاعة وبالتوبة وبالعودة والإنابة .

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

أن يستقيموا، لأنهم إذا استقاموا استقام الناس، ولأنهم تَبَعٌ لهم، ألم يقل الإمام علي كرم الله وجهه : "يا كميل الناس ثلاثة : عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم " .

هؤلاء الناس تبع للمترفين، ولأهل الدنيا، وللأكابر، أكابر القوم، تبع للأغنياء، فالله سبحانه وتعالى توجه بالأمر إلى المترفين بخاصة، وإلى الناس بعامة، لأن الناس في الأصل تَبَعٌ لهم .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

أمرناهم بالطاعة والتوبة وبالإنابة والهدى .

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

لم يستجيبوا، ولم يرعووا، ولم يأبهوا .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا)

هذه الآية تصديق وتأكيد للآية السابقة :

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا(15)وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

معنى : فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

معنى :

(فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ)

أي: استحقت الهلاك وفق السنن الإلهية! إن الله عز وجل لا يهلك قرية حتى يبعث فيها رسولا، مع كل الإنذارات والدعوات والتحذيرات، مع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، استمر هؤلاء في ضلالهم وغيهم وفسقهم وفجورهم، فحق عليها القول، والقول هو الأمر بهلاكها بعد استحقاق الهلاك، فدمرناها تدميراً كاملاً! هذه الآية أيضاً تشبه القاعدة الثابتة .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا

كم من القرون عصت ربّها وهو بها خبير بصير عليم :

فالله وحده يعلم حجم الذنوب التي يقترفها الناس، البيوت مغلقة الأبواب، لا نعلم نحن كم من هذه البيوت فيها المعاصي، ولا ما فيها من طاعات، إن الله سبحانه وتعالى هو الخالق العليم، السميع البصير، هو الذي يعرف ذنوب عباده، ويعرف نياتهم، ومكنونات صدورهم، وطموحاتهم .

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

إذا كنت أنت لا تعلم، وفي قلبك ألم لا يحتمل لتقصير الناس، فكيف لو علمت كل المعاصي التي يقترفها الناس؟ فهذه الآية تشير إلى حلم الله سبحانه وتعالى، يعلم كل شيء، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، ومع ذلك يحلم علينا .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ

الإنسان مخير، والدليل هذه الآية :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ)

مَن أراد الدنيا العاجلة الفانية أخذ منها بقدر ما كُتِب له :

إذا أردت الدنيا أعطيناك إياها، فأنت مخير، فاختر ما شئت، ولو أنك اخترت الدنيا العاجلة على الآخرة الباقية لأعطيناك الدنيا، من كان يريد العاجلة، سماها الله العاجلة، وهذا انسجام مع قوله تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ)

يختار الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، يختار عاجل الدنيا على آجل الآخرة، من كان يريد العاجلة، إذا أردتها بصدق وتصميم وإلحاح، من كان يريد العاجلة، يريد الدنيا، ولا شيء غير الدنيا، ليس معنياً بطاعة الله، ولا برضوان الله، ولا بالآخرة، ولا بفهم كتاب الله، يريد الدرهم والدينار، يريد البيت المريح ليزينه، ويختال فيه، ويفتخر على أقرانه به، ويريد المرأة التي تليق له، لا التي ترضي الله عز وجل، ويريد المال الوفير، لأنه مادة الشهوات، ويريد المكانة العلية التي يستعلي بها على الناس .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ)

نعطيه الدنيا، خذها، وفي الحديث عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ))

[الترمذي، وابن ماجه]

خذها، لا قيمة للدنيا عند الله . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِسَخْلَةٍ جَرْبَاءَ قَدْ أَخْرَجَهَا أَهْلُهَا، فَقَالَ : أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى أَهْلِهَا؟ قَالُوا : نَعَمْ، قَالَ : لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

[مسند الإمام أحمد]

لا قيمة لها، فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا؟ فإن قال : أهانه فقد كذب، وإن قال : أكرمه فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

من مالها ونسائها وبيوتها ومزارعها ومركباتها ... خذوا ما شئتم منها .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

ما نشاء، أي : بالقدر الذي نشاء، قد نعطيه المال، ونسلبه راحة البال، وقد نعطيه راحة البال، ونسلبه المال، وقد نجعل زواجه سعيداً، ولكنه لا ينجب الأولاد، قد نجعل أولاده أبراراً، ونسلبه شيئاً آخر .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

بالقدر الذي نشاء، وفق حكمة بالغة وعلم وخبرة .

(عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

لا تأخذ كلَّ شيء من الدنيا :

أما أن تؤتى من الدنيا كل شيء فهذا مستحيل! قد تصيب شيئاً، ويفوتك أشياء، قد تصيب المال، لكنك لا تسعد بهذا المال، قد تحرم المال، ويعطيك الله راحة البال .

(عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

بالقدر المناسب الحكيم، إن الله ليحمي صفيه من الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة .

(عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

نعطي ما نشاء لمن نشاء، الدنيا بيد الله عز وجل، يعطيها لمن يشاء، إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، فإذا أغنيته قد أفسدت عليه دينه .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

خذ الدنيا، ولكن هذه الدنيا إذا أخذتها بعد إلحاح وإصرار، وعصيت الله فيها، ولم تنفق هذا المال في وجهه، ولم ترع في المال حق المسكين والجائع والفقير، وعصيت الله فيها .

(ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

أخذت من الدنيا ما أردت ، ثم ماذا ؟ الذم والدحر في جهنم :

مذموماً من قبل نفسه، ومن قبل الناس، ومن قبل الحق جلّ وعلا، مدحوراً يدخل فيها قسراً، ليس له اختيار، ومن لوازم الدنيا أنها تنتهي بصاحبها إلى الهلاك .

(ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ)

أوضح آية في الاختيار هي هذه الآية :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ)

أراد الآخرة في وآثرها على الدنيا، فأعطاه الله الدنيا والآخرة، من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن أراد الآخرة، أرادها بصدق وإخلاص وإصرار وإلحاح، أرادها بكل ذرة في جسمه، وبكل خلية في جسده، وبكل قطرة من دمه، أراد الآخرة والدليل :

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا

إذا أردت الآخرة فعليك بالعلم والعمل الصالح :

مجلس العلم أغلى عليه من كل شيء، وطاعة الله عز وجل أغلى من الدنيا وما فيها، والدنيا وما فيها ليست بشيء أمام طاعة الله عز وجل :

((فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سَهْل ابْن سَعْدٍ]

ومن أراد الآخرة، إذا أردت الآخرة فعليك بطلب العلم، يجب أن تكون طالباً للعلم، العلم بالله وبأسمائه وبآياته وكتابه، وبحلاله وحرامه، وبشرعه وبمحكمه، وبمتشابهه من أراد الآخرة يستقيم على أمر الله، ويطلب العلم، ويستقيم على أمر الله ، ويعمل الصالحات ويكثر من ذكر الله، والدليل :

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

المريد للآخرة يسعى لها سعيها الحقيقي :

الدليل أنك تريدها سعيك لها، فأنت أردت النجاح، الدليل أنك تدرس أردت أن تكون تاجراً تبحث عن محل، وأردت أن تكون طبيباً تدخل كلية الطب، علامة الإرادة السعي .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

لو أن الله عز وجل قال: وسعى لها، أي سعياً مقبولاً ! لكن وسعى لها سعيها، لها سعي خاص، من أراد الطب، وسعى له فجمع العلامات المطلوبة، وإذا أردت الآخرة فلها سعيها الخاص، لها نمط خاص .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

لابد من الإيمان :

إيمانه بها كإيمانه بالله عز وجل، إيمانه بها كأن يرى الشمس في رابعة النهار .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

مثل هذا السعي يشكره رب العالمين ويباهي به ملائكته :

بارك الله لكم في سعيكم للمسجد، هذا سعي مشكور، من الذي يشكره؟ الله سبحانه وتعالى، لماذا تأتي إلى هنا؟ ليس عندنا دنيا

ليس هناك أي مزيَّة لمجيئك إلا أنك تسعى للآخرة، ليس في المساجد دنيا، لكن فيها الآخرة، مجيئك إلى المسجد لطلب العلم بند من بنود السعي للآخرة، وغضك البصر عن محارم الله، بند من بنود السعي للآخرة، وأداؤك الصلوات بإتقان بند من بنود السعي للآخرة، وإنفاقك من المال، وأداؤك الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وتحري الحلال، والإحسان للخلق، فهذه كلها معالم على طريق الآخرة .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

قراءة كتاب الله، وإتقان لفظ كتاب الله، وتعلم أحكام التجويد، وإتقان فهم كتاب الله، والعمل بفهم كتاب الله، هذا كله من السعي للآخرة .

(فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

من الذي يشكر سعيك؟ الله سبحانه وتعالى، فإذا شكرك إنسان فإن قلبك يفرح، وكلما ارتقت مرتبة الإنسان في شكره كان هذا باعثاً على الطمأنينة، فكيف لو كان الله سبحانه وتعالى في عليائه هو الذي يشكرك على هذا السعي؟ لو تلقى الموظف كلمة شكر من رئيسه بكتاب خطي يقرؤه عدة مرات، وكلما صادف إنساناً يبرز له الكتاب، ويقول له : انظر جاءني كتاب شكر، فإذا كان هذا إنسانا عاديا أعلى منك بمرتبة شكرك خطياً قد لا يسعك عقلك، فكيف لو أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يشكرك؟

(فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

من قبل الحق، ومن قبل الخلق، ومن قبل نفسك، حينما توصل هذه النفس إلى الجنة تشكرك على ما أوصلتها إليه !

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (03-13): تفسير الآيات 18 – 24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-07-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاء وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ

الإنسان مخيَّر :

هذه الآيات الثلاث تبين وتؤكد أن الإنسان مخير .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ)

وتبين أن للإنسان كسبًا، وأن الله سبحانه وتعالى يملك الفعل، لك الكسب، وله الفعل .

والشيء الثالث : أنك مخير، لكنك مسير لتحمل تبعة اختيارك .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

الله يعطي الدنيا لمَن يطلبها :

والله عز وجل يعطي الدنيا لمن يطلبها، فمن كان يريد العاجلة هذه الدنيا القصيرة المحدودة، المشحونة بالمتاعب والهموم، التي نمضي معظمها في الإعداد إلى أقلها يعطيه الله إياها، إن أسعد الناس فيها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها . عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ))

[مسند الإمام أحمد]

أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عن الدنيا، أبعدهم عنها، وأشقاهم فيها، أرغبهم فيها .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ)

من طلب الدنيا، وأصَرَّ عليها، فالله سبحانه وتعالى يعطيه إياها، ولكنها هينة عند الله عز وجل، لا شأن لها .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي]

ءفلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال : أهانه، فقد كذب، وإن قال: أكرمه، فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا، ولو يعلم الملوك ما نحن عليه ـ كما قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله ـ " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف " .

فأحوال أهل الدنيا أحوال القلق والخوف والحرص، وأحوال أهل الآخرة أحوال الطمأنينة والرضا والاستسلام والتفاؤل والثقة، إن شعور الرجل المؤمن بأن الله سبحانه وتعالى راضٍ عنه هذا شعور لا يعدله شعور آخر، وأن شعور الكافر بأن حياته سوف تنتهي، وأن الموت ينتظره إن هذا الشعور المقلق لا حدود لتعاسته، فلذلك ربنا عز وجل قال : أنتم مخيرون :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

أرزاق الدنيا بقدَر وتفاوت :

وهناك حكمة، يعطي من الدنيا بالقدر الذي يشاء، ويعطي هذا القدر الذي يشاء لمن يشاء من طالبي الدنيا، ومعنى ذلك أن من طلبها بإصرار أعطاه الله إياها! ومن كان طلبه إياها ليس معه إصرار، فربما أخَّرَهَا عنه فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِي صَفِيَّهُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُم مَرِيْضَهُ مِنَ الطَعَامِ))

وقال :

((إِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ المُؤْمِن مِنَ الدُنْيَا كَمَا يَحْمِي الرَاعِي الشَفِيقُ غَنَمَهُ مِنْ مراتع الهَلَكَة))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن حذيفة بن اليمان]

والحقيقة الأولى: أن الإنسان مخير، وأنك إذا اخترت اختياراً غير صحيح لا بد من تحمل تبعة اختيارك.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

طالب الدنيا مذموم في الآخرة :

مذموماً من قِبَل نفسه، ومذموماً من قِبل الخلق، ومن قِبل الحق، أما مدحوراً: أي: هذا الذي يساق إلى الإعدام، هل هو مخير؟ فلو أنه بكى هل يعفى عنه؟ لو أنه توسل أو رجا، أو أعلن ندامته، مدحوراً، قصراً .

(يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

كنت مخيراً، فلما اخترت العاجلة أصبحت الآن مسيراً .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا

طالب الآخرة يسعى لها بشروطها وقوانينها :

علامة الإرادة الصادقة السعي الذي يتوافق مع شروطها .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

لها سعي خاص، لا بد من أن تحوط الآخرة من كل جوانبها، لا بد من أن تتخذ جميع الأسباب، وأن تمتلك موجبات الرحمة، وتسعى للآخرة وفق الشروط التي وضعها الله عز وجل، لا وفق شروط تخترعها أنت، وسعى لها .

لو ربنا عز وجل قال: وسعى لها، أي: سعياً مقبولاً، لكن :

(وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

المطلوب، سعيها المحدد والمقنن .

(فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

من قبل أنفسهم، ومن قبل الخلق، ومن قبل الحق .

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاء وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ)

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ

الإنسان المختار يتحمّل تبعة اختياره :

جميع البشر على وجه الأرض، الله سبحانه وتعالى يمدهم بما يختارون، فهم إذاً يتحملون تبعة اختيارهم، يمدهم بما يختارون .

حينما تقف على إشارة المرور، والإشارة حمراء اللون، فأنت مخير أن تمشي، أو لا تمشي، فإذا اخترت أن تخالف القانون عندئذ تفقد اختيارك، فلا بد من أن تساق لتحمل تبعة هذه المخالفة، والأمر واضح تماماً .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

أصر عليها وطلبها، هنا تأتي الحكمة، نعطي بالقدر الذي نشاء ولمن نشاء، نعطي من نشاء بالقدر الذي نشاء .

(ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

لا محيد عن أن يصلاها، وأن يتلظى بنارها، مذموماً يلعن نفسه، ويلعنه اللاعنون، ويلعنه الملائكة .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

من آثر الدنيا خسرها وخسر الآخرة :

واللهِ ما من قولٍ ترك في نفسي أثراً كهذا القول! من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً! لأن الله عز وجل يقول :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

آثر الدنيا، وحصّلَ من أموالها ما يشاء، وحصّلَ من مراتبها ما يشاء، وحصّلَ من وسائل القوة فيها ما يشاء، لأنه أعرض عن الله عز وجل، فإنه يعيش حياة شقية، شقاءً نفسياً، إن القلق والخوف، والحزن والهلع، والترقب والاضطراب، والقسوة والضياع، هذه الصفات كلها يعيشها، بينما المؤمن: ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

ما قولكم ؟ اختاروا الآخرة تأتِكم الدنيا، وهي راغمة والآخرة، وهي مسعدة، اختاروا الدنيا تخسروا الدنيا والآخرة، من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، هل من شعور أكثر إسعاداً للنفس من أن تشعر أن الذي خلق السماوات والأرض، ومن بيده ملكوت كل شيء، ومن بيده كل شيء، ومن إليه يرجع الأمر كله، ومن بيده كل خصومك، ومن بيده حياتك وموتك راضٍ عنك؟ ما هذا الشعور؟ لذلك قال بعضهم: إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال لكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

ليس في الإسلام حرمان ، ولكن لكل شهوة طريق مشروع :

يا أيها الإخوة الأكارم، ملاحظة أتمنى عليكم أن تقفوا على دقائقها: ليس في الإسلام حرمان، كل الشهوات التي أودعها الله فيك جعل لها قنوات شريفة ونظيفة، وصحيحة وعلية، وكريمة وعزيزة، فالشهوة التي يمكن أن توصلك إلى النار يمكن أن تمارسها بطريق مشروع .

مثل صغير: هذا الوقود السائل إذا كان في مستودعه، والمستودع محكم، وسار في المواسير الصحيحة إلى المحرك، ثم الموزع، ثم إلى غرف الانفجار، وانفجر في المكان الصحيح، فولّد هذا الانفجار حركة متتالية، تنقلك من دمشق إلى أحد المصايف، هذا هو الوقود السائل، قوة دافعة في خدمتك، فإذا خرج من خطوطه، وصُبّ فوق المحرك، وجاءته شرارة أحرق المركبة كلها ! فهذه شهوة .

وإذا سلكت الطريق الذي رُسِمَ لَهَا فهي قوة دافعة، وإذا سلكت طريقاً آخر غير صحيح فهي قوة مدمرة، فحب المال، وحب النساء، وحب العلو في الأرض، هذه الشهوات التي أودعها الله فينا، إذا مارستها وفق الشرع الحكيم سعدت بها، إنها خُلِقَتْ في نفسك لتسعد بها، ولترقى بها، فإذا كسبت المال من طريق مشروع، وأنفقته وفق الوجه الصحيح سعدت بكسب المال، وسعدت بإنفاقه، وإذا اخترت زوجة مؤمنة، وابتعدت عن خضراء الدمن، نجحت :

((إياكم وخضراء الدمن، فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء))

[رواه الدارقطني في الأفراد من حديث أبي سعيد الخدري]

أردت من الزوجة أن تكون مؤمنة، من تزوج المرأة لجمالها أذله الله ! ومن تزوجها لمالها أفقره الله ! ومن تزوجها لنسبها زاده الله دناءة ! فعليك بذات الدين تربت يداك .

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه عَن النَّبيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ، لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[صحيح البخاري]

لو اخترت زوجة مؤمنة لسَعِدتَ بها، وسَعِدَت بك، وأنشأت أسرة صالحة هي صدقة جارية من بعدك

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ، صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم]

فالولد الصالح صدقة جارية، وكل هذا عن طريق هذه الشهوة التي أودعها الله فينا، فلو أن الإنسان سلك إلى تحقيقها، وإروائها طريقاً نهى الله عنه شقي في الدنيا، وشقي في الآخرة، فلولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات، ولكن ينبغي أن نسلك الطريق الصحيح، قال تعالى :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنبياء)

البطولة أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان :

اسأل يا أخي، تخاف على عينك فتذهب إلى مئات الأطباء، وتنتظر عشرات الساعات، وتدفع المبالغ الكثيرة، وتقول: أخاف على عيني، ألا تخاف على نفسك؟ ألا تخاف على هذه الجوهرة التي أودعها الله فيك؟ ألا تخاف أن يأتي ملك الموت، وأنت لست مستعداً لهذا اللقاء؟ ألا تخاف أن تكتشف الحقيقة الخطيرة بعد فوات الأوان؟ بعد الموت ؟

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90)آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة يونس)

هذه ليست بطولة، كفار الأرض جميعاً سيعرفون الحقيقة عند موتهم .

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

هذه ليست بطولة، البطولة أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان، وأن تعرف الحقيقة لتستفيد من هذه المعرفة، فإذا عرفت لماذا أنت هنا على وجه الأرض، وأين كنت، وإلى أين المصير، وما المهمة التي جئت من أجلها، عرفت كل شيء! " ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء " .

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ)

انظر إلى الناس جميعاً، كل إنسان بنفسه طلب، والله سبحانه وتعالى يحققه له، وآخر إلى كسب المال، وهذا يسعى إلى العلو في الأرض، هذا يسعى إلى تحقيق كل الرغبات، وآخر إلى الانغماس في الشهوات، وآخر للإيقاع بين الناس، والمؤمن يسعى لمعرفة الواحد الديان.

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

(سورة الليل)

كل منهما يسير في طريق، وهنيئاً لمن كان يمشي في الطريق الصحيح، في الطريق الذي أراده الله، والذي رسمه الله لنا

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ)

الأشياء كلها معروضة أمامك، اختر، هذا يختار الأحجار الكريمة، حجر بمئتي ألف ليرة، وهذا يختار صخرة كبيرة تسحقه، دمره، وهذا يختار شيئاً ثميناً يسعد به، وهذا يختار شيئاً يدمره .

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

قال تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

(وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

عن أحد، أي مخلوق له عند الله حق! أن يعطيه ما يريد، لكن الله جلّ وعلا لا يتعامل بالتمني، يتعامل بالسعي، فرق بين التمني والسعي، التمني أن تتمنى شيئاً ولا تسعى له، ولكن الإرادة الحرة الصادقة تقترن بالعمل . ثم يقول الله عز وجل :

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

الناس في الدنيا متفاوتون :

الآن في الدنيا مكانة، هل من يعمل في تنظيف المستشفى كمكانة رئيس المستشفى؟ هل يتساوى الراتبان؟ الجندي كقائد الجيش؟ الخفير كالوزير؟ وهل الممرض كالطبيب؟ وهل الفقير كالغني؟ هذه الدنيا أمامكم .

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20)انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

الصحة درجات، والشكل درجات، والقوة درجات، والمكانة الاجتماعية درجات، والذكاء درجات، والدخل درجات ... فدرجات البشر في الأرض بعدد أبناء البشر !

(كُلًّا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

يقول لك: هذا البيت أربعمائة وثمانون متراً، في أرقى أحياء دمشق ثمنه سبة وثلاثون مليوناً، فهل هو مثل بيت غرفة واحدة لا ترى الشمس؟ وهل هذا بيت، وهذا بيت؟ هذا الشيء تحت سمعنا وبصرنا، فالله عز وجل يريد من هذه الآية شيء آخر !

(كُلًّا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

التفضيل الدنيوي ينتهي بالموت :

هذا التفضيل مؤقت، الفقير يموت، والغني يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت ، والذي يحمل أعلى الشهادات يموت، والذي لا يقرأ، ولا يكتب يموت، ومع أن هناك فروقاً شاسعة، ودرجات كثيرة في العلم والقوة، والمال والجمال، والمكانة، وكل شيء في الأرض مُقَسَّم إلى درجات .

(كُلًّا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

في الدنيا، هكذا تقتضي الحكمة، أن يكون الناس درجات، لكن هذه الدرجات مؤقتة، وقد يكون الفقير عند الله عز وجل أعظم من أعلى مرتبة في الأرض .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، ذِي طِمْرَيْنِ، لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[سنن الترمذي]

قد يكون هذا الفقير، وقد يكون هذا العليل، وقد يكون خامل الذكر أعظم عند الله وأرقى مكانة، وأحظى رتبة من علي القدر، ومن غني المال، ومن ذائع الصيت .

هناك فكرة دقيقة جداً: يقول الله عز وجل :

(كُلًّا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

هناك تفضيل في الصحة، وفي المال، وفي الجمال، وفي الذكاء، وفي القوة، وفي المكانة، وفي كل شيء، الحياة مراتب، لكن هذه المراتب الدنيوية مؤقتة تنتهي بالموت! فقبر الغني كقبر الفقير تحت الأرض، وهل قبر الغني مكيّف تحت الأرض؟ هل يوجد بلاط أو رخام؟ أو ثريا؟ لا يوجد شيء، قبر الغني كقبر الفقير .

أحد أكبر أغنياء بعض بلدان الخليج أوصى ذويه أنه إذا مات أن يسيروا بجنازته في كل شوارع المدينة! شارعاً شارعاً، وأوصى أن تخرج يده من الكفن، هكذا عارية ليشعر الناس أنه ذهب إلى الآخرة، وليس معه شيء! كله تركته في الدنيا المصيبة في الموت مصيبتان : الأولى أنك تخسر مالك كله، والثانية: أنك تحاسب على مالك كله، من أين اكتسبته؟ وفيمَ أنفقته؟

فأول نقطة في الآية: أن هذه الدنيا المراتب، هذا يسكن في بيت صغير، وهذا في بيت كبير، وهذا دخله لا يكاد يغطي نفقاته، وهذا عنده أموال لا تأكلها النيران، وهذا لا يستطيع أن يفك أسيراً، وهذا يستطيع أن يغير اتجاهاً، فيوجد قوي وضعيف، غني وفقير، صحيح ومريض، المشكلة الأولى أن هذه المراتب مؤقتة، يأتي الموت فيضع حداً لها .

النقطة الثانية: أن هذه المراتب شكلية، قد يكون الفقير أعلى عند الله من الغني، وقد يكون الضعيف المستضعف أحظى مرتبة من القوي، وقد يكون خامل الذكر أعلى شأناً عند الله من الذي تألق نجمه في السماء .

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

(سورة الواقعة)

هذه مراتب الدنيا، أما المشكلة :

(وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

مراتب الآخرة أبدية :

هنا المشكلة، مراتب الآخرة إلى الأبد! ومراتب الدنيا إلى الموت، إنها تنتهي بالموت، اذهبوا إلى المقابر، أحياناً تجدون على الشاهدة إشارة إلى أن هذا كان طبيباً ! وأن هذا كان شاعراً! وأن هذا كان عميد الأدب في القطر! وأن هذا كان من كبار القوم مثلاً ... كل واحد له ترتيب، فالموت يضع حداً لهذه المراتب في الدنيا، وهذه المراتب شكلية، وقد تكون مكانتك على نقيض مرتبتك! لو أنك في دائرة حكومية آذن مستقيم، لا تأكل مالاً حراماً، وتغض بصرك عن محارم الله، وتؤدي وظيفتك بإخلاص وصدق وأمانة، وربما كان هذا المستخدم أعلى مرتبة عند الله من كل الموجودين في الدائرة! بما فيهم أعلى من فيها، لكن مراتب الآخرة مراتب أبدية، إنها من وضع الله عز وجل، ولكن أهل الدنيا اصطلحوا على أن الغني معظَّم، والفقير مهان، فالناس الضائعون الضالُّون الغافلون يرفعون الغني، ولا يكترثون بالفقير، هذه قيم الأرض، وهذه مقاييس البشر، فلا قيمة لها عند خالق البشر، لكن مراتب الآخرة مراتب من خلق الله عز وجل، أنت في الجنة، وفي هذه المرتبة، بحسب عملك في الدنيا، وهذا الذي كان في الدنيا يملأ الدنيا، كان نجماً متألقاً في العلوم أو الفنون، فإذا هو في أسفل السافلين! فمراتب الآخرة مراتب حقيقية وأبدية، فالبطولة أن تكون لك في الآخرة مرتبة عليّة، والبطولة أن يكون لك عند الله مقعد صدق عند مليك مقتدر، البطولة أن تشعر أن رب البشر راض عنك .

فليتك تحلو والحياة مــريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني و بينك عامر و بيني وبين العالمين خراب

***

ابحث عن مراتب الآخرة :

أيها الإخوة الأكارم، هذه البطولة، أن تكون ذا حظٌ عند الله عز وجل، وأن يكون الله راضياً عنك، وأن تكون وفق الشرع، وأن تكون حبيب الحق، هذه هي البطولة، فكلما رأيت في الدنيا بيتاً فخماً لا تقل: ليتني أسكنه!

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(80)فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص)

فلذلك على الإنسان أن يبحث عن مرتبة عند الله، ولا يكترث بمرتبته عند الناس .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ

((أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا غُلامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَلْتَسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[الترمذي، ومسند الإمام أحمد]

ولا أنسى قول أحد التابعين، وأظنه الحسن البصري، حينما كان عند أحد ولاة يزيد بن عبد الملك، جاءه من يزيد توجيه، هذا الوالي .. قال: ماذا أفعل؟ أنا في حيرة من أمري، فقال الحسن البصري: " اعلم أن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " .

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

(سورة الرعد : الآية 11)

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

لا تبحث عن مكانة علية عند الناس ! فإن الناس لا يقدِّمون ولا يؤخِّرون، فابحث عن مكانةٍ عند الله .

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا)

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا

الشرك سبب للعذاب النفسي ، والتوحيد راحة وطمأنينة :

يا الله، أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تجعل مع الله إلهاً آخر !

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

فإذا شئت أن تعذِّب نفسك، وأن تحس بالقهر، والحقد، والضياع، والشك، واليأس والسوداوية .. فادع مع الله إلهاً آخر، واعتقد أن زيداً من الناس يملك شيئاً من أمرك ! فإذا اعتقدت أن زيداً من الناس، أو أن كائناً من كان من الناس، يستطيع أن ينفعك، أو أن يضرك، أو أن يرفعك، أو أن يخفضك، فهذا هو الشرك بعينه .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : من الآية 17)

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

(سورة غافر : من الآية 20)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، نهاية العلم التوحيد .

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد)

كلمة التوحيد : لا إله إلا الله .

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)

إذا أطعت مخلوقاً، وعصيت الخالق فقد جعلت مع الله إلهاً آخر، وقد أشركت، فلو قلت : الله أكبر في الصلاة، فأنت لم تقل: الله أكبر، ولو قلتها ألف مرة! لأنك رأيت أن غضب فلان أكبر من غضب الله ! لذلك أطعته، وعصيت الله ! فإذا أطعت مخلوقاً، وعصيت الخالق فقد رأيت هذا المخلوق أكبر من الخالق، فكلمتك في الصلاة: الله أكبر، لا معنى لها .

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا)

المشرك مذموم مخذول :

مذموماً من قِبَلِ نفسك، ومن قِبَلِ الخلق، ومن قِبَلِ الحق، مخذولاً لا نصير لك، لذلك :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

(سورة الطلاق)

وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، وما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً !

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا(22)وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

معنى : قضى :

كلمة (قضى) معناها أنه أمر، وألزم، وأوجب، وهذا القضاء ليس قضاء حُكمًا، بل هو قضاء أمر،

(وَقَضَى رَبُّكَ)

ربك هو الذي يربيك، أقرب اسم من أسماء الله تعالى إلى الإنسان كلمة الرّب،

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

العبادة لا تكون إلا لله وحده :

لو أن الله عز وجل قال: قضى ربك أن تعبده، أمرك أن تعبده، هذا أمر لعبادته، ولكن هذا الأمر فيه قصر العبادة عليه .

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

لو أن الله عز وجل قال : وقضى ربك أن تعبده، لكنت مأموراً بعبادته، لكن الله عز وجل يقول لك :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

إذاً لا معبود بحق إلا الله .

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

(سورة الفاتحة : 5)

لو أن الله عز وجل قال: نعبد إياك، ليس فيها قصر .

شيء آخر، العبادة طاعة طوعية، تسبقها معرفة يقينية، تنتهي بسعادة أبدية، تعريف العبادة :العبادة الاستسلام لأمر الله في المنشط والمكره، وفي إقبال الدنيا وإدبارها، وفي صغائر الأمور وفي أكبرها .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

فحوى رسالات الأنبياء جميعاً .

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

(سورة السجدة)

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

الربط بين عبودية الله والإحسان للولدين :

روعة هذه الآية: أن الله جمع توحيد الربوبية بالإحسان إلى الوالدين، ما هذا الأمر الذي أمرنا به، والذي رفعه الله إلى مستوى توحيد عبوديته؟ برّ الوالدين .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

وما من عمل أعظم أو أجلّ بعد عبادة الله عز وجل من البر للوالدين !

من مظاهر عبودية الله وجود الوالدين :

وشيء آخر، أول مظهر من مظاهر تربية الله لك أنه خلقك من والدين، يعطفان عليك، ويحسنان إليك، ويجوعان لتشبع، ويعريان لتكتسي، ويقلقان لتنام، وحينما ترى ابناً مدللاً، يحبه والداه، ويغدقان عليه كل الإكرام، فاعلم علم اليقين أن هذا الإكرام فمن عند الواحد الديان! ولولا أنه أودع في قلب الأب هذه الرحمة، لولا أنه أودع في قلب الأم هذه الرحمة، من يربي ولده؟ كيف أن الأب يسعى طوال النهار، ويتحمل المشاق والأخطار أحياناً من أجل أن يأتي برزق أولاده؟ ومن أجل أن يطعمهم، وأن يكسوهم، وأن يرزقهم، من أجل ماذا؟ فلذلك فإن ربنا عز وجل رفع برّ الوالدين إلى مرتبة توحيد الربوبية .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

الفائدة من مجيء الباء في قوله : وَبِالْوَالِدَيْنِ

علماء اللغة قالوا : فعل (أحسن) يتعدى بـ (إلى) ، تقول : أحسنت إليه، لكن هنا في الآية تعدى هذا الفعل بالباء على خلاف القاعدة، ما الحكمة من تعدية هذا الفعل بالباء؟

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

العلماء قالوا: أحسن بهما، لم يقل الله عز وجل: أحسن إليهما، بل قال: أحسن بهما، لأن الباء تفيد الإلصاق، تقول: أمسكت بيده، إذاً: الإحسان للوالدين، لا يقبل من الابن إلا إذا باشره بنفسه، مثل أن ترسل الصانع بالمحل التجاري إلى أبيك مع بعض الفاكهة، قل له: خذ هذه الفاكهة من ابنك، هذا خلاف لتوجيه الله عز وجل، يجب أن تمارس الإحسان إليهما بنفسك، تقول للسائق: خذ أبي نزهة، لا، ليس هذا إحسان إليهما، الإحسان إليهما أن تكون إلى جانبهما، وأن تكون لاصقاً بهما، وأن تباشر الخدمة بنفسك، هذا معنى :

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

لأن معاجم اللغة تعدي فعل أحسن بـ (إلى)، لكن الله سبحانه وتعالى وضع الباء مكان إلى لماذا؟ من أجل أن يُفْهِم أن الإحسان إلى الوالدين يجب أن يباشر من قِبَل الابن مباشرة .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

اقتران شكر الله بشكر الوالدين :

وكما أن الله عز وجل قرن الإحسان بالوالدين بتوحيد عبادته، قرن شكر الله بشكرهما! قال تعالى :

(أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

(سورة لقمان)

ما من مخلوقين على وجه الأرض يستحقان الشكر بعد الله عز وجل من الوالدين .

(أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

وليس لزوجتك .

روى الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ، قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[صحيح البخاري]

بر الوالدين مقدم على الجهاد في سبيل الله ! وهو بعد الصلاة .

مِن برِّ الوالدين عدم التعرض لسبِّهما :

شيء آخر، من بر الوالدين أن لا يتعرض الولد لسبِّهما، كيف ذلك؟ هذا مستحيل، ففي صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إنَّ مِنْ أكْبَرِ الْكَبَائِرِ، أنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قالَ : يَسُبُّ الرَّجُلُ أبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أبَاهُ، وَيَسُبُّ أمَّهُ))

[صحيح البخاري]

إذا أطلق رجل لسانه في سبّ الناس، فأغلب الظن أن الناس سيسبون والديه، وإذا سبّ الناس والديه وكان هو السبب فكأنه في الحقيقة هو الذي سبّ والديه، ولذلك أي شاب يجب أن يعامل الناس معاملة يثنون على والده ما هذا الوالد الذي ربَّاك؟ بارك الله فيه، عامل الناس معاملة تجعلهم يلهجون بالثناء على والدك، إذا كنت بارّاً به، أما الذي يعامل الناس معاملة يلعنون بهذه المعاملة أباه، فقد لعن هو أباه، كأنه هو لعن أباه .

مِن برِّ الوالدين موافقتهما في أغراضهما :

وشيء آخر، من بر الوالدين موافقتهما في أغراضهما، الأب له حاجة فإذا لبَّيته، فهذا من البر، إلا أن هذه الحاجة، لها شرطان: أولاً: أن تكون في غير معصية الله عز وجل، وأن تكون مباحة، وأن تكون في استطاعتك، وعقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما، الجائزة، العلماء قالوا: إذا أمر الأب أو الأم وجب على الابن تنفيذ الأمر ما لم يكن فيه معصية، أو ما لم يكن فوق المستطاع، إذا كان الشيء مباحاً أصبح بأمر الأب والأم مندوباً، وإذا كان مندوباً أصبح بأمر الأب والأم آخذًا في الندب .

وشيء آخر، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قالَ: أمُّكَ، ثُمَّ أمُّكَ، ثُمَّ أمُّكَ، ثُمَّ أبُوكَ، ثُمَّ أدْنَاكَ، أدْنَاكَ))

[صحيح مسلم]

فالعلماء استنبطوا من هذا الحديث أن ثلاثة أرباع البر للأم، والربع للأب .

هناك حديث آخر يجعل توازناً بين بر الأب والأم، عَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أبِيهِ، قَالَ :

((كَانَتْ تَحْتِي امْرَأةٌ كَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا، فَقَالَ : طَلِّقْهَا، فَأبَيْتُ، فَأتَى عُمَرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أطِعْ أبَاكَ))

(مسند أحمد)

كِلاهُمَا في البرِّ سيّان، الحقيقة المهمة التي ينبغي أن تعرفوها، أن بر الوالدين واجب عليك، ولو كانا كافرين أو مشركين! فكيف إذا كانا مسلمين؟ لقوله تعالى :

(لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ)

(سورة الممتحنة)

فاليوم إذا لم يكن أبو الرجل وفق اتجاهه الدقيق تجده يذم والده، هذا أب؟ فأنت بإحسانك وتهذيبك وبلطفك، لعل الله عز وجل يجعل قلب أبيك يميل إلى اتجاهك، أما أن تنتقده علانية أمام أمك وأخواتك، وتنتقده علانية، وتريده أن يخضع لك، فهذا مستحيل، لغة واحدة يمكن أن تعامل بها أباك : وهو الإحسان، ولا شيء إلا الإحسان، بالإحسان قد تأخذ بيده إلى الجنة بالإحسان فقط، أما بالنقد والتعريض والإشارة والتلميح والتشهير فهذا ليس من الدين في شيء، ومن يفعل ذلك فقد ارتكب حماقة ومخالفة لأوامر دينه .

مِن برِّ الوالدين استئذانهما للجهاد :

من بر الوالدين أن تستأذنهما في الجهاد، ولا يصح جهادك إلا إذا استأذنتهما، فما هذه المكانة ؟

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

((إِنِّي جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ، وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا))

[سنن النسائي]

من بر الوالدين: أن يصل الإنسان أهل ودِّ أبيه بعد أن يولي، عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ قَالَ :

((بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ: نَعَمِ، الصَّلاةُ عَلَيْهِمَا، وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لا تُوصَلُ إلا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا))

[سنن أبي داود]

كل رجل من الإخوة الحاضرين إذا كان والده موجوداً فهذه فرصة ذهبية، ليستغل حياته في خدمته، وفي الإحسان إليه، وفي طلب مرضاته من غير معصية، وإن كان قد توفي فليصل أهل ودِّ أبيه، وليعمل من الصالحات عملاً من أجل أن تكون أعماله كلها في صحيفة أبيه، ومن أجل أن يكون لأبيه صدقة جارية .

وشيء آخر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ، ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلاهُ الْجَنَّةَ))

[سنن الترمذي]

فبر الوالدين قد يستحق بهما الرجل دخول الجنة! لكن الله عز وجل يقول :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا

طبعاً الأب الشاب، هناك آباء لا يزالون في سن الشباب أو الكهولة يتمتعون بصحة جيدة، ومكانة علية، ومال وفير، هم يقدمون كل الإحسان إلى أولادهم، المشكلة أعمق من ذلك :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا)

تجاوز عمر الأب ثمانين عاماً، وتراجعت قواه الجسمية والعقلية، وصار يعيد القصة مئات المرات، وصار ذا طبيعة فضولية، يبتغي أن يعرف كل شيء، وأن يحشر أنفه في كل شيء، وصار يكثر من النقد، وصار له ثقل في البيت :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا)

بلغ سناً كبيرةً، وهو عندك في البيت لأن الذي يأتي عند أبيه في الأسبوع مرة ليقبِّل يده ويسأله رضاه، قضية سهلة جداً، أن يكون لك بيت مستقل، يسير وفق ما تريد، وأبوك عند أخيك الأصغر، أو الأكبر تذهب إلى بيت أخيك في الأسبوع مرة لتقدم واجب بر الوالدين، وتأتيه بهدية صغيرة، تقبل يديه، وتسأله عن صحته، ماذا فعلت ؟ لكن الأب إذا كان في البيت، وكان له طلبات كثيرة، وانتقادات كثيرة، وكان له طباع لا ترضاها، فمع طباعه التي لا ترضاها، ومع طلباته الكثيرة، ومع إلحاحه الشديد، ومع تدخلاته في شأن غيره، ومع انتقاده الذي لا يحتمل، في هذه الحالة الصعبة :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

إيّاكم من الأفّ وما فوقها :

هنا البطولة، أقل شيء أن يخرج نَفَسُك بصوت! لا أعتقد أن هناك أقلّ من هذه الأف، لا يوجد تعبير عن الضجر كأن يخرج النَفَس بصوت، تقول : أشهد أن لا إله إلا الله، هذه ليست شهادة، هذه ضجر، وكلمة أف أقل من الشهادة، نَفَس عادي، الزفير مع صوت، أف بمعنى الضجر، وجدته قد بلل ثيابه،

وقبل ساعة نظفته، وألبسته ثياباً جديدة، لم يمض ساعة قال العلماء: إذا وضعت ثوبك على أنفك فهذه بمستوى أف! رائحة كريهة، هذه من الكبيرة، وكنت منزعجاً منها فهي مثل أف تماماً !

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

يبتعد عن والده مترين، ثم يُسمِعهُ قوله: الله يخفف عنه، قد أسمعته إياها، لا حول ولا قوة إلا بالله، هذه أصعب من أف، أسمعته كلمة الله يخفف عنه، شيء لا يحتمل، متى سيموت لنتخلص منه ؟

أعرف رجلاً خدم أمه تسع سنوات، إلى أن ضجر استدعى، إخوته، وقال : هذه أمي وأمكم، خذوها عني، فأخذوها عنه، وماتت في اليوم الثاني ! فقد ضيّع تسع سنوات من الخدمة الشاقة .

وأعرف رجلاً كان يعنى بامرأة قعيدة متقدمة في السن، فانتقل إلى حي بعيد، فصار انتقاله إلى مكان بيت المرأة التي يرعاها أمراً فوق طاقته، هو متقدم في السن، من حي بعيد إلى حي آخر، يركب الحافلات كل يوم، أشفق عليه أهله، دعوه إلى أن يترك خدمتها إلى جهة أخرى، فلم يرضَ، مسنة كبيرة، فلما رأوه يشقي نفسه، قالوا: يا أخي، آت بها إلى هنا، وأرحنا من هذا الأمر! فأقنعها، وجاء بها إلى بيته لتكون الرعاية أكثر، وفي اليوم الثاني ماتت! كسب الأجر .

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)

لا أعتقد امرأة وهي تنظف ابنها فعلت هذا أبداً، كانت تتمنى حياته، أما الابن إذا خدم أمه في أعماقه فيتمنى أن يخفف الله عنها، وشتّان بين هذا العمل، وهذا العمل، فربنا عز وجل جاء بالحالة الصعبة، أصعب حالة، التقدم في السن، تراجع في الملكات، وعدم انضباط بالأجهزة، وهي في البيت، والزوجة تنتقد إلى متى سنتحمل، هذه ليست أمك فقط بل وأم إخوتك أيضاً، عليك أن تقوم بالدور بينكم .

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

أمر خالق الكون يقول لك: إياك أن تقول لهما: أف، ولا تنهرهما، هذه أفظع، فأنت منهي عن أن تقول لهما: أف، فالنهي عن أن تقول أكبر من أف من باب أولى .

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا

من مدلول القول الكريم مناداتهما بلفظ الأبوة والأمومة :

قال العلماء: من القول الكريم ألا تناديهما باسميهما! ولا بكنيتيهما، دخلت مع رجل كبير بالسن إلى عند ابنه، وهو يحتل منصب مرموق، والأب يرتدي لباساً جيداً، وبملكاته الكاملة، فيبدو أن الابن خجل بأبيه

أمام الحاضرين فقال له: أبا فلان اجلس هنا! سبحان الله! فأنت منهي عن أن تقول لأبيك: أبا فلان، يا أبي أهلاً وسهلاً بالوالد الكريم .

(وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

وأنت منهي عن أن تسمهما باسميهما! أو بكنيتيهما، كلمة يا أبتِ، يا أبتاه .

من القول الكريم الاسترضاء :

هناك تفسير آخر : القول الكريم كالعبد المذنب الذي يخاطب سيده الفظ الغليظ، كيف أن يريد أن يسترضيه، وينتقي أجمل العبارات، وينتقي أجمل عبارة، يقول له : سيدي، لا أعرف ذلك، ما فعلت هذا عن قصد .

(وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا(23)وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

الدعاء لهما بالرحمة بعد موتهما :

آخر ملاحظة : تدعو لهما بعد الموت أن يكونا في الجنة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (04-13): تفسير الآيات 25 – 31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-07-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا(23)وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا(24)رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ

هل أنتم في وضع يبتغي مرضاة الله عز وجل عن طريق بر الوالدين؟ أو أنكم ترغبون بعقوقهما حالتكم النفسية رغبتكم نيتكم طموحكم مكشوف عند الله عز وجل .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

لا أحد يستطيع أن يخدع الله تعالى :

قد تستطيع أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، وقد تستطيع أن تخدع بعض الناس لبعض الوقت، أما أن تستطيع أن تخدع كل الناس بطول الوقت فهذا من المستحيلات .

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

فالإنسان مكشوف، لا يستطيع أن يخدع الله عز وجل، ولا أن يخدع نفسه، لذلك قل ما شئت .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

وضح نياتك بالشكل الذي تريد .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

قل: أنا أريد الإصلاح، قل أي شيء تحبه ! أعلن أي هدف بيِّن أية نية .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

علاقتك مع من يعلم في نفسك :

المعنى أن علاقتك مع الله عز وجل، فإن كنت تنطوي على نفس طاهرة طيبة، راغبة في مرضاة الله عز وجل، راغباً في تنفيذ أمره فلك، وإن كنت على خلاف ذلك فعليك .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

أي : إذا بلغ الإنسان هذه المرتبة انقطعت علائقه مع الناس، لا يعلق على رضاهم أملاً، ولا على غضبهم خوفاً، لأن الله عز وجل بيده كل شيء . عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ . قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

[سنن الترمذي]

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند الإمام أحمد]

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

(سورة القيامة)

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

سيدنا الصديِّق رضي الله عنه مدحه أحد الأصحاب، فتوجه إلى الله عز وجل، وقال : << اللهم إنك أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون >> .

إن كان معك قطعة من الذهب، وظنها الناس معدناً رخيصاً فأنت الرابح، ولو ظنها جميع الناس معدناً رخيصاً، ولو أنك تملك قطعة من المعدن الرخيص، وأوهمت الناس جميعاً أنها معدن ثمين، فأنت الخاسر، العبرة :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا)

إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا

معنى : صالحين

ما معنى صالح؟ إنسان صالح، أي: عمله صالح، ونيته صالحة وقوله صالح، واعتقاده صالح، اعتقاده صحيح، ونيته طيبة، وعمله صحيح، وقوله صحيح، إذاً هو صالح، صالح لماذا ؟ صالح لعطائنا، صالح للجنة التي عرضها السماوات والأرض، وكل هذا مشتق من الصلاح، صلحت عقيدته فصلح لسانه، وصلح عمله، وصلحت نيته، فقد أصبح صالحاً لعطاء الله .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا)

معنى : الأوّابين :

الأوَّابين جمع أوَّاب، والأوَّاب على وزن فعَّال، صيغة مبالغة لاسم الفاعل، أي : كثير الأوبة إلى الله، فكلما زلت قدمه رجع بالتوبة والاستغفار والتضرع إلى الله، وكلما غفل عن ذكر الله ذكر الله، وكلما زلَّت قدمه تاب من هذه الزلَّة، وكلما ارتكب مخالفةً بادر إلى مَحْوها بعملٍ صالح، وهؤلاء الأوابون كثيرو الأوبة إلى الله عز وجل .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا)

الآية السابقة :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

عبادة الله ثم الإحسان إلى الوالدين :

أول شيء أنت مكلف بفعله في الدنيا أن تعبد الله وحده، إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، وأول إنسانين على وجه الأرض يستحقان أن تحسن إليهما بعد عبادة الله عز وجل الوالدان .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

لأن الوالدين أول مظهرين من مظاهر ربوبية الله سبحانه وتعالى، كيف وأن الله ربٌ لكَ ؟ سخر لك أباك وأمك، يعطفان عليك، ويحببان عليك، ويتعبان من أجل أن تستريح، ويسهران لتنام، ويجوعان لتشبع يقلقان لتطمئن، فالأم والأب أول مظهرين من مظاهر الربوبية، لذلك أول إنسانين يستحقان الإحسان البالغ الوالدان، رفعا إلى مرتبة عبادةِ الله عز وجل .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

العطف يقتضي التجانس :

خطر في بالي مثال: هل تقول: اشتريت بيتاً وملعقة؟ العطف يقتضي التجانس والتناسب، تقول: اشتريت بيتاً ودكاناً، أو بيتاً وسيارةً، أو أرضاً وبيتاً، وتقول: اشتريت ملعقة وسكّيناً، فهذا العطف يقتضي التجانس .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

أعظم الأعمال بعد عبادة الله عز وجل الإحسان إلى الوالدين، أو الإحسان بالوالدين، الباء للإلصاق، هذه شرحناها في الدرس الماضي، ولكنني عدت إليها لأبيِّن العلاقة فيما بينها، وبين الآية التالية :

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

إعطاء الناس حقوقهم ، القريب منهم والبعيد :

هل فقط الأب والأم؟ والجد والجدة، والعم والعمة، والخال والخالة، بنات الأخ وبنات الأخت، أبناء الأخ، أبناء الأخت، الابن وابن الابن .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

هؤلاء يلوذون بك، من لهم سواك؟ إذا أحب الله عبداً جعل حوائج الناس إليه ! لا تضجر، ولا تقلق، ولا تتبرم، وإذا كثر الذين يطرقون بابك، فلا تتأفف، وإذا جاء أخوك أو أختك يطلبان منك حاجة، فإنك مظنة العطاء، وإن الله يحبك، وإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ هَذَا الْخَيْرَ خَزَائِنُ، وَلِتِلْكَ الْخَزَائِنِ مَفَاتِيحُ، فَطُوبَى لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، مِغْلَاقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا لِلشَّرِّ، مِغْلَاقًا لِلْخَيْرِ))

[سنن ابن ماجة]

فلذلك :

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

تفقَّد أقرباءك، وتفقَّد رحمك، ومن يلوذ بك، فالأقربون أولى بالمعروف، الأقربون نسباً، و الأقربون إيماناً، و الأقربون فقراً، و الأقربون إليك نسباً أولى بالمعروف، و الأقربون إلى الإيمان أولى بالمعروف، و الأقربون إلى الفقر أولى بالمعروف، هذه قاعدة مطلقة، الأقربون أولى بالمعروف .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

من علامات تفسّخ المجتمعات الحديثة انقطاع الصلة بين الأقارب، ومن علامات الصحة الاجتماعية في المجتمعات التي يغلب عليها الإيمان هذا التواصل الاجتماعي .

سمعت عن امرأة متقدمة في السن تملك أموالا طائلة ! فجأة أصيبت بمرض عضال، أفاقت في أحد الأيام فإذا هي في مأوى العجزة، ولها أولاد كثر ! شباب وشابات وأصهار، ما كان منها إلا أن استدعت مدير الأيتام، وفرغت له كل ممتلكاتها ! هناك تواصل في المجتمعات التي يغلب عليها الإيمان والعمل الطيب، فالأم لها مكانة كبيرة، قدمت وحقّ لها أن تأخذ، وأعطت وجاء الوقت الذي يجب أن تأخذ، والأب كذلك، سنّة الله في خلقه، يكون الأب شاباً، وكله عطاء لأولاده، فتتقدم به السن، ويضعف، ويترك عمله، فيصير له الحق أن يأخذ من أولاده، هذه دورة طبيعية، خذ وأعط، فالأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، والذين يعيشون عالة على المجتمع، يعيشون على مآسيه، ويأخذون ولا يعطون، والمؤمنون يأخذون ويعطون، والعظماء يعطون ولا يأخذون، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، والذين هم في أسفل السلم الاجتماعي يأخذون ولا يعطون، ونحن نأخذ ونعطي .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

له حق عليك .

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ)

(سورة المعارج)

هذه هي الزكاة .

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة الذاريات)

وهذه هي الصدقة، لو أنك دفعت زكاة مالك، ورأيت إنساناً محتاجاً بائساً فقيراً، ومسكيناً قريباً، وأنت أخوه في الإنسانية، وله حق عليك، فكيف إذا كان قريباً ؟ لذلك قالوا : القرابة الجار المسلم، القريب له عليك ثلاثة حقوق : حق الأخوَّة في الله،" مسلم "، وحق الجوار، وحق القرابة .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

له حق عندك، والمسكين ! المسكين هو الفقير البائس، بعضهم قال : الفقير والمسكين إن اجتمعا تفرقا، وإن افترقا اجتمعا ! إذا ذكر الله المسكين انصرفت هذه الكلمة إلى الفقير وإلى المسكين، وإذا ذكر الفقير انصرفت الكلمة إلى الفقير والمسكين، أما إذا ذكر الفقير والمسكين فالفقير له معنى، والمسكين له معنى، فالفقير الذي لا يجد حاجته .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاس تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَان، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَان، وَلَكِن الْمِسْكِينُ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ))

[صحيح البخاري]

يسكن في بيت، وقد يكون هذا البيت ملكه، وله دخل، وقد لا يكفي هذا الدخل، ظهر مرض مفاجئ يحتاج إلى عملية جراحية، بعضهم يقول : هذا عنده بيت ملك، أيبيع البيت من أجل أن يجري هذه العملية ؟ فالفقير هو الذي لا يجد حاجته، والمسكين هو المعدم، الذي لا يجد شيئاً لا حاجته، ولا أقلّ من حاجته، إذا ذكر الله المسكين وحده انصرف إلى الفقير والمسكين، وإذا ذكر الله الفقير وحده انصرف إلى الفقير والمسكين، فهاتان الكلمتان إذا اجتمعتا تفرقتا، وإذا تفرقتا اجتمعتا .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ)

ابن السبيل له حقٌّ عليك :

ابن السبيل إنسان مكتفٍ، وقد يكون غنياً، ولكن حل به فقر طارئ، كان في سفرٍ، فأخذت منه أمواله نشلاً، ضاعت منه محفظةٌ يحمل فيها أمواله، ووثائقه الرسمية، فهذا صار فقراً طارئاً .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً)

وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً

التبذير يشبه إلقاء البذار في الأرض، يمسك الفلاح قبضة من البذار فيلقيها هكذا، إلقاء عشوائياً، وكذلك الذي ينفق المال من غير اجتهاد، ومن غير حكمة وتبصر واعتدال ينفقه كيفما كان، هذا اسمه تبذير، وبعضهم فرَّق بين الإسراف والتبذير.

بين الإسراف والتبذير :

بعض العلماء قال : الإسراف أن تنفق في المباحات نفقة فوق الحد المعقول، جلبت إلى البيت ألواناً من الفاكهة كثيرة، فسد بعضها، وألقي في القمامة، فهذا إسراف ! والعلماء قالوا: لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف، إذا قرأت القرآن ساعة فجيد، وساعتين فأفضل، ثلاثاً فأفضل، وإذا أنفقت مئة فعملك أفضل، ومئتين فأفضل، إذ لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف، وبعضهم قال: لا إسراف في النور، فإذا أراد الإنسان أن تكون الغرفة إضاءتها جيدة، فلا يعد هذا مسرفاً، وأحياناً تدخل إلى غرفة

إضاءتها أقلّ من الحد المعقول، فتشعر بانقباض، وقد تشعر بآلام في العينين، وقد تعسر عليك القراءة، وهذا اسمه تقتير! فالعلماء قالوا: لا إسراف في النور، ولا خير في الإسراف، ولا إسراف في الخير . الإسراف كله ينصرف إلى المباحات، لكن الذي يلقي ماله في معصية الله فهذا هو المبذّر .

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)

وكيف يلقي الشيطان في نفس الإنسان حب المعصية؟ يدفعه إلى المعصية، ويوسوس له بها، وكذلك هذا المبذر، إنه بإنفاقه المال في معصية الله عز وجل كأنه قد تجاوز مرحلة وسوسة الشيطان، فكان أخاً للشيطان .

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ)

المبذّر أخٌ للشيطان :

أي : الذي يشهد به الشيطان من إلقاء الوسوسة كي تعصي الله، جاء المبذر، وأنفق ماله في معصية الله إنفاقاً سريعاً، إذاً هذا المبذر كان من إخوان الشياطين .

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

يبدو أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يعاقب من عصاه يعاقبه عقوبة من جنس الذنب، فالمبذر في أغلب الظن يعاقب بذهاب ماله، وأن يذيقه الله ألم الفقر والحرمان، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((يا عائشة أكرمي مجاورة نعم الله، فإن النعمة إذا نفرت، قلما تعود))

[ورد في الأثر]

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

وبعضهم قال : الشيطان اسم لجنس الشياطين، وبعضهم قال : هو إبليس بالذات، وهو أول الشياطين خلقاً .

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً{27} وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا)

إمَّا أصلها (إن وما):

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ)

الإعراض يكون بمنع الحقوق :

عنهم من؟ عن ذوي القربى والمساكين .

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ)

المعنى الأول : سبب الإعراض ضيق ذات اليد :

أي : لا تعطيهم، تعرض عن إعطائهم، إما لأنك فقير تبتغي رحمة الله، ربنا عز وجل كنّى عن الفقر بأجمل كناية في القرآن !

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ)

لضيق ذات يدك، لأنك لا تملك هذا العطاء، لا تملك حاجتهم،

(ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا)

أنت ترجو مثلهم رحمة الله، هذا المعنى الأول، إما تعرضن عنهم لضيق ذات يدك، لأنك لا تجد ما تعطي .

المعنى الثاني : سبب الإعراض لحكمة ومصلحة :

أو لأن الحكمة تقتضي ذلك، قد يطلب منك القريب مالاً ليفسق به، أو ليفعل به المنكرات، أو ليرتكب به المعاصي، فالحكمة تقتضي ألاّ تعطيه هذا المال، أو قد يكون من السفهاء، وقد قال الله تعالى :

(وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً)

(سورة النساء)

ليس لك أن تعطي مالك لسفيه، السفيه الذي ينفق المال في معصية الله، ينفق المال إسرافاً وتبذيراً، هذا القريب الذي ينفق المال في معصية الله إذا أردت أن تعينه شفقة على أولاده وأهل بيته فأعطِه مواد عينية، اشتر له بعض الأغذية، واشتر لأولاده بعض الألبسة، وقدم له مساعدات يستفيد أهله منها، لأن الله عز وجل ينهانا عن أن نعطي السفهاء أموالنا .

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا)

لضيق ذات يدك، أو لحكمة ترتئيها .

حسنُ معاملةَ الضعفاء والمساكين بالقول الحسن :

(فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً)

لا تكن قاسياً في ردك .

({وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

(سورة الضحى)

لو صدق السائل لهلك المسؤول .

(فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً)

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

(سورة الضحى)

العلماء فسَّروا هذا القول: ادعوا لهم، وبعدهم قال: عِدْهُم عِدَةً طيبة، إن شاء الله في وقت آخر إذا مكنني الله عز وجل أعطيك هذا الطلب، إما أن تَعِدَهُم بالعطاء في وقت لا حق، وإما أن تدعو لهم، وهذا هو القول الميسور .

(فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً)

فالغيظ والشدة والقسوة لا تجديان أبداً، والله سبحانه وتعالى ينهانا عنها، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ))

[متفق عليه، واللفظ لمسلم]

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ))

[مسلم]

والقسوة غير مرغوب بها، لا من قبل الحق، ولا من قبل الخَلْق .

(فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً)

أنت تقول له: أنت كذَّاب، أنت محتال، لا يوجد عقل .

(فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً)

ادعُ له بالتوفيق، أعطاك الله من سؤلك، وفقك الله لما تحب، لا أجد ما أعطيك، اعذرني .

(فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً{28} وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ)

وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ

الكناية عن القبض والشح :

أن تكون اليد مغلولة إلى العنق فهذه كناية عن القبض، أي عن البخل، أي عن الشح، قال تعالى :

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة الحشر)

الشح مرض خطير :

فالشح إذاً هنا مرض، ويحتاج صاحبه إلى معالجة، والبخيل مريض، لأنه يعيش فقيراً ليموت غنياً، والشحيح جعل المال الذي هو في الأصل وسيلة فجعله غاية ! يقول سيدنا أبو ذر : << حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي >>

المال جعل للإنسان وسيلة لقضاء حوائجه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْه، ثُمَ قَتَّرَ عَلَى عِيَالِه))

[القضاعي في مسند الشهاب عن عائشة]

والنبي عليه الصلاة والسلام نفى أن يكون من المسلمين من وسّع الله عليه، ثم قَتَّر على عياله، الفضيلة دائماً بين حالتين متطرفتين .

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ)

وهناك رجل لشدة بخله نشب خلاف بينه وبين أهله فتركهم، وسكن في غرفة على سطح أحد الأبنية الكثيرة التي يملكها! وكان يمضي وقته في طعام خشن جداً توفيراً للدراهم، وفي أحد الأيام كان مستقبلاً سيارةً من البحص رجعت فدهسته، وترك ثلاثمئة مليون ليرة! عادى أهله، وكرهوه، وسكن وحده، وعاش حياة خشنة لا تحتمل، من أجل أن يموت غنياً شحيحاً مريضاً، هذا يحتاج إلى معالجة .

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْه، ثُمَ قَتَّرَ عَلَى عِيَالِه))

[القضاعي في مسند الشهاب عن عائشة]

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ)

سبحان الله! الشحيح يقتر، ويقتر فيضطر في وقت ما أن يدفع نفقة تعادل كل التقتير، الذي قتره وزيادة! جمع ماله بالقروش، ويدفعهم بمئات الألوف دفعة واحدة مضطراً، فلذلك الإنسان يكون كريماً،

لأن الكريم يحبه الله، كما رُوي : " أحب ثلاثاً، وحبي لثلاث أشد، أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، وأحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد، أحب المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد، وأبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد، وأبغض البخلاء، وبغضي للغني البخيل أشد، وأبغض المتكبرين، وبغضي للفقير المتكبر أشد " .

الشحيح نوعان :

لكن بعض الذين يوسمون بالشح على نوعين: بعضهم ينفق الأموال الطائلة بلا حساب على شهواته، وعلى أولاده، وعلى لذته وعلى مباهجه ... فيقول : كلفتني هذه السفرة في العيد إلى اليونان أربعمئة ألف ليرة ! فتدخل جمعية إلى دكانه فيعطيها عشر ليرات !! أربعمئة ألف في أربعة أيام بالعيد قضيتها في أثينا، وعشر ليرات للجمعية ؟ من صفات المنافقين أنهم إذا أنفقوا المال أنفقوه إسرافاً وتبذيراً، وإذا أمْسكوه أمسكوه شحاً وتقتيراً، فهؤلاء يبالغون في ترفيه أنفسهم، أما إذا دعوا إلى عمل صالح يمتنعون، وقد يتأخر الصانع عنده ساعة، يحسم عليه ثمن الأجرة، يقول له: داومك ثماني ساعات، وقد تأخرت ساعة، فيقسو عليه، ويقوم بطريقة يطرده طرداً من دون أي تعويض، فإذا ذهب لقضاء نزهة، أو لقضاء إجازة أنفق من المبالغ ما لا يحصى، فهؤلاء أشحّة في فعل الخير، ومسرفون على أنفسهم في الملذات، وهناك صنف آخر ـ والعياذ بالله ـ يعيش شقياً محروماً، ويموت غنياً، يتنعم الورثة بهذا المال .

ولذلك مما يروى: أن روح الميت حينما يوضع الميت في نعشه ترفرف فوق النعش تقول : يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة علي .

ولذلك يقف ربنا عز وجل يوم القيامة العبد بين يديه ويقول له: يا عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ فيقول هذا العبد : يا رب، لم أنفق منه شيئاً على أحد مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله عز وجل: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم .

حدثني أخ أثق بكلامه عن رجل ترك أموالاً لا تعد ولا تحصى، وترك أولاداً لم يُنَشِّئهُم على طاعة الله عز وجل، في أقل من سنتين خسروا كل هذه الثروات بشكل لا يصدق ! باعوا الأراضي والمحلات والمعمل، واحتال عليهم رجل بمئات الملايين، اشترى منهم بضاعة شحنوها له، وقد أعطاهم شيكات مزورة، ثم غاب عن الأنظار، فخسروا أموالهم كلها ! إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم .

يقول لعبد آخر: يا عبدي، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول هذا العبد: يا رب، أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك أنت خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله عز وجل: عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك، اطمئن، وفعلاً يموت الرجل فتجد أولاده في أعلى مقام، وفي بحبوحة، وصحة جيدة، فزواجهم موفق، وأولادهم أبرار، وكلهم يسكنون في بيوت جيدة، وسمعتهم طيبة، وقد يكون أبوهم فقيراً، ولكنه صالح، وهذا رجل تأتيه ذرية شقية من بعده تذوق الحرمان والبؤس والشقاء .

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)

وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ

إياكم ومجاوزة الحدّ في الإنفاق :

حدَّثني بعض الأشخاص القادمين من بعض الدول العربية التي هي في بحبوحة أن الطعام الذي يلقى في القمامة أضعاف الطعام الذي يؤكل، فاللحم والرز المطبوخ بالسمن، وكل شيء زاد على الوجبة اليومية في القمامة، هؤلاء يدفعون الثمن غالياً، والله عز وجل قال :

((يا عائشة، أكرمي مجاورة نعم الله، فإن النعمة إذا نفرت قلّ ما تعود))

[ورد في الأثر]

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)

إنفاق بغير حساب، وبشكل طبيعي، وغير طبيعي، بشكل معقول، وغير معقول، إسراف ألوان منوعة من الطعام، بعضها يفسد، بعضها يلقى في القمامة، وألبسة كثيرة جداً، وأحذية لا تعد في البيت، ويلبس الحذاء مرة ويلقى، وأكثر هذا في النساء، هذا هو الإسراف بعينه .

(وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)

ما الذي يحصل؟ تعودت على مصروف مرتفع جداً، وعلى مستوى معاشي مرتفع جداً، فلسبب أو لآخر لو انخفض دخلك ماذا تفعل ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

((اخشوشنوا، وتمعددوا فإن النعم لا تدوم))

[الطبراني عن ابن أبي حدرد، والسيوطي في الجامع الصغير]

فمن الحمق بالرجل أن يسرف إسرافاً، فلو جاءه خاطب لابنته ، شاب صالح مؤمن، ولكن دخله محدود، لقد عود ابنته الإسراف في النفقة، فهذه البنت لا يمكن أن تعيش مع هذا الزوج أبداً، تفسد الحياة، ولن تستقيم بينهما عوّد نفسك، لذلك :

((اخشوشنوا، وتمعددوا فإن النعم لا تدوم))

هذا أمر نبوي .

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

لذلك المؤمن المطبق لسنة النبي عليه الصلاة والسلام لو جاءت شدة فإنه يحتملها؟ لأنه قد عوَّد نفسه على الخشونة، عوِّد من هم معك على أن يكون الطعام نفيساً في يوم، وخشناً في يوم آخر، على أن يكون مع الطعام فاكهة في يوم، ومن دون فاكهة في يوم آخر، عود نفسك هذا وهذا، فلو جاءك شاب مؤمن يبتغي الزواج من ابنتك عاشت معه حياة سعيدة، أما الإسراف والتبذير، والإنفاق العشوائي غير المدروس، ليس من صفات المؤمن، الوضع دقيق جداً .

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً)

نتيجة الشح والإسراف : فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً

هذه في البلاغة اسمها لف ونشر، لو أنك جعلت يدك مغلولة إلى عنقك لكنت ملوماً من قِبَل الأهل، إذ دائماً البخيل أهله يتمنون موته، وينتظرونه بفارغ الصبر ! وإذا جاء الطبيب، وبشرهم بأن الحالة عرضية يتألمون، كيف الحالة عرضية؟ لا حول ولا قوة إلا بالله! يتمنون أن تكون الحالة خطيرة حتى يرتاحوا منه، فتقعد ملوماً من قِبل زوجتك أو أولادك، وإذا بسطها كل البسط تقعد محسورا، لا تمتلك شيئاً .

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً)

فتقعد ملوماً، في الحالة الأولى، في البخل، ومحسوراً في الحالة الثانية، في الإسراف، تتحسر، ليس عندك شيء، فالإنسان هكذا .

وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً

قال الله عز وجل :

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة : 269)

هناك كتاب أُلِّف في هذه الآية! يثبت مؤلف الكتاب أن الحكمة أثمن شيء في الحياة! بالحكمة يغتني الفقير، وبالحمق يفتقر الغني، وبالحكمة تعيش مع الزوجة السيئة وتسعد بها، وبالحمق تفسد الطيبة،

وبالحكمة تجعل أعداءك أصدقاء، وبالحمق تجعل أصدقاءك أعداء.

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

ولذلك قال العلماء: الكرامات على نوعين: كرامات تجري وفق العادات، وهي العلم والحكمة، وكرامات تجري بخرق العادات، ولها بحث آخر تحدثنا عنه في درس العقيدة، ولذلك من كرامة الله لك ومن إكرامه أن يجعلك عالماً وحكيماً .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

فالأنبياء هذا عطاؤهم .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(29)إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا

الآية لها معنيان متعاكسان :

المعنى الأول :

المعنى الأول : أن الله عز وجل سنته في خلقه أنه يعطي بحكمة، ويمنع بحكمة .

المعنى الثاني :

وإذا رأيت أن الله عز وجل أعطى فأدهش، وحاسب ففتش، لا تفعل كما يفعل الله عز وجل، هو رب العالمين، وأنت مأمور بالاعتدال، أما ربنا عز وجل فلحكمة بالغة إذا أعطى أدهش، فقد يعطي عطاءاً مذهلاً، وقد يسلب الإنسان كل شيء، أنت عبد، وهو رب، هو يفعل ما يشاء لحكمة يراها، لا تفعل كما يفعل، فإما أن تفهم هذه الآية على أن الله سبحانه وتعالى يعطي بحكمة، ويقبض بحكمة، أو أنه إذا أعطى فأدهش، أو حاسب ففتش، لا تفعل أنت ذلك، لأن هذا من شأن الله وحده! وليس من شأنك أنت .

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(29)إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

قال الشاعر :

لو كانت الأرزاق تجري مع الحجى هلكن إذاً من جـهلهن البهائم

***

فالله عز وجل هو الرزاق، قد يهب الغبي رزقاً وفيراً، وقد يمنع الفهيم الذكي الحاجات الأساسية .

(إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(30)وَلَا)

الله أعلم بما يصلح للعبد من الفقر أو الغنى :

إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، يريد السفر فوراً إلى أوروبة، ويريد الزواج من امرأة ثانية، وإن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه .

(إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

يعرف عباده .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا

من أعمال الجاهلية الأولى : قتل الأولاد خشية الفقر :

هذا الإنسان كما جاء في بعض الأحاديث بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، أي : أن تقتل النفس لأي سبب، وهنا السبب خشية الفقر، خشية إملاق، لا يجوز أن تقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، لذلك كان العرب في سنوات الشح وسنوات القحط يقتلون أولادهم خشية الفقر، طبعاً قد ينصرف ذهنكم إلى الوأد، هذه الآية لا علاقة لها بالوأد، فالوأد قتل البنات على التخصيص خشية العار لا الفقر .

(وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ{8} بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير)

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ{58} يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة النحل)

معنى آخر من معاني قتل الأولاد :

لكن بعضهم فسر أن الذي تأتيه بنت، ويطلق لها العنان تذهب إلى حيث تشاء، وتصادق من تشاء، وتفعل ما تشاء، فتفسد! وقال بعض العلماء: هذا عند الله أشد من وأدها! لأنك لو وأدتها دخلت الجنة، ولكنك إذا أفسدتها أدخلتها النار، ولكنها لن تدخل النار قبل أن تدخلك قبلها، تقول: يا رب، لا أدخل النار قبل أن أُدْخِلَ أبي قبلي، لأنه هو الذي شجعني، ودفعني إلى هذه المعاصي، فالذي يفسد ابنته، ولا يهتم بأخلاقها، ويرخي لها الحبل، ولا يحاسبها، ولا يدقق في تصرفاتها إلى أن تفسد، عندئذٍ هو عند بعض العلماء أشد من وأدها !

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

لا أعتقد أن هناك إنساناً واحداً في المليون يقتل ابنه خشية الفقر، لكن هذا الذي يلقي ابنه في المفاسد من أجل المال، أليس الإفساد أشد من القتل ؟

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة : 191)

فهذا الذي يزوج ابنته لرجل غني فقط، دون التدقيق في دينه، أليس هذا العمل إفسادًا لهذه الفتاة عن طريق تزويجها لرجل فاسق؟ وهذا أشد عند الله من قتلها، والقرآن حمَّال أوجه، فاحملوه على كل وجوهه، من قتل ابنه خشية الفقر، فهذا عمل عظيم عند الله، لكنه من دفع ابنته إلى زوج فاجر فاسق فهو عند الله أشد! لأنه فتنها عن دينها، ومتى فتنها عن دينها فقد ضيَّع آخرتها، وعندئذ تحتج عند الله عز وجل على أبيها، ولا تدخل النار قبل أن تدخله النار قبلها !

بَيْنَ القتلِ للفقر والقتل خشية الفقر :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

هناك آية أخرى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ)

(سورة الأنعام : 151)

خشية الإملاق لفقر متوقع، لكن من إملاق لفقر حاضر، دقة القرآن عجيبة .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)

المولود معه رزقه :

لأنه في خشية الإملاق خائف على رزقه، سوف يأتيك رزقه مع رزقك .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

بين نرزقهم وإياكم، وبين نرزقكم وإياهم بون شاسع، بين خشية إملاق، وبين من إملاق فرق كبير :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

ما هو الخطأ ؟

عرَّف العلماء الخطأ بأنه من أراد عملاً لا تحسن نيته، ولا يحسن فعله، فهذا الخطأ الشامل، عمل عملاً لا تحسن نيته عند الله، ولا عند الناس، فهذا هو الخطأ، وهناك أشخاص يعملون عملاً بنية طيبة، ثم ينحرف العمل عن غير قصد منهم، فإذا هو عمل مؤذ، نقول : هذا العمل صحت نيته، وساء فعله ! وهناك أناس ينوون الشر، فإذا شرهم يقلبه الله إلى خير، نقول : هذا العمل حسن فعله، وساءت نيته، من عمل عملاً حسنت فيه نيته وفعله فهذا هو العمل الصواب، ومن عمل عملاً حسنت فيه نيته، وساء فعله فهذا هو الخطأ غير المقصود، ومن عمل عملاً ساءت فيه نيته وساء فعله، فهذا هو الخطأ بعينه .

(إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (05-13): تفسير الآيات 32 – 39
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-07-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وردت آية النهي عن الزنى بين آيتي النهي عن القتل !

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

(سورة الإسراء: 31)

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

(سورة الإسراء: 33)

جاءت بينهما آية النهي عن الزنى.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

(سورة الإسراء: 32)

فبعض العلماء استنبط من أن تكون آية النهي عن الزنى بين آيتي النهي عن القتل أن الزنى نوعٌ من أنواع القتل، ولكن هذا القتل قتلٌ معنوي، وليس قتلاً مادياً، فهذه المرأة التي تقع في الزنى كأنك قتلتها فأخرجتها من إنسانيتها، وأبعدتها عن مهمتها المقدسة، وعن الوظيفة العليا التي خلقت من أجلها، وعن أن تقوم بدورها الطبيعي الإنساني.

بدل أن تكون أمًّا، زوجةً مخلصةً لزوجٍ وفي، وبدل أن تكون أماً لأولادٍ مهذبين، وبدل أن تكون جدةً يشع منها الخير والعطف والحنان، جعلتها مومساً، ساقطة، بلا معيل، وجعلتها حين يزوي جمالها في الحضيض.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

فالقتل نوعان: قتل النفس قتلاً مادياً، وقتلها قتلاً معنوياً، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة: 191)

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

ليس النهي في هذه الآية عن ارتكاب الزنى ! ولكن النهي عن الاقتراب من الزنى، فأي شيء يقربك إلى الزنى أنت منهي عنه بنص هذه الآية، فالنظر إلى النساء خطوة أولى نحو الزنى، والحديث معهن حديثاً فيه لين، كذلك خطوة إلى الزنا، ومجالسة أهل الزنى والاختلاط، وقراءة الأدب الرخيص، ومشاهدة الأشياء التي تسبب إثارة المشاعر، ومتابعة التمثيليات الفاضحة كلها خطوة إلى الزنا، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

لم ينهنا الله عز وجل عن الزنى فحسب ! بل نهانا عن أن نقترب منه، ويبدو أن الشيء الذي له قدرة على الجذب، المعصية التي لها القدرة على الجذب، نهانا الله سبحانه وتعالى عن أن نقترب منها، أو أمرنا أن نجتنبها، والاجتناب أن تبقي بينك وبينها هامش أمان، وهذا هو الاجتناب، لقوله تعالى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: 187)

وفي آية أخرى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

(سورة البقرة: 229)

من الموازنة بين الآيتين الكريمتين يتضح أن بعض المعاصي يجب أن تبقي بينك وبينها هامش أمان ! وبعض المعاصي أنت منهي عن أن تقع فيها فقط من دون هامش، يبدو أن المعاصي التي تتصل بالشهوات الأساسية التي أودعها الله في الإنسان أُمِرنا أن نجتنب أسبابها، وأُمرنا أن لا نقترب منها، لذلك ربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْعَيْنُ تَزْنِي، وَالْقَلْبُ يَزْنِي، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا الْقَلْبِ التَّمَنِّي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ مَا هُنَالِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ))

[أحمد في المسند]

وهناك الزنى المعروف، إذاً الجوارح تزني ! لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه))

[أخرجه الطبراني عن ابن مسعود]

وعَنْ جَرِيرٍ قَالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجْأَةِ فَقَالَ: اصْرِفْ بَصَرَكَ))

(سنن أبي داود)

كل هذه الأحاديث إنما هي مستنبطة من هذه الآية:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

الاختلاط والنظر والمصافحة والحديث والمشاهدة، مشاهدة بعض البرامج الفاضحة، ومتابعة بعض الأعمال الفنية الرخيصة، وقراءة الأدب الرخيص، ومصاحبة الأراذل، مع أن الفقهاء اجتمعوا على أن هناك مجموعة كبيرة من البنود التي إذا فعلها الرجل المسلم جُرحت عدالته، ومن هذه البنود: صحبة

الأراذل، والأكل في الطريق، والمشي حافياً، والحديث عن النساء، وتطفيف بتمرة، وأكل لقمة من حرام، ومن أطلق لفرسه العنان، ومن قاد بردْوناً، ومن تنزه في الطريق، ومن علا صياحه في البيت، ومن لعب بالشطرنج، ومن بال في الطريق.... كل هذه الأعمال تجرح العدالة، أما الكذب والظلم والإخلاف فهذا يسقطها، من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته، إذاً هناك حكمة بالغة من هذا النهي:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

فلو أن الله عز وجل قال: ولاتزنوا لكانت كل هذه المقدمات مباحة، ولكن الله عز وجل يقول:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

الزنى طريق غير مشروع لإرواء هذه الشهوة، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها طريقاً مشروعاً، ومتنفساً طبيعياً، وقناة نظيفة، تماماً كما لو أن الوقود الذي في مستودع السيارة إذا سار في أنابيبه المحكمة، وانتقل إلى الموزع، فإلى غرفة الانفجار، فأنشأ هذا الوقود السائل حركة تعود علينا بالنفع العميم، فإذا خرج هذا الوقود عن مساره الطبيعي، وألقي فوق المحرك، وجاءته شرارة، أحرق السيارة، كذلك الشهوة سلاح ذو حدين، إما أن يكون قوة نافعة، وإما أن يكون قوة مدمرة تصور إنساناً استقام على أمر الله قبل زواجه، وغض بصره عن محارم الله، وعف، وصبر عن الحرام حتى جاءه الحلال، فأكرمه الله عز وجل بعد هذا الصبر، وهذه العفة، وهذا الورع، وتلك الاستقامة، وأكرمه الله بزوجة صالحة، إن نظر إليها سرته، وإن غاب عنها حفظته، وإن أمرها أطاعته، وأنجب أولاداً، وكان بيته بيتاً إسلامياً، ترفرف عليه المحبة والمودة، والعطف والإخلاص، والوفاء والطهر، إلى أن شدّ الأولاد في هذه الأجواء الصحيحة، تحسّ أن هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان هي سبب كل هذه السعادة، لا رقي في الجنة من دون هذه الشهوات، لكن الشر يتأتى من سوء استخدامها من خروج صاحبها عن مسار الشرع، لخروجه عن الطريق الصحيحة التي رسمها الله لنا، فلا تقربوا الزنى، الزنى محرم، والزواج حلال، الربا حرام، البيع حلال، والخمر حرام، مئات المشروبات حلال، المشروب الذي حرمه الله علينا يقابله أنواع منوعة من المشروبات التي أحلها الله لنا ! وهذا الطريق القذر في قضاء الشهوة حرمه الله علينا، بينما أباح الزواج، إنك مطمئن.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

الحقيقة أنّ المعاصي كثيرة، ولكن الزنى خُصّ بهذا الوصف، إنه كان فاحشة لأنه من أقبح المعاصي ! إنه معصية له آثار خطيرة، آثار اجتماعية، وآثار شخصية، فيه فضيحة، فقد ينقلب الزنى إلى قتل،

وجرائم القتل التي مبعثها الزنى لا تعد ولا تحصى، بل إن عند ضباط التحقيق في المباحث الجنائية قاعدة: " فتش عن المرأة في كل جريمة "، وفي كل قضية فتش عن المرأة، إذاً:

(إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً)

أشد الناس استهتاراً إذا أراد الزواج يبتغي من زوجته أن تكون عفيفة وشريفة، إذاً:

(إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً)

وسبحان الله ! الأخبار المتعلقة بالزنى تسري كالنار في الهشيم ! تفوح بسرعة، تتناقلها الألسنة، فلذلك موضوع الزنى موضوع يسبب دماراً وتحطيماً، والنبي عليه الصلاة والسلام ذَكَر عن طلاق المرأة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلاقُهَا))

(صحيح مسلم)

فالمؤمن قبل أن يطلّق يحسب ألف حساب، فلعل في هذا الطلاق تجنياً، ولعل فيه ظلماً، ولعل فيه تجاوزاً، لأنه إذا تجاوز حده فالله سبحانه وتعالى قد يرزقها خيراً منه، وقد يؤدبه بزوجة تقلب له ظهر المجن.

تروي الكتب القديمة أن زوجاً كان يجلس مع زوجته وقد طرق الباب، وإذا بالباب مسكين، فهمَّت هذه الزوجة الصالحة الوفية التي ابتلاها الله مع هذا الزوج الشرس أن تعطيه بعضاً من الطعام الذي بين يديه، فما كان منه إلا أن وبّخها، وكاد يضربها، وقال: اطرديه، بعد أيام أو أشهر ساءت العلاقة بين الزوجين إلى أن حمله ذلك على طلاقها ! فلما طلقها رزقها الله زوجاً صالحاً عرف قيمتها، وعرف قدرها وحجمها الحقيقي، أما الزوج الأول فساق الله له زوجة أرته النجوم في الظهر كما يقولون ! وتروي هذه القصة أن هذا الزوج كان مع زوجته الصالحة، فإذا الباب يطرق، فلما ذهبت لتفتح الباب عادت مضطربة، قال لها: ما بك ؟ قالت: سائل يسأل، قال: أراك مضطربة، اضطربت، وتلعثمت، وقالت: أتدري من السائل ؟ قال: لا، قالت: إنه زوجي الأول ! فقال: أتدرين من أنا ؟ قالت: لا، قال: أنا السائل الأول ! وكسر المرأة طلاقها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ))

(صحيح البخاري)

قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

هذا الماء الذي أودعه الله فيك ليكون غلاماً أو فتاة لينفع الناس من بعدك سفحته في غير مكانه الطبيعي! إذا سفح الماء في غير مكانه الطبيعي فلو أن الحمل وقع لكان هذا المولود غير مرغوب فيه، وكثيراً ما يجد عمال التنظيفات في بعض البلدان المتقدمة ـ بمقياس العصر ـ تقدماً صناعياً الأطفال في حاويات القمامة ! أو في زوايا الحدائق، أو في أطراف المهاجع، وهذا الطفل الذي يأتي من حرام غير مرغوب فيه، لا يعرف له أب، وأمه تتمنى الخلاص منه ! أما إذا جاء الابن من طريق مشروع فإنه ضيف مرغوب فيه، وينتظره الأب والأم على أحر من الجمر، ويُعِدُّون له كل إكرام، ويأتي الناس جميعاً من كل حدب وصوت ليهنئوا بمجيء هذا المولود.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

والنبي عليه الصلاة والسلام تحدّث عن آخر علامات الزمان، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ: خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنّ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

(سنن ابن ماجه)

وهذا الشيء تحت سمعنا وبصرنا ، مرض الإيدز أكبر ما يقلق العالم الغربي، حتى إنه دخل في خطابات رؤساء الدول، ورؤساء الحكومات الموجهة إلى شعوبهم ! إنه العدو الأول كما قال بعضهم لهذا الشعب المنحل، هذا المرض أسبابه الفحش، والطريق غير المشروع في تحقيق هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان، إذاً:

((لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا))

وما أكثر الأمراض التي تظهر بسبب الانحراف الخلقي، الله سبحانه وتعالى في آية كريمة حينما تحدث عن عباد الرحمن قال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (63))

(سورة الفرقان)

ثم تأتي الآية الكريمة:

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان: 68)

هذه (لا) ليست ناهية، إنما هي نافية، فالله سبحانه وتعالى ينفي عن المؤمن أن يكون زانياً.

(وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (68))

(سورة الفرقان)

من يَزْنِ يُزْنَ به ولو بجداره إن كنت يا هذا لبيباً فافهم

***

شيء آخر، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مَا كَانَ اللّه لِيُعَذِبَ قَلْبَاً بِشَهْوَةٍ تَرَكَهَا صَاحِبُهَا فِي سَبِيلِ اللّه))

[ذكره أبو نعيم في الحلية من قول أبي سليمان الداراني]

أي: إذا غضضت بصرك عن محارم الله ما كان الله ليعذبك في هذه الشهوة، يلقي في قلبك برداً وسلاماً، وطمأنينةً وصفاءً.

الحقيقة لمَّا يعف الشاب عن الحرام يكون قد هيأ لنفسه جواً يساعد على بناء مستقبله، فإذا حقق أهدافه لنيل شهادةٍ عاليةٍ، أو تحقيق عملٍ جيدٍ، أو دخلٍ جيدٍ، أتقن عملاً أو حرفةً، أو حصل على شهادةٍ، عندئذٍ إذا بحث عن الزواج كان له ميسراً، والله سبحانه وتعالى يوفقه إلى ذلك، ومن طلب الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

وأكثر شيئين يقع فيهما الإنسان في المعاصي، قضاء الشهوات، وكسب الأموال، لذلك تسعون بالمئة من المعاصي إما من طريق لذةٍ محرمةٍ اقتنصها الإنسان، أو من طريق درهمٍ حرامٍ كسبه، فلو تَرَفَعَ المؤمن عن النظر إلى النساء، وعن الكسب الحرام لكان في حصنٍ وأي حصن.

لذلك ففي الإنسان نقطتا ضعفٍ كبيرتان، هما حب المال وحب الشهوات، فإذا استقام المؤمن، وحصَّن نفسه من هاتين النقطتين، فقد كان محصناً، وكان في منأىً عن وساوس الشيطان.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

المعنى الأول: النفس هي النفس الإنسانية، والإنسان كما قال النبي الكريم بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، هذا الإنسان مخلوق خلقه الله عز وجل وكرمه، وسخر الكون كله من أجله، أتقتله أنت ؟

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

أي: ولا تقتلوا النفس الإنسانية التي حرم الله قتلها، ولا يزال المسلم بخير ما لم يسفك دماً ! وقد حرم الله قتل النفس الإنسانية لأنها مخلوق له، ولأن هذا المخلوق خلق ليعبده، خلقت لك ما في السماوات وما

في الأرض فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتساهل بما ضمنته لك عما افترضته عليك، فالإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله أو من عذبه.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

معنى آخر: أن أيّ نفس خلقها الله عز وجل وحرم قتلها لا ينبغي لك أن تقتلها، فهناك حشرات مكانها الطبيعي تحت الأرض، إذا تتبعتها إلى مكامنها وبيوتها وقتلتها وقعت في الإثم ! وإذا خرجت عن حدودها فقد أصبحت مؤذية للإنسان فعندئذٍ تقتلها، أي: لا ينبغي أن تبحث عن وكر الحية من أجل أن تقتلها، فإذا خرجت فاقتلها، ولو كنت في الصلاة، الحية والعقرب يقتلان، ولو كنت في الصلاة، لأن الحية والعقرب خرجتا من مكانهما الصحيح، فليس كل حيوان يقتل، وهناك إنسان كلما وجد حشرة يقتلها، أو يدوسها، لا يجوز ، هذه نفس.

حدثتكم كيف أن الله سبحانه وتعالى ينتقم أشد الانتقام، ويبطش أشد البطش ممن يعتدي على حيوان حرم الله قتله.

وإنسان يقود سيارة أراد أن يتسلى رأى كلباً على يمين الطريق، وقد مدّ يديه فداسهما بعجلات سيارته ! وصار يضحك، كيف أنه قطع يدي هذا الكلب ! فلم يمض أسبوع حتى فقد يديه من الرسغين في المكان نفسه ! لقد أصاب العجلة خلل فاضطر أن يستبدلها، فرفع السيارة على الجهاز المعروف، وحل البراغي، وسحب العجلة، فإذا الجهاز الذي يرفع السيارة قد انحرف، ووقعت السيارة على العجلة، والعجلة بحدها الدقيق وقعت على يديه فقطعتهما ! في المكان نفسه.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

المعنى الأول: الإنسان، الإنسان مكرم.

والمعنى الثاني: أيُّ مخلوق.

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

(سورة النمل)

استنبط العلماء أن المؤمن لا يدوس نملة وهو يشعر أبداً.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

القاتل يُقْتَل، قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179))

(سورة البقرة)

حياة لكم، ما دام القاتل يُقْتَل فالقاتل قبل أن يَقْتُل يحسب حساب القَتْل، فلا يَقْتُل، فإذا لم يَقْتُل نجا بنفسه، ونجا خصمه، ونجا المجتمع.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179))

فالقاتل يُقتَل بنص الشرع، والعرب كانت تقول: القتل أنفى للقتل، وما ذلك إلا بالحق، الإنسان يُقتَلُ من كفرٍ بعد إسلام، ومن زنىً بعد إحصان، ومِنْ قَوَدٍ بنفسٍ، وهناك بعض الأحاديث تبين أن الإنسان إذا زنى وهو محصن يرجم حتى القتل، وإذا قتل نفساً يجب أن يُقتَل، وإذا ارتد وبالغ في العدوان على دين الله عز وجل أيضاً يُقتَل.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً)

السلطان الحجة، والولي هو القريب الذكر، وليس عند الفقهاء وليّة في القتل، ولا بد من وليٍّ، أقرب رجل ذكر لهذا المقتول هو الذي يجب أن يطالِبَ بدمه، هذا اسمه ولي المقتول.

(وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً)

جعلنا له حجة في أن يقتص من القاتل، وجعلنا له سلطة في أن يقتص من القاتل، ولكن عن طريق الحاكم، وهذا الحد لا يمكن أن يقام إلا عن طريق الحاكم، لئلا تقع الفوضى، فحد القتل محصور بالحاكم، إذ لو تُركَ الناس لبعضهم لعمّت الفوضى، ولذلك:

(وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ)

والعلماء فسروا الإسراف في القتل في اتجاهات ثلاثة: ألاّ تقتل غير القاتل، فهذه العادة الذميمة المنتشرة في الريف، وهي عادة الثأر، أن الذي يقتل منهم قتيلاً لا بد أن يقتلوا من قبيلة القاتل إنساناً، ولو أنه بعيد عن هذه الجريمة، أو لا علاقة له بهذه الجريمة، هذه جاهلية ما بعدها جاهلية، قال تعالى:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة فاطر: 18)

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

هذه جاهلية ما بعدها جاهلية، ولذلك فلا يسرف في القتل، ولا ينبغي أن تقتل إلا القاتل، إلا الذي لوث يديه ببناء الجريمة، أما أن تقتل غير القاتل فهذا إسراف، وهذا طغيان، وبغي، وعدوان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ، وَلا يَدْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ))

(صحيح مسلم)

أحياناً توجد الفوضى، ولذلك:

(فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (33))

المعنى الثاني لعدم الإسراف في القتل: ألا تقتل اثنين بواحد ! بل واحداً بواحد، القاتل نفسه، أما أن تقتل مجموعة كبيرة فلا، إلا إذا تواطئوا، وسيدنا عمر قال: **" والله لو أن أهل قرية تواطئوا جميعاً على قتل رجل مسلم لقتلتهم به جميعاً "**، إذا تواطئوا، استنبطوا هذا من قول ثمود الذين عقروا الناقة، قال:

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة هود: 65)

فالذي عقرها واحد، لكن كل هؤلاء كانوا راضين، بل ودفعوا هذا الذي عقر الناقة، لذلك لو تواطأ جمعٌ غفير على قتل رجل لقتلوا به جميعاً، أما أن تقتل إنسانًا لا علاقة له بالموضوع فهذه جاهلية ما بعدها جاهلية، وهذه العادة مع الأسف متفشية تفشياً كبيراً في الأرياف ! هذه قضية خطيرة اسمها الأخذ بالثأر.

(فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (33))

المعنى الثالث: ألاّ تمثل بالمقتول، فالنبي عليه الصلاة والسلام دعي إلى التمثيل ببعض قتلى بدر، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا أمثل بهم، فيمثل الله بي، ولو كنت نبياً))

التمثيل بالمقتول ليس من صفات المؤمن، والمؤمن منهياً عن أن يتخذ بعض البهائم غرضاً، يعني أن تضع دجاجة أمامك، وأن تتمرن على الرمي، فهذا من أشد الأشياء المحرمة، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا))

[مسلم]

فإذا كانت دجاجة أو عصفوراً أنت منهي عن أن تقتلها من أجل التدريب، فما قولك بهذا الإنسان المكرم؟ إذاً الإسراف في أن تقتل غير القاتل، والإسراف في أن تقتل أكثر من واحد بواحد، والإسراف أن تمثل بالمقتول.

(فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (33))

الله سبحانه وتعالى أمر أولي الأمر أن يقيموا حدود الله لذلك قيل:

((إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن))

[تفسير ابن كثير]

وقد نهي المسلم عن أن يسكن في بلد ليس فيه سلطان، فالسلطان يبث في نفوس الناس الأمان.

(فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (33))

قال الإمام علي: **" سلطان غشوم خيرٌ من فتنة تدوم ".**

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

(سورة الأنعام: 152)

العدوان على الأقرباء.

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ)

(سورة الأنعام: 151)

والعدوان على كرامة النفس الإنسانية.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

والعدوان على النفس الإنسانية بالقتل.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ)

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

انتبهوا إلى ترتيب هذه الآيات، يجب أن تبقي بين مالك ومال اليتيم هامشاً، كن دقيقاً جداً، فهذا المال أنت محاسب عليه أشد الحساب، ولذلك بين العلماء أولاً: أن الوصي على مال اليتامى إن كان غنياً فيجب عليه أن يستعفف، ومعنى أن يستعفف ألاّ يأخذ على إدارة الأموال شيئاً، وإن كان فقيراً فليأخذ بالمعروف.

فَسَّر العلماء المعروف أن تأخذ أجر الجهد أو الحاجة أيهما أقل، هناك يتيم دفع إليك ماله لتديره له، وأنت غني فاستعفف، وأنت فقير فخذ من ماله بالمعروف، ما هو المعروف ؟ المئة ألف ليرة ربحت في هذين الشهرين مثلاً عشرين ألف ليرة فرضاً، أجر المثل، لك نصف الربح، ولليتيم نصف الربح، فربحت عشرين ألفًا، لك عشرة آلاف، وله عشرة آلاف، وأنت يكفيك في هذين الشهرين سبعة آلاف، يجب أن تأخذ حاجتك لا أجر المثل، العشرة آلاف ربحت ألفاً في الشهرين، وأنت تحتاج إلى ثلاثة آلاف مصروفاً، فمن هذا الربح لن تنال إلا خمسمئة فقط، يجب أن تأخذ أجر المثل لا الحاجة، لأن أجر المثل أقلّ، يجب أن تأخذ حاجتك أو أجر المثل أيهما أقلّ، هذا رأي الفقهاء في معنى قوله تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ)

أشد الشباب ثمانية عشر عاماً، وأشد الكهل أربعون.

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

(سورة الأحقاف: 15)

لذلك سن الأربعين من النُذُر التي ذكرها الله في القرآن الكريم.

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: 37)

فسن الأربعين نذير، لأن الإنسان في هذا السن بلغ أشده، وبدأ الميزان يميل نحو النزول، بعد الأربعين أمراض، ضعف بصر، يلزمه نظارة، شاب شعره، التهاب في المعدة، بعد الأربعين الخط قد يستمر قليلاً، وبعدها يبدأ بالهبوط، فالأربعون أحد المعاني التي وجه المفسرون الآية، وموت الأقارب من

النذير، والنبي عليه الصلاة والسلام هو النذير، والقرآن الكريم هو النذير، والدعاة المخلصون هم النذر، والمصائب من النذير، والشيب هو النذير، حتى يبلغ أشده، أي: في الثمانية عشر، إذا بلغ اليتيم هذه السن، وآنسنا منه رشداً وحكمة وقدرة على إدارة أمواله دفعنا إليه أمواله، بعد أن نكون قد أخذنا منها بالمعروف، الحد الأدنى، احفظوه أجر المثل أو الجهد أيهما أقلّ، هذا لمن ؟ لمن كان فقيراً، أما لمن كان غنياً فيجب عليه أم يستعفف.

عَنْ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَقَالَ: بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى))

(صحيح البخاري)

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34))

عهدك مع الله، وعهدك مع النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعهدك مع الذي هداك إليه، وعهدك مع أخيك، وعقد البيع، وعقد الآجار، وأي عقدٍ توَقِّعُهُ مع أخيك المسلم فيما لا يتنافى مع كلام الله، وفيما لا يخالف شرع الله، هذا العهد أنت مأمور أن تفي به،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

[سورة المائدة: 1]

أما هنا فوردت:

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34))

والله سبحانه وتعالى سيسألك عن هذا العهد لِم ضيعته ؟ لذلك الناس اليوم سريعاً ما ينقضون عهودهم ومواثيقهم لبارقةٍ مِنْ ربح جزيل، أو لمغنم يسير، أو لغرض ضئيل، ينقضون عهودهم ومواثيقهم، فالعرب كانت في أوج أخلاقها تقول: المنيّة ولا الدنيّة، والإنسان قبل أن ينقض عهده يحسب ألف حساب، أما الآن فلأتفه سبب باع البيت، وجاءه بعد أن وقّع عقد البيع مشترٍ آخر دفع له خمسة آلاف فرقاً، فيأتي الشاري الأول، ويقول له: هذا البيت عليه كسوة خارجية، عليك ثمانية آلاف كسوة، أخي أنت لم تقل هذا الكلام، نسيت أن أقول لك، يستفزه، ثم يقول له المشتري: لا أريد هذه البيعة، من أجل خمسة آلاف.

والله أعرف أسرة جاءها خاطب أخلاقه عالية، ودينه جيد، وخطب ابنتهم، وعقد عقد القران، وسافر إلى بلد عربي، في غيبته جاءهم خاطب آخر أغنى من الأول، فنقضوا عهدهم مع الأول، فماذا فعل الثاني ؟ طلق ابنتهم، وماذا فعل الخطيب الثالث ؟ طلق ابنتهم، وهي الآن بعد الزواج الثالث مطلقة من الثلاثة، فلذلك:

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34))

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا قَالَ:

((لا إيمَانَ لِمَنْ لا أمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(مسند الإمام أحمد)

لا يوجد عهد، لا يوجد دين، انعدمت الأمانة، انعدم الإيمان.

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34))

أمر إلهي، وكل أمر يقتضي الوجوب.

(إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)

إن كانت البضاعة تباع كيلاً فاجعل هذا السائل عند الحد الصحيح أو بالميزان، فقد توضع الحاجة في كفة البضاعة بعنف، فإذا بالكفة ترجح فيأخذها سريعاً ويضعها، وهذا لا يجوز، وإذا كان بالمتر فعند لشراء القماش منحنٍ، وعند البيع القماش مشدود، يكاد يتمزق، هذا بيع غير صحيح، فهذا الذي يطفف، قال تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5))

(سورة المطففين)

فالإنسان بالوزن بالكيل بالمساحة بالعد يكون دقيقاً جداً، لأن في الدنيا القضية تحل، أما في الآخرة فلا تحل.

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ)

وعندما يكون ماء كثير مع البضاعة هذا الماء يزن، إذ تشتري اثنين كيلو من الجبن تجد بهما نصف كيلو ماء مصفاة، تسكب الماء، وتزنه فتجده كيلوًا ونصفاً.

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ)

تأخذ شيئاً غالياً فتجد الورقة في كفة الوزن، وفي الكفة الثانية لا يوجد غير الوزن، أما السلف الصالح فكانوا يضعون ورقة أخرى في الكفة الثانية، هذا هو الوزن الدقيق الذي لا يُأبَه له محاسب عليه عند الله عز وجل، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا وَزَنْتُمْ فَأَرْجِحُوا))

(سنن ابن ماجة)

تجد ميزان المؤمن دقيقًا، مروحة تدور في المحل، والبضاعة غالية جداً، توزن بالغرامات، أطفئ المروحة أولاً، ينتبه إلى المروحة أين جهتها، وحينما تصل إلى الكفة تجد أن هناك وزناً عندها يضع البضاعة بسرعة، وهذا احتيال.

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)

كل شيء يوضع بالوزن والمساحة والعدد والكيل، إن كان فيه رطوبة فهذه الرطوبة لها وزن تحاسب عليها، إن لم تعط المشتري حقه سواء كان هذا الحق وزناً أو نوعاً أو تسليماً أو حجماً، فأنت محاسب.

(ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35))

قصة قديمة، رجل أراد أن يشتري برتقالاً من بائع، فحينما وزن له البرتقال دفع لسان الميزان بإصبعه كي ترجح كفة البرتقال، كان ميزاناً يدوياً، فالشاري انتبه، فقال له: يا هذا، أنا غني عن برتقالة أو اثنتين، لكن هذا العمل لن يجلب لك الخير في حياتك، ما كان من هذا البائع إلا أن انفجر بالشكوى، والله لا أحَصِّل قوت يومي من هذا البيع، ومن هذه الطريقة في البيع، وتوجد دكان قريبة من هذا الدكان قال له: اذهب معي، خاطب صاحب الدكان، فقال له: إذا طلب منك هذا البائع شيئاً فأعطه ما يشاء، وسجله علي ! قال له: إذاً بِعْ بيعاً صحيحاً، وإذا نقصت الغلة عن الحد الذي تريد فخذ الفرق من هذا البائع، فهذا البائع بعد فترة أصبح لديه محل تجاري، وصار من تجار الفاكهة لاستقامة الوزن ! فإذا استقام وزن الإنسان فمعنى ذلك أن دينه استقام أيضاً، وإذا انحرف وزنه انحرف دينه، وهذا الميزان دين، ولا مجال فيه.

(ذَلِكَ خَيْرٌ)

لكم في الدنيا.

إذا وزنت بالقسطاس المستقيم فالقسطاس هو الميزان، وإذا وفيت الكيل، وإذا كلت ذلك فهو خير، الله يقول: خير، خالق الكون يقول:

(ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35))

والتأويل: هي العاقبة، وإنني أعرف شخصاً زرته قبل عام، وأنا أعرف ابنه، وابنه صديقي، فقال لي: إن هذا الإنسان أجرى فحوصات دقيقة جداً وهو في سن التسعين، ولم يكن في كل هذه الفحوصات شيء غير صحيح، أو غير مثالي، والله هذه نعمة كبيرة، إنسان يجري فحص دم كاملا، وفحص بول كاملا، وتخطيط قلب، وتخطيط دماغ، والنتائج كلها إيجابية، وهو في التسعين، وقد بلغني أن هذا الرجل ما أكل درهماً حراماً في حياته، ولا عصى الله، يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً، هذه العين التي تغض عن محارم الله، الله سبحانه وتعالى يحفظها لك، وهذه اليد التي تستخدمها في فعل الخيرات، الله سبحانه وتعالى يحفظها لك، وهذه الأذن التي ما سمعت إلا الحق يحفظها الله لك سبحانه وتعالى، وهذا اللسان الذي ينطق بالحق يحفظه الله لك سبحانه وتعالى، وهذه الرجل التي سرت بها إلى المساجد، وإلى دروس العلم، وسرت بها إلى فعل الخيرات، يحفظها الله لك سبحانه وتعالى، من عاش تقياً، عاش قوياً، والدعاء الشريف أنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ لأَصْحَابِهِ:

((اللّهُمّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمّنَا، وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا))

(سنن الترمذي)

مَن منا لا يتمنى أن يعيش في خريف عمره حياة ملؤها السلامة والسرور والطمأنينة والعزة والكرامة، والشعور برضاء الله ؟ هذه أجمل حياة، سببها طاعة الله عز وجل، طاعة الله هي الثمن.

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

والعلماء قالوا: لا تقل: سمعت ولم تسمع، ولا تقل: رأيت ولم ترَ، ولا تقل: أعتقد وأنت لا تعتقد،

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

والعلم أي اليقين.

(كَلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5))

(سورة التكاثر)

لا تَقْفُ، لا تشهد إلا بما رأيت، بين الحق والباطل أربع أصابع، بين أن تقول: سمعت، وبين أن تقول: رأيت، شتان بين أن تقول: سمعت، وبين أن تقول: رأيت، لكن بعض العلماء يقول:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ)

بدأ بالسمع، لأن أكثر المعاصي تتأتى عن طريق السماع، وأكثر الناس يروون كلاماً باطلاً عن بعضهم، والذين ينقلون مشاهدات لم يشاهدوها أقلّ من أولئك، والذين يقولون معتقدات لا يعتقدونها أقلّ من أولئك.

(السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ)

الفؤاد هو القلب، والقلب مكانه العقل.

(لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)

(سورة الحج: 46)

مكان العلم اليقيني مكان الإيمان، لا تدّع الإيمان وأنت لم تؤمن بعد، لا تقل: رأيت وأنت لم تر، ولا تقل: سمعت وأنت لم تسمع، بعضهم قال في تفسير هذه الآية:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ)

أي: لا تعتقد شيئاً إلا بعد اليقين، ولا تقل شيئاً إلا بعد العلم، ولا تفعل شيئاً إلا بعد العلم، لذلك الفرق بين الطائش والجاهل، وضيق الأفق أنه يتسرع، يصدر حكماً خاطئاً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6))

(سورة الحجرات)

عوّد نفسك الطريقة العلمية في تقصي الحقائق، تقول: فلان فعل كذا، فهل رأيته أنت بعينك ؟ لا، والله سمعت، من قال لك ؟ فلان، وهل أنت واثق من دينه ؟ أو واثق من صدقه ؟ يقول: والله لست متأكداً، وأين ستذهب، وأين تقول هذا الكلام ؟ أما شعار المؤمن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6))

وهذه آية من الآيات الدقيقة الدالة على الروح الموضوعية في القرآن الكريم، حقيقة، ولذلك لدينا في الأخلاق قيمة خلقية، وفي البحث العلمي قيمة علمية، وفي حالة واحدة تلتقي قيمة خلقية مع قيمة علمية، وهذه الحالة هي الموضوعية، والموضوعية قيمة خلقية وقيمة علمية، فالعقل والخلق يلتقيان في الموضوعية، وإذا تحدثت عن مساوئ إنسان، ووفرت محاسنه، فأنت لم تكذب، لكن هذا كذب سلبي، اذكر ما له، وما عليه، أو اسكت، أما أن تكتفي بالسيئات، وتطمس الحسنات فالنبي عليه الصلاة والسلام استعاذ من هذا الإنسان ! قال:

((اللهم إني أعوذ بك من جار سوء، إن رأى خيراً كتمه وإن رأى شراً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة]

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

هذا ينطبق على شاهدي الزور، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ ثَلاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ))

(صحيح البخاري)

ودائماً المؤمن وقاف عند كتاب الله، لا يتسرع، ولا يصدر حكماً قبل البحث الصحيح، وهذه صفات الناجحين في الحياة، وكل إنسان نجح في الحياة فإن أحكامه صحيحة مبنية على بحث وتدقيق واستقصاء.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

إن هذه الدنيا دار ابتلاء، لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، وقد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

هذا الذي يفرح في الدنيا لا خلاق له عند الله.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: 58)

افرح بمرضاة الله عز وجل، وافرح بطاعته، وافرح بعمل صالح قدره الله على يديك، وأما أن تفرح بالدنيا فلا قيمة لها عند الله.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ)

إنك لن تخرق الأرض إذا مشيت بقدمك على الأرض، ولن تستطيع بقدمك أن تخرق الأرض.

(وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (37))

فلذلك تعود على كل هذه الآيات بدءاً من قوله تعالى:

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (22) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (25))

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (30))

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34))

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (38))

وإذا أردت أن يحبك الله فابتعد عن هذا كله، لأن الله يكره هذه الأعمال.

(ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39))

أجمل ما في الآيات أنها بدأت:

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (22))

وانتهت:

(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39))

ملوم من قِبَل الخَلق والحق ونفسك، ومدحورا لا خيار لك في الدخول أو عدم الدخول.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (06-13): تفسير الآيات 40 – 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-08-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

(أَفَأَصْفَاكُمْ)

هذه الهمزة للاستفهام الإنكاري، قد يقول لك قائل: أنت فعلت هذا ؟ تقول له: أنا فعلت هذا ؟ هذه الصيغة صيغة استفهام، لكن الاستفهام في علم البلاغة يخرج عن حقيقته إلى معانٍ كثيرة، منها الإنكار، والله سبحانه وتعالى حينما قال:

(أَفَأَصْفَاكُمْ)

أي: ينكر على المشركين هذه المقولة، أو هذا التوهم، أو هذا الاعتقاد.

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً)

إن المشركين يزعمون أن الله سبحانه وتعالى اتخذ الملائكة بنات ! وهم لهم الذكور، فيزعمون لله ما يكرهون، أيعقل أن يكون الأمر كله لله، وأن يكون هو الواحد الأحد ؟ وأنه لا إله إلا الله ؟ وأن تختصوا أنتم بالبنين ؟ وتكرهون البنات ؟ وعلامة كره البنات في الجاهلية أنهم كانوا يئدون الفتاة وهي صغيرة ؟ وقد لا يقول الآن أحد مثل هذه المقولة: إن الملائكة بنات الله، وإن الذكور لنا، لكن الله عز وجل كثيراً في القرآن الكريم ما يذكر جزءًا ويريد به الكل، بمعنى أنك إذا نسبت شيئاً تكرهه إلى الله عز وجل فإن هذه المقولة مقولة عظيمة.

أيعقل أن تكون وأنت العبد الأدنى مترفعاً عن هذه الصفة، والله سبحانه وتعالى تصفه بها ؟ وأنت مترفع عن الظلم، وتنسب الظلم إلى الله عز وجل ؟ أنت تترفع عن هذه الصفة وتصفها لله عز وجل ؟ إذاً ليس المقصود أن تقول: الملائكة بنات الله، وأن الذكور لنا، قد لا تكون هذه الفكرة مطروحة في العصور المتأخرة، ولكن أي شيء لا ترضاه لنفسك لا ينبغي أن تفتري به على الله سبيلا، لا تقل: الله كذا وكذا من دون علم، كتب عليه الشقاء من الأزل، ولا بد من أن يشقى بلا ذنب، قد يطيعه المطيع، ويضعه في نار جهنم ! وهذا قول عظيم، فإذا قلت هذا القول، وكأنك بهذا نسبت الظلم إلى الله، فإن هذه المقولة لا ينبغي أن تقولها، لذلك قال الله تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7))

(سورة الأنبياء)

لا تقل كلاماً لست متأكداً منه، تثبت من كل شيء تعزوه إلى الله عز وجل !

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً)

أنتم أيها العباد أعطاكم الله البنين، وهم في الدرجة الأولى ! وهو أخذ البنات اللاتي لا تحبونهن ؟! أيعقل هذا ؟ قال الله تعالى:

(إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

وكيف هذا القول العظيم ؟ إنك إذا وصفت الله عز وجل بوصف لا يليق به فقد جعلت هذا المستمع ينفر، أو يبتعد، أو يلتفت، أو لا يقبل، فقطعته عن مولاه ! أعظم جريمة تقترفها أن تبعد الناس عن الله عز وجل ! وأعظم عمل تفعله في الدنيا أن تقرب الناس من الله عز وجل ! يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحب من أحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ عَنْ أَنَسٍ:

((قَالَ مَرّ رَجُلٌ بِالنّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَعِنْدَ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَجُلٌ جَالِسٌ، فَقَالَ الرّجُلُ: وَاللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ إنّي لأُحِبُّ هَذَا فِي اللّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: أَخْبَرْتَهُ بِذَلِكَ ؟ قَالَ: لا، قَالَ: قُمْ فَأَخْبِرْهُ، تَثْبُتِ الْمَوَدّةُ بَيْنَكُمَا، فَقَامَ إلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: إنّي أُحِبُّكَ فِي اللّهِ، أَوْ قَالَ: أُحِبُّكَ لِلّهِ، فَقَالَ الرّجُلُ: أَحَبّكَ الّذِي أَحْبَبْتَنِي فِيهِ))

(مسند الإمام أحمد)

يا داود ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي.

يضلّ من يشاء، الله أضلّ فلاناً، أنت لست متأكداً من هذا المعنى، الله عز وجل إذا عُزيَ الضلال إليه فهو الضلال الجزائي، المبني على ضلال اختياري، والدليل قوله تعالى:

(فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: 5)

إذا قرأت القرآن وحدك من دون أن تسمع تفسيره من الذين آتاهم الله فهم الكتاب فهذا خطأ كبير ! قد تقول: يضل من يشاء، الله عز وجل جعل هذه الآية موجزة، قال:

(وَأَنّ اللّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52))

(سورة يوسف)

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ (50))

(سورة القصص)

(وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108))

(سورة المائدة)

والله بيّن وفصل في هؤلاء الذين لا يهديهم، لا يهدي فاسقاً، ولا ظالماً، ولا خائناً، ولا كذاباً.. فإذا قال الله عز وجل:

(فَإِنّ اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر: 8)

هذه آية مفصلة أخرى إذا قال الله عز وجل:

(وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96))

(سورة الصافات)

هذه آية لها سياق معين، قال:

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96))

(سورة الصافات)

خلقكم مع هذه الأصنام التي تنحتونها ! إذاً من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ! وكان بعض أصحاب رسول الله إذا قالوا في القرآن قالوا: إن أصبنا فمن الله، وإن أخطأنا فمن أنفسنا، كلام الله:

(إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

كلمة يضل من يشاء مفصلة في آيات كثيرة، إذا أضل الله الإنسان فإنه يضله عن شركائه ! لا يضله عن ذاته، قد يتوهم الإنسان أن زيداً من الناس بيده مصيره، أو بيده رزقه، أو بيده خيره وشره، عندئذ يجعل الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان الذي وضعت كل آمالك عليه يخيب ظنك، بمعنى أن الله قد أضلك عنه، إن الله عز وجل يضل عن شركائه، ولا يضله عن ذاته، هذا معنى قوله تعالى:

(فَإِنّ اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر: 8)

فإذا أخذت الآيات أخذاً سريعاً من دون تبصر أو فهم أو تعمق، وظننت أن الله خلقك ليضلك، فأنت مخطئ، لأنه خلقك ليرحمك:

(إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: 119)

خلقهم ليرحمهم، علة الخلق:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُون (56))

(سورة الذاريات)

لعلة العبادة، والعبادة طاعة طوعية، تسبقها معرفة يقينية، وتنتهي بسعادة أبدية، علة الخلق بنص القرآن الكريم العبادة، أي: الإقبال الاستغراق، فلذلك لا يحق للإنسان أن يقول على الله قولاً عظيماً، فإذا عُزي الإضلال إلى الله فهذا هو الضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري.

آيات أخرى توضح ذلك:

(فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: 5)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: 17)

الإنسان مخير، لذلك ليس المقصود بهذه الآية:

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

ليس المقصود من هذه الآية هذا الكلام بالذات حصراً، حينما قال الله عز وجل:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

(سورة الإسراء: 23)

في اللغة معنى أف: أن يصدر منك نَفَسٌ بصوت مرتفع، وهو يعني التضجر، فهل المقصود بهذه الآية أن الله عز وجل نهاك عن كلمة أف فقط ؟ إذا ظننت أن الله عز وجل نهاك عن كلمة أف فقط فهذا هو المدلول اللغوي فقط، ولكن للآية حكماً شرعياً، والحكم الشرعي هو أن كل شيء يستاء منه الأم والأب، فلو أنك خبطت الباب بوجههما، أو شددت النظر إليهما، أو قسوت معهما في الكلام، فالحكم الشرعي لهذه الآية: أي شيء صغر أم كبر يؤدي إلى إساءة للأم والأب محرم بنص هذه الآية، مع أن الآية تقول:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

فهذا من علم الأصول، وليس المقصود أف، المقصود كل شيء، وكل قول، وكل عمل، وكل تصرف، وكل فعل يؤدي إلى الإساءة إلى الأم والأب، هذه الآية أيضاً لا أسمع، ولن أسمع في هذا العصر من يقول: إن الله عز وجل اصطفى له البنات، وأعطانا البنين ! وهذا قاله الكفار في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ورد الله عليهم:

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

ولكن المقصود ألا تفتري على الله الكذب، لا تقل: إن الله كذا وكذا وأنت لا تعلم ذلك، ولا تنسب شيئاً إلى الله عز وجل وأنت تترفع عنه.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياكَ إياك أنْ تبتلّ بالمـــاءِ

***

مستحيل ! لذلك فالله عز وجل قال:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

(سورة الأنعام)

إذاً أن تقول: الله خلقني هكذا، لا أصلي، هكذا يريد الله عز وجل، أن تعزو تقصيرك إلى الله عز وجل، فهذا افتراء على الله، إذاً هذه الآية تحتمل هذا المعنى الجزائي، هذا الخاص، الذي نصت عليه، وتحتمل أي معنى آخر يعزى إلى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى منّزه عنه !

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنّ اللّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28))

(سورة الأعراف)

يقولون لك الآن: هذا الذي قدره الله علينا، لماذا تعصي الله ؟ هكذا، كقول العوام: **" طاسات معدودة في أماكن محدودة " ! " لا تعترض فتنطرد "**، هذا كلام جهل، أن تنسب المعصية وشرب الخمر وكل شيء إلى الله، ثم تقول: هذا قدره الله علي، أليس لك حيلة إطلاقاً أنت ؟ هذه دائرة الاختيار.

من حمل ذنبه على الله فقد فجر، ولو أن الله عز وجل أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب.

إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، فإذا قصرت في شيء، وجاءت النتائج غير مرضية تقول: هذا من فعل الله، هو من فعل الله، هذه كلمة حق أريد بها باطل، لكنك مقصر، وسوف تحاسب على تقصيرك، ما من شيء يقع إلا بأمر الله، ولكن أمر الله متعلق بشرعه، وشرعه نهاك عن هذا الأمر، فمادام هناك نهي فأنت مذنب، وسوف تحاسب، أما كلما قصرنا، وارتكبنا مخالفات تعزى إلى الله عز وجل ببساطة:

(إِنّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

أيعقل أن تتهم أباً حريصاً حرصاً بالغاً على أن يعلم ابنه، أنه منع ابنه بالقوة من المدرسة ؟ مستحيل، لا يعقل أن يوصف أب بذلك، ولا سيما إذا كان حريصاً على تعليم أولاده:

(وَلَقَدْ صَرّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذّكّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً (41))

الآية:

(أَفَأَصْفَاكُمْ)

الله عز وجل يخاطب كفار قريش، الآية الثانية:

(وَلَقَدْ صَرّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذّكّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً (41))

انتقلت صيغة التكلم من المخاطبة إلى الغيبة، قال علماء البلاغة: هذا اسمه التفات، ومعنى الالتفات أن هؤلاء المشركين ليسوا جديرين أن يخاطبوا، ولذلك تركهم الله عز وجل وأخبر عنهم.

(وَلَقَدْ صَرّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذّكّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً (41))

فما معنى صَرَّفنا ؟ صرف الشيء بمعنى قلّبه، والله عز وجل نوّع في هذا القرآن الكريم ألوان الخطاب، فجعل التقرير، وجعل التصوير، وجعل القصة، وجعل المثل، وجعل الوعد والوعيد، وجعل الأمر والنهي، وجعل التخويف والتبشير، وجعل الإنذار، وجعل الأخبار وسرد الآيات، وتعداد النعم وتعداد النقم.. وألوان ملونة، تارة يأتي بالمثل، وتارة يأتي بقصة، وتارة يأتي بالوعد.

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

(سورة النور: 55)

تلوين الكتاب من أمر إلى نهي، إلى وعد وإلى وعيد، وتقرير وتصوير، ومثل وقصة، وخبر، وأمر ونهي، ومخاطبة وغيبة، وتكلم واستخدام ضمير متكلم، إلى استخدام ضمير غائب.. هذا التلوين والتنويع والتفصيل والإيجاز تارة، والفصل تارة والوصل تارة، فالألوان المنوعة من الأساليب الأدبية والبلاغية في كتاب الله ليذكروا.

أحياناً المعلم الحريص الرحيم الحكيم يتفنن بعرض الدرس كي يفهم الطالب، وكي ينجذب إلى الدرس، كي يتعلق به، كي يزداد حرصه على العلم.

(وَلَقَدْ صَرّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ)

صرفنا، هذا المعنى الأول.

أما المعنى الثاني للتصريف: أن هذا القرآن الكريم نزل منجماً، ولو أنه نزل دفعة واحدة لثقل عليه، نزل مع كل مناسبة وكل حادثة، وكل موعظة، فجاءت الآيات تباعاً بشكل لطيف، فالله عز وجل قال عن النحل، وعن بعض السكريات:

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

(سورة النحل: 67)

إشارة لطيفة بعيدة إلى أن هناك رزقاً حسناً، وهناك سفراً، فكأنه رزق غير حسن، تقول: هذا شراب لذيذ، غير هذا الشراب، يفهم من هذا أن الشراب الثاني دون الأول، ثم قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

(سورة النساء: 43)

ثم قال الله عز وجل:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنّاسِ)

(سورة البقرة: 219)

إلى أن جاء قوله سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِنّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ (90))

(سورة المائدة)

جاء تحريمه تدريجياً رحمة ولطفاً وحكمة وعطفاً، لذلك:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ)

تلوين، تأتي قصة يوسف، صفحات كثيرة من أجل أن تؤكد حقيقة واحدة.

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21))

(سورة يوسف)

هناك آيات أخرى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد: 19)

آية تقريرية موجزة، وأحياناً تأتي صورة:

(فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ(45))

(سورة الحج)

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ)

(سورة البقرة: 261)

التنويع بين المثل والقصة، والتقرير، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والخبر والإنشاء، والحظ والإسهاب، والنداء والتَرَجّي، والتمني.. هذا التلوين الشديد في أساليب عرض القرآن الكريم إنما هو رحمة منه، لعل قلوبنا تهفو إليه، من أجل أن نقرأه، وأن نطبقه، وأن نسعد به.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا)

قال العلماء:

(لِيَذَّكَّرُوا)

بمعنى ليتدبروا، ومعنى التدبر أن تدرك معنى المعنى، لكل آية معنى ظاهري، وخلف هذا المعنى الظاهري معنى آخر أخفى ومقصود، كما قلت قبل قليل:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

المعنى الظاهري أنك منهي عن أن تقول لوالديك: أف، فإذا أخذنا الآية على ظاهرها فلنا الحق في الإساءة لوالدينا، لنا الحق أن نقذع لهما في الكلام، لكننا لم نقل كلمة أف ! هذا المعنى ظاهري، أما التدبر فأن تعرف ما وراء المعنى الظاهري، هناك معنى ظاهري، وهناك معنى عميق مقصود، وهذا معنى التذكر.

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99))

(سورة الحجر)

اليقين الموت، لم يقل الله عز وجل: حتى يأتي الموت، لا، هو الذي سيأتي إليك مفاجأة في ساعة لست مستعداً لها، وما من ميت يموت إلا وفي ذهنه آمال، وأعراض، ومشروعات، وطموحات، وخيالات، وتمنيات لا تنقضي في عشرين عاماً قادمة، جاء الموت، لا تقل: إنك مشغول، فلا يوجد ميت ذهب إلا وكان مشغولاً ! ولا يوجد إنسان توفي إلا وعليه قائمة أعمال، مات ولم تنته، ولذلك اشتغل بذكر الله، اعتزل ذكر الأغاني والغزل، ولا تنس ذكر الله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

(سورة المائدة: 11)

محال أن تذكره، ولا يذيقك طعم القرب منه.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا)

اقرأ القرآن، وتأمل في آياته، واسأل عنها، واحضر مجالس العلم، واسأل عن تفسيره، وتفهم الآيات، واعرف مدلولاتها، وأبعادها، ومؤداها وتطبيقها العملي.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (41))

لماذا ؟ لأن أهل الشرك، وأهل النفاق، وأهل الأهواء، هؤلاء شهواتهم غالية عليهم، هؤلاء اتخذوا إلههم هواهم، فإذا جاء القرآن على الرغم من وعده ووعيده، وصوره وتقريره، وتفصيله وإيجازه، وعلى الرغم من أمره ونهيه، كل هذا التلوين يزيدهم نفوراً، لأن القرآن في زعمهم سيحد من شهواتهم، وسيوقفهم عند هذا الحد، ومع أن الحقيقة الكبرى:

((مَا كَانَ اللَّه لِيُعَذِّبَ قَلْبَاً بِشَهْوَةٍ تَرَكَهَا صَاحِبُهَا فِي سَبِيلِ اللَّه))

[ذكره أبو نعيم في الحلية من قول أبي سليمان الداراني]

إذا التفت إلى الله غسل الله لك قلبك من السوى ! وهذه التعلقات، وهذه التمزقات والصراعات، وهذا التشعب والتشتت والتبعثر، وهذا التعدد، وهذه الازدواجية، وهذه الأغراض كلها أنت معافى منها، إذا عرفت الله عز وجل، تتوحد وجهتك، وتكتمل شخصيتك، يتحدد هدفك، وتختار لهذا الهدف الوسائل الناجحة الرائعة، وإن هذا كله يؤكد أنك إذا عرفته عرفت كل شيء، وإن فاتك، فاتك كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني، وإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك، فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء.

(وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (41))

بمعنى أن أهل الشرك يتوهمون أن في التدين حداً لشهواتهم، لنأخذ موضوع النساء فقط، لو أنك استقمت على أمر الله، وغضضت البصر عن النساء اللاتي لا يحل لك أن تراهن، لأنعم الله عليك بالوفاق الزوجي، فالله عز وجل يلقي المودة والمحبة بينكما، ويوفق ويجمع بينكما على خير، ويخرج منكما الكثير الطيب، وتحفكما ملائكة الرحمن، فهذا البيت مقدّس مبارك، فيه وفاق ووئام ومحبة، فيه مؤاثرة

وتضحية، وهدوء وسكينة، فإذا كان الله بين الزوجين كان التوفيق حليفهما، وإذا كان الشيطان بينهما كان الشقاق والخصام والنكد والغضب، والحياة الخشنة الصعبة، لذلك:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17))

(سورة الجن)

إذا تناول أحدكم دواء، ولم يؤثر فيه يرفع الطبيب درجته، كلما قلّ تأثير الدواء رفع الطبيب مقدار الكمية الفعالة في الدواء !

(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17))

لذلك فإذا بني الزواج على معصية الله عز وجل تولى الشيطان التفريق بين الزوجين، وإذا بني على طاعة الله عز وجل تولى الرحمن التوفيق بينهما، شيطان يتولى التفريق، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَيسَ مِنّا مَنْ فَرّقَ))

[ورد في الأثر]

فإذا كان لإنسان دور التفريق فهو شيطان !

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً (35))

(سورة النساء)

وتوفيق الله للحكمين بين الزوجين منوط أن يريدا الإصلاح، فإذا أراد الحكمان الفراق لم يوَفّقا إلى الإصلاح.

(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42))

هذه الآية دقيقة جداً، العرب في الجاهلية كانت تعبد أصناماً من دون الله، وتزعم أن هذه الأصنام تقرّبها إلى الله زلفى، فالله سبحانه وتعالى يقول: هذه الآلهة التي تزعمون أنها تشاركني في الألوهية، وهذه الآلهة بزعمكم أنها تعبدني أيضاً، إذاً ليست آلهة، فلماذا أنتم أيها المشركون لا تعبدون الله عز وجل وحده دون أن تشركوا به ؟ هذا هو المعنى الأول.

(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ)

وبالمناسبة كلمة: (لو)حرف امتناع لامتناع، العملية كلها فرضية، لو جئتني لأكرمتك، أنت لم تأت، وأنا لم أكرمك، فـ **(لو)**تُسَمّى حرف امتناع لامتناع، وتجتهدون في عبادتي بزعمكم أنها أقرب إلى الله منكم ! وأنتم تتخذونها وسيلة مقربة، فمادامت هذه الآلهة تعبد الله إذاً ليست آلهة، وهذا كلام متناقض، لأنها تبتغي هي إلى ذي العرش سبيلا، وذو العرش هو الله عز وجل، العلي الأعلى، تبتغي إليه سبيلا، إذاً هي تعبد مثلكم، إذاً هي ليست آلهة، وهذا هو المعنى الأول.

أما المعنى الثاني:

(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42))

لو كانوا فعلاً آلهة، لكانوا أرادوا أن يصلوا إلى ذي العرش ليحلوا محله، وينازعوه هذا العرش،

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

(سورة الأنبياء: 22)

المَركب له رُبّان واحد، والطائرة لها رُبّان واحد، والثاني احتياط، أما الذي يقودها في الجو فشخص واحد، وفي الأرض واحد، فأي عمل، وأي دائرة، أو مدرسة، أو أي مجال للعمل لا بد له من قائد،

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

هؤلاء الآلهة المزعومة، كلمة (لو)شيء افتراضي، لو أنها حقيقة آلهة لابتغت إلى ذي العرش سبيلا، أو لاتجهت إليه لتنازعه العرش، ولكان الخصام والقتال والمنازعة، والشيء الذي لا يعقل.

إذاً لا المعنى الأول، ولا المعنى الثاني وقع، العملية كلها افتراضية، لكنها مناقشة علمية لهؤلاء الذين يزعمون أن مع الله آلهة أخرى.

في الآية الماضية فاتني التعليق على فعل (صرّف)، لدينا في اللغة صرّف وصَرَفَ، قَطَعَ وقطّع، غَلَقَ وغلّق، كَثَرَ وكثّر، قَطَع اللحم أي: قطعه قطعتين، أما قطّعها جعلها آلاف القطع، التشديد في الفعل الماضي يفيد التكثير، صَرَفَ أي فيها أسلوبان، أما صرّف ففيها مئة أسلوب، فالفعل الثلاثي المضعف يفيد معنى التكثير والمبالغة، كسر الإناء قطعتين، أما كسّره سحقه تحت قدميه، كَسَرَ، وكسّر، وغلّقت الأبواب، غَلَق الباب، أما غلّقه أرتجه، وأحكم إغلاقه، فإذا استخدمت الفعل الماضي الثلاثي الذي عينه مشددة ففيه معنى المبالغة، ومعنى التكثير، ربنا قال: ولقد صرّفنا أي: أكثرنا من الأساليب البلاغية.

(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (43))

لذلك كلمة: (سبحان الله)تنزيه لذات الله عما لا يليق به، وكلما سمعت عن الله شيئاً لا يليق به فقل: سبحان الله، هو أعظم، وأرفع، وأجلّ، وأعظم من أن يكون كذلك، هذا هو التسبيح.

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)

وكأن السماوات عاقلة لأنها تسبّح، والعلماء لهم آراء متعددة في فهمها:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ)

السماوات كلها، والأرض كلها،

(وَمَنْ فِيهِنَّ)

في السماوات والأرض، من الملائكة والإنس والجن،

(وَمَنْ فِيهِنّ)

المقصود بهن الملائكة والإنس والجن، السماوات السبع والأرضون السبع، ومن فيهن تسبح الله عز وجل، فيا أيها الإنسان، يا من خلق لك الكون من أجلك.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

(سورة البقرة: 29)

وخلق لكم ما في الأرض والسماوات والأرض، وسخر لكم ما في السماوات والأرض، الكون كله يسبح الله، وقد سخّر من أجلك.

وأنت أيها الإنسان المكرم، يا من سخّر لك الكون كيف تغفل عنه ؟ وأنت الغافل إلى متى ؟

أيا غافلاً تبدي الإساءة و الجهلا متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام و أنت لا تراها كأن العين عميـــاء أو حـولا

لأنت كمزكوم حوى المسك جيبـه و لكنه المحروم ما شمّه أصـــلا

***

أتغفل عن ذكر الله ؟ وكل ما في الكون يسبحه ؟ لو أن رجلاً له أم وله عشرة إخوة، فكان يوم العيد تسعة إخوة له جاءوا أمهم مع الهدايا، ومع التعظيم والتبجيل والاحترام، وهو غائب عن هذا المكان، أيليق بك أيها الإنسان أن تكون الدابة أفضل عند الله منك ؟ وأن يكون الجماد أفضل عند الله منك ؟ وأن يكون النبات كذلك، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيّ، قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ))

(صحيح مسلم)

قال بعضهم: الحجر الأسود، يسلم عليّ وأسلم عليه، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ يَقُولُ:

((كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِذَا خَطَبَ يَسْتَنِدُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَلَمّا صُنِعَ الْمِنْبَرُ، وَاسْتَوَى عَلَيْهِ اضْطَرَبَتْ تِلْكَ السّارِيَةُ كَحَنِينِ النّاقَةِ، حَتّى سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ، حَتّى نَزَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَاعْتَنَقَهَا فَسَكَتَتْ))

(النسائي)

جذع النخلة حنّ إليه، والحجر سلم عليه، وأنت لا تعرفه بعد.

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69))

(سورة المؤمنون)

لذلك الإنسان موقفه يوم القيامة موقف الخزي والعار إذا كانت كل الخلائق تسبح الله لا تفتر عن تسبيحه، والإنسان الذي خلق الكون كله من أجله غافل عن الله عز وجل، لذلك:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّارِ (175))

(سورة البقرة)

إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى، وإنه يعلم ما فيها من شدة العذاب، وتأتيه النار تلفح وجهه:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواالْعَذَابَ)

(سورة النساء: 56)

(ذُقْ إِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49))

(سورة الدخان)

هذا ما تدعيه في الدنيا، ذق لفح جهنم، فلذلك:

(تُسَبّحُ لَهُ السّمَوَاتُ السّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنّ)

المعنى الأول: أن التسبيح حقيقي، وإن من شيء فضلاً عن الأرض وما فيها، والسماوات وما فيها، وإن من شيء، ما من شيء، إن حرف نفي، ومن لاستغراق كل شيء، لا يوجد شيء إلا يسبح الله هذا معنى، لكن ما من شيء أي: ما فاتك شيء واحد،

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّا يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

يسبحون بلغة لا تعرفونها، وبعض علماء التفسير قالوا: التسبيح هنا بأن صنعة هذا الشيء متقن، فإذا رأيتها تأملتها، وقلت: سبحان الله، هذا المعنى لا يفسر كل الآية، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، فلا بد أن هناك تسبيحاً حقيقياً لكل مخلوق خلقه الله عز وجل، ولكن مادية الإنسان وحجبه الكثيفة تحول بينه وبين أن يرى تسبيح من حوله، ولذلك عَنْ حَنْظَلَة قَالَ:

((كُنّا عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَوَعَظَنَا فَذَكّرَ النّارَ، قَالَ: ثُمّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصّبْيَانَ، وَلَاعَبْتُ الْمَرْأَةَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ فَلَقِينَا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ نَافَقَ حَنْظَلَةُ، فَقَالَ: أَمَهْ، فَحَدّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ، فَقَالَ: يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتّى تُسَلّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطّرُقِ))

(صحيح مسلم)

كلما ارتقيت إلى الله عز وجل شفّت نفسك، فإذا شفت نفسك رأيت ما لا يراه الآخرون، وسمعت مالا يسمعون، ولذلك فهذه الحالة يسميها الصوفيون حالة الكشف، تنكشف لك الحقائق، ترى:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

ترى الله عز وجل، وترى عظمته في كل شيء،

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: 3)

أيّ شيء تقع عينك عليه تراه يسبح الله عز وجل:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (44) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً(45))

هذا القرآن الكريم لا يستطيع أن يصل إلى معانيه إلا من كان طاهر القلب من الشرك والنفاق، لأن الإنسان إذا تلبس بالمعصية كان القرآن في عمًى، كما قال الله عز وجل:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82))

أي: عمىً عليهم.

قد يقرأ الإنسان المعرض القرآن فيفهمه فهماً معكوساً، وقد لا يتأثر به، فالقرآن يحتاج إلى نفس طاهرة مخلصة من كل شرك، ومن كل دنس، ومن كل معصية.

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(46))

الله عز وجل إذا رأى من العبد عبادة وإنابة وتوبة وإخلاصاً فتح قلبه لذكره، وشرح الله صدره للإسلام، أما إذا رأى في قلبه شهوة، وفي سلوكه نفاقاً، وفي عمله رياءً، وأن له مطالب أرضية، وأن الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، كان بعيداً عن كتاب الله بعد الأرض عن السماء، فالأصل أن تكون طالب حق، وأن تكون صادقاً ومخلصاً وطاهراً، وعندئذٍ تتفتح مشاعرك، وينفتح قلبك لهذه المعاني التي أنزلها الله عز وجل.

فسبحان الله ! في كتاب الله معانٍ لا تنتهي، وكلما ازددت قرباً من الله عز وجل كُشفت لك المعاني، فقد تقرأ سورة، وتقول: والله كأنني أقرها أول مرة، وكأن الله عز وجل سمح لك هذه المرة أن يكشف لك عن بعض المعاني التي لم تكن مكشوفة لك من قبل.

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً (45))

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ)

(سورة هود: 28)

هذه الرحمة التي آتاها الله أنبياءه وأحبابه عميت على بعض الناس، ولذلك فالمؤمن في نفسه شعور بالغنى بأنه عرف الله عز وجل، فهل يرضيه من الدنيا كل شيء ؟ لكن أهل الدنيا لا ترضيهم إلا الدنيا، فإذا زالت عنهم أو نقصت أو قلت انهارت نفوسهم وتمزقوا.

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً)

كأن على القلب سداً، قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9))

(سورة يس)

والنبي عليه الصلاة والسلام كان مع صاحبه الصدّيق في غار حراء، وقعت عين بعض المشركين على سيدنا الصديق فقال: لقد رأوني، قال: يا أبا بكر ألم تسمع قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198))

(سورة الأعراف)

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً)

(سورة يس: 9)

وفي السيرة النبوية قصص كثيرة، كيف خرج النبي يوم الهجرة من بيته، فالله جعل على عيونهم سداً لئلا يروه.

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (46))

إذا عزوت إلى الله الأمور، فإذا قلت: لا إله إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، ولا معطي إلا الله، ولا مانع إلا الله، بيده الخلق والأمر، إليه يرجع الأمر كله، هو كل شيء،

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

***

إذا فعلت ذلك،

(وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (46))

أما إذا أشركت، وقلت: زيد وعبيد، وفلان وعلان، وفلان بيده هذا، وفلان بيده هذا، وهذه تحل عند هذا، وهذه مفتاحها هذا، إذاً بدأ الشرك ينساب من شفتيك، وتجمع الناس حولك، وأصغوا إليك، وتعاطفوا معك، فإذا ذكرت الله وحده.

(وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (46))

لذلك إذا أردت أن ينفض عنك من لا ترجو منه هدى فاذكر الله وحده، هذا الذي في قلبه شرك ونفاق لا يحتمل أن يذكر الله وحده.

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (47))

في ندواتهم وخلواتهم، ولقاءاتهم وفي سهراتهم، وفي نزهاتهم، إذا جاء ذكر المؤمنين وذكر النبي الكريم عليه الصلاة والسلام يقولون: هذا رجل مسحور.

(تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (47))

تأتيه الشياطين، ويهذي، ويقول كلاماً غير معقول، قالوا: مجنون، وساحر، وشاعر، وكاهن، اتهموه بالكهانة والسحر والشعر.. والله سبحانه وتعالى برّأه.

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2))

(سورة القلم)

وأحياناً يكون للإنسان أقرباء من أهل الدنيا، رأوه مستقيماً ورعاً حريصاً على دينه يقول: هذه حرام، وهذه حرام، وهذه لا تجوز، وإني أخاف الله رب العالمين، فقد يسخرون منه، وقد ينعتونه ببعض النعوت، بالجمود، والقوقعة، والتزمت، وأنه لا يعرف الحياة، وأنه جاهل، فليفرح بهذه التهم، فهذه أوسمة شرف ! ولا تسمع لإرضائهم، فإرضاؤهم لا يجدي.

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ)

النبي الكريم عليه الصلاة والسلام دخل إلى مجالسهم، وتلا عليهم بعض الآيات من القرآن، فلما خرج تحاوروا، وتناقشوا، واختلفوا، واتهموه بأنه ساحر، وأنه مجنون، وأنه شاعر، وأنه كاهن:

(إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (47))

هذا مسحور.

(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48))

حينما تناول أحد المشركين عظماً، وفتّته قال:

(قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78))

(سورة يس)

ويقول هذا بكل فلسفة، أمسك بالعظم وفتّته.

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79))

(سورة يس)

(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48) وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (50) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ)

لو أنكم كالجبال تعادون إلى ما كنتم عليه.

(فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ)

بمعنى: يهزون رؤوسهم استهزاءً، وأحياناً تتكلم مع رجل فتعطيه حجة دامغة، أنت أفحمته، لكنه غير مقتنع داخلياً، مصرّ على شهوته، فماذا يفعل ؟ يهز رأسه استهزاءً.

(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً(52))

ولقد قال العلماء: حينما يُدعى الناس ليوم البعث والنشور يقال:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

(سورة يونس)

وحينما يبعثون على حمد الله، وحينما ينتهي الحساب على حمد الله، لأن الله سبحانه وتعالى يحمد على كل شيء.

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

أيّ شيء ساقه الله لك في الدنيا حينما تكشف لك الحقيقة، ويكشف الغطاء تقول: الحمد لله، لا تملك إلا هذه الكلمة، لأن الله عز وجل حكمته ورحمته مطلقة، وعدله وكماله مطلق، ولذلك إذا انكشف لك الحق لا تملك إلا أن تقول: الحمد لله، إذا دخل إنسان غرفة عمليات، وبقي خمس ساعات، ثم رأى الحصاة الكبيرة التي انتزعت من كليته، والعملية نجحت رغم الآلام، ورغم المتاعب والمخدر، فلا يملك إلا أن يقول للطبيب: لك الشكر، فالإنسان يوم القيامة حينما يرى الحقيقة لا يملك إلا هذه الكلمة، ولو أن الله عز وجل ساقه إليها.

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (07-13): تفسير الآيات 53 – 56
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-08-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً(53))

أولاً: الله سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى ذاته، هذه إضافة تشريف، كأن تقول لرجل أمامك يعلم أن هذا ابنك: هذا ابني ! تريد من هذا أن تشرّف هذا الابن، هذا ابني، وأنا أبوه، الله سبحانه وتعالى أضاف العباد إليه في آيات كثيرة:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: 53)

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الإسراء)

حيثما وردت كلمة (عباد)مضافة إلى الله عز وجل فهذه الإضافة إضافة تشريف ! فالله سبحانه وتعالى شرفنا حينما أضافنا إلى ذلك قال:

(وَقُلْ لِعِبَادِي)

هذا أمر بالنسخ الدقيق.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

العلماء في تفسير هذه الآية قد ذهبوا مذاهب شتّى.

المعنى الأول: أي: قل لهم أن يقولوا كلمة التوحيد، ليقولوا الحق إذا تحدثوا، لا يتحدثوا بالباطل، لا تقل كلاماً ليس صحيحاً، لست مقتنعاً به، لا ينطبق على الحقيقة، لا ينطبق على الواقع، مختل لا يقف على قدميه، هذا الكلام غير الصحيح، الكلام الباطل، الكلام الذي لا جدوى منه، الكلام الذي لا تعتقد أنت صحته، تقوله لماذا ؟ إرضاءً لزيد أو عبيد ؟ وماذا ينفعك زيد أو عبيد ؟

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

إذا تكلمت في موضوع ما فتكلم الحقيقة، اذكر حكم الله عز وجل، لا تجار أهل الفساد، لا تمار أهل الباطل، لا تُمْلِ معهم، لا تداهنهم، لا تقل كما يقولون، وأنت غير مقتنع بقولهم.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

الربا حرام، قلها ولا تخف، أي شيء حرّمه الله عز وجل اذكر أنه حرام، وأي شيء أحلّه الله عز وجل بيّن أنه حلال، وإذا اختلطت الأمور فوحّد، أرجع الأمور إلى الله عز وجل، اجعل الأفعال إلى الله عز وجل، بيّن معنى قوله تعالى:

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد: 19)

اعلم أنه لا مسير في الكون إلا الله، لا معطي إلا الله، لا مانع إلا الله، لا رافع إلا الله، لا خافض إلا الله، لا معزّ إلا الله، لا مذلّ إلا الله، قل التي هي أحسن، لو أن الناس تكلموا في البيوت، وفي النزهات، وفي السهرات، وفي الندوات تكلموا الحقيقة، تكلموا الذي هو أحسن، لتولدت قناعات عند الأبناء ! وعند بعضهم بعضاً، هذه القناعات لا تلبس أن تحملهم على الحق، على السير في طريق الخير.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

الحسن أن تقول: إن الطبيب الفلاني هو الذي شفا ابني، أما الأحسن فأن تقول: إن الله سبحانه وتعالى هو الذي ألهم الطبيب ألهمه تشخيص الداء، وألهمه الدواء الناجع، فوفق الطبيب إلى معالجة ابني وشفائه؟ هذا هو الأحسن.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

قال بعض علماء التفسير: الأحسن أن توحد، الأحسن أن تقول كلمة التوحيد، الأحسن ألا تشرك، ألا تعزو الأمور إلى أشخاص ليس بيدهم شيء، لا يملكون ضراً ولا نفعاً، ولا حياة ولا موتاً ولا نشوراً، ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً، فكيف بمن يعتقد أنهم يدفعون عن غيرهم ؟

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

تكلم بالحق، لا تنطق بالباطل، لا تجامل ولا تمار، لا تتملق، ولا تقل كلاماً لست مقتنعاً به، لأنك إذا قلت كلاماً لست مقتنعاً به، وسمعه منك من يثق بك أدخلت الباطل إلى نفسه وأنت لا تشعر ! إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق ! لا تقل للفاسق: أنت إنسان مهذب، لطيف، مرن، ذكي، لو سمع الناس منك هذا الكلام، وأنت تماري رجلاً فاسقاً لصدّقوا كلامك، ولاعتقدوا أنه على حق، وأنه قدوة حسنة، فقل التي هي أحسن إذا تحدثت في أي موضوع، لا تقل إلا الذي تقتنع به، أو فاسكت، أما أن تنطق بالباطل فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

(الترمذي)

النبي عليه الصلاة والسلام يعدّ سكوته سنّة، لأنه لا يمكن أن يقرّ على باطل ! فلو سكت لكان الفعل الذي فعله صحابيٌ أمامه، أو لكان القول الذي قاله رجلٌ أمامه حقاً، لأنه سكت، وسكوته إقرار، فإذا عَوّدت نفسك أن تقول التي هي أحسن في أي موضوع فهو أحسن.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: في المجادلة، في المناقشة لا تقل كلاماً قاسياً، ليس الهدف أن تنتصر على هذا الإنسان، الهدف أن تأخذ بيده، لا تجرحه، لا تحقره، لا تُسَفِّه رأيه، لا تستعلِ عليه، تواضع لمن تعلم، إذا ناقشت أو جادلت فلا تقل: هذا الكلام كذب، إنك بهذا جرحت خصمك وحطمته ! قل له: تعال يا أخي لنفكر معاً في هذا الذي قلته، لنبحث له عن برهان، عن دليل، أين الدليل ؟ ألا تعتقد معي أن هذه الفكرة أصوب من هذه ؟ جادلهم بالتي هي أحسن، إذا أمرت بالمعروف فليكن أمرك بمعروف.

المعنى الأول: قل كلمة التوحيد، ولا تخش في الله لومة لائم.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب(39))

المعنى الثاني: إذا دعوت إلى الله، إذا جادلت أهل الكفر، جادلت أهل الشرك لا تجرحهم، ولا تحقرهم، ولا تسفههم، ولا تسبهم، فيسبّوا الله عدواً بغير حق ! إذا أردت أن تقنع الناس فاسلك معهم أي سبيل إلا المجادلة، إنها لا تأتي بخير.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَهُوَ بَاطِلٌ بُنِيَ لَهُ قَصْرٌ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ، بُنِيَ لَهُ فِي وَسَطِهَا، وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ بُنِيَ لَهُ فِي أَعْلاهَا))

(سنن ابن ماجه)

قل التي هي أحسن، الكلمة القاسية، الكلمة الجافية، الكلمة الجارحة، إنها توقع بين الناس، إنها تزيد خصمك تشنجاً، تزيده تمسكاً بباطله، تحمله على أن يعاديك، تحمله على أن يفكر في إيذائك، قل التي هي أحسن، الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم قال:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة النحل: 125)

وأحسن اسم تفضيل، لو أن هناك مئة جواب كلها حسنة ابحث عن الأحسن، لو أن هناك مئة جواب تنطوي كلها تحت عنوان جواب حسن، يجب أن تبحث عن الأحسن ! عن الكلمة المؤنسة، الكلمة اللطيفة، الكلمة التي لا تُفَرِّق، الكلمة التي تُجَمِّع، الكلمة التي تُقَرِّب، الكلمة التي تُلَيِّن القلب، هكذا المؤمن، كان عليه الصلاة والسلام ليّن العريكة، يألف ويؤلف، لم يواجه أحدا بما يكره، كان إذا أراد

توجيه الناس صعد المنبر قائلاً: مالي أرى قوماً يفعلون كذا وكذا ؟ يكون الذي يريد أن يعظه واحداً، مالي أرى أناساً يفعلون كذا وكذا ؟ ما بال قوم يفعلون كذا وكذا ؟ لئلا يواجه الإنسان بما يكره، إذاً بالتي هي أحسن على وزن أفعل، وأفعل اسم تفضيل، واسم التفضيل يعني أن شيئين اشتركا في صفة واحدة، لكن الأول أكثر اتصافاً بهذه الصفة ! فقد تقول كلمة حسنة، وقد تقول كلمة أحسن، فالله عز وجل يأمرك بأن تقول التي هي أحسن.

كم من طلاق، وكم من تشريد أطفال، وكم من خراب أسرة سببها كلمة قاسية من الزوج، أو كلمة قاسية من الزوجة، وكم من شركة فيها الخير العليم، وفيها الرزق الوفير انفصمت لكلمة نابية قالها شريك لشريكه، وكم من مشروع كان يرجى له النجاح تراجع وتقهقر لكلمة قاسية قالها شريك مع شريك، وكم من شيء نعلق عليه الآمال تحطم بكلمة تفوّه بها إنسان بغير حق، لذلك:

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقائه الشجعان

***

قبل أن تقول كلمة فكِّر كثيراً، ابحث عن الكلمة الأحسن،

(وَقُلْ لِعِبَادِي)

إن كنا عباده فنحن مأمورون بهذا الأمر، مأمورون أن نقول الكلمة الأحسن.

المعنى الثالث: أنه قل الكلمة الأحسن في أية علاقة مع الآخرين، إذا كنت تضبط أمراً تدير دائرة أو مدرسة أو معملاً، في علاقتك مع من هم دونك، مع من هم فوقك، قل الكلمة الأحسن، فقد يكون من يعمل معك مخلصاً، وقد يبذل كل جهده، فإذا سمع منك كلمة قاسية فقد حطمته، النبي عليه الصلاة والسلام كان يصلي بأصحابه سمع رجلاً يركض في المسجد ليلحق الركعة مع رسول الله وقد أحدث ضجيجاً وجلبة، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

((زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ))

(صحيح البخاري)

انتقى له أجمل كلمة، عدّ هذا حرصاً منه على الصلاة،

((زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ))

إذاً المعنى الأول: الأحسن كلمة التوحيد، والأحسن في المجادلة، والأحسن في أية علاقة، قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال: 1)

لا يمكن أن تصلح ذات بينك، أي العلاقة فيما بينك وبين غيرك، أو العلاقة فيما بين اثنين إلا بالكلمة الأحسن، فلو كنت قاسياً، لو وبخت، لو قرّعت، لو حقرت، لو استهزأت، لو شمتّ، لو استعليت لجرحت.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، تَعْنِي قَصِيرَةً ؟ فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا، فَقَالَ: مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا))

(سنن أبي داود)

قد يقول الأب لأحد أولاده أمام بقية الأولاد كلمة قاسية فيَتَعَقّد الابن، قد تصف الأم ابنتها بوصف فيه نقد لاذع تُعَقِّدَهَا، قل الكلمة الحسنة، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))

(الترمذي)

فساد ذات البين، التَفَتُت تَفَتُت الأسرة، تفتت العائلة، تفتت الحي، تفتت القرية، تفتت المدينة، الكلمة القاسية، والنقد اللاذع، والاستهزاء والسخرية، والاستعلاء، والاحتقار، هذا كله يفتت المجتمع ! يصبح المجتمع أفراداً متفرقين، متعادين متباغضين متدابرين.

المعنى الرابع: قال تعالى:

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ)

(سورة الأنعام: 108)

إياك أن تناقش إنساناً بعيداً عن الدين، وتقسو عليه، لا يجد ملجأً إلا أن يسبّ دينك ! ويسبّ مقدساتك، عندئذٍ توقعه في حرج كبير، قل له الكلمة الحسنة، لا تجادل من لا خير منه.

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9))

(سورة الأعلى)

بعضهم قال:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، أن تأمر بما أمر الله، وأن تنهى عما نهى عنه الله، هذا معنى قوله تعالى:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

بعضهم قال: هذا أمر موجه لخاصة المؤمنين ! كما في الحديث عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَالَ:

((صَلّى بِنَا عَمَّارٌ صَلاةً، فَأَوْجَزَ فِيهَا ! فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: أَلَمْ أُتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ دَعَوْتُ فِيهِمَا بِدُعَاءٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو بِهِ، اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ))

(مسند الإمام أحمد)

أن تسمو على الخصومات، أن ترد على الإساءة بالإحسان، أن ترد على التشهير بالصمت، أن ترد على النقد بالمدح، أن ترد على القطيعة بالوصل، أن ترد على الظلم بالإنصاف، هذه أخلاق الأنبياء ! لو قلدتهم، لو جعلتهم قدوة لك، أحبك عدوك قبل أن يحبك الصديق ! والفضل ما شهدت به الأعداء.

المعنى الأول: كلمة التوحيد.

المعنى الثاني: في المجادلة.

المعنى الثالث: في أية علاقة اجتماعية.

المعنى الرابع: في مجادلة خصوم الدين.

المعنى الخامس: في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

المعنى السادس: أمر موجه إلى خاصة المؤمنين.

هذه بعض المعاني المستفادة من قوله تعالى:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً(53))

ما وجدت تشبيهاً موضحاً لهذه الآية كالتشبيه التالي: لو أنك وضعت بينك وبين أخيك شيئاً متفجراً يأتي الشيطان فيشعل هذه المادة، فيحدث انفجارا فيحطم الطرفين، الشيطان.

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)

متى يستطيع الشيطان أن ينزغ بينهم ؟ لأن أحدهم قال هذه الكلمة القاسية ! فكانت كشيء متفجر، لو أنك قلت لأخيك: إنك لا تفهم، إنك أحمق، إنك كذّاب، هذه الكلمات كأنها ألغام ! يأتي الشيطان فيشعلها، فإذا أشعلها تفجرت وحطمت الطرفين.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)

يفرق بينهم، يوقع بينهم العداوة والبغضاء، على مستوى البيت لو أنك كلما وجدت من زوجتك خطأً قسوت عليها في الكلام لكانت هذه القسوة لغماً يأتي الشيطان فيفجره، لذلك ربّ كلمة قاسية فرّقت بين

زوجين ! وإذا فرّقت بين زوجين ضيّعت الأولاد، وشرّدوا، وليس اليتيم من مات أبوه، بل اليتيم من لم يلقى من المجتمع العناية الكافية !

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)

يتمنى الشيطان أن يفسد العلاقات بين الأخوين، والشريكين، والزوجين، وبين الأب وابنه، بين الأم وابنها، لذلك البعيد عن الله عز وجل بدفع من الشيطان ينطق بالكلمة القاسية الجافية، فيأتي الشيطان من الطرف الثاني ! انظر ماذا قال لك ابنك ! أهذا ابن ؟ فيطرده شر طرداً ! يلتجئ هذا الابن إلى رفقاء السوء، فتفسد أخلاقه، يقع في بعض الجرائم، قد يحكم عليه بالإعدام، أساس هذه المشكلات كلها أن الابن بوسوسة من الشيطان تفوّه بكلمة قاسية مع الأب، طرده الأب فتسلمه الأشرار، دلّوه على طريق الجريمة، اقترف جريمة، حُوكِم وأُعدِم أساسها كلمة قالها، لذلك عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

(مسند الإمام أحمد)

وفي حديث آخر عَنْ مُعَاذٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

(مسند الإمام أحمد)

أربعة أخماس المعاصي ترتكب به: الغيبة، والنميمة، والكذب، والإفك، والبهتان، وقول الزور، وشهادة الزور، والإيقاع بين الناس، والاستخفاف بالناس، والاستعلاء عليهم، والسخرية منهم.

((وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

فمن عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته.

من أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

ليقولوا كلمة التوحيد، وليحسنوا المجادلة، وليحسنوا القول في كل علاقة اجتماعية، وليحسنوا مجادلة أهل الكفر والفجور، وليأمروا بالمعروف، ولينهوا عن المنكر، وليرتفعوا فوق الضغينة، والحقد، والسباب، والشتائم، وردّ الصاع صاعين، هذا كله ليس من أخلاق المؤمن، سيدنا عمر رضي الله عن عمر كان يمشي في المسجد ليلاً، ويبدو أن المسجد كان مظلماً في الليل يروى أنه داس على أحد المصلين على طرف قدمه تألم هذا المصلي قال: أأعمى أنت ؟ قال: لا، فلما قيل لهذا الأمير العظيم أمير

المؤمنين كيف تسكت على هذا الكلام ؟ قال: سألني فأجبته ! أأعمى أنت ؟ قال: لا، وانتهى الأمر، بهذه الكلمة انطفأ الشر ! وهذا توجيه نبوي، إذا غضبت فاسكت، لأن أية كلمة تقولها وأنت غضبان ربما تؤذي بها كثيراً، ربما تفسد علاقات، ربما تسبب خراب أسرة، ربما تفسد بين شريكين، إذا غضبت فاسكت، إذا غضبت فتوضأ، إذا غضبت فاغتسل، إذا غضبت فاخرج من البيت، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَوْصِنِي قَالَ: لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: لَا تَغْضَبْ))

(البخاري)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))

(البخاري)

يغضب فيطلق ويقف على أبواب المفتين، جمع للمفتي، يستفتيهم: ما وضع زوجتي ؟ أتجوز لي ؟ أعلاقتي معها صحيحة ؟ كنت في غنى عن هذا لو أنك لم تغضب، لا تغضب، هكذا يقول عليه الصلاة والسلام

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً(53))

ليست عداوته خافية، ليست عداوته ظنية، عداوته مبينة، عدواً مبيناً.

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)

(سورة الإسراء)

الرحمة نوعان: رحمة مادية، ورحمة معنوية، فالرحمة المادية أن تكون مرتاحاً في صحتك، الأجهزة على اختلاف أنواعها تعمل بانتظام، هذه رحمة ! أن تجوع، وتجد الطعام الذي يسدّ جوعتك، هذه رحمة، أن تجد الماء الذي يروي ظمأك، هذه رحمة، أن تجد المأوى الذي يؤويك، هذه رحمة، أن تجد الزوجة التي تسكن إليها، هذه رحمة، أن تجد الابن البّار، هذه رحمة، أن تجد زوج البنت الصغرى المخلصة المهذبة الديّنة، هذه رحمة، أن يكون جارك لطيفاً، هذه رحمة، هذه كلها رحمة، كل شيء ترتاح له رحمة، وأن يتجلى الله على قلبك هذه رحمة، وأن يقذف الله في قلبك النور، هذه رحمة، هناك رحمة مادية، وهناك رحمة معنوية، أو رحمة نفسية لا يعرفها إلا من ذاقها ! الرحمة المادية قد يشترك فيها الناس جميعاً، مؤمنهم وغير مؤمنهم، ولكن الرحمة الروحية هذه خاصة بالمؤمن، إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من عبيده، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأتقيائه المؤمنين ! هذه الرحمة، يعطيها الله عز وجل، يعطيها مكافأة على استقامة الرجل، ويعطيها تشجيعاً له على أن يجلبه إلى طريق الإيمان، يعطيها استحقاقاً، أو تشجيعاً، والرحمة المادية قد يعطيها لأهل الكفر استدراجاً !

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30))

(سورة إبراهيم)

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

فهذه الرحمة الشيء الذي ترتاح له، صحتك، وزوجتك، وأولادك، وعملك، ودخلك، وبيتك، ومركبتك، إن بعثت في نفسك الراحة فهذه رحمة بشكل أو بآخر، لكنها رحمة مادية، قد تكون استدراجاً، وقد تكون تقديراً ومكافأةً، وقد تكون تشجيعاً وإكراماً، على كل هناك علم إلهي يحدد هذه الرحمة، والدليل قوله تعالى:

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ)

يرحمكم لعلمه بكم، لعلمه أن هذه الرحمة تناسبكم، لعلها تحملكم على التوبة، لعل هذه الرحمة تكون مكافأة لكم على حسن صنيعكم، لعلها استدراج، ولعلها مكافأة، ولعلها تشجيع، أما رحمة الله الروحية إذا تجلى على قلبك، وغمرك بأنواره، فهذه رحمة يختصّ بها المؤمنون من دون غيرهم، على كل ربكم أعلم بكم، لعلمه بكم يرحمكم، رحمة مادية أو تشجيعية أو تقديرية أو استدراجاً، أو رحمة روحية تنسون بها كل الدنيا !

لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف !

(إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)

كل شيء يخالف طبيعة الجسم، أو طبيعة النفس، هو عذاب، لو أن جهازاً من أجهزتك تعطّل لكان عذاباً لا يطاق، فهناك الأمراض، وهناك الهموم، وهناك الأحزان، هناك المقلقات، هناك أمراض نفسية، وأمراض جسمية، وهناك ضيق ذات اليد، هناك نقص في الثمرات في الأولاد، هناك زواج سيئ، هناك زوجة مشاكسة، هناك ولد عاق، هناك بيت ضيق، هناك مركبة صعبة، أنواع العذاب لا تعد ولا تحصى، وكلها أدوية في صيدلية ربنا جلّ وعلى، أدوية ! كل أنواع العذاب المادي والمعنوي، الصغير والكبير، النفسي، هذه كلها أدوية.

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147))

(سورة الأنعام)

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ)

لعلمه بكم يرحمكم أو يعذبكم، إذاً رحمته وعذابه مبنيان على علم الله بكم، إن الرحمة تناسبكم، أو إن العذاب يردعكم، لذلك قال بعض العلماء: هناك مصيبة قصم، وهناك مصيبة ردع، وهناك مصيبة دفع، وهناك مصيبة رفع، وهناك مصيبة كسب، فإذا كان الإنسان ميؤوسا من صلاحه تأتيه مصيبة تقصمه، وتهلكه، وتسحقه، وانتهى الأمر ! لا خير فيه، لا خير يرجى منه، هذه مصيبة القصم، وإن كان هناك

معصية وعناد ومجاهرة وفجور تأتي مصيبة الردع، الرجل الشديد العتيد لا تقوى ركبتاه على حمله ! يبكي كالأطفال طبعاً عند الله أدوية المادة الفعالة فيها كثيفة جداً !

(فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17))

(سورة الجن)

هناك دواء ثمنه مئتان وخمسون ليرة، ودواء خمسمئة ليرة، دواء ألف ليرة، قال لي أحدهم: أخذ دواء درجته مليون ! يسلكه عذاباً صعداً، هذه مصيبة الردع، مرض خطير، كان يزني، جاء المرض الخطير فحمله على التوبة، هذه مصيبة الردع، أما مصيبة الدفع فهذه للمؤمنين.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156))

(سورة البقرة)

إذا أحب الله عبده ابتلاه ! فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه، إذا أحب الله عبده عجّل له بالعقوبة ! إذا أحب الله عبده عاتبه في منامه ! هذه مصيبة الدفع، مؤمن مقصر يا رب، ارحمه، قال: يا عبدي كيف أرحمه مما أنا به أرحمه ؟ وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن، وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتارا في رزقه، أو مصيبة في ماله، أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه ! هذه مصيبة الدفع، مستقيم لكنه مقصر، يدفعه نحو الأمام، يخوفه، تلوح له مصيبة يلجأ إلى الله عز وجل ارتفع، هذه مصيبة الدفع، فإذا كان مستقيماً وذا همة عالية إذا جاءته مصيبة رفعت مرتبته عند الله عز وجل ! عَنْ سَعْدٍ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

(الترمذي)

أما الأنبياء عليهم صلوات الله فالمصائب التي تصيبهم من أجل كشف حقيقتهم في أنفسهم من الكمال الذي يسمو على كمال البشر، حيث إن هذا الكمال لا يظهر للناس إلا في ظروف صعبة، لذلك يذهب النبي عليه الصلاة والسلام مشياً على قدميه إلى الطائف، وكلمة مشياً على قدميه لا يعرفها إلا من زار الأماكن المقدسة، ورأى فيها شدة الحر، وماذا تعني كلمة مشياً على قدميه من مكة إلى الطائف ! ليصل إليها، وليردّه أهل الطائف شرّ ردّ، ليستخفوا برسالته، ليؤذوه، يأتي سيدنا جبريل يقول: يا محمد، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:

((كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ))

(صحيح البخاري)

لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله ! هذه مصيبة الكشف، وهناك مصيبة الرفع، وهناك مصيبة الدفع، وهناك مصيبة الردع، وهناك مصيبة القصم، لذلك الأدب الإسلامي هو: أنه إذا أصابتك مصيبة فاتهم نفسك قل: لعلي فعلت معصية، لعلي قصرت، لعلي أكلت مالاً حراماً، وإذا أصابت أخاك مصيبة فأحسن الظن به، قل هذه مصيبة ترقية، وهذه مصيبة رفع، وهذه مصيبة رفع درجاته عند الله سبحانه وتعالى، استعمل هذه القاعدة، إن ألمت بك مصيبة فاتهم نفسك، وإن ألمت المصيبة بأخيك فأحسن الظن به، إذاً:

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)

رحمته وفق علمه بكم، علمه بما يناسبكم، وعذابه وفق علمه بما يناسبكم، إنه حكيم، ومعنى حكيم، أن الشيء الذي وقع لا بد من أن يقع، ولو لم يقع لكان نقصاً في كمال الله، ونقصاً في علمه، ونقصاً في رحمته، ونقصاً في حكمته، الشيء الذي وقع لا بد من أن يقع، لذلك إذا كشف الغطاء اخترتم الواقع، لذلك عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(مسند الإمام أحمد)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

(مسلم)

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54))

أنتم مخيرون:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54))

لست مكلفاً أن تحملهم بالجبر والقهر على الإيمان، أنت منذر ومبشر ورسول وبلغ.. هم مخيرون،

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: 56)

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة: 272)

إذاً أنتم مخيرون، الآية دقيقة جداً، أنتم مخيرون وفق اختياركم، والله يعلم اختياركم، ويعلم نواياكم، ويعلم وجهتكم، إذاً يرحمكم أو يعذبكم، لحكمة بالغة هي من حكمة الله عز وجل، آية دقيقة جداً جمعت بعض العقائد:

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ)

أعلم اسم تفضيل، ليس في الأرض جهة تعلم حقيقة الإنسان كعلم الله عز وجل ! أعلم بكم.

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54))

إن أنت إلا نذير، وما عليك إلا البلاغ المبين.

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)

علم الله عز وجل لا يستطيع مخلوق أن يحيط به، هل يستطيع موظف بسيط في كلية الطب أن يعرف مستويات الأطباء ؟ وأيهم اكثر علماً ؟ وأيهم أكثر مهارة في الجراحة ؟ لا يستطيع هذا، فكيف يستطيع هذا الموظف البسيط أن يفرق بين أربعة جراحين في القلب في العالم ؟ وأيهما أكثر مهارة ؟ من يستطيع أن يقيم الصحابة إلا أن يكون فوقهم، لذلك نحن كوننا مؤمنين إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، لسنا جميعاً مؤهلين أن نميز بينهم، ولا أن نقيمهم، ولا أن نقول: هذا أفضل من هذا، هذا كلام مرفوض، نحن جميعاً دونهم، إذاً أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم، إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيبه، إذاً الله عز وجل قال:

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)

هؤلاء الأنبياء الذين وصلوا جميعاً إلى مرتبة النبوة، وهذه المرتبة تعني عدم الانقطاع عن الله، والاتصال الدائم، نحن معاشر الأنبياء، تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا، ومع ذلك الله عز وجل فضل بعضهم على بعض، لعلمه غير المتناهي بهم، مثلاً الله سبحانه وتعالى خاطب بعض الأنبياء بأسمائهم !

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)

(سورة مريم: 7)

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

(سورة المائدة: 110)

أما نبينا عليه الصلاة والسلام فلم يخاطب إلا بـ: يا أيها النبي، ويا أيها الرسول، جاء اسمه في القرآن على صيغة الخبر:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ)

(سورة الفتح: 29)

أما الخطاب فلم يخاطب إلا بـ: يا أيها النبي، ويا أيها الرسول،

خفضت كل مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

***

(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (55) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (56))

هذه دعوة إلى التوحيد، هؤلاء الذين تدعون من دون الله، أصناماً كانوا، أو أشخاصاً، لا يستطيعون كشف الضر عنكم، ولا تحويله منكم إلى غيركم، وكفى بهذا ضعفاً وعبودية لله عز وجل

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (08-13): تفسير الآيات 56 – 65
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-09-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (56))

الله سبحانه وتعالى يملك كشف الضر عن البشر وتحويله، لكن الذين يدعون من دونه لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلَهُ ! إذاً ينبغي أن يكون الإله قادراً على أن يزيل الضر، ينبغي أن يكون الإله سميعاً بصيراً، بيده كل شيء، هذا هو مقام الألوهية، فإذا اتخذ الإنسان من دون الله أناساً عقد عليه آمالهم، وجعلهم قبلته، وأخلص لهم، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، يكون قد غامر، وقامر بسعادته في الدنيا والآخرة !

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (56))

ربنا عز وجل قال متحدثاً على لسان سيدنا إبراهيم:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين (80))

(سورة الشعراء)

هل من جهة على وجه الأرض تستطيع أن توقف نمو الخلايا العشوائي ؟ هل من جهة على وجه الأرض تستطيع أن تصل إلى القلب فتصلح الخلل ؟ الله على كل شيء قدير ! لذلك حينما يتجه الإنسان إلى غير الله يكون قد قامر بسعادته في الدنيا والآخرة، لأن هذا الذي يتجه إليه الإنسان ليس أهلاً أن تطيعه وتعصي الله، إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله !

(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (57))

هذه الآية دقيقة:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ)

بقي هؤلاء الذين يُدعَون من دون الله، هؤلاء الذين يُعبدون من دون الله، هؤلاء الذين اتخذوا آلهة من دون الله، كسيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وكسيدنا عزير:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

(سورة التوبة)

وكالملائكة التي تُعبد من دون الله، هؤلاء جميعاً الذين يُعبدون من دون الله أولئك الذين يدعون هم أنفسهم، سيدنا المسيح وعزير والملائكة هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ! هم يعبدون الله، إن كنتم تعبدونهم على أنهم آلهة هم يعبدون الله، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه،

(يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)

كلما اشتد قرب الإنسان من الله اشتد إقباله عليه، ابتغى إليه الوسيلة، أيهم أقرب من هؤلاء يبتغون إلى ربهم الوسيلة.

كلما اقترب الإنسان من الله ذاق من طعم القرب فزاد شوقه إلى الله عز وجل ! وابتغى إليه الوسيلة.

الوسيلة لها معانٍ واسعة، الوسيلة قد يتوسل الإنسان إلى الله بطاعته، فطاعة الله وسيلة، وقد يتوسل الإنسان إلى الله بالعمل الصالح، والعمل الصالح وسيلة، وقد يتوسل الإنسان إلى الله بحضور مجالس العلم، واتباع أهل الحق، فأهل الحق وسيلة، الوسيلة الشيء الذي يقربك من الهدف، فهؤلاء الذين يُدعَون من دون الله هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة، ربنا عز وجل قال:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: 110)

العمل الصالح ثمن اللقاء، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللّهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللّهِ ثُمّ اسْتَقِمْ))

(مسند الإمام أحمد)

فالاستقامة طريق إلى الله عز وجل، خدمة الخلق طريق إلى الله عز وجل، الدعوة إلى الحق طريق إلى الله عز وجل، لزوم مجالس العلم طريق إلى الله عز وجل، برّ الوالدين طريق إلى الله عز وجل، الاستقامة في البيع والشراء طريق إلى الله عز وجل، الوقوف عند حدود الله طريق إلى الله عز وجل، نُصحُ المسلمين طريق إلى الله عز وجل، ما أكثر الطرق إلى الله عز وجل، ما أكثرها إنها أمامك مفتحة أبوابها، لذلك فالإنسان لا يعدم وسيلة يصل بها إلى الله عز وجل، وأن تضع اللقمة في فم زوجتك هي لك صدقة ! وأن تميط الأذى عن الطريق هو لك صدقة، وأن تلقى أخاك بوجه طلق هو لك صدقة، وأن تفرغ إناءك في دلو المستسقي هو لك صدقة، وأن تعين الأخرق (من لا يحسن الصنعة)هو لك صدقة، وأن ترشد الرجل الضّال إلى هدفه هو لك صدقة، وأن تقود كفيف البصر هو لك صدقة، وما أوسع أبواب الخير، وأبواب الخير كلها طرق إلى الله عز وجل، الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، فهؤلاء الذين تدعونهم من دون الله، هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله، هؤلاء الذين اتخذتموهم

آلهة هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، كلما اقترب الإنسان من الله عز وجل يبتغي إلى الله الوسيلة بإلحاح أشد وبصدق أكبر.

في معنى آخر،

(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)

أيْ: يتخذ أشد الوسائل فعالية، وأشد الوسائل تقريباً إلى الله عز وجل، إما أنه إليهم أقرب، أو أنه بمعنى أيها أقرب، على كل هؤلاء الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم، لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، إنهم يبتغون من الله الرحمة، إنهم يرجون رحمة الله، ويخافون عذابه.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ)

أنت في دعاء الوتر تقول: نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، الرحمة الشيء المريح، أن تنعم بصحة وافرة رحمة، وأن يكون عقلك ناضجاً هذه رحمة، وأن تملك قوت يومك هذه رحمة، وأن تستمتع بحواسك كلها هذه رحمة، وأن يكون لك زوجة ترضيك هذه رحمة، وأن يكون في البيت أولاد هذه رحمة، وأن يحبك الناس هذه رحمة،

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: 39)

والله لو اطّلع الناس على سريرة الإنسان لأبَوا أن يُسَلِّمُوا عليه ! ولكن الله عز وجل من كرمه يبرز الجميل، ويستر القبيح ! يطّلع الناس على محاسنك، ويخفي عنهم مساوئك، لذلك هم يحبونك ! فلو كشف الله الستر ما سلّم عليك أحد !

والله لو علموا قبيح سريـرتي لأبى السلام علي من يلقانـي
ولأعرضوا عني وملّوا صحبتي و لأعرضوا عني وملوا صحبتي

***

إذاً:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: 39)

هذه رحمة، يرجون رحمته، وهناك رحمة الإقبال، ورحمة التجلي، فلو أقبلت على الله عز وجل، وتجلى على قلبك فهذه رحمة من نوع آخر ! هذه الرحمة عبر عنها الله عز وجل بقوله:

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56))

(سورة الأعراف)

أحسن يرحمك الله عز وجل، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى))

(ابن ماجة)

هذا العبد يتجلى الله عليه بالرحمة، رحم الله عبدًا عرف حدّه فوقف عنده، هذا الإنسان يتجلى الله عليه بالرحمة،

(وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ)

أي: عذاب الله عز وجل، فهو مُنَوَعٌ جداً ! عذاب الله عز وجل قريب، نقطة من الدم لا تزيد على رأس دبوس لو تجمدت في بعض شرايين المخ لأصيب الإنسان بالشلل ! هناك مكان آخر لو حصل ذلك لأصيب بالعمى ! هناك مكان ثالث لأصيب بالصمم ! ومكان رابع لفقد ذاكرته ! لو توقفت الكليتان عن العمل أصبح الموت أحلى من الحياة ! لو توقف الكبد عن العمل، لو انقطع العمود الفقري إثر حادث يصاب الإنسان بالشلل طوال حياته،

(وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ)

لو فَقَد الإنسان عقله نجد أقرب الناس إليه يسوقونه إلى المستشفى ! يتخلون عنه.

(وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ)

هذا الذي لا يخشى الله، لا يخاف الله ضعيف التفكير، محدود الأفق، غبي، أحمق ! لذلك **رأس الحكمة: مخافة الله.**

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (57) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

الله سبحانه وتعالى هكذا جاء في علمه أن القيامة لن تقوم إلا بعد أن تكون الأرض قد خلت من الحياة، فكل هذه القرى، كل هذه المدن التي ترونها، هذه المدن العظيمة التي فيها ناطحات السحاب، فيها الجسور، فيها الأنفاق، فيها أنفاق تحت الأرض، وفيها أنفاق تحت البحر، وفيها جسور معلقة، وفيها أبنية شاهقة، هذه المدن الضخمة، هذه المدن التي يعتز أصحابها بها.

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ)

هذه (إن)تعني ما، حرف نفي، يعني ما من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة، أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطورا، فإن كانت هذه القرية تقيم شرع الله، وتقيم أمر الله، وهي محسنة فلا بد من أن تنتهي قبل يوم القيامة ! فكل من عليها فان، كل شيء هالك إلا وجهه، فالموت حق، لن تبقى قرية إلى الأبد، لا بد من أن تنتهي، فأما إن كان أهلها ظالمين، إن كانت فيها الفاحشة، إن ارتكبت فيها المعاصي فهذه المدينة سوف تعذب عذاباً شديداً ! إما أن تهلك، أو تدمر، وإما أن تعذب عذاباً شديداً.

(كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

وليست أخبار الزلازل والفيضانات والبراكين عنا ببعيد ! مدينة في أميركا الشمالية قتل خمسة وثلاثين ألفًا في ساعات ! بركان ثار وأذاب الثلوج، والثلوج سببت الفيضانات ! ما بقي منها أحد، تحت سمعنا وبصرنا.

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ كَانَ مَحْذُوراً (57) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل..

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102))

(سورة هود: 102)

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيدٌ (2))

(سورة الحج)

لذلك هذه الآية تطبيقها العملي أن تأخذ الحيطة، أن تتوب إلى الله عز وجل، لأنك إذا تبت إلى الله عز وجل سوف تنجو من أي عذاب.

(سُبْحَانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجّيْنَاهُ مِنَ الْغَمّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

هكذا دعا سيدنا يونس عليه السلام:

(سُبْحَانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجّيْنَاهُ مِنَ الْغَمّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

حقٌّ على الله عز وجل أن ينجي المؤمن، الآية الكريمة تقول:

(نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

هنالك آيات أخرى تؤكد هذا المعنى.

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

(سورة الإسراء)

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوّمَةً عِنْدَ رَبّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36))

(سورة الذاريات)

واضحة كل الوضوح، لذلك إذا قال الله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

(سورة الإسراء)

معنى ذلك أن تبادر إلى التوبة قبل فوات الأوان، من أجل أن تنجو من عذاب الله.

(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ)

يعني أن كفار مكة اقترحوا على النبي عليه الصلاة والسلام أن يجعل جبل الصفا من الذهب، أو أن يزيح عنهم جبال مكة كي يزرعوا أرضها، طلبوا طلبات، فالله سبحانه وتعالى أجابهم:

(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ)

التي تقترحونها على نبيكم:

(إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ)

وإليكم بعض الأمثلة:

(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً)

(سورة الإسراء:59)

قوم ثمود طلبوا من نبيهم سيدنا صالح أن تخرج لهم ناقة من الجبل فاستجاب الله لهم، ولم يؤمنوا، وعقروا الناقة، فاستحقوا الهلاك.

لذلك إذا جاءت الآيات المصدقة، إذا جاءت المعجزات المصدقة لرسالة الأنبياء، ولم يؤمنوا بها فقد استحقوا الهلاك فوراً، فالله سبحانه وتعالى رحمةً بأمة سيدنا محمد رحمةً بها لم يرسل لها الآيات، لو أرسل لها الآيات، وكذب بها قوم النبي عليه الصلاة والسلام لاستحقوا الهلاك، هلاك استئصال لا هلاك تأديب.

(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً)

آية واضحة كالشمس، آيةٌ كأنها هي التي تبصر، تُبَصِر الناس بوحدانية الله عز وجل، والآيات التي تؤكد وحدانية الله عز وجل، ووحدانية الألوهية، ووحدانية الربوبية، ووحدانية الخلق لا تعد ولا تحصى.

(فَظَلَمُوا بِهَا)

ظلموا أنفسهم حينما لم يؤمنوا بها، وظلموا أنفسهم حينما عقروها !

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15))

(سورة الشمس)

(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (59))

التخويف باللغة المألوفة تعني أن الإنسان قد يخوّف إنساناً، ولا يفعل ما يقول، لكن التخويف في القرآن الكريم يعني التخويف بالمعنى اللغوي الدقيق، يعنى أن الله سبحانه وتعالى حينما تُدَمِّر القرى، حينما تأتي الفيضانات، حينما تأتي البراكين فتحرق المدن، حينما تأتي الزلازل فتصبح المدينة أثراً بعد عين، هذه الآيات من أجل أن يخاف الآخرون، من أجل أن يتوبوا، من أجل أن يتعظوا.

هذا مثلٌ بين أيدينا: لو أن الناس جميعاً ولدوا مرة واحدة، وماتوا مرة واحدة ما اتعظوا ! ولكن هذا الموت التدريجي من أجل أن يتعظ الأحياء بالأموات، قبل يومين كان معك، ملء السمع والبصر، يتكلم ويناقش، ويذهب ويعود، له بيت وله أولاد، وله مكانة اجتماعية، بعد يومين صار على خشبة الغسل جثة هامدة، لا حراك بها، بعد ساعتين تحت التراب، بعد أسبوع أصبح خبراً، فلان له وجود، له شخصيته، له رأيه، له أمره، له نهيه، له مكانته، له إدارته لأعماله، بعضهم يخافه، بعضهم يخشاه، فإذا مات صار خبراً.

(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ)

يا محمد عليه الصلاة والسلام.

(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)

أي اطمئن، فالخلق كلهم بيد الرحمن، كن فيكون، زُل فيزول، لا تخف،

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

عصمة النبي عليه الصلاة والسلام أنواع عديدة، هناك عصمة التبليغ، وهناك عصمة الفعل، وهناك عصمة من أن يقتل، لا تخف فلن يصلوا إليك، هذه الآية على شاكلة:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

ثم قال عزوجل:

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)

هم في قبضته، يمد لهم ليمتحنهم، يمد لهم ليكشف نياتهم، وهو يعرفها، يكشفها لهم، يكشفها للآخرين.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)

هؤلاء الله سبحانه وتعالى يمدهم، لكن لهم أجل لا ريب فيه، أي: لا تخف يا محمد، إن الله عز وجل ناصرك عليهم في الوقت المناسب.

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ)

أي: حينما عُرِجَ به إلى السماء، حينما أُسريَ به إلى بيت المقدس، وحينما عُرِجَ به إلى السماء أراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأطلعه على ما كان وما سيكون، لذلك حينما عاد النبي عليه الصلاة والسلام من المعراج والإسراء إلى مكة قصَّ على الناس ما رأى.

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(سورة النجم)

هذه الرؤيا التي رآها النبي عليه الصلاة والسلام وهو في السماوات، رأى يوم القيامة، وكيف أن أهل الجنة بالجنة يتنعمون، وكيف أن أهل النار بالنار يُعذّبون، رأى آكلي الربا ما مصيرهم، رأى الزُناة ما مصيرهم، رأى الذين يعقّون آبائهم ما مصيرهم، أطلعه الله على كل شيء، أطلعه على مرتبته، أطلعه على مكانته، أطلعه على الأنبياء، أطلعه على كل شيء، كان الإسراء والمعراج إكراماً للنبي عليه الصلاة والسلام بعد محن شديدة ألمت به !

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ)

ليس معنى الرؤيا هنا المنام، الرؤيا من رأى.

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ)

أي: أريناكها.

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ)

بعض الناس ارتدوا على أدبارهم بعد أن سمعوا ما قصه النبي عليهم، واعتبروه هذياناً ومبالغة وتجاوزاً لحدود المعقول ! وبعض المؤمنين الصادقين فزادتهم هذه الرؤيا إيماناً وتصديقاً !

يا أبا بكر يزعم صاحبك أنه ذهب إلى بيت المقدس، وأنه عُرِجَ به إلى السماء، وأنه رأى كذا وكذا، فما زاد عن أن قال: **إن قال هذا فقد صدق !** لذلك سميَّ الصديق رضي الله عنه، فهؤلاء الناس حيال هذه الرؤيا انقسموا فريقين: فريق ارتد على أدباره، وفريق زادته هذه الرؤيا إيماناً، لكن هذه المعجزة التي خصّ بها النبي الكريم لم تكن تحت سمعهم وبصرهم، لو كانت كذلك، ولم يؤمنوا لاستحقوا الهلاك ! ولكن الله عز وجل سمّاها فتنة، أي وصلت لهم خبراً، قوم موسى رأوا البحر بأعينهم قد أصبح طريقاً يبساً ! قوم صالح رأوا الجبل قد خرجت منه الناقة بأعينهم ! لكن قوم النبي عليه الصلاة والسلام لم يروه بأعينهم وقد عُرِجَ به إلى السماء ! لو رأوه وكذبوه لاستحقوا الهلاك رحمة بهم، لذلك هذه المعجزة نُقِلت لهم خبراً، ولم تكن لهم رؤية عين.

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ)

افتتنوا بها، ومعنى افتتنوا بها أي: ظهروا على حقيقتهم.

أساساً هناك مواقف أخرى كغزوة الخندق، في الخندق قال بعض الدعاة: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ! وقال بعض المؤمنين المتمكنين في إيمانهم:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

هذه فتنة، الفتنة الإنسان بها يكشف على حقيقته.

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ)

في الآية تقديم وتأخير، وما جعلنا الرؤيا التي أريناك، والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس.

والله سبحانه وتعالى حدّثهم عن شجرة الزقوم:

(إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65))

(سورة الصافات)

فقال أبو جهل: النار تأكل الحجر، فكيف تنبت فيها الشجر ؟ إن هذا كذب ! والزقوم هو الزبد والتمر، فدعا بزبد وتمر، ودعا أصحابه وقال: تزقموا، أي: كلوا ! هذا الذي قاله محمد لا أصل له، فهذه الشجرة التي تحدث الله عنها في القرآن أيضاً كانت فتنة للناس، بعضهم صدّق، وبعضهم كذّب.

(وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً (60))

هؤلاء المتشبثون بشهواتهم لا يزدادون على آيات الله إلا تشبثاً وعصياناً وبعداً وعدواناً.

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)

كان متكبراً، أبى أن يسجد للإنسان، لسيدنا آدم ! قال:

(قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61))

أنا من نار، وهذا من طين، أأسجد له ؟ استنكف أن يسجد له ! قال الله تعالى على لسان إبليس:

(قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً (62))

هذا الذي كرمته عليَّ، هذا الإنسان أنا سوف أحتويه، سوف أضلّه، وأغويه، سوف أجعله يعصيك، سوف أجعله يحب الدنيا، هذا الذي كرمت عليّ.

(قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً (62))

هذا الاستثناء للمؤمنين، هؤلاء لا أقوى عليهم، لا أستطيع أن أضلّهم، ليس بإمكاني أن أضل منهم إلا قليلا ! قال الله عز وجل:

(قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً (63))

اذهب ومن تبعك منهم، من تبعك هو مخير، هناك آية دقيقة جداً:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم)

إذاً الإنسان مخير، وإبليس والشياطين ليس لهم عليه سلطان أبداً، كل ما يملك إبليس أن يوسوس، وأنت مخير، إلا من اتبعك باختياره، قال:

(قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً (63))

اذهب فمن تبعك فهو على شاكلتك، من أطاعك فهو على شاكلتك، اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفوراً ! الإنسان مخير، وأنت توسوس له، والمَلَكُ يُلْهِمُهُ، فإن اتبعك مختاراً فهو على شاكلتك، ويستحق النار، وإن أبى، وأطاعني يستحق الجنة، واستفزز من استطعت منهم، الاستفزاز التحريض والإثارة، لو استفزني أثارني،

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ)

قال بعضهم: الصوت هنا الوسوسة، ولأنها وسوسة لا تعني شيئاً سميت صوتاً تحقيراً لها ! الإنسان يصوّت أي: يتكلم، أما إذا كان كلامًا لا معنى له فيقول: أوقفوا هذا الصوت، الصوت كلام مبهم، فتحقيراً لهذه الوسوسة قال الله عنها: **إنها صوت.**

هناك معنى آخر: هذا هو الغناء، الغناء ينبت النفاق،

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ)

الأغاني التي تثير الشهوات، وتصف العورات، وتغري بالزنى، هذه كلها من مزامير الشياطين.

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ)

جَنِّد كل جنودك، الراكبين والمشاة، جَنِّدْهُم ليُضِلُّوا هذا الإنسان !

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

(مسلم)

كل الليل يقضونه في المشاكل والصراعات، وإذا جلس الإنسان إلى الطعام ولم يسمّ قال الشيطان لإخوانه: أصبتم العشاء، سنأكل معهم، فإذا دخل ولم يُسَلِّم، وإذا جلس إلى الطعام ولم يسمّ يقول الشيطان

لإخوانه: أصبتم المبيت والعشاء !

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)

بعض المفسرين قال: هذه صورة من صور إيقاع الشيطان للإنسان، أنت إذا رأيت إنساناً متحصناً تصيح به إلى أن يخرج، فإذا خرج تحيط به من كل جانب، تحيط به بالفرسان والمشاة، من أجل أن تقضي عليه فكأنها معركة، الله عز وجل يصف لنا معركة، أولاً: يدعوهم، يوسوس لهم، ثم يوقعهم !

(وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ)

اجعل كسبهم حراماً، أو اجعلهم ينفقون هذه الأموال على المعاصي، واجعل أولادهم من أولاد الزنى، أو ليعلموا أولادهم على المعاصي، المعنيان كلاهما صحيح، وعدهم بالمال الوفير، الكافر يفكر بالدنيا، سأشتري هذا البيت، سأشتري هذه الدكان، سأشتري هذه المركبة، سأفعل كذا وكذا سأسافر.

(وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (64))

إذاً الاستفزاز من قبل الشيطان بالصوت إما بالوسوسة، وإما بالغناء.

(وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ)

صورة تؤكد أو تبين كيف أن الإنسان يكون معتصماً في حصنه، فيأتي الشيطان فيناديه ويصيح به إلى أن يخرج، فإذا خرج حاصره، وقاتله، أو أن الشيطان يسخِّر كل ما يملك من طاقات وفتن ومن مصائب من أجل أن يوقع بهذا الإنسان، وإن إبليس طلاع رصاد وما هو من فخوخه بأوثق لصيده في الرجال من النساء، فالنساء حبائل الشيطان، وجُمِعَ الشرّ كلّه في بيت، ثم أرُتِج عليه فكان مفتاحه السكر، الخمر أُمّ الخبائث ! والمشاركة في الأموال كسبها من طريق حرام، وإنفاقها في طريق حرام، والمشاركة في الأولاد أن يأتي الولد من حرام، أو أن يّوجه إلى المعاصي في وقت مبكر ! حتى ينشأ على المعصية.

الشيطان يعد الإنسان وعوداً كثيرة من هذه الدعوة: يعده بأن ينجو من عذاب الله، بعد أيام هذا الذي يرتكب كل المعاصي والموبقات ويموت وهو عاصٍ يعده الشيطان أن ينجو من عذاب الله !

اليهود ظنوا أنهم لن يبقوا في النار إلا أياماً معدودة، هذا من وعد الشيطان، وقد يعدهم بالدنيا يعدهم بزينتها، يزخرفها، بمُتعها ومباهجها، يجعلها لهم كبيرة جداً في أعينهم فينساقون إليها على حساب كرامتهم ومبادئهم، على حساب قيمهم، وعلى حساب دينهم، وعلى حساب مروءتهم، يقبلون عليها، فيأتي الموت ويُصْعَقُونَ عِنْدَه.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83))

(سورة الزخرف)

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45)

(سورة الطور)

والشيطان أيضاً يشمت بهم.

(إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

(سورة إبراهيم)

(وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشّيْطَانُ إِلّا غُرُوراً (64))

وعود كاذبة لا أساس لها من الصحة، استمعوا أيها الإخوة إلى هذا التعقيب:

(إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

إذا كنت من عباد الله لو اجتمعت الإنس كلها والجن على أن يحرفوك عن طريق الحق لا يستطيعون.

(إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبّكَ وَكِيلاً (65))

من اعتصم بالله عز وجل، واستعاذ به، وأقبل عليه، واستقام على أمره لن تستطيع الجن ولو اجتمعوا، بل لن يستطيع شياطين الجن كلهم أن يخرجوه عن استقامته، لذلك:

(إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبّكَ وَكِيلاً (65))

كن عبداً لله حتى يحميك الله من الشيطان.

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرّ النّفّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ(5))

(سورة الفلق)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ (1) مَلِكِ النّاسِ (2) إِلَهِ النّاسِ (3) مِنْ شَرّ الْوَسْوَاسِ الْخَنّاسِ (4) الّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاسِ (5) مِنَ الْجِنّةِ وَالنّاسِ(6))

(سورة الناس)

(وَإِمّا يَنْزَغَنّكَ مِنَ الشّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ (36))

(سورة فصلت)

هذا توجيه الله عز وجل.

(إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبّكَ وَكِيلاً (65))

الله سبحانه وتعالى يحميك، ويحفظك، ويقيك من وساوس الشيطان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (09-13): تفسير الآيات 66 – 77
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-09-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (66))

كلمة (الرب)تعني المُمِدّ، الله سبحانه وتعالى تفضل علينا بنعمة الإيجاد، وتفضل علينا بنعمة الإمداد، وتفضل علينا بنعمة الإرشاد، فرب العالمين أي: الذي يمدهم بما يحتاجون، ومن كلمة (رب)اشتقت كلمة التربية، والتربية العناية والرعاية، والملاحظة والتقويم، والتصحيح والتسديد، والإمداد والإشراف، كل هذه المعاني مشتقة من التربية، إنك إذا ربيت نبتة تُقَلِمُهَا عند الحاجة، تمدها بالماء، بالسماد، تضعها في الشمس تارة، وفي الظل تارة أخرى، تسقيها، تعتني بها، تغير أصصِها، هذه هي التربية.

والذي يربي أولاده يعرف معنى التربية، هذه المعاني مبسطة يعرفها الجميع من خلال الممارسات اليومية، لكن الله سبحانه وتعالى رب العالمين، أنت قد تضيق ذرعاً بعدة أولاد تربيهم، لكن الله سبحانه وتعالى رب كل العوالم.

(رَبُّكُمُ)

أي: الذي خلقكم، والذي يتولى شؤونكم، والذي يمدكم بما تحتاجون هو الذي يزجي لكم الفلك.

أزجى: بمعنى دفع، والفلك: هي السفن.

أولاً: لن تقوم سفينة، أو تطفو على سطح الماء إلا بفضل الله عز وجل، لأن الله عز وجل خلق الماء بطريقة أن ذراته متماسكة، وهذا التماسك يقاوم كل جسم يغمس في الماء، إذاً كل جسم يغمس في الماء كأن قوة تدفعه نحو الأعلى، هذه الحقيقة كشفها بعض العلماء، وسمي قانون الدفع المائي باسمهم.

قوة الدفع نحو الأعلى، الإنسان إذا حمل وعاء من الماء، وغرسه في بحرة صغيرة، يحس أن ثلاثة أرباع وزنه قد تلاشى، في الماء قوة تدفع نحو الأعلى، هذه من فضل الله عز وجل، لولا هذا التماسك بين ذرات الماء، ولولا أن الأجسام المنغمسة في الماء تجد ما يدفعها نحو الأعلى لما كانت الفلك في البحر ! مبدأ السفن كله يصبح لاغياً لولا قانون أرخميدس.

(رَبُّكُمُ الَّذِي)

هو الذي جعل هذه القوة الدافعة نحو الأعلى، وهو الذي جعل الرياح تدفعها نحو أهدافكم، وحينما استبدل الشراع بالمحرك استخدم الناس الوقود، مَنْ خَلَقَ الوقود ؟

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

(سورة يس)

بعض العلماء وجَّه هذه الآية إلى البترول، أحدث نظريات البترول أنه في العصور المطيرة، وفي حقب الأشجار العملاقة، هذه الأشجار العملاقة، وهذه الحيوانات الضخمة دفنت في باطن الأرض فكان البترول.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

لذلك إن تحركت السفينة بالرياح فبفضل الله عز وجل، إن تحركت بالوقود السائل فبفضل الله عز وجل، من أودع في هذا الوقود قوة الانفجار ؟

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

هذه العبارة في القرآن الكريم تَرِدُ كثيراً في معرض البحث عن الرزق، بل بشكل أدق في التجارة مع السفر، فالإنسان حينما يسافر، ويبتغي من سفره هذا أن يصيب تجارةً، أو أن يبيع بضاعةً، أو أن يشتري، أو أن يقايض، فهذا اسمه ابتغاء من فضل الله عز وجل، لذلك هذه الآية تعد أصلاً في إباحة السفر من أجل طلب الرزق، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (66))

تصور لو أن هذه البحار ليست موجودة ! لو أن اليابسة متصلة، بعيداً عن موضوع الطقس والرياح والأمطار، لسببٍ أو لآخر تصور لو أن البحار معدومة ! شق الطرق يجهد الميزانيات، جسر صغير أنشئ بين دولتين صغيرتين في البحرين كلف ألوف الملايين، لو لم يكن البحر، وأردنا أن نُعَبِّدَ طريقاً إلى أمريكا، أو طريقًا إلى أوروبة، طريقًا إلى آسيا أو طريقاً إلى أستراليا، أو طريقًا إلى اليابان، هذا شيء فوق طاقة البشر، الله سبحانه وتعالى جعل البحر بين القارات هندسة اتصال، طريقًا من الماء، أحياناً تعترض شق الطرق عقبات كؤود، كالطرق الصاعدة، كالجبال، كالصخور، هذه كلها عقبات، لكن البحر ليس فيه أي عقبة، لا ارتفاع، ولا انخفاض، ولا وادٍ، ولا جبل... ماء مستوٍ، ما علينا إلا أن نبني السفن، فكأن البحر كله طريق واحد معبد، هذا من فضل الله عز وجل.

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (66))

رحمته في البحر، ورحمته فيما في البحر، من السمك والحليّ، ورحمته في البر وفي الصحراء، وفي الجبال، وفي الوديان، وفي الأغوار، وفي السهول وفي الأنهار، وفي البحيرات وفي الأطيار وفي

الأسماك، وفي الأزهار وفي النباتات، وفي المحاصيل، وفي الأشجار المثمرة، وفي خلقنا، وفي خلق أولادنا، وفي أسرنا، كل هذا من مظاهر رحمة الله عز وجل.

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)

هذه الآية أيها الإخوة أصلٌ في أن الإنسان مفطور على الإيمان بالله، لو ركب مجموعة من الناس طائرة أو باخرة، وكان فيهم الملحد، وفيهم الكافر، وفيهم الزنديق، وفيهم المنكر الفاجر، وفيهم المستخف بالدين، إذا هبت عاصفة هوجاء، وأصبحت الأمواج كالجبال، دقق في وجوه هؤلاء جميعاً، على اختلاف نحلهم ودياناتهم، على اختلاف مللهم واتجاهاتهم، ومعتقداتهم وأهوائهم، وعلى اختلاف مشاربهم وعقائدهم وقيمهم، وعلى اختلاف انحرافاتهم، كلهم جميعاً بصوت واحد ينادون: يا اللّه، فالإنسان مؤمن بالفطرة، لكن الشهوات ومشاغل الدنيا والأطماع هذه كلها تطمس الفطرة، لكننا إذا واجهنا خطراً شديداً نعود إلى اللّه عز وجل، وهذا الذي أقوله ليس افتراضياً، بل إنه قد وقع. طائرةٌ تُقِلُّ أناساً ينكرون وجود الله عز وجل، فلما مرت بغيمة مكهربة، وتبعها جيب هوائي، وبدا للركاب كأنها قد سقطت، ما الذي قد حصل ؟ كلهم ضجوا بالشكوى إلى الله عز وجل. فالإنسان مؤمن بفطرته، لذلك: الإمام علي رضي الله عنه سُئل: متى كان الله ؟ فأجاب: **ومتى لم يكن حتى تسألوني: متى كان الله؟**

الإنسان أحياناً لِجهله، ولضيق أُفُقِه، ولعدم تبصره يتوهم أنه إذا كان في بيته، والبيت بناؤه جيد، وكان في أتم صحته، وكان عنده مال وفير، فهو في غنى عن رحمة الله عز وجل، هذا هو الجاهل، لكنه إذا ركب طائرة، أو ركب باخرة فأدرك أنه صار تحت رحمة الله، هذا الوهم وهذا الضلال، إنك في أشد ساعات يقينك بأنك مكين، إنك في أشد ساعات استغنائك عن الله مفتقر إلى الله عز وجل، فهذا الذي توهم أن الخطر كامن في البحر فقط، وأنه مادام في السفينة لا بد من قول: يا الله، أو أن الخطر كامن في الطائرة فقط، هذا ضال جاهل ضيق الأفق، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)

الإنسان له أعوان، له أصحاب، له أناس يعتمد عليهم، له أناس يعلق آماله عليهم، له أصدقاء، له أقارب، له أصحاب من أولي الشأن، أو أولي القوة، هؤلاء وهو في الأرض، وهو في المدينة، وهو في بيته، يعتمد عليهم، يتكل عليهم، يعلق آماله عليهم، لكنه إذا ركب السفينة أو ركب الطائرة، وكان الوضع خطراً، طائرة أصيبت، دخلت في غيمة مكهربة، أو دخلت في صاعقة، في سماء بعض مدن أوربة كان من جراء هذا الدخول أن تحطم جهاز الرادار، وتحطم البللور الموجود أمام ربان الطائرة، وأصبح سقوط الطائرة قاب قوسين، وأصبح الخطر محققاً، ربان الطائرة أَمَرَ مُضِيفَاً أن يبلِّغ الركاب أن يشدوا الأحزمة، فإذا الركاب في هرج ومرج، هذا يبكي، وهذا ينادي، وهذا يلتجئ، وهذا يدعو، وهذا ينادي:

يا أهلي، يا ولدي، إلى أن رأى المضيف راكباً متماسكاً في أعصابه، هادئاً، فظن به أنه يستطيع أن يهدئ الركاب، فتوجّه إليه، وقد عقد الآمال عليه، فإذا هو مغمىً عليه، الإنسان ضعيف، هؤلاء يتوهمون أنهم في الطائرة تحت رحمة الله عز وجل، أما وهم في بيوتهم فمستغنون، ربنا عز وجل يلفت النظر فيقول:

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)

تفضلوا، هذا الذي في الأرض تعتمد عليه، وتتكل عليه، وتعقد عليه الآمال، وأنت في الطائرة، وأنت على السفينة تفضل وادعُه ! يا فلان، أين أنت ؟ تعال إلي يا فلان، أنا مستجير بك يا فلان، ليس لي سواك يا فلان، أين فلان ؟ هل يسمعك فلان ؟ لو أنه سمعك هل بإمكانه أن ينقذك ؟

(ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)

إذا كنت في خطرٍ محدق، الإنسان حينما يصاب بمرض، ويتوهمه عضالاً من يدعو ؟ هؤلاء الذين عصى الله من أجلهم إذا دعاهم هل ينقذونه ؟ لا شيء، ربنا عز وجل قال:

(ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)

كل الشركاء ضلوا عنكم، أو أنتم ضللتم عنهم ! ضلوا عنكم فلم تجدوهم، وضللتم عنهم فلم تعبؤوا بهم.

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ)

أيها الإخوة الأكارم، هذه الصورة ليست مختصة في البحر، الإنسان أحياناً يمرض ابنه، يقول له الطبيب: التهاب سحايا خطر، أي: الموت بالمئة ثمانون، وهذا خَطِر، يبدأ يصلي، ويغض بصره خلال أسبوع، ويتصدق، ويأمر امرأته بالصلاة، فإذا زال الخطر ! عاد إلى ما كان عليه من معصية !!

هذه أخلاق التجار، أخلاق الانتهازيين، أخلاق الذين يتعاملون مع الله عز وجل بالمنفعة فقط.

(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (67))

الإنسان يراقب نفسه، هل يختلف دعاؤه في أيام الشدة عن الرخاء ؟ إذا كان لك حال مع الله عز وجل في الشدة، حال الالتجاء والإقبال والاستقامة، وحال آخر خارج الشدة، من الاسترخاء، وعدم الالتفات، والاستغناء، والتفلت والانحراف، إذا كان هذا الحال موجوداً فصاحبه يحتاج إلى جهد كبير.

(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (67))

الإنسان الذي لم يتعرف إلى الله عز وجل، طبيعة الكفر ناتجة من إدباره، من إعراضه، من حجابه، من غفلته، الغفلة والإعراض والمعصية هذا كله يسبب كفراً في الإنسان.

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (67))

يعني: وكان الإنسان المنقطع عن الله عز وجل كفوراً، ربنا عز وجل يذكرنا:

(أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)

هذا الذي يجلس في بيته، ما الذي يمنع أن يصيب البيت زلزالٌ، فإذا هو أنقاض بعد ساعة ؟ هذه المدن الضخمة التي أصابها زلزالٌ في ثوانٍ معدودة أصبحت ركاماً، أصبحت أثراً بعد عين، أصبحت خبراً.

أحدث زلزال وقع في كولومبيا، مدينة سكانها خمسة وثلاثون ألفاً، ثار بركانٌ فأذاب الثلوج، وبعدها ذاقت هذه المدينة الحمم البركانية مع السيول التي أغرقتها، فكان الضحايا جميع سكان المدينة، فهؤلاء في مدينة، في بناء فخم، في بناء قوي محكم، جدران سميكة، ومع ذلك انهار البناء، الإنسان تحت رحمة الله عز وجل في كل لحظةٍ، وفي كل بقعة، انتبهوا، واحفظوا هاتين الكلمتين: الإنسان في كل لحظة وفي كل بقعة تحت رحمة الله عز وجل.

مهندس عرسه بعد أيام، صعد إلى بناء ليشرف عليه، مدّ رأسه من النافذة، عاملٌ على السطح تفلتت من يده قطعة كبيرة من الإسمنت فوقعت فوق رأسه فدقته دقاً، وهذا ضمن المدينة، ضمن عمله، المعنى: أن احتمال الموت المفاجئ سهل جداً.

أحياناً الإنسان تصدمه دراجة، فإذا هو ملقىً جثة هامدة، أحياناً لسبب تافه جداً، مثل رجل أراد أن يحرك جهازاً ثُبت على الحائط بشكل مرتفع، استعان بكرسي وهو في أوج نشاطه، وأوج قوته، وأوج غناه، صعد على هذا الكرسي، انزلق الكرسي، ووقع فوقه، جُرِحَ في مقعدته، أخذ إلى المستشفى، بعد خمسة عشر يوماً صار تحت أطباق الثرى، توفي ! لسبب تافه جداً.

سمعت عن قصة إنسان، بعوضةٌ لدغته فانتفخ جبينه، ما هي إلا ساعات معدودات، قيل: صار في دمه فساد واختلاط، ما هي إلا ساعات معدودات حتى صار من أهل القبور.

فالإنسان ليس شرطاً أن يكون خوفه من البحر أو من الجو، لكن الخوف يجب أن تخاف الله عز وجل في كل مكان، وفي كل زمان، في كل لحظة، وفي كل بقعة.

(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)

أحدهم يركب سيارته، يتنزه مع زوجته في جبل قاسيون، بعض البغال الشاردة اضطرب، فقفز إلى عرض الطريق فجاءت قدماه داخل السيارة، فقتلت السائق وزوجته، المعنى أنه من الممكن لسببٍ تافهٍ أن ينتهي أجلك.

اقرؤوا بعض الحوادث، هناك حوادث سير، هناك حوادث سيارات، هناك أسباب طفيفة جداً تنهي الإنسان ! فالإنسان المطمئن أبله ! كل إنسان مطمئن وهو يعصي الله أبله ! كل إنسان لا يبالي، يثق بقدراته الذاتية، يثق بماله، بصحته، بمكانته وعمره المديد، كأن يقول: أين أنا من الستين ؟ أنا مازلت صغيراً.

فكأن الستين حتمية، لكن الله عز وجل يقول:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99))

(سورة الحجر)

الموت هو اليقين، اليقين لن تأتيه، ولكن هو سيأتيك، ولا تدري متى سيأتيك اليقين، قد يأتي في سن الشباب، وقد يأتي في سن الكهولة، وقد يأتي من طريق غير متوقع.

(أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)

وأنتم في البر، وأنتم على اليابسة، وأنتم في بيوتكم المُشَيَّدَة، وأنتم في الأماكن الأشد تمكناً، وأنتم في مكان تطمئنون فيه.

(أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)

وكما قال الشاعر:

لا تأمن الموت في طرفٍ و لا نفس وإن تمنّعت بالحجاب والحرس

فما تزال سهام الموت نـــافذة في جنب مُدّرع منها و مُتّرس

أراك لست بوقافٍ و لا حذرٍ كالحا طب الخابط الأعواد في الغلس

ترجو النجاة و لم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليَبَس

***

(أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً)

الحاصب: رياحٌ عاتيةٌ محملةٌ بالحصى، هذا أشد من الغرق، ربنا عز وجل قال:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: 65)

(مِنْ فَوْقِكُمْ)

هذه البراكين.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

هذه الزلازل.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

فأن يذوق الإنسان بأس أخيه قد يكون عليه أشد من الزلزال، وأشد من البركان.

(ثُمّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68))

الإنسان أحياناً يوكل إنساناً ليتابع قضية، يوكل محامياً ليدافع عنه، يوكل طبيباً يعالجه، يوكل إنساناً يدير له أعماله، في ساعات الشدة،

(وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدّ لَهُ)

(سورة الرعد: 11)

ثم قال تعالى:

(ثُمّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68))

يتوكل في الدفاع عنكم أو في حفظكم، أو في إزاحة الخطر عن كاهلكم.

(ثُمّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68))

حسناً، الآن لدينا حال آخر:

(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى)

ركبت البحر، ورأيت الأهوال، وهبَّت عاصفة هوجاء كالجبال، وشهْدَت أنه لا إله إلا الله، وعاهدت الله ألاّ تركب البحر في حياتك كلها، الله عز وجل قادر أن يغريك بركوب البحر مرة ثانية ! يغريك بطريقة أو بأخرى، يقال لك: رحلة في الصيف إلى قبرص جميلة جداً، الأسعار مغرية، النفقات محدودة، الأماكن جميلة مثلاً، أنت تستجيب لهذا الإغراء، وتركب البحر مرة ثانية، الله عز وجل قادر أن يرغِّبَك بركوب البحر مرة ثانية.

(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ)

لا أدري من أتيح له أن يرى البحر، وهو في هيجانه ؟ أشد الناقلات، أشد السفن جبروتاً، الناقلات التي تحمل مليون طن، يوجد الآن ناقلات بترول وسفن تجارية حمولتها مليون طن، هذه السفن إذا هبت الرياح في البحر، وأصبح الموج كالجبال لا تزيد على أن تكون ريشةً في مهب الرياح، تنقلب هذه السفينة العملاقة إلى قارب نجاة صغير يتأرجح فوق الأمواج، بل تتلاعب به الأمواج.

(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ)

قبل أسابيع قرأت مقالة عن أعمال تجري لاستخراج سفن كانت قد غرقت في العصور السالفة ! فمثلاً سفينة غرقت عام ألف وثمانمئة محملة بخمسة أطنان من الذهب مثلاً ! الآن هناك شركات تجول المحيطات لتبحث عن السفن التي غرقت في العهود السابقة، وهي محملة بالثروات المعدنية ! فقلت: سبحان الله ! سفينة وركابها وثرواتها هي في قاع المحيط الآن ! هذه (التيتانيك)أشهر باخرة غرقت عام ألف وتسعمئة واثني عشر ! قيل في نشرة صُنعها: إن القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة ! صنعت في عصر العلم، وفي عصر الجبروت، والغطرسة والعنجهية والاعتزاز بالعلم، والاستخفاف بقيم الدين ! قيل: إن القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة، لذلك لم يصنع لها قوارب نجاة ! انسجاماً مع هذه المقولة، هذه السفينة صنع لها جداران، بحيث لو أصيب الجدار الخارجي بعطب أغلقت أبواب عرضية فحصرت هذا العطب ! هناك جدار آخر سميك جداً، فُرشت بأفخر الأثاث، صنع لها ثريات من أرقى الأنواع، في أول رحلة لها من بريطانيا إلى بوسطن ! تروي الكتب أن نخبة ممتازة من أثرياء أوروبة مع زوجاتهم قد ركبوا في هذه السفينة، قُدّر أن ثمن الحلي الذي تلبسه النساء يقدر بألوف الملايين، وفي

السفينة كل ما تشتهيه النفس، مدينة عارمة، فيها المسابح، فيها المطاعم، فيها المقاصف، فيها المتنزهات، فيها النوادي الليلية، كل شيء فيها ! كما قالوا: والقدر لا يستطيع إغراقها، ارتطمت بجبل ثلجي، فأرسلت إشارات استغاثة بكل ما تملك السفن التي حولها، ظنت هذه إشارات احتفالات فلم تنجدها! وكان على ظهرها ما يزيد على ثلاثة آلاف راكب ! عندئذٍ قال أحد القساوسة: إن غرق هذه السفينة (التيتانيك) هي درس من السماء إلى الأرض ! وقبل أشهر فيما علمت استخرجوها، ووصلوا إليها ! هذه قصة رائعة، كيف أن الله عز وجل لقّن هؤلاء المتغطرسين درساً لا ينسونه !

(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (69))

في شمال بريطانيا بنوا قاعدة استخراج نفط عائمة، مربع كبير كمدينة فيها كل شيء ! عائمة على سطح الماء، وقد قيل عنها وعن جبروتها وعظمتها وعن أنها من إنجاز البشر، قبل سنتين جاءت عاصفة فحطمتها ! في بحر الشمال، قاعدة لاستخراج النفط، هذا الذي يتحدى القدر يتحدى الإله، يقول: إن القدر لن يغرقها، عاصفة واحدة جعلتها أثراً بعد عين!

(فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ)

إذاً هنا الإغراق بما كفرتم، وكأن الإغراق جزاء موافق لهذا الكفر.

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (69))

التبيع: المسؤولية، إذا سبب إنسان لإنسان ضرراً يدّعي عليه بأنه مسؤول، يمكن لأيّ ضرر يحصل لإنسان من آخر أن يدّعي عليه، فإذا غرقت سفينة بفعل عاصفة هوجاء من هو المسؤول ؟ من الذي سوف نحمّله هذه المسؤولية ؟ من أين نأخذ تعويضات هذا الغرق ؟ قال تعالى:

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (69))

يقول لك: قضاء وقدر، يُطوى الملف إنسان ويختم بقولهم: والحادث وقع قضاءً وقدراً ! لا يوجد أي مسؤولية، لا أحد مسؤول، فربنا عز وجل قال:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11))

(سورة الرعد)

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

الإنسان مكرّم، هذه الآية لا تكفيها المجلدات، كرّمه بالعقل، كرّمه بأن وضع فيه استعدادات لعمارة الأرض ! سكن البيوت، ارتدى أفخر الثياب، ركب الطائرات، ركب السفن، غاص في أعماق البحار، وصل إلى القمر، اخترع الأجهزة والآلات، نقل الصوت، نقل الصورة، أعطاه فكراً هو أفضل ما في الكون، فالتكريم أودع فيه استعدادات عجيبة ! الحيوانات كلها هي على ما كانت عليه، هل رأيتم أن

صنفاً من الحيوان تطوّر ؟ سكن بيوتاً، عمل نظاماً خاصاً وحده، اخترع آلة ما ؟ الحيوان هوَ هو، أما الإنسان فمكرّم، أعطاه الله فكراً، فالتكريم بهذا العقل، والتكريم بهذا الكون.

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

(سورة الجاثية: 13)

التكريم بالتسخير، والتكريم بالعقل، والتكريم بهذا الشكل، لم يجعلنا نمشي على أربع، ونأكل بفمنا مباشرة، لم يجعلنا ننام في الطريق، بل أعطانا القدرة على أن ننشئ بيوتاً ! نظام الزوجية هو تكريم، الأولاد تكريم، أنواع النباتات تكريم، هذه الأزهار كم تقدّرون عدد نباتات الزينة فقط ؟ لا تعد ولا تحصى، فهي بالآلاف ! هناك كتاب في ثمانية عشر مجلداً، كل صفحة نوع من الزهر ! كل زهرة طباعها، وعاداتها، وكيف يعتنى بها، فيا ترى هذه الأزهار للأكل ؟ لا، للنظر ! أليس هذا تكريماً ؟ إذا دعيت إلى وليمة، ووضع على الماء باقة ورد، هل تظن أن هذه للأكل ؟ هذه للتكريم فقط، من أجل أن تستمتع بمنظرها، إذاً صاحب الدعوة كرّمك بهذه الباقة من الورد، إنها ليست طعاماً، فهي مجرد التكريم، فربنا عز وجل كرّم الإنسان كرّمه بالعقل، كرمه بحرية الاختيار، كرّمه بالإرادة، وبهذا الكون، كرّمه بأسرته، وجعل له من أنفسه زوجة يسكن إليها.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

حملناهم في البر، فالإنسان صنع سفينة، صنع طائرة، ركب مركبة، ركب فرساً مثلاً، خلقت له خصّيصى.

(وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ)

جعلك تأكل الفاكهة، وتلقي قشرها إلى الحيوان ! تأكل البطيخ، والقشر للحيوان، كل فاكهة لبّها لك يا صاحب اللب، وقشرها للحيوان، أليس في هذا تكريماً ؟

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

أنت مكرّم، ما قولك: إن كل شيء في الكون يسبح بحمده ! وهذا الذي كرّمه الله على بقية المخلوقات غافل عن ذكر الله ؟ !

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71))

الحياة، قال تعالى:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))

(سورة الليل)

هذا الذي دعا الناس إلى أكل الربا، الناس الذين أكلوا الربا يدعون، والذي دعاهم إلى الربا!

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)

آكلو الربا يُدْعَوُنَ زمرة ! والسارقون، وشاربو الخمر، والذين اعتقدوا أن الآخرة باطل، والذين أنكروا وجود الله عز وجل، والذين انغمسوا في الملذات الرخيصة، والذين عرفوا الله عز وجل، والذين عمروا المساجد، والذين أقاموا الصلاة، والذين حفظوا القرآن، كل فئة، كل فرقة، كل شيعة، كل اتجاه، كل نمط، كل أصحاب معصية، كل السباقين في طاعة، كلٌ يأتون زمرة زمرةً.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً)

(سورة الزمر: 71)

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً)

(سورة الزمر: 73)

هؤلاء زمر، وهؤلاء زمر،

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)

هذا الذي أمّوا له، أو أمّهم، أو كان قدوة لهم، أو دفعهم، أو أغراهم، أو زيّن لهم، أو حثّهم، أو حضّهم.

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ)

أي كتاب أعماله بيمينه.

(فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71))

عندما يأخذ الطالب جلاءه، وكله امتياز يقرؤه آلاف المرات ! كل ربع ساعة يتأمل ممتاز، جيد جداً جيد، نجح إلى الصف الثامن، هادئ، نظيف مثلاً، صدوق، أخلاقه رفيعة... هذه الكلمات الطيّبة، وهذه المآثر، وهذه الامتيازات، وهذا الثناء، وهذه الاستحسان... هذه كلها سوف تُسَجَّل في صحيفته، فها هو ذا يقرؤها بفرح وسرور.

(فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72))

من كان في الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى أيضاً، ربنا عز وجل قال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى(126))

(سورة طه)

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72))

فالعمى عمى القلب الذي يصيب الإنسان في الدنيا يستمر معه إلى الآخرة !

شيء خطير أن هذا المرض العضال ملازم لصاحبه إلى الأبد،

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72))

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73))

الكفار أحياناً يساومون أهل الإيمان، يطلبون منهم التخلي عن بعض مبادئهم، أن يعدّلوا مبادئهم تعديلاً خفيفاً، لو أن أهل الإيمان قبلوا هذه المساومة، وقبلوا أن يعدِّلوا بعض مبادئهم، أو أن يتساهلوا قليلاً لانتهوا ! هذا الدين ليس فيه حل وسط، إما أن تأخذه كله، وإما أن تدعه كله.

أقرب مثل لذلك: لو أن بالوناً منفوخاً نفخاً شديداً فقلت: أنا سأثقبه ثقباً طفيفاً كي أخفف حجمه قليلاً، ما الذي يحصل ؟ سوف يتلاشى كلياً !

هذه الصخرة المكينة في قمة الجبل قد تقول: أنا سأزحزحها لأجعلها في منتصف المنحدر، إذا زحزحتها عن مكانها، واندفعت في المنحدر فلا بد من أن تصل إلى أعمق القاع ! بحكم طبيعة الحياة، بحكم أن كل خطوة تقود إلى أخرى، وكل تساهل يقود إلى تساهل أكبر، وكل تفريط يقود إلى تفريط أشد، وكل خطأ يقود إلى خطأ أكبر، وكل انحراف يقود إلى انحراف أكبر، الزاوية حينما نحرفها درجة واحدة هنا المسافة ميليمتر، لو مددنا خطّين هذا الميليمتر يصبح كيلو متر، كلما مددت الخطّين اتسع الانحراف، لذلك في موضوع الدين لا يوجد حل وسط، تتساهل بمعصية تحجب عن الله عز وجل، لو أنك سايرت صديقاً لك من أهل الدنيا، وعصيت الله في واحدة، هذه الواحدة لا بد من أن تقود إلى ثانية، وثالثة، ورابعة، ثم ينتهي بك المطاف إلى أنك ترى أن الدين شيء لا يتناسب مع هذا العصر ! تترك الصلاة، دعاك إلى سهرة مختلطة انتهى بك الأمر إلى إنكار الدين كله ! لذلك:

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

(سورة القلم)

لو أن رجلاً له صديق أو قريب لا يقبل المساومة، أخي، اذهب معنا إلى السهرة، ونحن إن شاء الله يوم الجمعة نأتي معك إلى المسجد ! لا، لا تأتوا معي، ولا آتي معكم ! هكذا يقولون: أنت سايرنا بواحدة، سهرة بريئة، ليس فيها شيء، الإنسان يطّلع، حديث: تعلم السحر ولا تعمل به ! من قال لك هذا الكلام ؟ يُغْرُونك أن تتزحزح عن مواقعك قيد أنملة، فإذا تزحزحت فلا بد من أن تصل إلى الهاوية، فربنا هكذا قال:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

يعني يغرونك أن تنحرف قليلاً، أن تسكت عن بعض الأفكار، أن تكف عن أن تعيب آلهتهم.

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73))

طبعاً عندما يقبل الإنسان أن يتزحزح عن مكانته وعن بادئه، وعن عقيدته، وعن قيمه، يتخذونه خليلاً، شيء طبيعي، لكن من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

عَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

(أحمد في مسنده)

(وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74))

هذه هي العصمة، كِدْتَ تركن، أي لن تركن، فِعْلُ **(كاد)**من أعذب الأفعال، إذا ذكرته مثبتاً فمعناه النفي، وإذا نفيته فمعناه الإثبات ! مثلاً: كدت أقع، هل وقعت ؟ إذا قلت: كدت أقع، فيعني لن أقع، وإذا قلت: ما كدت أقع حتى قمت، معنى ذلك أني وقعت، فإذا نفي هذا الفعل فهو مثبت، وإذا أثبت فهو منفي.

(لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74))

إذاً يا لطيف هذا القدوة إذا اخطأ له حساب مضاعف، سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته وقال:**" إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأيتكم وقعتم وقعوا، وايم الله لا أوتين بواحد فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني ".**

(إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (75))

أي: عذاباً مضاعفاً في الدنيا، وضعف الممات أي: عذاباً مضاعفاً في الآخرة، هذا القدوة، الأب إذا أخطأ له عذاب مضاعف ! المعلم الذي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، الذي يتصدر توجيه الناس إذا أخطأ فله عذاب ضعف في الدنيا، وعذاب ضعف في الآخرة، كيف لا ؟ والنبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو فعل ذلك لا ستحق هذا العذاب ! إذاً لأذقناك يا محمد ضعف الحياة، وضعف الممات، عذاب مضاعف، هذا عذاب القدوة مضاعف، وثواب القدوة مضاعف !

(ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (77))

لو أن الله عز وجل زوّد النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعجزات رآها قومه، وكفروا بها استحقوا الهلاك، كما قلنا هذا في درس سابق، لذلك إذا كان الإنسان قدوة فليتق الله، لأن أكثر خطأ يأتي للناس أنهم يرون إنساناً له زي ديني، ويعصي الله ! يقتدون به، هل أنت أفهم من فلان ؟ أشد ورعاً منه ؟ هو يفعل هذا ! هذا الجاهل، أما الذكي فيقول: كله خلط،له موقفان، موقف معلن، موقف حقيقي، يتخذ الدين تجارة، يتخذه مطية لمآربه، فهذا الذي يعصي الله أو يتساهل، أو يتزحزح عن مواقعه المتينة من أجل الدنيا هذا له عذاب ضعف في الدنيا، وضعف في الآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (10-13): تفسير الآيات 78 – 81
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-09-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (79))

هذه الآيات وقف المفسرون من تفسيرها مواقف متباينة.

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)

دلوك الشمس زوالها عن كبد السماء.

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)

وكما هو معلوم لديكم أن دخول الوقت شرط من شروط الصلاة، فالصلاة لا تصح إلا إذا دخل الوقت، ولا تصح صلاة الظهر إلا إذا زالت الشمس عن كبد السماء، فـ:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ)

هذه اللام توقيفية، أي حين دلوك الشمس،

(إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)

وغسق الليل هو ظلمة الليل، لذلك بعض الفقهاء قالوا في هذه الآية: جمعت فيها الصلوات الخمس، فصلاة الظهر والعصر لدلوك الشمس، تبدآن بعد زوال الشمس عن كبد السماء، وصلاة المغرب والعشاء تنطويان تحت قوله تعالى:

(إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

أي: صلاة الصبح، وسميت الصلاة في مواضع أخرى ركوعاً، وسميت سجوداً، وسميت في هذه الآية قرآناً، وهذا في البلاغة وارد أن نسمي الشيء ببعض أجزائه المهمة، فقراءة القرآن في الصلاة ركن من أركانها، فعلى هذا التفسير دخلت الصلوات الخمس في هذه الآية:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ)

صلاة الظهر والعصر،

(إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)

صلاة المغرب والعشاء،

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

صلاة الصبح.

(إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78))

الحقيقة، وهناك تفسير آخر، أن الله عز وجل وضح أوقات الصلاة في آيات أخرى، والنبي عليه الصلاة والسلام بيّن هذه الأوقات بدقة بالغة، وبيّن ركعاتها، وركوعها، وسجودها، وشروطها، بالسّنة الفعلية والقولية، لأنكم كما تعلمون السنة هي كل قول أو فعل أو إقرار.

((... صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي))

(متفق عليه عن مالك بن الحويرث)

عَنْ جَابِرٍ يَقُولُ:

((رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ يَقُولُ لَنَا: خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ...))

(أحمد)

فالسنة أنواع ثلاثة: نوع منها قولي، ونوع منها فعلي عملي، ونوع منها إقراري، فالصحابي الجليل إذا فعل شيئاً بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام، وبقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صامتاً فهذا من السّنة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لا يسكت على خطأ، لماذا ؟ لأنه مشرّع، لو أنه سكت على خطأ لعدّ هذا الخطأ شرعاً، ولسمح باتباعه، وهذا في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستحيل، لذلك إقراره أو أفعاله أو أقواله، فالصلوات الخمس بأوقاتها وأركانها، وشروطها وسننها، وكل تفصيلاتها وردت فيها سنّة فعلية وقولية، بينما هذه الآية تأمرنا بمطلق الصلاة، بمعنى الصلاة فرض قطعي الثبوت بحسب هذه الآية:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

ومن فهم من هذه الآية أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بالصلاة فأمته مأمورة أيضاً بالتبعيّة، فالله سبحانه وتعالى قد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.

ويبدو أن الصلاة شطر الدين، إذا صحّ أن نضغط الدين إلى شطرين أو إلى ركنين، أو إلى شيئين أساسيين، هما الصلاة والإحسان إلى الخلق ! الاتصال بالحق، والإحسان إلى الخلق.

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (31))

(سورة مريم)

الصلاة صلة بالله عز وجل، لكن حينما تؤدى الصلاة أداءً شكليا، فحينما يسبق الصلاة تقصير أو حَيد عن الشرع، أو مخالفة لأوامر الله، أو عدوان على الآخرين، فإن العدوان والمعصية والمخالفة والتقصير، هذا كله يشكل حُجُباً كثيفة في أثناء الصلاة، لذلك أكثر الذين لا يستقيمون على أمر الله يملّون

من الصلاة ! يجدونها عبئاً ثقيلاً، لسان حالهم يقول: أرحنا بها ! على عكس ما كان عليه الصلاة والسلام، فعَنْ سَالِمِ بْنِ أبِي الْجَعْدِ قَالَ: **" قَالَ رَجُلٌ قَالَ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:**

((يَا بِلالُ، أَقِمِ الصَّلاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

(سنن أبي داود)

ربنا عز وجل يقول:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

أقم، ولم يقل: صلّ، ما الفرق بين أن يقول الله عز وجل: صلّ، وبين أن يقول: أقم الصلاة ؟ الصلاة تحتاج إلى استقامة، شروط كثيرة لا بد من توافرها حتى تستطيع أن تصلي، قد نقول لطالب: أدِّ الامتحان، أيّ امتحان هذا ؟ إن دخول قاعة الامتحان أمر سهل، والإمساك بالقلم أمر سهل، ولكن أن تنجح أمر صعب، كلمة أدِّ الامتحان معنى ذلك أنك أمضيت عاماً بأكمله تدرس، فربنا عز وجل حينما يقول:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

يعني هل هيأت نفسك قبل الصلاة للصلاة ؟ هل أنت مستعد للصلاة ؟ هل بإمكانك أن تقف بين يدي الله عز وجل دون أن يحجبك الخجل ؟ دون أن يحجبك حاجب ؟ أقم الصلاة من معاني هذه الآية أن فكِّر بآيات الله حتى تعرفه، وإذا عرفته عندئذٍ تخشاه، وإذا خشيته تستقيم على أمره، وإذا استقمت على أمره تستطيع أن تقف بين يديه، وتحس عندئذٍ أن الصلاة شيء ثمين جداً.

خطر ببالي مثل يوضح الصلاة الجوفاء، والصلاة الصحيحة، لو دعيت إلى طعام، وجلست على مائدة وضع أمامك صحن وملعقة وكؤوس وأوانٍ ومنديل، وكل شيء وضع بالتمام والكمال إلا الطعام، لو دعيت إلى هذه الولائم مراراً، وتكراراً تملّ من هذه الدعوة، ومن حضور هذه المائدة، لا طعام عليها، الصحون موجودة، كل شيء على الطاولة صحيح إلا الطعام، لكنك إذا دعيت إلى طعام نفيس، وجاءت الدعوة ثانية، إنك تلبي بشوق وباهتمام، وبسرور، وتشعر بأن الذي دعاك قد امتن عليك ! شتان بين أن تصلي صلاة صحيحة فتخرج من الصلاة، وقد قبضت شيئاً ثميناً، الصلاة ميزان، فمن وفّى استوفى، وبين أن تصلي صلاة جوفاء سريعاً ما تملها، وتعرض عنها، لذلك جاء وصف المنافقين أنهم:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142))

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ)

هناك تفسيرات تقول: لدلوك الشمس إلى غياب الشمس..

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

ربنا سبحانه وتعالى في سورة المزمل يقول:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً(6))

(سورة المزمل)

ركعتان في جوف الليل خير من الدنيا وما فيها، لأن طبيعة الإنسان في الليل طبيعة صافية ! لا مشاغل، لا مواعيد، لا أولاد، لا متاعب لا ضجيج، فكل هذه العوائق والعلائق في صلاة الليل مختفية، ويبدو أن الإنسان إذا قام من نومه تكون نفسه أصفى ممّا لو ذهب إلى الصلاة من عمله ! لأن طبيعة العمل فيها متاعب، وفيها مشاحنة، فيها مشكلات، هذه المتاعب تسير معك إلى المسجد، لكن صلاة الليل تمتاز عن غيرها بأن الاتصال فيها محكم، وأن إقبال العبد على ربه مؤكد، وأن تلقّي التجلي محكم، لذلك قال الله عز وجل في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

(صحيح مسلم)

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78))

الفقهاء أشاروا إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقرأ في صلاة الفجر ما يزيد على أربعين أو إلى ستين آية في كل ركعة ! هذا العدد لأنك أنت مرتاح، مستيقظ من النوم، قد أخذت قسطاً من الراحة، وأنت نشيط، وصلاة الفجر ركعتان، وجاء في بعض الأحاديث

((أن يا عبدي لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفك النهار كله !))

أنت طول النهار في حفظ الله ورعايته وتوفيقه، والله يدافع عنك، ويحميك من كل ورطة، ومن كل مشكلة، إذاً:

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

معظم العلماء على أن قرآن الفجر أي: صلاة الفجر، وربما سميت قرآن الفجر لأن قراءة القرآن يجب أن تغلب عليها ! فكأن الله عز وجل ينتظر من الذي يصلي الفجر أن يطيل في القراءة، لأنه أدعى إلى الخشوع، وأدعى إلى التعلم، وقد يتعلم الإنسان بعض ما في كتاب الله وهو يصلي ! وبعضهم قال: قرآن الفجر: هو القرآن الذي يتلى قبل صلاة الفجر، أو بعد صلاة الفجر، هذا القرآن جزء من العبادة، فمن أراد أن يتعرف إلى ما في القرآن فليلزم نفسه أن يقرأه كل يوم، لو أنه قرأه كل يوم جزءاً، أو نصف جزء، أو ربع جزء، أو عدة صفحات فإن هذا مع الاستمرار يجعله على صلة بكتاب الله، صلة مستمرة.

(إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78))

أي: مشهوداً من قِبَل الملائكة، والملائكة يشهدون لك يوم القيامة أنك قمت من الليل، وقرأت القرآن، وصليت بالقرآن، وتهجدت بالقرآن.

(وَمِنَ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)

التهجد ترك الهجود، والهجود النوم، وهذه الصيغة صيغة سلبية، تقول: تأثمت أي: تركت هذا الشيء مخافة الإثم، تقول: تحرجت أي: تركت هذا الشيء مخافة الحرج، تهجدت أي: تركت النوم، فالتهجد أن تدع النوم لتصلي ! ومنها صلاة التهجد، وهي صلاة فيها استيقاظ بعد أن تأخذ قسط من النوم، فلو قال لصلاة التهجد تلك التي يصليها الإنسان قبل أن ينام، لا، هذه الصلاة التي يصليها بعد أن ينام، ينام ويستيقظ قبل صلاة الفجر، هذه صلاة التهجد.

(وَمِنَ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)

هذه صلاة النافلة.

الحقيقة، لا تعصه في النهار يوقظك في الليل..

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبأني بأن العلم نـــور ونور الله لا يؤتاه عــاص

***

إذا ألزمت نفسك في النهار على طاعته، واتباع سنّة النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وغض البصر، والتحرج من كلمة الإثم، من الغيبة، من النميمة، من الفحش، من البهتان، من الإفك، من كل إيذاء، من كل انحراف، من كل معصية، أغلب الظن أنك تستيقظ من دون منبه، وتستيقظ لتمضي أجمل ساعات العمر في مصلاك ! هؤلاء الذين عرفوا الله، وأحبوه ما ذاقوا طعماً أطيب من طعم القرب ! هؤلاء الذين استيقظوا من الليل، وتهجدوا لا شيء في الدنيا يعدل هذا التهجد.

(وَمِنَ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (79))

بعض المفسرين قال: هذا الأمر خاص بالنبي عليه الصلاة والسلام، لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمُزّمّلُ (1) قُمِ اللّيْلَ إِلّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4))

(سورة المزمل)

في آخر السورة:

(إِنّ رَبّكَ يَعْلَمُ أَنّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الّذِينَ مَعَكَ)

(سورة المزمل: 20)

فالعلماء بين أن تكون هذه الآيات خاصة بالنبي عليه الصلاة والسلام، وبين أن تكون عامة، على كلِّ من أراد أن يذوق طعم القرب فليصلّ صلاة الليل، صلاة الليل تحتاج إلى طاعة تامة في النهار، تحتاج إلى عمل صالح، تحتاج إلى بذل وعطاء، إلى تضحية وإيثار، عندئذٍ ترى أمتع شيء أن تقف على قدميك، وتقرأ القرآن في الليل، وتناجي ربك.

إن سيدنا عمر وفد إليه رسول من أذربيجان، هذا الرسول وصل المدينة في منتصف الليل، فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين، فتوجّه إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي المسجد يبدو أن الظلام كان دامساً، وفي المسجد سمع صوت أنين وشوق إلى الله عز وجل، سمع صاحب هذا الصوت يقول: **يا رب، أنا واقف ببابك، مستمسك بحبالك، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟** فقال هذا الرسول: من أنت يرحمك الله ؟ قال: أنا عمر بن الخطاب ! كره أن يطرق بابه ليلاً فإذا هو في المسجد، قال: يا أمير المؤمنين، ألا تنام الليل ؟ قال: **إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، لذلك قالوا: من أمضى عمره بالنوم أتى يوم القيامة مفلساً ! إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي**، ويمكثان حتى يؤذن الفجر، ويصليان الفجر، ويأخذ عمر ضيفه إلى البيت، وفي البيت يقول للسيدة أم كلثوم: هذه كوكب إسلام، يقول: يا بنت رسول الله، ماذا عندك من طعام ؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين ما عندنا إلا خبز وملح ! يقدم عمر إلى ضيفه هذا الطعام الخشن، ويأكلانه، ويحمدان الله عز وجل على هذه النعمة، ويقول عمر لضيفه: ما الذي أقدمك إلينا ؟ يقول: معي هدية من عاملك على أذربيجان، علبة فيها بعض الحلوى، قال سيدنا عمر: أو يأكل عندكم عامة الناس من هذا الطعام ؟ قال: لا، هذا طعام الخاصة، الطبقة الغنية، قال: أو أعطيت فقراء المدينة مثلما أعطيتني ؟ قال: لا، هذه لك وحدك.

ما كان من عمر إلا أن أمر الرسول أن يبلّغ الأمير هناك أن يأكل مما يأكل منه عامة المسلمين ! وأمره أن لا يعود إلى ذلك أبدا، وأمر الرسول أن يذهب بهذه الحلوى ليوزعها على فقراء المسلمين في مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال قولته الشهيرة: **" حرام على بطن عمر أن يذوق حلوى لا يطعمها فقراء المسلمين ".**

طبعاً هذا الورع من صلاة الليل، في سورة المزمل:

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7))

(سورة المزمل)

إذا شحنت نفسك في الليل فاضت الأنوار في النهار، فاض العلم في النهار، فاض العمل الصالح، فاض الورع، فاض القول السديد، فاض الفكر الثاقب، المواقف الأخلاقية، والتفكير السليم، واتخاذ القرار

الصحيح، والرؤية الصحيحة، هذا كله من أفضال صلاة الليل ! لا تستخف بصلاة الليل، إنها مدرسة، مدرسة بكل ما في هذه الكلمة من معنى مدرسة، خرجت الصدّيقين، خرجت كبار المؤمنين، خرّجت العارفين بالله، أحد كبار العلماء العارفين رآه تلميذه في المنام قال يا سيدي: ما فعل الله بك ؟ قال: طاحت تلك الإشارات، وذهبت تلك العبارات، ولم يبقَ إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل !

فاحفظ سورة يس، واقرأها بقيام الليل في ثماني ركعات، عند كل كلمة مبين تركع، فيها ثمانية مبينات، احفظ يس فهي قلب القرآن، واقرأها في جوف الليل.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (79))

والمقام المحمود: إما أن يكون خاصاً بالنبي عليه الصلاة والسلام، كما في حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ))

(مسلم)

هذا المقام المحمود.

وبعضهم قال: المقام المحمود هو الشفاعة العظمى، وعلى كلٍ المقام المحمود هو أعلى مرتبة نالها البشر، وهو لسيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام.

وإذا أردنا أن نوسع الآية لتشمل المؤمنين، أنت بصلاة الليل وبتهجدك تنال عند الله مقاماً محموداً، كقوله تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر)

وشتان بين من يحتل عند الله مقاماً محموداً، وبين من يحتل عند البشر مقاماً محموداً.

اجعل لربك كل عز ك يستـقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يم ـوت فإن عزك ميت

***

وكلمة (محمود)هذا اسم مفعول، أي: إن صاحب هذا المقام ما وصله إلا لأنه محمود السيرة عند الخلق، وعند الحق، وعند نفسه، وهذا مقام النبي عليه الصلاة والسلام.

قد تحمد عند إنسان، وتذم عند إنسان آخر، قد تحمد عند نفسك، وتذم من قِبل الآخرين، قد يحمدك الناس، وليس لك عند الله مقام محمود، ولكن أن تجمع بين أن تكون محموداً عند الخلق وعند الحق، وعند نفسك فهذا من أعمال الأبطال، والنبي عليه الصلاة والسلام كان بطل الأبطال !

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ)

قبل أن نفسر هذه الآية أريد أن أبين علاقة هذه الآية بالآيات التي قبلها:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74) إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (77))

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

ما علاقة هذه الآيات بهذه الآية ؟

قال بعض المفسرين: أي: إن الإنسان كلما واجه كيداً، أو واجه صعوبةً، أو لاح له شبح مصيبة، أو اغتمَّ قلبه أو تضعضعت نفسه...

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ)

وهذه وصفة ربانية، كلما هالكَ أمر فارجُهُ، كلما عرض لك خطر ثق به، كلما قال لك الطبيب كذا وكذا مما يضيق لك القلب ثق به، كلما أصبحت الحاجات نادرة وعسيرة المنال ثق به، كلما نالك أمر ثق به. لذلك:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

تأتي هذه الآية وصفة ربانية لكل إنسان أصابه هم وحزن، ربنا عز وجل في بعض الآيات يقول:

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ)

(سورة الأنعام: 33)

أحياناً ربنا عز وجل يصف حالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما يرى الطرق مسدودة، والصد عن سبيل الله قوياً، حينما يرى المعارضة تشتد، وهناك من يكيد له من كل جانب، حينما يتخلى عنه الأصدقاء، ويضعف أمامه الأصحاب، وحينما تقوى شوكة العدو، عندئذٍ:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)

هذه وصفة ربانية، حياة الإنسان محفوفة بالمخاطر، فكلما لاح له شبح خطر فليفزع إلى الصلاة، والله سبحانه وتعالى كفيل أن يريه ما في الصلاة من خير كبير.

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً(80))

هذه الآية مهمة جداً، الإنسان أحياناً يتزوج، وينوي بهذا الزواج أن يرضي الله عز وجل، دخل في الزواج مدخل صدق، فإذا وهو متزوج، تغريه زوجته أن يفعل كذا وكذا، وأن يدع كذا وكذا، وأن يكسب هذا المال الحرام، وأن يشتري لها كذا وكذا، وأن يرافقها إلى نزهة في مكان مختلط، وأن يذهب بها إلى بلاد بعيدة، بلاد الكفر والفسق والفجور، دخل في الزواج مدخل صدق، فخرج منه مع الكاذبين المنافقين، فالآية الكريمة:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً(80))

قد يشارك الإنسان إنساناً يراه لطيفاً ذكياً مليئاً، يرى في هذه الشركة كل الخير، يدخل فيها مدخل صدق، فإذا بهذا الشريك له من المعاصي والمخالفات ما حمله على أن يفعل مثله ! إذا به يدخله في متاهات، يضع أمواله بالفائدة، يتاجر بما هو محرم، يغريه بالربح الكثير، خجل وسكت، دخل مدخل صدق، وخرج مخرج كذب، وفجور وفسق ونفاق، فالأمور بخواتمها، البطولة أن تنتهي الحياة وقد خرجت منها مخرج صدق، من السهل جداً أن تدخل مدخل صدق، ولكن البطولة أن تخرج منها مخرج صدق، لذلك أحد أصحاب رسول الله سأل سيدنا عمرو بن العاص: يا عمر ما بلغ من دهائك ؟ قال: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، فقال: يا عمرو لست بداهية، أما أنا فوالله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه، فالبطولة أن تدخل مدخل صدق في كل شيء، في الوظيفة، في الزواج، في التجارة، في الشركة، في هذه السفرة، النية مشروعة، خرجت من بلدك، وسافرت إلى هذا المكان بنية أن تحِّصل شيئاً مباحاً، فإذا بالقدم قد تزلّ، وتقع في أكبر المعاصي ! فلذلك يكون الدعاء في كل حركة في السفر في الدخول إلى عند بعض الأشخاص في أي موقف يوجد مزالق وأخطار، هناك احتمال أن يقع الإنسان في المعصية، في أي مكان يمكن أن تزل القدم ادعُ بهذا الدعاء:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً(80))

الإنسان يواجه مزالق كثيرة جداً في الحياة، إذا كان معتصماً بالله، مستمسكاً بحبل الله، ذاكراً لله، فأغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى يحفظه من كل مكروه !

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ)

أيّ صدق معك، صدق في النيّة، وصدق في الفعل، وصدق في الاستقامة، وصدق في البذل، المدخل صدق، وهذه الكلمة جامعة مانعة، أنت مع الله صادق في أحوالك، وفي أفعالك، وفي وجهتك، وفي نياتك، وفي حركاتك، وفي سكناتك.

(وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

كن معي يا رب في هذا المكان، وفي هذا السفر، وفي هذا اللقاء، وفي هذه المقابلة، كن معي حتى لا تزل قدمي من أجل أن أخرج منها مخرج صدق.

(وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً(80))

أي: ألهمني حجتي، ألهمني أن اقف موقفاً صلباً، ألهمني ألاّ أقع تحت إغراء المال، وألاّ أقع تحت ضغط الآخرين، الإنسان بين الضغوط والإغراءات، الضغط مزلة قدم، والإغراء مزلة قدم، والإنسان واقع بينهما.

(وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً(80))

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلتالأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه،

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر سمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك ؟

***

كيف ما شاء فتكن في يده لك إن فرق أو إن جمع

***

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

و لذ بحمانا واحتمِ بجنــابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً(80))

أحياناً الإنسان يدخل إلى بيته يدخل مدخل صدق، يحمل أغراضه ويدخل، ينشب خلاف فتسمعه زوجته كلمة قاسية، يرد عليها بكلمة أقسى، تقسو هي عليه إلى أن يحلف عليها بالطلاق يميناً، ويطردها من البيت، وعنده أولاد خمسة، هذا دخل مدخل صدق، لكنه لم يخرج من البيت مخرج صدق، فإذا دخل الإنسان بيته فعليه أن يسمي، ففي الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

(مسلم)

وهذه تصلح لركوب السيارة أيضاً، يركب أحدهم سيارته يا ترى هل هناك إنسان نائم يأتي أمامه ؟ قد يقع حادث مروّع، قد يفقد الإنسان أحد أعضائه، والخطأ ليس خطأه.

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

الحق هو الشيء الثابت المستمر، والباطل الشيء الطارئ غير المستمر، فالحائط الذي بني على غير الشاقول الحائط المائل لا بد من أن يقع، ويكون هذا الحائط باطلاً، أما الحائط الذي بني على الشاقول بني بالحق، أي: سوف يبقى، فالحق هو الشيء الثابت الهادف، والدليل أن الله عز وجل في آيتين من آيات كتاب الله وضح فيهما معنى الحق، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

(سورة ص: 27)

الباطل هو الشيء الزائف، فالحق الشيء الثابت، وفي هناك آية ثانية:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16))

(سورة الأنبياء)

واللعب هو العمل الذي لا جدوى منه، فالحق إذاً خلاف اللعب، العمل الهادف، فتعريف الحق من خلال هاتين الآيتين هو الشيء الثابت الهادف، الباطل الشيء غير الثابت غير الهادف، لا جدوى منه ولا يثبت.

بعضهم قال: الباطل وجوده ليس ذاتياً، هناك أسباب خارجية تجعله يقف، فإذا زالت هذه الأسباب وقع ! أما الحق فوجوده ذاتي، كإنسان ضعيف الإمكانات قد نضعه في مكان رفيع، ولكن الذي وضعه دعمه، فهذا وجوده بالباطل، لكن لو أن الإنسان أهل لهذا المكان وعنده من العلم، والخبرة، والحكمة ما يجعله في مستوى هذا المكان نقول: هذا الإنسان مكانه بالحق، هذا الإنسان الذي وضعه في هذا المكان لو تخلى عنه فإن وجوده قائم ثابت ! فمن معاني الحق أن يكون الشيء ثابتاً وهادفاً، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

بعضهم يقول: الإنسان مندوب له أن يقرأ هذه الآية حينما يزهق الباطل، مثلاً لو تمكن من إزالة منكر في البيت فليتلُ هذه الآية:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

لو أنه تمكن من فك شركة مع شريك مبطل يعمل بالربا، ويبيع المواد المحرمة، لو أنه فعل ذلك، ووقع عقد المخالصة يقول في نفسه:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

النبي الكريم حينما أمر أن تكسر أصنام الكعبة التي حولها تلا هذه الآية:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

فالباطل الشيء المتداعي الذي لا يملك أن يقف على قدميه وحده، الشيء الذي سيزول، والشيء الذي لا يستمر، الشيء الطارئ العارض غير الهادف، ليس هناك هدف عظيم من الباطل، الحق هو الشيء الثابت الهادف، فقالوا: للباطل جولة ثم يضمحل، والأمور لا تستقر إلا على الحق أبداً، وكل أمر مستقر فهو على الحق.

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

هذه الصيغة صيغة الترابط الوجودي، الرابط الوجودي أن تقول: إن الطائرة تطير، فلو ألغي الطيران ألغيت الطائرة، فالترابط بين الطائرة وبين طيرانها ترابط وجودي، حيثما طارت فهي طائرة، فإن لم تطر لا تبقى طائرة ! إذاً:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

وكلمة (زهوقا)على وزن فعول، لم يقل: زاهقاً، اسم فاعل، هذه صيغة مبالغة لاسم الفاعل، يعني لابد من أن تزول الفكرة الباطلة، المعتقد الباطل لا بد من أن يزول، الشخص المبطل لا بد من أن يضمحل، أفكار، معتقدات، أعمال، انحرافات، أيّ شيء يوثق بأنه باطل لا بد من أن يزول، ولا يستقر الأمر إلا على الحق، فلذلك الباطل زاهق، إن عاجلاً أو آجلاً، والحق مستقر، والدليل حينما ينادي المنادي يوم القيامة:

(فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ)

(سورة الأعراف: 44)

هذا هو الحق ! أين دعوى الداعين ؟ أين دعوى الكاذبين ؟ أين تخرصات الكافرين ؟ كلها تلاشت.

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52))

(سورة يس)

فمن وقف مع المبطلين ـ إذا كان بشكل أو بآخر ـ فقد غامر، وقامر بسعادته، فلذلك:

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

أما إذا كنت مع الحق فالعاقبة لك:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر: 54 – 55)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ فَلِلّهِ الْعِزّةُ جَمِيعاً)

(سورة فاطر: 10)

إذا كنت مع الحق فأنت من حسن إلى أحسن، ومن خير إلى خير، ومن سعادة إلى سعادة، ومن توفيق إلى توفيق، وحينما يأتي الموت الذي لا بد منه تجد أنك قد نقلت من دار إلى دار، نقلت من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ! كما ينقل المولود من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا!

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ(27))

(سورة يس)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

(متفق عليه)

كن مع الحق ترَ أن الدنيا كلها معك، يكفي أن يكون الله معك، فإذا كان معك فمن عليك ؟ يكفي أن الله معك بالرعاية والحفظ والتوفيق والتسديد، وكلما تشتهي نفسك ! عبدي كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، فإذا سلمتني فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تكن لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (11-13): تفسير الآيات 82 – 85
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-09-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (84) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً(85))

(سورة الإسراء)

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

شفاءٌ ورحمة، يا ترى هل القرآن الكريم يشفي الأمراض المادية ؟ أم أنه يشفي النفوس ؟ أو يشفي العقول ؟ علماء التفسير يرجحون أن العقل الجاهل يشفيه من الجهل، فيعرفه بالله عز وجل، أخطر شيء في الحياة الجهل، أعدى أعداء الإنسان هو الجهل، فإذا عرفت من أنت، وأين كنت، وأين المصير، ولماذا خلقت ؟ وما هو أجدى عملٍ تفعله على وجه الأرض ؟ وما هي مهمتك على سطح الأرض ؟ ولماذا تعمل الصالحات ؟ من أجل جنة عرضها الأرض والسماوات، إذا عرفت الحقيقة، وعرفت سر الوجود، شفي عقلك من داء الجهل !

الإنسان بلا علم كالبهيمة تماماً، الإنسان بلا علم إلى أن يكون حيواناً أقرب منه من أن يكون إنساناً، يأكل، ويشرب، وينام، ويعطي نفسه ما تشتهي، ويتكلم ما يحلو له، فيؤذي ويفرق، ويخرب البيوت، وهو لا يدري ماذا يفعل، يتمحور حول ذاته، يجر الأمور نحو مصلحته، يعيش على أنقاض الآخرين، يبني مجده على رفاتهم، يبني غناه على فقرهم، يبني سعادته على شقائهم، يبني حياته على موتهم، يبني أمنه على قلقهم، الإنسان من دون علم ومن دون هدى يدمر نفسه، ويدمر مجتمعه، يدمر ذاته، ويدمر الآخرين، لا تعنيه إلا ذاته، فلذلك ربنا عز وجل قال:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

شفاءٌ لهذا العقل، وشفاءٌ للنفس، أحياناً تصاب النفس بالقلق، تصاب بالخوف، تصاب بالشعور بالقهر أحياناً، إن هذه الأحاسيس المدمرة، هذه المشاعر المقلقة، وهذا الاختلال في توازن الإنسان، هذا كله سببه الجهل، يأتي القرآن فيطمئن، نضرب على هذا أمثلة كثيرة:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97))

(سورة النحل)

هذا نصٌ قرآني، هذا كلام رب العالمين، يجب أن يبدد هذا الكلامُ كلَّ خوف، كل قلق، كل شعور بالمستقبل المظلم، يجب أن يبدد هذا القول وهو كلام رب العالمين كل شعور بالظلم، كل شعور بعدم الإنفاق، كل شعور بأن الحياة تحتاج إلى إنسان شرس، إلى إنسان قوي، لا.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97))

والدليل الواقع الذي أمامك، كن لله كما يريد يكن لك كما تريد، هل من مرض يصيب الإنسان يفوق الشعور بعدم الإنفاق ؟ الشعور بالقهر ؟ الشعور بالامتهان، الشعور بأن الحياة لا معنى لها، لا جدوى منها ؟ الحياة للقوي لا للضعيف، الحياة للغني لا للفقير، هذا الشعور الممل، شعور التفاوت، شعور القهر، شعور القلق هذا كله مبدّد في القرآن الكريم.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: 21)

انتهى الأمر، الله عز وجل يعجب ! أيعقل يا عبادي أن أعامل المسيء كالمحسن ؟ أن أعامل المؤمن كالكافر ؟ الكافر كالمؤمن ؟ أن أعامل الذي يعلم كالذي لا يعلم ؟ أن أعامل المحسن كالمسيء ؟ أن أعامل من عرفني كمن لا يعرفني ؟ أيعقل هذا ؟ إذا قرأت القرآن:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

الإنسان أحياناً لجهله بقواعد الحياة، لجهله بكتاب الله يستنبط حقائق مضحكة ! يقول: إن الإنسان مهما عمل من الصالحات، هذا لا يجدي إلا أن يكون مؤذياً للناس، يخرج بحكمةٍ خرقاء، استنبطها من الناس من تعامله مع الناس، ولو أنه قرأ كلام الله عز وجل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

الإنسان قد يصادف شخصاً كافراً، بعيداً عن الله عز وجل، عاقًا لوالديه، يزداد قوةً وغنًى وشأناً ومكانةً، فيصيبه اليأس، فيأتي قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

هذه الآية تضفي على قلبه الطمأنينة والسكينة، فالإنسان من دون قرآن يضيع، يقلق، يختل توازنه، أحياناً ييأس، يأتيه يأسٌ قاتل، هذا الذي ينتحر، لماذا انتحر ؟ يئس من العدالة في الأرض، يئس من الفرج، يئس من أن يكون له طريق إلى السعادة، فانتحر.

لو أنه قرأ كتاب الله عز وجل لشفيت نفسه من هذه الأمراض.

الذي أراه من خلال قراءتي لهذا الكتاب الكريم أنه ما من مرض نفسي، وما من حالةٍ نفسيةٍ صعبة، وما من شعورٍ مملّ، وما من تمزقٍ نفسي، إلا بسبب البعد عن هذا الكتاب، ولو أن الإنسان قرأ كلام الله بفهمٍ وتبصرٍ وتدبرٍ لزالت عنه كل أمراضه.

قد يقول قائل: العالم سيصاب بظاهرة اجتماعية اسمها التفجر السكاني، وسوف تقلّ المواد عن حاجة الناس، وسوف يأكل الناس بعضهم بعضاً، وسوف تصيب المجاعة معظم الدول المتخلفة، وسوف، وسوف... تجلس معه ساعةً لا تستطيع أن تقف على قدميك، تحس أن الحياة قد انتهت، وأنه لا حياة للفقير، اقرأ قوله تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ)

(سورة الروم: 40)

فالرزق إذاً مُنْتهٍ أمره، لكن ربنا عز وجل أحياناً يجعل هناك بعض الضيق من أجل أن يمتحن العباد، يقول تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11))

(سورة الأحزاب)

الذي يعرف يقول: لابد من أن يرزقني الله عز وجل.

يسعى، ويعمل، والله يرزقه، الله رب الجميع، رب العباد كلهم، رب السماء والأرض، يقول تعالى:

(وَفِي السّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنّهُ لَحَقّ مِثْلَ مَا أَنّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))

(سورة الذاريات)

أحياناً يُعرض على الإنسان عمل صالح تحتاج إلى إنفاق مال فيمتنع خشية الفقر، يقول: دخلي محدود، لا أتمكن من الدفع، وأنا عندي أولاد، لو أنه قرأ كلام الله عز وجل، أنه ما من نفقةٍ ينفقها العبد في سبيل الله إلا عوضها الله عليه أضعافاً مضاعفة لم يمتنع عن ذلك.

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)

(سورة الأنعام: 160)

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92))

(سورة آل عمران)

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ: 39)

كلام الله عز وجل، فمن أراد أن يشفي نفسه من كل الأمراض، من أمراض الهم والحزن، من أمراض القلق، من أمراض الشعور بعدم العدالة، من أمراض الحرمان، من أمراض التمزق، هذه الأمراض النفسية إذا قرأت القرآن شفيت نفسك.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة)

كلام رب العالمين، فالإله يقول هذا الكلام لعباده جميعاً، في أي عقدٍ، في أي مصرٍ، في أي مكانٍ، في أي زمانٍ، في أي بيئةٍ، في أي ظرفٍ، في أي معطياتٍ،

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

يجب أن ينعدم الخوف من حياتك، ويجب أن ينعدم الحزن من حياتك، الثمن أن تتبع الهدى، اقرأ قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

هؤلاء لا يفزعون عند المصائب، ولا يبخلون عند الرخاء، في الرخاء يعطون مما أعطاهم الله عز وجل، وفي الشدائد يصبرون على حكم الله عز وجل.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30))

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ(35))

(سورة المعارج)

إلى آخر الآيات، فإذا كنت مصلياً لا تحس بالقلق، ولا تحس بالخَوَر، ولا الجبن، ولا الشعور بأنك دون الناس، ولا الشعور بأنك غير منصَف، هذا كله يبتعد عنك، هل من صحةٍ نفسيةٍ تفوق صحة المؤمن ؟ شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغنائه عن الناس.

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ)

يشفي هذه النفس القَلِقة، يشفي هذه النفس الحائرة، يشفي هذه النفس التي سئمت الحياة، دقق في حياة أهل الدنيا، إذا بلغ كل أهدافه أصيب بمرض خطير اسمه السأم والضجر، عرف كل شيء، تزوج، وعرف طعم المال، وطعم الغنى، وعرف طعم الجاه، وسكن في بيت مريح، وأكل ما لذ وطاب، وسافر، وتنزّه، واصطاد، تراه في النهاية يمل كل شيء، ويسأم من كل شيء، لأنه ما عرف الله عز وجل، لذلك يشيخ أهل الفسق والفجور والعصيان في سن مبكرة، بينما المؤمن كل حياته شباب في شباب، لماذا ؟ لأن أهدافه كبيرة، كبيرة جداً، حياته كلها لا تكفي لتحقيق بعض أهدافه، لذلك ترى المؤمن في حيوية ونشاط وإقبال، واندفاع منقطع النظير، بسبب أنه يبحث عن الله عز وجل، يَهدف إرضاء الله عز وجل، يريد أن يهدي الناس جميعاً، يريد أن يسعد الناس جميعاً، يتمنى أن ينقلهم من الظلمات إلى النور، هدفه كبير، هدفه أكبر من حاجاته، رغبته في هداية الخلق تتجاوز مصالحه الذاتية، فالمؤمن لا يشيخ، ومن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت.

أول شيء في هذه الآية أن كل من يعاني من مرض نفسي، وساوس، خوف، قلق، ضعف شخصية، شعور بالحرمان، شعور أن العدالة مفقودة، شعور أن الحياة للقوي فقط، أو للغني فقط، لأنه سواهم لا حياة لهم، هذا الشعور يسحق الإنسان سحقاً، إذا قرأ هذا القرآن:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

شفاء، طبعاً الشفاء يشفي العقل من داء الجهل، ويشفي النفس من داء القلق، يشفي العقل من أمراضه المتمثلة بالجهل، ويشفي الفكر من كل شعورٍ يقلب الحياة إلى جحيم، فالشرك يسبب للإنسان متاعب كبيرة جداً، فالإنسان من دون إيمان بالله عز وجل، من دون إيمانٍ بعدالته، وبأنه على كل شيء وكيل، من دون هذا الإيمان يجعل الناس لا ينام الليل، لأنه يخاف من كل شيء، كل إنسان قد يستطيع أن يوقع بك الأذى، إذا بعدت عن الله عز وجل، وبعدت عن هذا الكتاب، تشعر أن كل إنسان بإمكانه أن يصل إليك، بإمكانه أن يقلب حياتك جحيماً، بإمكانه أن يأخذ كل مالك، بإمكانه أن يفقدك أهلك وأولادك، بإمكانه أن يضعك في ظلمات في غياب السجن، لكن إذا عرفت الله عز وجل، وأنه بيده كل شيء، وأن الأمر كله إليه، وأنه إليه ترجع الأمور كلها، وأنه بيده ملكوت السماوات والأرض، وأنه ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، وأن الله عز وجل له الخلق والأمر، وهو يحكم لا معقب لحكمه، وهو لطيف لما يشاء، وأن الخير منه، والشر بتقديره من الإنسان كسباً، ومن الله فعلاً، إذا قرأ الإنسان القرآن، وعرف ما تنطوي عليه هذه الآيات انقلبت نفسه إلى نفسٍ هانئةٍ وادعةٍ مطمئنة واثقةٍ برضاء الله عز وجل، واثقةٍ من عدالته، واثقةٍ برحمته، تعرف أن هذه الحياة حياة قصيرة، طبيعتها الابتلاء طبيعتها الامتحان، وأن الحياة الحقيقية حياة الآخرة، وأن هذه الدنيا دار ابتلاء، وأن الآخرة دار عطاء، هذه الدنيا دار تكليف وأن الآخرة دار تشريف، إذا عرف هذه المعاني رضي بدخله، رضي بزوجته، رضي بأولاده،

رضي بكل شيء، لأنه يرى هذا كله بتخطيطٍ من عليمٍ حكيمٍ رحيمٍ محب، هذا كله مما توحي به هذه الآية.

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

الشفاء واضح: النفس القلقة تشفى من قلقها، النفس المقهورة تشفى من قهرها، النفس التي تشعر بالظلم تشفى من هذا شعور، النفس القلقة على مستقبل أولادها تشفى من هذا القلق، النفس الحائرة تشفى، والعقل التائه يشفى، فهو شفاء للعقل وللنفس، ولا يمنع أن يكون الشفاء مطلقاً، بمعنى أنه ربما قرأ الإنسان كتاب الله عز وجل بنية الشفاء من مرضٍ ما لعل الله يكرمه بهذا الشفاء، وهذا أيضاً ممكن، المطلق في القرآن على إطلاقه، قال:

(مَا هُوَ شِفَاءٌ)

فشفاء العقل، وشفاء النفس، وقد يقرأ القرآن بنية الشفاء من بعض الأمراض التي تصيب الإنسان، مع العلم أنه يجب أن يستشفي عند الطبيب أولاً، أخذاً بالأسباب، وبعدها يقرأ كتاب الله عز وجل، لعل الله عز وجل ينظر له بالشفاء المادي أيضاً.

أما الرحمة فالله سبحانه وتعالى يتجلى على قلب المؤمن تجلياً يجعل الحياة نعيماً، يجعل حياة المؤمن قطعة من الجنة، يجعل المؤمن في سعادة لا توصف، هذا كله تؤكده الآيات الأخرى.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

(سورة الرحمن)

(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

(سورة يونس: 64)

له البشرى، له الطمأنينة، له التجلي، فالشفاء والرحمة كأن تقول: التحلية والتخلية، التخلية أولاً، والتحلية ثانيا، أنت تنظف أولاً، ثم تفرش البيت ثانياً، تنظف الإناء، وتملؤه عطراً، أو شراباً لذيذاً، فالمرحلة الأولى مرحلة الشفاء مما سواه من الأغيار، من الشرك، من كل ما يقلق النفس، والمرحلة الثانية هي ملء هذه النفس بما لذ وطاب من قيم، ومن خلق كريم، ومن تجليات ظاهرة، و من تجلياتٍ تكسب الإنسان سعادة لا توصف، إذاً:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82))

(سورة الإسراء)

الظالم ينتقد هذا الكلام، ويرى أن هذا كلام ليس مناسباً لهذا الزمان، نحن وصلنا إلى القمر، وهذا القرآن سيعيدنا إلى حياة الصحراء وحياة الجمل، هكذا يدعي بعضهم، وأن هذا القرآن يحتاج إلى تبويب وإلى تنظيم، وإلى تصنيف بحسب الموضوعات، وأن فيه أحكاماً لا تصلح لهذه الحياة، هي قسوة بالغة، كحد السرقة، وحد الخمر، وحد الزنى، هذا كله ممن يدعي الفهم والكياسة، قد يتهم هذا الكتابَ باتهامات

باطلة، اتهامات أعداء الدين، فيجعل بينه وبين كتاب الله حجاباً سميكاً، الأمر الذي يجعله ينطلق في الحياةِ بدافع نزواته وشهواته، فيقع في الحرام فيستحق عقوبة الديان، أن يقول: هذا الكتاب لا يصلح، إذاً افعل ما تشتهي، أطلق بصره، انتهى به الأمر إلى تطليق زوجته، وخراب بيته، وتشريد أولاده، أكل مالاً حراماً، ويقول: حلال.

فلما انكشف أمره حكم عليه بالإعدام، فأين المال هذا الذي يسير وفق نزوة نفسه، وفق ما يشتهي، وفق وسوسة الشيطان، وفق ما تمليه عليه غرائزه ومصالحه، هذا الذي يقول: هذا الكتاب لا يصلح، ماذا يصلح ؟ أن تفعل كما يفعل الناس.

عندئذٍ تأتي العقوبة الصارمة من الله عزّ وجل، خسر الدنيا والآخرة، إما أن تتقيد بهذا القرآن الكريم، وتسير فيه على بيّنة من أمرك، وإما أن تنطلق وفق ما يمليه الهوى، والمصلحة والنزوات.

إذاً لا بد من فعل السيئات، ولكل سيئة عقاب، يأتي العقاب تباعاً، إذاً وقعت في مشكلة كبيرة ! حينما أدرت ظهرك لهذا الكتاب، وانطلقت من شهوتك ونزوتك في حياتك اليومية، طبعاً وقعت في الحرام شئت أم أبيت ! والحرام له عقاب، وأحَلْتَ حياتك إلى جحيم.

لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرّقُوا)

(سورة آل عمران: 103)

بعضهم قال: القرآن الكريم اعتصم به ! ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبدا ! فعَنْ مَالِك أنّهُ بَلَغَهُ أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلّوا مَا تَمَسّكْتُمْ بِهِمَا، كِتَابَ اللّهِ وَسُنّةَ نَبِيّهِ))

(موطأ مالك)

القضية ليست قضية أن أنا أتبارك بالقرآن الكريم، بعض الناس يسمّونه تبارك، يقول لك: أخي اقرأه فيه بركة ! هذا الكلام ليس له معنى عند الناس، القرآن مجموعة قوانين دقيقة، حتمية الحدوث، تبدأ بالمقدمات تصل إلى للنتائج، أمرك بِغَضّ البصر هذا قانون ! إذا فعلت هذا الأمر ضمنت الوفاق الزوجي إلى نهاية الحياة، وإذا خالفته انقلب البيت إلى جحيم، ماذا تباركت ؟ ما معنى تبرّكت به، وأنت تعصيه ؟ هذا الذي يعصي كلام الله عز وجل يعصي أمر الله عزّ وجل ؟ ما معنى لو قرأه تبركاً ؟ رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه، البركة الحقيقية تأتيك من تطبيقه، إذا طبقّته تحل عليك بركات الله عز وجل بالمعنى المادي، إذا طبقت أوامر الله في البيع والشراء أحبك الناس جميعاً، وأقبلوا عليك، وكثر المشترون، وربحت أرباحاً جيدة ! لأنك كنت مستقيماً، قال تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود: 112)

أمرك بالاستقامة، أمرك بالصدق، نهاك عن الخيانة، لو طبقت هذه الثلاثة الاستقامة والصدق، وابتعدت عن الخيانة والغش يثق الناس بك ! فدخل عليك مال وفير، عشت في بحبوحة، هذه بركة الله عز وجل، طبقت أحكامه فبارك الله لك بمالك، طبقته في أمر الزواج

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

(سورة البقرة: 221)

رزَقَك المرأة صالحة التي إذا نظرت إليها أسرتك، وإن غبت عنها حفظتك، وإن أمرتها أطاعتك، طبقته في زواجك بحثت عن الدِّينة، من تزوج المرأة لجمالها أذلّه الله، من تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، من تزوجها لمالها أفقره الله، فعليك بذات الدين تَربَت يداك ! إذا اهتديت بهدي الكتاب في زواجك سعدت في زواجك، إذا اهتديت بالكتاب في أولادك، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (74))

(سورة الفرقان)

همك أمر أولادك، أمر دينهم، أمر صلاحهم، أمر إيمانهم، أمر صلاتهم، وأمر صومهم، أمر معرفتهم بالله عز وجل، كان أولادك قرة عين لك، وسعدت بهم ! فهذه البركة، البركة أن تطبق أوامر الله، فإذا طبقتها حلّت عليك البركة، أما هذا الذي يعصي القرآن، يعصي أمر الله عز وجل ؟ يأكل مالاً حراماً، يفعل ما يشتهي، يبيح لنفسه كل المعاصي، إذا قرأ هذا الكلام، وكان عاصياً لمضمونه فأيّ بركة هذه ؟ عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

(الترمذي)

الحياة دقيقة جداً، والله وضعنا المصحف في بيت فخم مخمل، وزيّناه، وعلّقناه بغرفة الضيوف، أو كان البيت كله آيات قرآنية نقول: الحمد لله، نحن مسلمون، ليس بذاك، بل نريد استقامة نحن، نريد بيتًا إسلاميًا، لا بيتًا فيه آيات قرآنية فقط ! ندخل محلاً تجاريًا فنقرأ

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1))

(سورة الفتح)

المحل كله غش، وكذب، وأيمان كاذبة، فأين تطبيق آية:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

هذه للبركة، ما هذا للبركة ؟ البركة لا معنى لها هنا، معنى البركة أن تطبق أمر الله عز وجل فتستحق الثواب في الدنيا والآخرة، هذه البركة، استقمت في البيع والشراء يتفضل عليك الله عزّ وجل بالدخل الوفير، غضضت بصرك عن محارم الله الآن تستحق أن تعيش حياة زوجية سعيدة ! أبداً افعل ما شئت البركة في كلام الله تعني تطبيقه ! إن طبقته حلّت عليك بركة الله عزّ وجل..

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82))

أعرض عن هذه الوصفة الطبية ! قال: هذا الكتاب لا يصدق، فانطلق في شهواته كما يشتهي، فحلّ عليه عقاب الله، فكأن هذا الكتاب بإعراضه عنه زاده وبالاً، وزاده شقاءً وهلاكاً، فالقرآن لا يقرؤه إنسان إلا زاد أو نقص، إما أنه يزداد إيماناً، وإما أنه يزداد بعداً عن الله عز وجل، وهذا البعد يستدعي الهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة.

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83))

انظر لهذا النموذج الإنساني الذي لا يريده الله عز وجل، اللغز، إذا جاءتك الدنيا تزداد كبراً وإعراضاً وغطرسة واستعلاءً، كيف أنك من نطفة خُلقت، خرجت من عورة ! ودخلت في عورة ! ثم خرجت من عورة ! كيف أنك خُلقت من ماءٍ مهين تستحي به إذا كان على ثيابك ! كيف أنك كنت طفلاً صغيراً تحتاج إلى أب وأم يرعيانك ؟ كيف كل هذا؟

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78))

(سورة يس)

بعد أن بلغ الإنسان في الدنيا مرتبة في المال أو العلم أو الجاه أو القوة نسي أصله !

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

(سورة فصلت: 51)

إنسان حصل على شهادة عليا من دولة أجنبية، وعاد إلى بلده احتل منصباً رفيعاً، وله زوجة من ذلك البلد الأجنبي أتى بها من هناك، سكن في أرقى حي، وركب أفخم سيارة، وعاش حياة حديثة غربية قائمة على المتع والملذات، والانغماس في الشهوات، فجأة أصابه مرض في إحدى عينيه، فعمي في عين واحدة ! ما هي إلا أشهر عدة حتى فقد الثانية ! دخل عليه صديقه قال له: والله يا فلان، أتمنى أن أجلس على الرصيف، وأتسول، وأن يعيد الله إلي عينيّ !

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83))

البطل الذي يعرف الله في الرخاء، وأنت في أوج قوتك، وأنت في أوج شبابك، وأنت في أوج غناك، وأنت في أوج مكانتك الاجتماعية، هذه البطولة، لكن من السهل جداً أن تتعرف إليه في خريف العمر بعد أن تفرّق عنك الناس، وذهب مالك، وضعف بصرك، وانحنى ظهرك، وشاب شعرك، وأصبحت منزوياً في غرفتك لا أحد يعبأ بك، أصبحتَ تحفة، أصبحت في مكانة لا تستدعي إلا الشفقة، عندئذٍ تبدأ بالصلاة، الآن، الآن ؟ أين كنت في الشباب ؟ أين كنت يوم كنت تمشي في الطريق متبختراً، أين كنت ؟ لذلك عبدي اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة، هذا الذي عرف الله في شبابه يعرفه الله في

شيخوخته، والشيء المهم جداً أن الإنسان إذا عرف الله في شبابه متّعه الله بعقله، وسمعه وبصره وقوته ومكانته وغناه عن الناس ! الدعاء الشريف:

((اللهم اجعل خير عمرنا آخره، وخير أيامنا يوم نلقاك وأنت راض عنا))

(زوائد الهيثمي عن الحسن قريبًا من هذا اللفظ)

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83))

هذا الذي يتكبر، وهو في ساعة من ساعات القوة، أو ساعة من ساعات الغنى إنسان صغير عند الله عز وجل، لأنه جاهل، الإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، من يدري أن الإنسان نقطة دم إذا تجمدت في بعض شرايين المخ يصاب بالعمى، أو بالشلل، أو بالصمم، أو يفقد ذاكرته أحياناً ! ما الإنسان ؟ إذا شعر أن هناك كتلة لا ينام الليل يذهب من طبيب إلى طبيب للتحليل، لأخذ عيّنة... كتلة قاسية، الإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، هذا موضوع الورم الخبيث ليس له دواء حتى الآن ! ليس له سبب أساساً ! نمو خلايا عشوائية، انتهى كل شخص، بلغ أوج نشاطه في الحياة، وفي ساعات رخائه يأتي هذا المرض، فيحيل حياته إلى جحيم.

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83))

أتمنى على كل منكم، وهو في صحته، وهو في بحبوحة، وهو في أوج نشاطه أن يعرف الله في الرخاء، لأنه إذا عرفه بالرخاء عرفه بالشدة.

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83))

يْأس قاتل، مع أن الله عز وجل أمره كن فيكون، لو أن المرض وخيم العاقبة يأتي ذكر الله عز وجل فيزيل من هذا المرض فعاليته الضارة ! حلّلنا، ولم يظهر شيء ! ألست أنت من قال: إن الوضع خطير ؟ الله عز وجل بيده كل شيء.

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80))

(سورة الشعراء)

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (84))

الإنسان له بنية، له نفسية، هذه النفسية ناتجة من إقباله أو إدباره، إذا كان مقبلاً فعنده نفسية طيبة، وهذه النفسية الطيبة تستدعي الشكر والعرفان، إذا دخل الإنسان إلى بيته الذي يأوي إليه، هناك زوجة معافاة من كل مرض الإنسان هذه نعمة كبرى الإنسان لو أن مرضاً خبيثاً عضالاً أصاب الزوجة شيء صعب، له أولاد، قال لي طبيب: دخلت بيتًا فوجدت فيه أربعة أولاد بُلْهٍ كلهم حجمهم كبير، وضعف في التفكير، وشراسة في الطباع، حتى إنه عالج الاثنين الإنسان وقامت معركة مع كل واحد، أربعة أولاد

بُلْهٍ ! والله هذه مصيبة كبيرة جداً، فإذا دخل الإنسان بيته، ووجد فيها أولاد أسوياء، وزوجة معافاة، وبيتًا يأوي إليه، صحته طيبة، هذه نعم، يجب أن تعرف الله فيها، لا أن تنسى هذه النعم.

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

هذا الذي عرف الله، فاقتبس منه الوفاء والشكر والعرفان اقتبس منه، أو استسقى من الله هذا الكمال شاكلته خيّرة، يعمل وفقها، وهذا الذي أعرض عن الله عزّ وجل أصبحت شاكلته أو بنيته جبلّته شريرة يعمل وفق اللؤم فهو لئيم، كلما أكرمته يزداد لؤماً، كلما أعطيته يزداد كبراً.

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (84))

سيدنا عبد الله بن رواحة رضي الله عنه عُيّن قائداً ثالثاً للجيش رقم ثلاثة، أول قائد سيدنا زيد أخذ الراية، فقاتل بالراية حتى قتل، سيدنا جعفر رقم اثنين في مؤتة، أخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، فلما جاء دور سيدنا عبد الله بن رواحة تردد ! قضية موت سريع، خاطب نفسه قال:

يا نفسي إن لا تُقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
إن تفعلي فعلهما رضيت وإن توليت فقد شقيت

***

وأخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، النبي عليه الصلاة والسلام وهو في المدينة حدّث أصحابه فقال:

((أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة))

وسكت النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فقال أصحابه: يا رسول الله، ما فعل عبد الله ؟ قال:

((ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازورارا عن صاحبيه))

(القصة بلفظها وتمامها في السيرة النبوية لابن هشام، والحلية لأبي نعيم)

أيْ: هذا التردد جعل مقامه عند الله يهبط درجة ! إذا كان هذا التردد في بذل نفسه هذه شاكلته، فأين نحن من هذه القصة ؟ ماذا بذلت لله عز وجل ؟ ماذا فعلت ؟ هل استزدت لكل عمل صالح ؟ إذا دعيت إلى خير ماذا يكون موقفك ؟ نرجو الله عز وجل أن نكون في نظر الله عزّ وجل كما يحب ويرضى:

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه يقول: " والله، والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز بيوم عاصف بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون علي من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين!".

أحياناً يقف الإنسان موقفاً لئيمًا من والدته، لو كشف له الغطاء، لو عاد إلى فطرته لذاب من الله خجلاً، هذه التي رَبّتك حين تزوجت استغنيت عنها ؟ رأيتها عَقَبة في حياتك ؟ أردت الخلاص منها، تمنيت موتها، أهكذا الوفاء ؟ الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، المشكلة أن الإنسان وهو في الدنيا يكون بين شهوات ومخدرات، فالأكل والشرب، واللقاء مع الناس، والرحلات والسهرات، والندوات والاجتماعات، والنزهات والحفلات والولائم... هذه كلها مخدرات وغفلة، فإذا انقطع عنها فجأة بمرض أصيب به أو لموت ألم به انكشفت حقيقته، وانكشفت له نفسه، وظهرت على حقيقتها، فإما أن تُسعده إلى الأبد، وإما أن يشقى بها إلى الأبد !

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

اعملوا ما شئتم، يوم القيامة حينما ترى أن كل شيء خلقه الله من أجلك أن الكون كله سخر لك، وأنه ما من مخلوق إلا يسبح بحمده ويقدس له، وأنك كنت الغافل وحدك، وأنك أسأت إلى عباد الله، وقابلت الجميل بالإساءة، وقابلت الإحسان بالإساءة، وقابلت النعمة بالجحود، وقابلت الهدى بالضلال أولاً، والإضلال ثانياً، هذا موقف من يحتمله ؟ طبعاً جزاؤه النار التي تلفح وجوههم.

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (56))

(سورة النساء)

هناك ارتباط بين الآيتين، هذا الذي لا يزيد الظالمين إلا خساراً، هؤلاء الظالمون الذين لا يزدادون مع تلاوة هذا القرآن إلا خسارا من شأنهم أنه إذا أنعم الله عليهم أعرضوا، واستكبروا، واستعلوا، وإذا مسهم الشر يئسوا ! هؤلاء الذين لا يزدادون عند تلاوته إلا خساراً، هذه شاكلتهم:

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

كل واحد منا له نفس، سنسميها جِبِلّة، له طبيعة، له بنية، وفي علم النفس الحديث سمات عميقة يتحرك بموجبها، فهناك إنسان خيّر بالطبع، يتمنى خدمة الناس ؛ إنسان بإعراضه عن الله عز وجل، وانقطاعه عنه نفسه الشريرة، يتلذذ بالإساءة للآخرين ! بإيقاع الأذى بهم، بإيقاع الشر فيهم، فهذه الجبلة السيئة محصلة البعد عن الله عز وجل، هذه الشاكلة.

والجبلة الطيبة هي محصلة الإقبال على الله عز وجل، أنت بين حالتين إما أنك مقبل، فلك جبلة طيبة، لك شاكلة خيرة، لك نفس عزيزة كريمة معطاءة، وإما أنك مدبر ـ لا سمح الله ـ فلهذا الإنسان نفس شريرة، جبلة مؤذية، طبيعة أنانية، كما يقولون، حرص على الذات، واستهانة بالآخرين.

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (84))

هذه الآية كأن الله يقول: افعلوا ما شئتم ! كل واحد منكم له شاكلة، له جبلة، هذه الجبلة محصلة إقباله أو إدباره، فإذا كان مدبراً ففي الشر يؤوس، وفي الخير منوع ! هكذا قال لله عز وجل:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ((22)

(سورة المعارج)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء)

فهناك أشياء فوق مدارك الإنسان، هذه الروح..

هذه التي نسميها سودة ـ الكبد ـ فهي لحم تُأكل، لكن في الواقع هي كبيرة، يقوم بخمسة آلاف وظيفة، تأخذ طحال شطيرة، إذا كان فيها روح فهذا الطحال يقوم بأخطر الوظائف، معمل لكريات الدم الحمراء، مقبرة للكريات، تحليل الكريات، وتأخذ المواد المعدنية الحديد وهيموغلوبين، وتبقي الفضلات ترسلها إلى مكان آخر ! معمل دم احتياط، مقبرة، مستودع للدم، أقرب شيء لنا أعضاؤنا، هذه الأعضاء كلها موجودة، الروح لها وظائف خطيرة جداً، العين مثلاً: إنسان ميت ما قيمة عينه ؟ قطعة لحم لا تؤكل ! لكن عين إنسان طيب يرى بها العالم، والألوان، ثمانمئة ألف لون أخضر يراها بالعين ! الشبكية فيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط ! جسم بلّوري يقوم بأعظم وأدق عمل، وهو المطابقة ! شيء لا يصدق، حينما يأتي الخيال وراء المحرق فهذا الجسم نفسه يتحسس إذا جاء الخيال خلف المحرق، يرسل أمرًا للدماغ، الدماغ يأمر خلايا العضلات الهدبية المحيطة بهذا الجسم البلوري فتضيق أو تزيد من احتدابها إلى أن يقع على الشبكية، وإذا جاء الخيال قبل المحرق في جهاز آخر يعطي أوامر معاكسة من أجل أن يستطيل فيقع الخيال على الشبكية، العين بالروح هكذا تفعل ! من دون روح كتلة لحم لا طعم لها ! الكبد يقوم بأخطر وظيفة ! هناك خمس وظائف أساسية في الحياة، الإنسان بلا كبد يموت بعد ثلاث ساعات ! بعض العلماء قال: للكبد خمسمئة وظيفة ! وبعضهم قال: خمسة آلاف وظيفة ! بالروح، من دون الروح أصبحت بلا فائدة.

الكلية يمر فيها الدم في النهار خمس مرات ! يمشي الدم بالكلية مئة كيلو متر تقريباً كل يوم ! دم الإنسان يقطع في الكليتين مئة كيلو متر، إذا مات الإنسان أصبحت قطعة لحمة ! قبل قليل كان جهازاً خطيرًا جداً !

الدماغ، خذ دماغ إنسان طبيب، كل الطب موجود في هذا الدماغ ! كل معلوماته، كل خبراته، كل أنواع الأمراض، أعراض الأمراض، التشخيصات، الأدوية، كلها في هذه الذاكرة، بعدما يموت خذ نخاع الخروف، بالروح ماذا كان ؟ وبلا روح ماذا أصبح ؟ كتلة لحم، فهذه العين، الأنف، الأذن، اللسان، يمكن أن يلتقي في هذه الذاكرة علم الأولين والآخرين، بعدما يموت الإنسان لا يبقى شيء، فما هي الروح ؟ إذا أوقفنا إنساناً على ميزان وهو واقف على الميزان مات، هل يقل وزنه ؟ لا يقل غرامًا، أين

الروح ؟ ما طبيعة الروح ؟ عندما يتجلى ربنا عز وجل على الإنسان بالروح، يتحرك، انظر إلى الإنسان الحي تراه مؤنساً، إذا مات يخاف الناس من غرفته كلها ! يبقون شهرين أو ثلاثة وغرفة المتوفى يتجنبها أهله خوفاً ! يقولون لك: هنا مات، لكنه قبل ساعة كان أبًا لطيفًا، الأولاد يأنسون به، يتهافتون عليه، يقبلون عليه، يرون الجلوس معه مغنماً كبيراً، بعدما تمدد ميتاً أصبح مخيفاً موحشًا، يقولون: إكرامه ترحيله بسرعة، ما هذه الروح ؟ بالروح لك شأنك ملء السمع والبصر، لك مكانتك، توقيعك يقدر بملايين ! بعدما يموت أي توقيع هذا ؟ مات، وللورثة الكلام كله ! لما ربنا عز وجل يوقف هذا الإمداد كل أملاكك لم تعد لك ! ما هذه الروح ؟ مادام لك حركة، البيت لك، الأرض لك، المعمل لك، كل شيء لك، فإذا قطع الله عنك الإمداد أصبح كله لغيرك، ما هذه الروح ؟

موضوعنا طويل جداً، موضوع الذاكرة، موضوع الدماغ، موضوع العين، السمع، البصر، العضلات، هذه الحركة، الميت لا يتحرك، فإذا رأى أحدنا ميتاً يتحرك يمكن أن يجّن ! إذا كنت تسير في الطريق، ومرّت حافلة، قال له: لا يوجد محلات، اصعد على الظهر، وعلى الظهر تابوت، كان ينقل ميتًا في الذهاب، وفي العودة التابوت فارغ، صعد قبله راكب وجد نفسه مصابًا بالبرد، فجلس في التابوت، هذا الثاني وجد تابوتاً، فجلس عليه، فتحه، فتحرك الميت فوقع من الحافلة، ومات فوراً، لا يألف الإنسان ميتاً يتحرك ! إذاً موضوع الروح شيء عظيم جداً.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

هل في أنحاء العالم اليوم، في كل الجامعات تفسير للروح ؟ ما هي الروح ؟ بالروح الإنسان ينمو ويكبر، يحس، يتألم، يفكر، يتكلم، ينتقل، يحكي، يشعر بالخوف.. أما إذا توقفت الروح فلا شيء، جثة هامدة، لحم ودم متفسخ، انتهى الأمر ! فربنا عز وجل ضرب لنا مثلاً أن هذا الشيء لا تعرفونه أنتم، ولا يمكن أن تعرفوه !

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

كل التقدم العلمي، أحياناً تجد كتاباً أجنبيًا، أربع صفحات مَراجع بالخط الصغير، تقريباً سبعمئة مرجع ! لعلم بسيط وفرعي، وليس علماً كبيراً، إذا كان لكل موضوع سبعمئة مرجع فهذا علم البشر الآن، وربنا عز وجل يقول:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

كلما ازداد الإنسان علماً ازداد علماً بجهله !

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

من علامة العالم التواضع ! ومن علامة الجاهل الكبر، الجاهل متكبر.

قل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

***

الإنسان يتخذ من هذه الآية دليلاً على وجود الله عز وجل، الميت والحي، الميت انتهى أمره، انظر للإنسان كيف يتحرك، ينتقل، مؤنس، محبب، لطيف، تفضِّل الجلوس معه، كيف أنه نظيف، ورائحته نظيفة.

هناك رجل اهتدى إلى الله عز وجل عن طريق صديق له من الأغنياء، رجل ضمن الأصول، وليس خلاف الأصول مات، أصبح هناك شبهة بموته، يا ترى مات موتاً طبيعياً ؟ أم أن إحدى زوجاته دسّت له السم ؟ قصة قديمة، فتحوا القبر بعد يومين هذا الذي شاهد الجثة كان سبب توبته هذا الرجل، يقول: إن كل رجلٍ من جهة، البطن منفوخ، والدود عليه، رائحة نتنة، سبحان الله ! قبل أيام الحمام والنعيم، إذا نام إنسان على سريره، وكان فخماً جداً فلا ينس القبر، سيسحب من هذا السرير إلى القبر ! إذا دخل الحمام، ونظّف نفسه فلا ينسَ آخر غسل ! إذا ذهب من بيته واقفاً أفقياً فآخر خروج له يذهب مضطجعا ميتا ! إذا دخل المسجد فآخر دخول له ليصلى عليه، وليس ليصلي ! فعلى الإنسان أن يعرف المقام، حينما تغادر الروح الجسد، حينما يتوقف إمداد الله لهذا الإنسان، فالبطولة أن تكون قد عرفت الله في هذه الساعة، البطولة أن تعرف الله في الرخاء كي يعرفك في الشدة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (12-13): تفسير الآيات 88 – 96
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-10-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الثاني عشر من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(88))

(سورة الإسراء)

الله سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن الكريم معجزة خالدة للنبي عليه الصلاة والسلام، بينما معجزات الأنبياء تنقضي بانقضاء عصرهم، معجزات الأنبياء السابقين تصبح أخباراً يصدقها المصدقون، أو يكذبها المكذبون، ولكن القرآن الكريم الذي جُعِل معجزة خالدة للنبي عليه الصلاة والسلام، هو بين أيدي كل المسلمين ! فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ)

في بعض الآيات:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(33))

(سورة الرحمن)

في هذه الآية بدأ الله بالجن:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

أما في الآية التي نحن في تفسيرها:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ)

هل هناك حكمة من تقديم كلمة الإنس في هذه الآية، وتقديم كلمة الجن في تلك الآية ؟ العلماء قالوا: لأن الجن أقدر على النفوذ في أقطار السماوات والأرض، فبدأ الله بهم ! ولأن الإنس أقدر على صياغة الكلام فبدأ الله بهم ! فترتيب الكلمات في القرآن شيء يلفت النظر، مثلاً ربنا سبحانه وتعالى قال:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ)

(سورة النور)

وفي آية أخرى:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا)

(سورة المائدة)

في السرقة بدأ الله بالسارق، في الزنا بدأ بالزانية، لأن المرأة أقدر على إغراء الرجل إلى الزنا من الرجل ! بينما في السرقة الرجل أقدر على السرقة من المرأة ! ترتيب الكلمات في القرآن الكريم بحث دقيق جداً، في سبع عشرة آية قدم السمع على البصر!

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (78))

(سورة المؤمنون)

لأنه فعلاً يبدأ تكوّن السمع في الجنين، بينما البصر لا يبدأ إلا بعد الولادة ! إلا في آية واحدة:

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12))

(سورة السجدة)

هذه الآية تشير إلى أن سرعة الضوء أشد من سرعة الصوت، أبصَرنا وسمعنا، ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية ! أما السمع ثلاثمائة وثلاثون مترًا بالثانية ! في أكثر الآيات القرآنية ربنا عز وجل يبدأ ببذل المال قبل بذل النفس.

(وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15))

(سورة الحجرات)

لأن بذل المال أسهل، إلا في آية واحدة:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: 111)

هذه الآية في معرض البيع القطعي، وفي البيع القطعي يقدم الأهم فالمهم، تكتب البيت ثم الدكان، فترتيب آيات القرآن الكريم فيها حكمة بالغة جداً، هنا:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ)

في آية خرق السماوات والأرض:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا)

وشتان بينهما، الإنس أقدر على صياغة الكلام، والجن أقدر على عبور السماوات والأرض:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)

الحقيقة أنّ فضل كلام الله على كلام البشر، كفضل الله على خلقه، المخلوق ضعيف، عاجز، يخطئ أحياناً، يضل، لكن كلام الله عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، إذا حصل اليقين بأن كل كلمة في هذا الكتاب مفتاح السعادة في الدنيا والآخرة عندئذٍ يتمسك الإنسان به ! ويرى مصداقيته، الإنسان دائماً يتمسك بالكلام بحسب شعوره بصدقه أو كذبه، أحياناً خبر صادق يهبط الأسعار مئة ألف لكل حاجة ! خبر في خمس كلمات ! لماذا تهبط الأسعار ؟ لثقة الناس أن هذا الكلام صحيح، إذا وثقت

من أن كلام الله عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه الإنسان ولا من خلفه عندئذٍ يكون التمسك به تمسكاً منقطع النظير، حينما يقول الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: 30)

أمر إلهي حينما يقول الله عز وجل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

(سورة الجاثية)

يعجب الله عز وجل كيف يظن الإنسان الذي يجترح السيئات أنه سيسلم في الدنيا، أو أنه سيعامل كما يعامل المؤمن ! هذا شيء مستحيل.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: 61)

حينما تقرأ هذه الآية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: 97)

يجب أن تشعر بطمأنينة ما بعدها طمأنينة، لأن خالق السماوات والأرض يعدك بهذه الحياة الطيبة، حينما تقرأ قوله تعالى:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، يجب أن تطمئن، إذاً هذا الكلام كلام الله رب العالمين، قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، واقع لا محالة ! فضل كلام الله على كلام عبيده أو عباده كفضل الله على خلقه، فربنا عز وجل قال:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(88))

لإحكامه، لنظام صياغته، لشموله لكل حاجات الإنسان، هناك أشياء القرآن تكلم عنها مهمة جداً، هناك أشياء سكت عنها رحمة بنا، فهذا القرآن الكريم مضامينه متعددة فيه مضمون تربوي، فيه مضمون صحي، مضمون اجتماعي، مضمون اقتصادي، مضمون من كل ما نحتاجه، في صياغة معجزة، لا ترقى إليها صياغة، وفيه مفتاح سعادتنا في الدنيا والآخرة، وأخبار الأمم السابقة، أخبار ما سيكون بعد

مضي الأيام، وفيه إشارات إلى الحياة الآخرة، وتوضيح وصور، لذلك الله عز وجل جعل هذا القرآن دستوراً لنا.

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)

(سورة الأنعام: 1)

مضمون الحمد خلق السماوات والأرض، آية ثانية:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1))

(سورة الكهف: 1)

الكون في كفّة، وهذا الكتاب في كفة، هذا الكتاب هو المنهج، الله عز وجل خلق الكون وخلق الإنسان، وخلق له المنهج، لذلك قالوا: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، العلماء بعضهم تحدث عن إعجاز القرآن الكريم فقالوا: هناك إعجاز، ومعنى الإعجاز أن البشر لا يستطيعون مجتمعين أن يأتوا بمثله.

شيء آخر، هناك إعجاز في نظم القرآن الكريم، في صياغته، هناك إعجاز في جزالة ألفاظه، هناك إعجاز في أسلوبه، هناك إعجاز في الإخبار عن الأمم السابقة،

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)

(سورة الشورى: 52)

هناك إعجاز في وعده، وفيه وعد مطلق، ووعد مقيّد.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

فلا كفران لسعيه.

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(سورة النور: 55)

هذا وعد مقيّد، وعد الله الذين آمنوا..

(وَقَالَ اللّهُ إِنّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة: 12)

في الوعد إعجاز، في الوعد المطلق، وفي الوعد المقيّد، وفي أخبار الأمم السابقة إعجاز، وفي تشريع الحلال والحرام إعجاز، وفي الحكم الكثيرة العالية المستوى إعجاز، وفي عدم الاختلاف وعدم التناقض إعجاز، وأول ما في القرآن من إعجاز أنك إذا طبّقته قطفت ثماره ! في اللحظة التي تطبق بعض آيات

القرآن الكريم تقطف ثمارها، إذاً إعجازه في مصداقيته، كيف تتأكد أن هذا الكلام كلام الله رب العالمين؟ أن الوعد الذي وعدك الله إياه إذا قمت بما عليك قطفت الثمار التي وعدت بها !

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(88))

الإنس كلهم، والجن مجتمعين متكاتفين متعاونين متضامنين على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله، هناك آيات أخرى:

(قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38))

(سورة يونس)

لا القرآن بكامله، ولا عشر سور، ولا آية واحدة، ربنا عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء: 29)

لا تأكلوا أموالكم، ولم يقل: لا تأكلوا أموال الناس، بل أموالكم ! مال أخيك هو مالك، يجب أن تحافظ عليه من التلف والضياع، فلأن تمتنع عن أكله بالباطل من باب أولى. شيء آخر،

(أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

إذا كانت الأموال متداولة بين أفراد الأمة كان الناس في بحبوحة، وفي يسر، فإذا أُكلت الأموال بالباطل أصبحت الأموال متداولة بين فئة قليلة، هذا من كلمة أموالكم بينكم.

أما كلمة(تأكلوا) لأن المال ليس هدفاً بذاته، قيمته لا في ذاته، بل في غيره، إنه وسيلة، وأول أهداف كسب المال الأكل والشرب، ربنا عز وجل لم يقل: لا تغتصبوا، لم يقل: لا تظلموا، قال: لا تأكلوا إشارة إلى أن أول أهداف المال شراء الطعام.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

فكل مال من دون عوض فهو بالباطل، المال الحلال هو مال اكتسبته بعِوَض أو بخدمة،

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

النبي الكريم فهم من هذه الآية معاني دقيقة جداً، التجارة يجب أن تكون عن تراض، أن يكون المشتري راضياً فيما لو كُشِف الغطاء، هذا إعجاز ! كلمات محدودة بيّنت أصول كسب المال، وحكم التجارة الصحيحة، وكيف يكون الفقر من تداول المال بين الأيدي القليلة، وكيف يكون أكل مال الناس بالباطل، وكيف أن المال وسيلة، وليس هدفاً، وكيف أن الحياة الاجتماعية للمؤمنين كتلة واحدة، إذا أكلت مال أخيك فكأنما أكلت مالك، لأنك حينما أكلته بالباطل ضعّفته، وإذا ضعف أخوك ضعفت أنت معه، آية ثانية:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: 6)

في القرآن إعجاز في صياغته:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ)

الدابة نكرة، والتنكير يفيد الشمول تقول: إنسان، أي: ستة آلاف مليون، إذا قلت: الإنسان العربي تقصد مئة مليون، التنكير يفيد الشمول، ربنا قال:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

أيّة دابة على وجه الأرض على الله رزقها، أما (من)فتفيد استغراق أفراد النوع، أي: الدواب على الله رزقها، أما ما(من دابة) كل نوع، كل فرد من كل نوع على حِدة تحديداً وتصنيفاً على الله رزقها، إذاً كلمة (دابة) النكرة أفادت الشمول، وكلمة (مِن) أفادت استغراق أفراد النوع، لو ربنا قال: الدواب على الله رزقها، ما كان في هذه الدقة من المعنى، لو قال: الدواب الله يرزقها لم نقل على الله رزقها يرزقها، أو لا يرزقها على وجه الإلزام، أما (على) فتفيد الإلزام.

(إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

لو قال: الدواب على الله رزقها، لا يوجد قصر، الله يرزقها، وغيره يرزقها ! ما من دابة إلا، النفي والاستثناء أفاد القَصر، والتنكير أفاد الشمول، ومن أفادت استغراق أفراد النوع، وعلى تفيد الإلزام، معنى الإلزام مع القصر مع استغراق أفراد النوع مع الشمول، كل هذه المعاني في كلمات،

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

هذا إعجاز، لو أن في الوقت مُتَّسَعٌ لضربنا أمثلة كثيرة كيف أن صياغة القرآن لا يمكن أن تتغير ! نقل أيّ كلمة من مكان إلى آخر يختلف به المعنى اختلافاً كلياً !

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: 30)

(من)للتبعيض، لأن هناك نظر مباح إلى المرأة، إلى الزوجة، لك أن تنظر إليها، الزوجة أو المحارم ! هذه (من)، أن تغض بصرك عن الأجنبيات فقط، من أبصارهم.

شيء آخر،

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

جعلت آية غض البصر قبل آية حفظ الفرج تأكيداً إلى أن حفظ الفرج سببه غض البصر ! نظرة، فابتسامة، فموعد، فلقاء !

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

هناك ترتيب، من يصدق أن كلمة (اليوم) في القرآن الكريم وردت ثلاثمئة وخمساً وستين مرة، حصراً! وأن كلمة شهر وردت اثنتا عشرة مرة، بالضبط، ومن يصدق أن آيات النار تكافئ آيات الجنة بالعد والتمام ! وآيات الملائكة تكافئ آيات الشياطين ! وآيات الدنيا تكافئ آيات الآخرة ! هذا شيء فوق طاقة البشر ! على كل حال عندنا إعجاز بلاغي، وعندنا إعجاز رياضي، وعندنا إعجاز حسابي، وعندنا إعجاز تشريعي، وعندنا إعجاز يتعلق بالأحوال الشخصية، ربنا عز وجل قال:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق: 1)

بيوتهن، البيت ملكك، ثمنه ثلاثون مليونًا، ملكك، الله جعل البيت ملك المرأة ! ملكية اجتماعية، بمعنى أن الإنسان يؤكد شخصيته في عمله خارج البيت، لكن المرأة بحاجة ماسة إلى إرواء هذه الرغبة، تأكيد الذات، إدراج الأهمية، جعل البيت ملكاً لها ملك إدارة، أي: دع البيت للمرأة ترتبه كما تشاء، هذا معنى قوله عز وجل:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

حينما نسب البيت إلى المرأة أي: نسب إليها نسبة إشراف وإدارة تأكيداً لشخصيتها،

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)

إشارة ثانية إلى أن الزواج لا ينجح إلا في بيت مستقل ! بيوتهن لها بيت خاص.

والمعنى الثالث: أن أيّ مشكلة مهما كانت كبيرة إذا بقيت المرأة في بيتها تصغر إلى أن تتلاشى ! وأصغر مشكلة إذا أخرْجَتها من بيتها تكبر ! أدق قانون في التعامل الزوجي ! لو أحصينا حالات الطلاق لوجدنا في كل مئة حالة طلاق سبعين حالة من الطلاق سببها أنه في ساعة الغضب أخرج الرجل امرأته إلى بيت أهلها ! تفاقم الأمر، جاءت مُغِذّيات، جاء أطراف أخرى، تدخلوا في الأمر، أما لو أن المرأة بقيت في بيت الزوجية، أو أبقاها في بيت الزوجية لحُلّت هذه القضية بعد يومين، لذلك قال:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

قد يشكو الرجل ضعف قوامته على المرأة، ربنا وضع قانونًا فقال:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة النساء: 34)

يجب أن تكون أعلى منها ثقافة، أعلى منها ورعاً، أعلى منها علماً، أعلى منها خلقاً، إن لم تكن أعلى منها لا تستطيع أن تقودها!

(بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

شرطان للقوامة: أن تكون أعلى منها، وأن تنفق عليها، عندئذٍ مركب الزوجية يسير، هذه أمثلة وشواهد على إعجاز القرآن، الإعجاز في التشريع، في البلاغة، في البيان، الإعجاز في ذكر أخبار الأمم السابقة، الإعجاز في ذكر ما سيكون ! والله لو أمضى الإنسان حياته كلها في الحديث عن إعجازه لا ينتهي ! كلام الله رب العالمين، الكون قرآن صامت ! والقرآن كون ناطق !

وبعضهم يضيف على ذلك أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم قرآن يمشي ! قرآن صامت هو الكون، كون ناطق هو هذا الكتاب، أما إذا أردت أن ترى إنساناً تمثّل فيه القرآن تمثلاً صحيحاً فهو النبي الكريم!

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ:

((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ))

(مسند الإمام أحمد)

سيدنا عمر كان وقافاً عند كتاب الله ! وقاف..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29))

(سورة المعارج)

انظر لهذا الأدب الرفيع، أحياناً تفتح كتاب فقه تخجل أحياناً، يوجد ذكر لبعض الحالات لا ترغب أن يقرأ الكتابَ ابنُك ! يقولون: لا حياء في الدين، لا، الدين كله حياء، والحياء من هذا الكتاب مأخوذ.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31))

(سورة المعارج)

وراء ذلك ! كل أنواع الانحرافات اللاأخلاقية في الأرض منطوية تحت قوله تعالى:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

يقول لك الله عز وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

(سورة النحل)

يأتي شاب يعيش في سنة الستة وثمانين ركب سيارة فخمة، أو ركب طائرة، أو ركب باخرة سياحية.

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

هو يركب سيارة ثمنها مليون ! يقول الله لك:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

هذه الكلمة غطّت كل المستقبل ! فإذا ركبت طائرة كبيرة نفاثة كأنها مدينة متنقلة.

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

وكيف أن الله عز وجل عزى خلق الطائرة إلى ذاته، لأن الفكرة من الله عز وجل هو الملهم، يقولون: الاختراع قفزة المجهول، إشراق الاختراع، وهو الذي خلق المواد التي صنعت منها الطائرة، وهو الذي خلق الوقود ! هناك آية عن الوقود السائل:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

(سورة يس)

أحدث نظرية في البترول تقول: إنه في العصور المطيرة غابات عملاقة طمرت في باطن الأرض، فكان منها البترول !

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

الإنسان يعجب بأن شجراً أخضر لا يشعل سوف يكون شجراً يابسًا.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

فلذلك القرآن الكريم فيه إعجاز علمي، إعجاز تاريخي، إعجاز تشريعي، إعجاز بياني، إعجاز بلاغي، إعجاز حسابي، إعجاز رياضي، هو المعجزة التي.. لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يحزن قارئ القرآن))

(ورد في الأثر)

عنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ قَالَ: **<< إنّ قارئَ الْقُرْآنِ، وَالْمُتَعَلِّمَ تُصَلِّي عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ حَتَّى يَخْتِمُوا السُّورَةَ، فَإِذَا أَقْرَأَ أَحَدُكُمُ السُّورَةَ فَلْيُؤَخِّرْ مِنْهَا آيَتَيْنِ حَتَّى يَخْتِمَهَا مِنْ آخِرِ النَّهَارِ كَيْ مَا تُصَلِّي الْمَلائِكَةُ عَلَى الْقَارِئِ، وَالْمُقْرِئِ مِنْ أَوّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ >>.**

(الدارمي)

هذا الحديثُ وحدَه يكفي،

((لا يحزن قارئ القرآن))

(ورد في الأثر)

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((من جمع القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت))

(السيوطي في الجامع الصغير، عن أنس، وهو حديث لا يصح)

يستحيل على مؤمن وعى القرآن أن يخرف في آخر عمره،

((من جمع القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت !))

القرآن غنىً لا فقر بعده ! ولا غنىً دونه ! لو أنك أنفقت كل مالك من أجل أن تفهم هذا الكتاب كنت أنت الرابح ! ولو أنك حصّلت أموال الدنيا وفاتك فهم هذا الكتاب كنت أنت الخاسر ! لأن هذا الكتاب دليلك إلى الله عز وجل، فمثلاً لو أحضرت آلة معقدة جداً أو جهاز كمبيوتر لتحليل الدم ثمنه اثنا عشر

مليونًا، ويمكن أن تضع نقطة دم في الكمبيوتر وتكبس زرًا فيعطيك سبعة وعشرون تحليلاً فوراً، وهناك أجهزة هكذا حقاً، لكنها غالية الثمن ! وإذا كان عندك في اليوم مئتا تحليل، وكل تحليل خمسمئة ليرة، اعمل حسابك، هذا الكمبيوتر استوردته، ولم يرسل لك معه نشرة الاستعمال، أليست هذه النشرة التي لم ترسل معه أهم منه ؟ لو استعملته بلا نشرة لأعطبته، ولو لم تستعمله لجمدت ثمنه ! فمن أجل أن تستعمله لا بد من قراءة هذه النشرة، كيف أنه ثمين جداً، وثمنه مرتفع جداً، لا قيمة له إلا بهذه النشرة ! وكذلك الإنسان فيه غرائز، فيه حاجات، فيه ميول، له نفس، له قيم أمور معقدة جداً، لولا هذا الكتاب لكان كالبهيمة، أكَلَ ما شاء، من أي مصدر شاء، وقضى لذّته بالطريقة التي تحلو له، فهلك وأهلك ! وشقي وأشقى، لذلك العلماء يقولون: الإنسان من دون علم بهيمة ! يسقط إلى مستوى الحيوان، وبالعلم يرقى إلى مستوى الإنسان، فهذا الكتاب:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(88))

(سورة الإسراء)

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

(سورة الإسراء)

قال العلماء: قرآن الفجر القرآن الذي تقرأه في صلاة الفجر.

(إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78))

(سورة الإسراء)

ركعتا الفجر خير لك من الدنيا وما فيها:

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7))

(سورة المزمل)

هذا الذي يحفظ كتاب الله لو تعلم كم هو سعيد بحفظ كتاب الله، كم هو موفق، كم هو يحقق الهدف من وجوده على وجه الأرض إذا حفظ كتاب الله وعمل به، إلا أن الذي لا يعمل بكتاب الله ينطبق عليه الأثر:

((رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89))

معنى صرف قلّب، أمر ونهي، ووعد ووعيد، وقصة ومثل، وحكمة وخبر صادق، ووعد لاحق، وصورة من عالم الأزل.. تنويع دقيق جداً، تنويع في السورة الواحدة، لو جمعت القصص في فصل، والآيات الكونية في فصل لما وجدت في نفسك رغبة في قراءتها ! لكن ترتيب القرآن ترتيب نفسي، لا ترتيب موضوعي، بعضهم يقترح أن يصنف كتاب الله تصنيفاً موضوعياً، لو صنف القرآن تصنيفاً

موضوعياً لذهبت قوة تأثيره ! تقرأ السورة تأتي آية الوعيد تخاف، تأتي آية الوعد تتفاءل، تأتي الآية الكونية تستعظم الله عز وجل، تأتي قصة لقوم أهلكهم الله تعتبر، يأتي مشهد من مشاهد يوم القيامة تتفاءل، فهذه السورة تأخذ بيدك من الخوف إلى الرجاء إلى الثقة إلى التعظيم إلى التفاؤل، هذه الأحوال النفسية تتلو وترتقي من آية إلى آية.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89))

قال بعض العلماء: إن هذه الآية دليل قطعي على أن الإنسان مخيّر، يعني أبوا، كان بإمكانهم أن يستجيبوا فأبوا، إذاً هم مخيرون بين أن يستجيبوا وبين أن يأبوا، قل لي بربك: لو كنت صاحب محل تجاري، وعندك موظف، وقلت لهذا الموظف: تعال غداً باكراً، أمرته أن يأتي باكراً، أليس في إمكانه أن يأتي متأخراً ؟ لو لم يكن في إمكانه أن يأتي متأخراً لما أمرته أن يأتي باكراً، هو مخيّر، إذاً يقتضي الأمر أن المأمور مخيّر، ويقتضي النهي أن المنهي مخيّر، لو نهيته عن أن يخرج قبل أن يعلمك أليس في إمكانه أن يخرج قبل أن يعلمك ؟ طبعاً بإمكانه، فربنا قال:

(فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89))

هم أبوا، كان بالإمكان أن يؤمنوا فأبوا.

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة)

لمجرد أنك تجري سباق دراجات ما، معنى ذلك أن الدراجات مقيدة أم مطلقة ؟ إذا ربّطها بحبال ثخينة، وأمرتها أن تستبق أيكون هذا معقولاً ؟ لا تستبق الدراجات إلا إذا كانت حرة طليقة، فالإنسان مسؤول عن أعماله.

سيدنا عمر جاءه رجل شارب للخمر قال: يا أمير المؤمنين إن الله قدّر عليّ ذلك ! قال: **ويحك أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله ! قال له: إن قضاء الله عز وجل لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار ! أنت مخيّر.**

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام)

هذا كلام المشركين، إذاً هذه الآية دليل قطعي على أن الإنسان مخيّر.

(فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89))

أبوا، كان بإمكانهم أن يستجيبوا فأبوا، هم مخيّرون.

(أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً (93))

(سورة الإسراء)

هذه الآية لها سبب نزول، وفي أغلب الأحيان يكون سبب النزول كاشفاً لخبايا الآية، فقد ورد في تفسير القرطبي في شرح هذه الآية أن رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة وأبي سفيان وأبي جهل وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة ذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن، ولم يرضوا به معجزة اجتمعوا فيما ذكر ابن إسحاق وغيره بعد غروب الشمس عند الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فكلموه، وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم، فجاءهم النبي عليه الصلاة والسلام، وهو يظن أنه قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدوٌ، لعلهم أرادوا أن يؤمنوا، وأن يسلموا، فرح بهذا اللقاء، وكان النبي الكريم حريصاً يحب رشدهم، ويَعِزُّ عليه عَنَتَهُم، حتى جلس إليهم فقالوا:

((يا مُحَمَد، إنّا قدْ بُعِثْنَا إليكَ لِنُكَلِمَكَ، وَإنّا وَاللّهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلاً مِنَ العَرَبِ أدْخَلَ عَلَى قَوْمَاً مَا أدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ لَقد شَتَمْتَ الآبَاءَ، وَعِبْتَ الدِّينَ، وَشَتَمْتَ الآلِهَةَ، وَسَفَهْتَ الأحْلام، وَفَرّقْتَ الجَمَاعَةَ، فَمَا بَقِيَ أمْرٌ قَبيحٌ إلا قد جِئْتَهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أو كَمَا قَالُوا، فَإن كُنْتَ إنَمَا جِئْتَ بِهَذَا الحَدِيثِ تَطْلُبُ بِهِ مَالاً جَمَعْنَا لَكَ مِن أمْوَالِنَا حَتَى تَكُونَ أكْثَرُنَا مَالاً، وَإنْ كُنْتَ إنَمَا تَطْلُبَ بِهِ الشَرَفَ فِينَا فَنَحْنُ نُسَوّدُك عَلَينَا، وَإنَمَا كُنْتَ إنَمَا تُرِيدُ مُلْكَاً مَلّكْنَاكَ عَلَينَا، وَإنْ كَانَ الذِي يَأتِيكَ رُئيَا مِنَ الجِنِ تَرَاهُ قدْ غَلَبَ عَلَيْكَ فَرُبَمَا كَانَ ذَلِكَ بَذَلْنَا أمْوَالَنَا فِي طَلَبِ الطِبِ لَكَ، إذَا كَانَ بِكَ مَسٌ مِنَ الجِنِ نُعَالِجُكَ، إنْ كُنْتَ تُرِيد المَالَ جَعَلْنَاكَ أغْنَانَا، إنْ كُنْتَ تُرِيدُ الشَرَفَ لا نَقْطَعُ أمْرَاً دُونَكَ، إنْ كُنْتَ تُرِيد المُلْكَ مَلّكْنَاكَ عَلَينَا فَقَالَ عَلَيهِ الصَلَاةُ وَالسَلَام: مَا بِيَ كَمَا تَقُولُون، مَا جِئتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أطْلُبُ أمْوَالَكُمْ، وَلا الشَرَفَ فِيْكُمْ، وَلا المُلْكَ عَلَيكُمْ، وَلَكِنّ اللّهَ بَعَثَنِي إلَيْكُم رَسُولاً، وَأنْزَلَ عَلَيّ كِتَابَهُ، وَأمَرَنِي أنْ أكُونَ لَكُم بَشِيراً وَنَذِيراً، فَبَلَغْتُكُم رِسَالاتِ رَبِي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإنْ تَقْبَلُوا مِنّي مَا جِئْتُكُم بِهِ فَهُوَ حَظُكُمْ فِي الدُنيا وَالآخِرَةَ، وَإنْ تَرُدُوهُ عَلَيّ أصْبِر لأمْرِ اللّه حَتَى يَحْكُمَ اللّهُ بَينِي وَبَينِكُمْ))

هذا كان جواب النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ.

قَالُوا:

((يَا مُحَمَد إنْ كُنْتَ غَيرَ قَابِلٍ مِنّا شَيْئَاً مِمَا عَرَضْنَاهُ عَلَيكَ فَإنّكَ قدْ عَلِمْتَ أنّهُ لَيسَ مِنَ النَاسِ أحَدٌ أضْيَقَ بَلَدَاً، وَلا أقَلُ مَاءً، وَلا أشَدّ عَيْشَاً مِنّا ـ كلها جبال مكة، جبال متضامنة كثيفة تضيق الأرض بأهلها جافة وقاحلة، لا نبات فيها ـ إنّكَ قدْ عَلِمْتَ أنّهُ لَيْسَ مِنَ النَاسِ أحَدٌ أضْيَقُ بَلَدَاً، وَلا أقَلُ مَاءً،

وَلا أشَدُّ عَيشاً مِنّا، فسَل لَنَا رَبَكَ الذِي بَعَثَكَ فَلْيُسَيّر هَذِهِ الجِبَالَ عَنّا أبْعَدَهَا الّتِي قدْ ضَاقتْ عَلَينَا، وَلْيَبْسِط لَنَا بِلادَنَا، وَلِيَخْرِقَ لَنَا فِيهَا أنهَاراً كَأنْهَار الشَام، وَلِيَبْعَثَ لَنَا مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا، وَلْيَكُنْ فِيمَن يَبْعَثُ لَنَا قُصَيَ بنَ كِلاب فَإنّهُ كَانَ شَيخُ صِدقٍ فَنَسْأَلَهُم عَمّا تَقُولُ أحَقٌ هُوَ أم بَاطِل ؟ فَإنْ صَدّقُوكَ بِمَا سَأَلْنَاهُمُ صَدّقْنَاك، وَعَرَفْنَا بِهِم مَنْزِلَتَكَ، وَأنّهُ بَعَثَكَ اللّهُ لَنَا رَسُولاً ، فَقَالَ لَهُم عَلَيهِ الصَلاةُ وَالسَلامُ: مَا بِهَذَا بُعِثْتُ إلَيْكُمْ، إنَمَا جِئْتُكُمْ مِنَ اللّه تَعَالَى بِمَا بَعَثَنِيَ اللّهُ فِيهِ، وَقد بَلّغْتُكُمْ مَا أرْسِلْتُ بِهِ إلَيْكُمْ، فَإن تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حَظُكُم فِي الدُنيَا وَالآخِرَة، وَإنْ تَرُدُوهُ عَلَيَ أصْبِر لأمْرِ اللّهَ حَتَى يَحْكُمُ اللّهَ بَينِي وَبَيْنَكُم.

قالُوا: فَإذَا لَمْ تَفْعَلَ هَذَا لَنَا فَخُذْ لِنَفْسِكَ، سَل رَبَكَ أنْ يَبْعَثَ مَعَكَ مَلَكاً يُصَدِقُكَ لِمَا تَقُولُ، وَيُرَاجِعَنَا عَنْكَ، وَاسأَلْهُ فَلْيَجْعَلَ لَكَ جِنَاناً وَقُصُوراً وَكُنُوزاً مِنْ ذَهَبٍ وَفِضّةٍ يُغْنِيكَ بِهَا عَمَا نَرَاكَ تَبْتَغِي فَإنّكَ تَقُومُ بِالأسْوَاق ـ أنت رجل فقير وتلتمس المعاش كما نلتمسه ! ليس لك شأن عندنا، لو كان لك بيتاً فخماً حدائق غناء ذهب وفضة معارج صدقناك انك رسول، أما أنت فقير، من أجل أن نعرف منزلتك وفضلك من ربك إن كنت كما تزعم رسولاً !

فَقَالَ عَلَيهِ الصَلاةُ وَالسَلامُ: مَا أنَا بِفَاعِلٍ، وَلا أنَا بِالّذِي يَسْأَلُ رَبَهُ، وَمَا بُعِثْتُ فِيكُم بِهَذَا، وَلَكِنّ اللّهَ بَعَثَنِي بَشِيراً وَنَذِيراً ! فَإن لَمْ تَقْبَلُوًا مِنِي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُكُمُ مِنَ الدُنيَا وَالآخِرَة، وَإنْ تَرُدُوهُ عَلَيَ أصْبِر لأمْرِ اللّهَ حَتَى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ ".

قالُوا: إذاً فَأسْقِط السَمَاءَ عَلَيْنَا كِسَفاً ـ تهددنا بالله ؟ ليفعل بنا ما شاء، أسقط علينا السماء كسفا كما زعمت أن ربك يفعل ما يشاء ـ فَإنّا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ إلا أنْ تَفْعَل !

فَقَالَ النَبيُ عليه الصلاة والسلام لَهُمْ: ذَلِكَ إلَى اللّهِ عَزَ وَجَل إن شَاءَ فَعَلَهُ، وَإنْ شَاءَ لَمْ يَفْعَلْه.

قالُوا: يَا مُحَمَد، أفَمَا عَلِمَ رَبُكَ أنّا سَنَجْلِسُ إلَيْكَ ؟ وَنَسْأَلُكَ عَمَا سَأَلْنَاكَ عَنْهُ ؟ وَنَطْلُبُ مِنْكَ مَا نَطْلِب ؟ فَلِيَتَقَدَمَ إلَيْكَ فَيُعْلِمُكَ بِمَا تُرَاجِعُنَا فِيهِ، وَيُخْبِرُكَ بِمَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ بِنَا ! إنّهُ قدْ بَلَغَنَا أنّهُ يُعَلِمُكَ رَجُلٌ مِنَ اليَمَامَةَ يُقَالُ لَهُ الرَحْمَن، وَإنّا وَاللّهِ لا نُؤْمِنُ بِالرَحْمَن أبَداً، فَقَدْ أعْذَرْنَاكَ يَا مُحَمَد، وَإنّا وَاللّه لا نَتْرُكُكَ وَمَا بَلَغْتَ حَتَى نُهْلِكَكَ أوْ نَهْلَكَ، هذا آخر كلام.

وَقَالَ بَعْضُهُم: نَحْنُ نَعْبُدُ المَلائِكَةَ وَهِيَ بَنَاتُ اللّه، وَقَالَ قَائِدَهُم: لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتَى تَأْتِيَ بِاللّهِ وَبِالمَلائِكَةَ قَبِيلاً. أي نراهم بأعيننا.

فَلَمَا قَالُوًا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهَ صَلَى اللّهُ عَلَيهِ وَسَلَم قَامَ عَنْهُمْ، وَقَامَ مَعَهُ عَبْدُ اللّهِ بنُ أبِي أمَيَة، وَهُوَ ابْنُ عَمَتِهِ فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَد، عَرَضَ عَلَيكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا فَلَمَ تَقْبَلَهُ مِنْهُمْ، ثُمّ سَأَلُوكَ لأنْفُسِهِم أمُوراً لِيَعْرِفُوا بِهَا مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللّه فَلَم تَفْعَل، ثُمَ سَأَلُوكَ أنْ تَأْخُذَ لِنَفْسِكَ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ فَضْلَكَ فَلَم تَفْعَل، ثُمّ سَأَلُوكَ أنْ تُعَجِّلَ عَلَيهِم العَذَابَ فَلَم تَفْعَل، فَوَ اللّه لا أوْمِنُ بِكَ أبَداً حَتَى تَتْخِذَ إلَى السَمَاءَ سُلَمَا، ثُمَ تَرْقَى

فِيهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيكَ، حَتَى تَأْتِيَهَا، وَتَأْتِيَ مَعَكَ بِصَكٍ فِيهِ مِنَ المَلائِكَةَ يَشْهَدُونَ لَكَ أَنَكَ نَبِي، عِنْدَئِذٍ انْصَرَفَ النَبِيُ عَلَيْهِ الصَلاةُ وَالسَلامُ إِلى أَهْلِهِ حَزِيناً آسِفاً لِمَا فَاتَهُ مِمَا كَانَ يصنع بِهِ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِ))

(تفسير القرطبي)

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً(92))

(أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً(93))

(سورة الإسراء)

أنا بشر، هذه فوق طاقتي، هذه ليست لي، هذه متروكة لمشيئة الله عز وجل،

(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً(94))

كأن الله عز وجل يعني هو فوق من أن يكون رسوله من بني البشر، ربنا عز وجل ردّ عليهم قال:

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً (95))

يجب أن يكون الرسول من طبيعة المرسل إليهم ! لو أن الرسول ملك عظيم، وأمرهم بغض البصر ماذا يقولون ؟ أنت ملك ونحن بشر، هذا أمر غير معقول، أما إذا كان الرسول من طينتهم بشراً فسلوكه حجة عليهم، سلوكه وانضباطه وطاعته لله عز وجل، بشريته حجة على من عصاه !

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً (95))

الملائكة رسولهم مَلَك، والجن رسولهم جن، والإنس إنس، لا بد من أن يكون الرسول من طبيعة المرسل إليهم حتى تقوم الحجة،

آخر آية:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (96))

الله عز وجل كيف يشهد ؟ سؤال دقيق جداً، من منكم سمع الله عز وجل يشهد له أن هذا القرآن كلامه؟ الحقيقة هذه الآية دقيقة جداً،

عندما قال ربنا عز وجل:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

هذه آية، كيف يشهد الله عز وجل لك ـ أيها الإنسان ـ أن هذه الآية من كلامه ؟ يشهد لك بأن الإنسان إذا أعرض عن ذكر الله عز وجل يعيش حياة شاقة صعبة شقيّة، هذه شهادة !

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276))

(سورة البقرة)

كيف يشهد الله لعباده أن هذه الآية من كلامه ؟ محق المال الحرام شهادة الله عز وجل ! الحياة الطيبة التي يحياها المؤمن شهادة من الله عز وجل على صدق كتابه ! الحياة الضنك التي يعيشها الكافر شهادة من الله عز وجل على صدق كتابه ! أن تزيد الأموال إذا دفعت منها الصدقات !

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276))

نماء المال على إثر الصدقة شهادة من الله عز وجل ! ومحق المال على إثر الربا شهادة، فالشهادة تحقق الوعد والوعيد هو الشهادة.

آلة ضخمة عليها زر تشغيل، كلمة التشغيل هذه صحيحة أم غير صحيحة ؟ اضغط الزر، فإذا عملت الآلة بكاملها فإنّ عمل الآلة شهادة على أن هذه الكلمة صحيحة ! إذا ضغط الزر، ولم تتحرك الآلة معنى هذا أن الزر خطأ ! فأكبر شهادة لله عز وجل على أن هذا القرآن كلامه أن وعده ووعيده واقع لا محالة في كل زمان ومكان.

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة)

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

(سورة يونس)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (13-13): تفسير الآية 97 ، حتى آخر السورة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-10-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً (100))

(سورة الإسراء)

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (97))

(سورة الإسراء)

الهدى وحده من عند الله عز وجل، من ترك الله، من أعرض عنه، لا يمكن أن يكون مهتدياً ! الهدى هو هدى الله، فمن لم يهتدِ بهدى الله فهو الضّال ! ماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ هذا المعنى مستنبط من قوله تعالى:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (97))

الهدى كله من عند الله، ولا هدى من عند غير الله، لو اتسعت ثقافة الإنسان، لو قرأ آلاف الكتب، لو تعمق في نظرية ما، لا يسمى مهتدياً إلا إذا عرف الله عز وجل، إلا إذا طبق المنهج الذي أنزله الله عز وجل، المعنى دقيق:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (97))

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة)

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

الهدى كخط مستقيم، وبين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، فمن لم ينطبق خطّه على خط الحق فهو منحرف، قولاً واحداً.

والله سبحانه وتعالى إذا نسب الهدى إليه فهذا الهدى المبني على اختيار الإنسان، يختار الإنسان الهدى فيهديه الله عز وجل.

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ((17))

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: 5)

علماء التوحيد قالوا: هناك الضلال الابتدائي، وهناك الضلال الجزائي، فإذا قال الله عز وجل:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

فيعني هذا الضلال جزائي، حينما يختار الإنسان الضلال، وهو الضلال الابتدائي يستحق الضلال، وهو الضلال الجزائي.

إذا أعرض الإنسان عن دخول الجامعة فهو محروم من تلقي الدروس، محروم من إعطاء الرتب، محروم من المطالعة، محروم من استعارة الكتب، كل الميزات التي يتمتع بها طالب الجامعة، محروم منها، لأنه رفض دخول الجامعة ! فرفض دخول الجامعة هو الضلال الابتدائي الاختياري، حرمانه من كل هذه الميزات هو الإضلال الجزائي، إذا نسب الضلال إلى الله عز وجل، إذا نسب الإضلال إلى الله عز وجل، فهذا هو الإضلال الجزائي، ولا بد من أن يسبقه ضلال ابتدائي اختياري.

وأوضحُ مثلٍ مثل الجامعة، إذا رفض الطالب دخول الجامعة باختياره حرم من كل ميزات الطالب الجامعي ! إذا رفض الإنسان هدى الله عز وجل، أعرض عن الحق، جعل القرآن وراءه ظهرياً، جعله مهملاً، عطّل أحكامه، رفض الدين كنظام للحياة، رفض القوانين الإلهية التي وردت في كتاب الله، لم يعبأ بتحذيرات الله، لم يتعلق بوعد الله، إذا رفض الهدى الإلهي جملة وتفصيلا عندئذٍ يضلّه الله ! بمعنى أنه يحرمه كل الميزات التي يستحقها الذي اختار الهدى ! فحيثما نسب الإضلال إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي الذي يسبقه ضلال اختياري ! هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

المعنى الثاني: أن الله عز وجل حينما يضلل يضل إنساناً هذا الإضلال وفق مجموعة من القوانين موضحة في آيات أخرى،

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108))

(سورة المائدة)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264))

(سورة البقرة)

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52))

(سورة يوسف)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258))

(سورة البقرة)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108))

(سورة المائدة)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28))

(سورة غافر)

فإذا عُزي الإضلال إلى الله فوفق مجموعة من القوانين مفصلة في آيات أخرى.

إذاً حينما تقرأ قوله تعالى:

(وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا الإضلال جزاءً دقيقاً عادلاً لاختيار مع الإصرار، وأن هذا الإضلال وفق مجموعة من القوانين موضحة في كتاب الله، وهناك بعض التفسيرات لإضلال الله عز وجل تليق بأسمائه الحسنى، إنه يُضل عن شركائه لا عن ذاته، كأن تخفي لابنك لعبة يلهو بها، والامتحان على الأبواب فأنت أضللت هذا الابن، أضللته عن ماذا ؟ عن شيء يؤذيه، عن شيء يضره ! فإما أن تفسر إضلال الله إضلالاً عن غيره عن شركائه، وإما أنه إضلال جزائي جاء جزاءً وفاقاً لضلال ابتدائي، وإما أن هذا الإضلال نوع من تطبيق لمجموعة قوانين موضحة في آيات أخرى، هذا معنى الإضلال إذا نسب إلى رب العزة !

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)

لا يوجد سوى هذه الحالة، إما أن تكون مهتدياً بهدي الله فأنت المهتدي، وما سوى ذلك فهو الضلال المبين، لو تعمقت في العلوم، لو تعمقت في الفلسفة، لو قرأت النظريات، لو سبرت أغوار المبادئ الوضعية، لو اطلعت، لو ناظرت، لو احتللت أعلى المراكز العلمية، مادمت لم تعرف الله عز وجل، ولم تسر على منهجه فهذا هو الضلال بعينه !

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

الذي عنده معجم مفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وتقصى كلمة هدى ومشتقاتها يستنبط بحثاً دقيقاً جداً كنت قد عرضته في خطبتين سابقتين، كيف أن الهدى له موجبات، وكيف أن الهدى له موانع، وكيف أن الهدى له تعاريف، وكيف أن الهدى له قوانين، هناك بحث لطيف جداً يستنبط من تقصي كلمة الهدى في كتاب الله، لا مجال لإعادة هذا البحث ! أرجو الله أن يمكنني من إعادته في وقت آخر.

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

في هذه الآية ظاهرة بلاغية:

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)

(هو)ضمير لمفرد الغائب، ضمير منفصل يدل على الغائب المفرد المذكر، ومن يضلل: كان من المناسب أن يقال: ومن يضلل فلن تجد له، فلماذا جاء الهدى بضمير المفرد ؟ وجاء الإضلال بضمير الجمع ؟ هذه الظاهرة البلاغية فسّرها المفسّرون بأن طريق الحق واحدة لا يتعدد، يؤكد هذا قوله تعالى في سورة أخرى:

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (153))

(سورة الأنعام)

الاستقامة لها حد واحد، خط مستقيم بين نقطتين لا يمر من هاتين النقطتين إلا خط مطابق للأول، أما الانحراف فهناك مئات ألوف الخطوط المنحرفة والمنحنية والمنكسرة والخارجة عن هذا الخط، فالباطل متعدد، فالربا باطل، والزنا باطل، الانغماس في الملذات والكذب باطل، الغيبة والنميمة باطل، أما الاستقامة لها حد واحد.

تعريف آخر، الاستقامة لها حد واحد، أو تسمى استقامة قطعية، بمعنى أن هذا البرميل الذي أعددته للوقود السائل إما أن يكون محكماً، وإما أن يكون غير محكمٍ، فإن كان محكماً فله حالة واحدة، إذا وضعت فيه ألف لتر، وأغلقته إغلاقاً محكماً فلن تنقص هذه الكمية أبداً ! أما إذا كان غير محكم فلابد من تسرب الوقود السائل ! قد يكون فيه فتحة تفرغه في ساعة، في نصف ساعة، في دقيقة، في عشر ساعات، في شهر، الخلل متعدد متدرج كثير متنوع، أما الإحكام فحالة واحدة، أما الخلل فله عدة حالات.

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (153))

بهذا المعنى بالذات جاءت هذه الآية:

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)

لأن فلانا اهتدى سار على هذا الطريق، اهتدى فلان آخر سار على الطريق نفسه، تطابق مئة في المئة؛ لا يوجد كذب، أو غش، أو استعلاء، أو تكبر، أو نميمة، أو إفساد، ولو جاء إنسان آخر استقام على أمر الله انطبق مع سلوك هذين الاثنين ! فالمؤمنون على كثرتهم يمثلهم نموذج واحد، لأن طريق الاستقامة واحد، لكن أهل الكفر والدنيا لهم مشارب شتّى، وانحرافات شتّى، الانحرافات أنواع، والنوع درجات، لذلك أهل الباطل متفرقون.

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر)

هذا بطلان في اقتناص الملذات، هذا في كسب المال، هذا في العدوان على الأعراض، هذا في العلوّ في الأرض، كل إنسان أغرته الدنيا من زاوية فانحرف من أجلها، وانحرافه درجات، هذا يسرق ليرة، هذا مئة ليرة، هذا ألف ليرة، هذا يقتل، هذا يضرب، فالانحراف والمعصية والشتات منوّع جداً، من هنا جاء قوله تعالى:

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

ومن يضلل لأن طرق الضلال كثيرة فلن تجد لهم ـ بالجمع ـ أولياء من دونه.

هذه الظاهرة البلاغية، كيف أن الضمير جاء مفرداً مع الهدى ؟ لأن للهدى طريقاً واحداً، وكيف أن الضمير جاء للجمع مع الضلال ؟ لأن طرق الضلال كثيرة جداً.

(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ كُلّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً(97))

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ))

(مسند الإمام أحمد)

يشيب المرء على ما شّب عليه، ويموت المرء على ما شاب عليه، يبعث المرء على ما مات عليه. فمن تعلق بالدنيا، وأكل من مالها الحرام، وانغمس في شهواتها المنحرفة، واستمرأ هذه الحياة، وشبّ عليها ونشأ هذا يشيب على هذه الصفات، ويموت على هذه الصفات، ويحشر على هذه الصفات ! شيء خطير، من هنا استنبط النبي عليه الصلاة والسلام أنه من بلغ الأربعين، ولم يغلب خيره شرّه فليتجهز إلى النار ! من هنا جاء في بعض الآثار:

((يا عبدي كبرت سنك، وضعف بصرك، وشاب شعرك، وانحنى ظهرك، فاستحي مني فأنا أستحيي منك))

من هنا كان الشاب الذي نشأ في طاعة الله تهون عليه طاعة الله طوال حياته، من هنا كان الإنسان الذي نشأ في المعصية يصعب عليه أن يغير نمط حياته، أدمن لعب الطاولة طوال حياته، أصبحتْ جزءاً من بنيانه، أدمن النظر إلى النساء، أدمن المزاح الرخيص، أدمن سماع الأخبار السيئة، أدمن الاسترخاء والاستمتاع والكسل، هذا يصعب عليه أن يصبح إنساناً آخر، يتمتع بالجرأة والاستقامة والهمة العالية.

فلذلك الشباب الذي أطاع الله عز وجل يباهي الله به الملائكة ! إن الله يباهي الملائكة بالشاب المؤمن، يقول:

((انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، ويا من بلغ سن الأربعين وهو على الصراط المستقيم هنيئاً له))

قال تعالى:

(إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

(سورة الأحقاف: 15)

أشار كتاب الله إلى أن أشد الإنسان سن الأربعين ! فإذا بلغه وهو على طاعة الله فهذه شهادة طيبة إلى أنه سيتابع الطريق إلى الدار الآخرة

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

(وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: 11)

إذا رفع الله إنساناً فليس في الأرض كلها قوة تستطيع أن تخفضه ! وإذا أعطاه من يمنعه ؟ ثم من يعطيك إذا ما منعك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ:

((يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ اللّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ، بِاللّهِ وَاعْلَمْ أَنّ الْأُمّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفّتْ الصّحُفُ))

(الترمذي)

وانتهى الأمر، علاقتك مع الله وحده.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: 123)

(بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83))

(سورة يس)

(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ)

(سورة الإسراء)

كيف أنهم كانون ناظرين إلى الدنيا، مستغرقين فيها، تعنيهم ملذاتها، يعنيهم مالها، يعنيهم متاعها، هذه النظرة السفلية يحشرون عليها، بعض المعاني أنهم بنظرهم إلى الأرض وشهواتها يحشرون هكذا يوم القيامة ! وبعضهم يقول: يحشرون على الوجهة التي كانوا عليها ! هذا الذي اتجه بكليّته إلى النساء، يحشر يوم القيامة على هذه الحالة ! يرتدي ثوب الشهوة، وهذا الذي اتجه بكليّته إلى جمع المال الحرام،

يلبسه الله هذه الشهوة رداءً له يوم القيامة، من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها يوم القيامة ! هذه الميول الخبيثة، الانحرافات تصبح يوم القيامة ثياباً يرتديها الإنسان يفضح على رؤوس الأشهاد !

(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً)

في الدنيا كانوا عمياً عن الحق، فحشروا عمياً يوم القيامة، وفي الدنيا كانوا بكماً لا ينطقون بالحق، ينطقون بالباطل، فحشروا يوم القيامة بُكماً، في الدنيا كانوا صماً عن سماع الحق، سمعوا الغناء، سمعوا الباطل، سمعوا الترّهات، سمعوا الأقاويل، سمعوا الكلام القذر، ولم يسمعوا الحق، أعرضوا عن مجالس العلم، توجهوا إلى مجالس اللهو، كانوا صماً عن سماع الحق، فحشروا يوم القيامة صماً، إذاً:

(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ كُلّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً(97))

هذا عذاب النار حق، لهيب النار الذي يلفح الوجوه حق.

(كُلّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (56))

(سورة النساء)

قال بعض الكفار: إذا دخل الإنسان النار ما هي إلا دقائق حتى يحترق جلده ومع احتراق جلده تموت أعصاب الحس وينتهي الأمر لأنه دارس الطب ويعلم أن النهايات العصبية الحسية في الجلد، وغفل عن قوله تعالى:

(كُلّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (56))

الأعصاب متجددة من أجل أن يكون الألم متجدداً !

(كُلّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)

الآيات هنا آيات كونية، والآيات قرآنية، لأن الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق ! فسواء أكفر الإنسان بآيات الله التي بثّها في السماوات والأرض، أو كفر بآيات القرآن الكريم، فالنتيجة أن جزاءه جهنم خالداً فيها أبدا.

(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً(98))

لم يصدق أن هذا الإنسان الذي فني، يقول بعض الناس: وهؤلاء الذين يحرقون بعد الموت بالهند، وهؤلاء الذين تحرق مركباتهم في الجو، أين هم ؟ كيف يجمعهم الله عز وجل؟

(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً(98))

ردّ الله عليهم بقوله تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظّالِمُونَ إِلّا كُفُوراً(99))

فخلق السماوات والأرض أليس دليلاً قاطعاً على قدرة الله غير المتناهية ؟ الذي خلق السماوات والأرض أيعجزه أن يعيد خلق الإنسان مرة ثانية ؟

(قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً(100))

(سورة الإسراء)

الإنسان قبل أن يعرف الله عز وجل قتور، شحيح، بخيل، يخشى أن ينفق، فينتهي المخزون الذي عنده، لكن الله عز وجل كما في الحديث القدسي عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إلا مَنْ عَافَيْتُ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَمَنْ عَلِمَ أَنِّي أَقْدِرُ عَلَى الْمَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفَرَنِي بِقُدْرَتِي غَفَرْتُ لَهُ، وَلا أُبَالِي، وَكُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إلا مَنْ أَغْنَيْتُ، فَاسْأَلُونِي أُغْنِكُمْ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبٍ مِنْ قُلُوبِ عِبَادِي مَا نَقَصَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ فِي مُلْكِي مِنْ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا فَسَأَلُنِي كُلُّ سَائِلٍ مِنْهُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْهُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَنِي كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِشَفَةِ الْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً، ثُمَّ انْتَزَعَهَا كَذَلِكَ لا يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِي، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ، صَمَدٌ، عَطَائِي كَلامٌ، وَعَذَابِي كَلامٌ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ))

عَن أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:

((يَا عَبْدِي، مَا عَبَدْتَنِي، وَرَجَوْتَنِي فَإِنِّي غَافِرٌ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، وَيَا عَبْدِي، إِنْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً، وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إلا مَنْ أَنَا عَافَيْتُهُ فَذَكَرَ نَحْوَهُ إلا أَنَّهُ قَالَ: ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ وَاجِدٌ مَاجِدٌ إِنَّمَا عَطَائِي كَلامٌ))

(مسند الإمام أحمد)

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً(100))

(سورة الإسراء: 100)

الحقيقة أن الشح والبخل من لوازم أهل الكفر !

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

يا محمد..

أحد زعماء القبائل رأى النبي الكريم عقب بعض المعارك، وإلى يمينه واد من الغنم، عَنْ أَنَسٍ

((أَنّ رَجُلًا سَأَلَ النّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إيّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، أَسْلِمُوا، فَوَ اللّهِ إنّ مُحَمّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ، فَقَالَ أَنَسٌ: إنْ كَانَ الرّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إلّا الدّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبّ إلَيْهِ مِنْ الدّنْيَا، وَمَا عَلَيْهَا))

(مسلم)

الإنسان الكافر من خصائصه أو من سيئاته أنه شحيح وبخيل ! لكن المؤمن معطاء، والله سبحانه وتعالى قال له: أنفق بلالاً، ولا تخشَ من ذي العشر إقلالا ! أنفق عبدي، أُنفق عليك، خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن، أفيُعيِني رغيف أسوقه لك كل حين ؟

(قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً(100))

عبدي لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق ! فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك !

الإنسان أحياناً يمنع عطاءه لمن يخالف أمره، يعاقبه بالحرمان، أما الواحد الدّيان فيعطي، ويطعم، ويرزق، وينزّل من السماء ماءً، والقوم يعصونه، إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إليّ بالمعاصي، وهم أفقر شيء إليّ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أُقَنِّطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (101))

(سورة الإسراء)

علاقة هذه الآية بسياق الآيات أن كفار قريش:

(أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيّكَ حَتّى تُنَزّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبّي هَلْ كُنْتُ إِلّا بَشَراً رَسُولاً (93))

(سورة الإسراء)

ربنا عز وجل ردّ على هؤلاء أن قوم موسى رأوا تسع آيات بينات، رأوا بأم أعينهم كيف أن العَصا انقلبت ثعباناً مبيناً، وكيف أن البحر صار طريقاً يبساً، والآيات ذكرت في صور أخرى: القمّل والنمل والضفادع واليد والعصا والبحر.. كل هذه الآيات وهي خرق للعادات، ويستحيل على بني البشر أن يفعلوها، ومع ذلك:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (101))

فرعون لم يؤمن، على الرغم من كل هذه الآيات ! قال لهم موسى:

(قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (102))

(سورة الإسراء)

هذه الآيات لا يستطيعها بشر ! و:

(إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (101))

أيْ: هالكاً، فأراد فرعون أن يستفزهم من الأرض، ضايقهم شدد عليهم إلى أن حملهم على أن يتركوا أرض مصر، فلما تركوا أرض مصر تبعهم ليعيدهم إلى سلطانه !

(فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (103))

(سورة الإسراء)

كان عقاباً عادلاً، انشق البحر لسيدنا موسى ومن معه، وقال أصحاب موسى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

أصبح البحر طريقاً، تبعهم فرعون وجنوده، فلما خرج سيدنا موسى ومن معه أدرك فرعَونَ الغرقُ، عندئذٍ قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: 90)

قال تعالى:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91))

(سورة يونس: 91)

(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً (104))

(سورة الإسراء)

وعد الآخرة المقصود به يوم القيامة، تأتون إلينا أنتم، ومن خاصمتم، ومن صادقتم، ومن وعدتم، ومن خدعتم، جئنا بكم لفيفاً، وحاسبناكم حساباً دقيقاً

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (105))

(سورة الإسراء)

هذه الآية أيضاً لها معنى دقيق، مضمون هذا الكتاب حق، ومعنى حق: حقيقة ثابتة ذات هدف نبيل، لقوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

(سورة ص: 27)

الباطل هو الشيء الطارئ، الشيء الزائل، الحق هو الشيء الثابت.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38))

(سورة الدخان)

واللعب هو العمل العابث غير الهادف، فالحق إذاً هو الشيء الهادف، فمعنى كلمة الحق الشيء المستقر الثابت الهادف، مضمون هذا الكتاب حق كل ما جاء به مطابق للحق، وللحقيقة، وللواقع، وللمنطق، الوعد حق لا بد من أن يقع، والوعيد حق لا بد من أن يقع، والحقائق التي جاء بها القرآن حق، أي: صحيحة.

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)

يعني إنما أُنْزِلَ على هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحق، حينما نسند هذه الوظيفة الراقية إلى هذا الإنسان نقول: أسندناها بالحق، لأنه أهل لها، هو في مستواها، هو كفء لها، فالقرآن مضمونه حق، وأنزل على النبي عليه الصلاة والسلام بالحق، حق في مضمونه، وفي أهلية من نزل عليه.

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (105) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ)

نزل منَجماً في ثلاثة وعشرين عاماً، بحسب المناسبات، كأن الله عز وجل ربىّ أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكأنه بهذه التربية يريد تربية الأجيال من بعدهم.

(وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ)

يعني نزلناه منجماً:

(وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً (106) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا)

(سورة الإسراء)

إذا فكرت، وفكرت، وقلت: إن الشمس أكبر من الأرض، أنت ماذا فعلت ؟ ذكَرت شيئاً ثابتاً، إن ذكرت هذا أو لم تذكره فالحقيقة لا تتغير، الشمس أكبر من الأرض، اعترفتَ بهذا أم لم تعترف، ذكرت أم لم تذكر، إذا لم تؤمن أنت هل القرآن يصبح باطلاً ؟ لا، القرآن حق، كأن تقول: في الهواء قانون كشفه علماء الفيزياء ـ قانون السقوط ـ فإذا ركب رجل طائرة، وأراد أن يهبط منها بمظلة، إما أن تعترف بهذه القوانين، أو لا تعترف، إن اعترفت بهذه القوانين استخدمت المظلة، وتأدبت مع هذه القوانين، وهذه المظلة حجمها وقماشها وتركيبها متوافق مع قوانين الهواء، فإذا استعملت المظلة تكون قد اعترفت بهذه

القوانين، وبالتالي نجوت من الهلاك، وإذا استخففت بهذا القانون، ولم تعبأ بقانون السقوط وقلت: هذه المظلة لا حاجة لي بها، ونزلت متحدياً قوانين الهواء فقد أهلكت نفسك، فالحق حق، والباطل باطل.

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا)

سيان إن اعترفتم به هو حق، وإن لم تعترفوا به هو حق، اعترافكم به لا يزيده قوة، وإنكاركم له لا ينقص من مكانته.

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً(107))

(سورة الإسراء)

من هنا قال أصحاب رسول الله: أوتينا الإيمان قبل القرآن، لو أن الإنسان فكر في ملكوت السماوات والأرض لعرف أن لهذا الكون خالقاً عظيماً، رحيماً هو أرحم ما يكون، عليماً هو أعلم ما يكون، غنياً هو أغنى ما يكون، قديراً هو أقدر ما يكون، إذا تأملتم في ملكوت السماوات والأرض عرفتم الله، فإذا قرأتم آياته القرآنية خشعت قلوبهم، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً(107))

(سورة الإسراء)

لو أن إنساناً عرف معملاً ضخماً زاره شخصياً، فإذا نظر إليه في دفتر أو في كُتيّب يأخذه الإعجاب، لأنه قد اطلع عليه بشكل حقيقي ميداني، فهذه الصورة تثير عنده كل إعجابه القديم.

(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (108))

(سورة الإسراء)

لذلك استنبط الإمام الشافعي رضي الله عنه من هذه الآية أن الإنسان إذا سجد سجود التلاوة يسنّ أن يقرأ في السجود قوله:

(سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (108))

وربّما استنبط النبي الكريم أن الإنسان إذا صلّى وسجد يقول: سبحان ربي الأعلى، من هنا.

(وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (109))

وهذا البكاء بكاء الخشية استنبط وهو أرقى أنواع البكاء، هناك بكاء لو بكاه الإنسان في الصلاة لفسدت صلاته، إذا بكى على شيء فاته من الدنيا، صلاته فاسدة ! أما إذا بكى خشوعاً فصلاته من أعلى درجة! لذلك اقرأ هذا القرآن، وابكِ، فإن لم تبكِ فتباكَ.

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء)

(الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف: 180)

الرحيم، الكريم، اللطيف، الغني، القدير، حتى إذا قلت: الضار، قل: الضارّ النافع، يضر لينفع، المعطي المانع، يمنع ليعطي ! إن هذه الدنيا دار ابتلاء، دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، الضار النافع، المانع المعطي، القابض الباسط، يقبض ليبسط، ويضر لينفع، هذه مداواة ربنا عز وجل، يداوي، ويعالج الإنسان، فأسماؤه كلها حسنى، ولو كُشف الغطاء لاخترتم الواقع، والرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين.

كان أعرابي يطوف حول البيت، ويقول: يا رب، هل أنت راض عني ؟ كان وراءه الإمام الشافعي قال: **يا هذا، هل أنت راض عن الله حتى يرضى الله عنك** ؟ قال: أنا أرضى عن الله ! وكيف أرضى عنه، وأنا أتمنى رضاه ؟ قال: **يا هذا، إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله !** هل نحن هكذا ؟ هل تستقبل المصيبة برحابة صدر ؟ هل تقول: الحمد لله رب العالمين ؟ لا بد من حكمة بالغة، هل أنت راض بقضاء الله وقدره ؟ هل أنت راض بما قسمه الله لك من مال من زوجة، من أولاد، من بيت ؟ هل أنت راض عن الله حتى يرضى الله عنك ؟ المؤمنون رضي الله عنهم ورضوا عنه !

وكلما قرأت قوله تعالى:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5))

(سورة الضحى)

أنت في الدنيا، والدنيا دار تكليف، لا دار تشريف.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5))

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

((أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَرّ بِسَخْلَةٍ جَرْبَاءَ قَدْ أَخْرَجَهَا أَهْلُهَا، فَقَالَ: أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَيّنَةً عَلَى أَهْلِهَا ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللّهِ عَزّ وَجَلّ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

(أحمد)

وكذلك الدنيا هينة على الله عز وجل، يعطيها لمن يحب، ولمن لا يحب !

(قُلِ ادْعُوا اللّهَ أوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً)

(سورة الإسراء)

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3))

(سورة الإخلاص)

لأنه الصمد، وجوده ليس مفتقراً إلى غيره ! ولا يحتاج إلى ولد يحقق وجوده، هو مستغنٍ عن أن يكون له زوجة أو ولد !

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3))

هو الفرد الصمد.

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111))

(وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف: 26)

إذا أردت العزة فلله العزة جميعاً.

اجعل لربك كل... .. عزك يستقر ويثبتُ

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميتُ

***

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة إبراهيم 014 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 – 5..... 1

سورة إبراهيم 014 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 5 – 12..... 16

سورة إبراهيم 014 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 13 – 21..... 32

سورة إبراهيم 014 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 21 – 30..... 49

سورة إبراهيم 014 - الدرس (5-9): تفسير الآية31..... 69

سورة إبراهيم 014 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 32..... 85

سورة إبراهيم 014 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 32 –34..... 100

سورة إبراهيم 014 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 35 – 46..... 118

سورة إبراهيم 014 - الدرس (9-9): تفسير الآيات من42 الى الاخير..... 136

سورة الحجر 015 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 – 3..... 157

سورة الحجر 015 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 4 – 15..... 173

سورة الحجر 015 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 16 – 19..... 188

سورة الحجر 015 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 20 – 23..... 202

سورة الحجر 015 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 24 – 44..... 216

سورة الحجر 015 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 45 – 77..... 233

سورة الحجر 015 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 72 – 84..... 254

سورة الحجر 015 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 85 – 86..... 271
سورة الحجر 015 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 87 – 99..... 283
سورة النحل 016 - الدرس (01-21): تفسير الآيات 1 –3..... 303
سورة النحل 016 - الدرس (02-21): تفسير الآيات 4 –8..... 319
سورة النحل 016 - الدرس (03-21): تفسير الآيات 9 –14..... 337
سورة النحل 016 - الدرس (04-21): تفسير الآيات 10 –18..... 357
سورة النحل 016 - الدرس (05-21): تفسير الآيات 16 –23..... 377
سورة النحل 016 - الدرس (06-21): تفسير الآيات 24 –29..... 395
سورة النحل 016 - الدرس (07-21): تفسير الآيات 30 –34..... 412
سورة النحل 016 - الدرس (08-21): تفسير الآيات 35 –36..... 429
سورة النحل 016 - الدرس (09-21): تفسير الآيات 35 –36..... 443
سورة النحل 016 - الدرس (10-21): تفسير الآيات 37 –40..... 461
سورة النحل 016 - الدرس (11-21): تفسير الآيات 41 –47..... 478
سورة النحل 016 - الدرس (12-21): تفسير الآيات 45 –55..... 497
سورة النحل 016 - الدرس (13-21): تفسير الآيات 45 –61..... 513
سورة النحل 016 - الدرس (14-21): تفسير الآيات 62 –69..... 532
سورة النحل 016 - الدرس (15-21): تفسير الآيات 66 –70..... 550
سورة النحل 016 - الدرس (16-21): تفسير الآيات 70 –78..... 565

سورة النحل 016 - الدرس (21-17): تفسير الآيات 77 –89..... 581
سورة النحل 016 - الدرس (21-18): تفسير الآية 90..... 598
سورة النحل 016 - الدرس (21-19): تفسير الآيات 91 –94..... 610
سورة النحل 016 - الدرس (21-20): تفسير الآيات 97 –112..... 628
سورة النحل 016 - الدرس (21-21): تفسير الآيات 119 –128..... 650
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-01): تفسير الآيات 01 – 10..... 669
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-02): تفسير الآيات 10 – 20..... 690
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-03): تفسير الآيات 18 – 24..... 709
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-04): تفسير الآيات 25 – 31..... 728
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-05): تفسير الآيات 32 – 39..... 745
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-06): تفسير الآيات 40 – 52..... 762
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-07): تفسير الآيات 53 – 56..... 778
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-08): تفسير الآيات 56 – 65..... 791
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-09): تفسير الآيات 66 – 77..... 803
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-10): تفسير الآيات 78 – 81..... 815
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-11): تفسير الآيات 82 – 85..... 828
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-12): تفسير الآيات 88 – 96..... 843
سورة الإسراء 017 - الدرس (13-13): تفسير الآيات 97 إلى آخر السورة..... 858

الفهرس.....872

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

القرآن الكريم

تفسير من سورة الكهف حتى الحج

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1 – 8 ، نِعَمُ اللهِ
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-10-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الأول من سورة الكهف :

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبا)

فَضْلُ سورة الكهف :

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين))

(الجامع الصغير بسند صحيح)

موضوعات سورة الكهف :

القصص :

الذي يغلب على هذه السورة القصص ، ففيها قصة أهل الكهف ، وقصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، وفيها قصة ذي القرنيين ، وهذه القصص إنما تؤكد العقيدة الصحيحة ، وتوضح المنهج الصحيح ، وتصحح بعض القيم .

تصحيح العقيدة :

في هذه السورة تصحيح للعقيدة ، وللمنهج ، وللقيم ، وسوف نأتي على هذه بالتفصيل ، في أثناء شرح الآيات .

قبل كل شيء ، يقول الله سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

نِعَمُ الله لا تعدّ ولا تُحصى : الحَمْدُ للَّهِ :

أما كلمة الحمد فتعني النعم ، لأن الإنسان يحمد على النعمة ، فكلمة الحمد وحدها تشير إلى أن الإنسان محاط بنعم لا تعد ولا تحصى ، يعجز المرء عن إحصائها ، فضلاً عن شكرها .

نعمة الوجود ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى ، ونعمة هذه الأجهزة التي زودنا الله بها ، كنعمة البصر، ونعمة السمع ، ونعمة التفكير ، ونعمة الإدراك ، ونعمة الزوجة ، و نعمة الأولاد ، ونعمة الماء العذب الذي صفاه الله لنا ، ونعمة الحيوانات التي ذللها الله لنا ، ونعمة النبات الذي يخرج من الأرض من دون جهد منا .

فلو ذهبنا إلى تعداد النعم ، فإننا نقضي العمر قبل أن تنقضي بعضها ، ولذلك فكلمة الحمد وحدها تعني أن الإنسان محاط بنعم لا تعد ولا تحصى ، ولا أحد على وجه الأرض ينكر أن يكون الإنسان محاطاً بالنعم ، ولكن المشكلة أن هذا الحمد لمن ؟ إنه لله .

أهل الكفر يعزون هذه النعم إلى أنفسهم ، إلى جهدهم ، إلى آلهة أشركوها مع الله عز وجل ، والحق أن النعمة موجودة ، ولكن من صاحبها ؟ من الذي يستحق الشكر عليها ؟

يا داود ، ذكر عبادي بإنعامي عليهم ، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها .

فلو أن إنساناً أسدل إليك نعمة ، أو عطاءً ، إنك تظل إلى أمد طويلٍ طويل تشكره من أعماقك ، فما بالك وقد أنعم الله عليك بهذا الخلق السوي ؟ إذا نظر الإنسان إلى وجهه في المرآة يجب أن يشكر الله عز وجل .

وكان عليه الصلاة والسلام : إذا نظر إلى وجهه ، دعا بدعاء ، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي))

(أحمد في المسند)

يا رب كيف أشكرك ؟ قال الله عز وجل ، تذكرني ولا تنساني ، إنك إذا ذكرتني شكرتني ، وإذا ما نسيتني كفرتني .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا*وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

(سورة الأحزاب : 41 - 42)

اذكروه ذكراً كثيرا ، إنك إذا ذكرته شكرته ، وإذا ما نسيته كفرته ، علامة الشكر أن تكثر ذكره ، وأن تعرف أن هذه النعمة من عنده .

فكلمة الحمد فقط وحدها تعني أنك محاط بنعم لا حدود لها ، لا تنتهي ، ولا حصر لها ، الحمد .

كلّ النّعم من الله وحده :

أما كلمة لله ، فهذه النعم ، التي أنت فيها ، يجب أن تشكر الله عليها ، لأن الله هو مصدرها ، وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر ، فالمؤمن يعرف أن النعم من عند الله ، وغير المؤمن ينسبها إلى غير الله ، وفي الحديث القدسي عن أبي الدرداء عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ :

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إلي))

(البيهقي في شعب الإيمان ، والمناوي في فيض القدير)

كيف أنت مع هذه النعم ؟

1 - نعمة البصر :

لقد بلغ رجل أعلى المراتب ، وحصل على أعلى الشهادات ، واحتل أرفع المناصب ، وكل شيء يجده على ما يرام ، وفجأةً يفقد بصره ، ويقول لصديقه : أتمنى أن أجلس على الرصيف ، وأتسول ، وأن يرد الله لي بصري فيجيبه : يوم تمتعت بنعمة البصر هل عرفت أن هذه النعمة من الله عز وجل ؟

جعلك ترى الأشياء التي تحبها ، وترى الألوان ، ونعمة السمع ينبغي أن نعرفها قبل أن نفقدها .

ومن علامة التوفيق أن ترى النعمة بوجودها لا بفقدها ، لكن الناس جميعاً إذا فقدوا بعض النعم تحسسوا لها ، وعندئذٍ عرفوا قيمتها ، ولكن البطولة أن تعرف النعمة وأنت مستمتع بها ، وأن تقول اللهم متعنا بأسماعنا ، وأبصارنا ، و قوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا .

فهذا ينسحب أيضاً على سورة الفاتحة تقول في كل صلاة ، وفي كل ركعة : الحمد لله رب العالمين .

فلو أن قناة العين الدمعية ، وهي أدق قناة في الإنسان ، أغلقت لاضطررت أن تمسك منديلاً تمسح الدمع الذي يفيض على خديك طوال النهار ، ولأثّر هذا الدمع على صفحة الوجه ، وترك بعض أنواع الالتهاب .

2 - جهاز التوازن :

وجهاز التوازن الذي منحك الله إياه لولاه لا تستطيع أن تسير على قدمين .

3 - الأذنان :

والأذنان ، لو أن للإنسان أذناً واحدة لما عرف جهة الصوت ، ولكن الصوت إذا جاءك من خلفك فهناك جهاز في الدماغ يقيس تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين ، والتفاضل واحد على ألف وستمئة وخمسين جزءًا من الثانية ، فتعرف أنت من خلال الأذنين أن جهة الصوت من اليمين ، فإذا كان بوق السيارة من اليمين ، فتتجه نحو اليسار .

ولو أن للإنسان عيناً واحدة لما عرف البعد الثالث ، فبالعين الواحدة يرى الطول والعرض ، وبالعينين يرى الطول والعرض والبعد الثالث ، ولو أن في الشعر أعصاباً حسية لما أمكننا أن نحلق رؤوسنا ، ما هذه الحكمة البالغة ؟ إن الأظافر ، والشعر ليس فيهما أعصاب حسية .

4 – تسوية الخَلق :

إنّ الله خلقنا فسوانا .

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين : 4)

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ*فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

(سورة الانفطار : 7)

نعمة الخلق ، ونعمة الأجهزة ، ونعمة الأعضاء ، ونعمة الزوجة ، ونعمة الولد ، ونعمة الدفء ، ونعمة الشمس ، ونعمة القمر ونعمة الطعام ، ونعمة الشراب .

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا

هذه النعم لا يمكن إحصاؤها ، لذلك يقول الله عز وجل :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة النحل : 18)

ففي الآية دقة بالغة ، لم يقل الله عز وجل : وإن تعدوا نعم الله ، بل قال :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة النحل : 18)

إنك إذا أمضيت كل حياتك في تَعداد الفوائد المترتبة على نعمة واحدة لا تستطيع ، فإن كنت عاجزاً عن أن تحصي هذه النعم ، فأنت عن شكرها أعجز .

تعلّقُ حمدِ اللهِ بأمرين :

1 – إنزال الكتاب :

الحمد لله ، لكن الحمد هنا متعلق بشيء آخر .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

2 – خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ :

وفي سورة أخرى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : 1)

هناك توازٍ ، فخلق السماوات والأرض شيء يحمد الله عليه ، وإنزال هذا الكتاب شيء آخر يحمد الله عليه .

توضيحاً لهذه الآية ؛ لو أنك اشتريت جهازاً بالغ التعقيد لتحليل الدم ، وإن كل نقطة من هذا الدم إذا وضعت على الجهاز أعطتك عشرين تحليلاً بكبسة زر ، وإنك إذا استعملت هذا الجهاز ، واستثمرته تجارياً ربما عاد عليك في اليوم بمئات الألوف ، لكنك لا تستطيع أن تشغله إلا بتعليمات الشركة ، والشركة أرسلت لك هذا الجهاز من دون تعليمات ، فمع أن ثمنه باهظ ، ومع أن دخله كبير جداً إلا أن هذا الجهاز مفتقر إلى تعليمات ترسلها الشركة ، فربما كانت هذه التعليمات لا تقل قيمة عن الجهاز ، لأن الجهاز من دون تعليمات معطل ، جمدت ثمنه ، وتعطل استثماره ، فإذا تحصلت على هذه التعليمات ، وأمكنك بموجبها أن تشغل الجهاز ، وأن تجني منه مئات الألوف ، تشعر أن هذه التعليمات المكتوبة لا تقل عن هذا الجهاز الضخم ، من هنا جاء قوله تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : 1)

خلق السماوات ، وخلق المجرات ، وخلق الشمس ، وخلق القمر ، وخلق النجوم ، وخلق الأرض ، وخلق الجبال ، وخلق الوديان ، والصحارى ، والسهول ، والبحار ، والأنهار ، والأسماك ، والأطيار ، والإنسان ، والغابات ، فإذا لم تعرف الله عز وجل ، وإذا تحركت على الأرض وفق الهوى ، ووفق الشهوة هلكت ، وأهلكت ، إذاً ما قيمة الكون ؟

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

نعمة إنزال الكتاب توازي نعمة خلق الكون :

هذا الكتاب يقول لك : افعل ولا تفعل ، وكل هذا الطعام ، ودع لحم الخنزير ، واشرب هذا الشراب ، ودع الخمر ، وتزوج ، ولا تزن ، إن هذا الكتاب يوضح لك الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة ، فالمنهج السليم إلى السلامة في الدنيا والآخرة فلذلك نعمة الكتاب توازي نعمة خلق الكون ، والدليل القرآن الكريم :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

فخلق السماوات والأرض نعمة الإيجاد ، والكتاب نعمة الإرشاد ، وربما لا تقل نعمة الإرشاد عن نعمة الإيجاد ، وما قيمة وجودنا من دون هدى ؟ وما قيمة الهدى من دون وجودنا ؟ شيئان متكاملان ؛ الإيجاد والهدى .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

أي إذا قرأت هذا الكتاب ، ووعيت ما في الكتاب ، وطبقت ما فيه عشت حياةً سعيدةً ، فيها الطمأنينة ، والسكينة ، والاستبشار ، والتفاؤل ، وعرفت أنها مؤقتة ، وأنها مزرعة للآخرة ، وأن الدنيا دار تكليف، وأن الآخرة دار تشريف ، إذا عرفت هذه الحقائق ، واتصلت بالله عز وجل ، سعدت بقربه ، بعد أن استقمت على أمره ، فإذا فعلت كل هذا تعرف أن هذا الكتاب يحمد الله عليه ، كما يحمد على خلق السماوات والأرض .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

أنت أمام نعمتين : نعمة الإيجاد ونعمة الإرشاد :

ما قيمة الجامعة ، وأبنيتها الشاهقة ، وملاعبها ، ومكتبتها ، وقاعات المحاضرات ، من دون كتب ، ومن دون تدريس ، فروح الجامعة التدريس والكتب ، فكأن البناء شيء ، والمنهج والمدرس ، والكتاب شيء آخر ، ربما كان هو الأهم ، إذاً نحن أمام نعمتين كبيرتين ؛ نعمة الإيجاد .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : 1)

ونعمة الإرشاد .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

ولذلك قال الله عز وجل :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

مقام العبودية لله أرفع مقامات الإنسان :

والنبي عليه الصلاة والسلام عبده ورسوله ، ومقام العبودية أرفع مقام يناله الإنسان على وجه الأرض، أي أن يكون عبداً لله ، فالعبودية أن تنقاد انقياداً طوعياً إلى أوامر الله كلها ، صغيرها وكبيرها ، في شتى المناحي والميادين ، انقياداً طوعياً ، وعندئذٍ فهذا الانقياد لابد أن يبنى على معرفة يقينية ، فإذا بني الانقياد الطوعي على معرفة يقينية انتهى هذا الانقياد إلى سعادة أبدية في الدنيا والآخرة .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات : 56)

لذلك ؛ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، فإذا كنت عبداً لله بالمعنى الصحيح الذي أراده الله عز وجل تكون قد حققت الهدف الذي من أجله خُلقت ، وما أروع أن يعرف الإنسان الهدف الذي من أجله خلق ، وما أروع أيضاً أن يكون في الطريق الصحيح نحو هذا الهدف الذي من أجله خلق ، أن تعبد الله ، وأن تطيعه في المنشط والمكره ، فيما عرفت حكمته ، وفيما لم تعرف ، وأن تطيعه في علاقاتك كلها مع جيرانك ، و زوجتك ، و أولادك ، و من تحب ، و من تبغض، ومع أعدائك و أصحابك ، و من تتعامل معهم .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

معنى الكتاب :

الكتاب ؛ أي القرآن الكريم ، وفي بعض التفاسير مطلق الكتب السماوية ، فالله عز وجل خلق الخلق ، وهداهم إلى الصراط المستقيم ،

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.)

(سورة البقرة : 30)

لئلا تنقطع الأرض عن الهدى الرباني .

وسيدنا علي يقول : << يا كميل : العلم خير من المال ، لأن العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق ، يا كميل مات خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومستمع على سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وفيق، فاحذرْ يا كميل أن تكون منهم >> .

إذاً :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

عظمة القرآن :

الكتاب هو هذا القرآن الكريم ، هو الدستور ، هو الغنى الذي لا فقر بعده ولا غنىً دونه ، هو الذي قال عنه صلى الله عليه وسلم :

((لا يحرَق قارئ القرآن))

(الديلمي في الفردوس عن أنس)

هو الذي قال عنه صلى الله عليه وسلم :

((من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

(كشف الخفاء عن أنس)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

القرآن غير ذي عِوَج :

لا خلل ، ولا شطط ، ولا إفراط ، ولا تفريط ، ولا خطأ ، ولا تناقض ولا مبالغة ، ولا إغفال ، فكيف أن الكون كامل ؟

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ*ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)

(سورة الملك : 3 - 4)

كيف أن الكون على أكمل وجه ، فهذا الكون خلقه ، وهذا القرآن كلامه ، ولابد من تناسب بين خلقه وكلامه ،و كما أن الكون مطلق الكمال ، كذلك هذا القرآن في مضمونه ، وفي أسلوبه ، وفي مبادئه ، وفي قيمه ، وفي قصصه ، كله كمال ومطلق الكمال ، ويشبه هذه الآية قول الله عز وجل :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : 9)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

ما من كتاب ألفه بشر إلا وفيه خلل ، ونقص ، وزيادة ، وإيجاز مخل ، واضطراب ، وتناقض خفي ، ونقص ، وزيادة ، ومبالغة ، إلا كتاب الله عز وجل .

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

الحقيقة أنه مضى على نزول هذا القرآن الكريم أكثر من1400 عام ، ومع ذلك لم يظهر في العالم كله حقيقة علمية تبطل بعض آياته ، أو تعطل أحكامه ، لأنه من عند الحكيم الخبير .

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

معنى قيمًا :

المعنى الأول : القيام على مصالح الناس :

أولاً : قيماً على مصالح الناس ، فالأمور التي نحن بحاجة إليها عالجها القرآن ، والأمور الأساسية في حياتنا ، موضوع الزواج ، وموضوع الطلاق ، والميراث ، وتطهير النفس ، وإقبالها على الله عز وجل، وهذه العبادات ، والإشارات ، وتلك الأحكام ، والأوامر ، والنواهي ، والوعد ، والوعيد ، هذا كله على أحسن ما يرام في القرآن الكريم .

(قيِّماً)

أي قيماً على مصالح الناس ، ما من صغيرة ، ولا كبيرة إلا أحصاها الله عز وجل في الكتاب .

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : 38)

المعنى الثاني : قيماً على الكتب السماوية كلها :

قيماً على الكتب السماوية كلها ، ومهيمناً عليها .

المعنى الثاني : الاستقامة :

أنه مستقيم ، ومعنى مستقيم ، أي صحيح مئة في المئة ، كيف وأن الله عز وجل لم يجعل له عوجاً ؟ أي جعله مستقيماً ، والاستقامة هنا استقامة بمعنى أن كل ما فيه صحيح ، وكل ما فيه حق صريح .

عودُ الضمير في : وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا

بعضهم قال :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

هذه الهاء تعود على مَن ؟

1 – عود الضمير على الكتاب :

أنها تعود على الكتاب .

2 – عودُ الضمير على النبي :

وبعضهم أعادها على النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يجعل لهذا النبي عوجا ، لا في أخلاقه ، ولا في معاملته ، ولا في دعوته ، ولا منطقه ، ولا في حياته الخاصة ، كل ما في حياته كمال في كمال .

فالكتاب :

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)

(سورة الإسراء : 105)

ومضمون هذا الكتاب حق ، وأنزل على النبي الكريم بالحق ، هذه الآية بمعناها الأول والثاني تؤكد تلك الآية :

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ)

أي لهذا النبي الكريم .

(عِوَجاً)

لا في أخلاقه ، ولا في حديثه ، ولا في معاملته ،

وأجملُ منك لم تر قطُّ عيني وأكملُ منك لم تَلِدِ النساءُ

خُلِقْتَ مُبرأً من كل عيبٍ كأنَّكَ قد خُلِقْتَ كما تشاءُ

***

هذا معنى قول الله عز وجل :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم : 4)

ولم يجعل له للنبي الكريم عوجا ، ولقد شهدوا له بقولهم :

((أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ، وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ ، وَالزَّكَاةِ ، وَالصِّيَامِ ...))

(أحمد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ)

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً)

لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَدُنْهُ

من السذاجة أن يطمئن الإنسان إلى حاضره ، الحاضر جيد ، ولكن ماذا يخبئ الغيب ؟ فإذا جهل الإنسان الله عز وجل ، وما استقام على أمره ، ولا عرف الهدف من وجوده ، ولا عرف المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه ، فلماذا يعيش ؟

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

أي إذا لم يعرف الإنسان الله في الرخاء ، لن يعرفه في الشدة ، فكأن هذا القرآن يبلغنا أن مع الحياة موتاً ، وأن مع العز ذلاً ، وأن لكل شيء حسيباً ، وأن على كل شيء رقيباً ، وإن على كل حسنة ثواباً ، وكل سيئة عقاباً .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

فالأمور لا تدوم على هذه الحال ، الآن نحن شباب ، وفي يوم سيأتي سن الكهولة ، وسن الشيخوخة ، وسن الضعف ، ويأتي ملك الموت فإما إلى جنة يدوم نعيمها ، أو إلى نارٍ لا ينفذ عذابها .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

لا تغتر بحاضرك ، فالعبرة للمستقبل ، والعبرة بخواتيم الأعمال ، وبخريف العمر ، و بساعة اللقاء ، وفي ساعة مغادرة الدنيا ، هنا البطولة ،

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

فكل إنسان مغتر ، الشاب بشبابه ، والغني بماله ، وصاحب المكانة الرفيعة بمكانته ، وصاحب النسب العريق بنسبه ، وصاحب الشكل الجميل بجماله ، فهذا غرور ، وربنا عز وجل قال :

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

(سورة لقمان : 33)

أي الشيطان .

فهذا الكتاب يقول لك : إن مع هذه الدنيا آخره ، ومع العز ذلا ، ومع الغنى فقرًا ، ومع الحياة موتًا ، ومع الرخاء ضيقًا ، والأمور لا تبقى على ما هي عليه .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ)

فالإنسان الغافل ، الساهي ، اللاهي المنغمس في الدنيا ، وفي جمع الدرهم والدينار ، واللاهف على الشهوات ، الذي همه بطنه ، وهمه فرجه ، وخميصته ، و درهمه ودينارة ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ ؛ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

(الترمذي وابن ماجه)

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

البطولة ألاّ تغتر بالحاضر ، يوم مفقود ، ويوم مشهود ، ويوم مورود ، ويوم موعود ، ويوم ممدود ، فالماضي مضى ، والمشهود سيمضي ، ولكن البطولة أن تصل إلى اليوم الممدود ، وأنت من أهل الجنة، لينذر كل إنسان ، كل إنسان غفل عن الله عز وجل وكل إنسان غفل عن هذا الكتاب ، و عن مضمونه ، وكل إنسان جعله وراء ظهره ، وكل إنسان هجره .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

والشيء الواقعي أن الإنسان إذا هجر كتاب الله ، أي تركه ، ولم يعمل به ، ولم يأبه لقوانينه ، ولم يعتز بها ، ولم يشعر أنها خطيرة ، قال : هذا كلام الله نقرأه تبركاً ، وفي علاقاته المالية يخالفه ، وفي علاقته مع زوجته يخالفه ، وفي علاقاته الاجتماعية يساير المجتمع ، هذا الذي يخالف كتاب الله عز وجل ، لابد أن يأتيه الهلاك في الدنيا قبل الآخرة ، ففي الدنيا :

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

هناك أمراض وبيلة ، و فقر مدقع ، و ذل شديد ، و أمراض ، ومصائب لا يعلمها إلا الله .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

الحقيقة أن كل إنسان في حاضره مرخى له الحبل ، فإذا كان ذكياً يرى هذا الحبل المرخى ، في لحظة

ما يشد الحبل ، أما الأحمق فلا يرى الحبل كلياً ، ويظن أنه لا أحد يحاسبه ، وفي ساعة واحدة تنقلب الآية ، فيقلب له الدهر ظهر المجن ، كما يقولون ، وهذه عبارة أدبية ، أي فجأةً يشد الحبل ، فإذا هو أمام مشكلات لا يملك لها حلاً .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً)

وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا

هذا المؤمن الذي عرف الله ، آمن بوجوده ، آمن بوحدانيته ، آمن برحمته ، آمن بحكمته ، آمن بقدرته، عرف أنه لا إله إلا الله ، ولا معز إلا الله ، لا مذل إلا الله ، لا معطي إلا الله ، لا مانع إلا الله ، ولا رافع إلا الله ، لا خافض إلا الله ، هذا الذي آمن بالله ، وعمل صالحاً أطاع الله ، واستقام على أمره ، خدم الخلق ، وكان عنصراً نافعاً .

(وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدا)

لا يقاس بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة : مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا

وماذا أقول لكم عن الأبد ؟ كيف نفهم الأبد ؟ شيء يفوق التصور ، و لو قلنا : ألف مليون ، مليون ، مليون ، مليون ، مليون مَليون ، مليون مليون ، حتى ينقطع النفس ، وألف مليون ، مليون مَليون ، مليون ، حتى ينقطع النفس الثاني ، لو يوجد إنسان له أنفاس منذ أن ولد حتى يموت يقول : ألف مليون، مليون ، مليون ، لكان الأبد أكبر من ذلك .

لو أخذت كيساً من الطحين الكبير ، ولعقت منه لعقةً ، وجئت بمجهر ، وعددت حبات الطحين ، وكل طحينة من الطحين مليون سنة ، الكيس كم مليون سنة ؟ طحين العالم كم مليون سنة ؟ حتى الرياضيون قالوا : إنه أكبر رقم ! أكبر رقم ! فما أكبر رقم ؟ ضع واحدًا بدمشق ، وأصفاراً في حلب ، بين كل صفرين ميليمتر ، ضع واحداً في دمشق ، وأصفاراً إلى القطب ، بين كل صفرين ميليمتر ، هذا الرقم الكبير لو وضع صورة مخرجه فلا نهاية ، هذا الرقم قيمته صفر ، أيّ رقم إذا نسب للانهاية فهو صفر، لا شيء ، فإذا عاش الشخص ستين سنة فلا شيء ، سبعين لا شيء ، ثمانين لا شيء ، لو عاش 950 عاماً كسيدنا نوح لا شيء ، لو عاش ألف مليون ، مليون ، بحبوحة ، ورخاء ، وصحة طيبة ، وطعام ، وشراب ، وعز ، ولذَّات ، وشهوات ، لا شيء إذا قيس بالآخرة .

<< يا بني ، ما خير بعده النار بخير ، وما شر بعده الجنة بشر ، وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية >> .

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : 77)

الإله يقول لك هذا :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

ويقول :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص 60)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : 38)

فلو خيروك بين فرنك ، خمسة قروش سورية ، هل يوجد الآن فرنك ؟ لا ، وبين شيك مفتوح تكتب فيه ألف مليون ، ألفي مليون ، ثمانية آلاف مليون ، مليون مَليون ، ألف مليون مَليون ، مقبول مصروف الشك ، هل تأخذ هذه القروش الخمسة ؟

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

سحرة فرعون قالوا :

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه : 71 - 73)

البطولة أن تتعلق بالأبقى .

الميت يوضع في قبره ، فيقول الله له : عبدي رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت ، العبرة أن تتعامل مع الأبقى ، مع الذي قال :

(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن : 27)

أن تكون علاقتك طيبة مع الذي يبقى إلى الأبد .

(وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدا)

إن أهل النار يبكون ، وإنهم ليبكون الدم ! ولو أن السفن جرت في دموعهم ، أي حتى أن السفن تجري

في دموعهم ، أبدا ، دمعة وراء دمعة ، إلى الأبد ، تشكل بحراً .

(وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً)

إنذار المشركين بالله : وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

هؤلاء لا يعرفون الله عز وجل ، هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد .

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ)

ما لهم به من علم ، يهرفون بما لا يعرفون ، وربنا عز وجل يعلمنا في هذه الآية ، المنهج الصحيح ، لا تقل كلمة قبل أن تعلم ، لا تقل مالا تعلم ، ولا تمار فيما علمت .

(مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً)

قاعدة جليلة : إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإن كنت مدعيًا فالدليل :

لقد وصف الله عز وجل الكفار بأنهم لا يتكلمون عن تفكير ، ولا عن علم ، ولا عن نقل صحيح ، ولا عن منطق ، إنما يتكلمون كلاماً عشوائياً جزافاً من غير تبصر .

(كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً)

قال العلماء : إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإن كنت مدعيًا فالدليل ، إذا قلت : فلان قال كذا ، يجب أن تتأكد من صحة النقل ، لعله لم يقل .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات : 6)

فلا تقبل شيئاً ، ولا ترفضه إلا بالدليل النقلي والعقلي ، يأتي الضلال من قبول الأفكار من دون دليل ، ولا تقبل إلا بالدليل النقلي ؛ قرآن ، أو حديث ، أو قول لعالم مجتهد مشهود له بالاجتهاد ، مع الدليل الذي جاء به ، لا تقبل إلا بالدليل ، ولا ترفض إلا بالدليل ، أما إذا نقلت فتحرَّ الصحة في النقل ، هذا هو المنهج .

(مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً)

هذا كذب ! فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

(أحمد في المسند)

هذا كذب ، فلعلك يا محمد ، الله عز وجل يواسي نبيه الكريم .

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً)

حرص النبي عليه الصلاة والسلام على هداية قومه :

لماذا أنت متألم من أجلهم ، لماذا كدت تهلك نفسك من أجلهم ؟ قال العلماء : محبة الخلق دليل حب الحق ، فأنت تحب الناس بقدر ما تحب الله عز وجل ، فكلما زادت محبتك لله زادت محبتك للناس .

اسمعوا قول النبي الكريم ؛ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي ...))

(سنن الترمذي)

والآية الكريمة :

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الزمر : 22)

النبيُّ عليه الصلاة والسلام أَرْحَمُ الخَلق بالخَلق :

إذاً : هناك قانون ، محبة الخلق تتناسب طرداً مع محبة الخالق ، والخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، والخلق جميعاً ، المؤمن الكامل لو أنه تعامل مع مجوسي ، ومع عابد صنم ، فهذا من خلق الله ، يكرمه ، وينصحه ، ويخلص له ، هذا هو الإيمان ، ليس منا من غش ، مطلقاً من دون تحديد، من غش فليس منا ، كائناً من يكن هذا الذي غششته ، إن غششته فلست من المسلمين .

إذاً : النبي الكريم بإجماع العلماء أرحم الخلق بالخلق ، لأنه أقربهم إلى الحق ، وهناك إنسان يقول لك : أنا علي نفسي ، و كلما ضاقت دائرة اهتمامك كلما قلت مرتبتك عند الله ، في أشخاص لا يعنيهم إلا شخصهم فقط من بعد الطوفان ، حتى إنه لا يبالي بزوجته ، ولا بأولاده ، وكلما اتسعت دائرة رحمتك ، واهتمامك ، وعطفك ، وعنايتك ، ارتفعت عند الله درجتك .

ولذلك فسيدنا رسول الله كانت الإنسانية كلها تعنيه ، بل كان الخلق كله يعنيه ، فكان يصغي إناء للهرة، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

(صحيح البخاري)

والنبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً يذبح شاة أمام أختها فغضب غضباً شديداً ، وقال : أتريد أن تميتها مرتين ؟ هلا حجبتها عن أختها ، هذا عطف على من ؟ على حيوان ، قال : ليس منا من فرق ،

ملعون من فرق بين أم وابنها ، حتى في الحيوان ، ومن اشترى شاةً دون سخلتها ، وحرام من اشترى سخلة دون أمها .

فإذا كان النبي الكريم هذا عطفه على الخلق عامة فكيف محبته للمؤمنين :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة : 128)

فأرحم الخلق بالخلق النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

إذاً : تبين من هذه الآية أن أرحم الخلق بالخلق النبي عليه الصلاة والسلام وهذا شيء آخر ، قضية قانون ، كلما زادت صلتك بالله زادت رحمتك ، فانظر من ترحم من ، رحمة المؤمن عامة ، وأهل الدنيا يرحمون أولادهم فقط ، لكن المؤمن رحمته عامة ، لا يبني مجده على أنقاض الآخرين ، ولا يبني غناهم على فقرهم فالنبي عليه الصلاة والسلام بنص القرآن الكريم .

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً)

زادت نفسه عليه الصلاة والسلام :

(بَاخِعٌ نَفْسَكَ)

أيْ مهلِكٌ نفسك ، من أجلهم ، الواحد منا يقيس نفسه إذا كانت أموره ميسرة وعلى الدنيا السلام .

والشاعر الحطيئة قال بيتاً عُدّ أهجى بيتٍ في الحياة الجاهلية :

دع المكارم لا ترحل لِبُغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فإذا أمّن أحدهم مصالحه ، وأمّن حاجاته ، انتهت مشاكله ، أما المؤمن فما انتهى من مشاكله شيء ، بدأت مشاكله ، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

وسيدنا عمر جاءته هدية من أذربيجان ، فقال : ما هذا ؟ قال له : طعام نفيس لا يصنع إلا هناك ، قال له : هل يأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام ؟ قال له : لا هذا طعام الخاصة ، قال له : هل أعطيت فقراء المدينة كما أعطيتني ؟ قال لا : هذا لك وحدك ، قال له حرام على بطن عمر أن يذوق حلوى لا يذوقها فقراء المسلمين .

فموضوع الرحمة : يجب أن ترحم من معك ، عندك بالمحل صانع ارحمه ، بالوقت ، والجهد ، والأجر ، عندك من هم دونك في العمل فارحمهم ، وفي الأثر : فإذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي .

إذاً : النبي الكريم كان رحيماً .

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)

مِن سُنَن الكون : الابتلاء :

هذه الآية تعد أصلاً في العقيدة ، يعني أحد سنن الكون الابتلاء .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

الدنيا خضرة نضرة ، فيها نساء ، وأموال ، فيها بيوت فخمة ، ومزارع فيها مجالس أنس وطرب ، و مباهج .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

من الذي يؤثر طاعة الله عز وجل عن هذا المجلس مجلس اللهو ؟ من الذي يؤثر مجلس العلم على مجلس اللهو ؟ من الذي يؤثر الحلال القليل على الحرام الكثير ؟ من الذي يؤثر أن يبقى مع زوجته عن أن ينظر إلى غيرها ؟

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

نحن في دار ابتلاء ، ونحن مبتلون ، و في دار امتحان ، إن هذا الابتلاء ثمن الجنة ، والسقوط في هذا الامتحان مما يوجب النار ، والنجاح في الامتحان ثمن الجنة ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحي من حيَّ عن بينة ، فالجنة لها ثمن ، وهو النجاح في هذا الامتحان ، والنار لها موجب ، وهو السقوط في هذا الامتحان .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

لكن اطمئنوا :

(وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

(سورة يونس :24 - 25)

وفي النهاية :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن : 26-27)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 7 – 16 ، الابتلاء
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-10-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون مع الدرس الثاني من سورة الكهف ، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)

الشهوات مادّة الابتلاء :

هاتان الآيتان تتعلقان بموضوع الابتلاء ، وهو أحد سنن الله العظيمة في الدنيا ، كأن علة الخلق الابتلاء ، وكأن مجيئنا إلى الدنيا من أجل الابتلاء .

الابتلاء أن تكون أمام خيارين ، أمام شيئين ، أحدهما يرضي الله ، والثاني لا يرضيه ، تمتحن .

فالله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان مجموعة من الشهوات :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

(سورة آل عمران : 14)

هذه الشهوات ، أودعها الله فينا لحكمة كبيرة ، وخلق في الأرض أشياء محببة تتوافق مع هذه الأشياء ، وأودع فينا حب النساء ، وخلق النساء ، وأودع فينا حب المال ، وخلق الأموال ، بمعنى الحاجات ، وأودع فينا شهوة ما ، وخلق ما يلبِّيها في الأرض .

فالإنسان بين أن يأخذ من الشهوة ما أباح الله له ، فيرقى بطاعته وشكره ، وبين أن يعرض عن الشهوة التي حرمه الله عليه ، فيرقى بمأثرته وصبره ، في الحالتين ترقى ، إذا تزوجت وفق ما أراد الله عز وجل ترقى بالطاعة والشكر ، وإذا أعرضت عن الحرام ترقى بالمأثرة والصبر ، فهذه الشهوة سبيل دخول الجنة ، ولولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات ، فإذا أودع الله فينا الشهوات من أجل إن يكرمنا ، ومن أجل أن تسمو نفوسنا ، ومن أجل أن تصبح مؤهلة لتسعد بقربه إلى الأبد .

فلذلك جعل ربنا عز وجل ما على الأرض زينة لها ، ونحن نمتحن لا في كل ساعة ، بل في كل دقيقة، كلما عرضت لك شهوة فإما أن تقول : إني أخاف الله رب العالمين ، فترقى إلى أعلى عليين ، وإما أن يسقط الإنسان تحت وطأة هذه الشهوة ، فيهوي بها إلى أسفل السافلين ، إذاً نحن في امتحان مستمر يؤكد قوله تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت : 2)

الفتنة : أن يزرع فيك شهوة ، ويعرض عليك ما يلبيها ، فإما أن تقول : إني أخاف الله ، وإما أن يسقط الإنسان في هوة الانقياد للشهوة ، فلذلك :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى*فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : 40 - 41)

ولحكمة بالغة ، بالغة جداً ، جعل الله عز وجل ، بعض الطاعات مما ينفرد بها الدين فقط ، إذ أمرك أن تغض بصرك عن محارم الله ، وليس في الأرض كلها تشريع يحرم ذلك ، فإذا غضضت بصرك عن محارم الله فهذا لا يفسر إلا بالإخلاص لله ، مستحيل أن تغض بصرك خشية من إنسان ، لأن بني البشر لا يحرمون ذلك .

ولحكمة بالغة أن الدين انفرد ببعض الأوامر ، فمن طبقها فهذا مؤشر يقيني قطعي على أنه مخلص لله عز وجل .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى*فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : 40 - 41)

إذاً :

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا)

معنى : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا

الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر ، خذ من الدنيا كما شئت ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((اتركوا الدنيا لأهلها ، فإنه من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

[كشف الخفاء ، وقال : رواه الديلمي ، وهو حسن لغيره]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

((مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ مَيْتَةٍ قَدْ أَلْقَاهَا أَهْلُهَا ، فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

[أحمد في المسند]

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا)

أي بساتين جميلة ، وبيوتاً فخمة ، ومركبات فارهة ، ونساء جميلات ، وطعامًا فاخراً ، ومكانة اجتماعية راقية .

فالدنيا خضرة نضرة ، وقال عليه الصلاة والسلام :

((إياكم وخضراء الدمن ، قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء))

[مسند الشهاب للقضاعي]

فهذا الذي تعرض له الشهوات ، والمباهج ، ووسائل اللهو المحرمة ، والاختلاط ، والسهرات ، والنوادي ، والحفلات ، والنزهات التي يُعصى الله فيها ، هذا الذي تعرض له هذه فيقول : إني أخاف الله رب العالمين ، أيضيع هذا عند الله ؟ ماذا فعل الله مع يوسف عليه والسلام حينما قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف : 23)

جعله عزيز مصر ، وجعله وجيهاً في الدنيا والآخرة ، وماذا لو اقترف هذه المعصية ؟ لكان في أسفل السافلين .

يا أخي الكريم ، كل دقيقة تمتحن ، في كسب المال ، وفي إنفاقه ، وفي إطلاق البصر ، و غضه ، و في أكل الحلال ، و ترك الحرام ، وفي الإحسان للزوجة ، وللأم ، وفي خدمة الأب ، و الإحسان للجيران ، ففي كل لحظة ، وفي كل ثانية أنت تمتحن .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً

هذه اللام للتعليل ، أي أن الله عز وجل جعل هذه الشهوات ، وتلك الزينة من أجل أن يبتلى بها عباده ، مطلقاً ، المؤمنين ، وغير المؤمنين .

(وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)

وَإِنَّا لَجَاعِلُون مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا

فهذا البيت الذي آثرته على الله عز وجل ، وهذه المرأة الحسناء التي آثرتها على رقةٍ في دينها ، وعلى المرأة المؤمنة الصادقة ، وهذا الكسب الحرام الذي آثره الإنسان على الكسب الحلال ، وهذه المزرعة الفخمة ، الرائعة ، الغناء ، الجميلة ، التي آثرتها على رضوان الله عز وجل ، وهذه الصفقة التي آثرتها على طاعة الله عز وجل كل هذا الذي حصلته ـ وأسخط الله عز وجل ـ سوف يفنى ، ويبقى السخط ، وكل هذا الذي حصلته بسخط الله سيفنى ، ويبقى العقاب ، فإذا تركته لله أيضاً سيفنى ويبقى الثواب ، فالأمر خطير .

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

(سورة الرحمن : 26)

متعها ، بيوتها ، أبنيتها ، حدائقها ، بساتينها ، نساؤها ، مالها ، طعامها ، شرابها ، أماكنها الجميلة ، منتجعاتها ، فكل الذي تشاهده على وجه الأرض لن يبقى ، هذه الأماكن الجميلة التي يعصى الله فيها ، لن تبقى ، هذه السهرات التي يعصى الله فيها لن تدوم ، لابد من نزول القبر ، الليل مهما طال لابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر ،لابد من مفارقة الدنيا ، إن عاجلاً أو آجلاً ، ولابد من دفع الثمن ، ولابد من الجزاء ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

ربما لا يبدو لكم ارتباط في هذه الآية ، وبين القصة ، قصة أهل الكهف .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)

معنى :

(صَعِيداً)

معنى : صَعِيدًا جُرُزًا

أي : الأرض مستوية ، لا جبال شامخة ، ولا وديان سحيقة ، ولا سواحل ، ولا تضاريس .

(صَعِيداً)

مستوية ملساء .

(جُرُزاً)

لا نبات فيها ولا شجر .

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس : 24)

كأنها أرض محصودة .

العلاقة بين هذه الآيات وقصة أهل الكهف :

العلاقة بين هذه الآية وبين سورة الكهف ، أو بين قصة أصحاب الكهف ، أن الله عز وجل يبين لنا أن هؤلاء الفتية امتحنهم الله عز وجل فنجحوا في الامتحان ، ابتلاهم الله عز وجل فوضعهم أمام خيار صعب ، إما أن يقعوا في الشرك فيسلموا ، وإما أن يؤمنوا فيهلكوا ، آمنوا وفروا بدينهم ، فحفظهم الله عز وجل ، وهذا ملخص القصة .

بداية سرد أحداث قصة أهل الكهف :

(جُرُزاً)

يا محمد .

(أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً)

إن قصة أصحاب الكهف ليست أعجب آياتنا ، آيات الله كلها عجيبة ، وهذه بعض الآيات .

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ)

الكهف ؛ المغارة الكبيرة .

(وَالرَّقِيمِ)

معنى : الرقيم

اختلف العلماء في تفسيرها .

المعنى الأول : لوحة حجرية :

بعضهم قال : لوحة حجرية كتب عليها أسماء أهل الكهف على مدخل المغارة .

المعنى الثاني : اسم وادٍ :

وبعضهم قال الرقيمُ : اسم واد تقع فيه هذه المغارة .

المعنى الثالث : اسم الجبل :

وبعضهم قال : اسم الجبل الذي تقع فيه هذه المغارة .

المعنى الرابع : اسم الكلب :

وبعضهم قال : اسم الكلب الذي كان معهم ، على كلٍ لا يترتب شيء من هذا .

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً)

هذا الاستفهام استفهام إنكاري ؛ أي أن هذه القصة ليست عجيبةً بالنسبة إلى قدرة الله عز وجل ، ليست عجيبةً إذا قيست بقدرة الله ، أما إذا قيست بقوانين البشر فهي عجيبة ، فهي خرق للعادات والسنن التي ألفها الناس .

هذه الآية دليل على الكرامات :

وبالمناسبة ؛ تعد هذه القصة دليلاً على الكرامات ، الأنبياء يأتون بالمعجزات ، أما الأولياء فيأتون بالكرامات ، وبما أن أهل الكهف ليسوا أنبياء فهم مؤمنون ، فهذا الذي جرى بحقهم نوع من أنواع الكرامات .

والعلماء قالوا : الكرامات على نوعين ؛ نوع فيها خرق لما ألفه النـــاس ، ونوع ليس فيه خرق لما ألفه الناس .

أما أن يبقى الإنسان حياً ثلاثمئة عام !! فهذا خرق لمألوف العادات ، إذاً هذه كرامة لهم .

أما أن يحفظ الله أجسامهم من التلف ، ومن التفسخ ، فهذه كرامة لهم ، وأما الكرامات التي ليس فيها خرق للعادات ، فهي كرامة العلم والحكمة ، فإذا سمح الله لك أن تعرفه فقد كرمك ، و شرفك ، ورفع قدرك ، وأعلى منزلتك ، لأن الله عالم يحب كل عالم ، ولأن الله أعطى من أحبهم العلم والحكمة ، وأعطى المال من أبغضهم ، ومن أحبهم ، فالدنيا يعطيها لمن يحب ، ولمن لا يحب ، وهذه نقطة دقيقة جداً ، و ليست الدنيا مقياساً لكرامتك عند الله ، قد تكون فضلاً كبيراً وقد يكون الله عز وجل قد أكرمك بها ، ولكنها ليست مقياساً ، لا يمكن أن تقول لي : أنا غني ، إذاً يحبني الله ، هذا مقياس مرفوض كلياً .

فإذا أعطاك الله الدنيا فهذا تكريم منه عز وجل ، فاشكر الله عليه ، و لا تتخذه مقياساً لكرامتك عند الله عز وجل لأنه يعطيها لمن لا يحب ، لأنها تافهة عند الله ، ولأنها تنتهي بالموت إذاً ليست عطاءً ، وكل شيء ينتهي بالموت لا يسمى عطاءً من قبل الكريم .

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ)

ريح الجنة في الشباب : إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ :

قال العلماء : هذه إشارة إلى أن ريح الجنة في الشباب ، والأنبياء حينما أرسلهم الله عز وجل لأقوامهم، من الذين آمنوا ؟ هم الشباب ، ومن هم الذين أعرضوا ؟ هم الذين رسخت قدمهم في الكفر ، والذين لهم مصالح ، ودنيا عريضة ، أصحاب الشأن ، وعلية القوم ، هؤلاء صدوا الحق ، محافظة على مكتسباتهم ، ومكانتهم ، ودنياهم ، أما الشباب فكما جاء في الأثر :

((إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن ، يقول : انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي))

[ورد في الأثر]

أحب ثلاثاً ، وحبي لثلاث أشد ، أحب الطائعين ، وحبي للشاب الطائع أشد ، لأن الشباب سن الاندفاع نحو الشهوة ، وسن الفتوة ، وسن الإقبال على الدنيا ، والانغماس فيها ، فإذا كان يصلي ، ويغض بصره عن محارم الله ، ويتحرى الدخل الحلال ، فهو واقف في طاعة الله ، وفي الحديث :

((من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار))

[الديلمي في الفردوس عن علي]

ومن شبّ على شيء شاب عليه ، ومن شاب على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء حشر عليه .

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ)

فتيان .

(إِلَى الْكَهْفِ)

ما قصة خروج الفتية إلى الكهف ؟

من خلال بعض التفاسير أن هؤلاء الفتية كانوا يعيشون في ظل حاكم مشرك يناهض التوحيد ، فكل من خالف دينه أمر بقتله ، وكان خيارهم صعباً جداً ، إما أن يشركوا مع من أشرك ، وإما أن يعبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، وإما أن يوحدوا ، وإما أن يعبدوا الله عز وجل ، فتهدروا دماءهم ، لكنهم آثروا طاعة الله عز وجل على كل ما سواه .

فليتك تحلُو و الحياةُ مريـرةٌ وليتَك ترضى والأنامُ غِضابُ

وليتَ الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمينَ خَـراب

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

من الإسقاطات : لكل عصر فتية مع كهفهم :

والله عز وجل يريدنا أن نقف مثل هذا الموقف ، إذا فسد الزمان ، إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه ، فالزم بيتك ، وامسك لسانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة ، إذا كان مع الاختلاط فجور ، ومعصية ، ومخالفات ، فلا كان هذا الاختلاط ، ويا حبذا أن تقبع في بيتك فراراً بدينك ، واتقاءً له ، وفي ذلك قال ربنا عز وجل:

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ)

الكهف هو المغارة في الجبل ، وقد يكون المسجد كهفاً تأوي إليه ، وقد يكون بيتك كهفاً إذا كثرت الفتن، فإما أن تأوي إلى بيتك ، وإما أن تأوي إلى مسجدك ، فراراً بدينك ، من الفتن التي استعرت في آخر الزمان .

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا)

فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

يا من ربيتنا ، يا من خلقتنا ، يا من أعطيتنا ، يا من رعيتنا ، ربنا أقرب كلمة من أسماء الله للعبد كلمة الرب ، هو المربي .

(فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً)

الرحمة : الشيء المريح ، إما أن يكون مادياً أو معنوياً ، فالأمن رحمة .

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش : 4)

والرزق رحمة ، الأمن رحمة ، الصحة رحمة ، الزوجة رحمة ، الأولاد رحمة ، المأوى رحمة ، السلامة من العيوب رحمة ، السمعة الطيبة رحمة ، هذه كلها رحمة .

(فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً)

التجلي رحمة ، الأنوار الإلهية التي تلقى في قلب الإنسان رحمة ، الطمأنينة رحمة ، الثقة بعدالة الله رحمة ، الصبر رحمة الشكر رحمة .

(آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

أثر الرشد في التصرفات والمعاملات :

فإذا كان الإنسان مطيعاً لله عز وجل يكون مسدداً من الله ، محفوظًا ، يعطيه الله رؤية صحيحة ، وبهذه الرؤية الصحيحة يتخذ قراراً صحيحاً ، ويعود إليه بالخير العميم إلى نهاية الحياة .

وإذا كان غافلاً عن الله عز وجل ، ومع الغفلة الظلمة ، ومع الظلمة الحمق ، ولذلك فالإنسان في ساعات الغفلة ، يتخذ قراراً أحمق ، وربما كان سبب شقائه إلى نهاية الحياة .

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

فالمؤمن يستلهم الله عز وجل ، لا يقطع أمراً دون إن يستلهم الله ، وهو وقافٌ عند كتاب الله ، فأنا مقدم على هذه التجارة ، أهي ترضي الله أم لا ترضيه ؟ هذه النوعية من البضاعة ترضي الله أم لا ترضيه ،

وهذه الطريقة في التعامل هل ترضي الله أم لا ترضيه ؟ أنا مقدم على هذا الزواج ، أيرضى الله ، أن أتزوج هذه الفتاة أم لا يرضيه ؟ أنا مقدم على شراكه ، فربما كان شريكي لا يفقه من الدين شيئاً ، ربما جرني إلى كسب المال الحرام ، ربما جرني إلى معصية ، أيرضى الله أن أشاركه ؟ المؤمن وقاف عند كتاب الله .

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

ما أروع أن يكون الإنسان رشيداً .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : 269)

أن يكون رشيداً ، في معاملة أهله ، فقد يرتكب حماقة فيطلق زوجته ، ويشقى بهذا الطلاق ، قد يرتكب حماقة ، ويسيء إلى الناس ، فيخسر عمله ، فإما أن يكون المرء أحمق ، أو أن يكون حكيماً ، ولذلك قال الله تعالى :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : 269)

ويتابع ربنا عز وجل الحديث عن هذه القصة .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ

كما تعرفون أن الإنسان إذا نام أغمض جفنيه ، صار الطريق إلى إيقاظه طريق الصوت ، إنك إذا كنت قد فتحت عينيك ، ورأيت شيئاً خطراً ، تتيقظ ، لكنك إذا أغمضت عينيك ، فما الذي يوقظك عندئذٍ ؟ الصوت ، من هنا جاءت الحكمة أن الله عز وجل .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ)

لأن الأذن للنائم هي المسلك الوحيد لإيقاظه .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

سنوات وسنوات أمضاها هؤلاء الفتية وهم نائمون .

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً)

معنى : لِنَعْلَمَ

هذه الكلمة لنعلم في حق الله لها معنى دقيق ، لتحقق الذي علمه الله من قبل ، العلم هنا التحقق ، أو الوقوع ، ليقع ما كان معلوماً عند الله عز وجل .

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ)

أي ليتحقق علماً .

(أيُّ الْحِزْبَيْنِ)

المشركون والمؤمنون ، كانوا قد تنافسوا في معرفة مدة مكوثهم في الكهف

(أيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً)

يبدو أن الله عز وجل ، في هذه الآيات الأربع ، لخص لنا القصة بأكملها ، ثم يبدأ بذكر التفاصيل .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

حينما قالوا :

(فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً)

يعني احفظنا يا رب ، احفظنا من هذه الفتنة ، من أن يستباح دمنا ، فحينما دعوا الله عزوجل ، وسألوه أن يكون أمرهم رشدا استجاب لهم ، وأنامهم إلى أن زال هذا الظالم الذي حمل الناس على الشرك .

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أيُّ الْحِزْبَيْنِ)

المؤمنون والمشركون .

(أَحْصَى)

كان إحصاؤه دقيقاً .

(لِمَا لَبِثُوا أَمَداً * نَحْنُ)

وإذا قال الله تعالى عن نفسه : نحن ، بضمير الجمع ففي هذا إشارة إلى أن هذا الفعل الذي فعله الله عز وجل كل أسمائه داخلة في :

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ)

(سورة طه : 14)

نَحْنُ نَقُص عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ

إذا كان الحديث عن ذاته ، جاء ضمير المفرد ، وإذا كان الحديث عن أفعاله ، جاء ضمير الجمع .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ)

يا محمد .

(نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ)

معنى : بِالْحَقِّ

ومعنى بالحق هنا ؛ أي الشيء المطابق للواقع ، نقص عليك هذا النبأ بالحق ؛ أي أن هذا النبأ كان خبراً صادقاً ، مطابقاً للواقع ، لأن اليهود في كتبهم ، تزايدوا في هذه القصة ، وأضافوا عليها تفصيلات ليست منها ، وانحرفوا في روايتها .

وتروي كتب التفسير أن اليهود أرادوا أن يحرجوا النبي عليه الصلاة والسلام ، و يفندوا دعوته ، وأن يؤكدوا للمشركين أنه لا يعلم هذه القصص ، والدليل أنهم سألوه عنها ، فلما سألوه عنها ، جاءت هذه القصة لتثبت نبوة النبي عليه الصلاة والسلام .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى

هذا الهدى الجبري ، زاداك الله الهدى .

إنك إذا اخترت طريق الإيمان شرح الله صدرك ، وجمعك مع أهل الحق ، ويسر لك سبل العيش ، ويسر لك كل الأمور ، وأعانك على أمر الدنيا ، ووقاك المتاهات ، وحفظك من الملمات ، ورفع لك ذكرك ، وشجعك ، وتجلى على قلبك ، وأسعدك ، كل هذا لأنك طلبت الهدى .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ)

آمنوا بهذا الرب الكريم ، وآمنوا من خلال هذا الكون ، من خلال هذه الآيات التي بثها الله عز وجل في السماوات والأرض ، وآمنوا بربهم ، واعتمدوا عليه ، وتوكلوا عليه ، وفوضوا له ، واستسلموا له ، عندئذٍ جاء الهدى الجزائي .

(وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

فإذا اختار طالب أن يدخل الجامعة ، فهي تمنحه راتباً شهرياً ، وتمنحه بطاقات مجانية لارتياد المكتبة، وشراء الكتب ، وتمنحه غرفة ليسكن فيها ، وطعاماً بأسعار رخيص جداً ، كل هذه الميزات لأن هذا الطالب اختار دخول الجامعة مثلاً .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا)

معنى الربط على القلب :

معنى :

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ)

يعني شددنا على قلوبهم ؛ أي جعلنا قلوبهم رابطة الجأش .

فإذا قال الإنسان :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة : 5)

حينما يختار الإنسان طاعة الله عز وجل بإصرارٍ عندئذٍ يعينه الله عليها ، ألا أنبئكم بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ لا حول عن معصيته إلا به ، ولا قوة على طاعته إلا به ، ولو أن الإنسان اعتز باستقامته، واستعلى بها على الناس بسهولة فائقة ، فالله عز وجل يضعف مقاومته ، يجعل مقاومته للمعاصي ، فإذا هو يقع فيها ، هذا ما قال :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة : 5)

قال :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

(سورة الفاتحة : 4)

ولم يقل :

(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة : 5)

فأضعف الله مقاومته فوقع في المصيبة ، ولذلك فقمة النجاح في الدين يساوي التواضع ، والانكسار ، والافتقار .

مالي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

ومالي سوى لقرع بابك حيلة فإذا رددت فأي باب أقرع ؟

إذاً :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا)

معنى : إذْ قامُوا

المعنى الأول :

إذ قاموا بين يدي هذا الحاكم الظالم الذي حملهم على الشرك .

المعنى الثاني :

وإذ قاموا فارين بدينهم .

هذه الكلمة مطلقة ، على كلٍ ، فأنزل الله على قلوبهم السكينة ، وهناك إنسان يخاف من ذله ، هذا الخوف من خلق الله ، والطمأنينة من خلق الله ، فإذا كنت معه هابك كل شيء ، وإذا تركته أهابك من كل شيء .

لذلك :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران : 151)

وهناك قانون ، بمجرد أن يشرك إنسان بالله عز وجل يلقي الله الرعب في قلب هذا الإنسان .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً)

التوحيد أصل صلاح الدين ، والشرك أصل فساده :

هذا هو التوحيد ، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، هذا هو الدين كله الدين كله توحيد ، ألا ترى مع الله أحدا ، ألا ترى مع الله فاعلة ، ألا ترى رافعاً إلا الله ، ألا ترى رازقاً إلا الله ، ألا ترى خافضاً إلا الله ، ألا ترى باسطاً ، ألا الله ألا ترى قابضاً إلا الله .

إذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى
أتينـاك بالفقر يا ذا الغنى وأنت الذي لم تزل محسناً
و عودتنا كل فضل عسى يكون الذي منك قد عودتنا

لن ندعو من دونه ، ليس هذا الذي تدعوه مماثلاً له ، وما أبعد الفرق بين من تدعو من دونه ، وبين خالق السماوات والأرض .

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر : 14)

وقال سبحانه :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم : 22)

(لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً)

لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا

إذا صليت في الليل فقل : يا رب ليس لي سواك ، تبرأ من حولك وقوتك ، ومن كل من تعتمد عليه ، من كل من تتكل عليه ، من كل من تطمئن له ، من كل من تحس أنه يدعمك ، تبرأ منه ، واستعن بالله عز وجل ، عندئذ يرفعك الله عز وجل .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا)

لو فعلنا ذلك .

(لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً)

الشرك شططٌ من القول :

هذا هو الباطل ، فيه شطط ، في زيادة ، في انحراف ، في خروج عن الطريق الصحيح .

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً)

وذلك في كل زمان :

وجوب الإنكار على المشرك :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية : 23)

فالمعنى مبسط جداً ، فهذا الذي يتبع الهوى ، اتخذ الهوى إلهاً، وهذا الذي يتبع شهوته ، اتخذ الشهوة إلهاً ، و هذا الذي يؤثر المال على طاعة الله اتخذ المال إلهاً ، وهذا الذي يؤثر رضا زوجته على طاعة

الله، اتخذها إلهاً .

ولذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

(صحيح البخاري)

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ)

إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإذا كنت مدّعياً فالدليل :

فالتفكير المنطقي ، ادع ما تشاء ، ولكن أين الدليل ؟ فهناك قاعدة عند علماء الأصول ، إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإذا كنت مبتدعاً فالدليل ، ابتدع ما تشاء ، ادع ما تشاء ، ائت بالدليل قل ما تشاء ، أزعم ما تشاء ، أين الدليل ؟ هات الدليل لأكون معك ، أما أن تزعم ما تشاء بلا دليل فهذا هو الجهل الكبير ، أن تدعو آلهة من دون الله بلا دليل .

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون : 117)

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ)

أي بحجة دامغة ، بدليل عقلي ، بين ..

(بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

أعظمُ الظلم الإشراكُ بالله :

إذاً حينما يدعو الإنسان إلهاً من دون الله ، ومن دون دليل فقد افترى على الله كذبا ، فإذا دخلت إلى دائرة ، وبيدك إضبارة تود أن يوقعها المدير العام ، ولا يصلح إلا توقيع المدير العام ، فإذا اتجهت إلى مستخدم ترجوه ، وتتوسل إليه أن يوقعها لك ، أليس هذا حمقاً كبيراً !! ما قيمة توقيع هذا المستخدم ؟ هذا له وظيفة محترمة ، لكن ليس من صلاحيته أن يوافق لك على هذه الإجازة ، إنه لا يقدر ، فحينما لا تعلم من هو الذي بإمكانه أن يوقع ، فهذا هو جهل كبير .

كل أمورك بيد الله عز وجل :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود : 123)

أمرك ، وأمر أعدائك ، وأمر أحبابك ، وأمر أهلك ، وأمر أولادك ، وأمر صحتك ، وأمر عملك ، وأمر دخلك .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود : 123)

متى قال الله لك : اعبدني يا عبدي ، بعد أن طمأنك ، أن الأمر كله إليه .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : 123)

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

العزلة الشرعية :

وقد درسنا سابقاً موضوع العزلة ، وآدابها في كتاب أحياء علوم الدين ، وبينت لكم ، أنك إذا كنت في مجتمع فاسد فالعزلة واجبه ، وإن كنت في مجتمع صالح فالاختلاط واجب ، والعزلة مطلقاً لها أحكام متفاوتة ، فهؤلاء الفتية أصحاب الكهف اتخذوا قراراً باعتزال قومهم المشركين .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

أدق تفسير :

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ)

تفسير : وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ

يجب أن تعتزل المشرك وما يعبد ، إلا إذا عبدوا الله فلا ينبغي أن تعتزلوهم ، إذاً أصحاب الكهف اتخذوا قراراً باعتزال قومهم لأنهم غارقون في الشرك ، وفي المعاصي ، والاعتزال مُنصب على قومهم وما يعبدون .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ)

إذا أردت أن تبتعد عن أهل الشرك فينبغي أن تبتعد عن ملهياتهم وعن شهواتهم ، وأهدافهم ، وطرائقهم ، وتقاليدهم ، وعن عاداتهم ، وعن كل ما يمت لهم بصلة ، لأن هذا الشيء الذي يمت لهم بصلة قد يجرك إليهم .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

إلا إذا كانوا قد عبدوا الله عز وجل ، عندئذ لا ينبغي أن تعتزلوهم ، فالإنسان لا تعتزله لذاته بل لعمله السيئ ، فإذا عاد إلى الصواب فهو أخوك في الله ، فلمجرد أن يعود هذا المشرك إلى حظيرة الإيمان وجب عليك أن تصله ، لذلك جاء إلى المدينة رجل اسمه عمير ، وهو من ألد أعداء النبي الكريم ، وقد

توشح سيفاً له ، رآه عمر ، فقال : ما الذي جاء بك يا عمير ، قال : جئت أريد أن أفدي أخي ، فقيده بحمالة سيفه ، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال يا رسول الله : هذا عمير جاء يريد شراً ، قال : أطلقه يا عمر ، فأطلقه ، قال : اقترب مني يا عمير ، فاقترب منه فقال : ابتعد عنه يا عمر ، فابتعد عنه ، قال يا عمير ، ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال : جئت أفك أخي ، أو ابني ، لا أدري أيهما أصح ، فقال : وهذا السيف الذي على عاتقك ، قال : قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ فكان عمير قد جلس في ظاهر مكة مع صفوان بن أمية اتفقا على أن يقتل عمير رسول الله بهذا السيف المسموم ، وجاء تحت غطاء أن له أخاً يريد أن يفك أسره ، فقال يا عمير : سلم علينا ، قال عمت صباحاً يا محمد ، قال : سلم علينا بسلام الإسلام ، قال يا محمد لست بعيد عهدٍ بالجاهلية هذا سلامنا ، قال له : ألم تقل لصفوان : لولا هموم ركبتني ، وأولاد أخاف عليهم العنت لذهبت ، وقتلت محمداً ، وأرحتكم منه ، فقال لك صفوان : أما أولادك فهم أولادي ما امتدت بهم العمر ، وأما ديونك فهي علي مهما بلغت ، فامض بما أردت ، عندئذ وقف عمير ! وقال : أشهد أنك رسول الله ، والله ما سمع أحد على وجه الأرض ما الذي دار بيني وبين صفوان ، عندئذ أسلم هذا الرجل ، وأنا ما أردت من هذه القصة إلا شيئاً واحدًا .

سيدنا عمر كان يقول : واللهِ دخل عمير على رسول الله ، وهو أبغض إليّ من الخنزير ، وخرج من عنده ، وهو أحب إليّ من بعض أولادي ، انتهى الأمر ، أنت لا تكره زيداً لذاته ، تكرهه لعمله ، فإذا عاد إلى الدين فهو أخوك .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

معنى الاستثناء : إلاّ الله

وما يعبدون إلا الله استثناء منقطع ، فإذا عبدوا الله وحده انتهى الاعتزال ، وهم إخوانكم .

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً)

الكهف الذي أووا إليه معروف ، وكل مؤمن خاف على دينه ، أو خاف على استقامته ، أو خاف على عقيدته ، أو خشي أن يعصي الله عز وجل ، لا ينبغي أن يكون في مكان قد يجر فيه إلى المعصية عليه أن يعتزل كل من يجره إلى المعصية .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ))

(البخاري)

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنَ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهم قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ ، لا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً))

(صحيح البخاري)

فأن تأتي إلى مجلس العلم ، وتستمع إلى آيات الله تتلى عليك ، وتفسر بقدر الإمكان هذا أفضل مليون مرة من أن تقبع وحدك في البيت ، أما إذا دعيت إلى مجلس أنس وطرب فالأفضل ألف مرة أن تبقى وحدك في البيت من أن تجر إلى معصية الله ، هذا ملخص الموضوع ، وسوف نتابع الحديث عن هذه القصة بفضل الله عز وجل وتوفيقه في الدرس القادم .

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 10 – 26 ، كرامة الأولياء
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-10-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث من سورة الكهف ، قد يسأل الإنسان لـماذا كانت هذه القصة؟ أو لماذا أورَدَها الله ؟ أو ما مغزاها ؟ هل المقصود منها حكاية ؟ حوادث ، حِوار ، أم المقصود منها أسمى من ذلك .

قصة أهل الكهف تسلية للصحابة وتخفيف عنهم :

جاءت هذه القصة في أوانها ، وفي مكانها ، فقد كان المسلمون في مكة يواجهون الأوضاع نفسها التي واجهها الفتية في أوج اضطهادهم ، والاستبداد بهم ، إنه تشابه غريب بين ما وقع في مكة في بداية الإسلام من اضطهاد للمؤمنين وقسوة عليهم ، وتنكيل بهم ، وبينَ ما وقع لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف من تعذيب ، وتنكيل ، وتهديد ، وتخويف .

إذاً : كأنَّ قصة أصحاب أهل الكهف جاءت لتخفف الأعباء عن المؤمنين الأوائل ، جاءت لتسليهم ، ولتزيح عنهم الحزن ، وكان الفتية يعيشون قبل أن يغادروا بلدهم إلى الكهف في فترة تشبه الفترة التي عاشها المؤمنون ، لقد عاشَ الفتية المؤمنون البيئة ، والأوضاع ، والقسوة ، والمِحَن ، والمصائب ، والمضايقات نفسها ، ولا تصوير أبلغ من تصوير القرآن الكريم .

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة الأنفال : 26)

هكذا كان المؤمنون في بداية عهدهم ، في مكة المكرمة ، وكتب السيرة تفيض بقصص الظلم ، والقسوة ، والتعذيب ، والتنكيل ، وتحكي من أخبارِ محنة سيدنا بلال ، وعمار ، وخباب ، ومصعب وسمية ، الشيء الكثير .

إذاً : كأنَّ هذه القصة جاءت بلسماً شافياً لهؤلاء المؤمنين الأوائل الذين لاقوا ما لاقوا ، وتحملوا ما تحملوا ، وكان صبرهم دليلاً قاطعاً على عِظَمِ إيمانِهم .

إنه شَبَهٌ تام بين الممتحنين في مكة ، وبين الممتحنين من أصحاب الكهف ، ولِذا قصَّ الله عز وجل في هذه الفترة الرهيبة التي يستولي فيها اليأس ، والتشاؤم ، وتزيغ الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، قصة يوسف مع إخوته ، وقصة موسى مع فرعون ، وقصة فرد مع أمة ونبيٍ مع جماعة ، وقصة أصحاب

الكهف ، لأنَّ لهذه القصص أهدافاً تربويةً كبيرة جداً .

نُقاط التشابه بين مؤمني مكة وأصحاب الكهف :

هناك شيءٌ آخر في هذه القصة ، وهو نُقاط التشابه بين مؤمني مكة في بداية عهد الإسلام وأصحاب الكهف ، إذ أن هناك الإرادة القاهرة التي تنصر المؤمن على الكافر ، والبر على الفاجر ، والمظلوم على الظالم ، والضعيف على القوي ، والفقير على الغني ، بطُرق تحار منها العقول وتشده بها العقول ، ويؤمن بها الكافر ، ويوقن بها المُتشكك ، أي أنَّ هناك قوة قاهرة ، تنصر الضعيف ، المقهور ، الذليل ، المظلوم ، الفقير ، على خصمه القوي ، العتيد ، الشديد ، هذا وجه التشابه بين قصة أصحاب الكهف ، وهؤلاء المؤمنين الأوائل .

وما أشبه المسلمين في مكة بالفتية المؤمنين الذين لجؤوا إلى الكهف فِراراً بدينهم من الفتن ، فبقوا فيه إلى أن قلب الله الليل نهاراً ، وانقرضت الدولة الكافرة المضطهدة لأهل الإيمان والعقيدة ، حينما أفاق أهل الكهف رأوا حياة أخرى ، ومجتمعاً آخر ، وعلاقات أخرى ، وكأنَّ الذي خافوا منه قد زال عنهم زوالاً نهائياً ، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

إيثار الحق واعتزال الشرك :

كان مجتمعهم مجتمعاً منحرفاً يسود فيه الفجور والخلاعة ، والانهيار في القيم ، والانحطاط ، الفاجر هو القوي ، والمستقيم هو الضعيف ، الفاسق هو الغني ، والمُلتزم هو الفقير ، مجتمع فيه ظلم ، وانحراف ، وقسوة ، وميوعة ، وانحلال ، فيه ما في كل المجتمعات المتفسِّخَة ، هذه هي البيئة التي عاش فيها هؤلاء الفتية أصحاب الكهف ، ويبدو أنَّ هؤلاء الفتية كانوا من بيوت عظيمة ، ومن علية القوم ، يعيشون ، ويأكلون ما لذَّ وطاب .

ولكن حينما بلغتهم دعوة السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وقعوا في صِراع داخلي ، بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين أن يقفوا مع عقولهم ، وبين أن يقفوا مع شهواتهم ، بين المبدأ والمصلحة ، وبين القيم والحاجات ، نشأ هذا الصراع العنيف في نفوسهم أولاً ، ثم انعكس على مواقفهم ، وعقيدتهم ، وتصرفاتهم ، لذلك شعروا أنهم غرباء عن هذا المجتمع ، ماذا يفعلون ؟ إما أن يعتقدوا عقيدة صحيحة مع الموت ، وإما أن يحيوا مع الفساد في العقيدة ، إنه خيار صعب ، ولا مكان لموقف ثالث ، إما أن يسايروا ، ويواكبوا ، ويوافقوا هذا التيار المنحرف ؛ تيار الفسق ، والفجور،

والمجون ، والعقيدة الوثنية في عهد الرومان قبل انتشار دعوة السيد المسيح ، وإما أن يقفوا مع الحق الذي آمنوا به ، وعرفوه ، ويدفعوا ثمنه باهظاً جداً ، والأمر لا يحتمل حالة ثالثة ، فإما أن يكونوا مع الحق ، ولا حياة مع الحق ، وإما أن يكونوا مع الباطل حيث البحبوحة والحياة الرغيدة ، هذا تمهيد للحالة النفسية ، وللبيئة التي عاش فيها أصحاب الكهف قبل أن يأووا إلى كهفهم .

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً)

حينما يلتجئ الإنسان إلى الله عز وجل ، ويلوذ به ، ويحتمي بحِماه ، ويستظل بظله ، حيث لا ظل إلا ظله ، وحينما يخلص له ، ويستقيم على أمره ، ويحبه ، ويحتمي به ، فقد مَلَكَ كُلَّ شيء .

ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتُّكَ فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

الرحمة والسكينة من صفات المؤمنين المخلصين :

لا يعرف مضمون هذه الكلمات ، ولا الشعور بها إلا من ذاقها ، وإذا تجلى الله عز وجل على قلب المؤمن شعر أنه مَلَكَ كُلَّ شيء ، ولذلك قال أحد العارفين بالله ؛ وهو أبو يزيد البسطامي : " والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف ". "

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

يا رب تولَّ أمرنا ، وفقنا لما تحب وترضى ، ونجنا من القوم الظالمين ، وهيئ لنا خلاصاً من هؤلاء ، وهيئ لنا حالة نرتاح بها من هؤلاء الذين يُكرهوننا على أن نكون معهم على الوثنية ، والانحراف ، والسقوط .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

نوم أهل الكهف :

تغمض العين في أثناء النوم ، ولكن الأذن تبقى مفتوحة حيث إنها مكان التنبّه الوحيد للصوت ، إذاً : الاستيقاظ يكون عن طريق الأذن .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً)

من كرامات أهل الكهف : لبثهم ثلاثمئة سنين :

بعثناهم من هذا النوم الطويل ، وكما نعلم أنَّ أصحاب الكهف ليسوا أنبياء ، وما جرى معهم هو خرق للعادات ، وهو أن ينام الإنسان ثلاثمئة سنة ، وهو بكامل هيئته ، وصحته ، وقوامه ، من دون أن يتلف جسمه ، أو يفنى جسده ، وخرق العادة هذا إن كان لنبي فهو معجزة ، وإن كان لولي فهو كرامة ، وهذا دليل قطعي على وجود الكرامة ، وقد ذكرَ الله ذلك في حديثهِ عن أصحاب الكهف فقال :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

مغزى الآية : إيمانٌ من العبد وزيادة هدى من الله :

عليك أن تبادر ، وعلى الله الباقي .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

عليك أن تخطو الخطوة الأولى ، وأن تختار الهدى ، وأن تفكر ، وتتخذ قراراً في طلب الحق ، وعلى الله الباقي .

ابن آدم اطلبني تجدني ، إذا تقربت إليّ شبراً تقربت إليك ذراعاً ، وإذا أتيتني مشياً أتيتك هرولةً .

إذا رجع العبد العاصي إلى الله عز وجل نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

هُنا مغزى دقيق جداً ، أي أنك أيضاً أيها المؤمن إذا اتخذت قراراً صحيحاً في طلب الحق فعلى الله الباقي ، فهو يجمعك مع أهل الحق ، ويشرح لك صدرك لطلب الحق ، وهو يوفقك في الدنيا ، ويفرغك للحق ، ويتحقق كُل ما تطمح له إذا خطوت الخطوة الأولى ، ويتولى الله سبحانه وتعالى ما تبقى من خطوات .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً)

قد ينهار الإنسان نفسياً ، فتخور قِواه الجسمية نتيجة لذلك ، لكنَّ الله يربط على قلب المؤمن ، ويعطيه العزم ، والسكينة ، والوقار ، والصلابة ، وقوة التحمل فيُصبح كجبل راسخ ، بينما أفئدة الكفار :

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : 11)

يُلقي الله في قلب المؤمن السكينة .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً)

ملخّص الأديان : لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً :

هذا هو التوحيد ، وهذا هو الدين ، وهذه هي العقيدة الصحيحة ، وهذا ملخص الأديان كلها .

(وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً)

لو أننا دعونا من دونه إلهاً ، لقد خرجنا عن الحق ، والاعتدال ، وخرجنا عن دائرة القبول .

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

وجوب اعتزال أهل الشرك والفجور :

يجب أن تكون العزلة تامة عن أهل المعصية والفجور ، فإذا كنت في مجتمع فاسد ، ورأيت شُحاً مُطاعاً ، وهوىً متّبعاً ، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه فالزم بيتك ، وأمسك لِسانك ، وخُذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

أي اعتزلتم عاداتهم ، وتقاليدهم ، وقيمهم ، وأنماط معيشتهم ، ومقاصفهم ، و متنزهاتهم ، وأنديتهم ، وأمكنة احتفالاتهم ، وأنماطهم ، إلا إذا عبدوا الله عز وجل فعندئذ لا ينبغي أن تعتزلوهم .

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً)

المرفق ؛ الشيء الرفيق المريح .

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ)

طبيعة الكهف الذي لجأ الفتية إليه :

أي دلّهُم الله عز وجل على كهف يقع - كما قال المفسرون - في الجهة الشمالية ، تأتيه الشمس صباحاً مجانبة ، فيدخل نورها فقط بدون أشعتها ، وتغيب كذلك عنهم مساءً .

إذاً كانَ الكهفَ مفتوحاً على الجهة الشمالية ، حيث يأخذ من الشمس نورها وضياءها ، ويتقي منها أشعتها المؤذية ، والكهف واسع ، وفيه تهوية جيدة .

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ)

لا تدخل الشمس إذا طلعت إلى كهفهم فتزعجهم .

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ)

يعني تقطعهم ، وهم في فجوةٍ من الكهف .

(ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِي

إذا أنس الله عز وجل من عبد طلباً للهداية فإنه يهديه ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدِكُم .

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)

المهتدي الوحيد هو الذي عَرَفَ الله ، وليس بعده إلا الضلال المبين ، فإمّا أن تكون على الحق ، أو أن تكون على الباطل ، ولا يوجد حالة ثالثة ، لأنَّ الحق واحد ، لا يتعدد ،

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا

أي إذا استغنى الإنسان عن الله عز وجل ، باختياره فأدار ظهره للدين ، والتفت إلى الدنيا ، فهل في الأرض كلها جهة تهديه ؟ لا والله ، ومن يضلل نفسه - بعض المفسرين قالوا ومن يضلل نفسه عن الله عز وجل .

(فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

إذا صَرَفَ الإنسان نفسه باختياره عن الهدى الإلهي ، وصَرَفَ نفسه عن الحق .

(فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

لن تجد أحداً يهديه .

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً)

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ

قال بعض العلماء : " إن أجفانهم بقيت مفتوحة ".

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ)

نائمون .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

من الإعجاز العلمي : وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ

من الإعجاز العلمي لهذا الكتاب هذه الآية يقول العلماء : " إذا استلقى الإنسان على فراشه ، فإنَّ وزن جسمه يضغط على الهيكل العظمي ، والهيكل العظمي يضغط على العضلات ضغطاً ثانياً " ، فيُسبب هذا الانضغاط انضغاطاً على الشرايين والأوردة التي في هذه المنطقة ، وهذا الانضغاط يسبب ضعفاً في تروية العضلات ، لذلك " تخضر " هذه العضلات كما تقول العامة ، مما يجعل الإنسان يُغيّر استلقاءه ، فلوا راقبنا إنساناً نائماً لوجدناه يُغيّر استلقاءه ثماني وثلاثين مرة في الليلة الواحدة ، أما الشيء العجب العجيب ، كيف يغير الإنسان وضعه وهو نائم ؟

قال العلماء : " في الإنسان أماكن مراكز عصبية تتحسس بالضغط ، فإذا تمَّ انضغاط بعض العضلات، وتحسست هذه المراكز العصبية تعطي إشارة إلى الدماغ ، والإنسان نائم ، أنَّ هناك ضغطاً في الجهة الفلانية ، فيُعطي الدماغ أمراً إلى العضلات لتغير وضع النوم مما يجعل الإنسان يتقلب بالليلة الواحد من ثماني وثلاثين إلى أربعين مرة ، هذا في الأحوال العادية ".

" أما لو تصورنا إنساناً مصاباً بمرض اسمه السُبات ، وهو غياب كُليّ عن الوعي ، أو إنساناً مصاباً بشلل كامل فهو لا يستطيع مثلاً أن يُحرِّك نفسه ، إنَّ أول علاج لهذه الحالة ، هو التقليب ، لأنَّ الإنسان إذا بقي على وضع واحد فوق ثماني ساعات يبدأ اللحم بالتمزق ، إذ تضعف تروية الدم للنسيج العضلي، وعندها يتفسّخ اللحم ، يُقال لكَ " اهترأ لحمه " ، ولو نسي أهل المريض المُصاب بِسُبات أو شلل أن يقلّبوه فإنَّ قِطَع اللحم تنزع من أطرافه نزعاً ، سمّى العلماء هذا المرض قرحة السرير ".

العلاج الوحيد لِكُل إنسان مصاب بالشلل ، أو بالسُبات قبل كل علاج هوَ التقليب فهؤلاء أصحاب الكهف لو ناموا على حالة واحدة ، واستمر نومهم ثلاثمئة عام لا يبقى منهم بعد خمسين عاماً بالتأكيد شيء ، تتفسخ لحومهم ، ويأكلها الدود ، وهم أحياء ، فكانت هذه الآية من آيات الإعجاز العلمي .

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

فلولا هذا التقليب لما بقوا على ما هم عليه ثلاثمئة عام ، فالإنسان يتلقب في الفِراش ثماني وثلاثين مرة في الليلة الواحدة ، في الساعات الثماني التي ينامها ، بفعل المجموعة المعقدة جداً من الأجهزة ، حيث إنَّ هناكَ مراكز عصبية منتشرة في كل أنحاء الجسم تتحسس بالانضغاط ، وهذه المراكز تُعطي معلومات عصبية إلى الدماغ بأنَّ هناك في المكان الفلاني انضغاطاً ، والدماغ يُرسل أوامره إلى العضلات لتغير وضع الاستلقاء من أجل أن يبقى الإنسان سليماً معافى ، أمّا في حالة الشلل والسُبات فلا بد من تقليب المريض ، من يُقلّب هؤلاء الذين أنامهم الله هذه السنوات الطويلة ؟ إنه الله سبحانه وتعالى .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ)

ذِكْرُ الله للكلب تشريفا لأصحابه :

معهم كلب وَفِيٌّ

(بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)

معنى الوصيد :

الوصيد أي فناء الدار ، أما الوصيد في الكهف ، فهو الفسحة من الكهف .

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً)

معنى : لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا

قال بعض العلماء : " إنَّ حالة الإنسان النفسية قد تنتقل للآخرين ، فهؤلاء حينما أووا إلى الكهف كانوا في حالة رعب ، وفزع شديدين ، فكل من اطلّعَ عليهم امتلأ قلبه رعباً منهم وولى منهم فِراراً ".

الحكمة من تقديم الفرار على الرعب :

هناك حِكمة بالغة من تقديم الفرار على الرعب ، فقال بعضهم : هذا من قبيل تقديم المسبب على السبب، أي حين اطلعت عليهم امتلأت منهم رعباً ، فلا تملك إلا أن تولي فراراً منهم .

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً)

حينما أووا إلى الكهف كان الضغط الاجتماعي ، والقهر ، والاضطهاد ، والتعذيب ، والتقتيل لكل من يؤمن بالسيد المسيح ، لأن الديانة وقتها كانت ديانة وثنية ، تؤمن بالأصنام ، وبإله الجمال (فينوس)، وإله المطر ، وإله الحرب ، وإله الرياح ، هذه الآلهة التي اتخذتها بعض الأقوام الرومانية كان هذا دين الملك الذي يحكم وقتها هؤلاء الفتية .

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

كَمْ لَبِثْتُمْ

توقعوا أنهم ناموا ، ثمَّ استيقظوا ، نوماً طويلاً ، ينام الإنسان في بعض الأيام من الساعة السادسة مساءً إلى الساعة السادسة صباحاً ، فيقول : نمت اثنتي عشرة ساعة .

شعروا أنهم ناموا نوماً طويلاً ، لكنه لا يزيد على يوم أو بعض يوم .

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ)

أي كادوا أن يختلفوا ، والموضوع ليس بذي بال .

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ)

فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ

كان معهم بعض المال ، فبعثوا أحدهم بهذا الورق ، قبل أن نتابع الموضوع هناك إشارة أن الله عز وجل حينما قال :

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً)

الرقيم هو الحجر الذي دُوِّنَتْ عليه أسماؤُهم ، أو اسم الوادي ، أو اسم الجبل الذي كانوا فيه ، أو اسم كلبهم ، وجاء في بعض التفاسير ، وأظنه تفسير الرازي إلى أن الرقيم نسخ من الكتاب المقدس من التوراة ، والإنجيل ، أي حينما أوى هؤلاء المؤمنون إلى الكهف أخذوا معهم كتاب ربهم ليقرؤوه ، هذه إشارة أيضاً إلى أن المصحف يجب أن يكون رفيقا للمؤمن .

(فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ)

في بعض التفاسير أنهم حينما ذهبوا إلى الكهف ، اجتمعوا ، ويدُ الله مع الجماعة ، وتوجهوا نحو

الكهف ، وأخذوا معهم طعاماً وشراباً ، وكتابهم المقدس ، الذي هو زاد المؤمن ، بقوا يأكلون ، ويشربون في الكهف حتى نفد طعامهم وشرابهم .

بعثوا الآن ، وهم جائعون .

(فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً)

وجوب طلب وتحرّي الحلال :

المؤمن كالنحلة ، لا يأكل إلا طيباً ، ولا يُطعم إلا طيباً .

(فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ)

استنبط العلماء من هذه الآية أنه ليسَ للإنسان حق أن يشتري كُلَّ الرزق ، وليس للإنسان حق أن يقف أمام البائع ، في بعض الأحيان يقف شخصان أو ثلاثة ، وعِندَ البائع شيء من الفاكهة ، يأتي إنسان ، ويطلب من البائع أن يزن لهُ كُلَّ الفاكهة ، وهذا خِلافُ الأدب ، فهناكَ أشخاص يقفون معك .

(فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ)

يأخذ حاجته فقط ، ولا يأخذ كل الرزق ، كلمة من للتبعيض ، هذا تعليم وأدب قرآني ، فإذا كان لك أخ واقف معك عِندَ بائع ، وعنده كمية محدودة فلا تأخذها كلها ، بل خُذ حاجتك مِنَها ، ودع لأخيك الباقي .

(فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ)

رَحِمَ الله عبداً سهلاً إذا باع ، سهلاً إذا اشترى ، سهلاً إذا قضى ، سهلاً إذا اقتضى .

(فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ)

طلبوا ممن أرسلوه لشراء الطعام أن يكون لطيفاً ، وأن يتخفى ، وألا يُعلن عن شخصيته ، وليأتِ بهذا الطعام خِلسةً ، دون أن يُعرف ، ودون أن يَعرف الناس أين مقرهم ، لأنهم مضطهدون ، مستضعفون ، ملاحقون ومعذبون .

(وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً)

التلطف في البيع والشراء : وَلْيَتَلَطَّفْ

هنا قضية بلاغية .

(فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ)

الفاء تفيد الترتيب على التعقيب :

(فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ)

(فَلْيَنْظُرْ)

فليأتِ ، شي جميل ، انطلق ، فنظر ، فأتى بالطعام ، أعمال مرتبة وفق برنامج زمني ، أما آخر الآية :

(وَلْيَتَلَطَّفْ)

لماذا لم يقل الله عز وجل : ابْعَثُوا أحَدَكُمْ ، فَلْيَنظُرْ ، فَلْيَأْتِكُمْ ، فَلْيَتَلَطَّفْ ، لا ، فإنه يجب أن يكون لطيفاً في كل هذه المراحل .

(فَلْيَأْتِكُمْ)

(وَلْيَتَلَطَّفْ)

هي واو لِمُطلق الجمع ، أي يجب أن يتلطف حينما يذهب ، وينظر إلى الطعام ، وحينما يشتري ، ويأخذ الطعام ينبغي أن يتلطف أيضاً .

ملاحظة :

وردَ القول : لماذا لم يقُل الله : فلينظر فليأتكم فليتلطف ، ولو وضعنا واواً لَبَطلَ الكلام والسؤال ، لأنَّ الله قال :

(فَلْيَأْتِكُمْ)

المراحل الأولى مراحل متتابعة ، أما التلطف فيجب أن يشمل كل المراحل ، إذاً جاءت واو العطف :

(فَابْعَثُوا أحَدَكُمْ)

(فَلْيَنْظُرْ)

(فَلْيَأْتِكُمْ)

(وَلْيَتَلَطَّفْ)

في كل هذه المراحل .

(وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أحَداً)

(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً)

أي يقتلوكم .

(أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ)

الوثنية .

(وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً)

الاحتياط واجب لاجتناب الوقوع في الفتن :

لو عدتم إلى ملتهم ، لعِشتُم في بحبوحة ، ونعيم ، ووجاهة ، ولكن على حساب عقيدتكم ، ومبادئكم ، ودينكم .

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)

معنى : وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ

ذهب رسولهم الذي أرسلوه لِشراء الطعام ، ولكنه حينما أبرزَ العملة التي معه ؛ وهي عملة يعود تاريخها لِما قبل ثلاثمئة سنة قوبلَ باستغرابٍ شديد ، وقالوا له : ما هذه ؟ ومن أنت ؟ كمن ذهبَ إلى سوق ، وأخرجَ عملةً قديمةً جداً ، وطلب من البائع أن يبيعه خضاراً وفواكه ، سيستغرّب البائع ، وسيسألهُ : من أنت ؟ من أي زمان أنت ؟ لكنه شعر أن الناس طيبون ، لا كالذين تركهم ، هُم طيبون ، لأنَّ الدين قائم ، شعر أن هناك تبدلاً تاريخياً ، في هذه العودة ، هم عرفوه ، وتتبعوه ، ووصلوا كما تذكر بعض القصص إلى باب الكهف ، وبعد أن دخل قبلهم الكهف ماتوا ، أي أصحاب الكهف جميعاً .

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ)

عثر فعل لازم ، أما أعثر فمتعدٍ ، دلَّ الله عز وجل عليهم لِحِكمةٍ بالغة ، لتكونَ هذهِ آية أن أيها الناس هؤلاء الذين أخلصوا لي ، وأحبوني ، وخافوني ، واستقاموا على أمري ، فأنا أحفظهم ، وأحميهم ، وأنصرهم على عدوهم ، وأتجلى على قلوبهم .

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

والله الذي لا إله إلا هو لزوال الدنيا أهون على الله من أن يخلف وعده معك .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)

(سورة النور : 55)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

(سورة الحج : 38)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 97)

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا)

ولأصحاب الكهف قصة مشهورة في التاريخ ، فحينما لاحقهم الملك الطاغية ، وعرض عليهم الإيمان بديانته الوثنية ، أمهلهم يومين ، لكنهم اختفوا ، أين هم ، وكيف اختفوا ؟ لا تزال قصتهم تسير مع الزمن ، فلما رأى هؤلاء الناس المسيحيون الذين كانوا يشكون في الآخرة أنَّ الله قد حَفِظَ أصحاب الكهف كل هذه الفترة ، ثُمَّ أحياهم ، كان هذا دليلاً على الإيمان باليوم الآخر .

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)

اقتراح غلق الكهف : ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا

ارتأى فريقٌ أن يغلق هذا الكهف نهائياً ، بالإسمنت مثلاً ، والحجارة ، ربهم أعلم بهم ، رأى فريقٌ آخر أن يبنى عليهم مكان للعبادة للتبرك بهم .

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً)

الحكمة من إبهام العدد الحقيقي للفتية ومكانهم :

هناك سؤال الآن ؟ لماذا لِمَ لم يَقُلْ الله لنا : إنَّ عددهم سبعة ، وانتهى الأمر ، لِئلا نبقى في هذه المتاهة؟ ربنا عز وجل يعرف السر وأخفى ، يعلمهم بالضبط ، ولكنه لم يشأ في هذه القصة أن يعطينا العدد الحقيقي ، وترك هذا الأمر خلافياً ، إذاً ما الحكمة ؟ قال بعضهم : في القصة مغزى ، وفي القصة جزئيات لا تخدم المغزى ، فأنت إذا ذهبت تبحث عن جزئياتها ، وعن تفصيلاتها ، وعن عدد أهل الكهف ، وعن كلبهم ، وبعد ذلك يا ترى هل أقاموا عليهم مسجداً ، أم أغلقوا هذا الكهف ، تركَ ربنا عز وجل بعض الأشياء مفتوحة ، غير مغلقة ، ولم يُعطِ فيها حُكماً جازماً ، ليُعلِمَنا أن القصة لها مغزى ، فإن لم تعرف المغزى ، وانهمكت في التفصيلات فقد ابتعدت عن مغزاها ، ما قيمة عددهم بالنسبة لمغزى هذه القصة ؟ لو كانوا ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، أو ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، المغزى أن هؤلاء الفتية آمنوا بربهم ، فزادهم الله هدى ، المغزى أن الله عز وجل هو القوة القاهرة التي تقهر كل شيء ، فإذا كنت معه فلا أحد ينالك بالأذى ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كانَ عليك فمن معك ؟ المغزى أن تبتعد عن التفصيلات ، وعن الجزئيات ، وعن العدد ، والمكان ، بأي مكان ؟ في تركيا ؟

أم في اليونان ؟ أم في مدينة اسمُها (طرسوس) كما جاء في بعض التفاسير ، أم في الشام عند الكهف هنا ، لم يذكر ربنا عز وجل المكان ، ولا ذكر الزمان ، ولا بَتَّ في العدد ، ولا أعطى شيئاً قاطعاً في موضوع الكهف ، تركَ هذه الجزئيات كلها مفتوحة ، لأنَّ الإلحاح على المغزى .

(وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً)

أي لا جدوى من هذه التفصيلات ، والجزئيات ، وما سكت الله عنه يجب أن تسكت عنه ، وابحث عن المغزى الذي أراده الله من هذه القصة ، هذا هو الاتجاه الصحيح ، أما الاتجاه إلى التدقيق في التفصيلات ، والوقوف عندها والغوص فيها ، والغفلة عن المغزى الكبير الذي أراده الله من هذه القصة هو اتجاه خاطئ .

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً)

كُلّ شيء بمشيئة الله :

من عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ، قل : إن شاء الله ، استثن ، إذا استثنيت فقلت : إن شاء الله فإنَّ كلامك صحيح ، أمّا إذا قلت : إني سأفعل ذلك غداً فأنت لا تعرف ما حياة الإنسان ، فهو يصبح في ثانية واحدة من أهل القبور .

(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً)

لكن (إن شاء الله)لها معنى عامي ، يعني إذا لم يكُن الإنسان جاداً في الدفع يقول : إن شاء الله أُعطيك ، وإذا كان غير جاد في الحضور يقول : إن شاء الله سآتي إليك ، فإن شاء الله أُسيءَ استخدامُها ، حتى إنها صارت تعني الإخلاف في الموعد ، وعدم الدفع ، والكذب ، لا ، ليست (إن شاء الله)بهذا المعنى ، إذا كنت جازماً كل الجزم ، وعاقداً كل العزم على أن تدفع تقول : إن شاء الله .

دُعِيَّ أشخاص إلى وليمة فلم يحضروها ، وافتهم المنية قبل أن يحضروها ، وعَقَدَ إنسان العقد على امرأة فوافته المنية قبل الدخول بها ، وجاء إنسان بشهادة فوافته المنية قبل إبراز المصدقة للجهات المعنية ، فالإنسان لا يدري متى يموت .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ

قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال تذكرني ، ولا تنساني ، إنك إن ذكرتني شكرتني ، وإذا ما نسيتني كفرتني .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً)

الأمرُ بطلب الكمال وعدم الرضا بالحال :

لا ترضَ بحالك ، اسعَ إلى ترقية حالك ، اسعَ أن يكون غدك أفضل من يومك ، ويومك أفضل من أمسك ، المغبون من تساوى يوماه ، من لم يكن في زيادة فهو في نقصان .

(وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً *وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)

أيضاً يوجد سؤال ؟ لمَ لمْ يقل الله عز وجل : ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة وتسع سنوات ؟ لا .

(ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)

من الإعجاز العلمي (العددي): وَازْدَادُوا تِسْعًا

قال العلماء : " وهذا أيضاً من الإعجاز العلمي في كتاب الله ، ثلاثمئة عام ميلادي تساوي بالضبط ثلاثمئة وتسع سنوات هجرية " ، فربنا عزَّ وجل أعطى المدة على التقويمين ، الشمسي ، والقمري .

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ)

هذا بالسنة بالشمسية .

(وَازْدَادُوا تِسْعاً)

والسنة الشمسية هي مدة دورة الأرض حول الشمس في اثني عشر برجاً ، فالسنة الشمسية حقيقة ، والشهر الشمسي حكمي .

أما بالهجري فبالعكس ، الشهر القمري هو شهر حقيقي ، والسنة القمرية حكميه أي أنَّ السنة القمرية شهر ضرب 12 ، أما السنة الشمسية سنة تقسيم 12 .

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ)

على السنوات الميلادية .

(وَازْدَادُوا تِسْعاً)

ذلك على التقويم القمري ، وليسَ الهجري ، إذ لم يَكُن وقتها تقويم هجري .

(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

هذا هو التوحيد .

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة : 255)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 21 – 31 ، كل عمل له ثمن
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-11-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الرابع من سورة الكهف ، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)

دلالة الفعل (أعثرنا)

كلمة (أعثرنا)أساسها عثرنا ، وهذا الفعل له استعمال دقيق :

تقول : عثرت عليه ، وعثرت به ، عثرت عليه بعد بحث طويل ، وعثرت به مصادفة ، أما أعثر هذا فنقل هذا الفعل من صيغة اللازم إلى صيغة المتعدي ، يعني إذا بحثت عن الشيء ، ثم وصلت إليه فقد عثرت عليه ، وإذا وجدته مصادفة فقد عثرت به ، فإذا دللت عليه إلى جهة أخرى فقد أعثرت عليه ، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ)

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الظروف كي يعرف الناس أن في هذه المغارة أناساً مضى على نومهم فيها ثلاثمئة عام ، هذا الموضوع يقودنا إلى موضوع آخر ، وهو أن الإنسان بحسب العادة لا يألف أن يبقى الإنسان كما هو مدة طويلة ، لكن هذا بحسب العادة ، قد تقول : إنه يبقى الإنسان ثلاثمائة ألف عام دون أن يصيب جسده تلف ، أو فناء ، هذا ممتنع عادةً ، ولكنه ليس ممتنعاً عقلاً ، لأن الله على كل شيء قدير .

علاقة السبب بالمسبب علاقة شكلية

ولذلك قال علماء التوحيد : علاقة السبب بالمسبب علاقة شكلية ، بمعنى أن الحكم العادي هو شيئان تلازم وجودهما ، وعدمهما ، وليس أحدهما علة كافية لخلق الآخر .

فمن دون طعام ولا شراب يقي اللهُ الإنسان من التلف ، والفناء ، فالله عز وجل على كل شيء قدير ، ودائماً وأبداً هذه عقيدة أهل السنة والجماعة ، أن الأمور تقع عندها لا بها ، ما معنى عندها لا بها ،

الأمر يقع عند وجود الإرادة الإلهية ، لا بالسبب ، والسبب وحده غير كافٍ لحصول النتيجة ، لكن هناك ترافق شكليٌ بين السبب والنتيجة .

من لوازم الشبع تناول الطعام ، تناول الطعام سبب لحدوث الشبع ، وهي علاقة سبب بنتيجة ، لكن الحقيقة في علم التوحيد أن الله عز وجل قادر على أن يخلق حالة الشبع من دون طعام ، والنار تحرق ، هكذا العادة ، ولكن الله عز وجل قادر على إيجاد نار ملتهبة لا تحرق .

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء : 69)

الصورة الأولى : الإعجاز العددي :

لذلك : المعجزة الأولى ، الإعجاز في قوله تعالى :

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)

هذا إعجاز رياضي .

الصورة الثانية : التقليب ذات اليمين وذات الشمال :

الشيء الثاني :

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)

الصورة الثالثة : حفظ الأجسام ثلاثمئة وتسع سنين :

والإعجاز الثالث : هو أن الله عز وجل حفظ هذه الأجسام كما هي عليه ساعة نومها مدة ثلاثمئة عام .

ولذلك لما يسمع الإنسان أن فلانًا بقي في قبره سنوات طويلة دون أن يفنى ، قد يكون صالحاً ، وقد يكون ولياً لله عز وجل ، فليس شرطاً أن تفنى الأجساد بعد الموت ، هكذا العادة ، ولكن هناك استثناءات، لأن حصول السبب غير كاف لحدوث النتيجة ، لابد من إرادة الله عز وجل ، إذا أراد الله كانت النتيجة بلا سبب .

فهذه القصة دليل على أن في الحياة أشياء ممكنة عقلاً ، وهناك أشياء مستحيلة الوقوع ، وهناك واجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى :

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

إذا وعد الله عز وجل عباده بالبعث بعد الموت فهذا دليل على أن الله على كل شيء قدير .

(أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ)

كأن هناك فريقين ، فريق ليس مؤمناً بهم ، وفريق على ملتهم .

(فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً)

الوعد بالتمكين في الأرض :

أغلقوا باب الكهف ، وانتهى الأمر .

(فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً)

هؤلاء الذين على دينهم ، وقد مكنوا في الأرض .

وبالمناسبة ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور : 55)

التمكين في الأرض ، وعد إلهي محقق الوقوع ، في آية ثانية :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 139)

هذا كلام رب العالمين ، أنتم الأعلون ، الأعلون في عقيدتكم ، عقيدتكم هي الصحيحة ، أنتم على الحق، أنتم الأعلون ، بالنسبة لكل من فكر في موضوع ما ، أنتم الذين اعتقدتم الحقيقة الصحيحة التي تؤكدها الوقائع اليومية ، أنتم الأعلون ، أعلون في عقيدتكم ، أعلون في أخلاقكم ، أعلون في مكانتكم ، أعلون في سمعتكم .

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ)

هذا الفريق الذي قال :

(ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً)

كأنهم ليسوا على ملتهم .

(أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)

النهي عن اتخاذ القبور مساجد والحكمة من ذلك :

النبي عليه الصلاة والسلام نهى أن تجعل القبور مساجد ، لماذا ؟ لئلا يصلى إليها ، ولئلا يتخذ القبر قبلة للمصلين ، ولئلا يعبد صاحب هذا القبر من دون الله ، ولئلا تنشأ وثنية هي في الأصل قبر لرجل صالح ، النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن أن تتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، وفرق بين أن تصلي لله عز وجل ، وأن تصلي للقبر ، فلا يمنع إذا دخلت مسجداً فيه قبر لصالح ، وليس القبر في جهة القبلة ، وأنت لا تصلي له ، إنما تصلي لله عز وجل ، فالأمر دقيق ، هناك أناس يؤكدون أن الدخول لمسجد فيه قبر لا يجوز ، لكن الذي لا يجوز أن تصلي لصاحب هذا القبر ، هذا الذي لا يجوز، أن تتجه إليه ، وأن تعظمه من دون الله ، أما إذا كنت متجهاً لله عز وجل ، وإذا كنت تصلي لله عز وجل ، فهذا لا يمنع .

لذلك :

(رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)

والحقيقة كلمة (مسجد)لها استعمال دقيق في القرآن ، المسجد المكان الذي يذكر فيه اسم الله عز وجل ، بدليل قوله تعالى :

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

(سورة الجن : 18)

من هذه الآية يفهم أنه لا يجوز أن تدعو إلا إلى الله عز وجل ، هذا المنبر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا المكان مكان مقدس ، لا ينبغي أن تطرح فيه قضية تمس زيداً ، أو عبيداً ، أو جهة ، أو ملة ، أو نحلة .

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

(سورة الجن : 18)

لا ينبغي أن يذكر في المسجد إلا اسم الله عز وجل ، والدليل هذه الآية ، فكلمة مسجد تعني المكان الذي يذكر فيه اسم الله ، يعني هذا اسم نوع ؛ أي مكان على مر الدهور والعصور ، يذكر فيه اسم الله هو عند الله مسجد ، وهناك ما يؤكد فيه اسم الله .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

(سورة الإسراء : 1)

إذاً : لم يكن مسجداً .

(إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

هي لما سيكون ، فالمسجد مكان العبادة ، مكان الذكر .

الآن ننتقل إلى موضوع دقيق :

(سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)

العبرة من القصة العبرة والإيمان لا الأحداث والجزئيات :

هذه النقطة في القصة تشير إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يقف عند الجزئيات التي لا علاقة لها بمغزى القصة ، دائماً يجب أن تعرف ماذا يريد المتكلم ، يريد أن يؤكد هذا المعنى ، ابقَ في هذا المعنى ، فإذا انحرفت أنت بجزئيات ، وتفصيلات لا علاقة لها بهذا المعنى ، فهذا نوع من سوء الفهم ، ونوع من الغفلة عن المغزى الذي هو أساس القصة ، فأن يكونوا ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، أو ستة ، أو سبعة ما المغزى من ذلك ؟ هذه الأرقام لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تعمق فهمنا للقصة ، المراد منها أن هؤلاء الفتية آمنوا بربهم ، وزادهم الله هدى ، والمراد من هذه القصة ، كن كأصحاب الكهف ، إذا رأوا فساداً عريضاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، وانغماسا في الملذات ، ونفاقاً ، وزيفاً ، واستخفافاً بالقيم الخلقية، إذا رأيت مجتمعاً فاسداً فاعتزله ، وانج بدينك .

المغزى من هذه القصة : أن تؤمن بعلم الله تعالى .

المغزى من هذه القصة : أن تؤمن بقدرة الله تعالى .

المغزى من هذه القصة : أن تؤمن بكرامات الأولياء .

المغزى من هذه القصة : أن يكون هؤلاء أصحاب الكهف في محنتهم ، وفي الحياة الفاسدة التي عاشوا فيها ، وفي لجوئهم إلى الكهف قدوةً لك .

هناك أشياء كبيرة جداً ، هي الأهداف الكبرى التي أرادها الله سبحانه وتعالى من هذه القصة ، فكيف ينحرف فهم الناس لهذه القصة إلى وقوع في خلافٍ وأخذٍ ، وردٍ ، وتشددٍ ، واستخفافٍ ، ومماحكةٍ ونقاشٍ ، وجدالٍ ، في موضوع عددهم ؟ هذا الذي لا يريده الله عز وجل ؛ أن تبقى في الجزئيات ، أن تبقى في القشور ، أو في السفاسف ، أو في أشياء لا تقدم ولا تؤخر ، أن تمضي كل وقتك في قشور الدين لا في لبه ، هذا الذي لا يعرف جوهر الدين ينشغل بما حول الدين ، يعني طوال حياته يناقش الناس ، ويحاججهم تارةً ، ويسألهم ويستفتيهم ، ويرد عليهم ، في أمور خارجية لا تمس جوهر الدين ، وربنا عز وجل في آيات كثيرة أشار إلى جوهر الدين قال تعالى :

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر : 66)

وقال :

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

(سورة مريم : 31)

وقال :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف : 110)

هذا جوهر الدين ، دائماً في المركبة محرك ، وفيها أشياء تزينية ، إذا نسيت المحرك ، وصيانته ، احترق ، وأنت في غفلة عنه ، وترعى ، وتعتني بهذه الأشياء التزيينية ، فأنت لا تعرف حقيقة هذه المركبة ، في الدين أشياء جوهرية ، وأشياء ثانوية ، فإذا أبعد الله عبداً عن الهدى تعلق بالسفاسف ، وفي الأثر :

((إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها))

[الجامع الصغير عن سهل بن سعد بسند صحيح]

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)

إبهام عدد الفتية لعدم الفائدة في الذكر :

عددهم لا يقدم ولا يؤخر ، الله يعلم عدتهم ، كان من الممكن أن يقول الله عز وجل : هم ثمانية ، وانتهى الأمر ، هم سبعة ، هذا تعليم لنا ، درس لنا ، يجب أن تضع يدك على جوهر الأشياء ، وعلى جوهر الدين ، فإن كنت تاجراً فيجب أن تضع يدك على جوهر التجارة ، هي الربح ، وإن كنت صانعاً، فالإتقان ، وإن كنت في موضوع الدين فالاستقامة على أمر الله .

من التعريفات الجامعة المانعة :

1 - الدين النصيحة :

في الحديث تعريف جامع مانع للدين ، فعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتِهِمْ))

[مسلم]

تعريف جامع مانع ، الدين كله نصيحة ، فإذا تخليت عن النصيحة لست ديِّناً ، وانتهى الأمر ، ولو

صليت ، وصمت ، وزعمت أنك مسلم ، لمجرد أن تخون إنساناً في نصيحة استنصحك بشيء ، فأشرت عليه بما لا تفعله لنفسك ، أشرت عليه بخلاف النفع ، وخلاف الحقيقة ، وخلاف الفائدة ، وخلاف الجودة ، إذا أشرت عليه بشيء لا ترضاه لنفسك فلست ديِّناً ، الدين النصيحة ، رأس الدين الورع ، الورع أساس الدين ، من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله ، ورأس الحكمة مخافة الله .

هذه التعريفات الجامعة والمانعة هي أساس الدين ، الدين المعاملة ، هذا قول ، من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته .

2 - الدين المعاملة :

قال له : هل حككته بالدرهم والدينار ؟ قال : لا : قال : هل جاورته ؟ قال لا ، قال : هل سافرت معه ؟ قال لا : قال : أنت لا تعرفه .

فإذا قرأت القرآن فابحث عن هذه التعريفات الجامعة المانعة ، فمن أجل أن نفهم هذه الآية ، لا يعنينا أن يكونوا ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، أو ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، هذا الرقم لا يقدم ولا يؤخر .

مرة ضربت مثلاً كنت حريصاً على توضيحه ، إن مدرساً أراد أن يعطي طلابه في الثانوية التجارية درساً في أصول التجارة ، فروى لهم قصة عن رجل اشترى محلاً تجارياً ، في مكان عليه ازدحام شديد ، واختار بضاعة أساسية في حياة الناس ، واختارها من أجود الأنواع ، وجعل سعرها معتدلاً ، وباع نقداً ، وكان لطيفاً ، فربح أرباحاً طائلة ، واشترى بيتاً ، وعاش حياةً كريمةً ، في بحبوحة ويسر ، فأنا أريد أن أنبه هذا الطالب إلى أن أهم ما في التجارة الموقع ، ونوع البضاعة ، وجنس البضاعة ، والسعر المناسب ، والمعاملة الطيبة ، والبيع النقدي هي عناصر ربح في التجارة ، فقال أحد الطلاب لهذا الأستاذ : هذا الذي تحدثنا عنه أهو أبيض ، أم أسمر اللون ؟ يا أخي لا علاقة في كونه أبيض ، أو أسمر ، طويلا ، أو قصيرًا ، هذه الجزئيات ليست لها علاقة في القصة ، القصة هادفة ، هدفها أن نعلمك أصول التجارة ، وأن نعلمك أن التجارة قد تربح من خلالها إذا طبقت هذه الشروط ، تقول لي : ما لون هذا التاجر ؟ أين يسكن ؟ ما نوع الثياب التي يرتديها ؟ ما لون الطلاء في دكانه ؟ هذه أشياء جزئيات ليس علاقة بالقصة إطلاقاً .

هذا الذي أريد أن أوضحه لكم لما ذكر ربنا عز وجل ذكر أقوال الناس ، واختلافهم في عدد هؤلاء الذين سموا أهل الكهف ، هو أراد أن يبين هذه الأشياء لا قيمة لها ، لذلك بعد هذا النقاش الطويل لم

يذكر ربنا عز وجل عددهم ، لأنه لا جدوى من ذكر العدد ، والعبرة أن تكون كهؤلاء الفتية .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

العبرة أن تعتزل الناس الفسقة كما اعتزل هؤلاء .

العبرة أن تتكل على الله عز وجل كما اتكل هؤلاء .

العبرة أن تحب الله أكثر من كل شيء ، كما أحب الله هؤلاء الفتية .

العبرة أن يكون هؤلاء الفتية قدوة لك في حياتك .

لذلك هذا الذي أتمناه عليكم ، وعلى نفسي ، كلما تتلون قصة في كتاب الله أن نقف عند مغزاها .

سيدنا يوسف له قصة طويلة ، بل هي أطول قصة في القرآن ، ما مغزاها ؟

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف : 21)

الفعل فعله ، لا إله إلا هو ، لا معطي إلا الله ، لا مانع إلا الله ، لا معز إلا الله ، لا مذل إلا الله ، لا مغني إلا الله ، لا رافع إلا الله ، لا خافض إلا الله .

هذا هو المغزى ، أما أن نخرج عن فهمنا لهذه القصة لأشياء ؛ يا ترى سيدنا يوسف هل تزوج هذه المرأة التي راودته عن نفسها بعد أن مكنه الله في الأرض ؟ لا أعرف والله ، ولا ينبغي أن أعرف ، ولا أريد أن أعرف ، لأن الذي سكت الله عنه أنا أسكت عنه أيضاً ، لا جدوى منه .

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ)

لا تجادل فيهم ، ولا تأخذ نقاشاً حول العدد ، بل خذ نقاشاً حول المغزى .

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً)

من استنباطات الآية : عدم استفتاء أهل الكتاب :

ولذلك : استنبط العلماء من هذه الآية أنه لا ينبغي أن تتوجه إلى أهل الكتاب كي تستفتيهم ، أو أن تأخذ منهم المعلومات ، أو أن تذهب إلى أهل الكتاب ، وإلى كتبهم التي حرفوها لتأخذ منها شيئاً يفيدك في فهم كتاب الله ، لا .

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً)

المماراة والمجادلة :

وقال بعض العلماء : المنهي عنه المماراة ، معنى المماراة المجادلة ، لا تجادل فيهم .

(إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً)

أيْ سألت عن هذه القصة سؤالاً عابراً ، إما أن تخوض في خلافاتها الشكلية فهذا منهي عنه .

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

مشيئة الله نافذة في الخلق :

من هنا يستنبط في علم العقيدة أن الفعل لله ، لك الإرادة ، ولك الكسب ، لكن الفعل لا يقع إلا بأمر الله ، وهذا معنى قوله تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : 19)

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

وجوب الذكر بعد النسيان : وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ

قلت لكم في الدرس الماضي : إن أحد الأنبياء العظام سأل الله عز وجل فقال : يا رب كيف أذكرك ؟ أو كيف أشكرك ؟ قال : تذكرني ، ولا تنساني ، إن ذكرتني شكرتني ، وإذا ما نسيتني كفرتني .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

والنبي معصوم عن الخطأ في الاعتقاد ، والتبليغ ، والسلوك ، والمؤمن محفوظ ، وليس معنى كونه محفوظًا أنه لا يخطئ ، ولكن المعنى أنه لا يضره خطؤه ، بمعنى أنه يذكر الله إذا نسي ، ويتوب إليه ، والله سبحانه وتعالى يعفو عنه :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

الإنسان ينسى ، إذا تذكرت فاذكر ، وإذ شعرت نفسك غافلاً فاذكر الله عز وجل .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً)

المؤمن مذنب تواب ، كثير التوبة ،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

(سورة التحريم : 8)

للهُ أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد ، والعقيم الوالد ، و الظمآن الوارد ، فإن تابوا فأنا حبيبهم ، وإذا لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، إذا تبت إلى الله عز وجل توبة نصوحاً فأنت حبيب الله إذاً :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

ودائماً ينسى الإنسان ، ويستمر على هذا النسيان ، ويصر على هذا النسيان ، وهنا الخطأ ، لو جئتني بملء السماوات والأرض ذنوباً غفرتها لك ولا أبالي :

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر : 53)

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

نسيت ، وأعترف بخطئك ، وإذا أسأت فأحسن ، الحديث الشريف عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

[الترمذي ، وأحمد]

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

النسيان من طبيعة البشر عامة :

والنسيان من طبيعة البشر ، اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر ، وأرضى كما يرضى البشر ، وفي قول : وأنسى كما ينسى البشر ، والإنسان أحياناً يغفل عن شيء ، وبسرعة يذكره ، لكن نسيان رسول الله صلى الله عليه وسلم من نوع آخر ، نسيان تشريعي لا نسيان مقصود ، والنبي الكريم مرة صلى الظهر ركعتين ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظُّهْرَ أَوْ الْعَصْرَ فَسَلَّمَ ، فَقَالَ لَهُ ذُو الْيَدَيْنِ : الصَّلَاةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَقَصَتْ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ : أَحَقٌّ مَا يَقُولُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ))

[متفق عليه]

لم تقصر ولم أنسَ ، لكن تشريعاً .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً)

كلما بلغت مرتبة ، وظننت أن هذه المرتبة جيدة جداً ، هناك مرتبة أرقى فالمغبون من تساوى يوماه ، فمن لم يكن في زيادة فهو في نقصان ، لا بد أن تلاحظ أنك في زيادة ، تنتقل من حال إلى حال ، ومن

مقام إلى مقام ، ومن استقامة إلى استقامة ، ومن إحسان إلى إحسان ، ومن قرب إلى أقرب ، لابد من الشعور بالزيادة ، فمن لم يكن في زيادة والزمن ماشٍ ، فهو في نقصان .

فالطالب الذي درس إلى الصف الثاني في الجامعة ، ولم يكمل فما زاد ، بل هو في نقصان ، لأن كل من حوله سوف يَصِلون إلى درجات عليا ، إذاً هو نقصَ عنهم ، فمن لم يكن في زيادة فهو في نقصان ، والمغبون من تساوى يوماه .

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ)

مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ

فإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، لا ملجأ منه إلا إليه ، وإذا اعتمدت على مالك ، فالله عز وجل قادر على أن يسوق للإنسان مصيبة لا تحلها الأموال الطائلة ، ولو اعتمدت على جاهك فهو قادر أن يسوق للإنسان مصيبة لا يحلها هذا الجاه ، أي شيء تعتمد عليه من دون الله ، فلا بد من أن الله عز وجل يكشف لك أن هذا أحد أنواع الشرك ، وأن الله عز وجل يؤدب كل إنسان اعتمد على جهة ما .

(لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ)

أيها المسلم ، لِتَكُنْ لك نظرة صحيحة : أَبْصِرْ بِهِ

أبصر به ، هذه الباء للاستعانة ، أي أبصر مستعيناً بنوره ، ولا تستضئ بنور المشركين ، ولا تنظر إلى الدنيا بمنظار الكفرة ، أن هذه الدنيا هي كل شيء ، فالسعيد فيها من كان غنياً ، والسعيد من استغل كل أوقاته في المتع ، والملذات ، وتناول أطيب الطعام ، والانغماس في كل المباهج ، لا ! لا تنظر إلى الدنيا بمنظار الكفرة ، انظر إليها بنور الله تَرَهَا دنية ، زائلة ، انظر إلى كل شيء بمنظار الله عز وجل ، بنور الله ، إذا نظرت إلى المال الحرام بنور الله تراه ناراً ، وإذا نظرت إلى المال الحرام بمنظار المشركين تراه مغنماً .

(أَبْصِرْ بِهِ)

لتكن لك رؤية صحيحة ، فسيدنا يوسف حينما دعته هذه المرأة أبصر بالله :

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ)

(سورة يوسف : 23)

ولو نظر إلى هذا العمل بمنظار أهل الكفر لرآه غنيمة لا تفوقه غنيمة .

(أَبْصِرْ بِهِ)

أي انظر بنور الله ، فإذا كنت متصلا بالله عز وجل ، عندئذ تستطيع أن تبصر به ، وتصبح لك رؤية صحيحة ، بهذه الرؤية تتخذ بها قراراً صحيحاً ، تسعد في الدنيا والآخرة .

(أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ)

أيها المسلم ، استمع إلى الحق : وَأَسْمِعْ

أيضاً استمع للحق الذي من عنده ، لا تستمع إلى أقوال الناس ، وإلى أقوال المرجفين ، وإلى أقوال المشركين ، فأحياناً يسمع الإنسان أقوال الناس فيقول : لا أمل ، انفجار سكاني بالعالم ، فالمواد الغذائية قليلة ، والعالم مقبل على كارثة كبرى ، على حروب ، إنها أفكار سوداوية ، تثبط عزيمته ، وهكذا يقول لك الكفار : لا إله ، بل مواد محدودة ، تزايد سكان كبير جداً ، فالأمر من سيئ إلى أسوأ .

علاقة صحة النظر بالاطمئنان والأمل :

وإذا نظرت إلى أية أزمة ، وإلى أية مشكلة بنظر أهل الدنيا تزداد انقباضاً ، وتشاؤماً ، وسوداوية ، لكن إذا نظرت إلى أية مشكلة بنور الله عز وجل ، تقرأ الآية الكريمة :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : 97)

انتهى الأمر ، هذا وعد إلهي .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : 21)

وإذا أصيب أحد بمرض ، ونظر إلى هذا المرض بمنظار الأطباء فقط غير المؤمنين ، يعطونه يأساً ، لا يوجد دواء ، فهذا المرض ليس له دواء ، أما إذا قرأت قوله تعالى :

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء : 80)

يدخل إلى قلبك شعاع الأمل ، والله سبحانه وتعالى عند حسن ظن عبده به ، أنا عند حسن ظن عبدي بي ، فليظن بي ما يشاء ، في كل قضية ، الزواج انظر له بمنظار أهل الدنيا ، الزواج متعه ، لذلك يجب أن تختارها جميلة ، وإلا ما أفلحت في نظرهم ، وبعد أن تختار هذه الجميلة ، تريك النجوم ظهراً،

هذه الجميلة ، عندئذ تنكر الجمال كله ، وتبحث عن المرأة الصالحة ، تنكح المرأة لجمالها ، من تزوج المرأة لجمالها أذله الله ، لجمالها فقط ، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءة ، ومن تزوجها لمالها أفقره الله ، فعليك بذات الدين تربت يداك ، بزواجك إذا نظرت إلى الزواج بنور الله بحثت عن المرأة الصالحة ، وإذا نظرت في تجارتك بنور الله بحثت عن الربح الحلال ، وبقية الله خير لكم ، لم تبحث عن ربح كثير حرام ، بل عن ربح حلال قليل ، أي موضوع في الحياة إذا نظرت إليه بنور الله أخذت منه موقفاً آخر ، بنور الله .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي وابن ماجه]

يعيش ناعم البال ، فراحة البال لا تقدر بثمن ، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه ، أخذ من حتفه وهو لا يشعر ، وخذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هماً من أصبح وأكبر همه الدنيا ، جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له ومن أصبح وأكبر همه الآخرة ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة .

المشكلة أن تنظر إلى الشيء بنور الله ، ولن تستطيع أن تنظر إلى الشيء بنور الله إلا إذا كنت مع أهل الله ، سألتهم فأجابوك ، تنورت بهم فأناروا لك الطريق ، بحثت معهم هذا الموضوع فأعطوك حكم الله عز وجل ، لذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة : 119)

كن معهم ، لا تعش وحدك ، هناك وساوس ، وسوداوية ، وشرك ، ووقوع في مزالق المعاصي ، ووحشة ، وانقباض ، الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب .

(أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

عليكم بالاطمئنان فإنه لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدً

أي ليس مع الله جهة أخرى لها علاقة في تسيير الحياة ، لا إله إلا الله .

(وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد : 41)

حكمه قطعي .

(لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)

معنى : مِن كِتَابِ رَبِّكَ

القواعد والأصول العامة :

بعض المفسرين أشاروا إلى أن الكلمات هنا معناه بعض الآيات القرآنية تأتي على شكل قوانين ، وقواعد ثابتة ، وأصول ، مثلاً :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

هي أصل .

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس : 33)

ما دام الإنسان متلبساً بالفسق فلن يؤمن ، ينحاز في أفكاره مع الكفرة بشكل أو بآخر .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

هي من كلمات الله ،

(مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : 97)

من كلمات الله أيضاً :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه : 124)

من كلمات الله :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

(سورة التوبة : 37)

من كلمات الله :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة التوبة : 109)

من كلمات الله :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة : 80)

كلمات الله تلك القواعد الأساسية ، هذه الآيات التي تأخذ شكل قوانين علاقات ثابتة .

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا

أي ملجأ ، فلو التجأت إلى أقوى قوة في الأرض ، فلن تغني عنك من الله شيئاً ، ولو التجأت إلى مالك ، فلن يغني عنك مالك شيئاً .

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه * يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ)

(سورة الحاقة : من 25 إلى 31)

وفي آية أخرى :

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

(سورة الدخان : 49)

كنت في الدنيا تدعي أنك عزيز ، كريم ، ذق العذاب الآن .

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

آية دقيقة جداً ، الأسس التي ذكرها الله في هذا الكتاب ، ثابتة لا تلغى ، ولا تعدَّل ، ولا تبدل ، ولا يوقف تنفيذها ، ولا يضاف عليها ، ولا يحذف منها ، إنها ثابتة .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

الصبر مع المؤمنين الضعفاء الفقراء :

كن مع هؤلاء ، هذه الآية في ظاهرها موجهة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي حقيقتها موجهة إلينا بالتبعية ، يعني أيها المؤمن :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ)

قد تجلس في مسجدٍ لتستمع إلى درس في التفسير ، طبعاً الجلوس على الأرض ، قد تُدْعى إلى سهرةٍ ممتعةٍ ، فالجلوس على أريكة فخمة ، وتتناول ما لذا وطاب ، وقد تكون هذه السهرة مختلطة ، وقد يكون فيها منكر ، وقد تكون هذه السهرة محببة إلى النفس ، وربنا عز وجل يقول :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

اجلس في مجالسهم ، وخلِّ حظك مهما قدموك وراء .

ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء هم السلاطين والسادات والأمراء

فاصحبهم وتأدب في مجالسهم و خلِّ حظك مهما قدموك وراء

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ)

فما أوضح أن ينطلق الإنسان من بيته ليأتي إلى مسجد ليس فيه طعام ، ولا شراب ، ولا مكافأة ، ولا تعويض ، ولا أجر ، ولا مدح ، ولا كتاب ثناء ، ولا ترقية ، لا شي ، لكن الله عز وجل هو الذي يتولى الجزاء الأوفى .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

يدعون ربهم صباحاً ومساء .

(بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

(سورة الفرقان : 5)

(قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة أل عمران : 191)

يدعون ربهم دائماً .

(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب : 41)

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

الإخلاص في العمل :

إلهي أنت مقصودي ، ورضاك مطلوبي .

(الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة : 14 - 15)

الإنسان أحياناً يبتغي بهذا المجيء السمعة ، له مصلحة ، إذا جاء للمجلس ليصير له زبائنُ كثيرون ، يروجون تجارته ، وكل إنسان يعلم لماذا هو هنا الآن ، طوبى لمن كانت نيته خالصه لوجه الله عز وجل .

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)

(سورة الإنسان : 9)

من علامات الإخلاص ، أن يكون الله وحده ، أو أن يكون وجه الله هو مبتغاك ، ولا مبتغى لك سواه .

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

علامة أهل الحق : كثرة الذكر والإخلاص :

هؤلاء أهل الحق لهم علامتان ، يكثرون ذكر الله ، ويبتغون وجه الله ، برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله ، الإكثار من ذكر الله صباحاً ومساءً .

(قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران : 191)

والنية والابتغاء مرضاة الله عز وجل .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ)

الحياة الدنيا زهرة ذابلة :

لا تلتفت إلى غيرهم ، لا تتجاوزهم إلى سواهم ، لا تدع مجالسهم .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الإنسان أحياناً يؤثر أن يبقى مع زوجته في غرفة دافئة ، يدير حديثاً عذباً ، يستمتع بأشياء معينة ، على مجلس علم ، الله سبحانه وتعالى هكذا يأمرك :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ)

لا تتركهم ، ولا تتجاوزهم ، ولا تزهد في صحبتهم ، ولا في مجالسهم ، ولا تؤثر الدنيا عليهم ، لا تؤثر مجلساً ليس فيه ذكر الله على مجلس فيه ذكر الله ، ما من قوم اجتمعوا في مجلس لم يذكروا الله فيه إلا قاموا عن أنتن من جيفة ، عن أنتن من جيفة حمار ، وفي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[مسلم]

حِلق الذكر رياض الجنة .

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

إيّاك وطاعة الغافل :

إنسان غافل ، لا يصلي ، يا أخي أنا معي قرشان بالفائدة أربح ، إنه ربح مضمون !

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

أخي جاءني خاطبان لابنتي ، واحد دينه رقيق ، لكن ما شاء الله كله غني ، والثاني صاحب دين فقير ، دع هذا الفقير ، وأعط الأول .

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

حياته فوضوية ، بلا قيم حياته ، وبلا انضباط ، ولا هدف ، حياته عابثة .

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

معنى : أَغْفَلْنَا

معنى أغفلنا ؛ وجدناه غافلاً بالضبط ، لا تتهم الله عز وجل فلا تقل : إنه جعله غافلاً لا ، هكذا في القرطبي ، ورد :

(مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ)

وجدناه غافلاً ، وجدنا قلبه غافلاً عن ذكرنا .

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

الغافل يتبع هواه :

المؤمن يتبع الحق ، وغير المؤمن يتبع الهوى ، فإما أن يقودك الهوى ، وإما أن تقوده ، ونفسك إما أن تسيرك ، وإما أن تسيرها ، إما أن يكون العقل رائدك ، وإما أن يكون الهوى رائدك .

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)

(سورة الفرقان : 43)

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

هؤلاء :

(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

أما هؤلاء فقد :

(أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً * وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ)

الإنسان مخير .

(وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)

الحقيقة :

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ)

الإنسان مخيَّر :

المؤمن مخير .

(وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

لكن للكفر جزاء ، وللإيمان جزاء ، أنت هنا مخير، لأنك في دار التكليف ، أما أنه لابد له من يوم الجزاء ، من يوم الدين استمعوا إلى يوم الدين .

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا)

جزاء الكفار : نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا

معنى السرادق :

السرادق في الأساس سقف في فناء الدار ، سقف فقط ، مكان محميٌّ من الشمس ، هذا هو السرادق ، أما في هذه الآية فالسرادق هو الدخان الذي يعلو لهيب النار ، فلو نظرت إلى فرن يستخدم وقوداً غير الوقود السائل فسحابة من الدخان الكثيف تعلو جو الفرن ، وهذه السحابة من الدخان الكثيف هي السرادق في النار .

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ)

ماء مغلي .

(بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)

هذا إذا ظلم الإنسان .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً

واللهِ لزوال الكون أهون على الله من أن يضيع على مؤمن عمله الصالح البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت ، اعمل كما شئت كما تدين تدان .

هناك شاب ناشئ جمّد مبلغ ثمانية آلاف ليرة ، والده فقير ، ووالدته أصيبت بحادث ، تحتاج إلى مبلغ لإصلاح أسنانها ، وقد هيأ مبلغه ذاك الزواج ، فلما رأى أمه هكذا ، أنفق المال كله من أجل معالجة أمه، وبعد سنوات عدة ، بقدرة قادر هيِّئ له منزل ، وفرش هذا المنزل ، وزوجة ، قلت : سبحان الله ، كل هذا العطاء لأنه فادى بماله من أجل أمه

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

أحدهم مد سجاداً بالمسجد ، وآخر نظف مسجدًا ، وثالث قدم شيئاً لمسجد ، ورابع هدى إنساناً ، سهر معه سهرة ، فعاونه ، وأقرض مبلغاً من المال ، يا أخي نقصت قيمة المال ، أقرضناه بكذا ، صار بكذا، ربع المبلغ نقص بعد ما رده لي .

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

(سورة البقرة : 245)

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

ليس الخبز وحده يحيي الإنسان ، وليس الربح كله مالاً ، لو أقرضت إنساناً وبعد فترة فالقيمة الشرائية لهذا المبلغ تناقصت ، فهل خسرت أنت ؟ في نظر أهل الدنيا خسران ، يقولون : إنه أحمق ، أقرضَ أمواله ، ولما استردها راح نصف قيمتها .

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

ثق بالله عز وجل ، إذا كنت مع الله عز وجل فلن يخلف وعده معك .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً)

إنك لا تعرف قيمة هذا الاتجاه استقامتك ، وتحريك للحلال ، وخوفك من الله ، وفهم كتاب الله ، وتطبيق كتاب الله وحضور مجالس العلم إلا بعد أن تحس أنك فزت في الدنيا والآخرة ، أي فزت بسعادة الدارين .

لذلك كان الإنسان مخيرا .

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ)

لكن :

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا)

أما المؤمنون :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

ربنا عز وجل يعجب ! يقول :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم : 35)

وهل من المعقول لمسلم مستقيم ، له استقامته ، له عمله الصالح ، له فهمه للدين ، أيعقل أن يُعامل كما يُعامل المجرم المنحرف العاصي ؟!!

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الأنعام : 136)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 32 – 49 ، الأخذ بالأسباب والاعتماد على رب الأرباب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-11-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الخامس من سورة الكهف ، وقد أنهينا في الدرس الماضي قصة أصحاب الكهف ، وقد استُنبط من هذه القصة أن الإنسان يجب أن يؤثر الحق على الباطل ، والآخرة على الدنيا، ورضاء الله عز وجل على إرضاء الناس .

فهؤلاء الذين آثروا ما عند الله أكرمهم الله عز وجل ، وأثابهم في الدنيا وفي الآخرة ، وننتقل اليوم إلى قصة صاحبيّ الجنة .

قصة صاحب الجنتين :

يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً)

قد يكون هذان الرجلان حقيقيين أو مفترضين ، ليست العبرة في وقوع القصة ، بل في مغزاها ، يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَاضْرِبْ لَهُمْ)

أي اضرب لأصحابك المؤمنين ، وللناس غير المؤمنين :

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ)

منزلقات انفتاح الدنيا من أوسع أبوابها :

تأتي الدنيا لبعض الناس من أوسع أبوابها ، هذا يتفوق في عمله ، وهذا يجمع ثروة طائلة ، وهذا يعلو في مراتب القوة ، إلى أن يصبح من الرجال القلة الذين يشار إليهم بالبنان ، وهذا يمتلك أملاكاً عريضة، فمجال التفوق في الحياة متنوع ، هناك تفوق مادي ، وتفوق مالي ، وتفوق علمي ، وتفوق من حيث القوة .

فما الذي يحصل حينما تأتي الدنيا للإنسان من أوسع أبوابها ؟ هناك منزلق خطير ، وهو ، أن يظن الإنسان أنه استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه بذكائه وخبرته ، ودهائه ، وحكمته ، وعلمه ، وبراعته،

وكياسته ، وحذلقته .

المنزلق الخطير ، عندما تأخذ شهادات عالية ، أو تملك أموالاً طائلة ، أو ترقى في نظر الناس ، إلى رتب جيدة ، ثُمَّ يتوهم أن ما حصلته إنما كان بسبب من الذكاء ، والخبرة ، والحكمة ، والعلم ، تنزلق إلى الهاوية حين يغيب عنك أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخر لك ذلك ، وسمح لك به ، وأنه لا يقوم شيء على وجه الأرض إلا بإذنه ، وعندما تتوهم أن ما حصلته كان من عملك ينطبق وهمُك على ما قال قارون :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

(سورة القصص : 78)

وهكذا قال فرعون :

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الزخرف : 51)

ولِذا يُعطينا ربنا عز وجل درساً بليغاً ، ربما تكون قصة أصحاب الكهف نادرة الوقوع ، فهي كرامة لأصحاب الكهف ، ولكن هذه القصة التي نحن بصددها تتكرر في اليوم آلاف المرات ، إنها قصة الإنسان حينما ينجح ، ويعلو ، ويتفوق ، إنها قصة أصحاب الحظوظ ، قصة الأغنياء قصة الأقوياء ، قصة الأصحاء ، قصة الذين يشار إليهم بالبنان ، هؤلاء الذين حصّلوا الدنيا من أبوابها العريضة ، أمامهم منزلق خطير ، وهو أن يعتقدوا أنه أتيح لهم ذلك بذكائهم وعلمهم وخبرتهم .

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً)

جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ

لنُدقق في كلمة (جعلنا)، الله هو الذي جعل لهم ذلك ، فالله هو الفعّال ، وليس المقصود فقط أن يكون الإنسان صاحب بستانٍ نضير ، ولكن المقصود حينما يتاح له أي شيء من الدنيا ، فهذه القصة تنطبق على أصحاب البساتين ، والعمارات ، والأراضي ، والمكانة ، وعلى أصحاب الرتب في الدنيا ، وعلى كل من يتوهم بيده أمر بعض الناس .

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ)

الأعناب فاكهة محببة .

وحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ

ومعنى(حفّه)؛ أي أحاط به .

جعل الله لهذه الجنة سوراً من أشجار النخيل ، تجملها ، وتحسنها ، وتدر على صاحبها خيرات حِساناً .

(وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً)

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا

أي أنَّ في هاتين الجنتين ما لذَّ ، وطاب من الزروع ، والخضار ، والفواكه ، والثمار ، والأعناب ، والنخيل .

(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً)

كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا

كان المحصول جيداً ، وفي حده الأقصى ، فحملت الثمار اليانعة ، بمواصفات عالية ، وكان ثمنها أموالاً طائلة ، قد يقول لك : أنا اعتنيت ، واستعملت الدواء الفلاني ، واستعنت بمهندس زراعي خبير ، واستخدمت البذور الهجين ، فعلت كذا ، وكذا يثني في الحديث على خبرته ، وذكائه ، وماله الذي أنفقه على هذا البستان حتى أصبح جنة نضرة .

(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً)

وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا

وفوق هذا وذاك يسيل الماء ، نهراً بين هاتين الجنتين بمياهه العذبة ، فيُحيي الأرض بعد موتها ، إنهما بستانان عظيمان ، فيهما من أشجار الفاكهة ، ومن النخيل والأعناب ، والرمان ، ومن الخضار ، والفواكه ، والمحاصيل ، وفيهما مياه غزيرة .

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ)

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ

في بعض التفاسير ، أنه كان لصاحب هاتين الجنتين أموال أودعها في جهات أخرى ، تدر عليه أرباحاً طائلة ، هذا الإنسان ذكي نجح في أعمال أخرى ، بالإضافة إلى أنه نجح في هذه الجنة ، ولكن هذا

الرجل كان مُشركاً ليس بالمعنى الذي يعرفه الناس ، حين يدعي أن هناك إلهاً آخر ، ولكنه الإشراك العملي ، الشرك الخفي ، شرك الأسباب .

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ)

إنها فتنة عظيمة : التكبُّرُ على الناس : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا

حين يعتني الإنسان ببيته ، وبستانه ، ويركب مركبة فخمة ، تتشكل عنده رغبة ظالمة ، جانحة ، أو آثمة ، أن يطلع على هذا أصدقاؤه ، ولا سيما المحرومين ، ليزيدهم شعوراً بالحرمان ، فقال لصاحبه بصراحة وبوقاحة :

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)

هذا الذي يذهب إلى بلد أجنبي ، ويعود ليقول لك : لقد أنفقت في هذه الرحلة ثلاثمئة ألف ليرة ، كأنه يقول : أنا أكثر منك مالاً ، وإذا جلس إلى مهنئيه بسلامة العودة ، وكلهم من أصحاب الدخل المحدود ، وبدأ يقص عليهم أين نزل ، وكيف أكل ، وأين تنزه ، وكم كلفته هذه الرحلة ، كأنه يقول لهم بصراحة وبوقاحة :

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)

يا أيها الأخ الكريم ، لا ينبغي لك أن تتباهى في الدنيا ، لأنها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ولو أنها تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء .

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)

قال : عندي أموال طائلة ، لا تأكلها النيران ، وعندي أولاد أشداء ، دخل في وهمه هنا أن هذا بسبب من ذكائه ، وخبرته ، واحتياطه ، وأنه أعد لكل شيء عدته ، وأنه واجه الصعاب بخبرة عميقة ، وحصل على هذا النجاح بفضل ما أوتي من قوة .

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)

من هيئات المتكبرين : وَدَخَلَ جَنَّتَه وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِه :

ظلم نفسه ، وظلم عقله ، وأي ظلم أشد من أن توهم نفسك بشيء أنت بعيد عنه ، هذا ظلم شديد ، ظلم نفسه حينما أشرك الأسباب مع الله عز وجل ، فجعل الأخذ بالأسباب استغناءً عن رب الأرباب ، يدخل في هذه الآية من يقول : استغنينا عن رحمة السماء ، لقد ظلم نفسه ، كما أنه يظلمها من يقول : أنا أنهيت الفقر دائماً ، كلما وقعت في حال من أحوال أهل الشرك ، فقد ظلمت نفسك ظلماً كبيراً .

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً)

الشعور بالتفوق وطول الأمل :

أحياناً يخالج الناجحين في الحياة شعور أنهم تفوقوا دائماً ، وأن الحياة لن تزيدهم إلا غنىً ، وأن مرور الأيام لن يزيدهم إلا علواً في الأرض ، وأن هذه سنة الحياة ، هم من أصحاب الحظوظ ، وسواهم قد حرم هذا الحظ .

سيطر عليهم الشعور بالتفوق المستمر ، حتى لو أنني مت لسوف أبقى في تفوق مستمر ، ولسوف ألقى في الآخرة حياة رغيدة كهذه الحياة ، هذا من نوع الجهل ، هذا تفاؤل أبله ، ومن أدراك أنك بعد الموت ستلقى حياة رغيدة كهذه الحياة ، " سَمِعَ النبي عليه الصلاة والسلام أحد أصحابه الكرام وقد رأى جنازة، سمعه يقول استراح ، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام وقال ما معناه : ومن أدراك أنه استراح ؟ إنما يستريح من غفر له " ، ربما بدأت متاعبه بعد الموت .

(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً)

ظنَّ أنه نجح نجاحاً دائماً ، في الدنيا وفي الآخرة ، وكأن الآخرة امتداد للدنيا ، وكأنَ الذين نجحوا في الحياة الدنيا ضَمِنوا نجاحهم يوم القيامة ، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

(سورة الواقعة : 1 - 3)

النجاح الحقيقي : إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ

قد يرتفع من كان في أدنى السلم الاجتماعي ، إلى أوج المكانة العلية ، ومن كان في أوج المكانة الاجتماعية قد يهوى إلى أسفل سافلين.

كان صاحبه من المؤمنين ، الذين يعرفون حجمهم الحقيقي ، والحقيقة أن المؤمن في الحياة من عرف حده فوقف عنده .

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)

يا أيها الإنسان لو عرفت أصلك ما تكبَّرتَ !!!

كيف تغافلت عن خالقك ، الذي ساق هذه النعم إليك ؟ إنه هو الذي سمح لك أن يكون لك جنتان ، هو الذي منحك هذا الفضل ، هو الذي ملكك هذه الجنة ، بيده الأمر ، إنك حينما تقول أنا أكثر منك مالاً ،

وأعز نفرا ، حينما تعتز بذكائك ، تكون قد تغافلت عن رب الأرباب ، الإله الواحد القهار ، القهار الذي بيد ملكوت كل شيء .

كنت مرة في مكان عام ، وجدت طفلاً صغيراً يتحرك ، ويركض بين الناس ، وقد وضعت له فوط ، فأصبح وسطه كالكرة ، قلت : سبحان الله !!! إذا كبر هذا ، وصار شخصية مهمة ينسى أنه كان في هذه الحال ، لو عرف الإنسان أصله ما تكبر ، هذا الذي يعطيه الله مالاً ، أو قوة ، أو جمالاً ، أو غِنىً ، ينبغي ألا ينسى الماضي ، يوم كان ضعيفاً فقيراً ، مقتراً عليه في الرزق ، محروماً ، لقد خلقك من تراب .

(خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)

أنت من نطفة قذرة فلِم التكبر ؟!!

يخرج في اللقاء الزوجي ثلاثمائة أو أربعمائة مليون حيوان منوي ، وأحد هذه الحيوانات يلقح البويضة التي تنقسم ثم تنتقل إلى الرحم وعندها يبدأ تخلقها من مضغة إلى علقة ، ثم إلى عظامٍ ، ثم تُكسى العظام لحماً ، وهكذا إلى أن يحين وقت الولادة .

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ)

(سورة عبس : 17 -23)

لذلك : بئس العبد عبد سها ولها ، ونسي المبتدى والمنتهى ، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ، ونسي الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد طغى ولها ، ونسي المقابر والبلى .

(أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)

ذكرت اليوم في الخطبة أن انفجاراً تم في بعض المجرات ، وكان طول لهيب الغاز المنتشر بسببه مئة وأربعين ألف مليون مَليون كيلو متر ، وأن هذا الانفجار تعدل قوته واحداً وأمامه عشرون أو ثلاثون صفراً من قوة القنبلة الهدروجينية ، إن الله هو القوي .

تعصي الإله وأنت تـظهر حبه هذا لعمري في المقال بديعُ

لو كان حـبك صادقاً لأطـعته إن المحب لمن يحب مطيعُ

(أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)

يجب أن يكون الإيمان في قلبك دائماً ، فلا تنسَ الذي خلقك من تراب ، يجب أن تطيعه ، وترجوه ، وتدعوه .

(لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً)

يقول عليه الصلاة والسلام :

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي ، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن شهوة خفية وأعمالاً لغير الله))

[ابن ماجه عن شداد بن أوس بسند فيه ضعف]

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ

إذا دخلت الجنة ، يجب أن توحد ، وأن تقول : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، يفقد الإنسان في ثانية واحدة كل شيء ، فلو فقد ذاكرته أودع في مستشفى الأمراض العقلية ، ولو تجمدت نقطة من الدم في بعض شرايين الدماغ فإنه يفقد ذاكرته ، ويفقد المحاكمة ، وينسى ، ويودع في المستشفى ، أين بيته، ومركبته ، وزوجته ، وأولاده ، ومتجره ، أين نزهاته ؟ وسهراته ، وحفلاته أين هذه ؟ طويت كلها ، يُصبح الإنسان في لحظة من أهل القبور ، أو يصبح مشلولاً إثر إصابته بحادث ما ، يجب أن لا ينسى الإنسان فقره إلى الله .

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ)

إذا كان للإنسان بيت فخم ، فيه غرف عديدة ، غرفة نوم ، وجلوس ، وضيوف ، ومطبخ ، وحمام ، وله زوجة ، وأولاد ، يجب ألاّ يأخذه التيه ، والعجب أنه حصّلَ هذا البيت بذكائه ، وشهاداته العليا ، ودراساته العالية ، واهتمامه بالتجارة .

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ)

قُل ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، إياك أن تغفل عن مشيئة الله ، فهي كل شيء ، كما ورد في الحديث القدسي أن الله قال لداود عليه السلام :

<< أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد ، كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد >>

[نوادر الأصول للحكيم الترمذي(107/2)]

إذا كان الإنسان يركب طائرة ، وشعر أن لهيباً قد خرج منها ، وأنها تحترق تتلاشى كُل آماله العريضة، وتجارته الواسعة ، وحظوظه الكبيرة ، فالإنسان ضعيف ، قد يموت بأتفه سبب ، فإنسان في أوج نجاحه المادي ، لسبب تافه صار من أهل القبور بعد أسبوعين .

(شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً)

توزيع الحظوظ الدنيوية ليس نهائيًا : إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا

إن توزيع الحظوظ ليس نهائياً ، فالناس فيهم القوي ، والضعيف ، وفيهم الصحيح ، والمريض ، وفيهم الغني ، والفقير ، وفيهم صاحب الشأن ، ومغمور الشأن ، فتفاوت الحظوظ هذا في الدنيا ، هو تفاوت ابتلاء ، وتوزيع ابتلاء ، وبعدئذٍ يكون توزيع الجزاء ، فالغني يصبح فقيراً ، والفقير قد يصبح غنياً ، والقوي ضعيفاً ، والضعيف قوياً ، والعزيز ذليلاً ، والذليل عزيزاً ، وصاحب المكانة العلية يغدو ذا مكانة منخفضة .

(إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً)

لا يكون الأمر مستمراً هكذا دائماً ، بل ربما كان هذا الوضع موقتاً إلى أمد قصير ، إنَّ توزيع الحظوظ في الدنيا ليس أبدياً ولا سرمديّاً ، بل ربما تغيّر في الدنيا قبل الآخرة ، وسيتغير في الآخرة قطعاً ، لأنَّ الآخرة دار الجزاء .

حينما يعتدي الإنسان ، ويطغى ، ويعلو على الناس ، لا يدري أنَّ البساط سوف يُسحب من تحته ، ويشد له الحبل فيقع بين عشية أو ضحاها في شر عمله .

إنسان في أعلى مرتبة اجتماعية خلال أيام أو ساعات دخل ليحاكم ، والقيد بيده ، أمام الناس عامة ، وبعدئذ مات قهراً .

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً)

احذرْ ـ أيها الإنسان ـ أن تدور عليك الدائرة :

توفي أب ، وترك ولدين ، فاعتدى الكبير على الصغير ، وأخذ نصيبه من الإرث ، ربما قوّى سبحانه وتعالى الصغير بحكمة بالغة ، وأعطاه مالاً ، وأفقر الكبير ، واضطره أن يبيع كل أمواله للصغير ، ثُمَّ عَمِلَ عنده أجيراً ، وربنا عز وجل على كل شيءٍ قدير .

قالت امرأة لضرتها العاقر لِتُغيظها : هذا ابن على يدي ، وفي بطني ولد ، وعلى الأرض ولد ، ومُوتي قهراً ، مات الأولاد الثلاثة خلال سنوات عِدة ، وأكرم الله سبحانه وتعالى هذه الضرة فأنجبت ثمانية أولاد ذكور .

طَرَقَ فقير باب إنسان ، فقامت زوجته لتعطي الفقير شيئاً من اللحم الذي يأكلانه ، فنهرها ، ووبخها ، فطردت السائل ، ثم نشب خلاف بين الزوجين إلى أن وقع الطلاق ، ثُمَّ خطبها إنسان آخر غني ،

وعاشا في بحبوحة ، ويوماً طُرق الباب ، فذهبت الزوجة لتفتح الباب فإذا هي تعود مضطربة ، قال لها زوجها : ما القصة ؟ قالت سائل يسأل ، قال : لماذا اضطربت ؟ قالت : أتدري من السائل ؟ إنه زوجي الأول ، قال : أتدرين من أنا ؟ إنني السائل الأول .

فالله عز وجل قادر على قلب الميزان ، فقد يُصبح من هو في أعلى مكان بين عشية وضحاها في أسفل مكان ، الغني يفتقر ، والفقير يغتني .

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً)

يُكتب على بعض الأبنية " ما شاء الله " ، ولهذا أصل في كتاب الله ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فإذا دخل أحدنا إلى بيته أو متجره ، أو ركب مركبته ، أو شاهد أولاده ، أو زوجته ، فلا يتوهم أنه حصّلَ هذا بذكائه ، فليوحد ، وليشكر الله عز وجل على أنه أولاه هذه النعم .

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا ، وَكَفَانَا وَآوَانَا ، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ))

[مسلم]

وكان إذا خرج من الخلاء يقول :

((الحمد لله الذي أذاقني لذته ، وأبقى فيّ قوته ، وأذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند ضعيف]

هناك إنسان يتغذى بالمصل لمرض أصاب جهازه الهضمي مثلاً ، فهو يتألم ألماً شديداً ، وكان إذا ارتدى ثوباً جديداً يشكر الله عز وجل ، وكم ممن لا يستطيع أن يشتري ثوباً جديداً .

(فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً)

أصابت الزلازل كثيراً من البلاد ، فأصبحت أثراً بَعد عين ، بناء ضخم ، فندق شهير جداً في مدينة على شاطئ الأطلسي أصابها زلزال ، وخلال ثلاث ثوان نزلَ ثمانية عشر طابقاً ، ولم يبقَ من الفندق الضخم إلا اسمه الذي كان في الطابق الأخير ، فأصبح على مستوى الأرض .

(أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً)

مِن يأتيك بالماء إذا غار في الأرض ؟!!!

يحفر أحدهم بئراً فيقول : عندنا حفرنا خمسة أمتار فوجدنا المياه ، هي حفارة ممتازة ، لكن هذا فضل الله عز وجل ، وأحياناً تشح مياه الآبار ، فيقول : بقي لدينا نصف متر فقط ، ثُمَّ تأتي الأمطار الغزيرة فتملأ الآبار ، فهذا من فضل الله عز وجل .

(أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً)

أصابت موجة جفاف بعض بلدان إفريقيا منذ عدة سنوات تبيّن الصور التي التقطت أنَّ الحياة توقفت فالغابات يبست ، والأبقار والأغنام ماتت جوعاً .

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

(سورة الذاريات : 58)

تجد فيما يحيط بنا من بلاد بلداً كان في أوجه ، ثُمَّ أذاقه الله الخوف والجوع بما كانوا يصنعون .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : 65)

وفعلاً :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ)

هذا ما جدث لصاحب الجنتين حين كفر فاعتبروا يا أولي الأبصار :

بستان لا يقبل صاحبه أن يُضمّنه ولا بخمسمائة ألف جاءت موجة صقيع فأتلف كل الثمر ، هذا هو المشرك .

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ)

يقول لك المزارع : كلفني الدواء ثلاثين ألفاً ، والتسميد عشرة آلاف ، واليد العاملة كذا ، والفوارغ ثمنها كذا ، وكل هذه الأموال الطائلة ، دفعها ولم يجن منها شيئاً .

(فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)

هذا هو منظر الحزين ونتيجة الدمار : يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ

منظر الدمار مخيف ، فبستان محترق ، وأشجار يابسة ، وعين جافة ، فمنظر الجفاف ، أو القحط يبعث في النفس الأسى .

(فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً)

جاء هنا أن صاحب الجنتين قد أشرك بالله ، وهو ليس الشرك الأكبر ، لأنه لم يقل : هناك إله مع الله ، ولكن كان شِركهُ حينما اعتمد على الأسباب وحدها ، ونسي رب الأرباب ، اعتمد على الأسباب ، جعل لِكل شيء حساباً وسبباً ، في غفلة عن رب الأرباب ، وعن أن مشيئته هي القاهرة ، وهي الحاكمة ، هذا هو الشِرك .

(وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

ولات ساعة مندَم !!!

إذا أراد الله عز وجل أن يؤدب مخلوقاً صرف عنه الناس جميعاً ، ولو أنه كان مستقيماً على أمر الله لنصره الله عز وجل ، أو لخفف عنه ، لكنه كان بعيداً عن الله عز وجل في أيام الرخاء .

ولذلك ابن آدم ، اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة ، أكثر الناس ينسون الله عز وجل في الرخاء ، ويتيهون في الأرض ، ويمرحون ، ويلعبون ، وكأنهم خلقوا ، ولن يموتوا .

(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ)

الولاية لله الحق فهو خير ثوابا وعقبا :

هو الولي إن تخلى عنك فمن يبقى لك ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ، ليس معك أحد .

(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً)

حينما يكون الإنسان مع الله عز وجل ، تكون حياته في رقي دائم ، وخطه البياني في صعود دائم ، ولن يصيبه إلا ما كتب الله له ، ولن يكتب الله له إلا الخير .

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)

علاقة هذه الآية بالقصة قبلها :

ما علاقة هذه الآية بهذه القصة ؟ إنها علاقة متينة ، فهؤلاء الذين اعتمدوا على الأسباب ، ونالوا الدنيا من أوسع أبوابها ، وتاهوا بها ، وفرحوا بها ، لابد من أن تزول عنهم هذه الدنيا لأنها ليست دائمة .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام : 44)

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ)

وَاضْرِبْ لأَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاه مِنَ السَّمَاءِ

هطلت أمطار غزيرة ، فأنبتت مزروعات كثيفة ، ومعطاءة ، وخيّرة ، بعد أن نضجت هذه النباتات يبست ، فأصبحت تذروها الرياح ، وهكذا الدنيا ، فلا بد من بداية مشرقة ، لكن نهايتها محرقة .

(فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)

هذه قدرة الله : فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ

يكون الإنسان في الشباب في أوج نشاطه وقوته ، ولكنه بعد الأربعين يميل إلى الراحة والجلوس ، فلا يحب الإسراع في المشي ، إذ يشعر بآلام في أنحاء مختلف من جسده ، فالخط البياني بدأ بالهبوط .

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

نصيحة ربّانية : المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاة الدُّنيَا :

هذه نصيحة من الله عز وجل ، الأولاد من دون مال مصدر ألم ، فهم يحتاجون إلى غذاء ، ودواء ، وكساء ، ومصروف ، والمال غير موجود ، والمال بلا أولاد أيضاً مشكلة كبيرة ، ويتقطّع قلب أبيهم فرقاً لعدم وجود من يستفيد منه ، ويرثه فيما بعد ، قال ربنا عز وجل :

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

ما هي الباقيات الصالحات ؟

ليس القصد أن تقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، بل القصد أن تسبح ، وتكبر ، وتوحد ، وتحمد ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أي إذا سبحت في ملكوت السماوات والأرض ، سبحت نفسك في عظمة الله ، ونزهّت الله عمّا لا يليق به ، وكبرته كلما ذكرت شيئاً من كماله قلت : الله أكبر ، الله أكبر مما أرى ، ومما أعرف عن الله عز وجل ، كلما خطر في بالك ، فالله بخلاف ذلك وهو أكبر من ذلك ، وهو العلي القدير ، فهذا هو التسبيح و التحميد والتهليل والتكبير .

إذا عرفت الله عرفت عظمته ، ونزهته عما سواه ، وعرفت وحدانيته ، وعرفت فضله ، وحمدته ، وسبحته ، ونفيت عنه كل نقص ، وكبرته فعرفت أنه لا نهائي ، ووحدته فعرفت أن لا إله إلا الله ، أي

يجب أن توحد الله ، ويجب أن تحمده ويجب أن تنزهه ، ويجب أن تكبره ، فهذا معنى :

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً)

مِن مَشاهِد يوم القيامة :

1 - تسيير الجبال وبروز الأرض والحشر :

حينما تنتهي الحياة ، وتسير الجبال ، ويأتي الحشر والحساب .

(وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا)

2 – عرضُ العباد على الله صفوفا :

صفاً أي نسقاً ، لا رتلاً ، صفاً ، ما من أحد يختبئ خلف الآخر .

(وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً)

3- حشر العباد عراة كما خلقهم الله :

يمكن أن يكون حول الإنسان في الحياة أشخاص مهمون ، له أهل ، وأولاد نجباء أي له جماعة قوية ، أو هو قد ينتمي إلى جماعات قوية وغنية ، ولكن هذه الانتماءات كلها لا تقدم ولا تؤخر شيئاً يوم القيامة.

(جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

يُمكن أن يكون للإنسان في بلده أقارب ، ومعارف ، وأصحاب ذوو نفوذ يتصل بهم بالهاتف فينجدونه إذا وقع في مشكلة ما ، فيخرج من السجن بسند كفالة مثلاً ، أمّا في الآخرة فلا شيء من هذا القبيل .

(جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً)

زعمتم أن هذه الدنيا هي كل شيء ، ولا شيء بعد الحياة .

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

4 – نشرُ الكتب والدواوين :

أي يفتح كتاب الأعمال ، مثلاً إذا كان لمؤسسة مدير عام ، صارم ، وطلب إضبارة موظف ليُحاسبه ، وفيها احتيال ، وكتب توبيخ ، وعقوبات ، وتقرير ، ومشكلات ، وهناك في حقه تهمة ، فسيكون حساب هذا الموظف عسيراً .

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)

احذَرْ ـ أيها العبد ـ فإن كتابك لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها :

كل أعمال الإنسان مسجلة ، كسبه للحرام ، ومخاتلته للناس ، وظلمه لهم ، غرر بامرأة في شبابه ، فجعلها تسقط ، وجعلها امرأة بغياً طوال حياتها ، واحتال على شريك له ، وأخرجه من المحل ، فجعله فقيراً ، وحين قسم الإرث مع إخوته ، سيطر على الضِعاف منهم ، وأعطاهم أقل الأشياء ، كُل ذلك مُسجّل ، فنظرته مُسجّلة ، وعندما كان الشباك مفتوحاً ، ورأى جارته ، حركاته ، سكناته ، استماعه لما لا يرضي الله عز وجل ، غيبته ، نميمته ، فحشه ، بذاءته ، مزاحه الرخيص ، ضربه لغلامه أكثر مما يستحق ، شراسته مع زوجته ، تلصصه على بيوت الجيران ، كذبه في اليمين ، غشه في البيع ، كل ذلك مسجل ويا لها من مصيبة .

فيجب أن يتأكد كل إنسان أنَّ له عند الله عز وجل كتاباً يحوي كل أعماله الصغيرة والكبيرة ، بنص هذه الآية .

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

مغزى هذه القصة :

وفي خاتمة هذا الدرس ، أذكركم بمغزى القصة :

1 - إن الله هو الرزاق :

إذا نال الإنسان حظاً من الدنيا ، وتوّهمَ أنه حصّل هذا بذكائه ، وخبرته ، وعلمه وحنكته ، فقد أشرك بالله ونسي أن الله سبحانه وتعالى هو الذي تفضل به عليه ، وأنه لولا أن الله شاء له ذلك لما كان ما كان.

2- إياكم وشرك الأسباب :

المزلق الخطير الذي ينزلق به أصحاب الحظوظ في الدنيا هو ظنهم أن الأسباب التي اتخذوها هي وحدها أوصلتهم إلى ما هم فيه ، عندئذ يستحقون التأديب من الله عز وجل ، والتأديب أن يتلف الله ما عندهم لكي يعرفوا أن الله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين ، فالشرك هنا شرك الأسباب يجب أن تتخذ الأسباب ، وتعتقد أن الله هو الذي شاء لك ذلك ولو لم يشأ لم يكن ، فلا يمنع إيمانك أن مشيئة الله عزّ وجل هي وحدها النافذة ، ومشيئة الله عزّ وجل من الأخذ بالأسباب ، ولكنك إذا اعتمدت على الأسباب وحدها فقد أشركت هذه الأسباب مع رب الأرباب ، فلذلك إذا كان الإنسان على شيء من الصحة ، وإذا كانت أعضاؤه كلها سليمة فهذا ليس بعنايته بصحته فقط بل هذا بفضل الله عز وجل ، بدأ من صحته وأجهزته ، وزواجه وأولاده ، وبيته ، وعمله ، كل شيء تتمتع فيه هو من فضل الله عز وجل ، فإذا كنت كذلك فالنعم تدوم ، وبالشكر تدوم النعم .

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد : 11]

وفي اللحظة التي تنسى أن هناك إلهاً عظيماً شاء لك هذا الخير ، وأنتَ تعزو هذا الخير إليك ، فعندئذ يأتي التأديب ، وتأديب الله سبحانه وتعالى ، تأديب قاسٍ لأنَّ الله عز وجل يقول :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج : 12]

فهذا الذي قال : هذه جنتي .

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)

3- ليس من صفات المؤمن الافتخار والتكبر على الآخرين :

أيضاً ليس من صفات المؤمن أن يفتخر ويتبجّح ويطلع الآخرين المحرومين على ما عنده كي يزيد الشعور بالحرمان ، ، لا ينبغي أن تعرض على الناس ما عندك ، ولا ينبغي أن تعرض عليهم دنياك العريضة ، ينبغي أن تقتصد في ذلك ، وأن تطيب قلب الناس ، وأن تلفتهم إلى الله والدار الآخرة ، لا أن تحببهم في الدنيا .

هذه قصة تُكرر كل يوم آلاف المرات ، فهذا الذي يتبجح بمصروفه ، وبرحلاته ، وبأرباحه السنوية ، هذا ليس من أهل الإيمان المؤمن يفخر بعلمه ويفخر بخلقه ، ويفخر بما له من مكانة عند الله عز وجل ، فهذه قصة فيها موعظة بالغة .

شيء آخر :

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

4 – وجوب شكر الله وحمده على نعمه وتنزيهه عما لا يليق به :

الإنسان يتعلّق بالألفاظ ، فيجب أن تكون مكبراً لله حامداً لله ، موحداً لله ، منزهاً لله ، إذا نزهته وحمدته، وكبرته ، ووحدته فقد عرفته ، " ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء ".

ومن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه وشتت عليه شمله ولم يؤتهِ من الدنيا إلا ما قدر له ، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 50 – 59 ، لطائف الإنعام وسلاسل الامتحان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-11-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بالقصتين الماضيتين :

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس من سورة الكهف ، وقد مرَّ بنا في هذه السورة قصتان ، القصة الأولى تتحدث عن أصحاب الكهف ، وكيف أنهم آثروا رضوان الله عز وجل على الدنيا العريضة ، وكيف أن الله حفظهم ، وتولاهم ، وأكرمهم في الدنيا والآخرة ، وكيف أن مبدأ الهدى أن يختاره الإنسان ، وعندئذٍ تأتيه الزيادات من الله عز وجل .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

والقصة الثانية : قصة الشرك ، شرك الأسباب ، وهو أنَّ الإنسان إذا نجح في حياته الدنيا ، نجح في تجارته ، أو صناعته ، أو زراعته ، أو مشاريعه ، أو درجاته العلمية ، أو أي نجاح كان ، فقد يعزو هذا النجاح إلى قدراته الذاتية ، وإمكاناته ، وذكائه ، فيستحق عندها التأديب من الله عز وجل ، وهو يستحقُ التأديب والتربية ، لأنه مؤمن يعترف بالله خالِقاً ومُربيّاً ، والدليل قوله تعالى :

(وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي)

لكنه قال :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص : 78)

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)

فجزاء الاعتداد بالذات التأديب .

واليوم ننتقل إلى قصة ثالثة ؛ قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح الذي آتاه الله من لدنه رحمة ، وعلماً، وقبل أن نصل إليها لابد من آيات ربما استغرقت الدرس كله ، أو بدأنا بأولها إن شاء الله تعالى .

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)

علاقة هذه الآيات بما قبلها :

قد يسأل سائل : ما علاقة هذه الآية بالتي قبلها ؟ لأن آيات القرآن الكريم مترابطة ، والدليل :

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)

(سورة هود : 1)

الآية التي قبلها :

(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

الحشر ... والعرض ... والكتاب ...

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

كل عبد يُحشر معه كتاب فيه أعماله :

مرَّ بنا في درس العقيدة في يوم الأحد ، أن المؤمن يأخذ كتابه بيمينه ، وأن الكافر يأخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره .

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه * يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه).

(سورة الحاقة : من 19 - إلى 29)

وقد ورد في بعض كتب العقيدة استناداً إلى بعض الآيات الكريمة أن الإنسان حينما يأخذ كتابه يُصاحبه معه الملك الذي كتبه ، فإذا أنكر فيه شيئاً فالمَلَك الذي كتبه يشهد عليه بالحق .

وورد أيضاً أن الذي يتلقى كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره لو أنه أنكر ما فيه بلسانه عندئذٍ :

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة يس : 65)

فكاتب الكتاب واقف مع الكتاب شاهد ينطق بالحق ، إذا كَذَبْتَ ، أو إذا كَذَّبْتَ هذا الشاهد ، فإن الفم سوف يختم عليه ، وسوف تنطق الجوارح ،

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .)

(سورة فصلت : 21)

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)

من هنا يأتي قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7)

قال بعضهم : لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت الناس جميعاً ، وحينما وعظ النبي عليه الصلاة والسلام أحد الأعراب الذي قال له : يا رسول الله عظني وأوجز ، تلا عليه قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7)

قال : قد كفيت ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقُه الرجل ، لم يقل فقِه ، قال : فقُه ؛ أي أصبح فقيهاً .

أيها الإخوة الأكارم ؛ العلاقة بين الآيتين هي أنه بعد أن ذَكَرَ الله عز وجل الموقف الصعب ، والذليل ، والمخيف ، والعصيب الذي يقفه العصاة يوم القيامة ، حينما يفتح الكتاب لينطق هذا الكتاب بكل أعمالهم، صغيرها وكبيرها ، عندئذٍ ذَكَّرَ الله عز وجل بني آدم كيف أخذ عليهم العهد ألا يعصوه ، وألا يستجيبوا للشيطان .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)

ما نوع سجود الملائكة لآدم ؟

أيها الإخوة ، هذا سجود التعظيم ، وليسَ سجود العبادة ، توهّمَ بعضهم أنَّ إبليس من الملائكة ، لكن هذه الآية صريحة بأن إبليس من الجن ، والدليل قوله تعالى في الآية السابقة .

هل إبليس كان من الملائكة ؟

أمّا أن يستنبط إنسان أن إبليس ملك بدليل قوله تعالى :

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ)

هذا اسمه استثناء منقطع ، فقد تقول : حضر الطلاب إلا المدرس ، فالمدرس ليس طالباً ، لكنه اشترك مع الطلاب في حضوره الساعة الثامنة ، فالطلاب طلاب ، والمدرس مدرس ، يُدعى هذا في اللغة استثناء منقطعاً ؛ ومعنى الاستثناء المنقطع أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه .

بينما الاستثناء المتصل فتقول : حضر الطلاب إلا خالداً ، أو إلا طالباً ، فالمستثنى من جنس المستثنى منه ، بـ إلا ، والدليل أيضاً في آيات أخرى :

(فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

(سورة الحجر : 30)

ليسَ إبليس من الملائكة ، وهذه الآية صريحة في ذلك :

(كَانَ مِنْ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

معنى الفسوق :

معنى فسق ؛ بمعنى خرج ، و كل إنسان يخرج عن أمر الله فهو فاسق .

أمرك الله عز وجل أن تغض بصرك ، فنظرت إلى الحرام فهذا فسق ، وأمرك بتحرّي الحلال في الكسب ، فكسبت مالاً حراماً فهذا فسق ، وأي معصية هي فسق .

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس : 33)

والعصاة المقيمون على المعصية ، الذين خرجوا عن الصراط المستقيم يُفكّرون تفكيراً خاصاً بطريقة تُبرر معاصيهم ، فمنطقهم تبريري ، يدافعون به عن عاداتهم وتقاليدهم ، ومعاصيهم ومخالفاتهم ، وانحرافاتهم وشهواتهم ونزواتهم .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)

لأنه خليفة الله في الأرض .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة :30)

قال عليه الصلاة والسلام :

((آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر))

[الترمذي عن أبي سعيد بسند صحيح]

يتبيّن من خلال مجموعة أحاديث أنَّ سيدنا آدم يأتي بعد النبي عليه الصلاة والسلام في المرتبة ، فسيدنا النبي محمد عليه الصلاة والسلام هو سيد ولد آدم ، وخير خلق الله ، ويليه سيدنا آدم في المرتبة ، فالبشرية بدأت بأكرم نبي بعد رسول الله ، وختمت الرسالات بأعظم الأنبياء من دون استثناء .

(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)

مثلما كانَ سيدنا جبريل رئيساً الملائكة كان إبليس رأساً للشياطين .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)

يا للعجب ممن يتخذ الشيطان وذريته أولياء :

هنا يعجب الله عز وجل ؛ أتتخذ الشيطان ولياً لكَ من دون الله !!!

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة : 257)

التفوق الأكبر في الأرض أن تكون ولياً لله ، وما من مرتبة على وجه الأرض أعظم عند الله من أن تكون وليه .

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

(سورة يونس : 62 - 63)

وذريّة إبليس من الجن ، توسوس للإنسان بالشر ، بالشهوة وبالنزوات ...

(أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي)

فكيفَ تدعون كتاب الله ، وصراطه المستقيم ، وتوجيهه الكريم ، ودستوره العظيم ، وتتجهون إلى وسوسة تُهلِك صاحبها إلى الأبد .

هل يُعقل أن تستشيرَ عدواً فهو يأمُرُكَ أن تخرب محلك التجاري ، أو أن تكثر البضاعة الكاسدة ، أو أن تُغلق في ساعات العمل ، أو أن تسلم نفسك للموظفين في مخالفات ، فهل يعقل هذا ؟

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ)

مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ

هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني ، وتتحركون بتوجيهاتهم ، وبوساوسِهم الشيطانيّة هم أعداء لكم ، وما كانوا حاضرين يوم خُلِقَت السماوات والأرض ، أي أني ما استعنت بهم على خلق السماوات والأرض ، بل كانوا غائبين ونفي الاستعانة بهم في غيابهم أشد من نفيها في حضورهم.

هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء تعبدونهم ، وتستجيبون لوساوسهم ، وتأكلون المال الحرام استجابة لهم ، وتعتدون على الأعراض استجابة لهم ، وتعبدونهم من دون الله ، وما خلقوا السماوات والأرض ، ولا استعان الله بهم ، وما كانوا شاهدين يوم خلق الله السماوات والأرض .

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)

هذا المولود من ساهم في خلقه ؟

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الواقعة : 59)

يُبيّن الله عز وجل في هذه الآيات أن الذي يستحق العبادة هو الله وحده ، ولا شيء سواه ، وما ساهمَ الشيطان في خلق الإنسان حتى يكسب حق عبادة الناس له .

حيوان منوي واحد من ثلاثمائة ألف حيوان يلقح بويضة تنقسم في ثمانية أيام إلى عشرة آلاف قسم ، ثم تلتصق في جدار الرحم ، ثم يبدأ تشكل الدماغ ، والأحشاء ، والأعضاء ، في تسعة أشهر وعشرة أيام يصبح طفلاً كاملاً ، دماغ ، جمجمة ، مخ ، مخيخ ، بصلة سيسائية ، نخاع شوكي ، أعصاب قلب ، شرايين ، رئتان ، معدة أمعاء ، كبد ، بنكرياس ، كليتان ، مثانة ، عضلات ، عظام ، جلد غدد دهنيه ، غدد صبغية .

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

ليس لله مُعينٌ في هداية خَلقه :

ما كان الله عز وجل ليتخذ إنساناً مضلاً عضداً له في تعريف الناس به ، المضل لا يوفق في هداية الناس ، لأن الله لا يتخذه عضدا ، أي لا يتخذهُ مُعيناً له في هِداية خلقه .

لذلك :

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

(سورة الحاقة : 45-47)

الأدلة على تفرد الله بهداية الخلق :

الآيات المتعلقة بهذا الموضوع :

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة : 124)

متى جعله إماما ؟ بعد أن ابتلاه فصبر :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة : 24)

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب : 39)

هذه علامة ثالثة .

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران : 18)

هذه علامة رابعة .

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : 108)

علامة خامسة .

التنزّه عن الدنيا ، الدعوة على بصيرة ، الصبر على بلاء الله ، الفوز في امتحان الله ، هذه كلها شروط لابد من توافرها حتى يتخذ الله هذا الإنسان وسيلة للهدى .

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً * وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً)

معنى الآية : نَادُوا شُرَكَائِي

للمفسرين رأيان في هذه الآية :

المعنى الأول :

يقول ربنا سبحانه وتعالى للمشركين ذلك من باب تعريفهم بعجز شركائهم .

المعنى الأول :

بعض المفسرين يرى أن اعتقاد المشركين بآلهتهم التي عبدوها من دون الله ، قد يستمر معهم إلى ما بعد الموت ، عندئذٍ يقول الله عزَّ وجل :

(وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ)

هذا الذي اعتقدت أنه كل شيء في الحياة ينفع ويضر ، أين هو الآن ؟ ناده ، اطلب منه أن يخلصك ، وادعه أن يستجيب لك ، وقد أرادَ الله عزَّ وجل بهذه الآية أن يبين لنا أن هذه الآلهة التي عبدت من دون الله عز وجل سوف تكشف على حقيقتها المزرية يوم القيامة ، فليسوا شركاء ، ولا آلهة ، وليسَ بيدهم الحل والربط ، وحينما أمرك الله عزَّ وجل أن تعبده طمأنك أن الأمر كله راجع إليه .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : 123)

إن كنتم تزعمون أنهم آلهة ، وأنَّ بيدهم الفعل فادعوهم أن يخلصوكم .

(فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ)

قال : لم يستجيبوا لهم ، ولم يقُل : لم يُخلصوهم ، لأنهم إذا كانوا عاجزين عن أن يستجيبوا لهم فهم عن تخليصهم أعجز ، وهذا من بلاغة القرآن .

(فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً)

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا

الموبق ؛ هو الهلاك ، أي هؤلاء الذين أشركوا ، والذين أُشركوا هؤلاء الذين عَبدوهم من دون الله ، والذين عُبدوا من دون الله ، جميعاً هالكون ، تجمعهم نار جهنم التي تلفح بلهيبها وجوههم .

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا)

توقُّع المصيبةِ مصيبة فوق المصيبة :

هناك قول شهير : أن تُوقِع المصيبة مصيبة أكبر منها ، وأنت من خوف الفقر في فقر ، ومن خوف المرض في مرض .

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر : 46)

(وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا)

إذا حكم على إنسان بالإعدام شنقاً حتى الموت بجريمة ارتكبها ، فهو كلما أطل من كوة السجن ، ورأى المشنقة في فنائه ، وشعر بقرب تنفيذ حكم الإعدام ، ناله من الألم أضعاف ما لو أُعدِمَ فوراً .

(وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا)

هذا ظنٌّ يقيني ، كلمة ظن تعني إمّا حسب ، أو تعني أيقن يقيناً عقلياً ، لا يقيناً شهودياً ، ومعنى يظنون؛ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً لا كما يتوهم بعض الناس فكلمة ظن في القرآن ، تأتي بمعنى الاعتقاد الجازم ، وتأتي بمعنى الشك ، ظننته عالماً فإذا هو جاهل ، بمعنى حسبته ، أما هنا بمعنى تيقّنوا أنهم مواقعوها .

(وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً)

وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا

وكأن الله عز وجل يلفت نظرنا إلى كتابه الكريم ويقول :

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)

معنى تصريف الأمثال في القرآن الكريم :

ذَكَرَ ربنا عز وجل قصصاً ، وأمثلةً ، وأخباراً سابقة ، وتشريعات ، وذكر أوامر ، ونواهي ، وذكر مرغبات ، ومخيفات ، وذكر مشاهد من يوم القيامة ، ومن الجنة ، ومن جهنم ، رغب ، ورهب ، وخوف ، وحذر ، وبشر وأنذر ، وبين ، ووضح ، ومثل ، وقص ، فأساليبه عديدة ، تقرأ السورة ، فترى فيها حُكماً شرعياً ، ثم آية كونية أحياناً ، فقصةً بليغةً ، ثم مثلاً رائعاً ، ثم خبراً ماضياً ، ثم بشارةً، ثم مشهداً من مشاهد الجنة ، ثم مشهداً من مشاهد النار ، ثم ملخصاً فهي سورة ذات موضوعات متكاملة .

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)

وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً

خُلِقَ الإنسان ضعيفاً ، وخُلِقَ الإنسان هلوعاً ، وخُلِقَ الإنسان عجولاً ، وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدلاً ، هذه الصفات التي وصف بها الإنسان في القرآن ليست نقاط ضعف تستوجب اللوم ، لكنها نقاط ضعف لمصلحته ، كيف أن الجهاز الغالي يحوي نقطة ضعف كهربائية من أجل أن لا يحترق ، تُسمّى " الفيوز" ، كذلك الإنسان ، خُلِقَ ضعيفاً .. وخُلِقَ الإنسان هلوعاً .. وخُلِقَ الإنسان عجولاً ، خُلِقَ ضعيفاً ، لو خلقه الله قوياً لاستغنى بقوته ، وشقي باستغنائه ، وخُلِقَ عجولاً يرقى إذا اختار الآجلة إلى أعلى عليين ، خُلِقَ هلوعاً ، لولا أنه يهلع لما عرف الله عز وجل ، فلو خلقه متجلداً لا يخاف ، يبقى على معاصيه إلى يوم القيامة ، لكن ضعفه ، وخوفه ، وفرقه ، وكونه يهلع ، ويجزع ، وتخور قواه ، وترتعد أطرافه ، هذا كله لمصلحته ، من أجل أن يعود إلى الله عز وجل .

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)

زوّدَ الله الإنسان بالمنطق ، يناقش ، ويحاور ، ويسأل ، ويريد البرهان والدليل .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً)

ما الذي يمنعكم أيها العباد أن تؤمنوا ؟!!

يعجَب ربنا عز وجل في هذه الآية !! ما الذي يمنعكم أيها العباد من أن تؤمنوا ؟ لا تؤمنون بي حتى يأتيكم العذاب ، وهذا الكلام لنا ، أي لِمَ أنتَ غافل ، وأنت في شبابك ، وصحتك ، وبحبوحتك ، وقوتك ، وغِناك ، ألا تريد أن تؤمن بالله إلا بعد المرض والفقر والذل وبعد الإهانة ، أهكذا المروءة ؟!! أهكذا الذكاء ؟!! أهكذا الوفاء ؟!! لا يؤمن بالله إلا بعد الشدة ، أنحن عبيد أم أحرار ؟

السيدة رابعة العدوية تقول : " العباد ثلاثة ؛ العبيد هم الذين يعبدونه خوفاً من ناره ، والتجار يعبدونه طمعاً في جنته ، والأحرار عرفوا أن لهم رباً فأطاعوه ، وما مقصودهم جنات عدنٍ ؟ ولا الحور الحسان ، ولا الخيام ، سوى نظر الحبيب فذا مناهم ، وهذا مطلب القوم الكرام " .

ألا يليق بك أيها الأخ الكريم وأنت في شبابك ، وصحتك ، وأنت مستمتع بسمعك وبصرك ، وذاكرتك ، وقوتك ، وأعضائك ، أن تعرف الله ؟ وأن تعرف ماذا يريد منك ؟ وما طريق رضوانه ، معظم الناس يقول : يا رب ، يا رب عندما يأتيهم المرض الشديد العضال ، أو حين يظهر التحليل أن هناك ورماً خبيثاً ، أو حين يفقد أحدهم ماله كله ، أو يوضع في وضع صعب جداً ، قُل : يا رب وأنت في الرخاء ، إن كنت بطلاً فقل : يا رب ، وأنت في الرخاء ، وأنت معافى ، وأنت شاب ، وأنت مستمتع بسمعك وبصرك ، وقوتك ، وعندك زوجة وأولاد ، هذه البطولة .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى)

هذا الهدى بين أيديكم ، كتاب الله بين أيدينا .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

معنى مجيء سنة الأولين :

أي عذاب الاستئصال أو البلاء والقهر ، وكأن الله عز وجل يتمنى لنا في هذه الآية أن نؤمن به طوعاً لا كرهاً ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ :

((اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ : قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ))

[مسند الإمام أحمد]

من لم يتجه إلى الله بلطائف الإنعام ساقه الله إليه بسلاسل الامتحان ، إما أن تأتي إليه طوعاً ، أو هو قادر على أن يجعلك تنساق إليه كرهاً .

(اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

(سورة فصلت : 11)

نصيحة للشباب :

البطولة أن تُنفق وأنت في صحتك ، وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمن الغنى ، لذلك قال النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم :

((اغتنم خمساً قبل خمس ، شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك))

[الحاكم في المستدرك ، عن ابن عباس ، وابن أبي شيبة في المصنف عن عمرو بن ميمون]

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

فتية ، شباب .

عيّنَ النبي عليه الصلاة والسلام سيدنا أسامة بن زيد قائداً للجيش ، وكان من جنود هذا القائد سيدنا عمر بن الخطاب ، كان عُمُرُ هذا القائد الجليل سبعة عشر عاماً ، وكان عمر ، وعثمان ، وعلي جنوداً في هذا الجيش ، أراد سيدنا الصديق رضي الله عنه أن يدعم مركزه فمشى في ركابه ، فما كان من أسامة بن زيد إلا أن قال : يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن ، قال : والله لا ركبت ، ولا نزلت ، وما عليّ أن تغبر قدمايَ ساعة في سبيل الله ، وحينما وصلا إلى مركز الانطلاق والتجمع ، استأذن سيدنا الصديق من قائد الجيش الذي لا تزيد سنه عن سبعة عشر عاماً أن يبقي له عُمَرَ مستشاراً في المدينة .

هذا كلام موجه للشباب ، ما من شيء أحب إلى الله عز وجل من شاب تائب ، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب التائب ، يقول : انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي .

عندما يصل الإنسان إلى خريف العمر حيث الأمراض ، والهموم والانزواء ، وقلة الشأن ، عندئذ لا يبقى له إلا المسجد ، أما البطولة أن تأتيه ، وأنت صحيح شحيح ، وأنت في ريعان شبابك .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

سُنّة الأولين أنه إذا كفر قوم بربهم ، بعدَ مجيء المعجزة استؤصلوا استئصالاً نهائياً .

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً)

أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً

معنى قُبُلاً ؛ يعني عياناً ، وجهاً لوجه .

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

الناس رجلان : مؤمنٌ تقي كريمٌ على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، هذا يبشر ، وهذا ينذر .

(وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً)

إيّاكم والاستهزاء بالحق !!!

قال العلماء : " أن أشد أنواع الكفر الاستهزاء بالحق "، فجلوسُكَ تناقش أهل الحق ، وأنت تريده أشرف بكثير من أن تستهزئ بالحق ، وأشد أنواع الكفر أن يتخذ الإنسان الحق هزؤاً ، أن يتخذ آيات الله لعباً ، أو أن يهزأ بدين الله ، ويلعب بأحكامه .

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً)

ما هو الباطل ؟

الباطل هو الشيء الزائل ، لو وضعت هذه الثريا مع السقف تماماً كان مكانها بالباطل ، ولو وضعت إلى الأرض تماماً لكان مكانها بالباطل ، ومعنى الباطل أنه لابُدَّ أن يزال هذا المكان غير الصحيح ، فالباطل هو الشيء الزائل ، أما الحق فالشيء الثابت ، فالحق ثابت ، وهادف ، وواقع ، بينما الباطل زائل ، وعابث ، وكاذب .

يُروى أنَّ رجلاً في عهد النبي عليه الصلاة والسلام سمى ابنه الله ، أو سمى نفسه الله استهزاءً بالله عز وجل ، فجاءت صاعقة فقتلته فوراً .

يجب على الإنسان ألاّ يتورط بالاستهزاء بآيات الله ، و بمقدسات الدين ، بالقيم الدينية ، بالقواعد الشرعية ، بالأحكام القرآنية ، هذا مكان خطر جداً .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً)

مِن أشد الناس ظلما المُعرضُ بعد التذكير :

أي ليس في الأرض إنسان أشد ظلماً ممن دُعِيَ إلى الحق فأعرض ، وقال : هناك وقت طويل ، نحج ، ونتوب عندما نبلغ ثمانين عاماً.

دعيت إلى الحق فأعرضت ، دعيت إلى طاعة الله ، فقلت : الله غفور رحيم ، دعيت إلى التصدق ، فقلت : الله يغني من يشاء ، دعيت إلى غض البصر ، فقلت : أين أذهب بعيني ، دعيت إلى تحرير

كسبك من الحرام ، فقلت : الناس كلهم كذلك ، كلما دعيت إلى طاعة أعرضتَ عنها ، ورفضتها محتجًّا بشتى الأعذار .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

غفل عن أعماله السيئة ، وظلمه ، وتعدياته .

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً)

قد يفهم القارئ هذه الآية فهماً ما أراده الله عز وجل .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا)

ذِكرُ الله عزَّ وجل ، مرات عديدة ، وتؤكده آيات أخرى .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : 44)

حيث يُذَكِّرُ الله عز وجل عباده ليلاً نهاراً ، عن طريق الأنبياء ، والرسل ، والعلماء ، والدعاة ، والقرآن ، وعن طريق المكتشفات العلمية ، والآيات الكونية ، حتى إن بعض التفاسير ، وهو القرطبي في تفسير قوله تعالى :

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر : 37)

قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية :" إن النذير هو الموت ، فموت الأقارب ، أكبر نذير ، والقرآن هو النذير ، والنبي هو النذير ، والعالم هو النذير ، والمرض هو النذير ، والمصائب هي النذير، والشيب هو النذير ، وسن الأربعين هو النذير ، وسن الستين هو النذير " ،

(وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ)

الإضلال الجزائي :

حينما اختار الضلال جعل على قلبه هذا أكنّة ، لذلك أوضح آية توضح هذه الآية ،

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : 5)

هذا هو الضلال الجزائي ، المبني على الضلال الاختياري ، يختار الإنسان الضلال فيمنع الله عنه كل هذه الحقائق ، تماماً كما لو أنك كنت مسافراً إلى بلد قريب ، ووجدت في الطريق مفترقين لا تدري

أيهما تسلك ، سألت واحداً من الناس : أين حمص ؟ قال لك : من هنا ، قلت له : جزاك الله عني كل خير ، بعد أن استجبت له ، وقبلت هذه النصيحة زودك بمعلومات شتى عما في الطريق ، من تحويلات، ومن حواجز ، ومن مطبات ، زوّدكَ بكُل هذه المعلومات بعد أن قَبلتَ النصيحة ، أمّا الذي يتهم هذا الدليل بالكذب ، هل بإمكان هذا الدليل أن يعطيه من المعلومات شيئاً ؟ .

معنى الإضلال هنا أنه حينما ذَكَّرَه الله عز وجل ، أعرض عن هذا التذكير ، ونسي ما قدمت يداه عندئذ :

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً)

لا يستطيع كائن من كان في الأرض أن يهدي من اختارَ الضلال والدليل :

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص : 56)

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : 272)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الأنعام : 107)

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

(سورة الغاشية : 22)

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود : 86)

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً)

سَعَةُ رحمة الله تعالى بعباده : يمهل ولا يهمل :

في آية أخرى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : 159)

أجمع العلماء على أن أرحم مخلوق بالمخلوقات قاطبة هو النبي عليه الصلاة والسلام ، أرحم الخلق بالخلق ، قال تعالى :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة : 128)

ومع ذلك قال الله عز وجل :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

أما ربنا عز وجل :

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

فالرحمة كلها من عند الله .

(لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً)

سَعَةُ رحمة الله تعالى بعباده : يمهل ولا يهمل :

تقتضي رحمة الله عز وجل أن يُمهل ولا يُهمل .

(لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ)

سَعَةُ رحمة الله تعالى بعباده : يمهل ولا يهمل :

(وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ، فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

(سورة طه : 129 - 130)

ربنا حليم ، أي يحلم على عباده إلى درجة تفوق التصور .

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً)

سَعَةُ رحمة الله تعالى بعباده : يمهل ولا يهمل :

أين المفر ؟ لا ملجأ من الله إلا إليه :

أيْ مفراً ، أو ملتجئاً .

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً)

قانون الإهلاك : الظلم :

هذه الآية آية محكمة ، تأخذ شكل قانون ، جاءت هذه المصائب الجماعية ، من زلزال ، أو بركان ، أو

فيضان ، أو قحط ، أو سيل ، أو طوفان ، جاءت من الله بحسبان ، وتوقيت دقيق .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : 65)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

هناك توقيت دقيق .

في الدرس القادم إن شاء الله نبدأ بقصة سيدنا موسى مع الخضر ، في هذه القصة مغزى كبير ، تأتي الإنسان أحياناً أشياء لا يرضى عنها قال تعالى :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة : 216)

هذه الآية هي مغزى قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام ، وهذه القصة يحتاجها كل مؤمن ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام ، باعتقاده الجازم بأن الله عز وجل لا يسوق لعباده إلا الخير ، كان إذا جاءت الأمور وفق ما يريد قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وكان إذا جاءت الأمور على خلاف ما يريد قال : الحمد لله على كل حال .

فقصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر عليهما السلام ، قصة تؤكد أن الفعل بيد الله ، وأن فعل الله كُلُهُ حِكمة ، ورحمة ، وعدل ، وعلم ، فهذه القصة إذا قرأناها ، ووعيناها ، وعقلناها ينبغي أن نستسلم لله عز وجل ، وأن نرضى بقضاء الله وقدره ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام : الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن ، يحمل سيدنا موسى علم الشريعة ، بينما يحمل سيدنا الخضر عليه السلام الحقيقة ، وهناك تكامل بين الحقيقة والشريعة ، وإن شاء الله تعالى نشرح هذا في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 60 – 82 ، قصة سيدنا موسى مع الخضر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-11-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السابع من سورة الكهف ، ونحن الآن في القصة الثالثة ؛ قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر عليهما السلام ، وقبل الدخول في تفصيلات هذه القصة أريد أن أقدم لها ببضع حقائق تعين على فهمها .

حقائق بين يدي قصة موسى مع الخضر :

الحقيقة الأولى : علم الحقيقة وعلم الشريعة :

الحقيقة الأولى : أنه لما عرض الله على الإنسان الأمانة قبلها ، ومعنى قبلها أي أنه كلف بمعرفة الله ، والسير على أمره ، والتقرب منه ليسعد في الدنيا والآخرة ، وحينما قبل الأمانة منحه الله إرادة حره ، وعقلاً مفكراً ، ونصب له آيات في أرجاء الكون ، وأنزل له الكتاب ، أي أنزل له التشريع ، والتشريع ضوابط في العلاقات بين العبد وربه ، وبين العبد والعبد ، وقد نزلت هذه الشرائع تباعاً على أنبياء الله ورسله .

فسيدنا موسى عالم بالشريعة يعرف الحلال والحرام ، ما يجوز ، وما لا يجوز ، ما ينبغي ، وما لا ينبغي ، والأمر والنهي ، والحق والباطل ، والخير والشر .

الحقيقة الثانية : وجوب انضباط أفعال العباد بالشرع :

يجب أن تضبط أفعال العباد بالشريعة ، وسيدنا موسى نبيٌ عظيم ، ورسول كريم من أولي العزم ، وهو أعلم علماء الأرض في وقته في الشريعة ، لكن الله سبحانه وتعالى يتصرف في الكون ، ويتصرف مع عباده تصرفاً لا يعلم حكمته إلا الله ، أي لا يعلم سر القضاء والقدر إلا الله ، فسر التصرفات الإلهية ، وحكمة الأفعال الإلهية علم مستقل قائم بذاته ، فقد آتى الله سيدنا الخضر ، وهو نبي في رأي معظم العلماء عليه السلام ، من لدنه علماً ، فكأن هذه القصة لقاء عظيم رائع ، بين قطب عظيم

من أقطاب الشريعة ، وقطب عظيم آخر من أقطاب الحقيقة ، فنحن مع سيدنا موسى مع قطب من أقطاب الشريعة ، ونحن مع سيدنا الخضر قطب من أقطاب الحقيقة .

والشريعة والحقيقة التقتا ، ومن خلال هذا اللقاء العظيم تتضح بعض الحقائق المهمة التي نحن جميعاً في أمس الحاجة إليها ، ومن لقاء قطبي الشريعة بالحقيقة تتضح بعض أسرار القضاء والقدر ، ومنها نعرف معنى قوله تعالى :

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة : 216)

كأن ملخص هذه القصة تلك الآية :

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

يجب أن تضبط أفعال العباد بالشريعة ، لكن أفعال الله عز وجل تفسر بالحقيقة .

ويجب أن تكون أفعال العباد وفق الحلال ، والمباح ، والمندوب ، والأمر ، ويجب أن تبتعد عن المكروه ، والمحرم ، هناك شريعة دقيقة جداً ، فيها حكم كل شيء ، كل حركة ، وكل سكنة ، وكل تصرف ، وأية علاقة تضبطها الشريعة ، لكن أفعال الله عز وجل علم التصرفات الإلهية ، وسر القضاء والقدر ، فعلم الحقيقة يكشف لنا جانباً منه .

ففي لقاء هذين النبيين العظيمين لقاء سيدنا موسى مع سيدنا الخضر تتضح حقائق كثيرة من علم الحقيقة .

سبب ورود قصة موسى مع الخضر :

ورد في بعض الأحاديث الشريفة عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ قَالَ مُوسَى : لَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى : بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً ، وَقِيلَ لَهُ : إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ لِمُوسَى فَتَاهُ :

(أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ)

(قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا)فَوَجَدَا خَضِرًا فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ))

[متفق عليه]

سيدنا موسى نبي مرسل ، ومادام نبياً مرسلاً فهو بالبديهة أعلم علماء الأرض ، فما كان من هذا النبي العظيم إلا أن قال : أنا أعلم علماء الأرض ، فأوحى الله إليه ما أوحى .

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً)

ليس أعلم منك مطلقاً ، أعلم منك في علم الحقيقة ، وأنت أعلم منه في علم الشريعة ، ينبغي أن تقول : أنا في هذا العلم ، قد علمني ربي ، هذا ما ورد في بعض الأحاديث أن الله عز وجل أراد أن يُعلمه ، وأن يُعَلمه أن في الأرض عبداً صالحاً آتاه الله رحمة من لدنه ، وعلمه من لدنه علما هو أعلم منك .

فما كان من هذا النبي العظيم إلا أن سأل الله عز وجل : يا رب ، كيف ألتقي به حتى أتعلم منه ؟

بداية القصة : خروج موسى مع فتاه طلبًا للقاء الخضر :

الآن بدأت القصة :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ)

فتاه ؛ أي فتى صاحب سيدنا موسى ، ليتعلم منه ، وليخدمه ، فكان في الوقت نفسه خادماً ومتعلماً .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً)

لا أبرح أسير إلى أن أصل إلى مكان حدده الله عز وجل ، حينما أوحى الله إلى سيدنا موسى قال : يا موسى تلتقي مع الخضر ، مع هذا العبد الصالح في مجمع البحرين ، وما دام الله عز وجل قد أخبر سيدنا موسى أن هذا العبد الصالح يراه في مجمع البحرين ، عندئذٍ قال هذا النبي العظيم : لا أبرح ، أمشي ، وأبحث ، وأسير .

(حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ)

وإن لم أبلغ هذا المجمع :

(أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً)

سأسير حقباً طويلة ، سنوات وسنوات ، إلى أن ألتقي بهذا العبد الصالح .

من دلالات خروج موسى للقاء الخضر : فضل العلم :

انظروا أيها الإخوة ، كم هو ثمين هذا العلم في نظر هذا النبي العظيم ، أحدنا يصرف نفسه عن حضور مجالس العلم لسبب تافه جداً ، يقول : عندي موسم ، أو زارني ضيف ، فهو لسبب تافه يصرف نفسه عن حضور مجالس العلم التي هي مجالس الذكر .

وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يذكرون الله فيه إلا غشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، وما اجتمع قوم في مجلس فلم يذكروا الله فيه إلا قاموا عن أنتن من جيفة .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً)

وكانت علامة هذا المكان فيما أوحى الله لهذا النبي العظيم أن يفتقدا حوتاً لهما كانا قد أعداه للطعام ، إذا افتقداه في مكان ما ، فهذا المكان مكان اللقاء بالعبد الصالح .

معنى : مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا)

المعنى الأول :

يعني مجمع البحرين .

المعنى الثاني :

وبعضهم قال : مجمع البحرين يعني اجتماع بحري الشريعة والحقيقة ، هذا وجه من وجوه التسمية ، اجتماع بحري الشريعة والحقيقة .

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا)

كانا قد أعدا حوتاً ، وجهزاه للطعام ، ووضعاه في حقيبة إن صح التعبير ، ووضع هذا الحوت في مجمع البحرين ، وفي بعض الأقوال غير الثابتة أن مجمع البحرين مكان التقاء البحر الأحمر ، والبحر الأبيض المتوسط ، فهما مجمع البحرين .

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا)

نسي سيدنا موسى أن يتفقد الحوت ، ورأى فتاه من الحوت منظراً عجيباً نسي أن يخبر سيده موسى ، هذا الحوت .

(فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً)

معنى : فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا

المعنى الأول :

قال بعض المفسرين : " هذا الحوت وقع في البحر " .

المعنى الثاني :

وقال بعضهم : " كانت معجزة أن عادت له الحياة فسقط في البحر ، وعاش فيه ، رأى الفتى الذي رافق سيدنا موسى هذا المنظر فالحوت ، فإما أنه وقع في البحر ، أو أنه عادت له الحياة فوثب في البحر ".

(فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً)

وقد تكون عودة الحياة إلى الحوت ، ووثوبه إلى مياه البحر أيضاً علامة من علامات اللقاء مع العبد الصالح .

(فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا)

أنساهما الله عز وجل سقوط الحوت في البحر .

من استنباطات الآية :

الاستنباط الأول : إعداد الزاد للسفر :

لذلك استنبط العلماء أنه يجوز ، بل يندب لمن أراد السفر أن يعد الزاد ، وليس في إعداد الزاد تناقضاً مع التوكل ، اعقل وتوكل ، واستنبط العلماء أيضاً وجوب الرحلة في طلب العلم ، كيف أن هذا النبي العظيم قال :

(لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً)

أراد أن يصل ، أن يسافر من أجل لقاء هذا النبي العظيم .

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً)

الاستنباط الثاني : المشقة في طلب العلم :

يعني تعبا ، تعبنا أين الطعام يا فتى ؟ عندئذ تذكر هذا الفتى أن الحوت الذي قد أعداه للطعام سقط في البحر .

(فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً)

كيف اتخذ الحوت سبيله في البحر سربا ؟!!!

ليس في الآية قرينة على أن الحياة قد عادت له ، لكن هناك آية تالية تشير من طرف خفي إلى أن هناك شيئاً عجيباً ، كيف وقع هذا الحوت في البحر ، من هنا استنبط العلماء أنه ربما عادت الحياة إلى الحوت بعد شيِّه ، ووثب في البحر .

قال الغلام :

(قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً)

كيف اتخذ الحوت سبيله في البحر عجبًا ؟!!!

واتخذ الحوت سبيله في البحر عجبا ، هناك شيء عجيب ، وخارق للعادة ، أن حوتاً مشوياً ، أي سمكةً مشويةً تعود لها الحياة ، وتثب في البحر ، والله أعلم ما إذا كانت الحياة قد عادت لها أو لم تعد ، لكن الشيء الثابت أن الحوت قد اتخذ سبيله في البحر ، عندئذ عرف سيدنا موسى أن هذا المكان الذي نسيا فيه الحوت هو مجمع البحرين ، وهو مكان اللقاء المنتظر .

(قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ)

فقدان الحوت أمارة مكان اللقاء :

ذلك ما كنا نبتغي من هذا السفر الطويل ، وهذا هو الهدف ، لأن المكان الذي افتقدنا فيه الحوت هو مكان اللقاء كما أخبره الله بالوحي .

(قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً)

بعد أن قطعا يوماً وليلة بعيداً عن مجمع البحرين ، وعن مكان سقوط الحوت في البحر ، ارتدا ، وعكفا راجعين إلى مكان افتقاد الحوت ، لأن هذا المكان هو مكان اللقاء المنتظر الذي يحرص عليه

سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وكما وعده الله عز وجل ، وكما أوحى إليه في هذا المكان مكان افتقاد الحوت ، مجمع البحرين .

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا)

العبودية أعلى مرتبة للإنسان :

أعلى مرتبة ينالها الإنسان في الحياة الدنيا أن يكون عبداً لله ، وأن تتحقق فيه العبودية لله عز وجل ، والعبودية معرفة يقينية ، تفضي إلى طاعة طوعية ، تنتهي إلى سعادة أبدية ، معرفة يقينية ، فطاعة طوعية ، فسعادة أبدية .

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً)

كيف تكسب العلم ؟

العلم يكتسب بالمدارسة ، والمطالعة ، وحضور مجالس العلم ، والتأمل ، والتفكر ، فإذا حاز الإنسان العلم بالأسباب فهذا العلم الذي نعرفه جميعاً ، أما العلم الذي يحوزه الإنسان من دون أسباب أرضية هو العلم اللدني ، فهذا العبد الصالح ، آتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علما .

هل الخضر عليه السلام نبيٌّ ؟

هناك إشارات ، ودلالات كثيرة يقينية على أن سيدنا الخضر عليه السلام نبي ، إما أنه نبي مرسل ، أو غير مرسل ، هذا موضوع خلافي ، وبعض العلماء يظنونه ولياً ، فهو بين أن يكون ولياً ، أو نبياً مرسلاً ، أو نبياً غير مرسل ، هناك قرائن ستأتي بعد قليل تبين أن هذا الإنسان العبد الصالح كان نبياً .

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ مُوسَى)

مِن آداب طالب العلم : التواضع والأدب مع الشيخ :

بأدب جم ، نبيٌ مرسل ، ومع ذلك يتأدب مع من أعلمه الله أنه أعلم منه ، وفوق كل ذي علمٍ عليم ، والأدب مع من يعلمك من لوازم التعليم ، وقد قال بعض العلماء لبعض الطلبة : يا بني نحن إلى أدبك أحوج منا إلى علمك .

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ)

الاستفهام فيه أدب ؟ هل تسمح لي بالتعلم ، الاستفهام فيه أدب ، ولم يقل : أنا سأتبعك ، فيجب أن تعلمني .

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً)

فقال سيدنا الخضر :

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

يبدو أن سيدنا الخضر يعلم أن سيدنا موسى لا يصبر عليه ، وأنه عالم بالشريعة ، وأن الأفعال التي سوف يفعلها هذا العبد الصالح ربما لا تفسر في ضوء الشريعة ، هل في الشريعة أمر أن تقتل غلاماً بلا سبب ، حاشا لله ، هذا لا يتوافق مع الشريعة ، فقال له :

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

علمك الشرعي لا يسمح لك بتفسير أعمالي ، ومزاجك العصبي لا يسمح لك بالصبر .

ورد في بعض الكتب عن الشيخ محي الدين أن سيدنا الخضر قد أعد لهذا النبي العظيم ألف مسألة ، فلما كانت الثالثة فقد سيدنا موسى صبره ، عندها قال عليه الصلاة والسلام :

((يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى ، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا))

[البخاري ومسلم عن أبي بن كعب]

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

لم يقل : إنك لن تستطيع معي كمال الصبر ، بل قال : صبرا ، على التنكير ، أي ولا تستطيع حتى الجزء البسيط من الصبر ، ثم بيّن العلة :

(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً)

بيان علة عدم صبر موسى :

يتناقض العمل في ظاهره مع الشريعة ، وأنت عالم بالشريعة ، وأنا عالم بالحقيقة ، هناك تناقض بيني وبينك .

(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً)

ما كان من هذا النبي الكريم إلا أن أظهر الجلد ، والصبر ، والعزيمة على متابعة هذا العبد الصالح كي يتعلم منه ، فقال :

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً)

انظر إلى الأدب مع الله عز وجل ، الاستثناء ، إن شاء الله .

من استنباطات الآية : الصبر على طلب العلم :

استنبط العلماء من هذه القصة أنه ينبغي على الذي يحضر مجالس العلم أن يصبر ، وألا يعترض ، وأن يتأدب .

(وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي)

شرط الخضر في قبول اتباع موسى له :

شرط :

(فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً)

انظر واسكت ، اتبعني ولا تعترض ، ولا تبادر بالسؤال ، فأنا سأخبرك عن كل شيء .

(فَانْطَلَقَا)

انطلقا ليعرفا الحقيقة ، وبعضهم قال : انطلقا من عقال المادة .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا)

خبرُ ركوبِ موسى مع الخضر السفينة :

تروي بعض الكتب أنهما ركبا في سفينة لمساكين ، لأناس فقراء ، وأن عصفورين وقفا على طرف السفينة ، وغمسا منقاريهما في الماء غمستين ، فقال الخضر لسيدنا موسى : ما علمي وعلمك في علم الله إلا كهاتين النقرتين في البحر ، أي بماذا يرجع هذا العصفور إذا غمس منقاره في البحر ؟ ما علمي وعلمك في جانب علم الله عز وجل ، إلا كهاتين النقرتين في البحر .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا)

من استنباطات الآية : جواز ركوب البحر :

واستنبط العلماء من هذه الآية جواز ركوب البحر .

خرق الخضر للسفينة وإنكار موسى عليه :

خرقها ، أي أمسك بقدوم ، وقلع من جدار السفينة لوحاً خشبياً ، وهذا عمل غير منطقي ، وغير معقول، بالإضافة إلى أن صاحب السفينة رفض أن يأخذ منهما أجرة نوالاً ، أركبهما ضيافة بلا نوال ، وفوق هذا العمل الطيب ، والضيافة الكريمة جاء الخضر عليه السلام ، وأمسك قدوماً ، وكسر أحد ألواح السفينة ، واقتلعه ، فقد سيدنا موسى صوابه ، وقال :

(قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً)

هذا عمل غير صحيح ، ماذا فعل معك صاحب السفينة ؟ أهكذا تكافئه على عمله الطيب ؟ استنبط العلماء هنا أن سيدنا موسى لم يقل هذا بدافع من حرص على حياته ، لا ، نسي نفسه قال :

(قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا)

هذا العمل لا يمكن أن يقبل ، دعاك إنسان مسكين فقير إلى ركوب السفينة بلا مقابل ، وهو يكتسب من هذه السفينة ، ثم تخرقها له .

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً)

إمراً أي فظيعاً ، غريباً ، غير مقبول ، قال :

(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

تذكير الخضر موسى بعدم صبره وشرطه عليه :

لقد قلت لك : إنك لن تستطيع معي صبرا ، لأن الأعمال التي أعملها ، ليست خاضعة لعلم الشريعة ، إنما هي خاضعة لعلم الحقيقة ، أنت عالم بالشريعة ، وأنا عالم بالحقيقة .

تذكر الوعد ، والاتفاق ، والعهد حين قال له الخضر عليه السلام :

(قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً)

هنا قال : أنا تسرعت ، ومعك الحق .

(قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً)

هذا أول درس ، شيءٌ عجيب ، تركب سفينة بلا نوال ، بلا مقابل ، ودعاك أصحابها المساكين إلى ضيافة كريمة ، ثم تقابل هذا الإحسان بالإساءة .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ)

قصة قتل الخضر للغلام :

تذكر الكتب أنه كان هناك غلمان يلعبون ، وبينهم غلام جميل جداً ، نظيف وهادئ ، فأخذه الخضر ، وذبحه ذبح النعاج ، فتفرق الأطفال من حوله ، وفزعوا ، عندئذ اشتد لسيدنا موسى الغضب وقال :

(قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ)

إنكار موسى على الخضر قتله للغلام :

لا بد أن يكون القتل قصاصاً ، نفسٌ بنفسٍ ، هذه جريمة ، ماذا فعل معك هذا الغلام ؟

(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

مخالفة موسى لشرطه وتذكير الخض ر له به :

هذه مرة ثانية ، خرجت عن صوابك مرة ثانية ، تذكر هذا النبي العظيم أنه خالف العهد ، وخالف الاتفاق .

(قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً)

ليس لي عذر في المرة الثالثة .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ)

دخول موسى مع الخضر القرية وطلبهما الاستضافة :

كانا جائعين جداً ، وقال العلماء : يجوز لصاحب الحاجة أن يطالب بما يسدها .

(اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا)

كانوا أهل قرية بخلاء لؤماء .

(اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا)

امتناع أهل القرية من ضيافة الخضر وموسى :

امتنعوا عن إطعامهم ، نظر سيدنا موسى والخضر عليهما السلام إلى جدار عظيم كاد يتداعى .

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)

إقامة الخضر للجدار المائل وطلب موسى منه أخذ الأجر :

فشمرا عن ساعد الجد ، وبنيا هذا الجدار ، هذا موقف غريب ، في الموقفين الأولين ، عمل منكر ، أما هنا فقد رفض أهل القرية اللؤماء ، البخلاء الأشحاء أن يطعمونا الطعام ، وتبني لهم جداراً بلا مقابل ، ما هذا التناقض ؟ كأن الله عز وجل يريد أن يقول لنا : تصرفات الله عز وجل لها حكمة بالغة ، لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع ، قال : نحن جائعون :

(قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً)

فنشتري طعاماً فنأكل .

(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ)

هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ

قال بعض العلماء : مقابلة الإساءة بالإحسان وارد في علم الشريعة ، فلماذا خالفت يا موسى شريعتك ؟ لماذا اعترضت عليه ؟ ولقد بنيت الجدار رداً على الإساءة ، قتل غلام بغير نفسٍ هذا خلاف علم الشريعة ، وخرق سفينة مقابل ضيافة كريمة ، فهذا خلاف علم الشريعة ، ولكن أن نرد على الإساءة بالإحسان فهذا من علم الشريعة .

ألم تسق للمرأتين في مدين بلا مقابل ؟ كيف تلومني على بناء هذا الجدار ؟ لأن أهل هذه القرية أساؤوا إلينا ، وأنت نفسك سقيت لامرأتين في مدين من دون مقابل .

(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ)

مواقف موسى مع الخضر :

ثلاثة مواقف ، خرق سفينة ، وقتل غلامٍ ، وبناء جدارٍ .

الأول :

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً)

والثاني :

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً)

والثالث :

(قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً)

(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً)

ما يقاس على القصص الثلاث الواردة في سورة الكهف :

استمعوا أيها الإخوة الأكارم ؛ هذه القصص الثلاث ينبغي أن يقاس عليها كل شيءٍ يقع في الأرض .

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

***

و لرُبَّ نازلةٍ يضيق لها الفتى ذرعاً وعند اللهِ منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت و كنت أظنها لا تفرجُ

***

كن عن همومك معرضاً كل الأمور إلى القضا
و بشر بخيرٍ عاجلٍ تنسى به ما قد مضى
فيا رب أمر مسخط لك في عواقبه رضى
ويا ربما ضاق المضيق و لا ربما تسع الفضا
الله يفعل ما يشاء فلا تكن معترضا
الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى

قال :

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ)

تفسيرات وحجج الخضر في أفعاله التي أنكرها موسى عليه :

إن هؤلاء الناس مساكين ، مع أنهم يملكون سفينة ، ذلك لأنهم عيشون من دخلِها ، وإذا ملك إنسان بيتاً يسكنه فهو مستهلكه .

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا)

حجة إغراق السفينة :

أردت أن أجعل فيها عيباً .

(أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً)

كان الملك يُصادر كل سفينة أعجبته ، ويأخذها غصباً ، فحينما خرقتُها فوّتُ على الملك مصادرتها ، وأبقيتها لأصحابها ، يقتاتون من دخلها ، فما قولك ؟ أين الحمق ، والغضب ؟ هكذا يفعل الله عز وجل .

أحياناً يلغى إيفاد الطالب إلى أوربا لعلامة واحدة ، فيغضب ، ويزمجر ، جعلتك هذه العلامة تبقى في بلدك ، ويبقى لك دينك ، لا تغضب ، فلكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأحياناً يفسخ عقد الزواج لسبب تافه ، فقد يكون في هذه الزوجة الدمار والشقاء ، لا تغضب إذا جاءت الأمور كما تشتهي ، فقل : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإن جاءت على خلاف ما تشتهي ، فقل : الحمد لله على كل حال .

(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ)

حجة قتل الغلام :

كان أبواه متعلقين به تعلقاً شديداً ، وكانا مؤمنين ، فإذا كبر هذا الغلام وصار كافراً ، وتعلق الأب والأم بابنهما الكافر فربما يهلكهما مع هلاكه .

وهذا يؤكد علم الله بما سيكون ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، وعلم الله قديم ، ليس علماً كسبياً كعلم البشر ، فالإنسان بدون شك مخير ، والله يعلم بلا كيف ما في هذا من شك ، وعلم الله لا يؤثر في اختيار الإنسان .

(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً)

أبدلهما الله عز وجل غلاماً مؤمناً طاهراً ، فإذا حدث التعلق به كان التعلق صحيحاً وسليماً .

(وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً)

حجة إقامة الجدار :

قال : يا عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ، قال : يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي بأنك خير حافظاً ، وأنت أرحم الراحمين ، قال : يا عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك ، وكان أبوهما صالحا ، الأبوة الصالحة تعود بالخير على البنوة الصالحة ، فهذا الأب الصالح استحق أن يطمئن على ولديه اليتيمين ، وأنهما سيأخذان الكنز الذي خبأه لهما تحت الجدار ، وحيث إن الجدار كان على وشك الوقوع جاء هذا العبد الصالح ، وبنى هذا الجدار بلا مقابل .

(وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)

هنا الدقة :

(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)

دليل نبوة الخضر عليه السلام : وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي

ليس في علم الشريعة كلها أن تقتل غلاماً لعلمك بأنه سيكون كافراً ، من هنا استنبط العلماء أن العبد الصالح سيدنا الخضر هو نبي ، لأن خواطر الأولياء ليست معصومة ، لابد أن الله أوحى إليه بقتل هذا الغلام ، ولا يمكن أن يقبل قتلٌ بخاطر ، الولي يأتيه خاطر ، أما النبي فيأتيه الوحي ، فقتل نفس زكية لا يمكن أن يكون بخاطر من ولي ، بل لا بد أن يكون وحياً من نبي ، هذا يؤكد أن سيدنا الخضر نبي من عند الله .

(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ)

الأولى : تستطيع ، كان متألماً جداً ، أما الثانية هدأت نفسه بعد أن عرف التأويل .

(ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً)

ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك :

يجب أن تكون هذه القصص الثلاث في ذهن كل منا ، لأن الإنسان أحياناً يواجه عقبات ، ومشكلات ، وضغوطاً ، أحياناً يحرمه الله الولد ، أو يحرمه الله الذكور ، أو تأتيه زوجة مشاكسة ، أو يكون دخله قليلاً ، لا تخلو حياة المؤمن من عقبات ، وأزمات .

لذلك جاء في الحديث الشريف : أن الله عز وجل أوحى إلى الدنيا أن تكدري وتمرري ، وتضيقي ، وتشددي ، على أوليائي حتى يحبوا لقائي ، هذا فعل الله عز وجل ، أكرم الأبوين ، وأكرم أصحاب السفينة ، وأكرم الغلامين اليتيمين ، أعماله كلها إكرام .

لذلك جاء في بعض الأحاديث الشريفة : الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن ، وأما هذه القصص الثلاث فهي تفسير للقضاء والقدر .

قال عليه الصلاة والسلام :

((كل شيء بقضاء من الله وقدر))

[ورد في الأثر]

والله سبحانه وتعالى لا يقضي إلا بالخير ، قد يكون الخير ظاهراً ، وقد يكون غير ظاهر ، وهنا معنى قوله تعالى :

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان : 20)

النعم الظاهرة ؛ هي النعم الظاهرة ، والنعم الباطنة ؛ هي المصائب ، فكم من مصيبة غيرت مجرى حياة الإنسان ، من الضياع إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى النعيم ، ومن المعصية إلى الطاعة ، وكم من مصيبة حملت صاحبها على الطاعة .

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى : 30)

ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدمت أيديكم ، ويوم القيامة يكشف الغطاء .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

عندئذٍ تعرف الحقيقة على ما هي عليه ، لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع .

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس : 10)

ما منكم واحد إلا ويعاني بعض المشكلات ، هذه القصة إجابة شافية كل المشكلات التي يعانيها المؤمن، إنها مشكلات في ظاهرها ، ومعالجات في باطنها ، إنها مشكلات في ظاهرها ، وإكرام إلهي في حقيقتها .

الشيء الذي يلفت النظر في هذه الآيات أن سيدنا الخضر على علم بالشريعة ، لذلك قال :

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

وسيدنا موسى على علم بالحقيقة ، ولكنه بالشريعة أعلم ، وسيدنا الخضر بالحقيقة أعلم ، وما هذا اللقاء إلا لقاء بحرين في العلم .

علم الشريعة ... وعلم الحقيقة ...

علم الشريعة المنهج الدقيق الذي يجب أن تسير عليه أفعال الإنسان المكلف ، وعلم الحقيقة تفسير لفعل الله عز وجل الذي لا ينطوي إلا على الرحمة ، والعدل ، واللطف ، والخير .

بقيت قصة أخيرة ، هي قصة ذي القرنين ، وفيها فوائد واستنباطات نأخذها إن شاء الله في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 83 – 110 ، قصة ذي القرنين لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-12-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن من دروس التفسير من سورة الكهف ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قصة ذي القرنين ، وقد قال الله سبحانه وتعالى :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً)

قصة ذي القرنين :

فائدة كلمة قل بعد الاستفهام :

حول كلمة(قل)في هذه الآية موضوع طيب ، حيث جاء في أكثر من عشر آيات قوله تعالى : (قُل)في جواب يسألونك :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة : 222)

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة : 189)

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

(سورة البقرة : 219)

إلا في آية واحدة :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة : 186)

فليس فيها (قل)، بمعنى أنه ليس هناك وسيط بين العبد وربه ، فأي عبد ، من أي عرق ، أو جنس ، أو لون ، أو منبت ، أو أمة ، غنياً كان أو فقيراً ، قوياً أو ضعيفاً ، إذا قال : يا رب يجيبه الله عز وجل : لبيك يا عبد ، وهذا يُذكرُنا بقولهِ تعالى :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ)

هنا :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)

سؤال المشركين النبيَّ عليه الصلاة والسلام عن ذي القرنين :

يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل عن ذي القرنين ، فأجاب الله سبحانه وتعالى بهذه القصة ، ولكن هناك ملاحظة قيمة جداً ، هو أنَّ كتاب الله عز وجل ، ليس كتاب تاريخ ، بمعنى أنَّ المقصود منه ليسَ ذِكْر الوقائع والحوادث ، والأسماء ، والأماكن ، والأزمنة .

إن من صفات كتاب التاريخ التحديد ، أي تحديد المكان ، والزمان ، وتحديد الواقعة ، أسبابها ، وأحداثها ، ونتائجها ، ولو أنَّ هذا الكتاب كتاب تاريخ لافتقرت هذه القصة إلى أشياء كثيرة ، ولكن هذا الكتاب كتاب هداية وإرشاد ، فالأحداث التاريخية ليست معنية في هذه القصة .

مَن هو ذو القرنين ؟

من هو ذو القرنين ؟ قال بعضهم : هو الإسكندر المقدوني ، وبعضهم قال : الإسكندر ، باني الإسكندرية ، وقال بعضهم : هو شخص غير هذا ، الحقيقة لا يعنينا من هو ذو القرنين أبداً ، ولكن تعنينا صفاته ، أمّا الخوض في موضوع من هو ذو القرنيين ، وأي ملك كان ، وفي أي عصر ولد ، وأي بلاد فتح ، هذه الأسئلة التي تتبادر إلى الذهن حينما نقرأ هذه القصة أسئلة لا مسوغ لها ، لأن الكتاب كتاب هداية وإرشاد إلى رب العباد ، وليس كتاب تاريخ ، نقرأ القصة لنستمتع بها ، عندئذ نجد في نفوسنا شوقاً إلى معرفة ملابساتها ، وأحداثها ، وتفصيلاتها

سبب تسميت ذي القرنين :

الرأي الأول :

وقد قيل حول سبب تسميته بذي القرنين على أوجه الأقوال ، أنهُ سُميَّ كذلك لأنه وصل إلى مشرق الأرض ومغربها ، فله طموح كبير جداً .

الرأي الثاني :

وبعضهم يقول : كان له ذؤابتان ؛ كالقرنيين ، لكن التفسير الأول أوجه ، ملك استطاع أن يجوب أقطار الأرض فيصل إلى مغرب الشمس ومشرقها ، إذاً هو ذو القرنين .

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً)

معنى : مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ

بعضهم قال : هناك استنباط دقيق ، الأقوياء في الأرض ليسوا أقوياء بذواتهم ، إنما هم أقوياء بتمكين الله لهم ، وهذا فضل من الله عز وجل ، فإذا شَعَرَ الإنسان بقوة مادية أو معنوية فهذا من باب التمكين ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)

(سورة النور : 55)

فذو القرنين رجل مكنه الله في الأرض ، ولكن هناك رجالاً كثيرين مكنّوا في الأرض ، هناك من فتح أوربا بأكملها ، ووصل إلى أعماق روسيا ، واحتل أسبانيا ، وهناك شخصيات في التاريخ ، استطاعت أن تبسط سلطانها على رقعة واسعة جداً من الأرض .

لكنَّ الله عز وجل في هذه القصة ، يرينا كيف يكون الملك الصالح ، فذو القرنين من خلال هذه القصة رجل صالح ، وملك صالح ، وفي بعض الأقوال الضعيفة هو نبي ، لأن الله عز وجل قال عن الأنبياء :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة غافر : 78)

أي من لم نقصص بأسمائهم .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً* إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً* فَأَتْبَعَ سَبَباً)

وقفة عند قوله : وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا

لا بد من وقفة حول هذه الكلمة :

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)

يقضي تصميم الله عز وجل للحياة ، هذا التصميم بأن لكل شيءٍ سبباً ، فإذا أردت أن تصل إلى شيءٍ ما ، فلا بد من اتخاذ الأسباب ، فالعلم له طريق ، والقوة لها طريق ، ورفعة الشأن في الناس لها طريق، والغنى له طريق ، والملك له طريق وأن تستحوذ على قلوب الناس له طريق ، فهناك طريق لأيّ شيء تُريدُه .

ربنا سبحانه وتعالى لم يخلق المحاصيل ، والخضار أكواماً على الأرض ، بل جعلها تُقطف ، وقبل أن تقطف تنضج ، وقبل أن تنضج تعقد ، وقبل أن تعقد تزهر ، وقبل أن تزهر تورق ، وقبل أن تورق تُسقى ، جعل تعالى لهذا النبات مراحل فأنتَ تحرث الأرض ، وتُسمّدها وتلقى البذرة فيها ، وتسكُب عليها الماء ، ثُمَّ ينبت الجذير ، والسويق ، والرشيم ، ثُمَّ تورق ، وتُزهر ، ثمَّ تنعقد الثمرة ، وتُثمر ، وتنضج ، ثُمَّ تُقطف .

لكل شيء سبب :

جعلَ الله سبحانه وتعالى لكلَّ شيء سبباً ، فإذا أردت أن تأكل القمح فلا بد أن تزرعه ، وإذا أردت أن تجني العسل فلا بد أن تربي النحل ، وأيُّ إنسان أراد أن يتجاوز الأسباب لقي الخيبة ، فمن أدبك مع الله عز وجل ، ومعرفتك بقواعد الخلق أن تتخذ الأسباب ، وبعدها تتوكل على رب الأرباب .

لقد تأخّرَ المسلمون حينما تركوا الأخذ بالأسباب ، وتواكلوا على الله تواكلاً لا توكلاً ، فهذه القصة ترينا أن ذا القرنين وصل إلى ما وصل إليه ، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ولمع ذكره ، وعلا نجمه ، وسطع اسمه بين الناس ، لا لأنه نام ، وقعد ، وخنع ، وكسل ، بل لأنه أخذ بالأسباب ، هذا هو المغزى .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ)

التمكين من الله عز وجل :

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَب)

آتيناه من كل شيء أراده سبباً له :

(سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

فأتبع الأسباب .

أراد سبباً لهذا الشيء ، فما كان منه ، إلا أن كان أديباً فأتبع هذه الأسباب ، يعني إذا أردت أن تُصبح غنياً ، فالغِنى له سبب ، وإذا أردتَ أن تحتلَّ مكانةً رفيعةً بينَ الناس ، فهذه لها سبب ، ولا بد من أن تقدم لهم شيئاً ، ولا بد أن تعطي أكثر من أن تأخذ ، فهناك سبب لكلِّ شيءٍ تريده في الحياة ، فإذا كنت عبداً واعياً ، أريباً ، تأخذ بالأسباب ، و بعدئذٍ يمكنك الله في الأرض ، أما أن تطلب التمكين فهذا من المستحيلات .

الابتلاء قبل التمكين :

ولذلك عندما سُئِل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : أندعو ربنا بالتمكين أم الابتلاء ، فما كان من هذا الإمام إلاَّ أن قال : لا يكون التمكين قبل الابتلاء .

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

والطلاب الذين يطمحون إذا صلوا في العام الدراسي أن تأتيهم الملائكة لتجيب عنهم ، وهذه خرافة وتدجيل ، فلابُدَّ أن تدرس دراسة جادة واعية من أجل أن تنال العلامات العالية في الامتحان ، والتاجر الذي يطمح أن يرزقه الله رزقاً كثيراً من تجارته لابد أن يأخذ بالأسباب ، هل اختار المحل المناسب ؟ هل اختار البضاعة المهمة ؟ هل عامل الناس بالحسنى ؟ هل كان سعره مدروساً ؟ وكل من يبتغي الأهداف بلا أسبابها أحمق غبي ، يريد أن يدخل البيوت من ظهورها .

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً)

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ

أي فتح البلاد ، ودانت له الأراضي الشاسعة حتى بلغت جيوشه مغرب الشمس ، وعقبة بن نافع الذي فتح البلاد غرباً إلى أن وصل إلى شاطئ البحر المحيط الأطلسي ، حيثُ نهاية البر ، وبعدها بداية البحر ، فكأن الآية تشير إلى أنه وصل إلى طرف البر من جهة الغرب .

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ)

أي أنَّ البلاد كانت حارة .

(وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

يبدو أن الله عزّ وجل منحَ هذا الملك الصالح الثِقة لورعهِ ، واستقامته وكماله وحرصه على العدالة .

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ)

ذو القرنين ليس نبيا على أرجح الأقوال :

وفي بعض الأدلة الضعيفة على أنَّه نبي ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى خاطبه :

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ)

قال تعالى :

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

(سورة ص : 35)

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

الحاكم الصالح رحمة على العباد :

إذا تولى الملك الصالح الأمور أعطى كل ذي حقٍ حقه ، يروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يمشي في أحد طرقات المدينة فوجدَ غلماناً يلعبون ، فلما رأوه وكان شديد الهيبة ، تفرقوا وولوا هاربين، إلا غلاماً واحداً بقي في مكانه ، جذب نظرَهُ هذا الموقف الجريء ، فقال أيها الغلام : لِمَ لم تهرب مع من هرب ؟ قال يا أيها الأمير : لست ظالماً فأخشى ظلمك ، ولست مذنباً فأخشى عقابك ، والطريق يسعني ويسعك .

فهذا ذو القرنين مكنَّ الله له في الأرض ، وأعانَهُ على فتح هذه البلاد الغربية ، لعلمهِ بالله سبحانه وتعالى ، وبحرصه على أداء الحقوق ، وعلى إقامة العدل .

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ)

أنت مطلق اليد .

(إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

فما كان من ذي القرنين إلا أن قال :

(قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً *وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً)

أي حينما أطلق الله يده ، ما كان منه إلا أن طبق العدل .

من الحكمة مراعاة جانب العدل :

وهذا درس لنا ، فمثلاً لا أحد يسأل الأب في البيت ، ولكنه ينبغي أن يراعي جانب العدل ، قد تكون امرأته ضعيفةً ، لا أهل لها ، فلا ينبغي أن يستطيل عليها ، إذا مكّنَ الله إنساناً في بيته لا ينبغي أن يحيف عن الحق ، وأن يتجاوز حقوق الآخرين ، أو المُعلّم في صف طُلاب صِغار ينبغي ألا تضربهم جميعاً في ساعة غضب ، إذا مكنَّهُ الله من هؤلاء الطلاب ، أو مدير دائِرة لو مكنّهُ الله من بضعة موظفين ينبغي أن لا يستطيل عليهم بقوته .

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ)

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

ما كان منه إلا أن وقف إلى جانب العدل .

(أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا)

الظالم نعذبه في الدنيا ، وله في الآخرة من الله عذاب أليم .

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

أمّا المؤمن فنُحسِنُ إليه ، ونجعل قولنا له طيباً مستساغاً ، حسناً ، قال بعضهم عن ذي القرنين : فقد قُصَّ علينا من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطلعها ، وشمالها ، وعدم فتوره ، ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار ، وتجسم الأخطار ، وركوب البحار ، ثم إحرازه هذا الفخار الذي لا يشق له غبار ، وهذا أكبر عبرة لأولي الأبصار ، كانَ رجلاً طموحاً ، ولكن طموحه لم يُخرجُهُ عن العدل ، كما قام بإعداد العدد ، والجيوش ، والرجال ، والأسلحة ، لتخطي المسافات ، واحتلال البلاد ، وإقامة العدل، وهذا عمل عظيم .

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً)

توجّه ذي القرنين إلى بلاد أخرى :

لما بلغ مغرب الشمس ، ودانت له هذه البلاد ، وخضعت ، وأقام فيها العدل توجه إلى بلادٍ أخرى ، عاد إلى بلاد المشرق .

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً)

معنى : لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا

أي أنَّ بلادهم منبسطة ، ليست فيها تلال ، ولا جبال ، ولا تضاريس ، فهيَ بلاد منبسطة ، وأنت ترى الشمسَ في بعض السهول ساعة إشراقها ، وساعة غروبها .

(لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً)

أي أحطنا بكل وسائله ، وإمكاناته ، والعدد التي أعدها ، وبكل الرجال الذين أهلهم .

(وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ)

وصل إلى مكانٍ بين جبلين .

(وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً)

قصة الخضر مع أصحاب الجبلين :

وجدَ قوماً متخلفين ، بعيدين عن الحضارة ، والعلم والقيّم .

(لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا)

وفي بعض التفاسير : لهم لغة غريبة لا يفهمونها .

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً)

يبدو أيضاً من خلال هذه القصة أنهُ احتل البلاد من المشرق إلى المغرب ، وأقام فيها العدل ، ثم توجه نحو الشمال ، حيث رأى جبلين بينهما قومٌ .

(لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا)

قال هذا القوم :

من هم يأجوج ومأجوج المفسدون ؟

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ)

اسم لقوم ، أو اسم لقومين ، على اختلاف الأقوال .

(مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ)

قالوا : إنَّ هؤلاء أي يأجوج ومأجوج القوم متصارعون ، متحاربون ، أشرار ، مفسدون معتدون يأتون إلينا ، و يقتلون أبناءنا ، وينهبون ثروتنا ، و يأخذون محاصيلنا ، فهل لك أن تقيم حاجزاً بيننا وبين هؤلاء .

طلب أصحاب الجبلين من ذي القرنين ببناء سور :

(إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا)

هل تقبل أن نعطيك مالاً وفيراً ، في نظير أن تقيم سداً حاجزاً بين الجبلين لتمنع هذه الغزوات .

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

موقف ذي القرنين :

الموقف الأول لهذا الملك الصالح : إقامة العدل .

والموقف الثاني : ترفعه عن أموال الناس .

فقال :

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً)

يُغنيني ما أعطاني ربي من ملك ، وسلطان ، ومال ، ولست بحاجة إلى أموالكم ، ولا أريد أن أرهقكم .

(قَالَ مَا مَكَّنَنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ)

هذه الصفة الثانية : الترفع عن أموال الناس ، لكنني بحاجة إلى يد عاملة .

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)

أعينوني بقوة سواعدكم ، وقوة المواد التي عندكم ، حتى أبني لكم هذا السد ، وأحميكم من عدوكم المفسد .

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً)

بداية بناء ذي القرنين للسور :

القطر ؛ هو النحاس ، يبدو أن هذا السد بني من المواد التي يبنى منها البناء عادةً ، مع الحديد الذي أذيب عليه النحاس ، فهو في منتهى القوة ، لأنه من مواد متماسكة ، مسلحة بالحديد ، مصانة بالنحاس فكان بناء السد عندئذٍ حكيماً .

(فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً)

عجز يأجوج ومأجوج من تجاوز السور :

لم يتمكنوا أن يصعدوا إليه ، لشدة ارتفاعه ، وكونه أملس ، ولم يتمكنوا من خرقه لشدة متانته ، أي أنه كان مرتفعاً ، أملس ، ومتيناً .

(فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا)

ماذا قال بعد أن بنى هذا السد العظيم ؟

(قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)

هذه صفة ثالثة : التواضع ... والتوحيد ...

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)

إذا قيس هذا السد الذي بني بين الجبلين بقدرة الله فهو شيء تافه ، فإذا شاء الله عز وجل جعله دكاً . فالإنسان المؤمن متواضعٌ دائماً ، يرى حجمه الحقيقي ، لا يضخم حجمه إلى درجة أن ينسى معها قدرة الله عز وجل ،

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)

المواعظ المستنبطة من القصة :

تحوي القصة مجموعة مواعظ .

الموعظة الأولى : الأخذ بالأسباب :

الموعظة الأولى التي أرادها الله عز وجل هي أن على الإنسان إذا أراد شيئاً أن يأخذ بأسبابه ، هذا - هو الدرس الأول :

لا نستطيع أن نصل إلى أهدافنا إلا إذا أخذنا بالأسباب .

لا نستطيع أن نرقى إلا إذا أخذنا بالأسباب .

لا نستطيع أن نكتفي إلا إذا أخذنا بالأسباب .

لا يزدهر شيء إلا إذا أخـذنا بالأسباب .

لا نقوى على عدونا إلا إذا أخذنا بالأسباب .

لا نرقى في ميدان العلم إلا إذا أخذنا بالأسباب .

فطرق الرقي كلها مسدودة إلا إذا أخذنا بالأسباب .

هذا هو الدرس الأول .

تريد أن تتعلم يجب أن تأخذ بالأسباب .

تريد أن يرتفع دخلك يجب أن تأخذ بالأسباب .

تريد أن تروج تجارتك فيجب أن تأخذ بالأسباب .

تريد أن تروج بضاعتك التي تصنعها إذا كان عِندكَ معمل فيجب أن تأخذ بالأسباب .

تريد أن تأخذ أعلى محصول زراعي فيجب أن تأخذ بالأسباب .

هذا هو الدرس الأول .

خذ الأسباب وتوكل على رب الأرباب .

الموعظة الثانية : لطموح :

- الدرس الثاني من هذه القصة :

هو أنَّ هذا الملك الصالح ذا القرنين كان طموحاً إلى درجة أنه حكم مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يمنعه هذا المجد ، وهذه القوة ، وهذا التمكين ، وهذا الاتساع ، وهذا المال الوفير من أن يكون مؤمناً ، متواضعاً يقيم العدل ، ويبغي الخير ، ويُعطي كُلَّ ذي حقٍ حقه ،ويقهر الظالم ، ويعين المظلوم ، ويعطي المسكين والفقير ، ويجازي المحسن ، ويعاقب المسيء .

فالقوة الكبيرة ، واتساع رقعة البلاد ، لا تمنع من إقامة العدل ، وهذا مثل للملك الصالح ، والترّفع عن أموال الناس ، حيثُ عُرِضَ عليه مال وفير ، ومع ذلك رَفَضَ وقالَ : لا .

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ)

إذا كنت مكتفياً ، وكلفت أن تدير مال اليتيم ، ترفع عن نصيبك وعن أجرك ، وإذا رأيت ذا حاجة ، وكُنتَ مكتفيّاً فترفع عن أخذ الأجر ، واحتسب هذا لوجه الله عز وجل .

الموعظة الثالثة :

أنه حينما حقق هذا الإنجاز الكبير ما زاده هذا الإنجاز إلا تواضعاً وانكساراً لله عز وجل ، وتأدباً معه.

(قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي)

عرف حجمه أمام قدرة الله عز وجل .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً)

(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً)

وفي النهاية :

هؤلاء الذين عاشوا في مشارق الأرض ، والذين عاشوا في مغاربها ، وهؤلاء المفسدون يأجوج ومأجوج ، وهؤلاء الضعاف المتخلفون الذين بنوا سداً حماهم من هجماتهم ، هؤلاء جميعاً جمعناهم يوم القيامة ليلقوا جزاء عملهم .

(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً)

عرض الله جهنمَ بارزةً :

عرضت جهنم بارزةً أمام الناس .

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً)

إياكم والغفلة فإنها البلاء الأعظم :

الكافرون هم الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري فهذه الحقيقة الكبرى في الحياة ، حقيقة الدين ، حقيقة الله عز وجل ، لِمَ خلقنا ؟ لِمَ جيءَ بنا إلى الدنيا ؟ ما الهدف من وجودنا على وجه الأرض ؟ أين المصير ؟ ماذا بعد الموت ؟ ما قيمة العمل الصالح ؟ ما معنى الاستقامة على أمر الله ؟ كيف نعرف الله؟ كانوا في غفلة عن هذه الحقائق الكبرى التي لابد منها .

لِكُلٍّ منا ساحة في نفسه ، فما الذي يشغلها ؟ قد تنشغل هذه الساحة بجمع المال ، فالمال أصبح حجاباً بينك وبين الله ، وقد تنشغل هذه الساحة ببعض الشهوات ، فالشهوات حجاب بينك وبين الله .

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

ما ذكروا ربهم ، ولا استمعوا إلى الحق ، فإما أن تفكر وتتأمل وتُدقق ، وتُحقق ، وتدرس ، وإما أن تستمع ، أمّا لا هذه ، ولا تلك !!!

أضعف الإيمان أن تداوم على مجلس علم ، فتستمع ، كيف يفسر القرآن ؟ ما جدوى هذه الحياة ؟ إلى أين المصير ؟ استمع ، افهم كلام الله ، افهم سنة رسول الله ، افهم أحكام الفقه ، اقرأ القرآن .

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

لم يخلقهم الله ، وهم لا يستطيعون سمعاً ، ولكن انغماسهم في الشهوة جعلهم لا يستطيعون ، أي أنَّ هذه الشهوات حالت بينهم وبين أن يسمعوا .

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً)

الوَلاية لله الحق :

ما البديل إذا أدارَ إنسان ظهره للدين ؟ إذا كان البديل أن تتخذ أناساً من دون الله تُرضيهم ، وتخدمهُم ، وتُسبّح بحمدِهم فهذا هو الخطأ الكبير ، وفيه الخيبة الكبيرة مهما كان شأنُ هؤلاء الناس كبيراً .

إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً

أي هذه جهنم سوف تحتوي على هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء بديلاً لهم عن الدين .

ويا أيها الإخوة المؤمنون ، الآيات التالية تقصم الظهر ، قال تعالى :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً)

من هم الأخسرون أعمالا ؟!

الأخسرون اسم تفضيل ، أي أشد الناس خسارةً يوم القيامة ، لو أن إنساناً أتلف ماله كله ، أو أخذت كل أمواله منه لا يسمى خاسراً ، لأنه يملك نفسه .

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

هم الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا :

من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتّبعوه .

ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلّموه .

ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ، فهذا شيطان فاحذروه .

فهؤلاء على الرغم من أنهم قد تاهوا ، وشردوا وضلوا فهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً .

قد يُحصّل إنسان مالاً حراماً ، فيأخذه الزهو ، والكبر ، ويظن أنه حَصّلَ إنجازاً كبيراً ، وأنه بذكائه ، وقوته جمع هذا المال ، ففضلاً عن أنه ضال معتد ، أثيم يأخذه الفخر ، والخيلاء بتحقيقه هذا الدخل الكبير .

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

منتهى الضلال ، أن يكون المرء في ضلال ، وهو يحسب أنه على هُدى ، وأن يكون في خسارة ، وهو يظن أنه يربح ، أن يكون في تخلف ، وهو يظن أنه في تقدم ، أن يكون في تراجع ، وهو يظن أنه يرقى ، فهذا منتهى الغباء ، والخسارة ، والغفلة . هؤلاء :

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

الكفر بآيات الله سبب الخسران :

أيها الإخوة الأكارم ، كيف ضلَّ سعيُهُم في الحياة الدنيا ؟ لأنهم كفروا بآيات ربهم ، ولو أنهم فكروا بآيات الله الكونية ، أو فكروا بآياته القرآنية ، لما ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، ولكنهم أعرضوا عن ذكر الله ، ولم يُفكِروا في هذه الآيات التي نصبها الله عز وجل في كل مكان .

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(سورة فصلت : 53)

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس : 101)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

إيّاكم ومحبطات الأعمال :

إنهم يئسوا من الله ، ومن الجنة ، ومن الآخرة ، وقالوا : هذه مغيبات لا نُعنى بها ، بل نحن واقعيون نريد الواقع ، حينما تركوا الدين ، وتركوا ما وراء الحياة ، واهتموا بالشهوات فقط ، وقالوا : نريد الحياة الدنيا ، وأصروا عليها ، هؤلاء أعرضوا عن ذكر الله عز وجل ، وكفروا بآيات ربهم ، ولقائه ، وحبطت أعمالهم ، حينما أيقنوا أنه لا حساب ، ولا عذاب ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا مسؤولية ، وأن

الدنيا لمن يملك الدرهم والدينار ، وأن المال مادة الشهوات .

إذاً شيء طبيعي أن ينكبّوا على جمع الدرهم والدينار من أي مصدر كان ، من حلال ، أو من حرام ، بشكل صحيح ، أو غير صحيح ، هَمَهُم الدرهم والدينار ، من أجل تحقيق شهواتهم ، ونزواتهم .

فحينما كفروا بآيات ربهم ولقائه ـ فحبطت أعمالهم ـ المعنى أنها أصبحت لا قيمة لها ، لو أنها أعمال فيما يبدو جيدة ، لو بنوا مستشفى مثلاً .

بنى أحدهم مستشفى ، ولكنه وضع أسعاراً للعمليات تفوق طاقة الإنسان ، فصارَ المرضى يشكون من الفاتورة ، وليسَ من المرض نفسه ، هل هذا عمل إنساني ؟ لا ، ليس كذلك ، إنَّ مظهره إنساني ، أما الحقيقة فقد سبّبَّ مشكلات كثيرة ، فقد يكون لك عمل ظاهره إنساني ، أما في الحقيقة فهدفه استغلالي ، فهذا العمل قد حبط .

(كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

لو أنَّ هذه الأعمال فيما يبدو إنسانية ، ولكنها لا قيمة لها عند الله ، أو معنى حبطت أي ساءت ، أي تخطى الحدود الأدبية ، والاجتماعية ، والحقوقية للناس ، من أجل أن يأخذ أكبر مبلغ ممكن من الناس غش في البضاعة ، وأساء في التصرف مثلاً ، استغل ، واحتكر ، فالعمل إما أن يفقد قيمته بأنه أحبط ، أو أنَهُ يصبح سيئاً .

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

الكافر لا وزن له عند الله : فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا

لا شأن لهم عند الله ، فهم صَغار عنده سبحانه .

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً)

هُم يستهزئون ، ويضحكون إذا ذكر أمامهم الدين ، أو بعض آيات القرآن فيهزؤون منها ، ويستخفون بها ، ويمزحون عندها ، فمصيرُ هؤلاء جهنم بما كفروا .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)

الإيمان بالله سبب الفلاح :

لكنَّ الذينَ عَرَفوا الله مصيرُهُم جنات الفِردوس ، لا يبغونَ عنها حِولاً ، لِشدّة النعيم فيها ، أما أي مكان في الأرض مهما يكن جميلاً فيبغي الإنسان التحول عنه مع مرور الأيام والليالي ، إلا في الجنة .

(لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)

يعني تحولاً .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)

كلمات الله لا تنفد :

وهذه الآية دقيقة جداً ، كلكم يعلم كم تكفي محبرة لا يزيد حجمُها على مِقبض اليد ، إنها تكفي الذي يكتب كثيراً عاماً واحداً ، أو عامين ، فكيف لو كان عنده لتر من الحبر !! اللتر يكفي الطالب طوال عمره ، فكيف لو كان عنده برميل ، أو خزان ، أو مستودع ، أو بحيرة .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي)

معنى : كلمات الله :

والعلماء حيال هذه الآية فريقان :

التفسير الأول : القرآن :

بعضهم يقول : كلمات الله هي هذا القرآن الكريم ، والمعنى في هذه الآية أن هذه الكلمات لا يكفي لشرحها البحار ، لو أنها مداد .

التفسير الأول : عِلمُ الله :

وبعضهم قال : كلمات الله ؛ علم الله ، أنَّ في الكون من العلم ما لو أردنا شرحه لما استطاع البحر أن يكون كافياً لو كان مداداً لشرحِه ز

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

مع أن البحر في الأرض أربعة أخماس اليابسة ، فالقارات الخمس المعروفة لا تعدل خمس الأرض ، والبحر يزيد عمقه في بعض الأماكن عن عشرة كيلو مترات ، وفي أماكن أخرى عن خمسة ، وهكذا ،

فهذا البحر كله ، ولو جئنا بمثله بحراً آخر ، فلو أن هذين البحرين مداد لما كفى هذا المداد لشرح كلمات الله ، أو لشرح علم الله عز وجل .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

النبي بشر يوحى إليه :

النبي عليه الصلاة والسلام بشر ، وقال : اللهم إني بشر أرضى كما يرضى البشر ، لكنه بشر وليس كالبشر .

(يُوحَى إِلَيَّ)

إنَّ الله عز وجل اختاره ، واصطفاه نبياً ورسولاً يوحى إليه .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

ملخّص القرآن : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ

قال بعض العلماء : إنَّ في هذه الآية الأخيرة تلخيصاً لِكتاب الله كله .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

ماذا يوحى إليّ ؟ يوحى إليّ هذا الكتاب ، التوحيد هو الحقيقة الأولى والأخيرة في الدين ، قال عزوجل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء : 25)

هذه دعوة جميع الديانات السماوية وجميع الكتب المنزلة على أنبياء الله .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ)

فإذا عرفت أنه لا إله إلا الله فقد عرفت كل شيء ، وإن لم تصل إلى هذه الحقيقة لم تعرف شيئاً ، مُلخّص هذا القرآن كُلّهُ من دفته إلى دفته هوَ التوحيد .

(لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء : 25)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

هذه الحقيقة ما قيمَتُها إذا عرفناها ، وابتعدنا عنها ، ولكن المطلوب أن نرجو لقاء الله عزّ وجل ، وأن نهيِّئَ العمل الصالح لِهذا اللقِاء الذي هوَ أثمن كُلِّ شيء .

قبول الأعمال : الإخلاص وموافقة الشرع :

قال العلماء : " نهاية العلم التوحيد " ، أن تقول : لا إله إلا الله ، ونهاية العمل الإحسان ، الإحسان المبني على علم يؤدي بك إلى الاتصال بالله عز وجل ، الذي هو قمة السعادة ، وهذه أمور أساسية في الدين ، فمهما تعلمت إن لم توحد فأنت جاهل ، وإذا عرفت أنه لا إله إلا الله وصلت إلى نهاية العلم .

بقي العمل : هذا العلم لا قيمة له في ذاته ، لأنَّ العلم ليسَ هدفاً بذاته ، إنما هو وسيلة ، فيجب أن تبني على هذا العلم العمل الصالح ، والعمل الصالح يفهم منه أن تستقيم على أمر الله ، وأن يكون عملك وفق شرع الله ، وأن تحسن إلى خلق الله .

الاستقامة .. والعبادة .. والإحسان .. كلها تحت العمل الصالح ، الذي هو ثمن الاتصال بالله .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

إذا أشركَ ضيّعَ عمله ، وأحبط عمله ، وبعضهم قال : ولا يشرك تعني الاستقامة ، أطاع مخلوقاً ، وعصى الخالق ، لم يستقم حقَّ الاستقامة ، فإذا لم تشرك بالعبادة ، أي استقمت على أمره أولاً ، وإذا عملت الصالحات ثانياً ارتقيت إلى رب الأرض والسماوات ، كل هذا بسبب أنك آمنت بأنه لا إله إلا الله. فهذه الآية الأخيرة من سورة الكهف فيها تلخيص للقرآن الكريم .

لا أمل من غير عمل :

وفيها شيء آخر ؛ أن الأمل لا يجدي بلا عمل :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ)

فأمرَ بالعمل الصالح ، ولم يقبل التمني والرجاء .

إذاً رَبَطَ الله سبحانه وتعالى الأمل بالعمل ، وأي أمل بلا عمل أُمنية لا قيمة لها إطلاقاً .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 01 - 15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-12-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الأول من سورة مريم ، هذه السورة في مجملها تتحدَّث عن شيئين ، كما ورد هذا في آخرها إذا يقول الله سبحانه وتعالى :

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً)

(سورة مريم)

خلاصة سورة مريم بشارة للمؤمنين وإنذار للكافرين :

كأن هذه السورة بأكملها تبشِّر المؤمنين وتنذر الفاسقين ، كيف بشَّرت المؤمنين ؟ ربنا سبحانه وتعالى ذكر فيها قصَّة سيدنا زكريَّا ، ويحيى ، ومريم ، وعيسى ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، وهارون ، وإسماعيل ، وإدريس ، كل هؤلاء الأنبياء الكرام ورد ذكرهم في هذه السورة الكريمة ، أولئك الذين أنعم الله عليهم ، كيف أنعم عليهم في الدنيا والآخرة ؟ وكيف أعطاهم ؟ وكيف رحمهم ؟ وذكر الذين تركوا الصلوات ..

(أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

(سورة مريم : " 59 ")

وكيف أنهم سيلقون غيًّا ، إذاً هذه السورة بأكملها بشارةٌ للمؤمنين ، وهذه أمثلةٌ كثيرةٌ جداً ، وإنذارٌ للمعرضين ، فكأنها تطبيقٌ عملي لأولئك الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة .

الشيء الثاني : أنَّ هذه السورة بدأت بالأحرف :

(كهيعص)

الأحرف المقطَّعة المعجزة وأقوال المفسرين فيها :

ومعظم المفسِّرين يتوقَّفون عند هذه الحروف ، ويقولون عنها : " الله أعلم بمرادها " .

وبعض المفسرين يقولون : " إنَّ هذا القرآن المعجز من جنس هذه الحروف " ، فكما أنَّ التراب نَفَخَ الله فيه من روحه فكان بشراً سوياً ، كذلك هذه الحروف جعل الله منها كتابه المعجز ، إذاً إنكم أيها البشر لن تستطيعوا ، والحروف بين أيديكم أن تصوغوا كتاباً فيه إعجازٌ من كل النواحي ؛ إعجازٌ في التشريع ، إعجازٌ في البلاغة ، إعجازٌ في الإخبار ، إعجازٌ في الإرشاد ، إعجازٌ في الهداية ، إعجازٌ

في الدلالة ، إنكم لن تستطيعوا أن تصوغوا من هذه الحروف التي بين أيديكم كلاماً بهذا الإعجاز، هذا قاله بعض المفسرين .

وبعضهم الآخر ، وقد عُزي هذا إلى الإمام عليٍ كرَّم الله وجهه ، قال : " إنها أوائلُ لأسماء الله الحسنى" ، فيا كافي ، ويا هادي ، ويا ولي، ويا عالِم ، ويا صادق الوعد ، هذه روايةٌ عُزيَت إلى الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه .

وفي تفسير الفواتح الإلهيَّة أن هذه الحروف :

(كهيعص)

أوائل أسماء رسول الله ، فجاء في هذا التفسير ؛ أن يا كافي عموم الأنام ، هذه الكاف ، وهاديهم إلى دار السلام ، بيمن العزيمة العليَّة ، ياء عَين ، وبصدق الهمَّة الصافية ، والقرآن كما قال الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه : " ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه " ، القرآن حمَّال أوجه ، لك أن تقول مع معظم المفسِّرين : الله أعلم بمراده ، ولك أن تقول : إن هذا القرآن الكريم من هذه الحروف ، فيا معشر الجن والإنس ، يتحدَّاهم الله عزَّ وجل أن يأتوا بمثل هذا القرآن ..

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

(سورة الإسراء : 88)

ترابٌ نفخ الله فيه فكان بشراً سويَّاً ، حروفٌ كان منها هذا القرآن المُعجز ، ولك أن تفهم هذه الحروف أنها أوائلُ لأسماء الله الحُسنى ، وقد عُزيت هذه الرواية إلى الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه ، ولك أن تفهمها أنها أوائلُ أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، يا كافي عموم الأنام بالهدى ، وهاديهم إلى دار السلام ، بيمن العزيمة العَليَّة ، وبصدق الهمَّة الصافية .

على كلٍ هذا القرآن لا يعلم تأويله إلا الواحد الديَّان ، نحن نجتهد ، المفسِّرون اجتهدوا ، وأنا نقلت لكم ما قاله المفسرون ..

(كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)

قصة زكريا عليه السلام دروسٌ وعبرٌ :

أيْ أن هذه القصَّة هي ذِكْرٌ لرحمة الله التي نالت عبده زكريَّا .

أيُّها الإخوة الأكارم ، أتمنَّى عليكم ألاّ تظنوا أنّ هذه قصَّة تاريخيَّة ، ليس المقصود في كتاب الله أن تُروى القِصَص ، ولا أن تُنْقَل الحوادث ، ولا أن تصوَّر الشخصيات ، ولا أن يدور الحوار ، هذه كلُّها ليست من أهداف كتاب الله ، الله سبحانه وتعالى أراد من هذه القصَّة أن يضع بين أيديكم حقيقةً في

التعامل معه ، ما منا واحدٌ إلا وله علاقةٌ بالله عزَّ وجل ، قد تأتي الأمور كما يشتهي ، ما الموقف الذي يجب أن يقفه ؟ وقد تأتي الأمور على خلاف ما يشتهي ، ما الموقف الذي يجب أن يقفه؟ إن هذه القصَّة على إيجازها تضع بين أيدينا حقيقةً أساسيَّةً في التعامل مع الله عزَّ وجل ، فكأنها .

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ)

وربُّ زكريَّا هو ربك ، وإله زكريَّا هو إلهك ، وإذا كان الله عزَّ وجل قد أعطى زكريا عليه السلام فلن يَضِنَّ عليك بالعطاء ، لو أنك اتبعت الطريق التي سار به سيدنا زكريا ..

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)

هذا النبي الجليل ، هذا النبي العظيم له أتباع ، له موالون ، له تلامذة ، له مَنْ معه من المؤمنين ، هؤلاء خاف عليهم أن يضيعوا من بعده ، أن يُشتَّتوا ، أن يتفرَّقوا ، أن يجهلوا بعد علمٍ ، أن يضيعوا بعد الهُدى .. فـ :

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

نداء زكريا ربَّه خفية :

قال العلماء : " النداء هو ما كان بصوتٍ مسموع ، والمناجاة هي ما كانت في القلب " ، لقد نادى ، ومن آداب النِداء أن يكون خفيَّاً بصوتٍ منخفض ، فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّهُ مَعَكُمْ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ، تَبَارَكَ اسْمُهُ ، وَتَعَالَى جَدُّهُ))

(متفق عليه)

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

حكمة ورود لفظ الرب في قوله : إِذْ نَادَى رَبَّهُ :

وأنت أيُّها الأخُ الكريم ، تستطيع أن تدعو الله عزَّ وجل من دون أن تحرِّك شفتيك ، ويسمعك ، ويستجيب لك ، وهو معك في كل أحوالك ، فهذا النبي عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام نادى ربَّه، كلمة(ربَّه)أيْ الذي ربَّاه ، الذي خلقه مِن العَدَم ، الذي جعل له الرحِمَ في بطن الأمِّ رحمةً ، والذي أمدَّه بالغذاء ، والذي شقَّ سمعه وبصره ، والذي كوَّن قلبه ، وخفقَ القلبُ في الأسبوع السادس ، وجرى

الدم في الشرايين ، ونَمَت الأعضاء ، وظهرت الأعصاب ، واكتمل الخلق ، فلمَّا نزل إلى الدنيا كانت الهَدِيَّة الأولى :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد : 8-10)

حليبٌ يتبدَّل تركيبه كل يوم ليوافق طبيعة المولود ، وأجهزته ، وقوَّة احتماله ، في هذا الحليب مواد قاتلة للجراثيم ، في هذا الحليب مواد تمنع التصاق الجراثيم بالأمعاء ، في هذا الحليب مناعةُ الأم كلُّها ، في هذا الحليب فوائد لا تعدُّ ولا تحصى ، إنه يأتي للطفل بارداً في الصيف ، دافئاً في الشتاء ، تثبت الحرارة طوال الرضعة ، جاهزٌ بجاهزيَّةٍ من الدرجة الأولى ، تعقيمٌ مثالي ، حرارةٌ مثاليَّة ، وقايةٌ من الأمراض كلِّها ، مناعةٌ تامَّة ..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد : 8-10)

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ)

ربَّه الذي ربَّاه ، الذي أطعمه وسقاه ، الذي خلق له هذه الأعضاء ، وتلك الأجهزة ، وهذه الحواس ..

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

الحث على كثرة الدعاء والتضرع :

أنت أيُّها الأخ الكريم هل تنادي ربَّك ؟ كم مرَّةً في الأسبوع تناديه ؟ مرَّةً واحدة ؟! النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ربَّه في كل أحواله ؛ إذا خرج من البيت ، إذا دخل إلى البيت ، إذا دخل إلى السوق ، إذا خرج من السوق ، إذا التقى بإنسان ، إذا ارتدى ثيابه ، إذا خلع ثيابه .. فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[الترمذي]

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي)

شكوى زكريا إلى ربه الضعفَ والكِبرَ

معنى (وَهَنَ)أي ضعف ، لم يتحدَّث عن جلده ، ولا عن عضلاته ، ولا عن قدراته إنما تحدَّث عن عظامه ، فإذا كانت دِعائمُ البناء قد تضعضعت فلا شيء في البناء إلاّ وقد تداعى أوْ كاد .

(إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي)

العظم وهو أساس البناء ، أساس الجسم قد ضعف ..

(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)

هذه من استعارات القرآن الرائعة ، شُبِّه الشيب بالشرر ، وشُبِّه الرأس بمكان اشتعال النار ، فإذا اشتعلت النار تطاير الشرر في كل الأنحاء ، فكأن وصول الشيب إلى رأس الإنسان بمثابة شررٍ اشتعل في رأسه .. يا ..

(رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)

من آداب الدعاء :

والعلماء قالوا : من آداب الدعاء ثلاثة آداب :

الأدب الأول : أن يكون خفية :

أن يكون الدعاء خفيًّا .. هو دعا بلسانه ، لو لم يدعُ بلسانه لكان مناجاةً ، لكنَّه لم يدعُ في ملأٍ من الناس بل دعا في المحراب ، وقال :

(إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)

الأدب الثاني : التذلل والافتقار :

هذا هو الأدب الثاني في الدعاء ، التذلل ، التضعضع ، إظهار المسكنة ، إظهار العَجز ، إظهار الافتقار ، كيف تدعو خالق الأكوان وأنت في حالة كِبْر ؟ لا ، لابدَّ مع الدعاء من التذلل ، لابدَّ من إعلان الضعف ، لابدَّ من إعلان الافتقار ، لابدَّ أن تكون ، وأنت تدعو في حالة افتقارٍ إلى الله عزَّ وجل .. يا ..

(رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)

الأدب الثالث : حسنُ الظنِّ بالله عزو جل :

أجمل ما في هذه الآية قول الله عزَّ وجل على لسان سيدنا زكريَّا :

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

في كل حياتي ما دعوتك مرَّةً ، وكنت شقياً بهذا الدعاء ، ومعنى شقياً أي محروماً ، العلماء قالوا : " الشقاء هنا الحرمان " ..

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

كن عن همومك معرض اً وكِل الأمور إلى القضا

و أبشر بخيرٍ عاجـلٍ تنسى به ما قد مضـى

فلربَّ أمرٍ مسخطٍ لـك في عواقبه رضـــا

ولربَّما ضاق المضيـق ولربَّما اتسع الفضـــا

الله يفعل ما يشـــاء فلا تكونَنَّ معترضـــا

الله عوَّدك الجميـــل فقس على ما قد مضى

*** * ***

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

يا رب ، ما دعوتك في حياتي مرَّةً وخيِّبت ظنَّي ، إلا وأكرمتني ، وأعطيتني ، ورحمتني ، ورزقتني ، ويَسَّرت أمري ، إذاً هذا هو الأدب الثالث في الدعاء .

الأدب الأول : أن يكون الدعاء خفيًّا .

والأدب الثاني : أن يكون مع الدعاء ضراعةٌ ، وتذلُّل ، وافتقارٌ .

والأدب الثالث : أن تتوسَّل بظنٍّ حسنٍ بالله عزَّ وجل ، أن يكون خفياً ، وأن تكون مفتقرًا ، وأن تكون متوسلاً بظنٍ حسنٍ بالله عزَّ وجل ..

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

من الصياغة المعجزة أن جاءت كلمة (رب)معترضةً بين كلمة : (دعائك)و : (شقيًّا)، من التحبُّب ، ومن التودد ، ومن التعظيم أن تأتي كلمة ربي مُقْحَمَةً بين كلمتين متلازمتين ، وهذا درسٌ لنا ، الشيء الذي تراه مستحيلاً ، الشيء الذي يقلقك ، الشيء الذي يَقُضُّ مضجعك ، الشيء الذي تخاف منه ، شبح المصيبة التي يبدو أنها قادمة ، إن حدثَ هذا فبادرْ إلى الصلاة ، فكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمرٌ بادرَ إلى الصلاة ، صَلِّ صلاة الحاجة ، صَلِّ صلاة الدُعاء ، صَلِّ في جوف الليل ركعتين واسأله كل حاجاتك ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ))

(متفق عليه ، واللفظ لمسلم)

(شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)

(سورة النمل : " 62 ")

قال العلماء : " إن المُضَّطر مستثنى من كل شروط الدعاء ، بشرط أن يقول : يا رب مِن كل قلبه " ، دون أن يقولها بلسانه ، وهو يعتمد على زيدٍ أو عبيد ..

(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي)

استكمالاً لهذه القصَّة ورد مقطعٌ قصيرٌ في آل عمران حول هذا الدعاء ، بماذا دعا ؟ السيدة مريم بنت عمران قد كفلها زكريا عليه السلام بعد أبويها ، قال تعالى :

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

(سورة آل عمران : " 37 ")

السيدة مريم ..

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

(سورة آل عمران : " 37 ")

قال العلماء : " كلَّما دخل عليها وجد صلاحاً ، وطاعةً ، وسمتاً ، وعلماً ، وفهماً ، وحلماً ، وإقبالاً ، وإشراقاً " ، ليس المقصود بالرزق حصراً أنه رأى فاكهة الصيف في الشتاء ، حصراً ، ولكن بعض العلماء يضيف إلى ذلك أنه رأى سمتاً ، ورأى علماً ، ورأى إشراقاً ، ورأى عبادةً ، ورأى محبَّةً عندئذٍ..

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(37)هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

(سورة آل عمران : " 37 "-38")

لمَّا رأى هذه البنت الطاهرة ، التقيَّة النقيَّة ، العالمة الفقيهة ، المقبلة ذات القلب المشرق عندئذٍ :

(دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ(38)فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى)

(سورة آل عمران : " 37 "-38")

إذاً متى دعا ؟ دعا حينما رأى الكمال والتقوى والإقبال والقُرب قِيَماً متمثلةً بمريم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، إذاً :

(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً)

معنى : خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي

خاف على هؤلاء الذين يدعوهم إلى الله ، خاف على تلامذته ، خاف على أتباعه ، خاف على المؤمنين الذين هم معه ، خاف عليهم أن يضيعوا بموته ، أنْ يَشَتَّتُوا ، أن يضلوا ، أن يتفرَّقوا ، أن يضلوا بعد

الهدى ، خاف عليهم ، ولكن الطريق مسدود ، فأنَّى له أن يأتيه الغلام ؟ هو قد بلغ من الكِبَر عِتيًا ، أي قد تجاوز السن التي يمكن فيها أن يُنجب الأولاد ، وامرأته عاقر في الأصل ، وفوق أنها عاقر فقد تجاوزت السن التي تنجب فيها النساء غير العواقر ..

(وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً)

مرافقة الأسباب للنتائج :

وقف بعض المفسِّرين عند هذه الآية وقفةً رائعة ، فقال : هو نبيٌّ يعلم أن الله عزَّ وجل لا تقف الأسباب عَقَبَةً أمام أمره ،

(كُنْ فَيَكُونُ)

الأسباب ليست هي سبب النتائج ، إنما هي ترافقُها ، لأنَّ المُسبِّبَ هو الله عزَّ وجل ، وما السبب إلا حدث يرافق النتيجة وجوداً وعدماً ، وبالإمكان أن تظهر النتيجة بلا سبب ، فلماذا وصف نفسه بأنه قد بلغ من الكبر عِتيا ؟ ولماذا وصف امرأته بأنها عاقر ؟ ليعلِّم إخوانه أن الله عزَّ وجل على كل شيٍ قدير، فعلى الرغم من أنه قد بلغ من الكبر عتياً ، وأن امرأته كانت عاقراً ، وقد تجاوزت السنَّ التي يمكن فيها أن تلد غير العاقر ، ومع ذلك فالله على كل شيءٍ قدير .

إنّ مع العُسر يسراً :

ونحن أيُّها الإخوة لا ينبغي أن نيأس من رحمة الله ، ولو أن الإنسان أصابه مرضٌ عضال فليس له أن يقول : إنَّ هذا المرض ليس لهُ شفاءٌ ، فهذا كلام الجهل ، بل اسأل الأطبَّاء من أهل الإيمان ، فإنهم يقولون لك : هناك شفاءٌ ذاتي لا يعلم الطب كيف يحدث ، شفاءٌ ذاتي .. هو من عند الله .

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين)

(سورة الشعراء : 80)

إنَّ الله سبحانه وتعالى يجعل مع العُسر يسراً ، يخلق من الضعف قوَّة ، ومن الضيق فرجاً ، ومن شأن المؤمن أن يوقن أن الله سبحانه وتعالى يرزقه من حيث لا يحتسب ، وأنه مَن يتوكَّل على الله فهو حسبه، وأنه ..

(مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق : 2)

هذه الآية صورة رائعة ..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

ما كان لديه من مخرج ، والأمور أُحْكِمَت حَلقاتها ، سُدَّت من كل جانب ، جميع أبواب الفرج مسدودة، لكن ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، متى جُعِلَ هذا المخرج ؟ بعد أن ضاقت إلى درجة ظُنَّ معه أنه ليس هناك مخرج ..

(وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً)

دقة متناهية : فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا

ولكن دقَّة هذه الآية أنه لم يقل : فهب لي وليا ، لو قال : فهب لي وليا ، أنت بلغت من الكِبَر عتيا ، وامرأتك عاقر فكيف يأتيك الغلام ؟ ولكنَّه قال :

(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ)

أي من طريقك يا رب ، من دون أخذٍ بالأسباب ، هذه حالةٌ استثنائيِّة ..

(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ)

يا رب .. بالإعجاز ، بتجاوز الأسباب ، من دون أن يكون السبب هو الواسطة ..

(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ)

مرَّت معنا هذه في سورة الكهف :

(فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)

(سورة الكهف : 65)

(وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً* يَرِثُنِي)

يكون داعياً إلى الله مِن بعدي ، يرث هؤلاء الذين أدعوهم إلى الله..

(يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً)

الدعاء بالولد الصالح :

رضيّاً لك ، اجعله مرضياً يا رب ، اجعله ممن ترضى عنه ، لأنك إذا رضيت عن إنسان فهذا الرضا هو كل شيء ، ما من مرتبةٍ على وجه الأرض أعظم من أن يرضى الله عنك ، وهل مِن وصفٍ وُصِفَ به أصحاب النبي عليهم رضوان الله وعليه الصلاة والسلام ، هل من وصفٍ أبلغ من أن يقول الله عزَّ وجل :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح : " 18 ")

فكلمة (رضي الله عنهم)هذه أعلى شهادة ، وأعلى رتبة ينالها إنسان على وجه الأرض ..

(وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً)

أي يا رب هب لي غلاماً تكون راضياً عنه ، وراضياً لك ، هب لي غلاماً ينوب عني بعد موتي في تعريف الناس بك ، في دلالتهما عليك ، في الأخذ بيدهم إليك ، هب لي غلاماً يرث هذا المقام الذي أقوم به بين الناس ، فكان الجواب من الله عزَّ وجل :

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً)

لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا

قال بعض العلماء : " إن الله سبحانه وتعالى سمَّى هذا الغلام بهذا الاسم ، كيف أن الله عزَّ وجل زوَّج النبي عليه الصلاة والسلام من السيدة زينب ، وكذلك ربنا سبحانه وتعالى سمَّى هذا الغلام يحيى ..

(يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً)

معنى السميّ :

السَميُّ هو المُشابه ، مِن بعض معاني هذه الكلمة أنه ليس مَن له اسمٌ كهذا الاسم ، أو ليس مَن له صفات هذا الغلام ، السَمِيّ المشابه .

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)

؟ أي مشابهاً ، عندئذٍ قال هذا النبي الكريم :

(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ)

قال هذا تعليماً لأصحابه ، قال هذا تعليماً للناس ، أو تعريفاً بقدرة الله عزَّ وجل ، شروطٌ مستحيلة ، وضْعٌ لا أمل منه ، لا رجاء فيه أن تلد امرأةٌ عجوزٌ ، وهي في الأصل كانت عاقراً ، وأن ينجب رجلٌ بلغ من الكِبَر عتيا ، ووهن العظم منه ، واشتعل رأسه شيباً .

من رحمة الله توقف الإنجاب في سن محددة :

وبالمناسبة : من فضل الله على الناس أن المرأة إذا بلغت سِنّاً معيَّنةً توقَّفت عن الإنجاب ، وتعليل هذا أن في مبيضها عددٌ محدودٌ من البويضات ، في كل شهرٍ ينزل من المبيض بيضتان ، فإما أن تنقلبا إلى حَمْلٍ ، وإما أن تذهبا ، إلى أن تنتهي هذه الكميَّة المحدودة ، هذه الكمية المحدودة تنتهي في الأربعين ، في الخامسة والأربعين ، في السابعة والثلاثين ، في الخمسين أحياناً ، هذه الكمية المحدودة تنتهي ، ولو أن هذه الكمية تتوالد باستمرار وغير محدودة فالأمر عندئذٍ لا يُحتمل أنَّ امرأةً في الثمانين ، أو في

التسعين ، أو في السابعة والتسعين ترونها حاملاً ، فكيف تربي ابنها ؟ أيةُ امرأة تستطيع أن تربي ابنها، وهي في التسعين ؟ فهذه من حكمة الله سبحانه وتعالى ، الرجل ينجب إلى سنٍ متأخرةٍ جداً ، أما المرأة فعدد البويضات فيها محدود ينتهي في سنٍّ معيَّنة ، هذه حِكَمٌ ربما لا ينتبه الإنسان إليها ، مثلاً الرجلُ قد يفقد شعره ، ولكن ليس في عالَم النساء امرأةٌ تفقد شعرها كلياً ، قد يخفُّ شعرها وهذه من حكمة الله ورحمةً بالنساء ، هناك تخطيط ، هناك إلهٌ عظيم يفعل ما يريد .

(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ)

ليس على شيء مستحيل :

وأنت في هذه الحالة ، وأنت قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتك عاقرٌ في الأصل ، وقد تجاوزت سنَّ الولادة ، ولو لم تكن عاقراً ..

(قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)

كن فيكون ..

((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

(صحيح مسلم عن أبي ذر)

ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام ..

كن فيكون ، زُل فيزول .

(قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)

كلَّما عرفتني رأيتَه هيناً عليّ ..

(وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً)

أيهما أعظم ؟ ..

(وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً)

لم تكن أيها الإنسان شيئا مذكورا :

كيف أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون من عدم ؟ كان الله ، ولم يكن معه شيء ، هو قديمٌ بلا بداية ، لكن الكون حادث ، ما الشيء الحادث ؟ هو الذي يسبقه العَدَم ، ويليه العَدَم ، الكون كلُّه حادث لكن الله سبحانه وتعالى أزليٌّ قديم ، أبديٌّ سرمدي ، واجب الوجود ..

(وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً)

متى يأتي الغلام ؟ الإنسان عَجول ، متى يأتي هذا الغلام ؟

(اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً)

من صفات الإنسان استعجال الخير :

أي أن الله جعل له آيةً ، أن لسانه ينعقد فلا يستطيع تكليم الناس بكلمة ، لكنَّه لا ينعقد عن ذكر الله عزَّ وجل ، في ذكر الله لسانه طَلِق ، في مخاطبة الناس لسانه حَبيس ، وقد قال بعض العلماء : لِمَ لَمْ يقل الله عزَّ وجل : آيتُك ألاّ تكلّم الناس ثلاثة أيَّامٍ ، وقال :

(ثَلَاثَ لَيَالٍ)

قال : لأن التقويم الذي يهتدي به الناس تقويمٌ قمري ، والتقويم القمري مبنيٌّ على طلوع القمر ، والقمر في الليل ، إذاً كان الليل أقرب إلى التقويم من النهار ..

(آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ)

لزوم زكريا العبادة والصمت عن كلام الناس :

والمحراب مكان العبادة ، مكان لزوم العبادة ..

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ)

طبعاً هو لا يكلّمهم ، أشار إليهم ..

(أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً)

في الصباح والمساء ، وجاء يحيى ، وقال الله عزَّ وحل :

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

معنى : خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ

خذه بقوَّة ، العلماء قالوا : " معنى أخذه بقوَّة أن تعلم ما فيه أولاً ، وأن تطبِّقه بحزمٍ ثانياً " ، فإذا أردت أن تأخذ الكتاب بقوَّة ينبغي أن تعرفه أولاً ، وأن تطبقه ثانياً ، فالعلم ليس هدفاً بذاته ، إنما هو وسيلةٌ لهدفٍ كبير ، إذا اتخذت العلم هدفاً أصبح العلم سلَّماً نحو الأسفل ، أصبح العلم حجاباً بينك وبين الله ، أما إذا اتخذته وسيلةً بمعنى أنك خرجت منه إلى تطبيقه ، إلى ممارسته ، إلى تنفيذ ما تعلم فهو سلم إلى الله حقيقة ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من عمِلَ بما عَلِمْ ورَّثه الله علم ما لم يعلم))

(أبو نعيم في الحلية عن أنس)

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً * يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً)

وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا

(الحكم) أي الحكمة ، والحكمة هي الإصابة في العلم والعمل ، علمٌ بالحقائق وعملٌ بموجبها ، علمٌ مع التطبيق ، أي أن هذا الحكيم تصرُّفاته حكيمة ، ينطلق في أعماله من عِلمه ، علمه مطبَّق ، علمه مترجمٌ إلى واقع ، يعلم الحقيقة ويعيشها ، يعلم الحقيقة ويطبِقها ، يعلم الحقيقة ويعمل وَفقها..

(وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً)

وآتيناه أيضاً :

(وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا)

من علامات الإيمان رحمة القلب :

من علامات الإيمان رحمة القلب ، والقلب القاسي أبعد القلوب من الله عزَّ وجل ، من علامة الكُفْران قسوة القلب ، من علامة الإيمان رقَّة القلب ، اعرف نفسك من رقَّة قلبك ، لا تغترَّ بالصلاة ، ولا بالصيام ، انظر إلى قلبك الذي هو مَحطّ نظر الله ، هل فيه رحمةٌ للناس ، هل ترحمهم ؟ يقول الله عزَّ وجل في الحديث القدسي :

((إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي))

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً * وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا)

آتيناه حناناً من لدنَّا ، أي رحمةً ..

(وَزَكَاةً)

من علامات الإيمان الطهارة والتقوى :

آتيناه زكاةً أي طيباً ، الزكاة صفاتٌ عاليةٌ في النفس ، طيبٌ ، رحمةٌ ، عدالةٌ ، مروءةٌ ، صدقٌ ، وفاءٌ ، حِرصٌ ، تواضعٌ ، نباهةٌ ، وزكاةً ..

(وَكَانَ تَقِيّاً)

معنى التقوى ومقتضياتها :

لأنه كان تقياً ، لأنه اتقى أن يعصي الله عزَّ وجل ، اتقى أن يكون في موضع لا يرضي الله ، ما الولاية؟ أن يراك حيث أمرك ، وأن يفقدك حيث نهاك ، أين تكون بعد أذان الظهر يوم الجمعة ، في المسجد أم في النزهة ؟ أن يراك حيث أمرك ، وأن يفقدك حيث نهاك ..

(وَكَانَ تَقِيّاً)

لأنه كان تقياً آتيناه الحكم صبياً ..

(وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً)

وآتيناه شيئاً آخر ..

(وَبَرّاً بوَالِدَيْهِ)

من علامات الإيمان بر الوالدين :

ومن علامات الإيمان برُّ الوالدين ، ومن علامات الكُفران عقوق الوالدين ..

(وَبَرّاً بوَالِدَيْهِ)

" ابنَ آدم ماتت التي كنَّا نكرمك مِن أجلها ـ الأم ـ فاعمل صالحاً نكرمك لأجله ".

لو أن في اللغة كلمةً أقلَّ مِن(أف)لقالها الله عزَّ وجل ..

(فَلا تَقُلْ لَهُمَا أفٍّ)

(سورة الإسراء : " 23 ")

(وَبَرّاً بوَالِدَيْهِ)

كان بارًّا بهما ..

(وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً)

وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا

جبَّاراً على الخَلق ، عصياً للحق ، ما في أرقى من هذا الوصف ؛ مع الحق طائع ، مع الخلق متواضع، مع الأمِّ والأب بَرٌّ كريم ، في التعامل ذكيٌ عظيم ، في القلب رحمةٌ كبيرة ، في المنطق والسلوك حكمةٌ ما بعدها حكمة، هذه صفات الأنبياء ، لذلك :

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً)

السلام في الحياة وبعد الممات :

(سلامٌ) ، السلام الطمأنينة ، حياةٌ كلُّها سلامٌ بسلام ، فلا منغِّص ، ولا خوف ، ولا قلق ، ولا نقص ، ولا مرض ، ولا خطر ، ولا شَبَح ..

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ)

وبعد الموت إنه في البرزخ ، والبرزخ أي القبر ، روضةٌ من رياض الجنَّة ، أو يكون القبر للكافر حُفْرَةً من حُفَرِ النيران ..

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)

مقصود القصة القدوة والتباع :

على كلٍ كما قلت قبل قليل : إن المقصود من هذه القصَّة أن تكون نبراساً لنا نهتدي بها ، أبرز ما في هذه القصَّة الدُعاء ، انظروا : شيخٌ فانٍ بلغ من الكبر عتيا ، وامرأةٌ عجوز عاقر ، وقد دعا هذا النبي العظيم ربَّه دعاءً خفيًّا : أن هب لي من لدنك غلاماً يرثني في الدعوة إليك ، يرعى إخواني ، يرعى تلامذتي ، يهديهم إليك ، يكون استمراراً لي ، يكون خليفةً لي ، لأني أخاف عليهم ، شدَّة حرصه على إخوانه ، وعلى أتباعه ، وعلى تلاميذه جعله يدعو هذا الدعاء ، وكيف أن الأمور تبدو مستحيلة ، وكيف أن الطرق مسدودة ، وكيف أن الأسباب معطَّلة ومع ذلك جاءت حكمة الله وجاءت قدرة الله عزَّ وجل فوهبته غلاماً نبياً .

وكيف أن آداب الدعاء ثلاثة : أن يكون الصوت خافتاً ، وأن يكون التذلل واضحاً ، وأن يكون التوسُّلُ بعملٍ صالحاً ، أو بحسن ظنٍ بالله عزَّ وجل ، اخفض صوتك ، وتذلل لربك ، وتوسَّل إليه بصالح عملك، وهذه من آداب الدعاء .

وكيف أن هذا النبي العظيم دعا ربه ، فما الذي جعله يدعو ربَّه الكريم إلى غلامٍ حكيم ؟ ما رآه من مريم الصِدِّيقة كيف أنها نشأت في طاعة الله ، ما من شيءٍ على وجه الأرض أعظم من أن تقرَّ عينك بابنك، أن تراه طائعاً لله ، مصلياً ، وقوراً ، ذا سمتٍ حسن ، يحبُّ الله ورسوله ، يسعى في طاعة الله ورسوله ، إذاً هذا تعليمٌ لنا ، والقضية قضية سؤال ، لم يفعل هذا النبي العظيم إلا شيئاً واحداً أنه سأل المولى جلَّ وعلا ، وانتهى الأمر ، لم يفعل شيئاً إلا أنه سأل ربَّه ، وربُّ زكريَّا هو ربنا ، وربُّ زكريَّا الذي استجاب له ، وهو معنا ، ويستجيب لنا .

إذاً ليس المقصود من هذا الدرس أن نستمع إلى الأحداث ، والمواقف ، والعقدة والحل ، وما كان وكيف كان ، هذه كلُّها ليست معنيةً في هذا الدرس ، المعني أن ندعو ربنا ، وأن نسلك الطريق التي سار بها هذا النبي الكريم .

والذي أريد أن أؤكد عليه أنَّ كلمة (رب) التي وردت في هذه السورة تشير إلى أن الرب هو الممدّ ، فكما قلت لكم من قبل : هناك نعمة الإيجاد ، وهناك نعمة الإمداد ، وهناك نعمة الإرشاد ، فهذا الهواء من ربنا ، لولا الهواء لمات العِباد ، وهذا الماء الذي نشربه ، وهذه الأمطار التي تنزل من السماء إنما هي رحمةٌ من الله عزَّ وجل ، فكلَّما رأيتَ نعمةً ، أو عاينتَ رحمةً تذكَّر أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخَّره لك ، وبين المؤمن وبين المُشرك هذا هو الفرق ، المشرك يقول :

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

(سورة القصص : " 78 ")

بينما المؤمن يعزو ذلك إلى الله عزَّ وجل .

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قصَّة السيدة مريم الصدّيقة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 16 - 37
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-12-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الثاني من سورة مريم .

معجزة ولادة يحيى مقدمة لمعجزة ولادة عيسى عليه السلام :

القصة الأولى في هذه السورة قصة سيدنا زكريا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، هذه القصة تُعَدُّ من حيث إن ولادة سيدنا يحيى كانت بإعجازٍ دون إعجاز سيدنا عيسى ، فكأن الله سبحانه وتعالى هيَّأنا من معجزةٍ إلى معجزة ، سيدنا زكريا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان قد بلغ من الكبر عِتياً ، وكانت امرأته عاقراً ، ومع ذلك وهبه الله يحيى عليه السلام لبيان ، وتأكيد كمال قدرة الله عزَّ وجل ، لكن القصة التالية في نظر البشر أعظم إعجازاً من الأولى لأن هذا النبي العظيم سيدنا عيسى عليه السلام ولِدَ من غير أبٍ إطلاقاً ، والحقيقة الناصِعة هي أن كِلا الحالتين عند الله سواء ، لأن أمره..

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس : 82)

وبالنسبة لله سبحانه وتعالى كلا الحالين سواء ، ولكن كتهيئَةٍ وتمهيدٍ لأذهاننا جاءت قصة سيدنا زكريا قبل قصة سيدنا عيسى ، إذْ إنّ الأولى تمهيدٌ للثانية ، وقد بَيَّنْتُ بفضل الله عزَّ وجل كيف أن الإنسان لا يملك إلا الطلَب ، ما كان من هذا النبي العظيم إلا أن طلبَ ولياً يرثه في الدعوة إلى الله ، فكان أن لبَّى الله طلبه ، لذلك جاء في مطلع هذه السورة :

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)

هذه رحمة الله عزَّ وجل ، ليس لك إلا أن تطلب بصدقٍ وإخلاص ، وعلى الله الباقي ، وأكَّدتُ لكم أن المَعْنِيَّ هو نحن ، لأن هذا النبي الكريم مضى ، وهو في جنَّات القُرُبات ، ولكننا نحن الذين نقرأ هذا القرآن نحن المعنيّون بهذه القصة ، فكلما ضاقت بنا الأمور ، وكلما رغبنا بشيءٍ يُعَدُّ من رحمة الله عزَّ وجل ، ليس لنا إلا أن ندعوَ الله عزَّ وجل مخلصين صادقين حتى تكون الرحمة ، لأن النبي الكريم سيدنا زكريا يقول :

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)

أي ما دعوتك في الماضي دعوةً وحرمتني من الإجابة ، وربنا سبحانه وتعالى يُحَدِّثُنا عن مريم ابنة عِمران ، يقول :

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً)

قصة مريم ابنة عمران :

أيْ اذكر يا محمد لقومك ، واذكر لهم هذه القصة التي جاءت في الكتاب ، واذكر يا محمدُ لقومك هذه القصة لا لذاتها ، بل لتكون دليلاً على كمال قدرة الله عزَّ وجل .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً)

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

(من صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري)

مرتبتها في رأي مُعظم العلماء صدِّيقة ، ومرتبة الصّدِيقيَّة تأتي بعد مرتبة النبوة ، رسالةٌ ، فنبوةٌ ، فصديقيَّة ، فكانت هذه المرأة صدّيقة .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ)

والمقصود ليس اسم مريم ، بل المقصودُ أن يذكر في الكتاب قصة مريم .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً)

إذ انْتَبَذَتْ مِن أَهْلِهَا مَكَانًا شَرقِيًّا

معنى نبذتُ الشيء أي ألقيته لقلّة شأنه ، ولكن إذا انتبذت هذه الصديّقة ، أي ابتعدت عن قومها لتعبد ربها ، أي لها خلوتها مع الله عزَّ وجل.

(انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً)

والجلوة من الخلوة ، والموارد من الأوراد ، ومن لم تكن له بدايةٌ محرقة لم تكن له نهايةٌ مشرقة ، " يا موسى أتحب أن أكون معك ؟ فصعق هذا النبي الكريم ، قال : وكيف ذلك يا رب ؟ قال : أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني " ، والأنبياء جميعاً لهم خلواتهم مع الله عزَّ وجل، والمؤمنون يجب أن تكون لهم خلواتُهم مع الله عزَّ وجل ، فهذه الصدِّيقة الكريمة ..

(انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً)

أي ابتعدت جهة المَشْرِق لتخلو لنفسها ، وتعبد ربها ، وتتصل به وتقبل عليه ، فتسمو نفسها وتسعد روحها بهذا اللقاء وهذه الخلوة .

(فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً)

مبالغة مريم عليها السلام في خلوتها للعبادة :

يبدو أنها أرادت أن تُبالغ في خلوتها ، فجعلت بينها وبين قومها حجاباً يمنع دخولهم إليها ، من أجل ضمان هذه الوجهة ، وتلك العباد ، وهذه الصَبوة .

(فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا)

تَصَوّرْ امرأة طاهرة ، ملائكية ، عفيفة ، حَصَانًا ، حَيِيَّة ، اتخذت لها مكاناً بعيداً عن قومها ، وأحكمت الحِجاب ، فإذا أمامها رجلٌ وسيم الطَلْعَة قد خَرَقَ عليها الحجاب .

(فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا)

إرسال الله عزوجل جبريل إلى مريم عليها السلام :

من أوجه التفاسير أن (روحنا)هو سيدنا جبريل عليه السلام ، وجبريل كما تروي الكتب له جسمٌ ضخمٌ جدا ، يملأ ما بين السماء والأرض ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمةً بها ، ومن باب اللُطف الإلهي ، جعل هذا المَلك العظيم ، جعله على شكل إنسانٍ سويٍ كامل الخِلْقَة .

(فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا)

وإنما نُسِبَ هذا الروح إلى الله عزَّ وجل نسبة تكريم ، هذا الملك العظيم الذي يعد رئيس الملائكة هو سيدنا جبريل ، نسب إلى الله عزَّ وجل ، كأنْ يقول الله عزَّ وجل يا عبادي : لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، قل لعبادي ، هذه نسبة تكريمٍ وتشريف .

(فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً)

تمثُّل جبريل عليه السلام بصفة البشر :

لو أنها رأته كما هو عليه في حقيقتِهِ لصُعِقَت ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمةً بها ، وإكراماً لها ، ولطفاً ببشريَّتها ، وإمكاناتها ، جعل هذا الملك العظيم يتمثل على شكل إنسانٍ سويٍ قريب ، ولكن لطهارتها ، وعفَّتها ، وحيائها ، وقُدْسِيَّتِها ، هالها أن يخترق حجابها شابٌ وسيم ، قالت :

(قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً)

استعاذة مريم عليها السلام بالله عند رؤيتها رجلا أمامها :

أيْ إن كنت تقياً ، إن كنت أيها الرجل تتقي الله ، وتخشاه ، وتخاف منه فابتعد عني .

(قالَتْ إنِّي أعُوذُ بالرَّحْمَنِ)

أيْ عُذْتُ بالله عزَّ وجل من أن تنالني بسوء ، فإن كنت يا هذا تقياً تخشى الله ، وتخشى عقابه ، وتخشى أن تتعدى حدوده ، فاتقِ الله ، وابتعد عني ، وهذا شأن المرأة الصالحة ، إن العفَّة أبرز ما يُمَيِّزُ المرأة الصالحة..

(قالَتْ إنِّي أعُوذُ بالرَّحْمَنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيّاً)

طمأنة جبريل مريمَ بأنه رسول من الله :

قال لها هذا الرجل ، أو هذا الشاب :

(قالَ إنَّمَا أنَا رَسُولُ رَبِّكِ)

أنا رسول من عند الله ..

(لِأهَبَ لكِ غُلَاماً زَكِيّاً)

لأهَبَ لكِ غُلامًا زَكِيًّا :

غُلاماً زكياً ، زكيَّ النَفْس ، طاهر النفس ، غلاماً متميِّزاً .

(إنَّمَا أنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأهَبَ لكِ غُلَاماً زَكِيّاً)

اطمأنَّت على أنه ليس بشراً ، إنه ملك ، لا ينوي السوء ، لا ينوي أن يعتدي عليها ، لا ينوي أن ينالها بسوء ، إنما هو رسولٌ من عند الله ليهَبَ لها غلاماً زكياً .

عجب مريم من كيفية ولادتها من غير أن يمسّها رجل :

لكنها عَجِبَت ، وحُقَّ لها أن تعجب ، إنها فتاةٌ عذراء ، لم يسبق لها الزواج ، وفضلاً عن ذلك لم تكن امرأةً بغيّا ، والمرأة اَلبَغي هي التي تبتغي الرجال ، تلاحقهم هي من أجل أن تكسب مالاً عن طريق هذه العلاقة المُحَرَّمة ، وجمع بَغِيّ بغايا .

(وَلَمْ أكُ بَغِيّاً)

لست متزوجة ، ولست بغيّاً .

(قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ)

أدب القرآن في اختيار الكلمات : وَلَم يَمْسَسْنِي :

وكلمة (يمسسني)من كنايات الله سبحانه وتعالى ، من الكنايات اللطيفة ..

(أَوْ لامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

(سورة النساء : من آية " 43 ")

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ)

(سورة المعارج : 29-31)

حينما يُعَبِّرُ الله عزَّ وجل عن حالاتٍ مخصوصة ؛ مثلاً عن : حالةٍ تقع بين المرأة والرجل يعبِّر عن هذه الحالة بألطف الكِنايات ، وكذلك قالت هذه الصدِّيقة :

(أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً * قَالَ كَذَلِكِ)

وأنت على هذه الحالة ، وأنتِ فتاةٌ عذراء ، لم يسبق لكِ الزواج ، وأنتِ على هذه الطهارة ، وعلى حالة البُعد عن الأزواج والرجال ، فَسيكون لكِ هذا الغلام ..

(قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)

ليس على الله شيء عسير :

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه))

(من صحيح مسلم عن أبي ذر)

(كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس: 82)

(هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)

هكذا قال الله عزَّ وجل ، يستوي عند الله عظيم الأشياء وحقيرُها ، خلق الجبال كخلق النمل ، كلاهما في الخلق سيَّان ..

(هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاس)

الأسباب لا تخلق النتائج :

ذكرت لكم أن الإنسان أحياناً يتوهَّمُ أن الأسباب هي التي تخلق النتائج ، وهذا أحد أنواع الشرك ، وقد سُمي شرك الأسباب ، لئلا يقع الإنسان في شرك الأسباب يجب أن يعلم أن رَبَّ الأرباب في أية لحظةٍ يُعَطِّل هذه الأسباب ، أو يلغيها ، يعطلها حينما توجد ، ولا تُحَقِّقُ النتائج ، من هنا كان فلانٌ وفلانَةٌ زوجين شابين ، ومع ذلك لم ينجبا ولداً ، هنا تعطَّلت الأسباب ، وكالسيدة حواء كانت من دون أم ، وكسيدنا عيسى كان من دون أب ، هنا تعطَّلت الأسباب ، في حالة العُقْرِ تعطلت الأسباب ، أما في حالة السيِّدة حواء وسيدنا عيسى فقد أُلغيت الأسباب إلغاءً ، تعطلت ، أو أُلغيت ، إذاً النتيجة لا يخلقها السبب، ولكن السبب يرافق النتيجة ، هذا هو التوحيد ، فالأشياء تقع - كما يقول علماء التوحيد - عندها لا بها ، أي عند إرادة الله عزَّ وجل لا بالأسباب ، لذلك نارٌ مضرمةٌ أرادوا بها إحراقَ سيدنا إبراهيم ، فقال الله عزَّ وجل :

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء : 69)

(وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً)

عيسى عليه السلام آية من آيات الله :

كما قال الإمام علي كرم الله وجهه : " عَلِمَ ما كان ، وعَلِمَ ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون " ، هذا الأمر مُنتهٍ ، هو من قضاء الله ، ستُنجب هذه المرأة الطاهرة الصدِّيقة غلاماً من دون أب ، ليكون هذا الغلام آيةً على كمال قدرة الله عزَّ وجل .

(وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً)

وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًا

لذلك الشيء الذي وقع لابدَّ أن يقع ، ومتى وقع فهناك حكمةٌ بالغةٌ ندركها ، أو لا ندركها ، هكذا التوحيد ، الشيء الذي وقع ، لابدَّ أن يقع ، ولو لم يقع لكان عدم وقوعه نقصاً في حكمة الله ، ونقصاً في علمه ، وحاشا لله أن تكون حكمته ناقصة ، وأن يكون علمه ناقصاً ، كمال علمه ، وكمال حكمته يقتضي أن يقع هذا الشيء الذي وقع ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن))

(القضاعي في مسند الشهاب عن أبي هريرة)

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(مسند أحمد)

وانتهى الأمر ، ما دام الشيء قد وقع فهناك حكمةٌ بالغة ، هذه هي العقيدة الصحيحة .

(وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً)

كل ما يقع هو عينُ الرحمة والحكمة :

أي أن الذي يقع عين الرحمة ، وعين الحكمة ، وعين العلم ، وعين القدرة ، وعين العدل ، أي شيءٍ وقع ، قد يقع الشيء ، ويتمنَّى الناس أنه لو لم يقع ، وهذا نقصٌ في علمهم ، ونقصٌ في توحيدهم ، لكن الذي يقع إن لم يكن موافقاً للشرع فينبغي أن يسعى الناس لإزالته ، لو وقع فسادٌ فماذا نقول ؟ ماذا يقتضي الإيمان بالقضاء والقدر ؟ لو وقع فسادٌ في بيتٍ من البيوت هل يقول الأب : هذا فسادٌ وقع بتقدير الله عزَّ وجل ، ولا حيلة لي مع الأقدار ، أو أنه يُشَمِّر ليزيل هذا الفساد ؟ لا يعني الإيمان بالقضاء والقدر أن يقف الإنسان المؤمن مكتوف اليَدَيْن ، هذا الفهم فهمٌ سقيمٌ ، لا يتناسب مع الإيمان الصحيح ، أنت مأمورٌ أن تقيم الأشياء على الطريق الصحيح ، أنت مأمورٌ أن تقيم الأمور وَفْقَ ميزانٍ صحيح ، إذا وقعت على غيرِ المراد فاعلم علم اليقين أنه لابدَّ أن تقع ، وعليك مهمة إصلاحها ، فلعل في وقوعها امتحاناً لك ، ولعل في وقوعها جَلْبَاً للخير ، وأنت في أمسّ الحاجة إليه .

(وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً)

لذلك ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ))

(سنن ابن ماجة)

وكان عليه الصلاة والسلام يقول :

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، وَكَانَ خَيْرًا ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، وَكَانَ خَيْرًا))

(من مسند أحمد عن صهيب)

هكذا الإيمان ، وقعت واقعة أنت كمؤمن يجب أن تُزيلها بدافع إيمانك ، تنتابك مشاعر دقيقة جداً ترضى بها ، لأن الله أرادها ، والله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً وقع ، وإذا وقع الشيء أراده الله ، هذه

علاقةٌ ترابُطِيَّة بين إرادة الله وبين حدوث الأشياء ، كل شيءٍ وقع أراده الله ، وكل شيءٍ أراده الله وقع.. أوّلاً استسلامٌ لقضاء الله وقدره ، ثانياً أنت كإنسان مكلَّفٍ ؛ مكلفٍ بالأمانة ، أنت مكلفٌ أن تقيم الأمور على شكلٍ صحيح ، أنت مكلفٌ أن تستقيم على أمر الله ، أن تأمر بالمعروف ، وأن تنهي عن المنكر ، لأنك مكلفٌ هكذا يجب أن تعمل لإزالة هذا الشيء الذي وقع بأمر الله ، إنه امتحانٌ لك ، إنه كشفٌ لحقيقتك .

(فَحَمَلَتْهُ)

حملُ السيدة مريم بعيسى عليه السلام وابتعادها عن قومها :

تروي بعض الكُتُب أن هذا الرسول الكريم ، المَلَك العظيم نَفَخَ في كُمِّها فحملت بغلامها .

(فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً)

من شدة خجلها ، وشدة قلقها ، وشدة حيائها ، وخوفها على سمعتها، ولأن الفتاة سمعتها في عفَّتِها ، رأسمالها كلُّه في عفتها ، كيف وقد حملت ، وليست متزوجة ، وليست بغِيّاً ، ماذا يقول الناس عنها ؟ كيف تجيبهم ؟ كيف تجابههم ؟ كيف تعتذر لهم ؟ هذه الهموم تعاظَمَتْ عليها ، حملتها على أن تبتعد عن الناس ..

(فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً)

معنى قصياً أي بعيداً ، إلى أن جاءها المخاض ..

(فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ)

معنى :

(فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ)

أي فألجَأها المخاض ، شدة الألم ، آلامُ المخاض دفعتها إلى جذع نخلة .

(فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً)

تمني مريم عليها السلام الموتَ خوفا من كلام الناس :

هذه طهارتها ، وهذه عفتها ، خوفها على سمعتها ، خوفها من كلام الناس ، هي طاهرة ، والناس ربما لا يصدِّقون طهارتها .

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً)

ليتني لم أكن شيئاً مذكوراً ، ليتني كنت خِرْقَةً مُلقاةً في الطريق ، ليتني كنت عوداً ، شيئاً لا يعني الناس لا يلتفتون إليه ، لا يأبهون له ..

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً)

خافت على سمعتها ، وخافت أن يقع الناس بالبُهتان حينما يتهمونها بالسوء ، خافت مرتين ، مرةً أن تسبب للناس الوقوع في المعاصي ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من قذف محصنة يهدم عمل ثمانين سنة))

(الديلمي في الفردوس عن أبي هريرة)

أن تتهم امرأةً شريفة ، أن تتهم امرأةً حصيفة ، امرأةً عفيفة ، امرأةً طاهرة ، أن تتهمها بالزنا ، والأمر يجري هكذا ، إن الله سبحانه وتعالى يُبطل بهذا الاتهام عمل مئة سنة ، والحكم الشرعي أن يُجَلَدُ هذا الذي يتهم المرأة العفيفة ثمانين جلدة ، وأن يسقط حَقَّهُ المدني في الإدلاء بالشهادة ، وَلاَ تَقْبَلُوا لَه شهادةً أبداً ، فالإنسان قبل أن يخوض في أعراض الناس ، وقبل أن ينقل الأخبار غير الموثوقة عليه أن يتبيّنَ ويتثبت .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات :6)

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً)

ألمُها الشديد وخوفها الشديد من الفضيحة ، ومن أن تلوكَ الناس سمعتها بسوء ، ومن أن تواجه الناس بتهمة الزنا كما يتوهَّمون ..

(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا)

جبريل يطمئن مريم عليها السلام :

جاءها المَلَك مرةً ثانية ، وقد تروي بعض الكُتُب أنها كانت في مكانٍ مرتفع ، جاءها الملك مرةً ثانية ..

(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي)

لا تحزني ..

(قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً)

معنى : سريًا :

معنى سرياً ، أي أن هذا الغلام الذي ستلدينه سيكون له شأنٌ عظيم ، سيكون له ذكرٌ كريم في الآفاق ، إنه إنسانٌ يَهَبُ السعادة لمن ولدَه فلا تحزني ..

(أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً)

سَراة القوم أي عظماء القوم ، وجهاء القوم ، فلانٌ مِن سَراة القوم من عظمائهم ..

(تَحْتَكِ سَرِيّاً)

أيْ سيكون إنساناً عظيماً ، سيكون له شأنٌ كبير ، وفي بعض التفاسير أنَّ الله سبحانه وتعالى إكراماً لها، كانت تحتها ساقية ماءٍ جافة ، فأجرى لها الماء ، والقُرآن ذو وجوه ، وهذا هو المعنى الثاني لكلمة " سرياً" .. أي جدول ماء جاف فأجراه الله سبحانه .

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ)

وهزي : الأخذ بالأسباب :

قال لي بعضهم : ذهبت إلى بلاد الحجاز ورأيت نخلةً فحاولت أن أهُزَّها فلم أستطع أن أُحَرِّك منها شيئاً ، قال : فكيف قال الله عزَّ وجل :

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ)

بعضهم قال : إن هذا من باب الأخذ بالأسباب ، فكيف أن الرزق محتوم ، ومقسوم ، وموزون ، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أمرنا بالسعي أي بالأخذ بالأسباب ، فما عليها إلا أن تهُز هذا الجذع .

وبعضهم قال : إن الله سبحانه وتعالى ألانَ لها هذا الجذع ، فاهتز فسقطت التمرات أمامها فأكلتها.

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً)

فوائد التمر للمرأة الحامل :

وفي بعض البحوث العلمية عن التمر وعن الرُطَب ، أن فيها ثمانٍ وأربعين مادةً غذائية ، التمر فيه ثمانٍ وأربعون مادةً غذائية ، وأن التمر فيه مادةٌ مضادةٌ للنزيف ، وفيه مادةٌ مُلَيِّنَةٌ للأمعاء ، وفيه مادةٌ حاثةٌ ، ومحرّضَة على الطلق ، وفيه مادةٌ تنطلق من الفم إلى الدم في عشرين دقيقة ، لذلك لم يكن عبثاً أن يذكر الله سبحانه وتعالى المَخاض ، ويذكر مع المخاض النخلة ، لأن التمر هو الغذاء الأمثل لمَن يضَعْنَ ، أو قبيل الوضع ، فيه مادة مليِّنة من أجل تفريغ الأمعاء لتكون الولادة أسهل ، وفيه مادة تمنع

النزيف ، وفيه مادة تحث عضلات الرحم على التقلُّص ، وفيه غذاء من أعلى مستوى ينتقل إلى الدم في أقصر وقتٍ أيْ خلالَ عشرين دقيقة ..

(تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً)

الراحة التامة للحامل : كلي واشربي وقري عينا :

وأيضاً نامي ، فسّرها بعضهم " وقرّي عيناً " : أي نامي ، كلي ، واشربي ، ونامي .

وإذا العناية لاحظتك جفونُها نم فالمخاوف كلُّهنَّ أمان

* * *

أتيناك بالفقر يا ذا الغنى..

.. وأنت الذي لم تزل محسنا

وعوّدتنا كل فضلٍ عسى..

..... يدوم الذي منك عوّدتنا

إذا كنت في كل حالٍ معي

فعن حَمْل زادي أنا في غنى

* * *

(فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً)

لا تخافي ، لا تقلقي ، لا تقلقي على سُمْعَتَكِ ، لا تخافي من مواجهة الناس ..

(فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً)

الصوم عن الكلام :

صومي عن الكلام ، دعي هذا لنا ، نحن نُبرّئك ..

(فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً)

قالوا : هذا في شرع مَن كان قبلنا ، أما في الإسلام فالصيام عن الكلام ليس مقبولاً ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام شَرَعَ لنا أن نصوم عن الكلام السيِّئ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ ، وَلَا يَجْهَلْ ، وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ فَلْيَقُلْ : إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ))

[ابن ماجه بهذا اللفظ ، وهو في الصحيحين قريبا منه]

أما أن تصوم مُطلقاً ، وليس في الشرع الإسلامي ما يبيح لك ذلك ، لكن هذا كان في شرع مَن كان قبلنا .

(فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً)

بعض العلماء قالوا : " هذا الكلام تقوله إشارةً " ، أشيري لهم أنكِ صائمة ، ولا تكلمي أحداً لأيّ سبب.

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا)

مجيء مريم عليها السلام قومَها بالمولود :

جاءت قومها ، وهي العَذراء البتول ، والمرأةُ الحَصان ، جاءت قومها تحمل على يديها وليداً ، وهذه هي المشكلة ، هنا العُقدة ..

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا)

إنكار قوم مريم عليها ولادتها :

وقد هالهم الأمر ، وأدهشهم ..

(يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً)

أي شيئاً عظيماً ، ما من سقوطٍ أعظم عند المرأة من أن تأتي بغلامٍ ، وهي غير متزوِّجة ..

(يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أُخْتَ هَارُونَ)

نَعْرِفُكِ قديسة ، نعرفكِ عفيفة ، نعرفكِ طاهرة ، نعرفكِ متعبِّدة ، كيف كان هذا ؟ أنتِ أختُ هارون ، وكان سيدنا هارون مضرب المثل ..

(يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً)

إحالة مريم الكلام إلى عيسى عليه السلام :

قال بعض العلماء : " إن استخفافها بهم حينما أشارت إلى الوليد الذي تحمله كان أشد عليهم مِن اتهامِها عندَهُم .

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً)

أتسخرين منا ؟ أهذا يتكلَّم ؟ أهذا يُدافع عنكِ ؟ .

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ)

كلام عيسى عليه السلام في المهد بالعبودية لله عزوجل والرسالة :

تكلَّم هذا الطفل الذي في المَهد ..

(قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ)

لِمَ اختار هذه الكلمة : إنّي عبدٌ الله ، وكأن الله عزَّ وجل يعلم ما سيكون ، يعلم أن هناك مَن سيجعله إلهاً..

(قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً)

معنى آتاني ، جاءت بالماضي ، لأن أفعال الله عزَّ وجل يُعَبَّر عنها بالماضي ولو لم تقع ، لأن وقوعها مُحَقَّق ، هذه حكمة قوله :

(قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً)

قال تعالى :

(وَإِذْ قالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ(116)مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(سورة المائدة : 116-117)

(قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ)

تكلَّم هذا الغلام الصَغير ، تكلَّمَ هذا الطفل الرضيع ، وبرَّأ أُمَّه ..

(آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ)

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين :

هكذا المؤمن ، هو نبيٌّ عظيم ، ولكنْ ، إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين .

(مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ)

مصدر كل خير ، أينما جلس يُقَدِّمْ الخير للناس ، بعلمه ، ومعروفه، ونصائحه ، ودعوته .

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً)

هل أنت مبارك أيها الأخ الكريم ؟ أنت مبارك ؟ هذه القصة لنا ، قس نفسك ، هل يُثني الناس عليك أينما حَللت وحيثما ارتحلت ، هل يتمنى الناس أن يلتقوا بك ، أم يتمنون أن يبتعدوا عنك ؟ هل يتقيك الناس مخافة شرِّك ، أم يتمنى الناس التماسَ خيرك ؟

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ)

هكذا حال المؤمن في سره وجهره ، في خلوته وجلوته ، في حلّه وترحاله ، في قوته وضعفه ، في كل أحواله ، إنه في خدمة الخلق ، إنه مُحِبٌ للحق ، وفي خدمة الخلق ، مبارك ..

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ)

قد تجد إنساناً مستقيماً في بلده ، فإذا سافر خَرَقَ الاستقامة ، هناك إنسان مستقيم في حالة الفقر ، فإذا اغتنى عتا وطغى ، هناك إنسان مستقيم في حالة القهر ، فإذا صَحَّ ، وقوي بغى وطغى .

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

هذا هو الدين كله ، اتصالٌ بالخالق ، وإحسانٌ للمخلوق .

(مَا دُمْتُ حَيّاً)

أنت عاهدت الله عزَّ وجل على أن تكون معه في كل أحوالك ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب :41)

(وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا)

(سورة الفرقان : 63)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران :190-191)

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي)

جعلني باراً بوالدتي ..

(وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً)

كيف اقترن عند الله عزَّ وجل أن يكون المَرْءُ جباراً شقياً ؟ إنّ مِن لوازم كونه جباراً أن يكون شقياً ، وهكذا فكلُ جبارٍ شقيٌّ .

(وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)

حياة المؤمن كُلُّها سلام :

حياة المؤمن كُلُّها سلام ، طبعاً فالله سبحانه وتعالى طمأنه فأنطقه ..

(وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)

عندها قال الله عزَّ وجل :

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)

هذه قصَّته ، وهذه حقيقته ، وهذا الذي وقع ، ولم يقع سوى هذا ..

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ)

حقيقة عيسى عليه السلام :

من معاني الحق ذِكْرُ الشيء كما وقع .

(الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)

اليهود اتهموها بالزنا ، وقالوا عن يوسف النجار ما قالوا ، وقذفوه أيضاً ، اتهموها بيوسف هذا ، وهو الرجل الذي كان معها ، وبعضهم قال عن الوليد : إنه ابن الله ..

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ)

مَا كَانَ للّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ

ما كان ، أشد أداةٍ ، أشد صيغةٍ من صِيَغ النَفْي في القرآن الكريم هذه الصيغة ..

(مَا كَانَ لِلَّهِ)

ليس من شأنه ، إنه إلهٌ عظيم ..

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(4)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

(سورة الإخلاص : 3-4)

ليس من شأنه أن يكون له ولد ليستعين به ، إنه فردٌ صمد ، ليس من شأنه أن يكون له ولدٌ ليخلّدَ ذكره، إنه الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، إنه أبديٌ سَرْمَدي ، فلِمَ الولد ؟ نحن نبتغي الولد ليكون خَلَفاً لنا، لنستعين به في أيام ضعفنا ، الله سبحانه وتعالى قويٌ عزيز ، حيٌ قيوم ، فردٌ صمد ، ليس من شأنه أن يكون له ولد .

(مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

هذا الميلاد المُعْجِز جعله الله دليلاً على كمال قدرته ، فجاء الناس فأشركوا بالله عزَّ وجل ، وكفروا به إذ جعلوا عيسى ابناً له .

(مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ)

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء :43)

(إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

من فوائد قصة مريم عليها السلام :

1 – كمال قدرة الله تعالى :

هذه القصة هي القصةُ الثانية في سورة مريم التي تبيِّنُ كمال قدرة الله تعالى ، وتبين أن الأشياء تقعُ بقدرة الله ، وبمشيئة الله .

2 – الأسباب لا تخلق النتائج :

وأن الأسباب ليست هي الخالقة ، والدليل أن الله سبحانه وتعالى قد يُعَطِّلُ الأسباب في حالة العُقْرِ ، وقد يلغي الأسباب في حالة هذا الميلاد المُعجز لسيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

3 – شرف المرأة المؤمنة وحرصها على سمعتها :

شيءٌ آخر .. تبيِّن هذه القصة شَرَفَ المرأة المؤمنة ، وخوفَها على سمعتها ، وحزنَها الشديد في أن تواجه الناس بتهمةٍ هي بريئةٌ منها ، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام شدد على موضوع قذف المحصنة فقال :

((من قذف محصنة يهدم عمل ثمانين سنة))

[الديلمي في الفردوس عن أبي هريرة]

وأن الإنسان مؤاخذٌ بما يقول ..

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً)

(سورة الإسراء : 36)

أيها الإخوة الأكارم ... اقرؤوا هذه القصة ، واحفظوها ، وعلموها أهلكم وبناتكم ليعرفوا شرف المرأة المؤمنة ، وأن هذه الصِدِّيقة العظيمة حَصانٌ رَزان ، وكيف أن الله عزَّ وجل وصفها بالصفات التي يجب أن تتحلى بها كل امرأةٍ مؤمنة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 38 - 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-12-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الثالث من سورة مريم ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

عيسى عليه السلام عبدُ الله ورسولُه :

هذه هي الحقيقة ، هذا هو واقع الأمر ، وكلُّ الذي يُدَّعى ، ويُقال عن هذا النبي العظيم عدا ما تضمنته هذه الآيات فلا أصل له ..

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ)

مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِن ولدٍ

هذا يستحيل في حقِّ الله أن يكون له ولد ، لأنه غنيٌّ عن الولد ، الولد يُتَّخَذُ عادةً لتخليد الذكر ، والولد يُتَّخذ عادةً ليعين أباه في سنِّ الضعف ، والله سبحانه وتعالى قويٌّ ، غنيٌّ ، أبديٌّ ، سرمديٌّ ، واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ ..

(مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

أمرُ الله بين الكاف والنون ..

(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

فحينما تكلمَ هذا النبي الكريم يوم كان صغيراً :

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)

(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ)

اليهود اتهموا هذه السيدة الصِدِّيقة البتول بالزنا ، والنصارى قالوا : هذا ابن الله ..

(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

كيف كذبوا على الله ، وكيف قالوا على الله من دون علمٍ ، ولا هدىً ، ولا كتابٍ مبين .

(أَسْمِعْ بِهِمْ)

هنا وصلنا بالضبط :

(وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

صيغة التعجب في العربية :

في اللغة العربية صيغتان قياسيَّتان من صيغ التعجُّب ، تقول : ما أعدل القاضي ، وأعدِل به ، ما أفعله، وأفعِل به ، فصيغة أفْعِلْ به صيغةٌ من صيغ التعجُّب ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

متى ؟

(يَوْمَ يَأْتُونَنَا)

الشقي من عرف الحقيقة بعد فوات الأوان : يَوْمَ يَأْتُونَنَا :

أيْ ما أشدَّ سمعهم ، وما أشدَّ بصرهم يوم القيامة ، ولكن بعد فوات الأوان ، أما في الدنيا يوم فكان ينفعهم سمعهم وأبصارهم ، فقد كانوا صُماً بكماً عُمياً عن كل حقيقة ، أما يوم القيامة ، يوم لا ينفعهم سمعهم وأبصارهم فحينئذٍ ..

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

هذا هو الشقي ، إنّهُ يعرف الحقيقة بعد فوات الأوان ، الطالب الكسول يفتح الكتاب ليقرأ الإجابة عن السؤال بعد الامتحان ، بعد أن نال الصفر ، ما قيمة فهمك لهذا الكتاب الآن ؟ ما قيمة هذا الفهم وهذه القراءة ؟ فالله سبحانه وتعالى يقول :

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

أي ما أشدَّ سمعهم ، وما أشدَّ بَصَرَهُم ، وهذا يؤيِّده قوله تعالى :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

رؤيةٌ ثاقبة ، رؤيةٌ صحيحة ، إدراكٌ عميق ، فهمٌ دقيق ، كشفٌ للحقائق ، ولكن متى ؟ بعد فوات الأوان ..

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

ليتَهم أبصروا هذه الحقيقة ، وهم في الدنيا ، ليتهم عرفوا ربهم ، وهم في أوْج قوَّتهم ، يوم كان من الممكن أن يُصَحَّح كل شيء ، وأن يُفتَحَ مع الله صفحةٌ جديدة ، ليتهم سمعوا ، وأبصروا يوم كانوا أحياء بيدهم الدرهم والدينار ، به يستطيعون التقرُّب إلى الله عزَّ وجل ، به يستطيعون تلافي أغلاطهم ، به يستطيعون تكفير سيّئاتهم ، ليتهم سمعوا ، وأبصروا يوم كانوا في الدنيا ، حينما كانوا مخيَّرين ، لهم حريَّة الاختيار ، أما وقد سُلِبَت منهم هذه الحريَّة ، فما قيمة سمعهم وأبصارهم ؟ .

فهذه النقطة مهمة جداً ، الإنسان في الدنيا باب التوبة مفتوح لهُ ، الأبواب كلُّها مفتَّحةٌ توصل إلى الله عزَّ وجل ، الأبواب كلُّها مفتَّحةٌ على مصاريعها في الدنيا ، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحَّتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك))

(الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ، وابن أبي شيبة في المصنف عن عمرو بن ميمون)

ما مضى فات ، والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

لا تملك إلا هذه الساعة ، الساعة التي ستأتي لا تعرف ما هي ، وأين أنت منها ، هل نحن فوق الأرض، أم تحتها ؟ في الساعة التي تَلي لا نعرف هل نحن أحياء نُرْزَق ، أم أموات ؟ والساعة التي مضت الحديثُ عنها مضيعةٌ للوقت لأنها مضت وانقضت ، وليس لنا إلا هذه الساعة التي نحن فيها ، يومٌ مفقود ، ويومٌ مشهود ، ويومٌ مورود ، ويومٌ موعود ، ويومٌ ممدود ، فاليوم المورود ، والموعود ، والممدود هذه الأيَّام الثلاثة متوقفةٌ على اليوم المشهود ، إذاً :

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

ما أشدَّ سمعهم ، وما أشدَّ بصرهم ، لقد كُشِفَ الغطاء ، وعرفوا الحقيقة ، وتبيَّن كل شيء ، وتبين أن الله عزَّ وجل هو الحقُّ المبين ، وأنه لا إله غيره ، وأن الجنَّة حق ، وأن النار حق ، وأن الأنبياء حق ، وكل هذا قد عُرِفَ ، ولكن بعد فوات الأوان ..

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا)

ليتكم سمعتم ، وأنتم في الدنيا ، ليتكم أبصرتم الحقائق ، وأنتم أحياء ، فالأبواب كلها مفتّحة ؛ بابُ التوبة مفتوح ، بابُ الاستقامة مفتوح ، بابُ العمل الصالح مفتوح ، بابُ العلم مفتوح ، بابُ التقرُّب إلى الله مفتوح ..

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

هل العَجب في الآية من الله أم من الكفار ؟

لكنَّ بعض المفسِّرين يقول : " لا يجوز التعجُّب على الله عزَّ وجل" ، ما هو العجب ؟ نحن قلنا : هذه صيغةٌ مِن صيغ التعجُّب ، هكذا العرب يقولون : ما أعدل القاضي ، وأعدِل به ، ما أجمل السماء ، وأجْمِل بها ، ما أفعله ، وأفعِل به ، هذا يجوز علينا نحن البشر ، لأن الشيء العجيب هو الشيء الذي يلفت النظر ، ولا تعرف أسبابه ، فإذا ظهر السبب بَطَلَ العجب ، أما على الله عزَّ وجل فليس هذا بعجيب ، لذلك هذا العجب ينتابنا نحن ، أيْ أن ربنا عزَّ وجل يصف عجبنا يوم القيامة كيف يشتدُّ سمعنا وبصرنا ، ولا حيلة لنا ، ويوم كنَّا في الدنيا لا سمع ، ولا بصر ، والحِيَل كلُّها بين أيدينا..

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

فما من حالةٍ قبيحةٍ بالإنسان ، وحالةٍ بشعةٍ بالإنسان ، وحالةٍ مُزريةٍ بالإنسان ، وحالةٍ مجحفةٍ بالإنسان كأن يكون جاهلاً إلا ناتجة عن الجهل ، والجهل عدو الإنسان ، والعلم فرض عينٍ على كل مسلم ، طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم ، فرض عينٍ ، فقد يقول قائل : أنا مهندس ، أنا طبيب ، أنا تاجر ، أنا مُزارع ، أنا مهندس زراعي لا شأن لي بالعلم الديني ، أنا اختصاصي غير هذا ، لا ، هذا كلامٌ مردود، طلب العلم الديني فرض عينٍ على كل مسلم ، يجب أن تعلم الحقائق التي يجب أن تُعْلَم بالضرورة ، وإلا فقد قصَّرت في حق نفسك وظلمتها ، وأوردتها المهالك ، لأنه ما مِن مأساةٍ إلا وراءها معصية ، وما من معصيةٍ إلا وراءها جهل ، والجهلُ يؤدي إلى المعصية ، والمعصية تؤدي إلى المأساة ، فلذلك إذا أردت أن تسلم في الدنيا فاطلب العلم ، وطبِّق العلم حتى تسعد في الدنيا والآخرة ..

(وَأَنْذِرْهُمْ)

إياك مِن يوم الحسرة :

يا محمَّد ، أنذر قومك ، بل أنذر الناس جميعاً ..

(يَوْمَ الْحَسْرَةِ)

يوم الحسرة من أسماء يوم القيامة .. يوم الحسرة .. لأن الإنسان تأكل قلبَه الحسرة ، فهو في الدنيا كان قد سعى ، وجمع الدرهم والدينار ، وفجأةً أصبح من أهل القبور ، فأيقن أن الذي جمعه لم ينفعه شيئاً ، كان يظنُّ أن المال كلُّ شيء فأفنى عمره في تحصيله وجمعه ، فلمَّا جاءت المَنِيَّة عرف أن المال شيء، ولكنَّه ليس كل شيء ، وأن كل شيء هو الإيمان ، ومعرفة الواحد الديَّان ، مِن هذا يأتي الندم ، فلا يعرف الشوق إلا مَن يكابده ، ولا الصبابة إلا من يعانيها ، الحسرة لا يعرفها الإنسان إلا إذا ضيَّع شيئاً ثميناً في الدنيا بتصرُّفٍ ساذجٍ جاهل ، يقول : الحسرة تأكل قلبي ، كيف ضيّعت هذه الزوجة ؟ كيف

فرَّطت فيها ؟ كيف ضيَّعت هذا البيت ؟ كيف أحجمت عن شراء هذه البضاعة ؟ إذا كان شيءٌ ماديٌّ يُحصَّل في الدنيا مرَّةً ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وضاع منك تتحسَّر عليه ، فكيف إذا عرف الإنسان أن الآخرة كلَّها قد ضاعت ، الأبد كلُّه ضاع ؟ ..

" فو الذي نفس محمدٍ بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنَّة أو النار " .

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ)

فهؤلاء الذين انغمسوا في الدنيا سيتحسَّرون على أنهم ضيَّعوا عمرهم سدى ..

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر : 56)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)

(سورة الفرقان : من آية " 37 ")

العضُّ على اليدين ، والحسرة في القلب والندم ، و ..

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

(سورة الحجر :2)

هذه الآيات كلُّها تؤكِّد أن الذي لم يعرف ربه في الدنيا ، ولم يستقم على أمره ، ولم يتقرَّب إليه ، ولم يتعلَّم العلم الذي ينجيه من أهوال يوم القيامة سوف يواجه يوم القيامة حالةً نفسيَّةً لا توصف ، عبَّر الله عنها بكلمةٍ واحدة هي .. يوم الحسرة ..

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ)

وما من شعورٍ مسعدٍ مثل أن يكون الإنسان على استعداد لغدِهِ كأن يأتي الموت ، وقد استعدَّ الإنسان له أتم استعداد ، وقد عرف ما له وما عليه ، وقد أدَّى ما عليه لله عزَّ وجل ، عَبَدَهُ ، وأطاعَه ، وأفنى عمره في طاعته ، وفي التقرُّب منه ، فجاء الموت فكان من السُعداء ، لذلك متى يخشى الإنسانُ الموتَ ؟ إذا عَمَّر دنياه ، وخَرَّب آخرته ، متى يخشى الموت ؟ إذا كان يقْدُمُ على حياةٍ لا يعرف عنها شيئاً ، متى يخشى الموت ؟ إذا حمل من الأوزار ما لا يطيق ، لذلك أقلِل من الذنوب يسهل عليك الموت ، أقلل من الشهوات يسهل عليك الفقر ، أرسل مالك أمامك يسعدك اللحاق به .

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ)

يوم الحسرة هو يومُ القضاءِ :

إذا ارتكب مجرمٌ جريمةً ، واستحقَّ الإعدام ، وصُدِّق الحكم ، وسيق للتنفيذ ، وهو يصعد درجات المشنقة ، فبكاؤه كضحكه ، كرجائه ، كدعائه ، كتوسله ، كلُّها سيَّان ..

(إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ)

الحكم مبرم ، ومصدَّق ، والتنفيذ بعد دقائق ، فهذه المشكلة أن الإنسان في الدنيا أمورُه تُصحَّح ، والأخطاء تُغْتَفَر ، والذنوب تغتفر ، والمعاصي تُسْتَر ، الحقوق تؤدَّى ، والمظالم تُسَوَّى ، كل شيءٍ في الدنيا له حل ، أما إذا جاء الموت ، وخُتِمَ العمل فليس هناك من حلٍ أبداً ..

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ)

انتهى الأمر ، هذه ساعة الحكم المبرم ..

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(سورة الزخرف : 79)

هم اتخذوا قراراً بأن الدين لا يُجدي في هذه الحياة ، هكذا أبرموا أمراً ، إذاً حينما يأتون يوم القيامة ..

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

غرور الناس بمتاع الدنيا وغفلتهم عن يوم القيامة :

كانوا في غفلةٍ عن هذا ، كانوا في غفلةٍ عن يوم القيامة ، عن هذا اليوم الرهيب ، عن الطامَّة ، عن الواقعة ، عن يوم الحسرة ، عن يوم الدين ، عن يوم الجزاء ، عن الصَّاخَّة ، هذه كلُّها أسماء ليوم القيامة ..

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لم يؤمنوا بالله عزَّ وجل ، ولم يؤمنوا باليوم الآخر ، فغفلوا عنه ، فانغمسوا في شهواتهم ، فجاءهم الموت فجأةً فأصابتهم الحسرة ..

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

(سورة المدثر : 9 -10)

يومٌ عسير حينما يُساق الإنسان ليلقى جزاء عمله ، هذا في الدنيا عسير فكيف في الآخرة ؟ في الدنيا المحامون موجودون ، والخروج بكفالة، والوسائط متوفرة ، والقاضي قد يكون منحازاً إلينا ، هناك أسباب كثيرة تخفِّف من وطأة هذه الساعة ، أما يوم القيامة فالله سبحانه وتعالى هو الحكم الفصل بين العباد ، لا محاباة ، ولا مداراة ..

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

فعلاقة هذه الآية بأختها واضحة ، فرحهم ، وغفلتهم أرْدَتْهم ..

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لماذا هم لم يؤمنوا ، وكانوا في غفلة، وانغمسوا في الشهوات ؟ لأن الدنيا كانت بين أيديهم ، إنهم فرحوا بها ، افتخروا بها ، تاهوا بها على عباد الله ..

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام : 44)

فرحوا بما أوتوا ، قارون قال :

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

(سورة القصص : من آية " 78 ")

(قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

(سورة القصص :76)

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ...))

(ورد في الأثر)

من صفات الكفَّار أنهم يفرحون بالدنيا ، يفرحون بها ، تمتلئ قلوبهم فرحةً بنيلها ، فلذلك هذه الدنيا التي فرحوا بها ، واطمأنوا إليها ، وركنوا إليها ، وسكنوا إليها ، وافتخروا بها ، واعتزوا بها هذه لن تدوم لهم ، والدليل :

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا)

كل شيء لله ملكا وتصرفا ومصيراً :

هذا البيت الذي أمضيت سنواتٍ طويلة في تزينه ليس لك ، وهذه الدُكَّان التي تعلَّق القلب بها ليست لك، وهذه المركبة الأنيقة التي تتيه بها على الناس ليست لك سيرثها الله منك ، لابدَّ من أن تتركها ، كل شيءٍ في الدنيا يُتْرَك ، ولا يدخل معك في القبر إلا عملك ، فلذلك هنا لماذا هم في غفلةٍ ؟ لماذا هم لا يؤمنون ؟ لماذا سيتحسَّرون ؟ لأنهم منغمسون في الدنيا ، والدنيا العريضة التي بين أيديهم ليست لهم ، ليست على الدوام لهم ، إنها لهم لوقتٍ محدود .. لمن هذا القطيع من الإبل ؟ قال : " لله في يدي " .. الآن في يدي ، ادخلْ أحد أسواق دمشق ، فهذه الحوانيت أصحابها الحاليون جاؤوا بعد أصحابٍ لها سابقين ، وأصحابها السابقون جاؤوا بعد أصحابٍ لها سابقين ذلك ، وهكذا دواليك ..

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا)

وفي النهاية هذه الأراضي الغالية الثمن ، وهذه البيوت الفَخمة ، وهذه المركبات الأنيقة ، وهذه البساتين الغَنَّاء ، وهذه الأموال الوفيرة إنها ليست لأصحابها ، إنها لله عزَّ وجل .

((إنَّ لله ما أعطى ، وله ما أخذ ...))

(ابن ماجه عن أسامة بن زيد)

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

يُرجَعون لنحاسبهم على أعمالهم ، وهذه الآيات جاءت بين قصَّتين ، بين قصَّة مريم الصِدِّيقة ، وبين قصَّة سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .. لنقرع نواقيس خطر العودة :

(وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

(وَاذْكُرْ)

يا محمَّد ..

(فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ)

قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه :

إنَّ العرب جاؤوا من نسله ، وهم يعتزون به ، وهم ينتمون إليه ، وإبراهيم هذا لم يكن مشركاً ، بل كان مؤمناً موحِّداً مسلماً ..

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً)

إبراهيم عليه السلام النبيُّ الصدِّيقُ :

الصِدِّيق صيغة مبالغة للصادق ، والصادق هو الذي يفعل ما يقول ، ويقول ما يفعل ، ليس هناك ازدواجيةٌ في حياته ، ليس هناك مسافةٌ بين أقواله وأفعاله ، يفعل ما يقول ، ويقول ما يفعل ، أي أنه إذا تكلَّم ينطق بالحق ، وإذا فعل يأتي فعله مصداقاً لقوله ، هذا هو الصديق ، وهذه الصفات العالية التي اتصف بها الأنبياء والمرسلون ، ومن ثم فالمؤمنون مكلَّفون أن يتَّصفوا بها لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ :

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

وَقَالَ :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)))

(مسلم عن أبي هريرة)

فيجب أن نكون صادقين ، إذا تكلّمنا فكلامنا ينبغي أن ينبع من حقيقة لا من دجل ، لا من تزوير ، لا من إخفاء ، لا من تحوير ، لا من تبديل ، وإذا فعلنا يجب أن يكون فعلنا مصداقاً لعقيدتنا ، حيثما كان القول مصدِّقاً للعمل ، وحيثما كان العمل مصدِّقاً للقول فهذه هي الصِدِّيقية ..

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً)

قال عليه الصلاة والسلام :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

(مسند أحمد عن أبي أمامة)

إذا وقع الإنسان في الكذب فكأنما خرج من إيمانه ..

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً)

وكلمة النبي لها معنيان ، إنه تَنَبَّأ بالغيب لما يوحى إليه ، تنبأ بالحق الذي أُوحي إليه ، والنبي من الشيء المرتَفَع ، أيْ مرتبةٌ نفسيةٌ رفيعة ، ومرتبةٌ علميَّةٌ رفيعة ..

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)

القول الأوَّل ، والثاني ، والثالث ، والرابع ، أربع موضوعات ، أولاً :

(يَا أَبَتِ)

أساسها يا أبي ، هذه التاء جاءت نيابةً عن ياء المُتَكَلِّم ..

(يَا أَبَتِ)

تلطُّف إبراهيم عليه السلام وأدبُه مع أبيه :

فيها تحبُّب ، فيها تلطُّف ، فيها مودَّة ، فيها تواضع ، وإذا أردْتَ أيها الأخُ المؤمن أن تنصح أباك فكن غايةً في التلطُّف ، والأدب ، والمودّة ، والاحترام ، لأن الأب أبٌ ، والابن أبنٌ ، أمَّا أن يكون الابن متعالياً ، أو قاسياً ، أو مُقَرِّعاً لأبيه ، فهذا يستحيل أن يؤدِّي هذا الموقف إلى الهداية ..

(يَا أَبَتِ)

نبيٌّ عظيم أبو الأنبياء ، ومع ذلك وقف من أبيه المُشرك وقفةً فيها أدبٌ رفيع ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)

إنكار إبراهيم عليه السلام على أبيه عبادتَه الأصنام :

يا أبتِ ، موقفُكَ موقفٌ غير معقول ، موقفٌ غير مقبول ، موقفٌ غير منطقي ، موقفٌ غير واقعي أن تأتي إلى صنمٍ من حجر فتعبده من دون الله ، أهو يسمعك إذا ناديته ؟ لا والله ، أهو يراك إن فعلت شيئاً يرضيه ؟ لا والله ، أهو يستجيب لك إن استغثتَ به ؟ لا والله ، أهو يقدِّم لك الحواس ؟ أيقدِّم لك الماء من السماء ؟ أينبت لك الزرع والزيتون ؟ أيَخْلُقُ في بطن زوجتك هذا الغلام اللطيف ؟ لا والله ..

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الواقعة :59)

الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئا :

ماذا فعل هذا الصنم ؟ ..

(لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً)

إذا تعلَّقت بإنسان له سمعٌ ، وله بصر ، وله فكرٌ ، وله إرادة ، وهو أقوى منك ، إذا تعلَّقت به فهذا إشراك ، لأن هذا الإنسان مُضَّطَرٌ إلى مقومات وجوده كاضطرارك أنت ، ولو أن الله عزَّ وجل قطع عنه الإمداد ثانيةً لأصبح جثَّةً هامدة ، إذا كنت منهياً عن أن تعبد إنساناً أرفع منك شأناً ، وأقوى منك ، يسمع ويبصر ، ولكنَّه في النهاية عبدٌ مفتقرٌ في وجوده إلى الله عزَّ وجل ، فإنك لا تُسَمَّى منطقياً ، ولا عاقلاً ، ولا واقعياً ، إذا أطعت إنساناً يبدو لك أنه عظيم ، يبدو لك أنه قوي ، يبدو لك أنه يسمع ويُبْصر، لأن هذا الإنسان مفتقرٌ في وجوده إلى الله عزَّ وجل كافتقارك أنت ، فكيف تعبد صنماً لا حسَّ له ، ولا سمع له ، ولا بصر له ، ولا إدراك له ، ولا حركة له ، ولا نفع منه ، ولا ضرر من إغضابه ؟ شيءٌ سخيفٌ جداً ..

(يَا أَبَتِ لِمَ)

استفهام إنكاري ..

(لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً)

فكِّر في هذه الأصنام ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ)

دعوة إلى الله في منتهى الأدب واللباقة :

إنه منتهى الأدب ، لم يقل له : يا أبتِ إني عالمٌ ، وأنت جاهل ، إنني أعلم كل شيء وأنت لا تعلم شيئاً ، لا ، قال :

(إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ)

جاءني بعض العلم الذي لم يأتك .. يُروى أنَّ عالماً شهيراً رأى رجلاً وحوله تلاميذه ، فهاله تجمُّع الناس حوله ، وأراد أن يصغِّره في عيون تلاميذه ، فجلس في مجلسه ، وبعد انتهاء الدرس قال له : " يا هذا ، إن هذا القول الذي تقوله ما سمعنا به ، فمِن أين جئت به ؟ " ، قال : " يا سيدي أو حصَّلت العلم كلَّه ؟ إذا قال : نعم ، فقد خالف نصَّ الآية الكريمة :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء : 85)

قال : " لا : ، قال : " فهذا من الشطر الذي لم تُحَصِّله " ، وأسكته عن طريق العقل والأدب .. وسيدنا إبراهيم كان في منتهى الأدب مع أبيه..

(إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي)

وجوب اتباع الأنبياء مطلقا :

العلماء استنبطوا من هذه الآية أن العالِم يجب أن يُتَّبَع في كل شيء ، ليس في الدين فقط ، بَلْ في أية مصلحة ، فإنّ العالِمَ هو الذي يُتَّبَع ، والأقلُّ علماً هو الذي يجب أن يتبع الأكثر علماً ، في الهندسة ، في الطب ، في أي مجال ، الكلمة الأولى للأعلم ، وفي الدين كذلك ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي)

درس وعبرة دعوية :

أنا أشعر أن هذه الكلمة في منتهى الأدب ، في منتهى التلطُّف ، وهذا درسٌ لنا ، قد تُضطر أن تناقش إنساناً أكبر منك ، قد يكون عمَّك ، أو أباك ، أو من هو أعلى منك في العلم ، أكبر منك سنَّاً ، وأعلى قدراً ، وهو واقعٌ في غَلَطٍ شديد ، واقعٌ في انحرافٍ خطير ، يتكلَّم كلاماً باطلاً ، أنت إن أردت نُصْحَهُ فإيَّاك أن تأتيه مِن فوق ، لأنه لن يستجيب لك ، إيَّاك أن تقسو عليه بالكلمات ، تلطَّف معه ، كأنني سمعت كذا وكذا ، وكأنني أريد أن أستفهم منك ، اجعلْ نُصحك له ، ووعظك إيَّاه على شكل سؤالٍ وجواب .

فهذا النبي العظيم الموحى إليه ، أبو الأنبياء ، يتلطَّف مع أبيه المشرك ، ويقول له :

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي)

وشيءٌ آخر ، ليس هناك اتّباعٌ إلا للعالِم ، أيْ أن طاعة الأب طاعةٌ مطلقةٌ عمياء سلوك غير إسلامي ..

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ))

(الترمذي)

(فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً)

اتباع الأنبياء سعادة في الدنيا والآخرة :

إن اتبعتني سعدتَ في الدنيا والآخرة ، سرتَ على صراطٍ مستقيم ، عرفتَ ما لك وما عليك ، عرفتَ الذي خلقك ، عرفتَ الذي كوَّنَك .

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)

هو يعبد هذه الأصنام ، فلِمَ قال له سيدنا إبراهيم :

(لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)

الشيطان أصل في عبادة الأصنام :

لأن الشيطان هو الذي يسوِّل للإنسان أن يعبد الأصنام ، الشيطان إذا سوَّل لهم أن يعبدوا الأصنام فإنه يبعدهم عن الواحد الديَّان .. إحدى القبائل العربيَّة كانت تعبد صنماً من تمر ، فلمَّا جاعت أكلته ، فكان يقال عنها : أكلت ودٌ ربَّها ، ومرَّة رأى شاعر صنماً وثعلبٌ يبول على رأسه ، فقال :

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه ؟!! لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

* * *

مستحيل ، كيف يُعبد هذا الصنم من دون الله ؟ ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً)

سبب الشقاء مخالفة الله وعصيانه :

أيْ أن سبب كل شقاء يلحق الإنسان ناتج عن الإنسان أنه عصى الرحمن ، وحينما تعصي إنساناً منحرفاً فربما كانت معصيتك له هي الصواب ، ولكن الشيطان عصى الرحمن ، وربنا عزَّ وجل ذكر

هذا الاسم (الرحمن)لأنه جامعٌ للأسماء الحسنى ، و كأنَّ اسم الله الأعظم ، " الله الرحمن " ..

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء : من آية " 110 ")

وبعض العلماء يقول إن هذا الاسم (الرحمن)هو : " اسم الله الأعظم ، لأن قدرته فيها رحمةٌ ، وحكمته فيها رحمةٌ ، والرحمة تَجمع بين أسمائه كلِّها " ..

(يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً)

مراحل إنكار إبراهيم على أبيه عبادتَه الأصنام :

أوّلاً :

كيف تعبدُ هذه الأصنام التي لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تغني عنك من الله شيئاً ؟!

ثانياً :

يجب أن تتبعني لأنه قد جاءني من العلم ما لم يأتك .

وثالثاً :

(لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً)

فإذا عبدت الشيطان الذي عصى الرحمن فعبادته معصيةٌ للرحمن ، وأن تطيع العاصي فهي معصية ، ومن المعاصي أن تطيع العاصي ، فالشيطان عاصٍ للرحمن ، فإذا أطعته فقد عصيت الله عزَّ وجل ..

(يَا أَبَتِ)

أسلوب الترهيب والترغيب :

الآن خوَّفه ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)

فالمَسُّ ؛ أن يمسَّك عذابٌ من الرحمن ، لِمَ لمْ يقل ربنا عزَّ وجل : إني أخاف أن يمسَّك عذابٌ من الله ؟ هذه إشارة إلى أن كل المصائب على وجه الأرض ، كل العذاب ، كل أنواع العذاب على وجه الأرض

إنما في الأساس مبعثها الرحمة ، لقوله تعالى :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام :147)

تقتضي رحمته ألاّ يردُّ بأسه عن القوم المجرمين ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ)

فكيف أن المريض الذي التهبت عنده الزائدة ، كيف يُفْتَحُ بطنه ؟ وتُقطَّع شرايينه ؟ وتسيل الدماء على جسده ؟ وكيف يُعطى الأدوية المسكّنة لوجود الآلام المُبَرِّحة ، كل هذا بدافع الرحمة ، هذا شيءٌ ظاهر يعرفه القاصي والداني ، كذلك فكلّ شيءٍ وقع على وجه الأرض محضُ رحمةٍ من الله تعالى ، ومحضُ حكمةٍ ، ومحضُ عدالةٍ ، ومحضُ علمٍ ، في كل شيءٍ وقع على وجه الأرض علمٌ ، ورحمةٌ ، وعدالةٌ ، وحكمةٌ من الله عز وجل ، وهكذا :

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)

حينما يستمع الأب مثلاً إلى كلمةٍ نابيةٍ من ابنه لا يسعه إلا أن يؤدِّبه ، وقد يوقع به ضرباً مؤلماً لئلا يعود لمثل هذه الكلمة ، فهل نقول : الأب انطلق في هذا الضرب من قسوةٍ في قلبه ؟ لا ، بل من رحمةٍ على هذا الابن من أن يكبر على عاداتٍ ، وأخلاقٍ رَدِيَّةٍ سيِّئة ، فغالباً عند الإنسان الذي يتسم بقلبِ كبير، وتبدو أعماله للآخرين قاسيةً فإنما مبعثها الرحمة ، أما الله سبحانه وتعالى فإنه يقول :

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران : 26)

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ)

(سورة الأنعام : من آية " 147 ")

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة الأعراف : من آية " 156 ")

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)

إنّ الإنسان إذا أصابه العذاب من الرحمن ، إما أن يستجيب فيتوب ، وإما أن يُصِرَّ على معصيته فيوالي الشيطان ، فلا أحد يعرف كيف يكون ردُّ الفعل على هذه المصيبة ، ربما ساقت هذه المصيبة الإنسان إلى مزيدٍ من الكفران ، وربما أدَّت به إلى التوبة والإحسان ، على كلٍ قد يَمَسُّ ربنا عزَّ وجل عبداً بالعذاب فيكون للشيطان ولياً ، يواليه ..

جواب والد إبراهيم تهديد ووعيد :

الآن تكلَّم والد سيدنا إبراهيم :

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ)

كل هذا الكلام المنطقي الواضح اللطيف لم يؤثِّر فيه ..

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً)

معنى (لأرجمنَّك)أي لأقتلنَّك بالرَجم ، وهو قتلٌ مع إهانة إلى أن تموت ، لأضربنَّك حتى الموت ..

(وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً)

فما كان من هذا النبي العظيم إلا أن قال لهذا الأب القاسي الذي لم يفهم فحوى هذا القول ، وهذا النُصح الشديد ..

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ)

سلام عليك أيها الأب المهدِّد :

فلن ترى مني إلا الخير ، لن أنالك بسوء ، لن يصيبك مني إلا كل خير ..

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ)

أيْ مني ..

(سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)

بعضهم قال : " إن تبت فسأستغفر لك ربي " ..

(إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً)

ترفق المؤمن ورحمته بالناس المخالفين له :

هكذا المؤمن ، وربنا سبحانه وتعالى يقول في مكانٍ آخر :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ * وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت : 33 -34)

هكذا المؤمن ..

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

((اصنع المعروف مع أهله ، ومع غير أهله ، فإن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله))

(القضاعي في مسند الشهاب عن علي)

لا ينبغي للمؤمن أن يحقد ، ولا أن يكيل الصاع صاعين ، ولا أن يرد على السيئة بسيئة أخرى ، ولا أن يتخذ موقفاً فيه ثأرٌ لنفسه ، مَن كان كذلك ليس أهلاً أن يكون باباً لله عزَّ وجل ، من كان كذلك ليس أهلاً أن يكون داعياً إلى الله عزَّ وجل ، الدعوة إلى الله تحتاج إلى خُلُقٍ نبيل ، إلى تسامحٍ كبير ، إلى رفعةٍ في التصرُّفات ، إلى رحمةٍ في القلب ، إلى عطفٍ على الخَلْق .. " إذا قال العبد : يا رب وهو راكع قال الله : لبيك يا عبدي ، فإذا قال العبد يا رب وهو ساجد ، قال الله : لبيك ، فإذا قال العبد : يا رب وهو عاصٍ ، قال الله : لبيك ثم لبيك ثم لبيك " .

هكذا ، هؤلاء المؤمنون الذين يدعون إلى الله عزَّ وجل يحتاجون إلى أخلاقٍ رفيعة ..

(سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)

هذه المواقف الأخلاقيَّة مواقف العطف ، والإحسان ، والترفُّق ربما فعلت فعل السحر .

صور تطبيقية للرفق واللين :

1 – مع أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ :

أبو حنيفة رضي الله عنه كان له جارٌ يغني ، فأقلق لياليه كلَّها ، كان يغني ويقول :

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ..

وكان يعزف على آلةٍ موسيقيةٍ ذات أوتار ، أقلق الجيران ، قُبِضَ عليه ذات ليلة ، فذهب أبو حنيفة إلى المُحتسب ليتوَسَّط له ، وحينما دخل هذا الإمام العظيم على المحتسب كَبُرَ عليه ذلك ، وأطلق كل من في السجن إكراماً لأبي حنيفة ، أمسك بيد جاره ، وقال له في طريق العودة : هل أضعناك يا فتى ؟ تقول : أضاعوني ، وأي فتى أضاعوا ، فكانت النتيجة أن تاب الفتى على يديه.

2 – مع مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ :

أحد الأئمة العِظام وهو مالكٌ بن دينار كان يمشي في الطريق ليلاً ، فرأى إنساناً مخموراً يقول : الله ، فهاله أن يخرج هذا الاسم العظيم من هذا الفم النجس ، فأخذه إلى البيت ، وأنعشه ، وغسَّله ، واعتنى به، ثم صرفه ، وذهب مالك إلى المسجد في اليوم التالي ، فرأى في المسجد إنساناً يُصلي بخشوعٍ بالغ ،

ويبكي في الصلاة ، وفي الليلة ذاتها رأى في المنام رؤيا ، وسمع صوتاً يقول له : " يا مالك طهَّرت فمه من أجلنا فطهَّرنا قلبه من أجلك " ، فلمَّا سأل هذا المصلي : " من أنت يرحمك الله ؟" ، قال : " إن الذي هداني أخبرك بحالي " .

3 – مع سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ :

سيدنا عمر رضي الله عن عمر بلغه أن صاحباً له كان في المدينة زلَّت قدمه ، وذهب إلى الشام ، وشرب الخمر ، وعاقرها ، فكتب له كتاباً رقيقاً ، وقال : " أمَّا بعدُ فإني أحمد الله إليك ، غافر الذنب ، قابل التوب ، شديد العقاب ذي الطول " ، فجعل هذا الصاحب يقرأ الكتاب ويبكي ، وهذا البكاء بسبب هذه الرقَّة في الكلام ، وهذا التلطُّف في الموعظة ، حمله بكاؤه على التوبة ، فلمَّا بلغ عمر رضي الله عنه أنه تاب قال : " هكذا اصنعوا بأخيكم إذا ضل ، كونوا عوناً له على الشيطان ، ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم .

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت : 34)

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً)

وجوب اعتزال أهل الكفر والإلحاد بعد ردِّهم دعوة الحقِّ :

يجب أن تعتزل أهل الكفر والعصيان ، وأهل الفسوق والفجور ، إنهم كنافخ الكير ، إن لم يحرقوا ثيابك أضرُّوك ..

(وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

تدعون هنا بمعنى تعبدون ، لأن الدعاء عبادة ، أي إذا عبدتم غير الله أعتزِلُكُمْ أنتم وما تعبدون .

(وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً)

كما قال سيدنا زكريَّا :

(رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

أي ما دعوتك يا ربي من قبلُ ، وشقيت بهذا الدعاء .. الله عوَّدك الجميل فقس على ما قد مضى .

(فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً)

إكرام اللهِ إبراهيم عليه السلام بإسحاق :

فالله سبحانه وتعالى أكرمه بذريةٍ من الأنبياء ..

(وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً)

فمن يوهب لسان صدقٍ عليًا ، يتكلَّم بالحق ، فالكلمة الطيِّبة صدقة ، وبالكلمة الطيبة يرتفع بها الإنسان إلى أعلى عليين ..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

(سورة إبراهيم : 24-25)

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً)

موسى عليه السلام النبي الرسولُ المخلَص :

معنى : مُخْلَصًا :

عندنا في اللغة مخلِصٌ ومخلَصٌ ، إذا أخلَص العبد لربِّه ، وتجلَّى على قلبه ، ونقَّاه من كل دَرَنٍ صار مخلَصاً ، كان مخلِصاً اسم فاعل ، فصار مخلَصاً اسم مفعول ، أي خلَّصه الله من كل الشوائب ..

(وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً)

مناجاة الله لموسى عليه السلام :

جعلناه نجِيَّنَا ، كليمنا ..

(وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً * وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً)

صادق الوعد ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف :2)

إسماعيل عليه السلام : إنه كان صادق الوعد :

قد تَعِدُ ربَّك بالتوبة ، تعده بالإقلاع عن هذه المعصية ، فلمَ تزلُّ القَدَم بعدها ، وتفعل ما وعدَّته بتركه ..

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً)

هذه صفات الأنبياء صفاتٌ تأخذ بالألباب ..

(وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً)

وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا

أين نحن من هذه الصفات ؟

مرضياً عنه ، أين نحن من هذه الصفات ؟ سيدنا عمر يقول : "عجبت لثلاث ؛ لمؤمِّلٍ والموت يطلبه ، وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه ، وضاحكٍ ملء فيه ، ولا يدري أساخطٌ عنه الله أم راضٍ " ، يا ترى ألا يجدر بنا أن نسأل هذا السؤال : يا رب هل أنت راضٍ عني ؟

قال : يا رب أحد الطائفين حول البيت الحرام قال : " يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ " ، كان وراءه الإمام الشافعي فقال له : " هل أنت راضٍ عنه حتى يرضى عنك ؟ " ، قال : " من أنت يرحمك الله ؟"، قال : " أنا محمَّد ابن إدريس " . قال : " كيف أرضى عنه وأنا أتمنَّى رضاه ؟ " ، قال: " إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عنه ، وإذا رضيت عنه رضي عنك " .

هذا سؤال خطير : يا ترى هل أنا عند الله مرضيٌّ ؟ هل يرضى الله عن أعمالي ؟ عن أقوالي ؟ عن تصرُّفاتي ؟ عن طريقة جمعي للمال ؟ عن طريقة معاملة زوجتي ؟ هل اللهُ راضٍ عن بيتي ؟ هل في بيتي معاصٍ بإمكاني أن أُزيلها ولم أزلها حتى الآن ؟ هل بإمكاني أن أفعل كذا ولم أفعله ؟ أين أنت ؟ أين أنت من الله عزَّ وجل ؟ هل أنت في صفِّ أوليائه أم في صف أعدائه ؟ هل أنت مع المؤيِّدين للحق أم مع المُناهضين له ؟ هل يجدك حيثما أمرك ، ويفقدك حيثما نهاك ؟ أم العكس صحيح ؟

(وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً)

(وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً * وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً)

صدّيقاً كما قلنا : أيْ شديد التصديق للحق ، يقول ما يفعل ويفعل ما يقول ، وليس هناك مسافةٌ بين أقواله وأفعاله ..

(وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً)

لكل مؤمن نصيب من الرفعة والمكانة العلية :

ولكل مؤمن نصيب من هذه الآية ، حيثما عرفتَ الله ، واستقمت على أمره ، وأخلصت له فلابدَّ من أن يرفعك الله عزَّ وجل ، لابدَّ من أن يُعلي قدرك ، لابدَّ من أن يطهِّر اسمك ، فلابدَّ من أن يجعل قلوب الناس تهفو إليك ..

(وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً *أولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً)

(أولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

أولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

أنت في الصلاة تقول :

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة : 7)

فالمغضوب عليهم هم الذين عرفوا الحقَّ وحادوا عنه ، والضالون هم الذين لم يعرفوا الحق أصلاً ، أما الذين أنعم الله عليهم فهؤلاء هم النبيِّون ، والصديقون ، والشهداء ، والصالحون ، فإذا قلت في كل صلاةٍ ، في كل ركعةٍ حصراً :

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)

يقول ربنا سبحانه وتعالى :

(أولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا)

أيْ اخترنا ..

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً)

البكاء عند سماع القرآن دليل على حياة القلب :

أي أنَّ الإنسان إذا لم يبكِ لسماع آيات الله عزَّ وجل فهذه ظاهرةٌ خطيرة ، من علامات المؤمن أنه إذا ذُكِرَ الله وَجِلَ قلبه ، وإذا تليت عليه آياته زادته إيماناً ، من علامات المؤمن أنه يقشعرُّ جلده لذكر الله ، أن عينه بكَّاءَة تبكي إذا ذُكر الله ..

((عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

(سنن الترمذي عن ابن عبَّاس)

وفي روايةٍ :

((وعينٌ غضَّت عن محارم الله))

وطبعاً البكاء لا يكون إرادياً ، لكنْ اجتهد في طريق الإيمان ، واجتهد في معرفة ربنا سبحانه وتعالى من أجل أن تملك قلباً رقيقاً إذا تُلِيَت عليك آيات الله تبكي ، وهذا بكاء الرحمة ، وكان الأنبياء ، والصديقون ، والشهداء ، والصالحون بكَّائين ، فكلَّما تليت عليهم آيات الرحمن بكوا ..

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

هذه الوجبة الجديدة ..

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

خَلْفُ أضاعوا الصلاة واتَّبَعوا الشهوات

بكلماتٍ قليلة ، بليغة ، محدَّدة لخَّص الله سبحانه وتعالى حال البشرية من بعد هؤلاء الذين أنعم الله عليهم ..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

قال العلماء : " ليس تضييعُ الصلاة عدمَ أدائها ، ولكن عدم تحقيق مراد الله منها " .

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت : من آية " 45 ")

إذا لم تنهَ صلاة المؤمن عن الفحشاء والمنكر فكأنَّه ضيَّعها ..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

والبشريّة تلاقي الغَيّ ، والمصائب ، وفنون العذاب بسبب بعدهم عن الله سبحانه وتعالى ، ولنا عودةٌ إلى هذه الآية في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 59 - 65
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-01-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الرابع من سورة مريم ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ

معنى الخَلْف والخَلَف

قال العلماء : الخَلْفُ شيء ، والخلف شيءٌ آخر ، فالخلْف - بتسكين اللام - الذرية السيِّئة ، والخَلَفُ - بفتح اللام - الذرية الصالحة ، فإذا قلت لرجلٍ فقد أباه تقول له : خير خلَفٍ لخير سلف . أما الخلْف فهي الذرية السيئة ، فربنا سبحانه وتعالى بعد أن ذكر عن هؤلاء الأنبياء العظام ، وعن صفاتهم الراقية ، وعن شكرهم ، وعن عرفانهم ، وعن طاعتهم ، وعن محبتهم ، وعن أعمالهم الطيبة ، وعن نفسياتهم السامية ، بعد أن ذكر كلّ ما ذكر عن كل هؤلاء قال تعالى :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ)

من بعد هؤلاء الأنبياء ..

(خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

العلاقة الترابطية بين إضاعة الصلاة واتباع الشهوات :

هناك علاقةٌ ترابطيةٌ بين إضاعة الصلاة واتباع الشهوات ، من أضاع الصلاة اتَّبع الشهوات ، من أقام الصلاة ابتعد عن الشهوات ، والمقصود بالشهوات الشهوات الدَنِيَّة ، لأنك إذا تزوَّجت فبهذه الشهوة ترقى إلى الله عزَّ وجل ، وإذا كسبت المال الحلال وأنفقته في وجوهه المشروعة ، فبهذا الكسب ، وبهذا الإنفاق ترقى إلى الله عزَّ وجل ، ولكن الشهوات التي وردت في هذه الآية إنما تعني الشهوات المُنْحَطَّة

التي ما شرعها الله عزَّ وجل ، ولا سمح بها ، فمثلاً أن تعتدي على أعراض الآخرين هذه شهوةٌ منحطة، طبعاً هذا الاعتداء مبعثُه الشهوة ، ولكن هذه الشهوة إنما أودعت فيك لترقى بها إلى الله عزَّ وجل ، عن طريق الزواج إيجاباً ، ولترقى بها إلى الله عزَّ وجل سلباً عن طريق الابتعاد عن المحرَّمات، فكل الشهوات التي أودعها الله في الإنسان من أجل أن يرقى بها رُقِيّاً في حالتين ؛ في حالة الإيجاب ، وفي حالة السَلب ، فإذا ابتعد عن المحرمات من الشهوات يرقى إلى الله عزَّ وجل ، فإذا أخذ منها ما سمح الله به حصراً يرقى إلى الله عزَّ وجل ، لكن اتباع الشهوات هنا المقصود به ، اتباع الشهوات التي حرَّمها الله عزَّ وجل ، والتي ما أنزل الله بها من سلطان ، والتي نهى عنها النبي العدنان، اتباع الشهوات هنا ، الشهوات الخسيسة ، المنحطة ، التي تجعل من الإنسان حيواناً بهيمياً .

فكأن هناك علاقةٌ ترابطيةٌ بين إضاعة الصلاة وبين اتباع الشهوات ، ما إضاعةُ الصلاة ؟

مِن المُجْمَع عليه أنه : ليس معنى إضاعة الصلاة تركها ، ولكن تأخيرها عن وقتها ، أو عدم الاستقامة قبلها ، إن لم تستقم قبل الصلاة فلا تنعقد الصلة بينك وبين الله عزَّ وجل ، والصلاة ليست أقوالاً ، وأفعالاً تفتتح بالتكبير ، وتختتم بالتسليم فحسب ، بل هي صلةٌ بالله عزَّ وجل ، وإقبالٌ عليه ، واتصالٌ به، واقتباسٌ من كماله .

(إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت : من آية " 45 ")

أعيد هذه العبارة مرةً ثانية .. ليست الصلاةُ في حقيقتها أقوالاً وأفعالاً تفتتح بالتكبير ، وتختتم بالتسليم فحسب ، بل هي إقبالٌ على الله عزَّ وجل ، واتصالٌ به ، واستمدادٌ من كماله ، لأنك إذا اتصلت بالله عزَّ وجل مصدرِ الحق ، والخيرِ ، والجمالِ فلابدَّ أن تنعكس هذه الصفات على قلبك ، لابدَّ أن يفيض قلبُك بالخير ، لابدَّ أن تحب الحق ، وأن تكون ناصراً له ، لابدَّ أن تبتعد عن كل دَنِيَّة ، لأن الصلاة كما أرادها الله عزَّ وجل تنهى عن الفحشاء والمُنكر .

لا تجد مؤمناً يصلي صلاةً صحيحة يؤذي الناس ، أو يأخذ ما ليس له ، أو يعتدي على حقوقهم ، أو على أعراضهم ، أو على أشخاصهم ، لا تجد مؤمناً حقاً يُصلي صلاةً صحيحة ، وهو مسيءٌ إلى الناس، فمن لوازم المصلي أنه محسن ، فمن لوازم المصلي أنه مُنْصِف ، من لوازم المصلي أنه يخجل من الله عزَّ وجل ، يشيع فيه الحياء ، والحلم ، والعفو ، فمكارمُ الأخلاق يمكن أن تشتق بعضها من خلال الصلاة ، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فإذا ضُيِّعَت الصلاة فالأمرُ عسير ، فتضييع الصلاة ألاّ تكون مستقيماً قبل الصلاة ، فإن لم تكن مستقيماً قبل الصلاة وقفت لتصلي ، وأنت في حجابٍ عن الله عزَّ وجل ، لأن المعاصي ، والمخالفات والاعتداءات ، والتقصير هذه كلها حُجُبٌ بينك وبين الله عزَّ وجل ، كلما ازداد حجم المعصية ازداد الحجاب ثخانةً ، وكلما خفَّت المعصية رَقَّ

الحجاب، فإذا استقمت على أمر الله عزَّ وجل ارتفع الحجاب بينك وبين الله ، عندئذٍ أقبلت عليه ، ورأيت الطريق مُيَسَّرةً إليه ، ورأيت أن أجمل ما في الحياة أن تكون مع رب الأرباب ، أن تكون مصلياً ، " يا موسى أتحب أن أكون معك ؟ " فصعق هذا النبي الكريم وقال : " يا رب كيف ذلك ؟ " قال : " أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيث ما التمسني عبدي وجدني ؟ " .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

من بعد هؤلاء الأنبياء العظام خَلَفَ خَلْفٌ سيِّئون ، من علامة سوئهم أنهم أضاعوا الصلاة .

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

هناك علاقةٌ ترابطيةٌ بين إضاعة الصلاة وبين اتباع الشهوات ، إضاعة الصلاة يكون بعدم الاستقامة قبل الصلاة ، هذا الذي يبيع ويشتري ويملأ عينيه من الحرام ، لا يستطيع أن يعقد الصلة بينه وبين الله عند أذان الظُهر ، يستطيع أن يذهب إلى المسجد ، ويتوضَّأ كما أمر النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن يصلي السنة ، وأن يصلي الفريضة ، وأن يتم حركات الصلاة ، ولكن لا يستطيع أن يتصل بالله عزَّ وجل ، لأن المخالفات التي ارتكبها في دكَّانه في أثناء البيع والشراء حالت بينه وبين انعقاد الصلة مع الله عزَّ وجل ، فمن أطلق بصره في الحرام ، أو من غَشَّ في بيعه وشرائه ، أو من حلف يميناً كاذبةً ، أو مَن فعل من المعاصي ما شاء ، هذا يضيِّع عليه الاتصال بالله عزَّ وجل ، هذا يضيِّع الصلاة ، تضييع الصلاة ألاّ تكون مستقيماً فيما بين الصلاتين ، إن لم تكن مستقيماً فيما بين الصلاتين أضعت الصلاة ، بمعنى أن صلاتك أصبحت جوفاء لا معنى لها ، أصبحت أقوالاً وأفعالاً تفتتح بالتكبير ، وتختتم بالتسليم ، وانتهى الأمر ، لأن :

((الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

(الجامع الصغير عن علي بسند ضعيف)

وقال بعض العلماء : " من أضاع الصلاة التي هي عماد الدين فهو للعبادات الأخرى أشد إضاعةً " ، فهي عماد الدين .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

الغي والهلاك جزاء إضاعة الصلوات واتباع الشهوات :

والغَيُّ هو الشر ، ومن علامات قيام الساعة كما جاء في بعض الأحاديث الشريفة هلاك العرب ، لماذا هلاكهم ؟ لأنهم ضيَّعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً .

العودة إلى الدين سبب للتمكين :

أما إذا عادوا إلى دينهم ، واتصلوا بربهم ، فزكت نفوسهم ، وطابت أعمالهم ، واستقامت سريرتهم ، وأتلفُوا فيما بينهم ، وكانوا صفاً واحداً على من عاداهم ، عندئذٍ يعودُ لهذه الأمة مَجْدُها ، ويصدق عليها قول الله عزَّ وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور : من آية " 55 ")

فلا يكون التبديل إلى الأمن بعد الخوف ، ولا يكون التمكين بعد الضَعف ، ولا يكون الاستخلاف حاصلاً إلا بشرطٍ واحد :

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور : من آية " 55 ")

هذه الآية تصحُّ على مستوى الأمة وتصح على مستوى الفرد ، أنت وحدك إذا أقمت الصلاة وجَهْدْتَ أن تتصل بالله عزَّ وجل فلَنْ تتصل به إلا إذا كنت مستقيماً على أمره ، إذا اتصلت بالله سَمتْ نفسك ، فكنت أبعد الناس عن الشهوات المُنحطة ، وعن الانغماس في المحَرَّمات ، وعن اتباع الشهوات التي لا ترضي الله عزَّ وجل ، كأن إقامة الصلاة واتباع الشهوات شيئان متناقضان ، وجود أحدهما ينقض وجود الآخر ، أكرر للاعتبار : كأن إقامة الصلاة واتباع الشهوات شيئان متناقضان ، بمعنى أن أحدهما ينقض الآخر ، وجود أحدهما ينقض الآخر .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

ضيَّعوها بعدم الاستقامة ، ضيعوها بالتفلُّت من قواعد الدين ، ضيعوها بمخالفة أوامر الشرع ، ضيعوها بالاستخفاف بمجالس العلم ، ضيعوها بالانغماس في الشهوات .

(وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

مِن لوازم تضييع الصلاة اتباع الشهوات ، ومِن نتائج اتباع الشهوات تضييع الصلاة ، إذاً هناك علاقةٌ ترابطيةٌ بين إضاعة الصلاة وبين اتباع الشهوات ، مَن ضبط شهوته اتصلت نفسه بالله عزَّ وجل ، من أسباب الاتصال بالله عزَّ وجل ترك الشهوات الخسيسة `:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : 40-41)

الدين كله هو الصلاة :

شيءٌ رائع ، هذه الآية دقيقةٌ جداً ، كأن الدين كله هو الصلاة ، الصلاة عماد الدين ، الصيام من أجل الصلاة ، والحج من أجل الصلاة ، والزكاة من أجل الصلاة ، والصلاة من أجل الصلاة ، الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، إذاً اتباع الشهوات سببٌ لإضاعة الصلاة ، إضاعة الصلاة من لوازمها اتباع الشهوات ، لا يجتمع في الإنسان إقامةٌ للصلاة واتباعٌ للشهوات ، شيئان متناقضان أحدهما ينقض الآخر ، معنى إضاعة الصلاة عدم الاستقامة فيما بين الصلوات ، ومعنى إضاعة الصلاة تأخيرها عن وقتها ، ومعنى إضاعة الصلاة تركها ، ضيَّعها فتركها ، ضيعها فأخَّرها ، ضيعها بأن لم يستقم قبلها فوقف أمام ربه كأنه خُشُبٌ مُسَنَّدة ، لم يفقه منها شيئاً ، وفي بعض الأحاديث تقول الصلاة لصاحبها ؛ لمن لم يستقم قبلها فوقف وقفةً جوفاء لا معنى لها ، تقول له الصلاة ضيَّعك الله كما ضيّعتَني ، ما هذه الصلاة ؟

وهذا الإنسان الذي يرى زيداً من الناس يصلي ، وقد أصابه بالأذى ، رأى عمرواً يصلي ، وقد أكل مال زيد ، رأى فلاناً يصلي ، وقد اعتدى على عُبَيد ، رأى فلاناً يصلي ، وقد تجاوز حدوده ، ظلم الآخرين عندئذٍ يسهم هذا الذي يصلي ، ولم يستقم بإضعافِ قيمة الدين في نظر هؤلاء ، إنه أداةٌ للتنفير من الدين ، لذلك الإمام علي كرم الله وجهه يقول : " قوام الدين والدنيا أربعة رجال ؛ عالمٌ مستعملٌ علمه ، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلم ، وغنيٌ لا يبخل بماله ، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه ، فإذا ضيَّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلَّم ، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره " ، الصلاة عصام الدين ، وركن اليقين والصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

وقد لقي مضيِّعو الصلاة ومتبعو الشهوات هذا الغَي :

صور عن جزاء من أضاع الصلاة :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

وقد لَقِيَتْ القُرى التي أضاعت الصلاة واتبعت الشهوات لقيت ذلك الغي .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : من آية " 65 ")

لقد ذاقت القُرى التي أضاعَتْ الصلاة ، واتبعت الشهوات ذاقت ذلك الغَي ، لقد أذاقها الله ذلك الغي ..

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

اعملوا ما شئتم ، جميع البشر مجزيّون بما عملوا ، إن لكل حسنةٍ ثواباً ، ولكل سيئةٍ عقاباً ، لكن رحمة الله واسعة ، باب التوبة مفتوح ، لو أن مجتمعاً بأكمله ضيَّع الصلاة ، واتبع الشهوات فاستحق الهلاك ، استحق الغَي أيْ الشر : نقصٌ في الأموال والأولاد ، شحٌ في السماء ، ضيقٌ في الأرزاق ، قهرٌ للضُعفاء ، خصوماتٌ لا تنتهي ، تمزقٌ للحياة الاجتماعية ، تسيُّبٌ في الأعمال ، هذا هو الغَي .

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

إذا كان المجتمع كله قد ضيَّع الصلاة واتبع الشهوات فلابدَّ من أن يلقى ذلك الغَي ، وقد لقي ذلك الغَي ، والشواهد على هذا كثيرة ، لكن الله عزَّ وجل جلَّت حكمته ، ووسعت رحمته كل شيء ، لكن الله عزَّ وجل فتح باب التوبة لآحاد المسلمين ، فيا أيها المسلم لو أن المجتمع كله فسد ، وضيع الصلاة ، واتبع الشهوات واستحق الهلاك ، فَإنّك إذا استقمت وحدك ، وإذا رجعت إلى الله ، واستقمت على أمره ، وعقدت الصلة بينك وبينه ، وحسَّنت عملك ، وتقرَّبت إليه ، وأحسنت للخلق ، فأنت وحدك تنجو من هذا الغَي الذي وعد الله به تاركي الصلاة ، ومتبعي الشهوات ، جاءت الآية الأولى في صيغة الجَمع ، وجاء باب التوبة في صيغة المُفرد ، أي أن آحاد المسلمين إذا عادوا إلى ربهم ، واتبعوا أمر دينهم ، وأحكموا صلتهم لن تنطبق عليهم هذه الآية ، أبداً ، ولو كنت في مجتمع فاسد ، ولو كنت في مجتمع قد ضيَّع الصلاة ، ولو كنت في مجتمعٍ قد اتبع الشهوات ، ولو كنت في مجتمعٍ يستحق الغَي من الله عزَّ وجل ..

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً)

التوبة محو لما سبق ، ونيلُ جزاءٍ لاحق :

معنى تاب : الإمام الغزالي رضي الله عنه ، في كتاب إحياء علوم الدين ، وفي باب التوبة يُعَرِّف التوبة بأنها عِلمٌ ، وندمٌ ، وإقلاعٌ ، وعزيمة، فالذي يفعل السوء ولا يدري أنه سوء ، هذا كيف يتوب ؟ لابدَّ أن تحضر مجالس العلم حتى تعرف ما هو حقٌ ، وما هو باطل ، ما هو حلالٌ ، وما هو حرام ، ما يجوز ، وما لا يجوز ، ما يُرضي الله ، وما لا يرضيه ، يجب أن تعلم ، فإذا علمت أن هذا العمل لا يرضي الله ، وأنّ هذه الطريقة في البيع والشراء لا ترضي الله ، وأنّ إخفاء العَيب لا يرضي الله ، وأنْ تبيعَ بسعرين من دون سببٍ مشروعٍ لا يرضي الله ، أن تزيد في الثمن بزيادة الأجل لا ترضي الله ، أن تبيع بضاعةً محرّمةً لا يرضي الله ، أن تطلِق لبناتك العنان يفعلْن ما يشأنَ بدافع التربية الحديثة ، وما تدَّعيه من الحرية ، لا يرضي الله .

إن لم تجلس في مجالس العلم ، وتعرف من خلال هذا المجلس حدود الله وشرعه ، وما يجوز ، وما لا يجوز ، كيف تتوب ؟ فقوام التوبة العلم ، العلم بالحلال والحرام ، كذلك ومن لوازم التوبة الندم على ما مضى ، وأن يكره التائب أن يعود في الكفر كما يكره الرجل أن يُلقى في النار .

من لوازم التوبة النصوح :

- من لوازم التوبة الندم على ما مضى .

- من لوازم التوبة الإقلاع الفوري عن المعصية ، لا تسويف ، غداً أتوب ، وبعد غدٍ أتوب ، وسوف أتوب ، وفي أول العام القادم أتوب ، وبعد الفحص أتوب ، وبعد الزواج أتوب .

- ومن لوازم التوبة العَزْمُ الأكيد في المستقبل على ألا يعصي الله ، إذاً هي علمٌ ، وندمٌ ، وعزمٌ ، وإقلاعٌ ، فإذا كانت المعاصي قد تعلَّقت بها حقوق العباد فلابدَّ من إصلاح ، فلان له بذمتك مبلغٌ من المال ، وطالبك به كثيراً حتى يئس منك ، وأنت عدت إلى الله لابدَّ أن تؤدي هذا المبلغ إليه ، كل حقوقٍ ماديةٍ ، أو أدبيةٍ ، أو معنويةٍ ، أو ماليةٍ يجب أن تؤدَّى مع التوبة .

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

العمل الصالح في هذه الآية كلمةٌ عامة تشمل العبادة كلها .

(تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

أصناف طاعة الله :

أطاع الله في العبادات ، وفي المعاملات ، وفي مكارم الأخلاق ، في الإسلام : عقائدَ ، وعبادات ، ومعاملات ، ومكارم أخلاق ..

1 - الطاعة في العقائد :

أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين .

2 - الطاعة في العبادات :

أن تشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن تؤدي الصلاة ، وتصوم رمضان ، وأن تزكي ، وأن تحج البيت إذا كنت مستطيعاً ، هذه العبادات .

3 - الطاعة في المعاملات :

يجب أن تعرف أحكام البيوع ، وأحكام الزواج ، وأحكام الطلاق ، وأحكام الإرث من أجل أن تعبد الله وفق شرعه .

4 - الطاعة في مكارم الأخلاق :

وأما مكارم الأخلاق فإذا اتصلت بمنبع الأخلاق ، إذا اتصلت بمصدرها ، اشتقَّتْ نفسُك من كمال الله كمالاً ، فإذا أنت رقيقُ الحاشية ، رحيم القلب ، لطيف ، حليم ، شفوق ، عَفُوٌ ، كريم ، سَخِيّ ، هذه المكارم الأخلاقية التي يذوب لها الإنسان ، إنما هي أثرٌ من آثار الصلاة .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

(إِلَّا مَنْ تَابَ)

بالجمع ..

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

أيْ أنَّهُ إذا فسد المجتمع ، واتجه نحو الدنيا ، وصار مادياً ، وغَدَتْ قيمة المرء فيه بقدر ما يملك ، وتغلَّب القويُ على الضعيف ، وضاع الحق مع الباطل ، وصار الإنسان بين مجتمعٍ من الذئاب ، إذا كنت في مثل هذا المجتمع فَلُذْ بالتوبة ، والإيمان ، والعمل الصالح ، عندئذٍ يقبل الله عملَ أولئك ، ويجزيهم على هذا العمل الطيِّب بإدخالهم الجنة ..

(فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً)

لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

فمن القواعد الثابتة في القرآن الكريم أنه :

(لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : من آية " 164 ")

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

(سورة المدثر : 38)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

قالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ، اشْتَرُوا أنْفُسَكُمْ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

(متفق عليه)

هذا هو الشرع .. " يا سعد بن أبي وقاص لا يغرنَّك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له " ، الطاعة هي القرابة ..

((أنا جَدَّ كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

(كشف الخفاء 615)

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد :1)

عم رسول الله ..

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2))

(سورة المسد)

((أنا جَدُّ كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

(كشف الخفاء (615)) و:

((سلمان منا آل البيت))

(الحاكم في المستدرك(6539)) و:

((نعم العبد صهيب))

(كشف الخفاء 2831)

هكذا الإسلام ، فَسيدنا عمر رضي الله عنه خرج من المدينة ، وكان أميراً للمؤمنين ، خرج إلى ظاهر المدينة ليستقبل سيدنا بلالاً ، وسيدنا الصديق كان إذا ذُكِر عند عمر قال عنه : " هو سيدنا وأعتق سيدنا" ، أي بلالاً ، هكذا الإسلام ، كل الناس سواسية كأسنان المشط .

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً)

لك أن تقول : شيّا وشيئا ، شيّا على التخفيف ، وشيئاً على التحقيق ، كأن تقول : تاريخ وتأريخ ، كفُواً وكفُؤاً .

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)

الجزاء الأوفى للتائب : جنات عدن :

جنات عدنٍ ، فالإنسان إذا مات كتب على نعيه : "وسيشع إلى مثواه الأخير " ، إذا كان القبر هو المثوى الأخير ، فالبيت في الدنيا هو المثوى المؤقت ، فاعتَنِ به ما شئت ، بالغ في تزيينه ، إنه مثوى موقت ، أمّا :

(جَنَّاتِ عَدْنٍ)

ففي الجنة لا يوجد قلق ، والإنسان في الدنيا ولو حَصَّل منها كُلَّ ما يريد فقلقٌ خفيٌ كثير يعتلج في نفسه ، كم أعيش ؟ هل أصل إلى الستين ، أم أموت في الخمسين ، أم في الأربعين ؟ هذا القلق مِن مُفارقة الدنيا ، قلقٌ مزعج ، هل أبقى في هذا البيت ؟ هل يسمح لي دخلي ، أم أبقى فيه أن أضطر إلى بيعه ، وشراء بيتٍ أصغر منه ؟ هل تبقى لي هذه المركبة ؟ هل يبقى لي هذا المحل الجيِّد ، هل تبقى زوجتي صحيحة البدن ، أم يصيبها المرض ؟ الحياة كلها مُقلقات ، لكن الجنة هي جنة عدنٍ ، جنة الإقامة ، جنة الاستقرار ، جنة الخلود ، لا قلق ، ولا هم ، ولا حزن ، هل تبقى المواد متوافرة أم يصيبها اختناق ؟ في الجنة لا يوجد اختناق مواد ، المواد متوافرة ، الفاكهة لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة ، أحياناً هناك فاكهة مقطوعة لها مواسم ، وقد تكون متوافرة حولنا ولكن ممنوعة عندنا ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، هكذا الجنَّة ..

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ)

العاقل لا يعيش لحظته :

الإنسان العاقل المفكِّر لا يعيش وقته فحسب ، ولكنّ الإنسان إذا ضاق فكره ، وكان محدوداً عاش لحظته ، وغاب عما سيكون ، فالإنسان الذي يعيش لحظته ، ولا يفكر في مستقبله إنسان محدود ، سمكاتٌ ثلاث كانت في غدير ، مرَّ صيَّادان ، فتواعدا أن يرجعا ليصيدا ما فيه من السمك ، فسمَعت السمكات قولهما ، أمَّا أكيسُهنَّ ، أيْ أعقلهَّن فإنها ارتابت وتخوَّفت ، وقالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، ولم تُعَرِّجْ على شيءٍ حتى خرجت من الغدير ، وأما الأقل كياسةً وعقلاً ذكاءً فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان ، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد أُغلق ؛ فقالت : فرَّطتُ ، وهذه عاقبة التفريط ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء ، فأخذها الصيادان ووضعاها على الأرض بين النهر والغدير ، فوثبت في النهر فنجت ، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدَتْ . فالإنسان بين أن يكون كيّساً ، بمعنى أنه عاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، فلتذكرْ إذاً أنّ الموت حق ، وما منا واحدٌ إلا وسيموت ..

الليل مهما طال فـلا بدَّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بدَّ من نزول القبر

*** * ***

إذا أيقنا أنه لابدَّ من الموت فماذا أعددنا له ؟ ماذا أعددت للقبر ؟ ما العمل الصالح الذي أعددته للقبر ؟ هل تصلي وأنت تودِّع العمر ؟ هكذا قال النبي الكريم :

((... فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ))

(من سنن ابن ماجة عن أبي أيوب)

فالعاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، والأقل عقلاً يحتاط لها بعد وقوعها ، والغبي لا قبل وقوعها ، ولا بعد وقوعها ، إذاً :

(الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ)

وعدُ الله ووعيدُه محقَّقان لا ريب فيهما :

خالق الكون وعدنا بالجنة ، ألا نقبل هذا الوعد ؟ ألا نصدقه ، تصدق إنساناً مثلك ضعيفاً لا يقوى على أن يحيا ساعةً باختياره ، تصدقه ، ولا تصدق خالق الكون !!

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)

(قالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا)

(سورة يس : من آية " 52 ")

فيأتي الصوت العظيم :

(هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

(سورة يس : من آية " 52 ")

البطولة أن يكون الإنسان في هذه الساعة الخطيرة قد أعدَّ لها ما يناسبها ، أما أن يعيش الناس هكذا مع شهواتهم ، مع انحرافاتهم ، مع حظوظهم ، مع مُتعهم ، مع خصوماتهم ، مع انحرافاتهم ، وينسون هذه الساعة فهذا من الحُمق ، قال عليه الصلاة والسلام :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(من سنن الترمذي عن شداد بن أوس)

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)

إنَّه كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا :

مأتيًّا أيْ آتياً ، الشيء بعد أن تلتقي به ، إما أنَّك أتيته ، وإما أنه أتى إليك ، إذا ركبت المصعد فإما أنك بهذا المصعد أتيت إلى الطابق الرابع ، وإما أن هذا الطابق الرابع أتى إليك ، تحصيل حاصل ..

(إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)

بمعنى : آتياً ..

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً)

سلامة ألسنة وقلوب ساكني الجنة لسلامة الدار والجار :

لا يوجد لغو ، اللغو مُزعج ، أن تستمع إلى كلامٍ باطل ، أن تستمع إلى كلامٍ كاذب ، كلامٍ فيه دَجَل ، كلامٍ ليس واقعياً ، هذا لغو ، كل كلامٍ ليس حقيقياً ليس واقعياً ليس حقاً إنما هو لغوٌ .

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون : 1-3)

الجنة ليس فيها لغو ، أما في الدنيا فقد تضطر إلى أن تجلس مع أُناس يتحدثون كلاماً باطلاً ، كلاماً منحطاً ، كلاماً سخيفاً ، كلاماً لا جدوى منه ، قد ينهشون أعراض بعضهم بعضاً ، قد يتفاخرون بشيءٍ سخيف تافهٍ ، هذا كله لغو ، لكنك في الجنة لم يجمعك الله في الجنة إلا مع الكُمَّل ، مع المؤمنين الصالحين ، مع الأنبياء ، والصادقين ، والشهداء ، والصالحين ، هؤلاء لا يتكلمون اللغو ، كلام لا فائدة منه ، كلام باطل ، كلام مُزخرف ، كلام فيه دجل ، كلام فيه تزوير ، كلام فيه مبالغة ، كلام فيه كذب ، كلام فيه تجاوز، كلام سخيف ، موضوعات تافهة ، لا ، لا ، هذا كله في الجنة غير موجود ، اطمئنوا .

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً)

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

(سورة يس : 58)

رب العزة يسلِّم عليهم .

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

(سورة الحجر : 46)

والملائكة يسلمون عليهم .

(إِلَّا سَلَاماً)

يعني تسليماً ، ويعني طمأنينةً ما بعدها قلق ، سلام ، قد أقول لإنسان : سلامٌ عليك ، أي لن ترى مني إلا الخير ، لن ترى مني إلا الأمن ، لن ترى مني إلا الخدمة ، سلامٌ عليك ، وهذا معنى السلام : السلام عليكم ، أي اطمئن أنا إنسان طيب خيِّر لن أصيبك بالأذى ، لن ينالك مني ضرر ..

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)

هذا معنى السلام ، إذاً :

(إِلَّا سَلَاماً)

اطمئنان أهل الجنة على وفرة الرزق :

وليس في الجنة قلقٌ على الرزق ..

(وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً)

أحياناً يكون الإنسان ضَيْفاً على أُناس كرماء ، ففي الساعة السابعة تفضل على الأكل ، كله جاهز ، أكَلَ وزَحَلَ ، غَسّل ، فجلس ، وكذلك عند الظهر تفضل على الأكل ، لا يهتم لشراء الطعام ، ولتأمين المال لشراء الطعام ، واختيار المواد الجيدة ، وكيف يُطبخ ، وكيف يقدَّم ، هذا كله سهل ميسور ، وتلك الهموم التي في الدنيا لن تكون في الجنة ، لن يكون قلق أبداً .

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً)

تنتفي هناك الوراثة ، فلا تسمع أنا ابن فلان ، أو هذه ورقة الطابو ، اسمح لي بالجنة .

(مَنْ كَانَ تَقِيّاً)

وراثة الجنة بحسب درجات الأعمال :

الوراثة هنا بحسب العمل لا بحسب النسب .

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً)

والتقوى مباحة لكل الناس ، مفتحةٌ أبوابها لكل الناس ، رحمة الله مبذولة ، رحمة الله واسعة ، موجبات الرحمة متوافرة ، هناك تكافؤٌ في الفُرَص ، أي عبدٍ قال : يا رب ، يقول الله : لبَّيك يا عبدي ، أي عبدٍ قال : يا رب قد تبت إليك ، يقول الله : وأنا قد قبلت ، يا رب أنا قد أذنبت ، يقول : وأنا قد عفوت .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

(الترمذي)

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر : 53)

((لله أشد فرحاً لتوبة عبده مِن الضال الواجد ، والعقيم الوالد ، والظمآن الوارد))

(الديلمي في الفردوس عن أبي هريرة)

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً)

جعلنا الله من أهلها ، هذه الدنيا قصيرة ، كم سنة ؟ كلها متاعب .. إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء قد جعلها الله دار بلوى .. الدنيا دار تكليف ، والآخرة دار تشريف .. وجعل الآخرة دار عُقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي .

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا)

نعطيها لا بحسب النسب ، لا .. بل ..

(مَنْ كَانَ تَقِيّاً)

لذلك ليس مَن يقطع طُرُقاً بطلاً إنما من يتَّق الله البطـــل

هذه هي البطولة .

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً)

ومَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا

هذه الآية كما قال معظم المفسرين : جاءت معترضةً بين سياق هذه الآيات كي تُطَمْئِنَ النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن انقطاع الوحي عنك ليس عن نسيانٍ من ربك ، إنما هو لحكمةٍ بالغة ..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من آية " 48 ")

اطمئنْ يا محمد ، حتى إن بعض علماء تفسير القرآن الكريم يقولون : إن مِن حكمةِ نزول القرآن مُنَجَّماً أن النبي عليه الصلاة والسلام سيواجه متاعب الدعوة ، وسيواجه إعراض المُعرضين ، وتكذيب المكذبين ، وافتراء المفترين ، وإبطال المبطلين ، سيواجه الكفار والمشركين ، سيحاربونه ، سيأتمرون

على قتله ، سيخرجونه ، سيضطهدون أصحابه ، لو أن القرآن نزل على النبي دُفعةً واحدة في أول الرسالة ، وانقطع لاستوحش النبي عليه الصلاة والسلام ، لكن الله عزَّ وجل من أجل أن يؤنسه ، ومن أجل أن يثبِّته ، ومن أجل أن يكون معه دائماً ، جعل هذا القرآن الكريم يُنَزَّلُ على قلبه مُنَجَّمَاً ، فكلما ضاقت به الحيَل ، وكلما اشتدت مؤامرات الكفار عليه جاء الوحي برداً وسلاماً على قلبه الشريف ، فالله سبحانه وتعالى هنا يُطمئن النبي عليه الصلاة والسلام على لسان الملائكة أنْ أيها النبي نحن الملائكة ..

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ)

التنزُّل فيه معنى التراخي ، فيه معنى الطواعية ، نتنزَّل مرةً بعد مرة ، شيئاً فشيئاً ، من حينٍ لآخر ، هذا التنزُّل ، المُتراخي ، المنجَّم ، هذا من تخطيط الله عزَّ وجل .

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ)

بعض العلماء قالوا : هذه(ما)تعني المكانية ..

(لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا)

معاني : لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا

1 – المعنى المكاني :

أي هذا الذي أمامنا نراه أمرُه لله ، وهذا الذي خلفنا ، ولا نراه أمرُه لله ، وهذا الذي حولنا ، ولا نراه أمره لله ، أي ما أمامنا ، وما هو خلفنا ، وما هو عن جوانبنا كله لله ، هذا المعنى المكاني .

2 - المعنى الزماني :

الماضي ، والمستقبل ، والحاضر لله عزَّ وجل ، فالكون مكاناً وزماناً أمرُه لله ، فنحن مأمورون .

(لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً)

إنّ الله لا ينسى .

تُرْوى قصة رمزية : امرأةٌ متقدمةٌ في السن كانت على عهد سيدنا نوحٍ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وقد عَلِمَتْ منه أن هناك طوفاناً سيعُمُّ الأرض ، وسيهلك الكفار جميعاً ، وأخبرها هذا النبي العظيم أن هناك سفينةً سوف يركب فيها المؤمنون ، وينجون من هذا الهول العظيم ، وهي تقبَعُ في كوخٍ لها فقالت له : يا نوحٍ لا تنسني ، إذا جاء الطوفان لا تنسني ، يا نوح لا تنسني ، جاء الطوفان ، وصار المَوْجُ كالجبال ، ونسيها هذا النبي العظيم ، وجَلَّ الذي لا ينسى ، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنني بشر ، أنسى كما ينسى البشر))

(ورد في الأثر)

فلما كان هذا النبي الكريم على ظهر السفينة ، وهي كريشةٍ في مهب الريح ، والأمواج من كل جانبٍ كالجبال تذَّكَر هذِهِ المرأة .. لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه التي رجتنا أن نذكرها ، وأن نأتي بها إلى هذه السفينة نسيناها ، فلما استوت السفينة على الجودي ، وقيل : يا أرض ابلعي ماءَك ، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجودي ، وجلس نوحٌ مع أصحابه جاءت هذه المرأة فقالت : يا نوح متى الطوفان ؟

إن الله لا ينسى ، إذا عملتَ عملاً طيباً فالله لا ينسى ، إذا آثرت رضاء الله عزَّ وجل فالله لا ينسى ، إذا خدمتَ عباد الله فالله لا ينسى ، إذا آثرت رضاء الله على شهوتك فالله لا ينسى ، بل يثيب على القليل الجزيلَ .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

فمن هو بعد ذلك ؟

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

الله ربٌ كلِّ شيء :

أي رب كل شيء ، هذه بلاغة ، مثلاً :

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا)

(سورة آل عمران : من آية " 191 ")

واقفون ..

(وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران : من آية " 191 ")

فكم للإنسان من حالة ؟ إما أنه واقف ، وإما أنه قاعد ، وإما أنه مضطجعٌ ، فإذا كان يذكر الله واقفاً ، وقاعداً ، ومضطجعاً فإنه يذكر الله دائماً ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى :

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

إذاً رب كل شيء ، هو المُمِدُّ لكل شيء ..

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً)

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً)

الأمرُ بالعبادة والصبرُ عليها :

فاعبده أي : أطعه في كل ما أمرك به ، والعبادة كما تعرفون طاعةٌ طوعية ، لو أنها طاعةٌ قسرية لما كانت عبادةً ، طاعة طوعية ، فالإنسان مخيَّر لا إكراه في الدين ، طاعةٌ طوعية تسبقها معرفةٌ يقينية ، لا يمكن أن تطيع الله عزَّ وجل في كل ما أمر به إلا إذا أيقنت أن هذا الأمر لمصلحتك ، وأنه ربٌ ، وأنك عبدٌ ، وإنه عليك أن تطيعه ، ولا خيار لك في ذلك .. تسبقها معرفةٌ يقينية ، وتفضي إلى سعادةٍ أبدية ، لكن جلَّت حكمة الله عزَّ وجل من العبادات ما هو متوافقٌ مع طبيعة النفس ، كالأمر بالزواج مثلاً ، الزواج أمرٌ ، النبي الكريم يقول :

((وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

(من صحيح البخاري عن أنس بن مالك)

وهناك عبادات قد تخالف طبيعة النفس ، فالإنسان أمْيَل للراحة ، يقال له : قم فَصَلِّ الصبح في وقته ، فلا يفعل أو قد يفعل ، الإنسان أميل إلى النجاة من المسؤولية ، فالشرع يأمره أن يكون صادقاً ، ولو كان في هذا الصدق متاعب كثيرة ، إذاً الإسلام فيه حج ، والحج فيه مشقة ، عبادةٌ بدنيةٌ ، وماليةٌ ، ومكانيةٌ ، وزمانية ، الصيام فيه مشقة ، فيه ترك الطعام والشراب ، الصلاة فيها جهد ، فالعبادات فيها جُهد ، والأوامر ، والنواهي قد تكون متناقضةٌ مع رغبات النفس ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

(من صحيح مسلم عن أنس بن مالك)

وفي حديثٍ آخر ..

((إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلاثًا ، أَلا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

(من مسند أحمد عن ابن عباس)

فتصور طريقًا صاعدة ووعرة ، كلها أكمات ، وكلها حفر ، وأنت راكب دراجة ، فهناك جهدٌ كبير في تخطي هذه العقبات ، وفي صعود هذه الأكمات حتى تبلغ نهاية الطريق ، وفي نهاية الطريق قصرٌ منيف ، وفي هذا القصر كل شيء ، أما الطريق النازلة فطريقٌ ممهدة تحف بها الرياحين والورود ، ولكنها تنتهي إلى حفرةٍ ما لها من قرار ، فإن عمل الجنة حزنٌ بربوةٍ ، وإن عمل النار سهلٍ بسهوةٍ ، قد تشتهي النفس أن تملأ عينيها من محاسن النساء في الطريق ، هذه شهوة الإنسان ، لكنَّ الله عزَّ وجل يقول :

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور : من آية " 30 ")

إذاً :

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ))

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

فإذا علمتَ أن عبادة الله عزَّ وجل ألزمتك أن تكبح من جماح نفسك ، وأن تضبط شهوتك ، وأن تضبط مشاعرك وحواسك ؛ فهذه العبادة ترقى بها إلى أعلى عليين .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

اصطبر لهذه العبادة إن لم تعرف حكمتها ، واصطبر لهذه العبادة إن كانت مُتناقضةٌ مع راحتك ، أو مع ميولك الطبيعية ، واصطبر لهذه العبادة إن كلَّفتك جهداً ومالاً ، دفعُ الزكاة على البُخلاء شاق ، أن تدفع من مالك الذي عندك مبلغاً كبيراً هكذا فيه المشقة ..

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً)

هل تعلم له مماثلاً ؟ هل هناك ربٌ آخر تعبده من دونه ؟ هو إلهٌ واحدٌ : في السماء إله ، وفي الأرض إله ، لا إله إلا هو ، إذاً هذه الآية :

(فَاعْبُدْهُ)

أي أطعْه في كل ما أمرك ، ولو كان أمر الله عزَّ وجل يجلب لك المشقة أحياناً ، وبذل المال أحياناً ، ومعاكسة الشهوات أحياناً ، والتعب أحياناً ، والقلق أحياناً ، في بعض الأحوال يكذب الرجل ليرتاح ، لكنَّ المؤمنَ لا يكذب بل يصدق فتأتيه المتاعب ، هذه المتاعب مقدَّسة لأنها كانت بسبب الصدق ، الإنسان أحياناً يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وقد يكون هذا الأمر جالباً له بعض المتاعب ، فإذا سكت كانت النجاةٍ .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

قل الحق ولا تخشَ في الله لومة لائم ..

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب : من آية " 39 ")

فلو أن الجنة كلها مسرَّات لأقبل الناس عليها لا حباً لله عزَّ وجل ، ولكن حباً بأنفسهم ، لكن الله جعل الجنة محفوفةً بالمكاره ، وجعل النار محفوفةً بالشهوات ، هذه حكمة الله ، الرزق الحلال مُتعب ، والحرام سهل ، أحياناً حركة بسيطة تأخذ فيها مئة ألف ، وأحياناً من أجل أن تجمع هذا المبلغ تعمل عاماً بأكمله ليلاً ونهاراً ، الحلال مُتعب ..

((من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفورا له))

(الجامع الصغير عن ابن عباس بسند ضعيف)

طلب الجنة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوبٌ ، إذاً :

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

ألا ترضى أن يقول الله لك : يا عبدي اصطبر عليّ ، أنا سوف أكافئك ..

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

(سورة الضحى : 5)

سوف يأتيك يومٌ تنسى فيه كل مشقة ، أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، اصطبر يا عبدي ، لا تَضِجّ ، لا تَلِجّ ، لا تضق ذرعاً اصطبر .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

الصبر نصفُ الإيمان ، قال عليه الصلاة والسلام :

((الإيمان نصفٌ صبرٌ ، ونصفٌ شكرٌ))

(ورد في الأثر)

((والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان))

(ورد في الأثر)

الله عزَّ وجل يقول : يا عبدي اصطبر من أجلي ، اصطبر ، فـ :

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : من آية " 10 ")

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

مَن تعبدُ ؟ خالقَ الكون ، الذي ليس له مماثل ، ولا شبيه ، ولا كفؤ، هو الأبدي السرمدي ، هو الأول والآخر ، الظاهر والباطن ، الحيُّ القيوم ، هو كل شيء .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 66 - 76
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-01-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الخامس من سورة مريم ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً)

الأصل في الكافر إنكارُ اليوم الآخر :

هذا الإنسان المقصود به هو الإنسان الغافل ، وربما كان الإنسان الكافر ، هذا الإنسان الذي عطَّل فكره، هذا الإنسان الذي غفل عن ذكر ربه ، هذا الإنسان الذي عاش ليستمتع بشهوات الدنيا ، انغمس فيها وغفل عن سرِّ وجوده ، غفل عن سرِّ خلقه ، غفل عن الغاية التي خُلِقَ من أجلها..

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً)

هذا الاستفهام هو استفهامٌ إنكاري ، كأنَّه يستنكِرُ ، أو يستغرِبُ أن يعود الإنسان بعد الموت حيَّاً ..

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً)

الإيمان باليوم الآخر حافز للاستقامة والعمل الصالح :

مع أن الإنسان لا يستطيع أن يستقيم على أمر الله ، وأن يأخذ ما له ويدع ما ليس له إلا إذا آمن باليوم الآخر ، إلا إذا آمن بيومٍ يُحاسب فيه الإنسان عن أعماله كلها ، إلا إذا آمن بأن الله عزَّ وجل من أسمائه الحقُّ العَدْلُ ، إذا آمنْتَ باليوم الآخر تستطيع أن تستقيم على أمر الله .

فهذا الإنسان لماذا ينكر اليوم الآخر ؟ إنه يُنكر هذا اليوم ، ويكذِّب به ليحقِّق التوازن مع نفسه ، إنه يفعل ما يشاء مِن دون انضباط ، يأخذ ما له ، وما ليس له ، إنه يعتدي على أموال الآخرين ، إنه يعتدي على أعراضهم ، إنه يبني غِناه على فقرهم ، كيف يفعل هذا وهو مؤمن أنّ هناك يوماً آخر يُحاسب فيه الإنسان ؟ لذلك :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون : 1-2)

العلاقة بين التكذيب بالدين والانحراف في السلوك :

مِن لوازم التكذيب بالدين دَعُّ اليتيم ، ومِن دَعَّ اليتيم فقد كذَّب بالدين ، هناك علاقةٌ ترابطيَّة ، المُنحرف من شأنه أن يكذِّب بهذا اليوم ، والذي يصدِّق بهذا اليوم من شأنه أن يستقيم ، لأن الإنسان لا يتوازن مع نفسه ، ولا يتوازن مع عقله أن يفعل السيِّئات ، وهو موقنٌ بأنه سيحاسب عنها ، مستحيل ، كيف يطمئنُّ له بال ؟ كيف يقرُّ له قرار ، وهو يعلم أنه سيحاسب ؟ لو أنَّنا آمنا باليوم الآخر لهانت علينا الاستقامة ، ولهان علينا أن نأخذ ما لنا ، وندع ما ليس لنا ، إن كل المشقَّات التي يجدها الإنسان في الاستقامة على أمر الله تهون إذا هو آمن باليوم الآخر ، نَعَم تهون .. أقلِلْ من الشهوات يسهُل عليك الموت .. إنك لن تستطيع أن تؤمن باليوم الآخر وأنت مقيمٌ على المعاصي ، فاعلموا علم اليقين أن لكل معصيةٍ عقاباً في الدنيا ، وفي الآخرة .

فلاحظْ أنّ هناك علاقةً ترابطيَّةً بين عدم الإيمان باليوم الآخر وبين الانحراف في السلوك ، يؤكِّدها قوله تعالى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : من آية " 50 ")

يؤكِّدها قوله تعالى :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون :1-2)

لذلك ؛ الركن الثاني من أركان الإيمان هو الإيمانُ باليوم الآخر ، فلو أن في الإنسان حساسيةً عالية المستوى وقال لك أحدهم : أشكوك إلى الله عزَّ وجل ، يجب أن ترتعد فرائصك من هذه الكلمة لأن الله سبحانه وتعالى هو الحق المبين .. وإليكم هذا الحادث وما فيه من عبرة .

دخل إنسان إلى بيت في العصور القديمة ، وقد أُبيحت المدينة للجُند ، أعطى قائد الجند أمراً أنَّ هذه المدينة مباحةٌ لكم ، دخل أحد الجنود إلى أحد البيوت فرأى فيه امرأةً ، ورجلاً ، وولدين ، فقتل الرجل ، وقال للمرأة : أعطني ما عندك ، أعطته سبعة دنانير ذهبيَّة ، فقتل الولد الأول ، فلمَّا رأته جادَّاً في قتل الولد الثاني أعطته درعاً مُذْهَبَةً ، لقد أعجبته هذه الدرع ، قرأ عليها بيتين فوقع مغشياً عليه ، ماذا في هذين البيتين ؟ ..

إذا جَارَ الأميرُ وحاجِباه وقاضي الأرضِ أسْرَفَ في القضاءِ

فويلٌ ثمَّ ويلٌ ثمَّ ويلٌ لقاضي.... الأرضِ منْ قاضي السَّماءِ

* * *

في أثناء تعاملك مع الناس قد يأتيك طفلٌ صغير ، بكل بساطة تستطيع أن تأخذ ماله ، وأن تغشَّه ، قد تأتيك امرأةٌ بسيطة ، ليست خبيرةً بهذه البضاعة ، قد تبيعها الحاجة السيِّئة بالسعر المرتفع ، وهي لا تدري ، لكنَّك لو علمت أنّ لك مع الله وقفَةً يحاسبك فيها عن هذا الغش في بيعك .. عن هذه المرأة .. لماذا عاملتها هذه المعاملة ؟ لاستقامت معاملتك .

هنا المشكلة ؛ الحياة تجمع بين المتناقضات فيها القوي ، وفيها الضعيف ، القوي مبتلى بالقوَّة ، والضعيف مبتلى بالضعف ، الغني مبتلى بالغنى ، والفقير مبتلى بالفقر ، وذو المكان الرفيع مبتلى بهذا المكان الرفيع ، وذو المكان الوضيع مبتلى بهذا المكان الوضيع ، والله سبحانه وتعالى ينظر إلينا كيف نعمل ، كيف نتحرَّك ، كيف نتصرَّف ، هل نقف عند حدودنا ؟ هل نقف عند حدود الله عزَّ وجل ؟ هل نأتمر بأمر الله ؟ هل ننتهي عما عنه نهى الله عزَّ وجل ، فالمشكلة كبيرة جداً ، أكثر الناس يظنُّون أنهم بذكائهم يُحَصِّلون ما ليس لهم ، هذا ليس ذكاءً ، هذا هو الحُمق بعينه ، لأن الله سبحانه وتعالى سيوقفك يوم الدين ليحاسبك عن أعمالك كلها ، صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها .

إذاً :

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً)

لماذا هو يُنْكِر ؟ ليفعل ما يشتهي ، ليُغَطِّي انحرافه بهذه العقيدة الضالَّة ، متى تزيغُ العقيدة ؟ إذا زاغ السلوك ، هناك ترابطٌ ، وعلاقةٌ ترابطيَّةٌ دائمةٌ مستمرَّةٌ بين زيغ العقيدة ، وبين زيغ السلوك ..

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً)

تذكير بأصل خَلق الإنسان : من ماءٍ مهين :

هو نقطةٌ من ماء مَهين ، كل ثلاثمئة مليون حيوان منوي تختار البويضة حيواناً واحداً منها ، من ثلاثمئة مليون ، هذا الحيوان المنوي الذي لا يُرى بالعين المُجَرَّدة ، فكيف يدخل إلى البويضة ؟ وكيف يلقّحها ؟ وكيف تنقسم خلال يومين أو ثمانية أيَّامٍ إلى عشرات الألوف من الخلايا؟ وكيف تصل هذه البويضة المُلَقَّحة إلى الرحم ؟ وكيف تلتصق على جدار الرحِم ؟ وكيف تتشكَّل جنيناً صغيراً ؟ كيف يتشكَّل القلب والرئتان ؟ وكيف تتشكل الأعضاء والأجهزة ، والدماغ والأعصاب ، والشرايين والأوردة ، والعظام ، والعضلات ؟ هذه الأجهزة المُعَقَّدة صنع من ؟ يدُ من؟ ..

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً)

ما منَّا واحدٌ إلا ، وله تاريخ ميلاد ، قل قبل خمس سنين من تاريخ ميلادك أين كنت ؟ ومن أنت ؟ ومن يعرفك ؟

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان : 1)

وبالمقابل ، سيأتي حينٌ من الدهر آخر نصبح جميعاً تحت أطباق الثرى ، ولا يبقى إلا العمل الذي فعلناه إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر ..

(أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً)

ما كنتَ شيئاً مذكورا ، هذا دليل ، فالإنسان إن لم يَذكر كيف خُلِقَ ابنه أمامه ، فهو إذاً يعلم علم اليقين أنه لم يُسهم في تخليق ابنه ، بل إنه ما فعل شيئاً إنما هي يد العناية الإلهيَّة ، هي التي خلَّقت هذه النطفة وهذه البويضة ، وجعلتْهُما علقة فمضغة ، فشكَّلت العظام ثم وكْسيت العظام لحماً..

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ)

قسم الله على بعث الناس :

أيْ أن هؤلاء الذين ينكرون البعث ، هؤلاء الذين ينكرون اليوم الآخر ، ويفعلون أفعالاً لا تُرضي الله عزَّ وجل ، ويحتالون على الناس ، ويتباهَوْنَ بذكائهم أنهم أخذوا ما ليس لهم ، هؤلاء الذين فعلوا ما يشتهون ، وانغمسوا في المُتَع الرخيصة ، واعتدوا على الأموال والأعراض ، هؤلاء الذين كفروا بالله عزَّ وجل ، وكفروا بآياته ، وكفروا باليوم الآخر لن يُتركوا سُدى ..

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(37)ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(38)فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى(39)أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

(سورة القيامة : 36-40)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

(سورة المؤمنون : 115 - 116)

تعالى الله أن يخلقكم عبثاً ..

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ)

(سورة ص : 37)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)

(سورة الدخان : 38)

هذه السماوات والأرض لم تُخْلَقْ باطلاً ، هذه السماوات والأرض لم تُخْلَق لعباً ، هذه السماوات والأرض لم تُخْلَق عبثاً ، لابدَّ من الحساب، لابدَّ من الجزاء ، لابدَّ من الدينونة ، لابدَّ من يوم الدين ، لابدَّ من اليوم الآخر .

(فَوَرَبِّكَ)

الله سبحانه وتعالى أقسم بذاته ..

(فَوَرَبِّكَ)

يا محمَّد ..

(لَنَحْشُرَنَّهُمْ)

(إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا(1)وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا(2)وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا(3)يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(4)بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(5)يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(6)فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

هذه السورة تلاها النبي عليه الصلاة والسلام على أعرابيٍّ جاء يطلب منه الموعظة ، قال : " يا محمَّد عظني وأوجِزْ " ، فتلا عليه الصلاة والسلام هذه السورة ، فقال : " لقد كُفيت " ، والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه السورة لكَفَتْ ..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

قال : " قد كُفيت " ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : " فَقُهَ الرجل" ، صار فقيهاً من سورةٍ واحدة ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ)

هؤلاء المكذِّبون ، هؤلاء الفاسقون ، هؤلاء الضالُّون ، هؤلاء المنافقون ، هؤلاء العصاة ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ)

الشياطين الذين سَوَّلوا لهم المعاصي ، الذين وسوسوا لهم ، زيَّنوا لهم المُنْكَرات ، زينوا لهم خَرْقَ الحُرمات ، زينوا لهم مخالفة ربِّ الأرض والسماوات ، هؤلاء الشياطين سيُحشرون مع الكفَار الذين تعاونوا على إضلال الناس ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً)

معنى : جثيًّا :

ومعنى جثيًّا ، أي الوقوف على الرُكبتين ، وهذه وقفةٌ فيها ذُل ، كلكم رأيتم في بعض الصور كيف أن الأسرى يُساقون في وضعٍ ذليل ، هؤلاء الكُفَّار ، والمنافقون ، والفُجَّار ، والمنحرفون ، والذين طغوا وبغوا ، وعصوا وعَتَوْا عن أمر ربِّهم هؤلاء جميعاً يُساقون إلى جهنَّم ..

(ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً)

في وضعٍ ذليل ..

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(1)وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(2)عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ(3)تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً)

(سورة الغاشية :1-4)

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا

كل جماعةٍ ، كل فئةٍ ، كل مجموعةٍ من البشر ، كل قومٍ ، كل أمَّةٍ ، كل جماعةٍ لَنَنْزِعَنَّ منها أشدَّها كفراً ، وأشدَّها طغياناً ، وأشدَّها عصياناً ، وأشدها كِبْراً ، وأشدها انحرافاً :

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)

أيهم أشدُّ على الرحمن تَمَرُّداً وانحرافاً ، أمَّا لماذا قال الله عزَّ وجل:

(أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ)

ولم يقل مثلاً : أشدُّهم على الله ؟ أيْ أن هذا الذي عتا على الرحمن ، وقد بعث سبحانه بالأنبياء ليرحمَه بهم ، أنزل الكتاب بالحق ليهتدي به ، بعث له من المصائب ما يوقظه من غفلته ، المصائب ، والأنبياء ، والرُسل ، والكتب ، والدعاة ، وكل هذه من أجل أن يعود إلى الله عزَّ وجل ، إن هذا كلَّه هو عينُ الرحمة ..

(أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)

ومع ذلك كان ردُّه الكفر والجُحود ، والمعصية والانحراف ، والاتجاه نحو طريق الشهوات ..

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)

يؤخذ الأكثر جرماً أولاً ، ويُلقى في النار ليكون في هذا موعظةٌ لأولي الألباب ، ليكون في هذا موعظةٌ لكل شيعةٍ من هذه الشِيَع ، وكيف أن الذي تولَّى كِبْرَهُ منها ، وتولَّى دعوتها إلى الكفر ، والفسق ، والفجور كيف أنه سيُحاسَب بادئ ذي بدء ، وسيلقى الجزاء العادل .

فإذا أُلقي القبض على عصابة يُحاسَب زعيم هذه العصابة قبل كل شيء ، وتُلقى عليه التبعة كلُّها ، ويلقى أشدَّ العذاب ، وهكذا ..

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)

أيُّهم عصى ، وبغى ، أكثرهم عصياناً ، وأكثرهم طغياناً ، وأكثرهم انحرافاً ، الذي ضلَّ وأضل ، والذي زَلَّ وأزل ..

(ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً)

النار لمَن استحقَّها

الله سبحانه وتعالى عليمٌ حكيم ، يعلم من الذي يستحقُّ العذاب أول شيء ، يعلم كل إنسانٍ ما درجة العذاب التي تناسبه ، والتي يستحقُّها ..

(ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً)

تفسير ورود جهنم :

المعنى الأول : ورودُ جميع الناس :

اختلف بعض العلماء في هذه الآية ، جمهور العلماء على أن الناس جميعهم ؛ مؤمنهم ، وكافرهم ، تقيَّهم ، وفاجرهم سيردُ النار ، وورود الناس شيء ، ودخولها شيءٌ آخر ، فرقٌ كبير بين أن تردها فتطَّلع على ما فيها ثمَّ تنجو ، وبين أن يردها الإنسان فيقع فيها ، قد يسأل سائل : ما الحكمة في أن المؤمنين ، الصالحين ، الصادقين ، التائبين ، الطائعين سيردون على النار ؟ قال بعضهم : " إن الحكمة من ذلك لتزيد سعادة المؤمنين في الجنَّة ، ليروا المكان الذي كانوا يستحقُّونه لو لم يؤمنوا بالله عزَّ وجل، ليروا المكان الذي سيُعَذَّبون فيه فيما لو لم يستقيموا على أمر الله " .

إنك إذا وُضِعْتَ أمام خيارين ، واخترت الأسلم ، وسعدت بهذا الاختيار ، ثم رأيت الشقاء الذي حلَّ بمن اختار الاختيار الآخر ، فإن هذا يضاعف سرورك وسعادتك لحسن اختيارك .

فلذلك ربنا سبحانه وتعالى من بعض المعاني المستفادة من أن هؤلاء المؤمنين ، التائبين ، الطائعين ، الأتقياء لماذا يردون النار ؟ من تلك المعاني إنها لن تؤذيَهُم ، ولن يسمعوا حسيسها ، ولن يتأثَّروا بلهبها ولا بحرِّها ، إنهم سيرون فقط مصير الذين كانوا في الدنيا من أهل المعصية والفجور ، ليتحقَّق اسم الله الحق ، قد يكون لك في الدنيا جارٌ يؤذيك ولا تستطيع أن تَكُفَّ أذاه عنك ، وقد توافيك المنيَّة قبل أن يلقى جزاءه في الدنيا، يوم القيامة لابدَّ أن يتحقَّق اسم الحق وترى هذا الذي اعتدى ، وطغى ، وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، كيف أن الله سبحانه وتعالى وضعه في المكان الصحيح ، وقد لقي الجزاء العادل .

إنَّ ورود الإنسان المؤمن على النار ، والورود غير الدخول يزيد من سعادة المؤمن لسلامة اختياره ..

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

وليتحقَّق هدفان ؛ الأول أن تتحقَّق من أن الله هو الحقُّ المبين ، وأنه لن يُفلتَ أحدٌ من جزائه العادل ، لن يُفْلتَ أحدٌ من عقاب الله ، لن يُفْلتَ أحدٌ من الحساب الدقيق ..

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء :47)

هذا الشعور بأن الناس جميعاً سيُحاسَبون ..

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(53)قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ(54)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ(55)قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ(56)وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة الصافات 51-57)

إذاً أن يطَّلع المؤمن على أهل النار ، وكيف يعذَّبون يعلم أن الله هو الحقُّ المبين ، وأن إنساناً ما لن يستطيع أن يتفلَّت من قبضة الله عزَّ وجل ، فالذي مقدّرٌ أن تراه في الدنيا تراه في الدنيا ، والذي لم تره في الدنيا لابدَّ أن تراه في اليوم الآخر .. أما الهدف الثاني ليدرك مدى السعادة التي أدركها عندما نجا من النار ..

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

(سورة يونس : من آية " 46 ")

النبي عليه الصلاة والسلام قد يعيش ليرى جزاء الله العادل في الكفَّار ، أو قد تُدْرِكُهُ المنيَّة قبل أن يرى ، ولكنَّنا جميعاً لابدَّ أن نرى يوم القيامة ، فجمهور العلماء على أن هذه الآية تعني أن الناس جميعاً ؛ مؤمنَهم وكافرَهم ، تقيَّهم ، وفاجرَهم سيردون النار ، فالأتقياء لا تؤذيهم ، ولا يمسَّهم لهبها ، ولا يتأثَّرون بحرِّها ، ولا يَصْلَوْنَ سعيراً ، بل إنهم يطَّلعون على ما فيها لتتضاعف بهذا سعادتهم يوم القيامة، لتتضاعف بهذا لذَّتهم في الجنَّة ، إنهم يرون مصيرهم فيما لو لم يؤمنوا ، مصيرهم فيما لو عصوا ، مصيرهم فيما لو لم يستقيموا على أمر الله ، هذه واحدة .

أما الثانية : ليروا أن الله هو الحقُّ المبين ، فيجب أن توقن أن الله سبحانه وتعالى لا يضيِّع مثقال حبَّةٍ من خردل ، وإن تكن حسنةً يضاعفْها ، ويؤت مِن لدنه أجراً عظيماً . وبعضهم قال : إن هذه الآية :

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

المعنى الثاني : أنها خاصة بالكفار :

تعني هؤلاء الكفَّار الفجَّار حصراً ، ألم يقل الله عزَّ وجل :

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً * وَإِنْ مِنْكُمْ)

أيُّها الكفَّار ، كأن الله عزَّ وجل لا يخاطب المؤمنين ، بل يخاطب الكفَّار فقط دون غيرهم ..

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً)

هذا هو المعنى الآخر ، أنّ هذه الآية ليستْ لعامَّةِ الناس ، بل إنها خاصَّةٌ بالكفَّار .

كيف نتابع الآية ؟ يقول الله عزَّ وجل :

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً)

نجاة المتقين من نار جهنم :

إما أن نقول : ثُمَّ ، وإما أن نقول : ثَمَّ ، ثُمَّ حرف عطفٍ يفيد الترتيب على التراخي ، لكنَّ ثَمَّ ظرف مكانٍ ، فإذا فسَّرنا الآية بأن جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ، تقيَّهم وفاجرهم سيردون على النار ليتعظوا بها نقول :

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً)

وهذا الذي قال عنه بعض العلماء : من أن الله سبحانه وتعالى يَنْصِبُ على النار صراطاً لابدَّ أن يمرَّ عليه كل الناس ، فالمؤمن يقطعه بلمح البصر ، أيْ يقطعه سريعاً ، ربما اطّلع على أهل النار ، وعلى ما فيها من عذابٍ أليم بلمح البصر تجاوزها ، ودخل إلى الجنَّة ، فسرعة عبور الصراط المستقيم متوقفةٌ على استقامة المرء ، وصلاحه ، وحُسن عمله ، إذاً إن جميع الناس لابدَّ أن يَردوا هذه النار وروداً لا دخولاً ..

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ)

(سورة القصص : من آية " 23 ")

أيْ وصل إلى مدين ..

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا)

الأتقياء يجتازون الصراط سريعاً إلى الجنَّة ، وتزيد بهذه النظرة سعادتهم ، وتزيد بهذه النظرة قناعتُهم بأن الله هو الحق المبين .

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

(سورة يس : 52)

لذلك الميت يُلَقَّن فيقول : أشهد أن النار حق ، وأن الجنَّة حق ، وأن البَعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الحَشْرَ حق ، فهذا الذي شهدتَ به أنه الحق ستراه عين اليقين .

فعلى معنى أنّ كل الناس سيردون النار تأتي ثُمَّ حرف عطفٍ يفيد الترتيب على التراخي ..

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً)

واقفون وقفةً ذليلة ينتظرون أن يلقوا العذاب الأليم ..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا)

هؤلاء في الدنيا ، هؤلاء الذين سيقفون على النار جثيًّا ، وقفةً ذليلةً ، هؤلاء كانوا في الدنيا ..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً)

مقياس الكفار الدنيا ومفاتنها :

أي أنه استنباطٌ مُضحك ، أهل الدنيا الكفَّار في الدنيا إذا ناقشتهم ، إذا دعوتهم إلى الله عزَّ وجل ، إذا لفتَّ نظرهم إلى آيات الله ، إذا دللتهم على الحق المبين ، إذا فسَّرت لهم آيةً يقولون : أنت لا تفقه شيئاً ، أنت جاهل ، نحن كل شيء ؛ والدليل أن الله أكرمنا بهذه الدنيا ، وأعطانا إكراماً منه ، واستحقاقاً ، يَعُدُّون عطاء الله لهم إكراماً ، فيستنبطون أن الله يحبهم لا من استقامتهم على أمره ، ولا من عملهم الطيِّب ، ولكن لأن الله أعطاهم الدنيا ، فيعدُّون الدنيا مقياساً لمحبَّة الله عزَّ وجل ، مع أن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب .

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : 76 -77)

" ... فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عُقبى "، فهؤلاء الكفَّار في الدنيا كانوا ..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ)

آيات القرآن ، أو آيات الكون ..

(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً)

انظر إلى بيوتنا ، انظر إلى المال الذي بين أيدينا ، انظر إلى مكانتنا ، انظر إلى وجاهتنا ، انظر إلى دنيانا العريضة ، ماذا عندك أنت ؟ عطاء الله لنا دليل محبَّته لنا ، يستنبطون من هذا أن الله يحبُّهم ، وما أشدَّ خطأهم في هذا الاستنباط ، وما أسخفه من استنباط ..

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16)كَلا)

(سورة الفجر : 16-17)

حرف نفيٍ وردعٍ ، كلا ليس عطائي إكراماً ، ولا منعي حرماناً ، عطائي ابتلاء ، وحرماني دواء .

لو كانت الدنيا تساوي عند الله ... !!!

أيُّها الأخُ الكريم ... لا تتخذ الدنيا مقياساً لمحبَّة الله لك ، دخل سيدنا عمر رضي الله عنه على النبي عليه الصلاة والسلام وقد اضطجع على حصير ، فأثَّر الحصير في خدِّه الشريف ، فبكى عمر ، قال : " يا عمر ما يبكيك ؟ " ، قال عمر رضي الله عنه : " رسول الله ينام على الحصير ؛ وكسرى ملك الفُرس ينام على الحرير ؟! " . قال : " يا عمر إنما هي نبوَّةٌ وليست مُلكاً أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا ؟ " .

عديُّ بن حاتم كان مَلِكاً ، دخل على النبي عليه الصلاة والسلام في مجلسهِ قال : " من الرجل ؟ " ، قال : " عديُّ بن حاتم " ، رحَّب به ، ولمَّا انتهى المجلس أخذ به إلى البيت ، وفي الطريق استوقفته امرأةٌ مُسِنَّة فوقف معها طويلاً تكلّمه في حاجتها ، قلت في نفسي : " والله ما هذا بأمر ملك "، وحينما دخل بيت النبي قال عدي : " تناول وسادةً من أدمٍ محشوةً ليفاً وقال: " اجلس على هذه " ، قلت : " بل أنت " ، قال : " بل أنت " ، قال : "وجلست عليها وجلس النبي على الأرض ، لأنه لم يكن في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إلا هذه الوسادة " .

أفَتُعَدُّ الدنيا مقياساً أيُّها الإخوة ؟! هل بقي عندكم ذرَّة شكٍّ بأن الدنيا ليست مقياساً ؟ لا والله ، ما هي بمقياس مهما غلا عطاؤها .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام : 44)

كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا صلَّى قيام الليل حين السجود تُنَحّي السيدة عائشة رجليها ، لأن غرفة النبي لا تتسع لصلاته ونومها ، هذه غرفة النبي ، وهذا الأثاث الذي عنده وسادة واحدة ، لما جلس عليها عدي جلس النبي على الأرض ، فلينظر ناظرٌ بعقله كما قال الإمام علي : " إن كان الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ فإن قال : أهانه فقد كذب ، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا " . لا تنظر إلى الدنيا لا إن أقبَلَتْ ولا إن أدبَرتْ ، لأنها إن أقبلت لا تدوم ، وإن أدبرت لا تدوم ، لا تنظر إلى الدنيا وانظر إلى الآخرة ..

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

(من سنن الترمذي عن أنس بن مالك)

هؤلاء الكفَّار بسذاجةٍ ، وسخافةٍ يرون أن الله عزَّ وجل يُحِبُّهم أكثر من المؤمنين ، لا لشيء إلا لأنهم قد نالوا من الدنيا الكثير ؛ ودعواهُم :

(أيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً)

أنت أين ساكن ؟ يفتخر بحيِّه الراقي الذي يسكنه ، وبمساحة بيته الكبيرة ، وبفرشه الأنيق ، وبتزييناته الرائعة ..

(أيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً)

معنى : نديًّا :

النَدِيّ من النادي ، أي نحن نرتاد النوادي الراقية ، أنت أين تسهر؟ تسهر في بيتك ، أنت فقير ، لكننا نسهر في المكان الفُلاني ، وندفع الثمن الفلاني ثمن العشاء ، ونسهر مع فلان وعلاّن ، أين أنت منَّا ؟ هؤلاء الكفَّار يظنون أن هذه الأموال ، وهذا البيت ، وهذا الفرش ، وهذا الأثاث ، وهذه النشاطات الاجتماعيَّة الراقية زيفاً وغروراً ، وهذا المجتمع المُخْمَلِي .. كما يقولون .. هو مقياسٌ رفيعٌ عند الله عزَّ وجل ..

(أيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

كأن لم تَغْنَ حضارةٌ بالأمس :

أقوامٌ كثيرون بلغوا أوْجَ الحضارة ، لا تزال حضارة المصرين مجهولة الأسرار ومع ذلك أهلكهم الله عزَّ وجل ، أين الرومان الذين عمَّروا القصور ، وأنشؤوا المدارج ؟ أين أصحاب الآثار ؟ بلادنا كُلُّها آثار أين أصحابها ؟ أين عادٌ وثمود ؟

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي(9)وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ(10)الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ(11)فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(13)إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر 9-14)

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

أي إذا أقاموا في مكان فمكانهم جميل ، وبيتهم أنيق ، وفرشُهُم وثيرة .. فمدن بأكملها تُصيبها الزلازل، أغادير من أجمل مدن الساحل الأطلسي في دقائق معدودة أصبحت قاعاً صفصفاً .

(لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا)

(سورة طه : 107)

صور عن تدمير الله للكفار :

1 - كولومبيا :

قبل سنوات ثار فيها بركانٌ قريبٌ منها فأحرقها وأهلكها ، وأذاب الثلوج ففاضت عليها فأغرقتها ، خمسة وثلاثون ألف إنسان ماتوا في يومين ، استمعوا إلى الأخبار ، هناك قُرى بأكملها تتلاشى ، قد يركب الإنسانُ طائرةً ، ويظنَّ أن هذا من منجزات العصر ، ما هي إلا دقائق حتى يقال : وقد مات جميع رُكَّابها ، أين هم ؟ ..

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

2 - سفينة التيتانيك :

أجمل سفينةٍ صُنعَتْ في القرن الماضي اسمها (تيتانيك)، هذه أضخم البواخر في العالم ، ساهم في بنائها أمهر الصُنَّاع ، زيِّنَت بأجمل النجفات ، الخشب من أعلى الأنواع ، الأثاث ، في أول رحلةٍ لها من بريطانيا إلى أمريكا ، رَكِبَ فيها أثرياء أوروبا ، قُدِّر ثمن الحِلي التي زُيِّنَت بها النساء بمئات الملايين ، وكانوا يقولون : إن القَدَرَ لا يستطيع إغراق هذه السفينة ، لم تُصنَع لها قوارب للنجاة ، وانشقّتْ السفينة نصفين في أول رحلةٍ لها ، فيما أذكر قبل سنة أو أقل وصل الغوّاصون إليها ، في سنة ألف وتسعمئة واثنتي عشرةَ غرقت هذه السفينة ، ومن فيها ، وما فيها ، وقال بعض القساوسة : " إن غرق هذه السفينة درسٌ من السماء للأرض"..

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

3 - المركبة الفضائية (شلنجر) :

أما سفينة الفضاء (شلنجر)ترجمتها المُتَحَدِّي ، فقد تحدوا بها السماء ، وما هي إلا سبعون ثانية من إقلاعها حتى أصبحت كتلةً من اللهب، أين هي ؟ ..

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

كانوا أغنياء ، كانوا مرفَّهين ، كانوا يعرفون أين يسكنون ، وكيف يزينون البيوت ، ويقتنون أجمل الأثاث ، ويزينون بيوتهم بالتحف الراقية ، ويعرفون كيف يأكلون ما لذَّ وطاب من الطعام ، فإذا جاء مَلَكُ الموت أخذهم ، ولا يَلْوون على شيء .

(قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً)

سنستدرجهم من حيث لا يعلمون :

هذا استدراج ..

(قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً)

الآية الأخيرة في جلستنا هذه :

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)

إذا اختار الإنسان الهُدَى زاده الله هُدى ..

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الكهف : 13)

لمجرَّد أن تطلب الهُدى يأتيك الهدى أضعافاً مضاعفة .. عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ قَالَ :

((إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[متفق عليه]

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت :69)

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)

مَن اختار الهدى هداه الله :

تختار الهُدى فيعينك الله على أمر دنياك كي يُفَرِّغَكَ للهدى ، يعينك الله على أمر دينك بزوجةٍ صالحة ، يلهمك رُشدك ، يجمعك مع أهل الحق، يفتح بصيرتك ، هذا كلُّه مما يُفْهَم من هذه الآية ..

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً)

تفسير : الباقيات الصالحات :

الباقيات جمع ، مُفْرَدُه الباقية ، كل شيءٍ يبقى بعد الموت ينضوي تحت هذه الآية ، فتعلُّمك كتاب الله ، وعملك الصالح ، واستقامتك على أمره ، وخدمة الخلق ، وأداء العبادات ، وأداء الأمانات ، أيُّ عملٍ

تعمله ابتغاء وجه الله يبقى لك بعد الموت ، اجعل الموت فَيْصَلاً في أعمالك ، الشيء الذي ينتهي عند الموت لا تُعْنَى به كثيراً ، مهما بَلَغْتَ فيه ، مهما حَصَّلت منه ، مهما تفوَّقت فيه ، مهما علوت في الأرض من خلاله يأتي مَلَك الموت ، ويأخذ منك ما حصَّلته في ثانيةٍ واحدة ، وأما الشيء الذي يبقى بعد الموت فهذا الذي يجب أن تُعنى به ، هذا الذي يجب أن تكرِّس .. إن صحَّ التعبير .. كل جهودك من أجله ، هذا الذي يجب أن يأخذ كلَّ اهتمامك، هذا الذي يجب أن ينال إعجابك ، الشيء الذي يبقى بعد الموت .

طلب العلم فرض عينٍ ، وآثار طلب العلم تبقى بعد الموت ، تعلُّم كتاب الله فرض عينٍ ، وآثار هذا التعلُّم تبقى بعد الموت ، الاستقامة على أمر الله تبقى آثارها بعد الموت ، الأعمال الصالحة تبقى آثارها بعد الموت ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تبقى آثارهما بعد الموت ، أداء العبادات ؛ إقامة الصلوات ، حج بيت الله ، صيام رمضان ، تعليم القرآن ، خدمتك للناس ، تربيتك لأولادك ، أي عملٍ تبقى آثاره بعد الموت هذا الذي عليه المُعَوَّل ، هذا الذي يجب أن تُفني عمرك من أجله ، هذا الذي يجب أن تُمضي شبابك فيه ، هذا الذي يجب أن تَهُزَّ كتفيك من أجله ..

" أيُّها الناس شمِّروا فإن الأمر جَد ، وتأهَّبوا فإن السفر قريب ، وتزوَّدوا فإن السفر بعيد ، وخفِّفوا أثقالكم فإن في الطريق عقبةً كؤود لا يجتازها إلا المُخِفّون ، وأخلصوا النيَّة فإن الناقد بصير " .

هذا هو الفَيْصَل ، هذا هو المقياس ، اجعل الموت حدًّا ، فالعمل الذي ينتهي عند الموت دعه ..

كل ابن أنثى وإن طالت سلامت ه يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ

فإذا حملتَ إلى القبور جنازةً.. يوماً فاعلم أنَّك بعدها محمولُ

* * *

لكنَّ الذي يبقى بعد الموت هو الباقيات الصالحات ..

(خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً)

طبعاً :

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوه(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقَّة : 19-32)

فيا أيُّها الإخوة الأكارم ... هذه الآيات دقيقةٌ جداً ، ومحورها أن الدنيا ليست مقياساً ، لا تحزن على الدنيا ، سيدنا الصديق رضي الله عنه قيل عنه : " إنه ما نَدِمَ على شيءٍ فاته من الدنيا قط " ، الأصل أن تعرف الله عزَّ وجل ، والأصل أن تعمل عملاً يبقى بعد الموت ، أما الذي ينتهي بالموت فلا جدوى منه، والخاسر هو الذي أمضى وقته في نشاطٍ سخيف..

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف : 104)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 77 - 98
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-01-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس من سورة مريم ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا

فهذا الكافر الذي أنكر عظمة الله عزَّ وجل ، ولم يعبأ بآياته ، لا آياته القُرآنية ، ولا آياته الكونية ، هذه الآيات التي بثَّها الله في السماوات والأرض لم يعبأ بها ، واستخف بها ، ولم تلفت نظره ، ولا آيات القرآن المُعْجِزَة ، لا هذه ، ولا تلك ، وما كان منه إلا الكفر ، الإنكار ، والإعراض ، أمَّا الإيمان والتصديق والإقبال فهو حظّ المؤمن ، يصدِّق بآيات ربه الكونية والقرآنية ويقبل عليه ، والكافر يكذِّب بآيات ربه الكونية ، والقرآنية ، ويُعْرِضُ عن الله سبحانه ، فالكافر يكذب بآيات الله ، لا يعبأ بها ، لا يؤمن بها ، لا يوقِّرُها ، لا يُعظمها ، لا تملأ قلبه ، وهو كذلك يعرض عن الله عزَّ وجل ، يدير ظهره لهذا الدين ، يلتفت إلى الدنيا ، يَنْكَبُّ عليها ، تشغله دنياه ، يسعى لمصالحه .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا)

أفرأيته أيها المؤمن ، انظر إلى أخلاقه ، انظر إلى قيمه ، انظر إلى صفاته النفسية ، انظر إلى علاقاته الاجتماعية ، انظر إلى تعامله مع الناس، انظر إلى الكبر الذي سيطر عليه ، انظر إلى العُجْبِ الذي استحوذ على لُبِّه ، انظر إلى حبه لذاته ، انظر إلى بغضه للآخرين ، انظر إلى قسوة قلبه ، انظر إلى إخلافِه مواعيدَه ، انظر إلى أخذه ما ليس له ، انظر إلى بذاءته ، انظر إلى حقارته ..

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا)

أيْ ..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون : 1-2)

هذا الترابط الوجودي بين الكفر وبين الانحراف ..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : من آية " 50 ")

أفرأيت أيها المؤمن ؟ يَدَعَمُ هذه الآية آيةٌ أخرى :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق : 9-10)

انتهت الآية ، أي هل نظرت إليه ؟ هل نظرت إلى أخلاقه ؟ هل نظرت إلى علاقاته ؟ إلى معاملته ؟ إلى صفاته ؟ إلى قِيَمِهِ ؟ .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا)

جعل الدين وراء ظهره ، جعل هذا القرآن العظيم مهجوراً ، لم يَرَ في هذا القرآن نظاماً معجزاً شاملاً كاملاً ، يصلح للتطبيق في كل مكانٍ وزمان ، رآه كتاباً انقضى وقته وانتهى زمنه ، ولا يصلُحُ لهذا الزمان .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا)

هذا الترابط كله في حاليته : إيماناً وكفراً يلخصه قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((فَالنَّاسُ رَجُلان : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

(من سنن الترمذي : عن ابن عمر)

فالكافر من لوازم كفره الإعراض ، ومن نتائج الإعراض الأخلاق الذّميمة ، ومن لوازم الإيمان الإقبال، ومن نتائج الإقبال الأخلاق الفاضلة ، فكأن الإيمان مجموعةٌ من القِيَمِ الخُلُقِيَّة ، لذلك الذي يميز المؤمن عن غير المؤمن ليس الصلاة والصيام ، لا ، ولكن الذي يميّز المؤمن عن غير المؤمن أخلاقه الإيمانية العالية ، إن الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام دعائم لهذا الدين :

((بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ))

(من صحيح البخاري عن ابن عمر)

هذه الخمس ليست هي الدين ، إنما بني عليها الدين ، فمن ظن الدين صلاةً جوفاء ، وصياماً لا معنى له ، فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

لَأُوتَيَنّ مالً وولَدًا

هذه الآية مطلقةٌ ، فبعضهم قال في معناها : إن هذا الكافر يتبجَّح ، ويتحدَّى ويقول : " حتى في اليوم الآخر لي حظٌّ كبير في هذا اليوم " ..

(لَأُوتَيَنَّ)

في اليوم الآخر ، إذا رُدِدتُّ إلى ربي لأوتيَنَّ مالاً وولداً ، وبعضهم قال : في الدنيا ، هذا الذي يحسب حساباتٍ دقيقة وينسى أن الله عزَّ وجل بيده كل شيء ، فهو مستغنٍ عن رحمة الله ، مستغنٍ عن حفظه ، مستغنٍ عن توفيقه ، مستغنٍ عن إمداده ، مستغنٍ عن ألوهيته ، يقول : أنا سأفعل كذا وكذا ، يخطط لمستقبله ، سأشتري البيت في عام كذا ، سأتزوَّج ، وغاب عنه أنه ربما وقع ضحية حادثٍ طفيفٍ جعله مشلولاً ، أو ربما نَمَتْ بعض الخلايا في جسده نمواً غير منضبط فأصبحت حياته جحيماً ، فهذا الذي يخطط لمستقبله ويقول :

(لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

ولا ينتبه إلى أن الله عزَّ وجل هو الموفِّق ، وما توفيقي إلا بالله ، لا يتحقق هدفٌ على وجه الأرض إلا بتوفيق الله ، لا في زراعةٍ ، ولا في صناعةٍ ، ولا في تجارةٍ ، ولا في زواجٍ ، ولا في صحةٍ ، ولا في معالجةٍ.

(لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

يُخَطِّطون وقد غفلوا عن الواحد الديَّان ، قالوا : هذه المركبة (شلنجر)سوف تنطلق في الساعة كذا وكذا من القاعدة ، بعد سبعين أو ثمانين ثانية ستكون في المدار الأول ، بعد كذا وكذا ، تعود بعد ثمانية أيام ، وسنسميها المتحدي ، وبعد ثوانٍ معدودة أصبحت كتلةً من اللهب ، مثلها مثلُ الذي قال :

(لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

مَن هو صاحب الأفق الضيق ؟

إن الذي يخطط لمستقبله ويغفل عن الله عزَّ وجل إنسانٌ غبي ضيق الأفق ، بل هو معتوه لأنه ينسى القوة الكبرى في الكون ، في الكون حقيقةٌ كُبرى هي كل شيء ، وهي الله عزَّ وجل ، لأن هذه الحقيقة إذا غفلتَ عنها فَلألف سببٍ وسبب يمكن أن تُخْفِقَ في كل مسعاك ، لألف سببٍ وسبب يمكن أن تحبطَ كل أعمالك ، لألف سببٍ وسبب يمكن أن تكون صفر اليدين ، قد يفقد الإنسان بعض أعضائه ، قد يفقد عقله ، فهذا البيت الذي اشتراه لا يستمتع به ، يؤخذ إلى المستشفى ، يفقد أهله ، يفقد أولاده ، فالإنسان كما يقول العامة ، وهو كلامٌ لطيفٌ جداً : الإنسان تحت ألطاف الله عزَّ وجل .

لا تقل : لأفعلنَّ كذا وكذا ، هذا كلام الأحمق ، هذا كلام الجاهل ، هذا كلام الغافل ، هذا كلام الذي لا علم له ، قل : إن شاء الله ، إن مكنني ربي ، إن يَسَّرَ لي ، إن وفَّقَني ، إن أراد لي ، إن سمح لي .

فهذا الكافر الذي كفر بآيات الله الكونية والقرآنية ، ولم يعبأ بها ، لم يعظمها ، لم تملأ عقله ، لم تملأ وجدانه ، لم تملأ حياته ، حياته ليست معنيةً بهذه الحقائق الدينية ، فلذلك يقول : سأفعل كذا وكذا ، وهذا

متمثّل أكثر ما يبدو في المجتمعات الغَربية ، يفعلون كل شيء ، وكأن الله غير موجود ، فتتوالى عليهم الآفات ، يأتي مرضٌ يجعل حياتهم جحيماً ، يَدُبُّ القلق فيهم ، ترتعد فرائصهم خوفاً من هذا المرض الذي انتشر الآن في بلاد الغرب بأرقامٍ خيالية ، إنه نقص المناعة ، أين تخطيطهم ؟ خططوا لدنيا عريضة ، بَنَوْها على أنقاض الآخرين ، بنوها على أنقاض الشعوب ، بنوها على فقر الشعوب وعلى استغلالهم ، فجاءت الأمراض والأوبئة ، وانتشرت المخدرات في مجتمعاتهم ، فهذا الذي يقول :

(لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

هذا الكلام من لوازم الكُفر ، من لوازم الغَفْلَةِ عن الله عزَّ وجل ، فرَبُّنا سبحانه وتعالى يقول :

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ)

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

أيْ هل عرف في عِلْمِ الغيب أنه سيكون كذا ، وكذا كما خطط ؟ إنه أحمق ..

(أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً)

هل سبق عهدٌ من الرحمن له ، أم أنه اطّلع على علم الغيب ؟ فلا يستطيع إنسانٌ أن يقول : سأفعل كذا وكذا إلا بسببين ، أن يكون قد اطّلع على علم الغيب الذي هو من خصوصيات الله ، والذي لا يعطيه الله عزَّ وجل إلا لمن يصطفي من أنبيائه ..

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن : 26-27)

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ)

إنما الغيبُ للّه :

لا يعلم الغَيْبَ إلا الله ، وكل من يزعم أنه يعلم الغيب فهو كذَّاب ، قل لا أعلم الغيب ، هكذا قال عليه الصلاة والسلام ، كما في قوله تعالى :

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف : 188)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو مَن هو في رفعة الشأن ، إنه قمة البشر ، إنه سيِّد ولد آدم ، إنه سيد الأنبياء والمرسلين ، ومع ذلك لا يعلم الغيب ، فمن يدَّعي ممن دونه أنه يعلم الغيب فهو كذَّاب .

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ)

حتى يَصِحَّ أن يقول هذا الكلام :

(لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

ألَه علمٌ بأن المستقبل سيكون كما أراد ؟ هل اتخذ عند الله عهداً ، والله سبحانه وتعالى لن يخلف عهده ؟ لا ..

(كَلَّا)

أداة ردعٍ ونفي ..

(كَلَّا)

ردعُ الله لمن قال هذا الشطط مِنَ القول :

فرقٌ كبيرٌ بينها وبين لا ، قد تُسأل : هل أنت جائعٌ فتقول : لا ، تنفي أنك جائع ، لكن قد يُسأل الإنسانُ فيقال له : هل أنت سارقٌ ؟ فلا ينبغي أن يقول كلمة : لا ، بل يجب أن يقول : كلا ليس هذا من شأني ، إن الذي يقول : كلا ، لا ينفي فقط ، بل ينفي ، ويرْدَع السائل ..

(كَلَّا)

الله سبحانه وتعالى يردع هؤلاء عن هذا الشطط في القول ، عن هذا القول الفاسد ، عن هذه الفِرْيَة ، عن هذا الكذب ..

(كَلَّا نَكْتُبُ مَا يَقُولُ)

كُلّ شيء مكتوب مسجَّلٌ :

هذه الكلمة سُجِّلَتْ عليه ، وسوف يواجه بها يوم القيامة .

(كَلَّا نَكْتُبُ مَا يَقُولُ)

أيها الإخوة المؤمنون ، الإنسان عليه أن يضبط لسانه مع حضرة الله عزَّ وجل ، الذنب كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الذنب شؤمٌ على غير صاحبه ، إن ذكره فقد اغتابه ، إن عَيَّرَهُ فقد ابتلي به ، إن رضي به فقد شاركه في الإثم))

[الديلمي في الفردوس عن أنس]

لا ينبغي للإنسان أن يقول لإنسان مرتكب معصية : هنيئاً له ، إن قلت هكذا فأنت شريكه في الإثم ، ولا ينبغي أن تعيِّره ، إن فعلت تبتلى به ، ولكن يجب أن يكون الإنسان دقيقاً في ألفاظه دقةً مُتناهية ،

وإلا وقع في شَرِّ عمله .

(كَلَّا نَكْتُبُ مَا يَقُولُ)

واللهِ الذي لا إله إلا هو لو يعلم الإنسان مَغَبَّة هذه الآية أن الذي يقول ، ويتبجَّح ، ويتحدى ، وينسى أنه عبدٌ فقير ، ينسى أنّ حياته بيد الله العلي الكبير ، ينسى أن رزقه بيد الله ، ينسى أن نجاحه بتوفيق الله ، ينسى أن الذي حَصَّلَهُ في هذه الدنيا من رحمة الله ، هذا الذي ينسى :

(كَلَّا نَكْتُبُ مَا يَقُولُ)

هذه الكلمات الغبيَّةُ الجاهلة سجلت في صحيفته ، وسوف يحاسب عليها في الآخرة ، البشر مع من هُم من طينتهم ، لو أنك تورَّطت بكلمة ، وكتبت عليك ، ثم استدعيت فووجِهْتَ بها ، ترتعد فرائصك من إنسان لا يملك من أمره شيئاً ، فكيف لو كانت هذه الكلمة بحقِّ الواحد الديَّان ؟ وسألك عنها يوم القيامة ، وحاسبك عنها حساباً عسيراً .

(كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً)

ونمدُّ لهُ مِن العذابِ مدًّا

هناك رجل عنده معمل للحلويات ، في قُطر عربي مجاور ، حدَّثني بعض من أثق بحديثه عنه ، قال : إنه يُصَدِّرُ كل يومٍ طائرةً محملةً بهذه الحلويات إلى بعض دول النفط ، فقد كان هذا الإنسان في أوج نجاحه ، فالملايين تتدفق عليه ، دخل مرةً إلى معمله ، وقد رأى بعض العُمَّال لا يجيدون عَجْنَ العجين، فوضع كتلة العجين على الأرض ، وعركها بقدميه ، وبحذائه ، وقال لعماله : هكذا يُعْرَكُ العجين ، ما هي إلا أشهرٌ معدودة حتى قُطِعَتْ رجلاه من ركبتيه ، هذا الذي يتحدى ، هذا الذي يتكبَّر ، هذا مصير الذي يظن أنه كل شيء ، وهو لا شيء ، هذا مصيره التَّلَف والهوان .

(سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ)

كُتبتْ هذه الكلمة في صحيفته ، سُجِّلَتْ ، وسوف يواجه بها يوم القيامة، وقد يواجه بها في الدنيا قبل الآخرة .

(كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً)

وسوف يتحمَّل مَغَبَّة هذه الكلمة ، سوف يلقى ألوان العذاب جزاءً وفاقاً لهذه الكلمات التي تفوَّه بها .

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)

مع الموت نفقد كل شيء :

هذا الذي أوتي المال والولد ، وأوتي الجاه العريض ، وجاءته الدنيا ، وهي راغمة ، واستعلى بها على الناس ، كل مكتسباته ، وكل عِزِّه ، وكل جبروته ، إنما جاءه من المال الوفير الذي هو بين يديه ..

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)

لابدَّ أن يموت ، وحينما يموت يفقد كل شيءٍ في ثانيةٍ واحدة ، ليس في الكَفَن جيب ، هل أحدٌ منكم رأى في الكفن جيباً لوَضْع دفتر الشيكات ؟ لا ، وألف لا ، قماشٌ أبيضٌ من أرخص أنواع الأقمشة يُلَفُّ به ، ويوضع في القبر ، أحد كبار الأثرياء بنى لنفسه قبراً جعله آيةً ، هذا القبر آيةٌ في الجمال والفخامة، كَلَّفَ الملايين ، بناه في جبلٍ أخضر مُشْرِفٍ على البحر ، أيْ حتى لو مات في أقصى الأرض فعليهم أن يحضروه ، فهذا قبره ، كان يركب طائرته الخاصة فوق البحر ذات يوم ، فسقطت الطائرة في البحر، استقدمت زوجته مجموعةً من أمهر الغواصين من بلاد الغرب لانتشال جُثَّتِهِ من البحر ، ودفعت هذه الزوجة أيضاً مئات مئات الألوف ، فما تمكَّن الغوَّاصون إلا أن ينتشلوا جثة الطيار ، أمَّا هو فلم يُتَح له أن يدفن في هذا القبر ..

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)

أحد أكبر أغنياء العالم كان يُقْرِضُ الدولة من حينٍ لآخر ، دخل إلى بعض مستودعات الذهب التي يملكها ، فأغلق عليه الباب خطأً ، فجعل يصيح ملء فمه ، ولا أحد يستمع إليه ، إلى أن جرح يديه ، وكتب على حائط هذا المستودع : أغنى أغنياء العالم يموت جوعاً .

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)

فهذا البيت الذي تتباهى به ليس لك ، البيت الحقيقي هو المثوى الأخير ، هذه المركبة التي تتيه بها ليست لك ، إنها لله وضعت بين يديك ، أعرابيٌ أجاب أدَقّ إجابةٍ وأصح إجابةٍ وأوجز إجابةٍ ، كان يقودُ قطيعاً من الإبل قيل له : لمن هذا القطيع ؟ قال : لله في يدي ، أي أن هذا البيت لله تسكنه أنت الآن ، ليس لك ؟ والدليل لابدَّ من أن يخرج أحدنا من بيته بشكلٍ أفقي دون أن يعود ، والذي يُعَدُّ بطلاً فليتحدَّ ، ولا يخرج من بيته ، مهما كنت قد اعتنيت بهذا البيت لابدَّ أن تخرج منه بشكلٍ أفقي من دون أن تعود .

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)

وكذلك مركبته ، وكذلك محله التجاري ، وكذلك وجاهته ، وكذلك ممتلكاته .

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً)

ويأتينا فَرْدًا

أين جماعتك ؟ ..

(وَيَأْتِينَا فَرْداً)

أين عُزْوَتُك ؟ ..

(وَيَأْتِينَا فَرْداً)

أين خُطورتك ؟ ..

(وَيَأْتِينَا فَرْداً)

الإنسان أحياناً في الحياة الدنيا يلتفُّ حوله أشخاص ، هذا حوله إخوة ، هذا حوله أقارب ، هذا حوله تلاميذ ، هذا حوله أتباع ، كل إنسان يعتز بمن حوله ، لكن البشر جميعاً سيقدمون على الله عزَّ وجل فُرادىً ..

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام : من آية " 94 ")

لا تخلو الحياة الدنيا من بعض الأصدقاء ، تتصل بفلان ، تُوسِّط فلاناً الآخر صديق فلان ، يُخرجك بسند كفالة ، ممكن ، هذه في الدنيا ، فلان يكتب كلاماً لمصلحتك في الضبط ، هذا ممكن في الدنيا ، لكن يوم القيامة ..

(وَيَأْتِينَا فَرْداً * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً)

هذا هو الحُمْقُ بعينه ، أن تتخذ من دون الله إلهاً لتعتزَّ به ، فقد يعتزُّ فلانٌ بقريبه إذا كان في مكانٍ مرموق ، وقد يعتز الإنسان بماله ، ويَعُدُّ ماله إلهاً له ، يعتز به ، وقد يعتز فلانٌ بكذا وكذا ..

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً)

كل معبود بالباطل يصير عدوا لعابده يوم القيامة :

قال علماء التفسير : إن كانت هذه الآية موجَّهَةً إلى من اتخذ أشخاصاً من بني البشر ، اتخذهم آلهة يعبدهم من دون الله ، ويرجوهم ، ويخشاهم ، ويطيعهم ليكونوا له عزاً ، فهؤلاء الأشخاص يوم القيامة سيكفرون بهذه العبادة ، ويقولون : يا من كنت مغفلاً نحن بشر مثلك ، لا نستحقُّ العبادة ، نحن ضعاف، نحن مفتقرون إلى الله ، إن هؤلاء الذين اتّخذوا آلهةً من دون الله سيكفرون بعبادتهم ، وسيشهدون ضدهم .

(وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً)

وقال علماء التفسير : وإذا كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أصناماً فإن الله عزَّ وجل ينطقهم يوم القيامة ليكونوا شهودَ إثباتٍ على كفر هؤلاء .

(كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً)

معنى : تؤزّهم :

معنى تؤزُّهم أي تُهَيِّجُهُم ، تستفزِّهم ، تحرِّضهم ، الذي يجعلك في حيرةٍ من أمر بعض الناس أن هذا الإنسان يحب أن يؤذي ، لماذا يؤذي؟ ولا مصلحة له شخصية في هذا الأذى ، لكن يحب أن يؤذي ، هذا الإنسان تنطبق عليه هذه الآية :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

لو أن الله عزَّ وجل قال : ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين عليهم ، لكان هذا المعنى غير مستقيم ، لكن الله عزَّ وجل يقول :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

أيْ أنهم بعد أن كفروا ، واختاروا الكفر بمحض اختيارهم استحقوا أن تأتيهم الشياطين لتؤزُّهم أزّاً ، فعندئذٍ تجد الكافر لا هم له إلا إيذاء الناس ، يؤذيهم ، يسلبُهُم بعض ممتلكاتهم ، يأخذ ما عندهم ، يوقِع بهم الضَرَر ، فقد يكون الجار كذلك ، يرتاح إذا أوقع جاره في ورطة ، يشفى غليله إذا سَبَّب لجاره بعض المتاعب ، هناك أشخاصٌ تحارُ في أمرهم ، لماذا يؤذون ولا مصلحة لهم في هذا الأذى ؟ هؤلاء كما قلت قبل قليل تنطبق عليهم هذه الآية ، لذلك قال بعضهم : " إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك" ، فهناك أشخاصٌ يحبُّهم الله عزَّ وجل يستعملهم في الخير ، إذا أحب الله عبداً جعل حوائج الناس إليه ، إذا أحب الله عبداً طرَقَ الناس بابه ، إذا أحب الله عبداً أجرى الخير على يديه ، خَلَقَ الفضل ، ونسبه إليه ، وهناك أشخاصٌ مفاتيح للشر ، يستخدمهم الله عزَّ وجل لتأديب عباده ، فلا يجري على يديهم إلا الشر .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً *فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً)

الإنسان بضعة أيام معدودة :

كل شيءٍ معدود هو شيءٌ قليل ، حياتنا في هذه الدنيا أيامها معدودة، إذاً هي قليلة ، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضْعٌ منه ، كل شيءٍ معدودٌ هو قليل ، فهذا الذي يتمنَّى على الله عزَّ وجل أن يُدَمِّرَ هذا الجار الظالم أو هذا القريب الجاحد ، فلا ..

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً)

أيْ أنَّ أيامهم معدودة ، لابدَّ من أن تنقضي ..

الليل مهما طال فلا.. بدّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بدَّ من نزول القبر.

*** * ***

وسبحان من قهر عباده بالموت .

****

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة .. ...فاعلم بأنك بعدها محمول

*** * ***

واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا .

القضية سهلة ، محسومة ، واضحة ..

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً)

أحياناً تُستخدم بعض العبارات يقالُ لك : فلان انتهى ، ولكن القضية قضية وقت ، أي أنه بقي له أيام معدودة ، أحياناً يقول الطبيب هكذا: انتهى . أي بقي له أيام ، ميئوسٌ من شفائه ، فهذا الذي أعرض عن الله عزَّ وجل وركب رأسه ، وعصى ربه ، وجحد نعمته ، وتنكَّب طريق الحق ، وأراد أن يطفئ نور الله ، الإنسان قد يقول فيه : ليت الله يهلكه . فلا ..

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ)

له عند الله أجلٌ لا ينقص ولا يزيد :

(وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا)

(سورة طه)

لزاماً هلاك الكفار .

(وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه : 129)

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً)

تكريم الله للمؤمنين وفدا وفدًا :

ما هذا التبجيل ؟ ما هذا التكريم يا رب العالمين ؟ هؤلاء المتقون يذهبون إلى الرحمن وفداً ، علامة التكريم ، وعلامة الإسعاد ، وفدٌ كريم يَقْدِمُ على الله عزَّ وجل ، يرحَّب بهم ، يقال لهم :

(سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر :73)

(لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا(25)إلا قِيلا سَلامًا سَلامًا)

(سورة الواقعة)

(نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً)

وفدٌ رفيع المستوى ، تقام له الزينات ، وينزل في أرقى البيوتات ، ويقدَّمُ له ما لَذَّ وطاب ، هذا شأن الدنيا ، الوفود رفيعة المستوى يُحْتَفَلُ بها احتفالاً كبيراً ، فكيف بالمتقين الذين أمضوا حياتهم في طاعة الله ، أمضوا حياتهم في التقرُّب إليه ، أمضوا حياتهم في خدمة عباده ؟ هؤلاء يوم القيامة يحشرون إلى الرحمن وفداً ، هنيئاً لهم ، نرجو الله أن نكون منهم ، وأما المجرمون لا يحشرون ولكن يُساقون ..

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً)

لابدَّ من أنكم رأيتم أحداً أُلقي القبض عليه بجريمة ، كيف يساق إلى سيارة رجال الضابطة ؟ هل يقابَل بالترحيب ؟ وهل يقالُ له : تفضل ، أم يستقبل بالضرب والركل ؟

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً)

إهانة الله للمجرمين وسوقهم على الجحيم بالسلاسل :

سَوْق ..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : 61)

مُحْضَرًا ، أي ألقي القبض عليه ، ووضعت في يديه الكلاليب ، واقتيد إلى مصيره المحتوم ، هذه هي الخسارة ..

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ)

لا شفاعة لمعبود بالباطل :

أيْ أنَّ هؤلاء الآلهة الذين عبدوهم من دون الله لا يملكون لهم الشفاعة ، تماماً (في الدنيا كعصابة سرقة مثلاً)ألقي القبض عليها ، زعيم العصابة كان قبل إلقاء القبض عليه ، يُصدر الأوامر لأفراد عصابته ، ويأمر وينهى، ويطمئن ، فإذا ألقي القبض عليه مع أفراد عصابته فليقل أحدهم له : خلّصنا يا زعيم ، يا فلان خلصنا ، إنه لا يستطيع ..

(لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ)

هؤلاء الآلهة الذين عبدتموهم من دون الله ، يخاطب الله الكفار :

(لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ)

لا يستطيعون كَشْفَ الضر عنكم ولا تحويله ، لا يملكون لأنفسهم ضَرّاً ولا نفعاً ، فإن كانوا عاجزين عن أن يملكوا لأنفسهم نفعاً أو ضراً فهم عن أن يملكوا لكم نفعاً أو ضراً أعجز .

(لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً)

تفسير : إلاَ مَن اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَن عَهْدًا

قال علماء التفسير : العهد هو الإيمان والعمل الصالح ، فمن كان في الدنيا مؤمناً ، ومن كان ذا عملٍ صالحٍ ربما نالته شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ، من مات غير مشركٍ بالله عزَّ وجل ، هكذا ورد في بعض الأحاديث الصحيحة فقد تناله الشفاعة .

(وَقَالُوا)

الفرية العظيمة : اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا

العرب قالوا : إن الملائكة بنات الله ، واليهود قالوا : عُزَير ابن الله، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله..

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً)

لمَ يتخذ الرحمن ولداً ؟ أهو كالبشر يحتاج إلى من يخلّد ذكره ؟ أهو كالبشر في سنه ، في خريف العمر يحتاج إلى من يساعده ؟

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء :43)

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً *لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً)

أيْ شيئاً عظيماً ، افتراءً كبيراً ، وصفاً لا حدود لفظاعته .

(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ)

تَكَاد السَّمَاوَاتُ تَتَفَطر من نسبة الولد لله تعالى :

إذا كانت السماء بما فيها من أجرام تكاد تتفطَّرُ أنْ سمعت أنَّ هناك أُناساً يزعمون أن الله عزَّ وجل اتخذ ولداً ، فما بال هؤلاء الذين يعقلون يزعمون هذا الزَعم ؟! .

(تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ)

من هذا القول الفظيع ..

(وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً)

وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرّ الجِبَالُ هَدًّا

أيْ أنَّ هذا الجبل الأشَمّ لو سمع أن هناك من يدَّعي أن الله عزَّ وجل قد اتخذ ولداً ، إن هذا الجبل ينهَدُّ ويصبح رُكاماً ..

(وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً)

ليس من شأن الله أن يتخذ ولدًا

سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ، ليس بمتبعضٍ ولا متجزِّئٍ ، ولا صورةٍ ، لا يُسأل عنه بمتى كان لأنه خالق الزمان ، ولا أين هو لأنه خالق المكان ، وكل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك ، عَلِمَ ما كان ، وعَلِمَ ما يكون ، وما سيكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ،

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء : 43)

(وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً)

هو أعظم من ذلك ، ليس كمثله شيء ، هو فوق كل شيء ، وليس تحتَهُ شيء ، وهو في كل شيءٍ لا كشيءٍ في شيء ، ليس كمثله شيء .

(إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً)

كل مخلوق يأتي ربَّه عبدا فردا

بما فيهم سيدنا المسيح عيسى بن مريم سيأتي الرحمن عبداً ، بما فيهم عُزير سيأتي الرحمن عبداً .

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً)

قدرة الله وإحاطته بكل شيء علمًا :

معنى أحصاهم أي أحاط بهم ، وقد عدَّهُم عدًّا ، أحياناً إنسان يهرب من مكان عمله فيوقّع عنه رفيقه ، يرفع الدوام للمدير يرى أن الكل في دوامهم كالمعتاد ، والأمور تجري على ما يرام ، ويكون أحد هؤلاء قد خَرَجَ قبل نهاية الدوام ، فهذا الذي يَقْبَع وراء مكتبه ليس في إمكانه أن يحيط بكل موظفيه ، وأن يحصيهم ، وأن يعدَّهم عداً ، الإنسان قاصر ؛ فمعلوماته تأتيه من الآخرين ، لابدَّ أن يكلف أناساً بضبط الدوام ، لضبط الدخول والخروج ، متى دخل ؟ متى خرج ؟ لكن الله سبحانه وتعالى محيطٌ بكل شيء لقد أحصاهم ، فما دام الله عزَّ وجل يسمع صوت النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلْمَاء ، نملةٌ سوداء تمشي على صخرة صماء في ليلةٍ ظلماء يسمعها ويراها ، وما تسقط من ورقةٍ إلا هو يعلمها ، وقمْ تجوَّلْ في البساتين في الخريف ، ما أكثر الأوراق التي تتساقط .

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام : من آية " 59 ")

لذلك :

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً)

معنى أحصاهم أحاط بهم .

(وَعَدَّهُمْ عَدّاً)

فرداً فرداً ، حالةً حالة .

(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً)

فالإنسان يوم القيامة كما قلنا قبل قليل : ليس له جماعة ، ولا أقارب ، ولا من يقوِّي شأنه ، ولا من يُدافع عنه ، ولا من يتوسَّط له ، بل هو فرد مَهيض الجناح ..

(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

مودة الله للمؤمنين :

واللهِ الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله من إكرامٍ للمؤمن إلا هذه الآية لَكَفَت ..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

المعنى الأول للمودة :

قال العلماء : المعنى الأول أن الله سبحانه وتعالى يُلقي في قلب الناس جميعاً مَحَبَة المؤمن ..

يُنَادى له في الكون : أنا نحبه فيسمع مَن في الكون أمر مُحِبنا

* * *

وبعضهم يقول : إن المودَّة هنا تعني تحقيق ما يحب ، فكل مؤمنٍ يحب أن يلقى الله ، يحب أن يدخل الجنة ، يحب رضوان الله ، الله سبحانه وتعالى سيؤتيه سُؤْلَهُ ، والمعنى الثالث :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

أيْ أنَّ هذه المودة بين الله وبين المؤمنين أثمن ما في الوجود ، يا محمد ، جبريل عليه السلام جاء سيدنا محمد قال له : " يا محمد قل لصاحبك : إن الله راضٍ عن أبي بكر ، فهل هو راضٍ عن الله ؟.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

إذاً :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

فالمودة مطلقةٌ ؛ إما أنها بينك وبين الناس ، وإما أنها بينك وبين الله سبحانه ، فالله عزَّ وجل يجعلُ قلوب الناس تهفو إليك ، يحبونك ويعجبون لهذه المحبة ، لأن الله عزَّ وجل تجلَّى عليك ، فجعل القلوب تهفو إليك ، أنت كمؤمن هكذا يحبك الناس ، ومن علامة صدق إيمانك محبَّة الناس لك ، ومن علامة النفاق بُغض الناس لك ، علامة الإخلاص محبة الناس ، ألسنة الخلق أقلام الحق ، إذاً :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم ، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

[البيهقي في شعب الإيمان عن قتادة]

إذاً هذا هو المعنى الأول .

المعنى الثاني للمودة :

وأما المعنى الثاني فالمودة بينك وبين الله، ففي الحديث القدسي :

((وجبت محبتي للمتحابين فيَّ ، والمتجالسين فيَّ ، والمتبادلين فيَّ ، والمتزاورين فيَّ ، والمتحابون فيَّ جلالي على منابر من نور يغبطهم عليها النبيون يوم القيامة))

(أحمد)

وخلاصة المعنى الثاني أن الذي ترغبه وتحبه فإنّ الله سبحانه وتعالى سيؤتيك إياه ..

(سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

هذا الذي أحبوه سيجعله لهم ، سيقدّره لهم ، سيكافئهم به .

المعنى الثالث للمودة :

والمعنى الثالث : هو أنك إذا كنت في طاعة الله ، وعبَدْتَهُ حق العبادة يدنيك منه ، إنك إذاً في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر ، إذاً يدافع الله عنك ، تشعر بهذه المودة ..

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(14)ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ(15)فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة البروج : 14-16)

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً)

القرآن نذير :

لُدًّا أيْ : خَصمين ، شديدي الخصومة .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ)

اذهب إلى تدمر حيث آثار التدمريين ، مملكةٌ ذات شأنٌ كبير كانت في بادية الشام ، وهذه آثارها تدلُّ على عظمة شأنهم ، اذهب إلى البتراء حيث قوم ثمود .

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

(سورة الفجر :9)

اذهب إلى أهرامات مصر .

(وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ(10)الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ(11)فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(13)إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ)

هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِن أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا

هل هناك أحدٌ يجيبك ؟ هل هناك أحدٌ يسمعك ؟ هل هناك أحدٌ تتحدَّثُ إليه ؟ .

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً)

رِكْزَاً يعني صوتاً ، أحد الشعراء ، وهو البحتري وقف في إيوان كسرى ، وقد نُقِشَت على حائطه لوحةٌ تصويريةٌ رائعةٌ جداً عن معركةٍ تاريخيةٍ جرت بين الفُرس والروم ، فقال ، وقد كانت الصورة رائعةً :

يَغتَلي فيهمُ ارْتِيابـــــيَ حَتّى تَتقرّاهُمُ يَدايَ بلَمْـــس
حَضَرَتْ رحليَ الهُمُومُ فوَجّهْـ ـتُ إلى أبيَضِ المَدائن عُنْسِـي
أتَسَلّى عَنِ الحُظُوظِ ، وَآسَـى لمَحَلٍّ من آلِ ساســـانَ دَرْس
ذكّرْتَنيهمُ الخُطُوبُ التّوَالـــي وَلَقدْ تُذكِرُ الخُطوبُ وَتُنسِـــي
وَكَأنّ الإيوَانَ منْ عَجَبِ الصّنْـ ـعَةِ جَوْبٌ في جنبِ أرْعَنَ جِلس
لَيسَ يُدرَى: أصُنْعُ إنْسٍ لجـنٍّ سَكَنوهُ أمْ صُنعُ جنٍّ لإنْـــس
عَمَرَتْ للسّرُورِ دَهْراً، فصَارَتْ للتّعَزّي ربَاعُهُمْ ، وَالتّأسّـــي

***

وهكذا ، ونحن على هذا الطريق سائرون ، لابدَّ من أن يأتي يومٌ لا يبقى فيه واحدٌ منا فوق الأرض ، بعد مئة عام كلنا تحت أطباق الثرى ، كلنا في قبور مبثوثة هنا أو هناك ، تقرأ شاهدة ؛ هنا قبر فلان ، كان إنساناً ، كان موظفاً ، كان تاجراً ، كان عالماً ، كان ذا شأنٍ كبير ، كان أديباً ، كان مؤرِّخَاً ، كان مهندساً ، كان طبيباً ، أين هم ؟.

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً)

لذلك قالوا : الدنيا ساعة اجعلها طاعة ، والنفس طمّاعة عوّدها القناعة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 - 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-01-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الأول من سورة طه .

بسم الله الرحمن الرحيم

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

تفسير كلمة (طه):

التفسير الأول :

أولاً : طه ، قال بعض المفسِّرين : " الله أعلم بمراده " .

التفسير الثاني :

وقال بعضهم الآخر : " إن القرآن الكريم إنما صيغَ من هذه الحروف ، وهذه الحروف الهجائيَّة بين أيديكم ، فإن استطعتم أن تأتوا بمثل هذا القرآن فأتوا بمثله ، وإن استطعتم أن تأتوا بسورةٍ منه فافعلوا "،

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(24))

(سورة البقرة)

التفسير الثالث :

أن هذه الحروف التي صُدِّرت بها بعض السور إنما هي أسماء لهذه السوَر " ، فهذه السورة اسمها سورة طه ، لكن الإمام الفخر الرازي في تفسيره الشهير يورد تفسيراً لتابعي جَليل هو سعيد بن جبير ، يقول هذا التابعي الجليل : " طه اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، الاسم الأول الطاهر ، والاسم الثاني الهادي ، والله سبحانه وتعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام ويقول له : يا طاهراً من الذنوب ، ويا هادياً إلى علاَّم الغيوب " ، وهناك تفسيرٌ آخر هو أن الطاء تمثِّل طَرَبَ المؤمنين في الجنَّة، والهاء تمثِّل هوان الكافرين في النار ، وبعضهم يقول : "طوبى لمن اهتدى " .

القرآن حمَّال أوجهٍ :

القرآن كما تعلمون أيها الإخوة حمَّال أوجه ..

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109))

(سورة الكهف)

فإذا قلت : الله أعلم بمراده فقد أصبت ..

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ)

(سورة آل عمران : من آية " 7 ")

وإن قلت : إن طه حرفان ، منهما ومن أمثالهما صيغَ هذا القرآن الكريم ، وهو الكتاب المعجز فقد أصبت ، وإن قلت : إن طه اسمٌ لهذه السورة فقد أصبت ، وإن قلت : إن طه اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، يا طاهراً من الذنوب ، ويا هادياً إلى علام الغيوب ، فقد أصبت ، وإن كانت طه إشارةً إلى العبارة طوبى لمن اهتدى فقد أصبت ، وإن رمزت إلى الطاء بطرب أهل الجنَّة بالجنَّة ، والهاء هوان أهل النار في النار فقد أصبت ، والله سبحانه وتعالى هو وحده يعلم سرَّ هذين الحرفين ..

(طه)

الراجح في كلمة (طه):

لكنَّ الذي يُرَجِّحُ أن هذين الحرفين اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

أي يا طه ما أنزلنا عليكَ ، فهذه الكاف هي كاف الخطاب .

شيءٌ آخر ؛ ورد في بعض التفاسير أن للنبي عليه الصلاة والسلام أسماء كثيرة منها طه و يس ..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

قبل أن ننتقل إلى الآية الثانية ، إذا كان أرجح التفاسير أن الطاء تعني أن النبي عليه الصلاة والسلام طاهرٌ من الذنوب ، وإذا كانت الهاء تعني أن النبي عليه الصلاة والسلام هادٍ إلى علام الغيوب ، وبما أن المؤمنين قد أُمِروا بما أُمِرَ به المرسلين ..

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(الترمذي عن أبي هريرة)

موقف المؤمن من معنى هذين الحرفين : الاقتداء :

فما موقفنا نحن المؤمنين من هذين الحرفين ؟ هل طَهَّرنا أنفسنا من الذنوب ؟ وهل حاسبنا أنفسنا في الدنيا حساباً عسيراً ليكون حسابنا يوم القيامة حساباً يسيراً ؟ وهل راجعنا أنفسنا ؟ وهل أيقنا بقوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

هل راجعنا حساباتنا مساء كل يوم ؟ وهل تَبَصَّرنا بأعمالنا ، أفيها مخالفةٌ ، أم فيها انحرافٌ ، أم فيها تقصيرٌ ، وهل فيها معصيةٌ ، أو فيها خرقٌ لحدود الله ، وهل طَهَّرنا أنفسنا من الذنوب ؟ وهل ضبطنا سلوكنا وَفْقَ كتاب الله وسُنَّة رسوله ؟ إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يثني الله عليه بأنه الطاهر الهادي ، فأين نحن من هاتين الصفتين ؟ هل طَهَّرنا أنفسنا ؟ وهل طَهَّرنا قلوبنا مما سوى الله من الأمراض النفسيَّة ؟ ومن مشاعر الاستعلاء ومشاعر الأثرة ، ومن المشاعر التي لا تليق بالإنسان ، أين نحن من تطهير أنفسنا من الذنوب ؟

يا أيُّها الإخوة المؤمنون ... كل صفةٍ وُصِفَ بها النبي عليه الصلاة والسلام لابدَّ أن يكون للمؤمن منها نصيب ، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام قد وصفه الحقُّ جلَّ وعلا بأنه الطاهر الهادي فلابدَّ أن يكون المؤمن على شيءٍ ، ولو يسيرٍ من الطهر ومن الهدى ، يا طاهراً من الذنوب ، ويا هادياً إلى علام الغيوب .

رفعة النبي عليه الصلاة والسلام وحرصه على هداية الناس :

وشيءٌ آخر ؛ هو أن الله سبحانه وتعالى يبيِّن رفعة هذا النبي الكريم..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

كأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام قد شَقِيَ بمعنى أتعب نفسه ، وحَمَّلها فوق ما تطيق ، إما لأنه تَحَسَّر على قومه ، وتأسَّف عليهم ، وحزن لصدِّهم عن سبيل الله ، وإما لأنه رأى أن كل إنسانٍ هو أخوه في الإنسانيَّة ، وإما لأن قلب النبي عليه الصلاة والسلام مُفْعَمٌ بالرحمة ، فحينما يرى البشر قد حادوا عن الطريق المستقيم تتفطَّر نفسه ، ويتفطَّر قلبه ألماً لِما سيحلُّ بهؤلاء الناس الغافلين من آلامٍ ومن عذابٍ في الدنيا والآخرة ..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

معاني الآية :

المعنى الأول :

كأنَّ الله سبحانه وتعالى يُسَلّي نبيَّه الكريم ، فيُخَفِّف عنه ، ويطمئنه ، وتجاوزت الحد المعقول ، تجاوزت الحد الذي كُلِّفْتَ به ، ما كلّفناك هذا ، ما كلفناك فوق ما تطيق ، ما أردنا أن تتعب نفسك هذا التعب ، وما أردنا أن تشقى من أجل الناس ، فالله سبحانه وتعالى يخفّف عن نبيه ، ويسلّيه ، ويبيّن لنا النفس الكريمة التي انطوى عليها .

نحن إن اهتدى الناس فقد اهتدوا ، وإن لم يهتدوا قلنا : لا يهتدون ، فماذا أفعل لهم ، بماذا يُحِسُّ المؤمن إذا دعا إلى الله ، ولم يُسْتَجَب له ؟ فهل يحسُّ بهذا الإحساس المُضني ؟ وهل تتمزَّق نفسه ؟ وهل يتفطَّر قلبه لما يرى من إعراض الناس ، وغفلتهم ، وانغماسهم في الشهوات ، وبعدهم عن الحق ، وتورُّطهم في بعض المعاصي .

أيُّها الإخوة الأكارم ... النبي عليه الصلاة والسلام هذا حاله ، وهو على خُلُقٍ عظيم ، وهو سيِّد الخلق، وهو سيد ولد آدم ولا فخر .. كما يقول عن نفسه .. وهو العروة الوثقى ، وهو الوسيلة ، وهو صاحب الشفاعة ، وإن الله عزَّ وجل يبيِّن لنا رحمة هذا النبي الكريم ..

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

(سورة التوبة)

وإذا قرأت هذه الآية فلا شكَّ أنك تحسُّ عظمة النبي عليه الصلاة والسلام ، كما يقول عليه الصلاة والسلام :

((... يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا))

(صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ)

((ولو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ))

(ورد في الأثر)

والنبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث يذكر أن روح الميِّت ترفرف فوق النعش فتقول : " يا أهلي يا ولدي لا تلعبنَّ بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حلَّ وحرُم فأنفقته في حلّه وفي غير حلّه فالهناء لكم والتبعة علي .. " .

ثم يقول عليه الصلاة والسلام :

((ما من بيتٍ إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرَّات فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله ، وانقطع رزقه ألقى عليه غمَّ الموت فغشيته سكراته ، فمن أهل البيت الضاربة وجهها ، والناشرة

شعرها ، والصارخة بويلها فيقول ملك الموت : ممَّ الفزع ؟ وفيمَ الجزع ؟ ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً ولا قرَّبت له أجلاً ، وإن لي فيكم لعودة حتى لا أبقي منكم أحداً ، فو الذي نفس محمدٍ بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ، ولبكوا على أنفسهم))

ثم يقول عليه الصلاة والسلام :

((فو الذي نفس محمدٍ بيده لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ ، ولا شربتم شراباً ، ولا دخلتم بيوتكم تستظلون بها ، بل لذهبتم إلى الصُعُدات تبكون على أنفسكم وتلدمونها))

(ورد في الأثر)

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام يرى المصير ، مقام النبوَّة مقام الرؤيا ، لقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام مصير الإنسان إذا كان معرضاً عن الله عزَّ وحل ، رأى شقاءه الأبدي ، وهو أرحم الخلق بالخلق ، إذاً هو حينما يدعو الناس إلى الله عزَّ وجل ، وهم يعرضون إنه يتفطَّر عليهم ، ويتألَّم ، ويحزن ، من هذه المعاني قول الله عزَّ وجل :

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ)

(سورة الكهف : من آية " 6 ")

(فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف : من آية " 2 ")

(وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)

(سورة النحل : من آية " 127 ")

(فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ)

(سورة فاطر : من آية " 8 ")

هذه الآيات الأربع من هذا القبيل ..

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

هل يؤلمك أن ترى أخاً لك في طريق الضلال ، أم تقول في نفسك : ما لي وله ، ليفعل ما يشاء ؟ إن قلت : ما لي وله ، ليفعل ما يشاء ، فليس في القلب رحمة ، هل تتألَّم إذا دعوت إنساناً لطاعة الله ، وسخِرَ من هذه الدعوة ؟ وهل يتفطَّر القلب ألماً إذا رأيت مَن حولك في طريقِ الهاوية ؟ فإن كنت كذلك فأنت تقفو أثر النبي عليه الصلاة والسلام ، إن كنت كذلك فأنت من أمَّته ، لأن الراحمين يرحمهم الله .

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

هذا هو المعنى الأوَّل .

المعنى الثاني :

أن النبي عليه الصلاة والسلام لشدَّة عنايته بهذا الكتاب تلاوةً ، وتعليماً ، وقراءةً ، وتعبُّداً حمَّل نفسه فوق ما يطيق ، إنه يمضي معظم الليل يصلي قائماً إلى أن تورَّمت قدماه ، إنه يمضي معظم أوقاته في تعليم الناس ، وفي توجيههم ، وفي هدايتهم ، إنه يحفظ هذا الكتاب ، وينقله نقلاً أميناً للبشر الذين أنيط هداهم به ، فالله سبحانه وتعالى يخفِّف عنه ..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

بعض الجُهد ، لا تُحمِّل نفسك ما لا تطيق ، فجسدك له عليك حق ، استرح ولو قليلاً ..

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ)

(سورة المزمل : من آية " 20 ")

إذاً إما أن تفهم الآية :

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

على أن النبي عليه الصلاة والسلام لشدَّة ما انطوى قلبه على رحمةٍ مُزجاةٍ للبشر كافَّةً إذا رآهم منحرفين ، أو معرضين ، أو ضالين يتفطَّر قلبه ، ويتحمَّل كما تتحمَّل الأم الرؤوم من الآلام حينما ترى أولادها على غير الطريق الصحيح سائرين ، فهو كالأم تماماً .

والمعنى الثاني : أن النبي عليه الصلاة والسلام حمَّل نفسه فوق طاقتها ، فأتعبها ، وكان في الليل قوَّاماً، وفي النهار داعياً ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام حينما دعته السيدة خديجة إلى أن يأخذ قسطاً من الراحة بُعَيْدَ نزول الوحي عليه ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام :

((انقضى عهد النوم يا خديجة))

(ورد في الأثر)

قام قومةً واحدة ، ودعا إلى الله ، ولبث في قومه ثلاثة وعشرين عاماً ، حقَّق من خلالها ما لا يفعله البشر قاطبةً ، قَلَبَ وجه الأرض ، إذْ أرسى قواعد العدل ، لقد جاء الحياة فأعطى ، ولم يأخذ ، وقدَّس الوجود ، ورعا الإنسان ، وكان مثلاً أعلى ، ألم يَدْعُه أترابه حينما كان صغيراً إلى اللعب ، فقال عليه الصلاة والسلام وهو في سنِّ الطفولة :

((لم أُخْلَق لهذا))

(ورد في الأثر)

ألم ينزل عليه قوله سبحانه وتعالى :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2))

(سورة الشرح)

هذا الحِمل الثقيل ، عبء الدعوة ، عبء الهداية كان يحمله ، ولا يدري ما المخرج ، كيف يدعوهم ؟ وبأية صفةٍ يدعوهم ؟ إلى أن أنزل الله عليه الوحي ، ألم يقل الله عزَّ وجل :

(وَالضُّحَى(1)وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(2)مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى(3))

(سورة الضحى)

فلذلك هذه الآية :

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

ما أردنا أن يكون هذا القرآن مُتْعِبَاً لك إلى هذا الحد ، وما أردنا أن يكون القرآن يحمِّلك ما لا تطيق ، ونحن بعد ألفٍ وأربعمئة عام نتمنَّى على الأخ الكريم أن يحضُر إلى المجلس ليستمع ساعةً في الأسبوع إلى التفسير ، فقد يأتي في هذا الأسبوع ، وربما لا يأتي في الأسبوع الآخر ، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقد حَمَّلَ نفسه فوق ما يطيق ..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

في هذه الآية بيانٌ لِعِظَم شأن النبي عليه الصلاة والسلام ، في هذه الآية بيانٌ لما أُتْرِعَ قلبه من الرحمة، للرحمة البالغة التي ملأت جوانحه ، في هذه الآية بيانٌ إلى حرصه الشديد على هداية الخلق .

اقتداء المؤمن بحرص النبي عليه الصلاة والسلام على هداية الناس :

ويا أيُّها الإخوة المؤمنون ... هذا الذي لا يحبُّ الناس ليس أهلاً أن يهديهم إلى سواء السبيل ، فيجب أن تُحِبَّ الخلق ، وأن تحبَّ الناس جميعاً ، لأنهم عيال الله ، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله ، ويجب أن يمتلئ قلبك رحمةً .. إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي .. وما من عملٍ يفوق أن تدلُّ الناس على الله عزَّ وجل ، وأن تهديهم إلى سواء السبيل ، وأن تعرفهم بربهم ، وإذا عرفوه سعدوا به .. " ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتُّكَ فاتَكَ كل شيء ، وأنا أحبُّ إليكَ من كل شيء".

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

القرآن تذكرة لمن يخشى :

إنه تذكرة ، من هو الذي يخشى ؟ في عالمنا ، وفي حياتنا اليوميَّة من الذي يخشى ؟ هو الذي يُفَكِّر ، فهذا الذي يعمل تفكيره في حياته يخشى، فقد يخشى الإنسان أن يتسرَّب الغاز فيحرق البيت ، تراه حريصاً على ضبط الأمور ، يفكِّر ، وهذا الذي يشتري دواءً سامَّاً يخشى أن يكون بين أيدي الأطفال ، يضعه في حرزٍ حريز ، ويخشى ، أيْ يفكِّر ، وهذا الذي يخشى أن يرسُب في آخر العام ، معنى ذلك

أنه يفكّر عاماً بأكمله ، ولو أنه أهمل الدراسة لكان ضياعاً من حياته ، فكأنَّ الذي يخشى هو الذي يفكّر، أي يُعْمِلُ فكره ، فيدرُس ، ويتدبَّر ، وينظُر في الأمر ، ويتأمَّل ، فهذا الذي لا يفكّر لا جدوى منه . الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول : " ما ناقشت عالماً إلا غلبته ، ولا ناقشني جاهلٌ إلا غلبني " ، لأنه لا يفكّر .

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

فكأنَّ الله عزَّ وجل لم يرِدْ هذا القرآن لكل الناس ، هو لكل الناس ، ولكن لا يستفيد منه إلا من أعمل فكره في أمور معاده ، أما هذا الذي يعيش لحظته ، ويعيش وقته ، وهو مع الناس إن أحسن الناس أحسن ، وإن أساؤوا أساء ، فهذا الذي لا يعنيه إلا أن يكسب المال ، ولا يعنيه إلا أن ينغمس في الملذَّات ، وهو غافلٌ عن ساعة الرحيل ، عن ساعة نزول القبر ، وهذا الذي لا يفكّر ليس مؤهَّلاً أن يفهم هذا القرآن الكريم ، الذي هو تذكرةٌ لمن يخشى لا لكل الناس ، ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام قال :

((مَن منح الحكمة غير أهلها فقد ظلمها ، ومن منعها أهلها فقد ظلمهم))

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

فإذا كنت ممن يفكّر فأنت ممن يخشى ، وإذا كنت ممن يخشى فهذا القرآن لك ، فاقرأه وتدبَّر آياته ..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

ولذلك يقول الله عزَّ وجل في آياتٍ أخرى :

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى(9)سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى(10))

(سورة الأعلى)

هذا المفكّر يتذكَّر ، ومن السُخْفِ بالمرء أن يستخدم هذا الفكر العظيم ، الذي هو أثمن شيءٍ في الوجود لأغراض رخيصة ، أو لأهداف خسيسة ، ولمطالب محتقرة ، فالله كرَّمك بهذا الفكر من أجل أن تعرفه به..

(إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

أي يا أيها النبي الكريم لا تتعب نفسك مع هؤلاء الذين لا يفكّرون ، ولا تجهد نفسك معهم ، لأنه لا جدوى منهم ، ومن لم يفكّر فأنت لن تستطيع أن تؤثّر فيه ، ما دام قد عطَّل تفكيره ، ولذلك فربنا عزَّ وجل قال :

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154))

(سورة الصافات)

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(26))

(سورة التكوير)

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(32))

(سورة يونس)

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

(قَلِيلا مَا تَتَذَكَّرُونَ(58))

(سورة غافر)

(تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا)

الذي أنزل القرآن هو الذي خلق الكون :

1 - بعض مظاهر الإعجاز العلمي في الكون :

فماذا أقول في هذه الآية ؟ هل نعلم ممن هذا الكتاب ؟ ومن عند مَنْ أتى ؟ من عند الذي خلق السماوات والأرض ، ماذا نعلم عن السماوات ؟

المجرّات :

ومن منا يصدِّق أن الرقم التقديري الأولي أن في الفضاء الخارجي ما يزيد على مليون مليون مجرَّة ، أي واحد أمام اثني عشر صفراً ، وفي المجرَّة والواحدة ما يزيد على مليون مليون نَجم ، وبعض هذه النجوم المعتدلة يزيد حجمها على حجم الأرض والشمس مع المسافة بينهما .

الشمس :

والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة ، أي أن الشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض ، وبين الشمس والأرض مئةٌ وخمسون مليون كيلو متر يقطعها الضوء في ثماني دقائق ، وهذا الكوكب المتوسِّط في برج العقرب واسمه قلب العقرب .. يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما ، وأن بعض هذه المجرَّات يبعد عنَّا ستة عشرة ألف مليون سنة ضوئيَّة .

وأن الإنسان حينما اجترأ وقال : غزونا الفضاء ، ما قطع من الفضاء الخارجي إلا ثانيةٌ ضوئيَّةٌ واحدة

، في حين أن بعض المجرَّات يزيد بعدها عنا عن ستَّة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة .

والذي خلق المجرَّات وخلق الأرض والسماوات هذا كلامه ، وهذا كتابه ، وهذا المنهج الذي ينبغي أن نسير عليه ، وهذا هو كتابنا وهادينا إليه ، فلذلك شرفُ الرسالة من شرف المُرسل ، فإذا كنت في الخدمة الإلزامية ، وجاءتك ورقةٌ من عريف ، لك موقفٌ منها ، فإن جاءتك من رقيب فلك موقفٌ آخر، فإن جاءتك من الملازم ، أو ممن هو أعلى ، فإن جاءتك من قائد الجيش ، وقد وُقِّعَتْ بالأخضر فلك موقفٌ آخر، فإن جاءك هذا الكتاب من ملك الملوك ، من خالق السماوات والأرض ، ممن بيده حياتك وموتُك ، ممن بيده كل شيء ، فما موقفك ؟ أتلقيه وراءك ظهرياً ؟

(إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا(30))

(سورة الفرقان)

شرف الرسالة من شرف المُرسل ..

(تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا)

القرآن مفتاحُ سعادتِنا :

والله الذي لا إله إلا هو لو عرفنا عظمة هذا الكتاب ، ولو عرفنا تماماً أنه كلام رب العالمين ، وأن كل سورةٍ ، بل كل آيةٍ ، بل كل كلمةٍ ، بل كل حرفٍ ، بل كل حركة من حركات هذا القرآن مفتاحٌ لسعادتنا، ومنهجٌ لنا ، لكان أمرنا غير ما ترون ، آيةٌ واحدة :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور : من آية " 55 ")

كم يعاني الناس من مشكلات ؟ فلو أن الإنسان قرأ القرآن ، وأيقن أن هذا القرآن كلام الله عزَّ وجل ، وأنه لا محالة واقع ، فماذا يفعل ؟ وماذا ينتظر ؟ ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من آية " 97 ")

ولو أن الإنسان قرأ القرآنَ ، وهو موقنٌ بأن هذا الكلام كلام الله رب العالمين ، وأن هذا الكلام حقٌّ لا مِرْيَة فيها ولا شكَّ فيه ..

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت : من آية " 43 ")

ولو قرأ قوله تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

فلو ملكت الملايين ، أو طرت إلى السماء ، ولو فعلت الأفاعيل ، ما لم تكن مقبلاً على الله عزَّ وجل ، فهذا الإنسان أشقى الأشقياء ، وهذا كلام رب العالمين ، ولو قرأت قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

لاختلفت حياتك ، ولذلك فما هو أملك حيال هذه الآية ؟ هذا الكتاب..

(تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا)

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر : من آية " 21 ")

على جبل ، وبعض الناس يقرؤونه ، وهم ساهون لاهون ، يقرؤونه ولا يعملون بأحكامه ، لا يحِلُّون حلاله ، ولا يحرِّمون حرامه ، ولا يتعظون بأخباره ، ولا يخافون وعيده ، ولا يرجون وعده ، يقرؤونه تبرُّكاً ، أو يقرؤونه تعبُّداً ، وهم عنه غافلون .

و

((ربَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

و

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

(سنن الترمذي عَنْ صُهَيْبٍ)

(تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

معنى الاستواء بين مذهب السلف ومذهب الخلف :

سُئِلَ الإمام مالكٌ رضي الله عنه عن هذه الآية فقال : " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة " ، لأن هذا السؤال متعلّقٌ بذات الله عزَّ وجل ، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نفكّر في مخلوقات الله ، أما التفكُّر في ذاته فقد يودي بنا إلى الهلاك ، على كلٍ فهناك مذهب الخلف ومذهب السلف في تفسير هذه الآية ..

السلف الصالح قال : " هذه الآية يجب أن نفهمها من غير تكييف.. أي كيف استوى على العرش ؟ ومن غير تحريف ، ومن غير تشبيه .. أي هل هو كالملك يجلس على كرسي العرش ؟ لا .. ومن غير تعطيل لهذه الآية ، ومن غير تمثيل "، لا تمثّل ، ولا تعطّل ، ولا تُشَبِّه ، ولا تحرِّف ، ولا تكيِّف ، هذا مذهب السلف الصالح في فهم هذه الآية .

وأما مذهب الخلف أيضاً فمذهبٌ مقبول ، الخلف يقولون : " هذه الآية كنايةٌ عن الاحتواء على المُلْك ، والأخذ بزمام الأمور كلّها " ، أي أن الله سبحانه وتعالى محيطٌ بالكون ، والله سبحانه وتعالى بيده كل شيء ، وتوحيد الربوبيَّة في هذه الآية ، فهو الذي خلق ، وهو الذي أمدَّ ، وربَّي ، وأعطى ، ومنع ، وعَلا ، وقَهَر ، وأخذ ، ورفع ، وخفض ، فكل شيءٍ بيده .

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

استواءٌ بمعنى السيطرة والأخذ بزمام الأمور ، هو الواحد القهَّار .

لكنَّ الذي يجذب النظر أن الله سبحانه وتعالى لم يقل : الله على العرش استوى ، ولم يقل : القوي على العرش استوى ، ولم يقل : الغني على العرش استوى ، ولم يقل : الربُّ على العرش استوى ، بل قال :

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

سرُّ اقتران الاستواء باسم الرحمن :

فأقرب اسمٍ من أسماء الله الحُسنى اسم الرحمة ، فهذا الذي خلق الكون رحيم ، والذي يحرِّك الأجرام السماويَّة رحيم ، والذي يسوق الرياح رحيم ، والذي يُنْزِلُ الأمطار رحيم ، والذي بيده كل مخلوقٍ رحيم، أي اطمئن أيُّها الإنسان الأمور بيد الرحمن الرحيم ..

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

وشيءٌ آخر : هو أن الله سبحانه وتعالى رحمنٌ في ذاته ، رحيمٌ في أفعاله ، العرش هو المُلْك ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران : من آية " 26 ")

وقد جاء في بعض الأحاديث القدسيَّة :

" أنا ملك الملوك ومالك الملوك قلوب الملوك بيدي ، فإن العباد أطاعوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد عصوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسُخط والنقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بالملوك وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم " .

هو ملك الملوك ، ومالك الملوك ، وبيده كل شيء صغارٌ كان أو كبيراً ، جليلاً كان أو حقيراً .

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

من لوازم الاستواء الملكية المطلة للكون خَلقا وتصرفا ومصيرا :

ومن لوازم الاستواء له ، هذه اللام لام الملكيَّة ..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

ولا توجد آية شاملة شمول هذه الآية ..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

قال العلماء : " له بمعنى أن ما في السماوات وما في الأرض تعود إليه مُلْكِيَّتها ، ويعود إليه التصرُّف فيها ، ويعود إليه مصيرها " ، وهذا أوسع أنواع الملكيَّة ، لأنك قد تملك بيتاً ، ولست تنتفع به ، فأنت مؤجِّره ، وقد تنتفع بالبيت ولا تملكه ، وقد تملكه وتنتفع به ، ولكن لا تدري أيصدر قرارٌ باستملاكه ؟ إذ ليس لك مصيره ، أما أن تملك الشيء وأن تكون حرّاً في التصرُّف فيه ، وأن يكون إليك مصيره ، فهذا أوسع أنواع المُلكيَّة ، فالعلماء حينما قالوا : له بمعنى له ملكاً وتصرُّفاً ومصيراً..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ)

من النجوم ، والمجرَّات ، والكواكب ، والمذنَّبات ، والكازارات ، والثقوب السود في الفضاء الخارجي، هي أماكن ضغط عالٍ جداً في الفضاء الخارجي ، فلو دخلت الأرض أحد الثقوب السوداء .. دقّقوا في هذا الكلام .. لأصبح حجمها كحجم البيضة ، وبقي وزنها كما هي .. الأرض بأكملها .

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ)

من ثقوب سود ، ومن كازارات ، ومن مجرَّات ، ومن نيازك ، ومن مذنَّبات ، ومن فضاء ، ربنا عزَّ وجل قال :

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75))

(سورة الواقعة)

المواقع وحدها ، هذه المسافات التي بين النجوم ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة ، إذا أحب أحدكم ليلاً أن يتسلَّى بعد الدرس ، ضرب ثلاثمئة ألف كيلو متر ، وهذا ما يقطعه الضوء في ثانيةٍ واحدة ، ضربها بستين دقيقة ، ثم ضربها بستين فصارت ساعة ، ثم ضربها بثلاثمئة وخمسة وستين فصارت سنة ، ثم ضربها بستة عشر ألف مليون سنة فيظهر رقم يحتاج إلى كرار ، ولذلك فهذه المسافات البينيَّة بين النجوم لا يعلمها إلا الله ..

معنى : وَمَا تَحْتَ الثَّرَى

قال : وما تحت الثرى هذه إشارةٌ دقيقةٌ جداً إلى أن تحت الثرى هناك الثروات ، والمعادن ، والفوسفات، والبترول ، ومناجم الحديد ، ومناجم الفحم ، ومناجم النحاس ، ومناجم المعادن الثمينة واليورانيوم ..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

وأحياناً يقال لك : هذه صحراء ، ونظنُّها صحراء ، فإذا هي مستودعات للمعادن ، والفِلِزات ، والأشياء الثمينة التي لا يعلمها إلا الله .

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

يعلمُ السّرَّ وأخفى :

أي إن جهرت بالقول أو لم تجهر ، أو إن تنحَّيْتَ مع إنسانٍ إلى مكانٍ بعيدٍ عن الناس ، إلى أرضٍ خاليةٍ عنهم ، وأسررت له كلاماً فإن الله يعلم ذلك .

قصة وعبرة : سبحان الذي وسع سمعُه كلَّ شيء :

صفوان بن أميَّة أخذ عُمَيْر بن وهب إلى خارج مكَّة ، إلى الصحراء ، فقال له عمير : " والله لولا خشية العَنَتِ على أطفالٍ صغار ، ولولا ديونٌ ركبتني لذهبتُ إلى محمدٍ وقتلته وأرحتكم منه " ، شخصان لا يعلم بوجودهما إلا الله ، فقال له صفوان : " أما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر ، وأما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت فامضِ لما أردت .. اقتله وأرحنا منه .. " . فما كان من عمير إلا أن حمل سيفه وسقاه سمَّاً ، وجهَّز راحلته وتوجَّه إلى المدينة .

وفي المدينة رآه سيدنا عمر متنكِّباً سيفه فقال : " هذا عدو الله عُمَيْر جاء يريد شرَّاً " ، أخذ سيفه وقيَّده بحمَّالة السيف ، وقاده إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، الأمر كان بُعَيْد معركة بدر ، بمعنى مجيء عمير إلى المدينة مغطًّى بسبب فَكِّ أخيه من الأسر ، فلمَّا دخل على النبي عليه الصلاة والسلام قال له النبي الكريم : " فكَّ أسره يا عمر " .. فكَّ قيده .. ففَكَّ قيده ، ثم قال : " ابتعد عنه " ، فابتعد عنه ، قال: " ادنُ مني يا عمير " .. تعال .. قال : " سلِّم علينا " قال : " عمت صباحاً يا محمَّد " ، قال : " سلِّم علينا بسلام الإسلام " ، فقال عمير : " لست بعيد عهدٍ بالجاهلية " .. هذا سلامي .. فقال له النبي الكريم: " يا عُمير ما الذي جاء بك إلينا ؟ " ، قال : " جئت أفكُّ أخي من قيد الأسر " ، قال : " وهذا السيف الذي على عاتقك لماذا جئت به؟!" ، قال : " قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتنا يوم بدر ؟! " ، قال : " ألم تقل لصفوان : لولا ديونٌ ركبتني ، وأطفالٌ أخاف عليهم العنت لقتلت محمَّداً ، وأرحتكم منه؟" .

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

فوقف عمير وقال : " أشهد أنَّك رسول الله ، والله الذي قلته ما علمه إلا الله وأنت رسوله " ، صار هذا دليلاً قطعيَّاً ، فصفوان امتلأ قلبه فرحاً ، لأنه بعد أيامٍ قليلة سيأتي النبأ السار ، وهو قتل محمد عليه

الصلاة والسلام ، فكان يقول للناس في مكَّة : " انتظروا أخباراً سارَّةً بعد أيَّام " ، مضى يومان وأربعة، وخمسة وستَّة ، ومضى أسبوع وآخر ، وهذه الأخبار السَّارة لم تصل إلى مكة ، فكان يخرج إلى ظاهر مكَّة ويسأل القوافل : "ماذا عندكم من أخبار ؟ وماذا حدث في المدينة ؟ " لم يحدث شيء ، " ما أخبار عمير ؟ " ، قيل له : " لقد أسلم " ..

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

تتكلَّم بصوت عال ، تتكلَّم هَمساً ، تأخذ أخاً ، أو تأخذ صديقاً إلى مكان خالٍ من الناس ، تُحْكِم إغلاق الأبواب ، وتُسِرُّ له في أذنه ..

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

تفكَّر في نفسك ، تضمر نيَّةً ، العلماء قالوا : " السِر ما كان بينك وبين إنسان ، والذي هو أخفى من السر ما كان بينك وبين نفسك "، وبعضهم قال : " لا ، السر ما كان بينك وبين نفسك ، وأما الأخفى فهو الذي يخفى عنك أنت " ، لا تعلمه ، لذلك قال سيدنا علي كرَّم الله وجهه : " علم ما كان ، وعلمَ ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون " .

قد يقول أحدكم : أنا بهذا الوضع مستقيم ، فلو معي ألف مليون الله أعلم ، يا ترى تبقى معنا في هذا المسجد ؟ لا نعرف ، من الذي يعرف ؟ الله عزَّ وجل ـ وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ـ ولهذا قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : " ليس في الإمكان أبدع مما كان " ، أي ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني .

الآية الأخيرة :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

المنفرد بالألوهية :

الله اسم الذات صاحب الأسماء الحسنى ..

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

الإله المُنْفَرِد بالتسيير ، والذي ينبغي أن تعبده وحده ، والذي يستحقُّ أن تعبده هو الله وحده ، والمنفرد بالتسيير هو الله وحده ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أي ليس في الكون من إلهٍ إلا الله ، والإله هو الذي يسيِّر ، وهو الذي يُعْبَد بالمقابل ، يُعْبَد لأنه يسير ، ولأن الأمر كلَّه بيده إذاً ينبغي أن يُعْبَد ..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من آية " 123 ")

لماذا ينبغي أن تعبده ؟ لأن الأمر كلّه راجعٌ إليه ، وما دام الأمر راجعاً إليه في كل شيء إذاً ينبغي أن تعبده .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

(سورة مريم : من آية " 65 ")

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا(65))

(سورة مريم)

مشابهاً ، ندًّا ، كُفُؤاً ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

أسماء الله كلّها حسنى :

أسماؤه كلُّها حسنى ، وصفاته كلُّها فُضلى ، حتى ما يبدو لك ، الجبَّار ، المنتقم .. مثلاً .. المُعطي ، المانع ، هو يمنع ليُعطي ، فهناك خطاب لرسول الله عليه الصلاة والسلام يوضِّح ذلك ، قال :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي))

(ورد في الأثر)

إذا أخذ الله منك شيئاً ليعطيك أضعافاً مضاعفة ، يبتلي ليجزي ، ويمنع ليعطي ، الضار النافع ، يضرُّ لينفع ، فالإنسان الضال الله عزَّ وجل قد يضرُّه في صحَّته ، أو بماله ، فيتوب إليه ، فيستقيم على أمره فيسعد بقربه ، فالمعطي والمانع ، والخافض والرافع ، يخفض ليرفع ، والمعز والمذل ، يذل ليعز ، المتكبر يذلُّه الله عزَّ وجل ليخضع له ، فإذا خضع له أعزَّه ، وهكذا أسماء الله كلّها حسنى ، وصفاته كلُّها فُضلى ، ولكن اسأل به خبيرا، وربنا عزَّ وجل قال :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(43))

(سورة النحل)

لا تسمح لنفسك أن تفهم الاسم الإلهي لوحدك ، قد لا تفهم أبعاده ، فالعلماء قالوا : هناك أسماءٌ لله عزَّ وجل يجب أن تُذكَر مَثنى مثنى " المعطي المانع ، الضار النافع ، المعز المذل لأنه يذل ليعز ، ويمنع ليعطي، ويخفض ليرفع ، ويضر لينفع ، وقد يقهر عبده ، القهَّار ، هذا العبد متكبِّر فيقهره ليتوب ، وهكذا ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

وفي الدرس القادم إن شاء الله عزَّ وجل نبدأ بقصَّة سيدنا موسى ، وفي هذه السورة وردت بأطول روايةٍ لها ، فأطول قصَّة عن سيدنا موسى جاءت في هذه السورة ـ سورة طه ـ وسوف نستعين بالله عزَّ وجل على توضيح بعض المعاني .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 9 – 41
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-01-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

قصة موسى عليه السلام :

وذكرنا أيضاً أن قصة موسى هذه أطول قصص سيدنا موسى في القرآن ، قصة سيدنا موسى في القرآن وردت سبع عشرة مرة ، هذه هي أطول روايةٍ لهذه القصة .

أقوال العلماء في مغزى تكرار قصة موسى عليه السلام :

القول الأول :

وعلماء التفسير قالوا : " إن الله سبحانه وتعالى أراد من خلال هذه القصة أن يبيِّن لنا أنه لا إله إلا الله، فالتوحيد إما أن يلقى إلقاءً مباشراً ، وإما أن يعرض على شكل قصة ، فهذه القصة مِن أَلِفِها إلى يائها ، من خلال كل حوادثها ، تبين حقيقةً واحدة ألا وهي التوحيد " ،

القول الثاني :

وبعض علماء التفسير قال : " إن هذه القصة تبيِّن سَعَة علم الله سبحانه وتعالى " ، وبعضهم قالوا : " إنها تبين توحيد الألوهية ، وعلم الله في وقتٍ واحد " .

على كلٍ أيّ قصة لها مغزى ، فإذا لم نقف على المغزى فكأننا ما قرأنا القصة ، وليست القصة في أهدافها تبتغي أن تُمْتِع أسماعنا بحوادث ، وبمواقف ، وبعقده ، ليس هذا هو الهدف ، بل الهدف هو استنباط حقيقة من هذه القصة ، وإن هذه الحقيقة التي ينبغي أن تستنبط منها هو المغزى ، فالعلماء قالوا: " مغزى هذه القصة على طولها التوحيد " ، أي أن نعرف أنه لا إله إلا الله ، وبعضهم قال : " مغزاها أن نعلم أن الله يعلم"، وبعضهم قال : " التوحيد ، وعلم الله سبحانه وتعالى هما المغزى الأساسي لهذه القصة " .

القول الثالث :

وفريقٌ ثالث من العلماء جَهَدوا إلى أن هذه القصة إنما كانت تسليةً ومواساةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكأن النبي عليه الصلاة والسلام إذا تَلا هذه القصة يرى أن هناك أنبياء آخرين سبقوه من أولي العزم ، أصابهم ما أصابهم ، إنهم تجشَّموا المشاق ، وركبوا الأهوال ، تركوا بلادهم ، ورحلوا إلى أماكن بعيدة ، ومشوا في القِفار ، أصابهم البرد والجوع والخوف ، ثم عادوا إلى مواجهة فرعون ، وكأن هذه القصة أراد الله منها أن يسلِّي النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن يواسيه ، وأن يخفف عنه ، وأن يشجِّعه ، وأن يجعل من هذا النبي سيدنا موسى الذي هو من أولي العزم مثلاً للصبر والدأب ونشر الحق .

مختصر قصة موسى عليه السلام :

كلكم يعلم أن هذا النبي العظيم كان في قصر فرعون ، وفي مكانٍ آخر ، خرج من هذا القصر ذات مرة ، فرأى رجلين يختصمان ، يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، أي تسبب في قتله ولم يقتله في نظر القانون إلا ، خطأ فهو يعاقب عقوبة القتل الخطأ ، لأنه التسبب في القتل ، ثم جاء من يبيِّن لهذا النبي الكريم أن هناك قوماً يأتمرون بك ليخرجوك ، فخرج من مصر باتجاه مَدْيَن ، وتروي كتب التاريخ أنه قد قطع ألفين وخمسمئة كيلو متر مشيا على قدميه ، من مصر إلى مدين ، قطع سيناء مُساحِلاً ، أي على خليج السويس وخليج العقبة ، ثم انتقل منهما إلى مدين في شمال الجزيرة العربية ، وكلكم يعلم في موطن آخر في القصص كيف أنه وجد امرأتين تذودان .. قال تعالى :

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23))

(سورة القصص)

وكيف تعرَّف إلى سيدنا شعيب ، وكيف تزوج ابنته ، ثم عاد إلى مصر بعد أن قضى الأجل ، أي رعى لسيدنا شعيب ثماني أو عشر سنوات ، ثم هو في طريقه مع أهله إلى مصر ، وكان الجو ماطراً وبارداً، وكان مع أهله في وادٍ موحش ، شعر بحاجةٍ ماسةٍ إلى نارٍ يصطلي بها هو وأهله ، وهنا بدأت القصة .

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

أي يا أيها النبي هل أتتك هذه القصة ، هل سمعت بها ؟ فاستمع إليها .

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَاراً)

رجوع موسى عليه السلام إلى مصر :

وهو في الطريق مع أهله من بلاد مَدْيَن إلى أرض مصر ، والطريق طويل ، والبرد شديد ، والظلام دامس ، والخوف على أشده ..

(إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ)

القبس في اللغة جذوة النار ، وهو عودٌ مشتعل تأخذه من نارٍ مُضْرَمة.

(لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)

والعلماء قالوا : " كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو " ، أيْ أن الإنسان ليس له أن يحتقر شيئاً ، ولا أن يستصغره ، ولا يهمله ، ولا أن يهمل طلباً ، ولا عرضاً ، ولا مناسبةً ، ولا فرصةً ، فهذا النبي الكريم رأى ناراً فتوجَّه إليها ليأخذ منها قبساً ، فكانت المُناجاة مع الله سبحانه وتعالى..

(فَلَمَّا أَتَاهَا)

أي أتى النار ليأخذ منها قبساً يصطلي بها هو وأهله ..

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى)

تكليم الله لموسى عليه السلام :

ولذلك فسيدنا موسى هو كليم الله ، خاطبه الله سبحانه وتعالى ..

(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

طبعاً هذه الآيات فسرها المفسرون بطرق عدة ..

(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ)

ربنا سبحانه وتعالى استخدم في هذه الآية الضمير المُفْرَد ، لم يقل : ضع ، على ما يجري في القرآن إننا ..

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9))

(سورة الحجر)

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(1))

(سورة الكوثر)

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة غافر : من آية " 51 ")

لا ، قال :

(إِنِّي)

العلماء قالوا : " حيثما كان الحديث عن ذات الله استخدم الله ضمير المتكلم المفرد ، وحيثما كان الحديث عن أفعال الله استخدم الله ضمير الجمع ، لأن فعل الله فيه الرحمة ، وفيه القدرة ، وفيه الغنى ، وفيه اللطف ، وفيه الحكمة ، وفيه الحنان ، أسماء الله الحسنى كلها داخلةٌ في أفعاله " ، أما الحديث عن ذاته فغالباً ما يستخدم ضمير المتكلّم المفرد.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ)

أنا رَبُّك الأعلى

أقرب الأسماء الحُسنى إلينا الرب ، لأنه مُرَبِّينا ، خلقنا ، وأمدنا بالطعام والشراب ، والهواء ، والأهل، والأولاد ، وأعطانا كل ما في الأرض ، وسخَّر لنا كل ما في السماوات والأرض ، إنه ربنا ، أمدنا بأنواره ، وتجلياته ، وربَّانا في طريق الإيمان ، وخوَّفنا تارةً ، وطمأننا تارةً أخرى ، وأعطانا ومنعنا ، ورفعنا وخفضنا ، وأعزنا وأذلنا ، وهذه كلها تربية من الله عزَّ وجل ، فالإنسان مرةً يرفعه الله ، ويمتحنه بهذه الرفعة ، فإذا أساء استخدامها خفضه ، يمتحنه بالمال ، فإذا أنفقه على شهواته حرمه ، ويمتحنه بالزوجة فإذا نسي معها ذكر الله عَقَّتْهُ ، ويمتحنه بالأولاد ، فربنا سبحانه وتعالى كل شيءٍ يعطيك إيَّاه محض امتحانٍ وابتلاء .

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ)

وما حنان الأم ، وما حَدَبُ الأب ، وما رعاية الأهل إلا طرفٌ يسيرٌ ، ونقطةٌ من بحر من رحمة الله سبحانه وتعالى ، ومن عنايته ، ومن تربيته ، ومن إمداده ، فأقرب أسماء الله الحسنى إلينا اسم الرب لأنه يربينا ، ويُعطي ويمنع ، ويرفع ويخفض ، ويعز ويذل ، ويغني ويفقر ، ويكرِّم ويهين .

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى(48))

(سورة النجم)

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى(43))

(سورة النجم)

أحياناً يضحك الإنسان ، ومعنى أنه يضحك ، أي الله عزَّ وجل أنعم عليه براحة البال ، وأصلح له باله.

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(5))

(سورة محمد)

فلو أنه أسمعه خبراً مؤلماً ، أو أراه شبحَ مصيبة خطيراً لجعل ضحكه بكاءً ، فإذا ضحكت فبفضل الله ونعمته .

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى(43))

(سورة النجم)

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى(48))

(سورة النجم)

(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ)

تفسير : فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ

التفسير الأول :

بعض المفسرين فسرَّ هذه الآية : أي دع حظ الدنيا من نفسك ، دع حظوظ الدنيا ، أي أعرض عن الدنيا بكل ما فيها ، وكأن الدنيا شيء تافه لا قيمة لها " ، " الدنيا جيفة ، وطلابها كلابها ، الدنيا دار من لا دار له ، ولها يسعى من لا عقل له " ، خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً " ، " ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر " ، والنبي عليه الصلاة والسلام مر في طريقه مع أصحابه على شاةٍ ميتة متفسخة ، جيفة ، قال :

((انظروا كم هي هينة على أهلها ، للدنيا أهون عل الله من هذه الشاة على أهلها))

وقال عليه الصلاة والسلام :

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(من سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

لذلك :

(فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

ما هو الوادي المقدس ؟

المعنى الأول :

هذا الوادي وادٍ مقدس لأنه تمَّت فيه المناجاة .

المعنى الثاني :

وهناك معنىً آخر ، أي إن هذا النبي العظيم في مسلكٍ مقدس ، أو في همٍ مقدَّس ، أو في طموحٍ مقدس، وأهدافٍ مقدسة ، وغاياتٍ مقدسة ، ومشاغل مقدسة ، إذ هناك مشاغل تافهة ، وأهداف تافهة ،

وأعمال تافهة ، وطموحات تافهة :

((إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفسافها))

(الجامع الصغير عن الحسين بن علي)

(إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ)

تشبه هذه الآية :

(وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى(7))

(سورة النجم)

النبي عليه الصلاة والسلام كان في آفاق مقدسةٍ غير هذه الآفاق .

(إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

وطُوى اسم هذا الوادي ، أي وادي المناجاة ، أي أن هؤلاء الأنبياء العظام لسمو مكانتهم عند الله عزَّ وجل ، ولمحبَّتهم ، ولإقبالهم ، ولفنائهم في حب الله ، استحقوا أن يناجيهم الله عزَّ وجل .

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)

اصطفاء الله للأنبياء :

اخترتك ، أي اصطفيتك ، أو انتقيتك من بين عبادي جميعاً لتكون رسولاً لي .

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ)

وإذا اختار الله سبحانه وتعالى نبياً عظيماً فلابدَّ أن يكون هذا النبي قمةً في الكمال ، وأية قصةٍ أيها الإخوة تخدش من كمال الأنبياء فهي قصةٌ مرفوضة ، لأن الله اختارهم على عِلْم ، واصطفاهم على العالمين ، ولو أن في أخلاق الأنبياء خدشاً أو نقصاً كما تروي بعض الكتب المقدَّسة الأخرى ؛ أن هذا النبي شرب الخمر ، وأن هذا النبي فعل كذا وكذا بابنتيه ، وأن هذا وهذا ، ولو أن في أخلاق الأنبياء انحرافاً أو خدشاً لما كان اختيارهم حسناً ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي اصطفاهم ، وهو الذي اختارهم ، وأكرمهم ، ورفعهم ، إذاً من لوازم العقيدة الصحيحة أن تؤمن بعصمة الأنبياء .

إنهم معصومون في التبليغ ، ومعصومون في أقوالهم ، وأعمالهم، ومعصومون عن أن يعصوا الله سبحانه وتعالى ، وكل شيءٍ رابك أمرُه فاسأل أهل الذكر ، هكذا قال الله عزَّ وجل :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(43))

(سورة النحل)

(إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)

فاستمعْ لِمَا يُوحَى

والحقيقة أن الإنسان إذا طَمِحَ أن يكون خادماً للخلق ، حبيباً للحق ، وإذا طمح أن يكون مفتاحاً للخير ، ومغلاقاً للشر ، وأن يجعل الله هدى الناس على يديه ، وأن يكون مِشْعَلاً يضيء للناس طريقهم ، وإذا طمح أن يكون كذلك فهناك امتحاناتٌ قاسية وشروطٌ صعبة ، منها أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة : من آية " 24 ")

من صفات الدعاة إلى الله الواجب توفرها فيهم :

1 – الصبر :

فيجب أن تصبر ، أن تصبر عن الشهوة ، وعلى الطاعة ، وعن المعصية ، وأن تكون مطيعاً لله عزَّ وجل فيما تعلم ، وفيما لا تعلم ، وفيما تعرف حكمته ، وفيما تجهلها ، وفي السرَّاء والضرَّاء ، وفي الرخاء والشدة ، وفي إقبال الدنيا وإدبارها ..

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة : من آية " 124 ")

من هذه الشروط قال :

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

2 – العفة عن أموال الناس :

فيجب أن تعف عن أموال الناس ، قليلها وكثيرها ، جليلها وحقيرها ، ويجب أن تجعل من دعوتك عملاً خالصاً لوجه الله عزَّ وجل ، فلا تسأل وجاهة ، ولا مكانة ، ولا شيئاً معنوياً أو مادياً .

3 – تبليغ الدعوة كاملة :

من هذه الشروط فيجب أن تكون جريئاً في إلقاء الموعظة وفي قول الحق ، لقوله تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب : من آية " 39 ")

4 – الدعوة عن علم وبصيرة :

يجب أن تدعوَ الناس على بصيرة ، وأن تأتي بالدليل ، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، إذا كنت ناقلاً فالصحة ، وإذا كنت مبتدعاً فالدليل :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : من آية " 108 ")

5 – إظهار عظمة الله عزوجل :

وهكذا ينبغي أن تكون ، ويجب أن تظهر للناس كمال الله عزَّ وجل ، وعدالته ، ورحمته ، وحكمته ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران : من آية " 18 ")

6 – التواضع للناس :

ويجب أن تكون متواضعاً للناس ، لمن تعلّم :

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

ولا ينبغي أن تطالب الناس أن يكونوا متواضعين لك ، بل ينبغي أن تكون أنت قدوةً لهم في تواضعك..

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

وهذه الشروط التي إذا نَجَحْتَ فيها تستحق أن تكون بشكلٍ متواضع جداً مشعلاً وضَّاءً ، نبراساً في طريق الهدى وطريق الإيمان ، لذلك ..

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ)

فلن يختار الله سبحانه وتعالى من يدعو إليه إلا إذا اجتاز امتحاناتٍ قاسية ، فعلِمَ اللهُ صدْقَه ، وعلِمَ زهده ، وعفَّته ، وشرفه ، واستقامته ، وإخلاصه ..

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

ملخّص الأديان السماوية : إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ

فإذا أردت أن تلخِّص الأديان السماوية كلها في كلمات ، وأن تلخص كل هذا القرآن في كلمة ..

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة فصلت : من آية " 6 ")

فهذا القرآن الكريم كله ، وهذا الدين الإسلامي كلُّه ، الديانات السماوية كلها إنما تتلخص في كلمةٍ واحدة ..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

أي أن ليس في الكون إلا حقيقةٌ واحدة ، وهي الله سبحانه وتعالى ، فكل شيءٍ يؤدِّي إلى هذه الحقيقة ، استقامةً ، وتقرُّباً ، ومعرفةً فهو الحق ، وكل شيءٍ يبعد عن هذه الحقيقة إنكاراً ، أو معصيةً ، أو جحوداً فهو الباطل ، وكل شيءٍ يؤدي إلى مزيدٍ من الاتصال بالله سبحانه وتعالى فهو الحق .

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

لا نافع ، ولا ضار ، ولا رافع ، ولا خافض ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا معز ، ولا مذل ، ولا رازق، ولا قابض ، ولا باسط ، ولا مكرم ، ولا مهين ، ولا محيي ، ولا مميت ، ولا مغني ، ولا مفقر إلا الله..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

فإما أن تعرف هذه الحقيقة ، وإما أن تجهلها ، فإذا جهلتها كان الهلاك والدمار والشقاء .

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

هذه هي الحقيقة ، فما الموقف الذي يجب أن تقفه منها ؟

(فَاعْبُدْنِي)

إذا كنت في أشدِّ الحاجة إلى الماء ، وعلى وشك الهلاك ، ورأيت النبع ، فماذا ينبغي أن تفعل ؟ ينبغي أن تذهب إليه ، ولذلك أخطر شيءٍ في الدين أن يبقى على مستوى الفكر ، وأن يبقى الدين ثقافةً ، أو قناعات ، وتصوُّرات ، ومفاهيم ، وكتباً مجلَّدة تقرأها ، وتعجب بها ، وتتكلم بها ، وتتبجح ، لا ، الدين مواقف ، والدين عبادة يجب أن تعبده ، وأن تعرفه أولاً ، وأن تعبده ثانياً ، تعرفه بالكون ، وتعبده بالشريعة ، يجب أن تكون فقيهاً حتى تعرف كيف تعبده ، وهذه آية دقيقة جداً لخَّصت الأديان كلها ، ولخصت جوهر الدين ..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

الحكمة من عطف الصلاة على العبادة :

الصلاة أبرزُ العبادات :

وهنا سؤال : أليست الصلاة من العبادة ؟ نعم ، فلماذا خُصَّت بالذكر مع العبادة ؟ ألا تعني العبادة إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان ؟ فقال علماء التفسير : " إنما خُصَّتِ الصلاة بذكرٍ منفصلٍ عن العبادة لأنها أبرزُ ما في العبادة .

((الصلاة عماد الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

(الجامع الصغير عن عمر بسند ضعيف)

إن أبرز ما في العبادة أداء الصلاة ، فالصلاة من أجل الصلاة ، والصيام من أجل الصلاة ، والحج من أجل الصلاة ، والزكاة من أجل الصلاة ، والأوامر التفصيلية ؛ غض البصر من أجل الصلاة ، وعدم أكل الربا من أجل الصلاة ، وعدم الغَبْن في البيع من أجل الصلاة ، كل الأوامر والنواهي إنما يفعلها الإنسان من أجل أن يبقي الطريق بينه وبين الله سالكاً ، فأية معصيةٍ ، أو أية مخالفةٍ من شأنها أن تكون عقبةً كؤودًا بين العبد وبين ربه .

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

معنى الذكر في الآية :

والعلماء قالوا : " الذِكر هنا ، الصلاة فيها ذكرٌ لله عزَّ وجل ، وفيها قراءة الفاتحة ، والتسبيح ، والتعظيم ، والثناء ، والحمد ، وتلاوة القرآن ، فالصلاة ذكرٌ لله عزَّ وجل ، ومعنى آخر للذكر هو أن يكون هذا الذكر خالصاً لوجه الله عزَّ وجل ، لا أن تذكر مع الله أحداً ، وأن تذكره بإخلاص ، ومعنى :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

أن تذكره ، ولا تذكر شريكاً له ، ومعنى :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

أن تذكره ، ولا تنساه ، قال موسى : " يا رب كيف أشكرك يا رب " ، فقال الله عزَّ وجل : " يا موسى إنك إن ذكرتني شكرتني ، وإذا نسيتني كفرتني " ، تذكرني ولا تناسني ، من أجل أن تشكرني يجب أن تذكرني ، ولا تنساني ..

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله عزَّ وجل إلا هذه الآية لكفت ، هذا الدين كله ..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

الحكمة من إخفاء يوم القيامة :

وهنا سؤال دقيق : لماذا تعلَّقت إرادةُ ربنا سبحانه وتعالى أن يخفي الساعة عن الناس ؟ لِمَ لمْ تكن الساعة جليةً ظاهرة ؟ ولِمَ لمْ تكن ساطعة كالشمس ؟ ولِمَ أخفاها الله عن الناس ؟ ومعنى أخفاها أن الإنسان أحياناً ينسى الموت ، ويحس بقوةٍ في عضلاته ، وبأملٍ في حياته ، ويظن أنه لن يموت ، وينسى الموت ، ويظن أن هذه الحياة لا تنتهي ، فهي مديدة ، ولن يموت ، إذ هكذا يتوهَّم ، فلماذا جعل ربنا سبحانه وتعالى جعل هذه الساعة التي هي آتية ولابدَّ ، والتي لا ريب فيها ، ولماذا أراد الله عزَّ وجل أن تكون خافيةً بعض الشيء ؟ فالإنسان أحياناً يصادف جنازةً ، فلو فكر بهذه الجنازة ، من في هذا النعش ؟ فيها إنسان ، كان البارحة ملء السمع والبصر ، وكان البارحة يسهر، ويضحك ، ويتكلم ، ويقول : سأذهب إلى المكان الفلاني في هذا الصيف ، وكان قبل ساعة يجمع أمواله ، ويُتابع هذا المسلسل ، فإذا هو الآن جثةٌ في نعش ، يتبع الجنازة ، وإذا هذا الإنسان يوضع في حفرة ، ويطمر فوقه التراب ، شيءٌ مخيف ..

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)

وأصعب ليلةٍ يمضيها الإنسان هي أول ليلةٍ في قبره ، يقول الله عزَّ وجل : " عبدي رجعوا ، وتركوك، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت " .

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)

لماذا يا رب تكاد تخفيها ؟ جاء الجواب :

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى

فمثلاً لو أنك صاحب محلٍ تجاري ، وأنت جالسٌ وراء الطاولة ، ولم تغادر هذه الطاولة التي فيها المال لحظةً واحدة ، فهذا الصانع الذي أمامك يا ترى أهو أمينٌ أم خائن ؟ ما كان لك أن تعرفه ، ما دمت وراء الطاولة ، والمال تحت مراقبتك ، وأنت مهيمنٌ عليه ، وكيف تقول : هذا الصانع أمين أم خائن ؟ لم يُتَح لك أن تكشف عن أمانته أو خيانته ، إنك إذا تغافلت عنه قليلاً ، وخرجت من المحل إلى محلٍ مقابل ، وكانت عينك ترعى محلك التجاري ، وراقبت هذا الصانع كيف يبيع ويشتري ، هل يضع

هذا المال في الدرج أم يضعه في جيبه ؟ إنك إن تغافلت عنه تمتحن أمانته ، وتعرف أخلاقه ، فما كان لهذا الإنسان أن ينكشف على حقيقته لولا أنك تغافلت عنه ، ولذلك فالإنسان أحياناً يسيء حتى يظن أن الله غافلٌ عنه ، وكأن دابةً لها حبلٌ مُرْخى تظن أنها طليقة ، ولكنها ليست بطليقة ، إنه في اللحظة المناسبة يشد الحبل فإذا هي في قبضة صاحبها ، لذلك :

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

وأحياناً يأتي الموت فجأةً ، وهذا الإنسان خطّط أن يمضي هذا الصيف في هذا المكان ، وهذا الشتاء في هذا المكان ، ومخطط لرحلات ممتعة ، ولسهرات عامرة ، وليالٍ حمر ، وموائد خضر ، فإذا بالموت على الأبواب ، ولذلك :

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

ولابدَّ أن تُكْشَف النفس على حقيقتها ، ولابدَّ أن تمتحن ، أن تُبْتَلى ، وأن يفتن الإنسان .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

الدنيا دار ابتلاء ، والآخرة دار جزاء ، والدنيا دار تكليف ، والآخرة دار تشريف ، والدنيا دار عمل ، والآخرة دار إكرام ..

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

الحظوظ في الدنيا موزعةٌ توزيع ابتلاء ، وسوف توزَّع في الآخرة توزيع جزاء :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

متى ينجح الطالب في الامتحان نجاحاً باهراً ؟ إذا كانت صورة الامتحان في ذهنه طوال العام الدراسي، وما دام يذكر هذه الساعة الحرجة ؛ ساعة الامتحان فأغلب الظن أنه سوف ينجح ، وما دام الإنسان في الدنيا يغفل عن ساعة الموت ، ولا يحسب لها حساباً ، ولا يعبأ لها ، ويُمَنِّي نفسه ببعض الأمنيات ، ويقول : هذا الحديث ليس له لزوم الآن ، إذا هرب من هذه الحقيقة فكأنه كالنعامة يغمس رأسه في الرمل ..

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

نصيحة ربّانية : فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا

نصيحةٌ ربانية ، أيها المؤمن الكريم لا تستمع إلى إنسانٍ كافرٍ بهذا الدين ، كافرٍ بيوم القيامة ، والبعث ، والجنَّة ، والنار ، وبهذا الكتاب ، لا تُلْق إليه سمعك ، ولا تصغ إليه ، ولا تصدقه ، ولا تهتم بكلامه .

(فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

التلازم بين الكفر باليوم الآخر واتباع الهوى :

وأروع ما في هذه الآية أن هناك تلازماً دقيقاً بين الذي لا يؤمن باليوم الآخر ، والذي يتَّبع الهوى ، فمن لم يؤمن باليوم الآخر لابدَّ أن يتبع الهوى ، ومن آمن باليوم الآخر يتبع الحق ، والحق أحق أن يُتَّبَع، فإما أن تقود نفسك إلى الحق ، وإما أن تقودك إلى الهاوية ، وإما أن تكون سيِّداً لنفسك ، وإما أن تكون هي سيدةً لها ، فإما أن تقودك ، وإما أن تقودها ، إما أن تتحكم فيها ، وإما أن تتحكم فيك ، ولذلك فالعاقل يقود نفسه نحو الحق ، والغافل تقوده نفسه نحو الباطل ، والهوى ..

(فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

فتسقط ، فتهلك ، فتنتهي ، فتشقى .

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

حلاوة المناجاة :

سؤال : رب العزة يناجي هذا النبي الكريم ، يسأله ، يا رب ؛ كيف تسأله وأنت الإله العظيم ، تعلم السر وأخفى ؟ تسأله عن هذه التي بيمينه ؟ هذا النبي الكريم حينما سأله رب العزة :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

رآها مناسبة ، مناسبة العمر أن يناجي الله عزَّ وجل ، فقال :

(قَالَ هِيَ عَصَايَ)

يبدو أنه ذاق حلاوة المُناجاة ..

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

هذا في البلاغة اسمه إطناب ..

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

ذاق من حلاوة المناجاة فأطال الخطاب ، عندها شعر بالخجل ؛ لعلني أطلت ،وأطنبت ، وتكلمت فوق الحد المسموح به ، فقال :

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

فإن كان الله سبحانه وتعالى يريد أن أتابع حديثي يقول له : يا موسى ما هذه المآرب الأخرى ، حدثني عنها ، قال :

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

فالله سبحانه وتعالى أراد من هذا السؤال أن يلفت نظره إلى أن هذه التي بيدك ما هي ؟ تأمل بها إنها عصا ، تأكّد أنها عصا ، لأنها بعد قليلٍ سوف تكون هذا العصا آيةً كبرى للناس ، قال :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

معنى أهشّ :

المعنى الأول :

معنى أهش بها على غنمي قال بعضهم : " أي أضرب ورق الشجر ليسقط فتأكله الغنم " .

المعنى الثاني :

وبعضهم قال : " أضعها على ظهور غنمي كي أوجِّهها نحو الهدف المطلوب " ، ومن بلاغة القرآن ليس هناك كلمة أدق من هذه الكلمة ..

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى)

رب العزة يقول :

(أَلْقِهَا)

(فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)

والله سبحانه وتعالى ما أراد أن يخيفه ، ولكن أن أراد أن يعرِّفه بهذه المعجزة ، فقال :

(قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ)

بمجرد أن تمسكها تعود عصًا ..

(قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)

هذه حلاوة المناجاة ، ولذلك يروى أن مؤمناً وقع في غفلة ، أو وقع في مخالفة ، فظن أنه لابدَّ أن يعاقبه الله عزَّ وجل ، ولابدَّ أن يسوق له بعض المصائب تنبيهاً له لهذه الغفلة ، فانتظر أياماً عِدَّة ، والأمور تجري على شكلٍ طبيعي ، ففي الصلاة ناجى ربه فقال : " يا رب قد عصيتك فلم تعاقبني " ، فوقع في قلبه : " أن عبدي قد عاقبتك ولم تدر ، ألم أحرمك لذة مناجاتي " ، ألم يكفك عقوبةً أنك وقعت في هذه الجفوة .

فهذا النبي الكريم حينما ناجى ربنا سبحانه وتعالى بماذا شعر ، إنك إن خاطبت إنساناً يبدو لك عظيماً تبقى أشهراً تستمتع بهذا الخطاب ، وهذا اللقاء ، ولهذا الحديث ، تقول : أدرت معه حديثاً ممتعاً ، فكيف إن كان الحديث مع الله سبحانه وتعالى ؟ .

(قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)

جاء لقبس من نار فوجد قبسا من نور :

لقد جاء إلى هذا المكان ليأخذ قَبَسَاً من النار ، لذلك : كن لِما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فإذا دعاك إنسان إلى عمل صالح ، قد يكون الهدى في هذا العمل الصالح ، وإذا دعاك إنسان إلى بيته ، فلبِّ هذه الدعوة ، لعلك بهذه الدعوة تنقذ إنسانًا من الضلال ، وأنت لا تعرف .

(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ)

معجزة العصا واليد البيضاء :

ضع يدك تحت إبطك ..

(تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)

منيرة ، مضيئة من دون بطارية .

(تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

منيرةً ، مضيئةً ، وهَّاجةً ، من غير سوءٍ ، وألمٍ ، وغير أذى .

(آيَةً أُخْرَى)

العصا آية ، وأن تخرج هذه اليد للناس وضَّاءةً ، منيرةً ، متألقةً ..

(آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

تجاوز الحَد ، تجاوز حد العبودية ، فادعى الربوبية ، وتجاوز الحد المعقول ، وخرج عن دائرة القبول ، تجاوز الحد البشري ، تجاوز الحدود التي يجب أن يقف عندها الإنسان ، رحم الله عبداً عرف حده

فوقف عنده ، قال :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي)

(سورة الزخرف : من آية " 51 ")

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

يا رب ؛ كل شيء إلا فرعون هذا ، فأنا كنت عندهم ، وقتلت منهم رجلاً قبطياً ، وأنا مُلاحق ، فكيف أذهب إليه يا ربّ ؟ هذه قضية صعبة..

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً)

(اشْرَحْ لِي صَدْرِي)

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي :

الإنسان أحياناً ربما لا ينشرح صدره لعملٍ ، مع أنه قادرٌ على إتمامه ، وقد ينشرح صدره لعملٍ ، وليس قادراً على إتمامه ، هذا التلازم ..

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

ولذلك فإذا أقدم الإنسان على عمل ينبغي أن يدعو الله فيقول : اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، وما توفيقي إلا بالله ..

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

وهكذا ينبغي أن تدعو الله سبحانه وتعالى ؛ قبل أن تقدم على سفر ، وقبل أن تقدم على زواج ، وعلى عمل ، وعلى مشروع ..

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

قبل أن تقابل إنساناً مهماً ..

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

أدخلني مدخل صدقٍ ، وأخرجني مخرج صدق .

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

اتخاذ الأسباب وطلب الإعانة :

فكان سيدنا موسى عنده حبسةٌ في اللسان ، وكان أخوه هارون أفصح منه ، ولكن يبدو أن قلب موسى أفصح من قلب هارون ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى جعل الرسالة في موسى ، ولم يجعلها في هارون، وهذه الآية دليل قطعي على أن الفصاحة وحدها لا قيمة لها ، فإذا أوتيت لساناً طليقاً ذرباً ، فصيحاً ، من دون قلبٍ كبير ، ومن دون قلبٍ مُفْعَمٍ بمحبة الله عزَّ وجل ، ومعرفةٍ بالله ، فهذه فصاحة لا قيمة لها.

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي)

أيْ إنساناً يعاونني ، وربنا عزَّ وجل قال :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة : من آية " 2 ")

تعاونوا ، وقال العلماء : " البر صلاح الدنيا ، والتقوى صلاح الآخرة".

(وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)

نتعاون معاً على هذه الرسالة ..

(كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً)

للناس ..

(وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (34)إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً)

فهذا النبي العظيم ؛ سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام دعا ربه أن يشرح له صدره، وأن ييسر له أمره ، وأن يحلَّ عقدةً من لسانه ، ثم يدعو ويقول :

(يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي)

وزيرًا ، أي معيناً ..

(هَارُونَ أَخِي)

وكان نبياً ..

(اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً)

دعاء المؤمن مبنيٌ على علمٍ بالله عزَّ وجل :

هذا الدعاء معقول ، دعاء المؤمن مبنيٌ على علمٍ بالله عزَّ وجل ، لذلك أغلب الظن أن المؤمن إذا دعا الله عزَّ وجل يدعوه لشيءٍ عظيم ، والله سبحانه وتعالى يستجيب له ، قال :

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)

أجبنا دعوتك ..

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى)

هنا نقطة دقيقة جداً ، هو أن الله سبحانه وتعالى مَنَّ عليه بفضلٍ كبير من دون أن يدعوه من قبل ، فلأن يَمُنَّ عليه الآن بفضلٍ وقد دعاه فمن باب أولى ..

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)

من إعجاز القرآن : رجوع آخر القصة على أولها :

عناية الله بموسى عليه السلام الطفل الرضيع :

طبعاً فرعون بلغه أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه ، ولذلك أصدر أمراً بقتل جميع أطفال بني إسرائيل ، وكانت الأم إذا أنجبت مولوداً تأتيها الصاعقة ، لأن ابنها لابدَّ أن يذبح ..

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)

فهنا الوحي وحي إلهام ، ألهمنا أمك ..

(أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ)

ضعيه في صندوق ..

(فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ)

في البحر ..

(فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ)

في هذه الآية إشارةٌ رائعة ، من الذي يلقيه بالساحل ؟ إنه اليم ، فهل اليم عاقل ؟ لقد أراد الله عزَّ وجل أن يعرفنا أن كل شيءٍ خلقه هو بإمرته ، فهذه المياه ، وهذه الأمواج هي بقدرة الله عزَّ وجل ، فهذه مأمورةٌ أن تلقي هذا الصندوق بساحل قصر فرعون ، فإذا كان الصندوق على سطح الماء يتحرَّك بإذن الله ، فتحرُّكُ الناس من باب أولى ، لذلك لا إله إلا الله ، وكما قال سيدنا هود :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي)

أي فرعون ..

(وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

فما معنى :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

مِن حفظِ الله لموسى : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي :

أي ما رآك أحدٌ إلا أحبك ، فامرأة فرعون لما رأته أحبته ، وفرعون أحبه ..

***

فموسى الذي رباه جبريل كافرٌ وموسى الذي رباه فرعون مرسلٌ

فموسى الذي رباه جبريل كافرٌ ، فهذا هو موسى السامري ، إذا رباه الوحي ، وموسى الذي رباه فرعون مرسلٌ ، أي سيدنا موسى .

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

ينادَى لـه في الكون أنَّا نحبـه فيسمع مَن في الكون أمر محبنا

* * *

إذا ألقى الله عليك محبة أحبك الناس جميعاً ، وإذا كنت محبوباً من الناس جميعاً فإيَّاك أن تتوهَّم أنك طيِّب ، فهذه محبة الله ألقاها علي ، ولو نزعها عنك لأبغضك الناس جميعاً ، فإذا دعا الإنسان ربه فليدعه أن يلقي عليه محبةً منه ، وإذا أحب الله عبداً أحبه خلقه جميعاً .

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

مِن حفظِ الله لموسى : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي :

أي بصدقك ، ومحبتك ، وإخلاصك ، وذوبانك في طاعتي ، واصطنعتك لنفسي ، أي هيَّأتك تهيئةً خاصة ، وأعددتك إعداداً خاصاً ، فجعلتك موطن عنايتي ، ورعايتي ، وإكرامي ، وجعلت قلبك يتسِّع لعلمي .

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

فلما التقطه آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأبوا ، ولم يكن هناك إرضاع صناعي ، فأبوا ، فما من مرضعةٍ عرضتْ نفسها على هذا الطفل إلا أبى أن يلتقم ثديها ، فالطفل أيضاً بيد الله عزَّ وجل ..

(إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً)

مِن حفظِ الله لموسى : وَحَرّمْنا عليه المرَضِعَ :

وبطريقةٍ لطيفة استرقت أخته التي تتبعته ، فقصَّت أثره ، وقالت لأهل بيت فرعون : هل أدلكم على من يكفله ؟ طبعاً دَلَّتْهُم على أمه ، فلما جاؤوه بأمه التقم ثديها ، فاطمأنت أمُّه ، فقد كانت تخاف أن يموت ، فإذا هي ترضعه في قصر فرعون ، فإذا أحبك الله سخَّر لك عدوك لخدمتك .

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً)

القبطي ..

(فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع الحديث عن هذه القصة التي ذكرها الله عزَّ وجل لتكون موعظةً لنا .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 25 – 50
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-02-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى)

الحكمة من عدم وقوع المعجزة أمام الملإ :

أولاً : هذا النبي الكريم .. سيدنا موسى عليه وعلى نبيِّنا أتم الصلاة والتسليم .. يجب أن يعلم هو قبْلَ غيره أنه نبي ، فحينما أمره الله عزَّ وجل أن يلقي العصا التي بيده فصارت حيَّةً تسعى ، فهذه معجزة ، قد يقول قائل : لِمَن ؟ هذه أولاً لسيدنا موسى ، ليعلم سيدنا موسى أنه نبيٌّ مُرْسَل ، وأن هذه معجزة أيَّده الله بها لتكون حُجَّةً له على الذين يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى .

وقد يسأل سائل : لماذا كانت هذه المعجزة فيما بين موسى وبين ربِّه ، ولم تكن أمام الملأ ؟ هذه أولاً ليتعرَّف النبي بشكلٍ قطعي أنه نبيٌّ مُرْسَل ، وكذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءه جبريل في غار حراء ، عرف النبي يقيناً أنه نبي وأنه مُرْسَل .

من فقه الفتوى : جواز إجابة السائل بأكثر مما سأل :

وشيءٌ آخر : استنبط العلماء من هذا ، حينما سأل الله عزَّ وجل نبيَّه فقال :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

فإذا كان الجواب على قدر السؤال ينبغي أن يقول : هي عصاً ، فلمَّا قال :

(هِيَ عَصَايَ)

نسبها إلى نفسه .. فاستنبط بعض العلماء أنه يجوز أن يكون الجواب أكبر من السؤال ، أو أطول ، أو أوسع ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام سُئلَ عن البحر فقال عليه الصلاة والسلام :

((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ))

(من سنن الترمذي عن أبي هريرة)

فالنبي عليه الصلاة والسلام أجاب أكثر من السؤال ، وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي كيف أن هذا النبي الكريم أراد أن يطيل المُناجاة مع الله عزَّ وجل لما في هذه المناجاة من سعادةٍ لا توصف ، فقال :

(هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

وكيف أنه قد شعر لعلَّه أطال ، وأساء الأدب ، فقال :

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

فإذا كان الله يحبُّ أن يتابع نبيُّه الحديث والحوار والكلام يقول له : وما هذه المآرب الأخرى يا موسى؟ على كلٍ كانت الحكمة من هذا السؤال أن يُلْفِتَ الله نظر سيدنا موسى إلى أن هذه التي بيده هي عصاه ، أنها بعد قليلٍ سوف تكون حَيَّةً تسعى ، لتكون المفارقة حادَّةً بين ماضي هذه الحيَّة ، وبين حاضرها . لذلك تَروي كتب الأدب أن الحجَّاج لقي أعرابيًّا فقال له : " من أين أقبلت يا أعرابي ؟ " ، قال : " من البادية " ، قال : " وما في يدك ؟ " وكان في يده عصا ، قال : عصايَ أركُزها لصلاتي ، وأجعلها سترةً لي ، وأعدُّها لِعُداتي ، وأسوق بها دابَّتي ، وأقوى بها على سفري ، وأعتمد عليها في مشيتي لتتسع خطوتي ، وأثِبُ بها النهر ، وتؤمنني من العثر ، وألقي عليها كسائي .. أي ردائي .. فيقيني الحر، ويدفئني من القر .. القر هو البرد .. وتدني إليَّ ما بَعُدَ عني ، وهي مَحمل سفرتي .. طعامه .. وعلاَّقة إداوتي.. أي محفظة كتبه .. أعصي بها عند الضِراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأتقي بها عَقور الكلاب ، وتنوب عن رمحي في الطعان ، وعن السيف في منازلة الأقران ، ورثتها عن أبي ، وأورثها بعدي ابني .

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

المئارب كثيرةٌ لا تُحصى ، فهذا هو التفصيل ، ما هي هذه المآرب ؟ مآرب كثيرة ، كان السلف الصالح يحمل بيده عصا يستعين بها في المشي ، ويقرع بها الباب ، ويقتل بها الحيوان العقور ، وهكذا..

(قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ)

معجزة انقلاب العصا إلى ثعبان مبين :

ليس القصد إخافتك يا موسى ، خذها ، تروي بعض الكتب أنه خاف منها ، فأمسكها بطرف عباءته ، فقال : خذها بيدك ، ولا تخف ..

(سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)

الخوف من طبيعة البشر :

والخوف من طبيعة البشر ..

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا(28))

(سورة النساء)

(وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولا(11))

(سورة الإسراء)

فأن يكون الإنسان عجولاً ، وأن يكون ضعيفاً ، وأن يكون هلوعاً، وأن يكون جزوعاً فهذه من طبيعة البشر ، إنها ضعفٌ في بنيتهم ، ولكن هذا الضعف لصالحهم ، ولأن الإنسان حينما خُلقَ ضعيفاً من أجل أن يستعين بالله عزَّ وجل ، وأن يلتجئ إليه ، وأن يتوكَّل عليه ، فلو أن الله عزَّ وجل خلقه قوياً لاستغنى بقوَّته ، وشقي باستغنائه ، ومن حكمة الله عزَّ وجل أن الإنسان خُلِقَ هلوعاً .

(قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى)

آيتان : الآيةُ الأولى العصا ، وكيف أنه إذا ألقاها تصبح حيَّةً تسعى ، والآية الثانية يده حين أدخلها تحت إبطه ..

(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

لا تؤْذَى أنت ، ولا تؤذِي بها ، لكنها تخرج متألِّقةً منيرةً كالشمس ..

(آيَةً أُخْرَى* لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى *اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

شرح الصدر مُقدَّمٌ على التيسير في الأمر :

وبيَّنت في الدرس الماضي كيف أن شرح الصدر مُقَدَّمٌ على التيسير في الأمر ، لأن الإنسان ينطلق أول ما ينطلق من حاجةٍ نفسيَّة ، فإذا كان هناك انشراحٌ لإبداء هذا الأمر أقدم عليه ، فإذا كان هناك انشراحٌ لإمضاء هذا الأمر ، ولم تكن وسائلهُ ميسَّرةً لم يحقِّق الهدف ، لذلك لابدَّ من شرح الصدر ، وتيسير الأمر ..

(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي *وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي)

وبعض الآيات تؤكّد أن هذا النبي الكريم .. في هذه الآية طبعاً ، وفي آياتٍ أخرى أن في لسانه عقدةً ، أي لم يكن طليقاً في الكلام طلاقة أخيه هارون .

الفصاحة الجنان لا فصاحة اللسان :

وحول هذا الموضوع قصَّةٌ طريفة جرت بين واعظٍ ونحوي ، فقد جلس نحويّ .. أي عالمٌ بالنَّحو .. في مجلس واعظ ، فَلَحَنَ الواعظ .. أي أخطأ في حركة بعض الكلمات .. فقال النحوي : " أخطأت " ، هكذا قالها أمام تلاميذه ، فقال له الواعظ : " أيها المُعرض في أقواله ، اللاحن في أفعاله ، أكلُ هذا لأني رفعتُ ، ونصبت ، وخفضت ، وجزمت ؟ فهلاَّ رفعت إلى الله يديك بالدعاء ؟ ونصبت بين عينيك ذكر الممات ؟ وخَفَضْتَ نفسك عن الشهوات ، وجزمتها عن فعل المحرَّمات ، أفلا تعلم أنه لا يُقال للمسيء يوم القيامة : لِمَ لَمْ تكن فصيحاً مُعْرِبَاً ؟ وإنما يقال له : لِمَ كنت عاصياً مذنباً ؟ ولو كان الأمر بالفصاحة لجعل الله الرسالة في هارون ، ولم يجعلها في موسى ، فقال تعالى إخباراً عنه :

(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)

(سورة القصص : من آية " 34 ")

فجعل الله تعالى الرسالة ـ في موسى ـ لفصاحة جنانه لا لفصاحة لسانه ، فالأمر تابعٌ للجنان .. أي للقلب .. لا للسان " .

فالفصاحة وحدها لا قيمة لها ، أما إذا أضيفت الفصاحة إلى قلبٍ مُفْعَمٍ بذكر الله عندئذٍ تؤتي ثمارها .. دخل على سيدنا عمر بن عبد العزيز وفد الحجازيين ، فقام غلامٌ لا تزيد سنُّه على إحدى عشرة سنة ، فقال الأمير : " اجلس أيها الغلام ، وليقُم من هو أكبر منك سنَّاً " ، فقال : " أصلح الله الأمير ؛ المرء بأصغريه ؛ قلبه ولسانه ، فإذا وهب الله العبدَ لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً فقد استحقَّ الكلام ، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس " ..

فلذلك جعل ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ بالغة في أنبيائه مجتمعين أشياء كثيرة ، تكون هذه الأشياءُ دروسًا بليغة ، جعل في لسان نبيٍّ مُرسلٍ من أولي العزم عُقْدَةً ، وجعل لنبيٍّ آخر ابنًا ضالاً .. سيدنا نوح .. وجعل لنبيٍّ آخر زوجةً ليست مؤمنةً برسالته ، وجعل نبياً فقيراً ، وجعل نبياً ملكاً ، فحينما تدور الأمور كلُّها مع الأنبياء هذا من أجل أن يُفصَل الإيمان عما يلابس بعض الناس من حالاتٍ متفاوتة ..

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً)

طبعاً التسبيح والذكر المقصود به الكثرة ، لقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41)وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا(42))

(سورة الأحزاب)

فلذلك المطلوب هو الكثرة ، ومن علامة المنافقين أنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((من أكثر ذكر الله عزَّ وجل فقد برئ من النفاق))

(الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند ضعيف)

(كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً *قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)

يا أيُّها الإخوة المؤمنون ... المؤمن حينما يدعو الإنسان دعاءً يتعلَّق بصلاح آخرته ، أو صلاح نفسه ، أو تطهيرها ، أو تحليتها بالكمال ، فهذا الدعاء دُعاءٌ طيِّبٌ جداً ، والله سبحانه وتعالى يستجيب له ..

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)

فإذا دعوت الله عزَّ وجل أن يهديك سواء السبيل ، وأن يجعلك هادياً مهتدياً ، وأن يحفظك من شرِّ ما خلق ، فلذلك كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

(من سنن الترمذي عن أنس بن مالك)

و:

((الدعاء هو العبادة))

(الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه عن النعمان بن بشير)

و :

((ومن لا يدعني أغضب عليه))

(ورد في الأثر)

و :

((وإن الله يحبُّ الملحِّين في الدعاء))

(الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال)

و :

((لا يردُّ القضاءَ إلاّ الدعاءُ))

(الترمذي عن سلمان بسند حسن)

القضاء الذي نزل يُرَدُّ بالدعاء .

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى)

أي أنك هُنا سألتنا فأجبناك ، لكنَّنا في الماضي مَنَنَّا عليك مِن فضلنا من غير أن تسألنا ، فلأن نُجيبك هذه المرَّة فمن باب أولى ، وإذا كنت قد سألتنا فأجبناك ، لكنَّه في الماضي لم تسألنا فأعطيناك .

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)

أنواع الوحي :

1 - وحي الإلهام :

قال العلماء : " هذا وحي الإلهام " .

2 - وحي الغريزة :

وهناك وحي الغريزة .

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

(سورة النحل : من آية " 68 ")

وهناك وحي الإلهام .

3 - وحي الرسالة :

وحي الرسالة عن طريق سيدنا جبريل .

وأغلب العلماء على أن هذا الوحي لأم موسى هو وحي إلهام ..

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ)

عناية الله وحفظه لموسى عليه السلام منذ ولادته :

أي في الصندوق ..

(فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ)

(فَلْيُلْقِهِ)

هذه اللام لام الأمر ، والبحر مأمورٌ أن يُلقي هذا الصندوق على شاطئ قصر فرعون ، فإذا كانت أمواج البحر أو ذرَّاتُ مياه البحر مؤتمرةً بأمر الله عزَّ وجل فهل في الحياة شيءٌ أكبر من ذلك يستعصي على الله عزَّ وجل ؟ إذاً الأمر كلُّه بيدِ الله .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من آية " 123 ")

وهذه الآية جزءٌ أساسيٌ من مغزى القصَّة ..

(فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

معنى : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي

المعنى الأول :

من أوجه تفسيرات هذه الآية أن الله أحبَّه وحبَّبه إلى خلقه ، لذلك إذا أحبَّك الله ، فمن لوازم محبَّة الله عزَّ وجل أن الخلق كلَّهم يحبُّونك ، فإذا أحبَّك الخلق فهذه علامة محبَّة الله لك ..

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

والحديث القدسي الذي أتلوه على مسامعكم كثيراً هو قول سيدنا داود :

((يا رب مَن أحبُّ الناس إليك حتى أحبَّه بحبِّك ؟ فقال : يا داود أحب الناس إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء ، أحبَّني ، وأحبَّ من أحبَّني ، وحبِّبني إلى خلقي))

(ورد في الأثر)

فدور العبد الصالح مع ربِّه أنه يحبُّ الله ، ويحبُّ أحبابه ، ويُحَبِّب الخلق إليه ، إذا أحبَّك الله عزَّ وجل حبَّب الناس إليك ، وإذا أحببته أنت يجب أن تحبَّه ، وأن تحبَّ من يحبَّه ، وأن تحبِّب الناس إليه .. فقال:

((أحبُّ الناس إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء ، أحبَّني ، وأحبَّ من أحبَّني ، وحبِّبني إلى خلقي ، فقال داود : يا رب إنك تعلم أني أحبُّك ، وأحبُّ من يحبُّك ، فكيف أحبِّبك إلى خلقك ؟ قال : ذكِّرهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي))

(ورد في الأثر)

إذا ذكَّرت الخلق بآلاء الله ، وبنعمائه ، وببلائه فقد حببت الخلق إليه ، إن ذكَّرتهم بآلائه استعظموه ، وإذا استعظموه طبَّقوا أمره ، وإنك إن ذكَّرتهم بنعمائه أحبُّوه ، وإذا أحبُّوه طبَّقوا أمره ، وإنك إن ذكَّرتهم ببلائه خافوا منه ، وخوفهم منه يحملهم على تطبيق أمره ، فالهدف واحد ، وهو أن يطيعوه ، إما أن يطيعوه عن طريق التعظيم ، وإما أن يطيعوه عن طريق المحبَّة ، وإما أن يطيعوه عن طريق التخويف..

((ذكِّرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

المعنى الثاني :

قال بعض المفسِّرين :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

أيْ رَحِمْتُكَ فأحبَّك الناس ، فإذا تجلَّى الله على قلب الإنسان بالرحمات انصرفت قلوب الناس إليه ، لأن قلبه يصبح مهبطاً لتجلِّي الله عزَّ وجل ، وعندئذٍ تهفو القلوب إلى هذا القلب المتصل ، فلو أن الإنسان أُتيح له أن يلتقي بنبيٍّ عظيم فلا توصف مقدار السعادة التي تتأتَّى من مجرَّد اللقاء ، ولو لم ينطق بكلمة، إن هذه النفوس العظيمة التي أقبلت على الله عزَّ وجل ، واستنارت بنوره فكانت مهبطاً لتجليَّات الله عزَّ وجل ، فإذا كان هناك لقاءٌ ، أو اتصالٌ ، أو محبَّةٌ ، أو محاككةٌ بينك وبين قلب المتصل سَرَت هذه الصلة إلى قلبك ، لذلك :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

من معانيها أنني أحببتك ، وجعلت الخلق كلَّهم يحبونك .

المعنى الثالث :

أنني تجلَّيت على قلبك فهفت القلوب إليك ، ولذلك يقال : إن النبي عليه الصلاة والسلام كان أصحابه لا يطيقون فراقه أبداً ، كان بعض أصحابه يخدمه ، فلمَّا حان وقت الانصراف بقي على عتبة داره لشدَّة أُنسه ، وسعادته بهذا القُرْب ..

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

أي أحببتك ، وجعلت الخلق يحبُّك ..

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

أي تجليت على قلبك فهفت القلوب إليك .

(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

المعنى الرابع :

شيءٌ آخر ـ أي معنى آخر ـ أحياناً يلقي الله عزَّ وجل على إنسان محبَّته فيحبُّه الناس ، وهكذا قال بعض المفسِّرين ، أي أنه ألقى عليه مسحةً من جمالٍ أخَّاذ ، فإذا كلُّ مَن النظر إليه هفا إليه ، وكان غلاماً صغيراً فألقى عليه مسحةً من جمال ، فلمَّا رأته امرأة فرعون أحبَّته ، وقالت : لا تقتلوه ، عسى

أن ينفعنا ، فلمَّا رآه فرعون قَبلَ أن ينجوَ هذا الغلام مِن القتل ، أي أنه ألقى عليه مسحةً من جمال . والمرأة التي تُخْطَبُ ، ويتزوَّجها زوجها ، ويكرمها ، ويجعلها في موضع تكريمه ورعايته ، ويسكنها في بيتٍ مريح ، ويأتيها بالطعام ، والشراب ، واللباس ، إيَّاها أن تظنَّ أن هذا ضروريٌّ لها ، لولا أن الله عزَّ وجل ألقى عليها مسحةً لما خطبها أحد ، فالفضل لله عزَّ وجل ، لو تَعْلَم المرأة أن الذي جعل الناس يُقْبلون على خطبتها هو الله عزَّ وجل ، لأنه جعلها كاملةً مرضيَّةً في أعينهم ، ولو لم تكن كذلك لما أقدم أحدٌ على خطبتها ، إذاً هذه محبَّة الله أيضاً .

آتى الله الإنسان عقلاً ، وآتاه حواس تامَّة فبجَّله الناس ، وعظَّموه ، واحترموه مثلاً ، فهذا فضل الله عزَّ وجل ، ولو أن في العقل خللاً لما أقبل أحدٌ عليك ، لو أن في الخَلْق عيباً خطيراً لما أقبل أحدٌ عليك ، ولنفر الناس منك ، إذاً إذا أقبل الناس عليك فهذا من فضل الله عزَّ وجل ، وعلامة المؤمن أنه يرى فضل الله عليه دائماً ..

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

هذه كنايةٌ أن الله عزَّ وجل رعاه رعايةً تامَّة ، فحينما يكون الابن في قلب أمِّه تراها تنظر إليه دائماً حيثُما انتقل ، فالآية إشارةٌ إلى أن الله عزَّ وجل هو الذي ألقى عليه مسحةً من جمال ، وهو الذي ألقى عليه محبَّته ، وهو الذي أوحى إلى أمِّه أن اقذفيه في التابوت ، وهو الذي أمر الموج أن يسوق هذا الصندوق إلى شاطئ القصر ، وجعل الجواري يأخذن هذا الصندوق إلى امرأة فرعون ، وهو الذي ألقى في قلب امرأة فرعون محبَّة هذا الغلام ، وجعل فرعون يرضى أن ينجو هذا الغلام من الذبح ، هو الذي جعله يتربَّى في قصر فرعون ، كل هذه الحوادث إنها..

(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

إنّ الله سبحانه وتعالى هو الرب المُمِدّ ، الذي يَهَبَ الجميل ، ويثيب عليه ، والدليل أن هذا الأمر كلَّه بيدِ الله ..

(إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ)

أي دخلت أختك إلى قصر فرعون ، وقد تروي بعض الأخبار أنها وضعت أخاها على ثديها فالتقمه ، بينما لم يرض أن يلتقم ثدي أي امرأةٍ أخرى ، وربنا عزَّ وجل قال :

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

(سورة القصص : من آية " 12 ")

فقال العلماء : " هذا تحريمُ منعٍ لا تحريم شرعٍ " .

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

إلى أن جاءت أخته ، ووضعته على ثديها فالتقم ثدي أخته ، لكنَّ أخته ليس في ثديها حليب ، قالت : أنا آتيكم بأمِّي ، أمي في ثديها حليب ، فجاءتهم بأمِّه فالتقم ثديها ..

(فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا)

إذاً :

(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً)

وقتلتَ نفسًا فنجيناكَ من الغمِّ :

وقد جاء في صحيح مسلم أن هذا القتل هو قتل خطأٍ ، وليس قتل عمدٍ ، وتصوُّر ، إنه قتل خطأٍ ، وقد ظهر من هذا القتل حِرْصُ هذا النبي الكريم على أن يكون مع الحق ، وليكن الثمن ما يكن ..

(فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ)

من غمِّ القِصاص ، ومن غمِّ المُلاحقة ، ومن غمِّ السجن ..

(فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)

جئت في الوقت المناسب ، أو جئت على القدر الذي قدَّرناه نحن لك..

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

تفسير : وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي

الاصطناع من الصَنيع ، والصنيع هو المعروف ، فأولاً اخترتك ، ثم جعلتك محلَّ إكرامي ، وعطائي ، اخترتك ، وأعطيتك ، وكرَّمتك لتكون هادياً إليَّ ..

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

فأنت قد هُيِّئت ، وأُعطيت كل الوسائل التي تستطيع بها أن تكون هادياً إليّ ، وذلك لأن الله عزَّ وجل عَلِمَ منه الصدق ، وعلم منه الذوبان في محبَّة الله عزَّ وجل ..

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

إنها أعلى مرتبةٍ يبلغها إنسان على وجه الأرض ، أن يكون هادياً إلى الله عزَّ وجل ..

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي)

اذهبا إلى فرعون إنه طغى

(لاَ تَنِيَا)

أي لا تتباطآ في ذكري ..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

تجاوز الحدَّ المعقول ، فخرج عن دائرة القبول ..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى *فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف :

قال عليه الصلاة والسلام :

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

(ورد في الأثر)

وقال تعالى :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)

(سورة آل عمران : من آية " 159 ")

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

قال رجل لأمير : " سأعظك بغِلْظَة " ، فكان هذا الأمير أفقه من الواعظ ، قال له : " لِمَ الغلظة يا أخي؟ لقد أرسل الله من هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌ مني ، أرسل موسى إلى فرعون ، فهل أنت كموسى ؟ لا ، وأنا كفرعون ؟ لا ، لمَ الغلظة يا أخي ؟ " .

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

حتى إن بعضهم قال : " يا رب إذا كانت هذه رحمتك بمن قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)

فكيف رحمتك بمن قال : سبحان ربي الأعلى ؟! وإذا كانت هذه رحمتك بمن قال :) مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

، فكيف رحمتك بمن قال : لا إله إلا الله ؟! المرسل إليه هو فرعون ..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

وقال بعض العلماء : " القول الليِّن أن تناديه بلقبه ، أو بكنيته ، أو بالاسم الذي يُحِبُّه ، هذا من القول اللين ، فإذا كنتَ مع إنسان ، وترجو منه الخير ، فإذا ناديته باسمٍ يحبُّه ، أو لقبٍ علميٍّ يحبُّه ، أو رتبةٍ

يحبُّها ، أو كُنيَةٍ يحبُّها فهذا من القول الليِّن ، وإذا ناديته باسمٍ يحبُّه ، أو لقبٍ ، أو مرتبةٍ ، أو شيءٍ من هذا القبيل ، فهذا من القول الليِّن ، وسوف ترون معي بعد قليل كيف كان قول هذا النبي العظيم لفرعون؟

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

إذاً الأمل واسعٌ وقائمٌ ، وفرص الهداية متوافرةٌ في فرعون ، وإلا لَمَا كان هناك من معنى أن يُرْسِل الله عزَّ وجل موسى إلى فرعون .

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)

تفسير : يَفْرُطَ عَلَيْنَا

أيْ أن يسارع بالعقوبة ، أن يسارع في قتلنا ، أو في تعذيبنا ، أو أن يزداد طغياناً ، حينما يعارض فرعون الحق يزداد طغياناً على طغيانه ..

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)

الخوف من جِبِلَّة الإنسان :

ورد في بعض الكتب : " أن الخوف من الأعداء سُنَّة الله في أنبيائه وأوليائه ، مع معرفتهم به ، وثقتهم بنصره " ، الخوف من طبيعة البشر ، يا ترى هل يُعَدُّ خوف هذا النبي الكريم من مواجهة فرعون نقصاً في إيمانه ، أو نقصاً في توكُّله ، أو ثغرةً في ثقته بالله عزَّ وجل ؟ قال بعض العلماء : " لا " .. فقد روي أن رجلاً اسمه عامر بن عبد الله نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء ، فحال سبعٌ مفترسٌ بينهم وبين الماء .. أي هم يبتغون هذا الماء ، وبينهم وبين الماء سبعٌ مفترس .. فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته .. هذا عامر بن عبد الله توجَّه إلى الماء ، ولم يبال بالسبع ، وأخذ منه حاجته .. فقيل له : " لقد خاطرت بنفسك يا عامر ، وغامرت ، فقال : " لأنْ تختلف الأسنَّة في جوفي أحبُّ إليَّ مِن أن يعلم الله أني أخافُ شيئاً سواه " ، بعضكم أُعْجِب بهذا الموقف ، أما سيدنا الحسن البصري ردَّ عليه فقال : " لقد خاف يا عامر من هو خيرٌ منك" ، وجاء بالآيات التي ذكرت قول مؤمن آل فرعون لسيدنا موسى ..

(قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ(20)فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

(سورة القصص)

الآيات التي أثبتت خوف موسى من فرعون وقومه :

نبيٌّ عظيم ، نبيٌّ مُرْسَل ، من أولي العزم .. ومع ذلك :

الآية الأولى :

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

الآية الثانية :

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

(سورة القصص : من آية " 18 ")

الآية الثالثة :

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى(67)قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى)

(سورة طه)

فإذا كان النبي المُرْسَل الذي هو من أولي العزم يخاف فهذا الخوف من طبيعة البشر ، وليس قدحاً في إيمانه ، ولا في توكُّله ، ولا في ثقته بنصر الله عزَّ وجل ، ولكنَّ طبيعة البشر هكذا ، والخوف من طبيعة البشر ليكون الخوف دافعاً لهم إلى التوكُّل على الله ، والالتجاء إليه ، والثقة بنصره .

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا)

أفرط عليهم أي أسرع بعقوبتهم ..

(أَوْ أَنْ يَطْغَى)

الطغيان تجاوز الحد ..

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا)

معية الله : معكما أسمع وأرى :

أين أنا ؟ أنا معكما ..

(أَسْمَعُ وَأَرَى)

من هنا قال بعضهم : " إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ " ..

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

*** * ***

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة : من آية " 12 ")

أي أن معيَّة الله ليست حكراً على أحد ، لكنَّها لكل الناس بهذا الشرط ، معيَّة الله لكل مؤمنٍ بشرط أن يكون مقيماً للصلاة ، مؤتياً للزكاة ، يرعى حقوق الله ، مُعَزِّراً لرسله وأنبيائه .

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

لقد طمأنهما ربنا عزَّ وجل ..

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ)

إيذاء فرعون لقومه :

يبدو أن هؤلاء القوم كان قد عذَّبهم فرعون كثيراً ؛ ذبَّح أبناءهم ، واستحيا نساءهم ، وجعلهم يعملون عملاً بلا أُجرة ، أرهقهم في الأعمال ، وانتهب منهم الأموال ، وقتَّل أبناءهم ـ وهكذا ـ

(قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

السلام على من اتبع الهدى :

لم يقولا : " السلام عليك " ، السلام على من اتبع الهدى ، الذي اتبع الهدى وحده يستحقُّ السلام ، والسلام اسمٌ من أسماء الله عزَّ وجل ، من منحه الله السلام لا يستطيع مخلوقٌ على وجه الأرض أن ينال منه .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : من آية " 30 ")

مُنِحوا السلام ..

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ)

(سورة الأحزاب : من آية " 44 ")

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

من أساليب الدعوة : التوجيه الليّن اللطيف :

هذا من التوجيه اللطيف ، وهذا من القول الليِّن ، لم يقل سيدنا موسى: أن يا فرعون سوف يعذِّبك الله عزَّ وجل ، لا ..

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

فإذا أردت أن تنصح إنساناً غارقاً في المعاصي فلا تقل له : أمامك مصائب ، وأمامك عقوبات شديدة ، بل قل : الله عزَّ وجل يعاقب المنحرف ، ويعاقب العاصي ، ولا تتوجَّه إليه بالذات ، بل بيِّن له بعض القواعد ، بعض السُنَن ، والقوانين في كتاب الله من دون أن تجعله هدفاً لموعظتك ..

(أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

حوار حول إثبات الربوبية :

من ربكما ؟ ..

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

أي أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم أعطاه فكراً ، وقوَّةً إدراكيَّةً يعرف بها الخير من الشر ، والحقَّ من الباطل ، وما ينفعه ، وما يضرُّه ، هداه إلى طريق سعادته ، وخلقه خلقاً كاملاً ، وأعطاه قوَّةً إدراكيَّة يهتدي بها إلى طريق سعادته ، أعطاه وهداه ..

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

مِن صور هداية الله لمخلوقاته :

1 - هداية الله للحيوان :

الحيوان خلقه في أبدع تكوين ، ثم هداه إلى طعامه وشرابه ، وهداه إلى بناء عشِّه ، وإلى رحلةٍ طويلةٍ، لا يزال العلم حتى الآن حائراً في طريقة اهتداء الطيور إلى أهدافها البعيدة ، أعطى السمكة الخَلق الأكمل ، ثم هداها لرحلةٍ تقطع بها عشرات الألوف من الأميال ، كل مخلوقٍ هداه الله إلى سُبُل العيش ، كيف يعيش ، وكيف يأكل ، وكيف يأوي إلى عشِّه أو إلى جحره ، هذه هداية الله عزَّ وجل ، عبَّر عنها بعض علماء الغرب "بالغريزة " ، والغريزة كلمة لا معنى لها ، فالحيوان يقوم بأفعال ذكيَّة جداً من دون تعليم .

2 - هداية الله للطفل الرضيع :

فهذا الطفل الصغير الذي يولد لتوِّه يلتقم ثدي أمِّه ، التقام الثدي عمليَّةٌ معقَّدة ، فيها إحكام شفتيه على حلمة الثدي ، وفيها سحب الهواء كي يخرج له الحليب ، وفيها أشياء كثيرة ، العلماء قالوا : " هذا منعكس المص يولد مع الإنسان " ..

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

فلو أن هذا الطفل الصغير لا يعرف كيف يلتقم ثدي أمِّه لمات جوعاً، وليس في الإمكان أن تُعَلِّمه ، وهو دون أن يُعَلَّم ، فليس عنده إدراك ، ولا لغة ، ولا قدرة على الاستيعاب ، ولذلك لولا منعكس المصِّ الذي خلقه الله عزَّ وجل في الطفل الصغير لما عاش إنسان على وجه الأرض .

وهذه الآية يمكن أن تؤلَّفَ حولها مجلَّدات ..

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

أعطى الإنسان خلقه الكامل ، ثم هداه إلى طريق الخير والشر ، وأعطى الحيوان خلقه الكامل ، ثم هداه إلى كسب رزقه وإلى عيشه ، أما قوله تعالى :

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى)

سؤالٌ من فرعون : فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى

قال بعض العلماء : " أراد فرعون من هذا السؤال أن يصرف موسى عن هدفه من المناقشة ، وأن يحوِّله إلى موضوعٍ آخر ، أو أنه أراد أن يقول له : هؤلاء الأقوام الذين جاؤوا قبلنا لِمَ لمْ يهدهم الله عزَّ وجل كما تقول أنت ؟ أو أنه أراد بهذا أن يسأله عن غيب الماضي لتوَهُّمه أن هذا النبي الكريم يعلم الغيب " ..

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى *قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي)

جوابُ موسى عليه السلام :

أنا عبدٌ فقير لا أعلم من الغيب شيئاً ..

(عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)

تفسير قوله : فِي كِتَابٍ

إنّ الله عزَّ وجل لا يحتاج إلى كتابٍ يكتُب فيه الماضي ، ولكنَّ العلماء قالوا : " إن الكتاب هنا بمعنى أن يؤكّد لعباده أن علم هذه القرون الأولى لا يخفى عليَّ منه شيء " ، أي هو بحسب تصوُّر الخلق ، الله عزَّ وجل غنيٌّ عن أن يكتب ، أو أن يثبت هذا في كتاب ، لكن كلمة كتاب هنا جاءت لتبيِّن أن الله عزَّ وجل بحسب تصوُّر الناس أنه شيءٌ مكتوب ..

(لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)

هذه الآيات تحتاج إلى تفصيلٍ ، أرجو الله سبحانه وتعالى في الدرس القادم أن يوفقني إلى توضيح بعض الأمثلة التي تعمِّق فهمنا لهذه الآيات ، ولاسيما الآية التي كما قلت قبل قليل يمكن أن يفصَّل فيها تفصيلاً كافياً .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 43 – 70
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-02-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الرابع من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

معية الله للمؤمنين :

أذكّركم أيها الإخوة بقوله تعالى :

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

(سورة المائدة : من آية " 12 ")

نريد أن نخرج من هذه الآية إلى قاعدة ، هي أن معيَّة الله سبحانه وتعالى معية نصرٍ ، وتأييدٍ ، ودفاعٍ، ومعونة ، وهذه المعيَّة لكل مؤمن ، لكن لها ثمناً توضح الآية الكريمة :

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

لأنه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ما من شيءٍ على وجه الأرض أعظم منالاً من أن يكون الله معك ، هل في الأرض كلها ، بل هل في الكون كله جهةٌ تستطيع أن تنال منك إذا كان الله معك ؟ إذا كان الله معك فأنت أقوى الأقوياء ، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك .

يوضح لنا ربنا سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى ثمن هذه المعية ، الخلق كلهم سواء عند الله عزَّ وجل ، لا تنسوا أن سيدنا عمر رضي الله عنه ، حينما أرسل سيدنا سعداً بن أبي وقاص قال له : " يا سعد ، لا يغرَّنك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له " ، الذي يرفعك عند الله طاعتك ، حجمك عند الله بحجم عملك .

((أنا جد كل تقي ، ولو كان عبداً حبشياً))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

((سلمان منا أهل البيت))

(الجامع الصغير عن عمرو بن عوف بسند ضعيف)

((نِعم العبد صهيب))

وقف أبو سفيان بباب الخليفة عمر رضي الله عنه ساعاتٍ طويلة فلم يؤذن له ، وكان يرى صهيباً وبلالا يدخلان ويخرجان من دون استئذان، آلمه ذلك ، فلما دخل على الخليفة عمر رضي الله عنه قال : " زعيم قريش يقف في بابك ساعاتٍ طويلة ، وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان !! " قال : " أأنت مثلهما ؟! " ، عظمة الإسلام أن الناس كلهم سواسية كأسنان المشط ، قال تعالى :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات : من آية " 13 ")

((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

(من صحيح البخاري عن أنس بن مالك)

((أنا جد كل تقي ، ولو كان عبداً حبشياً))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

هذه مبادئ الإسلام ، فإذا أردت معية الله عزَّ وجل ، إذا أردت نصره ، تأييده ، معونته ، توفيقه ، أن ينصرك على من عاداك فهذا هو الثمن فادفعه ، واقبض النتيجة .

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

بشرط :

(لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ)

(سورة المائدة : من آية " 12 ")

هؤلاء الذين جاؤوا بعد عصور التألُّق والازدهار وصفهم عزَّ وجل فقال :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

غياً أي شراً ، أي قهرا ..

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا(141))

(سورة النساء)

إذا كنت معه ، وقد أقمت الصلاة ، وآتيت الزكاة ، وآمنت برسله ، ونصرتهم أيتخلَّى عنك ؟! والله الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يكون ذلك .

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة : من آية " 12 ")

هذا هو الثمن ادفعه واقبض النتيجة .

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(1))

(سورة الإسراء)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد : من آية " 4 ")

((يا موسى ، أتحب أن أسكن معك - صعق هذا النبي الكريم - وكيف ذلك يا رب ؟ " قال : أما علمت أنني جليس من ذكرني ، وحيثما التمسني عبدي وجدني)

(ورد في الأثر)

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

هذا حال المراقبة ، يتحدَّث عنه بعض الصوفيين ، أن تشعر أن الله معك دائماً ، اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك .

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

التلطُّف في الدعوة إلى الله ألاّ تواجه الإنسان بأخطائه ، استخدم ضمير الغائب ، هكذا فعل هذا النبي العظيم .

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

يا فرعون :

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

ليس من الحكمة مواجهة الناس بأخطائهم :

هذا الذي يواجه الناس بأخطائهم يقول له : أنت فاسق ، أنت كافر ، هذا أسلوبٌ لا يرضاه الله عزَّ وجل، لأنه من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف .

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران : من آية " 159 ")

قل لـه : من يعص الله عزَّ وجل فسوف يحاسبه في الدنيا والآخرة ، استخدام ضمير الغائب ، ولا تستخدم الضمير المخاطب .

(قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

من ربكما يا موسى ؟ جاء الجواب بإيجازٍ رائع :

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(4))

(سورة التين)

صورٌ مِن هداية الرب للمخلوقات :

1 – الإنسان :

خلق له عينين ليرى بهما كل شيء ، ليرى الأشياء بأحجامها ، وألوانها ، وأبعادها ، الطولية ، والعرضية ، والعُمْقية ، يرى الإنسان بعينيه بالأبعاد الثلاث ، ولساناً وشفتين ، وباللسان ينطق ويعبِّر عن آرائه ، وعن أفكاره ، وعن مشاعره ، وبالشفتين يلتقم ثدي أمه ، خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم ، جعل له هيكلاً عظمياً ، وجعل له عضلاتٍ تحرِّك العظام ، وجعل لهذه العضلات أوتاراً ، وجعل الشرايين والأوردة ، وجعل القلب والرئتين ، وجعل المعدة والأمعاء ، وجعل جهاز الإفراز ، وبَثَّ في هذا الجسم الأعصاب والغدد الصماء ، حيث يُعدُّ الإنسان أعقد آلةٍ على وجه الأرض ، وأكثر الأعضاء تعمل ليلاً نهاراً بلا كلل ولا ملل ، تنام أنت والدماغ يقظان ، يقلبك في الليل ذات اليمين وذات الشمال ، الهضم يعمل وأنت نائم ، والتنفُّس يعمل وأنت نائم ، والقلب يضخ وأنت نائم ، وأعمالٌ معقدةٌ لا يعلمها إلا الله ، كلها تكون وأنت نائم .

(مَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

من جعل هذه العين ترى ثمانمئة ألف درجة من اللون الواحد ؟ عين الإنسان تستطيع أن تميز بين درجتين من ثمانمئة ألف درجة من اللون الواحد بدقة بالغة ، عين الإنسان ترى الشيء بحجمه الطبيعي، أذن الإنسان تلتقط أدَقَّ الأصوات ، لك ذاكرةٌ سمعية تعرف بها أصوات كل من حولك ، تسمع هذه المكالمة الهاتفية فتقول لأول وهلةٍ : إنه فلان ، كيف عرفت أنه فلان ؟ لولا أن لك ذاكرةً سمعيةً ، وذاكرةً شميةً ، وذاكرةً بصريةً ، وذاكرة أسماء ، وذاكرة أرقام ، وذاكرة طعوم .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

لماذا لم يجعل الله عزَّ وجل في الشعر أعصاباً ؟ لو كان في الشعر أعصابٌ حسية لكان الإنسان بشكلٍ مخيف ، لأنه لن يستطيع أن يحلق شعره، يحتاج إلى عمليه جراحية وإلى تخدير :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

(سورة البلد)

(قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ(17)مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ(18)مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(19)ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ(20))

(سورة عبس)

لـو اطلعتم إلى آلية الولادة لرأيتُم أعظم آيةٍ من آيات الله عزَّ وجل ، هذا الرحم الذي جعله الله في قرارٍ مكين ، وجعله يتمدد من(7 سم3 إلى 3500 سم3)، أي مئات ، بل ألوف الحجوم الكبيرة كي يتسع

لهذا الجنين ، ثم يتقلّص تقلُّصاً لطيفاً ليدفعه إلى خارج الجسم في الوقت المحدود ، فإذا خرج الجنين إلى خارج الرحم انقبض هذا الرحم انقباضاً شديداً ليسُدَّ الشرايين المفتوحة ، التي لولا انقباضه لماتت الأم من شدة النزيف ، من رَتَّبَ هذا ؟ من هيَّأ هذا ؟ من سيَّر هذا الجنين ؟ من جعل اللبن يخرج لهذا الطفل في الوقت المناسب ؟ معيراً في كل يومٍ من أيام نموه ، بارداً في الصيف دافئاً في الشتاء ، معقَّماً وفيه كل مناعة الأم .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(10))

(سورة البلد)

لو أمضيت الحياة كلها في الوقوف على دقائق خلق الإنسان لما انتهيت منها ، أليس خلقك أنت معجزة؟ أليس خلق ابنك الذي تعرف كيف كان أكبر آيةٍ دالةٍ على عظمة الله عزَّ وجل ؟ .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ)

يقول ربنا عزَّ وجل :

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(49))

(سورة القمر)

هذه العين لها عتبةٌ تقف عندها ، لو أن هذه العتبة ارتفعت لرأيت في هذا الكأس من الماء ألوف الألوف من الكائنات الحية ، ولعزفت نفسك عن شربه ، لكن الله عزَّ وجل لحكمته البالغة جعل البصر يقف عند حد ، وجعل السمع يقف عند حد ، لو أنه أسمعك كل شيء لسمعت حركات الأحشاء فلا تنام الليل :

(مَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

الأعصاب جعلها بحساسيةٍ معينة ، فلو زادت لاختل نظام الحياة ، هذا خلق الله للإنسان ، فماذا عن خلقه للحيوان ؟

2 – الإبل :

الجمل ..

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17))

(سورة الغاشية)

مَن جعل له هذا الخف ليستعين به على السير على الرمال ؟ من جعل لعينيه جفنين ، جفناً يقيه دقائق الرمل إذا ثارت ؟ مَن جعل لأذنه ساتراً أيضاً يقيه ثورة الرمال إذا ثارت ؟ مَن جعل الجمل يتحمَّل العطش أشهراً طويلة ؟

(أفلا يَنْظُرُونَ إلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)(

من جعل الجمل يستطيع أن يحيا سنواتٍ من دون طعام ؟ يستهلك سنامه كلَّه ، شيءٌ يأخذ بالألباب .

3 – الطائر :

أنظر إلى الطائر كيف يكون ؟

(أوَلَمْ يَرَوْا إلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلا الرَّحْمَانُ)

(سورة الملك)

4 – السمك :

انظر إلى الأسماك كيف تسبح في الماء ؟ لماذا خلق الله لها هذه الزعانف ؟ إنها أدوات توجيه ، وأدوات توازن ، وأدوات تحريك ، تحريك وتوجيه وتوازن ، من جعل لهذه السمكة مقياس ضغطٍ تعرف موقعها في الماء ، هل هي نحو السطح أقرب أم إلى القاع أقرب ؟ يقدر علماء الأحياء أن في البحر مليون نوع من السمك ، ألف ألف ، لو اطلعتم على بعض كتب البحار ، أو على بعض المصوَّرات لرأيتم العجب العُجاب ، سمكٌ لطيف ، سمكٌ للزينة ، سمكٌ كبير ، حوتٌ ضخم يزن مئةً وخمسين طناً ، هو الحوت الأزرق ، أرقام خيالية ، يوجد خمسون طناً من الدهن في هذا الحوت ، يعطينا تسعين برميل زيتاً .

(أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

الطير ، السمك ، هذه الحيوانات الأليفة ، من جعلها مذللة ؟

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس : من آية " 72 ")

لو أن الله عزَّ وجل ركَّب في الغنمة أخلاق الضَبع ، هل بإمكان الناس أن يرعوا الغنم ؟ من جعل هذه الغنمة مذللة ، وجعل هذا الجمل مذللاً ؟ من جعل للجمل له عينين ثُريانه الصغير كبيراً ، والبعيد قريباً؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، ولو أمضينا الحياة كلها في الوقوف على آيات الله التي بثها في الأرض لما انتهينا من آيةٍ واحدة ، أليست هذه الآيات كلها دليلاً قطعياً على وجود الله وعلى ربوبيته ، وعلى ألوهيته ، وعلى عظمته ، وعلى أسمائه الحسنى ؟ إن الكون كله ما هو إلا تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، فماذا أقول حول هذه الآية ؟ إن الساعات الطوال لا تكفي لشرح هذه الآية من الوجهة العلمية ..

(رَبُّنَا الَّذِي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

السمع له درجة ، البصر له درجة ، الحِس له درجة ، من خلق آلية النطق ؟ كيف تتكلم ، وكل حرفٍ يحتاج إلى سبعة عشر عضلة تأخذ وضعاً مُعَيَّنَاً حتى يخرج هذا الحرف ؟ إذا كانت الكلمة خمسة أحرف فهل بإمكان الإنسان المتكلم أن يضبط أمره هو ، أم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي ينطقه ؟ ولولا أن الله تولى عنه تحريك هذه العضلات لما أمكنه أن ينطق بكلمةٍ واحدة ؟ .

(رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

أي أن الله جَهَّز كل مخلوقٍ ببنيةٍ ، وطبيعةٍ ، ونفسيةٍ ، وأجهزةٍ ، وأعضاء تناسب مهمته في الحياة ، الله ببنية كل مخلوقٍ من دون استثناء جهزٍ وطبيعةٍ ونفسيةٍ وقدراتٍ ، وإمكاناتٍ وأجهزة وأعضاء تتناسب مع مهمته تماماً ..

(ثُمَّ هَدَى)

وبعدئذٍ هداه إلى تحقيق مهمته على وجه الأرض ، زَوَّدَ الله الإنسان بهذا العقل الذي هو القوة الإدراكية ليهتدي به إلى الله عزَّ وجل ، وجهز الحيوان الله بهذه الغريزة ، وهي من أعقد الأفعال ، لكنها مجهَّزة تجهيزاً تاماً من دون جهدٍ أو تعلُّم .

من جعل سمك السلمون مثلاً ينطلق من أعالي الأنهار في أمريكا ، ويسير باتجاه المحيط الأطلسي ، ثم يتَّجه نحو غرب أوروبا وهنا يفرخ صغاراً ، هذه الصغار بعد وقتٍ معلوم تتجه إلى مسقط رأس أمها ، من دل هذه السمكة العَجْماء إلى الطريق المؤدِّي إلى مصب الأمازون مثلاً ؟ شيءٌ فوق إدراك البشر ، تجد قبطاناً يحمل شهادة عُليا في علم البحار ، وتدرب في مدارس عالية المستوى ، وقد يضل الطريق ، وهذه سمكةٌ تحت الماء تتجه من غرب أوروبا إلى مَصَب الأمازون ، لو أضافت إلى زاوية اتجاهها درجة واحدة لجاءت في أمريكا الشمالية ، من هدى هذه السمكة إلى منابع الأنهار ؟

يخرج ثعبان الماء من ينابيع النيل ، ويتجه نحو البحر المتوسط ، ثم يتجه غرباً إلى مضيق جبل طارق، ثم يتجه شمالاً على سواحل إسبانيا وفرنسا ، ثم يدخل في بحر المنش ليستقر في بحر الشمال ، ثعبان ماءٍ يستطيع أن ينتقل هذه الانتقالات من دون دليل ؟! من دون بوصلة ؟! من دون خرائط ؟! .

(ثُمَّ هَدَى)

5 – هجرة الطيور :

هذه الطيور تهاجر عشرات الألوف من الكيلو مترات ، بعض أنواع الطيور يهاجر إلى منطقةٍ تبعد عن مستقره سبعة عشر ألف كيلو متر، يطير طيراناً متواصلاً يزيد عن ستٍ وثمانين ساعة ، من دون توقف ، هل في الأرض كلها طائرة تستطيع أن تطير ستاً وثمانين ساعة من دون توقُّف ؟ من دَل هذه

الطيور إلى طريقها ؟ حـار العلماء في ذلك ، يا تُرى معالم الأرض ؟ فوجدوها تطير في ليلةٍ ظلماء ، يا ترى الشمس ؟ طارت في أيامٍ تحتجب فيها الشمس بفعل الغيوم ، بأي شيءٍ تطير ؟ أحدث نظرية أنها تطير وفق ساحةٍ مغناطيسية ، فلما وضعت في أماكن ذات ساحة مغنطيسية أخرى تشوَّشت ، هذه بعض النظريات ، لكن الجواب الشافي غير معروفٍ تماماً حتى الآن .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

هدى الإنسان إلى علة خلقه ، وهدى الحيوان إلى طعامه ، وإلى استطبابه ، وإلى قضاء حاجاته ، وإلى البحث عن طعامه .

ثم قال فرعون :

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى)

فالآية الأولى :

(فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

هذه آيةٌ لو أمضينا فيها دروساً طويلة إلى آخر هذا العام لا تنتهي ، لأنها بحثٌ في خلق كل شيء ، بدءاً من الإنسان ، مروراً بالحيوان ، انتهاءً بالنبات ، ثم إلى الكون ، كل شيءٍ مخلوقٌ في أبدع صورة، وفي أدق ترتيب ، وقد هُديَ هذا المخلوقُ إما بالغريزة ، وإما بالفكر ، وإما بالكشف ، وإما بالإلهام ، وإما بوسائل عديدة ، إلى هدفه ، وحاجته ، وسُبل معاشه ، وعلَّة وجوده ، والإنسان أرقى هذه المخلوقات هداه الله إليه ، لذلك أنعم عليه بنعمة الإيجاد ، وبنعمة الإمداد ، وبنعمة الإرشاد ، نقف عند هذا الحد في هذه الآية ، ونتابع الآيات الأخرى ..

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي)

إنه سؤال لصرف الأنظار عن الحقيقة :

أراد فرعون أن يصرف هذا النبي العظيم عن موضوع الدعوة ، فشغله بموضوعٍ جانبي ..

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى)

أو أنه أراد أن يستنبئه الغيب ، لأنه يظن أن النبي يعلم الغيب ، أو أراد أن يؤكّد له أن هؤلاء القرون الأولى كانوا على ضلالٍ مثلي مثلاً ، على كلٍ جاء الجواب الشافي :

(قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ)

جوابٌ ما لهم به مِن دافع :

أي علمٌ يقيني ..

(لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)

تفسير : لاَ يَضلُّ رَبّي وَلاَ ينسَى

فسر بعض العلماء

(لاَ يَضِلُّ)

بمعنى لا يخطئ ، أو لا يغيب عنه شيء ، فحكمته مطلقة ، هذا لا يضل .

(وَلاَ يَنْسَى)

أي الله سبحانه وتعالى ، فكلُّ شيءٍ محفوظ عنده .

وكلمة

(كِتَابٍ)

تطمينٌ لنا ، فالله عزَّ وجل غنيٌ عن الكتاب ، ولكن هذا بحسب تصوراتنا ، فإنه تكون المعلومات عندنا مثبَّتة في الكتاب .

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً)

من خصائص الربوبية :

1 - تمهيد والأرض وبسطها :

جعل هذه الأرض منبسطة ، كيف نعيش عليها لو جعلها منحدرات حادة ؟ فقد يعاني الإنسان أحياناً مشقةً بالغة في زرع سفوح الجبال ، يحتاج إلى مدرجات ، ويحتاج إلى مصاطب ، وتأتي الأمطار فتجرف التربة ، لو أن الأرض كلها سفوح مائلة ، هذه الأرض ليست مهداً ..

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً)

والأرض لها تربة ، لو أن سطح الأرض كلَّه صخري كيف نزرعها؟ كيف نعيش ؟ كيف نأكل ؟ ماذا نأكل ؟ جعلها مُمَهَّدة بأن جعلها منبسطة ، وجعلها ممهدة بأن جعلها ذات تربة ، والتربة أنواع ، هذه التربة كلسية ، وهذه لحقية ، وهذه غُضارية ، وهذه تصلح لهذا الثمر ، وهذه تصلح لهذا الثمر ، نوَّع

الله أنواع التُرَب ، ونوَّع النبات ، قال :

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً)

أي أنه جعل الطرق ، هناك طرق بين البلاد ، هناك طرق بين الجبال ، هناك طرق في الوديان ، هناك طرق بحسب سلاسل الجبال ، وجعل الأنهار طُرقاً أحياناً ، وجعل البحار طرقاً ، فالسُبل مطلق الطرق، فالبحر طريق ، البحر كما يقولون : همزة اتصالٍ بين القارَّات ، لو أن البحر أرضٌ صلبةٌ لاحتجنا إلى تعبيد هذه الطرق ، ولدفعنا مئات ألوف الملايين ، ولكن البحر كله طريق ، تأتي هذه السفينة ، وتحمل ألف مليون طن ، الآن هناك سفن حمولتها مليون مليُون طن ، تسير في البحر كأنها جبلٌ شامخ لتبتغي من فضله ..

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى)

2 – إنزال الماء وإخراج النبات المتنوّع :

الطعام نبات ، القمح نبات ، والحمِّص ، والعدس ، والبقول ، والمحاصيل ، والخضراوات بجميع أنواعها ، والفواكه بجميع أنواعها ، هذه كلها قوتٌ وطعام ، القوت الشيء الأساسي ، والطعام الشيء الثانوي ، لأن الله عزَّ وجل كرم بني آدم .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ)

(سورة الإسراء : من آية " 70 ")

رزقنا هذه الفواكه ، والثمار ، وهذه الخضراوات ، فنحن يمكننا أن نعيش دون بعض الخضراوات ، ودون بعض الفواكه ، ولكنها إكرامٌ لنا .

اللباس .. القطن نبات تصنع منه بعض المنسوجات ، تحتاج إلى خشب لبناء السقف ، هناك نباتٌ مختصٌّ للأعمدة الطويلة ، تحتاج إلى خشب لصنع الأثاث ، تحتاج إلى خشب لصنع الأبواب والنوافذ ، تحتاج إلى شيءٍ تنظّف به بدنك ، فالليف نبات ، تحتاج إلى شيءٍ تنظف به أسنانك ، السواك نبات ، تحتاج إلى شيءٍ تخلل به ما بين أسنانك ، نبات الخلّة ، تحتاج إلى نبات يكون حاجزاً بينك وبين جارك، نبات حدودي ، تحتاج إلى نبات للزينة لتمتع به النظر ، تحتاج إلى شجر يكون لك مظلة دائمة الخضرة، شكلها جميلٍ جداً ، لو تأمَّلت في الأشجار وحدها ، هناك أشجار زينة ، هناك أشجار غابات ، هناك أشجار ثمار ، أشجار أخشاب ، حدثني بعض الإخوة النجارين قال : نتعامل نحن النجارين تقريباً مع مئة نوعٍ من الخشب ، هذا الخشب لا يتأثر بالماء ، بالمطر ، والبرد ، والحرارة ، هذا الخشب قاسٍ جداً لصنع الأثاث ، هذا الخشب طريٌ جداً لصنع بعض الحاجات ، الأخشاب أنواع منوعة .

هناك أخشاب ذات منظر رائع لصنع الأبواب الخارجية ، أخشابٌ ذات قسوةٍ بالغة للأثاث ، أخشابٌ ذات ليونةٍ عجيبة ، حدثني بعض الإخوة أن معملاً اشترى بعض الآلات ، فلما وضعها على قاعدة من الإسمنت تقطَّعت الخيوط ، الآلات جديدة ، استقدموا خبيراً من دولةٍ أجنبية ، فماذا فعل ؟ جاء بأخشاب التوت ، وجعلها قواعد لهذه الآلة ، قال : خشب التوت له أليافٌ متينةٌ مرنةٌ في وقتٍ واحد ، تمتصُّ هذه القواعد صدمة المكوك ، هكذا درس في ألمانيا ؛ أن قواعد آلات النسيج تفضل أن تكون من خشب التوت ، السِندان له خشب خاص يمتص الضربة القاسية ، المعاول لها أخشاب خاصة ، فإذا ذهبت إلى أنواع الخشب شيءٌ يأخذ بالألباب ، إذا ذهبت إلى أنواع النبات :

(مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى)

الأصبغة أصلها نباتات ، الورود والرياحين أشياء جميلة محضة نباتات ، الغذاء الأساسي نبات ، الدواء نبات ، يكاد يكون النبات أكبر ظاهرةٍ في الأرض دالةٍ على عظمة الله عزَّ وجل ..

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى)

(أَزْوَاجًا)

لو أن الله سبحانه وتعالى خلق النباتات مرةً واحدة لفَنِيَت ولمات الناس جوعاً .

(أَزْوَاجًا)

هذا النبات له بذر ، وهذا البذر يُزْرَع ، وليس هناك حدود لإمكانية التوالد ، في الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، دائماً نستقدم الأشتال ، نستقدم الفسائل نزرعها ، بقدر جهد الإنسان يزرع هذه الأرض ، فإذا رأيتم أرضاً قاحلةً فهذا دليل كسل الإنسان ، الإنسان كسول ، لكن الله سبحانه وتعالى جَهَّزَ كل نبات بشيءٍ يكون استمراراً له ، كذلك الحيوان يتوالد ، الأبقار تتوالد ، الدجاج يتوالد ، الأغنام تتوالد ، وكل شيءٍ يتوالد .

(أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53)كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ)

كُلُوا وارعَوا أنعامَكُم

من أجل أن تأكلوا ، وأن تشكروا الله عزَّ وجل على هذا النبات الذي زوَّدكم به .

(وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ)

تتعلق حياتك بهذا الحيوان الذي تأكله ، وتتعلق حياة الحيوان بهذا الكلأ الذي ينْبُت ، ألِفَ الناس أن يقولوا : ارتفعت أسعار مشتقات الحليب لجَدَبِ البادية ، فإذا جاءت الأمطار وفيرة في البادية تهبط أسعار هذه المشتقات من سمنٍ وجبنٍ لوجود الكلأ .

(كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ)

حاجة الإنسان إلى الكلأ لا إليه بالذات ، ولكن إلى الحيوان الذي يعتمد عليه في غذائه ..

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)

إنّ في ذلك لآيات لأولي النُّهى

لأصحاب العقول ، وسُمِّيَت العقول نُهى لأنها تنهى أصحابها عن فعل المنكرات ، من هو العاقل ؟ هو الذي يملك عقلاً يحجزه عن المعاصي ، يحجزه عن السقوط ، يحجزه عن أن ينحرف ، يحجزه عن أن يعصي الله ، يحجزه عن أن يأخذ ما ليس له .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)

أصحاب العقول ، فهذا الذي يرى كل هذه النعم ، وكل هذه الآيات ، ولا يفكر فيها ، هذا إنسانٌ ليس من أولي النُهَى ، وليس من أولي الألباب ، وليس من أصحاب العقول ..

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20))

(سورة المدثر)

أي أنه من احتقار العقل أن تستخدمه في أغراض دنيئة ، أن تستخدمه في الإيقاع بين الناس ، أن تستخدمه في جَمع الدِرهم والدينار ، ولكنك تُشَرِّفُ العقل إذا عرفت الله به ..

الأرض أصل خلق الإنسان ومآل رجوعه ومبدأ بعثِه :

(مِنْهَا)

من هذه الأرض :

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)

تفسير الآية :

المعنى الأول :

على سبيل المثال التاريخي سيدنا آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام خُلِقَ من تراب ، فإذا قال الله عزَّ وجل :

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا)

أي منها خلقنا أباكم آدم ، وأنت من ذُرِّيَتِهِ ، هذا معنى أول .

المعنى الثاني :

وهذه النطفة التي يتخلَّق منها الإنسان إذا لقحت البويضة أساسها من التراب ، من الغذاء ، لولا أن الأب تغذَّى بكل أنواع الثمرات والمحاصيل ، والبقول ، والخضراوات ، والفواكه ، لما تشكَّل هذا الحيوان المنوي ، هذا الغذاء أصله من التراب ، هذا المعنى الثاني ، إما أنا خلقنا أباكم آدم من التراب ، أو أن الحوين المنوي الذي هو أصل الحياة إنما أصله من التراب .

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ)

كل الطموح تنتهي في القبر ، كل الثروات تنتهي في القبر ، كل الآمال تنتهي في القبر .. " عش ما شئت فإنَّك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارق ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به " .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ

فـإذا حملت إلى القبور جنازةً فاعلم بأنك بعدها محمـولُ

* * *

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ)

وحينما يوضع الإنسان في قبره أول مرة يقول الله عزَّ وجل :

((عبدِي رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبقَ لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت))

(ورد في الأثر)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً ، وأحزمكم أشدكم استعداداً له ، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزوُّد لسكنى القبور ، والتأهُّب ليوم النشور))

(ورد في الأثر)

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)

هذا يوم البعث والنشور .

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى)

إقامة الحجة والبرهان قبل الحكم :

(أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا)

لفرعون ، العصا ، واليد البيضاء ، وكيف أن هذه العصا أكلت كل الحيَّات التي صنعها سحرة فرعون، بل هذه الآيات رآها فرعون ، وسمع البيان :

(فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

طبعاً هذه الآية ملخَّص لبيان طويل ، سمع البيان من سيدنا موسى .

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا)

آيات بيانية ، وآيات إعجازية ..

(فَكَذَّبَ وَأَبَى)

من صفات المكذبين : التكذيب ووسم الأنبياء بالسحر :

هذا هو الكفر ، تكذيب وإعراض ، والإيمان هو التصديق والإقبال .

(قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى)

طبعاً كل إنسان عندما يتكلم يتخذ كلاماً عليه مسحة منطق ، أو مسحةٌ من القيم ، لأن الإنسان لا يتكلَّم الحقيقة غالباً ، يخفي أغراضه الدنيئة تحت ستارٍ من بعض القيم الزائفة ..

(قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى)

هذا سحر ، هذه ليست معجزات ، هذا سحر تعلَّمته أنت ، ونحن عندنا سحرة يقفون في وجهك ، أنت لست نبيًّا ، وهذه ليست آيات دالة على نبوَّتك ، إنما هي ألعاب سحرية قُمت بها أمامنا ، ونحن قادرون على أن نرد عليك بسحرٍ مثله ، هكذا قال فرعون ..

محاولة فرعون مجابهة آيات موسى بسحرتِه :

أي مكان متوسِّط يأتيه جميع الناس .

و:

(سُوًى)

بمعني مستوٍ ، و مكان منبسط ، فهو متوسط من حيث الموقع ، ومنبسط من حيث الطبيعة ، يا موسى أنت ساحر ، وأنا عندي سحرة مهرة سوف يقفون في وجهك ، وسوف يردُّون عليك ، لذلك اجعل بيننا وبينك موعداً ، الموعد أي وعداً ، بعضهم قال : الموعد اسم من الزمان ..

(فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً)

الموعد إما أن يأتي مصدراً ميمياً ، أي وعداً ، وإما أن يأتي اسم زمان ، قال :

(مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ)

(سورة هود : من آية " 81 ")

وإما أن يأتي اسم مكان ، موعدهم جَهَنَّم ، اسم مكان ، أو اسم زمان، أو مصدر ميمي ، يرجِّح علماء التفسير هنا أن تكون مصدراً ، لأن كلمة :

(لاَ نُخْلِفُهُ)

قرينةٌ دالةٌ عليه .

إذاً :

(فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى)

مكان مستوٍ ومتوسِّط ..

(قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ)

ما هو يوم الزينة ؟

إما أنه يوم العطلة الرسمية ، أو يوم السوق ، كان في كل بلد يومٌ للتبادل التجاري ، كما هي العادة في معظم الأرياف ، سوق الأربعاء مثلاً ، سوق الأحد ، سوق الجمعة الذي بجوارنا ، فهذا يوم الزينة إما أنه يوم السوق ، أو يوم العطلة ، حيث الناس يتزيَّنون ، ويرتدون أجمل ثيابهم ..

(قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)

وأنسب وقتٍ وقتُ الضُحى ، حيث الشمس ساطعة ، والأمور واضحة ، والناس مرتاحون .

(فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى)

جمع السحرة من أطراف البلاد ، ومنَّاهم ، وأغراهم بعطاءاتٍ لا حدود لها ، وأغراهم أن يقرِّبَهُم منه فيجعلهم من وزرائه .

(فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى *قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

بدء المجابهة بين الحق والباطل :

إنه نبيٌ مرسل ، ومعه معجزة ..

(لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ)

يسحقَكُم بالعذاب ..

(وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى)

المفتري لا يفلح أبدا :

وهذه آية عامة ، يجب على الإنسان ألاّ يفتري ، لا يتهم اتهامات باطلة ، لا يزوِّر الحقائق ، لا يتكلم بشيء وهو غير مقتنع به ، لا يردد الأقوال الباطلة .

(وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ)

تنازع واختلاف السحرة في أمر موسى واستقرار رأيهم في تهمة السحر :

أي فرعون والسحرة :

(فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)

أي عقدوا الاجتماعات ، واتفقوا فيما بينهم على خطط معيَّنة من أجل إحباط هذه الرسالة ..

(قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ)

اتفقوا واستقر رأيهم مجتمعين على هذه المَقولة ..

(إِنْ هَذَانِ)

موسى وهارون ..

(لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ)

طبعاً إن هذان ، إن حرف مشبَّه بالفعل ، أما إن مخففة ـ تفيد التوكيد ـ هذان لساحران ، وفي ذلك أوجه في الإعراب ..

(إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا)

الهدف مادي ، دائماً إذا أراد الكافر أن يتَّهم المؤمن يُسقط الأهداف المادية على دعوته ، يسقط الأهداف الدنيوية ، والمكاسب المادية على دعوته ، قال :

(قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ)

يريدان المُلك ، يريدان أن يحلا وقومهما محلكم ..

(بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى)

إذاً هم يتصوَّرون أن طريقتهم في الحياة مُثلى . لذلك يقول ربنا عزَّ وجل :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

فهذا هو الضلال البعيد أن تكون على خطأٍ كبير ، وتتوهَّم أنك على صواب .. " من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالمٌ فاتبعوه ، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهلٌ فعلّموه ، ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا شيطانٌ فاحذروه " .. فهؤلاء ظنوا أنَّهم على طريقةٍ مُثلى ، وعلى شيءٍ بديع ، وعلى صراطٍ مستقيم ، وأن موسى له أهداف مادية يريد أن يحل هو وأخوه وقومهما محل فرعون ، أسقطوا على دعوته الطابع المادي ، وطابع المكاسب الأرضية .

(فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً)

يا أيها السحرة أجمعوا كيدكم ، كونوا يداً واحدة ، ثم ائتوا صفاً ..

(فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى)

لكن السحرة فيما تروي الكتب تأدبوا مع موسى ، فقالوا :

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى)

فالخيار لكما ، اختر أنت يا موسى ..

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا)

أنتم ..

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

إنما صنعوا كيد ساحر

أتوا بحبالٍ ، وأفرغوها من الداخل ، ووضعوا فيها زئبقاً ، ولوَّنوها بألوان الأفاعي ، ووضعوها على أرض حارةً ، فلما حمي الزئبق تمدد فتحركت فخُيِّل إلى الناس أنها تسعى ، شيء عجيب ، هو نبي

ومعه آية ، وهذا الحبل يسعى ، ويتحرك وحده ..

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

خاف ..

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ)

ألق العصا ..

(تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا)

وغلب السحرة ... ولا يفلح الساحر حيث أتى

فإذا هذه العصا تنقلب في ثانيةٍ واحدة إلى أفعى عظيمة تأكل كل هذه العصي والحبال ..

(تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

مبدأ عام ، لا يُفلح الساحر حيث أتى ، السحرة علماء بالسحر ، صنعوا حبالاً ، وزيَّنوها ، ولوَّنوها ، ووضعوا داخلها زئبقاً ، لكن هذا الذي رأوه أفعى حقيقية !! ..

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

عودة إلى الرشد واعتراف بالحق :

هذا ليس سحراً ، هذه نبوة ، لذلك :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : من آية " 82 ")

تعلَّم من أجل أن تخشى الله ، لا تعرف حقيقة الدين إلا إذا كنت متعلماً ، قال عليه الصلاة والسلام :

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

(من سنن الترمذي عن أبي أمامة الباهلي)

المسافة بين النبي الكريم وبين آخر مؤمنٍ هي نفسها بين العالم والعابد :

((فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

(من سنن ابن ماجة : عن " ابن عباس ")

((إن الله عالم يحب كل عالم))

(ورد في الأثر)

((اغْدُ عَالِمًا ، أَوْ مُتَعَلِّمًا ، أَوْ مُسْتَمِعًا ، وَلَا تَكُنِ الرَّابِعَ فَتَهْلِكَ))

(من سنن الدارمي عن عبد الله بن مسعود)

هؤلاء علماء بالسحر ، عرفوا أن هذا ليس بسحر ، ولكنه نبوَّة ..

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى* قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ)

عليكم أن تستأذنوني ..

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

تهديد فرعون باستعمال لغة القوة والبطش :

هو ساحر ، هو الذي علّمكم هذا السحر .

(فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

قال فرعون عندئذٍ : ستعلمون من هو أشد عذاباً أنا أم رب موسى ..

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

لنا عودة إلى هذه الآيات الأخيرة ، ولا سيما موقف السحرة الأخير نتطرق إليها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 65 – 79
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-02-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الخامس من سورة طه ، وصلنا في قصَّة سيدنا موسى مع فرعون إلى قوله تعالى :

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى)

السائر على طريق الحق لا يخاف البحث والمناظرة :

لقد خَيَّرَ سحرةُ فرعون سيدَنا موسى ، فإما أن يبدأ هو بإلقاء عصاه التي هي من آيات ربِّه ، وإما أن يبدؤوا هم ، فاختار هذا النبي الكريم أن يبدؤوا هم ، ويعلّلُ بعض العلماء سبب اختياره أنه واثقٌ من أنه على حق ، والحق دائماً لا يخشى البحث ، والحق دائماً لا يعتمد على الكذب ، والحق دائماً واضحٌ جلي، كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((تركتكم على بيضاء نقيَّة ليلها كنهارها))

(من الجامع الصغير عن العرباض)

إذا كنت مع الحق فلا تخشَ في الله لومة لائم ، البطولة أن تكون مع الحق لأن الحق أبديٌ أزليٌ سرمدي ، الحق هو الله سبحانه وتعالى ، وليس في الكون حقيقةٌ إلا الله ، فإذا كنت مع الحق فلا تخشَ أحداً ، وإذا كان الإنسان مع الباطل فالباطل سريع الزوال .

تعريف القرآن للحق :

لذلك في القرآن الكريم آياتٌ دقيقةٌ تعرِّف الحق :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ)

(سورة الحجر : من آية " 85 ")

خَلْقُ السماوات والأرض بالحق .

وفي آية ثانية :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا)

(سورة ص : من آية " 27 ")

في آيةٍ ثالثة :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

إذاً الحقُّ ضد اللَّعِب ، والحق ضد الباطل ، الباطل هو الشيء الزائل، واللعب هو الشيء العابث ، فالحقُّ إذاً هو الشيء الثابت ، والحق هو الشيء الهادف ، ثباتٌ وهدفٌ كبير ، هذا التعريف المستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ولذلك قال سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام :

(قالَ بَلْ أَلْقُوا)

هو يعلم أنه نبيٌّ مُرْسَل ، ومعه آيةٌ كُبرى ، وأن هناك فرقاً بين آيته وبين صُنْعِ السحرة ، صنع السحرة نوعٌ من أنواع الكيد ، عمل أرضي ، وآيته سماويَّة ، نوعٌ فيه بطلٌ ، ولكن آيته فيها حقٌّ ..

(قالَ بَلْ أَلْقُوا)

أكبر بطولة أن تكون مع الحق ، ليس للإنسان حالةٌ ثالثة ، إما أن يكون مع الحق يدور معه حيث دار ، وإما أن يكون مع الباطل ، من صفات الحق أنه أزليٌّ أبديٌّ سَرْمَدِيّ ، من صفات الحقِّ الثبوت ، الديمومة ، القوَّة ، الاستقرار ، الاستمرار ؛ أما الباطل فمن صفاته الزوال ، الانهيار ، التلاشي ، إذا بني الجدار بالباطل فلابدَّ أن يَنْقض ، لابدَّ أن يقع ، وإذا بني بالحق وَفْقَ الأصول الثابتة فسيبقى ، فالإنسان حينما يكون مع الباطل فقد قامر وغامر بمستقبله ، لأن الباطل له جولة ثم يضمَحل ، فإذا كنت مع الباطل كنت زاهقاً معه .

هناك استنباطٌ لطيفٌ جداً هو أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال :

(بَلْ أَلْقُوا)

الحقُّ لا يَخشى البحث ، والحق لا يحتاج إلى الكذب ، والحق لا يُلقى فيما بين الناس خِفيةً ، الحقُّ يُلقى أمام الناس جميعاً ، الحق معه الدليل العقلي ، والنقلي ، والواقعي ، الحق لا تستطيع جهةٌ على وجه الأرض أن تقف في وجهه ، هذا هو الحق ، أما الباطل فيقوى ، ويَضْعُف ، ولكنَّ مصيره إلى الاضمحلال وإلى الزوال ..

(قالَ بَلْ أَلْقُوا)

في القرآن الكريم إيجازٌ رائع ..

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

كان من الممكن أن يقول الله عزَّ وجل : بل ألقوا فلمَّا ألقوا إذا حبالهم ، هذا الكلام الذي يُفْهَمُ من السياق لا يذكره القرآن الكريم ، وهذه هي البلاغة ، والبلاغة في الإيجاز ، وفي القرآن الكريم ولاسيما في قصصه الرائعة قفزاتٌ فنيَّة ، أي :

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا)

ثم ألقى السحرة حبالهم وعصيَّهم ، فإذا حبالهم وعصيِّهم ، كلامٌ فيه حشوٌ ، لذلك يعلمنا ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن البلاغة في الإيجاز ، وأن كل كلامٍ يُفْهَمُ من دون أن يُذْكر ينبغي أن يُحْذف..

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ)

فَإِذَا حِبَالُهُمْ

إذا فجائيَّة ، يبدو أنهم صنعوا شيئاً عظيماً ، يقول الله عزَّ وجل في آياتٍ أخرى تتعلَّق بهذه القصَّة :

(وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(116))

(سورة الأعراف)

أي لم يكن هؤلاء السحرة من الغافلين أو من الأغبياء ، ولكنهم سخَّروا كل طاقاتهم ، كل إمكاناتهم ، كل تجاربهم ، كل خبراتهم وضعوها ، لأن فرعون وعدَهم أن يجزل لهم العطاء ، وأن يقرِّبهم منه ، لمعت أمامهم زخارف الدُنيا ، سال لعابهم على مكانةٍ عليَّةٍ عند فرعون ، ولذلك سخَّروا كل طاقاتهم ليردوا آية العصا التي جاء بها سيِّدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ..

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ)

الفرق بين الحقيقة والسحر :

هنا الفرق بين الحقيقة والسحر ، الحقيقة تُرى رأي العين ، لكن السحر يُخَيَّل إليه ، يعبِّرون عن حالة الضعف النفسي التي تؤثِّر فيها أعمال السَحَرَة بالتنويم المغناطيسي ، ولا يستطيع الساحر أو صاحب الحِيَل أن يؤثِّر في الإنسان إلا إذا كان ضعيف الشخصية ، ولذلك يفعل الساحر أحياناً أشياء ليس لها حقيقة ، ولكن يُخَيَّلُ إلى الناس من سحرهم أنها تسعى ، فلم يتأثَّر سيدنا موسى بها ، ولكنه رأى براعتهم في هذا الكيد فخاف على الناس أن يلتبس عليهم الأمر ، هنا المشكلة ، هو يعلم أنه نبيٌ مُرْسَل ، وأن آيته هي الحق المبين ، وأن أعمال هؤلاء السحرة إنْ هي إلا كيدٌ بشري ، ولكن ما دامت على درجةٍ عاليةٍ من الإتقان خاف أن لا يفرِّق الناس بين آيته الدالَّة على عظمة الله عزَّ وجل وبين أعمال السحرة ، من هنا :

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

جاء في بعض الكتب أنهم وضعوا داخل بعض الحبال وبعض العصي الزئبق ، وأُحْسِنَ تزيئُها ، ورسمها ، ووضِعَت على مكانٍ حار ، فلمَّا تمدَّد الزئبق تحرَّك حركةً زئبقيَّة فتوهَّم الناس أن هذه الحبال وهذه العصي تسعى ، تتحرَّك ..

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

صورة حية عن خوف موسى عليه السلام :

بين الواجس والهاجس :

الواجس هو الذي يسبق الهاجس ، هناك واجسٌ وهاجس ، تأتي الإنسان أحياناً فكرة لا يظهر أثرها على وجهه ، ولكنْ هناك أفكار لها آثارٌ على السطح الخارجي ، قد تُلقي على إنسان خبراً فيصفر لونه ، أو ترتعد فرائصه ، أو يذهب اللُّعاب من فمه ، أو يشتد خفقان قلبه ، الأشياء التي تأتي على الإنسان ، وتغيِّر من طبيعته الخارجيَّة ، هذه ليست واجساً ، إنما هي هاجس ، هذا النبي الكريم أوجس ، أي خالطه بعض الخوف من ألاّ يفرِّق الناس ـ كما قلت قبل قليل ـ بين آيته وبين فعل السحرة ، أو أنه خاف أن يُعْجَبَ الناس بأعمال السحرة ، ثم ينصرفوا دون أن ينتظروا آية الله عزَّ وجل ، إنه بشكلٍ أو بآخر قَلِقٌ على إيمان الناس ، إنه يخشى ألاّ يستفيد الناس من هذه الآية ، إنه يخاف أن يذهب هذا العمل العظيم سُدًى .

النقطة الدقيقة في هذه الآية :

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

(خِيفَةً)

جاءت نكرة ، والتنكير أحياناً يفيد التحقير ، أو يفيد التقليل ، أو يفيد التصغير ، وهي على عظمها لا شيء إذاً ، مثلاً يقول ربنا سبحانه وتعالى :

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف : من آية " 58 ")

الرحمة كلُّها عنده ، ما أوتي النبي الكريم من رحمةٍ ـ على عِظَمها ـ لا شيء إذا قيست برحمة الله عزَّ وجل علماً ، أن الشيء الثابت أن في قلب النبي رحمةً لا تعدلها رحمة ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام أرحم الخلق بالخلق :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

(سورة التوبة)

إن النبي عليه الصلاة والسلام أوتي أكبر مقدارٍ من الرحمة ، ومع ذلك إذا قيست هذه الرحمة برحمة الله عزَّ وجل فهي لا شيء ، من هنا قال الله تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : من آية " 159 ")

أما رحمة الله عزَّ وجل فجاءت مُعَرَّفة ..

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف : من آية " 58 ")

قد يأتي التنكير للتصغير ، أو للتقليل ، أو للتحقير ، وقد يأتي التعريف للتعظيم ، فهذا النبي الكريم لم يُداخله خوفٌ كبير ، ولا خوفٌ أدَّى به إلى الجزع أو إلى الفزع ..

(فَأَوْجَسَ)

والواجس قبل الهاجس ، واجسٌ دون الهاجس ..

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

ربنا سبحانه وتعالى طمأنه سريعاً ..

(مُوسَى)

أي يا موسى ..

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

تطمين الله لموسى وإسكان رُوعه :

أنت مع الحق ..

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

بعض الآيات لو تدبَّرها الإنسان حقَّ التدبُّر لقلبت حياته رأساً على عَقِبٍ ، إن الذي يدمِّر سعادة الناس الخوف والقلق ، إذا علم الإنسان علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى هو كل شيء ، وبيده أمر كل شيء ، وإليه مصير كل شيء ، وما من دابَّةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها ، وإن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً ، إذا أيقن الإنسان هذا اليقين عرف أن أمره بيد الله . ولذلك ..

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

قال تعالى :

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا(141))

(سورة النساء)

لن هذه لنفي المستقبل ، أي هكذا سُنَّةُ الله سبحانه وتعالى ، وهذه قوانينه ..

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا(141))

آيةٌ ثانية :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

الأمور تدور ، وتدور ، وتدور ، ثم تستقر على أن تكون العاقبة للمتقين..

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60))

(سورة القصص)

انظر حينما وقف أبو جهلٍ وأبو لهبٍ في وجه الدعوة الإسلاميَّة هل أطفأ الدعوة الإسلاميَّة أم كانت العاقبة عليهما ؟ التاريخ البشري كلُّه يؤكِّد أن الحق لا يستطيع أن يقف في وجهه شيء أبداً ..

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

المؤمن هو الأعلى :

في آيات أخرى ..

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من آية " 38 ")

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من آية " 48 ")

وقد قيل : " إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

إذا كنت مع الله في كل علاقاتك الاجتماعيَّة ، في كل علاقاتك الإنسانيَّة فأنت الأعلى ، وإذا كنت مع غير الله فأنت الأدنى ، لكن هناك امتحاناتٍ قاسية ، قد يبدو لك أنك إذا كنت مع الله ستكون الأدنى ، وإذا كنت مع زيدٍ أو عُبيد ستكون الأعلى ، قد يبدو لك الأمرُ هكذا ، الله عزَّ وجل يمتحنك بهذا ، فإما أن تؤثر رضوان الله عزَّ وجل ، وإما أن تؤثر الدنيا ، وسوف نأتي على هذا الموضوع بالتفصيل بعد قليل .

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ)

لِمَ لمْ يقل الله عزَّ وجل : وألق عصاك ؟ ألق الحيَّة ..

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ)

لا شيء إلا بإرادة الله :

قال علماء التوحيد : " إن هذه إشارةٌ رائعة إلى أن الشيء لا يكون على حقيقته إلا إذا أراد الله " ، هذه التي بيدِ سيدنا موسى ما هي ؟ إذا قلنا : هي عصا ؟ لا ليست عصا ، هل هي ثعبان ؟ لا ، إذاً اتصاف الشيء بصفاته لا يكون إلا بإرادة الله عزَّ وجل ، يجب أن نؤمن أن الحديد صُلْبٌ ، لأن الله أراد له ذلك ، وفي أية لحظة يصبح الحديد ليِّنا ، إن اتصاف الأشياء بخصائصها ، واتصاف الأشياء بصفاتها ، إن هذه الطِباع التي أودعها الله في الحيوان إنها بإرادته ، وليست بذواتها ، فكل شيءٍ مخيفٍ لك يجب أن تعلم علم اليقين أنه بيَدِ الله ، اتصافه بهذه الصفة عائدٌ لأمر الله ولإرادته ، فألطف عبارةٍ يُعبَّر بها عن هذه العصـا .

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ)

أن تكون هذه التي بيمينك عصا فهو بإرادة الله ، أو أن تكون هذه التي في يمينك أفعى فهو بإرادة الله ..

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا)

(تَلْقَفْ)

إنهم جاؤوا بحبالٍ وعصي وجوَّفوها ، ووضعوا في داخلها زئبقاً ، ولوَّنوها تلويناً بارعاً ، وجعلوها فوق مكانٍ حار ، وهذا كلّه كذب ، هذا كله تزوير ، هذا كله حِيَل ، أما هذه التي ألقاها سيدنا موسى فهي أفعى بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، لم يكتفِ ربنا سبحانه وتعالى أن جعلها ثعباناً ، أو أفعى ، أو حيَّةً كما تأتي بعض الآيات ، وهنالك تفسير لهذا التباين في الأوصاف ، لم يجعلها كذلك فقط ، بل جعلها تأكل حبالهم وعصيَّهم ، هذا أبلغ ، هل تستطيع أفعى أن تأكل عصا أو حبلاً ؟

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

الحق دامغ للباطل :

هل يقوى الباطل على أن يقف في وجه الحق ؟ هل يقوى صُنع نفرٍ من الناس بكيدٍ واضحٍ على أن يُسْكِتَ الحق ؟ ..

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

فإذا تخليت عن الحق افعل ما شئت لن تفلح ، لن تحقّق الهدف .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال : من آية " 36 ")

هناك ما وراء السطور ، وما بين السطور ، الآيات واضحة ، لكن يمكن أن تقاس على كل آيةٍ أشياء كثيرة ..

(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

أي إنك لن تفلح إذا أردت أن تُلفت نظر الناس إلى شيءٍ لا ينتمي إلى الحق ، لن تُفلح إطلاقاً إذا أردت أن تستعيض عن شرع الله بشرعٍ وضعي ، لا يمكن أي تشريعٍ وضعيٍ من صنع البشر أن ينجح ، ولا يمكن أن يحقّق أهدافه ، ولا يمكن أن يُفْلِحَ أصحابه لأنهم بشر ، الإنسان مقيدٌ بمصالحه ، مقيدٌ بنزواته ، مقيدٌ بمحدوديَّته ..

(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

حينما رأى السحرة ـ وهم على علمٍ بالسحر وفنونه ـ حينما رأى السحرة العصا أصبحت أفعى وحيَّةً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ..

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً)

هذا ما يصنعه الحقُّ :

قد يسأل سائل : لِمَ لمْ يقل ربنا عزَّ وجل : فسجد السحرة ؟ قال :

(فَأُلْقِيَ)

وكأن قوَّةً كبيرة ، خطيرةً ، عظيمةً أرغمتهم على السجود ، أُلقي فعل مبني للمجهول ، شيءٌ أرغمهم على أن يسجدوا ، وهو الحق ، هذا الذي فعلوه سحر ، أما هذه فهي آيةٌ عُظمى دالَّةٌ على عظمة الله عزَّ وجل ..

(فَأُلْقِيَ)

وكأن شيئاً قد أرغمهم على أن يسجدوا ، إنه الحق ، لذلك الإنسان الذي لا يخفق قلبه للحق إنسانٌ ميِّتٌ، الإنسان الذي لا يقشعّر جلده لآيةٍ دالَّةٍ على عظمة الله إنسانٌ ميِّت ..

ليس من مات فاستراح بميِّتٍ إنمـا الـميِّت مـيِّتُ الأحياءِ

* * *

حسبكم الكون معجزة :

يقول بعض العلماء الذين اكتشفوا أحدث نظريَّة في الفيزياء ، وهي النظرية النسبيَّة ، هذه النظريَّة معقَّدةٌ غاية التعقيد ، إنها تعطي الأشياء بعداً رابعاً ، ألا وهو الزمن ، إنها تؤكد أن الشيء إذا سار بسرعة الضوء أصبح ضوءً ، وأن الشيء إذا تجاوز هذه السرعة عاد الزمن نحو الوراء ، موضوعٌ دقيقٌ لا مجال للحديث عنه ، لكن هذا العالِم يقول : " كل إنسانٍ لا يرى في هذا الكون قوَّةً هي أقوى ما تكون ، حكيمةً هي أحكم ما تكون ، رحيمةً هي أرحم ما تكون هو إنسانٌ حي ، ولكنَّه ميِّت".

أي أن هؤلاء السحرة سجدوا للـه عزَّ وجل بعد أن رأوا هذه الآية .

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105))

(سورة يوسف)

أليس ابنك الذي ولد من قريبٍ آية دالَّة على عظمة الله ؟ هذا الطفل الصغير الذي يأكل ويشرب مزوَّدٌ بكل الأجهزة الدقيقة ؛ دماغٌ ، وعظامٌ ، وعضلاتٌ ، وأوردةٌ وشرايين ، وقلبٌ ورئتان ، وكليتان ، وعضلات ، هذا الطفل صنع من ؟ من خلقه ؟ من كوَّنه ؟ من صوَّره بهذا الشكل ؟ أليس الطفل المولود حديثاً آيةٌ من آيات الله عزَّ وجل ؟ أليس في خلقكم وفي خلق ما حولنا من حيوان ومن نبات آياتٌ دالَّةٌ على عظمة الله ؟

نحن المعنيون بهذه السورة أو هذه القصَّة ، هؤلاء السحرة حينما رأوا هذه الآية سجدوا لله عزَّ وجل ، حسبكم الكون معجزة .

هذه البقرة التي تأكل الحشيش ، تعطي الحليب ، هل في الأرض كلّها جهةٌ تستطيع تحويل هذا الطعام الذي تلتهمه إلى هذا الشراب السائغ الذي يخرج .

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ(66))

(سورة النحل)

أليس في هذا آية ؟ هذه الدجاجة تأكل كل شيء وتعطيك هذه البيضة، تحوي كذا فيتامين ، كذا معدن ، كذا شبه معدن ، هي غذاءٌ كامل ، الآيات التي حولنا لا تُعدُّ ولا تُحصى ، خلق الإنسان ، خلق الحيوان، طباع الحيوان ، خلق النبات ، طباع النبات ، خلق الأرض ، اختلاف الليل والنهار ، الشمس والقمر ، المجرَّات ، الكواكب ، الهواء ، الماء ، آياتٌ لا تعدُّ ولا تحصى ، كأن الله عزَّ وجل يدعونا أن نسجد له..

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

أي هم آمنوا بالله وبرسله ، حينما قالوا :

(بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

أضافوا إلى إيمانهم بالله إيمانهم برسالة سيدنا موسى وسيدنا هارون ، هنا تدخَّل فرعون :

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

سلاح التهديد مفزَعُ الضعفاء :

غاب عنه أن لهذا الكون إلهاً عظيماً ، وأن له آياتٍ دالَّةً على عظمته ، غاب عنه أن هؤلاء السحرة رأوا شيئاً جعلهم يوقِنون أن هذا الإنسان الذي ألقى العصا إنما هو رسول الله عزَّ وجل ، غاب عنه ذلك، فكأنه ظنَّ أنهم آمنوا ليفتنوا الناس عنه ..

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

لا يزال مُصِرًّا على أن هذا النبي العظيم هو ساحرٌ كبير ، وأنه إنما يهدِفُ من هذا العمل أن يصرف الناس عن فرعون ، وأن يحلَّ محلَّه في المُلك ..

(فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

لا يملك فرعون من سلطان من سلطانٍ على هؤلاء الناس إلا أن يقتلهم ، أو أن يعذِّبهم قبل أن يقتلهم ، فله أن يقطِّع أيديهم وأرجلهم من خِلاف ، يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، وله أن يصلِّبهم ، لا أن يَصلِبَهُم ، أي يُكْثِرُ من صلبهم كقولك : قطَّعته و قَطعْتُهُ ، له أن يبالغ في صلبهم على جذوع النخل ، يضعهم على جذع النخل ، ويخرق فيهم المسامير ، وله أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خِلاف ، ثم يؤكِّد فرعون :

(وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

أنا أم ربُّ موسى ، عجيبٌ أمر هؤلاء السحرة ، قبل قليل ، قبل ساعة كانوا يقولون :

(بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ(44))

(سورة الشعراء)

قالوا لفرعون :

(بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44))

ماذا حصل ليؤمنوا بربِّ هارون وموسى ؟ جاء بهم فرعون ليقفوا في وجه هذا النبي الكريم ، فإذا هم معه ، هذه مشكلة ، أجابوه إجابةً دقيقةً جداً ، وجعل بعض العلماء من المفسِّرين من كل فقرةٍ من إجاباتهم رداً على كلام فرعون ..

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ)

جرأة السحرة بعد إيمانهم برسالة موسى عليه السلام :

أي أننا عرفنا أن هناك إلهاً عظيماً أعظم منك ، وما عنده من خيراتٍ لا تملكها أنت ، وما عنده من عذاب لا تقوى على فعْله أنت لذلك :

(لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ)

هذه العصا التي أصبحت ثعباناً مبيناً دلّتنا على أن لهذا الكون إلهاً عظيماً ، وهذا الإله العظيم عطاؤه عظيم ، وعذابه عظيم ، فإذا وازنا بين ما وعدتنا من أن نكون مقرَّبين إليك ، وأن تعطينا بعض الأموال، أو إذا وازنا ما عند الله من عذابٍ عظيم ، وما تُوعدنا به من عذابٍ دنيوي .

(لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ)

أي افعل ما بدا لك ، إنك تملك شيئاً واحداً ، إنك تملك أن تقتلنا ، أو أن تقطع أيدينا وأرجلنا من خِلاف كما تقول ، أو أن تصلّبنا في جذوع النخل ، أنك تملك هذا كلُّه ، ولكنَّك لا تملك نفوسنا ، لا تملك قلوبنا إذا آمنت بالله عزَّ وجل ، ولا تملك مـا بعد الموت ، تملك الحياة الدنيا فقط ..

(لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ)

ماذا شاهدوا من هذه المعجزة حتى حملتهم مشاهدتهم على أن يقولوا لفرعون ـ وفرعون له في ذلك العصر رهبةٌ شديدة ـ أن يقولوا له :

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

أي أن كل ما تملكه أن تنهي حياتنا ، وهذه حياةٌ دنيا ليست عُظمى، ليست عُليا ..

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

قال عليه الصلاة والسلام :

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

(ورد في الأثر)

اغمس إبرةً في مياه البحر ، ثم اسحبها فانظرْ بمَ ترجع ؟ هذا الذي أخذته الدنيا من الآخرة ، فلذلك :

(إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

ردُّوا عليه ، ألمْ يقل فرعون قبل قليل :

(وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

قالوا :

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

وَاللَّهُ خيرٌ وأبقى

أي ما عند الله من خير ليس بعده خير ، وما عند الله من خلود ليس بعده خلود ، لذلك وازنَّا فوجدنا أن الله خيرٌ وأبقى .

وهذه الآية أيُّها الإخوة ، والله الذي لا إله إلا هو لو تمثَّلناها جميعاً لاتجهنا إلى الله بكليَّتنا ..

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

من الدنيا وما فيها ، من زيدٍ أو عبيد ، كل مكاسب الدنيا تنتهي عند الموت ، وكل ما وعد الله به المؤمنين يبدأ بعد الموت ..

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

الدنيا زائلة ، الدنيا محدودة لكن الآخرة باقية وأبديَّة ، ماذا قال فرعون ؟ قال :

(فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

ردُّوا عليه ..

(إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

وعيد الله للمجرمين :

أنت إذا قتلتنا فسوف تنتهي هذه المصيبة بثوان وتبقى الجنَّة لنا ، أما الذي يأتي ربَّه مجرماً ..

(فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

لا يموت فيستريح ، ولا يحيا حياةً فيخفف عن العذاب ، حالةٌ لا توصف ، لا موت ولا حياة ..

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

حينما قلت لنا بعد أن سألناك :

(إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ(114)قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(114))

(سورة الأعراف)

ردُّوا عليه :

(وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا)

أي أن مكانتنا عند الله إذا آمنا به وأطعناه أفضل بكثير من مكانتنا عندك لو تابعناك على باطلك ، أنت أوعدتنا بالقتل والتعذيب ، لكن ..

(إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

ووعدتنا بالزُلفى منك ، وأن تمدُّنا بما نشتهي ، لكن ..

(وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا)

وعد الله للمؤمنين :

شتَّان بين وعدك ووعد الله عزَّ وجل ، وبين وعيدك ووعيد الله عزَّ وجل ، من هنا قالوا :

(لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا)

(جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى)

فضل التزكية وثوابها :

من زكَّى نفسه ، ألم يقل الله عزَّ وجل :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2))

(سورة المؤمنون)

هذا جزاء من تزكَّى ، من زكَّى نفسه أيْ طهَّرها من الأدران ، طهرها من الشرك ، طهرها من الكِبر ، طهرها من العُجب ، طهرها من الأنانية ، طهرها من القسوة ، جعلها تصطبغ بالكمال الإلهي ، فالذي تزكَّى هذا جزاؤه عند الله عزَّ وجل .

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً)

الأرض اليابسة بالتعريف الدقيق أرضٌ جَفَّ منها الماء ..

(فَاضْرِبْ لَهُمْ)

المعجزة الإلهية العظيمة : طريق في البحر يبَس :

لا على وجه الحقيقة ، أي أشر بعصاك إلى البحر ينفلق طريقٌ كالطود العظيم ، كما جاء وصفه في سورةٍ أخرى ..

(فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى)

يبدو أن سيدنا موسى مع أصحابه كانوا قلَّة .

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(54)وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(55))

(سورة الشعراء)

(فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ(60))

(سورة الشعراء)

لا يوجد تكافؤ ، هم قلّةٌ قليلة مضطهدة ، مستضعفة ، خائفة لا سلاح بيديها تجاه فرعون وجنوده ، لذلك طمأن الله عزَّ وجل هذا النبي العظيم :

(لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى)

إنها معية الله حفظا ونصرا وتوفيقا :

لن يُدركك فرعون ، لن يلحق بك ، لن يطولك ، حينما رأى أصحاب موسى أن البحر من أمامهم ، وأن فرعون من ورائهم خافوا ..

(قالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِين (62))

(سورة الشعراء)

هذا إيمان الأنبياء ، سيدنا الصديق رضي الله عنه قال وهو في الغار : " والله يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا " ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((يا أبا بكر ، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما))

(البخاري)

تروي بعض الروايات أنه وقعت عين بعض المشركين على عين أبي بكر ، وقعت العينُ على العين ففزع الصدِّيق وقال : " يا رسول الله لقد رأوني " ، قال : يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ(198))

(سورة الأعراف)

بين قصة موسى في البحر وقصة الصحابة في الخندق :

فأصحاب سيدنا محمد خافوا في غزوة الخندق .

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا(11)وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا(12))

(سورة الأحزاب)

أي حينما أحاط الكفّار بالمسلمين ، وحينما خان اليهود العهد ، وحين انكشف ظهورهم ، وحين كان الإسلام على وشك أن ينتهي ، بقيت المشكلة مشكلة الزمن فقط ، انتهى الإسلام ، وضعهم الله عزَّ وجل في تجربةٍ قاسية حتى قال الضعفاء : " أيعدنا صاحبكم أن تُفتَح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟! " ..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا(23))

(سورة الأحزاب)

فأصحاب سيدنا موسى حينما رأوا فرعون وجنوده من خلفهم والبحر من أمامهم ولا أمل لهم بالنجاة .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ(62))

(سورة الشعراء)

طمأنه ربنا سبحانه وتعالى فقال :

(لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى*فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ)

هلاكِ فرعون وشيعته :

تبعهم في هذا الطريق البحري ، فلمَّا صار فرعون في منتصف المسافة بين البر والبحر ، وكان سيدنا موسى مع أصحابه قد خرج إلى الضفَّة الثانية من البحر الأحمر عاد البحر بحراً ..

(فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

هذا ردّ من الله عزَّ وجل على فرعون حينما قال :

(وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ(29))

(سورة غافر)

إذاً ليس هذا الذي هداهم له هو سبيل الرشاد ، إنه سبيل الهلاك ..

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

وفي آيةٍ أخرى ..

(قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى)

ليست طريقته مُثلى ، وهو لم يهدهم سبيل الرشاد ، بل ..

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

يوم القيامة يلقي الإنسان التبعة على من أضلَّه ، فالشيطان يردُّ على هؤلاء :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22))

(سورة إبراهيم)

آياتٌ كثيرة فيها دعوى أنه : يا رب فلان قد أضلَّنا ، وهؤلاء قد أضلُّوني ، ولكنَّه في الحقيقة لا يضلُّ أحدٌ أحدا ، هذا الذي يبدو لك أن فلاناً قد أضلَّه هو في الأساس ضال ، لـو لم يكن ضالاً لما اتبع فلاناً ، إذاً :

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

وهكذا قُضِيَ على فرعون ، لأنه أراد أن يقف في وجه الحق ، وإن شاء الله تعالى في درسٍ قادم نتابع هذه القصَّة .

كلمة قصيرة : قصة موسى في حياة المسلمين اليوم :

القصَّة وقعت ، وانتهت ، ولكنَّ المقصود نحن ، فحينما أُلقي السحرة سجَّداً لما رأوا من آيات الله البينات ، نحن نرى في كل يوم ، وفي كل لحظة ، وفي كل ساعة آياتٍ لا حصر لها ، الكون في حدِّ ذاته معجزة ، فيا ترى هل سجدنا لله عزَّ وجل سجود التعظيم ؟ وهل آثرنا جانب الله عزَّ وجل على جانب البشر ؟ هل آثرنا ما عند الله على ما عند الناس ؟ هل آثرنا الآخرة على الدنيا ؟ هل آثرنا طاعة الله على طاعة الشُرَكاء ؟ الإنسان أمام موقف صعب ، وأمام خيار صعب ، إما أن يكون مع الحق ، وإما أن يكون مع الباطل ، إما أن يكون مع الله ربِّ العالمين ، وإما أن يكون مع آلهةٍ لا تملك له نفعاً ولا ضرًّا ، إما أن يصبَّ اهتمامه على الدنيا الفانية أو على الآخرة الباقية ، فهذا الخيار نجح به سحرة فرعون أيَّما نجاح ، وتفوَّقوا ، فالمفروض أن يقول الإنسان :

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

لا أن يؤثر الدنيا على الآخرة ، لا أن يؤثر رضاء زوجته على طاعة الله عزَّ وجل ، لا أن يؤثر رضاء أخيه أو أبيه أو صاحبته على ما عند الله من نعيمٍ مقيم ، الموضوع موضوع اختيار ، فإما أن تختار الأبقى ، وإما أن تختار الشيء الفاني ..

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

فالخير من حيث الكميَّة والنوعية ، وأبقى من حيث الأبديَّة ..

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(15)بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(16)وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(17)إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى(18)صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى(19))

(سورة الأعلى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 80 – 100
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-02-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)

نِعَمُ اللهِ على بني إسرائيل :

بعد أن نجَّى الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل من عدوِّهم فرعون يذكرهم في هذه الآيات البيِّنات بنعمه المتتالية ، فقال :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ)

علاقة المؤمن بهذه الآية :

ما علاقتنا بهذه الآية ، ما منا واحد إلا وقد جاءته مصيبة في وقت من الأوقات ، ربما دعا الله عزَّ وجل فصرفها عنه ، يجب أن يذكر دائماً أن الله عزَّ وجل تفضَّل ، وصرفها عنه ، ويجب ألاّ ينسى فضل الله ، وألاّ يعود إلى ما كان عليه ، ربما تأتي المصيبة لتعيد الإنسان إلى جادة الصواب ، ربما تأتي المصيبة لتعقد الصلة بين العبد وربه عزَّ وجل ، ربما تأتي المصيبة لتحمل المرء على التوبة ، ربما تأتي المصيبة لِتُزَهِّدَ في الدنيا ، ربما تأتي المصيبة لتقرِّب من الله عزَّ وجل فإذا جاءت ، ثم صُرِفَت بفضل الله ونعمته لا ينبغي للرجل المؤمن أن ينسى فضل الله عليه ، فإذا نسي جاءته أخرى ، وإذا نسي في الثانية جاءته ثالثة ، فكأن الله سبحانه وتعالى أراد من هذه الآية أن يذكِّر المؤمنين على الدوام ، أنه إذا جاءت مصيبة ، أو إذا لاح شبح مصيبة فالهدف الكبير أن تقرِّبك من الله عزَّ وجل، الهدف الكبير أن تحملك على التوبة ، أن تطهرك من أدرانك ، أن تعقد صلةً بينك وبين الله ، أن تجعلك أهلاً لرحمته ، أن تجعلك أهلاً لجنَّته، فإذا جاءت ثم صُرِفَت بفضل الله ونعمته ، لا ينبغي للمرء أن ينسى ، لا ينبغي أن يُعْرِض ، لا ينبغي إذا ذهبت عنه المصيبة أن يعود إلى ما كان عليه ، لذلك قيل :" من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر "، أي إن أتت المصيبة ، ثم زالت ، فعاد الإنسان إلى ما كان عليه من تفلُّت ، من معاص ، من مخالفات ، من تقصير ، من حب للدنيا ، من

انكباب عليها ، إذا جاءت المصيبة ، وصُرِفَت بفضل الله ، ولم تحدث الأثر المطلوب فلابدَّ من الثانية ، ولابدَّ من الثالثة ، إلى أن يحدث الأثر المطلوب ، فلذلك الإنسان العاقل يفهم على ربه ، ما أرسلتها لك يا عبدي إلا لتعود إلي ، ما ضيَّقت عليك إلا لتتوب ، ما حملتك على المكاره إلا لتحمل نفسك على الطاعات ، فلذلك يمكن أن نفهم من هذه الآية تلك الغاية ، والأعمق من ذلك أن نطبِّقها على أنفسنا .

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ)

ووَاعَدْنَاكُم جَانبَ الطور الأيمنَ

فسيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وعده الله سبحانه وتعالى بالمُناجاة في جبل الطور ، فاختار من أصحابه سبعين رجلاً لميقاتنا ، وفي أثناء المناجاة نزلت التوراة ، على مَنْ يعود هذا بالنفع ؟ على المؤمنين ، على أتباع سيدنا موسى ، من هنا جاءت الآية :

(وَوَاعَدْنَاكُم)

يا بني إسرائيل ، لأن نفع التوراة عائدٌ إلى قوم سيدنا موسى ، ونفع المناجاة عائدٌ إلى قوم سيدنا موسى ، فجاءت الآية بصيغة الجَمع :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ)

الطور هو الجبل ، وهو الجبل الذي تمَّت عليه المناجاة .

(وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ)

الأيمن صفة لجانب ، إذا قُلت : جانب الطور الأيمن فقد وصفت الطور ، فإذا قلت :

فقد وصفتَ الجانب ، أي الجانب الأيمن من جبل الطور ..

(وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)

المنَّ السلوى :

المَنُّ طعامٌ يشبه العسل ، والسلوى نوعٌ من أنواع الطيور طيِّبة المذاق ، سهلة الهضم ، هكذا جاء في بعض التفاسير ، المقصود أن الله سبحانه وتعالى خصَّهم بطعامٍ نفيس ، وبنبيٍ عظيم ، ووعد نبيَّهم بالمناجاة في جانب الطور الأيمَنَ ، والمناجاة أصبغت على هذا النبي الكريم الصفة الثابتة ، وهي أنه كليمُ الله .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ)

أمر بالأكل ونهي عن الإسراف والطغيان :

كُلْ من دون أن تطغى ، من دون أن تُفْسِد الحياة ، من دون أن تستعلي على الناس ، من دون أن تأخذ أكثر مما يجب ، من دون أن تقصِّر في الحقوق .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ)

الطُغيان الخروج عن الطريق المستقيم ، مجاوزة الحدود ، من تجاوز الحدود فهو من الحضرة مطرود، الطغيان أن تأخذ ما ليس لك ، الطغيان أن تقول ما ليس لك بحقٍ ، الطغيان أن تعتدي على الآخرين .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ)

إيَّاكم أن تتنافسوا في هذه الطيبات ، فتأخذوها من طريقٍ غير صحيح ، تأخذوها من غير حِلِّها ، تستعملوها في غير ما صُنعت له ، العنب من الطيِّبات ، الطغيان فيه أن تجعله خمراً ، فكل مجاوزةٍ في الحدود في الكَمِّ ، والنوع ، وطريقة الكسب ، وطريقة الإنفاق ، هو من الطغيان ، فالإنسان إذا اتبع الشرع الحنيف في تعامله مع الأشياء ، وفي تعامله مع الناس ، وفي تعامله مع المواد حقق الهدف من وجوده على وجه الأرض .

(وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ)

لأنكم إن طغيتم فيه انقطعتم عن الله عزَّ وجل ، فإذا انقطعتم عن الله عزَّ وجل وقعتُم في العمى والشقاء، لقول الله عزَّ وجل :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

لا يضلُّ عقله ولا تشقى نفسه ، من ترك الهُدى الإلهي ضلَّ عقله وشقيت نفسه وأهلك نفسه ، فلذلك حينما يطغى الإنسان ينقطع عن الواحد الديَّان ، وإذا تم انقطاعه عن الله عزَّ وجل أصبح شقياً ، شقي بالبعد عن الله عزَّ وجل ، السعادة كل السعادة أن تكون قريباً من الله عزَّ وجل ، والشقاء كل الشقاء أن تكون بعيداً عنه ، لذلك حينما يلغي الله سبحانه وتعالى إنساناً بمعنى يبعده عنه ، ومتى يبعده عنه ؟ إذا خرج عن الطريق الصحيح ، فليحرص الإنسان حرصاً بالغاً على ألاَّ يسقط من عين الله .

فليتك تحـلو والحياة مـريرة وليتك ترضى والأنام غِضابُ

ولـيت الذي بيني وبينك عامـرٌ وبيني وبين العـالمـين خرابُ

إذا صح منك الوصل فالكل هينٌ وكل الـذي فوق التراب ترابُ

* * *

لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض أهون من أن يسقط من عين الله ، طغيانه في الحياة يسقطه من عين الله ، اعتداؤه على الآخرين يسقطه من عين الله .

يروى كما جاء في بعض الكتب أن حجراً عبد الله خمسين عاماً ضج بالشكوى إلى الله عزَّ وجل ، قال: " يا رب عبدتك خمسين عاماً ، ثم تضعني في أُسٍّ كنيف ؟! " فتروي القصة أن الله عزَّ وجل قال له : " تأدب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم " ، تأدب ، أن تكون في أُسٍّ كنيف أفضل ألف مرة من أن تكون في مجلس قاضٍ ظالم ، فالإنسان إذا طغى في أي مجال من مجالات الحياة يغضب الله عليه ، وإذا غضب الله عليه فقد هوى ، سقط في الشقاء ، وأهلك نفسه وانتهى .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي)

الطغيان سببٌ لجلبِ غضب الله :

في الحياة شيئان : إذا كان الله راضياً عنك فأنت أسعد أهل الدنيا ، وإذا غضب الله عنك ، ورضي عنك الناس جميعاً فأنت أخسر من في الأرض ، لو رضي الناس عنك جميعاً ، لو رفعوك إلى الأوج ، لو عظَّموك ، لو صدقوك ، إذا غضب الله عنك فلا ينفعك ذلك منهم شيئاً ، فهذا الذي يغضب الله عليه قد هوى وانتهى الأمر .

(فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)

من الهويّ أي السقوط ، ومع السقوط الهلاك ، ومع الهلاك الشقاء ، لذلك آياتٌ كثيرة تبيِّن أنه :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : 71)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون : 1 - 2)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى*وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

(سورة الأعلى : 14 - 15)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين : 26)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات : 61)

هذا هو الفوز العظيم ، وهذا هو النجاح ، وهذا هو الفلاح .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا*وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا*هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور)

(سورة الأحزاب : 41 - 43)

(وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)

كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول : << عجبت لثلاث ، عجبت لمؤَمِّلٍ والموت يطلبه ـ ملك الموت على الأبواب ، وهو يفكّر في أمالٍ عريضة لا تنقضي في عشرين عاماً ، الكفن قد نُسِج وهو يفكر بتغيير هذا البيت ، وتصميم بيتٍ آخر وَفْقَ أحلامه التي كان يحلم بها .. عجبت لثلاث ، لمؤملٍ ، والموت يطلُبه ، وغافلٍ ، وليس بمغفولٍ عنه ـ هو غافل ، ولكن الله ليس بغافل ، هو يظن أن الله غافل، ولكن الله ليس بغافل ـ وضاحكٍ ملء فيه ، ولا يدري أساخطٌ عنه الله أم راض .. >> .

كيف يضحك الإنسان قبل أن يتأكد أن الله راضٍ عنه ؟ كيف يقر له قرار ؟ كيف ينام ؟ كيف يغمض له جفن ؟ كيف ؟

(وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى* وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)

يا لروعة القرآن ، كلما خفنا من بعض الآيات فُتِحَ باب التوبة ..

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

سَعَةُ مغفرة الله عزوجل للتائبين :

غَفَّار على وزن فعَّال ، صيغة مبالغة لاسم الفاعل ، شديد المغفرة ، يغفر دائماً ، يغفر كل ذنب ، ومهما تعاظمت الذنوب ..

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

(ورد في الأثر)

هكذا في الحديث القدسي ..

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر : من آية " 35 ")

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

شديد المغفرة ، وإذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن أيتها الخلائق هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله " ..

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد ، والعقيم الوالد ، والظمآن الوارد))

(من الجامع الصغير عن أبي هريرة)

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ)

أن تعتقد أنه غفور رحيم من دون شروط فهذا نوعٌ من الضلال ، يقول لك : " أخي الله غفورٌ رحيم "، وهو مقيمٌ على معصيته ، ويقول لك : الله غفور رحيم ، وهو مقيمٌ على هذا الذنب ، مجترحٌ لهذه الخطيئة ، مُقَصِّرٌ في هذه الطاعة ، ويقول لك: الله غفورٌ رحيم ، القرآن دقيق .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ)

هذه اللام للتخصيص .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

إن حرف توكيد ، إن حرف مشبَّه بالفعل ، ولكنه يفيد التوكيد ، إذا قلت : الله عليمٌ ، أو قلت : إن الله عليمٌ ، جملة (إن الله عليمٌ)آكدُ من جملة : (الله عليمٌ):

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

هذه اللام لام المُزحلقة ، زُحلقت من اسم إن إلى خبرها .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

توكيدان ، إني لغفارٌ ، ولكن :

(لِمَنْ)

هذه اللام للتخصيص .

(لِمَنْ تَابَ)

والتوبة كما تعلمون نَدَمٌ ، وإقلاعٌ ، وعزيمةٌ ، ندمٌ على ما مضى ، وإقلاعٌ عن الذنب في الحاضر ، وعزيمةٌ على ألاّ تقع في مثل هذا الذنب ما حييت ، هذه هي التوبة ، والتوبة تحتاج إلى علم ، لذلك الجاهل لا يتوب ، ذنب المنافق كالذُبابة ، وذنب المؤمن كالجبل يجسم على صدره ، الجاهل لا يتوب ، أما العالم فهو الذي يتوب ، لذلك احضر مجالس العلم كي تعرف أين أنت من الدين ؟ هل أنت في المقدمة ، أم في الوسط ، أم في المؤخرة ؟ هل أنت على الصراطِ المستقيم ، أم أنك بعيدٌ عنه ؟ كيف تتوب ؟ يجب أن تعلم موقعك من الدين ، فالتوبة تحتاج إلى علمٍ أولاً ، ومن لوازمها ندمٌ على ما مضى، وإقلاعٌ في الحاضر ، وعزيمةٌ في المستقبل .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ)

هنا قال بعض المفسرين : " إذا أُطْلِقَت التوبة انصرفت إلى التوبة من الشرك " ، إذا كان هناك تعلُّق بالسِوَى ، اعتماد على ما سوى الله ، اعتماد عليه ، إذا عقدت الأمل على جهةٍ غير الله عزَّ وجل فهذا الشرك يحتاج إلى توبة ، إذا وضعت ثقتك في غير الله فهذا شركٌ ويحتاج إلى توبة ، إذا خِفْتَ من غير الله فهذا شركٌ ، ويحتاج إلى توبة ، إذا رَجَوْتَ غير الله فهذا شركٌ ، ويحتاج إلى توبة ، فإذا أطلقت

التوبة انصرفت إلى التوبة من الشرك ، وسياق هذه الآية يُغَلِّبُ أن هذه التوبة من الشِرك ، لمن تاب من الشرك بالله وآمن بالله ..

(لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

تلازم الإيمان مع العمل الصالح :

ما قيمة الإيمان من دون العمل الصالح ؟ إنه كلامٌ فارغ ، ما قيمة معتقدك إن لم يترجم إلى سلوك ، إلى انضباط ، إلى التزام ؟ ما قيمة أفكارك النيِّرة إن بقيت في الدماغ ، ولم تنقلب إلى مشاعر ، وإلى مواقف ، وإلى أخلاق ؟ إذاً :

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

العمل الصالح يشمل تطبيق الأوامر الإلهية في العبادات ، وفي المُعاملات ، وفي الأخلاق ، فيما بينك وبين الله ، وفيما بينك وبين الناس ، في تنفيذ الأوامر والبُعد عن النواهي ، لذلك قال رجل لأحد الأئمة : " عظني " ، قال : " احذر أن يراك حيث نهاك ، وأن يفتقدك حيث أمرك " ، هذه موعظة .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)

تفسير : ثُمَّ اهْتَدَى

بعض المفسرين حمل هذه الكلمة على الثبات ، تاب ، وآمن ، وعمل صالحاً ، وبقي كذلك إلى نهاية الحياة حتى عدَّ مهتدياً ، فلذلك عندما يتوب الإنسان إلى الله عزَّ وجل يجب أن يعقد العزيمة على أنه يعامل خالق الكون ، فهذه التوبة توبةٌ نصوح ، تاب إلى الله ، وانتهى الأمر ، هو يعامل خالق الكون ، هذا الذي ينقُضُ توبته كالمستهزئ بربِّه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

(سورة التحريم : من آية " 8 ")

(ثُمَّ اهْتَدَى)

أي بقي على ذلك مستمراً على توبته ، وعلى إيمانه ، وعلى عمله الصالح كلِّ حياته حتى عُدَّ مهتدياً ، أما هذا الذي يتوب ، وينقض ، يؤمن ، ويشرك ، يعمل صالحاً ، ويعمل سيئاً ، فهذا ليس مهتدياً ، فالعبرة من كلمة :

(ثُمَّ اهْتَدَى)

أن تكون مستمراً على الهدى ، مستقراً في الإيمان ، إذاً:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)

استعجال موسى قومه لمناجاة ربه :

الآن بدأت فِقْرَةٌ جديدة في القصة ، الله سبحانه وتعالى واعَدَ سيدنا موسى في الميقات ، واعده في جبل الطور ليناجيه ، فاختار هذا النبي العظيم من قومه سبعين رجلاً من عَلِيَّةِ القوم ، اختارهم ليذهب معهم إلى المناجاة ، ليتلقَّوا عنه التوراة ، وذهبوا إلى جبل الطور على موعدٍ مع الله سبحانه وتعالى ، يبدو أن سيدنا موسى لما وصل قومه إلى سفح الجبل سبقهم إلى الجانب الأيمن من الجبل ليسعد باللقاء ، ويسعد بالمناجاة ، فعاتبه الله سبحانه وتعالى عتاباً رقيقاً فقال :

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى)

لماذا سبقتهم ؟ اختلف العلماء في هذا ، بعضهم قال : " أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفت نظر هذا النبي الكريم إلى أنه لا ينبغي أن تسبق قومك " ، فمن أصول القيادة أن تكون معهم ، أن ترعى شؤونهم ، لا أن تسبقهم ، توجيهٌ لطيف إلى كل من يتولى أمر الناس ، إلى المعلمِ في صَفِّه إذا ذهبت بهم إلى نزهةٍ فلا ينبغي أن تتركهم ، أن تسبقهم إليه ، لعلهم ينقطعون، لعلهم يحرجون ، توجيهٌ لطيفٌ جداً .

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى)

ما الذي جعلك تتعجل إلي ؟ طبعاً الذي أعجله إلى الله شوقه ، أعجله إلى الله هذا اللقاء الذي لا يوصف، مع مَنْ ؟ مع خالق الكون .

(قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي)

هم قريبون مني ، على الطريق ، في طريقهم إليك يا رب ..

(قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)

الاستعجال إلى طلب رضا الله أمر مطلوبٌ :

لترضى عني ، استنبط بعض العلماء من هذه الآية إذا عَجَّل الإنسان إلى الصلاة يرضى الله عنه ..

((أفضل الأعمال الصلاة في أوقاتها))

(ورد في الأثر)

إذا عَجَّل في أداء فريضة الحج ، إذا عَجَّل في دفع الزكاة ، إذا عجل إلى مجالس العلم ، إذا عجل بالعمل الصالح ، كلما خطر له عملٌ صالح ليعجل إليه ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

(الترمذي)

بادروا أي أسرعوا ، هذه الدنيا ماذا تخبِّئ ، كل يوم ينشق فجره يخاطب ابن آدم : " يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوَّد مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة " ، هذه الأيام تمضي ، وتمضي ، وتَمضي ، ولابدَّ من يومٍ نفاجأ بشيء يطرأ على صحَّتنا ، لأنّ الله سبحانه وتعالى تفرَّد بالبقاء ، وكل مخلوقٍ يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، لابدَّ من الموت ، فالإنسان ولو كان شاباً لابدَّ أن يأتي يومٌ ، قريبًا كان أم بعيدًا يفاجأ بطارئٍ يطرأ على صحَّته ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا ..))

(سنن الترمذي : عن " أبي هريرة ")

صلِّ قيام الليل ..

(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب : 41)

احضر مجالس العلم ، أنفق زكاة مالك ، حُجَّ البيت ، افعل الصالحات ، قدِّم خدمةً للناس تبتغي بها وجه الله .. بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا .. ماذا تخبِّئ الدنيا من مفاجآت ، هناك مفاجآت تخبئها الدنيا ولكن كلها سلبية .

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ...))

قد تكون في بحبوحة ، ثم يأتي بعد البحبوحة فقرٌ مدقع ، قد تكون الأمور ميسَّرة فإذا بالأمور تصبح معسَّرة ..

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ...))

غنى مع جهل يجعلك تطغى ، ثعلبة حمامة المسجد حينما صار غنياً ، وجاءه رسولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يطالبه بالزكاة قال له : قل لصاحبك ليس في الإسلام زكاة ..

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ...))

قد يأتي المال ليهلك صاحبه ، قد يأتي المال ليَحْمِلَ صاحبه على الكفر .

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا))

يفسد عليك حياتك .

((أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أو الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أو السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

إذا عرف الإنسان الله عزَّ وجل فهو من خيرٍ إلى خير ، ومن زيادة إلى زيادة ، ومن إقبالٍ إلى إقبال ، ومن رفعةٍ إلى رفعة ، ومن تمكينٍ إلى تمكين ، أما فإذا أمضى حياته في المعاصي فهو من ذُلٍ إلى ذل أشد ، ومن ضياعٍ إلى أشد ، وهكذا ، إنه خطٌ بياني ، فإما أنه صاعد ، وإما أنه نازل ، فالمؤمن له خطٌ بيانيٌ صاعد ، إذاً قال :

(قالَ هُمْ أولَاءِ عَلَى أثَري وَعَجِلْتُ إلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)

الاستعجال في الصلاة محمود ، الاستعجال في الزكاة محمود ، الاستعجال في الحج محمود ، الاستعجال في حضور مجالس العلم محمود ، قد تكون أبرز فكرةٍ في الدرس موجودة في أوَّله ، تأتي بعد ربع ساعة مفتاح الدرس ضاع منك ، فالاستعجال محمود في حضور مجالس العلم ..

(قالَ هُمْ أولَاءِ عَلَى أثَري وَعَجِلْتُ إلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قالَ فَإنَّا قدْ فَتَنَّا قوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

فتنة قوم موسى بالسامري :

سيدنا موسى وهو يناجي ربَّ العزّة إذًا به يبلَّغ أن قومه قد فُتِنوا ، ما هذا الخبر السيّئ ؟ الحياة كلُّها متاعب ، المناجاة والسعادة في الإقبال على الله عزَّ وجل ، أما الانغماس في نعيم القُرب هذا مدَّخرٌ لك في الآخرة ، هنا درسٌ بليغ ، لكنَّك في الدنيا مكلَّفٌ أن تكون في خدمة الخلق ، خدمة الخلق مقدَّمةٌ على حظوظ نفسك العُليا ، لا أقول الدنيا بل العُليا ، إذا كنت مع أصحابك فكن معهم دائماً حُلَّ مشكلاتهم ، سيدنا موسى وهو في المناجاة قال له الله سبحانه وتعالى :

(فَإنَّا قدْ فَتَنَّا قوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

ما القصَّة ؟ ماذا حصل ؟ عندئذٍ قطع هذا النبي العظيم مناجاته ، وعاد سريعاً إلى قومه ..

(فَرَجَعَ مُوسَى إلَى قوْمِهِ غَضْبَانَ أسِفاً)

رجوع موسى غضبان أسفًا :

قال علماء اللغة : " كلمة غضبان على وزن فَعْلان ، وهي صفةٌ مشبهة باسم الفاعل ، والصفة المشبَّهة باسم الفاعل على وجه الثبوت دائماً ، بينما اسم الفاعل على وجه الحدوث " ، ولكن لأن النبي ليس من عادته الغضب ، فكلمة غضبان بحقِّ هذا النبي ليست صفةً مشبَّهة ، بل هي اسم فاعل على وجه الحدوث ، لا على وجه الثبوت ، فهو غضب ، والغضب المقدَّس هو أن تغضب لله ، أن تغضب لله ، وأن ترضى لله ، وأن تحبَّ لله ، وأن تكره لله ، وأن تعطي لله ، وأن تمنع لله ، هذا هو الإيمان الكامل ..

"لا يكمل إيمان المرء حتى يحبَّ في الله ، ويبغض في الله ، ويغضب لله ، ويرضى لله ، ويعطي لله ، ويمنع لله " .

غَضِب لأن قومه قد ضلوا وفُتِنوا وعبدوا غير الله عزَّ وجل ، لذلك ضحَّى بمناجاته ، وعاد إلى قومه سريعاً .

(فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً)

غضبان على وزن فعلان صيغة مبالغة اسم الفاعل .. كما قلت قبل قليل .. وهي اسم فاعل لا صفة مشبَّهة ، أسِفْ على وزن فَعِلْ أيضاً صيغة مبالغة ، كأن تقول : حَذِرْ ، أسِفَ أي متأسِّف على ما حصل.

(قَالَ يَا قَوْمِ)

مواجهة موسى قومه وأخاه هارون والسامري :

ثلاث جهات : أولاً القوم ، وثانياً أخوه هارون ، وثالثاً السامري ، توجَّه إلى قومه ..

(قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً)

عدم الصبر باب للشرّ :

أنتم موعودون أن أعود إليكم ، ومعي التوراة ، ألمْ تُبَلَّغوا هذا الوعد ؟..

(أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ)

ما تحملتم ثلاثين يومًا ؟ أشركتم ، عبدتم غير الله ، أين عقولكم ؟..

(أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي)

ما الذي حصل ؟ أردتم أن يغضب الله عليكم ؟ أردتم الشقاء ؟ ..

(أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي)

اعتذار قوم موسى :

الموعد هو الوعد ، مصدر ميمي ، وعد موعداً ، وركب مركباً ، أي فأخلفتم وعدي ..

(قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا)

أي أنهم أرادوا أن يعتذروا إليه أنهم ما أرادوا ذلك ، لكنَّهم انساقوا إلى هذا سوقاً ، اعتذروا له بأنهم ما قصدوا أن يعبدوا غير الله ، ما قصدوا أن يشركوا بالله ، لم يبذلوا جهداً ليفعلوا ذلك ..

(قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا)

أي باختيارنا ، لا نملك أن نفعل غير ما فعلنا ..

(وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ)

أوزار جمع وزر ، وهو الحِمْل ..

(حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ)

ألقى الفراعنة حليَّهم التي كانت معهم ، فأخذها قوم موسى ، وكانت بكميَّاتٍ كبيرة .

(حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا)

قذفوها في حفرةٍ ، وأضرموا بها النار لتسيح ..

(فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ)

السامري الفنَّانُ :

فجاء رجلٌ فَنَّانٌ ، داهيةٌ ، مراوغٌ ، ذو ذكاءٍ خبيث فصنع من هذه الحلي عجلاً جسداً ، أي تمثال من الذهب على شكل عجلٍ ، فُرِّغَ داخله فأصبح له خوار ، إذا دخلت فيه الريح صار له صوت صفير ..

(فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ)

كان بارعاً في صناعة الذهب ، كان صائغاً ..

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا)

استنبط العلماء أن السامري له أتباع وأعوان اتفقوا على إضلال قوم موسى ، وعلى فتنتهم ، وعلى أن يُزَيِّنوا لهم الذهب كإلهٍ يُعْبَدُ من دون الله .

(فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ)

هذا هو الإله الذي ذهب إليه موسى ليناجيه ، هو هنا أصلح الله موسى إلى أين ذهب ؟ هذا هو الإله ، هذا كلام الضالين من قوم موسى ..

(هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

نسي موسى أنه هنا ، ذهب إليه ، وهو هنا ، ما هؤلاء الأشخاص ؟ ما هؤلاء القوم ؟ أين عقولهم ؟ ألمْ يروا بأمِّ أعينهم كيف أصبح البحر طريقاً يبساً ؟ وكيف صارت العصا حيَّةً مبينةً ؟ وكيف كانت يد هذا النبي الكريم مشعلاً وضَّاءاً ؟ أين العقول ؟ إذا عطَّل الإنسان عقله أهلك نفسه ، هم عطَّلوا عقولهم ..

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

نسي موسى أن إلهه هنا ، هذا في بعض التفاسير ، قال ربنا عزَّ وجل :

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً)

صفة الكلام كمال في الخالق المعبود :

هذا العجل من الذهب الخالص الذي يعبدونه ألم يروا أنه لا يكلّمهم ، إذا سألوه لا يجيبهم ، إذا رَجَوه لا يتحدَّث إليهم ، إذا استجاروا به لا يجيرهم ..

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً)

فينبغي أن تعبد إلهًا يجيبك ، إذا سألته أجابك ، وإذا استغفرته غفر لك ، وإذا استغثته أغاثك ، وإذا استجرته أجارك ، وإذا تُبت إليه تاب عليك ، وإذا ناجيته سمعك ، هكذا يجب أن تعبد الله عزَّ وجل ..

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً)

كل ما سوى الله لا يملك نفعا ولا ضراً :

لماذا تعبدونه إذا كان لا يجيبكم ولا ينفعكم ولا يضرُّكم ؟ هناك معاني عكسيَّة دقيقة أن الله سبحانه وتعالى يسمعنا إذا دعوناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، ويعطينا إذا طلبنا منه ، ويغفر لنا إذا استغفرناه ، ويتوب علينا إذا تبنا إليه ، وينفعنا بالخيرات ، وإذا عالجنا جعل حياتنا جحيماً ، بيده الخير ينفع ويضر ، أو يضر لينفع ..

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)

إنكار هارون على قومه عبادة العجل :

عرف سيدنا هارون حجم المشكلة ، وعرف أنهم قد ضلّوا ، وأنهم قد فُتِنوا ، ونبَّههم ، وحذَّرهم ، وبيَّن لهم المصير ..

(وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ)

ربكم الله الذي أنقذكم من فرعون ، الذي ذَبَّح أبناءكم ، واستحيا نساءكم ، ورأيتموه كيف يغرق في البحر أمامكم ، مَنْ أهلكك فرعون ؟ الله سبحانه وتعالى ، رأيتم كيف أصبح البحر طريقاً ، والعصا حيَّةً، واليد مصباحاً ..

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)

لكنَّهم لم يستجيبوا لهذا النبي .. لسيدنا هارون .. ولم يعبؤوا بكلامه ، ولم ينصاعوا لأمره ، عندئذٍ :

(قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ)

لن نستجيب لك ، لن نترك عبادة هذا الصنم ..

(قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى)

سيدنا موسى ترك القوم ، والتفت إلى أخيه الذي استخلفه على قومه ..

(قَالَ يَا هَارُونُ)

بين موسى وهارون :

كان سيدنا موسى عصبيَّ المزاج ..

(قَالَ يَا هَارُونُ)

يقول عليه الصلاة والسلام :

((الحدَّة تعتري خيار أمَّتي))

(الجامع الصغير عن ابن عباس بسند ضعيف)

(قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)

حينما رأيتهم ضلوا ، وانحرفوا ، وفسدوا ، وعبدوا هذا الصنم ماذا فعلت أنت ؟ لِمَ لَمْ تتبع أمري ؟ لِمَ لمْ تتبع كما أتبع أنا معهم أزجرهم ، أعاقبهم ، أنهاهم ، أحذِّرهم ، ألا تتبعني في قومي ، بأن تقلدني في فعلي معهم ؟ ..

(أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)

وأدركه الغضب فأخذ لحية أخيه ، وجَرَّه إليه من لحيته ..

(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ)

استرحاماً وتعطُّفاً ، أنا أخوك ..

(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)

خفت أن أُجْبِرَ جماعةً على شيء ما ، وينشقَّ الآخرون فيصبحوا فريقين ، فيقتتلوا ، وتعود فترى فتنةً لا حدود لها ، ألم تأمرني أن أصلح بينهم ، وأن أوفِّق بينهم ؟ وقف بعضهم موقف المعاند ، وقف بعضهم موقف الرضى ، لو أنني فعلت كما تقول لانشقوا ، وفُتَّ هذا في عضدهم ..

(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي)

قياس وعبرة :

قاسَ بعضهم على هذه الآية أنه عندما أمر النبي عليه الصلاة والسلام ببعث أسامة ، فأدركته المنيَّة ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أن ينفذ هذا البعث ، وأراد سيدنا الصديق بعد وفاة رسول الله وظهور الفتن وحروب الردَّة أن يُنْفِذ بعث أسامة ، حيث تململ بعض الصحابة ، أن الجزيرة العربية فيها حروب الردَّة ، والعرب تركوا الإسلام ، وخرجوا منه ، فما معنى أن نذهب إلى بلاد الروم لنحاربهم ؟ علينا أن نطفئ هذه الفتن الداخليَّة أولاً ، سيدنا عمر أدرك أن هناك من يعترض على إنفاذ بعث أسامة ، فجاء هذا الصحابي الجليل ـ سيدنا عمر ـ إلى سيدنا الصديق ، وعرض عليه أنه ليس من الحكمة الآن إنقاذ ـ بعث أسامة ـ وأن العرب قد ارتدوا ، وأن الأولى أن نطفئ الفتن الداخليةَ قبل أن نلقى العدو الخارجي ، وأنَّ وأنَّ ، فما كان من هذا الخليفة الوديع الحليم الرقيق إلا أن أصبح كالأسد الهَصور ، أمسكه من لحيته ، وهزَّها حتى كاد يخلعها ، وقال : "ثكلتك أمَّك يا بن الخطَّاب ، أجبَّارٌ في الجاهليَّة خوارٌ في الإسلام؟! "

فسَّر بعضهم هذه القصَّة أن سيدنا عمر كان مع الصديق في إنفاذ بعث أسامة ، ولكنَّه أراد أن يعرض وجهة نظر المعارضة ، سيدنا الصديق حينما جعله عبرةً لمن يعتبر رضي أن يكون كبش الفداء ليقوِّي موقف سيدنا الصديق ، هذا تصرفٌ ذكيٌّ جداً من سيدنا أبي بكر ومن سيدنا عمر.

بعضهم يحمل هذه القصَّة على ذلك ، سيدنا موسى حينما أخذ برأس أخيه يجرُّه إليه أراد أن يضعضع عزيمة المُعارضين الذين فُتِنوا ، وأشركوا ، فلذلك ما أراد بهذا أن يهين أخاه إنما أراد أن يقوي مركز الحق ، وأخوه يعرف ذلك ، وقد غفر له ذلك ، لنفعل ما نشاء في سبيل الحق .

إذاً أراد هذا النبي الكريم أن يظهر قوَّة الحق ، ويبدو أن سيدنا هارون قَبِلَ أن يكون كبش الفداء إحقاقاً للحق ، فحينما رأوا سيدنا موسى قد غضب هذا الغضب الشديد ، وأخذ برأس أخيه يجرّه ارتعدت فرائص القوم ، وعادوا عن شركهم ، وأذعنوا إلى نبيهم ، وقضي الأمر .

حكمةٌ بالغة ، أحياناً يتجه الأب إلى الأم ، ويقرِّعها تقريعاً شديداً إذا هي عرضت وجهة نظر أولادها التي لا تُرضي الله ، فحينما يرى الأبناء أن الأب صبَّ غضبه على الأم ، وهي شريكته في الحياة ترتعد فرائصهم ، هذا التفسير يليق بهذا النبي الكريم ..

(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ)

(أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ)

بين موسى والسامري :

جاء برأس الفتنة ، هذا الخبيث ، تعال إلى هنا ، بعد أن وبَّخ القوم ، وعنَّف أخاه ..

(قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ)

ما القصَّة ؟ ما الأمر ؟ ما الذي حدث ؟ ماذا فعلت ؟ لماذا فعلت هذا؟ ..

(قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

هذه الآية اختلف المفسِّرون في تفسيرها ، من أوجه التفسيرات أن السامري عاش مع سيدنا موسى ، اقتبس منه ، من آثاره ، من بعض أقواله ، من بعض تفسيراته شيئاً ، وأوهم الناس أنه كذلك ..

(فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ)

أي من أثر سيدنا موسى ، وهذا أسلوبٌ متَّبَعٌ حينما تخاطب إنساناً بطريقة الغائب ، قد تقول للأمير وهو أمامك : ما قول الأمير في هذا الموضوع ؟ فسيدنا موسى حينما سأله : يا سـامري لماذا فعلت هذا ؟ قال :

(بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ)

بحثت عن الزعامة ، بحثت عن السُلْطَة ، عن القيادة ، أردت أن أكون مكانك ..

(بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا)

(وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

أي أردت أن أكون مكانك ، أردت أن أُنازعك هذا المقام ، تعلَّمت منك شيئاً ، وألقيته على مسامعهم فصدَّقوني ، وجئت بهذا العجل ، وصنعته لهم من الذهب الخالص بطريقةٍ رائعة ، وجوَّفته لهم فصار له صوت فقلت : هذا إلهكم وإله موسى الذي ذهب إليه ، ونسي أنه هنا ، هكذا ..

(بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ)

أراد أن ينازعه مقامه ..

(فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا)

أي أراد بهذا أنه استعان ببعض أقواله وأساليبه في تصرُّفاته مع القوم لينازعه الأمر ..

(فَنَبَذْتُهَا)

ألقيتها أمامهم ..

(وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

بعض التفاسير تقول : " إنه رأى جبريل عليه السلام وهو على فرس ، فأخذ أثراً من التراب التي داستها الفرس ، وألقاها على العجل فصار عجلاً حيًّا يتحرَّك " ، هذه الرواية ضعيفة ، قال سيدنا موسى:

(قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ)

مقاطعة الفتنة والفتانين :

أي أنه أمر الناس بمقاطعته ، لا يكلّمونه ، ولا يكلّمهم ، ولا يقربونه ، ولا يقربهم ، ولا يعاملونه ، ولا يعاملهم ، أي قطيعةٌ تامَّة جزاء ما اقترفت يداه ..

(قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ)

وقال بعضهم : " أُصيب بمرضٍ مُعْدٍ جعله منبوذاً " ، وبعضهم قال: "حُرِمَ الذُرِّيَّة " ، كلُّها أقوالٌ توضِّح معنى ..

(لاَ مِسَاسَ)

(وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ)

إضلال الناس جريمةٌ في حقِّ الإنسانيَّة ، أن تُضِلَّهم عن سواء السبيل ، أن تصرفهم عن الحق ، أن ترغِّبهم في الباطل ، أن تزيِّن لهم الكفر والضلال ..

(وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً)

هذا العجل حُرِّق إهانةً له ، ثم ألقي في البحر ..

(إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)

هذا هو الإله العظيم خالق السماوات والأرض ..

(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ*إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ*وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

(سورة الشعراء : 79 – 81)

(إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ)

الله صاحب الأسماء الحسنى :

صاحب الأسماء الحُسنى ، والصفات الفضلى ، السميع البصير ، الرحمن الرحيم ، المعزُّ المذلُّ ، الخافض الرافع ، القابض الباسط ، هذا هو الإله ..

(الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

لا مسيِّر للكون إلا هو ، ولا معبود بحقٍ إلا هو ..

(وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)

وهكذا تنتهي هذه القصَّة عند هذه الآية بقوله تعالى :

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ)

هذا من الغيب الماضي ، وذكر هذه القصَّة على هذا النسق دليل نبوَّة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ..

(وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً)

هذا الذكر القرآن الكريم ..

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً)

الإعراض عن القرآن ضنك في الدنيا وخزي يوم القيامة :

يحمل عبئاً ثقيلاً ، عبء المعاصي التي اقترفها بسبب جهله ، عبء الذنوب ، عبء الانحرافات ، عبء الضلال ، عبء الإضلال ، عبء الفساد ، عبء الإفساد ، كل هذا الذي يحدث بسبب عدم حمل هذا الكتاب وعدم فهمه ، لذلك فالقرآن غنىً لا فقر بعده ، ولا غنىً دونه ، وليس على وجه الأرض عملٌ أجلُّ من أن تعرف كلام الله لتهتدي بهديه فتأتي يوم القيامة ، وقد حققت الهدف من وجودك .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 99 – 114
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-03-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس السابع من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً)

وَقَد آتَيْنَاكَ مِن لَدُنَّا ذِكْرًا

الذِكْرُ هو القرآن الكريم ، فيه ذكر الحقيقة ، وفيه ذكر الأمر الإلهي ، والنَهي ، وذكر مصير الإنسان ، وفيه ذكر الجنة ، والنار ، والطريق المستقيم ، فيه خبر من كان قبلنا ، وفيه نبأٌ من سيأتي بعدنا ، إنه القرآن الكريم ، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً)

لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفتنا .

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ)

مخالفة القرآن والإعراض عنه أصلُ الشقاء :

هذا الذكر الحَكيم ، هذا القرآن الكريم الذي فيه طريق سعادتنا ، والذي فيه تعريفنا بأنفسنا ، وتعريفنا بخالقنا ، وما ينبغي لنا أن نفعل ، وما لا ينبغي لنا أن نفعل ، وما هو الحق ؟ وما هو الباطل ؟ وما هو الخير ؟ وما هو الشر ؟ وإلى أين المصير ؟ وأين كنا ؟

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ)

أي من اتخذه وراءه ظهريًّا ، ومن لم يعبأ به ، ومن استخف به ، ومن قال : إن هذا القرآن لا يصلح لهذا الزمن ، ومن رأى أن أوامر الله عزَّ وجل في كتابه الكريم ثقيلة ، ومن رأى أن قوله تعالى :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور : من آية " 30 ")

من يقول : أين أذهب بعيوني ، وكأنه رأى هذا الأمر تكليفاً ثقيلاً ، فأعرض عنه ، وحينما قرأ قوله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من آية " 271 ")

فقال : هذا هو الربا الاستغلالي ، نحن نبيح الربا الاستثماري ، فالربا ربا ، والله سبحانه وتعالى قال :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : من آية " 271 ")

صورٌ مِن الإعراض عن القرآن :

(مَنْ أعْرَضَ عَنْهُ)

من لم يعبأ بهذه الأوامر ، ومن استخف بها ، ومن رأى أن الإجراءات الوضعية التي يضعها الإنسان فيها تلبيةٌ لحاجاته اليومية ، وتتمشى مع تطورات العصر ، ومن انطلق في اعتقاده من هذا الاعتقاد ، فهذا أيضاً يشمله قوله تعالى :

(مَنْ أعْرَضَ عَنْهُ)

أحياناً ترى على آلةٍ ضخمةٍ مِفتاحاً كتب فوقه التشغيل ، يا ترى ما مصداقية هذه الكلمة ؟ هل هي صحيحة ، أم مبالغ بها ؟ إذا ضغطت هذا المفتاح فتحركت هذه الآلة الضخمة ، أليس تحرك هذه الآلة الضخمة مؤكداً إلى مصداقية هذه الكلمة ، ولو أن الإنسان تتبع ما يجري في الكون ، أو ما يجري للناس في تحركاتهم اليومية لوجد أن كل من طبَّق كلام الله عزَّ وجل سعد في الدنيا والآخرة ، وكل من حاد عنه شقي في الدنيا والآخرة ، فإلى أن يمتلك الإنسان هذا اليقين القطعي أن كل الذي أمرنا به في هذا الكتاب خيرٌ مطلقٌ محضٌ ، وأن كل الذي نهينا عنه في هذا الكتاب شرٌ مطلقٌ محضٌ ، إذا تكوَّنت عندنا هذه القاعدة وهذه العقيدة ، عندئذٍ نقرأ كلام الله فنستسلم لأمره ، وننتهي عما عنه نهى ، فالقضية قضية موقف ، وكل المسلمين في هذا الزمان يقرؤون هذا الكتاب ، ويتبرَّكون به ، ويضعونه في أجمل أمكنةٍ في بيوتهم ، ويتباركون به ، ويضعونه في مكتباتهم ، وفي محلاتهم ، وفي غرفهم ، وفي أماكِنهم، ويزيِّنون جدران بيوتهم بآياته ، وهذا السلوك لا يقدِّم ولا يؤخِّر ، فالقضية أن القرآن إذا أمرك بأمر هل أنت مع هذا الأمر ؟ إذا قال الله لك :

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة : من آية " 221 ")

الإعراض عن تزويج صاحب الدين الفقير :

فهل تؤثر في تزويج ابنتك المؤمن الفقير على المنحرف الغني ، إذا قرأت القرآن وقلت : صدق الله العظيم ، ولم تكن في هذا المستوى ، بحثت عن زوجٍ لابنتك غنيٍ ، وتساهَلت بدينه ، ورفضت زوجاً

فقيراً على الرغم من تمسكه بدينه ، وإذا فعلت ذلك فأنت لم تقل : صدق الله العظيم .

الإعراض عن غضِّ البصر :

وإذا أمرك الله عزَّ وجل أن تغض بصرك عن محارم الله ، ورأيت في إطلاق البصر متعةً لا تصور فأنت لم تقل : صدق الله العظيم ، بل أنت قد أعرضت عن هذا الكتاب ، فالقضية ليست قضية تبرك ، وقضية أن تضعه في جيبك ، وأن تضعه في مركبتك ، بل القضية أعمق من هذا ، فهل أنت مع أمره ونهيه ؟ وهل أنت موقنٌ يقيناً قطعياً أن في أوامره الخير الجزيل ، وأن في الحيد عن خطه المستقيم شقاءً لا يعدله شقاء ، فهذه الآية تؤكد ذلك :

(مَنْ أعْرَضَ عَنْهُ)

فمثلاً في زواج الإنسان لو لم يتبع هدي القرآن الكريم لم يسعد بهذا الزواج ، وكذا في تجارته ، ومن لم يتبع هدي هذا القرآن الكريم لا يحقق أهدافه من عمله ، في كل حركاته ، وسكناته ، وفي صحته ، وفي علاقته بنفسه ، وبجسده ، وبربه ، وبزوجته ، بأولاده ، بجيرانه ، بزبائنه ، بمن حوله ..

(مَنْ أعْرَضَ عَنْهُ فَإنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً)

جزاء الإعراض : تحمُّل الوزر :

كلمة يحمل ، و وزر ، الوزر الحمل الثقيل ، فقد تجد إنساناً عَلَتْهُ الكآبة ، فتسأله : مالك ؟ يقول لك : حملي ثقيل ، له قضيةٌ تستوجب مصالحةً بمبلغٍ كبير ، فتراه لا ينام الليل ، ويخشى من شبح مصيبةٍ تُنْهِكُ قواه ، وتبدد أمواله ، يقول لك : حملي ثقيل ، فالإنسان إذا خالف أمر الله عزَّ وجل يحمل حملاً ثقيلاً ، ولو أنه انساق مع شهوته ، وسبب شقاء فتاةٍ كان من الممكن أن تكون زوجةً صالحة ، إنها تُلاحقه في كل أوقاته ، تلاحقه بخيالها ، لقد جعلتها امرأةً ساقطة بعد أن كان من الممكن أن تكون امرأةً شريفة ، لقد حمل من الوِزر ما لا يطيق ، فالإنسان حينما يبني غِناه على فقر الناس ، أو حينما يبني سعادته على شقاء مهم ، يحمِّل نفسه ما لا يطيق ، فلذلك :

(مَنْ أعْرَضَ عَنْهُ فَإنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً)

أي أنه ما من سعادة أعظم من أن تكون خالي الساحة من كل تبعةٍ أو مسؤولية ، فهذا الذي يطيبُ لونه دليل أن عمله طيِّب ، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى رَفَعَ راحة البال وصلاح البال إلى مستوى الهدى ، فقال :

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(5))

(سورة محمد)

أن تنام قريرَ العين ، وأن تنام مطمئن النفس ، فلو أن حياتك خشنة، ولو أن فيها متاعب مادية ، أو لو أن عملك يقتضي جهداً عضلياً كبيراً ، أو أنك واصلت الليل بالنهار من أجل قوت أولادك ، وتنام ساعاتٍ عديدة فتستعيد نشاطك ، ولكن هذا الذي بنى مجده على أنقاض الناس ، وبنى غناه على فقرهم ، وسعادته على شقائهم ، إنه يحمل حملاً ثقيلاً قد نقول في أنفسنا كيف يحمله ؟

وكيف تستطيع أن تنام الليل ، وقد آذيت حيواناً ؟ وهذا الذي يتسلّى ، ويدهس كلباً في أثناء سيره كيف ينام الليل ؟ ويوم القيامة كما حدثنا النبي عليه الصلاة والسلام يأتي عصفورٌ وله دويٌ كدوي النحل يقول : يا ربي، لمن اصطاده لغير مأكلةٍ ، يقول :

((يا ربّ سَلْهُ لِمَ قتلني؟))

(ورد في الأثر)

فهذا الحمل الثقيل لا يعرفه إلا من ذاقه .

ومن وقع في مخالفةٍ لأمرٍ بشري ، وهذه المخالفة تقتضي غرامةً كبيرة ، أو تقتضي عقاباً أليماً ، قبل أن يضبط بهذه المخالفة تراه كأنه يحمل حملاً ثقيلاً ، يكادُ يسحقه ، فالحمل الثقيل لا يعرفه إلا من ذاقه ، وقد يكون الحمل الثقيل معنوياً ، أو إساءةً لإنسان ، أو هذا الذي يُطلّق امرأته بلا سبب ، في ساعة غضبٍ شرَّدها وجعلها خارج البيت ، وله منها أولاد ، ولم تسئْ إليه ، إلا أنه أراد أن يشفي رغبة أمه أحياناً ، فهذه الزوجة المظلومة ، قد تخاطبه ليلاً نهاراً : ماذا فعلت له حتى عاملني هذه المعاملة ؟ هذا حملٌ ثقيل .

المعاصي حِمل ثقيل :

والمعاصي والذنوب والآثام ، حملها ثقيل ، والنفس لا تقوى على حملها ، وإن تعذيب الإنسان لذاته شيءٌ لا يعرفه إلا من ذاقه ، فالإنسان كلّما كان مستقيماً ، وكلما كان مُحسناً ، ومنضبطاً ، وأشد خوفاً لله عزَّ وجل ، شعر براحةٍ لا تعدلُها راحة ، والمظاهر المادية لا قيمة لها ، فإنها لا تَهَبُنا السعادة ، وإن المال الوفير ، والفراش الوثير ، والبيت الكبير ، والمركبة الوطيئة ، والسمعة المتألّقة هذه كلها أقنعةٌ كاذبة لا تهبنا السعادة، إن السعادة تتأتّى من أن تكون عضواً نافعاً في المجتمع ، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك .

ماذا قدَّمتَ مِن خدمات ؟

السؤال الخطير : ماذا أديت لبني البشر من خدمات ؟ هل دللتهم على الله عزَّ وجل ؟ وهل ساهمت في تخفيف الآلام عنهم ؟ أكنت عضواً نافعاً ، أيتعلق عملك بخدمتهم أم بسلبهم حرِّياتهم ؟ وكيف تعيش ؟ ومن أي جهةٍ تُرزق ؟ أترزق من نفعِ الناس أم بالإضرار بهم ؟

يا أيها الإخوة الأكارم ... كلما حَسُنَ عمل الإنسان سعد في الدنيا والآخرة ، وإن الحمل الثقيل حِمْلُ المعاصي والآثام ، وحمل البغي والعدوان ، والخروج عن أوامر الشرع ، والإساءة إلى الناس ، وإن هذا الحمل الثقيل يسحق الإنسان ، وربنا سبحانه وتعالى في آخر سورة البقرة قال :

(رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

(سورة البقرة : من آية " 286")

دخل رجلٌ إلى بيته ، وهو مخمور ، فقتل امرأته وخمسة أطفالٍ له ، فلما صحا ماذا فعلت يداه ؟ لو أن أحداً لم يحاسبه ، أو لم يلق القبض عليه ، ألم يحمل حملاً لا يحتمله ؟ طبعاً هذه حالةٌ حادةٌ ، مثلٌ حاد ، ولكن إذا غششت امرأ مسلماً في البيع قال لك : بالله عليك انصحني ، وأنت لم تنصحه ، ودللته على البضاعة الكاسدة ، وزينتها له حتى صرفتها عنك ، فإذا كان لك ضميرٌ يقظ ، فهذا المسلم سوف يكون حِمْلاً ثقيلاً عليك ، وهذا الذي يغش الناس ، والذي يعتدي على أعراضهم ، والذي يكذب عليهم ، والذي يحتال ، ويبني ثروته على فقرهم ، كيف يواجه الله سبحانه وتعالى ؟ فلذلك :

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ(83))

(سورة الزخرف)

فحينما يأتي ملك الموت ، وحينما ينكشف العمل ، ويرى الإنسان مقامه ، ومكانه ، أفي الجنة أم في النار ، عندئذٍ أهل النار يصعقون ..

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ(83))

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ)

عن هذا الكتاب ، لا يوجد حالة ثالثة ، إما أن تأخذ به ، وإما ألا تأخذ به ، إن أخذت به هداك للتي هي أقوم .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : من آية " 9 ")

في كل شيء ، والمُطْلَقُ في القرآن على إطلاقه ..

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

ففي حياتك الزوجية ، وفي حياتك المِهَنية ، والروحية ، والجسمية، والعقلية ، والاجتماعية ، والعاطفية ..

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ)

فهذه الهاء في (عنه)على من تعود ؟

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ)

الإنسان ..

(يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ)

معنى الوزر :

أي في هذا الوزر ، وبعض المفسرين قال : في جزاء هذا الوزر ، فما قولك أن يرتكب الإنسان معصيةً لساعةٍ أو لساعات ، أو لشهرٍ أو لسنوات ، ويتحمَّل شقاءها إلى الأبد ، فلو أن هذه المعصية دام نعيمها ، أو دامت لذَّتها طوال حياته ، وانقضت الحياة ، وجاء الحساب ، وأصبح خالداً في النار نظير هذه المعصية ، فهل كان هذا الإنسان عاقلاً ؟ " ابن آدم أطع ربك تسمَّ عاقلاً " .

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(سنن الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ)

لذلك هذه كلمة :

(خَالِدِينَ فِيهِ)

أي في الوزر ، وفي جزاء الوزر .

هذا مثل منتزع من حياتنا اليومية : لو أن إنساناً في ساعة غضبٍ قتل إنساناً ، وسيق للمحاكمة ، وحُكم عليه بأن يمضي في السجن ثلاثين عاماً مع الأشغال الشاقة ، يا ترى نشوة الظَفَر بقتل هذا الإنسان هل تساوي أن يمضي في السجن ثلاثين عاماً مع الأشغال الشاقة ؟ الثلاثون عاماً تمضي ، والأربعون تمضي ، والخمسون تمضي ، ولكن الأبد لا يمضي ، الأبد أبد ، أي إلى الأبد ، فهذا الإنسان الذي لا يعرف معنى الأبد ، ومعنى الخلود رجلٌ أحمق ، وإذا عصى ربه الواحد المتعالي .

(خَالِدِينَ فِيهِ)

في هذا الوزر ، في تبعة هذا الوزر ، وفي شقائه ، وعِقابه ، أي في النار التي استوجبت هذا الوزر .

(وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً)

وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلا

حملٌ ثقيل ، بين أن يأتي الإنسان إلى رب العالمين بوجهٍ نضر ، وبوجهٍ أبيض ، وبيدٍ محملةٍ بالأعمال الصالحة ، فشتان بين أن يأتي سيدنا الصديق رضي الله عنه ، وقد كان خادماً كما روى عن نفسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان معه في السرَّاء والضرَّاء ، وساهم معه في نشر هذا الدين الحنيف ، وبين أن يأتي أبو جهلٍ ليقف إلى جانبه ليلقى جزاء عمله ، شتان بين من يأتي يوم القيامة ، وقد تزوَّج امرأةً صالحة فسعد بها ، وأسعدها ، وأنجب منها ذرية طيبة رباها تربية صحيحة ، وكان خيِّراً معطاءً ، وبين من يأتي وقد زنى بفلانةٍ وعلاَّنة ، وتسبب في شقائهما ، شتان بين من يقرض الله قرضاً حسناً وبين المُرابي ، شتان بين من ينصح في البيع والشراء وبين من يغش ، شتان بين من يصدق وبين من يكذب .

(خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)

من مَشَاهِد يوم القيامة :

1 - النفخ في الصور :

النفخُ في الصور هذا ورد في أكثر من موضعٍ في كتاب الله ، لا نعرف كُنْهَ الصور ، ولكن نعرف أن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا أنه في وقتٍ معين ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات والأرض ، ثم ينفخ فيه أُخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون ، فالنفخ في الصور إشارة إلى بعث الناس من قبورهم ، فالأشياء التي غابت عنا بذواتها وآثارها ، مسلك اليقين بها هو مسلك اليقين الإخباري ، الإخبار اليقيني ، أو اليقين الإخباري ، والله سبحانه وتعالى أخبرنا وهو الصادق المَصدوق في كتابه الكريم أن هناك نفخاً في الصور يستدعي قيام الناس من قبورهم ليلقوا نتائج عملهم .

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)

2 - حشر المجرمين زُرقا :

المعنى الأول للزرق :

فكلمة زرقاً تشبه قوله تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(107))

(سورة آل عمران)

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ)

(سورة آل عمران : من آية " 106 ")

الزرق اللون الأزرق القريب من اللون الأسود ، فهو كنايةٌ عن سواد الوجه الذي هو سبب الخزي والعار الذي سببته المعصية والانحراف .

المعنى الثاني :

وهناك معنى آخر لكلمة زرق : وهو شخوص البصر ، وهو دليل الخوف الذي ملأ القلب ، يحشرون خائفين ، أو يحشرون بوجوه مسودَّة ، فالمجرم دائماً وجهه أسود تعلوه كآبة ، وتعلوه مسحةٌ من سواد .

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ)

من حقارة الدنيا : قِصَرُ زمنها :

التخافُت الكلام السرِّي ، أي بصوتٍ مهموس ، وبصوتٍ غير مسموع..

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً)

أي أن هذه الدنيا التي سرحتم بها ، ومرحتم ، واستعليتم على خلق الله ، وفعلتم ما فعلتم ، وعصيتم ما عصيتم ، وانتهكتم ما انتهكتم ، هذه الدنيا التي ظننتم أنها طويلةٌ جداً ، وأنها حياةٌ أمضيتموها في المتع الرخيصة هي الآن في نظر المجرمين إن هي إلا عشرة أيام ..

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً)

فإذا واجه الإنسان الألم ، تمضي أيام السرور عليه سِراعاً ، أيام اللذة تمضي وكأنها دقائق ، لذلك قالوا: ساعة اللَّذة دقيقة ، ودقيقة الألم ساعة ، والأيام التي سُرَّ بها الإنسان ، وانقضى أجله ، وجاء يوم القيامة ليلقى جزاء عمله يراها ساعات ، وأياماً ..

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً)

يقول الله سبحانه وتعالى :

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً)

بل إن بعض هؤلاء المجرمين ليقولون قولاً مغايراً لم يلبثوا إلا يوماً واحداً ، ما قولكم ؟ فهل من العقل ومن الذكاء ومن رجاحة التفكير أن يمضي الإنسان عمراً قصيراً مشحوناً بالمتاعب والآلام والهموم بمعصيةٍ يلقى بعدها عذاباً أبدياً سرمدياً ؟!

(إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً)

يومًا ، لذلك سئلت السيدة رابعة العدوية رحمها الله تعالى عن الإنسان فقالت : " هو بضعة أيام ، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه "، بضعة أيام ، وكلٌ منا له عُمُر ، ليسألْ نفسه هذا السؤال : كيف مضى هذا العمر ؟ يقول : والله بين عشيةٍ أو ضحاها صرت في هذا العمر ، فإذا كانت الأربعون عاماً مضت هكذا ، ألا يمكن أن تمضي العشرون الأُخَر بلمح البصر ؟ تمضي سراعاً ، نحن نستقبل الصيف ونودِّعه ، ونستقبل الشتاء ونودعه ، ونستقبل عام سبعة وثمانين ، وبعده عام ثمانية وثمانين ، وبعده بسنتين عام تسعين ، وهكذا ، الأيام تمضي سريعاً ، من هنا قال سيدنا علي كرم الله وجهه : " كل متوقعٍ آت وكل آتٍ قريب " .

وعلى كلٍ فهناك بشارة من الله عزَّ وجل أن الذي يخشى ذنبه ، ويسعى لتكفيره ، وأن الذي يُقلقه مصيره ، ويسعى لصلاح نفسه ، وأن الذي يخشى غضب الله عزَّ وجل ويسعى لبلوغ رضاه ، وأن الذي لا يرتاح لحالته النفسية ، ويسعى لتسليتها ، هذا الإنسان الذي يستغفر ، ويجهد في إرضاء الله عزَّ وجل هذا في بحبوحةٍ لن يعذبه الله عزَّ وجل لقوله تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(33))

(سورة الأنفال)

أي :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

معنى هذه الآية :

هذه الآية أول معنى من معانيها : إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم لن يعذَّبوا لأن الدعوة قائمة ، وإذا انتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى وبقيت سُنَّته ، وشريعته فيهم ، مطبقةً في بيوتهم ، وفي أعمالهم ، وفي تحركاتهم ، وفي سكناتهم ، إذا بقيت محبته فيهم لن يعذبهم الله عزَّ وجل ، فإذا كان الإنسان قد أقلقه مصيره ، وخاف على نفسه ألا يكون الله راضياً عنه ، ورأى في حياته خللاً ، وسعى لإصلاحه فهو في بحبوحة ، ليطمئن ، ما دام السعي حثيثاً لبلوغ الهدف النبيل ، فالله سبحانه وتعالى يعطي هذا العبد فرصةً كي يصلح من شأنه .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً)

3 - نسفُ الجبال :

ويبدو أن الجبال عند أهل مكة شيءٌ صارخٌ في حياتهم ، فحيثُما التفت المَكّيُ رأى جبالاً شاهقةً موزعةً في كل الأنحاء ، ومن يحج البيت الحرام يعرف مصداق هذه الآية ، ويبدو أن كفار قريش سألوا النبي عليه الصلاة والسلام عن مصير هذه الجبال ؟ فقال الله عزَّ وجل :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً)

لا يبقى منها شيء ..

(فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً)

أي يذر مكانها أرضاً منبسطةً ملساء ، قاعاً أي أرضاً ممهدةً ملساء..

(لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)

العوج والأمتُ :

العوج هو المنخفض ، والأمت هو المرتفع ، لا مرتفع ولا منخفض ، أو أن هذه الجبال تصبح كالرمال تذروها الرياح ..

(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ(5))

(سورة القارعة)

هذه قدرة الله عزَّ وجل ، فجبل همالايا ارتفاعه اثنا عشر ألف وثمانمائة متر .. أي اثنا عشر كيلو متر تقريباً .. وأعلى نقطة فيه قمة إفريست ، هذا الجبل داخل في هذه الآية :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً)

جبال الألب بأوروبا ، وجبال أورال ، وجبال الأطلسي ، وهناك جبال كثيرة ، فهذا جبل قاسيون تلّة صغيرة ..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)

ولذلك :

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2)وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(3)وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(4)وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(5)وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ(6)وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ(7)وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(9))

(سورة التكوير)

هذه كلها من مشاهد يوم القيامة ، ويومئذٍ هؤلاء المجرمون ، وهؤلاء الذين عصوا ربَّهم في الدنيا ، وعتوا عن أمره ، وتمرَّدوا ، واستعلوا ، ورأوا أنهم كل شيء ..

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ)

4 - إجابة داعي الله يوم القيامة من غير امتناع ولا بطء :

أي لا يتلكَّأون ، ولا يتباطأون ، ولا يمتنعون عن تلبية الداعي ، نحن في الدنيا ، إذا جاء بعض الناس الداعي ليأخذه إلى مكانٍ معيَّن ، ليس في إمكانه أن يقول : لا أذهب ، فكيف إذا جاء الداعي من قِبَل الله سبحانه وتعالى ، إذا جاء الداعي من قبل إنسانٍ لا تستطيع ألا تلبِّي دعوته ، فكيف إذا جاء الداعي من قبل الواحد الديَّان ؟ فلذلك ارتكب أحدهم عملاً فظيعاً ، وذهب إلى الحج ليستغفر الله عزَّ وجل فكان يقول : " رب اغفر لي ذنبي ولا أظنك تفعل " ، فقال له أعرابيٌ : " يا هذا ما أشد يأسك من رحمة الله؟! " ، فقال : " ذنبي عظيم " ، فذكر له قصةً مروِّعة ، يبدو أنه كان في بيت ، وقد قتل الزوجَ والولد فأعطته الزوجة ، طبعاً هو يهدف أن يأخذ ما في هذا البيت ، فأعطته الزوجة درعاً مُذْهَبَةً كتب عليها بيتان من الشعر فوقع مغمياً عليه :

إذا جار الأمير وحاجـــباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فـويلٌ ثم ويلٌ ثم ويـــلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماء

* * *

فإذا جاء يومئذٍ الداعي ..

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ)

لا عوج ، ولا تلكُّؤ ، ولا تريُّث ، ولا رفض ، ولا تمرُّد أبداً ..

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ)

فنحن في الدنيا إذا جاء داعي الموت ، مَنْ مِنَ الناس يستطيع أن يرفض هذه الدعوة ؟ ولو كنتم في بروجٍ مشَيَّدة .. لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفس .. هكذا قال أحد الشعراء في العصر العباسي :

لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفس وإن تمنعت بالـحجاب والـحـرس

فما تزال سهام المـوت نـافذةً في جنب مـدَّرع منها ومُـتَّرس

أراك لست بـوقـافٍ و لا حـذرٍ كالحاطب الخابط الأعواد في الغَلَس

ترجو النجاة ولم تسلك مســالكها إن الســفينة لا تجـري على اليَبَس

* * *

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها .. فقد تجد الناس يقولون : " الله يرحمنا ، والله يغفر لنا ، ونحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان ، فالله يتولانا بعفوه ، ولا تسعنا إلا مغفرته " ، هذا كلام لا يسمن ولا يغني من جوع ، إذ لابدَّ من العمل ، فطلب الجنة من دون عمل ذنبٌ من الذنوب ، هذا الذي يطلب الجنة بلا عمل كالمستهزئ بربه ..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فـإنا منـحنا بالرضا من أحبنا

و لُذ بحمانا و احتمِ بـجنابنـا لنحميك مما فيه أشــرار خلقنا

و عن ذكرنا لا يشغلنك شاغلٌ وأخلص لنا تلق المسرَّة و الـهنا

* * *

وبعدئذٍ يقول ناظم هذه القصيدة :

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما ولَّيت عنا لغيـرنا

ولو سـمعت أذناك حسـن خطابنا خلعت ثياب العجب عنك وجئتنا

ولو ذقت من طـعم المـحبة ذرةً عـذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولو نسمت من قربنا لك نســمة لـمـت غريباً و اشتياقاً لقـربنا

* * *

فما حبنا سهلٌ .. هنا بيت القصيد :

فما حبنا ســهلٌ ، وكل من ادعى سهولته قـلـنا لـه : قد جهلـتـنا

فأيسـر ما في الحب للصبِّ قتـلـه وأصعب من قتل الفتى يوم هجـرنا

* * *

فلذلك ربنا عزَّ وجل يقول :

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً)

5 – خشوع الأصوات :

وفي الدنيا ينفجر الإنسان أحياناً بالصوت ، ويعلو صوته على صوت الآخرين بدافع من استعلائه أو تمرُّده ، ولكن هذا المجرم يوم القيامة لا تسمع له صوتاً ..

(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ)

خشوع الصوت أي سكونه ..

(فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً)

لشدة هول الموقف

ليس من يقطع طُرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

البطولة أن تعد لهذا الموقف عُدَّته ، والبطولة أن تعد لهذا الموقف الاستقامة التامة ، والعمل الصالح ، وفهم كتاب الله ، والعمل به ، وأن تحضر مجالس العلم ، وأن تعرف الأمر والنهي ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، فهذه هي البطولة .

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً* يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً)

6 – مشهد الشفاعة :

والله سبحانه وتعالى ينفي نفع الشفاعة إحقاقاً للحق وتنفيذاً لوعده ووعيده ، وعد الله بالجنة ، ووعيده بالنار ، فإذا نفعت الشفاعة بمعناها الضيِّق ، تعطَّل الوعد والوعيد ، وتعطَّل الثواب والعقاب ، ولم يحق الحق، وكان ذلك مخالفاً لما ذكره الله سبحانه وتعالى في آياتٍ أخرى ، لكن شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام حقٌ ولها تفصيلٌ ذكرناه في دروس العقيدة ، شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام لا ينالُها إلا من مات غير مشركٍ بالله عزَّ وجل ، هذا ورد في صحيح الأحاديث .. " لا تنال النفس شفاعة النبي إلا إذا كانت موحدةً في الدنيا " .. ولها شروطٌ ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول : " يا فاطمة .. مشيراً إلى المعنى الساذج للشفاعة الذي يتعلق به عامة الناس ، يظنون أنهم إذا آمنوا بشفاعة النبي فلهم أن يفعلوا ما يفعلون من المنكرات والآثام والمعاصي والنبي صلى الله عليه وسلم يدخلهم الجنة ، وانتهى الأمر ، إذن تعطل الدين كله ، فالشفاعة لها معنىً آخر لا مجال الآن لذكرها بالتفصيل ، ولكنها حقٌ ويجب أن نعتقد بها ، وهي من العقائد التي يجب أن تعلم بالضرورة ، لكن بمفهومها الساذج أن يفعل الإنسان ما يفعل من شرورٍ ، وآثامٍ ، ومعاصٍ ، وأن يمتنع عن أداء الحقوق والواجبات ويقول : سَيُشْفَعُ لي ، فأنا من أمة محمد ، هذا الكلام ليس مقبولاً في نص هذه الآية ، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((يا فاطمة بنت محمد ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

وفي قولٍ آخر إن النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة يرى بعضاً من أمته يسحبون إلى النار فيقول:

((أمّتي أمّتي ، فيقال له : لا تدري ماذا أحدثوا بعدك ، فيقول : سحقاً سُحقاً))

(ابن ماجه عن أبي هريرة)

(يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً)

لا شفاعة إلا بإذن الرحمن ورضاه :

فالشفاعة كما قلت قبل قليل حقٌ ، ولكن لمن أذن له الرحمن ، والنبي عليه الصلاة والسلام صاحب الشفاعةِ العُظمى ، ولكن شفاعته مقيدةٌ بأن يموت المرء غير مشركٍ بالله عزَّ وجل ، فمن لم يشرك بالله عزَّ وجل ، واتبع سُنَّته في الدنيا ، شفع له النبي عليه الصلاة والسلام في الآخرة ، فكانت كرامة الله عزَّ وجل لهذا النبي بأن يسوق الخير للمؤمنين على يديه ، أما في القسم الأخير من هذه الآية :

(إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً)

فحتى الشفاعة نفسها لا تجدي إلا في حالةٍ واحدة :

(إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً)

وهذا مِصْداق قوله تعالى :

(وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنْ ارْتَضَى)

(سورة الأنبياء : من آية " 28 ")

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)

أي أن الله سبحانه وتعالى يعلم أعمال كل الخلق ..

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

أمَّا هم ..

(وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)

فلذلك من السذاجة أن تظن أنك تعلم كل شيء ..

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا(85))

(سورة الإسراء)

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(سورة البقرة : من آية " 255 ")

(وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)

العَجز عن الإدراك إدراك :

إنّ الإنسان أحياناً كما قال بعض العلماء : العَجز عن الإدراك إدراك ، فحينما ترى أن الله سبحانه وتعالى لا نهائيّ في كل شيء ، وأن علمه لا يُحَد بحد ، وأن قدرته لا تحد ، وأن عظمته لا تحد ، عندئذٍ تستسلم لهذه الذات الكاملة ، ولا يسعك إلا أن تعبد الله سبحانه وتعالى ، وأن تشكره على عطائه ، وهذا

مصداق قوله تعالى :

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

(وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ)

أي خضعت .

(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً)

الظالم ما أشدَّ الناس خسارةً يوم القيامة :

أي من حمل ظلماً يأتي يوم القيامة وهو من أشد الناس خسارةً ، خاب ، ولم يحقق الهدف ، فلذلك كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

(صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ)

من أنواع ظلم الإنسان نفسَه :

وأشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه ، ومعنى ظلم النفس أن يحرمها معرفة الله عزَّ وجل ، وهذا أشد أنواع الظلم .

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(57))

(سورة البقرة)

وحينما تحرم نفسك لذَّة معرفة الله وسعادة القرب منه ، فهذا من أشد أنواع الظلم .

(وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً)

والله الذي لا إله إلا هو لَزوالُ السماوات والأرض أهون على الله من أن تستقيم على أمره ، وأن تعمل صالحاً ، وأن يَخِيبَ مسعاك ، وأن تُهْضَمَ حقوقك ، ولذلك هذه الآية تبثُّ التفاؤل في النفس ، وتبثُّ البشر .

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

اقتران الإيمان بالعمل الصالح :

عرف الله وخدم الخلق ، وكان مستقيما في علاقته بالناس ، وقدَّم للناس خدماتٍ صحيحة مخلصة ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل ، وانطلق من قول النبي عليه لصلاة والسلام :

((الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

(الجامع الصغير عن الحسن مرسلا بسند حسن)

فمن كان عمله صالحاً ، ومن خدم بني البشر ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل ، ومن صَدَقَهُم ، ومن أخلص لهم ، ومن أعانهم على مصـائبهم ، ومن خفف عنهم تبعات الحياة .

(فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً)

ولكن العمل الصالح مقيدٌ بالإيمان ، ومن دون إيمان ربما كان هذا العمل الصالح ذكاءً ، وكياسةً ، وسياسةً ، وحِذْقاً في تصريف الأمور ، وربما تكون محسناً ليقول الناس عنك كذلك ، وليرتفع اسمك لدى من تعاشره ، ولكن البطولة أن تعمل صالحاً وأنت مؤمن ، فالعمل الصالح إذا بني على الإيمان كان ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل .

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً)

لا يُظْلَم ، ولا تُهْضَمَ حقوقه .

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً)

معنى عربياً أي واسع البيان ..

(وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ)

معنى تصريف الوعيد في القرآن :

أي نوَّعنا فيه ، وتارةً يأتي الأمر ، وتارةً يأتي النهي ، وحينما يأتي الوَعْدُ ، أو يأتي الوعيد ، وقد تأتي القصة ، أو يُضْرَبُ المثل ، أو يُذَكَّرُ الإنسان بماضيه ونشأته ، ثم يصوَّر له مصيره بعد الموت ، ومرةً يذكر لنا الله سبحانه وتعالى أخبار من سبقنا ، ومرةً يحدِّثنا عما سيكون ..

(وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً)

ولعل هذا القرآن بسوره ، وآياته ، وقصصه ، وأمثاله ، وأوامره ، ونواهيه ، ووعده ، ووعيده ، وحكمه ، يُحْدِثُ في هذه النفس أثراً بَيِّنًا .

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

وجوبُ تنزيهِ الله من كل نقصٍ :

تعالى عن كل نقيصة ، سبحانه وتعالى ، هذا من ألفاظ التنزيه ، أي تعالى الله علواً كبيراً عن أن يخلقنا عبثاً ، وأن يهضم حقوقنا ، وأن يظلمنا ، وألا يرحمنا ، تعالى الله سبحانه وتعالى :

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

المقياس الرباني : وقل ربّ زدني علمًا

هذه الآية أيضاً إشارةٌ دقيقة إلى أن القيمة الأساسية التي أرادها الله لتكون عاملاً مُرَجِّحَاً بين بني البشر هو العلم ..

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر : من آية " 9 ")

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

لذلك أعلى مرتبةٍ ينالها الإنسان في الحياة الدنيا أن يتعلَّم ، وأن يعرف الله عزَّ وجل ، وإن الله عالمٌ يحب كل عالم ..

((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))

(البخاري عن عثمان)

ليس فوق العلم مرتبة :

وليس فوق مرتبة العلم مرتبة ، فإذا أردت الكرامة عند الله ، فتعلَّم هذا القرآن ، وعلِّمه الناس ، فعندئذٍ تكون من خير الناس .

((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))

(البخاري عن عثمان)

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

لم يقل : زدني مالاً ، ولم يقل : زدني جاهاً ، لأن المال زائل ظلٌ زائل ، وعاريةٌ مستردة ، ولأن الجاه ينتهي بالموت ، ولكن الله عزَّ وجل قال :

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((لا بورك لي في شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً))

(الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال)

وفي روايةٍ أخرى :

((لا بورك لي في يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً))

(الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال)

فيجب أن تزداد في كل يومٍ علماً وقرباً ، تعلَّم كتاب الله ، احضر مجالس العلم تزدد علماً ، افعل الصالحات تزدد قُرباً .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110))

(سورة الكهف)

فلذلك العلم يستمر أثره إلى ما بعد الموت ..

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثٍ ، صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ))

(سنن الترمذي : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ)

فلذلك باب العلم مفتوح ، وأبواب المساجد مفتَّحة ، ولحكمةٍ بالغة جعل الله عزَّ وجل بذل العلم مُتاحاً لكل إنسان ، فالعلم مبذول من دون مقابل ، ولا تستطيع أن تطرق باب الطبيب إلا والمال في جيبك ، ولا أن تطرق باب المحامي إلا والمال في جيبك ، ولا أن تدخل إلى حانوتٍ إلا والمال في جيبك ، ولكنك تدخل أي بيتٍ من بيوت الله لتستمع إلى تفسير كلام الله من دون مقابل ، لا جزاءً ولا شكوراً ، فلذلك العلم مبذول ، فعلى كل مؤمنٍ أن يتعلم كلام الله وأن يعلمه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 115 – 128
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-03-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الثامن من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي من هذه السورة إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)

حال المؤمن في الجنة :

هذه الآيات لابدَّ أن تنقلنا إلى موضوع الجنَّة ، فالإنسان في الجنَّة له حالٌ خاص تختلف اختلافاً بيِّناً عن حاله في الدنيا ، فإنه في الجنَّة نفسٌ مرتكزةٌ إلى جسد ، فالنفس ترى مباشرةً لا من خلال عينين كما هي الحال في الدنيا ، إن النفس كلها أعينٌ ، لمجرَّد أن تتجه إلى جهةٍ معيَّنة حتى ترى كل شيء ، والنفس كلُّها آذانٌ ، إنها نورٌ مركَّبٌ على جسده ، لذلك في الجنَّة لا شقاء ولا تعب ، ولا سعي ، ولا كدَّ ، ولا إرهاق، ولا جهداً يُبْذَل ، ولا أي شيء مما يُحِسُّه الإنسان في الدنيا .

فربنا سبحانه وتعالى لابدَّ أن يجعل من هذا النبي العظيم سيدنا آدم الذي بدأ به الخلق خليفته في الأرض، وقبل أن يجعله خليفته أراد أن يعطيه درساً بليغاً ، إن نزول سيدنا آدم من الجنَّة إلى الأرض نزولٌ محقَّق ، ولكن كان بطريقةٍ فيها تعليمٌ له ولنا على مرِّ العصور والدهور .

والإنسان في الجنَّة نفسٌ مركَّبةٌ على جسد ، لكنَّه في الدنيا على الأرض جسدٌ في داخله النفس ،و هذا الجسد يشغل حيِّزاً إذ يحتاج إلى غذاء ، وإلى ماء ، ومتى تناول الغذاء ، والماء يحتاج إلى إخراج الفضلات ، وإلى سعيٍ ، فطبيعة الحياة على وجه الأرض طبيعةٌ فيها سعيٌ وكدٌ ، وتعبٌ ، وجوعٌ وعطشٌ ، يحتاج إلى طعامٍ ، وإلى شرابٍ ، ولباسٍ، ومسكنٍ ، وزوجةٍ ، بينما هو في الجنَّة لا يحتاج إلى أي شيءٍ من هذا ، فإن النفس تسعد فيها مباشرةً لا عن طريق الوسائط .

حكمةُ المحظور من أجل تربية الإرادة البشرية :

فربنا سبحانه وتعالى أراد أن يربي هذا الإنسان من خلال هذا الدرس البليغ الذي علَّمنا إياه ، فما هذه التربية ؟ لابدَّ من محظور ، ولماذا المحظور ؟ أنه من أجل تربية الإرادة ، وإن أثمن ما يملكه الإنسان الإرادة الحرَّة التي منحها الله إياه ، وهذه الإرادة الحرَّة لا قيمة لها إلا إذا كانت منضبطةً وفق القواعد والأصول ، فمن أجل أن تُرَبَّى هذه الإرادة لابدَّ أن يكون في الحياة شيءٌ محظور ، فهذا الذي ينساق وراء شهواته ضعيف الإرادة ، وليس أهلاً أن يكون خليفة الله في الأرض ، وهذا الذي يستجيب لكل رغبة ، وينساق مع كل شهوة ، يفعل كل ما يخطر بباله هذا إنسان ساقط ، مُتهافت ، ضعيف الإرادة ، إنه كتلةٌ من الشهوات تتحرَّك ، لكنَّ الإنسان الذي أعدَّه الله ليكون خليفةً في الأرض لابدَّ أن تنمو عنده الإرادة .

و لذلك فربنا سبحانه وتعالى فيما ترويه التفاسير عَهِدَ إلى سيدنا آدم أن لا يأكل من هذه الشجرة ..

(وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا)

(سورة البقرة : من آية " 35 ")

من أي شيءٍ كُلا إلا هذه الشجرة ، إذاً في هذه إشارةٌ إلى أن المُباحات أكثر بكثير من المُحَرَّمات ، وأن الإنسان حينما يدع جميع المُباحات ، ويقترف المحرَّم فقد أساء وظلم ، لأن الله سبحانه وتعالى أباح كل شيء ، وقد قال علماء الأصول : " الأصل في الأشياء الإباحة " :

(وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

(سورة البقرة : من آية " 35 ")

نهيٌ واحد مع إباحةٌ لكل شيء ..

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

تفسير الآية ومعناها وما يُستنبَط منها :

أوجه التفاسير أن هذا النبي الكريم الذي قال عنه سيد المرسلين :

((آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إلا تَحْتَ لِوَائِي وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلا فَخْرَ))

(سنن الترمذي أبي سعيد)

فاستنبط من هذا الحديث أن سيد ولد آدم هو النبي عليه الصلاة والسلام ، ويأتي بعده سيدنا آدم ، فهو أعظم النبيين صلى الله عليه وسلَّم ..

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا)

أي وصَّيْنا ..

(إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ)

أي من قبل أن يأتي إلى الأرض ، ومن قبل أن يهبط إلى الأرض ، حينما كان في الجنَّة ، أبحنا له كل شيء عدا هذه الشجرة ..

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ)

لكنَّ هذا النبي الكريم ما كان يعرف الكذب ، ووَسْوَسَ إليه الشيطان أن :

(يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى)

يبدو أن هذا النبي الكريم كان في حالةٍ من القرب شديدة ، وأنه أراد أن يبقى في هذه الحالة ، وأن يخلُد فيها ، ولم يكن يعرف ما الكذب ..

(فَنَسِيَ)

معاني : وَلَم نَجِدْ لَهُ عَزْمًا

المعنى الأول : معصيةُ آدم معصيةُ نسيان وسهوٍ :

إنه ما عصى عن تصوُّرٍ وتصميم ، لكنَّ معصيته جاءت عن نسيانٍ وسهوٍ ، ولذلك قال العلماء : " إن هذه الآية لا تقدح في عصمة سيدنا آدم ، " ولله عزَّ وجل أن يقول ما يشاء عن سيدنا آدم ، أما نحن البشر فليس لنا أن نقول عنه : إنه عصى ربَّه بالمعنى الذي يفهمه عامَّة الناس ، لأن الله سبحانه وتعالى برَّأه من أن تكون معصيته عن تصورٍ وتصميم ..

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ)

وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((وضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطأَ وَالنِّسْيَانَ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))

(سنن ابن ماجة عن ابن عبَّاس)

إذاً نسيان هذا النبي هذا الحظرَ الإلهيَ لا يعني أنه عصى ربَّه بالمعنى الذي نفهمه نحن ، أي عصاه عن تصورٍ وتصميم ، ولكنَّ هذه المعصية جاءت عن نسيانٍ وسهوٍ ..

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

المعنى الثاني : عدمُ العزم على المعصية :

أيضاً من أوجه التفاسير أن هذا النبي الكريم ما كان يملك العزيمة على معصية الله ، فما كان عازماً على معصيته ، والدليل أن الله سبحانه وتعالى سرعان ما غفر له ، واجتباه وقَرَّبه ، ولو أنه عصى عن تصورٍ وتصميم ، أو كان يملك العزيمة الأكيدة على معصية الله عزَّ وجل لما كانت عودته واجتباؤه وتكريمه بهذه السرعة الفائقة ..

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

من فوائد الآية المسلكيةِ : لا بد في الحياة من المحظور :

إذاً هذه الآية تعلّمنا أنه لابدَّ أن يكون في الحياة شيءٌ محظور، لأن هذا الشيء المحظور يربِّي الإرادة في الإنسان ، ولماذا الإرادة ؟ لأنها أثمن ما يملكه الإنسان ، فإنه بالإرادة يرقى إلى الله سبحانه وتعالى، فالإنسان مخيَّر ، وإن مشيئة الله سبحانه وتعالى شاءت أن يكون الإنسان ذا مشيئةٍ حرَّة ، وإن الله سبحانه وتعالى منحه الاختيار ، فمنحه الإرادة الحرَّة ، والمشيئة الحرَّة ، وهذه المشيئة والإرادة لابدَّ لهما من تربية ، وتربيتهما تكون في أن هناك في حياة الإنسان شيئاً محظوراً .

فالصيام مثلاً ونحن على أبواب رمضان ، يربِّي في الإنسان الإرادة القويَّة ، فشيءٌ مباح ، شربةُ الماء ، وليست محرَّمة ، ولكنَّها في هذا الشهر محرَّمة من أجل أن تُربَّى في الإنسان الإرادة الصُلبة المتينة ، إذاً لا يمكن أن تكون الإرادةٍ ذات قيمةٍ إلا إذا كانت منضبطة لا وفق الهوى ، ولكن وفق الحق والقيم ، فهذا الذي يعطي نفسه ما تشتهي ، ومقاومته أمام الشهوات هَشَّة ، ضعيفةٌ ، فسرعان ما ينهار أمام كل شيءٍ مُغْرٍ ، وهذا الذي تجذبه المغريات ، وتخيفه الضغوط هذا إنسانٌ ضعيف الإرادة ، لا يصلح أن يكون خليفة الله في الأرض ، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يعلّمنا في نزول هذا النبي الكريم من الجنَّة إلى الأرض درساً لا يُنْسَى ، وهو أن الإنسان أثمن ما يملكه في حياته الإرادة الحرَّة ، وأن هذه الإرادة الحرَّة لا ترقى إلا بالمحظورات .

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا)

أي وصَّيْنا ..

(عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ)

من قبل أن يهبط إلى الأرض ..

(فَنَسِيَ)

هذا العهد ، ونسي تلك الوصيَّة ..

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

لأنه لو لم ينسَ لبقي في الجنَّة ، ولابدَّ أن يهبط إلى الأرض ..

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى)

سجود الملائكة لآدم :

وأيضاً هذا السجود ليس سجود العبادة ، ولكنَّه سجود التعظيم ، فهناك سجود التكريم ، وهناك سجود التعظيم ، وهناك سجود العبادة ، أما سجود العبادة فهو لله وحده ، ولا ينبغي لبشرٍ أن يسجد لبشر إلا أن يكون السجود كنايةً عن التكريم والتعظيم كما ورد في بعض آيات القرآن الكريم .

نسي وصيَّتنا ، أو نسي أمْرنا ، ولم تكن عنده عزيمةٌ على المعصية ، فهذا تعليلٌ لطيف ، وتخريجٌ يتناسب مع مقام هذا النبي الكريم ، ومع عصمة النبي ..

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى)

الحكمة من تكليف الملائكة بالسجود لآدم :

لماذا كُلِّفَ الملائكة السجود لسيدنا آدم ؟ لأن سيدنا آدم حمل الأمانة، والذي يحمل الأمانة يفوق بها من لم يحملها ..

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا(72))

(سورة الأحزاب)

رُكِّبَ المَلَكُ من عقلٍ بلا شهوة ، ورُكِّب الحيوان من شهوةٍ بلا عقل ، ورُكِّب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان ، فالمؤمن إذا أخذ الأمانة بحقِّها ، وعرف ربَّه يفوق بهذا الملائكة المقرَّبين ، ولذلك قال الله عزَّ وجل في الحديث القدسي :

((عبدي المؤمن أحبُّ إليَّ من بعض ملائكتي))

(الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند ضعيف)

ما من شيءٍ أكرم على الله من شابٍ تائب ..

(فَقُلْنَا يَا آدَمُ)

درس بليغ :

درسٌ بليغٌ له ولذريَّته ، وهو على وشك أن يكون خليفة الله في الأرض ..

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة : من آية " 30 ")

علَّمه أن الشيطان عدوٌ له ولذريَّته ..

(فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)

أي إذا أخرجك من الجنَّة تشقى ، بمعنى أنك عندئذٍ تحتاج إلى سعيٍ لكسب الرزق ، وتحتاج إلى عمل ، وإلى كدٍّ ، ودأبٍ ، وجهدٍ تبذله من أجل أن تأكل ، إنك في الجنَّة تتنعَّم ، وتأكل بلا وسائط ماديَّة ، أي أن هذه التفَّاحة يمكن أن تتصل بها نفس الإنسـان فتأخذ كل ما فيها من طعمٍ طيِّب ، وهذا في الجنَّة ، فالإنسان في الجنَّة يمكن أن يأكل أعداداً لا حصر لها من الفواكه والثمار من دون أن يُضطرَّ إلى أن يُدخلها إلى جسده ، إذ يأخذ طعمها الطيِّب ، ويبتعد عن مادَّتها التي هي عبءٌ على جسده ، لكنه في الأرض لا يستطيع أن يذوق طعم هذه التفاحة إلا إذا وضعها في فمه ، فإذا وضعها أصبحت عبئاً على جهازه الهضمي ، فكانت هناك التُخمة ، وهناك أمراض الجهاز الهضمي ، أي أن الحياة في الأرض تحتاج إلى جهدٍ كبير ، فمن أجل أن تأكل طبقاً من الطعام تحتاج إلى ساعاتٍ لإعداده، ومن أجل أن تصل إلى هذا الشيء تحتاج إلى سنوات ، وهكذا فسَّر بعض المفسِّرين معنى تشقى .

لماذا تشقى وحدك فقط ؟

والشيء الذي يجذب النظر في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى لم يقل : فلا يخرجنَّكما من الجنَّة فتشقيا، بل قال : فتشقى ، لأن السعي والكدّ في نظر الدين على الرجل ، ولأن الأمومة والتربية على المرأة ، فالرجل يعمل ليكسِبَ الرزق ، والمرأة تربِّي الأولاد وتنشـئهم تنشئةً عالية ، من هنا المرأة التي شكت إلى النبي عليه الصلاة والسلام زوجها ، والتي قال الله في حقِّها :

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)

(سورة المجادلة : من آية " 1 ")

هذه المرأة حينما خاطبت النبي عليه الصلاة والسلام قالت له : " يا رسول الله إن فلاناً تزوَّجني وأنا شابَّة ذات أهلٍ ومالٍ وجمال ، فلمَّا كَبِرَتْ سني ونثر بطني وتفرَّق أهلي وذهب مالي قال : أنتِ عليَّ كظهر أمي ، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا .. فهو لا يربيهم .. وإن ضممتهم إلي جاعوا .. فأنا لا أطعمهم ولكني أربيهم ، وهو لا يربيهم ولكنَّه يطعمهم .. " فهذه المرأة حدَّدت بالضبط مهمَّة الرجل

في الحياة ، فالرجل يعمل خارج البيت لكسب الرزق ، والمرأة تعمل وأخطر عملٍ تقوم به المرأة على وجه الأرض وهو تربية الأولاد ، فمن أجل أن يكون الأولاد في المجتمع صالحين لابدَّ لهم من أمٍ رؤوم تحنو عليهم ، وتعطي وقتها من أجلهم ، فلذلك:

(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)

فتشقى وحدك ، هي في البيت ، وأنت خارج البيت ، وإنك مكلَّفٌ بكسب المال ، فالرجل أحياناً قد يأتي إلى البيت مُتْعَبًا ، وليس التعب تعباً مادياً ، فحسب بل هو تعبٌ نفسي ، فإن صعوبات الحياة ، وإن المتاعب ، وإن العقبات كلَّها يواجهها الزوج بشكلٍ صارخ ، بينما الزوجة هي في بيتها نَاعِمَة البال يأتيها رزقها رغداً ، فلذلك على الزوجة أن تقدِّر أحياناً ظروف كسب المال ، وظروف الحياة الصعبة ، فلا تثقل على زوجها ، ولا تُحمِّله ما لا يطيق ، وقد كانت الصحابيِّات رضوان الله عليهن يقُلن لأزواجهن : " يا فلان نصبر على الجوع ، ولا نصبر على الحرام ، فاتَّق الله فينا " ، فالمرأة التي تُحمِّل زوجها فوق ما يطيق هذه امرأةٌ لا يحبها الله ورسوله ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مَئُونَةً))

(مسند أحمد عن عائشة)

وأقلَّهُنَّ مهراً ، فهذه المرأة اليسيرة التي ترضى باليسير ، والودود الولود الستيِّرة ، التي تكتم نقاط الضعف في زوجها عن الناس ، ولا تفضحه ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يكره المرأة التي تخرج من بيتها ، وتشتكي زوجها ، هذه امرأةٌ لا يحبُّها الله ورسوله ..

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

(سنن بن ماجة عن ثوبان)

فإذا أسكنها في بيت ، وأطعمها ، وكساها ، وأمورها ميسورة ، وكل حينٍ تقول له : طلقني ، فهذه امرأةٌ لا تروح رائحة الجنَّة ، ولا ينظر الله إليها، والمرأة الصالحة تكون عوناً لزوجها على الشيطان ، ولا تكون عوناً للشيطان على زوجها .

أراد رجل أن ينصح امرأته فقال : " إن في خُلُقي سوءاً " ، فقالت له زوجته : " إن أسوأ خُلُقاً منك من حاجكَ لسوء الخُلُق " .

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى* فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا)

أي إن إبليس ..

(عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ)

وبالتالي لذريِّتك ..

(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ)

في الجنَّة ..

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)

مشاهد ما في الجنة من النعم :

وربنا سبحانه وتعالى وصف الجنَّة ، فلك ألا تجوع فيها ، وإنك لست مضطرًّا أن تُدخل الطعام إلى فمك كي تحيا ، وإنك تحيا من دون أن تكون محتاجاً إلى الطعام ، وإن الطعام في الجنَّة لا من أجل أن تحيا به ، بل من أجل أن تتمتَّع به ، ولذلك حيثما اتجهت نفسك في الجنَّة إلى أية فاكهةٍ تأخذ كل اللذَّة منها من دون أن تأكلها .. ولذلك ..

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى)

وهذه النفس التي هي الأصل في الجنَّة مركَّبةٌ على الجسد كلهيب الشمعة كيف أنه يحيط بالفَتيل ، وإنها عيون ، وآذان ، ومشاعر ، وأحاسيس ، خَطَرَ بباله فلان .

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

فأنت في الدنيا من أجل أن تلتقي بفلان لابدَّ أن تسافر إليه ، وتركب المركبة الساعات الطِوال ، ولكنَّك في الجنَّة لمجرَّد أن يخطر ببالك تطلع عليه ، فالحياة في الجنَّة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربِّه :

((أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر))

(متفق عليه عن أبي هريرة)

فما في بالجنَّة تقدُّم في السن ، ولا ضعف في القلب ، ولا بالأعضاء ، ولا خرف ، ولا ضعف في البصر ، ولا تشمع في الكبد ، ولا صمم ، ولا وهَن ، ولا أمراض ، بل شبابٌ دائم ، نقص مواد لا يوجد ، ولا غلاء . فالجنَّة مبذولةٌ للمؤمنين في أبهى مظاهرها ، فلذلك :

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر))

وفي قوله تعالى :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(17))

(سورة السجدة)

أما الدنيا .. فهي " دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترحٍ ، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء .. لأنه موقت .. ولم يحزن لشقاء .. لأنه موقَّت .. قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار

عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي " ..

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)

من ضروريات العبد في الدنيا : الطعام واللباس :

فأساس الحياة أن تكون شبعان البطن ، مكسوَّ البدن ، الثانويات أن تكون في مأوى ، وأن تكون في ريّ، فربنا سبحانه وتعالى فصل المتلازمين ، فكان بعضهم يقول : لو كان الله عزَّ وجل قال : إن لك ألا تجوع وألا تظمأ ، وألا تعرى وألا تضحى ، ومعنى ألا تضحى أي أنك لست بحاجةٍ إلى سكنٍ يحجُبُ عنك أشعَّة الشمس ، وضحَا بمعنى بَرَزَ إلى الشمس ، وهنا كنايةٌ عن المسكن ، لست في الجنَّة محتاجاً إلى طعامٍ وإلى مأوىً ، وإلى لباسٍ وإلى ماءٍ تطفئ به ظمأك ..

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ)

الشيطان أصل في الوسوسة والإضلال :

أي أنك في هذه الحالة الطيِّبة هل تحبُّ أن تستمرَّ بها ، وهل تحبُّ أن تخلُد في هذه الحالة ، هذه أول كذبةٍ يكذبها إبليس على أبينا آدم ، ما كان هذا النبي الكريم يعرف الكذب ، فحينما عصى لم يعصِ وهو يعلم أنه يعصي .. فنسي .. وحينما عصى لم يعصِ وهو عازمٌ على المعصية ..

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

والذي أغراه بهذا أن الشيطان توصَّل إلى نقطة الضعف فيه ، هل تحبُّ أن تكون خالداً في هذه الحالة ؟ قال : بلى ، قال : كل من هذه الشجرة ..

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا)

آثارُ الأكل من الشجرة : العصيان وظهور السوءة :

وحينما أكلا من هذه الشجرة ، أي حينما وضعا التفَّاحة في الفم أصبحت لهما طبيعةٌ خاصَّة ، وأصبحت النفس داخل الجسد ، وصار الجسد محيطاً بالنفس كما هي الحال في الدنيا ، إذن بَدَت العورات ..

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا)

يخصفان أي يضعان ..

(عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)

معنى غوى أي خرج من هذه الحالة المُريحة في الجنَّة ، الغَوِيِّ الخروج عن الطريق ، وهذه الحالة المريحة في الجنَّة خرج منها ..

(فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا)

صار هناك عورات ، ويحتاج إلى لباس ، واللباس يحتاج إلى خياطة ، والخياطة تحتاج إلى نسيج ، والنسيج إلى خيوط ، والخيوط إلى غَزْل ، والغزل إلى قطن ، والقطن إلى زراعة ، وإلى حرث أرض، فمن أجل أن يرتدي هذا الثوب لابدَّ من جهودٍ كبيرة ، وليضع هذه اللقمة في فمه يحتاج إلى زراعة ، وإلى أمطار ، وإلى بذار ، وإلى حصاد ، وإلى دراسة ، وإلى طحن ، وإلى عجن ، وإلى خبز ، وإلى نقود ، وإلى عمل..

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)

انتقال آدم من درا النعيم إلى دار الفتن :

إنَّ هذا هو الدرس الأوَّل ، فانتقال هذا النبي الكريم من حالة أهل الجنَّة إلى حالة أهل الأرض ، وأهل الأرض جاؤوا إلى الدنيا للابتلاء ، والإنسان يُبْتلى بكسب رزقه ، وبزواجه ، وبالفقر ، وبالصحَّة ، وبالمرض ، وبالقوَّة ، والضعف ، وبالعُلوِّ في الأرض ، وبالذلَّة ، إنه دخل إلى دار البلاء ..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

دخل إلى دار الفِتنة ، ودخل إلى دار السَعْي ، والتكليف ، فهذا حلال ، وهذا حرام ، فهو الآن في الأرض ، وعلى الأرض بحاجةٍ إلى طعام ، والطعام يحتاج إلى كَسْب ، وكيف يكسب المال ؟ هل يكسبه حراماً ليأكل ، أم يكسبه حلالاً ليأكل ؟ دخل في الابتلاء ، وأصبحت فيه رغبةٌ إلى النساء لبقاء النوع ، فهل يُلبِّي هذه الرغبة وفق الشريعة التي جاء بها الأنبياء أم وفق الشهوة العمياء كيف يلبي هذه الرغبة ؟ دخل آدم عليه السلام في حالة الابتلاء ، ودخل في حالة السَعي والشقاء ..

(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)

فإذا قلت : فلان عصى بمعنى خالف الأمر ، بصرف النظر عن دوافع المعصية ، فهناك من يعصي ساهياً ، أو مخطئاً ، ومن يعصي متعمِّداً ، أو متحدّياً ، أو فاجراً ، فكلمة عصى تعني الخروج عن الأمر ليس غير من دون أن يدخل الباعث على المعصية ، فإذا كان الباعث هو النِسيان فلهذه المعصية حُكْم ، وإذا كان الباعث هو المعرفة فلهذه المعصية حكم ، وإذا كان الباعث هو التحدِّي فهذا هو الفجور، ولذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(وَعَصَى)

أي أنه خرج بسلوكه عن الأمر الذي أمرناه به ، فهبط من الجنَّة إلى الأرض ، ولأن هذا النبي الكريم عصى ناسياً ولم يعص عازماً ..

(ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى)

توبة الله على آدم :

سريعاً جداً ، ولذلك فالإنسان إذا وقع في مخالفةٍ من دون قصدٍ ، أو من دون تصميم ٍ وإرادةٍ ، ودون أن يكون راغباً في هذه المخالفة توبته سهلةٌ جداً ، أما إذا فعلها عن تَصَوُّرٍ وتصميم ، وإذا فعلها ، وهو يعلم أنه يعصي فهذه مشكلةٌ كبيرة ..

(قالَ اهْبطا مِنْهَا جَمِيعاً)

أي اهبطا ، وكأن حالة أهل الجنَّة أرقى بكثير من حالة أهل الأرض ، حالةٌ كلُّها نعيم ، وكلُّها راحة ، أما الإنسان على وجه الأرض فحياته شاقَّة .

(يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(4))

(سورة البلد)

أي أن طبيعة حياته تحتاج إلى جهدٍ كبير ، ونحن في الدنيا يسكن أحدنا في بيت يكون أمامه زوجة وأولاد ، ويكون له دخل معقول ، ويقول: أربعون سنة وأنا أسعى ، وقد شقيت كثيراً حتى وصلت إلى هنا ، وهكذا طبيعة الحياة ، فيها ابتلاء ، وفيها امتحان في كل شيء ..

(قالَ اهْبطا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

والإنسان في بعض الأحيان تكون امرأته عدوةً له إذا حملته بطلباتها على معصية الله ، وقد يكون الزوج عدواً لامرأته إذا حملها على معصية الله رغبةً في شهوته ، وقد يكون الابن عدواً لأبيه إذا سمح له الأب بشيءٍ يرفع مقامه في الدنيا على حساب دينه ، ويأتي يوم القيامة يقول : " يا رب لا أدخل النار حتى أُدْخِلَ أبي قبلي " .

(الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ(67))

(سورة الزخرف)

فكل إنسان حمل إنساناً على معصية ، أو دفعه إلى مخالفة ، أو كلَّفه ما لا يطيق فعصى الله عزَّ وجل فهذه هي العداوة الحقيقيَّة ..

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

ومع أن الإنسان في الدنيا مُبْتَلى ، وهو في الدنيا صاحب إرادةٍ حُرَّة ، لكن الله سبحانه وتعالى نَصَبَ الآيات ، فكل شيءٍ ينطق بحمده ، وكل شيءٍ دالٌ عليه ، ومع ذلك ..

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه الآية لكَفَتْ ، فكلنا جميعاً هذه الآية تَبُثُّ في قلوبنا الطمأنينة ، فإذا اتبعت هُدى الله في كل شيء لا تضلُّ ولا تشقى ، ولا يضلُّ عقلك ولا تشقى نفسك ، بل تسعد ، وترقى ، وتنجح ، وتتفوَّق ، وتفلح ، وتحقّق الهدف مِن خلقك على وجه الأرض ..

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

اتباع الهدى نفي للضلال والشقاء :

طمأنينة عقليَّة ، وهذا الذي لم يعرف الحق فيه خلل ، وعنده اختلال توازن ، وقلق ، وهذا الذي يعتقده لا يطمئن إليه ، دائماً في حالة غليان ، أو قلق ، أو خوف ، لكنَّ الذي اعتقد ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام فجاءت عقيدته مطابقةً لهدي الله عزَّ وجل ، يطمئنُّ عقله أنه على حق ، وكم من البشر من سار في دربٍ ثم اكتشف في نهاية المطاف أنه طريقٌ غير صحيح ! وكم من إنسانٍ ظنَّ أن هذا الشيء هو كل شيء ، وفي نهاية الحياة عرف أنه شيءٌ يسير لا قيمة له ! ضيّع من أجله حياته ، ولذلك فخيبة الأمل في خريف العمر شيءٌ لا يُحتمل ، تكون قد أمضيت أربعين عاماً من حياتك في طريقٍ غير صحيح ، تسعى للمال والمال عَرضٌ زائل ، وتسعى لاقتناص اللذَّة ، واللذَّة مُنقطعةٌ بالموت ، ولذلك :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

وهنيئاً لمن وافق سلوكه الهُدَى الربَّاني ، في زواجه ، وبيعه ، وشرائه ، وعقيدته ، ومعاملاته ، وعلاقاته ، ومشاعره ، وعواطفه ، ومن جاءت أحواله ، وأقواله وأفعاله مطابقةً لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام فقد اطمأن عقله إلى أنه على الحق ، وأحياناً الإنسان يُفَسِّر حادثة ، فإذا كان تفسيره مطابقاً للواقع ترتاح نفسه ، فإذا اكتشف أن هذا التفسير غير صحيح يحتقر نفسه ، ويحتقر عقله ..

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

الآن الناس على صنفين ، إما أن تتبع الهدى فلا تضل ولا تشقى..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

من نتائج نتائج الإعراض :

1 - المعيشة الضنك :

هذا القرآن هو ذكر الله عزَّ وجل ، الذِكْرُ الذي أنزله الله ، إنه الدستور ، والمَنهج ، والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

(فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ)

معنى الإعراض وصوَرُه :

ما معنى أعرض عنه ؟ أي قد يقرؤهُ ، ولكنَّك إذا أعرضت عن تطبيق أحكامه ، فالله عزَّ وجل قال لك:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة : من آية " 221 ")

فهذا المشرك عنده معمل ، وله مركبة فخمة ، وعنده بيت فسيح ، ودخله كبير ، وشكله جيِّد ، وجاءك خاطب مؤمن أقل من هذا المشرك بكثير ، إذ لا يملك ثمن البيت ، ودخله محدود ، فأنت إذا آثرت المؤمن على إيمانه ، ورفضت المشرك على دنياه العريضة فقد عرفت أن هذا الكلام حقٌّ من عند الله ، لكنَّك إذا خالفت كلام الله عزَّ وجل فهذا نوعٌ من أنواع الإعراض عن الله ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

إذا قال الله لك :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور : من آية " 30 ")

وأنت لم تلتزم بهذه الآية ، فأطلقت لبصرك العِنان وأنت بهذا أعرضت عن ذكر الله ، وجعلت أحكام القرآن وراء ظهرك ُ مع أن المؤمن ليس هذا شأنه ..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من آية " 36 ")

فإذا حرَّم الله الربا انتهى الأمر ، ولا يوجد رأي ثالث ، ولا محاولة لإقناع الناس أن الربا مقبول ، وإذا حرَّم الله الاختلاط انتهى الأمر ، وإذا حرَّم الله النظر إلى الأجنبيَّات انتهى الأمر ، لذلك ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

أي أنه أعرض عن تطبيق هذا القرآن الذي جعله الله تذكرةً للإنسان..

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

ما هو الشيء الضنك ؟

والشيء الضَنك هو الشيء الضَيِّق ، ضيقٌ ماديٌّ أو ضيقٌ نفسي ، أي إما أن يكون الضيق ماديًّا يكاد يُعْصَر ، وإما أن يكون الضيق نفسياً ، فلو أنه يملك أكبر ثروة في العالم ، لمجرَّد أن هذا الإنسان أعرض عن ذكر الله إنه في ضيقٍ نفسي لا يعلمه إلا الله ، ولذلك سُئل بعض العلماء: هذه الآية كيف نفسِّرها في حقِّ الأغنياء الفَسَقَة ، أو أولي الحول والطول؟ فقال بعضهم : " إن الآية تعني ضيق النَفْس"، ففي قلبه ضيق لو وزِّع على أهل بلدٍ لكفاهم ، ولو وزِّع على أهل الأرض لماتوا همًّا وغمًّا ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

لا سعادة لمعرض أبدا :

ويا أيُّها الإخوة المؤمنون ... هذه الآية لو أن على وجه الأرض إنساناً واحداً أعرض عن ذكر الله ، وهو في سعادةٍ فهذا شيءٌ مستحيل ، مستحيل أن تترُكه وتسعد ، فهذه النفس لا تسعد إلا به ، ولا تطمئنُّ إلا بذكر الله ، ولا ترضى إلا بقضاء الله ، ولا ترتاح إلا لمشيئة الله ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

فما كانت له صلةٌ بالله عزَّ وجل كان في نور ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((الصَّلاةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ))

(سنن بن ماجة عن أنس)

وبهذا النور ترى به الحقَّ حقًّا فتتبعه ، وترى به الباطل باطلاً فتجتنبه ، ولكنَّ الإنسان المُنْقَطِع عن الله عزَّ وجل أعمى ..

2 – العمى يوم القيامة :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً)

كنت ذا عينين في رأسي ..

(قَالَ كَذَلِكَ)

كنت أعمى القلب ، قال عليه الصلاة والسلام :

((يشيب المرء على ما شَبَّ عليه ، ويموت على ما شاب عليه ، ويُحْشَرُ على ما مات عليه))

(ورد في الأثر)

فلذلك :

(وَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

هذا الذي جعل هذا القرآن وراء ظهره ، واشتغل بالدنيا ، إذا حُشِر يوم القيامة يُحْشَر أعمى ، لأنه لو كان يصلي لكان في قلبه نور ، وكان مقطوعاً عن الله سبحانه وتعالى ، وكانت الدنيا أكبر همِّه ، ومبلغ علمه لذلك كان أعمى ..

(قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً *قالَ كَذَلِكَ)

أنت لم تكن في الدنيا بصيراً ، لك بصرٌ ، ولم تكن لك بصيرة ، ولك عينان ترى بها صور الأشياء ، ولم تكن لك بصيرةٌ ترى بها حقائق الأشياء ، غَرَّتك الحياة الدنيا ، فرأيتها كل شيء ، مع أنها ليست كل شيء ، ورأيت المال كل شيء ، ورأيت المباهج الدنيويَّة كل شيء ، ورأيت العُلوَّ في الأرض كل شيء ، ورأيت الشهوة كلَّ شيء ، بل إن معرفة الله هي كل شيء ..

(كَذَلِكَ أتَتْكَ آيَاتُنَا)

لا هلاك ولا عذاب إلا بعد إقامة الحجة :

الآيات بثَّها الله في الأرض ، وبثَّها في السماء ، وجعلها في خلقك، وفي أولادك ، وفي زوجتك ، وفي طعامك وشرابك ، وفي عملك، وأوجدها بتتابع سِنِيٍّ ، حياتك من طفولةٍ إلى شبابٍ ، إلى رجولةٍ إلى كهولةٍ، إلى شيخوخةٍ إلى ضعفٍ ، فإلى موت ، وكل ما حولك آيات ، وبعث لك الأنبياء ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، وبعث من يَدُلُّك عليه ..

(أتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا)

جعلت الدنيا أكبر همِّك ومبلغ علمك ..

(وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

الجزاءُ مِن جنس العمل : وكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسَى :

أي كذلك اليوم تُتْرَك ، لم تستكمل موجبات الرحمة ، ولم تتعرَّف لي في الدنيا حتى تسعد في الآخرة ، ولم تجعل الدنيا دار ابتلاء ، بل جعلتها دار عطاء ، لم تجعل الدنيا مزرعة الآخرة ، لم تجعلها دار

تكليف ، بل جعلتها دار تشريف ، ومع أن الدنيا دار تكليف ، والآخرة دار تشريف ، وربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ)

أسرف على نفسه ، أي أنه أعطى نفسه ما تشتهي فحرمها كل الخَير ، واستهلك وقته استهلاكاً رخيصاً، وأمضى الساعات الطِوال في القيل والقال ، وفي لغو الحديث ، وفي التَمَتُّع بما لا يرضي الله عزَّ وجل..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)

وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى

عذاب الدنيا ما أخذ من عذاب الآخرة شيئاً ..

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول : يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليَّ مما ألقى ، وإنه ليعلم ما فيها من شدَّة العذاب))

(الجامع الصغير عن جابر بسند ضعيف)

نارٌ محرقة ، تَلْفَحُ الوجوه ، وتشوي الجلود ، ومع ذلك فهو في ضيقٍ نفسي ، وفي عذابٍ نفسيٍّ لا يُحتمل ، لهذا ورد في بعض الأحاديث أن الإنسان إذا اطلع على مكانه في النار يصيح صيحةً لو سمعها أهل الأرض لصعقوا ، وربنا سبحانه وتعالى يؤكِّد هذا المعنى :

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

(سورة الطور)

(فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

لذلك هنيئاً لمن أعَدَّ العدَّة لهذا اليوم العصيب ، هنيئاً لمن عرف أنه سيموت قبل أن يموت ، وسيدنا عمر بن عبد العزيز اختار أحد كِبار العلماء ليكون مرافقاً له ، قال : << يا مُزاحم ، وظيفتك إذا رأيتني ضللت أمسكني من تلابيبي ، وهزَّني هزًّا شديداً ، وقل لي : اتق الله يا عمر ، فإنَّك ستموت >> ، هذه وظيفتك . لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ أكيسكم أكثركم للموت ذكراً ، وأحزمكم أشدُّكم استعداداً له ، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزوِّد بسكنى القبور ، والتأهُّبِ ليوم النشور))

(ورد في الأثر)

وسيدنا علي رضي الله عنه يقول : << الغنى والفقر بعد العرض على الله >> ، فلا يُسَمَّى الغني غنياً في الدنيا ، بل إنه مبتلى بهذا المال ، ولا يسمى الفقير فقيراً ، فإن الله سبحانه وتعالى وزَّع الحظوظ في

الدنيا توزيع ابتلاء ، فالغني امتُحِنَ بالغنى ، فإما أن ينجح ، وإما أن يرسب ، والفقير امْتُحِنَ بالفقر ، فإما أن ينجح به فيصبر وإما أن يضجر فيرسب ، والصحيح امتحن بالصحَّة ، والسقيم امتحن بالسَقَم ، والقوي امتحن بالقوَّة ، والضعيف امتحن بالضعف ، فهذه الحظوظ وزِّعت في الدنيا توزيع ابتلاء ، وسوف توزَّع في الآخرة توزيعاً آخر ، إنها توزَّع توزيع جزاء ، فكم من غنيٍّ لم ينجح في امتحانه ! وكم من فقيرٍ نجح في امتحانه ، فأصبح الفقير في الآخرة غنياً والغني فقيراً والآية عُكِسَت ، لذلك :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

قد ينجح الفقير في الامتحان فيصبر ، وقد يرسب الغني في الامتحان فيُسْرِف ، ويتكبَّر ، ويبخل ، وعندئذٍ تكون الحظوظ في الآخرة موزَّعةً توزيعاً آخر ، وربما كان الغني فقيراً ، والفقير غنياً ، ولذلك العبرة لما بعد الموت ، وهذه الدنيا عرضٌ زائل يأكل منه البَر والفاجر ،

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

(سنن الترمذي عن أنس بن مالك)

فليسعَ الإنسان إلى جوهر الحياة ، وجوهرها أن تعرف الله ، وأن تستقيم على أمره ، وأن تتقرَّب إليه ، فإذا كنت كذلك فأنت الفالح .

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1))

(سورة المؤمنون)

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

الآية الأخيرة :

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ)

كفَّار قريش يذهبون صيفاً وشتاءً إلى الشام ، وفي طريقهم إلى الشام مدائن صالح ، وديار لوط ، وديار عادٍ وثمود ، وهؤلاء الأقوام الجبابرة الأقوياء الذين طغوا في البلاد ، والذين جابوا الصخر بالوادي ، والذين فعلوا ما فعلوا ، والذين أكثروا فيها الفساد ، أين هم الآن ؟ .

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)

لأصحاب العقول ، فالإنسان السعيد من يتعظ بغيره ، والشقي لا يتعظ إلا بنفسه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 129 – 135
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-04-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس التاسع والأخير من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)

وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

أيها الإخوة ... لولا حرف امتناعٍ لوجود ، أداة شرطٍ غير جازمة، تقول مثلاً : لولا المَطر لهلك الزرع ، امتنع هلاك الزرع لوجود المطر :

(فَلَوْلاَ كَلِمَةٌ مِنْ رَبِّكَ)

(وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى)

شيئان .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

لكان لزاماً هلاكُهم :

أي لكان لزاماً هلاكهم ، أي أن قومك يا محمد بعد أن كذَّبوك ، وبعد أن عصوا ، وبعد أن ردّوا هذه الدعوة ، كان يجب أن يهلكوا ، وكان يجب أن يعاقبوا عقاب تدمير ، وعقاب استئصال ، ولكن سبقت من الله عزَّ وجل كلمة ، وكان لهم أجلٌ مسمى .

معاني الكلمة في الآية :

عند هذه الآية ، وقف العلماء وقفاتٍ متعددة ، فما هي هذه الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل ؟

المعنى الأول :

قال بعضهم : هذه الكلمة هي قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : من آية " 33 ")

فما دُمت بين ظهرانيهم فالله سبحانه وتعالى لن يعذبهم ، لأن الدعوة قائمة ، وهذه بعض تفسيرات هذه الكلمة .

المعنى الثاني :

وهناك شيء آخر ، فإكراماً للنبي عليه الصلاة والسلام لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يستأصل أمة سيدنا محمد استِئْصالاً ، فهي في بحبوحةٍ من أمرها ، وهذا هو المعنى الثاني ، أي إكراماً للنبي عليه الصلاة والسلام ، فإن الله عزَّ وجل لن يعذبها عذاب استئصال ، إذ عنده عذاب مُعالجة ، وهناك عذاب استئصال، فعذاب الاستئصال التدمير الكامل ، فقوم عادٍ ، وثمود ، وقوم فرعون دُمِّروا تدميراً كاملاً ، فالعلماء قالوا : هذا التدمير تدمير استئصال ، هذا العذاب عذاب استئصال ، فالله سبحانه وتعالى لم يشأ لهذه الأمة التي كرَّمها الله بهذا النبي العظيم أن يعذبها عذاب استئصال ، وهذا هو المعنى الثاني .

المعنى الثالث :

والمعنى الثالث : أن الله سبحانه وتعالى عَلِمَ أن في هذه الأمة خيراً فأعطاها مهلاً .

المعنى الأول :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

والمعنى الثاني : أنه إكراماً للنبي عليه الصلاة والسلام قد جعل هذه الأمة في بحبوحةٍ من أمرها .

والمعنى الثالث : أن الله عزَّ وجل علم في هذه الأمة خيراً فأعطاها مهلةً لعلها تتوب أو لعلها ترجع .

المعنى الرابع : الأمانة والتكليف

وبعض العلماء قال : " إن هذه الكلمة التي سَبَقَت من الله عزَّ وجل هي أن الله عزَّ وجل حينما خلق الإنسان في الدنيا كَتَبَ على نفسه أن يعطيه سُؤلَهُ كائناً من كان ، وكائناً ما كان " ، كائناً من كان من بني البشر ، وكائناً ما كان من السُؤل ، فالإنسان لن يموت حتى تلبَّى له طلباته ، أو حتى يُعْطى سُؤلَهُ ،

لقوله تعالى :

(كُلا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

أي أن الإنسان حينما قبل الأمانة التي حَمَّلَهُ الله إيَّاها :

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا)

(سورة الأحزاب : من آية " 72 ")

أمانة التكليف :

قال العلماء : هي التكليف ، ومعنى التكليف أنه رضي أن يأتي إلى الدنيا ، وأن يعطى حرية الاختيار ، وأن يزوَّد بالعقل ، وأن يزوَّد بالشهوة ، وأن يكون مسؤولاً عن تصرُّفاته ، فما لم يعط الإنسان في الدنيا سؤْله لا يكون مسؤولاً عن تصرفاته ، ولذلك سبقت من الله كلمةٌ أن هذا الإنسان له مشيئةٌ حرة ، ويقتضي ذلك أن يعطى سُؤْلَهُ ، وأي شيءٍ يختاره فالله سبحانه وتعالى يعطيه إياه ، فحينما يُطلق الله الإنسان لتحقيق اختياره فليس معنى هذا أن الله راضٍ عنه ، ولا معنى هذا أن الله أجبره ، قد يختار الإنسان شيئاً لا يرضي الله ، والله سبحانه وتعالى لم يجبره ولكن سبقت من الله كلمةٌ أن يعطي الإنسان سُؤْلَهُ .

مسألة الاختيار وعلاقتها بالتكليف :

فأنت مخَيَّر ، اختر ما تشاء والله سبحانه وتعالى يعطيك ما تريد إذا كنت صادقاً فيما تريد ، أما التمنِّي فشيء والإصرار شيءٌ آخر ، لذلك لو أن الإنسان عصى الله عزَّ وجل لا يستحق الهلاك الفوري لأنه لم يستنفذ سُؤْلَهُ ، إذ له عند الله سؤْل ، فالله سبحانه وتعالى لابدَّ أن يعطيه سؤله ، ولولا هذه الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل لأهلك الكفار ، والفُجار لأول بادرةٍ من معصية ، ولولا أن الله عزَّ وجل جاء بهم إلى الدنيا وكلَّفهم حمل الأمانة ، وأعطاهم اختياراً ، وأودع فيهم شهوةً ليرقوا بها إلى الله ، وبَثَّ في الكون الآيات الدالة عليه ، وأنزل إليهم الكتب ، وبعث إليهم الرُسُل ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه أن يعطيهم سؤْلَهُم لأهلكهم .

وتوضيحاً لهذه الفكرة : لولا أن هناك نظاماً عاماً في الجامعة يقتضي أن لا يفصل الطالب من الجامعة إلا بعد أن يرسب سنتين ، فهذا الذي يمتنع عن الدراسة إطلاقاً لن يطرد حتى يأتي الامتحان الأول فيرسب ، وحتى يأتي الامتحان الثاني فيرسب ، وحينما تنطبق عليه مواد النظام الداخلي عندئذٍ يُفصل من الجامعة ، أما أن يُفصل لقناعة المدرس فلا تكفي ، لابدَّ أن يجري امتحانًا ، وأن يرسب فيه ، ولابدَّ

أن يعطى فرصةً ثانية ، ويجري امتحانًا ، ويرسب فيه ، وبعدئذٍ يفصل ، فالقضية ليست تابعة لقناعة المدرس ،ولا لرغبته في فصل هذا الطالب الكسول ، وهناك نظامٌ عام .

فلذلك خَلَقَ ربنا سبحانه وتعالى حينما الإنسان على هذه الأرض أعطاه حريَّة الاختيار ، وشيءٌ آخر أعطاه أجلاً محدداً ، بالإضافة إلى حرية الاختيار ، ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى الإنسان أجلاً ثابتاً لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ، فلذلك إن الإنسان في عقيدة أهل السنة والجماعة لا يموت إلا بأجله ، حتى إن المقتول يُقتَل لأجله .

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ(34))

(سورة الأعراف)

إذاً ما الذي يمنع أن ينزل بالكفار عقابٌ أليم ؟ وما الذي يمنع أن يستأصل الكفار من أصلهم ؟ وأن يدمَّر الكفار ؟ أن الله سبحانه وتعالى خلقهم في هذه الدنيا وكتب على نفسه أن يعطيهم سؤْلَهُم ، وحدد لهم أجلاً لا ريب فيه ، فعلى الإنسان ألا يتمنَّى لو كان له قريب ، أو له عدو، فقضية الآجال بيد الله عزَّ وجل ، أي أن هذا الإنسان له عند الله أجل ، لا يموت إلا بأجله ، وله عند الله أمانة ، فلابدَّ أن يستنفذ شروط الأمانة ، وهذا هو المعنى الرابع .

المعنى الخامس : رحمة الخلق

وهناك معنى آخر ، قال به بعض العلماء : ما هذه الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل ؟ هذه الكلمة هي أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس ليرحمهم لا ليعذبهم ، ولذلك هو يعطيهم الفرصة تلو الفرصة ، فحينما تنشأ مدرسةٌ لا من أجل أن يفصل الطُلاب منها ، فلو أن الطالب غاب عن المدرسة أسبوعين متتاليين تنطبق عليه مواد النظام الداخلي ، ولكن المدير يعطيه فرصةً ، إذ ليس القصد فصل الطالب ، إنما القصد تعليمه ، وتهذيبه ، وتربية عقله ، ونفسه ، وخلقه ، هذا هو القصد ، وليس القصد أن الله سبحانه وتعالى كلما رأى الإنسان قد انحرف أنزل به العقاب الأليم إنه رحمنٌ رحيم :

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود : من آية " 119 ")

وهذا المعنى الأخير ، معنى دقيق ، فليس القصد إنزال العقاب بالكفار والفجَّار ، بل القصد أن يرحمهم الله عزَّ وجل ، وأن يهديهم إليه ، وأن يسعدهم ، وأن يقرِّبهم ومن هنا جاء حلم الله سبحانه وتعالى ، فهو يعطيهم الفرصة تلو الفرصة فلعلهم يرجعون إلى الله عزَّ وجل ، ولذلك فهذه الآية تفعل في نفس المؤمن فعلاً مؤثراً ..

(وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ)

أي هل قصد الأب أن يطرد ابنه من البيت أم القصد أن يربيه ؟ ولذلك يعطيه فرصة ..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

المعنى السادس : وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ

وبعضهم قال : حينما قال الله عزَّ وجل :

(وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(36))

(سورة البقرة)

هذا عهدٌ على الله عزَّ وجل ، ولكم يا بني آدم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين ، فلذلك حينما يخلق الله الإنسان في الدنيا يعطيه هذا الاستقرار ، وهذا المتاع ، كافراً كان أو مؤمناً .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كُلا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

المعنى السابع : الكلمة هي الأجل المسمى :

وبعضهم قال : الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل هي نفسها الأجل المُسمى ، يؤكّد هذا بعض الآيات القرآنية الأخرى ، إن هذه الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل هي الأجل المُسمى الذي حدده الله للإنسان لا يزيد ولا ينقص ، وعلى كلٍ نحن في حلم الله وفي رحمته ، والسعيد من عرف الله قبل فوات الأوان ، ومن أدرك الحكمة من خلقه على وجه الأرض ، ومن عرف ربه ، واستقام على أمره ، ومن أعَدَّ لساعة الفراق عُدته .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

وربما كان في الآية تقديمٌ وتأخير ، وربما يفهم معناها لو وضعت بعض الكلمات بحسب ترتيبها اللغوي .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

ولولا كلمةٌ سبقت من ربك ، وأجلٌ مسمى لكان لزاماً هلاكهم ، واستئصالهم ، وإنزال العقوبة بهم ، فكأن الله سبحانه وتعالى يُسَلّي النبي عليه الصلاة والسلام ويقول له : يا محمد ما دمت قد أعطيتهم أجلاً لا ريب فيه ، وما دامت قد سبقت مني كلمةٌ ألا أستأصلهم إكراماً لك ، أو علماً لما في نفوسهم من خير،

إذاً أنت فاصبر على ما يقولون ، فأقوالهم، واستخفافهم ، وتكذيبهم ، وردُّهم ، وهذه الكلمات التي قد تحزُنك ، وقد تؤلمك اصبر عليها .

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف : من آية " 35 ")

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

ما عند الله لا ينال إلا بعد امتحان :

في هذه الآية حقيقةٌ أساسية ، وهي أن ما عند الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن ينال إلا بعد امتحان ، ومن لوازم الامتحان أنه شديد ، وهذا العطاء الكبير لن يُنال والإنسان في بحبوحة ، وكما يشتهي ، فلابدَّ من امتحان :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

فحينما دعا الله سبحانه وتعالى نبيَّه إلى الصبر ، فقد كان من الممكن أن يخلق الله النبي وأصحابه الكرام من دون أعداء ، وهؤلاء الأعداء الكفار الفُجَّار المعارضون الذين كادوا للنبي عليه الصلاة والسلام ، كان من الممكن أن يأتي بهم قبل بعثة النبي أو بعدها بكثير ، ولكن العبرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قدوةٌ لكل مؤمن ، فيجب أن يتحَمَّل المتاعب ، حتى تكون سيرته قدوةً لنا ، ومثلاً أعلى يحتذى .

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

حتى تكون متاعبه التي تحملها مسلية لنا إلى آخر الزمان ، النبي عليه الصلاة والسلام عصمه الله من أن يقتل ، أو أن الله سبحانه وتعالى عَصَمَ النبي عليه الصلاة والسلام من أن يناله المشركون بالقتل لئلا تغتال الدعوة باغتياله ، ولكن لم يعصمه عن إيقاع الأذى الذي تحمَّله أيَّما تحَمُّل وصبر له أيما صبر ، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف : من آية " 35 ")

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

أي إذا عارضك إنسان ، وسفَّه دعوتك إنسان ، واستخفَّ بك فلك أسوةٌ حسنة بهذا النبي العدنان ..

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)

الصبر مقرون بالصلاة :

دائماً جاء الصبر مع الصلاة ..

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)

(سورة البقرة : من آية " 45 ")

الصبر وحده قد لا يكفي ، لكن الصبر إذا جاءت معه الصلاة إذ في الصلاة يأتي التجلي الإلهي ، ويأتي التثبيت ، والبُشرى ، ويأتي وعد الله عزَّ وجل ، ووعيده ، فالإنسان إذا صلَّى ، واتصل بهذه الصلاة ، وعقل ما يتلو في الصلاة ، إن هذا كله يثبت قلبه ويطمئنه ، فلذلك جاء الأمر :

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

تنزيه الله وتسبيحه :

(سَبِّحْ)

أي نزه يا محمد ، نَزِّه ربك عن كل ما لا يليق به ، نزهه عن كل صفات النقص ، ونزهه عن أن يكون مثل البشر ليس كمثله شيء، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، فكلمة : سبحان الله تعني التنزيه ، فسبحان الله عن أن يكون ظالماً ، وسبحان الله عن أن يكون قاسياً ؛ إنه رحيمٌ ، إنه عدلٌ ، إنه لطيفٌ ، إنه عليمٌ ، إنَّه حليمٌ ، فكلما نفيت عنه صفات النقص بشكلٍ أو بآخر أثْبَتَّ له صفات الكمال ، أو نزِّهه عما لا يليق به ، ومجِّده بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، وعلى كلٍ سبِّح، بعضهم استنبط من هذه الآية أن التسبيح هو الصلوات المكتوبة ، لأن الصلاة المكتوبة فيها تسبيحٌ سبحانك اللهم ، وبحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، فيها تسبيحٌ ، وفيها تنزيهٌ ، وتمجيدٌ ، وتعظيمٌ ، وتكبيرٌ، وحمدٌ ، وتوحيدٌ ، وربوبيةٌ ، وألوهيةٌ .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

متى ؟ يقول ربنا سبحانه وتعالى :

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ)

تفصيل الآية لأوقات الصلوات :

1 - صلاة الفجر :

هذه صلاة الفجر ، قبل طلوع الشمس ، " ابن آدم لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفك النهار كله "، لا تعجز ، وفي بعض الأحاديث الصحيحة بما معناه أنه :

((من صلى الفجر في جماعة ، ثم جلس يذكر الله عزَّ وجل حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانتا له حجةً وعمرةً تامة تامة))

(الترمذي عن أنس)

((وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

(صحيح البخاري عن أبي هريرة)

قال تعالى :

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا(6))

(سورة المزمل)

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(1)قُمْ اللَّيْلَ إلا قَلِيلا(2)نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا(3)أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا(4))

(سورة المزمل)

(أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79))

(سورة الإسراء)

إذاً :

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

لأني أمهلتكم ، ولأن كلمة سبقت مني ألاّ آخذهم إلا في أجلهم المحدد ، فقد أمهلتهم فلعلّهم يؤمنون ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام وهو بالطائف حينما جاءه جبريل عليه السلام يقول له :

((يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين " ، ماذا أجاب النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((لا يا أخي اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحِّد الله))

(السيرة النبوية)

وهذا الذي حصل ، فقد جاءته وفود ثقيف تُعلن إسلامها بعد حين ، إذاً كأن الله سبحانه وتعالى علم بهذه الأمة خيراً ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((أمتي كالمطر لا يدرى أولها خير أم آخرها))

(الجامع الصغير عن عمرو بن عثمان مرسلا بسند ضعيف)

(ثُلَّةٌ مِنْ الأوَّلِينَ(39)وَثُلَّةٌ مِنْ الآخِرِينَ(40))

(سورة الواقعة)

هؤلاء أصحاب اليمين ، وأما السابقون السَّابقون :

(ثُلَّةٌ مِنْ الأوَّلِينَ(13)وَقَلِيلٌ مِنْ الآخِرِينَ(14))

(سورة الواقعة)

إذاً :

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ)

هذه صلاة الفجر ..

(وَقَبْلَ غُرُوبِهَا)

2 - صلاة العصر :

هذه صلاة العصر ..

(وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ)

3 – 4 صلاة المغرب والعشاء :

من أوقات الليل صلاة المغرب والعشاء .

(وَأَطْرَافَ النَّهَارِ)

5 - صلاة الظهر :

صلاة الظهر ، لأنها تقع بين طَرَفَيّ النهار ، حينما تكون الشمس في كبد السماء ينتصف النهار ، فنصفه الأول ونصفه الثاني ، وتقع صلاة الظهر في الجزء الأول من نصفه الثاني ، إذاً فسر بعض العلماء هذه الآية بأنها تشتمل على الصلوات الخمس المكتوبة .

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)

المحافظة على الصلوات والذّكر طلباً لرضا الله تعالى :

لعلك إذا أقبلت على الله عزَّ وجل ، وإذا ذقت طعم القرب ، ولعل الله إذا تجلى على قلبك ، تقول : ليس في الأرض من هو أسعد مني :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : من آية " 30 ")

هذه الطمأنينة لا يعرفها إلا المؤمن .

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة : من آية " 103 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41)وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا(42)هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(43))

(سورة الأحزاب)

(لَعَلَّكَ تَرْضَى)

لعلك إذا أقبلت على الله عزَّ وجل وإذا ذُقت طعم القُرب ، وإذا ألقي النور في قلبك قلت : ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ، ولذلك من علامات الإيمان أن المؤمن يحسُّ بسعادةٍ حقيقية ، لكن الذي له معصيةٌ أو انحرافٌ أو تقصيرٌ ، مقطوعٌ عن الله ، يبقى الإسلام عنده ثقافةً ، أي معلومات ، وقناعات ، وأفكار ، وثقافات ، الإسلام في فكره لا في قلبه ، أما إذا استقام على أمر الله فتنعقد الصلة بينه وبين الله عندئذٍ يعرف قيمة هذه الآية ..

(لَعَلَّكَ تَرْضَى)

فهذا الذي سأل عنه النبي عليه الصلاة والسلام عَقِبَ معركة أحد فلم يره أحد ، فكلَّف أحد أصحابه بتفقد شأنه ، فتوجَّه إلى أرض المعركة فإذا هو على وشك الموت ، قال له : " يا ربيع لقد سأل عنك النبي عليه الصلاة والسلام فهل أنت مع الأحياء أم مع الأموات ؟ " إنسانٌ في مقتبل الحياة ، وفي النزع الأخير ، وعلى وشك الموت فما هي حاله ؟ من كلماته تعرفون أحواله ، قال : " أبلغ رسول الله مني السلام ، وقل له : جزاك الله عنا خيراً ما جزى نبياً عن أمته ، وقل لأصحابه : لا عذر لكم عند الله إذا خُلِصَ إلى نبيكم ، وفيكم عينٌ تطرف " ، كم هو سعيد وهو على وشك الموت ، وهو في مقتبل العمر ، اسأل الأطباء الذين يشاهدون حالات الموت ، كيف أن الإنسان إذا أوشك على الموت انهارت أعصابه ، وصرخ بأعلى صوته أحياناً ، وندم عل ما فات ، لكن هذا الإنسان الذي تربَّى على يدِ النبي عليه الصلاة والسلام ، وقذف الله في قلبه النور وتجلَّى على قلبه عرف طعم القرب ، إذاً :

(فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)

وآيةٌ أخرى تؤكّد هذا المعنى :

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(5))

(سورة الضحى)

الله سبحانه وتعالى كما أنك تبتغي رضاه هو يريد أن يرضيك ، ولكن إذا أرضاك قبل الوقت المناسب فربما قعدت وتكاسلت .

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(5))

فلابدَّ أن يأتي اليوم الذي ترضى أشد الرضى ، ولابدَّ أن يأتي اليوم الذي تذوب فيه خجلاً للعطاء الإلهي ، ولكن من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ، ولسوف ترضى ..

(لَعَلَّكَ تَرْضَى)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

حقيقة النهي موجَّهة إلى المسلمين لا إلى النبي عليه الصلاة والسلام :

قال بعض العلماء : " هذه الآية صياغتها موجهةٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكنها في حقيقتها موجهةٌ إلى أمته ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان أبعد الناس عن أن يمد نظره إلى الدنيا ، ولكن الله سبحانه وتعالى جعلها موجَّهة إليه رأفةً بقومه ، فالكلام موجهٌ إلى النبي ، وهو في الحقيقة موجهٌ إلى كل مؤمن ..

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

معنى الآية :

المعنى الأول :

فإذا وقفت أمام بيتٍ جميل ، ونظرت إليه فامتلأ القلب حسرةً ، تنظر إلى مساحته ، وتنظر إلى هذا الذي يبالغ في التأمُّل في زينة الحياة الدنيا ، فهذا فيه نهيٌ بنص هذه الآية ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إياكم وفضول النظر ، فإنه يبذر في القلب الهوى))

(ورد في الأثر)

فالعلماء قالوا : " ليس النهي نهياً عن النظر ، ولكن النهي نهيٌ عن مد العينين إلى ما متعنا به أزواجاً

منهم " ، أي المبالغة في التأمُّل ، وفي التدقيق ، وفي التنهُّد بعد النظر ، هنيئاً له على هذه المركبة ، ما هذه المركبة ؟ هذا النظر ، والتنهُّد ، والتحسُّر ن ليس من أخلاق المؤمن ، النبي عليه الصلاة والسلام كلما نظر إلى شيءٍ من متاع الدنيا قال :

((اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَة ...))

(من صحيح البخاري عن سهل)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ)

إذاً النهي عن مدّ العينين ، وكأن العين تخترق ، وتنظر ، وتشتهي ، والقلب يتحسَّر ، والفكر يطمح ، لا ، لم تُخْلَق لهذا ، كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دعي إلى اللعب وإلى اللهو يقول :

((لم أُخْلَقْ لهذا))

أنت لم تخلق لهذا :

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ)

(سورة الأحقاف : من آية " 33 ")

كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي :

((أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين !! خلقت السماوات والأرض من أجلك وخلقتك من أجلي ، خلقت السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))

(ورد في الأثر)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ)

فلا تقف أمام بيتٍ فخمٍ وتبالغ في النظر إليه ، ولا تقف أمام مركبةٍ فخمةٍ جداً وتبالغ في النظر إليها ، لا تدقق في هذه الرياش والأثاث التي قد تطالعك إذا دخلت إلى بعض البيوت ، ولذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه: " من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط" ، أي أن هؤلاء الأغنياء المترفين غير المؤمنين يعرضون على الزائر ما عندهم من طنافس ومن رياش ومن متاع ، ويتحدثون عن قيمتها ، وعن ثمنها ، وكيف اشتروها ، وما شأنها ؟ وكم قطعة في دمشق منها ؟ فهذا الحديث عن الأثاث ، والرياش ، والمتاع يبعد عن الله سبحانه وتعالى ، يا عائشة :

((إِذَا أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ ، وَلا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

(من سنن الترمذي : عن " عائشة ")

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ)

المعنى الثاني :

الإمام أبو حامد الغزالي في الإحياء يقول : لهذه الآية معنىً آخر ، إنك إذا دخلت إلى بيت مترف لسببٍ أو لآخر ، وكان صاحب هذا البيت بعيداً عن الله عزَّ وجل ، وقيمته في هذا المتاع ، كما قال الإمام عليٌ كرم الله وجهه : " يأتي على الناس زمان قيمة الرجل متاعه " ، أي يستمد قيمته من نوع مركبته ، ومن موقع بيته ، وثمنه ، وأثاثه ، فهذه مكانته ، وليس له مكانة أخرى إطلاقاً ، وهو في نظر الله صغير جداً، لهم صغارٌ عند الله ، ولا شأن له عند الله فهو ساقطٌ من عينه ، ولكن يستمد مكانته من هذه الرياش، وهذه الطنافس ، وهذا الأثاث ، وهذه الإمكانات ، فلذلك إذا دخل عليه المؤمن ، وبدا عليه الدهشة ، وبدا عليه مد النظر ففي هذا زعزعةٌ لمكانة المؤمن ، وكأن الكافر بهذا استعلى على المؤمن ، ولذلك يجب أن لا تبالي إذا دخلت على مُترف ، بما عنده منها ، وألا تلقي لها بالاً ، ولا تدقق النظر إليها ، ولا تمدن عينيك إليها ، كن عادياً ، وأعرض عنها ، ولا تكترث بها ، فهذا شيءٌ ترد به على أهل الدنيا الذين يستمدون مكانتهم فقط من رياشهم ومن متاعهم ، ومما عندهم منها .

وهذا أيضاً يظهر بشكلٍ واضحٍ عند النساء ، فإذا كانت امرأةٌ لها زوجٌ غني وقد أعطاها كثيراً من الحِلِيّ ، فإنها تضع هذا الحلي لتباهي به النساء الأخريات ، أو لتضع في أنفسهن الحَسرة ، فالمرأة المؤمنة لا تبالي بهذا ، ولا بهذه الحلي ، ولا بهذه الألبسة الغالية ، ولا بهذا البيت الفخم ، إنها إن تعلقت بهذا فقد ضعضعت مكانتها ، قال عليه الصلاة والسلام :

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلاثا دينه))

(الترغيب والترهيب عن أبي الدرداء بسند ضعيف)

وإذا أطلعك على شيءٍ فخمٍ فلا تحملق عينيك فيه ، ولا تندهش ، ولا تقل ما أجمله ، بل أعرض عنه ، فهكذا الأمر الإلهي ..

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ)

قال عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

(سنن الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ)

أقوال الصحابة في ذم الدنيا :

وهذه الدنيا لا تستأهل فوق ذلك ، إنها دار الموقت ، وليست دار القرار، هي ممرٌ وليست مقراً ، عش في الدنيا كأنك غريب ، عش في الدنيا كأنك مسافر ، << ما لي وللدنيا ، يا دنيا طلقْتك بالثلاث طلاقاً لا

رجعة فيه ، فشأنك حقير ، وخطرك كبير ، فإليك عني يا دنيا >> ، هذا قول سيدنا علي . وقد دخلوا على سيدنا أبي عبيدة الجراح رضي الله عنه ، وقد قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام :

((أمين هذه الأمة))

(متفق عليه عن أنس)

وكان قائد الجيوش الإسلامية في بلاد الشام ، فرأوا غرفةً صغيرةً لا تتسع لشخصين ، ورأوا قدر ماءٍ غطي برغيف خبزٍ ، وجلد غزالٍ ، وسيفاً معلقاً على الحائط ، هذا هو كل ما عنده ، فقال له بعض أصحابه : ما هذا يا أبا عبيدة ؟ قال : << هو للدنيا ، وعلى الدنيا كثير >> .

ودخل عدي بن حاتم على النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال : << والله ما هذا بأمر ملك ، دخلت عليه فدفع إلي وسادةً من أدمٍ محشوةً ليفاً ، فقال : " اجلس عليها " ، قلت : " بل أنت " ، قال : " بل أنت " ، قال : " فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض " ، وليس في بيته إلا وسادةٌ واحدة ، فلما جلس عليها عدي بن حاتم جلس النبي عليه الصلاة والسلام على الأرض ، هي للدنيا وعلى الدنيا كثير >> .

ودخل عليه سيدنا عمر وقد أثر الحصير على جبينه الشريف ، فبكى، فقال : " يا عمر ما يبكيك ؟ " قال : " رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير !! " ، قال :

((يا عمر ، إنما هي نبوة وليست ملكاً ، أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا))

هذه الدنيا الحقيرة التي لا شأن لها سريعة الأفول والزوال ، هي لهم ، إذاً :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً)

وحينما يشتهي الإنسان الدنيا يصبح معها كالزوج ، فهو مغرمٌ بجمع الدرهم والدينار ، وهو عبد للدرهم والدينار ..

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ))

وهذا مغرمٌ بالشهوات :

((تعس عبد الفرج))

وهذا مغرمٌ بالطعام والشراب :

((تعس عبد البطن))

وهذا مغرمٌ بالأناقة واللباس والرياش :

((تعس عبد الخميصة))

فلذلك المؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام :

((إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ ، فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

(من مسند أحمد عن معاذ بن جبل)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً)

فهو والنساء زوج ، وهو والمال زوج ، وهو والرياش زوج ، وهو والسفر زوج ، فهذه هوايته في الحياة ..

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الدنيا كالزهرة سريعة الذبول والانقراض :

والله سبحانه وتعالى شبَّه هذه الدنيا ، وزينتها ، وبهرجها ، وزخارفها ، ورياشها ، ونساءها ، ومالها ، وبيوتها ، وبساتينها ، ومركباتها ، شبهها بالزهرة ، والزهرة سريعة الذبول ، فقبل أسبوع كانت الغوطة كلها أزهار ، فأين هي الآن ؟ انتهت ، ولذلك قال بعض الشعراء يعاتب خليفة ويقول :

لا يكن عهدك ورداً إن عهدي لك آسُ

* * *

ما معنى ؟ لا يكن عهدك ورداً ؟ أي سريع الذبول ، فربنا عزَّ وجل شبَّه الدنيا بأنها زهرة ، حتى يستكمل الإنسان مقومات حياته في الأربعين ، وقد يموت في الخمسين ، عشر سنوات ، قبل الأربعين كلها تعب ، تعبٌ كلها الحياة ، فما أعجب إلا من راغبٍ في زيادة ، زهرة الحياة الدنيا ..

(كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

(سورة الكهف : من آية " 19 ")

فلذلك خيركم من طال عمره وحسن عمله ، والنبي عليه الصلاة والسلام :

((أكثروا ذكر هادم اللذات ، ومفرق الأحباب ، مشتت الجماعات))

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا ، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدَّجَّالَ ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أو السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ)

لنمتحنهم أيؤثرون الله عزَّ وجل أم يؤثرون الدنيا ؟

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

رزقُ اللهِ خير وأبقى :

تقول أنت : صدق الله العظيم ، فهل أنت مصدقٌ ربك في هذه الآية؟

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

إذا كنت مستقيماً على أمر الله ، وطائعاً لله فالآخرة لك ، والعقبى لك ، وأنت الفائز ، وأنت الرابح ، والناجح ، والمتفوق ، والأول .

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : من آية " 30 ")

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية : من آية " 21 ")

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

الدنيا أقل وأقصر ، وكلها متاعب ، وإنها دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي " .

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

وعن قوله تعالى :

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

يقول عليه الصلاة والسلام :

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

(ورد في الأثر)

والله سبحانه وتعالى يقول :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من آية " 77 ")

وإذا كان الجليل يقول عن متاع الدنيا : قليل ، فهل تراه أنت كثيراً ؟

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من آية " 77 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ)

وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ

والإنسان لحكمة أن الله سبحانه وتعالى جعل نظام المجتمع أساسه الأسرة ، فالإنسان لا يسعد إذا كان هو مهتدياً ، وأهله في ضلال ، وإن هناك المخاصمات ، والمُشاحنات ، والتناقضات ، والصراعات ، فمن أجل أن تسعد لابدَّ أن يكون أهلك معك على خطِّك ، وعلى طريقتك ، ولابدَّ أن يشربوا من مشربك، وأن يهتدوا بهداك ، فلذلك جاء الأمر الإلهي :

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

الأمرُ بالاصطبار :

أي اصطبر كي تصبح صلاتهم كما أرادها الله عزَّ وجل ، مُرهم بالصلاة ، واصطبر عليهم .

(لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً)

الله هو الرزاق ذو القوة المتين :

أي أن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق ذو القوة المتين ، فهذه الصلاة فيها اقتطاعٌ للوقت ، والوقت كما تعلمون أصل كسب المال ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الرزَّاق ، وما دام الله هو الآمر فهو الضامن والناصر ، وما دام الله هو الآمر بالصلاة فهو الذي يتكفَّل برزقك ، وهو الذي يرزقك من حيث لا تحتسب ، فعلى الإنسان ألا يحتج بالرزق لتقاعسه عن حضور مجالس العلم ، ولا يحتج بالرزق لتقاعسه عن أداء الصلاة ، فالله سبحانه وتعالى هو الرزاق ، فلذلك كم من إنسانٍ اقتطع من وقت قسطاً ليصلي فيه ، فجاء رزقه وفيراً ، وكم من إنسانٍ ضن بوقته عن أن يصلي فيه ، فجاءت مصيبةٌ أتلفت ماله ، فلذلك فما عند الله لا ينال بمعصيةٍ ، ومن ابتغى شيئاً بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأقرب مما

اتقى .

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ)

أي زوجتك وأولادك ، ومن في عهدتك ، ومن في رعايتك ، ومن أنت عليهم ولي .

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فَأَدْرَكَهُ كَانَ لَهُ كِفْلَانِ مِنَ الأَجْرِ ، فَإِنْ لَمْ يُدْرِكْهُ كَانَ لَهُ كِفْلٌ مِنَ الأَجْرِ))

(سنن الدارمي عن واثلة بن الأسقع)

((أبى الله إلا أن يجعل رزق عبده المؤمن من حيث لا يحتسب))

(ورد في الأثر)

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

نزلتْ فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنتُ يظن لا تفرجُ

* * *

(وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

العاقبةُ للتقوى :

هذا كلام الله ، خالق الكون ، يقول لك : العاقبة للمؤمن ، للتقي ، والزمان يدور ، وينتهي بفوز المؤمن وهلاك الكافر :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

فالعاقبة للمتقين ..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى * وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ)

أسلوب التحدي عادةُ الكفار :

كما فعل سيدنا موسى ، أو سيدنا صالح .

(أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى)

أليس هذا هو الآية ؟ أليس في هذا القرآن أخبار الأمم السابقة ؟ هل عرف النبي هذا إلا عن طريق الوحي ؟ أنَّى له أن يعرف ما جرى في الأقوام السابقة لولا أنه نبيٌ يوحى إليه ، أليس هذا الكتاب آيةً كافيةً على نبوته ؟ .

(وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

أي أن الله عزَّ وجل يرسل الأنبياء ، ويرسل المرسلين ، وينزِّل الكتب لتقوم الحجة على العباد ، ولو لم يُذَكِّر :

(لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى * قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا)

كلٌّ فريق يُجزَى بما كسب :

والله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالخيرات ، ووعد الكافرين بالعقوبات ، وعليه :

(إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(22))

(سورة المطففين)

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ(14))

(سورة الانفطار)

الناس رجلان : برٌ تقي كريمٌ على الله ، وفاجرٌ شقي هينٌ على الله .

(قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا)

وكل إنسـان ينتظر ما وعده الله به ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر.

(فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى)

يوم القيامة يُكشَف كُلُّ مخبوءٍ :

هذه السين للاستقبال ، ولابدَّ أن يأتي اليوم الذي تعرفون فيه مصداق هذا القرآن الكريم :

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(52))

(سورة يس)

ولابدَّ أن تأتي الساعة التي يتحقق فيها هذا الوعد والوعيد ، ولكن متى ؟ بعد فوات الأوان ، فالبطولة أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان ، أما أن تعرفها بعد فوات الأوان فهذه لجميع الناس .

(فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1 - 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-04-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الأنبياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ(3))

أيها الإخوة الأكارم، هذه السورة ـ سورة الأنبياء ـ مكيَّة، تتحدَّث عن قصص بعض الأنبياء، وعن أمور العقيدة الأساسية، كالإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالله خالقاً، ومربياً، ومسيِّرا، يقول الله سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة:

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

الحركة في الحياة تعني الوصول إلى النهاية الأبدية

ومعنى اقترب، أي أنهم سائرون في طريقٍ ينتهي بالحساب، فكل حركةٍ تعني الوصول، فأيَّةُ مركبةٍ ما إن تنطلق في طريقها حتى تصل، وأيَّة طائرةٍ ما أن تقلع حتى تهبط، وأي قطارٍ ما أن يتحرَّك حتى يصل، فالحركة تعني الوصول، فالله سبحانه وتعالى وضعنا على وجه الأرض، والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، فكل يومٍ يمضي هو جزءٍ من حياتنا، وكل أسبوعٍ يمضي هو جزءٌ أكبر، وكل شهرٍ يمضي هو جزءٌ أكبر، وكل سنةٍ، والسنوات والفصول تنتهي جميعها بمجيء ملك الموت..

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)

اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ

والآن الحبل مُرخَى لهم، يتكلَّمون حقاً أو باطلاً، ويأخذون ما لهم، وما ليس لهم، ويحكمون بالحق إذا حُكِّموا بين شخصين أو بالباطل، ويتكلَّمون بما تهوى أنفسهم أو بما تُمليه عليهم مبادئهُم، فالناس في بحبوحة مخيَّرون، ولكن كل عملٍ عنه محاسبون، وكل موقفٍ من مواقفهم عنه سيُسْألون، وكل دِرْهَمٍ من دراهمهم كيف اكتسبوه، وكيف أنفقوه سيوقفون، هكذا..

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)

ما دمت أنت على وجه الأرض، والأرض تتحرَّك، والعمر مجموعة أيَّامٍ وأسابيع، وأشهر وسنوات فلابدَّ من أن نصل إلى النهاية، ولذلك كل متوقعٍ آت، وكل آتٍ قريب، ومن هنا عبَّر الله سبحانه وتعالى عن يوم القيامة بالفعل الماضي:

(اقْتَرَبَ)

أي اقترب وانتهى، والآن لو أنك راكبٌ في سيَّارة، ما دامت واقفة في مركز الانطلاق، ولا تدري متى تتحرَّك، فالوصول غير محدَّد، ولكن ما أن تتحرَّك حتى تصل، والطائرة ما أن تقلع حتى تهبط، وكذلك القطار ما أن ينطلق حتى يصل إلى الهدف، إذاً:

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)

حسابٌ دقيق..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر:93)

وفي الحديث:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟))

(من سنن الترمذي عن معاذ بن جبل)

ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اغتنم خمساً قبل خمس ؛ شبابك قبل هرمك، وصحَّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

[الحاكم في مستدركه، وابن أبي شيبة في المصنف عن عمرو بن ميمون]

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)

الدولاب يمشي، وأنا في طريقي إلى هذا المسجد، وفي بعض المواقف عند الإشارات الضوئيَّة جاءت جنازة، ونحن في رمضان، هو في طريقه إلى التراب، وإلى الحساب، وإلى نعيمٍ مقيم، أو إلى عذابٍ أليم، وهكذا، ولذلك فما دام الإنسان غافلاً عن هذه الساعة، وعن هذه اللَّحظة، عن تلك النهاية فهو في ضلالٍ مبين.

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)

لم يقل الله عزَّ وجل: اقترب للناس يومُ الدين، أو اقترب للناس يوم القيامة، بل اقترب للناس حسابهم، يقول لك: مفتِّش محاسبات ـ حينما الإنسان يُحَاسَب يتعرَّى، فينكشفُ على حقيقته ـ ويقول لك: الصندوق

مكشوف، يعرف هذا، ويتذوَّقه أمناء الصناديق، فلو جاءهم تفتيشٌ حسابيٌّ مفاجئ، وكانوا قد تصرَّفوا في بعض الأموال، يكادون يُصْعَقون، من منا يدري متى يأتيه الحساب ؟ ومتى يأتيه مَلَك الموت ؟

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ

فهذا الغافل عن تلك الساعة، وهذا الغارق في مشاريعه، وفي ملذَّاته، وأحلامه، وطموحاته، ومُتَعِهِ، وتجارته، ومعمله وحانوته، وظيفته وهواياته، وشهاداته ومراكزه التي يطمح إليها، هذا الغافل يأتيه الموت كالصاعقة.

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

في غفلةٍ، وفي إعراض، في غفلةٍ عن هذا اليوم، وفي إعراضٍ عن هذا القرآن، كلام الله رب العالمين لا يأخذونه مأخذاً جدِّياً !! ولا يطبِّقونه، كما لو أنه كلامٌ من إنسانٍ يخشون بطشه، أو يرجون عطاءه، والناس في تعاملهم اليومي حينما يقرؤون نصًّا لإنسانٍ يُرجى خيره، أو يُرْهَب بطشه ينفِّذونه بحذافيره، ويدقِّقون في تطبيقه أدقَّ التدقيق، فما لهم إذا قرؤوا كلام الله عزَّ وجل، وكلام الله عزَّ وجل فيه أمرٌ، وفيه نهيٌ، فهل قُرَّاء القرآن الكريم عند أمر الله وعند نهيه ؟ هل هم صَدَّقوا وعده ووعيده ؟..

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(سورة النور: من آية " 55 ")

هل صدَّقوا وعده ووعيده ؟ وهل ائتمروا بأمره، وانتهوا عن نهيه ؟ وهل طمعوا في جنَّته، وخافوا من ناره ؟ وهل رضوا بما قسمه الله لهم ؟ وهل وسعتهم السُنَّة، ولم تستهوهم البدعة ؟ وهل رأوا في الدين خلاصاً من كل مشاكلهم ومشكلاتهم ؟ وفي الإقبال على الله سعادةً لقلوبهم ؟ وفي تطبيق الشريعة الغَرَّاء إنقاذاً لهم من مآسيهم ؟..

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 33 ")

في حياته وأنت فيهم، وبعد مماته وشريعتك بين ظَهْرَانيهم في حياتهم مطبَّقة..

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

غافلون.. فبئس العبد عبدٌ سها ولها، ونسي المبتدى والمنتهى، وبئس العبد عبدٌ تكبَّر، واختال، ونسي الكبير المتعالي، وبئس العبد عبدٌ تجبَّر وطغى، ونسي الجبَّار الأعلى، ولا حبذا هذا العبد ـ وساء العبد عبدٌ طَمَعٌ يقوده، ورغبٌ يُذِلُّه، نعوذ بالله من الغفلة، فهذا هو الغافل:

أيـا غافـلاً تبدي الإساءةَ والجهلَا متى تَشْكُر المَولَى على كلِّ ما أولَى
عليكَ أيَادِيه الكِرَامُ، وأنتَ لا تراها كـأنَّ العين عمياءُ أو حَـولا
لأنت كمزكومٍ حوى المِسكُ جَيبُه ولكنَّه المَحْرُومُ ما شَمَّه أصـلا

* * *

إلى متى أنتَ باللذَّاتِ مشـغُولُ وأنتَ عنْ كلِّ مـا قدَّمْتَ مَسؤولُ

* * *

فيا خَجَلي مِنه إذا هو قـال لي أيـا عبدَنا هـلا قـرأتَ كِتَابنا
أما تَسْتَحي منَّا ويكْفيكَ ما جَرى أما تَخْتَشي من عُتْبنَا يومَ جَمْعِنا
أما آنَ أن تغدو عن الذَنْبِ رَاجِعاً وتَنْظُرْ فيما به قد جرى فيه وعْدُنَا

* * *

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

هجر القرآن من الغفلة الكبيرة

أخطر ما في حياتنا غفلتنا عن مصيرنا، وغفلتنا عن هذا الكتاب الذي فيه وعدٌ ووعيد، وأمرٌ ونهيٌ، وجنَّةٌ ونار، وتشريعٌ دقيق، ونظامٌ حكيم، ومنهجٌ قويم، وعبرةٌ لمن يعتبر، وذكرى لمن يتذكَّر، وإخبارٌ عن أقوامٍ مضوا، ووصفٌ لحالتنا الراهنة، وحديثٌ عما سيكون، ويلٌ لمن جعله وراءه ظهرياً، وقال:

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً)

(سورة الفرقان: 30)

هجروه، وقرؤوه على الأموات، ولم يقرؤوه على الأحياء، وقرؤوه في المناسبات، ولم يقرؤوه في المُلِمَّات، وقرؤوه وكأنه كتابٌ لا يعنيهم، وأحكامه لا تتصل بحياتهم.

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

إن السعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ بنفسه، نعوذ بالله من الغفلة، ومن الإعراض، وأن يدير الإنسان ظهره للدين، ولأوامر الله سبحانه وتعالى، وألاّ يقيم لها وزناً، وألاّ يهتمَّ بها، وألاّ يأخذها مأخذاً جِدِّياً.

حالتان مرَضيتان: الغفلة والإعراض

حالتان مَرَضيتان خطيرتان مدمِّرتان، الغفلة والإعراض، ومن علامات المؤمن الصحوة والإقبال، ومن علامات الكافر الغفلة والإعراض، المؤمن صاحٍ، يعرف حجمه الحقيقي، ويعرف لماذا هو على وجه الأرض، ويعرف مهمَّته في الحياة، ولماذا أرسله الله إلى الدنيا، وماذا ينتظر منه، وما الذي وراءه، وما الذي أمامه، ولماذا يتزوَّج ؟ لا من أجل المتعة ولكن من أجل أن ينجب أولاداً صالحين يذكرون الله من بعده، يتزوَّج ليأخذ بيد هذه الزوجة إلى ما يحبُّ الله ويرضاه، ولماذا يعمل ؟ لخدمة المسلمين لا ليستغلَّهم، ولا ليبني ثروته على فقرهم، ولا ليغشَّهم، ولا ليحتال عليهم ؛ بل ليخدمهم وينصحهم والله سبحانه وتعالى يتولَّى أن يرزقه رزقاً حلالاً طيِّباً.

المؤمن صاحٍ يعرف ما له وما عليه، ويعرف ما يجوز، وما لا يجوز، وما يمكن، وما لا يمكن، وما يصح، وما لا يصح، ويعرف ذلك، ويعرف حدوده ـ " رحم الله عبداً عرف حدَّه فوقف عنده " ـ ويعرف أن لكل مخلوقٍ إلهاً يحاسب عنه، الناس في تعاملهم اليومي يقولون: الله وكيلك، لو تعرف معنى هذه الكلمة لارتَعَدْتْ فرائصك، فالله وكيله، وتغشُّه ؟ والله وكيله، وتحلف له يميناً كاذباً ؟ وتحتال عليه ؟ ولذلك من علامات الإيمان الصحوة، والإقبال، هل هو صاحٍ، وحضر مجالس العلم، فأنَّى لإنسانٍ أن يأخذ شهادة عُليا، وهو لا يداوم على الجامعة، مستحيل، من أين يأتي العلم، وأنت جالس في البيت تتابع برامج ترفيهيَّة ؟ ومن أين يأتيك العلم، وأنت في دكَّانك تبيع وتشتري ؟ ومن أين يأتيك العلم، وأنت مع أهلك وأولادك تمزح معهم ؟ لابدَّ من أجل أن تكسب العلم أن تذهب إلى مواطن العلم، إنها مجالس العلم، ولابدَّ من حضورها لتعرف الحلال من الحرام، والحقَّ من الباطل، والخير من الشر، ولتعرف كيف يعامل الله عباده، وقد يأتيك رجل يقول لك: إنّ الله سبحانه وتعالى لا يعذِّب أحداً من عباده، وهذه الآيات التي يتحدَّث فيها عن النار إنما هي من أنواع التخويف، فإن لم تكن تعرف الحقيقة فكيف تواجه هذا الإنسان، إن صدَّقته أهلكت نفسك.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر:93)

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل:32)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِي)، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ

رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه]

طلب العلم وقاية من الغفلة

أنَّى لك أن تعرف الحقيقة من دون أن تحضر مجالس العلم ؟ ومن دون أن تستمع إلى تفسير كتاب الله، وأن تتعرَّف إلى سُنَّة رسول الله، وأن تعرف الأحكام الفقهيَّة في كل موضوع، أنىَّ لك أن تتحمَّس إلى الله من دون أن ترى من سبقوك مِن أصحاب رسول الله، ومن التابعين الأجلاء، ومن العلماء العاملين، هؤلاء الذين تستمع إلى قصصهم هم مشاعل في الطريق، مشاعل وضَّاءة، ونبراسٌ لك في طريق الإيمان، لذلك:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

(من سنن ابن ماجة: عن " أنس بن مالك ")

طلب العلم فرض عين وليس فرض كفاية، فرض عين، كن في أي مستوىً أردت، وفي أي عملٍ شئت فلابدَّ من طلب العلم..

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

إذا كان الإنسان ذاهباً إلى بلد يسأل: ماذا أفعل ؟ وأي فندقٍ أنزل ؟ وكيف شراء الحاجات هناك ؟ دُلَّني على مكانٍ مناسب، وعلى فندقٍ مناسب، وطريقةٍ مناسبة أُحَصِّل فيها قوت يومي، ما من إنسان يسافر إلا، ويسأل الخبراء عن هذا البلد، وهل في هذا البلد مشكلات، وميّزات، وملابسات، وخصائص، فكيف إذا كان الإنسان ذاهباً إلى الدار الآخرة - قولاً واحداً - ألا يسأل عن هذه الرحلة الأبديَّة الطويلة التي لا عودة منها، ذهاب بلا عودة، أبداً، فالإنسان أحياناً يسافر فيغيب شهراً، أو شهرين، أو سنة، أو سنتين، أو خمس سنوات، ثمَّ يعود، وأحياناً الإنسان يدخل السجن، وبعد كذا سنة يعود إلى أهله، لكنَّ الموت ذهابٌ بلا عودة، فالذي لا يعرف كيف يستغل حياته، هو إنسانٌ في منتهى الضلالة..

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

نعوذ بالله من الغفلة ومن الإعراض، ونرجو الله أن نكون ممن تيقَّظت قلوبهم، وممن أقبلوا على ربِّهم.

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ

أي أن هذا القرآن الذي نزل مُنَجَّماً على قلب سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم يستمعونه، وهم يلعبون، إنه كلامٌ خطير ومَصِيريّ، وإذا قرأه الإنسان، وعرف أبعاده لا يقرُّ له قرار، ولا يهدأ له بال حتى يعرف أين هو منه، هل مع الفائزين أم مع الضالين ؟ وهل مع الناجحين أم مع الخاسرين ؟ فلذلك:

(إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

موقف المؤمن عند سماعه القرآن

ولكنَّ المؤمن لا يلعب، إذا استمع إلى آيةٍ أخذها مأخذاً جدياً، وطبَّقها في حياته تطبيقاً صحيحاً، إنها كلام ربِّ العالمين، فلماذا تأخذ كلام البشر بجِد ؟ وإذا مُنِعْت من شيءٍ بقوَّة قانون، وقرأت في نهاية القانون الروادع التي كُتِبَت من أجل أن تحاسب المخالفين، وعرفت أن الذي أصدر هذا القانون لن يتساهل في تطبيقه، وأنه يفعل ما يقول، فلماذا تأتمرُ به ؟ ولماذا تحرصُ على تطبيقه ؟ أيعقل أن تكون خشيتك من إنسان أعظم من خشيتك من الرحمن ؟! أيعقل هذا ؟! أيعقل أن تحسب لإنسانٍ حساباً ولا تحسب لخالق الكون حساباً ؟!!..

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

ونحن في كل زمانٍ نستمع إلى هذا الكتاب، وهذا الكتاب يُتْلى علينا، ويأتينا تأويله، أما أنه يُتْلى علينا فهذا شيءٌ مفروغ منه، يُتلى علينا صباحاً ومساءً، أو نتلوه نحن، أما أن يأتينا تأويله فإن كل وعدٍ ووعيدٍ وعد به القرآن أو توعَّد به نجده واقعاً لا محالة، فالله وعد المرابي بإتلاف ماله، فكل مرابٍ يُتْلف ماله، إنما هو تأويلٌ لهذا الكتاب، وعد المؤمن بالحياة الطيِّبة، فحياة المؤمن الطيبة تأويلٌ لهذه الآية، ووعَدَ المُعْرِضَ عن ذكر الله بالمعيشة الضنك، فالمعيشة الضنك تأويلٌ لهذه الآية، وعد القاتل بالقتل، ووعَدَ الزاني بالفقر، ووعَدَ على كل سيئةٍ عقاباً، فحينما يُطبَّق القرآن فإن هذا التطبيق هو تأويل، وهذا التأويل مما يزيد في إيماننا بهذا الكتاب.

إذاً فالله سبحانه وتعالى يُصَرِّف لنا الآيات الكونية والقرآنية، يصرِّف لنا الآيات الكونيَّة ؛ الليل والنهار، والشمس والقمر، والصيف والشتاء والربيع، والأمطار، والبحار، والأنهار، والينابيع، وهذه الأرض المُزدانة بالنباتات الخضر والأزاهير الحِسَان أليست آيةً من آيات الله الدالَّة على عظمته، هذه آية..

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ)

لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ

هناك لهوٍ، وهناك غفلةٍ، فهم في مُتَعِهم الرخيصة، وفي مباهجهم المنحرفة، وفي شهواتهم الدنيئة، وفي تطلُّعات الأثرة، إنهم لاهون بها.

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى

هل يُعْقَل أن يُرْخِي الإنسان لشهواته العِنَان ويقول: أنا على غلط ؟ لا، إنه يقول عكس ذلك..

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)

أي وأسرَّ النجوى الذين ظلموا..

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

النجوى أي الحديث الخفي، قالوا:

(هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

حجج الكفار في ردّ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم:

1 - هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

ما من إنسانٍ ينحرف عن طريق الحق إلا ويتَّهم أهل الحق بالزيَغ، يقول لك: هؤلاء معقَّدون، وغير واقعيين، وحالمون، لا يعرفون مباهج الحياة الدنيا، وما ذاقوا طعم الدنيا، إنهم زاهدون ولو عرفوها لما زهدوا فيها، وهكذا يدَّعي أهل الفسق والفجور، فما عرفوا أن المؤمنين ذاقوا من طعم القُرْب ما أذهلهم ـ **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف "** ـ ما عرف أهل البُعد والضلال أن المؤمنين لو عَرَضْت عليهم أن يُلقوا في النار، أو أن يتركوا دينهم لفضَّلوا أن يُلقوا في النار، لأنهم عرفوا أن لهم رباً عظيماً، أما عرفوا أن سحرة فرعون قالوا:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه: 72-73)

وما عرف هؤلاء الضالُّون أن في حياة المؤمن شوقاً إلى الله عزَّ وجل، من أجله يضحي بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وأن في حياة المؤمن سعادةً لا يحلُمُ بها أثرياء العالم، ولو أن حياته في ظاهرها متقشِّفةٌ، خشنةٌ، متواضعةٌ، محدودةٌ ؛ ولكنَّ في قلبه من السعادة ما لو وزِّع على أهل بلدٍ لكفاهم، وما عرف هؤلاء الضالون أن من..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه:124)

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

يقول لك: أخي، هذا محمَّد إنسان عبقري وذكي، ساق هذا القرآن بحكمةٍ بارعة، وأقنع الناس أنه كلام الله عزَّ وجل، ووحَّد القبائل، وصار زعيماً عليها، وانتهى الأمر، هذا الدين كله عندهم..

(الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

لكن على أذكى..

(أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

2 - أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

إنكم إن اتبعتموه سَحَرَكُم، سحركم بأخلاقه، وبالحق الذي بين جنبيه، وبنفسيّته التي أقبلت على الله عزَّ وجل وبأُنسه..

(أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

هذا ساحر، فلا تستمعوا إليه، فهو يأخذكم من بين أحضان أهلكم، نعَم إنّ المؤمن يَسْحَرُ الناس بُخلقه الكريم، وبتواضعه العظيم، وحلمه، وكرمه، وسخائه، ولطفه، وأُنسه، هكذا المؤمن، إنه بإقباله على الله اشتقَّ شيئاً من كماله، فهو رحيم، ولطيف، وعفوٌ كريم، فشيءٌ طبيعي أن تُحِبَّ المؤمن، أما إذا التقيت بالنبي عليه الصلاة والسلام فربَّما بقيت أيَّاماً لا تنام الليل شوقاً إليه، وهؤلاء الذين رأوه في المنام يبكون أياماً طويلة وأشهراً، وهم يذكرون هذه الرؤيا.

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

أي وأسرَّ الذين ظلموا النجوى، الذين بدل من الواو في أسرّوا.

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)

من هم الذين أسروا النجوى ؟ الذين ظلموا، بدل من الواو..

(هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

أي أن النبي الكريم ما هو إلا بشرٌ مثلكم، هكذا يدَّعي الذين ظلموا.

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(4))

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

إن الله وحده يعرف الحقيقة، ويعلم القول، فهو يعلم ما تقولون من كذب، ويعلم ما أقول من صدق، ويعلم أني رسولٌ من عند الله ولست بمفترٍ عليه، وأنكم تفترون على الله كذباً..

(قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

لذلك أهون شيء التعامل مع الله عزَّ وجل ألا تحتاج إلى يمين، ولا تحتاج إلى بيان، ولا وثيقة، ولا شاهد، ولا كتاب، لا تحتاج إلى شيء لأن الله يعلم السرَّ وأخفى، والقضيَّة سهلة جداً، فلا يكفيك إلا أن تكون مخلصاً له، فالتعامل مع الله عزَّ وجل لا يحتاج إلى إثبات، إنه مطلعٌ على قلبك.. قال سيدنا جبريل: **" يا إبراهيم، ألك حاجة عند الله ؟ قال له: " منك ؟ قال له: " لا من الله "، قال له: " علمه بحالي يغني عن سؤالي ".**

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

* * *

إذا أخلص الإنسان لله عزَّ وجل، وتقرَّب إليه أغناه عن استجداء الاستحسان، وعن استجداء المديح، وأغناه عن أن يعرف الناس فضله، جاء رسولٌ إلى عمر بن الخطَّاب من بعض المعارك.. وأظن من معركة القادسيَّة.. فقال: " يا أمير المؤمنين مات خَلقٌ كثير "، قال: " من هم ؟ " قال: " إنَّك لا تعرفهم "، فبكى عمر بكاءً مُرًّا، وقال: **" وما ضرَّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم "**، ومن أنا حتى لا أعرفهم ؟..

(قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

إحاطة علم الله بكل قول ظاهر وخفيّ

أي قولٍ يُقال في الأرض والسماء يعلمه الله، صدقاً كان أو كذباً، فيه إخلاصٌ أم فيه خيانة، وفيه وضوحٌ أم فيه غموض..

(قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

وشيءٌ آخر:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف:128)

يعلم القول، وهو الحَكَمُ الفَصْلُ، وهو أحكم الحاكمين.

(بَلْ قالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ)

3 - بَلْ قالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ

هذا الذي يقوله النبي الكريم إنما هي أحلامٌ يراها في الليل، أحلامٌ تكاثفت وتواردت عليه فهو يعبِّر عنها، إنها ليست حقيقةً، إنها أضغاث أحلامٍ..

(بَلِ افْتَرَاهُ)

4 - بَلْ افْتَرَاهُ

إن هذا القرآن قد افتراه من عنده، هم يقولون: لقد افتراه محمَّد من عنده، وليس من عند الله..

(بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ)

5 - بَلْ هُوَ شَاعِرٌ

هذا نوعٌ من الشعر، يا أخي فيه سحر، كلامٌ له حلاوة، وعليه طلاوة، إنه نوعٌ من الشعر، إنه شاعر، وقالوا: هو شاعر..

(فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ)

فلو أنه نبيٌّ مُرْسَل فليأتنا بآيةٍ كما جاء بها موسى، وكما جاء بها عيسى عليهما السلام، يحيي الميت، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويضرب البحر فإذا هو طريقٌ يَبَس بين جبلين عظيمين، إن كان نبياً صادقاً فليأتنا بآيةٍ كما جاء بها الأوَّلون، فيَرُدُّ عليهم الله سبحانه وتعالى، ويقول:

(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

مصير تكذيب الأنبياء

قوم صالح طلبوا الناقة لتخرج إليهم من الجبل، فهل آمنوا بالله عزَّ وجل على إثرها ؟ وقوم موسى رأوا البحر قد أصبح طريقاً يَبَساً، ورأوا عدوَّهم فرعون قد غَرِقَ فيه، وبعد إذٍ جاءهم السامري..

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

(سورة طه:88)

فصدَّقوه، أنفع بني إسرائيل ما رأوا من آياتٍ بيِّنات ؟ أنفعتهم العصا التي أصبحت حيَّة ؟ وقوم سيدنا عيسى أنفعهم أنه أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى، وأنبأهم بما في بيوتهم ؟..

(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

الكـون مـعجزة

إنّ الكون هو المعجزة، ومن لم يؤمن بالكون وبوضعه الراهن من دون أن تُخْرَقَ قوانينه لن يؤمن بخرق قوانينه، خلقك معجزة، وابنك معجزة، إذ هو نقطةٌ من ماءٍ مهين فيها ثلاثمئة مليون حوين، حوينٌ واحد أقوى هذه الحوينات وقف أمام بويضةٍ ففتحت له الباب فدخل وأغلقت الباب، وبقي الثلاثمئة مليون حوين آخر خارج الحساب، فهذا الحوين وهذه البويضة تكاثرا، وانقسما إلى عشرة آلاف قسم في ثمانية أيَّام، وهما في طريقهما إلى الرحم، وفي الرحم التصقا بجداره، فتشكَّل الدماغ، والقلب، والأحشاء، والأعضاء، فما هذا ؟ في تسعة أشهر يصبح ابنك إنساناً فيه معدة، وأمعاء، وقلب، ورئتان، ودماغ، وعينان، وأذنان، وأنف، ولسان، وشفتان، ويدان، وأصابع، وسُلاميَّات، وأظافر، وعظام، وعضلات، وأوردة، وشرايين، ففي تسعة أشهر من فعل هذا أنت أم زوجتك ؟

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور:35)

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59))

(سورة الوقعة: 58-59)

الكون نفسه معجزة، خلقك معجزة، فابنك معجزة، وكأس الحليب الذي تشربه معجزة، وهذه البقرة لها خليَّة ـ الخليَّة الثديية على شكل قبَّة ـ ومحاطة هنا بشرايين دمويَّة كثيفة جداً، يجول حولها الدم هنا فتسقط قطرات الحليب من هنا، وحتى هذه الساعة لا يعرف العلماء ـ علماء الأحياء ـ ما آليَّة تصنيع الحليب، وكيف يتحوَّل الدمُ إلى حليب ؟ إن لتر الحليب الواحد يحتاج إلى أربعمئة لترٍ من الدم يجول حول الخليَّة الثديية حتى يصبح هذا اللتر من الحليب صالحاً لك أنت، وَفْقَ بنيتك الجسميَّة، فيه بروتين، وسكَّر، ودسم، ومواد، وفيتامينات، ومواد معدنيَّة، شيءٌ يأخذ بالألباب، فتركيب الحليب وحده من الذي صنعه أهذه الخليَّة الثديية ؟ أهي عاقلة ؟ هذه البقرة معمل حي يأكل الحشيش فيعطيك الحليب، فتصنع منه السمن، والجبن، واللبن، وكل حاجاتك..

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ)

(سورة النحل: 66)

هذه آية من آيات الله الكُبرى.

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

(سورة النحل: من آية " 5 ")

طبع الغَنَم طبعٌ وديع مسالم، غير مخيف، وغير متوحِّش، مذلَّل، تأكل لحمه، ودهنه، وأحشاءه، وتستعين بجلده، وبصوفه، وتأخذ روثه وفضلاته سماداً لأرضك..

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

خصيصى، وتطلب معجزة ؟! الغنمة معجزة، والبقرة معجزة، والدجاجة معجزة، وابنك معجزة، وزوجتك معجزة.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الروم: من آية " 21 ")

المرأة لها بنية خاصَّة، لـها بنية فيزيولوجية خاصَّة، وبنية نفسيَّة.

الثمار معجزة، فهذه الشجرة تسقيها ماءً فتعطيك تفاحاً له شكلٌ لطيف محبَّب، ورائحةٌ محبَّبة، وقِوامٌ، وحجمٌ، ونكهةٌ، وغذاءٌ، فكم أنواع أشجار الفاكهة، وأنواع المحاصيل، وأنواع الخضار ؟

هذه الشمس معجزة تبعد عنَّا مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، ومع هذه المسافة الشاسعة نورها وضَّاء، ودفؤها فيه خيرٌ عميم. والقمر تقويمٌ في السماء.

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً(13))

(سورة الإسراء:12-13)

والمطر معجزة، وهذا الكون أيضاً، وحسبكم الكون معجزة.

إذا لم يؤمن الإنسان بالكون لم يؤمن بخرق قوانينه، والدليل:

(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

إذا لم تؤمن بهذه الآيات الدالَّة على عظمته التي بثَّها الله في السماوات والأرض لن تؤمن بخرق القوانين.

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

الأنبياء بشر تجري عليهم خصائص البشر

من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل الأنبياء من بني البشر، فلو كانوا ملائكةً لما اتبعهم أحد، ولقالوا لأي نبي: أنت ملك فهل أنت بشر ؟ أنا عندي شهوات، وقد جعل الله عزوجل الأنبياء العِظام من بني

البشر يحسُّون ما نحس، ويشعرون بما نشعر، ويغضبون لما نغضب، وجعلهم مثلنا يأكلون ويشربون، ويتزَّوجون وينجبون، ويمشون في الأسواق.

هذا بحثٌ نؤخره إن شاء الله تعالى إلى درسٍ قادم.. الحديث عن الأنبياء.. ولماذا قال الله في حقّهم:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

(سورة الفرقان: من آية " 20 ")

لماذا هم يتزوجون كما يتزوج البشر ؟ لماذا هم من بني البشر ؟ ما الحكمة التي وراء ذلك ؟..

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ(8))

يموتون..

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر:30)

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)

هذه الفِقْرَة التي تتحدَّث عن أنبياء الله سبحانه وتعالى فيها تعليقٌ دقيق نؤخره إلى درسٍ قادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 7 - 16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-04-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنين... وصلنا في الدرس الماضي الذي كان الدرس الأول من سورة الأنبياء، وهذا هو الدرس الثاني، وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ)

بشرية الأنبياء خالصة

فقد شاءت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يكون الأنبياء الذين ينقلون للبشر رسالات ربهم، أن يكونوا من بني البشر، وأن يكونوا رجالاً على وجه الخصوص، أما أن يكونوا من بني البشر فلأن الأنبياء لو كانوا ملائكة لما أقيمت الحُجَّة على بني البشر، ولأن أيّ أمرٍ أو أيّ نهيٍ ينطق به هؤلاء الملائكة الأنبياء لقيل لهم: أنتم ملائكة، ونحن بشر، نحن أودع الله فينا شهوات ونزوات، فلذلك هذا الكلام ليس واقعياً، وأنتم حالمون، ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى شاءت أن يكون الأنبياء من بني البشر، فمعنى من بني البشر أنهم يحسون إحساس البشر، ويرضون كما يرضى البشر، ويغضبون كما يغضب البشر، وأن الله أودع فيهم شهواتٍ كما أودعها في البشر، وأودع فيهم طموحاتٍ كما أودعها في البشر، فالأنبياء من بني البشر.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف: من آية " 110 ")

فلماذا تفوق الأنبياء ؟ ولأنهم بشر، لو أنهم ملائكة لما تفوقوا، لأنهم من بني البشر، وقد أودع الله فيهم كل الشهوات التي أودعها في بني البشر، ولكنهم ضبطوا هذه الشهوات، وارتقوا إلى رب الأرض والسماوات ولذلك تفوقوا.

أيها الإخوة الأكارم، لكن الأنبياء فعلاً كانوا من بني البشر، وكانوا رجالاً، فليس في تاريخ النبوة امرأةٌ أرسلها الله نبيةً، لاعتباراتٍ كثيرة فَصَّلَها علماء العقيدة، ولكن أراد الله عزَّ وجل أن يؤكّد للناس أن هؤلاء بشر على الرغم من المعجزات التي أجراها على أيديهم، ومن الكتب التي أنزلت عليهم، جعلهم بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

أما انهم يأكلون الطعام فلإظهار عبوديتهم لله عزَّ وجل، فالإنسان من دون طعامٍ أو شراب يقضي نَحْبَهُ، وهو مفتقرٌ إلى الطعام والشراب، مقهورٌ بالطعام والشراب، ولولا الطعام والشراب لما مشى

إنسانٌ على وجه الأرض.

وأما أنهم يمشون في الأسواق فلأنهم مفتقرون إلى الطعام والشراب، ومفتقرون إلى كسب الطعام والشراب، فالمشي في الأسواق تعبيرٌ عن كسب الطعام والشراب، والطعام والشراب تعبيرٌ عن افتقار الأنبياء إلى الله سبحانه وتعالى، ولذلك لا ينبغي للإنسان إلا أن يكون طبيعياً، فعن أبي أمامة قال: قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((مَنْ حَمَلَ بِضَاعَتَهُ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الْكِبْرِ))

[البيهقي في شعي الإيمان]

إنّه لا يغضّ من شأنك أن تأكل أمام الناس، لكن ليس من المروءة أن تأكل في الطريق، ولكن إذا كنت تأكل فهذا لا ينقص من قدرك عند أحد، فالأنبياء يأكلون، وأن تجوع فالأنبياء يجوعون، وأن تعطش فالأنبياء يعطشون، وأن تغضب إذا انتهكَت حرمةٌ من حرمات الله فالأنبياء كذلك، ولا يغضُّ من شأنك أن تكون عبداً لله، تأكل، وتشرب، وتشعر بحاجةٍ إلى النوم، هذا الجسد له قوانين، وهذا الجهاز العَصَبِيّ لابدَّ من أن يرتاح، فالنوم من خصائص بني البشر، لكن هناك نومٌ طبيعياً، ونومٌ يُعَبِّر عن كسلٍ شديد، فمن أمضى عمره بالنوم أتى يوم القيامة مُفْلِسَاً..

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الذاريات:17-18)

((وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ))

(من سنن الترمذي عن عثمان بن عفان)

انفراد الأنبياء عن البشر بصفة النبوة

والنقطة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى كي يقيم الحُجَّة علينا جعل هؤلاء الصفوة المختارة من الأنبياء من بني البشر، وجعلهم من طبيعةٍ واحدة، ومن نفسٍ واحدة، فإذا تفوَّقوا فبفضل صدقهم، وانضباطهم، وشوقهم، واعتمادهم على الله سبحانه وتعالى.

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ)

صحيحٌ أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أمياً ؟ ولكنه يوحى إليه، وحينما يوحي إليه الله سبحانه وتعالى فهو أعلم علماء الأرض، لأن خالق ومُبدع الكون يوحي إليه، إذاً هذه أعلى مرتبةٍ علمية ينالها مخلوقٌ على وجه الأرض، فالأنبياء علمهم من الله سبحانه وتعالى، وعلم الناس كَسْبِيّ، فقد تدرس في جامعة، وقد تقرأ كتاباً، وقد تستمع إلى درسٍ فتفهم بعضه أو لا تفهم، وقد يكون الدرس صحيحاً أو غير صحيح، فعلم البشر كَسْبِيّ، ولكن علم الأنبياء من قبل الله سبحانه وتعالى، إذاً:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

معاني الآية:

هذه الآية لها معنيان:

المعنى الأول: المعنى السياقي:

المعنى السياقي المُستنبط من سياق الآية: لو أن هذه الآية نزعتها من بين أخواتها فلها معنى آخر، فمعناها السياقي: اسألوا أهل الكتاب، اسألوا من أوتوا الكتاب من قبلكم، كيف كان أنبياؤهم جميعاً من بني البشر، وكانوا رجالاً..

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ)

يا أهل مكة، يا كفار مكة أتعجبون أن الله سبحانه وتعالى أرسل إليكم رسولاً من أنفسكم ؟! من بني جلدتكم ؟ ومن جنسكم ؟ بشراً مثلكم ؟ رجلاً ؟ أتعجبون ؟!!

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

اسألوا أهل الكتاب كيف أن أنبياءهم جميعاً كانوا من بني البشر، هذا هو المعنى السياقي.

المعنى الثاني: معنى طلب العلم وسؤال العلماء في الدين والدنيا:

ولكن المعنى الآخر الذي يمكن أن يكون معنىً دقيقاً جداً، هو أن هذه الآية قاعدةٌ في طلب العلم:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

وهم العلماء..

(إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

التعقيب اللطيف: أن السؤال الذي أباحه الله سبحانه وتعالى أن تسأل إن كنت لا تعلم، ففي حالةٍ واحدة يباح لك السؤال، وتكون في نظر الله كبيراً، ونصف العلم لا أدري، والسؤال نصف العلم، ومفتاح العلم السؤال، أما أن تعلم الحقيقة، وتسألها لتمتحن الآخرين، فهذا السؤال لا يرضي الله عزَّ وجل، أن تسأل من أجل أن تحرج المسؤول، أو أن تُظْهِرَ علمك، أو أن توقع فتنةً بين عالمين، أو أن تعرض عضلاتك العلمية أمام الآخرين، أو من أجل التَعَالُم، كل هذه الأهداف رخيصة لا قيمة لها، لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

فالحقيقة التي لا تعرفها اسأل عنها، وليس العار أن تكون جاهلاً، بل العار أن تبقى جاهلاً، والله سبحانه وتعالى في كل عصرٍ وفي كل مصرٍ سَخَّرَ أُناساً لتعليم الخلق، فهؤلاء مسخَّرون من قِبَل الله سبحانه وتعالى، جعلهم في خدمة عباده، فاسألوهم، من استشار الرجال استعار عقولهم، وقبل أن تُقْدِمَ على هذا الزواج، أو على هذه الشركة، أو على هذه التجارة، أو أن تتورَّط في هذه السفرة، أو أن تقترف هذه المعصية بحجة أنك مُضَّطر، وفي الحقيقة لستَ مضَّطراً، وهذا الذي تدعيه ليس ضرورةً، والضرورة حددها العلماء، فلماذا لا تسأل ؟ ولماذا تضن أن تسأل سؤالاً، وتأخذ رأي الشرع فيه، وتأخذ رأي القرآن فيه ؟ فالله سبحانه وتعالى جعل هؤلاء ـ أهل الذكر ـ في خدمة الخلق، وقال لعباده:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

أيجوز أن أفعل هذا ؟ أيُرضي الله أن أقترف هذا ؟ أيرضي الله أن أُطَلِّقَ امرأتي، ولهذه الأسباب ؟ يقول لك: لا يرضي الله، فهذه الأسباب ليست كافية، أيرضي الله أن أعمل بهذه التجارة ؟ أيرضي الله أن أتعامل بهذه البضاعة ؟ أيرضي الله أن أُشارك فلاناً ؟.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

ما معنى هذه الآية ؟ قرأت هذه الآية فشعرت أن الله لا يريد أن يهدي عباده..

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة: من آية " 13 ")

تسأل: ما معنى هذه الآية ؟ إذا قرأت الآية، وكانت من المُتَشَابهات، ولم تشعر أن لها معنىً يستقيم مع كمال الله سبحانه وتعالى فلا تبقَ ساكتاً، اسأل عنها، فلعل الله سبحانه وتعالى يلهم المسؤول أن ينطق بالحق، فيشفي صدرك من هذا التساؤل، وهذه الحيرة.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

فحينما تسأل يأتيك جواب الشرع، إن سألت فقيهاً يأتِك رأي الفقه، وإن سألت عالماً بالتفسير أتاك بتفسير الآية الصحيح، وإن سألت عالماً بالحديث أتاك بمعنى الحديث الصحيح، وإن سألت عالماً بالعقيدة أتاك بالاعتقاد الصحيح، فلماذا تسكت ؟ ولماذا تجعل نفسك نُهْبَةً للمخاوف، أو للأفكار الخاطئة، أو للعقائد الزائغة، أو للتُرُّهات الباطلة ؟ لماذا ؟

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

هذا في أمر دينك، وفي أمر دنياك، اسأل أهل الخبرة في كل موضوع، وقبل أن تقدم على فتح هذا المحل اسأل: هل مناسبٌ مكانه في هذه المنطقة ؟ وقبل أن تفعل شيئاً مَصيرياً في حياتك اسأل أهل الإيمان، والخبرة في وقتٍ واحد.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

وإجابتهم ليست ملزمة، خذ منهم، ووازن بين أقوالهم وبين ما تعرف، فإن جاؤوك بالرأي الصحيح مُدَعَّمَاً بالآية الكريمة، وتفسيرها الصحيح، وبالحديث الصحيح، وبرأي العلماء من السلف الصالح، عليك أن تنفّذ هذا الرأي الصائب، فهذه الآية أصلٌ في طلب العلم، قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، وإنما الكرم بالتكرم))

[الطبراني في المعجم الأوسط (2663) عن أبي الدرداء]

ما من إنسانٍ وُلِد عالماً، وثمة رجُلان لا يسألان ؛ المُستحي والمتكبِّر، المتكبر لا يسأل لئلا يظهر جهله، لأن نفسه وكِبْرَها أغلى عليه من الحقيقة، ولكن المؤمن يسأل، فإذا سأل عن موضوعٍ ما، لا ينتقص هذا من قدره، يبقى في أوج مكانته، لأنه يسأل عن الحقيقة، وطلب الحقيقة مقدسٌ عند الله سبحانه وتعالى، وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

شيءٌ آخر، لكن السؤال المبني على الإيقاع بين المسؤولين، وعلى إظهار العلم، وعلى الإحراج، وعلى التضييق، وعلى التعالُم والتفاخر، وعلى إضاعة الوقت.

قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم:

((يا رسول الله جئتك لتعلمني من غرائب العلم، فقال عليه الصلاة والسلام لهذا الأعرابي: وماذا صنعت في أصل العلم ؟، قال: وما أصل العلم ؟ قال: هل عرفت الرب ؟ - هذا هو أصل العلم - فقال: ما شاء الله، قال: " فماذا صنعت في حقه ؟ - إن كنت قد عرفته فأيّ ما الموقف الذي وقفته بناءً على معرفة الله سبحانه وتعالى ؟ قال: هل عرفت الموت ؟ قال: ما شاء الله، قال: فماذا أعددت له ؟، ثم قال له: اذهب فأحكمْ ما هنالك، ثم تعال لأعلمك من غرائب العلم))

[أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن المسور]

السؤال في المهمات لا السفاسف

لا تسأل عن التوافه وعن الجُزئيَّات، بل اسأل عن المعضلات، وعن جوهر الدين، وعن حقيقة الدين، وعما يرضي الله سبحانه وتعالى، فلذلك السؤال نصف العلم، والسؤال مفتاح العلم.

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

أهل الذكر ليس معصومين

أهل الذكر أيضاً ليسوا معصومين، هذه نقطة مهمة جداً، فالله سبحانه وتعالى عَصَمَ الأنبياء من أن يقعوا في غلطٍ في إبلاغ العلم، وغلطٍ في سلوكهم، لأنهم قدوة، إنك مطالبٌ أن تتابعهم، فإذا وقعوا في

غلط، وتابعتهم فكأن الله يأمرك بالمعصية، وما دام الله قد عصمهم من الزلل والخطأِ في نقل العلم، وفي اتباع الدليل فإنهم معصومون في أقوالهم وأفعالهم، وفي تبليغ رسالات ربهم، لذلك عليك أن تتابعهم..

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: من آية " 7 ")

قولاً واحداً، ولكن ما سوى الأنبياء فليسوا معصومين، لكن لا يعقل أن يخطئ العالم خطأً فاحشاً، فإذاً ليس هو بعالم، فهناك أصول للإسلام كبيرة، وهناك مسلَّمات، وهناك أركان الإيمان، وأركان الإسلام، وهناك أساسيَّات، ولكن العالم ليس معصوماً عن أن يغلط في أمورٍ جُزئيةٍ، وليس هذا الغلط مقصوداً، فيجب أن ينزَّه العالمُ عن الغلط في الأمور الكبيرة، وعن الغلط المقصود، هو فوق ذلك، العالم محفوظٌ وليس معصوماً، ومعنى أنه محفوظٌ أيْ لا يضرُّه خطؤه، فما سوى الأنبياء، وما جاءنا عن صاحب هذه القبة الخضراء فعلى العين والرأس، نبيٌّ كريم لا ينطق عن الهوى، وما جاء عن أصحابه فعلى العين والرأس لأنهم سمعوا منه الحقيقة، وما جاء عن سواهم فنحن رجالٌ وهم رجال، لابدَّ من الدليل.

الأدلة على عدم عصمة العلماء

خطب سيدنا أبو بكرٍ رضي الله عنه خُطبةً تُعَدُّ أساساً في هذا الموضوع، قال: **<< أيها الناس، إني قد ولّيتُ عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، الضعيف فيكم قويٌ عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذ الحق منه، أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم >>.**

إنّ الطاعة العمياء ليست واردة إطلاقاً، أي: راقبوني، وقيسوا أحكامي على أحكام الشريعة، فإن وافقتها فأطيعوني، وإن خالفتها فلا تطيعوني، لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

ليس هناك بعد الأنبياء إنسان مؤهَّلٌ أن تطيعه على عمى، لا، فهناك دستور، وهو القرآن، وهناك شرع، فلذلك ما الذي أهلك بعض الناس ؟ أنهم تابعوا من يعلّمونهم على عمى من دون دليل..

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام: من آية " 148 ")

هذا هو الدليل، لا ينبغي أن تستمع إلى فكرةٍ من دون دليل، وهذا دليلٌ نقلي من كتاب الله، قطعيّ الثبوت، وقطعي الدلالة، ودليلٌ نقلي من سُنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما صَحَّ من سنة رسول الله، دليلٌ عقلي ودليلٌ واقعي، وإذا تضافرت الأدلة النقلية من الكتاب والسنة مع الأدلة العقلية، ومع الأدلة الواقعية فعندئذٍ يجب أن تأخذ بهذا الكلام، أما أن تتبع أهواء الناس، فلا تقرأ مثلاً مقاله يقول لك:

" هذا الدواء يطيل العمر "، وهذا خلاف القرآن، فلو أن الإنسان يكتب ضبطاً لكل ما يسمع، من قصص، ومن أفكار، ومن مقالات، ومن كلام، إذا قاس هذا الكلام كله بكلام الله سبحانه وتعالى فربما ألقى وراء ظهره أربعة أخماس ما يسمعه، لأنه كلامٌ خلاف القرآن، وخلاف الحديث الشريف، أهذا هو المنهج ؟

قلت لكم سابقاً: لو أن إنساناً اقتنى آلةً بالغة التعقيد، غالية الثمن، عظيمة النفع، تراه يبحث عن كُتَيِّبٍ تصدره الجهة الصانعة، في هذا الكتيِّب تعليمات الاستعمال، وطرق الصيانة، إنه حريصٌ حرصاً بالغاً على اقتناء الكتاب، ترجمته، وعلى فهمهِ، وعلى تنفيذ تعليماته بدقةٍ متناهية.

إنه القرآن، أنت الآلة، وهذا هو القرآن، والإنسان أعقد آلةٍ على وجه الأرض، له جسدٌ معقدٌ جداً، فكيف يصونه ؟ وكيف يعيش به سليماً معافىً ؟ له نفسٌ دقيقةٌ جداً، فكيف يضمنُ صحتها ؟ وله عقلٌ خطيرٌ جداً، وكيف يضمن صوابه وعدم تزويره ؟ إنه القرآن،

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من آية " 9 ")

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة: 38)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه:123)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل:97)

فالإنسان ليس له حق أن يتلقى معلومات غير مُدَعَّمَة بالأدلة، فإذا قبل هذه المعلوماتٍ ضل وأضَل، وهلك وأهلك، فكثير من التوجيهات في التجارة والصناعة، والسكنى والاختلاط، والعلاقات الاجتماعية، توجيهات عامية لا أساس لها من الصحة، إنها توجيهات جاهلية مدمِّرة، ينبغي لك أن يكون توجيهك من الله عزَّ وجل، من هذا الكتاب الذي هو منهجك تسير عليه، فيقيك الخطأ، والزلل، والعطب، والعبث، هذا الكتاب منهجٌ فيه مبادئ سلامتك ؛ سلامة الجسد، والنفس، والعقل، هذا الكتاب فيه مبادئ سعادتك في الدنيا والآخرة، وفيه تنظمٌ لعلاقاتك كلِّها، مع نفسك، وربك، وأهلك، وأولادك، جيرانك، ومن هم أعلى منك، ومن هم أدنى منك، إنه دستور دقيق جداً.

فلذلك سيدنا الصديق رضي الله عنه، قال: **<< أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>.**

أي أنتم يا أصحابي، فدققوا في تصرُّفاتي، فإن جاءت مطابقةً لكتاب الله ولسنة النبي فأطيعوني، وإلا فلا تطيعوني.

إذا كان العلماء هكذا، وكان المسلمون في وعيهم هكذا، لعاش الناس حياةً صحيحةً معافاةً سليمةً من كل ضلالة، أما إذا قبلنَا أفكاراً من دون دليلٍ نقلي، ومن دون دليلٍ عقلي، أو دليلٍ واقعي فعندئذٍ وقعنا في الضلال.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

لكن الأنبياء معصومون، والعلماء غير معوصمين، متى يجب أن تتابع العلماء ؟ إذا وجَّهوك توجيهاً، ودعَّموه بالكتاب والسنة، أي أنهم نقلوا عن المعصوم، هم ليسوا معصومين، ولكن إذا نقلوا عن المعصوم لزمَكَ أن تأخذ بتوجيهاتهم، وسألته عن الربا فقال الله عزَّ وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 276 ")

يقول لك: أخي العالم غير معصوم، لا الآن صار معصوماً، عصمته الآية، نقل لك عن الكتاب القطعي الثبوت القطعي الدلالة، ونقل لك عن كلام النبي الكريم، فلذلك النقطة دقيقة جداً.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

أي أن الله عزَّ وجل سخَّر العلماء لخدمة خلقه، هم مسخَّرون لخدمة الخلق، فلا تقدر أن تقابل أي إنسان لتأخذ خبرته إلا بمبلغ كبير، فالأطباء، والمحامون، والمهندسون، والمستشارون الماليُّون، لا تقدر أن تلتقي معهم إلا نظير أسعار مُسْبَقَة، ولكن العلماء الذين سخَّرهم الله لخدمة الخلق هؤلاء يرجون وجه الله سبحانه وتعالى، فاسألهم ولا تقع في حيرة، ومعصية، وشك، وضلالة، ولا تعتقد اعتقاداً خاطئاً زائغاً..

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)

حاجة الأنبياء إلى الطعام والشراب

فقد كان من الممكن أن يكون الأنبياء بشراً مثلنا، لكن مُعفَوْن من تناول الطعام، فلا يجوعون، فإذا جاء شهر الصيام يقول لك: هنيئاً للنبي، فهو لا يجوع، ونحن نجوع، لكنه يجوع مثلك، ويعطش مثلك، إنهم لهم أجسادٌ كأجسادنا، فالقوانين التي تحكم أجسادهم تحكم أجسادنا، ومن هنا جاءت عظمتهم، لأنهم من بني البشر هم عُظماء، لأنهم تفوَّقوا على أبناء جلدتهم.

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر:30)

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27))

(سورة الرحمن:27)

لما سمع الملائكة هذه الآية استبشروا وقالوا: " الحمد لله نحن لسنا عليها "، فجاء قوله تعالى:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص: من آية " 88 ")

إذاً:

كل بن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمولُ

فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمولُ

*** * ***

(وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)

لا خلود للأنبياء

وسيدنا عمر لما رأى النبي عليه الصلاة والسلام قد مات لم يحتمل هذه الصدمة، فشهر سيفه وقال: **<< من قال: إنه مات فسأعلوه بهذه الدرة >>**، وسيدنا الصديق استوعب كلام الله كله:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران:144)

فسيدنا أبو بكر ذَكَّرَ عمر بهذه الآية فتراجع عن موقفه،

((فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا))

[متفق عليه عن عائشة]

فالأنبياء يأكلون ويشربون، ويجوعون وينامون، ويشعرون بالحَر والقرّ، وبالتعب، ولا يُخَلَّدون، يموتون كغيرهم من بني البشر.

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)

تصديق الله لوعد الأنبياء

إنّ الأنبياء جاءوا بوعدٍ ووعيد، والله سبحانه وتعالى صدَّقهم، أي أنجز لهم ما وعدهم، وسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام نزل من الطائف ولم يلق إنسانٌ على وجه الأرض من المتاعب والمصائب مثل ما لقيه، ذهب إلى الطائف على قدميه، مشى مئة وعشرين كيلو متراً، ودعاهم إلى الإيمان بالله عزَّ وجل، والإيمان بنبوَّته، فردُّوه شر رد، وجاءه جبريل فقال: " يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو

شئت لأطبقت عليهم الجبلين "، قال: **" يا أخي، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحِّد الله "**. ومع ذلك قال له أحدهم:

((لو أن الله بعثك أنت نبياً لمزَّقتُ أثواب الكعبة "، وقال آخر: لم يجد الله رجلاً غيرك يبعثه نبياً ؟ وقال ثالث: إن كنت كما تقول فأنت أعظم من أن تكلّمنا، وإن كنت كذَّاباً فنحن أعظم من أن نكلمك، هكذا حدَّثوه في الطائف، ومع ذلك عاد إلى مكة، وقد شمت به كفار مكة، فلما سئل، قال: إن الله ناصر نبيه، ألم ينصره الله عزَّ وجل ؟ ألم يُعلِ رايته ؟ ألم يجعل كلمته هي العُليا ؟ ألم تفتح مكة تحت رايته؟ ألم يجعل كفار مكة في قبضته ؟ قال: ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ قالوا: أخٌ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطُلَقاء))

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً)

(سورة الفتح:3)

فالله سبحانه وتعالى وعده قطعي الثبوت، فإذا الله عزَّ وجل وَعَدَ مؤمناً.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص:61)

أي أن الله عزَّ وجل إذا وَعَدَ المؤمن فكأن هذا الوعد قد تحقق، في حكم الواقع.

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل:1)

هذه آيةٌ عجيبة، كيف أنه أتى ثم لا تستعجلوه ؟ معنى ذلك أنه لم يأت، فالاستعجال لشيء لم يأت بعد، والإنسان يستعجل قدوم الصيف قبل أن يأتي الصيف، ويستعجل قدوم الشتاء قبل أن يأتي الشتاء، فكيف يقول الله عزَّ وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

بعدئذٍ:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

أيْ:لم يأت، ولكن الله سبحانه وتعالى نظراً لأن وعده مَأتيٌ حقاً، ولأن زوال السماوات والأرض أهون على الله من أن لا يأتي وعده، إذاً يُعَبِّرُ الله سبحانه وتعالى عن شيءٍ سيكون بالماضي، أي سيأتي أمر الله فلا تستعجلوه، قال:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ)

أي أن الله عزَّ وجل وعد المؤمن بالحياة الطيبة، ووعد المُعرِضَ بالحياة الضنك، وبالمعيشة الضنك، والمستقيم بالتوفيق، والخائن بالفَضيحة، والزاني بالفقر، والقاتل بالقتل، هذه كلُّها مواعيد لابدَّ أن تتحقق.

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ)

فأصحاب موسى كانوا معه، وفرعون وجنوده وراءهم، والبحر أمامهم، فكلما اقتربوا من البحر اهتزَّت وعود سيدنا موسى عندهم، إلى أن قالوا:

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء:61)

هذا البحر وهذا فرعون..

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء:62)

فربنا عزَّ وجل جعل البحر طريقاً يبساً، فمشى فيه بنو إسرائيل، فلما خرجوا منه تبعهم فرعون، فلما كان في وسط البحر أعاده الله بحراً، فأغرقه ومن معه تحت سمعهم وبصرهم، فهذه قدرة الله سبحانه وتعالى، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ والله هو هُو في كل زمان وفي كل مكان، الإله الذي جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم الآن موجود، والإله العظيم الذي جعل البحر ينفلق كالطود العظيم هو هوَ، موجود الآن، معنا، وهو معكم أينما كنتم فادعوه، الدعاء سلاح المؤمن، اسأله خير الدنيا والآخرة، اسأله أن يحفظك من كل مكروه، واسأله التوفيق، وزوجةً صالحة، ومأوى تسكنه..

((إن الله يحب المُلحين في الدعاء))

[القضاعي في مسند الشهاب عن عائشة]

((من لا يدعني أغضب عليه))

((لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ، وَحَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ))

(من سنن الترمذي عن أنس)

هكذا..

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)

الذين أسرفوا على أنفسهم، أهلكهم لأنهم لم يتوبوا، ولأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر: من آية " 53 ")

إذاً: حتى المُسْرِف لو أنه عاد في الوقت المناسب لغفر الله له.

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

أي أن الكتاب إذا طبَّقتموه، وأخذتموه بقوةٍ، وجعلتموه دُستوراً لكم في حياتكم، ووعيتموه، وتدبَّرتموه، وجعلتموه أساساً لعلاقاتكم، فالله سبحانه وتعالى يرفع به ذكركم..

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)

(سورة النور: من آية " 55 ")

ألم يقل الله عزَّ وجل:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح:4)

أي أنت مجدُك في هذا الكتاب، فإذا طبَّقته رفعك الله به، ورفع الله لك شأنك، وقرَّبك منه، وجعل لك عنده مكاناً عظيماً، جعل لك مقعد صدقٍ عنده.

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

الحياة الناجحة باتباع الشرع الحكيم

الزواج الناجح في تطبيق هذا الكتاب، والتجارة الناجحة في تطبيقه، فالتجارة لا يوجد فيها كذب، ولا غش، ولا إساءة، ولا بضاعة محرَّمة، ولا مخالفة مع قواعد الشرع في التعامل، فالله سبحانه وتعالى يجعلها رائجة وتعيش منها حياةً كريمة، في كل عمل، وفي كل علاقة، وفي كل مَيْدَان وحقل وتصرُّف، وكل موقف إذا طبقت هذا الكتاب رفع الله لك ذِكْرَك.

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ)

القصم عاقبة المخالف للشرع

القصم مرتبط بالظلم.

(وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل:112)

(وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ)

هذا الفَزَعُ الأكبر.

(لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ)

البطولة معرفة حقيقةِ الحياة الدنيا قبل فوات الأوان

ارجعوا إلى حياتكم المترفة، الظالمة، وإلى مساكنكم التي تنافستم في تزيينها، فماذا تنفعكم الآن ؟ الله سبحانه وتعالى يذكّرهم بظلمهم، ويذكرهم بحبهم للدنيا، ويذكرهم بإعراضهم عن الله سبحانه وتعالى.

(قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

الآن ؟ بعد فوات الأوان ؟ وبعد أن جاء العقاب الذي لا مردَّ له ؟ ليست هذه بطولة، إنما البطولة أن تعرف مقامك قبل فوات الأوان، وأن تعرف الله في الرخاء، وما من مخلوقٍ على وجه الأرض إلا ويعرف الله في الشِدَّة، وأي إنسان، فليركب الإنسان طائرة الآن، وليُعلن ربَّانها أنها في خطر، فلو أتيح لإنسان أن يرى وجوه الركاب كلهم يقول: يا رب، لا يصلون، ولا يصومون على الأرض، ولكنهم في الطائرة يا رب نعاهدك على التوبة، كل إنسان إذا جاءه الخطر يتوب إلى الله، ولكن البطولة أن تعرفه في الرخاء، **"عبدي اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة "**، أما إذا عرفته في الشدة، فرعون نفسه وهل من إنسانٍ أشد كفراً منه ؟ هو نفسه قال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس: من آية " 90 ")

قاله له:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة يونس: من آية " 91 ")

الآن ؟ بعد فوات الآن ؟ طبعاً كل طالب يعرف الإجابة الصحيحة بعد الامتحان، سيأتي السؤال، فلا يحسن الجواب، فيأخذ صفراً، ويذهب إلى البيت، ويفتح الكتاب فيعرف الإجابة، ولكن متى عرفها ؟ بعد فوات الأوان، لا قيمة لهذه المعرفة.

(لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ)

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

سألوا فيلسوفاً عن الحرب العالمية الثالثة ؟ فقال: " لا أعرف عنها شيئاً، ولكن الحرب العالمية الرابعة بالحجارة "، أي أن الثالثة تدمير شامل.

(فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ (15) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)

هذه الآية نشرحها إن شاء الله تعالى في درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 16 - 22
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-05-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الأنبياء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

حقيقة اللعب وتنزيه الله تعالى عنه

الحقيقة التي لا ريب فيها أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما لَعِبَاً، إذا عرفنا معنى اللَّعب فهمنا الآية، اللعب هو العمل الذي لا طائل منه، والذي لا هدف له، والذي لا يستقرُ ولا يستمر، والذي ليس وراءه هدفٌ كبير، فجلَّت عظمة الله سبحانه وتعالى، وجلَّت حكمته، وجلَّت قدرته، وجلَّت أسماؤه الحسنى وصفاته الفُضلى عن أن يخلق السماوات والأرض لعباً، لم يخلقهما لعَباً، ولم يخلقهما باطلاً، إنما خلقهما بالحق.

الحكمة من خلق الإنسان

لو أردنا أن نتوقَّف قليلاً، ونعود إلى أنفسنا، كلٌ منَّا موجودٌ على هذه الأرض ؛ في المكان الفلاني، والبلد الفلاني، والبيت الفلاني، وله معطيات، يا تُرى أليس من المهمِّ جداً أن يعرف الإنسان لماذا هو على وجه الأرض ؟ ولماذا هو مخلوق ؟ الله سبحانه وتعالى حينما خلقه لماذا خلقه ؟ هل ليعذِّبه ؟ قد يقول قائل: ليس في الأرض كلها إنسان مستريح إنها ؛ هموم، ومشكلات، وظروف صعبة، ومتاعب، ومُنْزَلَقات، وأمراض، وأوبئة، وهم، وحزن، فهناك مشكلة كبيرة فقبل أن تتحرَّك أية حركة لابدَّ أن تعرف الحقائق الأولى التي بني وجودك عليها، قبل أن تتعرَّف إلى كذا وكذا، وقبل أن تقرأ الكتاب الفُلاني والمقالة العلانيَّة، وقبل أن تطلع على ما جرى في البلد الفلاني، فهذه كلها أشياء ثانويَّة، فيجب أن تعرف أنت لماذا وُجِدْت ؟ هل وجِدَت عبثاً ؟ أم هل وجدت لعباً ؟ أم وجدت بالحق ؟ أنت لأنك جزءٌ من هذا الكون ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

ما دام ربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

فأنت أيها الإنسان جزءٌ من هذا الكون، أيُعْقَلُ أن تُمضي أربعين عاماً في الإعداد لحياةٍ لا تزيد عن عشرين عاماً ؟ أليس معترك المنايا بين الستين والسبعين ؟! أليست الآجال تخطف الإنسان خطفاً ؟ فهذا جَمَّعه في عمره المديدة ؛ من بيتٍ مريح، ومن زوجةٍ، وأولادٍ، وعملٍ، ومكانةٍ، أيخسره كلَّه في ثانيةٍ واحدة ؟ فماذا بعد الموت ؟ ولماذا كان الموت ؟ ولماذا كان العُمُر في هذا الحد المحدود ؟ ولماذا خلقنا ؟ ولماذا كانت المصائب ؟ والهموم والأحزان ؟ والتفاوت بين الناس ؟ والغنى، والفقر ؟ والقوَّة، والضعف؟ فهذه أسئلة كبيرة جداً ومصيريَّة، والإجابة عنها تحدِّد مصير الإنسان، فإذا أهملها الإنسان والتفت إلى دنياه يبحث عن رزقه فقد يباغته الموت، ويأتيه فجأةً، فيكتشف عند الموت حقيقةً مُرَّة، حقيقةً تنزل عليه كالصاعقة، هو أن هذه الدنيا ليست هي المقصودة، وليست دار استقرار أو دار محطٌ الرحال إنما هي دارٌ كالممر ليس فيها مستقر، إنما هي إعدادٌ لحياةٍ أبديَّة.

فهذه المعلومات، وهذه الحقائق، وإن شئت فسمِّها فلسفة، هذه قبل الطعام والشراب، وقبل الزواج، وقبل تأمين الرزق، لأنك تحيى، ولا تدري لِمَ تحيى، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مثل المنافق كالنَّاقة عقلها أهلها، فلا تدري الناقة لا لمَ عُقِلَت ولا لمَ أطْلِقت))

[ورد في الأثر]

فلماذا الصلاة ؟ ولماذا الصيام ؟ فهذه الحقائق الكُبرى لا ينبغي أن تأخذها عفواً، تأخذها أو لا تأخذها، تأخذها صحيحةً أو مشوَّهة، فهذه القضية مصيريَّة، أي أن حياتك، وسعادتك، ومستقبلك، خريف عمرك، وزواجك، وعملك من دون فلسفة فالإنسان قد يعمل عملاً فيه إيذاءٌ للناس، ويدرُّ عليه أرباحاً طائلة، ويحسب أنه بهذا العمل متفوِّق وذكي، فلذلك الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

نحن جزءٌ من هذا الكون، بل إن الكون كُلَّه مسخَّرٌ من أجلنا..

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

بل إن الخلق كلَّه، والخلق ما سوى الإنسان مسخَّرٌ لهذا الإنسان، أيعقل أن يكون هذا الإنسان قد سُخِّرَت له السماوات والأرض، وهو لا يدري لِمَ هو على وجه الأرض ؟ فكم يكون جاهلاً، وكم يكون ضالاً، وتائهاً، وضائعاً، وشارداً لو كانت حياته خاليةً من هدفٍ يسعى إليه، ولو أن حياته خاليةٌ من عملٍ جليلٍ يعرضه على الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

طلب العلم فرض عين

فيا أيُّها الإخوة المؤمنون، أردت من هذه الأسئلة التي طرحتُها عليكم أن تتيقَّنوا أن طلب العلم ليس فرضَ كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الكل، لا والله، طلب العلم فرض عينٍ، أي أن على كل إنسان مهما تكن صنعته، ومهما يكن اختصاصه، وثقافته، ومكانته، ووجاهته فرض عين، إنك إن لم تعلم وقعت في شرِّ عملك، فالإنسان بدافعٍ من حرصه على سلامته، وهذا الحرص على سلامته فطرة، وبدافعٍ من حرصه على نجاحه وتفوُّقه عليه أن يعلم، ومعنى عليه أن يعلم أي أن عليه أن يأخذ العلم عن الرجال، وقد قال ابن عطاء الله السكندري: " من لم يأخذ هذا العلم عن الرجال فهو ينتقل من مُحَالٍ إلى مُحال "، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة:119)

والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف:28)

أردت من هذه المقدِّمة أنْ أبيِّن لكم أنَّ هذا الموضوع خطير جداً، ما دام الله سبحانه وتعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما لاعباً، وما خلقهما باطلاً، إنه خلقهما بالحق، فما هو الحق ؟ الحق خِلاف اللعب، والحق خلاف الباطل، واللعب هو الشيء العابث الذي لا هدف له، والباطل هو الشيء الزائل والزاهق، فالحق إذاً هو الشيء الثابت الهادف، فأنت خُلِقت لتبقى، وما الموت إلا نقطة تحوُّلٍ في خطِّ سيرك، ثيابٌ تخلعها هذا هو الموت، أنت أنتَ، كل نفسٍ ذائقة الموت، أنتَ أنت، لكن في الحياة لك بُنْيَة، فهذا الجسد محيطٌ بهذه النفس، وبعد الموت هذه النفس تحيط بهذا الجسد، ففي الحياة سعيٌ لكسب الرزق، والحياة فيها تناقض، بينما الحياة في الدار الآخرة ليس فيها سعيٌ لكسب الرزق، إذاً ليس فيها حسد، ولا تنافس، ولا حزن، ولا أي مرض يحولُ بين الإنسان وبين بلوغ سعادته، وفي الآخرة تزايد.

فيا أيها الإخوة المؤمنون...

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

الحقيقة أن الإنسان حينما يظن أن دينه ينتهي عند حضور مجلس علم من دون أن يدخل في صميم هذا الموضوع، حضر، ويقول لك: تباركنا، كلام ليس له معنى، فما معنى تباركت هذه ؟ يقول لك: والله، الحمد لله أنا أصلي الأوقات الخمسة، بني الإسلام على خمس، الصلاة دِعامةٌ، وليست هي الإسلام، والصوم دعامة، وليس هو الإسلام، والحج دعامة، وليس هو الإسلام، والزكاة دعامة، وليست هي الإسلام، وإعلان الشهادة دعامة، وليس هو الإسلام، الإسلام شيءٌ آخر.

سيدنا جعفر بن أبي طالب سأله النجاشي.. ملك الحبشة.. عن طبيعة دينه، فأجابه بقوله:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيئُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، فَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ))

[أحمد في مسنده عن أم سلمة]

هذه هي الجاهليَّة، فربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب: من آية " 33 ")

هذه الآية فيها إشارةٌ دقيقةٌ جداً إلى أن هناك جاهلية ثانية، هذه دفعةٌ أولى، ما معنى هذا ؟ المعنى أن هناك دفعة ثانية، أما هذا الرصيد فيحتاج إلى بحث آخر..

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيئُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ،

وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، فَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ))

[أحمد في مسنده عن أم سلمة]

هذا هو الإسلام إنه بناء أخلاقي، الإسلام يسمو بالإنسان، فيجعله إنساناً صالحاً للتنعُّم في الجنَّة إلى ما شاء الله، فالدنيا دار إعداد، وتكليف، وعمل، والآخرة دار جزاء، ودار نعيم مقيم، لا قلق، ولا حزن، ولا شقاء، ولا خوف، ولا ارتفاع حر، ولا انخفاض البرودة، ولا ضيق، ولا قهر، ولا فقر، ولا مزعجات، ولا مقلقات، ولا مخاوف، ولا أحزان.. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

[متفق عليه]

أين أنت من تطبيق ما تعلّمتَ ؟

يا أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو لو أن الإنسان سمع هذا الكلام الواضح كالشمس، المأخوذ من كتاب الله، المأخوذ من هذا الدستور، لو أن الإنسان سمعه ولم يأخذه مأخذاً جدياً، ولم يبلغ من نفسه مبلغاً يدفعها إلى تغيير سلوكها، والله الذي لا إله إلا هو سوف تطول حسرته يوم القيامة لأنه عرف الحق وحاد عنه، فحضور هذا الدرس مسؤوليَّة كبيرة، فهناك دروس تحضرها فتستمتع لما فيها من طُرَف، ومن طرائف لطيفة، وحكاية، وقصص، وأشياء مسلّية، فهذا درسٌ ممتعٌ غير نافع، وهناك درسٌ نافعٌ غير ممتع، وهناك درسٌ تحضره فتبدأ متاعبك، أيَّةُ متاعب ؟ لأن هذه الآيات تضعك أمام مسؤوليةٍ كبيرة، وأمام مصير، وأمام رسالة أنت مكلَّفٌ بحملها، وأمام هدفٍ أنت مكلَّفٌ أن تسعى إليه. فلذلك قضية: " والله سمعنا الدرس ومشينا، والله الدرس كان لطيفاً، ممتعاً، واللغة جيدة، والله هناك إقبال شديد، ما شاء الله "، فهذه كلُّها كلمات لا تقدِّم ولا تؤخِّر، والذي يقدِّم ويؤخِّر أين أنت من هذا الدرس ؟ هل عرفت أن الله سبحانه وتعالى قد خلقك لهدفٍ كبير ؟ ما هو هذا الهدف، هل عرفته ؟ هل سألت عنه ؟ إذا عرفت هذا الهدف فكل حركاتك في الدنيا يجب أن تُستنبط من هذا الهدف، فمن عرف أن الله سبحانه وتعالى خلقه ليسعده في الدنيا والآخرة، وأن جوهر السعادة في طاعة الله والعبوديَّة له،

ومعرفته، فعندئذٍ لا يختار عملاً يكسب منه رزقاً لا يرضي الله، فصار اختيار عملك له علاقة بدينك، واختيار الزوجة له علاقة بالدين، واختيار تمضية أوقات الفراغ له علاقة بالدين.

ليس من السهل أن تمضي وقتاً فراغاً فيما لم تُخْلَق من أجله، النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان صغيراً كان يُدْعى إلى اللهو، فيقول عليه الصلاة والسلام:

((لم أُخْلَق لهذا))

[ورد في الأثر]

أي أن هذا النمط المسلم، طبعاً المسلم لا يرتكب كبيرة، ولا يسرق، ولا يزني، ولا يشرب خمراً، ولكن حياته مثقلةٌ بالصغائر، وهذه الصغائر كالكبائر في المفعول، وفي النهاية كالكبيرة تحجبكم عن الله سبحانه وتعالى، فإذا أطلق الإنسان بصره، واستمع إلى صوت قَيْنَةٍ، واختلط مع نساءٍ لا يحللن له، وأكل درهماً من حرام، وأنفق المال في غير محلّه، وتساهل في تربية أولاده، ومع زوجته، إذا عصت الله سبحانه وتعالى فأقرَّها على هذه المعصية، هذه كلها في ظنِّه صغائر وهي في الحقيقة كالكبائر، ونحن في رمضان.

حقيقة طلب العلم

يا أيها الإخوة المؤمنون، لئلا يعتب أحدٌ على هذه المجالس ويقول: حضرتها عشر سنوات، وما أفادتني شيئاً، إن لم تُطبِّق فلن تستفيد، لأن هذا الدرس وصفة، إن لم تأخذ الدواء بالتمام والكمال وفق التعليمات التي وصفها الطبيب فلن تشعر بالراحة، فلذلك أن تحضُر الدرس بُغْيَة الاطلاع شيء، وأن تحضره بغية تمضية وقت الفراغ شيءٌ آخر، وأن تحضر الدرس من أجل أن تعرف الله ومن أجل أن تكون هذه المعرفة أساساً في تعاملك مع الله، ومع الناس، وفي زواجك، وبيعك وشرائك، وعملك هذا شيءٌ آخر.

فيا أيُّها الإخوة المؤمنون... النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((شمِّروا فإن الأمر جد))

[ورد في الأثر]

الأمر جدّ. قال لي أخٌ كريم قبل أسابيع: لي صديقٌ كان يمشي في الطريق فوقع ميِّتاً.

الاستعداد إلى الرحلة الأخيرة

إن حالات الوفاة المفاجئة كثيرةٌ جداً، وكلكم يعلم إلى أين ذهب هذا الإنسان ؟ وماذا أعدَّ لهذه الرحلة الطويلة ؟ والله إن رحلة إلى مدينة قريبة جداً تُخَطِّط لها ساعات طويلة، وتكتب الحوائج على قوائم، فقد أحتاج إلى كذا وكذا، كلُّه يُسَجَّل، ويُحضَّر، ويُعد، ويوضع في حقائب، وهذه الرحلة الطويلة يعطونك

تأشيرة خروج بلا عودة، فلا توجد رجعة، بل رحلة أبديَّة، فماذا أعددت لها ؟ قال رجل:

((يا رسول الله، علّمني من غرائب العلم، فقال عليه الصلاة والسلام: وماذا صنعت في أصل العلم ؟ قال: وما أصل العلم ؟، قال: هل عرفت الرب ؟ قال: نعم، قال: فماذا صنعت في حقّه ؟))

[أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن مسور]

السؤال لكم: إذا كنت قد عرفت الله فما الموقف الذي وقفته من أجله ؟ وماذا أعطيت من أجله ؟ وماذا مَنَعْتَ من أجله ؟ ومن صاحبت من أجله ؟ ومن عاديت من أجله ؟ ما العادة التي تركتها من أجله، والتي فعلتها من أجله ؟ هذا السؤال اسأله نفسك دائماً: ماذا صنعت من أجل الله ؟ إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيمَ أقامك، وإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيمَ استعملك.

فهذه الآية:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

ليس من قبيل العَبَث..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون:115)

أي لعباً بلا هدف، هكذا، يغتني الإنسان، ويأكل مالاً حراماً، ويستمتع بالدنيا كما يشاء، ويموت وانتهى الأمر، أهكذا ؟ ويفتقر إنسان آخر ويذوق الأمرَّين ويموت، أهكذا، لا توجد آخرة، ولا يوجد جزاء ؟ أين اسم الله الحق ؟ أليس الحقُّ اسماً من أسماء الله ؟ إذا كسب الإنسان المال الحرام، واستمتع به طوال حياته، ومات معزَّزاً مكرَّماً، وإنسان آخر ذاق مرارة البؤس والحرمان، ومات، وانتهى الأمر، فأين اسم الحق ؟ أليس الله هو الحقُّ المبين.

حظوظ الدنيا والآخرة

لذلك يا أيها الإخوة الأكارم، لقد وزَّع الله سبحانه وتعالى الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، جعل الغني غنياً وابتلاه بالغنى، هل يكون شاكراً، سخياً ؟ وهل يعرف حقَّ الناس جميعاً ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((يُحْشَر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة ؛ فريق جمع المال من حرامٍ، وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار - هذا حسابه سريع جداً، كلمة واحدة - وفريقٌ جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال في حلال، وأنفقه في حلال قال: هذا قفوه فاسألوه))

[ورد في الأثر]

هذا حاسبوه، هذا الذي يُحَاسَب، أما الذي جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، أو جمعه من حلال وأنفقه في حرام، أو جمعه من حرام، وأنفقه في حلال فهؤلاء إلى جهنَّم وبئس المصير، وأما الذي جمعه من حلال وأنفقه في حلال فهذا يقال له: قفوه فاسألوه: هل قصَّر في صلاةٍ ؟ وهل قصَّر في تأدية الحقوق ؟ هل قال من حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقّنا ؟ هل ماله جعله يتكبَّر على خلق الله ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام لبلاغته الرائعة قال ليعبِّر عن شدَّة السؤال قال: فما زال يُسأل ويُسْأل، أي أنه انتظر، وانتظر، فهناك قائمة أسئلة طويلة جداً، فتركهم ومشى ـ فما زال يسأل ويسأل ـ الموضوع خطيرٌ جداً، فأنت مخلوق لهدفٍ كبير، فهل عرفت هذا الهدف ؟ لك ربٌ عظيم، فهل عرفت هذا الرب ؟ وله منهج، فهل عرفت هذا المنهج أولاً ؟ وهل طبَّقته ثانياً أم ماذا كنت تصنع ؟ فأحياناً أحد الإخوة الحاضرين يرفع معنويات الداعي إلى أعلى درجة إن كان ملتزماً، مطبِّقاً، عند الأمر والنهي، وواحد آخر يحضر الدروس، ولا يطبِّق ما جاء فيها، فهذا الإنسان يخفض معنويات الداعية إلى أدنى درجة، فإذاً كلَّما عَرَضَ لك شيءٌ من الحق اسأل نفسك هذا السؤال: أين أنا من هذا ؟ هل أنا مطبِّق ؟

الإنسان مخلوق للعبادة

إذاً الله سبحانه وتعالى ما خلق السماء والأرض وما بينهما لعباً، بمعنى أن اللعب العمل العابث الذي لا هدف منه، جلَّ وعلا، تنزَّهت أسماؤه، وتنزَّهت ذاته عن أن يخلق الكون عبثاً، لا عباً من دون هدفٍ عظيم، فما هو هذا الهدف ؟..

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات:56)

ما هي العبادة ؟ طاعةٌ طوعيَّة، فلو أن هذه الطاعة قسرية لما كانت عبادة، وطاعةٌ طوعيَّة، تسبقها معرفةٌ يقينية، فتفضي إلى سعادةٍ أبديَّة، فإذاً أنت أيها المخلوق خُلِقْتَ من أجل أن تسعد إلى الأبد..

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من آية " 119 ")

إنّ الإنسان خُلِقَ ليسعد بالله سبحانه وتعالى إلى الأبد، وفي الأثر:

((خلقتُ لك السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضه عليك))

[ورد في الأثر]

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)

أي سبحانه وتعالى وتقدَّس أن يخلق الحياة لهواً، لكن فرضاً لو أن الله سبحانه وتعالى.. وهو أعظم وأجلَّ من ذلك.. أراد أن يخلق السماوات والأرض لهواً ولعباً لما كان هذا اللهو واللعب على حساب الناس، هناك زلازل، ومصائب، ومجاعات، وأمراض، وفقر، وقهر، وأُناس معذَّبون، لو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يلهو لما كان الإنسان ضحيَّة هذا اللهو، بل مستحيل ذلك، فهذا لا يتناسب مع رحمته جلَّ وعلا، ولا مع عدالته، ولا مع عظمته..

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا)

فإذا أراد الإنسان أن يتسلَّى بتجريب قلم، أيجرَّبه على جدول علامات طلاب الاختصاص الصف الرابع الجامعي ؟ يضع هنا صفراً، هل خطّه جميل ؟ وصفر، وصفر يعني أنك رسَّبته، تجرِّب قلماً على حقل العلامات ؟ أيعقل أن يُجرَّب القلم على حقل علامات لاختصاص الصف الرابع ؟ سيُبْنَى على التخرُّج مصالح كبيرة جداً ؟ فإذا سأله طالب: لماذا أنا رسبت يا أستاذ ؟ يقول: واللهِ كنت أجرِّب القلم فوضعت هنا صفرًا، هذا كلام غير معقول، فهل يخلق معقول الله عزَّ وجل السماوات والأرض لهواً ولعباً على حساب الناس ؟ جهنَّم مُلئت، لماذا ؟ هكذا، ما هذه هكذا ؟ أيعقل أن يُبنى سجنٌ فخمٌ، ويُساق الناس جميعاً إليه، لماذا ؟ لإملاء السجن، أيعقل هذا ؟

فالذي يظنُّ أن الله سبحانه وتعالى يخلق الخلق لعِبَاً ولهواً هذا ضال مضل، طبعاً الناس يقولونها بأساليب أخرى، يقول لك: سبحان الله لا أحد مرتاح، فما معنى هذه الكلمة ؟ معناها كأن الله عزَّ وجل خلق الناس ليعذِّبهم، لا والله..

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ:17)

اسمعوا كلام ربنا عزَّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء:147)

واسمعوا كلام ربنا عزَّ وجل:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى: من آية " 30 ")

حصراً..

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف: من آية " 59 ")

الآيات التي تؤكّد أن كل مصيبةٍ دَقَّت أو جَلَّت إنما هي بسبب ذنبٍ أو حكمةٍ أو ظلمٍ اقترفه الإنسان لأنه

((ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدَّمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي بن كعب موقوفا]

إذاً:

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)

ولكن الله سبحانه وتعالى أن يكون لاعباً في خلق السماوات والأرض، سبحانه أن يخلق السماوات والأرض عبثاً..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: من آية " 115 ")

اسمعوا الآية الثانية:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة:36)

هكذا، ظلمت دون أن تسأل، ودون أن يأخذ المظلوم حقَّه، إن ذلك لا يكون، فأحد أسباب الإيمان باليوم الآخر أن الله سبحانه وتعالى من أسمائه الحق، وأن الحقَّ هو الذي يجب أن يُقام إلى الأبد يوم القيامة، فأحياناً إنسان يظلم زوجته، فيأكل مالها ويطلقها، وانتهى الأمر ؟ولا يوجد إله يحاسبه ؟ أو شريك يتعلَّم من شريكه المصلحة وبعدها يضعه خارج المحل، ويقول له: المحل لي، والإيجار باسمي، أخي هذه المصاريف، ويضع له خمسين ألفاً والشركة كانت سبعين ألفاً، ويقول له: فهذه خمسون ألفاً، فما هذه الخمسون ألفاً، هذه الآن قيمتها خمسمائة ألف، ويعطيه خمسين ألفاً ومع السلامة، فأين الله ؟ هذا الذي يظن أن الإنسان بذكائه يحصِّل المال، وأن القوي هو بقوَّته يأكل أموال الناس هذا هو الضلال بعينه.

وربنا عزَّ وجل ما خلق السماوات والأرض وما بينهما لاعباً..

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ)

الباطل إلى زوال واضمحلال

والله عزَّ وجل جعل الحق كأنَّه صخرةٌ صَمَّاء أُلقيت على الباطل فسحقته، والباطل هذه التخرُّصات والضَلالات، فالباطل أن الدنيا هي كل شيء، وأن القوي هو الذي يعيش في هذه الدنيا، يقول لك: البقاء للأقوى، وكأنه لا يوجد إله، والأقوى يأكل الأضعف وانتهى الأمر، فهذا باطل، أو أن هناك في عام كذا مجاعةٌ كبرى، لماذا ؟ لأن البشر يتوالدون بسلسلة هندسيَّة بينما الغذاء بسلسلة عدديَّة إذاً هناك نقص في المواد، فأين هو الرزَّاق ذو القوَّة المتين ؟.

أحياناً يفاجأ الناس بأمطار مذهلة، يقول لك: هذا العام توجد محاصيل لا يعلمها إلا الله، محاصيل قمح، ومحاصيل قطن، ومحاصيل فواكه، وأشجار مثمرة لا يعلمها إلا الله، ومعدَّل الأمطار في دمشق مئتان، أو مئة وخمسون، والسنة مئتان وخمسون أو ثلاثمائة، والله عزَّ وجل إذا أعطى أدهش، ولا يوجد إله، والقضيَّة هكذا، الحياة هي كل شيء، والموت نهاية كل شيء، والحق للأقوى، والأقوى يأكل الأضعف، وهناك نقص في المواد، وهذه أفكار الشياطين، وأفكار الكفَّار، والشيطان هو الأساس..

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران:175)

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ)

(سورة البقرة: من آية " 268 ")

هذه لوازم الشيطان، يخوِّف، ويأمر بالفحشاء، ويَعِد بالفقر، فكلَّما جاءتك خواطر ؛ إياك أن تنفق مالك، المال ثمين جداً، والأمور صعبة تضيق في المستقبل، فهذا من الشيطان، إذا جاءك خاطر يمنعك من أن تنفق المال في سبيل الله بدعوى أن المال أصبح شيئاً ثميناً جداً، وأصبح تحصيله صعباً، وأصبحت الحاجات باهظة التكاليف، وأنت أولى بهذا المال، قُل: هذا هو الشيطان بعينه..

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

(سورة آل عمران:175)

هذه يَعِدُكُم الفقر، أما إذا جاءك خواطر أنْ: لا تصلِّ هذا أفضل، لا تصم أفضل..

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

فالشيطان يخوِّف، ويعد بالفقر، ويأمُر بالفحشاء، فأي خاطر من هذه الأبواب الثلاثة فهو حصراً من الشيطان..

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

(سورة سبأ:39)

عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنَمَارِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ...))

[مسلم، الترمذي، واللفظ له]

((حصِّنوا أموالكم بالزكاة))

[الطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن مسعود]

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة التوبة:103)

فهذه الأفكار أن الله خلق الناس ليعذّبهم، أو أن الله خلق الناس ليزعجهم، أو أن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا هي كل شيء، وأنه لا شيء بعد الموت، فهذا هو الباطل وهي أفكار الشيطان..

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ)

معنى: يَدْمَغُه

معنى يدمغه أي يهشِّمه، فينتهي، لو ضُربَ الإنسان على دماغه بحجرٍ هكذا من مسافةٍ بعيدة، وأصاب الحجر الهدف، فأصبح الدماغ أشلاء، يكون الإنسان قد مات، فمعنى يدمغه أي يحطِّمه..

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

أيّ دعوة باطلة يدمغها الحق

فكل دعوى في التاريخ الإسلامي أرادت أن تطفئ نور الله، ألم يدمغها الله سبحانه وتعالى ؟ اقرأ التاريخ، فلا توجد دعوى أرادت أن تطفئ نور الله إلا دُمِغَت لقوله تعالى:

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ)

أيّ تغيير لهذا الكتاب، وأي تحوير، وأي تبديل، وأي شيء وضعي يُرجى له أن يحلَّ محلَّ الشيء الإلهي فيدمغه..

(فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ)

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ

بعض الصحفيين في دولة أجنبيَّة متقدِّمة جداً يرى أن نهاية التحضُّر قطع يدي السارق، لأن ست عشرة سرقة تمَّت في سنة واحدة، وفي مجتمعات يُطبَّق فيها حكم الله فالسرقات تُعدُّ على أصابع اليد، لذلك قال أحد الشعراء سائلاً الإمام الشافعي:

يدٌ بعشر مئينٍ عسجدٍ وُديت ما بالها قُطِعَت في ربع دينار؟

* * *

مفارقة عجيبة.ـ يدٌ بعشر مئينٍ أي ألف دينار ذهبي ديتها لو قُطعت بحادث ـ

يدٌ بعشر مئينٍ عسجدٍ وديت ما بالها قُطِعَت في ربع دينار

* * *

فقال الإمام الشافعي:

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

*** * ***

لمَّا كانت أمينة كانت ثمينة

فلـمَّا خانت هــانـت

*** * ***

إذاً:

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

أُبيح الطلاق في إيطاليا، فقدِّم في يومٍ واحد مليون طلب، فدائماً الحق هو الذي يستقر، وفي بعض البلاد مُنِعَ الزوج من تطليق زوجته، فإذا طلَّقها فلها نصف ماله قطعاً فوراً، ويحكم عليه بالسجن ستَّة أشهر، ماذا كان من نتيجة ذلك ؟ أن بارت سوق الزواج، فصار الوالد يرجو خطيب ابنته أن يقبل بابنته، ويعطيه سنداً بالأمانة فيما لو طلَّقها فاستحقَّت نصف ماله، فالمبلغ جاهز سلفاً، أي محاولة لتغيير شرع الله عزَّ وجل هناك نتائج خطيرة جداً، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

(من سنن الترمذي عن أبي هريرة)

إذا كنتم تريدون شروطاً صعبة، وتريدون بيتاً موقعه ممتاز، ومركبة جيِّدة، ودخلا كبيرًا..

((إلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

قال عليه الصلاة والسلام:

((من تزوَّج المرأة لجمالها أذلَّه الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةً فعليك بذات الدين تربت يداك))

[الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس]

وربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 221 ")

الآيات التالية:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

المخلوقات كلها لله ملكا وتصرفا ومصيرا

له ملكاً، وتَصَرُّفاً، ومصيراً، قد تسكن بيتاً ولا تملكه، وقد تملكه ولا تسكنه، وقد تملكه وتسكنه، وفي النهاية ليس لك، يُنَظَّم، فيُستملك، أعلى درجة للملكيَّة أن تملكه، وأن تطلق يدك في التصرُّف فيه، وأن يكون المصير لك، أي ؛ الملك، والتصرُّف، والمصير، فربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ملكاً، وتصرُّفاً، ومصيراً..

(عِنْدَهُ)

من الملائكة..

(لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ)

أي أنهم يعبدونه ليلاً ونهاراً، وحينما يعبدونه لا يَتَحَسَّرون على هذه العبادة، لأن الله سبحانه وتعالى كافأهم عليها أضعافاً مضاعفة..

(يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21))

كل الآلهة سوى الله مخلوقة

أي أن هذه الآلهة آلهة من الأرض، أي مصنوعةً من الحجارة، آلهةً من الأرض، من جنس الأرض، وهناك آلهة من تمر، فقبيلة ود صنعت إلهاً لها من تمر، فلمَّا جاعت أكلته، فالعرب قالت: " أكلت ودٌ ربَّها "، أكلته لأنها جائعة، وهناك شاعر رأى صنماً يبول الثُّعْلُبَانُ على رأسه فقال:

أربٌّ يبول الثعلبان برأسـه ؟! لقد ضلَّ من بالت عليه الثعالب

* * *

أفهذا إله هذا ؟! فهذه الآلهة من الأرض، صنم من الحجر..

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة الصافات:96)

أنتم والحجارة..

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)

هل بإمكان هذه الآلهة أن تبعث الموتى من القبور ؟ مستحيل..

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

معنى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا

المعنى الأول:

يصير هناك تنازع، ومن صفات الإله أنه كامل القُدْرَة، فإذا وجد إله آخر بنفس القدرة فإنهما يتنازعان، فتفسد السماوات والأرض، بعضهم فسَّر هذه الآية: " لو أن في الكون آلهةً إلا الله لما كانت السماوات والأرض "، وهذا معنى لفسدتا.

المعنى الثاني:

والمعنى الآخر: لو أن ما في الكون آلهة غير الله لم تَقُم السماوات والأرض على هذا النظام البديع، والآن عندك مدرسة فتعيِّن لها مديرَين فتخرب، ومعمل ضع له مديرَيْن فيخرب، وبيت تتنازع الأم والأب في تربية الأولاد فيسقط الأولاد، كلَّما زجرت ابنها يقول لها: لا اتركيه أنا أحب أن أعطيه حريَّة، يطلع الولد مائعاً، وإذا كان الأب يربي والأم تربي.

كل مركب له قائدان يتحطّم، و كل الطائرة لها ربَّان واحد، والثاني مساعد، فهل من الممكن أن يقود الاثنان الطائرة ؟ تقع الطائرة، هل يوجد قطار له ربَّانان، وهل رأيتم مركبة ـ سيارة ـ لها مقودان بجانب بعضهما ؟ هذا يريد الانحراف بها هكذا، والثاني عكسه، فلا يمكن هذا أن يحدث..

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

لا يوجد إلا إله واحد معبود بحقٍّ، لا إله إلا الله، فالحياة فيها أمثلة، أحياناً يكون لك محل فيه شريكان، والاثنان رؤوس يتنافسان، يحطمّان المحل، وبعد هذا يتفاككان ويفلسان، ويريد أن يغيظه، لا، لا تنفع هذه البضاعة، لا نربح منها، وهذا يرخِّص، وهذا يغلي، فمحل لا يستقيم بقيادتين، ولا مركبة، ولا سيارة، ولا طيارة، ولا سفينة، ولا أسرة، ولا معمل، ولا مدرسة، ولا أي مكان في العالم إلا قيادة واحدة، لذلك خالقٌ واحد، وربٌ واحد، وإلهٌ واحد، وقرآنٌ واحد، ونبيٌ واحد.

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

سوف نقف عند هذه الآية بفضل الله وعونه وتوفيقه في درس قادم إن شاء الله تعالى، ونشرح معنى قوله تعالى:

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 19 - 25
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-05-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الأنبياء، يقول الله سبحانه وتعالى في الآية التاسعة عشرة من هذه السورة:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ)

الملائكة في عبادة دائمة من غير حسرة

هؤلاء الذين عنده هم الملائكة يسبحونه بالليل والنهار، لا يسأمون، ولا يستكبرون، ولا يستحسرون، معنى ذلك أن الإنسان إذا سَبَّحَ الله سبحانه وتعالى دخل في سعادةٍ لا توصف، وإذا دخل في هذه السعادة لن يتكبَّر عليها، ولم يسأم منها، ولم يستحسر عليها، وحينما يعمل الإنسان عملاً لا جدوى منه، أو يُقَدِّمَ جهداً كبيراً ليأخذ مردوداً صغيراً يستحسر، يتحسَّر على الوقت الذي بذله من أجله، وعلى الجهد، وعلى المال، فمتى يستحسر الإنسان إذًا ؟ إذا رأى المردود أقلَّ من الجُهد، وإذا رأى النتائج أقلَّ من المُقَدِّمات، والأرباح أقلَّ من رأس المال، عندئذٍ يستحسر.

فهؤلاء الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يستكبرون، ولا يستحسرون، ولا يسأمون، وكأن الله سبحانه وتعالى بهذه الآية يدعونا بشكلٍ غير مباشر إلى أن نسبِّحه، فإذا سبَّحناه لن نستحسر على هذا التسبيح، ولن نسأم هذا التسبيح، ولن نستكبر.

معنى التسبيح

والتسبيح هو التنزيه والتمجيد، ومن معاني التسبيح أن تنزِّه الله عن كل صفةٍ لا تليق به، وعن كل حالٍ لا يليق به، فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فالله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، إنه صَمَد.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2))

(سورة الإخلاص:2)

أهمية علم التوحيد

ولذلك فعلم التوحيد علمٌ مهمٌ جداً في الدين، بل إن رأس العلومِ كلّها علم التوحيد، لأنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء،

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فـاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير(302/2)]

أحياناً يتعَرَّف الإنسان على شخص له مكانة، فهو على جانب من العلم والكَرَم والحكمة، تراه غارقاً في سعادةٍ لا توصف، لأنه تعرف إليه، فكيف إذا عرف الله سبحانه وتعالى، وإذا عرف عن أسمائه الحسنى، وعن صفاته الفُضلى، وعن جلاله وكرمه، وعن جماله، وغناه، وقدرته ؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[متفق عليه]

معنى

((مَنْ أَحْصَاهَا))

أي من عرفها اسْماً اسماً، فمعرفة أسماء الله الحسنى جزءٌ أساسيٌ من الدين، بل جزءٌ أساسيٌ من علم العقيدة، وفي كل كتب علم التوحيد وكتب علم العقيدة فصلٌ كبيرٌ جداً عن أسماء الله الحسنى، وأنت امتحن نفسك، قل: ماذا تعرف عن اسم الرحيم ؟ ما الدلائل، والوقائع، والمعلومات، والمشاهدات التي تؤكّد اسم الرحيم ؟ الله سبحانه وتعالى رحيم، إلى أي درجة تظنُّه رحيماً ؟ هو أرحم بالخلق من الخلق، والله سبحانه وتعالى لطيف، وغني، وكبير، ولهذا شُرِعَ التكبير يوم العيد..

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة البقرة:185)

حقيقة << الله أكبر >>

الحقيقة الأولى:

ما من مسلمٍ على وجه الأرض إلا وهو في طريقه إلى المسجد ليؤدِّيَ صلاة العيد إلا ويكَبِّر، يقول: " الله أكبر، الله أكبر "، هذه الكلمات قالها أصحاب رسول الله ففتحوا العالم بها، ويقولها الآن ألف مليون

وهم على ما تعلمون، لماذا ؟ لأن المسلمين اليوم يقولون: الله أكبر دون أن يروا أن الله أكبر من كل شيء، وبمجرد أن تعصي الله سبحانه وتعالى إرضاءً لمخلوق فأنت لم تر أن الله سبحان وتعالى أكبر من هذا المخلوق، ولو رأيت الله أكبر من هذا المخلوق لم تعص الله من أجل هذا المخلوق، ولذلك: من قال الله أكبر ألف مرة ومرة، وعصى الله سبحانه وتعالى ما قالها ولا مرة.

إنّ الفرق بين أصحاب رسول الله وبين المسلمين في هذا العصر كبيرٌ جداً، فأقوالهم تعبِّر عن إيمانهم، ولكن أقوال المسلمين يقولون: الله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، هذه الباقيات الصالحات لو عرفها المسلمون حق المعرفة لطاروا إلى سماوات المعرفة، وسماوات السعادة.

فلذلك يجب أن لا تكون كلماتنا عادات ألفناها، الله أكبر، هذه الذي يطيع زوجته، ويعصي ربه ما قال: الله أكبر ولا مرة، ولو قالها بلسانه ألف مرة، وهذا الذي يغش، ورأى أن الربح الناتج من الغش أغلى من طاعة الله سبحانه وتعالى، فالذي يغُش في البيع، والشراء ما قال: الله أكبر ولا مرة، ولو قالها بلسانه ألف مرة، والذي يَدَعُ عبادةً لله عزَ وجل خوف إنسانٍ ما، هذا ما قال: الله أكبر ولا مرة، ولو قالها بلسانه ألف مرة، فلذلك نحن مقدمون على أيام العيد، وفي العيد نُكبِّر، ويجب أن تعلموا ما التكبير ؟

التكبير يعني أن الله أكبر من كل شيء، ومن كل ربح.. فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له في دينه ودنياه))

[أبو نعيم في الحلية]

الله أكبر من كل إنسان، ومن كل مكسب، وإنجاز، وهَدَف، وهذا معنى الله أكبر.

الحقيقة الثانية:

ولها معنى آخر، أنَّك كلما عرفت الله سبحانه وتعالى ترى أن الله عزَّ وجل أكبر مما عَرَفْتَ، إذ لا حدود لعظمته، ولا نهاية لجلاله ولجماله ولقدرته ولكرمه.

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)

وما ادَّعى العرب أن هذه الآلهة تحيي الموتى، ولكن الله سبحانه وتعالى لفت نظرهم إلى أن الإنسان إذا اتخذ إلهاً من دون الله فهل هذا الإله الذي اتخذه قادرٌ على أن يحيي الموتى ؟

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

(سورة الشعراء: 69-72)

الإله يجب أن يسمع..

(أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

(سورة الشعراء: 73 -82)

ربنا عزَّ وجل يُوجه نظرنا إلى أن الإله هكذا يجب أن يكون قادراً على أن يحييك، ويشفيك، ويُطعمك، ويسقيك، ويسمع خَلَجَات قلبك، سميعٌ عليم، سميعٌ بصير، هذا هو الإله.

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22))

فلو أن الله سبحانه وتعالى معه شريك لما انتظمت الحياة، ولما انتظم الكون، ولاختل نظامُ الكون، ولكانت المُنازعات، لأن كل إلهٍ..

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

(سورة المؤمنون:91)

وحدة الكون تدل على وحدانية الخالق

شيء آخر، إذا فكَّرت في آيات الله في الأرض ترى أن هناك وَحْدَةً في الكون.

لنضرب مثلا نابعًا من حياتنا: قد تشتري دواءً مصنوعاً في بلدٍ يبعُدُ عنك عشرات الألوف من الأميال، وقد يستعمل الدواء إنسان في قارة في طرف الأرض، فإذا بهذه المواد الفعَّالة في الدواء تؤثّر في بُنية هذا الجسد، ما تفسير ذلك ؟ أن الخالق واحد، والذي خلق الإنسان المولود في كندا هو نفسه الذي خلق الإنسان في أستراليا، فإن إنسان أستراليا بإمكانه أن يشتري دواءً مصنوعاً في كندا مثلاً، مع ما بين القارتين من بعدٍ شاسع، وهناك وحدة في الوجود، وبُنية الإنسان واحدة، وعاداته، وطباعه، وبُنيته النفسية، وقوانينه واحدة..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

(سورة المعارج: 21)

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

(سورة الأنبياء: من آية " 37 ")

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء:28)

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام:81-82)

البُنية واحدة، ولذلك فمن وحدة البُنية، ووحدة الخَلق، والتربية والتسيير تعرف إلى أن هناك إلهاً واحداً، لكن كل إنسان له ملامح خاصة، فما من مخلوقٍ إلا وله خطوطٌ في وجهه يتميَّزُ بها، وبصماتٌ في أصابعه ينفرد بها، ونبرةً لصوته يتميَّز بها، ونوعٌ لرائحة جسده يتفرَّد بها، فقد كان العلماء يظنون أن في الإنسـان البصمة التي ينفرد بها، فكل إنسان له طبقة صوتية لا يشركه فيها أحدٌ من الناس، ومن هنا تعرف على الهاتف فلاناً، تقول له: فلان ؟ معناها ربنا عزَّ وجل أعطاك هويةً من صوتك، ومن رائحة جلدك، فكل إنسان له رائحة جلد خاصة يتميَّزُ بها، وأعطاك هويةً من تركيب دمك، والدم في الإنسان له بنيةٌ خاصة، أعطاك هويةً من ملامح وجهك..

إذاً ستة آلاف مليون إنسان مع أن بنيتهم جميعاً متساوية، ليس هناك إنسان واحد يشبه في ملامحه الخارجية، ولا في نبرة صوته، ولا في رائحة جلده، ولا في بصمة أصابعه إنساناً آخر، لذلك قال بعض العارفين بالله، وأظنه الشيخ محي الدين رحمه الله تعالى: " والله يا رب لو تشابهت ورقتا زيتون لما سُمِّيتَ الواسع "، فالله سبحانه وتعالى من جهةٍ واحد، ومن جهةٍ واسع.

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

سبحانه وتعالى أن يكون له شريك، وسبحانه وتعالى أن يكون له مُعِين،

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من آية " 84 ")

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف:26)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر:62)

وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.. فبالتوحيد ترتاح نفس الإنسان، ويطمئن قلبه، وتستريح أعصابه، وبالتوحيد يدفع عنه القلق، والخوف، والحزن، والسوداوية، والتشاؤم..

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

معنى: لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ

المعنى الأول:

أي أن مقام الألوهية يقتضي ألاّ يستطيع أحد من الخلق أن يسأل الله سبحانه وتعالى، فمهما علا الإنسان فهو مسؤول، فلو أن هناك دائرة حكومية، ورأس هذه الدائرة يبدو للموظَّفين أنه لا يُحاسَب، ولكن لو اطلعت على الواقع لرأيت أنَّه هو يخشى من هو فوقه، فهو مسؤول، وكل مسؤول فوقه مسؤول، لكن الله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل، فمقام البشر أنهم مسؤولون..

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

(سورة الصافات:24)

مقام الألوهية لا يستطيع أحد أن يسأل الله سبحانه وتعالى، وليس معنى أن الله سبحانه وتعالى إذا كان لا يُسْأَل عما يفعل أنه ظالم ؟ سبحانه وتعالى هو العدل،

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود: 55-56)

فهو من تلقاء ذاته ألْزَمَ نفسه أن يكون على صراطٍ مستقيم، وألزم نفسه برزْق العباد..

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: من آية " 6 ")

(على) تفيد الإلزام، إذا جاءت على في حق الله سبحانه وتعالى تفيد أنه ألزم نفسه.

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل: من آية " 9 ")

أي أن الله عزَّ وجل ألزم نفسه أن يهدي العباد إلى سواء السبيل، وألزم نفسه أن يهديهم إليه، وأن يعرِّفَهُم به، ونَصَبَ لهم الآيات الدالة على عظمته، وبَثَّ في الأرض الآيات، فأقام في السماء الآيات، إذاً فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل، لأن هذا المقام مقام الألوهية، وما من مخلوقٍ على وجه الأرض إلا ويسأل ؛ يُسأل ممن هو أعلى منه، أو يسأل ممن هو أدنى منه، فيقول لك: أخاف على سمعتي، ويسأل من أية جهة، ولذلك من شأن الإنسان أنه مسؤول، ومن شان الله سبحانه وتعالى أنه لا يُسأل عما يفعل.

المعنى الثاني:

وهناك معنى آخر لهذه الآية، أن الله سبحانه وتعالى لعدالته المُطلقة، ولإحسانه الذي لا حدود له لا يسأل عما يفعل، لأن عدله يُسكت الألسنة، ورحمته تسكت الألسنة، ومثلاً: إذا وزع المعلم على طلاّبه

أوراق الامتحان، وقد صُحِّحَت تصحيحاً متناهياً في الدقة، ووزع عليهم السلالم، وعرض عليهم الأوراق والعلامات، وانتظر، قد تمضي ساعة ولا أحد من الطلاب ينبس ببنت شفة، لماذا ؟ لأن عدل المعلم أسكت الألسنة، فالعدل يسكت، ولفرط عدالته لا يسأل عما يفعل، هذا معنى آخر.

والمعنى الأول: أن مقام الألوهية يقتضي ألا يسأل، ولا أحد في الكون يسأله، وليس بإمكانه أن يسأله، وليس من حقه أن يسأله، لأنك في مُلك الله عزَّ وجل.

والمعنى الثاني: أن الله سبحانه وتعالى لعدالته وكرمه وإحسانه لا يُسأل عما يفعل.

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

فلذلك ربنا عزَّ وجل قال على لسان سيدنا عيسى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة:118)

الآية لا تنتهي بـ: الغفور الرحيم، ليست كذلك، أنت تألف أنها " فإنك أنت الغفور الرحيم، وهي:

(فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فما علاقة العزة هنا بالمغفرة ؟ لأن الإنسان إذا غفر يخشى أن يحاسب على هذه المغفرة، لمَ لَمْ تطالب فلاناً بهذه الوثيقة ؟ لمَ تساهلت مع فلان، ولم تتساهل مع فلان ؟ لمَ أعفيت فلانًا من هذا الرسم ؟ لماذا ؟ ولماذا عفوت عن فلان ؟ هذا الذي يعفو محاسب، لكن الله سبحانه وتعالى:

(وَ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة:118)

أي أن عزتك لا تنال، فلا يستطيع أحدٌ أن يحاسبك يا رب، لماذا غفرت لفلان ؟ ولم تغفر لفلان ؟ فالقرآن كما قال سيدنا علي: **" حَمَّال أوجه "**، أي ذو وجوه، فإذاً:

مقام الألوهية: لاَ يُسأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ)

هذا مقام الألوهية..

(وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

مقام العبودية: وَهُمْ يُسْأَلُونَ

هذا مقام العبودية، والإنسان لا يسعد إلا إذا عرف مقام العبودية، فأنت عبدٌ لله، وليس من شأنك أن تَحْشُرَ أنفك فيما هو من شأن الله، كأن تقول: الله عزَّ وجل يعلم أو لا يعلم ؟ هذا من شأن الله، الله عليمٌ

حكيم، وكلمة عليم مُطلقة، والمُطلق على إطلاقه، وسيدنا علي رضي الله عنه يقول: **" علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ".**

فالله سبحانه وتعالى كيف يكون مع الخلق جميعاً في وقتٍ واحد ؟ هذا السؤال من شأن الله أنت عبد، وليس من شأنك أن تحيط علماً بالله عزَّ وجل، ولا يعرف الله إلا الله، فلذلك مقام العبودية يقتضي أن تعرف مقامك.. **" رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده ولم يتعدَّ طوره ".**

فهناك أسئلة مقبولة، وأسئلة غير مقبولة، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند ضعيف]

فلما يطرح الإنسان أسئلة متعلّقة بذات الله يهلك، لأن المحدود لا يستطيع أن يحيط باللامحدود، وذو النهاية لا يستطيع أن يحيط باللانهاية، والممكن الوجود لا يستطيع أن يحيط بالواجب الوجود، والحادث لا يستطيع أن يحيط بالقديم، والفاني لا يحيط بالأبدي السرمدي، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، فالإنسان يجب أن يصنف الأسئلة لتصنيفين، أسئلة يمكن أن تطرح، وهذا من شأن الإنسان أن يفهمها، وأسئلة أخرى لا يمكن أن تُطْرَح لأنها تطاولٌ على مقام العبودية، مقام العبودية أن تقف عند هذا الحد دون أن تسأل.

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)

مقام العبودية: وَهُمْ يُسْأَلُونَ

هاتوا برهانكم، فكأن التعامل مع الله عزَّ وجل وفق الأدلة، والبراهين والحجج، فخالق هذا العقل والمنطق، ينبغي له أن يكون في دينه المنطق كله والعقل كله، إذاً كل حكمٍ فقهي فيه دليلٌ نقلي، وفيه دليلٌ عقلي، فهل خالق العقل دينه غير معقول ؟ مستحيل، لا عقل لمن لا دين له، ولا دين لمن لا عقل له، **"تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، إن الرجلين ليستوي عملهما، وبرهما، وصومهما، وصلاتهما، ويختلفان في العقل، كالذرة جنب أحُد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين".**

محدودية العقل

وما دام العقل من خلقه، والكون من خلقه، فلابدَّ من أن يكون الكون معقولاً، ولابدَّ من أن يكون الدليل العقلي أساساً في الإيمان، ولكن العقل على أنه أعظم شيءٍ أودعه الله فينا ليس مؤهَّلاً أن يتحكم في العقيدة، ولا في العبادات، ولكنه مؤهَّلٌ أن يستنبط الأحكام التفصيلية من الأحكام الكلية، فالعقل مسموح

له أن يستنبط الأحكام الفرعية من الأدلة الأصلية، من الكتاب والسنة، والعقل مؤهَّل لذلك، ولذلك بَرَعَ الفقهاء والمجتهدون في استنباط الأحكام التفصيلية من الأدلة الأصلية من الكتاب والسنة، ولكن العقل لا ينبغي أن يُحَكَّم بالنقل، بمعنى أن يسمح للعقل بإثبات ما صح وروده أو نفيه، دور العقل في العقيدة أن يفهمها لا أن ينفيها، فالعقل له حدود.

والعقل ميزان ولكن الشرع ميزانٌ على الميزان، العقل ميزان، والشرع ميزان على الميزان، كما لو أعطيت مسألةً رياضية، فأنت بعقلك تَحُلُّ هذه المسألة، ولكنه مع المسألة أعطي الجواب الصحيح، فإذا جاء الحل مُطابقاً لهذا الجواب فالحل صحيح، وإذا جاء الحلُّ مخالفاً لهذا الجواب فالحل غير صحيح، إذاً الشرع ميزان على الميزان، والإنسان من دون شرع قد يَضل، وقد يَغْتَرّ.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)

(سورة المدثر:18-27)

العقل أيها الإخوة يشبه تماماً العَين، فهي بالغة التعقيد، ولكن ما قيمتها من دون النور ؟ فلو ألغي النور فجأةً هل نرى شيئاً ؟ ولو أن للإنسان عينين من أعلى درجة من الحساسية، لو أطفأ الضوء هل يرى شيئاً في الغرفة ؟ كذلك العقل، العقل جهاز فَذٌّ، عظيم، فما من جهازٍ أعقد من العقل في الكون، وما من عطاءٍ أثمن من العقل في الكون، ومع ذلك هذا العقل لا يُجدي إلا إذا كان هناك نورٌ إلهي..

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: من آية " 35 ")

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(سورة النور:40)

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

(سورة الأنفال: من آية " 29 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

(سورة الحديد: من آية " 28 ")

العقل تابع للنقل

فالنور هو الهُدى، فالعقل من دون نور قد يُلحِد، وقد يُنكر الدين، وقد يقول: هذا الكتاب ليس كلام الله، وقد يقول: إن الزنا أفضل من الزواج، وإن السرقة أفضل من الكسب الحلال، ونحن نقول: أوروبا أمامكم، ألا ترى أوروبا الآن أن المتعة مهما تكن رخيصةً دنيئة فهي محببة عندهم ؟ ألم يصابوا

بأمراضٍ وبيلة تفتك فيهم فتكاً ذريعاً ؟ هذا المرض العُضال ـ مرض الإيدز ـ حطَّمَهُم لماذا ؟ لأنهم اعتمدوا على عقلهم وحده في تخطيط حياتهم، فعقلهم ضَلَّ وأضل، وأراهم أن اللَّذة هي كل شيء، فانكبوا عليها فانهارت علاقاتهم الاجتماعية، وانهارت قِيَمَهُم الأخلاقية، وتحطَّمت الأسر عندهم، وأصبحت حياتهم كالبهائم، وأحد الكتاب وصف أوروبا فقال: " أوربا عقلها من ذهب وقلبها من حديد "، نفوس مُقْفِرَة من القِيَم، لماذا ؟ لأنهم يبنون سعادتهم عل أنقاض الآخرين، ويبنون رفاهة شعوبهم على جوع الشعوب الأخرى، وعلى فقرها، وعلى تدميرها، إذاً هم ليسوا مُثُل عليا في الحياة.

فيا أيها الإخوة الأكارم... العقل وحده من دون الهدى لا يكفي، العقل وحده قد يهتدي، وقد يضل، ولكن الشرع هو الحصن الحصين، والإنسان بالعقل يعرف الله عزَّ وجل وبالشرع يعبده.

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)

التعامل مع الله بالبرهان..

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة المؤمنون: من آية " 117 ")

(هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ)

الأدلة إما عقلية أو نقلية أو واقعية أو تاريخية

وعندنا دليل عقلي، ودليل نقلي، ودليل واقعي، ودليل تاريخي..

(هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي)

هذا دليل تاريخي..

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ)

إذاً الإعراض يأتي من الجهل، فإذا لم يعرف الإنسان قيمة هذه الجوهرة يعرض عنها، أو يرميها في الأرض، لكنه إذا عرف قيمتها يَحْرَصُ عليها حرصاً شديداً، فالحرص سببه المعرفة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ

والله هذه الآية من أدق الآيات، ولو أننا كلفنا إنسان يقرأ الإنجيل، والتوراة، والزَبور، والقرآن الكريم، وهذه الكُتُب السماوية الأربع يضغطها في سطرٍ واحد كلَّها، ربنا عزَّ وجل لَخَّصَ في هذه الآية جميع الرسالات السماوية..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي)

نقطتين..

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل العبادة.

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

فإذا عرفت أن الله وحده لا شريك له، فليس معقولاً أن تطيع مخلوقاً وتعصيه، أمرك كله بيده، وصحتك بيده، وزوجتك بيده، ومستقبلك، وأولادك وجيرانك، ورؤساءك ومرؤوسوك، وزبائنك، وأقرباؤك، وأعضاؤك، وقلبك، ودسام القلب، والشرايين التاجية بيده، والكليتان، وهبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، هذه بيد من ؟ ومرض خطير بلا سبب، وهبوط مفاجئ، وتوقف الكلى عن التصفية، إذ يحتاج في كل أسبوع مرتين تصفية، ومعامل كريات الدم الحمر بيده، يقول لك: فقر دم لا مُصَنِّع، مرض خطير جداً، أي أن معامل كريات الدم الحمر بلا سبب معروف تَكُفُّ فجأةً عن صنع كريات الدم الحمر، وهذه المعامل تصنع في الثانية الواحدة مليونين ونصف مليون كرية حمر، وهذه المعامل تَكُفُّ فجأةً عن تصنيع كريات الدم الحمر، إذاً هذه المعامل بيده.

يقال الكلية توقفت، والبنكرياس توقَّف عن عمله، وارتفعت نسبة السكر في الدم، وحصل انسداد بالشريان وبالدماغ فأحدث شللاً نصفياً، فهذه الجلطة الدموية بيد من ؟ من جعلها تتجمد ؟ كانت في الدم سائلاً في هرمون تجلد بالكبد، وفي هرمون تميُّع، من إفراز هذين الهرمونين إفرازاً متوازناً يبقى الدم بهذه الحالة السليمة، ولو أن أحد الهرمونين أفرز زيادة عن اللزوم فيصبح الدم مائعاً، فيموت الإنسان من شكة دبوس، يموت بسبب نزف دمه كله، أو يموت من تجلط الدم، ويصبح الدم كله كالوحل في الشرايين والأوردة، فالشريان بيده، والقلب بيده، والتجلط بيده، والتميُّع بيده، وعمل الكليتين بيده، وعمل الغدة النخامية بيده، والدرقية هذه مشكلة، والطحال مشكلة..

أعرف رجلاً شاباً في ريعان الشباب، وهو في الصف الرابع بالطب، وعلى مشارف التخرُّج، حدث معه فقر دم، فنزل التعداد إلى ثلاثة ملايين بالميليمتر المكعب، صحته طيبة، وغذاؤه جيد، فبعثوا عيِّنة من الطُحال إلى بلد أجنبي لفحصه، والطحال له مهمة، وهي أن يحلل الكريات الميتة إلى عواملها الأولى.. أي أن المهمة اقتصادية.. هذه الكريات الحمر الميتة بدل أن تلقى خارج الجسد تذهب إلى الطحال، وتحلل إلى هيموغلوبين وإلى حديد، والحديد يعاد شحنه إلى معامل كريات الدم الحمر في نقي

العظام، والهيموغلوبين يذهب إلى الكبد ليشكّل الصفراء، فالصفراء والحديد الذي يرسل إلى نقي العظام هذه من أنقاض كريات الدم الحمر.

والآن هناك معامل لضغط الحديد، سيارة مستعملة، انتهى استعمالها تضغط بمكعب، وترسل مرة ثانية إلى معامل الحديد، وعندنا معمل في مدينة حماة من أجل أنقاض الحديد أيضاً، فربنا عزَّ وجل جعل كل كريات الدم الحمر الميتة تذهب إلى الطحال والطحال يحللها إلى حديد وإلى هيموغلوبين، فهذا الشاب الذي في ريعان الشباب طحاله يعمل بنشاطٍ أكثر مما ينبغي، بمعنى أنه يأخذ الكرية الحمراء الميتة فيحللها، ويأخذ الحيَّة فيميتها، فصار معه فقر دم وتوفى بهذا المرض، مرض غريب: زيادة نشاط الطحال.

فنحن يهددنا خمسون خطراً، إذا توقف الطحال إنها مشكلة، وإذا اشتغل زيادة فمشكلة، والبنكرياس، والغدة الدرقية مشكلة، وإذا زادت إفرازاتها فإنها تعمل فرط توتر، وتعمل تبدد طاقة، وتعمل مشكلات كبيرة جداً، وإذا كسلت فتجد أن الإنسان ازداد وزنه لوزن غير طبيعي، لأن الغذاء عندئذٍ لا يتحول إلى طاقة، فهل يجب أن نهتم ونخاف من الدرقية، أم من النخامية، أم من الكظر، أم من البنكرياس، أم من الصفراء، له خمسة آلاف وظيفة، أم من جهاز الهضم المعقد، أم من ثقب بوتال بالقلب، أم من تضخم الشرايين ؟

طبيب شَرَّح قلباً، فالقلب له دَسَّامات، والدسام هو أعقد ما في القلب، ثلاث وريقات مع انقباض الأذين تنفتح هكذا فيمر الدم، فترجع فجأةً فتغلق الطريق إغلاقاً محكماً، لا يوجد في الأرض أي مضخة إلا وهي مبنية أساسا على أن تسمح للماء بالمرور في اتجاه واحد، فالقلب فيه دسامات خطيرة جداً.. وطبيب صنع دسَّاماً تقليداً عرضه بمئة وخمسين ألف ليرة، فإذا واحد دسامه تعطل يركب واحداً اصطناعياً، يخدمه سنتين فقط، ويحتاج بعدها لعملية ثانية، ولدسام آخر.. على كلٍ تفتح الوريقات هكذا، وتغلق، لكن الطبيب رأى في ظهر الوريقة كرية لحم صغيرة، لماذا هذه ؟ كرية لحم في ظهر الوريقة استأصلها من حيوان فتوفى الحيوان، فهل حياة الحيوان مرتكزه على هذه الوريقة الصغيرة، بقدر رأس الدبوس ؟ ثم اكتشف بعد ذلك أن هذه الوريقة حينما تنفتح هكذا لئلا تشكل مع جدار الشريان سطح تماس فتلتصق، هذه الكريَّة تشكل مع الجدار نقطة تماس، فتعود إلى مكانها..

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة لقمان:11)

ويوجد مليون جهاز، ومليون قضية بجسمنا، وهذا شيء معقد جداً، فهذا الطفل لما يولد ففي الأذينين مفتوح ثقب بينهما، وهو ثقب بوتال، في الرحم لا يوجد في تنفس، ولا يوجد هواء، والرئتان معطلتان، وجهاز التنفس معطل، إذاً كيف تتم الدورة الصغرى ؟ من أذين، من بطين، للرئة، لأذين، عن طريق

الرئتين، الرئة معطلة في الرحم، إذاً الله عزَّ وجل فتح فتحة بين الأذينين، يمر الدم مباشرةً، وحينما يولد المولود ـ هكذا قال الأطباء ـ تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب، فأي يد تدخل إلى الداخل، وسط الأذين ؟ وتأتي جلطة، فمن ربُّها ؟ ومن سيَّرها ؟ تغلق، وإذا لم يغلق الثقب ؟ فربنا عزَّ وجل أعطانا أدلة، يترك لنا كل مئة ألف حالة، حالة واحدة اسمها داء الزرق، طفل لونه أزرق، فالدم بدلاً من أن يذهب إلى الرئة لينقى من غاز الفحم، ويأخذ غاز الأكسجين، يذهب إلى الأقرب لأنه يوجد ضغط، وانقباض، وهناك فتحة صغيرة، فلما ينضغط القلب عوضاً عن الدم لا يذهب إلى الرئتين بل يذهب للأذين الثاني، فيصير دمه أزرق، ويظل الطفل دائماً لونه أزرق، وأعرف صديقاً ابنه أصيب بهذا المرض، وقد توفي وهو في الثانية عشرة، يصعد الدرج كل ثماني درجات يطلعهم في خلال ساعة، لا يوجد عنده قوة على الإطلاق، فيدُ من دخلت إلى القلب فأغلقت هذا الثقب ؟ الله سبحانه وتعالى، فلذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

مليون جهاز بيد الله عزَّ وجل، إذا آمنت أن يد الله عزَّ وجل، فالمطابقة هل هي سهلة ؟ عدسة مرنة، وعضلات هدبية دقيقة جداً، وهذا الشكل أو هذا الجسم على مدى أربعين متراً، كأن هذه العضلات عاقلة المسافة أربعين متراً، خيال الجسم يقع خلف الشبكية، إذاً تنضغط هذه العدسة بحيث يقع الخيال على الشبكية، فيد مَن ؟ فالمطابقة وحدها عملٌ معجز، وكل إنسان عنده مطابقة.

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

فيا أيها الإخوة الأكارم، نهاية العلم أن ترى أنه لا إله إلا الله، ونهاية العمل أن تعبده، ونهاية العلم أن توحِّدَهُ، ونهاية العمل أن تعبده، فإذا جمع الله عزَّ وجل في هذه الآية فحوى رسالات الأنبياء من دون استثناء، فهذه هي الآية، فلو قال لك أحدهم: أخي لخّص لي فحوى رسالات السماء كلها، فاتلُ عليه الآية:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

فإذا وحدته وعبدته نجوت من عذابه، وسعدت بقربه وفي جنته.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 26 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-05-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الأنبياء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ)

الملائكة عباد مكرمون

أي أن هؤلاء الذين ظنّهم الكفّار بنات الله ليسوا كذلك، إنهم هم عبادٌ مكرمون أي مقرّبون..

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

ومعنى لا يسبقونه بالقول أي أنهم في مرتبة العبوديّة، فلا يقولون إلا ما يُقالُ لهم، وهم منصاعون لأمر الله سبحانه وتعالى..

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

أي أن علم الله سبحانه وتعالى محيطٌ شامل بما هم فاعلون، بما قد فعلوا، وما خلفهم..

(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

الشفاعة

الشفاعة الزوج، الشفعُ هو الزوج، والشفاعة أن تضمّ شيئاً إلى شيء، فما من شيئين على وجه الأرض يجتمعان إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، وما اجتمع شيئان بنفعٍ أو ضُر إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، والمؤمن يعتقد اعتقاداً جازماً أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، حتى لو أنه قد وصل إليك خيرٌ عن يدِ إنسان، أو قد استطاع إنسان أن ينالك بالأذى، فلا هذه ولا تلك من عند زيدٍ أو عُبيد، إنما هما من أمر الله سبحانه وتعالى..

(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى)

أي أن هذا الإنسان الذي يملك الخيرات بحسب الظاهر لا يستطيع أن يعطيك منها شيئاً إلا أن يأذنَ الله، وهذا الذي يملك القدرة على الأذى لا يستطيع أن يؤذيك إلا بعد أن يأذن الله ويرضى، إذاً الحقيقة أن علاقتك كلّها بيد الله سبحانه وتعالى، لكن..

((إنّ مِنَ النّاس مَفَاتِيحَ لِلْخَيْر مَغَالِيقَ لِلشّرّ، وَإنّ مِنَ النّاس مَفَاتِيحَ لِلشّرّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْر، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْر عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللّهُ مَفَاتِيحَ الشّرّ عَلَى يَدَيْهِ))

(سنن بن ماجة عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ)

إذاً:

(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

أي من بطشه، أو من عقابه مشفقون أي يخافون، هذه الآيات شُرِحَت في الدرس الماضي، وقد مررت عليها تمهيداً للآيات التي بعدها، إذاً هؤلاء الملائكة الذين زَعَمَ كفّار قريش، والوثنيون أنهم بناتُ الله سبحانه وتعالى ليسوا كذلك، إنما هم عبادٌ مكرمون أي مقرّبون، أوكل الله إليهم بعض المهمّات التي تتناسب وإمكاناتهم وطبيعتهم، وهم في مرتبة العبوديّة المطلقة..

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

الملائكة عباد طائعون خائفون لا يعصون الله

وهم أيضاً يخافون الله سبحانه وتعالى ويخشون عقابه، والله سبحانه وتعالى مُحِيطٌ بهم إحاطةً كاملة..

(وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

فهذا الذي يتطاول على مرتبته، ويدّعي أنه إله ـ من باب الفرضيّة ـ هم لا يفعلون ذلك، الملائكة فوق ذلك، إنهم مُنَزّهون، وإنهم مكرّمون، فلا يعصون الله ما أمرهم، ولكن فرضاً..

(وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

فهذا قانون، فالذي يدّعي ما ليس له، والذي يدّعي الألوهيّة، وأن بيده أمور الناس هذا متطاولٌ على مقام الألوهيّة، ولذلك لابدّ من أن يُعذّب في الدنيا والآخرة.

وربنا سبحانه وتعالى بعد هذه الآيات المتعلِّقة بالملائكة بيّن لنا إحدى أكبر الآيات الكونيّة قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

بعض مظاهر الإعجاز العلمي

أحياناً تظهر الآية لنا ظهوراً لتعبّر عن نظريّةٍ لم يتمّ تحقيقها، فمن النظريات ـ وإذا قلت: نظريّة، فمعنى ذلك أنها لم تصبح حقيقة، ولكنها فرضيّة، النظريّة شيء والحقيقة شيءٌ آخر ـ ولذلك لا يمكن لحقائق الدين أن تتناقض مع حقائق العلم، لماذا ؟ لأن الدين من عند الله، ولأن العلم من قوانين الله،

والإله واحد، وهذا خَلْقه، وهذا شرعه، فمن المستحيل أن تجد تناقضاً بين القرآن وبين حقائق العِلم، ومن عظمة القرآن الكريم، ومن إعجازه أنه لم توجد حقيقةٌ علميَّةٌ منذ أن أُنْزِلَ هذا القرآن على النبي الكريم وحتى الآن تتناقض مع آياته، وهذا مما يؤكِّد أن هذا الكلام كلام الله.

فمن كان يظنُّ أن الإنسان سيصعد إلى الفضاء ؟ وأن الصعود في الفضاء يسبّب قلّةً في الضغط الجوي، وضيقاً في النفس ؟ الله سبحانه وتعالى أشار إلى هذه الآية قبل أن يغزو الإنسان الفضاء ـ على حدِّ قول الإنسان ـ وماذا غزا من الفضاء ؟ غزا ثانيةً واحدة، بين الأرض والقمر، أما بين الأرض والشمس فثماني دقائق، وطول المجموعة الشمسيَّة ثلاث عشرة ساعة، وطول مجرَّة درب التَّبَّانة مئةٌ وخمسون ألف سنة ضوئيَّة، بعض المَجَرَّات تبعد عنَّه ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة، فماذا غزا الإنسان ؟ غزا ثانيةً ضوئيَّةً واحدة، وملأ الدنيا صياحاً وضجيجاً، وكلّفت هذه الرحلة آلافاً مؤلّفةً من الأموال التي كانت من الممكن أن تسهم في نشر الرخاء على وجه الأرض.

وعلى كلٍ، لا يمكن لحقيقةٍ في القرآن أن تعارض حقيقةً في العلم، ولكن إذا كان هناك تناقض فبين نظريةٍ وبين حقيقةٍ في القرآن، أو بين خرافةٍ في الدين، أو حقيقةٍ في العلم، أو بين نظريَّةٍ لم تَثْبُت صحَّتها، وبين حقيقةٍ في القرآن، أما أن نجد بين حقائق القرآن، وبين حقائق العِلم تناقضاً فهذا مستحيل، لأن العلم اليقيني الذي وصل الإنسان إليه عن طريق التجربة هو عِلْمٌ ثابت، وهو تعبيرٌ عن خلق الله، وهو تعبيرٌ عن علاقاتٍ ثابتة بين الأشياء، وإن الحقيقة القُرآنية هي وحيٌ من السماء، وهل يُعْقَل أن يتناقض كلام الله مع خَلْقِهِ ؟ مستحيل، لكن هناك علماء في الأصول يُحَذِّرون من أن تَجُرَّ الآية إلى تفسير نظريةٍ لم تَثْبُت صحَّتها، أو أن تجرَّ الحقيقة العلميَّة إلى أن تلتقي مع آيةٍ، والآية لها معنىً آخر ما أراده الله سبحانه وتعالى لتكون مطابقةً لهذه الحقيقة.

منشأ الكواكب السيارة

على كلٍ هناك من يَزْعُمُ أن منشأ الأجرام السماويَّة، أو أن منشأ الكواكب السيَّارة هو دوران كتلة الشمس الشديدة حول ذاتها، فبحكم القوَّة النابذة انفلت منها بعض الكواكب ثم تبرَّدت فكانت الأرض، فمن يؤمن بهذه النظرية يرى أن هذه الآية تناسب هذه النظريَّة:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا)

والشيء الغريب هو أنه ما دامت المجموعة الشمسيَّة، والشمس كانت جميعاً كتلةً واحدة إذاً ينبغي أن تكون هذه المجموعة من طبيعةٍ واحدة، فلمَّا صعد الإنسان إلى القمر وجاء ببعضٍ من تراب القمر، وُجِدَ أن بين تراب القمر، وبين تراب الأرض فَرْقاً في النوع، فهذه العينات من تُراب القمر لم تؤكِّد تلك

النظريَّة، والذي يُبْعِدُ أن تكون هذه الآية تأكيداً لهذه النظريَّة أن الله سبحانه وتعالى صَدَّرها بقوله الكريم..

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

فهذا شيءٌ حصل قبل ألوف ألوف ملايين السنين، قبل أن يُخْلَقَ الإنسان على وجه الأرض، فجواب الذين كفروا على هذا التفسير أنهم لم يروا ذلك، ولكنَّ الآية في أوجه تفسيراتها تشير إلى أن السماوات والأرض كانتا رتقاً أي شيئًا متجانسًا، السماء لا تُمطر، والأرض لا تُنبت..

(فَفَتَقْنَاهُمَا)

معنى: فَفَتَقْنَاهُمَا

فتقنا السماء عن المطر، وفتقنا الأرض عن النبات، السماء انفتقت، فنزل منها المطر، والأرض انفتقت فخرج منها النبات، ويُعَدُّ النباتُ أكبر آيةٍ كونيَّةٍ تحت سَمْع الإنسان وبصره، وتعدُّ ظاهرة النبات أكبر آيةٍ كونيةٍ موضوعةٍ تحت سمع الإنسان وبصره.

ظاهرة النبات

إن النبات داخلٌ في حياتنا دخولاً صميمياً، فأنت تأكل الخُبز وهو من نبات القمح، وتشرب الحليب، والحليب من نتاج الحيوان، والحيوان غذاؤه النبات، وأنت تأكل الخضراوات، والبقول، والمحاصيل، والفواكه، والثمار، وأنت تستخدم الأخشاب في أثاث بيتك، وفي النوافذ والأبواب، والأخشاب من النبات، وأنت تستخدم الدواء ومعظم الدواء من النبات، وأنت تستخدم بعض الحاجات، الليف من النبات، والسِواك من النبات، والخُلّة من النبات، وهناك أشجارٌ تستفيد من جذوعها، ومن أخشابها.

وتعدُّ أنواع الأخشاب بالغة التعقيد، فهناك أخشابٌ لها ميزاتٌ خاصَّة، فأخشابٌ لا تتأثر بالبرد والأمطار، وأخشابٌ ليِّنة الاستعمال، وأخشابٌ صَلدة، وأخشابٌ مرنة، فالأخشاب كلُّها من ظاهرة النبات، فهناك نباتاتٌ حدوديَّة جعلها الله حاجزاً بينك وبين جيرانك، وهناك نباتات الزينة، ونباتاتٌ كالمظلات، ونباتاتٌ تستخدم أخشابها وأخرى جذورها، ومن ثمَّ أوراقها، ونباتاتٌ تستخدم أزهارها، فظاهرة النبات تُعَدُّ أخطر ظاهرةٍ، وأوضح آيةٍ بيّنةٍ موضوعةٍ بين يدي الإنسان على وجه الأرض، لذلك:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

هذه الطاولة من النبات، وهذه الوردة من النبات، وهذا السجّاد الذي تجلسون عليه ما كان ليكون كذلك لولا النبات، إنه من الصوف، وهذه الثياب من القطن، فلو استعرضت الحاجات التي تستعملها كل يوم لرأيت النبات يدخل في معظمها، فالفراش الوثير، واللحاف الذي تتغطّى به، وكل حاجةٍ تقريباً أصلُها من النبات..

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

أليست هذه الآية أمامهم ؟ أليست هذه الآية تحت سمعهم وبصرهم ؟ أو أليست هذه الآية في متناول حواسِّهم ؟ أي واضحةً أمامهم ؟ وداخلةً في حياتهم حيثُما كانوا ؟ ودائرة معهم حيثما داروا..

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً)

هذه الأرض البُنية اللون كيف أصبحت في الربيع ذات بساطٍ أخضر يبعث البهجة في النفس ؟ فمن أين جاءت هذه الأزهار ؟ عدد الحشائش لا يعلمها إلا الله، وأنواع الحشائش التي تظهر في فصل الربيع لا يعلمها إلا الله، عدد الأزهار ـ أزهار الزينة ـ لا يعلمها إلا الله، من أين جاءت ؟ على اختلاف أشكالها، وألوانها، وروائحها، وطبائعها، وخصائصها، وبُنيتها، وأزهارها، وأوراقها، وثمارها..

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً)

لو أن السماء بقيت رتقاً فلم تنفتق عن المطر ماذا حلَّ بنا ؟ فأقطارٌ في قارّة إفريقيا أصابها الجفاف سبع سنواتٍ متتالية، ولم يبقَ فيها شيء، وجميع الأشجار ماتت ويبست، وجميع النباتات أصبحت كالهشيم، وتبعتها الحيوانات، وتبعها الإنسان، والبقيّة الباقية هاجرت إلى أقطارٍ أخرى، ماذا كان من الممكن أن يكون لولا الماء الذي انفتقت عنه السماء ؟ إن الله عزّ وجل جعل من الماء كل شيءٍ حي، ومع ذلك فقد قلت لكم في خطبةٍ سابقة إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

(سورة المدثر: من آية " 31 ")

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ

يتحدّثون عن الجراد، والجراد يستطيع أن يأكل كل يوم بقدر وزنه تماماً، فإذا كان هناك بعض أسراب الجراد التي يزيد وزنها عن ثمانين ألف طن، إنها تأكل في اليوم ثمانين ألف طن، وإن الكيلو متر مربّع من أسراب الجراد يَعُدُّ مئتي مليون جرادة، إذ هناك إحصائيّاتٌ خطيرة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

قد يأتي الجراد إلى بلد فيؤخِّرَهُ ثلاثين عاماً، أي لا تعود النباتات إلى ما كانت عليه إلا بعد ثلاثين عاماً، اللهمّ اصرف عنّا الجراد والوباء يا ربّ العالمين..

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

ظاهرة الماء وخصائصه وأهميته

هذا الماء تلك الآية العظيمة، هل فكّرت في خصائصه ؟ وهل فكّرت لماذا كان الماءُ لا لون له ؟ ولماذا كان الماء لا طعم له ؟ و لا رائحة له ؟ ويتبخّر بدرجة أربع عشرة ؟ ولماذا كان الماء ذا سيولةٍ دقيقة بحيث ينفُذُ في أدقّ المَسام ؟ ولماذا كان الماء يتمدّد في التسخين، وينكمش في التبريد إلا في درجة واحدة تنعكس معها الآية ؟ لماذا يتمدّد الماء في الدرجة زائد أربع ؟ لولا هذه الظاهرة لما بقي مخلوقٌ على وجه الأرض أبداً، ولأصبحت البحار محيطاتٍ متجمّدة، ولانعدم التبخُّر، ولانعدم هطول الأمطار، ولمات النبات، وتبعه الحيوان وكان الإنسان مصيره الهلاك، فلو أن الماء لا يتمدّد في الدرجة زائد أربع، هذا الماء بهذه الخصائص.

لماذا تثبُتُ درجة غليان الماء ؟ الزيت ليس كذلك، إنّ درجته ترتفع إلى أرقامٍ عالية، بينما الماء لو استمرّ يغلي عشرات الساعات لا تزيد حرارته عن مئة درجة، فدرجة غليانه، هي درجة تبخُّره، ثم إن درجة ذوبانه، هي درجة تجمُّده، ودرجة انكماشه، درجة توَسُّعه، لا لون له، ولا طعم، ولا ورائحة، له خاصة نفوذيته، من جعل الماء بهذه الصفات ؟

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

من منّا يُصدِّق أن سبعين بالمئة من وزن الإنسان ماء، ومن منّا يصدق أن بعض الفواكه سبعةً وتسعون بالمئة من وزنها ماء، فالبطيخ ماء مجمّد، ولكنه مجمّد لا على أساس التبريد، بل على أساس التكوين، فهذا البطيخ ماءٌ مجمّد مُحَلّى، فيه مواد مفيدة، وفيه معادن، وفيتامينات، وفيه مواد سكريّة، ومجمّد من دون تبريد، فلذلك أراد ربنا عزّ وجل أن يلفِتَ النظر إلى أن الماء أساس الحياة، وأن الإنسان لا يستغني عن الماء أكثر من أيامٍ ثلاثة، وبعدها يموت، ولا يستغني عن الهواء أكثر من دقائق ثلاث، وبعدها يموت، ولذلك فالهواء في كل مكان، والماء في أماكن متفرّقة، أما الطعام فقد يستغني عنه الإنسان أيّاماً عديدة تزيد على ثلاثين يوماً، ولذلك يحتاج الطعام إلى كَسْب، أما الماء والهواء فهو مبذولٌ لجميع الناس من دون ثمن.

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

أليست هذه الآية كافية ؟

اطلعت مرّة على كتاب مؤلّف من ثمانية عشرَ جزءًا، كل جزءٍ تزيد أوراقه على ثمانمئة صفحة، وفي كل صفحة صورةٌ لوردةٍ تختلف عن أختها، فإذا كان الكتاب ثمانية عشر جزءًا، وكل جزء فيه ثمانمئة صفحة، وكل صفحةٌ نباتٌ يسبّح الخالق، إذاً هذه النباتات كلّها من أجل إمتاع النظر، لا من أجل القوت، أليس هذا إكراماً إلهياً ؟ أليس في هذا تودُّدٌ للإنسان ؟ أليس هذا مسخّراً للإنسان ؟ فالإنسان حينما يرى أن الله سبحانه وتعالى كرّمه..

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء:70)

كم أنواع الشراب الذي تشربه ؟ وكم أنواع الطعام الذي تأكله ؟ وكم أنواع الفواكه التي خلقها الله سبحانه وتعالى، كم ؟ كم هي كثيرة !

(أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ

ماذا ينتظر الإنسان حتى يؤمن ؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدَائِقَ غُلْباً (30) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (31) مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(32))

(سورة عبس:32)

(أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور:35)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف:105)

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

ظاهرة الجبال

هذه السلاسل الجبليّة العظيمة كيف جعل الله في منتصفها سُبُلاً، ومضائق، وممرّات ؟ فلولا هذا لكان انتقال الناس من سَفْحٍ إلى آخر شيئاً مستحيلاً، فإذا وجدت الجبلين بينهما وادٍ هكذا، أو بينهما ممر جبلي،

فليس هذا مصادفة إنه آيةٌ واضحةٌ على رحمة الله بالإنسان..

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

أمّا أن تكون الجبال رواسي أن تميدَ بهم، فلأن الجبال جعلها الله سبحانه وتعالى في أماكن دقيقة جداً من الأرض، بحيث إذا دارت الأرض حول نفسها دورةً سريعة كانت محصّلة هذا الدوران استقراراً، آيةٌ من آيات الله العُظمى..

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: من آية " 61 ")

من جعلها ساكنة ؟ لو أن هناك اضطراباً طفيفاً لما بقي هذا المسجد على ما هو عليه، ولم يبقَ على وجه الأرض بناء، ولو لا أن الله سبحانه وتعالى جعل الأرض قراراً، مستقرّةً مع حركةٍ تأخذ بالألباب، ونحن جئنا إلى هذا المسجد، وبدأ الدرس في تمام الساعة الثامنة وخمس دقائق تقريباً، والآن الساعة الثامنة وخمسٌ وثلاثون دقيقة، فقد مضى على بدء الدرس ثلاثون دقيقة، من منكم يصدِّق كم من الكيلو مترات قطعتها الأرض في هذه النصف ساعة ؟! في كل ثانيةٍ تقطع الأرض ثلاثين كيلو متراً، فبالدقيقة ثلاثين في ستين، أي ألف وثمانمئة، ففي الثلاثين دقيقة ألف وثمانمئة ضرب ثلاثين، ألف وثمانمئة إلى عشرة، ثمانية عشر ألفاً إلى ثمانية عشر ألفاً في ثمانية عشر ألفاً، أربعة وخمسون ألف كيلو متر قطعت الأرض منذ أن بدأت كلامي وحتى الآن..

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ)

الأرض تنتقل حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً في الثانية، وفي دورتها حول نفسها بسرعة ألف وست مئة كيلو متر في الساعة، إذاً هذه الدورة وهذه الحركة تحتاج إلى استقرار..

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: من آية " 61 ")

تجد بناء يقول لك: هذا مُعَمَّر من ثمانين سنة، ما فيه ولا شَق، فما معنى ما فيه شق ؟ أي لا يوجد اهتزاز، لأن أي اهتزازٍ أصاب الأرض لكان أثره واضحاً في الأبنية.

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ)

مرّة أوضحت ذلك، أن العجلة التي يصنعها الإنسان، مهما كان القالب التي صُبَّت فيه هذه العجلة دقيقاً محكماً متوازناً، لابدّ لهذه العجلة من أن تضطرب على السرعات العالية، يأتي الإنسان ويضع هذه العجلة في الميزان، فيخبره الميزان أنها في هذا المكان تحتاج إلى قطعةٍ من الرصاص مقدارها خمسون غراماً، توضع هذه القطعة في العجلة، فإذا دارت العجلة بسرعةٍ بالغة بقيت مستقرّة دون اضطراب، فهذا المثل اللطيف يمكن أن يُطبّق على الأرض.

الأرض فجاج وسبل ممهّدة للسير

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

الفجاج أي الطُرُق بين الجبال..

(لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

إلى أهدافهم وإلى ربّهم، لعلّ هذه الجبال الشامخة، وهذه الأرض المستقرّة، والسماوات المنفتقة عن الأمطار، والأرض المنفتقة عن النبات، لعلّ في هذا دليلاً قاطعاً على وجود الله، وعلى عظمته، وتربيته، وتدبيره، ومَحَبّته، وإكرامه..

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ)

عظمة خلق السماوات

هذه السماء سقف، قال العلماء: محفوظة من أن تُنَالَ بأذى، أو محفوظةٌ من أن تتبدّل طبيعتها، فيكفي أن تعلموا أن في الجو طبقةً من الأوزون، هذه الطبقة لا تزيد سماكتها عن الميليمترات، هذه الطبقة تمنع وصول الأشعّة التي تؤذي الإنسان، فالأشعّة الشمسيّة فوق هذه الطبقة تؤذي الإنسان، ولكنّها بعد هذه الطبقة لا تؤذيه، وإنّ هذه السماء كأنّها سقفٌ محفوظٌ، أي حافظٌ للإنسان محفوظةٌ من أن تُمَسّ بأذى، ومن أن تتبدّل طبيعتها..

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ)

عن آيات السماء، وعن مذنّباتها، فالمذنّبات آية، والكويْكبات آية، والنيازك آية، والثقوب السوداء آية، والكازارات آية، والمجرّات آية، والنجوم آية، والكواكب آية، والأقمار آية، وحركة الكواكب آية، والتجاذُب فيما بين الكواكب آية، وقانون الجاذبيّة آية..

(وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا)

السماء لها آيات، هي آيةٌ واحدة ولها آياتٌ كثيرة..

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(33))

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ)

آية الليل والنهار

الليل يُخْلَق، ومن آياته الليل والنهار، الليل والنهار من دوران الأرض حول نفسها، والليل والنهار آيةٌ عُظمى على رحمة الله بالإنسان، ساعةُ نومٍ في الليل لا تعدلها ثلاث ساعاتٍ في النهار لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الليل سَكَنَاً، وجعل الليل مُظلماً، وجعل الكائنات كلِّها تأوي إلى أوكارها في الليل، ولذلك إذا استيقظ الإنسان في منتصف الليل يُحسُّ بسكونٍ يُخَدِّرُ الأعصاب، هذا هو الجو المناسب للنوم، أصواتٌ قليلة وضوءٌ خافت، أما النوم في النهار فقلّما يرتاح الإنسان فيه، فالليل جعله الله سكناً، وجعله سِتْرَاً، يقول لك: لو نقلنا الليل، فالإنسان له أغراض بعضها مقبول، وبعضها غير مقبول، جعل الله الليل ستراً، وجعله سكناً، وجعله وقتاً مناسباً لمناجاة الله عزّ وجل، لذلك:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

(سورة القدر:1)

(رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ)

(سورة المزمل: من آية " 20 ")

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)

(سورة الإسراء: من آية " 1 ")

الليل مناسبة للعبادة والمناجاة

جعل الله الليل مناسباً لمناجاته، مناسباً لعبادته، وذكره وتلاوة كتابه.. وفي الحديث:

((لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

(صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ)

فقم في الدجى لا تخشَ وحشة

* * *

هؤلاء الذين يمشون إلى المساجد في الليل هؤلاء في أعين الله، وهؤلاء لهم عند الله أجرٌ كبير، فلذلك يقول ربنا عزّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

هذا الضياء، وهذه الحرارة، وهذه الشمس التي تبعث الدفء والنور والتطهير للأجسام فهذه من آيات الله العُظمى، ولذلك قالوا: **" كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت "..**

الليل مـهـما طـال فلابدّ من طلوع الفجر

والعمر مـهما طـال فلابدّ مـن نزول القبر

*** * ***

ولو أن لا يوجد ليل ونهار، فيسألك أحدهم: كم عمرك ؟ فتجب: لا أعرف، ولكن بوجود الليل والنهار صار أيام الأسبوع ؛ السبت، والأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وأسبوع، أربعة أسابيع، شهر، ثلاثة أشهر، فصل، أربعة فصول سنة، أربع سنوات سنة، العقد الأول، يقول لك: أنا ولدت في الأربعينات، وهذا بالخمسينات، وثالث بالستينات، ورابع بالسبعينات، وخامس بالثمانينات، وسادس بالتسعينات، وعندنا قرن، وبعد القرن يوجد حِقَب، وبعده ذلك:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

(سورة الرحمن)

فلولا دورة الأرض حول نفسها لما كان الليل والنهار، ولما كان الزمن.

إذاً الليل سَكَن، والنهار للكسب، والليل مأوى، والليل ستر، والليل ذكرى، والنهار لنعلم عدد السنين والحساب..

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

هذه الشمس التي تكبُر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرّة، أي أن مليون أرض وثلاثمئة ألف أرض تدخل في جَوف الشمس، والشمس حرارتها في نواتها أكثر من عشرين مليون درجة، بينما حرارتها على سطحها تزيد على ستّة آلاف درجة، أما ألسنة اللهب المُنْبَعِثَة منها فيزيد طول بعضها على مليون كيلو متر، والشمس مُتَوَقِّدةٌ بتقدير بعض علماء الفلك منذ خمسة آلاف مليون سنة، ولو أن الأرض أُلقيت في الشمس لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة.

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

يقول لك: الطاقة الشمسيَّة، الآن هناك أجهزة كثيرة للتسخين على الطاقة الشمسيَّة، فهناك سيَّارات تتحرّك على الطاقة الشمسيَّة، وهناك مواقد تعمل على الطاقة الشمسيَة، عن طريق مرآة مُقَعَّرة ولها مكان تضع عليها القدر، وهذه المرآة بحسب أشعَّة الشمس، وانعكاسها، ومْحَرَق هذه المرآة المقعَّرة تستطيع أن تسخِّن الماء، وأن تطهي الطعام، إذاً هذه الشمس شيءٌ عظيمٌ جداً..

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

الكواكب: كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

فكلمة كلٌّ نَكِرَة، العلماء استنبطوا أن هذه الآية تنطبق على الذرّة، وعلى المجرّة، بدءاً من الذرّة، وانتهاءً بالمجرّة، نظام الكون يقوم على أن كل جرمٍ فيه يسبح في فَلَكٍ حول نواته، لماذا ؟ لو لا أن الكواكب تتحرّك في مساراتٍ بيضاويّةٍ أو دائريّة حول كواكب أخرى لأصبح الكون كلّه كتلةً واحدة، لأن هذه الحركة ينتج عنها قِوىً نابذة، وهذه القُوى النابذة محسوبةٌ حساباً دقيقاً كي تكافئ القِوى الجاذبة، كل جرمٍ سماوي ينجذب إلى جرمٍ آخر، فلماذا ؟ لأنه يدور، وماذا إذا دار ؟ من دورته تنشأ قوّةٌ نابذة، هو ينجذب إلى النواة، ومن دورته تنشأ قوّةٌ نابذة، ومن توازن قِوى الجذب مع قِوى النبذ ينشأ هذا الاستقرار الحركي، فلذلك:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

فكل كوكبٍ له مسارٌ حول كوكبٍ آخر، وشيءٌ لا يُصدّق أن هذا الكون مستقرٌ على مبدأ التجاذب، تجاذب حركي، فالكوكب ينجذب بحسب الكُتلة، وبحسب مُرَبّع المسافة والسرعة، وبحسب أشياء كثيرة كلّها متداخلة والمُحَصِّلة استقرارٌ في الكون، هذه:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: من آية " 61 ")

وتوجد آية قرآنيّة أخرى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من آية " 2 ")

هناك عمد، لكنّ هذا العمود لا ترونها، ما قولك أن يُنْشَأ بناءٌ من مئة طابق بعيدٌ عن الأرض مسافة خمسين متراً، من دون أعمدة ؟ هذا فوق طاقة البشر، فهناك أعمدة ولكنّها شَفّافة تخترقها، هكذا:

(بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

هناك عَمَد، فالقمر مجذوبٌ إلى الأرض بما يساوي كبلاً فولاذياً مضفوراً قطرُه خمسون كيلو متراً، ولو كان ربنا عزّ وجل رَبَطَ القمر بالأرض بكبلٍ فولاذي، وربط الأرض بالشمس بكبلٍ أكبر، والشمس بالقمر بواحد، لرأيت السماء شبكةً سوداء، وهذا شيءٌ مستحيل، إنه قال:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

أي أنها بعَمَدٍ ولكنّكم لا ترونها، وهذه قِوى التجاذب، إنه شيءٌ لا يُصدّق، من آيات الله الكُبرى الدالّة على عظمته.

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ(34))

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ

إنّ كفّار قريش تَمَنّوا أن يموت النبي عليه الصلاة والسلام فتنتهي دعوته، وتنتهي هذه الرسالة، وتنتهي هذه المشكلة، فهم ينتظرون موته، ولذلك قال الله عزّ وجل:

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ)

أتكون الشماتةُ بالموت ؟ لأن الناس جميعاً سيموتون، والقائلون سيموتون..

(أَفَإِنْ مِتّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ)

والإنسان أحياناً يمشي في جنازة فيقول لك: مسكين لقد مات، وكأنه هو لا يموت، مسكين، وأنت مسكين كذلك، أمر محتوم..

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص: من آية " 88 ")

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

(سورة الرحمن:26)

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ

فإذا حملت إلى القبور جنازةً فاعلم بأنّك بعدها محمولُ

*** * ***

(أَفَإِنْ مِتّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(35))

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

لا تبقى إلا المواقف، الخير يزول والشر يزول، هناك قولٌ دقيقٌ جداً:**" فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر ".**

لماذا ؟ لأنك لو أنشأت مسجداً، وصلّى فيه الناس إلى يوم القيامة، بعدئذٍ سوف ينتهي هذا المسجد ولكن ما الذي يبقى ؟ هذا العمل الطيّب الذي تسعد به إلى الأبد، ولو أنّك أنشأت دار أيتام، أو سُبْلاناً للماء، وأطعمت الناس، كل هذه الأفعال الطيّبة على عِظَم شأنها تنتهي مع نهاية الحياة، وكل الأفعال الشريرة

مهما تكن شريرة تنتهي مع نهاية الإنسـان، فما الذي يبقى ؟ تبقى نيّة الخير، ونيّة فعل الخير، بهذه النيّة تسعد إلى الأبد، وتبقى نيّة فعل الشر، وبهذه النيّة يشقى بها الإنسان إلى الأبد، ولذلك: **" فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر "..**

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

أصول الابتلاء: الخير والشر

أحياناً يبتلي الله عزّ وجل الإنسان بالخير، فيعطيه مالاً، أينسى الله عزّ وجل ؟ أيستعلي به على خلق الله ؟ أيمسكه ؟ أيبخل به ؟ أينسيه دينه كما فعل ثَعْلَبَة ؟ وأحياناً الإنسان يُبْتَلى بالفقر، أيكفر ؟ أيعترض ؟ أيَلِجّ أم ماذا يقول ؟ والإنسان يُبتلى بالزوجة، بزوجة صالحة، أو بزوجة سيّئة، ويبتلى بعمل مريح، أو بعمل مُتعب، ويبتلى بجـار طيّب، أو بجار سيئ، وبصحّةٍ طيّبة فهل قوي بها على طاعة الله ؟ أو بمرضٍ فهل صبر فيه على قضاء الله ؟.

(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

أي أن الشر والخير يظهرانكم على حقيقتكم..

(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً)

سنة الكفار الاستهزاءُ بالأنبياء والدعاة

فإذا استُهْزِئَ بمؤمن فله في النبي أسوةٌ حسنة، سيّد الخلق وحبيب الحق، الذي قال الله عنه:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم:4)

ونوح عليه السلام استهزأ به قومه..

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

(سورة هود:38)

فالبطولة للساخر الأخير، وليس للأول، فالإنسان أحياناً يسخر من أهل الإيمان لجهله ولعدم معرفته..

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين:34)

(إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111))

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

(سورة المؤمنون)

فالبطولة للأخير، لمن يسخر آخر الأمر لا لمن يُسْخَرُ منه أول الأمر..

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

(أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ)

إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين عبادتهم لأصنامهم

أي أن هذه الآلهة التي صنعوها من تَمْر، أو من حجارة، أو من خشب لأن النبي عليه الصلاة والسلام نبّههم إلى أنها لن تكون آلهة، إنها من صنع أيديهم، هؤلاء غضبوا وقالوا:

(أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ)

أي بسوء..

(وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ)

لأن النبي عليه الصلاة والسلام وجّه نظرهم إلى أن هذه الأصنام من صنع أيديهم، وانزعجوا، وزمجروا، وثاروا، وغضبوا، وهم لا يغضبون حينما يكفرون بالرحمن خالق كل شيء..

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

الإنسان مطبوع على العجلة والضعف

هناك آياتٌ ثلاث تؤكد ذلك: الأولى:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

وضعفه لمصلحته، لو أن الله سبحانه وتعالى خلقه قويا لاستغنى بقوّته فشقي باستغنائه عن الله.
والثانية:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج)

ولأنه خُلِقَ هلوعاً إنه شديد الإنابة إلى الله، لو لم يكن هلوعاً لما التجأ إلى الله عزّ وجل، لكنّه هلوع يخاف كثيراً فيأوي إلى الله سريعاً.
والثالثة:

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

(سورة الإسراء)

ومعنى عجولا أي طبيعته يحبُّ أن يأخذ الشيء القريب، ويدع الشيء البعيد، فإذا خالف الإنسان طبيعة نفسه، وآثر الآخرة على الدنيا فعندئذٍ يرقى عند الله سبحانه وتعالى، يرقى بمخالفة طبيعة بُنْيَتِهَ..

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

الهوى يدعوك أن تأكل هذه الأكلة، ولكنّها من حرام، والهوى يدعوك أن تجلس هذه الجلسة وفيها مُنكرات، وأن تذهب لهذه الرحلة وفيها معصية الله سبحانه وتعالى، وأن تأخذ هذا المبلغ وهو من حرام، فالإنسان لأنه خُلِقَ عجولاً يسعدُ بعمله الصالح إلى الأبد، لماذا ؟ لأن عمله الصالح يكون مدافعةً لطبيعة نفسه، ولولا هذه المدافعة والمشادّة بينه وبين نفسه لما كان لهذا العمل الصالح من عظيم أجرٍ وعظيم ثواب، إذاً:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

وضعفه لمصلحة إيمانه، و خلق الإنسان..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج)

وأن يكون هلوعاً لمصلحة إيمانه.

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

(سورة الإسراء)

وأن يكون عجولاً لمصلحة إيمانه. ولو أن الله خلقه ليس بعجول فاختار الدنيا وفق طبيعته هكذا، أما الإنسان فيمشي في طريق مريح، ويَدَع الطريق الوعر، فهل له أجر ؟ لا ليس له أجر، لأن طبيعة الإنسان هكذا، أما عندما يخالف الإنسان هوى نفسه يرقى عند الله سبحانه وتعالى، فالله عزّ وجل خلقنا في الدنيا كي نرقى إليه بعملٍ طيبٍ يُكَلِّفُنا جهداً ومخالفةً لطبيعتنا..

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ

والعلماء قالوا: معنى الآيات هنا وعدُ الله ووعيده، أي أن الله وعد المرابي بمحق المال، فيقول هذا المرابي ؟ متى هذا الوعد ؟ ومتى سيُمْحَق مالي ؟ وعندي آلاف مؤلفة لا تأكلها النيران، يسخر، يستهزئ، وهذا السؤال ليس سؤال استفهام إنما هو سؤال سُخْرِيَة..

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

والله عزّ وجل قال:

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

وعد الله واقعٌ لا محالة، ووعيد الله واقعٌ لا محالة، قل: إن لكل حسنةٍ ثواباً، ولكل سيئةٍ عقاباً.

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أيضاً هنا يستهزئون..

(لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

مصير المستهزئين بالأنبياء والدعاة

فهذا الذي يستهزئ بوعيد الله لو يعلم حالته يوم يأتي هذا الوعيد ويُلقى في النار، كيف أن النار تلفح وجهه، وكيف أنه يعضُّ على إصبعه، وكيف أنه يقول:

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً)

(سورة الفرقان)

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر)

(بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

مصير المستهزئين بالأنبياء والدعاة

أي أن الساعة، ساعة العقاب، أو ساعة الموت، أو ساعة الحريق تأتيهم بغتة فتبهتهم، ولذلك فالمؤمن وحده يُعِدُّ نفسه للموت منذ معرفته بالله عزّ وجل، ويعلم علم اليقين أن هذه الساعة في حقِّه ساعةٌ مباركة، وأن عُرْسَهُ في هذه الساعة، وأن هذه الساعة ساعة انتقالٍ من ضيق الدنيا إلى سَعَةِ الآخرة،

ومن هموم الحياة إلى نعيم الآخرة، من الابتلاء إلى الجزاء، ومن التكليف إلى التشريف، ومن التعب إلى الرخاء، ومن الهَم إلى الطمأنينة، أي أن كل الخير بعد الموت، فالمؤمن يعرف ذلك، وينتظر ذلك، ويعدُّ العُدّة لهذه الساعة، ولكنّ الكافر وضع كل اهتمامه في الدنيا، وكل آماله في الدنيا، وكل طاقاته وكل إمكاناته في الدنيا، فإذا أُخِذَ منها فجأةً كان أخذه منها كالصاعقة، ولذلك يقول الله عزّ وجل:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة الزخرف)

(بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

هذا الاستهزاء نفسه كان مدمِّراً لهم، فقد أحاط بهم ودمَّرهم، فالإنسان يتأدّب مع الله سبحانه وتعالى، ومع كتابه، ومع رسله، ومع من لهم صِفَةٌ دينية، ليجعل سخريّته في موضوعاتٍ أخرى، أما أن يجعل الأمور المُقَدّسة موضوعاتٍ لسخريته فربّما كانت هذه السخرية نفسها مدمِّرةً له..

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

كتب أحدهم مصحفاً في ثلاثة أيّام، فلمّا دُهِش إنسان أنه كُتِب في ثلاثة أيام قال الكاتب مستكبراً: " وما مسّنا من لغوب "، أي أنه أعطى نفسه صفة الإله، فَشُلّت يمينه على الفور، كلام الله لا يُسْتَهْزأ به، ولا يُستعار لذاته، من أنت ؟ فالإنسان إذا أنجز إنجازاً يقول: الحمد لله الذي وفّقني لهذا العمل، وإذا حقّق الله عزّ وجل له آماله فيقول: الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، إذا رزقه الله عزّ وجل زوجة صالحة وبيتاً وأولاد كلّما دخل البيت يقول: الحمد لله رب العالمين، هذه نعمة الله، وهذا من فضل ربي، هكذا المؤمن.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ(43))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 42 - 70
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-05-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الأنبياء، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

حفظُ الله عبادَه بالليل والنهار

يكلؤكم بمعنى يحفظكم، من الذي يحفظكم ؟ يحفظ أجهزتكم، وصحتكم، وأولادكم، وأهلكم، وأموالكم، لابدّ من رحمةٍ وعنايةٍ وحفظٍ من قبل الله عزّ وجل.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ)

هل في الأرض كلِّها جهةٌ تستطيع أن تحفظكم ؟ لأن أجهزة الإنسان بيد الله عزّ وجل، أن تعمل بانتظام من دون خلل فهذا بإذن الله، وهذا بقدرة الله، ولثالث برعاية الله، والرابع بحفظ الله..

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

(سورة الطارق: 4)

وربنا عزّ وجل يقول:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة يوسف:64)

آلاف القصص التي أسمعها من كل أخٍ كريم أن الله عزّ وجل حفظ مالي من التلف، وحفظ ابني من حادثٍ مروع، ورعى زوجتي من عمليةٍ جراحية خطيرة، ولولا أن الولادة تمت في الوقت المناسب، وصان صحتي من الخلل، هذا الذي يحفظكم، يحفظ كل شيءٍ متعلقٍ فيه، مَن ؟ الله سبحانه وتعالى.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة يوسف:64)

الأدلة من القرآن الكريم:

لقد علّمنا الله سبحانه وتعالى كيف نستعيذ به..

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3))

(سورة الفلق)

الشيطان إذا دخل نفس الإنسان..

(وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

(سورة الفلق)

وعلمنا أن نستعيذ به في سورةٍ أخرى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(6))

(سورة الناس)

الأدلة من السنة النبوية:

والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه يقول:

((اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَا وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلا إِلَيْكَ))

(من صحيح البخاري: عن " البراء بن عازب ")

وعلمنا أيضاً النبي عليه الصلاة والسلام أن نقول:

((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ))

(من سنن الترمذي: عن " أنس بن مالك ")

وعلمنا النبي عليه الصلاة السلام في أدعيته أن نقول:

((اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ))

(من صحيح البخاري: عن " شداد بن أوس ")

وحينما يلتجئ الإنسان إلى الله عزّ وجل يحفظه الله،

((أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء))

[الجامع الصغير عن واثلة بن الأسقع]

هذه الاستعاذة إن كانت بآيات القرآن الكريم التي وردت في معرض الاستعاذة والالتجاء، أو كانت في الأحاديث الشريفة التي وردت في معرض الالتجاء والاستعاذة، فهذه كلها إذا قرأها الإنسان وقلبه

حاضر، ونفسه طاهرة، وعمله مستقيم، فإن الله سبحانه وتعالى يحفظه من كل شر، فهل في الكون جهةٌ بقدرتها أن تحفظكم إذا سألتموها الحفظ ؟

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

إن الإنسان أحياناً تحمل زوجته وهي على وشك الوضع، فترى الزوج يلجأ إلى الله عزّ وجل أن يكون المولود سليماً، فإذا جاء المولود سليماً فهذا بفضل الله عزّ وجل، وإذا جاء مشوّهَاً أو فيه خلل فتجده ينفق آلاف الآلاف من أجل أن يعود بشكلٍ صحيح، وقد يكون هذا غير ممكن.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ)

رحمة الله تقتضي حفظ العباد

لم يقل الله سبحانه وتعالى من الخالق، بل قال:

(مِنَ الرَّحْمَنِ)

لأن الله سبحانه وتعالى برحمته يكلؤكم، لأنه رحمنٌ رحيمٌ يحفظكم، لأنه رحمنٌ رحيمٌ يقيكم من شر ما خلق، فكلمة الرحمن هنا جاءت مُنَاسِبَةً للحفظ والرعاية، أي أنه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ولكن الله سبحانه وتعالى بين لنا أن مَعِيَّتَهُ لها قانون..

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ)

(سورة المائدة: من آية " 12 ")

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

إعراض العباد عن ذكر الله

فيُقبل على الدنيا، ويُقبل على مصالحه، وتجارته، وما يَعْنِيه منها، وبيته، أما إذا ذُكِّرَ بربه فإنه يعرض عنه، وإذا دُعي إلى مجلس علم فإنه يعتذر، وإذا دعي إلى عملٍ صالح يدّعي أنه متعب، أما إذا دعي إلى صفقةٍ أو إلى شراء أرضٍ أو إلى شراء حانوتٍ، أو إلى رحلةٍ ممتعةٍ فإنه لا ينام الليل..

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

" يا رب كيف أشكرك ؟ **"، قال: يا موسى تذكرني ولا تنساني، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني "**، أي أنه بمجرد أن تذكرني فأنت شاكرٌ لي، فإذا ما نسيتني كفرتني.

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

هذا قانون..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

(مَنْ) اسم شرط جازم يأتي بعدها فعلان، يقع الثاني حتماً إذا وقع الأول، هذا معنى الشرط

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

هذا فعل الشرط:

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

معيشة شقية، ولو كنت من أصحاب الملايين، ولو كنت من أقوى الناس، لأن الله سبحانه وتعالى يَسْلُبُ المُعْرِضَ السعادة، ويبقي له الضيق، والقلق، والحيرة، والقهر..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

(وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)

(سورة الصافات)

أما المؤمن فإذا ذُكِّرَ يذكر، إذا ذُكِّرَ بآيات ربه خر لله ساجداً، إذا ذكر بأمرٍ إلهي نفّذه، وبنهيٍ تركه، وبعبادةٍ قام إليها، وبمجلس علمٍ بادر إليه، وبالقرآن قرأه.

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

هؤلاء الذين أعرضوا عن ذكر الله فعلى أي شيءٍ يعتمدون ؟ وإلى أي قوةٍ يستندون ؟.

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا)

نظام جسم الإنسان تحت رحمة الله

فهؤلاء الكفار، هؤلاء الفجار حينما أعرضوا عن ذكر الله، وحينما استغنوا عن رحمته، هل لهم قوةٌ تمنعهم من الله عزّ وجل ؟ هذا سؤال، أي أن هذا الكافر المُعرض على أي شيءٍ يستند ؟ إن كل عقله متوقفٌ على سلامة شرايين المُخ، فإذا تجمدت نقطة دمٍ في أحد شرايين المخُ دخل مستشفى الأمراض العقلية، أو أصيب بالشلل، أو أصيب بالعمى، كل قوة الإنسان نابعةٌ من حِفْظِ الله له، فلو أن شرياناً صغيراً، أو وعاءً شعرياً تجمدت فيه قطرة دمٍ لاختل توازنه، ولفقد ذاكرته، وبصره، وسمعه، ومحاكمَته، وحركته، وقوته، فعلى أي شـيءٍ تعتمد ؟

أيّ غدةٍ من غدد الإنسان لو أنها قصّرت أو نشطت أكثر مما يجب، تصبح حياة الإنسان جحيماً، فهذه الغدة الدرقية لو أنها قصّرت لأصيب الإنسان بالتكاسل، ولو أنها نشطت أكثر مما ينبغي لأصبحت حياة الإنسان قلقةً لا ينام الليل، لفرط توتُّره ونشاطه، وهذه الغدة النخامية، غدة الكظر، فمراكز بالإنسان معقدة جداً، فمركز توازن السوائل لو اختل لشربَ الإنسان في اليوم مئات اللترات من الماء، ولطرحها في البول فوراً، ولابدّ له أن يقيم إلى جانب صنبور ماءٍ، وإلى جانب دورة مياه، لو أن غدةً صغيرةً اختل توازنها.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

الكبد يفرز هرمون التجلُّط، وهرمون التميُّع، ومن إفراز هذين الهرمونين بشكلٍ متوازن ترون الدم على وضعه الطبيعي، فيه سيولة بين التجلُّط وبين التميُّع، ولو أن هرمون التميع زاد قليلاً لخسر الإنسان دمه من جُرْحٍ بسيط، أو لو أن هرمون التجلط زاد قليلاً لمات فوراً بجلطةٍ فجعل الدم كله كالوحل في شرايينه وأوردته..

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

ولو أن الإنسان التهبت القنوات النصف دائرية في أذنيه لا يستطيع أن يمشي على قدميه، بل يحتاج إلى من يمسكه، ويفقد توازنه، والتوازن نعمة من نعم الله الكُبرى.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

فمن أمَّنَ لك التوازن ؟ ومن الذي جعل هذه الأجهزة تعمل بانتظام ؟ تأكل اللُّقمة، فاللعاب فيه مواد هاضمة، ولسان المزمار لولا أنه يعمل لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، وطريق الهواء وطريق الطعام، وهذا اللسان إذا أردت أن تأكل يُغْلِقَ طريق الهواء ويفتح طريق المريء، فإذا أردت أن تتكلم أغلق طريق المريء وفتح طريق الهواء، ولو اختل عمله قليلاً لمات الإنسان، ولو دخل إلى رئتيه بعضٌ الماء لأصبحت حالته خطيرة، فلولا أن الله سبحانه وتعالى جعل في هذه الرغامى، القصبة الهوائية أشعاراً تطرد المواد الغريبة نحو الأعلى، وهذا هو القشع لما استقامت حياة الإنسان، ولولا أن المريء مزود بعضلات دائرية تسوقُ اللقمة من الأعلى إلى الأسفل، فالإنسان وهو نائم يأكل، والطعام يمشي في المريء، ولو علق من رجليه وأطعمته لقمةً تنطلق نحو الأعلى بفضل هذه العضلات التي تتقلّص تباعاً.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

فالإنسان ينام، لكن لسان المزمار لا ينام، وكلّما تجمّع الريق في فمه، وهو نائم يأتي أمر من الدماغ إلى لسان المزمار بإغلاق القصبة الهوائية وفتح المريء، فيقال: بلع ريقه وهو نائم، وكل فترة يحس على حاله، وهذان الجفنان يرفّان بشكل منتظم، ست عشرة حركة في الدقيقة، أنت لا تدري، فكلما تشكّل على

القرنية غبارٌ أو شيءٌ غريب جاء الجفن ومسح هذه القرنية، وجعل هذه الأجفان لئلا تلتهب أطراف الأجفان.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

والحديث عن الهضم شيءٌ لا ينتهي، فالبنكرياس، والصفراء، والكبد، والزُغابات المعوية، والحديث عن جهاز الدوران لا ينتهي، القلب، والدسّامات، والدورة الصغرى، والدورة الكبرى، والشرايين ذات مرونة عالية جداً والأوردة أقل مرونة، فمن جعل الشريان في الداخل والوريد في الخارج، فلو أن الآية معكوسة، أي أن الشريان في الخارج، والوريد في الداخل، فأي جرحٍ أصاب الشريان يفقد الإنسان دمه كله، أما الشرايين ذات الضغط العالي في الداخل، والأوردة ذات الضغط المُنخفض في الخارج، من رَتَّبَ هذا الترتيب ؟

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ)

من جعل هذا الشعر، وهذه الأظافر بلا أعصاب حِس، الإنسان برأسه في ربع مليون شعر، وبكل شعرةٍ شريانٌ ووريد وغدةٌ دهنية، وعصبٌ محرك وعضلةٌ وغدة صبغية، لكن لا يوجد عصب حسي من أجل أن تقص شعرك من دون عملية جراحية، ومن دون مستشفى، من دون تخدير، تقصُّ شعرك وأظافرك، وأنت في راحة.

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا)

إذا سُدّت قناة الدمع تصبح حياة الإنسان جحيماً، فيحتاج إلى منديل دائم، وكل دقيقة يمسح دمعه، وعندئذٍ يفيض الدمعُ على خده، والدمع مادة قلوية، وبعد أيام يلتهب الجلد، وأدق قناةٍ في الإنسان قناة الدمع، ولشدة دقتها لا تُرى بالعين، فتأخذ الدمع الفائض وتضعه في الأنف كي يكون المكان رَطِبَاً، ورطوبة الأنف ضرورية من أجل أن تلتصق المواد الغريبة في السطوح المتداخلة التي هي في طريق الهواء.

(قُلْ مَنْ)

إنّ الإنسان زوده الله عزّ وجل في أنفه بشرايين غاية الرقة والهشاشة، فإذا ارتفع ضغط دمه قليلاً تمزّقت هذه الشرايين، وسال الدم من أنفه، وهنا يجب إجراء عملية لتلافي الخطر، فإذا ارتفع الضغط الشرياني في الدم تمزقت هذه الشرايين، وسال الدم وهو الرُعاف، والرُعاف صمام أمان، وأحياناً الآلات الغالية جداً يضعون في طريق الكهرباء نقطة ضعف، شريطاً رفيعاً جداً، على أي ارتفاعٍ للتيار يسيخ هذا الشريط فينقطع التيار، وهذا ضروري جداً، وهكذا الأنف.

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ)

المخلوق ضعيفٌ لا يملك نصرا ولا نفعا ولا ضرا

أي أن هؤلاء الذي أعرضوا عن الله، وأعرضوا عن ذكره، واستغنوا عن رحمته لا يعتمدون على شـيء، لكن يعتمدون على أوهام..

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ)

معنى يصحبون أي يلتجئون، لبعدهم عن الله عزّ وجل، وعدم استجابتهم له لا يستطيعون أن يلجؤوا إليه فيحميهم من عدوّهم.

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

أي:

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ)

متاع الدنيا زائل بالفقر أو الموت

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من آية " 77 ")

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

(سورة البقرة)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

(سورة الإسراء: من آية " 18 ")

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً)

(سورة لقمان: من آية " 24 ")

فعلى الإنسان ألا يفرح بمتاع الدنيا، وإنما سُمِّيَ متاعاً لأنه موقّت.

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من آية " 77 ")

خالق الكون ينصحك،

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

أترضى به ؟ أيعجبك أن تستمتع بالحياة سنوات عِدَّة ثم يساق الإنسان إلى النار وبئس المصير، هذا هو التمتع، لذلك:

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً)

(سورة لقمان: من آية " 24 ")

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)

أعظم العقوبة ترك الإنسان هملا بلا معالجة

والله الذي لا إله إلا هو إنّ أشد عقوبةٍ يعاقب بها الإنسان أن يتركه الله هملاً بلا معالجة، فلما تأتي الإنسان المُعالجات الربّانية تباعاً فهذه والله الذي لا إله إلا هو إشارةٌ طيبة، والدليل أن الله سبحانه وتعالى عَلِمَ فيك خيراً فأدَّبَكَ في الدنيا، فإذا أحب الله عبده ابتلاه، الإنسان يتألم إذا فعل المعصية، وتركه الله هملاً بلا معالجة، هنا يتألم، عندئذٍ كأنه مُهْمَل، وكأنه مُهان،

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

خُذوا الدنيا، وسوف تردون إلى عالم الغيب والشهادة، هذه والله الذي لا إله إلا هو حقيقةٌ خطيرة إذا رأيت الله يتابعك بالمعالجة فهذه بشارةٌ طيبةٌ طيبة، أما إذا رأيت أن الله سبحانه وتعالى يُعطيك الدنيا كما تشتهي، ولا يُعالجك فهذه والله علامةٌ سيئة، وإذا رأيت الله يُتابع نِعَمَهُ عليك، وأنت تعصيه فاحذره.

(حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)

حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ

ترى رجلاً عمره ستون سنة يلعب طاولة، أذن الظهر فلم يصل، من أربعين سنة هكذا، هذا مهان عند الله عزّ وجل، بالستينات يمضي وقته كله في لَعِب النَرد، من دون صلاة، وصحته جيدة !!

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)

كأنهم لا يموتون، تجده جالساً مع نساء لا يحللن له، وهو يمتّع نظره بهن، ويدير معهن أحاديث غاية في الخبث، وهو مقيمٌ على المعاصي، ويقول لك: لم أفعل شيئاً، فأنا طاهر، وأنا مستقيم، وأنا كذا، فهذا الذي ينشأ على المعصية، ويستمر عليها فيقسو، ويعمى قلبه، عندئذٍ يجعله الله خارج المعالجة.

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

الاتعاظ بالموت والموتى

أليس هناك موت ينهي هذه الحياة ؟ يُنهي هذا النعيم، وهذه المباهج، وهذه الملذّات، وهذه الحماقات، أليس هناك موت ؟!

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)

شريط متحرك عليه أشخاص، في نهاية المكان يتساقط الناس، ويأتي أناسٌ آخرون، هكذا الحياة، أُناسٌ يولدون، وأناسٌ يموتون، فعلى مستوى البشر، وعلى مستوى النبات، وعلى مستوى الجماد، وعلى أي مستوى، هناك فناء، وهناك ولادة جديدة، إن ربك هو الخلاّق العليم، فهناك خلق مستمر، وفناء مستمر، وكل إنسان له عمر، مهما اعتنى بصحته، ومهما كان أكله مدروساً، ومهما كانت ممارساته رياضيَّة عالية المستوى بعد ذلك ينتهي أجله، ولو أن بالرياضة، وبالمشي، وبالدقة التامة في الطعام والشراب، يتمكن أن يعيش صحيح الجسم، ولكن لابدّ من الموت، يأتي ملك الموت..

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

فإذا طال على الإنسان العمر بالمعصية قسا قلبه، وظن أنه مُخَلّد، وظن أنه لن يموت، وهكذا يتوهّم.

(قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ)

القرآن بشير ونذير، وعد ووعيد

هذا الوحي، لأن هذا الوحي فيه وعدٌ ووعيد، وفيه ذِكْرٌ لأهل الجنة، وما ينعمون به، وفيه ذكرٌ لأهل النار، وما يَشْقَوْنَ به.

(قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ)

أي أن هذا كتاب فيه إنذار، وفيه تبشير، وتحذير، وأمر، ونهي، وحكمة، وقواعد، وكُلِّيات، وأخبار، وتنبُّؤات للمستقبل، وقصص الأنبياء السابقين، ومشاهد من يوم القيامة، وآيات كونية، وكل شيء..

(قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ)

لكن هذا الذي جعل في أذنه وقرا عن أن يسمع الحق هذا لا يسمع، ما هو الوقر ؟ الشهوات، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ))

(من سنن أبي داود: عن " أبي الدرداء ")

فالشهوات الدنيوية بمنزلة وقرٌ يصم الآذان عن سماع الحق.

(قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (45) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

مشابهة الكافر للبهيمة من حيث التصرف في حال الخطر

سبحان الله ! الكافر لا يخاف إلا بعينه، فهو يقترب في هذه الناحية من البهيمة، والإنسان إذا رأى في غرفة شقّاً عرضياً، وكان مهندساً، والبناء قائم، والبيت مسكون، يتوقّع أن هذا الشق خطير، أن الأساس فيه انهيار بسيط، فيملأ الشق مادة، ثم يمتحن هل الشق يتفاقم ؟ لأنه فيه فكراً، ودماغاً، وتفكيراً، وعقلاً، ولو كان هذا الشق في حائط إصطبل، وفي هذا الإصطبل دابة فهل تخاف الدابة ؟ أم تقلق ؟ أم تفكر ؟ أم تسأل مهندساً ؟ مستحيل، دابة، متى تهرب الدابة من الإصطبل ؟ إذا وقع عليها السقف، في هذه الحالة فقط، أما الإنسان فأذكى من ذلك، الإنسان يخلي البيت، والبيت قائم، ويقول: أصبح البيت في خطر، فمن علامات العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه، وأن ترى الأخطار القادمة، أما كل إنسان إذا واجه الخطر فيخاف حتى البهائم، لكن الإنسان كرّمه الله بالعقل، فبالعقل يرى الأخطار المتوقعة قبل أن يقع فيها، فلذلك الكافر يقترب من البهيمة حيث إنه لا يخاف إلا بعينه، فهو في بحبوحة وصحة، فتجده أعرض عن ذكر الله.

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا)

لِمَ قال ربنا عزّ وجل:

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ)

ولم يقل: مسّهم عذابٌ.

(نَفْحَةٌ)

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ

فالله عزّ وجل ذكر النفحة تصغيراً لهذا العذاب، إنها شيء طفيف جداً، نفحة، جعلها نكرة، وجعلها مفردة، وعبّر عنها بالمس، وليس أصابهم، بل مس، فلو كان التيار الكهربائي عالي التوتر، ومسه الإنسان مساً خفيفاً لانتفض من أخمص قدميه إلى قمة رأسه، على المس، أما لو أمسكه فيصبح فحماً على الفور، فالمس غير الإمساك، إذا أمسك الإنسان تياراً كهربائياً يتفحم على الفور إذا كانت شدته ستة آلاف فولط، أما لو اقترب من ساحة هذا التيار فيصعق، فربنا عزّ وجل عبّر عن أن عذاب الله لا يحتمل، لو أن نفحةً منه مسّت بعضهم مساً !..

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

أين استغناؤهم ؟ أين إهمالهم ؟ وإعراضهم ؟ وكبرهم ؟ واستخفافهم، واستهزاؤهم ؟ كله تلاشى، لأن الكافر يخاف بعينه، ولا يتّعظ إلا بعد التأديب، لا يُصلي إلا بعد المرض، ولا يصلي إلا، وهو فاقد الحُرِّيَة، أهكذا المؤمن ؟ ألا يكفي هذا الكون العظيم كي يقودك إلى الله عزّ وجل بعظمته ؟ ألا تكفي هذه النِعَم التي سخَّرها الله لك كي يجذبك إلى الله عزّ وجل ؟ ألا تكفي هذه المودة من الله عزّ وجل ؟ هذا الخلق القويم ؟

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

هذا الخلق الكامل، وهذه الصحة، والأجهزة، والسمع، والبصر، والبيان، والعقل، والقلب، والرئتان، والمعدة، والأمعاء، والعضلات، والزوجة، والأولاد، والبيت، والعمل، والرزق، فهذه النِعَم التي أسبغها الله عليك ظاهرةً وباطنة.

ولذلك كان الإنسان البطل هو الذي يأتي ربه طوعاً، والإنسان الآخر يأتيه بعد قَهْرٍ، أو بعد معالجةٍ، والثاني جيد، ولكن ما أشرف من يعرف ربه في الرخاء، وما أعظمه، وأنبله، وأكثر وفاءهُ، وشكره.

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ)

نفحة فقط..

(لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

الشدة علاج الغافلين

حدثني أخ كان راكباً طائرة، وكانت على وشك السقوط، قال لي: منظر لا يوصف، فثلاثمائة راكب كل واحد منهم شخصية مهمة، فتاجر، وسائح، وكل واحد معتز بشكله، وبجماله، وبماله، هذا رجل أعمال مثلاً، حينما شعر الرُكاب أن الطائرة على وشك السقوط شيءٌ لا يوصف، فأين اعتزازه بنفسه ؟ وأين استغناؤه عن رحمة الله ؟ واستخفافه بالدين ؟ وتعاليه ؟ وأين هذه الصفات كلّها ؟ ذهب كبرياؤه، وذهبت عزته الفارغة، وذهب اعتزازه بنفسه وماله، وقوله: أنا وأنا، صار كالأطفال تماماً، كالطفل. حتى إن قائد الطائرة أمر بعض المضيفين أن ينبّه الركاب إلى وضع أحزمة الأمان، ولم يسمع أحد من الركاب مقالته، لشدة الهول الذي هم فيه، هذا المُضيف نظر إلى الركاب، فإذا هم غارقون في الدُعاء، وفي البكاء، ويندبون حظّهم، ويندبون حياتهم، ويستغيثون، إلا أن هذا المضيف رأى واحداً من الرُكاب أهْدَأهم أعصاباً، فتوجه إليه فإذا هو مغمى عليه.

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ)

مستهم..

(لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

الآن عرفت الله عزّ وجل ؟ بالطائرة عرفته ؟ وعلى الأرض لم تعرفه ؟ وأنت جالس في بيتك لم تعرفه؟ وأنت بين أهلك وأولادك، وأنت في معملك، وفي دكانك، وفي متجرك ما عرفته ؟ وأنت في نزهتك ما عرفته ؟ إلا حينما تركب الطائرة تعرفه، أو تركب السفينة ويهيج البحر !!

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)

نصب الموازين يوم القيامة للحساب

أي الموازين المُقْسِطة العادلة، ميزان دقيق جداً، فهنيئاً لمن قاس عمله بميزان الله، فقد يقاس عمل الإنسان بميزان الأرض ؛ فلان حَصّل مالاً وفيراً، بمقياس الناس يُعَد ذكياً، يقول لك: ركّز وضعه، اشترى بيتاً، وعنده كل وسائل الرفاهة، فبمقياس أهل الأرض يعد ذكياً، ونبيهاً وماهراً، ولكن بمقياس السماء، وبمقياس خالق الكون يُعَدُّ هذا الدخل غير مشروع يحاسب عليه، فهنيئاً لمن قاس أعماله لا بمقياس الناس، ولكن بمقياس رب الناس، فإذا قِسْتَ أعمالك بمقياس رب الناس عرفت أن هناك حساباً دقيقاً، وسؤالاً دقيقاً..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

السؤال صعب، لو قيل لإنسان: تعال إلينا بعد يومين لنسألك بعض الأسئلة، أنا أؤكد لكم أنه لا ينام الليل، إنسان لإنسان، طبعاً إذا كان إنساناً مُهماً، فكيف إذا كان رب العالمين سيحاسِبُكَ عن كل أعمالك ؟

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

عدلُ الله تعالى المطلق

لا أعرف حبة الخردل إذا كانت تُرى بالعين، لو أن لك عملاً صالحاً، أو لا سمح الله عملاً سيئاً بما يعادل حبّة الخردل..

(أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

أحياناً ابتسامة في غير موضعها، فيها استعلاء، أو استهزاء تحاسب عليها، فلو حبة من الرز ألقيتها، ولم تأكلها تحاسب عليها، فهذه الحبة خلقت لك، كأنها تقول لك: لماذا لم تأكلني، أنا خلقت من أجلك ؟

لماذا رميتني في المهملات ؟ لماذا ؟

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

فحتى الأب يحاسب إذا قَبَّلَ ابناً دون آخر، يحاسب، أين العدالة ؟

((اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك))

[أبو داود عن عائشة]

تملك أن تكون عادلاً بين أولادك، وقد لا تملك قلبك، أنت معذور فيه، لكن السلوك تملكه، أن تقبل الاثنين، وأن تأتي للاثنين بحاجات متشابهة.

(وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

الله عزّ وجل حسيب، يحاسب كلاً بحسب عمله.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ)

الكتب السماوية السابقة غير المحرّفة نور وذكر

الفرقان هنا أي التوراة لأنه يفرّقُ بين الحق والباطل، والضياء نورٌ في قلب المؤمن، يريه الخير خيراً، والشر شراً.

(وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ)

يذكره بآخرته، فهذه صفات كتب الله عزّ وجل، التوراة والإنجيل والقرآن، فرقانٌ وضياءٌ وذِكْر، فرقان فيه تفريقٌ بين الحق والباطل، وضياءٌ فيه نورٌ يقذف في القلب ترى به الخير خيراً، والشر شراً، وفيه تذكيرٌ للمتقين، من هم المتقون ؟..

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)

خشية الله بالغيب

هذا الذي يخشى بالغيب، فمن الطالب الذي ينجح ؟ هو الذي يتصور الامتحان قبل مجيئه ويستعد له، فإذا جاء الامتحان كان في مستوى الامتحان، أما الذي لا ينتبه الامتحان إلا وقت الامتحان فهذا لا ينجح.

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)

فقبل أن يروا بطشه، وقبل أن يروا عقابه الأليم، وآياته تقع كما وَعَدَ الله بها، وأن يذهب مال المُرابي، وأن يصاب الزاني بأمراضٍ وبيلة، وأن يَتْلَفَ مالُ من أكل أموال الناس بالباطل، وأن تقع هذه الويلات

يعرف الله عزّ وجل في الوقت المناسب.

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ

أي أن التوراة فرقان، وضياء، وذكر للمتقين، وهذا القُرآن ذكرٌ مباركٌ، أي كثير الخير..

(أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

أتنكرون أحقيَّتَهُ، أتنكرون أن فيه الخير الكثير ؟ وأنه يهدي للتي هي أقوم ؟ وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ وأن هذا الكتاب تعليماتٌ من عند الخالق لو نفِّذت بحذافيرها لسعد الإنسان بها ؟

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)

قصة إبراهيم عليه السلام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم

الآن جاءت قِصَصُ الأنبياء لتسلّيَ النبي عليه الصلاة والسلام، وتطمئنه، وتخفف عنه، ولتجعله يستأنس بأن أنبياء سابقين جاؤوا إلى أقوامهم، وعارضوهم، وبالغوا في إيذائهم.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ)

معنى الرشد:

قيل: الرشد هنا هدي إلى التوحيد، وإلى معرفة أنه لا إله إلا الله، لأن التوحيد نهاية العلم.

(وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)

أي أن علم الله عزّ وجل يشمل كل شيء.

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ)

فَكّر..

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)

الدعوة إلى التوحيد صنعة الأنبياء

قطعة حجر منحوتة على شكل صنم يأتي الناس فيعبدونها، ويسألونها الحفظ، ويخضعون لها، ويخشعون أمامها، إنه عمل غير منطقي، فالله عزّ وجل كرّمنا بالمنطق والعقل، قال:

(مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)

طبعاً:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ(53))

هذا تُراث، اسمعوا كلام الناس: هذه عادات، وتقاليد، وأعراف اجتماعية، أتريد أنت أن نُعَطِّلَ هذه الأعراف، وأن نعطل هذه التقاليد، أنعطل هذه العادات، وهكذا نشأنا، وهكذا تربينا، وهكذا كان آباؤنا وأجدادنا، والمجتمع، فأنا مع الناس يا أخي، سيدنا إبراهيم كان حر التفكير، قال:

(مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53))

لا تكن إمّعة وذيلاً

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاؤُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[الترمذي]

أي لا يكون تابعا، بل يكون متبوعاً، من هو الإمَّعة ؟ الذي يقول: أنا مع الناس إن أحسن الناس، وإن أساؤوا أسأت.

فالكلمة التي يقولها الناس: أخي الناس كلهم هكذا، لماذا تغش ؟ الناس كلها تغش، لماذا تأكل مالاً حراماً؟ الناس كلها تأكل مالاً حراماً، فهل هذا جواب ؟! هذا جواب البهائم، فأنت مؤمن، ومفكِّر، وهذا لا يرضي الله عزّ وجل، فهذا محرَّم، أخي كيف دخلت على النساء ؟ والله استحيت، ما هذه الكلمة: استحيت ؟ هؤلاء النساء في هذه الحفلة مزيَّنات بأبهى زينة، فكيف دخلت عليهن ؟ مراعاةً للأعراف والتقاليد هكذا المجتمع، هكذا، فكيف حضرت هذا العرس المختلط في فندق، والله لأني دعيت، النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لبوا الدعوة "، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْوَلِيمَةِ فَلْيَأْتِهَا))

[متفق عليه]

أي دعوة هذه ؟ أنا أردت أن هذه التقاليد والعادات والأعراف التي تخالف صريح القرآن يجب ألا نعبأ بها، أنت عبد لله الواحد الديَّان، ولست عبداً للمجتمع، أنت عبدٌ لله، ولستَ عبدًا للتقاليد، والعادات، والأعراف، وما تعارف عليه الآباء والأجداد، أما كلام سيدنا إبراهيم:

(قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الحق لا يُعرَف بكثرة التابعين

الحق لا يعرف بالكثرة، نحن لا نعرف الحق بالرجال، ولكن نعرف الرجال بالحق، وعندك مقياس دقيق، هذا المقياس يطبَّقُ على الناس فتعرف ما إذا كانوا على الحق أم على الباطل، وعندنا كتاب بيننا، إذا ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

فالذي يُطْلِقُ بصره ليس على الحق قولاً واحداً، وربنا عزّ وجل يقول:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 276 ")

فالذي يأكل مالاً حراماً أساسه الربا ليس على الحق، ولو أول هذا بألف تأويلٍ وتأويل.

(قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(54))

لا عبرة للكثرة..

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 116 ")

(قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ)

رد الكفار لدعوة التوحيد وتأكيد الأنبياء لألوهية الله وحده بالقول والعمل

فكلامك هذا خطير، هل نحن في ضلال ؟ وآباؤنا كذلك ؟ أنت جادٌ في هذا الكلام أم أنت تسخر منا ؟

(قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ)

الذي ينبغي لكم أن تعبدوه هو الله، وليس هذه الأصنام، هذه أحجار لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع، ولا تستجيب.

(قَالَ بَل رَبُّكُمْ)

أي يجب أن تعبدوا ربَّكم. فمن ربكم ؟.

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

أشهد لكم أن خالق الكون هو وحده يستحقُّ العبادة، وأن الذي خلق السماوات والأرض هو وحده ينبغي له أن يعبد من دون غيره.

(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ)

سأريكم ماذا سأفعل بأصنامكم ؟

(فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً)

دخل إلى معبدهم، وقطّع رؤوسهم بفأسه..

(فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ)

إقامة الحجج المادية والعقلية على بطلان عبادة الأوثان

إلا أكبر صنم لم يقرب إليه، بل وضع الفأس في رأس الصنم الكبير..

(لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

تعبدونهم من دون الله، أصنام، فهذا الكبير هو الذي فعل هذا، والفأس بيديه، فلما دخلوا إلى معبدهم:

(قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى)

فتىً، عليه الصلاة والسلام قال:

((ريح الجنة في الشباب))

[ورد في الأثر]

مقابلة الكفار لدعوة التوحيد بتنكيل وتعذيب أهلها

(قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ)

تعذيبه..

(قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ)

لقد جيء به ليحاكَم..

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

العقل السليم يرفض عبادة غير الله تعالى

سامح الله بعضهم إذ نسب إلى هذا النبي الكريم الكذب، هذا ليس بكذب، هذا جذب نظر، هو يريد أن يوقظهم من غفلتهم، أن يصحوا من سكرتهم، هؤلاء آلهة يعبدون من دون الله ؟! لو أنكم تعتقدون أنهم آلهة فيجب أن تقبلوا أن الذي فعل هذا هو كبيرهم ؟ إنه إله، أليس في إمكانه أن يقطع رؤوس من هم دونه ؟ هو أراد أن يوقظ فكرهم، وأراد أن يحررهم من الأوهام..

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

اسألوهم، لا ينطق أحد منهم، إن كان لا ينطق أيعبد من دون الله ؟! إذا كان عاجزاً عن النطق فهو عن الحركة أعجز، فهو لا يتكلّم، لا كلام، ولا سمع ولا بصر، أيضاً لما يعتمد الإنسان على إنسان آخر، والإنسان الآخر ميت، أو سيموت، وقع كذلك بالشرك، وأحياناً يكون للشخص أب، وهذا الأب ليس على ما يرام، ولكنه غني، فيتابع أباه على ضلال طمعاً في ماله، فأنت بهذا أغضبت ربك، وأحياناً يكون لشخص صديق قوي، يعتمد عليه، وينسى الله عزّ وجل، فهذا شرك أيضاً.

(فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ)

فكروا..

(فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ)

والله كلامه منطقي، كيف ننفي عن هذا الصنم الكبير أنه فعل هذا بالأصنام الأخرى ؟ إذاً نحن كيف نعبده ؟ أنعبد حجراً لا يتكلّم ولا ينطق ولا يتحرك ؟!

(ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ)

حمية الجاهلية حجاب بين العبد والتوحيد

أخذتهم الحمية، وسيطرت عليهم العادات والتقاليد، ورجعوا إلى كفرهم.

(ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)

تعلم أنت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تنطق..

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ)

كيف ؟ فلما قال لهم:

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

للحظاتٍ قليلة أدركوا أنه على حق، وأنهم على باطل، ثم قالوا: تعلمُ يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تنطق، فكيف تُطالبنا أن نسألها ؟! عندئذٍ تناولهم بالحجة القاطعة قال:

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ)

أفٍّ اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، أي ما أتعسكم، ما أشقاكم، وما أغباكم، ثم ما أضْيَقَ تفكيركم..

(أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

لكن روح الجماعة الضالّة غَلَبَت على الحق و..

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

تآمر المشركين على إحراق إبراهيم عليه السلام

هنا المعجزة، الله سبحانه وتعالى كان من الممكن ألاّ يعثروا عليه، وإن لم يعثروا عليه فليس هناك معجزة، وكان من الممكن أن تأتي سحابةٌ تمطر مطراً غزيراً تطفئ النار، فليس هذا معجزة، ولكن الله سبحانه وتعالى مكّنهم من إلقاء القبض عليه، ومَكّنَهُم من أن يجمعوا حطباً لأسابيع عديدة فجعلوها كالتلّة الكبيرة، وأشعلوا هذا الحطب حتى اتقدت النار، وفي هذه اللحظة الحرجة ألقوه في النار.

تروي بعض الكتب أن سيدنا جبريل عليه السلام جاءه وقال له: "أتريد من الله شيئاً ؟ ألك من حاجة ؟ " قال: " منك ؟ "، قال: " لا من الله "، قال: **" علمه بحالي يغني عن سؤالي "**، أي أن الإنسان إذا وقع في أزمة فرب إبراهيم موجود، هوَ هو، كن صادقاً مع ربك، وكن مستقيماً على أمره، وكن مخلصاً له ورب إبراهيم بالوجود، الذي أنقذ إبراهيم ينقذك من كل ورطة، والذي أنقذ يونس من بطن الحوت..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

هو موجود..

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

أخذتهم العزة بالإثم، كلمة واحدة..

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً)

معجزة: يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا

قال: لو أن الله عزّ وجل قال لها: كوني برداً لمات من البرد، وهو في النار، لكن:

(كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً)

لا تؤذيه، فالعلماء بعضهم قالوا: **" إن الله سبحانه وتعالى أفقد النار قوة الإحراق "، وبعضهم قال: " أعطى جسم إبراهيم عليه الصلاة والسلام تحملاً "، وبعضهم قال: " جعل بينه وبين النار حاجزاً "**، وأصَحُّ الأقوال أن النار نفسها فقدت قوة الإحراق لقوله تعالى:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

هذه معجزة، لكن والله الذي لا إله إلا هو على شكل مُخَفّف يقع منها كل يوم، أما بهذه الحدة فهذه لسيدنا إبراهيم، هذه معجزة، لكن إذا دعا المؤمن ربّه، واستجار به، والتجأ إليه، وكان في ورطةٍ كبيرة وهو مُحِق فالله سبحانه وتعالى ينقذه من كل شدة..

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)

(سورة النمل: من آية " 62 ")

قصة إبراهيم دعوة إلى الصبر في الشدائد والمحن

فهذه القصة ليست للتسلية، هذه قصة مغزاها أن تلتجئ إلى الله في ساعات الشدة كما التجأ إبراهيم عليه السلام في هذه الساعة الشديدة، والله لن يتخلّى عنك، والله سبحانه وتعالى يُدافع عنك وينصرك ما دمت على الحق..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

ما الذي يدعوك إلى التوكل على الله ؟ لأنك على الحق المبين..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)

وسيدنا رسول الله اللهم صل عليه وسلم لمّا كان في الهجرة ألم يأت سراقة طمعاً بمائتي رأسٍ من الإبل ليأخذ النبي إلى قريش، فما الذي حصل ؟ غاصت قدما فرس سراقة في الرمال فوقع عنها، في المرة الأولى والثانية والثالثة، حتى شَهِدَ أن هذا الإنسان معصوم من أن يناله أذى، وأنت أيضاً مؤمن..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

فإذا كنت مع الله صادقاً ومخلصاً فالله عزّ وجل لن يُسْلِمَك..

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

لن يخذلك، ولن يسلمك، ولن يتخلّى عنك، وزوال السماوات والأرض أهون على الله من أن يتخلى عن عبده المؤمن.

(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)

وسوف تأتي في الدرس القادم قِصَصُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ سيدنا لوط، وسيدنا نوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وذو النون.

(إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)

لهذا سميت هذه السورة سورة الأنبياء، فيها ذكر الأنبياء بشكلٍ مقتضب، وجاءت قصة سيدنا إبراهيم بشكلٍ مُفَصَّل، وسوف تأتي قصص الأنبياء بشكلٍ مقتَضب، وعن كل نبيٍ الحدث الكبير في حياته، والصفة التي يتميَّز بها، وإلى درسٍ آخر إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 74 - 94
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-06-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الأنبياء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

من خصائص الأنبياء

وذكرت لكم في الدرس الماضي أن طائفةً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين سيأتي ذكرهم في سورة الأنبياء بشكلٍ موجز، والحقيقة أن الفضيلة لا قيمة لها ما لم تتجسّد في الإنسان، لذلك أثر القدوة الحسنة في النفوس أثرٌ كبير، بينما أثر الكلام النظري في النفوس أثرٌ قليل، لهذا جعل الله سبحانه وتعالى الأنبياء العِظام قدوةً حسنةً وأسوةً نتأسّى بها، ولولا أن الفضيلة تجسّدت في سلوكهم لما سار الناس على هذا الدرب، ولما اقتفوا آثار هؤلاء الرُسل الكرام.

الشيء الذي يجمع بين هؤلاء الأنبياء جميعاً أنهم عبيدٌ لله سبحانه وتعالى، كلُّهم عبيدٌ لله في قِصَصَهم، وفي مواقفهم، وفي تصرُّفاتهم، وفي أقوالهم، وفي أفعالهم ما يؤكِّد عبوديتهم لله عزّ وجل.

الشيء الآخر، أن هؤلاء الأنبياء بشر، وليسوا آلهة، لذلك هم معصومون عن أن يقعوا في خطأٍ في تبليغ الرسالات، معصومون عن أن يعصوا الله عزّ وجل، ولكنّهم ينسون كما ينسى البشر، وقد يتركون الأولى، والله سبحانه وتعالى يوجّههم الوجهة الصحيحة، إنهم بشر، وليسوا فوق البشر، هذا هو القاسم المشترك بينهم، إنهم أيضاً يحبُون الله عزّ وجل حبّاً لا حدود له، يطيعونه طاعةً لا حدود لها، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلُوطاً)

من خصائص الأنبياء

وقد ورد في كتب التفسير أن سيدنا لوط عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام كان ابن أخٍ لسيدنا إبراهيم، فكان إبراهيم عَمّه..

(وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

وإذا تتبّعنا مثل هذه الآيات:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

(سورة القصص: من آية " 14 ")

فأكبر عقابٍ يقع على إنسان أن يحظر الله عنه العِلم والأدب، فإذا آتاك ربك أيها الأخ الكريم طرفاً من العل، م وطرفاً من الحكمة فقد أُوتيت من بضاعة النبوّة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

ولا شيء في الأرض عند الناس وعند الله، في الدنيا وفي الآخرة يرفع الإنسان كالعلم، لذلك عَن مُعَاوِيَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ...))

[متفق عليه]

وما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه.

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

(من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك)

رتبة العلم أعلى الرُتَبْ.. فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم.

(وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا

قال بعضهم: **" الحُكم هو النبوّة، والعِلم هي أوامر الشرع "**، وبعضهم قال: **" الحُكم أن يضع الإنسان كل شيءٍ في مكانه الصحيح "**. والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة: من آية " 269 ")

فأعظم شيءٍ يناله الإنسان من ربّه أن يجعله حكيماً، فبالحكمة يجلب المال، وبالحمق يبدِّدُه، بالحكمة يجعل الزوجة السيئة صالحة، وبالحمق يفسد الصالح، ما من عطاءٍ أعظم عند الله من أن يؤتيك الحُكْمَ أي الحكمة، بالمعنى الثاني من معاني الحكم..

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ)

إهلاك الله لقوم لوط

والقرية التي كانت تعملُ الخبائث قريةٌ اشتهرت بعمل الفاحشة مع الذُكور، وهذا العمل قَذِرٌ وقبيحٌ إلى أبعد الحدود، لذلك في كتب الفقه من يرتكب هذا العمل يُقْتَل، لأن الله سبحانه وتعالى أهلك قوم لوطٍ بأن جعل قريتهم عاليها سافلها، وفي آيةٍ أخرى:

(فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ)

(سورة الأنفال)

وما هذا المرضُ الخطير الذي يستشري في العالم اليوم إلا عقابٌ عاجلٌ لهذه الفاحشة الشاذّة التي يندى لها جبينُ الإنسانيّة خجلاً..

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)

من علامات الإيمان

1 – الابتعاد عن أهل الكفر والفسوق

إذاً المؤمن من لوازمه أنه يبتعد عن أهل الكفر والفسوق، لذلك فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ، فَاعْتَصَمَ نَاسٌ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمْ الْقَتْلَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ، وَقَالَ:

((أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِمَ ؟ قَالَ: لَا تَرَايَا نَارَاهُمَا))

[الترمذي، أبو داود]

أي أنّك إذا طمحت إلى أن تكون في بلدٍ أموره الماديّة مُيَسّرة، ولكن فسقه شديد فهذه مقامرة ومغامرةٌ بدينك..

((أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ))

لشيوع المعاصي، وشيوع الفساد، وشيوع الرذيلة، وتفكّك الأسرة، وانحراف الشباب، وانحراف الفتيات..

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(75))

2 – الاشمئزاز من فعل الفاحشة

فمن علامات الإيمان أن المؤمن يشمئز من فعل الفاحشة، فضلاً عن أنه لا يفعلها، إنه يشمئز من أخبارها، يشمئز من مرتكبيها، أصبحت له نفسٌ صافية، وعنده حساسيةٌ أخلاقية عالية، فكلّما التقى بأُناسٍ يرتكبون الفاحشة، أو يباهون بها يبتعد عنهم، ولا يطيق أن يلتقي معهم، أما الذي يلتقي مع أهل الفسق والفجور، ويقيم معهم علاقاتٍ حميمة، ويستمتع في العلاقة بهم إنّ حالته مَرَضِيَّة تستوجب المُعالجة..

(إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ)

أي من قبل سيدنا إبراهيم، ومن قبل سيدنا لوط، هذا النبي الكريم من أولي العزم..

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)

(سورة القمر: 10)

يا رب انتصر لدينك إني مغلوب..

(وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ)

الدعاء في الشدة والرخاء

وكأن الله سبحانه وتعالى يُعَلِّمنا أن الأنبياء ينادون الله عزّ وجل فيستجيب لهم، ويا أخي المؤمن أنت مَدْعوٌ لأن تُنادي ربّك، كلّما ألمّت بك ملمّة، أو كلّما نزلت بك نازلة، أو كلما ضاق بك الأمر، أو كلما كاد لك عدو، كلما شعرت بالضيق نادِ ربّك كما نادى نوحٌ ربّه..

(وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

لقد جعل الله سبحانه وتعالى الأرض تنبع بالماء، وأنزل من السماء ماءً منهمراً حتى أغرق الماءُ كلّ شيء، وكان سيدنا نوح على ظهر السفينة مع أهله، ومع المؤمنين فنجا من الكربِ العظيم، فالبلاء خاص، والرحمة خاصّة، لا كما يقول بعض الناس: الرحمة خاصّة، والبلاء عام..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

دائماً المؤمن له نجاة من كل بلاءٍ عام، إذا قد عرف الله عزّ وجل، واستقام على أمره قبل وقوع البلاء.

(وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

هؤلاء قوم آخرون، قوم لوطٍ كانوا:

(قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)

فأهلكهم الله عزّ وجل، وقوم نوح كانوا:

(قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

نستنتج من هذا أن العاقبة للمتقين، وأن الكفر، والفِسْقَ، والفجور، والعصيان مآله إلى الهلاك..

(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ)

قصة داود وسليمان في حكمهم في الحرث

هذان النبيّان الكريمان الأول والدٌ للثاني..

(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ)

الحرث الأرض المزروعة، بعضهم قالوا: أرضٌ مزروعةٌ قمحاً، وبعضهم قالوا: أرضٌ مزروعةٌ كَرْمَاً.. أي عنباً..

(إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ)

غنمٌ تعود ملكيّتها لقومٍ، دخلت الغنم هذه الأرض، ورَعَتْ فيها فأصابت منها أضراراً بليغة، هؤلاء الخصمان رفعوا قضيّتهم إلى سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، يبدو أن هذا النبي الكريم وجد أن الأضرار التي لَحِقَت بالأرض المزروعة تكافئ المغانم التي لحقت في قطيع الغنم، فأعطى أمراً، أو أعطى حكماً أن يتبادل الفريقان ملكيّتهما، يأخذ أصحاب القطيع الأرض، ويأخذ أصحاب الأرض القطيع.

ويبدو أن سيدنا سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عُرِضَت عليه هذه القضيّة أيضاً، فحكم بوحيٍ من الله عزّ وجل، ويبدو أن حكمه كان عن الله سبحانه وتعالى، ولا ينفي أن يكون حكم سيدنا داود أيضاً حكماً صائباً، ولكن حكم سليمان بأن يأخذ صاحب الأرض القطيع فينتفع من لبنه، وأن يأخذ صاحب القطيع الأرض فيصلحَ ما أصابها، وبعد عامٍ يستردُّ كل فريقٍ أرضه أو غنمه، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ)

معنى نفشت أي رعت هذه الغنم في الأرض ليلاً..

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)

قال بعضهم: لا يمنع أن يتفوّق الابن على أبيه، وهذا ليس فيه غضاضةٌ في حقّ الأب، بل إن الأبَ وحده لو أن ابنه تفوّق عليه لكان هذا مُطمئناً له، هذه حالة.

والحالة الثانية: إنّ تربية سيدنا داود لابنه سليمان التربية العالية كانت من نتائجها هذه الفتوى، وهذا الحكم الصائب، فهذا في صحيفة سيدنا داود، وبعضهم قال: لقد حكم داود بحكم الله عزّ وجل، لكن الله

أوحى إلى سليمان حكماً نَسَخَ الحكم الأوّل، على كلٍ الذي حدث الكلمة التي جاءت في هذه الآية..

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ)

الإنسان مفتقر إلى الله عزّ وجل في فهمه للأمور، فربما فهم شيئاً بفعل صفائه، واستقامته لقوله تعالى:

(وَاتَّقُوا اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة: 282)

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة التغابن: 11)

العلم الإشراقي: ففهمناها سليمان

استنبط علماء الأصول من هذه الآية أن بعض العلم يمكن أن يكون إشراقياً، وقد مرّ بنا في عِلم العقيدة أن هناك اليقين الحسي، وهناك اليقين العقلي، والاستدلالي، وهناك اليقين الإخباري، وهناك اليقين الإشراقي، واليقين الإشراقي مأخوذٌ من هذه الآية:

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ)

إذاً: أن الإنسان وقف موقفاً صعباً، واستلهم الله سبحانه وتعالى لأمدّه الله بالحقيقة.. يروى عن هذين النبيين أن سيدنا سليمان رُفِعَت إليه قضيَّةٌ، أن امرأتين كان لكل منهما طفلٌ صغير، وقد وُضِعَا الطفلان في مكانٍ، وجاء ذئبٌ فأكل أحدهما، فادّعت كل امرأةٍ أن الابن الباقي لها، ورُفِعَت القضيَّة إلى سيدنا سليمان، فلمّا تنازعا أمامه فقال: " الحل بسيط ؛ نأتي بسكين، ونقطع هذا الطفل بينكما "، فما كان من الأم الحقيقيَّة إلا أن صاحت: " هو لها، وليس لي "، فعرف هذا النبي الكريم من عاطفة الأم الحقيقيَّة أن هذا الابن لهذه الأم.. فالله عزّ وجل يُلهم القضاة الحقيقة أحياناً إذا كانوا صادقين..

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً)

وكل واحد منّا معرّض في حياته إلى أن يقع في مشكلة، ولا يدري لها حلاً، الله سبحانه وتعالى يتفضّل عليه ويوحي إليه، والوحي له أنواع..

أنواع الوحي

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

(سورة النحل: من آية " 68 ")

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)

(سورة طه: 38)

هناك وحي غريزة كوحي النحل، وهناك وحي إلهام كالوحي الذي نزل على أمّ موسى، وهناك وحي رسالة كالوحي الذي نزل على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فكل واحد معرّض إلى أن يقع في أزمة، فإذا استلهم الله سبحانه وتعالى ربّما جاءه حلٌ لم يكن يخطر له على باله، وليست العبرة من هذه القصص إلا أن نتأسّى بهؤلاء الأنبياء العِظام..

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً)

أي كلاً من داود وسليمان آتيناه حكماً وعلماً، جاءت هذه الآية لتقرّر أن حكم داود كان صحيحاً، وأن حكم سليمان جاء حكماً أقرب إلى الصواب وكان بوحيٍ من عند الله سبحانه وتعالى من دون أن نضع من قدر سيدنا داود.

(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)

معجزات داود عليه السلام

فسيدنا داود آتاه الله معجزاتٍ ما لم يؤتها بعض الأنبياء منها، فلقد سخّر الله مع داود الجبال يسبّحن والطير، كان يسمع تسبيح الجبال، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

(سورة الإسراء: 44)

لقد آتى الله سيدنا داود القُدرة على سماع تسبيح الجبال والطير..

(وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ)

وعلّمناه صنعة لَبوس لكم

صنعة اللبوس أي صناعة الدُروع، هذه الصناعة مما تفضّل الله سبحانه وتعالى على سيدنا داود، وعلّمه إيّاها، أي حينما كانت الحروب وجهاً لوجهٍ، وسيفاً لسيفٍ، ويداً بيدٍ، هذه الحروب كان فيها رحمة، لماذا ؟ لأن الأشجع هو الذي ينتصر، أما الحروب التي لا تُفَرِّقُ بين مقاتلٍ وغير مقاتل، هذه حروب، وإن كان المسلمون اضطروا إليها، ولكنّها في الأساس ليست شرعيّة، لأنه لا ينبغي أن يُقتَل إلا المُقاتل، أما الطفل البريء، أما المرأة الضعيفة، أما الشيخ الضعيف فهؤلاء لا ينبغي أن يُقتَلوا، لذلك المُنَظّمات الدولية تحرّم أن يقتل العُزّل من المدنيين، فهذه الحرب التي سنّها الله سبحانه وتعالى:

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ)

والدروع يتقي المُقاتل بها ضربة السيف، وهذه رحمةٌ للمقاتلين..

(لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ)

فلا ينبغي أن يُقتَل إلا من يقاتل، أما الطفل الصغير، أما المرأة الضعيفة هذه في أعراف السماء، وأعراف الأرض، في شرائع السماء، وفي قوانين الأرض لا ينبغي أن تقع..

(فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ(81))

ذَكَرَ ربنا سبحانه وتعالى أنه سَخَّر لسيدنا سليمان الريح عاصفة، في بعض التفاسير، وفي بعض الروايات أن هذا النبي الكريم كان يمتطي الريح لينتقل بها من مكانٍ إلى مكان بوقتٍ قصيرٍ جداً، الشأن في هذا كشأن الطائرات السريعة..

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)

الأرض التي باركنا فيها: أرض الشام

أمّا هذه الأرض التي باركنا فيها كما تروي معظم التفاسير هي أرض الشام، ولماذا بارك الله فيها ؟ لأنها كانت مَهْبطَ الرسالات السماويّة، ولماذا بارك الله فيها ؟ لأن الله سبحانه وتعالى أجرى فيها الخير، وجعلها بلاداً مقدّسة فيها خيرٌ كثير، وفيها جوٌ معتدل، وفيها أُناسٌ صالحون، في بعض الأحاديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((الشام صفوة الله من أرضه وفيها صفوته من عباده))

[مجمع الزوائد عن أبي أمامة]

وفي أحاديث كثيرة.. أحاديث قيام الساعة.. تذكر:

((إِنَّ فُسْطَاطَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ بِالْغُوطَةِ إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ))

(سنن أبي داود: عَنْ " أَبِي الدَّرْدَاءِ ")

والشيء الذي يلفت النظر أن في هذا البلد الطيب الكريم اتجاهٌ نحو الله سبحانه وتعالى يتجلى في حضور مجالس العلم، وفي بحث الناس عن أمور دينهم، وفي تمسُّكهم بشريعة ربّهم، هذه كلها تؤكِّد ما جاء في بعض الأحاديث الشريفة عن فضل بلاد الشام..

(إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82))

والله سبحانه وتعالى سَخَّرَ لسيدنا سليمان الشياطين، سخّرهم له لأن هذا النبي الكريم دعا ربّه فقال:

(رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

(سورة ص: 35)

أي أن سليمان طلب من ربّه أن يؤتيه المُلك، وحينما يطلبُ نبيٌّ من ربّه أن يأتيه الله الملك، فمعنى ذلك أن هذا المُلك أراد أن يستخدمه في نشر الحق، وإذا طلب الإنسان أن يكون في موقعٍ دقيق فمن أجل أن يهدي الناس بهذا الموقع لا أكثر ولا أقل، الدنيا لا تُبْتَغى لذاتها، لا يبتغيها لذاتها إلا أهل الدنيا، ولا يبتغيها لذاتها إلا أهل الكفر والفسوق والعصيان، أما المؤمن فيما لو طلب الدنيا لا يطلبها إلا لغيرها لتكون قوةً له على هداية الآخرين..

(وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ)

أي أنهم يغوصون في البحار، ويستخرجون له اللؤلؤ..

(وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ)

مما يأمرهم به..

(وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ)

فقصّة سيدنا داود، وقصّة سليمان فيها من العجب العُجاب، لأن الله سبحانه وتعالى سخّر لهم الجبال والطير، وسخّر لهم الشياطين، وسخّر لهما الرياح.

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ)

قصة أيوب عليه السلام وصبره على الضر

سيدنا أيوب..

(أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

فبعض التفاسير تشير إلى أن النبي متى يَمَسُّه الضر ؟ إذا أعرض قومه عنه، إذا لم يستجيبوا له، إذا لم يهتدوا لدعوته، إذا لم يلتزموا أمره، الداعية إلى الله عزّ وجل لا يمسّه الضُر إلا إذا أعرض الناس عن دعوته، فلذلك ما ترويه بعض الكتب الإسرائيليّة من مصائب لا حصر لها، من أن الدود قد أكل لحمه كلّه، هذه مبالغاتٌ ما أظنُّ أن الله سبحانه وتعالى أرادها، إلا أنّ الأقرب إلى الواقع، والأقرب إلى مقام النبوّة أن هذا النبي الكريم كان الضرُّ عنده إعراض الناس عنه، وكيف أن الشياطين كانت تصرفُ الناس عنه، فهذا ضرٌّ لا شكّ أصابه، ولا يمنع هذا التفسير من أن يُبتلى النبي الكريم ببعض المصائب التي تصيب إخوانه من النبيين، أما تلك المبالغات التي لا حدود لها في الأمراض التي نهشت لحمه وأصابته هذه ربّما كانت لا أصل لها..

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا)

هذه الآية الثانية تؤكّد أن الضرّ الذي أصابه هو ضرٌّ من نوع إعراض الناس عن دعوته، فلمّا استجاب الناس إليه، واستجاب أهله المقرّبون، واستجاب قومه أيضاً، فسعد بهذه الاستجابة..

(رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ(85))

الأنبياء الذين ذَكَرَهُم الله عزّ وجل في القرآن ليسوا هم جميع الأنبياء، إلا أن الله سبحانه وتعالى ذكر في بعض الآيات من أن النبيين..

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

(سورة غافر: من آية " 78 ")

فربنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة يفيض في الحديث عن بعض الأنبياء، ويختصر في الحديث عن بعض الأنبياء الآخرين، وقد يذكر اسم نبيّ فقط من دون أي تعليق، كل هذا لحكمةٍ يعلمها الله سبحانه وتعالى..

(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ)

الصبر من صفات الأنبياء

فالصبر من صفات الأنبياء، وهو بالتالي من صفات المؤمنين، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان))

بل إن الإيمان نصفان ؛ نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، والصبر لا يفوقه شيء، وذلك لحكمةٍ بالغة وأن الأمر كلّه بيد الله، فالموحِّد الذي يعرف أسماء الله الحُسنى، وصفاته الفُضلى يصبر، لماذا يصبر ؟ لأن المعالجة في النهاية تعود عليه بالنفع، والأمثلة كثيرة، والأنبياء العِظام هم قدوةٌ لنا في الصبر، والإنسان إذا أصابه ضرٌّ، أو أصابه بلوى، أو أصابته مصيبةٌ، أو أصابه مكروهٌ ينبغي أن يتجلّد وأن يصبر، والله سبحانه وتعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام ويقول:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف: من آية " 35 ")

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلا بِاللّهِ)

(سورة النحل: من آية " 127 ")

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

إن كنت مؤمناً حقّاً، وإن كنت مَعْنِيًّا بهذا الخطاب، وكل خطابٍ خوطِب به النبي الكريم فالمؤمنون معنيُّون به بالتبعية، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

فكل أمرٍ موجَّهٌ إلى النبي الكريم هو أمرٌ موجَّهٌ لنا بالتبعيَّة، لأننا مأمورون أن نقتدي بهم في كل أحوالهم، والأنبياء من أُولى صفاتهم الصبر.

أنواع الصبر: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر عن الشهوة

والصبر كما يقول العلماء على ثلاثة أنواع ؛ صبرٌ على الطاعة وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ عن الشهوة، فالإنسان رُكِّبَ من عقلٍ وشهوة، الحيوان رُكِّب من شهوةٍ بلا عقل، المَلَك رُكِّب من عقلٍ بلا شهوة، لابدَّ من صراعٍ بين الشهوة وبين العقل، بين الحاجة وبين القيَم، بين المصلحة وبين المبدأ، هذه طبيعة الحياة، إن الصراع بين الحاجات وبين القيم، بين المصلحة وبين المبدأ، بين العقل وبين الشهوة هذا الصراع ينتهي بمصلحة العقل عند المؤمن، وينتهي بمصلحة الشهوة عند الكافر، لذلك المؤمن يقوده عقله، والكافر تقوده شهوته، من هنا قال الله عزّ وجل:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

علامة المؤمن أنه يتملّك زمام نفسه فهو يقودها إلى الخير، ومن علامات المنافق أن نفسه تتملّكه فتقوده إلى الشر، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: من آية " 27 ")

هذه إرادة الله..

(وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا(27))

(سورة النساء)

دائماً أهل الأهواء، أهل الشهوات، أهل الفسق، والفجور يتمنّون على جميع الناس أن يتابعوهم، لذلك يزيّنوا لهم الدنيا، يخوّفونهم من الدين.

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ)

(سورة آل عمران: من آية " 175 ")

يخوفونهم من الإنفاق..

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ)

(سورة البقرة: من آية " 268 ")

انظروا عمن تأخذون دينكم

دائماً الشيطان يخوّف الإنسان من الإنفاق في سبيل الله، ويخوّفه من التَدَيُّن، يذكُر له آلاف القصص عن أناسٍ تديّنوا فسقطوا، وهذه قصص مُخْتَلَقَة ليس لها أصل، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام وهو يخاطب ابن عمر فيقول له:

((يا ابن عمر دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[حلية الأولياء لأبي نعيم]

وقد روى الإمام مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قوله:

((إِنّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ))

(من صحيح مسلم عن محمد بن سيرين)

لو أن الإنسان أخذ دينه عن أهل التقصير، عن الذين مالوا إلى الدنيا واستمرؤوها، عن الذين خلطوا الدين بالدنيا، عن الذين اتخذوا الدين مطيّةً إلى الدنيا، لو أن الإنسان أخذ دينه عن هؤلاء لرأى في الدين رُخَصاً لا حدود لها، إذا تتبّع هذه الرُخَص رأى نفسه مقطوعاً عن جناب الله عزّ وجل، لأن المعاصي والمخالفات والتقصير من شأنها أن تجعل بين العبد وبين الله حجاباً كثيفاً، لذلك:

((دينك دينَك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

القضية خطيرة جداً، القضية مصيريّة، فحينما يأتي ملك الموت، وتكون قد تابعت إنساناً ضالاً في الدنيا من أهل الأهواء تجد أنه لا ينفعك مالٌ ولا بنون، ولا ينفع هذا الذي تابعته في الدنيا، كل إنسانٍ يحاسب عن عمله وحده..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

(وَكُلّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

(سورة الإسراء: من آية " 13 ")

ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردُّنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحةً لنا من كل شر))

[الترمذي]

فأخطر شيء في الحياة الدين، من هنا سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني.. "**، فأي مصيبةٍ إن لم تكن في الدين فهي هيّنة ولو أنها أودت بالحياة، لأن الآخرة أبديّة، والذي مات على الإيمان يسعد في جنّة ربّه إلى الأبد، لكن المصيبة الكبيرة أن تكون المصيبة في الدين، فإذا كانت في الدين ذهبت الدنيا والآخرة، لذلك سيدنا عمر كلّما أصابته مصيبة قال: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ أَلْهمْتُ الصبر عليها ".**

على كلمة:

(كُلّ مِنَ الصّابرينَ)

هكذا الأنبياء، هؤلاء القدوة، هؤلاء الأسوة تحمّلوا المتاعب، فمن نحن ؟ فيجب أن يتحمّل المؤمن كل مشقّةٍ في سبيل الله.

(وَذَا النُّونِ)

قصة سيدنا يونس عليه السلام

سيدنا يونس..

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)

المعنى الصحيح لقوله: فَظَنّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

المعنى الأول:

بعض السدّج يفسّرون هذه الآية تفسيراً مضحكاً، يقولون: " إنّ هذا النبي الكريم ظنّ أن الله لا يقدر عليه "، لا، ما كان لنبيٍّ أن يقول هذا الكلام، معنى نقدر هنا بمعنى نُضَيّقَ.

(فَأَمّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعّمَهُ فَيَقُولُ رَبّي أَكْرَمَنِي(15)وَأَمّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُول رَبي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر: 15-16)

قَدَرَ الرزق ضَيَّقَهُ، ومعنى هذه الآية هنا:

(فَظَنّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)

أي أنه عندما ضاق ذرعاً بقومه ظن أن الله سبحانه وتعالى لا يحرّج عليه أن يغادرهم إلى أُناسٍ آخرين، لم يكن يظن أنه يجب أن يبقى مع هؤلاء إلى النهاية..

(فَظَنّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)

أي ظنّ أنه لا حرج من أن يترك قومه بعد أن يَئس من هداهم، لأن اليأس ليس من صفات الأنبياء، الأنبياء ليسوا أكثر الناس يأساً، لكنّهم كما قال الله عزّ وجل.. لكنّهم آخرهم يأساً.. والدليل قوله تعالى:

(حَتّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا)

(سورة يوسف: من آية " 110 ")

أي لأنهم بشر فالنبي، دعاهم ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، سرّاً وعلانيّةً، أغراهم بالجنّة، خوّفهم من النار، ضَرَبَ لهم الأمثال، بيّن لهم، وعظهم، لم يستجيبوا له، ضاق بهم ذرعاً، فتركم وغادر قومه، فظنّ هذا النبي الكريم أن لن نقدر عليه، أي أنه ليس عليه من حرج لو تركهم إلى أناسٍ آخرين، فتركهم.

المعنى الثاني:

ظنّ هذا النبي الكريم أن الله سبحانه وتعالى لن يُقَدِّر هداهم على يديه، فأحياناً تدعو إنساناً كثيراً وكثيراً لا ترى استجابة فتظن، تقول في نفسك: ربّما كانت هداية هذا الإنسان ليست على يدي، تيأس من دعوتهم، فالمعنى الذي يليق بحق هذا النبي الكريم لا يزيد عن أنه ظنّ أنه لا حرج من ترك قومه، أو أن الله سبحانه وتعالى لن يُقَدِّر هدايتهم على يديه، فغادرهم..

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً)

مغاضباً من قومه..

(فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

ركب سفينةً بعد أن هَجَرَ قومه، وفي أثناء إبحارها في البحر، وكانت حمولتها زائدة اقترح صاحب السفينة على رُكّابها أن يلقوا بأحدهم في البحر، فاقترعوا فوقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت.

إذا ذكر الإنسان هذه المصيبة لا تبقى أمامها مصيبة، دخل بطن الحوت، والحوت في ظلمات البحر، وفي ظلمات الليل، في ظلماتٍ ثلاث، تصوّر نفسك في بطن حوتٍ، وفي بحرٍ، وفي الليل، هذه هي المصيبة.

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

أي ظلمت نفسي حينما تركت قومي، كنت ظالماً، حرمتُها الخير، أنت يا رب رَشّحتني بأن أكون هادياً لهؤلاء، فيئست منهم، وتركتهم، وغادرتهم فكنت إذاً من الظالمين، ولعلّ هذا عقابٌ لي، سريع الفهم، لذلك الإنسان كلّما ألمّت به ملمّة فلينظر أو فليتعظ بهذه المصيبة، هذه المصيبة، ومع ذلك أنقذه الله منها، فضع مصيبتك جنب هذه المصيبة ترى أنها لا شيء، لو أنها بهذا المستوى فالله موجود.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ)

إذا ألمّت بأحدنا مصيبة فهل يذكر الله عزّ وجل ؟ هناك أناسٌ ينسون الله، لأن المصيبة تُنسي أحياناً، قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ـ هناك نوع من الفقر ينسيك كل شيء ـ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أو الدَّجّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ، فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(من سنن الترمذي: عن " أبي هريرة ")

في هذه القصّة لقطة مهمّة جداً، أنه من علامة الإيمان أن الله سبحانه وتعالى إذا ساق للمؤمن مصيبةً لا ينسى ربه أثناء المصيبة، وقع في البحر، التقمه الحوت، دخل بطن الحوت، وهو في بطن الحوت.

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

لا إله إلا أنت سبحانك

لذلك أُثِرَ عن النبي عليه الصلاة والسلام الدعاء الشهير:

((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ برَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ))

(من سنن الترمذي: عن " أنس بن مالك ")

كلّما ألمّ بنا أمرُ فلنقل:

((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ برَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ))

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)

بعضهم قال: **" إنّ الثناء دُعاء "**، ماذا فعل هذا النبي ؟ وَحَّدَ وأثنى على الله.. لا إله إلا أنت سبحانك، هنا وحّد.. سبحانك

وأثنى عليه، سبّحه، ومجدّه، هذا دعاء..

(إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم)

انتهت القصّة، وما أروع التعقيب..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

قصة يونس قانون وعبرة

هنا الموعظة، ليست هذه القصّة خاصّة بهذا النبي الكريم، إنها محتملة الوقوع مع كل مؤمن، كن صادقاً، كن مستسلماً، كن راجياً، كن مستقيماً وادعُ ربّك وانظر كيف يستجيب لك..

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

هذا التعقيب يجعل من القصّة قانوناً في التعامل بين الله وبين عباده، هذه التعقيبات مهمة جداً..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

هذه قصّة..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

جعلها قانوناً..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

هذه قصّة، جعلها الله قانوناً..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

هل بعد هذه الآية من بشارة ؟ كن مؤمناً وكفى، يقول الله لك: هكذا أنا أُنجي كل مؤمن، ليست هذه خاصّةً بسيدنا يونس إنها لكل نبي بل لكل مؤمن، كن مؤمناً وكفى..

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً)

قصة زكريا عليه السلام

هذا النبي لم يكن له ولد، فلمّا كبرت سنُّه، واشتعل رأسه شيباً، نظر إلى إخوانه المؤمنين، خاف عليهم من بعده، فطلب من الله عزّ وجل غلاماً يخْلُفُهُ في توجيه هؤلاء، لذلك:

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)

كلِّها حالات ميؤوس منها، هناك عقم، امرأته كانت عاقراً، الآن كل إنسان عقيم ليس لديه أمل، هناك ضعف في المبيض، عُقم، لكن ربنا عزّ وجل بيده كل شيء، حينما توقِن أن الأمر كله بيد الله يختلف الأمر..

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

معنى: وأصلحنا له زوجه

بعضهم قال: **" أصلحنا له زوجه بأن جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقرا ".**

وبعضهم قال: **" بأنّا جعلناها ذا أخلاقٍ رضيّة بعد أن كانت ذات أخلاقٍ سيّئة "**، فإذا شكا شخص من سوء خلق زوجته فلا ييأس منها، لأن الله سبحانه وتعالى قد يُصلحها له، قد تنقلب هذه الزوجة المُشاكِسة إلى امرأة طيّبة، كلُّه بيد الله، لذلك كان الإمام الشعراني رضي الله عنه يقول: " أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي "، قد يجعل الله تأديب الزوج على يدِ الزوجة، فإذا صَلَحَت العلاقة بين الزوج وربّه كانت الزوجة أطوع له من بنانه.

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى)

سيدنا يحيى..

(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

كلمة وأصلحنا له زوجه تحتمل المعنيين، تحتمل أنها أصبحت ولوداً بعد أن كانت عاقراً، وتحتمل أنها أصبحت ذات أخلاقٍ رضيّة بعد أن كانت ذات أخلاق شَرِسَة..

(إِنَّهُمْ كَانُوا)

المسارعة إلى الخير

هؤلاء الأنبياء..

(يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ)

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

(سورة الحديد: من آية " 21 ")

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

(سورة آل عمران: من آية " 133 ")

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ)

الإنسان عبارة عن بضعة أيّام كلّما انقضى منه يومٌ انقضى بضعٌ منه، أخطر شيء بحياة الإنسان الزمن، الزمن يسير، فالمغبون من تساوى يوماه، ومن لم يكن في زيادة فهو في نُقصان..

(وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً)

هذه حالة الرجاء، العلماء قالوا: الرجاء يعني ثلاثة أشياء ؛ يعني شوقاً إلى المرجو، وخوفاً من فَوْتِهِ، وعملاً لتحصيله، فكل شيءٍ ترجوه لابدّ أن تحبّ أن الوصول إليه، ولابدّ أن تخاف أن لا تصل إليه، ولابدّ أن تسعى كي تصل إليه، شوقٌ وخوفٌ وسعيٌ، إذاً أنت ترجو وإلا أنت تتمنّى، والله سبحانه وتعالى لا يتعامل بالتَمَنّيات..

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء: من آية " 123 ")

لا يتعامل إلا بالرجاء، والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا)

(سورة الكهف: من آية " 110 ")

(وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا)

قصة مريم الصدّيقة

هذه السيّدة مريم، إنها صِدّيقة وليست نبيّة، ولكنّها جاءت هنا ليبيّن الله سبحانه وتعالى أيضاً لطيف امتنانه، وعظيم فضله وإحسانه على هذه المرأة التي هي من بين أربع نساءٍ كملن بنصّ الحديث الشريف، قال عليه الصلاة والسلام:

((كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

(من صحيح مسلم: عن " أبي موسى ")

(وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا)

كانت عفيفةً طاهرةً إلى أبعد الحدود..

(فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

معجزة ولادة عيسى عليه السلام

فمع أنها كانت عفيفة لم يَمْسَسَها بشر الله سبحانه وتعالى شاء أن يجعلها تَلِدُ نبيّاً عظيماً هو سيدنا عيسى، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام..

(فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا)

من جيب درعها، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا)

خيانة دعوة لا خيانة فراش..

(فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10)وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11)وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا، وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ(12))

(سورة التحريم)

في بهذه الآية نُكتة بلاغيَّة دقيقة، تقول مثلاً: " أقرَّ الله عين الأمير، وأجرى له ماءها، وكفاها الله شرَّها، فالعين الأولى عين الأمير، والعين الثانية.. كفاه الله شرَّها.. هي عين الحسود، والعين الثالثة عين الماء، أقرَّ الله عين الأمير، وكفاه الله شرَّها، وأجرى له ماءها، هذه الطريقة البلاغيَّة اسمها الاستخدام، أن تذكر اسماً وتعيد عليه ضميراً بمعنىً آخر من معاني هذا الاسم..

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ)

بمعنى آخر..

(مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ(12))

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

وحدة مَعِين الأنبياء

أي أن هؤلاء الأنبياء أخذوا من معينٍ واحد، وتلقّوا من مصدرٍ واحد، ودعوا دعوةً واحدة، واستهدفوا هدفاً واحداً، بأن الله واحد، ودعوته واحدة، وأنبياؤه لا نفرّق بين أحدٍ من رسله، وفحوى دعوة الأنبياء واحدة، إنها التوحيد..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

هذه فحوى رسالات الأنبياء جميعاً، إذاً:

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

هناك وحدة في الكون، وحدة في الخلق، وحدة في التسيير، وحدة في التربية، وحدة في التبليغ، وحدة في مضمون الرسالات، هناك وحدةٌ في هذا الكون تبدّت لأن هؤلاء الأنبياء جميعاً على اختلاف تواريخ بعثهم، وعلى اختلاف أقوامهم، وعلى اختلاف بيئاتهم، وعلى اختلاف طِباعهم إنهم يمثِّلون دعوة الله للبشر..

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ(94))

منعطفاتٍ في تاريخ العلوم الغذائيّة

ثمة موضوعٌ دقيقٌ عرضته في خطبة الجمعة، وهو أن هناك منعطفاتٍ في تاريخ العلوم الغذائيّة، هذه المُنعطفات منها اكتشاف الجراثيم، ومنها اكتشاف الفيتامينات، وكيف أن الجراثيم سببٌ لبعض الأمراض الكثيرة، وكيف أن نقص الفيتامينات أيضاً سببٌ لبعض الأمراض الكثيرة، أما الشيء الذي اكتُشِف حديثاً والذي يُعَدُّ منعطفاً خطيراً في علوم الصحّة والتغذية أنّ الغذاء الخالي من الألياف.. أي أن المدنيّة الحديثة عَلّمتنا أن نشرب الفاكهة عصيراً، وأن نأكل الخبز أبيض نقيّاً، وأن نستخدم السكّر الأبيض الناعم، وأن تكون أغذيتنا كلُّها مصفّاة نقيّة.. العلماء اكتشفوا أن الألياف التي جعلها الله قِوام الفاكهة، وقِوام الخضراوات، وقِوام البقول والحبوب، ألياف أقرب مثل لها القمح، فيه مادّة نشويّة صرفة وفي قشور القمح.. أي النخالة.. فهذه ندعها جانباً، ونجعلها علفاً للحيوان، ونأخذ لُبَّ القَمح، كل شيء سكّري أيضاً توجد معه ألياف.. سيلولوز.. هذه ندعها جانباً ونأخذ المادّة السكريّة المُصفّاة.

قال بعض العلماء: كان العلماء يظنّون أن الألياف عُنصراً زائداً عن الحاجة، وأن دورها يتميّز بالسَلبيّة، لذلك عرّفوها على قدر علمهم المحدود بأنها جزءٌ من الطعام يعبُر القناة الهضميّة إلى أن

يُهْضَم، إذاً هي عبءٌ على جهاز الهضم، لذلك عمدوا إلى تنقية الطعام منها، فقدّموا ما يسمّى بالأطعمة النقيّة، السكّر النقي، والدقيق الأبيض، وعصير الفاكهة، وما شاكل ذلك، الآن اكتشف أن هذه الألياف هي سبب للهضم الجَيّد، لأن حجم الألياف في الأمعاء يؤثِّر على جدران الأمعاء فيجعلها تتحرّك حركةً تعينُ على هضم الطعام، هذه واحدة، فمن دون ألياف تتكاسل الأمعاء ويصاب الإنسان بالإمساك، مع وجود هذه الألياف بحجمها، وفاعليتها تجعل الهضم في أعلى درجة، هذه واحدة.

الثانية: اكتشف أن هذه الألياف تمتّصُ الماء، وبامتصاص الماء يصبح الهضم ليّناً.

الشيء الثالث: اكتشف أن هذه الألياف تمتصُ المواد الدسمة في الجسم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 92-112
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-06-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن والأخير من سورة الأنبياء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

(هذه) اسم إشارة، وكأن الله سبحانه وتعالى يشيرُ إلى قصص الأنبياء، وكيف أن هؤلاء الأنبياء الكِرام عرفوا ربَّهُم، ووحدوه، وأفردوه بالألوهية والربوبية، وعبدوه عبادةً خالصة، ودعوا أقوامهم إلى هذا، فإن هذه المواقف، وهذا التوحيد، وهذا التسليم، وتلك العبادة..

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ)

أي مِلَّتُكم، كلمة أمة في هذه الآية معناها المِلّة، أي أن هذا دينكم، هذا مذهبكم، هذه عقيدتكم، هذا دستوركم، هذه شريعتكم، إن هذه مواقف الأنبياء سيدنا إبراهيم، وسيدنا نوح، وسيدنا أيوب، وسيدنا داود، وسيدنا سليمان، وسيدنا إسماعيل، وإدريس وذا الكفل، هؤلاء الأنبياء جميعاً يجمعهم شيء واحد، هذا الشيء هو أنهم عرفوا ربَّهم، ووحدوه، وعبدوه، فسعدوا بقربه، ودعوا أقوامهم إلى هذا، فهذا الذي مر بنا في الأسبوع الماضي عن قصص الأنبياء الكرام، إن سيرة هؤلاء، واعتقاد هؤلاء، وتضحية هؤلاء، وإقبال هؤلاء هو جوهر دينكم أيها الأمة العربية.

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

أي أن هذا الدين دينٌ واحد، هذا الدين مبادئه واحدة، سننه واحدة، قِيَمُه واحدة، أوامره واحدة..

(لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(285))

(سورة البقرة)

طبيعة الرسالات السماوية واحدة، لا تتبدّل ولا تتغير، فإذا تبدّلت، فإذا زاد بعضُها على بعض فبحكم تطور البشر، كلما ارتقت البشرية من طورٍ إلى طور جاء التشريع السماوي ليغطِّي هذا الطور الجديد، ولكن طبيعة الرسالات السماوية واحدة.

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ)

كلمة لو أن اسم الإشارة جاء بعده اسمٌ معرفٌ بأل لكان بدلاً، إن هذه الأمة أمةٌ واحدة.. أما:

(إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ)

أمتكم هي الخَبَر، كأن الله سبحانه وتعالى يشير بهذا الاسم، اسم الإشارة، إلى قصص الأنبياء جميعاً، وإلى عقيدتهم، وإلى توحيدهم، وإلى عبادتهم، وإلى استقامتهم، وإلى أعمالهم الصالحة، وإلى تضحياتهم، وإلى دعوة الناس إلى ربهم..

(إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ)

والخطاب موجهٌ لمن أنزل هذا القرآن إليهم، وهذا القرآن الذي أنزل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام نحن المسلمين مخاطبون به، نحن مخاطبون به، وكأن الله عزّ وجل يبيّنُ لنا أن هذه القصص التي ذكرتها لكم لم تُذكَر من أجل الاطِّلاع، ولكن من أجل أن تتخذ أساساً لعقيدتكم، ولاستقامتكم، ولأعمالكم.

(إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً)

وهذه المِلّة وهذا الدين دينٌ موحّد لأن الخالق واحد، والبشر هم خَلْقُهُ، ولهم طبيعةٌ واحدة، خلقكم من نفسٍ واحدة، إنسانٌ يسكن في أقاصي البلاد في القُطب الشمالي، وإنسانٌ آخر يسكن في القُطب الجنوبي، وإنسانٌ من شرق الأرض وإنسانٌ من غربها، كل هؤلاء لهم طبيعةٌ واحدة

(فِطْرَةَ اللّهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ)

(سورة الروم: من آية " 30 ")

فطرة واحدة، كل هؤلاء البشر حريصون على سلامتهم، كل هؤلاء البشر حريصون على سعادتهم، كل هؤلاء البشر يخافون المُصيبة، يخشون الهلاك، يحبّون الخير، يحبون الحق، يحبون الرحمة، يحبون العدالة، هذه فطرة الله عزّ وجل، فكلمة أمةً واحدة، أي أنه لا ينبغي أن يكون هناك تناقضٌ بين الأديان، لأن الأصل واحد، لأن المِشْكَاةَ واحدة، ألم يقل النجاشي حينما بلغته رسالة النبي عليه الصلاة والسلام: " إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاةٍ واحدة.. " من أصلٍ واحد، ولو أن الإنسان اطّلع على الإنجيل كما أنزل، وعلى التوراة كما أنزلت قبل أن يطرأ عليها التحريف والتبديل، لوجد الكتب السماوية من روحٍ واحدة، لأنها كلها كلام الله سبحانه وتعالى.

(إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

افتراق الناس أحزابا وطوائف

وربنا هوَ هو، ربنا الذي نعبده هو ربُّ هؤلاء الأنبياء الذي أوحى إليهم الكتب، وأنزل عليهم الشرائع، وأمرهم بدعوة الناس للإيمان بالله وعبادته.

(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ)

لكن أتباع هؤلاء الأنبياء تقطّعوا أمرهم، أمرهم هو دينهم، تقطّعوه جعلوه قِطَعًا، هذا أخذ من الدين هذا الجانب وضخّمه، وجعله الدين كله، وهاجم فريقاً آخر أخذ جانباً آخر، أساس الأديان واحد، لكن أتباع الأنبياء أخذوا من الدين ما يناسب أهواءهم، وتركوا ما يعارض شهواتهم، وتعصبوا لما أخذوه، وتهجموا على من لم يأخذوه، فأصبحت الديانات من بعد الأنبياء طرائق وقطعاً، وأصبحت متناقضة، و:

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(53))

(سورة المؤمنون)

أي أن هذه الخلافات التي جاءت بعد الأنبياء ما أنزل الله بها من سُلطان، وما أرادها الله، إن أتباع الأنبياء اتبعوا شهواتهم، ولم يتبعوا أنبياءهم، باتباعهم شهواتهم أخذوا من الدين ما يروقُ لهم، وتعصبوا له، وهاجموا كل طرفٍ آخر لم يأخذ ما أخذوا، هذا على مستوى الأديان.

أما على مستوى الدين الواحد، الإسلام كما ترون، فريقٌ رأى أن الفقهَ كل شيء، مع أن الفقه هو جوهر الدين، وفريق رأى أن التفكير كل شيء، وآخر رأى أن علم الحديث كل شيء، ورابعٌ رأى أن التوحيد كل شيء، وخامس رأى أن علم الأصول كل شيء، وسادس رأى أن المواجد والأحوال هي كل شيء، وكلُّ فرقةٍ تعتزُّ بما عندها وتهاجم أختها، لذلك أصبح الدين مِزَقًا وفِرَقًا، هذه كلها أشياء متكاملة، فالدين يجب أن يلم بكل هذه العلوم، ويجب أن يراها متكاملة وليست متناقضة، متعاونة لا متنافسة، الدين له جناحان جناح العقل وجناح القلب، فالدين لا يقوم على جناحٍ واحد، لابدَّ من علم الشريعة، ولابدَّ من علم الحقيقة، لابدَّ من الإيمان ولابدَّ من العمل، لابدَّ من الفقه، ولابدَّ من الحُبِّ، لابدَّ من ضبط الحديث ولابدَّ من ضبط التفسير، كل إنسانٍ يظن أنه وحده على حق، والآخرون على ضلال هذه نظرةٌ ضيقةٌ لا يرضاها الإسلام.

بعضهم يرى أن الدين طرب وأناشيد ومدائح، بعضهم يرى أن الدين كتاب، بعضهم يرى أن الدين سلوك، والحقيقة أن كل هذه الأقوال صحيحةٌ إذا كانت مجتمعة ومتكاملة ومتعاونة..

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ)

دعوة إلى التوحيد ونبذ الفرقة

يجب أن يكون الناس متجهين اتجاهاً واحداً، يجب أن يكون الناس متكاتفين، أما هذه الخصومات بين الفرق الدينية، وبين المذاهب ما أنزل الله بها من سلطان، هذه الخصومات مُفتعلة، هذه الخصومات ما أرادها الأنبياء، ولا أرادها صاحب الرسالة العُظمى، لذلك كلما توحّدت القلوب، وكلما أحب بعضنا بعضاً وعذر بعضنا بعضاً، كلما كثرت القواسم المشتركة، وكلما ازدادت نقاط اللقاء فنحن في خير، لذلك الإنسان ينبغي أن يكون ذا أفقٍ واسع، وأن يرى أنه عضوٌ في أسرة، وليس هو الأسرة كلها، يرى

أنه جنديٌ للحق وليس هو الجيش كلُّه، هذه النظرة المتواضعة، وهذه النظرة المنفتحة هي سِرُّ تقدُّم المسلمين، إذاً:

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ)

لكن..

(كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

رجوع الخلق إلى الله بعد الموت

هؤلاء الذين اختلفوا، وتناحروا، وتباغضوا، وتحاسدوا، وتخاصموا، واتهم بعضهم بعضاً كلٌّ يتهم الآخر بأنه على ضلال، وأن في عقيدته زيغًا، وأن في سلوكه انحراف، وأنه وحده على الحق، هذه النظرة الضيقة سوف يحاسب الإنسان عليها.

(كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

كل هؤلاء الأطراف الذين فهموا الدين فهماً جزئياً، أخذوا منه قطعةً وأعلنوا أنها هي الدين كله، هؤلاء سوف يرجعون إلينا وسوف نحاسبهم على هذه الفرقة التي أحدثوها، وتلك الخصومات التي افتعلوها، وهذا التمزق الذي صنعوه.

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

فمن أساء الظن بأخيه فقد أساء الظن بربه، الأخ المؤمن من غلب عليه الصلاح والتستُّر، يصلي الخمس، يصوم رمضان، يعلن الشهادتين، يأكل مالاً حلالاً، يغض بصره عن محارم الله، هذا أخٌ لك ولو كان تابعاً لأحد العلماء الآخرين، هو أخٌ لك حقيقةً، أما هذه النظرة الضيّقة، هذا من جماعتنا، وهذا من جماعتكم، وهذا منا، وهذا منكم، هذه نظرةٌ ضيقةٌ لا تليق بالمسلمين أبداً.

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

في بعض العصور بلغت الحماقة بالناس أنه لا يجوز أن نزوج الحنفية للشافعي، وقد خاف الناس إذا تزوج الحنفي بالشافعية أن يأتي ولدٌ حنفشعي كما يقولون.

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ)

من هؤلاء الذين تفرقوا من بعد ما جاءهم الأنبياء..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

هذه الآية دقيقة جداً، أي أن بعد هذه الفرقة، وبعد هذا الخلاف، وبعد هذا التمزُّق، وكلٌ يدعي أنه على حق، وأن أخاه على باطل، كل فرقةٍ تدعي أنها تعرف جوهر الدين، وأن الأخرى لا تفقه شيئاً، وسط هذه الزحمة من المذاهب، والاتجاهات، والتعصُّبات، والأفق الضيق، من هؤلاء جميعاً..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

انظر إلى مقياس ربنا عزّ وجل ؛ أن يكون عملك صالحاً، وأن يُبنى هذا العمل الصالح على إيمان، لو تعلّمت علم الثقلين، وكان عملك سيّئاً لست عند الله مقبولاً، لو صحّت عقيدتك، وساء عملك فلست عند الله مقبولاً، لو صلح عملك، وساءت عقيدتك لست عن الله مقبولاً، عند الله شيئان، مقياسان دقيقان إذا توافرا في الإنسان رفعه الله سبحانه وتعالى، وقبله، وتجلّى عليه، ورضي عنه..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

هذا الذي يصلي ويكذب مرفوضٌ عند الله عزّ وجل، هذا الذي يصلي ويغتاب الآخرين مرفوضٌ عند الله عزّ وجل، هذا الذي يصلي، ويأكل مالاً حراماً، يصلي في أول صف، ولم تفته الصلاة في وقتها، ويأكل مالاً حراماً مرفوضٌ عند الله عزّ وجل، وكما قال سهل التستُّري "والله لترك دانقٍ من حرام خير من ثمانين حجةً بعد الإسلام "، والله كما قال عليه الصلاة والسلام:

((والله لأن أمشي مع أخ مؤمنٍ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافي في مسجدي هذا))

[مجمع الزوائد (191/8) نحوه عن ابن عمر]

للبشر مقاييس، أنت إذا درست في جامعاتٍ راقية، وحصّلت شهاداتٍ عالية، وأعلنت للناس أنك تحمل هذه الشهادة، وأنه قد مضى عليك كذا من السنوات حتى حصّلتها، ربما كنت عند الناس عظيماً بمقياس أهل الأرض، وإذا عرف الناس أنك غني تملك ألوف الألوف ربما عَظُمْتَ في نظر الناس، لأن مقياس الناس المال، ومقياس الناس الشهادات الرفيعة، وإذا عرف أنك ذو حولٍ وطول، وأنك من أولي الحل والعَقْد، فربما هابوك بمقياس الناس، ولكن البطولة أن تنجح بمقياس السماء، بمقياس الله سبحانه وتعالى، هذا مقياس الله عزّ وجل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ)

هذا هو جوهر الدين، عملٌ طيّب، استقامةٌ على أمر الله، ائتمارٌ بما أمر الله، وانتهاءٌ عما نهى عنه، وأعمالٌ طيّبة، كل هذا مبنيٌ على عقيدةٍ صحيحة إيمانٍ صحيح، إذا توافر فيك هذان الشرطان، إيمانٌ صحيح، وعملٌ صالح، أي استقامةٌ، وعملٌ صالح فأنت بمقياس الله سبحانه وتعالى مقبولٌ، سعيدٌ في الدنيا والآخرة.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

لا يضيع عملُ عاملٍ: وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ

أما كلمة (كاتبون) هذه كي نطمئن، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج أن يكتب..

(لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى(52))

(سورة طه)

ولكن خطابٌ على مستوى عقولنا، الشيء إذا كتب أصبح ثابتاً، فالذي يتملّك البيت دون مستندات رسمية يبقى قلقاً، أما لو معه مستند رسمي مكتوب موقّع، مختوم، له رقم، وتاريخ، يطمئن يقول لك: بموجب العقد الفلاني، وفيه رقم، وتاريخ، فربنا عزّ وجل يخاطب عباده بحسب معطياتهم:

(وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

أي أن حقك محفوظ، وزوال السماوات والأرض أهون عند الله من أن يضيّعَ عليك عملك الصالح، عملت عملاً صالحاً لن يضيع عليك هذا العمل.

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أنّهم لا يَرْجِعونَ

أحياناً يتوهّم الإنسان أن هذه القرية أهلكها الله، وانتهى الأمر، ليس هلاكها نهايةً لها، ولكن هلاكها بدايةٌ لحسابها حساباً عسيراً، ليس الموت نهاية إنه بداية، المؤمن تنتهي مشكلاته الدنيوية بالموت، ولكن غير المؤمن تبدأ مشكلاته بعد الموت، يحاسب حساباً عسيراً..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا)

المعنى الأول:

حرامٌ، أي واجبٌ على أية قريةٍ أهلكناها أنهم لابدّ من أن يرجعوا إلينا، حرامٌ أن لا يرجعوا، أي مستحيل أن لا يرجعوا، أي لابدّ أن يرجعوا إلينا، وبعد الرجوع إلينا يحاسبون على ظلمهم وعلى أعمالهم وانحرافاتهم.

المعنى الثاني:

وفي بعضهم التفاسير يعدُّون (لا) زائدة، وهم يرجعون، أي لا يرجعون إلى دنياهم، أي أنهم ماتوا لا يعودون إلى مساكنهم، ولا إلى شهواتهم، ولا إلى ملذّاتهم، ولا إلى بيوتهم الفَخْمَة، ولا إلى أعمالهم الرائعة، إذا أهلكوا فكان هذا الهلاك نهايةً له، ولا مانع من أن نجمع بين المعنيين، هذه القرية الظالمة إذا أهلكها الله عزّ وجل لن ترجع إلى الدنيا لتستمتع كما كانت تستمتع، بل سوف ترجع إلى الله عزّ وجل لتلقى حسابها عن كل عملٍ قامت به، وما ينطبق على الجماعات ينطبق على الأفراد، الإنسان حينما يموت لن يرجع إلى بيته، ولن يستمتع بغرفته، ولن يستمتع بأهله، ولن يستمتع بمكانته، ولن يستمتع بماله، إذا مات انتهى الأمر، وسوف يرجع إلى ربه..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

فيمكن أن نجمع بين المعنينن الدقيقين لهذه الآية.

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

الآن الآية التي تليها:

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ(97))

مِن أشراط الساعة: يأجوج ومأجوج

كلمة (حتى) تفيد انتهاء الغاية، أي أن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء والمرسلين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليدعو الناس إلى عبادة الله، فمن استجاب أكرمه الله في الدنيا والآخرة، ومن لم يستجب أهلكه الله، وما تزال هذه السنن قائمةً حتى، أي حتى تحين الساعة، حتى تحين ساعة النهاية، لا يزال الله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى طاعته، وإلى الإيمان به، وإلى التقرُّب إليه. فمن استجاب أكرمه في الدنيا، ومن لم يستجب عذّبه في الدنيا، فإن كان الكفر عاماً أهلك الله القرية ومن فيها، وما يزال الله عزّ وجل يبيّن وينزّل على عباده الكتب والأنبياء، وينزل على أنبيائه الكتب، ولكن بعد أن جاء النبي عليه الصلاة والسلام، وهو خاتم الأنبياء، وبعد أن نزل عليه القرآن وهو آخر كتابٍ سماوي، هذا يستمر إلى أن يأتي يأجوج ومأجوج، ويأجوج ومأجوج من أشراط الساعة، وللعلماء مذاهب مثيرة في تفسير هذه الظاهرة، أوجه هذه التفاسير:

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ)

يأجوج ومأجوج مُطْلَقُ الأمم والشعوب التي تستفزُّ بعضها بعضاً، فحينما يطلِق الناس الدين كله، وحينما ينصبون على شهواتهم، وعلى دنياهم، وحينما تصبح حروبُهم حروب منافع، وحروب مكتسبات مادّية، وحينما يأكل القوي الضعيف، وحينما يُصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، وحينما يوسّد الأمر إلى غير أهله، وحينما تَلِدُ الأمة ربّتها، وحينما يأتمن الخائن ويخوّن الأمين، وحينما يقترب الوعد الحق..

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ)

فشعوبٌ كثيرة، انفجارٌ في السُكّان، وبعدٌ عن الرحمن، بشرٌ لا يعدُّون ولا يحصون ينسلون من كل جانب وهم جميعاً معرضون، غافلون، يرتكبون الفواحش، يفعلون كل شيء من دون قيدٍ أو شرط، لا قيم تردعهم، ولا دين يحجزهم، ولا منطق يسيّرُهُم، ولا حكمة تقودهم، إنما هي شهواتهم تحرّكُهُم إلى مصيرهم، وإلى هلاكهم.

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)

بعض المُفَسِّرين فَسَّر هذه الآية، ووجهها إلى موجات التتار التي خرجت من شرقي آسيا، وغزت معظم البلاد، وقَوَّضَت العروش والممالك، ففي حينه كانت هذه الهجمات تنطبق عليها هذه الآية، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ))

(من سنن الترمذي: عن " أبي أمية الشعباني ")

أي بشرٌ لا يعدون ولا يحصون، كلُّهم كفار، كلهم غافلون، ينكرون وجود الله عزّ وجل، دينهم شهواتهم، إذا بلغت البشرية هذا المستوى فاعلم أن الساعة قد اقتربت،

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

القرآن حمّال أوجه، القرآن ذو وجوه، انفجار سكاني وقِيَم مُدَمَّرَة، لا يوجد قيم أبداً، أحياناً تحس أن القوي يأكل الضعيف على مستوى الكرة الأرضية، الحق للقوة، وليس هناك قيم ثابتة أبداً، كل إنسانٍ دينه شهوته، ولا يعنيه ربه، ولا آخرته، ولا حياته، ولا سعادته، إنما يبحث عن لذّته الآنية، إذا كان هناك انفجار في السكان، وبعد عن الرحمن فهذه ملامح هذه الآية:

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)

الحدب المكان المرتفع..

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

علماء اللغة يقولون: شخصَ البصر أي نظر مع الخوف، عندنا في اللغة نظر، وعندنا حَدَّجَ.. قال عليه الصلاة والسلام:

((حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم))

[روي في الأثر]

حدَّج نظر مع محبَّة، وعندنا رنا نظر مع السرور، رنوت إليه، شخص نظر إلى منظر طبيعي جميل، يقال: رنا إليه، وحدَّج، وبحلَقَ، وحَدَّق، وحملق، ظهر حملاق العين، واستشرف، واستشفَّ، ونظر شزراً، وشخص، ولاح، ولمَحَ، يوجد خمسون كلمة تقريبًا، تعبّر كل كلمةٍ عن حالةٍ دقيقةٍ من حالات النظر، شخص هنا معناها نظر مع الخوف.

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ)

لذلك البطولة، ليس من يقطع طُرْقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل، البطولة أن تعُدَّ لهذه الساعة عُدَّتَها، البطولة أن تعد لساعة الموت عدتها، الذكاء أن تتوقع هذا اليوم قبل أن يأتي هذا اليوم، أما أن يفاجأ الإنسان بساعة الوفاة، وقد قدّم الأعمال السَيِّئَة، وكان غافلاً عن الله سبحانه وتعالى عندئذٍ يصعق، قال تعالى:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ(83))

(سورة الزخرف)

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

(سورة الطور)

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

في الدنيا لما يتيه الإنسان، ويشرُد، ويرتكب الموبقات، ثم يُلقى القبض عليه، وقد يفاجأ، لكن انظر إلى وجهه لا ترى فيه لوناً، إن الخوف يظهر من ملامح وجهه.

(يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

البطولة ؛ أن لا تكون في غفلة..

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

(سورة إبراهيم: من آية " 42 ")

لا ينبغي أن تكون غافلاً، ولا ينبغي أن تظن أن الله غافل.

(يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ)

فيأتي جواب الله عزّ وجل:

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

إنكم وما تعبدون من دون الله

حينما نزلت هذه الآية وجدت قريش أن فيها ثَغْرَة، أليس المسيح رسول الله ؟ أليس عُزَيْر رسول الله، نبيٌ من أنبياء الله ؟ فكيف يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

أيكون هؤلاء الأنبياء الكرام حصب جهنم ؟ فلما جاءوا النبي عليه الصلاة والسلام لبيّنوا له هذه الثُّغْرَةَ في الآية، تبسم، وقال لأحدهم: " كأنك لا تفهم لغة قومك "، هذه (ما) لغير العاقل، لم يقل الله عزّ وجل: إنكم ومن تعبدون من دون الله، قال:

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ)

و(ما) تنصرف إلى الأصنام، فهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله أيها الكفار كما جاءت الآية:

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)

ومعنى حصب جهنم أي وقود جهنم.

(أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

واردون أي داخلون..

(لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا)

إنكم وما تعبدون من دون الله

مناة والعُزّى، هذه الآلهة التي زعمها العرب لو كانت آلهةً حقاً ما دخلتها..

(لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ)

المعبود والعابد، الذي عَبَدَ هذه الأصنام، وهذه الأصنام التي عُبِدَت من دون الله إنها جميعاً حصب جهنم.

زفير أهل جهنم من شدة العذاب

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ)

الزفير: حينما يتألّم الإنسان ألماً شديداً يتنفس بصوت، وحينما يتألّم يحدث مع تنفّسه صوتاً تعبيراً عن ألمه الشديد.. فهؤلاء وهم في النار..

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ)

وربما كان هذا الزفير مُرتفعاً إلى درجة أنه يتعطّل السمع..

(وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ)

فهي صورة من صور العذاب في نار جهنم، نارٌ تلفح الوجوه، وأصواتٌ تُصِمُّ الآذان.

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)

من زحزح عن النار فقد فاز

هؤلاء الذين عرفوا الله في الدنيا، اهتدوا إليه، فكّروا في مخلوقاته، قرؤوا كتابه، أطاعوه، تقرّبوا إليه، هؤلاء سَبَقَ لهم من الله وعدٌ أن ينجّيهم من هذا الهول، هؤلاء الذين عرفوه في الدنيا، عرفوا عظمته، عرفوا مقامه، خافوا مقامه، أطاعوا أمره، طبّقوا سُنّة نبيّه، تقربوا إليه، هؤلاء وعدهم الله وعداً حسناً، لهم البشرى في الحياة الدنيا، هؤلاء الذين سبق من الله وعدٌ لهم..

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا)

لا يسمعون حسيسها

صوت النار، أحياناً لو وضعت في النار شيئاً يكون له صوت، الحطب حينما يحترق له صوت، وأي شيء حينما يوضع في النار له صوت، هذا هو الحسيس، هؤلاء الذين سبقت لهم منا الحُسنى لا يسمعون حسيسها، أي لئن كانوا مبعدين عن سماع حسيسها، فهم بعيدون عن نارها من باب أولى، لئن كانوا بعيدين عن صوتها فهم عن لهيبها أبعد، وهذه بلاغةٌ في التعبير.

(لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ)

هذا هو الفوز، هذا هو الفلاح، هذا هو النجاح، هذا هو الذكاء، هذا هو العَقل، هذه هي الحكمة، هذا هو الإنسان الراقي الذي عرف ربّه، وأطاعه.

" ابن آدم أطع ربك تسمّ عاقلاً، ولا تعصه فتسمى جاهل "، " وكفى بالمرء علماً أن يخشى الله وكفى به جهلاً أن يعصيه ".

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ)

الفزع الأكبر

إذاً هناك فزعٌ أكبر نعوذ بالله منه، نعوذ بالله أن يصيبنا هذا الفزع الأكبر.

(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ)

أحياناً في الدنيا يفزع بعض الناس، وأناسٌ آخرون في طمأنينة، تثور قضية، أناسٌ يحاسبون عليها حساباً شديداً، وأناسٌ بريئون مستقيمون، هم في دعةٍ وطمأنينة، هذا في الدنيا فكيف في الآخرة ؟

(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

إنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ

هذا هو اليوم الذي وعدتم به، لذلك حال الشيطان يوم القيامة:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: من آية " 22 ")

(هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

ولابدّ من أن يأتي هذا اليوم، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون فيه من الناجين، وأن نكون تحت لواء سيّد المُرسلين، والبطولة أن نعرف الله الآن، لا بعد فوات الأوان.

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيّ السِّجِلّ لِلْكُتُبِ)

من أهوال القيامة العظمى

حينما تنتهي المحاضرة من قِبَل الأستاذ في الجامعة، حينما يُغلق كتابه ما معنى ذلك ؟ المحاضرة انتهت، والدرس انتهى، حينما يُغلق القاضي الإضبارة، معنى ذلك أن القضية انتهت، تشبيهٌ رائع..

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ)

هذه السماء..

(إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ(1))

(سورة الانفطار)

انتهت وظيفتها،

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1))

(سورة التكوير)

انتهت وظيفتها،

(وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2))

(سورة التكوير)

انتهت وظيفتها..

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(3)وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(4)وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(5))

(سورة التكوير)

فهذا الكون قائمٌ على هذا الشكل، وعلى هذا النحو، لأنه الآن يحقق هدفاً عظيماً، وهو أنه دليلٌ على الله عزّ وجل، وسيلةٌ من وسائل الإيضاح، هذا الكون قائم كي تعرف الله به، فإذا نُفِخَ في الصور وجاء يوم القيامة، وختم العمل، وانتهى الاختيار، وانتهى التكليف، وانتهى كل شيء، فلماذا الكون ؟ لماذا السماء ؟ ولماذا الشمس ؟ ولماذا القمر ؟ ولماذا الأرض ؟ ولماذا الجبال ؟

(الْقَارِعَةُ(1)مَا الْقَارِعَةُ(2)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ(3)يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(4)وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ(5)فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(6)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(7)وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(8)فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(9)وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ(10)نَارٌ حَامِيَةٌ(11))

(سورة القارعة)

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَؤُوا كِتَابِيه(3)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ(40)عَنْ الْمُجْرِمِينَ(41)مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(42)قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(43)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(44)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(45)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(46)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(47)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(48))

(سورة المدثر)

فلذلك:

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ)

كيف يطوى الكتاب، وتُرْفَعُ الجلسة ؟ كيف يطوى الكتاب، وتنتهي المحاضرة ؟ كيف يطوى الدفتر، وينتهي التحقيق، ويصدر الحكم ؟ كيف ؟

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ)

حينما تنتهي الحياة الدنيا يُعاد الخلق مرةً ثانية بالطريقة التي خُلقوا بها أول مرة، كيف أن الله سبحانه وتعالى قال: كن فيكون في البداية، وفي الخلق الثاني كن فيكون، في الخلق الأول كن فيكون، وفي الخلق الثاني كن فيكون وانتهى الأمر.

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)

وعدُ الله عزّ وجل في حُكْمِ الواقع، وعد الله كأنه واقع، لذلك ربنا عزّ وجل في أكثر آيات القرآن التي يتحدَّث بها عن المُستقبل يستخدم الفعل الماضي..

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

(سورة المائدة: من آية " 116 ")

هذا شيء لم يقع بَعد، لكن لتحقق الوقوع، حينما يستخدم الفعل الماضي في معرض الحديث عن المستقبل فهذا لِتَحَقُّقِ الوقوع.

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104)
وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105))

إنا كنا فاعلين

أي أن من الحقائق الثابتة، من المبادئ الكُلِّيَة التي كتبت في اللوح المحفوظ، أو في القرآن الكريم، أو في التوراة والزبور، ليس المقصود الكتاب، ولكن المقصود المكتوب، ما المكتوب ؟

(أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

العاقبة للصالحين

أي أن الكُفار مهما علا شأنهم، ومهما سخَّروا الطبيعة لمآربهم، لو وصلوا إلى أطباق السماء، لو غاصوا إلى أعماق البحار، لو اخترعوا كل الآلات الحديثة التي تأخُذ بالألباب، لو أصبحت لهم حضارةٌ لا يُشَقُّ لها غبار..

(أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

حينما يطيب الإنسان قلبه، وينضج عقله، حينما تنمو مشاعره، ويتّقِدُ ذهنه يصبح أهلاً أن يكون خليفة الله في الأرض، حينما يوازن بين عقله وقلبه، ولكن أحياناً قد يفترق العقل عن القلب، قد ينمو العقل عند الكُفّار على حساب قلبهم، وقد ينمو القلب عند المؤمنين على حساب عقلهم، يفترقان، وقد يسمح الله لأهل الكفر أن يعلو في الأرض، فالآن بالعالم الغربي ليست كلمة الله هي العُليا، ربما كانت كلمة الكفر هي العليا، ومع ذلك الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

قال بعض العلماء: **" هذا الوعد في الآخرة، العباد الصالحون هم الذين يدخلون الجنة ويتنعّمون بها إلى الأبد، وهم حينما تنتهي الأرض يدخلون الجنة "**، وبعضهم قال: **" في الدنيا "**، الله سبحانه وتعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور: من آية " 55 ")

بعضهم قال هذا، وبعضهم قال هذا، والأصح أن يُجْمَعُ بين التفسيرين، أي أن العباد الصالحون لابدّ من أن يرفع الله شأنهم في الدنيا، فليصبروا، فإذا انتهت الدنيا لابدّ من أن يدخلوا جنة ربّهم، فليستبشروا. كتابة: والكتابة لنا، تطمين لنا.

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ)

الذِكر القرآن في بعض التفاسير، والذِكر اللوح المحفوظ في بعضها الآخر.

(مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ)

كيف جاء الزبور بعد القرآن ؟ قال: هذا ترتيبٌ رُتَبيّ وليس ترتيبًا زمنيًا، اللوح المحفوظ، أو القرآن، ومن بعده في الدرجة الزبور كتب فيهما..

(أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

حتى على المستوى الفردي، إذا صلح عمل الإنسان فلابدّ أن يرفع ذِكْرُهُ، لابدّ وأن يرفع الله شأنه، هذه بشارة.

(إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)

إن في هذا لبلاغا لقومٍ عابدين

معنى بلاغاً، أي إن في هذا الكلام وهذا التطمين، وهذه الحقائق، وهذه القصص، وهذه التأكيدات، وهذه المُنطلقات..

(إنّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً)

أي إن في هذه بُلْغَةً شيءٌ يكفي، والله الذي لا إله إلا هو آيةٌ واحدة في القرآن تكفي، أعرابيٌ جاء النبي عليه الصلاة والسلام قال: " يا محمد عظني وأوجز ".. (لا تطِل علي).. قال له:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

قال له: **" قد كُفيت "**، فقال عليه الصلاة والسلام: **" فُقْهَ الرجل "**، هذه الآية تكفي.. لكن:

(إنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

ألا تكفي هذه الآية ؟

(إنّ رَبّكَ لَبالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

ألا تكفي هذه الآية ؟

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أوْ أنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

ألا تكفي هذه الآية ؟

(فَمَنْ اتّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

ألا تكفي هذه الآية ؟ والله الذي لا إله إلا هو كل آيةٍ في كتاب الله تكفي، ربنا عزّ وجل ذَكَرَ آيات، وذكر قصصاً، وذكر أخباراً، وذكر مشاهد ليوم القيامة، وذكر أوامر، وذكر نواهي، ووعداً، ووعيداً، وأمثالاً من أجل أن نهتدي، وكل آيةٍ، وكل قصة، وكل مثلٍ، وكل حقيقةٍ، وكل مشهدٍ، وكل خبرٍ يكفي..

(إنّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً)

إنه شيءٌ كافٍ.

تعقيباً على هذه الكلمة، دخل بعض أصحاب رسول الله على الصحابي الجليل سيدنا أبي عبيدة بن الجراح وكان قائد الجيوش في الشام، دخلوا إلى غرفته، فإذا فيها جلدُ غزال، وقدر ماء مغطى برغيف خبز، وسيفٌ معلق على الحائط، فقالوا: " ما هذا يا أبا عبيدة ؟ "، قال: " هو للدنيا وعلى الدنيا كثير، ألا يُبَلِّغُنا المقيل ؟ " معنى يبلِّغُنَا..

(إنّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً)

هذا التفصيل يكفي، بقي العمل، بقي التطبيق، بقي الانطلاق، بقي السَيْرُ إلى الله عزّ وجل، ففرّوا إلى الله جميعاً.. **" شمّروا فإن الأمر جد، وتأهبوا فإن السفر قريب، وتزودوا فإن السفر بعيد، وخففوا أثقالكم فإن في الطريق عقبة كؤود، وأخلصوا النية فإن الناقد بصير ".**

" يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق، وأكثر الزاد فإن السفر بعيد ".

ما الذي بقي علينا ؟ أن نتحرّك لتطبيق هذا القرآن والعمل بأحكامه.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ

قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ))

(من سنن الدارمي عن أبي صالح)

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

أرسل أحد الولاة لسيدنا عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول فيه: " إن الناس جميعاً دخلوا في الإسلام، وانقطعت الموارد.. انتهت الجزية.. " فقال هذا الخليفة الراشد: **" إن الله لم يبعث محمداً جابياً، ولكن بعثه هادياً، والله كم أتنمى أن أكون أنا، وأنت راعيين نرعى الإبل، ويدخل الناس في الإسلام أفواجاً"**.. الواردات قلّت، لأن الناس دخلوا في الإسلام.. هكذا.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

النبي عليه الصلاة والسلام للعالمين، للبشر ولغير البشر، رأى رجلاً يذبح شاةً أمام أختها فقال:

((هلاّ حجزتها عن أختها، أتريد أن تميتها مرتين ؟))

في قلبه رحمة..

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[مسلم]

لو قتل رجلٌ عقرباً، وعَذّبه فهو مؤاخذ، هكذا النبي الكريم أمرنا، فإذا قتلتم عقرباً فأحسنوا القتل، ضربة واحدة، وليس تعذيب..

((وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

وليس بسكين غير حادّة.

((إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ))

(من سنن الدارمي: "عن أبي صالح ")

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

ملخص القرآن: قل إنما يوحي إليّ أنما إلهكم إله واحد

هذه الآية تُلَخِّص القرآن كله:

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

والله الذي لا إله إلا هو.. ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.. فما دمت ترى أن زيداً، وعبيداً، وفلاناً، وعِلاناً، بيده أمرك، بيده نفعك، بيده ضرك، بيده رفعك، بيده خَفضك، لست مؤمناً، هذا هو الشرك، قال عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوةٌ خفية، وأعمالٌ لغير الله))

[ابن ماجه قريبا من هذا اللفظ]

هذا هو الشرك الخفي.. الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصمّاء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيءٍ من الجَور، وأن تبغض على شيءٍ من العَدل.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106))

(سورة يوسف)

فلذلك:

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

إله السماء هو إله الأرض..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من آية " 84 ")

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

إن الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة يقول:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال: من آية " 17 ")

هذا هو التوحيد، هذا هو الإيمان، اجعل الهموم هماً واحداً يكفك الهموم كلّها.. من أصبح وأكبر همه الدُنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة.

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

الحضّ والحثّ على الإسلام

يقول ربُكم سبحانه وتعالى:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

نعم يا ربنا، نعم إنا مسلمون لك.

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

هل أداة حَض، الله سبحانه وتعالى يحضُكم على أن تسلموا له..

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ)

إذا أعرَضوا، ورفضوا ولم يستجيبوا، واستهزؤوا، واستكبروا، واستَعلَوا..

(فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ)

الناس أمام البلاغ الإلهي سواء

أنا بلّغتكم، بلغتكم جميعاً، أنتم جميعاً أمام البلاغ الإلهي واحد.

(وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ)

النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب

لا أدري، إنما أنا بشر، الله الذي يدري، أما أنا فلا أدري، هذه (إن) حرف نفي بمعنى ما أدري..

(وَإِنْ أَدْرِي)

أي لا أدري..

(أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ)

إن تكلّمت يعلم كلامك، وإن سكت يعلم سرك.

(وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

لعل هذا امتحانٌ لكم.

(قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

الحكم بالحق

هذه الآية دقيقة جداً، احكم بالحق هذا القيد.

(قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ)

فهل يحكم الله بالباطل ؟ لا، قال: هذا قيدٌ توضيحي لا قيدٌ احترازي، المعنى دقيقة جداً، إذا قلت لإنسان: احكم بالحق أي إيّاك أن تحكم بالباطل، هذا نقول له: قيدٌ احترازي، أنا أحذرك أن تحكم بالباطل، ولكنك إذا قلت لله عزّ وجل داعياً:

(قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ)

هذا قيدٌ توضيحي، أي يا ربي احكم حكمك الذي هو بالحق دائماً، هذا المعنى، احكم حكمك الذي هو بالحق دائماً.

(قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1 - 6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-06-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الحج.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2))

الخطاب بـ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ:

أيها الإخوة الأكارم، يوجِّه ربنا سبحانه وتعالى الخطاب إلى الناس كافّة، لأن الناس جميعاً مدعوُّون إلى الإيمان به، ومعرفته، والاستقامة على أمره، والدين الإسلامي رحمةٌ للعالمين، وهو دين البشريَّة، لذلك تكثُرُ كلمة.. يا أيها الناس..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 21 ")

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

معنى الربوبية ولوازمها:

أمّا كلمة " ربّ " فهذا اسم من أسماء الله، الربُّ، وفي معنى الرب تتلخَّص الربوبيَّة، والرب هو الذي يُمِدُّ المخلوق بما يحتاج إليه من أشياء مادية تعينه على حياته، ومن تربيةٍ نفسية، فإذا قُلت:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الفاتحة)

أي أن هذه العوالم جميعاً ربُّها الله الذي يمدُّها، هذا الهواء الذي نستنشقه هو من عند ربِّ العالمين، هذا الماء الذي نشربه، هذا الماء العَذْبُ الذي صفّاه الله لنا عن طريق الشمس، والسُحب، والأمطار، والينابيع، هو من عند الله رب العالمين، هذا القمح الذي نأكله، وهذه الخضراوات التي نأكلها، وتلك الفواكه التي نأكلها، وهذه الحاجات، هذه المعادن التي أودعها الله في الأرض، وهذه المخلوقات التي سُخِّرَت لنا، إنها كلّها من عند الله رب العالمين، لذلك أوّل آيات الفاتحة..

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

المُربي الذي يربّي أجسادنا، والذي يربي مشاعرنا، والذي يربي عقولنا، والذي يربي نفوسنا، والذي يؤهِّلنا كي نسعد في الدنيا والآخرة، إن معنى التربية واضحٌ في كلمة الرب.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

الذي خلقكم، والذي ربّاكم، والذي يسيّركم..

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

معنى التقوى ولوازمها: ما معنى اتقوا ؟ اتقوا، مِن فعل وَقَى، أي قوا أنفسكم عذابه بطاعته، قوا أنفسكم شقاء الدنيا بالاستقامة على أمره، قوا أنفسكم نار جهنَّم بالإيمان به، فهذه التقوى بعض العلماء عبَّروا عنها تعبيراً لطيفاً فقالوا: **" هو أن يُذْكَر فلا يُنْسَى، وأن يُشْكَر فلا يُكْفَر، وأن يُطاع فلا يُعصَى ".**

ولها تعريفٌ آخر: الإنسان متى يتقي الخطر ؟ إذا رآه، كيف نتقي الأخطار ؟ إنسان يمشي في غابة في ظلامٍ دامس، وفيها حفر، وفيها أكمات، وفيها حشرات، وفيها أفاعٍ، وقد يكون فيها ثمرات، كيف يتَّقي الخطر؟ كيف يتقي الوقوع في الحفر ؟ كيف يتقي الأكمات ؟ كيف ينجو من الأفاعي والحشرات ؟ هذا يكون بمصباحٍ كشّاف يرى به الحفرة فيحيد عنها، يرى بهذا المصباح الحشرة فيقتُلها، يرى الثمرة فيأكلها، فأصل التقوى أن تقي نفسك الخطر بطاعة ربّك، هذا الأصل.

ولكن السؤال الآخر: كيف تتقي هذا الخطر ؟ أن تستنير بنوره، بنور الله ترى الخير خيراً والشر شراً، بنور الله ترى الحقّ حقّاً والباطل باطلاً، بنور الله ترى ما يجوز، وما لا يجوز، ما يُسعدك، وما يشقيك، بنور الله تهتدي، بنور الله تُبْصِر.

كيف أن العين على عظمتها، وعلى دقّة تكوينها لا قيمة لها من دون أنوار، لو أن الإنسان يملك عينين حادّتين، أعلى درجة في الرؤية، وجلس في بيتٍ مظلم ما قيمة العَينين ؟ لا قيمة لهما إلا بضياء الشمس، أو بضياءٍ آخر، قيمة العين بالنور الذي يسقط على الأشياء فتراه العين، وقيمة العقل بنور الله عزّ وجل، العقل من دون نور الله عزّ وجل يتيهُ، ويضلُّ، ويكفر.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20))

(سورة المدثر)

فلذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أي اتقوا عذابه في الدنيا، اتقوا بأسه، اتقوا ناره، اتقوا غضبه، اتقوا معصيته، مُطْلَقَة، الفعل إذا لم يُذْكَر مفعوله أُطْلِقَ معناه، اتقوا ماذا ؟ اتقوا معصيته، اتقوا البعد عنه، اتقوا عذابه في الدنيا، واتقوا عذابه في الآخرة، كيف ؟ بمعرفته، بمعرفة أمره، بطاعته، بالتقرُّب إليه، باستغفاره، بالتوبة إليه، بالإنابة إليه.

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

الآن السؤال اللاحق: كيف نعرفه ؟ لابدّ أن تستقيم على أمره، لأنّك إذا استقمت على أمره تُقْبِلُ عليه، فإذا أقبلت عليه ألقى الله في قلبك نوراً يهديك إلى سواء السبيل.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة النور: من آية " 35 ")

بنور الله عزّ وجل تهتدي..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

فليس العاقل هو الذي يعرف الحقيقة بعد فوات الأوان، والله الذي لا إله إلا هو لابدّ أن نعرف الحقيقة جميعاً، ولكنّ البطل منّا من يعرفُها في الوقت المناسب، والخاسر مَن يعرفها بعد فوات الأوان، ألم يعرف فرعونُ الحقيقة ؟ نعم عرفها ولكن بعد أن أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

هل نفعه إسلامُهُ ؟ لم ينفعه إسلامه، هل نفعته معرفته ؟ لم تنفعه معرفته، فلذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

وأنتم في الدنيا، وأنتم أصحّاء، وأنتم أشدّاء، وأنتم في أوْج نشاطكم اتقوا ربكم، اعرفوا أمره أولاً كي تطيعوه ثانياً، كي تنجوا من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ولا يكون معرفة أمر الله عزّ وجل إلا بمعرفة كتابه وبالإقبال عليه.

والله سبحانه وتعالى بعد هذا الأمر يأتي بالمؤيّد القانوني، ما من نظامٍ، ولا قرارٍ، ولا مرسومٍ إلا ويُذَيّل بالعقوبات التي تنزل بساحة المُخالِف، فربنا سبحانه وتعالى يبيّن أنكم إذا لم تتقوا الله عزّ وجل، إذا لم تتقوا ربكم.

حقيقة الزلزلة العظمى:

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

إذا كان العظيم يقول عن هذه الزلزلة:

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

فما هي هذه الزلزلة ؟ العظيم يقول لك: إنه شيء عظيم، لو قال لك طفلٌ صغير: معي مبلغٌ كبير، قد يكون هذا المبلغ صغيراً جداً، ولكن بالنسبة إليه رآه كبيراً، ولكن إذا قال لك رجلٌ من أغنى أغنياء العالَم: معي مبلغٌ كبير، فكلمة كبير إذا لفظ بها إنسانٌ غنيٌّ جداً فلها معنىً كبير، فإذا قال الله عزّ وجل،

ولله المثل الأعلى، إذا قال:

(إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

ونحن في الدنيا نسمع ببعض الكوارث، ببعض الفيضانات، ببعض البراكين، ببعض الزلازل، الأخبار التي نستمع إليها لشدّة هولها لا تُصَدّق، ونحن في الدنيا نسمع هذه الأنباء، فما بالك بالأخبار التي يخبرنا الله عنها يوم تقوم الساعة ؟!..

(إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ)

الزلزلة الاهتزاز الشديد الذي يغيّر كل شيءٍ عن موقعه، فعل زَلّ فعل ثلاثي مضعّف، أما فعل زَلْزَلَ ففيه مبالغة، وفيه تكرار، قلّ وقلقل، دمّ ودمدم، جرّ وجرجر، عسّ وعسعس، هذا الثلاثي المُضَعّف فيه معنى المبالغة، طبعاً زلّ الشيء عن مكانه أيْ ابتعد عن مكانه، أما زلزله أي لمرّاتٍ كثيرة حدثت الزلزلة..

(إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

يبدو أن هناك زلزلة تهزّ أركان الدنيا ؛ تهزّ الجبال، تهزّ الأبنية، تهزّ كل شيء، تَهُزّ النفوس.

(إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا)

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ

جميعاً..

(حَتّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازّيّنَتْ وَظَنّ أَهْلُهَا أَنّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

ليلاً على أناس، ونهاراً على أناس، أي أن هذا الأمر يَعُمُّ الكرة الأرضيّة، وهذه إشارةٌ لطيفة إلى كرويّة الأرض، ليلاً أو نهاراً..

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ)

الفرق بين مرضِع ومرضِعة:

السؤال الآن: لِمَ لَمْ يقل الله عزّ وجل: يوم ترونها تذهل كل مرضع ؟ لأن الصفات الخاصّة بالنساء لا تؤَنّث، تقول: امرأةٌ طالق، وامرأةٌ ثيّب، وامرأةٌ بكر، وامرأةٌ مُرضع، وامرأةٌ حامل، أما إذا قلت: امرأةٌ حاملةٌ أي على ظهرها، إذا قلت: امرأةٌ حامل أي في بطنها، إذا قلت: امرأةٌ مُرضع أي أنها في طور الإرضاع، ولو أنها الآن لا ترضع طفلها، هذه امرأةٌ مرضع، يعني منذ فترةٍ قد ولَدَتْ، وهي في طور

إرضاع صغيرها، أما إذا قلت: امرأةٌ مرضعةٌ أي أنها تضع صغيرها على ثديها، هذه أبلغ، كلَ امرأةٍ في طور الإرضاع اسمها مرضع، أما المرأة التي تضع صغيرها على ثديها، وهو يرضع من ثديها يقال لهذه المرأة الآن: امرأةٌ مرضعةٌ، هذا هو الفرق بين مُرضع ومرضعة، و..

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا)

أيها الناس ترونها جميعاً..

(تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ)

تنصرف عنه، وليس من دافعٍ على وجه الأرض أقوى من دافع الأمومة، هناك دافعُ الطعام والشراب، هذا الدافع الأوّل، وهناك دافع الجنس، وكذلك دافعُ الأمومة، أقوى الدوافع التي خلقها الله في الجِنْس البشري هو دافع الأمومة، ومع ذلك:

(تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ)

تذهل عن وليدها، تلقيه جانباً لهول ما ترى، وفي الآية لفتةٌ لطيفة:

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا)

هنا ترونها، وهنا ترى، هؤلاء الناس رأوا زلزلة الساعة، ثم أغمي عليهم جميعاً، والخطاب الآن للمؤمن، يوم ترونها أيها الناس جميعاً، حينما تبدأ فإنّ جميع الناس يرونها، ولكن بعد قليل:

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

في هذه الآية لفتةٌ بلاغيّة، كونُ فعل ترونها بالجَمْع، ثم أن يأتي هذا الفعل بالمُفرد، فهذه المرضعة والرضيع على ثديها تلقيه جانباً لهول ما ترى..

(وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا)

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

الحِمْل الشيء المادي، وأما الحَمْل هو الشيء الذي في بطن المرأة، أو الثمرُ الذي على رؤوس الأشجار، يقال له: حَمْل، فأيضاً لشدّة الهول ربما يحدث الإسقاط، وهذا معروف في الطب، أن هَزّةً عنيفةً جداً تودي بالجنين، ويصبح سِقطاً، ويسقط لهول الفاجعة، وبعضهم يفسِّر هذه الآية: أن كل نفسٍ تحمل شيئاً من الشهوات، فإذا رأت هذا الفزع الأكبر ألقت ما فيها من شهواتٍ، ومطامح، وآمال ؛ والتفتت تبحثُ عن طريقٍ للنجاةِ من هذا الخطر..

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا)

لذلك يا أيها الناس اتقوا ربّكم، هذا هو المؤيّد القانوني، اتقوا ربكم لئلا تقعوا في هذه الورطة، لئلا تصيبكم هذه الزلزلة التي عندها..

(تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى)

حقيقةً أم مجازاً ؟..

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى)

وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى:

من علامات المَجاز أنه يَصْدُقُ عليه ضِدُّه، فلانٌ بهيمةٌ، وليس بهيمةٌ، يعني فلانٌ في تفكيره كالبهيمة، هذا مجاز وليس حقيقة، لو قلنا: هذه بهيمةٌ، وأشرنا إلى دابّة، فهذه حقيقة، أما إذا أشرنا إلى إنسان بأنه بهيمة، ثم قلنا: وليس ببهيمة، أي أنه يفكِّر، ويتصرّف كما لو أنه بهيمة، لذلك:

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى)

ليسوا سُكارى، ولكنّ هول الفاجعة، وهول الزلزلة جعلتهم كالسكارى، وقلت لكم مرّةً: إن طائرةً كانت على وَشَكِ الوقوع، وكان احتمال سقوطها تسعين في المئة، أراد قائد هذه الطائرة أن يُبَلِّغ الرُكّاب بضرورة وضع الأحزمة، كلّف أحد المضيفين أن يبلغ الركّاب، لا أحد يستمع، هؤلاء الذين أمامه كأنهم لا آذان لهم، خاطبهم أول مرّة، ثاني مرّة، ثالث مرّة لا أحد يستمع إلى قوله، إنهم غارقون في همومهم، هذا يتصوّر نفسه، وقد خلّف أولاداً أيتاماً، وهذا يذكر امرأته، وهذا يذكر ثروته، وهذا يندب حظّه، وهذا يلطِمُ وجهه، وهذا، وهذا، هذا المضيف توسّم خيراً في أحد الرُكّاب الهادئين قال: هذا الراكب لعلّه بإمكانه أن يقنع الركّاب بوضع الأحزمة، فتوجّه إليه فإذا هو مُغْمَى عليه..

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

فهذا في الدنيا، فرُكّاب سفينة إذا هاج البحر، وركّاب طائرة إذا واجهت مَطَبّاتٍ في الجو، وسُكّان بناء إذا احترق البناء، فهذا شأنهم..

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

فيكف بهذه الزلزلة التي لابدّ واقعة ؟! فيا أيها الناس اتقوا ربكم، فهذا الفكر لا ينبغي أن يُعطّل، هو أثمن هديةٍ أهدانا الله إيّاها، يجب أن يعمل، إذا أعملنا فكرنا عرفنا ربنا، واستقمنا على أمره، وسعدنا في الدنيا والآخرة..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أيْ اتقوا غضبه، اتقوا معصيته، اتقوا عذابه، اتقوا هذه الزلزلة بطاعته، بمعرفته، بالاستقامة على أمره، بالائتمار بما أمر، بترك ما نهى عنه..

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى)

وقوله تعالى: وترى، وكأن المؤمن ينجو من هذا العذاب، يُخَاطَب الآن: يا أيها المؤمن..

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى)

أنت في صحو، ولست في سُكر، أنت مخَاطَب..

(وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

إذا أخذ ربنا عزّ وجل القرى وهي ظالمة، فإنّ أخذه أليمٌ شديد، فهذه الآية لا تحتاج إلى برهان، أخبار الفيضانات، والزلازل، والبراكين، والأوبئة، هذا المرض الذي انخلعت له القلوب في أوروبا وأمريكا.. مرض الإيدز، شبحٌ مخيف خيّم على الناس، هذا عذاب الله في الدنيا، وعذاب الله في الآخرة أشد، فإذا عرفنا شِدّة العذاب التجأنا إليه من عذابه، لأنه لا ملجأ منه إلا إليه..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

الإنسان أحياناً يُقْحِم نفسه في موضوعات لا علم له بها، يتحدّث عن ذات الله، وعن أفعاله، وكأنّه هو نِدٌ له، يتحدث عن ذات الله، وعن أفعاله، وهو ليس أهلاً أن يعرف بُنْيَة جسمه..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ)

يقول: لا بعث بعد الموت، تقول هذا الكلام، فما الدليل ؟ من قال لك: إنه لا بعث بعد الموت ؟ يقول لك: إن الله لا يحاسب الناس كما تقول، هل معك دليل ؟ أنا أقول لك آية قرآنيّة، هذا الكتاب قَطعي الثبوت قطعي الدلالة، أنا آتيك ببرهان، ببرهان عقلي، وواقعي، ونقلي، أنت تقول: الله لا يحاسب الناس فأين الدليل ؟ قال أحدهم: إن الله لم يُحَرّم الخَمْرَ، كيف؟ قال: لأن الله عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة)

لم يقل: هو محرّمٌ، قال: بل فاجتنبوه، أي اجتنابهُ خيرٌ لكم، وهذا يعني أنه لم يحرّم الخمر، ونحن نقول: الاجتناب أشدُ أنواع التحريم، لأنك إذا أُمِرْتَ أن تجتنب شيئاً يجب أن تبقي بينك وبينه هامشَ أمان، هذا

الاجتناب، وربنا عزّ وجل في آيةٍ أخرى تحدّث عن الأصنام فأمرنا أن نجتنب عبادتها، فالأمر بالاجتناب من أعلى درجات النَهْي، فقال تعالى:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

(سورة الحج)

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

ليس لديه علمٌ، وما تعلّم حقائق، بل يناقش بالهوى، يناقش ليُثبت للناس أنه على حق بينما وهو على باطل، يناقش بمنطق تبريري لا بمنطق تقريري، بالتبرير، يريد أن يؤكِّد لك أنه ليس مخطئاً، هذا هو الأمر، هو يدافع عن نفسه فقط، يريد أن يجعل للباطل أرجلاً يقف عليها، وما عَلِمَ أنّ الباطلَ باطل وهو زاهق لا محالة..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ)

من نتائج موالاة الشيطان الضلال في الدنيا والجحيم في الآخرة:

فهذا الشيطان الذي يتبعه تَمَرَّد على الله عزّ وجل، وهذا الشيطان الذي يتبعه.

(كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

فمن الحقائق الثابتة القَطْعِيَّة أنّ كل من تولى شيطاناً وسار بتوجيهه، واتبعه، فإن هذا الشيطان سيهدي صاحبه إلى العذاب في الدنيا والآخرة، كُتِبَ عليه، كلمة " كُتِبَ " في القرآن الكريم تعني الحقيقة الثابتة، السمة الرئيسية، القانون الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر ولا يتحوّل..

(كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

هذا الشيطان إذا اتبعه الإنسان يضلّه عن هدفه، يضله عن ربه، يضله عن سعادته، ويهديه لا إلى الجنّة، لا إلى السعادة، يهديه إلى عذاب السعير..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

تقرير مسألة البعث والاستدلال عليها:

فالإيمان بالبعث بعد الموت حقٌ، أي أن الإيمان باليوم الآخر من لوازم الإيمان، بل من أركان الإيمان، بل هو الركن الأول الذي يأتي بعد الإيمان بالله عزّ وجل، لأنك إن لم تؤمن أن هناك حياةً أبديّة، وأن فيها حساباً دقيقاً لكل ما يجري على وجه الأرض فإنك لن تستقيم على أمر الله، لن تستقيم على أمر الله إلا إذا آمنت بحياةٍ بعد هذه الحياة، تُوفّى فيها كل نفسٍ ما عَمِلَت، يُعطى كل ذي حقٍّ حقّه، يُؤخذ على يد الظالم ويُعطى المظلوم حقّه من الظالم، إن لم تؤمن بهذا اليوم بعد الموت فالإيمان باطل، لأن أركان الإيمان أن تؤمن بالله، وباليوم الآخر، وبملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشرّه من الله تعالى..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ)

أيْ إن كنتم في حالة شك، وفي حالة ليس فيها تصديق كافـ..

(فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

معنى: إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ

التفسير الأول:

كل واحد له وزن، ستون، سبعون، خمسة وسبعون، ثمانون، حينما وُلِد كان يزن ثلاثة كيلوات، فمن أين جاء بهذا الوزن ؟ من الطعام والشراب، وهذا الطعام والشراب من أين جاء ؟ من التراب، يُسقى بماءٍ واحد، هذه المحاصيل، هذه الخضار، هذه الفواكه، هذا العُشب والكلأ الذي تأكله الأغنام فتُصبح سمينةً، إن كل المخلوقات من بشرٍ ومن غير البشر أصلها من تراب، و..

هذا بعض التفاسير.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

التفسير الثاني:

تفسيرٌ آخر، سيدنا آدم الذي هو أبو البشر خُلِقَ من تراب، ثم نفخ الله فيه من روحه فجعله بشراً سويًا، إذاً إمّا أنّ سيدنا آدم وهو أبو البشر خُلِقَ من تراب، وإما أن هذا الماء الذي يُقْذَفُ في رحِم المرأة أصله من تراب، وإما أن هذا الجسم الذي نما أصله من ترابٍ بمعنى أن الغذاء أصله من تراب، وان الغذاء أصل هذا الجسم، فالإنسان أصله من تراب، كل هذه المعاني واضحة وجيّدة، و..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)

مراحل الجنين في بطن أمه:

1 - المرحلة الأولى: النطفة:

هذه النطفة، هذا الماء الذي يُخَلّق في الخصيتين، وهناك حكمةٌ بالغة من كون هاتين الخِصيتين خارج الجسم، لأن حرارة الجسم تُفْسِدُ تصنيع هذه الحيوانات المنويَّة، لو أن الحرارة في الخصيتين كانت كما هي في الجسم لما خُلِقَت هذه الحوينات المنويَّة، على كلٍ هناك حكمةٌ بالغة في هذا الخلق.

شيءٌ آخر، أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الحيوانات، و يزيد عددها في اللقاء الواحد بين الزوجين عن ثلاثمئة مليون حيوان منوي، لا يصل منها إلى البويضة التي سوف تلقّح بأحدها إلا خمسمئة حيوان، وأن هذه الحيوانات المنويَّة تُخْتَبَرُ قوّتها في أثناء الطريق إلى لقاء البويضة، البويضة تخرج من المبيض في أحد الأنبوبين اللذين يؤديان إلى الرحم، هنا يتم اللقاء بين الحيوانات المنوية وبين البويضة، من ثلاثمئة مليون حُوين منوي لا يصل إلى البويضة إلا خمسمئة، وهذه الخمسمئة تختار البويضة واحداً منها هو أقواها.

وفي رأس هذا الحُوين المنوي مادّة، فحينما يتجه نحو البويضة تنفجر قلنسوة في رأسِهِ فيخرج منها سائلٌ يذيب جدار البويضة، والبويضة تستجيب لهذا الدخول، وبعد أن يدخل هذا الحيوان المنوي إلى البويضة تُغْلِق الطريق على جميع من كان حولها من هذه الحوينات الخمسمئة، فهذه النطفة المكوّنة من ثلاثمئة مليون تختار البويضة أقواها للتلقيح.

أما مبيض المرأة فالله سبحانه وتعالى يخلق فيه ستة ملايين بويضة، أيْ في مبيض الفتاة الصغيرة ما يزيد عن ستة ملايين بويضة فإذا بَلَغَت هذه الفتاة سنّ المحيض لا يبقى في مبيضها إلا ثلاثين ألف بويضة، والله سبحانه وتعالى لا يُنْضِجُ من هذه الثلاثين ألف إلا أربعمئة بويضة فقط، وسبعٌ وثمانون بالمئة من هذه البويضات تَسْقُطُ في أثناء الدورة من دون أن تعلم المرأة أن هذه البويضة قد لُقِّحَت، ولقد أُشير إلى هذا في بعض الآيات القرآنيَّة وبعض الأحاديث النبويَّة، حين الحديث عن المضغة المخلّقة وغير المخلّقة، أنه يقول عليه الصلاة والسلام أشار إلى الحقيقة العلمية الكُبرى، أن هذه الحوينات البالغة ثلاثمئة مليون، وأنّ الجنين يُخْلَقُ من بويضةٍ ملقّحةٍ بحوينٍ منويٍّ واحد، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الإمام مسلم:

((مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ))

(من صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري)

هذه الحقيقة لم يُتح من قبل أن تُكشَف بالمخابر، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

((مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ))

من بعضه القليل، من أقلّ من بعضه، ويقول عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى الحقيقة الثانية:

((إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال: يا رب مخلّقة أو غير مخلّقة ؟ فإن قال الله عزّ وجل: غير مخلّقة مجّتها الأرحام دماً فكان المَحيض))

(فتح الباري[419/1]عن ابن مسعود موقوفا)

أيْ أن هذا الحيض هو مضغةٌ غير مخلّقة، والشيء الذي يلفت النظر أن المجرى بحسب التحاليل الطبيّة حامضي القِوام، والمجرى الحامضي هدفه أن يقتُل كل جرثوم، بينما الحوين المنوي يسبح في سائلٍ قلوي، والقلوي لا يتأثّر بالحامضي، وهذه من حكمة الله سبحانه وتعالى، لو أن المجرى حامضي، والماء الذي تسبح فيه الحوينات حامضي لهلكَت هذه الحوينات، ولكنّ السائل الحامضي يتناسب مع السائل القُلوي..

شيءٌ آخر عجيبٌ جداً، وهو أن كل خليةٍ في الإنسان في نواتها ستة وأربعون مورّثًا صبغيًا، كل خليّةٍ؛ خلايا العظام، وخلايا الشعر، وخلايا النسيج، وخلايا الجلد، أية خليّةٍ على الإطلاق مؤلّفة من غشاء خارجي، ومن هيولي، ومن نُويّة، والنوية فيها مورّثات، كروموزومات، إلا المبيض والحُوين المنوي، هاتان خليّتان، بل إن البويضة أكبر خليّةٍ في الجنس البشري، البويضة فيها ثلاثة وعشرون مورّثاً بدل ستة وأربعين، وكذلك الحُوين فيه ثلاثة وعشرون مورّثًا، فإذا التقت البويضة بالحوين، واتحدا أصبحت خليةً فيها ستة وأربعون مورّثاً، هذه قاعدة لا تشُذ أبداً إلا في البويضة وفي الحوين.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

أساساً في الخصية مجرى يزيد طوله على نصف كيلو متر تُصنَّع فيه الحوينات، وهذه الحوينات يجري تصنيعها في ثماني عشرة مرحلةً، فهذا الماء الذي يُقْذَف كان قد صُنِّعَ قبل ثماني عشرة مرحلةً حتى أصبح جاهزاً للقذف، شيءٌ يأخذ بالألباب، شيءٌ لا يُصَدَّق..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)

فنطفة الذّكَر الحيوان المنوي، ونطفة المرأة البويضة.

وأما النطفة الأمشاج فقال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ)

(سورة الإنسان)

قال العلماء: **" النطفة الأمشاج هي البويضة الملقّحة "**، فمورّثات الحيوان المنوي التقت مع مورّثات البويضة فشكّلت ستةً وأربعين زوجاً، لذلك عُقِدَ في دمشق قبل سنواتٍ عدّةٍ أسبوعٌ للعلم، وقد أُلْقِيَت فيه

محاضراتٌ من شَتّى أنحاء العالم حول تحسين النسل، فما كان من أحد الأطبّاء رحمه الله إلا أن وقف وقال: " إنّ فحوى كل هذه المحاضرات لخّصها النبي عليه الصلاة والسلام في كلمات فقال:

((اغربوا لا تضووا))

(تلخيص الحبير، ابن حجر[146/3])

فهذه المورّثات إذا كان هناك قرابة فالضعف يُكَرّس، أما إذا كان هناك تباعد فالصفات الأقوى تغلب الصفات الأضعف، فدائماً كلّما تباعد الزوجان جاء النسلُ قوياً، وكلّما اقترب الزوجان جاء ضعيفاً، فإذا كان هناك رضاعة جاء النسل مشوّهاً، لذلك..

((يَحْرُمُ مِنَ الرّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النّسَبِ))

(من صحيح مسلم عن السيدة عائشة)

فلذلك حكمةٌ بالغة أن البويضة وحدها، والحوين المنوي وحده فيه من المورّثات ما يساوي نصف كل خليّة، حيث لو اتحدا لأصبحا خليّةً كاملة، هذه أوّل مرحلة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ)

2 - المرحلة الثانية: العلقة

قال العلماء: هذه البويضة الملقّحة.. تصاحبُها حقائق مذهلة.. فهذه البويضة الملقّحة بعد أربعين ساعة تصبح أربع خلايا، وبعد ثمانين ساعة تصبح اثنتين وثلاثين خليّة، وبعد خمسة أيّام تصبح كالتوتة تماماً، تُسمّى عند العلماء.. التوتة لشدّة انقسامها، أيْ أنها تنقسم إلى عشرة آلاف خليّة، من خليّةٍ واحدة خلال خمسة أيّام تنقسم إلى عشرة آلاف خليّة، يُسميها العلماء التوتة، هذا الانقسام يجري في القناة ما بين المبيَض وبين الرحم.

والشيء العجيب أن هذا الانقسام لو رافقه تَبَخُّر لعلق في الطريق، لأن هذه القناة كالأنبوب، لو كبُرت هذه البويضة في أثناء انقسامها لما أمكنها أن تتابع سيرها، لذلك يجري هذا الانقسام الشديد إلى عشرة آلاف خليّة دون أن يزداد الحجم من أجل أن تصل هذه البويضة إلى الرحم.

الآن ربنا عزّ وجل سمّاها علقة، العُلماء الْقُدامى فسّروا العلقة بأنه دمٌ مُتَجَمِّد، ولكن البحوث الحديثة تثبت أن التسمية لها علاقةٌ وشيجة بطبيعة العلقة، إنها من التَعَلُّق.

أولاً: هذه البويضة في سطحها الخارجي لها خمائل، كيف ؟ إنّ بعض المحافظ الحديثة لها بدل القفل قطعة من القِماش عبارة عن خملات وخَملات أخرى تعلق عليها، كذلك هذه البويضة لها خمائل، لمجرّد أن تصل إلى جدار الرحم، وفي منطقةٍ خاصّةٍ من جدار الرحم فإنها تَعْلَق، وأما خلايا التوتة.. أو هذه البويضة الملقّحة.. هي خلايا آكلة تأكل من جدار الرحم حتى تنغرس فيه، وبعد ذلك تأتي المَشيمة

وتُساعد على لصوق هذه البويضة في جدار الرحم، وبعدها يأتي المِعْلاق، وهو غشاءٌ يربط هذه البويضة بالرحم ربطاً كلياً.

هذه أربعة أنواع من التَعْلِيق، تعليق خميلة البويضة، وتعليق خميلة المشيمة، والخلايا الآكلة، والمِعلاق، هذه كلُّها من أجل أن تلتصق البويضة بجدار الرحم، وجدار الرحم كأنه عاقل يعرف أن هناك ضيفاً عزيزاً، طبيعة الجسم البشري تلفظ كل شيء إلا الرحم فإنه يستقبل هذه البويضة مع الترحيب ومع الضيافة، فإن الدماء في هذه المنطقة التي تعلق فيها البويضة تزداد بشكلٍ غريب، وما الدورة الشهريَّة إلا هذه الدماء التي أُعِدَّت لاستقبال البويضة فلمَّا سقطت البويضة نزلت معها هذه الدماء، شيءٌ لا يُصَدَّق في هذه العلقة..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ)

من خمسة إلى سبعة أيَّام، هذه العلقة تصبح كُرَةً مجوَّفة، ويتشكَّل لها طبقة خارجيَّة وطبقة داخليَّة، الطبقة الخارجيَّة تُسهم بأخذ الغذاء، والطبقة الداخلية تسهم بتشكيل الجنين، هذه علقة منظرها من بعيد كقطعة من الدم المتجمِّد.

بالمناسبة لا تزيد ثخانتها على ربع ميليمتر، والحديث لا يزال عن هذه البويضة الملقَّحة التي أصبحت كرةً مجوَّفة، وقد انقسمت إلى عشرة آلاف خليَّة، ولصقت بجدار الرحم، ولا يزيد حجمها عن ربع ميليمتر، لا تزال علقة، ثُمَّ يقول الله عزَّ وجل:

(ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ)

3 - المرحلة الثالثة: المضغة المخلقة وغير المخلقة:

في اليوم العشرين، وبعد عشرين يوماً تنقلب هذه العلقة إلى مضغة، مضغة أي قطعةٌ فيها ملامح، فيها خطوط، أو فيها كُتَل، أو فيها نتوءات.. مضغةٌ مخلَّقة.. يسميها العلماء الكتل البَدَنِيَّة، يقولون: هذا الرأس، سهم، وهذا الجذع، وهذه الأطراف، شيءٌ غريب، كتلة لحم تشبه المُضغة، أيضاً حجمها صغير جداً، حجمها صغير لكن فيها بعض المَلامح، فيها كتل، فيها نتوءات، فيها خطوط، فيها أقواس، هذه المضغة..

المخلَّقة وغير المخلَّقة، المخلَّقة تبدو ملامح الأعضاء ؛ ملامح الرأس، ملامح الجذع، ملامح الأطراف، غير المخلَّقة هي قطعة من اللحم أي مضغة بشكل موحَّد، وبعضهم قال: " غير المُخلَّقة التي تسقط، والمُخلَّقة التي يستمرُّ بناؤها "، هذا تفسيرٌ آخر، كل هذا في الأسبوع الرابع، ولكن في الأسبوع الخامس والسادس تتحوَّل هذه المُضغة التي يسميها العلماء.. الكتل البدنيَّة.. إلى عظام، وفي الأسبوع السادس

والسابع تُكْسَى هذه العظام بالعضلات، ويقول عليه الصلاة والسلام في حديثٍ شريفٍ يُعَدُّ من معجزات النبوّة، يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام مسلم:

((إِذَا مَرّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ.. أي ستّة أسابيع بالضبط، أي ستّة في سبعة يساوي اثنين وأربعين.. إِذَا مَرّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى.. وليس في الإمكان لو شققنا بطن المرأة وأخذنا هذه المضغة، ليس في الإمكان أن نعرف جنسها قبل مرور اثنتين وأربعين ليلة.. ثُمّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ))

(صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود)

هذا الحديث الذي رواه الإمام مسلم يُعدُّ من معجزات النبوّة، أي في الأسبوع السادس مع بداية الأسبوع السابع تنقلب المُضغة المُخَلّقة إلى عظام ثمّ تُكسى هذه العظام عضلاتٍ.. أي لحماً.. وعندها تتحدد الأعضاء ويُعرف ما إذا كان ذكراً أو أنثى بنصّ الحديث الشريف..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلّقَةٍ لِنُبَيّنَ لَكُمْ)

فلو وازنت بين صورة الطفل المولود حديثاً بما حباه الله من جمال وتناسق، وإلى منظر الجنين في بطن الأم لهالك المنظر، منظرٌ مخيف، الجنين وهو مُضغة، وهو علقة، وهو في أطوار خلقه منظره غير مألوفٍ إطلاقاً، ولكن الله الجميل يُسْبِغُ على هذا المخلوق بعد الولادة جمالاً، وتناسقاً، ونضرةً..

(لِنُبَيّنَ لَكُمْ)

علة خلق الإنسان في هذه المراحل لبيان عظمة الله

نحن جميعاً كنّا كذلك، كنّا حيواناً منوياً دخل إلى بويضة، وانقسمت هذه البويضة إلى أربع خلايا، ثم إلى اثنين وثلاثين خليّة، ثم إلى عشرة آلاف خليّة، وهذه البويضة سارت في القناة إلى الرحم وانغرست، وتمّت بأشكال تأخذ بالألباب.

الآن توصّل العلماء إلى إدخال مناظير إلى الرحم، وتصوير الجنين، فعندي صور حول هذا الموضوع لا تصدّق، لِما تسبّب لدى الإنسان من دهشة، هكذا يتمُّ الخلق ؟ كيف هذا الجنين الصغير يسبح في سائل حوله غشاء، وغشاء، وغشاء، شيءٌ يدعو إلى العجب، وإلى تسبيح الله وتعظيمه..

(وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ)

تقدير ما يستقر في الأرحام من الأجنة:

فهناك الجنين الذي يَسْقُط يسمى السِقط، وهناك الجنين الذي ينمو ويولد، أما الحكمة البالغة أن كل جنينٍ مشوّهٍ يسقط، هذا هو الأصل، رحمةً بالأم والأب، رحمةً بالإنسان أن كل جنينٍ مشوّهٍ يسقط، وهذه الأجنّة التي تولد مشوّهةً نادرةٌ جداً، وهذه النُدرة لها حكمةٌ بالغة من أجل أن يبقى الأب والأم متعلِقين بفضل الله عزّ وجل، يرجوان من الله السلامة لهذا المولود، أمّا في الأصل فكل جنينٍ فيه خَلَلٌ في بنيته فإنه يسقط، وهذا مصداق قوله تعالى:

(وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

والأجل محدّد بالساعات والدقائق، ولكن لصعوبة الحساب لا يدري الزوج ولا الزوجة متى بالضبط تمّ التلقيح، لكن لو عَرَفَ الزوج أو الزوجة متى تمّ التلقيح لعرفا بالضبط متى الولادة، لأن هذا الأجل مسمّى لا ينقص ولا يزيد.

(ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً)

مراحل الإنسان بعد خروج إلى الدنيا:

1 – مرحلة الطفولة:

لو أنّ أحدنا اطّلع على علم الأجنّة، ورأى كيف بدأ هذا الطفل في هذه الأشهر تكوّن الهيكل العَظمي، ثم كُسيت العظام لحماً، ثم جاء المَلَك، ثم ترى شيئاً لا يُصدّق.

هذه آية أيها الإخوة تحت سمعنا وبصرنا، هذه آيات الله..

(هَذَا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(سورة لقمان: من آية " 11 ")

ماذا فعلوا ؟..

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور)

هذا الطفل يحتاج إلى طعام خاص، إلى حليب، يحتاج إلى عناية فائقة، إلى تنظيف، لا يُمسك أمعاءه، هذا الطفل يحتاج إلى من يعلِّمه القراءة والكتابة، والنُطق والمشي، والحركة، إلى أن يصبح هذا الطفل الصغير شابّاً يافعاً، ثم يبلغ أشدّه، وقال بعض العلماء: **" أشدُّ الإنسان في الأربعين "**، حيث أصبح عاقلاً، قوي البنية، مُتّزن العاطفة، بعيد النظر، يحسن التكلّم، يحسن التَصَرُّف..

(ثُمّ لِتَبْلُغُوا أَشُدّكُمْ)

2 – مرحلة الشدة والقوة:

فهذا الذي بلغ أشدّه من العلم، والاكتمال الجسمي، والاتزان العاطفي، وبُعد النظر قد ينسى أنه كان طفلاً صغيراً يضحكه كل شي، ويبكيه كل شيء، ينسيه كل وشيء، يرضى لأتفه شيء، ينفعل لأتفه سبب، يبكي لأتفه سبب، يرضى سريعاً، يغضب سريعاً، ذاتي، سويعاتي، هذا الذي بلغ أشدّه نسي يوم كان طفلاً ؟..

(ثُمّ لِتَبْلُغُوا أَشُدّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى)

3 – الوفاة للبعض:

في الأربعين يتوفّى، بأوج نشاطه، بأوج صحّته، باكتماله.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

4 - الرد إلى أرذل العمر:

ضَعُفَت قوّته، وانحنى ظهره، وضعف عقله، وضعفت ذاكرته، وكثر نسيانه، وأصبحت له أخلاق ذميمة، أصبح حُشَري المزاج، يسأل كثيراً، يعلِّق كثيراً، ينتقد كثيراً، يعيد القصّة آلاف المرّات، يكرهه من حوله، ينسى، يضيّع، يفضح أهله..

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

نعوذ بالله من أرذل العمر، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت))

(فيض القدير[114/6])

هذه ضمانة أيها الإخوة،

((من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت))

تعلّموا القرآن كي يُنْعِمَ الله علينا بشيخوخةٍ وقورة، هناك من يتقدّم به العمر فيُهان، يُهان من أولاده، يُهان من زوجته، يُهان من قِبَل أقرب الناس إليه، يصبح منبوذاً، يكره الناس الجلوس معه، يبتعدون عنه، يتحاشونه.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

لكنّ المؤمن معافى من هذا..

(لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)

لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا

سمعت عن رجلٍ بلغ قمّة المَجْدِ في اختصاصه العلمي صار أستاذاً في الجامعة، وصار وزير العدل.. القصّة قديمة جداً.. وله مؤلّفات ضخمة، وفي أرذل العمر خرج من البيت ولم يعد، بحثوا عنه ساعاتٍ طويلة فوجدوه في أحد أطراف المدينة لا يعرف كيف يعود إلى بيته،

(ثمّ يُردُّ إلى أرذل العمر)

أحياناً يفقد الإنسان إمكانية ضبط نفسه، يضطر أهله إلى تغيير ملاءات الفراش مرّات عديدة، فتغضب زوجته عليه، وتسبّه أحياناً، وتلعنه أحياناً، وتقول له: الآن نظّفتك..

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)

التقوى أقوى أيّها الإخوة، من عاش تقياً عاش قوياً، فالإنسان العاقل هو الذي يتقي الله في شبابه..

((اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

(من تخريج أحاديث الإحياء)

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)

لو وازنت بين شيخوخة مؤمن وشيخوخة إنسان عاصٍ لوجدت البَوْنَ شاسعاً، هذا كلّما امتدّ به العمر يزداد قيمةً، ورفعةً، وشأناً، ووقاراً، وعلماً، وفهماً، وذكاءً، ومحبّةً، والناس يتعلّقون به ؛ وذاك كلّما امتدّ به العمر يزداد إهمالاً، وازوراراً، يبتعد الناس عنه، يتفكّهون بقصصه، والذي يريد أن يعرف فليبحث..

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هناك رجل حَصّل أموالاً طائلة، استغل علمه وطبّه، وكان قاسياً في معاملته للمرضى، قاسياً جداً، لا يعرف أن المريض قد يكون فقيراً أبداً، لا يخرج بمريضه إلا بليرة ذهب.. قصّة قديمة جداً.. في آخر حياته رُدّ إلى أرذل العمر، أخرجوه من بيته، ووضعوه في القبو، رائحته غير المقبولة فاحت وانتشرت، نُقِلَ إلى بيتٍ بعيد، تُلْقِي إليه الخادمة بالطعام إلقاءً، وتذهب، يسأل عن زوجته فتقول له: مشغولة، ثمانية أعوام قضّاها في بيت أرضي، أو قبو يلاقي أشدّ أنواع الإهانة والعذاب، لكن..

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)

أين ذكاؤه ؟ أين جبروته ؟ أين عقله ؟ أين قوّته ؟.

شيءٌ آخر:

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)

الاستدلال على البعث بإحياء الأرض بعد موتها

انظر إلى الأشجار في الشتاء تجد أنها خشب، والأرض تراب، ثم في الربيع هذه الأشجار اكتست حلّةً قشيبة، فمن أين جاءت هذه الحُلّة البيضاء ثم حلّة خضراء ؟ وهذه الأرض من أين جاءها الربيع ؟..

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6))

فإذا قال الله عزّ وجل: إنكم سوف تُبْعَثون بعد الموت لحياةٍ أبديّة يجب أن نُصَدِّقَهُ، والدليل هذه الآيات، كيف مررنا من حالةٍ إلى حالة ؟ وفعل هذه الأشجار التي اهتزّت وربت، قال تعالى:

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 6 - 15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-06-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الحج، يقول الله سبحانه وتعالى بعد قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

معنى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

المعنى الأول:

معنى أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، أي أن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، بينما ما سواه من المخلوقات فممكن الوجود، أيّ شيءٍ غير الله سبحانه وتعالى يمكن أن يوجد، ويمكن ألا يوجد، هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية فوجود الأشياء ليس بذاتها، بل بقدرة الله..

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: من آية " 255 ")

أيّ شيءٍ قائمٌ به، فوجود الأشياء ليس ذاتياً، إنما الوجود وجود الموجودات، مستمدٌ من الله عزّ وجل، فوجودها ليس حقيقي، وجودها متعلقٌ بوجود الله، وجودها متوقفٌ على وجود الله إذاً:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

أيْ أن في الكون حقيقة واحدة ألا وهي الله سبحانه وتعالى، أول معنى أن الله هو الحق أي أنه أزليٌ أبديٌ سرمدي، لا يتعلق وجوده بشيءٍ آخر..

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4))

(سورة الإخلاص)

معنى:

(اللَّهُ الصَّمَدُ)

أي ذاتي الوجود، أما نحن مفتقرون إلى الهواء، فإذا انقطع عنا الهواء نفقد الحياة، مفتقرون إلى الماء، مفتقرون إلى الطعام والشراب، مفتقرون إلى جهاز القلب، فلو تعطل هذا العضو الخطير لأصبحنا جثة هامدة، مفتقرون إلى أجهزة كثيرة جداً ؛ إلى أجهزة عصبية، وأجهزة هضمية، فحياة الإنسان مفتقرة إلى ما لا نهاية له من المقوّمات، بل إنها مفتقرةٌ إلى الروح التي هي قوة الله في الإنسان، فوجود الكون وجود وهمي، لأن هذا الكون، كن فيكون، زل فيزول،

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

إذاً وجود المخلوقات ليس وجوداً أصلياً، بل هو وجود مبني على وجود الله عزّ وجل، فالحق هو الله، هو الأبدي السرمدي، أما الأرض كل من عليها فان.

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة القصص)

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

لذلك من تعلّق بالحق سَعِدَ إلى الأبد، ومن تعلق بالباطل زال مع الباطل، وزهق مع الباطل..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني:

أن الله سبحانه وتعالى هو حقٌ ومخلوقاته بالحق، معنى بالحق أي بحكمةٍ بالغة، كل شيءٍ خلقه الله عزّ وجل بدرجةٍ، وبحجمٍ، وبشكلٍ، وبنوعٍ وبتعقيدٍ، وبإمكاناتٍ، وبأجهزةٍ، وبطباعٍ بحيث لو اختل بعضها لكان هذا نقصاً في حكمة الله عزّ وجل، إذاً فأول معنى:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

أيْ هو الأبدي السرمدي، كل شيءٍ سواه يفنى، لا بقاء لشيءٍ سواه، هو الحي الباقي.

المعنى الثالث:

أن الله سبحانه وتعالى هو الحق بمعنى: أنه واجب الوجود، بينما غيره ممكن الوجود، إنه مصدر الوجود، وقوام الوجود، ولا وجود إلا وجوده.

المعنى الرابع:

مخلوقات الله عزّ وجل بالحق، كل مخلوقٍ له شكل، له حجم، له خصائص، له صفات، له أجهزة، له طباع، إنها بالحق حيث لو زادت درجة أو نقصت درجة لكان هذا خللاً في خلق الله عزّ وجل،

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: من آية " 3 ")

فهذا المعنى ينطبق على الكون كله، بُعد الأرض عن الشمس بالحق، لو زاد هذا البعد لاختل توازن الأرض، لو قل هذا البعد لاحترق من على الأرض، بعد القمر عن الشمس، بعد الأرض عن القمر، طبيعة الجبال، طبيعة البحار، أنواع النباتات، أنواع الحيوانات، أنواع الأسماك، أنواع الأطيار، كل مخلوقٍ ليس في الإمكان أبدع مما كان، كل مخلوق ؛ كبيراً كان أو صغيراً، جليلاً كان أو حقيراً، هذا المعنى الثالث، الله سبحانه وتعالى هو الحَق الأبدي السرمدي، وهو الحق واجب الوجود، وغيره ممكن الوجود، وهو الحق قوام الوجود.

الآن مخلوقاته بالحق، أي بوضعٍ كاملٍ كمالاً مطلقاً.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ)

نظامه بالحق، مخلوقاته، أنواعها، أعدادها، أشكالها بالحق، تسييره بالحق، نظام المجرّات بالحق، نظام الكواكب بالحق، المجموعة الشمسية بالحق، خلق الإنسان بالحق، خلق الجنين بالحق، خلق النبات بالحق، أي بوضعٍ كاملٍ لا يقبل تعديلاً،

هذا مثل ما بين أيديكم:

هل علمتم أن خلق الإنسان طرأ عليه تعديلٌ ؟ لا، ولكنّ صُنعَ الإنسان يطرأ عليه ألف تعديل وتعديل، أنظر إلى مركبةٍ صنعت عام ألف وتسعمئة وعشرة، وانظر إلى مركبةٍ صنعت عام ألف وتسعمئة وثمانين، أو ثمانية وثمانين، ترى أن بينهما بوناً شاسعاً، بوناً كبيراً جداً، إذاً خلقُ الإنسان يتكامل، ولكنَ خلق الله عزّ وجل كاملٌ كمالاً مطلقاً، معنى بالحق: لا يمكن أن يطرأ عليه تعديل، فمثلاً لن يقال: الإنسان الفلاني مولود عام ألف وسبعمئة وعشرة، وكان في خلقه نقص كثير، ليس هذا الكلام معقولاً، وأن هناك تعديلات جوهرية أُجريت على أجهزته، مستحيل هذا الكلام، في حق الله هذا مستحيل، خلقُ الإنسان خلقٌ كامل لم يطرأ عليه أي تعديل..

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ)

كلمة بالحق من معانيها أيضاً، نأخذ معناها من آيتين:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

(سورة ص: من آية " 27 ")

الباطل هو الزائل لا محالة، والحق هو الثابت والدائم، فربنا عزّ وجل هو ثابت وخَلَق الكون ليبقى، وما حياته الدنيا إلا طورٌ مِن أطواره، الإنسان خلق ليبقى، لأن الإنسان مخلوق بالحق، ومعنى بالحق أي خلق ليسعد إلى الأبد في جوار الله عزّ وجل، وما الموت إلا ثوبٌ يخلعه ويرتدي ثوباً آخر، فالخلق

بالحق، أي الخلق لم يكن خلقاً باطلاً أي زائلاً، بل خُلِقَ الإنسان ليبقى أبد الدهر، إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

فمعنى الحق هو الشيء الهادف، أيْ أنّ ربنا عزّ وجل خلق الإنسان لهدفٍ عظيم، أمّا أن يقول بعض الناس: إن الإنسان خلق للشقاء، فهذا ليس بالحق، فأنت مثلاً حينما تبني بناءً ضخماً لابدّ من هدفٍ كبير وراء هذا البناء، تبني جامعة، يُبنى هذا البناء ليبقى، ويبنى لهدفٍ كبير، نقول: هذا البناء بالحق بمعنى أن أساساته متينة، بناؤه يبقى إلى عشرات السنين، وله هدفٌ كبير من بنائه، لذلك معنى " الحق " أنه يعني مجموعة من المعاني، فمن معاني الحق البقاء، ومن معاني الحق الكمال، من معاني الحق الدَيْمومة، من معاني الحق أنه واجب الوجود، من معاني الحق أنه أصل الوجود.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقُ)

الحق تأتي وصفاً، وتأتي صِفَةً، نقول مثلاً: هذا القرآن حقٌ، نَصِف القرآن بأنه حق لأنه لا يوجد فيه باطل، ولا تناقضٌ، ولا خلل، ولا رَيب، ولا زَيغ، ولا فيه آية تصادم حقيقة علمية، هذا القرآن حقٌ وما دام حق إذاً ثابت، دائماً الشيء الحق ثابت، لو بني بناءٌ بشكلٍ صحيح، لو بني الجدار بالحق، أي على شاقول، يبقى هذا البناء، لو بُني الجدار من دون شاقول، بُني مائلاً، هذا البناء لابدّ أن يسقط، فالبناء الذي بُني على شاقول حق، والجدار الذي بُني بلا شاقول باطل، لابدّ أن يسقط، فلذلك:

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقُ وَأَنّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى)

وإحياء الموتى حقّ

فهذه الآية ما دام الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان:

(مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلّقَةٍ)

هذا الذي خلق الإنسان بهذه الأطوار قادرٌ على أن يخلقه خلقاً ثانياً، لذلك:

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقُ وَأَنّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيُّ شيءٍ، ما من كلمةٍ في اللغة أشمل وأوسع من كلمة شيء، لأن كلمة شيء تشمل كل شيء.

(وَأَنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قُدْرَةُ الله عزّ وجل لا تُحَد، بينما قدرة الإنسان محدودة، أي أنك أيها الإنسان ؛ هل تأمّلت في الكون ؟ هل أجَلْتَ فكرك في خلق السماوات والأرض ؟ هل فكّرت في خلقك ؟ هل فكرت في خلق طعامك ؟ في خلق شرابك ؟ في خلق ما تأكله من حيوانات ؟ في خلق ما تستعين به من حيوانات ؟ هل فكرت في خلق الأطيار ؟ في خلق الأشجار ؟ في خلق الأسماك ؟ هل توصّلت من هذه الجَوْلات إلى أن الله هو

الحق ؟ فليس في الوجود حقيقةٌ إلا الله، وما سوى ذلك صور وأخيلة لا تقدّم ولا تؤخّر، هنيئاً لمن ربط مصيره بالحق، والويل لمن ربط مصيره بالباطل، فالباطل زاهق، والباطل لابدّ من أن يسقط.

(وَأَنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ)

والساعةَ حقٌ

أيْ أنّ الإنسان إذا فكّر تفكيراً بسيطاً، توصّل من هذا التفكير إلى أن هذا الكون عظيم، وخالقه عظيم، وفي الحياة الدنيا حظوظ متفاوتة، هذا مريض، وهذا صحيح، هذا قوي، وهذا ضعيف، هذا غني، وهذا فقير، هل يعقل أن يستمتع الغني بالغنى، ويموت، وأن يشقى الفقير بالفقر، ويموت، وأن يسعد القوي بقوته، ويموت، وأن يشقى الضعيف بضعفه، ويموت، وينتهي كل شيء !! نقول: يا رب أين حق الفقير؟ أين حق الضعيف ؟ أين حق المريض والعليل ؟ لابدّ من يومٍ يحاسب فيه الإنسان على أعماله كلها، لابدّ من يومٍ يعاد فيه تقييم كل شيء، لابدّ من يومٍ ينال الإنسان جزاء عمله إن صغيراً أو كبيراً، لابدّ من يومٍ يعود الحق إلى نِصابه، لابدّ من يومٍ يأخذ كل ذيِ حقٍ حقه، إذاً:

(وَأَنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ)

أيْ أنّ مِن لوازم الإيمان بالله الإيمانُ باليوم الآخر، من لوازم إيمانك بعظمة الله أن تؤمن بعدالته، وعدالته لن تتحقق كاملةً إلا في يوم الدين، يوم البعث والنشور..

(وَأَنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنّ اللّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

لذلك يتوهّم الإنسان أحياناً أن الموت نهاية الحياة، والأصح من ذلك أن الموت بداية الحياة، لهذا قيل: " الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء "، ولذلك فالإنسان في الدنيا في دارِ عملٍ ولا جزاء، وهو في الآخرة في دار جزاءٍ ولا عمل، لا عملَ بالآخرة، لقد خُتم العمل، وبقي الجزاء، أمّا الآن فالعملُ مفتحةٌ أبوابُه، ولكنّ الجزاء يوم القيامة.

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

إذا أردت المناقشة والجدال فعليك بالعلم والهدى والقرآن

العلماء وقفوا عند هذه الآية، هذا الذي يجادل، يماري، يناقش، من دون علمٍ يَسْتَنِدُ إليه، ومن دون هدىً يهتدي به، ومن دون كتابٍ يعلم تأويله، لا علمٌ ولا هدىً ولا كتابٌ منير، بعض العلماء قالوا: العلم هو علم أهل الأرض، والهُدى سلامة التفكير، والكتاب المنير هو الكلام الذي أوحاه الله عزّ وجل إلى بعض أنبيائه، فكأن الإنسان إذا أراد أن يناقش فَعَليه أن يستند إلى علمٍ قد تَعَلّمه، أو إلى هدىً يهتدي به، أو إلى

كتابٍ منير يُضئ له السبيل، أمَا الذي يُناقش بلا علم فهو إنسانٌ أحمق، إنسانٌ غبي، إنسانٌ مبطل، إنسانٌ مفترٍ، والذي يناقش بلا منطقٍ سليم، لا يستخدم وسائل المنطق الصحيحة، في الوصول من المقدمات إلى النتائج، هذا أيضاً مناقشته باطلة، والذي لا يهتدي بكتاب الله عزّ وجل، ولا يأخذ آياته مأخذَ الجَد، ولا يعتمدها في المناقشة، هذا إنسان أيضاً مناقشته باطلة.

فكأن الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا أنك إذا أردت أن تناقش فهل عندك علمٌ حَصّلْتَهُ ؟ أو هل عندك منطقٌ سليم تدرّبت عليه ؟ أو هل عندك آياتٌ بينات من قِبَلِ الله عزّ وجل تهتدي بها ؟ فإن كان لا علمٌ ولا هدىً ولا كتابٌ منير، فهو جدال مَن يسخر من نفسِهِ.

بعضهم قال: العلم هو المُسَلّمات: إن الجزء أصغر من الكُل، هذه مسلمة، وإن الجمع أكثر من الواحد هذه مسلمة، هناك مجموعة مسلّمات في المنطق، وهذه لا برهان عليها، لأن البرهان يعتمد عليها.

بعضهم قال: العلم هو المسلمات والبديهيات، والهدى هو إشراق الحقيقة في قلب الإنسان، والكتاب المنير هو القرآن الكريم، أو أي كتابٍ سماوي، على كلٍ إذا أردت أن تناقش مهندساً فينبغي أن تكون مهندساً، وإذا أردت أن تناقش طبيباً فينبغي أن تكون طبيباً، الطبيب لا يسمح لك أن تناقشه، وأنت جاهل، والمهندس كذلك، وإذا أردت أن تناقش لغوياً فلابدّ أن تكون لغوياً مثله، هذا العلم، والهدى لابدّ من قواعد منطقية في التعامل مع الأفكار، هذه المقدمة تُفضي إلى هذه النتيجة، أو أنْ تأتينا بآية، أي أنه إمَا أن يكون لدينا دليل عقلي، أو دليل نقلي، أو دليل واقعي، العلماء قَسّموا الأدلة إلى أنواع ثلاثة، الدليل النقلي ما جاء عن الله عزّ وجل في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة، هذا دليل نقلي، أخي هذا الأمر حرام، ما السبب، قال الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

(سورة المائدة: من آية " 90 ")

الاستهزاء يا أخي حرام..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قَوْمٍ)

(سورة الحجرات: من آية " 11 ")

شيء جميل، إما أن تأتي بالدليل النقلي، قرآن أو حديث، النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قال:

((لا تَبعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ))

(من سنن الترمذي عن حكيم بن حزام)

فإذا باعَ واحد بضاعة على المسطرة، فهذه مخالفة في البيع، فإذا وجدتَ تاجراً يبيع بضاعةً قبل أن يقتنيها فلك أن تنهاه عن ذلك، يقول لك: والدليل، تقول له: قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا تَبعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ))

أنواع الأدلة:

هذا دليل نقلي، فإذا أردت أن تناقش الناس فأنت بحاجة إلى دليل، والدليل ثلاثة أنواع، دليل نقلي وعقلي وواقعيّ.

1 - الدليل نقلي:

وهو أعلى أنواع الدليل من الكتاب الكريم ومن السنة المطهرة، أو الأصح ما صح من السنة المطهرة، يعني آية قرآنية، أو حديث متواتر صحيح، حديث حسن مقبول، لكنّ الحديث الضعيف مرفوض في الأحكام الشرعية، لكنه مقبول في الفضائل، في فضائل الأعمال، وفي المكارم الأخلاقية، هذا هو الدليل النقلي.

2 – الدليل العقلي:

وأمّا الدليل العقلي فهو المنطقي، تقول له: هذا المخدرات حرام أم حلال ؟ وتجيب من فورك: حرام، يقول لك: هات لي آية، فالله حرّم الخمر فقط، تقول له:

((كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ))

(من صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري)

بالمنطق، لماذا حرّم الله الخمر ؟ لأنها تسبب السُكْرَ، فأي مادةٍ أخرى تنطبق عليه، علّة التحريم إذاً هي محرّمة أيضاً، هذا دليل عقلي، بالقياس، أي أننا قسنا كل أنواع المخدرات على الخمر، فهي إذاً محرمة، محرمة بالقياس، أي بالدليل العقلي، ما دامت العلة متحدة إذاً حُكِمَ الخمر ينسحب على كل مسكر آخر، شيء جميل، هذا دليل ثانٍ.

الدليل الواقعي:

الدليل الثالث الواقعي، من خلال العلوم الوضعية تكتشف أن تربة القمر ليست من طبيعة تربة الأرض، فإذا أردت أن تذهب مع بعض العلماء من أنّ السماوات كانت كتلةً واحدة، ثم بفعل الدوران انفصلت بعض الكواكب عن بعضها، وهذا يجب أن يَتْبَعَهُ أن تكون تربة القمر من نوع تربة الأرض، فإذا كانت تُربة القمر من نوعيةٍ أخرى، فهذه النظرية مرفوضة، هذا دليل واقعي.

إذاً نحن بالمناقشة نحتاج إلى دليل واقعي، وإلى دليل عقلي، وإلى دليل نقلي، أعلى درجة في الأدلة للمسلمين الدليل النقلي، أعلى درجة في الأدلة لغير المسلمين.. إنسان غير مؤمن بالأديان.. الدليل الواقعي والعقلي، فالإنسان عليه أن يكون حكيماً إذا ناقش الناس، إذا ناقشت إنساناً مسلماً يؤمن بكتاب الله وبسنة رسوله يكفيك أن تأتيه بالدليل النقلي، آيةٌ قرآنية أو حديثٌ شريف، أما إذا ناقشت إنساناً غير عابئٍ بكتاب الله ولا بالسنة المُطَهّرة، يجب أن تبدأه بالدليل العقلي أو الدليل الواقعي، فلو أن واحداً قال

لك: هناك دواء يطيل العمر وهو مسلم، تقول له: لا يا أخي، لأنّ الله سبحانه وتعالى في الكتاب الكريم يقول:

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

(سورة الأعراف)

فهذا الدواء لا تصدقه، هذه دعاية إعلامية لا قيمة لها، أما إذا خاطبت إنساناً آخر غير مؤمن بالقرآن والسُنة فعليك أن تتبع الدليل العقلي أو الدليل الواقعي، هذا معنى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

إنه يجادلُ لا بالدليل الواقعي: العلمي، ولا بالدليل العقلي: الهُدى، ولا بالدليل النقلي: الكتاب المنير، وأمّا آداب المناقشة أن تتغير بهذه الأدلة الثلاثة.

(ثَانِيَ عِطْفِهِ)

معنى: ثَانِيَ عِطْفِهِ:

العطف هو الجانب يثني جانبه كبراً، كقوله تعالى:

(وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

(سورة لقمان: من آية " 18 ")

تصعيرُ الوجه يعدّ كبراً، وثنْي العطف كذلك يُعدّ كبراً..

(ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

حينما يناقش بغير علمٍ ولا هدى ولا كتابٍ منير، فيقول لك: لابدّ من الاختلاط، تقول له: الأجانب حينما رأوا آلافاً مؤلفة من اللُقطاء في الحدائق جعلوا الجامعات هناك ذكوراً وإناثاً، هؤلاء الذين لا يؤمنون بالأديان حفاظاً على بنية مجتمعهم جعلوا الأمر هكذا، عندنا دليل واقعي.

(ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

هو يريد الشهوة، يريد أن يستمتع بالمرأة بطريقٍ مشروع أو بطريقٍ غير مشروع، لذلك يحبذ الاختلاط، يحبذ الانحلال، يحبذ اختلاط الأنساب، يحبذ التبدُل، يحبذ خروج المرأة بأبهى زينة، من أجل أن يروي نهمته، ويحقق شهوته بشكلٍ غير مشروع فلذلك:

(ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

هو يريد أن يصُدَّ الناس عن سبيل الله، يريد أن يبعدهم عن طريق الحق، يريد أن يكون هؤلاء الناس مُنْحَلِين.

(لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ)

مصير المضِلّ عن سبيل الله في الآخرة:

هذا وعدٌ إلهي، كل إنسانٍ يريد أن يُضِلَّ الناس عن سبيل الله، كل إنسانٍ يريد أن يصد الناس عن طريق الحق، كل إنسانٍ يريد أن يضل الناس عن طريق سعادتهم لابدَّ أن يناله خزيٌ في الدنيا، لابدَّ أن يفضح على رؤوس الأشهاد، فضيحة مالية، فضيحة أخلاقية، فضيحة علمية في عمله، لابدَّ أن يُشهَّر به عقاباً له على صده عن سبيل الله، هذا عقابٌ أليم..

(لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ)

إذاً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ *ثَانِيَ عِطْفِهِ)

أيْ كبراً، هذه اللام لام التعليل..

(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

هدفه إضلال الناس عن سبيل الله..

(لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ)

هذا الإنسان يقال له: ذُق عذاب الحريق..

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

مصير الإنسان يحدّده ما قدمت يداه

فالإنسان يوم القيامة يرى أنه لمْ يظلم، وأن الله سبحانه وتعالى أعطاه حقّه غير منقوص.. ذق إنك أنت العزيز الكريم..

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

بعضهم يقول: الله سبحانه وتعالى ينفي أن يكون ظَلّاماً، وظلّام على وزن فعّال، وهي صيغة مبالغة، فهل هو ظالمٌ، وأنه ينفي المبالغة في الظلم فقط ؟ فهل يليق بحق الله تعالى الظلم ؟ فهي صيغة لا لنفي المبالغة، إن مجيء صيغة المبالغة ظلّام بعد النفي ليس لنفي المبالغة، بل للمبالغة في النفي، أي أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة وإن تكن حسنةً يضاعفها.

الآن عندنا نمط آخر من الناس، هؤلاء أيضاً خطرون، هذا النمط:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

نمط من الناس: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ

الحرف هو الطَّرَف، إن صح التشبيه، وإن صح التمثيل، هذه الطاولة مثلاً هناك من يعبد الله على هذا الحرف منها، هو يقف على حرفٍ، أي على طرفها، فإذا هو على شف هاوية، على وشك السقوط، أيُّ شيءٍ يسقطه، أية هزةٍ توقعه، أية عاصفةٍ ترميه، أية موجةٍ تسحبه، موجة تسحبه، عاصفة تسقطه، دفعة قليلة تجعله يسقط.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

أحياناً يتصورُ الإنسانُ الدّينَ في أنه إذا استقام على أمر الله ستضاعف غَلّته عشرة أضعاف، سيشتري بيتاً بأرقى حي فوراً، سيشتري مركبة فخمة، سيتزوج امرأة كما تحلو له، سيعيش حياة أين منها حياة الملوك، هذا الوهم خطير، هو يوظِّف الدين من أجل الدنيا، هو يتاجر بالدين، هو يجعل من الدين مَطِيَّةً للدنيا، هو يعبد الله على حرف، ما دام صحيح الجسم فهو يعبد الله، يؤدِّي صلواته، يصوم رمضان، يحجُّ البيت، ما دام دخله وفيراً يعبد الله، ما دامت أسرته سعيدةً يعبد الله، ما دام يرقى في سلم الوظائف يعبد الله، فإن أصابه خيرٌ اطمأن به، هذا الإنسان الوصولي، يريد أن يصل إلى الدنيا عن طريق الدين، الحقيقة أن الإنسان لمَّا الإنسان يستقيم على أمر الله يسعدُه الله في الدنيا، لكن لا ينبغي أن يكون هذا شرطاً، فالله سبحانه وتعالى لا يُشارط، ولا يجرب، فيتوهَّم أن الإنسان إذا آمن واستقام وصلى يجب أن ينجح من دون دراسة، يجب أن أنجح، يجب أن يربح من دون جهد، يختار بضاعة سيّئة يقول لك: اتركها لسيدك يعني حسب تصوره أن الله يروّجها، كلا، فإنه إذا اختار بضاعة سيئة أسعارها مرتفعة يعرضها بالسوق فلا تباع معه، ينصرف الناس من عنده، فتجده يقول: أهكذا الدين ؟ بعد ما صليت، وعبدت الله بارت بضاعتي وكسدت، وربما ترك الصلاة سُخطاً على الله.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

إذا لم ينجح يترك الصلاة، ولسان حاله يقول: لم نتفق هكذا. لم يتفق مع الله أن الله لا ينجحه، هذا الإنسان إنسان واهم ساذج، إنسان ضعيف التفكير، يريد الدنيا بالدين، يوظف الاستقامة لِيُتاجر بها، لو تصورنا إنساناً استقام استقامة تامة، وهو يطمع من هذه الاستقامة أن يزداد ربحه وأن تحل كل مشكلاته، إذا استقام بهذه النية، فربما على الرغم من استقامته لا يحصل ما يبتغي، لأن هذه استقامة مشوبة، كأن تصادق إنساناً كي يعطيك مالاً، فإذا أعطاك المال تمدحه، وإذا منع عنك المال تذمه، هذه

ليست صداقة، هذه وصولية، هذا انتفاع، وهذا سلوك مغلوط، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ)

أنا أخشى من هؤلاء الناس كثيراً، ما دامت تجارة رائجة تجده يحضر الدروس، أين أنت ؟ حدثت معنا مشكلة بالتجارة، هناك صفقة لم تربح، فلماذا لا تأتي لحضور الدروس ؟ غضبان، فانقطع عن الدروس، هذا موقف ضعيف، أنت تعامل خالق الأكوان، الإيمان الصحيح أن تحبّه، وأن تعرفه في السراء والضراء، في إقبال الدنيا وإدبارها، في الصحة والمرض..

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ

* * *

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهمُ معدلٌ و إن عدلوا

واللهِ إن فتتوا في حبـهم كبدي باقٍ على حبـهم راضٍ لما فعلوا

* * *

هنا البطولة، البطولة أن تحبّه في الضرّاء، أن تحبه في أثناء المصيبة، أن تقول له: يا رب لك الحمد، مشى على قدميه مئةً وستين كيلو متراً اللهم صلّ عليه، ليصل إلى الطائف، أقام فيها أياماً عِدَّة يدعو أهلها إلى الإسلام، ردُّوه رداً قبيحاً، استهزؤوا به، استهزؤوا برسالته، قال بعضهم: " سأمزق أثواب الكعبة إن كنت رسولاً !! "، وقال آخر: "لم يجد الله أحداً غيرك يجعله رسولاً ؟! "، وقال ثالث، وقال رابع، أغرَوْا به سفهاءهم، ألجؤوه إلى حائط، قال صلى الله عليه وسلم:

((رب إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

(من الجامع الصغير)

في السرّاء والضرّاء، كان النبي الكريم راضياً، ولذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى قال في حقه:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: من الآية " 21 ")

فقد ذاق النبي الكريم الضرّاء فصبر، وذاق السرّاء فشكر، حينما فتح مكة طأطأ رأسه لله شكراً، وحينما قُهرَ بالطائف قال:

((رب إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي))

ذاق الضعف البشري، وذاق النصر، وكان في الحالين إنساناً كاملاً، كان صابراً راضياً، وكان شاكراً محباً حامداً، ذاق حياة الرخاء قال رجل: " لمن هذا الوادي ؟، قال عليه الصلاة والسلام: " هو لك "، قال: " أشهد أنك تعطي عطاء مَن لا يخشى الفقر"، وذاق الفقر..

((هل عندكم شيء ؟ قالوا: لا، قال: فإني صائم))

(مسلم عن السيدة عائشة)

ذاق اليسر، وذاق العسر، ذاق الرخاء، وذاق الشدة، ذاق النَصر، وذاق الضعف، ذاق مرارة أن تُطلّق بناته نكايةً به، هكذا فعل بعض كفار مكة قُبَيْلَ البعثة، حينما جاءته الرسالة طلقوا بناته من أجل أن يغيظوه، وذاق وهو في المدينة أراجيف تُرجف في حق السيدة عائشة، وشيءٌ لا يحتمله الإنسان، ذاق هذه، وذاق تلك.

ذاق من الصحابة الأجلاء المودة الراقية، وذاق من بعض الناس طباعاً جلفةً قاسية، يا محمد اعدلْ، قال له:

((ويحك من يعدل إن لم أعدل ؟))

(من تخريج أحاديث الإحياء)

قال له: يا أعرابي، هل أحسنت إليك ؟ قال: لا ولا أجملت، ذاق غلظة أبناء البادية بعضهم، وذاق نعومة أصحابه الكرام ورأفتهم، وفي كل الأحوال كان إنساناً كاملاً، ذاق ما ذاق، فقد عاش مع زوجةٍ تكبُره بخمسة عشر عاماً وكان وفياً لها، وعاش مع امرأةٍ في مِيْعَةِ الصبا، تقول له السيدة عائشة: ألم يبدلك الله خيراً منها ؟ قال: لا والله، لا والله، لا والله، عن السيدة خديجة، ذاق كل الأحوال، ذاق لذة النصر، وذاق مرارة الضعف في أحد وفي حنين، لذلك جعله الله سبحانه وتعالى أسوةً حسنة..

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ)

أصيب رجلٌ بورم خبيث في أمعائه، زاره إنسان في المستشفى، فقال له: اشهدْ أنني راضٍ عن الله، يا رب لك الحمد، كلما زاره زائر يقول هذه الكلمة إلى أن توفاه الله عزّ وجل، مريض آخر على عكس ذلك.

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ)

المؤمن الصادق يوطِّن نفسه على أن يذوق حلو الحياة ومُرّها..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدّلُوا تَبْدِيلا)

(سورة الأحزاب)

هذا الثبات على المبدأ، عرضوا عليه امرأة جميلة، وأن يكون زعيماً لقريش، وأن يكون أغنى أغنيائها، فقال:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته))

(السيرة النبوية)

أحياناً أحدنا لسببٍ بسيطٍ بسيط ينتكس، لسببٍ تافهٍ تافه يترك الصلاة، يا أخي أنت عاهدت خالق الكون، أنت فاوضت كف الرحمن في الحَج، أنت تبت إلى الله توبةً نصوحا، ببساطة، بسهولة، لسببٍ تافه،

لضغطٍ ضغط عليك به، لمشكلةٍ ألمّت بأسرتك، لعقبةٍ نشأت في عملك، لإنسان يضايقك تترك الدين ؟ أهكذا ؟.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

على حرف، هنا هذا المكان خطر، يعني نفخةٌ توقعه، موجةٌ تأخذه، دفعة تُسقطه، على حرف، ولكن هناك مَنْ يعبُد الله في الأعماق، أحدُ الرجال مِمَّن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق قال: أيعدنا صاحبكم، لم يقل: رسول الله، قال: " أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته !! ".

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

إذا كنت مؤمناً صادقاً فيجب أن توطِّن نفسك على طاعة الله في كل الأحوال، وأنت مالكٌ لحريتك، وأنت فاقدٌ لحريتك، في البيت وفي غير البيت، في الحضر وفي السفر، في الصحة والمرض، في الغنى والفقر، في العُسر واليسر، في ضيق الدنيا وفي سَعَتِها، في إقبال الدنيا وفي إدبارها، هذه البطولة، هذه الآية تهز مشاعر المؤمنين..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا)

(سورة الأحزاب)

أحد الصحابة الكرام جاء به كفار قريش ليصلبوه، قال له أبو سفيان يوم كان مشركاً: " يا خُبَيْب، أتريد أن يكون محمدٌ مكانك ؟ " قال: " والله ما أريد أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة "، هذا ليس على حرف أيها الأخ، بل في الأعماق، شوكة، ما أحب أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة، ليس على حرف.

أسمع إخواناً كثيرين ـ جزاهم الله كل خير ـ بعضهم حالته ضيّقة تجد دوامه منظومًا، في البحبوحة دوامه منظم صحيح، في الضيق كذلك، قبل الزواج، بعد الزواج، في عسره، في يسره، والله شيء جميل، والله مثل هؤلاء يُرفع الرأس بهم، مثل هؤلاء يعتمد عليهم، هؤلاء المؤمنون الصادقون، فهل الإنسان طفل ؟ الطفل لأتفه سبب يضحك، لأتفه سبب يبكي..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ

فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ

يقول لك: جيبٌ مليء، بطن مليء، الحياة في تمام.

(فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ)

وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ

مشكلة، مرض، نتيجة: " فيه أسيد أوريك " مرتفع جداً، مُنع من كل الطعام تقريباً، هذه فتنةٌ، صهره طلق له ابنته، من الممكن أن يقع مرضٌ بأهله، بأولاده، بنفسه، ويمكن أن يوقف عمله نهائياً.

(وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ)

سمَّاها الله فتنةٌ، لأنها سوف تكشفه على حقيقته..

(وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ)

أيْ أنه انتكس، ومن ثم يقول لك: هذا الدين كله خلط، رأساً، ودون تردد، أصبح خلطاً، لم نستفد شيئاً، لأن دنياه ضيقة، لأنه لم يجد عملاً، مر أسبوع أو أسبوعان، شهر أو شهران لم يجد عملاً، ضاقت به الدنيا قال: الدين باطل، رأساً اتهم الدين بالبُطلان.

(انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ)

أيْ انتكس.

(خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ)

خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ

خسر الآخرة بكفره، وخسر الدنيا بسوء ظنه بالله عزّ وجل.

(ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

الإنسان لابدّ له من جهة يعتمد عليها، فإذا ترك الله عزّ وجل يلتجئ إلى جهات أرضية أخرى، فتجده يتقرب من إنسان من أهل الدنيا، من أهل الحول والطول، يعتمد عليه، يخدمه، هذا جعله بديل الله عزّ وجل، كان معتمداً على الله عزّ وجل، فإذا هو يعتمد على زيدٍ أو عُبيد أو على فلان أو علاّن.

(يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ)

مآل الشرك الضلال في الدنيا والخسران يوم القيامة

هذا الذي اتجه إليه وجعله مكان الله عزّ وجل، اعتمد عليه، هذا الذي التجأ إليه لا يضرُّه، ولا ينفعه، عبد مثله، ضعيف..

(ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)

عندنا عبارة " ضلال كبير"، وعبارة " ضلال بعيد "، بعضهم شبَّه الضلال الكبير كَمَنْ لو كان في طريق إلى حمص مثلاً، وعلى يمين الشارع لوحة كبيرة جداً طولها أربعة أمتار بعرض ثلاثة أمتار مكتوب: تدمر على اليمين، رغم هذه اللوّحة الكبير الواضحة الفسفورية، المضاءة ليلاً اتجه إلى تدمر، وهو يبتغي حمص، نقول له: هذا ضلال كبير، ليست اللوحة تشير إلى ذلك، أما إنسان دخل بطريق سار فيه مئتين من الكيلو مترات، وبعد ما مشى هذه المسافة عرف أن هذا الطريق غلط، فقد مشى مسافةً بعيدةً جداً في طريق الضلال، فربنا عزّ وجل أحياناً يقول: " الضلال الكبير " وأحياناً " الضلال البعيد"، فقال:

(يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)

لا نافع ولا ضارّ إلا الله

قد يقول لك قائل: يا أخي هذا الإنسان الذي سِرْتُ معه أعطاني شيئا من المال، استفدت منه في الدنيا، صار لي شأن حينما تقرّبت منه، فربنا عزّ وجل انسجاماً مع تفكير هؤلاء..

(يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ)

إذا كان هناك نفع فالضرر الذي حصل من هذا الإنسان كبير جداً.

التوفيق بين قوله: مَا لاَ يَضُرُّه و قوله: يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ

هنا يُطالعنا سؤال: كيف يقول الله عزّ وجل:

(مَا لَا يَضُرُّهُ)

أي ينفي عنه الضرر، وهنا:

(يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ)

العلماء قالوا: الإنسان الذي يُعْبَدُ من دون الله لا يستطيع أن ينفع، ولا أن يضر إلا بإذن الله، ولكن مَن عبده من دون الله يضرُّه، طبعاً لأنه يبعده عن الله عزّ وجل.

(يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ)

لَبِئْسَ المَوْلَى ولَبِئْسَ العَشِيرُ

بئس هذا الوليّ الذي تولاّه، وبئس هذا العشير الذي عاشره. كل الذي أريده من هذه الآية ألا تنطبق هذه الآية عليك، يعني أن نعبد الله ما دام الله يعطينا، فإذا منع عنا انقلبنا على وجوهنا، هذه الآية تصف حالةً

مَرضية، بين المؤمنين أناسٌ يعبدونه على حرف، ما دامت الأمور على ما يُرام يعبدونه، فإذا جاءت على غير ما يرام لا يعبدونه، أحياناً الإنسان يصاب بمرض، وقد يكون مرضاً عُضالاً، هكذا مشيئة الله عزّ وجل، ألا تحب مشيئة الله ؟ هكذا أراد الله، هذه إرادته وهذه مشيئته، لذلك قال سيدنا علي كرم الله وجهه: " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين "، أيْ أنّ أعلى درجة من درجات اليقين أن ترضى بمكروه القضاء.

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

إنّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ

أيْ أنّهُ إذا أراد الله شيئاً وقع، وإذا وقعٌ شيءٌ أراده الله، والإرادة الإلهية متعلِّقَةٌ بالحكمة، والحكمة متعلقةٌ بالخير المُطلق، هذه كلمات يجب أن تحفظوها، إذا أراد الله شيئاً وقع، قولاً واحداً، وإذا وقع شيءٌ فقد أراده الله، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة، أيْ أن كل شيءٍ أراده الله فلابدّ له من حكمةٍ قاطعة، وحكمة الله متعلقةٌ بالخير المطلق، أما الدليل:

(قُلْ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران: من آية " 26 ")

الإعزاز خير، والإذلال خير، والإيتاء خير، والنَزْعُ خير، الحكمة متعلقةٌ بالخير المطلق، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة، وكل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، هذا هو القول الفصل، لذلك:

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

هنا إذا نسبنا الفعل إلى الله عزّ وجل، بمعنى أن الله يمتحن هذا الإنسان، فإذا كان صادقاً، مؤمناً، مُخلصاً هداه، أو تعزا الإرادة إلى الإنسان.

(إِنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

الإنسان ماذا يريد ؟ يريد الهدى.

(إِنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إِمّا شَاكِرًا وَإِمّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

إذا أردت الهدى هداك الله، وإذا أردت الضلال أضلّك الله، كلاهما يصح.

إن اللهَ ناصرٌ نبيّه،

(مَنْ كَانَ يَظُنّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السّمَاءِ ثُمّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

معنى: فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ

المعنى الأول:

هناك أناسٌ من قريش غاظَهُم أن ينصر اللهُ النبيَّ، وأن يُعلي شأنه، وأن يمدَّه بأصحابه الكرام، وأن يُقَدِّر على يديه فتح البلاد وهداية العباد، كفار قريش غاظهم ذلك، فكانوا يظنون أن الله لن ينصر النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الرجل مُدَّعٍ، هكذا يظنون، سَبَّ آلهتهُم، عاب دينهم، هل يعقل أن ينصره الله عزَّ وجل ؟ فهم يظنون أن الله لن ينصر محمداً عليه الصلاة والسلام، أما وقد نصره، ورفع شأنه، وأعلى ذِكْرَهُ، وفتح البلاد على يديه، وهدى العباد بهُداه، غاظهم ذلك، فامتلؤوا غيظاً وحقداً وكادوا ينفجرون، ربنا عزَّ وجل رد عليهم:

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ)

أي سيدنا محمد..

(فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

ليصعد إلى السماء، ثم ليمنع هذا النصر عن محمد، إذا كان بإمكانه أن يفعل ذلك، إذا غاظه أن ينصر الله النبي عليه الصلاة والسلام فليمدد بسببٍ إلى السماء، ليصعد إلى السماء، ثم ليقطع نصر الله عن هذا النبي الكريم، هل بإمكانه أن يفعل ذلك ؟ إن كان ليس بإمكانه أن يفعل ذلك فماذا يفعل إذاً ؟ هل يُذْهِبَنَّ كيده ما يغيظ ؟ هذا لا يُذهبنَّ كيده ما يغيظ، هذا هو المعنى الأول، وأوجَهُ المعاني التي جاءت في بعض التفاسير.

فبعض الناس أحياناً يرى مؤمناً قد نضَّره الله عزَّ وجل، ورفع شأنه، وأجرى على يديه الخير، فقد يغتاظ لذلك، والله سبحانه وتعالى حينما يُجري الخير على يدِ إنسان لا ينتظر أن توافق على ذلك، لا ينتظر أن توافق، ولا ينتظر أن تبارك، ولا ينتظر أن تسمح، هذا من معاني هذه الآية.

المعنى الثاني:

المعنى الآخر أنّ الإنسان إذا كان منقطعَ الرجاء من الله عزَّ وجل، لا يرجو الله عزَّ وجل، سوداوي المزاج متشائماً، هذا موته خيرٌ من حياته، والإيمان من لوازمه الثقةُ بالله، والرجاء بالله، فهناك أُناس يُيئِسون غيرهم هم ناس سوداويون، يحبون الأخبار المؤلمة السيئة، هؤلاء الناس بعيدون عن حقيقة الإيمان.

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ)

أيّ ظنه بالله سيّئ.

(فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

أيْ أنّ هذا الإنسان موته خيرٌ من حياته، هذا معنى، والمعنى الثاني: مَن غاظه أن ينصر الله النبي عليه الصلاة والسلام فليفعل ما يشاء، إن الله ناصر نبيّه، وليس بإمكان هذا الذي اغتاظ أن يقدِّم أو أن يؤخِّر، أيْ أن الله عزّ وجل حينما يرفع مِن شأن عبدٍ من عباده لا ينتظر من أحدٍ أن يوافق، أو لا يوافق.

(وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 14 - 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-07-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

وصف الله لأصناف من البشر:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الحج، ربنا سبحانه وتعالى يصف أصنافاً من بني البشر ؛ مُتَّبعون ضالّون، ومَتْبُوعون ضالون، وأناسٌ مذبذبون يعبدون الله على حرف:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

الله سبحانه وتعالى يصف لنا نماذج من بني البشر، ويتبعُ ذلك بقوله سبحانه وتعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

وصفُ الله بالإرادة

إرادة الله في الذين آمنوا أن يدخلهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً وقع، وإذا رأيتم شيئاً قد وقع فقد أراده الله عزّ وجل، لأنه لا يقع شيءٌ في ملك الله إلا بإرادة الله، فإذا أراد شيئاً وقع، وإذا وقع الشيء أراده الله، من هنا يَعْتَقِدُ المؤمن أنّ لكل شيءٍ حقيقة، وحقيقة الإيمان أن تعتقد أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

(من صحيح مسلم: عن " أبي هريرة ")

كلمة " لو" ليست واردةً في قاموس المؤمن، لو أني فعلت كذا وكذا، لأن الله سبحانه وتعالى لا يقع شيءٌ في ملكه إلا بإرادته، وكل شيءٍ أراده لابدّ أن يقع لأن الله سبحانه وتعالى فعّالٌ لما يُريد..

أما هذه الإرادة، هذه الإرادة الإلهيّة متعلِّقةٌ بالحكمة، يعني أن الله عزّ وجل يريد وإرادته ملابسةٌ للحكمة تماماً، الإنسان أحياناً يريد تحت ضغطٍ، يفعل شيئاً بضغطٍ، ولكنّه لا يريد أن يفعله، أو يفعل شيئاً بجهلٍ فبعد أن ينكشف الأمر يتمنّى لو لم يفعله، هذا شأن الإنسان، لكنّ شأن الله سبحانه وتعالى أن إرادته متعلقةٌ بالحكمة، وحكمته متعلِّقَةٌ بالخير المُطْلَق، فكل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله

وقع، وإرادته متعلقةٌ بالحكمة، وحكمته متعلقةٌ بالخير المطلق، وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات إرادة الله فيهم أن يدخلهم الجنّة إلى أبد الآبدين.

لذلك ليس هناك تناسبٌ بين خلق السماوات والأرض وبين العمر القصير الذي يعيشه الإنسان، هذه السماوات والأرض شيءٌ عظيم، وهي كلُّها مسخَّرةٌ لهذا الإنسان، أفيعقل أن تكون حياة الإنسان هذه الحياة القصيرة التي تنتهي بالموت ؟! الحقيقة أن حياة الإنسان تبدأ بالموت، والله سبحانه وتعالى يقول على هذا الذي يأتيه الموت ولم يقدِّم العمل الصالح يقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحدٌ*وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر)

الشيء الآخر في هذه الآية:

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

الإيمان مقرون بالعمل الصالح

في أكثر من مئتي موضع في كتاب الله وردت الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأن الإيمان من دون عمل لا قيمة له، اعتقاد، لو أنَّك اعتقدت أن هذه المراوح تعمل بالكهرباء، ماذا فعلت ؟ وهي كذلك، ماذا قدَّمت ؟ لكنَّك إذا عملت عملاً صالحاً فيه ترقى إلى الله عزّ وجل، إذا اعتقدت اعتقاداً صحيحاً ولم يكن هناك عملٌ يؤكِّدُ اعتقادك أو يجسِّده فإن هذا الاعتقاد لا قيمة له، لذلك: " الإيمان من دون عمل كالشجر بلا ثمر "، حيثما كان الإيمان وجب العمل، وحيثما صَحَّ العمل صَحَّ الإيمان.

هناك صِنفان من الناس: صنفٌ يدَّعي أن عمله صالح ولا حاجة إلى أن يعبد الله عزّ وجل، يقول لك: أخي القضية بالقلب، وأنا قلبي أبيض، لا أُكنّ حقداً لأحد، نقول: لو أن عملك صالح من دون إيمان هذا شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، وصنفٌ آخر يدَّعي أنه مؤمن، وأن القضية بالقلب لا بالعمل، أيضاً هذا مُخطئ والرد عليهما هذه الآية الكريمة..

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل))

(الجامع الصغير عن أنس بسند لا يصح)

ما من مسلمٍ على وجه الأرض إلا ويتمنَّى أن يكون من أهل الإيمان، وما من مسلمٍ على وجه الأرض إلا ويتحلَّى ظاهراً بمظاهر أهل الإيمان، ليس التحلي كافياً وليس التمني كافياً، لابدَّ من إيمانٍ ومن عملٍ صالح، مهما صحَّت عقيدتك إن لم يدعمها التطبيق والعمل فلا قيمة لها، ومهما صحَّ عملك إن لم ينطلق

من عقيدةٍ صحيحة فلا قيمة له..

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

الآن:

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السّمَاءِ ثُمّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

معنى: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ

أيْ ما يغيظه، والكيد هو التدبير، والسبب هو الوسيلة، هذه الآية فسّرها المفسّرون في اتجاهاتٍ عديدة.

المعنى الأول:

بعضهم قال: **" لابدّ أن ترجو الله عزّ وجل، لابدّ أن تُحسن الظنّ بالله عزّ وجل، لابدّ أن تضع آمالك بالله عزّ وجل، لابدّ أن ترجو ربّك "**، أما اليأس والقنوط، والسوداويّة والتشاؤم ليس لها مكانٌ في الدين إطلاقاً، عند الله ما ليس عند العبيد، إذا أعطى أدهش.

وأنتم كما ترون كيف أن الله سبحانه وتعالى بعد أن يئسَ الناس من رحمة السماء، لجهلهم بربِّ السماء، جاءتهم الأمطار بشكلٍ لم يسبق له مثيل، هذا نموذج، فالذي ييأس من رحمة الله، الذي يقنَطُ من نصر الله، الذي يظنُّ أن الله سبحانه وتعالى ليس مع المؤمنين، ولن ينصرهم، ولن يأخذ بيدهم إلى ما يصبون إليه إنما هو إنسانٌ بعيدٌ كل البعد عن الإيمان..

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

هذا ليس مؤمناً، لا قيمة لحياته إطلاقاً، موته خيرٌ من حياته، هذا معنى.

المعنى الثاني:

أن هذه الهاء لا تعود على الذي يظن..

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

أيْ أن الشخص الذي يظن ذلك هو سوداوي يقطع أمامك كل الآمال، يسقِّه لك كل التفاؤلات، يحبط لك كل الطُموحات، يبيّن لك أن الله لن ينصر أحداً من المؤمنين، وأن الأمر مِن سيئ إلى أسوأ، هكذا يصور لك، هذا ليس مؤمناً لأنه لا يعرف الله عزّ وجل، إنه مشرك ليس موحِّداً، هذا الإنسان ما عرف أن الأمر كلّه بيد الله عزّ وجل، وان يد الله فوق أيدي كل الناس، هكذا قال الله عزّ وجل:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

هذا الذي ينطلق من يأسٍ، وقنوطٍ، ومن سوداويةٍ، ومن تشاؤمٍ ليس مؤمناً وحياته لا قيمة لها، بل موته خيرٌ من حياته، هذا المعنى الأول.

إذاً المعنى الثاني: أن الهاء في

(يَنْصُرُهُ)

تعود على النبي عليه الصلاة والسلام، فكفّار مكّة ما كانوا يظنون أن الله سبحانه وتعالى سيرفع شأن النبي عليه الصلاة والسلام، سينتقل إلى دار الهجرة، فيؤمن به أصحابٌ مخلصون صادقون، سينتصر على كفّار قريش في بدر، فتنشأ دولةٌ إسلاميّة فتيّة، هالهم هذا النصر المُبين، وهذا الفتح العظيم، لذلك امتلأت قلوبهم حقداً لِمَا رفع الله به نبيه، وبوّأهُ عاليَ المقام، قال: من كان يظن أن الله عزّ وجل لن ينصر نبيّه، ولن يرفع شأنه، ولن ينصره على أعدائه، ولن يُعلي ذكره، ولن يرحمَ المؤمنين بدعوته، هذا الذي يتمنّى الشر أن يكون بالمسلمين، هذا الذي يظنُّ أن الله يحبُّه على معصيته، وأن الله لا يحبُّ المؤمنين على طاعتهم..

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

سنة الله مع أنبيائه: النصر المبين

وقد نصر الله نبيّه، وامتلأ قلبه حقداً لهذا النصر، هذا الذي يظنُّ كذلك ليس أمامه إلا أن يموت غيظاً، الله سبحانه وتعالى تمّت كلمته بنصر عباده المؤمنين.

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ)

(سورة غافر)

وعداً عليه حقًا، هذا وعدٌ عظيم..

(وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور: من آية " 55 ")

من كان يظن من مشركي قريش أن لن ينصره الله، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام لن ينصره الله في الدنيا والآخرة، أمّا حينما نصره امتلؤوا غيظاً وحقداً، هؤلاء ليموتوا غيظاً، لن يغيّر الله سنّته في خلقه، إنه ينصر رسله والمؤمنين.

لذلك لو أن أخوين صديقين، لو أن هناك جارين، زميلين، أحدهما مستقيم، والثاني منحرف، والمنحرف أُوتي ذكاءً، وهو يظنُّ أنه أذكى من هذا المؤمن المستقيم، وأن الأمور تجري لصالحه، وأنه سيرتقي من مكان إلى مكان، ومن مرتبة إلى مرتبة، وأن ذكاءه يكفي ليجلب له المال، حينما يفاجأ هذا المنحرف أن

المؤمن رفعه الله، ورفع اسمه، ولمع نجمه، وتوفّق في حياته توفيقاً عجيباً، لا ينبغي لهذا المنحرف أن يغتاظ وأن يحقد عليه لأن هذه سُنّة الله في خلقه..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

هذه الآية لها مفهوم واسع، مفهومها التطبيقي على المؤمنين أنه إذا كان هناك رجلان، جاران، صديقان، زميلان، أخوان، شريكان، واحد مستقيم يخشى الله عزّ وجل، ويرجو رحمته، والثاني منحرف لا يبالي بقِيَمِ الدين، الشيء الذي لابدّ من أن يقع أن هذا المؤمن سوف ينصره الله في الدنيا، سوف يرزقه رزقاً حلالاً كافياً، سوف تَقَرُّ عينه بأهله، سوف يرتقي من حالٍ إلى حال، من مرتبةٍ إلى مرتبة، سوف يحبُّه الناس، سوف يلمع اسمه، سوف يعلو ذِكْرُهُ، هذا المنحرف لا ينبغي أن يحقد عليه، ويقول: أنا أذكى منه، فأنت منحرف، فلا تقل: أنا لي معارف أكثر، أنا أحمل شهادة أعلى، لا، هذه سُنّة الله في خلقه..

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنْ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 ")

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرّحْمَانُ وُدًّا)

(سورة مريم)

هذا المعنى الثاني، فالذي غاظه، وجعل قلبه يمتلئ حقداً عندما نصر الله نبيَّه، وجعله وأصحابه أصحاب شأنٍ رفيع، هذا الذي اغتاظ ليمُتْ غيظاً.

المعنى الفرعي لقوله: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ

هناك معنى فرعي، هذا الذي امتلأ قلبه غيظاً لمّا نصر الله نبيه عليه الصلاة والسلام إذا كان بإمكانه أن يمنع النصر، إذاً فليفعل ما يشاء، ليصل إلى السماء، ليمدُد بسببٍ إلى السماء، وفي السماء ليقطع هذا الوحي عن النبي، وليقطع هذا النصر إن أمكنه، إن أمكنه ذلك فليفعل، وحتماً لن يستطيع ذلك، هذا المعنى الذي يُضاف إلى المعنى الثاني، فإذا كنت قد آلمك أن ينصر الله نبيَّه الكريم فامدد بسببٍ إلى السماء، توصّل إلى أن تصبح في السماء، وعندها امنع عن النبي الوحي إذا أمكنك ذلك، وهذا من باب المستحيل، أي لن تستطيع أن تفعل شيئاً، إذا سبقت إرادة الله أن يُكْرِمَ نبيه الكريم فلن تستطيع أن تفعل شيئاً، لأن الله سبحانه وتعالى حينما يكرم النبي عليه الصلاة والسلام، أو حينما يكرم المؤمنين لا ينتظر

موافقة أحد، إذا شاءت إرادة الله عزّ وجل أن يرفع شأن المؤمن فلا ينتظر أن يوافق أحدٌ على هذا القرار، هكذا ربنا سبحانه وتعالى فعّالٌ لما يريد.

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

الجواب: لا، لو أنه وصل إلى ذلك هل بإمكانه أن يمنع نصر الله عن نبيّه ؟ لا، هل بإمكانه أن يقطع عنه الوحي ؟ لا.

المعنى الثالث:

وهناك معنىً ثالث.. أتمنّى عليكم أن تدقِّقوا في هذه المعاني، هناك معنىً ثالث.. وهو من ظنّ أن الأمور كلّها مسدودةٌ في وجهه، أُعلِنَ عن هذه المسابقة فلم ينجح، رُشِّحَ لهذا العمل فلم يُقْبَل، طرق هذا الباب فسُدَّ في وجهه، فحينما يبدو لك أن الأمور مُعَسَّرة، وأن الطرق كلّها مغلقة، وأن الأبواب كلّها مسدودة، حينما تظنُّ ذلك هناك علاجٌ لهذه الحالة، الله سبحانه وتعالى ليس ضدّك، لا ينفعه أن يكون ضدّك، من أنت ؟ أنت عبدٌ..

((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

(من صحيح مسلم عن أبي ذر)

أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى ليس له معك خصومة حتى يجعل الأمور كلّها مسدودة في وجهك، لا، إنها معالجة، إنها معالجةٌ لتقصيرٍ، أو انحراف، أو معصية، فمن كان يظن أنْ لن ينصره الله في الدنيا، لن يرزقه، لن يصلح باله، لن يريحه من المصائب، مصيبةٌ تلو مصيبة، مشكلةٌ تلو مشكلة، ورطةٌ تلو ورطة، ما هذه الحياة ؟ يقول في ساعة اليأس: أريد الموت، لا، الله غني، الله كريم.

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

معنى: فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ

ليعمل عملاً صالحاً، أيْ ليفعل سبباً يستدعي رضوان الله عزّ وجل، ليعمل عملاً صالحاً يستلزم أن يرضى الله عنه..

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

ليخدم إنساناً، يتصدّق، يبر والديه، يترفّق بجيرانه، يدل إنساناً ضالاً، يكرم إنساناً معدّباً، يعين إنساناً مريضاً، يميط الأذى عن الطريق، يدفع من ماله الذي كسبه مِن حلال..

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

إذا ضاقت بالإنسان الدنيا، الأمور معسَّرة، الدخل قليل، الأمراض كثيرة، الهموم بعضها فوق بعض، كما قال الشاعر:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشــاءٍ من نبالِ
فكنت إذا أصابتني سهامٌ تكسّرت النصالُ على النصالِ

* * *

إذا اصطلحت على الإنسان الهموم، أحاطت به المصائب من كل جانب، الأبواب كلُّها مغلقة، الطرق كلُّها مسدودة، مصيبةٌ تلو مصيبة، مشكلةٌ تلو مشكلة ؛ في ماله، وفي صحّته، وفي أهله، وفي أولاده، ومع من هم أعلى منه، ومع مَن هم أدنى منه، كل يوم مشكلة، ما هذه الحياة يا رب ؟!..

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

فما عليه إلا أن يتصدّق، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((استمطروا الرزق بالصدقة))

(الجامع الصغير بسند فيه ضعف)

تصدّق، اخدم إنسانًا، اكفل يتيماً، برّ والديك، افعل صدقة، عاون إنساناً ضعيفاً، اعمل عملاً صالحاً، تقرّب إلى الله، ابحث عن سبب يرضى الله عنك به..

(ثُمَّ لِيَقْطَعْ)

معنى: ثُمَّ لِيَقْطَعْ

المعنى الأول:

أي ليقطع دابر الشيطان، ليتوقّف عن كل معصية، عن كل مخالفة، هذه لا تجوز دعها.

المعنى الثاني:

إذا كان الإنسان يائساً من نصر الله عزّ وجل، يائساً من أن يرزقه الله عزّ وجل فعليه أن يعمل عملاً صالحاً مبنياً على استقامةٍ تامّة.

المعنى الثالث:

ثم لينظر كيف أن هذا التدبير يذهب ما في قلبه من الغيظ، ومن الحقد، ومن الشعور بالحرمان.

القرآن كما قال الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه: " حمّال أوجه "، والقرآن ذو وجوه.

لك أن تأخذ بالمعنى الأوّل، من لوازم الإيمان أن ترجو الله عزّ وجل، وأن تضع في الله كل ثقتك، فإن لم تكن كذلك فلست مؤمناً ولا قيمة لحياتك.

المعنى الثاني: أنك إذا حقدت على أهل الإيمان إذا رفعهم الله عزّ وجل فحقدك عليهم لن يغيّر من معاملة الله لهم.

والمعنى الثالث: إذا ضاقت بك الدنيا أو ألمّت بك الخطوب، وجاء الشيطان وقال لك: إن الله يريد أن يعذّبك، إنه خلقك ليعذّبك، إنه سوف يحرمك كل شيء، انظر هو مع الكفّار يعطيهم القوّة، والمال، والصحّة، و، و.. وأنت يحرمك، إزاء كل هذا الذي يوسوس به الشيطان، فعلاجُه ودفعه يكون بالصدقة، أو أيّ عمل صالح مع استقامة واضحة.

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

إخوةٌ كرام كُثُر حدّثوني: حينما ضاقت بهم الدنيا تصدّقوا، فكانت هذه الصدقة مفتاحاً لرزْقِهم، يعني اعمل عملاً صالحاً يرضى الله به عنك، لكن هذا العمل الصالح لا قيمة له إذا رافقته معصية..

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعة من مخلِّط))

(ورد في الأثر)

اعمل عملاً صالحاً مبنياً على استقامةٍ تامّة، وبعدها لابدّ من أن ترى أن الله يغيّر الأحوال، إذا أعطى أدهش، والله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)

(سورة الكهف)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

هذا وعد قطعي، فإذا أنت طبّقت أمر الله عزّ وجل فلابدّ من أن تقطف ثمار وعد الله، فهذه الآية تنفي كل أنواع اليأس، كل أنواع القنوط، كل أنواع الضجر، كل أنواع الحرمان، كل أنواع السوداويّة، كل أنواع التشاؤم، هذه الآية تبُثُّ التفاؤل، حتى إن الإنسان لو كان مريضًا، وقد أكّد له الأطبّاء أن مرضه لا شفاء له، مرضٌ عُضال، واللهِ الذي لا إله إلا هو لو أنه أخلص لله عزّ وجل ودعاه وعمل عملاً صالحاً يسترضي الله به فإنه لابدّ من أن يشفيه الله عزّ وجل..

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء)

لا حدود لقدرته، الأطبّاء حينما يرون حالةً مستعصية تُشفىَ تلقائياً وذاتياً يقولون: هذا درسناه في الجامعة، هو الشفاء الذاتي، أي حينما تتدخّل يد الله مباشرةً لتزيل هذا المرض هو الشفاء الذاتي، فالإنسان لا يقنط، لا يقنط من شفاء، ولا مِن رزق، ولا من صحّة، ولا من إصلاح زوجة، أحياناً إنسان يقول لك: هذه الزوجة لا سبيل إلى إصلاحها، ومن يدريك ؟ ربّما بين ليلةٍ أو ضحاها تصبح امرأةً

أخرى، من أدراك أنها لا تصلح ؟ ليس هناك يأس في الإسلام، ليس هناك تشاؤم، لا تقل: لن يكون هذا، ما عند الله ليس كما تظن، ما عند الله خير.

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

أم لا يُذْهِبْ ؟ هنا الجواب يُذْهِب.

أما في المعنيين الأولين الجواب لا يُذْهِب، إذا حقدت على النبي الكريم، لأن الله نصره فافعل ما تشاء، هذا التدبير لن يفعل شيئاً، تدبيرك لن يُذهب ما بك من غيظ.

في المعنى الأوّل والثاني الجواب لن يُذْهِبْ، وفي المعنى الثالث الجواب يُذْهِبْ..

(هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

نعم، بعضهم قال: هل يذهبن كيده ما يغيظه، أو هل يذهبن كيده غيظه، إما أن تكون (ما) مصدريَّة أو موصولة، إن كانت مصدريَّة نقول: هل يذهبن كيده غيظه، وإن كان موصولة نقول: هل يذهبن كيده الذي يغيظه..

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

هداية الله لها ثمن

يهدي طالب الهدى، يهدي الذي دفع ثمن الهدى، يهدي مَن أطاع الله عزّ وجل، هذه الجامعة تعلِّم مَن ؟ تعلِّم مَن قَبلَ أن يكون طالباً فيها، أما مَن رفض أن يكون فيها طالباً كيف تُعلِّمه ؟..

(وَأَنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

أيْ أنَّكَ إذا أردت الهدى أراد الله لك الهدى، وإذا أردت الضلال أراد الله لك الضلال، لماذا ؟ لأن الله خيَّرك، أنت مخيَّر..

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة الصف)

(إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المنافقون)

(لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

لا يهدي القوم الكاذبين، فالهدى له أسباب، والضلال له أسباب، فمن فعل أسباب الضلال أضلّه الله، ومن فعل أسباب الهدى هداه الله..

(اللّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

والله سبحانه وتعالى جعل للهدى طريقاً فمن سلكه أراد له الهدى، فالدولة جعلت لمهنة الطبِّ طريقاً، تأخذ ثانويَّة بمجموع مرتفع، تدخل كليَّة الطب، وتتخرَّج، فمن سلك هذا الطريق شاءت له الدولة أن يكون طبيباً، ومن لم يسلك هذا الطريق منعته من مزاولة الطب وعاقبته بتهمة أنه دجَّال، أليس كذلك ؟ طريق هذه المهنة معروف، من سلكه سُمح له أن يزاول هذه المهنة، ومن لم يسلكه لم يُسْمَح له بمزاولة هذه المهنة، فإرادة الجهات الصحيَّة منوطةٌ بأن تسلك الطريق القانوني لهذه المهنة، هذا مثل بسيط، وربنا عزّ وجل رسم للهدى طريقاً، من سلك هذا الطريق أراد الله له الهدى، ومن لم يسلك هذا الطريق أراد الله له الضلال.

الهدى الابتدائي والهدى الجزائي:

لذلك عندنا هدى ابتدائي وعندنا هدى جزائي، وعندنا ضلال ابتدائي، وعندنا ضلال جزائي، فإذا عُزي الضلال إلى الله عزّ وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري، نعم أمر إذا عزي الهدى أو الضلال إلى الله مباشرةً، فمعنى ذلك أنه هدىً أو ضلالٌ جزائي بني على هدىً أو ضلال اختياري، هذا معنى:

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

وأن الله يهدي من أراد الهدى الله سبحانه وتعالى يهديه..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَالّذِينَ هَادُوا وَالصّابِئِينَ وَالنّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالّذِينَ أَشْرَكُوا)

المسلمون واليهود والصابئون والمجوس والمشركون

هناك أناس ينتمون إلى أهل الإيمان، وأناسٌ آخرون ينتمون إلى النصرانيَّة، وأناسٌ آخرون ينتمون إلى اليهوديَّة، وهناك أناسٌ آخرون صابئون، هؤلاء بين النصرانيَّة واليهودية، وأناسٌ آخرون مجوس عبدوا النار، ورأوا أن الكون فيه خيرٌ وشر، فيه نورٌ وظُلمة فعبدوا النار اتقاءً لشرّها، ومنهم مَن هو مشرك بالله عزّ وجل، كمشركي العرب، وهؤلاء على اختلاف مللهم، ونِحَلِهم، ومشاربهم، ومعتقداتهم،

وأفكارهم، وقيمهم، وتشريعاتهم كلهم يقيمون على شركهم، والحق واحد ولا يتعدد، فهؤلاء ست ديانات.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا)

هذه الأولى.

(وَالّذِينَ هَادُوا)

هذه الثانية.

(وَالصّابِئِينَ)

هذه الثالثة.

(وَالنّصَارَى)

هذه الرابعة.

(وَالمَجُوسَ)

هذه الخامسة.

(وَالّذِينَ أَشْرَكُوا)

هذه السادسة.

هذه سِتُّة مذاهب، أو ستُّ ديانات، والحق واحد، لابدَّ من أن يكون الحق مع أحدها فقط، الباقون ليسوا على الحق، فمن يفصل بينهم ؟ الله سبحانه وتعالى، كل أناسٍ يزعمون أنهم على الحق والآخرون على الباطل، كل حزبٍ بما لديهم فرحون، هكذا في الدنيا، كل جهةٍ تظنُّ أنها محور العالم، وأنها على حق، وأن ما سواها في ضلالٍ مبين، هكذا يعتقد البوذيّون، والسيخ في الهند هكذا يعتقدون، وأصحاب المِلَل والنِحل هكذا يعتقدون، والمسلمون يعتقدون هكذا، والنصارى هكذا، واليهود هكذا، هذا اعتقاد كل فريقٍ منهم، وكلٌ منهم يقول: نحن على حق والآخرون على الباطل..

(إِنّ اللّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

فصل الله بين الناس يوم القيامة

لكن الحق بيَّنَهُ الله عزّ وجل في هذا الكتاب، وهذا الكتاب أنزله الله سبحانه وتعالى وتولّى حفظه، فمن كان على هذا الكتاب فهو على حق، ومن خالف هذا الكتاب فهو على باطل، فلذلك هذا الكتاب مقياس، هو مقياسٌ لك.. فلو أن خمس قطع من الأقمشة، أو ست قطع، كل قطعة مكتوب عليها الطول، هذه القطعة كُتِبَ عليها عشرة أمتار، هذه خمسون مترا، هذه خمسة عشر متراً، نحن معنا متر، وهذا المتر يحل كل مشاكلنا، نقيسها يا أخي، هذه ليست عشرة، بل هي سبعة، ثم نقيس الأخرى، هذه ليست

خمسين، بل خمسة وعشرون، فنحن معنا مقياس.. فالله عزّ وجل لرحمته بنا أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام هذا القرآن الذي:

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت: من آية " 43 ")

لا ريب فيه، فمن انطبقت عقائده وسلوكه على هذا القرآن فهو على الحق المبين.

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

أما الانتماء الشكلي، يقول لك: أنا مسلم، ماله حرام، نساؤه كاسياتٌ عاريات، مائلاتٌ مُميلات، له علاقات حميمة جداً مع غير المسلمين، هم أقرب إليه من إخوانه المؤمنين، أي إسلامٍ هذا ؟

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

(الطبراني عن ابن عباس)

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ الأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا)

(سورة البقرة: من آية " 264 ")

إذا صلّيت، ولم تنهك صلاتك عن الفحشاء والمنكر فلست بفالح، وإذا صمت، ولم ينهك صيامك عن قول الزور والعمل به فلست بصائم، وإذا أنفقت مالك، ولم تكن هذه النفقة عن إيمانٍ بالله فليس بنافعٍ لك شيئاً، إذاً هذه العبادات إن لم تكن صادرةً عن إيمانٍ وإخلاص، وعن طهرٍ ورُقي إيماني فلا قيمة لها..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)

تصوّر ستّة محلات تجاريّة، كل محل عليه لافتة برّاقة جداً، مع إضاءة صارخة، ولكن لا توجد بضائع في الداخل، فما قيمة بهرجة اللافتات مع أن كل هذه المحلات ليس فيها بضاعة إطلاقاً ؟ لا تجدُ في الحقيقة فرقاً بين مسلم وغير مسلم، المسلم ماله حرام، مُنحرف، علاقاته الاجتماعيّة كغيره من الناس، صَلاته شكليّة، والنصراني كذلك، يصلي في الكنيسة صلاة شكليّة، ويعطي نفسه ما تشتهي، إذاً الخلاف صار شكلياً، إلى أن يأتي الرجل الذي يؤمن بالله إيماناً صحيحاً، ويلتزم أمره، ويفعل الصالحات فهذا هو الذي يرفعه الله سبحانه وتعالى، الانتماء الشكلي إلى الأديان لا قيمة له إطلاقاً، البطولة في العمل، هناك آيات أخرى تقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

فمِن هؤلاء جميعاً فقط..

(مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

فالعبرة أن تكون أنت وَفْقَ جوهر الدين، لا وفق شكله الخارجي..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَالّذِينَ هَادُوا وَالصّابِئِينَ وَالنّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالّذِينَ أَشْرَكُوا إِنّ اللّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

معنى: إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

لأنه على كل شيءٍ شهيد يفصل بينهم، لأنه يرى ما يعتقدون، ويرى أعمالهم الصالحة والطالحة، يرى صدقهم أو كذبهم، يرى إخلاصهم أو خيانتهم، يرى حبّهم للدنيا أو زهدهم بها، إنه على كل شيءٍ شهيد، لأنه على كل شيءٍ شهيد، إنه يفصل بينهم يوم القيامة.

فلو فرضنا أن واحداً أحضر عُملة مزوّرة، والإنسان الآخر معه عُملة صحيحة، الآن توجد أجهزة دقيقة تفحص هذه القطع الورقيّة، فيقال: أنت عُملتك مزوّرة قف هنا، وأنت عُملتك صحيحة قف هنا، وكلٌ مجزيٌ على عمله، وواقع أمره، هناك أجهزة دقيقة جداً لفحص الأشياء..

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشّجَرُ وَالدّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النّاسِ وَكَثِيرٌ حَقّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

أنواع السجود باعتبار المخلوقات

السجود نوعان: سجود القهر، وسجود العبادة

قال العلماء: **" السجود نوعان، سجود القهر وسجود العبادة "**، فالكون كلّه مقهورٌ بالله عزّ وجل، ليس في الكون شيءٌ إلا وهو مؤتَمِرٌ بأمر الله ؛ السماوات والأرض، الشمس والقمر، المجرّات والنجوم، الجبال، والدواب، فكل شيءٍ خلقه الله عزّ وجل مفتقرٌ إليه، خاضعٌ له، كن فيكون زل فيزول، هذا سجود الحاجة، أيْ أنّ هذه الشجرة مفتقرةٌ إلى الله عزّ وجل، لولا أن الله يمدُّها لماتت، أي مخلوقٍ مفتقرٌ إلى الله، إذاً هو ساجدٌ له سجود الخُضوع، سجود الحاجة، سجود الافتقار، إن وجود الأشياء متوقفٍ على الله عزّ وجل.

(اللّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: من آية " 255 ")

فهو سبحانه مصدر حياة الأشياء وقيامها، لكن الإنسان إذا سجد فسجوده سجود العبادة، فرقٌ كبير بين سجود القهر والحاجة والافتقار ؛ وبين سجود العبادة، فالإنسان لأنه مكلّف بمحض اختياره، بمحض مشيئته الحُرّة، فحينما يطيع الله عزّ وجل ويسجد له فهذا سجود العبادة، والله سبحانه وتعالى يثيبه عليه أيّما إثابة..

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشّمْسُ)

سجود الكون كله لله

لماذا ذكر الله الشمس بالذّات ؟ لأن هناك أناساً عبدوا الشمس..

(لا تَسْجُدُوا لِلشّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي خَلَقَهُنّ إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ)

(سورة فصلت)

(وَالْقَمَرُ وَالنّجُومُ)

هناك من عبد القمر والنجوم..

(وَالْجِبَالُ وَالشّجَرُ وَالدّوَابُّ)

وهناك من يعبد البقر، يضعون روث البقر في غُرَفِ الاستقبال، يتعطّرون ببول البقر، وإذا وقفت بقرةٌ في الطريق قُطِعَ السير إلى أن يحلو لها أن تغادر هذا المكان، هم يموتون جوعاً، وأعداد البقر لا تُعَدُّ ولا تُحصى، هناك مَن عبد البقر، وهناك من عبد الشجر، وهناك مَن عَبَدَ النجوم، وهناك مَن عبد الشمس والقمر، الله سبحانه وتعالى يريد من هذه الآية أن يبيّن لمن أشرك بالله أن هذه الأشياء التي تعبدونها هي تسجد لله عزّ وجل سجود الخضوع، هذه البقرة كيف تتحرّك ؟ بقدرة الله، هذه الشجرة كيف تنمو ؟ بقدرة الله، هذه الشمس من أعطاها هذا الوهج ؟ الله سبحانه وتعالى، ثم يوم القيامة تنطفئ.

(إِذَا الشّمْسُ كُوّرَتْ)

(سورة التكوير)

هذه الشمس من أعطاها الحركة ؟ الله سبحانه وتعالى:

(وَالشّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرّ لَهَا)

(سورة يس: من آية " 38 ")

فإذا شاءت مشيئة الله وقفت عن الحركة، إذاً:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)

الآن جهاز كهربائي قيمته بالكهرباء، لو قطعت عنه الكهرباء توقّف، إذاً هو خاضعٌ للكهرباء، مفتقرٌ إليها، يتوقّف عمله عليها، بمعنى ساجدٌ لها، أيْ أنّ الله عزّ وجل هو الذي يمد، فكل مخلوقٍ لو قطع عنه

الإمداد أصبح لا شيء، انتهى وجوده، إذاً كل الكون ساجدٌ لله سجود القهر والافتقار والحاجة، هذا السجود ليس كسجود الإنسان، الإنسان يسجد سجود العبادة، أي أنه يعرف الله، يعرف أنه ربُّ العالمين، وأنه خالق كل شيء، وأنه المسيّر، وأنه المنعم المتفضِّل فيصلي له ويسجد، وهذا السجود أعلى سجودٍ بين المخلوقات، فلهذا:

((عبدي المؤمن أحبُّ إليّ من بعض ملائكتي))

(ورد في الأثر)

ما من شيءٍ أكرم على الله من المؤمن:

((سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ))

(من صحيح البخاري عن عبد الله)

زوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن، الله سبحانه وتعالى يقول في بعض الأحاديث القدسيَّة:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

فلذلك من بعض الأقوال التي وردت في الأحاديث القدسيَّة:

((ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

(وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)

دليل الاختيار: وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ

لم يقل: والناس، بل إنه قال:

(وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)

هنا الاختيار، الإنسان مخيَّر وأمَّا هذه المخلوقات فليست مخيَّرة هي مسيَّرة، رُكِّبَ الإنسان مِن عقلٍ وشهوة، رُكِّب الملك مِن عقلٍ بلا شهوة، رُكِّب الحيوان ِمن شهوةٍ بلا عقل، وبما أنَّ الإنسان مِن عقلٍ وشهوة، فهو إذاً له اختيار، الإنسان مكلَّف لذلك جاء قوله تعالى:

(وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ)

الامتناع عن سجود العبادة جزاءه النار

لأنه لم يسجد سجود عبادة، فهذه الفقرة الأخيرة متعلِّقة بسجود العبادة..

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

وَمَن يُهِنِ اللّهُ فَمَا لَه مِنْ مُكْرِمٍ

إنّ الله عزّ وجل إذا أكرم إنساناً رأى المستحيل، عدوُه يكرمه..

يُنادى له في الكون أنّى نحبُه فيسمع مَن في الكون أمر محبّنا

* * *

وإذا أراد الله عزّ وجل أن يهين إنساناً يهينه أقرب الناس إليه ؛ ولده وزوجته، حتى أنتِ يا فلانة ؟ نعم، أقرب الناس إليه يُهينُهُ، وربنا عزّ وجل حينما يقضي أن يؤدِّب إنساناً فلا ينفعه ذكاؤه، ولا تدبيره، ولا حكمته في ردِّ قضاء الله عزّ وجل.

(وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

(سورة الرعد)

اسألوا الله السلامة..

(وَمَنْ يُهِنِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

لم يقل الله: فما له مكرم، بل قال:

(فَمَا لَه مِنْ مُكْرِمٍ)

أيْ ولا إنسان يكرمه، حتى خادمه لا يكرمه، إنسان تحت يده يقسو عليه في الكلام، فإذا أكرم الناس أحداً فلا يظن أن هذا بذكائه، بل هو بفضل الله عزّ وجل، وإذا كانت أموره ميسَّرة، فهذا بفضل الله، إذا كان الناس يحبُّونه فبفضل الله، فإذا ظنّ أنه بذكائه وعمله وحكمته فقد ضلّ سواء السبيل..

(إِنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

قال:

(هَذَانِ خَصْمَانِ)

هنا في هذه الآية عددهم ست ديانات..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَالّذِينَ هَادُوا وَالصّابِئِينَ وَالنّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالّذِينَ أَشْرَكُوا)

الناس خصمان يوم القيامة باعتبار الجزاء

فإذا هم خصمان اثنان في الآخرة، الحق والباطل، الإيمان والكفر، الإحسان والإساءة، الاستقامة والتفلُّت، قال:

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبّهِمْ)

قال: اختصموا، لِمَ لَمْ يقل الله عزّ وجل: هذان خصمان اختصما ؟ هكذا الأوْلى، أو هؤلاء خصومٌ اختصموا ؟ هذه تسمّى في البلاغة نكتة بلاغيّة..

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا)

أيْ أنّ هؤلاء، أصحاب المِلل والنِحَل والمذاهب على كثرتهم هم في النهاية زمرتان، أناسٌ على حق وأناسٌ على باطل، أناسٌ خيّرون وأناسٌ شريرون، أناسٌ مهتدون، وأناسٌ ضالون، أناسٌ ملتزمون وأناسٌ متفلِتون، أيْ أنّ كل هؤلاء في النهاية يرجعون إلى زمرتين اثنتين..

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ)

في ربهم، أي أن الجهة الأولى وصفت الله عزّ وجل بما يليق به، وصَفَتْه بالعدل، وصفته بالرحمة، وصفته بالعِلم، وصفته بالقُدرة، بناءً على وصفهم الصحيح أطاعوه، وعبدوه، وتقرّبوا إليه فرفعهم، وأسعدهم، والفريق الثاني لم يصف الله بما يستحق، قالوا: له شريك، اتخذ الملائكة بناتٍ.. كما يقولون.. فإذا لم تصف ربّك الوصف الصحيح، ولم تنزّهه عما لا يليق به، ونسبت إليه الظلم، فأنت عندئذٍ لا تطيعه، بل تتعلّق بالأماني.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)

(سورة آل عمران: من آية " 24 ")

عندما يكون وصف الإنسان لله غير صحيح يتكئ على الأمل، وعلى معانٍ ما أنزل الله بها من سلطان..

(هَذَانِ خَصْمَانِ)

الناسُ فريقان ؛ فريق عرف الله فاستقام على أمره، وعمل صالحاً فسعد في الدنيا والآخرة، وفريق آخر ما عرف الله، ونسب إليه الظلم، نسب إليه البنات، نسب إليه الشُركاء، أو قال: خلق الكون، وترك الناس يفعلون ما يشاؤون، أو أن الله أعطى الإنسان قوّة كما يقول المعتزلة، ثم هو يفعل بقوّته ما يشاء..

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ)

جزاء الكفار في النار: ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ، وماء من حميمٍ، ومقامع من حديد

قال بعضهم: **" أيْ ثيابهم من نحاسٍ ملتهب "..**

(يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)

ماءٌ يغلي..

(يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21))

سياط من حديد..

(كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

هؤلاء الذين ما عرفوا الله، ولم يستقيموا على أمره، وفعلوا السيّئات، فذلك جزاؤهم ومآلهم..

جزاء المؤمنين في الجنة: أساور من ذهب ولباس الحرير وطيبٌ مِن القول:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ)

أيْ القرآن الكريم، أو تسبيح الله وتنزيهُهُ، ذلك هو الطيب من القول..

(وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ)

وسبحان الله فإنّ آياتِ الحَج جاء دورها، ونحن على وشك أن يأتي موسم الحج، فالدرس القادم إن شاء الله سيكون هناك تفسيرٌ دقيقٌ لآيات الحج.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 25- 38
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-07-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الرابع من سورة الحج، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

فالذين كفروا بالله، وقد بيّنت في دروسٍ سابقة أن الكفر تكذيبٌ وإعراض، تكذيبٌ بآيات الله، تكذيبٌ بآياته الكونية، وتكذيبٌ بآياته القرآنية، وتكذيبٌ بوعده، وتكذيبٌ بوعيده، وتكذيبٌ بأسمائه، وتكذيبٌ بمنهجه، تكذيبٌ وإعراض، الذين كفروا أعرضوا عن الله عزّ وجل، والتفتوا إلى الدنيا، التفتوا إلى الشركاء، التفتوا إلى المال، التفتوا إلى كل ما يقرّبهم من الدنيا..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

من لوازم الكفر الصدُّ عن سبيل الله

من لوازم الذين كفروا أنهم يصدّون عن سبيل الله، فكفروا فعل ماض، أما يصدون عن سبيل الله فهو فعلٌ مضارع، والفعل المضارع يفيد الاستمرار، هم دائماً يصدون عن سبيل الله، أيُّ شيءٍ يؤدّي إلى مرضاة الله فهم يصدون الناس عنه، أيُّ شيءٍ يقرّب الناس من الله فهم يصدونهم عنه، أيُّ شيءٍ يوصلهم فهم يقطعونهم عنه، من لوازم الكفار أنهم يصدون عن سبيل الله، هم ضالون مُضلون، فاسدون مُفسدون، هؤلاء الكفار يصدون عن سبيل الله، أي شيءٍ يوصل إلى الله فهم في هذا الطريق عقبةٌ كَؤود، ربما كان دفع المال طريقاً إلى الله عزّ وجل، فهم يمنعون الناس أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله، ربما كانت الأعمال الصالحة التي يُبتَغى بها وجه الله طريقاً إلى الله عزّ وجل، فهم يمنعون هذه الأعمال الصالحة، ربما كان تعليم العِلم أو تلقِّي العِلم طريقاً إلى الله عزّ وجل، فهم يمنعون تعليم العلم وتلقينه، وهكذا..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

فنعوذ بالله أن نَصُدَّ الناس عن سبيل الله، بل اللهم ارزقنا أن نكون هادين مهديين، أن نهتدي، ويُهتدى بنا، أن نكون واصلين، أن نكون مقرّبين..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

قال الله سبحانه وتعالى..

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا)

(سورة آل عمران: من آية " 96 ")

البيت الحرام مكان للعبادة والتقرب

أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى جعل هذا البيت مكاناً للتقرُّب إليه، جعل هذا البيت مكاناً لعبادته، جعل هذا البيت مكاناً للتفرُّغ لعبادته، فلذلك من حكمة الحج أن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين أن يأتوا إليه مخلِّفين وراء ظهورهم بيوتهم، وزوجاتهم، وأولادهم، وأموالهم، وحوانيتهم، ووظائفهم، ومكانتهم، ومتعهم، ومباهجهم، كل دنياهم مركزةٌ في بلادهم، مِن أجل ألا تكون الدنيا عائقاً بين العبد وبين ربه، من أجل ألا تكون الدنيا حجاباً بين العبد وبين ربه، فالله سبحانه وتعالى أمر الناس أن يأتوا إليه، وهم في طريقهم إليه يقولون: لبيك اللهم لبيك.

أمرهم أن يبتعدوا عن الدنيا، الشيء الذي أباحه لهم في بلادهم حرّمه عليهم وهم قاصدون إليه، حرم عليهم لبس الثياب المَخيطة، جعلهم يذكرون ساعة النشر، ساعة الحشر، أراد أن يصرفهم عن الدنيا، وربما كان اللباس من الدنيا، أمرهم أن يرتدوا ثوبين رداءً وإزاراً ليس غير، لئلا تلتفت النفس إلى الثوب، وإلى مظهره، وإلى أناقته، وإلى ألوانه المُنسجمة، ولئلا يختال الإنسان بثيابه، والله سبحانه وتعالى جعل البيت الحرام مكاناً للإقبال عليه، جعل البيت الحرام مكاناً للتوجُّه إليه، جعل البيت الحرام تفرُّغاً لعبادته.

الناس يُصلّون في بلادهم، ولكنّهم يُصلّون، وقد ينشغلون في صلاتهم عن الاتصال بربهم، قد ينشغلون بدنياهم عن الالتجاء إلى الله عزّ وجل، ولكنهم بالحج أمرهم أن يأتوا إليه، وليَدَعوا كل شيءٍ وراء ظهورهم، أراد أن يعلِّمهم كيف أن هناك فِراقاً للدنيا لا رجعة بعده، هذا الحج تدريبٌ على الفراق النهائي، كيف أن الحاج يَنْخَلِعُ وينسلخ من كل ميزات الدنيا التي توفرها له مكانته ودخله في بلده، فربنا سبحانه وتعالى جعل المسجد الحرام معطوفاً على سبيل الله..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

فكأن المسجد الحرام مكافئٌ لكلمة سبيل الله، كما أن الأعمال الصالحة كلّها ؛ طلب العلم، تعليم العلم، إنفاق المال، أداء العبادات، أداء الزكاة، الصيام، هذه كلها سُبُلٌ إلى الله عزّ وجل، كذلك المسجد الحرام سبيلٌ إلى الله عزّ وجل..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً)

مشاعر الناس في المسجد الحرام سواء، القريب والبعيد

أيُّ مكانٍ تذهب إليه لا تفارقك مشاعُر بأنك في البلد الفلاني، إذا ذهبت إلى بلد شرقي، أو غربي، أو عربي، أو إسلامي، دائماً هناك شعور مستمر أنك في هذا البلد، لكنك إذا دخلت البيت الحرام لا تشعر أنك في السعودية، تشعر أنك في بيت الله، هذا المعنى مستفاد من قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)

أيْ حقُ الغريبِ عنه كحقّ المقيم فيه، هو للناس جميعاً، ليس لأهل مكة، وليس لأهل المدينة، وليس لمن يقيم في المملكة، إنه للناس جميعاً..

(الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)

معنى: العَاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ

العاكف المُقيم، والباد الذي جاء من البادية أو الذي جاء من مكانٍ بعيد، يعبَّر عنه في كتب الفقه: بالآفاقي، أيْ حقُ المسلم أينما كان، من أي بلدٍ كان، من أي مجتمعٍ كان، في البيت الحرام كحقّ ساكني مكة المكرّمة سواءً بسواء، يعني أنّ هذا البيت للناس، وليس لأهل بلدٍ بالذات، ولا لأهل إقليمٍ معين، ولا لأهل مصرٍ ما، إنما هو للمسلمين جميعاً.

(الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)

حرمة البيت الحرام

وربنا سبحانه وتعالى جلّت مشيئته أراد أن يجعل هذا البيت الحرام، وسماه حراماً لأنه يحرم فيه كل إيذاءٍ يقع على أي مخلوق، هناك أشهُرٌ حُرُم، وهناك أمكنةٌ حرم، فالمسجد الحرام مكانٌ حرام لا يجوز فيه القتال، ولا يجوز فيه الأخذ بالثأر، ولا يجوز فيه العدوان، ولا يجوز فيه قتل الصيد الذي هو مباحٌ في مكانٍ آخر، وفي وقتٍ آخر، أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى جعل هذه الأشهر الحرام وجعل البيت الحرام حَداً للخصومات، كل من دخل هذا البيت فهو آمن ولو كان مهدور الدم، إذا دخل البيت فهو آمن، مكانٌ حرام وأشهرٌ حرام، فربنا عزّ وجل قال:

(الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)

هذا مكان عبادة، مكان إقبال، مكان تعبُّد، مكان صفاء، مكان بعد عن الدنيا، عن أخبار الدنيا، عن صراعات الدنيا، عن مشكلات الدنيا، عن أزمات الدنيا، مكان عبادةٍ خالصة، مكانٌ يُذكِّر الناس باليوم الآخر، يُذكّرهم بمنقلبهم إلى ربهم، لذلك لا ينبغي أن تقوم فيه فتنة، ولا ينبغي أن يجري فيه عدوان، ولا ينبغي أن يقع فيه اقتتال، إنه شهرٌ حرام وبيتٌ حرام، والله سبحانه وتعالى يتوعَّد مَن تسوّل له نفسه في هذا البيت الحرام وفي الشهر الحرام أن يعتدي على أيّ مخلوق، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ)

جزاء من أراد في البيت الحرام بالإلحاد والظلم

في للظرفية المكانية..

(وَمَنْ يُرِدْ)

أي مَن ينوي..

(فِيهِ بِإِلْحَادٍ)

الإلحاد الانحراف عن جادة الصواب، استقامت وجهته أو ألْحَد..

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ)

هذه الباء للملابسة، أيْ إرادته منحرفة، مَن يرد إرادةً متلبّسَةً بالانحراف بسبب أنه ظلم نفسه أو ظلم مخلوقاً آخر،

(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

حتى إن بعض المفسرين فهموا من هذه الآية، أن الخطيئة في البيت الحرام يعظمُ إثمها، ويضاعف عقابها، حيث لو أن الإنسان أراد سيئةً، ولم يفعلها حوسب عليها، وهو في البيت الحرام لقوله تعالى:

(وَمَنْ يُرِدْ)

وليس مَن يقترب، ليس مَن يظلم..

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ)

في هذا البيت، وفي للظرفية المكانية والزمانية، أيْ في البيت الحرام وفي الأشهر الحرام.

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ)

أيْ متلبّساً بانحرافٍ عن طريق الإيمان الصحيح، والعمل الصالح..

(بِظُلْمٍ)

بدافع من ظُلمه لنفسه أو ظلمه للآخرين، هذا الذي يفعل إثماً، أو يقتل حيواناً، أو يؤذي إنساناً، أو يقلع نبتةً، أو يشتم مخلوقاً، أو يفسُق، أو يفجر، في هذا البيت الحرام ؛ مَن أراد هذه المعاصي..

(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

في الدنيا والآخرة، لأن ربنا عزّ وجل جعل هذا البيت مكاناً للعبادة والنُسك، فأيّ عملٍ مُخِلٍّ بهذه العبادة وبالطمأنينة التي يجب أن تتوافر للحاج في هذا المكان فهذا إفسادٌ في الأرض.

(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

لذلك فإنّ في زمن العرب لو أن حرباً ضَروساً نشبت بين فئتين، وجاءت الأشهر الحرم انتهى كل شيء، لو أن أحد الخَصْمَين دخل الحرم فهو آمن، الله سبحانه وتعالى جعل البيت الحرام، وجعل الأشهر الحرام رحمةً للناس، حَدّاً لنزاعاتهم، وإيقافاً لخصوماتهم، وإنهاءً لمشكلاتهم.

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) وَإِذْ بَوّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً)

بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس

يقول ربنا عزّ وجل في آيةٍ أخرى:

(إِنّ أَوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ)

(سورة آل عمران: من آية " 96 ")

هذه الآية دليلٌ قطعي على أن أول بيتٍ أنشئ على وجه الأرض لعبادة الله سبحانه وتعالى هو البيت الحرام في مكة المكرّمة، لكن ربما كُلِّفَ هذا النبي العظيم سيدنا إبراهيم بإعادة إنشاء البيت، أما هذا البيت فلابدّ من أنه وُضع منذ عهد آدم.

(إِنّ أَوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلّذِي بِبَكّةَ مُبَارَكًا)

(سورة آل عمران: من آية " 96 ")

وبعض علماء الجغرافية يرون أن الكعبة المشرفة تقع في الوسط الهندسي تماماً للقارّات الخمس، إذا أخذنا أطراف القارات الخمس، ووصلنا بين أطرافها بأقطار تأتي الكعبة المشرّفة في مركز تقاطع هذه الأقطار، بيتٌ متوسّط، وربنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعله في وادٍ غير ذي زرع لئلا يأتيه إلا الحاج، فلو كان في وادٍ ذي زرعٍ، وجوٍ لطيف، وبحيراتٍ رائعة، وجبالٍ خضراء لجاءه الحاج والسائح، لكنه بهذه الطريقة لا يقصده إلا الحاج، الحاج وحده، ومع أن هناك حراً شديداً ومع أن هناك ازدحاماً بالغاً، فإن الذي ذهب إليه بإخلاصٍ شديد، يقول لك: لم أذق في حياتي نعيماً وسعادةً أبلغ من هذا الحج،

وهذه حكمة الله سبحانه وتعالى، كأنه هناك تجليًا من الله مكثفًا لهؤلاء الحجاج الأطهار، الحجاج والعمار وفد الله، فإذا ذهب الإنسان إلى بيت من بيوت الله في بلده الذي يقيم فيه فلن يجد مثل هذا الشعور والسعادة..

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإنّ زوّارها هم عُمّارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني، وحُقّ على المزور أن يكرم الزائر))

(ورد في الأثر)

إذا كان إكرامك من قبل الله عزّ وجل حقٌ عليه إذا أتيته لبيته الذي في بلدك، فكيف إذا أتيته في البيت الحرام ؟ شتّان، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((وَلا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ، مَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى))

(من صحيح البخاري عن أبي سعيد)

هذه المساجد الثلاثة لها مكانة خاصة، ويبدو أن الله سبحانه وتعالى جعلها موطناً للتجلِّي الذي يَنْعُمُ به الحجّاج والعُمّار.

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ)

أي حددنا مكان هذا البيت، وجعلناه مرجعاً إلي..

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً)

أيْ أنّ هذا البيت أقيم على التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد.

(وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

بعضهم قال: الطائفين الذين يطوفون حول البيت.

وأما:

(وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

المصلون، وهناك من يستنبط من هذه الآية أن الطواف يسبق القِيام، والقيام يسبق الركوع، والركوع يسبق السجود، وكأنها مراتب، طاف، فأقام، فركع، فسجد، يعني أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، الركوع خضوع، والسجود طلب العون، والقيام الالتزام، والطواف هو البحث، طاف باحثاً، ثم عكف واقفاً، ثم ركع ثم سجد، طهّرا بيتي من الشرك ومن القَذَر ومن كل شيء، وهؤلاء الذين شرّفهم

الله عزّ وجل بخدمة مساجده وبيوته هؤلاء تنطبق عليهم هذه الآية، ليست خدمة بيوت الله وظيفة، وظيفةٌ يتقاضى الإنسان راتبها، إنها شرفٌ تشرّف الإنسان، لذلك َمن هُم تواقوّن لخدمة بيوت الله عزّ وجل فهؤلاء لابدّ من أن تشملهم هذه الآية:

(وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ)

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ

أيْ ادعُهم إلى الحج، إذا انتهيت من بناء البيت وتجديده، أذِّن في الناس بالحج.

(يَأْتُوكَ رِجَالاً)

الأجر على قدر المشقة: يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

والذين قالوا: الثواب على قدر المشقّة لم يخطئوا، كلّما قلّت المشقّة وصار السفر متعةً، والطائرة مكيفةً، والصالات كلها مكيّفة، والخيام مكيفة في عرفات، والطعام لذيذ، والتنقّل ممتع، قلّ الأجر، وأصبح الحج متعةً، لذلك السلف الصالح يأتون راجلين، وبعضهم يأتون راكبين، ولكن لا ينبغي للحاج اليوم أن يذهب ماشياً ولا راكباً ناقةً، لأن الجهد ليس مطلوباً لذاته، أما إذا كان الجهد عاماً، المشقة إن كانت عامةً فالله سبحانه وتعالى يثيب عليها، على قدر المشقة، ولكن الآن أصبح الانتقال لا خيار فيه، لابدّ من ركوب الطائرة، ولابدّ من التنقّل بين مكة وعرفات، وبين مكة والمدينة بوسائل الركوب المعروفة.

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ)

يأتوك رجالاً وراكبين، رجالاً مترجّلين، ويأتوك راكبين..

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ)

أيْ أنّ هذه الناقة أصبحت ضامرة لشدة المشقّة وبعد المسافة..

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

طبعاً نحن حينما نذهب إلى الحج فالمسافة بيننا وبين الحرم تُعَدُّ قريبةً نسبياً، أما الذين يأتون من باكستان، من الهند، من الصين، من أمريكا، من أوروبا فهذه مسافاتٌ طويلة، وركوب الطائرة يستغرق عشرات الساعات، كما يكلِّف إنفاق مئات الألوف..

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

لذلك النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله، تماماً بتمام.

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)

منــافع الحـج: روحية ومعنوية

فلا يُعقل أن يدعوك الله سبحانه وتعالى وأنت في بلدك، يدعوك لترك أهلك، وعملك، ودكّانك، ووظيفتك، وأولادك، وتأتي إليه، ولا تجد شيئاً هذا مستحيل، مستحيل في حق الله عزّ وجل، مستحيل في حقّ الضيافة أن تأتيه من مكانٍ بعيد ولا يكرمك، لذلك:

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)

وعلامة الحاج الصادق أنه يتمنّى أن يحج كل عام، علامة الحاج الذي أقبل على الله وتجلى الله على قلبه، أنه يتمنى أن تكون أيامه كلها حجاً، فلذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)

والمفسرون قالوا في تفسير هذه الآية: " منافع روحية، ومنافع دنيوية "، فإضافةً إلى أن الحج عبادة راقية، والإنسان في الحج يقبل على الله عزّ وجل، ويعاهده على الطاعة، يتوب إليه، ويتعرف إليه، ويتشرف قلبه بالإقبال عليه، إضافةً إلى كل هذا فإن في الحج منافع، ربما يلتقي المسلمون من شتىّ أقطارهم، ربما يتعرّف بعضهم على بعض، ربما يبحثون قضيةً عامة، ربما يتشجّع الإنسان ليكون مثل هؤلاء، ربما يكون التنافُس بينهم، هناك منافع روحية، ومنافع دنيوية تكون في الحج.

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ)

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ)

(سورة البقرة: من آية " 197 ")

فالحاج يذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الأيام المعلومات، كلما صعد شَرَفاً أو هبط وادياً، أو استيقظ، أو نام، أو التقى بركبان، يقول: "لبيك اللهم لبيك، لبيك استجابةً لدعوة الله سبحانه وتعالى:

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ)

فإذا رمى جمرة العقبة قطع التلبية وقال: " الله أكبر والله أكبر "، بدأ يكبّر ويهلل ويسبح، الحج كله ذكر، الحج كله دعاء، الحج كله صلاة، الحج كله إقبال، الحج كله اتصال، الحج مناسبةٌ كي يتصل هذا العبد بخالقه اتصالاً محكماً مكثفاً مجدياً صحيحاً.

(وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ)

نعمة بهيمة الأنعام

هذه الأنعام من آيات الله عزّ وجل، الأنعام تعني الإبل والبقر والغنم بما فيه الماعز، هذه الحيوانات التي جعلها الله آيةً على كرمه.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس)

لو أن الله سبحانه وتعالى رَكَّبَ في هذه الأنعام أخلاق الضباع، أو أخلاق الذئاب، أو أخلاق الوحوش الكاسرة، أو أخلاق السباع، كيف نستفيد منها ؟ كيف نربّيها ؟ كيف نكثِّرها ؟ كيف نذبحها ؟ كيف نتّقي شرها؟ إنها وديعة، الغنم والماعز والبقر والجمل، ربنا عزّ وجل قال:

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

(سورة الغاشية)

فهناك بحوث عن الجمل يكاد العقل لا يصدقها، فالله سبحانه وتعالى خلق الجمل خِصِّيصاً للصحراء، له عينان تُريانه الصغير كبيراً.. أي كالمجهر.. والبعيد قريباً.. مثل التلسكوب.. ولعينيه رموش بإمكانه أن يُغمض عينيه، وأن يرى طريقه لئلا يؤذيه غبار الصحراء، له أجفان يرى من خلالها، ولا تتأثر بغُبار الصحراء، بإمكان الجمل أن يَسُدّ أذنيه، الجمل له ثفينات، يجلس جلسةً نظامية كي يسهل تحميله، لو جلس كالحمار على جنبه كيف نُحَمِّل الجمل ؟ إنه يجلس بشكلٍ نظامي، يحمله صاحبه، وهو قاعد، ثم يقف، مَن هَيَّأ له هذا السنام الذي يجزئُهُ عن تناول الغذاء أشهراً ؟ الجمل بإمكانه أن يعيش بلا ماء ما يزيد عن عدة أشهر، بإمكان الجمل أن يمتّص الماءَ من خلاياه، الجمل يصبر، له هذه الأخفاف التي تعينه على السير في الرمال، فلو حدثتكم عن الجمل لطال الحديث، وهناك بحوثٌ طريفةٌ جداً وعميقة وغزيرة لا يتسع الوقت لذكرها جميعاً، فهذه سُمِّيَتْ أنعاماً لأنها نعمةٌ كبرى من الله عزّ وجل.

والغنم كذلك نأكل لحومها ودهنها وشحمها، ونستفيد من عَظمها، ونستفيد من أصوافها، ومن جلودها، ومن ألبانها، ومن أمعائها، كل شيءٍ في الغَنَم خير، هذه نعم الله سبحانه وتعالى، الألبان، مشتقات الألبان تعرفونها جميعاً، لا تجد بيتًا في الأرض إلا وفيه مشتقّات الألبان، هذه آيةٌ عظمى على نِعَمِ الله عزَ وجل.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

من جعلها مذللةً ؟ فبإمكان الطفل الصغير أن يقود الجمل الكبير، لأنه مذلل، لو لم يكن مذللاً لخاف منه الرجل فكيف بالطفل ؟.

(وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)

الهدي في الحج: الأكل منها والتصدق على الفقراء

كلوا من هذا الهَدْي، لذلك أجاز العلماء أن يأكل الحاج من هَدْيِهِ، وكلكم يعلم أن هناك حاجاً مفرداً، وحاجاً متمتِّعاً، وحاجاً قارناً، فالحاج المفرد لا دم عليه، لا هدي عليه، أما المتمتِّع والقارن فعليهما الهدي، هدي المتمتع هدي جَبرٍ، وهدي القارن هدي شكرٍ، لأن الله أعانه ووصل العمرة بالحج فعليه هديُ شكرٍ، أما المتمتع فعليه هدي جبرٍ، لأنه اعتمر، ثم تحلل، ثم أحرم من مكة قُبَيْلَ الحج، فعليه دم جبرٍ، فأجاز العلماء أن يأكل الحاج نَدْبَاً أو وجوباً أو إباحةً من لحم الهدي، وأن يطعم منه القانع والمُعْتَر، لكنهم حرّموا الأكل على من قدّم الهدي نذراً أو جزاءَ إثمٍ ارتكبه في الحج، هذا الهدي الذي يقدّم جزاءً وكفارةً لإثمٍ ارتكبه الحاج، أو وفاءً بنذرٍ لا ينبغي أن يأكل الحاج منه شيئاً.

(فَكُلُوا مِنْهَا)

هذا أمر ندب أو أمر إباحة هناك أمر يقتضي الوجوب، وهناك أمر إباحة، ثم..

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ)

(سورة البقرة: من آية " 187 ")

هذا أمر إباحة، ليس معناه أنه إذا لم يأكل الرجلُ يكون قد عصى، عندنا في الشرع أمر إباحة، كما أنه عندنا أمر ندب، وكذلك عندنا أمر وجوب.

(فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)

وبعد أن رمى الحاج جمرة العقبة وذبح الهدي..

(ثُمّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطّوّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

ثُمّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ

التَفَثْ، الإنسان حينما يقصُّ أظافره يقضي تفثه، وحينما يحلق شعر رأسه يقضي تفثه، وحينما يغتسل فيُذهب عن جلده الأوساخ يقضي تفثه، بعد أن أحرموا يوم الثامن من ذي الحجة، أو بعد أن أحرموا من العمرة إلى الحج للقارن، واستمروا على إحرامهم أياماً ولياليَ لا يمسّون طيباً، ولا يحلقون رأساً، ولا يلبسون مخيطاً، ولا يستعملون طيباً، بعد أن أحرموا، وتحمّلوا مشاقّ الإحرام، فالآن جاء وقت قضاء التَفَث، قال تعالى:

(ثُمّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطّوّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

حَمَّلَ بعض العلماء هذه الآية على أن الحاج وهو في عرفات، أو وهو يطوف البيت، أو وهو يقبّل الحجر، أو وهو يسعى بين الصفا والمروة، يعاهدُ الله على أعمالٍ صالحة، على خدمة الخَلق، على

هداية الخلق، على الاستقامة على أمر الله، هذا العهد الذي عاهدت الله به، بعد أن تحللت من الإحرام جاء وقت الوفاء به..

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ)

وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ

الحاج كأنه عاهد الله سبحانه وتعالى، وهو في عرفات عاهد الله، وهو يقبّل الحجر الأسود عاهد الله، وهو يلتزم المُلتزم عاهد الله، وهو يسعى بين الصفا والمروة عاهد الله، وهو يطوف حول البيت يعاهد الله سبحانه وتعالى، فإذا حَلَّ من إحرامه، وقضى تفثه عليه أن يفي بنذره، أحد الصالحين اشترى قبراً في حياته، كان كل يوم خميس يضّطجع فيه حياً، ويتلو قوله تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

فيقول لنفسه: قومي لقد أرجعناكِ، قومي إلى العمل الصالح قد أرجعناكِ، وكأن لسان حال الحاج.

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ)

بعد أن يرموا جمرة العقبة، وبعد أن يذبحوا الهدي، ويحلقوا شعورهم، ويغتسلوا يتحللون التحلّل الأول، أي بإمكانهم أن يفعلوا كل شيء كان محظوراً عليهم إلا النساء، هذا التحلّل الأول، فإذا طافوا طواف الرُكن، طواف الركن: يعني طواف الإفاضة، حلّ لهم كل شيء كان محظوراً عليهم بما فيه النساء.

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

الطواف بالبيت العتيق

فإذا قلت: كَسَّر غير كَسَرَ، وغَلَّقَ غير غلّق، وقَطَعَ غير قَطّع، قطّع فيه مبالغة، قطعتُ اللحم قطعتين، أما قطّعتها قطعاً صغيرة، فوزن فَعَّلَ يفيد التكسير، فربنا عزّ وجل قال:

(وَلْيَطَّوَّفُوا)

أي وليطوفوا كثيراً، فهم النبي عليه الصلاة والسلام من قوله تعالى:

(وَلْيَطَّوَّفُوا)

الطواف سبعة أشواط، الحد الأدنى سبعة أشواط، لكن الطواف الواجب دائماً أربعة أشواط، والسُنّة سبعة أشواط، فمن طاف أربعة أشواطٍ وأصابه إغماءٌ فرضاً فقد أدّى الفريضة، طواف الزيارة.

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

وسمي البيت العتيق عتيقاً لأنه أقدم بيت، وسمي البيت العتيق عتيقاً لأن الله كرّمه أن يخضع لجبّار، لذلك: كل أنواع الغزو التي شهدها العالم الإسلامي لم تصل إلى الكعبة، جعله الله عتيقاً.

والمعنى الآخر أن كل من دخل هذا البيت مخلصاً أعتقه الله من النار، إما لأنه عَتِيقٌ زماناً، أو لأنه في مَنْجَاةٍ من سيطرة الجبابرة، أو لأن كل من دخله أعتقه الله من النار، لأن: مَن حج، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

لذلك قال العلماء: من أفاض من عرفات، ولم يغلِب على ظنِّه أن الله قد غفر له فلا حج له، تفعل ماذا ؟ جئت من بلدك مِن بُعْدٍ يزيد عن عشرات الآلاف مِن الكيلو مترات، دفعت الرسوم، دفعت النفقات، أغلقت محلّك التجاري، تركت أهلك، لماذا جئت ؟ أليس جئت للمغفرة ؟ تفعل ماذا هناك ؟ مَن أفاض مِن عرفات ولم يغلب على ظنِّه أن الله قد غفر له فلا حج له.

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

تعظيم حرمات الله تعالى دليل على التقوى

أي أن هذه المناسك الذي يعظمها، هناك حاج يتساهل، يقول لك: لا تدقق، هذا لا يعظِّم شعائر الله، لديك أشياء مباحة في بلدك، الطيب مباح، بالعكس مندوب، قال عليه الصلاة والسلام:

((حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء...))

(رواه أحمد عن أنس)

فالطيب مباح في بلدك، ولكن الله سبحانه وتعالى هناك أراد أن يتعبّدك، أن يمتحن مدى طاعتك له، والطاعة دائماً تُمْتَحَن لا في المعاصي والآثام بل في المُباحات، حينما تَنهى ابنك عن أن يسرق فلابدّ أن يلتزم، أما حينما تنهاه أن يأكل طعامه الذي جُعِلَ له، ويستجيب لك فهذه منتهى الطاعة، فربنا عزّ وجل نهانا عن أشياء مباحة لنا ونحن في بلدنا، مباح أن تلبس ثوباً مخيطاً، مباح أن تغتسل بصابون مُعطّر، مباح أن تأخذ من الطيب، مباح أن تحلق رأسك، فربنا عزّ وجل أراد أن يمتحن عبوديّتك امتحاناً صارماً، فالمعاصي، والآثام شيء بديهي، وتركها من باب أولى، لما فربنا يأمرك عزّ وجل أن تترك المباح فترك المعصية من باب أوْلى، فإذا كان لبس المخيط حرام، النظر للنساء أشد حُرْمَةً، إذا كان استعمال الطيب حرام فالكذب أشد حرمةً، ربنا عزّ وجل جعل المباحات محرمة هناك ليكون ترك المحرّمات من باب أوْلى، شيء بديهي جداً أن تكون بعيداً عن كل إثمٍ أو معصية.

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ)

الحُرْمَة الشيء الذي لا يجوز أن تناله، شيءٌ محرم.

(فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ)

الأنعام كلها حلال إلا ما استثني

طبعاً الميتة والدم ولحم الخنزير، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، هذه كلها ذكرها الله عزّ وجل في أماكن أخرى من كتاب الله، لكن بعض المفسرين يقولون: إلا ما يتلى عليكم هنا السياق والسباق واللحاق يقتضي أن ذبح الأنعام في البيت الحرام كما كان شائعاً في الجاهلية، كان ذبحاً على الأصنام، والدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول بعدها:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

الأمر باجتناب الأوثان

أيْ اجتنبوا الرجس الذي يصيبكم من عبادة الأوثان، لأنكم إذا عبدتم الأوثان فهو رجسٌ أيْ نجسٌ، والنجس مستقْبَح، ربنا عزّ وجل في آية أخرى يقول:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

(سورة التوبة: من آية " 82 ")

لم يقل الله عزّ وجل: نجسون، بل قال:

(نَجَسٌ)

لأن النَجِس يطْهُر، نَجِس على وزنَ فِعل، أما النَجَس هو عين النجاسة، فلذلك الوثن الصنم إذا عبدته فهو نجس، نجاسة بمعنى أنك إذا عبدته انقطعت عن الله عزّ وجل، هذا الصنم أصم وأبكم، لا ينطق ولا يسمع ولا يستجيب، وليس معك، وليس في إمكانه أن يتجلّى على قلبك، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى في سياق هذه الآيات ويبيِّن أنه لا يجوز للإنسان أن يذبح هدياً إلا ابتغاء مرضاة الله، وهذه الآية فيها نهيٌ عن فعل الجاهلية.

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

الأمر باجتناب قول الزور

هذه الآية يستنبط منها أن الباطل لا يجوز أن تمارسه، ولا يجوز أن تتحدّث عنه، لأن الحديث عن الوثن وعن الصنم هو حديثٌ كاذب، وهو يقول زور، فلا ينبغي أن تعبد الوثَنْ، ولا أن تشيد به، ولا أن

تتحدث عنه، وعندنا قاعدة أصولية.. ما حَرُم فعله حَرُم استماعه، وحرم النظر إليه، وحرم الحديث عنه.. فهذه الأوثان التي كانت تُعْبَدُ من دون الله في الجاهلية لا يجوز أن تعبد، عبادتها نجاسةٌ قطعية، والحديث عنها كذلك، لذلك:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

لأن قول الزور قولٌ كاذب، والحديث عن الأوثان حديثٌ كاذب غير صحيح، لا تقدِّم ولا تؤخِّر، ويجب أن يكون الحُجَّاجُ حنفاء لله، الأحنف هو المائل، الأحنف بن قيس سمي " أحنف " لأنه كان به مَيْل، إذا سار يميل على إحدى رجليه، أما الأحنف هنا فهو، المؤمن الأحنف أي المائل لله عزّ وجل، أيْ كله متجه إلى الله عزّ وجل، إمكاناته، تفكيره، مشاعره، عقله، ذِكْرُهُ، حديثه، طاقاته، نشاطه، كله في سبيل الله.

(حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ)

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ

حنيف أيْ مائل.

أحياناً يقول لك بعض الناس: ساعة لك، وساعة لربك، هذه المقولة شرك، فالوقت كله لله، لكن ربنا عزّ وجل أمرك أن تأخذ حظاً من الراحة، أمرك أن تجلس مع أهلك، أمرك أن تجلس مع أولادك، ولكن حنفاء لله، القلب معلّق بالله عزّ وجل.

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ)

عاقبة الشرك والمشركين

مَن يتخذ غير الله شريكاً، مَن يتوجَّه لغير الله، من يطمح لغير الله، من يطمئن لغير الله، من يطيع غير الله، من يركن لغير الله، من يعتمد على غير الله، من يرضى بغير الله، هذا شرك.

((إنّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوّفُ عَلَى أُمّتِي الإِشْرَاكُ بِاللهِ، أَمَا إِنّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلاَ قَمَراً وَلاَ وَثَناً، وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللهِ، وَشَهْوَةً خَفِيّةً))

(من مسند ابن ماجة)

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

صورةٌ رائعة، المشرك كأنه سقط من السماء، فلو أنّ إنساناً يركب طائرة، وهذه الطائرة تطير على ارتفاع أربعين ألف قدم، وفجأةً فُتِحَ الباب الذي إلى جانبه وسقط، فقد مات وانتهى، هذا مثل مبسّط لمن

يشرك..

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنّمَا خَرّ مِنَ السّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطّيْرُ)

يصبح طعاماً في حويصلاتها..

(أَوْ تَهْوِي بِهِ الرّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

(يَا بُنَيّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

(سورة لقمان)

وإن الأديان السماوية كلها تدعو إلى التوحيد..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

من التقوى تعظيم شعائر الله

الشعائر جمع شعيرة، والشعيرة العلامة الدالة على منسك أو على عبادة، فالكعبة مِن شعائر الله، والبيت الحرام من شعائر الله، والحرم المكي بكامله مع حدوده من شعائر الله، المُصحف من شعائر الله، المسجد من شعائر الله، المؤمن من شعائر الله، من يتزيّا بزي أهل العلم فهذا من شعائر الله، ينبغي أن تحترمه، ينبغي أن تجلّه، إكراماً لهذا الزي الذي يرتديه.

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

فالأدب مع الله هو أدب مع رسوله، هو أدب مع بيته، أدب مع كتابه، أدب مع مَن يدلّه على الله عزّ وجل، الأدب واحد يظهر بأشكال متباينة.

(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

الهدي منفعة للحاج خالصة لله

هذا الهدي الذي يسوقه الحاج معه، أعني الحاج المتمتع..

(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

فلك أن تركبها، ولك أن تحلبها، ولك أن تستعين بها..

(ثُمّ مَحِلّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

في النهاية تُنْحَر، ويقدم لحمها طعاماً للفقراء، فيجوز من خلال هذه الآية أن تركب الهدي، وأن تستفيد من لبنه، ومن صوفه، ومن وبره..

(ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

لذلك حينما كان الحجاج يذبحون الخراف سابقاً، ويلقونها في الطريق لتنتفخ بعد ساعات، وتملأ الجو كلها رائحةً نتنة، هذا ليس من فعل المسلم، هذا ليس منسكاً، ليس القصد أن تذبح غنمًا، بل استفد من هذا اللحم، القصد أن يصل هذا اللحم إلى بطون الفقراء، هذا القصد، لذلك تفقّهوا قبل أن تحجوا، حدثني صديق قبل سنوات.. قبل أن يمنع الذبح، الآن يتم الذبح في المسلخ.. قبل أن تمنع فوضى الذبح كان الحاج يشتري هذه الغنمة بمئات الريالات، ويذبحها، ويمشي، فإذا نظر إلى هذا المَنسك إنسان غير مسلم فإنه يتساءل: أهذا هو الإسلام ؟ أهذا هو الدين ؟ هل يأمركم الله عزّ وجل أن تذبحوا هذه الخراف لتصبح جيَفًا، أهذا هو الدين ؟ لا والله، يجب أن تنتهي هذه الأغنام، هذه الذبائح إلى أجواف الفقراء، إلى بطونهم.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ)

أيْ أنّ الله عزّ وجل جعل مناسك، أي جعل وسائل تتقرب بها إليه، من هذه الوسائل أن تذبح الأضاحي تقرُّباً إلى الله عزّ وجل، المنسك يعني العبادة، وهنا العبادة المتعلِّقة بذبح الهدي.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)

من صفقات المؤمن المخبت:

1 - الخوف والوجل عند ذكر الله:

الذين أضمروا الحب لله عزّ وجل..

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

فالإسلام نصفه محبّة، مكان المحبة في الإسلام كمكان الروح من الجسد، فالإسلام من دون محبة جسدٌ بلا روح، فالمؤمنون..

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

اضطربت قلوبهم، هَطَلت دموعهم، اقشعرّ جلدهم، اضطربوا، تأثروا..

(وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ)

2 - الصبر على المصائب:

المؤمن صابر يرى أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، ويرى أن حكمته بالغة، وأن الله سبحانه وتعالى كل أفعالِهِ خير.

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران: من آية " 26 ")

(وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ)

3 - إقامة الصلاة:

فالصلاة تحتاج إلى جهد كبير كي يقيمها الإنسان، تحتاج إلى استقامة، وأنت تحتاج إلى أن تعرف الله، يجب أن تعرف مَن تقف بين يديه، تحتاج إلى عمل صالح كي ترقى به إليه.

(وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

4 – الإنفاق في سبيل الله:

كل إنسان مُحاسب على ما رزقه الله عزّ وجل، فمن آتاه الله العلم فعليه أن ينفق من علمه، والذي أتاه الله المال عليه أن ينفق من ماله، والذي أتاه الله الجاه عليه أن يُنفِقَ من جاهه.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

(وَالْبُدْنَ)

الهدي المسوقة في الحج من شعائر الله

أيْ الناقة، مفردها بَدَنَة، بفتحتين..

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ)

تقف، وتربط، ثم تُنْحَر..

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا)

أي وقعت وسَكَنَتْ..

(فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ)

القانع والمعتر

القانع الذي لا يسأل، والمُعْتَر الذي يتعرّض للسؤال، يسأل، يقول لك: أعطني من مال الله.

(كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا)

لَنْ يَنَالَ اللّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُها

لن ينال الله، اسم الجلالة، مفعول به مقدّم منصوب على التعظيم، أيْ لن ينال لحومها ولا دماؤها الله، فإن الله عزّ وجل غنيٌّ عن عبادتنا كلها.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

(من صحيح مسلم عن أبي ذر)

فلذلك:

(لَنْ يَنَالَ اللّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التّقْوَى مِنْكُمْ)

وَلَكِنْ يَنَالُهُ التّقْوَى مِنْكُمْ

الله عزّ وجل يناله من العبد هذه النيّةُ الطيبة، بهذه النية الطيبة يقبل عليه، بهذه النية الطيبة يسعد بها إلى الأبد.

(كَذَلِكَ سَخّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبّرُوا اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشّرِ الْمُحْسِنِينَ)

معناها: وأنت في الحج فقد هُدِيَت إلى الله عزّ وجل، وما قولك: " لبيك اللهم لبيك والله أكبر، الله أكبر " إلا تعبيرٌ عن أنك قد اهتديت إلى الله عزّ وجل.

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 38- 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-07-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الحَج، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى.

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنّ اللّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقّ إِلّا أَنْ يَقُولُوا رَبّنَا اللّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنّ اللّهَ لَقَوِيّ عَزِيزٌ (40))

توطئة

يؤكِّد بعض العلماء أن هذه الآيات هي الآيات التي أذِن الله فيها أوّل مرّة للمؤمنين بالقتال، ذلك أن الحق لابدّ من أن تدعَمَهُ قوّة، وأن الحق من دون قوة مُسْتَباح، وأن أهل الباطل منذ القِدَم يكيدون للحق، وأن هناك صراعاً دائماً بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل، لذلك في هذه الآيات يذكر الله فيها سبحانه وتعالى أن الذين آمنوا قد ظُلِموا، وأنهم عليهم أن يأخذوا حقهم، وأن يحافظوا على هذا الحق، ولكن لماذا لا يتولّى الله سبحانه وتعالى الدفاع عنهم ؟ ولماذا لا يعفيهم من مؤونة القِتال ؟ هذا السؤال الأوّل.

الله من دون شك قادرٌ على أن يقدِّم النصر للمؤمنين على طبقٍ من ذهب، من دون عناءٍ، ولا تعبٍ، ولا جهدٍ، ولا مشقّة، ولكنّ هذا النصر الذي يُقَدَّم من دون جهد لا قيمة له، ولا يرقى بهم، ولا يتيحُ لهم أن يسعدوا في الجنّة التي وعدهم الله بها. الله سبحانه وتعالى وعدهم بالنصر بشرط أن يكون القتال من فعلهم، وعدهم بالنصر بشرط أن يكون النصر عن طريقهم، لذلك كان التمهيد بقوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

دفاع اللهِ عن المؤمنين

أيْ أن الله خالق الكون، واجب الوجود، الأبدي السرمدي، القوي، القهّار، العزيز، الجبّار، هذا الإله العظيم الذي خلق كل شيء، والذي خلق الكون فقال له: كن فيكون، هو نفسه يدافع عن الذين آمنوا، ولم يقل: يَدْفَعُ، بل يدافع، لأن دافع مصدره المُدافعة، والمدافعة أبلغ من الدفاع، دَفَعَ دفعاً، ودافع مدافعةً..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

ولا يَعرف معنى هذه الآية إلا المؤمن، لأنه من خلال تجاربه اليوميّة يرى رأي العين كيف أن الله سبحانه وتعالى يُدافع عنه، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يُنقذه من عدوّه، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يكيد لمن يكيدون له، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يحفظه بحفظه المنيع، هذا المعنى لا يتذوقه إلا المؤمن..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

لماذا ؟ قال بعض العلماء: " هذه الآيات توطئةٌ وتمهيدٌ لآيات القتال"، إن الله يدافع عنكم.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38))

بغض الله للخائنين للأمانة

لماذا يدافع الله عن المؤمنين ؟ قال: لأنه يحبُّهم، ولماذا يكيد للكافرين ؟ لأنه لا يحبُّهم، إن الله لا يحبُّ أعداء المؤمنين، من هم أعداء المؤمنين ؟ هم الكافرون، لماذا لا يحبهم الله عزّ وجل ؟ لأنهم خائنون، كافرون، خانوا ماذا ؟ خانوا أمانة التكليف.

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا)

(سورة الأحزاب)

الإنسان حمل الأمانة، فإما أن يفي بعهده، وإما أن يخون الأمانة، فالله سبحانه وتعالى لا يحبُّ كل خَوّانٍ، لم يقل: كل خائنٍ، لأن الذي ينسى الأمانة، ولا يقوم بحقِّها ليس خائناً فحسب، بل هو خَوّان، أيْ أنّهُ كثير الخيانة، هذه الأمانة هي نفسك التي أودعها الله بين جنبيك، نفسك التي أوكلك الله بتزكيتها، هذه أهملتها وتبعت الشهوات، فلذلك حينما يتخلّى الإنسان عن أمانته التي عهد الله بها إليه فهذِهِ ليست خيانةً فحسب، بل هِيَ أشدُّ أنواع الخيانة، سمّاه الله سبحانه وتعالى خَوّان أيْ كثير الخيانة..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38))

الخوّان هو الذي خان الأمانة التي مِن أجلها جاء الله به إلى الدنيا، لماذا أنت هنا على وجه الأرض ؟ سؤال كبير، لماذا أنت هنا في الأرض؟ لأنك حملت الأمانة في الأزل، لأنك قبلت حمل الأمانة وقلت لربّك: أنا لها يا رب.. فالآية الكريمة:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

(سورة الأعراف: من آية: " 172 ")

فالأمانة أنّك جئت إلى الدنيا، ووضِعَت نفسُك بين يديك أمانة كي تزكِيَها، ولا تتزكّى النفس إلا إذا عرّفتها بربّها، وإلا إذا استقمتَ على أمره وأقبلتَ عليه فطهُرت نفسك من أدرانها، فلذلك:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

لأنه يحبُّهم، ولماذا يحبهم ؟ لأنهم أدّوا الأمانة، ولأنهم شكروا النعمة، بينما أعداؤهم الكفّار لا يحبُّهم، لماذا لا يحبُّهم ؟ لأنهم خانوا الأمانة وكفروا النعمة، وهاتان صفتان أساسيّتان من صفات الكفر، خيانة الأمانة وجحود النعمة..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38))

لذلك قال بعضهم: " كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله "، وكفاك شرفاً أنك مؤمنٌ به، وكفاك عزّاً أنك عبدٌ له، وكفاك فلاحاً ونجاحاً وتفوّقاً وفوزاً أنك مستقيمٌ على أمره..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

دعوة إلى حفظ الأمانة

ألا يطمح أحدنا أن تكون له هذه الخصيصة ؟ ألا يطمح الإنسان أن الخالق العظيم يُدافع عنه ؟ ألا ترون أنّ أهل الدنيا إذا أقاموا علاقةً مع شخصٍ مُهمّ تراهم يتيهون بهذه العلاقة، ويفخرون بها، وربما لا تسعهم الأرض سروراً، يعرضون عليك الصورة التي اجتمعوا فيها معهم على طاولةِ طعام العشاء، يقول لك: فلان كنت معه ليلة أمس، وتناولتُ العشاء معهُ، ألا ترى أن خالق الكون، أن الله جلّ وعلا هو يدافع عنك، أليس هذا شرفاً عظيماً لك أيها المؤمن ؟ أتبتغي عند الآخرين العِزّة ؟ أتبتغي عند أهل الدنيا العِزّة ؟ ابتغ العزّة عند الله، فالله سبحانه وتعالى رفعك فلا تخفض نفسك، الله أعزّك فلا تُذِلّ نفسك، الله كفاك فلا تنظر إلى سواه..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

هذه الآية لها معنى قد تدركه عقولنا، إلا أنّ هذه الآية تستوجب منك الكثير من المُعاناة، فمن كان مؤمناً حقاً وكان يدعو الله حقاً في سرّه وجهره، وقد رأى من مدافعة الله عنه الشيء الكثير عندئذٍ يعرف معنى هذه الآية، ويعيش هذا المعنى، أن تعيش المعنى أبلغ من أن تفهمه..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

كن مؤمناً، والله سبحانه وتعالى يتولّى الدفاع عنك، الإنسان العادي أحياناً يشعر بغِبْطة وبطمأنينة لا حدود لها إذا وكّل محامياً لامعاً في قضيةٍ شائكة، يقول لك: أنا محامِيّ فلان وهو من ألمع المحامين، وله صِلاتٌ وثيقة مع القضاة، واجتهاده لا يُخطئ، وله شخصيّةٌ قويّة، وله هيبةٌ في قصر العدل، وقد

وكّلته وأنا مطمئن، فما قولك إذا كان الذي يتولّى الدفاع عنك هو الله سبحانه وتعالى ؟..

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

لأنه يحبُّهم، لأنهم يحبونه وهو يحبُّهم، لأنهم حملوا الأمانة، ولأنهم شكروا النعمة، بينما أعداؤهم الكفّار خانوا الأمانة، وكفروا النعمة، فإذا كادوا للمؤمنين فالله سبحانه وتعالى يتولّى الدفاع عنهم..

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

كن مؤمناً واحْظَ بهذا الشرف العظيم، كن مؤمناً، ونَم مطمئناً هادئ البال، فلن تستطيع جهةٌ على وجه الأرض أن تنالك بالأذى لأن الله يدافع عنك، كن مطمئنّاً، ولا تخشَ إلا الله، كن مطمئناً، وكن مؤمناً، ولا تأخذك في الله لومة لائم..

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

كفى المؤمنين فخراً هذه الآية، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، هو أهلٌ بأن تتوكّل عليه.

(إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ)

إذْنُ اللهِ للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقتال المشركين

من الذي أذِنَ ؟ الله سبحانه وتعالى، أحياناً لا يُذْكَرُ الفاعلُ تعظيماً له..

(أُذِنَ)

خُلِقَ الإنسان، مَنْ خلقه ؟ الله سبحانه وتعالى، الفاعل قد لا نذكره لشدّة عظمته، أو لأنه معروفٌ لدى كل الناس، هل من خالقٍ إلا الله ؟ إذا قلنا: خُلِقَ الإنسان لأنّ الخالق معروف، لأنه أعظم من أن يُذْكَر أو أجلّ أن يُذْكَر..

(أُذِنَ لِلّذِينَ يُقَاتَلُونَ)

الحديث قبل قليل كان عن المؤمنين..

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

فربّما يقول قائل: لِمَ لَمْ يقل الله عزّ وجل: أُذِنَ للذين آمنوا أن يقاتلوا ؟ فربنا عزّ وجل من إعجاز القرآن الإيجاز، فبدّل بكلمة المؤمنين كلمة الذين يقاتلون، واستنبط العلماء أن الذي يُقَاتَل يَحِقُّ له أن يُقاتِل إذا كان قد قوتل، لذلك لا ينبغي أن تبدأ أنت بالقتال، البادئُ هو الظالم، إذا قوتلت، طبعاً الخطاب موجّه إلى النبي الكريم وأصحابه الذين ذاقوا مِن بأس قريش، ومن التضييق، والشدّة، والتعذيب الشيءَ الكثيرَ، لذلك يقول الله عزّ وجل:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ)

بفتح التاء، أيْ هم قوتِلوا بأنهم ظُلِموا، إذاً هناك شرطان، لا ينبغي للمسلمين على مستوى الأمّة الإسلاميّة أن تقاتل أعداءها إلا إذا بدؤوها بالقتال، وكانوا بهذا القتال ظالمين، شرطان، أما أن تعتدي على غيرها فعندئذٍ لا تُنْصَر، يجب أن تُبْدَأ بالقتال من قِبَل أعدائها أولاً، ويجب أن يكون هذا العدوان ظالماً، عندئذٍ أُذِنَ لها أن ترد الصاع صاعين، يأتي عدوٌ غاصبٌ دخيل يأخذ الأرض، ويبيح المحرّمات، ويشرّد السكّان، ويبقى المسلمون صامتين ؟! لا..

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا)

سبب القتال ظلم الأعداء

وهذه الباء سببية، أيْ أنّ سبب مشروعيّة القتال أنهم ظُلِموا..

(وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39))

وعدُ الله المؤمنين بالنصر

فلِمَ لمْ يقل الله عزّ وجل: وأن الله سينصرهم، لا، لأن هذه أبلغ، لأن إحراز النصر للمؤمنين شيءٌ هيّنٌ على الله عزّ وجل، شيءٌ سهلٌ جداً على الله عزّ وجل..

(وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39))

قد يقول لك قائل: القضية سهلة جداً، أنا بإمكاني أن أفعلها، ربما لا يقول لك: سأفعلها لك، إذا قال سأفعلها لك فكـأنها مُهِمّةٌ صعبة، وكأنها مهمّةٌ كبيرة، قال: هذا بإمكاني أن أفعله، فالأمر يسير، وإذا قال الله لك: بإمكاني أن أفعله فمعنى ذلك أن نصر المؤمنين شيءٌ على الله يسير..

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا)

لكنّ القتال لا يكون إلا عن طريق جموع المسلمين، لا يوجد قتال فردي، هذا الأمرُ ليس على آحاد المسلمين، ولكنّه على مجموع الأمّة..

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا)

فلو فرضنا: أمةٌ مسلمة لها عدوٌ غاشم استباح محرّماتها، أيحقُّ للأفراد أن يقاتلوا هذا العدو ؟ لا، لابدّ أن يكون القتال على مستوى الأمّة، لابدّ أن يكون على مستوى الجماعة المؤمنة التي تتمثّل في أميرها..

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)

بيان نوع الظلم: الإخراج من البيوت بغير حق

ما هو هذا الظلم ؟ ما بيان هذا الظُلم ؟..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ)

الإنسان قد يُنْفَى من دياره لفاحشةٍ ارتكبها، وقد يُنفى من دياره لجريمةٍ فَعَلَهَا، أما أن يُخْرَج من دياره بلا سبب ؟ أن يشَرَّد الإنسان من بيته ومن أرضه بلا سبب ؟ هذا هو الظلم الكبير، لذلك حينما يدافع الإنسان عن أرضه فهذا دفاعٌ مشروع، حينما يدافع عن أرضٍ سُلِبَت منه فهذا دفاعٌ مشروع وحَقٌ له..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ)

فالمؤمنون الأوائل ذهب بعضهم إلى الحبشة، وذهب الآخرون إلى المدينة، إنهم قد أُخْرِجوا، فمن أمرهم بالخروج ؟ كفّار مكّة ؟ هم لم يأمروهم بالخروج صراحةً، ولكن ضيّقوا عليهم، وضيّقوا عليهم، وشدّدوا عليهم، حتّى حملوهم على الخروج، آذوهم، وضيّقوا عليهم، وقاطعوهم، ونكّلوا بهم، وعذّبوهم حتى حملوهم على الخروج..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ

أيْ أنّ ذنبهم الوحيد أنهم قالوا: ربنا الله، وهذا الذي يتحمّل المتاعب لأنه يقول: ربي الله هو إنسانٌ عند الله عظيم، وهو إنسانٌ له عند الله أجرٌ كبير..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ)

الأمر بدفع الظلم للحفاظ على الدين وشعائره

لولا أن الله سبحانه وتعالى شرع للمؤمنين الجهاد لجاء أعداؤهم من غير مِلّةٍ فاستباحوا أرضهم، وشرّدوهم منها، وهدموا معابدهم، ونكّلوا بهم، إذاً لابدّ للحق من قوّةٍ تحميه، من هنا شُرِعَ الجهاد في سبيل الله..

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ)

ولولا أن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن ندفع عنّا الظُلم بالجهاد..

(لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ)

فالصوامع هي أماكن العبادة التي كان يقبعُ بها العبَّاد في قديم الزمان، والبيَعُ كنائس النصارى، والصلوات كُنُس اليهود، والمساجد دور عبادة المسلمين، هكذا جاء في بعض التفاسير، على كلٍ الصوامع والبيع والصلوات والمساجد كلُّها تمثِّل دور العبادة التي يُعْبَد فيها الله سبحانه وتعالى، وفيها يُذْكَر، فلولا مشروعيَّة الجهاد لما بقي في الأرض بيت يُعْبَد الله سبحانه فيه.

طبعاً جاء المغول والتتار في العصور الوسطى، وغزوا بلاد المسلمين، ولولا مشروعيَّة الجهاد لفقدنا هذا الدين الحنيف، ولكنّ بالجهاد رددناهم.. سيدنا صلاح الدين لولا مشروعية الجهاد لظلّ الإفرنج يعيثون في هذه الأرض الفساد.. ونحن يجب علينا أن نردُّ الظلم بالظلم، وهؤلاء شُذّاذ الآفاق لابدّ أن يُرَدّ ظلمهم بالجهاد في سبيل الله، باسترداد الحقّ المُغْتَصَب، لذلك:

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً)

المعنى الموسّع للآية: التوازن في القوى

هذه الآية واسعة جداً في تعدّد معانيها، وهناك معنى آخر للآية: ربنا عزّ وجل رحمةً بالضِعَاف يقيم قِوى متوازنة، أحياناً تكون قوّتان كبيرتان ؛ هاتان القوّتان الكبيرتان ضمانةٌ للضِعاف، فلو أنها قوةٌ واحدة لأكلت الجميع، من معاني هذه الآية أن هناك توازن في القوى دائماً هو من فعل الله سبحانه وتعالى، رحمةً بالضِعاف، حتى على مستوى غير الجهاد، على مستوى الاقتصاد أحياناً شركتان تنتجان سلعةً واحدة، هاتان الشركتان تتنافسان لجلب المشترين، فكل واحدة تُحَسِّن بضاعتها وتخفض أسعارها، فهذه رحمة، التوازن في كل شيء رحمة، فهذه الآية تشير إلى معنى التوازن:

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً)

هدف المساجد والبيَع والصوامع ذكرُ الله

إذاً هذه المساجد، وتلك البيَع والصلوات، والصوامع هدفها الأول أن يُذكر اللهُ فيها، وأن تذكره وحده، وأن لا تذكر سواه، لذلك قال تعالى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

(سورة الجن)

لا ينبغي على منبر رسول الله أن يُذْكَر غير الله ورسوله، هذا مسجدٌ أُقِيمَ لنشر الحق لا لزيدٍ أو عبيد، فلذلك:

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً)

إذاً مشروعيَّة الجهاد أنه قوَّةٌ للحق، والحق بلا قوةٍ لا قيمة له، المسلمون إن لم يكونوا أقوياء فأعداؤهم من الكفّار يَحتلّون أرضهم، وينهبون ثرواتهم، ويستبيحون دماءهم، ويزوّرون تاريخهم، ويهدِّمون معابدهم، هكذا، لذلك فالجهاد كما قال الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه: **"الجهاد درع الله الحصينة، وجُنّته الوثيقة، وهو لباس التقوى، وما غُزيَ قومٌ في عُقْر دارهم إلا ذلوا ".**

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

قانون النصر: وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ

كما قلت قبل قليل: إنَّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يقدِّم النصر للمسلمين هيّناً ليّناً، على طبقٍ من ذهب من دون عناءٍ ولا تعب، من دون جهدٍ ولا مشقّة، من دون قتالٍ ولا صبرٍ ولا شيءٍ من هذا القَبيل، ولكن هذا النصر الذي يقدِّمه الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بلا جهدٍ منهم لا قيمة له..

من أخذ البلادَ بغير حربٍ يهون عليه تسليم البلادِ

* * *

لكنَّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون هذا النصر عن طريق المؤمنين، عن طريق بذل الجهد، عن طريق التضحية، عن طريق العطاء، عن طريق أن يبيع الإنسان نفسه في سبيل الله..

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

يعني..

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة آل عمران)

الله سبحانه وتعالى جعل لهذه الآية قانوناً للنصر، فالله سبحانه وتعالى ينصر من ينصره.. يُروى أن سيدنا صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه كان له شيخ، وقد هَجَمَ الفرنجة على بلاد المسلمين، وسفكوا الدماء، وانتهكوا الأعراض، وعاثوا في الأرض الفساد، وكان خطرهم يزداد كلّما مرّت الأيام، وأعمالهم العدوانيَّة تشتد، لذلك استشار شيخه ماذا يفعل ؟ فقال: " أزلْ المُنكر حتى تستحقَّ النصر "، ويروي التاريخ أنه قال له: " يا سيدي لم يبق هناك وقتٌ لإزالة المنكر"، فدفعه وقال: " قم لا نصرك

الله "، حتى نفّذ هذه النصيحة بحذافيرها فأغلق كل دور اللهو، ومنع شرب الخمر، وأقام حدود الله عزّ وجل، ثم التفت وقاتل الفرنجة حتى انتصر عليهم.. وآخر معركة جرت في عين جالوت حينما انتصر سلطان مصر على التتار، ما الذي فعله ؟ أقام العدل، وأزال كل المنكرات، وعندئذٍ استعان بالله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالى نصره.

فلذلك الآية الكريمة:

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

أيْ لا تطمع أن ينصرك الله عزّ وجل وأنت مقيمٌ على المعاصي، لأنك إذا أقمت على المعصية فأنت والذي تقاتله سواء، فإذا تساوى المتقاتلان في البعد عن الدين كان النصر للأقوى عدداً وعدّةً، أما إذا كان أحد الفريقين مؤمناً فالله سبحانه وتعالى هو الذي ينصره..

(إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

القوة والعزة من صفات الله تعالى

فكن مع القوي، كن مع القوي العزيز، الله قويٌّ لا يُقْهَر، وإرادته لابدَّ أن تنفذ، وهو ينصر الذين ينصرون الله عزّ وجل..

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

التمكين في الأرض

1 - تعريفه:

ما هو التمكين ؟ الإنسان بين أن يكون مُمَكَّناً في الأرض، وبين أن يكون مستضعفاً، فالمستضعف هو الذي لا يقوى على تحقيق مُراده، لا يملك القوّة، ضعيف، مقهور، لكنّ المُمَكَّن هو الذي يملك أن يحقِّق ما يريد، فربنا عزّ وجل وصف هؤلاء المؤمنين بأنهم.

(إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

آثاره: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فمن التمكين في الأرض أن تكون ذا بحبوحة، فالإنسان إذا اغتني، وكان ضعيف الإيمان فبعد أن يغتني يترك الصلاة، وبعد أن يغتني يأمر زوجته أن تُسْفِرُ عن وجهها، وبعد أن يغتني يحبُّ أن يفعل المنكرات، هذا مكّنه الله في الأرض أي جعله بماله مستطيعاً أن يفعل ما يشاء، فما كان منه إلا أن ارتكب المعاصي، وابتعد عن الدين.

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ)

التمكين واسع جداً، قد يجعلك الله قوياً، قد يجعلك في مرتبةٍ اجتماعيَّة حيث إنّ أمْرَكَ نافذ، إذا أمرتَ فأمرُك مُطاع، إذاً أنت مُمَكَّن في الأرض، قد تكون في منصب، في عمل، في وضع اجتماعي، في وضع معاشي، في وضع اقتصادي، في وضع من الأوضاع فأنت قويٌ بقوّة المال أو بقوة السلطان، فإذا كنت في هذا المستوى عليك أن تصلِّي وتأمر الناس أن يصلّوا..

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

فأحياناً يكون الإنسان معلِّمًا في مدرسة فيصبح مديراً لهذه المدرسة، صار عنده قوّة أكبر، هل يوظِّف هذه القوّة لنشر الفضيلة بين الطلاب ؟ في حَضِّهم على الصلاة ؟ في حضِّهم على معرفة الله عزّ وجل ؟ هل يأمر بالمعروف ؟ هل ينهى عن المنكر ؟..

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ)

أحياناً يكون الأب ممكناً، يدخل إلى بيته سلطاناً للبيت، أمره نافذ، هذا الذي تزوّج، ووهبه الله زوجةً وأولاداً هل يقوم، ويصلي بأولاده وزوجته؟ فهذا قد مكّنه الله في الأرض، جعله في بيت مستقل، قد يكون أحياناً الشاب في بيت ليس له رأي، البيت فيه معاصٍ، فيه منكرات، فيه مخالفات، الصلاة لا قيمة لها في هذا البيت، إذا صلى يُستهزأ به، نقول: هذا الشاب غير ممكّن، فإذا تزوّج هذا الشاب، وصار له بيت مستقل، وله زوجة وأولاد، هذا الإنسان قد مَكّن الله له في الأرض، أتراه يصلي ؟ أيأمر هذه الزوجة أن تصلي ؟ أيصلي بها وأولادُه من ورائه ؟ أيقيم أمر الله في هذا البيت أم أنّه حينما مُكِّن أطلق لشهواته العِنان ؟ وجلب أجهزة اللهو ليحظى بها ببعض المباهج ؟ فهذه الآية واسعة كثيراً تنطبق على كل واحد منّا..

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

هذه الآيةُ من الممكن أن تأخذها على مستوى فردي، ومن الممكن أن توسِّعها إلى أعلى مستوى، فالمسلمون حينما كانوا في الأندلس مكّنهم الله، بلادٌ شاسعةٌ واسعةٌ مكّنهم الله فيها، فلمّا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر مكّن الله لهم حكمهم، وأمدّهم بقوّةٍ منه، وجعلهم ينطلقون لفتح أوروبا، ووصلوا إلى مشارف باريس، فلمّا تركوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، واتخذوا القَيْنات، وانغمسوا في الموشّحات، واشتروا الجواري الحِسان، وشربوا الخمر في الأندلس فالله عزّ وجل عندئذٍ تَخَلّى عنهم بكل بساطة..

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ)

فهذه الآية يمكن أن تُطبَّق على كل واحد منّا، يكون هذا غيرَ متزوج فيتزوج ويصير له بيت مستقل، فالله مكّنه في الأرض، يكون معلِّماً فصار مديراً، يكون كاتباً فصار رئيس دائرة، يا ترى بعدما رفعه الله هل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ هل يُحِق الحق ويُبْطِل الباطل؟ هل ينحاز مع إنسان قوي على حساب المؤمنين ؟ امتحان، وهذه الآية أيضاً تُطبَّق على المسلمين فيما لو حكموا الدنيا، فيما لو أعاد الله لهم مجدهم وعزّهم، فيما لو أعاد الله لهم تمكينهم في الأرض..

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

فالمؤمن لا يزيده المال إلا تواضعاً، ولا تزيده القوة إلا طاعةً لله عزّ وجل، والمُنافق إذا تمكّن في الأرض أكثر فيها الضلال والدمار، وعاث فيها فساداً، هذا هو الفرق بين المؤمن وبين غير المؤمن..

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

الإنسان قد يسافر إلى بلد أجنبي، ويكون معه مئات الملايين، وهناك ليس مَنْ يحاسبه على الصلاة، مباهج ومناظر، وطعام وشراب، ومن مكانٍ إلى مكان، ومن فندق إلى فندق، أمّا إذا كان مؤمناً، واضطر إلى السفر فهل يترك الصلاة هناك ؟ لن يتركها، الإنسان المُمَكّن أعطاهُ الله عزّ وجل مِيّزة، كما أعطاه إمكانيّات ماديّة أو معنوية، أو قدرات، أو قِوى..

(وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُور

هذا امتحان، لكنّ هذا الذي مُكِّن في الأرض فلم يُصَلّ ولم يأمر بالصلاة، ولم يؤتِ الزكاة، ولم يأمر بإيتاء الزكاة، ولم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر..

(وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

سوف يعود إلى الله عزّ وجل، وسوف يحاسبه على عمله إن خيراً فخير، وإن شرًّا فَشَرٌّ.

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)

مواساة الله نبيّه بقصص الأنبياء قبْله

الله سبحانه وتعالى يواسي النبي عليه الصلاة والسلام، فإن كذّبوك يا محمد، صلى الله على محمد، فانظر إلى الأنبياء من قبلك مع أقوامهم:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ)

فهؤلاء الأنبياء جميعاً كذّبهم أقوامهم، فلك أيها النبي الكريم بهم أُسوة، أي أنك لست وحدك المُكذّب، الأنبياء من قبلك كُذِّبوا، أقوامهم كذّبوهم..

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى)

لم يقل: وكذّب قومُ مُوسى مُوسَى، بل قال:

(وَكُذِّبَ مُوسَى)

لأن سيدنا موسى لم يكذِّبه قومه، إنما كذّبه الأقباط، وعلى رأسهم فرعون..

(وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ)

فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ

إنّ الله عزّ وجل يُملي للكافرين لحكمةٍ يُريدها، يزيدهم قوّةً إلى قوّتهم، يعطيهم البلاد، المال، العز، الجاه، ثم يأخذهم أخذ عزيزٍ مُقْتَدِر..

(فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

أيْ أنّ عاداً وثمود وأصحاب مَدْيَن وغيرهم، هؤلاء الأقوام الذين كذّبوا الرُسل أملى الله عزّ وجل لهم، فالإملاء ليس دليلاً على أن الله راضٍ عن الإنسان، فالله عزّ وجل قد يُمِدّ الكافر بما يشتهي ؛ من مالٍ وأولادٍ وبنين، وعزٍّ وشأن، لكن هذا امتحان وابتلاء، وليس عطاءً..

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

هو يقول هذا، هذا ليس إكراماً..

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

فالله قال:

(كَلا)

ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء..

(فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ)

قد يرى الإنسانُ عدوّه يزداد قوةً إلى قوته، ويزداد مالاً، وله صحّةٌ طيّبة، وله أولاد، وله زوجة، ويعيش كما يحلو له، والدنيا ترقص من حوله، والأمور كلها تأتي وَفْقَ مراده، فلا ينبغي لك أن تشكك في قواعد الدين، وربنا عزّ وجل يقول في آية شهيرة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ)

صورة من صور إهلاك الله القرى الظالمة

ما أكثر القُرى التي يُهْلِكُها الله وهي ظالمة..

(فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

فهناك قرى كثيرة ظَلَمَتْ فأهلكها الله، فإذا زرتها الآن ترى بئراً معطّلة، ليس هناك من إنسانٍ يغدو لهذِهِ البئر فيستعين بها على شرابه..

(وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

إذاً، قصرٌ مهجور، وبئرٌ معطّلة، صورة من صور إهلاك القوى، بئر معطّلة والبئر مرفق حيوي جداً، لو كان هناك أشخاص يقيمون في هذه القرية لكان هذا البئر يعمل ليلاً ونهاراً، لكنها بئر معطّلة وقصر مشيد، والأشباح وحدهم يسكنونه، إنّه بيت كبير خاوٍ، كما زار البحتري إيوان كِسرى بعد خوائه فوصفه وصفاً بليغاً.

معنى: وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ

المعنى الأول:

لذلك فربنا عزّ وجل أعطانا صورة بلاغيّة كيف أن هذه القرية الظالمة التي أهلكها الله عزّ وجل لا ترى فيها إلا بئراً معطّلةً وقصراً مشيداً، هذا معنى.

المعنى الثاني:

أن البئر وهي مرفقٌ حيويٌّ أساسيٌّ للناس مُعَطّلة، فأناسٌ يعيشون حياةً تفوق حدَّ الخيال في البذخ، وأناسٌ لا يجدون شربة ماءٍ يشربونها، إن هذا الظلم الاجتماعي يؤدّي إلى هلاك هذه القرية، هذا المعنى الثاني.. على كلٍ..

(فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)

معنى: فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا

عرش البيت سَقْفُهُ، فالسقف إذا تهدّم وتهدّمت فوقه الجدران نقول: هذه الدار خاوية على عروشها، أي أن سقفها في الأرض وحيطانها فوق السقف، وهذا رمز من رموز التدمير..

(فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46))

عدم استعمال الكافر حواسّه للإيمان بالله

أيْ أنّ هؤلاء الكفّار.. كفّار قريش.. وأي كفّارٍ آخرين ألم تكن لهم قلوبٌ يعقلون بها ؟ فالله عزّ وجل أعطى الإنسان قوّة إدراكيّة كبيرة جداً، أعطاهُ فكراً يفكّر به، أعطاه قلباً يعقل به، أعطاه أذناً يسمع بها، أعطاه عيناً يُبصر بها، ألم تُبْصِر عينه ما حلّ بهؤلاء الظالمين من عادٍ وثمود وأصحاب مدين، وقوم نوح وقوم فرعون، ألم يَرَ بعينه ما حلّ بهم ؟ ألم يرَ آثارهم ؟ ألم يرَ ديارهم ؟ ألم يرَ أهراماتهم ؟ ألم يرَ حمّاماتهم ؟ مدارجهم ؟ فهؤلاء الرومان كانوا في هذه البلاد مقيمين، انظر إلى مدرّجاتهم، إلى مدنهم، إلى آثارهم، إلى أبنيتهم، فربنا عزّ وجل قال:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

الكافر له عينان واسعتان جميلتان زرقاوان أحياناً، يصفهُ الناسُ: له عيون جميلة جداً، ومع ذلك فهو أعمى عند الله، لأنه لم ير الحقيقة، القلب هو الذي يرى الحقيقة، فهذه العين لا قيمة لها فإنها ترى ظاهر الأشياء، ترى صورها، ولكن القلب هو الذي يعقل مَرْئِيّاتِهِ.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)

الكفّار يستهزئون: متى يا سيدنا العذاب ؟ متى ؟ سؤال استهزاء، سؤال سخرية، متى ؟ نحن بالانتظار، إذا دعا رجلٌ الناسَ إلى الله عزّ وجل، وتوعّدهم بعذاب الله يستهزئون، ويقولون له: متى ؟ نحن جاهزون للعذاب، متى سيأتي العذاب ؟ فقال ربنا عزّ وجل:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)

هذه " لن " لتأبيد النهي..

(وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

معنى: وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ

المعنى الأول:

إنّ ربنا عزّ وجل حليم، أي ألف سنةٍ عندك كيومٍ عند الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل يستوي عنده ضيق الزمان واتساعه، يستوي عنده اليوم وألف سنة، كلاهُما عند الله سيّان، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

حينما يأتي العذاب فإن يوماً من أيام هذا العذاب تعدل عند الذي يُعَذّب ألف عام، انطلاقاً من الحقيقة القائلة: " إنّ دقيقة الألم ساعة، وساعة اللذّة دقيقة "، الإنسان أحياناً ينتظر، وهو قلق يقول لك: انتظرت ساعة، وكأنّها سنة، الإنسان أحياناً تُؤْلمه سِنُّهُ، يقول لك: أمضيت ليلةً وكأنها شهر، لذلك فإن الوقت يخفُّ وقعه، ويثقل وقعه على الإنسان حسب ظروفه، فالإنسان حينما يعذِّبه الله عزّ وجل فإن اليوم الواحد من العذاب يمضي على المُعَذّب، وكأنه ألف عام.. هذا المعنى الثاني..

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللّهُ وَعْدَهُ وَإِنّ يَوْماً عِنْدَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ)

المعنى الثالث:

أن اليوم.. يوم القيامة.. اليوم من أيّام يوم القيامة يساوي ألف سنةٍ في الأرض، أيْ إذا انتظر الناس يومين أيْ ألفيْ سنة، هذا المعنى الثالث، يوم القيامة كلُّ يومٍ فيها يعدل ألف عام، هذا معنى.

أو حينما يأتي العذاب اليوم الواحد من أيام العذاب يمضي على الإنسان الكافر وكأنّه ألف عام.

المعنى الأول: الزمن من خلق الله، فيستوي عند الله ضيق الزمان واتساعه، اليوم والألف عام عند الله سيّان..

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللّهُ وَعْدَهُ وَإِنّ يَوْماً عِنْدَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ)

أحياناً يمد الله عزّ وجل للإنسان فيكون في شبابه مفرّطاً، غائباً عن القيَم وعن كتابِ الله عزّ وجل، لكن تمضى عشرون سنة وهو مازال جامحاً، وثلاثون ولا زالَ منغمساً في الشهوات، وفي الأربعين تجده معتزاً بقوّته، وفي الخمسين، ثم في الستين تجد أنّه يعاني من مجموعة من الأمراض، فتجده قد صار معتدلاً، والله عزّ وجل وعد الإنسان المنحرف بشيخوخة مُزرية.

(ثمّ يُردُّ إلى أرذل العمر)

حينما كان شاباً نسي هذه الآية، وظنّ أنه سيبقى شاباً إلى أمدٍ غير محدود، ولكن جاء وعد الله، والله عزّ وجل لا يستعجل إنجاز وعده أو وعيده، فهذا الذي يمضي شبابه في المعاصي لابدّ له من خريف عمرٍ هو كالجحيم تماماً، فالإنسان يظن وعدَ الله بعيداً، لا، إن وعد الله قريب، ولا يلبث أن يأتي، وكل متوقعٍ آت..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ)

أخذُ الله القرى الظالمة: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ

فهناك مدن جميلة جداً كلُّها نوادي قِمار، كلُّها نوادي عراة، كلُّها فنادق مشبوهة، كلُّها سواحل، تُرتَكَبُ فيها المعاصي على قَدَمٍ وساق، هناك مدن جميلة جداً تعيش على المعصية، مورد أهلها على المعصية، الإنسان لا يغتر، هذا البلد بلد القِمار، هذا البلد بلد اللِواط، هذه البلد بلد الزنا.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ)

كانت مدينة بالساحل الأطلسي اسمها.. أغادير.. كان فيها فنادق ونوادٍ، نوادٍ تُمارَس بها الرذيلة بشكل لا يوصف، وهي قبلة السيَّاح الأجانب، وجميع السُيَّاح الأغنياء كانوا يرتادون هذه القرية، قرية على الساحل الأطلسي جاءها الزلزال في ثلاث دقائق جعل عاليها سافلها، دُمِّر فيها كل شيء، أشهر فندق في هذه المدينة الساحليَّة الجميلة كان مؤلَّفاً من ثلاثين طابقاً، غاصت هذه الطوابق الثلاثون ولم يبقَ منه إلا لوحته التي هي على الطابق الثلاثين، وصارت هذه اللوحة على مستوى الأرض..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ)

في بعض الأحيان تقع زلازل، نكبات، فيضانات، ساعة يقالُ لك: في كولومبيا ثار بركان رافقته فيضانات، هذا كلُّه بقدر، كلُّه مدروس.

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

(سورة الإسراء)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

تحت سمعنا وبصرنا.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ)

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِين

سعى، أي سعى سعياً حثيثاً ليطفئ نور الله عزّ وجل، ليصدّ الناس عن سبيل الله، يضع لهم العقبات في طريقهم إلى الله، ليمنعهم من تلقِي العلم..

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

معنى: إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه

أيْ أنّ النبي أو الرسول إذا تمنّى هداية الخلق، تمنّى نشر الحق، تمنى أن تقوم الحياة على شرع الله، تمنى أن يسعد الناس بالقرب من الله عزّ وجل، تمنى أن يكون الناس على الحق جميعاً، تمنى أن يسعد الناس، هذا النبي ماذا يتمنّى ؟ يتمنّى الخير، يتمنّى أن يؤمن الناس بربهم، يتمنى أن يسعدوا بالقرب منه، يتمنى أن يدخل الناس الجنّة، يتمنّى أن ينتشر الحق سريعاً..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى)

يأتي الشيطان فيلقي في أمنيته بعض الشُبَه، وبعض الأفكار التي تصدُّ الناس عن سبيل الله، يلقي الشيطان في أمنيّته أن يضلّ الناس، النبي ألقى في أمنيته أن يهديهم، والشيطان ألقى في أمنيته أن يضلّهم، النبي ألقى في أمنيته أن يسعدهم، والشيطان ألقى في أمنيته أن يشقيهم، النبي ألقى في أمنيّته أن يهديهم إلى سواء السبيل، والشيطان ألقى في أمنيته أن يضلّهم سواء السبيل، فهناك تناقض في تمنِّي النبي وتمني الشيطان، النبي يتمنّى الخير والشيطان يتمنى الشر..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

أيْ في أمنيته هو، أو وضع العراقيل التي من شأنها أن تُعيِق تحقُّق أمنية النبي، كأن يكون شخص له ابن، يتمنى الأب أن يصلي ابنه، وأن يستقيم، وأن يغضّ بصره، وأن يطلب العلم الشريف، وأن يكون مؤمناً، وأن يكون متفوقاً، فيأتي رفيق صاحبٌ لهذا الابن، صاحب سوء فيدعو الابن إلى النزهات المحرّمة، وإلى دور اللهو، وإلى ترك الصلاة، وإلى معاكسة الأب، فنقول: هذا الأب تمنّى هداية ابنه، وهذا الصاحب السوء تمنّى أن يحبط أمنية الأب، هكذا المعنى..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

لكن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد..

(فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشّيْطانُ)

كل أماني الشيطان تُبَدّد..

(ثُمّ يُحْكِمُ اللّهُ آيَاتِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أبو جهل، وأبو لهب، وصفوان بن أميّة، وزعماء قريش الخصومُ الألدّاء ماذا تمنّوا ؟ تمنوا أن يطفئوا نور الله عزّ وجل، ما الذي حصل ؟ أتمّ الله نوره، في معركة أحد ماذا تمنّى الكفّار ؟ أن ينهزم المسلمون، في معركة بدر، في معركة الخندق ما الذي حصل ؟ نصر الله نبيّه والمؤمنين، هذه الآية دقيقة جداً، أي لا يستقر الأمر إلا على الحق..

(ثُمّ يُحْكِمُ اللّهُ آيَاتِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 52- 63
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-07-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السادس من سورة الحَج، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(54))

الصراع بين الحق والباطل

أيها الإخوة الأكارم.. هذه الآية تفسِّر سر الصراع بين الحق والباطل في كل عصرٍ ومَصر، في أي مكانٍ وفي أي زمان، هناك صراعٌ بين الحق والباطل، أراده الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ عظيمة، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)

أيْ أنّ هؤلاء الرسل الذين حملوا رسالة، وهؤلاء الأنبياء الذين أوحي إليهم، هؤلاء صفوة الله من خلقه، ومع ذلك:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)

الله معهم، أيّدهم بالمعجزات، أوحى إليهم، عصمهم، أمرهم بالتبليغ ومع ذلك:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)

الأنبياء يتمنون هداية الناس

ماذا يتمنى النبي أو الرسول ؟ يتمنى هداية الخَلق، يتمنى سعادتهم، يتمنى إنقاذهم من النار، يتمنى أن يعرفوا الله عزّ وجل، يتمنى أن يعبدوه، يتمنى أن يسعدوا في الآخرة، هذه أمنية النبي والرسول، لا يتمنى النبي أو الرسول إلا الخَيْرَ المُطْلَق لكل الخلق، هذه أمنيته، يتمنى أن يرى الناس في سعادة، أن يراهم على هدى، أن يراهم منضبطين بالشرع، يتمنى أن يراهم مُنْصفين لا يأكل بعضهم بعضاً، ألم يقل سيدنا جعفر رضي الله عنه للنجاشي:

((أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيفَ))

(أحمد عن أم سلمة)

هذه هي الجاهلية ؛ عدوان على الأموال، والأعراض، وكذبٌ وبهتان، وانحرافٌ وضلال، وانغماسٌ في الملذّات الرخيصة إلى ما هنالك من حماقات الجاهلية.. ماذا يتمنى النبي أو الرسول ؟ يتمنى هداية الخلق، يتمنى إنقاذهم من الظلمات إلى النور، يتمنى نقلهم من الجهل إلى المعرفة، يتمنى أن يعرفوا ربهم، يتمنى أن يحققوا الهدف الذي من أجله خُلقوا، إنه رسول الله، إنه نبي الله بعثه الله رحمةً للعالمين، قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ)

هذه " مِن " لاستغراق الأفراد، أي لا يمكن أن يكون هناك رسولٌ أو نبي إلا وله عدوٌ من شياطين الجن والإنس.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)

(سورة الأنعام: من آية: " 112 ")

فلا ينبغي على الإنسان أن يضيق ذرعاً بأعداء الحق، إنهم يعملون ويتحرّكون وَفْقَ خطّة الله رب العالمين، لا ينبغي أن تضيق بهم ذرعاً، لا ينبغي أن تقول: لماذا هؤلاء خلقهم الله عزّ وجل ؟ لماذا سمح لهم أن ينالوا من الحق ؟ لماذا سمح لهم أن يكيدوا له ؟ لماذا سمح لهم أن يأتمروا عليه ؟ لماذا أخرجوا النبي ؟ لماذا تتّبعوه في هجرته من مكة إلى المدينة ؟ لماذا ضَيّقوا عليه ؟ لماذا حاربوه مراتٍ كثيرةٍ ؟ لماذا سمح الله لهم ؟ لا، لا تقل هكذا، هذه خطةٌ إلهية، هذا تصميم إلهي.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ)

لا تعترض على حكم الله، إن وراء حُكم الله حكمةً بالغة، كل شيءٍ وقع لابدَّ من أن يقع، ولو لم يقع لكان هذا نقصاً في حكمة الله سبحانه وتعالى، ولكن الإنسان في الدنيا قد تُغَطّى عليه الأمور، لكن إذا صحا، وعرف الحقيقة يرى أن هذا الذي وقع هو عين الحكمة، وليس في الإمكان أبدع مما كان، ولو كُشِفَ الغطاء لاخترتم الواقع.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)

أي ما من رسولٍ حصراً، وما من نبيٍ حصراً إلا إذا تمنى ؛ تمنّى الهداية، تمنّى الخير، تمنى إنقاذ البشر، تمنى أن يعبدوا الله، تمنى أن يعرفوه..

(أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

معنى

(أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

الأنبياء والمرسلون يُمَثِّلون جانب الحق، والشياطين، شياطين الإنس والجن يمثِّلون الباطل، فلابد من صراعٍ بين الحق والباطل، الأنبياء والمرسلون يمثلون جانب الخير، وشياطين الإنس والجن يمثلون جانب الشر، الأنبياء والمرسلون يمثلون جانب الحق، وشياطين الإنس والجن يمثلون جانب الباطل، فالصراعُ بين الحق والباطل، وبين الخير والشر صراعٌ دائم..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلا أَذَا تمنى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

أيْ ألقى الشيطان في أمنيته هو، هكذا التفسير، في أمنيته هو، أي أمنية الشيطان نفسه، لأنه: ما كان للشيطان أن يصل إلى نبي، ما كان للشيطان أن يصل إلى رسول، يفكِّر هذا الشيطان.. سواءٌ أكان من الجن أو من الإنس.. يفكر كيف يطفئ نور الله عزّ وجل، كيف يضع العثرات في طريق الحق، كيف يصد الناس عن سبيل الله، كيف يفسد عقائدهم، كيف يفسد أخلاقهم، كيف يجعلهم ينصرفون إلى الدنيا، كيف يُلقي في أنفسهم الشُبُهات، كيف يحبب إليهم المعاصي والترُّهات، كيف ؟ هكذا يلقي الشيطان في أمنيته، النبي العظيم والرسول الكريم يتمنّى هداية الخلق ؛ والشيطان يتمنى إضلالهم، ما الذي يحصل ؟ الذي يحصل أن الله مع الحق، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ الذي يحصل أن الله يؤيّد الحق، وأن الله ينصر رسوله، وأن الله مع المؤمنين.

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: من آية: " 160 ")

هذا الذي يحصل.

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ)

خطط الشيطان وأمنياته ينسخها الله

كل هذه الخِطَط، وكل هذه العراقيل، وكل هذه العَقَبَات، وكل هذه الأساليب الخبيثة الماكرة، وكل هذه الإمكانات، وكل هذه الخطط ينسخها الله عزّ وجل بكلمةٍ واحدة، هكذا، كُنْ مع الله تَرَ الله معك، كن مع الله ولا تكن مع الباطل، لأن الباطل كان زهوقاً.

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: من آية: " 36 ")

ألم يكن كيد أبي جهلٍ وكيد أبي لهبٍ عظيماً ؟ لقد ماتا شر ميتة، أين كَيْدُهُم ؟ لقد نسخه الله عزّ وجل، أين كيد أعداء الله ؟ لقد نسخه الله عزّ وجل، أين كيد الذين حاربوا الإسلام ؟ لقد نسخه الله عزّ وجل، أين كيد الذين أرادوا إطفاء هذا النور ؟ لقد نسخه الله عزّ وجل.

(فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمّ يُحْكِمُ اللّهُ آيَاتِهِ)

معنى

(ثُمّ يُحْكِمُ اللّهُ آيَاتِهِ)

ما معنى يحكم الله آياته ؟ أيْ أنّ الآية التي أنزلها الله في كتابه الكريم، مثلاً:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأَرْضِ)

(سورة النور: من آية: " 55 ")

إحكامَ هذه الآية أن يُسْتَخْلَفَ المؤمنون في الأرض.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: من آية: " 97 ")

إحكام هذه الآية أن يحيا المؤمن حياةً طيبة.

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

إحكام هذه الآية أن الله يدافع عن الذينَ آمنوا حقيقةً.

(وَلَيَنْصُرَنّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

إحكام هذه الآية أنْ ينصرَ الله من ينصره، هكذا، لذلك:

(فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمّ يُحْكِمُ اللّهُ آيَاتِهِ)

فهنيئاً لمن كان مع الحق، هنيئاً لمن كان مع الله عزّ وجل لأنه لابدّ من أن ينتصر، إذا كان الله معك فمن عليك ؟

(فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ)

معاني النسخ:

ينسخ أي يلغيه، النسخ لها معانٍ عديدة، من معانيها الإلغاء، إلغاء الحُكم..

(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا)

(سورة البقرة: من آية: " 106 ")

النسخ هنا الإلغاء، هذه الخطط، وهذه الأساليب، وهذه الإمكانات، وتلك العَقَبَات، وهذا الصَدُّ عن سبيل الله يُلْغَى بكلمةٍ واحدة، عشرة آلاف مقاتل ما اجتمعوا في تاريخ الجزيرة العربية، ما اجتمعوا، جاؤوا ليستأصلوا الإسلام من أصله، جاؤوا ليقضوا على المسلمين واحداً وَاحداً، وجاءت معهم الإبل، والخِيام، والقدور، والجزور، وكادوا للإسلام، واتفقوا مع اليهود، ونقض اليهود عهدهم مع النبي الكريم، جاءتهم

ريحٌ عاتية قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وجاء مؤمنٌ حديث العهد بالإيمان، سيدنا نعيم بن مسعود، وقد أوقع بين اليهود وبين قريش الخلاف، فما هي إلا أيامٌ ثلاثة حتى رحل الأحزاب عن المدينة، وكفى الله المؤمنين القتال، هذا قرآن..

(فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّهُ آيَاتِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52))

صفة العلم والحكمة

(وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

عليم بالنفوس، عليم بالنوايا، عليم بالأهداف، عليم بأن المؤمن يَهْدِفُ إلى إحقاق الحق، إلى إظهار الحق، إلى نشر الحق، هذا هو المؤمن، وعليم بأن الكافر يريد إطفاء نور الله، يريد إفساد الناس، يريد إضلالهم، يريد أن يُشْقِيَهُم.

(وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52))

حكيم، لابدَّ من هذه المعركة بين الحق والباطل، لماذا ؟ ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا مَنْ حيَّ عن بيّنة، لماذا هذه المعركة بين الحق والباطل ؟ ليظهر المؤمن على حقيقته ؛ محباً، صادقاً، مخلصاً، صبوراً، متوكلاً، جَلْدَاً، شجاعاً، ولماذا هذه المعركة بين الحق والباطل ؟ لتظهر خِسَّةُ الكافر ودناءته، وانحيازه إلى الدنيا، ورغبته في أخذ كل شيء، ويظهر عدوانه، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا مَنْ حَيَّ عن بينة، هكذا، آية رائعة جداً..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّهُ آيَاتِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

فعلى مستوى الأسرة مثلاً، يوجّهُ الأب ابنه باتجاهٍ صحيح، يأتي الخال إذا كان بعيداً عن الدين، يأتي العَمُّ، يأتي ابن العم فيسقِه اتجاه الولد، ويرغِّبُهُ بالمعصية، ويقول له: لا تستمع لهذا الكلام، الأب يتمنى إصلاح ولده، يأتي قريب بعيد عن الحق يتمنى إفساده، كلما دعوت الناس إلى الحق دعاهم آخرون إلى الباطل، تدعوهم إلى الاستقامة، يدعوهم الآخرون إلى الانحراف، تدعوهم إلى طاعة الله، يزيّن لهم آخرون معصية الله عزّ وجل، تدعوهم إلى العبادة، فيدعونهم إلى الشهوة، هكذا.

هذه المعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الهدى والضلال، معركةٌ قديمةٌ قِدَمَ الإنسان، ولن تنتهي حتى ينتهي الدوران، فالإنسان لا ينبغي أن يضيق ذرعاً بخصوم الحق إنهم كُثُر، وإنهم موجودون في كل مكانٍ وزمان، والله سبحانه وتعالى جعل النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً حسنةً لنا، لقد جاهد الكفارَ والمنافقين، لقد تحمّل من كيدهم، ومن خططهم، ومن إفسادهم، ومن تضييقهم الشيء الكثير، ومع ذلك، ففي الطائف كان دعاؤه الشهير:

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا رب المستضعفين إلى من تكلني، إلى صديق يتجهّمني أو إلى عدوٍ ملّكته أمري، إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

(السيرة النبوية)

الآن تتمة هذه الآية دقيقةٌ جداً:

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

أفكار الشيطان فتنة للقلوب المريضة والقاسية

أيْ أنّ هذه الأفكار التي يلقيها الشياطين، شياطين الإنس أو شياطين الجن، هذه الأفكار التي يلقيها الشياطين إنما هي فتنةٌ للذين في قلوبهم مرضٌ، فالقلب الممتلئ شهوةً يستجيب لهذه الأفكار، فإذا قال لك إنسان: افعل ما بدا لك، انتهز شبابك، واستمتع بشبابك، وافعل كل شيء ولا تلتفت إلى كل قيدٍ أخلاقي، فهذه الأفكار، هي دعوةٌ إلى الانغماس في الشهوات، مَنْ يستجيب لها ؟ مَن في قلوبهم مرضٌ، هؤلاء الذين في قلوبهم مرضٌ يستجيبون لهذه الشهوات، لهذه الدعوات، لهذا التوجيه، فلذلك التوجيه المَرَضِي المنحرف لا يستجيب له إلا المَرضى، لا يستجيب له إلا المُنْحَرِفون، الباطل لا يستجيب له إلا المبطلون.

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ)

أيْ أنّ هذه النفوس المريضة لابدّ أن تُعالج، المرحلة الأولى من معالجتها أن تُكشف على حقيقتها، يأتي هذا الذي يلقيه الشيطان فيكشف النفوس المريضة على حقيقتها، وتستجيب لهذه الدعوة، تفتن بها، تقبلها، ترحب بها، تباركها على فسادها.

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

الظالم بعيد عن الحق

هم بعيدون عن الحق بُعد الأرض عن السماء، بعيدون عن الحق وهم يُشَاقّونَ الحق، يعني يناصبونه العِداء، يكيدون له، لا يَقِرُّ قرارهم إلا إذا تراجع الحق، لا تستريح نفوسهم إلا إذا أُطْفِئ نور الله عزّ وجل، لا يسكنون إلا إذا ابتعد المؤمنون عن الدعوة إلى الله عزّ وجل، فلذلك:

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

أيْ أنّ أخطر حالة تصيب الإنسان أن يجد نفسه في خندقٍ معادٍ للحق، أقذر دور يقوم به الإنسان أن يجد نفسه يُناصب أهل الحَق العِداء، ويحاول أن يطفئ نور الله عزّ وجل، أن تكون مع صف الشياطين ضد المؤمنين، أن تكون مع أهل الباطل ضد الحق، أن تكون مع أهل الضلال ضد الهُدى، أن تكون في خضمّ المعاصي ضد من هم في الطاعات، هذه مصيبة كبيرة، والله على مستوى الأسرة، تجد المنحرف يشجّع على المعصية، على الفساد، على التَهَتُك، على الانحلال، يَعُد هذا رقياً، حضارة، يقول له: أين تعيش أنت ؟! لا تزال بهذه العقلية ؟! اخرج مع ابنتك كما تشتهي، أعطها كل حريتها، هكذا يريد، على مستوى الأسرة، على مستوى شريكين، المنحرف دائماً يُرَسّخ الباطل، يرسخ الانحراف.

(وَإِنّ الظّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

(هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

هذا الذي آتاهُ الله العلم إنسان متميّز، لقوله تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من آية: " 9 ")

أيعقل أن يستوي الذين يعلمون مع الذين لا يعلمون ؟!

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه)

ما قَبِلَ الله عزّ وجل في الكتاب كُلِهِ أن تكون قيمةٌ مُرَجّحَةٌ بين الخلق إلا قيمة العلم، لذلك:

(يَرْفَعْ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: من آية: " 11 ")

والآية الأساسية:

(هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من آية: " 9 ")

لا يستويان، لا والله..

(وَلِيَعْلَمَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنّهُ الْحَقُ مِنْ رَبّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ)

أهل الحق مع الحق أينما كان

فأهل الحق لا يستجيبون إلا للحق، لا ينصاعون إلا له، أيُّ توجيه في بُطُل، أيُّ دعوة إلى المعصية، أيُّ توجيه نحو الانحراف يرفضونه، ويمقتونه، ويلعنونه، ولا يستجيبون إلا للحق.

(وَلِيَعْلَمَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

أيْ أنّ هذا الذي يلقيه الشيطان لا يتأثر به المؤمنون، لا ينصاعون له، لا يعبؤون به، يفنّدونه، يرفضونه.

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ)

سعادة قلب المؤمن بالحق

المؤمن سعيد بالحق، يأتي الحق على قلبه بَرْداً وسلاماً، الحق للمؤمن كالغذاء للجسد، يتغذّى بالحق.

(فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قانون هداية الله للمؤمنين

هذا قانون، هؤلاء الذين آمنوا بالله، لابدّ من أن يهديهم إلى صراط مستقيم، لابدّ أن يهديهم، ويصلح بالهم، لابدّ أن يأخذ بنواصيهم.

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من آية: " 257 ")

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

كلما عَثَرَت قدم المؤمن أقاله الله عزّ وجل، كلما انحرف قليلاً ردّه الله إلى الحق، كلما بَعُدَ قليلاً دفعه الله إلى الحق، كلما أخطأ عاتبه الله عزّ وجل، لذلك إذا أحب الله عبده عاتبه، إذا أحب الله عبده عَجَّلَ له بالعقوبة..

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لكن هذا الهُدى على درجات، المؤمن يستمع إلى الحق فيلتزم به، هذه الدرجة أرقى أنواع مراتب الهُدى، من دون عقاب، الأقل درجة تأتيه مصيبة فيعود بها إلى الله عزّ وجل، كلما كَبُرَ حجم المصيبة كانت نفس هذا الإنسان أكثر بُعْدَاً عن الله عزّ وجل، فإذا ارتقى المؤمن يعود إلى الله بعتابٍ، يعود إلى الله بآيةٍ قرآنية يقرؤها، تدمع عيناه، يعود إلى الله بنصيحة، يعود إلى الله بخاطر قلبي، لكن إذا كان أبعد من ذلك فلابدّ من تأديبٍ مؤلم، لذلك كلما كان العَوْدُ أسهل كانت النفس أرقى، تعامل مع الله، لا على أساس أن الله يهديك بالمُصيبة، لا، اطلب منه الهدى بالكلمة، بالتوجيه، بالقرآن، بحديث النبي العدنان، من دون أن تأتي المصيبة..

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ)

حياة الكافر شكٌ وريبٌ في القرآن

الكافر دائماً في شك، ليس متأكداً، هذه الحقائق الناصعة التي جاء بها القرآن ليست عنده واضحة، وهو عَمَىً عليهم أيْ القرآن الكريم كما قال الله سبحانه وتعالى:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

(سورة فصلت)

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)

(سورة الإسراء)

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

(سورة الدخان)

هو في رَيْب، في شك، ليس متأكداً، لو استمع إلى نصيحةٍ من عالم يشكك في نواياه، يفسِّر هذا العمل تفسيراً شيطانياً، وبالنسبة للقرآن فهو ليس متأكداً من أنه قطعي الثبوت، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ)

أي في شكٍ..

(مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً)

الحقيقة تظهر عند الموت، ولات ساعة مندم

متى الصاعقة ؟ حينما يأتي الموت، هو طول حياته متشكك، تجده يقول لك: يا أخي والله شيء يحيّر، تجلس مع أهل الدين يتكلمون كلاماً تقنع فيه أحياناً، تجلس مع أهل الباطل يتكلمون كلاماً تقنع فيه كذلك، هو كالشاة العائرة بين الغنمين، مذبذبين لا إلى هؤلاء وإلا إلى هؤلاء، إنْ جلس مع أهل الدنيا يقنع بكلامهم، ويتمنى أن يكون مثلهم، وإن جلس مع أهل الدين يطْرَبْ لهم، هو ليس له موقف واضح فلذلك:

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً)

يحسب حساباً لكل شيء إلا ساعة اللِّقاء، إلا ساعة انتهاء الأجل، هذه تأتيهم كالصاعقة.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور)

(قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأنعام)

(حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً)

لقد حدثني أخ البارحة عن رجل في يوم وقفةِ عيدٍ جالسٌ مع أهله، وهو مرحٌ في طبيعته، هكذا قال: سأذهب إلى هذا المستشفى لأجري بعض الفحوصات، من باب التسلية، من باب المُزاح، ركب مركبته وتوجّه إلى المستشفى، ولم يصل إليه إلا ميتاً، كنت في محل تجاري قال لي جارنا: هكذا كنتُ العيد الماضي، لا يشكو شيئاً، في أوج قوته، في أوج نشاطه، فحدثني أخ كريم عن طموحاته في العشرين سنة القادمة، وفي المساء كان في عداد الموتى، أين طموحات عشرين سنة ؟ لذلك:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

معنى

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

أيْ يومٌ لا يلد يوماً آخَر، آخِرُ يوم، هذا اليوم العقيم مخيف، هناك يوم غير عقيم، يوم يلد، تنام فتستيقظ، هذا اليوم ليس عقيماً، لكن حينما يفحص الطبيب النبض يجده صفراً، يضع مصباحاً متألقاً في عين المريض فالقُزحية لا تستجيب، يضع مرآةً على فمه ؛ فالمرآة ليس يغشيها بخار، يقول: عظّم الله أجركم، إنّه منتهٍ، يذهب بعضهم إلى كتابة النعي، وبعضهم إلى تأمين القبر، وبعضهم إلى تأمين لوازم النعي، وما شاكل ذلك.

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

البطولة أن تُعِدَّ لهذا اليوم العُدّة، الذكاء والبطولة أن تُعِدَ لهذا اليوم، ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما مَنْ يتّقي اللهَ البطل.

(حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

لا يوجد مَرَدّ..

(وَ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

النجاح الحقيقي هو الفوز بالجنة

فهذا هو النجاح، هذا هو الفوز، هذا هو التفوُّق، هذا هو الفلاح..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من آية: " 58 ")

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ)

(سورة يونس: من آية: " 10 ")

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة المعارج)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19))

(سورة الذاريات)

إلى آخر الآيات..

(فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(57))

الخسران الحقيقي هو دخول النار

نعوذ بالله من هذا العذاب، عذاب مهين، هناك عذاب أليم، وهناك عذاب عظيم، وكذلك عذاب مهين، أيْ عذابٌ أليمٌ عظيمٌ مهين.

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ)

جزاء المهاجر في سبيل الله

تركوا بلادهم، تركوا ممتلكاتهم، تركوا ظهورَهُم، تركوا أهليهم..

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا)

ولكن هذه الهجرة في سبيل الله، نيّتهم من هذه الهجرة الله ورسوله، فالحديث الشريف:

((إنّمَا الأعْمَالُ بالنّيّاتِ، وَإنّمَا لِكُلّ امْرئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أو امْرَأةٍ يَتَزَوّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيْهِ))

(البخاري عن عمر بن الخطاب)

(وَالّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ)

تَرَك كل شيء في سبيل الله، جَعَلَ الله أغلى مِن كل شيء، آثره على كل شيء.

(ثُمّ قُتِلُوا أوْ مَاتُوا)

معنى آخر للهجرة في سبيل الله: العبادة في الهرج

وبعضهم استنبط من هذه الآية أن الإنسان إذا لَقِيَ الله قتيلاً في سبيل الله أو لقيه ميتاً على فراشه كلاهما في الأجر سواء، ما دام مهاجراً في سبيل الله، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إلَيّ))

(من صحيح مسلم: عن " معقل بن يسار ")

أيْ أنّك إذا عبدت الله في زمن الشدة، في زمن الفِتَن، في زمن الشهوات، في زمن الأمر بالمُنكر والنهي عن المعروف، في زمن القابض على دينه كالقابض على الجَمْر، إذا عبدته في هذا الزمان الصعب، في زمن الشهوات والفتن، في زمن الفجور والكفر، إذا عبدته وكنت غريباً كما بدأ الإسلام غريباً، فهذا له أجرٌ عظيم..

(وَالّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمّ قُتِلُوا أوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنّهُمُ اللّهُ رِزْقاً حَسَناً)

ماتوا، وقتلوا، ما هو هذا الرزق ؟ قال: هذا رزق أهل الجنة، هذا هو الرزق الحَسَن الذي يسعى إليه، لكن الدنيا فانية، فأحياناً الإنسان يحضر جنازة، أو يشاهد ميّتاً يخرج من بيت فخم جداً، فهناك بيوت تَحارُ فيها العقول، هذا الميت كيف خرج منه إلى القبر ؟ أليس هذا البيت رزقاً ؟ نعم، ولكنّه رزق منقطع، وليس متصلاً، رزق ينتهي عند الموت، كل شيءٍ في الدنيا ينتهي عند الموت، لكن البطل هو الذي يعمل فيها عملاً يأخذه معه إلى القبر، كل شيء يقف عند القبر لا قيمة له، كل شيء يدخل معك في القبر هو الذي عليه المعوّل.

(وَالّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمّ قُتِلُوا أوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنّهُمُ اللّهُ رِزْقاً حَسَناً)

هذا الرزق الحسن، أي الأبد، نعيمٌ أبدي، نعيمٌ مقيم.

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر)

الحياة فيها نَغَص، فمهما استقامت للإنسان فالزمن ليس في مصلحته، والزمن سَيُقَرّبُهُ من الموت، ولو

أنها جاءت كما يشتهي فإنّ معها القَلَق، ومعها الخوف، ومعها الحزن، إنّ معها القلق خوفاً من أن تذهب، وبِحَسْبِ هذا القلق منغصاً في الحياة.

(وَإِنّ اللّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ)

أحياناً يعطيك الإنسانُ شيئاً، لكن هذا الإنسان ليس في إمكانه أن يمنع عنك الأمراض، أو يمنع عنك المصائب، لكن الله سبحانه وتعالى خير الرازقين.

(لَيُدْخِلَنّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ)

لَيُدْخِلَنّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ

هذا الرضى المُطْلَق، الإنسان يراقب نفسه فمثلاً إذا اشترى حاجة، فإذا وجد فيها عيباً بسيطاً تجده قد انزعج، الإنسان مفطور على الكمال، ولا يرضيه إلا الكمال المُطلق، فلذلك عزّ وجل لما قال:

(لَيُدْخِلَنّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ)

يعني يوم القيامة، أيْ أنّ هذه الجنة هي التي تُرضي الإنسان، تُرضيه حتى أقصى درجة، تُرضيه رضاءً مُطلقاً.

(وَإِنّ اللّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)

علمُ الله بما يصلح الناس وحلمُه عنهم

أيْ أنّ الله هو الذي يعلم ما يُرضيهم، " ابن آدم كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك "، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: يا عبدي أنا أعرف كيف أرضيك، أنا أعرف كيف أسعدك، أعرف ما تحب، أعرف ما تكره، أعرف ما تخافه، أعرف ما ترجوه، كن لي كما أريد، ولا تُعلِمْني بما يصلحك.

(وَإِنّ اللّهَ لَعَلِيمٌ)

أيْ يعلم ما يرضيكم أيها العباد، يعلم ما يسعدكم، يعلم ما يطمئنكم..

(حَلِيمٌ)

لولا أنه كان حليماً عليكم لما بلغتُم هذه المرتبة، لولا أنه كان حليماً عليكم لقُضِيَ الأجل قبل هذا الهدى.

(ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنّهُ اللّهُ إِنّ اللّهَ لَعَفُوّ غَفُورٌ)

من العدل اقتصاص المظلوم من الظالم من غير إسراف

أيْ أنّ الله عزّ وجل سمح للإنسان المظلوم أن يعاقِب بمثل ما عوقب، سمح للإنسان المظلوم أن يأخذ حقّه، أما إذا عفا فهذا فضلٌ منه وإحسان، الحق قسري، لكن الإحسان اختياري، الإحسان بالاختيار، لكن الحق قسري، ومع ذلك إن الله يأمر بالعدل والإحسان، يأمر بالعدل القسري، والإحسان طوعي.

(ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنّهُ اللّهُ إنّ اللّهَ لَعَفُوّ غَفُورٌ)

من الفضل والإحسان عفو المظلوم عن الظالم

أيْ أنّ ربنا عزّ وجل ينصر هذا المظلوم، لكن الأولى أن يعفو عن ظالِمِهِ، لأن الله عفوٌ غفور.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ وَيُولِجُ النّهَارَ فِي اللّيْلِ)

علاقة الآية بما قبلها

قد يقول قائل: ما علاقة هذه الآية بالتي قبلها ؟ الله سبحانه وتعالى قديرٌ على نصر عبده المؤمن المظلوم، فكيف أن الليل يبدو مسيطراً، وما هي إلا ساعات حتى يحل محله النهار، الليل والنهار آيتان، ليلٌ دامس، ظلامٌ دامس، جوٌ مخيف، بعد أربع ساعاتٍ أو خمس فإذا الشمسُ مشرقة، كل شيء واضح، الناس في أُنْسٍ، وفي طمأنينة، فكما أن الله سبحانه وتعالى يأتي بالنهار بعد الليل، كذلك هذا الذي ظُلِم فالله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن ينصره، وأن يجعل ظُلامَتَهُ عدلاً وإنصافاً وسعادةً.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ)

معنى: اللّيْلَ فِي النّهار

المعنى الأول:

يعني يُدخل، والآية لها معنى جغرافي، فأذكر منذ أيام كان عندي موعد الساعة السابعة، الموعد كان في المساء، الساعة السابعة صيفاً يعني قبل المغرب بساعة، وشتاءً بعد العشاء بساعة، بينهما حوالي أربع ساعات، كيف أن هذه الساعة كانت ليلاً فصارت نهاراً، أو كانت نهاراً فصارت ليلاً، كيف أدخل الله الليل بالنهار ؟ هذا معنى، فهذا تفاوتُ طولِ الليل والنهار.

المعنى الثاني:

هو أن هذه الأرض الآن يلفها ليل، الظلام مُخَيّم، يأتي الفجر فترى في الأفق خيطاً أبيض، هذا الخيط يتسع، ويتسع، ثم ينتشر ضوءٌ من جهة الشرق، فيعُمُّ الأرضَ كلها، أو يعم هذه المنطقة كلها، فإذا الظلام زاهق، أين الظلام ؟ إنهما آيتان دالتان على عظمة الله عزّ وجل، إذاً الدهرُ آيتان تشيران إلى أن الله سبحانه وتعالى قادر، وبقدرته أن ينصر عبده المظلوم، وكأن الظلام رمزٌ للظلم، والنور رمزٌ للعدل، قال العلماء: هذه آيات متتابعة بالقرآن لا يوجد لها مثيل، فيها أسماء الله الحسنى بشكلٍ كثيفٍ جداً، فاستمعوا:

(وَإِنّ اللّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ)

(وَأَنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(إِنّ اللّهَ لَعَفُوّ غَفُورٌ)

(إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

(وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

(وَإِنّ اللّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

فستة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى جاءت كلها متتابعة في آيات قليلة متلاحقة، وسوف نشرع في شرحها..

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ)

أولاً:

(وَأَنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

سمعُ الله وبصرُه

أيْ يسمع دعاءك، ويرى حالك ليلاً أو نهاراً، في السفر وفي الحضر، وحدك وفي جماعة، في كل أحوالك، سميعٌ لقولك، عليمٌ بحالك، هكذا الله سبحانه وتعالى.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ)

الله هو الحق المطلق

كلامه حق، كلام غيره باطل، شرعه حق، ونظام غيره باطل، الترتيب الإلهي حق، أيُّ إجراءٍ آخر باطل، فالحق واحد لا يتعدد، فإمّا أن تكون على الحق، وإما أن تكون حتماً على الباطل، لا يوجد حالة

ثالثة، لا توجد حالة وسطى عند الله عزّ وجل، إما أن تكون على الحق أو على الباطل.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ)

شرعه حق، كلامه حق، توجيهه حق، أمره حق، نهيه حق، قرآنه حق، دستوره حق، وعده حق، وعيده حق، الجنة حق، النار حق، معنى " حق " أي سوف يَحِقْ، ومعنى سوف يَحق أي لابدّ أن يقع، لو فرضنا أربعة أو خمسة توعّدوا إنساناً بشيء، واحد يملك قوة على تنفيذ ما توعّد به فهو الحق، والباقون على باطل، فالحق هو الذي يقع، يقع وَفْقَ العدل.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ)

جميع النظم والقوانين المخالفة للشرع هي الباطل

جميعُ النُظُم الوضعية، جميع النظريات المناهضة للقرآن الكريم، جميع الإجراءات، جميع الأساليب، جميع الحضارات التي لا تقوم على أساس الدين إنها باطل..

(وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

علو الله المطلق

أيْ يعلو، ولا يُعلى عليه، كبيرٌ لا يصغر في نظر أحد، هو كبير، ليس في أعماله عملٌ يدعو أن يكون عند الناس صغيراً، بل هو كبير.

(وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

وهو السميع البصير، وهو العفو الغفور، وهو خير الرازقين.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرّةً)

من آيات الله الكونية: نزول الماء وخروج النبات

وهذه من آيات الله، أرضٌ جرداء، أشجارٌ كأنها الحَطَب، تنزل الأمطار، فترتدي هذه الأشجار حُلّةً قشيبةً بيضاء وكأنها عروسٌ ترتدي ثياب زفافها، والأرض بساطٌ أخضر، سيدنا عمرو بن العاص وصف مصر للخليفة الراشد عمر بن الخطاب قال: " يا أمير المؤمنين مصر طولها شهرٌ وعرضها عشرٌ.. طولها مسيرة شهر، وعرضها مسيرة عشر أيام.. يَخُطُّ وسْطَهَا نهرٌ ميمون الغَدَوات، مبارك الروحات.. نهر النيل.. فإذا هي عنبرةٌ سوداء.. أرض مصر أرض حمراء، قريبةٌ من البُنّيّة.. فإذا هي عنبرة.. من لون العنبر، فالتربة السوداء تربة خصبة جداً.. فإذا هي عنبرةٌ سوداء إذا هي دُرّةٌ بيضاء..

فيضان النيل.. ثم هي زُبُرْجُدَةٌ خضراء.. كلها مزروعة.. فتبارك الله الفعّال لما يشاء " هذا وصف أدبي لمصر، حالة شتاء، وحالة الربيع عند الفيضان، وحالة الصيف البساط الأخضر، لذلك:

(أَلَمْ تَرَ)

دعوة إلى الرؤية والتأمل

فهل هناك مِنّا لم يرَ الربيع، لو سافر من دمشق إلى حلب في الربيع، الطريق كله أخضر، اذهب إلى كل مكان في الربيع، الأرض خضراء، بساط أخضر، الأشجار خضراء، مزدانة.

(أَلَمْ تَرَ)

أيْ ألا تكفيك هذه الآية ؟..

(أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرّةً إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

اليخضور في أوراق النبات

هنا بحثٌ علمي، وأحد الإخوة الأكارم ذكره لي قال: إنّ في مياه الأمطار شوارد هي التي تُساهم في تلوين اليخضور في أوراق النباتات، فلو سُقِيَ النباتُ بالماء خالياً من هذه الشوارد لما اخضر النبات.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرّةً إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

مظاهر لطف الله وخبرته في النبات:

لطيف، فالنبات ينبت من دون ضجيج، الشجرة معمل، تعطيك هذه تفاح، وهذه مشمش، وهذه كُمثرى، وهذه دُرّاق، فأنواع منوعة من الفواكه، تعمل الشجرة بصمت من دون ضجيج، ليس لها محرّك، وليس لها عادم غاز، وليس لها مشكلة، شجرة، يقول لك: حملتْ عشرين صندوقاً من التفاح، بدون صوت، أغصان يابسة، أصبحتْ نضرة خضراء، ازدهرت، أصبحت براعم، ذات أوراق، انعقدت ثماراً، هذه من آيات الله العظيمة الدالّة على عظمته، فربنا لطيف، فإذا صار في المعمل ماس كهربائي يقف، لكنّ الشجرة لا تقف، إن سقيتها تشرب، شيء من السماد تنمو به، لكن ليس فيها حالات حادة، إذا انتابها ماس مثلاً وقفت فوقعت الفواكه دفعة واحدة، ليس فيها شيء من هذا، معمل لطيف، فالأشجار كلها معامل، والبقرة معمل، والغنمة معمل، معامل متنقِلة، فلذلك:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرّةً إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

كيف تنقلب هذه الشجرة من طور اليُبس إلى طور الخضرة والنضارة، وكذلك فالتفاح له طعم خاص، نكهة خاصة، لون خاص، قوام خاص، بنية خاصة، من التراب !! يُسقى بماءٍ واحد، ونفضِّل بعضها على بعضٍ في الأكْل، التفاح نفسه منه ثلاثمئة نوع، الدرّاق منه أنواع منوّعة، الإجاص كذلك أنواع منوعة، العنب ثلاثمئة نوع كما بيّنت بعض التجارب، أنواع منوعة كلها تسقى بماءٍ واحد، فالله عزّ وجل لطيف خبير.

يعني هو خبير، عمل لك هذه الثمرة بحجم معتدل، لو كان البطيخ معلّقاً بالشجرة لكسرَ رأس الإنسان، البطيخ على الأرض، والتفاح على الشجر حجمه صغير، لو للبطيخ قشرٌ كالبندورة لما أمكن نقلُه، لكنّ قشر البطيخ يتحمّل نقلهُ من مكان لآخر، تجد شاحنة فيها خمسة أطنان من البطيخ، لولا هذا القشر السميك الذي يحفظها لانتهت وتلفتْ، باعتبار بعض الخضار حجمها صغير فقشرها رقيق، فهناك حكمة بالغة في الحجم، وفي الطعم، وفي القوام، وفي زمن القطاف، وفي التخزين، وفي النقل.

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ملكاً وتصرُّفاً ومصيراً.

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

غنى الله عن عباده وحاجة العبادة لله

أيْ أنه غنيٌ عن عباده، ومع أنه غنيٌ عنهم لا يعاملهم إلا معاملةً يحمدونه عليها، أنت قد تكون لطيفاً مع إنسان بحاجة إليه، أما لو استغنيت عنه لكلّمتَه كلاماً قاسياً، لكن ربنا عزّ وجل بكماله المطلق هو غنيٌ عن عباده، ومع أنه غني فلا يعامل عباده إلا معاملةً يحمَدُونَه عليها، إذاً نلاحظ..

(لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)

لها علاقة بالآية، و:

(سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

لها علاقة بالآية، و:

(لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

لها علاقة بالآية، و:

(الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

لها علاقة بالآية، و:

(لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

لها علاقة بالآية، و:

(الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 65- 78
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-07-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السابع والأخير من سورة الحَج، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

من آيات الله: جريان الفلك في البحر

هذه الآيات المصدَّرة بكلمة " ألم تَرَ " تعني أن هذه الآية تحت سمع الإنسان وبصره، في متناوله، أيْ أنَّ ما في الأرض مِن طاقات، ومن قِوى، ومن مواد كلُّها مسخَّرةٌ للإنسان، لِمَن الحديد ؟ مَن الذي يستفيد منه على وجه الحصر ؟ الإنسان، وكذلك النحاس، الرصاص، أنواع المعادن، وأشباه المعادن، وجميع أنواع الفلزات، والطاقات الكامنة في باطن الأرض كلُّها لمَن ؟ كلُّها مسخَّرةٌ للإنسان، ما على وجه الأرض من حيوانات كلها مسخرةٌ للإنسان، بعضها مذلَّل، وبعضها غير مذلَّل، والذي هو غير مذلَّل في النهاية مذلَّل، فربنا سبحانه وتعالى يُلْفِتُ نظرنا إلى أن كل ما على وجه الأرض مِن آياتٍ، من قِوى، من مواد، من معادن، من أشباه معادن، من مظاهر طبيعيَّة، من طاقات إنما هي مسخَّرةٌ للإنسان، ودائماً الشيء المُسَخَّرُ له أكرم من المُسَخَّر.

أيها الإنسان: أنت المخلوق الأول ؛ الأرض كلُّها مسخَّرةٌ لك، تحتاج إلى ثيابٍ ترتديها في الصيف فجعل الله لك القطن، تحتاج إلى ثيابٍ ترتديها في الشتاء فجعل الله لك الصوف، تحتاج إلى معدن قاسٍ تستعين به في حرفتك فجعل لك الحديد، تحتاج إلى معدن خفيف فجعل لك معدناً خفيفاً، تحتاج إلى معدن لا يصدأ يكون قيمةً للسلع فجعل لك الذهب والفضَّة، تحتاج إلى معدن سريع النقل فجعل لك النُّحاس، أيْ أنَّ أنواع المعادن وخواص المعادن الفيزيائيَّة والكيميائيَّة هذه كلُّها مسخَّرةٌ للإنسان، أشباه المعادن مسخَّرةٌ للإنسان، وكذلك أنواع الصخور، أنواع الرمال، وغير ذلك كثير.

أنت بحاجة إلى بلور يُدخل لك النور، ويقيك من البرد، فكان البلور، والبلور أساسه الرمل، والرمل خُلِقَ خصيصاً لتصنعه على هذا الشكل، إذاً ربنا سبحانه وتعالى يُخاطب الإنسان الغافل، الإنسان المُقَصِّر:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ)

أن الله خالق الكون.

(سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ)

من آيات الله: كنوز الأرض

شيءٌ آخر، لو أن الأرض فيها معادن، فيها أشباه معادن، وفيها غازات، وفيها مواد صلبة ومواد سائلة، وفيها تلال، وفيها جبال، وفيها وديان، وفيها بحار، فيها نباتات، وفيها حيوانات، ولَم يُعْطِ الإنسان القدرة الفكريَّة على تسخير هذه المخلوقات، فما قيمتها ؟.

إذاً هناك أشياء ثلاثة: أرضٌ كل ما عليها، وكل ما فيها مسخَّرٌ لك، وهناك مخلوقٌ أوّل أودع الله فيه عقلاً يستخدمه لتسخير ما على الأرض، مَنْ جعل مِن هذه المواد مَرْكَبَةً ؟ مَن جعل مِن هذه المزروعات غذاءً ؟ مَن جعل مِن هذه المواد الأوليَّة بيتاً ؟ مَن جعل مِن الصوف كساءً، ومِن القطن ثياباً؟ فالإنسان أُعْطي إمكانات لاستخدام ما على الأرض، فلذلك التسخير يعني أن الله سبحانه وتعالى خلق أشياء ذات نفع عَميم سخَّرها لك، وأعطاك إمكانات تستغلُّ بها هذه الأشياء.

وهناك شيءٌ آخر: نواميس الأرض متوافقةٌ مع نواميس الإنسان، فالأرض دورتها حول نفسها في اثنتي عشرة ساعة تقريباً في الاعتدالين، وأنت إذا قمت بعمل تستنفدُ قِواك في ثماني ساعات، لو أن النهار يدوم خمسين ساعة، وأنت تُستنفدُ قُواك في ثماني ساعات لاضطربت الحياة على وجه الأرض، لو كان الليل ساعة واحدة لاضطرب الأمر كذلك، فدورة الأرض حول نفسها تتوافق مع ما أُودِعَ فيك من قدرات، طول الليل والنهار، حجم الأرض، مقدار الجاذبيَّة التي على وجه الأرض هذا كلُّه متوافقٌ مع الإنسان، هواء الأرض متوافقٌ مع رئتيك، تركيب الهواء، نِسَب الهواء متوافقٌ مع طبيعتك.

إذاً الأشياء التي أودعها الله في الأرض ؛ أنواع الصخور، أنواع الجبال، أنواع التلال، أنواع الوديان، البحيرات الحلوة والمالحة، والأنهار، أنواع الأسماك، أنواع الأطيار، أنواع الحيوانات، أنواع النباتات، بالمئات، ثلاثمئة نوع عنب، أربعمئة نوع تفّاح، وثلاثة آلاف وخمسمئة نوع قمح، فالله عزّ وجل خلق كل نوع من هذه الأنواع، بعضه ينمو في الصيف، بعضه في الشتاء، بعضه فيه قساوة، بعضه فيه لين، هذا للصناعة، هذا للخبر، أنواع منوّعة، ليس في الأرض فاكهة ولا إنتاج نباتي إلا وله أنواع منوّعة تختلف بحسب الاستعمال السريع، أو الاستعمال البطيء، أو التخزين، أو التموين، أو الاستهلاك، هذا كلُّه من فضل الله عزّ وجل.

فأولاً: الأشياء مُسَخَّرة، والإنسان أودع الله فيه إمكانات استخدام هذه الأشياء، الإنسان استخرج المعادن، استخرج البترول، أخذ الفلزات ووضعها في فرن عالٍ وصهرها ثم جعلها حديداً، والحديد

جعله أنواعاً، والنُحاس كذلك، والرصاص كذلك، وأنواع المعادن المُشِعّة أيضاً، والإنسان استخدمها. كذلك هناك شيءٌ آخر: هو أن نواميس الأرض، حجم الأرض، دورة الأرض حول نفسها، حول الشمس، جوُّ الأرض، حرارة الأرض متناسبة مع طبيعة الإنسان، ومع جسده، ومع رئتيه، ومع قلبه، ومع جسده، إذاً هذه الآية:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ)

تسخير الكون للإنسان

هذا الذي نجلس عليه مسخَّر، هذه الأنعام التي خلقها الله لنا مسخَّرة، وهذه الثياب التي نرتديها مسخرة، وهذا الذي نضعه في أيدينا مسخَّر، الساعات مسخَّرة، مصنوعة من موادّ، واستغلّها الإنسان، وصنَّعها كما يريد، وأي شيء تستخدمه ؛ شيء صلب، ليّن، مائع، لزج، سائل، غازيّ كلّه مسخَّر، المواد، الحاجات، النباتات، الحيوانات، والله عزّ وجل يلفت نظر الإنسان إلى أن كل ما على الأرض مسخَّرٌ للإنسان، وبعدُ ألا يستحي الإنسان ؟

أيا غافلاً تبدي الإساءة و الجـهلاً متى تشكر المولى على كل ما أولى؟

عليك أياديه الكرام وأنت لا تراها كـأن العينَ عمـيـا أو حـولا

لأنت كمزكومٍ حوى المسك جيبه ولـكنّه المـحروم ما شمّه أصــلاً

*** * ***

إلى متى أنت باللذّات مشغولٌ وأنت عن كل ما قدّمت مسؤولُ ؟

*** * ***

فيا أيُّها الإنسان إذا قدّم لك أحدٌ شيئاً ثميناً تصبح أسيراً له طوال حياتك، عطاءٌ محدودٌ من إنسان يجعلك أسيراً له، وكل هذا الكون، وكل ما في الأرض، وكل ما على الأرض مسخَّرٌ لك أيُّها الإنسان ومع ذلك ألا تشكره ؟ ألا تنصاع لأمره ؟ ألا تستحي منه ؟! كما يقول الله في الحديث القدسي:

((ابن آدم كَبرت سنُّك، وشاب شعرك، وضعُف بصرك، وانحنى ظهرك فاستحي مني فأنا أستحي منك))

(ورد في الأثر)

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ)

(سورة الحديد: من آية " 16 ")

من لوازم رؤية آيات الله الخضوع التام

حينما يرى الإنسان هذه الآيات الدالّة على عظمة الله عزّ وجل يجب أن ينصاع لله طائعاً وراكعاً وساجداً، لو أن الإنسان ألزم نفسه هذا الأسبوع فنظر في أيّ شيءٍ يستعمله لرأى أن الله سخّره له، بالدليل العلمي أي شيء تستخدمه، إذا ركبت مركبةً مَن الذي خلق هذا الوقود السائل ؟ من أودع فيه قوّة الانفجار ؟ فمركبة وزنها طن هل بإمكان خمسة رجال أن يدفعوها بصعود، في طريق صاعدة ؟ فما هذا الوقود السائل الذي ينفجر فيحرّكها ؟ مَن سخّره لنا ؟ ضع مكان البترول ماء هل تسير السيارة ؟ هذا الغاز الذي تستخدمه في البيت مَن أودع فيه قوة الاشتعال ؟ الله سبحانه وتعالى، هذا الهواء الذي تستنشقه مَن جعل نسبه دقيقة جداً ؟ آزوت، وأكسجين، وغازات نادرة مَن ؟ هذا الماء الذي تشربه مَن جعله لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة ؟ فهو نفودٌ، يذيب كل شيء، يتبخّر بدرجة منخفضة، من أعطاه هذه الخصائص ؟ ما من سائلٍ، ولا غازٍ، ولا شيءٍ صلبٍ إلا وله صفات فيزيائيّة وكيميائيّة، من جعلها بهذا الشكل لتوافق حاجاتك ؟

فمرّة وجدت على سور حديقة حديداً مثبّتاً بالحجر فاستوقفني هذا المشهد، طبعاً كيف يُثبّت الحديد بالحجر حيث يصبح الحديد والحجر قطعةً واحدة ؟ لابدّ من الرصاص، يُحْفَر الحجر حفرة كرويّة يُوضَع إسفين الحديد فيها، ويُسْكَبُ الرصاص.. مَن جعل الرصاص يذوب بدرجة مئة ؟ على موقدٍ غازٍ عادي، ما من حاجة إلى فرن عال، فمثلاً عاملُ الحديقة يذيب الرصاص بحوجلة صغيرة فوق مصباح، أو فوق موقد غاز، أو على أيّ موقد آخر يُذاب هذا الرصاص، ثم يُصبُّ هذا الرصاص في هذه الحفرة، فمن أعطى الرصاص خاصيّة التمدُّد بعد التجمُّد ؟ الله سبحانه وتعالى، بعد أن يصبح الرصاص بارداً وصُلباً يصبح الحديد والحجر قطعةً واحدة.

وهل تصدِّقون أن الحشوات التي توضع في أسنانكم عند طبيب الأسنان أساسها الرصاص ؟ لأنها حينما تَجْمُد تتمدّد فتأخذ مكاناً يصعب اقتلاعها، من جعل الرصاص بهذه الخاصّة ؟ الله سبحانه وتعالى جعل انصهاره سهلاً، وتجمُّده سهلاً، وبرودته سهلة، وتمدُّده سهلاً، مَن جعل الماء في درجة زائد أربعة يتمدّد ولولا هذه الخاصّة لهلك كل من على الأرض ؟ الله سبحانه وتعالى، لذلك فهذه الآية ذات معانٍ ودلالات واسعة جداً:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ)

لكم، أيْ سخّر كُلّ ما في الأرض خصيصاً لكم، وإكراماً لكم.

الأرضُ وما فيها خُلِقت لحكمة وليس عبثًا

هناك فكرة دقيقة جداً، الفكرة مؤدّاها أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق هذه الأشياء عبثاً ثم جئنا نحن واستفدنا منها، لا، إن هذه الأشياء خُلِقَت منذ الأصل مصمَّمةً خصيصاً للإنسان، متوافقةً مع حاجاته.

هذه البقرة ؛ مَن أودع فيها هذه الخاصّة، خاصّة إعطاء الحليب ؟ لو أن البقرة تفرز الحليب لوليدها فوليدها يحتاج لاثنين كيلو فقط، إنها تعطي أربعين كيلواً في اليوم لماذا ؟ ومَن يُصَدِّق أن كل كيلو حليب محصلة دوران أربعمئة كيلو من الدم في الخلايا الثديية للبقرة، فكل كيلو حليب يقابله أربعمئة كيلو من الدم تذوب في الشعريّات حول الغدد الثديية في البقرة، هذه البقرة معمل متنقِل، معمل صامت لا يحتاج إلى ضجيج، البقرة مسخَّرة، والغنمة مسخَّرة.

والدجاجة مسخرة إنها تأكل من خشاش الأرض فتعطيك بيضة كلُّها غذاء، فيها ثلاثة عشر فيتامينا، خمسة عشر شبهَ معدنٍ ومعدن، البيضة شيء دقيق جداً، آخر بحث للبيضة أن غلاف البيضة الكلسي فيه حوالي عشرة آلاف ثُقب من أجل التنفُّس، هذا الرشيم حينما يبدأ بالنمو يحتاج إلى الأكسجين، والغشاء الذي تحت الغلاف الكلسي فيه ثقوب تقابل ثقوب الغلاف الخارجي، وكل ثقب بالغلاف الداخلي الدقيق الرقيق موصول بأنبوب إلى الرشيم، أيْ عشرة آلاف أنبوب موصولة بفتحات في الغشاء الرقيق ويقابل هذا الغشاء الرقيق عشرة آلاف فتحة بالغشاء الخارجي.. الكلسي.. مِن أجل تنفُّس الرشيم حينما تُحْضَن البيضة، ما هذا ؟ هذه بعض نتائج البحوث الحديثة في البيضة، كلها مسخَّرٌ لنا..

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ)

انظر إلى اللّحم الذي تأكله ؛ لحم الدجاج، لحم السمك، لحم الغنم، لحم الماعز، لحم البقر، لحم الجمل، فالجمل للصحراء، والبقر للحليب، والغنم للحم والجلد والصوف، والدجاج للحم والبيض، والمزروعات، وأنواع الخضراوات، والفواكه، والثمار، والمحاصيل.. إلخ..

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ)

طريقة جريان الفلك في البحر بأمر الله

فمن أعطى الماء قوّة التماسك ؟ الماء فيه قوّة تماسك، هذه القوّة تجعل الأجسام التي عليه تطفو إذا أزاحت ماءً أقلّ من حجمها حسب قانون أرخميدس، فهذا الماء الذي أودع الله فيه قوة التماسك، فيه قوة دفع نحو الأعلى لولا هذه القوة لما استُخدم البحرُ لنقل الركّاب والبضائع، املأ وعاءً من الماء وأغمسه في بركة ماء، تحس أن أربعة أخماس وزنه تلاشت، أين ذهب هذا الوزن ؟ هناك قوّةٌ دافعةٌ نحو الأعلى، هذه التي أشار الله إليها:

(وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

لولا قوّة الدفع نحو الأعلى، لولا تماسك ذرّات الماء لما أمكن للسفن أن تمخر عُباب المحيط، طبعاً البحر له فوائد كثيرة جداً، لو كان البحر بحجم أقل لانعدمت الحياة من على سطح الأرض، لكن هذا الحجم المدروس حيث إن التبخُّر يساوي حجماً من السحب كافياً لهطول الأمطار وإنبات المزروعات، لذلك البحر حجمه فيه حكمة بالغة، وحجم البر له حكمة بالغة..

الصحارى

والصحارى كما قلنا اليوم، فهذه الكُتل الهوائيّة المتمركزة فوق الصحارى تكتسب من حرارتها، وتلك الكتل المتمركزة فوق القطب تأخذ من حرارة القطب، ومِن تمركُز كتل هوائيّة باردة فالهواء البارد ينكمش، وتكثر كثافته، ويزداد وزنه فيتجه نحو الأسفل، والهواء الساخن تقلّ كثافته، ويخفّ وزنه، ويتمدّد ويتجه نحو الأعلى، وجود منطقتين منطقة ضغط خفيف وضغط مرتفع، تنشأ تيّارات هوائيّة، هذه التيارات تبدل جو الأرض، تنقي الجو، فالبارحة مساءً بعض هذه النسمات العليلة بدّلت جوّ دمشق الذي سيطر عليها منذ خمسة أيّام، وتصريف الرياح من آيات الله الدالّة على عظمته، أيضاً هذا مسخرٌ للإنسان، الرياح، والأمطار، والسحب، والثلوج، والبَرَدْ، وما شاكل ذلك..

(وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ)

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا

كما قلنا في دروس سابقة: ربنا عزّ وجل جعل فوق الأرض كتلة هوائية يزيد سُمْكُها عن خمسة وستين ألف كيلو متر، وهذه الكتلة الهوائية عبارة عن طبقات، بعض هذه الطبقات تزيد حرارتها عن ألف وخمسمئة درجة، بحيث أن كل جسمٍ ساقطٍ على الأرض يصبح شهاباً، ويتشهّب بهذه الطبقة، واللهُ سبحانه وتعالى جعل السماء سقفاً محفوظاً كما ذكر في آيات أخرى، لذلك فكل جسم ساقط بحكم الجاذبية لابدّ أن يتشهّب في هذه المنطقة، الحرارة ألف وخمسمئة درجة، لذلك منظر الشُهب حينما تسقط وهي أصلاً أحجار كبيرة، نيازك، كويكبات تسقط باتجاه الأرض، وتمرُّ بهذه المنطقة فتصبح رماداً لا يرى إلا بالمجهر، فالله سبحانه وتعالى بهذه الطريقة يحول بينها وبين سقوطها لما كانت حجارة، قال تعالى:

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ)

لولا هذه الطبقة الحارّة لرُجِمَت الأرض بالكويكبات والأحجار والنيازك وما شاكل ذلك، لكن الله أحياناً يسمح لنيزك كبير جداً أن يصل إلى الأرض لنعرف نعمة الله عزّ وجل في حجز هذه الكويكبات وهذه

الأحجار المُمتلئة التي تملأ الفضاءَ الخارجي، بفضل هذه الطبقة التي تتشهَّب فيها كل الأجسام، وطبقة الأوزون تمنع الأشعّة القاتلة أيضاً هذا من حفظ الله عزّ وجل للأرض..

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

كل نظام الكون بإذن الله

إلا أن يأذن الله لبعض النيازك فتصل إلى الأرض..

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

من مظاهر رأفة الله ورحمته بالخَلق

رؤوف بهم، جعل هذه الأرض فيها آياتٍ دالّة على عظمته كي نعرفه، فإذا عرفناه عبدناه، وإذا عبدناه سعدنا بقربه، سعدنا في الدنيا والآخرة.

شيءٌ آخر:

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

جعل كل حاجاتنا في الأرض ؛ تحتاج إلى مواد صلبة، إلى معادن، إلى أشباه معادن، إلى أملاح، إلى مواد مشعّة، إلى مواد تمتص، إلى مواد مُخَمِّدة للصوت، كله في الأرض موجود، فكم نحن بحاجة إلى المطّاط ؟ فهل يمكن مثلاً أن تصل بين جسمٍ قاسٍ مع جسم قاس آخر من دون اضطراب إلا بالمَطّاط ؟ هذا من خلق الله عزّ وجل، فكل شيء أنت بحاجة إليه فمثلاً هناك رخام يمتصُّ الحرارة ولا يشعُّها، ثمنه باهظ جداً، الحجّاج في أمسّ الحاجة إليه، مقتلع من اليابان، تطوف حول البيت ودرجة الحرارة خمس وستون درجة فتجد الرخام بارداً، مَن خلق فيه هذه الخاصّة ؟ نادر جداً، هذا مسخَّر لهذا المكان بالذّات.. فربنا عزّ وجل جعل كل حاجاتك مؤمّنة على وجه الأرض.

حتى عندما احتاج الإنسان للتصوير مثلاً، فمن أين أتى بالمواد التي لها حساسية بالغة بالضوء ؟ أليست هي من خلق الله عزّ وجل ؟

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ)

إخراجُ اللهِ الإنسانَ إلى الدنيا بعد عدم وإعادتُه يوم القيامة

كنتم أمواتاً فأحياكم، أي كنتم في حالة العدم، الإنسان قبل أن يولد

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان)

كنتم أمواتاً، أيْ في طور العدم فأحياكم، حُوَين منوي لقّح بويضة، وانقسمت البويضة عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم، ثم تعلّقت في الرحم فكانت علقةً فمضغةً، نمت العظام، كساها الله لحماً، فأصبح كائناً له أجهزة وله أعضاء، وله جلد، وله شعر ودماغ، وأعصاب، وقلب ورئتان، وعضلات، وعظام، أليس الابن المولود من آيات الله الدالّة على عظمته ؟

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ)

من مظاهِر قوله: وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ

الله عزّ وجل خلق له في جسمه رئتين، وهو في رحم أمِّه ليس بحاجةٍ إليهما، معنى ذلك أن هناك تخطيطاً، فالطفل في بطن أمه لا يتنفّس ومع ذلك خُلِقَت له رئتان.

وقلب الطفل ؛ ما دام الطفل لا يتنفّس فمعنى هذا أن طريق الدم من الأذين إلى الرئة إلى الأذين معطّل، إذاً ربنا عزّ وجل خلق ثقباً بين الأذينين وهو ثقب.. بوتال، لأن العالم الذي اكتشفه اسمه بوتال.. لكن حينما يولد الجنين، ويخرج إلى الدنيا فإنّه يتنفّس، فإذا بقي هذا الثقب مفتوحاً يصاب بمرض اسمه داء الزَرَق، لكن تأتي جلطة، هكذا قال الأطبّاء: فتغلق هذا الثقب ليحيا المولود، يدُ مَن كانت داخل قلب الطفل الصغير ؟ لولا أن يُغْلَقَ هذا الثقب لما عاش إنسان، لكن ربنا عزّ وجل لحكمةٍ بالغة يجعل من حينٍ لآخر، من بين كل خمسين ألف ولادة، أو كل مئة ألف أو مليون ولادة يجعل طفلاً صغيراً ثقبه مفتوحٌ لحكمةٍ بالغة، وليس هذا على حساب الطفل، بل يكونُ أجله قصيراً بعلم الله، لكن هذا درس لنا فيولد الطفل هكذا، يدُ من دخلت إلى قلب هذا الطفل، وأغلقت هذا الثقب المفتوح موقّتاً بين الأذينين ؟

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ)

مَن جعل القلب ينبض بالجنين ؟ مَن أعطى الطفل الحياة ؟ الله سبحانه وتعالى..

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ)

الموت قانون و آية من آيات الله

والموت آية من آيات الله الدالّة على عظمته، حتى الآن تعريف الموت صعب جداً، هل الموت توقّف القلب ؟ لا يكفي، الآن يضعون للمريض قلباً صناعياً والدم يُضَخُّ في جسمه وهو ميّت، ليس معنى الموت إذاً توقّف القلب، بعضهم يقول: توقّف جذع الدماغ عن النشاط، لا يزال تعريف الموت موضوعاً حَيِّر العلماء، فحياة الإنسان في بطن أمّه آية وموته آية..

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ)

بعد الموت..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)

كفر الإنسان وجحودُه

حياته بيدِ الله، وموته بيد الله، وبعثه بيد الله ومع ذلك ينسى الإنسان اللهَ سبحانه وتعالى، قال: **" يا رب كيف أشكرك ؟ "..." قال الله عزّ وجل: تذكرني ولا تنساني، إنّك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني ".**

(لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)

تيسير الله طريق الهداية لكل الناس

أيْ أنّ ربنا سبحانه وتعالى جعل لكل أمّةٍ طريقاً يصل إليه، الصلاة طريقٌ إليه، الصوم طريقٌ إليه، الحَج طريقٌ إليه، أوامر الله عزّ وجل في مُجْمَلِها طريقٌ إليه، سُنّة النبي عليه الصلاة والسلام في مجملها طريقٌ إليه، هذا المنسك أيْ عبادة، ربنا عزّ وجل مِن أجل أن يسعد العباد رسم لهم طريقاً إليه..

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ؟ قَالُوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا))

(من صحيح مسلم عن أبي هريرة)

فربنا عزّ وجل جعل الصلاة طهوراً تطهّر الإنسان من أدرانه، وجعل الصلاة نوراً تريه الحقّ حقاً والباطل باطلاً، وجعل الصلاة حُبوراً، تسعده، تطهّره وتنير قلبه وتسعده، هذه حِكَمُ الصلاة، وهي مناجاةٌ، وهي ذكرٌ، وهي خشوعٌ، وهي دعاءٌ، فالصلاة منسك، والصوم ترك طعامه وشرابه من أجل الله منسك، والحج تَرَكَ أهله وبلاده ومكانته ومَن حوله وجاء إلى الله راغباً فيما عنده، فالحج منسك من مناسك الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل رحمةً بالإنسان جعل لكل أمةٍ منسكاً هم ناسكوه..

(فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ)

عدم التفات للأنبياء إلى منازعيهم لأنهم على صراط مستقيم

أيْ يا محمد هؤلاء الذين يعترضون عليك لا تلتفت إليهم، لا تتنازع معهم، فالآية تعني أن الله سبحانه وتعالى أنهى مَنْ حول النبي مِن المشركين أن ينازعوه، بمعنى أن النبي ينبغي أن يُعْرِض عنهم، وألا يلتفت إليهم، وأن يصبر على اعتراضاتهم ليتلافى منازعاتهم، وتعكير صفوه مِن أجلهم..

(فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ)

أي دعهم وشأنهم، وادعُ إلى ربك..

(إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)

إنك لعلى الحق المبين.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من آية " 67 ")

و..

(إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)

فهذا الهدى يصل بك إلى الله عزّ وجل أنت ومن تبعك..

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: من آية " 108 ")

فمِنْ رحمة الله بالإنسان أن الله سبحانه وتعالى جعل له هذه العبادات، بها يرقى، بها يطهُر، بها يرى، بها يتَّصل، بها يسعد، فهذه العبادات مؤدّاها للإنسان لأنّ الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عنّا..

((لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

(من صحيح مسلم: عن " أبي ذر ")

ذلك بأن عطائي كلام وأخذي كلام، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه.

فهذه الآية.. تعني أن الصلاة لنا..

(إِنّ الصّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت: من آية " 45 ")

والصيام لنا..

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

والحج لنا..

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة إبراهيم: من آية " 97 ")

من معاني هذه الآية: إذا حَجَّ الإنسانُ حجاً صحيحاً أمِنْ مِن عذاب الله طوال حياته، إذا دخل على الله هذا الدخول الصادق المُخلص، فطهر قلبه من كل دنس، وارتقى إلى الله عزّ وجل، سعِدَ في دنياه وأخراه، فكان آمناً..

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ

أحياناً يُؤتَى الإنسانُ قوّةَ جَدَل، يؤتى القدرة على المناقشة، هذه تُسَمَّى القدرة على الإقناع، قد يكون عمله في واد، وأفكاره في واد، قد يكون منافقاً، قد يؤتى طلاقة في اللسان، قد يؤتى قدرة على إقناع الآخرين، العبرة أن يكون العمل صحيحاً، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أيْ أنّ هذا الذي يجادلك لا تلتفت إلى كلامه، بل انظر إلى عمله، فإن كان مستقيماً فاهتم بكلامه، وإن كان غير مستقيم فلا تلتفت إليه، لأن هذا كلامٌ لا يُقدِّم ولا يؤخِّر..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْدًا إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق)

أيْ انظر إلى عمله، هذا الذي ينهى عبداً إذا صلّى هو كاذب، منافق، مخادع، وصولي، أناني يحبُّ ذاته، يبني مجده على أنقاض الآخرين، هذا الذي ينهى عبداً إذا صلّى يحب أن يأكل، ويجوع الناس، يحب أن يكتسي، ويعرى الناس، يحب أن يطمئنّ، ويخاف الناس، هذا الذي ينهى عبداً إذا صلّى لا تلتفت إليه، لا يستحقُّ أن تناقشه..

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

العبرة بالعمل، الإنسان المستقيم أغلب الظن يوافق أهل الحق على ما يقولون، لأنه قريب من الله عزّ وجل، فقلبه مستنير، فيرى هناك تطابقاً عجيباً بين ما في نفسه وبين أقواله، لكن المنحرف أكلَ المال

الحرام مثلاً، هذا لا يحبّ أن تشدِّد عليه في كسب المال، يتضايق، يهاجمك، يسفِّه لك آراءَك، لأن عمله سَيِّئاً، ما دام عمله سيّئ إذاً يردُّ الحق ويدافع عن الباطل..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من آية " 50 ")

والدليل مثلاً: أن الإنسان الذي يحب الاختلاط يهاجمك إذا أمرته بالابتعاد عن النساء المُحَرَّمات، يهاجمك ويقول لك: هذا تخلُّف، هذا تزمُّت وضيق أُفُق، أين عايش أنت ؟ بأي عصر عايش ؟! هو استمرأ لنفسه هذا السلوك، هو يدافع عن شهوته ويردُّ الحق.. لذلك فالمرء العاقل لا يتورَّط في مناقشة إنسان منحرف، لا تناقش غبياً، ولا تناقش منتفعاً، ولا تناقش قوياً، ولا تناقش منحرفاً، هؤلاء لا يُنَاقَشون، هو يدافع عن باطله، يدافع عن شهوته، يدافع عن انحرافه، يهاجم الحق ولو كان ناصعاً كالشمس..

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أما إذا ناقشك رجلٌ مستقيم فاحترم آراءه، وإذا كان خَطَّأك في بعض الأحيان فقد تكون أنت المخطئ، وهو المصيب، فخذ كلامه على محمل الجد، إذا كان الشخص مستقيماً ملتزماً بالحق، وبيَّن لك غلطاً في سلوكك أو في أفكارك فاهتم به اهتماماً كبيراً جداً، لأنه ينطلق من حق، لأن الأساس هو التطبيق، فالإنسان غير المُطبِّق لا يستحقّ أن تستمع له، ولا أن تلقي له بالاً، ولا أن تناقشه، ولا أن تحاوره، إلا في حالة واحدة، وهي إذا قال لك: أنا حينما أقتنع ألتزم، صار له عليك حقٌ، إذا قال لك: أنا مع الحق حيثُ دار، أقنعْني أن هذا حرام فسأتركه، أقنعْني أن هذا حق فسأتّبعه، عندئذٍ يجب أن تُشَمِّر، وتوضِّح له الحق إلى آخر درجة..

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69))

الله سبحانه هو الحَكَم العدلُ

الله هو الحَكَم، والإنسان السعيد من كانت عقيدته وأعماله وَفق القرآن الكريم، لأن الله ناصره وهو الذي يحكم بينه وبين خصومه يوم القيامة..

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

إذا كان إنسان ترجو خيره وتخاف بطشه، وإذا غلب على يقينك أنه يراقبك مراقبةً دقيقة، فأغلب الظن أنك لابد أن تطيعَه دائماً، المُشكلة مع الناس أنهم يعتقدون أن الله هو الخالق، أما إذا علموا أن الله يعلم

كل شيء صغيراً أو كبيراً، كل خاطر، كل نيّة يعلمها، وسيثيب عليها إن كانت خيراً، وسيعاقب عليها إن كانت شرّاً، إذا بلغ حدّ علمك أن الله يعلم فلابدّ من أن تنضبط، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة: من آية " 97 ")

إذا علمت أن الله يعلم انضبطت، لو كنت محاسباً، وعليك مراقبة تلفزيونيّة.. مرّة دخلت إلى محل تجاري فوجدت شاشة وشخصاً يكتب في دفاتر، فسألته مَنْ هذا ؟ قال: هذا موظّف، قلت: هذه مراقبة مستمرّة.. لو كان صاحب هذا المحل مما يرجى خيره، أو يخشى شرُّه، وشعر هذا الذي يكتب أن عليه مراقبةً دائمةً ماذا يفعل ؟ أيضيّع الوقت، أيغادر الطاولة، لا يستطيع، فإذا كان الإنسان مراقَبًا مِن قِبَل إنسان آخر فهناك اهتمام بالغ، أحياناً توجد صالات مكتوب على لوحة فيها: انتبه الصالة مراقبة، مراقبة تلفزيونياً، إذا وضع أحدٌ غرضاً في جيبه فهو مُراقَب، فإذا كان الإنسان يُراقب تجد أن هناك انضباطاً، فكيف إذا كان ربنا عزّ وجل هو المراقب؟!

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

(سورة النساء)

إنّ كثيرًا من الأمكنة مراقبةٌ بالتصوير، فلو أن إنساناً أسرع بسيارته في شارع مراقب، وعلم أن صورة سيارته مع المخالفة ستظهر، فلا يستطيع إذاً أن يسرع، وإذا توصّل إنسان لجهاز مراقبة مع التقاط الصور، فالناس ينضبطون انضباطَ خوف، وانضباطَ ردع، وليس انضباطَ وازع، فكيف لو غلب على يقين الإنسان أن الله بالمرصاد..

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

)أَلَمْ تَعْلَمْ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ(

عِلْمُ اللهِ محيطٌ بكل شيء في الأرض والسماء

ألا يكفي الإنسانَ دافعٌ للاستقامة أن الله يعلم ؟ فالإنسان العاقل يرتدع ويرعوي إذا أصدر شخصٌ ذو مكانة أمراً، ورتّب على المخالف عواقبَ وخيمة، وهو يراقبك، فمستحيل أن تخالف أمره، مستحيل بحكم المنطق أن تخالف أمر إنسان يفعل ما يقول، ويتوعّد مَن يخالفه، فإذا كنت منضبطاً مع إنسان، فكيف بخالق الأكوان ؟

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

فهذا الذي يفعله الناس مُسَجّل، كتاب..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء)

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

(سورة المطففين)

معنى: مَرْقُوم

المعنى الأول:

معنى مرقوم أي صفحاته مرقّمة، فإذا ختم أحدٌ دفاتره فلا يستطيع أي شخصٍ أن يشق صفحة منها، ويقول لك: هذه دفعة كبيرة مسجّلة سنتخلّص منها، فالصفحات مرقّمة، وقد بلغت صفحات هذا الدفتر مثلاً مئةً وثلاثين صفحة، مرقّمةً واحدةً وَاحدةً، فكتابك مرقوم أيْ مرقّم من قِبَل ملائكة الله، ولا تنتزع منه صفحة واحدة.

المعنى الثاني:

هناك رأي ثانٍ مرقوم أيْ مع الرَقم توجد صورة، المخالفة وصورتها، فإذا قلت: لست أنا الذي خالفت، فيقال لك: تفضّل أليست هذه صورت سيارتك، وهذا رقمها ؟ المخالفة مع صورتها، فإذا كان الحال كذلك فكيف يخالف الإنسان ربه ؟

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

أطلعني أحَدُهم على كمبيوتر فيه صفحة بحجم الكف، فيها ثلاثمئة وخمسين ألف معلومة، إذا كانت صفحة واحدة فيها هذه المعلومات، فمن الممكن أن تكون كل أعمال الإنسان مسجّلة، ويوم القيامة تُعْرَضُ عليه عَملاً عملاً، لماذا فعلت كذا ؟ لماذا غششت أخاك ؟ لماذا كذبت عليه ؟ لماذا أوقعت بين هؤلاء ؟ لماذا جمعت هذا المال على أنقاض الآخرين ؟ هذا كله فيه حساب.

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لَمْ يُنَزّلْ بِهِ سُلْطَاناً)

المشركون جَهلة في اعتقادهم وسلوكهم

السلطان هنا يعني الشرع، الله عزّ وجل ما أنزل كتاب يأمرنا فيه أن نعبد من دون الله هذه الأصنام..

(وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ)

أيْ بلا دليل نقلي، وبلا دليل عقلي، ليس هناك دليل نقلي من كتاب سماوي يأمرنا أن نعبد هذه الأصنام، وليس هناك منطق أو حجّة، فهذا الصنم حَجَر، هذا الصنم من تمر.. أكلت ودٌ ربّها.. جاعت ذات مرة قبيلة فأكلت ربّها، شاعر مرّة رأى صنماً يبول عليه الثّعلبان فقال:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه لقد ذلّ من بالت عليـه الثعالبُ

ما هذا الصنم الإله ؟ فليس من دليل نقلي، ولا من كتاب سماوي منزّل يأمرنا أن نعبد هذه الأصنام، ولا أي دليل عقلي منطقي يسمح لنا أن نعبدهم، فربنا عزّ وجل قال:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ)

أصناماً، أحجاراً، وأحياناً أشخاصاً..

(مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

يوم القيامة..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ)

حالة المشرك إذا تُتلى عليه آيات الله

المنكر هنا الإنكار، أي أنك إذا تلوت آيات الله البيّنة على أهل الدنيا المكذّبين الفاجرين..

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ)

1 – الإنكار والانقباض والانزعاج

أيْ أنهم ينقبضون، تنقبض أسارير وجوههم، ينزعجون لأن الحق يقيّد شهواتهم، الحق يحدُّ من انطلاقهم، الحق يأمرُهم أن يستقيموا على أمر الله، هم يفعلون ما يشاؤون، لذلك إذا كان الإنسان متفلِّتاً من الحق وسمع الحق يتألّم، ويضيق به ذَرْعاً..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ)

أيْ الإنكار، هذا مصدر ميمّي، أنْكَرَ يُنْكِرُ إنكاراً ومُنْكَراً..

(يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)

2 - اعتداءهم على من يتلو عليهم الآيات

أيْ أنّ شدّة حمقهم وغيظهم وحقدهم تدفعهم إلى أن يهجموا على من يتلو عليهم هذه الآيات، وهذا هو الضعيف حينما يفقد الحجّة، وحينما يفقد البيّنة، وحينما يُسْقَطُ في يده يهجم على خصمه، الذي يهجم على خصمه بالضرب واللّكم هو ضعيف الحجّة، حينما يفقد الإنسان حجّته يستخدم يده..

(يَكَادُونَ يَسْطُونَ)

أيْ يهجمون..

(بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ)

أعظم جزاء الكفار النار

فإذا كان هذا القرآنُ قد أورث فيكم الأحقاد والآلام فإن هناك ما هو أشرٌ من هذه الآلام ألا وهي النار، فهو متألِم جداً، كيف أن هذا الابن سار على طريق الحق ؟ كيف أن أخاه بدأ يغضُّ بصره، ويحرِّر دخله؟ فهو يعد أخاه منحرفاً، يعد أخاه متزمِّتاً، يعد أخاه انجذب، يحقد عليه، كل هذا الحقد لأن أخاك استقام على أمر الله ؟! لأن أخاك عرف الله عزّ وجل ؟! إن هناك أشرٌ من هذا الألم، وهي النار، عقابٌ لمن يصدُّ عن سبيل الله..

(وَعَدَهَا اللّهُ الّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72) يَا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ)

الذبابة آية من آيات الله الخارقة

دقِّق في هذه الذبابة، فربنا عزّ وجل قال:

(الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: من آية " 3 ")

أيْ أنّ دقّة خلق الذبابة وكمال خلقها ككمال خلق الفيل، وككمال خلق المَجَرّات، ليس عند الله صنعةٌ متقنةٌ وصنعةٌ أقلّ إتقاناً، كله متقنٌ، من البعوضة، البعوضة لها جناحان يرفّان أربعة آلاف رفّة في الثانية، البعوضة لها ثلاثة قلوب، لها جهاز رادار، ولها جهاز تحليل دم، ولها جهاز تخدير، ولها جهاز تمييع، ولها محاجم تقف على السطح الخشن، ولها مخالب تقف على السطح الأملس الصقيل، ويرفُّ جناحاها أربعة آلاف رفّة في الثانية، ومع ذلك قال:

(إِنّ اللّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة: من آية " 26 ")

فخلقُ الفيل، وخلق الجمل، وخلق الحوت، وخلق المجرّات ليس أعظم من خلق البعوضة ولا خلق الذبابة، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضرب مثلاً بالذباب لكثرته، ولضعفه، ولقذارته، ولهوانه كما قال بعض المفسرين، لأربعة أسباب ؛ لكثرة الذباب، ولمهانته عند الناس، ولقذارته، ولضعفه..

(يَا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ)

تحدي اللهِ أهلَ الأرض جميعا بخلق ذبابة واحدة

أيْ أنّ أهل الأرض كلهم، والقِوى المجتمعة على سطح الأرض، القِوى العلميّة، الجامعات، المخابر، الجيوش الجرارة، إن كل هذه القِوى العسكريّة والعلمية ليس بإمكانها أن تخلق ذبابة واحدة، ربنا اختار ذبابة تحقيراً لهؤلاء الذين يَدْعون من دون الله..

(وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ)

ليست جهة واحدة، لو عُقِدَت مؤتمرات على مستوى القارّات الخمس، جميع الجامعات في العالم، جميع المصانع في العالم، جميع المخابر الحيويّة في العالم، جميع الكُتَل من أجل أن تخلق ذبابة واحدة لا يستطيعون، الأغرب من ذلك:

(وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً)

وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ

لو أن الذباب وقف على جسم الإنسان، ونقل له بعض الأمراض، وهذا المرض سَلَبَهُ صحّته، فهناك فيروس للشلل، وفيروس للحمّى، وفيروس لالتهاب السحايا، لو فرضنا هذه الأمراض نقلتها ذبابة فسلبت الإنسان صحّته، هل بإمكان البشر لو اجتمعوا أن يسلبوا هذا الذباب ما أخذه منهم ؟ قال:

(وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

منتهى عجز البشر

فهذا منتهى العَجز ؛ أن الدول مجتمعة، والشعوب مجتمعة، والقوى الفكرية مجتمعة، والقوى الصناعيّة مجتمعة، لو أنها اجتمعت، وتعاونت، واتفقت على خلق ذبابة، لم يكن ذلك في الإمكان، ولو اجتمعت على أن تشفي مريضاً أصابته ذبابة، لا يستطيعون..

(ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

فهذا الذي يعبد الصنم ضعيف، والصنم أضعف..

(مَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ إِنّ اللّهَ لَقَوِيّ عَزِيزٌ)

وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ

ما عرفوا الله، لو عرفوه لعبدوه، لو عرفوه لأطاعوه، لو عرفوه لوحّدوا له وجهتهم، لو عرفوه لما

عبدوا غيره، لو عرفوه لما أطاعوا مخلوقاً وعصوه.

(اللّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النّاس)

من الملائكة رسُلٌ ومن البشر رسُلٌ

ربنا عزّ وجل جعل الملائكة رسلاً للأنبياء، وجعل الأنبياء رسلاً للبشر، فمن الملائكة رسل كسيدنا جبريل، ومن البشر رسل كسيدنا محمّد، لكن الله يصطفي من الملائكة، أيْ أنّ أعلى الملائكة سيدنا جبريل، ويصطفي من الناس الأنبياء والمرسلين، هم صفوة الصفوة، وهم في القِمَم دائماً..

(اللّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النّاسِ إنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

أيْ أنه يعلم ما يفعلون وما سيفعلون، أو ما قدّموا وما أخّروا..

(وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

الأمور كلّها راجعةٌ إليه..

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا)

الصلاة وما يتعلق بها من سائر العبادات

أيْ اتصلوا بالله عزّ وجل، كنّى ربنا سبحانه وتعالى عن الصلاة بالركوع والسجود، الصلاة قيامٌ وركوعٌ وسجود، وأقرب ما يكون الإنسان في الصلاة، وهو راكعٌ وساجد..

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا)

أيْ اتصلوا بالله عزّ وجل..

(وَاعْبُدُوا رَبّكُمْ)

دخل في العبادة الصوم، دخل فيها الحَج، دخل فيها الزكاة، دخل فيها كل عمل تبتغي به رضوان الله عزّ وجل، دخل فيها الذِكْر، دخل فيها التفكّر..

(وَاعْبُدُوا رَبّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ)

الأمر بعموم فعل الخيرات لنيل الفلاح

تقرُّباً إليه، هذا الدين كلّه صلاة، وعبادة، وأعمال صالحة..

(لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

لعلّكم تفوزون، لعلّكم تنجحون، لعلّكم تحقِّقون الهدف من خَلْقِكُم، لعلّكم تكونون كما أراد الله لا كما أردتم أنتم..

(وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِهِ)

الجهاد الحقيقي

القضيَّة تحتاج إلى صدق، والإنسان أحياناً تنازعه نفسه، جاهدوا في أنفسكم وأهواءكم، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؛ جهاد النفس والهوى..

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

إذاً الدين في جوهره اتصال بالله وإحسانٌ إلى الخلق..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ)

هذا اتصال بالله..

(وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

الفلاح، والنجاح، والتفوُّق منوط في هذين الشيئين، الاتصال بالخالق والإحسان إلى الخَلق..

(وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِهِ)

ربنا عزّ وجل يمتحن الإنسان، فَيجعل له عقبات، ويجعل له خصوماً، ويجعل له معارضات، يصيبه ببعض الضيق، بنقصٍ في الأموال والأنفس والثمرات، يصيبه بخصوم..

(وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِهِ)

فحق الجهاد أن تكون كما يريد الله سبحانه وتعالى، أن تستنفذ كل الفُرَص، أن تبذل كل المجهود..

(وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ)

أي هو اختاركم لهذا الدين.. **" إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه ".**

ربنا عزّ وجل رَشّحك لهذه المهمّة، أسمعك الحق لما علم فيك من خير.

(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 23 ")

وها قد أسمعك الحق، هو اختارك، خصّك بهذا الهدى، جمعك مع أهل الحق، فتدير ظهرك للحق ؟ تستنكف، تتأفّف، تتململ، تسأم وتقول: هذا فوق طاقتي !! لا، بل استعن بالله ولا تعجز، فالكلمة الدقيقة:

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ)

اصطفاء الله الناس للخير

هو اختاركم، إذا ساق ربنا عزّ وجل لك خيراً، إذا جعل ربنا عزّ وجل لك وظيفة في الدعوة إليه، إذا جعلك ربنا عزّ وجل تستمع لمجلس علم، سمحَ لك أن تستمع، ساقك لهذا المجلس، دلّك عليه، لِما علم فيك من خير، هو اختارك، هو توسّم فيك الخير، وأنت ترفض ؟ فهذا موقف فيه حجود كبير جداً..

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)

رفعُ الحرج في الدين وصورُه

الدين يُسر، والدين متوافق مع الفطرة، فلا توجد شهوة أودعها الله عزّ وجل في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة، شهوة النساء جعلها بالزواج، والمال جعله بالكسب المشروع، والعلو في الأرض جعله في العلم وفي طاعة الله عزّ وجل، فأي شيء أودعه الله في الإنسان جعل له متنفّساً نظيفاً، وصحيحاً، وشريفاً، ومحموداً، وراقياً، ومقبولاً، ومعترفاً به..

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)

فالصائم المريض يفطر، والمسافر يفطر، وإذا أصاب الإنسان مرض يُصلي بالإيماء، يصلي برأسه، يصلي قاعداً، إذا كان شخص مُضّطراً فمن الممكن أن يأكل لحم خنزير في حالات يخشى فيها الموت..

(إلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 119 ")

فكل ضرورة لها في الإسلام متنفّس، لها مخرج..

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ)

أحَد أصحاب رسول الله هُدِّد بالقتل إلى أن ينطق بكلمة الكُفر، فنطقها، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لا ضير عليك، وإن عادوا فعد، إلا من أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان))

(ورد في الأثر)

فالإسلام متوافق مع الفطرة، متوافق مع طبيعة الإنسان، متوافق مع نواميس الخَلْق..

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ)

هُوَ سَمّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ

(رَبّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرّيّتِنَا أُمّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنّكَ أَنْتَ التّوّابُ الرّحِيمُ)

(سورة البقرة)

هذه التسمية تسمية أبينا إبراهيم عليه السلام..

(وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس)

الأمة الإسلامية أمة وسط شهيدة على الناس

وكأن الله عزّ وجل جعل هذه الأمّة أمّةً وسطاً بينه وبين خلقه، فالنبي يشهد الحق لنا ونحن ينبغي أن نشهد الحق للناس..

(لِيَكُونَ الرّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاسِ فَأَقِيمُوا الصّلَاةَ)

الأمر بالصلاة والزكاة والاعتصام بحبل الله

لأنفسكم وللناس..

(وَآتُوا الزّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللّهِ)

أيْ بالطاعة..

(هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النّصِيرُ)

وَلاية الله للمؤمنين

يقول الله عزّ وجل:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظّلُمَاتِ إِلَى النُّور)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

إذا كان الله وليّكم فلا ضَيْرَ عليكم، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟.." **ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فِتّك فاتك كل شيء وأنا أحبُّ إليك من كل شيء".**

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الكهف 018 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1 – 8..... 1

سورة الكهف 018 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 7 – 16..... 19

سورة الكهف 018 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 10 – 26..... 37

سورة الكهف 018 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 21 – 31..... 53

سورة الكهف 018 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 32 – 49..... 74

سورة الكهف 018 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 50 – 59..... 90

سورة الكهف 018 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 60 – 82..... 106

سورة الكهف 018 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 83 – 110..... 122

سورة مريم 019 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 01 - 15..... 140

سورة مريم 019 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 16 - 37..... 156

سورة مريم 019 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 38 - 59..... 173

سورة مريم 019 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 59 - 65..... 194

سورة مريم 019 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 66 -76 213

سورة مريم 019 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 77 - 98..... 229

سورة طه 020 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 - 8..... 246

سورة طه 020 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 9 - 41..... 263

سورة طه 020 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 25 - 50..... 283
سورة طه 020 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 43 - 70..... 300
سورة طه 020 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 65 - 79..... 319
سورة طه 020 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 80 - 100..... 335
سورة طه 020 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 99 - 114..... 353
سورة طه 020 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 115 - 128..... 371
سورة طه 020 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 129 - 135..... 388
سورة الأنبياء 021 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1 - 8..... 407
سورة الأنبياء 021 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 7 - 16..... 421
سورة الأنبياء 021 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 16 - 22..... 435
سورة الأنبياء 021 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 19 - 25..... 450
سورة الأنبياء 021 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 26- 44..... 463
سورة الأنبياء 021 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 42 - 70..... 481
سورة الأنبياء 021 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 74 - 94..... 502
سورة الأنبياء 021 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 92- 112..... 522
سورة الحج 022 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1 - 6..... 542
سورة الحج 022 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 6 - 15..... 560
سورة الحج 022 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 14 - 23..... 578

سورة الحج 022 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 25 - 38..... 596

سورة الحج 022 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 38 - 52..... 614

سورة الحج 022 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 52 - 63..... 632

سورة الحج 022 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 65 - 78..... 651

الفهرس..... 672

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

القرآن الكريم

تفسير من سورة المؤمنون حتى الشعراء

www.nabulsi.com
info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1 – 7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-08-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة المؤمنون.

تسمية سورة المؤمنون:

سورة المؤمنون على الحكاية، قد يقول أحدكم: لماذا لا نقول: سورة المؤمنين على أنها مضاف إليه ؟ المؤمنون اسمٌ علمٌ على هذه السورة، فتبقى مرفوعة بالواو، فسورة المؤمنون على الحكاية، إذاً مع الدرس الأول من سورة المؤمنون.

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

فضل سورة المؤمنون:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((أُنْزِلَ عَلَيّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقامَهُنّ دَخَلَ الْجَنّة، ثُمّ قرَأ:(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)حَتّى خَتَمَ عَشْرَ آيَاتٍ))

(الترمذي عن عمر)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11))

(سورة المؤمنون)

هذه هي الآيات العشر التي من أقامَهُن دخل الجنة.

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ

تحقُّق فلاح المؤمنين:

فقد: حرف تحقيق، إذا جاءت قبل الفعل الماضي، وتأتي قد حرف تقليل إذا جاءت قبل الفعل المضارع، تقول: قد نجح فلان لتحقيق الوقوع، وتقول: قد ينجح فلانٌ لاحتمال الوقوع، بين تحقق الوقوع، وبين احتمال الوقوع مسافةٌ كبيرة، فقد إذا جاءت قبل الفعل الماضي تُعْرَب حرف تحقيق، وإذا جاءت قبل الفعل المضارع تعرب حرف تقليل، فهنا:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

الفلاح تحقق، أما أي فلاحٍ آخر ينجزه الإنسان في الدنيا ربما لا يكون محققاً، لو اشترى بيتاً فخماً، وبالغ في تزيينه، قد تعاجله المنية قبل أن ينتهي، فهذا النجاح ليس محققاً، وقد ينال المرء شهادةً عالية، وقد تعاجله المنية قبل أن يستفيد منها، وقد يقبض الإنسان مبلغاً كبيراً، وقد تعاجله المنية قبل أن ينفقه، فأيُّ نجاحٍ على وجه الأرض ليس محققاً أكيداً، لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

ورود فعل أفْلَح في القرآن في ثلاث آياتٍ حصرا:

ولو تتبّعت فعل أفلح في القرآن الكريم لوجدت أن هناك ثلاث آيات فقط:

الأولى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

الثانية:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

(سورة الأعلى)

الثالثة:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

الفلاح هو تحقيق المراد:

وفلح الأرض أي شقّها، والفلاح هو النجاح، لو أن إنساناً خطط لمستقبله، أراد أن يكون طيباً فاجتهد في الشهادة الثانوية حتى حقق مجموعاً يتيح له أن يدخل كلية الطب، ودخل إلى كلية الطب، وتخرّج طبيباً، ثمّ تخصص، ونال أعلى شهادةٍ في العالم، وعاد إلى بلده، وافتتح عيادةً، وذاع صيته، وحقق دخلاً كبيراً، فاشترى بيتاً، وتزوج، واشترى مركبةً، وكان دخله فوق حاجته، نقول: هذا الطالب أفلح في دنياه، أي رسم خطة، وهذه الخطة تحققت، فالفلاح هو النجاح، والفلاح هو الفوز، والفلاح هو التفوّق، والفلاح هو تحقيق الهدف، والفلاح هو تحقيق المراد، الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

أي الذين حققوا الهدف من خلقهم هم المؤمنون، هناك من يتفوّق في الدنيا ؛ هناك أصحاب الأموال الطائلة، هناك أصحاب المراتب العليّة، هناك أصحاب الشهادات الرفيعة، هؤلاء حققوا أهدافهم في الدنيا، لكنّ الحياة الدنيا إذا قيست إلى الحياة الآخرة ليست بشيء، فالنجاح في الدنيا لا يعني النجاح الذي يرتضيه الله سبحانه وتعالى لعباده، لأن النجاح الذي أراده الله سبحانه وتعالى لعباده هو النجاح الأبدي:

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

النجاح الدنيوي لا قيمة له:

وما الحياة الدنيا إلا كمخيطٍ غُمس في مياه البحر، فلينظر أحدنا بما يرجع، إذا كانت الآخرة بحراً محيطاً كبيراً، الحياة الدنيا نقطة ماءٍ يحملها مخيطٌ دقيق، فالفلاح في الدنيا لا يُعَدُّ عند الله فلاحاً، قد يعد عند الناس فلاحاً، هذا له مال طائل، وذاك له مرتبةٌ عالية، وآخر له دخلٌ كبير، ومنهم من له أولادٌ نجباء، وهذا له زوجةٌ تروق له، أو قوةٌ في الأرض يخافها معظم الناس، هذه نجاحات الدنيا، ولكن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، إذاً النجاح الدنيوي لا قيمة له، يقول الإمام علي كرّمَ الله وجهه: "الغنى والفقر بعد العرض على الله ".

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

لكن الفلاح الذي أراده الله سبحانه وتعالى، وينتظره من عباده هو الفلاح الذي يمتدُّ أثره إلى الدار الآخرة، لا الذي ينتهي في الدنيا: " إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ". فهل يسمَّى الذكي في الدنيا فالحاً عند الله ؟ لا.. قد يكون فالحاً عند الناس، هل يسمى القوي في الدنيا فالحاً عند الله ؟ لا.. قد يكون فالحاً عند الناس، هل يسمى الوسيم في الدنيا فالحاً عند الله ؟ قد يكون فالحاً عند الناس، ولكنّ الفلاح كلّ الفلاح، والنجاح كُلّ النجاح، والفوز كل الفوز أن تنال فلاحاً يمتدُّ إلى الدار الآخرة، أن يكون النجاح متصلاً إلى الحياة الأبدية، فهذا الذي ينقطع في الدنيا لا قيمة له، قال عليه الصلاة والسلام:

((الدنيا دار بلاءٍ وانقطاع))

(ورد في الأثر)

والعبرة التي يغفل عنها معظم الناس، أنّ كل شيءٍ يجمعه الإنسان في الدنيا بدأ من أموال، إلى بيوت، إلى متنزهات، إلى مركبات، إلى مكانة، إلى جاه، إلى قوة، هذا كلّه يغادره الإنسان وهو خِلْوٌ من كل شيء، يقول سيدنا عمر رضي الله عنه:

((كفى بالموت واعظاً))

(الجامع الصغير عن عمار بسند ضعيف)

مقياس الله في الفلاح:

فالمشكلة الكُبرى أن يتطابق مقياس الفلاح عندك مع مقياس الفلاح عند الله عزّ وجل، إذا كان لك مقياس للفلاح، ولله سبحانه وتعالى مقياس آخر فهذه هي الخسارة، لا بدّ من تطابق مقياس الفلاح الذي تعتقده مع مقياس الفلاح الذي أراده الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى جعل الإيمان هو الفلاحُ الذي يريده لعباده، فربنا عزّ وجل مثلاً يقول:

1 - العدل وعدم الظلم:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

إذا ظلم إنسانٌ زوجته، ظلم جيرانه، أكل حقوق الآخرين، اعتدى عليهم، اعتدى على أعراضهم، استطاع أن يستغلّهم، أن يحتال عليهم، هذا لا يسمّى ذكيًا، وما فعله لا يسمى ذكاءً ولا تفوقاً، إنه غباءٌ بعينه، ربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

إذا بعت شيئاً أخفيت عيبه هل أنت ذكيّ ؟ لا.. أنت ظالم، ظلمت المشتري بإخفاء العيب، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

ويقول:

2 – الإيمان وعدم الكفر:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

هذا الذي أدار ظهره للدين، وجحد نعمة الله عزّ وجل، ولم يلتفت إلى الله عزّ وجل، والتفت إلى الدنيا فحقق نجاحاً كبيراً، هذا عند الله ليس بفالح.

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

3 – التقوى:

من الآيات الأخرى التي تشير إلى نوع الفلاح قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة)

أي استنيروا بنور الله عزّ وجل، اقتبسوا من الله نوراً يريكم الخير خيراً والشر شراً، والحق حقاً والباطل باطلاً لعلكم تفلحون.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة: 35)

4 – العبادة وفعلُ الخير:

(وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة الحج:آية " 77 ")

5 – ذِكْرُ آلاء الله:

(فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة الأعراف)

إذا ذكرت آلاء الله، آيات اللهِ الدالة على عظمته ؛ من شمسٍ وقمرٍ، ونجومٍ، وليلٍ ونهارٍ، وسحابٍ ومطرٍ، وبحرٍ وجوٍ، وسمكٍ وطيرٍ، وطعامٍ وشرابٍ، هذه آلاء الله عزّ وجل، وما أكثرها من آيات وآلاء بينات.

(فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة الأعراف)

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة)

ومن ذكر الآلاء والوقوف عندها تقوى الله.

فأن تتقي الله، وأن تجاهد نفسك وهواك، وأن تبتغي إليه الوسيلة، ومن الوسيلة طلب العلم، وحضور مجلس علم تستمع إلى تفسير كتاب الله عزّ وجل، وتنظر في ملكوت السماوات والأرض، وتجاهد نفسك وهواك، وتلازم أهل الحق، وتنفق من مالك في سبيل الله هذه كلها وسيلة.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة)

وجاء الفلاح في آية أخرى تحدثنا عن فئة ارتقت، وسمت حتى صار بينها وبين الله صلة لا حدود لها، إنها حزب الله،

6 – التزام جماعة المؤمنين الصادقين:

(أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة المجادلة)

هل أنت من حزب الله ؟ هل أنت من المؤمنين الصادقين، الطائعين، المخلصين، القانتين، الصائمين، الصادقين ؟

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

فلذلك الظلم ليس فلاحاً، والكفر ليس فلاحاً:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

أما تقوى الله فهي الفلاح، وابتغاء الوسيلة هي الفلاح، ومجاهدة النفس والهوى هي الفلاح، وذكر آلاء الله هي الفلاح، هذه طرق الفلاح، والفلاح كل الفلاح أن تكون مؤمناً:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

قَدْ أَفْلَحَ:

عودة إلى حرف عمله عظيم، وشأنه كبير، يعطينا معنى التحقيق، أيُّ نجاحٍ تحققه في الدنيا ربما لا يكون محققاً في النهاية، قد تبيع، وتشتري، وفي لحظة تخسر منك كل الربح، فلذلك يقول المختصُّون: " هذا ربحٌ ليس محققاً "، لم يتحقق الربح بعد، حتى يكون الرصيد فيه زيادةٌ عن رأس المال، في حالة الديون والبضاعة التالفة، والزبائن الذين لا يدفعون. فهذا ربح غير محقق، لذلك ربنا عزّ وجل وصف الفلاح الذي يحققه المؤمنون بأنه فلاحٌ محققٌ:

بعض الرزق من الفلاح:

والشيء بالشيء يذكر، فحرف التحقيق والفلاح ذكراني بحديث شريف، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

1 - العقل واللبّ:

((قد أفلح من رُزِقَ لُباً))

(الجامع الصغير عن قرة بن هبيرة بسند ضعيف)

هذا الذي رزق عقلاً يعينه على معرفة الحق من الباطل، والخير من الشر، وطريق الصلاح من طريق الشقاء، هذا الذي رزق لباً قد أفلح، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((قد أفلح من رُزِقَ لُباً))

(الجامع الصغير عن قرة بن هبيرة بسند ضعيف)

لأن الله سبحانه وتعالى أعطى المُلك لمن لا يحبُّه، وأعطى المال لمن لا يحبه، وأما الذين يحبهم فأعطاهم العلم والحكمة.. "وما استذل الله عبداً إلا حظّر عليه العلم والأدب ".

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام يقول:

((قد أفلح من رُزِقَ لُباً))

(الجامع الصغير عن قرة بن هبيرة بسند ضعيف)

إذا رزقت عقلاً راجحاً وحكمةً عاليةً فقد حققت كل النجاح، لأن هذا العقل يهديك من خيرٍ إلى خير، ومن مرتبةٍ إلى مرتبة، ومن حالٍ إلى حال، والنبي عليه الصلاة السلام حينما أسلم سيدنا خالد عليه رضوان الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((عجبت لك يا خالد))

أي لماذا تأخرت ؟

((عجبت لك يا خالد، أرى لك فكراً))

(ورد في الأثر)

إذاً العقل شرطٌ أساسي لمعرفة الله عزّ وجل، لهذا يقول عليه الصلاة والسلام:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

(ورد في الأثر)

((من لا دين له لا عقل له، ومن لا عقل له لا دين له))

(ورد في الأثر)

والنبي عليه الصلاة والسلام رأى في الطريق مجنوناً فقال لأصحابه: " من هذا ؟ قالوا: هو مجنون، قال:

((لا هذا مبتلى، المجنون من يعصي الله))

(ورد في الأثر)

الذي يعصي الله هو المجنون لأن الآخرة لم يرها، وكان في غفلةٍ عنها، ويقول عليه الصلاة والسلام في موضوع الفلاح:

2 - الإسلام:

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ))

(صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

3 – الكفاف:

ألا تحب أن تكون من المفلحين ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله إذا أحب عبدا جعل رزقه كفافاً))

(الجامع الصغير عن علي بسند ضعيف)

إذا امتن الله عزّ وجل على أحدنا بالصحة، وبراحة بالٍ، وبأهلٍ صالحين، ورزقٍ كفافٍ يكفيه فقط دون أن يزيد عليه، فقد أحبَّه الله سبحانه وتعالى، وقد أحبَّه النبي عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله إذا أحب عبدا جعل رزقه كفافاً))

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً))

((من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

و:

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ))

4 - الرضا والقناعة:

رضي بهذه الزوجة، وبهذا البيت، وبهذا العمل، وبهذا الدخل، وبهؤلاء الأولاد، وبهذه السُكنى، وبهذه الصحة، وبهذا القِوام، وبهذا الشكل رضي به، هذا الذي رضي بما قسمه الله له عاش حياةً سعيدة.

5 - رؤية الحق وإصابته:

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا، وَلِسَانَهُ صَادِقًا، وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً، وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً، وَجَعَلَ أُذُنَهُ مُسْتَمِعَةً، وَعَيْنَهُ نَاظِرَةً، فَأَمَّا الأُذُنُ فَقَمِعٌ، وَالْعَيْنُ بِمُقِرَّةٍ لِمَا يُوعَى الْقَلْبُ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ قَلْبَهُ وَاعِيًا))

(مسند أحمد عن أبي ذر)

هذا هو الفلاح، هذا الذي له عينٌ ترى الحق، ترى آيات الله وتعتبر..

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

فهذا الذي جعل عينه ناظرةً للحق، وجعل أذنه مستمعةً للحق، وجعل خليقته مستقيمةً لا زيغ فيها، ولا انحراف، ولا اعوجاج، ولا ختل، ولا مخادعة، ولا ازدواجية، ولا نفاق، ولا تذبذب، وجعل نفسه مطمئنةً بطاعة الله عزّ وجل:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28))

(سورة الفجر)

إن الله سبحانه وتعالى يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، هذا القلب وعاء أفرغه من كل شيء سوى الله عزّ وجل، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

(سورة الأحزاب: آية " 4 ")

6 - السلامة من الأمراض القلبية:

إما أن يمتلئ هذا القلب حباً لله، أو أن يمتلئ حباً للدنيا، لذلك قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً من كل مرض ؛ من الكبر، من العجب، من الاستعلاء، من الغيبة، من النميمة، من حب الذات، هذه كلها أمراض مهلكة.

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا، وَلِسَانَهُ صَادِقًا، وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً، وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً، وَجَعَلَ أُذُنَهُ مُسْتَمِعَةً، وَعَيْنَهُ نَاظِرَةً، فَأَمَّا الأُذُنُ فَقَمِعٌ، وَالْعَيْنُ بِمُقِرَّةٍ لِمَا يُوعَى الْقَلْبُ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ قَلْبَهُ وَاعِيًا))

وفيما ترويه بعض الأحاديث القدسية أن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الجنة قال لها:

((تكلمي فتكلمت فقالت: قد أفلح المؤمنون))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

وفي حديثٍ آخر قالت:

((قد سعِد من دخلني))

(ورد في الأثر)

فهذه الآيات العشر التي بين أيدينا، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق يقول:

((أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ ثُمَّ قَرَأَ:(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)حَتَّى خَتَمَ عَشْرَ آيَاتٍ))

لدينا قاعدة في المنطق، أن الصفة قيدٌ، أي لو قلت: إنسان، هذه الكلمة تشمل خمسة آلاف مليون إنسان، أليس كذلك ؟ إذا وصفت هذا الإنسان بأنه إنسان عربي، هذه الدائرة التي كانت تتسع لخمسة آلاف مليون ضاقت حتى أصبحت تشمل مئة مليون، أليس كذلك ؟ فإذا قلت: إنسان عربي مسلم ضاقت إلى تسعين مليونًا، فإذا قلت: إنسان عربي مسلم مثقف، ضاقت إلى عشرين مليونًا، فإذا قلت: إنسان عربي مسلم مثقف طبيب، خمسمئة ألف، إنسان عربي مسلم مثقف طبيب.. طبيب قلب.. يمكن ألف، جراح قلب يمكن واحد، كلّما أضفت صفةً ضاقت الدائرة فالصفة قيد، إذا قال أحدهم: أنا مؤمن، والحمد لله أنا فالح، يقول: انتظر.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

صفات المفلحين:

1 - الإيمان:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

فرضاً خمسة آلاف مليون..

2 - الخشوع في الصلاة:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

ضاقت الدائرة.

3 - الإعراض عن اللهو:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

ضاقت..

4 - أداء الزكاة وحفظ الفرج وأداء الأمانة الحفاظ على الصلاة:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9))

(سورة المؤمنون)

كلما أضيفت صفةٌ ضاقت الدائرة، فلذلك الفلاح الذي عناه الله سبحانه وتعالى ليس لمن يَدَّعي الإيمان، وليس لمن يتوهَّم أنه مؤمن، ولكن لمن انطبقت عليه كل هذه الشروط، إذاً:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

الفلاح دنيوي وأخروي:

قال بعضهم: الفلاح في الدنيا البقاء، أن يكون عمره مديداً، والغنى، والعِز، وقال بعضهم: أما الفلاح في الآخرة فهو بقاءٌ بلا فناء، وغنىً بلا فقر، وعزٌ بلا ذل، وعلمٌ بلا جهل، وهذا ينطبق على أهل الآخرة، لذلك كان عليه الصلاة والسلام كلّما وقعت عينه على بيتٍ جميل أو على شيءٍ من حُطام الدنيا، أو على بستانٍ جميل، أو على شيءٍ يروق للناس كان يدعو، ويقول:

((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة))

(متفق عليه عن أنس)

لأن هذا موَقّت، هذا لا بدّ من أن يذهب، سيدنا عمر رضي الله عنه أمسك تفّاحةً شهية، فقال: << أكلتها ذهبت أطعمتها بقيت >>.

فكل شيء تستهلكه يذهب، أما إذا أنفقته يبقى، والسعداء الذين قدّموا أموالهم أمامهم إلى الآخرة، فإذا وافتهم المنيّة رأوا لهم مقاماً عند الله رفيعاً، شيءٌ آخر:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

مَن هم المؤمنون ؟

من هم المؤمنون ؟ ما هو الإيمان ؟ قال:

وكلٌ يَدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تُقِرُ لهم بذاكا

***

قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

لو سألت ألف مليون مسلم الآن: هل أنت مؤمن ؟ يقول لك: نعم، والحمد لله أنا مؤمن، وقد يكون غارقاً في المعاصي، فهل ادعاء الإنسان أنه مؤمن يجعله مؤمناً ؟ إذا قلت: إنّك تحمل دكتوراه، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، فهذا الكلام هل يجعلك تحمل هذه الشهادة ؟ هذا ادعاء، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

كلنا يتمنى أن يكون مؤمناً، ولكن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي، لك أن تلبس ثوباً أبيض، وتضع مصحفاً في جيبك، وسواكاً في الجيب الثاني، أن تضع على دكانك التجاري آية قرآنية..

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)

(سورة الفتح)

أو الحاج فلان، هذا تحلٍّ، أن تضع على مركبتك مصحفاً تحت المرآة، فهل معنى ذلك أنت مؤمن ؟ لا..

((ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

إذا كان الإنسان لا يقرأ ولا يكتب، وارتدى ثوباً أبيضَ، ووضع نظّارات، ووضع سماعة بأذنه، وأحضر دفتراً أبيض ليكتب، فهل أصبح طبيباً ؟ وآخر معه بورد، وبالمظهر نفسه، شتّان بين هذا وذاك، فالنبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

((ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وأقرّ به اللسان وصدّقه العمل))

نريد عملاً يؤكِّد إيمانك، نريد قلباً مفعماً بالإيمان، ولساناً يلْهَجُ بذكر الله عزّ وجل، ومصداقاً في العمل..

" ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حجةً بعد الإسلام ".

نريد مصداقاً في العمل، المؤمن صادق، المؤمن لا يكذب، المؤمن لا يخون، المؤمن لا يزني. الله عزّ وجل قال:

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان: من الآية " 68")

ومن الزنى زنى النظر، ومن الزنى زنى السمع، وزنى اليد، فالإيمان ما وقر في القلب، وأقر به اللسان، وصدّقه العمل.

من تعريفاتٍ النبي عليه الصلاة والسلام للإيمان:

والنبي عليه الصلاة والسلام أعطى تعريفاتٍ عدةً للإيمان:

الإيمَانُ:

((أنْ تُؤْمِنَ باللّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))

إذا كان الإنسانُ أمام شخصين هل يفعل عملاً قبيحاً، أم يستحي؟ فإذا آمنت بالملائكة ؛ ملك اليمين وملك الشمال استحييت منهما، وأنت إذا صلّيت تقول: السلام عليكم ورحمة الله، تسلم عليهما ؟ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، إذا كنت مؤمناً بالكتاب فلماذا آثرت الغني كزوج لابنتك عن الشاب الفقير الذي هو أكثر إيماناً ؟ إذاً أنت لا تؤمن بالكتاب،

ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 221 ")

فإذا قرأت القرآن وقلت: صدق الله العظيم، ولم تؤثر المؤمن في تزويج ابنتك فأنت لست مصدقاً بهذا الكتاب، فأن تؤمن بالله أنه معك سميعٌ بصيرٌ، مجيبٌ قويٌ، غنيٌ، عادلٌ، أن تؤمن بأسمائه الحسنى، وصفاته الفُضْلى، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، والإيمان معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان، والإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أعلاها قول: لا إله إلا الله.. و ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

لا إله إلا الله نهاية العلم.

قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

وأدناها،

الإيمَانُ:

((إماطة الأذى عن الطريق))

(البخاري)

فالذي يزيح عن طريق المسلمين الأذى، حتى ولو كانت شوكة، أو قطعة زجاج، هذا نوع من الإيمان، هو يرجو مرضاة الله عزّ وجل بهذا الأذى الذي أماطه عن طريق المسلمين..

الإيمَانُ:

((بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَانِ))

(صحيح البخاري: عن أبي هريرة)

((إذا لم تستح فاصنع ما شئت))

(صحيح البخاري: عن أبي هريرة)

ويقول عليه الصلاة والسلام:

الإيمَانُ:

((قَيَّدَ الْفَتْكَ، ولا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

(سنن أبي داود: عن أبي هريرة)

من كان فيه ذرّة إيمان لا يفتك بأخيه الإنسان ظلماً وعدواناً وتشفياً ؟ ولا يفتك بحيوان ولا بنملة ؟ لا والله.

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة النمل)

((فالإيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكِ ولا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

المؤمن لا يتجنى على إنسان، ولا يفتري على إنسان، ولا يسبب أذى لأحد، ولا يعتدي على ماله ولا على سمعته عن قصد وتصميم وهو مؤمن كذبٌ والله.

((الإيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكِ، ولا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

والإيمان

كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عفيفٌ عن المحارم، عفيفٌ عن المطامع))

(ورد في الأثر)

فالذي يطمع فيما ليس له فإنه ليس مؤمناً، والذي لا يعُفُّ عن أعراض الناس ولا عن أموالهم ليس مؤمناً.

والإيمان:

كما قال عليه الصلاة والسلام:

((نصفان نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ))

فالواحد منا لا يظن نفسه مؤمناً، هذه تعاريف الإيمان كما عرّفها النبي العدنان:

((الإيمان نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ))

((الإيمان عفيفٌ عن المحارم، عفيفٌ عن المطامع))

(ورد في الأثر)

والإيمان:

((الإيمان الصبر والسماحة))

((الإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ، لا يَفْتِكِ مُؤْمِنٌ))

وفي الحديث:

((الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ))

(صحيح مسلم عن أبي هريرة)

والإيمان:

((الإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ))

(سنن أبي ماجة عن علي بن أبي طالب)

((الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ...))

(مسند أحمد)

((وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وأقره اللسان، وصدقه العمل))

فإذا قال ربنا عزّ وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

أي هؤلاء الذين تنطبق عليهم تعاريف النبي عليه الصلاة والسلام:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

منزلة الصلاة في الكتاب والسنة:

1 - الصلاة نور:

الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((... وَالصَّلاةُ نُورٌ...))

(سنن النسائي عن أبي مالك الأشعري)

إذا اتصلت بالله اتصالاً صحيحاً قذف الله في قلبك النور، فرأيت به الخير خيراً والشرَ شراً، رأيت به الحق حقاً والباطل باطلاً.. لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)))

(سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري)

2 - الصلاة ذِكْرٌ:

والصلاة كما قال الله عزّ وجل: ذكرٌ لله..

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

فإذا وقفت بين يديه، وقد نسيت أن تذكره جاءتك الخواطر من كل حدبٍ وصوب، وطاحت بك الخطرات، فأين هو الذكر ؟

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

3- الصلاة قُربٌ:

الصلاة قرب من الله عزّ وجل:

((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ))

(صحيح مسلم ن أبي هريرة)

4- الصلاة طهورٌ:

والصلاة طهور، وكما قال تعالى:

(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر)

5- الصلاة خشوعٌ:

والصلاة خشوع:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

(سورة المؤمنون)

6- الصلاة وعيٌ:

والصلاة وعيٌ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: آية " 43 ")

فهذا الذي لا يعلم ما يقال في الصلاة كأنه سكران، في حكم السكران تماماً، ما دام الله سبحانه وتعالى قال - وهذه الآية طبعاً منسوخة-:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

لماذا ؟

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

7- الصلاة مناجاة:

فهذا الذي لا يعلم ما يقول هو في حكم السكران تماماً، والصلاة مناجاةٌ، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لو يعلم المصلي من يناجي ما التفت))

(ورد في الأثر)

أي ما التفت عن صلاته، والصلاة عقلٌ.

8- الصلاة عقلٌ:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

(ورد في الأثر)

الذي عقلته من صلاتك هي الصلاة، وما سواها لا قيمة لها.

9- الصلاة عُروجٌ:

والصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام عروجٌ:

((الصلاة معراج المؤمن))

(ورد في الأثر)

فالصلاة لها تسعة تعريفات..

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

والصلاة نورٌ، والصلاة طهورٌ، والصلاة وعيٌ:

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: آية " 43 ")

والصلاة خشوعٌ، والصلاة قربٌ:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

والصلاة مناجاةٌ، والصلاة عقلٌ، والصلاة عروجٌ، إذاً:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

أهمية الخشوع في الصلاة:

لابد من الخشوع في الصلاة، تصور أنك تقابل إنساناً يقع في قمة المجتمع، المجتمع مثل الهرم تماماً، آخر حجر في الهرم، أو أعلى حجر هو قمة هذا الهرم، لو أنك تقابل إنساناً يقع في قمة هذا الهرم الاجتماعي، كيف تقابله ؟ هل تعبث أمامه بسبحةٍ ؟ هل تقرأ أمامه صحيفةً يومية ؟ هل تتمطى أمامه ؟ هل تتثاءب ؟ لا والله، هل تفكر في غير موضوع المقابلة؟ راقب نفسك لو قابلت موظفاً مهماً، وأنت في حضرته هل تفكر في موضوع آخر غير موضوع المقابلة ؟ إذا كنت بحضرة إنسانٍ ذي شأنٍ تقف هذا الموقف الخاشع، فكيف إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجل ؟ الخشوع السكينة والوقار من لوازم الوقوف بين يدي العزيز الجبار..

النبي عليه الصلاة والسلام رأى أعرابياً يعبث بلحيته في الصلاة فقال عليه الصلاة والسلام:

((لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه))

(ورد في الأثر)

فالعلماء قالوا: " الخشوع محله القلب، ومظهره في الجوارح ".

فلو خشع قلب الإنسان لخشعت جوارحه، فهذا الذي ينظر في أثناء الصلاة إلى الأعلى، أو إلى لوحات جميلة، وثريات فخمة، وستائر مزركشة زين بها جدران المسجد وسقفه، ما هذه الصلاة ؟

((لو خشع قلبه لخشعت جوارحه))

فربنا عزّ وجل لم يطلق الفلاح في الصلاة بل قال:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

حكم الخشوع في الصلاة:

أي أن الخشوع ليس من فضائل الصلاة، لا.. بل من فرائض الصلاة، ليس من فضائلها، بل من فرائضها، فلو اختل الخشوع اختلّت الصلاة، يوجد أشخاص يعدون دراهمهم في أثناء الصلاة، ولكن ليس في بلادنا، بل في بلاد أخرى، أو ينظر إلى الساعة، يغيّر من وضع هندامه في أثناء الصلاة، هذا كلّه يتنافى مع الخشوع.

عدّ أبو حنيفة رضي الله عنه أن أكثر من ثلاث حركات تفسد الصلاة، لأن هذه الحركات تتناقض مع الخشوع:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: اجتناب اللغو:

ما هو اللغو ؟

اللغو في أجمل تعاريفه: كل ما سوى الله لغو، فأنت أمام عمل ينتهي أثره بالموت فهو لغو، أو يمتد أثره بعد الموت فهو حق، فكن مع الحق دائماً ؛ في حديثك، في مزاحك، في حركتك، في غضبك، في رضاك، في لهوك، في عملك، في تفكيرك، في نشاطك، كن مع الحق دائماً، كن مع عملٍ إذا فعلته امتد أثره إلى الآخرة، أما هذا الذي يفعل عملاً ينقطع عند الدنيا هذا لهو، كل ما سوى الله باطل:

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكل نـعيمٍ لا مـحالة زائلُ

***

قائل هذا البيت شاعر مخضرم اسمه لبيد، فقال عليه الصلاة والسلام: أصدق بيتٍ قاله لبيد:

((ألا كل شي ما خلا الله باطلُ))

(البخاري عن أبي هريرة)

فقط ولم يكمل اللهم صل عليه، لأن الشطر الثاني غير صحيح، وكل نعيمٍ لا محالة زائلُ، نعيم أهل الجنة لا يزول، هذا كلام شعر فيه حق، وفيه باطل، ولكن أول شطر صحيح: ألا كل شي ما خلا الله باطلُ

تحذير النبي عليه الصلاة والسلام من اللغو:

في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((طوبى من شغله عيبه عن عيوب الناس))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

(الترمذي، ابن ماجه عن أبي هريرة)

((إن الله كره لكم قيل وقال وإضاعة المال))

(متفق عليه عن المغيرة بن شعبة)

فهذا لغو لأنه موضوع سخيف:

((إن الله يحب معالي الأمور وأشرافَها، ويكره سفسافها))

(الجامع الصغير عن الحسين بن علي)

هذا لغو، هناك لغو بالأقوال، ولغو بالأعمال، ولغو بالنشاطات، والمؤمن يستهلك وقته، وجهده، وذكاءه، وعمله، وعضلاته في سبيل مرضاة الله عزّ وجل، لذلك:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: إنفاق المال:

ينفقون من أموالهم، من أجل تطهيرها ليتوصلوا إلى تطهير نفوسهم بهذا الإنفاق، أي أن هناك طهارتان: طهارة المال، وطهارة النفس، والمال الذي يزكّى عنه هو مالٌ طاهر يحفظه الله سبحانه وتعالى:

((وما تلف مالٌ في برٍ أو بحرٍ إلا بحبس الزكاة))

(الجامع الصغير عن عمر)

((من أدى زكاة ماله ذهب عنه شرُّه))

(الترغيب والترهيب عن جابر بسند حسن)

أي شر المال.

والمال قد يطغي، والعلماء يقولون: " أي مالٌ دفعت زكاته فليس بكنز مهما كان كبيراً، وأي مبلغ مهما كان قليلاً إذا امتنع صاحبه عن دفع زكاته فهو كنز، ولا يحق لك أن تصف إنساناً يؤدّي زكاة ماله بالشّح "، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((برئ من الشُح من أدّى زكاة ماله))

(الجامع الصغير عن خالد بن زيد بن حارثة)

انتهى الأمر، فهؤلاء المؤمنون فضلاً عن أنهم قد أفلحوا لأنهم مؤمنون.

دفعوا من أموالهم زكاة تقربوا بها إلى ربهم فأقبلوا عليه فزكت نفوسهم، سميت الزكاةُ زكاةً لأنها تزكو بالنفس، فالمؤمن نفسه طاهرة وبريئة، صافية، وعنده تواضع، وعنده إخلاص، وعنده صدق وأمانة، صفات سامية عددها جعفر رضي الله عنه عندما وقف بين يدي النجاشي مدافعاً عن دينه:

((كنا قوم أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه))

(أحمد في المسند عن أم سلمة)

إذاً هذه الصفات العالية تأتي من الاتصال بالله عزّ وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

(سورة المؤمنون)

ينفقون من أموالهم ليطهروا أنفسهم بالإقبال على الله عزّ وجل، والحقيقة الإنسان كله كلام بكلام حتى ينفق من ماله، فإذا أنفق من ماله الذي اكتسبه بعرق جبينه عندئذٍ يرقى عند الله عزّ وجل، لأن الإنفاق يؤكِّد الإيمان، سميت الصدقةُ صدقةً لأنها مصداق صاحبها، لأنها دليل صدق صاحبها في طلب مرضاة الله عزّ وجل: أي " من شاء صام ومن شاء صلّى"، هكذا قال سيدنا عمر، الصلاة سهلة لا تكلف شيئاً.. من شاء صام، فإنه وفّر طعاماً، ومن شاء صلى لكنها الاستقامة، وربنا عزّ وجل عندما قال:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران)

من هم المتقون ؟

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)

(سورة آل عمران: آية " 134 ")

لماذا بدأ الله سبحانه وتعالى حينما وصف المتقين بأنهم ينفقون في السرّاء والضرّاء ؟ لأن الإنفاق وحده هو الذي يؤكِّدُ صدق إيمانهم:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: حفظ الفروج:

سبحان الله ! ال بعض العلماء ولا سيما في تفسير القرطبي: " إن الله سبحانه وتعالى ربط فلاح الإنسان بحفظه لفرجه ".

هذه قضية أساسية:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

وربنا عزّ وجل في آية أخرى بيّن لنا طريق حفظ الفرج، فقال الله عزّ وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

قد يمتنع الإنسان أحياناً عن السرقة لأسباب يعلمها الله سبحانه وتعالى، قد يقول: هناك قوانين شديدة جداً تعاقب السارق، أحياناً قد تتفق أحكام الدين مع أحكام القانون، فهذا الذي لا يسرق لا تدري لمَ لمْ يسرق ؟ أخوفاً من الله عزّ وجل ؟ أم خوفاً من عقابٍ شديد ؟ الله أعلم، لكن الذي يغضُّ بصره عن محارم الله هذا بدافع خوف الله قطعاً لأن القوانين الأرضية لا تُحَظِّر إطلاق البصر، لذلك:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون: آية " 5 ")

وطريق حفظ الفرج غض البصر.. " ومعظم النار من مستصغر الشرر".

وجوب الابتعاد عن أسباب الزنا ومقدماته: وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى

الأخطار الكُبرى أولها شرارة، فلذلك غض البصر طريق حفظ الفرج:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

يقول السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

((ليس الشريف الذي يهرب من الخطيئة، ولكن الشريف هو الذي يهرب من أسبابها))

من أسبابها، فالزنى له طريق، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

فمعنى هذا أن الزنى يجب أن تُبقي بينك وبين الزنى هامش أمان كبيرًا، إطلاق البصر كأنك دخلت في هذا الهامش الخطر، صحبة الأراذل دخلت في هذا الهامش الخطر، الحديث عن النساء دخلت في هذا الهامش الخطر، مصاحبة أهل الدنيا ممن لا يتورعون عن الزنى دخلت في هذا الهامش الخطر، قراءة قصةٍ ماجنة دخلت في هذا الهامش الخطر، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

لم يقل: ولا تزنوا، بل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

والله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

أول جزاءٍ كريمٍ من الله عزّ وجل لمن يغضُّ بصره زواجٌ موفق، وأول عقابٍ أليمٍ لمن يطلق بصره، زواجٌ شقي، وليس في الزواج حلٌ وسط، إما أن تكون في جنة، وإما أن تكون في النار:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون)

أدب القرآن في الكنايات: فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ

بعضهم يقول: لا حياء في الدين، والله الذي لا إله إلا هو إنّ الدين كلّه حياء، والله سبحانه وتعالى يعلمنا الحياء، هل هناك من قولٍ ألطف وأجمل من هذه الكناية ؟

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

دخل في هذه الآية مئات الانحرافات الأخلاقية:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

(سورة المؤمنون)

الزواج هو الطريق النظيفة لشهوة الجنس:

أي إلا على أزواجهم، الآن لا يوجد:

(وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ)

ولا أحد يفكر فيها إطلاقاً:

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

ليس مُلاماً لا من الحق، ولا من الخلق، من الأعراس نسمع أصوات السيَّارات تصم الآذان، الجماعة غير مستحيين، لأن هذا وَفق الشرع، أما إذا كان هناك شيء خلاف الشرع تجدها من غير صوت.

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(11))

(سورة المؤمنون)

وسوف نتابع تفسير هذه الآيات إن شاء الله تعالى في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 1 – 11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-08-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من سورة المؤمنون.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11))

(سورة المؤمنون)

إعادة وتذكير:

في الدرس الماضي أيها الإخوة تحدثنا كيف أن الفلاح في أن تكون مؤمناً، وكيف أن هذا الفلاح محقق، بينما كل فلاحٍ في الدنيا، بل كل نجاحٍ فيها قد يكون محققاً في الدنيا أو لا يكون، والذي يؤكِّد هذا التحقق كلمة قد في مطلع هذه السورة:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

وبينت لكم في الدرس الماضي كيف أن هناك موانع للفلاح، فالظلم مناقضٌ للفلاح، لقوله تعالى:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

إذا رأيت إنساناً استطاع أن يأخذ ما ليس له بذكاءٍ، أو بحيلةٍ، أو بقوةٍ، أو بطريقةٍ من الطرق، وهو يظن نفسه بهذا ناجحاً، أو ذكياً، أو فالحاً، فالله سبحانه وتعالى يردُّ عليه:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

بينت لكم في الدرس الماضي موانع الفلاح، وبينت لكم فيه أيضاً عوامل الفلاح:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة)

(فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة الأعراف)

(وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة)

ثم بينت لكم كيف أن الفلاح هو ما قاله الله عزّ وجل في هذه الآية، وفي آيتين أخريين:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

(سورة الأعلى)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

وحينما تنطبق مقاييس الفلاح عند الإنسان مع مقاييس الفلاح عند الله ينجح الإنسان في تحقيق مهمته، فكل إنسان له مقاييس للفلاح ؛ أهل المال يظنون الفلاح بجمع المال، وأهل القوة يظنون الفلاح بتسلّم مراكز القوة، وأهل العلم الظاهري يظنون الفلاح بنيل أعلى الدرجات العلمية في الدنيا، فإذا انطبقت مقاييس الفلاح عندك مع مقاييس الفلاح في كتاب الله فأنت مؤمنٌ مهتدٍ ورب الكعبة، أما إذا اختلفت المقاييس فهذا هو الضلال بعينه.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((قد أفلح من رزق لباً))

(الجامع الصغير عن قرة بن هبيرة بسند ضعيف)

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ))

(مسند أحمد عن أبي ذر)

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ))

(من مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

هذه بعض الأحاديث النبوية التي تتحدث عن الفلاح، وهؤلاء المؤمنون، فقد بينت لكم في الدرس الماضي كيف أن الصفة قيد، وكيف أن الفلاح لا ينطبق على المؤمنين فقط، ينطبق على المؤمنين وهذه صفاتهم صفةً صفة، فكلما أضفت صفةً ضاقت الدائرة، وقد ضربت لكم المثل، أنك إذا قلت: إنسان هذه الكلمة تشمل خمسة آلاف مليون، إذا قلت: إنسان مسلم تضيق الدائرة حتى تشمل ألف مليون، فإذا قلت إنسان مسلم عربي ضاقت الدائرة حتى شملت مئة مليون، فإذا قلت: إنسان عربي مسلم مثقف ضاقت الدائرة حتى شملت المليون مثلاً، فإذا قلت: إنسان مسلم عربي مثقف طبيب قد تشمل الدائرة مئتي ألف،

فإذا قلت: طبيب قلب.. كلما أضفت صفةً ضاقت الدائرة.. فمن أجل أن تحقق الفلاح يجب أن تكون مؤمناً، وأن تنطبق عليك كل هذه الصفات التي وردت في هذه السورة:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

من هم المؤمنون ؟

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

منزلة الصلاة وأهميتها في الإسلام:

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا خير في دينٍ لا صلاة فيه))

لأن أساس السمو الاتصال بالله عزّ وجل، فأي دينٍ لا اتصال فيه إلى الله عزّ وجل فهذا الدين لا خير فيه، والذي يعتنق ديناً، ولا يصلي كأنه لم يعتنق ديناً، لذلك رأيُ علماء الفقه في تارك الصلاة أنه إذا تركها إنكاراً لحقها فقد كفر، ومن تركها تهاوناً فقد فسق..

((لا خير في دينٍ لا صلاة فيه))

(الجامع الصغير بلفظ: لا خير في دين ليس فيه ركوع، وإسناده ضعيف)

1 – الصلاة عماد الدين:

و:

((الصلاة عماد الدين))

(الجامع الصغير عن عمر، وإسناده ضعيف)

والعماد يشبه العمود الكبير وسط الخيمة، فإذا أزيح عن مكانه تداعت الخيمة..

((من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

فهؤلاء المؤمنون أفلحوا لأنهم في صلاتهم خاشعون، والصلاة كما بينت في الدرس الماضي الصلاة مناجاة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

2 – الصلاة مناجاة:

((لو يعلم المصلي من يناجي ما التفت))

(ورد في الأثر)

3 – الصلاة قربٌ:

والصلاة قرب، لقول الله عزّ وجل:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

4 – الصلاة ذِكرٌ:

والصلاة ذكر لقول الله عزّ وجل:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

5 – الصلاة عقلٌ:

والصلاة عقلٌ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

6 – الصلاة وعيٌ:

والصلاة وعيٌ، لقول الله عزّ وجل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: آية " 43 ")

7 – الصلاة خشوع:

والصلاة خشوعٌ، لقول الله عزّ وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

(سورة المؤمنون)

8 – الصلاة عروج:

والصلاة عروجٌ إلى الله عزّ وجل، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة معراج المؤمن))

(ورد في الأثر)

و:

((الصلاة عماد الدين وعصام اليقين))

(ورد في الأثر)

((ولا خير في دين لا صلاة فيه))

(الجامع الصغير بلفظ: لا خير في دين ليس فيه ركوع، وإسناده ضعيف)

((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر))

(الترمذي، ابن ماجه عن بريدة)

وأساس الدين اتصالٌ بالخالق وإحسانٌ إلى المخلوق،

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

(سورة مريم)

9 - الصلاة نور:

الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((... وَالصَّلاةُ نُورٌ...))

(سنن النسائي عن أبي مالك الأشعري)

هذا هو الدين وجوهره، اتصالٌ بالخالق، وإحسانٌ إلى المخلوق، والعلماء قالوا: الخشوع في الصلاة ليس من فضائلها، ولكن من فرائضها، من فرائض الصلاة أن تكون خاشعاً، ومكان الخشوع هو القلب، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه))

(ورد في الأثر)

من صفات المؤمنين: الخشوع في الصلاة:

ومظهر الخشوع الأعضاء، فمن وقف في الصلاة، وأكثرَ التلفُّت يمنةً ويسرة، وعبث بثوبه، أو بأصابعه، أو بأدواته، فهذا لم يخشع، لأن النبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً يعبث بشعر لحيته في أثناء الصلاة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لو خشع قلبه لخشعت جوارحه))

(ورد في الأثر)

والخشوع حينما تقف بين يدي عظيم تعرف ما الخشوع، إنك إذا دخلت على إنسانٍ ذي شأنٍ عند الناس ؛ وربما لا يكون ذا شأنٍ عند الله، إذا دخلت عليه ترى نفسك تقف أمامه بأدبٍ، وخشوعٍ، وسكينةٍ،

ووقارٍ، ولا تلتفت إلى شيءٍ آخر، فكيف إذا وقفت بين يدي ملك الملوك، جاء في بعض الأحاديث القدسية:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم))

(ورد في الأثر)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

(سورة المؤمنون)

إذا كنت مؤمناً فقد نلت كل شيء، فيا رب ماذا فَقَدَ من وجدك، وماذا وجد من فقدك، وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك ؟.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

الفلاح بمقياس الناس:

بمقياس الناس، إذا اشترى الإنسان أرضاً، ثم شق أمامها الشارع، فارتفع سعرها أربعين ضعفاً، هذا في نظر الناس قد أفلح، وإذا كانت للإنسان تجارةٌ رائجةٌ جداً، هذا في نظر الناس قد أفلح، وإذا تسلّم منصباً رفيعاً فهو في نظر الناس قد أفلح، وإذا رزق زوجةً ممتازةً في نظر الناس قد أفلح، وأما في نظر الواحد الديّان:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

الفلاح بمقياس الشرع:

فهل أنت مؤمن ؟ وليس في مقياس السماء فلاحٌ إلا أن تكون مؤمناً، وأن تصلي خاشعاً، وأن تزكي نفسك لأنه:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

أردت أن أعيد على أسماعكم، ما ذكرته في الدرس الماضي كي تأتي الآيات في انسجامٍ تام، لأن هذا الآيات كالعِقد الثمين، كالسلسلة الثمينة آخذٌ بعضها برقاب بعض، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: الإعراض عن اللغو:

قال بعض العلماء: اللغو هو الشيء المباح الذي لا جدوى منه في الآخرة، فهذا مقياس دقيق جداً، فاللغو ليس من الحرام، لأن الحرام له آيات خاصة أخرى تحرمه:

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ)

(سورة البقرة: آية " 173 ")

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة: آية " 90 ")

المحرمات لها موضوع آخر.

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)

(سورة الأنعام: آية " 151 ")

هنا اللغو، المباحات التي لا تتصل بالآخرة، لا يستمر أثرها إلى الآخرة، هذه لغو، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللَّهَ بَاطِلٌ))

(صحيح البخاري عن أبي هريرة)

فربما ضاق أحدكم ذرعاً بهذا التفسير، ساعة لك وساعة لربك، كما يقول عامة الناس، الحقيقة كل شيءٍ ما خلا الله باطل، لكن هذا الشيء الذي يرضي الله منوّع جداً، فإذا جلست مع زوجتك تبتغي أن تؤنسها، وأن تدلها على الله، فهذا العمل متصل بالآخرة، وإذا انطلقت إلى عملك لتكسب قوت يومك لتطعم صغارك، فهذا العمل له علاقة بالآخر،

((وفي بُضْعِ أحدكُم صدقة))

(مسلم عن أبي ذر)

فهناك أعمال كثيرة، إذا ذهبت لتشتري طعامًا يعينك على طاعة الله فهو ليس من اللغو.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(سورة المؤمنون)

الأعمال المباحة التي لا جدوى منها، يعني لو قصة مترجمة عن

(الإياذة لهيموروس)

إذا قرأتها، وقرأت تاريخ الإغريق قبل آلاف السنين، ربما أضيف إلى معلوماتك شيءٌ لم تكن تعرفه من قبل، ولكن ما أثر هذه القصة في علاقتك بالله، أو في علاقتك بالناس، أو في مكانتك عند الله ؟ هناك أعمال مباحة ليست ذات شأن، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها))

(الجامع الصغير عن الحسين بن علي)

قد تجلس مع أسرتك، ويطرقون بحثاً لا جدوى منه، من تزوج ؟ ولمَ تزوج ؟ لماذا طلق ؟ ولماذا لم يطلق ؟ ماذا قدم لها من مهر ؟ ولماذا نشب خلافٌ بينهما ؟ وأين أسكنها ؟ وكيف أثث البيت ؟ هذا كلامٌ لا جدوى منه، لو أنك تطرقت إلى بعض الصفات المذمومة لكـان هذا غيبة، فحتى لو لم تنطق بالغيبة، وأمضيت السهرة في قيل وقال، وفي معلومات سخيفةٍ لا تقدم ولا تؤخِّر فهذا لغو، والمؤمن يترفع عن اللغو، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

فاللغو الأعمال المباحة، فلو أن هناك غيبة أو نميمة أو فحش أو استخفاف بالآخرين، أو سباب أو إيذاء أو تعريض أو سخرية، وقعت في الحرام، قالت له: قصيرة، إن صفية قصيرةٌ يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

(سنن أبي داود عن عائشة)

ما قلت: قصيرة، ولا طويلة، ولا أي شيء من هذا القبيل، إنما قلت زيد تزوج فلانة، وكان قد خطبها عمرو قبله، كلامٌ لا طائل منه، ولا جدوى منه، هذا في موضوع الزواج والطلاق، وفي موضوع الأعمال، عمر اشترى، وعلي باع، وطلحة ربح، وهمام خسر، وفلان هو وأخوه في حربٍ، وفي خصومةٍ شديدة، وعمير سافر، وخالد قدم من السفر.

هذا لغو القول، وهناك لغو الفعل، أفعال لا جدوى منها، فالإنسان أحياناً يبالغ بالعناية بحاجاته الخاصّة مبالغة ليس لها رصيد في الآخرة إطلاقاً، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

من تفسيرات اللغو: كل ما سوى الله:

بعض المفسرين يقول: اللغو كل ما سوى الله، وبعضهم يقول: المباحات التي لها علاقةٌ بالآخرة ليست من اللغو، فكل واحد منا له عمل، هذا العمل أساسي، لأن منه يكسب قوت يومه، وكسب الرزق ضروريٌ لاستمرار الحياة، وقد قال سيدنا أبو ذر رضي الله عنه: **" حبّذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي ".**

يقرأ المهندس كتباً هندسية ليكون متفوقاً في عمله، لأنه مؤمن، والمؤمن الأضواء عليه مسلّطة، فإذا كان في عمله خلل أو تقصير، ومعلوماته ناقصة، تطاول الناس على دينه، فإذا تفوّق عليهم باطلاعه

على أحدث المقالات في إنشاء العمارات، فهذا ليس من اللغو، والطبيب إذا طالع كتباً جديدة، ومقالاتٍ حديثة في اختصاصه ليبدو مؤمناً متفوقاً على أقرانه، نظر الناس إلى دينه نظرةً سامية، ونظرة إكبارٍ وإعجاب، فمطالعته لهذه الكتب لها مساسٌ بالآخرة بطريقةٍ مركبة لا بطريقةٍ بسيطة، وإذا اشترى الإنسان ثياباً، واعتنى بهندامه، لئلا ينظر الناس إليه شزراً، فالوقت الذي تمضيه في شراء الثياب، وفي العناية بمظهرك الخارجي، من دون إسرافٍ، من دون كبر، من دون تبذير، هذا الوقت أيضاً ليس من اللغو، فالإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((اعمل لآخرتك، وأصلح دنياك))

(ورد في الأثر)

كان عليه الصلاة والسلام كأنه شامةٌ بين الناس، قال:

((فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاس))

(من مسند أحمد عن أبي الدرداء)

إذا أصلح بيته، وجعل غرفة للفتيات، وغرفة للشباب، فهذا من السنة، النبي الكريم قال:

((فرقوا بينهما في المضاجع))

(أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده)

هذا ليس من اللغو، إذا اعتنى أحدنا في ببيته، وجعله مريحاً لأهله، هذا ليس من اللغو، وليس من العمل العابث، فالمؤمن لا يعيش على هامش الحياة، كما يتصور الناس، ولا هو ساذج يرضيه كل شيء، المؤمن ذواق، وذوقه رفيع، وأموره منضبطة، وبيته مرتب، ومحله التجاري مرتب، أما هذا الذي يصلي، وعند الناس مؤمن، ومحله فوضوي، والغبار، والحاجات متداخلة، والفئران ترعى في الدكان، هذا ليس من الدين في شيء، يجب أن تكون نظيفاً، مرتباً منضبطاً، ربنا عزّ وجل وصف أهل الدنيا قال:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف)

فإذا اعتنى الإنسان بحياته عناية طبّق فيها الشرع ليس هذا من اللغو، لكن اللغو هو العمل الذي لا يمتُّ إلى دنيا، ولا يمتُّ إلى دين، هناك شيءٌ من الدنيا يتصل بالدين، فمن أجل أن تكسب ودّ زوجتك وودّ أولادك لا بدّ أن تنفق عليهم، والإنفاق يحتاج إلى كسب للمال، ولا بدّ من وقتٍ تصرفه في كسب المال، هذا الوقت بهذه النية العالية كأنه عبادة، حينما تكسب المال من أجل أن تكفي زوجتك وأولادك، وأن تجعلهم يعتزُّون بك، وأن يرونك إنساناً تكرمهم، هذا الكسب للمال ليس من اللغو، فكما يقول عليه الصلاة وسلام:

((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه إلا أن يتزود منهما معاً، فإن الأولى مطية للثانية))

(ورد في الأثر)

حتى هذا الذي يعتني بجسمه من أجل أن يبقى نشيطاً قوياً هذا الوقت الذي يبذله ليس من اللغو، أي أن كل شيء يتصل بدنيا مشروعة، هذه الدنيا تهيِّئ للآخرة ليس من اللغو، أما العمل المباح الذي لا طائل منه، والذي لا يتصل بالآخرة بطريقةٍ من الطرق هذا لغوٌ يجب الإعراض عنه.

فأحياناً لقاؤك مع الناس فيه لغو، يوجد أشخاص لا يستمعون إليك، ولا يعبؤون لتوجيهاتك، ولا يقيمون لك وزناً، وإذا زرتهم لا بدّ أن يغلقوا الحديث بكلامٍ سخيفٍ تافه، ولا يسمحون لأحدٍ أن يتكلّم معهم، فما الجدوى من زيارتهم ؟ لا جدوى منها، أعرض عن هذه الزيارة، أما إذا زرت إنساناً يُصْغي إليك، ويستمعُ إليك، ويقدِّر دينك وعلمك، هذا إذا زرته، وعدته مريضاً، و زرته مهدئاً بعد أن جاء من السفر، أو إذا أقدم على عمل، هذه الزيارة ربما تركت فيه أثراً كبيراً، وهذا ليس من اللغو، المؤمن دائماً له هدفٌ كبير، وهدفه الكبير أن يقرب الناس إلى الله عزّ وجل، لو أن لك جاراً في عملك أصابه مرضٌ فزرته في المستشفى، أو في بيته، وأخذت له هدية، ثمن هذه الهدية ليس من اللغو، لأنك بهذه الهدية قرّبت قلبه إليك، ومهّدت له أن يلقي لك أُذناً مصغية يستمع بها إلى الحق، فالمؤمن له أهداف بعيدة جداً، قد يذهب مع صديق له يمضي معه ساعات طويلة في السوق يشتري له بعض الحاجات، وهو في غنى عن هذه الحاجات، ولا وقت عنده ليضيعه، لكنه إذا فعل هذا ألف قلب صديقه فجعله يميل إليه، هذا ليس من اللغو، ولكن اللغوَ العمل الذي لا يتصل بالآخرة، أو لا يتصل بدنيا تكون عوناً على الآخرة، هذا هو التعريف الدقيق للغو: فكل عملٍ لا يتصل بالآخرة، ولا يتصل بدنيا ليس لها علاقةٌ بالآخرة.. أو لو أنه اتصل بدنيا لها علاقةٌ بالآخرة لا يعد هذا العمل لغواً، هذا له عند الله عزّ وجل أجرٌ على قدر صلته بالآخرة، أو على قدر صلته بدنيا لهـا صلةٌ بالآخرة.

فالإنسان قد يجلس مع أولاده، أو مع زوجته، أو مع جيرانه، يبحث شأن العمارة مع جيرانه، وبعد أن يبحثوا الموضوعات المطروحة في جدول الأعمال فإنه يذكرهم بآيةٍ قرآنية أو بحديثٍ شريف، فكأن هذه الجلسة المباركة لفَتَتْهم إلى الله عزّ وجل، فإن جُلوسه معهم ليس لغواً، المؤمن إيجابي، ليس سلبياً، ليس انطوائياً، ليس انعزالياً، ليس منعزلاً عن الناس، طبيعة المؤمن طبيعة إيجابية، طبيعة منفتحة، طبيعة ودودة.

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون)

عندنا لغو في الأقوال، وعندنا لغو في الأفعال، وعندنا لغو في الأعمال، فالمؤمن له هدف واضح، فأي شيءٍ من قولٍ أو فعلٍ يتصل بهدفه البعيد فهو يفعله بنيةٍ عالية، بنية أن يرضي الله عزّ وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: الإنفاق:

قد يقول بعضكم: لمَ لم يقل الله عزّ وجل: والذين هم للزكاة منفقون ؟ بل قال: فاعلون، أجاب بعض العلماء: لأنك إذا طلبت من إنسان أن يشرب الدواء فقال لك: إني سأشربه، أو قال: إني فاعلٌ ذلك، كلمة فاعلٌ ذلك أشدُ توكيداً من قوله: إني سأشربه، فالزكاة هنا إنفاق بعض المال الذي أوجبه الله عزّ وجل، وفي آياتٍ أخرى:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25))

(سورة المعارج)

هذا نصاب الزكاة، وفي آية ثانية:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة الذاريات)

استنبط النبي عليه الصلاة والسلام من هذه الآية قوله:

((إنّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ))

(من سنن الترمذي عن فاطمة بنت قيس)

أي أن الزكاة أن تدفع جزءاً من مالك تعبيراً عن صدق إيمانك، لأن الزكاة تسمى في آيات أخرى الصدقات:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)

(سورة التوبة: آية " 60 ")

وسميت الصدقةُ صدقةً لأنها تعبر عن صدق صاحبها، فالزكاة إنفاق، والإنفاق يؤكِّد الإيمان، الإيمان تصديق وإقبال، وهذا شيء خفي، لكن العمل الصالح يؤكد هذا الشيء الخفي، وهو الإيمان، فكأن الزكاة والإنفاق هما المظهر العملي للإيمان، الإيمان له مظهر قلبي هو التصديق، ومظهر شعوري هو الإقبال، وله مظهر عملي هو العمل الصالح، والالتزام بشرع الله عزّ وجل، لذلك هؤلاء المؤمنون هم للزكاة فاعلون.. والله سبحانه وتعالى يقول:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة التوبة)

عندما يدفع الإنسان من ماله الحلال الذي كسبه بعرق جبينه، وكدِّ يمينه، ينفق هذه الألف ليرة، هذه الخمسمئة ليرة، وكان بالإمكان أن ينفقها على نفسه، وعلى أولاده، وعلى طعامه وشرابه، حينما ينفق هذا المال يبتغي بها إرضاء الله عزّ وجل فإن الله يتجلّى عليه، لذلك لا يوجد مؤمن يدفع زكاة ماله إلا ويشعر برحمة الله تنصبُّ على قلبه، هذا الشعور صعب أن ينقل للآخرين، وكل من دفع زكاة ماله يشعر بالسكينة، يشعر بالرحمة، وكأن الله سبحانه وتعالى تجلى على قلبه وغمره برحمةٍ لم يذق أحلى من طعمها:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

لا يسمى المؤمن فالحاً إلا إذا كان في الصلاة خاشعاً، وإلا إذا كان عن اللغو معرضاً، سبحان الله اللغو يذهب وقار المؤمن، الموضوعات السخيفة، الموضوعات التي لا طائل منها، الاهتمامات الفرعية الجزئية، الانغماس في ضلالات، ومتاهات، وترُّهات الحياة، هذا من شأنه أن يضعف مكانة المؤمن عند الله عزّ وجل،

((فالمؤمن يحب معالي الأمور ويكره سفسافها))

(الجامع الصغير عن الحسين بن علي)

يقول: يا أخي، الشطرنج لا بأس به، لا هذا يتنافى مع مكانة المؤمن، تتابع عملاً فنياً في مواقف غير صحيحة، في مواقف غير مشرفة، وأنت مؤمن، ثم تقوم إلى الصلاة بعد ذلك، تشعر أنك مقطوع عن الله عزّ وجل، تجلس مع النساء، كل الحديث عن اللباس، وعن الأناقة، وأنت جالس معهن مستأنس، ولو كنّ من محارمك، هذا لغو، قم فاقرأ قرآناً أو حدثهن عن الله عزّ وجل، أو اتركهن يخوضن في هذه الأحاديث السخيفة التي فيها ذكر للدنيا وشهواتها وانحرافاته وحدهن..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: حفظ الفروج:

قلت لكم من قبل: إن ربنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل بعض الأحكام الشرعية متوافقاً مع بعض النظم الوضعية، فأي تشريع أرضي يحرم السرقة، والسارق يعاقب، في بلاد تقطع يده، في بلاد يسجن، لكن السارق في أي مكان في العالم يحاسب إذا ضبط، هناك أشياء لا يوجد شرع أرضي يحاسب عليها، موضوع إطلاق البصر، فأن تنظر إلى امرأةٍ في الطريق متبرجة، ليس في قوانين الأرض كلها قانونٌ واحدٌ يحرّم عليك ذلك، أي أن هذه مما انفرد بها الدين، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله))

(ورد في الأثر)

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلط))

(ورد في الأثر)

الطبيب أحياناً تأتيه امرأةٌ مريضة، الطبيب المؤمن يغض بصره إلا عن المكان الذي يعالجه، لأنه موقن بأن الله..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

أحياناً العين تخون صاحبها، وتختلس نظرةً من مكانٍ لا يحقُّ للطبيب أن يراه، هناك أطباء ورعون يضعون قماشاً أبيض فوق المريضة لئلا يقع بصرهم على شيءٍ لا يحل لهم، إنسان بمحله التجاري قد تأتيه امرأةٌ لتشتري، فهناك من يغضُّ بصره عنها، وهناك من يتأمل محاسنها، بالمركبة العامة أحياناً تركب إلى جانبه امرأة، فإما أن يختلس النظر إليها، وإما أن يعرض عنها، فهذه أشياء مما ينفرد بها الدين، هذا يؤكِّد محبتك لله عزّ وجل وإخلاصك له.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون)

توجد آيات أخرى، ربنا عزّ وجل قال فيها:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

وكأن الله سبحانه وتعالى رسم لنا طريق حفظ الفرج، إنه غض البصر، قال عليه الصلاة والسلام:

((من ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنم))

(ورد في الأثر)

وفي الحديث:

((النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس، فمن تركها في سبيلي أذقته حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاني))

(الترغيب والترهيب عن ابن مسعود)

من ترك هذه النظرة في سبيل الله أذاقه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول لك:

((اصرف بصرك))

(مسلم عن جرير)

و:

((يا علي، لا تتبع النظرة النظْرة، فإنّ لك الأولى، وليست لك الآخرة))

(أبو داود والترمذي عن بريدة)

على الدرج انتظر حتى تصعده المرأة إلى الدرج، على المصعد تريث، ودعها وحدها، ولا تخلو بامرأة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يَخْلُوَنّ أَحَدُكُمْ بامْرَأةٍ فإنّ الشّيْطانَ ثالِثُهُمَا))

(من مسند أحمد عن ابن عمر)

وكل الأحداث الخطيرة التي تؤدِّي إلى الطلاق وإلى خراب البيوت أساسها النظرة، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

فحفظ الفرج إذاً طريقه غض البصر، هنا:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

كيف يحفظ فرجه ؟ بغض بصره، إذا غض بصره الله عزّ وجل يحفظه، لكن إذا الإنسان أطلق بصره في الحرام ربما قاده هذا البصر إلى الزنى، ربما انتهى به إلى الزنى، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى لا)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

لم يقل: ولا تزنوا، بل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

فهذه الشهوة كأنها صخرةٌ متمكنة في قمة جبل بإمكانك أن تدفعها نحو الوادي أو لا تدفعها، ولكنك إذا دفعتها فلا بدّ أن تستقر في أعماق الوادي، فالشهوة إذا أطلقت من عقالها، إذا تفلّتت من صاحبها قادته إلى الهلاك، وقد تقوده إلى الجريمة، وقد تقوده إلى تطليق زوجته، وله منها سبعة أولاد من أجل هذه النظرة.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

والحقيقة أن الرجل عنده نقطتا ضعف، موضوع النساء وموضوع المال، والمؤمن محصّن ضد هاتين النقطتين، يكون شخصية علمية كبيرة يؤتى من النساء، يشترى بالمرأة فيبيع دينه، وعرضه، ووطنه وأمته بامرأةٍ، وقد يبيع دينه، ووطنه، وأمته بدرهمٍ ودينار ؛ ولكن المؤمن محصنٌ من جهة النساء بغض البصر، ومن جهة المال بالعفّة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الإيمان عفيفٌ عن المطامع، عفيفٌ عن المحارم))

(ورد في الأثر)

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ)

(سورة المؤمنون)

لأن الله عزّ وجل لم يَدَعْ شهوة أودعها فينا إلا جعل لها قناةً مشروعةً نظيفة، شهوة النساء لها طريق الزواج، شهوة المال لها طريق الكسب، شهوة العلو في الأرض لها طريق العلم:

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة المجادلة)

أتحب أن تكون متفوّقاً ؟ أتحب أن تبلغ درجاتٍ عليةً في المجتمع ؟ تعلّم:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: آية " 9 ")

وقال سبحانه:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه)

فشهوة النساء قناتها الزواج، وشهوة المال قناتها الكسب المشروع، وشهوة العلو في الأرض قناتها العلم الشرعي، لذلك سُئل الإمام الشافعي من قِبَل شاعر قال:

يدٌ بخمس مئين عسجدٍ وديت ما بالها قطعت في ربع دينارِ

****

بخمس مئين أي بخمس مئات من الدنانير، وُدِيَتْ أي كانت ديتها، ما بالها قطعت في ربع دينار، لو أن يداً سرقت ربع دينار لقطعت، ولو أن يداً قطعت بحادث ديتها خمسمئةٍ دينار ذهبي، والدينار الذهبي يبلغ ستة آلاف ليرة، فهو مبلغ ضخم جداً، ما بالها قطعت في ربع دينار، فقال الإمام الشافعي:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

****

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

إذاً:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ)

المباح للرجل من النساء: الزوجة ومِلك اليمين:

مباح له أن ينظر إلى امرأته بأيّة نية، ولو بشهوة، لأن هذا مباح له.

(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ)

وهذه مضى وقتها، ففي أثناء حروب الفتوحات الإسلامية كان ثمة أحكام دقيقة جداً لملك اليمين، فيما بعد أُسيء فهمها، وأسيء تطبيقها، وأصبحت مأخذاً على المسلمين، وليس على الإسلام، فيما بعد في

عصور التخلّف، عصور الانحطاط أصبح ملك اليمين منحرفاً عن القصد الذي أراده الله عزّ وجل، وعن الطريقة التي أقرّها الشرع، فصارت مأخذاً على المسلمين، لكن الآن ليس هناك ملك اليمين إطلاقاً:

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

(سورة المؤمنون)

الإنسان غير مُلام، فالزواج مشروع، والزواج فيه افتخار، والدليل هو: عندما يتزوج الإنسان يوم العرس، من السنة المطهرة أن يكون هناك إعلان وإشهار لهذا النكاح، الآن يشهرونه بهذه الأبواق التي يطلقونها في أثناء سيرهم، وكانوا قديماً يشهرونه بالطبول، والنبي علّم بعض الأنصار كيف يهزجون:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم ولولا الحبة الخضراء لما جئنا بواديكم

***

ومن السنة إخفاء الخِطبة وإشهار النكاح:

(فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

الإنسان يجلس مع أهله في بيته مطمئناً ناعم البال، لكن لو لمحت شاباً يكلم فتاة في الطريق، وإنسان أصدر صوتاً خفيفاً لاضطربا، لأن عملهما غير مشروع، ولأنه خارج النظام الاجتماعي، خارج الشرع الشريف، خارج الطريق المشروع، خارج القواعد الصحيحة:

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون)

شهوة خارج المشروع اعتداء على حدود الله:

هذا الذي ينظر إلى امرأةٍ لا تحل له يعتدي عليها، ويعتدي على نفسه، معتدٍ مطلق الاعتداء، يعتدي على نفسه، فهو يحرمها من الإقبال على الله عزّ وجل، ويعتدي على هذه المرأة ربما أغواها، وربما منّاها، وربما جعلها تعيش في أحلام وهو لا ينوي الزواج منها، هذا عدوان، أكثر الناس في أحوالهم، في أعمالهم، إذا كان هناك امرأة فيبالغون في التلطف لها، ويسمعونها كلمات معسولة، هذا ليس من الإيمان في شيء، هذه ليست امرأتك، لطفك الزائد، ونعومتك، ومزاحك اللطيف اجعله لزوجتك، وليس لامرأة جالسة بجانبك في الدائرة، كل ما عندك من ذكاء ومن لطف هذا ادخره لزوجتك، هنا القناة مسموحة، إنسان يمزح، ويتلاطف زيادة مع امرأةٍ لا تحل له، هذا نوع من الإغواء صار هذا عدواناً، تعتدي على عواطفها، تعتدي على مشاعرها، تجعلها تتمنى أن تكون زوجاً لها، وأنت متزوج تجعلها

تبالغ في زينتها، هذا كله عدوان، تعتدي على نفسك، وتعتدي عليها في الوقت نفسه، لذلك المؤمن لا يعتدي، فهو يحل له أن يكون مع امرأته لطيفاً، قال عليه الصلاة والسلام:

((أكرموا النساء، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

(ورد في الأثر)

فمن الملاحظ أن الإنسان المنحرف المقصر لطيف جداً مع أي امرأة لا تحل له، أما مع زوجته فهو فظ، ليس هذا من الدين في شيء، قال عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي))

(من سنن الترمذي: عن عائشة)

((وكان إذا دخل بيته بسّاماً ضحاكاً))

ولا يحل لامرأةٍ أيضاً أن تلين القول لرجلٍ لا يحل لها:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

(سورة الأحزاب)

أشياء دقيقة جداً قد تنتهي بخراب البيوت، قد تنتهي بالطلاق، قد تنتهي بتشريد الأولاد من أجل كلمةٍ لطيفةٍ قالـها الرجل لامرأةٍ لا تحل له، إذا كنت مأموراً بغض البصر فأنت بالامتناع عن كل كلامٍ لطيف مع امرأةٍ لا تحل لك من باب أولى، إذا كنت مأموراً أن تغض بصرك عن محارم الله، لذلك المزاح اللطيف مع النساء في أماكن عامة، في دوائر مثلاً، في مناسبة، في زيارات، هذا ليس من أخلاق المؤمن، يفعل هذا حتى لا يُقال عنه صلب، أرض الله عزّ وجل، أرض الله، ولا تعبأ بكلام الناس، هكذا الشرع.

تحضر امرأة إلى البيت، وتكون زوجته خارج البيت، يقول لها: تفضلي يا أختي، استحياء منها، هذا عمل غير إسلامي، حتى ولو جاءت من مكان بعيد، ما دام لا يوجد امرأة في البيت فلا يحق لك أن تقول لها: تفضلي، لأنه:

((لا يَخْلُوَنّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنّ الشّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا))

(من مسند أحمد عن ابن عمر)

هذه قضايا دقيقة جداً، فالإنسان من أين يؤتى ؟ فمعظم المسلمين لا يشربون الخمر، ولا يلعبون القِمار، ولا يزنون، ولا يسرقون، ولكن المأخذ الذي يأخذهم منه الشيطان النساء، لذلك:

((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرّ عَلَى الرّجَالِ مِنَ النّسَاءِ))

(صحيح البخاري عن أسامة بن زيد)

النساء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((حبائل الشيطان))

فليس للإنسان حق أن يتساهل في سلام، أو بنظرة، أو بابتسامة، بكلام، بتعليق، بكلمة، هذا كله قد يأتي إلى ما هو أكبر منه، وقد ينتهي بالزنى، وقد ينتهي بالطلاق، وقد ينتهي بقطيعةٍ مع الله عزّ وجل، الآية دقيقة جداً:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون)

أترون معي كيف أن الدين كلّه حياء ؟ هل من كلامٍ أرق من هذا الكلام ؟ هذا الكلام هل يخدش حياء إنسان ؟ هل يخدش حياء طفل ؟

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

يدخل وراء ذلك كل أنواع الانحرافات، الزنى وغير الزنى، والزنى المثلي، كل أنواع الانحرافات التي تسمعون عنها وتقرؤون عنها، كل هذا دخل في هذه الآية:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

هذه القناة مشروعة، هذا الطريق مشروع، وما سوى هذا الطريق كله ممنوع:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

هذا معتدٍ، يعتدي على نفسه بحرمانها من الاتصال بالله عزّ وجل، ويعتدي على هذه الفتاة التي هي أخته في الإنسانية بإغوائها:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

من صفات المؤمنين: حفظ الأمانة:

الأمانة موضوع دقيق جداً، يقول الله عزّ وجل:

(عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

هذه الأمانة كما يسميها علماء التوحيد أمانة التكليف، أنت على هذه الدنيا إنسان لك هويّة معينة، أودع الله فيك الشهوة، ومنحك حرية الاختيار، وفوق هذا وذاك سخّر لك ما في السماوات والأرض، ومنحك

العقل، وأنزل على أنبيائه الشرع، فالشرع، والعقل، والكون، وحرية الاختيار، والشهوة هذه كلّها مقومات التكليف، أودع نفسك أمانةً بين يديك كي تزكيها:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

هذه أرقى أنواع الأمانات، وهي التي عناها الله بقوله:

(عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

وهناك أمانة التبليغ، هذه الأمانة حملها الرسل والأنبياء، فبلّغوا رسالات الله:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب)

حينما تنقل للناس الحق دون تزييفٍ، ولا تعديلٍ، ولا تطويرٍ، ولا تغييرٍ، ولا إضافةٍ، ولا حذفٍ فأنت قد بلّغت الأمانة، وأنت عندما تقف على باب النبي عليه الصلاة والسلام تقول: أشهد أنك بلغت الأمانة وأدّيت الرسالة، ونصحت الأمة، وكشفت الغُمة، وجاهدت في الله حق الجهاد.. هذه أمانة التبليغ.

هناك أمانة الأداء، أيْ الأمانة التي أوكلت للعلماء، وقد أخذ الله عليهم العهد ليبيّنونّه للناس ولا يكتمونه، أن تبيّن الحق للناس دون أن تكتمه هذه أيضاً أمانة الأداء.

وهناك أمانة الواجب، كلٌ منا له عمل يقوم به ؛ فالنجار، والخيّاط، والمدرس، والطبيب، والصيدلي، كل هؤلاء لهم أعمال، فإما أن يؤدي هذا العمل أداءً صحيحاً ليس فيه تقصيرٌ ولا خلل ولا غش، وإما أن يقصّر، أو يخل أو يغش، عندئذٍ يكون قد خان الأمانة.

فأمانة التكليف، وأمانة التبليغ، وأمانة الأداء، وأمانة الواجب، وهناك أمانة المجالس، قال عليه الصلاة والسلام:

((الْمَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ))

(من سنن أبي داود عن جابر بن عبد الله)

فحتى إذا حدّثك أخوك حديثاً، ثم سمع وقع خطواتٍ فالتفت فهذا الحديث بالأمانة، لو لم يقل لك: احفظ هذا الحديث، ولا تنقله عني، مادام قد التفت لوقع خطواتٍ فالحديث بالأمانة، هذا أمانة المجلس، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

(من صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر)

فالزوجة راعية في بيت زوجها، والخادم راعٍ في مال سيده، والرجل راعٍ في أولاده، والموظف، والطبيب، والمدرس، والمعلم، وأصحاب الصناعات، وأصحاب الأعمال، كلهم عليهم أن يرعوا الأمانة:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

(سورة المؤمنون)

فهؤلاء المؤمنون يصفهم الله عزّ وجل بأنهم:

(لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

فيجب أن ترعى أمانة التكليف، ويجب أن ترعى أمانة الأداء، ويجب أن ترعى أمانة العمل، العمل أمانة، أصحاب المصالح، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الدِّينُ النَّصِيحَةُ))

(من مسند أحمد عن تميم الداري)

فالكذب، والتدليس، والغُش، وتبديل النوعية، والكذب في اسم البضاعة، وفي منشئها ومصدرها، وفي نوعها، والتلاعب بثمنها، وبعددها، ونوعها، هذا كله خيانة لأمانة العمل، والطبيب إذا أراد أن يبتز المريض، والصيدلي إذا محا تاريخ انتهاء الدواء، فإنه خان الأمانة، والمحامي إذا كان مقتنعاً بأن الدعوى خاسرة كلياً، ثم يقبل أن يتوكل بها ليبتز من أموال الموكل، وكل مصلحة من المهن الراقية أو غير الراقية ممكن أن يكون فيها أداء للأمانة، أو خيانة للأمانة، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

وأمانة المجالس، والأمانة أي الوديعة التي تودع عندك، هذه أداؤها من الأمانة، فالأمانة واسعة جداً، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(من مسند أحمد عن أنس)

كل إنسان يخون أمانة التكليف، أو أمانة التبليغ، أو أمانة الأداء، أو أمانة الواجب، أو أمانة المجلس، أو أمانة الأسرة..

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتّر على عياله))

خان الأمانة، هذه ربطت نفسها معه فأكل، ولم يطعمها، ولبس، ولم يلبسها، خان الأمانة، كل من خان هذه الأمانة فلا إيمان له، بنص قول رسول الله صلى الله عليه وسلم..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(من مسند أحمد عن أنس)

فلو عاهدت، من علامات النفاق نقض العهد، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ))

(من صحيح البخاري)

اتفقت معه على أمرٍ فلابدَّ من إنفاذه، فلتحفظوا الحديث:

((لا إيمَانَ لِمَنْ لا أمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(من مسند أحمد عن أنس)

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9))

(سورة المؤمنون)

لعظم شأن الصلاة بدأ الآيات بالصلاة:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

وأنهاها بالصلاة، لكن هنا الحفاظ على نوعية الصلاة، على الاتصال بالله، على الخشوع لله، أما هنا الحفاظ على أوقات الصلاة، وعلى ركعاتها، وسُننها، وفرائضها، هنا:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

من صفات المؤمنين: الحفاظ على الصلاة:

أما هنا:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون)

يحافظون على فرائضها، وسُننها، وعلى خشوعها، وعلى أدائها في أوقاتها، ولكن يضيف بعض العلماء إلى هذه المُحافظة انهم باستقامتهم على أمر الله يحافظون على الاتصال بالله عزّ وجل، من خرق استقامته مع الله عزّ وجل أخلّ بصلاته، تصبح صلاته جوفاء شكلية لا جدوى منها:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11))

(سورة المؤمنون)

جزاء من اتصف بصفات المؤمنين: وراثة الجنة:

من انطبقت عليه هذه الآيات استحق دخول الجنة بنص هذه الآية..

في صلاتهم خاشعون، عن اللغو معرضون، للزكاة فاعلون، لفروجهم حافظون، لأماناتهم وعهدهم راعون، على صلواتهم يحافظون:

(أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11))

(سورة المؤمنون)

ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نتابع تفسير هذه الآيات في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 12 – 22
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-08-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الثالث من سورة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14))

(سورة المؤمنون)

وتأتي الآيات بعد هذه الآية متلاحقةً تبيّن بعض ما في الكون من دلائل، ومن عِبَر.

سؤال: ما علاقة ذكر الآيات الكونية بعد آيات وصف المؤمنين المفلحين ؟

الجواب: التفكّر في الكون طريق من طرق الإيمان:

السؤال الآن: ما العلاقة بين هذه الآيات الكونية، وبين قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12))

(سورة المؤمنون)

أي أنّ أيها الإنسان إذا أردت أن تكون مؤمناً متحلياً بصفات المؤمنين، وارثاً لفردوس رب العالمين، فتعرّف إلى الله من هذا الطريق طريق الكون، كأن الله سبحانه وتعالى بيّن الهدف، ورسم الطريق، الهدف أن تكون مؤمناً خاشعاً في صلاتك، معرضاً عن اللغو، فاعلاً للزكاة، حافظاً لفرجك، راعٍ لأمانتك، إذا كنت كذلك ورثت جنة الفردوس، أما الطريق فانظر إلى آيات الله..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

وقال عزوجل:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: آية " 101 ")

وقال سبحانه:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

وقال:

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق)

وقال:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

(سورة المرسلات)

إنّ الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا أن طريق الإيمان بالله عزّ وجل أن تتأمل في هذه الأقوال، وأن تقف عند كل آية مستجلياً وجه العظمة فيها، فكلما ارتقت معرفتك خشع قلبك:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 28 ")

وهذه (إنما)أداة قصر، بمعنى أن العلماء وحدهم، وليس أحد سواهم يخشون الله عزّ وجل، فإذا أردت أن تكون في صلاتك خاشعاً فتأمّل في ملكوت السماوات والأرض، الإنسان أحياناً يمرُّ على آيات الله مروراً سطحياً، ربنا عزّ وجل وصف الكفار فقال:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد)

الإنسان يشرب كأساً من الماء، هل أعمل فكره في هذا الماء ؟ ما مصدر هذا الماء ؟ كيف كان مِلحاً أجاجاً فصار عذباً فراتاً ؟ هل عرف أن الشمس، والقمر، والسماء، والأرض، والبحار، والهواء، والسحب، والغيوم، وطبقات الأرض كلها ساهمت في هذا الكأس من الماء ؟ قد يأكل طعاماً، قد يأكل فاكهةً، قد ينظر إلى ابنه الصغير، قد ينظر إلى جبل شامخ، قد يمتّع عينيه ببحر صاخب، قد يرى جبلاً أخضر، قد يرى وادياً جميلاً، قد يشمُّ رائحةً عطرة، قد يرى زهرةً فوّاحة، هذا الذي يمرُّ على آيات الله مرور المتمتع، مرور المستغل، مرور التاجر، من دون أن يقف عند خالق هذه الآية، وعند عظمته، وعند أمره، هذا إنسان شأنه كشأن البهائم، لذلك نعى ربنا عزّ وجل على هؤلاء الذين يمرُّون على الآيات في السماوات والأرض وهم عنها غافلون، فربنا عزّ وجل أيقظنا بهذه الآيات، أي أنّك أيها

الإنسان لا تُفلح إلا إذا كنت مؤمناً خاشعاً في صلاتك، معرضاً عن اللغو، فاعلاً للزكاة، حافظاً لفرجك، راعٍ لأمانتك، حافظاً لصلواتك، من أجل أن تكون مؤمناً هل فكّرت في هذه الآيات ؟..

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)

(سورة المؤمنون)

آية من آيات الله الكونية: خَلْقُ الإنسان:

الإنسان أيْ مطلق الإنسان، وبعض العلماء يقولون: إنه الإنسان الأوّل سيدنا آدم، لأن الله سبحانه وتعالى خلقه من طين.

معنى السلالة:

المعنى الأول:

والسلالة هي الخليط.

(سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)

أي أخلاطٍ من أنواع الطين جمّعها الله سبحانه وتعالى، ونفخ فيها من روحه فكانت سيدنا آدم، هذا تفسير.

المعنى الثاني:

تفسير آخر، السلالة بمعنى السلسلة، من طين، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، مراحل مر بها خلق الإنسان، فإما أن تكون السلالة الأخلاط، وإما أن تكون السلالة السلاسل، على كلٍ الإنسان الأول خُلِقَ من طين، ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى شاءت أن تجعل تكاثر ذُريّته عن طريق التوالد، عن طريق النطفة، وعن طريق البويضة، وعن طريق الرحم، وعن طريق الجنين كما تعلمون من تفصيلاتٍ مررت عليها في درسٍ سابق..

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)

لهذا في آياتٍ أخرى يقول الله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 21 ")

أي لا يستحقُ العبادة إلا الخالق، غير الخالق لا يستحق العبادة.

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء: آية " 23 ")

الخالق وحده هو الذي يستحق أن تعبده، والعبادة أن تطيعه طاعة طوعيّة مبنية على معرفةٍ يقينية، منتهية بسعادة أبدية..

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)

بعض الشعراء قال:

نسي الطين ساعةً أنه طينٌ حقير فصال فيها وعَرْبَد

وكسا الخَزّ جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمرّد

***

إنّ الإنسان أحياناً يعلو، وينسى أنه من طينٍ من صلصال، ينسى أنه من ماءٍ مهين خرج من عورةٍ، ودخل إلى عورةٍ، ثم خرج من عورة، وسمي الماء مهيناً لأن الإنسان يستحيي به..

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13))

(سورة المؤمنون)

ربنا عزّ وجل لم يقل: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم خلقناه نطفةً.. لا ؟؟ أي ثم جعلناه، شاءت مشيئتنا أن يكون توالده وتكاثره في ذريته عن طريق التوالد وعن طريق النطفة.

(ثُمَّ جَعَلْنَاهُ)

نظام التوالد أساسه النطفة:

جعلنا نظام التوالد، ونظام التكاثر على أساس النطفة، وهذه النُطَفْ المعلومات حولها كثيرةٌ جداً، فهذه النطف تُصنَّع في الخصيتين، والخصيتان تحتاجان إلى حرارةٍ دون حرارة الجسم لذا هما خارج الجسم، والذي خصيتاه داخل جسمه هذا لا ينجب، لأن حرارة الجسم لا تساعد على تخليق النُطَفْ، وقال لي بعض الأطباء: إن النُطَفْ يجري تخليقها وتصنيعها في ثماني عشر مرحلة، وقد تستغرق أياماً كثيرةً تزيد عن العشرين يوماً حتى تصبح جاهزة، وفي اللقاء الواحد يُفْرزُ الإنسان أكثر من ثلاثمئة مليون حوين منوي، وهذه الحوينات تنتقل من عُنِق الرحم إلى القنوات إلى أن تلتقي بالبويضة، والذي حيَّر الأطباء هذا الحوين الضعيف الذي خلقه الله من رأسٍ مدبب، وعنقٍ مُحَلزن، وذيلٍ مُتَعَرّج، الذيل من أجل أن يتحرك، والرأس المدبب من أن أجل أن يخترق، ولكن كيف يخترق البويضة ؟

اكتشف العلماء مؤخراً أنّ في رأس كلّ حوين منوي مادةً نبيلةً هذه المادة النبيلة تشبه خلط العين الزجاجي المائي، هذه المادة النبيلة تذيب جدار البويضة، فإذا ارتطم هذا الحيوان.. الحوين المنوي.. بجدار البويضة ذاب جدارها فإذا دخل إليها أُغْلِقَ الباب وانتهى الأمر، فحوين منوي واحد من ثلاثمئة مليون حوين يلقِّح البويضة، أما كيف تختار البويضة أقوى هذه الحوينات فهذا لا يعلمه إلا الله، تختار البويضة أقوى هذه الحوينات من بين ثلاثمئة مليون حوين، على كلٍ..

(ثُمّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)

(سورة المؤمنون)

الرحم قرار مكين:

الرحم قرار مكين، معنى قرار مكين أنّك إذا أخذت خطاً متوسطاً للمرأة طولاً وخطاً متوسطاً عرضاً يتعامدان عند الرحم، فالرحم يشكِّل الوسط الهندسي تماماً للمرأة، شيءٌ آخر الرحم في بدايات الحمل يحافظ على النطفة، لذلك جعله الله في قرارٍ مكين.

انظر إلى حكمة الله عزّ وجل كيف أن الله سبحانه وتعالى جعل الدماغ محفوظاً في الجمجمة، والجمجمة عُلْبَةٌ عظميّة فيها مفاصل ثابتة، هذه المفاصل تمتصُّ الصدمات، لو نظرت إلى جمجمة ترى أن هناك خطوطاً منكسرة تفصل بين أجزائها، هذه الخطوط هي المفاصل الثابتة، لكن فيها بعض الفراغات البينية، فإذا ارتطم الطفل بالأرض، وسمعت دويّ رأسه إلى مكانٍ بعيد فاطمئن إنه في سلامة، لأن هذه الفراغات البينية تراصّت فامتصّت الصدمة، إذاً الدماغ شيء خطير جداً في الجمجمة، ولا يقل عنه خطراً النخاع الشوكي في سلسلة، والعين مهمة جداً في محجر، والقلب هو المضخة الأساسية في القفص الصدري، ومعامل الدم، وهي أخطر ما عند الإنسان داخل العِظام، والجنين داخل عظم الحوض.

(ثُمّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)

قرار مكين، الرحم محاطٌ بجدرانٍ عظميةٍ من كل الجهات في مراحله الأولى، عظام الحوض في المرأة تحيط بالرحم من كل جانب، فهو في قرارٍ مكين، الشيء الآخر النطفة تعلق على جدار الرحم بعد أن تلقِّح البويضة بشكلٍ مكين، فالبويضة الملقحة مستقرةٌ على جدار الرحم بشكلٍ مكين، والرحم في مكانٍ مكين ومحاطٍ بجُدُرٍ من العظام، وهناك أربطةٌ تربط الرحم من كل الجهات بحيث لا يتأثر بحركة الأم، هذا معنى قوله تعالى:

(ثُمّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)

مراحل تطور الجنين:

1 - تحوّل النطفة إلى علقة:

هذه النطفة ينشأ لها في الجدار الخارجي استطالات تُعِينُ على أن تلتصق بجدار الرحم، وجدار الرحم يغذّي هذه الاستطالات، ويرحِّب بها كي تعلق هذه البويضة الملقّحة، فعندئذٍ تسمى علقة، لا لأنها قطعة دم جامدة، بل لأنها تعلق على جدار الرحم بمجموعة وسائل بعضها من الرحم، وبعضها من العلقة نفسها..

(ثُمّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ)

(سورة المؤمنون: آية " 14 ")

2 - تحوّل العلقة إلى مضغة:

عندئذٍ تكبر هذه العلقة، ويتوضّح بعض معالم الجنين، يبدو رأسه وجذعه فقط، يبدو في رأسه عينان، يبدو في جذعه القلب، هذه المضغة قطعةٌ من اللحم فيها ملامح أولية لتخليق هذا الجنين، على كلٍ ذكرت هذا مفصلاً في دروسٍ سابقة، واليوم أذكره موجزاً كي يُتاح لنا التفصيل في آيات أخرى.

(فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً)

(سورة المؤمنون: آية " 14 ")

3 - نشأة العظام:

ثم تنشأ العظام، وبعدها تُكسى هذه العظام باللحم، تنشأ العضلات، على كلٍ نقطة الحوين المنوي مع البويضة لا تُرى بالعين المجردة، لا تُرى إلا تحت المجهر، وفي بعض الكتب صور لهذه الحوينات والبويضات، الذي لا تراه بعينك بعد تسعة أشهر ترى طفلاً كامل الخلق، فيه رأسٌ، وجذعٌ، وأطراف، فيه أعصابٌ وشرايين، فيه عضلاتٌ وعظام، فيه سمعٌ وبصر، فيه فمٌ وأنف، فيه شعر، فيه جِلد، فيه مريء ورغامى، ولسان المزمار، ومعدة، وأمعاء، وكبد، وبنكرياس، وطحال، وصفراء، وكظر، وكليتان، وحالب، ومثانة، وجهاز إفراز، تكوين يأخذ بالألباب، بعدئذٍ هذا الطفل يبتسم، بعدئذٍ يضحك، بعدئذٍ يأكل، يبحث عن الطعام، يلتقم ثدي أمه، الطريق سالك، ثم يستجيب للضوء، يستجيب للصوت، بعدئذٍ يتكلّم، يحاول أن يمشي، بعدئذٍ إذا جاءت أمُّه يُقْبِلُ عليها، وما زال الإنسان يرقى في مدارج المعرفة إلى أن يصبح إنساناً سوياً، من طوّره من حالٍ إلى حال ؟ الله سبحانه وتعالى..

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ)

(سورة المؤمنون: آية " 14 ")

4 - نشأة الجنين خَلقا متميزا كاملا:

هذه الآية دقيقة جداً، ربما كان أي جنين لأي حيوان مشابهاً لجنين الإنسان، فكل حيوان يتكاثر عن طريق الولادة ؛ له نطفة، وله بويضة، وهناك تلقيح، وتصبح هذه البويضة المُلَقّحة علقة، فمضغة، فعظام، فعضلات كالإنسان، ولكن هذا الإنسان، تبارك الخلاق..

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ)

هذا الإنسان مُكَرّم، كرّمه الله سبحانه وتعالى، أعطاه عقلاً، أعطاه نطقاً، أعطاه شهوةً، أعطاه أمانةً، أعطاه كوناً، أعطاه اختياراً، الإنسان خَلْق آخر، لا مجال أن تقيم موازنة بين جنين حيوان، وبين جنين إنسان، هذا الإنسان قد يُصبح عبقرياً، قد يصبح في مستقبل أيامه مصلحاً اجتماعياً، عالماً جليلاً، مخترعاً، قائداً مُحَنّكاً، ضابطاً كبيراً، قد يكون صانعاً ماهراً، قد يكون طبيباً حاذقاً، هذا إنسان آخر، هذا مكرم.

(الرّحْمَنُ (1) عَلّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

هذا الإنسان خلق لمهمة عالية جداً..

((خلقت السماوات والأرض من أجلك، وخلقتك من أجلي، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عمّا افترضته عليك..))

(ورد في الأثر)

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ)

معاني الآية:

المعنى الأول:

هذا مخلوق آخر، هذا حُمِّل الأمانة، هذا مكلّف لمعرفة الله عزّ وجل، هذا مكلف أن يزكِّي نفسه، هذا الإنسان مخيَّر، هذا الإنسان خُلِقَ ليكون أول المخلوقات، هذا الكون كله مسخرٌ من أجله، هذا خلق آخر.

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ)

جنين الدابة يكبر ويكبر، وبعد ذلك تحدث الولادة لكن يبقى دابة، أما هنا إنسان مكرَّم مُبَجَّل، إنسان يتكلم، يفكِّر، فهناك فرقٌ نوعي بين الإنسان وبين الحيوان، فرقٌ نوعي، فحياة الحيوان لمْ ترتق، حياة القرود مثلاً، فهل القرود أنشأت مساكن فخمة ؟ عملت تدفئة مركزية ؟ أو قادت طائرة ؟ أو اخترعتها ؟ اخترعت سيارة مثلاً، أو أجهزة نقل ؟ أجهزة إعلام ؟ تعلمت درساً ؟ دَرَّست ؟ ألّفت ؟ الحيوان هو الحيوان لا يتغير، أما الإنسان يرقى، فالذي يقول: إن الإنسان مَرَّ بمرحلة القرود هذا إنسان يُحَقِّرُ بني جنسه، الإنسان إنسان والحيوان حيوان.

(ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ)

هذا معنى من معاني هذه الآية.

المعنى الثاني:

هناك صفات أُخرى، تجد الطفل الصغير إذا أراد أن يلعب يمتطي عصاه، وكأنه فارسُها، الطفلة الصغيرة إذا أرادت أن تلعب تأخذ وسادةً، فتجعلها بنتها، وتربط عليها، وتسكتها، وتلقمها صدرها، معنى ذلك أن ثمة فروقًا نوعية بين الذكور والإناث، هذه تُعنى بهندامها، بشكلها، هذه مطواعة، هذا الطفل الصغير يحاول إثبات شخصيته بوسائل عديدة، فكأن هناك فرقاً نوعياً بين الذكور والإناث، ربما لا ترى فرقاً ظاهراً في بُنية الطفل أو الطفلة، ولكن في البُنى النفسية والنواحي الاجتماعية فرقٌ شاسعٌ بينهما، هذا معنى آخر.

المعنى الثالث: لو توقّعت أن يكون الجنين ذكرًا أو أنثى، أي أن بالعُرَى الملوّنة، بالمورثات، يوجد ثلاثة وعشرون زوجًا، الزوج الأخير إما على شكل: (X)إكس، أو على شكل واي (y)، فإذا كان على شكل (y)فهو ذكر، أو على شكل (X)فهو أنثى، فهناك بعض الحالات التي ترى تحت المجهر، وعن طريق أجهزة بالغة التعقيد، يتحدد بها نوع الجنين، ثم يتغير هذا النوع بعد فترة من الزمن..

(ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ)

حدثني أخ فقال: إن طبيباً من أكبر أطباء الأمراض النسائية في بلاد متقدمة مادياً - يجب أن نقول متقدمة مادياً، أما من حيث الأخلاق والنواحي الأخرى فهي متخلفة جداً - فهذا الطبيب أراد أن يجري تجربة فشقّ بطن زوجته، وعرف نـوع الجنين، وحين الولادة كان الجنين خلقاً آخر.

(ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ)

فإما أن الإنسان له مكانة عند الرحمن، فهو خلقٌ آخر من بنية أُخرى، وإما أن هناك صفات نفسية اجتماعية، هذه لا تُرى بالعين يوجد خلق آخر، وإما أنه لو توصّلت إلى معرفة نوع الجنين، وربما كانت

الولادة خلقاً آخر..

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

معنى: فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ

بعضهم يقف عند هذه الآية وقفة، كم مِن خالق في الأرض حتى يقول الله عزّ وجل:

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

القضية بسيطة جداً، الخلق بمعناه الدقيق ليس أن تصنع شيئاً من لا شيء، بل أن تصنع شيئاً من شيء، والدليل:

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ)

(سورة المائدة: آية " 110 ")

ربنا خاطب سيدنا عيسى:

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي)

(سورة المائدة: آية " 110 ")

الخَلْق بمعناه اللغوي:

إذاً الخَلْق بمعناه اللغوي: أن تأخذ نسبًا معينة من بعض المواد تصنع منها شيئاً، هذا الخلق بهذا المعنى الدقيق، الإنسان أيضاً يساهم فيه، كأن يقول لك: الإبداع مثلاً، فأي آلة صنعها الإنسان لو وازنتها مع خلق الله عزّ وجل، فهل يوجد إنسان موديل سبعة وثمانين، موديل ستين، موديل سبعة وخمسين ؟ لم أسمع بهذه أبداً، وهل طرأ عليه تعديلات أو تحسينات، أو هذا درجة رفيعة مثلاً، أو هذا درجة أولى ؟

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

ما من مخلوقٍ إلا حينما خُلِقْ كان قمةً في الإتقان.

(صُنْعَ اللّهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: آية " 88 ")

يمتطي مركبة تكون أحدث مركبة، وأحدث شكل، توقف فجأةً لسبب تافه جداً.. بسبب قشة وقفت.. هل يوجد إنسان وقف، وجمد بأرضه ؟ وصار به عطل ؟ يظل الإنسان ماشياً، حتى ولو كان جائعاً في المركبة ساعة لم تنتبه لها يحترق المحرك، ساعة الحرارة، يدير حديثاً ممتعاً مع صديقيك، حصل في المحرك خطأ، فارتفعت الحرارة فاحترق المحرق، فلو كانت هناك ساعةٌ صوتية لنبهتك، أما إذا كان

السائق ضعيف السمع يحترق المحرق، أما الجوع يا ترى ما هذا الجوع ؟ ساعة مرئية، أم ساعة صوتية ؟ جهاز دقيق جداً، يقول لك: أنا جائع سأموت من جوعي.

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

لا موازنة بين خلق الله وصنع الإنسان:

لو أردت أن تجري موازنة، فلابدّ من طرح سؤال: مَن منا اشترى سيارة، ثم وجد سيارة أخرى ذات قياس صغير قد ولدتها ؟ باع الصغيرة، وأبقى على الكبيرة، أو أعطى الثانية لابنه، هذه لم نسمعها في حياتنا، بينما حصانك أو بقرتك تتوالد.

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

فالمجال واسع جداً لو أردت أن تعمل موازنة بين خلق الله عزّ وجل الكامل وبين بعض المصنوعات البشرية تجد مسافات كبيرة جداً.

وبعضهم يقول: سمي الإنسان خالقاً من باب المُشاكلة، وبعضهم يقول: الخلق بمعنى صنع شيءٍ من شيء، أما ربنا عزّ وجل خالق وبارئ، الخالق البارئ المصور، على كلٍ الآية لا تزيد عن أن تلفت النظر إلى صنع الإنسان، صنع الإنسان يتكامل لأن الإنسان بالأساس ضعيف خبرته تأتي من التجربة، والدليل: إذا اطلعت على صورة سيارة عام 1912 مثلاً، انظر، وأجْرِ موازنة، تجد فيها حركة واحدة أول فقط، الإضاءة فوانيس، يشعل عود الثقاب يملأ الزيت، ثم يشعل الضوء، هكذا كانت السيارة سابقاً، لها صوت يملأ الدنيا ضجيجاً، سرعتها قليلة جداً، حَدّثني رجل أن القطار الأول صنع ببريطانيا عينوا له موظّفاً يمشي أمامه لينبّه الناس لكي لا يدهسهم، الآن سرعته ثلاثمئة وستين كيلو مترًا في الساعة الواحدة..

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

هذا خَلْقُ اللهِ:

اسأل من يرعى الغنم، ربما تجاوز عدد أغنامه المئات، وقد توالدت، فكيف تعرف (السخلة) أمها ؟ والله شيء صعب، كل سخلة تتجه نحو أمها أو بالعكس:

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

فالغنم اجتماعي بطبعه، والكلاب دائماً متفرقة، فهل يمكنك أن ترعى كلاباً، وتسوقها معاً ؟

لا تقدر أن ترعاها، لأن كل واحد في جهة، لكن الغنم مذلل، لو كان الغنم بأخلاق الضباع، أو بأخلاق الذئاب لما استفدنا منها، الإنسان يقفز من أفعى أو من عقرب، أما الجمل وزنه ثمانمئة كيلو، وتجد طفلاً يقوده، من الذي ذلله ؟

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

تمضي كل حياتك، كل الحياة تمضي، ولا تمضي الموازنة بين خلق الله، وبين صنع الإنسان:

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

ومعنى تبارك الخير الكثير، فروث الغنمة أحسن أنواع السماد.. أغلى أنواع السماد روث الغنم والبقر.. تفلح فداناً من الأرض بقرة، روثها كافٍ ليكون سماداً لهذا الفدان، فالصوف نستفيد منه، والجلد نستفيد منه، والأمعاء نستفيد منها، والعضلات لحم، والدهن مواد دسمة، والعظام لها فوائد، والحليب سبحان الله:

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

الإنسان يخلق هدفاً، يصنع شيئاً له لهدف واحد، أما ربنا عزّ وجل كل شيء ينتجه الحيوان فيه خير، فالآن مشكلة التلوث في العالم هي أكبر مشكلة، فهذه المعامل لها فضلات كيميائية، ولها دخان، ولكن خلق الله عزّ وجل فضلاته مفيدة، روث البقر، وروث الدجاج كله مواد مهمة جداً في حياتنا، فالناتج هو أنه لا يوجد شيء يلوث البيئة، أو يزعج الحياة.

عندنا سؤال دقيق: هذا الخلق العظيم، خلق مذهل، وبعد هذا يموت الإنسان ؟!! فمثلاً: إذا عمّر إنسان بناء خلال عشرين سنة ؛ وضع الأساسات، وحفر، وبعد هذا طلع إلى أول طابق والثاني، وبلّط، ودهن، ووضع الحمّامات والمطابخ، وعمل مدخلاً فخماً، وبعدما انتهت سكنها خمس سنوات، وبعد هذا أحضر آلات وهدمها، فإنك تقول: إن هذا الإنسان جن، لماذا هدمها ؟ فالموت هدم للإنسان، فالإنسان خُلِقْ بأبدع صورة فلماذا الموت ؟ حتى الإنسان لا يتساءل لماذا الموت ؟ قال تعالى:

(ثُمّ إِنّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيّتُونَ (15) ثُمّ إِنّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16))

(سورة المؤمنون)

الموت مصير كلّ المخلوق:

هذا موت موقّت، وبعد هذا هناك حياة أبدية، فالإنسان خُلق لكي يحيا حياةً أبدية، أما الحياة دون آخرة صعب تفسيرها، الحياة الدنيا وحدها دون موت دون آخرة فيها خلل، لأن خلق عظيم والعمر قصير،

الآن ترى الإنسان حتى يتمكّن أن يكسب يصل إلى الثلاثينات، والأعمار بين الخمسين والستين، فيقدر ما يعيش حياة معقولة بقدر ما يُعِدُّ لها، فلا يوجد تناسب، فربنا عزّ وجل قال:

(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)

(سورة المؤمنون)

هذه مشيئة الله:**" كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت ".**

الليل مهما طـال فلا بدّ من طـلوع الفجر

و العمر مهما طـال فلابدّ من نزول القبر

*** * ***

الأنبياء يموتون، والأغنياء يموتون، والفقراء يموتون، والذين يعتنون بصحتهم العناية الفائقة يموتون، والذين لا يعتنون يموتون، والذين يغامرون يموتون، والذين لا يغامرون يموتون، الموت حق، فلما كشف سيدنا الصديق رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن وافاه الأجل قال: **" طبت حياً وميتاً يا رسول الله، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها ".**

لا يوجد غيرها، فإذا المؤمن اجتهد في الحياة الدنيا حتى استحق مرضاة الله عزّ وجل يوجد له موتة واحدة فقط، وبعدها في جنّات الفردوس إلى أبدِ الآبدين:

(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16))

(سورة المؤمنون)

ثم بعد الموت البعثُ والحساب:

لولا البعثُ بعد الموت لما كان للحياة من معنى، لأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وابتلاهم، فوزّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسيوزّع الحظوظ في الآخرة توزيع جزاء، لذلك من لوازم الإيمان بالله أن تؤمن بأسمائه كلِّها، ومن أسمائه الحق، وهذا الاسم لا يتحقق إلا يوم القيامة، لأنه ليجزي كل نفسٍ بما كسبت:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)

(سورة المؤمنون)

معنى: سَبْعَ طَرَائِقَ

طبقات الجوّ سبع:

بينت لكم في درسٍ سابق كيف أن السماوات التي فوق الأرض سبع سماوات، إما سبع بالعد الصحيح، وإما سبع كثرة، والعرب تذكر سبعة، وأضعاف السبعة للكثرة، سبع سماوات أي سماوات كثيرة، سبعون التكثير بالمئات، والسبعة للعشرات، فعلى كلٍ فهناك مجموعة طبقات فوق الأرض، من طبقة الهواء الأولى، إلى طبقة المواد الكبريتية، إلى طبقة الأوزون، إلى طبقة التأيُّن، طبقات ذكرتها في درسٍ سابق أو في خطبةٍ سابقة، وكيف أن الطبقة الأولى يزيد سمكها على ثمانية عشر كيلو مترًا، فيها الرياح، والسحب، والأمطار، والثلوج، والبَرَد.

والطبقة الثانية فيها مواد كبريتية تلقِح الأمطار، وعن طريقها يصبح الغيم مطراً، وبعدها توجد طبقة الأوزون، وبعدها توجد طبقة بحيث أن كل جسم من السماء إذا وقع على الأرض يتشهّب في هذه الطبقة، وبعدها توجد طبقة السحب القطبية، إلى ما هنالك من معلوماتٍ دقيقة يختصُّ بها بعض علماء الفلك، على كلٍ ربنا عزّ وجل جعل السماء فوقنا طبقاتٍ، وكل طبقةٍ لها وظيفة، وهذه الوظائف جمعت في قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً)

(سورة الأنبياء: آية " 32 ")

السماء سقف حافظ محفوظ:

أي حافظاً للأرض من كل جسمٍ خارجي عنها ومن كل أشعةٍ قاتلة، فالأشعة القاتلة تمتصُّها طبقة الأوزون، والأجسام الكوكبية في السماء إذا وقعت على الأرض فإن الطبقة التي تزيد حرارتها عن ألف وخمسمئة درجة كفيلةٌ أن تجعلها متشهّبة، وأن تجعلها رماداً لا يُرى ولو تحت عدسة الميكروسكوب:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)

أي أن الله سبحانه وتعالى في السماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ، إذا كان قد خلق السماوات فهو إلهٌ في الأرض، إذا كان هو الذي خلق المجرّات والسُحب، والنجوم، والشموس، والأقمار، هو نفسه في الأرض إله:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

كل هذه السماوات العُلا:

(وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)

(سورة المؤمنون)

معنى: وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ

المعنى الأول:

بعضهم يقول: إن الملائكة تعبر هذه السماوات السبع لترفع إلى الله سبحانه وتعالى أعمال الإنسان:

(وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)

المعنى الثاني:

وبعضهم يقول: إن الله سبحانه وتعالى ما كان غافلاً عن السماوات، خلقها فأبدعها وجعلها محكمةً، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

(سورة فاطر)

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

معنى: بِقَدَرٍ:

المعنى الأول:

قال العلماء: بقدر أي بنسب ثابتة ؛ تركيب الماء أي الهدرجين، والأوكسجين، ذرتين لذرة، فإن هذا التركيب مُعْجِز، هذا التركيب مؤلَّف من عنصر مشتعل وعنصر يساعد على الاشتعال، وبه تُطفئ النار، لذلك تعديل طفيف في بنية الماء تصبح المياه كُلُّها لهيباً، لذلك:

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

(سورة الطور)

من بعض تفسيراتها أن البحار تصبح نيراناً يوم القيامة، فهذا الماء ذرتين من الهيدروجين، وذرة من الأوكسجين، عنصر مشتعل، وعنصر يعين على الاشتعال، ويوجد معه مواد أخرى، وهي مواد منحلة من الصخور تناسب طبيعة الإنسان، والماء المُقَطَّر لا ينفع الإنسان وحده ما لم يخلط بمياه الآبار، لذلك وحدات التقطير التي على سواحل البحار يُضاف إلى مائها ماء بعض الآبار كي يكون صالحاً للشرب.

بِقَدَر أي نسب المواد، يقول لك: بالعشرة آلاف ذرة من الفلور بالماء من أجل وقاية الأسنان، يوجد فلور، يوجد كالسيوم، يوجد مغنزيوم، هناك مجموعة معادن في الماء، فهذا الماء بقدر أي إنه بنسب مقدَّرة.

المعنى الثاني:

أي بحجم مناسب، الآن في السودان يوجد فيضانات هذا حجم أكبر مما يجب، فأطاح بآلاف المساكن، ومليون إنسان بلا مأوى، وقتلى بالألوف، لأن الماء بحكمة بالغة لا يعلمها إلا الله، فالماء له حد مفيد جداً، يوجد حد آخر يصبح الماء مدمِّراً:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة المؤمنون: آية " 18 ")

يقول علماء الجيولوجيا: إن في عصور مطيرة بقيت حبال من السماء تهطل عشرة آلاف سنة بشكلٍ مستمر حتى تشكَّلت البحار.

قال ربنا عزّ وجل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: آية " 21 ")

يهطل في هذه البلد مئتا ميليمتر، وفي هذه مئة وخمسون، وفي تلك خمسون، هذه خط المطر خارج الجفاف، هذه المنطقة ألف ميليمتر، هذه خمسمئة، هنا جبال خضراء، وهنا ساحل، كل منطقة لها كمية أمطار مناسبة:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ)

بُنْيَةُ الماء، وعناصره، وبعض المعادن المنحلة فيه بقدر، وحجمه بقدر، ووقته بقدر، لو نزل الماء في غير أوانه لكان مؤذياً، ولم نستفد منه، وكان نزوله عبثاً، فأصبح معنى كلمة بقدر لها ثلاثة معانٍ: بنسبه، وكميته، ووقته:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ)

(سورة المؤمنون)

تيسير اللهِ تعالى لخَلْقه الانتفاعَ بالماء:

من الذي جعل في الأرض طبقةً كتيمة، وبعدها طبقةً نفوذة، وبعدها طبقةً كتيمة، وبعدها تربة الأرض؟ من الذي جعل هذا ؟ لو لم تكن تلك الطبقة الكتيمة في الأسفل لغار الماء:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة الملك)

إنه الله سبحانه وتعالى.

لو اطلع رجلٌ على ما يدرسه الإخوة الجيولوجيون لوجد أن بنية الأرض شيءٌ يأخذ بالألباب، فجزيرة فيها نبع ماء كأرواد مثلاً، هذا يقتضي أن يكون هناك تمديدات تحت سطح البحر إلى جبال طرطوس، لا يمكن إلا أن تكون هكذا بحسب مبدأ الأواني المستطرقة، نبع في جزيرة منبسطة تحتاج إلى خزّان في مكان مرتفع في الطرف الثاني من اليابسة، ولابدّ من تمديدات تحت سطح البحر، في بعض البلاد توجد أربعة آلاف جزيرة، أو خمسة آلاف، أو عشرين ألف جزيرة، كل جزيرة لها نبعها الذي يكفي أهلها.

هناك شيء آخر: بعض الجبال فيها حيوانات مثل الوعول تعيش في رؤوس الجبال، ربنا عزّ وجل جعل لها ينابيع، هناك ينابيع في قمم الجبال، وليس هناك من تفسيرٍ لهذه الينابيع إلا أن تكون خزّاناتها في جبالٍ أخرى أكثر ارتفاعاً، إذا وُجِدَ نبع في قمة جبل معنى هذا أن خزانه في جبل آخر أعلى منه، هذه كلها آيات دالّة على عظمة الله عزّ وجل:

(فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ)

(سورة المؤمنون: آية " 18 ")

فهذا نبع الفيجة ربنا عزّ وجل جعله لهذا البلد الطيب، لا يوجد بلد في العالم فيها ماء كهذا الماء، على مدار السنة ستة عشر مترًا مكعبًا في الثانية الواحدة، ترتفع إلى عشرين، وتنزل إلى خمسة في أيام الجفاف، على كلٍ يوجد عطاء مستمر، فأين هذا المستودع ؟ أين هذا الخزان ؟ ربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر)

وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ

فمن الذي خزنه ؟ أنت عليك أن تفتح الصنبور، وتملأ كأس الماء، لكن هل تعلم من الذي خزّنه لك طوال العام ؟ كيف كان بخاراً، فأصبح سحاباً، فساقه الله إلى بلادنا، فجعله مطراً أو ثلجاً، ثم غار في أعماق الأرض، فتجمّع في هذا الحوض ؟ الحوض بالمعلومات الأولية مساحته إلى حمص، ومن نصف

لبنان إلى سيف البادية، هذه المعلومات الأولية، هناك معلومات أوسع بكثير، من جعل هذا الخزان من الماء ؟

(فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

قدرة الله في الذهاب بالماء:

فإذا كان للإنسان نبع ماء، أو عنده محرك يخرج الماء، فإن هذا من فضل الله عزّ وجل، لذلك ممنوع أن يحفر آبارًا ارتوازية إلا الخبراء، فلو ثقبوا أرض مجمع للماء يغور الماء كله في طبقات عميقة في الأرض، وينتهي الماء كُلِّياً، ربنا عزّ وجل مصمم هذا الحوض المائي تحته طبقةٌ كتيمة، ثم طبقة مجوّفة، بعده طبقة كتيمة، وبعدها طبقة نفوذة، وبعدها التربة، هذا تصميم إلهي، أي غلط بهذا الينبوع يغور الماء:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)

(سورة المؤمنون)

لولا هذا الماء لما كانت الجنّات، ترى أرض صحراوية في داخلها مزرعة كلها أشجار، وكلها أثمار، وكلها أزهار، السبب هناك محرك ماء، هذا الماء هو الذي جعل من هذه الأرض القاحلة جنةً على وجه الأرض، كذلك الماء من السماء، لا يوجد مكان فيه خَضَار إلا وفيه ماء نبع، أو نهر، أو أمطار:

(فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 19 ")

إخراج النبات بالماء:

هذه لكم أي خصيصى لكم، من أجلكم، إكراماً لكم، فالإنسان عندما يأكل فواكه، أو ثمار، أو خضراوات، أو محاصيل، عندما يشرب كأساً من الماء فإن هذا مخلوق لنا خصيصى، لهذا النبي الكريم كان أحمدَ الخلق، إذا أكل قال:

((بسم الله))

وإذا انتهى قال:

((الحمد لله الذي أطعمني فأشبعني وسقاني فأرواني))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

هكذا كان يدعو عليه الصلاة والسلام.

(فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ)

يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ

كل هذه الفواكه تُسْقَى بماءٍ واحد..

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

(سورة الرعد: آية " 4 ")

هذا خوخ دُب، هذا أبو ريحة، هناك فرق كبير جداً بينهما، ونفضل بعضها على بعضٍ في الأُكل، هذا كرز هنا فجل، هنا فستق حلبي وهنا فستق عبيد، هنا خس، أي أن كل شيء بسعر، وكل شيء بطعم، وكل شيء بلون، وكل شيء له وظيفة، فهناك أنواع منوّعة من النبات، وكلها تسقى بماءٍ واحد:

(فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ)

هذا النخل.. ستة آلاف عام تعيش النخلة.. هناك نخلٌ من قبل ميلاد سيدنا المسيح، من عهد الفراعنة، زارني شخص وقال لي: إن هذا التمر من المدينة، وهناك تمرات كانت على عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فقلت له: يوجد تمر من قبل ستة آلاف سنة، هذا النخيل يُعَمِّر، والزيتون يعمر، هناك زيتون من عهد سيدنا عمر:

(فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 19 ")

كل أنواع الفواكه:

(وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ)

(سورة المؤمنون)

زيت الزيتون:

هذه الزيتون:

(تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ)

(سورة المؤمنون: آية " 20 ")

فإن أرقى المواد الدسمة هو الزيت البلدي:

(تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ)

وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ

الصبغ هو الإدام، إما أن تأكل الزيتون، فهو إدامٌ من أعلى درجة لك مع الخبز، وإما أن تعصر الزيتون فتستخدمه زيتاً، وهو مادةٌ دسمة من أرقى أنواع المواد الدسمة، فربنا عزّ وجل جعل من الزيتون آيةً دالةً على عظمته، لباب الدراق هو ماء سكري، أما الزيتون يوجد فيه زيت، مواد دسمة، الزيت دهن نباتي:

(تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ)

الصِبغ كما قال بعض العلماء: هو الإدام المائع. قال عليه الصلاة والسلام:

((نِعمَ الإدام الخل))

(أبو داود عن جابر)

فالإدام المائع يقال له: صبغ..

(وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ)

الزيتون غذاء من الدرجة الأولى، وحينما كنا طلاباً في المرحلة الثانوية علّمونا أن في قطرنا - والحمد لله - ثلاثة عشر مليون شجرة زيتون، هذا الرقم في الستينات، أما الآن أعتقد أكثر بكثير، سورية تُعَد الدولة الثالثة في العالم في إنتاج زيت الزيتون، فهذه الآية دالة على عظمة الله عزّ وجل:

(وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ)

(سورة المؤمنون)

كأن الله سبحانه وتعالى أشار إلى أن هذه الشجرة قد وجُدت في طور سيناء أي في الجبل الذي كلّم الله به موسى في فلسطين، وسيناء صفةٌ محببةٌ في الجبل أن يكون مكسواً بالأشجار:

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 21 ")

في الأنعام عبرة:

هذا الحليب، تأكل بوظة في الصيف من الحليب، تأكل في الشتاء من الحليب، وتأكل الجبن صباحاً من الحليب، تأكل لبناً من الحليب، لبناً رائباً ومصفى، سمن بلدي من أجود أنواع السمون، قشطة، شمندوراً، زبدة كلها من الحليب، ربنا عزّ وجل قال:

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا)

من أعاجيب الغدة الثديية عند البقرة:

والغدة الثديية يدور فيها أربعمئة لتر دم من أجل تصنيع لتر واحد من الحليب، وحتى هذه الساعة لا يعلم العلماء ماذا يجري في خلية البقرة، فالخلايا الثديية في البقرة كالقُبة يجري حول شرياناتٌ دقيقةٌ جداً فيها دماء، فهذه الخلية تأخذ من الدم حاجتها، وتصنِّعها، وتلقي بقطرةٍ من الحليب في جوف هذه القُبة، هذه الخلية أعلم من علماء الأرض كلها، يمر الدم من فوق فتأخذ من الدم حاجتها ؛ البروتين، والسكر، والفيتامينات، والمواد المعدنية، تأخذه من الدم وتصنعه حليباً سائغاً:

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصًا سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ)

تقطر قطرة من داخل القبة تتجمع في ثدي البقرة، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا)

هذه الغنمة نفسها، والبقرة نفسها:

(مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 21 ")

آخر أيامها تذبح فتباع لحماً، وجلدها يصير أحذية، وأشياء كثيرة من أحشائها نستفيد منها، والغنمة كذلك، والماعز، والإبل:

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

هذه:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

(وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

الناقة سفينة الصحراء:

تمتطيها في البر، وتركب السفن في البحر، فربنا عزّ وجل حمل الإنسان في البر وحمله في البحر، حتى لا يقول أحد: يا أخي نحن لا يوجد عندنا طائرات نفّاثة حديثة جداً، قال له:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

القرآن مُعْجِز يُغَطِّي كل الأزمان والأمكنة:

(وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (4-8): تفسير الآيتان 23 – 33
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-08-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الرابع من سورة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

(سورة المؤمنون)

إرسال الرسل من رحمة الله بعباده:

ربنا سبحانه وتعالى رحمةً بعباده، وإكراماً لهم أرسل إليهم الأنبياء والرسل، كما لو أنّ أباً أعطى ابنه حرية الاختيار، ومع ذلك نصحه، وبيّن له، ووجّهه، فالله سبحانه وتعالى إذا أعطانا حرية الاختيار، لقول الله عزّ وجل:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29 ")

وقال:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

وقال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

مع أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا حرية الاختيار، لكنه منّ علينا بأن بعث فينا نبياً رسولاً يعلمنا الكتاب، والحكمة، ويزكينا، ويعلمُنا ما لم نكن نعلم، فالأنبياء وما جاؤوا به من كتبٍ سماوية إنما هم رحمةٌ مهداة للبشرية، لذلك:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة المؤمنون: آية " 23 ")

فربنا عزّ وجل عرض علينا الأمانة، وحملها الإنسان، بينما السماوات والأرض أشفقن من حملها، فلما حملها الإنسانُ سخر له ما في السماوات والأرض تسخير تعريفٍ، وتسخير إكرام، فالسماوات والأرض من جهةٍ تتعرّف بها إلى الله سبحانه وتعالى لأنها تجَسِّد أسماءه الحُسنى، وصفاته الفُضلى، ومن جهةٍ

هي إكرامٌ كبيرٌ لهذا الإنسان، فالإنسان حينما حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات والأرض تسخير تعريفٍ، وتسخير تكريم، لذلك رد الفعل يجب أن يكون هو الإيمان والشكر، تسخير التعريف يجب أن تؤمن به، وتسخير التكريم يجب أن تشكره، فلذلك يقول سبحانه وتعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: آية " 147 ")

لماذا إن شكرتم وآمنتم ؟ لأن الله سبحانه وتعالى سخَّر لنا ما في السماوات وما في الأرض تسخير تعريفٍ من أجل أن نؤمن، وتسخير تكريمٍ من أجل أن نشكُر، وبعد أن سخَّر لنا ما في السماوات والأرض منحنا العقل، العقل قوةٌ إدراكيةٌ كبيرة ز

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

ما قيمة السماوات والأرض دون هذا العقل ؟ لا نعرف الله إلا من خلاله، وما قيمة هذا العقل دون السماوات والأرض ؟ إذاً وتفضّل علينا أيضاً بأن منحنا تلك الجوهرة الثمينة التي هي العقل، ولولاها لما ارتقينا إلى الله، سخَّر لنا السماوات والأرض، ومنحنا قوةً إدراكيةً هي نعمة العقل، وأودع فينا الشهوات من أجل أن نرقى بها إلى ربِّ الأرض والسماوات.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

(سورة آل عمران: آية " 14 ")

هذه الشهوات نرقى بها إلى الله على حدِّيها، على حدِّ الشكر وعلى حدِّ الصبر، فمن غضَّ بصره عن محارم الله، وقد أودع الله فيه حب النساء ارتقى صابراً، ومن سلك الطريق التي رسمها الله عزَّ وجل الشرعية ارتقى إلى الله شاكراً، من كَسِبَ المال الحلال فتنعَّم به في الدنيا ارتقى، هذا الإنسان بسبب حبه للمال ارتقى إلى الله شاكراً، ومن ترك المال الحرام، وهو في أمسِّ الحاجة إليه ارتقى إلى الله صابراً، إذاً منحنا الكون، ومنحنا العقل، ومنحنا الشهوات، كلُّ هذا من أجل أن نرقى به، وتفضّل علينا بأن أرسل إلينا الأنبياء والمرسلين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، إذاً الكون، والعقل، والشهوة، وحرية الاختيار، لولا أن الإنسان مخيَّر لما ارتقى إلى الله عزَّ وجل، لو أنَّه مُكْرَه لا يرتقي إلى الله، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، إنما خيرهم، إذاً مقومات التكليف، المقومات تسخير الكون، ومنحة العقل، وإيداع الشهوة، والتخيير، والرُسل والأنبياء، والشرع، هذه الكتب التي أنزلها على أنبيائه ورسله، لذلك ربنا عزَّ وجل في هذه الآية يَذْكُر لنا بعضاً من مِنَنه على عباده:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا)

والله هو المرسِل، ومن لوازم الحكيم أن أفعاله كلّها حكيمة، وهذا الذي أرسله صفوة الخلق، لأن الله عزّ وجل قال:

(إِنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

وصفوة الصفوة سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم، هؤلاء الأنبياء مُصْطَفَوْن، أخيار، عبادٌ مكرمون، مُثل عُليا، نماذج بشرية كاملة، فكأن هؤلاء الأنبياء قد حققوا الهدف الذي من أجله خُلِق الإنسان، خُلِقَ الإنسان ليعرف الواحد الديّان، خُلق الإنسان ليتّصف بالأخلاق الحِسَان، فإذا اكتفى بالطعام والشراب فهو ما ارتقى عن مستوى الحيوان، إذا كانت حياة الإنسان طعاماً وشراباً، وعملاً ورفاهيةً، ومُتعاً رخيصةً فإن هذه الحياة على غناها، وعلى تنوعها، وعلى ما تحتاج إليه من أموالٍ طائلة فإنها لا ترتقي فوق مستوى الحيوان أبداً، لن يكون الإنسان إنساناً إلا إذا كان قد عرف الله عزّ وجل، واصطبغ بالكمالات الإلهية حتى ينعَم بقرب الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ)

نوح عليه السلام أولُ رسل اللهِ:

سيدنا نوح أوّل الرسل الذين هم من أولي العزم، الأنبياء كثيرون، والرسل أقل منهم، وأولي العزم بعض الرسل، وهذا أول رسولٍ من رسل الله عزّ وجل الذين وصفوا بأنهم من أولي العزم..

(فَقَالَ يَا قَوْمِ)

(سورة المؤمنون: آية " 23 ")

والرسول معه رسالة، وهذه الرسالة موجّهة إلى أمته، وإلى قومه، وإلى كل من عاصره..

(فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ)

دعوة الأنبياء: التوحيد في عبادة الله:

علماء التوحيد قالوا: لا تسمّى عبادة الله عبادةً إلا إذا كانت عبادةً قاصرةً على الله عزّ وجل، فمن عبد الله، وعبد غيره لا يسمى عابداً لله، يسمى مشركًا، فمن لوازم العبادة ألاّ تعبد إلا الله، والدليل في سورة الفاتحة قوله تعالى:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

لم يقل الله عزّ وجل: نعبد إياك، بل قال:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

ومعنى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

حينما يتقدم المفعول به على الفعل فهذا من أجل القصر، والقصر يعني أن تَقْصُرَ شيئاً على شيء:

(فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ)

والعبادة في أدقّ مفاهيمها التوجُّه إلى الله بعد طاعته، تطيعه وتتوجَّه إليه، ولن تطيعه إلا إذا عرفته، ولن تعرفه إلا إذا فكّرت في ملكوت السماوات والأرض، إذا فكّرت في آياته الدالة على عظمته تعرفه، فإذا عرفته تطيعه، فإذا أطعته توجّهت إليه، فإذا توجّهت إليه سعدت بقربه في الدنيا والآخرة:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

عِلّة الخلق أن تعبد الحق:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر)

فلذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: آية " 32 ")

لا إله إلا الله لا مسيَّرَ بحقٍ إلا الله، لا معبودَ بحقٍ إلا الله، هذا الذي خلق السماوات والأرض، هذا الذي يُربّي مخلوقاته بأن يمدهم بكل ما يحتاجونه، رب العالمين، هذا الذي يسيّر كل شيء هو الإله، فلا بدّ أن تؤمن بالإله خالقاً، ولا بدّ أن تؤمن به مربياً، ولا بدّ أن تؤمن به مسيراً، إذا آمنت به خالقاً، وآمنت به مربياً، وآمنت به مسيراً، فلا بدّ أن تعبده، أمرك كله معه.

أنت كموظف في دائرة إذا أيقنت أن الحل والربط، والمنع، والسماح، والموافقة، والرفض، وكلها مجمّعة بيد إنسانٍ واحد، عندئذٍ لا تتجه إلى غيره، لا تُرضي غيره، لا تكسب ود غيره، تجعل علاقتك كلها مع هذا الإنسان، وهذا في المنطق الاجتماعي اليومي، فإذا أيقنت أنه لا إله إلا الله، إذا أيقنت أنه إليه يرجع الأمر كله، إذا أيقنت أن الله خالق كل شيء، وهو على كل شيءٍ وكيل، إذا أيقنت أنه بيده ملكوت السماوات والأرض، إذا أيقنت أنه:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

إذا أيقنت أنه لا حركة، ولا سكنة، ولا رفع، ولا خفض، ولا عزّ، ولا ذُلّ إلا بيد الله عزّ وجل، جمعت كل طاقاتك، وتوجهت بها إلى الله وحده، علاقتك مع الله عزّ وجل، أمر جسدك، وأمر أسرتك، وأمر عملك، وأمر تجارتك، وأمر دراستك، وأمر معملك، وأمر جيرانك كلها بيد الله عزّ وجل، فَعَلامَ التشتُّت؟ علامَ التبعثر ؟ ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

تعذِّب نفسك عندما ترى أن أمرك بغير يد الله، وأن هذا الإنسان لا يحبك، يكيد لك، يتمنّى زوالك، وأمرك بيده، فإن هذا شيءٌ لا يحتمل، فسيدنا عليٌّ كرم الله وجهه يقول: **<< والله واللهِ، مرتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين إلى أرض الصعيد بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين >>.**

هذا الإمام الكريم سُئل: ما هو الذل ؟ فقال: **<< أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردُّه >>.**

لما يتوهّم الإنسان أن أمره، ورزقه، ورفعته بيد فلان، وأن زيداً من الناس بإمكانه أن يوقع به الأذى، وأن عمراً بإمكانه أن ينفعه، هذا هو الشرك، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إنّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوّفُ عَلَى أُمّتِي الإِشْرَاكُ بِاللّهِ، أَمَا إِنّي لَسْتُ أَقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلا قَمَرًا، وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أَعْمَالا لِغَيْرِ اللّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيّةً))

(سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس)

أن اعبدوا الله، يجب أن تعرفوه أولاً، فإذا عرفتموه أطعتموه، وإذا أطعتموه توجّهتم إليه، وإذا توجهتم إليه سعدتم بقربه في الدنيا والآخرة..

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

علّة الخلق أن تعبده، فإذا عبدته فقد فعلت كل شيء، وإن لم تَعْبُده لم تفعل شيئاً، وخسرت الدنيا والآخرة، وخسرت نفسك، لذلك ربنا عزّ وجل في آيات أخرى يُلخِّص دعوى الأنبياء جميعاً، في آيات أخرى يلخِّص الله سبحانه وتعالى رسالات الأنبياء جميعاً إذ يقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

في سوَرٍ أخرى يجعل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ترد على لسان جميع الأنبياء والمرسلين:

(أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: آية " 32 ")

أن تعرف أنه لا إله إلا الله هذه هي العقيدة، وأن تعبده هذا هو العمل، ولا بدّ من عقيدةٍ وعمل، لا بدّ أن تعرفه، ولا بدّ أن تطيعه.

(أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

إذا عرفت اللهَ فكيف تعصيه وتطيع غيرَه ؟!!

إذا كان الله هو الذي لا إله إلا هو ولا إله سواه، فكيف تطيع غيره، وتعصيه ؟ كيف تتقي غضبه ؟ كيف تتقي عذابه؟ كيف تتقي ناره ؟ قال أحد العلماء: قرأت أربعمئة ألف حديث **"، بعض كتب الحديث فيها ستمئة ألف "**، لكن بعض العلماء كالإمام الإشبيلي رحمه الله تعالى قال: **"قرأت أربعمئة ألف حديث، وقرأت حديثاً واحداً فوجدت أنه يغني عن كل هذه الأحاديث "**، حديث واحد، هذا الحديث:

((اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مُقامك فيها))

(ورد في الأثر)

إذا الحياة ستون أو سبعون سنة، والآخرة للأبد، فيجب أن تعمل للآخرة أضعاف أضعافَ ما تعمل للدنيا..

((.. واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتقي النار بقدر صبرك عليها))

(ورد في الأثر)

حاجة العبد إلى الله في كل حياته:

أنت محتاج لله عزّ وجل في ضربات قلبك، في الدَسّام، في الشرايين، في الأوردة، في العضلات، بأن تكون شرايين الدماغ كلها سالكة، لأنّ نقطة دمٍ إذا تجمدت في شريان أصيب المكان بالشلل، في مكان آخر أصيب بالعمى، مكان غيره أصيب بالجنون أو بالصمم، فنحن بحاجةٍ إلى الله عزّ وجل في كل ثانية، يد من تدخل إلى الدماغ ؟ فتح الدماغ عملية معقدة جداً، والقلب كذلك، والرئتين مثلها، المعدة، الأمعاء أجهزة الإنسان معقدة جداً، فربنا عزّ وجل كل هذه الأجهزة بيده.

أضرب مثالاً: توقف فجائي في الكليتين، هبوط مفاجئ في وظيفة الكليتين، معنى ذلك أن الإنسان يتسمم دمه، ولابدّ من غسلهما كل أسبوع مرتين، ومع الغسيل يبقى في الدم رواسب من السموم تجعل الحياة كالجحيم، فالإنسان بحاجة إلى الله عزّ وجل، وهو معكم أينما كنتم:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

(سورة المؤمنون)

أشخاصٌ كثيرون ناموا أصحّاء ثم استيقظوا مرضى، نام سليمًا معافى، فاستيقظ فاقد البصر.

(أَفَلَا تَتَّقُونَ)

كيف تعصونه، وتتقون غضبه ؟ كيف تتقون عذابه ؟ كيف تتقون المصائب ؟

((ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدّمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

(الجامع الصغير عن البراء بسند فيه ضعف)

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 24 ")

عادة الكفار ردّ دعوةِ الأنبياء لكونه بشَرًا:

دائماً الذين كفروا يصدُّون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً، يصدون الناس عن سماع الحق.

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

هذا إنسان عادي مثلكم، ولكنه يحب الزعامة.

(يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

(سورة المؤمنون)

لو أن الله سبحانه وتعالى أنزل مكان هذا النبي الكريم ملكاً، وأمرهم بغض البصر ماذا يقولون له ؟ يقولون: أنت ملك، نحن عندنا شهوة، نحن بشر، أنت ملك ونحن بشر، لا.. لا بدّ أن يكون النبي من بني البشر ليكون هو بذاته حجة على قومه، الله سبحانه وتعالى أودع في نفس النبي عليه الصلاة والسلام من الشهوات ما أودع في كل إنسان، لماذا هذا ضبطها، وارتقى بها إلى الله ؟ ولماذا فلان انساق معها فألقته في الهاوية ؟ هو الاختيار، فلذلك لا يمكن أن يكون الرسول ملكاً، ولو أنه ملك لاحتجّ الناس بأن هذه الدعوة دعوة مثالية غير واقعية، لأن الذي يدعو بها ملك ليس فيه هذه الشهوات التي أودعت في الإنسان.

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

هذا شيء افتراء، هذا شيء مختلق، هل يعدُّ العدم السابق دليلاً على العدم الطارئ ؟ هذه حجة واهية، وهذه حجة فيها مفارقة، وفيها أغلوطة.

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24)إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)

(سورة المؤمنون)

اتهام الكفار للأنبياء بالجنون:

كان النبيُّ عليه الصلاة و السلام في الطريق يمشي مع أصحابه الكرام فمر مجنون

أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يلقِّن أصحابه درساً بليغاً، فقال: **من هذا ؟..** متجاهلاً.. فقالوا: هو **مجنون** ؟ قال:

((لا، هذا مصاب، المجنون من عصى الله))

لذلك:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

إذا أنت عرفت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، ونفّذت أوامره بحذافيرها، ووجدت بعض الأشخاص الذين حولك من أقربائك، من جيرانك، من زملائك يسخروا منك، اقرأ هذه الآية:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6))

(سورة القلم: 2 – 6)

" ابن آدم أطع ربك تسمّ عاقلاً ".. " كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه ".

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبـنـا

ولُذ بحمانا، واحتم بجنابنا لـنحميك مما فيه أشرار خلقنا

وعن ذكرنا لا يشغلنّك شاغلٌ وأخلص لنا تلقَ المسرة والـهنا

*** * ***

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)

(سورة المؤمنون)

أي أنه مجنون بنظر المجانين، أما بنظر العقلاء هو أعقل العقلاء، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من لا عقل له لا دين له، ومن لا دين له لا عقل له))

وعندما أسلم سيدنا خالد رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام:

((عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً))

أنت مفكِّر، أنت ذكي، كيف لم يهدك ذكاؤك إلى الإيمان، لماذا أنت متأخر في الإيمان ؟ هناك لوازم فمن علامات العقل الراجح الإيمان وطاعة الله عزّ وجل، ومن علامات الحمق الزيغ، والضلال، والمعصية، قلت البارحة لإنسان: إذا رأيت إنساناً له عملٌ طيّب فأغلب الظن أن اعتقاده بالله جيد، وإذا رأيت إنساناً زائغ العقيدة فأغلب الظن أن له عملا سيّئًا:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون)

هو نفسه:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

التلازم بين صحة الاعتقاد وصحة السلوك:

هناك تلازم بين صحّة العقيدة وبين صحة العمل، عقيدةٌ سليمة عملٌ صالح، عقيدةٌ زائغة عملٌ سيئ:

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)

أي به جنون، وقال بعض المفسرين: دخل فيه جِنّي، إما أنه به جنون، أي مصدر جَنَّة، أو به جِنَّة أي جِنّي مفرد جِنة..

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)

فغداً سيموت، وسوف ترتاحون منه، يموت وتنحل المشكلة، أي تربصوا موته، انتظروا موته حتى حين..

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)

(سورة المؤمنون)

استعانة الأنبياء بالله تعالى لنصرتهم:

هؤلاء كذبوني يا رب، هؤلاء سخروا مني، هؤلاء ردُّوا دعوتي، هؤلاء لم يستجيبوا لي، لم يؤمنوا بي، أعرضوا عن دعوتي، انصرني عليهم، بين لهم صدق دعوتي يا رب:

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)

أي أنت بأعين الله، أنت مُراقب من قبل الله عزّ وجل..

(اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)

أَمْرُ الله تعالى نوحًا بصنع السفينة:

الوحي هنا الأمر، الله سبحانه وتعالى أمر هذا النبي الكريم أن يصنع سفينةً، أمره أن يصنعها والله سبحانه وتعالى رقيبٌ عليه، أحياناً الإنسان يصدر أمراً، ولكن لا يوجد عنده إمكانية أن يتابعه، يصدر أمراً بمنع زراعة هذه المادة بالمنطقة الفلانية وزير الزراعة، ولكن يحتاج هذا الوزير إلى جهاز يتابع هذا الأمر، فإذا هذا الجهاز قصَّر في المتابعة قد يخالف هذا الأمر، ولا يُطاع،

لكن الله سبحانه وتعالى مع كل مخلوق:

(سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(سورة الحج)

(فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

فإذا أمر أمراً فهو يراقب هذا الإنسان..

(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

أمر الهلاك، هلاك هؤلاء القوم..

(وَفَارَ التَّنُّورُ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

من علامات بدء هلاك الكفار من قوم نوح: فوران التنور:

كانت علامة بدء الهلاك أنّ التنور الذي هو موقد الخبز يفور بالماء، ينبع من قعره الماء، فيفور من التنور..

(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

أي في السفينة..

(مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

من مبادئ الحفاظ على النوع والنسل:

أي من كل حيوانٍ أليفٍ تحتاجه، بعضهم فهم هذه الآية فهماً مغلوطاً فجمع الحيوان فقال: إن هذه السفينة يجب أن يكون طولها عشرة كيلو مترات، وهذا شيء مستحيل، فالقصة غير صحيحة، فربنا عزّ وجل لم يقل: من كُلّ زوجين اثنين.

(مِنْ كُلٍّ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

مقطوعةٌ عن الإضافة..

(مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

أي من كل حيوان أنتم بحاجةٍ إليه اسلكْ فيها زوجين اثنين.

(وَأَهْلَكَ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

هناك آية أخرى تقول في سورة هود، سيدنا نوح ركب في السفينة قال: أهله ومن كان معه من المؤمنين، هنا أهله فقط، هذه إشارةٌ إلى أن المؤمنين هم أهله، حينما اكتفى ربنا عزّ وجل في هذه الآية بكلمة وأهلك، أي أهلك هم المؤمنون، والمؤمنون هم أهلك، وفي بعض الأحاديث الشريفة:

((أهل القرآن هم أهل الله وخاصته))

(الجامع الصغير عن علي بسند صحيح)

(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

مغزى الآية: بيان سبيل النجاة وسبيل الهلاك:

معنى هذه الآية: أن الإنسان الذي أعرض عن الله إعراضاً كلياً، ورفض الحق، رفض هذه الدعوة، رفض هذه الرسالة، وأكَبَّ على الدنيا فإن هذا اختار الهلاك، عندئذٍ سبق عليه القول، كالطالب الذي لم يقدم امتحاناً.. رفض تقديم الامتحان.. ففي أثناء إعلان النتائج يُذكر أسماء الناجحين، أما الذين سبق عليهم القول بأن لم يتقدموا إلى الامتحان إطلاقاً هؤلاء لم ينجحوا، طبعاً لم ينجحوا، لأنهم رفضوا تقديم الامتحان كلياً، فهؤلاء الذين سينْجون هم أهل سيدنا نوح ؛ أقرباؤه، والمؤمنون:

(إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

الإهلاك بعد الإنذار وإقامة الحجة:

لأن ربنا رحيم، وربنا حليم، فحينما يأمر الله عزّ وجل بإهلاك قومٍ فمعنى ذلك أنه قد نبّههم، وذكّرهم ما فيه الكفاية، فلا خير من تذكيرهم:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

المؤمن الله يتلطّف فيه، كل غلطة صغيرة وراءها عقاب صغير:

((إذا أحب الله عبداً عجّل له بالعقوبة))

(ورد في الأثر)

((إذا أحب الله عبداً عاتبه في منامه))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

((إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه))

(الجامع الصغير عن أم سلمة بسند ضعيف)

أما المؤمن فيحِسُ أنه قد أذنب، فيأتي العِتابُ سريعاً، بل إن بعض المؤمنين دون أن تأتيهم العقوبة يشعرون أنهم مقصرون، مؤمنٌ أذنب، وهو ينتظر عقاب الله عزّ وجل، وعقاب الله لم يأتِ، وهو بانتظاره، إلى أن صلى، وناجى ربه وقال: **" يا رب، لقد أذنبت، لقد عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه أن يا عبدي لقد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذّة مناجاتي؟"**

فبعض المؤمنين يختلف عليه حاله مع الله عزّ وجل، كان مُقْبلاً فشعر بالجفوة، شعر بالحجاب، كأن حجاباً بينه وبين الله، هذا الحجاب وحده عقوبة، الابن الصالح لو أن أباه نظر إليه نظرةً غاضبة فإن هذه النظرة تجعله يبكي، ولكن الوقح إلى أن يضربه، أما الذي رُبّي تربيةً عالية ربما كان إعراضُ الأب عنه كافيًا لأن يوقِعَه في شقاءٍ كبير:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة المؤمنون)

الظلم سببٌ للهلاك:

كالطبيب فَتَحَ البطن فرأى أن المرض الخبيث منتشر في كل أنحاء البطن، يقول لك: لا يوجد أمل، ولا تخاطبني في هذا الموضوع، أحياناً يكون مرض الموات.. الغرغرين.. وصل إلى الركبة، يقول الطبيب: لا يوجد علاج والموت حتم..

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

أو لابدّ من بتر الساقين.. صاحب معمل حلويات دخل إلى المعمل، ولم تعجبه طريقة عجن العجينة، فأمسك قطعة العجين المعدة للمعمول، ووضعها على الأرض، وعركها بقدميه، بحذائه ليعَلِّم بعض الموظفين كيف يتم عرك هذا العجين تجبراً وتكبراً، فقال بعضهم: يا سيدي إنك تعرك هذا العجين بقدميك، فقال: الناس يأكلون من تحت قدمي.. لم يمض عليه شهران حتى بُتِرَت رجلاه من فوق ركبتيه، وهو الآن في لندن:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

إذا ارتكب الرجلُ جريمة، وحكم عليه بالإعدام، وصدّق القرار، وسيق إلى المشنقة، فسواءٌ بكاؤه، أو رجاؤه، أو توسُّله، فقد انتهى الأمر، لأن الحكم صدق والآن التنفيذ، فالإنسان لا يحوج نفسه أن يصل إلى طريق مسدود، طريق اللاعودة، فاجعل مع الله طرقاً مفتوحة، اجعل لله واعظاً من نفسك، يوجد إنسان ينسى، وينغمس بالشهوات، والمحرّمات، فيأتيه مرض عُضال يجعله يصيح من شدة الآلام..

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

الإنسان الآن في أمان:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

ما دامت محبتك في نفوسهم فالله لن يعذبهم، وما دامت سنتك قائمةٌ في حياتهم فلن يُعَذّبوا، أما عندما يهجر الإنسان هذا الدين، ويدير ظهره للقرآن، ويلتفت للدنيا ليأكل من مالها حلالها أو حرامها، وليؤذي عباد الله، وليبني مجده على أنقاض الناس، وليبني غِناه على فقرهم، عندئذٍ تأتيه ساعةٌ لا ينفع فيها الندم:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

يا لطيف، عندما يقرر ربنا عزّ وجل إهلاك إنسان، تزلزل من تحته الأرض، ربنا يمهل، يُرخي الحبل، فإذا جاء الأجل، واستحق العقاب شدّ من تحت أرجله البساط، أنا أقول: إن الناس الفسقة والفجّار يتوهّمون أنه لا رقيب عليهم، ولكنهم مربوطون بحبلٍ متين، فإذا آن الأوان شُدّ الحبل فوقعوا ضحية أعمالهم الخسيسة، فالإنسان لا يسترسل في المعصية، لا يسترسل في الفجور، لا يعتدي على أموال الناس ولا على أعراضهم، لا يتكلّم كلمة كبيرة، لا يسخر من شرع الله، لا يسخر من دين الله، عندئذٍ يأتيه العلاج المُر:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

انتهى الأمر، ربنا عزّ وجل يرسل الأنبياء، والرسل، والدعاة، ويحذر وينذر، ويسوق بعض المصائب:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

الشيب نذير، سن الأربعين نذير، موت الأقارب نذير، سن الستين نذير، المصائب نذير، القرآن نذير، النبي الكريم نذير:

(وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

فأنا أريد من هذه الآية أن الإنسان لا يوصل علاقته بالله إلى درجة أن يُقال لمن يرجو ربّه به:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

ربنا عزّ وجل ضربته شديدة:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

الإنسان دائماً ينتبه إلى قلبه، إذا شعر أنه أصيب بالذباب الطائر، وهو مرض يصيب عينه.. نقطة سوداء تمشي في أثناء النظر.. تراه يهتم، ويذهب، فوراً إلى الطبيب لحرصه على بصره، يجب أن تكون النفس أغلى عليك من أي شيءٍ آخر فاحرص عليها، فالنفس فيها انحراف، فيها علو، فيها أثرة، فيها حب للذات، فلا تجعلها تصل لهذا الموقف الصعب:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

يروَى مِن القصص، ولا ندري مبلغ صحتها أنّ امرأة جاءت إلى سيدنا نوح وقالت له: يا نوح متى الطوفان ؟ قال لها سيدنا نوح: حينما يكون الطوفان سأبعث إليكِ بخبر، يبدو أن هذا النبي نسيها، وهو في السفينة، والسفينة تمخر عباب الأمواج، وقد هلك كل الناس دون استثناء، ولم ينج إلا هذا النبي وقومه، تذكر هذه المرأة، وتألم لنسيانه إياها ألماً شديداً، فلما استوت السفينة على الجودي، واستقر كلُّ شيء جاءته هذه المرأة العجوز، وقالت له: يا نوح متى الطوفان ؟ إن الله لا ينسى، أنت كن مع الله ولا تبالي.. **" كن مع الله ترَ الله معك ".**

(فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة المؤمنون)

قانون: وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ:

وهذه النجاة أيها الإخوة ليست خاصةً بأُناسٍ دون آخرين، إنها عامةٌ لكل المؤمنين، لقول الله عزّ وجل:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

عندما دخل سيدنا يونس إلى بطن الحوت:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

في كل زمانٍ ومكان، وفي كل عصرٍ ومصر، الله سبحانه وتعالى يتفضّل، وينجي المؤمنين من كل كَربٍ عظيم:

(فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29))

(سورة المؤمنون)

وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ

إذا دخل الإنسان بيته، ووجده مريحا، زوجته في البيت، وأولاده، والصحة جيدة، ويوجد طعام ليأكله، والبيت دافئ في الشتاء، وعنده ثمن وقود، وثيابه يستر بها عورته، فإن هذه نعم كبيرة جداً، نعمة الصحة، ونعمة الأمن، ونعمة الاستقرار، ونعمة الطعام، ونعمة الشراب، ونعمة الماء البارد، بعض العلماء قال في تفسير قوله تعالى:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

قال: **" الماء البارد من النعيم ".**

الذي عنده برّاد فشرب كأس ماء بارد في هذا الصيف هذا من النعيم الذي سوف يسأل عنه يوم القيامة، أشكرنا هذه النعمة؟

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

الحياة كلها ابتلاء، جوهر الحياة في الابتلاء، سيدنا نوح والذين آمنوا معه ابتلوا، فآمنوا، واستقاموا، فنجوا، والذين عاصروه من الكفار ابتلوا، فكفروا، وأعرضوا، وكذبوا، فخسروا الدنيا والآخرة:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32))

(سورة المؤمنون)

فحوى دعوة الأنبياء:

الدعوة واحدة، هذه فحوى دعوات الأنبياء جميعهم:

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

الذي يلفت النظر أن هذه القصة الثانية لم يُذكر فيها اسم القوم، ولا اسم النبي الذي أُرسل إليهم، وقد يستنبط من هذا أن الأسماء لا قيمة لها، بل إن العبرة المغزى، فهناك قومٌ جاؤوا بعد هذا النبي الكريم، وأرسل الله لهم رسولاً فكذبوه:

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ)

(سورة المؤمنون: آية " 33 ")

دققوا جيداً:

(وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة المؤمنون: آية " 33 ")

ورود الترف في ثمانية مواضع في القرآن:

أحصيت كلمة أترفناهم في القرآن الكريم فوجدتها أتت حصراً في ثمانية مواضع، سبحان الله، المترفون في المواضع السبعة كُفّار، فالإنسان لا يتباهى بالترف، ويظنه مكرماً عند الله، الشيء المكرّم أن تكون مقتصداً، وأن تكون متواضعاً، وأن تحفظ هذا المال، فتأخذ منه حاجتك، وتنفق الباقي في سبيل الله، في سبيل نصرة الضعيف، وعون المحتاج، وإطعام الجائع، وإكساء العاري، وتأمين حاجات الناس، فالمترف في ثماني آياتٍ حصراً، في القرآن الكريم كلها تربط بين الترف وبين الكفر، فلا أحد يفتخر بالترف إنه من صفات الكفّار.

المؤمن وسطٌ بين الإسراف والبخل:

أما المؤمن ليس مترفاً بل ينفق باعتدال:

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)

(سورة الإسراء)

كما أن الله سبحانه وتعالى ذم الشُحّ والبُخل فقال:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة التغابن)

وقال عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من وسّع الله عليه ثم قتّر على عياله))

وفي الوقت نفسه ذم الإسراف فقال:

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)

(سورة الإسراء: آية " 27 ")

لا تحاول إظهار ما عندك للناس من أجل أن تستعلي عليهم، فتقول: أخي هذا عقد نكاح كلفني مليون ونصف، مليون ونصف يزوّج مئة شاب..

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

(سورة المؤمنون)

ملحوظة هامة:

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أولاً كفروا بالله بمعنى أنهم كذّبوا، وأعرضوا، من معاني الكفر الدقيقة التكذيب والإعراض، التكذيب باللسان، والإعراض بالقلب.

(وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ)

من لوازم الكافر أنه يُكَذِّب بالآخرة، لو آمن بها لانضبط سلوكه، ومن لوازم المؤمن أنه يؤمن بالآخرة.

(وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

ما دام قد كفر بالآخرة بقيت الدنيا هي كلُّ شيء، لا شيء إلا الدنيا، لذلك يُقْبِلُ عليها إقبال النَهِم.

(مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

استنكار الكفار بشرية الأنبياء:

طبعاً هم وجدوا أن النبي رجل كالرجال ؛ له عينان، له أذنان، له يدان، يأكل ويشرب، وعندهم أن الحياة طعامٌ وشراب، وأن الإنسان حيوان يتكلّم، ويأكل، ويشرب، فما دام هذا النبي يأكل ويشرب إذاً هو إنسان، وغَفَلوا عن أن هناك حياةً نفسيةً عاليةً جداً، حياة عقلية، إذا واحد التقى مع أعلى طبيب في العالم، التقى مع أعلم علماء الأرض، التقى مع أعظم إنسان في الأرض، يراه يأكل ويشرب كغيره من الناس، كن عنده معلومات وعنده آفاق فكرية، وعنده مشاعر نفسية فوق التصور، فمن ظنّ أن الإنسان يسمّى إنساناً لأنه يأكل ويشرب، فقد كان في ضلالٍ مبين، فهؤلاء ظنوا أن هذا النبي بشرٌ مثلنا..

(يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

لذلك قالوا:

محمدٌ بشرٌ وليس كالبشر بل هو ياقوتة والناس كالحجر

***

إذا كنت تريد أن تميز المؤمن عن البشر فهو مثل الجوهرة، وغير المؤمن مثل الحجر، والجوهر أساسه حجر، والحجر حجر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 27 – 61
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-09-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الخامس من سورة المؤمنون، من الآيات التي وردت في الدرس الماضي قوله تعالى:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة المؤمنون)

نصيحة للمؤمنين:

قلت وقتها: لا ينبغي للرجل أن يوصل علاقته مع الله عزّ وجل إلى هذه الآية..

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

قد يصيب أحد الأعضاء مواتٌ، وعندها لا بدّ من بتر العضو، فمهما كان الرجاء شديداً، ومهما كان التوسُّل حميماً، ومهما كان الاستعطاف بليغاً لا بدّ من بتر العضو، ليس هذا من قبيل القسوة ولكن من قبيل الحكمة، وانظر إلى وليّ طفلٍ يرجو الطبيب ألا يبتر الساقين معاً، يقول له: لا بُدّ من بترهما، فإذا تأخرت فلا بدّ من أن تُبترا من مكانٍ أعلى..

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

المؤمن مذنبٌ توّاب، ما دام الإنسان سريع التوبة فهو في بحبوحة، فإذا أصرّ على ذنبه، واستحكمت به شهوته، وأصرّ على المعصية وصل مع الله عزّ وجل إلى هذه الآية..

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

ربنا سبحانه وتعالى يُمهل، ولا يُهمل، يُرخي الحبل، يعطي فسحة، يعطي فرصة، أما أن يظن هذا العبد أن يترك سدى.

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

فهذا من باب المستحيل، لذلك الآية التي تقول:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

قد يكون العلاج حتميًا:

هذه الآية تَدُلُّ على أن العلاج أحياناً يكون حتمياً، وعندئذٍ لا ينفع التوسُّل، ولا الرجاء، ولا الدعاء، ولا الاستعطاف، لأن هذا الذي حصل لا بدّ أن يحصل، ولو لم يحصل لكان نقصاً في حكمة الله سبحانه وتعالى.

ورودُ القصة للعبرة لا لمجرد الحدَثِ:

وبالطبع ليست العبرة أن نقرأ هذه القصة، ولكن العبرة أن نستخلص منها دروساً تفيدنا في تعاملنا مع الله سبحانه وتعالى، ربنا سبحانه وتعالى عفوٌ غفور:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الحجر)

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

العبرة أن نستنبط درساً بليغاً من خلال هذه القصة، أما إذا أصرّ الإنسان على المعصية وركب رأسه، واستحكمت به شهوته، ولم يبالِ بأوامر الله، ولا بوعده، ولا بوعيده عندئذٍ تنطبق عليه هذه الآية:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

وبعد قصة نوحٍ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام يقول الله سبحانه وتعالى:

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)

(سورة المؤمنون)

وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ

أي جاءت من بعده أمةٌ أخرى..

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً)

(سورة المؤمنون: آية " 32 ")

ربنا سبحانه وتعالى لحرصه ورحمته..

(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)

(سورة فاطر)

أي لا بدّ من الرسول، لا بدّ من النبي، لا بدّ من العالِم، لا بدّ من الداعية، لا بدّ ممن يحذِّر، لا بدّ ممن ينذر..

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 32 ")

ومعنى منهم أي من أنفسهم، أولاً من جنس البشر كي يألفوه، في نفسه ما في نفوسهم، أودع الله فيه الشهوات التي أودعها فيهم، ورغَّبَهُ فيما رغَّبهم فيه، أي من بُنيتهم، من طبيعتهم، من طريقتهم، من قومهم، من قبيلتهم، من شيعتهم..

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: آية " 32 ")

الدعوة إلى التوحيد:

هذا هو الدين، يُضْغَطُ الدين كله في هذه الكلمات:

(أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

لا إله إلا الله كلمة التوحيد، لا مسيّر لهذا الكون إلا الله، إذاً لا معبود بحقٍ إلا الله.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

فكانت دعوة هذا الرسول الذي أُرسل إلى هؤلاء الذين جاؤوا بعد سيدنا نوح..

(أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

(سورة المؤمنون)

فما دام الله لا إله إلا هو، والأمر كله له، وما دام المصير إليه، والحياة مؤقتة، والإنسان سينقلب إلى الله عزّ وجل، ويتّقي العذاب والمسؤولية والشقاء الأبدي ؟.

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة المؤمنون)

بيّنت لكم في الدرس الماضي أن الترف ورد في القرآن الكريم في ثمانية مواضع حصراً، وأن المترفين دائماً همُ الكفار، وقَرَنَ ربنا سبحانه وتعالى في هذه الآية، وفي سبع آيات أخرى قرَن الترف بالكفر، وهذا دليل..

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لذلك أن تأكل، وتشرب بشكلٍ معقول، هذا شيءٌ مقبول، أما أن يكون الهدف هو الترف والإسراف والتبذير، والاستعلاء والتفاخر والعلو في الأرض، فهذا كله من صفات الكافرين، هم كفروا بالله،

وكفروا باليوم الآخر، ومن لوازم الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر، ومن لوازم الكفر بالله أن تُنكر اليوم الآخر، وهذا هو الدليل:

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

النبي عليه الصلاة والسلام كان يَدْعو ويقول:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

(ورد في الأثر)

أي يكفيه، هذا الرزق الذي تمناه النبي عليه الصلاة والسلام لأحبابه..

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

عنده ما يكفيه، وليس عنده ما يطغيه، والنبي عليه الصلاة والسلام يبين أحياناً أن من الغنى ما يُطغي، فقال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ فَشَرُّ ؟ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ؟ أو السّاعَةَ فالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

(مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

(سورة المؤمنون)

الرسل بشر تجري عليهم خصائص البشر:

يؤكِّد ربنا سبحانه وتعالى أن هذا الرسول بشر، ومن خصائص البشر أنه يأكل الطعام، فالإنسان مفتقرٌ إلى الطعام، ووجوده متوقفٌ على الطعام، إذاً ليس الإنسان ذا وجودٍ ذاتي، وجوده مفتقرٌ إلى شيءٍ آخر، لكن الله سبحانه وتعالى أحدٌ صمد، ومعنى صمد أي ذاتي الوجود، لا يفتقر وجوده إلى شيءٍ آخر، أنت مفتقرٌ إلى تنفُّس الهواء، مفتقرٌ إلى شرب الماء، مفتقرٌ إلى تناول الطعام، ومن حكم الصيام أن الإنسان يعرف حجمه، ويعرف عبوديته لله عزّ وجل، فكل إمكاناته، وكل ذكائه، وكل حيويّته، وكل نشاطه، وكل طاقاته إنما تَذْبُلُ في أول أيام الصيام، ويرى أنه يتوقّف نشاطه على كأس ماء أو على لقمةٍ من طعام، فلذلك من علامات الإنسان أنه يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، مفتقرٌ إلى الطعام، ومفتقرٌ إلى كسب الطعام، الطعام يحتاج إلى عمل، أنت مفتقرٌ مرتين ؛ مرةً إلى أن تأكل، ومرةً إلى أن تعمل من أجل أن تشتري هذا الطعام، وهل بعد هذه العبودية من عبودية ؟ وهل بعد هذا الافتقار من افتقار ؟ لذلك عندما وصف ربنا عزّ وجل سيدنا عيسى ونفى عنه أن يكون إلهاً قال: يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)

(سورة الفرقان)

ما دام الإنسان يأكل الطعام فهو عبدٌ لله، ويمشي في الأسواق فهو عبدٌ أيضاً لرزقه، فهو عبدٌ مرتين، مفتقرٌ إلى الطعام ومفتقرٌ إلى كسب ثمن الطعام، فحينما رأى هؤلاء الكفار أن هذا النبي الكريم يدعوهم إلى الله عزّ وجل رأوه يأكل كما يأكلون، ورأوه يشرب كما يشربون، فظنّوا أن تناوله للطعام وشربه للماء مما يقلل من شأنه، قال: لا..

((اللهم إني بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر))

(الجامع الصغير عن أنس بسند صحيح)

سيدنا سعد قال: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس قال: ما صلّيت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، وما سرت في جنازة فحدّثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، ولا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس >>.**

(وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

طاعة الرسول طاعة لله:

الحقيقة أنّك إذا أطعت النبي عليه الصلاة والسلام، فإن هذه الطاعة هي عين طاعة الله، طاعة رسول الله هي عين طاعة الله، لذلك قال الله عزّ وجل:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة التوبة: آية " 62 ")

إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، وإرضاء الله هو عين إرضاء رسول الله، ولا فرقَ بينهما لأن هذا باب الله.

سيدنا الصديق رضي الله عنه ألقى خطبة الولاية فقال: **<< لقد ولِّيتُ عليكم ولست بخيركم إن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>.** فالطاعة إذاً إنما هي طاعةٌ لله عزّ وجل..

(وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

والدعاة إلى الله لا يُطاعون، بل يُطاع الله في كلامهم، إذا جاءك بأمر من الله عزّ وجل، قال لك: يا أخي هذه آية، وقد أجمع العلماء على هذا المعنى بتفسيرها، فعليك أن تأخذ بها، فأنت من تطيع إذاً ؟

تطيع الله عزّ وجل، هذا مبلغ، ولا يقبل من إنسان أن تطيعه إلا إذا نقل لك آيةً كريمة، أو حديثاً شريفاً صحيحاً، لأن أصلّيّ التشريع القرآن والسنة..

(أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ)

(سورة المؤمنون)

استهزاء الكفار بالبعث:

يستهزئون بهذا الوعد العظيم من أن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا دار عمل وجعل الآخرة دار جزاء، جعل الدنيا دار تكليف وجعل الآخرة دار تشريف، كأنهم يستهزئون..

(أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ)

فهل يستقيم الفكر، أو هل تستقيم العقيدة على أن الدنيا هي كل شيء ؟ إن الدنيا قصيرة فيها الغني، وفيها الفقير، فما ذنب الفقير ؟ فيها القوي، وفيها الضعيف، فما ذنب الضعيف ؟ ولد ضعيفاً، فيها الصحيح، وفيها المريض، فيها الوسيم، وفيها الدميم، فيها الحظوظ متفاوتة، والأمد قصير، فلولا الإيمان باليوم الآخر لما كان لهذه الحياة من معنى، تُصبح الدنيا سخيفة المعنى، أما أن يكون هناك حياةٌ أبدية يتحدد فيها مصير الإنسان بحسب طاعته لله في الدنيا عندئذٍ تستقيم الأمور، وتأتي العقيدة متوافقةً مع العقل والمنطق..

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)

(سورة المؤمنون)

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ

هيهات اسم فعل بمعنى بَعُدَ، هذا الذي توعدون لن يقع، ما أبعد من أن يقع، ما أبعده من المنطق، هكذا يدعون..

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)

وهيهات الثانية توكيد للأولى..

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة المؤمنون)

عقيدة الكفار: لا حياة إلا في الدنيا:

وهذه عقيدة الكُفّار.

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا)

لا يوجد إلا هذه الدنيا، الدنيا هي كل شـيء، والمال هو كل شيء، هكذا الكافر، سواءٌ عليه أصَرَّح بهذا، أم لم يُصَرِّح، من هنا ينطلق، ينطلق من أن الدنيا هي كل شيء، ولا شيء في الآخرة، لذلك يَصُبُّ كل جهده على الدنيا وهو بهذا يغامر ويقامر، لأن شيئاً إذا حدث ضيَّع عليه كل أهدافه، وكل طموحاته، وكل ما يتمنَّاه، لذلك قالوا: **" الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمر، وإن أسعد الناس بها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها ".**

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا)

يا أيها الإخوة الأكارم... إذا اعتقدَ أحدُنا أن الدنيا هي كل شيء، لو لم يقل هذا بلسانه، إذا انطلق من تصوُّرات مُفادها أن الدنيا هي كل شيء ولا شيء في الآخرة، وأنّ الحياة الدنيا تنتهي بالموت، والموت نهاية كل حي، فهذه العقيدةُ فاسدةٌ وهي عقيدةٌ تدعو إلى الهلاك ؛ الدنيا دار تكليف وأما التشريف في الآخرة، إذا اعتقدت أن هناك حياةً أبديةً لا تنقضي، وأن مكانك في هذه الحياة الأبدية متوقفٌ على طريقة طاعتك لله عزّ وجل عندئذٍ تُصْبِحُ إنساناً آخر..

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

رميُ الكفار أنبياءَ الله بالكذبِ:

أما هذا النبي الكريم الذي يدعوهم إلى الصراط المستقيم..

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

(سورة المؤمنون: آية " 38 ")

هذا كذّاب..

(وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة المؤمنون: آية " 38 ")

فالكفّار دائماً يكذِّبون الحق، ويبغونها عوجا، يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا..

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26))

(سورة المؤمنون)

دعاء بالنصر على الأعداء:

يا رب، لقد كذّبوني فانصرني أنت، بيّن لهم الحق، بين لهم كذِب دعواهم، فقال الله عزّ وجل:

(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)

(سورة المؤمنون)

الحقيقة أن البطولة هو الذي يضحك في الآخر، الكُفّار يَهزؤون من أهل الدين..

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

(سورة المؤمنون)

البطولة من يضحك في آخر المطاف:

إذاً هناك من الكفار من يستهزئ بالمؤمنين، والبطولة من يضحك آخر الشوط، لأنّ ربنا عزّ وجل وصف المؤمنين فقال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

رفض طالب مجتهد أن يذهب إلى نزهة حفاظاً على مستوى اجتهاده، ورفاقه الكُسالى يهزؤون منه، ويسخرون حينما ينجح بتفوق، وحينما يرسب هؤلاء، ويبكون الدمع دماً، عندئذٍ هذا المتفوّق يضحك من زملائه الكُسالى، فالبطولة من يضحك آخر، لا من يضحك أولاً..

(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)

بينَ الوعد والوعيد:

وربنا قال عزّ وجل في آيات كثيرة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران)

(فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

(سورة غافر: آية " 77 ")

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة المؤمنون)

ليست العبرة بالأسماء:

هذه القصة من خصائصها أن الله سبحانه وتعالى لم يُسَمِّ هؤلاء القوم، و لم يُسَمِّ من هو هذا النبي الكريم الذي بعثه الله إليهم، وقد استنبط بعض العلماء أنهم قوم عاد الذين جاؤوا بعد قوم نوح، على كلٍ ليست العبرة بالأسماء، ولكن العبرة بالحقائق، وعدم التسمية فيه إشارةٌ إلى أن الاسم ليس مهماً في هذا الموضوع، المهم هذه القصة المهم أن تستنبط منها عبرةً تعتبر منها..

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

لكل أمةٍ أجل ولكلٍ منا أجل، لذلك يُروى أن الإمام مالك إمام دار الهجرة رأى في المنام ملك الموت، فقال: **" يا مَلَك الموت كم بقي لي من حياتي ؟ فما كان من ملك الموت إلا أن أشار له بهذا أي خمسة، فلما استيقظ هذا الإمام الجليل احتار، أهي خمسة أعوام يا رب ؟ أم هي خمسة أشهر ؟ أم هي خمسة أسابيع ؟ أم هي خمسة أيام ؟ أم هي خمس ساعات** ؟ توجّه إمام دار الهجرة إلى العلاّمة ابن سيرين وكان من المُخْتَصِّين بتأويل الأحلام فقال: **يا إمام رأيت البارحة كذا وكذا فما تفسير هذه الرؤيا ؟ فقال: إن ملك الموت يقول لك: إن هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله.**

(مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى)

(سورة المؤمنون)

أي متتابعة واحداً بعد واحد..

(كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة المؤمنون: آيه " 44 ")

يا الله هذه من أبلغ الصور، ربنا سبحانه وتعالى هو القاهر، هو القاهر فوق عباده، فالعباد إذا كفروا، وجحدوا، وفسقوا، وفجروا، وتحدوا، واستطالوا، قال ربنا سبحانه وتعالى:

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ)

(سورة المؤمنون: آية " 41 ")

عذاب الله كُن فيكون:

وهناك آيات أخرى:

(مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)

(سورة يس)

صيحة واحدة، ومعنى واحدة، إذا شاهدت حشرةً لا تزيد على نملة.. حشرة صغيرة، فكم ضربة تحتاج منك حتى تميتها ؟ هل تقول: لقد قاتلتها ؟ لا.. لا.. تقول: لقد قتلتها، إن هي إلا دوسةٌ واحدة، فربنا عزّ وجل يقول:

(صَيْحَةً وَاحِدَةً)

فهؤلاء الذين تكبّروا، وعلوا، وتمادوا، واستعلوا..

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)

(سورة يس: آية " 29 ")

فربنا عزّ وجل عبّر عن قهره لهؤلاء الفُجّار الكفار بصورةٍ رائعة قال:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة المؤمنون)

وَجَعَلْنَاهم أَحَادِيثَ

يكون الإنسان أحياناً له شأن له مكانة، صاحب متجر كبير، ماليته كبيرة، سيارته فارهة، بيته واسع، نزهته دائمة، مصيفه جميل، مقر إقامته رفيع، مكتبه أنيق، فجأةً يتوقّف قلبه، ويصبح نعيًا على الجدران، أين هو ؟ إنه تحت التراب..

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

كل إنسان الآن موجود له كيانه، له شخصيته، له مهابته، له تصرفاته، له أملاكه، له أمره، له نهيه، وفي ثانية واحدة يصبح حديثاً، لو بقي في فمه سن من الذهب لأخذوه متذرعين أن الحي أولى به، ساعته تُؤخذ، مفاتيحه، قلمه، قداحته، خزانته الخاصة، سيارته على الباب، كلها ملك الآخرين..

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

صار أحاديث، فربنا عزّ وجل عبّر عن قهره للعباد العتاة الظالمين بقوله:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

المؤمن بعد أن يموت يُصبح حديثاً، حديثاً عطراً، يتحَدّث الناس عن ورعه، وعن حبه للناس، وعن استقامته، وعن فعله للخيرات، وعن عواطفه الجيّاشة، وعن رقّة قلبه، يصبح حديثاً عطراً ألا تتعطر كل مجالسنا عندما يذكر فيها أصحاب رسول الله ؟ لقد ماتوا، وصاروا أحاديث، وشتان بين أن يكونوا أحاديث تشمَئِزّ منها القلوب، وأحاديث تطرب لها الروح والنفس..

أحد الصالحين كان يدعو ويقول: **" يا رب لا تجعلني عبرةً لأحدٍ من الناس في خلقك "**.. لا تجعلني قصة يتعظ الناس بها..

" يا ربِّ لا تجعلني عبرة لأحد من الناس في خلقك، يا رب لا تجعلني أتزيّن للناس بشيءٍ يشينني عندك، يا ربِّ أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتني مني، يا ربِّ أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك".

هذا الإخلاص، من ذاق طعم الإخلاص ذاب شوقاً لله وحباً له..

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

(سورة المؤمنون)

موسى مع فرعون المستكبر:

السُلطان المبين الآيات المعجزات التي أيَّد الله بها سيدنا موسى وأخاه هارون، ليؤكِّد لفرعون أنه رسولٌ من رب العالمين.

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

(سورة المؤمنون: آية " 46 ")

لم يذكر قوم فرعون، الملأ هم الأشخاص المقربون منه لماذا ؟ هؤلاء المقربون متبُعون دائماً، وكل إنسان له مكانة في المجتمع له اسمٌ إذا أخطأ فعليه إثمان، وإذا أحسن فله أجران، هذا حساب القُدوة، الأب مثلاً إذا أخطأ فإنه يحاسب مرتين على خطئه، وعلى خطأ ابنه الذي اقتدى به، فإذا أحسن فله أجران، على إحسانه وعلى إحسان ابنه الذي اقتدى به، والمعلم كذلك، وكل إنسان له مكانة اجتماعية يحاسب مرتين..

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً (31) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32))

(سورة الأحزاب)

فالذي له مكانة كالأب في البيت، وكل إنسان له مكانة على مجموعة أشخاص: **" إن أحسن فله أجران، وإن أساء فعليه وزران، وزره ووزر من عمل بعمله ".**

سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصته وقال: **" إني قد أمرت الناس بكذا ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا، وَيْمُ الله لا أوتين بواحدٍ وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني"**، فصارت القرابة من عمر مصيبة.

القدوة يحاسب مرتين، يُكافأ مرتين، يعاقب مرتين:

((مَنْ سَنّ فِي الإِسْلامِ سُنّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنّ فِي الإِسْلامِ سُنّةً سَيّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

(مسند أحمد عن المنذر بن جرير عن أبيه)

قال تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا)

(النساء: الآية 85)

(كِفْلٌ) نَصِيبٌ.

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ)

(سورة المؤمنون)

لماذا يقول عليه الصلاة والسلام:

((... وَلا يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبّةٍ مِنْ كِبْرٍ...))

(مسند أحمد عن ابن مسعود)

لماذا ؟ أيعقل أن يحرم الإنسان الجنة لأن في قلبه مثقال حبةٍ من كبر ؟! نعم، لأن مثقال حبةٍ من كبر يتناقض مع العبودية لله، فمن كان في قلبه كبر فهو ليس عبداً لله، لذلك هؤلاء:

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ)

عالون في الأرض، لذلك قال فرعون:

(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: آية " 38 ")

كلام فيه بعض التحفظ.

ثم قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

فربنا عزّ وجل قال:

(فَأَخَذَهُ اللّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

(سورة النازعات)

ولكن لماذا ربنا عزّ وجل بدأ بالآخرة ؟ لمَ لمْ يقل: فأخذه الله نكال الأولى والآخرة ؟ بل قال:

(نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

لأن قوله الثاني أشد إثماً.

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

أما قبل هذا قال:

(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: آية " 38 ")

كلمة فيها تحفُّظ بعض الشيء، فربنا عزّ وجل قال:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

(سورة النازعات)

بدأ بالأهم، وثنّى بالأقل أهمية:

(فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا)

(سورة المؤمنون: آية " 47 ")

سيدنا موسى وهارون..

(وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)

إنكار على نغَم واحدٍ: أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ

أيعقل هذا ؟ نحن مالكي الأمر، بيدنا زمام الأمر، هؤلاء القوم الذين هم قوم موسى وهارون لنا عابدون، أيعقل أن نؤمن لهما ؟ لبشرين مثلهما ؟

(فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)

(سورة المؤمنون)

كما تعلمون كيف تبع فرعون سيدنا موسى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

ثم تبعهم فرعون في اليم فأغرقه الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50))

(سورة المؤمنون)

عودة عيسى عليه السلام إلى الأرض:

يؤكِّد العلماء أن سيدنا عيسى لابُدّ له من عودةٍ في آخر الزمان، وأن عودته من أشراط الساعة لقول الله عزّ وجل:

(وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ)

(سورة المؤمنون)

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ((4)

(سورة البينة)

أي الرسول، فهذه الآية، وآياتٌ أخرى كثيرة تؤكِّد أن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام له عودةٌ:

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)

(سورة النساء)

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً)

(سورة المؤمنون: آية " 50 ")

ولادة عيسى عليه السلام آية من آيات الله:

الإنسان يولد من أبٍ وأم، هذا هو الوضع الطبيعي، عندنا أربع حالات تُعد إعجازاً، كأن يأتي الإنسان من دون أبٍ ولا أم، كما خلق سيدنا آدم، لا أم ولا أب، أو أن يأتي من دون أم كما جاءت سيدتنا حواء، أو أن يخلق من دون أب كما جاء سيدنا عيسى، أو أن يكون أبٌ وأم وهما عقيمان، فهذه الآية تشير إلى أن السبب وحده غير كافٍ لإحداث النتيجة، في علم التوحيد السبب حالةٌ ترافق النتيجة، وليست هي أصلاً في حدوثها، لأن الذي يخلق النتيجة هو الله سبحانه وتعالى، هو الله الخالق، فلذلك أحياناً تُعَطَّل الأسباب، وأحياناً تلغى، إذا كان هناك أبٌ وأم لا ينجبان فالأسباب مُعَطَّلة، وإذا جاء إنسان من دون أبٍ وأم فالسبب مُلغى، إما أن تعطل، وإما أن تُلغى، فربنا عزّ وجل قال:

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

(سورة المؤمنون: آية " 50 ")

ربو ذات قرار ومعين

الربوة مكان مرتفع، ذات قرار مرتفعة وفي الأعلى منبسطة، وهناك نبع ماءٍ عذب..

(قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

والمفسِّرون في تعيين هذه الربوة على مذاهب شتَّى، بعضهم قالوا: في دمشق.. وبعضهم قالوا: على جبل الجودي ذلك الجبل الذي هبطت عليه سفينة نوحٍ بعد الطوفان.

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 51 ")

(كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً)

لذلك يقول العبد:

((يا ربِ، يا رب، ومأكله حرام، ومشربه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنّى يُستجاب له ؟))

(الترمذي عن أبي هريرة)

((يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

(الترغيب والترهيب عن ابن عباس)

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين:

شيءٌ آخر ؛ عندنا قاعدة، أن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فإذا كان هناك خطابٌ إلى هؤلاء الرُسل الكرام في أن يأكلوا من الطيبات وليعملوا صالحاً، فإن هذا الخطاب موجَّهٌ أيضاً بالتبعية إلى كل المؤمنين، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين))

(الترمذي عن أبي هريرة)

تماماً بتمام.

إنّ الطبيب حينما يأمر ممرضاً أن يُعَقِّم إبرة لابدّ من أن يعقمها كما يعقمها أعلى طبيب، لأن الشروط واحدة:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(الترمذي عن أبي هريرة)

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)

(سورة المؤمنون)

هذه أمتكم أمة واحدة:

هنا الأمة بمعنى المِلّة، كلمة أمة في القرآن الكريم لها معانٍ عديدة، أما معنى هذه الكلمة في هذه الآية فهو المِلة والمَذْهَب:

(وَإِنّ هَذِهِ)

هذه الشريعة:

(أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً)

يعني كل الشرائع، وكل الكُتب السماوية مُفادها واحد، وفحواها واحدة..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

الشرع واحد، والإله واحد، وهذا التعامل رائع جداً ؛ أن تعلم أن لك رباً واحداً بيده كل شيء، عندئذٍ ينتهي الشِرْك والنفاق، ينتهي الخوف والتملق، ينتهي الكذب والخوف، ينتهي الوجل والقَلَق، هذه أمراض وبيلة، أمراض مدَمِّرة، القلق والنفاق والكذب والوجل أمراض أسبابها الشِرْك.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

(فَتَقَطّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

تفرّقُ الناس أحزابا شتى:

هذه الشرائع كانت واحدة، أصولها واحدة، مبادئها واحدة، جاء أقوام الأنبياء فتفرّقوا، واختلفوا، وناصب بعضهم بعضاً العِداء، فأصبحوا فرقاً، وأحزاباً، ومِلاً، ونِحلاً متباغضين، متباعدين، متنافسين، متبارزين، ومن هنا تضعف الأمة، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرّقُوا)

(سورة آل عمران: آية " 103 ")

فإذا كان المؤمنون جميعاً متفقين على أصول الإسلام، واختلفوا في الفروع فإن هذا الخلاف لا يقدِّم ولا يؤَخِّر، يجب أن تتفق مع أخيك في الأصول، ولو اختلف معك في الفروع، وهذه الفروع اختلافها رحمةٌ واسعة، واتفاقها حجةٌ قاطعة.

بعض الأئمة يرى أن الزكاة يجب أن تدفع نقداً، وبعضهم يرى أن الزكاة يجب أن تدفع عيناً، فالإمام الذي عاش في الريف، ورأى حاجة الريفيّ إلى القمح أجاز أن تدفع الزكاة عيناً، أما الذي عاش في المدينة ورأى قيمة المال المتداول، رأى أن تدفع نقداً، فهذا ليس خلاف، هذا خلاف غنى، خلاف تنوّع، خلاف وسْعَة، خلاف يُسر، خلاف رحمة: **" اختلاف أمتي رحمة ".**

هذا لا يُسَمَّى خلافا، بل إنه يسمى اختلافًا، الخلاف غير الاختلاف: **" اتفاق الأئمة حجة قاطعة ".**

سبحان الله ! الأصول واحدة، أما عندما تمتدُّ الأيام والشهور يصبح هذا الدين فرقاً، وأحزاباً، ومللاً، ونِحلاً، وكل حزبٍ لما لديهم فرحون..

كلٌ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

***

(فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ(54))

(سورة المؤمنون)

خطورة الاختلاف الخصومة:

ذرهم غارقين في شهواتهم، وجهلهم، وعصيانهم، وخصوماتهم، وأفقهم الضيق..

(فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ(56))

(سورة المؤمنون)

إنه الاستدراج ليس غير:

فأكبر خطأ أن يتوهَّم الإنسان أن الله سبحانه وتعالى إذا أمدَّهُ بالمال فهو عنده مقرَّب، لا.. هذا المال ليس من الخيرات، يكون خيراً إذا أنفقته في طاعة الله، إذا زوَّجك الله امرأةً تروق لك أهي خير ؟ لا.. إذا حملتها على طاعة الله فهي خير، إذا كنت عالياً في الأرض هل هو خير ؟ لا.. إذا استخدمت هذا العلو في نصرة الضعيف فهذا هو الخير..

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (56))

(سورة المؤمنون)

هذه ليست هي الخيرات، ليس الخير أن تكون غنياً، ولا أن تكون قوياً، ولا أن تكون ذكياً، ولا أن تكون جميلاً، ولا أن تكون غارقاً في الملذّات، الخير أن تعرف ربَّ الأرض والسماوات..

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

رأس الحكمة مخافة الله:

من خشيتهم ربهم خائفون من الله.. و **" رأس الحكمة مخافة الله "**.. والذي لا يخاف إنسانٌ في تفكيره نقص، في تفكيره ضعف، كالطفل الصغير الرضيع إن وضعته في الحقول، ومرَّ إلى جانبه ثعبانٌ كبير طوله بضعة أمتار، فإن هذا الطفل الرضيع لا يخاف منه أبداً، بل ربما وضع يده عليه يداعبه، لأنه لا إدراك له، أما الكبير إذا رآه ينتفض منه خوفاً، وترتعد فرائصه، يتناسب الخوف مع الإدراك، قد يدخل إنسان مهندس إلى بناءٍ فيرى فيه شقاً في جسرٍ أساسي، فيعلم أن لابدّ من أن يقع هذا البناء لأن الأساسات تتحرّك، وأن هذا الخط في الجسر الأساسي مؤشرٌ على تحركها، قد يأتي إنسان يعمل في طلاء الجدران يقول لك: هذا الشق أنا ألغيه بالمعجون، فالخوف يتناسب مع العلم، كلما ازداد علمك ازداد خوفك، قد يأتي إنسان جاهل يأكل الفاكهة دون غسيل ويقول لك: سمِّ بالله، يقول لك الطبيب: لا هذه كلها جراثيم وفيروسات لابدّ من غسيلها، الخوف يتناسب مع العلم، فالذي لا يخاف هو الجاهل.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 28 ")

" رأس الحكمة مخافة الله ".. والأنبياء العظام، وأصحاب النبي الكرام كانوا أشد خوفاً من ألا تقبل حسناتهم من خوفنا من أن نعاقب على سيّئاتنا، ما قولكم ؟ كلما ارتفعت مرتبتك زاد خوفك.

هذه الآية فيها مفارقة رائعة جداً:

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (56))

هذا استدراج وليس مسارعة في الخيرات..

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين المفلحين: خشية الله في السر والعلن:

هؤلاء يخافون الله لأنهم عرفوه، ومتى عرفوه خافوه، فإن لم يخافوه فهذا دليلٌ قطعيٌ على أنهم لم يعرفوه..

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين المفلحين: الإيمان بالآيات الكونية والقرآنية:

آيات الله الكونية الدالة على عظمته، وآيات القرآن الدالة على تشريعه:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59))

من صفات المؤمنين المفلحين: عدمُ الإشراك بالله:

هذه الصفة الثالثة، لا يشركون لا شركًا خفيًا، ولا شركًا ظاهرًا، لا يقولُ: إن هناك مع الله إلهاً، ولا يعتقدُ بغير الله، لا يرجو غير الله، ولا يخافُ من غير الله..

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 60 ")

من صفات المؤمنين المفلحين: الإنفاق مع الخوف:

ينفق المال وهو خائف، يعاون وهو خائف، يفعل الخير وهو خائف، لماذا هم وجلون ؟

(أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

يخافون ألا يكونوا بهذا العمل مخلصين، يخافون أن تكون في نيّتهم بعض الشوائب، يخافون من قلة الإخلاص، يخافون من زيغ العمل، وهم يعملون الصالحات يخافون..

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

هناك رجعةٌ إلى الله عزّ وجل:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

يخافون هذا الموقف الفظيع، والموقف العظيم..

(أُولَئِكَ)

(سورة المؤمنون: آية " 61 ")

من هم ؟

(الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين المفلحين: المسارعة في الخيرات:

ما هو الخير إذاً ؟ أن تكون ذا مالٍ وبنين ؟ أن تكون عالياً في الأرض؟ لا والله ؛ أن تكون مشفقاً من عذاب الله، وأن تكون مؤمناً بآيات الله، وأن تكون غير مشرك، وأن تؤتي وأنت تؤتي خائف ألا يقبل عملك عندئذٍ تكون مسارعاً في الخيرات..

(أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(62))

(سورة المؤمنون)

هذه الآية تحتاج إلى تفصيلٍ في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 62 – 72
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-09-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السادس من سورة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (56) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61))

(سورة المؤمنون)

حقيقة الخيرات:

ليست الخيرات أن تحوز المال في الدنيا، وأن تحوز البنين، ولكن الخير أن تستقيم على أمر الله، وأن تتقرب إليه كي تنال سعادة الدنيا والآخرة، هذا تكلمنا عنه في الدرس الماضي، واليوم يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 62 ")

التكليف مع رفع الحرج:

ربنا سبحانه وتعالى لم يكلفنا تكليفاً فيه حَرَجٌ، فلم يكلفنا أن نعتقد مثلاً ما لا دليلَ عليه، لقد نصب الأدلة الكافية على وجوده، ونصب الأدلة الكافية على ربوبيّته، ونصب الأدلة الكافية على ألوهيّته، وجعل الكون كله تعبيراً عن أسمائه الحُسنى وصفاته الفُضلى، على كل شيءٍ أمرنا أن نعتقده ألف دليلٍ ودليل، ألف ألف دليل، ألفُ ألفُ ألفِ دليل، فلو أن الله سبحانه وتعالى كلّفنا أن نعتقد ما لا دليل عليه لوقعنا في حرج، لو أن في دينه تناقضاً لوقعنا في حرج، لو أن في قرآنه خللاً لوقعنا في حرج، ولكن هذا القرآن الذي أنزله الله على النبي عليه الصلاة والسلام لا اختلاف فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

أنواع التكليف:

1 - التكليف الاعتقادي:

نحن كُلفنا أن نعتقد بوجود الله، وبربوبيّته، وبألوهيّته، وبأسمائه الحُسنى وصفاته الفُضلى، والكون كله يؤكِّد هذه الحقيقة، لذلك إذا أمرنا أن نؤمن به فما أكثر الآيات الدالّة عليه، إذا أمرنا أن نؤمن بعظمته فالكون كله ينطق بعظمته، إذا أمرنا أن نؤمن برسوله فالنبي عليه الصلاة والسلام صفوةُ خلقه، لو أمرنا أن نؤمن برسوله ولم يكن هذا النبي الكريم في المستوى المطلوب لوقعنا في حَرَجٍ، لكن هذا رسولي وهو قِمّة البشر، في الكمال والعلم، والعصمة والتبليغ، فربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

2 - التكليف التعبدي:

أما تكليف العبادات فجعل الصلاة لا تزيد عن ركعات، فلو أن الصلاة عشرين ركعة في كل وقت لكان في هذا التكليف حَرَجاً علينا، الصلاة أربع ركعات، أو ركعتان، أو ثلاث، هذا هو الفرض، ولك أن تقرأ في كل ركعة ما تيسَّر من كتاب الله، فلذلك ليس هناك تكليفٌ حرجيٌ في العبادات، والصوم ثلاثون يوماً في السنة، أياماً معدودات، فلو كان الصوم ستين يوماً لكان عبئاً على الجسم، فربنا سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو يعلم الأيام المعدودة التي تناسب الصيام، لم يكن في أمره تكليفٌ حرجي، ولا في الزكاة لم يقل: أعطوا كل أموالكم، ولا أعطوا نصف أموالكم، ولا ربع أموالكم، واحد في الأربعين، اثنان ونصف في المئة، شيء مقبول ضمن الوسع، وكذلك الحج قال:

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

(سورة آل عمران: آية " 97 ")

فمن لم يستطع فلا حج عليه، إذاً عندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

ليس في تكليف الاعتقاد، ولا في تكليف العبادات، ولا في تكليف المعاملات ما يُحْرِج، فربنا عزّ وجل قال:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

(سورة الشورى: آية " 40 ")

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 194 ")

هذا التكليف يَسَع الخلق كلهم..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ)

(سورة الشورى: آية " 40 ")

3 - التكليف في المعاملات:

فحتى في المعاملات، حتى في البيع، وفي الشراء لم يكلفنا تكليفاً حرجاً، التكليف من وسع الإنسان، لذلك الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

هذه الأوامر وتلك النواهي بإمكان كل إنسانٍ في كل زمانٍ ومكانٍ أن يطبّقها في بحبوحة، ويقول الناس: والله هذا شيءٌ صعب، هذا كلام خلاف كلام الله عزّ وجل، ما كان الله عزّ وجل ليكلفنا بما هو شاق، أحياناً الصلاة غير شاقة، ولكنها تُصْبِحُ في بعض الحالات شاقة كما هي على المريض، فربنا سبحانه وتعالى رفع الحرج.

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

(سورة النور: آية " 61 ")

لك أن تصلِّي قاعداً، لك تصلي مستلقياً، لك أن تصلي بالإيماء، إذا كان الماء يؤذيك فلك أن تتيمم، إذا كان غُسل الجنابة يؤذيك فلك أن تتوضأ، الأمر كلما ضاق اتسع، هذه قاعدة في أصول الفقه، كلما ضاق الأمر اتسع، فلذلك:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

فأحياناً الأب يتعنت في تزويج ابنته، الشرع دقيق جداً، تستطيع هذه الفتاة أن ترفع أمرها إلى القاضي، والقاضي يسأل الأب: لماذا لا تزوّجها ؟ فإما أن يقتنع القاضي وينضم إلى الأب، وإما ألا يقتنع فيزوّجها هو مباشرةً، لا يوجد حرج إطلاقاً، الأمر كلما ضاق اتسع..

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

4 – التكليف الأخلاقي والسلوكي:

هذه التكاليف التي كُلفنا بها من اعتقاديات إلى عبادات، إلى معاملات، إلى أخلاقيات كلها في وسع الإنسان أن يفعلها، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان التكليف مشقّة، ولكان عدم التطبيق مبرراً، أما هذا الذي

يقول: أنا أين أذهب بعيني في الطريق ؟ نقول: أنت لا تعرف، بإمكانك أن تَغُضَّ بصرك، من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه، من أين آكل إذا امتنعت عن أكل مال الحرام؟ نقول له: أنت لا تعرف..

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

(الجامع الصغير عن ابن عمر بسند فيه مقال)

إياك أن تظن أن في الإسلام حِرْماناً، أبداً.. فأية شهوةٍ أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفةً يمكن أن تُفَرِّغُ من خلالها، فالزواج مُفَتَّحَةٌ أبوابه، الشهوة التي أودعها الله في الرجال يمكن أن تنصرف في الزواج، وليس هناك قناةٌ أُخرى، حب المال يمكن أن يكون من طريقٍ مشروع، حب العلوّ في الأرض، يمكن أن يكون عن طريق العَطاء، إذا أعطيت المجتمع رفعك المجتمع فوقَ الأكُف، إذاً:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

فهذه الآية أتمنى عليكم إذا خطر على بالكم خاطر من أن أوامر الدين شاقة، هذه الآية ترد هذه الأكذوبة، وهذه الفِرْيَة، أوامر الدين ليست شاقة، إن أوامر الدين ليست تقييداً لحرية المؤمن أو الإنسان إنما هي ضمانٌ لسلامته.

إنَّك إذا كنت في حقلٍ ورأيت لوحة كُتب عليها: احذر حقل ألغام، هل تظن أن هذه اللوحة وضعت لتَحُدَّ من حريتك؟ لا.. من أجل أن تضمن بها سلامتك.. أقرب من هذا.. إذا وقفت أمام عمودٍ كهربائي كتب عليه: خطر الموت تَوَتُّر عالٍ، هل تحس بنقمةٍ على من وضع هذه اللوحة ؟ أم تشكره من أعماق نفسك؟ إن هذه اللوحة ليست تقيداً لحريتك، إنما هي ضمانٌ لسلامتك، لذلك:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

في أمر الزواج، في أمر الطلاق، في أمر البيع، في أمر الشراء، في العبادات، في المعاملات، في الاعتقاديّات، في الأخلاقيات، أيُّ أمرٍ من أوامر الدين هو من عند الخبير، من عند الصانع.

إذا اقتنيت آلةً معقدة، ورأيت مع الآلة نشرةً فيها تعليمات دقيقة لطريقة التشغيل، وطريقة الصيانة، وهناك شخصٌ قال لك: هذه التعليمات صعب تنفيذها، لا تعبأ بها، افعل كذا وكذا، أنت بالفطرة تعتقد أن الصانع وحده هو الذي بإمكانه أن يعطيك التعليمات، لأنه خبير..

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(سورة الملك)

الصانع وحده، فهذا المخلوق الذي هو الإنسان، من خلقه ؟

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(سورة الملك)

لذلك:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 62 ")

لا حجة لإنسان بصعوبة التكاليف:

من هنا تأتي المُشْكلة، المشكلة أن الإنسان عليه الحُجَّة، لو أن أوامر الله عزّ وجل لم تكن في وسع الإنسان لفتح الإنسان فمه على مصراعيه إن صح التعبير وقال: هذا التكليف يا رب فوق طاقتي، لا..

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

فلما يَحْتَج الإنسان أمام نفسه بحُجَّة واهية فيقول: هذه التكاليف صعبة، هذه الأوامر شاقة، هذه الأوامر لا أقوى على تنفيذها، ولا أستطيع تطبيقها، هذا كلام الشيطان.

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(سورة المؤمنون)

مراقبة كاملة شاملة: وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالحَقِّ

الكتاب بعضهم قال: القرآن، وبعضهم قال: اللّوح المحفوظ، وأوجه التفسيرات كتاب الأعمال.

فلو كنت موظفًا تتحرك، وتأتي متأخراً أو باكراً، وترتكب المخالفات، تعمل أعمالاً طيبة، وأنت في مقابلةٍ للمدير العام طلب إضبارتك، فإذا بهذه الإضبارة كلُّ شيء، كل المكافآت، وكل العقوبات وكل التقصيرات، وكل الأعمال الطيبة، هذه الإضبارة فيها كل شيء، فإذا كان في وسع الإنسان أن يتّخذ لمن عنده من الموظفين إضبارةٌ فيها كل شيء، فما قولك بالواحد الديان؟..

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ)

كل حركاتك، وكل سكناتك، كل التجاوزات، كل المخالفات، كل التقصيرات، كل الأعمال الطيبة، الأعمال السيئة، الأعمال التي لا ترضي الله كلها مسجلة، بعضهم قال: مسجلة مع صورتها، لقوله تعالى:

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

(سورة المطففين)

فيه الرَقْمُ، أي فيه الصورة، وبعضهم قال: صفحات هذا الكتاب مرقمة لا يمكن أن تنتزع. على كلٍ ليكن في علمكم أن كلاً منا له عند الله كتاب،

أعماله كلُّها منذ سن التكليف وحتى يحين الحين، مسجلةٌ عليه واحدةً واحدة..

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقّ)

هذا الكتاب ليس كتاباً مقروءاً، بل إنه أبلغ من المقروء، كتاب مسموع، أحياناً يضعون في السيارة عدّاداً يشير إلى شيء من الأشياء، فإذا نظرت إليه عرفت، وإذا لم تنظر إليه وقد أشار إلى الخطر وقعت الكارثة، الآن العدادات أبلغ من ذلك فهي ناطقة تقول لك: انتبه الوقود سينتهي، انتبه الشيء الفلاني فيه خلل، فالكتاب الناطق أبلغ من الكتاب المقروء أبلغ بكثير، الإنسان أحياناً يقول: هذا الشيء يَكَاد ينطق لشدة الوضوح وشدة البلاغة يكاد هذا الكتاب ينطق لشدة البلاغة، فربنا عزّ وجل قال:

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقّ)

شيءٍ فعلوه دون تَحَيُّز، دون محاباة، دون تجنٍّ، دون جحود بالحق، أحياناً الإنسان يُكتب شهادته في المخفر على خلاف الحق لمصلحة أحد الطرفين، أحياناً يكون الطرف الأول غائب، الطرف الثاني يُمْلي الحادث كما يريد، فهذه الشهادة كتاب، لكنه مخالفٌ للحق، لم يكن الأمر كذلك، لكن هذا الكتاب الذي هو عند الله عزّ وجل ينطق بالحق، لا يوجد فيه زيادة، لا يوجد فيه نقص، لا يوجد محاباة، لا يوجد جحود، لا يوجد فيه مبالغة، لا يوجد فيه تقليل، الإنسان قد يحابي نفسه، فإذا طُلب منه شهادة، يخفف المسؤولية عن نفسه، يوجه الإفادة توجيهاً ليتحلل من المسؤولية، فإذا طُلب منه شهادة عن خصمه يُبالغ في تحميله المسؤولية، فهذه الشهادة مخالفة للحق ؛ لكن الله سبحانه وتعالى كتابه الذي ينطق بالحق هو بالحق دون زيادةٍ أو تزوير..

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

لا يظلم مثقال ذرة

لأن الكتاب ينطق بالحق إذاً..

(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

من أين يأتي الظلم ؟ بعضهم قال: **" الكتاب هو القرآن الكريم "** و..

(يَنْطِقُ بِالْحَقّ)

بمعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام يتلوه على مسامع الناس، فكأن هذا الكتاب ينطق، ينطق به النبي الكريم، وهذا معنى آخر، على كلٍ..

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقّ)

(سورة المؤمنون: آية " 62 ")

هناك تناسب بين المعنى الأول والمعنى الثاني، إنه كتابُ الأعمال الذي ينطق بالحق..

(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

إذا كان الله سبحانه وتعالى ينفي الظلم عن تصرُّفاته، فهل يُعقل أن تسمعنا قصةً مفادها أن فيها ظلماً شديداً ؟ إذا كان الله عزّ وجل ينفي الظلم أتثبته أنت ؟ أتثبته بخلاف الواقع ؟..

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)

(سورة المؤمنون: آية " 63 ")

دعوى مشقة التكاليف من عمى القلب:

لماذا هم كذلك ؟ لماذا هم لا يفعلون ما يؤمرون ؟ لماذا هم يدَّعون أن هذه التكاليف فوق طاقتهم، لماذا ؟ لماذا يقصرون ؟ لماذا ينحرفون ؟ لماذا يخالفون ؟ لأن قلوبهم في غمرة، أي هم في تيهٍ وعمى، في تيه شهواتهم، إنهم مقبورون في شهواتهم، إنهم غارقون في متاعبهم، إن شهواتهم هي حجبٌ كثيفةٌ بينهم وبين الحقيقة، لذلك:

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)

ما هذا ؟ من هذا، هذا اسم إشارة، إلى أي شيء يشير ؟ قال: إلى قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

(سورة المؤمنون)

هؤلاء قلوبهم في غمرةٍ من أن يكونوا مُشفقين..

(وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

قلوب هؤلاء في غمرةٍ من أن يؤمنوا بآيات الله..

(وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ)

(سورة المؤمنون)

في غمرةٍ من هذا..

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

قلوبهم في غمرةٍ من هذا، وبعضهم قال: قلوبهم في غمرةٍ من أن يعتقدوا أن كل الأوامر الإلهية في وسع الإنسان، وصف المؤمنين، ووصف الشرع الحكيم لا ينطبق على هؤلاء لأنهم غارقون في شهواتهم، محجوبون بميولهم، بعيدون عن الحقيقة لأنهم حجبوا أنفسهم عنها..

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)

أحياناً تلتقي مع إنسان، تراه غارقاً في شهوته ؛ لا يسمع ولا يبصر ولا يعي، على قلبه وَقْرٌ،

على قلبه خَتْمٌ، وفي أذنه وَقْرٌ، وعلى عَيْنَيْهِ غِشاوة، فكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يعقل:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

(سورة الأعراف: آية " 179 ")

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)

مادام غارقاً في شهوته إذاً لا بدّ أن ينحرف، لأن منطق الشهوة يدعو إلى أن تُرَوِّيها بحلالٍ أو حرام، إذا الإنسان تشبّث بشهوةٍ ما يسعى إلى إروائها من أي طريق، فلذلك أنّى لهذا الضال أن يستقيم ؟ ما كان له أن يستقيم..

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

(سورة المؤمنون)

العلاقة بين مجاوزة الحدود والابتعاد عن الحق:

أي أن لهم أعمالٌ خسيسة، أعمالٌ دنيئة، فهذا الذي لا يعبأ بالدين..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون)

(لاإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

فتأكّد من سماعك مقولة الإنسان، قالها لك منكرة هذا الدين العظيم أو منكر فريضته أو الصلاة، أو الصيام، أو الاستقامة..

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

لا بدّ أن يعتدي على أعراض الناس، لابدّ أن يعتدي على أموالهم، لا بدّ أن يأخذ ما ليس له، لا بدّ أن يطغى، لا بدّ أن يبغي، لا بدّ أن يَشْتَطّ، لا بدّ أن يتجاوز..

يعملونها لأنهم في عمى، يعملونها لأنهم في صمم، يعملونها لأن الشهوة هي دَيْدَنُهُم، وقد استحوذت عليهم، إنهم غارقون فيها..

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

آيةٌ بليغة. أي..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

أرأيت ؟؟ هذا الذي ينهى عبداً إذا صلى، أنظر إلى أعماله، أنظر خلله، أنظر إلى قذارته، إلى دناءته، انظر إلى ميوله المُنْحَطّة، انظر إلى أنانيته.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

الآن..

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى)

انظر إلى أمانته، انظر إلى شجاعته، انظر إلى استقامته، انظر إلى ورعه، انظر إلى عفافه، هكذا، فلذلك:

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

نتيجة قطعية وحتمية أن الذي يبتعد عن الحق لا بدّ أن يتجاوز الحدود، ولا بدّ أن يقع في الحرام، ولا بدّ أن يأخذ ما ليس له، فأحياناً إذا الإنسان انغمس بشهوته، يعتدي على حقوق مُقَدَّسة، ولا يبالي بها، ثم يقول الله عزّ وجل:

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ)

(سورة المؤمنون: آية " 64 ")

المترف إنسان بعيد عن الحق:

هؤلاء المترفون كما قلت في درسٍ سابق في ثمانية مواضع على سبيل القصر والحصر جاء المترف كافراً..

(كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة المؤمنون: آية " 33 ")

فالمترف دائماً إنسان بعيد عن الحق، جعل الدنيا أكبر همّه، ومبلغ علمه، جعل الدنيا كل حياته، جعل آماله كلها في الدنيا، لم يرض غير الدنيا، لم يعبأ بما بعد الموت، فلذلك:

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ)

(سورة المؤمنون)

ولات ساعة استغاثة:

جأر أي تضرّع بصوت مرتفع: يا رب..

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ)

كما في الدرس الماضي:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة المؤمنون)

أحياناً يَصْدُرُ أمرٌ من الله عزّ وجل بإيقاع العقاب بالإنسان، يأخذه بالعذاب، عذاب في جسده، عذاب في ماله، عذاب في أهله، عذاب قصم يُنْهيه عن آخره..

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ)

أي يضرعون إلى الله بصوتٍ مرتفع..

(لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ)

(سورة المؤمنون)

هذه الاستغاثة جاءت بعد فوات الأوان، تماماً لو أن إنساناً قتل إنساناً، وسيق إلى المحاكمة، وحُكِمَ عليه بعد محاكمةٍ طويلةٍ دقيقةٍ عادلةٍ، حُكم عليه بالموت لأن هناك أدلةً قطعيةً على ارتكابه للجريمة، وصدق الحكم، وسيق إلى تنفيذه، فلو أنه استغاث بهم، هل تجزيه هذه الاستغاثة ؟ لو أنه توسّل إليهم، لو أنه رجاهم، لو أنه قَبّل أقدامهم، لو أنه بكى، لو أنه ضحك، هذه بعد فوات الأوان، فَكِّر قبل أن تقدم على هذه الجريمة، فكر قبلها، فالأمور دقيقة، فالإنسان يكون في بحبوحة أما إذا كان غافلاً والأمر يجري وهو يعصي الله عزّ وجل، فجأةً يصدر أمر إلهي بإيقافه عند حده، بعدئذٍ الأمر وقع، فالذي أرجوه، والذي قلته لكم في درسٍ سابق: ألا تصل علاقتكم مع الله إلى هذا المستوى، إلى طريقٍ مسدود، ألا تصل علاقتك مع الله أن تدعوه فلا يستجيب لك، الإنسان أحياناً يطغى، يتجاوز الحدود، يأخذ ما ليس له، يُطْلِقُ ظلماً، يعتدي على أموال الناس، على أعراضهم، وهو قصد على ذلك، عندئذٍ يأتي العقاب الأليم.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

عندئذٍ لا ينفع الدعاء، ولا ينفع الرجاء، ولا التوسُّل، ولا أن تجأر..

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ(65))

(سورة المؤمنون)

جاء هذا بعد فوات الأوان، هذا لا يُجْدي، فعلت ما فعلت، ولم تفكر فيما فعلت، استمعوا يقول الله عزّ وجل:

(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 66 ")

العاقل يتعظ قبل فوات الأوان:

وأنتم في الدنيا، وأنتم في بحبوحة، وأنتم في شبابكم، وفي أحوالكم الطيّبة ؛ لكم بيوت، ولكم زوجات، ولكم أولاد، وفي أكمل حالات صحّتكم، أعضاؤكم سليمة، حواسُّكم سليمة، صحتكم جيدة، دخلكم وفير، مركزكم قوي..

(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

لقد كانت آياتي تُتلى عليكم صباحاً مساء، آيات القرآن الكريم تُتلى عليكم، ألم تحضروا تعزية ؟ ألم تسمعوا كلام الله؟ ألم تحضروا احتفالاً بُدِئ بكلام الله ؟ ألم تجلسوا في مجلس علمٍ سمعتم فيه تفسير كلام الله ؟ ألم تحضروا خطبةً فُسِّر فيها بعض آيات الله ؟

(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

وأنتم في رخاء، وأنتم في نشاط، وأنتم في قوة، وأنتم في صحة، وأنتم في مال، وهناك قول آخر:

(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

هذه الشمس آية أما قرأت عنها ؟ أما سمعت عنها ؟ أن حجمها يتسع إلى مليون وثلاثمئة ألف أرض ؟ أن حرارتها في سطحها ستة آلاف درجة ؟ وفي نواتها عشرين مليون درجة ؟ وأنها تَتَّقِدُ منذ خمسة آلاف مليون سنة ؟ من أعطاها هذه الطاقة ؟ وأنها تَبْعُد عن الأرض مئةً وخمسين مليون كيلو متر؟ وأن نجماً يتَّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما؟ وأن هذه العين فيها مئة وثلاثين مليون عُصَيَّة ومخروط ؟ وأن في الإنسان مئة وخمسين كيلو مترًا أوردةً وشرايين ؟ وأن قلبه يضخ ثلاثمئة ألف متر مكعب من الدم في عمره المديد ؟ ما تملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم..

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 105 ")

ألم تسمعوا هذه الآيات ؟ ألم تقرأ عن القمر، عن الشمس، عن الأرض، عن الجبال، عن الأنهار، عن البحار ؟ نهر الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية، أين خزّاناته ؟ هذه الآيات في الجبال، والصحارى، والسهول، والوديان، والأغوار، والبحار، مليون نوع من السمك في البحار، مئة ألف نوع من الطيور، ثلاثة آلاف وخمسمئة نوع من القمح، أنواع المحاصيل، أنواع الفواكه، أنواع الخُضراوات، أنواع الحيوانات، في الإنسان أجهزة معقدة جداً..

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 105 ")

ألم تسمعوها، ألم تستعظموا، ألم تلفت نظركم هذه الآيات، ألم تتأثروا، ألم تقولوا: الله عظيم يجب أن نطيعه أبداً ؟ فإما أن تفسِّرها بالقرآن:

(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

وإما أن تُفَسِّرها بآيات الكون، على كلٍ هذه كلها آيات:

(تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

تسمعونها صباح مساء، تُتْلى على مسامعكم، ما أكثر ما حضرتم بعض المحاضرات ذُكِرَت فيها بعض آيات الله، البترول آية، من أودع هذه الطاقة الهائلة في باطن الأرض ؟ الهواء آية، الماء آية، الكهرباء آية:

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

(سورة المؤمنون)

(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ)

(سورة المؤمنون)

الشهوة والشبهة مانعان من سماع الحق:

تتراجع إلى شهوتك، تتراجع إلى عاداتك، إلى تقاليدك، إلى مصلحتك، إلى الدنيا، تَخْلُدُ إلى الأرض، هذه الآيات تكفي أن تعرف الله عزّ وجل، هذه الآيات تكفي أن تستقيم على أمره، لكن هذا الإنسان يرجع إلى شهوته، يرجع إلى عاداته السقيمة، يرجع إلى تقاليده المَقِيتة، يرجع إلى المادّة، يرجع إلى مصالحه:

(فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ)

(سورة المؤمنون)

الاستكبار حجاب عن الحق:

أنتم فوق ذلك ؟ أنتم أكبر من أن تؤمنوا ؟ أنتم أكبر من أن تُصَلُّوا ؟ يمشي في جنازة، ويقف أمام المسجد، فيقف، ويدخن، فأنت أكبر من الصلاة ؟ من أنت ؟ أنت أكبر من أن تُصَلِّي ؟ أن تخلع حذاءك وتتوضّأ وتصلي في المسجد، من أنت ؟

(مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ)

(سورة المؤمنون)

هنا سامراً حال، أي تمضون أوقاتكم في السمر، تسهرون إلى ساعاتٍ مُتَأَخِّرة في الغيبة والنميمة، وفي كلامٍ فارغ، وفي الحديث عن زيدٍ وعُبيد، وفي القيل والقال، تسمرون في أحاديث لا تُرضي الله عزّ وجل، تسمرون في أحاديث لا معنى لها، لا غاية منها، لا فائدة منها، لا جدوى منها:

(مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ)

في جلساتكم، في سهراتكم، في ندواتكم، في أُمْسِياتكم، في حفلاتكم، في مطاعمكم، في متنزهاتكم، في هذه الأماكن، الحديث عن الله معدوم، بل إنّ الحديث عن الدنيا، عن الشهوات، عن النساء، عن الألبسة، عن الأسعار، عن أشياء لا تُقَدِّمُ ولا تُؤخِّر:

(سَامِراً تَهْجُرُونَ)

لذلك كان عليه الصلاة والسلام يُصَلِّي العشاء في ثلث الليل الأول، فأحياناً كان يؤخِّرها عن وقتها إلى ثلث الليل الأول، وكان يكره النوم قبلها والسمر بعدها، يكره النوم قبلها لئلا تضيع عليه في أفضل أوقاتها أو في كلّ أوقاتها، ويكره السَمَر بعدها، يختم هذا النهار بصلاةٍ جيّدة يجب أن ينام عليها، وكان عليه الصلاة والسلام يكره الحديث بعد صلاة العشاء، وكان من العلماء الأجِلاّء من يكره الحديثَ بعد صلاة العشاء، إلا أن العلماء أجازوا أن تَسْمُرَ في إصلاح ذات البين، أو في تعلُّم العلم، أو في الأمر بالمعروف أو في النهي عن المنكر، أو أردت أن تدعو إلى الله، أردت أن توضِّح بعض آيات الله، فإن هذا مباحٌ فيما بعد العشاء بشرط أن يكون الحديثُ محصوراً في ذكر الله عزّ وجل، أما الحديث الفارغ عن الطعام والشراب، وعن أحوال الناس، وعن أحوال البيع والشراء، وعن أسعار الحاجيّات، أن يكون هذا بعد العشاء فإن أغلب الظن أن الإنسان يقع في بعض الإثم، لذلك اختم يومك بصلاة العشاء، ولا تتحدث بعدها بشيء إلا إذا كان في طاعة الله عزّ وجل..

(مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ (67) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ)

(سورة المؤمنون)

القول هو: القرآن الكريم في أوجه التفسيرات.. القرآن..

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ)

دعوة إلى تدبُّر القرآن:

هذا الكلام كلام إله، إلهٌ عظيم، لماذا لا تؤمن به ؟ إذا قال لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

فهذه الآية أنت غير مهتم بها ؟ إذا قال لك:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

هذا الكلام ألا تؤمن به ؟ إن الله يُدَمِّر هذا المال كله إذا كان فيه ربا؟ يوجد أشخاص يقرؤوا القرآن ويقولون لك: تباركنا، يقبِّل المصحف من أطرافه الستة ويخالفه، لذلك:

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ)

(سورة المؤمنون)

أي لماذا لا يدققون فيما يقرؤون ؟ لماذا لا يتدبّرون هذا القرآن ؟ لماذا لا يقفون عند حلاله وعند حرامه؟ عند أمره ونهيه ؟ عند وعده ووعيده ؟ لماذا لا يتعظون بأمثاله وقصصه ؟ لماذا لا يصدقون أخباره ؟ لماذا لا يخافون مما سيكون فيما أخبر به القرآن الكريم ؟

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)

(سورة المؤمنون)

ليس لظالم استثناء من العقوبة:

فهل معهم استثناء من العذاب ؟ أحياناً يقول أحدهم: يا أخي أنا معي استثناء خطي، أنا مستثنى من العقوبة، هل معك استثناء من الله بأنك لن تعذب ؟ يوجد عندك وثيقة خطِّية تضعها في الكفن وفي القبر؟ معه استثناء يا ربي..

(أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)

أي هل معهم استثناء ؟ أو أن هذا القرآن (أم بمعنى بل، من معانيها للتسوية، أما في بعض معاني هذه الآية أم بمعنى بل).

بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، جاءهم من الله نور، جاءهم منهج، جاءهم دستور، جاءهم نظام، جاءتهم أحكام فيها حلالٌ وحرام، فيها أمرٌ ونهي، هذا المعنى الثاني..

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 69 ")

لماذا أنكرتم رسلكم ورميتموهم بالجنون ؟

كُلُّ هذا الكمال، كل هذه الأمانة، كل هذه العِفّة، كل هذه الاستقامة، كل هذا الصدق، كل هذه المكارم، كل هذا الفضل لم تعرفوه بعد ؟ أخذتم عليه شيئاً ؟ هل جرّبتم عليه كذباً قط ؟ هل جرّبتم عليه خيانةً قط؟ ومع ذلك لا تعبؤون به، لا تستجيبون له..

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

لماذا هذا الإنكار ؟

(أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 70 ")

هذا مجنون، فأين الدليل على أنه مجنون ؟ إذا لم يعجبك إنسان تقول عنه: مجنون.. يكون القائل هو المجنون..

النبي عليه الصلاة والسلام رأى مجنوناً فأراد أن يُعَلِّمَ أصحابه قال:

((من هذا ؟ قالوا: هو مجنون، قال: لا هذا مُبْتَلى، المجنون من عصى الله))

فإذا التقى إنسان برجل متديّن يقول لك: هذا مجنون لم ير شيئاً، لا يفهم شيئاً، سجن نفسه في البيت، توجد في الحياة مباهج فيها مقاصف، فيها حفلات، فيها أشياء جميلة، هذا مجنون لا يفهم شيئاً، وسوف نعلم من هو المجنون؟

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

أنت لست مجنوناً.. لا..

(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6))

(سورة القلم)

(فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

(سورة الذاريات)

(أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 70 ")

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

أي أن المؤمن في رحمةٍ كبيرة لكنّها عُمِّيَت على معظم الناس، يتهمونه بالجنون وهم المجانين..

(بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)

(سورة المؤمنون)

كل إنسان يريد ديناً على قدر شهواته، فيقول لك: أخي لا هذه لا يمكن أن تكون حراماً، لا هذا تزمُّت، من أين جئت بها؟ حتى ولو كانت آية قرآنية يقول لك: لا.. هذا مبالغة، الدين يُسر، الدين مَرِن، يقول: إنه مرنٌ حتى يلغي الدين كله..

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)

الحق حق والباطل باطل:

الحق حق، والباطل باطل، إذا شرع الله للناس ديناً يتوافق مع أهوائهم وشهواتهم تصبح السماوات والأرض فاسدة، وهم معها.

مثلاً: إذا قلنا: هذه المدرسة سنراعي فيها رغبات الطلاب، فالدوام حُر، متى تستيقظ تذهب إلى المدرسة، هذا استيقظ، وذهب إلى المدرسة الظهر، هذا سيسافر فيقول لك: لا أريد الآن أن أداوم، إذا تركنا الأمر للطلاب على حسب حريتهم ـالدوام كيفي ـ وكذلك لا يوجد امتحان، لأن الامتحان يسبب إرهاقاً للأعصاب، تقضي سنة فتنجح إلى صف أعلى منه، فهل من المعقول أن هذه المدرسة تحقق أهدافها؟ الدوام حر، والدراسة حرة، ولا توجد امتحانات، ولا مذاكرات، ولا عقاب، ولا ثواب، ولكن كل شيء فيها حسب راحتك، فهل هذه مدرسة ؟

هناك دوام، إذا غبت أسبوعين تُفصَل، توجد مذاكرات، ويوجد امتحان، ويوجد منهج مقرر، وتوجد قاعة محاضرات، ويوجد فحص شفهي، وفحص عملي، وفحص كتابي، هذه هي المدرسة.

فإذا كنت تحب أن تكون الأرض كما يحب الناس ـ فهذا أكبر مثل أوروبا وأمريكا، لا يوجد عندهم دين ولا مبادئ، بل يوجد عندهم عقل فقط، فالعقل أوصلهم إلى عشرين مليون لوطي في أمريكا، ومعهم بطاقات رسمية يفتخرون بها ـمرض الإيدز آخر رقم قرأته ثمانية ملايين إنسان يحمل هذا المرض في أمريكا وحدها، هذا مثل واضح، فهذا الشرق والغرب الذين تركوا الدين كلياً، واتبعوا أهواءهم ماذا حلّ بهم ؟ تفكّك اجتماعي، انهيار الحياة الاجتماعية، أسرة منهارة، أطول زواج لمدة سنتين فقط، لأن الزوجة لها صديق، وتَمِل من زوجها بعد سنتين، تريد غيره..

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)

الحق حق، هذا حرام وهذا حلال..

(بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون)

أتيناهم بكتابٍ يرفع من ذكرهم، يرفع شأنهم، يجعلهم مُكَرَّمين..

(بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ)

أي بكتابٍ فيما لو طبّقوه لرفعَ الله لهم ذكرهم، وجعلهم في عباده الصالحين..

(فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً)

(سورة المؤمنون)

لا أسألكم عليه أجرا:

الدعوة إلى الله دون مقابل مادي، الدخول إلى المساجد مجاناً، سبحان الله الدعوة إلى الله مبذولة بلا مقابل، لا يوجد أي رسم، ولا يوجد أي دفع، ولا أي شيء، بل لوجه الله تعالى..

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

(سورة يس)

فعلامة الهداية أن هذا الذي يدعوك لا يَسْألك شيئاً لا معنوياً ولا مادي..

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

أحياناً يَخْدُم إنسان إنسانا، يقول له: لم تعطني أجراً ـ لو خدمه لوجه الله لأعطاه الله أضعافاً كثيرة ـ يوجد إنسان لا شيء عند الله له لأن كل خدماته قبض ثمنها الباهظ، يوجد إنسان يخدم لوجه الله عزّ وجل، **فهذا الذي خَدَمَ لوجه الله له عند الله ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر،** أما هذا الذي لا يتحرك إلا بالأجر أخذ شيئاً زهيداً قليلاً..

(فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 73 – 91
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-09-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السابع من سورة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة المؤمنون)

استقامة دعوة الأنبياء:

النبي عليه الصلاة والسلام فحوى دعوته أنَّه يدعو أمَّتَه، ويدعو الناس جميعاً إلى صراطٍ، والصراط هو الطريق، وهذا الصراط مستقيم، ومعنى مستقيم أي لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً، ليس فيه خلل، ليس فيه تناقض، ليس فيه غموض.

((تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها))

(أحمد عن جابر)

هذا الصراط هو الطريق، وهذا الصراط مستقيم، وأقصر طريقٍ بين نقطتين هو الطريق المستقيم، مستقيمٌ إلى ماذا ؟ أو طريقٌ إلى ماذا ؟ الطريق ينتهي بغاية..

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ)

أي إلى طريقٍ، هذا الطريق أين ينتهي ؟ العلماء قالوا: ينتهي إلى الجنة، إنَّك يا محمد تدعو قومك إلى سلوك طريقٍ ينتهي بهم إلى الجنة حيث السعادة الأبدية..

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة المؤمنون)

إذاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود: آية " 112 ")

الاستقامة أن تسير في طريق الله عزّ وجل، الطريقُ التي تفضي إلى الجنة هي الصراط المستقيم، ولا تنسى أيها الأخُ الكريم، أنَّك تقرأ الفاتحة في اليوم أكثر من خمسين مرة، وفي الفاتحة تقول:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ*صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة)

فكأن الله سبحانه وتعالى يَعْجَبُ من هؤلاء المعرضين كيف يكذبون النبي، وهو يدعوهم إلى صراطٍ مستقيم ؟ كيف يقفون في سبيل هذه الدعوة سداً منيعاً، وهو يدعوهم إلى صراطٍ مستقيم ؟ كيف يكيدون له، وهو يدعوهم إلى صراطٍ مستقيم ؟.

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لذلك لا ينبغي للواحد منا الآن أن يُسَلِّم نفسه هكذا:

((ابن عمر، دينك دِينك ؛ إنه لحمك ودمك، خُذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

خُذ عن الذين استقاموا لأن الذين استقاموا هم في الطريق الموصلة إلى الله عزّ وجل، ولأنها طريقٌ مستقيمة إذاً هي أقصر طريق.

يوجد طريق طويل، قد يفعل الإنسان المعاصي فيأتي العلاج الربانيّ قاسياً بعدها يتوب، يُخطئ ويتوب، ينحرف، ويأتي العلاج، ثم يتوب، هذا طريق طويل، طريق المعالجة، وطريق المصائب، وطريق الدَفع، طريقٌ طويل وشاق، لكن الله سبحانه وتعالى يدعونا إلى صراطٍ مستقيم.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود: آية " 112 ")

يجب أن تستقيم، إما أن نقول: يجب أن تسلك طريق الإيمان المستقيمة التي توصل إلى الله عزّ وجل، أو أن تستقيم على أمر الله، إذا استقمت على أمر الله فأنت على صراطٍ مستقيم، على كلِ الإنسان في أحواله الشخصية في علاقته مع ربه، يجب أن يستقيم على أمره، وفي علاقته بأسرته يجب أن يستقيم على أمر ربه، وفي علاقته بزبائنه، وفي علاقته بجيرانه، وفي علاقته بأقربائه، وفي علاقته فيمن حوله يجب أن يستقيم على أمر الله، فإذا استقام على أمر الله، أوصَله هذا الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة، هذا معنى الصراط، والصراط الطريق، والمستقيم هو أقصر طريقٍ يحقِق الهدف، الطريق يُفْضي إلى الجنة، فيا محمد إنَّك تدعوهم إلى الجنة، تدعوهم إلى تحقيق الهدف من خَلْقِهم، لماذا خلقهم الله عزّ وجل؟ خلقهم ليسعدهم سعادةً أبدية، إذاً النبي عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى صراطٍ مستقيم.

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(74))

(سورة المؤمنون)

إنّ الدين مجموعة تكليفات ؛ تكليفات اعتقاديّة، وتكليفات تَعَبُدِيّة، وتكليفات في المُعاملات، والتكليف لا بدّ أن ينتهي إلى الحساب، ويوم القيامة هو يوم الحساب، فإذا رفض الإنسان الآخرة فهو في حلٍ من كل هذه التكليفات، لذلك:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

(سورة المؤمنون: آية " 75 ")

الإيمان باليوم الآخر من أهم أركان الإيمان:

طبعاً أركان الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، لكن ربما كان أبرز شيءٍ في الإيمان بعد الإيمان بالله أن تؤمن بالآخرة، فالذي يُسْقِطُ من حسابه اليوم الآخر فهو ليس مؤمناً إطلاقاً، لأنه إذا أسقط من حسابه المسؤولية والجزاء فهو سيتصرّف على هواه، وَفْقَ هوى نفسه، وفق شهواته، وفق نزواته، لذلك حجر الزاوية ومركز الثقل في الإيمان أن تؤمن باليوم الآخر، إذا آمنت باليوم الآخر معنى ذلك أنك سوف تحاسب، إذاً هذه تجوز وهذه لا تجوز، هذه يمكن أن تفعلها، وهذا الشيءُ لا يمكن أن تفعله، ما دام في حياتنا مباح وحرام وواجب، وفرض ومكروه، كراهة تنزيهية، وكراهة تحريمية، ومستحب، وسنة مؤكّدة، وسنة غير مؤكدة، معنى ذلك إنك ترجو ثواب الله عزّ وجل، ترجو رضاه وتخشى عذابه، فعندما الإنسان يلغي من حياته الإيمان بالآخرة انتهى إيمانه كلياً، فربنا عزّ وجل في إيجازٍ بليغ قال:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

لم يحدثنا عن عدم إيمانهم بالملائكة، ولا عن عدم إيمانهم بالرُسُل، لما يلغي الإنسان الآخرة من حياته يلغي إيمانه، لا بدّ للمؤمن أن يقف بين يدي الله عزّ وجل ليحاسبه على كل شيء، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟))

(من سنن الدارمي عن معاذ بن جبل)

الفرق الدقيق بين المؤمن وبين غير المؤمن، أن المؤمن في كل حركةٍ وسكنةٍ يَضَعُ في حسابه أنه سوف يقف بين يدي الله عزّ وجل ليسأله عن هذا التصرف: لمَ فعلت كذا ؟ لمَ طلقتها ؟ هل كنت محقاً في هذا التطليق أم كنت ظالماً ؟ لِمَ غششت زيداً ؟ لمَ خدعت عُبَيداً ؟ لم احتلت على فلان ؟ لم أخذت هذا المال وهو ليس لك ؟ لم اعتديت على أعراض الناس ؟ هذه هي الآخرة، سؤال دقيق، لذلك الإنسان البطل هو الذي يُعِدُّ جواباً لكلّ سؤالٍ، قبل أن تقول هذه الكلمة هل تذكرُ أنه سوف تُسْأل عنها يوم القيامة ؟ قبل أن تُلقي هذه النظرة، قبل أن تبتسم هذه الابتسامة الساخرة، قبل أن تتكلم بهذا اللسان عن زيدٍ أو عبيد، قبل أن تنقل هذا الخبر لفلان، قبل أن تأخذ هذا المال، قبل أن تُنْفِق هذا المال، قبل أن تُعَنِّف فلاناً، قبل أن تلوم فلاناً هل أعددت جواباً لكل هذه التصرفات لله عزّ وجل ؟ الإنسان أحياناً يهيّئ جواباً لإنسان القضية سهلة، الإنسان علمه محدود، فربما هيَّأت له جواباً مع وثيقتك، معك حسن سلوك من

المختار؟ وقد تكون سيّئَ السلوك، أما البطولة فأنّ تهيّئ الجواب لله عزّ وجل، لله الـواحد الديّان، الذي يعلم السرّ وأخفى، لذلك:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

عن الصراط لناكبون

تَنَكَّب الصراط أي انحرف عنه، ومال عنه، وخرج منه، فدائماً قبل أن تناقش الإنسان انظر إلى استقامته، هل هو مستقيم ؟ هو أهلٌ أن تناقشه، فإذا كان منحرفاً ؛ ماله حرام، مأكله حرام، مشرَبه حرام، غُذِّي بالحرام، هذا إنسان تَنَكَّب الصراط المستقيم، لم يرض أن يكون على الصراط المستقيم، لأنه قطع أمله من الدار الآخرة، لأن الدار الآخرة أسقطها من حسابه.

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(74))

(سورة المؤمنون)

أي منحرفون، طبعاً هذا الكلام في كسب المال، في إنفاق المال، في علاقته بالنساء، فهناك علاقات منضبطة لا يرى إلا المحارم اللواتي سمح الله أن ينظر إليّهن، هناك إنسان مرن جداً، عنده بحبوحة في حياته، فهذا مُتَنَكِّب للصراط، لماذا تنكب الصراط ؟ لأن إيمانه بالآخرة غير صحيح.

هؤلاء الذين تنكبوا الصراط ولم يستقيموا على أمره في كل علاقاتهم لا بدّ أن يعالجهم، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة المؤمنون)

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ)

الإصابة بالضر نوعٌ من المعالجة:

معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى أصابهم بضُرٍ، لماذا أصابهم بالضُر ؟ معالجةً لهم، ولكن هذا الضُر لم يؤثِر فيهم، لم يستنبطوا منه حقيقةً أساسية، لذلك قالوا: **من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر**، فربنا عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء)

فالله عزّ وجل ليس له أن يُعَذِّب إنساناً إلا بسببٍ وجيه، بحكمةٍ بالغة، فأنت إذا أصابك ما تكره اسأل هذا السؤال: ما يفعل الله بهذا العذاب إن كنت مؤمناً وشاكراً ؟ لا بدّ أن هناك تقصيراً في الإيمان، أو تقصيراً في شكر الواحد الدَيّان، فربنا عزّ وجل يُصيب بعض الخلق بالضُر، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدّمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

(الجامع الصغير عن البراء بسند فيه مقال)

إذاً هذا الضُر ساقه الله لحكمة بالغةٍ بالغة..

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ)

لو أن الله عزّ وجل أزال عنهم هذا الضُر، رفع عنهم هذا البلاء، وجاءهم الرخاء، وجاءتهم البحبوحة، وشعروا بالأمن، ماذا يفعلون ؟ يزدادون طغياناً، هم طاغون في الشدة والرخاء، في المَنع والعطاء، في البحبوحة والضيق، في إقبال الدنيا وفي إدبارها، إذاً هم بعيدون عن أن يفهموا عن الله عزّ وجل تصرفاته، بعيدون عن أن يفقهوا حكمته، هم يظنون أن هذا هو الدهر، فيقولون: **قلّب له الدهر ظهر المِجَنّ..** فما هو الدهر ؟ يقول أخي: القدر سخر منه.. ما هو القدر ؟ يعزو هذه المصائب، وهذه المحن، وهذه البلايا ساعةً إلى الدهر، وقد يَسُبّ الدهر، وساعةً إلى الحظ، ويقول: لا حَظّ لي، أما أن يعزوها إلى أن الله سبحانه وتعالى، على أنه هو الذي خلق هذه المصيبة لحكمةٍ بالغةٍ بالغة، وكأن الله عزّ وجل يُريدنا أن نعرف تلك الحكمة من هذه المصيبة..

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

هذا الذي يَبغي ويطغى في الرخاء والشدة هذا لا جدوى منه، ولا رجاء منه، ومَيؤوسٌ من صلاحه، لهذا قال ربنا عزّ وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: آية " 44 ")

متى.. متى تأتيهم الدنيا على أوسع مصارع أبوابها.. متى ؟

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام: آية " 44 ")

فأنت بين خيارين ؛ إما أن تكون مؤمناً فتفهم على الله عزّ وجل أن كل شيءٍ يسوقه لك مما يزعجك إنما هناك حكمةٌ بالغةٌ وراءه يجب أن تعرفها، يجب أن تعرف السبب كي تتلافى هذا التقصير، وإما أن تكون كالرعاع والدهماء وسوقة الناس، يُفَسِّر المصيبة تفسيراتٍ مضحكة، ساعةً يقول: أخي لا أحدَ مرتاح، وساعةً يقول: لا يوجد لي حظ، وساعةً يقول: الدهر ضِدِّي، هذا كلامٌ لا معنى له، والبطولة أن

تعرف أن الله عزّ وجل حينما ساق هذه المصيبة إنما ساقها لحكمةٍ بالغةٍ لو عرفت هذه الحكمة لابتعدت عن السبب فزالت المصيبة.

مثل بسيط: حينما ينحرف إنسان عن طريق الحق، حينما يَتَنَكّب الصراط المستقيم يُقَيّضُ الله له مصيبة، هذه المصيبة مهما حاول ردها لا يستطيع، لأنها من فعل الواحد القهّار، مهما بذل محاولاتٍ كي يزيحها لا يستطيع، يُزيحها في حالةٍ واحدة، إذا عاد إلى الله، ورجع إليه، واصطلح معه، كان منحرفاً، فجاءت هذه المصيبة، فإذا استقام على أمر الله أُزيحت هذه المصيبة. لذلك..

(إِنّ اللّهَ لَا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

القضية واضحة كالشمس، غَيّرْ حتى يغير الله عزّ وجل.

(لَا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

(وَأَلّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنّهُمْ أَقَامُوا التّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة: آية " 66 ")

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف: آية " 96 ")

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: آية " 97 ")

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

(سورة النور: آية " 55 ")

آيات واضحة كالشمس، اقرأها، تدبّرها، سعادتك بيدك، وشقاؤك بيدك، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يخافنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

(ورد في الأثر)

هذه حالة مرَضية مستعصية، ربنا عزّ وجل يصف هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، هؤلاء الذين أسقطوا من حسابهم اليوم الآخر بأنهم تنكّبوا الصراط، خرجوا منه، اعتدى على أعراض الناس، أكل أموالهم بغير الحق، فعل ما لا يجوز، ربنا عزّ وجل رحمةً به يسوق له من الشدائد، ساق له الشدة فبقي منحرفاً، رفعها عنه فبقي منحرفاً، معناها لا يوجد إحساسٌ إطلاقاً.

أحياناً يضع الطبيب السماعة على الصدر فلا يسمع صوتاً إطلاقاً، يضع يده على النبض لا يوجد حركة، يضع المصباح في قُزحية العين فلا تضيق، يضع المرآة على فم الإنسان لعل بخار الماء ينطلق، فيقول لك: مات عظّم الله أجره، ربنا عزّ وجل يبعث للإنسان مصيبة لعله يبكي، يتأثر، يفكر، يقول: ربنا رحيم، ربنا عادل، لا يزال في البغي والطغيان، والانحراف، والانغماس في الشهوات، يبعث له الرخاء فيقول لك: إنما أوتيته على علمٍ عندي، كقارون، إن بعث له الرخاء والبحبوحة والمال، والأولاد، والزوجة، يقول لك: أنا خططت لحياتي، من أنت ؟ خطط لحياته، وهذا جهده الآن قطف ثماره، وإن بعث له مصيبة يقول: يا أخي الحياة صعبة، حظي سيّئ، يفسِّر المصيبة بالحظ، والرخاء بالجُهد، هذا ميت، لا يفهم على الله عزّ وجل..

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76))

(سورة المؤمنون)

حكمة العذاب من أجل استكانة الناس:

هذه الآية دقيقة جداً، كل أنواع العذاب الذي يسوقه الله للناس في الدنيا من أجل أن يستكينوا لربّهم، أن يخضعوا له، ومن أجل أن يتضرّعوا، وأنا أقول لكم هذا الكلام: ما منا واحدٌ إلا وقد تأتيه الأشياء على غير ما يريد، فإذا جاءته الأمور على غير ما يريد في صحته، في زواجه، في أولاده، في بيته، في علاقاته، في دخله، في من حوله، إذا جاءته الأمور على غير ما يريد فليراجع نفسه، إيّاك أن تراجع الله عزّ وجل إنه عادلٌ، إنه رحيمٌ، إنه غنيٌ عن تعذيبك، راجع نفسك، انظر..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

هل هناك آيةٌ أوضح من هذه الآية ؟ هذا كلام الله يا إخوان..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

(سورة الكهف)

أحياناً يقول لك: ثلاثون مليونًا تشرّدوا بالفيضانات، وقد ذكر ربنا عزّ وجل هذه الحالات في القرآن الكريم:

(وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة المؤمنون: آية " 76 ")

استكان أي خضع، لم يستكين:

(لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)

(سورة المؤمنون)

والتضرُّع أن تدعو الله عزّ وجل، أن تستغفره، أن تسبّحَهُ، أن توحِّده، أن تكبّره، أن تعترف بذنبك، أن تمرّغ جبهتك في أعتابه، أن تعاهده على التوبة، أن تراجع نفسك..

(فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)

فالإنسان المُعْرِض الغافل الذي أسقط الدار الآخرة من حسابه، من هنا إلى يوم الله، أسقطها من حسابه نهائياً، باني كل حياته على الدنيا، هذا المال حرام حلال، مال فيه شبهة يقول لك: لا بأس به، لا تدقق، هذه المرأة لك حق أن تنظر إليها ؟ أو تصافحها ؟ أو تقعد معها ؟ يقول لك: أنا عقلي مفتوح ومرن. عندما يتساهل الإنسان في أمور كسب المال، وإنفاقه، وعلاقته بالمحرمات، عندئذٍ يتركه ربنا عزّ وجل، ولكن إلى حين، أحياناً تكون السنبلة تميل مع الرياح، أما الشجرة الكبيرة تأتيها عاصفةٌ فتقتلعها من جذورها..

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ)

(سورة المؤمنون: آية " 77 ")

باب الموت:

هذا عذاب الموت، هنا القَصْم حينما يُنهي الله سبحانه وتعالى حياة هذا الإنسان:

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

نعوذ بالله من هذه الحالة، الإنسان يأكل، ويشرب، وينام، ويستمتع، ويذهب، ويسهر، ويتنزّه، ويعود، ويمزح، ويُزعج زيداً، ويتكلّم على عمرو، ويكسب المال الحرام، ويحسب لكل شيء حسابه إلا ساعة الموت:

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

لم تكن في حسبانه، أن تنتهي دنياه، أن تنتهي حياته ويساق إلى القبر، هذه حالة خطيرة جداً، لذلك المؤمن أحد أسباب سعادته أن هذه الساعة التي لابدّ من أن تأتي قد أعدّ لها، وأدخلها في حسابه اليومي، لذلك كان أحد الصالحين قد اشترى قبراً في حياته، يضطجع فيه بالأسبوع مرة يوم الخميس، ويتلو قوله تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون: آية " 100 ")

فيقول لنفسه: قومي لقد أرجعناكِ، فالإنسان عندما يستيقظ صباحاً يجب أن يعرف أن الله عزّ وجل سمح له أن يعيش يوماً جديداً: **" ما من يومٍ ينشقُ فجره إلا وينادي أن أيها الإنسان أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد فتزوّد مني فإني لا أعود".**

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

إذاً ربنا عزّ وجل في مجموعة هذه الآيات يبيّن لنا أن طريق الإيمان هو طريقٌ إلى الواحد الديّان، طريقٌ إلى الجنة، وهو طريقٌ مستقيم، فإذا طبّقت أحكام الشرع فأنت على هذا الطريق المستقيم، إذا طبّقت أحكام الشرع في زواجك، في بيعك وشرائك، في كل حركاتك وسكناتك، في عباداتك، في معاملاتك، فأنت على الصراط المستقيم، وهذا الصراط المستقيم لابدّ أن يُفْضي بك إلى الله عزّ وجل، وإلى الجنة..

الآن: الآيات تأتي ولها علاقةٌ وشيجة بالآيات السابقة:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

(سورة المؤمنون)

من عجيب خَلق الله: السمع والبصر والأفئدة:

لماذا شَقّ الله لك السمع ؟ أمن أجل أن تسمع الغناء ؟ لا والله، بل من أجل أن تسمع الحق، فالإنسان ممكن أن يجلس في مجلس علم ويسمع الحق..

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)

وشَقّ لك البصر من أجل أن ترى آيات الله، انظر إلى الشمس والقمر، انظر إلى السحاب والجبال، انظر إلى البحار والسهول، انظر إلى الأشجار والثمار، انظر إلى الأطيار والأسماك، انظر إلى ابنك كيف خلقهُ الله عزّ وجل، وأحسن تكوينه، انظر إلى أسرتك وحاجياتك من حولك ؟ من خلقها ؟ فربنا عزّ وجل يقول: لقد شققت لكم السمع والأبصار فاسمعوا الحق، أو انظروا في آياتي:

(وَالْأَفْئِدَةَ)

والأفئدة هنا بمعنى العقول، ندرك بها المدركات، يوجد عندنا محسوسات، ويوجد عندنا مدركات، بالحواس ندرك المحسوسات، وبالعقل ندرك المفاهيم:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

لماذا خُلِقَت ؟ خلقت من أجل أن تعرفه، والمعرفة أصل العلم، قال: وما أصل العلم ؟ قال: هل عرفت الرب؟ أصل الدين معرفته كما قال الإمام عليٌّ كرم الله وجهه: **" أصل الدين معرفته.**

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

خلق لكم السمع والأبصار والأفئدة من أجل أن تعرفوه، إذاً لابدّ أن يأتي بكم إلى الدنيا، وأن يُسَخِّرَ لكم ما في السماوات والأرض تسخير تكريمٍ وتعريف، وأن يودع فيكم الشهوات لترقوا بها إلى رب الأرض والسماوات، وأن يَهَبَكُم العقل كقوةٍ إدراكيةٍ تميّزون به الخير من الشر، إذاً:

(وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة المؤمنون: آية " 79 ")

رحلة من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة:

شق لكم السمع والأبصار، وأودع فيكم العقول، وذرأكم في الأرض أي خلقكم فيها:

(وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة المؤمنون)

جئنا إلى الدنيا بالحياة، ونذهب منها بالموت، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

(سورة المؤمنون: آية " 80 ")

وكيف يكون الحياة والموت ؟

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

(سورة المؤمنون: آية " 80 ")

معنى اختلاف الليل والنهار:

الزمن، هذا اليوم يأتي بعد هذا الليل، والليل بعد النهار، مضى أسبوع وأسبوعان، شهر وشهران، سنة وسنتان، عقد وعقدان، أربعون، خمسون، ستون، سبعون، عظّم الله أجركم، لابدّ من الموت مهما طالت الأيام:

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

الأمور تسير..، والإنسان بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

معنى اختلاف: أن يأتي النهار بعد الليل، وأن يأتي الليل بعد النهار:

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

(سورة هود: آية " 88 ")

خالفه إلى كذا أي ذهب إلى هذا المكان، فالليل جاء، والنهار جاء بعده وهكذا، دورة الأرض حول نفسها، دورتها حول الشمس ينشأ عنها الزمن، مع مُضِيِّ الزمن تنتهي الحياة، ويأتي الموت، إذاً يوجد

عندنا علاقة في هذه الآيات، ربنا عزّ وجل خلقنا لنعرفه، شق لنا السمع والأبصار، أودع فينا العقول، جاء بنا إلى الدنيا، جعل الأيام يتلو بَعْضُها بعضاً، امتدّ بنا الزمن، انتهى العمر، جاء الموت ثم جاء الحساب، هذه حقائق كبرى في الدين:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ)

(سورة المؤمنون)

إنكار البعث طريق إلى فساد السلوك:

هؤلاء الذين أسقطوا من حسابهم اليوم الآخر، وتنكّبوا عن الصراط، ولم تؤثِّر بهم المصائب، ولم تؤثِّر بهم العطاءات، هؤلاء ماذا قالوا ؟

(قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

(سورة المؤمنون)

هذا كلام فارغ، هذا الذي يقوله الأنبياء: أساطير الأولين، هذه غيبيّات ونحن واقعيّون، نحن نعيش هذه الحياة، الواقع ملموس، وعلينا أن نعيش واقعنا، علينا أن نتفاعل مع الواقع، نحن نريد الواقع، الواقع ما بعد الموت غير معروف، العلم متعلِّق بالواقع، هذه غيبيّات، هذه ما وراء الطبيعة، هكذا يقول المعرضون:

(بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(83))

هذه تقاليد قديمة، وبعض الأفكار الشائعة عند الضِعاف، الإنسان من ضعفه توهّم إلهاً خلقه، ركن إليه، هذا شعور طبيعي عند الضعيف، أما الإنسان إذا سيطر على الطبيعة هو في غنى عن هذه الأفكار، وعن هذه المشاعر، وعن تلك المعتقدات، هكذا يقول أعداء الدين، ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة المؤمنون)

الكون لله خلقا وتصرفا ومصيرًا:

لمن ؟ أي من يملكها مُلكاً حقيقياً ؟ الملك الحقيقي ألاّ يكون للمملوك وجودٌ بعيدٌ عن مالِكِهِ، ألاّ يستقل المملوك بوجودٍ عن مالكه، الإنسان وجوده مستمد من وجود الله عزّ وجل، كن فيكون، زُل فيزول، فلو

قطع عنه الإمداد لحظةً لانتهى وجوده، ما هي الروح ؟

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

يكون الإنسان ملء السمع والبصر، شخصية مهمة جداً، يفقد حياته صار جثة هامدة، ملقى على الأرض، ما الذي فقده ؟ فالإنسان وجوده مستمدٌ من وجود الله، فالإنسان مملوك وليس مالكاً، المالك هو الله عزّ وجل..

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: آية " 26 ")

ومعنى مالك: يعني مَلَك مُلْك تصرف، ومُلك مصير، ومُلك خلق، أي إنه خلق ويملك التصرُّف الكامل ويملك المصير:

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 84 ")

الأرض من يديرها ؟ الآية الكريمة:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر: آية " 41 ")

لو أنها خرجت عن مدارها لهُدِّم ما عليها، من يجعلها في مدارها الصحيح وعلى خطها المستقيم ؟

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ)

(سورة المؤمنون)

هذا الجواب البديهي، جواب الفطرة، لا يوجد إلا الله عزّ وجل هو المالك، هو الخالق:

(قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة المؤمنون)

ما دام الله عزّ وجل هو الخالق، وهو المالك، بيده الملك، والتصرُّف، والمصير، فكيف تعصيه ؟

(قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86))

(سورة المؤمنون)

المالك هو الرّب، لأن الرب هو المدبّر، المدبّر والمالك هذان المفهومان يلتقيان، والدليل:

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ)

(سورة المؤمنون)

لم يقل: الله، بل قال: لله قياساً على:

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا)

إذاً الله سبحانه وتعالى هو:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

(سورة المؤمنون)

والعرش العظيم هو الذي منه تصدر الأوامر في تصرفات الله عزّ وجل، وله بحثٌ طويل، يعني العرش العظيم كما قال الإمام مالك: **" الاستواء معلوم، والكيف مجهول ".**

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة المؤمنون)

كل شيء ملكوته بيد الله عزّ وجل، الملكوت غير المُلك، الملك مع السيطرة هو الملكوت، كل شيء من يسيطر عليه سيطرةً تامةً تامة ؟ الله سبحانه وتعالى، الأرض والشمس بيده، السحاب والأمطار بيده، الرياح بيده، تأتي رياح مدمرة، أعاصير سرعتها أربعمئة أو خمسمئة كيلو متر تدمر كل شيء، الإعصار والفيضان بيد من ؟ ثلاثين مليون مشرّد، ساعة فيضان، ساعة إعصار، ساعة زلازل، ساعة براكين..

(قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة المؤمنون: آية " 88 ")

القلب، الرئتان، الشرايين، الأوردة، الدّسامات، الكليتين، الكبد، البنكرياس، النخامية، الدرقية، الكظر، بيد من ؟ خلل بسيط في بعض الغدد تنتهي حياةُ الإنسان، فربنا مالك الملك:

(قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ)

لا منجي ولا مجير إلا الله:

يخلِّصك من أي مخلوق، ولا يستطيع مخلوق أن يخلصك من الله.

لذلك سأل مرة أحد الولاة أحد التابعين قال له: جاءني كتاب من يزيد بن معاوية وفيه توجيه لا يرضي الله عزّ وجل، قال له التابعي الجليل كلمة: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيداً لا يمنعك من الله.

(يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ)

إذا كنت معه نجّاك من كل أعدائك، فإذا لم تكن معه فليس في الأرض من ينجيك منه، لذلك قالوا: **" لا ملجأ منه إلا إليه".. " كن مع الله ترى الله معك ".. " إذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك ؟ "** أما إذا كان عليك فمن معك ؟ ليس معك أحد:

(يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ)

هو ينقذك، معنى يجير، الجار في الجاهلية له حق كبير جداً، فكان إذا إنسان استجار بإنسان حماه وحفظه مما يحفظ به نفسه، فإذا الإنسان استجار بالله عزّ وجل، قطعاً الله سبحانه وتعالى يجيره، أما إذا ابتعد عن الله عزّ وجل، وانحرف لا يجيره من الله أحد:

(سَيَقُولُونَ لِلّهِ قُلْ فَأَنّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقّ وَإِنّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90))

(سورة المؤمنون)

ما الذي يسحر الإنسان ؟ ما الذي يغريه ؟ ما الذي يصرفه عن الدين ؟ ما الذي يخلب لبه ؟ الدنيا.. و **" الدنيا جيفة طلابها كلابها ".. و " الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له "**

(مَا اتّخَذَ اللّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ)

(سورة المؤمنون)

(مَا اتّخَذَ اللّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ)

نفي الشريك والولد عن الله سبحانه:

حينما خلق السماوات والأرض، لم يكن معه إله أعانه، أو شاركه، ولا اتخذ ولداً بعد أن خلق السماوات والأرض، ولو كان هذا كذلك:

(إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ)

يصبح هناك تنازع، وشقاق، ومخاصمة:

(وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 93 – 118
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-09-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن والأخير من سورة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96))

(سورة المؤمنون)

إنه مشهد يومٍ عظيم:

هذه الآيات وحتى نهاية السورة تري مشهداً لما سيحْصُل، وهذا من رحمة الله بنا، فمن تقريب هذه الفكرة أن بعض ملوك اليابان أرسل إلى بلاد الغرب طائفةً من الطُلاّب ليحصلوا تعليمهم العالي، بعضهم انغمس في اللهو، وما لا علاقة له بالدراسة، ولم يحرز النجاح المطلوب، فلما عاد إلى بلده شَكّل ملك اليابان محكمةً، وحاكم هؤلاء الطُلاب وأعدمهم ؛ فلو أنه أرسل وجبةً أخرى، وأعلمهم مصيرهم إن لم يدرسوا الدراسة المطلوبة فهذا الإعلام المسبق سيكون رحمةً بهم.

فنحن لو أطلعنا إنساناً يُدَخِّن أريناه صوراً دقيقةً لآفات الدُخان، فلو فَكّر وأحكم عقله في الموضوع لامتنع من تلقاء ذاته عن شرب الدُخان مثلاً.

الآن أمامنا مجموعة آيات تُمَثِّل مشهداً من مشاهد يوم القيامة، هذا المشهد يبين وضع المذنب المُقَصِّر، وكيف أن النار تلفح وجهه، وكيف يقول وهو يتلقّى العذاب، وما هي أُمْنِيّاته، فهذه المشاهد لا بدّ أن يصل إليها كل كافر، فقد عرضها ربنا في وقتٍ مبكر، ونحن في الدنيا رحمةً بنا، يقول الله سبحانه وتعالى يُعَلِّمُ النبي عليه الصلاة والسلام كيف يدعو ربَّه:

(قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ)

(سورة المؤمنون)

هؤلاء الكُفّار يتوعّدهم الله سبحانه وتعالى بالهلاك، فيا رب إذا أريتني بأم عيني هلاك الكفار فلا تجعلني بينهم، لا تجعلني منهم، اجعلني بعيداً عنهم لئلا يُصيبني ما توعدتهم به..

(إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ)

الإنسان أحياناً بدافع من رغبته قد يكون له قريب، قد يكون له صديق منحرف، معتدٍ، مغتصب، لـه انحرافاته الخطيرة، ويزداد قوةً، ومَنَعَةً، وشأناً و.. و.. فالإنسان يقول: يا ربي ما تفسير هذه القصة، ألا تعاقبه ؟ اطمئن، فلا بدّ أن يعاقبه الله عزّ وجل ؛ إن عاجلاً أو آجلاً، فإيّاك أن تتسرع في طلب العقاب، فربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هذه (ثم) للتراخي، للترتيب على التراخي، وفي آية ثانية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

ربنا سبحانه وتعالى إما أن يبطش بالكافر مباشرةً بعد انحرافه، وإما أن يؤخِّرَهُ لحكمةٍ بالغة، فأنت أيها المؤمن لا تستعجل عقاب الله سبحانه وتعالى، فإما أن يأتي وتراه رأي العين، وإما أن لا يأتي، ولا بدّ أن يُنزل الله عقابه بالكافر، إن لكل سيئةٍ عقاباً، وإن لكل حسنةٍ ثواباً، فالإنسان أحياناً يرى شخصاً منحرفاً، معتدياً، ظالماً يُسْرِعُ الله سبحانه وتعالى، ويعاقبه عقاباً أليماً ويبطش به، هذه تُغَطِّيها تلك الآية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

وأحياناً أُخرى قد ينحرف الإنسان، وقد يطغى، وقد يبغي، وقد يأخذ ما ليس له، وقد يعتدي، وقد يغتصب، وقد يستعلي، وقد يتكبّر، والله سبحانه وتعالى يُرْخي له الحبل، ولكنه إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

فأنت أيها المؤمن لا ينبغي أن تتمنى، ولا أن تنتظر، ولا أن تترقب، ولا أن تستعجل، من صفات المؤمن أنه لا يستعجل ما أخّره الله، ولا يستبطئ ما عَجّله الله سبحانه وتعالى، أنت عبد.

أَعْظِمْ به مِن دعاءٍ !!!

فالله سبحانه وتعالى يُعَلِّمُ النبي عليه الصلاة والسلام، يعلمه أن يدعو بهذا الدعاء قال:

(قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94))

(سورة المؤمنون)

أي يا رب إذا أردت أن تُنْزِل عقابك بهؤلاء المنحرفين لا تجعلني بينهم لئلا يُصيبَني ما يصيبهم، وطبعاً هذا تحصيل حاصل، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

قدرة الله لا يعتريها عجزٌ:

الوعد الإلهي كأنَّه واقع، ولكن كما يقولون قضية زمن..

(وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ)

الإنسان قائم بالله عزّ وجل، لو أن الله سبحانه وتعالى قَطَعَ عنه الإمداد لحظةً واحدة لأصبح جثةً هامدة، لو أنه جَمَّدَ نقطةً من دمٍ في بعض شرايين دماغه لأصبح مشلولاً، في مكانٍ آخر لأصبح مجنوناً، في مكانٍ ثالث لفقد السمع، في مكان رابع لفقد البصر، في مكان خامس لفقد الذاكرة، فالإنسان ضعيف.

أخ كريم توفِّي ـ رحمه الله تعالى ـ خرج من معمله إلى بيته لم يعرف أين بيته، بقي ساعةً ونصف يجوب في سيارته أطراف المدينة إلى أن ذهب إلى بيت ابنه قال له: يا بني أين بيتي ؟ يوجد فقد ذاكرة كُلي، وفقد ذاكرة جُزئي، فالإنسان تحت ألطاف الله عزّ وجل، فأي جهاز، أو أي غدة، أو أي مكان في جسمك معرض لنمو عشــوائي ـ مرض خبيث ـ أو قصور مفاجئ في وظيفة الكليتين، أمامه متاعب لا حصر لها، فالإنسان وأعضاؤه بيد الله عزّ وجل، وكذا أهله، وأولاده، وماله كلُّ شيءٍ بيد الله عزّ وجل..

(وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

من صفات المؤمن: مقابلة السيئة بالإحسان:

هذا حال المؤمن يُقابل السيّئة بالإحسان، يقابل الإساءة بالإحسان..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة المؤمنون: آية " 96 ")

في آية أخرى:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت)

أحد الأصحاب الكرام تكلّم معه رجل بكلامٍ مُقْذع فقال ببساطةٍ وبهدوءٍ: يا أخي إن كنت مخطئاً غفر الله لي، وإن كنت أنت غفر الله لك.

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

(سورة المؤمنون)

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134))

(سورة آل عمران)

يجب أن تَكْظُمُ غيظك، وأن تعفو عن الناس وأن تُحسن إليهم..

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

نحن أعلم بما يصفون

هؤلاء المعارضون، هؤلاء المشكِّكون، هؤلاء الجاحدون الذي يصدُّون عن سبيل الله، يحيكون لك ما يحيكون، يدبِّرون ما يدبرون، يمكرون ما يمكرون هؤلاء نعلمهم نحن، أعلم بك منهم، كفاك طمأنينةً أن الله يعلم ما يفعلون، أن الله محيطٌ بأفعالهم، محيطٌ بمكرهم، محيطٌ بكيدهم، يدُ الله فوق أيديهم.

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

بما يصفونك يا محمد، أنت رسول، ويصفونك بأنَّك لست برسول، معلمٌ مجنون، ساحرٌ، كاهنٌ، شاعرٌ..

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97))

(سورة المؤمنون)

معنى: همزات الشياطين:

الهَمْز بعضهم قال: الوسوسة، وبعضهم قال: ساعة الغضب التي يُصْبِحُ فيها الإنسان كالحيوان بدافع من وساوس الشياطين.

(وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98))

الاستعاذة بالله لتلافي وسوسة الشيطان:

ليس للإنسان من طريقةٍ يتلافي فيها وساوس الشياطين إلا أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هذه أجدى دواء للوساوس، كلّما نابك وسوسةٌ قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اقرأ المعوذتين..

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6))

(سورة الناس)

الاستعاذة بالله، طبعاً لا يكفي أن تقول بلسانك أعوذ بالله الأمر أعقد من ذلك، لا بدّ من أن تلتجئ إلى الله، لا بدّ أن تقبل عليه، لا بدّ من أن تحتمي بجنابه، لا بدّ من أن تستجير به، إذا فعلت ذلك أجارك الله، وأعاذك، وأنقذك، وأغاثك.

مِن مشاهد يوم القيامة:

سكرات الموت:

أما مشاهد يوم القيامة فقد بدأت الآن.

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ)

بعضهم قال: إن الإنسان إذا جاءه الموت لا بدّ أن يعرف مقامه في الآخرة، إما أن يرى مقامه في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وإما أن يرى مكانه في النار، في دركات النار، لذلك حينما يُشْرِفُ الإنسان على الموت يعرف مكانه في الآخرة، إما في جنةٍ يدوم نعيمها ؛ أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ)

(سورة المؤمنون: آية " 99 ")

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة: آية " 8 ")

تفرون منه.. أي كأنّه يلحقكم.. فإنّه ملاقيكم، فالإنسان أحياناً يفاجأ، يكون متوقعاً أن يموت من هذا المرض، يعتني بصحته عنايةً بالغة، فإذا هو يفاجأ بأنه يموت بحادث، وهذا وقع كثيراً، فالإنسان لا يعرف كيف يموت، يا ترى يموت بمرض، بحادث، الله أعلم..

ولست أبالي، حين أقتل مسلماً على أي جنبٍ ألقى في الله مصرعي

***

من لم يمُت بالسيف مات بغيره تنـوّعت الأسـباب والمـوت واحد

***

أجمل ساعةٍ في حياة المؤمن ساعة لقاء ربه:

حينما يكون الإنسان مع الله عزّ وجل فهو في سعادةٍ ما بعدها سعادة، النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الغزوات تفقّد أحد أصحابه، واسمه الربيع فقال: **أين الربيع**، فندب أحد أصحابه يبحث عنه في أرض المعركة، أحد أصحاب النبي الكريم، توجّه إلى أرض المعركة يبحث عن الربيع بين القتلى والجرحى، فإذا هو بين القتلى لكنه لم يمت بعد أي في النزع الأخير، فقال: **إن النبي عليه الصلاة والسلام يُقْرِئك السلام، وقد بعثني أبحث عنك، فهل أنت يا ربيع بين الأموات أم بين الأحياء** ؟ فقال الربيع: **إنني من الأموات ولكن أقرئ رسول الله مني السلام وقل له: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبياً عن أمته.**

هذه حاله، هو في أرض المعركة يلقى النَزْعَ الأخير وحاله من أسعد الحالات، فالإنسان ليكن عمله في الدنيا عملاً طيباً بحيث لو جاءه الموت، قال كما قال سيدنا بلالٌ رضي الله عنه، حينما قالت له ابنته: **وا كربتاه يا أبت** قال: **لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة ؛ محمداً وصحبه.**

أنا الذي أتصوره أن أجمل ساعةٍ من ساعات حياة المؤمن حينما يَلْقى الله عزّ وجل.. **بل الرفيق الأعلى..** ينبغي أن يكون هذا اليوم هو اليوم الموعود، هو اليوم المنتظر، لذلك قالوا: **الموت تحفةُ المؤمن..**

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ)

الموت هو اليقين:

قال ربنا عزّ وجل:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر)

اليقين هو الموت ولم يقل الله عزّ وجل: واعبد ربك حتى يأتيك الموت، قال:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

الموت سُمِّيَ يقيناً لتَيَقُّن وقوعه.. كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر..

لذلك البطل هو الذي يَعُدّ لهذه الساعة العُدّة، هو الذي يعمل الصالحات، هو الذي يستقيم على أمر الله، هو الذي يتعرّف إلى الله في الرّخاء، هو الذي يَحْضُر مجالس العلم ليتعرف إلى الله ويطبّق ما فيها من قواعد، من شرائع، من مواعظ، من حكم، من أوامر، من نواهٍ.

سمِّي الموت يقيناً لشيءٍ آخر، هو أن كل شيء سمعته في الدنيا يصبح عند الموت يقيناً، نقول الآن: في جنة، وفي نار، وفي حساب، في صراط، وفي عذاب، وفي ملائكة، وفي زبانية، وفي جهَنَّم، هذا الكلام كله من الغيبيات، عند الموت تصبح هذه الأخبار حقائق، سمي الموت يقيناً لتيقُّن وقوعه، وسمي الموت يقيناً لأن كل شيءٍ فيه يصبح يقيناً،

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء)

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)

(سورة المؤمنون)

ليتني أعود، ولاتَ ساعة مندَم:

لآن نَدم..

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية " 56 ")

ليتني أعود إلى الدنيا فأستقيم على أمر الله، يا ليتني أعود إلى الدنيا فأعمل الصالحات، يا ليتني أعود إلى الدنيا فأتعلّم كتاب الله، يا ليتني أعود إلى الدنيا فأجعل بيتي إسلامياً كما أراد الله عزّ وجل، يا ليتني أعود إلى الدنيا لأحرر دخلي من الحرام، يا ليتني أعود إلى الدنيا لأنفق المال فيما يُرضي الله..

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

تركت أموالاً يا ربِّ، لعلي أعود إلى الدنيا فأنفقها في طاعتك، تركتها لأولادي، فأولادي صرفوها، وأنفقوها في معصية الله، فأغلب الظن أن الإنسان إذا ترك أموالاً طائلة، ولم يترك ذريةً صالحة أغلب الظن أن هذه الأموال تُنْفَق على المعاصي، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يصف المؤمن، حينما يوضع في النعش بأن روحه ترفرف فوق النعش وتقول: **" يا أهلي يا ولدي، لا تلعبَن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعةُ علي "..**

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)

يقول بعضهم: إن الميّت يُخاطب الملائكة الذين قبضوا روحه، وكلمة رب اعتراضية، كما لو أن الأب أخذ ابنه ليضربه فالطفل ينادي أمه.. ينادي إنسان آخر يظن أنه سَيُخَلِّصه.. قال: أي يا رب، أرجعوني أيها الملائكة كما كنت في الدنيا..

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

لعلي أعمل صالحا فيما تركت

لعل هذا المال الذي تركته أنفقه في طاعة الله، لعل هذا البيت الذي تركته أُسكنه من يرضي الله عزّ وجل ـ فطبعاً في دخول كبيرة جداً من البيوت، لكن لا ترضي الله عزّ وجل، كل يوم ثلاثة آلاف ليرة، لو أجرته إلى مؤمن ـ دخول لا ترضي الله عزّ وجل، وتجارات لا ترضي الله، وحفلات لا ترضي الله، وسـهرات لا ترضي الله..

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا)

الجواب زجر وردع وخزي:

كلاّ أداة نفي وردع، هذا لن يحصل، هذا بعد فوات الأوان، هذا لن يكون..

(كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)

ي أن هذه الكلمة التي قالها لا تُقَدِّمُ ولا تؤخِّر، ولا تنفع، ولا تُجدي، ولا تؤثِّر، وليس لها أي مفعول، إنها كلمة هو قائلها، إذا كان ساقوا مجرماً إلى الإعدام بعد أن صدر الحكم بإعدامه، وتصدّق الحكم، وهو مرتكب جريمة، إذا قال: خلصوني، سامحوني، اتركوني، نقول له: هذه كلمة لا تقدم ولا تؤخر، ولا تجدي، ولا تفعل شيئاً إنها كلمةٌ هو قائلها، فالإنسان لا ينبغي أن يُهْمِل أمر دينه في الدنيا حتى يأتي عليه يوم يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا ويقال له:

(كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)

هذه هي المشكلة، نحن الآن في الحياة الدنيا، ومادام القلب ينبض فالباب مفتوح، باب التوبة مفتوح، باب الرُقِي مفتوح، باب المغفرة مفتوح، باب الإصلاح مفتوح، كل شيءٍ مفتوح الآن، حتى إذا جاء الموت أُغلقت الأبواب، وخُتِمَت الأعمال، وجَفّت الصحف، ورفعت الأقلام، وانتهى كل شيء، وأصبح الإنسان رهينَ عمله..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41))

(سورة المدثر)

(كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة المؤمنون)

حياة البرزخ:

هذا البرزخ..

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

من ستة آلاف عام، وفي كل عام ثلاثمئة وخمسة وستين يوما، وكل يوم مرتان، يُعْرضون على النار..

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

هذا هو البرزخ، البرزخ إما أن يكون روضةً من رياض الجنة، وإما أن يكون حفرةً من حُفَرِ النار، الإنسان بين الموت وبين يوم القيامة هناك مرحلةٌ تسَمَّى البرزخ، لكن بعضهم قال: يا ترى هو من ورائهم أم من أمامهم ؟ المفروض من أمامهم البرزخ، الآن مات وأمامه برزخ، قال بعضهم: كلمة من ورائهم تعني الإحاطة..

(وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

(سورة الكهف)

أي محاطين، بعد أن يموت الإنسان لا يوجد حل آخر.

(وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ)

أي محيطٌ بهم برزخ إلى يوم يبعثون.

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

نسَبَ يومَ القيامة ولا خُلّة ولا سؤال:

أي أن هذه النفوس التي خلقها الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ أرادها، جعل نظام الأسرة، جعل نظام الزوجين، هذا أبٌ، وهذه أم، وهؤلاء أولادهما، الأولاد يتزوجون، هذا صهر، وهذه صهر، وهذا ابن أخ، وهذا ابن أخت، وهذه عمة، وهذه خالة، هذه العلائق النسبيّة جعلها الله في الدنيا كي يكتسب الإنسان بها العمل الصالح، يكون الطفل صغيراً يحتاج إلى رعاية، إلى عناية، إلى توجيه، إلى تربية، فأن يكون للإنسان أب، وأم، وزوجة وأخ، وأخت، وعم، وخال، وعمة، وخالة، وابن أخ، وابن أخت، وابن خالة، وابن عمّة، هذه العلاقات النسبية جعلها الله في الدنيا كي نتواصل، كي نتراحم، كي نكسب الأعمال الصالحة، كي يُعين الابن أباه حينما يكبر، وكي يعين الأب ابنه حينما يكون صغيراً، لكن انتهى العمل بقي الجزاء، لذلك ليس في يوم القيامة جزاء، ليس هناك أنساب.

يبدو أن السيدة عائشة رضي الله عنها، سألت النبي عليه الصلاة والسلام قالت: **أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة** ؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يا أم المؤمنين، إن أحداً لا يعرف أحداً يوم القيامة..))

لكن فيما سوى هذه المواضع الثلاث ؛ على الصراط، وإذا الصحف نشرت، وعند الميزان، في هذه المواقف الثلاثة لهول الموقف لا يعرف أحدٌ أحداً يوم القيامة.. وفيما سوى ذلك ربما وقعت عين الأم على ابنها، تقول له: يا بني جعلت لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحجري وطاءً فهل من حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم ؟ فيقول: يا أماه ليتني أستطيع ذلك، إنما أشكو مما أنت منه تشكين..

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

لا أنساب، ولا تساؤل، هنا التساؤل بمعنى السؤال، الإنسان أحياناً يسأل أباه أن يعطيه مالاً، والأب أحياناً يسأل ابنه أن يعطيه مالاً، والأخ يسأل أخاه بيتاً..

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

(سورة المؤمنون)

الناس يوم القيامة فريقان:

الفريق الأول: فمن ثقلت موازينه:

أعماله الطيبة كثيرة، له استقامته في الدنيا، له أعمال الخير، يدلُّ على الخير، يتصدّق بماله، يدل الضال في أرض الضلالة، يفرغ من دلوه في إناء المستسقي، يميط الأذى عن الطريق، يعود المريض، ينفق من ماله، يرد لهفة الملهوف، مثل هؤلاء الأشخاص موازينهم ثقيلة، دعا إلى الله، جعل الله هداية بعض الناس على يديه، هذه الدعوة تحتاج إلى وقتٍ، وإلى جهدٍ، وإلى صبرٍ، وإلى تَحَمُّلٍ، هذه الأعمال الطيبة تجعل موازينه ثقيلة:

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

ي إنهم أفلحوا في الدنيا، وحققوا الهدف من خلقهم، وفازوا بها، وجعلوها جسراً إلى الآخرة:

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 103 ")

الفريق الثاني: ومن خفت موازينه:

أكبر خسارةٍ أن تخسر نفسك.. رأس مالك نفسك، فإذا خسرتها خسرت كل شيء، وإذا ربحتها ربحت كل شيء، تربح نفسك إذا عرّفتها بربها، تربح نفسك إذا دللتها على الله عزّ وجل، إذا ألزمتها سبيل الاستقامة، إذا حملتها على فعل الخيرات، هكذا تربح نفسك، وإلا تخسرها:

(وَمَنْ خَفّتْ مَوَازِينُهُ)

أعماله قليلة، كل وقته وجهده لمصالحه، لكسب المال، للتمتع بالدنيا، لتوسعة البيت، لتزيينه، للذهاب إلى النزهات، لإقامة الولائم، للانغماس في الملذّات، لا يعنى بأمر الله كثيراً، لا يهتم أكان في طاعةٍ أم في معصية ؟ أكان فيما يرضي الله أم فيما يبغضه ؟ لكن الذي يعنيه أنه يحقق رغبته، يلبّي شهوته، يُمتع نفسه، يقول لك: الدنيا لا يوجد فيها شيء، خذ منها قدر ما تستطيع، هكذا شعار بعض الناس، وكما قال الشاعر:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

***

متع نفسك، الآن أنت شاب ولك الدنيا بلذائذها، ولا تضيع مباهجها، وعندما تصل إلى الله يفرجها الله ـ يقولها ساخراً ـ بعض الناس هكذا يقولون..

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنّمَ خَالِدُونَ(103))

(سورة المؤمنون)

الإنسان يخسر بيتا أحياناً، يخسر سيارة، أحياناً يخسر رأس ماله كله، أحياناً يخسر أولاده، هذه مصائب كثيرة، لكن رأس مالك أنت، فأنت رأس مالك فإذا خسرت نفسك أعدّ الله لك حياةً أبديةٍ فخسرت هذه الحياة الأبدية وكان المكان في عذابٍ أليم، هذه أكبر خسارة، لذلك:

((الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني))

(الترمذي، ابن ماجه عن شداد بن أوس)

(وَمَنْ خَفّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النّارُ)

مشهد عظيم: لفحة من عذاب جهنم:

تأتيه لفحةٌ من لهيب النار:

(وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

إذا نظرت إلى رأس غنم مشوي تراه مكَشِّراً، وأسنانه ظاهرة، حينما احترق جلده، انكمشت عضلات جلده فكَشَّر عن أنيابه.

معنى: كالحون:

معنى كالح: حينما تأتيه لفحة النار ينكمش جلده فتظهر أسنانه بشكلٍ قبيح:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

صورة من الخزي: عتاب الله للكافرين:

اسمعوا العتاب الإلهي:

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 105 ")

آيات القرآن ألم تكن تتلى علينا ؟ بلى والله، تتلى علينا صباحاً ومساءً، القرآن أليس بين أيدينا ؟ ألا نسمعه صباح مساء ؟ ألم نسمع تفسيره ؟ ما موقفنا منه ؟

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

الآيات الكونية أليست ظاهرةً جلية ؟ هذه الشمس من أوقدها ؟ وهذا القمر من جعله في هذه المعارج والمواقع ؟ وهذه الأمطار من أرسلها ؟ وهذه الرياح من صرّفها ؟ وهذه البحار من أوجدها ؟ وتلك الجبال من أقامها ؟ وهذه الحيوانات من خلقها ؟ وهذا الطعام الذي تأكله من أعدّه لك ؟

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

عندنا آيات كونية، ويوجد آيات قرآنية، فالآيات الكونية تتلو نفسها علينا صباح مساء، هذا كأس الماء هو آيةٌ من آيات الله، طفلك الذي أمامك آيةٌ من آيات الله، الفاكهة التي تأكُلها آيةٌ من آيات الله، الهواء الذي تستنشقه آيةٌ من آيات الله، وآيات القرآن الكريم:

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

(سورة المؤمنون)

يقول لك: أخي هذا القرآن للأموات وليس للأحياء، يقرأ على الأموات، وفي مناسبات الموت، الآن دعنا في سرور، إذا ذكرت لهم آية أو حديثاً عن الآخرة تشاءموا، دعنا في سرور..

(قالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا)

(سورة المؤمنون: آية " 106 ")

الاعتراف سيد الأدلة: غلبتْ علينا شِقوتنا ومنا قوما ضالين:

الشِقْوَة أضيفت إليهم، فالشقوة هنا تعني الشهوة، سماها الله شقوة لأن الشهوة تؤدي إلى الشقوة: " ألا يا ربَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً".. فلأن هذه الشهوة تؤدي إلى الشِقوة سماها الله شِقوة:

(غَلَبَتْ عَلَيْنَا)

إننا آثرنا شهواتنا على طاعة ربنا، نحن مخيَّرون، اخترنا شهواتنا على طاعة ربنا، آثرنا حظوظ أنفسنا، آثرنا المُتَع الرخيصة يا رب، هكذا..

(غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ)

(سورة المؤمنون)

لم نبحث عن الحق، الحق كان جلياً، كان واضحاً ولكن تعامينا عنه، ما بحثنا عنه، لم نعبأ به، بحثنا عن الدنيا، عن الدرهم والدينار:

(وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107))

(سورة المؤمنون)

لا كلام ولا اعتذار:

إذا طلب منك طلباً لا يُعْقَل أن يحَقق، لا تقول له: لا، بل تقول له: اخرج من هنا:

(قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

(سورة المؤمنون)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

ما هذه أخرجنا منها ؟ كنتم في الدنيا وعمرتم فيها عمراً كافياً:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

عمرت في الدنيا ثمانين عاماً، سبعين عاماً، ستين عاماً، بخريفها وصيفها وشتائها وربيعها، ستون مرة أكلت فواكه الصيف، وستون مرة أكلت فواكه الشتاء، ورأيت الرياح، والأمطار، والثلوج، والربيع،

والخريف، وجاءك أولاد، كبروا أولادك، وزوّجتهم، وجاء الأحفاد، عُمِّرت ما يكفي للتذكّر..

(وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر)

الله عزّ وجل أرسل الأنبياء، وأنزل القرآن الكريم، وسخّر العلماء، وأرسل بعض المصائب حتى يُذَكِّرنا، وجعل الشيب، جعل ضعف البصر، وضعف السمع، وضعف القوى، يقول لك: أنا لم أكن هكذا، كنت أنشط من ذلك، ربنا عزّ وجل بأسلوب لطيف قال لك: يا عبدي اللقاء قَرُب فانتبه، هيئ نفسك:

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107))

احذر الطريق مسدود:

هذا كلام لا يُجْدي، تكلمنا من درسين سابقين: لا تصل إلى طريق مسدود يكون حائلاً بينك وبين الله، قل:

(أَخْرِجْنَا مِنْهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 107 ")

وقل:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

وقل:

(يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنعام: آية " 27 ")

وقل:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر: آية " 56 ")

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)

(سورة الفرقان: آية " 27 ")

هذا الكلام لا يجدي:

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108))

(سورة المؤمنون)

يعني ابتعدوا، ولا تكلموني:

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

(سورة المؤمنون)

الجزاء من جنس العمل: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ

أحياناً ينشأ الشاب في طاعة الله فيسخر منه إخوانه، أصدقاؤه، أقاربه، قد يسخر منه أبوه وإخوته في البيت، يقولون له: تَشَيَّخ، لم يعد يفهم شيئاً، ابتعد عن سهراتنا، طمس قلبه، لم يعد يرى شيئاً:

(وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

كنتم تظنون أنكم أنتم الأذكياء وهم الأغبياء، كنتم تظنون أنكم أنتم الرابحون وهم الخاسرون، كنتم تظنون أنكم أنتم الفائزون، وهم المخففون، كنتم تظنون أنكم أنتم الذين تعرفون كيف تكون الحياة وهم لا يعرفون:

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

كانت السُخْرِيَة عليهم قد أنستكم ذكر الله عزّ وجل، تمضون أوقاتكم في الحديث عنهم، يقول لك: محدود، وتقولون ورعهم غباء، وإحجامهم عن مباهج الدنيا ضيق أفق، وخوفهم من الله عزّ وجل حالة مرضية، واستقامتهم تشدد..

(وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

وهذا يحصل، المؤمن دائماً أهل الكفر والضلال والبغي والعدوان يسخرون منه، لذلك في بعض الأحاديث:

((اطلعت على أهل الجنة فرأيت عامة أهلها من البُله))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

والحديث غريب، لكن بعضهم وجهه توجيهاً رائعاً، أي هؤلاء الذين أحجموا عن المال الحرام خوفاً من الله عزّ وجل هم في نظر الناس بُلْه، الذين أحجموا عن المال الحرام خوفاً من الواحد الديّان يتهمهم الناس بأنهم بُله، إنهم بُلهٌ في نظر البُله:

(وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111))

(سورة المؤمنون)

هؤلاء الذين انغمسوا في ملذات الدنيا إلى قمة رؤوسهم كانوا خاسرين، هؤلاء الذين أقبلوا على الدِرهم والدينار، وعبدوا شهواتهم من دون الله هم الخاسرون، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)

(سورة المؤمنون)

سؤال: كَم لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سنين:

ربنا عزّ وجل يسأل، هذا سؤال دقيق جداً، لو فرضنا سمعت واحداً دخل إلى بيت لكي يسرق، ثم فوجئ بصاحب البيت، فنشبت معركة بينهما فقتل صاحب البيت، فأُخذ للمحاكمة، وحكم عليه بالإعدام، أنت تقول: يا ترى ما هو المبلغ الذي سرقه ؟ يقول لك، والله إنه خمسون ليرة، فهل من المعقول أن يضحي بحياته كلها من أجل خمسين ليرة ؟ ما أغباه، ومهما كان المبلغ كبيراً فإنه خاسر، هذه الآخرة الأبدية، هذه الحياة السرمدية، هذه السعادة الكبرى، هذه الجنّة التي عرضها السماوات والأرض، ضيعتموها من أجل أيامٍ معدوداتٍ في الدنيا:

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)

الجواب: يَوْما أَوْ بَعْضَ يومٍ

اسمعوا هذا الجواب، عاش ثلاثًا وثمانين سنة:

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

(سورة المؤمنون: آية " 113 ")

تَمُرُّ الدنيا على الإنسان يوم القيامة وكأنها يومٌ، كل واحد له عمر، تقول له: يا أخي كم هو عمرك ؟ يقول: ثلاثة وأربعين، كيف مضوا ؟ يجيبك: والله البارحة كنت طالباً صغيراً، الذي في الأربعين من العمر يقول لك: البارحة كنت صغيراً، والذي في الثلاثين يقول القول نفسه، والذي في الخمسين كذلك، في الدنيا تمضي الأيام سريعاً كلمح البصر، أما في الآخرة كل العُمُر يمضي، وكأنّه يومٌ أو بعض يوم:

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ)

(سورة المؤمنون)

اسأل الملائكة الذين وكِّلوا بعَدِّ الأيام، يأتي الجواب:

(قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة المؤمنون: آية " 114 ")

اعقلوها جيدًا: ما لبثتم إلا قليلا

هذه إن حرف نفي، أي ما لبثتم إلا قليلاً، أي أذهبتم طيباتكم في الحياة الدنيا، أي ضَحَّيتم بهذه الآخرة العظيمة من أجل أيامٍ معدودةٍ:

(قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

لو أنكم تعلمون حقيقة الدنيا لما استهلكتم الوقت في تُرُّهات الأباطيل، ولا في سفاسف الأمور، لو كنتم تعلمون حقيقة الدنيا، والله الذي لا إله إلا هو، حتى المؤمن إذا واجه الموت فإنه سيندم على ساعةٍ مضت لم يذكر الله فيها، أثمن شيءٍ هو الوقت، هذا الوقت رأس مالك.

ما مضى فات والمؤَمّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

***

لذلك احرصوا على الوقت، استهلكوا الوقت فيما يرضي الله عزّ وجل:

((اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك))

(الجامع الصغير عن ابن عباس بسند صحيح)

هذه الخمس اغتنمها قبل الخمس.

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(114))

الآن السؤال:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

يعني هكذا الدنيا فيها قوي وفيها ضعيف، هذا القوي أكل مال الضعيف وانتهى الأمر ؟ لا يوجد شيء بعد هذا ؟ لا يوجد حساب ؟ لا يوجد جزاء ؟ لا توجد محاكمة ؟ لا يوجد ثواب ؟ لا يوجد عقاب ؟ لا يوجد يوم آخر ؟ هكذا تنتهي الحياة بالموت ولا شيء بعد الموت ؟ هكذا تظنون؟

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

فيكم القوي ولا يُحاسب ؟ وفيكم الضعيف ولا يُعطى حقه من القوي؟ فيكم الغني الذي يبدد أمواله على شهواته ؟ وفيكم الفقير الذي يبحث عن طعامٍ فلا يجده وهكذا ينتهي الأمر ؟

أحد أسباب الإيمان باليوم الآخر أن اسم الحق لا يتحقق إلا بعد الموت تحقُقاً كاملاً:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ)

(سورة المؤمنون)

تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا:

تعالى عن أن يخلق الخلق عبثاً.

تعالى عن أن يخلقنا بلا حساب.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

لا توجد مسؤولية ؟ وعدتها إن سجلت لك هذا البيت باسمك ألا تطلقها، فلما سجلته طلّقتها، وليس هناك إلهٌ يحاسب؟

إذا جار الأميرُ و حاجباه وقاضي الأرض أسرفَ بالقضاءِ

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

* * *

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

(سورة المؤمنون)

تعالى عن أن يخلق الخلق عبثاً، لابدّ من حساب، لابدّ من جزاء، لابدّ من دينونة، لابدّ أن يقف الناس جميعاً ليحاسبوا عن أعمالهم:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ)

(سورة المؤمنون)

معنى: لا برهان له به:

هذه (لا برهان له به) سمّاها علماء البلاغة قيدا توضيحيا، وليس قيداً احترازياً، أي لا يمكن أن يكون هناك برهانٌ لإلهٍ آخر، لكن ومن يدعو مع الله إلهاً آخر فإنه من شأن هذه الدعوى الباطلة أنه لا برهان عليه:

(فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة المؤمنون: آية " 117 ")

أحياناً تحاول أن تفهم حل قضية يقال لك: هذا الموضوع عند فلان، وليس في إمكان أحدٍ أن يَحُلّه إلا هو، فهذا الموضوع الحساب عند الله وحده:

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

يعني سوف يأتي الناس رب العالمين ؛ وسوف يحاسبهم على أعمالهم كلِّها ؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، أي:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

الكافر لا يُفْلِح مهما قدم وأخر، مهما علا، مهما طغى وبغى، فإنه لا يفلح:

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة المؤمنون)

اقتران المغفرة بالرحمة:

يعلِّمنا ربنا سبحانه وتعالى كيف ندعوه:

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ)

المغفرة للسيئات، والرحمة في التجلِّيات:

(وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (01-23): تفسير الآيات 1 – 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-09-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة النور.

مكانة سورة النور:

يجب أن تعلموا أن لهذه السورة مكانة كبيرة في القرآن الكريم، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يخصها بعناية فائقة، وسيدنا عمر رضي الله عنه كتب إلى أهل الكوفة: **<< عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّور>>.**

[سنن سعيد بن منصور، وذكره البيهقي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن مجاهد]

تفسير كلمة (سورة) ودلالاتها:

أما كلمة (سورة) فهي مؤنث كلمة سور، والسور هو الحائط، وكأن السورة مجموعة من آيات كريمة تحوم حول موضوع واحد، فسور القرآن وحدات ذات موضوع واحد، وحدات معنوية، فيبدو أن هذه السورة في مجملها تتحدث عن موضوع دقيق هو موضوع التستر والعفاف، لأن المرأة نصف المجتمع، هي نصفه، ولكن من نوع خاص، هذا النصف متفجر فيما لو اضطربت علاقتها مع الرجل، أو تفلتت من الدين، فإن لم تكن وَفق التشريع الإلهي لانفجرت، وفجرت المجتمع، لذلك ربما كان أساس فساد المجتمع فساد المرأة، وربما سبّب فساد المرأة فساد مجتمع بأكمله، فهي نصف المجتمع، ولكنه النصف المتفجر لو تفلت أو لم ينضبط، لو خرج عن النطاق الصحيح لكان كارثة شاملة مدمرة، لذلك جعل ربنا عز وجل هذه السورة في مجملها تحوم حول موضوع واحد، ألا وهو علاقة الرجل بالمرأة.

حكمة خلق شهوة المرأة:

في أصل الخلق خلقت المرأة على ما هي عليه ليرقى بها الرجل إلى رب السماوات والأرض، خلقت امرأة وأودع الله في الرجل حبّها، هذا الحب هو ما يعبر عنه بالشهوة، والشهوة هي الطريق التي توصلنا إلى الله عز وجل.

نحن نرقى بالشهوات إلى رب الأرض والسماوات، لو لم يكن في قلب الإنسان هذا النازع، وهذا الميل، فما قيمة الاستقامة ؟ لا قيمة لها، لو أن الإنسان لا يحب، ولا يكره، ولا يغضب، ولا يبغض، ولا يتمنى، ولا يرجو، لو كان الإنسان كقطعة من خشب كيف يرقى إلى الله، قطعة الخشب كيف ترقى إلى الله، لكن الله سبحانه وتعالى ركّب في الإنسان شهوات من أجل أن يرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، ولولا هذه الشهوات لما ارتقى إلى الله و الله سبحانه وتعالى يقول:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

[سورة آل عمران: الآية14]

هذا التزيين من أجل أن تكف عن الحرام، وأن تسير في طريق الحلال، إن كففت عن الحرام ارتقيت إلى الله، وإن أخذت الحلال ارتقيت إلى الله.

إذاً الشهوة سلّمٌ إلى الله، يجب أن توقن حق اليقين أن هذه الشهوات طريقنا إلى الله، إنك إذا واجهت امرأة متهتكة، وغضضت بصرك عنها خوفا من الله، وطمعا في رضوانه، إنك بهذا ترقى، فإذا تفضل الله عليك، وأكرمك بزوجة صالحة إذا نظرتَ إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك، وإذا أمرتها أطاعتك، ارتقيت إلى الله من نوع آخر، في الحالة الأولى ارتقيت إليه صابرا، وفي الحالة الثانية ارتقيت إليه شاكرا.

دعوة صريحة على تعلّم سورة النور وتعليمها للنساء:

إذاً هذه السورة ألح عليكم، وأتمنى عليكم أن تعلموها نساءكم، إما تعلموها نساءكم أو ادعوهن إلى أن يحضرن هذه الدروس التي تتعلق بالمرأة، إنها نصف المجتمع، إذا صلحت صلح المجتمع، وإذا فسدت فسد المجتمع، لأن العلاقة بين المرأة والرجل علاقة إيجابية في ظل التشريع، ومدمرة في ظل التفلت، كعلاقة البنزين مع السيارة، علاقة إيجابية، لولا هذا الوقود لما تحركت السيارة، إنها تتحرك بهذا الوقود، لكن بشرط أن يكون هذا الوقود في مستودعه، وأن يسير في الأنابيب المحكمة إلى المحرك، إلى الموزع، إلى غرف الانفجار، إنه ينفجر، ولكن يولد حركة تنقلك من مكان إلى مكان، فأصبح هذا الوقود السائل نعمة عظمى تقلك من مكان إلى مكان، فإذا خرج هذا الوقود من مستودعه، وخرج من أنابيبه، وصب فوق السيارة، وجاءته شرارة أحرقها، إذا هو قوة مدمرة، إما أن يكون البنزين أو هذا الوقود السائل قوة محركة، وإما أن يكون قوة مدمرة، هذه هي الشهوة تماما، إما أن تكون قوة محركة إلى الله عز وجل ترقى بها، أو أن تكون قوة مدمرة تُدْهِب حياتك سدى، لذلك فإن الموضوع خطير جدا، في القرآن الكريم آيات كثيرة جدا تتحدث عن النساء، وعن انضباطهن، وعمّا يحل لهن، وما يحرّم

عليهن، وفي موضوع إبداء زينتهن، هذه كلها موضوعات يجب أن نأخذ بها، وذلك يعني أنه إذا أردت لإيمانك السلامة، ولحياتك الاستقرار، ولمعادك السعادة فعليك أن تأخذ بما في هذه السورة من أحكام تفصيلية، وعليكم أيها الإخوة أن تتعلموها، وتعلموها نساءكم.

يا أيها الإخوة المؤمنون، هذه السورة تعلموها، وعلموها نساءكم، ربما أؤخر الخوض في تفاصيل الآيات، وفي الأحكام الشرعية المتعلقة بآيات هذه السورة إلى درس قادم، وفي هذا الدرس سألقي عليها شعاعا كاشفا، وبعض التعليقات حول مجمل موضوعها.

محور السورة: العفاف والستر:

هذه السورة كما قلت قبل قليل سماها الله سورة، لأنها مجموعة آيات تتمحور حول محور واحد، ألا وهو العفاف، والتستر، يعني أن الإنسان حينما يتفلت من شأن العفاف، والتستر، حينما يتفلت من القيود أو من الحدود، وهذه الكلمة أريد أن أقف عندها، فربما رأى بعضهم أحكام الدين في شأن غض البصر، وعدم الاختلاط، وهذا المكان لا يجوز، وهذا المكان يجوز، ربما توهم بعضهم أن الأخذ بهذه الأوامر نوع من تقييد الحرية، لا والله، إنه ضمان للسلامة، إن أوامر الدين في شأن العلاقة بالنساء ليست من قبيل الحد من الحرية، بل هي من قبيل ضمان السلامة، إنك إذا ركبت شاحنة، ولها وزن كبير يزيد عن خمسة أطنان، ووصلت إلى جسر كتب عليه: الحمولة القصوى ثلاثة أطنان، وليس في الطريق شخص يراقبك، وليس في الطريق أحد آخر يحاسبك، فهل من مصلحتك أن تعبر هذا الجسر بهذه الشاحنة ذات الوزن الذي يفوق طاقة هذا الجسر، هل تخشى أن تخالف ؟ لا، الموضوع متعلق بك وحدك، الموضوع متعلق بك وحدك، هل تقول: هل يراني من أحد ؟ هل هناك إنسان يحاسبني ؟ يا ترى هل أكتب مخالفة؟ لا الموضوع أعمق من ذلك، إنك إذا دنوت من الجسر، وقطعته، وهو ذو حمولة قليلة ربما انهارت السيارة، ووقعت في النهر، فعندما يفهم الإنسان أحكام الدين هذا الفهم، وبأنها ليست للحد من الحرية، إنما هي ضمان للسلامة، ليست أحكام الشرع تضييقا على حياتك، إنما هي صون لسعادتك، لذلك هذا الذي يطيع الله عز وجل لا يضل، و لا يشقى:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: الآية 38]

وقال تعالى:

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

يا أيها الإخوة الأكارم: هذه السورة تعلموها وعلموها نساءكم:

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[سورة النور: الآية 1]

سورةٌ أنزلناها:

حينما يقول سبحانه:

(سُورَة)

أي مجموعة أحكام متكاملة متعلقة في شأن النساء، والإنسان فيه شهوة للنساء، وفيه شهوة للمال، وفيه شهوة للعلو في الأرض، فشهوة المال مضبوطة بأحكام السرقة، وأحكام الكسب المشروع، وأحكام الربا، وما إلى ذلك من أحكام تفصيلية، وأكثركم يعرفها، وأما شهوة المرأة فمضبوطة بأحكام الزواج، والزواج أمر متعلق بالمرأة، وحينما ينهاك عن شئ متعلق بالمرأة معنى ذلك أن الأمر خطير، فربنا عز وجل لم يأمرنا بشيء متعلق باللباس، لك أن ترتدي أي لون تشاء، لم يأمرنا بشيء متعلق بالأثاث، لم يأمرنا بشيء متعلق بالبيوت، لماذا ؟ لأن هذه مباحات لا شأن لها بإقبال النفس على ربها، لكن لو فرضنا محطة وقود، وهنالك مكان لإعلان ما، فمن الممكن أن يكتب في هذا الإعلان مئات الموضوعات، قد تطلب من الناس أن يلزموا الدور، قد تطلب منهم أن يكونوا هادئين، قد تطلب منهم ألاّ يلقوا الورقة على أرض المحطة، هذه الأوامر كلها جيدة ونافعة، ولكن أمرا مثل: ممنوع التدخين، هذا أمر مصيري، لأنك إذا دخنت في محطة الوقود ربما احترقت بأكملها، ودمرت، فهذا مثل للتقريب، ففي آية محكمة يأمرك أن تغض بصرك، معنى ذلك أن في إطلاق البصر خطورة كبيرة، وهلاكا للإنسان، حينما جعل لك هذه القواعد إذا أخذت بها سعدت في الدنيا والآخرة:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

معنى: فَرَضْنَاهَا

معنى:

(فَرَضْنَاهَا)

أيْ أوجبنا العمل بأحكامها، التعريف الدقيق للفرض: إيجاب العمل بالأحكام، والأوامر الإلهية على مستويات: بعضها فرض، وبعضها واجب، وبعضها سنة مؤكدة، وبعضها سنة غير مؤكدة، وبعضها مستحب، وبعضها مباح، وهناك مكروه كراهة تنزيهية، ومكروه كراهة تحريمية، وهناك الحرام.

وربنا عز وجل فوق ذلك جعل حدوداً، فربنا أمرَ ونهى، لكن في علم القانون التشريع لا يكفي، بل لا بد له من مؤيد قانوني، لو فرضنا أننا أصدرنا قانوناً للسير، يُلزم السائق الجانب الأيمن، فيجب ألا يتجاوز في المنعطفات، ثمة مجموعة كبيرة جدا من التعليمات، فيجب أن يقود مركبة، وهو يحمل إجازة سياقة، إلخ، فهذا القانون ما قيمته لو لم يكن هناك عقوبات، فمن يخالف هذه المادة تسحب إجازته، ومن يخالف هذه المادة يلقى الحجز على مركبته، ويودع في السجن، هذه تسمى في القوانين المؤيدات القانونية، ولولاها لما كان لهذا القانون معنى، والدين جاء لينظم حياتنا، لينظم هذه الشهوات التي أودعها الله فينا، فأمرك بالزواج، أمرك بغض البصر، ونهاك عن الزنى، نهاك عن الاختلاط، فلولا هذه التنظيمات، وهذه الأوامر، والنواهي فإن المؤيدات القانونية لا قيمة لها، لذلك فالزاني يجلد، وإذا كان محصناً يرجم، والسارق تقطع يده.

حفظ الكليات الخمس:

بحث علماء الأصول في أن الشرع الحنيف يهدف إلى خمسة أشياء: إلى حفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ العرض، وحفظ الدين.

1 – حفظ النفس:

يهدف إلى حفظ النفس، فمن قتل نفسا فجزاؤه القتل:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 179]

فحفظ النفس أمر إلهي، والمؤيد القانوني لها أن القاتل يقتل، والقتل أنفى للقتل.

2 – حفظ العقل:

والشرع الحنيف جاء ليحفظ العقل، فمن عطل عقله بشرب الخمر فلا بد أن يقام عليه حد الخمر.

أنت مأمور أن تحفظ نفسك، فالمنتحر جزاؤه إلى جهنم، والذي يقتل نفسا بغير نفس إلى النار أيضا، وحد القتل القتلُ، فحفظ العقل يكون بألاّ تفعل شيئا يعطل هذا العقل، ولاشيءَ يذهب العقل كشرب الخمر، لذلك جاء حد شرب الخمر.

3 – حفظ المال:

وحفظ المال هدف ثالث من أهداف الشرع الحنيف، وهذا الآخر له مؤيد قانوني، فمن أخذ ما ليس له قطعت يده:

يد بخمس مئين عسجد وُديـت ما بالها قطعت في ربع دينار

قال عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لما كانت أمينة كانت ثمينـة، فلما خانت هانت، فأول شيء حفظ النفس، ثم حفظ الدين، ثم حفظ العقل، ثم حفظ المال.

4 – حفظ العرض:

فمن يزن يجلد إذا كان غير محصن، ومن يزن يرجم إذا كان محصنا.

5 – حفظ الدِّين:

وأما حفظ الدين، فإنّ الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نتعرف إليه، وأن نتعرف إلى شرعه، ومن أراد أن يصرف الناس عن الدين، وأن يطفئ نور الله عز وجل فله في الشرع حد:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة المائدة: 33]

لهم جزاء عند الله عز وجل، فخمسة أشياء، حفظ النفس، والدين، والعقل، والمال، والعرض، وكل هذه الأشياء إذا تجاوزها الإنسان فهناك حد رادع مانع.

فهذه السورة في مجملها تتعلق بموضوع المرأة، بموضوع العرض، وهما شيئان خطيران.

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا

يعني أوجبنا العمل بأحكامها، نقول مثلا للإنسان: إن شربَ الماء فرض لبقاء حياتك، ومعنى فرض أي ضرورة، ولابد من شرب الماء، لكن شراء باقة زهر للبيت ليس فرضاً، هناك أنواع منوعة من الفواكه، والثمار يمكن أن تعيش من دونها، لكن الخبز، والهواء، والماء، و القوت، هذه كلها فرائض

لاستمرار حياتك، وأما حياة النفس فهناك فرائض لها: فالصلاة فرض، بمعنى أنك إذا لم تصلّ أهلكت نفسك، والصيام فرض، والحج فرض، والزكاة فرض، وكذلك كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب.

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

وأما معنى:

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

أي مع هذه الآيات آيات الأحكام التشريعية، هناك في هذه السورة آيات تبين عظمة الله عز وجل وأسماءَه الحسنى، وصفاته الفضلى.

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

الأحكام في القرآن الكريم موجّهة للذكور شاملة للإناث:

أولا: جميع الأحكام في القرآن الكريم يكتفى بأن توجه إلى الذكور، وهي تشمل النساء أيضاً، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[سورة البقرة: الآية 264]

فهذا النهي يا ترى للذين آمنوا ؟ هم فقط المنهيون عن أن يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى ؟ وهل المؤمنات غير منهيات ؟ لا، إنهن منهيات بحكم التغليب، جميع النساء مأمورات أن يكففن عن المنّ بصدقاتهن، إذاً لماذا ؟ لو أن الله قال: الزاني فاجلدوه مائة جلدة، ألا يشمل النساء ؟ قال: بعضهم يتوهم أن المرأة التي زُنِيَ بها ليست مسؤولة عن ذلك، ولذلك للتأكيد بأن هذا الحكم يشمل المرأة والرجل معاً ذكر الله عز وجل:

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ

الحكمة مِن تقديم الزانية على الزاني:

الآن لدينا سؤال: هنا ذُكِرَت الزانية قبل الزاني، وفي آيات أخرى ذُكِر السارق قبل السارقة، لماذا بدأ الله بالزانية، وبدأ هناك بالسارق ؟ قال بعض العلماء: لأن المرأة أقدر على الزنا من الرجل، هي التي تغريه في البداية، هي التي تدعوه، والرجل أقدر على السرقة من المرأة، لذلك في هذه الآية قُدِّمت المرأة، وفي آية السرقة قُدِّم الرجل.

الفرق بين النكاح والزنى:

الحقيقة أن الزنى هو لقاء غير مشروع، بينما الزواج فهو لقاء مشروع، والفرق بينهما أن المرأة إذا خطبتها، وتزوجتها، وعقدت عليها القران، وأنجبت منها أولادا كالثمار اليانعة، ففي الأسرة أطفال كالزهور، هؤلاء الأطفال يكبرون، والفتيات يكبرن، وترى في هذه الأسرة السعادة، والأنس والراحة، ويكبر الرجل ليجد زوجته أمامه، طبعا زوجته كانت شابة، لكن هذه المرحلة تخطاها، الآن أم لأولاد، تتمتع بالحكمة، والرحمة، والمحبة، وجد أولاده أمامه، بينما الزنى ينتهي إلى الفضيحة.

لي صديق حدثني فقال: طُرِقَ بابي الساعة الرابعة صباحاً، ففتحت الباب فلم أجد أحداً فنظرت إلى أسفل فإذا كيس فيه شيء يتحرك، فتحته فوجدت فيه طفلاً وُلدَ حديثاً، طبعاً أخذه إلى مستشفى، أو إلى مصح، على كلٍ وقفت عند هذه القصة فقلت: سبحان الله، لمّا ينجب الإنسان في ظل الزواج، يبقى طوال تسعة الأشهر ينتظر هذا المولود، ويعد له مهداً، ويعد له حاجاته، وألبسته، وهناك تفاؤل، وهناك بِشْرٌ، وهناك سعادة، وهناك ترقب، وهناك انتظار، فإذا وضعت المرأة وليدها عمت الفرحة، وصارت التهاني، والحفلات، والضيافات، والمباركات، وقدمت الهدايا، سبحانك يا رب هذا في الطريق المشروع، فإذا كانت هذه الولادة من الزنا وُضِعَ المولود في كيس، ونُبِذ أمام الباب، وقُرِع الجرس، وولى صاحبه هاربا، وهذا الطريق غير المشروع.

حينما يخطب الإنسان امرأة تطلق أبواق السيارات يوم العرس أصواتها، فالعمل المشروع يرضاه الله عز وجل، ويرضاه الناس، ويرضى الناس عنك، لكن إذا كان هناك لقاء طريق غير مشروع، ينخلع من يقوم به قلبه لأية خطوة تقع خلف ظهره، أليس كذلك ؟

ليس في الإسلام حرمان، ولكن فيه تنظيم، كل شهوة أودعها الله في الإنسان جعل لها قناة نظيفة تمر من خلالها، تحب المرأة، هذا شيء جميل، تزوج، لا أحد يعترض عليك، لا أحد ينتقدك، تبقى في عزتك، وكرامتك، تبقى في نقائك، تبقى في صفائك، تحب المال فاعمل في طريق مشروع، تحب أن تعلو في الأرض قَدِّم للناس شيئاً صالحًا يرفعوك على أكفهم، فشهوة المرأة تُقْضَى بالزواج، وشهوة المال تقضى بالعمل، وشهوة العلو بالأرض تقضى بالعطاء، والأنبياء صلوات الله عليهم أعطوا، ولم يأخذوا، لكن الله سبحانه وتعالى رفع ذكرهم في كل مكان، وفي كل زمان.

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

إذًا: الزنى هو هذا اللقاء غير المشروع، والزواج هو اللقاء المشروع، وأنت تجعل العلاقة مشروعة بكلمة الإيجاب والقبول، وتقرير المهر، وشاهدي عدل، حتى يصبح هذا الزواج أو هذا اللقاء مشروعا، فإذا لم يكن هناك إيجاب وقبول، ولم يكن هناك مهر، فهذا اللقاء غير مشروع، وهو زنى، وبين الزواج والزنى كما بين السماء والأرض، بين النكاح والسفاح كما بين السماء والأرض.

فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ

الرأفة ربما أدت إلى تعطيل الحد، وهذا الحد إذا عُطِّل استشرى الفساد في الأرض، وعم الهلاك، إن بني إسرائيل كانت فتنتهم في النساء، فاتقوا الله، واتقوا النساء، فما الذي أهلك بني إسرائيل ؟ فتنة المرأة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الخَمْرُ جِمَاعُ الإِثْمِ، وَالنِّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ، وَحُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ))

[مسند الشهاب عن عائشة، والترغيب والترهيب عن حذيفة]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((إنّ إبْلِيسَ طلاّعٌ رَصّادٌ، وَمَا هُوَ بشَيْءٍ مِنْ فُخُوخِهِ بأوَثَقَ بصَيْدِهِ فِي الأتْقِيَاءِ مِنَ النِّسَاءِ))

[كشف الخفاء، وقال رواه الديلمي عن معاذ، وانظر الفردوس بمأثور الخطاب]

وجوب اتخاذ هامش أمان بين العبد والزنا:

المرأة فخ، فالذي عنده إرادة قوية للانضباط وَفق ما أمر الله به فهو في حصن حصين.

القول الشهير: **الإنسان الشريف يجب أن يهرب لا من الخطيئة، بل من أسبابها**، قال ربنا عز وجل:

(وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

[سورة الإسراء: الآية 32]

أمرنا بغض البصر، أمرنا بالابتعاد عن كل رفيق سوء، فربما أغراك بالمعصية، فإذا ابتعدت عن أماكن الشبهات، وعن الأماكن الموبوءة بالنساء الفاسقات، حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام وصف نساء آخر الزمان بأنهن كاسيات عاريات، قد تكون إحداهن تلبس أغلى الثياب، وقيمته بالآلاف، لكن هذه الثياب لمْ تلبسْها هذه المرأة كي تتستر، بل لتبرز ما بها من مفاتن، إذاً كاسيات عاريات، مائلات مميلات، على رؤوسهن كأسنمة البخت، فالعنوهن، لأنهن ملعونات، فيجب على الإنسان ألاّ يتبجح، ويقول: يجب علي أن أكون لطيفاً، وأكون مرناً...لا، ففي هذا المكان منطقة خطرة، فكأنها بارود، ونار، فلا يجب أن نقول: علينا ألا نبعدهم عن بعضهم، فالقضية تنتهي بانفجار، فإذا أراد الإنسان لدينه أن يسلم فعليه أن يبتعد عن أماكن الشبهات، عن كل مؤلفات رخيصة، عن كل أصحاب منحرفين، عن كل أماكن فيها نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات.

وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ

لذلك قالوا: ربما لا تصلح المرأة أن تكون قاضية، وربما لا تستطيع بحكم عاطفتها، وحكم رحمتها التي أودعها الله فيها من أجل تربية أولادها أن تصدر أمراً بالرجم أو بالجلد على إنسان زانٍ، وطبيعتها الأنثوية، وقلبها الكبير، ورحمتها الجياشة لا تمكنها من إصدار أمر بهذا الموضوع.

وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

الشيء الذي لا يحتمل أن يلقى الإنسان في ساحة البلدة عقب صلاة الجمعة ليجلد مائة جلدة، إن كان غير محصن، أو ليرجم إن كان محصناً، هذا شيء صعب، لذلك هذه عقوبة رادعة.

حدَثَ هذا حين عطِّلَتْ حدود الله:

وقد تسأل الآن: الإحصاء الأخير، أو قبل الأخير إحصاء من 5-10 سنوات: في كل 30 ثانية في أمريكا ترتكب جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، هذه الجرائم التي وصلت إلى دوائر الشرطة، أما التي لم تصل فحدث ولا حرج، لعدم وجود عقوبات رادعة، فاعتبر الإنسان نفسه حراً، له أن يلتقي مع من يشاء، هي رضيت، وأنت رضيت، ولكن أين الحق العام ؟ الحق العام خطير جدا، فعندما عطلنا الحق العام انتشر مرض الإيدز.

الآن هناك في أمريكا ثمانية عشر مليوناً يحملون هذا المرض، والذعر من هذا المرض يفوق حدود الخيال، كل ذلك بسبب الانحراف، لذلك من نعمة الله علينا أن هذا المرض قلما ينتشر في بلاد المسلمين

بسبب الانضباط، فإن لم تحدث حالات غير شرعية فلا ينتقل هذا المرض، أما العلاقات الشرعية كالزواج فلم يثبت فيها جميعا حالة مرضية، إلا أن يكون أحد الزوجين زانياً من قبل، وقد أصيب بهذا المرض قبل الزواج، أما إن لم يكن هناك زنى من قبل فإن العلاقة الزوجية لا يمكن أن تحدث مرضاً من الأمراض التي تسمى الأمراضَ الجنسية.

التلقيح: وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

هذا أمر ضروري.

هل تعلمون ما هو التلقيح ؟ عندما يلقح الإنسان ضد مرض يقوى على مقاومته، فعندما تتجمع أعداد هائلة من الناس - عشرة آلاف إلى عشرين ألفًا - على إنسان يجلد، ويرون بأم أعينهم هذا الهول، وهذا الألم، وهذا التحقير الذي يصيب هذا الزاني حينئذ ينشأ تلقيح، وتطعيم عند كل المؤمنين، لكن حينما يقام الحد فقلما يحدث الزنى، إنه شيء خطير جداً، فلذلك هنالك عقوبات يجب أن تتم أمام مرأى الجمهور كي يتعظ بها الناس، فمثلاً شنق المجرم في السجن لا قيمة له، بل يجب أن يشنق في ساحة عامة كي يتعظ الناس، هذا مصير القاتل، هذا المجرم انتهى به الأمر إلى أن يشنق، كذلك الزاني انتهى به الأمر إلى أن يجلد على قارعة الطريق.

وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

الطائفة قالوا: ثلاث فما فوق، وفي السنة يجلد هذا الزاني بعد صلاة الجمعة في ساحة عامة من ساحات البلدة.

(الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة النور]

معنى الآية:

المعنى الأول:

أن الزاني لا يطيب له إلا الزانية، طبيعته خبيثة، فهو يبحث عن زانية، والزانية تبحث عن زان، هذا يشاكل هذا، وهذا يشاكل ذاك، قال تعالى:

(الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

الإنسان المستقيم الطاهر العفيف يبحث عن طاهرة عفيفة، والإنسان الفاسق الزاني يبحث عن فاسقة، طبعا هذا الكلام ساقه العلماء لمن أقيم عليه الحد، ولم يتب من ذنبه، أما مِن تاب تَاب الله عليه، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ، آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي واللفظ له، أحمد عن أبي ذر الدارمي]

وقال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا)

[سورة الزمر: 53]

هذا الكلام مسوق لمن أصر على الزنى، ولم يتب.

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً)

المعنى الثاني:

لكن بعضهم قال: إنك إذا علمت أن هذه المرأة زانية، أو أنه أقيم عليها الحد، ولم تتب لا يجوز أن يتزوجها مؤمن، مستحيل، هذا حكم شرعي، لا يجوز.

المعنى الثالث:

وبعضهم قال: هو المؤمن لا يستطيب هذه الزانية.

المعنى الرابع:

وبعضهم قال: لا، هذا حكم شرعي، الزواج لا ينعقد فهو باطل، إذا عقد زواج رجل غير زانٍ على امرأة زانية لم تتب فالزواج باطل، ليس هذا من جنس هذه، هذا من طينة، وهذه من طينة أخرى، فالزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فالمشرك الذي لم يعبأ بالدار الآخرة، لم يعبأ بالتوحيد، ادعى مع الله آلهة كثيرة، هو يرضي زيدا وعبيدا، يرى حياته بيد فلان، ورزقه بيد فلان، ومصيره بيد فلان فهذا مشرك، فهذا يسهل عليه الزنى، لأنه غير منضبط بأمر الله عز وجل:

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

ما أبعد حياة الإيمان عن الزنى، طريق طويل، المقدمات كلها عنده ممنوعة، فالاختلاط ممنوع، وكذلك إطلاق البصر، والمشي بمكان موبوء، وأن يصحب أناساً فاسقين، وأن يقرأ أدبا رخيصا، كل هذه المقدمات هي في الأساس محرمة عليه لذلك:

(وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

قال ربنا عز وجل:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا* وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سلاَمًا)

[سورة الفرقان: 63]

إلى آخر الآيات، حتى يقول:

(وَلاَ يَزْنُونَ)

هنا دقة بالغة في الآية، ربنا عز وجل لم ينهَهُم عن الزنى، بل نفى عنهم الزنى، طبعا أن تنهى ابنك على أن يضرب أخاه معنى ذلك أنه من عادته أن يضرب أخاه، النهي فيه احتمال تصوري، إذا نهيت ابنك عن التأخر معنى ذلك أنه قد يتأخر، أما إذا نفيت عنه هذه الحالة فهذه أشد أنواع النهي، أن تنفي وقوع الحالة إطلاقا، فربنا عز وجل قال:

(وَلاَ يَزْنُونَ)

يعني ليس من شأنهم أن يزنوا.

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

خطورة القذف في الأعراض:

الآن يقول عليه الصلاة والسلام:

((... وَإِنَّ قَذْفَ مُحْصَنَةٍ لَيَهْدِمُ عَمَلَ مَائَةِ سَنَةٍ))

[الحاكم في المستدرك عن حذيفة، والبزار في مسنده، والطبراني في الكبير]

ما أكثر الناس الذين يلغطون بالأعراض، ما أكثر الناس الذين يتحدثون، يهرفون بما لا يعرفون، فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ الآن))

[الترمذي، أبو داود، أحمد]

حينما قال ربنا عز وجل:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(سورة النور)

معنى المحصنة:

ما معنى محصنة ؟ أيْ هذه محصنة من الزنى، لها زوج، لها قيم، هذه الحاجة ملبّاة، هذه محصنة من أن تزني، لأسباب كثيرة، إما لأنها مؤمنة، أو لأن لها زوجًا، هذا الذي يرميها، وكأنه رماها بحجر في مقتل من مقاتلها، كأنه رماها بسهم، كأنه أطلق عليها رصاصة.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

سبحانك يا رب، في كل أمور العلاقات المالية يكفي شاهدان ؛ في القرض، في البيع، في الشراء، لكن لخطورة أمر الزنى، ولخطورة أمر فساد سمعة المرأة و، لخطورة أمر العلاقة بها، ولخطورة سمعة الإنسان، هذا الذي يرمي امرأة محصنة بالزنى لا يقبل منه ذلك إلا بأربعة شهود رأوا هذه الحالة رأي العين، إذا جاء بأربعة شهود، وقد شاهدوا الزنى ربما كان هذا مستحيلا، ربما كان هذا شرطا تعجيزيا، لأنّ الله عز وجل يحب أن ندرأ الحدود بالشبهات، فأن يأتي بأربعة شهود رأوا حالة الزنى رأي العين بتفاصيلها عندئذ لك أن تقول: هذه زانية، أما أن يتكلم الناس عنها، ويقولون: إن أخلاقها غير نظيفة، هذا رمي، إنك رميتها بالزنى، هذا الذي يتكلم من دون دليل، من دون أربعة شهود، يرمي امرأة محصنة، لكن سبحانك يا رب، المرأة العفيفة المسلمة لو أن جهة افترت عليها، ورمتها بالزنى، وهي منه بريئة فلها بالسيدة عائشة رضي الله عنها، وهي زوج النبي عليه الصلاة والسلام، لها بها أسوة حسنة، وما حادثة الإفك إلا من أجل أن تكون السيدة عائشة كما يقال: كبش فداء من أجل المؤمنات إلى آخر الزمان، لهن بهذه المرأة العظيمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)

تروي الكتب ـ والله أعلم ـ أن مغسِّلة كانت تغسِّل امرأة، وهي تغسلها قالت في نفسها: كم من مرة زنت هذه المرأة ؟ هكذا تروي القصة، فإذا بيدها تلتصق بجسد الميت، وليس من قوة تنزعها عنها، طال الأمر، مضت ساعة، وساعتان، واليد ملتصقة، فاحتار الناس ماذا يفعلون، أيقطعون يد المغسِّلة ؟ الحي أفضل، أيقطعون جزءًا من لحم الميتة ؟ فيه تشويه للميت، وقعوا في حيرة، وأخذٍ وردٍ، وسؤال وجواب،

ولغط الناس بهذا الموضوع، والأمر في عهد الإمام مالك، حتى قيل: لا يفتى ومالك في المدينة، عرضت هذه القضية عليه فقال: اجلدوا المغسّلة ثمانين جلدة، ومع الضربة الثمانين فكّت يدها، لأنها اتهمتها بالزنى في نفسها.

فما قولك وأنت ساكت، وفمك مطبَق، إذا حدثت نفسك أن هذه زانية ؟ لقد وقعت في جريمة رمي المحصنات الغافلات، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((... وَإِنّ قَذْفَ مُحْصَنَةٍ لَيَهْدِمُ عَمَلَ مَائَةِ سَنَةٍ))

[الحاكم في المستدرك عن حذيفة، والبزار في مسنده، والطبراني في الكبير]

فعلى الإنسان أن يكون دقيقاً، ولا يتسرع، ولا ينقل روايات غير صحيحة غير مؤكدة، فربنا عز وجل علمنا ألاّ تقبل هذه التهمة إلا مع أربعة شهود رأوا حالة الزنى رأي العين، وهذا مستحيل تقريبا، إذاً فالأفضل أن تصمت.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)

وهذا الإنسان يفقد حقه المدني.

فقدان القاذف بالزنا لحقوقه المدنية:

(وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا)

فلا حق له أن يشهد في قضاء، أو شهادة، أو بيع، أو شراء، أو زواج، لأنه رمى محصنة، فلو ذهب ليأخذ لا حكم عليه (براءة من السوابق العدلية يكتب على تلك الوثيقة: إنه محكوم بقذف المحصنات، فشهادته غير مقبولة، ويجب ألا يتوظف، ولا يتحرك، ولا يعقد بيعًا ولا شراءً.

(وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

سبحانك يا رب ما أرحمك:

(إِلّا الّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

التوبة تَجُبُّ ما قبلها

(إِلاّ الّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذا استثناء:

(إِلاّ الّذِينَ تَابُوا)

ربنا عز وجل في جميع الأحكام، وفي جميع الوعيد الذي يتوعد به عباده العصاة هناك منفذ، هناك فرج، هناك استثناء:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الشعراء: الآيات 225-227)

وقال تعالى:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)

(سورة ص: الآية 24)

عندنا استثناء دائم، فالذين تابوا مستثنون من الفسق، ومستثنون من عدم قبول الشهادة، أي عندما يتوب الإنسان يستعيد حقه المدني، وحقه أن يكون شاهدا عدلا.

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الضبط والعدالة من صفات المسلم الأساسية:

هناك نقطة ضرورية، وهي أن الإنسان المسلم يتصف بصفتين أساسيتين ؛ العدل والضبط، العدل هي العدالة، والضبط صفة عقلية، والعدالة صفة نفسية، من يرمِ امرأة محصنة ظلما وزورا يفقد العدالة، ومع فقدِ العدالة يفقد حقه في إدلاء الشهادة، بالمناسبة النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمْهُمْ، وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ، وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ فَهُوَ مِمَّنْ كَمُلَتْ مُرُوءَتُهُ، وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ، وَوَجَبَتْ أُخُوَّتُهُ، وَحَرُمَتْ غِيبَتُهُ))

[القضاعي في مسند الشهاب عن علي]

أعمالٌ تُسقِط العدالة وتجرحها:

العدالة إما أن تلغى، وإما أن تسقط، وإما أن تجرح، من يرمِ امرأة محصنة تسقط عدالته، من يكذب تسقط عدالته، من يظلم تسقط عدالته، من يخلف وعده تسقط عدالته، هذا عن سقوط العدالة، فماذا عن جرحها ؟ من أكل لقمة من حرام جرحت عدالته، من طفف في الميزان بمقدار تمرة جرحت عدالته، من تنزه في الطرقات جرحت عدالته، من كان حديثه عن النساء جرحت عدالته، من صحب الأراذل جرحت عدالته، من بال في الطريق جرحت عدالته، من قاد برذونا فأخاف به الأطفال جرحت عدالته، من أطلق لفرسه العنان، أي أسرع، جرحت عدالته، من علا صياحه في البيت جرحت عدالته، من لعب النرد جرحت عدالته، ومن لعب الشطرنج جرحت عدالته، فهو يضيع وقته سدى، العلماء ذكروا ثلاثة

وثلاثين بنداً تجرح العدالة، من أكل في الطريق، من مشى حافيا، من بال في الطريق، فجرح العدالة شيء، وسقوط العدالة شيء آخر، إن قذف المرأة المحصنة مما يسقط العدالة.

هذه الآيات دقيقة جدا، إن شاء الله تعالى لنا عودة إليها في الدرس القادم من أجل أن نقف على أحكامها التفصيلية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (02-23): تفسير الآيتان 1 – 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-10-07

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب تسمية سورة النور:

أيها الإخوة المؤمنون مع الدرس الثاني من سورة النور، أولا: لماذا سميت هذه السورة سورة النور ؟ بعضهم يقول: لأن ما فيها من أحكام تشريعية، وما فيها من آداب خلقية، وما فيها من أصول أسرية تعدُّ بمثابة النور الذي يلقى على حياة المجتمع، فمجتمع بلا آداب، و بلا حدود، و بلا أحكام، وبلا معاملات وفق الحق والكمال هو مجتمع في ظلام:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة البقرة: الآية 257]

يخرجهم من الظلمات إلى النور بهذه الأحكام التشريعية، بالأحكام المتعلقة بالنساء، بأحكام الزواج، بأحكام الطلاق، بأحكام حسن المعاملة، بآداب المجتمع، بالآداب التي يجب أن تكون بين أفراد الأسرة، فلذلك سميت هذه السورة سورة النور لأن أحكامها التشريعية، وآدابها الخلقية بمثابة النور الذي يضيء جنبات حياتنا الاجتماعية.

محور سورة النور: الأسرة والقيم الأخلاقية:

الشيء الآخر، هذه السورة تتجه إلى الأسرة، والأسرة هي نواة المجتمع، فالمجتمع قائم على خلايا، الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع، لذلك أكثر أحكام هذه السورة تتجه إلى الأسرة، وإلى حفظ الأنساب، إلى الآداب، وإلى التعفف، إلى عقوبة الانحراف الخلقي، وإلى عقوبة الخيانة الزوجية، كأن هذه السورة تتجه إلى الأسرة، والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع.

أمر آخر ؛ هذه السورة بأكملها تتجه إلى ترسيخ القيم الخلقية في المجتمع، فالمجتمع دون قيم خلقية مجتمع حيواني، مجتمع بهيمي، تتحكم فيه الغرائز، والانفعالات السفلية، تتحكم فيه النزوات، مجتمع دون قيم خلقية هو مجتمع كالبهائم، لذلك تتجه عناية هذه السورة إلى الأسرة تارة، وإلى القيم الخلقية التي ينبغي أن تسود المجتمع تارة أخرى.

وهذا مثل نضربه للتوضيح: لو أن بيتا فخما بني على أحدث طراز، وأثِث بأفخر الأثاث، وجهز بكل التجهيزات، فيه كل الأدوات والآلات، لكن لا يوجد في هذا البيت نوافذ، وليس فيه إضاءة، فما قيمة

جمال بنائه، وما قيمة جمال أثاثه، وكيف يهتدي الإنسان إلى مداخله ومخارجه، وإلى استعمال أدواته، واقتناء أجهزته، كل ما فيه من ميزات لا تعرف إلا بالنور، لذلك خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض، وأنزل الكتاب:

(اَلْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

وقال عز وجل:

(اَلْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

[سورة الكهف: الآية1]

فكأن الله سبحانه وتعالى بما أنزل علينا من تشريعات، وبما أنزل علينا من كتب، بما بعثه فينا من أنبياء، ورسل، والله سبحانه وتعالى نور السماوات والأرض، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى في هذه السورة:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

فالنور هو الحقيقة التي تصح بها حياتنا، وهو من عند الله، وليست هناك جهة غير الله يمكن أن تأخذ منها الحقيقة، الحقيقة وحدها من الله عز وجل، لأن الله نور السماوات والأرض، فلذلك سميت هذه السورة سورة النور لأن فيها إضاءة لحياتنا.

في حياتنا شيء مباح، وشيء ممنوع، وآخر حرام، أمرنا الله بغض البصر، وبحفظ الفرج، أمرنا بعدم الاختلاط، وأمرنا بالزواج، نهانا عن الزنى، جعل للزنى حدا رادعا، وحدا قاسيا، فهذه التشريعات لحياتنا الاجتماعية بمثابة النور الذي يضيء جنبات هذه الحياة لذلك سميت هذه السورة سورة النور، تتجه إلى الأسرة أولا، وإلى ترسيخ القيم الخلقية ثانيا، وهذا النور الذي سميت به هذه السورة مضاف إلى ذات الله عز وجل:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

كل مشكلة وراءها معصية:

فما من مشكلةٍ تقع في المجتمع إلا وراءها معصية، وما من معصية إلا وراءها جهل، فالإنسان إذا آمن بالله عز وجل أخرجه من الظلمات إلى النور، وقد وُصِفَ هذا القرآن مرات عديدة بأنه نور يمشي المؤمن بهداه، قال تعالى:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء: الآية 9]

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَالصّلاَةُ نُورٌ))

[مسلم ابن ماجه، أحمد، الدارمي]

إنك إذا اتصلت بالله عز وجل قذف الله في قلبك النور، فرأيت فيه الخير خيرا، والشر شرا، فكلمة هذه السورة ؛ سورة النور فيها من الضياء، وفيها من النور ما يكشف به كل ملابسات الحياة التي نحياها. شيء آخر ؛ لو أن مجموعة من القوارير فيها مواد مختلفة، ولا تَعْرِفُ هذه المواد، بعضها نافع، وبعضها ضار، بعضها عديم الجدوى، وبعضها سامٌّ، بعضها شديد السمية، بعضها ثمين، وبعضها رخيص، قوارير متشابهة، فيها مواد مختلفة، فأنت إذا ألقيت عليها نورا كشافا عرفت بهذا النور كل عنصر مما يتألف، وثمنَه، واستعماله، وفوائده، ومضاره، أو أنه ألصق على كل قارورة لوحة صغيرة تقول لك: هذا العنصر كذا وكذا، وفوائده كذا وكذا، واستعماله كذا وكذا، فالكتابة التي يمكن أن تكون على هذه القارورة كشاف، فعندما يقول ربنا عز وجل: هذا حرام، وهذا حلال، وهذا نافع، وهذا ضار:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية 30)

هذه الآية نور، والأحكام الشرعية نور تهتدي به، فحينما تغض بصرك عن محارم الله يلقي الله في قلبك حلاوة حتى تلقاه، حينما تغض بصرك عن محارم الله يخلق الله مودة بينك وبين أهل بيتك، حينما تغض بصرك عن محارم الله تشعر بالطهر، تشعر بالسمو، تشعر بالقدسية، إذاً هذا الأمر الإلهي بمثابة النور الذي ملأ حياتك ضياء، وبهجة، وسرورا، وسكينة، وملأها اطمئنانا، وسعادة، فأيُّ حكم إلهي إذا طبقته كان بمثابة النور في الظلام، هذا النور يبدد الظلام، يذهب الترهات، يذهب الأباطيل، لهذا قال الله عز وجل، وهاأنا أعيد الآية على مسامعكم مرة ثانية:

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور)

(سورة البقرة: الآية 257)

فإذا قرأت هذه السورة، وطبقت ما فيها خرجت من الظلمات إلى النور، وإذا كان هناك اختلاط، وكان هناك تجاوز لأحكام هذه السورة نشأت الخلافات الزوجية، وانتهت بالطلاق، وانتهت بضياع الأولاد، وتشريدهم، واختلاط الأنساب، وقد تنشأ معها الجريمة إذا رافقَها عدوان، فلذلك إذا طبقت أحكام هذه السورة كان النور الذي يشع من ثنياتها يبدد الظلام الذي يعيش فيه معظم الناس، فبالنور تظهر قيمة البيت الفخم المؤثث بأثاث غال، والمجهز بأجهزة متنوعة، ولكن بلا نور ما قيمة هذا البيت ؟ قوارير فيها مواد مختلفة من دون لصائق ما قيمة هذه المواد ؟ لا تعرفها ولا تعرف كيف تستعملها، أو تتجنب مضارها، وكيف تعرف فوائدها، لذلك يعني تسمية هذه السورة، أو كما يقولون: اسم على مسمى، سورة

النور، إنك إذا قرأتها، وتمعنت فيها، ووقفت عند أحكامها، وطبقتها شع النور في حياتك، شع النور في بيتك، ولا تنسوا أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال: **<< عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّور >>.**

[سنن سعيد بن منصور، وذكره البيهقي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن مجاهد]

وسوف ترون كيف أن فيها من التشريعات، وفيها من الآداب ما لو طبق لأصبح بيت المسلم جنة على الأرض، لو طبقت هذه الأحكام لأصبحت بيوت المسلمين جنات على وجه الأرض.

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ

كما قلنا في الدرس الماضي: إن هذه السورة، هذه الآية الوحيدة التي فيها كلمة سورة:

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

(سورة النور)

سورة النور سورة تربوية:

في هذه السورة موضوعات متنوعة، ولكن يجمعها محور واحد، هو نظام الأسرة، الآداب الاجتماعية المتعلقة بالنساء، القيم الخلقية المتعلقة بعلاقة الرجل بالمرأة، الحدود المانعة، والحدود الرادعة، هذا كله يفهم من كلمة سورة، وأن هذه الآيات العديدة التي تشملها سورة النور بمجملها تتمحور حول محور واحد، ألا وهو علاقة الرجل بالمرأة، وثانيا النظام الاجتماعي الذي ينبغي أن يكون سائدا في البيت. هذه السورة يمكن أن تكون من نوع التربية، التربية تعني التوجيهات المستمرة لنقل الإنسان من طور إلى طور، فيها توجيهات إلهية تنقل المسلم من طور إلى طور، هذا الكلام كله ينضوي تحت كلمة:

(سُورَةٌ)

أَنْزَلْنَاهَا

أما:

(أَنْزَلْنَاهَا)

فالإنزال يتم من شيء مرتفع إلى شيء منخفض، فهذه التشريعات ليس مصدرها بني البشر، ولكن مصدرها إله البشر، هذه التشريعات أنزلت من السماء، والإنسان لا يتقبل تشريعا إلا إذا كان من عند خالق الأرض والسماوات، لأن الخالق هو المشرع، فمثلاً إذا صنع معمل آلة، فأيّة جهة مؤهلة أن

تصدر تعليمات تشغيلها ؟ إنها الجهة الصانعة، هذا في عالم الصناعة، الجهة التي صنعت هذه الآلة وحدها مؤهلة أن تصدر نشرة فيها بيان طريقة استعمالها، وطريقة صيانتها، وطريقة أن يكون مردودها جيدا، فالصانع هو المشرع، ولأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو العليم الخبير، والحكيم العليم، وهو اللطيف الخبير، وهو القدير، وهو الغني، وهو السميع، وهو البصير، هو وحده سبحانه وتعالى يمكن أن يشرع لنا ما يمس علاقاتنا الاجتماعية، هذا معنى أنزلناها:

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا)

وهذا يعني أن تطبيق هذه الأحكام ليس من قبيل الزيادة، ولا من قبيل التجمل، ليس من قبيل أنّ لك أن تأخذه، ولك ألا تأخذه، ليس هذا هو الموضوع.

ليس للعبد خيار أمام أحكام الله: وَفَرَضْنَاهَا

يعني أنه إن لم يطبق ما فيها من أحكام انقلبت حياة الإنسان إلى جحيم، دمر البيت، وفسد، طلقت الزوجة، وتشرد الأولاد، وهذا يحدث يوميا، ما من طلاق جرى، تعسفيًا كان أو غير تعسفي، ما من فراق بين زوجين، ما من أولاد قد شردوا إلا بسبب مخالفة لأحكام هذه السورة.

لذلك:

(وَفَرَضْنَاهَا)

هذا يعني أن الإنسان ليس له خيار، لأنّ الله تعالى يقول:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب:الآية 36)

أنت ليس لك خيار، عندما يُنزّل ربنا عز وجل في قرآنه الكريم حكما تشريعيا، أمرا، نهيا، فليس للمؤمن خيار، الخيار قد انتهى، أنت تختار أن تأكل هذا الطعام، أو ذاك الطعام، أنت هنا مخير، أنت تختار أن تسكن في هذا الحي، أو في ذاك الحي، أن تقترن بهذه المرأة، أو بتلك، ولكن فيما أنزله الله من أحكام تشريعية ليس لك خيار، لقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب:الآية 36)

يعني أن الله عز وجل أمرنا بغض البصر، فلا يجوز أن نقول: هذا ممكن، وهذا ليس ممكناً، أو أن الزمان صعب، والوقت معقد، الفساد عمّ، والطريق مليء بالنساء الكاسيات العاريات، هذا الكلام مرفوض، لأن ربنا عز وجل قال:

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)

(سورة البقرة:الآية 285)

ولا يمكن أن يكون الأمر الإلهي إلا في إمكان كل أن إنسان يطبقه، فلذلك:

(أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا)

لنفترض أنكَ قلت: تتوقف حياتي على شرب الماء، فشرب الماء فرض، تتوقف حياتي على تنفس الهواء، فتنفس الهواء فرض، تتوقف سعادتي في الدنيا، والآخرة على تطبيق هذه الأحكام، فهذه الأحكام هي فرض من قِبَل الله عز وجل، لذلك:

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا)

الأوامر التي سوف تأتي في هذه السورة لا مجال للحل الوسط فيها، فلما يقول بعض الصناع: لا يوجد في الآلة حل وسط، إما أن تكون وفق ما صممت، وإما أن تتوقف عن العمل، كذلك الإنسان ؛ إما أن يطبق هذا التشريع بكل ما فيه، بجمله وتفصيلاته، أو أن تصبح حياته منكدة، حياة فيها الشقاء، وفيها الهلاك.

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ

فيها أحكام تشريعية، وفيها آيات تعرّف بذات الله سبحانه وتعالى، وفيها آيات تشريعية، وآيات كونية، فالآيات التشريعية فَرَضْنَاهَا، والآيات الكونية بيّناها، فإذا عرفت الخالق طبقت أمره، لذلك يجب أن تعرف الآمر قبل أن تعرف الأمر، هكذا قال أصحاب النبي العدنان، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَلا أَجِدُ قَلْبِي يَعْقِلُ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ قَلْبَكَ حُشِيَ الإِيمَانَ وَإِنَّ الإِيمَانَ يُعْطَى الْعَبْدَ قَبْلَ الْقُرْآنِ))

[أحمد]

فإذا تعلمت الشرع قبل أن تعرف الله عز وجل فإنك لن تطبقه، بل تحتال عليه، أما إذا عرفت الله أولا من خلال هذه الآيات الكونية، إذا عرفته خشعت له، فإذا خشعت له بحثت عن أمره، وطبقته بحذافيره، وطبقته بإخلاص ودقة، لذلك معرفة الله سبحانه وتعالى هي البداية.

هذا يؤكده الإمام الغزالي رضي الله عنه إذ يقول: "العلم بالله، وبأمر الله، وبخلق الله"، فالعلم بالله أن تعرف الله سبحانه وتعالى، وأن تعرف أسماءَه الحسنى، وصفاته الفضلى، أن تعرف لماذا خلقك ؟ ولماذا أوجدك ؟ أن تعرف الغاية التي من أجلها أنت موجود على وجه الأرض، أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى حسيب لَمْ يخلق الإنسان سدى، لم يخلقه عبثا قال عز وجل:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون:الآية 115)

وقال:

(أَيَحْسِبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة:الآية 36)

فهذا الذي يعصي الله بالتأكيد لا يعرفه، قد يعرف أمره ونهيه، وقد يتبحر في أمره ونهيه، وقد ينال في ذلك أعلى الشهادات، هذا عالم بأمر الله، وليس عالماً بالله، لأنّ علامة العالم بالله أنه يخشاه، لقول مَسْرُوقٍ:

<< كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللّهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ >>.

[سنن الدارمي، والطبراني في الأوسط مرفوعا إلى النبي عليه الصلاة والسلام بلفظ: كفى...أعجب برأيه]

وعلامة الذي يعرف أمر الله أنه يعرفه إذا سألته عن قضية في المواريث، في أحكام التجويد، في أحكام الطلاق، في أحكام البيوع، هذه موضوعات كلها تحتاج إلى دراسة، وإلى حفظ، وإلى تذكر، وإلى أداء امتحان، وتحفظ، وتؤلف فيها كتب كثيرة جدا، ولكنك إذا عرفت الله أطعته، وإذا عرفت هذه الأحكام حفظتها، ولا يغنيك هذا عن معرفة الله، فإذا عرفت الله فتعلم بعدها كل شيء، لأن كل شئ بعد معرفة الله كالصفر أمام الواحد، معرفة الله وحدها هي الأساس، فإذا عرفت بعض الأحكام التفصيلية فهذا صفر أمام الواحد، صاروا 10، إذا علمت أحكام المواريث 10 أحكام البيوع 100 صاروا، أحكام النكاح 1000 صاروا، إذا عرفت أصول الفقه 10000 صاروا، إذا عرفت هذه الأشياء الإسلامية الدقيقة فهو علم أضيف إلى ذخيرتك، فإذا عرفت كل هذه العلوم، ولم تعرف الله عز وجل فهذه كلها أصفار، لا يوجد فيها واحد، لأن أصل الدين معرفته كما يقول الإمام علي كرم الله وجهه (أصل الدين معرفته)، وفي الأثر يقول تعالى:

((أبَن آدَمَ اطْلُبْنِي تَجِدْنِي، فَإِذَا وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلّ شَيْءٍ))

[تفسير القرطبي]

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

ولأن التدين عند الإنسان بالفطرة أحيانا تأتي الشهوات، وتأتي الدنيا، وما فيها من متاعب تطمس هذه الفطرة، فهذه الآيات للتذكرة، فكل إنسان يعرف الله عز وجل بالفطرة، فإذا انطمست هذه الفطرة احتاج إلى مذكِّرات، لو أن الإنسان كان صافيا، كان بعيدا عن كل مشكلة، بعيدا عن كل قضية، عن كل همٍّ، عن كل إغراء، وعن كل ضغط، لو ابتعد عن وُحُول الحياة، تستيقظ فيه الفطرة، فطرته تدعوه إلى الإيمان بالله عز وجل، وإلى طاعته، فهذه النفس لا تسعد إلا إذا أوَت إلى الله، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه:الآية 124)

وقال سبحانه:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل:الآية 97)

فلذلك لا يسعد الإنسان إلا بالله عز وجل:

(لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

لأن الفطرة طيبة،

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم:الآية 30)

فالإنسان فطرته سامية، لذلك إذا تحدث الأجانب عن بعض الانحرافات الخلقية يقولون: إن هذه الانحرافات تسبب شعورا بالكآبة، فعلا ! لماذا ؟ لأن هذا الشعور بالكآبة هو تحرك الضمير، تحرك الفطرة العالية، الحق حق، والباطل باطل، في كل مكان، وفي كل زمان.

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة النور)

حكمة إيداع الشهوة في الإنسان:

طبعا ربنا سبحانه وتعالى حينما أودع فينا هذه الشهوة أودعها لحكمة بالغة، وهذه الشهوة لا يمكن أن توصف بأنها شريرة ولا خيّرة، إنها حيادية، قوة دافعة تدفعك إلى شيء ما، سبحانه وتعالى أودع في نفس كل إنسان حب النساء، والعكس بالعكس.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران:الآية 14)

فهذه الشهوة إنما أودعها الله في الإنسان ليرقى بها إلى الله، كيف ترقى قطعة الخشب إلى الله، فهي لا تحب، ولا تكره، ولا تغضب، لكن الإنسان بما فيه من شهوات إذا ضبطها ارتقى إلى الله عز وجل، إذا مرّت امرأة سافرة، وغضضت بصرك عنها فعلت هذا من أجل من ؟ من أجل الواحد الديان، فلأن هذا الأمر تميل نفسك إليه، وإرادتك ألزمتك أن تغض البصر عنها، من هنا ارتقيت إلى الله شاكرا، فالشهوة في الأصل لا يمكن أن تسمى شريرة، الله سبحانه وتعالى أودع فينا هذه الشهوة من أجل أن تنشأ

الأسرة، فإذا وجدت سيارة قد تدهورت في قاع الوادي هل تقول: يا أخي هذا المعمل هو الذي فعل هذا الحادث ؟ لا ! المعمل صنع هذه السيارة من أجل أن تركبها، وتنتقل بها من مكان إلى آخر، أما هذا السائق الذي قادها مخمورا، ونزل بها في الوادي فهو الذي أساء، فهل توصف هذه السيارة بأنها شريرة، إن صانعها قد صنعها من أجل أن تكون في خدمتك، كذلك الشهوات إنما أودعها الله في الإنسان لترقى به، لا لتهلكه، فإذا أساء استخدامها يهلك نفسه.

مثلٌ من واقع الناس:

شئ بسيط جدا، 3 مساحيق بيضاء، سكر، وملح، ومنظف، فإذا وضعت السكر في الشاي فهذا عمل خير، تشرب الشاي، وتحمد الله عليه، وإذا وضعت الملح في الطبخ تأكل الطعام، وتحمد الله عليه، وإذا غسلت الصحون بهذا المسحوق تحمد الله على هذه النعمة نعمة الصابون، فإذا وضعت هذا المسحوق التنظيفي في الطبخة ألقيتها في سلة المهملات، وإذا وضعت الملح في الشاي لفظت هذا الشاي، ما هو الشر ؟ حينما تسيء استخدام هذه المواد، الشر هو إساءة الاستخدام، المواد كلها خيرة، فحينما تتزوج، وتنجب الأولاد، ويكبر الأولاد، وترى أن هذه الأسرة أصبحت عشاً إسلامياً فيه السعادة، والسرور، والطمأنينة والوفاء، والمحبة، والأنس تشعر أن الحياة الزوجية فيها أنس، وربنا عز وجل كر أنّ من آياته الشمس والقمر، ومن آياته الليل والنهار، آياته كثيرة جدا:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم:الآية 21)

فربنا سبحانه وتعالى حينما أودع في الإنسان هذه الشهوة من أجل أن تنشأ الأسرة، وهي اللبنة الأولى في المجتمع، لا من أجل الزنى، ولا من أجل السفاح، أو من أجل دور اللهو، ولا من أجل الأفلام الساقطة، هذا كله خلاف الأصول، وهذه كلها قنوات قذرة، وهناك قناة نظيفة واحدة، هي قناة الزواج. فهذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان جعل لها قناة نظيفة طاهرة خيرة مسعدة تأنس بها، وما سوى هذه القناة فالقنوات كلها قذرة.

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)

لابد لكل تشريع من مؤيّد عقابي ردعي:

تحدثت في الدرس الماضي عن أن التشريع لا قيمة له إلا إذا دعم بمؤيد، أي بعقاب، فالإنسان من طبيعته التفلت، وحينما يعرف أنه إذا زنى فلابد أن يلقى في ساحة عامة، وأن يجلد على مرأى من

الناس مائة جلدة، فإنه يعد للمليون قبل أن يزني، وفي الحديث:

((إِنّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لاَ يَزَعُ بِالْقُرْآنِ))

أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

[تفسير ابن كثير(60/3)]

فلو أن ربنا سبحانه وتعالى قال: الزاني فاجلدوه مئة جلدة لشمل هذا الحكم الزانية على طريقة القرآن الكريم في كل الآيات، ولكن هنا لئلا يتوهم بعضهم أن الزاني هو وحده المعاقب، بينما الزانية لم يكن دورها إيجابيا، فإن الزانية جرمها في الزنى لا يقل عن جرم الزاني، لذلك فإن ربنا سبحانه وتعالى لو قال من باب التأكيد: الزاني فاجلدوه مئة جلدة، لانطبق هذا الحكم على الزانية، ولكن لئلا نقع في التباس، لئلا يفهم من هذا الحكم أن المرأة إذا زنت فلا شيء عليها فإنه سبحانه وتعالى يقول:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)

لكن هناك آية في سورة النساء قال الله فيها:

تنبيه مهمّ: هذا حد للزنا منسوخٌ:

(وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)

(سورة النساء:الآية 15)

هذه الآية في سورة النساء كان مضمونها أن المرأة إذا زنت يجب أن تحبس في البيت حتى يتوفاها الله، ويجب أن تؤذى بالكلام، هذا الحكم نسخ بهذه الآية، لماذا نسخ ؟ لأن ربنا عز وجل حكيم، الأشياء التي كانت مستحكمة في الجاهلية كالخمر، والزنى جاء تحريمها تدريجيا، لأن النقلة المفاجئة قد تسبب صعقاً، وهذا تعليم لنا، الزنى كان متفشيا في الحياة الجاهلية، بل إن الزانية كانت تضع على بيتها علامة تفتخر بها، بل إن الرجال كانوا يشتركون في امرأة واحدة زواجا، فكان هناك فوضى في العلاقات الزوجية، لذلك فإنه سبحانه وتعالى بدأ بهذا التعذير، أن تحبس المرأة الزانية في البيت حتى يتوفاها الموت، فلما نزلت هذه الآية نسخت تلك الآية، وهذا النسخ معناه التدريج في التشريع، كيف ؟ إن الله سبحانه وتعالى قال:

(وَلاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

(سورة النساء:الآية 43)

ثم جاء التحريم القطعي، كيف كان التدريج في تحريم الخمر، كذلك كان التدريج في حد الزنى،

من تعزير بمثابة حبس في البيت حتى الموت، إلى الجلد مائة جلدة، على كل هذا حد الزاني الحر، لأن للزنى إذا اقترفه العبد حكم آخر، وحد الزاني الحر البالغ البكر أيْ غير المحصن، غير المتزوج حده وحد الزانية الحرة البالغة البكر مائة جلدة، فلو فرضنا أننا أردنا أن نبحث عن أسباب مخففة لهذا الزاني الحر، البالغ، العاقل، البكر، لو أردنا أن نبحث له عن بعض المخففات لوجدناه بدافع الشهوة، بدافع الحرمان، بدافع الضغط، لذلك حده مائة جلدة، لكن هذا الزاني المحصن الذي أكرمه الله بزوجة فما عذره ؟ ليس له عذر، ضغط الشهوة لا أصل له، فهذا الشيء محقق عنده، ولكنه الفساد في الأرض، ولكنه إفساد العلاقات الزوجية، ولكنه تضييع للأنساب، وانتهاك الحرمات، ولكنه العدوان على زوج هذه المرأة، العدوان على زوجها، والعدوان عليها بأن جعلها زانية، والعدوان على أولادها بالتشريد، والعدوان على نفسه بجريمة الزنا، إن هذا الزاني المحصن ثبت في السنة أن حده الرجم حتى الموت، وبعضهم يستنبط من قوله تعالى:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا)

(سورة المائدة:الآية 33)

حتى الموت.

أحكام فرعية متعلقة بحد الزنى:

لكن هناك بعض الأحكام الفرعية المتعلقة بالزنى.

1 – مسألة الجمع بين الجلد والرجم:

أولا: هناك خلاف حول الجمع بين الجلد والرجم، والجمهور على أنه لا يجمع، فبعض الفقهاء رأوا أن الزاني المحصن يجلد، ويرجم، بينما جمهور العلماء يرى أنه يرجم فقط من دون جلد.

2 – مسألة الجمع بين الجلد والتغريب:

وهناك خلاف حول تغريب الزاني غير المحصن مع جلده، والتغريب أن ينفى من مدينته، هذا الموضوع أيضا خلافي.

3 – مسألة حد الزاني المملوك:

وهناك خلاف حول حد الزاني غير الحر.

هذه ثلاثة موضوعات خلافية تترك لكتب الفقه، ولبعض الموسوعات الفقهية، ما هو حد الزاني غير الحر ؟ وهل يغرب الزاني غير المحصن مع الجلد ؟ وحول الجمع بين الجلد والرجم حتى الموت، وقد ثبت هذا بالسنة المطهرة.

(فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

الحكمة من تقديم الزانية في الذِّكر:

لماذا قدمت الزانية ؟ قال القرطبي في تفسيره: **" قيل: لأن الزنى في النساء أعر، هو لأجل الحبل أضر، وقيل لأن الشهوة في المرأة أكثر، وعليها أغلب فصدّرها تغليظا لتردع شهوتها، وإن كان قد ركب فيها حياء، ولكنها إذا زنت ذهب الحياء كله، وأيضا فإن العار بالنساء ألحق، إذ موضوعهن الحجب والصيانة، فقدم ذكرهن تغليظا، واهتماما ".**

[القرطبي في تفسيره]

لذلك بدأ ربنا سبحانه وتعالى بالزانية لأنها الأصل في جريمة الزنى.

الحكم شامل لعموم الزنا:

شيء آخر:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

هذه الألف واللام هذه أل الجنس، أيْ: أيّة زانية، وأيّ زان كائنا من كان إذا زنا في ديار المسلمين يجب أن يجلد إذا كان غير محصن، ويجب أن يرجم إذا كان محصنا، هذه إشارة دقيقة، الآن الدول قوانينها نافذة على أرضها في حق كل إنسان يطأ أرضها، سواء أكان من جنسيتها، أم من غير جنسيتها، فلو فرضنا أن إنساناً غير مسلم زنى فيجب أن يقام عليه الحد، ما دامت واقعة الزنى تمت في ديار الإسلام، هذه إشارة دقيقة جدا، فكل من يسكن مع المسلمين يجب أن يلزم حدودهم، ويجب أن يطيع تشريعهم، ويجب أن يدفع ثمن المخالفة، الآن أي إنسان ولو كان غير مسلم إذا سرق تقطع يده، ما دامت هذه السرقة تمت في بلاد المسلمين، لذلك الزانية والزاني، أيْ جنس الزاني، وجنس الزانية، كائنا من كان، مسلما أو غير مسلم، فاجلدوهما، فهذه الألف واللام تسمى في علم النحو ألف الجنس، تقول: الحديد، أيْ جنس الحديد، النحاس، قلْ: نحاس، لا، النحاس أيْ جنس النحاس على وجه الأرض، وخصائصه كذا وكذا.

إقامة الحدود من اختصاص السلطان:

شيء آخر ؛ كلمة:

(فَاجْلِدُوا)

لم يقل الله: فاجلد، قال:

(فَاجْلِدُوا)

لماذا كان وجه الخطاب إلى المجموع ؟ لأنّ كل خطاب موجه إلى مجموع المسلمين معناه أن أولي الأمر الذين أنيط بهم الأمر عليهم أن يطبقوه نيابة عن المسلمين، مادام المسلمون قد ارتضوا زيدا أو عبيدا ليدير شؤونهم، فهذا الإنسان موكل بتطبيق حد الزنى، لذلك هذا الحد لا يجوز أن يطبق من آحاد المسلمين، هذا الحد يطبق من قبل أولي الأمر فقط، فلا يجوز أن يقول شخص: إذا شاهدت شخصاً يزني فسأجلده !! من أنت ؟ أنت من آحاد المسلمين، هذا الحد لا يطبق إلا من قبل أولي الأمر، وحتى تريح نفسك فالحدود منوطة كلها بأولي الأمر وحدهم، فالإنسان يفكر إذا ظن بأنه مسلم يجب أن يقيم حد الله ما دام مسلماً، هذا الكلام مرفوض.

(الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)

حتى إن الله حينما يقول:

(وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

(سورة النور:الآية 32)

كلمة:

(وَأَنْكِحُوا)

تعني على أولي الأمر أن ييسروا سبل الزواج، هذا أمر موجه إلى الأمة، وبالتالي إلى من يلي أمور الأمة، فتيسير الزواج للشباب هذا العمل من أوائل أعمال أولي الأمر.

أأنتم أرحمُ أم الله ؟

(وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ)

فلعل هذه الرأفة رأفة مزيفة، أأنتم أرحم أم الله ؟ هو الخالق، هو الرحمن الرحيم، هو الذي يعلم كل شيء، هو الخبير بنفوس عباده، لذلك هذه الرأفة لا معنى لها، هي رأفة ساذجة، قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ)

(سورة البقرة:الآية 179)

فحياة المجتمع تقوم على إقامة الحدود، فإذا أقيم حد السرقة، وحد الزنى، عاش الناس في بحبوحة، وفي أمن، وسلام، وطمأنينة.

هناك إشارة في سورة الإسراء متعلقة بالزنى، يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

(سورة الإسراء:الآيات 31-33)

الحكمة من ورود النهي عن الزنا بين آيتي النهي عن قتل النفس:

هنا سؤال، لماذا جاء النهي عن الزنى بين آيتي النهي عن القتل ؟

(وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ)

(وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ)

ثم جاء النهي بينهما عن الزنى، فقد استنبط بعض العلماء أن الزنى بمثابة القتل، ولكنه قتل معنوي، فالمرأة إذا زنت تكون وكأنها قُتِلت، وكأنها انهارت، وفقدت مكانتها، وكذلك الرجل، فلذلك لشدة العناية بهذه الفضيلة ؛ فضيلة العفاف جاءت جريمة الزنى بين جريمتي القتل، وكأنه قتل معنوي، إذا كان القتل المادي إزهاقَ الروح، فالقتل المعنوي تضييع النفس، واضمحلالها، وذهاب كرامتها، وشأنها، وعزتها. هذا شيء.

أسلوب التهييج: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

والشيء الآخر:

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

فهذه الآية هي أسلوب التهييج، أقول له: إذا كنت رجلاً فافعل ذلك، إذا كنت مؤمنا حقا فأقم الحد،

(وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

لأنّ من لوازم المؤمن أن يبتعد عن الزنى، ومن لوازم المؤمن أن يقيم هذا الحد

حد الزنا عقوبة للزاني وردع للباقي:

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

لماذا قال العلماء: المشاهدون ؟ في الحقيقة أن الإنسان يتلقى أحيانا ضرباً، فإذا تلقى هذا الضرب وحده من الضارب فالألم مادي فقط، ولكن إذا تلقى هذا الضرب أمام ملأ من الناس يعتقد أن الألم يتضاعف آلاف، بل ملايين الأضعاف فعندنا ضرب، وعندنا إهانة، فربنا عز وجل لا يقصد ضرباً مؤلماً إلى درجة أنه يؤذي، ولكن أن يوضع الإنسان في ساحة عامة، وأن يجلد على ملإٍ من الناس، فلان أعوذ بالله، يا لطيف، فلان يجلد، أين شأنه ؟ أين كرامته ؟ أين عزته ؟ فهذا عقاب رادع، عقاب مخيف.

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

وهناك شيء آخر، فهؤلاء المشاهدون حينما يرون الرجل قد ألقي على الأرض، وقد انهالت عليه السياط، وقد شعر بالألم والهوان معا صار المشاهدون يحسبون ألف حساب لجريمة الزنى قبل أن يقدموا عليها، وكأن هذا الحد إذا أقيم على ملإٍ من الناس كان بمثابة التطعيم ضد مرض الزنى، فكما أنّ الإنسان يتلقى بعض المصول فيحصن من بعض الأمراض، كذلك إذا رأى منظر جلد الزاني، فلربما كان هذا الجلد تلقيحا له ضد مرض، أو جريمة الزنى.

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

من ثلاثة إلى ألف.

إذًا:

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

أسلوب تهييج، إذا كنت كذا فافعل كذا، فهو مؤمن قطعا، المخاطب مؤمن، ولكن هنا يستثير الله حماسته، ونخوته، وقواعد إيمانه، فلعله يبتعد، أو ينطلق إلى إقامة حد الله عز وجل.

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

وإن شاء الله في الدرس القادم نتابع تفسير قوله تعالى:

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة النور:الآية 3)

هذا ما يحدث في الغرب فاتّعِظوا:

هناك بعض الأشياء الطريفة في أمريكا، حيث ترتكب في كل 30 ثانية جريمة قتل، أو اغتصاب، أو سرقة.

أعطاني أخ كريم بعض الكلمات مقتطفة من جريدة الثورة تفيد أن نتائج دراسة أجراها معهد لاستطلاع الرأي في هامبورغ، أن امرأة ألمانية غربية من كل اثنتين تقريبا تخون زوجها، أيْ خمسين بالمئة، امرأة من كل اثنتين تخون زوجها، وأن واحدة من كل عشرة تقريبا لها عشيق منتظم، وأن النساء

المتزوجات يخن أزواجهن، وهناك تفصيلات أخرى، على كل يعني حينما يطلق للإنسان العنان، وحينما لا تقام حدود الله عز وجل يصبح المجتمع كله فوضى، فكما جاء النبي إلى قومه في الجاهلية، والحياة فيها فوضى، إذاً تعود الحياة أحيانا إلى نوع من الفوضى لا ينقذها منها إلا إقامة حدود الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (03-23): تفسير الآيات 3 – 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-10-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة النور، في الدرس الماضي تم بفضل الله عز وجل شرح بعض المعاني من الآية الكريمة:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة النور: الآية 2)

وآية اليوم:

(الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة النور)

الحكمة من ورود الزاني قبل الزانية في هذه الآية:

الشيء الذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى بدأ في هذه الآية:

(وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

بدأ بالزانية، وفي الآية الثانية:

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً)

بدأ بالزاني.

قال بعض العلماء: إن الزانية في الآية الأولى قدمت على الزاني لأنها الأصل في عملية الزنى، فهي التي أظهرت مفاتنها، وهي التي قالت له: هيت لك، وهي التي كانت السبب في الزنى، ولكن جاء الزاني في الآية الثانية مقدما على الزانية لأن الرجل في عقد النكاح هو الأصل، وهو الذي يطلب، إذا حملنا كلمة ينكح بمعنى عقد الزواج، ففي القرآن الكريم وردت كلمة النكاح بمعنى عقد الزواج، وقد ذكر بعض العلماء أن كلمة النكاح تعني عملية اللقاء، فلذلك الزاني هنا قدم على الزانية لأنه إذا كان النكاح هو عقد الزواج فالرجل فهو الأصل، فهو الذي يطلب، لذلك قدم الزاني على الزانية.

شيء آخر:

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

الكلام البلاغي خبرٌ وإنشاء:

من أجل أن يكون التفسير واضحا فلابد من وقفة بلاغية، فالكلام عند علماء البلاغة خبر وإنشاء.

1 – الإنشاء:

الإنشاء هو الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والترجي، والحض، والنداء، هذه الأساليب تسمى أساليب الإنشاء، لأن هذا الكلام لا يحتمل الكذب أو الصدق، مثلا لو أنك سألت إنساناً: كم الساعة ؟ هل له أن يقول لك أنت كاذب ؟ لا يمكن أن يقال للسائل: كاذب، ولا للمستفهم، ولا للذي يأمر، ولا للذي ينهى.

2 – الخبر:

أما إذا قلت: أنا عندي مئة ألف ليرة فهذا خبر، والخبر يحتمل الصدق والكذب، فربنا عز وجل أحيانا يأتي بالكلام على صيغة الخبر، وهو يريد النهي.

هذا المعنى دقيق يوضح بمثل منتزع من حياتنا اليومية: لو أن أبا قال لابنه لا تأت بعد الساعة العاشرة، إنه ينهاه عن أن يأتي بعد هذه الساعة المتأخرة، فهذا نهي، ولكن النهي يفيد أنه بإمكان هذا الولد أن يأتي قبل الساعة العاشرة، أو بعد الساعة العاشرة، والنهي يحتمل تصور وجود المنهي.

إذا قال المدير لموظفيه: لا تتأخروا، معنى ذلك أن التأخر واقع منهم، إنه من الممكن أن يتأخروا، فنهاهم عن التأخر، فالنهي من لوازمه أنه يفيد احتمال وقوع المنهي، فإذا قلت لإنسان: لا تأكل كثيرا، معنى ذلك أن من عادته أن يأكل كثيرا، فهذا الأب الذي قال لابنه: لا تأتِ بعد الساعة العاشرة، فهو ينهاه أن يأتي بعد هذه الساعة، لأن احتمال مجيئه بعد هذه الساعة قائم، أما إذا قال الأب لابنه: أنا ليس عندي أحد يأتي بعد الساعة العاشرة، فهذا الكلام خبر، ولكن هذا الكلام الخبري صيغ على طريقة تفيد النهي، ولكن لا يلزم من هذا الكلام أن هناك احتمال أن يأتي هذا الابن متأخراً، فربنا عز وجل أحيانا يسوق النهي على شكل خبر، مثلا قوله عليه الصلاة والسلام:

((لا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا ولا عَلَى خَالَتِهَا))

[البخاري، مسلم عن أبي هريرة، والترمذي عن ابن عباس]

فهذا خبر يفيد النهي، وقوله صلى الله عليه وسلم:

((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً))

[البخاري، الترمذي، النسائي]

وهذا خبر يفيد النهي أيضًا.

أهمية معرفة الخبر والإنشاء في فهم آيات الله:

وهذا الموضوع ؛ أن تعرف أن الكلام خبر وإنشاء مهم جدا في فهم آيات الله، الإنشاء هو الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والترجي، والحض، هذه كلها أساليب الإنشاء، وما عداها فهي أساليب الخبر، فربنا عز وجل قال:

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً)

هذا خبر.

أمّا قول عز وجل:

(وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا)

(سورة الإسراء: الآية 32)

فهذا إنشاء، لأنه بطريق النهي. فقوله:

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً)

خبر، لكنه حُمِل على الإنشاء، لأنه يفيد المبالغة، فإذا أردت أن تنهى فنفيت على أسلوب الخبر، فهذا أبلغ في النفي، فإذا قلت لابنك: ليس عندي ولد يأتي بعد الساعة العاشرة، فهذا خبر محمولٌ على النهي، وهو أبلغ في النهي، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً)

يتضمن حكمًا دقيقًا جدا، وهو أن المتعاطِفَيْن لا بد من علاقة بينهما، فالإنسان يقول مثلا: اشتريت بيتاً وأرضاً، ولا يقول: اشتريت بيتاً وملعقةً، فلا تناسبَ بينهما، لابد من التناسب بين المتعاطِفَيْن، اشتريت بيتاً ودكاناً، دكاناً ومركبةً، مركبةً وبيتاً، أما إنه يمكنك القول: اشتريت ملعقة مثلا وكأساً، اشتريت قميصاً وسروالاً، فلابد من التناسب بين المتعاطِفَيْن، فربنا سبحانه وتعالى قرن بين الزنى وبين الشرك، فجعله كالزنى، وقبح الزنى، فجعله كالشرك، من هنا جاء التعاطف:

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

تفسير الآية ومعانيها:

فهذه الآية لها عدة معان، وقد اختلف العلماء في تفسيرها.

التفسير الأول: خبرٌ للمبالغة:

بعضهم قال: هذا نهي جاء على شكل الخبر للمبالغة، وكأن الله سبحانه وتعالى ينهانا أن نعقد زواجا بين زانٍ وبين عفيفة، أو بين زانية وعفيف، وبين رجل مؤمن عفيف وبين زانية، أو مَن هي أسوأ حالاً منها، وهي المشركة، ونهانا أن نعقد زواجا بين امرأة مسلمة عفيفة، وبين زان، أو من هو أقبح حالا منه، وهو المشرك، فالمعنى الأول المستفاد من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى ينهانا على أن نعقد زواجا بين مسلم عفيف، وبين زانية مشركة، فهذا الزواج باطل، لذلك هذا موضوع خلافي بين الفقهاء، والحديث فيه يطول، ويرجع إليه من شاء ذلك إلى كتب الفقه، بل إلى كتب الفروع، هذا هو المعنى الأول.

يؤكد هذا المعنى قراءة وردت على لسان بعض الصحابة: **الزّانِي لاَ يَنكِحْ:** بجزم ينكحْ، فإذا كانت على الجزم جاءت (لا) ناهية، بمعنى النهي، لكن قراءة حفص عن عاصم:

(الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً وَالزّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ وَحُرّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

التفسير الأول: خبرٌ للتقبيح:

عندنا معنى آخر لهذه الآية، وهو أنها خبر، كما قلت قبل قليل، ولكن يفيد التقبيح، أيْ ليس من المستحسن، وليس من اللياقة أن ينكح الزاني عفيفة، وليس من المعقول أن تنكح الزانية عفيفاً، فهذا خبر ساقه الله عز وجل على سبيل تقبيح هذا الفعل، لا على سبيل التحريم.

المعنى الأول خبر ساقه الله عز وجل على سبيل التحريم، والمعنى الثاني خبر ساقه الله عز وجل على سبيل التقبيح، أيْ يقبح أن يتزوج المرأة الزانية رجل عفيف، هذا الشاب طاهر، حياته نظيفة نقية، ليس في حياته زنى، الزانية امرأة خسيسة، امرأة قذرة، امرأة حادت عن الطريق الصحيح، فكيف تستقيم الحياة بين رجل عفيف، وبين امرأة زانية ؟ وكيف ينسجمان ؟ شيء قبيح بالإنسان أن يقترن بزانية، وهو العفيف، أو بالعكس، فقبيح بالمرأة العفيفة أن يقترن بها إنسان زان، فالمعنى الثاني حمل لا على التحريم، بل على التقبيح، أيْ ليس من المعقول ذلك.

الحقيقة أن الحياة الواقعية فيها أمثلة كثيرة، الشيء الثابت أنه قد يتزوج الزاني امرأة عفيفة، وقد تتزوج الزانية شابا عفيفا.

التفسير الثالث: على معنى (ينبغي):

هذا التحريم محمول بالمعنى الثالث على أنه **" ينبغي"**، فمثلا ربنا سبحانه وتعالى قال:

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[النور: من الآية 26]

فإذا فهمت هذه الآية على أن هذا الشيء واقع مائة بالمائة فقد تفاجأ بامرأة طاهرة زوجها غير طاهر وقد تفاجأ بإنسان طيب وله زوجة غير طيبة، الواقع على عكس ذلك، فلما قال ربنا عز وجل:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

معنى ذلك: أي أنتم يا عبادي احرصوا على أن يكون الطيبون للطيبات، أو ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات، فإذا جاء الخبر مخالفا للواقع فهو محمول على كلمة ينبغي.

ولو أنك قلت للناس: قال الله تعالى:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

فهذه قاعدة ثابتة لا تخطئ، فقد تُفاجأ بامرأة مسلمة مصلية صائمة ورعة، لها زوج يشرب الخمر، هل نقول: إنّ القرآن باطل ؟ لا ! القرآن حينما قال:

(لِلطَّيِّبَاتِ)

أراد أن يوجهنا إلى أن نزوج فتياتنا الطيبات رجالاً طيبين، ويوجهنا أيضا إلى أن نزوج شبابنا الطيبين فتيات طيبات، هذا توجيه أخلاقي اجتماعي، لذلك حينما تأتي الآيات ذات الطابع الخبري مخالفة للواقع، فهذه آيات اسمها آيات متشابهة مشكلة، فالعلماء لهم في توجيهها هذا التوجيه الرائع، أيْ ينبغي يا عبادي أن يكون الطيبون للطيبات.

مثلا: قال الله تعالى في البيت الحرام:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران: من الآية 97)

أي هذا البيت الحرام لا يمكن أن تقع فيه مشكلة، فلما وقعت مشكلة قبل سنوات شكك بعضهم في كتاب الله، هذه الآية معناها: يا عبادي اجعلوا هذا البيت آمنا، هذا خبر ساقه الله بمعنى ينبغي، أيْ ينبغي أن يكون آمنا، واجعلوه آمنا، هذا فهم دقيق لقوله تعالى:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

وقوله سبحانه:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

وقوله:

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً)

المعنى الثالث: خبر ساقه الله عز وجل ليقبح هذا الزواج، الذي فيه تناقض بين الزوج وبين الزوجة، الزوجة في واد، والزوج في واد آخر، من هنا استنبط علماء الفقه موضوع الكفاءة، فلا يتم الزواج، ولا ينجح، ولا يستقر إلا إذا كان هناك كفاءة بين الزوجين، فلا ينبغي للزوج البعيد عن الدين أن يقترن بزوجة صاحبة دين، لأنه هو بعيد عن هذه الأجواء، بعيد عن جو القرآن، عن جو الصلاة، عن جو الصوم، عن أجواء الطهر، عن أجواء الفهم، عن أجواء العقيدة، عن أجواء الصلة بالله عز وجل، فإذا قامت لتصلي ينهرها، ويوبخها، ويسخر منها، حينما يسخر منها تنزعج منه، وتنكمش، فلا ينجح الزواج إلا إذا كان هناك انسجام، وتوافق بين الزوجين على المستوى الديني، وعلى المستوى الاجتماعي، وعلى المستوى الاقتصادي، وعلى المستوى الثقافي، فكلما كان هناك تقارب بين الزوجين على مختلف الأصعدة - إن صح التعبير - ينجح الزواج، فهذا المعنى الثالث لقوله:

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً)

أي لا يليق بالعفيف أن ينكح زانية، كما لا يليق بالعفيفة أن ينكحها زان.

أول معنى على التحريم خبر جرى مجرى التحريم، والمعنى الثاني خبر جرى مجرى التقبيح، وخبر يعد كالخبر الحقيقي، تقول أحيانا: الشيخ لا يصبو، ليس من عادة الشيخ أن يصبو، أي أن يحب، والسلطان لا يكذب، ليس من عادة السلطان أن يكذب، فهذا خبر جاء محض خبر، من عادة الزاني أنه لا يطرب إلا للزانية، ومن عادة الزانية أنها لا ترضى إلا بالزاني، هنا جاء الخبر على معناه الحقيقي، فالمعنى الثاني جاء الخبر على معنى التقبيح، وفي المعنى الثالث جاء الخبر ليخبرنا أنه في الأعم الأغلب الزاني لا ترتاح نفسه إلاّ للزانية، لا ينسجم إلا مع الزانية، والزانية لا تقبل إلا بالزاني.

هذه المعاني المنوعة في هذه الآية تفيد التحريم أحيانا، وتفيد التقبيح أحيانا، وتفيد تقرير عادة في المجتمع أحيانا أخرى، وتفيد الإخبار بشكله الطبيعي.

وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

الإيمان مرتبة علمية:

أي الزنى محرم على المؤمنين، فالإيمان كما قال الحسن البصري:

((لَيس الإيمانُ بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي، ولكن ما وَقَرَ في القلبِ، وصدّقه العملُ))

[مصنف أبي شيبة، والبيهقي في شعب الإيمان]

بنية المؤمن بنية عالية الإيمان، مرتبة علمية، ما اتخذ الله وليا جاهلا، لو اتخذه لعلّمه، فالمؤمن مستقيم على أمر الله، وكفاك بالاستقامة علما، فَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهلا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

[شعب الإيمان للبيهقي، حلية الأولياء]

فالإيمان مرتبة علمية لا يمكن لإنسان مستقيم إلا أن يكون على شيء من العلم، عرف أن له رباً، عرف أن هذا يجوز، وهذا لا يجوز، هذا حق، وهذا باطل، هذا خير، وهذا شر، هذا سأحاسب عليه، وهذا لا أحاسب عليه، هذا مباح، هذا فرض، هذا حرام، هذه سنة مؤكدة، غير مؤكدة، مستحب، مكروه كراهة تنزيهية، كراهة تحريمية، فهذا المستقيم على أمر الله على جانب من العلم قطعا، فالإيمان مرتبة علمية، أو لقب علمي، وفي الوقت نفسه مرتبة أخلاقية، فإذا قلت: مؤمن أخلاقي أيْ مؤمن صادق، مؤمن مستقيم، مؤمن منصف، مؤمن لطيف، فالإيمان مرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، المؤمن له أذواق، وله سعادة، لا يعرفها إلا من ذاقها، لأن ربنا عز وجل يتجلى على قلبه تجليات الرحمة، فقلبه مفعم برحمات الله عز وجل، لذلك فهذه الآية تفيد أنه لا ينبغي أن يقترن الزاني إلا بالزانية، أما أن يتزوج الزاني العفيفة، أو أن تتزوج العفيفة بالزاني، فهذا من بعض المعاني محرم، ومن بعض المعاني غير مقبول ذوقا، ومن بعض المعاني لا يقع في العادة.

آية القذف: حِكمتُها وأحكامها:

الآن عندنا آية سماها العلماء آية القذف، كيف لو أنك أمسكت بحجر كبير، وقذفت به إنسانا على رأسه، فأرديته قتيلا، فالذي يتهم امرأة عفيفة مسلمة بالزنى كأنه رماها بحجر، فهشم رأسها، لأن المرأة أثمن ما تملكه سمعتها، وعرضها، فإذا رميتها بالزنى فكأنك رميتها بحجر أصاب منها مقتلاً، لذلك لو أن الشرع تساهل في أمر القذف لصارت أعراض الناس كالكلأ، ترعاه البهائم، فكل إنسان متهم في عرضه، وكل امرأة متهمة، فالإنسان يشك أحيانا أن هناك حالات لو أن الإنسان افترى على امرأة مسلمة عفيفة، واتهمها بالزنى، وتناقل الناس هذا الخبر حتى وصل إلى ذويها، وكان في أهلها أناس منفعلون، لهم انفعال شديد، ربما أقدموا على قتلها، وهي بريئة، فدرءاً لهذه الفتن، ودرءاً لهذه السمعة السيئة، ودرءاً لهذا التشكيك في أعراض الناس، ودرءاً لهذا الخراب في البيوت، ودرءاً لهذا الإرجاف في المدينة، درءا لهذا كله شرع الله سبحانه وتعالى حد القذف، فقال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

معنى الرمي:

الرمي في أصل اللغة القذف بشيء صلب، فربنا عز وجل حكيم في كلامه، فلم يقل: والذين يرمون المحصنات بالزنى، لأن سياق الآيات عن الزنى:

(الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ)

تعريف المحصَنة:

المحصنات صفة مشتقة من الإحصان، والإحصان هو المنع، والمحصَن بالفتح هي المرأة أو الرجل الذي يمتنع عن الزنى لعفته، ولعلمه، ولشرفه، ولعقله.

1 – الإحصان بالعفاف:

قال العلماء: الإحصان بأربعة أشياء: الإحصان بالعفاف، فالعفة إحصان.

2 – الإحصان بالإسلام:

هناك إحصان بالإسلام، فالمسلم محصن.

3 – الإحصان بالحرية:

هناك إحصان بالحرية.

4 – الإحصان بالتزويج:

وهناك إحصان بالتزويج، فالمتزوج محصن، والمسلم محصن، والعفيف محصن.

معنى الإحصان في الآية:

لكن هنا الإحصان يغلب عليه معنى العفة من أن يزني، فربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ)

الرمي فعل مادي، فالكلمة قد تكون غير مادية، لكن ربنا عز وجل جسد الحادثة بشكل مادي، وكأن هذا الذي يرمي المرأة العفيفة الطاهرة قد أمسك بحجر كبير، ورماها به، فهشم رأسها، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ قَذَفَ مُحْصَنَةً يَهْدِمُ عَمَلَ ثَمَانِينَ سَنَةٍ))

[الفردوس بمأثور الخطاب عن أبي هريرة]

صور القذف:

والآية تنص على أن الذي يرمي امرأة، الرامي رجل، والمرمي امرأة، لكن العلماء قالوا: هذه الآية تتسع لأربع صور:

1 – الصورة الأولى: رميُ الرجلِ المرأةَ:

2 – الصورة الثانية: رميُ المرأةِ الرجلَ:

3 – الصورة الثالثة: رميُ الرجلِ الرجلَ:

4 – الصورة الرابعة: رميُ المرأةِ المرأةَ:

قد يرمي رجل امرأة بالزنى، وقد ترمي امرأة رجلا بالزنى، وقد يرمي رجل رجلا بالزنى، وقد ترمي امرأةٌ امرأةً بالزنى، فكل هذه الحالات تنطبق عليها هذه الآية، فلو أن امرأة اتهمت رجلا بالزنى لأقيم عليها الحد، وجلدت ثمانين جلدة، ولو أن امرأة اتهمت امرأة أخرى بالزنى لجلدت ثمانين جلدة، ولو أن رجلاً اتهم آخر بالزنى لجلد ثمانين جلدة، فموضوع القذف يشمل كل الحالات: امرأة رجل، رجل امرأة، امرأة امْرأة، رَجل رجل، لكن لو أن إنسانا فاجرا من عادته أن يزني، وهو لا يتورع عن الزنى، بل لا يتورع أن يخفي ذلك عن الناس، ورميَّه بالزنى فلا حد عليك، لأن الفاجر كما قال الحسن:

((ثلاثة لا غيبة لهم ؛ صاحبُ هوى، والفاسقُ المعلنُ، والإمام الجائر))

[فيض القدير، والتاريخ الكبير للبخاري]

هذه ملاحظة.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ)

أيْ هؤلاء النسوة الطاهرات العفيفات المسلمات المؤمنات المحصنات، هؤلاء الذين يرمون هؤلاء النسوة عليهم حد خطير.

متى يجب حدُ القذفِ ؟

(ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)

متى يستوجب حد القذف ؟ أن يقذف الرجل امرأة، ويعجز على أن يأتي بأربعة شهداء.

أولاً: ربنا سبحانه وتعالى يقول:

الحكمةُ مِن شهادة الرجل دون المرأة في الحدود:

(بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)

وما قال: بأربع شهداء، لو قال بأربع شهداء لقبلت شهادة المرأة في الزنى، لكنه في الحدود، في حد الزنى، في حد السرقة، في حد الخمر، في الحدود، لا تقبل شهادة امرأة في المعاملات العادية:

(فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ)

[سورة البقرة: الآية 282]

لأن هذا الحد خطير قد يكون هناك رجم، قد يكون هناك جلد، فيه فضيحة، فيه تشهير، لابد من أن يكون أولاً أربعة شهود، في بعض الحالات يكفي شاهد واحد، هذا موضوع الشهادة موضوع طويل، في الفقه حالات بالتعامل يكفي شاهد واحد، وفي حالات لابد من شاهدين، لكن في حالة الحدود لابد من أربعة شهداء، وأن يكونوا حصراً من الرجال، الآن من قذف ذمية - غير مسلمة - بالزنى، ولها ولد مسلم يقام عليه حد القذف مراعاة لابنها المسلم، لأن هذا الذي يرمي ذمية بالزنى سبب العار لابنها، ومن قذف ذمية لها زوج مسلم يقام عليه الحد مراعاة لزوجها، فهناك دقة بالغة في الأحكام الشرعية.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)

الشروط الواجب توفرها في الشهود:

البلوغ والعقل والاختيار والعدالة والعلم بالتحريم

من هنا يبدو أن الإنسان الذي يرمي يجب أن يكون بالغاً، ولا بد أن يكون عاقلا، فلو أن مجنونا قذف امرأة لم يُقَمْ عليه الحد، ولا بد من أن يكون مختاراً، لو أكره على أن يقول كذا وكذا لم يُقَمْ عليه الحد، ولا بد أن يكون عالما بالتحريم، يجب أن يكون بالغا، عاقلا، مختارا، عالما بالتحريم حتى يُعَدَّ موضعا لإقامة الحد، فالآيات الكريمة تكون موجزة، لكن الفقهاء بمقارنة هذه الآيات مع آيات أخرى متعلقة

بشروط التكليف استنبطوا هذه القواعد، قال العلماء: من يقذف صبيا، ويتهمه بالانحراف الأخلاقي أقيم عليه حد القذف، لأن هذا الصبي له أهل، وسمعة، فلمجرد أنك رأيته خرج من بيت قد يكون بيت أخته، فمن أجل أن يكون الإنسان دقيقاً جداً لا يستطيع أن يشيع خبر الزنى، أو الانحراف إلا إذا كان متأكدا من أربعة شهود، وألا يقام عليه حد القذف.

وفي الدرس قبل الماضي ذكرت لكم كيف أن امرأة كانت تغسل امرأةً ميتا، وفجأة التصقت يدها في جسد، حيث استحال أن تنزع هذه اليد عن هذا الجسد، وحار أهل الميت ؛ أيقطعون جزءاً من لحمه، أم يقطعون يد الغاسلة، وقالوا كما هو معروف: لا يفتى ومالك في المدينة، عرضوا على الإمام مالك هذه الواقعة فقال: **هذه الغاسلة اتهمت المرأة الميت بالزنى، ولذلك اجلدوها ثمانين جلدة**، ويروى أنه مع الضربة الثمانين نزعت يدها من جسد الميت، فالإمام الغزالي في الإحياء يقول: **" هناك غيبة القلب"**، فالإنسان لو لم ينطق بلسانه فهناك حالات إذا حدثته نفسه بكذا باطلا، وظلما فلابد أن يعاقب، لأنه من أحسن الظن بأخيه فكأنما أحسن الظن بربه، ومن حق المسلم على المسلم أن يصون دمه، وماله، وألاّ يقع فيه بغير بينة، فهؤلاء الشهود يجب أن يكونوا من أهل الشهادة، وتعلمون أن رواية الحديث علمتنا علماً دقيقاً، هو أنه لا يصح لإنسان أن يروي الحديث الشريف ما لم يكن عدلا، وثقة، الثقة والعدل، العدل والأهلية، العدالة صفة نفسية، تعني أنه لا يكذب، والدقة، والثقة، والضبط صفة عقلية، فمن أجل أن تروي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلابد أن تتأكد من أن هذا الإنسان يتمتع بالعدالة، وبالضبط.

اختلاف الأئمة في شرط العدالة:

أما موضوع الشهادة بين الناس في أحوال الناس ومعايشهم فقال العلماء: **" يكفي أن يكون هؤلاء من أهل الشهادة"**، ومن هم أهل الشهادة ؟ بعضهم قال: هم أهل العدالة، أيْ إنسان لا يكذب، إنسان ما جُرّب عليه كذب قط، ما جربت عليه خيانة، ما جرب عليه انحراف، هؤلاء أهل الشهادة، ولكن أن يكون الشهود من أهل العدالة، أو لا يكونون، فهذا موضوع خلافي بين الإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي، فإذا جئت بأربعة شهود شهدوا أن هذه المرأة زانية، فهؤلاء الشهود ينبغي عند الإمام الشافعي أن يكونوا من أهل العدالة، مستقيمين، لكن الإمام أبا حنيفة لم يشترط أن يكون من أهل العدالة، لأنه يصعب ذلك، فلو فرضنا أننا نريد أن نحاسب الناس حساباً دقيقاً جداً لتعطلت الشهادة في العالم الإسلامي، هذا رأي الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)

لاحظوا حدّ جريمة الزنى، غير المحصن يجلد مئة جلدة، وجريمة القذف يجلد القاذف ثمانين جلدة، فهناك فرق بسيط جدا بين حد الزنى وحد القذف، لأنكم تحسبونه هينا، وهو عند الله عظيم.

ما يترتب على القذف:

1 - سقوط شهادة الشهود:

(وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا)

هذا عقاب آخر، الحقيقة حد القذف ثلاثة أنواع ؛ أول نوع: الجلد على مرأى من الناس في ساحة عامة بين جمع غفير من المؤمنين، والحد الثاني:

(وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا)

هي الآن تقريبا مثل شهادة السوابق - لا حكم عليه - محكوم بقذف امرأة محصنة، فشهادته غير مقبولة، وفَقَدَ حقه، وفَقَدَ اعتباره، ومكانته، هذا محدود بحد القذف، ويكتب على صحيفته: **" محدود بحد القذف، شهادته غير مقبولة".**

2 - دَمغُهم بالفسق:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

وهؤلاء دمغوا بالفسق، فلو أنك قلت: عنه إنه فاسق فلا شيء عليك، ويجب أن يشيع بين الناس أنهم فاسقون، ويجب أن ترفض شهادتهم، ويجب أن يقام عليهم الحد.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُم ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

لقد دمغ ربنا عز وجل هؤلاء بالفسق والفجور، وأنك إذا قلت عنهم أنهم فاسقون فلا شيء عليك، فالله سبحانه وتعالى بيّن أنهم فاسقون، قولا واحدا.

هل ينصرف الاستثناء إلى الأقسام الثلاثة ؟

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه الآية فيها دقة بلاغية، وهي أن الاستثناء هل ينصرف إلى الأقسام الثلاثة، فإذا قذف الإنسانُ امرأة محصنة، ثم تاب هل يعفى من إقامة الحد ؟

الجواب:

لا ! لماذا ؟ لأن الحقوق في المجتمع الإسلامي نوعان حق الأفراد، وحق الله عز وجل فلو أن المقذوف عفا، وقال: أنا عفوت عنك، لقد قذفت زوجتي، والزوجة عفت فهل عفو الزوجة يمنع إقامة الحد ؟

الجواب:

لا ! هذا حق الله عز وجل، وليس حق المقذوفة، فلو أن المقذوفة ماتت قبل أن يقام على المقذوف الحد هل يعفى من الحد ؟ لا ! في النظام الغربي جريمة الزنى لا يمكن أن تحرك بها قضية في القضاء إلا بطلب من الزوج، أو من المزني بها، فلو أن الزوج أسقط حقه في المرافعة، ولو أن المرأة أسقطت حقها لم تحرك دعوى ضد الزاني أبدا، أما في الإسلام فهناك حق الله عز وجل، فعفو المقذوفة لا يعفي القاذف من حد القذف.

إذًا:

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا)

هذا الاستثناء لا ينسحب إلى القسم الأول.

(فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا)

لو أنهم تابوا فلابد أن يقع عليهم الجلد.

لكن القسمين الثاني والثالث ربما صلح أن ينسحب عليهم الاستثناء:

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا)

متى تُقبَل شهادة القاذف بعد توبته ؟

هؤلاء إذا تابوا يمكن أن تقبلوا لهم الشهادة، لكن متى ؟ أوجه رأي قاله بعض العلماء:

1 – الاعتراف بافتراء التهمة:

إن الذي يقذف امرأة محصنة لا يستعيد اعتباره الإسلامي في المجتمع إلا بعد أن يعترف بأنه كاذب بهذه التهمة، الذين قال أمامهم جميعا يجب أن يعترف أنه كان كاذبا في هذا الموضوع، إذا قال القاذف: إنه كان كاذبا، وإن هذه المرأة التي اتهمها بالزنى هي امرأة بريئة عفيفة حَصان.

2 – مُضيّ عام لإثبات صلاحه:

ويجب أن يمضي عليه عام حتى يثبت صلاحه، بعدئذ تقبل شهادته، ولا تقبل شهادة القاذف إلا بعد أمرين ؛ أن يعترف بأنه كاذب، وأن يصرح بأن هذه المرأة التي اتهمها بالزنى امرأة عفيفة، وأن يمضي عام بأكمله يثبت للناس صلاحه، عندئذ يسترد حقه في الإدلاء بالشهادة تطبيقا لهذه الآية:

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا)

وقد حمل بعض العلماء أن يقول للناس: إنه كاذب، وإن هذه المرأة شريفة وعفيفة من قوله تعالى:

(وَأَصْلَحُوا)

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

أما أن ينسحب الاستثناء على الآية القسم الأخير:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

فهذا قول ثابت، فالاستثناء إما أن ينسحب على آخر جزء، وإما أن ينسحب على كل الأجزاء، فانسحابه على آخر جزء قطعي، فحينما يتوب الإنسان، ويصلح لم يعد فاسقا، لكن هل تقبل شهادته ؟ تقبل بعد الإصلاح، بعد أن يعترف بكذبه، ويعترف بطهارة هذه المرأة، وبعد أن يمضي عام يثبت صلاحه، أما الجلد فلا يتعلق بهذا الاستثناء أبدا لو تاب.

لو أنه تاب إلى الله توبة نصوحا فلا بد أن يقوم عليه حد الجلد، أو حد القذف، لأن هذا حق الله عز وجل، كل العلماء انقسموا حول هذه الآية قسمين: بعضهم غلّب حق الله على حق العبد المقذوف، وبعضهم غلّب حق المقذوف على حق الله، لكن الذين غلبوا حق الله على حق العبد المقذوف كانوا أقرب إلى الحقيقة، لأن الله سبحانه وتعالى ولي الذين آمنوا، فهذا المقذوف عفا أم لم يعف فلابد أن يقام عليه الحد، فالإنسان دقيق، فالناس أحيانا في سهراتهم ونزهاتهم ولقاءاتهم يتحدثون عن فلانة، وعن فلانة، فلو كان الإنسان يحاسب حساباً دقيقاً وفق هذه الآية يجب أن يجلد معظم الناس، كيف تخوض في أعراض النساء، كيف تتهم فلانة أنها زانية، كيف تشير بإصبعيك، كيف تنفض ثوبك وتقول: لا أدري، هذا قذف أساسا، القذف ليس باللسان فقط، باللسان، وبالحركة، وبالعبارة.

جلد الشهود عند عدم استكمال الأربعة:

لو أن هذا القاذف تمكن أن يحضر ثلاثة شهود على أن هذه المرأة زانية يقام عليه الحد، ويجلد الشهود على أنهم قاذفون أيضا، فيجب أن يكونوا أربعة، فإذا كانوا ثلاثة يُجلدون كلهم، فهذا كان شاهداً، فلما لم

يستكمل النصاب أصبح قاذفا، ويقام عليه حد الجلد صونا لحق المرأة العفيفة. ثلاثة شهود جاؤوا ليدلوا بشهادتهم، إذاً يبطحون على الأرض، ويجلدون، لأن الرابع لم يأت معهم. أما كلمة:

(فَاجْلِدُوهُمْ)

إقامة الحدود منوطة بالسلطان حصرًا:

فكما قلنا في الدرس الماضي هذا خطاب موجه إلى عامة المسلمين، ممثلين في أولي الأمر، فليس على آحاد المسلمين أن يقيموا هذا حد الجلد، هذا الحد من اختصاص أولي الأمر، وليس من اختصاص آحاد المسلمين أن يمسك السياط، ويضرب زانيا أو قاذفا، بأنك تريد أن تقيم حد الجلد، أو حد القذف، هذا كلام مرفوض، لا يقيم حد القذف إلا أولو الأمر لقوله تعالى:

(فَاجْلِدُوهُم ثَمَانِينَ جَلْدَةً)

كما قلت قبل قليل: لو أن أولي الأمر وصل إلى علمهم أن فلانًا يقذف فلانة، ويتهمها بالزنى فعليهم أن يقيموا الحد، سواء أطلب المقذوف ذلك أم لم يطلب، الذي يهمنا من هذه الآية أن المجتمع الإسلامي يجب أن يكون نظيفاً، بل يجب أن تكون الثقة شائعة فيه، فلو سمحنا للناس أن يتهم بعضهم بعضا من دون قيد أو شرط لأصبح الشك هو الأصل، نحن عندنا قاعدة أساسية: الإنسان بريء ما لم يتهم، فالأصل أن الإنسان بريء، والأصل أن الإنسان عفيف، وأن الإنسان طاهر، وأنه مستقيم، فإذا أردت أن تتهمه فيجب أن تقيم على ذلك الدليل القطعي، وإلا فهناك عقاب وبيل، فهذه الآية تردع الناس عن أن يلغطوا في أعراض المسلمين والمسلمات وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[أخرجه الترمذي، ابن ماجه]

لكن ثمة حالات سوف نراها في الدرس القادم، فاجأ زوجته فإذا هي في موضع الزنى، فهل عليه أنْ يُحضر أربعة شهداء ؟! هذا مستحيل، لذلك عندنا آية اسمها آية الملاعنة، هذه نشرحها إن شاء الله تعالى في الدرس القادم.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9))

[سورة النور: 6-9]

تحريم رواية أخبار اللقاءات وقصص الخلاعة:

بقيت نقطة واحدة، وهي أن الإسلام من خلال هذه الآية حرم قذف المحصنات توصلا إلى تحريم رواية أخبار اللقاءات، والزنى، وما شاكل ذلك، هذه الأخبار من شأنها إذا شاعت بين الناس أن تشجع الناس على الزنى، فرواية الأخبار في البلاد الأجنبية هذه الموضوعات تطرق في وسائل الإعلام، في الصحف، في المجلات كثيرا، إلى أن يظن الإنسان أن هذا شيْء مألوف، ليس من آداب المسلم ترويجُ قصة إذا كان بالحارة، وسمع بقضية زنى، بقضية لا أخلاقية، ولو كان بشكل صحيح، بشكل غير مبالغ به، هذا يلفت نظر الشاب، أحيانا يدخل في روعه أن الناس هكذا، أن هذا الشيء مباح، فلئلا تكون هذه القصص منتشرة ورائجة في المجتمع الإسلامي جُعل حد القذف، غير أنه صونًا للأعراض وللأنساب، ودفعا للشك، والريب، وصونًا للدماء من أن تهدر ظلماً، عندنا شيء ثانٍ ؛ هذا الموضوع لا ينبغي أن يروج بين الناس، العلاقات الزوجية، موضوع فلان وفلانة، فلان دخل بيتا، كان في خلوة مع فلانة، فمثل هذه الكلمات من شأنها أن تثير العواطف، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ قَالَ:

((كَسَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبْطِيَّةً كَثِيفَةً كَانَتْ مِمَّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسْ الْقُبْطِيَّةَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً، إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا))

[أحمد، الطبراني في المعجم الكبير، البيهقي في السنن الكبرى]

فأيُّ كلمة أخرى غير هذه قد تثير الإنسان !!!

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون: الآيات 3-7)

فهذه الآية من فوائدها أنها تنهى عن الخوض في هذه الموضوعات كليا، وإذا خاض الإنسان فيها ظلما فلابد من حد القذف الذي يقترب من حد الزنى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (04-23): تفسير الآيات 6 – 10، آيات الملاعنة - قصة الإفك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-10-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10))

(سورة النور)

أحكام الملاعنة بين الزوجين:

أيها الإخوة المؤمنون، هذه الآية هي آية اللعان، أو آية الملاعنة، وهذه الآية كما ورد في آخرها:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)

لو أن امرأ شاهد امرأته تزني، وليس له أربعة شهود يشهدون على هذه الواقعة، فما حل هذه المشكلة، إن تكلم في حق زوجته يحد بنص الآية السابقة:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

ففي نص هذه الآية هذا الذي يرى واقعة الزنى في بيته، وليس له أربعة شهود يشهدون على هذه الواقعة، واتهم زوجته بالزنى، فبنص الآية السابقة لابد أن يُجلد ثمانين جلدة، لذلك جاءت آيات الملاعنة فيما بين الزوجين رحمةً من الله عز وجل، وفضلا، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)

أدب القرآن في اختيار الكلمات:

الكلام فيه أدب رفيع:

(يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)

ولم يقل: بالزنى، ومفهوم من سياق الآيات أن الحديث عن الزنى، لذلك الكلام الذي يفهم إن لم تذكره، الأولى ألاّ تذكره، هذا من البلاغة، ومن الأدب في وقت واحد، من البلاغة أن الألفاظ التي تخدش الحياء يجب ألاّ تذكر، ومن البلاغة أن الشيء الذي يفهم من دون أن يذكر يجب ألاّ يذكر، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)

بالمناسبة لك أن تقول: زوجي وزوجتي، وكلاهما صحيح، ولك أن تقول: امرأة عروس ورجل عروس، كلاهما صحيح، وتطلق في اللغة على الذكر والأنثى في وقت واحد، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)

بمعنى زوجاتهم.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءَ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ)

دخل بيته فجأة، فإذا رجل مع زوجته في وضع مشين، ماذا يفعل ؟ هل يقول لهما: انتظرا حتى آتي بالشهود، هذا مستحيل، لذلك لمثل هذه الحالة الصعبة، ولمثل هذه الواقعة العظيمة شرع ربنا سبحانه آيات الملاعنة، ففيها أشياء دقيقة جدا.

معنى الشهادة:

هنا كلمة الشهادة في آيات الملاعنة،

المعنى الأول:

الشهادة تعني الخبر الصادق، أنت شاهدت شيئا، ونقلت هذه المشاهدة إلى قاض، أو إلى جهة، فهذه الشهادة تعني الخبر الصادق، لكن علماء التفسير استنبطوا من قوله تعالى:

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

(سورة المنافقون: الآيات 1-2)

فربنا سبحانه وتعالى سمى شهادتهم يمينا، فالشهادة لها ثلاثة معانٍ: المعنى الأول الخبر القاطع المبني على مشاهدة.

المعنى الثاني:

اليمين.

المعنى الثالث:

البينة والدليل، فتأتي الشهادة في القرآن الكريم، وفي هذه الآية بالذات معنى الخبر القاطع، وبمعنى اليمين، وبمعنى البينة، أي الدليل، لهذا يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ)

الاستثناء وأنواعُه:

فهذه (إلاّ) أداة استثناء، تقول مثلا: حضر الطلاب إلا خالدا، فخالد طالب، فإذا كان المستثنى بـ (إلاّ) من جنس المستثنى منه فالاستثناء متصل، القضية سهلة جدا، وإذا كان المستثنى بـ (إلاّ) ليس من جنس منه المستثنى فالاستثناء منقطع، تقول: حضر الطلاب إلا المدرّس، فالمدرّس ليس طالبا، لهذا قال الله عز وجل:

(فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ)

[الحجر: 29-30]

فليس معنى هذا أن إبليس من الملائكة، هذا استثناء منقطع، فالذين قالوا: إن هذا الاستثناء استثناء متصل جعلوا الزوج أحد الشهود، أو شاهدا يغني عن أربعة شهود، فيجب حينئذٍ أن تنطبق عليه أحكام الشهادة، ويجب أن يكون شاهدا تصح شهادته في نظر الفقهاء.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

صيغة شهادة اللعان بين الزوجين:

أيْ يشهد، ويقول: أشهد بالله أنني صادق فيما أرمي به زوجتي، ويسكت، ثم يقول: أشهد بالله أني صادق فيما أرمي به زوجتي، ويسكت، ثم يقول: أشهد بالله إني صادق فيما أرمي به زوجتي و، يسكت، ثم يقول: أشهد بالله أني صادق فيما أرمي به زوجتي، فهذه الشهادات الأربع خبر قاطع مع يمين، فكأن هذه الشهادة تحملت معنى اليمين والخبر القاطع، لذلك فربنا سبحانه وتعالى من رحمته بهذا الزوج الذي

رأى حادثة لا يحتملها أنْ قال له: أنت تشهد، وشهادتك تنوب عن أربعة شهود، ولا بد أن يشهد شهادة خامسة، ما هي هذه الشهادة الخامسة ؟

قال الله عز وجل:

(وَالْخَامِسَةُ)

أيْ والشهادة الخامسة:

(أَنّ لَعْنَةَ اللّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

ويقول: أشهد بالله أن لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين، وبهذه الشهادات الخمس يثبت الزنى على زوجته، وتمنع عنه حد القذف.

(وَالّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)

بهذه الشهادات الأربع، والشهادة الخامسة يستطيع الزوج أن ينجو من حد القذف، لأن الآية السابقة تحتم على القاذف حد القذف إن لم يأت بأربعة شهداء، هو الآن شاهد واحد، لكنه زوج، قال العلماء: إنه لا يعقل أن يشهد الزوج أمام القاضي على زوجته بالزنى، وهي بريئة، لأنه إذا شهد بذلك جلب العار لبيته، وجلب الدنس لفراشه، وألحق بنسبه ما ليس منه، لذلك ليس من مصلحة الزوج أصلا أن يتهم زوجته بالزنى أمام ملأٍ من المسلمين، ولو لم يكن رآها فعلا لما أقدم على فضحها، لذلك فشهادة الزوج ليست كشهادة أحد من الناس، شهادته أربع شهادات بالله، بشرط أن يقول: أشهد بالله أني لمن الصادقين، مرة، وثانية، وثالثة، ورابعة، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

موقف الزوجة بعد ملاعنة الزوج لها:

ما موقف الزوجة ؟ حينما يشهد الزوج هذه الشهادات الأربع، ويشهد الشهادة الخامسة فقد أوجب عليها حد الرجم، لأنها محصنة، ودرأ عن نفسه حد القذف، لأن شهادته كما قال الله عز وجل:

(فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ)

لكن الله سبحانه وتعالى رحمة بالمرأة أعطاها شيئا تنجو به إن كان زوجُها كاذبا، وليكن احتمال كذبه واحد بالمئة.

(وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ إِنّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8))

أما إذا قالت: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين، مرة، وأشهد بالله إنه لمن الكاذبين، وثانية، وأشهد بالله إنه لمن الكاذبين، وثالثة، وأشهد بالله إنه لمن الكاذبين، ورابعة فعليها أن تنطق بالشهادة الخامسة، لكن الشهادة الخامسة تجعلها من أهل النار، وشهادة الرجل الخامسة تجعله من أهل النار.

(وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9))

لذلك قال العلماء: على القاضي إذا وصلت المرأة إلى الشهادة الخامسة أن يقول لها: يا امرأة عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وفضح الدنيا أهون من فضح الآخرة، فالقاضي مكلف أن يذكّر الزوج قبل أن يشهد الشهادة الخامسة ؛ أن أيها الرجل عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، عذاب الدنيا حده القذف، فإذا نطق بالشهادة الخامسة، وكانت بريئة استوجب النار، إنها قضية في منتهى الدقة والخطورة.

(وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9))

لطائف ودقائق واستنباطات من آيات اللعان:

الآن في هذه الآيات ؛ آيات اللعان لطائف ودقائق واستنباطات:

اللطيفة الأولى: الفرق بين اللعنة في حق الزوج والغضب في حق المرأة:

فمن هذه الدقائق أو اللطائف أن الله سبحانه وتعالى قال:

(وَالْخَامِسَةَ)

المتعلقة بالزوج:

(أَنَّ لَعْنَةَ اللّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(وَالْخَامِسَةَ)

المتعلقة بالمرأة:

(أَنَّ غَضَبَ اللّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

فهل هناك فرق بين لعنة الله، وبين غضبه ؟ العلماء وقفوا موقفين، فبعضهم قال: لعنة الله أشد من غضبه، لأنه رماها بالزنى، وقد تكون بريئة، وبعضهم قال: غضب الله أشد من لعنته، لأنها هي الأصل في الزنى، فلو لم تزن لما جرّت زوجها إلى هذه المشكلة، على كلٍ اللعن هو الإبعاد، فإذا قال الإنسان لإنسان: لعنة الله عليك، أي أن الله سبحانه وتعالى أبعده عن ذاته المقدسة، وأبعده عن ذاته العظيمة، لذلك في الآخرة أشد عقاب يعاقب به أهل النار:

(كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين: الآية 15)

ابتعدوا، والذي يملك حاسة مرهفة يجد أن في الإبعاد أشد أنواع العذاب، وأشد أنواع العقاب، على كلٍ ربما بررنا، أو سوّغنا - إن صح التعبير - للمرأة أن تشهد أربع شهادات بالله، إنه لمن الكاذبين، إنقاذا لسمعتها من العار والشر، وربما كانت لعنة الله أشد وقعا من غضب الله، على كلٍ فإنّ غضبه، ولعنته شيئان مخيفان، نعوذ بالله منهما، والمعنى الدقيق للعن: الطرد من رحمة الله، والمعنى الدقيق للغضب هو: السخط، والعلماء بين أن يكون اللعن أشد من الغضب، وبين أن يكون الغضب أشد من اللعن، على خلاف فيما بينهم.

اللطيفة الثانية: اللعان يكون بين مسلمين حرين:

الذين عدوا هذه الشهادات أخضعوها لأحكام الشهود، أي ينبغي أن تنطبق على الزوج الملاعن أحكام أهل الشهود، فالإنسان أحيانا يفقد حقه في الإدلاء بالشهادة، فمثل هذا الزوج الذي فَقَدَ حقه أن يشهد فشهادته مرفوضة، ولعنه مرفوض، والمرأة كذلك ما دام هذه بإمكانها أن تشهد أربع شهادات بالله، إنه لمن الكاذبين، إذاً هي شاهدة تنطبق عليها أحكام الشهود، والشاهد يجب أن يكون مسلما، عدلا، ثقة، لذلك استنبط العلماء أن اللعان لا يجري إلا بين زوجين مسلمين، حُرَّيْن لا رقيقين، فلا يجري بين حر ورقيق، ولا بين رقيق وحر، كما لا يجري بين زوجين غير مسلمين، ولا بين زوجين كافرين، لأننا طبقنا عليهما أحكام الشهود العدول.

الحقيقة أنّ هناك علاقة دقيقة بين آيات القذف، وآيات اللعان.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)

فرق كبير بين أن يتهم الإنسان امرأة أجنبية بالزنى، فهذا يجب أن يأتي بأربعة شهداء، وإلا يجلد، ويقام عليه حد القذف، وربما لا يتأثر بيته، ولا تتأثر مكانته، ولا سمعته من قذف هذه المرأة الأجنبية المحصنة، لذلك حد القذف يقام عليه إن لم يأت بالشهداء الأربعة، فلو جاء بشهود ثلاثة - لك أن تقول في جمع شاهد: شهداء وشهود، فإن لم يأتوا بالشهداء، الشهداء جمع شاهد، والشهيد أيضا جمعه شهداء، فالشهداء جمع لشاهد ولشهيد، وهنا الحديث عن الشهداء جمع شاهد بالضبط، لكن الإنسان عندما يرمي زوجته بالزنى، فهذا ليس من مصلحته إذا كان كاذبا بهذا الرمي، لأن هذا الرمي سيسبب له العار، سيسبب له الشك في ولده ؛ أهو منه، أم من غيره ؟ سيسبب له سمعة سيئة، سيسبب له انهياراً اجتماعياً، لذلك قال العلماء: إنه لا يقدم على رمي الزوجة بالزنا إلا أن تكون هذه الواقعة صحيحة، لهذا رحمه الله عز وجل، وخفف عنه، وقال: أنت أيها الزوج لك حكم مستقل، شهادتك تعادل أربع شهادات يدلي بها

شهود عدول، هذه هي العلاقة بين آيات القذف، وبين آيات اللعان؛ وكأن الله سبحانه وتعالى في آخر هذه الآية:

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)

أيْ لولا أن الله رحمكم بآيات اللعان لكان في الأمر حرج شديد، فتصور حالة زوج رأى رأي العين زوجته تزني، والشرع لا يسمح له بسماع هذه الدعوى إلا بأربعة شهود، والشهود كيف يأتون، إن ذهب ليحضرهم قد يُتلافى الأمر، فلا يجد حلاً، لذلك النبي الكريم حينما عرضت عليه قضية قبل نزول هذه الآية استرجع الله سبحانه وتعالى وقال: لعلّ الله يحدث في هذا الأمر أمرا، لعله يحدث أمرا.

سبب نزول آية الملاعنة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((إنّ أوّلَ لِعَانٍ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ أنّ هِلَالَ بْنَ أُمَيّة قَذَفَ شَرِيكَ بْنَ السّحْمَاءِ بِامْرَأَتِهِ، فَأَتَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: أَرْبَعَةُ شُهَدَاءَ وَإِلّا فَحَدٌّ فِي ظَهْرِكَ، يُرَدِّدُ ذَلِكَ عَلَيْهِ مِرَارًا، فَقَالَ لَهُ هِلَالٌ: وَاللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ، إنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ لَيَعْلَمُ أَنّي صَادِقٌ، وَلَيُنْزِلَنّ اللّهُ عَزّ وَجَلّ عَلَيْكَ مَا يُبَرّئُ ظَهْرِي مِنْ الْجَلْدِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ آيَةُ اللِّعَانِ،

(وَالّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)

إلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَدَعَا هِلَالًا، فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ إنّهُ لَمِنْ الصّادِقِينَ، وَالْخَامِسَةُ أَنّ لَعْنَةَ اللّهِ عَلَيْهِ إنْ كَانَ مِنْ الْكَاذِبِينَ، ثُمّ دُعِيَتْ الْمَرْأَةُ فَشَهِدَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ، إنّهُ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ، فَلَمّا أَنْ كَانَ فِي الرّابِعَةِ أَوْ الْخَامِسَةِ، قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: وَقِفُوهَا، فَإِنّهَا مُوجِبَةٌ، فَتَلَكّأَتْ حَتّى مَا شَكَكْنَا أَنّهَا سَتَعْتَرِفُ، ثُمّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ عَلَى الْيَمِينِ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: انْظُرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَبْيَضَ سَبِطًا قَضِيءَ الْعَيْنَيْنِ فَهُوَ لِهِلَالِ بْنِ أُمَيّةَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ آدَمَ جَعْدًا رَبْعًا حَمْشَ السّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ السّحْمَاءِ، فَجَاءَتْ بِهِ آدَمَ جَعْدًا رَبْعًا حَمْشَ السّاقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: لَوْلَا مَا سَبَقَ فِيهَا مِنْ كِتَابِ اللّهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ))

قَالَ الشّيْخُ: **" وَالْقَضِيءُ طَوِيلُ شَعْرِ الْعَيْنَيْنِ لَيْسَ بِمَفْتُوحِ الْعَيْنِ، وَلَا جَاحِظِهِمَا، وَاللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ "**

[البخاري عن ابن عباس، مسلم، الترمذي عن أنس، والنسائي عن ابن عباس]

شروط حد القاذف:

شيء آخر، المرأة التي يحق لها أن تشهد أربع شهادات بالله يجب أن تكون من النوع التي إذا قذفت بالزنى أقيم على قاذفها الحد، فكما تعلمون من الدرس الماضي من اتهم امرأة زانية بالزنا لا يقام عليه الحد، إذاً امرأة فاجرة تزني على قارعة الطريق تزني من دون تخف، تفصح عن زناها، تقول: كنت مع فلان وفلان، فهذه امرأة فاجرة، هذه امرأة لا يحد قاذفها.

متعّلق الصدق والكذب في الملاعنة:

تكلمنا في الدرس الماضي أنه لا يحد قاذف المرأة إلا إذا كانت المرأة بريئة من الزنى، محصنة، والإحصان كما قلنا هو الإسلام، والزواج، والعفة، وما شاكل ذلك، لذلك هذه الآيات آيات الملاعنة لا تجري إلا إذا كانت الزوجة من النوع التي إذا قذفت أقيم على قاذفها الحد، عندئذ لها أن تشهد أربع شهادات بالله، إنه لمن الكاذبين، كذلك الزوج لا يحق له أن يشهد أربع شهادات، على أنه من الصادقين إلا إذا كان من النوع الذي يحق له أن يشهد، وكما تكلمنا في دروس سابقة الشهادة على أنواع، هناك نوع يكتفى فيه بالشاهد، أن يكون مسلما، عدلا، وفي شهادات أخر يجب أن يكون الشاهد عدلا، وثقة، العدالة والضبط في رواية الأحاديث لابد أن يكون الشاهد مسلما، عدلا، ثقة، لكن في الإدلاء ببعض الوقائع أمام القاضي يكفي أن يكون الشاهد مسلما، والإسلام هو انصياع لأوامر الله سبحانه وتعالى.
العلماء الآن على خلاف في أن آيات اللعان لا تحتاج إلى متعلق الصدق والكذب، ففي هذه الحادثة يكون هذا الزوج قد رأى زوجته في حالة الزنى، فله أن يقول في المحكمة أمام القاضي: أشهد بالله إني لصادق فيما رميتها به، لا يحتاج الزوج إلى أن يذكر بالتفصيل ماذا جرى أمام القاضي، رأفة بحاله، ورعاية لحق هؤلاء المستمعين، وتوفيرا عليه من إبداء تفصيلات قد تحرجه في ذكرها أمام القاضي، لذلك أجاز العلماء أن يكون متعلق الصدق أو الكذب في هذه الآيات يمكن أن لا تذكر، فيكفي أن يقول: أشهد بالله إني لصادق فيما رميت به زوجتي، وينتهي الأمر.

مَن يبدأ أولاً بالملاعنة الزوج أم الزوجة ؟

والعلماء أيضا على خلاف، هل يجوز أن تبدأ الزوجة بالإدلاء بشهاداتها الأربع ؟ فجمهور الفقهاء على أنه يجب أن يكون الترتيب كما ورد في القرآن الكريم، أن يبدأ الزوج بالإدلاء بهذه الشهادات الأربع، ثم يشهد الشهادة الخامسة، وبعدها يأتي دور الزوجة.

حينما يشهد هذه الشهادات الأربع مع الشهادة الخامسة نجا من حد القذف الوارد في الآية السابقة، التي توجب عليه حد القذف، فلمجرد أنه شهد أربع شهادات، وفق هذه الآية نجا من حد القذف، وأوجب على زوجته حد الرجم، لكن هذه الزوجة إن شهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، فتنجو بهذه الشهادة الخامسة مع الأربع السابقة من حد إقامة الحد عليها، وهو حد الرجم، والمشكلة أنه قد يكون هناك حمل، لذلك أجاز بعض العلماء أن يشهد الزوج أنه صادق فيما رمى به امرأته، وأن هذا الولد الذي في بطنها ليس منه، وبهذا ينفي عنه نسبتُه إليه، وكذلك المرأة تستطيع أن تنفي عن نفسها أن يكون هذا الولد من هذا الرجل، وكلا الطرفين متاح لهما أن ينفيا، مع إثبات صدقهما، والولد حينئذٍ ليس تابعًا لهما.

هيئة المتلاعنين في أثناء الشهادة:

من السُنة أن يحلف، أو أن يشهد الزوج، وهو واقف، والمرأة قاعدة، ثم تنعكس الآية، فتقف المرأة لتدلي بشهاداتها الأربع، والخامسة، وهي واقفة، والزوج جالس، والقاضي عليه إن وصل الزوج إلى الشهادة الرابعة أن يخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، عذاب الدنيا حد القذف، وعذاب الآخرة النار، وعلى القاضي أيضا إن وصلت المرأة إلى الشهادة الخامسة أن يذكرها بأن فضح الدنيا أهون من فضح الآخرة، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، ويراعى أن يشهد هذه الواقعة جمهور من المسلمين كما ورد في كتب الفقه.

معنى: وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ

الحقيقة أن كلمة:

(وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ)

فهمها بعض الناس أنه العذاب في اليوم الآخر، وليس هذا بصحيح، العذاب هنا هو عذاب الحد الذي يجب أن يقام عليها، ألا وهو الرجم، لقوله تعالى:

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

فالعذاب هنا في هذه الآية هو حد الرجم.

هل يُحدُ الزوج القاف الممتنِع عن الملاعنة ؟

الآن لو أن الزوج - وهذه مشكلة - اتهم زوجته بالزنى، وامتنع أن يلاعنها، ولم يأتِ بالشهود كما جاء في آية القذف فماذا عليه ؟ العلماء قالوا: عليه حد القذف، وهو ثمانون جلدة، إذا امتنع الزوج على أن يشهد أربع شهادات بالله، وعن أن يشهد الشهادة الخامسة التي توجب له النار، شيء آخر، إذا امتنعت الزوجة عن أن تدلي بأربع شهادات، أنه كاذب، وعن أن تشهد الشهادة الخامسة التي توجب لها النار وجب عليها حد الرجم، فلا يوجد حل قضية دقيقة جدا، إما أن تلاعن، وإما أن يقام على الزوج حد القذف، وإما أن تلاعن الزوجة، وإما أن يقام عليها حد الرجم.

شيء آخر، هذه الآيات المتعلقة بالملاعنة فيها أحكام صريحة، وواضحة في شأن الملاعنة، في مقدمتها أن شهادة الزوج كافية بدل أربعة شهود عدول يصدقون ما ادعى به.

وأن الزوجة تستطيع بالإدلاء بأربع شهادات بالله، إنه لمن الكاذبين، ومع الشهادة الخامسة أن تمنع عنها حد الرجم.

نتائج الملاعنة:

وتأتي السنة المطهرة لتبين أن هذه الملاعنة ينتج عنها أشياء ثلاثة:

النتيجة الأولى: نفي الولد عن الرجل وإلحاقه بالمرأة:

الشيء الأول نفي الولد.

النتيجة الثانية: نفي الولد عن الرجل وإلحاقه بالمرأة:

والشيء الثاني: الفرقة بين المتلاعنين، فبعد التلاعن يحكم القاضي بالفرقة بين الزوجين، لماذا ؟ لنأخذ اتهام الزوج زوجته بالزنى لو أنه صادق في هذا الاتهام ماذا فعل ؟ فضحها، ونشر سمعتها السيئة بين الناس، وجعلها في موطن ازدراء، واحتقار من المجتمع الإسلامي، هذا إذا كان صادقا، فإذا كان كاذبا فالجرم أكبر، لذلك ينشأ من ملاعنة الزوج، أو ينشأ من اتهام الزوج زوجته بالزنى، ثم الملاعنة ينشأ جرح في نفس الزوجة لا يدمل، أو لا يضمد، أما المرأة فالتي تزني في بيت زوجها، والتي تلحق العار، والشنار بزوجها، إنها فعلت شيئا لا يغتفر، لقد لطخت سمعته، ولوثت فراشه، وألحقت به ما ليس له، فإن كانت صادقة في اعترافها بهذا الذنب فجريمتها كبيرة، وإن كانت كاذبة فجريمتها أكبر، لذلك فإن

النبي الكريم رأى أن كلا الزوجين جرح الآخر جرحا لا يندمل، لهذا حكم بالفرقة بين المتلاعنين، لذلك لمجرد أن يلاعن الزوج زوجته يحكم القاضي بالتفريق بينهما، لأن هذين الزوجين ليسا أهلا أن تقوم بينهما حياة سوية صحيحة.

النتيجة الثالثة: التحريم المؤبد بينهما:

لكن المشكلة أن هذا التفريق على التأبيد، ولا يوجد طريق أبدا إلى أن تعود هذه الزوجة لهذا الزوج، ولا أن يعود هذا الزوج لهذه الزوجة، فأحكام ثلاثة تؤخذ من آيات الملاعنة: نفي الولد عن الزوج، والفرقة بين المتلاعنين، والتحريم المؤبد بينهما.

لكن العلماء يقولون: إن الزوج أولى به إذا رأى زوجته تزني في بيته الأولى به أن يطلقها، وألا يلاعنها، إذا طلقها ستر حالها فلعلها تتوب، إن احتمل أن يجعلها تتوب على يديه، وصلحت توبتها فهذا يحتاج إلى بطولة، وإذا لم يحتمل فعليه أن يطلقها سترا لحالها، أما إذا لاعنها فقد فضحها، ونشر سمعتها السيئة في المجتمع الإسلامي، وانتهت حياتها.

الملاعنة رحمة بالزوج:

الشيء الذي يلفت النظر هو أن الله سبحانه وتعالى في آخر آيات الملاعنة يقول:

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)

وكأن الله سبحانه وتعالى تفضل على هذه الأمة الإسلامية بهذا الحكم رحمة بالزوج، ورحمة بالزوجة التي يجب أن ترجم، فإذا نطقت بهذه الشهادات يدرأ عنها العذاب، إذا رحمة بالزوجين معا كانت هذه الآيات ؛ آيات الملاعنة.

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)

ولكن الشيء الذي يلفت النظر أكثر من هذا أن الله تعالى قال:

(وَأَنّ اللّهَ تَوّابٌ حَكِيمٌ)

في كل الآيات، آيات الفواصل تواب رحيم، إلا في هذه الآية

(وَأَنّ اللّهَ تَوّابٌ حَكِيمٌ)

إذْ ليس من الحكمة أن تفضح زوجتك، لذلك فتح باب التوبة حتى للمتلاعنين الذين اقترف أحدهما جريمة الزنا، وحينما يتلاعن الزوجان فلابد أن يكون أحدهما كاذبا، وهذا الكاذب الذي ستر حاله بهذا الكذب باب التوبة مفتوح أمامه، ولكن يحتاج إلى جهد كبير.

هذه الآيات، آيات الملاعنة مع آيات القذف، مع حد الزنا تنظم المجتمع الإسلامي، فقضية أن تخون المرأة زوجها قضية خطيرة، إما أن تنتهي بالفضيحة، وإما أن تنتهي بالفراق الأبدي من هذا الزوج، فإذا كان زوجا محسنا خيرا طيبا سخيا فإن على الزوجة أن تعد لآلاف آلاف الملايين قبل أن تفكر بأن تخون هذا الزوج، إنها تفقده، وتفقد سمعتها في وقت واحد.

حادثة الإفك: تفاصيلها في الكتاب والسنة:

تفاصيل الإفك في القرآن الكريم:

بقي علينا آيات الإفك، وقبل أن نبدأ الحديث عن حديث الإفك الذي ورد في سورة النور في قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16))

(سورة النور: الآيات 11-16)

تفاصيل الإفك في السنة: رواية أم المؤمنين عائشة الطاهرة للإفك:

قبل الحديث عن هذه الآيات سأقرأ على أسماعكم حديث الإفك كما ورد في الصحاح، عن السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم طبعا هذا الكلام على لسان السيدة عائشة رضي الله عنها فيما رواه البيهقي والإمام أحمد والبخاري ومسلم، طبعا حديث رواه أئمة الحديث على خلاف دقيق في الروايات لكن هذه بعض الروايات، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ - أقرع بينهن أي أجرى القرعة، والقرعة معروفة، والقرعة أمر إسلامي، فإذا حصل خلاف بين أولادك، تنافسوا على

شيء، تنافسوا على الذهاب معك إلى جهة فعليك بالقرعة، والنبي عليه الصلاة والسلام سنه لنا، فَأَيَّتُهُنّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ - يعني نزلت آيات الحجاب، فصار على السيدة عائشة أن تستر وجهها - فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ - الهودج شبه غرفة صغيرة جدا توضع على الناقة - وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ - أيْ في طريق العودة - آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ - معنى آذن أيْ كلف النبي صلى الله عليه وسلم أحدا من المسلمين أن يعلم كل من في هذه الغزوة أن يستعدوا للرحيل، آذن أيْ أعلم - فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي - لاحظوا العبارة اللطيفة - أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ - هذا عقد ظفار، نوع من أنواع الأحجار الكريمة - فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي - جاء رهط ليحملوا هذا الهودج، ويضعوه على الناقة، ويسيروا بالسيدة عائشة - فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي - رحلوه جعلوه كالرحل، و ما شعروا أنه فارغ - الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ - هنا سؤال: لِمَ لمْ يشعروا أنه خفيف وفارغ ؟ الجواب: وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنّ اللَّحْمُ - لم يكنّ سمينات جداً، يبدو أنها كانت نحيلة قليلة الوزن، فلما حملوا هودجها ظنوها به، فحملوا هذا الهودج، ووضعوه على الناقة وساروا - وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ - يعني ما تقيم به أودها، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه - فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ، وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ، وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ - مكان نزولي أي المكان الذي كنت أجلس فيه - فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ - طفلة صغيرة - وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَدْلَجَ - دخل في عتمة الليل - فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ، معنى استرجع قال: إنا لله، وإنا إليه راجعون، وحوقل قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وسبحل قال: سبحان الله، دمعز قال: أدام الله عزك، هلل قال: لا إله إلا الله، كبر قال: الله أكبر - فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي - غطيت وجهي بعدما نزلت آية الحجاب - فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَ وَاللَّهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ. هذه هي القصة كلها - وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيّ ابْنَ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا - شكت مرضا ألم بها - وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ

ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي - الذي دعاني إلى الشك - أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللُّطفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي - تغير، فقد كان ألطف بكثير - إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُسَلِّمُ- هذه المرة إذا دخل يسلم، ولكن بحالة أقل لطفا من ذي قبل - ثُمَّ يَقُولُ: كَيْفَ تِيكُمْ ؟ ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَاكَ الَّذِي يَرِيبُنِي، وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقِهْتُ فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ، وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الْغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي، وَقَدْ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا، قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ، أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: وَمَا قَالَ ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْنِي سَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تِيكُمْ ؟ فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ ؟ قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ، مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! أَوَ لَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا ؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

وقد سأل النبي عليه الصلاة والسلام سأل أصحابه، وشاورهم في الأمر - فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي، يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْلُكَ، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ ؟ قَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولَ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي - والصحابة طبعا وقفوا مواقف مشرفة من هذه الخطبة، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ

اللّهِ، أنَا أعْذِرُكَ مِنْهُ، إنْ كَانَ مِنْ الْأوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإنْ كَانَ مِنْ إخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أمْرَكَ، قالتْ: فَقامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيّةُ، فَقالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللّهِ، لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، فَقامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللّهِ لَنَقْتُلَنّهُ، فَإنّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ، فَتَثَاوَرَ الْحَيّانِ الْأوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتّى هَمُّوا أنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُخَفّضُهُمْ حَتّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، قالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قالَتْ: فَأصْبَحَ أبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا أكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، وَلَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، يَظُنّانِ أنّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قالَتْ: فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأنَا أبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيّ امْرَأةٌ مِنْ الْأنْصَارِ، فَأذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَسَلّمَ، ثُمّ جَلَسَ، قالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إلَيْهِ فِي شَأنِي، قالَتْ: فَتَشَهّدَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حِينَ جَلَسَ، ثُمّ قالَ: أمّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، فَإنّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرّئُكِ اللّهُ، وَإنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللّهَ، وَتُوبِي إلَيْهِ، فَإنّ الْعَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمّ تَابَ إلَى اللّهِ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِ، قالَتْ: فَلَمّا قَضَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتّى مَا أحِسّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأبِي: أجِبْ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِيمَا قالَ، قالَ: وَاللّهِ مَا أدْرِي مَا أقُولُ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَقُلْتُ لِأمّي: أجِيبِي رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، قالَتْ: مَا أدْرِي مَا أقُولُ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، قالَتْ: فَقُلْتُ وَأنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السّنّ لَا أقْرَأُ كَثِيرًا مِنْ الْقُرْآنِ: إنّي وَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتّى اسْتَقَرّ فِي أنْفُسِكُمْ، وَصَدّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إنّي بَرِيئَةٌ، وَاللّهُ يَعْلَمُ أنّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأمْرٍ، وَاللّهُ يَعْلَمُ أنّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدّقُنّي، وَاللّهِ مَا أجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إلّا قَوْلَ أبِي يُوسُفَ قالَ:

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

قالَتْ: ثُمّ تَحَوّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قالَتْ: وَأنَا حِينَئِذٍ أعْلَمُ أنّي بَرِيئَةٌ، وَأنّ اللّهَ مُبَرّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللّهِ مَا كُنْتُ أظُنّ أنّ اللّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأنِي وَحْيًا يُتْلَى - ما كانت تصدق ذلك - وَلَشَأنِي فِي نَفْسِي كَانَ أحْقَرَ مِنْ أنْ يَتَكَلّمَ اللّهُ فِيّ بِأمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أرْجُو أنْ يَرَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي النّوْمِ رُؤْيَا يُبَرّئُنِي اللّهُ بِهَا - كل ظنها أن النبي يرى رؤيا، قالَتْ: فَوَ اللّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَلَا خَرَجَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الْبَيْتِ - رام يعني ترك مجلسه - وَلَا خَرَجَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الْبَيْتِ حَتّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَأخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ، حَتّى إنّهُ لَيَتَحَدّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنْ الْعَرَقِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ - يوم من أيام الشتاء - مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ، قالَتْ: فَلَمّا سُرّيَ

عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سُرّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوّلُ كَلِمَةٍ تَكَلّمَ بِهَا: يَا عَائِشَةُ، أَمّا اللّهُ عَزّ وَجَلّ فَقَدْ بَرّأَكِ، فَقَالَتْ أُمّي: قُومِي إِلَيْهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلّا اللّهَ عَزّ وَجَلّ، فَأَنْزَلَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ:

(إِنّ الّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ ...)

الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلّهَا، فَلَمّا أَنْزَلَ اللّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللّهُ:

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللّهِ، إِنّي أُحِبّ أَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النّفَقَةَ الّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: يَا زَيْنَبُ، مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، مَا عَلِمْتُ إِلّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَعَصَمَهَا اللّهُ بِالْوَرَعِ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ))

[البخاري، مسلم، النسائي، أحمد]

هذا الحديث في قصة الإفك، وبفضل الله تعالى وكرمه سوف نبدأ في الدرس القادم بتفسير آيات الإفك، وأردت أن تكون القصة من كتب الحديث الصحيح كما روتها السيدة عائشة أساسا لتفسير آيات الإفك، وهذه الآيات لها مساس في حياتنا جميعا، فحينما تتلى آيات في كتاب الله عن قصة ما، فليست القصة هي المقصودة، بل المقصود الأحكام التي يجب أن تستنبط من هذه الآيات في تعاملنا مع بعضنا البعض، فعلى كلّ واحد منا أن يضع هذه القصة نبراسا له في علاقته مع إخوانه المؤمنين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (05-23): تفسير الآيات 11 – 15، آيات الإفك
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-10-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة النور، مرَّ معنا في الدرس الماضي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، الذي أوردته كتب الحديث عن قصة الإفك، وها هي الآيات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم يبرئ فيها السيدة عائشة رضي الله عنها مما اتهمت به، فكل متهم بريء له بهذه السيدة العظيمة أسوة حسنة، إن الذي برأها سيبرّئه، والحياة تضج، وتطفح بمشكلات ؛ من نوع أن تلصق بإنسان ما تهمة هو منها بريء، وهذا الذي يحدث له حكمة بالغة، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

بين الإفك والغيبة والنميمة:

الإفك هو الكذب، بل هو أشد أنواع الكذب، الإفك أن تختلق شيئا لا أصل له، أن تقلب الحق باطلا، والباطل حقا، أن تختلق شيئا لا أصل له، وهو الذي يسميه العلماء استنباطا من هذا الحديث الإفكَ، فالذي يغتاب فإنه يقول ما هو واقع، ومع ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)

(سورة الحجرات: الآية 12)

فالغيبة محرمة تحريماً قطعيا بنص القرآن الكريم، ولا اجتهاد في مورد النص، بمعنى أن الإنسان يقوم باجتهادات، فيقول: إن هذا الكلام مفيد، تجريح فلان مفيد، الحديث بالسوء عن فلان مفيد، لا اجتهاد في مورد النص، فإذا جاء نص قرآني قطعي يحرم الغيبة فلا يستطيع إنسان كائناً من كان أن يبيحها لنفسه، لكن علماء الفقه أجازوا الغيبة في حالات قصوى، حالات لها شروط معقدة، فإذا سئلت عن إنسان في موضوع زواج، أو موضوع شراكة فعليك أن تبين الحقيقة، ولو كانت مُرّة، فربنا عز وجل قال:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)

إنّ نقل خبر الغيبة من إنسان إلى إنسان هو النميمة نفسها، فَعَنْ حُذَيْفَةَ قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ))

[أخرجه البخاري، مسلم، الترمذي، أبو داود، النسائي، أحمد]

القتات هو النمام، تحدث فلان عن فلان بسوء، فجاء فلان، ونقل الخبر لمن تحدث عنه، فهذه هي النميمة، وربنا سبحانه وتعالى نهى أيضا بنص القرآن الكريم، والنبي عليه الصلاة والسلام بين أنه لا يدخل الجنة قتات، فالغيبة حديث واقع، لكنه يسيء إلى صاحبه، والنميمة نقل هذا الحديث لصاحبه، لكن الإفك اختلاق موضوع لا أصل له إطلاقا، موضوع مختلق بقضه، وقضيضه، جملة، وتفصيلا، ليس له مستند واقعي، هذا هو الإفك، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ

والعصبة جماعة تعصب بعضهم لبعض، ما هي العصبية ؟ أن تنحاز انحيازاً أعمى لجهة، على حدِّ قول ذاك الشاعر ؛ دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

***

فالذي ينحاز مع فلان انحيازًا أعمى من دون تبصر، على الحق، أو على الباطل فهذا تعصب، فعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ))

[أبو داود واللفظ له، والنسائي، وابن ماجه]

ليس منا أبدا، فالنبي عليه الصلاة والسلام ينفي عن هذا الذي ينحاز انحيازًا أعمى من دون تبصر، على الحق، أو على الباطل، بشيء واقعي، أو شيء غير واقعي، بما هو خير، أو بما هو شر أن يكون من أمته، أن تنحاز انحيازًا أعمى إلى جهة ما، فهذا هو التعصب الذي يرفضه النبي عليه الصلاة والسلام، ففي حديث يبدو لإنسان غير متعمق أنه يدعو إلى التعصب، فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ))

[أخرجه البخاري واللفظ له، ومسلم، وأحمد، وكلاهما عن جابر]

أيْ أن توقفه عند حده، أن تقف ضده، هذا نصر له، إنك إذا وقفت في وجه أخ، أو صديق، أو جار، أو ابن قريب، وقفت في وجهه حينما يطغى، فأنت بهذا تعمل لمصلحته، تسعى لرده إلى الله ورسوله، تسعى لإيقافه عند حده، تسعى لتوبته،

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ))

لذلك هذا الذي يتعصب لابنه إذا تشاجر مع ابن الجيران، على الحق، أو على الباطل، هذا الذي يتعصب لأخيه، لشريكه يجب أن تكون مع الحق، لا مع إنسان.

يروى أن أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه دخل على المنصور، وكان عند المنصور قاض يكرهه، ويضمر له العداوة، فأراد هذا القاضي أن يوقع بين أبي حنيفة وبين الخليفة المنصور، فقال على مسمع من المنصور: يا أبا حنيفة إذا أمرني الخليفة بقتل امرئ أأقتله، أم أتريث ؟ فلعله مظلوم ؟ إن قال له: اقتله: أغضب الله سبحانه وتعالى، وإن قال له: لا تقتله، ولا تأخذ بأمره أغضب المنصور، فهما أمران أحلاهما مرّ، فما كان من أبي حنيفة النعمان، وقد كان ذكيا إلا أن قال: **يا هذا ! الخليفة على الحق أم على الباطل** ؟ فقال: مع الحق، قال: **أنت كن مع الحق.**

انتهى الأمر، فيجب على المؤمن أن يكون مع الحق، وليس مع أخيه، أو جاره، أو شريكه، بل مع الحق، ومن صفات المؤمن أنه لا تأخذه في الله لومة لائم، وفي الحديث عَنْ جَابِرٍ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا فَقُطِعَتْ يَدُهَا))

[أخرجه البخاري (3288) عن عائشة، ومسلم(1689) عن جابر، واللفظ له]

فربنا عز وجل قال:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ)

أيْ جماعة انحاز بعضهم إلى بعض من دون تبصر، من دون دليل، من دون بينة، من دون برهان، الانحياز الأعمى هو التعصب بعينه.

كل شيء وقع بإرادة الله: لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ

(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمُ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ)

هذه نقطة دقيقة جدا، فكل شيء وقع أراده الله، وما دام أراده الله فلابد أن ينطوي على الخير، وما دام الله سبحانه وتعالى أراد هذا الشيء فإرادته متعلقة بالحكمة، والحكمة متعلقة بالخير المطلق، معنى ذلك أن الإنسان أحيانا يفعل شيئا بضغط ما، أو برغبة ما، أو بإغراء ما، أو لمصلحة، أو بغفلة منه، فأفعال الإنسان ليست كلها متعلقة بالحكمة، بعضها بالحكمة، وبعضها بالضرورة، وبعضها بالغفلة، وبعضها بالضغط، وبعضها بالإغراء، لكن أفعال الله سبحانه وتعالى غير ذلك، فهي متعلقة حتما بالحكمة، ولا شيء غير الحكمة، فكل شيء وقع أراده الله، وما دام قد أراده الله فهذا الشيء لابد أن يتعلق بالخير، هذا

الحديث الذي ارتجت به المدينة، والذي أصاب المؤمنين بهزة عاطفية، والذي نشر القيل والقال، وجعل الناس يلغطون، ويتحدثون عن زوجة نبيهم عليه الصلاة والسلام، وما أصاب السيدة عائشة من هم، وغم، وما بكت بكاءً مراً حتى كاد الدم يخرج من عينيها، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام بقي شهرا يعتصر قلبه أسى، هذا الحديث، وهذا اللغط، وهذه المشكلة، وهذه القضية، وهذا الإرجاف في المدينة.

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

إسقاط على واقعنا اليومي:

نحن الآن يجب أن نقيس على هذا الحديث، إنه أحيانا تقع مشكلة في البيت، هذه المشكلة ما دامت وقعت فقد أرادها الله، وما دام الله أرادها فلابد أن يكون فيها الخير، قد تعرف من زوجتك ما لم تعرفه من قبل، قد تعرف من هذه المشكلة وفاءها لك، فتزداد حبا لها، قد تعرف منها عفتها، قد تعرف منها طهرها، أنت كنت قبل هذا في غفلة عن هذه المعاني، قد تعرف الصديق من العدو، قد يفرز الناس في هذه المشكلة، فالإنسان في علاقاته الاجتماعية، في بيته، مع أقربائه، مع إخوانه، مع أخواته، مع جيرانه، مع أصدقائه، مع من يحب، مع من يكره، تنشأ مشكلة قد تبنى على غلط، تبنى على إشاعة، تبنى على تهمة، تبنى على بهتان، تبنى على إفك، فهذا المشكلة وقعت، وما دامت قد وقعت فقد أرادها الله، وما دام الله أرادها ففيها الخير، وهكذا يقول الله عز وجل:

(إِنّ الّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ)

لأنّ الخير دائما يكون كامنا في الشر، يبدو لك شراً، فقد تقع مصيبة، أو قد تقع كارثة، قد يقع طلاق، أو يقع زواج، قد تنفجر قضية في بيت من البيوت، هذا الموضوع في ظاهره شر، لكنه في النهاية يعود بالخير على الجميع، لأن فعل الله كله خير، قال سبحانه:

(قُلِ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران: الآية 26)

وحده، لم يقل: بيدك الخير والشر.

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

فأنا أعوذ بالله من كلمة أنا عند كلمة:

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ)

مِنْ خالص التوحيد الخالص: الاستسلامُ لقضاء الله وقدره:

هذه الكلمة نستنبط منها أشياء كثيرة، في حياتنا قد نخاف، فالخوف خير، وقد تشح السماء، وشح السماء خير، قد يأتي وباء، والوباء خير، قد تأتي قضية، قد نعاني من مأساة، إن جميع المصائب في ضوء هذه الآية تؤدي إلى الخير، لذلك فهمه عميق، المؤمن متفائل تفاؤلاً حقيقياً، مبنيًا على التوحيد، مبنيًا على أدلة من كتاب الله.

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

لذلك لابن عطاء الله السكندري مجموعة من الحكم تتعلق بالخير والشر، كل هذه الحكم مستنبطة من قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: الآية 216)

لذلك فإنّ قمة التوحيد أن تستسلم لله الواحد الديان: يا رب ؛ أنا مستسلم لقضائك، راض بحكمك، ماض فيّ أمرك:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ

***

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف ذاق القهر، وصل إليها من مكة ماشيا على قدميه، وبين مكة والطائف قرابة مئة ميل، قطعها مشيًا على قدميه، فلما وصلها وقف منه أهل الطائف موقفا من أسوأ المواقف، استهزؤوا به، وبدعوته، وبرسالته، واستخفوا به، ردوه شر رد، أغروا به سفهاءهم، فألجؤوه إلى بستان، فقال:

((يا رب، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي، فجاءه جبريل فقال: يا محمد ؛ أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، فقال: لا يا أخي، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون))

[رواه الطبراني]

اعتذر لهم صلى الله عليه وسلم، وظهر بذلك معدنه النبيل، وظهر صبره، وظهرت حكمته، ورحمته، ولولا هذا الحادث لما انكشف النبي عليه الصلاة والسلام على حقيقته، هذه حقيقة النبوة، رحمة ما بعدها رحمة، حكمة ما بعدها حكمة، حنان ما بعده حنان، لطف ما بعده لطف، فاعتذر لهم بقوله:

((فإنهم لا يعلمون))

لذلك:

لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ

هذه الآية تعلمنا الكثير، تعلمنا أن كل شيء يقع في حياتنا ما دام قد وقع فهو خير، ولابد أن يطلعك الله عز وجل على جانب الخير فيه، ولا بد أن يطلعك الله سبحانه وتعالى على جانب الخير من كل مأساة، قد يكون مرض الابن سببا لهداية الأب، مَنْ أدراك ؟ قد يكون إفلاس تاجر سببا لهدايته، قد يكون فقد الحرية سببا للصلح مع الله عز وجل، قد يكون هذا المرض هو الهادي إلى الله، فهذا المرض في الدنيا تنزعج منه، ولكن ينكشف في الحقيقة يوم القيامة على أنه هو السبيل الوحيد للعودة إلى الله عز وجل، لذلك عندما يطوف المؤمن في الجنة يقول:

(اَلْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوّأُ مِنَ الْجَنّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الزمر: الآيات 74-75)

وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

لهذا قال الإمام علي رضي الله عنه: **<< وَاللّهِ لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا >>.**

[أبو نعيم في حلية الأولياء]

فيقينه برحمة الله وحكمته، وعظمته قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء فالإمام ابن عطاء الله السكندري في حكمه العطائية الشهيرة يفصل بعضا من المعاني التي وردت في الآية الكريمة:

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[البقرة: من الآية 216]

يقول الإمام السكندري: **" مَن ظنّ انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره، وربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك ".**

أعطاك الدنيا فابتعدت عن الهدى، فهذا في الحقيقة منع، وربما منعك فأعطاك، منعك من الدنيا فاقتربت من الله عز وجل، فكان هذا المنع عين العطاء، وقد يكون العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان، إن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، وكما يحمي أحدكم غنمه من مراتع الهلكة، ومتى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء، فعندما يُثبت لك الطبيب أن هذه الأكلة تسبب التهاباً في الأمعاء أو المعدة، وهذا المريض معه بوادر التهاب في المعدة، وإن هذا الطعام فيه مواد ثقيلة، فيه مواد حريفة، وفيه مواد مخرشة، وهناك حالة مرضية ابتدائية في المعدة، فإذا

أقنعك الطبيب أن هذا الطعام يؤذي المعدة، ويسبب التهاباً بدرجة عالية، فأنت حينما تفهم حكمة المنع ينقلب المنع عين العطاء، وإنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه، الذي يؤلم في المنع أنك لا تعرف الحكمة، فلو عرفت الحكمة لم يعد المنع مؤلما، فالذي بإمكانه أن يأكل ما لذ، وطاب إذا نصحه الطبيب بترك هذه الأكلة لم تؤلمه هذه النصيحة، بل يتلقاها بالقبول الحسن، ومتى أوحش من خلقه، فليفتح لك باب الأنس، ربما لا يدرك الناس أحياناً، ولا يعرفون قيمتك فيتهجمون عليك، ويجحدون فضلك، ويتنكرون لك، ويبتعدون عنك، ويلغطون في حقك، هذا من حكمة الله سبحانه وتعالى، ومتى أوحشك من خلقه فليفتح لك باب الأنس به، وربما وجدت في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاة، فقد ترفع المصيبة الإنسان عشرات الدرجات، حيث إن الصلاة نفسها لا يمكن أن تفعل فعلها في هذا الإنسان لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

موقف المؤمنين من الإفك: حُسنُ الظن بزوجات النبي عليه الصلاة والسلام:

هناك مؤمنون كثيرون أحسنوا الظن بنبيهم، وأحسنوا الظن بزوجاته الطاهرات، منهم أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي قال لزوجته: **هل تسمعين ما يلغط الناس** ؟ قالت: نعم ! قال: **بالله عليك أتخونين أنت لو كنت مكان السيدة عائشة من رسول الله** ؟ قالت: لا، والله ! قال: **واللهِ لا أفعل ما اتهم به صفوان، وصفوان أفضل مني، وعائشة أفضل منك.**

هذا المعدن الطيب ظهر، سيدنا أبو أيوب الأنصاري وكثيرون من الصحابة الكرام أحسنوا الظن بالنبي عليه الصلاة والسلام، وأحسنوا الظن بأخيهم صفوان، وأحسنوا الظن بالسيدة عائشة فكان هذا الحديث بمثابة المحك الذي أظهرهم على حقيقتهم، وأظهر نبلهم، وأظهر حسن ظنهم بالنبي عليه الصلاة والسلام، وأظهر اعترافهم بالجميل، وأنهم يعرفون الحقيقة، فهذا من أبواب الخير، وهو من الخير أيضا الذي ظهر من حديث الإفك ؛ أن هؤلاء الذين امتنعوا عن مساعدة من روجوا هذا الحديث فعاتبهم الله عز وجل عتابا رقيقا، فبين أن هؤلاء من أولي الفضل، ولا ينبغي لأولي الفضل أن يمنعوا فضلهم عن المسيئين، فكان حكماً شرعياً رائعاً، فإذا فعلت خيرا فاصنع المعروف مع أهله، ومع غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله، فإذا فعلت الخير فلا ينبغي أن تنتظر من هذا الخير شكرانا، ولا اعترافا، ولا مديحا، ولا ثناء، هكذا قال ربنا سبحانه وتعالى:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا)

(سورة الإنسان: الآية 9)

السيدة عائشة رضي الله عنها ظهر لها أن أخواتها أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنوا الظن بها، فلما سأل النبي عليه الصلاة والسلام زوجته زينب رضي الله عنها: **ما تقولين أنت في عائشة ؟ فقالت: واللهِ لا أعلم عنها إلا خيرا**، حتى الضرة التي يسميها الناس مُرّة أحسنت الظن بأختها السيدة عائشة.

ظهور بشرية النبي عليه الصلاة والسلام:

شيء آخر مهم جدا، إلى أن نزلت آيات تبرئة السيدة عائشة بين حديث الإفك، وبين التبرئة شهر كامل، والنبي عليه الصلاة والسلام بشر لا يعرف الحقيقة، سأل بعض أصحابه، سأل بريرة الجارية التي لها علاقة بالسيدة عائشة، وهو لا يدري ماذا يصنع، فظهرت بشريته صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

[الكهف: من الآية 110]

هكذا أمره الله عز وجل أن يقول:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف: الآية 188)

أنا مثلكم، لا أعلم، لكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم، وهناك فرق كبير بين الخلق والخالق

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه: الآية 7)

من أساليب المنافقين: الأسلوب الالتفافي:

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام وقف موقف الحليم، موقف المتبصر، هو يعلم طهارة زوجته، يعلمها قطعا، ولكن كيف يقنع الناس بهذا ؟ كيف يقول لهم: ليس للخبر أصل من الصحة ؟ قال على المنبر:

((أناس يؤذونني في أهلي، والله ما علمت عنهم إلا خيرا))

ومع ذلك انتشر اللغط في أنحاء المدينة، لكن الله سبحانه وتعالى وضع حدا فاصلا لهذا اللغط، إذاً هذا الذي وقع خير، ظهرت براءتها، وعفتها، وطهارتها، وظهرت براءة هذا الصحابي الجليل الذي كان كله حياء حينما لمح أم المؤمنين ابتعد عنها، وأناخ لها الناقة، وأركبها، وأوصلها إلى مكان مستقرها، فماذا فعل هذا الصحابي الجليل ؟ وظهرت عداوة المنافقين، وظهر خبثهم، وظهر لؤمهم، وظهر حقدهم، بل إن المنافقين حينما عجزوا أن يواجهوا الحق التفوا عليه بهذا الحديث الباطل، إن الذي يتحدث إنسان

عظيم حديثا مغلوطا فيه اتهام، وبهتان عن إنه بهذا يعبر عن عجزه عن مواجهة الحجة بالحجة، حينما عجزوا عن رد هذا الحق الناصع لجؤوا إلى أسلوب التفافي، وهو الحديث في السيدة عائشة رضي الله عنها، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

حادثة الإفك امتحان وفرزٌ:

ثمة قصة تُروَى ؛ أن رجلاً كان يبيع زعتراً برياً، وينادي عليه، فسمع آخر ما أعظم برّي، فذابت روحه في محبة الله، وغيره سمع انظر ترَ برّي، وثالث سمع زعتر بري، فأحياناً كلمة واحدة يفهمها كل واحد على هواه، على ما في نفسه، فالحادث أحيانا البريء يبرئ، والعفيف يظن العفاف، والمستقيم يظن الاستقامة، والخبيث يظن الخبث، واللئيم يظن اللؤم، فكأن هذا الحديث فحص من كان مع النبي عليه الصلاة والسلام، فالمنافقون سقطوا، والمؤمنون نجحوا في الامتحان، تجد مثلا في الصف خمسين طالباً كلهم يلبسون لباساً موحداً، ويجلسون جلسة نظامية، من هو المتفوق ؟ من الكسول ؟ من الذي يملك محاكمة قوية ؟ الله أعلم، من الذي يملك ذاكرة قوية ؟ من الذي سينجح ؟ تأتي مذاكرة واحدة، يطرح سؤال، توزع الأوراق..... واحد من عشرين، 3 من عشرين، 0 من عشرين، عشرين من عشرين، اختلف الأمر، فهذا الامتحان، وفي الامتحان يكرم المرء أو يهان، فهذا حديث الإفك امتحان لقول الله عز وجل:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: من الآية 179)

وهذا الامتحان في كل زمان ومكان، المؤمنون كلهم مؤمنون، حادث واحد يفرزهم إلى مؤمنين من الدرجة الأولى، مؤمنين من الدرجة الثانية، أقل إيمانا، منافقين، كفار، في معركة الخندق قال ربنا عز وجل:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب: الآية 11)

المنافقون قالوا: هذا الدين خلط، أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، غير قادر على أن يبول، ويعدكم محمد، هكذا يقولون أن تفتح عليكم بلاد قيصر وكسرى، ظهر نفاقه وظهر كفره وظهر شكه بالدعوة.

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب: الآية 23)

لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنْ الْإِثْمِ)

التحذير من مشاركة العاصي في معصيته:

تروى قصة لها هدف رمزي ؛ أن حريقاً كبيراً شب في مكان ما، وأنه لو اجتمع ألف إنسان ليس في إمكانهم أن يطفئوه، تأتي الضفدعة فتملأ فمها ماء محاولة إطفاء هذا الحريق، ويأتي حيوان آخر فينفخ فيه ليزيد إضرامه، لا هذا أطفأه، ولا ذاك أشعله، ولكن هذا ظهر خيره، وهذا ظهر شره، هذه مواقف، وقع حدث أنت لم تسهم في فعله، بل أثنيت، لذلك عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ عَنِ الْعُرْسِ ابْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا، وَقَالَ مَرَّةً: أَنْكَرَهَا كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا))

[أبو داود بإسناد حسن]

لو وقعت معصية أمامك، وأنكرتها كنت كمن لو غبت عنها، إذا قال لك رجل في آخر الدنيا: فعل فلان كذا وكذا، وأخذ ما ليس له، وقلت: هنيئًا له إنه ذكي، فأنت شاركت بالإثم، أنت في الشام، وهو في كندا، سمعت عن قصة مفتعلة، فيها إثم، وفيها معصية، فأنت لم تفعل شيئا إلا أن أثنيت على عمله، فثناؤك على عمله جعلك تشركه في الإثم، فإذا رأيت معصية بأم عينك فأنكرتها كنت كمن غاب عنها، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الذَّنْبُ شُؤْمٌ عَلَى فَاعِلِهِ ؛ إِنْ عَيَّرَهُ ابْتُلِيَ بِهِ، وَإِنِ اغْتَابَهُ أَثِمَ، وَإِنْ رَضِيَ بِهِ شَارَكَهُ))

[فيض القدير]

فإذا كان لك صاحب اقترف ذنباً، فإذا رضيته شاركته في الإثم، فإن ذكرته فقد اغتبته، فانتبه، إن عيرته ابتليت به، وإن رضيته شاركته في الإثم، وإن ذكرته فقد اغتبته، فإذا كان لك صديق مؤمن وقع في خطيئة، وقع في ذنب فأنت بين أن تكون مغتابا، وبين أن تكون شامتا، وبين أن تكون راضيا، فإن كنت راضيا فأنت شريكه، وإن كنت شامتا فلابد أن تقع فيه، وإن كنت ذاكرا لهذا الذنب فقد اغتبته، لذلك فالذنب شؤم على غير صاحبه، هذا الحديث ؛ حديث الإفك يتكرر، ولا يخلو مجتمع، ولا مدينة، ولا قرية، ولا مجتمع، ولا فئة دينية، ولا جماعة دينية من قيلٍ وقال، وأخذ ورد، وفلان فعل، وفلان لم يفعل، فلان كيف فعل هذا ؟ فهذا الحديث هناك من يصدق، وهناك من يكذب، هناك من يحسن الظن،

وهناك من يسيء الظن، هناك من ينجح، وهناك من يرسب، هناك من يرقى، وهناك من يسفل بهذا الحديث، لذلك الحديث تمحيص **" المصائب محك الرجال ".**

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنْ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

يا لطيف، هذا الذي روّج هذا الحديث، ليس له برهان، وليس هناك شهود، وليس هناك دليل، إنما هو ظن، فهذا الذي روج هذا الموضوع، ونقله من إنسان إلى إنسان، ومن جهة إلى جهة، ومن فئة إلى فئة، هل سمعتم ما فعلت فلانة ؟ هل سمعتم ؟ أوصلكم هذا النبأ ؟ بالله عليكم، ألم تسمعوا به، فاسمعوا.

عبد الله بن سلول هو: الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ

لذلك تأتي بعض الروايات لتبين أن الذي تولى كبر هذا الحديث هو عبد الله بن أبي سلول، رئيس المنافقين، فحينما سمع أن الصحابي صفوان بن المعطل السلمي جاء بالسيدة عائشة على بعيره قال كلمته الشهيرة: لم تنج منه، ولم ينج منها، فروج هذا الخبر، لذلك:

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وإذا كان العظيم يقول عن العذاب: إنه عظيم، فما أعظم هذا العذاب !.

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

(سورة النور)

دعوة إلى حسن الظن وإنكار التهمة عن المسلم:

هذه الآية دقيقة جدا في معانيها فـ (لَوْلَا) هنا بمعنى هلاّ، وهو حرف حض، لولا أخذت هذا الموضوع فدرسته، أيْ هلاّ درسته، أي ادرسْه، فهلاّ أداة حض.

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ)

سمعتم حديث الإفك، سمعتم ملابساته، ما قاله عبد الله بن أبي سلول.

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

معنى: ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا

المعنى الأول: هل تفعل هذا أيها الصحابي ؟

أنت أيها الصحابي هل تفعل هذا ؟ لا والله، فصفوان أفضل منك، فإن كنت أنت لا تفعل هذا فهو لا يفعل، وأنتِ أيتها الصحابية هل تخونين النبي، لو أنك زوجته ؟ لا والله، لا أخونه، إذاً السيدة عائشة أفضل منك، فإن كنت أنت لا تفعلين وزوجك لا يفعل أفيعقل أن يفعل صفوان هذا وعائشة الزوج الطاهرة هذا؟.

فربنا عز وجل يحضنا على أننا إذا سمعنا مثل هذه الأحاديث أن نظن بأنفسنا خيرا، فإذا كنت أنت لا تفعله فصفوان لا يفعله ؟ هذا قياس رائع جدا، إذا كنت أنت على تواضعك، وعلى إيمانك المتواضع لا تفعل فهل يفعله صفوان ؟ وفي بعض الروايات تروي، وهي روايات باطلة، وغير صحيحة، والنبي عليه الصلاة والسلام منها بريء، أنه كان يسير في طريق فرأى بابا مواربا، أي مفتوحا، ورأى خلفه امرأة تغتسل، هي السيدة زينب، فقال: سبحان الله فوقعت في نفسه، نقول نحن للمؤمن العادي الذي جاء آخر الزمان ولا يبلغ إيمانه مثقال ذرة من آخر صحابي جليل: يا أيها الأخ الكريم ؛ أتفعل أنت هذا إذا رأيت بابا مفتوحا، أتنظر إليه أم تغض البصر ؟ إن كنت أنت لا تفعل فهذا النبي أعظم، وأسمى من أن يفعل هذا، وهذه قصة مختلقة، لذلك:

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا)

فإذا كنتم أنتم لا تفعلون هذا فأجروا المحاكمة بأنفسكم، إذا كنتم أنتم فوق هذا، أيعقل أن يفعلها صفوان، أو أن تفعلها السيدة عائشة ؟

(وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

المعنى الثاني: قيسوا ذلك على أنفسكم

الشيء الثاني ؛ الوقفة عند:

(بِأَنفُسِهِمْ)

أيْ عليكم أن تقيسوا على أنفسكم، هل تفعل أنت هذا ؟ لا والله، لا أفعله، فهو أعظم منك، الذي تتهمه هو أعظم منك، هذا قياس رائع، المعنى الثاني أن هذا الذي تتحدث عنه هو أخوك، وأخوك هو عين ذاتك، إن تحدثت عنه فكأنما تتحدث عن نفسك، كيف ؟ عندما يتحدث الإنسان عن ابنه بالسوء فكأنه

يتحدث عن نفسه بالسوء، لأن هذه تربيته، كيف ؟ فإذا تحدثت الأم عن ابنتها بالسوء فكأنما تتحدث عن نفسها، كذلك المؤمنون وحدة متماسكة، فعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

[البخاري(5656)، مسلم(2586)]

إذا تحدثت عن أخيك فهو أخوك، فكأنما تتحدث عن نفسك، وفي آية مشابهة لهذه الآية يقول تعالى:

(وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: من الآية 188)

لم يقل الله تعالى: ولا تأكلوا أموال إخوانكم، بل قال:

(وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

لأنّ هذا المال الذي هو مال أخيك هو في الحقيقة مالك يجب أن تحافظ عليه وكأنه مالك، فلتدع أن تأخذه من باب أولى.

في القرآن الكريم لفتات رائعة جدا، فالمعنى الثاني أن المؤمن إذا تحدث عن أخيه المؤمن بالسوء فكأنما يتحدث عن نفسه، لذلك قالوا: من أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه، وكأنك تطعن في هذا الدين، هذا أخوك صائم، مصل، مستقيم، فإذا تحدثت عنه بالسوء فالحديث عن الدين بالسوء، إذا كان هذا شأن المسلم فاقرأ على الدنيا السلام، لذلك الحديث عن المؤمنين حديث خطير، وإن الله يدافع عن الذين آمنوا:

((مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

[البخاري، وأحمد بلفظ: من أذل لي وليا فقد استحل محاربتي]

فلا تجعل همك تجريح الناس، فتضعضع ثقتهم بالدين، وثقتهم بأهل الحق، لا تجعل همك تتبع عورات الآخرين، ومن تتبع عورات الآخرين فضحه الله في عقر داره.

(لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

الإفك يعني شيئاً مختلقاً من دون دليل، من دون برهان، فعوّد نفسك أن تكون علمياً، لا تقبل قصة من دون دليل، من قال هذه القصة ؟ ممّن سمعتها ؟ هل سمعتها من إنسان موثوق ؟

قاعدة جليلة: إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدّعيًا فالدليل:

عندنا قاعدة ؛ هذه القاعدة لو طبقها المسلمون لسعدوا وأسعدوا، إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدّعيًا فالدليل، إذا نقلت خبرا توخى الصحة، من قال لك هذا الخبر ؟ هل سمعه هو بأذنه ؟ لا سمعه من

إنسان، وهذا الإنسان ممن سمعه ؟ من إنسان آخر، وفي النهاية فكرة، أو خاطر خطر لفلان، نقله إلى أخيه على أنه وقع من إنسان، فصار الخبر قطعياً، وهو خبر موهوم، لذلك إذا كنت ناقلا فالصحة، وإذا كنت مدّعيًا فالدليل، إن جئت بشيء جديد أين الدليل ؟ لابد من دليل عقلي، ولابد من دليل نقلي، ولابد من دليل واقعي، إذا أردت أن تقول: أنا رأيي كذا، وكذا فلا بأس، لكن ما لدليل ؟ لا نقبل من دون دليل، ولا نرفض من دون دليل، لا نقبل قصة من دون صحة، ومن دون التأكد من صحة راويها لذلك:

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ(13))

(سورة النور)

هل هناك شهداء أربعة رأوا بأم أعينهم هذه الخيانة.

فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ

والكذاب يقام عليه حد القذف، لذلك أقام النبي عليه الصلاة والسلام الحد على ثلاثة من المنافقين، الذين ثبت أنهم روجوا هذا الخبر، ونقلوه بين الناس ليشفوا به غليل صدورهم، وحقدهم، وقد وقعوا في شر أعمالهم، وقد أقام عليهم النبي عليه الصلاة والسلام حد القذف بعد أن أنزل الله براءة أهله الأطهار.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

عملية كبيرة، فأنت حين تنقل هذا الخبر تشكك بهذا النبي العظيم، أهكذا زوجته ؟ أنت حينما تروج لهذا الخبر تشكك بهذا الدين، وتشكك بالوحي كله، لذلك فهذا الذي جاءت به هذه العصبة إفك مبين، وعمل كبير، وبهتان عظيم، ولولا رحمة الله عز وجل بأنه جعل حد القذف حدا لمن يتجاوز حرمة الآخرين لأهلك الله سبحانه وتعالى كل من روج هذا الخبر، لكن ربنا عز وجل يمهل، ولا يأخذ بالذنب الواحد.

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

هذا الحديث، هذا اللغو، فالإنسان قبل أن يروج قصة، قبل أن ينقلها، قبل أن يتسلى بها، قبل أن يملأ فراغه بها، قبل أن يترنم بالحديث عنها ليحسب حساب العذاب الأليم، الذي توعد الله به كل معتد أثيم.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

وجوب التأكد من الأخبار قبل نقلها: وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

التلقي يجب أن يكون بالقلب، تلقيت هذا الخبر فتريث، ادرسه، وازن، حلل، قِس، اسأل، تحقق:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات: الآية 6)

تأكد يا أخي، واسأل، وأعظِمْ بذاك الحديث المروي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[أخرجه مسلم، أبو داود]

كفى بالمرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع، أيْ يكفيك إثما، ويكفيك كذبا أن تنقل للناس كل ما سمعته، لأن هذا الذي سمعته يحتاج إلى تمحيص، وإلى تحقيق، وإلى تنسيق، وإلى حذف، ويحتاج إلى مقص تقص منه كل كذب، أما الذي يسمع، ويروي ما يسمع دون تمحيص فهذا إنسان عند النبي عليه الصلاة والسلام كذاب، وآثم.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ)

سمعت الخبر، فكأن اللسان مثل مرآة عاكسة، تلقيته لا بأذنك، الأذن لها طريق إلى الدماغ، الأذن لها طريق إلى القلب، تلقيت الخبر بأذنك، فتريث، وادرسه، حلله، اسأل عن الأدلة، اسأل عن البراهين، اسأل عن المخبر فقد يكون إنساناً سيئاً، قد يكون فاسقاً، قد يكون له غرض بهذا الخبر، فقد يأتي الإنسانَ أحياناً هاتفٌ، ويكون قد خطب فتاة، فيأتيه هاتف، يصبح الزواج على كف عفريت، من أجل كلمة قالها فلان مجهول على الهاتف، فهذا الخبر تلقاه بالأذن، وتريث، أما هذا الذي يتلقى الخبر باللسان، وكأن اللسان مرآة عاكسة، فلمجرد أنه وقع على لسانه نطق به، عبارة رائعة جدا، تلقى هؤلاء المنافقون الخبر بالألسنة، ونطقوا به مباشرة.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

قال سيدنا الصديق: **" أيُّ أرض تقلّني، وأيّ سماء تظلّني إذا قلت في القرآن برأيي ".**

[مصنف ابن أبي شيبة بلفظ: إن قلت ما لا أعلم، وانظر تفسير ابن كثير]

فلا تشهد إلا على مثل الشمس في كبد السماء، إذا كان الشيء كالشمس واضحا فاشهد عليه.

(وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

عظيم جدا أن تقول عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئا يخدش مكانته، أن تقول عن أهله الطاهرات شيئا يخدش سمعتهن.

حادثة الإفك ظاهرها شر، وباطنها خيرٌ:

إذا هذا الحديث ؛ حديث الإفك كما رأيتم فيه خير مبطن، في ظاهره شر أربك المؤمنين، وسبب متاعب لأناس كثيرين، وسبب آلاماً لا حدود لها للسيدة عائشة رضي الله عنها، وسبب إحراجا كبيرا للنبي عليه الصلاة والسلام، لكنه في النهاية كشف المؤمنين على حقيقتهم، أظهر نبلهم، أظهر حسن ظنهم بنبيهم، وبأمهم الطاهرة، وأظهر المنافقين على حقيقتهم، فكان هذا الحديث كاشفا للمؤمنين، ممحصا لهم، وهذا الحديث يقع في كل وقت، وفي كل زمان، وفي كل مكان، والناس وفق بعض المشكلات التي تصيب بعضهم بعضا يفرزون إلى محسن، وإلى مسيء، إلى صادق، وإلى كاذب، إلى محب، وإلى مبغض، إلى مؤذٍ، وإلى مصلح، هؤلاء يفرزون إلى أصناف شتى بسبب ما يمتحن الله به عباده من حين لآخر.

إنّ المصائب محك الرجال، والعبرة ألا يكون هذا الحديث قصة، لا يعنينا شيء وقع، وانتهى، وأصحاب هذا الحديث كلهم تحت أطباق الثرى، لكن الذي يعنينا نحن ألا نقع في مشكلة نهى النبي عليه الصلاة والسلام عنها، أو لا نقع في انحراف توعد الله به صاحبه العذاب الأليم، فهذا الحديث يجب أن نستنبط منه مواقف مشرفة، يقفها المؤمن من أخيه المؤمن، أن نحسن الظن به، أن يحفظ عليه غيبته، أن يرد عنه كل تهمة باطلة، أن يظن أن هذا المؤمن الذي يتحدث الناس عنه هو مثله إن كان هو لا يفعل هذا فذاك من باب أولى.

إن شاء الله تعالى في الدرس القادم نتابع وقائع هذا الحديث.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (06-23): تفسير الآيات 16 – 22
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-11-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة النور.

بدأنا في الدرس الماضي بالحديث عن موضوع الإفك، وقد جاءت آيات بينات تصف هذا الحديث، وتبرئ السيدة عائشة رضي الله عنها، وتضع للمؤمنين منهجا عليهم أن يطبقوه في قضايا اجتماعية مشابهة لحديث الإفك.

ورودُ القصة في القرآن للعبرة والاستنباط لا لذكر الأحداث:

بادئ ذي بدء القصة التي ترد في القرآن الكريم ليست مقصودة لذاتها، إنما المقصود أن يستنبط منها أحكام وآداب تكون منهجا للمؤمنين في تعاملهم مع مثل هذه الموضوعات ولم، ترد قصة في القرآن الكريم ما لم تكن قصة نموذجية تمثل نماذج بشرية متكررة، فليس المقصود هذا الحديث بقدر ما هو المقصود أن نستنبط منه الأحكام، والآداب، والمنهج الصحيح لتعاملنا مع بعضنا البعض فيما لو وقع مثل هذا الحديث.

البطولة في تفسير الحوادث والوقائع:

يقول الله سبحانه وتعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنْ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

الموضوع أن الإنسان قد يرى حادثة، أو أن الحادثة إذا وقعت يراها جميع الناس دون استثناء، ولكنهم يتفاوتون في تفسيرها، قد ترى أباً يضرب ابنه، الضرب وقع، والصورة رُسِمتْ على شبكية العين، ولكن الناس متفاوتون في تفسير هذا الضرب، فالأب الذي ينطوي على رحمة بالغة بأولاده يفسر هذا الضرب لمصلحة الأولاد، ويرى إنسان صغير السن في هذا الضرب ظلماً، وآخر بعيد عن معرفة الأب يرى في هذا الضرب قسوة، ورابع يرى في هذا الضرب تسرعا، وخامس يرى في هذا الضرب تشفيا، فالضرب يراه جميع الناس، ولكن الناس متفاوتون في تفسيره، فالبطولة في التفسير، لأن وقائع الأحداث جميعنا نتساوى في الإطلاع عليها، ولكن كلما ارتقى فهمُ الإنسان، وكلما اقترب من ربه مَلَكَ قدرة على

تفسير الوقائع، فربنا عز وجل قال:

(لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُم)

قال بعضهم: رُبَّ ضارة نافعة، والآية الكريمة التي يجب أن تكون أمامنا جميعا:

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: من الآية 216)

الاستسلام لقضاء الله وقدره مع الأخذ بالأسباب:

عندما يستسلم المؤمن لله عز وجل يستسلم إلى الله استسلاما كليا، ومع هذا الاستسلام فهو مُطبّق لأمره، مُنْتَهٍ عن نهيه، يلقي الله سبحانه وتعالى حينئذ في قلبه الأمن والطمأنينة، فأي شيء جاءه يقول: لابد أن يكون الخير كامنا فيه، فإما أن يرى الخير ظاهراً فيه، أو ألا يرى فيه خيراً ظاهراً، فلابد من خير كامن، وقد علمنا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَن ابْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[مسلم]

فتطبيقا لهذه المقدمة كُلّ واحد منّا في حياته، وفي زواجه، في عمله، وفي صحته عوارض، هناك أشياء مزعجة، وأشياء مسرة، أشياء مقبولة، وأشياء غير مقبولة، أشياء تدفع إلى الألم والحزن، وأشياء تدفع إلى الضيق، هذه الأشياء المحزنة أو المفرحة التي تدفع إلى الضيق أو إلى السرور، التوفيق في الزواج أو عدم التوفيق، نشأت مشكلة أو لم تنشأ، فاحت قضية، فاحت سمعة سيئة أنت منها بريء، والله يعلم أنك بريء، مثل هذه القضايا التي تتكرر، والتي تحدث في المجتمعات، بل في مجتمعات أهل الإيمان ينبغي أن تفسر في ضوء هذا الحديث، في ضوء حديث الإفك:

(لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

فكل شيء قبل أن يقع افعل ما تشاء، تلافى وقوعه، وقد أعطاك الله عقلاً، لذلك فالقضاء والقدر نوعان، عندما كان سيدنا عمر رضي الله عنه في طريقه إلى الشام علم أن في الشام وباءً، مرضاً وبيلاً، فبعض أصحابه اقترح عليه أن يدخل الشام، ولا يبالي، فقضاء الله وقدره لا مفر منه، وبعض أصحابه اقترح عليه ألا يدخل الشام أخذاً بالأسباب، فامتنع سيدنا عمر بعدئذ عن دخول الشام، فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين ؛ أتفر من قضاء الله ؟ فقال: **<< نعم، أفرّ من قضاء الله إلى قضاء الله >>**، ثم قال قولته

الشهيرة يخاطب هذا المعترض: **<< لو أن هناك واديين من المرعى، واد معشب وواد مجدب، فأنت إذا رعيت غنمك بالوادي المعشب رعيتها بقضاء الله وقدره، وإن رعيتها بالوادي المجدب رعيتها بقضاء الله وقدره >>**، فأنت ماذا تفعل ؟ تفر من قضاء الله إلى قضاء الله، فالإنسان قبل أن تقع الأمور عليه أن يأخذ بالأسباب.

فمثلا: إن كان هناك شبح مرض من باب أولى أن يتداوى الإنسان، ويأخذ بالأسباب، أو إن كانت هناك قضية في طريقها إليك فعليك أن تتلافاها، فقبل أن تقع الأشياء يجب أن نحكم العقل، ويجب أن نحكم الأسباب، ويجب أن نأخذ بها، لكن بعد أن تقع الأمور يجب أن نعتقد أن هذا الذي وقع هو بقضاء الله وقدره، وأن قضاء الله وقدره خير كله للعباد، لأن النبي عله الصلاة والسلام يقول:

((الإِيمَانُ بِالْقَدَرِ يُذْهِبُ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ))

[مسند الشهاب للقضاعي عن أبي هريرة]

محاولة تفادي الأمور قبل وقوعها: اعقلْ وتوكّلْ:

فاليوم هناك في الدرس شيء جديد، فالأشياء قبل أن تقع عليك أن تتلافاها، الأشياء المؤلمة المزعجة، فلو فرضنا أن إنساناً يسير مع امرأة في الطريق، وهو أعزب، فرآه صديق له فليقل: هذه أختي يا أخي، وقد قال النبي الكريم: هذه زوجتي، فالإنسان عليه أن يدفع عن نفسه كلام الآخرين، رحم الله عبدا جب المغيبة عن نفسه، فإذا كنت مسافراً، ووكلت قريباً لزوجتك قد يكون أخوها، ليتفقد أمور البيت، فإذا أعلمت الجيران أنك وكلت أخا زوجتك أن يؤمن لأهل بيتك الحوائج فهذا كلام ضروري جدا، لأنك نفيت عن نفسك ما قد يتبادر إلى أذهانهم من أن هذا العمل غير صحيح، فقبل أن تقع الأشياء يجب أن تأخذ بالأسباب، يجب ألا تفعل شيئا له تفسيران، يجب أن توضح للناس كل شيء، البيان يطرد الشيطان، في تعاملك المالي، في تعاملك مع النساء، في تعاملك الدقيق يجب أن توضح، لأن التوضيح والبيان يطردان الشيطان، ولكن إذا أخذت بكل الأسباب ووقعت مشكلة، الآن ليكن هذا الحديث ؛ حديث الإفك أسوة لك في حياتك، هذا قضاء الله وقدره، فلا مفر من قضاء الله وقدره إلا بالتوكل، والله سبحانه وتعالى يتولى الدفاع عن المؤمنين، لقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من الآية 38)

فهذا يفيدنا في أن كل مشكلة تقع في محيط الأسرة قبل أن تقع عليك أن تتلافى وقوعها، انطلاقا حديثِ أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا - أي ناقته - وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا، وَأَتَوَكَّلُ ؟ قَالَ: اعْقِلْهَا، وَتَوَكَّلْ))

[الترمذي]

إذا وقعت الوقائع وجب الاستسلام:

انطلاقا من هذا التوجيه النبوي عليك أن تعقل، ثم تتوكل، عليك أن تأخذ بكل الأسباب، ثم تتوكل على رب الأرباب، هذا قبل أن تقع المشكلة، لكن إذا أخذت بكل الأسباب، ثم وقعت، فهذا من قضاء الله وقدره، لذلك يتولى ربنا سبحانه وتعالى الدفاع عنك، ويتولى تبرئة البريء، وإدانة المتهم،

(لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنْ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

فربنا عز وجل يعامل الناس بميزان دقيق جدا، حديث الإفك، تولى إنسان ترويج الإفك في المدينة،

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ)

أيْ أن يشاع هذا الحديث، أن ينتقل من بيت إلى بيت، أن يتفاقم الأمر، هذا الذي يفعل هذا له عذاب عظيم، إنسان آخر سمع، وصدق فهذا له عقاب معين، هذا سمع، ولم يصدق، هذا سمع، وكذّب، هذا سمع، وأحسن الظن بزوجة النبي عليه الصلاة والسلام، فكل موقف له حساب، الأطباء يقولون: ليس هناك مرض، بل هناك مريض، والحقيقة إذا كان في الأرض خمسة آلاف مليون إنسان فكل إنسان يقف موقفاً يوزن بميزان دقيق، ويحاسب عليه.

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا

أما:

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12))

هذه (لَوْلَا) حرف حض، بمعنى هلاّ، فيا أيها المؤمنون هلا إذا سمعتم هذا الحديث المفترى ظننتم بأنفسكم خيرا، قستم هذا على أنفسكم، إنكم لن تفعلوا هذا الذي يروج عن صفوان وعن السيدة عائشة، فإن كنتم لا تفعلون هذا فهما لا يفعلانه من باب أولى، هذا معنى، المعنى الثاني أن حسن الظن من صفات المؤمن، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ))

[أبو داود، أحمد]

وحين يكون ظنك بإخوانك المؤمنين دليلاً على أنك مؤمن، فأنت مؤمن، وتعرف من هو المؤمن، فحسن الظن بالمؤمنين دليل إيمانك، وسوء الظن بالمؤمنين دليل البعد عن الإيمان، لهذا قيل: **" من**

أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه"، أنت حينما تسيء الظن بأخيك المؤمن فكأنما تشكك بهذا الدين، وهذا الدين لم يستطع أن يرقى بهذا الإنسان إلى المستوى الأكمل، لذلك من أساء الظن بأخيه المؤمن فكأنما أساء الظن بربه.

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

لذلك قالوا: نحن نفهم الأشياء كما نحن عليها، أغلب الظن أن الصادق يصدق الناس والكاذب يكذبهم، ذو النية الخبيثة يظن بالناس الخبث، وذو النفس الطيبة يظن بالناس الطيب، الذي ينطلق من إخلاص يظن الإخلاص في جميع الناس، والذي ينطلق من خيانة يظن الخيانة في جميع الناس، فأنت في أغلب الأحوال تنطلق من واقع تعيشه، هذا الواقع ربما تسقطه على الآخرين، فهؤلاء الذين يشككون، ويروجون، ويسيئون إلى المؤمنين هم في الأصل فاسقون خبيثون، والله سبحانه وتعالى كشفهم للناس، وما حديث الإفك إلا محكٌ محّص الله به المؤمنين، والله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: من الآية 179)

تصور منخلاً فيه حبوب، فالاهتزازات التي يفعلها من يريد أن يمحص هذه الحبوب، ماذا تفعل هذه الاهتزازات ؟ الحبة الكبيرة تبقى، والصغيرة تسقط فكذلك فربنا عز وجل يُعرّض المؤمن لبعض الأحداث القاسية، وبعض الهزات، والمشكلات التي تفرز المؤمنين إلى مؤمنين صادقين، وإلى مؤمنين ضعاف، وإلى منافقين، وإلى كافرين، فهذه الأحداث التي تنزعج منها أنت ربما كانت فرزا نوعيا للناس في زمن ما.

الأصل في الدعاوى والتهم إقامة البينات:

يقول الله عز وجل:

(لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِنْدَ اللّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ)

ففي الأخبار العادية يكفي شاهد واحد، وفي العلاقات المالية لابد من شاهدين، فإن كان أحد الشاهدين امرأة فلابد من امرأتين وشاهد، أما في قضايا العرض، وقضايا القذف، فلا بد من أربعة شهداء، وموضوع العرض في التعريف الدقيق هو موطن المدح والذم من الإنسان، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ذُبُّوا عَنْ أَعْرَاضِكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ))

[الفردوس بمأثور الخطاب بزيادة: " تعطون الشاعر ومَن تخافون لسانه "، وانظر كشف الخفاء]

دافعوا عن أعراضكم بأموالكم، والعرض أثمن ما يملكه الإنسان، فربنا سبحانه وتعالى جعل القذف في هذا الموضوع يحتاج إلى أربعة شهود، والقضية تسبب تحطيم إنسان في مستواه الاجتماعي، أو رفعه.

رحمة الله بعباده وفضله عليهم:

(فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14))

ربنا عز وجل رحيم، ومن رحمته أنه فتح باب التوبة، وأنه جعل لمن تجاوز الحدود حدا يقام عليه، هذا الحد الذي يقام عليه هو كفارة له، فكفارة الزنا الرجم للمحصن، والجلد لغير المحصن، فإذا وقع الإنسان في الزنى ورجم، أو، جلد وتاب من ذنبه توفاه الله عز وجل، وليس عليه شيء.

يقول وربنا عز وجل:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

ومن علامات الإيمان أن ترى فضل الله عليك دائما، فضل الله عليك إذ أوجدك، ولم تكن شيئا مذكورا، هذه نعمة الإيجاد، وفضل الله عليك إذ أمدك بما تحتاج من طعام، وشراب، وعطف، وحنان، فجعل لك أما وأبا يعطفان عليك، وخلق لك هذا الهواء، وهذا الماء، وهذا الطعام، والشراب، وهذه نعمة الإمداد، وفضل الله عليك ثالثة بنعمة الإرشاد، فنقلك من الظلمات إلى النور، وهداك إلى الطريق المستقيم، وشرح الله لك صدرك للإسلام لذلك:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)

وهذا يعني أنّ فضل الله علينا مستمر في الدنيا والآخرة، في الدنيا حيث التوجيه، والتعليم، والتربية، و، العناية، والعطاء، والمنع، والإكرام، والإيلام، والرفع، والخفض، والبسط، والقبض، هذه كلها أحوال من أجل أن ترقى بالإنسان، والآخرة جعل الله هذه الجنة لينعم بها المؤمنون، وليكون الجزاء على ما أحسنوا في الدنيا، وجعل النار عقابا لهؤلاء العتاة الظالمين.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

(سورة النور: الآية 15)

ضرورة الانضباط في الأقوال:

فالإنسان أحيانا يتكلم، لو يعلم علم اليقين أن هذا الكلام سيحاسب عليه حسابا عسيرا، وأنه لا يكمل إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ففي العالم الإسلامي موضوع الخمر،

موضوع الزنى، موضوع السرقة، هذه في الأعم الأغلب يبتعد عنها عامة الناس، لأنها كبائر، ولكن الذي يهلكهم هي الصغائر، هي الغيبة، والنميمة، والفحش، والمزاح، وقول الزور، وما شاكل ذلك، والأيمان الكاذبة، فهذا اللسان ربما أورد الإنسان النار، لذلك فلابد للسان الإنسان أن يستقيم، وقد ورد في الحديث عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:

((كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ ثُمَّ تَلا:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

حَتَّى بَلَغَ:

(يَعْمَلُونَ)

ثُمَّ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد]

فمن علامة المؤمن الانضباط، ولاسيما في مجالسه الخاصة، فربما يذكر اسم شخص، والجميع يتكلم فيه بالحق أو بالباطل، من علامة الإيمان أن تقف، وأن تمنع الناس من متابعة هذه المعصية، من علامة الإيمان ألا تستجيب لرغبة جامحة في الحديث عن هذا الإنسان، طبعاً تكون أحيانا ثمة رغبة أن تشرّح فلانًا، أن تذكر عيب فلان، أن تذكر هذه القصة الطريفة المضحكة، ففي ذلك دوافع لهذا الحديث، هذه الدوافع ربما تهلك صاحبها، ولكن المؤمن وقاف عند أمر الله، فمن هو المؤمن ؟ الذي تجده عند الأمر والنهي، فإذا تطرق إلى سمعه حديث فيه غيبة ينبه، ويعظ، ويقف، فإن لم يستطع قام من ذاك المجلس.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)

نصيحة قيمة تُرجَى للمؤمنين: وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

قال ربنا عز وجل:

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)

(سورة الإسراء: الآية 36)

هذه نصيحة تزجى للمؤمنين في أي موقف تقفه ؛ موقف قوليّ، موقف عمليّ، موقف فيه عطاء، موقف فيه أخذ، موقف فيه وصل، موقف فيه قطع، لم وصلت فلانا ؟ لم قطعت فلانا ؟ لم أعطيت فلانا ؟ لم منعت فلانا ؟ لم بالغت في مودة فلان ؟ لم جفوت فلانًا ؟ يجب أن تملك جوابا لله عز وجل، عوّد نفسك على كل عمل، على كل حركة، وكل سكنة، على كل تصرف، في كل أحوالك تصور أنك واقف بين يدي الله عز وجل، والله عز وجل يسألك: لم فعلت هذا ؟ لم أعطيت فلانًا ؟ لم منعت فلانًا ؟ لم وصلت ؟ لم قطعت ؟ لم كنت بشوشا مع فلان ؟ قد ترى رئيس دائرة لطيفاً مؤنساً مع أحد الموظفين، ومتجهماً مع آخر، فهذا عليه حساب، والله الذي لا إله إلا هو لابد أن يحاسَب، لم كنت مع فلان كثير الود ؟ لم كنت مع فلان مجافيا ؟ الله يعلم ما السبب، هناك سبب طبعا، سبب جعله يمنح وده لهذا، ويمنع هذا الود عن الآخر لأسباب مادية يا ترى ؟ لا نعرف، هناك حساب، حتى الأب يحاسب، لم قبّلت هذا الابن، ولم تقبل هذا ؟ لم أعطيت هذا، وحرمت هذا ؟ لم منحت هذا الابن بيتا، ولم تمنح هذا ؟ لم فرقت بينهما ؟ أشهد غيري، كما قال النبي الكريم، فإني لا أشهد على جور، فالبطولة في كل حركاتك، وسكناتك أن تملك جوابا صحيحا لرب العزة، لم تزوجت فلانة ؟ لم طلقتها ؟ لم تزوجتها وأنت في نيتك أن تطلقها ؟ الله سبحانه وتعالى يعلم ذلك.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

(سورة النور: الآيات 14-15)

وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ

الإنسان لا يتكلّم أحياناً بلسانه، بل يشير... فلانة الله أعلم... قد تكون هذه زوجة، فينقل إنسان هذه الصورة إلى زوجها فيطلقها، عنده أولاد يتشردون، أنت متأكد ماذا فعلت ؟ هل تدري أنك ساهمت في تحطيم أسرة ؟ فهناك افتراءات كثيرة، لذلك كما أن الكذب والبهتان خطير جدا فكذلك أن تأخذ بعض الأخبار من دون تحقق، هذا أيضا موقف تحاسب عليه، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات: الآية 6)

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

موقف المؤمن الورع المستقيم: سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ

فالمؤمن الحق هكذا يفعل إذا سمع عن مؤمن صادق مستقيم ورع تقي نقي، إذا سمع قصة لا تليق به فيجب أن تقول: إنني لن أصدق هذه القصة، هذا بهتان عظيم، هذا افتراء، هذا إثم، عندنا حالة ؛ لك أخ كريم، وأنت واثق من صدقه، ومن استقامته، ومن ورعه، وطاعته، ومن عبادته، ومن، ومن... واثق تماما، جاءك خبر عنه لا يليق به، فأنت في ثلاث حالات ؛ إما أن تصدق، وإما أن تشكك، وإما أن ترفض، فإذا شككت لك أن تستوضح الأمر، هذا واجبك، وإذا كذبت، وكنت مرتاحا لهذا التكذيب فهذا عمل طيب، وأنت بهذه الحالة لست مضطرا لأن تُحقق، فإنسان عمّر مسجداً، ودفع ثلاثين مليوناً، وجدته يضع يده في جيب معطف ما تظن فيه ؟ أخذ عشر ليرات، تقول حتما: هذا معطفه، لا تشعر أن هناك تشويشاً، أو شكاً، أو أخذاً، أو رداً، فعندما تكون واثقاً من أخيك ثقة مطلقة، وكذبت هذا الخبر، وأنت مرتاح له فما عليك إلا أن تتحقق، وهذا الخبر لا يرقى إلى مستوى البحث، لكن هناك حالات ثانية ؛ مثلا لك أخ، معرفتك فيه عادية، فلما بلغك هذا الخبر عنه تسرب إلى نفسك الشك فيه، ففي هذه الحالة يجب عليك أن تتحقق من هذا الأمر، تسأل من هو قريب منه، تذهب إليه...يا أخي قيل عنك كذا وكذا، فما جوابك ؟ تأكد، فأنت في حالة الشك، حالة مزعجة، لا أنت في مودة معه، شككت فيه، ولا يوجد إمكان أن تكذب الخبر أو تصدقه، فمثل هذه الحالة التي تعتري صاحبها الشك لابد من التحقق، وإذا كان الشخص بعيداً عن الحق، وقالوا عنه: وقع معصية، فأنت وجدت هذه المعصية تتناسب مع بعده عن الدين، مع تكذيبه للدين.....

فالله عز وجل ينتظر من عبده المؤمن ألاّ يقع في الذنب مرتين، وقد قال سيدنا الشافعي: **" ما خدعني واحد مرتين "**، المؤمن كيس فطن حذر، وسيدنا عمر قال: **<< لست بالخبِّ، ولا الخب يخدعني >>.**

[نسبه ابن منظور في لسان العرب إلى ابن سيرين، انظر (اللسان مادة خبب)]

فإذا زلّ الإنسان، وتورط، وسمع قصة فيها تعريض بمؤمن، ثم بعد ذلك ثبت له أن هذا الإنسان بريء، لكن مرة ثانية يجب أن تتحقق، فالإنسان إذا وقعت معه المشكلة مرتين أو ثلاثًا فهذا دليل غبائه، ودليل بُعده، ودليل سوء طويته، لكن إذا زلّت القدم مرة واحدة فلا ضير على الإنسان، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ))

[البخاري، مسلم]

(يَعِظُكُمُ اللّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة النور)

(أَبَدًا) لاستغراق المستقبل، الإنسان أحيانا ينعقد في نفسه عزم أكيد على ألا يعود لهذه المعصية أبدا، الإمام الغزالي رحمه الله يرى أن التوبة تحتاج إلى ثلاث مراحل ؛ مرحلة العلم، ومرحلة الندم، ومرحلة العزم، فالتوبة علم، وسلوك، فلولا أنك علمت أن هذه معصية ما تبت منها، فلابد من العلم، والإنسان عندما يحضر مجلس علم فالهدف أن تعرف أين أنت من الدين يا ترى ؟ أأنت مطبق أم غير مطبق ؟ هناك موضوعات كثيرة تطرح ؛ هل أنت مطبق لهذا الموضوع ؟ هل أنت غير مطبق له ؟ فالإنسان في مجلس العلم يقوّم نفسه، يعرف أين هو من الدين، فالقضية الفلانية ماذا قال الشرع فيها ؟ كذا وكذا، هل أنا مطبق لها ؟ فإذا لم يتلق الإنسان العلم يظن أنه جيد، وهو سيئ، وهذه أكبر مصيبة إنه جهل مركب، قال الخليل بن أحمد النحوي: **" الرجال أربعة ؛ رجل يدري ولا يدري أنه يدري فذاك غافل فنبهوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذاك جاهل فعلموه، ورجل يدري ويدري أنه يدري فذاك عاقل فاتبعوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك مائق فاحذروه ".**

[تذكرة الحفاظ، محمد بن الطاهر بن القيسراني (788/3)، والمدخل إلى سنن النسائي لأبي بكر البيهقي(828)]

إن الإنسان يعرف مقامه بالعلم، يعرف مرتبته، يعرف مكانته من الدين، والإنسان يتعود أن يواجه الحقيقة المرة، إذا كان عند الإنسان دائما رغبة مستمرة في أن يدافع عن نفسه، إذا كان مقيماً على المعاصي، متعلق بالنساء مثلا، يا أخي من قال إنها حرام، لا شيء فيها، فالإنسان بشكل عام يدافع عن نفسه، ويدافع عن واقعه، فإذا كان له مخالفات في كسب المال يقول: هذه فيها فتوى، وهذه أحلوها، أنت في وهم وغلط، دائما يبحث عن فتاوى، وعن توجيهات تغطي معاصيه، فالإنسان عنده رغبة أن يدافع عن واقعه السيئ والجيد، سيّان في ذلك، فعندما يحضر الإنسان مجلس علم فهناك أشياء واهية تزول عنه، يحسب أن دخله حلال، فإذا في دخله شبهة، يظن نفسه بهذا النشاط الاجتماعي يخدم مجتمعه، والنتيجة أن عنده مخالفات كبيرة جدا، هذه النشاطات قد يشوبها معاص لله عز وجل، فالإنسان يتعلم، ويعرف بالعلم مكانته من الدين، أما إذا لم يخطر بباله أن يحضر مجلس علم فكيف سيعرف نفسه على حق هو أم على باطل ؟ يظن أنه على حق، ويتوهم أنه على حق، ويحسب أنه على حق، وهو على خلاف ذلك، فربنا عز وجل قال:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف: الآيات 103-104)

هذا عيب كبير في الإنسان ؛ أن يتوهم أنه على حق، وهو على باطل، يظن أنه مستقيم، وهو غير مستقيم، أو أن إنساناً آخر يبحث عن الرُخَصْ، يسأل علماء كثيرين، هذا أحسن من هذا، سمح فيها هذا،

وما سمح فيها ذاك، هذا متزمت، هذا مرن، شيخ عصري، هذا يمكن أن يقبل بهذه، فَهَمُّه الأوحد أن يتقصى الرخص عند كل العلماء، فيخرج بدين عجيب، كله رخص، هذا الدين ليس فيه عزائم أبدا، هذه وجد لها فتوى، وهذه وجد لها رأياً في كتاب، وتلك قال فيها واحد: لا شيء فيها، وهذه أخذها فلان على ذمته، وتلك كانت أمانة في ذمة شخص، فإذا به لا دين عنده إطلاقاً، فالإنسان إذا حضر مجلس علم يعرف أين هو من الدين.

(وَيُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنّ الّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19))

(سورة النور)

يا أيها الناس، احذروا فإنه وعيد شديد:

الحقيقة أن هذه الآية شديدة التحذير.

أولا: أن الله سبحانه وتعالى توعد بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، توعد من ؟ توعد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا توعدهم على تمنياتهم فقط، إذا أنت تتمنى أن هذا المجتمع المؤمن تشيع الفاحشة فيه، كأن يُصبح فيه اختلاط، وتداخل في الأنساب، ولا يكون فيه انضباط أخلاقي، هذا الوضع فيه بعد عن المرونة، فيه تزمت، فهذا الذي يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا كالأجهزة التي تسبب الفساد الاجتماعي، أفلام منحطة، إذا تداولت يُصبح هناك زنى، وانتهاك لحرمات الله عز وجل، فإذا كانت هناك مجلات ساقطة تجدها في كل مكان، موجودة يمكن أن تسبب انهياراً خلقياً فالفاحشة في المجلات، وفي الصور، وفي بعض القصص، وفي بعض المسرحيات، وفي كل موقف فيه إغراء بالمعصية، فيه إغراء بالفساد، فهؤلاء الذين يتمنون أن تشيع هذه الموبقات في المجتمع المسلم، هؤلاء لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، فهذا الذي إذا لم يجد في المجتمع انحرافاً خلقياً يقول: هذا المجتمع ضيق، مغلق، فيه تزمت، مجتمع لا يرى من مباهج الدنيا شيئا، هذا الإنسان بعيد عن الدين بعد الأرض عن السماء، هذا معنى، المعنى الثاني: إذا كنت ترتاح أن يتحدث الناس عن هذا المؤمن فيقولون: زوجته غير مستقيمة، فتشعر بالراحة، ويشفى قلبك، وتُحس أن هذا يجب أن يعرفه الناس، فالمؤمن الصادق لو كانت القصة حقيقية يجب أن يكتمها حرمة للدين، لا يخلو مجتمع من مزالق، وانحرافات، فهذا الذي تشفى نفسه إذا شاعت الفاحشة، شاعت الرذيلة، شاع الفساد، شاعت القصص المنحطة عن زيد وعبيد، هذا المجتمع الذي تتخلله الفواحش، والموبقات والإشاعات، والفضائح، هذا المجتمع إذا كان محبباً للإنسان، فهذا الإنسان له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، إذا كان الإنسان يحب مجتمع الفضيلة، مجتمع الانضباط، مجتمع الأسرة، مجتمع عدم الاختلاط، مجتمع التستر، مجتمع الصون، مجتمع

العفاف، مجتمع النظافة، هذا الذي يحب هذا المجتمع مؤمن ورب الكعبة، هناك إنسان يكره مكاناً فيه معصية، ويؤثر عليه بيته، يؤثر عليه مكانا قصيّا يمنع الناس عن ارتكاب المخالفات أو المعاصي، هذه الآية دقيقة جدا، وكأن ربنا عز توجل يعلمنا نقيم أنفسنا من تمنياتنا ؛ يا أيها الإنسان ماذا تتمنى ؟ هذا الذي يتمنى أن تشيع الفاحشة ليس مؤمنا.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

لأن هناك فرقاً في المنطلقات، هذا المجتمع، أو هذه الدنيا مزرعة الآخرة، فإذا شاع فيها الفساد بعُد الناس عن الله عز وجل، متى يدفعون الثمن الباهظ ؟ عند الموت، فشخص قضى حياته كلها مع النساء فهناك تساهل، وتجاوز للحدود، هناك استمتاع بأعراض لا تحل له، وعدوان على أعراض أشخاص آخرين، هذا التجاوز، هذا التفسخ، هذا الانحطاط، إذا قضى الإنسان حياته في هذا، ثم اقترب أجله، ورأى أنه لا نصيب له في الحياة الآخرة، وأن مصيره إلى النار، عندئذ يصعق، قال ربنا عز وجل:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور: الآية 45)

فكأن ربنا عز وجل أراد أن تعرف نفسك من تمنياتك، أين تحب ؟ هل تحب مجتمعاً فيه عفة، فيه تستر، فيه صون للحرمات، وهذا الذي يسميه الفاسقون أحيانا: جلسة ناشفة، خالية من امرأة، طبعا هذا الذي يتمنى أن يكون في هذه السهرة نساء، إذا رفض واحد أن يستقبل صديقه إلا في غرفتين يعتبره هذا بعيدًا جدا عن اللباقة، أنا جئت إلى سهرة عائلية، لماذا وضعتنا في غرفة، والنساء في غرفة، الأفضل أن نكون مع بعضنا، فهذا الذي يحب مجتمع الفساد، مجتمع التحلل من القيم، هذا إنسان له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، هذه الأسرة إن كانت نظيفة مطبقة لأمر الله عز وجل فلابد أن تسعد في الدنيا والآخرة، وهذه الأسرة التي تتحلل من أوامر الله عز وجل لابد أن تشقى في الدنيا والآخرة.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(20))

(سورة النور)

يا أيها الناس: وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

لولا فضل الله عليكم ورحمته بأن جعل لهذه الانحرافات حدودا تحد، وجعل لهذه المعاصي توبة ترد بها المعاصي، لولا هذه الحدود، ولولا تلك التوبة، ولولا هذا العقاب، ولولا هذه الترتيبات لانتهى بكم المقام إلى النار.

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنّ اللّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)

بكم.

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنّ اللّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

إيّاكم وخطوات الشيطان !!!

في الحقيقة هذه أخطر آية في سورة النور، فلو سألت إنسانًا وقع في كل المعاصي: ما هي أسباب هذا الانحدار الشديد ؟ يقول لك: أول خطوة لم يدعُ الشيطانُ أحدًا إلى الزنى، ولكن يدعوه إلى النظر، إلى هذا الجمال الذي خلقه الله عز وجل يقول: يا أخي ؛ إن الله جميل يحب الجمال، يدعوك إلى شيء في نظرك خطوة بسيطة جدا، يدعوك مثلا للذهاب إلى هذا المكان، إلى هذه السهرة، إلى قراءة هذه القصة، إلى مشاهدة هذا الفيلم، يدعوك بأول خطوة، لكن هذه الخطوات تجر أختها إلى أن يصل الإنسان إلى الحضيض، وهو لا يدري، لذلك ثمة شهوات لها قوة جذب، لذلك قال ربنا عز وجل فيها:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: الآية 187)

لابد أن تدع بينك وبين حدود الله هامش أمان، هذا الطريق الذي تسير فيه لا يرضى الله عنك، هذا الكتاب إذا قرأته لا يرضى الله عنك، هذا الصديق إذا صاحبته لا يرضى الله عنك، فهي أول خطوة أن تصاحب إنسانًا غافلاً، إنسانًا زانيًا، بعيدًا عن الله عز وجل، له حديث معين، له إغراء معين، فربنا عز وجل لحرصه علينا نهانا أن نتبع خطوات الشيطان، الشيطان يدعونا خطوة فخطوة إلى أن تقع الكارثة، كم من امرأة خانت زوجها بسبب أنها تبعت الشيطان خطوة واحدة، من خطوة إلى خطوة وقعت الخلوة، فحدثت الخيانة، وانتشرت الفضيحة، وأصبح الأولاد متشردين، مأساة كبيرة جدا انتهت بالطلاق، والتشريد، والسمعة السيئة، والفضيحة أسبابها أنها قبلت أن تخطو خطوة واحدة.

قال ربنا عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

يكتشف الإنسان أن في بيته خيانة كبيرة، سببها أنه قال للجار: تفضل يا أبا فلان، ادخلي يا أم المؤمنين، هذا مثل أخيك، هي أول خطوة انتهت بالخيانة، فالإنسان عندما يكون جاهلاً يحفر قبره بيده، يهلكه تدبيره إذا كان جاهلاً، بل إن الجهل هو أعدى أعداء الإنسان، لماذا حياة المؤمن نظيفة، بيته نظيف، سمعته نظيفة، لأنه لا يوجد منافذ للشيطان، ولا يوجد اختلاط في حياته، هناك عنده أشياء

ممنوعة، مثلا جاء إنسان خطب ابنته، فله الحق في أن يراها مرة واحدة، أن يرى وجهها وكفيها، وانتهى الأمر، أما واللهِ خاطبها، والله جاء الخاطب دون عقد قران يسهر، الخطيب عند الخطيبة، ثمّ يأخذها في نزهة، وبعدها يختفي الخطيب، فإذا بالبنت حامل، هذا لا تتبعوا خطوات الشيطان، كل إنسان يقصر بهذا الموضوع يدفع الثمن غالياً جداً، يأتي على الذي يقصر ساعة يتمنى أنه يكون تحت الأقدام يتمنى أن يمزق إربا إربًا، ربنا عز وجل رحمة بنا قال:

(لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

هذه الآية مركز الثقل فيها هو:

(لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

دائما، بطولتك تقضي أن تهرب من أسباب الخطيئة، إذا كانت السهرة مشكلة فاعتذر عنها، هذه النزهة فيها معصية فاعتذر عنها، هذا الصاحب ساحب فابتعد عنه، هذه القصة مغرية فابتعد عنها، هذه المشاهدة تفضي إلى الانحراف فارفضها، هي كلها خطوات الشيطان، إن أكبر المعاصي، وأكبر أنواع الانحلال الخلقي أساسه خطوة، وربنا عز وجل قال:

(وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: الآية 32)

لم يقل: ولا تزنوا، قال:

(وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى)

لكل معصية خطوات تسبقها

فالزنا قبله خطوات كثيرة جدا، والشيطان يقال عنه: إنه ذكي لا يأمر الإنسان أن يفعل الفاحشة، بل يأمره أن يفعل عملا صالحا، علِمها القرآن، اهدها، وجهها، فيوجهها في خلوة، كان يوجهها فوقع بعد ذلك في الزنى، وهناك حالات تتم أساسها مخالفة للشرع،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

فكذلك الموضوع يمكن أن يأخذ منحى آخر، وليس كل المعاصي معلقة بالنساء، ثمة معاص مالية أيضا، يمشي معه بخطوة شارك فلانًا، لكن فلان له تجارة محرمة، أنت توجهه، وتنصحه، لكن شاركه الآن، لعل الله يهديه على يدك، لماذا أنت يائس من هداه، النتيجة أنه يشاركه فيعطيه أرباحاً طائلة، عنده ملهى، عنده مطعم فيه خمر، فيجد مبلغاً ضخماً يأتيه في السنة، فأصبح ماله كله حرامًا، ولم يعد عنده إمكانية أن يتخلى عن هذه الشركة، وقع، ولم يدرِ أنه وقع.

وكذلك النواحي المالية فيها إغراءات كثيرة، فإذا عرف أحدنا أن هذا العمل فيه شبهة، فيه حرام، فيه معصية، يريد أن يبتعد عنه، ويملك ألاّ يخطو أول خطوة، لكن إذا خطا أول خطوة أعتقد أنه لا يستطيع التوقف، مثل حجر مستقر في رأس جبل، فأنت بين حالين ؛ ما بين أن تدعه في هذا المكان المكين، أو أن تدفعه، فإذا دفعته لم يكن في إمكانك أن توقفه عند حد إلى أن يستقر في قعر الوادي، هذه الشهوة كهذه الصخرة تماما، إذا دفعتها من مكانها، وزحزحتها انطلقت، ولا تستقر إلا في قعر الوادي، كان الرجل في نظرة، فصارت ابتسامة، ثم أصبح في موعد معها، فلقاء، فكانت النتيجة الفاحشة، ومعها فضيحة، ومشكلة، نظرة، فابتسامة، فموعد، فلقاء،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا)

هذا نهي إلهي، رب العالمين، وهو الخبير بالنفوس، ينهانا، وهو ربنا

(ألاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(سورة الملك: الآية 14)

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

(سورة الإسراء: الآية 17)

(وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر: الآية 14)

فمن هو الخبير بالإنسان ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، فلا ينبغي أن تستمد توجيهاتك إلا من الله، لأن الجهة الصانعة وحدها هي المؤهلة أن توجه المخلوق.

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

ثناء القرآن على أبي بكر الصديق

(وَلاَ يَأْتَلِ)

بمعنى لا يحلف

(أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ألاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

كان سيدنا الصديق يعطي مسطحا مالاً كلّ وقت، ومسطح هو المتَّهَم بترويج حديث الإفك، فلما علم سيدنا الصديق ذلك عاهد، أو حلف أن يمتنع عن إعطائه هذه المساعدة، فالله سبحانه وتعالى عاتبه فقال:

(ألاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

يروى أن سيدنا الصديق بكى بكاء كثيرا وقال: **<< بلى أحب أن يغفر الله لي >>.**

[القرطبي، والطبري، وابن كثير]

مسألة فقهية: ماذا يفعل من حلف على شيء ثم رأى غيره خير ؟

إذا حلف الإنسان يميناً ألاّ يفعل خيرا فعليه أن يحنث بهذا اليمين، وأن يفعل خيرا، أما أن يكفر عن يمينه، أو لا يكفر فهذا موضوع خلافي نعود إليه في بحوث الفقه، لكن إذا حلف الإنسان يميناً ألاّ يزور أخته، أو لا يفعل الخير، أو لو فرضنا أنه ضاع حذاؤه في المسجد فحلف يميناً ألاّ يأتِي إلى المسجد أبداً، ماذا نعمل ؟ لا يأتِي إلى المسجد ؟ لا، نقول: تعال إلى الدرس، وكفّر عن يمينك، فكل يمين مؤداة منعا للخير، فيجب أن تحنث بها، وبعضهم قال: الحنث بها هو التكفير عنها، وبعضهم قال: لابد أن تكفر عنها تعظيما لها.

(وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قاعدة أخلاقية جليلة: صِلْ مَن قطعك واعفُ عمّن ظلمك

هذا خلقٌ عالٍ جدا ؛ أن يعمل الإنسان خيراً، ولا يعلق أهمية أبدا على رد الفعل، إن كان فيه إساءة، أو فيه إحسان، فيه تقدير، أو عدم تقدير، شكر أو جحود، هذه ردود الفعل لا قيمة لها عند المخلص، فما دمت تفعل هذا الخير تقربا إلى الله عز وجل، وبدافع الإخلاص المحض فيجب ألا تأبه لكل رد فعل، طيب أو سيئ، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((اِصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ أَهْلِهِ وَمَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ، فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ أَصَبْتَ أَهْلَهُ، وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ أَهْلُهُ))

[القضاعي في مسند الشهاب عن علي، وانظر كشف الخفاء، علل الدارقطني]

لا أعتقد أن هناك عملاً من حيث الإيلامُ والإيذاء من أن يقول إنسان عن ابنتك الطاهرة العفيفة: إنها زانية، ومع ذلك بدافعٍ من غيرته على ابنته ؛ زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم حلف سيدنا الصديق يمينا أن يقطع عن هذا الإنسان المرجف مساعداته، فعاتبه الله عز وجل، كيف فعاتبه الله ؟ قال ربنا عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34))

(سورة فصلت: الآيات 33-34)

وقال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أمَرَنِي رَبِّي بِتِسْعٍ ؛ خَشْيَةِ اللّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ، وَكَلِمَةِ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدِ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَنْ أَصِلَ مَنْ قَطَعَنِي، وَأَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وَأُعْطِيَ مَنْ حَرَمَنِي، وَأَنْ يَكُونَ صَمْتِي فِكْرًا، وَنُطْقِي ذِكْرًا، وَنَظَرِي عِبْرَةً))

[تفسير القرطبي]

أنت لا ترقى إلى مستوى الإيمان الصحيح ما لم تَصِل من قطعك، وتعف عمن ظلمك، وتعط من حرمك، وهذا سيدنا الصديق لأنه تألم من مسطح ألما شديدا لأنه روج قصة كاذبة عن ابنته الطاهرة العفيفة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نوى، وعزم على أن يقطع عن هذا الإنسان المبطل مساعداته عاتبه الله عز وجل، وهذا درس لنا:

((اِصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ أَهْلِهِ وَمَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ، فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ أَصَبْتَ أَهْلَهُ، وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ أَهْلُهُ))

[مسند الشهاب عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده]

أعتقد أن أناساً كثيرين لا يستطيعون أن يرقوا إلى هذا المستوى، فأنت إن فعلت خيراً لا تنتظر أبدا أن يكون هذا الإنسان محسناً أو مقدراً، لو أساء لك، لو جحد خيرك، لو تكلم عنك بما ليس فيك وجب أن تتابع العمل الصالح.

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25))

(سورة النور: الآيات 23-25)

يا له مِن حديثٍ عظيمٍ !!!

هذه الآيات إن شاء الله نشرحها في الدرس القادم، ونتابع سورة النور، والحديث الأخير الذي أعددته لكم والمتعلق بهذا الموضوع، يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو الدرداء عنه:

((أَيُّمَا رَجُلٍ شَدَّ عَضُدَ امْرِئٍ مِنَ النَّاسِ فِي خُصُومَةٍ لاَ عِلْمَ لَهُ بِهَا فَهُوَ فِي سَخَطِ اللّهِ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْهَا))

تدخل مع إنسان في خصومة، وأنت لا تعرف ما موضوع الخصومة، لكن معه على حق، أو على باطل:

((أَيُّمَا رَجُلٍ شَدّ عَضُدَ امْرِئٍ مِنَ النّاس فِي خُصُومَةٍ لاَ عِلْمَ لَهُ بِهَا فَهُوَ فِي سَخَطِ اللّهِ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْهَا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ قالَ بِشَفَاعَةٍ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللّهِ أَنْ يُقَامَ فَقَدْ عَانَدَ اللّهَ حَقًّا، وَأَقْدَمَ عَلَى سَخَطِهِ، وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّهِ تَتَتَابَعُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

فإذا كان الله عز وجل جعل للزنى حدًا فإذا أردت أن تمنع إقامة هذا الحد لسبب أو لآخر فأنت تعاند الله حقا، وتقدم على سخطه، وعليه فإن لعنة الله تتتابع إلى يوم القيامة.

والفقرة الثالثة والأخطر - دققوا في هذا الحديث -:

((وَأَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ مُسْلِمٍ كَلَمَةً هُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ يَرَى أَنْ يُشِينَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللّهِ تَعَالَى أَنْ يَرْمِيَهُ بِهَا فِي النّار يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

تعرفه بريئاً وأردت أن تشيع عليه هذه التهمة وأن تروجها بين الناس من أجل أن تحطمه هذا العمل يكفي لدخول النار،

((وَأَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ مُسْلِمٍ كَلَمَةً هُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ يَرَى أَنْ يُشِينَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللّهِ تَعَالَى أَنْ يَرْمِيَهُ بِهَا فِي النّار يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[الحديث بكل أطرافه في تفسير القرطبي(206/12) عن أبي الدرداء]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (07-23): تفسير الآيات 23 – 26 ، مغزى قصة الإفك والتعليق عليها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-11-11

بسم الله الرحمن الرحيم

وقفات تحليلية متأنية لحديث الإفك:

الوقفة الأولى: العبرة في القصة عبرها ودروسها لا أحداثها وتفاصيلها:

أيها الإخوة المؤمنون، لازلنا في سورة النور، ومع الدرس السابع من هذه السورة، ولابد من وقفة أخرى عند **" حديث الإفك "**، ففي هذا الحديث كما وصفه الله سبحانه وتعالى خير كثير، لأن أية قصة في القرآن الكريم كما قلت لكم في الدرس الماضي ليست مقصودة لذاتها، إنما المقصود أن يستنبط منها قواعد في الآداب العامة، وفي المعاملات، وهذا حديث الإفك خير، كما قال الله سبحانه وتعالى:

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

(سورة النور: الآية 11)

الوقفة الثانية: كان من الممكن أن لا يقع الإفك ولكن ....:

لو وقفنا وقفة عند هذا الحديث نجد أنه كان بأمر الله، فكان من الممكن ألا تكون القرعة من نصيب السيدة عائشة مع رسول الله في هذه الغزوة، وكان من الممكن ألا يكون لها حاجة إلى قضاء الحاجة، لو لم تذهب لقضاء الحاجة لما كانت كل هذه القصة، وكان من الممكن ألا ينقطع عقدها، وهي تقضي حاجتها، وكان من الممكن أن ينقطع عقدها، ولا تنتبه إليه، وكان من الممكن أن ينقطع عقدها، وتنتبه إليه، ولا تعود من أجله، وكان من الممكن إذا عادت أن ينتظرها النبي عليه الصلاة والسلام، وكان من الممكن إذا حُمِلَ الهودج أن يشعر من حَمَلَهُ أنه فارغ، لو ذهبت في هذا الطريق إلى الممكنات لوجدت أن هذا الحديث وقع بأمر الله، و نستنبط من هذا التحليل أن كل شيء وقع أراده الله، لذلك فلا تأسَ على ما فات، ولا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فكلمة لو تفتح عمل الشيطان، وقد أشار ربنا عز وجل في قصص كثيرة، وفي آيات كثيرة إلى ذلك:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف: الآية 21)

الوقفة الثالثة: إظهار كل إنسان على حقيقته:

فهذا الحديث وقع بهذا الشكل، لو تابعنا هذا التحليل، كان من الممكن ألا يأتي صفوان، وكان من الممكن أن يتفقدها النبي عليه الصلاة والسلام، فيأمر أصحابه أن يعودوا إلى الموقع ليأخذوها، إذاً هذا ترتيب إلهي، فيه حكمة ما بعدها حكمة، من أجل أن يظهر كل إنسان على حقيقته.

الوقفة الرابعة: بشرية النبي عليه الصلاة والسلام:

ربنا سبحانه وتعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام، ويأمره أن يبلغنا أنه بشر، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ:

((كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ، وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ، فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَتِيمَةَ فَقَالَ: آنْتِ هِيَهْ، لَقَدْ كَبِرْتِ، لا كَبِرَ سِنُّكِ، فَرَجَعَتِ الْيَتِيمَةُ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِي، فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: مَا لَكِ يَا بُنَيَّةُ ؟ قَالَتِ الْجَارِيَةُ: دَعَا عَلَيَّ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لا يَكْبَرَ سِنِّي، فَالآنَ لا يَكْبَرُ سِنِّي أَبَدًا، أَوْ قَالَتْ: قَرْنِي، فَخَرَجَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا حَتَّى لَقِيَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا لَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ ؟ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَدَعَوْتَ عَلَى يَتِيمَتِي ؟ قَالَ: وَمَا ذَاكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، قَالَتْ: زَعَمَتْ أَنَّكَ دَعَوْتَ أَنْ لا يَكْبَرَ سِنُّهَا، وَلا يَكْبَرَ قَرْنُهَا، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه مسلم]

لئلا يعبده الناس من دون الله، لئلا يقال: إنه ابن الله، هو رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، فربنا سبحانه وتعالى في هذا الحديث أراد أن يعلمنا أنه بشر، كما أراد أن نرى بأعيننا أنه بشر، نبي كريم عنده زوجة طاهرة عفيفة مؤمنة قانتة لله عز وجل، والناس يتحدثون أنها زنت، ماذا يفعل ؟ كيف له أن ينفي هذا ؟ ليس في إمكانه أن يثبته، ولا في إمكانه أن ينفيه، ولقد تأخر الوحي، لو أن الوحي جاء بعد يوم أو يومين لما كانت ثمة مشكلة، لكن الوحي تأخر شهرا بكامله، من أجل أن يظهر كل إنسان على حقيقته، فمن كان في قلبه مرض، من كان يبطن العداوة، من كان يتمنى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ظهر على حقيقته جليا، ومن كان مؤمنا يحسن الظن بنبيه، وبأهل بيته قاس الأمور على نفسه، فقال: **يا أم أيوب لو أنك مكان عائشة أتفعلين ما يقال عنها** ؟ قالت: لا، والله لا أخون رسول الله، وقال: **أما أنا فوالله لا أخون النبي في أهله، وصفوان أفضل مني،**

وعائشة أفضل منك، هؤلاء المؤمنون الصادقون، هؤلاء الذين يحبون نبيهم، ويحسنون الظن به، هؤلاء الذين ينزهون نبيهم، وأهل بيته عن كل دنس، هؤلاء قاسوا الأمور على أنفسهم، وأحسنوا الظن، فكأن هذا الحديث أبرز المخلصين الصادقين، وأبرز المنافقين والفاجرين، لذلك قال الله سبحانه وتعالى:

(مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: الآية 179)

لله أساليب كثيرة، فعل هذا يوم الخندق ؛ يوم أحدق الكفار والمشركون بالمدينة، ويوم خان اليهود عهدهم مع النبي على عادتهم، ويوم انكشف ظهر النبي عليه الصلاة والسلام، وأصبح الإسلام قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، قال تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (12))

(سورة الأحزاب:الآيات 11-12)

أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، وأما المؤمنون الصادقون فقد وصفهم الله عز وجل بقوله:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب: الآية 23)

الوقفة الرابعة: في زمان ومكان امتحان للمسلم: إنّا كُنّا مُبْتَلِينَ:

إن موضوع الخندق كان امتحاناً دقيقاً لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحديث الإفك امتحان آخر دقيق لهم، ونحن في كل زمان، وفي كل مكان لابد من امتحانات، سيسقط فيها من يسقط، وينجح فيها من ينجح، قد يكون هذا الامتحان كاشفا، وقد يكون دافعا، فهذه الامتحانات تتكرر، والتاريخ يعيد نفسه، وفي كل بيت هناك امتحان، قد يؤمن الرجل بالله عز وجل، ويتوب إليه، ويفعل الصالحات... يضيق رزقه، ويضيق، ويضيق، ماذا يفعل ؟ يعصي الله ؟ أيأكل مالا حراما ؟ إن هذا التضييق في الرزق امتحان من الله عز وجل، قد يعرض للإنسان موقف يخلو فيه بامرأة لا تحل له، ماذا يفعل ؟ أيغادر المكان ؟ أم يبقى ؟ امتحان، والله الذي لا إله إلا هو ما من مؤمن يقول: إني مؤمن إلا وهو معرض للامتحان عشرات، بل مئات المرات في اليوم، أو في الأسبوع، فقد يمتحن الإنسان بالمال ؛ بوفرته، وبفقده، يمتحن بالنساء بالحالتين، يمتحن بالقوة، يقوى فيطغى، أم ينصف ؟ يضعف فيزل، أم يصبر ؟ فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّا كُنَّا مُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون: الآية30)

ويقول:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك: الآية 2)

فهذا الحديث:

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

لأن المؤمنين ظهروا على حقيقتهم، برزوا كالنجوم المتألقة في السماء، والمنافقون ظهروا كالوحول تحت الأقدام، ظهرت نيتهم، وظهر خبثهم، وظهر انحرافهم، وظهر سوء ظنهم، وظهر فرحهم بأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فهذا الحديث كما قلنا حديث فيه خير كثير.

الوقفة الخامسة: لسان حال النبي عليه الصلاة والسلام: قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا

أشار العلماء إشارة دقيقة جدا، السيدة عائشة زوج النبي عليه الصلاة والسلام، وهو رسول الله، وسيد الخلق، وحبيب الحق حينما تحدث الناس عنها ما كان بإمكان النبي أن يبرئها، كأن الله عز وجل أراد أن يمتحنها، فلما نزلت براءتها بادرت إلى السجود لله عز وجل، وحمده، وحده، إذا كان الإنسان أحيانا يتعلق ببشرٍ مثله، وهذا الإنسان عبد، ربنا عز وجل يخاطبنا، يبلغنا، أو يبلغ النبي أن يبلغنا:

(قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا)

(سورة الأعراف: الآية 188)

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف: من الآية 188)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنا نفعا ولا ضرا، فَلأَنْ لا يملك لنفسه من باب أولى، وإذا كان الله سبحانه وتعالى يظهر أن النبي عليه الصلاة والسلام عبد لله، فحتى في حديث الإفك لم يملك النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الزوجة المخلصة العفيفة الطاهرة أن يبرئها حتى برأها الله عز وجل في قرآنه الكريم، وكانت السيدة الجليلة عائشة رضي الله عنها تقول: كنت أظن أن يرى النبي عليه الصلاة والسلام رؤيا تبرئني، فكنت أحقرَ من أن ينزّل فيّ قرآنًا، ولكن قرآنا يتلى إلى قوم القيامة نزل في تبرئة عائشة، فلماذا ؟.

الوقفة السادسة: أهداف المنافقين تتعدى الأشخاص:

قال بعض العلماء: إن المنافقين ما أرادوا في حديث الإفك أن ينالوا من السيدة عائشة بقدر ما أرادوا أن ينالوا من النبي عليه الصلاة والسلام، بل إنهم ما أرادوا أن ينالوا من النبي عليه الصلاة والسلام بقدر ما أرادوا أن ينالوا من هذه الدعوة الجديدة.

أحيانا حينما يتحدث الناس عن إنسان طاهر، عفيف، مخلص، صادق، حينما يلغطون بحديث يتعلق بحياته الشخصية، إنهم لم يتمكنوا أن يردوا دعوته، ولم يتمكنوا أن يقارعوه الحجة بالحجة، فعمدوا إلى ترويج قصص ملفقة عن حياته الخاصة، فلذلك لم يُرِدْ المنافقون، والذين أرجفوا في المدينة شخصَ السيدة عائشة، بل أرادوا شخص النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يريدوا شخص النبي بل أرادوا هذه الدعوة التي جاءت نوراً للناس، لذلك تولى الله سبحانه وتعالى بقرآنه الكريم تبرئة هذه السيدة العفيفة الطاهرة، فَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

((أنّ النّبيّ صَلَى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السّلَاسِلِ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أيُّ النّاسِ أحَبُّ إلَيْكَ ؟ قالَ: عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: مِنْ الرّجَالِ ؟ فَقَالَ: أبُوهَا، قُلْتُ: ثُمّ مَنْ ؟ قالَ: ثُمّ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ، فَعَدّ رجَالًا))

[أخرجه البخاري، ومسلم، الترمذي]

الوقفة السابعة: الحكمة من انقطاع الوحي في فترة الإفك:

حكمة أخرى من هذا الحديث كما نوهت بها قبل قليل هو أن انقطاع الوحي شهرا كاملا جعل هذه القضية تنضج، فهذا تكلم، والذي سمع تكلم، والذين سمع تكلم، هذا وقف موقفا محايدا، هذا وقف موقفا فيه حسن ظن، هذا وقف موقفا فيه إساءة ظن، هذا سمع وسكت، هذا سمع وأشاع، هذا سمع وروج، هذا سمع وفرح، هذا سمع وحزن، هذا الذي حزن له مقام، وهذا الذي فرح له درك في النار، وهذا الذي روج يحاسب على ترويجه، وهذا الذي سكت يشكر على سكوته، وهذا الذي تمنى كُتب عليه تمنيه، وكل إنسان من المؤمنين وقف موقفا دقيقا جدا سجل عليه:

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: من الآية181)

أنت ماذا قلت ؟ كتب عليك، لماذا يخلع قلب الإنسان حينما يقال له: اكتب هذه الإفادة، وفيها أمر خطير، ثم وقِّعْ، لماذا؟ لأن هذه الإفادة أصبحت وثيقة يدان بها.

لذلك يقول ربنا عز وجل:

(لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّذِينَ قَالُوا إِنّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

هذا القول سجّل عليهم، وسوف يعرض عليهم يوم القيامة، وسوف يحاسبون عليه حسابا عسيرا، فالإنسان عليه أن يضبط لسانه:

احفظ لسانك أيها الإنســـان لا يلدغنك إنه ثعبـــان

كم في المقابر من قتيل لسانـه كانت تهاب لقاءه الشجعان

***

إذا كنت أيها الإنسان تحفظ لسانك خوفا من بطش إنسان فما قولك إذا كان الواحد الديان سيحاسبك، أتتّهم الناس بالباطل؟

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)

(سورة الإسراء: الآية 36)

وعن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إِنَّ قَذْفَ الْمُحْصَنَةِ لَيَهْدِمُ عَمَلَ مِئَةِ سَنَةٍ))

[الحاكم في المستدرك، والبزار في مسنده]

الوقفة الثامنة: انضباط المؤمن:

فأيها الإخوة الأكارم، أتمنى، وأتمنى من كل قلبي أن ينضبط المؤمن، ألاّ يخوض في أعراض الناس، ألاّ يخوض فيما ليس له به علم، ألا يهرف بما لا يعرف، ألا يتهم من دون دليل قطعي، هذا اللسان يحاسب الإنسان عليه، وفي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أحمد في مسنده(13071)]

الوقفة التاسعة: نصرة الله للبريء:

شيء آخر، إذا كنت مع الله، وإذا كنت بريئا فأبشر، فإن الله سبحانه وتعالى لابد أن ينصرك، ولابد أن يظهر حقيقتك، ولو لغا الناس، ولو لاك الناس بعض الأحاديث بألسنتهم، ولم يبالوا بالحقيقة، فالنبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق، وحبيب الحق، وهذه زوجته الطاهرة المطهرة، ومع ذلك أرجف المنافقون في المدينة أقوالا لا أساس لها من الصحة، أرجفوا بهذه الأقوال، وشككوا الناس بها، ولغطوا بها، وعاش النبي عليه الصلاة والسلام، وعاشت زوجته، وعاش أبوها الصديق رضي الله عنه، وعاشت أمها شهرا من الحزن والألم، من البكاء المستمر، إلى أن تولى الله سبحانه وتعالى بقرآنه تبرئتها، إذا

أنت أيها المؤمن تستنبط من هذا الحديث أنك إذا كنت على حق فلا تخش إلا الله، وإذا كنت على حق فاطمئن إلى أن الله لابد أن يظهر الحق، لأنه هو الحق، الحق من أسمائه، فإذا كنت بريئا ومظلوما فأبشر، فلابد أن تظهر قضيتك على حقيقتها، ولابد أن تظهر براءتك، ويظهر طيبك، والله سبحانه وتعالى يتولى ذلك.

قال بعضهم: لِمَ لَمْ يعلن النبي للناس أن هذه الزوجة السيدة عائشة بريئة من هذه التهمة ؟ لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام حكيما، كان حكيما إلى أقصى درجة، لأنه لو أعلن براءة زوجته فإنه طرف في القضية، إنها زوجته، إذاً لأُخِذَ كلامه من قبل أعداء الإسلام، من قبل المنافقين على أنه تغطية، وعلى أنه محاباة، وعلى أنه دفاع بغير حق، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام أظهر حكمته في أعلى مستوياتها، حينما امتنع هو على أن يدلي برأي في هذا الموضوع، وحينما أخذ موقفا معتدلا.

الوقفة العاشرة: الصبر والموقف المعتدل في أثناء الفتن والمحن:

كان إذا دخل على عائشة من قبل رضي الله عنها يقول: كيف عويش ؟ وكان اسما محببا لها، كان النبي عليه الصلاة والسلام زوجا مثاليا، وكان مما أثر عنه أنه إذا دخل بيته كان بساما ضحاكا، وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لا تُكْرِهُوا الْبَنَاتِ فَإِنّهُنّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ))

[أحمد عن عقبة بن عامر]

وكان يقول:

((أَكْرِمُوهُنّ فَوَاللّهِ مَا أَكْرَمَهُنّ إِلاّ كَرِيمٌ، وَلاَ أَهَانَهُنّ إِلاّ لَئِيمٌ، يَغْلِبْنَ كُلّ كَرِيمٍ، وَيَغْلِبُهُنّ لَئِيمٌ))

[فيض القدير (496/3)]

وعن عائشة قالت قلت: يا رسول الله:

((كَيْفَ حُبّكَ لِي ؟ قَالَ: كَعُقْدَةِ الْحَبْلِ، فَكُنْتُ أَقُولُ: كَيْفَ الْعُقْدَةُ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ فَيَقُولُ: هِيَ عَلَى حَالِهَا))

[أبو نعيم في الحلية(44/2)]

أي لا تنفك فكانت من حين لآخر تسأله مطمئنة عن نفسها فتقول:

((كَيْفَ الْعُقْدَةُ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ فَيَقُولُ: هِيَ عَلَى حَالِهَا))

كان النبي عليه الصلاة السلام إذا دخل بيته فكأنه واحد في هذا البيت، هذا المقام العظيم الذي كرمه الله به لم يكن يستخدمه في البيت، كان يركب الحسن والحسين على ظهره الشريف، فَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ:

((دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعَةٍ، وَعَلَى ظَهْرِهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ يَقُولُ: نِعْمَ الْجَمَلُ جَمَلُكُمَا، وَنِعْمَ الْعِدْلَانِ أَنْتُمَا))

[الطبراني في المعجم الكبير]

وكان يتسابق مع السيدة عائشة، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

((أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ قَالَتْ: فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ، فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ))

[أبو داود، النسائي، أحمد]

عودها الأنس، عودها اللطف، عودها التبسم، عودها الإيناس، لكنه حينما راج هذا الحديث أخذ موقفا آخر، دخل عليها فقال: **كيف تيكم ؟ كيف تيكم ؟** هذا موقف آخر، فالذي أريد أن أقوله: إن النبي عليه الصلاة السلام ظهرت حكمته في أعلى مستوياتها، وظهر صبره، أحيانا يأتيك خبر فيهز كيانك، يأتيك خبر فتفقد توازنك، لكن النبي عليه الصلاة والسلام كالجبل الراسخ، كالطود الأشم، لم يتزلزل، ترك الأمر لله عز وجل، ووقف موقفا حليما.

الوقفة الحادية عشرة: حرمة سوء الظن بالمسلم:

شيء آخر، علمتنا هذه القصة أنه يحرم على المؤمنين سوء الظن بإخوانهم، لذلك جاء في بعض الأثر أنه من أساء الظن بأخيه فقد أساء الظن بربه، وشيء آخر في هذا الحديث حديث الإفك الذي قال الله عنه:

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

وهو أن من عُرف بالصلاح لا يُعْدَل بهذه المعرفة عنها إلى ظن السوء لخبر يلقيه إنسان، فمثله كمثل بناء شامخ، هذا البناء لا ينهار بكلمة، لا ينهار إلا بقنابل، بناء من الإسمنت المسلح متين، له أساس، بناء راسخ، سمعة المؤمن غالية على الله سبحانه وتعالى، بناؤه الراسخ لا يهتز بكلمة يقولها إنسان، لذلك فالله سبحانه وتعالى أدبنا في كتابه الكريم فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات: الآية 6)

الوقفة الثانية عشرة: الأصل القاذف التكذيب الشرعي:

وحكم آخر يستنبط من هذا الحديث، أن القاذف الذي يلغط بأعراض المؤمنات أو بأعراض المؤمنين مكذبٌ شرعا ما لم يأت بالشهداء الأربعة، فأيّ قاذف يقذف امرأة أو رجلا فهو مكذب شرعا ما لم يأت بالشهود، وعلى أولي الأمر أن يقيموا عليه حد القذف، وهو ثمانون جلدة.

الوقفة الثالثة عشرة: الأصل ستر المؤمن وعدم هتك الأعراض:

شيء آخر يستنبط من هذه القصة وهو الحث على ستر المؤمن، وعدم هتك سره، فمن آداب الإيمان أنك لو رأيت شيئا لا يروق لك فلا ينبغي أن تشيع هذا الخبر، لأن إشاعة هذا الخبر تزلزل بعض الناس، وتضعف الثقة بالمؤمن، فكان من لوازم الإيمان أن تكتم هذا الخبر، وكنت قد حدثتكم بقصة: أن رجلا تزوج امرأة، وبعد أن مضى على دخوله بها خمسة أشهر كبر بطنها، وكانت على وشك الوضع، فما شك أبدا من أنها قد زلت قدمُها قبل أن يقترن بها، فجاءها بمولدّة وولدت، وأخذ هذا الوليد، ودخل إلى أحد المساجد القريبة من بيته بعد أن نوى الإمام صلاة الفجر، ووضع هذا الوليد في زاوية المسجد، وأتم مع الإمام، فلما سمع المصلون صراخ هذا الوليد تحلقوا حوله، فتقدم وكأنه لا علم له بالقصة، فقال: ما هذا، قالوا: تعال انظر، وليد صغير ! فقال: أعطوني إياه، أنا أكفله، فأخذه، ودفعه إلى أمه بعد أن تابت على يديه، وحفظ سرها، هذا الرجل يسكن إلى جوار المسجد، رأى خطيب المسجد في منامه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا له: يا فلان بلغ جارك فلانًا أنه رفيقي في الجنة، فهذا عمل عظيم، إذا كان بالإمكان أن تستر، إذا كان بالإمكان أن يتوب هذا الإنسان على يديك، فليس القصد أن تفضحه، القصد أن تأخذ بيده، القصد أن تعينه على الشيطان، لا أن تعين الشيطان عليه، هذا هو القصد، وقد مر بنا في درس الأحد كيف أن سيدنا عمر حينما جاءه رجل وقال: يا أمير المؤمنين رأيت فلانا وفلانة خلف النخل يتعانقان، فخفقه بالدرة، وقال ما معناه: ماذا فعلت أنت بهذا الخبر، الإسلام لا يحب أن تشيع الفاحشة، لا يحب خبر السوء، لا يحب الفضيحة، أما إذا بلغ الإمام أن فلانا فعل كذا وكذا مما يوجب عليه الحد فلا عفا الله عنه إن عفا.

إذا بلغ الإمام الموكل بإقامة الحد حادثة زنى فلا عفا الله عنه إن عفا، ولكن إذا كان بإمكانك أن تدرأ الحدود بالشبهات، أن تستر، أن تصلح، أن تعين أخاك على الشيطان فافعل.

قال بعض أصحاب رسول الله: **من حدث بما أبصرت عيناه، أو بما سمعت أذناه فهو ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا توعدهم الله بعذاب أليم في الدنيا والآخرة.**

الوقفة الثالثة عشرة: حرمة سوء الظن بالمسلم: من أشاع فاحشة فعليه النكال:

وهناك حكم آخر استنبط من هذه القصة، هو من أشاع فاحشة فعليه النكال، وإن كان صادقا، وقد سئل أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيدنا الحسن: **ما معنى إشاعة الفاحشة ؟ ما حدها ؟** فقال:

((هو الرجل يتكلم عنده في حق رجل فيشتهي ذلك، ولا ينكره))

يشتهي أن يشيع هذا الخير، وما أعرف معصية يعاقب عليها بالرغبة فقط مثل هذه المعصية،

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ)

لم يقل الله عز وجل: إن الذين يشيعون الفاحشة، بل قال:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ)

فالعقاب على محبتك على أن تشيع الفاحشة.

أيها الإخوة الأكارم، هذه بعض الاستنباطات التي وردت في كتاب الله تحت قوله تعالى:

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

وقد يمتحننا الله سبحانه وتعالى بامتحان يمحص الله به المؤمنين من الفساق، والمؤمنين من المنافقين، والآية التي تلي هذه الآية هي قوله تعالى:

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

(سورة النور)

معاني الآية:

هذه الآيات لها معان متعددة:

المعنى الأول: الخبيث لا يألف إلا خبيثة

من أبرز معانيها: أن الإنسان الطيب الطاهر العفيف المستقيم على أمر الله، الذي عرف ربه، وسمت نفسه، هذا الإنسان لا يمكن أن يأتلف مع امرأة زانية، لا يمكن أن يتعايش معها، لا يمكن أن يحتملها، لا يمكن أن تكون امرأته، لأن الطيبين للطيبات، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام أطيب الطيبين فالسيدة عائشة أطيب الطيبات.

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

فلو أن الله عز وجل قال:

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ)

فلمَ قال بعدها:

(وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ)

هذا من البلاغة، وهو حصر من جهتين، من باب التأكد أن الخبيث يشتهي خبيثة، وأن المتفلت من قواعد الأخلاق يشتهي المتفلتة، وأن المنحرف يشتهي المنحرفة، وأن الزاني يعجب بالزانية، وأن الطيب يحب الطيبة، وأن الورع يحب الورعة، وأن العفيف يحب العفيفة.

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ)

فإن أتيح لها أن تختار فلا تختار الخبيثة إلا خبيثا، وإن أتيح للخبيثين أن يختاروا فلا يختارون إلا خبيثة مثلهم، وإن الطيور على أشكالها تقع، وكل إناء ينضح بما فيه، فالخبيثون للخبيثات، والخبيثات للخبيثين، والطيبات للطيبين، الشاب المؤمن الطاهر لا يرضى، ولا يطمح إلا إلى زوجة طاهرة مستقيمة، تحب الله ورسوله، وتتقي الله في كل أمورها، تصلي، هذا الذي يغريه جمال الفتاة، وينسى أن في دينها رقة، هذا سوف يدفع الثمن باهظا، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَزَوّجَ امْرَأَةً لِعِزّهَا لَمْ يَزِدْهُ اللّهُ إلاّ ذُلاً، وَمَنْ تَزَوّجَهَا لِمَالِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللّهُ إلاّ فَقْرًا، وَمَنْ تَزَوّجَهَا لِحَسَبِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللّهُ إلاّ دَنَاءَةً، وَمَنْ تَزَوّجَ امْرَأَةً لَمْ يُرِدْ بِهَا إلاّ أَنْ يَغُضّ بَصَرَهُ، وَيُحَصّنَ فَرْجَهُ، أَوْ يَصِلَ رَحِمَهُ بَارَكَ اللّهُ فِيهَا، وَبَارَكَ لَهَا فِيهِ))

[الطبراني في الأوسط، والترهيب والترغيب عن أنس]

والله الذي لا إله إلا هو ما سمعت من شاب تزوج امرأة، وآثر دينها على أي شيء آخر إلا سعد بها، وما سمعت رجلا تزوج امرأة ضحى بالدين من أجل شيء آخر إلا شقي بها، فعليك بذات الدين تربت يداك، لذلك هذه الآية تفيد كيف أن يحب النبي عليه الصلاة والسلام السيدة عائشة، وهو أطيب الطيبين ؟ فلابد أن تكون أطيب الطيبات، أيعقل أن تأتلف نفس النبي مع امرأة غير مستقيمة ؟.

أيعقل أن تتعلق نفس النبي بامرأة ليست محبة لله عز وجل ؟ هذه الآية الأخيرة في هذا الحديث ؛ حديث الإفك هي الحقيقة المطلقة.

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطّيّبَاتُ لِلطّيّبِينَ وَالطّيّبُونَ لِلطّيّبَاتِ)

عندنا حكم شرعي آخر، هذه الآية لا تمنع أن تستمع إلى قصة مفادها أن هناك امرأة صالحة صائمة مصلية لها زوج سكير عربيد، هذه الآية ساقها الله على شكل خبر، لكن يفيد بها النهي، أيْ: يا عبادي ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات، فإذا كانت عندك ابنة شريفة طاهرة عفيفة فلا تفرط فيها، لا تسلمها إلى إنسان لست متأكدا من دينه، ولا من خلقه، الزواج رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته، هذا توجيه.

إن كانت ابنتك طيبة فلا تفرط فيها، وكم في المجتمع من مآس سببها أن الأب استعجل زواج ابنته، فوقع في ندم شديد.

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

هذا حكم شرعي، بمعنى أنه يجب، فأولياء الأمور، أولياء الطيبات، أو أولياء الشباب لا ينبغي لعارض من الدنيا إذا جاءنا خاطب عنده بيت، والبيت الآن صعب توافره، أو عنده سيارة، أو عنده معمل، أو عنده محل تجاري، أو دخله كبير، أو أبوه غني، وهو لا يصلي، وهو ليس مستقيما، لا ينبغي أن تفرط بهذه الابنة.

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة: الآية 221]

المعنى الثاني: الكلمات الخبيثات لا ينطق بها إلا الخبيثون:

وثمة معنى آخر لهذه الآية ؛ الكلمات الخبيثات لا ينطق بها إلا الخبيثون، الكلمة الخبيثة، الكذب، المزاح الرخيص، الفحش، البذاءة، الغيبة، النميمة، الخبيثات أي الكلمات الخبيثات لا ينطق بها إلا الخبيثون، هناك انسجام نفس، كلها مياه آسنة، فإذا أخرجت منها الماء ماذا ترى ؟ إذا انحنيت على الحاوية لتأخذ ما فيها ماذا ترى فيها ؟ أترى الذهب والفضة ؟ أترى قطع الماس ؟ أترى فيها باقات الزهور ؟ ماذا ترى فيها ؟ ليس فيها إلا القمامة، والعلب الثمينة لا تنطوي إلا على الحلي الغالية، فالمعنى الثاني الذي جاء في بعض التفاسير بل في معظمها - والمعنى الأول هو أقوى المعاني إن النفوس الخبيثة لا تلتئم إلا مع مثيلاتها، وأن النفوس الطيبة لا تتوافق إلا مع مثيلاتها - لكن المعنى الثاني أن الكلمات الخبيثة ؛ هذا الذي ينطق بطرفة ماجنة أعتقد اعتقادا جازما أن له نفسا ماجنة، وأنه ينطوي على نفس خبيثة، المؤمن الحق لا يطرب لهذا المزاح، لا يضحك له، ينزعج منه، نفسه طاهرة، لذلك الكلمات الخبيثة لا ينطق بها إلا الخبيثون، فالكلمات الخبيثة مثل هذا الافتراء، مثل هذا الترويج، مثل هذه الأكاذيب، مثل هذه الضلالات، مثل كلمة الفحش، مثل الكذب، هذا كله كلمات خبيثة.

المعنى الثالث: الأعمال الخبيثة لا تصدر إلا نفوس خبيثة:

هناك تفسير آخر، الأفعال الخبيثة لا تصدر إلا عن نفوس خبيثة، أن تنظر إلى ما لا يحل لك فهذا فعل خبيث، أن تفعل شيئا فيه مقت لله عز وجل، هذا فعل خبيث لا يصدر إلا عن نفس خبيثة، فأصبحت هذه الآية تعني ثلاثة أشياء ؛ الشيء الأول: أن المرأة الخبيثة لا تتوافق إلا مع خبيث مثلها، شيطان

وشيطانة، والثاني: أن الكلمة الخبيثة لا ينطق بها إلا الخبيث، والثالث: أن الأفعال الخبيثة لا تصدر إلا عن الخبيث، وبالمقابل الكلمات الطيبة ؛ كلمات الطهر والعفاف ربنا عز وجل علمنا في كتابه كيف نكني عن بعض المعاني التي تخدش حياء الإنسان فقال:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المؤمنون: الآيات 5-7]

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

هذه كناية لطيفة جدا.

(أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً)

[سورة النساء: الآية43]

كيف يفهم هذه الكلمة طفل:

(أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً)

ربنا عز وجل علمنا الأدب، والدين كله أدب، هذا الذي يقول: لا حياء في الدين، هذه كلمة حق أريد بها باطل، يعني لا حياء أن تتعلم أمور دينك، أما أن تسمي الأشياء بأسمائها، وقد تخدش بها حياء الأطفال فهذا ليس من الدين في شيء، النبي عليه الصلاة والسلام كان أشد حياء من العذراء في خدرها، سألته مرة امرأة عن قضية نسائية فوجهها، فلما أرادت أن تستزيد، وكان في هذه الاستزادة إحراج له يروي أصحابه أن لونه تغير، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِهَا مِنْ الْمَحِيضِ فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ قَالَ:

((خُذِي فِرْصَةً مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا، قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ ؟ قَالَ: تَطَهَّرِي بِهَا، قَالَتْ: كَيْفَ ؟ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! تَطَهَّرِي، فَاجْتَبَذْتُهَا إِلَيَّ فَقُلْتُ: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ))

[البخاري، مسلم، النسائي]

وفي رواية أحمد عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: ذُكِرَتْ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ فَأَثْنَتْ عَلَيْهِنَّ، وَقَالَتْ لَهُنَّ مَعْرُوفًا، وَقَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ النُّورِ عَمَدْنَ إِلَى حُجَزٍ أَوْ حُجُوزٍ مَنَاطِقِهِنَّ فَشَقَقْنَهُ، ثُمَّ اتَّخَذْنَ مِنْهُ خُمُرًا، وَأَنَّهَا دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَنْ الطُّهُورِ مِنْ الْمَحِيضِ فَقَالَ:

((نَعَمْ، لِتَأْخُذْ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَلْتَطَهَّرْ، ثُمَّ لِتُحْسِنْ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبَّ عَلَى رَأْسِهَا، ثُمَّ لِتَدْلُكْ بِشُؤُونِ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَدْلُكُهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ طُهُورٌ، ثُمَّ تَصُبَّ عَلَيْهَا مِنْ الْمَاءِ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَلْتَطَهَّرْ بِهَا، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا ؟ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْنِي عَنْ ذَلِكَ،

فَقَالَتْ عَائِشَةُ: تَتْبَعُ بِهَا أَثَرَ الدَّمِ، قَالَ عَفَّانُ: ثُمَّ لِتَصُبَّ عَلَى رَأْسِهَا مِنْ الْمَاءِ، وَلْتُلْصِقْ شُؤُونَ رَأْسِهَا فَلْتَدْلُكْهُ، قَالَ عَفَّانُ: إِلَى حُجَزِ أَوْ حُجُوزِ))

[أحمد]

فمن علامات المؤمن أنه حيي، كثير الحياء.

(الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

فالكلمات الطيبات تشف عن نفوس طيبة، الاعتذار، الأدب، الصدق، الكلمات التي تعبر عن المودة هذه تدل على نفس طيبة كريمة موصولة بالله عز وجل، والكلمات الطيبات لا تصدر إلا عن نفوس طيبة، ولكن الذي يرجح المعنى الأول من أن النفوس الخبيثة لا تلتئم إلا بمثيلاتها.

نهاية هذه الآية:

(الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ)

أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

مما يقول المنافقون، مما يقول أهل الكفر، مما يرجفون به في المدينة.

(أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

يغفر الله لهم، ويرزقهم رزقا كريما.

هذه الآية ينتهي بها حديث الإفك، وهذا الحديث كما قال الله عز وجل فيه خير كثير، وهذا الحديث يجب أن نستنبط منه استنباطات تعلمنا كيف نتعامل مع إخواننا المؤمنين الطاهرين الصادقين، وفي درس قادم إن شاء الله نبدأ بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

(سورة النور)

هنا الموانع الاحترازية، أو التدابير الاحترازية التي تقي من الزنى كعدم الخلوة وغير ذلك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (08-23): تفسير الآيات 27 – 29
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-11-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة النور، انتهى بفضل الله وعونه في الدرس الماضي تفسير حديث الإفك، والآن ننتقل إلى ما بعد هذه الآيات التي تتحدث عن حديث الإفك.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29))

(سورة النور)

علاقة هذه الآيات بما سبق: التدابير الاحترازية من الزنى:

هذه آيات هذا الدرس، الحقيقة بعد أن بين لنا سبحانه وتعالى موضوع الزنى، وكيف أنه شيء يقبح بالإنسان فعله، وكيف أن الزاني لا ينكح إلا زانية، وكيف أن الزاني عليه حد يقام تطهيرا للمجتمع من هذه الجريمة، وكيف أن الذي يقذف محصنة عليه جلد، وعليه إقامة حد ؛ هو حد القذف، وكيف أن حديث الإفك الذي تورط فيه بعض من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف كان عند الله عظيماً، وكيف أنّ الله جل وعلا برّأ السيدة عائشة من هذه التهمة التي ألصقت بها، هذه الآيات التي سبقت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ)

قد يسأل سائل: ما علاقة هذا التوجيه بالآيات السابقة ؟ الإجابة عن هذا السؤال واضحة، وهي أن الله سبحانه وتعالى في الآيات التالية يبين لنا التدابير الاحترازية من الزنى، كيف تكلم المتكلمون، وكيف أرجف المنافقون، كيف استطاع بعض الناس أن ينالوا من عفة هذه السيدة الطاهرة ؛ السيدة عائشة ؟ فلو لم تكن هذه الخلوة التي كانت بين صفوان وبين عائشة ما كان لأحد أن ينطق بكلمة سوء في حق السيدة الطاهرة، لذلك من المنزلقات إلى الزنى، أو إلى أن يتهم الإنسان بالزنى، من المنزلقات الخطيرة الخلوة، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلَا تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، وَخَرَجَتْ امْرَأَتِي حَاجَّةً، قَالَ: اذْهَبْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ))

[البخاري، مسلم، ابن ماجه، أحمد]

مخاطبة الله للمؤمنين على سبيل التخصيص والتشريف:

الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات التي هي موضوع هذا الدرس يبين التدابير الاحترازية التي تمنع من الزنى، أو تمنع من تهمة الزنى، من هذه التدابير أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

فإذا كنت مؤمنا حقا تشعر في أعماقك أنك معني بهذا الخطاب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وكأن الله سبحانه وتعالى لعلمه بأن هؤلاء الذين آمنوا يحرصون على تنفيذ أمر الله، ويستجيبون له، ويتأدبون بآداب الإسلام، لذلك وجه الله سبحانه وتعالى لأولئك المؤمنين في كل زمان ومكان هذا التوجيه، وهذا التوجيه ينضوي تحت باب الآداب العامة، هناك عبادات ؛ من صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، وهناك معاملات ؛ بيع، وإرث، وزواج، وطلاق، وشركة، وقرض، وإيجار، وما شاكل ذلك، وهناك الأخلاق ؛ ومن الأخلاق الآداب، وهذه الآيات تتحدث عن آداب الاستئذان، لذلك مما يميز المسلم عن سواه أنه متأدب بآداب القرآن، وسوف تأتي تفصيلات هذه الآيات، والقصد منها أن نتأدب جميعا بآداب الاستئذان، لأن هذه الآداب من صفات المؤمنين الذين ينصاعون لأمر الله، ولتوجيهه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ

شيء آخر... هو أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا

[وكما قلت لكم من قبل هذه الكلمة:

(بُيُوتًا)

نكرة، وكيف عرفنا أنها نكرة ؟ من التنوين، والتنوين علامة التنكير، تقول مثلا: البيت، فهي معرفة، أما بيت فنكرة، نهر بردى معرفة، أما نهر فنكرة، فكلمة:

(بُيُوتًا)

جاءت نكرة، وشيء آخر.. جاءت في سياق النهي، وإذا جاءت النكرة في سياق النهي أصبحت شاملة، فهذه الآية تشمل أيّ بيت، فأيّ بيت لابد أن تدخله بعد استئذان.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا)

أيّ بيت.

(لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا)

قد يقول قائل: هذا بيت أخي، هذا بيت أختي، هذا بيت بنتي، هذا بيت عمي، هذا بيت والدي.

(لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا)

لأن الكلمة جاءت نكرة، وجاءت في معرض النهي فالكلمة تفيد الشمول.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا)

معنى الاستئناس:

المعنى الأول: العلم:

معنى الاستئناس هنا العلم، كقوله تعالى:

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا)

(سورة النساء: الآية6)

أيْ فإن علمتم منهم رشدا، حتى تستأنسوا أيْ حتى تعلموا أن أصحاب هذا البيت راغبون فيكم أو غير راغبين، لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تعلموا أن أصحاب هذا البيت راغبون في دخولكم هذا البيت، أو أنتم أناس غير مرغوب فيكم، هذا معنى حتى تستأنسوا، فيجب أن تأخذوا موافقة بالدخول، أو يجب أن تتلقوا رفضا وتوجيها بعدم الدخول، وهذا هو الاستئذان.

المعنى الثاني: الاستئذان:

(حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا)

أيضا بمعنى حتى تستأذنوا، السلام عليكم أنا فلان، أأدخل ؟ هذا هو الاستئذان، ولماذا عبر ربنا سبحانه وتعالى وهو الحكيم العليم عن الاستئذان بالاستئناس ؟ لأن الاستئذان من ثمراته الاستئناس، فإذا طرقت الباب فقيل لك: من الطارق ؟ قلت: فلان، قيل لك: أهلا وسهلا، تفضل، ترتاح نفسك، أنت تستأنس إن سمح لك بالدخول، لذلك جاءت كلمة استئناس مكان استئذان ليفيد معنيين في الوقت نفسه، يفيد معنى طلب الدخول، أعلمتهم من أنت، وانتظرت أن تأخذ موافقتهم، فإذا أخذت موافقتهم على الدخول تشعر بالأنس، ترى أنك إنسان مرغوب فيه، هذا المعنى الأول، والثاني معنى الإعلام، وطلب الإذن، ومعنى الاستئناس.

المعنى الثالث: ذكر اسم المستأذِن:

حينما تزمع أن تدخل بيتا فلابد أن تعلم الناس من أنت، فلو أنك فاجأتهم لأخذتهم، أو لأشعرتهم بالوحشة، لذلك المعنى الثالث للاستئذان أن تعلن عن اسمك، من آداب الاستئذان أن تقول: أنا فلان، من الطارق ؟ فلان، إذا أول معنى تعلمهم، تطلب أن يعلموك، ما إذا كانوا موافقين على دخولك، أو غير موافقين، هذا أول معنى، فإذا وافقوا على دخولك فهذا يمنحك الأنس والطمأنينة، هذا المعنى الثاني، والمعنى الثالث يجب أن تعلمهم من أنت، أنا فلان، فإذا طرق الباب ليلا، وفي وقت متأخر، وفي ساعة متأخرة، وفي مكان موحش، أو في بيت متطرف، أو في ظرف عصيب، أو في وقت شديد، أوفي حالات خاصة،في مكان وزمان معينين يجب أن تقول من أنت، أنا فلان.

قد يقول قائل: أنا، من الطارق ؟ أنا، من أنت ؟ قد يخشون أن يفتحوا لك الباب فلابد أن يستمعوا إلى صوتك، وإلى هويتك، وإلى قرابتك، هذا هو المعنى الثالث.

المعنى الرابع: استئناس أهل البيت:

فإذا أعلمتهم من أنت أدخلت الأنس على قلوبهم، أعلمتهم من أنت فاستأنسوا، ووافقوا لك على الدخول فاستأنست.

هذه أربعة معان جمعتها كلمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا)

أعلمتهم من أنت فرحبوا بك، فاستأنست، وأعلموك بالموافقة، فرحبوا بك فاستأنست، أعلمتهم، وأعلموك، وآنستهم، وآنسوك، أربعة معان مستفادة من كلمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا)

المؤمن ظله خفيف، المؤمن لا يفزع الناس، لا يخيفهم، لا يخجلهم، لا يربكهم، لا يوقعهم في شك، في حيرة، لذلك قيل: البيان يطرد الشيطان.

أثر عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا طرق بابا حمد الله، وسبحه، وكبره، إذاً هذا معنى خامس، إنك إذا حمدت الله، وسبحته، وكبرته، قلت: سبحان الله، الله أكبر، الحمد لله، لا حول ولا قوة إلا بالله، فهذه الكلمات الطيبة التي فيها ذكر لله عز وجل ربما تبث الأنس في نفوس الناس، إذاً تعلمهم فيستأنسون، ويأذنون، لك فتستأنس، وحري بك أن تُذَكِّرهم بالله عز وجل، فإن ذكر الله عز وجل يطمئن القلوب، فإذا التقيت بإنسان لا تعرفه، فقام فصلى أمامك تطمئن له، إذا قال: سبحان الله تطمئن له، إذا قال: الحمد لله تطمئن له، إذا قال: الله أكبر تطمئن له، إذا شعرت أن هذا الذي أمامك، أو أن هذا الذي

يدخل عليك يعرف الله عز وجل عندئذ لا تخاف، لذلك روي: **" ابن آدم خف ثلاثا ؛ خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني ".**

هذا الذي لا يخافك يجب أن تخاف منه، والمؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((المُؤْمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ))

[القضاعي في مسند الشهاب عن أنس]

وسيدنا عمر كان يقول: **<< لست بالخب، ولا الخب يخدعني >>.**

[نسبه في لسان العرب إلى ابن سيرين، انظر مادة خبب]

الحكمة من الاستئذان:

من الحكمة التي رآها بعض العلماء حول موضوع الاستئذان أن الذي يدخل البيت من غير استئذان ربما وقعت عينه على عورات البيت، على عورات أهله، أو على نقاط ضعفه، فإذا دخلت من دون استئذان قد يكون هذا الذي تدخل عليه جالسا مع زوجته، قد تكون الزوجة متبذلة في ثيابها، فكيف ترضى أن تدخل على بيت ليسوا مستعدين لاستقبالك، لذلك عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:

((اطّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ فِي حُجَرِ النّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَعَ النّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِدْرًى يَحُكُّ بِهِ رَأسَهُ، فَقَالَ: لَوْ أعْلَمُ أنّكَ تَنْظُرُ لَطعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ إنّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أجْلِ الْبَصَرِ))

[البخاري، الترمذي، وأحمد]

لئلا تقع عينك على قبيح، لئلا ترى عورات النساء، لئلا ترى ما لا يحل لك، لئلا ترى منظرا مزعجا جُعِلَ الاستئذان.

أحيانا تقول: أخي هذا البيت فيه شباب، وليس فيه نساء، لعل هؤلاء الشباب غرفهم غير منظمة، لعلهم يقومون بأعمال في البيت، أحدهم يطلي هذا البيت، وآخر يقوم بأعمال لا يحب أن تراه يفعلها، قد يأكل طعاما خشنا، قد يأكل طعاما لا يحب أن ترى ماذا يأكل، لا يحب أن ترى ماذا يلبس في البيت، ربما لا يملك ثيابا في البيت لائقة، لا يريد أن يستقبلك بها فإذا دخلت عليه من دون استئذان أحرجته، وأوقعته في الخجل.

موضوع الاستئذان من أجل ألا تنظر إلى عورات النساء في البيت، ومن أجل ألا تنظر إلى عورات البيت، البيت له عورات، الإنسان أحيانا ينظم غرفة الاستقبال، ولكنه لا ينظم غرفة الجلوس بشكل دائم لاستقبال الضيوف، المطبخ أحيانا غير منظم، وغير جاهز لاستقبال الضيوف، لذلك إنما جعل الاستئذان من أجل النظر. الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا)

الفرق بين حكم الاستئناس والاستئذان:

فرّق العلماء بين حكم الاستئناس أي الاستئذان، وبين حكم التسليم، فالاستئذان واجب، بينما إلقاء السلام مندوب، لكن رد السلام واجب، قال تعالى:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)

(سورة النساء: الآية86)

فإن قال لك أحد: السلام عليكم فيجب عليك أن ترد عليه السلام، ولكن إلقاء السلام مندوب، بينما طلب الإذن واجب، فلا توجد قضية اختيارية، لا يحق لك أن تدخل البيت قبل أن تستأذن، وبعضهم قال: الاستئذان قبل السلام، لأن حكمة الاستئذان وردت في الترتيب الذكري قبل إلقاء السلام، وبعضهم قال: لا... تسلم، ثم تستأذن لحديثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((السَّلَامُ قَبْلَ الْكَلَامِ))

[الترمذي]

تسلم، وتسأل، تسلم، وتساوم، تسلم، وتستفهم.

وبعضهم قال كحلٍّ وسط: إن وقعت عينك على أحد في البيت فسلّم، واستأذن، وإن لم تقع فاستأذن وسلم، على كل لابد من الاستئذان، فهو واجب، ولابد من إلقاء السلام، فهو مندوب، وقال بعضهم، الاستئذان ليس مقيدًا بعدد، فما دام ورد الاستئذان في القرآن غير مقيد فهو مطلق، يعني السلام عليكم مرة واحدة.

السُّنّة الاستئذان ثلاثا:

وبعضهم قال: الاستئذان ثلاث مرات، مرة تسمع أهل البيت، ومرة يتهيؤون لاستقبالك، ومرة يأذنون لك، المرة الأولى كأنه الآن قرع الجرس، أو قرع هذه التي يقرع بها الباب، كأنها نوع من الاستئذان، الأولى الإنسان يقرع ثلاث مرات، وبين المرة والمرة كما ورد عند الفقهاء مقدار صلاة أربع ركعات، لماذا ؟ لأن هذا الذي تطرق بابه ربما وقف يصلي الظهر فلن يقطع الصلاة من أجلك، فإذا طرقت كثيرا، وألححت في طرق الباب فقد شوشت عليه صلاته، لذلك من كمال الأدب أن تطرق الباب مرة، وأن تنتظر مقدار صلاة أربع ركعات، فقد يكون، الإنسان في الحمام، قد يكون في قضاء حاجة، قد يكون في مشكلة، قد يكون مكانه صعبًا، قد يكون على سقيفة البيت، يحتاج إلى من يضع له السلم، هذا الذي يطرق بعنف، وبتتابع هذا إنسان ليس متأدبا بآداب الإسلام، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:

((كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ، إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ، فَقَالَ: اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ ثَلاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ ؟ قُلْتُ: اسْتَأْذَنْتُ ثَلاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاثاً فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَتُقِيمَنَّ عَلَيْهِ بِبَيِّنَةٍ، أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: وَاللَّهِ لا يَقُومُ مَعَكَ إِلا أَصْغَرُ الْقَوْمِ، فَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ فَقُمْتُ مَعَهُ فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَلِكَ))

[البخاري، مسلم، أبو داود، أحمد]

ثلاث مرات فقط، أما أربع، خمس، عشر، عشرون، هذا صار إقلاق راحة وإزعاجًا.... ثلاث مرات، ما دام أحد لم يجب فليس هناك إذن بالدخول، سواء كانوا في البيت أو خارج البيت، لكن قال العلماء: إن واجب الاستئذان مرة واحدة، لكن من حق الداخل أن يطرق الباب ثلاث مرات، الواجب مرة، فلو لم يؤذن له أن يذهب، لكن إن كان ملحا في الدخول، وإن كان يعلق آمالا على الدخول فله الحق أن يستأذن ثلاث مرات: أول مرة، والثانية، والثالثة، ومن أحكام الاستئذان ألا يقف طارق الباب أمام الباب، فلو أنهم فتحوا الباب ربما وقعت عينه على امرأة داخل البيت، من آداب الاستئذان أن تعطي ظهرك للباب، تطرق الباب، وتعطي ظهرك للباب، فلو فتح الباب، وأنت في جهة أخرى، وباتجاه مكان غير الباب فهذا من آداب الاستئذان، فَتُعْرَفُ أنت المسلم المتأدب بآداب القرآن من غير المسلم المتأدب من طريقة طرق الباب... يطرق الباب، وعينه على مصراعي الباب، وكأنه ينتظر لينظر... هذا ليس متأدبا بآداب الإسلام، ولا تعنيه آداب القرآن، لكن المؤمن يدير ظهره للباب، ويطرق، والعلماء قالوا: الاستئذان واجب، ولو للأعمى، فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ))

هذا لا ينظر، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ))

لأن من أكبر المسوغات للاستئذان النظر، وليس معنى هذا أن النظر هو المسوغ الوحيد، هناك عورات سمعية... فإذا كان هناك شجار في البيت، ودخلت فجأة، وجدتهم يسبون بعضهم، وهم لا يريدون لإنسان أن يطلع على المشكلة، فأنت حين دخلت على البيت فجأة رأيت صياحا، وبكاء، وعويلا أضفت إلى مصيبتهم مصيبة، مصيبة المشكلة والصراع، ومصيبة الفضيحة، لذلك هناك عورات ترى بالعين، وهناك عورات تسمع بالأذن، ومن علا صياحه في البيت فسمعه من في الطريق فهذا مما يخدش عدالته.

حكم الاستئذان عام في الرجال والنساء:

شيء آخر ؛ هو أن حكم الاستئذان ليس خاصا بالرجال، الأحكام الشرعية في القرآن الكريم أكثرها موجه إلى الرجال، أما النساء فينطبق عليهن الحكم الشرعي بشكل طبيعي، لأن هذا اسمه في علم الأصول التغليب، فإذا قال ربنا عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا)

فكأنه يقول: يا أيتها المؤمنات لا تدخلن بيوتا غير بيوتكن، وربما كان دخول المرأة إلى بيت لا تعلم من فيه من دون استئذان أكثر خطرا عليها من دخول الرجل، فربما وقعت الواقعة من هذا الدخول المتعجل، لذلك الحكم الشرعي المتعلق بالاستئذان ينطبق على النساء والرجال معا، بل ربما كان انطباقه على النساء أشد من انطباقه على الرجال خشية أن يقع لهذه المرأة مكروه.

الاستئذان ضمان وسلامة:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

وكما قلت اليوم في الخطبة: **العلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية، بمعنى أنها علاقة سبب بنتيجة، والعلاقة بين المعصية وتبعاتها علاقة علمية**، بمعنى أنها علاقة سبب بنتيجة، فإذا فعلت هذا كنت في حرز حريز، وفي حصن حصين، لا يتمكن أحد أن ينال منك ما دمت تأدبت بآداب القرآن، لا يتمكن أحد أن ينال من هذه المرأة ما دامت لم تدخل هذا البيت إلا بعد أن استأنست، وعرفت من فيه، إذا هذه الآيات ليست تقييدا لحريتنا، بل هي ضمان لسلامتنا.

ما حكم دخول الإنسان إلى بيته ؟

أما كلمة:

(لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ)

فما حكم البيت ؟

الآن سؤال ثانٍ ما حكم الدخول إلى بيتك، هذا البيت الذي تسكنه، هناك ثلاثة احتمالات ؛ إما أن تسكنه مع أجانب، هناك بيوت مؤجرة غرفا غرفًا، فيوجد أجانب في هذا البيت، ربما كانت امرأة صاحب هذه الغرفة في المطبخ، ربما كانت أخت صاحب هذه الغرفة في الحمام، فالبيت الذي تسكنه إذا كان فيه أجانب حكمه حكم البيت الذي لا تسكنه، فيحتاج إلى استئذان، أما إذا كان في البيت محارم، هناك الأم،

أو الأخت، أو بيت الأخ، أو بيت الأخت، أو الأقارب هذا حكم آخر، فَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا، أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً ؟قَالَ: لَا، قَالَ فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا))

[مالك في الموطأ، والبيهقي في السنن الكبرى]

الحكم غريب، أمه، قال عليه الصلاة والسلام:

((نعم، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا، فقال عليه الصلاة والسلام: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا ـ أيْ كلما دخلت، فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام دهشة هذا السائل قال: أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً ؟ وإن تكن أمك ـ أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً ؟ قال: لا، قال فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا))

حتى بيتك فيه والدتك، مثلا أختك في البيت، بيت أختك، بنت أخيك يجب أن تدخل مستأذنا لئلا تقع عينك على شيء لا يحل لك أن تنظر إليه، بعض الناس يتوهمون، وهذا سوف يأتي معنا بالتفصيل أن لك أن تنظر إلى المرأة التي حرمت عليك، حرم عليك زواجها ؛ كالأخت والأم، حتى هذه المحارم لابد من حدود في النظر إليهن، العلماء سموا ثياب الحشمة ؛ صدر مستور، والعضد مستور، والفخذ مستور، فيبدو الساق، والساعد، والرقبة فقط، أما هذا الذي ينظر إلى محارمه، وهن في أبهى زينة هذا مخالف لآداب الإسلام، وهذا يأتي معنا بالتفصيل في آيات أخرى، فصار في البيت ثلاثة احتمالات ؛ أن يكون فيه أجنبيات، وحرمة الدخول إلى هذا البيت وفيه أجنبيات أشد من حرمة الدخول على بيت فيه محارم، لماذا ؟ لأن الأجنبية ليس لك أن ترى منها شيئا، فهي كلها عورة، لكنك إذا دخلت بيتًا فيه بعض محارمك، ونظرت إلى وجهها، وجهها مباح بالأصل أن تراه، والحرمة أخف، لكنك إذا دخلت إلى بيت ليس فيه إلا زوجتك فهل أنت بحاجة إلى استئذان ؟ الجواب: نعم، ربما كانت عندها ضيفة، ربما كانت أختها عندها، وأختها لا يحل لك أن تنظر إليها، ربما كان عندها جارتها، فالاستئذان حتى في البيت ضروري.

حالة أخرى: أنت خرجت من البيت، ودخل في ساحة نفسها أن البيت فارغ، فإذا فتحت الباب من دون أن تشعر، وفاجأتها في المطبخ ربما صعقت، وظنت أن هناك رجلا أجنبيا دخل عليها، فأيضا الآداب الإسلامية تقتضي لو أنك تملك مفتاحا للبيت، وأردت أن تدخله أن تعلم أهلك أنني رجعت.

استثناءات الاستئذان:

هناك استثناءات.

من هذه الاستثناءات: لو أن حريقا شب في بيت المسلم فله أن يدخل هذا البيت لإطفاء الحريق من دون استئذان.

لو أن صراخا في البيت يستجير صاحبه من لصوص فلك أن تقتحم البيت من دون استئذان لتنقذ أهله من اللصوص.

هناك حالات استثنائية قاهرة يعطل فيها هذا الحكم الشرعي.

هناك شيء أخطر من دخول البيت من دون استئذان، لو أن إنساناً دخل بيتا من دون أن يعلم أحداً، ومن دون أن يستأذن، ومن دون أن يطرق الباب، وفاجأ أهل البيت، وهم في ساحته ماذا يفعلون ؟ يأخذون حذرهم، يدخلون إلى غرف، يضعون على رؤوسهم شيئا أما هذا الذي ينظر من ثقب الباب إلى أهل البيت فالأمر خطير فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَن اطّلَعَ فِي دَار قَوْمٍ بِغَيْر إِذْنِهِمْ فَفَقَئُوا عَيْنَهُ فَقَدْ هَدَرَتْ عَيْنُهُ))

[أبو داود]

حُكمُ مَن يختلس النظر في عورات البيوت:

واختلف العلماء، بل اختلف الفقهاء في هذا الحكم، فهذا الذي ينظر إليك من دون أن تشعر يتلصص عليك في النظر، يسترق النظر إليك، وأنت غافل، فلو انتبهت، وفقأت عينه هل عليك شيء، أم لا شيء عليك ؟ الأرجح أنه عليك شيء لقوله تعالى:

(العَيْنُ بِالْعَيْنِ)

(سورة المائدة: الآية 45)

ولكن هذا الحديث الشريف حمل على المبالغة في الزجر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

حُكمُ البيوت غير المسكونة

الحكم الأول: عدم الدخول إلا بالإذن:

الآن:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا)

طُرِق بيت بابه مفتوح، لم يجب أحد، فليس لك أن تدخل، فلو دخلت إليه أوقعت نفسك في ورطة، أو أوقعت نفسك في شبهة، فلو ادعى عليك صاحب البيت أنه فقد مائة ألف لألصقت هذه التهمة بك، لذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى من تتميم تأديبه لنا يحظر علينا دخول البيت حتى لو لم يكن فيه أحد، لكن دقة القرآن الكريم ليس لها حدود، وكلما فهمنا شيئا من إعجازه نتأكد أن هذا الكلام ليس كلام بشر، إنما كلام خالق البشر، لم يقل: فإن لم يكن بها أحد، بل قال:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا)

فإذا سبق لظنك أن هذه البيت خالٍ من أهله فلا يحق لك أن تدخل، فلو دخلته ففوجئت أن فيه أشخاصا، وقلت لهم: معذرة، كنت أظن أن هذه الدار خالية، هذا عذر أقبح من ذنب، لأن الله سبحانه وتعالى نهاك أن تدخلها مسكونة أو غير مسكونة.

قال ربنا عز وجل:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا)

أيْ إذا غلب على ظنكم أن ليس بها أحد، مع العلم أنه قد يكون بها أحد فالعبرة أن يغلب على ظنك أنه ليس بها أحد، فلا ينبغي أن تدخلها حتى يؤذن لكم، فكيف يؤذن لكم ؟ ليس بها أحد... يكون صاحبها قد أعطاك الإذن، أعطاك المفتاح، أعطاك تفويضاً، فإذا انتبه الجار، وقال لك: أين تدخل ؟ قلت: هذا المفتاح، وهذا تفويض بتوقيع صاحب البيت، فإذا أنت أردت أن تدخل فهذا يحدث، أعارك إنسان بيتًا في مصيف، وقال: خذ المفتاح، يقول: أريد ورقة، لا يكفي المفتاح، بل يجب أن يكون هناك إذن خطي، حتى إذا سألك الجيران إن كان معك إذن خطي أريتَه لهم، هذه آداب القرآن:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ)

أي هل معك إذن مسبق ؟

الحكم الثاني: وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا

إنْ وجدت في البيت أحدًا، فالآية عجيبة، إذا دخلت البيت، وفيه إنسان غير مالكه، ومنعك من الدخول فمعه حق.

(وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا)

قد يكون البيت في مصيف، وصاحب البيت أعطاه لصديق له، وسمح لك أن تذهب إليه، ذهبت إليه، فإذا هو مشغول، حصل هناك خطأ في المواعيد، يقول لك الذي في البيت: لا تدخل، أنا هنا، فارجع أنت.

(وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا)

هذا حكم ثان للبيت غير المسكون، إن أردت دخوله فلابد من إذن واضح، وإن كان به إنسان لا يملكه، ومنعك من الدخول فله الحق في ذلك، وإذا غلب على ظنك أن هذا البيت ليس فيه أحد فليس لك أن تدخله، مع أنه خالٍ من السكان، هذه بعض الأحكام التي تؤخذ من قوله تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ)

هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

أطهر، أزكى لسمعتكم، أزكى لكرامتكم، أزكى لمكانتكم، أزكى لشخصيتكم.

(هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

هذا تهديد، فإنّ الله سبحانه وتعالى يقول: أنا أعلم بما تعملون، أعلم الدوافع الخفية التي وراء أعمالكم، أعلم ما إذا كنتم توهمتم أن أحدا في البيت ليس موجودا، أو موجودا فهذا يعلمه الله عز وجل، أعلم نواياكم في دخول البيت، أعلم كل شيء، كل أعمالكم مكشوفة عند الله عز وجل، قال بعض العلماء: هذا تهديد من الله عز وجل، أي أيها العباد أنا عليم خبير بطوايا نفوسكم، بنواياكم، بما يعتلج في صدوركم، ومن قوله تعالى:

(وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا)

ماذا يفهم من هذا الحكم ؟ يفهم من هذه الآية أن عليك ألا تلح في الدخول، لأنّ الإلحاح ليس من صفات المؤمن، وفي الحديث:

((اِبْتَغُوا الْحَوَائِجَ بِعِزَّةِ الأَنْفُسِ فَإِنّ الأُمُورَ تَجْرِي بِالْمَقَادِيرِ))

[المقدسي في الأحاديث المختارة عن عبد الله بن بسر]

لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه،

(وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُم)

أيْ أزكى لعملكم، لشخصيتكم، لمكانتكم، لكرامتكم، لشأنكم.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ

ثم يقول الله سبحانه وتعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ)

المحلات التجارية لك أن تدخل من دون استئذان، لأن هذا المحل التجاري بالأساس مهمته استقبال الناس، فليس معقولاً...اسمح لي...أأدخل... صاحب المحل يريد أن يبيع ويشتري، والفندق مكان عام، الحمام في الماضي، المرافق العامة، الحوانيت التجارية، أحيانا مكان مثلا النادي الرياضي مفتوح الأبواب لكل الداخلين، فهذه النوادي، البيوت المعدة مثلا لاستقبال الأجانب للتأجير فرضا، الفنادق، الأماكن العامة، الحوانيت التجارية هذه كلها لك أن تدخلها من دون إذن، فطبيعة المحل يقتضي أن تدخله بلا إذن، لكن يقول الله عز وجل:

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ)

لكم في هذا البيت حاجة.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ

لكن:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

في هذا المحل نساء متبذلات، فربنا عز وجل... دخول فندق، دخول مكان عام، دخول النادي...فالإنسان مضطر، لكن هناك حالات وراء الدخول، الاستمتاع بما حرم الله في مكان فدخوله محرماً، ربنا عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

هناك أسواق تجارية، إذا كان الإنسان يمشي في هذه الأسواق بغية النظر للنساء فهذا إثم كبير، والله سبحانه وتعالى يتهدده في هذه الآية، أحيانا في هذا السوق محلل، يحتاج هذا الإنسان لتحليل دم، فمر في هذا السوق، ودخل إلى مكتب المحلل، هذا له حاجة، والله سبحانه وتعالى يعلم نيته، فكل إنسان يذهب إلى أماكن عامة فيها نساء كاسيات عاريات له هدف آخر غير الانتفاع بهذه الحوانيت فهو آثم.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ)

غير معدة للسكن، هذه معدة للتجارة، للبيع، للشراء هذا مرفق عام، فيها متاع لكم

(وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

فالله سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين ما تنطوي عليه أنفسكم من نوايا شريرة أو خيرة.

هذه الآيات الثلاث نوع من التدابير الاحترازية التي تمنع الخلوة، والخلوة باب الزنى، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((... لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا))

[أحمد]

وفي درس قادم نتحدث عن غض البصر الذي هو التدبير الثاني الذي يمنع الزنى... نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء...هذه السورة مهمة جدا، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تنتقل من عقولنا إلى سلوكنا، أن تصبح هذه الآداب آدابا نعيشها لا آدابا نستمع إليها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (09-23): تفسير الآية 30، غض البصر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-11-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة النور، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور)

الحكم الثالث من أحكام الاستئذان: غضّ البصر:

مر بنا في الدرس الماضي آيات الاستئذان:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: الآيات 27-29)

أي إذا سمح لهم بالدخول بعد أن استأذنوا أو استأنسوا، أو سمح لهم بالدخول عليهم، وإذا دخلوا بيوتا غير بيوتهم أن يستأذنوا، وأن يسلموا فعليهم أن يغضوا أبصارهم، ففي البيوت نساء، وفي البيوت عورات، فهذا الداخل عليه أن يغض بصره، سواء أكان هذا البيت الذي دخلته بيتا غير مسكون، أو بيتا غير معد للسكن، كالحوانيت والفنادق، فغض البصر في المعنى السياقي من لوازم دخول البيوت، إن أردتم دخول البيوت فعليكم أن تستأذنوا كي تستأنسوا، وتسلموا، وأن تغضوا أبصاركم، ومن إعجاز القرآن الكريم في نظمه أن هذه الآية في سياق الآيات تضيف إلى أحكام الاستئذان حكما ثالثا ؛ وهو غض البصر في البيوت، فإذا نزعت من سياقها فهي حكم عام لكل مؤمن.

إذاً في سياق الآية إذا دخلتم إلى بيوت غير بيوتكم، إن استأذنتم، واستأنستم، وسلمتم، إذا دخلتم فعليكم أن تغضوا من أبصاركم.

قد تكون في غرفة الاستقبال إحدى النوافذ مفتوحة، فلو أن امرأة لا تدري أنك في هذه الغرفة، ومرت من أمام النافذة فعليك أن تغض البصر، هذه امرأة أجنبية، هذه امرأة صديقك، امرأة صاحب هذا البيت،

فمن آداب دخول البيوت غض الأبصار، وأما الحوانيت إذا كان فيها نساء فمن آداب دخولها غض الأبصار، ولو دخلت فندقاً فمن آداب الدخول غض البصر.

ففي سياق هذه الآيات تعني هذه الآية غض البصر، إضافة إلى السلام، والاستئذان، والاستئناس، ثم هي في الوقت نفسه حكم عام يشمل كل المؤمنين، ففي أسباب نزول هذه الآية أن رجلا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام مر في طريق من طرقات المدينة فنظر إلى امرأة، ونظرت إليه، فوسوس إليهما الشيطان أنه ينظر أحدهما إلى الآخر لا شهوة، إنما ينظر أحدهما إلى الآخر إعجابا، وفي كل زمان هناك من يدعي ذلك، إن الله جميل يحب الجمال.. يقول لك: أخي أنا قلبي نظيف، لكني أنظر لأسبح الخالق...هذا كلام مرفوض، فهذا الرجل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام مر في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى تلك المرأة، ونظرت إليه، فوسوس إليهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط، وهو ينظر إليها إذ استقبله الحائط، فشق أنفه، فقال: **والله لا أغسل الدم حتى آتي الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره أمري**، فأتاه فقص عليه قصته، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((هذه عقوبة ذنبك))

ونزل قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا

هذه القصة ترويها كتب التفسير سبباً لنزول هذه الآية، لكن صياغة هذه الآية صياغة دقيقة:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا)

يَغُضُّوا فعل مضارع فيه إخبار، فكيف نوفق بينه وبين قُلْ، قال علماء التفسير: إن هناك فعل أمر مقدر، قل للمؤمنين غضوا أبصاركم، والمؤمنون سرعان ما غضوا أبصارهم، فقل للمؤمنين غضوا أبصارهم يغضوا من أبصارهم، في هذه الصياغة استنباط دقيق جدا، هو أن المؤمن ما إن يستمع إلى أمر الله سبحانه وتعالى حتى يسارع في غض بصره، أو في تنفيذ أمر الله، ليس هناك وقت بين سماعه الأمر وبين تنفيذه، فمجرد أن يستمع المؤمن إلى أمر الله سبحانه وتعالى مباشرة ينفذ هذا الأمر، غضوا أبصاركم يغضون من أبصارهم، قال عزوجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من الآية36)

أي لا اجتهاد في مورد النص، وما دام الله سبحانه وتعالى أمر بهذا الأمر المحكم الواضح الصريح فلا اختيار، ولا اجتهاد، ولا تعلل، ولا اعتذار، ولا تعليق، ولا حذف، ولا أي شيء من هذا.

الأمر الإلهيّ ينفذ بشكل مستمر:

شيء آخر ؛ هو أن الأمر الإلهي لا ينفذ مرة واحدة، ولكنه ينفذ بشكل مستمر، مما يؤكد هذا أن هذا الأمر الإلهي جاء في صيغة المضارع، أي يغضوا من أبصارهم، إنهم دائمون على غض البصر، إنهم مستمرون في غض البصر، فغض البصر شيء مستمر في حياة المؤمن، بل إن من شأن المؤمن أن يغض بصره، الفعل المضارع يفيد الاستمرار، فالشأن الثابت من شؤون المؤمن أنه يغض بصره.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

معنى غض البصر:

الآن معنى غض البصر إطباق الجفن على الجفن لمنع الرؤية، ومعنى غض البصر أن يطرق الإنسان بصره نحو الأرض، أطرق بصره، أي حوّله إلى الأرض، أو أن يحوله إلى جهة أخرى، إما أن تحوله إلى الأرض، أو أن تحوله إلى جهة أخرى، أو أن تطبق الجفن على الجفن، وترتاح من هذا المنظر، فإذا كنت راكبا مركبة عامة، أو في مركبة خاصة، ولم تكن أنت الذي تقود هذه المركبة، فإذا بدت لك امرأة بإمكانك أن تطبق جفنك الأعلى، وتبتعد بنفسك عن هذا المنظر، فإذا كنت محتاجا إلى عينيك في قيادة مركبة، أو في السير عندئذ تنظر إلى الأرض، أو تحول بصرك من جهة إلى أخرى إن كانت المرأة على الرصيف الأيمن، فلك أن تحوله إلى الرصيف الأيسر، فغض البصر إما منع الرؤية، أي إطباق الجفن على الجفن، أو توجيه النظر إلى الأرض، أو توجيه النظر إلى جهة غير الجهة التي فيها المرأة، هذا من معاني غض البصر، طبعا غض البصر هذا المصطلح ورد في الشعر الجاهلي، يقول عنترة العبسي، وهو في الجاهلية:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وفي بيت آخر:

فغض الطرف إنك من نميـــر فلا كعبا بلغت ولا كــلابا

***

وغض البصر مما يزيد المرأة كمالا، فأحد الشعراء يصف امرأة فيقول:

و ما سعاد غداة البين إذا رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

***

غضيض الطرف، أي أن يكون الطرف نحو الأسفل، هذا من لوازم الحياء.

إذاً غض البصر إطباق الجفن الأعلى على الجفن الأسفل، أو تحويل النظر من جهة إلى جهة، أو توجيه النظر إلى الأرض.

المعاني المستفادة من كلمة (مِنْ):

المعنى الأول: التبعيض:

لكن الشيء الذي يلفت النظر أن كلمة (مِنْ) تفيد التبعيض، فلم يقل الله عز وجل: قل للمؤمنين يغضوا أبصارهم، ويحفظوا فروجهم، ولم يقل: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا من فروجهم، بل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

لماذا ؟ لأن (مِنْ) حرف جر أصلي يفيد التبعيض، أعطني مما عندك، أيْ أعطني بعض الذي عندك، أعطني من هذه القطع قطعة، فمن تفيد التبعيض، أي أن الله سبحانه وتعالى يقول: إن المؤمنين يغضون أبصارهم عن بعض المبصرات التي حرمها الله عز وجل، فلك أن تنظر إلى زوجتك، ولك أن تنظر إلى أختك، ولك أن تنظر إلى عمتك، ولك أن تنظر إلى خالتك، ولك أن تنظر إلى بنت أخيك، ولك أن تنظر إلى بنت أختك، ولك أن تنظر إلى أم زوجتك، ولك أن تنظر إلى الفروع مهما دنوا، وإلى الأصول مهما علوا، لكن الذي حرم عليك أن تنظر إلى امرأة أجنبية لا تحل لك.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

مِن هنا جاءت (من) للتبعيض، أي ليس كل النظر إلى النساء محرما، بل إلى صنف من نساء أجنبيات عنك، لا يحللن لك.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

فهذه (مِنْ) للتبعيض.

المعنى الثاني: غض البصر بملء العين عما أحل الله:

معنى آخر، أي أن المؤمنين يغضون بعض أبصارهم عن المبصرات التي أحلها الله لهم، فإذا أحلّ الله لك النظر إلى أمك، أو إلى أختك، أو إلى ابنتك، أو إلى زوجة ابنك، أو إلى عمتك، أو إلى خالتك، أو إلى أم زوجتك فلا ينبغي أن تنظر إلى هؤلاء النساء اللاتي يحل لك أن تنظر إليهن بملء العين، وأن تكرر النظر فهذه (مِنْ) للتبعيض، فعليك ألاّ تنظر إلى بعض النساء، وهن الأجنبيات اللواتي لا يحللن لك، أو إذا نظرت إلى اللواتي يحللن لك فلا ينبغي أن تنظر إليهن بملء النظر، بملء العين، ولا أن تديم النظر، ولا أن تكرر النظر، هذا المعنى الثاني المستفاد من كلمة (مِنْ).

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

المعنى الثالث: ابتداء الغاية:

المعنى الثالث المستفاد من كلمة (مِنْ) أنها هنا لابتداء الغاية، يؤكد هذا المعنى ما ورد في حديث صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))

[البخاري مسلم واللفظ له، أبو داود]

هناك الاستماع، والنطق، وهناك اللمس، وهناك الحركة، وهناك الانتقال.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا)

أعينهم، وآذانهم، وأيديهم، وأرجلهم، أن يغضوا بدءا من أعينهم، وما تلا ذلك، فهذه ثلاثة معان مستفادة من كلمة (مِنْ) في هذه الآية.

منها: التبعيض، أي لك أن تنظر إلى بعض النساء، وعليك ألا تنظر إلى بعضهم الآخر، فالنساء اللواتي أحل الله لك أن تنظر إليهن هؤلاء المحارم لك أن تنظر إليهن، أما النساء الأجنبيات فلا يحل لك أن تنظر إليهن، هذا المعنى الأول.

والمعنى الثاني: إذا سمح لك أن تنظر إلى المرأة التي أحلها الله لك كالأم، والأخت، والعمة، والخالة، والبنت، وبنت الأخ، وبنت الأخت، وزوجة الابن، وأم الزوجة، إن سمح لك بالنظر إلى هؤلاء النسوة فلا ينبغي أن تنظر إليهن بملء العين، بل غض بصرك، فلا تنظر إليهن بملء العين، ولا تدم النظر، ولا تكرر النظر، هذا هو المعنى الثاني المستفاد من كلمة (مِنْ) في قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

والمعنى الثالث، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))

[البخاري مسلم واللفظ له، أبو داود]

أي قل للمؤمنين أن يغضوا أعينهم، وألسنتهم، وآذانهم، وأيديهم، وأرجلهم عما لا يحل لهم، أي بدءا من العين، وما تلا ذلك.

المعنى الرابع: عدم اتباع النظرة بنظرة أخرى:

المعنى الرابع لـ (مِن) يؤكدها حديثُ بُرَيْدَةَ رَفَعَهُ قَالَ:

((يَا عَلِيُّ، لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ))

[الترمذي، أبو داود، أحمد]

فهنا (مِنْ) للتبعيض، فإذا نظرت إلى امرأة أجنبية لا تحل لك فغض البصر، وغض البصر يكون في النظرة الثانية، لأن الأولى ليس لك إرادة في وقوعها.

هذه المعاني الأربعة المستفادة من كلمة (من) في قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

هذا الذي يؤكد المعنى الرابع من قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

الحكمة من مخاطبة الله للنبي مباشرة دون المؤمنين:

شيء آخر يستفاد من هذه الآية ؛ هو أن طريق الخطاب لم يقل الله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا غضوا أبصاركم، بل خاطب النبي عليه الصلاة والسلام فقال له:

((قل يا محمد للمؤمنين يغضوا من أبصارهم))

طريقة الخطاب التوجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يخاطب المؤمنين، وأن يأمرهم بغض البصر، هذه الطريقة في الخطاب تشعر أن فعل النظر إلى النساء الأجنبيات فعل قبيح، أيْ قل له: ألا يفعل هذا، لأن هذا الفعل قبيح يقتضي أن توسط إنسانا ثالثا كي يأمره ألاّ يفعل كذا وكذا، فطريقة الخطاب هذه:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

تشعر أن إطلاق البصر إلى النساء اللواتي لا يحل النظر إليهن فعل قبيح ينبغي الابتعاد عنه، لكن الله سبحانه وتعالى رحمة بالخلق جعل النهي مشفوعا بـ (مِنْ)، ولكن حفظ الفرج لم يكن كذلك، لأنّ النظر أوسع، وهناك نساء يجب أن تنظر إليهن كالمحارم، وهناك حالات يمكن أن تنظر فيها إلى المرأة الأجنبية، كالطبيب، والقاضي، والمحقق، وبعض الحالات الأخرى، لذلك جاءت (مِنْ).

الأمر بحفظ الفرج كاملا: وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ

لكن الفرج لا يحتمل أن يقول الله عز وجل: ويحفظوا من فروجهم، ليس هناك حالات يمكن أن تكون مشروعة في موضوع الزنى، الزنى كله محرم، لذلك جاءت (مِنْ) قبل غض البصر، ولم تأت قبل حفظ الفرج.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

كلية.

من المعاني والحِكم المستفادة من قوله: وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ:

المعنى الأول: حقيقة حفظ الفرج:

وأما المراد من حفظ الفرج فهو أن يتجنب الإنسان الزنى، وما هو أخف من الزنى، وما هو أخطر من الزنى، وما يشبه الزنى، هذا كله يجب أن يحفظ الإنسان فرجه منه:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6))

(سورة المؤمنون: الآيات5-6)

المعنى الثاني: الحكمة من الجمع بين غض البصر وحفظ الفرج:

لكن الجمع بين غض البصر وحفظ الفرج فيه حكمة بالغة، وهي أن طريق حفظ الفرج هو غض البصر، فمن أطلق عينيه في الحرام فأغلب الظن أنه لابد أن ينزلق في الزنى، يقول بعض العلماء: إن النظر إلى المحرم من أقوى الدواعي إلى فعله، لذلك هناك قاعدة تقول: ما حرم فعله حرم النظر إليه، وحرم استماعه، وحرمت قراءته، وحرم الحديث به، لأن النظر، والاستماع، والقراءة، والحديث من أقوى الدوافع إلى فعل هذا الشيء المحرم، لكن لئلا يكون هناك حرج على المؤمن فهناك فرق بين

النظرة الفجائية، وبين النظرة الآثمة، فنظرة الفجأة ليست داخلة في هذا التحريم، فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي))

[مسلم، الترمذي]

فهذا الذي يدّعي أن هذه النظرة التي يديمها الرجل للمرأة الأجنبية إذا ظن أن هذه النظرة هي النظرة الأولى فقد وقع في غلط كبير، أو كان في تجاهل كبير، النظرة الأولى ينبغي ألا تدوم أكثر من معشار الثانية، بمجرد أن تنظر اصرف بصرك كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، أما من يدعي أن هذه النظرة المستديمة هي النظرة الأولى فهذا غلط كبير. يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

المعنى الثالث: الابتعاد عمّا هو أقلّ من الزنا:

شيء آخر نعود إليه، وهو أنه من حفظ الفرج الابتعاد عن الزنى، وعما هو أقل من الزنى، وعما هو أخطر من الزنى، وعما هو مشابه للزنى، وفضلا عن ذلك فمن حفظ الفرج أيضا ستره، وعدم إظهاره لأي إنسان، فيحرم أن يرتدي الإنسان ثيابا رقيقة تشف عنه، ويحرم أن يرتدي ثيابا ضيقة تحد خطوطه، هذا كله من حفظ الفرج، فضلا عن أن يبتعد الإنسان عن الزنى، وعما هو أقلّ منه، وعما هو أخطر منه، وعما هو مشابه له، يجب أن يستر فرجه من أن ينظر إليه أحد، ويجب أن يرتدي ثيابا لا تشف ولا تصف، هذا من لوازم حفظ الفرج.

ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

أما قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

فذلك أطهر لقلوبهم، وأنقى لدينهم، وأبعد عن الريبة، لكن كلمة (أزكى) اسم تفضيل يفيد أن هذا أزكى من هذا، وكأن المعصية شيء يوازن مع الطاعة، قال بعض العلماء: قد يتوهم الإنسان أنه إذا نظر إلى امرأة لا تحل له ربما حقق في هذا النظر نفعاً، استمتع بجمالها، أو استوفى لذة من هذه النظرة، إذا توهم متوهم أن في هذه النظرة استمتاعا، أو نفعا فإنه واهم إلى أبعد الحدود.

(ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

أيْ أزكى لنفوسهم من هذه اللذة التي يحققونها من النظر، ذلك أطهر لقلوبهم من هذه اللذة التي يحققونها بالنظر، ذلك أنفع لقلوبهم من هذه المنفعة التي يحققونها بالنظر، والخبير العليم علام الغيوب الخالق الرب الإله يقول لك: ذلك أزكى وأطهر، فهل نحن مصدقون كلام الله عز وجل ؟ هذا الذي يجد في النظرة لذة تفوق طاعة الله عز وجل، والذي يجد في النظرة متعة تفوق متعته بطاعة الله هو إنسان جاهل، لا يعرف الله أبدا. يقول الله عز وجل:

(ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

الأمر بغض البصر عن كل شيء محرم:

ويظن الإنسان أن في النظرة متعة ينبغي ألا تفوت، إن الذي حرمه الله عز وجل في قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

ليس المقصود ألا تنظر إلى المرأة الأجنبية فقط، هناك شيء آخر ؛ ألا تنظر إلى المرأة الأجنبية، وألا تنظر إلى عورات الرجال، ولا إلى الفخذ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْفَخِذُ عَوْرَةٌ))

[البخاري، والترمذي، أبو داود، أحمد]

لذلك هؤلاء الذين يرتادون أماكن تتكشف فيها الأرجل مما حرم الله عز وجل هؤلاء يخالفون هذه الآية، لا تنظر إلى فخذ أخيك حيا أو ميتا، فالفخذ عورة، فليس غض البصر عن المرأة فحسب، بل عن المرأة، وعن عورة الرّجل التي لا يحل لرجل آخر أن ينظر إليها، وإضافة إلى النساء الأجنبيات اللواتي لا يحللن للرجل، وإضافة إلى عورات الرجال التي لا ينبغي أن يراها الرجال أيضا، إضافة إلى هذا وذاك ينبغي أن يكون غض البصر عن المناظر الفاحشة، فأي منظر فاحش، أي عرض فاحش، أية صورة فاحشة، أي عمل فني فاحش، فهذا أيضا مما يدخل في نطاق هذه الآية الكريمة، فلا يحل للرجل أن ينظر إلى امرأة غير امرأته، أو إحدى محارمه، أما النظرة المفاجئة كما قلت قبل قليل فلا مؤاخذة عليها، وكلكم يعلم الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))

[البخاري مسلم واللفظ له، أبو داود]

وقوله عليه الصلاة والسلام:

((من استمع إلى صوت قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيامة))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال]

واليد تزني حينما تصافح، وحينما تضغط على يد المرأة هذا زنى، والذهاب إلى الأماكن الموبوءة، هذه الرجل تزني، فالزنى يشمل العين، والأذن، واللسان، واليد، والرجل، وفي النهاية إما أن يقع في الفاحشة الكبيرة، وإما ألاّ يقع، وفي الحديث الصحيح عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي))

[مسلم، الترمذي]

أعظمُ خُلُقٍ في المرأة الحياءُ:

ابنة سيدنا شعيب ما الذي جعلها تمتلئ إعجابا بسيدنا موسى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص: الآية 26)

لشدة حيائها عبرت عن رغبتها في سيدنا موسى بقولها:

(يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

فهم عليها أبوها بأن قلبها امتلأ إعجابا به، لأنه كان عفيفا، ومن صفات المؤمن عفته عن المطامع، وعفته عن المحارم، تروي الكتب أن سيدنا موسى حينما جاءته إحداهما تمشي على استحياء، فأطرق بصره في الأرض، فلما سارت أمامه كي تدله على الطريق، وكانت الرياح شديدة قال: سيري خلفي، ودليني على الطريق، رأت منه عفة ما بعدها عفة، شهامة ما بعدها شهامة، فلذلك يقال: إن الذي يعجب المرأة في الرجل عفته، وقوته، وأمانته.

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص: الآية 26)

والذي يعجب الرجل في المرأة حياؤها، قال تعالى:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

(سورة القصص: من الآية 25)

ومن علامات آخر الزمان أن يرفع الحياء من وجوه النساء، وتذهب النخوة من رؤوس الرجال، فلا حياء في وجوه النساء، ولا نخوة في رؤوس الرجال.

شيء آخر، هو أنّ حياء المرأة نصف جمالها، والذي يعبر عنه بعض علماء النفس بالأنوثة، الذي يسهم إسهاما كبيرا في أنوثة المرأة حياؤها، فإذا رفع الحياء من وجوه النساء، وذهبت النخوة من رؤوس الرجال عندئذ فاقرأ على الناس السلام، فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ))

[البخاري، أبو داود، ابن ماجه، أحمد]

إذا كان أغنياؤكم سمحاءَكم، وأمراؤكم خياركم، وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أغنياؤكم بخلاءكم، وأمراؤكم شراركم، وأمركم إلى نسائكم - هنا بيت القصيد - فبطن الأرض خير لكم من ظهرها.

إياكم والديوث، إياكم والسهام المسمومة:

وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ، وَالدَّيُّوثُ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى))

[النسائي، أحمد]

الديوث هو الذي لا يغار على عرضه، أو يرضى الفاحشة في أهله، فهو بنص الحديث الشريف ديوث.

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٍ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانً يَجِدُ حَلَاوَةَ فِي قَلْبِهِ))

[الحاكم في المستدرك]

لم يقل النبي عليه الصلاة والسلام: النظرة سهم من سهام إبليس، لأن السهم غير المسموم إذا أصاب جسدا أصاب موضعا بعينه، لكن السهم المسموم إذا أصاب جسدا سرى السم في كل الجسد، وهذا من أروع ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام في غض البصر، فالذي ينظر إلى المرأة الأجنبية التي لا تحل له فحياته كلها يصيبها التسمم، فلا هو في دراسته كما ينبغي، أصبح شارد الذهن، ولا هو في تجارته كما ينبغي، ولا هو في وظيفته كما ينبغي، ولا هو في بيته كما ينبغي، وكان أمره فرطا.

((النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٍ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانً يَجِدُ حَلَاوَةَ فِي قَلْبِهِ))

[الحاكم في المستدرك]

أي إذا صرفت بصرك عن امرأة لا تحل لك فلا يمكن أن يفسر هذا إلا أنك مخلص لله عز وجل، لو تركت السرقة فربما كان تركك للسرقة خوفا من قسوة القانون، أو خوفا من الفضيحة، أو خوفا أن يعرف الناس ذلك، ولكنك إذا غضضت بصرك عن محارم الله من دون أن يكون هذا العمل رياء أمام الناس فاعلم علم اليقين أن هذا الغض يؤكد إخلاصك لله عز وجل.

((النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٍ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانً يَجِدُ حَلَاوَةَ فِي قَلْبِهِ))

[الحاكم في المستدرك]

فلابد أن تشعر بلذة لا تعدلها لذة، وأن تشعر بحلاوة لا تعدلها حلاوة، إذا غضضت بصرك عن محارم الله، مخلصا بهذا الغض، وكأن الله سبحانه وتعالى جعلك تقبل عليه في كل يوم آلاف المرات، بعدد كل امرأة غضضت بصرك عنها، كلما غضضت بصرك عن امرأة لا تحل لك فهذه قربة إلى الله عز وجل.

روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ أَوَّلَ مَرَّةٍ، ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلاوَتَهَا))

[أحمد]

إياكم والاستنباطات السخيفة: كشف وجه المرأة:

لكن من الاستنباطات السخيفة التي سمعتها مرة: أن غض البصر يقتضي أن يكون الوجه سافرا، وإلا فلا معنى لغض البصر، هذا استنباط لم يقله أحد، والدليل على أن الوجه يجب أن يكون مستورا أحاديث كثيرة، وآيات سوف نصل إليها بعد قليل في سورة النور، ولكن من هذه النصوص أن السيدة عائشة في حديث الإفك رضي الله عنها قالت:

((وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَ وَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ))

[البخاري، مسلم وغيرهما]

و عَنْ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ قَالَ:

((جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ خَلَّادٍ، وَهِيَ مُنْتَقِبَةٌ تَسْأَلُ عَنْ ابْنِهَا، وَهُوَ مَقْتُولٌ، فَقَالَ لَهَا بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جِئْتِ تَسْأَلِينَ عَنْ ابْنِكِ، وَأَنْتِ مُنْتَقِبَةٌ ؟! فَقَالَتْ: إِنْ أُرْزَأَ ابْنِي فَلَنْ أُرْزَأَ حَيَائِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ابْنُكِ لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ، قَالَتْ: وَلِمَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ قَتَلَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ))

[أبو داود]

وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ:

((مَدَّتْ امْرَأَةٌ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ بِيَدِهَا كِتَابًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ، وَقَالَ: مَا أَدْرِي أَيَدُ رَجُلٍ أَوْ يَدُ امْرَأَةٍ ؟ فَقَالَتْ: بَلْ امْرَأَةٌ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتِ امْرَأَةً غَيَّرْتِ أَظْفَارَكِ بِالْحِنَّاءِ))

[أحمد، الطبراني في الأوسط]

لا يستنبط من آيات غض البصر أن الوجه يجب أن يبقى مكشوفا، وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((كَانَ الرُّكْبَانُ يَمُرُّونَ بِنَا، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مُحْرِمَاتٌ، فَإِذَا حَاذُوْا بِنَا سَدَلَتْ إِحْدَانَا جِلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا، فَإِذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهُ))

[أبو داود، أحمد]

استثناءات النظر جواز النظر إلى المرأة الأجنبية:

لكن هناك استثنائات، ألم يقل الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

هناك استثناءات، حيث إنه يجوز في بعض الحالات النظر إلى وجه المرأة الأجنبية:

الحالة الأولى: النظر من أجل النكاح:

فمن هذه الحالات حالة النكاح، فعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا))

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه]

أي أن يوفق بينكما.

وفي حديث آخر في مسند الإمام أحمد عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ قَالَ: **رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ يُطَارِدُ امْرَأَةً بِبَصَرِهِ، فَقُلْتُ: تَنْظُرُ إِلَيْهَا وَأَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ؟!** فَقَالَ: **إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:**

((إِذَا أَلْقَى اللّهُ عَزّ وَجَلّ فِي قَلْبِ امْرِئٍ خِطْبَةَ امْرَأَةٍ فَلا بَأْسَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا))

[انظر سنن البيهقي]

وفي حديث ثالث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمُ الْمَرْأَةَ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ، قَالَ: فَخَطَبْتُ جَارِيَةً، فَكُنْتُ أَتَخَبَّأُ لَهَا حَتَّى رَأَيْتُ مِنْهَا مَا دَعَانِي إِلَى نِكَاحِهَا، وَتَزَوُّجِهَا فَتَزَوَّجْتُهَا))

[أبو داود، أحمد]

فأن تنظر إلى امرأة أجنبية بنية أن تخطبها من أهلها فهذا شيء أباحه الشرع، هذا من استثناءات غض البصر.

الحالة الثانية: القاضي ومَن في حُكمِه للقضاء وردِّ الحقوق:

شيء آخر، المحقق، أو القاضي لا يدري ما إذا كانت هذه المرأة هي المعنية في هذه الدعوة، أو ليست كذلك، فله الحق أن ينظر إلى وجهها.

الحالة الثالثة: الطبيب للمعالجة:

والطبيب أيضا له الحق أن ينظر إلى وجه المرأة إذا كان يقتضي ذلك أن يعالجها.

هذه بعض الأحكام الشرعية المستنبطة من هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

احذروا فـ: إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

لكن قول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

يعلم خائنة الأعين، فقد يفحص الطبيب امرأة، وينظر إلى موضع الألم، وهذا مباح له، فإذا اختلس نظرة إلى موقع آخر لا تشكو منه، فمن يعلم هذه النظرة الخائنة ؟ لا يعلمها إلا الله، لذلك جاء قوله تعالى:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر: الآية 19)

وإذا نظر القاضي إلى وجه المرأة، ثم انتقل إلى مكان آخر لا يحل له فهذا مما يعلمه الله عز وجل، وكذلك المحقق، وكذلك من يباح له أن ينظر إلى النساء، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

معنى خبير أيْ يعلم علما دقيقا، يعلم حقيقة الأمر، هذه النظرة ماذا أردت بها ؟ هل تجاوزت الحد المفروض إلى حد لا يحل لك ؟

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

في غض البصر توخِّي حفظ الفرج، يعلم الإنسان علم اليقين أين هو من هذه الآية.

نصائح نبوية احترازا من الوقوع في الحرام:

نتابع تفسير هذه الآية.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، ولا تَنْظُرُ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلا يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ، وَلا تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ))

[رواه مسلم، والترمذي]

وعَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا تُبْرِزْ فَخِذَكَ، ولا تَنْظُرَنَّ إِلَى فَخِذِ حَيٍّ وَلا مَيِّتٍ))

[رواه أبو داود، ابن ماجه]

وعَنْ أَبِي النَّضْرِ عَنْ زُرْعَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَرْهَدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((كَانَ جَرْهَدٌ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ، قَالَ: جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَنَا وَفَخِذِي مُنْكَشِفَةٌ، فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْفَخِذَ عَوْرَةٌ))

[البخاري، والترمذي، أبو داود، أحمد]

هذه كلها أحاديث صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِيَّاكُمْ وَالتَّعَرِّيَ، فَإِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لا يُفَارِقُكُمْ إلا عِنْدَ الْغَائِطِ، وَحِينَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ))

[الترمذي]

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام استأجر أجيرا فرآه يغتسل عريانا، فقال عليه الصلاة والسلام:

((خذ أجارتك، لا حاجة لنا بك، فإني أراك لا تستحيي من الله))

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ))

[البخاري، مسلم]

فالذي له محل تجاري على قارعة الطريق في الطابق الأرضي، وأمامه الناس يذهبون ويروحون هذا الحديث من لوازم من يجلس على الطرقات:

((إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ))

أما هذا الذي يجلس على مقهى الرصيف لينظر إلى الناس فهذا بعيد جدا على أن يكون من أهل الإيمان، لأنه من تنزّه في الطرقات، من تحدث عن النساء فقد جرحت عدالته، لكنّ المضطر، كمَن له محل تجاري في شارع مزدحم فما آداب الجلوس في هذا المحل التجاري، قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ))

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره الشهير: **" وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيرا جدا ".**

[تفسير ابن كثير(283/3)]

هذا بالنسبة للنظر إلى الأمرد، أي إلى الشاب الذي لم تنبت لحيته بعد.

وعَنْ أَبِي رَيْحَانَةَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ فَسَمِعَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ يَقُولُ:

((حُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ دَمَعَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، قَالَ: وَقَالَ الثَّالِثَةَ ؟ فَنَسِيتُهَا، قَالَ أَبُو شُرَيْحٍ سَمِعْتُ مَنْ يَقُولُ ذَاكَ: حُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، أَوْ عَيْنٍ فُقِئَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[النسائي]

بعض الحِكَم والأقوال في خطورة النظر إلى الحرام:

بعض الأقوال الحكيمة في هذا الموضوع:

كل المصائب مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بالقوس و لا وتـــر

***

وفي الأثر:

((...ألاَ رُبَّ شَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلاً....))

[مسند الشهاب، الزهد لابن المبارك]

وكنت إذا أرسلت طرفك رائـدا لقلبك يوما أتعبتك المناظـر

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليـه ولا عن بعضـه أنت صابـر

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (10-23): تفسير الآية 31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-12-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة النور، وفي الدرس الماضي تم شرح طرف مما تنطوي عليه الآية الكريمة:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور: الآية 30)

وآية اليوم هي قوله تعالى:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور)

أصل الخطاب القرآني موجّه للذكور شامل للإناث:

جرت عادة القرآن الكريم على أن الأوامر توجه إلى جماعة الذكور:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

(سورة التحريم: من الآية8)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ)

(سورة الحديد: من الآية28)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة المنافقون: من الآية9)

لو تتبعت ما في القرآن الكريم من آيات لوجدت معظمها موجها إلى جماعة الذكور، فما حكم النساء ؟ قال علماء الأصول: النساء مشمولات بكل أمر موجه إلى جماعة الذكور على سبيل التغليب، أي إذا دخل إلى غرفة عشرون بنتا وصبيٌّ واحد تقول: دخل الطلاب، هذا أسلوب التغليب، فإذا كان الفاعل ذكورا وإناثا تستخدم صيغة الذكور في الفعل، فحينما يأمر الله سبحانه وتعالى الإنسان فخطابه وأمره ونهيه موجه إلى جماعة الذكور، هذا الأمر، وهذا النهي، وهذا الخطاب ينطبق على النساء بسبب

التغليب، أو ينطبق على النساء بسبب آخر، وهو القياس ما دامت المرأة مكلفة كالرجل فما ينطبق على الرجل ينطبق على المرأة، فهذا الكلام موجه خصيصا إلى الأخوات المؤمنات، أية آية في القرآن الكريم موجهة إلى جماعة الذكور هي موجهة بالقياس أو بالتغليب إلى جماعة النساء، فإذا قرأت المرأة المؤمنة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

فإنها معنية بالخطاب مئة بالمئة وفق علم الأصول، لأن ما يخاطب به الرجال ينسحب على النساء إما بالتغليب، وإما بالقياس، ولكن أحيانا بما أن المرأة قد خلقت بصفات خاصة لتؤدي وظيفة خاصة في المجتمع فللمرأة في القرآن الكريم أحكام خاصة، من هذا المنطلق كانت هذه الآية الكريمة، لأن للمرأة صفات خاصة تؤهلها لأداء وظيفتها في المجتمع، إذاً لها أحكام خاصة، ولكن هذا لا يمنع أن نفهم كما نص عليه القرآن الكريم أن المرأة مساوية للرجل تماما من حيث التكليف، ومن حيث التشريف، فالله سبحانه وتعالى أمرها بالإسلام، إذاً فعليها أن تعرف أركان الإسلام، وأمرها بالإيمان، فعليها أن تعرف أركان الإيمان، وأمرها بطاعة الله ورسوله فيما نص عليه القرآن، وفيما نص عليه النبي عليه الصلاة والسلام، وفيما استنبطه العلماء من النصوص الكلية، وفيما استنبطوه من أحكام فرعية من النصوص الكلية، ولكن هذه الآية التي نحن اليوم بصدد تفسيرها خاصة بالنساء، لأن الله سبحانه وتعالى شرفها - كما قلنا قبل قليل - بالإسلام، وساواها مع الرجل، وشرفها بالتكريم، ولكن جعل لها وظيفة خاصة ؛ جعلها زوجة، وجعلها مرغوباً بها، وجعلها تُخْطَب ولا تخطُب، وأمرها أن تقر في البيت حفاظا على أداء مهمتها، وصونا لما خصها الله به من أن يكون مبتذلا فقال تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

(سورة الأحزاب: من الآية33)

من أحكام النظر إلى الأجنبي والأجنبيات:

لكن هذه الآية تشير إلى أحكام دقيقة متعلقة بالمرأة فقال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ)

فالحديث الذي كان في الأسبوع الماضي عن غض البصر، أي أن هناك أصنافا من النساء لك أن تنظر إليها، وهن المحارم، وهناك نساء أجنبيات أُمِرْتَ أن تغض البصر عنها، واللاتي أمرت أن تنظر إليهن يجب أن تنظر إليهن ببعض البصر، لا بكل البصر، لا أن تملأ عينيك من محارمك، بل انظر بعض الشيء إلى اللواتي أمرت أن تنظر إليهن، أو أبيح إليك أن تنظر إليهن.

معاني (مِنْ) في قوله تعالى: يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

المعنى الأول: التبعيض:

(من) للتبعيض، لتبعيض الجهة المبصِرة، ولتبعيض الجهة المبصَرة، هذه الأحكام الدقيقة التي وردت في الدرس الماضي يمكن أن ترد اليوم أيضا بالتمام والكمال، فالمرأة في حياتها مجموعة من الرجال لها أن تنظر إليهم، كالزوج، والأب، والأخ، والابن، وابن الابن، وابن الأخت، وابن الأخ، هؤلاء الرجال لها أن تنظر إليهم، لذلك أمرت بغض بعض البصر.

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ)

المعنى الثاني: غض البصر بملء العين عما أحل الله:

شيء آخر ؛ هذا الرجل الذي أبيح للمرأة أن تنظر إليه لا ينبغي أن تنظر إليه مدققة بملء العين، مكررة مستمرة، بل يجب أن تغض البصر، طبعا الزوج له حالات خاصة في الآيتين، فقط الزوج، وما سوى الزوج يجب أن يكون كما قال العلماء النظر باعتدال، من دون أن يكون هناك استمرار، وتدقيق، ومعاودة، وإملاء العين من المبصر إليه.

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ)

المعنى الثالث: ابتداء الغاية:

والمعنى الثالث لـ(مِنْ) أن المرأة إذا منعت من أن تنظر إلى أجنبي، ونظرت إليه فجأة فالنظرة الأولى لها، والثانية عليها، فأول (مِنْ) يغض البصر عن الأجانب، و(مِنْ) الثانية لإطلاق بعض البصر إلى المحارم، و(مِنْ) الثالثة لو نظرت فجأة إلى رجل فلها الأولى، وليس لها الثانية، هكذا قال بعض الفقهاء.

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ:

حكام من التبعيضية في الآية السابقة يمكن أن تنسحب بكاملها على الآية اللاحقة:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ)

وكيف أن الله سبحانه وتعالى اعتبر إطلاق البصر، والتدقيق في المبصر فيه بعد عن الله عز وجل، وفيه غفلة، واتجاه نحو الشهوة المحرمة، كيف أن هذا الأمر لا يليق بالمؤمن، لذلك جاء الخطاب بطريقة الغائب:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ)

لم يقل الله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا غضوا أبصاركم، قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

لأن في هذا العمل انحرافا عن الطريق المثالي الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن، ولكن المرأة إضافة إلى أنها مأمورة بغض البصر، أو غض بعض البصر كما ورد في الآية، ومأمورة أيضا بحفظ الفرج ؛ أي بالبعد عن الزنى، وما شاكل الزنى من انحرافات هي أقل من الزنى، أو هي مشابهة للزنى، أو هي أخطر من الزنى، ومصداق ذلك قول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6))

(سورة المؤمنون: الآيات5-6)

مِن أحكام العورة:

إضافة إلى غض بعض البصر، وإضافة إلى حفظ الفرج فهناك أحكام أخرى في هذه الآية، ولكن هناك توجيه آخر ؛ هو أن المرأة لا يجوز لها أن تنظر من المرأة ما بين السرة والركبة، لأن ما بين السرة والركبة عورة للمرأة على المرأة، فلا ينبغي أن تنظر المرأة لغير زوجها، أو لأحد محارمها، أو لامرأة فيما بين السرة والركبة، لأن هذا حد عورة المرأة على المرأة، ولها أن تنظر إلى زوجها كيفما تريد من دون قيد أو شرط، والمحارم لها أن تنظر إليهم بشكل معتدل من دون أن يكون ثمة تبذل، فأحيانا هنالك أسر قد يتجول الأخ في البيت بالثياب الداخلية، فلا ينبغي للمرأة المؤمنة أن تنظر إلى أخيها بهذا الشكل، لأن هذا شكل فيه تبذل مخالف للشرع، فعَنْ جَرْهَدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((كَانَ جَرْهَدٌ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ قَالَ جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَنَا وَفَخِذِي مُنْكَشِفَةٌ فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْفَخِذَ عَوْرَةٌ))

[البخاري، والترمذي، أبو داود، أحمد]

حتى المحارم الذين سمح الشرع للمرأة أن تنظر إليهم يجب أن يكون النظر إليهم بوضع مقبول معتدل سليم، ليس فيه تبذل، وليس فيه تكشف، يضاف إلى ذلك أن عورة المرأة على المرأة ما بين السرة والركبة، إذاً الأمر بغض البصر يشمل هذه الجهات الثلاث.

مِنْ ضرورات نظر المرأة والرجل إلى العورة:

يضاف لى ذلك أن المرأة عند الضرورة لها أن تنظر إلى الرجل بفتوى بعض العلماء في حالات الإسعافات، وفي حالات المعالجة، قد تكون هذه الممرضة في ظرف عصيب، رجل في حالة خطرة، فأباح لها الشرع أن تنظر إليه لعلة التطبيب، أو في حالات قاهرة، كما أباح الشرع للرجل أن ينظر إلى المرأة لمجموعة من العلل، منها التطبيب، ومنها الخطبة، ومنها الشاهد، ومنها القاضي، فالقاضي أيضا له أن ينظر إلى وجه المرأة الأجنبية ليعرف هويتها، وكذلك الشاهد، وكذلك الطبيب، ويجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل إذا جاء لخطبتها، فينظر إليها، وتنظر إليه، فعن بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا))

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه]

يضاف إلى غض البصر:

النهي عن إبداء المرأة زينتها:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

الزينة في اللغة ما يتزين به الإنسان من حلي، أو من خضاب، أو مساحيق، فهذه هي الزينة في اللغة.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

هل يحرم النظر إلى الحلية في السوق ؟!

الآن عندنا سؤال، هل يحرم النظر إلى حلية في السوق ؟ سوار، حلقة، خاتم، هل يحرم عليك أن تنظر إلى سوار امرأة معروض في محل تجاري ؟ الجواب: لا، ليس حراما، فحينما وجه ربنا سبحانه وتعالى المرأة أن تغض بصرها عن الرجال، وألاّ تبدي زينتها المقصود بالزينة الحلي في مواضعها، السوار في المعصم، والعقد في الجيد، والخلخال في الساق، والقرط في الأذن، ولا يبدين هذه الحلي، وهي في مواضعها، فيحرم على المرأة أن تبدي للرجال الأجانب هذه الزينة، وهي في موضعها:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

وكأن القرآن الكريم أراد بالزينة مواقعها ؛ مواقع العقد الرقبة والجيد، فلا ينبغي للمرأة أن تظهر رقبتها وجيدها للأجنبي، مواقع الزينة المعصم فلا ينبغي للمرأة أن يبدو معصمها للأجانب، مواقع الزينة الأذن

وصفحة العنق فلا ينبغي للمرأة أن تبدي أذنها وصفحة عنقها للأجانب، مواقع الزينة الساق فلا ينبغي للمرأة المسلمة أن تبدي ساقها وما فيها من خلخال للأجانب.

أنواع الزينة في المرأة: الزينة الظاهرة والزينة الباطنة:

إذا:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

قال بعض العلماء: **الزينة زينتان ؛ زينة باطنة، وزينة ظاهرة، زينة مجلوبة، وزينة خلقية، المجلوبة والخلقية الباطنة، والظاهرة مما تعنيه كلمة الزينة.**

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

أبدى يبدي، بدا يبدو، أبدى يبدي، بدا ثلاثي، بدا القمر إذا ظهر، بدا الشيء إذا ظهر، لكن أبدى رباعي، فيه تعدية، لم يقل الله عز وجل: ولا يبدون، بل قال:

(وَلَا يُبْدِينَ)

أيْ باختيارها، بإمكانها أن تخفيه، وبإمكانها أن تظهره شيء تابع لإرادتها، يبدي ياء المضارع مضمومة، إذًا الفعل رباعي، ورباعي بدا أبدى فيه تعدية، أبديت الشيء، أو أخفيته، أبديته، وأخفيته.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

إذًا: بإمكانها أن تستر جيدها، وصدرها، ومعصمها، وصفحة عنقها، وساقها، هذا بإمكانها ستره، فهي مأمورة ألا تبدي هذه الزينة، لأنه:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

تفسيرات العلماء لقوله تعالى: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ

للعلماء في تفسير هذه الآية مذاهب شتى، ولنستمع إلى تفسيرات بعض العلماء لهذه الآية.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

واضحة وضوح الشمس، المقصود مواقع الزينة، كأن هناك مضافاً محذوفاً، ولا يبدين مواقع الزينة، وكلمة يبدي فعل متعد، فالمرأة بإمكانها أن تبديه، وبإمكانها أن تخفيه، ولكن المشكلة في قوله تعالى:

(إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

قول ابن مسعود:

فعن ابن مسعود أنه قال: **<< إلا ما ظهر منها: الثياب >>.**

[تفسير الطبري]

أي أن هذه المرأة ترتدي ثيابا سوداء، فكل من مر في الطريق يراها بهذه الثياب، والتي قد تكون أنيقة، وقد تكون قد اختيرت بشكل جيد، فهذه الثياب ليس في إمكان المرأة أن تخفيه، إنها ترتديه، فابن مسعود يقول: لا خلخال، ولا قرط، ولا قلادة، إلا ما ظهر منه، أي الثياب، فهذه المرأة التي ترتدي ملاءة، أو جلباباً، أو معطفاً، هذا المعطف يبدو للمارة، ويظهر لا محالة، ويستحيل إخفاؤه، كيف تختفي إذا خرجت المرأة من بيتها لأمر هام، إنها ترتدي هذا المعطف، أو هذا الجلباب، أو هذا الرداء، فيبدو هذا الجلباب للناس، إلا ما ظهر منها، أي الثياب، وهذا قول ابن مسعود.

قول ابن كثير:

أما المفسر ابن كثير رحمه الله تعالى فيقول في تفسير هذه الآية: **" لا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه ".**

[تفسير ابن كثير]

هذا الذي لا يمكن إخفاؤه يسمح للمرأة أن تظهره للأجانب، فهذا الذي يقوله ابن كثير إلا ما ظهر منها أي كالرداء والثياب.

قول آخر لابن مسعود:

قال أبو إسحاق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبد الله قال في قوله:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

<< الزينة القرط والدملج والخلخال والقلادة >>.

وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: **<< الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج، الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب.**

قول الزهري:

وقال الزهري: **" لا يبدين لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا يحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة ".**

[تفسير ابن كثير]

أما الزينة التي يراها الأجانب في الطريق فهي الثياب.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

(إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

ويقول أحد العلماء: إذا كانت المرأة مأمورة بسدل الخمار من رأسها على جيبها لتستر صدرها فهي مأمورة ضمنا بستر ما بين الرأس والصدر وهما الوجه والرقبة، لأن الآية تقول:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ:

الجيب في اللغة فتحة القميص، والخمار غطاء الرأس، وضرب الخمار من على الرأس إلى جيب القميص، أي هذا القميص أسدل من أمام، فغطى الوجه والعنق، فيقول أحد العلماء: إذا كانت المرأة مأمورة بسدل الخمار من رأسها على جيبها لتستر صدرها فهي مأمورة ضمنا بستر ما بين الرأس والصدر، وهما الوجه والرقبة، فإن قلت لامرأة: أسدلي هذا الغطاء من رأسك إلى صدرك، فهذا الإسدال يعني ضمنا أن الوجه والرقبة مستوران بهذا الإسدال، وإنما لم يسدل هنا للعلم بأن سدل الخمار إلى العنق يغطي الوجه والرقبة.

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ)

لأن المرأة في الجاهلية كانت تضع الخمار على رأسها، وتلقيه على ظهرها، وتستقبل الناس فيرى الناس وجهها، ورقبتها، وصدرها، فجاء الأمر بإسدال الغطاء من رأسها لا على ظهرها، ولكن على صدرها، فإذا أسدل الخمار من على الرأس إلى الصدر فقد غطى الوجه، وغطى الرقبة، وهذا المفهوم يقال له في علم الأصول: مفهوم التضمن، أيْ من ضمن هذا الأمر يفهم أن المرأة يجب أن تستر وجهها ورقبتها.

وقال أحد العلماء أيضا: **" قد تضمن قوله تعالى:**

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)

أمرًا للنساء بتغطية وجوههن ورقابهن.

ويقول عالم آخر: **" إذا كانت المرأة مأمورة بستر ما عليها من الحلي أساور... خلخال.... قرط..... عقد....إذا كانت المرأة مأمورة يستر ما عليها من الحلي عن نظر الرجال الأجانب خشية أن يفتتنوا بها فلأن تؤمر بستر وجهها الذي هو مجمع محاسنها، وسبب الافتتان بها من باب أولى "**، فمنظر

المعصم، وعليه سوار هل هو أكثر فتنة أم الوجه، وما فيه من محاسن، العينين والخدين، والأنف، والرقبة، والفم، والجبين ؟ يا ترى منظر السوار على المعصم، أو منظر الخلخال في الساق، أو منظر العقد في الرقبة أكثر فتنة من الوجه ؟ إذا كانت المرأة مأمورة بستر ما عليها من الحلي عن نظر الرجال خشية أن يفتتنوا بها فلأن تؤمر بستر وجهها الذي هو مجمع محاسنها، وسبب الافتتان بها من باب أولى وأحرى، والآية جمعت ستر الزينتين، هناك زينة مجلوبة، وهناك زينة خلقية، فالزينة المجلوبة هذا السوار له أشكال، وله أنواع، وله قيم، وله أثمان، وهذا العقد، والخلخال، وهذا القرط، فالآية جمعت الزينتين الزينة المجلوبة، والزينة الخلقية، وهي الوجه، فقال تعالى:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)

فزينة الجلب والخلق أمرت المرأة أن تسترها عن الأجانب.

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ

بعولتهن أي أزواجهن، وقد ورد في صحيح البخاري حديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

((يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلَ، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ:(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا))

[البخاري]

جاء الإمام ابن حجر العسقلاني وشرح صحيح البخاري في كتاب ضخم جدا سماه فتح الباري في شرح صحيح البخاري، وقال في قولها:

((يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلَ،:(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا)) " أي غطين وجوههن ".

[فتح الباري]

إذاً هذه النصوص في شرح هذه الآية توضح أن المرأة لا ينبغي لها أن تبدي زينتها للأجانب، وينبغي أن تضرب خمارها من رأسها على صدرها، مرورا بوجهها.

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)

أما الزوج فله حكم خاص، فله أن يرى من زوجته ما يشاء، لأنها مباحة له في الأصل.

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)

ولها أن تظهر أمام أبيها، لكن كما قلنا قبل قليل: لا ينبغي أن تظهر أمام أبيها إلا بثياب الخدمة، وهي التي تستر معظم الجسم، وتبقي ما لابد من إظهاره، كالساعد، والركبة، فما أسفل، وأسفل منها، والرقبة،

والوجه، والشعر، ولهذا الأب أن ينظر إلى ابنته، أما أن يراها بأبهى زينة، في ثياب فاضحة تكشف أكثر مما تخفي، فهذا أيضا ليس من الشرع في شيء، فإذا نظر الأب إلى ابنته الشابة لا ينبغي أن ينظر إليها، وهي في أبهى زينة، وقد تكشفت معظم أعضائها، هذا ليس من الأدب العام، ولو كانت ابنته، والأخ لأخته هكذا.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا)

أما الزوج فبحث آخر.

(إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ)

فيحق لوالد الزوجة أن ينظر إلى زوجة ابنه.

ولكن في حاشية ابن عابدين، وهي أوسع كتاب في الفقه الحنفي يقول المؤلف: **" لا يجوز للرجل أن يخلو بزوجة ابنه الشابة، ولا بالأخت من الرضاعة لأن ذلك مظنة الفساد، ما دام الابن موجودا، فالأمر طبيعي، وهذه الزوجة زوجة الابن أحد محارم الرجل، وله أن ينظر إليها كما قلنا في الدرس السابق بعض النظر، أما الخلوة فمنهي عنها ".**

عند السادة الأحناف:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ)

أي والد الزوج.

(أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ)

أي ابن الزوج، فيحق لها أن تبدو أمامه.

ومع ذلك فلابد من الحيطة والحذر:

والجدير بالملاحظة بأن الخلوة بين شاب في ريعان الشباب، وبين زوجة أبيه، وقد تكون شابة أيضا يجب أن يحتاط لها، وبشكل أدق أي امرأة، ولو أنها من محارمك إذا نظرت إليها نظرة بشهوة فإن هذه النظرة محرمة، فإذا نظر الإنسان إلى إحدى محارمه اللاتي سمح الشرع له أن ينظر إليهن نظرة ريبة، أو نظرة شهوة فهذا الشيء محرم بشكل ثابت، لكن الأعم الأغلب أن معظم الناس أصحاب الفطرة السليمة الطاهرة لا ينظرون إلى محارمهم إلا نظرة بريئة، كأن ينظر الأخ إلى أخته، والابن إلى أمه، والأخت إلى أخيها، فالأصل في الحياة الاجتماعية أن هناك دماً مشتركاً، وأن هناك موانع للفتنة، ولكن لو كان هناك حالات شاذة، حالات مرضية، وإذا كان هناك نظرة بشهوة إلى إحدى المحارم تصبح هذه النظرة محرمة أيضا.

(أَوْ أَبْنَائِهِنّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنّ أَوْ نِسَائِهِنّ)

الأنواع الأساسية في العلاقات الاجتماعية:

هذه الآية صنفت بحسب الأنواع الأساسية في العلاقات الاجتماعية:

النوع الأول: المصاهرة:

هناك علاقة مصاهرة، وعلاقة المصاهرة يكون البعل، وأبو البعل، وابن البعل، أي الزوج، ووالد الزوج، وابن الزوج هؤلاء الرجال الثلاثة يجوز للمرأة أن تنظر إليهم بحكم الزواج، وبحكم المصاهرة.

النوع الثاني: النسب:

وهناك أصناف خمسة تنظر المرأة إليهم لا بحكم المصاهرة، بل بحكم النسب، وهم الأبناء، والآباء، والإخوة، الآباء أصولا، والأبناء فروعًا، والإخوة محاذاة، فالآباء تعني الآباء وآباء الآباء مهما علا النسب، الأب، والجد، وجد الجد، إلى آخره، والأبناء تعني الابن، وابن الابن، مهما دنا، فمهما علت الأصول، ودنت الفروع فللمرأة أن تنظر إليهم.

ولكن الآية أغفلت العم، والخال، لأن هناك استنباطات من بعض الآيات الكريمة حيث إن الله سبحانه وتعالى سمّى العم أبا في بعض الآيات، و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((... يَا عُمَرُ، أَمَا شَعَرْتَ أَنّ عَمّ الرّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ))

[مسلم، الترمذي]

والعمة كالوالد، فكانت السنة الشريفة المطهرة تفصيلا وبيانا لبعض الآيات، والقرآن الكريم إعجازه في إيجازه، من مكان آخر استنبط النبي عليه الصلاة والسلام أن العم والخال بمثابة الوالد فجاءت السنة، وأباحت للمرأة أن تظهر أمام عمها، وأمام خالها، فأصبح الرجال الذين يسمح للمرأة أن تبدو أمامهم خمسة لعلة النسب، وثلاثة لعلة المصاهرة، فالخمسة الذين يسمح للمرأة أن تبدو أمامهم لعلة النسب هم: الأب، والجد، وجد الجد في بحكم واحد، والابن، وابن الابن، وابن ابن الابن مهما دنوا بحكم واحد، والأخ، والعم، والخال فهؤلاء خمسة رجال بحكم النسب، وثلاثة رجال بحكم المصاهرة مجموعهم ثمانية، يقول الله عز وجل:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلّا لِبُعُولَتِهِنّ أَوْ آبَائِهِنّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ أَبْنَائِهِنّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنّ أَوْ نِسَائِهِنّ)

يا أيها النساء المسلمات احذروا كشف العورات أمام غير المسلمات والفاسقات:

لو أن الله سبحانه وتعالى قال: أو النساء لكان هناك إباحة للمرأة أن تبدو أمام كل النساء، ولكن إضافة النساء إليهن.

(أَوْ نِسَائِهِنّ)

معنى ذلك أن المرأة غير المسلمة لا يجوز أن تبدو المرأة المسلمة أمامها، لماذا ؟ لِئلا تصفها للرجال، لأنه لا يجوز أن تصف المرأة امرأة لزوجها، فإذا وصفتها فكأنه ينظر إليها، بل ربما كان الوصف فيه مبالغة، لذلك هؤلاء النساء اللواتي يجتمعن مع بعضهن، ثم ينصرفن إلى البيوت فتحدث كل امرأة زوجها عن فلانة، وطولها، ولونها، ورشاقتها، وحركاتها، وسكناتها، ومنطقها، وثقافتها، هذا لا يجوز، وهذا مخالف للسنة، مخالف لنص هذه الآية، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(أَوْ نِسَائِهِنّ)

فللمرأة أن تظهر أمام امرأة مسلمة، لماذا ؟ لأن هذه المرأة المسلمة بحسب أوامر الشرع لن تصفها لزوجها، لكن المرأة غير المسلمة ربما وصفتها إلى زوجها، وبالغت في الوصف، فكأن هذا الأجنبي يراها كما هي، هذا حكم المرأة.

رأي آخر في قوله تعالى: أَوْ نِسَائِهِنّ

وهناك رأي آخر حول هذه الآية، وهو رأي سديد.

(أَوْ نِسَائِهِنّ)

أي المرأة التي تثق بها، مسلمة كانت، أو غير مسلمة، فلو أن امرأة مسلمة فاسقة، من عادتها أن تصف النساء لزوجها، فهذه المسلمة الفاسقة المنحرفة لا يجوز للمرأة المسلمة أن تظهر أمامها خوفا من أن تصفها للرجال، هذا رأي آخر، ورأي جمهور العلماء.

(أَوْ نِسَائِهِنّ)

أي النساء المسلمات، وغير المسلمات لا يجوز للمرأة المسلمة أن تظهر أمامهن خشية أن يصفنَها للزوج، لكن بعض المسلمات يعرضن أنفسهن في الطريق ليراهن كل إنسان، وهذا الذي وقع المسلمون فيه اليوم، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم: الآية59)

الغَيُّ الذي يمكن أن يصيب المسلمين بسبب إضاعة الصلاة، واتباع الشهوات، وليست إضاعة الصلاة

تركها، بل إضاعة الصلاة تضييع الخشوع فيها، وتضييع الاستقامة قبلها، وتضييع إتمامها، وتضييع الخشية فيها، هذه الإضاعة.إذا:

(أَوْ نِسَائِهِنَّ)

العلة في ذلك ألا تصف المرأة غير المسلمة محاسن هذه المرأة المسلمة إلى غيرها، أو إلى الأجانب، فقد تجلس هذه المرأة غير المسلمة في ناد، أو في مكان عام، وتقول: فلانة جارتي شكلها كذا وكذا وكذا، وتتحدث فكأن كل هؤلاء الرجال قد رأوا هذه العلة.

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ:

(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ)

إياكم أن تظنوا أن المرأة الحرة يجوز لها أن تبدو أمام عبدها، لأن هذا العبد فيه شهوة كما في الرجال الأحرار، ويشتهي هذه السيدة كما يشتهيها الأجنبي، لكن الآية هنا:

(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ)

بمعنى الجارية التي عند المرأة المسلمة، هذه الجارية ليست مسلمة، لكن لأنها محبوسة في البيت، وليس لها علاقة مع الآخرين فللمرأة المسلمة أن تبدو أمامها، على كل ملك اليمين ليس الآن في حيز الوجود إطلاقا.

أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ

التابعون غير أولي الإربة من الرجال كما فسرها بعض العلماء الشيخ الذي فنيت شهوته، أو الأبله، أو أي إنسان ليس له حاجة إطلاقا إلى النساء.

أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ

أي الطفل الذي لا يعرف الشهوة بعد، ولا يعرف محاسن المرأة، فالمرأة أمامه كأنها أمه بالضبط، فلا يعرف هذا الطفل الصغير من محاسنها شيئا، فللمرأة حينئذ أن تظهر أمامه، أما إذا بدأ يميز بين الجمال والقبح، وبين صفات النساء، ويميز بينها عندئذ لا ينبغي للمرأة أن تظهر أمامه

وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ

إذا مشت المرأة في الطريق فلا ينبغي أن تحدث لحركتها صوتا تلفت النظر به إليها، أو إلى بعض

مفاتنها، فالمرأة منهية أن تسير سيرا يلفت النظر.

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)

لذلك كل فعل من أفعال المرأة له صوت يحرم أن تظهره للأجانب، فما قولكم إذا كان صوت أفعالها محرما أن يسمعه الأجانب لئلا يلتفتوا إليها، ما قولكم بصوتها، وصوت المرأة عورة شيء آخر، فما قولكم بالعطر إذا خرجت المرأة متعطرة، فقد خرجت زانية، ولا زالت الملائكة تلعنها حتى تعود، لذلك حمل الفقهاء على هذه الآية العطر، فالعطر يلفت النظر، وهنالك عطور ثمينة جدا، وأخرى غير ثمينة، ولكن كل أنواع العطور تلفت النظر، فالمرأة التي تتعطر في الطريق هذه لا تعرف الله أبدا، ولم تقرأ القرآن، ولم تعرف أحكام النساء في هذه السورة، فأي فعل من أفعالها له صوت يحرم أن تظهره للأجانب، فكيف بصوتها ؟ فكيف بالرائحة العطرة التي تخرج منها ؟ هذا كله محرم.

وهنالك آية أخرى تفيدنا الآن:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

(سورة الأحزاب: الآية32)

يا نساء المسلمات هذا مثلٌ لكن فاقتدوا:

حتى إذا اضطرت إلى مخاطبة الأجانب، بائع مثلا في الطريق، قاض، طبيب، يجب ألا تخضع بالقول، أن تقول الكلام الذي لابد منه، أن تتكلم الحد الأدنى، وقد علمنا ربنا سبحانه وتعالى في قصة شعيب عليه السلام كيف أن المرأتان ؛ بنات شعيب قالتا كلاما مختصرا مفيدا، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

فكان جوابهما ؟

(قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

(سورة القصص: الآية23)

لماذا نحن واقفون هنا ؟ نحن ليس من أخلاقنا مزاحمة الرجال، واقفون هنا حتى يصدر الرعاء، أي الرعاة، ولماذا نحن نسقي الغنم ؟ لأن أبانا شيخ كبير، فثمة علة.

(قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

فلما جاءته إحداهما تمشي على استحياء ماذا قالت له ؟ هل أدارت معه حديثا لطيفا ؟ هل سألته عن

صحته، وعن أحواله ؟ ماذا قالت له ؟

(قَالَتْ إِنّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص: من الآية25)

ولا كلمة، هذا هو الحد الأدنى، الآن تدخل المرأة إلى المحل فتسأله عن أهله، وعن صحته، وعن أحواله، وعن أولاده، وعن الطقس، وعن ... هذا كله كلام فيه خضوع بالقول:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

الحد الأدنى يجب أن تقوله المرأة، إذاً أي صوت لفعل من أفعالها لا يجب أن يسمعه الأجانب، فكيف بصوتها ؟ فكيف بعطرها ؟

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنّ)

وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ

وقد ختمت هذه الآية وكأن هذا الختام للآيتين معا:

(وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ)

يبدو أن موضوع غض البصر، وموضوع النساء يحتاج إلى جهد كبير، وانضباط كثير، ويحتاج إلى علم، لذلك فالإنسان المؤمن يتوب إلى الله دائما من كل هفوة، ومن كل نظرة، ومن كل تقصير بدر منه.

(وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ)

حينما تزل القدم، وحينما تخطف العين، وحينما ينظر من دون أن يشعر، أو حينما يطيل النظرة الأولى، هذه كلها ربما يحتاج الإنسان أن يتوب إلى الله كثيرا، فَعَنْ أَنَسٍ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطّائِينَ التّوّابُونَ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد]

فهذه آية اليوم:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَى جُيُوبِهِنّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلّا لِبُعُولَتِهِنّ أَوْ آبَائِهِنّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ أَبْنَائِهِنّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنّ أَوْ نِسَائِهِنّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنّ أَوْ التّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنْ الرّجَالِ أَوْ الطّفْلِ الّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنّ وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (11-23): تفسير الآيات 31 – 33
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-12-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة النور، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَى جُيُوبِهِنّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنّ أَوْ آبَائِهِنّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ أَبْنَائِهِنّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنّ أَوْ نِسَائِهِنّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنّ وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور)

أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية شُرحت بشكل أو بأخر في الدرس الماضي، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام له توجيهات، وتوجيهات النبي عليه الصلاة والسلام يجب أن نأخذ بها، لأن الله سبحانه وتعالى في نص القرآن الكريم، وفي آية محكمة، وبصيغة الأمر الذي يقتضي الوجوب يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: من الآية7)

من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام:

إنّ القرآن والسنة هما مصدرا التشريع، فالسنة مصدر رئيس ثانٍ من مصادر التشريع، فالنبي صلى الله عليه وسلم له توجيهات في هذا الموضوع، هذه التوجيهات مستمدة من روح القرآن.

معاني (مِنْ) في قوله تعالى: يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

التوجيه الأول: النهي عن الخلوة بالأجنبية:

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الخلوة، نهى الرجل عن أن يخلو بامرأة أجنبية لا تحل له، وربما كانت هذه المرأة من قريباته، ولكنها ليست من محارمه، ففي حياة الرجل أربعة أصناف من النساء ؛ هناك زوجته، ولها حكم خاص، وهناك محارمه، وهناك قريباته، وهناك النساء الأجنبيات عنه،

فنهى النبي عليه الصلاة والسلام المسلم أن يخلو بامرأة أجنبية، أو قريبة ليست من محارمه، ففي حديث صحيح رواه الترمذي عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تَلِجُوا عَلَى الْمُغِيبَاتِ، فَإِنّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَى الدّمِ، قُلْنَا: وَمِنْكَ ؟ قَالَ: وَمِنِّي، وَلَكِنّ اللّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ))

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَلَكِنّ اللّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ))

" يَعْنِي أَسْلَمُ أَنَا مِنْهُ، قَالَ سُفْيَانُ: وَالشَّيْطَانُ لَا يُسْلِمُ.

((وَلَا تَلِجُوا عَلَى الْمُغِيبَاتِ))

وَالْمُغِيبَةُ الْمَرْأَةُ الّتِي يَكُونُ زَوْجُهَا غَائِبًا، وَالْمُغِيبَاتُ جَمَاعَةُ الْمُغِيبَةِ ".

[الترمذي، أحمد]

(لا) ناهية، و(تَلِجُوا) بمعنى تدخلوا، لا تدخلوا على امرأة غاب عنها زوجها، هذه هي المغيبة، فالدخول عليها خطر عليكم وعليها.

((لَا تَلِجُوا عَلَى الْمُغِيبَاتِ، فَإِنّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَى الدّمِ))

كم من خلوة أودت إلى خيانة، وكم من خيانة أودت إلى طلاق، وكم من طلاق أودى إلى تشريد أسرة... وهذه كلها أساسها الخلوة، فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى المسلم أن يخلو بامرأة لا تحل له. وفي حديث صحيح آخر رواه الإمام أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يَخْلُوَنّ بِامْرَأَةٍ لَيْسَ مَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا، فَإِنّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ))

[أحمد]

فأحيانا يكون هذا المصعد يحقق الخلوة، لذلك فهناك أناس لا يرتاحون لوجود مصعد في بناء، لأنه إذا دخلت إليه امرأة ربما تحققت الخلوة، ومع ذلك فإنّ أي مكان تتحقق فيه الخلوة فهو مكان حرمه الشرع، هذا توجيه، هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان شهوة فعالة، فالشريف هو الذي يأتمر بأوامر الشرع، أما هذا الذي يقول: أنا لا أتأثر، أو أنا أعرف نفسي، أو أنا في حصن حصين، فهذا كلام فارغ لا معنى له، هذا الذي يعتمد على نفسه، ويثق بها، وهو موقن أنها لا تزل، هذا إنسان لا يعرف طبيعة النفس، فالشريف هو الذي يهرب من أسباب الخطيئة، والنبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الخلوة، فقد تأتي أخت الزوجة إلى البيت من مكان بعيد، وليست أختها في البيت، فلا ينبغي للزوج أن يستقبل أخت زوجته، ويخلو بها في بيت واحد، هذا لا يجوز، هذا نظام عام، وهكذا أمر الشارع الحكيم، فأي مكان

جمعك بامرأة لا تحل لك، وليست من محارمك فهذا المكان يعد خلوة، فلا ينبغي أن يتواجد فيه المسلم.

أحيانا تكون على موعد مع صديق لك، فتأتيه في الوقت المناسب، يقال لك: تفضل، سيعود بعد قليل، فقل: لا، أنتظره خارجا، أو سأعود بعد قليل، لا تدخل على امرأة في بيت وحيد، قد تكون أنت من أشرف الخلق، ولكن قد يساء بك الظن، يقول الإمام علي كرم الله وجهه: **<< لا تضع نفسك موضع التهمة، ثم تلوم الناس إذا اتهموك>>.**

عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزُورُهُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ مَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ قَرِيبًا مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ نَفَذَا، فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، قالا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ !!! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا))

[البخاري، مسلم]

لو كان الإنسان شريفا إلى أبعد الحدود، لو أنه واثق في نفسه، المكان الذي يفسر تفسيرات لا تليق به لا ينبغي أن يكون فيه، فالنبي عليه الصلاة والسلام استنباطا من هذه الأحكام، واستنباطا من روح القرآن وجّهنا توجيهات لابد أن نأخذ بها، من هذه التوجيهات عدم الخلوة بامرأة ليست من ذوات المحارم، فلو اطلعتم على كتب الفروع ؛ فروع الفقه، ودقائقه، وتفصيلاته لوجدتم أن زوجة الابن الشابة كما ورد في حاشية ابن عابدين، وهو أوسع موسوعة في الفقه الحنفي أن زوجة الابن الشابة لا يجوز للرجل أن يخلو بها، أي لا يجوز للأب أن يخلو بها إلا في حضرة ابنه، وهي من إحدى محارمه، ولكن في غيبة ابنه اتقاء للشبهات، ونوازع النفس، أي حتى المحارم درجات ؛ الأم، والأخت، والبنت، ولكن بنت الزوجة، وابن الزوج، وزوجة الابن الشابة، هذه أيضا من المحارم، ولكن من درجة ثانية، هذه الدرجة الثانية ينبغي أن يحتاط الإنسان في التعامل معها.

التوجيه الثاني: النهي عن مسّ الرجل المرأة الأجنبية:

من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام المستوحاة من روح القرآن الكريم أنه نهى أن يمس الرجل امرأة بيده ليست من محارمه، فَعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:

((أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نِسْوَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ نُبَايِعُهُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلا نَسْرِقَ، وَلا نَزْنِيَ، وَلا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلا نَعْصِيكَ فِي

مَعْرُوفٍ، قالَ: فِيمَا اسْتَطَعْتُنّ وَأَطَقْتُنّ، قالَتْ: قُلْنَا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا، هَلُمّ نُبَايِعْكَ يَا رَسُولَ اللّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إِنّي لا أُصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ مِثْلُ قَوْلِي لامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ))

[النسائي، ابن ماجه، أحمد، مالك]

طبعا أن تمس يد امرأة لا تحل لك هذا مدعاة للزنى، أو مدعاة للتأثر، أو مدعاة للإثارة، لذلك لو أن الموقف حرج:

((إِنّي لا أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

هذا حكم الشرع، والله أحق أن تخشاه، فقد يستحي الإنسان، قد يعترضه موقف حرج، لكن الله سبحانه وتعالى من خلال سنة النبي عليه الصلاة والسلام لا يرضى أن تصافح امرأة لا تحل لك، فإن واجهت امرأة من ذوات محارمك هذا شيء آخر، ولكن امرأة ليست من ذوات المحارم لا ينبغي أن تمسها أبدا، ولو من قبيل المصافحة، ولو أنها مدت يدها إليك، فليس من تطبيق الشرع أن تصافح امرأة أجنبية، أو ليست من ذوات محارمك، هذا توجيه آخر، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يمس الرجل امرأة بيده ليست من محارمه.

التوجيه الثالث: النهي عن سفر المرأة من دون محرَم:

الآن السفر، كما صرح به الفقهاء، السفر خلوة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام نهى المرأة أن تسافر وحدها، أو أن تسافر مع رجل ليس من محارمها، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَا تُسَافِرْ الْمَرْأَةُ إلّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ، وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا رَجُلٌ إلّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللّهِ، إنّي أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ فِي جَيْشِ كَذَا وَكَذَا، وَامْرَأَتِي تُرِيدُ الْحَجّ، فَقَالَ: اخْرُجْ مَعَهَا))

[البخاري، مسلم]

فالسفر مطلق السفر، ومنه الحج، فلا يجوز للمرأة أن تحج، ولا أن تسافر إلا مع زوج، أو ذي محرم، لأن السفر خلوة، هذا هو التوجيه الثالث.

التوجيه الأول: هو النهي عن الخلوة.

والتوجيه الثاني: نهى أن تمس يد امرأة لا تحل لك.

والتوجيه الثالث: نهى عن سفر المرأة إلا مع زوج أو محرم.

التوجيه الرابع: النهي عن الاختلاط بين الرجال والنساء:

فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاط بين الرجال والنساء، لِما فيه من الفساد، فساد ذات البين، وفساد الدين، فالنبي عليه الصلاة والسلام أعفى النساء من وجوب تأدية صلاة الجمعة، لماذا أعفاهن من ذلك ؟ كي لا يختلطن بالرجال، ولماذا أعفاهن من صلاة الجماعة مطلقا ؟ أيضا كي لا يختلطن بالرجال، ولماذا منعت النساء من زيارة القبور، وقد رآهن النبي فعَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ:

((خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَإِذَا نِسْوَةٌ جُلُوسٌ قَالَ: مَا يُجْلِسُكُنّ، قُلْنَ: نَنْتَظِرُ الْجِنَازَةَ، قَالَ: هَلْ تَغْسِلْنَ ؟ قُلْنَ: لا، قَالَ: هَلْ تَحْمِلْنَ ؟ قُلْنَ: لا، قَالَ: هَلْ تُدْلِينَ فِيمَنْ يُدْلِي ؟ قُلْنَ: لا، قَالَ: فَارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ))

[ابن ماجه]

لأن المرأة إذا ذهبت إلى المقبرة لتزور قبر زوجها، أو أخيها، أو ابنها، وكانت متبرجة، ولم تكن متحصنة بحجاب يمنع أن تظهر مفاتنها، وربما كان صوتها عورة، وبكاؤها عورة، ونشيجها عورة، وما إلى ذلك، لذلك انطلاقا من أن اختلاط الرجال بالنساء يسبب فساد ذات البين، وفساد الدين لم تجب عليها صلاة الجمعة، ولا صلاة الجماعة.

شيء آخر، إلى الآن في المسجد النبوي الشريف باب للنساء، هذا الباب الذي كتب عليه باب النساء هو قديم جدا، لذلك ورد أن سيدنا عمر نهى الرجال في عهده أن يدخلوا باب النساء لئلا يختلطوا بهن، وإلى اليوم في أثناء الحج والعمرة التي أكرمني الله بهما رأيت النساء في هذا المسجد النبوي الشريف في حيز مستقل عن حيز الرجال، تنفيذا لهذا التوجيه الكريم، فلو صلى النساء مع الرجال فرضاً في مسجد فقد وجّه النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، بينما خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((خَيْرُ صُفُوفِ الرّجَالِ أَوّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوّلُهَا))

[مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه]

لأن أولها قد يقترب من صفوف الرجال، هذا توجيه آخر في النهي عن الاختلاط.

التوجيه الخامس: عدم ملء النساء وسط الطريق ومزاحمة الرجال:

والنبي عليه الصلاة والسلام له توجيه عندما رأى النساء يحققن الطريق، أي يملأن الطريق، فعَنْ حَمْزَةَ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ الْأَنْصَارِيّ عَنْ أَبِيهِ أَنّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاخْتَلَطَ الرّجَالُ مَعَ النّسَاءِ فِي الطّرِيقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِلنّسَاءِ:

((اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ، عَلَيْكُنَّ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ، فَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ، حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ))

[أبو داود، الطبراني في الكبير]

أي لا ينبغي للمرأة أن تزاحم الرجال، وكلكم يعلم كيف أنّ ابنتي سيدنا شعيب عليه السلام، وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كانتا واقفتين في زاوية، فسألهما موسى عليه السلام عن السبب، قال تعالى:

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

[القصص: 23]

إنّ المرأة المسلمة الشريفة الطاهرة لا تزاحم الرجال، فإذا أرادت أن تصعد إلى مركبة مكتظة يجب أن تقف وقتا طويلا كي تنتظر مركبة لا تزاحم فيها الرجال، لأن ملاصقة أو ازدحام أو تداخل النساء والرجال هذا مما لا يرضى عنه الشرع.

هذه بعض التوجيهات التي وجهها النبي عليه الصلاة والسلام في شأن العلاقة بين النساء والرجال، و العلماء يقولون: إذا كان الإسلام لا يسمح بالاختلاط في العبادة كالصلاة فلو حاذت المرأة الرجال في الصلاة فالصلاة كلها فاسدة، لأن الإنسان قد ينشغل عن الصلاة بشيء آخر، فإن كان الإسلام قد نهى عن الاختلاط في العبادات فالأولى أن ينهى عن الاختلاط في غيرها، وهذا شيء بدهي جدا، إنه لم يرضَ بالاختلاط في العبادة فكيف في غير العبادة ؟!. والآية بعد هذه الآية:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

استنباطات من قوله: وَأَنْكِحُوا

الاستنباط الأول: توجيه الأمر بالتزويج على الذكور:

كلمة:

(أَنْكِحُوا)

بمعنى زوّجوا، وهذا الأمر الإلهي موجه إلى جماعة الذكور.

الاستنباط الثاني: توجيه الأمر بالتزويج إلى أولي الأمر:

بعض العلماء قال: هذا الأمر موجه إلى الأمة كلها.

(أَنْكِحُوا الأَيَامَى)

الاستنباط الثالث: توجيه الأمر بالتزويج وأولياء الحرائر والعبيد:

وبعضهم قال: هذا الأمر موجه إلى أولياء الأحرار والحرائر، وإلى سادة العبيد والإماء، إما فأن يوجه الأمر إلى الأمة بكاملها، فهذا يعني أنه موجه إلى من يمثلون هذه الأمة، وهم أولو الأمر، لذلك الحدود التي وجه الأمر بها إلى جماعة الذكور، أي إلى كل الأمة هي في الأساس موجهة إلى من يمثل الأمة، وهم أولو الأمر، لذلك إقامة الحدود ليست على آحاد المسلمين، ولذلك هذه الآية تحمل على الآيات السابقة من حيث إن الله سبحانه وتعالى يوجه الأمر إلى جماعة المؤمنين، أو إلى الأمة كلها، بل إلى أولي الأمر الذين يمثلون الأمة في تطبيق أحكام الشرع.

لذلك فـ:

(أَنْكِحُوا)

أمر موجه إلى أولي الأمر أن يُنْكِحوا.

(الأَيَامَى)

مَن هم الأَيَامَى ؟

الأيّم مَن لا زوج له، ذكراً كان أم أنثى، عازباً كان أم متزوجا، أيْ أيّ رجل لا زوجة له، أو أية امرأة لا زوج لها، أيّ شاب أعزب لا زوجة له، أو أيّ رجل غائب، أو افترق عن زوجته لسبب أو آخر، فهو الآن لا زوجة له.

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

هذا أمر موجه إلى أولي الأمر، وقد فهم العلماء هذا الأمر أنه على أولي الأمر أن ييسروا سبل الزواج، فتأمين المساكن هو تنفيذ لهذا الأمر، وتأمين الحاجات الأساسية للمتزوجين هو تنفيذ لهذا الأمر:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

الزواج سنة الله في خَلقِه:

(الْأَيَامَى)

جمع، مفرده أيّم، والأيّم من لا زوج له، ذكراً أم أنثى، عازباً أم متزوجًا، لأن الزواج سنة الله سبحانه وتعالى، وقد بلغ النبي مرة أن بعض أصحابه أزمعوا أن ينصرفوا عن الدنيا، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَقُولُ:

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ، وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري]

وفي رواية مسلم عَنْ أَنَسٍ:

((أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا ؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[مسلم]

لأن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الزوجين الذكر والأنثى كان من نتائج هذا الخلق الزواج، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الروم: الآية 21)

الأمر بالزواج للندب:

توجيه القرآن الكريم، وتوجيه النبي عليه الصلاة والسلام يدعونا جميعا إلى الزواج، فالزواج سنة من سنن النبي، لذلك جاء الأمر هنا:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

ولكن العلماء حملوا هذا الأمر على الندب، فعندنا أمر يقتضي الوجوب، وعندنا أمر للندب، وعندنا أمر للإباحة، وعندنا أمر للتهديد.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ)

هذا أمر للوجوب، أما:

(وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا)

[الكهف: من الآية 29]

فكلمة:

(فَلْيَكْفُرْ)

هذا أمر، ولام الأمر مضافة للفعل المضارع، فكأنه فعل أمر، فهل هذا الأمر للوجوب ؟ لا، ولكنه أمر تهديد، كأن تقول لمن يخالف توجيهاتك: افعل هذا إن شئت، افعل، وانتظر ما سيكون، هل تقول له: افعل من أجل أن يفعل ؟ بل كي لا يفعل، إنك تأمره على طريقة التهديد، فالأمر أحيانا يقتضي التهديد، وأحيانا يقتضي الإباحة، قال تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنْ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ)

(سورة البقرة: من الآية 187)

إذا لم يأكل الإنسان في ليلة رمضان فهو لم يخالف، ولأن هذا أمر إباحة، وعندنا أمر وجوب:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(سورة البقرة: الآية 43)

وهذا أمر وجوب، وهناك ندب، هناك ظروف معقدة قد يكون الإنسان عازفًا عن الزواج، أو ليس بإمكانه الزواج، أو لديه مانع عن الزواج، فهذا أمر ندب في أصح أقوال العلماء.

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

فإذا وجهنا هذا الآية إلى أولي الأمر، كان المعنى أن ييسروا سبل الزواج، وإذا وجهت هذه الآية إلى أولياء الفتيات، وأولياء الفتيان، وإلى سادة العبيد والإماء، فهذا الأمر يعني على الأب أن يزوج ابنه إن كان قادرا على إعانته فليفعل، وعلى الأب ألاّ يرد خاطبا فيه صلاح في دينه وخلقه، ولذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[الترمذي(1084)، ابن ماجه(1967)]

فالأمر أيضا موجه إلى أولياء الحرائر من الشباب والشابات، وإلى سادة العبيد.

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

وكلمة:

(مِنْكُمْ)

تعني أن هؤلاء موجهة إلى الأحرار، ومن كن في هذه المرتبة من النساء موجه أيضا إلى من كن في طور العبودية من العبيد والإماء.

تسلسل الآيات: حد الزنا – الملاعنة – حديث الإفك – الاستئذان – غض البصر – النكاح

الذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن الزنى في أول سورة النور، وبعد أن حدثنا عن أحكام عقوبة الزاني، وحد الزنى، وبعد أن حدثنا عن الملاعنة، وبعد أن حدثنا عن حديث الإفك، وبعد أن وجهنا إلى خطر الخلوة، وآداب الاستئذان، وغض البصر، وإظهار الزينة، بعد كل هذه الموضوعات يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن ننكح الأيامى، فما العبرة المستفادة من أن تأتي هذه الآية في هذا الموضع ؟ قال العلماء: إنّ العبرة أن كل شيء نهى الله عنه له في الإسلام بديل، فالله سبحانه وتعالى حين نهى عن الربا أحل البيع، وحين نهى عن الخمر وشربها أحل عشرات بل مئات الأشربة التي سمح لنا بشربها، وحينما نهى عن السفاح سمح بالنكاح، وحين نهى عن أكل لحم الخنزير سمح بأكل لحم الأنعام، فأي شيء حرمه الله عز وجل له بديل طيب، وكل شيء حرمه الله في الإسلام له بدائل، وقد استنبط بعض العلماء من قوله تعالى:

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

(سورة البقرة: من الآية 35)

فالمنهي عنه محدود جدا، والمباح كثير جدا، وعدد الأشربة التي سمح للإنسان بشربها لا تعد ولا تحصى، ولكن الله نهى عن الخمر، لأنها تذهب العقل، فحينما نهانا عن الزنى، وقذف المحصنات، وحد الحدود، وأقام الموانع، ومنع الخلوة، هذه الموضوعات كلها انتهت بقوله تعالى:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

فالأمر موجه إلى أولي الأمر، لأنهم يمثلون الأمة، لأن الأمر جاء بصيغة جماعة الذكور.

حقٌ على الله إعانة الناكح المريدَ للعفاف:

وشيء آخر ؛ من كانت الناحية المادية عقبة أمام تزويج ابنه أو ابنته فليس منا، والدليل أن الله سبحانه وتعالى تكفل لمن يطلب النكاح من أجل العفة أن يعينه، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللّهِ عَزّ وَجَلّ عَوْنُهُمُ، الْمُكَاتَبُ الّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ وَالنّاكِحُ الّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ وَالْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللّهِ))

[الترمذي، النسائي]

وقد تسمعون آلاف القصص حول هذا الموضوع، شاب ليس في يديه شيء، ولكنه آثر الزواج إحصانا لنفسه، نرى أن الله سبحانه وتعالى سهل له كل أمر، وذلل له كل المصاعب، وجعل كل شيء يهون أمامه، لذلك الدعاء الشريف:

((اللّهُمّ لاَ سَهْلَ إِلاّ مَا جَعَلْتَهُ سَهْلاً))

[صحيح ابن حبان عن أنس]

ويقول الله سبحانه وتعالى:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل: الآيات 5-7)

فالتيسير والتعسير لهما أسباب:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل: الآيات 5-10)

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

والأيامى كما قلنا قبل قليل مَن لا زوج له، ذكراً أم أنثى، عازباً كان أم متزوجاً.

معنى الصلاح في قوله: وَالصّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ

الصالحين يعني أن هؤلاء يصلحون للنكاح، من حيث القدرة والسن، من حيث القدرة الجسدية، ومن حيث النضج الاجتماعي، ومن حيث التمكن الاقتصادي، ومن حيث صلاح الدين، أي أن يصلح سنه، ودخله، ودينه، لذلك الزواج كما قيل رقٌ، فلينظر أحدكم أين يضع كريمته، لذلك لابد من صلاح الزوج والزوجة، وعلى أولياء الأمور أن يربّوا أولادهم وبناتهم تربية يصلحون معها للزواج، فقد تعلم البنت كل شيء إلا حقوق الزوج، وإلا إدارة البيت، فهذه الزوجة يمكن أن تكون متحذلقة، ولكنها ليست ربة بيت مثالية، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصّالِحِينَ)

قال العلماء: **" صلاح الدين، أو صلاح الأهلية، أي هل هذا الإنسان أهل للزواج "**، قد تسمع بإنسان تزوج في سن مبكرة، وهو غير ناضج، وغير متفقه في الدين، ويحلف بالطلاق لأتفه الأسباب، ويقع في الحرام، ويحتاج لمن يفتي له، ويدخل في دوامة لا نهاية لها، فهذا الشاب غير الناضج اجتماعيا، وغير

الناضج دينيا ليس أهلا لأن يقود امرأة، وأن تقود امرأة إلى جادة الصواب شيء يحتاج إلى الحنكة، والصبر، والتروي، فربنا سبحانه وتعالى أشار في هذه الكلمة إلى الصلاح والأهلية.

هل هذا الشاب أهل لأن يدير بيتاً ؟ هل هو أهل لأن تكون في حوزته امرأة ؟ هل يستطيع هذا الشاب أن يلبي حاجات هذه الزوجة ؟ هل هذا الشاب أهل لأن يؤسس أسرة ؟ هل يستطيع أن يقود أفرادها إلى شاطئ الأمان.

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

لم يقل: والصالحين والصالحات، هذا كما قلنا: مِن قبل التغليب، والتغليب أن يغلب حكم الذكور على حكم النساء، أي يجب أن يكون من عبادكم، أي من العبيد الذين فقدوا حريتهم نتيجة الفتوحات الإسلامية، وإمائكم أيضا، وهن النساء اللاتي يقعن أسيرات في الفتوحات الإسلامية.

الزواج حلّ لمشكلة الإعسار:

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

وكأن الزواج يحل مشكلة الإعسار، وكأن الله سبحانه وتعالى يوجهنا إلى أنه لا ينبغي أن يكون الفقر مانعاً من تزويج بناتنا لمن هم أهل لهذا الزواج، هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[الترمذي، ابن ماجه]

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

وكما ورد في بعض الأحاديث:

((مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً بِعِزِّهَا لَمْ يَزِدْهُ اللّهُ إِلاَّ ذُلاً، وَمَنْ تَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ لِمَالِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللّهُ إِلاَّ فَقْرًا، وَمَنْ تَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ لِحَسَبِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللّهُ إِلاَّ دَنَاءَةً، وَمَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَمْ يَتَزَوَّجْهَا إِلاَّ لِيَغُضَّ بَصَرَهُ، أَوْ لِيُحَصِّنَ فَرْجَهُ، أَوْ يَصِلَ رَحِمَهُ بَارَكَ اللّهُ لَهُ فِيهَا، وَبَارَكَ لَهَا فِيهِ))

[الطبراني في الأوسط عن أنس]

ويقول عليه الصلاة والسلام تنفيذا لهذه الآية:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

الحث على مساعدة الشباب في الزواج والشفاعة لهم فيه:

((مَنْ مَشَى فِي تَزْوِيجِ رَجُلٍ حَلاَلاً حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا رَزَقَهُ اللّهُ أَلْفَ امْرَأَةٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، كُلُّ امْرَأَةٍ فِي قَصْرٍ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ، وَكَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ خَطَاهَا أَوْ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا فِي ذَلِكَ عِبَادَةُ سَنَةٍ، قِيَامُ لَيْلِهَا، وَصِيَامُ نَهَارِهَا))

(مسند الحارث/زوائد الهيثمي(317/1)]

قد يكون الإنسان مقصراً في حق نفسه، فيجب أن تسعى في تزويج شاب مؤمن بشابة مؤمنة، هذا السعي من أفضل الشفاعات، أن تشفع بين اثنين في نكاح، ولكن عامة الناس الجهلة يقولون كما تعلمون هذا القول الذي لا يليق بالمؤمن بالبعدِ عن الوساطة في الزواج، أما النبي عليه الصلاة والسلام فيقول:

((مَنْ مَشَى فِي تَزْوِيجِ رَجُلٍ حَلاَلاً حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا رَزَقَهُ اللّهُ أَلْفَ امْرَأَةٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، كُلُّ امْرَأَةٍ فِي قَصْرٍ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ، وَكَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ خَطَاهَا أَوْ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا فِي ذَلِكَ عِبَادَةُ سَنَةٍ، قِيَامُ لَيْلِهَا، وَصِيَامُ نَهَارِهَا))

وكأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وعد المتزوج الفقير بالغنى:

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

بمعنى ألاّ يكون الفقر مانعاً لكم من تزويج فتياتكم أو شبابكم، ومعنى آخر: أيها المتزوج إذا كنت فقيرا لا تجد ما تتزوج به فلعل الله سبحانه وتعالى يغنيك، ثم يأتي قوله تعالى:

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

معاني: لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا

كلمة:

(لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا)

فسرها العلماء على وجهين:

المعنى الأول: لا يجدون الزوجة الصالحة:

إما أنه لم يجد الزوجة الصالحة.

المعنى الثاني: لا يجدون أسباب الزواج:

أو أنه لا يجد أسباب الزواج، فإن كان لا يجد أسباب الزواج، وهو الفقر ففي الحديث عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))

[البخاري(1806)، مسلم(1400) وغيرهما]

فالذي لا يجد نكاحا، لا يملك المسكن، ولا يملك المال فهذا لا يجد أسباب النكاح، فعليه أن يستعفف حتى يغنيه الله من فضله، أي حتى يفتح الله عليه رزقا حسنا يمكنه من الزواج، وإذا فهمت معنى:

(وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا)

أي أنك لا تجد الزوجة المناسبة، وحسن اختيار الزوجة شيء مهم جدا، وقد ورد في بعض الأثر أن تزوجوا ولا تطلقوا، فكيف يأتي النص بالنهي عن الطلاق مع أن الله سبحانه وتعالى قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

الزواج نعمة فاحذروا الطلاق !!!

إن القرآن الكريم أباح الطلاق فكيف يأتي هذا الأثر أن تزوجوا ولا تطلقوا، حمله بعضهم على أن الإنسان إذا تزوج عليه أن يبحث عن زوجة لا يحتاج معها إلى الطلاق، أي يجب أن يبحث بحثا جيدا، لذلك للأبناء على الآباء حقوقاً ؛ أولها حسن اختيار أمهم، فاختيار الزوجة شيء مهم جدا، قال عليه الصلاة والسلام:

((إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ، قَالُوا: وَمَا خَضْرَاءُ الدِّمَنِ ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ))

[مسند الشهاب للقضاعي عن أبي سعيد الخدري]

فالذي يتسرع في اتخاذ قرار بشأن زواجه ربما عض أصابعه ندماً، وربما اضطر إلى الطلاق، واضطر إلى تشريد أسرة، فالبحث عن المرأة الصالحة يجب أن يكون بحثا مستفيضا، ودقيقا، واسأل، وتحقق، وابحث، وتأمل، ثم قل: وافقت، أم لم أوافق.

شيء آخر ؛ بعض السلف الصالح كانوا من الكمال حيث إن الزوجة الصالحة هي أثمن ما في الدنيا.

يروى أن رجلا لقي شريحا، فقال: **" يا شريح كيف حالك في بيتك ؟ قال: والله منذ عشرين عاما لم أجد ما يعكر صفائي، أو ينغص حياتي، فقال: وكيف ذلك يا شريح ؟ قال: خطبت امرأة من أسرة صالحة، فلما كان يوم الزواج - يوم الزفاف - وجدت صلاحا وكمالا، فركعت ركعتين شكراً لله على**

نعمة الزوجة الصالحة، فلما سلمت رأيت زوجتي تصلي بصلاتي، وتسلم بسلامي، وتشكر بشكري، فلما دنوت منها قالت: على رسلك يا أبا أمية، إنني امرأة غريبة، لا أعرف ما تحب، ولا أعرف ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أمية، لقد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله، وسنة رسوله، ليقضي الله أمرا كان مفعولا، فاتق الله فيّ، وامتثل قوله تعالى:

(إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

قال: ثم قعدت، فألجأتني إلى الخطبة فقلت: أما بعد ؛ فقد قلت كلاماً إن تصدقي فيه، وتثبتي عليه يكن لك ذخراً وأجراً، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما وجدت من حسنة فانشريها، وما وجدت من سيئة فاستريها)، وفي الأثر: **" إني أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها".**

فالنبي الكريم يكرهها، حتى إنّ بعض الفقهاء يقول: لا ينبغي للمرأة التي أعسر زوجها أن تطالب بفسخ العقد بينها وبينه لعلة الإعسار، لأن الله يقول:

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

إن كان بدء الزواج من الفقر فلأن يستمر به من باب أولى، وقال: وما وجدت من حسنة فانشريها، وما وجدت من سيئة فاستريها، قالت: كيف نزور أهلي وأهلك ؟ قال نزورهم غبًا، مع انقطاع بين الحين والحين، كي لا يملونا، فقد قالوا: **"زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا "**، قالت: ومن من الجيران تحب حتى أسمح لهن بدخول بيتك ؟ ومن منهم لا تحب حتى لا أسمح لهن بدخول البيت، قال: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم غير ذلك، وقال شريح، ومضى علي عام عدت فيه إلى البيت، ووجدت أم زوجتي عندنا، فعلمت من ابنتها أنها في أهنأ حال، وقالت يا أبا أمية كيف وجدت زوجتك ؟ قال: والله هي خير زوجة، قالت يا أبا أمية: **ما أوتي الرجال شر من المرأة المدللة فوق الحدود، فأدب ما شئت أن تؤدب، وهذب ما شئت أن تهذب، ثم التفتت إلى ابنتها تأمرها بحسن السمع والطاعة ".**

عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ))

[مسلم، ابن ماجه، أحمد]

مَن هي المرأة الصالحة ؟ هي التي إذا أمرتها أطاعتك، وإذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك، فالأمر الإلهي:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

أما هؤلاء الذين لا يجدون أسباب الزواج ؛ من مسكن، أو مال، أو لا يجدون الزوجة المناسبة، فهؤلاء أمرهم الله سبحانه وتعالى بالاستعفاف، والاستعفاف هو المبالغة في طلب العفة، فعلى هؤلاء المبالغة في غض أبصارهم، وفي البعد عن أماكن الشبهات، وفي صحبة أهل الدنيا، والاستماع إلى ما يبث في نفوسهم من الرغبة في الزواج، فعليهم أن يستعففوا.

(وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا)

أي أسباب النكاح، أو المرأة المناسبة.

(حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى تأتي الآية الكريمة:

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (12-23): تفسير الآيتان 33 – 34
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-12-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

معاني قوله: وَأَنْكِحُوا

هذه الآيات سبقتها آية كريمة، هي قوله تعالى:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

وفعل:

(أنكِحُوا)

فعل أمر، والأمر في القرآن على أنواع كما ذكرت في الدرس الماضي، هناك أمر يقتضي الوجوب، وهناك أمر مندوب، وهناك أمر إباحة، وهناك أمر تهديد، فما هو نوع هذا الأمر يا ترى ؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الأمر أمر ندب.

حُكْمُ الزواج وحالاتُه:

ولكن للفقهاء في أمر الزواج أحكام خمسة: فالزواج عند بعض الفقهاء واجب، ومستحب، ومباح، ومكروه، ومحرم.

هناك حالات يجب الزواج فيها، وفي حالات أخرى يكون الزواج مندوبا ومستحبا، وفي حالات أخرى مباحا تستوي دواعيه وموانعه، وفي حالة رابعة يكون الزواج مكروها، وفي حالة خامسة يكون الزواج محرما .

أردنا التفصيل في أحكام الزواج، لأن الآية الكريمة:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

هذا أمر يقتضي الندب.

الحالة الأولى: الوجوب:

قال العلماء: **" يجب الزواج على من قدر عليه "** أي يملك من السكن، والإنفاق على الزوجة، فيجب الزواج على من قدر عليه، وتاقت نفسه إليه، وخشي العنت - أي الزنى - فهذا في حقه واجب، وهو مقدم على الحج، من كان معه مبلغ من المال يكفيه لأداء فريضة الحج أو للزواج، وتاقت نفسه للزواج، وخشي على نفسه العنت - أي الزنا - فالزواج في حقه واجب، ويرتقي الزواج من حكم الندب إلى حكم الوجوب إذا كان هناك قدرة عليه، وتوق إليه - شهوة له - وخوف من الزنى.

الحالة الأولى: الوجوب:

أما من تاقت نفسه إليه، ولم يقدر عليه، ولم يملك مسكنًا أو قدرة على الإنفاق فهذا ينطبق عليه قوله تعالى:

(وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

وفي الحديث عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))

[البخاري(1806)، مسلم(1400) وغيرهما]

هذه الحالة الأولى ؛ حالة الزواج الواجبة.

الحالة الثانية: الندب والاستحباب:

أما من تاقت نفسه إلى الزواج، وقدر عليه، ولكن لا يخشى الزنا، فهذا الزواج في حقه مندوب ومستحب، والعلماء يقولون: الزواج في الحالة الأولى أولى من التخلي للعبادة، لأنه لا رهبانية في الإسلام، فإن تاقت نفسه إليه، وقدر عليه، ولا يخشى الزنى، فهنا الزواج مندوب ومستحب، وكأن هذه الآية تشير إلى هذا المعنى، وهذا المعنى يسع معظم المسلمين، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه.

الحالة الثالثة: الإباحة:

وفي حالة ثالثة يكون الزواج مباحا، ومعنى كونه مباحا أي تستوي دواعيه وموانعه، فإن تاقت نفسه إليه، ولم يقدر عليه فلابد له أن يبحث عن حل لهذه المشكلة.

الحالة الرابعة: الكراهة:

أما الزواج المكروه فهو من أخل بحقوق الزوجة من دون أن يقع بها الضرر، فالزواج في حق هذا الإنسان مكروه، لأنه لو تزوج امرأة غنية، فلو قتر في الإنفاق عليها أكلت من مالها.

لو تزوج امرأة لا تشتهي الزواج أصلا، فلو قصر في حقها من النواحي الأخرى لا يخشى عليها الزنى، وهذا الزواج عند الفقهاء مكروه، لأن فيه إخلالاً بحق الزوجة، والزوجة لها حقان ؛ حق الإنفاق عليها، وحق في تلبية حاجتها من الزواج، فمن أخل بحقوق الزوجة، ولم يوقع بها الضرر فالزواج في حقه مكروه.

الحالة الخامسة: الإباحة:

أما الزواج المحرم ؛ فالذي يخل بحقوق الزوجة، ويوقع بها الضرر، فيحرمها من حاجتها الأساسية، ولا ينفق عليها، وربما ألجأها هذا الحرمان المادي وغير المادي إلى أن تزني، فهذا الزواج محرم، فإذاً قوله تعالى:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

هذا أمر في مجمله محمول على الندب، وللفقهاء تفريعات متعلقة بشأن الزواج، كأن يكون الزواج واجبا، أو مندوبا، أو مباحا، أو مكروها، أو محرما.

الحكمة مِن ورود آيات النكاح بعد آيات الزنى:

شيء آخر ؛ من حكمة ورود هذه الآية عقب آيات الزنى، أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل شيء نهى عنه بديلاً مباحاً، فإذا حرم الله الزنى، وحد الحدود فقد أباح الزواج، وندب إليه، وجعله واجباً في بعض الحالات، ومكروهاً في حالات أخرى.

إذًا:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى)

لو كان الأمرُ موجهاً إلى الأزواج، أو الفتيان والفتيات لقال: وانكحوا، وفرق كبير بين انكَحُوا، وقوله:

(أنكِحُوا)

قوله: أنكِحُوا معنى هذا أن الخطاب موجه إلى أولياء الفتيات والفتيان، وهذه الآية التي تتعلق بحكم الزواج بين واجب، ومستحب، ومباح، ومكروه، ومحرم. وأما قوله تعالى:

حُكم المكاتبة ومعناها وشروطها:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

فإن المعنى أن هؤلاء الذين يبتغون الكتاب، والكتاب أي المكاتبة، مثل العتاب والمعاتبة، الجهاد والمجاهدة، ما هي المكاتبة ؟ المكاتبة أن يقول السيد لعبده: جعلت عتقك مكتوباً على نفسي، أي واجباً على نفسي بمالٍ، هو كذا وكذا، تؤديه في نجوم، أي على أقساط، وهذا الكلام ينقلنا إلى موضوع دقيق، هو أن الله أمر المسلمين أن ينشروا الحق في الآفاق، فبادئ ذي بدء المسلمون بعد أن جعلهم الله سبحانه وتعالى أمة وسطا تنشر الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، أمرهم أن يبلغوا هذه الرسالة السماوية، فمرحلة أولى أنّ هؤلاء عليهم أن يدعو الأقوام المجاورة إلى الإسلام، فإن أسلموا قضي الأمر، وإن لم يسلموا فعليهم أن يدعوهم إلى الخيار، أن يدفعوا الجزية، ويبقوا على دينهم، لأنه لا إكراه في الدين، ولكن هذا المشرك، أو هذا الفاسق، أو هذا الإنسان غير المسلم لا يحق له أن ينشر الفساد في الأرض، فله أن يبقى على دينه، وأن يمارس شعائره من دون أن يفسد في الأرض، وهو معفى من الجهاد، لأن الجهاد يحتاج إلى عقيدة صحيحة، لذلك تؤخذ منه الجزية كبدل نقدي، فإن أبى هذا الكافر أن يسلم، وأبى أن يدفع الجزية يكون الآن القتال الذي شرع في الأصل لنشر الدعوة الإسلامية، هذا الذي يُقاتل ليس القصد أن يُقتل، ولكن القصد أن يهتدي، فإذا وقع أسيرا فقد حريته، وهذه الحرية يفقدها ليهتدي، يعني يكون مع مسلم من أولئك الذين ملأ الإسلام قلوبهم، ويعامله معاملة يميل قلبه بها، فإذا أسلم، واهتدى فهو أخ في الدين، عندما يسلم هذا العبد من خلال المعاملة فقط، ومن خلال الإحسان، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نطعمهم مما نأكل، ونلبسهم مما نلبس، وألا نكلفهم ما لا يطيقون، عندها يرى هذا الإنسان معاملة المسلم الراقية، فلربما مال قلبه للإسلام، وأسلم، فإذا أسلم تأتي هذه الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ)

فكأن الله سبحانه وتعالى يأمر هؤلاء السادة أن يعينوا هؤلاء على نيل حريتهم، وعلى الزواج الذي هو شرعة الله في الأرض.

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ)

أي على السيد أن يتفق مع هذا العبد على المكاتبة، على أن يدفع العبد للسيد مبلغًا محددًا في مدة محددة، بعدها يملك حريته، ولكن الشرط الذي حدده الله في هذه الآية:

(إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)

ما هو الخير المقصود في قوله: إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا

المعنى الأول: الأمانة:

فما هو الخير ؟ قالوا: الأمانة، الخير الذي يجب أن يعلم فيهم الأمانة.

المعنى الثاني: القدرة على كسب المال:

وقال بعضهم: الخير الذي يجب أن يعلم فيهم القدرة على كسب المال.

المعنى الثالث: الصلاح في الدِّين:

وقال البعض الآخر: هو الصلاح في الدين، فإن علمتم فيهم خيرا ؛ القدرة على كسب المال، والأمانة، والصلاح في الدين.

المعنى الرابع: المال والحرفة:

شيء آخر ؛ قال بعضهم: المال والحرفة، فإذا كان هذا العبد يتقن حرفة ما بإمكانه أن يكسب المال، فله أن يشتري بهذا المال حريته بعد أن صح إسلامه، وصحت أمانته، وصح صدقه، وأتقن حرفته، وكان قادرا على كسب الرزق.

المال، والحرفة، والوفاء، والصدق، والأمانة هذه شروط أخرى وضعها بعض العلماء لتفسير قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)

هذا العبد إذا فقد حريته، وأراد أن يستعيدها، وكان قد بلغ من الصلاح والإيمان مبلغا مقبولا فعلى سيده أن يسهل هذا الطلب له، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ)

أي اتفقوا معهم، اعقدوا معه عقدا يوضح فيه المبلغ، وطريقة أدائه من أجل أن يكون هذا العبد قادرا على ممارسة حقوقه الدينية، والحقوق التي شرعها الله له.

معاني: وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ

هذا القول يحمل معاني عدة.

المعنى الأول: الإعفاء من بعض المال:

أن تعفيه من بعض المال الذي اتفقت معه على أدائه، فلو اتفقت معه على أداء عشرة آلاف، ثم خفضت عليه هذا المبلغ، أو حططت من هذا المبلغ جزءا فهذا نوع من المساعدة.

(وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ)

المعنى الثاني: استثمار المال عنده:

إذا كان هذا العبد صاحب حرفة، ولا يملك المال الكافي لشراء حانوت، أو أدوات، وآلات، ويمكن أن تعطيه مالا تستثمره عن طريقه، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ)

المعنى الثالث: وجوب فكّ الرقاب من أموال الزكاة:

أنه تجب أن تفك الرقاب من أموال الزكاة، فأموال الزكاة من جملة المصارف التي شرعها الله لها أن تعتق العبيد، وأن تعين هذا العبد على نيل حريته بدفع مبلغ لسيده:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)

عدم جواز محاربة الكافر إذا دفع الجزية:

هذا الموضوع ينقلنا إلى أنه لا يجوز محاربة الكافر إلا إذا رفض أن يدفع الجزية، وهي البدل النقدي

مقابل إعفائه من الجهاد، أو رفض أن يسلم في الأصل، فأهل سمرقند ربما فتحت بلادهم حرباً من دون عرض الإسلام، أو عرض الجزية، فقد علم هؤلاء أن بلادهم فتحت بطريقة غير شرعية، ويروي التاريخ أنهم أرسلوا وفداً خفية إلى أمير المؤمنين سيدنا عمر بن عبد العزيز، وأطلعوه على حقيقة الأمر، فما كان منه إلا أن أرسل توجيهاً على قصاصة ورق صغيرة إلى قاضي سمرقند، يأمره أن يحكم بين أهالي سمرقند، وقائد الجيش الموكل بفتح هذه البلاد، وبعد محاكمة صغيرة أصدر قاضي المسلمين في سمرقند حكمه على الجيوش الإسلامية بأن تخرج من سمرقند، وتستعيد سمرقند ما كانت عليه من قبل، لأن هذا الفتح ليس صحيحا، ولابد من عرض الإسلام أولاً، ولابد من طلب الجزية ثانياً، فإذا أبوا هذا أو ذاك عندئذ يقاتلون، وبما أن هذا الجيش دخل سمرقند من دون عرض إسلام، أو عرض جزية كان دخوله إلى هذه البلاد غير شرعي، فما كان من القاضي إلا أن أمر قائد الجيش أن يخرج من سمرقند، فذهل هؤلاء، ولم يظنوا أن في الإسلام انضباطا إلى هذه الدرجة، ولم يظنوا أن في الإسلام رحمة إلى هذه الدرجة، ولم يظنوا أن في الإسلام عدلا إلى هذه الدرجة، فأسلموا جميعا، وانتهى الأمر، فهؤلاء:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)

شروط المكاتبة بين العبد وسيده:

هناك شرطان.

الشرط الأول: رغبة العبد في تحرير نفسه:

أن يكون العبد راغبا في تحرير نفسه.

الشرط الثاني: أهلية العبد لكسب المال:

أن يكون أهلا لكسب المال، أن يملك حرفة تعينه على كسب المال، أو أن يكون من الصدق، والأمانة، والوفاء الذي يمكنه أن يفي بهذا العقد المبرم بينه وبين سيده، وعلى كل هذه الموضوعات لا تعنينا كثيرا، لأنها ليست موجودة في هذه الأيام إطلاقا، وكأن الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات ينبهنا إلى أن هذا الشيء في سبيل الانتهاء، فهو سبحانه وتعالى يقول:

(وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

[النساء: من الآية 92]

(أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

[المائدة: من الآية 89]

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

[المجادلة: 3-4]

أي فإن لم تجدوا رقبة تعتقونها، فلابد أن تأتي الأيام، وتنتهي هذه المشكلة.

حُكْمُ المكاتبة: الندب:

شيء آخر ؛ قال بعض العلماء: عندما قال الله تعالى:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)

على سبيل الوجوب، وجمهور العلماء على سبيل الندب، وبعض العلماء على سبيل الإباحة، يعني هذا السيد قد يجد أنه من المناسب أن يبقي هذا العبد لأسباب تمس صالح العبد نفسه.

مِن عادات الجاهلية: إكراه الفتيات على الزنى:

(وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه الآية دقيقة جدا، فهي تنفي عادة جاهلية كانت سائدة قبل مجيء الإسلام، فكان لبعض الجاهليين إماء، وكانوا يكرهوهن على الزنى ليأخذوا منهن مالا كثيرا، وروى التاريخ عن رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول كان له ست جاريات، كان يكرههن على البغاء، أي على الزنا، من أجل أن يأخذ منهن أموالًا طائلة، فهذه عادة شنيعة قبيحة جاء الإسلام ليقضي عليها قضاء مبرما.

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُ)

والإكراه كما يقول عنه الفقهاء لا يسمى إكراها إلا إذا خاف الإنسان أن يفقد حياته كلها، أو يفقد أحد أعضائه، أو يفقد ماله كله، فحين يقول الفقهاء: **" الضرورات تبيح المحظورات "**، فالضرورات هي أن يغلب على ظنك أن هذا الذي يهددك يفعل ما يقول، وأنه يهددك بالموت، أو بفقد أحد الأعضاء، أو فقد المال كله، عندئذ فلا على الإنسان في هذه الحالة أن ينطق بكلمة الكفر، ولا شيء عليه إنقاذاً لحياته، أو إنقاذاً لأحد أعضائه، أو إنقاذاً لماله كله، فالإنسان أحياناً يتوسع في الإكراه، يقول: أكرهوني، استحييت، أحرجوني، ضيقوا علي، هذا كلام غير مقبول شرعاً، لا يقبل منك أن تفعل معصية بدافع الحياء، أو الخشية، أو الإحراج، أو خشية أن يقال عنك كذا وكذا، وخشية أن تتهم بكذا وكذا، كل هذا الكلام لا يرقى إلى مستوى الإكراه، فالإكراه الشرعي أن تخشى من يهددك، وهو يفعل ما يقول، بموتك، أو

بفقدان أحد أعضائك، أو فقد مالك كله، هذا هو الإكراه الذي تعنيه هذه الكلمة في قوله تعالى:

(وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

وفتياتكم يعني إماءكم، والبغاء هو الزنى، وهو عادة شنيعة جدا، فجاء الإسلام ليطهر الحياة الإسلامية من كل شذوذ، ومن كل انحراف، ومن كل عدوان.

معنى: إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا

هذه الآية إذا قرأها الإنسان وحده، وأراد أن يفهمها كما يبدو له ظن أن هذا الإكراه تزول حرمته إذا كان هؤلاء الفتيات لا يرغبن في التحصن، وهذا المعنى فاسد، الزنى زنى بأية حالة، ولكن هذا القيد كما قال علماء الأصول هو قيد وصفي، وليس قيدًا احترازيًا، فلو أن هؤلاء الفتيات لم يردن التحصن فهل يصبح هذا النهي لاغيا ؟ لا، هذا وصف، يعني من عادة الفتاة أنها تكره أن تكون بغيا، وتحب أن تكون زوجة، فهذا السيد الظالم الجائر الذي يكرهها على الزنا رغبة في أخذ الأموال وقع في إثم كبير مقابل أجر يسير، وهذه أكبر الخسارة ؛ أن تقع في إثم كبير من أجل مكسب يسير، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

معنى: لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

والعرض هو الشيء الزائل، الذي لا يدوم، والذي طريقه الزوال، والمال يأتي، ويذهب، وأي شيء في الدنيا يأتي، ويذهب، ولا يبقى، كل حال يزول، على حد قول لبيد بن ربيعة:

ألا كل شيء ماخلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائلُ

***

المعنى الأول: تصوير عادة جاهلية مستقبحة:

حينما يقع الإنسان في هذه الجريمة الكبيرة، ويسبب لهذه الفتاة، ولمن جاء من نسلها تعاسة أبدية لقاء أجر يسير، فهؤلاء الذين في بعض الأحيان يكون الإنسان منحرفا انحرافا شديدا، تسول له نفسه أن يتزوج امرأة، ثم يعرضها على من يدفع الثمن غاليا، وهذا الشيء يحصل في بعض البلدان المجاورة، يتزوج امرأة، وتكون في نيته أن يعرضها على أناس أغنياء ليأخذ منهم مالاً، وفيرا ويغش أهلها، يأتيهم خاطبا، وفي نيته أن يكرهها على البغاء ليأخذ منها مالاً وفيراً، وهذا العمل قبيح قد شنعه الله، فالفتاة من طبيعتها أنها تريد أن تستقر، تحب أن تكون زوجة، وأن تكون أما، فإذا أُكرهت ففي كل مجتمع أناس

يبتزون أموال الناس، فلذلك:

(وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أي هؤلاء الفتيات إن تبن إلى الله عز وجل، وكن مكرهات حقيقة، ولم يكن هناك ميل لهن فلعل الله سبحانه وتعالى أن يغفر لهن هذا العمل الذي أتينه به، وهن مكرهات.

المعنى: تصوير عادة جاهلية مستقبحة إلى أبعد الحدود، إنسان يحصل الكسب الوفير من خلال إجبار جارية من جواريه على الانحراف، فالكسب غزير، والإثم كبير، وهناك إشارة أن الفتاة تطمح أن تكون أما، لذلك مرة سألوا امرأة تكسب من عرض مفاتنها على الناس عن شعورها، فقالت: إن شعور المرأة التي تعرض مفاتنها على الناس هو شعور الخزي، والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الناس، لأن هذه العلاقة يجب أن تكون مقدسة، ويجب أن تكون بين الزوجين فقط، وفي غرف مغلقة، هذه هي الطبيعة البشرية، هذه هي طبيعة المرأة العفيفة، وهذه هي العفة.

المعنى الثاني: ردُّ ولي الأمر الخاطبَ المناسبَ لابنته:

بعض العلماء استفاد من هذه الآية أن الأب كلما جاء ابنته خاطب رده لعلة فيه، والفتاة تكبر سنها، والخطّاب يقلون شيئا فشيئا، وقد تبقى هذه البنت من دون زواج لعقدة في نفس الأب، أو لحرصه المرضي على نجاح الزواج، فربما كان تعنت الأب الشديد، ووضعه العراقيل، والبحث عن العيوب لدرجة غير مقبولة وطبيعية يفوت على ابنته الزواج، فإذا فاتها قطار الزواج، ولم تكن مؤمنة الإيمان الصحيح ربما تزل قدمها، فكأن الأب مسؤول عن ذلك، فهذا معنى آخر مستنبط من هذه الآية، فالأب المتعنت الذي يضع العراقيل أمام كل الخطاب، أين البيت، والدخل الثابت، والسيارة، وأين، وأين، ما من أحد في بداية الحياة، وهو في سن الزواج يستطيع أن يكون كوالد الفتاة، فهو في الخمسينات والستينات، وله دخل، وله بيت، فهل بالإمكان أن يشابه هذا الإنسان شابا في مقتبل العمر، فالتعنت الشديد، ووضع العراقيل، والشروط القاسية، والبحث عن عيوب الخاطب، والتعلل بأسباب واهية، ورفض هذا الخاطب، ربما فوت هذا على الفتاة قطار الزواج، وإن فاتها، ولم تكن مؤمنة ربما زلت قدمها، وكأن الأب أكرهها على الزنى، هذا الأب الذي يسمح لابنته أن تسافر دون محرم، ولتسكن في غرفة وحدها، والأنظار حولها، والعيون كثيرة، ربما حملها على شيء لا يرضى عنه الله، فالإكراه أن يقول السيد للجارية، أو أن يأمرها بالزنى، فهذا غير وارد الآن مطلقا، ليس في الحياة كلها شيء اسمه الجواري أو الإماء، وليس في الحياة كلها أب يأمر ابنته بالزنى، وهذا نادر، وأقل من نادر، ولكن إذا أردنا أن نستنبط من تلك الآية بعض العادات الاجتماعية التي شاعت بين الناس ؛ أن الأب المتعنت جدا

في تزويج ابنته كأنه يحمل فتاته على الزنى، والأب الذي يجبر ابنته على الزواج من رجل يكبرها سنا بكثير، وهي لا تريد هذا الزواج، يجبرها، ويزمجر، ويرعد، ويزبد، فإذا قبلت، ولم تكن مؤمنة كما ينبغي فربما زلت قدمها، وربما وقعت في الزنى، فلعل هذه الآية تعني شيئا كثيرا، هذا الذي يجبر ابنته على الزواج من رجل يحقق للأب مصالحه، متقدما في السن، والفرق بينه وبين ابنته كبير في السن، والطباع، والأمزجة، أو ربما أجبر الإنسان ابنته على الزواج من شخص فظ الطباع، فإذا حقق الأب بهذا الزواج مصالحه فإن هذه البنت إذا انصرفت عن هذا الزوج، وكرهته فربما زلت قدمها، وكان الإثم في عنق الأب، هذا معنى آخر من معنى الإكراه، فيستحيل أن ترى إنسانا يجبر ابنته على الزنى، ولكن من قبيل الواقع هؤلاء الذين يتعنتون في تزويج بناتهم، أو في إجبارهم على العمل في أماكن بعيدة، يقمن في بيوتهن وحدهن، هذا كله يسبب طمع الناس بها، وأن يغروها، وأن تزل قدمها، أو هذا الذي يبحث لابنته عن عمل في أماكن احتكاك مع الرجال، واختلاط بهم، ربما كان هذا العمل منزلقا لها إلى الزنى، فالاختلاط في الأصل مزلق خطير لكلا الجنسين ؛ الذكور والإناث.

نعيد الآيات مرة ثانية:

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (34))

(سورة النور)

لأن من طبيعة الفتاة أنها تحب التحصن، لأنها تريد أن تكون زوجة وأما:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ)

آيات الزنى، آيات الحدود، حديث الإفك، آداب الاستئذان، آداب الدخول، آيات غض البصر، آيات إبداء الزينة، هذه كلها آيات مبينات، وقد حمل بعض العلماء هذه الآية على القرآن كله:

(وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنْ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ)

كيف أن الله سبحانه وتعالى أهلك عادًا وثمود، وكيف أهلك أصحاب الحجر، وكيف أهلك قوم لوط:

(وَمَثَلًا مِنْ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نبدأ بتفسير قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (13-23): تفسير الآية 35
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-12-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة النور، وقد صلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

الحكمة مِن ورود هذه الآيات بعد آيات أحكام الزنى وفروعه:

أيها الإخوة المؤمنون، سورة النور بدأت بالحديث عن الزنى، والحدي عن حد الزاني، والحديث عن القذف، وبيان حد القذف، ثم آيات الملاعنة، ثم جاء حديث الإفك، وبعدها جاءت آيات الاستئذان، وآيات غض البصر، وآيات عدم إبداء الزينة، فكيف كانت هذه النقلة المفاجئة في قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

بعضهم قال: إن الله سبحانه وتعالى عالج أغلب ما في الإنسان، عالج هذا الشيء ليرققه، وليطهره، وليرفعه إلى آفاق النور، عالج شهوة العين والفرج، عالج رغبة التجريح والتشهير، عالج نزعة الغضب والغيظ، عالج الفاحشة، عالجها أن تشيع في النفس، عالجها أن تشيع في الحياة، عالجها أن تشيع في القول، عالجها بتشديد حد الزنى، عالجها ببيان حد القذف، عالجها بعرض نموذج شنيع للإفك، والافتراء، ورمي المحصنات الغافلات، عالجها بالوسائل الوقائية ؛ من استئذان قبل الدخول، وغض للبصر، وإخفاء للزينة، ونهي عن مثيرات الفتنة، وموقظات الشهوة، وعالجها بالإحصان، ومنع البغاء، وتحرير الرقيق، هذه الشهوة ؛ الشهوة الجنسية التي أودعها الله في الإنسان ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، هذه الشهوة إما أن يحكم توجيهها فتأخذ ثمارها، وإما أن يغفل الإنسان عن توجيهها فتدمر صاحبها، الشهوة التي أودعها الله في الإنسان تشبه تماما الوقود السائل، فلو وضع في مخزنه الصحيح، وانتقل في القنوات الصحيحة إلى غرف توزيع هذا الوقود، ثم إلى غرف الانفجار، وانفجر هذا السائل في المكان الصحيح ولد قدرة وحركة نافعتين، فإذا خرج هذا السائل عن مجراه الصحيح، وأصابته شرارة أشعل هذه المركبة، وأنهاها، وقضى عليها، لذلك فسورة النور تعالج علاقة الرجل بالمرأة،

العلاقة المحرمة، وحد الزنى، والحد الذي أوجده الله عز وجل ضمانا وصونا لطبيعة الإنسان من أن تتشوه، ومن أن تشقى، بعد أن عالج الله سبحانه وتعالى هذه الشهوة، وحد الحدود، ووضع التدابير الاحترازية، بعد أن فعل ذلك نقل الإنسان برفق إلى الله، إلى نور السماوات والأرض، إذا النقلة بين المعالجة العقابية، والمعالجة الوقائية لهذه الشهوة، التي حينما وضعت إنما وضعت لتكون أداة للإنسان لنقله إلى ملكوت السماوات والأرض، هذه الشهوة بالذات بعد أن تمت معالجتها بالتدابير العقابية وبالتدابير الاحترازية والوقائية، بعد هذا وذاك انتقلت الآيات إلى حديث آخر عن الله، نور السماوات والأرض.

اطمئنان النبي عليه الصلاة والسلام بعد براءة عائشة أم المؤمنين:

وقبل الحديث عن تفسير هذه الآية، وكيف أن الله سبحانه وتعالى نقلنا بلطف ورفق من موضوع اجتماعي إلى موضوع روحي، طمأن النبي عليه الصلاة والسلام بعد حديث الإفك، فكان النبي بإنزال براءة السيدة عائشة رضوان الله عليها قرير العين، وقد قرت عين السيدة عائشة نفسها بعد أن تولى الله سبحانه وتعالى تبرئتها في الكتاب الكريم، وقد اطمأنت نفس سيدنا أبي بكر بهذه التبرئة، واطمأن النبي، واطمأن الجميع، وبين الله سبحانه وتعالى أن على المؤمن أن يفعل الخير ابتغاء وجه الله، أن يصنع المعروف مع أهله، وغير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله.

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

فالنور هو الضوء الذي يظهر بذاته، ويظهر غيره، وتعريف النور: هو الشيء الظاهر بذاته، والأشياء كلها التي أمامنا لا تظهر بذاتها، لا تظهر إلا إذا ألقي عليها ضوء، فإذا انعدم هذا الضوء لم تظهر بذاتها، لكن الضوء شيء يظهر بذاته، ويظهر غيره، هذا هو المعنى الذي يعرفه عامة الناس من كلمة النور، ما معنى دخول إشعاعات تنتج من مادة تسير بسرعة هائلة تزيد عن 300 كم في الثانية ؟ هذا المعنى يضاف ليشكل المعنى الحقيقي للنور، لكن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يقول:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فهو الذي أوجد السماوات والأرض، وهو الذي نوّر السماوات والأرض، أوجدها ونورها، الشيء الذي إذا ألقيت عليه نورا ماديا يبدو للبصر، لكن هذا الشيء ليس عين نور، لكن نور الله عز وجل هو الذي أظهر الكون، فهذا الشيء الذي ظهر بنور الله هو السماوات والأرض ظهرت بنوره، ونوّرها الله بنوره، هذا معنى.

عَنِ سَمِعَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ:

((اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ...))

[البخاري، مسلم]

وقد سئل عليه الصلاة والسلام حينما كان في معراجه في السماء سئل: هل رأيت ربك فقال: أنى أراه، لقد رأيت نورا.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

معنى: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

لابد من حديث تفصيلي عن معنى قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

معاني (مِنْ) في قوله تعالى: يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

المعنى الأول:

السماوات والأرض في القرآن الكريم تعني الكون، والله سبحانه وتعالى نور السماوات والأرض، فبنوره ظهرت هذه السماوات والأرض، وبنوره نُوِّرت هذه السماوات والأرض، ولكلمة نور معان دقيقة ؛ من هذه المعاني: يعني هذا الكون فيه شمس، وفيه قمر، وفيه شموس، وفيه أقمار، من صمم إضاءة السماوات والأرض ؟ كم من أموال تحتاج لنضيء الظلام، كم من الليرات ندفعها في الشهر لنضيء غرفتين أو ثلاث غرف ؟ هذه الأرض بما فيها، وما عليها كيف أنها بنور الشمس تنعم بالضوء العميم ؟ هذا معنى أن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، ونوَّرها بنور مادي.

معاني (مِنْ) في قوله تعالى: يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

المعنى الثاني:

ومعنى آخر... ربنا عز وجل خلق السماوات والأرض:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)

(سورة الأنعام: من الآية 1)

وفي آية أخرى:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)

(سورة الكهف: الآية 1)

فكان الكتاب ينير لنا طريق الحياة، هذا الكتاب ينير لنا طريق المعرفة ؛ معرفة الله عز وجل، هذا الكتاب ينير لنا طريق المنهج الصحيح الذي نحتاجه في الحياة الدنيا كي نسعد بها، إذاً:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

خلق الكون، وخلق لك ما ينير لك حقيقة الكون، أحيانا قد تكون حقيقة الشيء مخالفة لظاهره، فالأفعى لها ملمس ناعم، ولها ألوان متناسقة، ولكن في فمها السم الزعاف، فإما أن تنظر إلى الأفعى رؤية ظاهرية، فتراها انسيابية الخطوط، ناعمة الملمس، ولكنك تعلم حقيقتها بأن في فمها السم القاتل، فالشيء في الحياة له صورة، وله حقيقة، قد تبدو لك صورة الشيء جميلة جدا، الذين يغرقون أنفسهم في الشهوات هؤلاء يمتعون حياتهم بمتع حسية، قد يعتقدون أن الشيء الذي يفعلونه شيء عظيم، وشيء ممتع، وشيء فيه بهجة، ولكنهم حين يعلمون حقيقة هذا الشيء، وكيف أن في هذا الشيء سما يسمم حياتهم كلها، لو علم الإنسان حقيقة الشيء لما شقي في الدنيا وفي الآخرة، الإنسان إذا افتقد إلى نور يريه الخير خيرا والشر شرا، يريه الحق حقا والباطل باطلا، الإنسان حينما يتحرك في الحياة ما الذي يحركه ؟ رؤية ، فإما أن يكون على نور، وإما أن يكون في ظلام، فالذي يتخذ قرارا أحمق مثلا لتطليق زوجته لسبب تافه، فهذا أعمى، لو أنه مستنير بنور الله عز وجل لما اتخذ هذا القرار، سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال قال: إني أخاف الله رب العالمين، وهناك آلاف وآلاف الأشخاص الذين تسنح لهم فرص كالفرصة التي عرضت لسيدنا يوسف، فلماذا هؤلاء يقبلون على الشهوة، وهذا النبي العظيم قال:

(مَعَاذَ اللّهِ إِنّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنّهُ لَا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ)

[يوسف: من الآية 23]

سؤال دقيق: لماذا تعرض على إنسان مبلغا حراما فيقول: معاذ الله، ولماذا يأخذه إنسان آخر ؟ لماذا تمشي في الطريق امرأة تلفت النظر ؟ لماذا ينظر إليها رجل ؟ ولماذا يغض البصر عنها رجل ؟ ما الذي جعل هذا ينظر، وهذا يغض الطرف ؟ ما الذي يجعل هذا يأكل مالاً حراماً، وهذا يمتنع عنه ؟ ما الذي جعل هذا يقبل على طاعة، وهذا يقبل على معصية ؟ هؤلاء الناس متفاوتون في مواقفهم، ومتفاوتون في سلوكهم، لماذا يقدم هذا، ويحجم ذاك ؟ لماذا يأخذ هذا، ويرفض ذاك ؟ لماذا يعطي هذا، ويمنع ذاك ؟ ما الذي يفسر هذه الظواهر ؟ يفسرها أن الإنسان المستنير ينظر بنور الله، فالمستنير يرى

أن معصية الله مهلكة في الدنيا والآخرة، لذلك أي موقف فيه معصية لله يقول:

(مَعَاذَ اللّهِ إِنّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنّهُ لَا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ)

فهو مستنير، والذي يقبل على المعصية أعمى:

(فَإِنّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ)

(سورة الحج: من الآية 46)

ما الذي يضبط حركة الأشخاص ؟

هذا الموضوع دقيق جدا، ما الذي يضبط حركة الأشخاص ؟ رؤية، من فمن يملك رؤية صحيحة يملك الموقف الصحيح، ويملك التصرف الصحيح، ويملك الموقف الأخلاقي، ويملك الحق، ويملك الإنصاف، ويملك السلوك، يملك السعادة، أساس كل هذا رؤية صحيحة، والذي يرتكب الخطأ، ويأكل المال الحرام، ويعتدي على أموال الناس، ويعتدي على أعراضهم، ويظن هذا ذكاء ما الذي حمله على أن يفعل هذا ؟ إنها رؤية منحرفة، أو عمى غلف بصيرته، أو ظلام يعيش فيه، فالقضية خطيرة جداً.

إمّا نورٌ أو ظلمات

حينما يقول الله عز وجل:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أي لا نور إلا نوره، فإما أن تكون مهتديا بهذا النور، وإما أنت في عمىً، قولاً واحداً، لا يوجد في الإسلام حل وسط، مصدر النور هو الله عز وجل، مصدر الحقيقة هو الله، مصدر المعرفة هو الله، المنهج الصحيح من عند الله، فعَنْ أَنَسٍ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النّارُ الْحَطَبَ، وَالصّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النّارَ، وَالصّلاةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ، وَالصّيَامُ جُنّةٌ مِنَ النّارِ))

[أبو داود، ابن ماجه، واللفظ له]

وإما أن يكون الإنسان منقطعا عن الله عز وجل، وبهذا الانقطاع هو في عمىً، لذلك آيات كثيرة تتحدث عن هذا الموضوع يقول تعالى:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النّورِ إِلَى الظّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 257)

فبعلاقاته مع زوجته في ظلمات، يقسو عليها، يحملها ما لا تطيق، أو يطلق لها العنان، أو يتجاوز حده معها، أو يسمح لها أن تتجاوز حدها معه، هذه العلاقة مع الزوجة علاقة أساسها انحراف الرؤية، أو الظلمة التي يعيشها المقطوع عن الله عز وجل، العلاقة بالأولاد، العلاقة بالجيران، العلاقة مع الناس، العلاقة مع من هم فوقك، العلاقة مع من هم دونك، كل علاقات الإنسان، وكل حركاته اليومية ما الذي يحكمها ؟ إما نور ساطع يقذف في القلب فيريه الخير خيرا والشر شرا، وإما ظلام يلفح هذه النفس فإذا هي تخبط خبط عشواء.

الله سبحانه مصدر النور:

لذلك:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هو المصدر، فإذا كنت على صلة به كنت على نور، تعرف ما ينبغي أن تفعل، وما لا ينبغي، ما يجوز أن تفعل، وما لا يجوز، ما هو صالح، وما هو طالح، ما هو خير، وما هو شر، ما هو حق، وما هو باطل، ما هو مستحسن، وما هو مستقبح، ما يليق، وما لا يليق، ما ينبغي، وما لا ينبغي، هذا كله أساسه النور.

لذلك:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

كان في أثناء صلاته على شيء من النور، فلما ترك الصلاة أصبح في عمى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

ويقول ربنا سبحانه وتعالى:

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

(سورة المائدة: من الآية 15)

تصور أنك تقود مركبة، والطريق ضيقة، وفيها منعطفات عديدة، وفيها انحدار شديد، ومكان هبوط حاد، وعلى جانبي الطريق وديان سحيقة، هل يمكن أن تسلم من دون ضوء شديد ينير لك الطريق ؟ هذا المثل المادي ؛ سائق المركبة إذا كان الطريق ضيقا، والظلام دامسا، والمنعطفات شديدة، والانحراف شديد، والصعود حاد، وعلى جانب الطريق وديان سحيقة، هل يعقل لهذا السائق أن ينجو من حادث مروع دون ضوء شديد ينير له الطريق ؟ هذا المثل المادي طبقه على الحياة، في علاقتك مع أهلك، في علاقتك مع جيرانك، في كسب المال، في إنفاق المال، أنت في موقف معرض فيه لشهوة ضاغطة، أنت

في موقف معرض فيه إغراء شديد، معرض فيه لضغط شديد، ماذا تفعل ؟ ما المواقف التي يجب أن تقفها ؟ تحتاج إلى نور، تحتاج إلى بصيرة، تحتاج إلى من يهديك السبيل، لذلك:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

آية ثالثة:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)

يعني الظلمات والنور تعادل خلق السماوات والأرض. لذلك:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ويقول ربنا عز وجل:

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(سورة النور: من الآية 40)

فحينما ينقطع الإنسان عن مصدر النور لا يمكن أن يكون مستنيرا، لابد أن يخطئ، ولابد أن يشقى، ولابد أن يهلك، ولابد أن تزل قدمه، وأن يعتدي، وأن يعتدَى عليه، هذه طبيعة الظلام، هذه طبيعة البعد عن الله عز وجل.

آية رابعة:

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)

(سورة الأحزاب: الآية 43)

فيمكن أن نقول: إن الناس رجلان ؛ مستنير وأعمى، موصول مستنير، ومقطوع أعمى، المستنير يعرف ما ينبغي أن يفعل، إنه يسير على طريق عريضة، ونوره الوضّاء يكشف له جوانب الطريق، والمقطوع عن الله عز وجل في ظلام دامس، يخبط خبط عشواء.

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(سورة النور: من الآية 40)

ويقول تعالى:

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الزمر: الآية 22)

أنت مستنير بنور الله، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((... الصَّلَاةُ نُورٌ...))

[مسلم، الترمذي، أحمد عن أبي مالك الأشعري]

قال عزوجل:

(إِنّ الصّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

[العنكبوت: من الآية 45]

لماذا تنهى عن الفحشاء والمنكر ؟ أنت إذا رأيت حشرة سامة مخيفة قاتلة، ورأيتها بعينيك عن طريق نور وضاء كشاف، هل يعقل أن تقترب منها ؟ ما الذي جعلك تبتعد عنها ؟ هو ذلك النور الذي جعلك ترى حقيقتها، فلذلك يقول عز وجل:

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبّكَ الْحَقّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنّمَا يَتَذَكّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)

(سورة الرعد: الآية 19)

الحقيقة أن الإنسان حينما يكون حكيما في علاقاته، وفي حياته، فالحكمة مبعثها النور، وحينما يكون أحمق في علاقاته، وفي حياته، هذا الحمق، وهذا الضلال مبعثه الظلمة، فعَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَطَبَ النّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكّةَ فَقَالَ:

((يَا أَيُّهَا النّاسُ، إِنّ اللّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيّةَ الْجَاهِلِيّةِ، وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنّاسُ رَجُلَانِ: بَرّ تَقِيّ كَرِيمٌ عَلَى اللّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيّ هَيّنٌ عَلَى اللّهِ، وَالنّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، قَالَ اللّهُ: (يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)))

[الترمذي، واللفظ له، وأبو داود عن أبي هريرة]

البر التقي مستنير، والفاجر الشقي في عمى، وفي ظلام شديد.

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أي لا جهة في الكون يمكن أن تلقي لك نورا يريك الخير خيرا، والشر شرا إلا الله.

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

وهذا النور الذي تتحدث الآية عنه إنما هو النور الذي نقتبسه من الله عز وجل في أثناء الصلوات، لذلك:

((... الصّلَاةُ نُورٌ...))

[مسلم، الترمذي،أحمد عن أبي مالك الأشعري]

تفسير هذه الآية في ضوء المعطيات الحديثة: النظرية النِّسبية:

على كل ؛ هذه الآية إذا أردنا أن نفسرها في ضوء المعطيات الحديثة، وفي ضوء العلم الحديث في بعض النظريات الحديثة جداً في الفيزياء، إشارة إلى أن الطاقة يمكن أن تتحول إلى ضوء، وأن الضوء أساسه المادة، لذلك هذه المواد المشعة إذا استمرت في إشعاعها تنقص كتلتها، فالجسم إذا سار بسرعة

الضوء صار ضوءًا، والذي يعرفه الطلاب الذين يدرسون الفيزياء والكيمياء أن المادة مؤلفة من نواة، ومن كهارب، فإذا حطمت كانت إشعاع، وهذا الإشعاع يستهلك كتلة المادة، فالمادة يمكن أن تكون نورا، فهذا الكون العظيم هو من خلق الله عز وجل، هو من نور الله عز وجل.

لذلك:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذه النظرية النسبية التي تقول: إن الزمن هو البعد الرابع للأشياء تعني أن الزمن له علاقة بالحركة، والحركة إذا زادت عن حد معين تجعل هذا الجسم نورا صرفا، لذلك يكون نور الكون كله مبعثه نور الله عز وجل، فهذه الآية يمكن أن تفسر في ضوء المعطيات العلمية الحديثة بشكل دقيق جدا على شيء مبسط، مصباح الزيت، هذا الزيت يصبح في النهاية نورا، فتيل الزيت يضيء، ويبدد الظلام على حساب هذه الكمية من الزيت، فإذا انتهى الزيت انتهى النور، كيف تحولت هذه الكمية من الزيت إلى نور ؟ إذا قلنا:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

العلم نورٌ:

أي أن الله سبحانه وتعالى هو موجد السماوات والأرض، وهو منور السماوات والأرض، لكن الآية في بعض معانيها تشير إلى أن العلم نور، أي أن الإنسان أحيانا حينما يجري عملية جراحية الطبيب يكون قد درس دراسة مفصلة كل مراحل العملية، كيف يخدر المريض، كيف يفتح البطن، كيف يغلق الشرايين، كيف يبدأ بشق المكان، كيف يستأصل المنطقة المرضية، فهذه المراحل الدقيقة التي يجريها الطبيب كيف عرفها ؟ عرفها بالعلم، فكأن العلم الذي تعلمه نور يكشف له طريقه في إجراء العملية، لذلك قالوا: العلم نور، فالإنسان العالم مستنير، هذه المعاني كلها بدءًا من المعاني المادية، إلى المعاني المجازية، إلى تلك المعاني الروحية كلها آيات دالة على ذاته، وعلى وحدانيته، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى آياته الفضلى، فكأن الآيات الكونية والقرآنية بشكل أو بآخر نور أنزله الله في الإنسان، الإنسان لولا النور الإلهي كيف يهتدي، وكيف ينطلق في طريقه، وكيف يعرف الخير خيرا، والشر شرا.

يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

(سورة الأنعام: الآية 122)

كان ميتا، والله الذي لا إله إلا هو هذا الذي لا يعرف الله عز وجل، ولا يتصل به هذا في حكم الميت، وفي هذا يقول بعض الشعراء:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

***

هذا الذي يمتلأ حيوية ونشاطا، ولكنه مقطوع عن الله عز وجل، هذا في حكم الميت، لذلك سيدنا علي يقول: **<< يا بني، العلم خير من المال، فإن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، مات خزان المال، وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة >>.**

[حلية الأولياء]

إذا العلم هو الذي يشيع في الحياة السعادة، بسبب أن العالم مستنير بنور الله، يفعل ما أمر الله، ويجتنب ما نهى عنه الله، وبذلك يقبل عليه فيسعد، فعلى كل مسلم أن يكون عالماً بأوامر الله، ونواهيه، بحكمته، بقرآنه، بتفسير كتابه، بأحكام شرعه، وهكذا.

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

(سورة الأنعام: من الآية 122)

وفي آية أخرى يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

(سورة الأنفال: من الآية 29)

والفرقان نور تفرقون به الخير من الشر، وفي آية أخيرة في الآيات التي تتبع هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

(سورة الحديد: من الآية 28)

أيْ في الدنيا، وكفل في الآخرة، يضمن لكم دنيا تسعدون بها، ويضمن لكم آخرة تسعدون بها إلى الأبد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

فالذي يعرف الله عز وجل يعرفه عن طريق الاتصال به، ويعرفه من خلال شرعه، هذا له في كل مقام موقف، له في كل عرض موقف، له مع كل ضغط موقف، له مع كل إغراء موقف، له في علاقته موقف، هذا الموقف نابع من رؤيته الصحيحة التي تنور بها من قِبل الله عز وجل.

أحيانا يقولون: فلان نور الحي، أي كل من زاره، وعرض عليه مشكلة أشار عليه بالخير، ووجهه الوجهة الصحيحة، ودله على الطريق الصحيح، علمه الحكمة البالغة، فهذا الإنسان بوعيه، وإدراكه، واستنارة قلبه، واتزانه، واتصاله بالله عز وجل صار في هذا الحي نورا.

لذلك الأنبياء نوروا مجتمعاتهم بالحق، والفضيلة، والمنهج، والله سبحانه وتعالى منبع هذا النور.

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

موضوع النور الإلهي ربما يأتي في آيات كثيرة مقترنا بتقوى الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة: الآية 183)

علاقة التقوى بالنور:

الآن آيات التقوى لها علاقة وشيجة بآية النور، متى يتقي الإنسان ؟ متى يتقي الخطأ ؟ متى يتقي الشر؟ متى يتقي المعصية ؟ متى يتقي الموقف اللاأخلاقي ؟ متى يتقي ألا يأكل ما ليس له ؟ متى يتقي أن يعتدي على أعراض الناس ؟ متى يتقي ذلك ؟ إذا كان مستنيرا، لذلك أكثر آيات التقوى تقترن بآيات النور، فالصيام من أجل التقوى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة: الآية 183)

الآن نحن بحاجة إلى بيان مراحل دقيقة لوصول الإنسان لهذا النور، الإنسان في الأساس كائن فيه شهوات، وفيه رغبات، وفيه مطامح، وفيه صراعات، وفيه دوافع، وفيه حوافز، الإنسان أعقد ما في الكون، أودع الله فيه شهوة جنسية، وفي الطريق نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، وظروف الزنى متاحة، والظروف متاحة لأي انحراف أخلاقي، ويوجد اختلاط، وأودع في نفسه حب المال، ويوجد أموال، يمكن أن تؤكل حراما، ويمكن أن تؤخذ عدوانا، يمكن أن تؤخذ اختلاسا، يمكن أن تؤخذ سرقة، يمكن أن تؤخذ غشا وخداعا، فأودع فيه حب المال وحب المرأة، والمرأة والمال متاحان للناس، فكيف يستطيع الإنسان أن يتقي الله ؟ كيف يستطيع أن يقاوم هذه الإغراءات ؟ وكيف يستطيع أن يستجيب لله خالق السماوات والأرض ؟

منهج الإنسان في اكتساب النور:

إنّ الأساس في اكتساب هذا النور أن ينهج الإنسان المنهج التالي:

السبيل الأول: التفكر في مخلوقا الله عزوجل:

أولا: لابد أن يفكر في خلق السماوات والأرض، لأنه إذا فكر في خلق السماوات والأرض، وتوصل

من خلال البحث الدقيق البحث الذاتي إلى أن لهذا الكون خالقا عظيما، ربنا عز وجل يأمرنا، ويقول:

(انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس: الآية 101)

ويقول:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس: الآية 24)

ويقول:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

(سورة الطارق: الآيات 5-6)

ويقول:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20))

(سورة الغاشية: الآيات 17-20)

هذا النظر، وهذا التدقيق، وهذا التأمل، وهذا التفكر في خلق الإنسان، في أعضائه، في أجهزته، في يديه، في رجليه، في سمعه، في بصره، في أنفه، في دماغه، في معدته في أمعائه، لو فكر الإنسان في المريء، فقط لو أن الإنسان علق من رجليه، وأعطي كأسا من الماء، وشربه يصعد الماء نحو الأعلى بخلاف الجاذبية، كيف أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، كيف أنه سبحانه وتعالى زود المريء بعضلات دائرية، تنقبض تباعا، حيث تنقل الطعام والشراب إلى الأعلى، فيما لو كان الإنسان متجها نحو الأسفل، أليست هذه آية ؟ أليس هذا البلعوم الذي يعمل ثمانين عاما دون كلل أو ملل، ليلا ونهارا، يغلق الطريق بإحكام، يغلق المريء بإحكام في أثناء التنفس، هذا التفكر ينقله بالتدريج إلى قناعة تامة أكيدة قطيعة إلى أن لهذا الكون إلها عظيما، الإنسان يسأل هذا السؤال: هذا الإله العظيم الذي خلق الكون لماذا خلقه ؟ بعضهم يقول: خلقنا ليعذبنا، وهذا محض افتراء على الله عز وجل الله، وهو الذي يقول:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

السبيل الثاني: التقرب إلى الله بالطاعات:

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليرحمه ويسعده، فالإنسان إذا توصل من خلال بحث دقيق ذاتي إلى أن لهذا الكون إلها عظيما، له أسماء حسنى، وصفات فضلى، فلابد أن يسأل هذا السؤال: لماذا خلقنا الله

عز وجل ؟ إذا عرفت من خلال التأمل، ومن خلال القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى خلقك ليسعدك، وما جاء بك إلى هذه الدنيا إلا لتستعد بدخول جنة عرضها السماوات والأرض، عندها تعرف طبيعة الحياة الدنيا، وتعرف أن لهذا الإله العظيم شرعاً لابد أن تطبقه، فإن طبقته شعرت بثقة عارمة أن الله راض عنك، فإن شعرت أن الله راض عنك أقبلت عليه، فإن أقبلت عليه ألقى في قلبك نورًا، فكان هذا النور فرقانًا لك بين الحق والباطل، والخير والشر، وهذا النور الذي وصفه النبي بقوله:

((... الصّلاةُ نُورٌ...))

[مسلم، الترمذي،أحمد عن أبي مالك الأشعري]

الصّلاةُ نُورٌ:

يأتيك في أثناء الصلاة، فكلما استقمت قبل الصلاة، وأحكمت علاقتك مع غيرك قبل الصلاة جاءت الصلاة عروجا للمؤمن، فالله سبحانه وتعالى جعل الصلاة قرباً، يقول تعالى:

(كَلّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق: الآية 19)

وجعل الصلاة ذكرا:

(وَأَقِمْ الصّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه: من الآية 14)

وجعل الصلاة وعيا، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: من الآية 43)

وجعل الصلاة مناجاة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلّى يُنَاجِي رَبّهُ فَلَا يَتْفِلَنّ عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيُسْرَى))

[البخاري]

وجعل الصلاة عروجا، قال عليه الصلاة والسلام:

((الصّلَاةُ مِعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ))

[شرح سنن ابن ماجه(313/1)]

الصلاة هي الفرض الإسلامي الذي لا يسقط، بخلاف حال الصيام، فقد يسقط عن المريض أو المسافر، والحج قد يسقط على من لا يستطيع، والزكاة تسقط على من لا يملك النصاب، ولكن الصلاة لا تسقط بحال، لذلك قالوا: الصيام من أجل الصلاة، والحج من أجل الصلاة، والزكاة من أجل الصلاة، والصلاة من أجل الصلاة، والصلاة من أجل أن يقذف الله في قلبك نورًا ترى به الخير خيرا، والشر شرا،

والصلاة من أجل أن يكون الله نور السماوات والأرض، أن يكون لك نور تهتدي بهديه، لأن الشيطان ينقل الإنسان من النور إلى الظلمات، لكن الرحمن سبحانه وتعالى ينقل الإنسان من الظلمات إلى النور.

حقيقة التقوى:

لذلك حينما يجلس الإنسان مع ربه جلسة، ويفكر في خلق السماوات والأرض تمتلئ نفسه عظمةً لله عز وجل، وخشية له، وتوقيراً لجنابه، عندئذ تندفع إلى طاعته، وتطبيق أمره، والبعد عن نهيه، إذا أطعته، وطبقت أمره، وابتعدت عن نهيه أقبلت عليه، فإذا أقبلت عليه قذف الله في هذه النفس نورًا، وهذه حقيقة التقوى.

لذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

(سورة الحشر: من الآية 18)

أي أن التقوى مرتبة فوق الإيمان، بل إن الإيمان درجات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[النساء: من الآية 136]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

والتقوى درجات، قال عزوجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران: الآية 102)

هذه الآية التي جاءت في سورة النور هي القرآن كله، لأن القرآن كله نور، في هذا البيان بيان خلق السماوات والأرض، وتوجيه الإنسان إلى بعض الحقائق، بيان ما حل بالأقوام السابقة، بيان ما سيكون مما أنبأ به القرآن الكريم، رسم المنهج الدقيق في العلاقات الاجتماعية، أحكام البيوع، أحكام الزواج، أحكام الطلاق، أحكام الميراث، هذا القرآن كله نور، بمعنى أنه علم، وإذا أقبلت على الله عز وجل قذف الله في قلبك نورًا، النور الإلهي الذي تفرق به بين الخير والشر، لذلك كانت هذه الآية التي في سورة النور:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فإما أن تكون على شيء من نور إلهي يهديك سواء السبيل، وإما أن يكون الإنسان ضالا مضل.

أيها الإخوة الأكارم، الإنسان عنده شرع، ونور في قلبه، لو فرضنا أن النور لم يكن متألقا كما يجب، فهناك حدود حدها الإسلام، حينما يدرس الإنسان الشريعة يعرف أن هذا حلال، وهذا حرام، هذا واجب

هذا فرض، هذا مندوب، هذا مستحب، هذا مكروه، فكل شيء في الأرض لابد أن ينطبق عليه حكم من الأحكام الشرعية، فالإنسان إذا أقبل على الله عز وجل نشأت عنده أذواق، وهذه الأذواق تتطابق مع أحكام الشرع، وما ينهى عنه الشرع يترفع المؤمن عنه، يترفع من باب أن الله عز وجل ألقى في قلبه النور، فرأى ما فيه من انحراف، وانحطاط، ترفع عنه، فأنت إما أن تنصاع للشرع، وتعرف أحكامه التفصيلية، وإما أن تقبل على الله عز وجل فيلقي في قلبك النور، هذا الشيء مجرب، فالإنسان أحيانا يبتعد عن شيء، ولم يبلغ علمه أن هذا الشيء محرم، ولكن من قبيل الذوق والنور الذي ألقاه الله في قلبه لذلك عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)))

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

قَالَ:

(لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

[الترمذي(3127)]

نحن هذا الذي يلقيه الله في قلب الإنسان لابد أن يقابله شرع منضبط تمام الانضباط، الشيء الذي تحبه إذا كنت مستنيرا يؤكده الشرع، والشيء الذي تكرهه إذا كنت مستنيرا يؤكده الشرع، إذاً هناك شرع فيه تقنين لكل العلاقات، وكل الحالات، وهناك اتصال بالله عز وجل، هذا الاتصال إذا تكامل بالاتصال مع العلم بحقيقة الشرع كان الإنسان قد جمع المجد من طرفيه.

على كل، نحن نريد في هذه الآية أن يكون للإنسان صلة بالله عز وجل، هذه الصلة لا يعرفها إلا من ذاقها، بالاتصال بالله تكون في عين الله، أنت في حفظ الله، أنت في رعاية الله، وكأن الله سبحانه وتعالى ينور لك الطريق فترى به ملابسات هذه الطريق، ويمحو به وحشة الحياة.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[النور: 35]

مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ

عندنا مجموعة من الأسئلة:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ)

ما هي المشكاة ؟

ما هي المشكاة ؟ هي كوة في حائط، وبعضهم قال: هي كصدر المؤمن، كوة في حائط، كوة غير نافذة، النافذة نافذة، لكن المشكاة نافذة غير نافذة، يعني كوة، أيْ حفرة في حائط، وبعض علماء التفسير قالوا: هي صدر المؤمن.

(مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)

فيها مصباح متألق، هذا المصباح في زجاجة، هذه الزجاجة كأنها كوكب دري.

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى سوف نفصل في هذا التشبيه الرائع الذي مثل الله نوره، وهو في صدر المؤمن، كأنه كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، وماذا يعني ربنا سبحانه وتعالى بأن هذه الشجرة لا شرقية ولا غربية، هذا أيضا نتناوله في درس قادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (14-23): تفسير الآية 35
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-12-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة النور، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

أيها الإخوة الأكارم.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وقفنا عند هذا المقطع في الدرس الماضي، وكلمات الله عز وجل لا حدود لمعانيها:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

(سورة الكهف: الآية 109)

قال بعض العلماء: **" الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، إذا هو موجد السماوات والأرض، وهو منور السماوات والأرض، أوجد السماوات والأرض، ونصب الأدلة التي تشير إليه التي تدل عليه، ما من اسم من أسمائه الحسنى إلا وملايين الأدلة التي تدل عليه وتشير إليه "**، فالأدلة الكونية التي نصبها الله عز وجل لتكون تجسيدا لأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى هي بمثابة النور، فهذه الأدلة نور، فالشمس والقمر آيتان، والليل والنهار آيتان، والكواكب آية، والأرض وما فيها من جبال، وسهول، وصحارى، ومن بحار، وأنهار، وينابيع، هذه كلها آيات، ما في الأرض من حيوانات، ونباتات، وما في البحر من أسماك، وما في الجو من أطيار، هذه كلها آيات دالة عليه، ناطقة بعظمته، مُسبّحة بحمده، إذا هذه الآيات نور.

من معاني: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

المعنى الأول: الكونُ نورٌ:

فمن معاني:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أن الله خلق السماوات والأرض، ثم نصب الأدلة الدالة على وجوده، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى صفاته الفضلى، كيف أنك إذا رأيت في طريق ترابي آثار لعجلات السيارة تقول: لابد أنه مرت في هذه الطريق سيارة، وكيف أن هذه الخطوط التي تشاكل خطوط عجلات السيارة تؤكد بالدليل القاطع أنه قد مرت هنا سيارة، هذا دليل بمثابة نور، لو أن هناك من يتبع بأنه هل مرت من هنا سيارة، وقد رأى آثار العجلات، إذا الأدلة التي نصبها الله عز وجل في السماوات والأرض التي لا تعد ولا تحصى، والتي تشير كلها إلى جلاله، وتنطق بحمده، وتسبح بعظمته، هذه الأدلة التي نصبها الله عز وجل أحد فروع نور الله، الذي به نعرف الحق من الباطل، وبه نهتدي إليه، هذا أول معنى.

الأدلة نور: الله عز وجل رحمة بنا نصب هذه الأدلة هو لا نراه، ولكن آثاره تدل عليه، قال أعرابي: **" الماء يدل على الغدير، والبعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير"**، إذا أنت أيها الإنسان أمام طائفة لا حدود لها من البراهين الساطعة، ومن الأدلة القاطعة، ومن الآيات البينة، لذلك يقول ربنا عز وجل:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من الآية 101)

اليوم وفي خطبة الجمعة أشرت إلى هذا القانون الذي أودعه الله في الماء ؛ أنه إذا غرزت جسما في الماء، فإن هناك قوة تدفعه إلى الأعلى تكافئ وزن الماء الذي أزاحه هذا الجسم، ولولا هذا القانون لما سبحت سمكة في البحر، ولولاه لما رأيت مركبة تمخر عباب البحر، إذاً هذه الفلك، وهذه الأسماك كلها تجري بنعمة الله عز وجل أليس هذا دليلا ؟ من جعل في الماء هذه القوة الدافعة نحو الأعلى ؟.

المعنى الثاني: القرآن نور:

شيء آخر ؛ الكتاب الذي أنزله الله على عبده ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بل الكتب التي أنزلها الله على رسله هي نور، لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)

(سورة النساء: الآية 174)

فهذا الكتاب الذي أنزله الله على النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة النور.

المعنى الثالث: النبيُ نورٌ:

معنى ثالث من معاني النور: النبي عليه الصلاة والسلام نور، لقوله تعالى:

(جَاءَكُمْ مِنْ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

(سورة المائدة: من الآية 15)

فالنور في هذه الآية هو النبي عليه الصلاة والسلام.

فالأدلة التي نصبها الله في الكون نور، والقرآن الكريم الذي بين الله تعالى فيه كل شيء نور، والنبي عليه الصلاة والسلام، ومن خلال سنته المشرفة، والتي بين فيها كل شيء نور أيضا، كأن هذه الأشياء.. الكون وما فيه من آيات، والقرآن وما فيه من آيات، والنبي وما ترك من سنة، كأن هذه الجهات الثلاث نور أنزله الله عز وجل لنهتدي بهداه.

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

خلق الكون ونوره.. نوره بالأدلة، نوره بالأنبياء والرسل، نوره بالكتب.

المعنى الرابع: العقلُ نورٌ:

معنى آخر من معاني النور: العقل الذي أودعه الله في الإنسان نور، به تعرف أسباب الأشياء، به تعرف غايات الأشياء، الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان بهذا الفكر، لذلك قالوا: الجماد شيء له حيز مادي، له طول، وارتفاع، وحجم، ووزن، بينما النبات فشيء له حيز مادي، وينمو، والحيوان شيء له حيز مادي، وينمو، ويتحرك، أما الإنسان فشيء له حيز مادي، وينمو، ويتحرك، ويفكر، فبماذا فضل الله سبحانه وتعالى الإنسان على ما سواه ؟ بهذا الفكر، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَالسّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8))

(سورة الرحمن: الآيات 7-8)

ومن فَضْلِ الله على الإنسان أنه خلق على هذا الميزان ميزانا، وهو الشرع، خلق السماوات والأرض، ومنحك نعمة العقل، ومنحك الشرع الذي هو ميزان على ميزان العقل، فلو أعطيت طالبا مسألة في الرياضيات، وكلفته أن يحلها، وأعطيته الجواب الذي يجب أن يصل إليه، فإذا حل هذه المسألة، وانتهى إلى هذا الجواب فحله صحيح، فأصبح هذا الجواب ميزانا لحل الطالب، ما إذا كان صحيحا أو غير صحيح.

إذًا الكون نور، الكون بما فيه من أدلة ساطعة على أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى نور.
والكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه فيه الأمر والنهي، وفيه الحلال والحرام، وفيه الآيات الدالة على عظمته، وفيه أخبار من كان قبلنا، وفيه نبأ ما بعدنا، وفيه الوعد والوعيد، وفيه البشارة والإنذار، هذا القرآن الكريم الذي فيه بيان كل شيء، وتفصيل كل شيء هو نور.
والنبي عليه الصلاة والسلام ببيانه وسنته وأقواله وأفعاله وإقراره وصفاته نور أيضا.
والعقل الذي أودعه الله في الإنسان هو أيضا نور.
فالله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، ونورها بالأدلة التكوينية، ونورها بالآيات القرآنية، ونورها ببعثة الأنبياء والرسل، ونورها بالعقل الذي هو أكبر نعمة أخذها الإنسان من رب الأكوان.
إذاً:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

تعني أنه خلقها، ونورها.
بشكل تفصيلي مبسط، كما لو أن مصنعا عالي المستوى ذا خبرة رفيعة، وقدرات فائقة أنتج جهازا معقدا غالي الثمن، عظيم النفع، معقد الصنعة، أرسل هذا الجهاز إلى جهة معينة، وأرسل معه كتيبا فيه طريقة التشغيل، وطريقة الصيانة، وطريقة التنظيف، وكيف تستعمله، فكأن هذا المصنع صنع الجهاز، ونورك بطريقة استعماله، فالله نور السماوات والأرض، خلق الكون، ونوره بالأدلة الكونية، بالآيات القرآنية، بالرسالات التي أرسلها على يد أنبيائه ورسله، وبالعقل الذي ميزك به على سائر المخلوقات.

الله سبحانه ظاهر لكل المخلوقات:

شيء آخر: حينما نعرف النور بأنه الشيء الظاهر بذاته، المُظْهِرُ لغيره إذًا فالله سبحانه وتعالى ظاهر لكل المخلوقات، لذلك لما سئل الإمام علي رضي الله عنه متى كان الله ؟ قال: ومتى لم يكن،

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

لذلك يقول سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الإسراء: من الآية 44)

إنْ: بمعنى ما من، لاستغراق أفراد النوع، وما من كلمة في اللغة تعبر عن أدق الأشياء، كشيء، لو أن ذرة من غبار اسمها شيء فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من الآية 44)

إذًا: كل شيء خلقه الله حتى الجمادات وحتى النباتات، وحتى كل المخلوقات تسبح بحمده، إلا هذا الإنسان الغافل، الذي كانت شهوته حجابا بينه وبين الله عز وجل. الله سبحانه وتعالى يقول:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ)

مَثَلُ نُورِهِ

يقول علماء اللغة: ما دام هذا النور.

(مَثَلُ نُورِهِ)

قد أضيف إلى ضمير يعود على الله عز وجل، إذًا هذا النور ليس النور الذي به قامت الأشياء، النور الذي قامت به الأشياء هو النور العام، ولكن النور الذي يسطع في قلوب المؤمنين هو النور الخاص، كل مخلوق أساسه من نور الله:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

بمعنى موجدها، هذا النور العام... ولكن النور الخاص هو النور الذي يقذف في قلب المؤمن، والذي هو معني في هذه الآيات، ما الدليل ؟ أن الله سبحانه وتعالى قال:

(مَثَلُ نُورِهِ)

فكأن هذا النور هو النور الخاص، وليس ذلك النور الذي تقوم به الأشياء.

(اللّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: من الآية 255)

لا قيام للأشياء إلا بالله، لكن هذا النور هو النور الخاص الذي يقذف في قلوب المؤمنين، والدليل قوله عز وجل:

(يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

[النور: من الآية 35]

والآية الثانية:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

(سورة التوبة: من الآية 32)

يريد الكفار بمعاكستهم الحق، وصدهم عن سبيل الله أن يطفئوا نور الله بأفواههم. والآية الثالثة:

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

(سورة الأنعام: من الآية 122)

فالآية الأولى:

(يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

والثانية:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلّا أَنْ يُتِمّ نُورَهُ)

والآية الثالثة:

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

هذه الآيات الثلاث تؤكد أن النور المعني في هذه الآيات ليس النور الذي هو أصل الموجودات، بل هو النور الذي يقذف في قلوب المؤمنين، فيرون به طريق الخير من الشر.

سبل اكتساب النور:

السبيل الأول: تطبيق شرع الله تعالى:

شيء آخر: أكد العلماء أن الإنسان إذا طبق الشرع الحنيف قاده هذا التطبيق إلى نور الله، لذلك:

((مَنْ أَخْلَصَ لِلّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا تَفَجّرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ، وَأَجْرَاهُ اللّهُ عَلَى لِسَانِهِ))

[كشف الخفاء]

لذلك إذا طبقت أحكام الشرع، وطبقت أمر الله عز وجل، إذا ائتمرت بأمره، وانتهيت عما نهى عنه، إن هذا التطبيق وحده ينقلك إلى نور الله عز وجل، الذي هو موضوع هذه الآيات.

السبيل الثاني: الأعمال الصالحة:

شيء آخر ؛ إن الأعمال الصالحة التي يفعلها الإنسان في الدنيا أيضا تقوده إلى نور الله سبحانه وتعالى، قد تقول: هذا الإنسان له وجه منير، هذا النور الذي في وجهه أثر من عمله الطيب، كل من له عمل طيب ترى النور في وجهه، لذلك فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((اتّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللّهِ، ثُمّ قَرَأَ:(إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسّمِينَ)))

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ:

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسّمِينَ)

قَالَ:

(لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

[الترمذي]

وفي الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التحريم: الآية 8)

نورهم: أعمالهم الطيبة التي فعلوها في الدنيا بمثابة النور يسعى بين أيديهم، إذاً الاستقامة على أمر الله تنقلك إلى نور الله، والأعمال الطيبة التي تفعلها في الدنيا تنقلك إلى نور الله، وكأن الاستقامة والعمل الصالح طريقان لأن يتنور قلبك بنور الله.

التشبيه القرآني: مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ

أيها الإخوة الأكارم، ننتقل إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ)

الآن نحن أمام تشبيه، أو أمام تمثيل، يقول ربنا عز وجل:

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أحيانا تكون الفكرة مجردة، غير محسوسة، نشبهها لشيء محسوس تقريبا للأذهان، ربنا عز وجل شبه الكفار في إعراضهم عن الحق، وفي جمود عقولهم، وفي ضيق أُفُقِهم، كأنهم خشب مسندة، هذا تشبيه، وشبه الكفار تارة ثانية بأنهم كالأنعام.. كالبهائم، والله الذي لا إله إلا هو هذا الذي لا يعرف الله عز وجل، ولا يعرف لماذا خلقه، ولا لماذا أوجده، ولا يعرف مهمته، إن هو إلا كالأنعام، بل أضل سبيلا، لأنه مزود بالعقل،وكان كالأنعام:

(تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان: الآية 44)

إذًا: هذا تشبيه، وفي تشبيه آخر قال عز وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: من الآية 5)

هذا تشبيه آخر، فالذي لا يعي ما في القرآن، ولا يعي أوامره، ولا نواهيه، ولا يعلم ما المقصود من هذه القصة، وما العبرة منها فهو بعيد عن فهم هذا القرآن.

لذلك قال:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

فلو تتبعنا الأمثال والتشبيهات التي وردت في كتاب الله لوجدناها لا تعد ولا تحصى، فهي كثيرة جدا، ومن هذه التشبيهات قوله:

تفسير: مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ

بعضهم قال: مثل نور الله في قلب المؤمن، ألم نَقُل قبل قليل: إن الاستقامة على أمر الله تقذف النور في القلب، وإن الأعمال الطيبة تقذف النور في القلب، نقول: فلان له قلب مستنير، يرى به الخير من الشر، والحق من الباطل، والصالح من الطالح، وما ينبغي، وما لا ينبغي، وما يجدي، وما لا يجدي، وما يجوز، وما لا يجوز، وما هو مستحسن، وما هو مستقبح، إن هذا النور الذي في قلب الإنسان هو الذي يكشف له عن حقيقة الأشياء، لذلك لماذا يقع الكافر في شر عمله ؟ لأنه أعمى، لماذا في ساعة حمق يطلق امرأته ؟ لأنه أعمى، لماذا يأكل مالا حراما فيدمر الله كل ماله ؟ لأنه أعمى، لماذا يأخذ ما ليس له فيتلف الله ماله ؟ لأنه أعمى، لأنه أعمى فعل هذا، ولو أنك مستنير بنور الله لكنت على الصراط مستقيم لذلك، موضوع الاستنارة بنور الله هي أدق آية في هذا الموضوع:

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا)

ولو كان في أوج شبابه، وفي أوج حيويته، وفي كامل طاقته فهو عند الله ميت،

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

***

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

(سورة الأنعام: من الآية 122)

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: الآية 257)

يا أيها الإخوة الأكارم، قال الإمام الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبأني بأن العلم نـــور ونور الله لا يهدى لعـــاص

***

إذا أردت هذا النور فالزم سبيل الاستقامة، ولا تحد عنها أبدا، إذا أردت هذا النور فاعمل الأعمال الطيبة، عندئذ يلقي الله في قلبك نورا.

سيدنا عثمان رضي الله عنه قال وهو على المنبر: **<< يدخل أحدكم علينا وأثر الزنى بين عينه ؟ فضج الصحابة الكرام، وقالوا: يا أمير المؤمنين، أوحيٌ بعد رسول الله ؟ فقال: لا، ولكنها فراسة صادقة >>** - لقلب مستنير -.

فالبطولة أن تقف الموقف الصحيح في كل ظرف معين، وهذا الموقف الصحيح لا يكون إلا إذا كان قلبك متصلا بالله عز وجل، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الصّلاَةُ نُورٌ))

[مسلم، الترمذي،أحمد عن أبي مالك الأشعري]

فمثل نور الله عز وجل في قلب المؤمن كمشكاة.

المشكاة: الكوة في الحائط، الكوة غير النافذة في البيوت القديمة، ففي أثناء بناء الجدار يتركون كوة في الجدار، نافذة غير نافذة، لها غلاف، هذه الكوة يوضع فيها المصباح لماذا ؟ لأن سطح الكوة منحن، ومطلي باللون الأبيض، فإن المصباح تتجمع أنواره، وتنعكس إلى الغرفة، فهذه الكوة حفرة في الحائط غير نافذة، هذا تعريف المشكاة.

كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ

لماذا يوضع المصباح في المشكاة ؟ قالوا: لأنه أجمع للضوء، ولأن المصباح وهو بالمشكاة أكثر إنارة منه في غيرها، لذلك أحدث إضاءة الآن وراء المصباح في سطح مقعر منحن يوضع المصباح في محرقه، لذلك يعكس إلى مسافات بعيدة، هذا معنى المشكاة.

(كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)

أما المصباح فهو الفتيل المشتعل.

الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ

والزجاجة تمنع تأثير الرياح على المصباح، وتزيد من تألق الضوء، لذلك الزجاجة التي توضع أمام مصباح السيارات فيها علم كثيف، وفيها خبرات طويلة، وهناك زجاجات تجعل تألق المصابيح أكثر بكثير من غيرها، تختص بها بعض الشركات، فالمصباح هو الفتيل المشتعل، والمشكاة هي الكوة غير النافذة، والزجاجة هي التي حول المصباح لتحميه من آثار الرياح، ولتزيد من تألق الضوء، أما

الزجاجة فهي كما تعلمون الجسم الشفاف، فالمصباح في زجاجة أكثر منه إضاءة في غيرها، لذلك يكفي أن تضع فوق المطبوعات ورقا شفافا لاصقا، فإذا بالمطبوعات تتألق، ويزداد سعرها، ويكثر بيعها، لذلك يلصق الطبق الشفاف على المطبوعات، فالمصباح في زجاجة أكثر تألقا منه في غيرها، فربنا عز وجل بين أن نوره في قلب المؤمن كأن صدره مشكاة، وكأن نور الله هو المصباح، وكأن قلبه زجاجة، يوقد هذا المصباح من شجرة الزجاجة، كأنه كوكب دري، كوكب شديد اللمعان، كثير التألق.

يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ

يوقد من شجرة مباركة، هذه الشجرة المباركة وصفها الله عز وجل بأنها زيتونة، والزيتون كما جاء في بعض التفاسير شجرة تورق أوراقها من أسفلها إلى أعلاها، فيها إدام، وفيها دهن، وفيها دباغ، وهي وقود بحطبها وتفلها، وليس فيها شيء إلا وفيه منفعة، وهي معمرة، أوراقها سماد، تؤتي أكلها مرتين، والله تعالى سماها الشجرة المباركة، وفي القرآن الكريم:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

[التين: 1]

وكلكم يعلم أن هذا الشجر يقدم المواد الدهنية النباتية من أعلى مستوى، فكأن الله سبحانه وتعالى يشير إلى أن هذا المصباح، الذي هو في مشكاة، وهذا المصباح الذي هو في زجاجة، وهذه الزجاجة التي كأنها كوكب دري، وهذا النور الذي يمد المصباح يوقد من شجرة مباركة، وكأن الدهن الذي يمد المصباح هو أعلى دهن في صفائه، وفي استعداده للاشتعال، بل إن من استعداده للاشتعال أنه يكاد يضيء، ولو لم تمسسه نار.

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ

تعبير عن استعداده التام للاشتعال، وعن صفائه من الشوائب، الوقود مع الماء لا يشتعل، لوجود الشوائب فيه، الوقود مع مواد أخرى يطلق دخانا كثيفا، ولكن الوقود الصافي الذي ليس فيه شوائب يكاد يضيء، ولو لم تشعله، هذا تعبير عن هذا النور في صدر المؤمن أنه يوقد من شجرة مباركة، بعد قليل سنرى ما هي هذه الشجرة المباركة.

معنى: لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ

لكن هذه الشجرة المباركة لا شرقية، ولا غربية.

المعنى الأول: أنها ليست من شجر الدنيا:

بعضهم قال: ليست من شجر الدنيا، لأن شجرة الدنيا لابد أن تكون شرقية أو غربية، تأخذ أشعة الشمس من المشرق، أو تأخذها من المغرب، فإذا قال الله عز وجل:

(لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ)

إذاً ليست من شجر الدنيا.

المعنى الثاني: أنها تأخذ الشمس من كل جانب:

وبعضهم قال: الزيتونة إذا كانت بجانب الحائط تأخذ الشمس من جهة واحدة، فليس زيتها جيدا، وليس دهنها صافيا، أو هي من شجر الدنيا تأخذ الشمس من كل جانب، وهذه إشارة إلى أن الأشجار المعمرة لا تؤتي أكلها ناضجة شهية، ولا تكون ذات طعم طيب إلا إذا تلقت الشمس من كل جهة، فالأشجار المزروعة في حديقة مكتظة، وحولها أبنية أو جدران، هذه الأشجار لا تعطي ثمرا طيبا، إشارة إلى أن الأشجار إنما تتلقى طيب ثمارها من الشمس.

المعنى الثالث: إشارة إلى انقسام الدول إلى شرق وغرب:

ومعنى ثالث: وكأن هذه الآية فيها إشارة إلى أن الله لعلمه بالغيب بما سيكون في آخر الزمان، كيف أن هذه الدول، وهذه الشعوب تنقسم إلى شرق وغرب ؛ في تفكيرها، وفي قيمها، وفي نظمها، وفي مبادئها، وأن هذه الشجرة المباركة لا هي من الشرق، ولا من الغرب، بل هي من السماء، وليس الإسلام شرقيا، ولا غربيا، إنه علوي من رب السماوات والأرض، هذا معنى ثالث، أي هذه الشجرة لا تنتمي إلى أصل أرضي، لا تنتمي إلى فكر أرضي، لا تنتمي إلى جهة دون جهة، لا تنتمي إلى قيم من صنع البشر، لا تنتمي إلى مبادئ من صنع الإنسان، إنها من رب السموات والأرض، لا شرقية، ولا غربية، ولكنها علوية.

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

هنا بيت الشاهد.

معنى: كَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ

أما قوله تعالى:

(يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ)

فقال علماء التفسير: **" ليس معنى نور على نور تعدد النور، ولكن كثافة النور"**، لذلك الله سبحانه وتعالى جعل الكون نوراً تستنير به لمعرفة الله، وجعل القرآن لك نوراً، فهو نور على نور، وجعل الأنبياء والرسل لك نوراً، وجعل العقل لك نوراً، وجعل الأحداث التي تقع في الدنيا نوراً، فيكافأ المحسن، ويعاقب المسيء، يعز المستقيم، ويذل المنحرف، يمنح الكريم الميزات، ويحرم البخيل من هذه الخيرات، الذي يفي بوعده يكرمه الله، والذي لا يفي يخزيه، فالأحداث في الدنيا تؤكد الحقائق التي جاء بها القرآن، لذلك معنى:

الكون نور، والقرآن نور، والأنبياء نور، والعقل نور، والأحداث نور.

معنى: هداية الله مَن يشاء إلى نوره:

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

الحقيقة هذا موضوع دقيق جدا، فمن هذا الذي يشاء الله أن يهديه إلى النور ؟ هناك آيات كثيرة تؤكد ذلك، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت: الآية 69)

ثمن النور:

الثمن الأول: مجاهدة النفس والهوى:

هذا أول ثمن، فهل جاهدت نفسك وهواك ؟ هل عاكست نفسك ؟

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات: الآية 40-41)

هل نهيتها من الهوى ؟ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا - فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِيَدِهِ إِلَى الْأَرْضِ - مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ

بِرَبْوَةٍ، ثَلَاثًا أَلَا إِنّ عَمَلَ النّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ، وَالسّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ، وَمَا مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَيّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلّهِ إِلّا مَلَأَ اللّهُ جَوْفَهُ إِيمَانًا))

[رواه حمد]

فالذي يجاهد نفسه وهواه يدفع ثمن هذا النور، يهدي الله لنوره من يشاء هذا أول ثمن.

الثمن الثاني: الهداية إلى سبل السلام:

الثمن الثاني:

(يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنْ اتّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السّلَامِ)

(سورة المائدة: الآية 16)

فهل تتبع ما يرضي الله، أم تتبع ما يسخطه ؟ والله الذي لا إله إلا هو إن الإنسان يعلم بفطرته ما إذا كان في سلوكه يرضي الله أو يسخطه، فمن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط الناس، فالذي يتبع رضوان الله عز وجل يهديه إلى هذا النور، وهذا ثمن ثان.

الثمن الثالث: الإيمان:

الثمن الثالث:

(وَأَنّا لَمّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنّا بِهِ)

(سورة الجن: الآية 13)

إذا لابد أن تسمع الهدى، وإن لم يكن لديك وقت لسماع الهدى فكيف تهتدي ؟ أن تقول: أريد أن أكون طبيباً، وليس لدي وقت للذهاب إلى الجامعة !! فلن تصبح طبيباً، ولا يمكن أن تكون طبيبا إلا إذا داومت في كلية الطب، ولا يمكن أن تكون مهتديا إلا إذا سمعت الحق، إذا لابد من حضور مجالس العلم، لأن طلب العلم فريضة، وأنى لك أن تعرف من دون أن تحضر.

(وَأَنّا لَمّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنّا بِهِ)

فالهدى لابد أن تستمع إليه، والهدى له مكان، فالمساجد أمكنة توضح فيها الحقائق، ويقال فيها الحق، فإذا كنت تريد أن تهتدي فلابد أن تحضر مجالس العلم، فمن ليس لديه وقت لحضور هذه المجالس أنى له أن يعرف الحقيقة.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

(سورة يونس: الآية 9)

يقول تعالى:

(يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

مشيئة الله تعالى:

أليست مشيئة الله موضحة في آيات كثيرة ؟ هذه الآيات توضح مشيئة الله، إذا أردت أن تهتدي فجاهد نفسك وهواك، إذا أردت أن تهتدي فاتبع ما يرضي الله، وبحسب الفطرة تعرف ما الذي يرضيه، وما الذي يسخطه، إذا أردت أن تهتدي فاحضر مجالس العلم، إذا أردت أن تهتدي فاعمل صالحا،

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة آل عمران: من الآية 101)

اعتصم بالله، وقال وهب بن منبه: قرأت في الكتاب الأول إن الله تعالى يقول:

((بِعِزَّتِي إِنَّهُ مَن اعْتَصَمَ بِي فَإِنْ كَادَتْهُ السَّمَاوَاتُ بِمَنْ فِيهِنَّ وَالأَرْضُ مِمَّنْ فِيهِنَّ فَإِنِّي أَجْعَلُ لَهُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ مَخْرَجًا، وَمَنْ لَمْ يَعْتَصِمْ بِي فَإِنِّي أَخْسِفُ بِهِ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ الأَرْضَ فَأَجْعَلُهُ فِي الْهَوَاءِ، فَأَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ))

[ابن كثير، وفيض القدير]

هل تعتصم بزيد، أو عبيد، أو فلان، أو علان، أم تعتصم بالواحد الديان ؟

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)

(سورة النور: من الآية 54)

((ابْنَ آدَمَ أَطِعْ رَبَّكَ تُسَمَّ عَاقِلاً، وَيَهْدِكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَلاَ تَعْصِهِ فَتُسَمَّى جَاهِلاً))

[مسند الحارث "زوائد الهيثمي" عن أبي هريرة وأبي سعيد، وانظر كشف الخفاء، وميزان الاعتدال]

كان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه يوما فرأى مجنونا فقال: من هذا ؟ قالوا: هذا مجنون، قال: لا، هذا مبتلى، المجنون من عصى الله، فالثمن أن تطيعه:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

(سورة النحل: الآية 15)

هل فكرت في الكون، فإن أحد أسباب الهداية أن تفكر في هذا الكون، فعندما يقول ربنا تعالى:

(يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

ففي آيات كثيرة يبين ما هي هذه المشيئة.

موانع الهدى: الظلم – الفسق - الخيانة – الكذب – الإسراف - الاستكبار

وهناك موانع للهدى، فالله سبحانه وتعالى لا يهدي إلى نوره القوم الظالمين، ظالم زوجتك، ظالم لأخيك، ظالم لصانع عندك، ظالم لجيرانك، آكل ما ليس لك، فإن الله لا يهدي القوم الظالمين، هذه موانع الهدى.

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

(سورة المائدة: الآية 67)

الجاحدين المعرضين.

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المنافقون: الآية 6)

من هو مقيم على معصية لا يهديه الله، قلبه أعمى لا ينور قلبه:

(وَأَنّ اللّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف: الآية 52)

كل أنواع الخيانة يمقتها الله عز وجل، ولا يهدي صاحبها، كل أنواع الخيانة دون استثناء، وقد قالوا: ترك السلام على الأعمى خيانة، إن رأيت أعمى تعرفه كفيف البصر، وتركت السلام عليه فهي خيانة له، بدءا من ترك السلام على الأعمى، وانتهاء بخيانة الأمة، هذا الذي ينقل أسرار الأمة إلى العدو، هذه خيانة عظمى، كل أنواع الخيانة:

(وَأَنّ اللّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

وقال تعالى:

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ)

(سورة الزمر: الآية 3)

الكذاب لا يهديه الله عز وجل، لأن المؤمن لا يكذب، يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة، إذا كذب لم يكن مؤمنا، انتهى الأمر، الكذب والخيانة يتناقضان مع الإيمان:

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ)

(سورة الزمر: الآية 3)

المسرف لا يهديه الله عز وجل... في كل شيء.

(إِنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللّهُ)

(سورة النحل: الآية 104)

هذه الآيات التي نصبها الله عز وجل دالة عليه لم لا تفكر بها؟؟. إذا لا تهتدي هذه موانع الهدى:

(وَمَا مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَسُولًا)

(سورة الإسراء: الآية 94)

المستكبر لا يهتدي، يقول: من فلان، أنا أجلس في مجلسه، إذا كنت ترى أنك أعظم من الحق لن تهتدي، خذ الحكمة، ولا يضرك من أين مكان خرجت.. العبرة أن أهتدي بهذا الهدى.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: الآية 57)

هذا الذي ليس موحدا، إنه يخاف غير الله، يخاف إن صلى أن يقال عنه: كذا وكذا، يخاف إن حضر مجلس علم أن يقال عنه: كذا وكذا، وقالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

هؤلاء مشركون بالله عز وجل لو علموا أن لا إله إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، ولا معطي، ولا مانع، ولا رافع، ولا خافض، ولا قابض، ولا باسط إلا الله، ما قالوا هذا الكلام، لذلك عندما يقول ربنا عز وجل:

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

هذا كله مثل من أمثال الله عز وجل.

بعض التفاسير تقول: إن الزيتونة المباركة هي النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا النور الذي في قلب المؤمن، إذا كان نور الله عز وجل هو المصباح، وإذا كان صدر المؤمن هو المشكاة، وإذا كان قلبه هي الزجاجة، هذا النور يوقد من شجرة مباركة هي النبي عليه الصلاة والسلام، يكاد زيتها، أي حججها الدامغة الدالة على عظمة الله عز وجل هو الزيت، كقوله تعالى:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة: الآية103)

أي إذا صلى النبي عليه الصلاة والسلام على المؤمنين انتقل هذا النور من قلبه إلى قلوبهم، فكأن قلوبهم تضيء من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي هو نور الله عز وجل، هذا تؤكده بعض الآيات الكريمة:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

(سورة الأحزاب: الآية 56)

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

الهدى بيد الله وحده:

هناك شيء دقيق في الهدى...الهدى ليس بيد أحد لقوله عز وجل:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: الآية 56)

فإن الإنسان مخير، ويقول عز وجل:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة: الآية 272)

فالنبي ليس بإمكانه أن يهدي أحد، وليس مسؤولا عن عدم هداية أحد.

الأولى:

(إِنّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

أي ليس الأمر لك.

والثانية:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

لك أنت تقول الحق، وبذلك تنتهي مهمة العلماء في تبيين الحق، فعَنْ قَيْسِ بْنِ كَثِيرٍ قَالَ قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ الْمَدِينَةِ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ وَهُوَ بِدِمَشْقَ فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِي ؟ فَقَالَ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: مَا جِئْتُ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ ؟ قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنّةِ، وَإِنّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنّمَا وَرّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

[الترمذي(2682)]

تنتهي مهمتهم في تبيان الحق.

فإذًا:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

و:

(إِنّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

الهدى اختيار:

شيء ثان: الهدى اختيار، لقول الله عز وجل:

(إِنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إِمّا شَاكِرًا وَإِمّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان: الآية 3)

ولقوله عز وجل:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: الآية 148)

ولقوله عز وجل:

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة البقرة: الآية 213)

ولقوله عز وجل:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأنعام: الآية 88)

الهدى وزيادة الهدى:

ولكن عندنا هدى، وهناك زيادة على الهدى، عندما يختار الإنسان أن يكون مع الله عز وجل يزيده الله هدى، يقول الله عز وجل:

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)

(سورة مريم: من الآية 76)

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الكهف: الآية 13)

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)

(سورة محمد: الآية 17)

فالهدى المنطلق منك أيها الإنسان، والله سبحانه وتعالى بعدئذ يتولى الزيادة لذلك: **أهل ذكري أهل مودتي أهل شكري أهل زيادتي أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب "**

شِوَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

شيء آخر، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

(سورة الرعد: من الآية 7)

أيْ: فلان عند فلان دعه وشأنه، ما دام فلان يهديه إلى سواء السبيل، دعه، فإن:

(لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

أي الله عز وجل وزع الهداة في مشارق الأرض ومغاربها، وزّعهم في البلد الواحد، فهذا الإنسان أعجبته هذه الدعوة فأحبها، فلا تحاول أن تفكه عنها، حاول أن تأتي إلى المسجد بإنسان ضال، حاول أن تبث الإيمان في إنسان تائه...

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

هذا يهتدي على يد فلان، وهذا على يد فلان، هذا يعجبه فلان، ولا يعجبه فلان، فهناك طباع وأمزجة، وهناك رغبات وميول، لكن لابد أن يكون الهدى ضمن الدائرة التي شرعها الله عز وجل، وما سوى ذلك فضلال في ضلال، ولكن هذا الذي يطمع أن يهتدي الناس على يديه لابد من ثمن باهظ يدفعه، أن تهتدي شيء، وأن يهتدي الناس على يديك شيء آخر... وربنا عز وجل يقول:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: الآية 24)

مِن ثمنِ الدعوة إلى الله:

الثمن الأول: الصبر في البلاء والامتحان:

هناك امتحانات، ولابد أن تصبر، فإن لم تصبر فلا تطمع في أن يكون الهدى على يديك، فالصبر أحد الأثمان الباهظة لكي تكون داعية إلى الله عز وجل.

الثمن الثاني: الطاعة التامة:

والطاعة التامة ثمن آخر، لقوله عز وجل:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة: الآية 124)

الطاعة التامة في السراء والضراء، في المنشط والمكره، ثمن آخر لأن تكون داعية إلى الله عز وجل.

الثمن الثالث: العمل الصالح:

والعمل الصالح ثمن ثالث:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت: الآية 33)

لا تؤثر في أحد إلا إذا كان عملك صالحا يصدق دعوتك.

الثمن الرابع: عدم سؤال الأجر:

(يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ*اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة يس: الآية 21)

فعلامة الداعية الصادق أنه لا يسألك أجرا، لا ماديا، ولا معنويا، لا كبيرا، ولا صغيرا، لا يعلق أهمية إطلاقا إلا على رضوان الله عز وجل.

الثمن الخامس: العلم:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: الآية 108)

ما اتخذ الله وليا جاهلا، لو اتخذه لعلمه، لابد أن تكون على بصيرة، لابد أن تكون الأمور واضحة تماما عندك، لأن زلة العالم كبيرة.

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

الثمن السادس: خشية الله وحده:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: من الآية 39)

إذا كنت كذلك فأبشر، هذا الذي يطمع أن يكون هاديا للناس لابد أن يأتمر بأمر الله تماما، ولابد أن يصبر، ولابد أن يجاهد نفسه وهواه، ولابد أن يعمل صالحا، ولابد أن يترفع عن أي طلب مادي، ولابد أن يكون عالما، لأنه لا سبيل إلى تعليم الناس إلا إذا كان الذي يعلمهم عالما بكتاب الله وسنة رسوله، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

هذه بعض الأثمان التي يجب أن تدفعها كي تنقل الناس إلى نور الله سبحانه وتعالى، وهناك بشارة تتضح معالمها كلما تقدمت الأيام والسنون، يقول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

(سورة الصف: الآية 9)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (15-23): تفسير الآية 36 ، عن المساجد وآدابها
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-01-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة النور، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة النور: الآية 35)

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ

تعليق الجارّ والمجرور: فِي بُيُوتٍ:

في بيوت: جار ومجرور بم يعلّق ؟ بعض العلماء يقول: هذا الجار والمجرور يعلق بالفعل يُسبح، يُسبح لله في هذه البيوت رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع.

وفي بعض المعاني: أن في بيوت متعلقة بفعل يُسبح، أي رجال يسبحون الله في هذه البيوت، وبالمناسبة كلمة رجل لا تعني في القرآن الكريم أنه ذكر، الرجل تعني في القرآن الكريم أنه بطل، لذلك سيدنا سعد رضي الله عنه قال: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس ؛ ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، ولا سمعت حديثًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى>>**، فثلاثة أنا فيهن رجل، أي بطل.

ليس من يقطع الطرق بطل وإنما من يتق الله البطل

***

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ

المعنى الأول:

فـ

(فِي بُيُوتٍ)

معناها أن رجالا مسبحون الله في بيوت أذن الله أن ترفع.

المعنى الثاني:

والمعنى الثاني: أن هذا المصباح:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)

هذا المصباح يتألق في بيوت أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه.

علاقة الآية بما قبلها:

وقد يسأل سائل: ما علاقة هذه الآية:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

(سورة النور)

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

بالآية التي قبلها ؟

الجواب: أنّ الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، ونوّر السماوات والأرض، نوّرها بالنبي العدنان، نوّرها بالقرآن، نورها بالعقل، نوّرها بالشرع، نوّرها بعلم النبي عليه الصلاة والسلام، ومن ينوب عن النبي في تلقين الناس العلم والقرآن الكريم، هذا كله أين تجده ؟

(فِي بُيُوتٍ)

معلومات دقيقة في الطب، هذه المعلومات أين تجدها ؟ في كلية الطب، هذا النور الإلهي ؛ أن تعرف الحق من الباطل، وأن تعرف الخير من الشر، وأن تعرف الأحكام الشرعية، أن تعرف ما يجوز وما لا يجوز، هذه المعارف أين موطنها ؟ أين تجدها ؟

(فِي بُيُوتٍ)

هذا النور الذي ذكره الله عز وجل، وذكر أنه يقذف في قلب المؤمن وذكر أنه:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)

(سورة الأنعام: الآية 122)

هذا النور تجده:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

بعضهم قال: العلاقة بين هذه الآية:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وبين آية:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

أنه كما أن المصباح يشرق بالنور في المشكاة كذلك قلب المؤمن يشرق بالنور في المسجد.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

فضل المساجد وروادها:

على كلٍّ، البيوت المقصود بها المساجد.

(فِي بُيُوتٍ)

أي في المساجد، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

[رواه مسلم]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ - يعني يأتيها بشكل دوري، وبشكل مستمر - فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ))

[الترمذي، أحمد]

يعمرها بأن يشيد بناءها، ويعمرها بأن يحضر مجالس العلم فيها، ويقول بعض العلماء: من جلس في مسجد فإنما يجالس ربه لماذا ؟ لأنه يستمع إلى كلامه، وإلى شرح كلامه، فما حقه أن يقول إلا خيرا، والحديث الذي تعرفونه جميعاً، عَنْ سَلْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَهُوَ زَائِرُ اللَّهِ، وحَقٌّ عَلَى الْمَزُور أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ))

[مصنف ابن أبي شيبة، معجم الطبراني الكبير]

حديث آخر ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ تَطَهّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمّ مَشَى إلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللّهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللّهِ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً))

أما الحديث الذي تهتز له الأعماق فهو ما يلي:

((إذَا مَشَى الْمُؤْمِنُ إلَى الْمَسْجِدِ قَالَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي زَارَنِي، وَعَلَيّ قِرَاهُ -القرى معناه الضيافة - وَلَنْ يَرْضَى اللّهُ تَعَالَى لِوَلِيّهِ بِقِرًى دُونَ الْجَنّةِ))

[تفسير ابن كثير]

قد تدخل بيت أخ عزيز، فيقدم لك ما لذ، وطاب من الطعام، هذا الطعام تأكله مرة واحدة، قد يدعوك مرة ثانية، قد يدعوك مرة ثالثة، ولكن عطاء الله عز وجل لا يمكن أن يكون محدودا، فعطاء الله عز وجل ليس له نهاية ينتهي عندها:

((إذَا مَشَى الْمُؤْمِنُ إلَى الْمَسْجِدِ قَالَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي زَارَنِي، وَعَلَيّ قِرَاهُ، وَلَنْ يَرْضَى اللّهُ تَعَالَى لِوَلِيّهِ بِقِرًى دُونَ الْجَنّةِ))

عُمّار المساجد ضيوف الله:

أنت كمؤمن، أنت كإنسان، لو أن أحداً طرق بابك، ودخل إلى بيتك يزورك ألا تحب أن تكرمه، ألا تشعر بحاجة ملحة أن تكرمه.

((قَالَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي زَارَنِي، وَعَلَيّ قِرَاهُ، وَلَنْ يَرْضَى اللّهُ تَعَالَى لِوَلِيّهِ بِقِرًى دُونَ الْجَنّةِ))

عطاء الله عز وجل لا ينقطع، فالعطاء الذي لا ينقطع هو الجنة، أما الدنيا فهي عطاء ينقطع، إن الله يُعطي الدنيا لمن يحب، ولمن لا يحب، ولكن الجنة لا ينالها إلا من أحبه الله سبحانه وتعالى، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَحَبّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ فَلْيُحِبّنِي، وَمَنْ أَحَبّنِي فَلْيُحِبّ أَصْحَابِي، وَمَنْ أَحَبّ أَصْحَابِي فَلْيُحِبّ الْقُرْآنَ، وَمَنْ أَحَبّ الْقُرْآنَ فَلْيُحِبّ الْمَسَاجِدَ))

[انظر لسان الميزان لابن حجر، وميزان الاعتدال عن أنس]

من لوازم حب الله عز وجل أن تحب النبي عليه الصلاة والسلام، لأن محبة النبي عليه الصلاة والسلام هي عين محبة الله عز وجل، ومحبة الله عز وجل من لوازمها محبة النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَحَبّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ فَلْيُحِبّنِي، وَمَنْ أَحَبّنِي فَلْيُحِبّ أَصْحَابِي))

هل يعقل أن تحب النبي عليه الصلاة والسلام، وتذكر هذا الصحابي أو ذاك بالسوء ؟ أيعقل ذلك ؟ إذاً أنت لا تحب النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه:

((مَنْ أحَبّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ فَلْيُحِبّنِي، وَمَنْ أحَبّنِي فَلْيُحِبّ أصْحَابي))

لأنه كان دستورهم، كان منهجهم، تخلقوا بأخلاقه، طبقوا أمره، وتركوا نهيه، انتهوا عما عنه نهى.

((وَمَنْ أحَبّ أصْحَابي فَلْيُحِبّ الْقُرْآنَ، وَمَنْ أحَبّ الْقُرْآنَ فَلْيُحِبّ الْمَسَاجِدَ))

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

القرآن يُتلى في المساجد، القرآن يُعلم في المساجد، القرآن يُدرس في المساجد، القرآن يُفسر في المساجد، فالمكان الطبيعي لتلاوة القرآن، ولتعلمه، ولتدبره هو المسجد.

((وَمَنْ أحَبّ الْقُرْآنَ فَلْيُحِبّ الْمَسَاجِدَ، فَإنّهَا أفْنِيَةُ اللّهِ))

هي بيوت الله، الأفنية جمع فناء، وهي الساحة، فإنها أفنية الله تعالى، وأبنيته، هذا بناء الله عز وجل، وهذا الفناء فناؤه، أذن الله في رفعها، وبارك فيها مباركة ميمونة، ميمون أهلها، محفوظة، محفوظ أهلها، هم في صلاتهم، في مجالسهم، في دروسهم، والله تعالى في حوائجهم، التحليل نتيجته جيدة جدا، أنت في المسجد، والله تعالى في حوائجك، هذه القضية حلت، وأنت في المسجد، هذه الحاجة قضيت، وأنت في المسجد، هذه المشكلة تلاشت، وأنت في المسجد، هذا المرض برئ منه ابنك، وأنت في المسجد، غادرت البيت، والحرارة أربعون، فعدت إلى البيت، وحرارة ابنك سبعة وثلاثون، هم في صلاتهم، والله عز وجل في حوائجهم لذلك:

((كُنْ لِي كَمَا أُرِيدُ أكُنْ لَكَ كَمَا تُرِيدُ، كُن لِي كَمَا أُرِيدُ، وَلاَ تُعْلِمْنِي بِمَا يُصْلِحُكَ، أنْتَ تُرِيدُ، وَأنَا أُرِيدُ، فَإذَا سَلّمْتَ لِي فِيمَا تُرِيدُ كَفَيْتُكَ مَا تُرِيدُ، وَإنْ لَمْ تُسَلّمْ لِي فِيمَا أُرِيدُ أتْعَبْتُكَ فِيمَا تُرِيدُ ثُمّ لاَ يَكُونُ إلاّ مَا أُرِيدُ))

[نوادر الأصول في أحاديث الرسول، الحكيم الترمذي]

أروع ما في هذا الحديث هم في صلاتهم، والله سبحانه وتعالى في حوائجهم، تعود إلى البيت، وقد تركت الزوجة متبرمة تعود وقد لين الله قلبها فإذا هي تستقبلك في بشاشة، تخرج من البيت، وابنك خارج عن أمرك تعود إلى البيت، وقد انصاع لأمرك، هم في صلاتهم، والله سبحانه وتعالى في حوائجهم، لذلك لا تتوانَ عن حضور مجالس العلم، ولا عن تأدية الصلوات في المساجد، فإنها بيوت الله، هم في مساجدهم تتمة الحديث، هم في مساجدهم، والله من ورائهم يدافع عنهم، حيكت في غيابك مؤامرة الله، فإن عز وجل خالق السماوات والأرض يدافع عنك، وأنت في المسجد، هم في مساجدهم، والله من ورائهم محيط، والله من ورائهم ينصرهم، والله من ورائهم يدافع عنهم.

((مَنْ أحَبّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ فَلْيُحِبّنِي، وَمَنْ أحَبّنِي فَلْيُحِبّ أصْحَابي، وَمَنْ أحَبّ أصْحَابي فَلْيُحِبّ الْقُرْآنَ، وَمَنْ أحَبّ الْقُرْآنَ فَلْيُحِبّ الْمَسَاجِدَ، فَإنّهَا أفْنِيَةُ اللّهِ وَأبْنِيَةُ أذِنَ اللّهُ فِي رَفْعِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، مَيْمُونَةٌ،

مَيْمُونٌ أَهْلُهَا، مَحْفُوظَةٌ، مَحْفُوظٌ أَهْلُهَا، هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ، وَاللّهُ عَزّ وَجَلّ فِي حَوَائِجِهِمْ، هُمْ فِي مَسَاجِدِهِمْ، وَاللّهُ عَزّ وَجَلّ مِنْ وَرَائِهِمْ يُدَافِعُ عَنْهُم))

ويقول بعض العلماء: **" المساجد مجالس الكرام"**، إن كان كريما تجده في المسجد، وإن كان غير ذلك تجده في المكان الفلاني، وفي المطعم الفلاني، وفي الفندق الفلاني، وفي الملهى الفلاني، لكن كرام الناس تجدهم في المسجد، وإن المساجد بيوت المتقين، ومن وصايا بعض الأصحاب الكرام: **<< عليك بالمساجد فالزمها، فإنه قد بلغني أنها كانت مجالس الأنبياء >>.**

[هو من قول أبي صادق الأزدي ناصحا به شعيب بن حباب، انظر تفسير القرطبي]

وقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة:

((كُونُوا فِي الدُّنْيَا أَضْيَافًا، وَاتّخِذُوا الْمَسَاجِدَ بُيُوتاً، وَعَوّدُوا قُلُوبَكُمْ الرّقة، وَأَكْثِرُوا التّفَكُّرَ وَالْبُكَاءَ))

[مسند الشهاب للقضاعي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، عن الحكم بن عمير، وانظر كشف الخفاء]

فهذه البيوت التي وردت في هذه الآية الكريمة هي المساجد، وقد ورد في بعض الأحاديث القدسية يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَوْحَى اللّهُ إِلَيّ يَا أَخَا الْمُنْذِرِينَ، يَا أَخَا الْمُرْسَلِينَ، أَنْذِرْ قَوْمَكَ أَلاّ يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي إِلاّ بِقُلُوبٍ سَلِيمَةٍ، وَأَلْسُنٍ صَادِقَةٍ، وَأَيْدٍ نَقِيّةٍ، وَفُرُوجٍ طَاهِرَةٍ، وَأَلاّ يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي وَلِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِي عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ظُلاَمَةٌ، إِنّي أَلْعَنُهُ مَا دَامَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيّ حَتّى يَرُدّ تِلْكَ الظّلاَمَةَ إِلَى أَهْلِهَا، فَأَكُونُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ، مِنْ أَوْلِيَائِي، وَأَصْفِيَائِي، وَيَكُونُ جَارِي مَعَ النّبِيّينَ، وَالصّدّيقِينَ، وَالشّهَدَاءِ، وَالصّالِحِينَ))

[تفسير القرطبي عن حذيفة]

تظلم الناس، وتدخل المسجد، تأكل حقهم، وتدخل المسجد، تكذب عليهم، وتدخل المسجد، تحتال عليهم، وتدخل المسجد، تقصر في واجباتك، وتدخل المسجد:

((أَوْحَى اللّهُ إِلَيّ يَا أَخَا الْمُنْذِرِينَ، يَا أَخَا الْمُرْسَلِينَ، أَنْذِرْ قَوْمَكَ أَلاّ يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي إِلاّ بِقُلُوبٍ سَلِيمَةٍ، وَأَلْسُنٍ صَادِقَةٍ، وَأَيْدٍ نَقِيّةٍ، وَفُرُوجٍ طَاهِرَةٍ، وَأَلاّ يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي وَلِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِي عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ظُلاَمَةٌ، إِنّي أَلْعَنُهُ مَا دَامَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيّ حَتّى يَرُدّ تِلْكَ الظّلاَمَةَ إِلَى أَهْلِهَا، فَأَكُونُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ، مِنْ أَوْلِيَائِي، وَأَصْفِيَائِي، وَيَكُونُ جَارِي مَعَ النّبِيّينَ، وَالصّدّيقِينَ، وَالشّهَدَاءِ، وَالصّالِحِينَ))

لعلك رأيته يصلي في المسجد، قال: هل تعرفه ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أعرفه، قال: **هل سافرت معه** ؟ قال: لا، قال: **هل جاورته** ؟ قال: لا، قال: **هل حككته بالدرهم والدينار** ؟ قال: لا، قال: **لعلك رأيته في المسجد يصلي، إنك لا تعرفه**، لذلك هذا الذي يأكل أموال الناس بالباطل، وهذا الذي يعتدي على الناس، وهذا الذي يظلمهم، وهذا الذي يغتابهم، وهذا الذي يتتبع عوراتهم، وهذا الذي يأخذ ما ليس له،

إذا دخل إلى المسجد فإن الله يلعنه، ومن بعض القصص التي تروى عن سيدنا موسى عليه وعلى سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام: أن السماء شحت فوقف موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام يدعو الله أن يغيث قومه، فأوحى الله له أن يا موسى إن فيكم عاصيا، وبعد أيام أمطرهم الله عز وجل من دون أن يخرج منهم هذا العاصي، فقال موسى: يا رب، من هذا الذي يعصيك حتى نطرده ؟ قال: عجبت لك يا موسى، سترته عاصيا، وأفضحه تائبا، لقد تاب بيني وبينه، سترته عاصيا وأفضحه تائبا.

((... إِنِّي أَلْعَنُهُ مَا دَامَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى يَرُدَّ تِلْكَ الظُّلاَمَةَ إِلَى أَهْلِهَا، فَأَكُونُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، مِنْ أَوْلِيَائِي، وَأَصْفِيَائِي، وَيَكُونُ جَارِي مَعَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ))

من أحكام دخول المساجد

الحكم الأول: الدخول بالرجل اليمنى والخروج منه باليسرى:

والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا أنّا إذا دخلنا ندخله برجلنا اليمنى، وإذا خرجنا منه أن نخرج منه بالرجل اليسرى.

الحكم الثاني: الدعاء بما صح عن النبي عليه الصلاة والسلام:

وعلينا أن ندعو الله بهذا الدعاء.

وعَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا حُمَيْدٍ وَأَبَا أُسَيْدٍ يَقُولانِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))

[مسلم، النسائي، عن أبي حميد وأبي أسيد، وابن ماجه عن أبي هريرة]

لعل الله عز وجل يتجلى على قلوبنا في المسجد:

((اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ))

فإذا خرجنا من المسجد ينبغي أن ندعو ونقول:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))

في الدخول افتح لنا أبواب رحمتك، في التجلي، والنور، وإذا خرجنا للعمل في ميدان الحياة يا ربنا افتح لنا أبواب فضلك.

الحكم الثالث: صلاة ركعتي تحية المسجد قبل الجلوس:

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ السَّلَمِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ))

[البخاري، مسلم]

وهما تحية المسجد.

معنى: أَذِنَ اللَّهُ

الله سبحانه وتعالى هو الذي يأذن، وهو الذي يعرف الصادق من الكاذب، وهو الذي يعرف من يبتغي رضوانه، ومن يبتغي الشهرة، وهو الذي يعرف من يبتغي الدنيا، ومن يبتغي الآخرة.

لذلك أذن الله، فإذا كان الله قد أذن يُلهم هذا الذي بيده الإذن فيأذن، وإذا لم يأذن الله عز وجل يُلهم هذا الذي بيده الإذن فلا يأذن.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ)

والإذن كما قال بعض العلماء **" العلم والإعلام، آذنته أي أعلمته "**، والإذن التمكين من دون حظر، أذنت له أن يفعل، أي سمحت له من دون حظر، أو إذن مع أمر الله سبحانه وتعالى، أمرنا أن نرفع المساجد، أما رفعها فقال العلماء: رفعها بالبناء، ورفعها بالمكانة، رفعها بالمكان، ورفعها بالمكانة، فيجب أن تبنى، ويجب أن ترفع مكانتها، أي يجب أن تبنى، ويجب أن تعظم، معنى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ)

إن الجهة الوحيدة التي تأذن هي الله سبحانه وتعالى، فإذا أذن الله فقد أذن لك، وإذا لم يأذن الله لم يؤذن لك، فصاحب الإذن هو الله عز وجل، والله خبير، بصير، سميع، عليم، عليم بذات الصدور، يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو صاحب الإذن.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ)

الفاعل الله سبحانه وتعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ)

معنى رفع المساجد:

ورفع البيوت بالبنيان، ورفعها بالمكانة، فقد ورد في صحيحي البخاري ومسلم أَنَّهُ سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ يَقُولُ:

عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ))

[أخرجه البخاري ومسلم]

إذاً:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

أي أن تبنى.

يقول الحسن البصري: **معنى تُرفع، أي يعظم شأنها، وأن يرتفع ذكرها وقدرها، وأن تطهر من الأنجاس، والأقذار، وأن تطهر من كل ما فيه معصية، أو إثم، أو امتهان، وأن تصان عن الروائح الكريهة، فلا ينبغي أن يقام إلى جانب المسجد حِرف لها رائحة كريهة، ولا ينبغي أن يقام بجانب المسجد حرف تحتاج إلى تنظيف مستمر، وليس لها منظر مقبول، هذا من باب**

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

وكذلك يجب أن تصان المساجد عن الأقوال السيئة، وعن كلام السفهاء، فهذا من تعظيمها، وهذا من رفعها، ولم يقل الله عز وجل: في بيوت أذن الله أن تبنى، وإنما قال:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

وفرق بين أن تبنى، وبين أن ترفع لهذا، روى البخاري ومسلم عَنْ عَطَاءٍ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلا فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ قَالَ: فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ))

[رواه البخاري، مسلم]

هذا من باب تعظيم المسجد ورفعه وصونا له من أن يتأذى المسلمون في المسجد من رائحة هذا الطعام، طبعاً العلماء قاسوا عليها أن على المسلم أن يرتدي جوارب نظيفة قبل أن يأتي إلى المسجد لئلا يؤذي المسلمين برائحة جواربه، وهذا محمول على البصل والثوم، وسيدنا عمر رضي الله عنه رأى أمة مصابة بجذام تطوف بالبيت فقال: يا أمة الله اقعدي في بيتك، لا تؤذي المسلمين، فلما توفي عمر ودعيت إلى أن تأتي إلى المسجد قالت: والله لا أطيعه حياً، وأعصيه ميتاً، والله لا أفعل، وأمره نافذ حتى بعد وفاته، إذاً كل شيء يؤذي رواد المسجد إن كان رائحة، إن كان فعلا، إن كان تصرفا، إن كان كلاما، هذا كله من تعظيم المسجد، ومن الأمر برفعه، أي أن يكون علياً رفيعاً عن هذه الدنايا، هذا يدخل في باب تعظيم المسجد:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج:الآية 32)

هناك أعمال لها رائحة نتنة، وهناك أقوال لها رائحة نتنة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إنّ الرّجُلَ لَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ فَيَتَبَاعَدُ عَنْهُ الْمَلَكُ مِنْ نَتَنِ رِيحِهِ))

[الطبراني في المعجم الصغير عن ابن عمر]

هناك أعمال لئيمة، وأعمال خسيسة، وأعمال قذرة، وتصرفات شائنة، وكل هذا السلوك له رائحة نتنة، ولكنها نتنة للذي يملك حسا، عَنْ بُرَيْدَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا صَلَّى قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا وَجَدْتَ إِنَّمَا بُنِيَتْ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ))

[مسلم، ابن ماجه]

أحيانا قضية صغيرة جداً ؛ قلم ناشف ثمنه ليرة، أيحتاج أن نقطع الدرس لنقول: لمن هذا القلم، لا ينبغي أن يقطع الحديث عن الله عز وجل، وعن آياته بأشياء لا قيمة لها أمام ما يتلى من آيات الله، وما يقال من شروح لهذه الآيات.

وفيما رواه الإمام مسلم عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قال: **بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْ مَهْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**

((لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ))

[البخاري، ومسلم، واللفظ له]

وفيما رواه الإمام مسلم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي، وَلا ضَرَبَنِي، وَلا شَتَمَنِي، قَالَ:

((إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ))

[مسلم]

لذلك نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن البيع في المسجد، ونهى عن الابتياع والابتياع هو الشراء، فنهى عن البيع، وعن الشراء في المسجد، ونهى أيضا عن تناشد الأشعار، وسوف نأتي بعد قليل على حكم قراءة الشعر في المسجد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ فِيهِ ضَالَّةً فَقُولُوا لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ))

[الترمذي(1321)، الدارمي(1401)]

من آداب المساجد:

1 – عدم رفع الأصوات:

ويحمل على آداب المسجد عدم رفع الصوت فيه، فهذا الذي يتحدث بصوت مرتفع إنه لا يعظم شعائر الله عز وجل.

2 – إلقاء السلام:

وقد جمع بعضهم آداب المساجد في خمسة عشر أدباً ؛ منها إذا دخلت إلى المسجد، وليس فيه صلاة تؤدى، وليس فيه مجلس علم فيجب أن تلقي السلام.

3 – صلاة ركعتين تحية المسجد:

ومن آداب دخول المسجد أن تصلي فيه ركعتين قبل أن تقعد.

4 – حرمة البيع والشراء فيه:

ومن آداب المسجد ألا تشتري فيه، وألا تبيع فيه.

5 – عدم سلّ السلاح:

ومن آداب المسجد ألا تسل فيه سهما، ولا سيفا، أو مطلق السلاح.

6 – عدم نشد الضالّة:

ومن آداب المسجد ألا تطلب فيه ضالة - شيئا قد ضاع لك - وألا ترفع فيه صوتا إلا بالتكبير، وذكر الله عز وجل.

7 – عدم التكلم بأحاديث الناس:

ومن آداب المسجد ألا تتكلم بأحاديث الناس، ما يسمعه الناس، وما يقولونه، وما يتداولونه في بيوتهم، وفي الطرقات، وفي الحوانيت، هذا الكلام اليومي العادي لا ينبغي أن يقال في بيت من بيوت الله.

8 – الجلوس حيث ينتهي المجلس وعدم تخطي رقاب الناس:

ومن آداب المسجد أن تجلس حيث ينتهي بك المجلس فلا تتخطى رقاب الناس.

يروى أن الإمام مالك دعاه هارون الرشيد أن يأتي بيته، وكان الدعاء متلطفا، فما كان من هذا الإمام ؛ إمام دار الهجرة إلا أن بعث لهارون الرشيد برسالة شفوية قال له فيها: **" يا هارون ؛ العلم يؤتى ولا يأتي "** فلما بلغه هذا الجواب، قال: صدق نحن سنأتيه، فقيل له على لسان الإمام مالك: **" إذا أتيت المسجد فلا أسمح لك بتخطي رقاب الناس"**، فقال: صدق، فلما دخل المسجد وضعوا له كرسيا يجلس عليه، فقال الإمام مالك: **من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه، فقال: خذوا عني هذا، وجلس على الأرض**، هذا بيت الله، والله الذي يدعوك، والله الذي يكرمك، ولا فضل لأحد على أحد في هذا المسجد، هكذا الأدب النبوي.

إذاً من آداب دخول المسجد ألا تتخطى رقاب الناس، وألا يتنازع فيه المكان، وكان سيدنا علي يجلس إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام فدخل سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، فقام له علي كرّمَ الله وجهه من مجلسه، فما كان من النبي عليه الصلاة والسلام إلا أن قال:

((لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل))

أحيانا يكون الشاب في مقتبل عمره يجلس في مكان مريح، ويدخل أخ متقدم في السن، له مكانته في خدمة هذا المسجد، فإذا تزحزح له هذا الشاب، ووضعه مكانه فهذا عمل مما يرضي الله عز وجل، لأن إكرام الكبير من السنة النبوية المطهرة، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ: جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا))

[الترمذي، أحمد]

رحمة الصغير، وإكرام الكبير من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا كان الشاب في مقتبل عمره، صغيرًا في السن، فتي الجسد، له جلد، على أن يجلس في مكان معين، وأعطى مكانه المريح لأخ كريم يكبره سنا، فهذا العمل والله عظيم، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[الترمذي]

9 – عدم التضييق في الصفوف أو تأخير أحد عن صفه:

ولا يضيق على أحد في الصفوف، ولا أحد يتزحزح من الصف الأول إلى الصف الثاني، لذلك يتزاحمون في الصف الأول، لدرجة أنهم يتضايقون، ولا يستطيعون أن يركعوا، ويسجدوا، فهذا لا يجوز، إذا كان الصف مزدحماً لا بأس أن يتخلف أحدكم إلى الصف الذي بعده.

10– عدم المرور بين يدي المصلي:

وألا يمر بين يدي المصلي.

11– عدم البصق أمامه:

وألا يبصق، هذه غير واردة، والحمد لله، وألا يتنخم، ولا يتمخط فيه، وألا يفرقع أصابعه، فليس من الأدب فرقعة الأصابع في المسجد.

12 – عدم العبث بشيء:

ولا أن يعبث بشيء من جسده، يعبث بلحيته، إن كان له لحية، أو يعبث بذقنه، والذقن غير اللحية، أو يعبث بنظارته، وحمل عليه العلماء من يحمل سبحة في المسجد، ويعبث بها هذا مما يخل بآداب المسجد.

13– التنزه عن النجاسات:

وأن يتنزه عن النجاسات، وأن يأتي بثوب نظيف، وبجوربين نظيفين، وأن يأتي متعطرا.

14– إبعاد الصبية غير المميزين عن المسجد:

وأن نبعد عن المسجد الصبية الصغار دون الخامسة، الذين لا يفقهون ما يقال، هؤلاء عبء على المسجد.

لكن الصغار الذين يفهمون فأهلا بهم، ومرحبا، وهم كالكبار عند الله عز وجل، لكن طفلا عمره ثلاث

سنوات أرادت أمه أن ترتاح منه، فأمرت زوجها أن يذهب به إلى المسجد، فهذا الطفل الصغير يتضايق ساعة من الزمن، ولا يفهم فيها شيئا، وأن يبعد عنه الصبية الصغار، لكن الصبية الكبار الذين يفقهون ما يقال هؤلاء ريح الجنة، هؤلاء الشباب أمل الأمة، هؤلاء رجال المستقبل، هؤلاء الذين تنعقد عليهم الآمال، لذلك أهلاً بهم ومرحباً في بيوت الله، وعلى كل أخ من رواد هذا المسجد أن يكرم الصغار، أن يكرمهم بأن يسمح لهم بأن يصلوا إلى جنبه، فهناك عادات لا ترضي الله عز وجل ؛ أن المصلين، أو بعضهم يؤخرون الطفل إلى صف خلفي، فلا يجوز هذا، فلو وقف في الصف الأول يجب أن يبقى فيه، قد تراه صغيراً، لكنه عند الله عظيم، وما أدراك قد يكون لهذا الصغير أمل كبير.

سيدنا عمر بن عبد العزيز دخل عليه وفد من الحجازيين، يتقدمهم غلام لا يزيد سنه عن أحد عشر عاما، يبدو أنه انزعج، فقال: **اجلس أيها الغلام، وليقم من هو أكبر منك سنا، ليتكلم**، فقال هذا الغلام: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه ؛ قلبه ولسانه، فإذا وهب الله العبد لسانا لافظا، وقلبا حافظا فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول أيها الأمير لكان في الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس.

دخل غلام على عبد الملك بن مروان أيضا، فانزعج منه، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل علينا إلا دخل، حتى الصبية، فقال: أيها الأمير، إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك، ولكنه شرفني أتت علينا سنة أذابت الشحم، وجاءتنا سنة أكلت اللحم، وجاءتنا سنة دقت العظم، وبيدكم فضول مال، فإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا، وإن كانت لله فعلام تحبسونها عن عباده ؟ وإن كانت لنا فأعطونا إياها، فقال هذا الخليفة: **والله ما ترك هذا الغلام لواحدة فيما يقول عذرا.**

وقصة عبد الله بن الزبير مع سيدنا عمر عندما كان مع غلمان يلعبون، فمر بهم، فتفرقوا لهيبته إلا عبد الله بن الزبير بقي في مكانه، فقال عمر رضي الله عنه: **يا غلام، لمَ لمْ تهرب مع من هرب ؟ قال: أيها الأمير، لستَ ظالما فأخشى ظلمك، ولستُ مذنبا فأخشى عقابك، والطريق يسعني، ويسعك.**

فالصغار ريح الجنة، هناك إخوة كرام يكرمون الصغار، والله سبحانه وتعالى يرضى عن ذلك، فأكرموهم في المساجد، أكرموهم بقدر ما تستطيعون، فإذا جاؤوا إلى المسجد، ورأوا من يكرمهم أحبوا هذه البيوت.

15– عدم إقامة الحدود في المسجد:

ويُحرم أن تقام الحدود في المساجد، أن يجلد الزاني في المسجد، فلا يجوز، هذا بيت الله، هذا مكان الدعوة إلى الله، هذا مكان النور، لا أن تقام فيه الحدود، فلا يجوز أن تقام الحدود في المسجد.

16– استحباب كثرة ذكر الله:

ويستحب أن يكثر الإنسان من ذكر الله في المسجد، وألا يغفل عنه، فإذا فعل هذه الأشياء فقد أدى حق المسجد، وكان المسجد حرزا له، وحصنا من الشيطان.

17– عدم اتخاذ المساجد طرقا:

ومن علامات قيام الساعة أن تتخذ المساجد طُرقاً، مثلاً من باب البريد إلى النوفرة عبر الأموي أسرع، أن تتخذ المساجد طرقا فهذا امتهان للمسجد، أهو طريق ؟ ادخل إلى المسجد، وصلّ فيه ركعتين، وتابع سيرك، فذلك مقبول، أما أن تجعله طريقا فهذا لا يجوز، وفيما روى الإمام البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا أَوْ فِي سُوقِنَا وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا فَلْيَقْبِضْ بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ))

[البخاري، مسلم]

لو أن إنساناً يحمل قضيب حديد مثلا فيجب أن يجعله نحو الأسفل لئلا يؤذي به أحداً، أي يجب أن تأخذ احتياطاً بالغاً لئلا تؤذي إنساناً في المسجد، ومن شروط المساجد ألا يُسكّن تحتها، فأن نعمل بيتاً تحت المسجد نؤجره فقد يسكن هذا البيت أناس لا يعرفون الله، يرفعون الصوت بالغناء في أثناء مجالس العلم، وهذا يقع غالبا، لذلك لا يجوز ذلك، يجب أن تكون أرضه حرة، لا تحتها شيء، ولا فوقها، أي هذا المسجد لا يجوز أن يسكن إنسان تحته ولا، فوقه، وألا تجاوره حِرف تؤذي المصلين، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((خِصَالٌ لا تَنْبَغِي فِي الْمَسْجِدِ: لا يُتَّخَذُ طَرِيقًا، وَلا يُشْهَرُ فِيهِ سِلاحٌ، وَلا يُنْبَضُ فِيهِ بِقَوْسٍ، وَلا يُنْشَرُ فِيهِ نَبْلٌ، وَلا يُمَرُّ فِيهِ بِلَحْمٍ نِيءٍ، وَلا يُضْرَبُ فِيهِ حَدٌّ، وَلا يُقْتَصُّ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ، وَلا يُتَّخَذُ سُوقًا))

[ابن ماجه]

18– تجنيب المجانين:

وعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ، وَشِرَاءَكُمْ وَبَيْعَكُمْ، وَخُصُومَاتِكُمْ، وَرَفْعَ أَصْوَاتِكُمْ، وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ، وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ، وَاتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ، وَجَمِّرُوهَا فِي الْجُمَعِ))

[ابن ماجه]

معنى جمروها في الجمع يعني عطروها بروائح عطرية يحبها المصلون، واجعلوا المرافق العامة بعيدة عن الحرم، لئلا تؤذي المسلمين ببعض الروائح، وقد ورد في الأثر أن الملائكة تعجب من الرجل يمر في المسجد، ولا يصلي فيه، هذا من العجب العجاب ؛ أن تمر بالمسجد، ولا تصلي فيه، وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يفتش المسجد بعد العشاء، فلا يترك فيه أحداً، يجب أن يكون هناك ضبط، وحزم في إدارة المساجد، لعل أحداً اختبأ فيه، وآذى المسجد، وفعل فيه ما لا يرضي الله، يجب أن يُتفقد المسجد بعد العشاء، وأن تُغلق أبوابه بإحكام، وهذا من فعل سيدنا عمر رضي الله عنه، وقد روى البخاري في صحيحه عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: **<< اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهَذَيْنِ فَجِئْتُهُ بِهِمَا قَالَ: مَنْ أَنْتُمَا أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا قالا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ >>.**

[رواه البخاري]

هذا ليس من آداب المساجد، وسيدنا عمر رضي الله عنه سمع صوت رجل عاليا في المسجد فقال لصاحب الصوت: **<<أتدري أين أنت ؟ أنت في بيت الله >>.**

وسيدنا خلف بن أيوب كان جالسا في مسجد رسول الله، فأتاه غلامه يسأله عن شيء، فقام معه، وخرج من المسجد، وأجابه خارج المسجد، فقيل له في ذلك، فقال: **<< والله ما تكلمت في المسجد بكلام الدنيا منذ كذا وكذا >>.**

وروى سعيد قال: حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أبي هند رضي الله عنه، وهذا من أصحاب رسول الله قال: **حمل تميم الداري من الشام إلى المدينة قناديل وزيتا ومقطا- يعني حبالا - فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة، فأمر غلاما له، فقام فمشط المقطة يعني ربط الحبال، وعلق القناديل عليها، وصب فيها الماء والزيت، وجعل فيها الفتيل، فلما غربت الشمس أمر غلامه فأسرجها - فأشعلها - فدخل عليه الصلاة والسلام إلى المسجد، فإذا هو بها تزدهر مضاءة، فقال من فعل هذا ؟ دققوا أيها الأخوة، قال: من فعل هذا ؟ قالوا: فعله تميم الداري يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام:**

((نورت الإسلام يا تميم نور الله عليك في الدنيا والآخرة، أما إنه لو كانت لي ابنة لزوجتكها))

من شدة فرحه به، وامتنانه له قال: **أما إنه لو كانت لي ابنة لزوجتكها** وكان صحابي اسمه نوفل بن الحارث واقفًا فقال: **يا رسول الله أنا لي ابنه اسمها المغيرة، فافعل بها ما أردت، فأنكحه إياها،** لأنه جاء بالحبال، وعلقها بالسقف، وجاء بالقناديل، ووضع فيها الفتيل، وصب فيها الماء والزيت، وأسرجها

بعد الغروب، فدخل عليه الصلاة والسلام فرأى المسجد يتلألأ بالأضواء، فقال: **من فعل هذا ؟ قالوا: تميم فقال: يا تميم.**

((نورت الإسلام نور الله عليك في الدنيا والآخرة))

فأي خدمة تقدمها للمسجد، أي عمل، أي مصباح تقدمه، أي جهاز تقدمه، نقول كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أكرمك الله كما أكرمت هذا المسجد))

وسيدنا عمر كان يجمر المساجد كل يوم جمعة، يعني يعطرها.

هذه بعض الأحكام المتعلقة في المساجد، وصلنا إلى قوله تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

في الدرس القادم إن شاء الله نتابع الحديث عن ذكر الله.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

رفعت، ويذكر فيها، وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (16-23): تفسير الآيات 36 – 39
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-01-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38))

(سورة النور)

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ

أيها الإخوة الأكارم، في الدرس الماضي توضح لكم من قول الله عز وجل:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

معنى ترفع أي تبنى، وتعظم، وقد أوردت في الدرس الماضي أحاديث كثيرة عن فضل ارتياد المساجد، وعن آداب المسلم في المسجد، وهذا كله يغطيه قول الله عز وجل:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

ومعنى ترفع أي تبنى، وتعظم.

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج: الآية32)

من معاني: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ

المعنى الأول: البناء والتعظيم:

يضيف المفسرون إلى هذه الكلمة معنىً ثالثاً:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

أن تبنى، وأذن الله أن ترفع أن تعظم.

المعنى الثاني: رفع الحاجات إلى الله:

وأذن الله أن ترفع أي أن ترفع فيها الحاجات إلى رب الأرض والسماوات، فما من إنسان على وجه الأرض إلا وله حوائج كثيرة، قد يطرق باب زيد، أو عبيد، أو فلان، أو علان، الإنسان من طبعه الشح، والعلاقات بين الناس قائمة على المشاححة، لكن الإنسان إذا توجه إلى الله سبحانه وتعالى، توجه إليه في المسجد، وطلب منه حوائجه، هناك حوائج تعينه على أمر الآخرة، فلو طلب المؤمن من ربه وهو في المسجد أن يرزقه رزقا حلالا طيبا، فهذا طلب معقول، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: الآية60)

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ لَمْ يَدْعُ اللّهَ سُبْحَانَهُ غَضِبَ عَلَيْهِ))

[ابن ماجه]

وفي رواية الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ لَمْ يَسْأَلْ اللّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ))

[الترمذي]

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إنّ اللّهَ يُحِبُ الْمُلِحّينَ فِي الدُّعَاءِ))

[القضاعي في مسنده]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبّهُ حَاجَتَهُ كُلّهَا حَتّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إذَا انْقَطَعَ))

[ابن حبان]

فالإنسان المؤمن له باب لا يغلق، وهو باب الله عز وجل، المؤمن شرفه القيام بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أَطْلُبُوا الْحَوَائِجَ بِعِزّةِ الأَنْفُسِ فَإِنّ الأُمُورَ تَجْرِي بِالْمَقَادِيرِ))

[فيض القدير]

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

هو سمح لك أن ترفع إليه حاجاتك في بيته، أنت في بيته، وإليه ترفع الحاجات، فما من شاب، وما من رجل، وما من شابة، وما من امرأة لها عند الله حاجة، وعليها أن ترفعها إلى الله عز وجل، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ))

[البخاري، مسلم، واللفظ له، الترمذي، أبو داود، النسائي]

ولفظ البخاري:

((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟))

إذاً ارفع إلى الله حاجاتك، لكن الله سبحانه وتعالى لا يسمع دعاء الداعي إلا بشروط، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة: الآية186)

في أكثر من عشر آيات في القرآن الكريم تأتي الصيغة على الشكل التالي:

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

(سورة البقرة: الآية219)

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة: الآية219)

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

(سورة البقرة: الآية189)

في أكثر من عشرة مواضع يأتي قوله تعالى على شكل يسألونك، فتأتي كلمة قل بين السؤال والجواب، إلا في آية واحدة في كتاب الله ليس لها مثيل:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

أي من دون وسيط.

(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي)

الإنسان أحيانا يدعو الله عز وجل، وقلبه معلق بزيد أو عبيد، يدعو الله عز وجل وهو معتمد على فلان، يدعو الله عز وجل وهو متوكل على ماله، أو على جاهه، أو على أصدقائه، فلذلك ربنا عز وجل يقول:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي)

إذا دعوت الله حقا فالله سبحانه وتعالى يستجيب لك، وربنا عز وجل أعظم من أن تدعوه مخلصا فلا يستجيب لك، لذلك أي أخ كريم له حاجة ملحة له فليدع الله عز وجل مخلصا.

(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي)

استجب لأمر الله أولا، وسوف تجد كيف أن الله يجيب دعاءك.

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

إلى الدعاء الصحيح.

آمن بالله أولاً، واستجب لأمره ثانياً، ثم ادعه ثالثاً، وسوف ترى كيف أن الدعاء يتحقق، وأن الله سبحانه وتعالى ما خلق لك هذه الحاجة إلا من أجل أن تدعوه، فإذا دعوته، واستجاب لك عرفت أن لك رباً لا ينساك، وأنه سميع الدعاء، وأنه قريب مجيب.

لذلك المعنى الثالث من معاني:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

أي أن ترفع فيها حاجات المصلين، اسجد لله عز وجل، واطلب من الله الهدى، اطلب من الله الرزق الحلال، اطلب من الله الذي ترجوه.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

الإذن: العلم، ورفع الحظر، لكن الله عز وجل لم يقل: أمر الله أن ترفع، بل قال: أذن الله أن ترفع، وثمة فرق كبير بين أذن الله أن ترفع، وبين أمر الله أن ترفع، تقول: أمر الناس بدفع ما عليهم من تكاليف للخزينة، وقد أذن لهم أن يستوردوا، لمَ أذن لهم أن يستوردوا، ولمَ أمروا أن يدفعوا ما عليهم من تكاليف ؟ لأن الشيء الذي سمح لهم محبب إليهم، وهم راغبون فيه، فالله سبحانه وتعالى جعل كلمة أذن بمعنى أن هذا الذي ورد بعد الإذن شيء محبب للناس، لذلك أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، أما أن يذكر فيها اسمه فيعني أن تذكر أسماؤه الحسنى أن يذكر فيها اسمه، اسمه الرحيم أن يذكر فيها، اسمه العليم، اسمه القدير، اسمه اللطيف، اسمه الغني، اسمه السميع، اسمه المجيب، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[البخاري، مسلم]

وهذا لا يعني مَن عدّها، ولكن من تحقق بها، لا يكفي أن تؤمن بالله عز وجل خالقاً فإبليس قال:

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الحجر: الآية39)

إن إبليس يعتقد أن له ربا، لكنك لن تستكمل الإيمان حتى تؤمن بالله خالقاً، وبالله مربياً، وبالله مسيراً، وأن تؤمن بأسمائه الحسنى، وبصفاته الفضلى، فاسأل نفسك هذا السؤال: ماذا أعرف عن اسم الله الرحيم ؟ كيف تواجه خبر البلد الذي مات من العطش، وهذا البلد الذي مات من الجوع، وهذا الزلزال الذي ضرب البلاد الفلانية، وهذا البركان الذي دمر هذه المنطقة الفلانية ؟ هل عندك جواب ؟ وهل عندك

يقين برحمة الله عز وجل على الرغم من هذه الأخبار ؟ كيف توفق بين رحمة الله عز وجل، وما يجري بالحياة من مصائب ؟ يجب أن تقف موقفا واضحا، ويجب أن تتحقق من اسم الله الرحيم، ويجب أن تتحقق منه.

معنى: وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ

إذاً:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

المعنى الأول: معرفة الله تعالى:

ليس بيت الله من أجل أن تصلي فقط، من أجل أن تصلي، ومن أجل أن تعرف الله عز وجل، فكأن هذه الآية تشير إلى أن الوظيفة الأولى لبيوت الله ؛ أن تعلم الناس كل شيء عن الله عز وجل، وأن تعلم الناس شيئا كثيراً عن أسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، فالقصد الأول التعليم، والقصد الأول التعريف، القصد الأول أن تذكر الله بأسمائه كلها، وأسماء الله كلها حسنى، وصفاته كلها فضلى، لذلك هناك إلحاد في الذات، وإلحاد في الأسماء، فمن أيقن بوجود الله، وشك في رحمته فهو ملحد بشكل أو بآخر، ملحد في بعض أسمائه، ولن تستكمل الإيمان إلا إذا عرفت الله بأسمائه الحسنى كلها. لذلك:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

المعنى الثاني: الصلاة:

يذكر فيها اسمه، وبعضهم قال: الصلاة، لقول الله عز وجل:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه: الآية14)

ولقول الله عز وجل:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: الآية45)

أي ذكر الله أكبر ما في الصلاة، وربنا سبحانه وتعالى أشار إلى أن جوهر الصلاة، وسر الصلاة في ذكر الله عز وجل:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

الصلاة قرب، ولو يعلم المصلي من يناجي ما التفت، والصلاة مناجاة.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

(سورة المؤمنون: الآيات 1-2)

الصلاة خشوع، الصلاة ذكر، الصلاة قرب، الصلاة عروج إلى الله عز وجل، الصلاة معراج المؤمن.

الصلاة نور، فعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأَنِ، أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ))

[مسلم(223)]

الصلاة راحة وسعادة، فعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ، قَالَ مِسْعَرٌ: أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ:

((يَا بِلالُ أَقِمِ الصَّلاةَ، أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود]

الصلاة وعي، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: الآية43)

الصلاة عقل: ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها.

لذلك يقول بعض المفسرين:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

أي يصلى فيها.

والأولى أن نجمع بين المعنيين، فإنما أنشأت بيوت الله عز وجل ليصلى فيها، أي ليتصل العباد بربهم، وليتعلموا شيئا عن ربهم، وأحكام دينهم، فهو اتصال وتعلم.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)

معنى: يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

وبعضهم يقول: كل تسبيح في القرآن صلاة، لأنك إذا سبحت الله فقد مجدته، ونزهته، فإذا وقفت في الصلاة قلت:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

ثم تركع، فتقول: سبحان ربي العظيم، ثم تسجد، فتقول: سبحان ربي الأعلى، وهذا الذي ناجى ربه فقال: يا رب، حينما قال الله عز وجل:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه: الآيات 43-44)

قيل: يا رب، إذا كانت هذه رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى، فكيف رحمتك بمن قال: سبحان ربي الأعلى ؟ وإذا كانت هذه رحمتك بمن قال: ما أعلم لكم من إله غيري، فكيف رحمتك بمن قال: لا إله إلا الله ؟ لو يعلم المعرضون حبي لهم، وانتظاري إليهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقا إلي، يا داود هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف إرادتي بالمقبلين، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، فلذلك بعضهم قال: كل تسبيح ورد في القرآن الكريم يعني الصلاة.

إذاً:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا)

أي يصلي له يسبح له فيها بالغدو والآصال، غدا أي خرج قبل الشمس، وراح عاد إلى بيته بعد الغروب، فالغدو هو الذهاب، والرواح هو المجيء، والمقصود أن هؤلاء الرجال الذين يذكرون الله عز وجل، ويذكرون أسماءه الحسنى، وصفاته الفضلى، ويتعلمون شيئا عن كمالاته، ويتعلمون أوامره، ويتصلون به في بيوت الله، هؤلاء يفعلون ذلك كل يوم، وكل صباح ومساء، بل إن بعض المفسرين قال: هذا ينطبق على الصلوات المفروضات، لأن الغدو يعني به صلاة الصبح، والآصال يعني صلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، أو صلاة العصر وحدها، وقد كان قبل فرض الصلوات الخمس أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يصلون قبل الشمس، وفي وقت العصر، على كل يسبح له فيها بالغدو والآصال أي يتصل هؤلاء الرجال صباحا ومساء، وكل يوم، وهذا يرجح أن تكون كلمة يسبح يعني يصلي، والقرينة بالغدو والآصال، لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((ابن آدم، لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفك النهار كله))

[ورد في الأثر]

أنت في هذا النهار في حفظ الله، وفي توفيق الله، وفي رعاية الله، والله يدافع عنك، ويتولى شأنك كله، هم في مساجدهم، والله في حوائجهم، هم في صلاتهم، والله من ورائهم، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، أنا أعلم، وأعرف ما يصلحك، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما

أريد، فعَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَشِّرْ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[الترمذي، أبو داود، ابن ماجه]

معنى كلمة رجال إذا وردت في القرآن:

وأما فاعل يسبح فهو رجال.

(يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)

ومرة ثانية: كلمة رجال في القرآن الكريم لا تعني الذكران، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ذكرًا وأنثى، فكلمة رجل في القرآن الكريم لا تعني أنه ذكر، تعني أنه بطل، وهذا يؤكده قول سعد بن أبي وقاص: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل ؛ وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس: ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها - هذه بطولة - ولا سمعت حديثا من رسول الله إلا علمت أنه حق من الله تعالى، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها>>.**

إذاً: رجال أيْ أبطال، يؤكد هذا ما في سورة الأحزاب:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

[سورة الأحزاب: الآية23]

مقياس القرآن للرجولة:

يجب أن يكون الإنسان رجلاً كما أراد الله عز وجل، ويجب أن ترقى في المقاييس التي وضعها الله في القرآن، لا أن ترقى في المقاييس التي تواضع الناس عليها، فإن الناس يعظمون أصحاب الأموال، ويعظمون الأقوياء، ويعظمون أصحاب الدرجات العليا في العلم، ولو كانوا كفارا، هذه مقاييس تواضع الناس عليها، ولكنك إذا كنت بطلاً ترتفع في المقياس الذي وضعه الله في القرآن الكريم، قال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: الآية132]

المقياس الوحيد الذي ورد في القرآن الكريم، والذي أشار إلى مرجح وحيد يمكن أن يكون مقياساً بين الناس هو العلم، العلم بالله لقول الله عز وجل:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)

[سورة الزمر: الآية9]

وقد قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى **" حيثما وردت كلمة العلم في الكتاب والسنة فإنما تعني العلم بالله لأنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء، وإذا فاتك فاتكَ كل شيء "...** رجال.... الحياة تمضي، وكل الذي تستمتع به في الدنيا يمضي، وينتهي عند الموت، ولكن الأعمال التي ترضي الله تسعدك إلى الأبد، فوازن بين كل أعمالك، فالعمل الذي يمتد أثره بعد الموت احرص عليه، والعمل الذي يمتد أثره بعد الموت هذا العمل الذي هو يسعدك إلى الأبد، وأي عمل مهما علا شأنه إذا كان ينتهي عند القبر فهذا العمل خسارة في خسارة، إلا أن يبتغى به وجه الله تعالى، لذلك يقول الله عز وجل:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

[سورة الكهف: الآيات 103-104]

قد تخطئ خطأً كبيراً عندما تنطلق في علاقاتك في حركتك اليومية من أفكار ليست صحيحة، والعلماء قالوا: العلاقات العلمية تعني أن تقوم علاقة بين شيئين مقطوع بصحتها يؤكدها الواقع، عليها دليل، فإذا أردت أن تنطلق في كل حركة من حركاتك اليومية من هذه المقولة، أو من هذه القاعدة، فإنك لابد أن تصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة لو لم يكن هذه المقولة، أو هذه الفكرة، أو هذه القاعدة، لو لم تكن مطابقة للواقع، فهذا الجهل بعينه لو لم يكن عليها دليل، فهذا التقليل بعينه لو لم يكن مقطوعًا بصحتها فهو الشك، أو هو الظن، أو هو غلبة الظن، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(رجَالٌ)

وربنا عز وجل إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، فيجب أن تعلم، أو يجب أن تسعى لإرضاء الله عز وجل، إن كلمة رضي الله عنهم، ورضوا عنه لهي أعلى مرتبة ينالها مخلوق في الكون، رضي الله عنك، فرضي الله عن أصحاب رسول الله، هذه صيغة فعل ماض، يعني لقد رضي الله عنهم، وانتهى، لكن إذا قيل لإنسان رضي الله عنك هذه صيغة دعائية، أيْ أرجو الله أن يرضى عنك، أرجو الله أن تعمل عملا يرضيه، لذلك هؤلاء الصوفيون الذين لهم أوراد في الصباح يقولون: إلهي، أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، أنت ترضي من ؟ هناك من يرضي زوجته، فقد خاب وخسر إن أرضاها بمعصية الله، وهناك من يرضي من هو فوقه في العمل، خاب وخسر إن أرضاه في معصية الله، هذا الذي يرضي الناس في معصية الله.

قولاً واحداً، لا يعرف الله، ولا يعرف ما عنده من ثواب، ولا يعرف ما عنده من عقاب، ولا يعرف أن المصير إليه، ولا يعرف أنه راجع إليه، وما قال: الله أكبر حقيقة، ولو قالها بلسانه ألف مرة، قل: الله أكبر مليون مرة، فإذا أطعت إنساناً، وعصيت الخالق معنى ذلك أنك رأيت أن هذا الإنسان أكبر من الله عز وجل، وقد آثرت أن ترضيه، وأن تسخط الله عز وجل، فالتعامل مع هذه الكلمات التي يقولها

المسلمون كل يوم التعامل معها الآن أصبح تعاملا شكليًا، نسمع الأذان كل يوم ؛ الله أكبر، تصلي، وتقول: الله أكبر، فهل أنت في مستوى هذه الكلمة ؟ هل تعلم أنك إن قلتها مرة واحدة بشكل صحيح سعدت في الدنيا والآخرة، هل تعلم أنك إن قلتها مرة واحدة بشكل صحيح لا ينبغي لك أن تعصي الله أبدا، ولا ينبغي لك أن تطيع مخلوقا، وتعصي خالقا. هذا المقياس الإلهي:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

[سورة النور]

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

التجارة عمل، والإنسان مكلف أن يعمل، ومكلف أن يكسب رزقه، وربما تقرب إلى الله بالعمل، وربما أنفق المال الذي حصله بالعمل في وجوه ترضي الله عز وجل، بل إن بعض الناس يقول: إن العمل عبادة، وفي هذا القول جانب كبير من الصحة، ولكن أن يكون العمل على حساب دينك، أو على حساب طاعة ربك، أو على حساب صلواتك، أو على حساب عباداتك، فهذا العمل خرج عن الحد المألوف، خرج عن دائرة القبول، خرج عن الوضع الصحيح، لذلك هؤلاء الرجال لا تلهيهم تجارة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِنّ أَطْيَبَ الْكَسْبِ كَسْبُ التُّجّارِ الّذِينَ إِذَا حَدّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا، وَإِذَا وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا، وَإِذَا ائْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا، وَإِذَا اشْتَرَوْا لَمْ يَذُمُّوا، وَإِذَا بَاعُوا لَمْ يُطْرُوا، وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَمْطُلُوا، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ لَمْ يُعْسِرُوا))

[البيهقي في شعب الإيمان عن معاذ]

والنبي عليه الصلاة والسلام رأى شابا يصلي نهارًا في المسجد فقال: من ينفق عليك ؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك، فالعمل مطلوب.

(وَقُلْ اعْمَلُوا)

[سورة التوبة: الآية105]

وكسب الرزق الحلال فرض بعد الفريضة، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ))

[ابن ماجه]

هناك حديث شريف آخر:

((طَلَبُ الْحَلاَلِ فَرِيضَةٌ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ))

[سنن البيهقي الكبرى]

عليك أن تصلي، وعليك أن تطلب الحلال، عليك أن تبحث عن عمل، عليك أن تقدم شيئاً، عليك أن تكون يدك هي اليد العليا، ولكن أن نعمل، ولا نصلي فقد انحرف العمل عن الحدود التي رسمها الله له، نعمل على حساب ديننا، نكسب المال من شبهات، لسنا متأكدين من صحتها، ننفق المال في وجوه لا ترضي الله عز وجل.

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)

قد يسأل سائل: ألا تعني التجارة البيع والشراء ؟ فلِمَ جاء البيع بعد التجارة ؟ قال العلماء:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

الذكر مستمر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب: الآية41)

وهذا يؤكده قول الله عز وجل:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

(سورة المعارج: الآية23)

كيف دائمون ؟ وهو في محله، وهو وراء مكتبه، وهو يركب مركبته يذكر الله عز وجل، ودائما ذكر الله عز وجل ملء نفسه، ملء تفكيره، ملء مشاعره، ملء ساحة نفسه، فذكر الله عز وجل يجب أن يكون مستمرا، وكلما طالت فترة الذكر، وقلت فترة الغفلة ارتقى الإنسان في مراتب الدرجات العلى. لذلك الأنبياء صلوات الله عليهم تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، لأن مرتبة النبوة اتصال دائم بالله، ومرتبة الصديقية أدنى من ذلك، أما أنتم، فيا أخي ساعة فساعة، المؤمن ساعة، فساعة، لكن كلما طالت فترات الذكر، وقلت فترات الغفلة ارتقى الإنسان في معارج القرب عند الله عز وجل، فهؤلاء الرجال لا تلهيهم تجارة، ويروى أن أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا وزن شيئاً، وسمع النداء ترك الشيء في الميزان، وذهب إلى المسجد، وكان صانعاً للسيوف على عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا أنزل المطرقة على السيف، وأذن المؤذن ترك المطرقة على حالها، بل رماها خلف ظهره، وتوجه إلى المسجد، فقال بعضهم: هؤلاء ممن تعنيهم هذه الآية، لكن ثمة حالات أخرى، هذا الذي يفتح بطن إنسان، ويجري عملية، فإذا أذن المؤذن لا ينبغي له أن يدع العملية، وهذا البطن مفتوح، ربنا عز وجل جعل الإسلام دين يسر، هناك حالات إنسانية قاهرة، فعلى الإنسان أن يصلي ضمن الوقت المسموح به.

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)

فنحن سؤالنا: لماذا قال الله عز وجل:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)

مع أن البيع من التجارة ؟ فكما أن ذكر الله مستمر، والتسبيح في وقت محدود فكذلك التجارة هنا، وقد حدثني شخص قال: إن حساب الصندوق لا ينضبط إلا، وأنا في الصلاة، فأجد في الصلاة ماذا دفعنا، وماذا قبضنا، فهؤلاء على الرغم من أنهم يصلون فالتجارة تلهيهم عن الصلاة.

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)

فيه احتمال للربح، لكن البيع الربح فيه محقق، فلو أن إنساناً يعمل موظفاً، وليس تاجراً، لكن يبيع الآن بيتًا، وترك الصلاة من أجل ذلك، فكل إنسان يبيع، وليس كل إنسان بتاجر.

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

إن ذكر الله أعظم شيء، لقول الله عز وجل:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: الآية45)

أيْ أكبر ما فيها.

معنى إقامة الصلاة:

وإقام الصلاة أن يذكر الله دائماً، في سره، وفي علنه، في سفره، وفي حضره، في بيته، وفي عمله، وإقام الصلاة تحتاج إلى إقامة، تقول: أقام البناء، أيْ أشاده، فالإقامة هنا لها معان عدة، من معانيها أن يجعل صلاته صحيحة، وأن يجعل صلاته مستقيمة إلى الله عز وجل، لا عوج بها، أو أن يجعل لهذه الصلاة تمهيداً من عمل صالح، أو استقامة على أمر الله، أو من بذل، أو من تضحية، فهؤلاء الرجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، قال بعضهم: الزكاة التي فرضها الله عليك، وبعضهم قال: لو أن هؤلاء الرجال لا مال لهم، فأين الزكاة ؟ قال بعضهم: إن الزكاة هنا أن تزكو نفوسهم من هذه الصلاة، يعني اتصالهم بالله ينتج عنه تزكية لنفوسهم.

معنى: يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ

هذا اليوم الذي لابد منه، هذا اليوم الذي ترتعد فيه الفرائص، هذا اليوم الذي لا ينفع الإنسان فيه شيء إلا عمله الصالح.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

[الشعراء: 88-89]

السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: **يا رسول الله يوم القيامة أيعرف بعضنا بعضاً ؟** فقال عليه الصلاة والسلام:

((نعم، يا أم المؤمنين، يعرف الناس بعضهم بعضا إلا في ثلاثة مواضع، عند الحشر، وعند الميزان، وإذا الصحف نشرت، وفيما سوى ذلك فقد تبصر الأم ابنها يوم القيامة، تقول: يا بني جعلت لك حجري وطاء، وصدري سقاء، فهل من حسنة يعود علي خيرها اليوم ؟ فيقول هذا الابن: يا أماه ليتني أستطيع ذلك، إنما أشكو مما أنت منه تشكين))

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

يا قيس، إن لك قرين يدفن معك، وهو حي، وتدفن معه، وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك، هذا اليوم تتقلب فيه القلوب بين الخوف والرجاء، لو أنزل الله عز وجل على أنبيائه أنه معذب أحداً لظننت أنه أنا، هكذا قال سيدنا عمر.

(يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

الأبصار قد تعمى بعد أن كانت مبصرة، أو قد ترى حينما يقدم لها كتابها، هل قدم كتابها بيمينها فتنظر من طرف خفي، وأين سيقودونها، إلى الجنة أم إلى النار ؟ الأبصار تضطرب في هذا اليوم، تتقلب فيه القلوب والأبصار.

المعنى الأول:

قال بعضهم: تتقلب القلوب من الصدور إلى الحناجر.

(وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)

(سورة الأحزاب: الآية10)

هذا تقلب.

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: تتقلب فيه الأبصار من البصر إلى العمى.

المعنى الثالث:

وبعضهم قال: تتقلب فيه القلوب من الطمع إلى الخوف، ومن الخوف إلى الطمع، لا يدري أفائز أم خاسر ؟

المعنى الرابع:

وبعضهم قال: تتقلب فيه الأبصار بمعنى أنها تنتظر دورها، أتساق إلى الجنة، أم إلى النار ؟

المعنى الخامس:

وبعضهم قال: في هذا اليوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، أيْ أن الحقائق تبدو كما هي، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، كل ما كان يقال في الدنيا من باطل يزول، ويبقى الحق الصريح الذي جاء به الأنبياء يراه كل إنسان، ويوقن به كل مخلوق، فلذلك لابد أن تعرف الحقيقة، إن عرفتها قبل فوات الأوان فأنت بطل، أما بعد فوات الأوان فلابد أن نعرفها جميعا، ولكن يتفاوت الناس في وقت معرفتها، إذا عرفت إجابة السؤال قبل الامتحان فقد نجحت، أما إذا عرفت الإجابة بعد الامتحان فهذه المعرفة لا تنفعك:

(لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة النور)

معنى: لِيَجْزِيَهُمْ اللّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

الله سبحانه وتعالى يختار من أعمالك أفضلها فيجازيك عليها، فلو أن الطالب أجرى عشر مذاكرات، وأخذ في مذاكرة نقطتين من عشر، وفي أخرى خمسًا من عشر، وفي الثالثة سبعًا من عشر، وأخذ في إحدى هذه المذاكرات عشر نقاط من عشر تثبت هذه العلامة، ويعطى عليها مكافأة، هذا معنى قول الله سبحانه وتعالى:

(لِيَجْزِيَهُمْ اللّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)

أن يزيدهم من فضله، وأن يعطيهم فوق ما عملوا، فالإنسان يطعم اللقمة في سبيل الله، فيراها يوم القيامة كجبل أحد، المؤمن يعرق إذا جاءه ملك الموت، يعرق عرق الخجل بعد أن يعرف مقامه عند الله، يرى أن عمله كله لا يكفي لهذا العطاء، لأن هذا العمل الذي قدمه في الدنيا لا يعد ثمنا لهذا العطاء،

لذلك فالجنة ندخلها بفضل الله عز وجل، والذين يدخلون النار يدخلونها بعدل العطاء، بمحض الفضل والجزاء، وبمحض العدل.

(لِيَجْزِيَهُمْ اللّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)

بعضهم قال: يدخلون الجنة كجزاء لأعمالهم، وأما حينما يتجلى الله عز وجل على قلوبهم فهذه هي الزيادة، وهي رؤية وجه الله الكريم:

وَاللّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

عطاء الله عز وجل ليس عطاء معاوضة، أنت ما قدمت شيئا، وما قدمت ثمناً حقيقياً لهذا العطاء، قدمت ثمناً رمزياً، استقمت على أمر الله، فعلت الصالحات بفضل الله أيضا، فاستحققت دخول الجنة إلى الأبد، فهل تظن أن هذه الجنة استحققتها بعملك فقط، فلو أنك استحققتها بعملك لكانت هذه الجنة عوضاً عن عملك، ولكان عملك مكافئاً للجنة، وهذا مستحيل.

(وَاللّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

ربنا عز وجل إذا أعطى أدهش، شيء آخر ربنا عز وجل بعد أن بين هؤلاء الرجال العظام الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والذين يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، الطالب المجتهد دائما الامتحان في ذهنه، من أول يوم من العام الدراسي الامتحان في ذهنه، يسأل كيف يأتي السؤال، هل يأتي مسألة ؟ هل يأتي سؤالا نظريًا ؟ كيف أحفظ هذا الدرس ؟ كيف ألخصه ؟ كيف أتفوق فيه ؟ فهذا الامتحان ماثل في ذهن كل طالب مجتهد، لذلك هؤلاء الرجال العظام هكذا يقابل هؤلاء.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة النور)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ

هذا الكافر له عمل ظاهره حسن، وله عمل سيئ، لو أنه أخذ شيئا ليس له فهذا عمل سيئ، لو أنه ظلم الناس فهذا عمل سيئ، لو أنه قهرهم، لو أنه بنى مجده على أنقاضهم، لو أنه بنى غناه على فقرهم، لو أنه بنى حياته على موتهم، هذا عمل سيئ، أما لو عمل عملاً فيما يبدو صالحاً، وهو لا يبتغي به وجه الله عز وجل، بل يبتغي به الشهرة والسمعة، ويبتغي أن ينتزع إعجاب الناس، وأن يثنوا عليه، ويبتغي

الوجاهة بينهم، ويبتغي الربح الوفير، صدق في البيع والشراء حباً بالربح الوفير، يقول لك: هذا استثمار للمال بشكل صحيح، أنا أريد نجاحاً مستمراً لا نجاحاً مؤقتاً، لم ينطلق في صدقه، وفي استقامته، وفي عمله الطيب من حب الربح الوفير، ومن الجاه العريض من دون أن يعلق أهمية على إرضاء الله عز وجل، أو على طاعته، أو على عبادته، فهذا العمل فيما يبدو عمل طيب، وقد يتعامل المسلمون مع كفار أحيانا في دول بعيدة، فيجدون أطيب معامله ؛ أمانة، وصدق، واستقامة، وهم يعتقدون أن لا إله، أو يعتقدون بإله غير الله عز وجل، فكيف نفسر ذلك ؟ فالله سبحانه وتعالى فسر أعمال الكفار الصالحة، وفسر أعمالهم السيئة.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ)

إذا سافر الإنسان في الصيف يرى أمام مركبته من مسافة لا بأس بقعة كأنها بركة ماء، لها تفسير فيزيائي دقيق، وهو انعكاس ضوء الشمس، على كل ما منا أحد إلا رأى السراب.

(حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)

فهذا الذي عمل عملاً في الدنيا فيما يبدو صالحاً، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم، النسائي]

هذه النقطة دقيقة جداً، هناك أعمال عظيمة، هناك أعمال تجارية عظيمة تدر أرباحاً مذهلة، يقول لك: هذا مشروع عمره مئة سنة، وخبرات متراكمة، وإنجاز كبير، هناك أعمال صناعية رائعة، هناك أعمال عسكرية رائعة، يكتبها التاريخ، هذه الأعمال الكبيرة ذات الصدى الكبير لو لم يكن صاحبها قد ابتغى بها وجه الله عز وجل فهذا حاله يوم القيامة، عمل الإنسان شيئًا أثنى عليه الناس جميعا، وكان سعيداً بهذا الثناء، بل كان يبتغي هذا الثناء، بل كان يكفيه هذا الثناء، ولا يبتغي شيئاً آخر، هناك أعمال خيرية، وقد ذكر النبي الكريم لنا أن إنساناً يأتي يوم القيامة، وقد مات في ساحة الحرب في سبيل الله، يقول: أين

الشهداء في سبيلي ؟ يقوم الشهداء، يقول الله له: أنت كذبت، قاتلت ليقال عنك مقاتل أو شجاع، وقد قيل خذوه إلى النار، أين العلماء في سبيلي، يقوم العلماء، يقول: تعلمت العلم ليقال عنك عالم، وقد قيل، خذوه إلى النار، من تعلم العلم ليماري به السفهاء، أو ليجادل به العلماء، أو ليصرف وجوه الناس إليه فليتجهز إلى النار، وأندم الناس عالم دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار، وأندم الناس غني دخل هو بماله النار، ودخل ورثته بماله الجنة، ترك ذرية مؤمنين، فأنفقوا هذا المال في طاعته، وهو لم ينفقه في طاعة الله عز وجل، فلذلك هؤلاء الذين كفروا إذا عملوا أعمالاً فيما يبدو أنها جيدة، ولكن لا يبتغون فيها وجه الله، أرادوا السمعة، والجاه، والثناء المديح، أرادوا الشأن.

أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ

فهؤلاء الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة، الباء حرف جر، بقيعة، القيعة الأرض المنبسطة، والسراب ما يبدو، للمسافر أنه ماء يحسبه الظمآن ماء، فهذا الكافر إذا جاء يوم القيامة جاء ظمآن، ظمآن لعمل يدخله الجنة، ظمآن لعمل يقيه عذاب النار، هو ظمآن، وعمله كالسراب.

حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ

أعطاه جزاء عمله الذي أراده في الدنيا، أما عمله السيئ:

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(سورة النور: الآية40)

أهمية الإخلاص وخطورة الرياء:

فلابد من الإخلاص.

لذلك ربنا عز وجل يقول:

(فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

(سورة الزمر: الآية2)

اعبده، وكن في هذه العبادة مخلصاً، فإنّ درهمًا أنفق في إخلاص خير من ألف درهم أنفق في رياء.

والدعاء النبوي الشريف:

((اللهم طهر قلوبنا من النفاق وأعمالنا من الرياء وألسنتنا من الكذب وأعيننا من الخيانة))

هذا الدعاء يجب أن نحفظه، وأن ندعو به لأن هؤلاء الذين كفروا حالتهم تدعو إلى الشفقة يوم القيامة، أعمال عظيمة.

(فَاعْبُدْ اللّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

(سورة النساء: الآية104)

فلو تألم المؤمن في الدنيا لكان يرجو من الله الجنة، لكن الذي كفر يتألم في الدنيا، وسوف يصلى في الآخرة عذابا أليما.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (17-23): تفسير الآيات 37 – 43
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-01-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40))

(سورة النور)

علاقة الآيات بما قبْلَها:

قد يسأل سائل: ما العلاقة بين هذه الآيات التي تتحدث عن الكفار، وبين الآيات السابقة في قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: الآية35)

الحقيقة أن الله تعالى بعد أن بين نوره، وكيف يسري بالمؤمن، فيسعد به في الدنيا والآخرة بيّن لنا كيف أن الكافر محروم من هذا النور، وحينما يحرم الكافر من نور الله عز وجل فما هي النتائج الخطيرة المترتبة على هذا الحرمان ؟ فالمؤمن يمشي بنور الله، وينطق بتوفيق الله، وعقيدته صحيحة، وسلوكه منضبط، وحياته النفسية مفعمة بالسعادة، لأنه على نور من ربه، وشعوره أن الله راضٍ عنه، شعور نبيل، وشعور عظيم، لكن أهل الدنيا المنقطعين عن الله عز وجل ما حياتهم من دون هذا النور ؟ فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا)

مثّل نوره في الذين آمنوا

(كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ)

والذين كفروا هؤلاء أناس مقطوعون عن الله عز وجل، وقد حرموا من هذا النور، إذاً أعمالهم كسراب.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

لأنه في ظلمات بعضها فوق بعض، عمل عملاً لا جدوى منه، لو أنه اخترع قنبلة ذرية، فماذا فعل ؟ لم يفعل شيئاً، بل بالعكس، لقد أوقع مآسيَ في البشرية لا تنتهي إلى يوم القيامة، فهذه الإنجازات العلمية الضخمة التي استخدمت لإيقاع الأذى في بني البشر، الذين اخترعوها، والذين اكتشفوها، وقد حققوا سمعةً عظيمةً في عالم البشر، فهذه الأعمال العظيمة لو جاؤوا يوم القيامة ليجدوها أعمالاً عظيمةً، فإذا هي سراب في سراب، ولذلك فلو أن الإنسان حصّل أعلى الدرجات العلمية، وكان ذكيا، ومتفوقا في عمله، ومن نوع متميز من بني البشر، إن لم يعرف ربه فهو في ظلمات، والدليل ظلماته التي يعيش فيها سوف تنعكس أعمالا لا جدوى منها، فقد تنفعه في الدنيا، وقد تدر عليه مرابح عظيمة، وتجعله متألقا في عالم الشهرة، ولكن إذا جاء ملك الموت، وعرض للحساب، فهذه الأعمال التي افتخر بها في الدنيا، والتي كان يتيه بها، ويمجده الناس يأتي يوم القيامة ليجدها سرابا يحسبه الظمآن ماءً.

إذاً حينما أعرض الكافر عن التفكر في السماوات والأرض فما عرف الله، وحينما لم يعرف الله عز وجل لم يقم لأمره قيمةً، ولم يعبأ بطاعته، ولا باجتناب معاصيه، وبهذا الجهل، وهذا الانحراف وقع في ظلام، وحينما وقع في ظلام اتجه اتجاهات ليست صحيحة، وحينما جاء يوم القيامة، وكان يستنجد بهذه الإنجازات فرآها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، فالإنسان أحيانا يتساءل أن له إنجازات ضخمة على مستوى الصناعة، والتجارة، والزراعة، واكتشافات، وأسلحة ذات فعالية تفوق حد الوصف، وأسلحة جرثومية، وكيماوية، وقنابل ذرية، وقنابل انشطارية، أليس هذا إنجازاً ؟ نعم، ولكن هذا الإنجاز لو عرض على ميزان يوم القيامة كان كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، وحتى الأعمال التي تبدو للناس عظيمةً، والتي يفعلها أهل الدنيا المنقطعون عن الله عز وجل، والتي هي بنظرهم عظيمة، فهذه الأعمال لو عرضت على المحك الصحيح الذي يسعد الناس، أو يشقيهم لكانت أعمالهم خسارة، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف: الآية104)

وحينما يرى الله عز وجل الإنسان قد أعرض عنه يذكره فلا يتذكر، وينبهه فلا ينتبه، ويسوق له الشدائد فلا يتعظ، وعندئذ يدعه وشأنه:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: الآية44)

كل شيء يعني التفوق والتقدم والإنجاز وبحبوحة العيش، والغنى، والقوة، وما شاكل ذلك..

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام: الآية44)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً

الحقيقة أنّ السراب يحسبه الظمآن ماء، فلِمَ قال ربنا سبحانه وتعالى:

(يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً)

لأن الظمآن يبحث عن الماء، فإذا لاح له في الأفق ما يشبه الماء سعى إليه، فإذا سعى إليه اكتشف الحقيقة المرة، وإن هذا الذي رآه ماءً إنما هو سراب.

(وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)

فهذه الأعمال فعلتها يا فلان ليقال عنك كذا، وقد قيل، فخذوه إلى النار، وهذه الأعمال العظيمة فعلتها لتتألق في عالم الشهرة، وقد اشتهرت، وليمدحك الناس، وقد مدحوك، ولتجمع منها ثروةً طائلة، وقد حصل.

ولذلك حينما يغفل الإنسان عن الله عز وجل تصبح أعماله تافهة لا جدوى منها في مقياس السماء، أما في مقياس الأرض فقد يثني عليه الناس، ويمدحونه، وقد يملأ أعينهم بهذا العمل العظيم، لكن في مقياس الدار الآخرة لا قيمة للعمل إلا إذا كان نافعاً للناس.

حَتَّى إِذَا جَاءَهُ

سعى إليه لشدة لهفته، وكذا الإنسان يوم القيامة يفتقر إلى العمل الصالح، والحقيقة أن الغنى غنى العمل الصالح، وأن الفقر فقر العمل الصالح، وأن العمل الصالح هو أثمن شيءٍ في الحياة الدنيا، وربنا سبحانه وتعالى قابل العمل الصالح مع الإيمان في أكثر من مئتي آية، فقال سبحانه:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية82)

وقال:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر: الآية10)

وقال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: الآية132)

إذًا أنت في هذه الدنيا جيء بك كي تعمل عملاً صالحاً يصلح أن تسعد به إلى الأبد، فإذا جئت الدار الآخرة، وعرفت قيمة العمل الصالح، وبحثت عنه، فإذا كان صالحاً أسعدك، وإن لم يكن كذلك كان عملك هباء منثورا..

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان: الآية23)

لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ

وكل عمل يدعي الإنسان أنه فعله ليرقى به عند الله، فليعلمْ أنّ الله سبحانه وتعالى عليم بذات الصدور.

(وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر: الآية14)

خبير بما نعمل، سميع بصير..

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

(سورة الإسراء: الآية17)

والله سبحانه وتعالى وحده يعرف حجم عملك، والإخلاص في العمل، والصدق في العمل، ومقدار التضحية، وما بذلت، وحجم ما بذلت، ولذلك فربنا سبحانه وتعالى هو الذي يحاسب الإنسان يوم القيامة.

(حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)

فهذا العمل العظيم الذي اخترع القنبلة الذرية، وامتلأت شهرته في الخافقين، ومع ذلك لم يجده شيئا.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ

فالله سبحانه وتعالى يصف نفسه بأنه سريع الحساب، لأن الحساب يحتاج إلى وقت، ولا يتذوق هذه الآية إلا من عمل في الحساب، فإنه يحتاج إلى وقت، وإلى جهد، وإلى ليالٍ يسهرها، وإلى صفحات يملؤها، لكن الله سبحانه وتعالى في لمح البصر يعطي كل ذي حق حقه.

والآية الثانية:

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

من الإعجاز العلمي في القرآن: إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا

يقول العلماء: **" إنه حتى عام 1900 لم يكن أحد يعرف أن في البحر أمواجاً داخلية "**، والمعروف أن في البحر أمواجاً سطحية على سطح البحر، ولكن كما يقول العلماء: البحارة الإسكندنافيون عرفوا لأول مرة، وهم يغوصون في أعماق البحر أن في البحر أمواجاً داخلية، ولما عرضت هذه الآية على بعض علماء البحار دهشوا، وصعقوا، كيف أن هذا الكتاب الذي جاء قبل 1400 عام يشير إلى الأمواج الداخلية في البحر، والحقيقة كيف أن الأمواج السطحية تدفع السابح إلى جهة أو لأخرى، والأمواج العميقة إلى جهة، أو إلى أخرى، والله سبحانه وتعالى بين في هذه الآية أن في البحار أمواجاً سطحية، وأمواجاً داخلية. قال تعالى:

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ)

هذه الظلمات التي يعيشها الكافر، تفكيره في ظلمات، وقيمته في ظلمات، وكلامه في ظلمات، وأعماله في ظلمات، يتخبط خبط عشواء، يؤذي، ولا ينفع، يفرق، ولا يجمع، يباعد، ولا يقرب، وهو لا يدري.

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ

البحر اللجي البحر العميق، أو هو البحر المفعم بالموج.

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ)

هذا الموج يغشى البحر، لكن هذا الموج هو الموج الداخلي، والأمواج من شأنها أن تعكس الأشعة، فلو أن البحر هادئ لرأيت في بعض الحالات قاع البحر، أما إذا كان البحر متموجاً، فإن هذه الأمواج من شأنها أن تعكس الأشعة نحو الأعلى. لذلك:

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ)

مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ

هذا هو الموج الداخلي، و:

(مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ)

فهذا الإنسان إذا كان في قاع البحر فالأمواج الداخلية تعكس النور، والأمواج السطحية تعكس النور، والسحاب يحجب النور، فماذا بقي له من النور ؟ إن ظلمة قلبه، وإن ظلمة عقله، وأفعاله، وأقواله تشبه

قاع البحر، وكلمة البحر اللجي أي البحر العميق، ومعلوماتي أن في المحيط الهادي وادياً اسمه وادي مريانة، وهذا الوادي عمقه أكثر من اثني عشر ألف متر، والشيء الذي يلفت النظر أن الأسماك في قيعان البحار ليس لها عيون إطلاقا، والخالق العظيم خلقها لتعيش في قاع المحيطات، حيث الظلام دامس، فلماذا العين ؟ وما فائدتها ؟ ولذلك فالأسماك التي تعيش في قاع المحيطات لا عيون لها، تتعرف إلى المحيط الخارجي عن طريق السمع، لا عن طريق البصر، والشيء الذي يلفت النظر أيضا أن الإنسان كلما هبط في المحيط مسافة أكبر ازداد ضغط الماء عليه، فضغط الماء قد يحطم أكبر الغواصات، ولو أن غواصة اختل جهاز ارتفاعها - إذ في كل غواصة جهاز يُعّرف قبطانها ارتفاعها عن سطح البحر، أو بعدها عن سطح البحر - فلو اختل هذا الجهاز وهبطت أكثر من 200 متر فإن ضغط الماء يحطمها، وقد يسأل سائل: كيف تعيش هذه الأسماك على أعماقٍ كبيرة جداً في البحار، إذا كان ضغط الماء كافياً لتحطيم غواصة أُنشأت من الفولاذ، فكيف تعيش هذه الأسماك ؟ قال بعض العلماء: إن هذه الأسماك لها أجواف داخلية ممتلئة بمياه البحر، ولأن هذه الأجواف الداخلية الممتلئة بمياه البحر ينشأ فيها ضغط داخلي يكافئ الضغط الخارجي، فبهذا تعيش هذه الأسماك في قاع المحيطات، فهل هناك من تشبيه أروع لهذا الكافر البعيد عن الله الذي لا يصلي، والذي ما عرف الله عز وجل، والذي يعيش للذته، ولحظته، ولاقتناص المتعة، ولا قيمة للقيم عنده، فهذا الكافر في ظلمات بعضها فوق بعض.

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)

ولذلك عندما حدثنا ربنا عز وجل عن سيدنا يونس قال:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء: الآية87)

ما هي الظلمات الثلاث ؟ قالوا: هي ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وهذا الكافر في ظلمات ثلاث ؛ فهو في قاع المحيط، فوقه موج يعكس الأشعة، وفوق الموج موج، وفوق الموج سحاب.

ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا

يقول ربنا سبحانه وتعالى في بعض الآيات الأخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة التحريم: الآية8)

العمل الطيّب نورٌ

من خلال هذه الآيات في هذه السورة يتضح أن العمل الطيب نور، وأن العمل السيئ ظلام، وأن هاتين الآيتين:

الآية الأولى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

بعض المفسرين يرون أن الآية الأولى تتعلق بأعمالهم الطيبة، لكنهم إذا جاؤوا يوم القيامة رأوها سراباً في سراب، وأن الآية الثانية تتعلق بأعمالهم السيئة، فأعمالهم الطيبة ما أرادوا بها وجه الله، بل أرادوا الدنيا، والشهرة، والسمعة، والمال الوفير، والثروات، فهذه الأعمال على أنها أعمال مدهشة لا قيمة لها يوم القيامة، الآن أعمالهم السيئة، وعدوانهم على الناس، وأخذهم ما ليس لهم، واستعبادهم للناس.

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ)

كيف أن المؤمن نوره يسعى بين يديه، ويوم القيامة يسعد بهذا النور إلى الأبد، والكافر بما عمل من أعمال سيئة خسيسة، وبما اعتدى على أعراض الناس، وعلى أموالهم يرى عمله.

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

فالنور واحد من عند الله عز وجل، فإما أن يكون لك قبس من هذا النور، فتكون مهتدياً، أو لا يكون لك من هذا النور قبس، وهذا هو الضلال بعينه، فالهدى لا يتعدد، وربنا عز وجل قال:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام: الآية153)

الحق واحد، والهدى واحد، وأما الباطل فمتعدد، ومتنوع، والضلالات أنواع، والانحرافات أنواع، والنسب لها أنواع كثيرة، وكل نوع له نسب، فالخط المستقيم خط مستقيم، لكن الخط المنحرف عن هذا الخط فيه انحراف بدرجة، وانحراف بدرجتين، وبخمس درجات، وانحراف منوع، عندنا خط منكسر، وخط منحنٍ وخط متعرج، وخط ملتوٍ، والانحراف متنوع، ونسبي، ولكن الاستقامة واحدة، وذات مصدر واحد.

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

الآن نضطر إلى أن نشير إلى أن الذكاء وحده لا يكفي، فالذكاء وحده قد ينفع في الدنيا، ولكن ذكاء الإنسان إذا قاده إلى أن يكفر بالله عز وجل، أو إلى أن يستعلي على الناس، أو أن يأخذ ما ليس له، فهذا ليس بذكاء، لأنه سوف يلقى الواحد الديان، ويدفع الثمن باهظاً، فإذاً يمكن أن تدمغ كل إنسان بعيد، مشرك، كافر، بأنه غبي، لأن ذكاءه أفاده في دنياه فقط، ولكن في آخرته لم يفده ذكاؤه.

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُسَبّحُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطّيْرُ صَافّاتٍ كُلّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(سورة النور)

معنى: أَلَمْ تَرَ

فكلمة:

(أَلَمْ تَرَ)

ومثيلات هذه الآية تشير إلى أن هذه الآيات تحت سمع الإنسان وبصره، وهذه الآيات بين يديه، وبإمكانه أن يراها، وإذا لم ير هذه الآيات فقد خسر خسارة كبيرة

(وَكَأَيّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف: الآية105)

وربنا عز وجل يأمرنا أن ننظر..

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس: الآية24)

وقال سبحانه:

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ)

(سورة الطارق: الآية5)

وقال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ*وَإِلَى السّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

(سورة الغاشية: الآيات 17-18)

فكلمة:

(أَلَمْ تَرَ)

تشير إلى أنك لم ترَ حتى الآن..

انظر تر:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

من معاني التسبيح:

المعنى الأول: التسبيح لإتقان خلق الله:

ومن معاني التسبيح أنك إذا رأيت، أو إذا نظرت إلى أي شيء من مخلوقات الله تجده متقناً إتقاناً لا حدود له، فصغير المخلوقات، وكبيرها، وجليل المخلوقات، وحقيرها، وأي مخلوق ؛ نافعها، وضارها، لو نظرت إلى تشريح جسدك، وإلى بنية أجهزتك، وإلى تركيب حواسك لرأيت العجب العجاب ؛ فهذا الطير كأنه يسبح الله سبحانه وتعالى، وهذه السمكة لجمال خطوطها، ولدقة أجهزتها، ولعظمة بنيانها إذا تأملت فيها دفعك هذا التأمل إلى تسبيح الله سبحانه وتعالى، فهذا هو المعنى الأول..

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

وانظر إلى الشجرة كيف نمت من حبة، وكيف صارت شجرة، فمن جعلها في هذا الشكل الجميل ؟ ومن جعلها تنمو بلا صوت، وتثمر، وتزهر، وتورق، وكيف أنك تستفيد من ورقها، ومن ثمرها، ومن زهرها، ومن خشبها، وكيف أنها تزين بستانك، انظر إلى الشجرة، وانظر إلى العين، والقلب، وإلى كل شيء، فهذا الشيء إذا تأملت فيه، ورأيت دقة بنيانه، وروعة صنعته وإتقانها، فإنك تقول: سبحان الله، فهذا هو المعنى الأول من قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

المعنى الثاني: كل شيء يسبّح بحمد الله:

والمعنى الثاني: أن كل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى يسبح بحمده، والذي يؤكد المعنى الثاني قول الله عز وجل في آية أخرى:

(مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: الآية44)

إذاً الطير تسبح، والزهرة تسبح، والحجر يسبح، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ، وَأَسَلِّمُ عَلَيْهِ))

والعلم الحديث يقول: كل ذرة فيها حركة، وفيها كـهارب، وإلكترونات، ومدارات، فهذا الشيء الذي تراه جامداً يتحرك، ويدور بسرعة مذهلة، ونظام الذرة يشبه نظام المجرة، إذاً الجمادات، والنباتات، والحيوانات كلها تسبح الله سبحانه وتعالى، وهذا الإنسان الذي سخرت له جميع المخلوقات، والذي سخر الله له من في السماوات والأرض كيف يغفل عن الله عز وجل ؟ وكيف تسبح الطير في الأجواء، والأسماك في البحار، والرياحين والأزهار، والأحجار، وهو في غفلة عن الله عز وجل.

وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ

وقد قرأت مرة كلمة في كتيب عن الطيران، في مقدمة الكتاب يقول المؤلف: إن أعظم طائرة صنعت حتى الآن لا ترقى إلى مستوى الطائر، وأساس الطائرة خفة في الوزن، وأداء مرتفع جداً في الطاقة، لأن السيارة حين تتحرك تمشي على عجلات، فالوقود من شأنه أن يدفعها نحو الأمام، لكن الوقود في الطائرة من شأنه أن يرفعها كلها، فأن تدفع سيارة نحو الأمام تحتاج إلى جهد ولا شك، لكن أن تحمل سيارة، فهذا يحتاج إلى جهد كبير، فالطائر حين يطير ستا وثمانين ساعة بلا توقف، إذ هناك طائر اسمه " بلاك بول " يطير ستا وثمانين ساعة بلا توقف، وهناك طيور تهاجر من شمال الأرض إلى جنوبها، وتقطع مسافة تزيد على سبعة عشر ألف كيلو متر، وهناك طيور تهاجر مثلا من الشام إلى إفريقيا، وحينما تعود كيف تهتدي إلى أوكارها، وإلى أعشاشها، إذا انطلقت إلى إفريقيا، لو انحرفت درجة واحدة لجاءت في مصر، ولو أنها انحرفت درجتين لجاءت في ليبيا، فكيف تأتي إلى الشام ؟ وإلى الحي الفلاني، والبيت الفلاني ؟ الطيور التي تعشعش في البيوت في دمشق مثلا، وتهاجر في الشتاء، وتعود إلى أعشاشها في الصيف المقبل، كيف تهتدي إلى الطريق ؟ هذا من عظمة الله تعالى، وهذا الريش كيف أنه بدرجة من الخفة تفوق حد الخيال، فالطائر خفيف جداً، وريشه متماسك، وهذا الريش يتبدل، ففي عالم الطيران والطيور حقائق مذهلة، لا مجال لذكرها كلها الآن، لكن الله عز وجل يقول:

كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ

وهذا الطائر حين يعمل باستمرار إلى ماذا يحتاج ؟ يحتاج إلى تبريد، ولذلك حينما يتنفس الهواء، يصل إلى أظلاف أرجله، نحن إذا تنفسنا الهواء يبقى في الرئتين، ولكن الطائر حينما يتنفس، فهناك شُعَبٌ هوائية متغلغلة في كل جسمه حتى نهاية أرجله من أجل التبريد، فبنية الطائر بنية عجيبة جداً، وربنا عز وجل يقول:

(وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)

قال بعض العلماء **" الصلاة للإنسان، والتسبيح لغير الإنسان.**

(وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ)

لله ما في السماوات والأرض ملكًا وتصرفا ومصيراً:

فمالك المُلك هو الله سبحانه وتعالى، وكل شيء يظن الإنسان أنه يملكه، والحق أن الملك لله الواحد القهار..

(لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهّارِ)

(سورة غافر: الآية16)

في الدنيا، وفي الآخرة، فهذا السمع ملك الله عز وجل، والبصر، والكليتان ملك الله عز وجل، ففجأة تتوقف الكليتان عن العمل بلا سبب، وحتى الآن لا أحد يعلم ما السبب ؟ إنه توقف مفاجئ في وظيفة الكليتين، فهاتان الكليتان اللتان تصفيان لك الدم، وأنت مرتاح، وتعمل في متجرك، أو معملك، أو مكتبك، أو مدرستك، أو حقلك، أو بيتك من دون أن تشعر، ولا يعرف قيمة الكليتين إلا من ابتلي بغسيل الكليتين في المستشفيات ؛ يذهب إلى المستشفى، وينتظر الساعات الطويلة ليأتي الطبيب، ويضع هذه الإبر في شرايينه، ويبقى ساعتين أو أكثر، ويدفع المبالغ الطائلة، ويتحمل عبئاً، ووقتاً، وجهداً، والكلية الصناعية حجمها كبير، ولها صوت، ووظيفتها غير كافية، ويبقى هناك عشرون بالمائة من المواد السامة في الدم لا تستطيع الكلية الصناعية أن تصفيها.

فالكليتان ملك الله عز وجل، والعين، وكل شيء تظن أنك تملكه فهو ملك الله عز وجل..

(وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ)

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزّلُ مِنَ السّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللّهُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ إِنّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44))

العلاقة بين الهواء والماء:

وقد تحدثنا من قبل عن الهواء والماء، ولكن هناك علاقة بينهما، وفي هذه العلاقة مصير الإنسان، فالهواء من شأنه أن يتحمل بخار الماء، وتحمُّل الهواء لبخار الماء بنسب متفاوتة، فهذه النسب تتعلق بحرارة الهواء، فمثلا لو أن مترا مكعبا من الهواء كانت حرارته 30 لتحمل 150غ من الماء، فإذا برد

الهواء تخلى عن بخار الماء الذي يحمله، وهذا مبدأ الأمطار، وأشعة الشمس مسلطة على مساحات شاسعة من الماء، وربنا عز وجل حينما جعل البحار نسبتها 71% من سطح الأرض، و29%يابسة، فهذه النسبة ليست عبثاً، فلولا أن مساحة البحار تعادل أربعة أخماس اليابسة لما أمكنت الحياة على اليابسة، فهذه المساحات الهائلة من البحار تأتيها الشمس، فتأخذ شيئا منها على شكل بخار ماء، وقد تسهم الرياح السارية بنقل جزء من ماء البحر إلى الهواء.

وعلى كلٍ: فالهواء يتحمل بخار الماء، والهواء ساخن، وأشعة الشمس تسخن مياه البحر، فتتبخر، ويحملها الهواء، والهواء إذا سخن ارتفع نحو الأعلى، وكلما ارتفعنا 150 متراً تقل الحرارة درجة واحدة، فكلما ارتفع الهواء المحمل ببخار الماء نحو الأعلى برد، وإذا برد انعقدت السحب، فما السحب؟ إنها هواء مشبع ببخار الماء، برد الهواء، فتخلى عن جزء من بخار الماء، وهذا الجزء انعقد سحاباً، وبقي عالقاً في الهواء، فإذا برد أكثر فأكثر بلغ حد الندى، فيصبح السحاب قطرات من الماء، وهذا تبسيط جداً للأمطار، ولكن هناك نظريات أعقد، وأعقد من ذلك، وعلى كل فهذا الهواء يحمل بخار الماء، وكلما زادت درجة الحرارة ازدادت قدرته على تحمل بخار الماء، وكلما قلت هذه الدرجة تخلى عن الماء الزائد.

معنى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا

يقول ربنا عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا)

فمعنى يزجي أي يسوق السحاب، فيتشكل فوق البحار، فمن يسوقه إلى اليابسة ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، وكيف يسوقه ؟ عن طريق الرياح، فالله سبحانه وتعالى يبعث رياحاً تسوق هذه السحب إلى الأراضي العطشى.

ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ

فبخار الماء العالق في الهواء لا تراه أنت، لكن لأوضاع متعددة، تتألف هذه الذرات فيما بينها، وتشكل السحب، وهذه السحب تحمل أطناناً من الماء، فالسحابة الواحدة التي طولها سبعة كيلو مترات، وارتفاعها أربعة أو خمسة كيلو مترات، هناك من يقدِّر أنها تحمل أربعين طناً من الماء، ماء يسير في الهواء، يسوقه الله حيث يشاء، فالله عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ)

بخار الماء له حالات، حالة لا يرى بها، وهو عالق في الهواء، وحالة يكون سحاباً، وحالة يصبح ماءً، وهذا مبدأ الأمطار، فإذا قلنا: هبط في دمشق 30 ملم، أي 3 سم، فلو أن هذه الكمية عممت على القطر بحساب بسيط، هناك خمسة مليارات طن من الماء نزلت إلى القطر، وإذا سمعنا بالأخبار أنه بالمكان الفلاني نزل 30 ملم، فهذه مياه كثيرة جدا.

السحب الركامية: ثُمّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا

إنّ علماء الجغرافيا يعرفون السحب الركامية بأنها السحب الممطرة، ومياه الأمطار لا تنعقد إلا من السحب الركامية، قال ربنا عز وجل:

(وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ)

فهذا الوصف غريب، لكن الذين ركبوا الطائرات اليوم يرون السحب، وكأنها جبال، والطائرات تطير على ارتفاع 40000 قدم، وهذه المسافة فوق السحاب، فلو أطل الراكب، ونظر إلى السحاب من نافذة الطائرة يرى السحاب وكأنه جبال، وبشكل دقيق فهذه الصورة عرفها الإنسان بعد أن ركب الطائرة.

فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ

الودق هو البرق، فهذه السحب بعضها مشحون بالكهرباء الموجبة، وبعضها بالكهرباء السالبة، فهناك سحابة واحدة بعضها مشحون سالبا، وبعضها مشحون موجبا، وهناك سحب متنوعة، بعضها مشحون شحنة سلبية، وبعضها مشحون شحنة إيجابية، إذا تلاقت هذه السحب يحدث ما يسمى بالانفراغ، هذا البرق هو من نتائج تلاقي السحب ذات الشحنات المتفاوتة، ويقولون: إن حرارته، أي البرق 40 ألف درجة..

وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ

البرق: أولا: حينما تلتقي السحابتان ذات الشحنات المتباينة السلبية والإيجابية يحدث شرارة كهربائية، هذه الشرارة هي البرق، حرارتها 40 ألف، فدرجة هذه إذا أصابت شيئا أحرقته، وتسمى الصاعقة، فما هو الرعد ؟ حينما تُسيّر هذه الشرارة الهواء يتمدد، ويحدث وراءها فراغ، وحينما يعود الهواء ليملأ هذا الفراغ، فصوت ارتطام الهواء بعضه ببعض هو ما يسمى بالرعد، وأصوات الرعد كما تعرفون أصوات مخيفة..

حينما تنعقد حبة المطر، وإذا انعقدت في جو بارد تصبح حبة من البرد، وحبة البرد قد تصل إلى حجم البرتقالة، ولو لا لطف الله عز وجل في تمريرها من خلال طبقات الهواء الساخن فتذوب لكان البرد مصيبة من أكبر المصائب، ولكن الله عز وجل يلطف هذه الحبة من البرد حتى تغدو في حجم حبة الحمص، أو دون ذلك، وعلى قوله تعالى:

(وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ)

فربنا عز وجل عبّر عن عظم حجم الماء الذي ينزل من السماء بكلمة:

(مِنْ جِبَالٍ)

وعبر عن عظم الكمية بكلمة جبال، وعبر عن شكل السحب الركامية، وهي بعضها فوق بعض، والذي يراها راكب الطائرة، وكأنها جبال، فتشبيه السحب بالجبال من زاويتين، من زاوية حجم الماء الذي تحمله، ومن زاوية الشكل الذي يبدو للناظر فيه شيئا آخر، فنهر من أنهر العالم هو نهر الأمازون، غزارته تساوي 300 ألف متر مكعب في الثانية، وهذا النهر ليس له نبع إنما هو مياه الأمطار، تتجمع في بعض الوديان، فهذا نهر واحد من آثار مياه الأمطار، مع أن هذا النهر لا ينبع من الأرض، إنما تتجمع مياهه من السطوح التي تنحدر منها الوديان، إذاً فتشبيه ربنا عز وجل حجم الماء بقوله:

(مِنْ جِبَالٍ)

هذا تشبيه بليغ، حيث إن حجم الماء يشبه حجم الجبال، وإن شكل هذه السحب الركامية يشبه الجبال إلى حد بعيد..

فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ

(وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ)

فلو اطلعت على النشرة الجوية تقرأ دمشق 30 ملم، ودرعا 17، وحمص 50، وطرطوس 70، وهنا 3 ملم، وهناك 2 ملم، فتجد تفاوتاً، فربنا عز وجل يصيب به من يشاء، ويصرفه عن من يشاء، وقد نزل هذا الماء، وسماه غيثا، لأنه يغيث الأرض.

(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)

فهذا البرق من شدة اللمعان ربما يأخذ البصر، وهذه إشارة إلى أن الضوء المبهر من شأنه أن يؤذي الشبكية.

(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)

ومن النصائح الطبية ألاّ يديم الإنسان النظر إلى منبع ضوئي متألق، لأن هذا يسبب له تخرشا في الشبكية.

(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44))

وفي ختام هذا الدرس الذي أتمنى أن أكون من خلاله قد وضحت لكم كيف أن نور الله عز وجل إذا سرى في قلب المؤمن يجعل حياته سعيدة ؛ فهو نور في عقله، ونور في قلبه، ولسانه، وجنانه، وعمله، وبين يديه، ومن خلفه، ومن أمامه، ومن ورائه، وكيف أن الكافر إذا ابتعد عن الله عز وجل، وانقطع عنه تصبح حياته ظلمات بعضها فوق بعض، فأفكاره فيها ضلال، وأعماله فيها أذى، وكلامه فيه تفريق، وفيه جرح، فهو في ظلام، لأنه يخبط خبط عشواء، فربنا عز وجل وصف المؤمنين، وكيف أن الله يقذف النور في قلوبهم، ووصف الكفار، وكيف أن أعمالهم الصالحة كسراب، وأعمالهم السيئة كظلمات بعضها فوق بعض، وكيف أن هذا الكافر ينتهي به الأمر إلى الشقاء الأبدي، ثم وجّه نظرنا إلى بعض الآيات الكونية التي يمكن أن نرقى بها إلى الله عز وجل ؛ فوصف ربنا سبحانه وتعالى ظاهرة المطر بشكل دقيقٍ دقيق.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكنني أن أضيف على تفسير هذه الآيات أشياء في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (18-23): تفسير الآيات 43 – 49
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-01-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن عشر من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43))

تعليق مهمّ: الإنسان مدعوّ إلى التفكر في خلق السماوات والأرض:

وهذه الآية تم شرحها في الدرس الماضي، ولكن إذا كان من تعليق عليها، فهو: أن الإنسان مدعو بنص هذه الآية إلى التفكر في خلق السماوات والأرض، لأن الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان بالعقل، وهذا العقل الذي كرم به الإنسان لا ليستخدمه في شؤونه الدنيوية، ويأتي يوم القيامة مفلسا، بل عليه أن يستخدمه في التعرف إلى الله سبحانه وتعالى، وقد مر بنا في درس سابق أن الحيوانات المائية التي تعيش في قيعان البحار، ليس عندها أدوات بصر، لماذا ؟ لأن الضوء منعدم هناك، فإذا لم يكن هناك ضوء فما الحاجة إلى هذه العيون ؟ فحينما يخلق الله العين، فمعنى ذلك: أن لها وظيفة خطيرة، وحينما يخلق الله العقل، فمعنى ذلك أن له وظيفة خطيرة، فمن اعتمد على عقله في كسب رزقه، وفي حل مشكلاته، وفي تأمين حاجاته، ولم يستخدم عقله في التعرف إلى الله عز وجل فقد مسخ هذا العقل، واحتقره، وكيف لا، وقد كرم الله الإنسان بهذا العقل، ولذلك فالإنسان حينما ينظر إلى ملكوت السماوات والأرض، ولا يقف في نظراته متأملا، بل يمر عليها مر الغافلين، عندئذ سيندم أشد الندم، فربنا سبحانه وتعالى جعل بين أيدينا، ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، وفي كل شيء آيات صارخة ذات دلالة قاطعة، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

السحاب:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا)

ما هو السحاب ؟ وما العلاقة بين الماء والهواء ؟ وكيف يحمل الهواء الماء ؟ وكيف يحمله بشروط دقيقة ؟ كيف أن كل درجة من درجات الحرارة تجعل الهواء يحمل عددا من الغرامات من بخار الماء ؟ من جعل ذلك ؟ ومن قال ذلك ؟ ومن قننه ؟ إذا ارتفعت الحرارة حمل المتر المكعب من الهواء ما يزيد عن مائة وثلاثين غراما من بخار الماء، حملها وأنت لا تراها، إذاً كلما ارتفعنا مائة وخمسين مترا تهبط الحرارة درجة، فإذا هبطت الحرارة في أعالي الجو، عاد الهواء ليتخلى عن بخار الماء الذي حمله على سطح البحر، فإذا تخلى عن حمله انعقد بخار الماء سحابا، وهذا الذي نراه في أعالي الجو هو بخار ماء منعقد كان على سطح الأرض محمولا بالهواء، فلما ارتفع الهواء إلى طبقات عليا انعقد بخار الماء سحابا، وربنا سبحانه وتعالى يرسل الرياح، والرياح وحدها آية دالة على عظمة الله سبحانه وتعالى، ففي خط الاستواء حيث الحرارة مرتفعة، وارتفاع الحرارة يعني تمدد الهواء، وتمدد الهواء يعني خلخلة الهواء، وفي القطبين حيث الحرارة منخفضة يثقل الهواء، أيْ ينكمش، وفي القطبين ضغط مرتفع، وعند خط الاستواء ضغط منخفض، ومن تباين الضغطين تنشأ حركة سطحية للهواء، تلك هي الرياح، ولو لا تباين درجات الحرارة بين القطب وخط الاستواء لما كانت الرياح، وهذا تفسير مبسط جداً للرياح، وهناك تفسيرات بالغة التعقيد، فالرياح الشمالية، والجنوبية، والبحرية، والجافة، والموسمية، هناك تفسيرات، ونظريات بالغة التعقيد لتفسيرها، لكن الرياح بشكل مبسط هي مكان حار، ذو ضغط منخفض، ومكان بارد، وذو ضغط مرتفع، ومن اختلاف ارتفاع الضغط وانخفاضه تنشأ التيارات السطحية التي تسوق السحاب إلى أرض عطشى مشتاقة للماء، فيأتي الماء غيثا يغيث عباد الله عز وجل، ألم تر أيها الإنسان ! تقول: البادية جاءها موسم طيب، فأنبتت الكلأ، وكثر الخير، وهذا من فعل من ؟ من فعل الله سبحانه وتعالى، الرزاق ذي القوة المتين.

(ثُمّ يُؤَلِّفُ بَيْنَه)

السحب كما قلت لكم في درس سابق قد تغطي مساحات شاسعة، فالسحابة الواحدة قد تحمل آلاف الأطنان من الماء، فلو أنه هطل على قطرنا ما يعادل ثلاثين ميليمترا من الماء، أي أن حجم الماء يزيد على خمسة مليارات طن، أي خمسة آلاف مليون طن من الماء نزل من السماء، وكان في البحر فمن ساق الماء ؟ قال سبحانه:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا)

هذه الغيوم الركامية التي يزيد ارتفاعها على سبعة كيلو مترات محملة بخيرات، لا يعلمها إلا الله.

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ)

الماء:

وهذه الغيمة بعضها مشحون بشحنة إيجابية، وبعضها مشحون بشحنة سلبية، وحينما تتصادم الغيمتان، أو أجزاء الغيمة الواحدة ينعقد البرق، وهو (الودق) في نص هذه الآية:

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ)

وقد ترتفع حرارة البرق إلى أربعة آلاف درجة، ولا تنسوا أن حرارة سطح الشمس ستة آلاف درجة، وهذه هي الصواعق التي تحرق الأخضر واليابس.

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ)

فإذا سار البرق في الهواء تمدد الهواء بفعل الحرارة المرتفعة، وبعد التمدد يعود الهواء البارد ليملأ هذا الفراغ، فيكون الرعد، والرعد في القرآن الكريم مذكور في آيات عديدة.

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ)

أي حجم المياه التي ينزلها الله سبحانه وتعالى يعادل حجم الجبال، بل إنك إذا ركبت الطائرة، وحلقت في أجواء السماء فوق الغيم ما وسعك إلا أن تسبح الله سبحانه وتعالى على هذا التشبيه الذي ما عرفه الإنسان إلا بعد ركوب الطائرة، إنه يطير فوق جبال من الغيوم، جبال ووديان، وأكمات، وتلال، بعضها فوق بعض.

(وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ)

هذا السحاب حينما يواجه جهة باردة ينعقد قطرات من الماء، فإذا كان هذا الانعقاد في جو بارد يزيد عن خمسين درجة تحت الصفر في أعالي الجو، وربما انعقد الماء برداً، وهذا البرد ينزل بفعل الجاذبية، ثم يواجه تيارات صاعدة تحمله نحو الأعلى، فكلما ارتفع نحو الأعلى زاد من حجمه، وكسته طبقة جديدة من الماء، وكلما هبط نحو الأسفل زاد من حجمه، حتى تصبح حبة البرد كحبة البرتقالة، وهذه الحبة لو نزلت على رؤوس الناس لقتلتهم، ولو نزلت على مدينة لأهلكتها، ولو نزلت على بستان لكسرت أغصان الأشجار، لكن الله لطيف فبفعل احتكاك هذه الحبات بالهواء، وبفعل الحرارة في طبقات الجو الدنيا، تصغر، وتصغر حتى تصبح كحبة الحمص.

(وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ)

قانون الأمطار:

ولذلك فهذه الأمطار لها قانون يعرفه علماء الجغرافيا، ولها قانون يعرفه علماء التوحيد، فعلماء الجغرافيا يحللون المطر بتبخر سطح البحر، وانعقاد البخار سحبا، ثم تحول السحب إلى قطرات ماء

تسقط بفعل الجاذبية، وهذا تفسير المطر عند علماء الجغرافيا، أما تفسير المطر عند علماء التوحيد فهو مستنبط من قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف: الآية 96)

وقال سبحانه:

(وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن: الآيات 16-17)

وقال عزوجل:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة: الآية 66)

وذلك: أن الله سبحانه وتعالى حينما يقنن الأرزاق يقننها تقنين تأديب، ولا يقننها تقنين عجز، فالإنسان إذا ضاقت عليه المسالك فعليه بمحاسبة نفسه، وعليه بمراجعتها، وأن يسأل نفسه هل هناك تقصير ؟ وهل هناك عدوان ؟ وهل هناك مخالفة ؟ ومعصية ؟ واستخفاف ؟ واستهتار ؟

((مَا مِنْ عَثْرَةٍ، وَلاَ اخْتِلاَجِ عِرْقٍ، ولا خَدْشِ عُودٍ إلاَّ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَمَا يَعْفُو اللَّهُ أَكْثَرُ))

[رواه البيهقي في شعب الإيمان من قول أبي بن كعب]

قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: الآية 147)

وقال:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: الآية 97)

وقال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125))

(سورة طه: الآيات 124-125)

وقال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية: الآية 21)

إذاً:

(فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ)

إذا أحب الله قوما أمطرهم ليلا، وأطلع عليهم الشمس نهارا، وربنا عز وجل أحيانا تصاب البلاد بسنوات جفاف متتابعة، إلى أن يقول الناس: لقد تصحر الجو، وشحت السماء، وانتقلت خطوط المطر، وتستمع إلى تفسيرات وتفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان، وأحيانا يريد ربنا سبحانه وتعالى أن يعلم الناس أن ليست تفسيراتكم صحيحة، إنما هو تقنين التأديب، فلو أردت لأنزلت عليكم ماءً غدقا تفتنون فيه، والله سبحانه وتعالى أرانا من كرمه، ومن فضله في العام الماضي كيف أن الأراضي ارتوت بوفرة مياه الأمطار، وحينما يئس الناس في أول العام، وكدنا نظن أن هذا العام عام قحط وجدب أكرمنا الله سبحانه وتعالى بأمطار وفيرة، كانت سببا لإحياء الأمل، وتوقع الخير، إن شاء الله تعالى.

تعاقب الفصول: يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

توجيه كريم من الله الحكيم، أن هذه العين التي أكرمك الله بها إنه لمِمّا يؤذيها أن تنظر فيها إلى النور المبهر.

(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44))

ألم يَأن لنا أن نفكر في هذه الأرض، لماذا فيها ليل ونهار ؟ لأن الأرض تدور حول نفسها، ومحورها ليس موازيا لمستوى دورانها حول الشمس، ولو أن محورها كان موازيًا لمستوى دورانها حول الشمس لما كان هناك ليل ولا نهار، وعلى الرغم من الدوران تدور هكذا الشمس من هنا، هنا نهار سرمدي، وهنا ليل سرمدي، لا يكفي أن تدور حتى يكون الليل والنهار، لابد أن تدور على محور مخالف لمستوى دورانها حول الشمس، ولو أن هذا المحور متعامد مع مستوى الدوران، الشمس هنا، ومحور الأرض هكذا تدور حول نفسها، فما لذي يحصل ؟ تنعدم الفصول ؛ فلا صيف ولا شتاء، ولا ربيع ولا خريف، لأن أشعة الشمس تكون في مكان ثابت عمودية، وفي مكان آخر مائلة، وفي مكان ثالث شديدة الميل، ولو أن محور الأرض متعامد مع مستوى دورانها حول الشمس لما كانت الفصول، فمن الذي قرر أنه لا بد أن تدور الأرض حول محور مائل، ودرجة الميل هي ثلاث وعشرون ؟ فهذا تصميم من ؟ وصنع من ؟ فبميل محورها، ودورانها حول الشمس تتبدل الفصول ؛ من صيف، إلى شتاء، إلى ربيع، إلى خريف، فإذا كان محورها هكذا، والشمس من هنا جاءت أشعة الشمس العمودية على قسمها الجنوبي، فكان نصف الكرة الجنوبي صيفا، ونصفها الشمالي شتاء، فإذا انتقلت الأرض إلى هنا هكذا تكون أشعتها على قسمها الشمالي عمودية، فيكون الصيف، وعلى قسمها الجنوبي مائلة، فيكون الشتاء، فهذه

المناطق الأرضية يأتيها صيف، ويأتيها ربيع، ويأتيها خريف، ويأتيها شتاء بفضل هذا الميل، فمن جعل الليل لباسا، والنهار معاشا ؟ ومن جعل الليل باردا، والنهار حارا ؟ ومن جعل الليل مظلما، والنهار مشرقا ؟ ومن جعل الليل كي تسكن في بيتك، والنهار كي تسعى في رزقك ؟ من جعل هذا وذاك ؟ أليس الليل والنهار آيتين من آيات الله الدالة على عظمته ؟ يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(يُقَلِّبُ اللّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ)

فمن جعل النهار في الصيف طويلا، وفي الشتاء قصيراً ؟ والشتاء ربيع المؤمن، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ))

[مسند أحمد، والبيهقي في السنن الكبرى]

فمن جعل الليل والنهار يختلفان في الطول والقصر ؟ وفي الضوء والظلام ؟ وفي الحر، والبرد، وفي وظيفة الكسب، ووظيفة السكنى ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، فهذا العقل، أو هذا الفكر لا ينبغي له أن يكون مأسورا في كسب الرزق، بل ينبغي أن ينطلق إلى آفاق الكون، وإلى آيات الله الدالة على عظمته، وينبغي له أن يتفكر، وأن يتأمل، وأن يقلب، وأن يدقق، وأن يوازن، وأن يتحقق، وأن يتدبر.

(يُقَلِّبُ اللّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

إنّ أشعة الشمس في الشتاء تدخل إلى أعماق الغرف، أليس هذا من حكمة الله ؟ وأشعة الشمس تكون في الشتاء مائلة، ومعنى ميلها: أنها تصل إلى جوف البيت، وفي الصيف تكون عمودية، ومعنى أنها عمودية: أنها لا تتجاوز بضع سنتيمترات من الغرفة، هذا من فضل الله عز وجل، ففي الفصل الذي أنت بحاجة إلى الشمس تأتيك إلى أعماق الغرفة، وفي الفصل الذي أنت بحاجة إلى الظل تقف على النافذة، ولا تقتحم عليك غرفتك، هذا من فضل الله عز وجل، والله

(يُقَلِّبُ اللّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ)

وهؤلاء الذين لا يفكرون ليسوا من أولي الأبصار..

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج: الآية 46)

وهؤلاء الذين لا يدققون فبماذا تفكرون ؟ أي شيء نفكر فيه ينتهي عند الموت، لكنك إذا فكرت في خلق السماوات والأرض فهذا التفكير ينقلك إلى تعظيم الله تعالى، وتعظيم الله سبحانه وتعالى يحملك على طاعته، وطاعته تحملك على الإقبال عليه، والإقبال عليه يسعدك في الدنيا والآخرة، لذلك:

(يُقَلِّبُ اللّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ)

مرة ثانية مصادر المعرفة كثيرة، لو تأملت في الكون لعرفت الله سبحانه وتعالى، ولو تلوت هذا الكتاب لعرفت الله سبحانه وتعالى، ولو نظرت في أحوال الناس لعرفته كذلك، فالكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، وأفعال الله سبحانه وتعالى قرآن مطبق، ثم يقول الله سبحانه وتعالى متابعا الحديث عن الآيات الكونية، ولماذا الحديث عن الآيات الكونية بعد الحديث عن نور الله الذي يتمثل في قلب المؤمن كالزجاجة التي يضيء فيها مصباح وضاء، وبعد الحديث عن نور الله في قلب المؤمن ؟ ليبين الله لنا سبحانه وتعالى طريق اكتساب هذا النور، وطريق امتلاكه، إنه في التفكر في خلق السماوات والأرض، والله سبحانه وتعالى خلق كل دابة من ماء، والدابة كل مخلوق يدب على وجه الأرض، أي يسير عليه، وسيدنا هود يقول الله سبحانه وتعالى على لسانه:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود: الآيات 55-56)

فالدابة هنا أي مخلوق يدب على وجه الأرض..

(مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِه)

وقال سبحانه:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلّا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود: الآية 6)

فالدواب جميعا، ونحن البشر مشمولون بهذه الآية، الدواب جميعاً على الله رزقها، والله سبحانه وتعالى آخذ بناصيتها، فلم الخوف إذاً ؟ ولم المعصية إذاً ؟ لمَ تعصي الخالق لترضي المخلوق، إذا كان رزقك على الله عز وجل، وإذا كانت كلمة الحق لا تقطع رزقا، ولا تقرب أجلا ؟ فسرُّ العزة هو التوحيد، سر عزتك أن تعرف أن أمرك بيد الله وحده.

(وَاللّهُ خَلَقَ كُلّ دَابّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللّهُ مَا يَشَاءُ إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

من الإعجاز العلمي في القرآن: وَاللّهُ خَلَقَ كُلّ دَابّةٍ مِنْ مَاءٍ

هذه الآية من إعجاز القرآن العلمي، فلم يكن حين نزل القرآن الكريم يعرف أن الإنسان مؤلف من 70% من وزنه ماء، فعِلمُ الخلية يؤكد أن الماء هو المكون الأساسي من مكونات الخلية، ولولا الماء لما كانت خلية، ولولا الخلية لما كان المخلوق، وإن كل كائن حي تعد الخلية أصغر وحدة وظيفية فيه، وكان العلماء يظنون أن الخلية هي أصغر وحدة بنائية، ثم اكتشفوا أن الخلية هي أصغر وحدة وظيفية،

ولها غشاء، ولها هيولى، ولها نواة، وعلى النواة مورثات، وهذه المورثات تحمل خمسة آلاف مليون معلومة، تسهم في تشكيل الإنسان، فالحوين المنوي خلية، والبويضة خلية، والخلية كما قلت قبل قليل أصغر وحدة وظيفية في الكائن الحي، والنبات له خلايا، ولو وضعنا ورقة نبات تحت مجهر لرأينا الخلايا أصغر وحدات وظيفية فيها، فالنبات مكون من خلايا، وكذلك الحيوان، والإنسان، والإنسان مكون من آلاف الملايين الملايين من الخلايا، فأول شيء يعد الماء أهم مكون للخلية، والكائن الحي مؤلف من مجموعة خلايا، وربنا سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَاللّهُ خَلَقَ كُلّ دَابّةٍ مِنْ مَاءٍ)

يعني أن الماء يسهم في بنية الخلية..

الماء ضروري لحدوث التفاعلات والتحولات في الكائنات الحية:

شيء آخر ؛ يقول علماء الأحياء: **" إن الماء ضروري لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التي تتم داخل الكائنات الحية "**، فعملية الهضم تحتاج إلى ماء، وعملية الدوران، وعملية طرح الفضلات، وأي نشاط حيوي في الجسم البشري، وجسم الحيوان، وفي النبات يحتاج إلى ماء، فالماء وسيط، وما دام وسيطا في كل تفاعل أو تحول يتم في جسم النبات والحيوان والإنسان، فإن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاللّهُ خَلَقَ كُلّ دَابّةٍ مِنْ مَاءٍ)

الماء ضروري لقيام كل عضو بوظيفته:

وشيء آخر ؛ إن الماء ضروري لقيام كل عضو بوظيفته، وأي عضو في جسم الإنسان لا يقوم بوظيفته إلا عن طريق الماء، فالماء إذا ضروري ؛ أن نشربه كي تتم عمليات الهضم، وتتم عمليات تصفية الدم، وطرح البول، فالإنسان يتألف من 70%من وزنه ماء، فإذا كان وزنه 70كغ فيه 50 كغ من الماء.

الماء ضروري لحياة الإنسان:

وشيء ثالث ؛ هو أن الإنسان بإمكانه أن يعيش دون طعام 60 يوماً، ولكنه ليس بإمكانه أن يعيش دون ماء أكثر من ثلاثة أيام، وقد تصل إلى ستة أيام على أبعد تقدير، إذا الماء مكون أساسي في الكائن الحي، وهذه السوائل نحن في أمس الحاجة إليها، الدم قوامه الماء، والسائل اللمفاوي قوامه الماء، والسائل النخاعي قوامه الماء، وماء العين قوامه الماء، وإفرازات الجسم كالبول، والعرق، والدموع

قوامها الماء، واللعاب قوامه الماء، والصفراء قوامها الماء، وحليب الأم قوامه الماء، والسوائل الموجودة في المفاصل قوامها الماء، والماء كما يقول علماء الطب سبب ليونة الجسم، وسبب رطوبته، ولو أن الإنسان خسر من مائه 20%فقط لواجه الموت، ففي بجسم الإنسان 70%من وزنه ماء، لو خسر من هذه 70% خمسها لواجه الموت، ولو بقيت أربعة أخماس الكمية في جسم الإنسان، والمواد الغذائية لا تنتقل إلى الدم إلا عن طريق الماء، وهذا الذي تأكله لماذا تحتسي معه الشراب، الشاي مثلا، ولماذا تشرب معه الماء ؟ لأن هذه المواد الغذائية لا يمكن أن تهضم إلا إذا حلت بالماء، فإذا حلت بالماء أصبحت سائلا تمر في الأمعاء الدقيقة، وتمتصها الزغابات المعوية، وتحيلها إلى الدم، وذلك عن طريق الماء.

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ)

والنبي عليه الصلاة والسلام في أثناء الهجرة واجه مع الصديق رضي الله عنه رجلا متجهم الوجه، قال: من أنتما ؟ أو قال: من أين أنتما: فقال عليه الصلاة والسلام:

((نَحْنُ مِنْ مَاءٍ))

[تفسير القرطبي(291/12)]

وهذه حقيقة، نحن من ماء، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام كشفت له الحقيقة ؛ أن قوام الكائن الحي هو الماء، ولذلك حيثما ترى الماء ترى المدن والقرى، وترى الحضارات، وأكبر حضارات الأرض نشأت حول ضفاف الأنهار، كحضارة النيل، وحضارة الرافدين، وما من مجمع سكاني كبير إلا والماء شريانه الحيوي، وما قيمة الشام إذا كانت دون نهر بردى، ونبع الفيجة ؟ وما قيمة هذه البلاد المبعثرة في شتى ربوع الأرض لولا ينابيع الماء، والأنهر التي أجراها الله في هذه البلاد ؟. لذلك:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ

وربنا سبحانه وتعالى جعل بعض الحيوانات تمشي على بطنها، كالحية، والثعبان، وتمشي مجازا، وإنما هي تزحف على بطنها، والأسماك، تضم إلى قائمة الحيوانات التي تمشي على بطنها، فلها زعانف، وتسبح بالماء، وكأنها تزحف على بطنها، والدود يمشي على بطنه..

الإنسان مكرّم: وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ

والإنسان مكرم فجعل الله يديه طليقتين، ومن طلاقة يديه، ومن إطلاقهما بنيت هذه الحضارة الإنسانية، والحيوان يمشي على أربع، وليس له إلا لسانه وفمه، ويبحث في الأرض بها، ولكن الإنسان يمشي على

رجلين، ويداه طليقتان، وبهما يبني، ويحيك ثوبه، ويصنع بابه، ويخصف نعله، ويزرع أرضه، ويبذرها، ويحصد محصوله، وينقله، وكل أعمال البشر تتم عن طريق اليدين، حتى إنهم يقولون: اليد العاملة، والعنصر البشري هو عنصر أساسي في كل مشروع، وفي كل عمل إنتاجي، واليد العاملة هي الشيء الأساسي في كل عمل..

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ)

وقد أضاف بعض العلماء الطير، وهو يمشي على رجلين، والنعام يمشي على رجلين.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ

أي: أربع أرجل، هذه الدواب، والخيل، والبغال، والحمير، والأنعام ؛ من الجمال، والأغنام، والأبقار، كلها تمشي على أربع، وقد يقول قائل: هناك حشرات تمشي على ست أرجل، أو تمشي على ثماني أرجل، أو تمشي على أربع وأربعين رجلاً، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن هذه الحشرات التي لها كل هذه الأرجل تستطيع أن تستقر على أربع منها فقط، وأما الباقي فلها وظائف أخرى، ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

وقد قال بعض العارفين بالله: **والله يا رب، لو تشابهت ورقتا زيتون لما سميت الواسع**، وما من ورقتي زيتون على سطح الأرض متشابهتان، وما من إنسان يشبه إنسانا آخر ! وفي الأرض خمسة آلاف مليون من البشر، وكل إنسان له شكل لوجهه خاص، وطريقة في الحديث، وطريقة في التكلم والانفعال، وله نبرة خاصة، وله تركيب دم خاص، وله بصمة خاصة، وله موجة خاصة ! نعرف بها صوته، وله رائحة خاصة، وله تركيب حيوي خاص ! وهذا من تكريم الله للإنسان، لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ...))

[البخاري، مسلم]

يعني على صفاته، ومن صفاته سبحانه وتعالى أنه فرد لا شبيه له، وكذلك الإنسان جعل بشكل لا يشبه مخلوقا آخر، قال ابن حجر في الفتح: **" قيل: الضمير لله، وتمسك قائل ذلك بما ورد في بعض الإشارة على صورة الرحمن، والمراد بالصورة الصفة، والمعنى أن الله خلقه على صفته من العلم، والحياة، والسمع، والبصر، وغير ذلك، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء ".**

[فتح الباري (3/11)]

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

وهناك آيات كثيرة لو فكرنا فيها لذابت نفوسنا شوقا إلى الله عز وجل، المفصل، ولولا هذا المفصل كيف نأكل ؟ لابد أن نضع الصحن على الأرض، وأن نستلقي عليها، ونأكل بفمنا مباشرة ! فالمفصل آية من آيات الله الدالة على عظمته، فهذه الرسغ، وهذه الأصابع، وهذا الإبهام، وهذا الجلد المرن، وهذه العضلات، وهذه الأعصاب، وهذا الأنف فوق الفم، وهاتان العينان في المحجرين، وهذا الدماغ في الجمجمة، وهذا النخاع الشوكي في العمود الفقري، هذه المعامل معامل كريات الدم في نقي العظام.

يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ

لكن الذي يلفت النظر هو أن الإنسان يشبه الحيوان في بنيته، ولكن الله سبحانه وتعالى كرمه، فشتان بين الإنسان والحيوان، وقد نقف على قصاب، فنرى لهذا الخروف عضلات، وأوتاراً وأوردة، وشرايين، وقلباً، وعظاماً، وجهاز تنفس، وجهاز هضم، وجهاز إفراز، ورأساً، وعينين، وأذنين، ورأساً، وأسنانًا كما في الإنسان ! ولكن شتان بين الإنسان والحيوان، قال الخلاّق العليم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء: الآية70)

شيء آخر:

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46))

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ

وربنا سبحانه وتعالى نصب في الكون أدلة على وجوده، وأدلة على أسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، وربوبيته، و ألوهيته، وعلمه، وخبرته، وقوته، ورحمته، ولطفه، وعطفه، وتربيته، ألا ينبغي لنا أن نقف عند هذه الآيات، وعند هذه الأدلة.

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ)

فالآيات هي العلامات التي تحمل على آيات القرآن، وقد تحمل على آيات الأكوان، ففي الأكوان آيات، وفي القرآن آيات، وآيات الأكوان كآيات القرآن دالة على الواحد الديان، فإذا أكرمك الله عز وجل فتفكر في الأكوان، واقرأ كتاب الله، تفكر في الكون، ودقق في آيات اللـه التي بين يديك، فهذه الآيات كلها دالة على عظمة اللـه عز وجل.

وقد مر معنا أن عمير بن وهب حين أخذ العفو لصفوان من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **يا رسول الله إن صفوان هرب إلى جدة ليركب البحر أو ليلقي نفسه في البحر فأمنه صلى الله عليك إنه سيد قومه**، قال عليه الصلاة والسلام:

((هو آمن))

وعندها سأله عمير بن وهب رضي الله عنه يا رسول الله: **أعطني آية يعرف بها أنك أمّنْتَه فأعطاه النبي عليه الصلاة والسلام عمامته التي دخل بها مكة**، فقال:

((خذ هذه العمامة، وأعطها إياه))

فلما لحقه، وهو يهم بركوب البحر، قال: **يا صفوان هذه عمامة النبي لقد أمّنَكَ فإذا وقفت عند كلمة أعطني آية، يعرف منها أنه أمنه**، فالقرآن آيات معرفة الله وأساس الدين، وأصل الدين معرفته.

وعن عبد الله بن المسور أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **يا رسول الله علمني من غرائب العلم قال:**

((مَا فَعَلْتَ فِي رَأسِ الْعِلْمِ فَتَطْلُبَ الْغَرَائِبَ ؟ قالَ: وَمَا رَأسُ الْعِلْمِ ؟ قالَ: هَلْ عَرَفْتَ الرّبّ ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ فَمَا صَنَعْتَ فِي حَقِّهِ ؟ قالَ: مَا شَاء اللّهُ، قالَ: عَرَفْتَ الْمَوْتَ ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: مَا أعْدَدْتَ لَهُ، قالَ: مَا شَاءَ اللّهُ، قالَ: انْطَلِقْ فَاحْكُمْ هَاهُنَا، ثُمّ تَعَالَ أعَلِّمْكَ مِنْ غَرَائِبِ الْعِلْمِ))

[أبو نعيم في الحلية]

أيْ إذا عرفت الأمر قبل أن تعرف الآمر فلن تطبق الأمر، بل تحتال عليه، وتنتقص منه، وتستخف به، وهذا حال المسلمين الذين تعلموا أوامر الله، ولم يعرفوا الله عز وجل، ولذلك لابد أن نسلك كما سلك النبي عليه الصلاة والسلام في تعريف أصحابه بربهم، ثم جاء الشرع فبين لهم كيف يعبدونه، فأنت بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، أي بالكون تتعرف إلى عظمته، وأسمائه، وقدرته، ولطفه.

أليس هذا البَرَد الذي يصبح بحجم العدس أو حجم الحمص بردا يعبر عن لطف الله عز وجل ؟ وحينما يقتلع سن طفل من أسنانه اللبنية، أليس اقتلاع هذا السن دليلاً على لطف الله عز وجل ؟ لا ألم، ولا مخدر، ولا ضغط، ولا وخزة، ولا شيء من هذا القبيل فهناك آيات دالة على لطفه، وهناك آيات دالة على رحمته، وأخرى على حكمته، وأيضاً على قوته، ثم على مغفرته.

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

أيْ إذا شئت الهدى شاء الله لك الهدى، وإذا عزيت المشيئة إلى الله فهي المشيئة الجزائية المبنية على المشيئة الاختيارية، وإذا عزي الإضلال إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي، الذي يبنى على الضلال الاختياري.

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

والصراط المستقيم واحد، بينما الطرق الأخرى متعددة، فطوبى لمن كان على الصراط المستقيم، فالله سبحانه وتعالى يهديه إلى سواء السبيل.

وبعد هذا الحديث عن الآيات الكونية الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى ننتقل إلى حالة ثالثة ؛ هناك مؤمنون، وقد بين الله سبحانه وتعالى أثر نوره في قلوبهم، وهناك كافرون..

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(سورة النور: الآية40)

هناك مؤمنون مستنيرون، وهناك كفار في غياهب الظلمات.

هذه هي صفات المنافقين:

الصفة الأولى: مخالفة الظاهر للباطن:

ثم بين الله سبحانه وتعالى طريق معرفته من خلال الكون، والآن يأتينا أول مرة في سورة النور صنف ثالث، لا هم بالكفار الذين ينكرون حقائق الدين، ولاهم بالمؤمنين الصادقين الذين يتمثلون أوامر الدين، إنهم المنافقون، هؤلاء المنافقون يقولون: آمنا بالله وبالرسول، وتعبيره الملفوظ مؤمن يعترف بوجود الله، ويعترف بنبوة النبي عليه الصلاة والسلام، وأقواله مطابقة لأقوال المؤمنين، قال عزوجل:

ويؤكدون أنهم يطيعون الله عز وجل، أيْ أقوالهم طيبة.

(ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)

ومعنى يتولى يدير ظهره، ويتخلف، ولا يطيع، ولا يكون مع رسول الله، ولا يقف معه، ولا يأتمر بأمره، ولا ينتهي عما عنه نهى، فأقواله مخالفة لأفعاله، وهناك مسافة كبيرة بين أقواله وأفعاله، وهؤلاء هم المنافقون.

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

صار الإيمان عملا، وصار الإيمان التزاما، و تطبيقا، ومواقف مطابقة لاعتقاد المسلم، فإذا انزاحت مواقفه عن معتقداته، وانزاحت أعماله عن أقواله، وقال شيئا، وعمل شيئا آخر دخل في صنف ثالث - نعوذ بالله أن نكون منهم - إنهم المنافقون، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)

(سورة النساء: الآية145)

الصفة الثانية: الإعراض عن حُكم الله تعالى:

فالمنافق لا يريد أن يكون الرسول حكما بينه وبين خصومه، وكأنه يظن أن النبي لن يحكم بالحق، وأنه سيحيف عليه، وهذا ظنهم بالنبي عليه الصلاة والسلام.

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49))

إذا كان الحق إلى جانبهم سارعوا إلى النبي ليحكم بينهم.

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51))

هذه الآيات إن شاء الله تعالى سوف نقف عندها وقفة طويلة في الدرس القادم، إنها في وصف المنافقين من جهة، ووصف المؤمنين من جهة مقابلة، ولا سيما في علاقاتهم المالية والاجتماعية.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (19-23): تفسير الآيات 47 – 54
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-02-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس التاسع عشر من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

صفات المنافقين في القرآن الكريم:

الصفة الأولى: يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم:

ربنا سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن المؤمنين، وكيف أن نور الله في قلوبهم، وبعد أن حدثنا عن الكفار، وكيف أنهم في ظلمات بعضها فوق بعض، انتقل بنا إلى صنف ثالث، ليس هو من المؤمنين، ولا هو من الكفار، إنهم المنافقون، فقوله تعالى:

(وَيَقُولُونَ)

أيْ هناك صنف ثالث لم ينور الله قلوبهم، ولم يجحدوا آيات ربهم، إنهم بين بينَ.

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ)

[النساء: من الآية 143]

هؤلاء ما صفاتهم ؟ وما مواقفهم ؟ وما أقوالهم ؟ فلماذا يصف لنا ربنا سبحانه وتعالى المنافقين ؟ الحقيقة هذا الوصف الدقيق كي لا نكون مثلهم، ومن تلبس بإحدى هذه الصفات فعليه أن يتخلى عنها، وأن يعالج نفسه منها، فالإنسان المستمع أحد رجلين ؛ إما أن تكون هذه الصفات، أو إحداها منطبقة عليه، فعليه أن يطهر نفسه منها، وأن يجتهد في طريق الإيمان، وإما ألا تكون منطبقة عليه، فليحذر أن تنطبق عليه، وليشكر ربه عز وجل الذي طهره من صفات أهل النفاق، هؤلاء المنافقون ما صفاتهم ؟ فما من المؤمنين مؤمن إلا ويخشى أن يكون منافقاً، وقد قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: **<< أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ >>.**

[البخاري(بَاب خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ)]

فعلامة المؤمن الصادق أنه يخشى النفاق على نفسه، وأخوف ما يخافه المؤمن أن يكون منافقاً، وأخوف ما يخافه المؤمن ألا يكون مخلصا، أو أن يرد عمله، أو أن يكون في المستوى غير المرضي عنه، ولذلك فربنا سبحانه وتعالى في مجموعة آيات آتية يصف لنا صفات المنافقين، هؤلاء المنافقون يقولون - ونعوذ بالله من قولهم -.

الصفة الثانية: ادِّعاء الإيمان بالله وطاعة الرسول:

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا)

الحقيقة: لك أن تقول ما تشاء، قل: أنا معي المبلغ الفلاني، أن تقول: معي هذا المبلغ شيء، وأن يكون معك هذا المبلغ شيء آخر، أن تقول: أنا أعمل كذا وكذا شيء، وأن تكون في هذا العمل حقيقة فشيء آخر، وأن تقول: أنا أملك كذا وكيت شيء، وأن تملك هذا الذي تدعيه شيء آخر، ولذلك فالإنسان له أن يقول ما يشاء، والله سبحانه وتعالى متكفل أن يحجمه، وأن يضعه في مكانه الصحيح، وأن يحيطه بظرف صعب ينكشف على حقيقته، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت: الآية2)

هؤلاء المنافقون قالوا:

(آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا)

وصرحوا علانية، وعلى مرأى من الناس، وملؤوا الناس ضجيجا، وقالوا: نحن مؤمنون بالله، وبالرسول، وأطعنا، فأن تقول شيئا لست في مستواه هذا نوع من النفاق، وأن تعطي نفسك حجما أكبر من حجمك الحقيقي فهذا نوع من النفاق، وهؤلاء المنافقون ادعوا أنهم آمنوا بالله وبالرسول، وأطاعوا النبي عليه الصلاة والسلام. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ:

((إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد]

هي تذكر هذا على حد قولها، وهي تدعي، وهي تزعم أنها تكثر من صلاتها، وصيامها، وصدقتها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هِيَ فِي النَّارِ))

فأن تقول: أنا مؤمن، وأنا إيماني كبير، وأنا إيماني، وعالٍ، وأطيع، وأفعل، هذا كلام بكلام، لا قيمة له إطلاقا عند الله، فأنت لك عند الله مرتبة، لا يرفعها ادعاؤك أنك مؤمن كبير، ولا يخفضها ذم الناس لك، هذه حقيقة يجب أن تكون ماثلة بين أيديكم، وكل منا له عند الله درجة.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: الآية132)

ولا يرفع هذه الدرجة مدح المادحين، ولا يخفضها ذم الذامين، فهؤلاء المنافقون يزعمون، ويدعون، ويتبجحون، ويقررون، ويصرحون أنهم آمنوا بالله، وبالرسول، وبأنهم أطاعوا، ووضعوا عند المحك في ظرف صعب في الامتحان، فسيقت لهم الفتنة، أي الامتحان.

(ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ)

الصفة الثالثة: التولي والإعراض:

يتولى أيْ: يعرض، يعرضون عن طاعة الله، و يعرضون عن طاعة الرسول، وعن العمل الصالح، ولا يطبقون، ولا ينضبطون، ولا يلتزمون.

ولذلك لا يقيِّم الإنسانُ من أقواله، بل يقيِّم من أفعاله، وقد يدعي ما يشاء، وقد يتزين للناس بما يحبون، ومن هنا جاء الدعاء الذي أثر عن بعض العلماء: **<< اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك، وأعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني، وأعوذ بك أن أقول قولا فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك، وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك >>.**

[مصنف ابن أبي شيبة من قول مطرف بن الشخير]

العبرة بالقول الصحيح والعمل الصالح:

وأريد أن أقف عند هذه الآية في موضوع دقيق، قل عن نفسك ما شئت، ادع ما شئت، لك عند الله حجم حقيقي، وهذا الحجم الحقيقي مرتبط بعملك، لا بقولك.

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[فاطر من الآية10]

يصعد إلى الله عز وجل يصعد وحده إلى الله عز وجل، ولكن الذي يرفعك عند الله عز وجل هو العمل الصالح..

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر: الآية10)

الكلم الطيب يصعد وحده، لكن الذي يرفعك إلى الله، ولكن الذي يعلي مقامك عند الله، والذي يجعلك في مقعد صدق عند مليك مقتدر، هو عملك، من هنا قال الله عز وجل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر: الآيات 92-93)

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر: الآيات 1-3)

والعمل الصالح اقترن بالإيمان بالله في أكثر من مائتي آية وقد قيل: الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، وقيل: تعلموا ما شئتم، فوالله حتى تعملوا بما علمتم، فهؤلاء المنافقون يتبجحون، ويزعمون، ويقولون: إننا آمنا بالله، وبالرسول، وأطعنا، فإذا وضعوا على المحك، ووضعوا في التجربة، فإذا هم يتولون، ويعرضون، ويستنكفون، وتأتي أفعالهم مناقضة لأقوالهم، تأتي مواقفهم مباينة لادعاءاتهم، وكلامهم في واد، وأفعالهم في واد آخر.

ولهذا لما قال رجل عند سيدنا عمر: أنا أعرفه قال: **هل سافرت معه ؟** قال: لا، قال: **هل جاورته ؟** قال: لا، قال: **هل حككته بالدرهم والدينار ؟** قال: لا، قال: **أنت لا تعرفه، لعلك رأيته يصلي في المسجد، إنك لا تعرفه.**

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ)

يتولون

(مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)

وحينما تولوا، وحينما اعرضوا، وعصوا، وقصروا، وتخلفوا، ولم يبذلوا، ولم يقدموا دمغهم ربنا سبحانه وتعالى بالوصف الثابت.

نفي القرآن الإيمانَ عن المنافقين:

(وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

هذا الذي يدعي، ولا يفعل يزعم، ولا يطبق، ويتبجح، ولا ينفذ، هذا ليس مؤمنا، فمن صفات المنافق أن له حجما كبيرا، فإذا دققت في حياته الخاصة، فحجمه في واد، وأفعاله اليومية في واد، وهذا الذي جاءت به هذه الآية لتحذرنا أن نكون من هؤلاء المنافقين، والحقيقة الإنسان لا يتبجح، ولا يتكلم بأكثر مما هو عليه، لأن هذا نوع من التبجح والفخر، وليست هاتان الصفتان من صفات المؤمنين، والآن مع ظاهرة في المنافقين خطيرة، قال سبحانه:

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ)

فلو أن هذا المنافق دعي إلى رسول الله، ليكون حكماً في موضوع خلافي مع إنسان، إنه لا يريد.

سبب نزول هذه الآية:

وقد ورد في أسباب نزول هذه الآية ما قاله الطبري وغيره: إن رجلا من المنافقين اسمه بشر، كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض، فدعاه اليهودي إلى التحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان المنافق مبطلا، فأبى من ذلك، وقال: إن محمدا يحيف علينا، فلنحكّم كعب بن الأشرف، فنزلت الآية فيه، فهذا الذي يدعي أنه مؤمن، وفي الحقيقة هو منافق، وقعت له خصومة مع يهودي، وكان المنافق مبطلا، دعاه اليهودي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ليحكم بينهما فأبى المنافق إلا أن يحتكم إلى كعب بن الأشرف لأنه يعلم أن النبي سيحق الحق بكلماته، وهو مبطل.

الصفة الرابعة من صفات المنافقين: عدم التحاكم إلى الشرع:

إذاً: المنافق إذا دعي إلى كتاب الله، وإذا دعي إلى الشرع، وإذا دعي إلى محكم مؤمن يقضي بالحق، فإنه يرفض، ويبحث عن شيء وضعي يضمن له اغتصابه، ويبحث عن شيء وضعي يغطي له عدوانه، ويقره على انحرافه، ولذلك إذا رفض الإنسان أن يلبي دعوة محكم يحكم بما أنزل الله عز وجل من كتاب، وبما جاء به النبي من سنة رفض هذا التحكيم، وهذا نوع من النفاق لأنه يعلم أن هذا الذي سوف يحكم بينه وبين خصمه سوف يحكم بما أنزل الله، وهو مبطل تضيع عليه هذه الأرض، وهذا المحل، وعندئذ يحتكم إلى جهات أخرى غير شرعية لتغطي له عدوانه، واغتصابه، وما هو عليه من انحراف.

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

أي دعوا إلى تحكيم كتاب الله.

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ)

أي دعوا إلى تحكيم ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ليحكم بينه.

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ)

هذه الآية دقيقة جداً.

فلو أننا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ودعي اثنان من المؤمنين، أو اثنان من المنافقين، أو منافق ومؤمن، أو مؤمن وذمي، وما شاكل ذلك، إذا دعي اثنان إلى النبي عليه الصلاة والسلام ليحكم

بينهما في حياته، ماذا قال الله عز وجل ؟ قال:

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ)

أي حينما تدعى إلى رسول الله فحكم النبي عليه الصلاة والسلام هو حكم الله عينه، يستنبط من هذه الآية، إذا دعيت إلى النبي عليه الصلاة والسلام في حياته، فاستجابتك لتحكيم النبي وحكمه هي عين استجابتك لله.

وهناك آية أخرى تؤكد هذا المعنى حينما قال الله سبحانه:

(وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة التوبة: الآية 62)

لم يقل الله عز وجل: والله ورسوله أحق أن يرضوهما، بل قال:

(وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

فإرضاء رسول الله هو إرضاء الله عينه، وإرضاء الله عز وجل هو إرضاء رسول الله عينه، والنبي عليه الصلاة والسلام إذا أطعته فكأنما أطعت الله، وإذا أحببته فإن حبك له هو حبك لله عينه، وإذا تقربت إليه فتقربك إليه هو في الوقت نفسه تقرب إلى الله عز وجل، لكن العلماء يستنبطون من هذه الآية أحكاما كثيرة، وهذه الآية ليست خاصة بحياة رسول الله، إنها خاصة بحياته، وتشمل مرحلة ما بعد موته، إذا دعيت أنت وخصمك إلى أن يحكم بينكما وفق كتاب الله، فكأنما دعيت إلى الله ليحكم بينكما، وإذا دعيت إلى قاض، أو إلى محكم يحكم بكتاب الله وبسنة رسول الله فاستجابتك لهذه الدعوة كأنها استجابة للنبي عليه الصلاة والسلام، يقول الله عز وجل:

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ)

قد يكون الحكم آية في كتاب الله، وقد يكون الحكم حديثا عن رسول الله، فالذي يحكم المحكم الذي يقضي بين الناس، وإذا اعتمد في قضائه كتاب الله عز وجل وسنة رسوله فدعوتك إليه هي دعوة إلى الله ورسوله، واستجابتك لحكمه استجابة إلى حكم الله ورسوله، ولذلك قالوا: إن كل من يكون في منصب القضاء في المجتمع الإسلامي، ويحكم بين الناس بالكتاب والسنة، فإن الدعوة لحضور محكمته هي الدعوة لحضور محكمة الله ورسوله عينها، والذي يأبى حضورها فإنه يأبى حضور محكمة رسول الله، وعندئذ لا يستحق العقوبة فحسب، بل يستحق أن يحكم عليه لخصمه في حال غيابه، والآن القضاء يأخذ بهذا، يعني إذا دعيت لتحاكم أمام قاض يحكم بشرع الله وبسنة رسوله فلو أنك تخلفت عن هذه الدعوة فإن القاضي يصدر حكما غيابياً يقضي لخصمك عليك، لأن التخلّف عن حضور حكم الله عز وجل وحكم رسوله هو تخلف عن حضور حكومة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والشرط أن يكون

الحكم بما أنزل الله عز وجل، وما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا يتضح في المحاكم الشرعية أكثر ما يتضح لأن المحاكم الشرعية تحكم بالشرع الإسلامي.

وشيء آخر ؛ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون:

(وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ)

الصفة الخامسة من صفات المنافقين: خضوعهم للحق إذا كان لصالحهم:

وأحياناً يكون أحد الخصمين محقاً، وهو منافق، ولذلك يحتكم إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وفي كل زمان يكون لإنسان منافق حق في قضية مع إنسان، فهذا الإنسان يصر على تحكيم العالم الفلاني، والشيخ الفلاني، لأنه يعلم علم اليقين أن هذا سيحكم له ـ شيء جميل ـ وإذا كان هذا سيحكم له أقر بحكمه، فإن لم يكن يحكم له كما يعتقد أعرض عن حكمه، إذاً هو يتبع هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه إذا كان الحكم سيتحقق لمصلحة هذا الإنسان على يد حاكم يحكم بغير ما أنزل الله، فإنه يحتكم إليه، ويصر عليه، فإذا كان الحق الذي له عند خصمه يتحقق بأن يحتكم إلى عالم، أو إلى شيخ، أو إلى محكم يحكم بكتاب الله، وسنة رسوله عندئذ يسارع إليه، وهذه علامة النفاق، والآن الناس في خلافاتهم إذا كانت القضية تحل وفق الشرع، فلذلك يصرون على تحكيم الشريعة الإسلامية، أخي هذا حكم شرع الله عز وجل، وأنا لا يعنيني القضاء، أنا أصر على أن يكون فلان الفلاني هو الحكم، فإذا كان الشرع لا يغطيهم، بل إن بعض القوانين الوضعية تغطي أعمالهم، فيصرون على أن يحتكموا إلى القوانين الوضعية، وهذا التأرجح، وهذا التقلب من حكم شرعي إلى حكم غير شرعي، بحسب المصلحة، وبحسب ما يتراءى لهذا المنافق من قنص لهذا الشيء، هذا الموقف موقف المنافقين، وربنا سبحانه وتعالى يستفهم، وهذا الاستفهام من أجل التأكيد:

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ)

الصفة السادسة: كثرة الشك ومرض القلب:

فهؤلاء انتماؤهم إلى المسلمين انتماء شكلي، وإنهم قد انتموا إلى المسلمين لتحقيق مصالحهم، وهم في الأساس ليسوا مؤمنين أصلا، وكأن الله سبحانه وتعالى نفى عنهم الإيمان، وبين أن انتماءهم إلى المجتمع الإسلامي انتماء مصلحي، فالمنافق في الأصل ليس مؤمناً، ولكنه ينتمي إلى المجتمع المسلم بغية تحقيق مصالحه.

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

أحيانا يكون الإنسان على درجة عالية من الذكاء، ويرى أن مصالحه تتحقق في هذا المجتمع الإسلامي، فيتظاهر بالإيمان، ويقيم شعائر الإسلام، وله مظهر مقبول، لكنه إذا وقعت له خصومة مع بعض المسلمين فإنه يتأرجح بين القوانين الوضعية وبين الشريعة الإسلامية، أيهما تحقق مصالحه يحتكم إليها هذا الموقف، ويسمى الوصولي، إذاً يريد أن يصل إلى هذا الشيء بالحق أو بالباطل، فإذا كانت الشريعة الإسلامية تحقق له هذا الشيء احتكم إليها، وإن كانت القوانين الوضعية تحقق له هذا الشيء احتكم إليها، وهذا التأرجح من صفات المنافقين، والله سبحانه وتعالى يقول:

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

هؤلاء ليسوا مؤمنين، وإن انتماءهم إلى المجتمع الإسلامي انتماء شكلي ومصلحي، هم في واد، والمسلمون في واد.

(أَمْ ارْتَابُوا)

ارتابوا بأحقية هذا الدين، وأحقية هذا الشرع، وأحقية هذا القرآن، ارتابوا بحكم النبي العدنان، أيعقل أن يحيف عليهم النبي عليه الصلاة والسلام.

الصفة السابعة: خوفهم من ظلم القرآن إياهم:

(يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ)

أيعقل أن يكون في القرآن الكريم أحكام ظالمة ؟ أيعقل أن يصدر عن النبي عليه الصلاة والسلام أحكام جائرة ؟ أهذا يليق بالنبي، وهو المثل الأعلى ؟ أيليق بكتاب الله الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد ؟ أيعقل أن يكون هذا الكتاب غير منصف للناس ؟

الصفة السابعة: ظلمُهم لأنفسهم:

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ)

أي ظالمون لأنفسهم بعدم إيمانهم اليقيني، وظالمون للناس حينما غشوهم، فظن الناس أنهم مؤمنون، وظالمون لخصومهم الذين تعاملوا معهم على أنهم مؤمنون، وهم ليسوا كذلك، فقد ظلموا ثلاث مرات ؛ ظلموا أنفسهم مرة، وظلموا الطرف الثاني مرة، وظلموا المجتمع الإسلامي بانتمائهم الشكلي إليهم مرة ثالثة.

وشيء آخر ؛ ظلم نفسه بعدم إيمانه بهذا الدين الحنيف، وظلم نفسه حينما لم يوقن بأحقية الرسالة،

والنبوة، والقرآن الكريم، وظلم نفسه حينما ظن أن الله عز وجل يمكن أن يحيف عليه، فربنا عز وجل قال:

(بَلْ أُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ)

مِن صفات المؤمنين:

أما المؤمنون فأين مواقفهم المثالية ؟..

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

السمع والطاعة في الاحتكام للشرع:

من علامة إيمان المؤمن: أنه إذا دعي إلى كتاب الله سارع عن طيب خاطر، سمعا وطاعة، يا رب حباً وكرامة، وإذا دعي إلى سنة رسول الله سارع إلى قبولها، أو إلى محكِّم يقيم شرع الله، وسنة رسوله سارع إلى قبول أحكامه، أو إلى قاض شرعي يحكم في قضية شرعية سارع إلى قبول أحكامه، لأنه:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: الآية 36)

هذا قضاء الله، وقضاء الله عز وجل بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام هو ما في كتاب الله، وقضاء النبي ما في السنة المطهرة.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

وقال سبحانه:

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

اليهود قالوا: سمعنا وعصينا، وربما وقع بعض المسلمين في آخر الزمان في أمراض مشابهة لأمراض اليهود، وحينما يقولون: سمعنا وعصينا فالحق معروف، والحق مسموع، والحق مشاهد، فما بال المسلمين لا يطبقون.

مقياس الفوز في القرآن الكريم: الطاعة والخشية والتقوى:

الله سبحانه وتعالى يبين أن الفوز ليس بنيل هذه الأرض، ولا باغتصاب هذه الدكان، ولا بأخذ هذه

الأموال، فالفوز، والفلاح، والنجاح بطاعة الله ورسوله، ولذلك يقول:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

خالق الكون ذو العزة، والجلال يؤكد لنا أنه

(مَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

ويقول سبحانه:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللّهَ وَيَتَّقِيهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ)

بعضهم قال: هذه الآية من أجمع الآيات:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللّهَ)

يطيع الله في أوامره التي افترضها علينا، ويطيع رسوله في سنته التي جاء بها، ويخشى الله فيما سلف منه من أعمال، ويتقيه فيما بقي من أجله من أيام، يخشاه لما مضى، ويتقيه لما سيأتي، وأطاع الله في القرآن، وأطاع النبي في السنة المطهرة، فأولئك هم الفائزون، إذًا يجب أن تأخذ دينك من هذين الأصلين الكبيرين من أصول الدين ؛ كتاب الله، وسنة رسوله، وأن تخشى الله عما سلف منك من أعمال، وأن تتقي الله فيما بقي لك من أيام، وإذا فعلت هذا وذاك فقد كنت من الفائزين بنص هذه الآية الكريمة:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللّهَ وَيَتَّقِيهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ)

ومن لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله.

(وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

معنى: لاَ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ:

المعنى الأول: خطاب المؤمنين

طاعتكم طاعة معروفة.

المعنى الثاني: معيار الطاعة الصدق والإخلاص

وهناك معنى آخر لهذه الآية ؛ أن الطاعة لله معروفة طاعة صادقة قلباً وقالباً، والطاعة المعروفة عند المؤمنين طاعة حقيقة لا رياء فيها، ولا نفاق بها، طاعة معروفة ؛ انصياع لله ورسوله، وتطبيق أمثل لما جاء به القرآن، فهذه الآية تحتمل معنيين:

المعنى الأول: يخاطب الله المنافقين ؛ أن طاعتكم طاعة معروفة، أيْ كذبكم مكشوف، ولذلك قالوا: تستطيع أن تخدع الناس بعض الوقت، ولك أن تخدع بعض الناس كل الوقت، أما أن تخدع كل الناس طول الوقت فهذا مستحيل، والإنسان مكشوف أمام نفسه، فطاعة معروفة، هذه الطاعة الظاهرية التي تخفي معصية باطنية إنها عند الله مكشوفة.

(إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أي مكايدكم راجعة عليكم، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

(سورة الإسراء: الآية17)

إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ:

فهذا العمل ماذا يكمن وراءه من نيات ؟ ماذا تبتغون منه ؟ ولماذا تفعلون هذا العمل ظاهرا ؟ ولماذا تفعلون عكسه سرا ؟ طبيعة أعمالكم، وما رافقها من نيات وأهداف، وما لابسها من ظروف إنها عند الله معروفة.

(لاَ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

ثم يقول الله عز وجل:

(قُلْ أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ فَإِنْ تَوَلّوْا فَإِنّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرّسُولِ إِلّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

وجوب طاعة الله ورسوله:

أطيعوا الله بتنفيذ الأوامر في كتابه، وأطيعوا الرسول بما جاء به من السنة المطهرة، ولذلك إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية31)

فطاعة النبي واجبة بنص القرآن الكريم:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: الآية7)

على النبي التبليغ فقط:

إن تولّ الناس عن طاعة الله، وإن تولى الناس عن طاعة الرسول فإن عليه ما حمل، وعليكم ما حملتم، هو حمل هذه الرسالة، وقد بلغها للناس، وانتهى الأمر، فالمصاب عائد عليكم، وموقف النبي عليه الصلاة والسلام هنا:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة: الآية 272)

كما قال الله عز وجل:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: الآية56)

وقال:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية: الآيات21-22)

وقال:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الأنعام: الآية107)

فربنا عز وجل طمأن النبي ؛ أنه حين يبلّغ هذه الرسالة تنتهي مهمته، وأنت حينما تقف عند حجرته الشريفة، تقول: أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغمة، وجاهدت في الله حق الجهاد، فالنبي عليه ما حمل، حمل هذه الرسالة، وقد أداها خير أداء، وانتهى الأمر، وبقيت المشكلة على هؤلاء الذين حملوا هذه الرسالة، فلم يحملوها، كما قال الله عز وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: الآية5)

معنى: فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ

فأنتم مكلفون بمعرفة ما في هذا القرآن، ومعرفة ما جاء به النبي العدنان، فالنبي بلغكم كتاب الله، وبلغكم سنته المطهرة، وانتهى الأمر، ورفعت عنه المسؤولية، ونال رضاء الله عز وجل، أما أنتم فحينما تسمعون كلام الله، أو تسمعون سنة رسول الله، فأنتم مسؤولون عن هذا السماع، ماذا فعلتم ؟ لذلك فعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا تَزُولُ قدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ بِهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟))

[الترمذي]

سمعت في الدرس الفلاني كذا وكذا، وفي اللقاء الفلاني كذا وكذا، وفي الخطبة الفلانية كذا وكذا، وقرأت في القرآن الآية الفلانية، وقرأت في كتاب الأحاديث الحديث الشريف التالي، فماذا فعلت ؟ وما موقفك من هذا الحديث هل قبلته ؟ وهل عظمته ؟ وهل طبقته ؟ وهل خالفته ؟ وهل اعتقدت أنه حديث لا يتناسب مع هذا الزمان ؟ لك موقف. ولذلك:

((لا تَزُولُ قدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ بِهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟))

هذا معنى:

(فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ)

حمل هذه الرسالة، فبلغها أحسن تبليغ، وحملتم أنتم هذه الرسالة، ماذا فعلتم بها ؟ وماذا أخذتم ؟ وماذا تركتم ؟ لم تركتم هذا الذي جاءكم من عند رسول الله ؟

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)

الهداية نتيجة للطاعة: وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا

هذه الآية دقيقة جداً، فلا يسمى الإنسان مهتديا إذا عرف الحق، وقرأ كتاباً، واطلع على مؤلفات، قرأ كتاباً في العقيدة فتنورت أفكاره، وعرف الحق، وحتى هذه اللحظة لا يسمى مهتديا، لا يسمى مهتديا إلا إذا عمل بما علم، أخذًا من هذه الآية:

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)

لا يسمى الرجل مهتديا إلا إذا أطاع الله عز وجل.

وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ

وفي الحديث:

((فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ))

[البخاري، الترمذي، النسائي]

وما على النبي عليه الصلاة والسلام إلا البلاغ المبين، وحينما يبلغ الناس يبلغهم ما جاء عن الله عز وجل، وما أوحى الله إليه من شرح لهذا الكتاب، ثم تنتهي مهمته، وتبدأ مهمتنا نحن، فما دمنا على قيد الحياة محاسبين عما عملنا من كتاب الله وسنة رسوله.

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نبدأ بتفسير قوله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(سورة النور: الآية55)

هذه الآية تبث الطمأنينة في قلوب المؤمنين، فكل من آمن بالله عز وجل لابد أن يناله وعد الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (20-23): تفسير الآيات 55 – 57
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-02-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس العشرين من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57))

تحقُّقُ وعدِ الله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ

أيها الإخوة المؤمنون.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ)

الوعد الإلهي محقق لا محالة، لأن الإنسان إذا وعد الإنسان لم يملك وجوده، فإذا كان موجودا لم يملك ما ينفذ به وعده، وللإنسان طاقات محدودة، وقدرات محدودة، وعلم محدود، وإمكانات محدودة، أو إذا توافر الوفاء وهذا إذا كان الإنسان على مستوى رفيع جداً، ولكن الله جل في علاه إذا وعد وعداً فإنه محقق لا محالة، لقوله تعالى:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة: الآية 111)

تقولون بعد إقامة الصلاة: إنك لا تخلف الميعاد، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)

(سورة الحج: الآية 47)

فوعد الله سبحانه وتعالى للمؤمن وعد قطعي محقق، ووعد الله عز وجل واقع لا محالة، ومن هنا قال الله عز وجل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص: الآية 61)

وإذا وعدك الله عز وجل بالخير، وبالسلامة، والجنة، فإن هذا الشيء واقع لا محالة، ولذلك فالله سبحانه وتعالى يعبر عن تحقق وعده بالفعل الماضي، وقد وعَدَ سبحانه وتعالى العباد أن يرزقهم، وهو القائل في كتابه الكريم:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ)

(سورة الروم: الآية 40)

لأن وعد الله واقع لا محالة فهنيئا لمن وعده الله بالخير، والويل لمن متعه الله متاع الحياة الدنيا، وقد أوعده الله جهنم، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل عليه عدي بن حاتم، وكان ملكاً فقال: **من الرجل ؟** قال: عدي بن حاتم، فرحب به النبي عليه الصلاة والسلام، وأخذه إلى بيته إكراما له، وفي البيت قال له:

((لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ! أي ما ترى من فقر المسلمين، وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه))

لأن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين أن يستخلفهم في الأرض، وأن يمكن لهم دينهم، قال رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج هذا البيت على بعيرها لا تخاف))

لأن الله عز وجل.

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

((ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، أو أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة للعرب))

ولقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى القصور البابلية، وقد فتحها المسلمون، ولقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى بعينه أن المرأة تحج البيت على بعيرها لا تخاف، ولقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى بعينه كيف أن المال فاض فيهم، وقد ألقيت الغنائم أمام سيدنا عمر، حيث إن أحد المسلمين لا يرى أخاه من الطرف الثاني، ولا يرى رمحه الذي أمسكه، عندئذ شعر سيدنا عمر ـ هذا الخليفة العظيم ـ أن وعد الله حق، ولذلك حينما يعدك من هو فوقك برتبة واحدة فأنت مجند، وقد وعدك عريف بإجازة، هذا الوعد علاقته بهذه الرتبة، وقيمته من قيمة هذه الرتبة، فلو ارتفعت الرتبة إلى أن وصلت إلى أعلى رتبة، ولو ارتفع المقام إلى أن وصل إلى أعلى مقام، فإن الوعد الأخير يختلف عن الوعد الأول، الوعد قيمته من قيمة الذي يعد، فكيف إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي يعد ؟!

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللّهِ)

(سورة التوبة: الآية 111)

(وَلَنْ يُخْلِفَ اللّهُ وَعْدَهُ)

(سورةالحج: الآية 47)

ولذلك حينما قال الله عز وجل:

(وَعَدَ اللّهُ)

(الله) عَلَمٌ على الذات، صاحب الأسماء الحسنى، وصاحب الصفات الفضلى.

إنّ سيدنا عمر رضي الله عنه عزل سيدنا خالد بن الوليد عن إمارة الجيش، وسيدنا خالد قلق، وخاف أن يكون هذا العزل مبنيا على خطأ ارتكبه، فلما أتى إلى المدينة قال: **يا أمير المؤمنين، لم عزلتني ؟** فقال سيدنا عمر: **والله إني لأحبك يا أبا سليمان،** فأعاد عليه السؤال، ولم عزلتني ؟ قال: **والله إني لأحبك،** فأعاد عليه السؤال مرة ثالثة، قال: لم عزلتني ؟ عندئذ قال له سيدنا عمر رضي الله عنه: **والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله،** فسيدنا عمر موقن يقينا لا شك فيه أن الله وعد المؤمنين بالنصر، فهذا النصر لابد أن يتم على يد سيدنا خالد، أو على يد غيره، لكنه عزله لئلا يفتتن الناس به، ويظن أن النصر من عند خالد، إن النصر من عند الله، فكأن سيدنا عمر برؤية عميقة أصدر هذا الأمر لينقذ التوحيد، لأن الله عز وجل وعد المؤمنين بالنصر، فأي قائد يقود هذا الجيش لابد أن ينتصر، فلو بدل المسلمون وغيّروا فعندئذ يتخلى الله عنهم، وعندئذ لا تجديهم أية وسيلة يتخذونها للنصر..

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللّهِ)

(سورة آل عمران: الآية 126)

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية 160)

هذه الآية تثبت نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الله سبحانه وتعالى وعد في كتابه الكريم المؤمنين بالنصر، وقد نصرهم، وأعزهم، واستخلفهم، ومكن لهم دينهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمنا، فهذا تنبؤ بالغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، وها قد وقع هذا الغيب، إذًا هذا الكتاب من عند الله.

أنواع الغيب في القرآن: غيب الماضي – غيب الحاضر – غيب المستقبل:

وبالمناسبة، الغيب في القرآن على أنواع ثلاثة ؛ غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، فهذا من غيب المستقبل، وعد الله المؤمنين بالنصر، وبالاستخلاف، وبالتمكين في الأرض، وقد نفذ وعد الله عز وجل، وأصبح رعاة الإبل قادة للأمم، وأصبح هؤلاء الأصحاب الذين كانوا مستضعفين في الأرض

قادة للأمم والشعوب، تنفيذاً لوعد الله عز وجل، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((بَشِّرْ هَذِهِ الأمّةَ بالسّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ))

[رواه الإمام أحمد]

وكأن هذه البشارة قد وقعت.

معاني وعد الله للمؤمنين: معنى عام ومعنى خاص:

شيء آخر، هو أن هذا الوعد الذي يشمل المؤمنين له معنيان ؛ له معنى عام، ومعنى خاص، له معنى كلي، ومعنى فردي، أو له معنى جماعي، ومعنى فردي، فإذا كان المؤمنون جميعا مؤهلين لنصر الله عز وجل، ولأن يكونوا خلفاءه في الأرض، ولأن يمكن الله لهم دينهم، وعندئذ يتحقق وعده الثابت الذي لن يخلفه أبدا، وبنص هذه الآية الكريمة إذا لم يكن مجموع المؤمنين في المستوى الذي يستحقون هذا التمكين، وإذا لم يكن مجموع المؤمنين في المستوى الذي يستحقون هذا الاستخلاف، عندئذ ينصرف هذا الوعد لآحاد المؤمنين، فأنت أيها المؤمن إذا أهلت نفسك، واستقمت على أمر ربك، ونزهت دخلك، ونزهت سلوكك، عن كل مخالفة أو معصية فلابد أن يعطيك الله شيئا استثنائيا خاصا بك، إذ تتحقق به هذه الآية، فإما أن يكون التنفيذ على مستوى جميع المؤمنين إذا كانوا مؤهلين، وإما أن يكون إنجاز هذا الوعد على مستوى آحاد المؤمنين إن لم يكن المجموع مؤهلا.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وشيء آخر:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

كلمة آمنوا منكم يعني أن هناك إيمانًا يرقى إلى مستوى تحقيق وعد الله، وهناك إيمان آخر لا يرقى إلى هذا المستوى، ولذلك فهو مؤمن، لأن الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف: الآية 2)

الله سبحانه وتعالى خاطبهم بالإيمان، وعاب عليهم أنهم يقولون ما لا يفعلون، فهؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون وصفهم الله عز وجل بأنهم مؤمنون، ومع ذلك فمستوى هذا الإيمان لا يؤهلهم لتحقيق وعد الله عز وجل، فمن هنا جاءت كلمة:

(مِنْكُمْ)

وهي للتبعيض.

أيها المؤمنون، إذا تحقق فيكم الإيمان الذي يؤهلكم لأن تكونوا خلفاءه في الأرض فإن وعده محقق، فإن لم تكونوا في المستوى المطلوب فإن هذه الآية لن تتحقق، وهذا شيء دقيق.

دائرة المؤمن تضيق بكثرة الأوصاف:

هناك مثل آخر يدعم هذا المعنى ؛ وهو أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون: الآية 1)

كلمة (مؤمنون) تشمل كل المؤمنين، لكن حينما وصف هؤلاء أنهم في صلاتهم خاشعون، ضاقت الدائرة، ولما زاد الله عز وجل، وقال:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون: الآية 1)

ضاقت الدائرة أكثر..

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون: الآية 3)

ضاقت الدائرة..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

(سورة المؤمنون: الآية 4)

ضاقت الدائرة..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون: الآية 5)

ضاقت الدائرة، فكلما وصف أهل الإيمان بصفات جديدة تضيق دائرة الشمول، إذ ليس كل مؤمن تنطبق عليه هذه الآية، وليست كل جماعة مؤمنة تنطبق عليها هذه الآية، فلابد من مستوى معين من الإيمان حتى تتحقق هذه الآية، فهناك من يتساءل: ألسنا مؤمنين ؟ فيأتي الجواب: بلى، فلماذا لا تحقق هذه الآية ؟ الجواب: إنّ من الإيمان إيمانًا لا يرقى إلى هذا المستوى، ومن الإيمان إيمانًا لا يؤهل صاحبه أن ينطبق عليه هذا الوعد الإلهي الكريم، ولذلك فالوعد الإلهي الذي ينطبق على المؤمنين ينصرف إلى المؤمنين الذين في المستوى المطلوب.

ما هو الإيمان الذي يحتاجه المؤمن ؟

وقال بعض علماء التفسير **" إن الإيمان الذي يحتاجه المؤمن لتنطبق عليه هذه الآية، أو ليتحقق عليه وعد الله عز وجل، هو إيمان يستغرق نشاطه كله، وهو إيمان يشبه إيمان السابقين، وإيمان المقربين، وإيمان الذين باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وإيمان الذي دخل الإيمان في كل حجيرة من حجيراتهم، وفي كل خليـة من خلاياهم، والإيمان المطلوب هو أن تكون كل مشاعرك، وكل اتجاهاتك وكل طاقاتك، وكل قدراتك وكل نشاطاتك، وكل إمكاناتك في سبيل الحق، الإيمان المطلوب هو الذي يستغرق النشاط الإنساني كله، الإيمان الذي تتحقق به هذه الآية، أو يتحقق به وعد الله عز وجل هو إيمان من نوع رفيع جداً "**، فلذلك من أراد أن تناله هذه الآية، أو من أراد أن يتحقق وعد الله له في هذه الآية، فليرتفع بمستوى إيمانه، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ:

((لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ))

[أحمد]

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللَّهِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ: أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ))

[أحمد]

والله عز وجل يقول:

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

(سورة الفتح: الآية 4)

فالإيمان يزيد وينقص، فيبدو أن الإيمان إذا زاد، وزاد حتى بلغ الدرجة التي تؤهل صاحبه لكي يتحقق به وعد الله عز وجل، عندئذ يأتي وعد الله.

الإيمان والعمل الصالح مقترنان: آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لو أن الله عز وجل قال: وعد الله الذين آمنوا، لكان ذلك لكل مؤمن، ولكن وعد الله الذين آمنوا منكم أيْ: آمنوا من بعضكم، والله سبحانه وتعالى يخاطب في هذه الآية المؤمنين، ويبدو أنه لا يصح الإيمان

إلا بالعمل، فالإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، ومن هنا عطف الله سبحانه وتعالى على كلمة

(آمَنُوا)

بقوله:

(وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

فلا يصح الإيمان إلا بالعمل الصالح، والعمل الصالح اقترن بالإيمان في أكثر من مئتي آية في كتاب الله.

(الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

وكأن الدين في مجمله عقيدة وعمل، إيمان وعمل، فكر وسلوك، نظر وتطبيق، هذا هو الدين.

مثلا: لو أردنا أن نعيّن سفيرا في بلد نقول: على طالب الاكتتاب في مسابقة هذه الوظيفة أن يحمل شهادة عليا، وهناك الآلاف يحملون شهادات عليا، في الآداب، وفي الحقوق، وفي العلوم، أصبح الشرط صعباً، إذ لا نجد في 100 ألف إنسان واحداً معه ثلاث شهادات عليا، فلو أضفنا إضافة ثانية، وقلنا: أن يتقن اللغة الإنكليزية والفرنسية والعربية، فكلما زادت الشروط ضاقت دائرة الشمول، فهذا استخلاف في الأرض، والله سبحانه وتعالى في الأساس يقول:

(إِنّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: الآية 30)

وفي آية أخرى يخاطب بها أحد الأنبياء الكرام:

(يَا دَاوُودُ إِنّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقّ وَلَا تَتّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

(سورة ص: الآية 26)

مِن صور ومعاني الاستخلاف: لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الْأَرْضِ

1 – النيابة في إقامة العدل:

والخليفة عليه أن يخلف الله في حكمه للبشر، فالاستخلاف شيء عظيم جداً:

أن تنوب عن خالق الكون في الحكم وفق مبادئ العدل والإنصاف، وما إلى ذلك.

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الْأَرْضِ)

2 – تحقيق الشيء الثمين:

والاستخلاف ليس معناه بالضرورة أن تكون قادراً على أنْ تفعل ما تشاء، فليس هذا هو الاستخلاف، فأنت حينما تدير دائرة ليس معنى ذلك أنك تملك أن تنفذ أمرك على كل من حولك، بل لابد أن تحقق رسالة، فالاستخلاف من معانيه أن تحقق شيئا ثمينا، أيْ أن تسير بهذه الدائرة إلى الهدف المطلوب، وأن تسير بهذه المدرسة إلى أن تحقق أهدافها.

3 – العلم والحكمة والرحمة والعدل:

الاستخلاف لا يعني القوة وحدها، الاستخلاف هو العلم والحكمة والرحمة والعدل،، فلذلك إذا كان الإنسان مديرَ مدرسة، أو مدير مستشفى، أو كان يرأس عشرة أشخاص فهو مستخلف، فالأب مستخلف في بيته، وليس معنى ذلك أن الأب هو الآمر الناهي فقط، بل يجب أن يكون مع أمره ونهيه حكيما، حتى يكون مستخلفا، ويجب أن يكون مع أمره ونهيه رحيما عالما، حتى يصح استخلافه، وأن يأخذ بيد أفراد هذه الأسرة إلى بر الأمان، وبالسعادة في الدنيا والآخرة.

إذًا: ليست القوة وحدها تعني الاستخلاف، بل القوة، والرحمة، والعلم، وحمل الرسالة:

4 – الاستخلاف على مستوى البيت:

فالإنسان مستخلف في بيته على مستوى الأب، والله عز وجل سلمك قياد هذه المرأة، وهؤلاء الأولاد، فأنت إذا كنت كاملا، ودعوتهم إلى الفضيلة، وعلمتهم، وفقهتهم، وربيتهم التربية الجسمية، والعقلية، والخلقية، فأنت خليفة الله في هذا البيت، فمعنى الاستخلاف دقيق جداً، إذ ليس معنى الاستخلاف أن في الأسرة رجلاً قويًا ! لا، هذا الرجل القوي في الأسرة ليس مستخلفا، ولن يكون مستخلفا إلا إذا كان عالما، ورحيما، وحكيما، وإلا إذا رسم هدفا نبيلا، لن يكون مستخلفا إلا إذا أخذ بيد هذه الأسرة إلى بر الأمان، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة، فالاستخلاف في جوهره أن تملك القوة لتحقيق رسالة!

في الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[البخاري، مسلم]

والمرأة مستخلفة في مال زوجها وفي أولادها، ولذلك في الحديث:

((اِنْصَرِفِي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ، وَأَعْلِمِي مَنْ خَلْفَكِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ إِحْدَاكُنَّ لِزَوْجِهَا تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ))

[البيهقي في شعب الإيمان عَنْ أَسمَاءَ بنْتِ يزيد الأنصارية في حديث طويل]

5 – التعمير والإصلاح:

ومن معاني الاستخلاف التعمير والإصلاح، عمارة الأشياء المادية، وإصلاح النفوس، فيجب أن تعمر الأرض، وأن تزرع، وأن تبنى فيها الأبنية التي يحتاجها الإنسان، فهذه عمارة مادية، ومع التعمير المادي صلاح النفوس، ورقيها، وتربيتها.

6 – العدل والطمأنينة:

ومن معاني الاستخلاف في الأرض أنْ يقام العدل والطمأنينة وأن يرتفع الإنسان إلى مرتبة الإنسان، لا أن يهبط إلى مستوى الحيوان، فالاستخلاف مهمة كبرى ينيطها الله سبحانه وتعالى بالأنبياء والمرسلين في حياتهم، وبمن ينوب عنهم بعد مماتهم.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ)

الأصل أن الله عز وجل حينما خاطب آدم، وقال للملائكة:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: الآية 30)

هذا استخلاف، فيجب أن يقيم هذا الخليفة العدل، وأن يرحم الناس، وأن يحقق مصالحهم، سيدنا عمر حينما عيّن والياً قال له: **<< ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ فقال هذا الوالي: أقطع يده، فأجابه عمر: إذًا، فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسدّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفّر لهم حرفتهم، فإذا وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، وإن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملا التمست في المعصية أعمالا، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية >>.**

وأن تنتبه لوجودهم في البيت، وأن تنتبه إلى أخلاقهم، وأن تنتبه إلى تربيتهم، فالرعاية الكاملة من معاني الاستخلاف، فليس كل إنسان يملك أن ينفذ أمره على الآخر، وحتى على مستوى الأسرة يعد مستخلفا، فالأب القاسي ليس مستخلفاً، إذ يكون مستخلفا إذا كان رحيماً، وحكيماً، وعالماً، وسعى إلى إصلاح هذه الأسرة، وإلى نقلها من الشقاء إلى السعادة وهكذا..

كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

في كلمة:

(الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

يشيع معنى الاستمرار، وكأن هذا قانون إلهي كلما ارتفع الإنسان إلى المستوى المطلوب استخلفه الله عز وجل، وكلما ارتفع إيمان المؤمن إلى المستوى الذي يؤهله أن يكون خليفة الله في الأرض، استخلفه الله في الأرض كما استخلف الذين من قبله، وكأن هذه الآية تشير إلى أن هذه سنة ثابتة من سنن الله عز وجل.

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ

وهو المنهج الإلهي الذي أنزله على النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

(سورة الحج: الآية 41)

فالأب في البيت أمره نافذ، وبإمكانه أن يأمر، وأن ينهى، وأن يجبر، وأن يسمح، وأن يمنع، وأن يغضب، وألا يغضب، فهو مستخلف كي يمكن دين الله في هذه الأسرة، فأتبع الله الاستخلاف بقوله تعالى:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

فما قيمة عظمة الدين من دون أن يكون مطبقاً، وممكّناً، وثابتاً، ومستقراً ؟ ما قيمة هذا الدين ؟ وأنت إذا قرأت تعليمات دقيقة جدا لآلة، ما قيمة هذه التعليمات إن لم تمكّن من تنفيذها ؟ فلو أنك أمام آلة معقدة، ومعك تعليمات دقيقة جدا، وإذا طبقت هذه التعليمات أعطت هذه الآلة أفضل مردود، فما قيمة هذه التعليمات إذا جاءك من يمنعك أن تنفذه ؟ فلا بد أن تكون طليق اليد في تنفيذها، حتى تؤتي هذه التعليمات أكلها، ومن هنا جاء قول الله تعالى:

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

إذاً: كأن الاستخلاف أن يعطي الله القوة كي يمكّن الدين

(الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

وحينما يؤدي الإنسان ما أمره الله به في جو مريح، وحينما لا يخشى في الله لومة لائم، وحينما يرتفع الناس جميعا إلى المستوى المطلوب، وحينما يصلي جميع الناس لا يخاف المصلي، وحينما يؤدي جميع الناس ما عليهم من زكاة، فلا يخشى أن يؤدي الزكاة وحده، حينما يصوم جميع الناس رمضان، لا يخشى صائم رمضان وحده، فمعنى التمكين في الأرض أن يكون هذا الدين ثابتا راسخا مطبقا بكل تفاصيله.

وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا

يبدو أن الخوف لابد منه، لأن فيه امتحانًا، يمتحن الله سبحانه وتعالى المؤمن بأن يخيفه من عدوه، فإذا ثبت، وأصر على إيمانه، ولم تهزه هذه الفتن عندئذ يستحق التمكين، ولذل قيل لسيدنا الشافعي: أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء ؟ قال رضي الله عنه: **" لن تمكن قبل أن تبتلى "**، وهذا القول دقيق جداً.

ومن البلاء أن تخاف، قال الله عز وجل:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة: الآيات 155-157)

سيدنا موسى..

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

(سورة القصص: الآية 21)

أحيانا يبتلى الإنسان بأنه يخاف، فيمتحن الله بهذا الخوف إيمانه ؛ هل ينقص عن عقيدته ؟ وهل يرتد عن دينه ؟ هل يبتعد عن طاعته لله عز وجل ؟ وهل يسقط في هذا الدرب، أم يبقى ثابت الجأش، واضح الهدف، ثابت القدم ؟

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

أَطِعْ تُمَكَّن، واستقِمْ تُستَخْلَف:

بشكل أو بآخر، كأن هذا عقد بين الله سبحانه وتعالى خالق العباد، وبين العباد أنفسهم، فعلى الله سبحانه وتعالى أن يستخلف هؤلاء في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا.

أما على الفريق الثاني ؛ وهم العباد فعليهم أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، فلو أن الفريق الثاني أخلّ بما عليه، فالفريق الأول في حِلٍّ من وعوده الثلاثة.

وشيء ثان: أن الله سبحانه وتعالى أضاف الدين إلى الناس.. فقال سبحانه:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)

(سورة المائدة: الآية 3)

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ

إضافة الدين إلى الناس، كما قال بعض علماء التفسير هي إضافة تشريف، فربنا سبحانه وتعالى شرفنا بأن أضاف هذا الدين إلينا.

من شروط التمكين:

الشرط الأول: العبادة الصحيحة: يَعْبُدُونَنِي

الحقيقة أن تعبده هو ثمن الاستخلاف، وأن تعبده ثمن تمكين دينك في الأرض، وأن تعبده ثمن الطمأنينة التي تطمح إليها، من أجل أن تكون مستخلفا، وأن يكون دينك ثابتا، وأن تكون مطمئنا فلا بد أن تعبده، والعبادة أن تنصاع إليه في كل أوامره ونواهيه، فهذا الذي يطيع الله في كل شيء ؛ في علاقته بنفسه، وفي علاقته بربه، وبالإنسان، ومع غير الإنسان، هذا الانصياع التام لتنفيذ أوامر الله عز وجل هو العبادة، لكن هذه العبادة لا تصح إلا إذا سبقتها معرفة يقينية، ولذلك فمعرفة الله أولاً، اعرف الله، ثم اعبده، وما الدين في حقيقته إلا معرفة وعبادة.

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: الآية 32)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف: الآية 110)

ويأتي في القرآن في أماكن عديدة:

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

العبادة هي الطاعة، ومعرفة الله هي الإيمان.

الشرط الثاني: عدم الإشراك: لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا

لكن ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

فكلمة شيء هي أنكر النكرات، فهي أي شيء مهما صغر، فإنه شيء، ومهما كبر فإنه شيء.

إذا:

(لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

الشرك والعبادة الخالصة ضدّان لا يلتقيان:

ما الذي يتناقض مع العبادة ؟ الشرك، فمَن عبد غير الله فقد أشرك بالله ؟ ومن خاف من غير الله، ومن أرضى غير الله، ومن أحب غير الله، ومن مال إلى غير الله، ومن سعى إلى غير الله، ومن اطمأن إلى غير الله، ومن اتكل على غير الله، هذا كله شرك، فأي شرك مهما كان صغيرا ينقض العبادة، ولذلك كلما أمرنا ربنا عز وجل بالعبادة ينهانا عن الشرك، ليؤكد لنا أن الشرك مهما كان صغيرا فإنه ينقض العبادة قال عزوجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

(النساء: من الآية36)

وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ

الذي يكفر، وينحرف عندئذ لا يستحق الاستخلاف والتمكين في الأرض، ولا شيئاً من هذا القبيل.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

ثم قال تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

إنّ طاعة النبي عليه الصلاة والسلام هي طاعة الله عز وجل عينها، لقول الله عز وجل:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: الآية 7)

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

أين الصيام ؟ وأين الحج ؟ قال بعض العلماء **" إقامة الصلاة أداء لحق الله، وإيتاء الزكاة أداء لحق العباد "**، فكأن الدين فيه شيئان أساسيان ؛ أداء لحق الله، وأداء لحق العباد،

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

وفي آية أخرى في سورة مريم:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

(سورة مريم: الآية 31)

وكثيرا ما تأتي الصلاة مع الزكاة، وكأنها إشارة إلى أن الصلاة تمثل العبادات، وأن الزكاة تمثل المعاملات، وهناك حقوق لله عليك يجب أن تؤدى، وهناك حقوق للعباد عليك يجب أن تؤدى..

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ

هذه الآية لها علاقة وشيجة بالآية السابقة:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

فقد يأتي على المؤمن خاطر: كيف يستخلفني الله في الأرض، وعدوي قوي مكين ؟ وكيف يستخلفني الله في الأرض، وأنا لا قِبَل لي بعدوي ؟ حينما فتح المسلمون بلاد قيصر وكسرى، وهما قوتان كبيرتان في ذلك الوقت، وهما يشبهان إلى حد كبير القوتين الكبيرتين في العالم اليوم، فكيف بفئة قليلة مستضعفة في أرض الحجاز تستطيع أن تفتح هاتين الدولتين العظيمتين الراسختين القويتين ؟ وقد يأتي هذا الوعد مغايرا لما ألفه الناس، وربما لا يصدق الناس وعد الله عز وجل، قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يا عدي بن حاتم، لعلك إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم ؟ وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم، حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ؟ وايم الله، ليوشكن أن ترى القصور البابلية مفتحة للعرب المسلمين))

فربما لا يصدق الإنسان أن فئة مؤمنة لا تزيد على ألفين أو ثلاثة من المؤمنين الصادقين مع النبي عليه الصلاة والسلام، هذه الفئة سوف تكتسح الشرق والغرب، ولذلك طمأن ربنا عز وجل المؤمنين فقال:

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)

إنهم باقون بأمر الله، فلو أن مشيئة الله عز وجل شاءت أن يضعفوا لضعفوا.

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

إن الأب قوي بحسب الأعراف الاجتماعية، وبيده السلطة، وبإمكانه أن يطلق زوجته، وبإمكانه أن يضرب أولاده ضربا قاسيا، وأن يرحمهم بإمكانه، وأن يعطي واحداً دون الآخر، وأن يعدل بينهم، فحينما يكون الأب مستخلفا، فهذا شيء، وحينما يكون الأب مبتلى، فهنا شيء آخر، فمن كان أبا، وآتاه الله قوة، ولم يحقق العدل بين أفراد أسرته، ولم ينتقل بأفراد الأسرة إلى السعادة في الدنيا والآخرة فليس مستخلفا، ولكنه مبتلى، أيْ ممتحن، فإذا أدى الامتحان على الوجه المطلوب صار مستخلفا، فالاستخلاف شيء، والابتلاء شيء آخر، وهذا المعنى يشبهه معنى آخر ؛ وهو أن المال ليس نعمة إلا إذا أنفقته في طاعة الله، بل هو ابتلاء، والزوجة قبل أن تقودها إلى الإيمان ابتلاء، فقد تبتلى بها، وقد تفتتن بها، أما إذا أخذت بيدها إلى الله عز وجل فعندها تصبح نعمة، فالقوة، والمال، والعلم، هذه الأشياء تكون تارة

نعمة، وتكون تارة ابتلاء، فالأب في بيته لا يسمى مستخلفا إلا إذا حقق رسالة الدين في أفراد أسرته، وعندئذ تنطبق عليه الآية الكريمة:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ)

من أجل أن يمكن الله بهم دينه، فإذا مكن الله بهم دينه كانت الطمأنينة محل الخوف، ففي هذه الآيات الاستخلاف يتسع، ويتسع فيشمل الأمة، ويضيق، ويضيق فيشمل الأسرة، وكل واحد منا مستخلف، فالمعلم في صفه مستخلف، وهؤلاء أطفال وضعهم الله بين يديك، فما معنى أنك مستخلف ؟ أيْ أن الله جعلك نائبا عنه في معاملتهم، هل تضربهم، أم ترحمهم ؟ إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي، فالإنسان مستخلف في عمله، أنت معلم جعلك الله خليفته على هؤلاء الصغار، وأنت طبيب جعلك الله خليفته على هؤلاء المرضى، وأنت موظف جعلك الله خليفته على هؤلاء المراجعين، فهل تنصف بينهم ؟ وهل ترحمهم، أم تضع العراقيل في وجوههم، فالاستخلاف شيء مخيف جدا، فكل إنسان في عمله مستخلف، أيْ ممتحن، فإذا كان يملك قوة في عمله كرئيس دائرة، عنده خمسة موظفين، وبإمكانه أن يؤذي واحداً منهم، وأن ينفع واحداً، فهو مبتلى إن لم يعدل بينهم، ومستخلف إن عدل بينهم، فصار الاستخلاف ليس معناه أن تكون قويا، بل أن تستخدم هذه القوة في إحقاق الحق، وفي تمكين دين الله، وفي إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وفي رفع الإنسان إلى المستوى الرفيع الذي خلق من أجله، هذا هو الاستخلاف، فلا يظن الإنسان نفسه معفى من الاستخلاف ؛ فالأب مستخلف، والابن مستخلف مع إخوته الصغار، فقد يموت الأب، ويُخلف خمسة أولاد، أحدهم كبير، فهذا الكبير مستخلف، فهل يأخذ المال كله له ؟ أم يعطي إخوته بالعدل والدقة ؟ وهل يقسو عليهم، أم يرحمهم ؟ فالأخ مستخلف، والموظف مستخلف، والطبيب مستخلف، والمحامي مستخلف مع موكليه، والمعلم مستخلف، والمهندس مستخلف، فهذا البناء هل أعطيته حقه ؟ وهل أنصفت ؟ فالقوة إن لم ترافقها الحكمة، والرحمة، والعدل تصبح بلاء، وليست استخلافاً..

التطبيق العملي لآية الاستخلاف:

وعلى كلٍّ، فهذه الآية لها تطبيق عملي، وهو أن تعرف ما لك، وما عليك، وأن تؤدي حق الله، وحق العباد، لتنجو من العذاب، فمثلا يقال: فلان مسؤول، فما معنى مسؤول ؟ هل يخفى على الإنسان معنى مسؤول ؟ الله سيحاسبك، وفلان مسؤول بهذه الجهة، وبهذه الدائرة، وبهذه المستشفى، فهذا الطبيب مسؤول عن التخدير، فإذا كلف واحداً أقلّ منه، ووقع حادث، فالله يُحاسبه، فكثير من حالات الوفاة تأتي من عدم استخدام القواعد الدقيقة في التخدير، فيموت المريض، وهذا المسؤول عن التخدير يحسب نفسه

موظفاً كبيراً بالتخدير، لا ! فالله سيحاسبك عن كل مريض، وهل أحسنت القيام بواجبه ؟ فكلمة مسؤول تعني أنك مسؤول على مستوى موقعك، أنت معلم ابتدائي مسؤول، لماذا ضربت هذا الطفل الصغير من دون تحقيق ؟ وهذا الطفل اشتكى لك، فضربت الاثنين معا، وأنت غاضب، وأنت مسؤول، فكلمة مسؤول مخيفة، وليست سهلة.

فلذلك الآية الكريمة اليوم:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (21-23): تفسير الآيتان 58 – 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-02-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي والعشرين من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

دقة التشريع الإسلامي وتنوّعه:

أول شيء يلفت النظر أن في هذه الآية تشريعاً دقيقاً، وما من تشريع وضعي يصل إلى حركة الإنسان في بيته، فالإسلام نظام كامل، فيه أحكام السلم، وأحكام الحرب، وفيه نظام المعاهدات، وفيه أحكام دار الإسلام، وأحكام دار الأمان، ودار الحرب، ونظام كسب المال، وإنفاق المال، ونظام الأسرة، وعلاقات اجتماعية، وأنواع منوعة من الأوامر والنواهي، أما أن يصل هذا النظام الدقيق إلى أخص خصوصيات الإنسان، وأن يدخل هذا النظام الدقيق إلى بيته لينظم حركة الزوج، والزوجة، والأولاد بين غرف البيت، فهذا نظام من أدق الأنظمة، ومن أشدها شمولاً، وموافاةً لاحتياجات الإنسان، إنه شيء عجيب أن يصل الأمر إلى آداب استئذان الأولاد على آبائهم وأمهاتهم.

ولكن لا عجب، فهذه الآية حيث ختمت بقوله:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

بكم، وبخصائصكم، وبما يصلحكم، ويرقى بكم، ويسمو، إنه حكيم في تشريعه، ولعكم تذكرون أن في هذه السورة موضوعات عديدة، من هذه الموضوعات أحكام الزنى، وكيف بدأت بقوله تعالى:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)

(سورة النور: الآية2)

وكيف انتقلت هذه الآيات من موضوع الزنى إلى موضوع رمي المحصنات، ومن رمي المحصنات إلى إقامة الحد على الزنى، إلى حديث الإفك كتطبيق عملي، وإلى التدابير الاحترازية التي تمنع من الزنى، وإلى آداب الاستئذان، ومن آداب غض البصر، ومن أحكام إبداء الزينة، والآن ونحن في البيوت

فيما بين الزوج وزوجته، وفيما بين الأولاد، وآبائهم، وأمهاتهم تأتي أحكام دقيقة لتبين أن هذا التشريع من عند خالق الإنسان.

عموم الخطاب القرآني: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة النور: الآية58)

وأيُّ آية يخاطب بها المؤمنون فالمؤمنات يخضعن لهذا الأمر على مبدأ التغليب الذي كثيرا ما يَرِد في كتاب الله، والله سبحانه وتعالى إذا خاطب الذكور فمما يعنيه هذا الخطاب الإناث، وهذا مبدأ معروف لدى علماء اللغة، فلو دخل أربعون طالبةً وطالبًا واحد نقول: دخل الطلاب، على مبدأ التغليب ؛ تغليب الذكور على الإناث.

فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

من آداب وأحكام الاستئذان:

فإذا كان على الرجل أن يأمر ابنه ألا يدخل عليه في بعض الأوقات فجأة من دون استئذان، فلأن تؤمر المرأة بهذا الأمر من باب أولى، لأن تكشف الرجل أخف من تكشف المرأة، ولذلك كانت المرأة معنية بهذه الآية، من مبدأ ثابت هو من باب أولى، كيف أن الله سبحانه وتعالى قال:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا)

(سورة الإسراء: الآية23)

فإن نهي الإنسان عن قول كلمة (أُفٍّ) لأمه أو أبيه، أو لهما معا نهي ثابت، فلأن ينتهي أن يوقع بهما الأذى من باب أولى، وقد يقول قائل: ليس في القرآن كله آية تنهى عن ضرب الآباء والأمهات ! نقول له: إذا كانت كلمة (أُفٍّ) قد نهى الله عنها، فما فوق (أُفٍّ) منهي عنها من باب أولى.

فإذا كان على الرجل، وهو في غرفة نومه أن يأمر أبناءه ألا يدخلوا عليه في أوقات مخصوصة إلا باستئذان واضح، فلأن ينطبق هذا الحكم على المرأة ومن باب أولى، لأن تكشف الرجل أخف من تكشف المرأة، لكن القرآن الكريم في بعض الآيات الأخرى يخاطب الذكور على وجه الخصوص، وحينما يخاطب الذكور على وجه الخصوص فهناك قرينة تؤكد ذلك، فالله سبحانه وتعالى يقول مثلا:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: الآية30)

فهذه خاصة بالمؤمنين الذكور وحدهم..

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ)

(سورة النور: الآية30 - 31)

فهناك أمر خاص بالرجال، وهناك أمر خاص بالنساء، أما إذا لم يكن هناك قرينة تصرف الحكم ؛ والأمر والنهي إلى جنس معين، فكل الآيات القرآنية التي يخاطب بها الرجال يخاطب بها النساء من باب التضمين، فالمرأة مضمنة في هذا الخطاب.

وكما أنها مضمنة في أي خطاب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

تربية غير البالغ:

لماذا قال ربنا سبحانه وتعالى:

(لِيَسْتَأْذِنْكُمْ)

بينما بعد آيات أخرى يقول:

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا)

لماذا أسند هذا الفعل إلى الأطفال في الآية الثانية، ولم يسند في هذه الآية إلى الأطفال؟

الجواب: أن الأطفال ذكوراً وإناثاً إذا كانوا دون سن البلوغ، أو دون سن الحلم ليسوا مخاطبين، وليسوا معنيين، وليسوا مكلفين، لكن الذين يخاطبون عنهم أولياؤهم ليربوهم هذه التربية، ففي قوله تعالى:

(لِيَسْتَأْذِنْكُمْ)

فأيُّ مرسوم تشريعي لا يمكن أن يتجه إلى الصغار دون السن المقبول، لكن الآباء مسؤولون عن أبنائهم، وربنا سبحانه وتعالى حينما أسند هذا الفعل إلى المؤمنين المخاطبين تبين أن الأطفال دون سن البلوغ ليسوا مكلفين، وليسوا مخاطبين، فهل معنى ذلك أن نعفيهم من العبادات ؟

أَمْرُ غير البالغ بالصلاة والحكمة مِن ذلك:

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

[أبو داود]

والسبع والعشر دون سن البلوغ، فهل يعقل أن تدع هذا الطفل بلا صلاة، وبلا صيام إلى سن الثامنة عشرة، وبعد ذلك تأمره أمراً قطعياً ؟ إنه لن يفعل ذلك، فجميع الأوامر التي لا يكلف بها الصغار، على أولياء الأمور أن يكلفوهم بها كي يعتادوا عليها، وهذا مبدأ في الشرع، فالصلاة يحاسب عليها الإنسان إذا بلغ الحلم، ولكن قبل هذا التاريخ على الأب أن يأمر أولاده بالصلاة إذا بلغوا سبع سنين، وأن يضربهم عليها إذا بلغوا عشرا، وهكذا تأديب الله سبحانه وتعالى، وهاكَ بعضًا مِن سير السلف الصالح في هذا الموضوع..

فعن زين العابدين أنه كان يأمر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعا، والمغرب والعشاء جميعا، أيْ لهم استثناءات، فقيل له: يصلون الصلاة في غير وقتها ! فقال: هذا خير من أن يتناهوا عنها، فهذا الطفل الصغير سهل عليه الأمر نوعا ما كي يألف الصلاة، وإذا كان هناك ضيق فكلفه أن يصلي الفرض، وإذا كان هناك تكاسل فكلفه أن يجمع بين المغرب والعشاء، وبين الظهر والعصر من أجل أن ينشأ معتادا على الصلاة، ولذلك عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

[أبو داود(495)]

ولا تنسوا ذاك الأثر: **" لاعب ولدك سبعا وأدبه سبعا وراقبه سبعا ثم اترك حبله على غاربه ".**

فمن السنة الأولى إلى السابعة يجب أن تلاعبه، ويجب أن يحبك، وأن يألفك، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مَنْ كَانَ لَهُ صَبِيٌّ فَلْيَتَصَابَ لَهُ))

[الفردوس بمأثور الخطاب عن معاوية]

وعن جابر رضي الله عنه قال:

((دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعَةٍ، وَعَلَى ظَهْرِهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ يَقُولُ: نِعْمَ الْجَمَلُ جَمَلُكُمَا، وَنِعْمَ الْعِدْلانِ أَنْتُمَا))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير]

لاعب ولدك سبعا، وأدبه سبعا، فمن السابعة وحتى الرابعة عشرة يجب أن تؤدبه على كذبة، على أخذ ما ليس له، على خرق لبعض العادات، والتقاليد الإسلامية، ومن الرابعة عشرة وحتى الواحدة والعشرين راقبه، وبعدئذ اتخذه صديقا، وبعد ذلك اترك حبله على غاربه.

إنّ الأوامر التي يكلف بها الكبار الراشدون في المصطلح الحديث، أو البالغون في المصطلح الفقهي، هذه الأوامر يجب أن يؤمر بها الصغار، لا على أنهم مكلفون، ولا على أنهم معنيون بالخطاب في القرآن الكريم، لكن لأنهم يجب أن يتعودوا عليها، فهل يعقل أن تدع ابنك بلا صيام سنوات وسنوات، فإذا بلغ الخامسة عشرة من عمره تأمره بالصيام ؟ ربما لا يستطيع، وربما لا يصوم، فلابد أن تأمره بالصيام في سن مبكرة، ولابد أن تأمره أن يصوم نصف يوم، وبعدئذ يرتقي إلى اليوم الكامل، وبعدئذ يفطر، ويصوم إلى أن يصوم رمضان بأكمله.

لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ

معنى الحلم وسنه:

الطفل يبقى طفلا إلى أن يحتلم، والاحتلام معروف، وكأن ربنا سبحانه وتعالى جعل هذه علامة على بلوغه سن التكليف، فالاحتلام للذكر، والحيض للأنثى، فإذا احتلم الصبي، وحاضت الأنثى فقد بلغا سن الحلم، ولكن كل منطقة في الكرة الأرضية بحسب طبيعة الجو لها سن تقرر الوقت المناسب للبلوغ، فلو أن الأمر هكذا لضاع علينا من قبيل هاتين الإشارتين، فلابد من سن زمنية تحدد البلوغ والتكليف، وأكثر العلماء أجمعوا على أن سن الخامسة عشرة هي سن البلوغ، وسن التكليف، وبعض العلماء قال: السابعة عشرة للإناث، والثامنة عشرة للذكور، وعلى كل إما أن نعتبر الاحتلام للذكور، والحيض للإناث، أو أن نعتبر سن الخامسة عشرة كسن ثابتة للتكليف، أو أن نأخذ بقول بعض العلماء من أن سن السابعة عشرة للإناث، وسن الثامنة عشرة للذكور، هذان السنان هما الفيصلان في التفريق بين سن ما قبل التكليف، وسن ما بعد التكليف.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ)

طبعا هذا حكم خاص، وآيات الاستئذان التي وردت قبل عدة أسابيع حكم عام، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29))

هذه الأحكام أحكام الاستئذان عامة لكل الناس البالغين، وهذه الآيات التي نحن بصددها أحكام خاصة، متعلقة بالصغار الذين لم يبلغوا الحلم، أو أن الآيات الأولى آيات الدخول إلى البيوت، والآيات الثانية آيات الآداب في التحرك ضمن البيت الواحد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ)

أوقات الاستئذان:

فقبل صلاة الفجر، وبعد الظهيرة، وبعد صلاة العشاء هذه الأوقات الثلاثة سماها القرآن الكريم عورة لماذا ؟ لأن الإنسان في هذه الأوقات قد يضطر إلى تبديل ثيابه، أو قد يضطر إلى التخفيف منها، أو إلى أن يكون مع أهله، فإما أن يبدل ثيابه، وإما أن يتخفف منها، وإما أن يكون مع أهله، فأغلب الظن أن حفظ العورة يكون أقل انضباطا في هذه الأوقات منه في بقية الأوقات، ولذلك فهذا الوقت الذي يتخفف فيه المؤمنون من ملابسهم، أو يخلعونها ليرتدوا ثياب النوم، أو ليلتقوا مع أهليهم، هذه الأوقات الثلاثة سماها القرآن الكريم عورة، لأنه غالبا تنكشف فيها العورات، وغالبا ما يكون حفظ العورات في هذه الأوقات أقلّ انضباطا من حفظها في بقية الأوقات، فإذاً لهذه الأوقات الثلاثة أحكام خاصة..

سبب نزول الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

وقد قال القرطبي في تفسيره: **" يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الأنصار يقال له مدلج إلى عمر بن الخطاب ظهيرة ليدعوه، فوجده نائما، وقد أغلق عليه الباب، فدق عليه الغلام الباب، فناداه، ودخل، فاستيقظ عمر، وجلس فانكشف منه شيء، فقال عمر: وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول إلينا في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآيات قد أنزلت فخر ساجدا لله تعالى".**

[تفسير القرطبي]

وهذه بعض من موافقات عمر، فقد كان يتمنى شيئا، فإذا بالوحي ينزل به، ويصدقه، حتى إن بعض مؤلفي السيرة كتب كتابا سماه: **" موافقات عمر"**، وهذا من موافقات عمر، وسيدنا ابن عباس رضي الله عنه يقول: **" إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل، والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحدا يعمل بذلك بعد ".**

[تفسير القرطبي]

وهذا من أدب الأولاد مع أوليائهم، ومع آبائهم.

إن هذا الأمر بالوجوبِ، وبعضهم قال: أمر بالندب، وبين الوجوب والندب درجة، أعلى من درجات الأمر، فالوجوب يأتي بعدها الندب، ولكن بعض العلماء المحدثين فصلوا متى يكون هذا الأمر واجبا، ومتى يكون هذا الأمر مندوبًا ؛ ففي العصور السابقة لم يكن للأبواب أقفال وأغلاق، فكان الباب يمكن أن يفتح من الداخل، ففي مثل هذه الحالة يعد أمر الاستئذان أمرا بالوجوب، أما إذا أغلق الباب بالقفل فعندئذ يصبح هذا الأمر أمراً بالندب، لأنه غالبا لو دخل الطفل من دون استئذان لن يستطيع أن يفتح الباب حتى يفتح له أبوه أو أمه، فهذا الأمر بين أن يكون أمرًا بالوجوب، وبين أن يكون أمرًا بالندب، فإن الله يحب الستر، ومن أسمائه، "السِّتِّير"، وفي الحديث عَنْ يَعْلَى:

((أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَأى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ بِلَا إزَارٍ، فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمّ قالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ))

[أبو داود]

وفي رواية أحمد:

((فَلْيَتَوَارَ بِشَيْءٍ))

وحتى إن فطرة الإنسان تقتضي ذلك، وبعض الحيوانات لا تحب أن تلتقي ذكرانها مع إناثها على مرأى من الناس إلا الخنازير، لكن هناك حيوانات كثيرة تأبى أن يراها أحد، وهي مع أنثاها، فكيف بالإنسان المكرم الذي سخر الله له الكون من أجله ! إذًا هذا شيء ينسجم مع الفطرة.

وإن امرأة من بلاد الغرب، وهي في أشد حالات التبذل سألوها مرة عن عملها فقالت: إن لها عملاً ترتزق منه عن طريق عرض مفاتنها على الناس، فقالت مرة: إني أشعر بالخزي والعار، وأنا أقف أمام الناس، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الناس، وإن الأمر يجب أن يبقى بين الزوجين، وفي غرف مغلقة، وهذه هي الفطرة، فالإنسان الراقي المؤمن الذي استيقظت فطرته، ولم تنطمس بفعل الشهوة يأبى إلا أن يكون مبالغا في الستر فيما بينه وبين أهله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ)

وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

بعضهم قال: سمي سن الحلم حلما لأن الإنسان في هذه السن يغلب عليه الحلم، فإذا كان طائشا، أو أرعن، أو ذا حركة غير مقبولة ففي هذه السن يصبح أقرب إلى الحلم منه إلى الطيش.

(ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)

أيْ في ثلاثة أوقات..

(مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ)

من استنباطات هذه الآية:

1 - ارتداء اللباس المحتشم أمام الأولاد في غير هذه الأوقات الثلاثة:

هناك معنى مخالف، أو يسميه بعض الناس المعنى العكسي ؛ إذا كان محرما أن يدخل عليك ابنك، وأنت في غرفتك الخاصة تتهيأ للنوم، أو تخلع ثيابك، أو تتخفف منها، فماذا ينبغي أن تكون حالتك مع أولادك في غير هذه الأوقات الثلاثة ؟ هذا استنباط، إذا ينبغي أن يكون الاحتشام، وارتداء الثياب الكاملة في البيت مظهرا يعبر عن الانضباط الخلقي، والانضباط الاجتماعي في هذا البيت.

إذاً ما دام الله عز وجل لا يرضيه أن يقوم الرجل في البيت أمام ابنه، وهو متخفف من ثيابه، أو يخلعها، أو يتهيأ للنوم، فمن باب أولى أن الأوقات الأخرى يجب أن يكون بلباس كامل لا يبدي شيئا من عورته، فما بال بعض الناس، وهم في بيوتهم، فلا المرأة تنضبط في لباسها أمام أولادها الكبار، ولا الرجل ينضبط في لباسه أمام بناته الصغيرات ! إن هذه الفوضى في ارتداء الثياب في البيت ليس من الدين في شيء، والنبي عليه الصلاة والسلام استأجر أجيرا، ورآه يغتسل عريانًا، فقال عليه الصلاة والسلام:

((خذ أجارتك لا حاجة لنا بك فإني أراك لا تستحي من الله))

2 - وجوب كون لباس البيت ساترًا للعورة:

فماذا يستنبط أيضا ؟ اللباس في البيت يجب أن يستر العورة، لئلا تنطلق أذهان الصغار إلى شعور مبكر، أو إلى تحسس معين، أو إلى وعي هم في غنى عنه، ولذلك فعلماء النفس يقولون: إن الصغار إذا اطلعوا على عورات الكبار في سن مبكرة، فربما خلف ذلك في نفوسهم بعض العقد، أو ربما سبب لهم

وعيا مبكرا في موضوعات لا ينبغي أن يعرفوها في ذاك الوقت، أو ربما سبب لهم انحرافا لأنهم لا يستطيعون أن يعبروا عن حاجاتهم في وقت مبكر، فحينما يأتي القرآن الكريم ليشرع لنا في علاقات الأبناء مع آبائهم في حركاتهم في المنزل، فالله عليم حكيم، عليم بالنفوس، حكيم بالتشريع.

ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ

معنى العورة:

ما تعريف العورة ؟ قال العلماء: **" العورة هي كل شيء لا مانع دونه"** استُنبط هذا المعنى من قوله تعالى:

(إِنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ)

(سورة الأحزاب: الآية13)

أيْ بيوتنا مكشوفة، وليست محمية، وليست محصنة، فالعورة هي كل شيء لا مانع دونه، والعورة كل شيء غير محفوظ، وكل شيء يستره الإنسان، ويستحي من انكشافه، فهذه المعاني كلها توضح معنى العورة، فبحسب السياق حينما يتخفف الإنسان من ثيابه، قد يبدو منه ما لا ينبغي أن يبدو منه، فقد يرى ابنه منه ما لا يستحسن أن يراه منه، إذا هو في حالة عورة، فهن

(ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنّ)

إذاً لا يجوز في غير هذه الأوقات أن يتبذل الإنسان في ثيابه في الصيف، ولا في الشتاء.

اتخاذ الاحتياط اللازم لدرءِ كشفِ العورات:

وهناك شيء آخر: لو اضطر الإنسان لخلع ملابسه في غير هذه الأوقات، الساعة العاشرة مثلا، هل هو معفى من إغلاق الباب ؟ طبعا لا، لأن الله سبحانه وتعالى علل هذا الحكم الفقهي بعلة كشف العورات، لماذا العلة ؟ هذا التشريع معقول، فالله سبحانه وتعالى بين لك أسباب التشريع، والسبب انكشاف العورة.

إذاً لو اضطر الإنسان إلى أن يرتدي ملابسه، أو أن يخلعها في وقت غير هذه الأوقات فينطبق عليه حكم العورات في هذه الآية، إذاً من الأخلاق الإسلامية الرفيعة أن تغير ثيابك في غرفة نومك، وأن ترتج الباب قبل أن تبدأ بذلك، وكذلك الحمام، والغرف التي لها شأن خاص في البيت يجب أن يكون لها إرتاج حتى تنطبق هذه الآية بشكل دقيق.

والآن لو أن هذا الطفل الصغير دخل إلى غرفة أمه وأبيه في غير هذه الأوقات، وكان الأب متبذلا في ثيابه، فاللوم وحده على من ؟ على الأب، لأن الطفل الصغير في البيت مسموح له أن يطوف على أمه وأبيه في كل وقت، عدا هذه الأوقات الثلاثة، ففي هذه الأوقات لابد من الاستئذان، وفي غير هذه الأوقات يسمح له الطواف، وهذا الذي أرادته الآية الكريمة من الانضباط في الملبس فيما بين أفراد الأسرة الواحدة.

طوّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ

أما قوله تعالى:

(طوّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

بيوتنا عورة، فأنت أيها الأب لك الحق أن تفتح غرفة ابنك من دون استئذان في غير هذه الأوقات، وعندما تكون غرفة الابن معرضة كي تفتح في أي وقت فيما عدا هذه الأوقات، فإن هذا مما يدعو إلى انضباط الابن، فإذا دخلت عليه غرفته في غير هذه الأوقات، فلك الحق أن تدخل عليه أيضا من دون استئذان، كما أن له الحق أن يدخل عليك إذا كان صغيرا من دون استئذان، ولك الحق أن تدخل عليه غرفته من دون استئذان في غير هذه الأوقات، لقوله تعالى:

(طوّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

من استنباطات الآية:

1- جواز تخفيف المسلم ثيابه عند النوم:

شيء آخر ؛ استنبط العلماء من هذه الآية أنه يحق للمرء أن يتخفف من ثيابه عند النوم، وهو ليس مؤاخذا، ولا عاصيا لله عز وجل إذا ترك بعض ثيابه، ونام بثياب خفيفة، وهذا استنباط من هذه الآية.

2 – الأحكام الشرعية مبنية على المصلحة:

وشيء آخر ؛ أحكام الشرع مبنية على المصلحة، والإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول: **الله سبحانه وتعالى جعل أحكامه الشرعية معللة بمصالح خلقه، فأي حكم شرعي يعود الخير كله على مطبقه في الدنيا والآخرة "**، فإذا طبقت هذه الأوامر فلمصلحتك، ولصالحك، وكأن هذه الأوامر علاجات ربانية

لهذه النفوس التائهة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ)

فهذه آيات تشريعية، وهناك آيات كونية، وآيات في العقيدة، فهذه الآية من ضمن آيات الأحكام.

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

وجوب استئذان الطفل البالغ: وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا

هنا الفعل أضيف إلى هؤلاء الأطفال الذين بلغوا الحلم فأصبحوا مكلفين، ومخاطبين، ولم يقل الله عز وجل: وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوكم، بل فليستأذنوا، فنسب هذا الفعل إليهم.

(كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

1- أمر الآباء أبناءَهم بالاستئذان:

وبعض الاستنباطات المأخوذة من هذه الآيات كما أمرنا الله بهذه الأوامر، أمرنا أن نأمر بها أبناءنا، فلو أن الأبناء لم يؤمروا بها، واخترقوها فالمسؤولية وحدها تقع على الآباء، أما إذا أمروا بها، وخالفوها فالمسؤولية تقع عليهم، ويجب أن ينالوا جزاء عملهم، فلا يعاقب الابن على مخالفته لهذه التعليمات إلا إذا بينت له، ووضحت، وفسرت، وأصبحت واضحة لديه، فإذا خالفها يستوجب العقاب، أما إذا لم يخالفها، ولم تتضح له، وفوجئ الأب بالابن وهو في غرفته، فهو المسؤول، وهو المقصر عن ذلك، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم: الآية6)

فهذه الآيات المتعلقة بالأهل تنضوي تحت هذه الآية:

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

وبعض العلماء قالوا: **" إذا بلغ الصغير عشر سنين كتبت له الحسنات ولا تكتب له السيئات حتى يحتلم "**، ومن فضل الله وكرمه أن الصغار إذا فعلوا الحسنات تكتب لهم، وقبل أن يبلغوا الحلم هم

معفَون من تسجيل السيئات، والآن هؤلاء الصغار لمجرد أن يبلغوا الحلم انطبقت عليهم آيات الكبار، والكبار لا ينبغي أن يدخلوا على أهليهم إلا باستئذان في كل مرة.

2- عدم جواز دخول الابن البالغ على أمه أو أبيه إلا بالاستئذان:

وهناك حكم آخر ؛ شاب في العشرين من عمره لا ينبغي أن يدخل على أمه وأبيه إلا باستئذان طوال النهار، وهكذا التوجيه النبوي والقرآني، وهناك حديث يوضح هذه القاعدة، فلو أن في بيت الإنسان أختًا كبيرة في السن، أو شابة وهو يرعاها، وينفق عليها فلا ينبغي أن يدخل عليها إلا باستئذان، ففي أوقات ثلاثة هذه للصغار، أما الكبار فحُكمهم:

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

وجوب غيرة المسلم على الأعراض:

ذكرت هذا في آيات الاستئذان، كيف أن أحد أصحاب رسول الله سأل النبي عليه الصلاة والسلام في الدخول على أمه، فعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا، أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا))

[مالك في الموطأ]

ورجل آخر من أصحاب النبي سأله في الدخول على أخته قال: استأذن ؟ إذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا، لأنه تنطبق عليهم آيات الاستئذان التي مرت من قبل، ففي صحيح البخاري ومسلم حديث نبوي شريف يتصل بهذا الموضوع، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ))

[البخاري، مسلم]

فالغيرة من صفات المؤمن والديوث لا يشم رائحة الجنة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ الْجَنَّةَ، مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْعَاقُّ، وَالدَّيُّوثُ الَّذِي يُقِرُّ فِي أَهْلِهِ الْخُبْثَ))

[أحمد]

فهذا المتبذل، وهذا الذي لا يهتم بتغليق الأبواب، وهذا الذي لا ينزعج إذا رئِي على وضع لا يرضي الله، هذا ليس من الإيمان في شيء.

قال تعالى:

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

إذًا أصبحت هذه الآية معطلة إذا تجاوز الصغار سن البلوغ.

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61))

(سورة النور: الآيات 60-61)

هذه أيضا آيات دقيقة جدا إن شاء الله تعالى نشرحها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (22-23): تفسير الآيتان 60 – 61
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-02-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والعشرين من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

وَالْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا

معنى القواعد:

القَوَاعِدُ جمع قاعد، بالتذكير، والصفات التي تنفرد بها النساء لا تؤنث، تقول: امرأة طالق، وامرأة بكر، وامرأة ثيب، وامرأة قاعد، المرأة القاعد هي التي قعدت عن الزواج، أو قعدت عن المحيض، أو عن الولد، وهي المرأة التي يئست من الزواج، ولا مذهب للرجال بها، وهي الطاعنة في السن، والتي بلغت سنا لا مذهب لأحد إليها، هؤلاء هن القواعد، أما القاعدة في بيتها، فامرأة حامل في بطنها، حاملة على ظهرها، إذا أنثت صفة المرأة معنى ذلك أن الذكر والأنثى يشتركان في هذه الصفة، فإذا قلت: امرأة حامل أيْ في بطنها، أما إذا قلت: امرأة حاملة أي على ظهرها، وإذا قلت: امرأة قاعدة أي في بيتها، أما إذا قلت: امرأة قاعد أي قعدت عن المحيض، وعن الزواج، وعن الإنجاب، أي المرأة التي بلغت من الكبر عتيا، وبلغت سنا لا يطمح إليها أحد، فهذه المرأة لها حكم خاص.

(وَالْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا)

وكأن الله سبحانه وتعالى فسّر من هن فقال:

من هي المرأة القاعد ؟

(وَالْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ)

ماذا قال العلماء في تفسير هذه الآية ؟ قالوا: **" الصحيح أن هذه المرأة القاعد هي كالمرأة الشابة في التستر، فما يباح للشابة يباح للقاعد، وما لا يباح للشابة لا يباح للقاعد "**، هكذا ورد في تفسير

القرطبي الصحيح: أن المرأة القاعد كالشابة في التستر، لكنها سمح لها أن تضع الجلباب، ومعنى أن تضع أي أن تخلع الجلباب في بيتها، والجلباب هو الثوب الأخير الذي فوق الدرع وفوق الخمار، والجلباب كالعباءة تماما، فقال العلماء: **"هذا في بيتها فقط، فإذا خرجن إلى الطريق فينبغي لهن أن يلبسن هذه الثياب التي تغطي كل ثيابهن الأخرى "**، وكيف عرف العلماء ذلك ؟ بقوله تعالى:

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ)

ما معنى التبرُّج ؟

ما هو التبرج ؟ التبرج هو الظهور، وهو نقيضُ التستر، ومنه البارجة لأنها مرتفعة، ومنه برج القلعة، وهو أعلى مكان فيها، ومنه الأبراج، والبروج، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

[البروج: 1]

هذه النجوم المتألقة التي نراها في كل فصل، فمن قوله تعالى:

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ)

أي هؤلاء النسوة لا ينبغي لهن أن يتبرجن، وفي أدق ما قيل في هذه الآية ما ثبت من حديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ

((أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يَكْرَهُ عَشْرًا ؛ الصُّفْرَةَ، وَتَغْيِيرَ الشَّيْبِ، وَجَرّ الإزَارِ، وَخَاتَمَ الذّهَبِ، أوْ قَالَ: حَلْقَةَ الذّهَبِ، وَالضّرْبَ بِالْكِعَابِ، وَالتّبَرُّجَ بِالزّينَةِ فِي غَيْرِ مَحِلّهَا، وَالرُّقَى إلا بِالْمُعَوّذَاتِ، وَالتّمَائِمَ، وَعَزْلَ الْمَاءِ، وَإفْسَادَ الصّبِيّ مِنْ غَيْرِ أنْ يُحَرّمَهُ))

[أبو داود]

هذا مباح، ومطلوب، وواجب، أما الآية الكريمة:

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ)

أي غير ظاهرات للأجانب، وغير متعرضات لهم، وغير متبرجات بزينة، وأن يستعففن خير لهن، ولكن هذه المرأة القاعد المسنة، ولسبب ما إذا كانت في بيتها، ولظرف ما دخل عليها أجنبي، يعني البيوت متنوعة، قد يكون البيت غرفة واحدة، دخل رجل مثلا لإصلاح جدار، فلو دخل أجنبي إلى هذا البيت فيجب أن ترتدي هذه المرأة لباسها، وحجابها الكاملين، إلا أن العباءة ـ والتي هي الجلباب ـ وهو آخر ثوب تضعه المرأة على جسمها ربما سمح للمسنة ألا تضعه، وهي في بيتها إذا دخل أجنبي، أما أن تخرج إلى الطريق بشكل لا يرضي الله، فهذا من أنكر المنكرات، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنّ)

وهذه المرأة المتقدمة في السن هي قدوة، هذه المرأة التي أيس منها الرجال، وأيستْ من الزواج، إنها قدوة لبناتها، وحفيداتها.

(وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنّ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

استعفاف القواعد من النساء خير من وضع الثياب:

ربما كان هذا الثوب الأخير يسبب لها متاعب فمعها رخصة، أما أن تظهر الخلخال، والسوار، والقرط، والخضاب، وموطنها فهذا لا يجوز إطلاقا، لنص الآية الكريمة:

(غَيْرَ مُتَبَرّجَاتٍ بزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنّ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قال عطاء: **" هذا في بيوتهن فإذا خرجت فلا يحل لها وضع الجلباب ".**

[تفسير القرطبي]

وربما كان هناك حالات لا نعيشها نحن الآن، بيت مشترك بين أسر عديدة، أو بيت فيه غرفة واحدة، وربما كان هذا الحكم يناسب هذه الأحوال، قال عطاء: **" هذا في بيوتهن فإذا خرجت فلا يحل لها وضع الجلباب ".**

معنى وضع الثياب:

ومعنى وضع الجلباب أي خلعه، ومعنى في بيوتهن أي إذا دخل عليهن أجنبي، يعني هو الرخصة كلها، والذي هو محرم على الشابة محرم على المسنة، ولكن هذا الجلباب الأخير إذا كانت في بيتها، ودخل أجنبي ربما سمح لها الشرع أن تعفى من ارتدائه، والأولى أن ترتديه، لأنها قدوة لحفيداتها، ولبناتها في البيت، ومن التبرج كما يقول العلماء لبس ثوبين رقيقين يصفان حجم المرأة، أو حجم أعضائها، أو لون أعضائها، والثوب الذي يصف الحجم، أو يصف اللون فهذا ثوب محرم أشد أنواع التحريم، كيف ؟

يا أيتها المرأة المسلمة احذري أن تكوني من هذا الصنف !!!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ رُؤُوسُهُنّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لا يَدْخُلْنَ الْجَنّةَ، وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))

[مسلم]

كيف فسر العلماء هذا الحديث ؟ أي إنهن يرتدين ثيابا، ولكنها ثياب فاضحة، تشف عما تحتها، رقيقة تصف حجم أعضاء المرأة، هذه الثياب وصفها النبي بأن صاحبتها ملعونة، وفي رواية أخرى:

((فَالْعَنُوهُنّ فَإِنّهُنّ مَلْعُونَاتٌ))

[أحمد عن عبد الله بن عمرو]

هذا أمر مهم جدا، لذلك أن تقول امرأة: أنا امرأة شريفة، وترتدي ثيابا تظهر مفاتنها فهيب نص الحديث الشريف الصحيح ملعونة من قبل الله عز وجل، وهذه المرأة إذا ماتت على هذه الحال لن تدخل الجنة بنص هذا الحديث الشريف.

وتصفيف الشعر وفق أحدث الطرق المجلوبة من دول الغرب يجعل رأس المرأة كأسنمة البخت، فإذا كان هذا لزوجها فلا مانع، أما إذا كان هذا في الطريق فنعوذ بالله من هذه الفتنة.

((رُؤُوسُهُنّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنّةَ، وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))

ليس هذا من كلام المسلمات المستقيمات !!!

أما أن تقول هذه المرأة الكاسية العارية: غطاء الصلاة في حقيبتي، وأنا أصلي، والحمد لله، فهذا كلام مضحك، وأن تمشي المرأة في الطريق، فتفسد الشباب، وتثير الشهوات، وتجعل الناس البعيدين عن الله عز وجل يميلون إليها، وتدعي أنها تصلي، وتدعي أنها مؤمنة في قلبها، وتقول: الإيمان في القلب، نقول: لا، والله، الإيمان يجب أن يبدو ظاهرا.. **"الإيمان ما وقر في القلب وأقر به اللسان وصدقه العمل ".**

هذا العمل لا يعبر عن إيمان، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيّ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيّ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ، وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ، قَالُوا: فَمَا أَوّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ قَالَ: الدّينَ))

[البخاري، مسلم]

فكلما ازداد دينك طال ثوبك، وكلما ازداد دينك كان ثوبك سابغا، فمن أين أخذ النبي عليه الصلاة والسلام هذا التفسير؟ من قوله تعالى:

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

(سورة الأعراف: الآية26)

أما حديث النبي الأول:

شرح قول النبي: نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ ...

((... نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ، رُؤُوسُهُنّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ))

فله تفسير آخر.

التفسير الأول:

التفسير الأول: أنهن يرتدين الثياب، لكن هذه الثياب لا تستر أعضاءهن، ثياب شفافة، ضيقة، فاضحة، تبرز أكثر مما تخفي، فهي كاسية عارية، وهذا من المتناقضات.

التفسير الثاني:

ومعنى آخر ؛ كاسيات من الثياب عاريات من الإيمان، وعلى كلٍ فالآية في مجملها على النحو التالي: أن هذه المرأة القاعد التي قعدت عن الحيض، عن الزواج، وعن إنجاب الولد، وقد بلغت من الكبر عتيا، و لا مطمع لأحد فيها، إذا كانت في بيتها، ودخل عليها أجنبي، لسبب أو لآخر فعليها أن تستتر منه كما تستتر الشابة تماما، إلا أن هذا الجلباب الأخير الذي إذا ارتدته ربما أرهقها، وهذا سمح لها الشرع أن تضعه، أما إذا تعففت، وارتدته فهذا أفضل بكثير، وهذا ملخص الآية، وهناك من يفهمها فهما آخر، لكن هذا الفهم هو الذي عليه أكثر المفسرين، ثم يقول الله عز وجل:

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

حُكم الأكل من بيوت الأقرباء والأصحاب:

يقول بعض العلماء: **" إن هذه الآيات نزلت في نفر من الصحابة حينما سمعوا قول الله عز وجل:**

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء: الآية29)

فقالوا في أنفسهم: وهل من مال أحب للإنسان من طعامه ؟ فكيف نأكل عند إخواننا، أو كيف نأكل عند أقربائنا، ولعله أكل لأموال الناس بالباطل ؟ فامتنعوا عن أن يأكلوا في بيوت أقربائهم، فنزلت هذه الآية لتوضح الحكم الدقيق في هذا الموضوع "، ليس على الأعمى، يعني الأعمى إذا جلس ليأكل ربما طاشت يده، وربما جالت في القصعة جولة لا ترضي البصير، فهذا الأعمى ليس عليه حرج إذا جلس ليأكل، وقد تصل يده إلى منتصف الطبق، أو يقع من يده جزء من الطعام على ثوبه، ولم ينتبه له، فلا ينبغي لك أيها البصير أن تدقق مع هذا الذي امتحنه الله بكف بصره، فليس على الأعمى حرج..

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

(وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ)

الأعرج ربما لا يستطيع أن يجلس كما تجلس بأدب، وقد يضطر إلى أن يمد رجله، فإذا جلس ربما مدد رجله لعاهة نزلت به، فليس على الأعرج حرج.

(وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

المريض قد يكون مرضه مزعجاً، أو يدعو للاشمئزاز، فأنت أيها المؤمن إذا رأيت أخا في حالة دون الحالة السوية فلا ينبغي لك أن تشمئز منه، ولا أن تنفر منه، ولا أن تعبر عن تأففك، فهذا لا يليق بك، وأنت مؤمن، وهذا من عباد الله الصالحين، لكن الله قد ابتلاه، والمؤمن من آدابه أنه إذا رأى مبتلى أن يدعو،

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ رَأَى مُبْتَلًى فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ الْبَلَاءُ))

[الترمذي]

ولا ينبغي لك أن تعبر عن اشمئزازك من هذا، فـ:

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

والسبب في أن العرب في الجاهلية كانوا يستقذرون أن يؤاكلوا الأعمى، أو الأعرج، أو المريض، وهذا ليس من الأدب في شيء، بل هذا ترفع وكبر، وهذا تطاول على خلق الله عز وجل، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يبين أن الأعمى ليس بيده هذا العمى..

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

وما دامت هذه الآيات جاءت في سياق تناول الطعام فالحرج مرفوع عنهم إذا تناولوا الطعام، فربما جالت يد الأعمى إلى منتصف الطبق، وربما لم تكن مرتاحا لهذا الأعرج الذي يمد رجله، وهو يأكل، وربما لا تستطيب أن تأكل مع المريض، فهذا ليس عليه حرج، ومن أخلاق المؤمن أن يصبر، وألا يتأفف، لكن إذا نزعت هذه الآيات من سياقها، وقرأتها منفردة فربما أفادت حكما آخر، أن الأعمى، والأعرج، والمريض ليس عليهم جهاد، فإذا اعتذر الأعمى عن أن يكون مجاهدا، وكذلك المريض، وكذلك الأعرج، هو معذور، فهؤلاء الثلاثة معذورون عند الله عز وجل، فلا ينبغي أن تسيء الظن بهم، أو لا ينبغي أن تنظر إليهم نظرة لا تليق بهم.. لأنه:

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

ثم قال:

(وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ

دخلنا الآن في موضوع جديد، ومعنى:

(وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

أيْ أنتم، وأولادكم، وزوجاتكم.

حينما عدَّد الله سبحانه وتعالى:

حكم الأقرباء:

(وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ)

الأخوال، والخالات، والأعمام، والعمات، والإخوان، والأخوات، والأمهات، والآباء، من القريب، والذي سقط من هذه الآية الابن..

لذلك قال العلماء: **" إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال**

((أنت ومالك لأبيك))

فمعنى ذلك أن بيت الابن بمثابة بيت الأب، لكن النبي الكريم حينما قال لأحد السائلين عن موضوع المال وعلاقته بين الأب والابن قال:

((أنت ومالك لأبيك))

ولكنه قال للآباء:

((من أكل من مال ابنه فليأكل منه بمعروف))

أيْ يجب أن يأكل منه بالقدر الذي يبقي له شيئا يمسك رمقه، فهذا عليه زواج، وفتح بيت، وتأسيس أسرة، ودفع مهر، وتأمين أثاث البيت، فإذا قلت لابنك: هات كل راتبك، وأنا أبوك، نقول له: يقول عليه الصلاة والسلام: من أكل من مال ابنه فليأكل منه بمعروف، فإذا كان أبوك عاجزاً فلابد أن تقدم له جزءا من مالك، وليس لك في هذا منة، ولا فضل، لأن الله سبحانه وتعالى جعل وجودك في هذه الدنيا عن طريقه ـ فأنت ومالك لأبيك ـ ويجب ألا يفهم هذه الآية فهما لم يرده الله سبحانه وتعالى، أيْ أن تدخل بيت عمتك، وتفتح الثلاجة، وتأكل منها ما شئت من دون إذن، لا.

قال العلماء: **" هذا الطعام بإذن أو بدعوة أو بتوكيل إذا دعيت فلبيت الدعوة وليس هناك حرج أبدا، وإذا دعيت إلى وليمة فلبِّ دعوة من دعاك ووجب حقه عليك "**، وليس هناك حرج أن تأكل في بيت ابنك، أو بيت ابنتك، أو بيت أمك، أو بيت أبيك، أو بيت أختك، أو بيت أخيك، أو بيت عمتك، أو عمك، أو خالتك، أو خالك، فليس هناك حرج ما دمت مدعوا، وليس هناك حرج ما دمت موكلا، وليس هناك حرج ما دمت قد أذن لك، ففي حالات يؤذن لك أن تتفقد هذا البيت في غيبة أصحابه، فقد تشتهي أن تشرب كأساً من الشاي.

وقد قال العلماء: **" حينما تأكل من دون إذن شيئاً يسيرا جدا، تافهاً جدا يدخل السرور على قلب صاحب البيت "**، فإذا وكلك أحدهم في بيته في غيابه، وهذا البيت كلفك مشقة للذهاب إليه، وأنت قابع في هذا البيت، حضرت إبريقاً من الشاي مثلا، فهذا الشيء يسير جدا، وتافه، وصاحب البيت يسر إذا

فعلت ذلك، وهناك شرط دقيق جداً يجب أن يكون هذا الطعام مبذولا، وليس في حرز، أيْ ثلاجة مقفولة، ما دامت مقفولة، ولها مفتاح فهذا الطعام صار في حرز، وأما الشيء المبذول، واليسير، والتافه، والذي لا يغص صاحبه لو أكلت منه، فهذه الحالات التي سمح لها من دون إذن، ولكن الطعام الذي إذا أكلت منه أحدثت خللاً، فهذا يحتاج إلى دعوة، أو إلى إذن، أو إلى توكيل، وهكذا قول أكثر العلماء في تفسير هذه الآية..

(وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ)

هذا بيتك، أو بيت زوجتك، فزوجتك ميسورة الحال، واشترت طعاما، وأكلت منه، فهذا معفو عنه، أو بيت ابنك، أو أنت ما تزال عازباً، والبيت بيت أهلك، أو بيت الابن، أو بيت الزوجة، أو طعام الزوجة، كل هذه الأنواع انضوت في قول الله عز وجل:

(أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ)

فالأب والأم إذا زارهما ابنهما يشعران بغبطة لا حدود لها، ولو أنه تناول معهما طعام العشاء، هكذا طبيعة العلاقات الأسرية التي أودعها الله في قلب الآباء والأمهات، فمن يتحرج أن يأكل عند أبيه، أو عند أمه، فهو لا يعرف ما أودع الله في قلب الأب، والأم من محبة، وعطف، فليس عليكم جناح

(أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ)

وربما كان تناولك الطعام عند أمك وأبيك عملا صالحا، فالأم تمتلئ غبطة إذا أكل ابنها عندها، وقد تصنع له الطعام الذي يحبه، فإذا جاءها، وقال لها: إني تناولت الطعام مع زوجتي فربما تألمت، إنها صنعت لك هذا الطعام من أجل أن تأكله فيجب أن تأكله، وهذا الذي يريده الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات:

(وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ)

الأخ، الأخ النسبي.

(أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ)

الدليل:

(أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ)

ليس معنى هذا أنه إذا دعاك خالك لتناول طعام الغذاء، وأولاد خالك، وبنات خالك كلهم مجتمعات على المائدة تقول: هكذا يقول الله عز وجل، المحرم محرم، أيْ فيما لا يتعارض مع الآيات الأخرى، إذًا وُجِدَ نساء أجنبيات فلا ينبغي لك أن تجلس معهن، وأن تأكل معهن، فلو جلست معهن لكانت هناك فتنة.. والخالة وبيت الخال إذا كان هناك اختلاط بين الشباب والشابات فهذا مما يتناقض مع الآيات الأخرى، ولا ينبغي لك أن تعد هذه الآية رخصة لهذه الدعوات والطعام المختلط..

ولكن لا ينبغي لك أن تحمل شيئا من هذا الطعام، كل واخرج، أما أن تقول: هذا السمن رفيع جيد، فهاتوا علبة نملأها، فهذا شيء مذكور في التفاسير، لا يجوز إطلاقا، كل كما تشتهي بإذن، وعندنا قاعدة: هناك إذن، أو دعوة، أو توكيل، وأحياناً يكون أخ عنده أخ آخر يعمل في طلاء البيوت، فأخوه يقول: تفضل وكل على حسابك، سمح لك أن تأكل بالمعروف، قال لك: استعمل الهاتف، فاتصلت بالسعودية، لقد خطر في باله مكالمة داخلية، وليست مكالمة خارجية، أخي استعمل الهاتف وتغدَّ، فالإنسان يجب أن يتعامل بلطف، وظله خفيف، لا في غلظة، حتى ولو سمح لك باستعمال الهاتف، ولو سمح لك بتناول الطعام، كل الحد الأدنى، وكل شيئا من الطعام لا يتألم صاحبه.

زار ضيف شخصاً، فوضع له صحفة حلوى، أكل واحدة، ولكن هذا أكل نصفه، وصاحب البيت غائب، فالأول انحرج، أنا أكلت واحدة، أما هذا فأكل نصفه، فلما دخل قال: فلان يحبك أكثر مني، أنا أكلت واحدة فقط، أيْ بيّن له. فلذلك:

(أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)

أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ

هؤلاء الخازنون، أيْ مخزن مواد غذائية، أو مخزن بضاعة معينة، أو في الحقول الزراعية المرابع، فهذا البستان لفلان، وضع إنساناً يعتني به، فالبستان فيه فواكه، فمسموح لهذا الوكيل أو الخازن أن يأكل، وهي مما.

(مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)

تعني الوكيل أو الخازن في وقت واحد، لكن الوكيل والخازن إذا كان لهما أجر، فهناك حكم، وإذا كانا بلا أجر فهناك حكم آخر، أي بلا أجر مسموح لهما أن يأكلا بالمعروف، أما بأجر فلا يسمح لهما أن يأكلا شيئا، أما بلا أجر فهو فخدمة، كلفك أن ترعى هذا البستان، أو هذه الحديقة في غيابه، وهو مسافر، والبستان يحمل توتاً، والتوت استوى، وفي الأرض عدد قليل، فلا حرج لو أكلت بالمعروف، أما أكثر من ذلك فيدخل في حكم آخر، فكلمة:

(مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)

بمعنى الخازن في المدينة، أو الوكيل في المزرعة.

(مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)

لها ثلاث حالات. حالة أن يكون في أمانتك أو في عهدتك، وحالة أن تكون قريبا له، وحالة أن تكون صديقا له، فإما قرابة، أو صداقة، أو أمانة.

(مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)

تعني الوكلاء أو الأجراء، الوكلاء في الحقول الزراعية والأجراء في المدن، وفي المخازن التموينية، ويجب أن يأكل اليسير القليل الذي لا يؤذي، وهذا ما ذكر في بعض التفاسير فعَنْ عَمْرِو بْنِ يَثْرِبِيٍّ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((ألا وَلا يَحِلُّ لامْرِئٍ مِنْ مَالِ أَخِيهِ شَيْءٌ إلا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ غَنَمَ ابْنِ عَمِّي أَجْتَزِرُ مِنْهَا شَاةً))

[أحمد]

أَوْ صَدِيقِكُمْ

أي الأخ في الله، والصديق الذي صادقته، وقد سئل أحد العلماء: أيهما أحب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال: أخي إذا كان صديقي، أما هنا فقد جاء الصديق مفرداً، ويقصد به الجمع، أي أصدقاءكم، كأن تقول عدونا الفلاني، العدو جمع، أيْ أعداؤنا فالصديق، والعدو من أسماء الجموع.

(أو مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا

والعرب في الجاهلية كانوا يأنفون أن يأكلوا وحدهم، ومن العار الشديد أن تأكل وحدك.

ولذلك كان بعضهم يبيت طاويا ثلاثة أيام، إلى أن يجد من يؤاكله، وهذا حرج لا مبرر له.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)

إذا وُجِدَ ضيف عندك فأفضل، ولكن لا يوجد إنسان آخر يأكل معك، فهل تبقى بلا طعام ؟ ليس هذا من العدل في شيء، فإحضار الضيف حسن، ولكن لا يحرم الانفراد.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)

حُكم الاجتماع على ثمن الطعام:

وهنا عندنا حكم دقيق جدا، فأحيانا يذهب أناس إلى نزهة، ويشترون طعاما مشتركا، ويدفعون ثمنه بالتساوي، ولكن واحداً منهم أكول، والثاني غير أكول، يا ترى أكل مالاً حراماً ؟ لا، هنا جاء هذا الحكم، فما دام الدفع جاء بالتساوي، فهذا أكل اثني عشر قرصاً، وهذا أكل ثلاثة أقراص، وهذا ليس عدلاً، وهذا مما عفا الله عنه.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا)

أي مشتركين في الطعام.

(أَوْ أَشْتَاتًا)

وأول حكم ؛ لك أن تأكل وحدك من دون أن تكون بخيلا، أما إذا غلقت الباب، وأرخيت الستر، وتناولت الطعام فهذا البخل بعينه، ولكن لا يوجد إنسان عندك في البيت هل تبقى بلا طعام ؟ فهذا الكلام غير وارد.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)

هذا مما جاء في كتب التفاسير، أما المعنى الثاني أنكم إذا أكلتم جميعا، وكان ثمن هذا الطعام مشتركا بينكم فليس عليكم جناح أن يكون هناك تفاوت في المطاعم، كل إنسان له رغبة، وله طبيعة خاصة في تناول الطعام، ولكن بالمقابل الإنسان يأكل حتى يشبع، والأكل محدود، ويأكل حتى يملأ معدته، والثاني جائع، فهذا ليس من اللباقة، والذوق في شيء، فالمؤمن كالنحلة يأكل طيبا، ويطعم طيبا، ويعرف ماذا يأكل، وماذا يدع، وليس معنى هذا أن مَن أكل لقمة زيادة أن تحسب عليه، ففي الأكل المشترك تستحيل الحسابات الدقيقة، كبرت اللقمة صغرها، مستحيل، فلابد أن يكون هناك تسامح، ولكن بالمقابل إنسان يأكل بلا وعي، والثاني جائع، فليس هذا من الدين في شيء..

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)

معنى: بُيُوتًا

المعنى الأول: هي المساجد

أيْ إذا دخلتم المساجد، وهذا أول معنى.

المعنى الثاني: عموم البيوت:

لكن المطلق في القرآن على إطلاقه.

وبعضهم قال: البيوت هنا المساجد.

(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

وهذا معنى دقيق جدا.

معنى: فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ

أيْ: إذا سلمت على أخيك فكأنك سلمت على نفسك، فأنت وأخوك إنسان واحد، كقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء: الآية29)

لم يقل: لا تأكلوا أموال إخوانكم بالباطل، بل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء: الآية29)

لأنك إذا أكلت مال أخيك فكأنك أكلت مالك، وهنا:

(فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ)

فإذا دخلت إلى المسجد، فمن في المسجد ؟ إنهم إخوانك المؤمنون، فسلم عليهم، فإذا سلمت عليهم فكأنك تسلم على نفسك، إلا أن السلام في المسجد محظور في مجالس العلم، وفي إقامة الصلوات، وفي قراءة القرآن، فإذا دخلت المسجد، وليس فيه صلاة، ولا مجلس علم، ولا تلاوة قرآن، ولكن فيه أخ جالس تقول: السلام عليكم.

وتنفيذا لهذه الآية:

(فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ)

صيغة السلام:

هناك صيغة في السلام، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وإذا دخلت إلى بيت مسكون فقل: السلام عليكم، قبل أن تقول: أعندكم خبز زائد تعطوننا إيّاه، قل: السلام عليكم، إذ لا كلام قبل السلام، وإذا دخلت إلى بيت غير مسكون فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وإذا دخلت إلى بيتك غير المسكون، مثلاً اشتريت بيتًا، ولم تسكنه بعد، فقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذه هي السنة، فإذا دخلت إلى بيت غير مسكون، وهو بيتك فقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، دخلت إلى بيت مسكون فقل: السلام عليكم، وإذا دخلت إلى بيت مسكون غير بيتك فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وإذا دخلت إلى مسجد فيه مجلس علم فابق ساكتا، أو فيه صلاة فاسكت، أو فيه تلاوة قرآن فاسكت، والمسجد الذي ليس فيه شيء من هذا القبيل، لكن فيه أخ لك فقل له: السلام عليكم..

(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً)

السلام على أهل البيت يدفع أذى الشيطان:

فإذا دخلت بيتا تعلم علم اليقين أن صاحبه ينكر وجود الله عز وجل مثلا، فقل: السلام على من اتبع الهدى، وإذا كان فيه أنواع فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام عليكم، ما شاء الله لا قوة إلا بالله.. السلام على من اتبع الهدى.. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

[مسلم، أبو داود، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

اليوم طول الليل مشاجرات، ومشاكل، فإذا جلس الرجل إلى الطعام، ولم يسم قال الشيطان لإخوانه: أصبنا العشاء، فإذا دخل، ولم يسلم، وجلس إلى الطعام، ولم يسلم، قال الشيطان لإخوانه:

((أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

وشيء آخر ؛ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ، بِسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا، وَبِسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللَّهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ))

ولج بمعنى دخل.

[أبو داود(5096)]

وأحياناً يدخل الإنسان إلى البيت فيسمع خبراً سيئاً، فيتشاجر مع زوجته، ويقع في إشكال لا ينتهي في أشهر، فالإنسان إذا دخل بيته فليدعُ بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم:

((إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ، بِسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا، وَبِسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللَّهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ))

هذا معنى قوله تعالى:

(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا)

مطلقة، فالمسجد بيت، وبيت أقربائك بيت، وأهلك، وبيتك الفارغ، وبيتك المسكون، إذا دخلت إلى أي مكان فقل: السلام عليكم، بين أن تقول: السلام عليكم، أو السلام علينا، أو ما شاء الله لا

(فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (23-23): تفسير الآيات 62 – 64
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-03-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والعشرين، والأخير من دروس سورة النور، وقد صلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

الفائدة بالحصر بـ (إنما):

الحقيقة حينما تأتي كلمة

(إِنَّمَا)

وبعدها

(الْمُؤْمِنُونَ)

تعني تلك الكلمة أنها تصف كمال الإيمان، أيْ المؤمن الحق، والمؤمن الكامل، فكمال الإيمان يقتضي كذا وكذا، والإيمان درجات.

الإيمان درجات:

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ))

[البخاري، مسلم، واللفظ له]

فهذا الذي يميط الأذى عن الطريق خوفا من أن تزل قدم مسلم، أو قدم إنسان كائن من كان، وهو عبد من عباد الله، وهذا العمل ينطلق من إيمان، ولكن هل يعني ذلك أن هذا الذي أماط الأذى عن الطريق صار مؤمنا كاملا ؟ لا من هنا جاءت كلمات القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[النساء: من الآية 136]

ومن هنا جاءت آيات القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران: الآية 102)

إذاً: فالإنسان على مستوى من الإيمان لا ينبغي أن يرضى به، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ:

((لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ))

[أحمد]

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللَّهِ))

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ: أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ))

[أحمد]

يجب أن تسعى لترفع مستوى إيمانك، وكلما ظننت أن هذا المستوى الذي أنت فيه جيد فهناك أجود، وكلما ظننت أنك وصلت إلى الهدف فأنت في غلط كبير، فالإيمان له بداية، ولكن ليس له نهاية، وما دام الإيمان معرفة الله عز وجل، فإنّ الله سبحانه وتعالى لا نهاية لكماله.

إذاً: لا نهاية للإيمان.

كلمة:

(إِنَّمَا)

تفيدنا أنه على المؤمن أن يرفع مستوى إيمانه دائما، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ))

ما الذي يرفع مستوى الإيمان ؟

1- العلم والعمل:

والسؤال الآن: ما الذي يرفع مستوى الإيمان ؟ الحقيقة هو العلم والعمل، ولذلك عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا أَتَى عَلَيّ يَوْمٌ لَمْ أَزْدَدْ فِيهِ خَيْرًا يُقَرِّبُنِي إِلَى رَبِّي، فَلاَ بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ))

[الكامل في ضعفاء الرجال]

ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، من هنا تأتي ضرورة حضور مجالس العلم، وقد يقول عامة الناس: ألا يكفيك حضور هذه المجالس ؟ أما زلت بحاجة إلى علم ؟ من قال لك: إن العلم ينتهي عند حد،

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلّا قَلِيلًا)

(سورة الإسراء: الآية 85)

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: الآية 255)

فالعلم ليس له نهاية، وكلما تعلمت أكثر ارتفع مستوى إيمانك، فالذي يرفع مستوى الإيمان هو علم بكتاب الله، وعلم بسنة رسول الله، وعلم بشريعة الله، وعلم بأسماء الله الحسنى، وعلم بصفاته الفضلى، وعلم بحقيقة النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا الذي يقنع بمستوى من الإيمان لا يحيد عنه، ولا يرجو غيره، هو ضعيف الهمة، لا يمكن أن يصل إلى ما يريد، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ)

يعني هؤلاء المؤمنون الصادقون هذه صفاتهم، فكأن الله سبحانه وتعالى بالمعنى الضمني يقول للمؤمنين: أنتم كذلك، وإن كنتم كذلك فاسعوا إلى مرتبة أخرى، وإن كنتم لستم كذلك فاسعوا إلى أن تكونوا كذلك.

إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ

آمنوا بالله خالقا، وآمنوا بالله مربيا، وآمنوا بالله مسيرا، ولن يصاب الإنسان بأزمة نفسية إلا بنقص في إيمانه، فإذا آمنت أن الله هو الخالق، وأن الله هو المربي يربي جسدك، ويربي نفسك، يربي جسدك بما يسوق له من مواد، ويربي نفسك بما يسوق لك من أحداث، فهو رب العالمين، والنبي عليه الصلاة والسلام في سلوكه اليومي كان مشرّعا، وقراءة سيرة رسول الله، والوقوف عند أحداث السيرة ليس شيئا من الترف العلمي، إنما هو شيء مصيري، وأساسي.

ففي الموقف الفلاني فعل النبي ذلك، وأنت يجب أن تفعل ذلك، لأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، وفي الموقف الفلاني فعل النبي ذلك، وفي زواجه كان زوجا ناجحا، وفي علاقته مع إخوانه كان أخاً وفياً، وفي علاقته مع من هم دونه كان أباً رحيماً، وفي علاقته مع المؤمنين كان صادقاً، فإذا درست سيرة النبي عليه الصلاة والسلام فلأنها سيرة تشريع، ولأن مواقفه قدوة يجب أن تقتدي بها.

ما معنى الأمر الجامع في قوله: وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ؟

ما هو الأمر الجامع ؟ أمر يعود نفعه على المسلمين، أو أمر يعود شره على المسلمين، أيْ أمر خطير، فالجهاد أمر خطير، والتعاون على البر والتقوى أمر خطير، ففي هذه الآية آداب رفيعة في علاقة المسلمين فيما بينهم، وفيمن يدلهم على الله عز وجل، فإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، فهذا الذي يذهب إذا كان مع النبي عليه الصلاة والسلام على أمر خطير، على أمر يمس المسلمين في حياتهم الدنيوية أو الأخروية، حيث يعود نفعه على المسلمين، أو يعود شره على المسلمين.

وجوب استئذان النبي:

كيف ينطلق هذا الإنسان من دون أن يستأذن النبي عليه الصلاة والسلام ؟ إنه ليس مؤمنا بالمستوى الذي أراده الله عز وجل، فإذا كنت مؤمناً كاملاً فعليك أن تستأذن النبي عليه الصلاة والسلام، فيمكن أن تنسحب هذه الآداب على كل مجتمع صغير مسلم، مثلاً على مستوى الأسرة، أيعقل أن ينطلق الابن إلى حيث يشاء من دون أن يستأذن أباه، أيعقل أن ينطلق الأخ الكريم، وهو في مجموعة في مكان دون أن يستأذن أميرهم، هذا الإذن يعني ارتباط الإنسان المسلم بأميره في الدنيا، أو أميره في الدين، فلابد من الإذن، أساسا القوانين الوضعية تطالب الموظف إذا أراد أن يسافر أن يستأذن جهته الرسمية، فلعل في هذا السفر خللاً في عمله، ولعل في هذا السفر خطراً على مستقبله، وإضعافا للمسلمين، فهذا الاستئذان علامة رقي، وعلامة نظام، والمؤمنون يسودهم نظام دقيق، فالفوضى لا يقرها الإسلام، وليست من الإسلام في شيء، ولو أنكم درستم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سيما في غزواته لرأيتم العجب العجاب، ولرأيتم كيف كان النبي عليه الصلاة والسلام ينظم الصفوف، وكيف كان يضع على كل مجموعة أميراً، وكيف كان يتصل بالأمراء، وكيف كان ينقل الأوامر، وكيف كان يستقبل المعلومات، هذا شيء من سمات الإسلام.

والفوضى ليست من الإسلام في شيء، فهناك أمير دنيوي، وهناك أمير في الدين، وعلى كل إذا كنت عضوا في جماعة بدءاً من الأسرة، وانتهاءً عضواً أو فرداً في أمة فلابد من علاقة تنظيمية بينك وبين أمير هذه الجماعة، وهذه العلاقة التنظيمية في عهد النبي عليه الصلاة والسلام جاءت على الشكل التالي، وفيما بعد النبي عليه الصلاة والسلام لابد من الذي ينوب عن النبي في إمارة الدنيا، أو في إمارة الآخرة أن تنسحب عليه هذه الآداب.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ)

وكمثل بسيط ؛ في مجموعة مؤمنة كهذه المجموعة، لو أن أخاً كريماً نوى أن يسافر، وأعلم أخاه الذي يدله على الله عز وجل أنه مسافر، فإذا غاب الأسابيع المتتالية لا يشعر هذا الذي يدله على الله أن فلاناً غاب، وأن فلاناً لا يحضر، أين هو يا ترى ؟ علم أنه في العمرة، أو هو في سفر ضروري، فهذا الإعلام جزء من آداب الجماعة، ولو أن المستوى هبط إلى مستوى الإعلام فهذا التزام بآداب الجماعة، وارتباط في مجموعة، ولعل الله سبحانه وتعالى يرحمنا بانضباطنا بهذه الآداب جميعا.

لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ

فكلمة مؤمن كلمة واسعة جدا، قد تتسع، وتتسع حتى تشمل كل إنسان أقر بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وقد تضيق، وتضيق حتى يصبح المؤمنون قلة، فينبغي أن نعلم نحن في أي مستوى يكون إيماننا، هل هو بالمستوى الذي يرضي الله عز وجل ؟ أم في المستوى الذي لا يرضيه؟ وليس كل من ادعى الإيمان يكون مؤمناً، والقضية ليست على مزاجك، ولكن القضية منضبطة بمصطلحات، أو بتعريفات، أو بصفات دقيقة للمؤمنين، وآيات أخرى تؤكد ذلك:

(قَالَتْ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات: الآية 14)

2 – الانقياد لأوامر الله ورسوله:

فالإسلام مستوى، والإيمان مستوى، فالإسلام بمجرد أن تنقاد لأوامر الله عز وجل ؛ صغيرها وكبيرها فأنت مسلم، ولكن الإيمان تصديق لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، وإقبال على الله عز وجل، فإذا ألغي الإقبال تراجع الإيمان، والإيمان مجموعة حقائق يجب أن تؤمن بها، فإذا آمنت بها، ولم تكن في مستواها فما الذي يحصل ؟ يتسرب السأم، والملل إلى النفوس، ولن تقطف ثمار الإيمان إلا إذا كنت في مستواها، ولذلك قلت قبل قليل: الإيمان يتجدد، فما الذي يرفع مستوى الإيمان ؟ العلم، ومتابعة دروسه، ومتابعة قراءة كتاب الله، وتدبّره، فهذا مما يرفع مستوى الإيمان بشكل مستمر.

3 – العمل الصالح:

وشيء آخر يرفع مستوى الإيمان ؛ إنه العمل الصالح، لقول الله عز وجل:

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر: الآية 10)

فالإنسان يحاسب نفسه حساباً دقيقاً، فأنا ماذا فعلت اليوم من عمل صالح يصلح للعرض على الله ؟ ولا تنسوا أن أبواب العمل الصالح لا تعد ولا تحصى، وكلكم يعلم أن تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأن تميط الأذى عن الطريق هو لك صدقة، وأن تفرغ دلوك في دلو المستسقي هو لك صدقة، وأن ترشد الرجل الضال في أرض الضلال صدقة، وإنكم إن لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم، فالعمل الصالح يرفع مستوى إيمانك لماذا ؟ لأنه يرفع مستوى إقبالك، فإذا عاهدت نفسك ألا يمضي عليك يوم إلا وتزداد فيه علما، أو عملا فعندئذ يرقى مستوى إيمانك إلى المستوى الذي يسمح الله لك به دخول الجنة، فالإيمان مثلا كما قال عليه الصلاة والسلام عفيف عن المطامع، عفيف عن المحارم، هذا هو الإيمان، فهذا الذي يطمع فيما ليس له، أو يطمع فيما نهى الله عنه.. العفيف عن المطامع لا يطمع فيما نهى الله عنه.. وكذلك العفيف عن المحارم، أما الذي لا يجد في نفسه عفة عما حرمه الله أو عن شيء ليس له فهذا إيمانه ضعيف جدا ويحتاج إلى تجديد، وهكذا قال الحسن البصري رحمه الله: **" إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني إنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العلم ".**

[مصنف ابن أبي شيبة]

فإذا كان العمل غير مصدق للقلب فالإيمان يحتاج إلى تجديد والإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام يسعد صاحبه فإن لم تكن سعيدا في هذا الإيمان فالإيمان أخذ طابعا شكليا أو أخذ طابعاً أجوف... أيعقل أن تشقى والله معك، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يحزن قارئ القرآن، من أوتي القرآن ثم علم أن أحدا أوتي خيرا منه فقد حقر ما عظمه الله تعالى))

[ورد في الأثر]

فالقضية مصيرية، وخطيرة، فعلى الإنسان ألا يجامل نفسه، بل يتهم نفسه دائما.. فإذا جاملها يغرق معها، وإذا كان يوم الدين يرى نفسه مسبوقا، وحينما يرى نفسه مسبوقا، يتألم ألما لا حدود له.. كن سابقا، ولا تكن مسبوقا، ثم يقول الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام:

فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ

فالنبي معه صلاحية إعطاء الإذن، وأنت حينما تستأذن، وتأخذ إذناً بالخروج أو بالمغادرة عندئذ أنت في المستوى المطلوب، أما هذا الذي يدير ظهره ولا يلوي على شيء، ولا يستأذن أميره، ويفعل ما يشاء من دون استشارة، ومن دون مشاورة، واستئذان، وإعلام، وهو الحد الأدنى، فهذا لا ينتمي إلى المؤمنين الانتماء الذي يرضي الله عز وجل.

(فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ)

يروى أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه استأذن النبي مرة فقال له: **" اذهب فأنت لست بمنافق "** وكان النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يسمع الآخرين أن هؤلاء الذين يتسللون ويهربون من ساعات الشدة ليسوا بمؤمنين إنهم منافقون.

(فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللّهَ إِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

من إسقاطات هذه الآية

قبل أن ننتقل من هذه الآيات، وإن كانت للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكن يمكن أن يتأدب بها المؤمنون مع أمرائهم الذين يدلونهم على الله عز وجل، أو أمرائهم الذين يتولون شؤونهم الدنيوية، وهكذا قال بعض العلماء.

ولو فرضنا أراد النبي عليه الصلاة والسلام أمراً، وأنت إذا غبت عنهم، غبت عن هذا الأمر، وأخفق هذا الأمر، ولم يتحقق فقد ساهمت في إيذاء المسلمين، وأحيانا غياب المؤمن يسبب إحراجاً كبيراً، ولو كُلف إنسان بعمل، ولم يقم به على الوجه المطلوب فهذا انتماء للدين ضعيف، وفي كل مكان يوجد جماعة مؤمنة، وفي كل مسجد خدمات لابد أن تؤدّى، وحاجات لابد أن تقضى، فإذا كلف إنسان بعمل في خدمة هذا المسجد فعدم تأدية هذه الخدمة، وعدم اهتمامه بها هذا دليل ضعف إيماني، أما حين يكلف بعمل، ويقوم به على الوجه الأكمل فهذا من علامات قوة إيمانه، إذا كنت في مجموعة فلابد من الاستئذان، ولابد من التشاور، والاستشارة، والإعلام على الحد الأدنى، ويقول الله سبحانه وتعالى:

(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ الّذِينَ يَتَسَلّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة النور)

موقف المنافقين من الأدب مع النبي عليه الصلاة والسلام:

فهؤلاء الذين يقفون على باب النبي عليه الصلاة والسلام، ويصرخون بأعلى صوتهم: يا أبا القاسم اخرج إلينا، فالله سبحانه وتعالى أدبهم وقال:

(إِنّ الّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

(سورة الحجرات: الآية 4)

والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينبغي أن يخاطب كواحد منا، إذ له مقام كبير، فربنا سبحانه وتعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم جميعا قال:

(يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوّةٍ)

(سورة مريم: الآية 12)

قال:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي)

(سورة الأعراف: الآية 144)

قال:

(قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة المائدة: الآية 116)

فربنا سبحانه وتعالى خاطب بعض الأنبياء بأسمائهم، ولكنه لم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام أبدا باسمه، قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

(سورة الأنفال: الآية 64)

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

(سورة المائدة: الآية 41)

فإذا كان الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض عرف للنبي مقامه أينبغي للمسلم أن يخاطب النبي في حياته أو بعد وفاته، ويقول: قال محمد بن عبد الله، قل: صلى الله عليه وسلم، لأنه:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[الحج:32]

فلا ينبغي أن ينادى النبي كما ينادى رجل عادي، هذا مما يجرح نفسه الشريفة..

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)

(سورة الشورى: الآية 23)

قال: يا بني نحن إلى أدبك أحوج منا إلى علمك، والإنسان عندما يكون أديباً مع الذي يدله على الله عز وجل، فهذا الأدب يسبب التعاطف، وهذه المودة، وهذا العطاء فالإنسان يعيش بالقيم أكثر مما يعيش بالطعام والشراب، كما قال سيدنا عيسى عليه، وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان)... فكلما رفع الإنسان مستوى كلامه مع أمه وأبيه، ومع من يربيه، ومع دليله إلى الله عز وجل، ومع نبيه عليه الصلاة والسلام، ارتقى إلى الله عز وجل بأدبه، والإنسان يرتقي بأدبه أضعاف ما ارتقاه بعلمه.

موقف المنافقين من الأدب مع النبي عليه الصلاة والسلام:

(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا)

فالمنافقون في الأزمات الحادة، وفي أثناء الغزوات كانوا يتسللون ويهربون إلى بيوتهم، ولاسيما في غزوة الخندق التي بلغت فيها القلوب الحناجر، وابتلي المؤمنون، وزلزلوا زلزالا شديدا، فالمنافقون تسللوا لواذا، أيْ لاذوا بحائط، وتسللوا من خلفه، لاذوا بشجرة، وتسللوا من خلفها، أيْ هربوا من بيوتهم، وقالوا:

(يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ)

قد يعلم الله سبحانه وتعالى، ويرى هؤلاء الذين يتسللون، ويبتعدون، ويؤثرون حظوظ أنفسهم على طاعة ربهم، وحينما الإنسان يتعامل مع الله سبحانه وتعالى يحل جميع مشكلاته، فإذا تسللت هارباً فالله سبحانه وتعالى يعلم إذا بقيت ثابتا، الله سبحانه وتعالى يعلم إذا قدمت مالك.

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

مخالفة الرسول مصيرها إلى فتنة وعذاب:

ولقد سمعت قصة أن شابا متزوجاً حسب أمواله ليدفع عنها الزكاة، فبلغت الزكاة مبلغاً معيناً، وله زوجة بعيدة عن أجواء الإيمان أقنعته أن يمتنع عن دفع الزكاة، وما هي إلا أيام، وله سيارة فأصابها حادث، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لو دفعت أجرة تصليح السيارة فهو مقدار الزكاة بالتمام والكمال.

فليحذر الذين يخالفون عن أمره، فالإنسان عندما يُخالف أمر الله عز وجل أو يخالف أمر رسول الله لماذا ؟ لأنه معصوم، ولأنه من عند الله، وما ينطق عن الهوى، فإذا خالف أمر النبي عليه الصلاة والسلام، أو إذا خالف سنة النبي عليه الصلاة والسلام بعد وفاته فكأنه خالف أمره في حياته، وإذا خالف أمر النبي فكأنما خالف أمر الله عز وجل، لقوله عز وجل.

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: الآية 7)

فربنا عز وجل يحذرنا:

(فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ)

مشكلة كبيرة، وربنا عز وجل عنده أدوية لمعالجة الأمراض النفسية لا تعد ولا تحصى، فهناك مصائب، وهناك أمراض، وهناك أحزان، فإذا كان رب العزة يقول:

(فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ)

أمر الله عز وجل، أو أمر النبي في حياته، أو سنته بعد مماته، فلو سألت عالماً، وقال لك: افعل كذا، وكذا لأن النبي هكذا قال، وهذا ليس توجيه العالم، إنما توجيه النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا خالفت

توجيه هذا العالم المأخوذ من توجيه النبي فقد خالفت شرع الله عز وجل... والإنسان في حركته اليومية، وفي تجارته، وفي بيعه، وشرائه يقع في شبهات، اسأل: مفتاح العلم السؤال..

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل: الآية 43)

فاسأل به خبيراً، فحينما تسأل تستوضح، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللَّهَ، وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللَّهِ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ))

[الترمذي]

(فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

حينما يخالف الإنسان أمر النبي عليه الصلاة والسلام في حياته، أو سنته الصحيحة بعد مماته، أو يخالف آية قرآنية، يجب أن ينتظر العقاب، لقول الله عز وجل:

(فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وحينما يطمئن الإنسان على معصيته فهو في غباء ما بعده غباء، لأن الله سبحانه وتعالى لا يغفل عنه، وسيدنا عمر رضي الله عنه قال عجبت لثلاثة: **<< عجبت لمؤمّن والموت يطلبه، وعجبت لغافل وليس بمغفول عنه، وعجبت لضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط الله عنه أم راض >>.**

ثم يقول الله عز وجل في ختام هذه السورة:

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

لله ما في السماوات والأرض ملكًا وتصرفًا ومصيرًا:

(لِلَّهِ)

هذه اللام لام الملك، يعني ما في السماوات والأرض لله، لأنه خلقها، ولأنه يملكها، ولأنه يملك التصرف فيها، ولأن مصيرها إليه، أنت في الدنيا ربما لا تملك هذا البيت، وقد تملكه، ولا تنتفع به، وقد تملكه، وتنتفع به، وقد تنظم أرضه فيؤخذ منك، فليس لك مصيره، والإنسان في الدنيا ملكيته محدودة، يملك الرقبة، ولا يملك المنفعة، وقد يملك المنفعة، ولا يملك الرقبة، وقد يملك الرقبة والمنفعة، ولا يملك المصير، قال العلماء في قوله تعالى:

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هو يملكها، ويتصرف فيها، وإليه مصيرها، فأنت علاقتك في النهاية مع الله عز وجل في كل صغيرة وكبيرة، فإذا عاملت الله وحده سعدت بهذه المعاملة، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ الْمَعَادِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ))

[ابن ماجه، مصنف ابن أبي شيبة]

فذاكرتك، وعقلك، وأهلك، وأولادك، وحرفتك، ودكانك، وأيّ شيء تعتز به هو ملك لله عز وجل، لقول الله عز وجل:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: الآية 26)

وفي بعض الآثار القدسية:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعُوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم))

[حلية الأولياء، فيض القدير]

فهذه الآية:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

كل شيء يملكه الله فهو مالكه أبدا، فإذا تعاملت معه وحده سعدت بالدنيا والآخرة، وإذا تعاملت مع شركاء ليس لهم من الأمر شيء..

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف: الآية 26)

تعامل مع الإنسان، أرض هذا الإنسان على حساب طاعة الله عز وجل يسخط عنك هذا الإنسان، ويسخط الله معه، أرض الله عز وجل بسخط الناس يرض الله عنك، ويرض الناس، لا إله إلا الله هذا التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

السماوات والأرض كلمة قرآنية يعبر بها عن الكون، فالكون كله سماوات وأرض.

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وهناك آية أخرى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

(سورة طه: الآية 6)

كله لله سبحانه ؛ ملكا، وتصرفا، ومصيرا، فما دام الشيء له، فماذا ينتج عن هذا الإيمان ؟

إحاطة الله بكل شيءٍ علمًا:

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

فأنت تحت سمعه وبصره، أنت صفحة منبسطة أمامه، مكشوف، يعلم سرك ونجواك، ويعلم ما تعلن، وما تُسر، وما تعلن، وما تخفي، ويعلم نيّاتك البعيدة، ووساوسك، وهواجسك، وصراعاتك، وكل شيء يخطر في بالك فهو في علم الله عز وجل، ولذلك فعلى الإنسان أن يستحي، وفي الأثر:

((عبدي طهرت منظر الخلق سنين))

فالإنسان بيته منظر الخَلق، وثيابه منظر الخَلق، ومركبته منظر الخَلق، ويمكن أن يدهن مدخل البيت، وأن يغير المفروشات، ويقول لك: أريد أشياء أحدث.. **" عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة "** ما هو منظر الله سبحانه وتعالى؟ هو القلب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إنّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

فالقلب منظر الرب، ومن هنا قال سيدنا عمر رضي الله عنه فتعاهد قلبك..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء: الآيات 88-89)

فهناك غل، وحقد، وغش، وخداع، وتكبر، واستعلاء، وأثرة، وحب للذات، وهناك مسامحة، وعفو، وغيرية، وتواضع، وخوف من الله، فهذا القلب منظر الرب، والإنسان عليه أن يهتم بقلبه، لأنك إذا اهتممت بالظاهر ولم تهتم بالباطن فعملك لا يقدم، ولا يؤخر..

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان: الآية 23)

وقد مر بنا من قبل حينما وصف الله أعمال الكفار الصالحة بأنها..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة النور: الآية 39)

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

فأنت على أي شيء، عندما عقدت هذا الزواج هل تنوي أن تطلقها بعد أن تنتهي الدراسة.

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

وحينما عقدت هذه الشراكة هل تنوي أن تجعل شريكك خارج الشركة حينما يقوى مركزك، وتأخذ منه هذه الشركة، فهذه النيّات السيئة يعلمها الله عز وجل والله رب النيّات، ولذلك أخلص النية فإن الناقد بصير.

قال العلماء:

معنى: قَدْ يَعْلَمُ: أيْ قد علِم:

قد علم، لكن يعلم فعل مضارع والمضارع يفيد التجدد والاستمرار، أيْ كلما خطر في بالك شيء يعلمه، فإذا غيرت موقفك يعلمه، وإذا انتقلت من نية طيبة إلى نية سيئة فإنّه يعلمها، ومن نية سيئة إلى طيبة يعلمها، نويت الطلاق فيعلمه، وألغيت الطلاق فيعلمه، ونويت إنهاء هذه الشركة فيعلمه، ونويت الاستمرار بها فيعلم ذلك،

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

العلم مستمر.

إثبات البعث والحساب:

(وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا)

أيْ..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء: الآية 14)

وأحياناً إذا قبضوا على مجرم يأمرونه أن يمثل الجريمة، فلو نظرت إلى وجه مجرم يمثل الجريمة ترى له وجهاً مغبراً، مكفهراً، مسوداً، كظيماً، ويوم القيامة حينما يقف الإنسان بين يدي الله عز وجل، ويعرض له أعماله... لماذا فعلت هكذا ؟ ولماذا غششت الناس ؟ ولماذا بنيت مجدك على أنقاضهم ؟ ولماذا بنيت مالك على فقرهم ؟ ولماذا آذيتهم، ولماذا فعلت بهم ما فعلت ؟

(وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

فهذه الآيات التي انتهت هذه السورة بهذا التهديد، أيْ قد يعلم ما أنتم عليه.. فهذا تهديد، وفيها بشارة.

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

إن كنت على الحق فاطمئن، فالله سبحانه وتعالى يعلم من أنت، ويعلم ما أنت عليه، وإذا كنت على غير الحق فهذا تهديد، وهذه آية مبطنّة فيها تهديد، وفيها بشارة، من صلُحَت سريرته ففيها بشارة، ومن ساءت سريرته ففيها إنذار وتهديد..

(وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

كلمة قصيرة عن مناسبة الإسراء والمعراج:

الآية الأخيرة من سورة النور انتهت، ومع انتهاء هذه السورة أمضينا ثلاثةً وعشرين درساً، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بها جميعاً، وأن تُترجم هذه السورة إلى سلوك وإلى آداب نعيشها، فإذا تُرجمت إلى سلوك، وإلى آداب نعيشها أقبلنا على الله عز وجل بوجه أبيض، وسعدنا بهذا الإقبال.

موضوع الإسراء والمعراج موضوع دقيق، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام مر في حياته بمراحل متنوعة، وبعض هذه المراحل فيه حزن، وفيه تكذيب، ووحشة، وعدوان، وكفر بدعوته، والنبي عليه الصلاة والسلام على الرغم من كل المصائب والمحن التي مر بها كان ثابت الجأش، ثابت القلب، محباً لله عز وجل، فماذا يعلمنا الإسراء والمعراج ؟ يعلمنا الثبات على المبدأ.

فالنبي الكريم ماتت زوجته خديجة مؤنسته في الداخل، ومات عمه أبو طالب، وذهب إلى الطائف، وتتالت المحن، بعضها مع بعض، ومع ذلك ما زاد على أن قال:

((اللهم إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، ولكن عافيتك أوسع لي))

[مصنف عبد الرزاق]

الشيء المهم أن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فكل مؤمن ربما سلكه الله سبحانه وتعالى في الطريق نفسه الذي سلكه النبي عليه الصلاة والسلام، وخط المؤمن البياني قد يهبط، وقد يهبط، وقد يصل إلى النهاية الصغرى، ثم يصعد، ويصعد، والمهم أن تبقى ثابت المبدأ، وما من قولة قالها النبي عليه الصلاة والسلام تعبر عن ثباته على مبدئه كقوله صلى الله عليه وسلم:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

فيجب على المؤمن أن يوطن نفسه ليكون محبا لله، طائعا له، مخبتا إليه في كل الأحوال، في السراء والضراء، والضيق والبحبوحة، وإقبال الدنيا وإدبارها، والصحة والمرض، والخوف والأمن، لأن النبي عليه الصلاة والسلام مر بمواقف عديدة جدا، لكن جاء الإسراء والمعراج، وكان مسحا لجراح الماضي، وتطمينا لقلب النبي، وإراءة لملكوت السماوات والأرض، وعرف النبي أنه سيد ولد آدم، وأنه سيد

الأنبياء والمرسلين، وأن الله رفعه إلى سدرة المنتهى حيث لا مقام بعده، وأن هذا كله ناله بمقام العبودية لله عز وجل، إذ يقول سبحانه:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

(سورة الإسراء: الآية 1)

وكلما كنت عبداً لله كلما ارتفعت في نظر الله عز وجل، وكلما كنت عبداً لله كلما حققت الهدف من وجودك، والعبودية الخالصة انصياع لأوامر الله كلية، ورضاء بقضائه وقدره، واستسلام له، وميل إليه، ومحبة له.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (01-13): تفسير الآية 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-03-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الفُرقان.

تكرار كلمة " تبارك " كثيراً في القرآن الكريم:

هذه السورة تبدأ بقوله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3))

(سورة الفرقان)

كلمة تبارك تأتي كثيراً في القرآن الكريم:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ (1))

(سورة الملك)

وقال أيضاً:

(وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(85))

(سورة الزخرف)

وقال:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

المعاني المتعددة لكلمة " تبارك:

وكلمة مبارك، وتباركنا، هذه نستخدمها نحن كثيراً في علاقاتنا الاجتماعيَّة، فماذا تعني كلمة تبارك ؟ بعضهم قال: تبارك تعني تقدَّس، وتقدَّس وتبارك بمعنى واحد، كلمتان تُستعملان للتعظيم، وبعضهم قال: تبارك من البركة، والبركة الكثرة من كل خير، بيتٌ مبارك أيْ كثير الخير، إنسان مبارك أيْ كثير الخير، امرأة مباركة أيْ كثيرة العطاء لزوجها، شهرٌ مبارك، سنةٌ مباركة أيْ كثيرة الأمطار، فمعنى المبارك أي الكثير من كل خير، هذا المعنى الثاني.

وإذا قلنا تبارك بمعنى تعالى:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

أي تعالى عن أن يشبهه شيء، تعالى عن أن يكون له شريكٌ في المُلك، تعالى أن يتصف بصفات المخلوق، تبارك وتعالى، أيضاً تبارك عطاؤه بمعنى زاد وكَثُر.

هناك معنى جديد، تبارك العطاء أيْ زاد وكثر، وهناك معنىً آخر دام وثبت، هنا بيت القصيد، العطاء الذي ينقضي في وقتٍ ما ولو بعد مئة عام لا يُسَمَّى عطاء مبارك، مهما أوتيت من الدنيا فلا بدّ من تركها، كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت.

الليل مهما طال فلابدّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلابدّ من نزول القبر

* * *

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن سهل بن سعد و البيهقي عن جابر]

البركة بالمعنى الدقيق هي العطاء المستمر الذي لا ينقطع:

إذاً البركة بالمعنى الدقيق هي العطاء المستمر الذي لا ينقطع، أيُّ عطاءٍ في الدنيا ينقطع عند الموت، أيُّ عطاءٍ تأخذه من بشر ينتهي عند الموت، ولكن عطاء الله سبحانه وتعالى من خصائصه أنه يستمرُّ إلى أبدِ الآبدين، لذلك إذا قلنا: تبارك عطاء الله عزّ وجل أيْ أنّ هذا العطاء زاد وكثُر، ودامَ وثبت، إذاً أردت عطاءً لا ينقضي بالموت، إذا أردت عطاءً أبدياً سرمدياً فاطلب ما عند الله، أما إذا أردت الدنيا فالدنيا زائلة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللّهِ))

[من سنن الترمذي عن شداد بن أوس]

لذلك ضع هذا المقياس في كل عملٍ تقوم به، هذا العمل الذي أنا مَعْنيٌّ به، الذي أنا مُنهمكٌ فيه، الذي أضيّع وقتي من أجله، الذي أضيّع مالي من أجله، الذي أبدِّد شبابي من أجله، هل يستمرُّ أثره إلى ما بعد الموت ؟ إذا كان كذلك فأنعِم بهذا العمل، وإن كان هذا العمل ينتهي مع الموت ولا أدري متى أموت، فهذا العمل نوعٌ من المقامرة، أو نوعٌ من المغامرة.

الذي أريده من قول الله عزّ وجل:

(تَبَارَكَ (54))

(سورة الأعراف)

أي زاد عطاؤه وكثر، ودام وثبت، لكن لا يقال: الله عزّ وجل مبارك بل يقال العطاء مبارك، يقال اليوم مبارك، العمر مبارك، الشهر مبارك، السنة مباركة، الزوجة مباركة، هذا العمل مبارك، هذه التضحية مباركة، هذا العلم مبارك، لا يقال لله: مبارك، بل نقول:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(14))

(سورة المؤمنين)

خَلْقُ السماوات والأرض نوعٌ من البركة التي بارك الله بها:

إنّ ما سوى الله يُقال له: مبارك، بينما الله سبحانه وتعالى تقول عنه:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ(78))

(سورة الرحمن)

لكن هذا العطاء الأبدي السرمدي كيف أتعرّف إليه ؟ هنا مشكلة كبيرة، أولاً الله سبحانه وتعالى كما ورد في بعض الأحاديث **" كان الله ولم يكن معه شيء "، وأراد الله أن يخلق خلقاً ليسعدهم، " فخلقت الخلق فعرّفتهم بي فبي عرفوني "**، أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخَلْق، إذاً هذا الوجود الذي أمامك إنما أُوجِد ليسعد أو ليُسعده الله عزّ وجل، إذاً تبارك الله الذي خلق الكون، هذه نعمة الإيجاد، لولا أن مشيئة الله شاءت أن نكون لما كنا لنكون.

لولا أن مشيئة الله عزّ وجل شاءت أن نكون نحن، وأن يكون بنو البشر، وأن يكون الإنس والجن، وأن تكون كل هذه المخلوقات، لولا أن الله شاء لنا أن نكون لمَا كان لنا أن نكون، إذاً لأننا موجودون فهذه نعمةٌ كبرى، هذه بركةٌ، وُجِدْنا لنتعرّف إليه، وجِدنا لنقترب منه، وجدنا لنعبده، وجدنا لنسعد بقربه، إذاً خَلْقُ السماوات والأرض نوعٌ من البركة التي بارك الله بها.

انظر إلى الكون لتعرف مدى قدرة الله، وأنه تبارك حقاً، ففي الكون حسبَ أحدث رقم قرأته مليون مَليون مجرّة، في كل مجرّة مليون مَليون كوكب أو نجم، لو أخذنا مجرّة متوسّطة كدرب التبّانة فإن المجموعة الشمسيّة بكاملها نسبياً لا يزيد حجمها عن نقطة، لو تركنا المجموعة الشمسيّة وأخذنا الأرض التي نحن عليها، أين بركة الله فيها ؟ الله سبحانه وتعالى خلقها وبرّدها وهَيّأها للإنسان منذ أكثر من خمسة آلاف مليون عام، تقديراتٌ دقيقة مضى على خلق الأرض أو على إيجادها أكثر من خمسة آلاف مليون عام، وفي هذه الأعوام كلِّها كانت تتهيّأ لأن يسكنها الإنسان، مَرّت عليها العصور الجيولوجيّة، ومرّت عليها الأحقاب، العصور المَطيرة، النباتات العملاقة، الحيوانات العملاقة، تشكّل البر والبحر، تشكّل الغلاف الجوي.

الأرض بحجمها التي هي عليه متناسبة مع الإنسان وهي أثر من آثار كلمة تبارك:

البر، والبحر، والغلاف الجوي، والعصور المطيرة، والحيوانات العملاقة، والعصور الجيولوجيَّة، وتكوَّنتْ التربة بعد أن كان كل ما عليها صَخْرٌ متين قاسٍ، هذه التهيئة من قول الله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي (1))

(سورة الفرقان)

أي تبارك الله، شيءٌ آخر: هذه الأرض بحجمها الذي هي عليه متناسبٌ مع الإنسان، لو أن هذا الحجم كان أصغر لقلّت جاذبيَّة الأرض لِلإنسان، وأصبحت حركته خطرة، ولو أن حجم الأرض كان أكبر لازداد وزنه، ولزادت جاذبيته على الأرض فكانت الحياة على سطح الأرض حياةً مستحيلة، هناك بعض الكواكب لو أن الإنسان انتقل إليها لكان وزنه آلاف الأطنان.

ولمّا انتقل الإنسان إلى القمر صار وزنه السُدس، فالذي وزنه ستين كيلو وزنه على القمر عشرة كيلو، لذلك روّاد القمر كان معهم أثقال من أجل أن تسهل عليهم الحركة، وكُلُّ هذه الأثقال ليعود وزنهم إلى ما هم عليه وهم على سطح الأرض، إذاً حجم الأرض بعد أن هيَّأ الله الأرض بعصورها المديدة، بهذه الخمسة آلاف مليون سنة على تقدير بعض العلماء، بعد أن مرّت عليها العصور الجيولوجيَّة، والعصور المطيرة، والعصور التي تشكّل فيها البحر المالح، والعذب الفرات، وهذا الغلاف الجوي بعد أن أصبح الجو على الأرض مناسباً للإنسان، بعد هذه التُربة التي فُتِّتَت بفعل عوامل الماء والهواء والتعرية، أصبحت الأرض مؤهَّلةً لكي يسكنها الإنسان، هذه كلها أثر مِن آثار قوله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي (1))

(سورة الفرقان)

هذه الأرض بحجمها الذي يناسب الإنسان، بدورتها حول نفسها، بدورتها حول الشمس، بمحورها المائل، من دورتها حول نفسها تشكّل الليل والنهار، من دورتها حول الشمس تَشَكَّلت الفصول، ومن ميل محورها تبدّلت الفصول من منطقةٍ إلى منطقة، فكل منطقةٍ على سطح الأرض يأتيها الشتاء والخريف والربيع والصيف، إذاً تبارك الله سبحانه وتعالى:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

الدماغ آيةٌ كبرى من آيات الله كرمه الله به:

شيءٌ آخر: الله سبحانه وتعالى خَلَقَ الإنسان ـ تبارك الله خالق الإنسان ـ خلق الإنسان في أحسن تقويم، زوّده بجسمٍ غايةٍ في الدِقّة، ما من كائنٍ على وجه الأرض أعقد وأرقى منه، جملته العصبيَّة تأخذ

بالألباب، فمئة وأربعون مليار خليّة سمراء في الدماغ لم تُعْرَف وظيفتها بعد، أربعة عَشَرَ مليار خليّة قشريّة في الدماغ وظيفتها التخيُّل، والمحاكمة، والتذكُّر، والفهم، والإدراك، واليقين، النشاط الفكري يعجز عن فهم ذاته، الدماغ آيةٌ كبرى من آيات الله.

هذه الطائرة التي تطير في السماء تحمل ثلاثمئة وخمسين طناً، ثلاثمئة راكب بحاجاتهم تطير، هذا أثر من آثار الدماغ البشري، هذه الحواسب الإلكترونيّة التي يعجز الدماغ عن فهمها إنها أثر من آثار هذا الدماغ الذي وهبنا الله إيّاه، إن ما تعيشونه من مخترعاتٍ حديثة إنما هي من آثار هذه الجوهرة التي مَنَّ الله بها علينا.

إذاً لمّا خلق ربنا عزّ وجل الإنسان خلقه في أحسن تقويم، أعطاه فكر، بهذا الفكر طار في الهواء، بهذا الفكر وصل إلى القمر، بهذا الفكر نقل الصوت، بهذا الفكر نقل الصورة، بهذا الفكر غاص في أعماق المحيطات، بهذا الفكر صنع الأجهزة، بهذا الفكر أقام المجتمعات، بهذا الفكر رفع مستوى لِباسه، بهذا الفكر رفع مستوى منزله، بهذا الفكر سخَّر كل ما في الطبيعة لمصلحته، إذاً الإنسان مكرَّم بهذا الفكر الذي أعطاه الله إيّاه، فربنا عزّ وجل:

(تَبَارَكَ الَّذِي (1))

(سورة الفرقان)

الله سبحانه وتعالى خلق النفس وجعل لها قوانين:

أعطاك هذا الفكر، أعطاك هذه الأعصاب، بها يُنْقَل إليك كل ما في المحيط الخارجي ؛ من أصوات، من روائح، من أحاسيس، من حرارة، من برودة، أنت مع العالم الخارجي بحواسِّك الخَمس، بأعصابك، بعينك، بسمعك، ببصرك، هذه الحواس الخمس تدخل تحت قول الله عزّ وجل:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

شيءٌ آخر: هذا الإنسان الذي خلقه الله من خلايا لا يعلم عددها إلا الله، وكل خليّةٍ وحدةٌ وظيفيّة، بل إن هناك وحدةً بنائيّة أصغر من الخليّة، إنّ الخلية وحدة وظيفيّة، كل مجموعة من الخلايا تشكل نسيجاً، كل مجموعةٍ من الأنسجة تشكِّل عضواً، كل مجموعة من الأعضاء تشكل جهازاً، كل مجموعةٍ من الأجهزة تشكِّل هذا الكائن الفَذ الذي خلقه الله عزّ وجل ليُسْعِدَهُ، لذلك:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

الله سبحانه وتعالى خلق النفس وجعل لها قوانين، خلق الإنسان ضعيفاً، خلق الإنسان عجولاً، خلق الإنسان في أحسن تقويم، خلقه عجولاً، وخلقه ضعيفاً، وخلقه هلوعاً إذاً هذه فطرته، فَطَرَهَ على حبِّ الكمال:

(وَلَكِنّ اللّهَ حَبّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرّاشِدُونَ(7))

(سورة الحجرات)

من آثار بركة الله تعالى خلق السماوات والأرض وما عليها:

إذاً بنية النفس، طبيعة النفس، هذا من بركة الله عزّ وجل، بنية الجسد ؛ الجهاز العصبي مع الجهاز الدموي، مع الجهاز التَنفُّسي، مع الجهاز الهضمي، مع الجهاز البولي، مع الأجهزة والأعضاء، مع العضلات، مع الشرايين، مع الأوردة، مع العظام، مع الغُدَد الصُم، هذا الكائن المعقَّد الذي تحار في بنيته العقول، منذ أن تعلّم الإنسان وحتى الآن ملايين الكتب التي تتحدّث عن الإنسان.

فقلب الإنسان اختصاص، وعين الإنسان اختصاص، وأذن الإنسان اختصاص، فلو درست ما قاله العلماء قبل خمسمئة عام، كتبٌ لا يعلم عددها إلا الله كلُّها في العين، هذه في القلب، هذه في الكليتين، هذه في الجلد، هذه في العظام، هذه في العضلات، فإذا قال الله عزّ وجل:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

فهذه من آثار بركته، خلق السماوات والأرض، خلق الأرض، حجم الأرض، دورة الأرض حول نفسها وحول الشمس، ما عليها من بحار، ما عليها من جبال، ما عليها من أنهار، من بحيرات، من سهول، من أغوار، من مرتفعات، ما عليها من تُرَب لَحْقِيَّة، ترب كلسيَّة، ترب رمليَّة، أنواع الترب، أنواع التضاريس، أنواع المُناخات هذا كلُّه من خلق الله عزّ وجل.

حياة الإنسان من دون ذاكرة لا تُحتمل ولولاها لما كان للإنسان أن يتعلم:

الإنسان بُنيته الجسديَّة، بنيته النفسية، بنيته العقليَّة، هذا العقل الذي أكرم الله به الإنسان، مبدأ السببيَّة، مبدأ الغائيَّة، مبدأ عدم التناقض، الإدراك، الإحساس، التَخَيُّل، التذكُّر، المحاكمة، هذه كلُّها نشاطات رائعة جداً، لولا أن الله عزّ وجل بارك الإنسان، كيف تكون حاله ؟ تصوَّر إنساناً بلا ذاكرة، لا يتعلّم شيئاً، فأي شيءٍ يتعلّمه ينساه لعدم وجود الذاكرة، أما الإنسان بالذاكرة فتنمو خبراته، وتوسّع مجالات خبراته، هذا خبرته في الأعمال الصناعيَّة، هذا في الزراعة، هذا في التجارة، هذا في الطب، هذا في

الهندسة، هذا في القانون، هذا في التدريس، هذا في اللغة، هذا في الكيمياء، في الفيزياء، في الرياضيات، في الفَلَك، في الجيولوجية، اختصاصات كلها بفضل هذه الذاكرة، ولولا أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا هذه الذاكرة لما كان للإنسان أن يتعلّم.

شيءٌ أعمق من ذلك إنّ محلِك التجاري كلّه في ذاكرتك، بيتك كلّه في ذاكرتك، ادخل عند صيدلي وقل له: عندك الدواء الفلاني ؟ فأعْملَ بصره في الخزانة، ثم توجّه نحو الطبقة الثالثة على اليمين خلف الباب وقال: لدينا علبة واحدة، إنه متذكِّرها، معنى هذا أن الصيدليّة موجودة في ذاكرته، وأنت في بيتك تحتاج إلى شمعة، تعلم أن لها مكاناً، بالمكان الفلاني، في المطبخ، بالخزانة الفلانيّة، بالطبقة الثالثة على اليمين، فحياة الإنسان من دون ذاكرة لا تُحتمل، حياة الإنسان بلا إدراك، بلا محاكمة، بلا تفكّر، بلا تأثّر، بلا منعكسات هي حياة فارغة.

تسخير الكون للإنسان تسخير تكريم وتسخير تعريف:

المنعكسات من فضل الله عزّ وجل، فإذا أصاب يدَ الإنسان شيءٌ حار يبعدها قبل أن يفكِّر، قبل لمح البصر، هذا من بركة الله عزّ وجل، إذاً عندما قال ربنا عزّ وجل:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

هذه تشمل الأكوان، تشمل الأرض، تشمل الإنسان، تشمل بنيته الجسميّة، بنيته العقليّة، بنيته النفسيّة، بنيته الروحيّة.

شيءٌ آخر: الله عزّ وجل حينما جعلك إنساناً مكرّماً، ما معنى مكرّماً ؟ أي أنه سخّر لك الكون، الكون كلّه مسخّرٌ لك، حقيقة رهيبة جداً، مَنْ أنا ؟ أنت المخلوق الأول، أنت الذي سخّر الله له الكون، ما هو ردُّ فعلك ؟ سخّر الله لك الكون تسخير تكريم، وسخّر الله لك الكون تسخير تعريف، ما هو ردُّ الفعل عندك ؟ هل عرفته، وهل شكرته ؟ يجب أن تعرفه كردّ فعل على تسخير الكون تسخير تعريف، ويجب أن تشكُره كردِّ فعلٍ على تسخير الكون تسخير التكريم، لهذا قال الله عزّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (147))

(سورة النساء)

إذاً:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

الكون كلّه مسخر مِن أجل الإنسان:

الذي سخَّر لك الكون، وهذا الكون من عطائه، الكون بمجرّاته، بمذنّباته، بكازاراته، بكواكبه، بنجومه، بمجموعاته، بشُهبِهِ، بفضائه اللانهائي، يقول لك: هذه المجرّة تبعد عنّا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة، رقم فكِّر فيه، اضرب ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية هذا ما يقطعه الضوء، اضرب الناتج بستين في الدقيقة، ضرب ستين فالنتيجة تكون بساعة واحدة، ثم ضربُ أربعة وعشرين فالنتيجة باليوم، ثم ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين فالحاصل يكون بالسنة الواحدة، أي ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربعة وعشرين ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين هذا ما يقطعه الضوء في السنة، ضرب ستة عشر ألف مليون، المجرّة تبعد عنّا ستة عشر ألف مليون، أرقام فلكيَّة:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

الكون كلّه مِن أجلك، وجعل لك الأرض مهاداً، وفراشاً، ولباساً، ومعاشاً، جعل فيها معايش، جعل لك أنواع المعادن، أشباه المعادن، النباتات بأنواعها، نباتَ كل شيء، تحتاج إلى نباتٍ تستفيد من خشبه للأثاث، نباتٍ تستفيد من خشبه للنوافذ، نباتٍ تستفيد من خشبه للصناعة، نباتٍ تستفيد من خشبه للمتعة الجماليَّة، نباتٍ تستفيد من خشبه للسقف، نباتٍ تستفيد من رائحته العطريَّة، أكثر أنواع العطور تُسْتَخْرَج من النباتات، نبات تستخدمه دواء، نبات تستخدمه لتنظيف الأسنان، نباتٍ تستخدمه للتخليل بين الأسنان، نباتٍ تستخدمه لتنظيف الجسم، نباتٍ تستخدمه كوعاء، نباتٍ تستخدمه كحدود بينك وبين جارك، نباتٍ تستخدمه لتأكل منه، لتأكل جذره، أو جذعه، أو أوراقه، أو ثماره.

أي وقتٍ يمضي من دون أن تعرف الله وتشكره وبال عليك:

قوتٌ أساسي ينضج في يومٍ واحد، الحبوب طعام تتفكّه به ينضج على فترة معقولة في الصيف، يستمرّ بعضُ الفواكه إنتاجها شهرين أو ثلاثة، وأنواع منوّعة، ظاهرة النبات وحده تكفي ليذوب الإنسان محبَّةً لله عزّ وجل، النبات وحدها، ومع النبات الحيوان.

كم حيوان خلقَ ربنا عزّ وجل ؟ هناك أسماك للزينة توضع في أحواض الأسماك، هذه خُلقت من أجلك، من أجل أن تُنْعِم النظر إليها ؛ سوداء، وصفراء، وخضراء، شفّافة وغير شفّافة، كبيرة وصغيرة تراها في حوض السمك بشكلٍ يأخذ بالألباب، هذه أسماك زينة مِن أجل أن تَنْعَم بها.

وهناك عصافير للزينة، وأسماك لتأكل من لحمها الطري، وفي الكون دواجن، وفيه أنعامٌ، وأبقارٌ، وأغنامٌ، وشياهٌ، وجِمال، وهناك وحوش لها فائدة مُرَكّبة، وديدان، وبكتريات، وفيروسات، وما أكثر

أنواع الحيوانات بدءاً من المتحول الزُحاري وحتى الديناصور، أنواع لا يعلمها إلا الله عزّ وجل خُلِقَت كلها من أجلك:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

آية الحيوانات، آية الأطيار، آية الأسماك، آية النباتات، آية التضاريس، المناخ، الأمطار، الثلوج، الرياح، البحار، السهول، الأغوار، البحيرات، هذا كلّه مِن خَلق الله عزّ وجل.

فربنا عزّ وجل سخّر الكون تسخير تعريف فهل عرفته ؟ وسخّر الكون تسخير تكريم فهل شكرته ؟ لابدّ من أن تعرفه ولابدّ أن تشكره، فأي وقتٍ يمضي من دون أن تعرفه ومن دون أن تشكره وبال عليك وخسارة. وهل علمت أن الشكر عمل، اقرأ قوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشّكُورُ(13))

(سورة سبأ)

بالعلم تعرف الله وبالعمل الصالح تشكره:

الشكر ليس قولاً فحسب، لذا من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا بورك لي بطلوع شمس يوم لم أزدد فيه علماً يقربني إلى الله))

[ورد في الأثر]

بالعلم تعرفه، بالعمل الصالح تشكره، الكون مسخّر لك تسخير تعريف وتكريم، يجب أن تعرفه، أعْمِل هذا الفكر في هذا الكون، ويجب أن تشكره بالعمل.

شيءٌ آخر: ربنا عزّ وجل سَخّر لك العَقل، هكذا سمعت أن كبار العباقرة الذين تركوا انعطافات خطيرة في الحياة الاجتماعية والفكرية والعلمية، هؤلاء الأفذاذ العباقرة ما استخدموا من أفكارهم ومن عقولهم إلا الجُزء اليسير، فما هذه الطاقة الفكريّة التي أودعها الله في الإنسان ؟ مسكين هذا الإنسان حينما لا يستخدم فكره في معرفة الله، مسكينٌ هذا الإنسان حينما يستخدم فكره الثمين في القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال، مسكين هذا الإنسان حينما يمسخ فكره فيستخدمه للإيقاع بين الناس، مسكين هذا الإنسان حينما يحتقر فكره فيجعله شيئاً تافهاً لا يُعملُه في الكون، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(191))

(سورة آل عمران)

العقل والكون متكاملان فلا قيمة لأحدهما دون الآخر:

سخَّر لك الكون تسخير تعريف وتسخير تكريم، وسخَّر لك العقل وكرَّمك به، الجماد شيءٌ يشغل حيّزاً ماديّاً ؛ صخرة، كرسي، جدار، حجر، أما النبات شيءٌ يشغل حيّزاً مادياً وينمو، أما الحيوان شيءٌ يشغل حيزاً مادياً وينمو ويتحرّك، أما الإنسان فأنت مشتركٌ مع الجماد في أنّك تشغل حيزاً مادياً، الإنسان له وزن، يحتاج لكرسي، فالكرسي له حجم، وتشترك مع النوع الثاني في أن الإنسان ينمو مع النبات، والإنسان يشغل حيّزاً مادياً فهو ينمو ويتحرّك ويفكِّر، فإن لم تفكِّر فلست بإنسان، أما إذا فكّر الإنسان تفكيراً سقيماً، فقد انتهى إلى حالٍ سقيم:

(قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17))

(سورة عبس)

وقال:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(28))

(سورة المدثر)

إنّ الله عزّ وجل خلق الكون وسخّره لك تسخير تعريف وتكريم، وخلق العقل، والعقل والكون متكاملان، ما قيمة الكون بلا عقل ؟ وما قيمة العقل بلا كون، العقل بلا كون لا معنى له، والكون بلا عقل غير مُدْرَك، أنت بالعقل تتعرّف إلى الله عزّ وجل، لا يكفي العقل، فالعقل ميزان، لكن الله سبحانه وتعالى أنزل لك شرعاً كي تعبده به، بعقلك تُفَكِّر في الكون فتعرفه، وبالشرع تطبّقه فتعبده، هو خلقك من أجل أن تعرفه، وأن تعبده، إذاً تحتاج إلى كون وعقل لتتعرّف بهما إليه، وخلق لك شرعاً تطبّقه فتعبده، إذا عرفته وعبدّته فقد حقّقت الهدف من وجودك، إذاً ربنا عزّ وجل تفضّل علينا بالشرع.

ربنا عزّ وجل تفضّل علينا بالشرع:

فبالشرع جعل لك الحلال والحرام، والمباح والواجب، والفرض والمكروه، أحكام الزواج، أحكام الطلاق، أحكام العدّة، أحكام المواريث، أحكام البيع، أحكام الشراء، أحكام الإيجار، أحكام الحوالة، أحكام الكفالة، أحوال السلم، أحوال الحرب، فهو شرع حنيف كامل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

منهج دقيق، يتدَخَّلُ في أدق التفصيلات، رأيتم في سورة النور التي فُسِّرت من قبل كيف أن فيها نظاماً دقيقاً لكل حركةٍ وسكنةٍ في البيت، كيف تنظر، كيف تنطق، كيف تسمع، كيف تزور صديقك، كيف تأكل، كيف تشرب، كيف تنام، كيف تتصل، كيف تنفصل، هذا كُلُّه في شرع الله عزّ وجل، خلق الكون، وخلق العقل، وخلق الشرع.

هذا الذي ينبذ الشرع وراء ظهره، ولا يعبأ به، ويسير على هوى نفسه إنه ضالٌ مُضل، إنه جاهل، إنه مخطئ، إنه يسير في طريقِ الهاوية، فالشرع كأنه سكّة وأنت القطار، فما دمت على هذه السكّة فأنت في سلام، أما إذا خرجت عن السكّة فلابدّ من التدهور، التدهور حتمي لأن الشرع نظامٌ دقيق رسمه الله عزّ وجل لهذا الإنسان، وكلّما تقدّم العلم اقترب من الدين.

وظيفة المرأة الأساسية تربية أطفالها لتقدم للمجتمع عناصر منتجة وفعالة:

هناك صيحاتٌ في دولٍ متقدِّمةٌ جداً في مقياس العصر إلى أن تعود المرأة إلى المنزل، إلى أن تختصّ بتربية أطفالها، المرأة مدرسةٌ إذا أعددتها أعددت شعباً طيّبَ الأعراق، هذه الوظيفة المُقَدَّسة هي أقدس وظيفةٍ تفعلها المرأة، أنها تقدِّم للمجتمع عناصر طيّبة، عناصر قد رُبيت تربيةً عالية، عناصر منتجة، عناصر منضبطة، هذا كلُّه بفضل الأم.

امرأةٌ شكت أمرها إلى النبي عليه الصلاة والسلام قالت له: **" يا رسول الله إن فلاناً تزوجني وأنا شابّة ذات أهلٍ ومال وجمال، فلمّا كبرت سني، ونثرت له بطني، وتفرّق أهلي، وذهب مالي قال لي: أنتِ عليّ كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا "**. لاحظ توزيع الأدوار بين الزوجين قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(1)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(2)وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى(3))

(سورة الليل)

كيف أن هناك بوناً شاسعاً بين الليل والنهار من حيث أن هذا الليل مظلم والنهار مضيء، الليل بارد والنهار حار، النهار معاش والليل سكنٌ وثبات:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى(3))

(سورة الليل)

شهوة المال أودعها الله في الإنسان ليرقى بها إلى الله عزّ وجل:

الذكر له وظيفة، والأنثى لها وظيفة، شيءٌ آخر: ربنا عزّ وجل سخَّر الكون، ووهبك العقل، وأنزل على النبي الشرع لتعبده، لو كان هناك عقل، وهناك شرع، وهناك كون ولكن لا توجد فيك شهوة، فأنت لا

تحبُ النساء، لا تحبُ المال، لا تحب شيئاً، كتلة لحم ودم مُلقاة على الطريق، لا تشتغل، لا تعمل، لا تنتج، إذاً ماذا تفعل ؟ لولا أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا الشهوات، أودعها فينا لنرقى إليه، جعلك تحب المال كي تحَصِّلَهُ وكي تنفقه، إذا حصَّلته ابتليت بالتحصيل، هل تأخذه من طريقٍ مشروع أم من طريق غير مشروع ؟ هل تحتال كي تأخذه بالكذب أم تأخذه بالصدق ؟ هل تأخذه بعملٍ شريف أم تأخذه بعملٍ وَضيع ؟ هل تأخذه بالحلال أم تأخذه بالحرام ؟ قال تعالى:

(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا(20))

(سورة الفجر)

الله سبحانه وتعالى هو الذي أودع فينا حُبَّ المال، وما من أحد إلا ويحبُ المال، إلاّ أن بعض الأشخاص يظهرون هذه المحبَّة وبعضهم يخفونها، لكن ربنا عزّ وجل أودع فينا حبَّ المال كي نرقى إليه، لولا هذه الشهوة لا ترقى إليه، فلن ترقى بإنفاق المال لو لم تكن تحبُ المال، لو لم تكن تحب المال فلن ترقى إلى الله بإنفاق المال، لو لم تكن تحب المال لا ترقى إلى الله بكسبه من طريقٍ مشروعٍ مُتْعِب، ولحكمةٍ بالغة جعل الله كسب المال بشكلٍ يرضى عنه متعباً، وجعل كسب المال بطريقةٍ يَغْضَبُ منها مريحة، إذاً فأنت ممتحن بكسب المال، ممتحن بإنفاق المال، إذاً هذه الشهوة أودعها الله في الإنسان ليرقى بها إلى الله عزّ وجل.

حريّة الاختيار منحها الله للإنسان ليجعل من عمله قيمة:

ما قيمة الشهوة، وما قيمة العقل، وما قيمة الشرع، وما قيمة الكون إذا لم تكن مختاراً ؟

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إياك إياكَ أن تـبـتـلّ بالـمـاءِ

* * *

منحك حريّة الاختيار:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ(148))

(سورة البقرة)

وقال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف)

وقال:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3))

(سورة الإنسان)

هذا الاختيار يجعل لعملك قيمةً، لو أجبر الله عباده على الطاعة لأسقط الثواب، لو أجبرهم على المعصية لأسقط العقاب، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يكلِّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

حرية الاختيار ضرورية ليُثمّن عمل كل إنسان يوم القيامة:

إذاً اجعل في ذهنك أن الكون مسخَّرٌ لك، وأن العقل من متمِّمات هذا التسخير، وأن الشرع من أجل أن تعرفه، تعرف الله بعقلك كما تعرف الكون وتعبده بالشرع، وأن الشرع ميزان العقل، وأعطاك هذه الشهوات لترقى بها إلى ربِّ الأرض والسماوات، وأعطاك حريّة الاختيار كي يُثمّن عملك، كي يأخذ هذا العمل قيمةً عالية، لولا هذا الاختيار لما كان هناك أجرٌ ولا ثواب، إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

تبارك في خلق السماوات والأرض، تبارك في خلق الأرض على ما هي عليه، وتبارك بخلق الإنسان، خَلَقَ الإنسان على أبدع نظام من حيث الجسم، والنفس، والروح، والعقل.

هذه بعض المعاني التي يمكن أن نتحدّث عنها حينما نقول:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

أو:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

الله عزّ وجل خلق الإنسان بطريقةٍ يتعلّمُ بها:

شيءٌ آخر يتعلّق ببركة الله عزّ وجل أن الإنسان خُلق بطريقةٍ يتعلّمُ بها، لو خُلق الناس جميعاً على الأرض دفعةً واحدة، ولِدوا جميعاً وماتوا جميعاً، فكيف يتعلّمون ؟ من يعلِّم الآخر ؟ كيف يتعظون بالموت ؟ خُلِق الناس دفعاتٍ تترى، أجيالاً، حِقَباً، أعماراً، أجناساً، أشكالاً، موزّعين، الأب يعلِّم الابن، والأخ الأكبر يعلِّم الأخ الأصغر، والجيل السابق يعلِّم الجيل اللاحق، إذاً طبيعة خلق الإنسان بشكل تدريجي متفاوت، وهذه تعلِّمُهُ الشيء الكثير، توزيع الحظوظ في الأرض بين البشر هذه تعلِّم الشيء الكثير، تربية الله سبحانه وتعالى للناس تربيةً نفسيةً، مكافأة المحسن ومعاقبة المسيء، هذه تعلِّم الشيء الكثير.

إذاً طريقة حياتنا، طريقة مجيئنا، طريقة ذهابنا، طريقة توالدنا، طريقة تناسلنا، طريقة الزواج، أطوار التَقَدُّم في السن، هذه الأطوار التي يمرُّ بها الإنسان، لو أنه ينتهي أجله فجأةً من دون تمهيدات ؛ يشيب شعره، وينحني ظهره، ويضعف بصره، وتضعف قِواه، يقول الله عزّ وجل لعبده المسلم المتقدِّم في السن:

((عبدي كبرت سنُّك، وضعف بصرك، وانحنى ظهرك فاستحْي مني فأنا أستحيي منك))

[ورد في الأثر]

تنبيهات لطيفة جداً، ضعف البصر، مع شيب الشعر، مع ضعف القوّة، الإنسان يشعر بأعراض جديدة كلّما تقدّمت به السن، هذا تنبيه لطيف جداً من قِبَل الله عزّ وجل أن يا عبدي قد آن أوان المجيء إليّ، اقتربَ اللقاء، ماذا أعددت لهذا اللقاء ؟ ماذا هيَّأت له ؟ هذا أيضاً من بركة الله عزّ وجل، فنحن مخلوقين بطريقة نستفيد منها.

ربنا عزّ وجل خلق الإنسان ضعيفاً كي يفتقر بضعفه فيسعد بافتقاره:

ربنا عزّ وجل خلق الإنسان ضعيفاً، لو خَلَقه قوياً لاستغنى بقوّته، فشقي باستغنائه، لكن خَلَقَه ضعيفاً كي يفتقر بضعفه، فيسعد بافتقاره، خلقه هلوعاً:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

ثمّ المصائب، وهذا من بركة الله عزّ وجل، آلاف مؤلّفة بل معظم البشر يعودون إلى الله عزّ وجل بالتوبة، والإنابة، والاستسلام، والطاعة من خلال بعض المصائب، فهذه المصائب لو نعلم ما لها من فضلٍ علينا، شيء يصعب على الإنسان تصوّره، فهذا المرض سببُ الهداية، هذا الضيقُ سببُ الهداية، هذا الفقر، فكلمة تبارك تعني الخير الكثير الثابت الدائم المستقر، أي أنك إذا عرفت الله عزّ وجل أصابك الخير الثابت، خطُّك البياني في صعودٍ مستمر ولا يقف هذا الخط عن الصعود أبداً، وما الموت إلا نقطةٌ على هذا الخط ويبقى الخطُّ صاعداً إلى ما بعد الموت، هذا مِن فعل تبارك وأثر من آثاره:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

وقال:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

كلمة تبارك هي كثرة الخير واستمراره وثباته:

كلمة تبارك تعني كثرة الخير واستمراره وثباته، والكون كلّه أثر من بركة الله عزّ وجل، الكون والمجرّات، الأرض حجمها، وبنيتها، ومحورها، وفصولها، ورياحها، وسحابها، وأمطارها، وحيواناتها، وخلق الإنسان، وبنيته الجسمية والنفسية، والعقلية والاجتماعيّة، وطريقة التعامل مع البشر، وتأديب الله للبشر، هذا كلّه يدخل ضمن قوله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتحدّث عن الفُرقان، وما الذي تعنيه هذه الكلمة في القرآن الكريم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (02-13): تفسير الآية 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-03-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الفُرقان.

لمجرد أنك موجودٌ على وجه الأرض فهذه نعمة كبرى اسمها نعمة الإيجاد:

في الدرس الماضي تَمَّ الحديث عن قوله سبحانه وتعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

وقد تبيَّن أن كلمة تبارك تعني كثُر الخير واستقر وثبت، وأن هذا الكون كله أثرٌ من أثار فضل الله عزّ وجل فهناك نعمةٌ اسمها نعمة الإيجاد:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (1))

(سورة الإنسان)

كل واحدٍ منا لولا أن مشيئة الله شاءت أن يكون لما كان، شاءت مشيئة الله أن يكون وأن يسعد بمعرفة الله عزّ وجل، فلمجرد أنك موجودٌ على وجه الأرض فهذه نعمةٌ كبرى اسمها نعمة الإيجاد، وجِدّتَ بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ولو أن الله سبحانه وتعالى أوجدنا فحسب ولم يهدنا إليه لكانت النعمة غير تامة، لذلك حينما قال الله عزّ وجل:

(وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ (6))

(سورة المائدة)

نعمة الإيجاد و نعمة الإمداد:

قال العلماء: تمام النعمة الهُدى، إذاً أنعم علينا بنعمة الإيجاد، وأنعم علينا بنعمة الإرشاد، أرشدنا إليه، كيف أرشدنا إليه ؟ خلق الكون كله دالاً عليه، كيف أرشدنا إليه ؟ أودع فينا العقل، كيف أرشدنا إليه ؟ نزّل الكتاب على أنبيائه ورسله، كيف أرشدنا إليه ؟ بالتربية، منعنا أو أعطانا، ضيّق علينا أو أكرمنا، ابتلانا، إذاً العلماء يقولون: هناك نعمة الإيجاد وهناك نعمة الإمداد.

أمدّنا بالهواء، وفي طبقات الهواء طبقة اسمها طبقة الأوزون، تُعقَد الآن مؤتمرات لأن البشر قلقون على هذه الطبقة، لقد تخلخلت، ومع تخلخلها يبدو أن الطقسَ في الأرض سوف يتغيّر، إذاً هذه الطبقة

طبقة الأوزون من فضل الله عزّ وجل، الهواء من فضل الله، الماء، الأمطار انحبست قرابة شهرين، فلما جاءت هذه الأمطار استبشر الناس، فيجب أن يشعر الناس أن هذا من فضل الله عزّ وجل، أربعين ميليمتراً في المكان الفلاني، ستين في المكان الفلاني، ثمانين في المكان الفلاني، خلال أيام معدودة، لولا هذه الأمطار لكان الموسم تَعيساً، إذاً أنعم علينا بنعمة الإيجاد وأنعم علينا بنعمة الإمداد، أمدنا بالهواء وجعل الهواء متوازناً، أمدنا بالماء، أمدنا بالنبات، أمدنا بالحيوان، أمدنا بكل شيء:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (34))

(سورة إبراهيم)

لذلك هذا الفضل الإلهي الذي نَتحدَّثُ عنه اليوم هو فضله الثابت، لكنك إذا عرفت الله وتوجَّهت إليه صار العطاءُ أبدياً سرمدياً، ولهذا خلقنا، إذاً:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

المعاني المتعددة لكلمة "فرقان":

لكن الحديث اليوم عن الفُرقان، فالبركة كثيرة، الكون كله من بركاته، إيجاد الكون من بركاته، إمدادنا بما نحتاج إليه من بركاته، وإرشادنا إليه من بركاته، ولكن البركة هنا متوجِّهَةٌ إلى أن الله سبحانه وتعالى نزّل الفرقان على عبده، قال بعض العلماء: الفرقان هو كل الكتب المنزّلة على أنبياء الله ورسله، فتطلق كلمة الفُرقان على أيّ كتابٍ سماوي نزّله الله على أحد أنبيائه أو على أحد رُسله، وبعضهم يقول: الفرقان هو القرآن.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

وسمي القرآنُ فرقاناً لأنه نَزَلَ متفرقاً، القرآن نزل مُنَجَّمَاً في ثلاثة وعشرين عاماً، وبعضهم يقول: إن الفرقان سُمِّيَ فرقاناً لأن فيه تفرقةً بين الحق والباطل، أضرب على هذا مثلاً:

لو أنك دخلت إلى غرفة، وفي هذه الغرفة ألف قطعةٍ من معدنٍ أصفر، وقيل لك: إن من بين هذه القِطَع الألفِ مئة قطعةٍ من الذهب الخالص، ومئة قطعةٍ من ذهبٍ نسبته أقل، ومئة قطعةٍ أُخرى من ذهبٍ نسبته أقل، ومئة قطعةٍ من حديد مطليّ بالذهب، من نحاسٍ مطليّ بالذهب، ومئة قطعةٍ من نحاسٍ ملمع، ومئة قطعةٍ من معدن رخيص مصبوغ بلونٍ أصفر، وعليك أن تبقى في هذه الغرفة ساعة واحدة، ولك أن تأخذ من بين هذه القطع الألف مئة قطعة، فأنت تحتاج إلى ماذا ؟ تحتاج إلى مقياسٍ تعرف به الذهب الخالص.

كتاب الله عزّ وجل كأنه يفرّق لك بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين ما يجب أن تأخذه وما يجب أن تدعه، بين ما ينفعك وبين ما يضرك، بين ما هو مُجْدٍ لك وبين ما هو غير مجدٍ لك، فالفرقان سمي فرقاناً لأنه به تفرق بين الحق والباطل، تفرق بين الخير والشر، تفرق بين الحلال والحرام، تفرق بين ما ينفعك وما لا ينفعك.

القرآن الكريم فرقان تفرّق به بين الحق والباطل:

أيها الأخوة، الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (9))

(سورة الإسراء)

أيْ أنّك إذا قرأت القرآن تعرف كيف تعامل الناس، تعرف كيف تتصرّف، كيف تقف المواقف المشرّفة، تعرف كيف تأخذ شيئاً تطيب نفسك به، تعرف كيف تجتنب المُنكرات، إن القرآن الكريم فرقان تفرّق به بين الحق والباطل، إنه مقياس.

بعض علماء القرآن يقولون: **" القرآن كلام الله، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه "**، النسبة نفسها، بين خالق الكون وبين مخلوقٍ صغير، وكذلك الفرق بين كلام الله عزّ وجل وبين كلام خلقه، فالقرآن كلام الله المنزّلُ على نبيّه المنقول بتواتره، هذا القرآن الكريم نقله الجمع الغفير العدول الضابطون عن جمعٍ غفير من عند النبي عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا، فمن تعاريف القرآن الكريم أنه كلام الله المنزّل على نبيّه المنقول بتواتره المُتَعَبَّدُ بتلاوته، إذا تلوت القرآن الكريم فأنت في عبادة، إذا تلوته حق تلاوته فأنت في عباده ومن حق تلاوته أن تُحسن قراءته، ومن حق تلاوته أن تتدبَّرَهُ، ومن حق تلاوته أن تطبّقه، المتعبد بتلاوته المُتحدّى بنظمه:

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

المُتحدّى بنظمه، المُعْجِز بمضمونه، فالعلماء اكتشفوا أن الأرض فيها جاذبية، والجاذبية بشكلٍ أو بآخر هو ما يسمّى وزن الأشياء، فكل كل شيءٍ يندفع إلى الأرض، كل شيءٍ ينجذب إلى الأرض، قوة جذبه إلى الأرض هي وزنه، فهذه الجبال، وهذه الهضاب، وهذه البحار، بل وهذه الطبقات الهوائية كلها منجذبةٌ إلى الأرض، ونحن على سطحها والأبنية وكل شيء منجذب إلى الأرض، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ كِفَاتًا(25))

(سورة المرسلات)

القرآن الكريم قطعي الثبوت عن الله عزّ وجل:

كَفَتَ يَكْفِتُ كَفْتًا، أي ضَمَّ يَضُمُّ، وجذب يجذب، وجمع يجمع، فالأرض كفات تجذب كل شيءٍ عليها أحياءً وأمواتاً، الميّت ينجذب إليها، والحي وهو يمشي على سطحها منجذبٌ إليها، ولولا انجذابه إليها لما مشى على سطحها فطار في الهواء، وحالة انعدام الوزن معروفة، فلذلك آيات القرآن الكريم فيها إشاراتٌ دقيقة إلى أصول العِلم الحديث، فما من كشفٍ علمي إلا والقرآن الكريم أشار إليه قبل ألفٍ وأربعمئة عام تقريباً.

قطعي الثبوت، أيْ أنّ القرآن الكريم قطعي الثبوت عن الله عزّ وجل، فإذا كان قي القرآن وعدٌ، أو كان فيه وعيدٌ، أو كان فيه قاعدةٌ أو سنةٌ فهي قطعية الثبوت، مصداقيته مئةٌ في المئة، فإذا تيقّنت مِن أنه قطعي الثبوت عن الله عزّ وجل، وفيه تحذيرٌ، أو فيه بشارةٌ، أو فيه إنذارٌ فينبغي أن تقف منه الموقف الذي يليقُ أن تقفه من خالق الكون:

(لا رَيْبَ فِيهِ (2))

(سورة البقرة)

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (9))

(سورة الإسراء)

طبّق توجيهات القرآن الكريم في حياتك الزوجية، يهديك للطريقة المُثلى في معاملتك للزوجة، طبّق آيات القرآن الكريم في بيعك وشرائك يهديك إلى الطريقة المُثلى، طبق آيات القرآن الكريم في علاقاتك بالناس يهديك للتي هي أقوم، طبّق آيات القرآن الكريم في علاقتك بالله عزّ وجل تَرَ أن الصلة محكمةٌ بالله عزّ وجل، إذاً:

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (9))

(سورة الإسراء)

القرآن الكريم لا يحزن قارئه لأن الأمر كله بيد الله:

لا يحزن قارئهُ، الأمر كله بيدِ الله:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

لا يحزن قارئه، كيف تحزن والله سبحانه وتعالى صاحب الأسماء الحسنى وصاحب الصفات الفضلى، رحيمٌ، غفورٌ، غنيٌ، قويٌ، مجيدٌ، ودودٌ، عطوفٌ، كيف تحزن والأمر كله إليه ؟ ربنا سبحانه وتعالى طمأنك فقال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (123))

(سورة هود)

لا يحزن قارئه، وهو كما قال الإمام علي كرم الله وجهه:

" نورٌ لا يطفأ مصباحه، وسراج لا يخبو توقده، وبحر لا يدرك قعره، ومنهاجٌ لا يضل سالكه، وفرقانٌ لا يخمد برهانه، وتبيانٌ لا تهدم أركانه، وشفاءٌ لا تُخشى أسقامه، وعزٌ لا يهزم أنصاره، وحقٌ لا يخذل أعوانه، وهو معدن الإيمان، وينبوع العلم، ورياض العدل ".

" نور لا يطفأ مصباحه " فمن قرأ القرآن الكريم قذفَ الله في قلبه النور، واللهِ الذي لا إله إلا هو، هذا الذي يقرأ كتاب الله عزّ وجل ويفهمه ويطبقه كأنه كوكبٌ دُرّيٌ يمشي على وجه الأرض.

" نورٌ لا يطفأ مصباحه وسراجٌ لا يخبو توقّده " فالإنسان أحياناً يكون قلبه بارد، فاتر، لو أنه قرأ القرآن الكريم يتّقِدُ قلبه حباً لله عزّ وجل، يتّقِدُ قلبه حباً للخير، يتقد قلبه عطفاً على الناس، يتقد قلبه شوقاً إلى الله عزّ وجل، هذا القلب بين أن يكون قلباً مُتَصَخِّرَاً بارداً جامداً، لا يتحرّك، لا ينبض بمحبة ؛ وبين أن يكون القلب متقداً بمحبة الله عزّ وجل، لو أنك قرأت القرآن الكريم لاتّقَدَ قلبك محبةً لله عزّ وجل.

" وبحرٌ لا يدرك قعره " أي كلما تلوته كشف الله لك عن معانٍ لم تكن تعرفها من قبل، كلما زدته فكراً زادك معنى، لا يبلى على كثرة الترداد، لا يخلق على كثرة الترداد، كلما قرأته ازددتَ به معرفة بالله، كلما تلوته كُشِفت لك بعض أسراره، كلما تلوته كُشِفَ لك عن بعض الحِكَم من نظم هذه الآيات، فالكتاب الذي لا يملّ والكتاب الذي لا يُترك هو كلام الله عزّ وجل.

إذا عرفت القرآن عرفت المنهج الأمثل:

" ومنهاجٌ لا يضل سالكه " كما قال سيدنا عليٌ كرم الله وجهه، منهاج، خط مستقيم، قطارٌ يمشي على سكة في أمنٍ وطمأنينة، مركبةٌ تمشي على طريقٍ معبّد لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً، تمشي في طمأنينة، ولكن الذي يَدَعُ كلام الله عزّ وجل كأنه يمشي في طريقٍ وعرة، قد يفاجأ بحفرةٍ ما لها من قرار، قد يفاجأ بصخرةٍ لا يمكن أن يتجاوزها، قد يفاجأ بمخاطر، لكنك إذا سرت على هدي الكتاب الكريم لا تضل ولا تشقى.

" وفرقانٌ لا يخمد برهانه " كأنه مقياس، بعض العملات الدولية تكشف صحتها من زيفها بجهاز، تُدخل هذه العملة إلى الجهاز فيتألّق ضوءٌ بنفسجيُ اللون، فهي إذاً صحيحة، لو تألق ضوءٌ أبيض اللون

لكانت مزورة، فهذا القرآن الكريم بشكلٍ أو بآخر أي قضيةٍ عرضتها عليه ينبئك ما إذا كانت حقاً أو باطلاً، أية قضيةٍ في العلاقات الاجتماعية، في الصفات النفسية، في العلاقات المالية، في فهم ما مضى، في فهم ما سيكون، هذه القضايا العلمية والتاريخية والاجتماعية والنفسية، هذه كلها لو عرضتها عليه لكان المقياس صحيحاً.

" فرقانٌ لا يخمد برهانه، وتبيانٌ لا تهدم أركانه " ولا زلنا مع الإمام علي كرم الله وجهه في وصف القرآن الكريم..

" وشفاءٌ لا تُخشى أسقامه " من تعلم القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حَقَّرَ ما عظّمه الله، فأنت إذا عرفت القرآن عرفت المنهج الأمثل، الله سبحانه وتعالى يقول:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ (1))

(سورة الأنعام)

وقال:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف)

الكون هو من خلق الله والكتاب منهاج الله عزّ وجل:

الكتاب في كفة والكون في كفّة، الكون هو من خلق الله والكتاب منهاج الله عزّ وجل، فأنت موجود، أنت جزءٌ من هذا الكون، فإذا عرفت المنهج فقد عرفت كل شيء، لهذا يقول عليه الصلاة والسلام:

((القرآن غنىً لا فقر بعده ولا غنىً دونه))

[رواه أبو يعلى عن أنس]

إذا عرفت القرآن عرفت كل شيء، لهذا جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا (269))

(سورة البقرة)

إنّك إذا عرفت ما في هذا الكتاب من قواعد ثابتة لن تقع في غضب الله عزّ وجل ولن تستحق مع الله العقاب، تغدو حياتك في أمنٍ وسكينة، أما إذا وُضع هذا القرآن جانباً، وتحرك الإنسان وفق شهوته ومزاجه، فلا بدّ من أن يأخذ ما له وما ليس له، لابدّ من أن يقع في الحرام، لابدّ أن يقع في العدوان، لذلك يأتي علاج الله عزّ وجل فيوقفه عند حده.

القرآن الكريم فيه توجيهات أخلاقية:

السعيد من عرف القرآن في مُقتبل حياته فبنى علاقاته كلها وفق هذا المنهج الصحيح، وفرقانٌ لا يخمد برهانه وتبيانٌ لا تهدم أركانه، وشفاءٌ لا تخشى أسقامه، فربنا عزّ وجل قال:

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222))

(سورة البقرة)

وقال أيضاً:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنّ خَيْرًا مِنْهُنّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ(11))

(سورة الحجرات)

بعض الأدلة من القرآن الكريم على بعض التوجيهات الأخلاقية:

الله عزّ وجل في آيات كثيرة يقول:

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ(222))

(سورة البقرة)

وقال:

(إِنّ اللّهَ لا يُحِبُّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ(38))

(سورة الحج)

وقال:

(وَأَنّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(52))

(سورة يوسف)

وقال:

(كَذَلِكَ حَقّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ عَلَى الّذِينَ فَسَقُوا أَنّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(33))

(سورة يونس)

فيه توجيهات أخلاقية، فإذا طبّقت أحكام كتاب الله شفيت نفسك من كل مرض:

(وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا (188))

(سورة آل عمران)

الإنسان أعقد آلةٍ في الكون:

ربنا عزّ وجل وصف لك مرضاً مستشرياً بين الناس:

(وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا (188))

(سورة آل عمران)

فهذه الأمراض، وهذه المُثُل البشرية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم لو قرأناها وعقلناها وتدبرناها لشُفيت نفوسنا من كل مرض.

" وعزّ لا يهزم أنصاره " إذا قرأت هذا الكتاب وتعَمّقْتَ فيه وتلوته حق تلاوته رفع الله شأنك في الحياة، تصبح من أهل الله، أنت حاملٌ لكتاب الله.

" عزٌ لا يهزم أنصاره، وحقٌ لا يخذل أعوانه، وهو معدن الإيمان، وينبوع العلم، ورياض العدل " هذا الكتاب بشكلٍ أو بآخر كأنك اقتنيت آلةً بالغة التعقيد، غالية الثمن، عظيمة النَفْع، تشعر برغبةٍ ملحة كي تقتني كُتَيّباً تصدره الجهة الصانعة، فيه تعليمات التشغيل وطرق الصيانة، إنك حريصٌ حرصاً بالغاً على اقتناء هذا الكُتَيّب، حريصٌ حرصاً بالغاً على ترجمته، حريصٌ حرصاً بالغاً على فهمه، حريصٌ حرصاً بالغاً على تطبيقه، وتنفيذ تعليماته، وما هذا الحرص إلا نابعٌ من حرصك على هذه الآلة، ومن حرصك على أدائها أداءً جيداً، وأنت أعقد آلةٍ في الكون.

أنت أيها الإنسان تحتاج إلى تعليمات من الصانع، هذا القرآن فيه تعليمات الصانع، ما من جهةٍ في الأرض مخوّلةٍ أن تقدِّم تعليمات التشغيل إلا الجهة الصانعة، لو أنك اشتريت آلةً معقدة هل تنفِّذ تعليمات إنسان جاهل ؟ لا تنفذ إلا تعليمات الصانع، وأنت أعقد آلةٍ في الكون.

أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

اتباع منهج الله يضمن سلامة الإنسان ومخالفته يسبب الخيبة والخسران:

أنت أيها الإنسان أعقد مخلوقٍ على وجه الأرض، وأدق مخلوق، وأكرم مخلوقٍ على الله عزّ وجل، ولكرامتك عليه جعل لك هذا الكتاب منهاجاً لك في الحياة، يقول لك: افعل ولا تفعل، هذه تجوز وهذه لا تجوز، هذه تنفع وهذه تضر، هذه تُجْدِي وهذه لا تُجدي، هذه تسعدك وهذه لا تسعدك، إذاً أنت تتعامل مع توجيهات الصانع، فإذا أخذت بها ضمنت سلامة هذه الآلة، وضمنت أن تؤدِّي أعلى مردود، وإن لم تأخذ بها فقد وقعت الخيبة والخُسران.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

في القرآن معنىً دقيق جداً هو أن الله سبحانه وتعالى قال:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

إذا استسلمت لله عزّ وجل ورضيت بقضائه سعدت في الدنيا والآخرة:

وهذا هُدَى الله عزّ وجل، مثل بسيط: أحياناً ينشب بين الزوجين خلاف، أول كلمة يقولها الزوج: اذهبي إلى بيت أهلك، تذهب هذه الزوجة إلى بيت أهلها والمشكلة يسيرة وطفيفة، أطرافٌ أخرى يُسهمون بتكبير هذه المشكلة، ولو أن هذا الزوج قرأ كتاب الله عزّ وجل وقرأ توجيهات الله عزّ وجل:

(لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ (1))

(سورة الطلاق)

إن أكبر مشكلةٍ تغدو صغيرةً إذا بقيت الزوجة في بيت زوجها، وإن أصغر مشكلةٍ تغدو كبيرةً إذا خرجت الزوجة من بيت زوجها، فهذا توجيهٌ إلهي للأزواج، من طبّقه سَعِد، ومن خالفه شقي، ربما انتهى الأمر إلى الطلاق، وكثيراً ما ينتهي الأمر إلى الطلاق ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَعَسى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لكُمْ وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرّ لكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

هذا توجيه إلهي، الشيء أحياناً قد لا يعجبك، قد لا يسعدك بينما قد يكون الخير كامناً فيه، فإذا استسلمت لله عزّ وجل ورضيت بأمره وقضائه سعدت في الدنيا والآخرة، الله سبحانه وتعالى يقول لك:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبّكَ (48))

(سورة الطور)

وهذا حكم الله عزّ وجل.

قراءة كتاب الله والإيمان به يبقي الإنسان متوازناً:

إذا كنت تقرأ كتاب الله عزّ وجل تبقى متوازناً، لا يختل التوازن، لا تنهار النفس، هذا التوازن شيءٌ مهمٌ جداً في الصحّة النفسية، إيمانك بكتاب الله عزّ وجل سببٌ في هذا التوازن، الشيء الذي يقلق الناس في الدنيا، الحُزن الذي يأكل قلوبهم إذا فاتهم شيءٌ منها، أو توقع المجهول، توقع المجهول الذي يبعث في النفس الخوف، الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

فهم إذا اتّبعوا منهجه فلا خوفٌ عليهم في الدنيا، ولا هم يحزنون عند فِراقِها، إذاً هذا من بركات القرآن الكريم.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

أنت إذا تلوت كلام الله عزّ وجل لا تحزن، ربنا سبحانه وتعالى وجّهك فقال:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

وحدانية الله عز وجل توجيه إلهي في كتاب الله وهي أهم أسباب سعادة الإنسان:

أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تدعوَ مع الله إلهاً آخر، فإذا وحّدَتَ الله عزّ وجل فقد سعدت وهذا توجيهٌ إلهيٌ في كتاب الله عزّ وجل، أحياناً تكون دنياك متواضعة، ودنيا الفُجّار عريضة، فإذا كنت في غيبوبةٍ عن كلام الله عزّ وجل، إذا كنت بعيداً عن كلام الله، قد يأتي لقلبك اليأس فتقول: أنا مع استقامتي وعلى طاعتي لله وعلى طهارتي، وأعيشُ في ضيقٍ شديد، وفلان وعلاّن في بحبوحةٍ كبيرة، ومع أنّهم يعصون الله ليلاً ونهاراً !! إذا تلوت كلام الله عزّ وجل، حيث يقول الله عزّ وجل:

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلّ شَيْءٍ حَتّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً(44))

(سورة الأنعام)

عندئذٍ ترضى، إذا تلوت قول الله عزّ وجل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

ترضى، إذا تلوت قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ(21))

(سورة الجاثية)

ترضى، إذا تلوت قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

ترضى، هذا هو الفوز العظيم، إذا تلوت قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا(9))

(سورة الشمس)

أنت في طريق تزكية النفس ترضى.

القرآن شفاء لما في النفوس من كل خوف ومرض:

هذا القرآن شفاء لما في النفوس، واللهِ الذي لا إله إلا هو، لا يقرأ هذا القرآن مؤمنٌ صادقٌ قراءةً كما أرادها الله عزّ وجل إلا شُفِيَت نفسه من كل مرض، ولا يساوره خوف، لماذا الخوف ؟

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً (97))

(سورة النحل)

لماذا الخوف ؟ وعدٌ من خالق الكون أن يحييك حياةً طيبة إذا طبّقت أمره، لماذا الخوف ؟ هل تخاف من عدوك ؟ يقول الله عزّ وجل على لسان سيدنا هود:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

هل تخاف من عدوك ؟ إذا تلوت قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا (38))

(سورة الحج)

القرآن الكريم يبعث في النفس الطمأنينة والثقة برضاء الله عزّ وجل:

ألا تطمئن إلى أن الله يدافع عنك ؟ هذه آيةٌ محكمة في كتاب الله، إذا تلوت قوله تعالى:

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ (110))

(سورة آل عمران)

إذا كنت حريصاً على تلقِي العلم والحكمة ألست من السعداء ؟ هذه كلُّها تبعث في النفس الرضا، إذا تلوت قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدًّا (96))

(سورة مريم)

ألا تطمح أن تشتري مودة الله عزّ وجل بطاعته ؟ ألا تطمح أن تكون ممن تَعنيهم هذه الآية، إذا تلوت قوله تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (48))

(سورة الطور)

ألا تتمنى أن تكون ممن تنطبق عليهم هذه الآية ؟

من بركات القرآن الكريم أنه يحقق توازناً نفسياً:

القرآن شفاء لما في النفوس، يبعث في النفس الطمأنينة، والرضا، والثقة برضاء الله عزّ وجل، يحقق توازناً نفسياً بين الدين والدنيا، بين الدنيا والآخرة، هذا كلّه من بركات القرآن الكريم، لذلك قال الله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

إذا فاتك شيءٌ من الدنيا وتلوت قوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60))

(سورة القصص)

ألا تحس أن الدنيا كلها لا قيمة لها، وأن رضوان الله عزّ وجل أثمن ما فيها ؟ هذا القرآن الكريم إذا قرأته، وتدبّرته، وعقلت ما فيه كنت أسعد الناس، يجب أن تقول إذا قرأت القرآن: أنا أسعد الناس، أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحدٌ أتقى مني فهو أسعد مني، هكذا يجب أن تقول.

إذا حقق الإنسان العبودية لله فقد حقق أعلى مرتبةٍ ينالها إنسان:

قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

مَن هو عبده ؟ النبي عليه الصلاة والسلام، وُصِفَ في أرقى مرتبةٍ ينالها إنسان، إما أن تكون عبداً لله قهراً، وإما أن تكون عبده طواعيةً، كلنا عبيدٌ لله قهراً، ولكن إذا عرفت حجمك الحقيقي، وعرفت ربك معرفةً تليق بك، إذا عرفته وعبدته ارتقيت إلى أرقى مرتبةٍ ينالها مخلوقٌ على وجه الأرض، لذلك فربنا عزّ وجل كرم النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

معنى عَبْدِهِ أي الإنسان الذي ينساق إلى الله، يستسلم إلى الله بكل أفكاره، ومشاعره، وقوّته، وحركاته، وسكناته، هذا الذي يستسلم لأوامر الله في كل أنواعها، في كل حركاته وسكناته يحقق العبودية، وإذا حقق العبودية فقد حقق أعلى مرتبةٍ ينالها إنسان.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

إذا كنت عبداً لله فعبدُ الله حُر:

النبي عليه الصلاة والسلام أهلٌ لأن يُنَزّلَ عليه القرآن لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (105))

(سورة الإسراء)

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ)

أي مضمونه الحق،

(وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)

أي نزل على إنسانٍ مؤهّلٍ أن ينزّل عليه القرآن، في الآية الأولى إشارةٌ إلى أحقِيّة القرآن، وفي الكلمة الثانية إشارةٌ إلى أحقيةٌ النبي العدنان:

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (105))

(سورة الإسراء)

وإذا كنت عبدَ الله فعبدُ الله حُر، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم))

[صحيح البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ]

أنت عبدٌ لمن ؟ هناك من هو عبدٌ للدرهم والدينار، ومعنى أنه عبدٌ للدرهم والدينار أيْ أنّه يعصي الله من أجل الدرهم والدينار، يضيّع من دينه الشيء الكثير من أجل الدِرهم والدينار، يخالف كلام الله من أجل الدرهم والدينار، يُضيع فرض الصلاة من أجل الدرهم والدينار، هذا عبدٌ للدرهم والدينار، وقال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[صحيح البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ]

من كان عبداً لله فهو في ظلّ الله ورعايته:

تعس عبد الدرهم والدينار، وتعس عبد البطن، وتعس عبد الفرج، وتعس عبد الخميصة، الخميصة أي الثياب، هذا الذي يجعل نفسه خادماً لشهواته كأنه جعل من شهوته إلهاً له فعبدها من دون الله، لكن المؤمن له صفةٌ أخرى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(41))

(سورة النازعات)

تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد البطن، تعس عبد الفرج، تعس عبد الخميصة، المعنى المخالف وسعد من كان عبداً لله.

إما أن تكون عبداً لله وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، شتان بين أن تكون عبداً لله:

اجعل لربك كـل عزّك يستقر و يثبت

فإذا اعتززتَ بمن يموت فإن عزك ميت

*** * ***

أُعْبُدْ الله، اعتزّ به، كن في طاعته، احرص على أن يجدك حيث أمرك، وعلى أن يفقدك حيث نهاك، إذاً أنت عبدٌ لله، ومتى كنت عبداً لله فأنت في ظل الله، وأنت في رعاية الله، وأنت في عين الله، تنطق بتوفيق الله، تمشي بهدى من الله عزّ وجل، الحديث القدسي:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

وحديث آخر:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرّبَ إلَيّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبّ إلَيّ مِمّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرّبُ إلَيّ بِالنّوَافِلِ حَتّى أُحِبّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنّهُ وَمَا تَرَدّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هكذا يكون المؤمن.

هذه الآية مسوقة إلى عالم الإنس والجن لأنهما المكلفان بالرسالة:

(تَبَارَكَ الّذِي نَزّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

مَنْ هم العالَمون ؟ العالَمون جمع عالَم، ولكن هذه الآية مسوقةٌ إلى عالم الإنس والجن فقط، لأنهما الصِنفان من بين المخلوقات الذين كُلِّفا بالرسالة، ليكون هذا الكتاب للإنس والجن نذيراً، لماذا هو نذير ؟

نذير تنبيه، فأنت إذا سرت في طريق، وفي الطريق أخطار، ألا ترى إلى هذه اللوحات قبل مئة متر أو مئتي متر من المُنعطف الخطر، من المنحدر الزَلِق، من الطريق الضيّق، من الطريق المتقاطع، يقول لك: تقاطع خطر، أليست هذه اللوحات إنذار من جهةٍ رحيمة لمن يمشي على هذه الطريق ؟ هذا مثل بين أيدينا، كذلك الإنسان حينما يتلو كلام الله:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ (53))

(سورة الإسراء)

قراءة القرآن الكريم دون العناية بتطبيقه نوع من الهجران:

حينما تنطق انطِق بالحق، لا تكن قاسياً، لو كنت قاسياً لدخل الشيطان بينك وبين أخيك، هذا توجيه ربّاني:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (30))

(سورة النور)

توجيه رباني، من أجل أن تسعد في بيتك غُضّ بصرك عن محارم الله:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ (188))

(سورة البقرة)

توجيه رباني في العلاقات المالية، فإذا طبّقت هذه التوجيهات قطفتَ ثمارها في الدنيا، أما أن نقرأ القرآن الكريم من دون أن نُعْنَى بتطبيقه فهذا نوع من الهجران، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

وحديث آخر:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

[سنن الترمذي عَنْ صُهَيْبٍ]

من عصى اللهَ عزّ وجل فإما أن يكون كافراً فما أكفره أو جاهلاً فما أجهله:

قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

قبل أن نصل لهذه الآية، فللإمام الغزالي رضي الله عنه قول دقيق جداً على كلمة نذير، ومن المناسب أن نتلوه عليكم في معرض هذه الآية، الإمام الغزالي يقول: " لو أن طبيباً حذّر مريضه من بعض الأكلات التي يحبها، وبين له الخطر الذي ينتظره إذا تناولها.. وأغلب الظن أننا نحن جميعاً نُحِب أكلةً ما، قابلت الطبيب قال لك: هذه الأكلة تسبب لك التهاباً في المعدة، ابتعد عنها، أغلب الظن أن جميع العقلاء ينصاعون لهذا التحذير من الطبيب، الآن سنجري موازنةً بين تحذير الله عزّ وجل وبين تحذير الطبيب، في القرآن أوامر ونواهٍ، ووعدٌ ووعيد، فكيف نفسِّر موقف الإنسان الذي يخالف أوامر الله عزّ وجل ونواهيه، ولا يعبأ بوعده ولا وعيده ؟ أيكون الطبيب أصدق عنده من الله ؟ فهل من المعقول أنّ طبيباً من بني البشر يقول لك هذه الأكلة التي تحبها تؤذي قلبك أو تؤذي معدتك وتصدقه، والله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب القطعي الثبوت، الذي هو كلام الله قولاً واحداً يقول لك: لا تفعل هذا ثم تفعل وتخالف.

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ (188))

(سورة البقرة)

الطبيب يحذِّر فتنصاع لتحذيره، والرّب يحذر فلا تنصاع !! أيكون الطبيب أصدق عندك من الله، هكذا خاطب الغزالي نفسه: **" يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله، إذاً فما أكفركِ "** يخاطب نفسه، أما إذا كان وعْد الطبيب أشد إيقاعاً في نفسك من وعْد الله، أو إذا كان وعيد الطبيب أشد إخافةً لك من وعيد الله فما أجهلكِ أيتها النفس، لما يعصي الإنسانُ اللهَ عزّ وجل فإما أن يكون كافراً فما أكفره أو جاهلاً ما أجهله، وليس هناك حلٌ ثالث، إما كافراً فما أكفره أو جاهلاً فما أجهله.

القرآن الكريم جعله الله دستوراً لنا ومنهجاً نسعد إذا طبّقناه ونشقى إذا تركناه:

ملخص هذا الدرس أن هذا القرآن الكريم جعله الله دستوراً لنا ومنهجاً نسعد إذا طبّقناه ونشقى إذا تركناه، ومن صفات أهل الدنيا، أو من صفات الذين تنكبوا طريق الحق أنهم اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، هجران القرآن الكريم ليس فقط ألاّ تقرأه، قد تقرؤه ولكن إن لم يدخل في حياتك اليومية، إن لم تدخل آياته في علاقاتك الاجتماعية، إن لم تعظِّم هذه الأحكام التي جاء بها فأنت قد هجرته، وإذا هجرته فقد ضللت ضلالاً بعيداً، لذلك فعلى الإنسان في بيعه وشرائه ألاّ ينسى أن يطبق كلام الله عزّ وجل، وكذلك في علاقاته الاجتماعية، في بيته، مع زوجته، مع أولاده، مع من هم فوقه، مع من هم دونه:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(34)وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا)

(سورة فصلت)

القرآن الكريم لا نسعد به إلا إذا طبّقناه تطبيقاً دقيقاً:

عندما يقول ربنا عزّ وجل في القرآن:

(وَعَاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ (19))

(سورة النساء)

أمر إلهي، وهذا الأمر يقتضي التطبيق والوجوب، فحينما تتحرّك في علاقاتك الشخصية والاجتماعية وفق المزاج ووفق الهوى، وتجعل هذا الكتاب مهجوراً من حيث التطبيق، فعندئذٍ يدفع الإنسان الثمن غالياً، فملخص هذا الدرس أن هذا الكتاب لا نسعد به إلا إذا طبّقناه تطبيقاً دقيقاً.

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ(31)نُزُلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32))

(سورة فصلت)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (03-13): تفسير الآية 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-03-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الفُرقان.

أصل الدين معرفة الله عزّ وجل:

في الدرس الماضي شُرِحَتْ بعض المعاني التي تنطوي عليها كلمة الفرقان وهو القرآن الكريم، حيث وردت في الآية الأولى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

الجملة التي ما بعد " الذي " هي جملة الصلة كما نعرف في قواعد اللغة، جاءت لتعرّفنا بالله سبحانه وتعالى، الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه يقول: **" أصل الدين معرفته "**، أي أن أصل الدين معرفة الله عزّ وجل.

جاء رجلٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((يا رسول الله جئتك لتعلمني من غرائب العلم "، فقال عليه الصلاة والسلام: " وماذا صنعت في أصل العلم ؟ " قال: " وما أصل العلم ؟ "، قال: " هل عرفت الرب ".))

[تنبيه الغافلين عن عبد الله بن مسور الهاشمي]

فالقول الذي أُثِرَ عن سيدنا عليٍّ كرّم الله وجهه: **" أصل الدين معرفة الله، وأصل العبادة معرفة شرعه، وأصل صلاح الدنيا معرفة خلقه."**

العلم ما عُمِلَ به فإن لم يُعْمَل به كان الجهل أفضل منه:

الإنسان أحياناً عليه أن يسأل نفسه سؤالاً محرجاً: ماذا أعرف عن الله ؟ الإنسان قد يُعَمِّي على نفسه، قد يتوهَّم أنه يعرف الله وهو لا يعرفه.

لنضرب على ذلك بعض الأمثلة: لو أن رجلاً ركب طائرةً من عمّان إلى قبرص ومرّ فوق دمشق، فسُئل: هل تعرف الشام ؟ يقول لك: نعم أعرفها، لقد طارت طائرتي فوق دمشق. إنسان آخر هبطت طائرته في مطارها فسُئِل: هل تعرف الشام ؟ يقول: نعم نزلت في مطار دمشق، ومكثت فيه ساعة. إنسان زار من دمشق الجامع الأموي وسوق الحميديّة فسُئل: هل تعرف الشام ؟ يقول لك: نعم أعرفها.

إنسان عاش في الشام أربع سنواتٍ دراسيَّة، كان طالباً في الجامعة، سُئل: هل تعرف الشام ؟ يقول لك: نعم أعرفها، إنسان عاش في الشام عشرين عاماً يقول لك: أعرف الشام، وإنسان ولِدَ في الشام، وعرف طِباع أهلها، وتقاليدهم، وعاداتهم، وأنماط أفراحهم وأتراحهم هذا سُئل: أتعرف الشام ؟ يقول لك: نعم أعرفها.

هل مستوى معرفة هؤلاء في مستوى واحد ؟ هذا الذي طارت طائرته فوق دمشق فقال: أعرف الشام، ماذا يعرف عنها ؟ رآها مدينةً مترامية الأطراف، بعضها أبنيةٌ حديثة وبعضها أبنيةٌ قديمة، هذه ليست معرفةً كافية، وهذا الذي بقي في المطار ساعتين لم يعرفها معرفةً كافية ولا شبه كافية، وهذا الذي زار الجامع الأموي فقط وسوق الحميديَّة لم يعرفها معرفةً كافية كذلك، فكلمة المعرفة هذه واسعة جداً.

ما مِن مسلمٍ على وجه الأرض إلا ويقول لك: أنا أعرف الله، هو خالق الكون، يا ترى هل هذه المعرفة تكفي كي تستقيم على أمر الله ؟ هل هذه المعرفة تكفي لكي تخاف الله عزّ وجل ؟ هل هذه المعرفة تكفي كي تعمل صالحاً يرضاه عنك ؟ هل هذه المعرفة تكفي كي تُلزِمَ نفسك بحضور مجالس العلم والتقلُّب في معرفة الله عزّ وجل، فكلمة أعرف الله هذه كلمة يقولها كل إنسان، أما هذه المعرفة فلابدّ من أن ترقى، أُكرر: لابدّ أن ترقى، لابدّ أن ترقى إلى أن تصل إلى الحدِّ الأدنى، الحد الأدنى الذي يكفي كي تستقيم على أمر الله، لأن العلم ما عُمِلَ به، فإن لم يُعْمَل به كان الجهل أفضل منه.

على الإنسان أن يعرف ما حجم معرفته بالله عز وجل:

الإنسان عليه أن يعرف جيداً ما حجم معرفته بالله عزّ وجل بادئ ذي بدء، فإنّ الإنسان الذي يعصي الله لا يعرفه قطعاً، لأنك لو عرفته لما عصيته، ولا تنظر إلى صِغَر الذنب ولكن انظر على من اجترأت، قد تعرف شيئاً من الدنيا، هناك في الدنيا أشياء إذا عرفتها استمتعت بها، هناك معرفةٌ مُمْتِعَة، هناك معرفةٌ نافعة، هناك معرفةٌ ممتعةٌ ونافعة، هناك معرفةٌ ممتعةٌ غير نافعة، هناك معرفةٌ نافعةٌ غير ممتعة، هناك معرفةٌ لا ممتعةٌ ولا نافعة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اللّهُمّ إنّي أعُوذُ بكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ وَقَلْبٍ لا يَخْشَعُ وَدُعَاءٍ لا يُسْمَعُ وَنَفْس لا تَشْبَعُ ثُمّ يَقُولُ اللّهُمّ إنّي أعُوذُ بكَ مِنْ هَؤلاءِ الأرْبَع))

[من سنن النسائي عن أنس]

إذاً لو أردت أن توازن بين معرفة الأشياء ومعرفة الله عزّ وجل، فالمسافة التي بين خالق الكون وبين أحد مخلوقاته هي المسافة نفسها بين معرفة الله وبين معرفة خَلْقِهِ، فمن معارف البشر ما هو ممتع ولكنّه غير نافع، من معارف البشر ما هو نافعٌ ولكنّه غير ممتع، من معارف البشر ما هو ممتعٌ ونافع، من معارف البشر ما ليس بنافع ولا مُمتع، ولكنّك إذا عرفت الله عزّ وجل تمتّعت بهذه المعرفة وانتفعت

بها، وعاقبة هذِهِ المعرفة لا تنتهي في الدنيا، وإنَّما تسعدُ بها إلى الأبد، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((فَضْلُ كَلَامِ اللّهِ عَلَى كَلَامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[رواه الدارمي عن شهر بن حوشب]

معرفة الله تُقاس بمدى الاستفادة منها:

معرفة الله تُقاسُ بجدواها، بمدى الفائدة التي تُسْتَخلَصُ منها، لو أنَّك في مكان في مدينة أوروبيَّة، ومعك كتاب ضخم عن المواصلات في هذه المدينة، وعن نظام المواصلات تحت الأرض، وعن أسماء المحطّات، وعن مواعيد انطلاق القطارات، وأنت عليك أن تبقى في هذه المدينة يوماً واحداً، هل من الحكمة أن تبذل جهداً كبيراً لفهم هذا الكتاب وترجمته ؟ مع أنَّك لن تبقى في باريس إلا يوماً واحداً، هل عليك أن تقرأ كل هذا الكتاب، وأن تفهم كل التفصيلات، وأن تعرف كل أنواع القطارات وكل ساعات الانطلاق ؟ من الغباء أن تقرأ هذا الكتاب لأن هذا الكتاب لن يجدي نفعاً، لن ينفعك إلا ما دمت في هذه المدينة، وأنت لن تبقى فيها أكثر من يومٍ واحد، إذاً دَع هذا الكتاب، فالمعرفة تُقاس بمدى الاستفادة منها، برقعة المكان الذي تستفيد منها.

لو قرأت شيئاً متعلِّقاً بصحّتك فأينما ذهبت تستفدْ من هذه الوصيَّة الصحيَّة، لو قرأت شيئاً متعلِّقاً بمستقبل دراستك فإنك كلّما طبّقت هذه الوصيَّة استفدت منها حتى في الصفوف العُليا، أما إذا عرفت الله عزّ وجل فهذه المعرفة تنفعك بدءاً من حين معرفتك بالله وإلى الأبد، فالإنسان عليه ألاّ يضيّع وقته الثمين في معرفةٍ لا تُجدي ولا تُغني، عليه أن يختار من بين المعارف ما يستمرُّ معه في قبره.

لو قرأت تاريخ الإغريق، ولست مُخْتَصّاً في التاريخ، ولست مدرّساً، وهذا الموضوع لا يتصل بحياتك اليوميَّة، فماذا تجني من معرفتك لهذا التاريخ ؟ لكن اقرأ كتاب الله، ففيه توجيهاتٌ دقيقة لكل حركةٍ وسكنةٍ من حركاتك وسكناتك.

المؤمن الحق يعلم علم اليقين أن سعادته في معرفته لله عزّ وجل:

الشيء الذي أريد أن أقوله هو: أنك إذا عرفت الله عزّ وجل استفدت من هذه المعرفة بدءاً من اللحظة التي تعرَّفت بها إلى الله وإلى أبد الآبدين، لكنّ أي علمٍ آخر لو تعلّمته ففائدته مقصورةٌ على وقتٍ محدّد أو على مكانٍ محدّد، وما بعد هذا الوقت وهذا المكان فهذه المعرفة لا تنفع، فهذا العُمُر الثمين لا ينبغي أن يضيع في سفاسف الأمور، ولا في معارف ليس مردوها بمستوى بذلها.

شيءٌ آخر: المعرفة ليست هدفاً بذاتها إنما هي وسيلة، إذا عرفت الله عبدته وإذا عبدته سعدت بقربه،

فالقصد البعيد هو أن تسعد، ولا تنسوا أن لكل إنسانٍ في كل زمانٍ ومكانٍ مطلباً ثابتاً، أيُّ إنسان على وجه الأرض في أيّ زمان وفي أيّ مكان له مطلبٌ ثابت، هذا المطلب الثابت هو أن يَسْلَمَ وأن يَسْعَد، فإذا علمت علم اليقين أن سلامتك وسعادتك لا تكون إلا بمعرفة الله عزّ وجل، فإن معرفة الله تتوافق مع مَطْلَبَكَ الثابت في الحياة، أيُّ إنسان متعلِم وغير متعلِم، ذكي وغير ذكي، أيّ إنسان على وجه الأرض يبحث عن سلامته وعن سعادته، لكن المؤمن الحق يعلم علم اليقين أن سعادته في معرفته لله عزّ وجل.

فلذلك عندما قال ربنا عزّ وجل:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

معرفتك بالله لها حجم يجب أن تعرفه بالضبط كي تستقيم على أمر الله:

الآن عودٌ على بدء، اسأل نفسك هذا السؤال المحرج: ماذا أعرف عن الله ؟ تحدَّث، اجلس مع أخيك المؤمن وحَدِّثه عن الله، بعد كَمْ من الدقائق تنتهي معرفتك ؟ بعد كم من الساعات ؟ بعد كم من الأسابيع تنتهي معرفتك، هناك حجمٌ لمعرفتك، معرفتك لها حجم فيجب أن تعرف هذا الحجم بالضبط، فإذا كان هذا الحجم غير كافٍ فلابدَّ من أن تزيده، لأن معرفتك بالله عزّ وجل قد تكون بحجم صغير غير كافٍ كي تستقيم على أمره، إذاً لا بدَّ من أن تنمو إلى أن تبلغ الحدَّ الأدنى وهو أن تستقيم على أمر الله، قبل أن تستقيم لا يمكن أن تعرف الله، لأنه من عرفه عبده، إذا علمت أن الله بيده كل شيء، وأن مصيرك إليه، وأن عنده من السعادة ما لا سبيل إلى وصفها، وأنه قد أعدَّ لك جنَّةً فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأنه أعدَّ لمن يعصيه ناراً وقودها الناس والحجارة، أيعقل أن تعرفه وأن تعصيه ؟ هذا مستحيل:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبّه هذا لعمري في المقـال بديعُ

لو كـان حبُّك صادقاً لأطعته إنّ المحـبّ لمن يحـبّ يطيعُ

*** ***

لا يمكن أن تعرف الله إلا إذا أوصلتك هذه المعرفة إلى طاعته:

دائماً زِنْ معرفتك بالله عزّ وجل بمدى تطبيقك لأمره، ما دام هناك مخالفات، ما دام هناك معاصٍ، ما دام هناك تجاوزات، ما دام هناك تقصير فلا تقل: أنا أعرف الله عزّ وجل، لو عرفته لعبدته، لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت، أتعصيه من أجل آلافٍ من الليرات ؟! لو عرفته لعرفت

أن الله سبحانه وتعالى يعطيك أضعافاً مضاعفة فيما لو أطعته، أتعصيه خوفاً من غضب فلان ؟ لو عرفت أن غضب الله عزّ وجل لا يعدله غضبٌ في الكون لما اجترأت على معصيته.

فلهذا لا تُسَمّ نفسك عارفاً بالله إلا إذا أوصلتك هذه المعرفة إلى طاعته، قبل أن توصلك إلى طاعته فهذه ليست معرفةً كافية، فمثلاً: لو أن حاجباً يقف على باب قاعةٍ للتدريس، ودخل الأستاذ القدير أمام عين هذا الحاجب آلاف المرّات، هذا الحاجب معرفته بهذا الأستاذ محدودة لا تزيد عن أنه أستاذ في هذا القسم، وهو أستاذٌ محبوب وقدير، لكن هذا الطالب الذي يجلس وراء المقعد ويستمع إلى محاضرته، كلّما ألقى محاضرةً ارتفع مستوى معرفته بهذا الأستاذ، نعم كلّما ألقى محاضرةً ارتفع مستوى المعرفة، فإيّاك أن تكتفي بمعرفةٍ محدودةٍ عن الله عزّ وجل، إياك أن تكتفي وتقول: أنا أعرف الله، الله خالق الكون وكفى، هذه معرفةٌ ساذَجَة، هذه معرفةٌ عرفها إبليس:

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(39))

(سورة الحجر)

بماذا خاطبه ؟ إبليس بماذا خاطب ربَّ العزّة ؟ بأنه رب، وخاطبه بأنه عزيز:

(وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(39))

(سورة الحجر)

معرفة الإنسان بالله شيء أساسي:

أهذه المعرفة كافية ؟ لا والله ليست كافية، فما من إنسان إلا وهو راضٍ عن عقله وراضٍ عن معرفته لله عزّ وجل، وقد يكون لا يعرف الله، وقد يكون واهماً، يكفي أن تُرضي إنساناً وتعصي الله فأنت لا تعرفه، يكفي أن تخاف من غضب إنسانٍ ولا تخاف من غضب الله عزّ وجل فأنت لا تعرفه، يكفي أن ترجو غير الله فأنت لا تعرفه، يكفي أن تخشى غير الله فأنت لا تعرفه، يكفي أن تسعى لغير الله فأنت لا تعرفه، فهذه المعرفة بالله شيءٌ أساسي، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

مَنْ هو الذي نزّل الفرقان على عبده ؟ مَنْ هو ؟ يقول الله عن ذاته: تبارك الذي ؟ قال:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

معرفة الإنسان بالكون تزداد مع ازدياد وسائل المعرفة:

السماوات والأرض تعبيرٌ قرآنيٌ عن الكون، معرفة الإنسان بالكون تزداد مع ازدياد وسائل المعرفة، فقبل أن يُخْتَرَعَ المَرْصَد كانت معرفة الإنسان بالكون لا تتعدّى هذه النجوم التي رآها بعينه، ولكن بعد اختراع المراصد فمن عشرة آلاف نجمة يعدُّها الإنسان بعينيه في قبّة السماء في ليلةٍ ظلماء، إلى مليون مَليون مجرّة، وفي كل مجرّةٍ مليون مَليون كوكب، كم هو الفرق شاسعٌ بين المعرفة البدائية وبين المعرفة المتقدِّمة ! فلو قلت لكم: إن إحدى المجرّات التي اكْتُشِفَتْ حديثاً تبعدُ عن الأرض ستة عشر ملياراً أو ألف مليون سنة ضوئيّة، وأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، وفي الدقيقة ضرب ستين، وفي الساعة ضرب ستين، وفي اليوم ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، وفي ستة عشر ألف مليون سنة، كم تبعد عنّا هذه المجرّة ؟! إذا علمت أن المجموعة الشمسيّة بأكملِها لا يزيد قطرها عن ثلاث عشرةَ ساعةً ضوئيّة، هذا يعني أن الضوء يقطعها في ثلاث عشرةَ ساعة. إذا علمت أن الشمس تبعد عن الأرض ثماني دقائق ضوئيّة، وأنّ القمر يبعدُ ثانيةً ضوئيّةً واحدة، وإذا علمت أن هذه المجرّة تبعد عنّا ستّة عشرَ ألف مليون سنة، فما سِعة هذا الكون المُترامي الأطراف ؟

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76))

(سورة الواقعة)

فعندما يقول ربنا:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

هل تعرف حجم السماوات والأرض ؟ هل تعرف المجرّات ؟ هل تعرف الكازارات ؟ هل تعرف المُذَنَّبات ؟ هل تعرف الكويْكِبَات ؟ هل تعرف المجموعات ؟ هل تعرف النجوم ؟ هل تعرف الكواكب ؟ هل تعرف حجم بعض النجوم هذه التي تبدو كالعناقيد، ما حجمها ؟ هذا النجم الذي في بُرج العقرب المتألِّق هل تعرف ما حجمه ؟ إنّه يسع الشمس والأرض مع المسافة بينهما:

(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لا تُبْصِرُونَ(39))

(سورة الحاقة)

بعض النجوم التي نراها صغيرة تتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما:

ماذا تبصر أنت بعينيك ؟ ترى نجماً صغيراً متألِّقاً، هذا النجم الصغير يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، فلمّا يقول ربنا:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

إنسان يملُك بيتاً مساحته سبعين متر، وهناك بيت مئة وعشرة أمتار، كذلك هناك بيت مئتان وخمسون متراً، يملك إنسان أحياناً قصراً حوله حديقة مساحتها خمسة آلاف متر مربَّع وفيه ثلاثمئة غرفة، هذا غير هذا، إنسان يملك كل أسواق المدينة، كم حجم أمواله ؟ فكيف بمَنْ يملك كل المدن في العالَم، كل الأراضي الزراعيَّة، كل المعامل، كل الشركات الناجحة، كل الأسواق التجارية الضخمة، كل البيوت الرائعة:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

عظمة الخالق في خلق هذا الكون الواسع:

هذه المجرّات، هذه الكواكب، المجموعة الشمسيَّة، ما دامت الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرّة، ولو أُلقِيَت فيها الأرض لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، ما حجم الشمس ؟ وهذه الشمس التي تتقِد منذ خمسة آلاف مليون سنة، ويقدِّر العلماء أنها لن تنطفئ قبل وقتٍ كمثل هذا الوقت، أي بعد خمسة آلاف مليون سنة، ربما انطفأت:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2))

(سورة التكوير)

فكلمة السماوات والأرض هل تعرف حجمها ؟ هل تعرف أين ينتهي الكون ؟ لا أحد يعرف، فهذه المجرّة التي كنت قد حدثتكم عنها قبل قليل أنها تبعد عن الأرض ستّة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة، هذه المجرّة كانت في هذا المكان قبل ستَّة عشرَ ألف مليون سنة، والآن تحوّلت عنه، يوم كانت في هذا المكان أرسلت هذا الضوء، والآن وصلنا ضوءها، فقلنا: هناك مجرّة تبعد عنَّا هذه المسافة، أما الآن، فأين هي ؟ لا يعلم أحدٌ إلا الله أين هي.

ربنا عز وجل أراد أن يعرفنا بذاته في هذه الآية:

عندما يقول ربنا:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

الإنسان يفرح إذا كان يملك ثلاثمئة دونم، اركب من دمشق إلى القامشلي يقول لك قائل: يا أخي تسعمئة كيلو متر، حوالي ألف كيلو متر مشينا، انظر إلى سوريا على كرة أرضيَّة مجسَّمة، إذا كتبوا عليها

سوريا بأصغر حرف تغطي كل المساحة، سوريا على كرة أرضيَّة مجسَّمة إذا أردنا أن نكتب عليها كلمة سوريا بالإنكليزي (Syria) يُغطُّون كل مساحتها بأصغر حرف، فأين القارّات الخمس ؟ ترى هذا الحجم الصغير على الكرة المُجسَّمة وقد مشيت من دمشق إلى القامشلي تسعمئة كيلو متر، فيقول لك صاحبك: سرنا عشر ساعات، بل ثلاث عشرةُ ساعة، جسمنا قد تكسَّر، هذه سوريا، وهناك الدول العربية بكاملها، والدول الإسلاميَّة، وآسيا، وشرقي آسيا، والصين، وروسيا، ثم أوروبا، وأمريكا، وأقيانوسيا، وكذلك إفريقيا، كل هذه القارات والدول تُشكِّل عشرين بالمئة من سطح الأرض والباقي بحار، أربعة أخماس الكرة الأرضيَّة بحار، وهذه الكرةُ لو أُلقيت في الشمس لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، والشمس أكبر منها بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، وأنها تدخل مع الشمس ومع المسافة بينهما في قلب نجم في برج العقرب، فما معنى قول الله عزَّ وجل:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

هل تعرف أين ينتهي الكون ؟!!

بعض الآيات القرآنية ودلائل أخرى على عظمة الخالق:

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (67))

(سورة الزمر)

فربنا عزَّ وجل في هذه الآية أراد أن يُعَرِّفنا بذاته فقال:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

الأرض ؛ هل تعرف أنواع الصخور ؟ هل تعرف أنواع المعادن وخصائصها ؟ هل تعرف أشباه المعادن ؟ هل تعرف أنواع الغازات ؟ هل تعرف السوائل كلها ؟ هل تعرف أنواع الأسماك ؟ بعض العلماء يقول: هناك مليون نوع من السمك، ليس مليون سمكة ولكن مليون نوع، هل تعرف أنواع الطيور ؟ هل تعرف أنواع الديدان ؟ أنواع الزواحف، أنواع الثدييات، أنواع القوارض، هل تعرف أنواع الفيروسات ؟ فيروس واحد حيَّر العالم ـ الإيدز ـ حيَّر العالم، أرْبَكَ العالم، هل تعرف أنواع البكتريا ؟ هل تعرف الحيوانات البدائية وحيدة الخليَّة ؟ هل تعرف أنواع الرَخَويات ؟ هل تعرف الحيوانات العملاقة ؟ الحوت كم طن وزنه ؟ بالأطنان الكثيرة، وزنه مئة وثلاثون طناً، رقم كبير جداً، تسعون برميل زيت يستخرج من كبده، كل برميل يزن مئتي كيلو، خمسين طن دهنٍ، خمسين طن لحمٍ،

ثلاثين طن عظام، وزن دماغه تسعمئة كيلو أيْ طن إلا قليلاً، ذات مرّة جرّ الحوتُ باخرةً ثلاثاً وأربعين ساعة بعكس اتجاهها، وهي تعمل محرّكاتها بأقصى درجة، ورُغم ذلك جرّها، وجْبته الغذائية المتواضعة وهو رضيع ثلاثمئة كيلو حليباً، في اليوم يحتاج إلى طن من الحليب، إذا أحب أن يأكل سندويشة يحتاج إلى أربعة أطنان من السمك يأكلها تحت الماء، وهناك أشياء أُخرى دقيقة جداً، يا ترى:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

ما فوق الأرض وما تحتها ينطق بعظمة خالق هذا الكون:

هذه بعض أنواع الحيتان وأنواع الأسماك، أمّا أنواع الأشجار ؛ فالعنب ثلاثمئة نوع بمركز البحوث عندنا في سوريا، التفاح ثلاثمئة وستون نوعاً، أنواع القمح ثلاثة آلاف وخمسمئة نوع، هذا القمح وحده، أنواع البقول، أنواع الحبوب، أنواع المحاصيل، أنواع الحشائش، نحن الآن في فصل الربيع، فانظر كم زهرة موجودة، كم نوع من أنواع الزهور موجود ! أنواع النباتات ؛ نباتات الزينة، نباتات شوكيّة، نباتات حدوديّة، نباتات للأخشاب، الأخشاب مئة نوع، خشب الزان، وخشب السنديان، وخشب الكَندي، وخشب الشوح، وأنواع منوّعة، والحور الرومي، والحور الشرقي، أنواع الأخشاب كم نوع ؟ أنواع الفواكه وأنواع الثمار، أنواع الخضراوات..

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

أنواع الثروات المدفونة في باطن الأرض:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى(6))

(سورة طه)

هل تعرف ماذا تحت الثرى ؟ البوتاس، الفوسفات، المنغنيز، هذه الثروات الهائلة، ماذا في الجو من كائنات ؟ طبقة أوزون تخلخلت قامت الدنيا ولم تقعُد، عُقِدَتْ مؤتمرات من أجلها، الطبقة كل سماكتها ميليمترات تحيط بالأرض، غاز الأوزون يمنع عنا الأشعة القاتلة، من كثرة إطلاق الأقمار الصناعيّة فهذه الطبقة تخلخلت، مع تخلخلها بدأت حالة الطقس في الأرض تتغيّر، وبدأ يصاب الناس في أوروبا بسرطان الجلد، فمن وضع هذه الطبقة لتحُول بين الإنسان وبين أشعّة الشمس القاتلة ؟ الله سبحانه وتعالى.

الخالق هو الذي يُمِدُّ المخلوقات بما يحتاجونه فهو المربي وهو المسير وإليه المصير:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

كلمة " له " دقيقة جداً، أي له خَلْقًا، وله تَصَرُّفاً، وله مصيراً، قد تملك الشيء ولا تملك أن تنتفع به، وقد تنتفع به ولا تملكه، وقد تملكه وتنتفع به ولكن ليس إليكَ مصيره، عندما يقول ربنا: له، أي هو الخالق، وهو المربي، وهو المسيّر وإليه المصير، أي أنها أوسع أنواع الملكيّة، خَلَق. أنت تقتني سيّارة لست صانعها لكنّك اشتريتها، قد تستأجرها أيْ تنتفع بها ولا تملكها، قد تمتلكها ولا تنتفع بها، قد تمتلكها وتنتفع بها ولكنها ليست لك في النهاية، تؤخَذ منك غصباً، لكن:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

أيْ هو الخالق، وهو الذي يُمِدُّ المخلوقات بما يحتاجونه، وهو المربي، وهو الذي يسيّر كل شيء للخير، هو المسيّر وإليه المصير، فإذا قال الله عزّ وجل:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

من المعاني الأخرى: لو أردنا أن نتوسّع بكلمة المُلك، فكل شيء يُمَلّك، لو أردنا أن نتعرّف إلى جسدنا فقط، الإنسان عنده غدّة نخاميّة فهل معنى هذا أنه يملكها ؟ هل يملك أن يخفِّف نشاطها ؟ هل يملك أن يوقف نشاطها ؟ هل يملك أن يعدلها لو زاد نشاطها ؟ أعرفُ إنساناً توفي في مقتبل الحياة لسببٍ لا يُصدّق، الطحال كان يعمل أكثر مما يجب أن يعمل، يا تُرى هل أنا مالك طُحالي ؟ هل أقدر أن أعدِّل له عمله ؟ أخفِّف من عمله ؟ أزيد من عمله ؟ أوقِف نشاطه ؟ أمنع نشاطه ؟ لا أقدر، فهل أنت مالك الطحال ؟ مالك البنكرياس لديك ؟ لو اختلت وظيفته يصاب الإنسان بمرض السكّر، ما هو مرض السكّر ؟ هو عجز البنكرياس عن إفراز الأنسولين، الأنسولين يحرق السكّر، أفأنتَ مالك البنكرياس ؟ مالك الطحال ؟

جسم الإنسان ملك لله وحده والإنسان لا يملك أن يفعل شيئاً:

هل تملك الغدّة الدرقيّة ؟ هذه إذا زاد نشاطها يستهلك الإنسان كل طاقته، وإذا خفَّ نشاطها يصبح خمولاً، أحياناً الإنسان يكون عصبي المزاج، لأن عنده إفرازاً في هذه الغدّة بدرجة مرتفعة جداً، أو يكون عنده خمول لأن إفرازها ضعيف، هل أنت تملكها ؟ هل تملك الكظرين ؟ لو أنّ هاتين الغدّتين

توقّفتا عن العمل صار الإنسان جثّة هامدة، إنه حَي لكنه لا يغضب، ولا ينزعج، ولا يثور، ولا يعمل، ولا يجتهد، كسول، خمول، خنوع، هذه الكظرين.

هل تملك العين ؟ القزحيّة، الجسم البلوري، الخلط الزجاجي، الخلط المائي، الشبكيّة فيها مئة وثلاثون مليون عُصيّة، عشر طبقات يخرج منها عصب بصري، أربعمئة ألف عصب تتصالب بمؤخرة الجمجمة، وتصل إلى مركزي الرؤية، هناك مركز رؤية في الدماغ لو تعطّل لما رأيت شيئاً مع سلامة العين، هل تملك العين ؟

هل تملك الأذن ؟ تستمع إلى النغم، وإلى الضجيج، هذا صوت فلان وهذا صوت فلان آخر، هذا الصوت رفيع، هذا الصوت حاد، هذا الصوت رخيم، هذا الصوت مُزعج، هل تملك الأذن ؟

هل تملك حاسة الشم، تعرف عن طريقها الأطعمة والمأكولات والروائح، هل تملك هذا اللسان لو تعطّل ؟ ماذا تملك ؟

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

هل تملك الدماغ ؟ هل تملك أن تنمو هذه الخلايا نموّاً طبيعياً ؟ هذا الذي تنمو فيه الخلايا نمواً غير طبيعي ماذا يفعل ؟ تنتهي حياته، مرض خبيث، هل بيدك سُلطة على نمو الخلايا ؟

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

كلّما عرفت الله عزّ وجل تتواضع وتعرف أنه لا يليق بك أن تعبد سواه:

نحن تحت ألطاف الله عزّ وجل، مليون مَليون مَليون عامل لبقائنا أحياء، فالخليّة لو نمت نمواً زائداً مشكلة، لو أن غدّة لا ترى بالعين قصّرت مشكلة، الكظر إنْ أوقفَ إفرازُه مشكلة، زاد إفرازه مشكلة، فمن يصدِّق أن مرضاً خطيراً كارتفاع الضغط مثلاً يسبب له تسرُّعاً في القلب، يسبب له أزمات كثيرة جداً، أسبابها أن شريان الوريد الكلوي أضيق مما يجب، فالكلية تؤدّي وظيفتها فحينما تضعف فيها التروية يرتفع الضغط في الإنسان، مع ارتفاع الضغط يتعب القلب، مع تعب القلب تتصلّب الشرايين، قضيةٌ دارةٍ معقدّة جداً.

فعندما يستيقظ الإنسان صباحاً يقول: أصبحنا وأصبح الملك لله، أيْ أنّ الله عزّ وجل سمح لك أن تعيش يوماً جديداً بدءاً من الغدد الصمّاء ؛ النخاميّة، الدرقيّة، البنكرياس، الكظر، الطحال، الجهاز الهضمي، الزُغابات، الامتصاص، العظام، كلّه يعمل بانتظام، القلب، الدسّامات، الأوردة، الشرايين، الأعصاب كلّها تعمل بانتظام، عضلات، وجلد، وأعصاب، وعظام، وأجهزة، وحواس خمس كلّها عملها منتظم:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

إذاً فأنت لا تملك شيئاً:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ(36))

(سورة آل عمران)

فكلّما عرفت الله عزّ وجل تتواضع ويصغر حجمك، تفتقر إليه، لا ترى أنه يليق بك أن تعبد سواه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

(سورة البقرة)

الله عزّ وجل قدرته لا نهائيّة أنّى يكون له ولدٌ إذاً ؟!

شيءٌ آخر:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا (2))

(سورة الفرقان)

الإنسان يتخذ ولداً، يقول لك: ليكون من بعدي، تركت مالاً كثيراً، وهو من أجل أن يرث هذا المال من بعدي، فمن الذي يبحث عن الولد ؟ الذي له أجل ينتهي عنده، من الذي يبحث عن ولد ؟ الضعيف، يقول لك: هذا جعلته لكبري، يكبر الإنسان، يضعف عن العمل، تزداد متاعبه، تزداد آلامه فيبقى في البيت، بحاجة إلى من يخدمه، فالولد تعبير عن الضعف وعن انتهاء الأجل، لكن هذا الخالق العظيم هل له نهاية ؟ لا نهاية له، هل أصابه تعبٌ أو إعياء ؟ لا، فالله عزّ وجل قدرته لا نهائيّة أنّى يكون له ولدٌ إذاً، وخلق كل شيءٍ ؟! لذلك:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ(2)لَمْ يَلِدْ)

(سورة الإخلاص)

لم يكن قبله إله عظيم جاء منه، وليس من إلهٍ سيأتي بعده:

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(3))

(سورة الإخلاص)

وليس معه إله بمستواه:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ(2)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(3)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4))

(سورة الإخلاص)

الله هو الواحد الأحد ولا يشرك في ملكه أحداً:

لم يأتِ قبله أحد، ولن يأتيَ بعده أحد، وليس معه أحد، هو الواحد الأحد، فلذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ (2))

(سورة الفرقان)

عندما يكون لربنا عزّ وجل شريك فرضاً فأنت معذور أن تعبد الله أو أن تعبد هذا الشريك، إله ثانٍ، أما ربنا قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ(123))

(سورة هود)

ليس معه شيء ثانٍ لذلك:

(فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ(123))

(سورة هود)

أيُّ مخلوق آخر لا قيمة له إطلاقاً، كن فيكون، زُل فيزول، مخلوق إلهٌ آخر لا وجود له، فالله هو الواحد الأحد، فعندما يطيع الإنسان إنساناً ويعصي الله كم هو جاهل ! كم هو أحمق ! كم هو غبي !

بعض الأدلة من القرآن الكريم على وحدانية الله:

قال تعالى:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ (2))

(سورة الفرقان)

لا يشرك في ملكه أحداً:

(مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

لا أحدَ يتدخّل في أي شأن مع الله، وإذا أعطاك مَن يمنعك ؟ ثم مَن يعطيك إذا ما منعك ؟

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ(2))

(سورة فاطر)

الله عز وجل هو الذي قدر الإنسان هذا التقدير الحكيم:

قال تعالى:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

خلق كل شيءٍ، الإنسان له طول معيَّن، وله وزن معيَّن، هناك حالات مرضيَّة نادرة يزداد طول الإنسان بسببها مِن دون حدود، حالة خطيرة جداً قد تنتهي بالانتحار، شيءٌ لا يُحتمل، وقد يضعف النمو عن الحد المعقول، مَنْ قدَّر الإنسان هذا التقدير الحكيم ؟ مَن جعله بهذا الوزن المناسب ؟ بهذا الطول المناسب ؟ مَن جعل له هذا الطرَف بهذا الطول المناسب ؟ يقضي كل حاجاته، يغتسل اغتسالاً كاملاً بهذه اليد، لو أنها أطول من ذلك، لو أنها أقصر من ذلك، لو أنها بلا مفصل، كيف يأكل ؟ وكيف يعمل ؟

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

هذه المفاصل من حدَّدها ؟ من حدَّد أماكنها ؟ من حدَّد جهاتها ؟ هذا عضو إنسي والرُكبة عضو وَحشي، بالمكان المناسب مفصل، بالجهة المناسبة مفصل، هذا المفصل دائري، هناك مفصل على مئة وسبعين درجة تقريباً، مئة وسبعين درجة وليس مئة وثمانين درجة، هناك مِفْصَلٌ دائري، مفصل كروي، مفصل أنسي، مفصل وحشي، من بنى هذا المفصل ؟ غضاريف مع مواد زيتيَّة، لا توجد آلة إلاّ وتحتاج إلى زيت، تزييت داخلي دائم مدى الحياة.

هذا البصر له عتبة، لو أنك ترى كل شيء ما أمكنك أن تشرب كأس الماء، فكأس الماء هذِهِ فيها ملايين البكتريات، أنت تراه ماء صافياً، زلالاً، رائقاً، فمن جعل هذه الرؤية بهذا الحد ؟ لو تمكَّنت أن ترى فوق هذه العتبة لرأيت وجه الإنسان كأنه أخاديد وكهوف، لكن ربنا عزَّ وجل جعل للبصر عتبة معيَّنة مناسبة، أما الصقر فهو يرى ثمانية أمثال الإنسان.

الحكمة من خلق كل شيء بنسب معينة:

قال تعالى:

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

بعضُ الحيوانات تسمع أربعة وعشرين ضعفاً عن الإنسان كالأرانب والقطط والكلاب، لها حس مرهف دقيق جداً، الكلب يشم مليون ضعف عن الإنسان، الكلاب البوليسيَّة، فإذا إنسان مجرم أمسك شيئاً يتَّبعه بين آلاف الأشخاص فيعرفه، مَن قدَّر الشم بهذا الحد ؟ لو زاد أكثر لكانت مشكلة، يشم رائحة خمسين بيت حوله، إذا قَلى الناس أكلة معيَّنة ينزعج الإنسان منها، الشم معقول، السمع معقول، البصر معقول.

(فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

الأمعاء طولها معقول، لو كانت أقصر لكان الإنسان كل ساعة يضطر لِيَقضي حاجة، لكنّ طولها ثمانية أمتار، لو كان خمسة أمتار لكانت مشكلة، مترين مشكلة، لو كانت خمسين متراً لكان بحاجة إلى مستودع لأمعائِهِ.

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

الله عزّ وجل باسط وقابض يجعل كل عضو ينمو إلى أن يبلغ حدّاً فيقف عنده:

حجم المثانة حجم معقول، الإنسان يبقى خمسَ ساعات أو ثماني ساعات ليقضي حاجة، لو لم تجد المثانة لكان هناك مشكلة، كل عشرين ثانية نقطتا بولٍ، مشكلة كبيرة جداً، لو أن المثانة ليس فيها عضلات لاحتاج إلى فترة طويلة ليفرّغ البول منها، وإذا لم تجد هناك عضلات لاحتاج إلى تنفيس هواء، ولاحتاج إلى أنبوبة لكي تُنفِّس الهواء ويصلح حاله.

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

انظر إلى إفراغ البول، انظر إلى طول الأمعاء، انظر إلى المفاصل، عدد المفاصل، أنواع المفاصل، طول الأطراف، عتبة السمع، عتبة الرؤية، عتبة الشم، الأسنان حجمها، لو أن العظام تنمو بلا حدود لكانت مشكلة كبيرة جداً، فالله عزّ وجل باسط وقابض، تنمو العظام إلى أن تبلغ حدّاً تقف عنده، تنمو الأسنان إلى أن تبلغ حدّاً تقف عنده، تنمو الجُمجمة إلى أن تبلغ حداً تقف عنده، فمَن أوقف النمو في الوقت المناسب، وفي الحجم المناسب، وفي الزمان المناسب ؟

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

ربنا عزّ وجل جعل الأوردة في السطح، والشرايين في الداخل، الشرايين في أعماق الجسم، لو كان الشريان في السطح لكانت أيّةُ آلة جرحت الإنسان يموت على الفور، لأن القلب يضخ الدم، والشريان يصرّف أكبر كميّة من الدم، فإلى أنْ يتّصلوا بالطبيب يكون المريض قد مات، أمّا الله فقد جعل الأوردة في الخارج والشرايين في الداخل، المكان الخطر الذي يمكن أن ينزف دمه كله من ضربة صغيرة قدّره الله فجعل الشريان داخلياً.

حكمة الله جعلت الشيء الذي يُزال باستمرار من دون أعصاب حس:

من قدّر الدماغ في الجمجمة ؟ من قدّر النخاع الشوكي داخل العمود الفقري ؟ مَنْ قدّر القلب في القفص

الصدري ؟ من قدّر أخطر معمل في الإنسان ـ معامل كريات الدم ـ بنقي العظام ؟ من قدّر الجنين في حوض المرأة:

(ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(13))

(سورة المؤمنون)

قرار مكين، من قدّر هذه الأمكنة الدقيقة جداً ؟ الله سبحانه وتعالى، من جعل بين الدماغ وبين الجمجمة سائلاً، إذا جاءته ضربة يوزعها على كل السطح، لذلك فالطفل يقع على الأرض وتستمع إلى صوت جمجمته ولها دويٌ كدوي الآنية ومع ذلك يقف ضاحكاً، لأن الله جهّزه بجمجمة فيها مفاصل ثابتة، فعند الصدمة هذه المفاصل تتحمّل ضغطَ ميليمترٍ واحد فتمتصها، وجعل له سائلاً بين الدماغ وبين العظام فهذا السائل أيضاً يمتص الصدمة:

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

مَنْ جعل الأظافر والأشعار بلا أعصاب حس ؟ والله هذه من آيات الله الكُبرى، لو أن الله جعل أعصابَ حسٍ في الأظافر لقلنا أين فُلان ؟ يقولون واللهِ ذهب لإجراء عمليَّةِ قصّ أظافر بمشفى الشامي، عملية قص أظافر لأنه يحتاج إلى تخدير، عمليَّة حلاقة في المستشفى، الله جعل الشيء الذي يُزال باستمرار من دون أعصاب حس.

الله عز وجل خلق كل شيء فأحسن تقديره:

مَنْ جعل أعصاب حس عالية المستوى في نِقْي العظام ؟ لو حدث كسر فالإنسان من شدّة ألمه يُبقي رجله على حالها، أربعة أخماس العلاج تحقّق، أربعةِ أخماس العلاج أن تبقي الكسر على حاله بفضل أعصاب الحس الحسّاسة جداً في نقي العظام:

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

مَنْ جعل الشرايين مرنة ؟ القلب يضخُ الضخّة فيمشي الدم عشرين سنتيمتراً، الشريان مثل المطّاط عندما يأتيه تدفق الدم من عند القلب يتمدّد، عندما يتمدد يكون قد مُط، وباعتباره مرناً سيرجع إلى حالته الأولى فيضغط، عندما يضغط يدفعُ الدم عشرةَ سنتيمترات أُخَر، فكل الشرايين تقوم بدور القلب، القلب يضغط ضغطة والشريان بهذا النبض يحرّك الدم في كل الأنحاء، تخرج الكريَّة من القلب فترجع إلى القلب بعد ثماني عشرةَ ثانية، تسير في كل أنحاء الجسم، مَنْ قدّر المرونة في الشرايين ؟ يقول لك: فلان معه تصلّب شرايين، صارت مثل البربيش الجاف لم يعد مرناً.

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

مَنْ الذي جعل المرأة ينتهي إنجابها في سنٍ معيّنة ؟ أودع في مبيضها عدداً محدوداً من البويضات، فإذا انتهت دخلت في سنّ اليأس، بينما الرجل بإمكانه أن ينجب حتّى في الثمانين، تصوّر امرأةً في الثمانين تنجب طفلاً، وتحتاج أن تُرضعه وأن تربّيه، هذا صعب، من قدّر هذا التقدير ؟ أليست حكمة الله عزّ وجل، من قدّر أن شعر رأس المرأة لا يسقط جميعه في أي حال من الأحوال ؟ أليس هذا من تقدير الله عزّ وجل ؟ الرجل قد يفقد شعر رأسه كلّه لكن المرأة ليست كذلك، هذا من تقدير الله عزّ وجل.

(فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

الله خلق كل شيء بأحسن تقويم ليس في الإنسان فقط بل في الحيوان والنبات أيضاً:

طبعاً هذا فقط في الإنسان، انتقل للحيوان، انتقل للخروف مثلاً لو أن الله ركّب فيه طِباع الضبع مع لحم الخروف، كيف نربيه ؟ كيف نستخدمه ؟ كيف نذبحه ؟ كيف نستأنسه ؟ مستحيل:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (73))

(سورة يس)

إذاً الحيوانات مذلّلة، مَنْ جعل الصوف في هذا الحيوان لِنستفيد منه، والجلد، واللحم، والعظم، والشحم، والدهن، والحليبُ أنواع منوّعة منه.

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

انظرْ إلى الفاكهة، لو كانت المشمشة بحجم البطيخة كيف تأكلها ؟ المشمشة لأنها لينة جداً تؤكل بلقمة واحدة، لو كانت بحجم كبير، لو كان جلد المشمش للبطيخ، إنها لا تصل معك إلى البيت لأنك إنْ تحملها متراً صارت ماء أمامك، جلد البطيخ قاسٍ، هذا التقدير الدقيق، هذا الجلد متين وذاك قاسٍ، هذا يلمع وذاك فيه مادة شمعيّة، هذا له مادة عطريّة، هذا فيه مخمل، هذا فيه أشواك، من قدّر هذا التقدير ؟!!

إذا فكّر الإنسان في الكون عرف الله وعبده وإذا عبده سعِد بقربه:

مَنْ قدّر أن هذا الطعام الذي تأكله الحيوانات تحصده ستّ مرّات في العام ؟ أول مرّة، والثانية، والثالثة، والرابعة.. مَنْ قدّر هذا ؟ لماذا يفكِّر الإنسان ؟ الإنسان كائن مفكّر لو لم يفكر لصار حيواناً، قلنا في الدرس الماضي: إنّ الجماد شيء يشغل حيّزاً، أمّا النبات فهو يشغل حيزاً وينمو، وأما الحيوان

فهو يشغل حيّزاً وينمو ويتحرّك، أما الإنسان فهو يشغل حيّزاً وينمو ويتحرّك ويفكِّر، فإذا عطّل فكره فقد هبط إلى مستوى الحيوان:

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

هذا الإله العظيم أيُعْصَى ؟! هذا الإله العظيم أيُخالف أمره ؟ ألا يُبْتَغى فضله ؟ أيعصى أمره ؟! هذه معرفة الله عزّ وجل، إذا فكّرت في الكون عرفته، فإذا عرفته عبدته، فإذا عبدته سعدت بقربه، خُلِقْتَ كي تسعد بقرب الله عزّ وجل، فأنا ذكرتُ بعض الشواهد ولكن أتمنّى على كل أخ مِن أخواننا الكرام أن يفكِّر وَحده في خلق جسمه، بطعامه، بشرابه، بما حوله من كائنات، من نباتات، من حيوانات.

لماذا هناك خشب لا يتأثر بالمطر والبرد ؟ هذا خشب للنوافذ، وهناك خشب للأثاث، وخشب للصناعة، سبحانك يا رب، أنواع الخشب آية من آيات الله الكبرى الدالّة على عظمة الله عزّ وجل، هناك خشب مخصوص للآلات، فيه مرونة وفيه متانة في آنٍ واحد، فكّر بالأخشاب، فكِّر بالأسماك، بالأطيار، بالصحارى، بالبحار، بالسهول، بالفصول الأربعة، بدورة الأرض حول نفسها، حول الشمس، بمحورها المائل، بالليل، بالنهار، بالشمس، بالقمر، بالمجرّات، مليون مَليون مليون مَليون موضوع يوصلك إلى الله عزّ وجل.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، لكن فكِّر يا أخي، لا تستخدم هذا الفكر في أشياء تافهة، بسفاسف الأمور، بالإيقاع بين الناس، في الاحتيال عليهم، أنت مكرّمٌ بهذا الفكر، فكِّر بمخلوقات الله كي تعرف الله عزّ وجل.

الذي أرجوه منكم أن يفكر كل واحد منكم كل يوم بكلّ آية من آيات جسمه، فكِّر بهذه اليد، بهذه العين:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

(سورة البلد)

وقال:

(قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ(17)مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ(18)مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(19)ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ(20))

(سورة عبس)

الولادة آية من آيات الله الدالّة على عظمته.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

الله عز وجل غمر الإنسان بالنعم لأنه كله ملك لله وحده وعليه طاعته وعبادته:

خلقاً، وتربيةً، وتسييراً، ومصيراً، وأنت مِنْ خلقه، أنت ملكه، جسمك ملكه، حواسّك الخمس ملكه، عضلاتك ملكه، حركتك ملكه، تفكيرك ملكه، ذاكرتك ملكه، الغدد الصمّاء، كل شيء ملكه ألا تعبده ؟ أتعصي أمره ؟ ألا تحبُّه ؟ غَمَرَكَ بالنِعم ألا تحبُّه ؟

(وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(3))

(سورة الفرقان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (04-13): تفسير الآيات 3 - 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-03-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من سورة الفُرقان.

لله ملك السموات والأرض ومع ذلك اتخذ الكفار من دونه آلهة يعبدونها:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا(2))

(سورة الفرقان)

ومع أن الله سبحانه وتعالى له ملك السماوات والأرض، ومع أن الله عزّ وجل ليس كمثله شيء:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4))

(سورة الإخلاص)

ومع أن مقادير السماوات والأرض كلها بيده، ومع كل ذلك..

(اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (15))

(سورة الفرقان)

من دونه.

جاء الإسلام لينقذنا من الجهل والوهم ولينقلنا إلى أنوار المعرفة والعلم:

شَتَّانَ بين الخالق والمخلوق، شتانَ بين خالق الكون وبين مخلوقٍ ضعيف.

(واتَّخَذُوا (15))

(سورة الفرقان)

هؤلاء الكفار، هؤلاء المشركون:

(واتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (15))

(سورة الفرقان)

والإله هو الذي ترجوه، هو الذي تخافه، هو الذي تطمعُ في نواله، هو الذي بيده أمرك، هؤلاء الكفار توهّموا أن زيداً أو عبيداً أو أن هذا الصنَم أو ذاك الإله المزعوم الذي عبدوه من دون الله بيده أمرهم ؛ أمرُ حياتهم أو موتهم، أمرُ رزقهم، أمرُ صحّتهم، أمرُ أرضهم وخصوبتها، هذا التوهُّم سرابٌ وجاء

الإسلام لينقذنا من الجهل والوهم، ولينقلنا إلى أنوار المعرفة والعلم، فكم هم بعيدون عن الحقيقة، كم هم غافلون عنها حينما يتخذون من دون الله آلهةً.

الحقيقة أن الله عزّ وجل نفى عن هذه الآلهة صفاتٍ كثيرة، إن نفي الصفات يُعَرِّفُنا بالله عزّ وجل، هذه الآلهة ؛ يغوث، ويعوق، ونَسر، وكل إلهٍ يتخذه الإنسان ويعبده من دون الله يتوهَّم أن بيده رزقه، أن بيده حياته أو موته، أنه ينفعه أو يضره، إن كان الإله صنماً أو إن كان شخصاً لا فرق بينهما، المهم أن هذه الجهة تعبدها من دون الله، فقد عرفت عن خالق الكون الكثير والتفت إلى مخلوقٍ ضعيف، إن هذا الالتفات إلى هذا المخلوق هو الجهل بعينه، لماذا هو الجهل ؟

من ابتعد عن الشك والجهل والتقليد عرف الحقيقة وسُعد بها:

العلم هو أن تبحث عن علاقةٍ ثابتة بين شيئين مقطوعٍ بصحتها يؤكِّدها الواقع وعليها دليل، إذا كانت كل أفكارك، وكل تصوُّراتك، وكل معتقداتك من هذا النوع ؛ علاقةٌ ثابتة بين شيئين مقطوعٌ بصحتها، عليها دليل يؤكدها الواقع، فهذه هي الحقيقة، وهذا هو العلم، أما إذا اعتقدت أشياء لا يؤكدها الواقع فهذا هو الجهل، إذا اعتقدت أشياء صحيحة ليس عليها دليل فهذا هو التقليد، إذا اعتقدت بأشياء ليس مقطوعاً بصحتها، فهذا هو الشك أو الوهم أو الظن، فإذا استطاع الإنسان أن يبتعد عن الشك، وعن الوهم، وعن الظن، وعن التقليد، وعن الجهل فقد عرف الحقيقة، ومتى عرف الحقيقة سَعِدَ بها في الدنيا والآخرة.

(واتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (15))

(سورة الفرقان)

كيف تعبده وهو مخلوقٌ مثلك ؟ كيف تعبده وليس بيده أمرُ حياتك أو موتك ؟ كيف تعبده وليس إليه المصير ؟ كيف تعبده ولا يملك لك نفعاً ولا ضراً ؟ إذاً هذا هو الجهل، منتهى الجهل أن تتجه إلى جهةٍ لا تستطيع أن تفعل شيئاً فتعبدها من دون الله، ففي المثل الواقعي:

لو أن لك قضيةً عند شخصٍ مسؤولٍ في شركة أو في دائرة، وتوجهت إلى مستخدمٍ في هذه الدائرة، وجعلت ترجوه، وتتضعضع أمامه، وتثني عليه لعله يوافق لك على هذه القضية، فهذا جنون، من يفعل هذا فهو مجنون، يقول لك: هذه القضية ليست بيدي بل بيد فلان، فيجب أن تعرف أمرك بيد مَنْ، لأن مشكلة المشاكل هو الشرك، إذا وَحَّدتَ فقد سعدت، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد كفكرة سهل فهمها، سهل الحديث فيها، فما عليك إلا أن تعيش التوحيد، أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنه:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ(2))

(سورة فاطر)

البطولة أن تعرف أن الله هو النافع وهو الضار وأن أمرك بيده وحده سبحانه:

أن تعتقد أن الله وحده هو النافع والضار، أن الله وحده بيده أمرك كلّه، أن تعتقد أن الله وحده بيده الخير والشر، ولا شيء بيد غيره، فهذه هي البطولة، فلذلك قال العلماء: نهاية العِلْم التوحيد.

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا (3))

(سورة الفرقان)

ربنا عزّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ(21))

(سورة البقرة)

هذا الصنم أو أي إله مزعوم ليس بخالق، كيف تعبده من دون الله ؟ كيف تطيعه وتعصي الله ؟ كيف تعتقد أنه نافعٌ أو ضار ؟

(لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا (3))

(سورة الفرقان)

بل هو مخلوقٌ مثلك، ومعنى مخلوق أي مفتقرٌ في وجوده إلى الله عزّ وجل، هذا معنى مخلوق:

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ(255))

(سورة البقرة)

الحياة والقيام بالله عزّ وجل فالخالق وحده هو من يستحق العبادة:

حياة كل شيءٍ به، وقيام كل شيءٍ به، فالحياة والقيام بالله عزّ وجل، فهذا الذي تعبده مخلوقٌ مثلك، مفتقرٌ في وجوده إلى الله عزّ وجل، مفتقرٌ في قيامه إلى الله عزّ وجل، حركاته، سكناته، نبضات قلبه، وجيب رئتيه، حركة دماغه بيد الله عزّ وجل، في لحظةٍ واحدة يجعله الله جثةً هامدة، في لحظةٍ واحدة يجعله الله مختل العقل، في لحظةٍ واحد يجعله الله مشلولاً، فكيف تعبده من دون الله.

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (3))

(سورة الفرقان)

فسحرة فرعون قالوا:

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

عرفوا أن الله عزّ وجل هو الإله الواحد الأحد، الفَرد الصمد، فهؤلاء الآلهة التي تُعْبَد من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلَقون، إذاً يجب أن تعبد الخالق، بل إن الخالق وحده يستحق العبادة.

(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا (3))

(سورة الفرقان)

الذي يُعبد من دون الله مخلوق لا يملك أن يجلب النفع ولا أن يدفع الضُرّ:

هؤلاء الذين تعبدهم من دون الله هكذا يقول الله عزّ وجل، يُقَرّعُ المشركين، يُقَرّعُ الكافرين، هؤلاء الذين اتخذوا آلهةً من دون الله يعبدونهم من دون الله:

(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (3))

(سورة الفرقان)

ما معنى:

(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا (3))

(سورة الفرقان)

أي لا يملكون دفع الضُرّ عنهم، ولا يملكون جلب النفع إليهم، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد بهذا التعبير أن يبيّن لنا: إذا كان هذا الذي تعبده من دون الله لا يملك أن يدفع الضر عن نفسه، ولا يملك أن يجلب النفع إليه، فَلأن يكون عاجزاً عن دفع الضر عنك أو عن جلب النفع إليك فمن بابٍ أوْلى، إذا كان لا يستطيع أن يجلِبَ لنفسه النفع، ولا أن يدفع عن نفسه الضُر، أفيستطيع أن يملك النفع والضر لغيره ؟ إذاً هذا الذي يُعبد من دون الله مخلوقٌ لا يملك أن يجلب النفع ولا أن يدفع الضُرّ.

(وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3))

(سورة الفرقان)

الله عز وجل هو المحيي المميت:

الله هو المحيي المميت، إذا جاء الموت أو إذا سلب الله سبحانه وتعالى من هذا الجَسَدِ الروح، أصبح هذا الجسد جيفةً، ويقولون دائماً إكرام الميت ترحيله، فقبل أيام كان هذا الإنسان مؤنساً، كان ملء السمع والبصر، كان يُشِيع في بيته الأنسَ والمودّة والمحبة، لمجرد أن توقف القلب أصبح جثةً هامدة، وأصبح وجوده موحشاً، وتمنّى أقرب الناس إليه لو يُعجّل بدفنه، إذاً ما الذي حصل ؟ ما هذا السر الذي جعله الله في الروح ؟ بالروح ترى، وتسمع، وتبصر، وتفكِّر، وتحاكم، وتعتقد، وترفض، وتتخيّل، وتتصور، وتذكر، وتمشي، وتقعد، وتتكلم، وتقنع، وقد تلقي طُرفةً، أو تلقي فكرةً، تَهُشُّ وتَبُشُّ، وتغضب، وترضى، وتشعر بالسرور، وتشعر بالضيق، فإذا ذهبت الروح من هذا الجسد أصبح جثةً هامدة لا حراك بها، إذاً:

(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3))

(سورة الفرقان)

هل تستطيع البشرية جَمْعَاء أن تصنع كأساً من الحليب من الحشيش ؟ هل تستطيع البشرية جمعاء أن تصنع بيضة ؟ هل تستطيع أن تَخْلُقَ ذبابة ؟ أن تخلق بعوضة ؟ هل تستطيع أن تخلق عيناً لمن فقد عينه؟

(لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3))

(سورة الفرقان)

الله عز وجل هو الخالق يخلق كل شيءٍ من لا شيء:

المعنى العكسي، يُسَمُّونَهُ المعنى المخالف في أصول الفقه، إذاً فالله سبحانه وتعالى هو الخالق يخلق كل شيءٍ من لا شيء، وهو الذي يملك أن يدفع عنك الضُر:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ(62))

(سورة النمل)

هو الذي يملك أن يدفع عنك المرض، وإذا مرضت فهو يشفيني، سيدنا إبراهيم قال لقومه:

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(75)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ(76)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80)وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ(82))

(سورة الشعراء)

الله وحده يستحق العبادة وهو من يستحق أن نفني عمرنا من أجله:

القضية مصيرية، اعرفْ مَن هو ربك حتى تجعل له كل جهدك، وله كل وقتك، وله كل طاقتك، وله كل تفكيرك، وله كل إمكاناتك، لأنه وحده يستحقُّ العبادة، وهو وحده يستحقُّ أن تفني كل عمرك من أجله، نعمْ هو وحده:

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(56))

(سورة المدثر)

فالإنسان لا يليق به أن يقدِّم إمكاناته لإنسان مثله، هذا الإنسان مخلوق ماذا يفعل معه ؟ ولكن يليق به أن يقدم كل حياته، وكل شبابه، وكل طاقاته لله خالقه ومربّيه، إذاً مِنْ المعنى المُخالف لهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يخلق كل شيءٍ مِنْ لا شيء، وبيده دفع الضُر عنك، وبيده جلب النفع إليك، ويملك

الموت والحياة والنشور، فلذلك لما يوضع الإنسان في قبره يقول الله عزّ وجل:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت.))

إذاً هذا الذي مصيرك إليه، مآلك إليه، إيابُك إليه، هل تعاملتَ معه في الدنيا ؟ هل عرفته ؟ هل أطعته ؟ هل توخَّيْتَ رضاه ؟ هل بحثت عما يرضيه ؟ هل اتبعت رضوانه ؟ هل اجتنبت ما يسخطه ؟ هل عرفت أمره فطبَّقته ؟ هل عرفت نهيه فاجتنبته ؟ ماذا فعلت ؟

((قال أعرابي يا رسول الله: " جئتك لتعلمني من غرائب العلم "، فقال عليه الصلاة والسلام: " وماذا صنعت في أصل العلم ؟ " فقال هذا الأعرابي: "وما أصل العلم ؟ " قال: " هل عرفت الرب ؟ "، قال: " ما شاء الله "، قال: " فماذا صنعت في حقه ؟))

[تنبيه الغافلين عن عبد الله بن مسور الهاشمي]

الآيات القرآنية التي نقرأها لا ينبغي أن تمضي سريعاً بل علينا أن نفكر بها ملياً:

إذا كنت قد عرفت الله فماذا صنعتَ في حقه ؟ أي ماذا فعلت ؟ ماذا قدَّمت ؟ ماذا منعتَ ؟ مَن وصلتَ ؟ مَن قطعتَ ؟ مَن أعطيتَ ؟ مَن منعتَ ؟ مَن عاديتَ ؟ مَن سالمتَ ؟ ما الموقف الذي وقفته انطلاقاً من هذه المعرفة ؟ إذا كنت قد عرفته فماذا فعلت في حقه ؟ قال: **" ما شاء الله "، قال: " هل عرفت الموت؟ "، قال: " ما شاء الله "، قال: " فماذا أعددت له ؟ ".**

فهو إذاً ما عرف الله عزّ وجل، ولا صنع في حقه شيئاً، ولا عرف الموت، ولا أعدّ له شيئاً، وجاء النبيّ عليه الصلاة والسلام ليتعلّم منه من غرائب العلم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((اذهب فأحكِم ما هنالك ثم تعال لأعلمك من غرائب العلم))

[رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسلا وهو ضعيف جدا]

هذا الوقت ثمين جداً، الإنسان كما قالت رابعة العدوية: **" الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه."**

فإلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول ؟

*** * ***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في المقال بديـع

لـو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحـب لمن يحب يطيع

*** * ***

يقولون هناك كلمات الإنسانُ يسمعها أو يقرؤها ويتثاءب وينام، ولكن هناك كلمات يسمعها الإنسان أو يقرؤها فتبدأ عندها متاعبه، أيْ أنّ هذه الكلمات تضعه أمام مسؤولياته، تضعه في حجمه الحقيقي، تُعرّفه بمهمته، تبيّن له لماذا هو هنا على وجه الأرض ؟ فهذه الآيات لا ينبغي أن تمضي سريعاً:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (3))

(سورة الفرقان)

الشرك الخفي أن تعتمد على غير الله وترجوه وتحتمي به من كل شر:

أحياناً الإنسان إذا كان له قريب يشغل مركزاً مرموق، ثم هو يعتمد عليه، ويتمنّى رضاه، ويرجو منه الخير، ويحتمي به من كل شر، هذا نوعٌ من الشرك الخفي، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي))

[سنن ابن ماجة عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

الشرك الخفي أن تعتمد على غير الله، أن ترجو غير الله، أن تُرضي غير الله وأن تسعى لغير الله:

((أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا وَلا وَثَنًا وَلَكِنْ أَعْمَالا لِغَيْرِ اللَّهِ وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[سنن ابن ماجة عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

لذلك أبرز ما في الدين التوحيد، ولا إله إلا الله كلمةُ التوحيد:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم]

لو قلتها بحقها، فلا موجود بحقٍ إلا الله، لا معبودٍ بحق إلا الله، لا مسيّر بحقٍ إلا الله، قطعت كل علائق الخلق واتجهت إلى الخالق لأنه بيده الأمر كله.

سخف الكفار والوهم الذي تعلقوا به:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يبيّن لنا سخف هؤلاء الكفار، ضيق أفقهم، جهلهم الفاضح، غرورهم، الوهم الذي تعلّقوا به:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(3))

(سورة الفرقان)

إذاً اعْبد الله الذي يخلُق، والذي يملك أن يدفع عنك الضر، والذي يملك أن يجلب لك النفع، والذي يُحيي ويميت، ويبعثك من بعد الموت، هذا الذي عليك أن تعبده، وهذا الذي عليك أن تسعى لمعرفته.

أعظم وأجَلُّ عمل في الدنيا أن تبحث عن دليلٍ قطعي على أن هذا القرآن كلام الله:

مع ذلك:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا (4))

(سورة الفرقان)

أي القرآن:

(إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ (4))

(سورة الفرقان)

أيْ أنّ هذا القرآن من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك قالوا هو ذكيٌّ وعبقري، وقد وضع هذا الكتاب ليجمع الناس حوله، والشيء المناسب ألاّ تقبل فكرةً إلا بالدليل، هذه فِرْيَة، هذا تخريف، ولكن السؤال الآن موجّه إلينا: هل آمنا بهذا الكتاب إيماناً قطعياً ؟ لأن هذا الإيمان الذي يعتريه الشك، والوهم، والإيمان غير المبني على التحقيق الذاتي، وغير المبني على دليل قطعي، هذا الإيمان لا يصمد أمام الشبهات، ولا أمام الضلالات، فلو أن أحداً قال لك: هل تملك دليلاً على أن هذا القرآن هو كتاب الله تعالى ؟ هذا سؤال، افرضْ نفسك أمام إنسان مُنْكِر، أمام إنسان لا يعرف الله عزّ وجل، ذكرتَ له آيةً فتحَدّاك وقال لك: وما الدليل على أن هذا القرآن كلام الله ؟

هذا سؤال، واللهِ الذي لا إله إلا هو ما من عملٍ أعظم ولا أجَلُّ من أن تبحث عن دليلٍ قطعيٍ على أن هذا القرآن كلام الله، لأنك إذا عرفتَ أنّه كلام الله بالدليل القطعي عندئذٍ تنظر إلى آياته نظرةً أخرى، فالأمر يجب أن يُطاع، والنهي يجب أن يُترك، تحس أن هذا كلام الخالق، ولهذه الآيات مصداقيةٌ مئة في المئة، ولكن هذا الذي سمع أن الناس يقولون: هذا كلام الله فقال مثلهم، التقليد في العقيدة غير مقبول، سمع خطيب المسجد يقول: هذا القرآن كلام الله فقال مثله، هذا مرفوض، فهذا السؤال خطير:

هل تملك دليلاً على أن هذا الكلام الذي بين يديك كلام الله ؟ هل تستطيع أن تثبت للكفار ولأهل الفجور أن هذا الكلام كلام الله ؟ أما هذا الاعتقاد بأن هذا القرآن كلام الله من دون دليل، هذا الاعتقاد لا يصمُد أمام الإغراءات، ولا أمام الضغوط، ولا أمام الضلالات، ولا أمام ما يقوله الكفار، فقد سمعتم كيف أن بعض مَن ارتدوا عن دينهم أساؤوا لهذا الدين من خلال قصة خيالية قد أثارت العالم كله، فأنت ما موقفك ؟ هل هذا كلام الله ؟

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ (4))

(سورة الفرقان)

الإيمان بالقرآن يجب أن يكون تحقيقياً وتصديقياً وهذا موقف أهل الإيمان:

لو أن أحداً قال لك: هذا القرآن من تأليف محمد، وكان هذا الإنسان عبقرياً ذكياً جداً، استطاع بذكاءٍ بارع أن يؤلِّف هذا الكتاب وأن يجمع الناس حوله، وهو ليس من عند الله، بماذا تجيبه ؟ هذه وظيفة إذا كان الأمر يهمُّك جداً، لأنه أمر مصيري، أنت تبني كل حياتك على هذا الكتاب، فهل هو من عند الله حقاً ؟ ما الدليل ؟ أمّا لو عرفت أنه من عند الله حقاً تصبح إنساناً آخر، إذا قال لك القرآن:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ(30))

(سورة النور)

عندئذٍ لأن تُقَطِّع إرْباً إرْباً أهون عليك من أن تعصي الله، لأن هذا كلام الله، إذا قال الله عزّ وجل:

(وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(278))

(سورة البقرة)

لا يمكن أن تأكل الربا ولا أن توكِلَهُ أحداً ولو قطّعوك إرْباً إرْباً، فاللهُ يأمرك، أما إذا كان الإيمان بالقرآن غيرَ تحقيقي، ولا هو إيمان تصديقي، بل يا أخي هكذا الناس يقولون، هذا الموقف ليس موقف أهل الإيمان:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا(15))

(سورة الحجرات)

وقال:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (4))

(سورة الفرقان)

الكفار ظلموا أنفسهم بادعاء أن هذا القرآن كلام البشر فشقوا في الدنيا والآخرة:

أنا أحثُّكم على أن تبحثوا عن الدليل القطعي على أن هذا القرآن كلام الله، لا يكفي هذا الشعور، يجب أن يرافق الشعور تحقيقٌ دقيقٌ بأن القرآن الكريم كلام الله عزّ وجل:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا(4))

(سورة الفرقان)

أيْ أنّهم ظلموا أنفسهم بهذا الإدِّعاء حينما قالوا: إنما هذا القرآن من كلام البشر، أعرَضوا عنه، ولم يأتمروا بأمره، ولم ينتهوا عما نهى عنه، فَشَقُوا في الدنيا، فظلموا أنفسهم، فلما جاء الموت وقامت

القيامة وجدوا أنفسهم في عذابٍ أبدي، إذاً هو نتيجة إعراضِهم عن كتاب الله، وتَكذيبهم به، وادعائهم بأنه من صنع محمد عليه الصلاة والسلام، كان هذا الافتراء من أشد أنواع الظلم لأنفسهم، الإنسان خلق ليسعد إلى الأبد في جنةٍ أعدَّها الفَرْد الصمد، فلما أعرض عن كلامه، ولم يعبأ به، واتخذه سخرياً، وجعله وراء ظهره، عندئذٍ شقي في الدنيا وشقي في الآخرة.

الإنسان لا يسعد إلا إذا عرف الحقيقة وعرف لكل شيءٍ حجمه:

حينما قال هؤلاء الكفار:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا(4))

(سورة الفرقان)

ظلموا أنفسهم..

(وَزُورًا (4))

(سورة الفرقان)

تكلموا غير الحقيقة، تكلموا كلاماً مُزَيَّفاً، تكلموا بشيءٍ لا أصل له، ولا دليل عليه، تكلموا بشيءٍ ليس له أساس، وقفوا على أرضٍ رخوةٍ ليست صُلبة، فالإنسان متى يسعد ؟ إذا عرف الحقيقة، عرف لكل شيءٍ حجمه بالضبط.

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5))

(سورة الفرقان)

أيْ أنّهم قالوا: هناك مَن أملى عليه هذه الأساطير، وهذه قصص قديمة كلُها جاء بها من كُتُب أخرى، وأُمْليتْ عليه، فحفظها بكرةً وأصيلاً، وتلاها على الناس، فكانت ما يسمى بالقرآن، هذه دعوى الكفار، وملة الكفر واحدة، وفي كل زمانٍ ومكان ادّعاءات الكفار متشابهة، والله سبحانه وتعالى يردّ عليهم:

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6))

(سورة الفرقان)

أيْ أنّ هذا القرآن ليس مِن عند محمد وليس مُفترى، وليس أساطير الأولين، قل أنزله خالق الكون.

(الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ (6))

(سورة الفرقان)

بلاغة القرآن في الإيجاز:

لم يقل الله عزّ وجل: الذي يعلم السر والجَهر، لأن الذي يعلم السر من باب أولى أنه يعلم الجهر، والقرآن بلاغته في إيجازه.

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6))

(سورة الفرقان)

أنزله الذي يعلم السر أي أنك مكشوف أمام الله عزّ وجل، النوايا، الطموحات، الصراعات، ما تنوي أن تفعله بعد هذا العَقد، ما تنوي أن تفعله مع هذه المرأة بعد خمس سنوات، وبعد أن تنتهي دراستك في هذا البلد، نويت أن تطلِّقها بعد انتهاء الدراسة، هذا سرٌ تَكلمتَ به أنت، ولكن الله يعلمُهُ، عقدت عقد شراكةٍ مع إنسان، ونويتَ أن تجعله بعد فترةٍ خارج الشركة لأنك أقوى منه من حيث المال، وهذا المحل باسمك، هذا السر الذي أخفيته عن شريكك، وهذا السر الذي أخفيته عن زوجتك، كل ذلك يعلمه الله عزّ وجل، لذلك التعامل مع الله يحتاج إلى وضوح، تستطيع أن تخدع الناس كلهم لبعض الوقت، وتستطيع أن تخدع إنساناً لطول الوقت، أما أن تخدع نفسك، أما أن تخدع ربك فهذا من المستحيل:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(9))

(سورة البقرة)

وقال:

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ (6))

(سورة الفرقان)

الكون كله أسرار فمن عرف الله عرف كل شيء:

الكون كله أسرار، قال بعض العلماء عن مدى ما حصّلوه من العلم: ما ابتلّتْ بعدُ أقدامنا ببحر المعرفة يعني مازالوا على الشاطئ، أسرار الكون، أسرار الخلية، أسرار المادة، أسرار الذرة، سر الحياة، سر النبات، ملايينُ الأسرار لا يعلمها إلا الله.

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (6))

(سورة الفرقان)

سر هذه النفس الإنسانية ما الذي يسعدها ؟ ما الذي يرضيها ؟ ما الذي يطمئِنُها ؟ ما الذي يجعلها متوازنة ؟ ما الذي يجعلها تنطلق إلى العمل ؟ هو الله عزّ وجل، فإذا عرفت الله فقد عرفت كل شيء.

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6))

(سورة الفرقان

قال الله عزّ وجل:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

هو الخبير بهذه النفس، فإذا أمرك بأمرٍ فهو الخبير، وإذا نهاك عن شيءٍ فهو الخبير، وإذا وضع لك قانوناً فهو الخبير، لأنك إذا اشتريت آلةً لا تستطيع أن تطبّق التعليمات إلا بمساعدة الجهة الصانعة فقط، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة المخوّلة أن تصدر تعليمات التشغيل والصيانة، ولو اتبعت جهةً أخرى لأفسدت الآلة ولعطّلتها، وأنت أعقد آلةٍ في الكون، إذا اتبعت الجهة الصانعة فقد سَعِدْتَ وأسعدت، أما إذا اتبعت جهاتٍ أخرى لا تقدِّم ولا تؤخِّر عندئذٍ ضللتَ وأضللت.

يجب أن نؤمن بالقرآن الكريم إيماناً تحقيقياً لنستطيع الدفاع عنه:

قال تعالى:

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6))

(سورة الفرقان)

بمناسبة الحديث على أن القرآن الكريم كلام الله، وهذا يحتاج إلى دليل، فحبذا لو فكّر كل واحدٍ منكم في هذا الأسبوع ماذا يملك من أدلةٍ على أن هذا الكلام كلام الله ؟ السؤال دقيق، وعمل مهم جداً، قد تفاجأ إذا علمت أنّك لا تملك الدليل، وأن أحداً لو قال لك: هذا القرآن ليس كلام الله، إنه من عند محمد عليه الصلاة والسلام، أجِبْه، تَفضلَ وأجِبه، فحينما تؤمن بهذا الكتاب إيماناً تحقيقياً، وحينما يؤمن عقلك، وفكرك، ونفسك، ودمُك، ولحمك، بأن هذا الكلام كلام الله، تصبح إنساناً آخر، لذلك قال سيدنا عمر لابنه، أو قال النبي عليه الصلاة والسلام لسيدنا ابن عمر:

((ابن عمر دِينك دينك إنه لحمك ودمك خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

والنبي عليه الصلاة والسلام حينما دعا إلى الله عزّ وجل ظنوا أن له أهدافاً أخرى من هذه الدعوة، فطلبوا منه أن يجعلوه عليهم أميراً فرفض، طلبوا منه أن يزوّجوه أجمل فتياتهم فرفض، طلبوا منه أن يعطوه أموالاً طائلة فرفض، قال:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

عندئذٍ قالوا: " يا محمد إنك تأكل، ولو كنت رسولاً لما أكلت، هذا الأكل من صفات البشر، ولابدّ من أن يكون الرسول ملاكاً في زعمهم ".

لا يمكن أن يكون النبي إلا من بني البشر لأنه قدوة ومثلٌ أعلى:

قال تعالى:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ (7))

(سورة الفرقان)

يأكل، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَأَيُّمَا رَجُلٍ آذَيْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَصَلاةً))

[مسند أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وقال أيضاً: وأنسى كما ينسى البشر.

قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ(110))

(سورة الكهف)

لو أنه كان ملكاً لقال الناس جميعاً: يا أخي هذا مَلَك، لو أمرهم: غضوا أبصاركم عن النساء، فيجيبوه: أنت مَلَك ونحن بشر، هذا الشيء فوق طاقتنا، لا يمكن أن يكون النبي إلا من بني البشر، لأنه قدوة ومثلٌ أعلى، قدوة حسنة، أسوة حسنة، قدوة صالحة، فلذلك لو أن الله عزّ وجل جعل النبي الكريم مَلَكاً لقال الناس جميعاً: هذا الشرع لا نستطيع أن نطبّقَهُ لأن هذا الذي يدعونا مَلَك لا يحس بإحساسنا، ولا يشعر بمشاعرنا، وليس عنده الشهوات التي أودعها الله فينا، إنّه ملك، لكن لا:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ(110))

(سورة الكهف)

لهذه الآية التالية معنيين:

فهو من بني البشر، أودع الله فيه كل الشهوات، جعله يجوع، جعله يتعب، جعله يعطش، جعله يشعر بحاجة للنوم، ومع ذلك جاهد في سبيل الله حق الجهاد.

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

1 ـ المعنى الأول أن هذا النبي ما دام بين الناس في أسواقهم إذاً هو ليس نبياً:

طبعاً يأكل الطعام لأنهم ظنوا أن الرسول يجب أن يكون مَلَكاً، فبمجرد أنه أكل الطعام إذاً ليس رسولاً، أما يمشي في الأسواق، هم يعرفون الأكاسرة والقياصرة، جَبارة أهل الشرق والغرب كانوا قابعين في

بيوتهم، لا ينزلون إلى أسواق الناس، فهذا النبي ما دام بين الناس في أسواقهم إذاً هو ليس نبياً، هذا معنى.

2 ـ المعنى الثاني أنه مفتقر إلى الطعام والشراب وإلى كسب ثمنهما فكيف يكون نبياً:

المعنى الثاني: أن الإنسان مفتقرٌ إلى الطعام والشراب، ومفتقرٌ إلى كسب الطعام والشراب، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، أنت مفتقرٌ إلى شيئين، مفتقرٌ إلى الطعام والشراب، ومفتقرٌ إلى كسب ثمن الطعام والشراب، فأنت مضطرٌ إلى أن تدخل إلى السوق لتبيع وتشتري، لتبيع ما عندك وتشتري طعامك وشرابك، فالمشي في الأسواق من صفات البشر، والنبي عليه الصلاة والسلام إذا مشى في الأسواق، إضافةً إلى أنه بشر، يمشي في السوق ليؤمِّن حاجاته، هو يعيش مع الناس في الأسواق يرى أحوالهم، يرى مشكلاتهم، كيف يهديهم إذا كان بعيداً عنهم ؟ كيف يعرف قضاياهم إذا كان في برجه العاجي ؟ كيف يستطيع أن يحل مشكلاتهم إذا كان هو في وادٍ وهم في واد ؟ إذاً ؛ أنْ يكون الرسول مع الناس في أسواقهم فهذا من صفات الأنبياء طبعاً، وفي آياتٍ أخرى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ (20))

(سورة الفرقان)

أكل الطعام والمشي في الأسواق من صفات الأنبياء جميعاً لأسبابٍ كثيرة:

ليس هذا من صفات النبي الكريم وحده، بل إن أكل الطعام والمشي في الأسواق من صفات الأنبياء جميعاً لأسبابٍ كثيرة، أولاً لأنهم بشر مفتقرون إلى تناول الطعام، وجودهم ليس ذاتياً، وثانياً مفتقرون إلى كسب ثمن الطعام والشراب، وثالثاً هم مع البشر، مع أحوالهم، مع مشكلاتهم، مع قضاياهم، كيف توجّه الإنسان إن لم تعش قضيّته، إن لم تعش بيئته، إن لم تعش مشكلته، وشيءٌ آخر هم مع البشر في أسواقهم ليعظوهم، ليوجّهوهم إلى الله عزّ وجل، فأنت أيها المؤمن إذا كنت في السوق لك مهمة، أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر وأن تُذكِّرَ الناس بالله عزّ وجل، لك دكان في سوق، أنت هنا من أجل أن تبيع وتشتري، وفضلاً عن ذلك من أجل أن تعين أخاك، من أجل أن ترشده، من أجل أن تأمر بالمعروف، من أجل أن تنهى عن المنكر.

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا(8))

(سورة الفرقان)

النبي الكريم يجب أن يكون قدوة لنا بما تعرض له من نقد واتهامات وأكاذيب:

إذا قيل عن النبي إنَّه مسحور، إذا قيل عن النبي إنَّه مجنون، فهل هو كذلك ؟ هذا درسٌ بليغٌ لنا، حتى النبيُّ الكريم سيّد الخلق وحبيب الحق، حتى النبي الكريم ذلك الإنسان الكامل ما سَلِمَ من النقد:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(112))

(سورة الأنعام)

فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام اتُّهم بأنه مجنون، واتُّهم بأنه ساحر، واتهم بأنه مسحور، واتهم بأنه كاهن، واتهم بأنه يأتي بالأساطير تُملى عليه، فإذا انتقدك أحدٌ، فمن أنت ؟ لا شيء، من عرف نفسه فلا تضرّهُ مقالة الناس به، إذا كنت تعرف الهدف والطريق إليه، فامضِ إليه ولا تَلْوِ على شيء، هذا درس لنا، الإنسان لا يخلو من إنسان حسود، من عدو، من مفترٍ، من مضلل، من رجل يحب أن يوقِعَ بين الناس العداوة والبغضاء، من إنسان ملأ قلبه الحسد فتكلّم كلاماً من غير تدقيق، ألقى كلاماً على عواهنه، إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق وقال عنه هؤلاء هكذا فمن نحن ؟ اللهم صلِّ عليه كان قدوةً حسنة، تحمّل أذى قومه، وتحمّل تكذيبهم، وتحمل اتهامهم لهم بالسحر وبالجنون وبالشعر وبالكهانة، ومع ذلك بقي ثابت القلب، رابط الجأش، واضح الهدف، سائراً نحو هدفه بكل ثقةٍ وثبات.

يجب علينا أن نبني إيماننا على أسسٍ صحيحة و بحثٍ دقيق وأدلة قطعية:

أتمنى عليكم مرةً ثانية أن تفكروا في هذا الأسبوع في دليلٍ قطعي على أن هذا القرآن كلام الله، هناك أدلة كثيرة، هناك أدلة من حيث البيان، من حيث اللغة، هناك إعجاز تشريعي، هناك إعجاز علمي، هناك إعجاز تاريخي إخباري، هناك إعجاز غيبي، هناك إعجاز رياضي، هناك إعجاز عددي، هناك إعجاز تربوي، فكل إنسان بحسب معلوماته، بحسب إمكاناته، ليبحثْ عن دليل لهذا الكتاب، وربما كان موضوع الدرس القادم إن شاء الله تعالى بعض الأدلّة التي يمكن أن تكون قطعيةً على أن هذا القرآن كلام الله، لأن هذا الكلام الذي قاله الكفار كلامٌ باطل، فما البديل إذا كان الكفار يقولون:

(إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ (4))

(سورة الفرقان)

ما هو الدليل على أن القرآن كلام الله ؟ هذه هي المهمة التي على كلٍ منا أن يبحث فيها طيلة هذا الأسبوع.

ولأن رمضان شهر القرآن، فإذا كانت عندك آلة غالية جداً ومعها نشرة تتضمّن تعليمات وتنبيهات، أوامر وتحذيرات، كيف أنك حريصٌ حرصاً بالغاً على اقتناء هذه النشرة وعلى ترجمتها، وعلى فهمها، وعلى تطبيقها، فحرصك على فهم كلام الله يجب أن ينبع من حرصك على سلامتك، ومن حرصك على سعادتك، إذاً يجب أن تبني إيمانك على أسسٍ صحيحة، على بحثٍ دقيق، على دليلٍ قطعي، وعندئذٍ حينما تقرأ آيةً فيها أمر تبادر إلى التطبيق، حينما تقرأ آيةً فيها نهيٌ تبادر إلى التَرك، حينما تقرأ آيةً فيها بشارة تطمئن، حينما تقرأ آيةً فيها تحذير تقلق.

مهمةٌ كبرى أن تعرف أن هذا القرآن كلام الله:

أنت إذا قرأت كلام الله وخفت مع آية التحذير، واطمأننت مع آية البشارة، وابتعدت عن كل شيءٍ نهى الله عنه، وبادرت إلى كل شيءٍ أمر الله به، عندئذٍ تكون على يقينٍ من أن هذا القرآن كلام الله ؛ أما إذا لم تعبأ بأمره ونهيه، ولا بوعده ووعيده، ولا بما ينتظر المؤمن من جنةٍ، ولا بما ينتظر الكافر من نار، ولم تعبأ بأخباره عندئذٍ لا يرقى إيمانك بهذا الكتاب إلى المستوى المطلوب، فهذه مهمةٌ كبرى أن تعرف أن هذا القرآن كلام الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (05-13): تفسير الآيات 9 - 16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-04-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الفرقان.

الله سبحانه وتعالى هو الخالق الذي يَخلُق ولا يُخلَق والذي بيده ملكوت كل شيء:

ربنا سبحانه وتعالى في هذه السورة بيَّن عدداً من أركان الإيمان، وأركان الإيمان كما تعلمون: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وأنبيائه، والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، فالآيات التي ذَكَرَتْ عن الآلهة التي اتُخِذَت مِن دون الله في تفصيلِ أوصافَ هذه الآلهة فإنَّه سبحانه بيَّن في ثناياها ماذا تعني كلمة الربوبيَّة والألوهيَّة والخالق، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(3))

سورة الفرقان)

إذاً مَنْ هو الله العظيم ؟ هو الخالق الذي يَخْلُق ولا يُخْلَق، وهو الربُّ المتصرّف الذي وكّل الخلق له مُلكاً وتصرُّفاً ومصيراً.

وشيء آخر: هو الإله الذي بيده ملكوت كل شيء:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا (3))

(سورة الفرقان)

لا مجالٌ للموازنة والمقارنة بين الخالق والمخلوق:

لا ينبغي أن تعبد غير الخالق، والدليل آية سورة البقرة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

(سورة البقرة)

فالخالق هو الذي يُعبَد، وهو الذي يستحقُّ وحده أن يُعْبَد، والربُّ هو المُمدّ لكل حاجات الإنسان، والمسيّر وهو المتصرّف، فربنا سبحانه وتعالى من خلال كلمة:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (3))

(سورة الفرقان)

كلمة من دونه أي شتَّان بين أن تعبد الخالق وبين أن تعبد المخلوق، شتَّان بين أن تعبد مَن يسمعك وبين أن تعبد مَن لا يسمعك، شتَّان بين أن تعبد من يستجيب لك وبين مَن لا يستجيب لك، فليس هناك مجالٌ للموازنة والمقارنة بين الخالق والمخلوق، فهذا الذي اتخذ عبداً مِن دون الله يعبده ويَتَّكِلُ عليه، ويحرص على رضاه، ويسعى إليه، هذا هو الذي ضلَّ ضلالاً بعيداً.

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(3))

(سورة الفرقان)

الترابط والتلازم بين الدين والعقل:

هذه الآلهة إذا كانت لا تملك لأنفسها دفع الضرّ عنها، ولا جلب النفع إليها، فهي من باب أوْلى أنها لن تستطيع أن تقدِّم للآخرين شيئاً، كما قيل:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

[ورد في الأثر]

وقال أيضاً:

((يا ابن آدم أطع ربك تسمى عاقلاً، ولا تعص ربك فتسمى جاهلاً))

[داود بن المحبر عن أبي هريرة]

وقال:

((قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له))

[داود عن جابر بن عبد الله]

هناك ترابط وتلازم بين الدين والعقل، إنما الدين هو العقل، سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءه سيدنا خالد مسلماً قال له: عجبت لك يا خالد أرى لك فكرًا.

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (3))

(سورة الفرقان)

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إنّ أخْوَفَ مَا أتَخَوّفُ عَلَى أمّتِي الإشْرَاكُ باللّهِ أمَا إنّي لَسْتُ أقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا وَلا وَثَنًا وَلَكِنْ أعْمَالا لِغَيْرِ اللّهِ وَشَهْوَةً خَفِيّةً))

[سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس]

الدين هو التوحيد و" لا إله إلا الله " هي كلمة التوحيد:

لو سألتني أن أضغط لك الدين كله في كلمة أقول لك: هو التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، لو تصفّحت هذا القرآن كلّه من الدفّةِ إلى الدفّة، من الفاتحة إلى سورة الناس، ما رأيت قصّةً ولا آيةً إلا لتؤكّد في النهاية أنه لا إله إلا الله، لذلك كلمة: " لا إله إلا الله " هي كلمة التوحيد، بهذه الكلمة تنجو، لا إله إلا الله حصني من دخلها أمن من عذابي.

((لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ لا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ وَلا تَتْرُكُ ذَنْبًا))

[سنن ابن ماجة عن أم هانئ]

فالإسلام فيه معلومات كثيرة جداً، هذه المعلومات لو تتبعّتها وقرأتها بالكتاب، أو استمعت لها في مجلس علم أو من خلال خطبة، ينمو عندك ما يسمّى بالثقافة الإسلاميّة، ولكن الثقافة الإسلاميّة شيء، وأن تكون مهتدياً إلى الله شيءٌ آخر، أن تعرف الله شيء وأن تتصل به شيءٌ آخر، يجب أن يكون لك طريق إلى الله عزّ وجل:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(3))

(سورة الفرقان)

أيُّها الإنسان إلى أين المصير ؟ حينما يُوضَع المرء في قبره مَن ينفعه ؟ أتنفعه زوجته التي عصى ربه من أجلها ؟ حينما يُوضع تحت أطباق الثرى أينفعه ماله وقد خلّفه وراءَه ؟ حين يوضع تحت أطباق الثرى أينفعه ابنه ؟ وقد يقول ابنه يوم القيامة: يا رب لا أدخل النار حتى أُدْخِلَ أبي قبلي، فالقضيّة قضيّة مصيرية وقضية خطيرة، فأنا ألاحظ أن الإنسان ما لم يتعمّق في التوحيد فدينه ثقافة، ما دام يرجو غير الله، ويخشى غير الله، ويأمن لغير الله، ويعقد رجاءه على غير الله، ويطيع مخلوقاً ويعصي خالقاً، هذا إنسان بعيدٌ بعد المشرقين عن أن يكون مؤمناً إيماناً راقياً.

ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقع في القلب وصدّقه العمل:

شيءٌ آخر: إذاً ما الإيمان بالله ؟ كلمة الإيمان بالله سهل النطق بها وأنت تقول: أنا مؤمن، في غاية السهولة ولكن الإيمان له شروط:

الإيمان عفيفٌ عن المطامع، عفيفٌ عن المحارم، الإيمان إقرارٌ في القلب، ما أقرَّ به القلب وصدّقه العمل، هذا الإيمان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقع في القلب وصدّقه العمل.

فالذي أتمنّى على الله عزّ وجل ألا يضيّع الإنسان وقته بشكل غير مُجْدٍ، فإما أنه مؤمن حقّاً وإما أنه يبحث عن أن يكون مؤمناً حقّاً والآن:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4))

(سورة الفرقان)

فربنا سبحانه وتعالى في الآيتين الثانية والثالثة تحدّث عن الإيمان بالله، وهاهو في الآية الرابعة يتحدّث عن الإيمان بالكتاب.

الإنسان يقرأ القرآن، ما من مسلمٍ إلا ويقرأ القرآن في رمضان بشكل مكثّف، ولكن يا ترى هل يقرأ القرآن وهو يعلم علم اليقين أنّ هذا كلام الله ؟ فإذا علم أن هذا كلام الله فهل يعلم علم اليقين ما وراء أن يعصي هذا الكلام ؟ أو أن يقصِّر فيه ؟ في تطبيق ما أمر أو في ترك ما نهى عنه وزجر ؟ وإن شاء الله تعالى في دروسٍ أخرى سوف نتحدّث عن البراهين التي تؤيّد بشكلٍ قطعي أن هذا الكلام كلام الله عزّ وجل.

بشريّة النبي محمد صلى الله عليه وسلّم حجبت الكفار عن حقيقته:

الآن الآيات تطرّقت إلى موضوعٍ ثالث وهو الإيمان بالرسول:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

كأنّهم غفلوا عن حقيقته ونظروا إلى بشريّته، رأوه بشراً مثلهم ؛ يأكلون ويأكل، يشربون ويشرب، يغضبون ويغضب، ينسون وينسى، فبشريّته صلى الله عليه وسلّم حجبتهم عن حقيقته، رأوه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وعهدهم بملوك الفُرس والروم أنهم لا يمشون في الأسواق، هذا يمشي بين الناس متواضعاً، يمشي مع المسكين، ومع الأرملة، ومع الضعيف.

عدي بن حاتم حينما جاء المدينة دخل على النبي عليه الصلاة والسلام، فقال النبي: " مَن الرجل ؟ "، فقال: " عدي بن حاتم "، فالنبي رحّب به، فلمّا علم أنه عدي وكان ابن ملكٍ من ملوك نجد أخذه إلى البيت، قال عدي: " في الطريق استوقفته امرأةٌ، فوقف معها طويلاً يكلِّمها في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك ". ففرقٌ كبير بين الملك وبين النبي.

عندما دخل سيدنا عمر على النبي عليه الصلاة والسلام ورآه قد أثّر الحصير على خدِّه الشريف بكى، فقال النبي: " يا عمر ما يبكيك ؟ " قال: " رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟! " قال: " يا عمر إنما هي نبوّةٌ وليست مُلكاً "، أنا لست مَلِكاً، أنا نبي.

فهم حينما رأوه بشراً مثلهم يأكل ويأكلون، يشرب ويشربون، وينام وينامون، ويتعب ويتعبون، ويغضب ويغضبون، قالوا:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

الرسول الكريم ليس ملكاً و إنما بشر كباقي البشر:

بينما هم من قبل هذا عرضوا عليه أن يكون أميراً عليهم فرفض، عرضوا عليه أن يكون أغناهم فرفض، عرضوا عليه أن يزوّجوه أجمل فتياتهم فرفض، ساوموه شرْطَ أن يدع هذه الدعوة، وعندئذٍ قال النبي عليه الصلاة والسلام قولته الشهيرة:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته))

[السيرة النبوية]

فلمّا يئسوا من أن يصرفوه عن هذه الدعوة بحثوا عن مطعنٍ في شخصه، رأوه بشراً يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، عندئذٍ ردّ الله عليهم:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

هم تصوّروا أن يكون الرسول مَلَك، وإذا كان ملكاً فالقضيّة مشكلةٌ كبيرة، عندئذٍ لن يستطيع أن يأمرهم بشيء، كلّما أمرهم بشيء قالوا: أنت مَلَك، أنت لست مِن جِنسنا، ولست من طبيعتنا، ولا تُحِسُّ بما نُحِسْ، ولا تشعر بما نشعر، فأحياناً إنسان ميسور الحال يدعو فقيراً إلى الصبر، هذه الدعوة غير مقبولة من الغني، يقول لك: أنت لا تُحِسُّ بالجوع لأنه لا يستطيع أن ينصح الآخرين إلا من يعيش معهم، من يحيا مشكلتهم، من يمارس مأساتهم، أما لو كان مَلَكاً فليس فيه شهوة وليس فيه نوازع داخليّة أرضيّة لقالوا: أنت مَلَك، والخُلاصة أنّهم تصوّروا أن يكون النبيُّ مَلَكاً:

(لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ (7))

(سورة الفرقان)

ثم اقترحوا لو كان معه مَلَك:

(لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7))

(سورة الفرقان)

بطولة الإنسان في أخلاقه و علمه و قلبه الكبير:

اقترحوا أن يكون مع النبي الكريم مَلَك ينذر الناس، واقترحوا أيضاً:

(أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ (8))

(سورة الفرقان)

كأنهم تعوّدوا أن المَلِك لا يكون مَلِكاً إلا إذا كان في بذخ وترفٍ، وبيتٍ فخمٍ، وطعامٍ نفيسٍ، ولباسٍ مزخرفٍ مزيَّن، هذا الذي جعله ملِكاً، أما أن تكون البطولة في أخلاقه، في علمه، في رحمته، في قلبه الكبير فما ألِفوا إنساناً يستحقُّ أن يكون نبياً إلا أن يكون كالملوك، مع أن البطولة يجب أن تكون في الأخلاق، وأن تكون في العلم، وأن تكون في القلب الكبير:

(أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ (8))

(سورة الفرقان)

ليس معه كَنز، وليس له بستان واسع عريض فيه أشجار وارفة، وفيه غدران، وفيه أزهار، يقضي فيها معظم وقته، كأنَّهم يتمنَّون أن يكون النبي كالملوك الذين يغرقون في النعيم، ويغرقون في البذخ والترف:

(وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8))

(سورة الفرقان)

لحكمةٍ بالغة جعل الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام فقيراً:

غفلوا عن حقيقته صلّى الله عليه وسلّم، غفلوا عن قلبه الكبير، غفلوا عن علمه العظيم، غفلوا عن رحمته، غفلوا عن حكمته، غفلوا عن تواضعه، غفلوا عن شجاعته، غفلوا عن كَرَمِهِ، غفلوا عن أمانته، غفلوا عن صدقه، كل هذه الصفات غفلوا عنها، رأوه إنساناً فقيراً مثلهم، ولحكمةٍ بالغة فقد جعل الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام فقيراً:

قال له جبريل: **" يا محمّد أتحبُّ أن تكون نبيّاً ملِكاً أم نبياً عبداً ؟ "**، قال:

((بل نبيّاً عبداً أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره))

[ورد في الأثر]

والنبي عليه الصلاة والسلام دعا لأحبابه بالكفاف فقال:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[خرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بلفظ "قوتا"]

من أدرك الإسلام والصحَّة ما فاته شيء، إن الإنسان إذا كان إيمانُه سليماً وصحّته طيّبةً فقد نال المجد من طرفيه، خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها همّاً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[سنن ابن ماجة عن عبد الله بن محصن عن أبيه]

فلذلك عندما اقترح هؤلاء على النبي أن يكون معه مَلَك، أو أن يكون له كنز، وأموال طائلة، أو أن يكون له بيت فخم وبساتين غنّاء، ما عرفوا حقيقة النبي صلى الله عليه وسلّم..

وكيف يدركُ في الدنيا حقيقته قومٌ نيامٌ تسلوا عنه بالحُلُمِ

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ وأنه خير خلق الله كلِّهِمِ

* * *

الإسلام ليس معلومات جافّة بل حبّ و محبة:

إذا رأى أحدٌ النبي عليه الصلاة والسلام في المنام يبقى أشهراً وهو مغموس في السعادة، نتمنى لو أُتيح لنا أن نلتقي به صلّى الله عليه وسلّم فأصحابه الكرام سحرهم كماله، صبئوا، أحبُّوه حبّاً كما قال أبو سفيان:

"ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمدٍ محمّداً ".

الإسلام حب يا أخوان، الإسلام ليس معلومات جافّة، الإسلام قلب يخفق بالمحبّة، الإسلام جلد يقشعر إذا قُرِئَت آيات الله، الإسلام دموع تنهمر من العينين، فمن لا يبكي، ولا يقشعرُّ جلده، ولا يخفق قلبه بالمحبّة وهو مسلم فإسلامه قشور !! الإسلام محبّة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ (165))

(سورة البقرة)

إن الله تعالى ليباهي الملائكة بالشاب التائب يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، فالإنسان يجب أن يسعى ليجعل قلبه حياً، هناك قلب ميّت، ميّت لا يتأثّر، يقرأ القرآن فلا يتأثّر، يصلي صلاة جوفاء، يصوم صيامَ جوعٍ وعطش، القلب ميّت، القلب يحيا بذكر الله، يحيا بالعمل الصالح، يحيا بالتضحية، يحيا بالإيثار، يحيا بالبَذل، يحيا بترك الشهوات، يحيا بالانضباط، هذا كلّه يحيي القلب ؛ لكن إن لم يكن لديه إيثار، ولا انضباط، ولا استقامة فهو ميّت، هان الله عليهم فهانوا على الله، الله هيّن على الناس كثيراً يعصونَهُ بسهولة، لأيسر ضغط يعصونَهُ، لأيسر إغراء يعصونَهُ، هان الله عليهم فهانوا على الله، لأقل مشكلة يتركوا مجلس العلم، لأقل سبب يزهد بالقرآن الكريم، لسببٍ تافه بينما كان صائماً يُفْطِر، هان الله عليهم فهانوا على الله.

المقاييس التي اختلقها الكفار كانت حجاباً بينهم وبين هذا النبي الكريم فضلوا:

أنا أريد أن أقول: الإسلام محبّة، الإسلام قلبٌ يخفق بالمحبّة، الإسلام جلد يقشعر من خشية الله، الإسلام عين تدمع حبّاً بالله وشوقاً إليه.

فهذه الاقتراحات أن يكون معه مَلَك، وأن يُلقَى إليه كنز، وأن تكون له جنّة، هذه الاقتراحات سَدّت عليهم طريق معرفته صلى الله عليه وسلّم، فأنت تظن أن العالِم هو الذي يكون لون جسمه أبيض، ليس هناك علاقة بين البياض والعلم، تظن العالِم مَن كان له قامة طويلة، تظن العالِم مَن كان له رصيد ضخم؟ تظن العالِم من كان له بيتٌ فخم، التقيتُ بعالِم بيتُه متواضع جداً، قصير القامة، أسمر اللون لا يملك من الدنيا شيئاً، فأنت مقياسك غلط، هذا المقياس حجبك عن حقيقته، مقياسك مبني على الوهم، لا علاقة للعلم بالشكل، ولا باللون، ولا بالمال، ولا بالبيت، فأنت عندما جعلت العلم دليلُه البيتُ الفخم، دليلُه المال العريض، دليلُه الشكل الوسيم فهذه المقاييس أنت الذي اخترعتها، وهي حجاب بينك وبين هذا العالِم مثلاً.

فهم حينما ظنّوا أن النبي لن يكون نبياً إلا إذا كان له جنّة، بستان، كنز، بيت فخم، معه مَلَك من طبيعة أخرى، عندئذٍ هذه المقاييس التي اختلقوها كانت حجاباً بينهم وبين هذا النبي الكريم، بل إنهم قالوا:

(وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8))

(سورة الفرقان)

نسوا أن هذه نبوّة، وأن هذا وحيٌ من عند الله، نسوا كل هذا وظنّوه رجلاً مسحوراً، أي يتبع السحرة، أو يُسْحَر.

الله سبحانه وتعالى ما أراد الدنيا أن تكون ثواباً لأوليائه ولا عقاباً لأعدائه:

(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا (9))

(سورة الفرقان)

كيف ضربوا لك الأمثال، هذه الاقتراحات، هذه المقاييس من عند أنفسهم لا أساس لها من الصحّة، هذه المقاييس جعلتهم في ضلال فَضَلّوا:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9))

(سورة الفرقان)

إلى معرفتك، سبيلاً إلى معرفة حقيقتك النبويّة، فشيءٌ عظيمٌ جداً أن تعرف حقيقة النبي عليه الصلاة والسلام، شيء عظيم جداً أن تكون في المستوى الذي يليق بك كإنسان.

الله سبحانه وتعالى ما أراد الدنيا أن تكون ثواباً لأوليائه، وما أرادها كذلك، هي أحقر من ذلك، أحقر من أن تكون ثواباً لأوليائه، وأحقر من أن تكون عقاباً لأعدائه، ربّما رأيت وليّ الله فيها معذّباً، مُمْتَحَناً، مُبتلىً، وربّما رأيت الكافر الفاجر فيها مرتاحاً، لحقارتها عند الله عزّ وجل، ولضعف شأنها عند الله عزّ وجل، ولأنها هينةٌ على الله عزّ وجل، ما أرادها الله أن تكون ثواباً لأوليائه، ولا عقاباً لأعدائه، لذلك:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

قد ينظر ناظرٌ بعقله فيقول في نفسه: هو اللهُ أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا:

(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9))

(سورة الفرقان)

هذه المقاييس كانت حجاباً بينهم وبينك، سدّت عليهم طريق معرفتك.

الله تعالى قادر أن يعطي النبي كل شيء لكن هذا الشيء ليس مقياساً للنبوة:

(تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا(10))

(سورة الفرقان)

ربنا عزّ وجل قادر، إن شاء، أن يحيط النبي ببيوتٍ، وقصورٍ، وجنّاتٍ، وبساتين، ومراكب ورياحين، هذا شيء على الله سهل جداً لكنّه ليس مقياساً للنبوّة، ولو فعل الله ذلك لما أنقص من ثواب النبي شيئاً يوم القيامة:

(تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا(10))

(سورة الفرقان)

قصوراً عالية:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11))

(سورة الفرقان)

كلّما ورد الإيمان بالله في القرآن الكريم يأتي معه الإيمان باليوم الآخر:

الحقيقة الآن دخلنا في البند الثالث، فقد ذكرنا الإيمان بالله، ثم الإيمان بالكتاب، ثمّ الإيمان بالنبيّ، والآن الإيمان باليوم الآخر، والشيء الذي يلفت النظر أنه كلّما ورد الإيمان بالله في القرآن الكريم يأتي معه الإيمان باليوم الآخر، لأن الإنسان حينما لا يؤمن بالساعة ولا باليوم الآخر، أيْ إذا كان لا يؤمن بالحساب، أيْ لا يؤمن بالجزاء، ولا يؤمن بالدينونة، ولا بالجزاء والحساب والعقاب فعندئذٍ سيتفلّت من

قوانين ربنا عزّ وجل، سيتفلّت من الشرع، فهناك تلازم، لماذا فلان مستقيم ؟ لأنه مؤمن أن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً، هذا الإيمان يحمله على الاستقامة، أيْ أنّ هناك مسؤوليّة:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

لولا المسؤوليّة لما كان هناك استقامة، فالآن لماذا ينضبط الموظّف ؟ يكون هناك مديرٌ شديد جداً مثلاً يحاسب حساباً دقيقاً، ولقد وضع ضوابط، ومعايير، وأجهزة مراقبة دقيقة جداً عند الدخول والخروج، فإذا دخلَ موظف يُسجّل أي ساعة دخل إلى الدائرة، وكذلك إن خرج يسجل، التأخُّر صار عليه محاسبة، جهاز يضبط دوام الموظّفين، فإذا كان المدير العام شديداً جداً، وعنده أجهزة دقيقة جداً لضبط الدوام والإنجاز، فالإنسان يلتزم لأنه سوف يُحَاسَبْ.

وربنا عزّ وجل جعل يوم القيامة يوم الحساب، يوم الجزاء، يوم الدينونة، لذلك فالمؤمن إذا آمن بهذه الساعة لابدّ من أن ينضبط:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ (11))

(سورة الفرقان)

أدلة من القرآن الكريم على أن يوم القيامة حقٌ وله مقياس دقيق جداً:

التكذيبُ بالساعة تكذيبٌ بعدالة الله عزّ وجل، لأن الله سبحانه وتعالى من أسمائه الحق، ومعنى الحق سيتحقّق يوم القيامة:

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

يوم القيامة له مقياس، مقياس عظيم، مقياس دقيق جداً:

(فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47))

(سورة الأنبياء)

مثقال حبّة من خردل:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16))

(سورة لقمان)

وقال:

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

نواةُ التمرة لها رأسٌ مدبّب، لو تحسّسته بلسانك شعرت به، هذا الرأس المدبّب اسمه نقير:

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

نواة التمر فيها خيط بين فُرْضَتَيها هذا الخيط اسمه فتيل:

(وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلا(71))

(سورة الإسراء)

اسمه الفتيل، لا تُظْلَم الفتيل ولا تُظْلَم النقير.

على المؤمن أن يُعِدُّ ليوم الحساب عُدّته بأن يحاسب نفسه على كل حركة وسكنة:

(فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47))

(سورة الأنبياء)

وقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7))

(سورة الزلزلة)

هذا يوم القيامة، يوم الساعة..

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ (11))

(سورة الفرقان)

فالإنسان البطل الذي يُعِدُّ لهذا اليوم عُدّته، الإنسان إذا أعمل فكره إعمالاً صحيحاً وتيقّن أنه لابدّ أن يقف بين يدي الله عزّ وجل عندئذٍ يحاسب نفسه على الأنفاس، على الخواطر، على النظرات، على الحركات، على السكنات، على البسمة، على العبوس، كلّه محاسبٌ عليه:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

إذا صحّ إيمانك باليوم الآخر صحّ عملك:

موضوع الإيمان باليوم الآخر شيء مهم جداً، إذا صحّ إيمانك بيوم القيامة، أو باليوم الآخر صحّ عملك لأن هذا الوقوف لابدّ منه:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيه(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ

الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه(29))

(سورة الحاقة)

فالتلازم..

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11))

(سورة الفرقان)

يا تُرى هل السعير فقط على التكذيب بالساعة ؟ أعتقد أنّ التكذيب بالساعة سوف ينتج عنه تفلّت من النظام، سوف ينتج عنه عدوان، التكذيب بالساعة من لوازمه التفلّت من منهج الله عزّ وجل، التكذيب بالساعة من لوازمه العدوان على أموال الناس، وعلى أعراضهم، التكذيب بالساعة من لوازمه أن يقتنص المُكَذِّب اللذّة من أي طريقٍ كان، هذا التكذيب بالساعة.

من أعجب العجب أن يتلوَ الإنسان كلام الله ويعصيه:

لذلك:

(وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11))

(سورة الفرقان)

السعير ليس على التكذيب فقط بل على ما ينتج عن التكذيب من انحرافٍ وعدوان قال تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11))

(سورة الفرقان)

فهذا كلام الله سبحانه والحقيقة أنه من أعجب العجب كيف أن يتلوَ الإنسان كلام الله ويعصيه !! فهذا الكلام ليس له إلا حالتين: إما أنه صحيح حقاً، وإما أنه باطل، فإذا كان باطلاً فما الدليل ؟ وإذا كان صحيحاً وحقاً فكيف تعصي الله والقرآن يذكّر بأنه لابدّ من حساب دقيق ؟

ذات مرّةٍ خاطب الإمام الغزاليُّ نفسَه فقال لها: **" يا نفس لو أن طبيباً منعكِ أكلةً تحبينها ماذا تفعلين؟ طبعاً أغلب الظن أنّكِ تمتنعين عنها حرصاً على صحّتكِ، فكيف يعصي الإنسان ربّه ؟ هذا الذي يعصيه أيكون الطبيب أصدق عنده من الله، إذا كان كذلك فما أكفره، أيكون وعيد الطبيب أشدّ عنده من وعيد الله ؟!، إذاً ما أجهلك ".**

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12))

(سورة الفرقان)

فهذه جهنّم نفس أيضاً، والدليل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(44))

(سورة الإسراء)

أيْ ما من شيءٍ في الكون إلا وهو نفْسٌ تسبّح بارئها، إلا هذا الإنسان الغافل.

ما من شيءٍ في الكون إلا وهو نفْسٌ تسبّح بارئها:

الكون كلُّه مسخر لهذا الإنسان وهو يسبّح بحمد الله، فإذا جاء الإنسان الذي سُخِّر له الكون من أجله، وغفل عن ذكر الله، فجهنَّم نفسها لا تحتمل أن ترى مخلوقاً قد خان الأمانة أوّلاً ونقض العهد، ثم أساء إلى الخَلق ثانياً، لذلك حتى جهنَّم لا تحتمل، لذلك لو فرضنا أباً اعتنى بابنه عناية فائقة، وهذا الابن فعل شيئاً سيئاً مع أبيه، هؤلاء الذين يأخذونه للمحاسبة في الطريق يغلظون له في القول، كيف تفعل هذا ؟ أين أخلاقك ؟ أين برُّك لأبيك ؟ لا يحتملون، فالغُرَبَاء لا يحتملون فعل هذا الابن العاقّ، فلذلك حتَّى جهنّم:

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (12))

(سورة الفرقان)

رأتهم هنا الموضوع يسوقنا إلى أن هذه الجمادات، هذه الكواكب، هذه النباتات، هذه الحيوانات كلُّها نفوس، أعرف حجراً بمكّة كان يُسلِّم عليّ.

النبي عليه الصلاة والسلام دخل بستاناً من بساتين الأنصار، فرأى جملاً فحنَّ إليه، تقدَّم منه النبي عليه الصلاة والسلام فرآه يبكي، مسح النبي عليه الصلاة والسلام دمعَهُ بيديه الكريمتين وقال: " مَن صاحب هذه الناقة ؟ " فقالوا: فلان الفلاني فتى من الأنصار يا رسول الله، قال: "ائتوني به "، فلمَّا جاؤوا به قال:

((أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها ؟ فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه))

[مسلم عن عبد الله بن جعفر]

الحيوان نفس، والجماد نفس، كان النبي عليه الصلاة والسلام يخطب على جذع النخلة، فلمَّا صنع له أصحابه منبراً حنَّ الجذع إليه، فكان يقف على المنبر ويضع يده على الجذع إكراماً لهذا الجذع، فهذه الإشارات من النبي عليه الصلاة والسلام مؤدَّاها أن الجمادات أنفس لكنَّها لم تقبل الأمانة، بمعنى أن الله عزَّ وجل حينما عرض:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

(سورة الأحزاب)

المخلوقات اكتفت أن تكون مسبّحةً لله من دون مسؤوليّة لذلك نَجَتْ:

إنّ هذه الأمانة، أمانة التكليف، عُرِضَت على الجمادات أيضاً:

(عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا(72))

(سورة الأحزاب)

المخلوقات اكتفت أن تكون مسبّحةً لله من دون مسؤوليّة، من دون امتحان، من دون شهوات، من دون حساب، من دون حرية اختيار لذلك نَجَتْ، أما الإنسان إذا صدق في حمل الأمانة يتفوّق على كل المخلوقات، فإن لم يصدق بحملها فكل مخلوقٍ أفضل منه:

(إِذَا رَأَتْهُمْ (12))

(سورة الفرقان)

جهنّم..

(مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12))

(سورة الفرقان)

ورد في بعض الآثار أنه يخرج لسان من جهنّم له عينان تشاهدان، وله لسان ينطق:

(سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12))

(سورة الفرقان)

الضيق والضغط من لوازم العذاب والاتساع والانفراج من لوازم النعيم:

تؤكِّدُ بعض التفاسير أن أهل النار وهم يتعذّبون في النار يشهقون، ويئنون، ويزفرون، فهذا الشهيق والزفير، وهذا التغيُّظ والأنين، والصوت والألم هي أصوات أهل النار، كما لو أن إنساناً ساقوه إلى مكان يعذّب فيه الناس، قبل أن يصل سمع أصوات المعذّبين فازداد خوفه:

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا(13))

(سورة الفرقان)

هم مقيَّدون مقرَّنون، أو مقرَّنون مع شياطينهم، هذا الشيطان الذي ساق الإنسان إلى النار، يأتي النار هو والشيطان الذي ساقه إليها، هذا معنى، أو هم مقيَّدون لأن جهنَّمَ على اتساعها تضيق بأهلها، وقد تضغط عليهم، والضيق والضغط من لوازم العذاب، والاتساع والانفراج من لوازم النعيم، لذلك القبر يتسع ويتسع حتّى يغدو مدَّ العين، والقبر يضيق بالكافر حتى يَضْغَطَ عليه فتختلف أضلاعه، معنى الضيق من معاني العذاب، ومعنى الاتساع من معاني النعيم:

(وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13))

(سورة الفرقان)

قالوا: يا ويلنا لقد هلكنا، الواحد المقرّن يتعذّب عذاباً شديداً لأنه مجرم، فلأول ضربةٍ صرخ، طوّلْ بالك، هذا أول شيء هناك أعداد من الضرب كثيرة جداً:

(دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14))

(سورة الفرقان)

السعير هو ما ينتج عن التكذيب بالساعة مِن تفلّت وعدوان:

العمليّة طويلة جداً، أنت في أول الطريق، أنت في أول الأمر، هناك سلسلة طويلة جداً من التعذيب، فهذه الصور من الله عزّ وجل، هذا كلام رب العالمين، كلام واضح كالشمس، وعدٌ ووعيد، فإما أن تؤمن بأن هذا القرآن كلام الله فتنضبط وتدفع الثمن، وإما أن تواجه تحقيق هذا الوعيد، فالإنسان عليه ألاّ يأخذ الأمور أخذاً ساذجاً، حدِّد موقفك من هذا الكتاب، ما دام كتاب الله حقّاً، يقيناً، قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، فماذا تنتظر ؟ ما الذي يمنعك من أن تتوب إلى الله توبةً نصوحاً ؟ ما الذي يمنعك من أن تقلع عن هذه المعصية ؟ إذاً:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11))

(سورة الفرقان)

والسعير لِما ينتج عن التكذيب بالساعة مِن تفلّت وعدوان:

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12))

(سورة الفرقان)

وصف دقيق لما يجري في جهنم من عذاب وآلام وشدة لا تطاق:

النار تحتار في أمر هؤلاء الناس، كيف خُنْتم الأمانة ؟! كيف عصيتم ربُّكم ؟! وفي آيات أخرى توضّح هنا المعنى:

(كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(8)قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا)

(سورة المُلك)

حتّى الخَزَنَة يعجبون من هذا الإنسان العاصي:

(وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13))

(سورة الفرقان)

أحياناً طبيب الأسنان يمس طرف السن فيصرخ المريض، فهناك أيضاً آلامُ إبرة البنج، وألم القلع، وسلسلة آلام أُخرى أمامه، هذه:

(دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14))

(سورة الفرقان)

هذه الحال التي لا توصف من الشدّة، جهنّم إلى الأبد، آلامٌ لا تُطاق، ربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ (15))

(سورة الفرقان)

بعض الآيات من القرآن الكريم للموازنة بين الجنة والنار:

وازنوا بين أن يكون الإنسان في عذابٍ أليم، في حريقٍ دائم، في خزي وعار، في ألمٍ لا يُحتمل، في شيءٍ لا يمكن أن يُصْبَر عليه:

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ (15))

(سورة الفرقان)

وبين أن يكون في جنة عرضها السماوات والأرض، معزّزاً مكرّماً، له ما تشتهي نفسه، وله فيها من كل الثمرات، وفوق ذلك سلامٌ من الله عزّ وجل، فالله عزّ وجل يلقي عليهم السلام:

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(73))

(سورة الزمر)

إذاً الموازنة دقيقة جداً، فلذلك ربنا عزّ وجل في آيات أخرى يقول:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

وقال:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

وقال:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

وقال:

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15))

(سورة الفرقان)

جزاءً على أعمالهم في الدنيا، وهم في هذا النعيم إلى الأبد.

حياتنا مهما طالت لا تساوي شيئاً لأن الحياة الأبدية هي كل شيء:

ما هو الأبد يا أخوان ؟ ما هو الأبد ؟ تكلّمنا عن أقرب نجم للأرض ملتهب طبعاً، والعلماء يفرّقون بين الكوكب والنجم، الكوكب هو الجسم المنطفئ، الأرض كوكب، المريخ كوكب، المجموعة الشمسية كلّها كواكب، أقرب نجم ملتهب للأرض بعده عنّا أربع سنوات ضوئيّة، وهي كلمة تقال، لكن معنى أربع سنوات ضوئيّة بالحساب الدقيق كما يلي: لو ركبنا مركبَةً إلى هذا النجم بسرعة السيارة نحتاج إلى خمسين مليون سنة لنصل إليه، هذا معنى أربع سنوات ضوئيّة في علم الفَلَك، ولو ركبنا مركبة بسرعة مركبة القمر أي أربعين ألف كيلو متر بالساعة نحتاج إلى مئة ألف عام، فهذا النجم بعده عنّا أربع سنوات ضوئيّة، أما نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، ليس أربعة بل أربعة آلاف.

المرأة المُسَلسلة مليون سنة ضوئيّة، مجرّة اكتُشِفَت حديثاً تبعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة، الكون غير محدود، فما هو الأبد ؟ يا ترى مليون مَليون مليون مليُون مَليون، حياة الإنسان لو عاش على الأرض مليون سنة فهي تساوي صفراً بالنسبة للأبد، مثلاً أحياناً نقول والله فلان ما شاء الله صار عمره تسعة وثمانين عاماً، ما هذه التسعة والثمانين عاماً، هذه تعدل صفراً، والمئة سنة صفر، والمليون سنة صفر، والألف مليون سنة صفر أمام الأبد، أيُضحّى بالأبد كلِّه هكذا ببساطة ؟ تمشي على هواك وتعصي الله، أتضحي بهذه الحياة الأبديّة ؟ ماذا يقول الكافر يوم القيامة ؟

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

ألم تكن حيّاً ؟ لا، هذه لم يسميها حياةً، حياته هي الحياةُ الأبدية.

على الإنسان ألا يضحي بالأبد من أجل شهوات طارئة:

موضوع الأبد يا أخوان شيء لا يتصوره إنسان، هذا تقريبٌ بسيط أسوقه لك، خذ كيساً من الطحين، وبلل أصبعك بريقك، واضغط ضغطاً خفيفاً وأحضر مكبّراً وعُدّ كم ذرّة ؟ ضغط خفيف بحيث يكون أقل ضغط وعُد كم ذرّة، إذا كانت كل ذرّة مليون سنة فهذا الكيس كم مليون سنة ؟ لو كان طحينًا كثيرًا ليس كيساً واحداً، بل مليون كيس طحين، أو إنتاج العالَم كلّه من الدقيق، إذا كانت كل ذرّة مليون سنة فالدقيق الذي في العالَم كم مليون سنة ؟! هذا الأبد يعني بلا نهاية:

(كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15))

(سورة الفرقان)

مصيره في الجنّة، ثمنها كم سنة من غض البصر، والاستقامة على أمر الله، أداء الصلوات، أداء الصوم، أداء الحج، إحسان للخلق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كم سنة مهما طالت فإنّها تمضي، وبعدئذٍ:

(كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15))

(سورة الفرقان)

أيضحّى بهذا الأبد من أجل لُقَيْمَاتٍ من حرام ؟ من أجل نظراتٍ إلى النساء ؟ من أجل كلماتٍ نمزح بها فنقع في إثم المعصية ؟ نضحي بالأبد كله من أجل شهوات طارئة ؟

(كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15))

(سورة الفرقان)

والله كلمة مؤثِّرة جداً، وبالمقابل جهنّم كذلك جزاءً ومصيراً، كذلك للأبد.

الأبد إذا لم يعرفه الإنسان ما عرف الله عزّ وجل فالجنّة للأبد والنار للأبد:

كلمة أبد كلمة لو أن الإنسان فكر فيها، لو فرضنا أن رقم واحد بدمشق، وبين كل صفرين ميليمتر، وأصفار لحلب، تابعنا لأنقرة، ثم لموسكو، ثم للقطب، ثم تابعنا دورتنا حول المحيط الهادي، ثم لإفريقيا، لو أن رقم واحد بدمشق وأصفار حول الكرة الأرضيّة لما أحاط هذا الرقم بالأبد، هذا رقم كبير ولكنه محدود في النهاية، الأبد ليس له نهاية، هذا الأبد إذا لم يعرفه الإنسان فإنّه إذاً ما عرف الله عزّ وجل، فالجنّة للأبد، والنار للأبد:

(كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (16))

(سورة الفرقان)

في الجنة أنت اطلب، اطلب وتَمَنّ، فلو خطر في بالك خاطرٌ فهو يتحقق من فوره وتحظى بما لذّ وطاب من نعيم مقيم، ويقولون: إن الإنسان عندما يموت يُكْشَفُ له شيءٌ من نعيم أهل الجنّة فيقول: لم أرَ شرّاً قط في حياتي، علماً بأن حياته كلها كانت متاعب، كل حياته كانت أحزاناً وهموماً، كل حياته مشكلات، كانت كلها أمراضاً، عندما يكشف ربنا عزّ وجل له عن شيء من نعيم أهل الجنّة يقول: لم أرَ شراً قط في حياتي، وحينما يكشف لأهل النار عن بعض ما فيها من عذاب يقول أحدهم: لم أرَ خيراً قط، وقد قضى كل عمره بالدنيا في النعيم والرفاه والعز والجاه، القضية ليست سهلة.

الله تعالى لا يخلف وعده لأن وعده واقع وقطعي:

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (16))

(سورة الفرقان)

هذا وعدٌ من الله عزّ وجل، واسأله ذلك الوعد فهو لا يخلف وعده، والدليل أنه واقع:

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(194))

(سورة آل عمران)

فوعد الله اعتبرْه واقعاً، قطعياً، ربنا عزّ وجل:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

وقال:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللّهِ(111))

(سورة التوبة)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات وهي قوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ(17))

(سورة الفرقان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (06-13): تفسير الآيات 17 - 20
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-04-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الفرقان.

الله سبحانه وتعالى يحشر خلقه جميعاً يوم القيامة ويسألهم أمام الملأ:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا(18))

(سورة الفرقان)

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يجمع خلقه جميعاً في محشرٍ واحد، ويسألهم أمام الملأ، وفي هذا السؤال، وفي هذه المحاكمة فضيحةٌ وأيُّ فضيحة، قد تُسألُ سؤالاً في مجتمعٍ صغير فلا تملك الجواب الصحيح، فتشعر بالخجل، أما إذا جاء المذنب وسُئل أمام الأشهاد عن هذا الذنب فما موقفه يومَ القيامة ؟ فهؤلاء الذين عبدوا من دون الله، هؤلاء الذين قالوا: إن المسيح هو الله، أو هو ابن الله:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ (30))

(سورة التوبة)

الطاعة والمحبة لغير الله تعالى هي شرك ظاهر جليّ:

هؤلاء الذين اتخذوا الملائكة أرباباً مِن دون الله، هؤلاء الذين اتخذوا الجن، هؤلاء الذين عبدوا الأصنام، هؤلاء الذين عبدوا بعض البشر، أيْ أنّ كل إنسانٍ يتوجه بالطاعة لغير الله، وبالمحبة، والولاء، والإخلاص، والاعتماد، والتوكل على غير الله، هذا شركٌ ظاهرٌ جَلِيّ، فربنا سبحانه وتعالى يوم القيامة يجمع الخلائق كلها، ويوجّه إليهم السؤال التالي: يقول الله عزّ وجل:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ (17))

(سورة الفرقان)

أيْ الناس جميعاً ؛ أسودهم، وأبيضهم، عربيهم، وأعجميهم، يحشرهم جميعاً:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ (17))

(سورة الفرقان)

فسيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، هناك أناسٌ عبدوه من دون الله، فهو يُسأل يوم القيامة:

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(116)مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117)إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118))

(سورة المائدة)

كل الأشياء التي عبدت من دون الله سوف تُسأل يوم القيامة:

إذاً هذا الذي عُبِدَ مِن دون الله سوف يُسأل، وهذا الذي عَبَدَ من دون الله سوف يُسأل، سوف يسأل مَن عُبِد ومَن عَبَد في الحشر أمام الملأ جميعاً وأمام الخلق كلهم:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي (17))

(سورة الفرقان)

يا أيها الذين عُبِدْتم من دون الله سواءٌ أكانوا أنبياء مكرّمين، ضل قومهم فعبدوهم مِن دون الله، سواءٌ أكانوا أشخاصاً عاديين، سواءٌ أكانوا ملائكة، أكانوا جِنّاً، سواءٌ عبدوا حجراً أم صنماً، كل الأشياء التي عبدت من دون الله سوف تُسأل هذا السؤال.

(أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي (17))

(سورة الفرقان)

أصل الاستفهام هو طلب العلم بالمجهول ولكن في اللغة العربية له أغراض كثيرة:

بالمناسبة هذا السؤال في القرآن الكريم، السؤال يأتي على شكل استفهام في آياتٍ كثيرةٍ لا تُعَدُّ ولا تحصى، ولكن ما كل سؤالٍ يستفاد منه العِلم بالمجهول، أصل الاستفهام طلب العلم بالمجهول، كأن تقول لإنسان: كم الساعة الآن ؟ كم ثمن هذا الحذاء ؟ كم ثمن هذه البزّة ؟ إذاً أصل الاستفهام طلب العلم بالمجهول، لكنّ الاستفهام في اللغة العربية وفي علم البلاغة يخرج عن هذا الغرض الأساسي إلى أغراض كثيرة، وفي القرآن الكريم بيانٌ دقيقٌ لبعض هذه الأغراض.

1 ـ يقصد بالاستفهام الأمر:

فربنا سبحانه وتعالى يأمرنا أحياناً عن طريق الاستفهام فيقول الله عزّ وجل:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ(91))

(سورة المائدة)

أي ماذا تنتظرون بعد ؟ لِمَ لم تنتهوا حتى الآن ؟ انتهوا ؟ فهذا استفهام قُصِدَ به الأمر:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ(91))

(سورة المائدة)

2 ـ يقصد بالاستفهام النهي:

أحياناً يأتي الاستفهام ويُقصد به النهي، يقول الله عزّ وجل:

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ(13))

(سورة التوبة)

أي لا تخشوهم، أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ استفهامٌ قُصِدَ به النهي أي لا تخشوهم.

3 ـ يقصد بالاستفهام التسوية:

أحياناً يقصد بالاستفهام التسوية لقول الله عزّ وجل:

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(10))

(سورة يس)

أي يستوي إنذارهم وعدم إنذارهم:

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(10))

(سورة يس)

فعندنا استفهام يُقْصَدُ به الأمر، وعندنا استفهام يقصد به النهي، وعندنا استفهام يقصد به التسوية.

4 ـ يقصد بالاستفهام النفي:

أحياناً يقصد بالاستفهام النفيُ، لقول الله عزّ وجل:

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ(60))

(سورة الرحمن)

أيْ ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، هذا بند رابع في الاستفهام.

5 ـ يقصد بالاستفهام الإنكار:

أحياناً يأتي الاستفهام للإنكار، يسمى الاستفهام الإنكاري، كَقَوْلِ الله عزّ وجل:

(أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ(40))

(سورة الأنعام)

أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى ينكر على هؤلاء أن يدعوا غير الله عزّ وجل، الاستفهام الإنكاري كثير الاستعمال في القرآن الكريم.

6 ـ يقصد بالاستفهام التشويق:

كذلك عندنا استفهام تشويق:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10))

(سورة الصف)

هذا استفهام يقصدُ به التشويق.

7 ـ يقصد بالاستفهام الإيناس:

عندنا استفهام يقصد به الإيناس:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(17))

(سورة طه)

ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يؤنسَهُ فسأله سؤالاً، وأنت أحياناً قد تحب أن تؤنس ضيفك تسأله سؤالاً لطيفاً، هذا السؤال تقصد به الإيناس وليس الاستفهام.

8 ـ يقصد بالاستفهام التقرير:

قد يأتي الاستفهام بمعنى التقرير:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1))

(سورة الشرح)

أي لقد شرحنا لك صدرك، أمرٌ، ونهيٌ، وتسويةٌ، ونفيٌ، وإنكارٌ، وتشويقٌ، وإيناسٌ، وتقريرٌ.

9 - يقصد بالاستفهام التهويل:

قد يأتي الاستفهام بمعنى التهويل:

(الْحَاقَّةُ(1)مَا الْحَاقَّةُ(2)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ(3))

(سورة الحاقة)

هذا استفهامٌ يقصد به التهويل والتعظيم.

10 - يقصد بالاستفهام الاستبعاد:

هناك استفهامٌ يقصد به الاستبعاد:

(أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(13))

(سورة الدخان)

أنى له أن يفهم، أي ما أبعدَهُ عن أن يفهم، هذا استفهامٌ يقصد به الاستبعاد.

11 - يقصد بالاستفهام التعظيم:

قد يأتي استفهامٌ يقصد به التعظيم:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً(245))

(سورة البقرة)

وقال:

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ(255))

(سورة البقرة)

هذا استفهامٌ يقصد به التعظيم.

12 - يقصد بالاستفهام التعجب:

قد يأتي الاستفهام بمعنى التعجُّب:

(مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

وقد يأتي الاستفهام بمعانٍ كثيرة جداً ؛ كالتهكم، والوعيد، والاستنباط، والتنبيه، وغيرهم.

12 - يقصد بالاستفهام التوبيخ:

هذا الاستفهام استفهامٌ توبيخي، فهو توبيخ للكافرين الذين عبدوا غير الله:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي(17))

(سورة الفرقان)

من عبد شيئاً من دون الله سينطق عنه يوم القيامة:

هذا استفهامٌ توبيخي:

(هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17))

(سورة الفرقان)

يا تُرى أنتم كنتم السبب في ضلالهم أم هم الذي ضلوا في الأساس ؟ فقال هؤلاء الذين عُبدوا من دون الله، أنبياء أو أصنام، كل شيءٍ ينطق يوم القيامة والدليل:

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ(21))

(سورة فصلت)

التسبيح في اللغة هو التنزيه والتمجيد وكلمة سبحانك فيها نفيٌ وإثبات:

أيُّ شيءٍ يوم القيامة ينطقُ بالحق، فحتّى الحجارة التي عُبِدَت من دون الله تنطق يوم القيامة بالحق، فهذا السؤال عام لكل الشُرَكَاء، لكل الذين عُبدوا مِن دون الله:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ (18))

(سورة الفرقان)

أيْ ما أعظمك عن أن يُتَّخذ من دونك إله، ما أعظم شأنك يا رب، تنزّهت عن أن يكون معك شريك، فالتسبيح في اللغة هو التنزيه والتمجيد، التنزيه عما لا يليق بالله عزّ وجل، والتمجيد أي السَبْحُ بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، فكلمة سبحانك فيها نفيٌ وإثبات، فيها نفي كل صفةٍ لا تليق بالله عزّ وجل، وفيها إثباتٌ لكل كمالٍ عرّفنا الله سبحانه وتعالى من خلال كتابه الكريم، أي ذِكْرُ الله بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى تسبيح، ونفي كل صفةٍ لا تليق به تسبيح:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ (18))

(سورة الفرقان)

أيْ يا رب تنزّهت عن أن يكون لك شريك، هؤلاء الذين عبدونا مِن دونك نحن مفتقرون إليك:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ (18))

(سورة الفرقان)

ليس كل عطاءٍ عطاءً ربما كان المنع عين العطاء وربما كان العطاء عَيْن المنع:

نحن الذين عُبِدْنَا من دونك لا يحق، لا يصح، ولا ينبغي أن نتخذ مِن دونك أولياء، فإذا كان هذا الذي تعبده من دون الله لا ينبغي بحَقِّهِ أن يُعْبَد، فكيف تعبده أنت ؟ كيف تعبد جهةً لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ؟

(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ (18))

(سورة الفرقان)

أيْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك متَّعتهم يا رب، متعتهم بالصحة، متعتهم بالغنى، متعتهم بطول العمر، قد تكون الدنيا استدراجاً، ليس كل عطاءٍ عطاءً ربما كان المنع عين العطاء، وربما كان العطاء عَيْنَ المنع، فإذا اختار لك الله عزّ وجل شيئاً معيناً وأنت راضٍ بمشيئته فهذا من نعم الله الكبرى عليك، أن تكون راضياً بمشيئة الله عزّ وجل، إذاً ربما كان المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما مَنَعَك فأعطاك.

(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ(18))

(سورة الفرقان)

الذِكْر قال بعض المفسرين هو القرآن:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9))

(سورة الحجر)

أغنى الأغنياء من أعطاه الله الرزق الكفاف وشغله بمعرفته وملأ قلبه بنوره:

أيْ أنّ هذا الكتابُ المنهج نسوا أن يقرؤوه، نسوا أن يفهموه، نسوا أن يتدبّروه، نسوا أن يعملوا به، متعتهم بالمال، والصحة، والجاه، والقوة، وطول العمر، وألفوا هذه الحياة، ألفوا نعيمها، انغمسوا في شهواتها، أعجبتهم، رضوا بها، اطمأنوا لها، وضربوا عُرْضَ الطريق بوعدك ووعيدك، وذِكرك وقرآنك، ولم يقرؤوه، ولم يعووا ما فيه، هذا تعليل هؤلاء الذين عُبدوا من دون الله، يا رب نحن ما أضللناهم، سبحانك أن ندّعي أننا معك شركاء، هذا لا يليق بنا، ولا يليق بأي جهةٍ أخرى غيرك يا رب:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ(18))

(سورة الفرقان)

فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

أيْ إذا أعطاك الله عزّ وجل الرزق الكفاف، وشغلك بمعرفته، وملأ قلبك بنوره وعرّفك بذاته، فأنت أغنى الأغنياء ؛ أما من أُعطي الدنيا وشغلته واستهلكته فمتى حسرته الكبرى ؟ عندما يأتيه الموت، يرى أن هذه الدنيا لا تقدِّم ولا تؤخِّر، ولا تنفع ولا تضر، ولكنها كانت عبئاً عليه، فالذكر هنا القرآن، وبعضهم قال: الذكر هو الشكر. يا رب كيف أشكرك ؟ فقال الله عزّ وجل:

((يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

أحد أنواع الشُكر أن تذكر الله فالمؤمن حياته كلها ذكر:

لمجرد أن تنسى الله عزّ وجل فهذا أحد أنواع الكفر، ولمجرد أن تذكره فهذا أحد أنواع الشُكر، تذكرني ولا تكفرني، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني لذلك:

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

المؤمن حياته كلها ذكر، يذكر الله في بيته، في عمله، في الطريق إلى عمله، في خَلوته، في جلوته، في حِلِّه وترحاله، في سفره وحضره، في صحته ومرضه، في غناه وفقره، في قوته وضعفه، في شبابه وشيخوخته:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ(191))

(سورة آل عمران)

إذاً كم حالة للذكر ؟ إما أن تكون واقفاً، وإما أن تكون مضطجعاً، وإما أن تكون نائماً أو قاعداً:

(قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ(191))

(سورة آل عمران)

أيْ يذكرون الله في كل حال، وهذا مصداق قول الله عزّ وجل:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ(23))

(سورة المعارج)

إذا خرج من بيته يدعو الله عزّ وجل:

((اللَّهُمَّ أعُوذُ بِكَ أنْ أضِلَّ أوْ أضَلَّ، أوْ أزِلَّ أوْ أزَلَّ، أوْ أظْلِمَ أوْ أظْلَمَ، أوْ أجْهَلَ أوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ))

[من سنن أبي داود عن أم سلمة]

إذا دخل بيته فله دعاء، وإذا أوى إلى فراشه فله دعاء، إذا خرج من بيت الخلاء فله دعاء:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، و أبقى فيّ قوته، و أذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

الشكر بابٌ كبير من أبواب الإيمان:

كذلك إذا تمتّع الإنسان بسمعه، ببصره، بقوته، بحركاته، بأعضائه، بعقله، أو رأى إنساناً مختل العقل فعليه أن يدعو الله بالشكر والحمد والثناء:

((يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

جلست إلى المائدة تأكل من الطعام، فالله عزّ وجل سَلّمَ لك الأجهزة كلها، هناك من يأخذ السيروم، أما أنت فإنّك تأكل هذا الطعام، تأكله وأنت جائع، وقد مَكّنَكَ الله من أن تأكل، وسمح لك أن تأكل، أعطاك ثمن الأكل، دخلت إلى بيتك، رأيت أهلك في صحةٍ طيبة، أولادك أمامك، إنّك إن ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني، وبالشكر تدوم النِعَم، والنبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم وجّهَ بعض أصحابه فقال:

((يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه))

[رواه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي]

فالشكر بابٌ كبير من أبواب الإيمان، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الإيمان نصفان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ))

[موقوف عن الشعبي]

فالصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر، فالصوم أصبح ربع الإيمان بكامله، وإذا مُتّعَ الإنسان بالصحة، والقوة، والمال، والجمال، والأهل، والأولاد، لدرجة أنه استمرأ هذه النعم ونسي بها الله عزّ وجل فهذه أصبحت نِقَماً وليست نِعَماً، إنها استدراج والله سبحانه وتعالى يمدُّ أحياناً للكافرين مداً:

(فَلَمّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً (44))

(سورة الأنعام)

حجمك عند الله تعالى يوم القيامة بحجم عملك الصالح:

قال تعالى:

(حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18))

(سورة الفرقان)

البور، الأرض البور هي الأرض التي عُطِّلت عن الزراعة فهي لا تنتج، أرضٌ منتجة، وأرضٌ بور، والبور هو الشيء الفاسد، والبور هو الشيء الهالك، معنى الهلاك، ومعنى الفساد، ومعنى عدم الجدوى، هذه المعاني الثلاثة مأخوذة من كلمة بور:

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا(12))

(سورة الفتح)

أيْ أنك تأخذ ولا تعطي، تستمتع ولا تُمتِّع، تتلقى ولا تُلقي:

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا(12))

(سورة الفتح)

فأنت لك حجم عند الله عزّ وجل يوم القيامة، حجمك بحجم عملك الصالح، ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت ؟ ماذا علّمت ؟ ماذا أنفقت ؟ من خدمت ؟ أعطاك الله جاهاً فماذا فعلتَ به؟ استعليت به على الناس أم وظّفته في خدمة الخلق ؟ أعطاك الله مالاً استمتعت به أم أنفقته ؟ أعطاك علماً كتمته أم نشرته ؟ أعطاك خبرةً حبستها أم بذلتها ؟ فحجمك عند الله بحجم عملك، بحجم عطائك، بحجم بذلك، لذلك فالأنبياء كانوا قمةً في العطاء، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدّست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من هيّأكَ تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع فعشت واحداً بين الجميع، فالبطولة هي عندما تلقى الله عزّ وجل، ولا يبدو لك إلا عملك الصالح وما سوى ذلك يتلاشى وكأنه لم يكن.

(وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18))

(سورة الفرقان)

سيدنا أبو الدرداء رضي الله عنه كان في حمص مرةً فخطب في أهلها وقال:

"هلموا إلى أخ لكم ناصح، وقال لهم: ما لكم لا تستحون ؟ تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، إن من كان قبلكم بنو مشيداً، وجمعوا عبيداً، وأملوا بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، ومساكنهم قبوراً."

من عبد غير الله خسر في الدنيا والآخرة:

يقول الله عزّ وجل لهؤلاء الذين عُبدوا من دون الله، لهؤلاء الشركاء زوراً وبهتاناً:

(فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ (19))

(سورة الفرقان)

يخاطب الآن الذين عَبَدوا من دون الله، فقد خاطب أولاً المَعْبُودين:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ (17))

(سورة الفرقان)

يا من عُبِدْتم من دون الله:

(أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي (17))

(سورة الفرقان)

استفهام توبيخ، والآن جاء الخطاب لمن عَبَدوهم من دون الله:

(فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ (19))

(سورة الفرقان)

ادَّعيْتم أنهم آلهة، هؤلاء قد كذبوكم بدعواكم، ادعيتم أنهم ينفعونكم أو يضرونكم فقد كذبوكم بدعواكم:

(فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا (19))

(سورة الفرقان)

عدم استطاعة الإنسان أن يصرف عن نفسه العذاب يوم القيامة:

إن الإنسان في الدُنيا أحياناً بجاهه، بقوته، بحنكته، بذكائه، بخبثه، يستطيع أن يصرف عنه عذاباً، أو بلية، أو مشكلة، وأن يلصقها بإنسان آخر، لكنْ يوم القيامة رَبُنا سبحانه وتعالى يبيّنُ فيقول:

(فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا (19))

(سورة الفرقان)

لا تستطيعون أن تصرفوا عن أنفسكم هذا العذاب، ولن تستطيعوا أن تنتصروا من الله عزّ وجل، فهو قد تخلى عنكم لأنكم في الدنيا ما عرفتموه:

(فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19))

(سورة الفرقان)

وهذه الآية من السنن الثابتة في خلقه:

(وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19))

(سورة الفرقان)

وإذا قال الكبير عن عذابه بأنه كبير فما أكبره، فإذا قال لك طفل: أنا معي مبلغ كبير، يخطر في بالك أن معه خمسَ ليرات أو عشراً، أمّا إذا قال لك إنسان معروفٌ بالغنى: أنا معي مبلغ كبير، فكلمة كبير بحسب حجم القائل، إذا قال الله عزّ وجل وهو أصدق القائلين:

(وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19))

(سورة الفرقان)

هل بإمكان الإنسان أن يتصوّر ماذا يعني هذا العذاب الكبير ؟!!

للآية التالية معنيان:

1 ـ هي تسلية لقلب النبي عليه الصلاة والسلام وتخفيف من آلامه ومتاعبه:

يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا(20))

(سورة الفرقان)

يبدو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُسَلِّيَ النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يخفف عنه، لأن الدعوة لها أعباءٌ كثيرة، وأعباءٌ ثقيلة، ولولا هذه الأعباء ما ظهر مَعْدِنُ هذا النبي الكريم، ولو أنّ الدعوةَ طريقٌ محفوفٌ بالورود والرياحين، لما كان هناك أجرٌ عظيم لمن دعا إلى الله، ولكن الدعوة، وهذه سنة الله في الخلق، محفوفةٌ بالمخاطر وبالمتاعب، لا بدّ أن تواجه خصوماً، لا بدّ أن تواجه حُسَّاداً، لا بدّ أن تواجه مُغرضين، لا بدّ أن تواجه معارضةً، ولكل داعيةٍ في رسول الله أسوةٌ حسنة، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يُسَلِّيَ النبي عليه الصلاة والسلام ويطمئنه إلى أن هذا القول الذي ووجِهْتَ به من أنك لست بنبي، بدليل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، هذا القول قيل أيضاً لكل الأنبياء من قبلك فلا تتألم، لا تحزن، لا تقلق، لا تضجر، لا تغتم، هذا القول قيل لكل مَن سبقك من الأنبياء، لأن الله عزّ وجل قال في مطلع هذهِ السورة.

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

فجاء الجواب:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ (20))

(سورة الفرقان)

إذاً أول معنى من معاني هذه الآية أنها تسليةٌ لقلب النبي عليه الصلاة والسلام، وطمأنة له، وإيناسٌ له، وتخفيفٌ من آلامه ومتاعبه.

2 ـ أصلٌ في طلب الرزق وكسب المال لإنفاقه على حاجات الإنسان الأساسية:

المعنى الثاني أن هذه الآية أصلٌ في طلب الرزق وكسب المال، من أجل إنفاقه على حاجات الإنسان الأساسية، لأن الإنسان في طبيعته مفتقرٌ إلى الطعام والشراب، ومفتقرٌ مرةً ثانية إلى كسب ثمن الطعام

والشراب، أنت مفتقرٌ إلى الطعام، ومفتقرٌ إلى العمل، إذاً حقك في أن تأكل حقٌ مقدّس، وحقك في أن تعمل حقٌ مقدس، لذلك إذا افتقر الإنسان ولم يجد له طعاماً فله حقٌ في بيت مال المسلمين، لأن هذه حاجة أساسية، لا يمكن أن تقفَ على قدميك من دون طعامٍ وشراب، وربما كان شهر الصيام لَفْتَ نظرٍ لطيفٍ إلينا لإشعارنا بضعفنا وعبوديتنا وحاجتنا إلى الطعام والشراب، فهذه سنة الله في الخلق:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ(20))

(سورة الفرقان)

يأكلون الطعام، افتقار إلى الطعام والشراب، ويمشون في الأسواق، افتقار إلى كسب ثمن الطعام والشراب، شيء آخر ؛ لذلك أحلّ الله البيع وحرّم الربا، أحلّ التجارة، وتسعة أعشار الرزق في التجارة:

((إن أطيب الكسب كسب التجار ؛ الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا))

[الجامع الصغير عن معاذ بسند ضعيف]

مكانة التجار في الإسلام:

سبعُ صفات من صفات التُجّار الصادقين المؤمنين، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام ليقول:

((التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ))

[من سنن الترمذي عن أبي سعيد]

لماذا ؟ وهو لم يجاهد، ولم يقاتل، ولم يدعُ إلى الله، ولم يعلِّم، ولكنه أظهر للناس الإسلام بعمله، دعا إلى الله بعمله، والدعوة إلى الله بالعمل أبلغ بكثير من الدعوة إليه بالقَول، لأن الناس يتعلّمون بعيونهم كما يتعلمون بآذانهم، ولأن لغة العمل أبلغ من لغة القول، فربنا سبحانه وتعالى جعل هذه الآية أصلاً في أن التجارة، والصناعة، والزراعة، والحِرَف، والمِهَن، والخدمات، والمهن الفكرية كلها معايش، أي وسائل لكسب الرزق، وهي مشروعة.

النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى شابّاً يصلي في المسجد سأله:

((مَن يطعمك ؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك))

[ورد في الأثر]

الحياة عمل، والشيء المعروف عن سيدنا عمر لما رأى إنساناً يقرأ القرآن في المسجد قال:

" إنما أنزل هذا القرآن ليُعْمَلَ به أفتخذت قراءته عملاً ؟!"

الصحابة الكرام كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما أمسك يد سيدنا عبد الله بن مسعود رآها خشنة مِن أثر العمل، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

وربنا عزّ وجل قال:

(وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ(105))

(سورة التوبة)

من يدّعي أن على الإنسان ألا يعمل هو إنسان ضلّ عن الطريق الصحيح:

إذاً هذه الآية:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (20))

(سورة الفرقان)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي))

[صحيح البخاري عن ابن عمر]

ويقول الله عزّ وجل:

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالا طَيِّبًا(69))

(سورة الأنفال)

بعضهم يعتذر عن السعي لكسب الرزق متذرّعاً بحال أصحاب الصفّة، أصحاب الصفّة فئةٌ من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا فقراء، وكانوا يجلسون في زاوية المسجد، وسُمِّيَت الزاوية حتى الآن الصفّة، بعد مقام النبي عليه الصلاة والسّلام، بعد أن يزار النبي ويتجه الزائر إلى جهة الجنوب، ويتجه نحو الغرب، هناك منصة مرتفعة في الحرم النبوي هذه اسمها الصُفّة، كان أصحاب النبي عليهم رضوان الله الفقراء يقبعون بها، وكان النبي إذا جاءته الصدقة بعث بها إليهم، وإذا جاءته الهدية أكلها معهم، لكنهم كانوا يعملون، كانوا يؤدُون خدماتٍ للمسجد، كما جاء في صحيح البخاري، كانوا يسوقون الماء للمسجد النبوي الشريف، وكان يحتطبون له، أي يقدِّمون أكثر الحاجات لهذا المسجد، فهذا أيضاً عمل، فهذا الذي يدّعي أن الإنسان عليه أن يقبع في بيته ولا يعمل، هذا إنسان ضل عن الطريق الصحيح ضلالاً بعيداً.

الله عزّ وجل طالبنا بالأسباب لأنها سنة الله وسنة رسوله:

قال بعض المفسرين: " الأسباب والوسائط ؛ الأسباب كسب الرزق، من خلال الصناعة، والتجارة، والزراعة، والعمل اليدوي، والمهن، والحرف، والخدمات العالية، فقد قيل:

" الأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذي انعقد عليه إجماع المسلمين ".

فهذا الذي له عمل يجب أن يفتخر، بل إن سيدنا عمر رضي الله عنه يقول:

" إني أرى الرجل لا عمل له فيسقط من عيني ".

هناك من يستنبط أن الله عزّ وجل طالبنا بالأسباب، فربنا سبحانه وتعالى كان بقدرته أن يجعل البحر طريقاً يبساً، فماذا قال لسيدنا موسى ؟ قال:

(اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ(63))

(سورة الشعراء)

وفي آية أخرى:

(اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ(60))

(سورة البقرة)

إذاً يجب أن تأخذ أنت بالأسباب، والسيدة مريم، كان الله عزّ وجل في قدرته أن يسقط عليها التمر لكن قال:

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ(25))

(سورة مريم)

إذاً لا بدّ من السبب، لا بدّ من التحرُّك، وعندئذٍ ربنا سبحانه يقدِّم لك كل شيء.

الله سبحانه وتعالى ينزّل علينا أسباب الرزق وهو المطر ونحن علينا أن نعمل:

ربنا عزّ وجل قال:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22))

(سورة الذاريات)

بعض المسلمين يفهمون هذه الآية فهماً خاطئاً، يقول: على الله الرزق، معنى كلمة الرزق في هذه الآية تعني المطر فقط، يعتقدون أن الأمطار وحدها تكفي ؟ ألا تحتاج إلى زرع البذور ؟ إلى غرس الأشجار ؟ إلى تسميد التربة ؟ إلى حرث التربة ؟ إلى قطف الثمار ؟ إلى معالجة الآفات التي تعيب الأشجار ؟ فمن يدّعي أن الرزق على الله عزّ وجل أخذاً من هذه الآية:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22))

(سورة الذاريات)

هذا فهمٌ مغلوط، معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى ينزّل عليكم أسباب الرزق وهو المطر، وأنتم عليكم أن تعملوا.

أدلة من الكتاب والسُنّة على ضرورة العمل وطلب الرزق:

الدليل:

(وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ رِزْقًا(13))

(سورة غافر)

وقال:

(وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا(48))

(سورة الفرقان)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اطلبوا الرزق في خبايا الأرض))

[رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي بسند ضعيف عن عائشة]

هناك إشارات:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى(6))

(سورة طه)

أيْ أنّ الله عزّ وجل أودع في الأرض طاقات مذهلة، طاقات كامنة، أودع فيها ثروات لا يعلمها إلا الله، فكلّما تقدّم العلم اكتُشِفَ شيءٌ جديد ما كان في الحُسبان، الله عزّ وجل على كل شيءٍ قدير. نبقى في إطار هذه الآية يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

فهمٌ سقيمٌ خاطئ حينما يَفْهَمُ المسلم أن الحياة بالتوكُل:

العمل شرف، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ - الطير كيف ترزق، هل تبقى في أعشاشها ؟ قال - تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[سنن ابن ماجة عن عمر]

إذاً هي في غدو، في رواح، وفي حركة، ولا بد من سعي، ولا بد من طلب، وكذلك الأخذ بالأسباب، إذاً فهمٌ سقيمٌ خاطئ حينما يَفْهَمُ المسلم أن الحياة بالتوكُل، والحياة بالاستلقاء، والحياة بالتلقِي، لا إن الحياةَ بالعمل، وحجمُك عند الله بحجم عملك، والآيات، والأحاديث، والسيَرُ، وآثار أصحاب رسول الله والتابعين والعلماء الأجلاء كلها تؤكِّد أن العمل شرف.

أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزوّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فمرة قال لهم سيدنا عمر:

" كذبتم، المتوكل مَن ألقى حَبّةً في الأرض ثم توكّل على الله ".

حتى إنَّه قد نزل فيهم قرآن، وقد نزل فيهم قوله تعالى:

(وَتَزَوّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى(197))

(سورة البقرة)

إذا ذهبت إلى الحج فتزوّد، أما أنْ تكون عالةً على الناس، وأن تأكل من طعام الناس، ومِن فتات الناس، فهذا لا يليق بالمسلم.

التوكّل محله القلب والعمل مكانه الجوارح:

هذه الآية:

(وَتَزَوّدُوا(197))

(سورة البقرة)

يؤخذ منها أحكامٌ كثيرة، فالتوكّل معناه أن تأخذ بالأسباب لا أن تأخذ جُهْدَ غيرك ولا أن تكون عالةً على غيرك، عندنا شيء مهم جداً، التوكّل محله القلب، والعمل مكانه الجوارح، فالمسلمون في أيام تأخُّرِهِم وضعفهم عكسوا الآية، فأصبح توكلهم في الجوارح، وكسبهم في القلب، غلط، التوكل مكانه القلب هو استسلام لله، رضا بحكم الله، بقضائه، لكن الجوارح عليها أن تعمل، الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، سأله أحدهم:

" أريد أن أحج على قدم التوكّل "، فقال: " أخرج وحدك "، قال: " لا، أريد أن أكون مع الناس "، قال: " إذاً أنت متكلٌ على أجربتهم ".

أي على طعامهم وشرابهم، إذا كنت تريد أن تخرج مع الناس فأنت متوكلٌ على أجربتهم لا على الله عزّ وجل، لو أنك توكّلت على الله لسعيت في كسب الرزق، ولأخذت معك زاداً إلى الحج، إذاً كل هذه المعاني مستنبطة من أن هذه الآية أصلٌ في كسب الرزق وطلبه.

الأسواق هي أبغض البلاد إلى الله لأنها تشعر الفقير بحرمانه:

شيءٌ آخر، يقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللّهِ أَسْوَاقُهَا))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

يا ترى ما السبب ؟ لأن السوق فيها بضاعة، بضاعة مُزَيَّنَة، معروضة عرضاً شيّقاً، يمر الفقير ويمر

الغني، فقد يمر الفقير وليس في إمكانه أن يشتري هذه البضاعة، يشعر بالحِرمان، يشعر أن الله قد حَرَمَهُ الدنيا، فعرضُ البضائع وتزيينها، وإغراء الناس بشرائها، وبيان ميّزاتها، فهل كل إنسان يملك ثمن هذه البضاعة ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وشرها أسواقها))

وهناك شيء آخر، الأسواق تحبب بالدنيا، يروى أن امرأة دخلت مكاناً للبيع فخماً جداً، فقالت: " يا إلهي، طبعاً، ما أكثر الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان ".

كلها أشياء كمالية، الأساسية موجودة، معظم الناس الأشياء الأساسية موجودة ؛ من طعامٍ وشرابٍ ومأوى ولباس، ولكن التسابق، والتنافس، والتناحر، ودفع الدين مُقابل الدنيا، والكذب، والنفاق، والتملق، والكفر، والإلحاد من أجل الرفاهية لا من أجل متاعٍ أساسي، أليس الله بكافٍ عبده ؟

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[من سنن الترمذي عن سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ]

فالأساسيات موجودة، ولكن التنافس البغيض، وبيع الدنيا بالدين من أجل الرفاهية والكماليّات، إذاً أولاً: السلعُ تحبّب الناس بالدنيا وقد تصرفهم عن الآخرة، وقد يعظِّم الإنسان صانعي هذه السِلَع، فيراهم أناساً متفوّقين، فإذا عظمهم مَن هَوِيَ الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، أو أنها تكون أغلى من دخل الإنسان فيشعر بالحِرمان، أو أن هناك اختلاطاً بالنساء، فهذا يؤدِّي إلى الفسوق والفجور، فالنبي هكذا قال:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

هذا فضلاً عن بيوعٍ فاسدة، وأيمانٍ باطلة، وانحرافات سلوكية، ونظرٍ للحرام ؛ هذا كله في الأسواق.

الله عز وجل جعل بعض الناس لبعضهم فتنة:

لذلك الإنسان إذا جاء للمسجد وشعر بسرور وراحة، فهذه علامة طيبة، والمؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالعصفور في القفص، دائماً متضايق:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا(20))

(سورة الفرقان)

هذه آية دقيقة جداً، الله سبحانه وتعالى جَعَلَ الفقير فتنةً للغني، أيحتقره ؟ أيحرِمُهُ ؟ فُتِنَ الغني، وجعل الغني فتنةً للفقير، أيعظِّمَهُ من دون الله ؟ أيتضعضع أمامه ؟ أيأخذ منه ما ليس له ؟ أيحسده ؟ فالغني

فتنةٌ للفقير، والفقير فتنةٌ للغني، وجعل القوي فتنةٌ للضعيف، أيستكين هذا الضعيف ؟ أتنهار معنويّاته ؟ أيحسده ؟ وجعل الضعيف فتنةٌ للقوي أيستطيل عليه ؟ أيبغي عليه ؟ أيحتقِرُهُ ؟ وجعل الصحيح فتنةٌ للمريض، وجعل المريض فتنةٌ للصحيح، وجعل العاجز فتنةٌ للسليم، وجعل السليم فتنةٌ للعاجز، هذا معنى قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (20))

(سورة الفرقان)

الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء و في الآخرة توزيع جزاء:

وعلى مستوى النساء جعل التي تفوّقت في جمالها فتنةً للتي تَدَنّىَ مستوى جمالها، فالمؤمنة إذا عرفت ربها واستقامت على أمره فهي عنده غاليةٌ جداً، وربما أسعدها في الدنيا والآخرة، أتندب حظّها ؟ أتنسى نعمة ربّها عليها ؟ أتغمط نعمة الإيمان ؟ نعمة الهدى ؟ وقد جعل الله سبحانه وتعالى الأُخرى فتنةً للأولى، أتستعلي عليها ؟ أتباهيها بجمالها ؟ فهذه الحظوظ الموزعة على ذويها في الدنيا وزّعت توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء:

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20))

(سورة الفرقان)

تلتفت أحياناً إلى ذاتك، فترى أن اللهَ جَعَلَكَ صحيح البدن، وترى إنساناً آخر مُبتلى بأمراض كثيرة، أتقول: أنا متعني بصحتي ؟ لا. قل: يا ربي لك الحمد أنت أكرمتني بهذه الصحة، وأرجو الله أن يشفي فلاناً، هذا على مستوى المال، على مستوى الصحة، على مستوى القوة، على مستوى الجاه، أنت عندك بيت تملكه، وفلان ليس له بيت يملكه، فتقول له موبخاً: ألا تشتري بيتاً ماذا جرى لك ؟ فهل شراء البيت بيده ؟ هذا كلام فيه كِبْر، كلام فيه عجرفة، فالله عزّ وجل أكرمك ببيت، والآخر لا يملك بيتاً، أحياناً بعض الناس يؤتيهم اللهُ أشياء بالدنيا فينسَوْا أنه فضلٌ مِن الله، يظن أنه بذكائه، وحنكته، يستعلي بها على الآخرين، فالغني مفتون بالفقير، والفقير مفتون بالغني، والضعيف مفتون بالقوي، والقوي مفتون بالضعيف، والصحيح مفتون بالعليل، والعليل مفتون بالصحيح، والكبير بالصغير، والصغير بالكبير، وصاحب الحسب والنَسَب مفتون بمن ضعف حسبه ونسبه.

الإنسان دائماً ممتحن وعلامة معرفتك بالله صبرك على حكمه:

إن الإنسان إذا نجَّاهُ الله عزّ وجل مِنَ الفتنة فعليه أن يحبس نفسه عن كل ما يفتُنهُ، فالغني يحبس نفسه عن البطر والفقير عن الضَجَر، الغني يجب أن يحبس نفسه عن البطر، والفقير يجب أن يحبس نفسه عن الضجر، والفتنة في أدق تعاريفها:

" أن يحسد المبتلى المعافى، وأن يحقر المعافى المبتلى ".

واللهِ أنت دائماً ممتحن، أصابك شيء مزعج ممتحن، لم تصبر، لم تتجمل، لم ترض، أصابتك نعمة فأنت ممتحن، لم تشكر، لم تتواضع، لم تخضع لله عزّ وجل، فأنت على الحالتين ممتحن، في العطاء والمنع، في القوة والضعف، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في إقبال الدنيا وفي إدبارها.

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (20))

(سورة الفرقان)

أتصبرون على حكم الله، لا يصبر إلا من عرف الله عزّ وجل، فعلامة معرفتك بالله صبرك على حكمه، لذلك قال سيدنا علي:

" الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".

قال تعالى:

(وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20))

(سورة الفرقان)

كلما عرفت الله تواضعتَ له ورأيت فضله:

تكلم ما شئت، لكن الله هو البصير يعلم السر وأخفى، فشعورك الداخلي، إعجابك بنفسك، تواضعك لله، اعتزازك بذاتك، استكبارك، كله عند الله معلوم ومكشوف، لذلك جاء في بعض الأحاديث الشريفة: ويلٌ للعالم من الجاهل.

العالم ويلٌ له من الجاهل، يحتقره ؟ فهو أجهل منه، لا يعلمه، فقد عبر عن بخله بأن كتم العلم، ويلٌ للعالم من الجاهل وويلٌ للجاهل من العالم، لا يتعلم منه، يستكبر عليه، يعرض عنه، ويلٌ للمالك من المملوك، ويل للمملوك من المالك، ويلٌ للسلطان من الرعية، ويلٌ للرعية من السلطان، حديث طويل، فكما قال الله عزّ وجل:

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (20))

(سورة الفرقان)

ويلٌ للضعيف من القوي، والقوي من الضعيف، فأنت ممتحن في كل الأحوال، في إقبال الدنيا وفي إدبارها انتبه:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

فكلما عرفت الله تواضعتَ، وكلما عرفت الله رأيت الفضل، وكلما عرفت الله عزوت الفضل لأهل الفضل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (07-13): تفسير الآيات 21 - 31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-04-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الفُرقان.

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا(21))

(سورة الفرقان)

الحقيقة إذا كان هناك من فرقٍ أساسي بين المؤمن وبين غير المؤمن هو أن المؤمن يرجو الله واليوم الآخر، وأن الكافر لا يرجو الله ولا يرجو اليوم الآخر، ما معنى لا يرجو ؟ أي لا يخاف، ما معنى لا يرجو ؟ أي لا يأمُل ولا يخاف ولا يطمع ولا يريد، أيْ أنّ الآخرةَ كلّها خارج الحساب، الدنيا أكبر همِّه ومبلغ علمه:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا(7))

(سورة الروم)

الدين له حقيقة وله شكل، شكله أن تصلِّي، شكله أن تصوم، ولكن حقيقة الدين أن تنتقل اهتماماتك من الدنيا إلى الآخرة، أن تنتقل آمالك من الدنيا إلى الآخرة، أن تنتقل مخاوفك من الدنيا إلى الآخرة، فالمؤمن يطمع أن يكون في مقعد صدقٍ عند مَليكٍ مقتدر، وربّما لا يطمع في الدنيا، يكفيه من الدنيا القليل، يكفيه من الدنيا ما أوصله إلى هدفه، المال عنده وسيلة، المؤمن يريد من الدنيا ما يُعينه على التقرُّب إلى الله عزّ وجل، يجعل من المال وسيلةً للتقرُّب إلى الله عزّ وجل، إذا كان قوياً فيجعل قوّته في سبيل مرضاة الله عزّ وجل، إذاً المؤمن يأخذ من الدنيا بقدر ما يعينه على طاعة الله عزّ وجل، بقدر ما يعينه على التقرُّب منه، لذلك فالدنيا عند المؤمن في يديه لا في قلبه، وهي وسيلة وليست غاية، لكنّ رجاءه فيما عند الله، لكنّ رجاءه في مرضاة الله، في القرب من الله، رجاءه في الجنّة وما قرّب إليها من قولٍ أو عمل، يحبُّ الله، ويحب مَن يحبّه، ويحبُّ كل عملٍ يقرّبه إلى حبّه، هذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن.

الرجاء متعلِّق بالمعرفة فكلّما عرفت الله رجوته:

ربنا عزّ وجل قال:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا (21))

(سورة الفرقان)

لا يعلِّق أهميّةً على هذا اللقاء، لا يفكِّرُ فيه، لا يخاف ذلك الموقف العصيب، لا يرجو أن يكون عند الله رَضِيًّا:

(لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا (21))

(سورة الفرقان)

لماذا لا يرجون ؟ أهُم من بنيةٍ خاصّة ؟ أهم من جِبِلّةٍ خاصّة ؟ لا والله جبلّة البشر واحدة، ما الذي جعلنا نرجو وجعل الكفّار لا يرجون ؟ هو العلم، عَلِمَ أن ما عند الله شيءٌ ثمين، وأن عذابه عظيم، وأن القُرب منه سعادة لذلك رجا ما عنده، فهذا الرجاء ليس اعتباطيًّا، وليس الرجاء غير منضبطٍ بقاعدة، الرجاء منضبطٌ بالمعرفة ؛ فإذا عرفت ما عند الله رجوته، وإذا جهلت ما عنده فلا ترجوه.

أنت في حياتك اليوميّة ترجو أناساً ولا ترجو آخرين، هؤلاء الذين ترجوهم تعرف حجمهم الحقيقي، وتعرف مقدار تأثيرهم في حياتك إذاً ترجوهم، لكنّ أُناساً في نظرك تافهين لا يقدِّمون ولا يؤخِّرون، أو تجهل قيمتهم، أو تجهل حجمهم لا ترجوهم، فالرجاء متعلِّق بالمعرفة، فكلّما عرفته رجوته، كلّما عرفته خِفْتَ منه، كلّما عرفته طَمِعْتَ فيما عنده، كلّما عرفته سعيت إليه.

من إكرام الله سبحانه وتعالى أنه جعل لنا أبواباً واسعة للخير:

ربنا عزّ وجل جعل الرجاء في القرآن مرتبطاً أشدّ الارتباط بالعمل، قال:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا(110))

(سورة الكهف)

باب الله مفتوح على مصاريعه لكلّ الخلق، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ، وهذه تجربة توضَع بين يديك، اعمل عملاً خالصاً لوجه الله لا تبتغي به سمعةً، ولا ثناءً، ولا مديحاً، لا تبتغي به أن يُشار إليك بالبنان، اعمل عملاً صالحاً لا تبتغي به إلا وجه الله عزّ وجل، وانظر كيف أن الله يتجلّى عليك، وانظر كيف تقول: أنا أسعد الناس، هذا شيءٌ ملموس:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا(110))

(سورة الكهف)

وما أكثر الأبواب المُفَتَّحة للأعمال الصالحة، ما أكثر الأعمال الصالحة ؛ تبسُّمك في وجه أخيك صدقة، أن تميط الأذى عن الطريق هو لك صدقة، أن تحسن إلى والديك هو لك صدقة، أن تضع اللقمة في فم زوجتك هو لك صدقة، أن تُقَدِّم خبرتك، وقتك، علمك، مالك، هو لك صدقة، فأبواب الخير مفتَّحةٌ على مصاريعها، والله سبحانه وتعالى من إكرامه لنا أنه جعل لنا أبواباً واسعة للخير.

جعل فيك الإحساس بالجوع، أنت بهذا الإحساس تأكل فتشكر، وتُطْعِم فترقى، إذا أطعمت الجائع فقد ارتقيت إلى الله عزّ وجل، جعل الإنسان يولد عارياً، فإذا ألبست إنساناً ثياباً فقد تقرَّبت إلى الله عزّ وجل، فالذي يؤثِّر في النفس أنّ هذا الذي لا يرجو الله لماذا لا يرجوه ؟ لأنه جهله.

إذا لم تعرف الله بالقواعد المعجزة فلن تعرفه بخرق القواعد:

إذاً ما هو أعدى أعداء الإنسان ؟ إنه الجهل، أعدى أعداء الإنسان أن يجهل الإنسان ربَّه، وقديماً قالوا: الجاهل عدوٌ نفسه:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا (21))

(سورة الفرقان)

هؤلاء استكبروا، يريدون أن تأتيهم الملائكة لتقول لهم: هذا رسول الله، مع أن الملائكة لا يستطيع الإنسان أن يراها إلا عند الموت، تُرحِّب به ؛ أو تدفعه إلى مقامه في النار، المَلَك لا يُرى إلا عند الموت، لأن الإنسان إذا جاءه الموت تأتيه الملائكة بصُوَرِ أحبِّ الناس إليه ؛ بإخوانه، بأحبائه، بأقربائه، بأصدقائه، بمن هو عزيزٌ عليه، يأتي مَلَك الموت في صورة إنسانٍ عزيز عليك يبشِّرك بالجنَّة، عندئذٍ يقول المؤمن: لم أرَ سوءًا قط، لأنه يرى النتيجة فينسى كل متاعب الحياة، وقد تأتي الملائكة على شكل زبانية يسوقون الإنسان إلى القبر وكأنَّه حفرةٌ من حفر النيران، فالملائكة لا نراهم في الدنيا، ولن نراهم إلا عند الغرغرة ساعة الاحتضار، هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا يقولون:

(لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ (21))

(سورة الفرقان)

الملائكة لو أُنْزِلَت وقالت: هذا رسول الله، أتكتفي بهذه المعجزة ؟ القرآن معجزة، عندما خرجت الناقة من الجبل فهل اكتفى بها قوم صالح ؟ هل آمنوا بعد رؤيتها ؟ لم يؤمنوا بها، لمَّا أصبح البحر طريقاً يبساً، هل اكتفى به بنو إسرائيل ؟ لمَّا رأوا عجلاً جسداً له خوار قالوا: هذا إلهنا، وقوم إبراهيم لما رأوا النار أصبحت برداً وسلاماً، هل آمنوا ؟ ما آمنوا، فإذا أنت لم تؤمن بالمعجزة الأساسيّة وهي الكون في وضعه الراهن لن تؤمن بخرق قوانينه، هذا الكون هو نفسه معجزة، فإذا لم تفكِّر فيه، ولم تنتقل من الكون إلى المكوِّن، ومن النظام إلى المنظِّم، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الخلق إلى الخالق، ومن

التسيير إلى المُسَيّر، إذا لم تنتقل بما هو قائمٌ بالشكل الطبيعي فلن تعرف الله بخرق القواعد، إذا لم تعرفه بالقواعد المعجزة فلن تعرفه بخرق القواعد، وهذه حقيقةٌ ثابتة.

القرآن بنظمه وبيانه، بإعجازه وأحكامه معجزة، فآمن به من دون خرقٍ للعادات:

أنت لا تطلب من الله خرق العوائد، لا تتعرّف إلى الناس بأن تقول: يا أخي هذا وليّ، كيف عرفت أنه وليّ ؟ رأيته يمشي على وجه الماء، لا، بل استمع إلى كلامه، إذا كان كلامه صحيحاً مأخوذاً عن كتاب الله، فهو إذاً معه دليل وهذه أكبر كرامة، كرامة العلم أعظم كرامة، لا تبنِ حياتك على خرق القوانين، مُعظم العوام، معظم ضعاف العقول لا ينقادون إلا بخرق القواعد، لا يعتقدون بالأشخاص إلا إذا خُرِقَت لهم العادات، لكنّ هذا القرآن بنظمه وبيانه، بإعجازه وأحكامه، بحلاله وحرامه، بصياغته، بأخباره هو نفسه معجزة، فآمن به من دون خرقٍ للعادات:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ (21))

(سورة الفرقان)

لولا، هذه حرف تحضيض أو حرف امتناعٍ لوجود:

(أَوْ نَرَى رَبَّنَا (21))

(سورة الفرقان)

ربنا عزّ وجل لا يمكن أن نراه:

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا(143))

(سورة الأعراف)

ربنا عزّ وجل تجلّى على الجبل فجعله دكّاً، فمن أنت حتى تستطيع أن ترى الله عزّ وجل ؟ في الدنيا لا نستطيع أن نرى الله.

رؤية المؤمن لله عز وجل يوم القيامة بنص الأحاديث الصحيحة:

الأحاديث الصحيحة تؤكِّد أن المؤمن يوم القيامة يرى الله، ويرى الله رؤيةً كما تروي بعض الأحاديث تجعله يغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23))

(سورة القيامة)

هذا الذي نرجوه، أن نستطيع أن نرى وجه الله، فهؤلاء الكفّار يريدون أن يروا الملائكة ليخبروهم أن هذا الرجل رسول الله، أو أن يروا الله سبحانه وتعالى رأي العَيْن فيقول لهم: هذا رسولي:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا (21))

(سورة الفرقان)

الكِبْرَ يتناقض مع العبوديّة:

هذه مطالب تعجيزيّة، هذه مطالب القصد منها الاستكبار، والامتناع، والعلو:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ (21))

(سورة الفرقان)

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

[صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود]

لماذا ؟ لأنّ الكِبْرَ يتناقض مع العبوديّة:

((لا يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

لذلك تَمتحن الإنسان وتعرف ما إذا كان قريباً من الله أو كان بعيداً عنه تعرف ذلك من حيث الكِبْر، فهو إما أن يتطاول كبراً فهو الجاهل، وإما أن يتطامَنْ فهو العالِم، الإمام الشافعي يقول:

" كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي ".

قال تعالى:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ (21))

(سورة الفرقان)

الكفار استكبروا وتجاوزوا الحدّ المعقول وأصروا على كفرهم:

المؤمن يرى نفسه صغيراً ويراه الناس كبيراً، الكافر يرى نفسه كبيراً ويراه الناس صغيراً، والدعاء النبوي الشريف:

((اللهم اجعلني في عيني صغيراً وفي أعين الناس كبيراً))

[رواه البزار عن بريدة بن الحصيب]

هذا هو الدعاء النبوي الشريف:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21))

(سورة الفرقان)

عتوا أيْ استكبروا، وتجاوزوا الحدّ المعقول، وأصرّوا على كفرهم:

(عُتُوًّا كَبِيرًا (21))

(سورة الفرقان)

على من تستكبر ؟ على الذي خلقك من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثم سوّاك رجلاً ؟ على من بيده كل أجهزتك؟ لو أنه عطّل أحد الأجهزة لأصبحت الحياة جحيماً، على من تستكبر ؟ على من لو أنه جَمّد في عروق دماغك نقطةً من دم لأصبح الإنسان مجنوناً، أو لأصبح مشلولاً، أو لأصبح أعمى، على مَن تستكبر ؟ فأنت إذا استيقظت يوماً ما معافى في جسمك أيْ أنّ آلاف الأجهزة تعمل بانتظام، ولو أنّ أحدها اختلّ اختلالاً طفيفاً لانقلبت الحياة إلى جحيم، على من تستكبر ؟ هل تملك سمعك ؟ هل تملك بصرك ؟ هل تملك عقلك ؟ هل تملك أوردتك، أوْعِيتك، أعصابك، عضلاتك، قوّتك، هل تملك محاكمتك ؟ هل تملك توازنك ؟

لابدّ للمتكبر أن يصيبهُ الله سبحانه وتعالى بمشكلةٍ تكشفُ ضعفه وزَيْفَهُ:

جهاز صغير جداً في الأذن الوسطى ـ جهاز التوازن ـ لو أنه التهب لا تستطيع أن تسير على قدميك، يختل التوازن، سمعتُ أن إنساناً كان مولعاً بالسيْر في الطرُقات العامّة المزدحمة بالنساء ليمتّع نظره بمرأى الحسناوات، أصيب بمرضٍ اسمه ارتخاءٌ في الجفون، هذا الشيء قد لا يخطر على بال، هذا الجفن وهو مرتفع هذا بيدك أمره ؟ لو أن الله عزّ وجل جعله يرتخي ويغلق العين، ولا تستطيع أن ترى إلا إذا رفعت جفنك بيديك فماذا تملك ؟ حركة المستقيم التي بها تفرغ ما في أمعائك بيدِ من ؟ لو أنها تعطّلت لصرت في حالٍ لا يحتمل، تصبح الحياة عبئاً لا يُطاق، لو أن العضلات القابضة للمثانة انحلّت، مَن يحتملك في البيت ؟ مَن يخدمك ؟ كيف تقعُدُ بين الناس ؟ عندئذٍ يحتاج الإنسان إلى فُوَط، على من تستكبر ؟ على الذي خلقك من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ؟ خرجت من عورةٍ ودخلت في عورةٍ ثم خرجت من عورة، من ماءٍ مهين، تستحي بهذا الماء، على من تستكبر ؟ لذلك: طوبى لمن تواضعَ عن رفعةٍ، وأنفق عن غُنيةٍ ".

نِعْمَ العبدُ عبدٌ عرف المبتدى والمنتهى:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21))

(سورة الفرقان)

والمتكبّر لابدّ أن يظهر على حقيقته، ولابدّ أن يصيبهُ الله سبحانه وتعالى بمشكلةٍ تكشفُ ضعفه، وتكشف زَيْفَهُ.

(يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ (22))

(سورة الفرقان)

الملائكة تُرى عند الموت لتبشِّر المؤمنين بالجنّة أو لتنذر المجرمين بالعذاب:

طبعاً إنّ الكفّار يرون الملائكة ولكن عند الموت، هؤلاء الملائكة لا يبشّرون الكافرين بل ينذرونهم عذاب يومٍ أليم:

(يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22))

(سورة الفرقان)

أيْ يحجزونهم عن أن يتطلّعوا إلى الجنّة وما فيها، أنتم هنا مكانكم، الملائكة تُرى عند الموت، ولكن لتبشِّر المؤمنين بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، أو لتنذر المجرمين عذاب يومٍ أليم، وتسوقهم إلى البرزخ، وما فيه من عذابٍ أليم.

سبحان الله هذه الآية:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

هناك أعمال ضخمة بالحياة، يُقال لك: هذا أطول جسر في العالم، وهذا إنجاز حضاري كبير، هذه أعلى بناية في العالم، هذه أكبر مركبة في العالم، هذه أكبر ناقلة نفط في العالم، هناك أبنية مشادة تعد إنجازاً حضارياً كبيراً، وكذلك هناك معامل ضخمة في العالم، وترع حُفِرَت، وجسور أُقيمت، وأراضٍ استصلحت، ناهيك عن السدود التي أُقيمت، هذه كلها أعمال ضخمة، لكن عندما لا يكون هدف الإنسان إرضاء الله عزّ وجل فإن ربنا عزّ وجل قال:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ (23))

(سورة الفرقان)

فالحروب الضخمة التي جرت في العالم وذهب ضحيّتها عشرات الملايين، هؤلاء الذين تربّعوا على عرش النصر، هذا العمل ماذا فعلوا به ؟ فكل عملٍ لا يكون قصده إرضاء الله عزّ وجل، فالله سبحانه قال عنه:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

الله رب النوايا والنيّة أساس العمل:

الهباء هي أوراق الأشجار اليابسة، الهباء التُراب الناعم، الهباء ذرات الماء المتطاير، الهباء الحجارة الصغيرة، الهباء ذرّات الـهباب ـ ذرات الفحم ـ شيءٌ تافه لا قيمة له إطلاقاً:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

الإنسان أحياناً يعمِّر بيتاً، يعتني به عناية بالغة، يقول لك: أربع سنوات وأنا أكسوه، وربما لا يُتاح له أن يسكنه، إذا خرجَ منه إلى القبر، فماذا استفاد من هذا البيت ؟ هذا:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

وبعض الناس أحياناً يعمل عملاً له ضجيج كبير لكن عند الله ليس له وزن، العمل الصالح هو الذي يعمله الإنسان ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل وفيه نفعٌ للناس فيه نفع كبير، قال تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

هناك أعمال تلفت النظر، في الدنيا أعمال تُمْتِع، فيها أعمال فنيَّة تضحك، تطالعك أعمالٌ مسرحيَّة، وأعمال قصصيَّة، وأعمال في التأليف، وأعمال في البناء، وأعمال كالمعارض، وجسور معلقة رائعة التصميم، وأشياء كثيرة جداً غيرها، فإذا الإنسان ابتغى من إقامة مُنشأة خدمة المسلمين والتخفيف عنهم فهذا عمل عظيم، وإذا عمل عملاً هدفه نفع البشريَّة، ويبتغي وجه الله تعالى فهذا عمل عظيم كذلك، لأن الله رب النوايا، النيَّة أساس العمل.

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[صحيح البخاري عن عمر بن الخطّاب]

كل عملٍ ترضي به الله عزّ وجل وتقصد به وجهه الكريم يمتدُ أثره إلى الآخرة:

الإنسان بشكل عام يتزوّج بنيَّة أن يحصن نفسه، وبنيَّة أن يهدي زوجته، وأن ينجب ذريَّةً صالحة، فهذا عمل عظيم لأن أثره يستمر إلى الآخرة، أيّ عملٍ ترضي به الله عزّ وجل، أو تقصد به وجه الله عزّ وجل يمتدُ أثره إلى الآخرة، لكنْ أيُ عمل تستهدف الاستمتاع فيه، المتعة الرخيصة مهما كان فهو هباء، فهناك صالات قِمار ـ مثلاً ـ يقول لك: الصالة كلّفت أربعين مليوناً، صالة قِمار، هذا العمل يوم القيامة يُسْأل عنه: ماذا فعلت يا عبدي ؟ فيقول: والله أنشأت صالة قمار ليس لها مثيل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

بعض الأعمال أساسها إثارة الشهوات، فهناك معامل ضخمة تصدِّر أفلاماً معيَّنة تثير شهوات الشباب أحياناً وغرائزهم، وهناك أعمال معيَّنة غايتها منكرة كذلك، فما كل عمل يرضى عنه الله عزّ وجل ؛ بل العمل الذي تبتغي به وجه الله أولاً، وتبتغي به نفع المسلمين ثانياً، هذا العمل الذي يمتدُ أثره إلى ما بعد

الموت، هذا العمل الذي يأتي كالجبال، حتى النبي عليه الصلاة والسلام قال: الإنسان حينما يطعم لقمة في سبيل الله يراها يوم القيامة كجبل أحد.

حينما صعد بعضهم إلى القمر، وكلّفت هذه الرحلة أربعة وعشرين ألف مليون من العملات الصعبة، فهذا عمل وصفه بعضهم بأنه عمل دعائي، ماذا فعلت للبشريّة ؟ هل خفّفت من آلامها ؟ هل بحثت عن دواءٍ للأمراض المستعصية ؟ هل أمّنت سكناً لهؤلاء الناس؟ العمل الصالح هو الذي ينفع الناس ويرضي الله سبحانه.

كل عمل لا يبتغي به صاحبه رضوان الله عزّ وجل فهو عمل ضلالة وسفاهةٍ:

لو فرضنا واحداً عنده أسرة بحاجة لدخلِهِ، فأنفق دخله على زينته الشخصيّة، فهذا العمل لا يرضي الله عزّ وجل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

القصد أن هؤلاء الأجانب الكفّار حينما يقدّمون إنجازاً ضخماً لا يبتغون به نفع البشريّة ؛ بل يبتغون ابتزاز أموالها، ونقل الثروات من هذه الدول الفقيرة إلى الدول الغنيّة، هذه الأعمال ولو بدا أنها إنجاز عظيم، فمثلاً ممكن بمشروع ضخم أن يعطي القمر الصناعي كل محطّات العالم في التلفزيون، وكلها برامج تسيء إلى أخلاق الشباب، فما هذا العمل العظيم ؟ إذا استطعنا أن ننقل كل المحطّات في العالم والنوادي الليلية إلى بيوتنا، ما هذا العمل العظيم ؟ فكل عمل ولو بدا أنه عظيم جداً ما دام هدفه ليس نفعَ المسلمين، وليس يبتغي به صاحبه رضوان الله عزّ وجل فهو عمل ضلالة وسفاهةٍ، ربنا عزّ وجل قال:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

لا قيمة له، شخص ما مثلاً لو كان معه شيك بمبلغ ضخم وهو معتز فيه، فلمّا قدّمه ليصرفه ظهر أنه مزوّر، فكيف يحس بالإحباط ؟ كان لديه عملة وكانت مزيفة باطلة فمهما كثرت لا قيمة لها، فربنا عزّ وجل يوم القيامة، إزاءً هذا الذي ظنّه الكافر إنجازاً ضخماً:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا(24))

(سورة الفرقان)

البطولة أن تكون آخر من يضحك لا أن تكون أول من يضحك:

الحقيقة فإنّ البطولة في هذه الساعة أنّ الغنى والفقر يعرفان حقاً بعد العرض على الله، البطولة أن تكون آخر من يضحك لا أن تكون أول من يضحك، هناك من يحقق شيئاً في الحياة الدنيا فيفرح، هذا الفرح لا قيمة له:

(لا تَفْرَحْ إِنّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا)

(سورة القصص)

فالذي يفرح بالدنيا هذا محدود التفكير، لأنه مَن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقبى، قل لي ما الذي يفرحك أقل لك مَن أنت، هل يفرحك المال ؟ إذاً أنت عبد المال، هل يفرحك الطعام والشراب ؟ فأنت عبد البطن، هل تفرحك الثياب الأنيقة ؟ فأنت عبد الخميصة، هل يُفرحك اقتناص الشهوات ؟ إذاً أنت عبد الفرج، هل يفرحك أن تكون قريباً من الله عزّ وجل ؟ فأنت عبد الله، ما الذي يفرحك ؟ وما الذي يحزنك ؟

(أَصْحَابُ الْجَنّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا (24))

(سورة الفرقان)

أيْ استقرّوا في سعادةٍ أبديّة، استقروا في الجنّة:

(وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24))

(سورة الفرقان)

أي منزلاً، المقيل مكان القيلولة، مكان الراحة.

الملائكة تتنزّل يوم القيامة لتحاسب الناس على أعمالهم فهي موكّلة بحساب الناس:

قال تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ(54)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ(55))

(سورة القمر)

وقال:

(وَيَوْمَ تَشَقّقُ السّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25))

(سورة الفرقان)

من علامات قيام الساعة ومن علامات اليوم الآخر أن السماء تنشق عن غمامٍ، عن سحابٍ لطيف، والملائكة تتنزّل لتحاسب الناس على أعمالهم فهي موكّلة بحساب الناس:

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقّ لِلرّحْمَنِ (26))

(سورة الفرقان)

بهذه الآية إشارة دقيقة جداً، لو كنت تملك بيتاً أغلى أنواع الملكيَّة، ملك حر، معك أوراق رسميَّة للملكية، ليس عليه أية مشكلة، ليس معرضاً لِتنظيم، يقع في موقع ممتاز، تحس أن هذا البيت ملكك، لكن هذا ليس ملكاً حقيقياً، لأن الإنسان لابدَّ أن يتركه، ربنا عزَّ وجل وصف المُلك الحقيقي الذي لا يزول:

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ (26))

(سورة الفرقان)

الملك الحقيقي هو ما كان ثابتاً مستقراً أما المُلك الذي يزول ليس ملكاً:

إذاً كل أملاك البشر أملاكٌ وهميَّة، ما دام هذا القلب ينبض فهذا البيت لك، ما دام هذا القلب ينبض فهذه المركبة لك، ما دام هذا القلب ينبض فهذه المزرعة لك، حسب سجلات الطابو، لكن إذا توقف القلب فليست لك، فالملك الحقيقي هو ما كان ثابتاً مستقرّاً، أما المُلك الذي يزول ليس ملكاً، والنبي عليه الصلاة والسلام سمَّى الدنيا عاريةٌ مستردَّة، دار انقطاع، والانقطاع مفاجئ، البناء الذي هو تدريجي في سن العاشرة كذا، وفي السنة الخامسة عشرة كذا، وبالعشرين، بالخامسة والعشرين كذا، وبالثلاثين ملك بيتاً، بالخامسة والثلاثين ملك مركبة، وبالسابعة والثلاثين تزوج، بكذا سنة من عمره اشترى مزرعة، بالسنة الفلانيَّة أسَّس معملاً، غيَّرتَ المفروشات في سنة كذا، الدنيا تتراكم بين منزل، بين أثاث، بين مفروشات، بين معمل، بين سيارة، بين مزرعة، بين متنزّه، أمورك انتظمت، تتراكم، لكن يأتي الموت ليأخذها دفعةً واحدة بثانية واحدة، فهذه المشكلة:

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26))

(سورة الفرقان)

يوم عسير، في الدنيا تواجهك أيامٌ عسيرة، إذا كان الإنسان مخالفاً لبعض الأنظمة وضُبط متلبّساً بهذه المخالفة، والعقوبة سنوات طويلة في السجن، وجئت لتُحَاسب أمام القاضي، إذا حاسبك ربّما شعرت بالدوار، فكيف إذا حاسبك الواحد الديّان ؟! حين لا واسطة، ولا سند كفالة، ولا محامٍ بارع له صلة مع القاضي ليدبرك:

(وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26))

(سورة الفرقان)

يا ليتني أثمن ما سيقوله الظالم عما تركه في الدنيا:

ليس من شفيع يشفع لك، ولا مانع يمنعه، ولا مادَّة تفسَّر تفسيراً آخر لمصلحتك، ولا اجتهاد بمحكمة النقض لمصلحتك:

(وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

يعضُّ ندماً، يكاد الندم يأكل قلبه:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي (27))

(سورة الفرقان)

يكون الإنسان مسافراً في بلد ثم يعود إلى بلده، قد يقول بعد عودته: يا ليتني اشتريت كذا وكذا، فهذا الذي قال عنه: يا ليتني هو أثمن ما في ذاك البلد، الإنسـان كان في الدنيا، ماذا يقول الظالم ؟ يقول: يا ليتني، إذاً يا ليتني أثمن ما سيقوله الظالم عما تركه في الدنيا.

الأحداث والقرآن والكون سُبُل واسعة جداً لمعرفة الله:

أما يوم القيامة:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

أي السبيل إلى الله، الله عزّ وجل له سُبُل، سبيل الصدقة طريقٌ مفتوحٌ إلى الله، الاستقامة على أمر الله طريق إلى الله، برُّ الوالدين طريق إلى الله، الإنصاف مع الزوجة طريقٌ إلى الله، تربية الأولاد تربية حسنة طريقٌ إلى الله، أن تنصح المسلمين في بضائعهم طريقٌ إلى الله عزّ وجل، فالطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وهناك طريق إلى الله واسع جداً هو أن تتعرّف إليه من خلال الكون، وأن تتعرّف إليه من خلال القرآن، وأن تتعرّف إليه من خلال الأحداث ؛ الأحداث والقرآن والكون سُبُل واسعة جداً لمعرفة الله، لكن في هذه الآية لا بدَّ لك من رفيقٍ على هذا الدَرْب، لا بدَّ لك من إنسانٍ يقودك إلى الطريق الصحيح، من هنا شُرِّعَ أن يلزم الإنسان مجالس العلم، الإنسان وحده قد يضل، وقد يزل، وربما لا يهتدي، وقد يقع في المبالغات، وربما لا يعرف للأشياء حجمها الحقيقي.

تقديم الرسول على السبيل تقديم الأهمّ على المهم:

لذلك:

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

تقديم كلمة " الرسول " على كلمة " السبيل " تقديم الأهم على المهم، فالمدرسة مهمّة لكن الأهمّ منها المُعَلِّم، الجامعة مهمّة لكن الأهمّ منها الأستاذ في الجامعة، الجامع مهم لكن الأهم منه الدعوة إلى الله

فيه، بناؤه شيء والدعوة إلى الله فيه شيءٌ آخر، لذلك من أنواع عمارة المساجد ؛ عمارتها بالبنيان، وعمارتها بالعبادات، وعمارتها بالعلم، فتقديم الرسول على السبيل تقديم الأهمّ على المهم:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى (28))

(سورة الفرقان)

يدعو الكافر بهلاكه:

(لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

الإنسان لا يخلو من صاحب سيّئ ؛ ينصحه بالمعصية، ينصحه بالبخل، بإمساك ماله، ينصحه بهذه السهرة المُختلطة، ينصحه بهذه النزهة الجماعيَّة، ينصحه بهذه الصفقة ولو كان فيها شبهة، يقول لك: لا تدقِّق، ينصحه بهذه الزوجة ولو كانت فاجرة، اخترها زوجةً لك، ينصحه بهذا البيت ولو كان مُغْتَصَباً، ينصحه بهذا الصديق ولو كان آثماً، فالكافر من شأنه أنه يدلّك على الشر:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا(27))

(سورة النساء)

يصبح بين الأزواج والأولاد يوم القيامة عداوة مآل وليست عداوة حال:

قال:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى)

(سورة الفرقان)

يا هلاكي:

(لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

لذلك من بعض معاني الآية الكريمة:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ(14))

(سورة التغابن)

عداوة مآل وليست عداوة حال، من شأن الزوج أن يحبَّ زوجته، ومن شأن الأب أن يحبَّ ابنه، لكن لو أن أباً أطاع ابنه وعصى ربَّه، لو أن زوجاً أحبَّ زوجته وعصى من أجلها ربَّه، يرى يوم القيامة أن هذا الولد وهذه الزوجة هما سبب شقائه، وهما سبب حرمانه، لذلك تنشأ عنده عداوةٌ تجاه هذه الزوجة وتجاه هذا الولد، ولذلك يوم القيامة يقول:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ (29))

(سورة الفرقان)

الذكر هو القرآن الكريم، أضلّني عنه.

احذر عند اختيار أصحابك وإياك أن تختار صاحباً بعيداً عن الله عزّ وجل:

يا أخي لا تدقِق هذا الكتاب ليس لهذا الزمان، غداً حينما تبلُغ الثمانين تتوب إلى الله عزّ وجل، غداً حينما تذهب للحج تُلقي بذنوبك هناك، الآن استغل حياتك، استغل شبابك، أنت عندك أولاد، عندك صغار، عليك أن تأخذ المال من أي طريقٍ كان، هذا صاحب السوء، لذلك قل لي من تصاحب أقل لك من أنت، لا تختر صاحباً بعيداً عن الله عزّ وجل:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

لا تطعه، هو متفلت، تائه، أموره كلها خاسرة، وَلا تُطِعْ:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ(15))

(سورة لقمان)

خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا.

الإنسان بيده الحل الأمثل فهو مخيّر:

قال تعالى:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ (29))

(سورة الفرقان)

وهو القرآن:

(بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

يا أخي ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ(30))

(سورة النور)

بينما قرين السوء يقول: لكن يا أخي هذه الآية ليست لهذا الزمان، هذا الزمان صعب، والله صحيح إن هذا الزمان صعب إذاً نمتع أبصارنا بمطاردة النساء:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

هذه العلاقة فيها ربا، يقول لك: يا أخي الآن الربا عام معمول به في كل بلد ومكان، هذا بلاء عام، عموم البلوى يعفيك من أسباب تخوفك:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

أخي هذه الحالة غير شرعيَّة، فيجيبك: ماذا نفعل ما بيدنا حيلة ؟ كلّه كلام ليس له معنى، لا، إنّ بيدك الحل الأمثل، فأنت مخيَّر:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

تخلي الشيطان عن الإنسان عندما يقع:

عندما يقع الإنسان يتخلّى عنه الشيطان:

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(22))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(وَقَالَ الرَّسُولُ (30))

(سورة الفرقان)

النبي عليه الصلاة والسلام:

(يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان)

تركوه، بعضهم قال: **" هذا قول النبي في الحياة الدنيا حينما رأى معارضة قومه له ".**

وبعضهم قالوا: **" هذا قول النبي في الآخرة ".**

أن تهجر القرآن ليس معنى هذا ألا تقرأه بل له معانٍ أخرى كثيرة:

على كلٍ:

(إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان)

أن تهجر القرآن ليس معنى هذا ألا تقرأه، فمن معانيه ألا تقرأه، ومن معانيه أيضاً ألا تحاول فهمه، من معانيه ألاّ تعمل به، ومن معانيه ألا يدخل هذا الكتاب في حياتك اليوميَّة، هو داخل عند الموت فقط، عند

التعازي، في أمسيات التعزية يتلى القرآن، ممكن أن يقدِّمه أحدٌ هديَّة، تقبله كهديَّة ليوضع في مكان بارز في المكتبة، ومن الممكن وضعه في مركبتك في المقدِّمة ليراه الآخرون، ممكن أن تجعل في محلِّك التجاري بعض آياته، لكنك لا تتعاملُ معه تعاملاً حقيقياً، أنت لا تحلُّ حلاله ولا تحرِّم حرامه، ولا تأخذ بوعده ولا بوعيده، ولست مصدِّقاً ما فيه، فلو أن إنساناً جاءه خطيب لابنته ليس ديّناً إطلاقاً، لكنْ له مال ومكانة، فإنه يزوِّجه ابنته، فإن هذا الإنسان لو كان يقرأ كل يوم ختمة فرضاً، أو كل ثلاثة أيام ختمة لما أفاد شيئاً، فهو حينما قرأ قوله تعالى:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ(221))

(سورة البقرة)

فإن لم يصدق كلام الله تعالى، ولا أخذ به، ولا اهتمَّ به، ولا عاشه، ولا دخل هذا القرآن في حياته اليوميَّة، جعله للتبرُّك، بقي القرآن للمناسبات، فهذا معنى الآية:

(اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان)

أدلة من الكتاب والسنة على ضرورة العمل بأحكام القرآن وفهم مضمونه:

هجره في تعامله اليومي، في زواجه، في علاقته بزوجته، في علاقته بأولاده، في علاقته بمجتمعه، وعلاقته بجيرانه، في علاقته بآخرته، علاقته بربِّه، علاقته بنفسه، ما أخذ به، جعله كتاباً من التراث، قرأه تبرُّكاً، واتخذه زينةً، ولكن ما عمل بمضمونه، فإذا رأى شخص بلاغاً على الحائط بمنع التجوُّل وفيه: " تحت طائلة إطلاق الرصاص " فانتبه للورق، انتبه للحَرف، للطباعة، انتبه للتوقيع، انتبه للخاتم، انتبه للصياغة، انتبه، لكن ما انتبه للمضمون، ما فهم مضمون البلاغ، أليس قد ضلَّ ضلالاً بعيداً، فجاءته رصاصةٌ فأنهته، أنت عليك أن تنتبه للمضمون، لعبارة ممنوع التجوُّل، ادخل إلى البيت فوراً هذا أقل شيء عليك فعله.

فأن تهجره، أيْ ألا تعمل بأحكامه، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ربّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

وقال:

((اقرأ القرآن ما نهاك، فإن لم ينهك فلست تقرؤه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

وقال:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

[سنن الترمذي عن صهيب]

هناك قانون عام أن لكل نبيّ عدواً من المجرمين:

قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

يهديك إلى سواء السبيل وينصرك، وكأنّ هناك قانوناً عاماً أن لكل نبيّ عدواً من المجرمين، سيدنا موسى في المناجاة قال: **" يا رب لا تبقي لي عدواً "** فقال الله عزّ وجل: **" يا موسى هذه لم تكن لي"**، أي أن هذه ما صارت لله، بمعنى أن هناك أعداءٌ لله كُثُر، فإذا أنت على حق وهناك من يعاديك فهذا شيءٌ طبيعي جداً، إذا كنت:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

إذا كنت على الحقّ المبين وكان لك خصوم مناوئون، معارضون، شامتون، حاسدون لا تهتم بذلك، لأن الله عزّ وجل كفى به هادياً لك إليه ونصيراً لك على خصومك:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (08-13): تفسير الآيات 27 - 31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-05-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الفرقان.

الإنسان الموَفّقُ في الحياة هو الذي يصل بفكره إلى ما سيكون قبل أن يكون ما يكون:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

أيْ أيها الناس اذكروا ذلك اليوم، والسعيد من وصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه، الإنسان الموَفّقُ في الحياة هو الذي يصل بفكره إلى ما سيكون قبل أن يكون ما يكون، فربنا سبحانه وتعالى يُذَكِّرُنَا بذلك اليوم، وفي هذا اليوم ينتاب المرء حالةٌ من الندم لا تُطاق:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

من هو الظالم ؟ الذي ظلم نفسه أولاً، هذا الذي يدْعُ نفسه جاهلةً، يجعل نفسه تنغمس في ملذّات الحياة من دون أن يبصِّرُها بعواقب الأمور، هذا ظالمٌ لنفسه، وهل من ظلمٍ أشد من هذا الظلم ؟

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا(57))

(سورة الكهف)

الندم حالة نفسية من لوازمها أن يَعَضّ النادم على يديه لشدة الخسارة:

هل في بني البشر إنسانٌ أشد ظلماً من ذاك الذي يسمع آيات الله تُتلى عليه ثم يعرض عنها ؟

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا(57))

(سورة الكهف)

فلذلك هذا الذي نسي ربه، ولم يعرِّف نفسه بالله عزّ وجل، ولم يبين لها طريق الحَق، ولم يَعْرف أحكام الله في كل شؤون الحياة، هذا الذي آثر الشهوة على العلم، آثر المصلحة على المبدأ، آثر الحاجة على القيمة، هذا الذي آثر المادة على الروح، هذا الذي آثر ما يفنى على ما يبقى، هذا الذي آثر لذّته الآنيّة على سعادته الأبديّة، هذا أشد أنواع الظلم، لا ينصرف ذهنكم إذا تحَدّثنا عن الظلم إلى ظلم الخَلْق فقط، بل إن ظلم النفس أشد أنواع الظلم، فهذا الذي عاش في الحياة مسترخياً من دون أن يفكِّر في عواقب

الأمور، من دون أن يفكر في ساعة الموت، في ساعة الحساب، هذا الذي أعطى نفسه ما تشتهي وتمنّى على الله الأماني، هذا ظالمٌ لنفسه:

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(57))

(سورة البقرة)

هذا أشد أنواع الظلم، فهذا الذي ظلم نفسه سيأتي يوم القيامة ويعض على يديه، العرب كانت تقول: فلانٌ عض على أصبُعِه ندماً، العض على الأصبع كناية عن الندم، الندم حالةٌ نفسية، من لوازمها أن يَعَضّ النادم على أصبُعه، ولكن هنا يقول الله عزّ وجل:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

يديه معاً، كلمة على يديه لشدة الخسارة.

الخوف و الندم شعوران ينتابان النفس ويسحقانها:

شعوران ينتابان النفس ويسحقانها، الشعور الأول هو الخوف، والشعور الثاني هو الندم، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((العار يلزم المرءَ يوم القيامة حتى يقول: يا ربي لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[ورد في الأثر]

عذاب النار حق:

(فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(10))

(سورة البروج)

ومع ذلك يُضاف إلى عذاب الحريق وإلى عذاب النار الذي يشوي الوجوه، يضاف إلى هذا العذاب النفسي، وطبيعة العذاب النفسي هو الندم، لذلك فالمؤمن حينما يعرف الحقيقة في الوقت المناسب، وهو في قوته، وهو في أوج نشاطه، وهو في شبابه، نعم إذا عرف الحق اتجه نحوه، فإذا تطابقت حركته اليومية مع أهدافه، فهذا أحد أنواع السعادة.

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

الظالم هو الذي ظلم نفسه بإبعادها عن ربها، بإبقائها جاهلة، بإعطائها ما تشتهي لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[مسند أحمد عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

من أراد الجنة و لم يعمل لها فقد أذنب في حقّ نفسه:

هذا الذي يتمنى أن يدخل الجنة ولا يعمل لها، يسأل الله عزّ وجل أن ينجيه من النار وهو يعمل للنار، فهذا ذنبٌ من الذنوب، كما قال الإمام عليٌ كرم الله وجهه:

" طلب الجنة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوب ".

أي أن تقول: أرجو الله أن أدخل الجنة، والعمل لا يتناسب مع الجنة، هذا استهزاءٌ بالله عزّ وجل، أن تخاف من النار، وتعمل العمل الذي يودي إلى النار فهذا استخفافٌ بالنار، لهذا قال أحدهم: قرأت حديثاً أغناني عن علم الأولين والآخرين هذا الحديث يقول:

((اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واتّق النار بقدر صبرك عليها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه))

[ورد في الأثر]

الله سبحانه وتعالى أعطانا العقل، أعطانا هذا الفكر أثمن ما في الكون، هناك مَن يُعَطِّله، هناك من يسيء استخدامه، هناك من يزوّره:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

على يديه مبالغةً في وصف الندم، وحالة الندم لا يعرفها إلا من ذاقها، ماذا يقول هذا الظالم الذي ظلم نفسه ؟ الذي أعرض باختياره عن مجالس العلم ؟ الذي أعرض باختياره عن طلب العلم ؟ عن طلب معرفة الله عزّ وجل، أصل الدين معرفته سبحانه، آثر الحياة الدنيا، آثر اللذة، آثر المُتعة، آثر المادة، آثر الشهوة، آثر المصلحة، آثر المال، آثر هذا على مرضاة الله ومعرفته:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

يا ليتني سرتُ في طريق الحق.

العلم ليس هدفاً بذاته بل هو وسيلة:

في هذه المناسبة الشيء الذي أحب أن ألفت النظر إليه هو أن أناساً فهموا الدين صياماً وصلاةً وحجاً وزكاةً ليس غير، وهناك أناسٌ فهموا الدين دراسةً، واطلاعاً، وقراءةً، وتلخيصاً، وتأليفاً وما شاكل ذلك، هذا الجانب جانبٌ فكريٌ في الإسلام، وهناك من فهم الإسلام صلاةً وصياماً وحجاً وزكاةً، هذا جانبٌ

شعائري، والحقيقة كل الحقيقة أن الإسلام يأبى أن يكون فكراً فقط، ويأبى أن يكون شعائر فقط، من فهم الإسلام أنه جانبٌ فكري في الحياة وجعل العلم كل شيء، بل جعل العلم هدفاً ونسي أن العِلم وسيلة، وأن العلم شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، ومن فهم الإسلام شعائر تؤدّى بإخلاصٍ أو بغير إخلاص، بمعنى أو من دون معنىً، بإقبالٍ أو من دون إقبال، كلاهما وقع في وهمٍ كبير.

الحقيقة أيها الأخوة أن العلم ليس هدفاً بذاته، فأن تأتي إلى المسجد وأن تستمع إلى تفسير كتاب الله، أن تأتي إلى المسجد وأن تستمع إلى خطبةٍ تُلقى، أن تقتني كتاباً وأن تقرأه، وأن تسعد بقراءته، وأن تحسّ أن فيه أفكاراً لطيفة، وفكراً منظّماً منهجياً، وأن فيه أدلةً قوية وتكتفي بهذا، وأنت على ما أنت عليه من مخالفاتٍ، من تقصير، من انحرافات، هذا العلم يصبح سُلّمَاً يهوي بصاحبه إلى الحضيض، الحقيقة أن العلم سُلّمٌ يرقى بك إلى أعلى عليين، وقد يكون هو أيضاً سُلّمَاً يهوي بصاحبه إلى أسفل سافلين، لابدّ من تعريف الحقيقة، العلم وسيلة، والعمل يؤكِّد صحة العلم، فالعلم ما عُمِلَ به، فإن لم يعمل به كان الجهل أفضل منه.

فأنا أحذر نفسي وإيّاكم أن نفهم الدين فهماً فكرياً فقط، أن يكون الدين ثقافةً، أن يكون كتاباً في مكتبة، أن يكون فكرةً نحفظُها، أن يكون كتاباً نتلوه.

وأحذِّر نفسي وإياكم أن نفهم الدين صلاةً وصياماً وحجاً وزكاةً من دون اتصالٍ بالله، ومن دون إقبالٍ عليه.

العلم وحده لا يكفي لابدّ من العلم بالله عزّ وجل وهناك مصادر عديدة لذلك:

الحقيقة كل الحقيقة أن الإنسان بمجرد أن يتعرّف إلى الله عزّ وجل يستقيم على أمره، لأن عملك له علاقةٌ بمعرفتك، العمل صدى للمعرفة، العمل مُنعكَس للمعرفة، فمهما ارتقت معرفتك بالله ظهر هذا على عملك، فهذا الذي لا يعرف الله يعصيه، أما إذا عرفت الله عزّ وجل فلن تعصيه، فليس الإسلام فكراً وثقافةً وكتباً، وليس الإسلام صياماً وصلاةً وحجاً وزكاةً ليس غير، الإسلام أن تعرف الله، والإسلام أن تطيعه، فإذا عرفته وعبدته اتصلت به، وإذا اتصلت به قطفت ثماره.

من أجل ألا يكون الكلام استهلاكاً للوقت، من أجل أن يكون الكلام استثماراً للوقت، يجب أن تعرفوا هذه الحقيقة، العلم وحده لا يكفي، لا بدّ من العلم بالله عزّ وجل، ولكي تعرف الله هناك مصادر عديدة، وأول هذه المصادر الكون كما ورد في الأثر: حسبكم الكون معجزة.

فلابدّ من جلسةٍ من يومٍ إلى آخر تتأمّل فيها في خلقك، كما قال الله عزّ وجل:

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ(5))

(سورة الطارق)

أمر إلهي، هل تظن أن أوامر الله عزّ وجل تنتهي عند الصيام والصلاة والحج والزكاة، ماذا تفعل وأنت المؤمن بهذه الآية:

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24))

(سورة عبس)

هل نظرت في طعامك ؟ هل نظرت في هذا الماء الذي تشربه ؟ هل نظرت في هذا الخُبز الذي تأكله ؟ هل نظرت في هذه الفواكه ؟ في هذه الخضروات ؟ هل نظرت في هذا الطعام الذي أعدَّه الله ؟

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5))

(سورة الطارق)

هل نظرت في خلقك ؟ كيف كنت ماءً فأصبحت مضغةً، فعلقةً:

فخلقنا العلقة مضغةً، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر ؟

معرفة الله تحتاج إلى إحكام عقلٍ وإلى إصغاء سمع:

فلان آمن، متى آمن ؟ فلان يحمل دُكتوراه، هناك سبع سنوات استهلكها في الدراسة، الإيمان مرتبة علمية، فلان مؤمن والحمد لله، متى آمن ؟ متى فكّرت ؟ متى تأمّلت ؟ متى بحثت ؟ متى دققت ؟ متى تحققت ؟ ما المصدر الذي اعتمدته لمعرفة الله عزّ وجل ؟ فالإيمان يحتاج إلى وقت، فهذا الذي يَدَعُ عمله ويأتي إلى المسجد هذا يُزَكِّي وقته، وللوقت زكاةٌ كما للمال زكاة:

((ومن طلب العلم تكفّل الله له برزقه))

[ورد في الأثر]

والمؤمنون في مساجدهم والله في حوائجهم، أولاً من أجل أن تستقيم على أمر الله لابدَّ أن تعرفه، ومعرفة الله تحتاج إلى إحكام عقلٍ وإصغاء سمعٍ، تستمع إلى الحق في بيوت الله وتتأمل في بيتك، فلابدَّ من جلسةٍ تتأمل بها مع نفسك، والله سبحانه وتعالى هكذا يقول:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى(46))

(سورة سبأ)

إما أن تقبع في بيتك وحدك تتأمل في هذا الحق الذي استمعت إليه، وإما أن تجلس إلى أخيك تتأملان، أنت وهو تتأمّلان في هذا الحق الذي استمعتَ إليه، فأنت حينما تستمع إلى الحق لا ينبغي أن تمر عليه وأنت زاهد فيه، هذه مسؤولية، لئلا يقف الإنسان هذا الموقف النادم، لئلا يعض الظالم على يديه:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

هذا الموقف العصيب، هذا الموقف العسير.

إذا دُعيت إلى الله فتفكّرْ في هذه الدعوة:

نحن الآن في بحبوحة، ما دام القلب ينبض فباب التوبة مفتوح، ما دام الإنسان حيّاً يُرزق فالطريق إلى الله سالكة، فلذلك:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ (46))

(سورة سبأ)

أي أنك إذا دُعيت إلى الله فتفكّرْ في هذه الدعوة، إذا دعيت إلى طاعة الله فتفكر في هذه الدعوة، إذا دعيت إلى التزام أمر الله تفكر في هذه الدعوة، تفكّر وحدك أو تفكّر مع أخيك المؤمن:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ(46))

(سورة سبأ)

التزام أمر الله يقيك من الوقوف العصيب يوم القيامة:

لئلا يقف الإنسان هذا الموقف العصيب فيقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

وقال:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

فإذا عرفت الله من خلال التأمُّل في الكون، وفي خلق الإنسان، أو في القرآن، أو في الحوادث، ثلاث مصادر، الكونُ أحدها:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ(101))

(سورة يونس)

وقال:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105))

(سورة يوسف)

طلب العلم و التأمل والاستماع عمل يزكيه الله وملائكته:

الكون مصدر، خلقُ الإنسان مصدر، الطعامُ والشراب مصدر، الجبال، والسهول، والوهاد، والصحارى، والمياه، والأنهار، والبحار، والبُحيرات، والأطيار، والأسماك، والكواكب، والمجرّات، هذه

كلها آياتٌ دالةٌ على عظمة الله، تفكَّرْ بها، أتمنى عليكم أن تخصصوا جزءاً من وقتكم ولو ربع ساعة في التفكر في خلق السماوات والأرض، الاستماع وحده لا يكفي، الاستماع يكمِّل التفكر، إذا تأمّلت في البيت واستمعت إلى الحق في المسجد تكون قد سرت في طريق تحصيل العلم، وهذا الطريق طريقٌ مُشَرّف، طريقُ مُقَدَّس، ما من عملٍ أعظم عند الله من أن تطلب العلم، ما من عملٍ يزكِّيه الله سبحانه وتعالى والملائكة والناسُ أجمعون كأن تطلب العلم، أن تكون متأمِّلاً في بيتك، وأن تكون مستمعاً في بيتٍ من بيوت الله.

إذا عرفت عن الله شيئاً، عن أسمائه الحسنى، عن صفاته الفُضلى، عن وعده ووعيده، عن أمره ونهيه، عن تشريعه، عن أحكامه، عن الجنة والنار، إذا عرفت هذا كلّه، وجدت نفسك شيئاً فشيئاً تميل إلى تطبيق ما عرفت، فإذا التزمت بما عرفت تكون قد حققت العلم بشكلٍ صحيح، العلم ما عُمِلَ به، فلو تعلم الإنسان ولم يعمل لكان ظالماً لنفسه، والظالم لنفسه يعض على يديه، إذا عمل عملاً عشوائياً من دون علمٍ كان ظالماً لنفسه، والظالم لنفسه يعض على يديه ندماً:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

أدلة من القرآن على أن الطريق إلى الله عزّ وجل يحتاج إلى رسول:

طريق إلى الله، هناك طريقٌ إلى الله، لكل بلدةٍ طريق، هناك طريقٌ مادي، مدينة حلب لها طريق، حمص لها طريق، درعا لها طريق، بلاد بعيدة لها طريق في الجو، بلاد قريبة لها طريق في البحر، كل بلدةٍ لها طريق، وأن تكون طبيباً فللطب طريق ؛ أن تأخذ الشهادة الثانوية بمجموع متفوّق، وأن تنتسب إلى كلية الطب، وأن تبقى فيها سنواتٍ خمس، تصبح مجازاً في الطب، وبعدها تذهب إلى بلدٍ متقدمٍ في الطب فتحصل منه على درجة الدكتوراه، هذا طريق الطب، أين الطريق إلى الله ؟ لكل شيءٍ طريق، أليس لله طريق ؟ طريق الله عزّ وجل يحتاج إلى رسول، والدليل:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

أي أن طريق معرفة الله تحتاج إلى مُعَلِّم، هكذا قال الله سبحانه وتعالى، لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(119))

(سورة التوبة)

كونوا معهم:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28))

(سورة الكهف)

وقال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ(15))

(سورة لقمان)

من قلّد عالماً لقي الله يوم القيامة سالماً:

هذا الذي استقام على أمر الله رافِقْه، صاحبه، اتبع سبيله، قلِّده، من قلّد عالماً لقي الله يوم القيامة سالماً، لا تقلد أهل الفجور، لا تقلد أهل الضلال، لا تقلد الكفار، لا تُقِم معهم علاقةً حميمة، أقم هذه العلاقة الحميمة مع أهل الإيمان، فلعل الله سبحانه وتعالى ينفعك بصحبتهم:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28))

(سورة الكهف)

لك صاحب ادْعُهُ إلى الله ورسوله، فإن لم يستجب فدَعه، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ(50))

(سورة القصص)

إما أن يستجيب وإما ألا يستجيب، إن لم يستجب فهو يتبع الهوى بنص القرآن الكريم، بعض العلماء قال:

" إن تقديم الرسول على السبيل أصلٌ في أنه لا طريق إلى الله عزّ وجل إلا عن طريق رجلٍ متفوقٍ في هذا الطريق ".

على الإنسان أن يصاحب إنساناً له خبرات في الطريق إلى الله تعالى ليأخذ أكبر فائدةٍ بأقل جهدٍ:

لو أن التعليم يصلح من دون معلِّم، لانخفضت النفقات إلى العُشر، طُبعَت الكتب ووزّعَت، وأجريتْ الامتحانات ليس غير، ولكن لا بدّ في الجامعة من المدرس، ولا بدّ في المدرسة من المُعَلِّم، ولا بدّ في الطريق إلى الله عزّ وجل من إنسان له خبرات، متبحر في العلم، له تجربة مع الله غنيَّة، مخلص مثلاً، هذا تأخذ منه الشيء الكثير بجهدٍ يسير، أما الإنسان حينما يحب أن يكتشف كل شيء بنفسه، قد يدفع نفسه ثمناً لاكتشافها، أنت وجدت بساحة معركة كُتَلاً كروية لعلها قنابل، فإذا أردت أن تكشفها بنفسك

ربّما كنت الضحية، أما إذا جئت بخبير ألغام فهذا تستعين بخبرته وتنجو من أخطار هذه الألغام، كذلك حينما يتعلّم الإنسان فإنه يشارك الآخرين في عقولهم وخبرتهم ومعرفتهم بحضور مجالس وبلا مقابل، فلما قال ربنا عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(119))

(سورة التوبة)

من أجل أن تأخذ أكبر فائدةٍ بأقل جهدٍ.

(يَا وَيْلَتَى (28))

(سورة الفرقان)

على الإنسـان أن يحذر من صاحب السوء لأن أفكاره تثبّط العزيمة:

يدعو هذا الظالم على نفسه بالويل والثبور وعظائم الأمور:

(لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

كل واحد منا في بيته، من جيرانه، من زملائه، بعمله معرض لصاحبٍ سيّء، يبثُّ في روعِهِ أن الدنيا هي كل شيء، وأنك شابٌ في مقتبل الحياة، عليك أن تأخذ نصيبك من المُتَع، وأن العمر طويل وغداً تتوب، وأن الله غفورٌ رحيم، كلام هذا الإنسان كالسُمّ الناقع، ماذا يقول الظالم لنفسه غداً عن صحبة هذا الإنسان:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

لقد أهلكه، فليحذر الإنسـان من صاحب السوء، أحياناً بحكم عمله يكون له زميلٌ، بحكم سكنه جارٌ، بحكم دراسته طالبٌ زميل، بحكم تجارته شريكٌ، يبثُّ في روعه أن اغتنم من الدنيا، والله غفورٌ رحيم، هناك أفكار تثبّط العزيمة، وأن الشقي شقيٌ، والسعيد سعيد، والأمر مبرم، رفعت الأقلام وجفت الصحف، وأن لله في خلقه شؤون، وهذا الترتيب ترتيبه، وعندما ينوّر الله عزّ وجل قلبك تهتدي، والأمر بيد سيدك، والهداية بيده وليست بيدك، هذه كلها معلومات تشُلُّ الإنسان وتجعله أشَل، تثبّط العزيمة، هذه معلومات غير صحيحة.

الإنسان بحاجة إلى أهل الحق لمعرفة الحقيقة:

ربنا عزّ وجل قال في بعض الآيات على لسان الكافرين يقول:

(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا(148))

(سورة الأنعام)

هذا ترتيبه:

(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

هذا ظنٌ كاذب، وهذا أشد أنواع الكَذِب، فأنت محتاج إلى أهل الحق لتعرف الحقيقة، وأن هناك من يقول لك أشياء غير صحيحة، هناك صديقٌ، هناك شريكٌ، هناك أستاذٌ في التعليم العام مثلاً، هناك أبٌ، هناك صديقٌ قريبٌ قد يبثُّ في رُوعك أشياء غير صحيحة خلاف القرآن الكريم، فإذا صدقتها فقد أهلكت نفسك وأنت لا تدري.

دلائل من الكتاب والسنة عن من نأخذ ديننا:

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ))

[صحيح مسلم عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ]

وقال:

((ابن عمر دِينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

أي:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ(15))

(سورة لقمان)

وقال:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28))

(سورة الكهف)

وقال:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

ماذا تنفع ليت ؟ لكنّ الذي عرف الله عزّ وجل، وسار في طريق الإيمان مع من يحبه الله ورسوله يوم القيامة فهذا من أهل الصلاح والفلاح.

العاقل من يتبع سبيل الله ويهتدي بهديه ويلزم أهل الحق:

أما من صحب قرين السوء فإنه يقول: إنه كان لي قرين:

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(53))

(سورة الصافات)

بعد ذلك يقول الله عزّ وجل:

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ(55))

(سورة الصافات)

الإنسان العاقل يتبع سبيل الله، يهتدي بهدي الله، يلزم أهل الحق، يتبع سبيل من أناب إلى الله، يأخذ علمه عن الذين استقاموا لا عن الذين مالوا، لا تفرح بالذي يعطيك الرُخَص، افرح بالذي يُشَدد عليك، لكل معصيةٍ فتوى إذا شئت، ما أكثر من يُفتي إرضاءً للناس، أما النبي عليه الصلاة والسلام يقول لك: استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك.

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِوَابِصَةَ:

((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ، قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ: فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ وَقَالَ اسْتَفْتِ نَفْسَكَ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ ثَلاثًا الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

[سنن الدارمي عن وابصة بن معبد الأسدي]

الشخص الذي تتمنى أن تكونه يجب أن يكون ورعاً ومحباً لله ورسوله:

قال تعالى:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

وقد قيل:

((المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل))

[أبو داود عن أبي هريرة]

من هذا الشخص الذي تحبُه وتركن إليه ؟ من هذا الشخص الذي تعظِّمَهُ ؟ من هذا الشخص الذي تتمنى أن تكونه ؟ أن تكون مكانه ؟ من هذا الشخص الذي تراه مِلْء السمع والبصر ؟ هذا الشخص قل لي من هو أقل لك من أنت، المؤمن يرى من سبقه بالإيمان ملء السمع والبصر، المؤمن يعظِّم الوَرع، يعظم

المحب لله ورسوله، يعظِّم المستقيم على أمر الله، المؤمن يحب أهل الحق، هم ملء سمعه وبصره ؛ أما إذا كنت تعظِّم أهل الدنيا، وأصحاب الأموال، وأصحاب القوة، فهذه علامةٌ خطيرة، قارون حينما خرج على قومه بزينته:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79))

(سورة القصص)

من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ مِن حتفه وهو لا يدري:

اسأل نفسك هذا السؤال: أنت لِمنْ تقول: هنيئاً له ؟ ألصاحب البيت الفخم ؟ أم لصاحب الدخل الكبير ؟ أم لهذا الذي يعرف الله عزّ وجل وعرف آخرته واستقام على أمره ؟ من الذي يشدُّك إليه ؟ من الذي يكون ملء سمعك وبصرك أأهل الحق أم أهل الدنيا ؟ هل تقول مثلما قالوا لقارون:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص)

الدنيا زائلة، خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ مِن حتفه وهو لا يدري:

(يَا وَيْلَتَى (28))

(سورة الفرقان)

شتان يوم القيامة بين من يأخذ كتابه بيمينه ومن يأخذه بشماله:

شتان بين أن تقول يوم القيامة:

(فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ(19))

(سورة الحاقة)

تفضلوا انظروا، طالب جاء إلى البيت وبيده الجلاء كلّ علاماته بدرجة جيد، يكاد يطير من الفرح، الفوز رائع جداً، النجاح مسعد:

(فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ(19)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ(20))

(سورة الحاقة)

توقّعت هذا، حينما كنت في الدنيا كنت أتوقع هذا اليوم، أتوقع هذه الساعة، كنت أُعِدُّ للموت عُدَّته، أعد للقاء الله العُدَّة:

(فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

معرفة الله لا تعني الإيمان به لكن المؤمن من استقام على أمر الله:

الإنسان أما عرف الله عزّ وجل ؟ بلى عرف أن له رباً، والشيطان قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ (82))

(سورة ص)

يعني أن الشيطان عرف الله، وأقسم بعزّته، ولكنه عصاه. فالمعرفة لا تعني الإيمان، اسأل الآن ألف مليون مسلم: مَن خلق السماوات والأرض يقولون لك: الله، ليس هذا هو الإيمان:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

يجب أن تؤمن بالله سبحانه وأنه هو العظيم، لأنك إذا آمنت بالله العظيم استقمت على أمره، وعرفت ما عنده من عطاء، وما عنده من عذاب فيما لو حدت عن أمره:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ (29))

(سورة الفرقان)

أبعَدَني عن طريق الحق، أبعدني عن سُنَّةِ النبي عليه الصلاة والسلام، الذكر هو النبي، والذكر هو القرآن، أبعدني عن كتاب الله، قال: هذا الكتاب لا يصلح لهذا الزمان.

أدلة على أن القرآن الكريم يصلح لكل زمان ومكان:

كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في نظر بعض الناس لا يصلح لهذا الزمان لكن الله يقول:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(9))

(سورة الإسراء)

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يحزن قارئ القرآن))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال]

وقال أيضاً:

((من جمع القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت))

[الجامع الصغير عن أنس]

وقَالَ:

((اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَلا يَغُرّنّكُمْ هَذِهِ الْمَصَاحِفُ الْمُعَلّقَةُ فَإِنّ اللّهَ لا يُعَذّبُ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ))

[سنن الدارمي عن أبي أمامة الباهلي]

يقول لك: هذا الكتاب لا يصلُحُ لهذا الزمان، جعله وراءه ظِهْرِيًّا، هجره، جعله خارج اهتمامه، قرأه في المناسبات، استمع إليه في أيام التعزية، لم يعبأ به، لم يَحْمِلْهُ محمل الجِد، لم يقرأ هذا القرآن على أنه كلام الله، وأن وعده واقع ووعيده واقع، قرأه هكذا تبرُّكاً به:

(لَقَدْ أَضَلّنِي عَنِ الذّكْرِ (29))

(سورة الفرقان)

ما دمنا أحياء وباب التوبة مفتوح فكل شيء في الدنيا يصحح:

واللهِ إني لأشعر أن هذا الإنسان يوم القيامة الذي يقول هذه الكلمات يتفطّر قلبه دماً:

(لَقَدْ أَضَلّنِي عَنِ الذّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

وها نحن أحياء والحمد لله، والباب مفتوح، باب التوبة مفتوح، باب المعرفة مفتوح، كل شيءٍ في الدنيا يصحح:

((عبدي لو استقبلتني بملء الأرض ذنوباً لاستقبلتك بمثلهن مغفرة ولا أبالي))

[الطبراني عن أبي الدرداء]

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعًا(53))

(سورة الزمر)

ما دام الإنسان فيه قلب ينبض فكل شيء يُحَلّ، الصُلْحَة بلمحة، إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض: أن أيتها الخلائق هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

الشيطان يخذل الإنسان في أحرج الأوقات:

قال تعالى:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

المفسِّرون يقولون: هذا قول الظالم، أما قوله تعالى:

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

هذا كلام الله عزّ وجل، وليس كلام هذا الظالم:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

الوقف أولى بعد كلمة جاءني، ومن ثمّ يقول الله عزّ وجل معقباً على هذا الاعتراف، على هذا الندم الذي يَدْمَى له القلب، يقول الله عزّ وجل:

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

خذله في أحرج الأوقات.

ليس للشيطان سلطان على أحد:

قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ(22))

(سورة إبراهيم)

أي ضحكت عليكم، مَنَّيْتُكُم:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي(22))

(سورة إبراهيم)

مستحيل أن يكون للشيطان على الإنسان سُلطان، مستحيل، هذا لا يكون، إنسان يرتدي أجمل ثياب، وقع في حفرة مياه آسنة سوداء، فتوجَّهَ إلى المخفر ليشتكي على أحد الناس، فقال المحقق: هل دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال له: لا، قال: أمسك يدك ووضعك بها ؟ قال له: لا والله، قال: شهر عليك سلاحاً وأرغمك أن تنزل فيها ؟ قال له: لا والله، بل قال لي: انزل فنزلت، إذاً هذا الإنسان مجنون، وهكذا الشيطان:

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ(22))

(سورة إبراهيم)

قال تعالى:

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

أدلة من القرآن الكريم عن منزلة المؤمن في الجنة يوم القيامة:

أما المؤمنون:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(8))

(سورة التحريم)

المؤمنون:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(74))

(سورة الزمر)

وقال:

(هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(52))

(سورة يس)

والله الذي لا إله إلا هو، يغشى على قَلْب المؤمن ساعة يلقى الله عزّ وجل سعادةٌ لا توصف، لأنّ الذي وُعِدَ به قد تحقق، وأن الذي خافه قد نجّاهُ الله منه، وأن الدين الذي آمن به في الدنيا هو حقيقةٌ، هو كل شيءٍ في الآخرة.

قد تكون في الأرض إنساناً عادياً لكنّك علمٌ في السماء:

لذلك هذا المستقيم على أمر الله، هذا الذي يعرف الله في الدنيا من ملوك الدار الآخرة، ملك ولكن هو من ملوك الدار الآخرة.

النبي عليه الصلاة والسلام دخل عليه أحد أصحابه فهشّ له وبَش وقال: " أهلاً بمن خبَّرني جبريل بقدومه "، قال: " يا رسول الله أو مثلي ؟!! " من أنا ؟ قال:

" نعم يا أخي خاملٌ في الأرض علمٌ من السماء ".

وقد تكون أنت في الأرض إنساناً عادياً، لكنّك علمٌ في السماء، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: ابتغوا العزة عند الله.

البطل الموفّق يبحث عن مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، يبحث عن رتبةٍ عند الله، يبحث عن مكانةٍ عليّةٍ عند الله، لأن الله هو كل شيء: عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت.

يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك:

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[من مختصر تفسير ابن كثير]

الدين كل شيء وخلاف الدين لا شيء:

أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد، من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، فالدين كل شيء، وخلاف الدين لا شيء، سنواتٌ معدودات تمضي، حينما يرى الإنسان أبواب النار تفتح له يقول: لم أر خيراً قط، ينسى كل شيء.

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

لئلا تقع هذه الندامة، لئلا يقف الإنسان هذا الموقف العصيب، لئلا يعض على يديه، لئلا يقطّع يديه، يقطّع أصابعه ندماً، يجب أن يعرف الله في الوقت المناسب، والمعرفة وحدها لا تكفي، العلم ما عُمِلَ به، فإن لم يعمل به كان الجهل أفضل منه، أنت حينما تأتي لهذا المسجد وتستمع إلى تفسير كلام الله، فأنت تضاف إلى مسؤوليّاتك مسؤوليةٌ جديدة، هذا علمٌ يعدُّ حجةً على كل من استمع إليه، أما إذا عملت به أصبح حجةً لك، إذا استمعت إليه حجةٌ عليك، عملت به أصبح حجةً لك.

القرآن يقيّدَ المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه:

قال تعالى:

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان)

هجروه، جعلوه وراء ظهورهم، هناك مَن يقرؤه وقد هجرَه، طبعاً تقرؤه ولا تقيم أحكامه، ولا تحلُّ حلاله، ولا تحرم حرامه، فهذا أحد أنواع هجرانه، تقرؤه وتقيم حلاله وحرامه، ولكن لا تحتكِمُ إليه، لا بدَّ من أن تحتكم إليه لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ(36))

(سورة الأحزاب)

تنتهي حرّيتك عند معرفة الله، الإيمان قيدُ الفَتك، أنت حر قبل أن تعرف الله، فإذا عرفت الله، عرفت أن لكل مخلوقٍ رَبّاً، أن هذا الإله العظيم سيحاسبك عن كل مخلوقٍ ظلمته، عن كل مخلوقٍ اعتديت عليه، عن كل مخلوقٍ أكلت حقه، لذلك تنتهي حريتك ـ كما يقولون ـ عندما تبدأ حريات الآخرين، أما القول الآخر وهو الأصح: تنتهي حريتك حينما تعرف الله، لأن القرآن قيَّدَ المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه، وحال بينه وبين أن يهلك فيما يهوى، والإيمان قيد الفَتك.

المؤمن هو من يقرأ القرآن ويعمل به ويتدبر أحكامه ويحتكم إليه ويجعله دستوراً له:

قال تعالى:

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان)

فإذا تركت قراءته فقد هجرته، إذا قرأته وتركت العمل به فقد هجرته، إذا قرأته وعملت به وتركت الاحتكام إليه فقد هجرته، إذا قرأته وتركت تدبُّرَهُ فقد هجرته، يجب أن تقرأه، ويجب أن تتدبَّرَهُ، ويجب أن تعمل به، ويجب أن تحتكم إليه، ويجب أن يكون دستوراً لك، عندئذٍ تنجو من هذا الوصف.

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

ربنا عزّ وجل جعل للدعوة خصوماً حتى يميز الصادق لأن الصادق هو من يصمد للنهاية:

شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يكون لأهل الحق انطلاقاً من الأنبياء صلوات الله عليهم وحتى أقل الدُعاة أعداء، شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يكون لكل نبيٍ عدواً من المجرمين، ما حكمة ذلك ؟ لو أن طريق الدعوة إلى الله خاليةٌ من الخصوم، والمعارضين، وأهل الباطل الذين يكيدون للحق، لو أن طريق الدعوة إلى الله طريقٌ محفوفةٌ بالورود والرياحين، طريقٌ سهلةٌ ممهّدةٌ كلُّها مسرّات، لدعا إلى الله من هَبَّ ودَبْ، بعضهم صادق، أقلهم هو الصادق وأكثرهم كاذب، ولكن حينما تكون لهذه الدعوة عقباتٌ

كأداء، وخصومٌ أشدّاء، ومخاوف وتبعات لا يصمد فيها إلا الصادقون، فلو مناقصة مثلاً ـ مناقصة بألف مليون ـ لو أن كل إنسان له الحق أن يدخل فيها بطابع مالي من فئة المئة وخمسة وعشرين قرشاً، لقدّمت طلباتٌ لا تعد ولا تحصى، وكان أكثر هؤلاء الذين يقدّمون الطلبات لا يملكون مصاريف هذه المُناقصة، لماذا يجعل مبلغٌ ضخمٌ مبلغ تأمين ؟ حتى يدخل الإنسان الجاد فقط هذا مثل، لو كان الاشتراك من دون تأمين، لكان كل إنسان يقول لك: اجرّب حظي ثم يقدم طلباً، قد ترسو عليه المناقصة وهو ليس أهلاً لتنفيذ هذا العمل، ولكن يوضع مبلغٌ كبير كعقبةٍ من يجتازها فهو جادٌ في تأمين هذا الطلب، هذا مثل.

الصعوبات التي يلقاها المؤمن من تقدير عزيزٍ حكيم ليظهر المستقيم ويسقط المنحرف:

خطر الآن في بالي، ربنا عزّ وجل جعل للدعوة خصوماً، أعداءً ألِدّاء، جعلها محفوفةً بالمخاطر، جعلها طريقاً كلُّها أشواك، طريقاً فيها أكمات، فيها حُفَر، فيها مطبّات، من يصمد فيها ؟ الصادقون، لذلك قال الله عزّ وجل:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّه(39))

(سورة الأحزاب)

هؤلاء الصادقون:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا(24))

(سورة السجدة)

وقال:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا(124))

(سورة البقرة)

متى جعله إماماً ؟ بعد أن أتمّ هذا الامتحان الصعب:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي(108))

(سورة يوسف)

وقال:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

فهذه المخاطر، وهذه الصعوبات، وهؤلاء الخصوم، وهؤلاء الأعداء الألدّاء وما يحيكون، هذا كلّه من تقدير عزيزٍ حكيم، حكمة الله شاءت ذلك ليظهر الصادقون ويسقط الكاذبون، ليظهر المستقيمون ويسقط المنحرفون:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ (31))

(سورة الفرقان)

لابدّ من أن يبتلى الإنسان ليظهر على حقيقته ويرقى إلى الله عز وجل:

الإنسان لا يرقى إلى الله عزّ وجل إذا كانت الأمور كما يحب ويشتهي، وسبيلها سهل جداً، ولكن لا بدّ من أن يبتلى ليظهر على حقيقته:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

لا بدّ من الابتلاء، لا بدّ من أن يكون الجزاء على قدر الابتلاء، الإمام الشافعي سُئِل: أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء ؟ فقال رضي الله عنه: **" لن تُمَكّن قبل أن تبتلى ".**

النبي عليه الصلاة والسلام ابتلي، ابتلي بالطائف، فقد لاقى من الصعوبات ما لاقى، أُوذي وما أوذي أحدٌ مثل ما أُوذي النبي عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك صبر، حينما قال في الطائف:

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي وهواني على الناس، يا ربّ المستضعفين إلى من تكلني، إلى عدوٍ ملّكته أمري، إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولك العُتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

هذا ابتلاء:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

هذا كلامٌ من القلب.

الله عزّ وجل سَخّرَ الخصوم والأعداء ليرقى المؤمن بصبره وصدقه:

أيها الأخوة الأكارم، لن تنال ما عند الله ـ وما عند الله شيءٌ كبير ـ لن تنال ما عند الله إلا بالابتلاء، فإذا صبرت فقد نجحت، وإذا قلت: لا أستطيع، لا قَبِلَ لي بهذا، فقد رسبت.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

من السهولة بمكان أن يتمكن الله عزّ وجل من أن يقمع كيد الكفار:

(ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ(4))

(سورة محمد)

من أجل أن ترقى أنت، فالإنسان لا يتأفف بالمصائب، لا يتأفف بالخصوم، لا يتأفف بالأعداء، هؤلاء بتقدير الله عزّ وجل سَخَّرَهُم الله ليرقى المؤمن بصبره وصدقه، أو ليظهر صدق الصادق وكذب الكاذب.

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

يهديك إليه، وينصرك على خصومك بعد أن يَظْهَر صدقك، وبعد أن يظهر إخلاصك، وبعد أن تظهر تضحياتك، بعدئذٍ ينصرك الله على أعدائك، فالنبي عليه الصلاة والسلام لاقى ما لاقى، الهجرة وحدها ابتلاء، خرج من مكة متجهاً إلى غار ثور، أعد عدةً، وخصوم كثر تحلقوا حوله، وكادوا أن يصلوا إليه، وقال قولته الشهيرة:

((يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين:

الإنسان لا تبدو حقيقة إيمانه وصبره في الرخاء، بل تبدو في الشدة، الإنسان لا يبدو أمره واضحاً في الغنى بل يبدو في الفقر، يبدو في الضعف، قد تبتلى بالضعف فتكون مستضعفاً، وقد تبتلى بالفقر، وقد تبتلى بالخوف، وقد تبتلى بنقصٍ في الأموال والأولاد، من أجل أن تقول كلمة: يا رب لك الحمد أنا راضٍ، عندئذٍ فقط نجحت.

هذا الذي كان يطوف حول الكعبة ويقول: " يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ " كان وراءه الإمام الشافعي قال: **" يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك "**. قال: " من أنت يرحمك الله ؟ " قال: " أنا محمد بن إدريس "، قال: " كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه ؟ " قال: **" إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله".**

البطولة أن ترضى في الشدة، أن ترضى مع إدبار الدنيا، الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين، فنحن بالرخاء لا نواجه أيّ امتحان.

هل سمعتم أن أحداً يمتحن مركبةً بالنزول، المركبة بلا محرك تسير، ولكن المركبات تُمتحن بالصعود، والإنسان أحياناً تكون حياته طريقاً سهلةً، فجأةً تصبح الطريق صاعدةً، جاء الامتحان، أعد له الإيمان، فالبطل بالصعود، البطل بالشدائد، البطل في المكاره، البطل مع الخصوم، البطل مع الضغوط، البطل عند إدبار الدُنيا، أما في الرخاء فكلنا شاكرون لله عزّ وجل، كلنا سعداء، لكن ماذا تقول إذا جاءت الشدة؟ إلا أن الإنسان ليس له أن يطلب الابتلاء، بل سلوا الله العافية، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

فكان قوله أبلغ قول:

((لكن عافيتك أوسع لي))

قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

النبي عليه الصلاة والسلام أمِرَ أن يتوكل على الله لأنه على الحق المبين:

ربنا عزّ وجل طمأن النبي عليه الصلاة والسلام فقال له:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

هذا للقياس، إذا كان أحدنا على الحق فعليه أن يتوكّل على الله، لأن الذي على الباطل لا يستطيع أن يتوكّل على الله، لأن في ذلك وقِاحَةٌ وسوء أدب، إذا كان الإنسان على الباطل، إذا كان معتدياً، إذا كان منحرفاً، إذا كان مخالفاً، إذا كان عاصياً، لا يستطيع أن يتوكل على الله، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقد أمِرَ أن يتوكل على الله لأنه على الحق المبين:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

سيدنا هود قال:

(مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (09-13): تفسير الآيات 32 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-05-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة الفرقان.

الكفار طعنوا بنبوة النبي من خلال ادعائهم أن القرآن ليس كلام الله:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا(34))

(سورة الفرقان)

الكفّار أرادوا أن يطعنوا بنبوّة النبي عليه الصلاة والسلام من خلال تكذيبهم له وادعائهم أن هذا القرآن ليس كلامَ الله، هم يكذّبون أن يكون هذا القرآن كلام الله، فمن افتراءاتهم، أو من مطاعنهم أن هؤلاء الكفّار يرون أن هذا القرآن لو أنه كلام الله لأُنْزِلَ على النبي عليه الصلاة والسلام دفعةً واحدة، مرّةً واحدة بسوَرِهِ، وآياته، وموضوعاته، من أين جاؤوا بهذا الافتراء ؟ من الذي سمح لهم أن يطعنوا هذا المطعن، الحقيقة أنهم توهّموا أن التوراة أُلقيت على سيدنا موسى على شكل ألواح والإنجيل كذلك، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام رسولاً من عند الله فينبغي أن يُنَزَّلَ عليه القرآن جملةً واحدة، وما دام قد أنزل هذا القرآن مُنَجَّماً في ثلاثة وعشرين عاماً فهذا من افتراءات النبي عليه الصلاة والسلام وليس كلام الله، هذا مجمل دعوى الكفّار، أو هذه فريةٌ افتراها الكفّار على النبي عليه الصلاة والسلام.

الكافر هو الكافر نموذجٌ متكرّرٌ في كل زمانٍ ومكان:

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى ردّ عليهم فِرْيَتَهُم ومطعنهم فقال:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

بالمناسبة هناك قولٌ ثالث هو أن مِلّة الكفر واحدة، أي أن الكافر هو الكافر في كل زمانٍ ومكان، تصرُّفاته، أفكاره، طريقته، طعنه، تشكيكه، نموذجٌ متكرّرٌ في كل زمانٍ ومكان، ربنا سبحانه وتعالى قال:

(كَذَٰلِكَ (32))

(سورة الفرقان)

لكنّه بَيْن كلمة:

(لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

وبين كلمة:

(كَذَٰلِكَ (32))

(سورة الفرقان)

هناك وقفٌ جائز، ومعنى الوقف الجائز أي أن المعنى ينتهي عند كلمة واحدة.

هذه الآية أصلٌ في الطريقة التربوية في التعليم:

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

وقف:

(كَذَٰلِكَ (32))

(سورة الفرقان)

أي نَزّلناه منجّماً، نزّلناه منجّماً كذلك:

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (32))

(سورة الفرقان)

كيف ؟ الشيء الذي تُعَلِّمُنا إيّاه هذه الآية، هذه الآية أصلٌ في الطريقة التربوية في التعليم، فأنت إذا أردت أن تُعَلِّم علم النحو دفعةً واحدة بكل أبوابه، وفروعه، وأقسامه، هذه المعلومات لا تثبت في نفس الطالب، لكن هذا الطالب إذا واجه مشكلةً في كتابة نصٍّ، أو واجه مشكلةً في تحريك كلمةٍ، أو واجه مشكلةً في صياغة جملةٍ، كُلّما واجه مشكلةً وشعر أنه في أمسّ الحاجة لحلّ هذه المشكلة جاءته القاعدة النحويّة التي تُبَيّن له الصواب، إذا جاءت القواعد عَقِبَ مشكلاتٍ وقضايا يعانيها الطالب فإن هذه القواعد تكون ثابتة، هذا على مستوى التعليم.

على مستوى تعليم الحِرْفَة، حينما يأتي معلِّم الحرفة ويعلِّم الطالب القواعد النظريّة في هذه الحرفة، أغلب الظن أن هذه القواعد لا تثبت، ولكن حينما يواجه المُتَعَلِّم مشكلةً، أو قضيّةً، أو أزمةً ولا يدري لها حلاً يأتي معلِّم الحرفة في الوقت المناسب، وهو على أحرّ من الجَمر، طالب العلم الذي تعلِّم هذه الحرفة

على أحرٍّ من الجمر لتعلُّم حلّ هذه المعضلة، أو تذليل هذه المشكلة، يأتي عندئذٍ معلِّم الحرفة، ويوضِّح للطالب القاعدة في حلّ هذه المشكلة، وبذلك فإن هذه القاعدة لن تُنسَى أبداً.

ما دام القرآن لم ينزل دفعةً واحدة فهذه هي الحكمة المطلقة وهذا هو الخير المطلق:

كلكم يعْلم أنّ من خلال تعلُّمه، أو من خلال تدريبه، أو من خلال مواجهته للمشكلات إذا جاءت القاعدة، أو جاء الحل، أو جاء القانون، أو جاء التوجيه الصحيح على أثر مشكلةٍ، أو أزمةٍ، أو قضيَّةٍ، أو إشكالٍ فإن هذا الحَلّ يثبت في النفس ولا تنساه النفس أبداً.

فالنبي عليه الصلاة والسلام ولله المثل الأعلى هو الذي يعلِّمنا كيف نُعَلِّم، والنبي عليه الصلاة والسلام سيّد المعلِّمين قال:

((وإنما بعثت معلما))

[أخرجه ابن ماجه عن ابن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[رواه أحمد والبيهقي عن أبي هريرة]

فكلّما ظهرت مشكلة في مجتمع النبي وأصحابهِ ومجتمع المؤمنين، وأقلقت المؤمنين لأنهم لا يدرون لها حلاً، وجعلتهم يقلقون ويحارون، يأتي تنزيل الله عزّ وجل، تنزيل القرآن الكريم في الوقت المناسب لتكون هذه الآية شفاءً لما في الصدور.

إذاً أنت إذا أردت أن تُعَلِّم فانتهز المُناسبات، علِّم من خلال الممارسات، من خلال المشكلات، من خلال المُعضلات، من خلال الأزمات، تأتي القاعدة وكأنها البَلسم الشافي، يأتي القانون وكأنّه الحل السديد، كذلك ربنا سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى شاءت حكمته.

وبالمناسبة فإنّ الإنسان أحياناً يسلك سلوكاً غير حكيم لأنه جاهل، أو لأنه واقعٌ تحت ضغطٍ قوي، أو لأنه واقعٌ تحت إغراءٍ نفسي، الضغط الضاغط، أو الإغراء الجاذب، أو الجهل القاطع يحمله على تَصرُّفٍ غير حكيم، هذا لا ينطبق على الله عزّ جل، أفعال الله كلُّها حكيمة، الذي شاءه الله وقع، والذي وقع شاءه الله، الذي أراده الله وقع، والذي وقع أراده الله، وإرادة الله عزّ وجل متعلِّقةٌ بالحكمة، والحكمة متعلِّقةٌ بالخير المُطلق، فما دام الشيء قد وقع فقد أراده الله، وما دام الله قد أراده إرادة الله حكيمةٌ قطعاً، وحكمة الله متعلِّقةٌ بالخير المطلق، إذاً ما دام القرآن لم ينزل دفعةً واحدة، ولا جملةً واحدة فهذه هي الحكمة المطلقة، وهذا هو الخير المطلق، وإذا أردت أن تُعَلِّم فاسلك هذا السبيل.

لا يعترض على فعل الله إلا أحمق أو جاهل أو غبي:

سمعت أن بعض كليّات الهندسة في بعض البُلدان يبدأ الطالب تعلُّم الهندسة في الميدان، ميدان البناء، ومعه مُدَرِّبه، فكلّما واجه قضيّةً يأتي المدرّب بالقاعدة، إنّ هذه القاعدة لن تُنْسَى أبداً، لذلك في بعض اتجاهات تدريس النحو في التعليم ألا يُعْطَى النحو كدرسٍ مستقل، يُعطى من خلال النَص، فكلّما واجه الطالب مشكلةً في قراءة الكلمة، أو في إعرابها، أو في تحريكها، أو في كتابتها، أو في صياغتها، أو في تصريفها يأتي المدرّس ويعطي الطالب هذه القاعدة.

إذاً هذه الآية أصلٌ في أصول التربية:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

علماء العقيدة يقولون: إن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، نَزَلَ، ونُزِّل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام مُنَجَّماً في ثلاثة وعشرين عاماً، الفرق بين نَزَلَ ونَزّل كالفرق بين كَسَرَ وكَسَّرَ، وقَطَعَ وقَطَّعَ، قَطَعَ الشيء قَطَعَهُ مرّةً واحدة، أما قَطّعه أي بالغ في تقطيعه قطعاً صغيرة، كَسَرَ الإناء شيء، وكَسَّرَهُ شيءٌ آخر، نَزَلَ القرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثمّ تَنَزَّلَ على قلب النبي عليه الصلاة والسلام مُنَجَّماً في ثلاثة وعشرين عاماً:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

فالذي وقع هو الخير المطلق، والحكمة المطلقة، إذاً لا يعترض على فعل الله إلا أحمق، لا يعترض على فعل الله إلا جاهل، لا يعترض على فعل الله إلا غبي، قال عليه الصلاة والسلام:

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند أحمد عن أبي الدرداء]

لأن الأمور تجري بتقدير عزيزٍ عليم حكيمٍ خبير.

الله سبحانه وتعالى حبّاً بنا وتكريماً لنا يعلِّل لنا أفعاله:

الوقف عند كلمة (جملةً واحدة):

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

هناك جيم بحرف صغير فوق آخر كلمة واحدة، وتعني بالوقف جائز، الآن ردّ الله عليهم فقال:

(كَذَلِكَ (32))

(سورة الفرقان)

أي كذلك أنزلناه مُنَجّماً، أنزلناه منجّماً كذلك، كلاهما صحيح، ولكن لماذا ؟ ربنا سبحانه وتعالى لا يحتاج وهو الخالق العظيم أن يعلِّل للبشر أفعاله، ولكن من كرمه ولطفه وحبّه لهذا الإنسان قَرَنَ أفعاله بالتعليل، قال تعالى:

(وَأَقِمْ الصّلاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(19))

(سورة العلق)

آيات مباركة من القرآن الكريم يعلل الله لنا فيها بعض أفعاله:

قال تعالى:

(إنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ(45))

(سورة العنكبوت)

هذا تعليل:

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ(183))

(سورة البقرة)

قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهّرُهُمْ وَتُزَكّيهِمْ بِهَا وَصَلّ عَلَيْهِمْ إنّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(103))

(سورة التوبة)

هذا كلّه من باب التعليل، والله سبحانه وتعالى حبّاً بنا وتكريماً لنا يعلِّل لنا أفعاله، وها هو ذا ربنا سبحانه وتعالى في هذه الآية يعلِّل أفعاله، قال تعالى:

(كَذَلِكَ لِنُثَبّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (32))

(سورة الفرقان)

هذه اللام لام التعليل.

علينا تعلم اللغة العربية لنفهم كلام الله فهماً دقيقاً لا فهماً ضبابياً:

يجب أن تعرفوا ماذا تعني لام التعليل، فأنا أقول مثلاً: أدرس لأنجح، آكل لأعيش، هذه علّة الطعام أن أعيش ؛ لكي أبقى مستمرّاً في الحياة، أدرس لأنجح، علّة الدراسة النجاح، فإذا قال الله عزّ وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا(12))

(سورة الطلاق)

هذه الآية دقيقة جداً، هذه لام التعليل، أي أن عِلّة خلق السماوات والأرض أن تعلم:

(أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

إذا قال الله عزّ وجل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

أي أن علّة وجودك على هذه الأرض أن تعبده، فإذا تعلّمت اللغة العربية فمن أجل أن تفهم كلام الله فهماً دقيقاً لا فهماً ضبابياً، هناك فهمٌ عريض، فهم ضبابي، فهمٌ غائم، وهناك فهمٌ دقيقٌ دقيق، فسيدنا عمر رضي الله عنه يقول: " تعلّموا العربيّة فإنّها من الدين."

إذا أردت أن تُثَبّت حقائق فاجعلها عقب ممارسات وتجارب:

هذه طُرْفَة: شخص أراد أن يُحْرِجَ عالماً فقال له: تزعم أنت أنّ في القرآن كل شيء لقول الله عزّ وجل:

(مَا فَرّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ(38))

(سورة الأنعام)

قال: نعم، فقال ذاك الشخص: فمدُّ القمح، كم من الأوزان يُصنَع منه خبزٌ ؟ فقال العالم: نعم هذه جوابها في كتاب الله، قال السائل: أريد آية ؟ نعم قال العالم: أمهلني نصفَ ساعة لأجيبك، فغاب العالم نصف ساعة ثم عاد، وقال له: مدُّ القمح يصنع من الخبز كذا وكذا بالوزن الدقيق، فقال الشخص السائل: كيف عرفت ذلك، وأين الآية ؟ قال: لقوله تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ(7))

(سورة الأنبياء)

أنا قد سألت أهل الذكر، يعني أحد عمال المخابز فأجابني، والله تعالى يقول:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ(7))

(سورة الأنبياء)

قال ربنا سبحانه وتعالى:

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ(38))

(سورة الأنعام)

أنا وقفت هذه الوقفة عند اللام:

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (32))

(سورة الفرقان)

أي إذا أردت أن تُثَبِّت هذه الحقائق فاجعلها عقب ممارسات، عقب تجارب، عقب مشكلات، عقب مُعضلات، عندئذٍ وَضِّح:

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (32))

(سورة الفرقان)

تنزيل القرآن منجّماً أي هناك تناسق وخطّة وتنظيم ومنهج تسير عليه الآيات:

لكن أيها الأخُ الكريم، لا يذهبنّ بك الظن إلى أن القرآن إذا نزل منجّماً فلا رابط بين آياته، قد تأتي بموضوعاتٍ متباينة مختلفة بحسب الوقائع والأحداث، والظروف والملابسات، فإذا جمعتها في كتاب لم ترَ بينها تناسقاً، ولا موضوعاً مشتركاً، ولا تنظيماً، ولا مقدّمة، ولا عرضاً، ولا خاتمة، هل تظنّ أن الله عزّ وجل إذا نزّل القرآن منجّماً يعني أنه جعله متفرّقاً، وجعله مشتّتاً، مبعثراً، وجعل الآيات ليس بينها رابط ؟ لا، ومع أنه نُزّل منجّماً، ومع أنه نزّل مفرّقاً، ومع أنه نزّل بحسب الوقائع، وبحسب الظروف، وبحسب المناسبات، وبحسب المشكلات، لكن جبريل عليه السلام كان يقول للنبي صلّى الله عليه وسلّم: " ضع هذه الآية في مكان كذا وكذا، وضع هذه الآية في مكان كذا وكذا ".

وترتيب الآيات ترتيبٌ توقيفي، أي أن الله سبحانه وتعالى رَتَّبَ هذه الآيات، لذلك فإن نزول القرآن منجّماً ليس على حساب وحدة الموضوع، ولا على حساب تناسق الآيات، ولا على حساب التنظيم، ولا على حساب سير الآيات وفق خطّةٍ محكمةٍ، إن تنزيل القرآن منجّماً يعني في الوقت نفسه أن هناك تناسقاً، وارتباطاً، وخطّةً، وتنظيماً، ومنهجاً تسير عليه الآيات والدليل:

(كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32))

(سورة الفرقان)

من المعاني السياقيّة للترتيل هنا، كيف تقول: رَتّل، من معاني الترتيل في هذه الآية بالذات أن آياته جاءت متناسقةً يأخذ بعضها برقاب بعض، وكلّما تَعَمَّقت في فهم القرآن رأيت أن السورة تعالج موضوعاً موَحّداً، وهذا الموضوع مطروقٌ من زوايا متعدّدة، وهذا الموضوع فيه مقدّمةٌ، وفيه عرضٌ، وفيه خاتمة، وهذا الموضوع يَطْرُقُ محوراً أساسياً واحداً.

إذا تدبّرت القرآن ووقفت عند آياته متأمِّلاً ترى الترابط في الآيات:

إذاً:

(كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32))

(سورة الفرقان)

لا بدَّ أن تجد الإحكام، والترابط، والتسلسُلَ، وأن تأخذ كل آيةٍ برقبة أختها في كتاب الله، ربَّما لا يبدو لك إذا قرأت القرآن قراءةً ظاهرة، أو قراءةً سريعة، أو قراءةً غير متأنيّة ربَّما لا يبدو لك هذا الترابط، ولكن إذا تدبَّرت القرآن ووقفت عند آياته متأمِّلاً يجب أن ترى الترابط في الآيات، وقد توضَّح لكم بعض هذا الترابط في سورة النور ؛ كيف أن الله سبحانه وتعالى حدَّ الحدود، ووضع البدائل، ونظَّم إظهار الزينة، وأمر بغضِّ البصر، وجعل الزواج هو الطريق المشروع، هناك تسلسل دقيق جداً، من يقرأ القرآن هكذا كما قال عليه الصلاة والسلام، قال:

((أنتم تقرؤونه هكذا وأما أنا فأعَقِّله))

النبي عليه الصلاة والسلام حينما سألوه مرَّةً: " يا رسول الله كيف تحفظ القرآن ؟ " من منَّا يستطيع أن يسمع السورة مرة واحدة فيحفظها ؟ قال: " أنتم تقرؤونه هكذا وأما أنا فأعقِّله ". حينما أتدبَّر الآيات أعقلها وأحفظها، لذلك هذا الحديث أيضاً توجيهٌ تربوي إلى أنَّك إذا أردت أن تحفظ فدقِّق في معاني الآيات.

عندما تفهم المعنى الحقيقي للآية تستطيع حفظها بسرعة وبسهولة:

قال تعالى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ (118))

(سورة المائدة)

أحدهم نسي تتمة الآية، فقال: إنك أنت الغفور الرحيم ولم يرَ بأساً في قولِهِ، لكن التتمة ليست هكذا بل إنها:

(فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118))

(سورة المائدة)

قد يظن الإنسان أن تتمة هذه الآية: فإنك أنت الغفور الرحيم، ولكنها في القرآن:

(فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118))

(سورة المائدة)

أي يا رب ما من مخلوقٍ يعفو إلا وقد يُحَاسَب، أما أنت إذا عفوت فلا رادَّ لحكمك، ولا مُعَقِّب على

عفوك، وأنت عزيزٌ لا ينال جانبك إذا عفوت، ولكن الإنسان مهما علت رتبته إذا عفا قد ينال جانبه، قد يُحاسَب لماذا عفوت عنه ؟ لماذا طويت هذه الضريبة عنه ؟ قد يُحَاسَب، إلا أن الله سبحانه وتعالى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118))

(سورة المائدة)

إذا عفوت وإذا غفرت فلا أحد يستطيع أن ينال جانبك، لو أنك فهمت هذا المعنى وكنت تحفظ هذه الآية لا تقل: فإنك أنت الغفور الرحيم، بل قل:

(فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118))

(سورة المائدة)

هذا هو تعقيل الآيات.

الحكمة من تنزيل القرآن الكريم منجماً:

أحياناً هذه الدعوة التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام لابدَّ من أن تواجه الصعوبات، لا بدَّ من أن تواجه العَقَبات، لا بدَّ من أن تواجه الخصوم، لا بدَّ من أن تواجه الكَيْد، فكيف ربنا سبحانه وتعالى سيثبّت قلب النبي ؟ لو أن الله عزّ وجل أنزل هذا القرآن على قلب النبي دفعةً واحدة، جملةً واحدة ؟ ثمّ واجَهَ النبي صعوبةً في أُحد، أو صعوبةً في الخندق، أو صعوبةً في فتح مكّة، من سيثبّته ؟ أما إذا نزل هذا القرآن منجّماً فإذا أشرف النبي عليه الصلاة والسلام على معركةٍ من المعارك بشّره الله ببعض الآيات، بأن مكّة سوف تُفتَح عليكم قريباً، فهذه بشارة، وهذا تثبيت.

إذاً من حكمة الله عزّ وجل في تنزيل القرآن بشكلٍ منجّم أن الله عزّ وجل كلّما ظهرت مشكلة، أو صعوبة، أو معارضة، أو صدام مسلّح بين النبي وبين المشركين، كلّما ظهرت أزمةٌ مستعصية يأتي القرآن ليطمئن النبي عليه الصلاة والسلام، وليثبّت قلبه، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33))

(سورة الفرقان)

أحياناً يَدّعي الكفّار شيئاً باطلاً، فيأتي القرآن فيدمغ هذا الباطل ويُلغيه بآيةٍ محكمة:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ(276))

(سورة البقرة)

انتهى الأمر، فكل الفلسفات حول الربا، وكل الدعاوى الباطلة، وكل ما يُزَيِّن به هذا العمل، جاءت آيةٌ كريمة فدمغت الباطل وألغته وأزالته.

إذا أخذ الكفار آيةً وفسّروها على هواهم تأتي آيةٌ أخرى فتفسِّر هذه الآية تفسيراً صحيحاً:

إذا جاءك الكفّار بطرحٍ باطلٍ، بعقيدةٍ باطلة، بقصّةٍ باطلة:

(وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا(157)بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)

(سورة النساء)

هذه دعوى باطلة، جاءت آيةٌ محكمةٌ فأبطلتها:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ (33))

(سورة الفرقان)

معنى " مَثَل " هنا في هذه الآية أي وصفٍ، أي وصفوا السيد المسيح بأنه قُتِل، الله سبحانه وتعالى قال:

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ(157))

(سورة النساء)

هذا الوصف الباطل جاءت آيةٌ محكمةٌ فدمغته ودحضته، فإذا جاؤوا بشيءٍ من الحق ولكنّه فُسِّر تفسيراً كيفياً على هواهم، ربنا سبحانه وتعالى يأتي بآيةٍ تفسِّر آيةً أخرى ويدحض به هذا التفسير الباطل، فهناك تفاعل، كأن هناك معالجة لقضايا، هناك مشكلات تُطْرَح، هناك إجابات، هناك افتراءات، هناك آية تمحق هذا الباطل، هناك تفسير مزيّف لآية، تأتي آيةٌ أخرى فتأتي بتفسيرٍ صحيح:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33))

(سورة الفرقان)

إذا جاؤوك بالباطل جئناك بالحق، إذا جاؤوك بتفسيرٍ غير صحيح جئناك بالتفسير الصحيح، إذا أخذوا آيةً وفسّروها على هواهم تأتي آيةٌ أخرى فتفسِّر هذه الآية التفسير الصحيح:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33))

(سورة الفرقان)

تنزيل القرآن منجماً فيه تثبيت ليس لرسول الله فحسب بل لأصحابه أيضاً:

إذاً هذا القرآن الكريم لحكمةٍ بالغة نزل منجّماً، وتنجيمه يعني أنه أثبتُ في قلب النبي، وإذا ذكر الله عزّ وجل بعض الحكمة من تنزيل هذا القرآن منجّماً فليس معنى ذلك أن هذه الحكمة هي كل الحكمة ؛ بل هي بعضها، إذا نزل هذا القرآن منجّماً ففيه تثبيتٌ لأصحاب رسول الله أيضاً، واجهتهم مشكلة الإفك، كيف ثبّت الله النبي وأصحابه حينما أعلن براءة السيدة عائشة ؟ بالقرآن، إذاً تنزيل هذا القرآن منجّماً أيضاً تثبيتٌ لأصحاب النبي عليهم رضوان الله.

بسبب تنزيل هذا القرآن منجّماً صار هناك ردٌ لكل افتراءٍ افتراه الكفّار، إن افتروا شيئاً باطلاً جاء القرآن فَرَدَّ عليهم، وإن كان الافتراء على شكل تفسير، كأن يقول لك أحدهم: هذه الآية هكذا تفسيرها، مثلاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً(130))

(سورة آل عمران)

فتفسير هذه الآية كما يقول بعض أصحاب الأهواء: تنهى عن أن تأكل الربا بنسبٍ عاليةٍ جداً، فإذا أكلته بنسبٍ قليلةٍ فهذا شيءٌ مقبول من نصّ هذه الآية، هذا تفسير لا يرضي الله عزّ وجل، تأتي الآية الثانية:

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ(279))

(سورة البقرة)

هذه الآية فَسَّرت الآية الأولى، لذلك قال الله عزّ وجل في وصف هذا القرآن إنه مثانٍ، ومعنى مثانٍ أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسِّرها.

الذين يفترون على الله الكذب يستحقّون أن يحشروا على وجوههم للمبالغة في إذلالهم:

قال تعالى:

(كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33))

(سورة الفرقان)

هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب، هؤلاء الذين يدّعون أن هذا القرآن ليس كلام الله، هؤلاء الذين يزعمون أنه لو كان كلام الله لَنَزَلَ جملةً واحدة، هؤلاء:

(يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ (34))

(سورة الفرقان)

قال بعضهم: حينما يمشي الإنسان على وجهه لا يرى أمامه، وهذه صورةٌ مُجَسَّدةٌ للضلال، مَن يمشي على وجهه لا يرى أمامه فقد يقع في حفرةٍ، وقد يرتطم بحائطٍ، ومن يمشي على وجهه فهو دليلٌ أنه غارقٌ في أحزانه وآلامه، ومن يمشي على وجهه فذلك مبالغةٌ في إذلاله، فهذا الذي يفتري على الله الكذب ويدّعي أن هذا القرآن ليس من عند الله، لو تنظر إليه يوم القيامة وهو يُحْشَر على وجهه:

(الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34))

(سورة الفرقان)

شرٌ مكاناً، فالنبي عليه الصلاة والسلام ما افترى على الله عزّ وجل، إذاً هو في مقعد صدقٍ عند مَلِيكٍ مقتدر، ولكنّهم هم الذين افتروا على الله الكذب فاستحقوا هذا المكان الوضيع، واستحقّوا أن يكونوا في أسفل سافلين.

قصص الأنبياء جاءت تثبيتاً لقلب النبي عليه الصلاة والسلام و مواساة له:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35))

(سورة الفرقان)

فربنا سبحانه وتعالى يبيّن لنا بعض قصص الأنبياء أيضاً، تثبيتاً لقلب النبي عليه الصلاة والسلام، وطمأنةً له، وإيناساً ومواساةً له:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا(36))

(سورة الفرقان)

أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى إذا أراد بقومٍ سوءً فلا مَرَدَّ له، ذهب سيدنا موسى وهارون إلى فرعون فكذّبوهما، فأغرقه الله تعالى، فآمن عندئذٍ ولكن جاء هذا الإيمان بعد فوات الأوان، لذلك قال له الله عزّ وجل:

(آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس)

فعلاً نجّاه إلى الشَط ببدنه وكان لمن خلفه آية، وأكثر الروايات الصحيحة تؤكِّد أن الفرعون الذي هو مُسَجّى في بعض الأهرامات هو فرعون موسى، والذي لا يزال محنّطاً حتّى اليوم.

قال تعالى:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً(92))

(سورة يونس)

وقال:

(وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37))

(سورة الفرقان)

الله سبحانه وتعالى كَرّمَ أمّة النبي محمد فحماها ونجّاها من هلاك التدمير والإبادة:

أما نحن أمّة النبي محمد عليه الصلاة والسلام فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ(33))

(سورة الأنفال)

فكأنّ الله سبحانه وتعالى كَرّمَ أمّة النبي محمد عليه الصلاة والسلام فحماها ونجّاها من هلاك التدمير، من هلاك الإبادة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ(33))

(سورة الأنفال)

بعضهم فَسَّرَ هذه الآية: أنه ما دامت سنّتك أيها النبي في أمّتك مطبّقةً، فالله سبحانه وتعالى لا يعذِّبهم، أو ما دام النبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم إذاً هم معهم فُسْحَةٌ ليهتدوا بهديه، إذاً الله سبحانه وتعالى ما كان له أن يعذِّبهم.

آيات من القرآن الكريم عن أقوام أبادهم الله وأهلكهم لانحرافهم عن منهج الله تعالى:

قال تعالى:

(وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38))

(سورة الفرقان)

هذه قصص الأمم التي كذّبت رسلهم، وكيف أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم:

(وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ (38))

(سورة الفرقان)

أصحاب البئر، فهناك روايات كثيرة جداً أوْجهها أن هؤلاء يقابلون قوم لوط، كيف أن قوم لوط انحرفوا في قضاء شهوتهم، كذلك هؤلاء انحرفوا في الجهة المقابلة في قضاء شهوتهم:

(وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39))

(سورة الفرقان)

التتبير هو التقطيع، أي أنهم قُطِّعوا في الأرض وأهلكهم الله عزّ وجل، وكفّار مَكّة في رحلتهم إلى الشام كانوا يمرّون على القرية التي أمطرت مطر السوء وهم قوم لوط، وكيف أن الله سبحانه وتعالى أرسل عليهم حجارةً من السماء فجعل قريتهم عاليها سافلها:

(وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا(40))

(سورة الفرقان)

فهم كانوا بعيدين عن أن يتّعظوا، والإنسان العاقل يتّعظ بغيره ؛ بينما الشقي لا يتّعظ إلا بنفسه.

الاستهزاء بالرسول من صفات الكفّار:

يقول الله عزّ وجل:

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41))

(سورة الفرقان)

الاستهزاء بالرسول من صفات الكفّار، فماذا ينتظرون أن يروا في النبي عليه الصلاة والسلام ؟ إنه بشر ؛ له عينان، وله أذنان، وله يدان، ويمشي، ويأكل، وينام، ويجوع، ويغضب، ويتعب، ويسهو، هو بشر:

محمّدٌ بشرٌ وليس كالبشر بَلْ هو جوهرةٌ والناس كالحجر

* * *

قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَوْكَ (41))

(سورة الفرقان)

يا محمّد:

(إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا (41))

(سورة الفرقان)

يستهزؤون، فالإنسان له أن يمرح بما يحل له، ولكن أن يتّخذ آيات الله للسُخرية والمرح ؟ يتخذ النبي عليه الصلاة والسلام للسخرية ؟ هذا هو الكفر بعينه.

من اتخذ آيات الله هزواً و لعباً فقد كفر:

لذلك هناك معتقداتٌ تؤدي بالإنسان إلى الكفر، وهناك أعمالٌ تؤدي بالإنسان إلى الكفر، فلو أنه أمسك المصحف وألقاه بقصد أن يهينه فقد كفر، من استهزأ بالنبي عليه الصلاة والسلام فقد كفر، من سخرَ منه فقد كفر:

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنْ كَادَ (42))

(سورة الفرقان)

هم كانوا يخشون أن يؤمنوا، لكنّ النبي عليه الصلاة والسلام فيما يزعمون أنه لم يؤثِّر فيهم، وبقوا محافظين على عقيدتهم الوثنيّة:

(إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا(42))

(سورة الفرقان)

البطولة أن تكون في الحياة الآخرة من السُعداء:

في الحقيقة أنّ البطولة أنْ تبقى ضاحكاً حتى النهاية، هناك من يضحك قليلاً ليبكي كثيراً، وهناك من

يفرح عاجلاً ليحزن آجلاً، وهناك من يسعد في الدنيا ويشقى إلى الأبد، فالبطولة أن تكون في الحياة الآخرة من السُعداء، لذلك عندما وصف ربنا عزّ وجل في بعض الآيات الكفّار وكيف أنهم يقولون:

(رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110))

(سورة المؤمنون)

وقال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

العبرة بالخواتيم والبطل من يضحك في النهاية:

إذاً البطل من يضحك في النهاية لا من يضحك في البداية:

(إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ(38))

(سورة هود)

وقال:

(إِنْ كَادَ (42))

(سورة الفرقان)

أي كاد النبي:

(لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42))

(سورة الفرقان)

لذلك:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6)ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(7)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ(8))

(سورة التكاثر)

إذا عبد الإنسان شهوته فقد أطاع هواه ولن يتسنّى له أن يؤمن:

هذا الذي يسخر، دقِقوا في هذه الآية:

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا (41))

(سورة الفرقان)

هؤلاء أنفسهم لماذا لا يؤمنون ؟ ربنا عزّ وجل يقول:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ (43))

(سورة الفرقان)

كيف يؤمن من جعل شهوته الإله الذي يُعْبَد ؟ فإذا عبد الإنسان شهوته فقد أطاع هواه فكيف يتسنّى له أن يؤمن ؟ أنت إما أن يقودك الحق، وإما أن يقودك الهوى، فإذا كنت مقوداً للهوى أنّى لك أن تؤمن ؟ أنّى لك أن تعبد الله عزّ وجل ؟ لا بدّ أن تعبد معبوداً آخر، هناك من يعبد الدرهم والدينار، قال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ))

[سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

وهناك من يعبد بطنه، ومن يعبد فرجه، ومن يعبد الخميصة، قال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عبدُ الدِّينار، وعبدُ الدِّرهم، وعَبْدُ الخميصة، إن أُعْطِيَ رَضِيَ، وإن لم يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانْتَكَسَ، وإذا شِيكَ فلا انْتُقِشَ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

الإنسان ممتحن في كل حركة وسكنة:

هناك من يعبد الله، فإما أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، إذاً لا بدّ أن تكون عبداً، فخضوعك هو العبوديّة، فإذا خضعت لهواك، هناك من يقسو على الناس ولكنّه ضعيفٌ أمام امرأة، إذاً هو يعبدها من دون الله، هناك من يتكلّم بالقِيَم ولكنّه يضعف عند الدرهم والدينار، إذاً هو يعبد الدرهم والدينار، فهذا الذي يستهزئ بالنبي عليه الصلاة والسلام أنّى له أن يؤمن ؟ لأنه يعبد هواه:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ (43))

(سورة الفرقان)

فأنت مُمْتَحَن في كل يوم آلاف الامتحانات، تقع أمام مشكلة، إما أن تنتصر لما يأمرك به العقل من الحق، وإما أن تنتصر لما يأمرك به الهوى من الشهوة، قد تقف في موقفٍ صعبٍ، شيءٌ يغري فتهوي، وشيءٌ يرفعك في نظر الله عزّ وجل، فإما أن يسقط الإنسان في حَمْأَةِ المادّة، وإما أن يرقى في سُلّم الرفعة إلى الله عزّ وجل، أنت كل يومٍ ممْتَحَنْ، في كسب المال ممتحن، في إنفاق المال ممتحن، في علاقتك بالمرأة ممتحن، في علاقتك بجيرانك ممتحن، في علاقتك بزوجتك ممتحن، في علاقتك بأمّك ممتحن، أبداً.

أهل الضلال منطقهم تبريري من أجل أن يعيدوا لأنفسهم توازنها مع ذاتها:

أهل الضلال لماذا يكذِّبون الحق ؟ لماذا يكذِّبون الرُسُل ؟ لأنهم اتخذوا آلهتهم أهواءهم، ينطلقون من الشهوة، هؤلاء ما منطقهم ؟ منطقهم تبريري، منطقهم من أجل أن يعيد لهم توازنهم، هم حينما يتَّبعون الهوى، وحينما يتَّبعون شهواتهم، وحينما يتَّخذون من شهواتٍ آلهةً لهم يختلُّ توازنهم الداخلي بناءً على فطرتهم السليمة، هذا الاختلال في التوازن يجعلهم يُفلسفون الشهوات والمُباحات، يفلسفون التفلُّت من قواعد الشرع فلسفةً جديدة من أجل أن يعيدوا لأنفسهم توازنها مع ذواتها، لذلك:

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42) أَرَأَيْتَ (43))

(سورة الفرقان)

عدة آيات في القرآن الكريم تتحدث عن اتباع أهل الضلال لشهواتهم:

هذا هو نفسه:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ (43))

(سورة الفرقان)

آيةٌ أخرى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1))

(سورة الماعون)

هو نفسه:

(فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

آيةٌ ثالثة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ(50))

(سورة القصص)

الإنسان مركّب من عقل وشهوة فهو إما أن يتبع الحق وإما أن يتبع الهوى:

القضية واضحة تماماً إما أن تتبع الحق وإما أن تتبع الهوى، إما أن تؤثر القِيَم وإما أن تُؤثِر المادّة، إما أن تؤثر المُثُل وإما أن تؤثر الحاجات، إما أن ترقى إلى السماء وإما أن تخلُدَ إلى الأرض، رُكِّب

الإنسان من عقلٍ وشهوة، ورُكِّب الحيوان من شهوةٍ بلا عقلٍ، ورُكِّب المَلَكُ من عقلٍ بلا شهوة، ورُكِّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

أنت إذا قلت لإنسان: يا أخي العقرب على ظهرك، ولم ينزعج، لم يضطرب، لم ينتفض، بل التفت نحوك وقال لك كلاماً لطيفاً: أنا شاكرٌ لك على هذه الملاحظة، هل فهم ما قلت له ؟ لا والله، لأنه لو فهم ما قلت له لما كان عنده وقتٌ كي يشكرك، ينتفض كالمذعور، ما دام قد بقي هادئاً والتفت نحوك شاكراً، إذاً أمواج صوتك وصلت إلى طبلة أذنه ولكن لم يدرك ما معنى العقرب، لو عرف ما معنى العقرب لانتفض من تَوّه، إذاً قد تسمع وقد لا تسمع، الصوت قد يصل إليك ولكن قد لا تفهمه، فربنا عزّ وجل يقول:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ (44))

(سورة الفرقان)

القرآن عندما يتلى على الكفار لا يسمعونه سماع تدبر وإلا لكانوا أشخاصاً آخرين:

القرآن يُتلى عليهم، هل يسمعونه سماع تدبُّر ؟ لا والله، لأنهم لو سمعوه وتدبَّروه لكانوا أشخاصاً آخرين، لو عقلوه لكانوا في حالٍ غير هذه الحال، لو سمعوا كلام الله يُتلى عليهم لأحلّوا حلاله وحَرّموا حرامه، لو سمعوا كلام الله كما يجب أن يُسْمَع لاستقاموا على أمر الله، قال تعالى:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ (44))

(سورة الفرقان)

السؤال دقيق هنا: لماذا يسمعون أو يعقلون ؟ لماذا لم يقل ربنا عزّ وجل يسمعون فقط، أو يعقلون فقط ؟ كأنّ الله عزّ وجل في هذه الآية أشار إلى مصدرين أساسيين من مصادر المعرفة، إما أن تعقل أنت عقلاً ذاتياً، وإما أن تستمع إلى الحقّ جاهزاً، أي إما أن تفكِّر وإما أن تسمع من يفكِّر لك، إما أن تحقِّق وإما أن تسمع من حَقَّقَ لك الحق، فإذا حضرت مجلس العلم فقد سمعت، وإذا جلست وفكَّرت في خلق السماوات والأرض فقد عقلت، أيْ أنّ هناك باب التأمُّل وباب السماع، قد تأخذ الحق جاهزاً لقمةً سائغةً من فم مَن يُلقيه عليك، وقد تجهد نفسك في البحث عنه، على كلٍ هذا طريق وهذا طريق، قال تعالى:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ (44))

(سورة الفرقان)

من لا يسمع أو يعقل كلام الله كالدابة التي لا تعقل ولا تفهم ولا تدرك:

ربنا عزّ وجل قال:

(مثل الذين)

الآن المثل الصارخ في القرآن الكريم فلو جئت بدابّة وحمّلتها كتاب فيزياء، وكتاب كيمياء، وكتاب طب، وكتاب فلك، وكتاب هندسة، وكتاب في اللغة العربية، وكتاب في التفسير، ووضعت هذه الكتب على ظهرها وسرت بها عشر ساعات، ثم أوقفتها وسألتها: ما حجم الكرة الأرضيّة ؟ كم بين الشمس والأرض ؟ الكُتب على ظهر الدابّة، ولكن ربنا عزّ وجل يقول:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا(5))

(سورة الجمعة)

فأنْ تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون خطأ منك:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ (44))

(سورة الفرقان)

أي لا يسمعون ولا يعقلون، فالحيوان رَكّب الله عزّ وجل فيه غريزة حب البقاء، يبحث عن طعامه، وعن مأواه، ويخاف من عدوّه، ويركن إلى مكانٍ مريح، أربع منعكسات عند الحيوان، لا يعقل ولا يفهم ولا يدرك:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ (44))

(سورة الفرقان)

الآن المعنى واضح تماماً.

الحيوان لن يُحاسب كالإنسان لأنه ما حمِّل الأمانة ولا كُلِّف:

كيف نفسِّر قوله تعالى:

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

هل هناك أضلُ من البهيمة ؟ نعم، البهيمة لم تُكلّف، فإذا كانت لا تعي فلا مسؤوليّة عليها، البهيمة لم تحمل الأمانة، فإذا خانت هذه الأمانة فهي في الأساس لم تحملها حتى تخونها، البهيمة رُكِّبت فيها غريزة بحيث لا تلقي بنفسها في المهالك، والإنسان أُعطي حريّة الاختيار، فلو لم يحسن استخدام هذه الحريّة لألقى بنفسه في المهالك، فالقضيّة دقيقة جداً، فإذا طغت شهوة الإنسان على عقله أصبح دون الحيوان، الحيوان ليس مكلّفاً:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا(72))

(سورة الأحزاب)

الإنسان حمل أمانة، الإنسان مكلّف، الإنسان سُخِّرَ له الكون، الإنسان أُعطي العقل، الإنسان أُعطي الشهوة، الإنسان أُعطي حريّة الاختيار، هذه كلها أعطيت له فإذا عطّل عقله اختار شيئاً يهلكه، إنْ لم يعبأ بتسخير الكون له وقع في شقاوةٍ كبرى، لذلك الحيوان لن يُحاسب كالإنسان، الحيوان ما حمل الأمانة، وما كُلِّف:

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

الله سبحانه وتعالى يدعونا إلى أن نستمع إلى الحق ونذكره في مجالسنا:

الحيوان لا يقتحم المخاطر كما يفعل الإنسان، الحيوان يعرف بالبديهة ما ينفعه، الحيوان لم يعاهد ربه في الأزل على أن يطيعه، الحيوان عنده شهوة يمارسها في الطريق التي سمح الله له بها، وانتهى الأمر، قال تعالى:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ (44))

(سورة الفرقان)

وكأن الله سبحانه وتعالى يدعونا إلى أن نستمع إلى الحق، لذلك:

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللّهَ فِيهِ إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[سنن أبي داود عن أبي هريرة]

أما إذا ذكروا الله في مجلسهم:

((لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللّهَ عَزّ وَجَلّ إلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري]

والله سبحانه وتعالى يقول لسيدنا موسى: **" أتحبُّ أن أكون جليسك ؟"** قال: " كيف هذا يا رب ؟ "، قال: **" أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني ؟ ".**

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

وقال:

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

الإنسان حمِّل الأمانة وكُلِّف ومُنح حرية الاختيار وعليه أن يتحمل المسؤولية كاملة:

قال تعالى:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

أضل سبيلاً لأنهم حملوا الأمانة وكُلِّفوا، أودع الله فيهم الشهوة ليرقوا بها إلى رب الأرض والسماوات، أودع الله فيهم العقل، منحهم حرية الاختيار، سخَّر لهم ما في السماوات والأرض، فإذا خالفوا هذه الأمانة وخالفوا العهد فقد وقعوا في شقاءٍ كبير، أما الحيوان فإنه لم يُكلَّف بكل هذا، إذاً هم أضل سبيلاً، فلو فرضنا أنَّ إنساناً مقيماً في بلده ولا يدرس شيئاً، وآخر أُرسل بعثة إلى دولة أجنبيَّة وهناك أهمل ولم يدرس، فسوف يعود بالخزي والعار، وسوف يتحمَّل نفقات الدراسة، وسوف يعود وقد خان الأمانة ؟ إذاً حينما تُكلَّف وتقصِّر فلك موقف، وحينما لا تُكلَّف فلك موقفٌ آخر، هذا معنى قوله تعالى:

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (10-13): تفسير الآيات 45 - 54
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-05-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة الفرقان.

الآيات الكونية تبين لنا طريق معرفة الله سبحانه وتعالى:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا(47))

(سورة الفرقان)

حينما تأتي الآيات الكونية، يكون هذا إشارةً إلى أن طريق معرفة الله سبحانه وتعالى التأمُّلَ والنظر في هذه الآيات، فبعد الحديث عن الكفر، وعن النفاق، وكيف أن الإنسان يتخذ إلهه هواه، وكيف أن الشهوة تقوده إلى هلاكه، بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى الطريق إليه، طريق معرفته، فيقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ (45))

(سورة الفرقان)

هذه الهمزة حرف استفهام، وقد بيَّنت لكم من قبل أن الاستفهام في اللغة معناه طلب العلم بمجهول، تقول: كم اشتريت هذا الكتاب ؟ لكن الاستفهام في اللغة العربية قد يخرج عن معناه الأصلي إلى معانٍ كثيرة تزيد عن عشرين معنىً، من هذه المعاني الاستفهام الطلبي، أي:

(أَلَمْ تَرَ (45))

(سورة الفرقان)

أي انظر، أي ره ـ راء، هاء ـ انظر إلى ربك كيف مد الظل، فهذا استفهامٌ طلبي.

الله سبحانه وتعالى يحضنا على أن ننظر ونتأمل ونفكر:

شيءٌ آخر، الله سبحانه وتعالى يحضنا على أن ننظر، وفي آيات أخرى بشكلٍ واضحٍ صريح يقول الله سبحانه وتعالى:

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24))

(سورة عبس)

وقال:

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5))

(سورة الطارق)

وقال أيضاً:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ(101))

(سورة يونس)

وهذه الآية:

(أَلَمْ تَرَ (45))

(سورة الفرقان)

أي ره، أي انظر، تأمل، فكر، دقق، لا تجعل الحياة تستهلكك استهلاكاً رخيصاً، لا تجعل حياتك طعاماً وشراباً، قالوا: الحيوان يعيش ليأكل، والإنسان العاقل يأكل ليعيش، أما المؤمن يعيش ليعرف الله عزّ وجل، فبين أن يعيش ليأكل، وبين أن يأكل ليعيش، وبين أن يعيش ليعرف الله سبحانه وتعالى، فرقٌ كبير، فلذلك الإنسان العاقل لا يجعل عمله ؛ مهنته، حرفته، وظيفته، لا يجعل كسب المال يستهلكه استهلاكاً رخيصاً.

القرآن لكل زمانٍ ومكان وفيه دعوة إلى التفكر والتأمل وهذا هو طريق الإيمان:

من معاني قوله تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

هناك من جعل شهوته قبراً له، هناك من جعله عمله قبراً له، هناك من أصبحت حياته رتيبةً لا معنى لها، طعامٌ وشرابٌ وراحةٌ ومتعة ونوم، إذا أصبحت الحياة رتيبةً، إذا استهلك الإنسان عمره استهلاكاً رخيصاً، إذا فكّر في وقته، إذا أدرك لحظته من دون أن ينظر إلى ما سيكون فهو إنسانٌ أحمق، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِيَّ))

[سنن الترمذي عن شداد بن أوس]

فهذه دعوةٌ من الله عزّ وجل، الله سبحانه وتعالى يدعونا جميعاً، لأن هذا القرآن لم يكن لزمن النبي عليه الصلاة والسلام، بل هو لكل زمانٍ ومكان، ونحن معنيّون بهذه الآية، انظروا إلى الله عزّ وجل كيف مد الظل، هذا هو المعنى، دعوةٌ إلى التفكر، دعوةٌ إلى التأمل، هذا هو الطريق الموصل إلى الله عزّ وجل، هذا هو طريق الإيمان:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

لكن:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ (45))

(سورة الفرقان)

الكون بشكلٍ أو بآخر تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى:

الله سبحانه وتعالى لا نستطيع أن ننظر إليه، ربما وعقيدة أهل السنة والجماعة أن المؤمن يوم القيامة في الجنة ينظر إلى الله عزّ وجل، وبعض الأحاديث الشريفة تؤكِّد أن الإنسان ينظر إلى الله نظرةً يغيب معها خمسين ألف عام من نشوة النظرة، يؤكد هذا قول الله عزّ وجل:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23))

(سورة القيامة)

وأكبر عقابٍ يعاقب به المقصِّرون:

(كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ(15))

(سورة المطففين)

وقال:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ (45))

(سورة الفرقان)

إذاً حينما يدعونا الله عزّ وجل أن ننظر إليه في الدنيا، أي يدعونا أن نراه رؤيةً قلبية، قد تقول: رأيت الله أكبر كل شيءٍ، هل هذه الرؤية بصريةٌ، هل هذه الرؤية بصريةٌ أم قلبية، إنها رؤية قلبية، رأيت العلم نافعاً، ربنا سبحانه وتعالى يدعونا أن ننظر إلى عظمته، إلى قدرته، إلى حكمته، إلى لطفه، إلى أسمائه الحسنى من خلال الكون، لأن الكون بشكلٍ أو بآخر تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى.

هناك أدلة كثيرة على قدرة الله ولطفه وحكمته من خلال الكون:

هناك ألف دليل ودليل على قدرة الله من خلال الكون، هناك ألف دليل ودليل على لطف الله من خلال الكون، هناك ألف دليل ودليل على حكمة الله من خلال الكون، إذاً ربنا سبحانه وتعالى يقول: من أجل أن تطيعوني يجب أن تعرفوني.

قد تحدثت في الخطبة اليوم: أن العبادة التي هي علة وجودنا على وجه الأرض بل هي غاية وجودنا، إنما هي طاعةٌ طوعية ممزوجةٌ بمحبةٍ قلبية أساسها معرفةٌ يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية، هكذا، إذاً من أجل أن نطيع الله طاعةً طوعية، من أجل أن نحبَّه محبةً قلبية، من أجل أن تنتهي بنا هذه الطاعة وهذه

المحبة إلى سعادةٍ أبدية يجب أن نعرفه، ولا طريق إلى معرفته إلا أن نتأمّلَ في خلقه، لأن طبيعة الإنسان لا تستطيع أن ترى الله عزّ وجل ولكنها ترى آثاره، ترى آثار قدرته، وآثار حكمته، وآثار رحمته، إذاً ربنا سبحانه وتعالى حينما يدعونا إلى أن ننظر إليه، ننظر إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى من خلال الكون:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (45))

(سورة الفرقان)

وكلمة الظل ولا سيما في الجزيرة العربية توحي بالرحمة، توحي بالنِعمة، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلان تَحَابّا فِي اللّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنّي أَخَافُ اللّهَ وَرَجُلٌ تَصَدّقَ أَخْفَى حَتّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

امتداد الظل دليل حركة الأرض حول نفسها ودليل كرويتها:

إذاً:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (45))

(سورة الفرقان)

هنا آيةٌ دقيقةٌ جداً دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل، هذا الظل، اغرس قضيباً في تربةٍ ما، وراقب ظل هذا القضيب، اغرسه وقت الظهيرة، لا ظل له، تزول الشمس عن كبد السماء يمتد له ظلٌ قصير، وما يزال هذا الظل يمتد ويمتد ويَمتد، إلى أن يصبح مثل طول القضيب، ثم يمتد ويمتد إلى أن يصبح مِثْلَيْه، وحينما يصبح الظل مثليه فهذا وقت العصر، على أرجح الأقوال، ويمتد هذا الظل ويمتد، ما معنى يمتد؟ معنى يمتد أن الشمس تتحرك حركةً ظاهرية، وإذا تعمّقت فإن الأرض هي التي تدور، ويكفي أن يمتد الظل لتعرف أن هذه الأرض التي نحن عليه تسبح في الفضاء، هذا هو الاستنباط، بهذه الطريقة ترى أن السماوات والأرض في قبضة الله عزّ وجل.

كيف يمتد الظل لولا أن الشمس تتحرك ؟ أو لولا أن الأرض تتحرك ؟ لا بدّ من حركة إحداهما، بالعين المجردة نرى الشمس تتحرك، وبدراسة واقع الأرض والشمس والقمر نرى أن الأرض هي التي تتحرك، إذاً امتداد الظل دليل حركة الأرض، هذه واحدة.

شيءٌ آخر، امتداد الظل دليل كروية الأرض، لو أن الأرض مكعبة الشكل لجاء الظل فجأةً واختفى فجأةً، لأن هذا الشكل المكعب له حروف، ضع مكعباً أمام منبعٍ ضوئي وحرك المكعب، يأتي الظل دفعةً واحدة ويختفي دفعةً واحدة، أما أن يمتد الظل رويداً روَيداً فهذا دليل أن الأرض كروية الشكل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (45))

(سورة الفرقان)

هنا لم يقل الله عزّ وجل: ألم تر إلى الله، ولا ألم تر إلى المسيّر.

أساس نظام النبات الليل والنهار والفصول الأربعة:

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ (45))

(سورة الفرقان)

إن دورة الأرض حول نفسها ينشأ عنها الليل والنهار، ودورة الأرض حول الشمس مع ميل المحور ينشأ عنها الفصول الأربع، ولولا الفصول الأربع، ولولا الليل والنهار لما أكل الإنسان لقمةً من طعامٍ أو شراب، لأن أساس نظام النبات الليل والنهار والفصول الأربع، إذاً من الذي حرّك الأرض حول نفسها؟ أدارها حول نفسها ؟ من حركها حول الشمس بسرعةٍ تزيد عن ثلاثين كيلو متراً في الثانية ؟ نحن في هذا الدرس إذا أمضينا ساعةً في شرح هذه الآيات معنى ذلك أن الأرض تسير، هذا شيء بديهي، من أولويات علم الفلك، الأرض تسير ثلاثين كيلو متر في الثانية، ضرب ستين في الدقيقة، ضرب ستين في الساعة، أي مئة وثمانية وثلاثين ألف متر تقطع الأرض ونحن في هذا المسجد، بهذه الساعة بالذات:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (45))

(سورة الفرقان)

امتداد الظل دليل حركة الأرض حول نفسها، ودليل كرويتها.

الشمس هي دليل وجود الظل ولولاها لما كان الظل:

قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا (45))

(سورة الفرقان)

لو شاء الله لجعل الظل ثابتاً، وإذا جعل الظل ثابتاً أي جمَّدَ حركة الأرض، وإذا جمد حركة الأرض انتهت الحياة من على سطح الأرض، لأن الشمس إذا واجهت وجه الأرض الأول ارتفعت الحرارة إلى ثلاثمئةٍ وخمسين درجةً فوق الصفر، وفي هذه الحرارة تستحيل الحياة، أما الوجه الآخر البارد، فإن الحرارة تنخفض إلى مئتين وخمسين درجة تحت الصفر والحياة أيضاً مستحيلة، إذاً يكفي أن يصبح الظل ساكناً لا يمتد لتنتهي الحياة.

شيءٌ آخر حركة الظل حركةٌ لطيفة، أنت إذا نظرت إلى أشعة الشمس أو إلى ظل الأشياء ترى الظل ثابتاً، فإذا تشاغلت فترةً من الزمن تراه قد انتقل من مكان إلى مكان، كعقارب الساعة تراها واقفةً متحركة، واقفةً إذا نظر إليها، فإذا غبت عنها فترةً زمنية محدودة رأيتها في مكانٍ آخر، وهذا من لطف الله عزّ وجل، إذاً امتداد الظل دليل حركة الأرض حول نفسها، وامتداد الظل دليل كروية الأرض، فلو أنها مكعَّبة لظهر الظل فجأةً واختفى فجأةً:

(وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمّ جَعَلْنَا الشّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45))

(سورة الفرقان)

لولا الشمس لما كان الظل، الأصل في الفضاء أنه ظلامٌ مستمر، تأتي الشمس لتُلْقِيَ بنورها على سطح الأرض، إذاً الشمس دليل وجود الظل، ولولا الشمس لما كان الظل، هذه آيةٌ من آيات الله الدالّة على عظمته.

زيادة سرعة الأرض بلطف شديد وتباطؤها بلطفٍ شديد يجعل الحياة مستمرة عليها:

الإنسان لا ينبغي أن يمر هكذا ؛ أن يرى الشمس والقمر، أن يرى النجوم، أن يرى الأبراج، أن يأتي عليه صيفٌ وشتاءٌ وربيعٌ وخريف، أن تأتي عليه برودةٌ وحرارة، جوٌ رطبٌ وجوٌ جاف، أمطارٌ وثلوج، وهكذا كأن عقله مُعَطّل:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ(101))

(سورة يونس)

دورة الأرض حول الشمس من آيات الله العظيمة، بل إن حركة الأرض حول الشمس ترسم مداراً إهليلجياً بيضويَ الشكل، وتختلف أبعاد هذا المسار عن مركز هذا الشكل البيضوي، فإذا كانت الأرض في المنطقة القريبة من المركز ربما انجذبت إلى الشمس، ومع انجذاب الأرض إلى الشمس تنتهي الحياة، عندئذٍ تأتي يدُ القدرة والعلم، تأتي يد الحكمة واللطف فتزيد من سرعتها شيئاً فشيئاً، حتى ينشأ من زيادة هذه السرعة قوةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة، صنع من ؟ يد من ؟ تقدير من ؟ حكمة من ؟ علم من ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، هذا لطف الله عزّ وجل لو أن الأرض زادت من سرعتها دفعةً واحدة

لتحطّم كل ما عليها، ولو أنها أبطأت دفعةً واحدة لارتطم كلُّ ما عليها، لكن الزيادة بلطف شديد، والتباطؤ بلطفٍ شديد يجعل الحياة مستمرة عليها.

تحرك الأرض حول نفسها يجعل الظل متنقلاً من مكان إلى آخر وهذا من نِعَم الله تعالى:

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45))

(سورة الفرقان)

هذه الشمس إنها دليلٌ على عظمة الله عزّ وجل، تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، تبلغ حرارتها في الداخل عشرين مليون درجة، على السطح ستة آلاف درجة، تنطلق منها ألسنة اللهب بطولٍ يزيد عن نصف مليون كيلو متر، هذه الشمس تتوقد منذ ما يقارب (كما يقدِّر العلماء) من خمسة آلاف مليون عام، ما خَبَتْ، ولا انطفأت، ولا ضعف لهيبها، ولا قَلَّ ضوءها، الشمس آيةٌ من آيات الله عزّ وجل:

(لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(37))

(سورة فصّلت)

طبعاً إذا وضعت قضيباً، غرسته في أرضٍ، رأيت هذا الظل من بعد الزوال يمتد نحو الشرق شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح طوله مثل طول العود، ثم مثليه، ثم أربعة أمثاله، ثم تغيب الشمس فينعدم الظل، فإذا أشرقَت الشمس من المكان الآخر من الشرق، هذا المكان الذي كان ظلاً ظليلاً، أصبح فيه شمسٌ منيرةٌ وقد تكون محرقة في أيام الصيف، فالذي له بيت له شرفات من جهات مختلفة، هذه الشرفة من الصباح وحتى الظهيرة كلها شمسٌ محرقة، لكن بعد الظهر يأتي الظل الظليل، وهذا من رحمة الله عزّ وجل.

نعمة الليل والنوم من نِعَم الله تعالى علينا أيضاً:

إن تحرك الأرض حول نفسها يجعل الظل متنقلاً من مكان إلى مكان، وهذا من نِعَم الله أيضاً، قال تعالى:

(ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46))

(سورة الفرقان)

الظل يمتد بشكلٍ مُتعاظِم شيئاً فشيئاً وينقبض قبضاً يسيراً، إذاً آية الظل وحدها دليل كروية الأرض، ودليل حركة الأرض حول الشمس، والشمس وحدها أساس الظل، ولولا الشمس لما كان الظل.

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا (47))

(سورة الفرقان)

تصور أن الحياة من دون ليل، كيف ينام الناس ؟ تحدث فوضى، هذا ينام وهذا يعمل، وهذا عاد من عمله ليستريح، وهذا جاره بدأ يعمل في الليل، لولا أن هذا الليل الذي جعله الله سكناً للنفوس، ترتاح فيه النفوس، هذا الجهاز العصبي الذي يجهد طوال النهار يأتي الليل ليكون راحةً تامة له.

الإنسان حينما يستيقظ من نومه يُحِسُّ أنه نشيطٌ نشاطاً لا حدود له، وهذا بفضل نعمة النوم، والذي ينام بشكلٍ معتدل، هذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها، الأرق شيءٌ لا يحتمل، شيءٌ يدمِّر الأعصاب، يدمِّر الصحة، هو هل عرفته ؟ إنه الله.

لولا الليل والنهار لما عرفنا الأعمار ولا الأوقات ولا الأزمنة ولما انتظمت حياتنا:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا (47))

(سورة الفرقان)

أيْ ساتراً، كل إنسان يأوي إلى بيته، الليل لباس بمعنى أنه يستر.

(وَالنَّوْمَ سُبَاتًا (47))

(سورة الفرقان)

السُبات سكون، تسكن الأعضاء، تسكن الجوارح، تسكن العضلات، تسكن الأعصاب، ينتهي الكلام، الإنسان يخلُدُ إلى الراحة ليستعيد نشاطه، لولا الليل والنهار لما عرفنا أعمارنا:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا(62))

(سورة الفرقان)

وفي آية أخرى:

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ(12))

(سورة الإسراء)

فلان عمره ثلاثون عاماً، معنى ذلك لولا أن الأرض تدور حول نفسها لما صار ليل ونهار، الأسبوع سبعة أيام، سبعة دورات أسبوع، ثلاثون دورة شهر، ثلاثمئة وخمس وستون دورة تعد سنة، ثلاثين سنة، لولا الليل والنهار لما عرفنا الأعمار، ولما عرفنا الأوقات، ولا الأزمنة، ولما انتظمت حياتنا، من الذي جعل الشمس في السماء ساعة يدبّ عقرباها إلى قيام الساعة ؟ الشمس ساعة، والقمر تقويم، أصبح الظهر، قرب العصر، غابت الشمس، من دون ساعة، الشمس هي ساعة، الشمس في كبد السماء ساعة، والقمر تقويم، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47))

(سورة الفرقان)

الله عزّ وجل جعل النهار نشوراً و هذا فضل عظيم منه:

الإنسان ينطلق في النهار إلى عمله، هذا إلى مكتبه، وهذا إلى معمله، وهذا إلى حقله، وهذا إلى دُكّانِهِ، وهذا إلى عيادته، وهذا إلى أشغاله، فكل إنسان له عمل ينطلق في النهار إليه، الله عزّ وجل جعل النهار نشوراً، فضياء الشمس كافٍ، هنا فرق بين أن تقود مركبتك في الليل تحس أنك اجتهدت اجتهاداً لا حدود له، وبين أن تقودها في النهار، النهار واضح، الرؤية صحيحة، وبعيدة، ومريحة، ربنا عزّ وجل قال:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47))

(سورة الفرقان)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار ؟))

[رواه عبد الله بن أحمد عن سعيد بن أبي راشد]

الله تعالى جعل الليل سَكَنَاً ولباساً وجعل النهار معاشاً وهذا من آياته الدالة على عظمته:

تجد ظلاماً دامساً في أماكن موحشة، الإنسان يخاف أن يمشي في الغابة ليلاً، الغابة في الليل موحشة، الكهوف موحشة، بعض الطُرُقات موحشة ولا سيما إذا كانت مظلمة، ولكن إذا طلعت الشمس تغدو الأرض مؤنسة، مريحة، تنطلق إلى الحقول والبساتين، إلى الجبال، قد تركب البحر في النهار فترتاح نفسك، أما إذا ركبته في الليل فقد تخاف، جعل الله الليل سَكَنَاً، جعله سُباتاً، جعله لباساً، وجعل النهار معاشاً، هذه كلها من آيات الله الدالة على عظمته.

يا أيها الإنسان هل فكرت فيها ؟ هل وقفت عندها ؟ هل تأمّلت فيها ؟ ماذا تفعل ؟ قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا (45))

(سورة الفرقان)

تنتهي الحياة:

(ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45))

(سورة الفرقان)

لولا الشمس لما كان الظل، لولا الشمس لما كانت الحياة، لولا الشمس لما كان تحرُّك الأرض حول نفسها وحول الشمس.

الهواء ينقل الحرارة والبرودة والضوء والصوت:

قال تعالى:

(ثُمّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللّيْلَ لِبَاسًا وَالنّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الّذِي أَرْسَلَ الرّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ(48))

(سورة الفرقان)

أولاً الهواء، ما هذا الهواء ؟ إنه سبب انتشار الضوء، في الفضاء الخارجي لا ترى إلا ظلاماً دامساً، أو نجماً مُتَألِقَاً، لا يوجد حالة ثالثة، أما في الأرض هناك أشعة الشمس، وهناك ظلامٌ دامس، وهناك حالةٌ ثالثة بين هذا وتلك، حالة الضياء، فالغُرف في النهار مضيئة بلا أشعة شمس، الفضل في هذا يعود إلى الله عزّ وجل، من خلال تسخير الهواء لانتشار الضوء، ذرّات الهواء تصبح مرايا صغيرة تعكس الضوء، فإذاً البيت مضيء وأشعة الشمس ليست فيه، فالهواء ينثر لكم الضوء، والهواء ينقل إليكم الأصوات، فرواد الفضاء بالقمر يتحادثون عن طريق اللاسلكي، ولولا أن الهواء في داخل بذلتهم الفضائية لما أمكنهم الحديث، لكن لو أن الإنسان وقف على سطح القمر من دون بدلة فضائيّة وخاطب أخاه الإنسان لما سمع شيئاً، لو وضع مدفعاً كبيراً على سطح القمر وأطلق قذيفته لا تسمع شيئاً، لكن الهواء في الأرض ينقل لك الصوت، ينقل لك الضوء، ينقل لك الدفء، أنت تدفِئ هواء الغرفة عندئذٍ تشعر بالدفء يسري في أعضائك، وإذا برد هواء الغرفة تشعر بالبرد يريح أعصابك أحياناً، إذاً الهواء ينقل الحرارة، ينقل البرودة، ينقل الضوء، ينقل الصوت.

من حكمة الله عزّ وجل أنه جعل الهواء مرتبطاً بالأرض:

الهواء جسمٌ لطيف، ولكن هذه الطائرة التي يزيد وزنها عن ثلاثمئة وخمسين طن من الذي يحملها ؟ الهواء، كيف هو ؟ هو جسمٌ لطيفٌ فيما يبدو لك، ولكن الهواء إذا سار دمّر كل شيء، فالأعاصير تجعل المدن دياراً خربة، مدن بأكملها، أبنيةٌ شاهقة، المعامل، المصانع، المنشآت، تصبح كلها أنقاضاً، فالهواء إذا تحرّك حركةً عنيفةً دمّرَ كل شيء، سرعة هذه الأعاصير تزيد عن ثمانمئة كيلو متر في الساعة، يكفي أن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الغلاف الهوائي مرتبطاً بالأرض، فلو أن الأرض دارت وحدها، وبقي الغلاف الهوائي ثابتاً، لنشأ على الأرض أعاصير تزيد سرعتها عن ألف وستمئة كيلو متر، أي تدمر كل شيء، هذه حكمة الله عزّ وجل على أنه جعل الهواء مرتبطاً بالأرض، فالهواء لو أنه تحرّك حركةً شديدة دمّر كل شيء، لذلك كان النبي إذا رأى رياحاً تعوّذ بالله من شرها وسأل الله خيرها

واستعاذ بالله من شرها، فَرَّقَ النبي عليه الصلاة والسلام بين الرياح وبين الريح، الريح الصرصر العاتية:

(بريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(6)سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(7)فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ(8))

(سورة الحاقة)

نظرية حركة الهواء:

الهواء يتمدد، إذا تمدد تخلخل، وإذا تخلخل ضعف فيه الضغط، قلَّ الضغط، والهواء إذا برد تكاثف، وإذا تكاثف ارتفع الضغط، عندئذٍ ينتقل الهواء من أماكن الضغط المنخفض إلى أماكن الضغط المرتفع، هذه هي نظرية حركة الهواء، فهي تنشأ من وجود المناطق الباردة في الشمال قطبية، ووجود مناطق استوائية في الوسط، ووجود سواحل فيها رطوبة عالية، وفيها حرارة، ومن وجود أماكن قاحلة كالبوادي، أو الصحارى، أو القفار، من تباين مناطق الأرض، من تباين الحرارة والبرودة، تبعاً لخطوط الطول والعرض، وبعدها عن سطح البحر، وعن مستوى سطح البحر هذا كله يعين على تشَكُّل الرياح، والرياح تسوق السحاب، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا (48))

(سورة الفرقان)

بُشْرَاً أيْ بشارةً:

(بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ (48))

(سورة الفرقان)

هي الماء، ولا يعرف الناس بالضبط ماذا تعني سنوات جفاف السماء، باديةٌ يمكن أن ترعى أغناماً لا حدود لها ولا حصر لها سنةً وزيادة إذا كانت الأمطار غزيرة، فإذا جفَّت الأمطار امتنع هذا الكلأ عن أن ينبت، وشحَّت المراعي، واضطر الناس لبيع خرافهم بثمن بخسٍ أو ذبحها، فالكلأ شيء مهم جداً، والنبات شيء مهم جداً، والآبار شيء مهم جداً، والثلوج، والينابيع، وكلنا يعلم ماذا يعني انحباس المطر من السماء، هذا ينعكس على أسعار المواد الغذائية، وعلى أسعار القمح، وعلى أسعار كل حاجاتنا، إذاً:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22))

(سورة الذاريات)

ماء السماء طاهرٌ مُطهّر:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48))

(سورة الفرقان)

ماء السماء طاهرٌ مُطهّر، وهو أعلى درجة من الطهارة، هناك ماءٌ طاهرٌ غير مُطهّر، هناك ماءٌ طاهرٌ مطهر، هناك ماءٌ غير طاهرٍ وبالتالي غير مُطهّر، ماء السماء طاهرٌ مُطهّر:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48))

(سورة الفرقان)

فتصوروا حياة الإنسان من دون ماء، كيف ينظِّف نفسه ؟ كيف ينظف حاجاته ؟ كيف يغسل ثيابه ؟ هذا الماء الذي وهبه الله للإنسان فيه صفات عالية جداً، من هذه الصفات القدرة على النفوذ، في أدق المسام يسيل الماء، هذه قدرة، لو أنه لزجٌ كالقطر، كيف نستعمله ؟ له نفوذية إلى درجةٍ متناهية، الماء يتبخّر في درجاتٍ دُنيا، لو أنه تبخر في درجات عُليا لأصبحت مصيبة، لو أنك ألقيت الماء في أرض الدار في الشتاء لبقيت إلى فصل الصيف، ففي عشر درجات يتبخر الماء، يغلي بدرجةٍ ثابتة، لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، شفّاف، صافي، فنعمة الماء لا تعدلها نعمة.

الماء الذي وهبه الله للإنسان فيه صفات عالية جداً:

في الوقت نفسه هذا الماء لا ينضغط، لو وضعت متراً مكعباً من الماء في مكبس ووضعت فوقه ثمانمئة طن لا ينضغط أبداً، فإذا تمدد الماء دمّر كل شيء، بل إن تفتيت الصخور الآن يتم عن طريق حفر ثقوب في الصخور وإملائها بالماء، ثم تبريد الماء، عندئذٍ الصخر ينشق، وهناك شيء مهم جداً في الماء ربما لا يصدق الإنسان أن حياتنا مبنيةٌ عليه، الماء إذا برّدته ينكمش شأنه شأن كل عنصر، ينكمش وينكمش إلى درجة (+4) عندئذٍ تنعكس الآية فيتمدد، لو أن الماء ينكمش عند التبريد لانتهت الحياة على وجه الأرض، كلما جمد سطح البحر زادت كثافته فغاص في أعماق البحر، ما هي إلا سنواتٌ عدّة حتى تتجمّد كل المحيطات، ينعدم التبخر، تنعدم الأمطار، لا ينبت النبات، يموت الحيوان، يتبعه الإنسان، لو أن الماء انكمش مع التبريد، من خلق في الماء هذه الصفة ؟

إن التعليل العلمي لانعكاس آية انكماش الماء من انكماش إلى تمدد، هذه لها تفسير مُعَقّد جداً، كيف أن هذا السائل لو أنك بردته ينكمش، طبعاً بدرجات تقاس بأجهزة دقيقة، لكن حينما تصل الدرجة إلى (+4) تنعكس الآية فيتمدد، هذه الظاهرة من صممها ؟ من خلقها ؟ من قننها ؟ من جعلها هكذا ؟ إنها من

عند الحكيم الخبير.

(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا(49))

(سورة الفرقان)

الماء يحيي بلدةً بإنبات النبات ويسقي الحيوان ويسقي الإنسان:

الله عزّ وجل قال:

(لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا (49))

(سورة الفرقان)

البلد من دون ماء يموت، يموت النبات، فيموت الحيوان، ويموت الإنسان، وفي بعض المشاهد من بلادٍ أصابها الجفاف سبع سنين، الأشجار كلها يابسة، والأنعام كلها ميّتة، هياكل عظمية عليها جِلْد، صور بإفريقيا، حينما تجف، حينما يصيب الجفاف أرضاً معينة تصبح الأرض ميّتة، أرضاً ونباتاً وحيوانات، ويتبعها الإنسان إن بقي فيها.

(لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ (49))

(سورة الفرقان)

هذا الماء:

(مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49))

(سورة الفرقان)

بدأ الله عزّ وجل بالنبات، ثم بالحيوان، ثم بالإنسان، لأن حياة الحيوان متوقفةٌ على النبات، وحياة الإنسان متوقفةٌ على الحيوان، فهذا الماء يحيي بلدةً بإنبات النبات، ويسقي الحيوان، ويسقي الإنسان، اللهم اسقنا الغيث.

معنى صرّفناه أي نقلناه من مكان إلى آخر كي يلتفت الإنسان إلى الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ (50))

(سورة الفرقان)

في بعض التفاسير: أن هذا الماء صرّفناه، نقلناه من مكان إلى مكان، في هذا العام هنا أمطار غزيرة وسيول وفيضانات، وهنا جفافٌ ومَحْلٌ وقَحْط، هذا الماء صرّفناه أي نقلناه من مكان إلى آخر، كي يلتفت الإنسان إلى الله عزّ وجل، لو أن الله سبحانه وتعالى أغدق على الناس نِعَمَهُ من دون تبديل أو

تغيير، من دون لفت نظر، لانغمس الإنسان في شهوات ولنسي ربه:

(وَلَوْ بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ(27))

(سورة الشورى)

تأتي سنواتٌ مطيرة، وتأتي سنواتٌ جافة، في السنوات الجافة يجب أن نذكر الله عزّ وجل، يجب أن ندعوه، يجب أن نبتهل إليه، فهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ (50))

(سورة الفرقان)

هذا الماء، ماء السماء.

الهاء في كلمة صرفناه لها معنيان:

1 ـ المعنى الأول أنها تعود على الماء:

قال تعالى:

(صَرَّفْنَاهُ (50))

(سورة الفرقان)

الهاء تعود على الماء (المعنى الأول):

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ (49))

(سورة الفرقان)

جمع ناس:

(كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ (50))

(سورة الفرقان)

نقلناه من مكان إلى مكان، هذه السحابة، صُرِفَتْ عن هذا المكان وهطلت في هذا المكان، بعد عامٍ آخر صرفت عن هذا المكان وهطلت في هذا المكان.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا (50))

(سورة الفرقان)

لذلك ورد في الأثر:

((اللهم أرنا نعمك بكثرتها لا بزوالها))

الفرق بين المؤمن والكافر في سنوات الرخاء وسنوات الشدة:

ربما نعرف قيمة المطر في سنوات الجفاف، قيمة المطر، علاقتها بتوليد الكهرباء، علاقتها بالمزروعات، علاقتها بالثمار، علاقتها بالمحاصيل، علاقتها بمحصول القمح، بمحصول الشعير، علاقتها بالأسعار، هذا كله نعرفه في سنوات الجفاف، ولكن البطل يجب أن يعرف نعمة الله في سنوات الرخاء، لهذا ورد في الأثر:

((اللهم أرنا نعمك بكثرتها لا بزوالها))

قال تعالى:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ (50))

(سورة الفرقان)

هذا الماء.

(لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50))

(سورة الفرقان)

من شأن الكافر أن الدنيا إذا أقبلت عليه تاه، وتكبّر، واستعلى، فإذا انصرفت عنه يَئِسَ وقَنَط، فهو بين الغرور وبين اليأس، أما المؤمن إذا جاءته الدنيا زادته تواضعاً، وإذا انصرفت عنه زادته التجاءً إلى الله عزّ وجل، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[مسند أحمد عن صهيب]

النبي عليه الصلاة والسلام جاءه جبريل فقال:

((يا محمد أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره))

[ورد في الأثر]

فهذه من نعمة الله عزّ وجل.

2 ـ المعنى الثاني أنها تعود على القرآن الكريم:

المعنى الثاني أن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الضمير:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ (50))

(سورة الفرقان)

يعود على القرآن الكريم أي أن هذا القرآن جعلناه بين أيديهم ويسّرنا لهم تلاوته.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ(17))

(سورة القمر)

قد سَهّلَ الله للناس قراءة هذا القرآن، سخّر له علماء أشداء، جهدوا في نقله، وحفظه، وضبطه، وضبط آياته، وسوَرِهِ.

تقنين الله عزّ وجل هو تقنين تأديب ومعالجة لكن تقنين الإنسان تقنين عجز وضَعف:

قال تعالى:

(صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50))

(سورة الفرقان)

إما أن يعود هذا الضمير في قوله تعالى:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ (50))

(سورة الفرقان)

لأقرب شيءٍ إلى الضمير وهو الماء، أو أن يعود هذا الضمير إلى ما سيتبع وهو قوله تعالى:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50))

(سورة الفرقان)

كفوراً بهذا الكتاب، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبَ رَبُّنا تعالى مِنْ قومٍ يُقادونَ إلى الجنّة في السّلاسِلِ))

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

أي بالمصائب، بالضيق، ربما كان نقص الماء، نقص المواد، لأن ربنا عزّ وجل إذا قَنَّن فتقنينه تقنين تأديب، تقنين معالجة، لكن الإنسان إذا قنن تقنينه تقنين عجز وضَعف.

لحكمة أرادها الله سبحانه بعث النبي عليه الصلاة والسلام للناس كافة:

قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51))

(سورة الفرقان)

شاءت حكمة الله أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام للناس كافة:

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51))

(سورة الفرقان)

أولاً رَفْعَاً لشأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما يجعله الله نبياً لكل الناس، رحمةً للناس.

وشيءٌ آخر ربما تقتضي مصلحة الإنسان أن يكون النبي واحداً في عصرٍ واحد. على كلٍ: ولو شئنا أي أن الله لم يشأ ذلك لحكمةٍ يعلمها، قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ (52))

(سورة الفرقان)

على من تعود هذه الهاء ؟ العلماء قالوا: على القرآن.

من أبواب الجهاد أن تتسلّح بالقرآن الكريم علماً وعملاً:

قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

الله سبحانه وتعالى وصف هذا الذي يحفظ القرآن، ويتلو القرآن، ويبيّن معاني القرآن، ويرُدُّ شُبَهَ المعترضين، ويرد على كيد الكائدين، ويبيّن إعجازه، ونظمه، إعجازه العلمي، إعجازه التشريعي، إعجازه البياني، إعجازه اللغوي، إعجازه الرياضي، هذا الذي يبيّن عظمة القرآن ويرد بهذا البيان على كل معترض، هذا الإنسان كأنه يجاهد به.

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

إذاً بابٌ كبير من أبواب الجهاد أن تتسلّح بهذا القرآن، قراءةً، تلاوةً، فهماً، حفظاً، تفسيراً، دراية، تدبُّراً، تَتَبُّعَاً، نشراً، تعليماً:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

أي أن الكون في كفة، وهذا القرآن في كفة.

أقسم الله بالكون على أن هذا القرآن كريم:

قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76))

(سورة الواقعة)

أقرب نجم ملتهب إلى الأرض بعده عنّا أربع سنوات ضوئية، وهذا الرقم يعني أنّك لو توجهت إلى هذا النجم القريبُ القَريبُ القريبُ، الذي لا يبعد عنا إلا أربع سنوات ضوئية، وسرت إليه بسرعة السيارة،

لاستغرقت هذه الرحلة ما يقرب من خمسين مليون سنة، إذا كان هذا النجم الذي يبعد عنا أربع سنواتٍ ضوئية يحتاج الإنسان ليصل إليه بسرعة السيارة إلى خمسين مليون سنة، فمتى يصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية ؟ أربع سنوات خمسين مليون سنة، أربعة آلاف سنة ؟ متى نصل إلى المرأة المسلسلة التي تبعد عنا مليون سنة ضوئية ؟ متى نصل إلى أحدث مجرة اكتشفت حديثاً التي تبعد عنا ستة عشر ألف بليون سنة ضوئية ؟

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(77))

(سورة الواقعة)

أقسم الله بالكون على أن هذا القرآن كريم، في كتابٍ مكنون لا يمسه إلا المطهرون، قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ(1))

(سورة الأنعام)

وقال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ(1))

(سورة الكهف)

علينا تعلّم تلاوة القرآن وفهم آياته وتدبّر أحكامه وتعليمه للناس وهذا جهادٌ كبير:

إذاً هذا القرآن:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

لذلك تعلّم تلاوته، تعلم تجويده، تعلم مخارج حروفه، تعلم أماكن الوَقف، تعلم كلماته، فهم آياته، تدبُّر أحكامه، استنباط معجزاته، تعليمه للناس، تفسيره، هذا جهادٌ كبير:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

حينما لا يكون الجهاد الصغير فهذا جهادٌ أيضاً كما قال عليه الصلاة والسلام:

((رجعنا من الجهاد الأصغر ـ وهو الحرب ـ إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى))

[من الجامع الصغير عن جابر]

الإنسان إذا علّم هذا القرآن للناس وأحيا به نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً:

لا تنسوا أن الإنسان إذا علّم هذا القرآن للناس وأحيا به نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا(32))

(سورة المائدة)

إذاً:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

أي جاهدهم بالقرآن، أتلُ هذا القرآن على مسامعهم، علِّمهم أحكامه، علمهم تفسيراته، علمهم إعجازه، علمهم نظمَه، علمهم بيانه، علمهم فيه كل شيء، وفي القرآن كل شيء.

(وَهُوَ الَّذِي (53))

(سورة الفرقان)

هل عرفتم الله عزّ وجل ؟

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48))

(سورة الفرقان)

مياه كل بحرٍ لها مكوّنات خاصة بها تختلف عن مياه بحر آخر:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ((53))

(سورة الفرقان)

هذه الآية وقف عندها المفسِّرون وقفاتٍ طويلة، حاروا بها، أين هو هذا البرزخ الذي بين البحرين ؟ هذه الآية تُكَمِّل آيةً أخرى في سورة الرحمن، وهي قوله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(21))

(سورة الرحمن)

بعض علماء البحار صوّروا بعض المضايق من سفن الفضاء، فإذا بين كل بحرين خط، بين البحر الأحمر والبحر الهندي خط، بين البحر الأبيض والبحر الأسود خط، بين البحر الأبيض والمحيط الأطلسي خط، هذا الخط عند اتصال البحرين، هذا الخط متحرك ومَرِن، ما هو هذا الخط ؟ اكتشف أن مياه كل بحرٍ لها مكوّنات، لها كثافة، لها درجة ملوحة، لها درجة حرارة، مياه كل بحرٍ لا تطغى على البحر الآخر، فالبحر الأحمر له ملوحته الخاصة به، وللبحر الأحمر مكوّناته الخاصة به، وللبحر الأحمر كثافته الخاصة به، وللبحر الأحمر حرارته، فإذا انتقلنا إلى المحيط الهندي، له حرارته، وكثافته، وملوحته، ومكوناته، قال تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(21))

(سورة الرحمن)

الحاجز بين البحرين الذي يمنع أن يطغى كل بحرٍ على الآخر من الأدلة على عظمته سبحانه:

شيءٌ لا يصدّق، هذا الحاجز بين البحرين الذي يمنع أن يطغى كل بحرٍ على الآخر، ما طبيعته ؟ لا أحد يدري، لكن سُفن الفضاء صوّرته، هناك فرقٌ في اللون، وهناك خطٌ بينهما، الآية الثانية التي تكمل الآية الأولى.

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (53))

(سورة الفرقان)

بعض الأنهار الكبير كنهر الأمازون الذي تزيد غزارته عن ثلاثمئة ألف متر في الثانية، هذا النهر يسير في عرض المحيط الأطلسي ما يزيد عن ثمانين كيلو متر، وتبقى مياه النهر عذبة، وتبقى مياه البحر مالحة:

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20))

(سورة الرحمن)

تتمة الحديث عن الأدلة الدالة على عظمة الله:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ (53))

(سورة الفرقان)

حلو المذاق، طيّبُ الطعم، شديد العذوبة:

(وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (53))

(سورة الفرقان)

لا يُحْتَمَل:

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا (53))

(سورة الفرقان)

طبعاً هذا ينطبق أيضاً على الينابيع العذبَةِ في مياه البحار، البحرين تشرب من مياه البحر، يركبون القوارب إلى عُرض البحر فيملؤون أوعيتهم من ماءٍ عذبٍ ينبُعُ وسط البحر، هذا ينطبق على الأنهار وهي في عرض البحار، وينطبق على الينابيع الحلوة التي تنبع وسط البحار، وله معنىً ثالث نشرحه بعد قليل.

البرزخ يمنع كل ماء من أن يطغى على الآخر لكن طبيعته غير معروفة حتى الآن:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا (53))

(سورة الفرقان)

البرزخ يمنع كل ماء من أن يطغى على الآخر، فهل يمكنك أن تمرر مياه بقناة، وتمرر مياه أخرى بقناة معترضة بحيث تتعامد مع القناة الأولى، كشارع متعامد مع شارع، اعمل مجريين متعامدين مع بعضهما، وأجرِ في هذا المجرى ماءً مالحاً، وفي هذا المجرى ماءً عذباً، فهل تستطيع أن تصل إلى مياهٍ عذبة بعد أن تعترض المياه المالحة ؟ هذا شيءٌ فوق طاقة البشر، لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا (53))

(سورة الفرقان)

البرزخ حاجزٌ لا ندري ما هو حتى الآن، موجود والدليل آثاره، لأن مياه كل بحرٍ لا تطغى على البحر الآخر، أما طبيعته غير معروفةٍ، صوّرته سُفُن الفضاء، بل إن بعض علماء البحار الكبار الذين اكتشفوا هذا الكشف العلمي المتفوق وهو في زهوة انتصاره، وفي نشوة اكتشافه أُنْبِئَ أن في القرآن الكريم هذه الآية، أسلم فوراً، لا يعقل، هذا شيءٌ جديد لا يعرفه أحد، أما الحِجْرُ المحجور هذا شيءٌ آخر، هذا يمنع أسماك المياه العذبة من أن تنتقل إلى المياه المالحة، ويمنع أسماك المياه المالحة من أن تنتقل إلى المياه العذبة.

من تصميم الله للأنهار أنه جعلها تهبط إلى البحر من مكانٍ مرتفع:

قال تعالى:

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53))

(سورة الفرقان)

هذه آيةٌ دالة على عظمة الله، بعض المفسرين قال: لا، هناك معنى آخر: هذه مياه البحر، الله سبحانه وتعالى جعل جميع المياه العذبة التي تصبُّ في البحر جعلها تهبط إليه من مكانٍ مرتفع، فلو أن المياه العذبة سارت إليه بمستوى ماء البحر، وجاء المد والجزر لطغت مياه البحر على كل الأنهار وجعلتها مالحة، من تصميم الله للأنهار أنه جعلها تهبط إلى البحر من مكانٍ مرتفع.

لو أن القمر اقترب من الأرض، الآن القمر يبعد عنا ما يزيد عن ثلاثمئة ألف كيلو متر، أثر المد والجزر واضحٌ في المياه، مياه البحار ترتفع عشرين متراً طولياً في المد وتنخفض عشرين متراً في الجَزر، لو أن القمر اقترب من الأرض إلى نصف هذه المسافة، لارتفعت مياه البحار أكثر من ثمانين

متراً، إذاً معظم المدن الساحلية والمناطق المحيطة بالبحار تنغمر بالمياه المالحة، لو أن مياه الأنهار سارت إلى البحر بمستوى يقارب سطح البحر، وجاء المد أو الجزر لطغت مياه البحار على الأنهار وأفسدت طعمها، لذلك تصميم التضاريس التي من خلالها تنصبُّ المياه على البحار هذا تصميم حكيمٍ خبير، بحيث لا تغطى مياه البحار على مياه الأنهار، هذا تفسير آخر، والقرآن حَمَّال أوجه بمعاني كلمات الله:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109))

(سورة الكهف)

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ((53)

(سورة الفرقان)

الماءٌ المهين هو الماء الذي خلق الله منه البشر:

ألم تعرفه بعد ؟

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا (54))

(سورة الفرقان)

ماء، ماء مَهين، تستحي به لو كان على ثوبك، ماءٌ مهين خلق الله منه بشراً:

(فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا (54))

(سورة الفرقان)

أي ذكراً وأنثى، النَسَب هو الرجل ينسب الابن إليه، والصِهر أي البنت التي تجلب الصهر.

خلق الإنسان آيةٌ أخرى دالة على عظمة الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54))

(سورة الفرقان)

هذه آيةٌ أخرى دالة على عظمة الله عزّ وجل، كيف أن الإنسان الذي خُلِقَ من ماءٍ مهين يصبح أعصاباً، وعضلات، وأوعية، وقلب، ورئتين، وجهاز هضمي، وجهاز تنفُّس، وجهاز إفراز، وأعصاب حس، وأعصاب حركة، وعظام منوّعة أنواعاً شديدة، ومفاصل، ودماغ فيه ذاكرة، وفيه تصور، وفيه تخيُّل، وفيه إدراك، وفيه إحساس، هذا الإنسان كيف خلق من ماءٍ مهين ؟ وكيف رُكِّبَ الذكر ذكراً

والأنثى أنثى ؟ تفاوت في البنية، وفي الهيكل، وفي الطباع، وفي التفكير، وفي وسائل التفكير، هذا كله من خلق الله عزّ وجل، إن شاء الله في درسٍ قادم نقف عند هذه الآية وقفةً متأنية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (11-13): تفسير الآيات 54 - 58
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-06-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة الفرقان.

ملخص لما وصلنا إليه في الدرس الماضي:

وصلنا في الدرس الماضي وفي أثناء الحديث عن الآيات الكونيّة التي تتالت بدءاً من قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (45))

(سورة الفرقان)

ومروراً بقوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا(50))

(سورة الفرقان)

إلى أن وصلنا إلى قوله تعالى في الدرس الماضي:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا (54))

(سورة الفرقان)

هل عرفت الله عزّ وجل ؟

الإعجاز في خلق الإنسان:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ (54))

(سورة الفرقان)

ماء الحياة، هذا الحوين الذي لا يُرى بالعين، يكون في اللقاء الواحد مع عددٍ كبير يزيدُ عن ثلاثمئة مليون حوين، تتنافس جميعاً على تلقيح بويضة المرأة، أما كيف تنطلق هذه الحوينات ؟ وكيف صُمِّمَت بشكلٍ مخروطي وعنقٍ وذنب ؟ وكيف تسبح في الماء لتصل إلى بغيتها البويضة ؟ كم منها يصل إلى البويضة، وكم منها يهلك على الطريق ؟ هذا موضوعٌ بالغ التعقيد.

على كلٍ كيف تختار البويضة أقوى هذه الحوينات ؟ وإذا اختارته كيف تسمح له بالدخول ؟ وكيف يدخل ؟ مادّةٌ نبيلة ـ كما يقول العلماء ـ مُغَشّاةٌ بغشاءٍ رقيق، إذا اختارت البويضة هذا الحوين واصطدم هذا الحوين بالبويضة، فإنّ هذه المادة النبيلة تذيب جدار البويضة ليدخلها الحوين، فإذا دخل إلى البويضة ولقّحها أُغْلِقَ الباب، وأُعْلِنَ لبقيّة الحوينات الثلاثمئة مليون أنه لا فُرصة الآن للدخول، لقد اختارت البويضة أحد هذه الحوينات، بل أقواها.

وكيف يُلقِّحُ هذا الحوين تلك البويضة ؟ وكيف يحمل الحوين المورّثات ؟ وقد قدّرها العلماء بخمسة آلاف مليون معلومة في الحوين، وفي البويضة أيضاً خمسة آلاف مليون، كيف أن هذا الحوين وتلك البويضة يتّحدان، ثمّ ينقسمان إلى عشرة آلاف خليّةٍ في أيامٍ معدودة ؟ كيف تنقسم هذه البويضة المُلقّحة من دون أن يزداد حجمها ؟ لأنه لو زاد حجمها لاستعصى عليها أن تتابع السير إلى الرَحِم.

وكيف هذه المورّثات تحدِّد طول الجنين ؟ ولونه ؟ ونوع شعره ؟ ولون عينيه ؟ وشكل حاجبيه ؟ وشكل خدِّه ؟ وعدد الشعر في جسمه ؟ كيف تحدِّد أعضاءه وبنيتها ؟ كيف تحدِّد طباعه ؟ خمسة آلاف مليون معلومة تتحد مع خمسة آلاف مليون معلومة لتشكِّل هذه العلقة التي تغدو مضغة، فتغدو عظاماً، فتكسى العظام لحماً، ثم يُنْشِئُهُ الله خلقاً آخر.

تشكّل الجنين في رحم الأم هو من الآياتِ الدالّةِ على خلق الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(14))

(سورة المؤمنون)

عملية التلقيح، وعملية نمو هذه البويضة، وكيف تُزْرَع في الرحم، وكيف تنتقل من مرحلةٍ إلى مرحلة إلى أن يولد الجنين طفلاً كامل الخلق ؛ فيه عضلاتٌ، وفيه عظامٌ، وفيه أجهزةٌ، وفيه قلبٌ ورئتان، وفيه معدةٌ وأمعاء، وفيه كليتان، وفيه دماغٌ وأعصاب حسٍ وأعصاب حركةٍ، وفيه جِلْدٌ، كيف تعمل أجهزته ؟ كيف ينبض قلبه ؟ كيف يغلق ثقب بوتال الذي بين الأذينين ؟

فلو أتيح لأحدكم أن يقرأ ما يسمّى في علم الطب مُسَلّمات، بديهيات، معلومات أوليّة حول تشكّل الجنين في رحم الأم، لا يملك إلا أن يخشع قلبه، وأن يقشعرّ جلده لما يقرأ أو لما يشاهد من آياتٍ دالّةٍ على خلق الله عزّ وجل:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ(58)أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ(59))

(سورة الواقعة)

قال تعالى:

(قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ(17)مِنْ أيّ شَيْءٍ خَلَقَهُ(18)مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(19)ثُمّ السّبِيلَ يَسّرَهُ(20)ثُمّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ(21)ثُمّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ(22)كَلا لَمّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ(23))

(سورة عبس)

أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيكَ انطوى العالَم الأكبرُ

*** * ***

الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن ننظر في خلقنا حتى نحس بعظمته سبحانه:

قال تعالى:

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ(21))

(سورة الذاريات)

قد تقول: أنا لا أذكر كيف كنت جنيناً في بطن أمي، ألا ترى إلى ابنك أمامك ؟ ألا تعلم علم اليقين أن هذا الطفل الذي أمامك كان نقطة ماءٍ، بل كان حويناً واحداً لَقّحَ بويضة زوجتك فكان هذا الغلام ؟ يا أيها الأخوة الأكارم، الشقي من غفل عن هذه الحقائق، الشقي من انغمس في عمله، وفي كسب رزقه، وفي متاهات الحياة، وفي القيل والقال، الشقي من استهلك نفسه استهلاكاً رخيصاً، الشقي من غَفَلَ عن الله رب العالمين، من غفل عن صنعته، من غفل عن عظمته، من غفل عن خلقه، الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن ننظر في خلقنا. ألم تعرفه بعدُ ؟

(وَهُوَ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللّيْلَ لِبَاسًا وَالنّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الّذِي أَرْسَلَ الرّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ(48))

(سورة الفرقان)

هذه الآية تُظهر عظمة الله عزّ وجل وتُظهر دقة خلقه:

قال تعالى:

(وَهُوَ الّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا (54))

(سورة الفرقان)

هذا الجنين يصبح ذكراً أو أنثى:

(فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا (54))

(سورة الفرقان)

النسب كِنايةٌ عن الرجل لأن المولود يُنْسَبُ إليه، والصهر كنايةٌ عن المرأة لأنها تجلب الأصهار، لأن البنت تجلب الصهر، جعل الله عزّ وجل كلمة النَسَب كنايةٌ عن الذكَر، وكلمة الصهر كنايةٌ عن الأنثى، هذه آيةٌ كبرى دالّةٌ على عظمته والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

فإن لم تؤمن من خلال هذه الآيات فبأي طريقٍ آخر تؤمن ؟ إنّك إذا فكّرت في هذه الآية تواجه عظمة الله عزّ وجل، تواجِه دقّة خلقه، لماذا كانت البويضات في المرأة محدودةً ؟ ولماذا كان الإنجاب في الرجل مستمرّاً ؟ لماذا كل هذه الحوينات ثلاثمئة مليون من أجل أن تختار البويضة حويناً واحداً ؟! كيف اجتمعت صفات الأب والأم ؟ كيف تفاعَلت مع بعضها بعضاً ؟ كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام في حديثٍ واحد لَخّصَ مجموعةً من المحاضرات المطوّلة التي أُلقيت حول تحسين النسل.

الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه عناوين لآياتٍ كونية ليتفكر الإنسان بها:

قال عليه الصلاة والسلام:

((اغربوا لا تضووا))

[تلخيص الحبير لابن حجر]

أي لا تضعفوا، كلّما تباعدت في زواجك جاء النسل قوياً، لأن الصفة الأقوى تغلب الصفة الأضعف، فإذا تزوّجت من قريباتك تضافر الضعف فجاء الضعف مركّزاً في الجنين، قال عليه الصلاة والسلام وما ينطق عن الهوى:

((اغربوا لا تضووا))

[تلخيص الحبير لابن حجر]

حتى لو أن الإنسان تزوّج أخته من الرضاعة أغلب الظن يأتي الجنين مشوّهاً ؛ بهشاشةٍ في العظام، أو بعمىً في العينين، أو باختلالٍ في الخلق لأن تشريع الله عزّ وجل تشريعٌ أساسه علم الله وخبرته ورحمته وبيانه.

هذه الآية إذا كان الله سبحانه وتعالى ذكرها في القرآن الكريم فليس معنى ذلك أن نكتفي بها، فكأن الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه عناوين لآياتٍ كونية، أي أيها الإنسان فكّر في هذه الآية، هذه الآية تستدعي أن تبحث عن مكنوناتها، عن أبعادها، عن تفصيلاتها، عن جزئيّاتها، عن ملابساتها، عن أسبابها، عن نتائجها، لا أعتقد أن آيةً دالّةً على عظمة الله عزّ وجل أقرب إليكم من خلق أنفسكم.

من أجل أن تواجه عظمة الله عزّ وجل لابدّ من جلسةٍ تأمل وتفكر بينك وبين نفسك:

قال الله عزّ وجل:

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ(21))

(سورة الذاريات)

إذا أردت أن تواجه عظمة الله عزّ وجل لا بدّ من جلسةٍ بينك وبين نفسك، لا بدّ من جلسة تأمُّلٍ، لا بدّ من جلسة تفكُّر، لا بدّ من خلوةٍ ولو لقليلٍ من الوقت كل يوم:

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ(5)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(6))

(سورة الطارق)

حينما تُصبح هذه البويضة مضغة فعلقة، حينما تصبح عظماً تُكسى لحماً، حينما تصبح طفلاً، هذا الطفل من منّا يصدِّق أن في جمجمته مئةٌ وأربعون مليون خليّة عصبيّة سمراء لم تُعْرَف وظيفتها بعد ؟ أربعة عشر مليون خليّة عصبيّة قشريّة تتمُّ فيها المحاكمة، والتذكُّر، والتصوُّر، والإدراك، وإدراك المسموعات والمشمومات والمبصرات، الذاكرة وحدها لو أنك أمضيت العُمر كله في دراستها لانقضى العمر قبل أن تنقضي عجائبها، هذا عن الذاكرة وحدها.

إذا تفكّرت في عظمة خلق الله عرفت الله وقدّرته حقّ قدره فإذا قدرته استقمت على أمره:

العين وحدها التي أودع الله فيها هذه الطبقة القرنية الشفّافة، وكيف تتغذّى هذه الطبقة الشفّافة ؟ إنها علمٌ قائمٌ بذاته، من أودع بعد هذه القرنية ذلك الجسم البلوري المَرِن الذي يزيد احتدابه أو تقلّصه مع بعد الشيء المرئي وقربه ؟ من هذا الذي يقيس المسافة ويضغط الأهداب حتّى تأتي الصورة على الشبكيّة ؟ يدُ من ؟ يدُ الله سبحانه وتعالى.

هذا المخلوق ؛ دماغٌ وأعصابٌ، أعصاب حسٍّ وحركةٍ، عينٌ تأخذ بمجامع القلوب، العصب البصري يزيد عن أربعمئة ألف عصب، الشبكيّة فيها مئة وثلاثون مليون عُصَيّة، سبع ملايين مخروط من أجل أن ترى الصورة بوضوحٍ شديد وبألوانها الزاهية، وليس في الأرض آلة تصويرٍ تستطيع أن تعطيكَ ألواناً متفاوتةً كما ترى العين، إنها تستطيع أن ترى الفارق بين لونين من أصل ثمانمئة ألف درجة من لونٍ واحد، لو أن اللون الأخضر وحده دُرّجَ إلى ثمانمئة ألف درجة فإن العين البشريّة تفرّق بين درجتين من درجاته.

هذا عن العين، فماذا عن الأذن ؟ وماذا عن الشم ؟ وماذا عن حسّ اللمس، وحس الضغط، وحسّ الحرارة، وحسّ البرودة ؟ كيف ينام الإنسان ؟ وكيف يتقلّب في الليلة الواحدة قريباً من أربعين مرّة ؟

لماذا يتقلّب ؟ لماذا يتقلب يمنةً ويسرة ؟ كيف يضغط الهيكل العظمي وما فوقه من عضلات على قسمهِ السفلي ؟ كيف تضيق الأوعية الدمويّة ؟ كيف أودع الله سبحانه وتعالى في الجسم مراكز للإحساس بالضغط ؟ كيف تخبر هذه المراكز الدماغ بأن انضغاطاً وقع في القسم الفلاني ؟ كيف يأمر الدماغ العضلات وأنت نائم بالتقلّب ؟

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ(18))

(سورة الكهف)

إن هذه الآية دالّةٌ على عظمة الله، لو أن أهل الكهف لم يُقَلَّبوا لما أمكن أن يبقوا في كهفهم ثلاثمئةٍ وزيادة.

يا أيها الأخوة الأكارم، إذا أردت باباً واسعاً جداً من أبواب معرفة الله فعليك بالتفكّر، التفكّر أرقى عبادة، في بعض الكتب الإسلاميّة يؤكِّد بعض المؤلِّفين أن عبادة التفكّر تفوق كل عبادة، أنت إذا تفكّرت عرفت الله وقدّرته حقّ قدره، فإذا قدرته حقّ قدره استقمت على أمره.

الحوين هو الذي يحدِّد نوع الجنين وليس البويضة:

أيها الأخوة:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54))

(سورة الفرقان)

حديثاً توصّلنا فيه إلى أن الذي يحدِّد نوع الجنين هو الحوين وليس البويضة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

ويقول الله عزّ وجل:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (55))

(سورة الفرقان)

كل هذه الآيات الدالّة على عظمته ومع ذلك يعبدون من دون الله !! الذين عبدوا الشمس عبدوها من دون الله، الذين عبدوا القمر عبدوه من دون الله، الذين عبدوا الأصنام عبدوها من دون الله، الذي يعبد هواه هذا يعبده من دون الله، كان الله ولم يكن معه شيء، والكون كلّه من دون الله، فإذا توجّهت بالعبادة إلى أيّةِ جهةٍ غير الله عزّ وجل فهذه عبادةٌ من دون الله، إذاً لا ينبغي أن تعبد إلا الله، قال تعالى:

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ(65))

(سورة الأعراف)

وقال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ(123))

(سورة هود)

العبادة هي غاية في الحب مع غايةٍ في الخضوع:

العبادة كما قلت لكم: طاعةٌ طوعيّة، غايةٌ في الخضوع مع غايةٍ في الحب، لو أن العبادة خَلَت من الحب لما كانت عبادة، لو أن الحب كان موجوداً ولم تكن هناك طاعة لما كانت عبادة، غايةٌ في الحب مع غايةٍ في الخضوع، طاعةٌ طوعيّة ممزوجةٌ بمحبّةٌ قلبيّة أساسها معرفةٌ يقينيّة تفضي إلى سعادةٍ أبديّة، وهي عِلّة وجودنا على وجه الأرض:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

وقال:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ (55))

(سورة الفرقان)

هؤلاء الكفّار، هؤلاء التائهون، هؤلاء الشاردون، هؤلاء الغافلون، هؤلاء الجُهَلاء، هؤلاء الذين ما فكّروا في عظمة الكون، هؤلاء الذين لم تستوقفهم هذه الآيات، هؤلاء الذين مَرّوا على هذه الآيات مرور الغافلين، هؤلاء الذين استهلكتهم الحياة، هؤلاء الذين استهلكوا حياتهم استهلاكاً رخيصاً، هؤلاء يعبدون من دون الله.

الله عزّ وجل ما أمرك أن تعبده وحده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه راجعٌ إليه:

الله عزّ وجل ما أمرك أن تعبده وحده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه راجعٌ إليه:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ(123))

(سورة هود)

وقال:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ (55))

(سورة الفرقان)

قال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، وَعَبْدُ الدِّرْهَم، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

هذا الذي يجعل حياته كلّها من أجل شيءٍ أرضيٍ ينتهي عند الموت، هذا عبدٌ لهذا الشيء.

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ (55))

(سورة الفرقان)

لو أنك آثرت رضا زوجتك على طاعة الله فكأنك عبدتها من دون الله، لو أنك آثرت إرضاء إنسانٍ ما على طاعة الله عزّ وجل فكأنما عبدته من دون الله، لو أنك آثرت شهوتك على طاعة الله عزّ وجل فكأنما عبدت هذه الشهوة من دون الله، قال تعالى:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ (55))

(سورة الفرقان)

فلا توجد إلا حالة واحدة إما أن تعبد الله وإما أن تعبد من دون الله، والذي يستحقُّ العبادة وحدها هو الله عزّ وجل.

عليك أن تعلم علم اليقين أن الأمر كله بيد الله سبحانه:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ(21))

(سورة البقرة)

هكذا قال سيدنا إبراهيم:

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(75)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ(76)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80)وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ(82))

(سورة الشعراء)

اسأل أهل الطب، اسأل علماء الطب: كم من حالة شفاءٍ تمّت بشكلٍ ذاتي لا يستطيع العلم أن يفسّرها ؟ يجب أن تعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يشفيك مما أنت فيه فلا يستطيع أحدٌ أن يقف بينه وبين هذا الشفاء.

الإيمان بالله يبثُّ التفاؤل في النفس والرضا والإشراق:

قال تعالى:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

لذلك هذا الإيمان يبثُّ التفاؤل في النفس، يبثُّ الرضا، يبث الإشراق، لكن البعد عن الإيمان بلا إله يجعل الإنسان يائساً، يجعله متشائماً، يجعله منكمشاً على نفسه، قال تعالى:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ (55))

(سورة الفرقان)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا(188))

(سورة الأعراف)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فلأن لا يملك لكم نفعاً وضراً من باب أولى، إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضُراً، فكيف يتَّجه إنسانٌ إلى إنسان ؟

لا تستطيع جهة في الأرض أن تنفعك أو تضرك إلا بإذن الله سبحانه:

قال تعالى:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ (55))

(سورة الفرقان)

أي أيها الإنسان اعبد من ينفعك ويضرُّك، هذا الذي تَلَقَّى رسالةً من يزيد بن معاوية، وكان عنده بعض التابعين، وفي هذه الرسالة توجيهٌ لا يرضي الله عزّ وجل، فهذا الوالي سأل هذا التابعي، قال: " ماذا أفعل ؟" أجابه بكلمة ـ يجب أن تُكْتَب بماء الذهب ـ قال له: " إن الله عزّ وجل يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله ". أي أنك إن أطعت هذا الإنسان وعصيت الرحمن، الرحمن من قدرته أن يمنعك منه، وليس في قدرة هذا الإنسان أن يمنعك من الرحمن:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ (55))

(سورة الفرقان)

إذاً من الصفات التي يجب أن تتوافر في من تعبده أن يملك بشكلٍ يقيني أن ينفعك وأن يضرَّك، تحقَّق تجد أن جهةً في الأرض لا تستطيع أن تنفعك ولا أن تضرَّك إلا أن يأذن الله عزّ وجل، وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجْبَنَا فإنا منحنا بالرضا من أحبّنا
ولُذ بحمانـا واحـتمِ بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

على الإنسان أن يدرك أن حاجته عند الله وحده:

أي: إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتُّك فاتك كل شيء وأنا أحبُّ إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

قال تعالى:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55))

(سورة الفرقان)

أنت إذا دخلت إلى دائرة وبيدك معاملة، وأنت في أمَسّ الحاجة أن يوقِّعها لك من يعدُّ توقيعه موافقةً لك، فتوجَّهت إلى مستخدمٍ لا يملك لك هذا التوقيع ؛ رجوته، وتذلّلت له، واستحلفته أن يوقِّعها لك، وليس من صلاحيَّته أن يوقِّعها لك، ألا يُعَدُّ من يفعل هذا غبيّاً ؟ فأنت إذا توجهَّت إلى إنسانٍ كائناً من كان ورجوته أن يعطيك شيئاً، أو أن يمنع عنك شيئاً، أو أن يحميك من شيء وهو لا يملك لك أي شيء فهذا هو الغباء بعينه.

لذلك أحد الخلفاء دخل إلى المسجد الحرام وسأل عن أحد العلماء الكبار وكان اسمه أبا حازم، فقال: " يا أبا حازم سَلني حاجتك ؟ " فقال: " والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله "، فلمَّا التقى به خارج الحَرَم، قال: " يا أبا حازم سلني حاجتك "، قال: " والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها؟! "، فلمَّا ألحَّ عليه، قال: " نعم أنقذني من النار "، قال: " هذا لا أملكه "، قال: " إذاً ليس لي عندك حاجة ".

أنت حاجتك عند الله، بيد الله صحّتك، بيد الله عيناك، شبكيّة العين، الجسم البلوري، ماء العين، بيد الله سمعك، بيد الله دماغُك، شرايين الدماغ بيد الله، لو أن أحدها انفجر في الدماغ لفقد الإنسان عقله، أو ذاكرته، أو سمعه، أو بصره، أو قوّته فأصبح مشلولاً، هذه الأوعية الشعرية الدقيقة لو أن نقطة دمٍ تجمّدت فيها لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، كليتاك بيد من ؟ ماذا تفعل إذا قيل: لقد توقفت هاتان الكليتان عن العمل ؟ وهذا المرض ليس له دواء حتى الآن، ماذا تفعل ؟ بيد مَن كليتاك ؟ بيد من دسّامات القلب ؟ بيد من هذه الأوعية ومرونتها ؟ بيد من التوازن الذي تتمتّع به ؟ كل الأمر بيد الله ؛

صحّتك، وأعضاؤك، وأجهزتك، وعقلك، وسمعتك، وزوجتك، وأولادك، ورزقُكَ، ومن هم دونك، ومن هم فوقك، ومن تخاف منهم، ومن لا تخاف منهم كلُّهم بيد الله.

الكافر من صفاته الثابتة أنه يَصُدُّ عن سبيل الله ويعينُ الشيطان على إضلال الخلق:

قال سيدنا هود:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

وقال:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ (55))

(سورة الفرقان)

وكأن الله سبحانه وتعالى يقول: ومع هذا كله تعبدون من دون الله ؟! تتوجّهون بالعبادة إلى غير الله ؟ أيعقل هذا ؟

(مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبّهِ ظَهِيرًا (55))

(سورة الفرقان)

أي كان الكافر يعين الشيطان على إبعاد الناس عن الله عزّ وجل، أي أن الكافر من صفاته الثابتة في كتاب الله أنه يَصُدُّ عن سبيل الله، أنه يعينُ الشيطان على إضلال الخلق، يعين الشيطان على الإفساد بين الناس، يعين الشيطان على الإيقاع بينهم.

إما أن يستجيب الإنسان لله تعالى عن طريق النبي وإما أن يتولى الله مباشرةً المعالجة:

قال تعالى:

(وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبّهِ ظَهِيرًا (55) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلّا مُبَشّرًا وَنَذِيرًا (56))

(سورة الفرقان)

هذه مهمّة النبي عليه الصلاة والسلام، لا يملك لنا ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولكن يدعونا إلى الله، ويبشّرنا إن أطعناه، وينذرنا إن عصيناه، هذا كل ما يملكه النبي عليه الصلاة والسلام:

(إنّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

لكن هذا الإنسان إذا دُعِيَ إلى الله عزّ وجل ولم يستجب، ربنا عزّ وجل عندئذٍ يداويه، يقول الله عزّ وجل:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(11))

(سورة المدثر)

إما أن تستجيب لله عزّ وجل عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام، وإما أن يتولى الله مباشرةً المعالجة، أي يا محمد إن لم يستجب دعه لي، أنا أداويه.

إذا دُعيت إلى الله فقف وتأمل وخذ هذه الدعوة أخذاً جدياً:

الإنسان أيها الأخوة الأكارم إذا دعي إلى الله ورسوله، إذا دعي إلى طاعته، إذا دعي إلى التعرُّف إليه، إذا دعي إلى محبته، إذا دعي إلى الأعمال الصالحة، إذا دعي ليعلم من هو ؟ وأين كان ؟ وإلى أين المصير ؟ إذا دعي إلى حقيقة الدنيا، وأن أساسها العمل الصالح، لقول الله عزّ وجل:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة العصر)

إذا دعي إلى هذا ينبغي أن يقف مَلِيّاً، ينبغي أن لا يستهين بهذه الدعوة، ينبغي أن لا يمر عليها كما يمر الغافلون:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ (46))

(سورة سبأ)

إذا دُعيت إلى الله فتأمل وقف، خذ هذه الدعوة أخذاً جدياً، تأمل من أنت ؟ أين كنت ؟ إلى أين المصير؟ اسأل هذا السؤال وهو سؤالٌ مخيف: هل بقي بقدر ما مضى ؟ هذا الذي مضى كيف مضى ؟ مضى كأنه لمح البصر، فهذا الذي بقي سيمضي كما مضى الذي مضى، إذاً الدنيا ساعة اجعلها طاعة، النفس طماعة عوّدها القناعة.

ليس في الإسلام حِرمان أبداً والشهوات إذا سارت في طريقها الصحيح أثمرت سعادةً:

أيها الأخوة الأكارم، كلمة أقولها لكم: ليس في الإسلام حِرمان أبداً، إذا عرفت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، ليس معنى هذا أنك محروم، كل شيءٍ أودعه الله فيك جعل له طريقاً نظيفاً، صحيحاً، منظماً، فهذا الوقود السائل في المركبة الذي ينطوي على قوة انفجار، البنزين، هذا الوقود لو وضع في مستودعه الصحيح، وسار في أنابيبه الصحيحة إلى غرفة الاحتراق، لأعطى حركةً نافعةً لك، نقلتك هذه المركبة من مكانٍ إلى مكان، أما إذا خَرَجَ عن خَط سيره وأصاب جسم المركبة وأصابته شرارة حرق المركبة كلها، وكذلك الشهوات إذا سارت في طريقها الصحيح أثمرت سعادةً.

شهوة النساء هذه خطط الله لها أن تفضي بك إلى زواج صحيح، إلى زوجةٍ تحبها وتحبك، تفي لها بالعهد وتفي هي لك بالعهد، إذا كان البيت الذي هو أساس المجتمع سعيداً سعد المجتمع كله، وهذا تخطيط ربِّ العالمين، أما إذا حاد الإنسان عن الطريق الصحيح، واعتدى على أعراض الآخرين، وترك هذه الفتاة في قارعة الطريق تنهشها الذئاب فقد خرب المجتمع، أساس المجتمع دعم الأسرة، فكل شيءٍ أودعه الله في الإنسان جعل الله له طريقاً صحيحاً، نظيفاً، مسعداً.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56))

(سورة الفرقان)

أي أنت تُبَلِّغ وتُبَشِّر وتُنْذِر وتنتهي مهمتك، ليس عليك أن تهديهم إلا أن يختاروا همُ الهُدى، ولست مسؤولاً عنهم، وما أنت عليهم بحفيظ.

البطولة أن تأتي الله طائعاً لا أن تأتيه مُكرهاً:

قال تعالى:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ(56))

(سورة القصص)

وقال أيضاً:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ(272))

(سورة البقرة)

لكن إذا لم يستجب الإنسان لهذه الدعوة، دعوة السماء لهذا الإنسان، ربما تولى الله عزّ وجل دفعه إلى أن يستجيب، ولكن البطولة أن تستجيب بالحسنى، البطولة أن تأتي الله طائعاً لا أن تأتيه مُكرهاً:

((عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل))

[رواه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة]

البطولة أن تتصدق وأنت صحيحٌ شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر، البطولة أن تأتي الله عزّ وجل وأنت شاب في ريعان الشباب، أن تأتيه وأنت قوي، أن تأتيه وأنت غني، أن تأتيه وأنت ذو شأن، لا أن تأتيه بعد فوات الأوان، لا أن تأتيه في خريف العمر، لا أن تأتيه وقد اشتعل الرأس شيباً وانحنى الظهر.

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك فاستحي مني فأنا أستحي منك))

[ورد في الأثر]

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول؟

* * *

إلى متى ؟!! قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56))

(سورة الفرقان)

الله تعالى سَخَّرَ هؤلاء الذين يدعون إلى الله عزّ وجل وجعل الأجر والثواب عنده:

أيها الأخوة، آيةٌ دقيقةٌ كل الدقة:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

لو أن الله عزّ وجل قال: قل ما أسألكم عليه أجراً، أي أن هذه الدعوة إلى الله خالصة، لا أسأل عليها أجراً هكذا يقول النبي، الله سبحانه وتعالى يأمره أن يقول هذا، قل: يا محمد.

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

هذه (مِن) لاستغراق كل أنواع الأجر، أي لا أجر مادي، ولا معنوي، ولا كبير، ولا عاجل، ولا آجل، أي أجرٍ، لا معنوي، ولا مادي، ولا قريب، ولا بعيد، ولا مُعَجَّل، ولا مؤَجَّل، ولا أي شيء من هذا القبيل ؟

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

لذلك لا تستطيع أن تذهب إلى طبيب إلا وفي جيبك المال، ولا تستطيع أن تذهب إلى محام إلا وفي جيبك أجرة الأتعاب، لكنك تستطيع أن تدخل بيت الله لتعرف كتاب الله من دون أن تدفع شيئاً، ومن دون أن تُكَلَّفَ بشيء، ومن دون أن تفعل شيئاً، فالله سبحانه وتعالى سَخَّرَ هؤلاء الذين يدعون إلى الله عزّ وجل وجعل الأجر عنده والثواب، لذلك إذا عملت صالحاً فلا تفسِد هذا العمل بطلب الأجر.

الدعاة الصادقون لا يسألون الناس أي أجرٍ كان:

كنت أضرب مثلاً: لو أن ملكاً قال لأستاذ: عَلِّم ابني بعض الدروس وأنا أكرمك، ما معنى أنا أكرمك وهو ملك ؟ العطاء على قَدَر المُعطي، فإذا سوّلت لهذا المُعَلِّم أن يأخذ من هذا الابن مبلغاً من المال فهذا أجره، أليس من يفعل هذا غَفَلَ عما عند هذا الملك من وعدٍ كبير ؟ أنت إذا خدمت العباد والله سبحانه وتعالى يقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً(245))

(سورة البقرة)

أنت إذا خدمت أخاك فقد أقرضت الله عزّ وجل، أنت إذا دللته على خير فقد أقرضت الله عزّ وجل، أنت إذا أعنته على حاجته، أنت إذا أطعمته، أنت إذا سَقيته، أنت إذا كسوته، أنت إذا عُدّته، قال الله في الحديث القدسي:

((مرضت فلم تعدني يا عبدي، قال: كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟! قال: مرض عبدي فلان فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده))

[أخرجه مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

هذه الآية دقيقةٌ جداً:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

والدعاة الصادقون كذلك، لا يسألون الناس أي أجرٍ كان ؛ لا كثير ولا قليل، لا قريب ولا بعيد، لا مادي ولا معنوي، لا شكر ولا شيء من هذا القبيل.

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

أجر النبي عليه الصلاة والسلام الذي يتقاضاه من أصحابه أن يسيروا إلى الله سيراً حثيثاً:

الله عزّ وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي(108))

(سورة يوسف)

إذا كنت متبعاً للنبي عليه الصلاة والسلام فلا ينبغي أن تأخذ أجراً، قال تعالى:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

معناها في أجر لأن إلا أداة استثناء إلا، ما هو الأجر:

(إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57))

(سورة الفرقان)

معنى دقيق جداً غايةٌ في الدقة، أي أن أجر النبي عليه الصلاة والسلام الذي يتقاضاه من أصحابه أن يسيروا إلى الله سيراً حثيثاً، هذا أجره، إذا عرفتم الله وأطعتموه وسعدتم به فهذا أعظم أجرٍ تقدمونه لمن يعلمكم، فهذه الفسيلة إذا اعتنى به صاحبها، سقاها، سمّدها، قلّمها، فإذا نمت هذه الفسيلة وأثمرت فهذا هو أجره، فأنت إذا علّمت إنساناً لو أنه لم يسلم عليك، لكنه لو طبق هذا العلم وانتفع به فقد نلت منه أعظم الأجر، لأن كل أعماله في صحيفتك.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

هذه آية دقيقة جداً:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57))

(سورة الفرقان)

أنت مخير:

(إِلَّا مَنْ شَاءَ (57))

(سورة الفرقان)

من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، تعلمُ العلم طريق، تعليم العِلم طريق، خدمة الناس طريق، الاستقامة على أمر الله طريق، برُّ الوالدين طريق، الإحسان إلى الجيران طريق، إتقان العمل طريق، أن تكون عند المسؤولية التي أنت فيها طريق، أن تكون نافعاً للناس طريق، أن تأمر بالمعروف طريق، أن تنهى عن المُنكر طريق، أن تحضر مجالس العلم طريق، أن تُعين على إحقاق الحق طريق.

(إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57))

(سورة الفرقان)

هذا هو أجر النبي، فقد يقول الأب لابنه على سبيل التقريب: مكافأتك لي يا بني أن تكون إنساناً عظيماً، مكافأتك لي أن تنجح في امتحاناتك الصعبة، مكافأتك لي أن تكون إنساناً أخلاقياً، الأب ماذا يريد ؟ لا تَقِرُّ عينه إلا إذا رأى ابنه شخصيةً مرموقة.

أن يتجه الإنسان إلى الله تعالى ويستقيم على أمره بهذا يكافئ الذي عَلَّمَهُ أعظم مكافأة:

قال تعالى:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57))

(سورة الفرقان)

يكفي أن يتجه الإنسان إلى الله عزّ وجل بإخلاصٍ وصدقٍ، وأن يستقيم على أمر الله، وأن يعمل صالحاً، ليكون قد كافأ الذي عَلَّمَهُ أعظم مكافأة، فلو أودعت في مصرف للخير مبلغاً من المال، كل هذا المبلغ يسجِّل نظيره في حساب من دلّك على هذا العمل، هكذا عند الله عزّ وجل، فإذا دللت على خير، فكل عملٍ يعمله من دللته على خير فهو في صحيفتك، فهذا هو أعظم أجر، هذا معنى. هناك معنى آخر للآية:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا (57))

(سورة الفرقان)

إلا إذا أعنت أهل الحق على مهمتهم، إنسان قدم خدمة لبيت من بيوت الله، هذا الذي يريده النبي لأصحابه، إلا إذا كنت لبنةٍ في بناء الحق، إلا إذا ساهمت في خدمة الخلق، أي إلا إذا أعنت أهل الحق على أداء مهمتهم:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57))

(سورة الفرقان)

عندئذٍ نسأله أجراً لوجه الله عزّ وجل، وهذا الأجر أن يكون عضواً نافعاً في المجتمع، أن يكون إنساناً معطاءً، أن يكون مضحياً.

التوكل على هذا الحي الذي يموت مغامرةٌ ومقامرة فلذلك توكّل على الحي الذي لا يموت:

قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ (58))

(سورة الفرقان)

الوكالة التي يحوزها الإنسان لا يستطيع أن يستعملها إلا إذا جاء من دوائر النفوس بوثيقةٍ تثبت أن الموكِّل لا يزال على قيد الحياة، فإذا مات الموكِّل ضاعت الوكالة، لذلك أنت أيها المؤمن توكّل على الحي الذي لا يموت، أحياناً إنسان يضع كل ثقته بإنسان، يموت هذا الإنسان فجأةً ضاعت كل آماله:

اجعل لربّك كل عزك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

* * *

أي أنك إذا توكلت على إنسان حي فهو ميت، بمعنى أنه سيموت، ولا تدري متى سيموت ؟ فالتوكل على هذا الحي الذي يموت مغامرةٌ ومقامرة، فلذلك توكّل على الحي الذي لا يموت، فهو الحي الذي لا يموت، لأن ربنا عزّ وجل يقول للميت حينما يوضع الإنسان في قبره عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ (58))

(سورة الفرقان)

على الإنسان أن ينزه الله ويمجده لأنه هو كل شيء:

التوكل على جهة أخرى مغامرة، بل مقامرة، بل خسارة، بل غباء، بل حُمق قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ (58))

(سورة الفرقان)

توكل على من بيده كل شيء، توكل على من بيده ملكوت السماوات والأرض، توَكّل على الذي يسمعك، توكل على الذي ينفعك، توكل على الذي يستجيب لك قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ (58))

(سورة الفرقان)

أي نَزّهُهُ ومجّده، هل فكرت في خلق السماوات والأرض ؟ هل عرفت لُطفه ؟ هل عرفت قوته ؟ هل عرفت غناه ؟ هل عرفت علمه ؟ هل عرفت قدرته ؟ هل عرفت عطفه ؟ هل عرفت أنه هو المعطي والمانع، هو الخافض والرافع، هو المعز والمذل ؟ هل عرفت أنه هو النافع والضار ؟ هل عرفت أنه هو القابض والباسط ؟ هل عرفته أنه هو كل شيء ؟

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ وكل نعيمٍ لا محالـة زائـلُ

* * *

الخبير بالذنوب هو الله عزّ وجل إذاً ليس من شأن الإنسان أن يُقيّم أخاه الإنسان:

قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58))

(سورة الفرقان)

أنت أيها الإنسان لست الخبير بالذنوب، الخبير بالذنوب هو الله عزّ وجل، إذاً ليس من شأن الإنسان أن يُقَيّم أخاه الإنسان، هذا من شأن الواحد الديّان، مقامُكَ كعبدٍ لا يسمح لك أن تقيّم أحداً، لأن الله سبحانه وتعالى رب النوايا، وهو الذي يعلم السر وأخفى، يعلم ما تخفي الصدور، يعلم خائنة الأعين، لذلك:

(وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58))

(سورة الفرقان)

إذا قلت: هذا سَيّئ، وهذا إلى النار، وهذا كافر، هذا ليس من شأنك ؛ هذا من شأن الله عزّ وجل، لا تمدح ولا تذُم، من أنت ؟ أنت عبدٌ ضعيف، محدود المعلومات، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى(32))

(سورة النجم)

لا تقول: أنا، من أنت ؟ قالها إبليس فأهلكه الله، لا تقل: أنا، قل: الله أعلم، أرجو الله أن يرحمني. تابعيٌ جليل التقى مع أربعين صحابياً قال: " ما رأيت واحداً إلا وهو يظن أنه منافق "، أرجو أن أكون صادقاً،

أرجو أن أكون مخلصاً. شخص قال: " أنا مخلص "، فقال: "يا هذا إخلاصك يحتاج إلى إخلاص "، لا تقل: أنا مخلص، قل: أرجو الله أن أكون مخلصاً، لا تزكوا أنفسكم هذه واحدة.

لا تزكِ نفسك ولا تزك على الله أحداً فهذا تجاوزٌ لمقام العبودية:

لا تزكِ على الله أحداً قل: الله أعلم، سيّدنا الصديق وله ما تعلمون من الفضل، قال عنه النبي الكريم:

((ما طلعت شمس على نبي أفضل من أبي بكر))

[ورد في الأثر]

لما ولى عمر، قال: **" فإن بَدّلَ وغَيّرَ فلا علم لي بالغيب "**، هذا أدب مع الله عزّ وجل، فلان جَيّد، من أنت ؟ هذا تطاول على الله عزّ وجل، لا تزكوا أنفسكم، ولا تزكوا على الله أحداً، قل: والله أعلم، قال: **" يا رب أقول لقد وليت عليهم أرحمهم فإن بدل وغيّر فلا علم لي بالغيب "، أنت أعلم.**

هذه الآية دقيقة، لا تزكِ نفسك، ولا تزك على الله أحداً ولا تحكم على أحدٍ بشيء، من أنت ؟ أنت عبدٌ لله، أن تزكي نفسك، أو أن تزكي غيرك، أو أن توزّع التُهَمَ على الناس، هذا فاسق، هذا فاجر، هذا ليس من شأنك، هذا من شأن الله عزّ وجل، هذا تجاوزٌ لمقام العبودية.

(وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58))

(سورة الفرقان)

لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الذنب شؤمٌ على غير صاحبه، إن تكلّم به فقد اغتابه، وإن عَيّرَهُ ابتلي به، وإن رضي به فقد شاركه في الإثم))

[كنز العمال عن أنس]

أخوكم وقع في ذنب، قل: يا ربي اغفر له وارحمه ونجّني من هذا الذنب، هذا الموقف الأديب، هذا موقف العبد الصادق.

(وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا (59))

(سورة الفرقان)

معنى (الذي خلق السموات والأرض) في هذه الآية أي الذي خلق الكون:

كلمة:

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا (59))

(سورة الفرقان)

تعني الكون، أي الذي خلق الكون:

(السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ (59))

(سورة الفرقان)

أولاً كلمة يوم نفهمها نحن فهماً محدوداً، أرضنا تدور حول نفسها، دورةً في كل أربعٍ وعشرين ساعة، إذاً كلمة يوم نفهمها نحن هذه الدورة، أما عندما ربنا عزّ وجل يقول:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ (59))

(سورة الفرقان)

ليس معنى هذا كما يقول اليهود في تلمودهم: إن الله خلق الدنيا في ستة أيام واستراح يوم السبت، لأنه تعب قال تعالى:

(وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38))

(سورة ق)

قولهم استراح يوم السبت هذا معنى فاسد، اليوم الذي عناه الله بهذه الآية لا يعلمه إلا الله.

للآية التالية عدة تفسيرات:

قال تعالى:

(وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(47))

(سورة الحج)

بعض التفسيرات لهذه الآية: أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام هكذا على ظاهرها، وبعض التفسيرات: أن السماوات والأرض مرّت بأدوار، اليوم هو الدورة، يقول لك: العصر المَطير، عصر النباتات العملاقة، عصور الأمطار الغزيرة، عصور تَجَمُّد القشرة الأرضية، أي أن الأرض نفسها مرت بأدوار عبر آلاف السنين، عبر ملايين السنين، حتى أصبحت صالحةً لحياتنا، حتى أصبحت هذه القشرة مفتتةً، أصبحت تربةً زراعية، وأصبح النبات مستقراً، وأصبحت القارات في أماكنها، وزّعت القارات والجُزُر والصحارى والجبال والمحيطات والأنهار، من أجل أن تكون هذه الأرض مستقراً للإنسان مرت بمراحل طويلة جداً عبر آلاف السنين، عبر ملايين السنين، لعل الله سبحانه وتعالى يريدُ من كلمة ستة أيام تلك المراحل الطويلة التي أعدت الأرض فيها لتكون مستقراً لهذا الإنسان، وبعضهم يقول: لعل هذه الأيام السِت هي الصيف والشتاء والربيع والخريف والليل والنهار، وعلى هذه الأدوار الست تقوم الحياة، فالقُرآن حَمَّال أوجه، والقرآن لا يُحَدُّ بمعنىً واحد.

الله خلق الأرض والسماوات وبَثّ فيهما الحياة وخلق فسوى وهذا هو المعنى:

هذه الآية:

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ (59))

(سورة الفرقان)

ستة أيامٍ لا كأيامنا، وهذا اليوم لا يعلمه إلا الله، أو ستة مراحل مرّت بها السماوات والأرض حتى أصبحت على ما هي عليه الآن صالحةً للحياة، أو الأيام هي الربيع والخريف والشتاء والصيف والليل والنهار، والله أعلم، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ(59))

(سورة الفرقان)

الاستواء معلوم والكيف مجهول، كيف استوى على العرش ؟ الله أعلم، ولكن خلق الأرض والسماوات وبَثّ فيهما الحياة، خلق فسوى، خلق وبث الحياة، فهذا هو المعنى.

كلمة الرحمن هي اسم الله الأعظم:

على كلٍ:

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ (59))

(سورة الفرقان)

هل تعرف من هو ؟ إنه الرحمن، ولعل هذا الاسم هو اسم الله الأعظم، لأن لطفه رحمة، وقوّته رحمة، وعدله رحمة، منعه رحمة وعطاؤه رحمة، رفعه رحمة وخفضه رحمة، إعزازه رحمة وإذلاله رحمة، بسطه رحمة وقبضه رحمة، تقريبه رحمة وإبعاده رحمة، إذا أبعد الإنسان عن شيءٍ فهو رحمة، قد يكون العطاء عين المَنع، وقد يكون المنع عين العطاء.

الرحمن، كلمة الرحمن وهي اسم الله الجامع تفسر كل أفعاله، بل تفسّر كل أسمائه، بل تفسر كل صفاته، بل تفسر الآية الكريمة:

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ(119))

(سورة هود)

أي أن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا، وأيُّ كلامٍ آخر لا تلتفت إليه، كقول الناس: سبحان الله، الله خلقنا ليعذبنا، هذا كلام شيطاني، الله جلّ وعلا عن ذلك، بل خلقك ليسعدك، ليرحمك، ولكن إذا حِدْتَ عن الطريق لا بُدّ من التأديب، هذا كل ما في الأمر.

أدلة من القرآن الكريم على رحمة الله بعباده وتأديبه لهم عند تقصيرهم:

قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

وقال:

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

وقال:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147))

(سورة النساء)

وقال:

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا(59))

(سورة الكهف)

وقال:

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ(17))

(سورة سبأ)

قال:

(وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

وقال:

(فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ(70))

(سورة التوبة)

كل خير تقوم به في الدنيا مهما كان صغيراً تراه يوم القيامة عظيماً:

قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7))

(سورة الزلزلة)

لو أنقذت نملة من الموت لرأيت هذا العمل يوم القيامة عظيماً:

((دخلت امرأةٌ النار في هرة حبستها))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْه عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْن عُمَرَ]

وقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

قال:

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ (59))

(سورة الفرقان)

كل شيءٍ وقع أراده الله وهو مَحْضُ الخير:

هل عرفته من هو ؟ إنه الرحمن، خلقه رحمة، تسييره رحمة، تربيته رحمة، عطاؤه رحمة، ومنعه رحمة، قال تعالى:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ(26))

(سورة آل عمران)

كلُّه خير، كل شيءٍ وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته متعلقةٌ بالخير المطلق، كل شيءٍ وقع أراده الله وهو مَحْضُ الخير.

(الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59))

(سورة الفرقان)

اسأل عنه، اسأل عنه أهل الذِكر، تَعَلَّمَ عنه كل شيء، احضر مجالس العلم كي تعرف من هو الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (12-13): تفسير الآيات 60 - 72
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-06-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة الفرقان.

ربّما ليس في القرآن الكريم آية أشدّ وصفاً لجحود الكفار واستكبارهم كهذه الآية:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60))

(سورة الفرقان)

ربّما ليس في القرآن الكريم آيةٌ أشدّ وصفاً لجحود الكفار، واستهانتهم، واستكبارهم كهذه الآية:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ (60))

(سورة الفرقان)

للكفّار:

(اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ (60))

(سورة الفرقان)

اخضعوا له، استجيبوا له، صلّوا، طبّقوا أمره، هذه المفردات كلّها مما تعنيه كلمة اسجدوا.

ليس الكفر أن تنكر وجود الله عزّ وجل ولكن الكفر أن تُعرض عنه ولا تعبأ بأمره:

قال تعالى:

(قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ (60))

(سورة الفرقان)

لم يقولوا: ومن الرحمن ؟ لأنهم لو قالوا: من الرحمن إنهم بهذا ينكرون الذّات، أما حينما قالوا: وما الرحمن ؟ إنهم يُنكرون الصفات، هم يقرّون بوجوده ولكن وما الرحمن حتى نسجد له ؟ لذلك ليس الكفر أن تنكر وجود الله عزّ وجل ؛ ولكن الكفر أن تُعرض عنه، ولكن الكفر أن لا تقيم لأوامره قيمةً، ألا تعبأ بأمره ولا بنهيه، ولا بوعده ولا بوعيده، ولا بشرعه ولا بقرآنه، الكفر أن تعرض، أن تدير ظهرك لأوامر الله عزّ وجل، قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ (60))

(سورة الفرقان)

فرعون قال هذا الكلام، قال:

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ(23))

(سورة الشعراء)

حينما تسأل بحرف (ما) فإنّك تنكر الصفات لكنّك إذا استفهمت بـ (من) فإنّك تنكر الذات:

حينما تسأل بحرف (ما) فإنّك تنكر الصفات، هو استفهامٌ إنكاري، إنّك تنكر الصفات، لكنّك إذا استفهمت بـ (من) فلعلّك تنكر الذات:

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا (60))

(سورة الفرقان)

أنسجُدُ هذا إصرارٌ على الاستكبار، حينما جاءت كلمة أنسجد مرّةً ثانية إن هذا إصرارٌ على الاستكبار، واستكبارٌ ثالث:

(أَنَسْجُدُ (60))

(سورة الفرقان)

لم يقولوا: أنسجد لله:

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا (60))

(سورة الفرقان)

كأنّهم يترفّعون عن ذكر اسم الله عزّ وجل:

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60))

(سورة الفرقان)

إنّ دعوتهم إلى السجود زادتهم نفوراً، هذه صورةٌ صارخة، صورةٌ من صور الكفر والجحود، وكأن الله سبحانه وتعالى يسلّي نبيّه الكريم، أن يا محمّد لا تجزع إذا كذّبوك، لا تجزع إذا جحدوا نعمتك، إنهم بالله يجحدون، إنهم يكذّبون الله عزّ وجل، إنهم يستكبرون على الله.

الاستكبار و الاستنكاف عن عبادة الله:

قال تعالى:

(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ(172))

(سورة النساء)

هناك من يستنكف عن عبادته، وهناك من يستكبر، قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ(206))

(سورة البقرة)

نعوذ بالله أن نكون من المستكبرين:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60))

(سورة الفرقان)

هذه السماء وما فيها من مجرّات وهذه البروج تنطق بعظمة الله:

ربنا سبحانه وتعالى يبيّن عظمته، يبيّن جلاله فيقول:

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (61))

(سورة الفرقان)

أي أن هذه السماء وما فيها من مجرّات تنطق بعظمة الله، وما الرحمن ؟

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (61))

(سورة الفرقان)

هذه البروج التي نراها كل حينٍ في أثناء دورة الأرض حول الشمس، إنها تنطق بعظمة الله، تنطق بوحدانيّته، تنطق بجلاله، تنطق بقدرته، تنطق بحكمته، قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61))

(سورة الفرقان)

كلّكم يعلم أن الأرض في دورتها حول الشمس تستغرق هذه الدورة ثلاثمئةٍ وخمسة وستين يوماً وربع اليوم، أربعة أرباع تكون السنة كبيسة، تكون الأيام في شهر شباط تسعةً وعشرين، في دورة الأرض حول الشمس كلّما انتقلت الأرض من مكانٍ إلى مكان واجهت مجموعةً من النجوم اسمها البُرْج، وجمع البُرج أبراج، وربنا سبحانه وتعالى في آياتٍ أخرى يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(1))

(سورة البروج)

هذه البروج كما يسمّيها بعضهم: برج العقرب، وبرج الجدي وما إلى ذلك، هذه البروج مجموعاتٌ ضخمةٌ من النجوم تتراءى لأهل الأرض مع كل شهرٍ من شهور السنة، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى الذي خلق السماوات والأرض إنها كلّها تنطق بحمده، تنطق بعظمته، تنطق بجلاله، تنطق بحكمته، تنطق بقدرته، فما قول هؤلاء: وما الرحمن ؟ أي ما ضرّ السحاب نبح الكلاب وما ضرّ البحر أن رمى فيه طفلٌ بحجر.

من آيات الله عزّ وجل أنه جعل الليل والنهار يتعاقبان لنعلم عدد السنين والحساب:

قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61))

(سورة الفرقان)

هذه الشمس ـ والحديث عن الشمس يطول ـ إنها كوكبٌ مُلتهب، حرارتها عشرون مليون درجة في مركزها، ألسنة اللهب تزيد عن نصف مليون كيلو متر، تبعد عنّا مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر ومع ذلك تقول: كدت أحترق من أشعّة الشمس، هذه الأشعّة تبعد عنا مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، ولو أن الأرض أُلقِيَت في الشمس لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة، فكيف ببعض بروج السماء وهو برج العقرب الذي فيه نجمٌ يتّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما ؟!

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً(62))

(سورة الفرقان)

أي أن الليل يَخْلُفُ النهار، والنهار يَخْلُفُ الليل، أولاً لنعلمَ العدد والحساب، ثانياً من فاتته الطاعة في الليل أدركها في النهار، من فاتته في النهار أدركها في الليل، وربّما جعل الليل والنهار مختلفين، هذا يطول وهذا يقصر، وتنعكس الآية في فصلٍ آخر، هذا أيضاً آية من آيات الله عزّ وجل، جعل الليل والنهار يتعاقبان، ومن خلال تعاقبهما نعرف عدد السنين والحساب، وجعل الليل والنهار آيتين نذكر بها عظمة الله عزّ وجل، وإذا فاتتنا العبادة في الليل أدركناها في النهار، وإذا فاتتنا في النهار أدركناها في الليل.

الحدُ الأدنى في الشكر أن تذكر نعمة الله عليك والحدُ الأعلى أن تقابل هذه النعمة بعملٍ طيّب:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً (62))

(سورة الفرقان)

أولاً يخلف بعضهما بعضاً، ثانياً مختلفين في الطول والقِصَر، ثالثاً مختلفين في الضياءِ والظلام، رابعاً إنهما آيتان دالّتان على عظمة الله عزّ وجل، لولا أن محور الأرض مائلٌ لما اختلف طول الليل والنهار، لو أن محور الأرض عموديٌّ على مستوي الدوران لتساوى الليل والنهار قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ (62))

(سورة الفرقان)

أن يذكر الله عزّ وجل. قال: **" يا رب كيف أشكرك ؟ "**

((إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

فالحدُّ الأدنى في الشكر أن تذكر نعمة الله عليك، والحدُّ الأعلى أن تقابل هذه النعمة بعملٍ طيّب، لقوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(13))

(سورة سبأ)

التذكر إما أن يكون في الوقت المناسب وإما أن يكون بعد فوات الأوان:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62))

(سورة الفرقان)

لكن لا بدّ من التذكّر، ولكن إما أن يكون هذا التذكّر في الوقت المناسب، وإما أن يكون بعد فوات الأوان، أعتى الكفّار عند الموت يذكر، وعند الموت يتوب، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ (18))

(سورة النساء)

لذلك:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ(152))

(سورة البقرة)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41)وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا(42))

(سورة الأحزاب)

وقال:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62))

(سورة الفرقان)

عباد الرحمن نَسَبَهُمُ الله إلى اسمه الكريم وهذا أعظم تشريف لهم:

هؤلاء الذين يقولون: وما الرحمن ؟

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60))

(سورة الفرقان)

ماذا يقابلهم ؟ يقابلهم عباد الرحمن، هؤلاء العباد الذين نَسَبَهُمُ الله إلى اسمه الكريم، وهل من تشريفٍ أعظم من هذا التشريف أن تُنْسَب إلى ذات الله عزّ وجل، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ (63))

(سورة الفرقان)

هذا تشريفٌ عظيم أن يكون الإنسان عبداً للرحمن، فهل هو عبدٌ حقّاً ؟ ما صفات هؤلاء العباد، عباد الرحمن ؟ الحقيقة هذه الصفات لماذا جاءت ؟ جاءت هذه الصفات لتكون مقياساً لنا، يجب أن تعنيك هذه الصفات، يجب أن تسأل نفسك هذا السؤال: هل تنطبق هذه الصفات على صفاتي ؟ هل صفاتي مطابقةٌ لهذه الصفات ؟ إن كانت كذلك فأبشر فأنت من عباد الرحمن، وإن لم تكن كذلك فاجعل هذه الصفات هدفاً لك.

كما قلت في درسٍ سابق: هذا الذي تستهلكه الحياة يعيش لحظته، يعيش ليأكل، يعيش ليكسب المال من دون أن يفكِّر في مبدئه وفي منتهاه، هذا إنسانٌ تافه يعيش على هامش الحياة، لكن الله سبحانه وتعالى الآن يصف لكم عباد الرحمن، فالسؤال الكبير: هل أنت من عباد الرحمن ؟ أو هل هذه الصفات كلُّها منطبقةٌ عليك ؟ وإذا كان هناك اختلاف فهل هو اختلافٌ كبير أم اختلافٌ قليل ؟ هل هو اختلافٌ في عدد الصفات أم في الدرجة ؟ هل الاختلاف في النوع أم في الدرجة ؟ وإن لم تكن هذه الصفات أو لم يكن بعضها اجعلها هدفاً من أهدافِك، من هم عباد الرحمن ؟ ونرجو الله أن نكون من هؤلاء.

حركة الإنسان على وجه الأرض عبّر عنها الله سبحانه وتعالى بكلمة (يمشون):

قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

الحقيقة بعض المفسِّرين يقول: ليس القصدُ من هذه الكلمة أنه يمشي على وجه الأرض، كلُّنا نمشي، نحيا، المشي هنا بمعنى أنه يعيش على وجه الأرض، يتحرَّك، يذهب إلى عمله، يعود إلى بيته، ينطلق إلى نُزُهَاته، ينطلق إلى لقاء، إلى سهرة، إلى اجتماع، إلى لهو، إلى لعب، إلى دعوة إلى الله، إلى تَعَلُّم العِلم، هذه الحركة حركة الإنسان على وجه الأرض، ينطلق بدافعٍ من شهواته، بدافعٍ من أهدافه، بدافعٍ من مبادئه، بدافعٍ من قيمه، من حاجاته، من نزواته، حركة الإنسان على وجه الأرض، سعيه لكسب الرزق، سعيه لكسب العِلم، سعيه لكسب اللذّة، حركة الإنسان على وجه الأرض عبَّر عنها الله سبحانه وتعالى بكلمة (يمشون) قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

المعنى الأول: أي هم يتمهّلون في كل شيء، لا تأخذهم الأشياء بظواهِرها، هُم يتأمّلون، يتفكّرون، يبحثون، يُقَلِّبون الأمر على وجوهه ؛ هذا الموقف هل يرضي الله عزّ وجل أم لا يرضيه ؟ إذا نشب خلافٌ بين أمِّك وزوجتك ماذا تفعل ؟ لا يندفعون بدافعٍ من غرائزهم، بدافعٍ من نزواتهم، لا يتّخذون مواقف مرتجلة، إنهم يمشون على الأرض هَوْنَاً، إذا شربوا كأس الماء لا يشربونه كالبهائم، يشربونه ويفكِّرون في هذا الماء العذب الفرات الذي وفّره الله للإنسان، اللهمّ أرنا نعمكَ بكثرتها لا بزوالها، ربّما عرفنا في هذا العام قيمة الماء.

المعنى الأول لهذه الآية أي يتمهّلون في كل شيء ولا تأخذهم الأشياء بظواهِرها:

هؤلاء:

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

قبل أن يعقدوا عقد زواجهم على امرأة يتريّثون هل هذه المرأة صالحة ؟ هل تنطبق عليها الصفات التي أمر بها النبي عليه الصلاة والسلام ؟ هل آثرت في هذه المرأة دينها أم دنياها ؟ هل آثرت جمالها أم مالها أم نسبها أم دينها ؟

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

قبل أن يعقدون صفقةً، هل هذه البضاعة ترضي الله عزّ وجل أم أنّ هذه البضاعة محرّمة ؟ هل طريقة هذا التعامل في شرائها أو بيعها مما يرضي الله عزّ وجل ؟ قبل أن يضعوا سعراً لهذه السلعة، هل هذا السعر يرحم المسلمين أم لا يرحمهم ؟

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

عندهم تريُّث، تأمُّل، تفكُّر، وقوف عند كتاب الله، يسألون: ما هذا الحكم ؟ ما حكم هذه الصفقة هل هي مباحة هل فيها كراهة ؟ نوع هذه الكراهة تحريميَّة أم تنزيهيَّة ؟ ما نوع هذه الكراهة ؟ هل هذا الشيء مُحَرَّم، هل هو مباح، هل هو حلال ؟ فما الذي يهلك الناس ؟ أنهم يندفعون نحو شهواتهم من دون تَبَصُّر، تلوح لهم الدنيا فيندفعون نحوها بحقٍّ أو بغير حق، من طريقٍ مشروع أو من طريقٍ غير مشروع، بطريقةٍ ترضي الله أو لا ترضي الله، هان الله عليهم فهانوا على الله.

عباد الرحمن أيضاً يفكرون قبل أي حركة فهم لهم منهاج:

كلمة هوناً رائعة جداً، يفكِّر قبل أن يتحرّك، قبل أن يذهب إلى البلد الفلاني يفكِّر ما مصير بناتي وأولادي إذا كبروا هناك ؟ هل بإمكاني أن أمنع ابنتي من أن تسبح على البحر بلباس السباحة ؟ ماذا يحدث لي لو رأيت مع ابنتي شابّاً صديقاً لها إذا أقمت في بلاد الكُفر ؟ يفكِّر قبل أن يندفع إلى السَفَر، وإلى أن يقيم في هذه البلاد يفكِّر في مستقبل بناته، في مستقبل أولاده:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

قبل أن يُرسل ابنه إلى بلاد الغرب، ما احتمال أن يفسد دينه ؟ ما احتمال أن يعود إلى بلده وهو يُنكر دينه ؟ هناك احتمالات، فقبل أي حركة ؛ حركة لكسب المال، حركة لقضاء متعة، حركة لعمل معيَّن، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

هم لهم منهاج، هذه الآلة قبل أن تشغِّلها بجهلٍ اقرأ التعليمات، هناك تعليماتٌ من الصانع، وأنت آلة، قبل أن تندفع إلى شيءٍ ما اقرأ التعليمات، كان سيدنا عمر رضي الله عن عمر وقّافاً عند كتاب الله، قبل أن أشتري هذا المحل التجاري هل موقعه مناسب ؟ قبل أن أشتري هذا البيت هل هو في منطقةٍ يكثر فيها الفساد ؟ هل أخاف على بناتي وعلى أولادي من هذه المنطقة ؟ أم أنتقي لهم حيّاً آخر ؟

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

التسرُّع والعَجَلَة يُهلك الناس لكن المؤمن يفكِّر ويقف ويتأمّل:

ما الذي يُهلك الناس ؟ التسرُّع، العَجَلَة، الاندفاع نحو كسب المال، الاندفاع نحو قضاء اللذّة، الاندفاع نحو المَجد الفارغ، الاندفاع نحو العلو في الأرض، قبل أن تقبل هذه الوظيفة هل تعرف أنك محاسبٌ محاسبةً دقيقةً من قِبَلِ الله عزّ وجل عن كل موقفٍ تقفه، وعن كل أمرٍ تأمره، وعن كل نهيٍ تنهاه ؟

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

المؤمن يفكِّر، يقف، يتأمّل، يُمَحِّص، يدقِّق، يُقَلِّب الأمر على وجوهه كلّها، قبل أن تختار هذه الفتاة لابنك هل هي فتاةٌ مؤمنة تعينه على أمر دينه أم أنها طائشة ؟ تسأل ابنك: ما الذي أعجبك في هذه

الفتاة؟ أعجبك غنى أهلها ؟ أعجبك جمالها ؟ قبل أن تفكِّر في إعطاء ابنتك لشاب، ما الذي أعجبك في هذا الشاب ؟ هل نفّذت أمر الله عزّ وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ(221))

(سورة البقرة)

أكثر الناس يندفعون من دون تبصُّر فإذا هم يقعون في شرّ أعمالهم، قبل أن توافق على أن يدخل هذا الخطيب على ابنتك من دون عقد قِران، هل فكّرت باحتمال أن يجلس معها جلساتٍ طويلة ثمّ يغيب عن الأنظار ؟ وماذا تفعل بعدئذٍ إذا كان الأمر قد وقع ؟ قبل أن تقول: أنا مع الناس، لم أشأ أن أكن جِلْفاً أو غليظاً وافقت، قبل أن توافق هل أدركت العواقب ؟

على المؤمن أن يفكِّر في كل كلمةٍ ينطق بها وأن يكون وقافاً عند كتاب الله:

الشرع دقيق، هذا الشرع الإلهي يدور مع الناس في كل حياتهم ؛ في حياتهم المنزليّة، في علاقاتهم مع زوجاتهم، في علاقاتهم مع أولادهم، في علاقاتهم مع الناس، مع الجيران، مع من هم فوقهم، مع من هم دونهم، قبل أن تقف، قبل أن تنطق بكلمة، هل هذه الكلمة فيها خير ؟ هل في هذه الكلمة غيبة ؟ هل في هذه الكلمة نميمة ؟ هل في هذه الكلمة بهتان ؟ هل في هذه الكلمة إفك ؟ هل في هذه الكلمة سُخرية ؟ هل في هذه الكلمة كِبْر ؟ هل في هذه الكلمة تجبُّر واستعلاء ؟ هل في هذه الكلمة إفساد ذاتُ البين ؟ هل في هذه الكلمة تنغيصُ عيش هذه المرأة ؟ قبل أن تقول لأختك وقد زرتها في العيد: ماذا قدّمَ لكِ زوجكِ ؟ هل فكّرت في هذه الكلمة ؟ لو أن زوجها لم يقدِّم لها شيئاً لقد جرحتها، لقد جعلتها تنظر إلى زوجها نظرةً غاضبة، قبل أن تنطق، أحياناً نظرةٌ تسبّب مشكلة، فلذلك:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

في الكلمات ؛ فكِّر في كل كلمةٍ تنطق بها، فكِّر في كل نظرةٍ، فكِّر في كل سماعٍ، فكِّر في كل لقاءٍ، فكر في كل نزهةٍ، فكر في كل سهرةٍ، في كل صفقةٍ، في كل حركةٍ، في كل سكنةٍ، كن وقّافاً عند كتاب الله كما هي صفة سيدنا عمر، رضي الله عن عمر.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

عباد الرحمن وقتهم ثمين ويتمنّون أن ينجوا بوقتهم وأنفسهم من السفيه والجاهل:

شيءٌ آخر: هؤلاء عباد الرحمن وقتهم ثمين، بل إن الوقت أثمن شيءٍ يملكونه، الوقت أثمن شيءٍ

يملكونه، لذلك عباد الرحمن ليسوا مستعدين لينفقوا أوقاتهم الثمينة في القيل والقال، في كلامٍ فارغ، في موضوعٍ سخيف، في مناقشةٍ باطِلة، في محاورةٍ غير هادفة، هم أرقى من ذلك، وقتهم أغلى من ذلك، هدفهم في الحياة أسمى من ذلك، لذلك:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

ليس من التسليم ؛ بل من السلامة، أي أنهم يتمنّون أن ينجوا بوقتهم وأنفسهم من هؤلاء، فهذا الذي يهبط إلى مستوى السفيه يناقشه ويحاوره، ويأخذ ويعطي، ويتكلّم ويناقش هذا التصرف ليس من صفات عباد الرحمن:

((إن الله يحبُّ معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيّها))

[الجامع الصغير عن سهل بن سعد]

وقتك ثمين فحافظ عليه، لا تنطق إلا بالحكمة، قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي بتسع ؛ خشية الله في السرّ والعلانيّة، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً))

[أخرجه القرطبي عن أبي هريرة]

وأنت راكب في مركبةٍ عامّة فكِّر، فكِّر في شيءٍ يعينك على معرفة الله عزّ وجل، فكر في أعضائك، فكر في أجهزتك، فكر فيما تراه حولك من آياتٍ دالّةٍ على عظمة الله:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً))

[أخرجه القرطبي عن أبي هريرة]

هناك صفاتٍ تجرحُ عدالة الإنسان وأثمن شيءٍ يملكه الإنسان هو عدالته:

لا تنطق بالباطل.

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللّهَ فِيهِ إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[من سنن أبي داود عن أبي هريرة]

لا تجلس في مجلسٍ فيه حديث عن النساء، لأنه كما تعلمون إن هناك صفاتٍ تجرحُ عدالة الإنسان، وأثمن شيءٍ تملكه أنت عدالتك، ما الذي يجرح العدالة ؟ أن تجلس مجلساً يتحدّث فيه عن النساء، هذا المجلس يجرح عدالتك، أن تتنزّه في الطرقات هذا أيضاً يجرح العدالة، أن تصاحب الأراذل هذا أيضاً يجرح العدالة، صحبة الأراذل، التنزُّه في الطرقات، الحديث عن النساء، التطفيفُ ولو بتمرة، أن تأكل لقمةً من حرام، تطفيفٌ بتمرة، من علا صياحُهُ في البيت هذا أيضاً يجرح العدالة، من أطلق لفرسه

العِنان هذا أيضاً يجرح العدالة، من قاد برذوناً في الطريق، أي حيواناً مخيفاً، هذا أيضاً يجرح العدالة، من بال في الطريق، من أكل في الطريق، عَدَّ العلماءُ ثلاثاً وثلاثين موقفاً لو فعلها الإنسان جُرِحَت عدالته، لذلك قبل أن تأكل في الطريق هذا يجرح العدالة، قبل أن تمشي في هذا الطريق، هذا الطريق لا يليق بك أن تمشي فيه إلا لأمرٍ قاهر، يجب أن تأخذه عرضاً لا طولاً:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

ليس من التسليم ؛ بل من النجاة، يحفظون وقتهم، يحفظون شعورهم، يحفظون فكرهم من هذا:

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[من سنن أبي داود عن أبي هريرة]

وفي حديثٍ آخر:

((لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزّ وَجَلّ إلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري]

عباد الرحمن في النهار لهم هدفٌ كبير يبحثون عن وسيلةٍ لتحقيق هذا الهدف:

قال تعالى:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

هم في النهار لهم هدفٌ كبير يبحثون عن وسيلةٍ لتحقيق هذا الهدف، وفي النهار أيضاً معرضون عن الجاهلين، من هو الجاهل ؟ الجاهل هو الذي جَهِلَ ربَّه، وجَهِلَ نفسه، وجهل أصله، وجهل منتهاه، وجهل شرع الله عزّ وجل، وجهل لماذا هو على وجه الأرض، وجهل طبيعة العمل الصالح، جهل كتاب الله، هذا جاهل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

والجاهل أيضاً السفيه، إما الجاهل من الجَهْل، وإما الجاهل من الجَهَالة، الذي يسفُه في كلامه، يُسِفّه في تصرُّفاته، ينحط إلى مستوى لا يليق به هذا أيضاً جاهل، قال تعالى:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

فقد ورد اصرم الفاسق، اصرم السفيه.

السفيه ترفّع عنه، ليس هذا كِبْراً ولكن قصماً له وحسماً لشرّه، ترفّع عنه، لا تهبط إلى مستواه.

ليل عباد الرحمن وخاصة ليالي الشتاء للقيام والعبادة:

هذا في النهار أما في الليل ماذا يفعلون ؟ ولاسيما في ليالي الشتاء، حيث الليل كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ))

[مسند أحمد عن أبي سعيد]

طال ليله فقامه، وقصر نهاره فصامه، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64))

(سورة الفرقان)

حيث الناس يقبعون وراء أجهزة اللهو، وحيث الناس يقرؤون القصص غير اللائقة، وحيث يجلسون نساءً ورجالاً يتبادلون ألوان الحديث المُمْتِع وغير الممتع، هم:

(يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64))

(سورة الفرقان)

هم يجلسون كما قال الله عزّ وجل لسيدنا موسى:

" يا موسى أتُحبُ أن أكون جليسك ؟ " قال: " كيف ذلك يا رب ؟ "

وقد وُصف الصحابة الكرام عليهم رضوان الله بأنهم فرسانٌ في النهار، رهبانٌ في الليل.

المؤمن لا يطمئن إلا إذا توفاه الله على الإيمان وختم الله له عمله الطيّب بالإحسان:

الليل ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(1))

(سورة القدر)

لأن في الليل مجال الإقبال على الله والتقرُّب منه، والتهجُّد له، وذكره في الليل حيث الناس نيام:

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64))

(سورة الفرقان)

ومع أنهم مستقيمون على أمر الله، ومع أنهم على الصراط المستقيم، ومع أنهم ملتزمون، ومع أنهم طائعون يخافون الله عزّ وجل، وكلّما زاد علمك زاد خوفك، كلّما زادت معرفتك زاد شعورك بالتقصير، لذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: **" كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي "**. فهؤلاء كما قال

بعض التابعين: **" التقيت مع أربعين صحابيّاً ما منهم واحدٌ إلا ويظنُّ أنه منافق "**، لعِظَمِ حقّ الله عليك، لعظم المهمّة التي أنت بصددها، لذلك تشعر أن هناك مسؤوليّةً كبيرة، لعلّ في العمل خللاً، لعلّ في النيّة خللاً، لعلّ في الهدف خللاً، لعلّ هناك تقصيراً، لعلّ هناك تعطيلاً، لذلك قلب المؤمن في خوف.

يُروى أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، قال على فراش الموت: **" كلا بعد كلا بعد "** وخاف تلامذته أن تكون هذه الكلمات بشارةً ليست مُرضية، بعد أن مات رآه بعض تلامذته، فقال: " يا سيدي ما فعل الله بك ؟ ولماذا قلت: كلا بعدُ كلا بعدُ ؟ "، قال: **" يا ولدي جاءني الشيطان قبل أن أموت فقال: قد نجوت، فقلت: كلا بعدُ "**. المؤمن لا يطمئن إلا في حالةٍ واحدة وهي إذا توفّاه الله على الإيمان وختم الله له عمله الطيّب بالإحسان لذلك:

((إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته، فسأله رجل من القوم: ما استعمله ؟ قال: يهديه الله عز وجل إلى العمل الصالح قبل موته ثم يقبضه على ذلك))

[أخرجه أحمد عن عمر الجمعي]

ربنا عزّ وجل إكراماً للمؤمن، إذا كان هذا المؤمن حريصاً على طاعة الله يقبضه في أحلى ساعاته، في ساعات إقباله، في عمله الصالح، في صلاته، في قيامه، في ركوعه، في سجوده، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ (65))

(سورة الفرقان)

الإنسان كلّما ارتقت معرفته ازداد تواضعه وازداد خوفه وحذره:

لا تجد الكِبر إلا في الضعفاء، أو في البعيدين، سيدنا يوسف وهو قمّةٌ في العفاف، وهو مَضْرِبُ المثل ماذا قال ؟ قال:

(رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ إِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ(33))

(سورة يوسف)

سيدنا إبراهيم ماذا قال ؟ قال:

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ(35))

(سورة إبراهيم)

معنى ذلك أن الإنسان كلّما ارتقت معرفته ازداد تواضعه، وكلّما ارتقت معرفته ازداد خوفه، وكلّما ارتقت معرفته ازداد قلقه وازداد حذره، لهذا جاء في بعض الأحاديث الصحيحة:**" أن المؤمن يرى ذنبه كأنه جبلٌ جاثمٌ على صدره، بينما المنافق يرى ذنبه كأنه ذبابةٌ حطّت عليه فطارت "**

يقول لك: ماذا فعلت ؟ ما الذي حدث ؟

ما يزيد الذنب عِظماً عند الله عزّ وجل أن تستصغره وما يقلِّل شأنه عند الله أن تستعظمه:

من يستهن بذنبه فهو من علامات النِفاق لذلك الإمام الغزالي عقد في الإحياء بحثاً لطيفاً قال: **" ما الذي يجعل الذنوب الصغيرة كبيرةً ؟ ".**

من هذه الشروط أنه كلّما استصغر العبد ذنبه كَبُر عند الله، وكلّما استعظم العبد ذنبه صغُرَ عند الله، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا صغيرة من الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار))

[مسند الشهاب عن ابن عباس]

كلّما أظهره للناس ازداد هذا الذنب عند الله عظماً، وكلّما أخفاه هذا دليل الحياء، من هنا قال بعضهم: **" إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا "**، فهذا الذي يعصي الله جهاراً ولا يبالي هذا فاجر، وهذا ذنبه مضاعف، وهذا لا غيبة له، فقد ورد في الأثر:

((اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس))

أما الذي يفعل الذنب وهو مُتَكَتِّم، لا يحبُّ أن يُرى في هذه المخالفة فيه خير، هذا عَرَّف بعضهم المسلم بأنه يغلب عليه الصلاح والتستُّر، فإذا أظهر ذنبه فقد جاهر بالمعصية، فمما يزيد الذنب عِظماً عند الله عزّ وجل أن تستصغره، ومما يقلِّل شأنه عند الله عزّ وجل أن تستعظمه، مما يعظِّم الذنب عند الله أن تجهر به، مما يُعَظِّم الذنب عند الله أن تصرّ عليه.

الإنسان إذا عرف الله معرفةً جيّدة ازداد خوفه وازدادت خشيته:

هؤلاء مع أنهم مستقيمون، مع أنهم مؤمنون، مع أنهم خائفون، مع أنهم وجلون، مع أنهم وقّافون عند كتاب الله قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))

(سورة الفرقان)

سيدنا عمر عندما قال: " ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيماً ". كان بهذا يعني ما يقول، كان عمر رضي الله عنه يقول: **"ليتني ألقي الله لا لي ولا علي "**. الإنسان إذا عرف الله معرفةً جيّدة يزداد خوفه، وتزداد خشيته ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ]

لعِظَم معرفته بالله عزّ وجل، قال:

((لو تعلمون ما أعلم ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ، ولا شربتم شراباً عن شهوةٍ))

[من الجامع الصغير عن العرباض]

((لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً))

[من الجامع الصغير عن العرباض]

قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ))

[سنن الترمذي عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

كلمة غراماً تعني عذاباً مستمراً وأخطر صفةٍ في عذاب النار أنه مستمر:

نسأل الله العلم:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))

(سورة الفرقان)

معنى غراماً قال بعضهم: هذه من الغريم، الغريم صاحب الدين يلازم المَدين. وقال بعضهم: الغَرام هو المُلازمة، فكلمة غراماً تعني عذاب مستمر، الإنسان أحياناً تُكسَر رجله فلا يُبالي، لكن إذا قيل: لا بدَّ من أن تُقطع هذه الرجل فإنه ينهار، لماذا ؟ هناك فرقٌ كبير بين كسر الرجل وبين قطعها ؟ الكسر طارئ تُجَبَّر فتعود كما كانت، لكن القطع دائم، الشيء المستمر مخيف جداً، هناك أمراض كثيرة قد يشفى منها الإنسان، أما المرض المستمر هذا مرض مُخيف، المستمر ينتهي عند الموت، ولكن هذا العذاب إلى أبد الآبدين، فأخطر صفةٍ في عذاب النار أنه مستمر:

(وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ(167))

(سورة البقرة)

أدلة من القرآن الكريم على استمرارية عذاب جهنم:

قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(77))

(سورة الزخرف)

وقال:

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))

(سورة الفرقان)

أي أنه مستمر، عذابٌ ملازمٌ لأصحابه لا ينفّك عنهم:

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ(56))

(سورة النساء)

وقال:

(إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66))

(سورة الفرقان)

وقال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

الذي يجعل النفقة معصية أن تنفقها في الباطل والذي يجعلها طاعةً أن تنفقها في الحق:

قال تعالى:

(إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66))

(سورة الفرقان)

أين الاستقرار ؟ كيف يستقرُ الإنسان وهو في النار ؟ وكيف تكون له مُقاماً ؟ إذاً هؤلاء في النهار مفكِّرون، وقّافون عند كتاب الله، يتأمّلون، وعن الجهلة معرضون، وفي الليل يصلون ويسجدون، ويخافون ويحذرون، أما إذا أنفقوا، وإنفاق المال أوسع نشاطٍ في الإنسان، فما من إنسان على وجه الأرض إلا وهو ينفق ليأكل، ينفق لينام، ينفق ليسكن، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

بعضهم قال: الفضيلة وسطٌ بين طرفين، هذه الآية فسّرها العلماء تفسيراتٍ كثيرة، قال العلماء: **" إذا أنفقت في طاعة الله ألوف الألوف فأنت لست بمسرف، وإذا أنفقت في معصية الله دِرهماً واحداً فهذا إسراف، وإذا أنفقت في طاعة الله فهذه النفقة القِوام، الصحيحة، "** هذا وجه، أي أن الذي يجعل النفقة صحيحة أن تكون في طاعة الله وَفْقَ الشرع، والذي يجعلها معصيةً أن تنفقها في الباطل، والذي يجعلها طاعةً أن تنفقها بالحق.

الله سبحانه وتعالى في ثماني آياتٍ حصراً في كتاب الله وصف المُترفين بأنّهم كافرون:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا (67))

(سورة الفرقان)

في طعامهم، وفي شرابهم، وفي سُكناهم، وفي حياتهم النفقة المعتدلة، لأن الله سبحانه وتعالى في ثماني آياتٍ حصراً في كتاب الله وصف المُترفين بأنّهم كافرون، لماذا ؟ لأنه جعل الدنيا كُلّ همِّه، لأنه جعل النعيم فيها كل شيءٍ في حياته، لأنه نقل اهتماماته من الآخرة إلى الدنيا، وهو بعمله لم يبال بالآخرة، طبعاً لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف، في طاعة الله، في الإنفاق في سبيل الله ليس هناك سقف، ولكن فيما يتعلّق في النفقات التي تنفقها من أجل أن تعيش هذه النفقات يجب أن تكون معتدلة:

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(29))

(سورة الإسراء)

في الإنفاق، النبي الكريم نهى عن نوعين من الألبسة، نهى عن ألبسةٍ مشهورة ونهى عن أَلْبَسَةٍ مهجورة، أي أن الثياب البالية التي تذري بصاحبها هذه مهجورة، والثياب الغالية جداً التي تجعل الناس يرمقونك بأبصارهم إعجاباً هذه أيضاً غير مشكورة، الاعتدال، لباس مقبول لطيف أنيق فيه ذوق، من دون إسراف، من دون مَخْيَلَة، هذا في اللباس، وفي الطعام، وفي السُكنى، وفي كل النشاطات، لأنه إذا عرفت ما عند الله من ثواب هذا المال الذي تنفقه بطراً ورئاء الناس لو أنفقته في سبيل الله لارتقى بك إلى أعلى عليين، أنت في دار تكليف لا في دار تشريف، أنت في دار عمل لا دار جزاء، لو أنك في دار الجزاء لأُبيحَ لك أن تنفق ما تشاء، ولكن في دار عمل كل شيءٍ محاسبٌ عليه.

الدرهم إذا أنفقته في طاعة الله ارتقى بك إلى الجنّة:

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ وَضَعَهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[سنن الدارمي عن معاذ بن جبل]

وقال أيضاً:

((ليس منّا من وسّع الله عليه ثمّ قتّر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم]

أن تضع اللقمة في فم زوجتك هي لك صدقة لكن باعتدال، عندما أوصانا النبي الكريم بالجار قال:

((وإذا اشتريت فاكهةً فأهد له منها فإن لم تفعل فأدخلها سرّاً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها))

[ابن رجب في جامع العلوم والحكم]

يعني بالإنفاق، هناك من ينفق المال ويطعم الناس ويفتخر بهذا الإطعام، هذه دعوةٌ لا ترضي الله عزّ وجل، ولكنّك إذا أطعمت إنساناً تبتغي بهذا الإطعام أن تشبعه، أو أن تكسب قلبه فهذا إطعامٌ مشروع.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا (67))

(سورة الفرقان)

لأن هذا الدرهم إذا أنفقته في طاعة الله ارتقى بك إلى الجنّة، وإذا أنفقته في معصية الله كان حجاباً بينك وبين الجنّة، فأنت محاسب عن هذا المال، فهذا الذي ينفق أموالاً طائلة، وهناك أناسٌ يتمنّون أن يأكلوا شيئاً من اللحم، هذا الإنفاق والتبذير والإسراف يقابله جوعٌ شديد، كأن الله سبحانه وتعالى يحاسبك، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به))

[رواه الطبراني عن أنس بن مالك]

ما آمن.

اثنان لا تقربهما الإشراك بالله والإضرار بالناس:

المُلخّص هو أن هذا المال الفائض الذي تنفقه تبذيراً وإسرافاً، لو أنفقته في طاعة الله لارتقى بك إلى أعلى عليين، ولكان زاداً لك إلى الجنّة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ (68))

(سورة الفرقان)

أعظم شيءٍ يقع فيه الإنسان الشرك بالله، لهذا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ(48))

(سورة النساء)

اثنان لا تقربهما الإشراك بالله والإضرار بالناس، أعظم ذنبٍ بعد الشرك أن تقتل نفساً بغير حق، أعظم شيءٍ بعد القتل أن تزني، لأن الزنا قتل، ولكنه قتل معنوي، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ(191))

(سورة البقرة)

التوحيد كفكرة سهل أما أن تعيش التوحيد فهذا شيءٌ يحتاج إلى جهد كبير:

لو أن الفتاة قُتِلت وهي بريئة لدخلت الجنَّة، لكنَّها إذا زَلّت قدمها وغَوَت واستمرأت هذا العمل وأمضت به حياتها دخلت إلى النار، فقتل النفس بآلةٍ حادّة لا يقلُّ عن قتلها بإفسادها، كلاهما قتل، لذلك في سورة الإسراء جاء الزنا بين قتلين لأنه قتل، الإنسان له كرامة، له عِفّة، له شرف، له وجهة إلى الله عزّ وجل، إذا زلّت قدمه هبط عن هذا المستوى إلى مستوى الحيوان فانقطع عن ربه، فهؤلاء عباد الرحمن:

(لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ (68))

(سورة الفرقان)

موحِّدون، والتوحيد أيها الأخوة كفكرة سهل ؛ أما أن تعيش التوحيد هذا شيءٌ يحتاج إلى جهد كبير، أن لا ترى مع الله أحداً هذه الرؤية تحتاج إلى أعمال، وإلى مجاهدة، وإلى تفكّر، وإلى بحث، وإلى ملازمة، وإلى صدق، أما أن تسمع أنه لا إله إلا الله، فسماع الفكرة سهل، ربنا عزّ وجل قال:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ(19))

(سورة محمد)

لم يقل: فاسمع، لم يقل: فهُم، بل قال: فَاعْلَمْ، فالعلم يقتضي البحث، فإذا رأيت أنه لا إله إلا الله، وأنه ليس مع الله أحد، هذا هو التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد نهاية العِلم، فنهاية النهاية أن لا ترى مع الله أحداً، فإذا رأيت زيداً أو عبيداً، وفلاناً أو علاناً، وفلان بيده الأمر الفُلاني، فلان بيده أن ينفع، فلان بيده أن يضُر، هذا هو الشرك.

أما عباد الرحمن:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ (68))

(سورة الفرقان)

نفي الزنا عن المؤمنين أبلغ من نهيهم عن الزنا:

هناك أشخاص كلّما رأوا حشرة داسوها بأقدامهم، من دون تحقُّق، من دون تَبَصُّر، هذه تُقتَل، هذه لا تُقتَل، هذه يجوز قتلها هذه لا يجوز، هكذا، من دون وعي ؟ المؤمن وقّاف عند شرع الله، يسأل: هل يجوز قتل هذه الحشرة أم لا يجوز ؟ قال تعالى:

(وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ (68))

(سورة الفرقان)

هذه (لا) نافية، ونفي الزنا عن المؤمنين أبلغ من نهيهم عن الزنا، إذا نهيت إنساناً عن الزنا فكأن الزنا داخلٌ في حساباته، إذا نهيت موظّفاً عن التأخُّر فكأن التأخُّر من عادته، أو كأن التأخُّر محتمل أو ممكن،

لكنّك إذا نفيت عنه الشيء هذا أبلغ من النهي عنه، ففرقٌ بين النهي وبين النفي، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَا يَزْنُونَ (68))

(سورة الفرقان)

وإن زنا وإن سرق في بعض الأحاديث الشريفة هذه في الماضي، فالله سبحانه وتعالى يتوب عن المؤمن وإن كان له ماضٍ لا يرضاه، أما أن نتصور مؤمناً يزني هذا مستحيل، يستحيل بحقّ المؤمن ذلك، فهذه الآية تؤكِّد هذا المعنى، الله سبحانه وتعالى ينفي عنهم الزنا:

(وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68))

(سورة الفرقان)

يلقى الإثم، يلقى البعد، يلقى الحرمان، يلقى اللعنة من الله عزّ وجل، قال تعالى:

(يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69))

(سورة الفرقان)

أحياناً غفلةٌ يسيرة عن الحق تسوق الإنسان إلى النار:

المعصية تنتهي بالهَوان، ربما كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بربْوَةٍ ثلاثًا ألا إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بسَهْوَةٍ))

[مسند أحمد عن ابن عبّاس]

إذا الإنسان أعطى نفسه ما تشتهي، استرخى، أطلق للسانه العِنان، أطلق لعينيه العنان نظر بهما إلى الحرام، تكلّم بما يعنيه وما لا يعنيه، بما يجوز وما لا يجوز، بما هو حق وبما هو باطل:

((إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بربْوَةٍ ثلاثًا ألا إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بسَهْوَةٍ))

[مسند أحمد عن ابن عبّاس]

غفلةٌ يسيرة تسوق الإنسان إلى النار.

((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النّارَ فِي هِرّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

هرّة حبستها:

((إنّ فُلانَة يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ: هِيَ فِي النّار))

[مسند أحمد عن أبي هريرة]

((إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بربْوَةٍ، إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عباس]

الله سبحانه وتعالى كلّما أعطانا صورةً من صور العذاب بيّن سبيل النجاة:

الأمور بخواتيمها، طبعاً ربّما رأيت الفاجر مُرتاحاً، غير مقيّد، غير ملتزم، يفعل ما يشاء، يلتقي مع من يشاء، يذهب إلى أي مكانٍ يشاء، يجلس مع النساء من دون تحفُّظ، من دون اهتمام، يطلق بصره، يطلق لسانه، يستمع إلى ما يشاء، هذه الحريّة هي تَفَلُّت وليست حريّة، ولكن الثمن باهظ، أما هذا الذي خاف الله، حفظ رأسه وما وعى، أي أنه حفظ جوارحه هذا ينتهي به المقام إلى جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، ينتهي به المُقام إلى سعادةٍ في الدنيا والآخرة:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69))

(سورة الفرقان)

لكن الله سبحانه وتعالى كلّما أوعد الكفّار فتح لهم طريق التوبة، كلّما أعطانا صورةً من صور العذاب بيّن سبيل النجاة، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا (70))

(سورة الفرقان)

التوبة هي إقلاعٌ وإصلاحٌ وعزمٌ وندمٌ وعلمٌ:

هذا الذي يقول: الله غفورٌ رحيم، هو ينسى أن هناك آيات دقيقة ثم إن ربك للذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم، قال تعالى:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ(50))

(سورة الحجر)

ربنا عزّ وجل يقول:

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا (70))

(سورة الفرقان)

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الندم توبة))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

العلماء يقولون: **" التوبة لا بدّ فيها من علمٍ، وحالٍ، وعمل "**، لا بدّ من علمٍ أوجب الشعور بالذنب، وإذا شعرت أنك مذنب نشأت عندك حالةٌ تسمّى حالة الندم، حالة الندم هذه تفضي إلى التوبة، إلى العمل، العمل له ثلاث أنواع: عمل متعلِّق بالماضي وهذا إصلاحٌ لما بدر منك في الماضي، وإقلاعٌ عن الذنب في الحاضر، وعزيمةٌ في المستقبل ألا تقع في هذا الذنب، هذه هي التوبة ؛ علمٌ وحال وعمل،

العلم يجب أن تقف عند حدود الله، يجب أن تعلم الحلال من الحرام وإلا لا تتوب، إذا أذنبت لا تكون التوبة إلا بعد العلم، والتوبة حال، هذا الحال ثمرة من ثمار العِلم، والحال سبب للعمل، العمل في الماضي يُصلح، وفي الحاضر يقلع، وفي المستقبل يعزم، إقلاعٌ وإصلاحٌ وعزمٌ وندمٌ وعلمٌ هذا معنى التوبة، والنبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه عن ربّه، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

لإنسان قبل التوبة متفلِت لكن بعد التوبة صار وقافاً عند كتاب الله:

إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلّها خطاياه وذنوبه.

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ(53))

(سورة الزمر)

وقال:

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(70))

(سورة الفرقان)

هذه الآية تفسيرها سهل جداً، المؤمن قبل التوبة كيف يعامل الناس ؟ بالقسوة، بالظلم، بالبذاءة، بالاستعلاء، بأكل المال الحرام، كيف يعاملهم بعد التوبة ؟ بالاستقامة، بالرحمة، بالحلم، مثلاً زوجة كان زوجها ضالاً فاهتدى، بعد أن اهتدى أصبح يعرف حقّها وأصبح في غاية الأدب واللطف، قالت له مرّةً: أتذكر يوم كنت تغضب مني تلحقني بحطبةٍ تأخذها من الكانون ؟ هذا كان قبل التوبة، وبعد التوبة أصبح يعرف حقّها، أبداً في كل المصالح، الإنسان قبل التوبة متفلِت، يريد المال من أي طريقٍ مشروع أو غير مشروع ؛ لكن بعد التوبة صار وقّافاً عند كتاب الله.

الإيمان والعمل الصالح هما التوبة النصوح:

هناك أمثلة كثيرة ؛ في العلاقات الزوجيّة، في علاقات العمل، في المِهَن، في الحِرَف، في الصناعة، في التجارة، في طلب العِلم، في النُزُهات، في الرحلات، في اللقاءات، في الحفلات، هناك سلوك قبل التوبة وسلوك بعد التوبة، لذلك هؤلاء التائبون أناسٌ آخرون، أنت إذا عرفت إنساناً قبل التوبة وبعدها تقول له: أنت إنسانٌ آخر، فلان الفلاني بعد التوبة غير فلان الفلاني قبل التوبة، هذا معنى قوله تعالى:

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ (70))

(سورة الفرقان)

كان زوجاً قاسياً أرعناً، يستخدم سلطته الزوجية استخداماً تعسُّفياً، بعد الإيمان صار زوجاً رحيماً، مثالياً، مُنصفاً في علاقاته مع أبنائه، كان أباً يؤثر نفسه على أولاده، بعد أن عرف الله صار يؤثر أولاده على نفسه، في أي علاقة، حتّى في الحرفة كان غشّاشاً فأصبح نصوحاً، كان يكسب مالاً حراماً فأصبح كسبه حلالاً، كان يزيد في السعر لكل إنسان يجهل هذه البضاعة فأصبح مُنصفاً، أصبحت سيّئاته حسنات، أعماله السيئة التي كان يقترفها قبل الإيمان أصبحت أعمالاً صالحة:

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71))

(سورة الفرقان)

فالتوبة إلى الله وحده، والإيمان والعمل الصالح هما التوبة النصوح.

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ: للآية معنيان:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

1 ـ المعنى الأول أي لا يشهدون شهادة الزور:

أي أنهم لا يشهدون شهادة الزور، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لا يَسْكُتُ))

[صحيح البخاري عن أبي بكرة عن أبيه]

هذا معنى.

2 ـ المعنى الثاني أي لا يحضرون مجلساً لا يرضي الله عزّ وجل:

المعنى الآخر: يشهدون الزور جلسة فيها باطل، حفلة فيها باطل، حفلة فيها معصية هذه زور، هذه كذب، هذه تُفضي إلى غضب الله عزّ وجل، لا يشهدون الزور، الزور هو الباطل، يشهدون الحق، مجلس علم يحضره ؛ لكن حفلة مختلطة لا يحضرها بل يغيب عنها، سُئل الإمام الجنيد: من ولي الله ؟

قال: **" الولي كل الولي ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء، ولا الذي يطير في الهواء، ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام ".**

أي أن يراك الله حيث أمرك وأن يفتقدك حيث نهاك، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ (72))

(سورة الفرقان)

اللغو كل ما سوى الله، الباطل.

الكريم هو من يحافظ على طهارته ونقاوته وعفافه:

قال تعالى:

(مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

الكريم يمر وينجو، لا يقع، مرّ كريماً أي حافظ على طهارته ونقاوته وعفافه، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

أي لا يشهدون شهادة الزور، وشيءٌ آخر لا يحضرون مجلساً لا يرضي الله عزّ وجل:

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا(73))

(سورة الفرقان)

إن شاء الله تعالى في درسٍ قادم نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (13-13): تفسير الآية 63 - الأخيرة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-06-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر والأخير من سورة الفرقان.

الإنسان إما أن يكون عبداً للرحمن وإما أن يكون عبداً للشيطان وشتان بين الاثنين:

نظراً لأهمية الآيات الأخيرة التي تنتهي بها سورة الفرقان والتي تتحدث عن عباد الرحمن نبدأ شرح هذه الآيات من أولها، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

الإنسان إما أن يكون عبداً للرحمن، وإما أن يكون عبداً للشيطان، وقد وَرَدَ في القرآن الكريم أن الناس الكفار هم عبدة الطاغوت، فشتانَ بين أن يكون الإنسان عبداً للرحمن وبين أن يكون عبداً للشيطان، لو أنك درست أفكار هؤلاء وهؤلاء ونظرت إلى سلوكهم، لرأيت عبد الرحمن عبداً مُنيباً، عبداً طاهر القلب، عبداً مستقيم اللسان، عبداً طاهر الجوارح، عبداً صادقاً، عبداً أميناً، عبداً متواضعاً، عبداً يحبُّ الخير، يؤثر الناس على نفسه، إن كل صفات الخير يجب أن تكون في عباد الرحمن، وإن صفات الكِبْر والبُعد والجفوة والغلظة والأنانية والقسوة والظلم هي من صفات عباد الشيطان:

((النّاسُ رَجُلان بَرّ تَقِيّ كَرِيمٌ عَلَى اللّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيّ هَيّنٌ عَلَى اللّهِ))

[سنن الترمذي عن ابن عمر]

لا يستحق الإنسان أن يكون عبداً للرحمن إلا إذا انصاع لأوامر الرحمن:

الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات يقول:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

فهذا الذين ينهى العباد عن الصلاة، هذا الذي ينهى عن الصلاة أرأيت إليه ؟ أنظرت إلى قلبه وما فيه من حقدٍ ؟ أنظرت إلى لسانه وما فيه من فُحْشٍ ؟ أنظرت إلى تفكيره وما فيه من سُقْمٍ ؟ أنظرت إلى أعضائه وما فيها من تطاولٍ ؟ أنظرت إليه ؟ سلوك المؤمن يكفيه دليلاً على أنه على الحق المبين، وسلوك الكافر المُنحرف وما فيه من عدوانٍ وانحرافٍ وتجاوزٍ يكفيه دليلاً على أنه منقطعٌ عن الله عزّ

وجل، فالله سبحانه وتعالى حينما شَرَّفَ المؤمنين ونسبهم إلى ذاته فقال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ (63))

(سورة الفرقان)

هذه النسبة تشريفٌ للإنسان فينبغي أن يرتقي إلى مستواها.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

الحقيقة لا يستحق الإنسان أن يكون عبداً للرحمن إلا إذا انصاع بقلبه وعقله وحواسه وجوارحه، بعمله ونشاطاته، بلهوه وجده، بإقامته وسفره، بعزوبيّته وزواجه، بغناه وفقره، لا يستحق الإنسان أن يكون عبداً للرحمن إلا إذا انصاع لأوامر الرحمن، أن تكون عبداً للرحمن وأنت مقيمٌ على معصيته ؟ هذا من رابع المُستحيلات، أن تكون عبداً للرحمن ولك منهجٌ في الحياة ليس كمنهج الله عزّ وجل، هذا مستحيل، فكلمة عبد الرحمن أي انصاع طواعيةً والمحبة تملأ قلبه إلى كل أوامره ونواهيه، لذلك قال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام:

((طوبى لمن وسعته السُنّة ولم تستهوه البدعة))

[الجامع الصغير]

هؤلاء هم عباد الرحمن.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لـعمري في المقال بـديع

لو كـان حبك صادقاً لأطعته إن الـمحب لمن يحب يطيـعُ

*** * ***

العبودية لله عزّ وجل والطاعة التامة له وأكمل مقامٍ للإنسان هو مقام العبودية:

قبل أن تقول: أنا من عباد الرحمن، وأنا عبدٌ للرحمن يجب أن تعلم أن العبودية تعني الطاعة التامة، وفي الإسلام منهجٌ تفصيلي لكل حركات الإنسان وسكناته، فمعنى العبودية لله عزّ وجل الطاعة التامة لله عزّ وجل.

في الحياة الإنسان أكمل مقامٍ يكون فيه هو مقام العبودية، هناك مقام الألوهية، وهناك مقام العبودية، فما دمت من بني البشر، ما دُمت مخلوقاً لله عزّ وجل فأكمل موقفٍ تقفه أن تكون عبداً لله، هذا الذي يقول: أنا، تجاوز مقام العبودية، هذا الذي يقول: فعلت وينسب الفعل إلى ذاته، تجاوز مقام العبودية، وهذا الذي يقول: عندي، تجاوز مقام العبودية، هذا الذي يقول: لي، تجاوز مقام العبودية، هذا الذي يرى لنفسه وجوداً مع الله عزّ وجل تجاوز مقام العبودية، هذا الذي يريد أن يحاسب الله على أفعاله تجاوز مقام

العبودية، مقام العبودية أن تكون طائعاً مستسلماً، راضياً لقسمة الله عزّ وجل، هذا الذي يعترض لحكم الله تجاوز مقام العبودية، هذا الذي لا يوقن أن كل أفعال الله رحمة تجاوز مقام العبودية، فالعبودية لله عزّ وجل تعني الاستسلام القلبي، واستسلام الجوارح والحواس، واستسلام الحركات والسكنات، واستسلام كل النشاطات إلى شرع الله وإلى أمره، لذلك لقبٌ كبير ومقامٌ عظيم ولكي تبلغه يجب أن تكون عبداً للرحمن.

يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سدرة المنتهى، سأل الله عزّ وجل أن يكون عبده، أي أن يكون في مستوى العبودية لله، وكلما عبدت الله عزّ وجل زادك الله رفعةً، وكلما عبدت غيره زادك الله ضَعَةً، إما أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم.

إذا كنت عبداً لله فخير سيّدك لك وإذا كنت عبداً لغيره فخيرُك لسيدك:

العبودية لله تعني أن كل خير السيد لعبده ؛ بينما عبودية الإنسان تعني أن كل خير العبد لسيده، شتان بين أن تعبد الله وأن تعبد سواه، إذا عبدت الله فكل ما عند الله من خيرٍ هو لك ؛ من خيرٍ مادي وخيرٍ معنوي، من رفعةٍ، من طمأنينةٍ، من استقرارٍ، من حبورٍ، من سعادةٍ، إذا كنت عبداً لله فخير سيّدك لك، وإذا كنت عبداً لغيره فخيرُك لسيدك، هذه بعض المعاني التي تؤخذ من قول الله عزّ وجل:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ (63))

(سورة الفرقان)

إذا كنت عبداً للرحمن حقاً فَتِهْ بهذه العبودية، سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، أتكون عبداً لله ويذلك الله عزّ وجل هذا مستحيل.

اجعل لربك كل عزك يستقر ويـثـبـت

فإذا اعـتززت بمـن يموت فإن عزك ميت

* * *

يمشون على الأرض أي حركتهم ونشاطهم وتفاعلهم وهم على وجه الأرض:

قلت لكم في الدرس الماضي:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ (63))

(سورة الفرقان)

معنى يمشون على الأرض يمضون حياتهم على الأرض، في شبابهم، في رجولتهم، في كهولتهم، في شيخوختهم، إنهم يمشون على الأرض في عملهم، في راحتهم، في لهوهم، في جِدِّهِم، في إقامتهم، في

سفرهم، يمشون على الأرض أي أن حركتهم على وجه الأرض، نشاطهم على وجه الأرض، تفاعلهم وهم على وجه الأرض هذا معنى كلمة:

(يَمْشُونَ (63))

(سورة الفرقان)

وقال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا(69))

(سورة النمل)

هوناً لا تعني أنه يمشي ببطء وإنما يمشي مشية من يرى أن الله يراقبه:

قال:

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

لهذه الكلمة معانٍ عِدَّة، المعنى الأول: أنه يمشي مشيةً متواضعة على سجيته، وعلى طبيعته، من دون كِبْرٍ، ولا استعلاءٍ، ولا ميل عَطِفٍ، ولا شموخ أنفٍ، ولا تصعير خدٍ، مشية المؤمن مشية رائعة، مشيةٌ متواضعة، وصِفَ النبي عليه الصلاة والسلام في مشيته فقيل: إذا زال زالَ تَقَلُّعًا، أي رفع رجله عن الأرض بقوة، إذا زالَ زال تقلعاً ويخطو تَكَفُّؤاً، أي يمشي بهدفٍ كبير، ويخطو تكفؤاً ويمشي هوناً في سكينةٍ ووقار، سريع المِشية، واسع الخطوة، إذا مشى فكأنما ينحطُّ من صبب، من مرتفع، مشيةٌ جادة، كان عليه الصلاة والسلام إذا سار لم يلتفت، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقول عنه السيدة عائشة: **" ما رأيت أزهد منه كان إذا سار أسرع ".**

إذاً معنى هوناً لا تعني أنه يمشي ببطء، أي أنه يمشي مشيةً طبيعية، لا تكلف فيها، لا كبر فيها، لا تصعير خد، لا إمالة عطف، لا شموخ أنف، يمشي مشيةً متواضعة، يمشي مشية العباد لا مشية الآلهة، يمشي مشية من يرى أن الله يراقبه، هناك أناسٌ يُؤلِهون أنفسهم، هذا العبد المؤمن يمشي مشيةً متواضعة.

الهَوْن بالمعنى الثاني يعني أنهم يمشون باتجاه هدفٍ كبير:

شيءٌ آخر قال بعض العلماء: " يمشون هوناً أي في سكينةٍ ووقار، وفي حلمٍ وتواضع، وفي اقتصادٍ وتؤدَة، وفي حسن سَمْت، هذه المعاني كلها مستفادة من قول الله عزّ وجل:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

شيءٌ آخر الهَوْن بالمعنى الثاني هم يمشون باتجاه هدفٍ كبير، فدائماً يتفحّصون كل شيء، هل هذا الشيء في خدمة هذا الهدف أما أنه يعيقهم عن هدفهم ؟ إذا كنت متجهاً إلى بلد، وفي هذا البلد خيرٌ كبير، وأنت معلق أهميةٌ كبرى على وصولك لهذا البلد في الوقت المعيّن، فأي فرعٍ في الطريق إذا دخلت فيه قد يحولُ بينك وبين الوصول في الوقت المناسب، وأي مركبةٍ أسرع من مركبتك قد تستقلها لتبلغ الهدف في وقتٍ مبكر، إنك إن فعلت هذا، هذا الذي يقصد هدفاً معيناً يتفحّص كل الوسائل إما أن تكون هذه الوسيلة إيجابيةً في نقله إلى هدفه وإما أن تكون سلبيةً، إما أن تزيده هذه الوسيلة قُرباً وإما أن تزيده بعداً، لذلك هو يقف، يفكِّر، يتأمّل، يتفحّص، في كل حركاته، هل هذه الزوجة إذا خطبها وتزوجها تعينه على أمر دينه أم تبعده عن ربّه ؟ يأخذ قراره بالموافقة أو الرفض بناءً على علاقة الزوجة بوجهته إلى الله عزّ وجل.

البطولة أن تعرف ما ينفعك في النهاية:

هل هذه الحرفة تُسرع به الخُطا إلى الله أم أنها تبعده عن الله ؟ يتخذ قراراً بقبول هذه الحرفة أو رفضها في ضوء علاقتها بهدفه، هل هذا السفر إلى هذا البلد يزيده قرباً من الله أم بعداً عنه ؟ يتخذ قراره بالموافقة أو الرفض بناءً على علاقة هذا السفر بقربه من الله، هل السُكْنَى في هذا المنزل تعينه على بلوغه هدفه أم ربما بحسب الجو الموبوء المحيط به تبعده هذه السكنى عن الله عزّ وجل ؟ هل إذا حضر هذا الاحتفال يزيده قرباً من الله عزّ وجل أم بعداً عنه ؟ هوناً، يفكر، لا يندفع اندفاعاً أعمى، لا يندفع إلى ما يتراءى له أنه خير، يتفحص الخير بشكلٍ دقيق.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

متبصرون، متأمِّلون، مدققون، محققون، هناك أشياء تَلْمَع ولكنها خطرة، وهناك أشياء لا تلمع ولكنها مفيدة، فعبد الرحمن لا يؤخذ بالوميض، يؤخذ بالحقيقة، فكم من شيءٍ يستهوي الناس هو عند الله دمارٌ لصاحبه، وكم من شيءٍ ينفِّر الناس هو عند الله خيرٌ لصاحبه، فالبطولة أن تعرف ما ينفعك في النهاية، حينما يشرف الإنسان على الموت، وحينما يأتيه ملك الموت، وحينما ينتقل من دار الغرور إلى دار الخلود عندئذٍ يعلم المؤمنون كيف أن طاعتهم لربهم وبعدهم عن شهوات الدنيا نفعتهم أيّما نفع.

معان متعددة لكلمة (هوناً):

بعض المفسرين قال: " يمشون على الأرض هوناً أي لا يفسدون في الأرض "، فمن أفسد في الأرض فهو لا يمشي هوناً، تسرّع، أفسد علاقات الناس بعضها ببعض، أفسد أخلاق الناس بكتابٍ ألّفَهُ، أفسد عقائد الناس بفكرٍ روّجَهُ، أفسد شعور الشباب بقصةٍ ماجنةٍ ألّفها، هؤلاء الذين يفسدون في أقوالهم، وفي أعمالهم، وفي كتاباتهم، وفي حركاتهم، هؤلاء لا يمشون على الأرض هوناً.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

بعضهم قال: **" هم الذي لا يمشون في إفسادٍ ومعصية، لا يعصي الله ولا يفسد العلاقات "**، هذا معنى هوناً، ابن عباسٍ رضي الله عنهما يقول: **" يمشون هوناً أي بالطاعة والمعروف والتواضع "**، **علماء آخرون فسروا هذه الآية يمشون هوناً: أي إن جَهِلَ عليهم جاهلٌ لا يجهلون "**، لا يستفزهم جاهل، لا يسمحون لإنسانٍ جاهل أن يستفزّهم، هم كالجبال رسوخاً، بعضهم قال: " يشمون هوناً أي لا يتكبرون "، هذه المعاني المتفرقة، يجمعها معنىً واحد وهو: أن علمهم بالله، وخوفهم منه، ومعرفتهم بأحكامه، وخشيتهم من عذابه وعقابه كل هذه المعاني مجتمعة تدفعهم لأن يكونوا كما وصفهم الله عزّ وجل يمشون على الأرض هوناً.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

قبل أن يقول: لن أحضر هذا الدرس، يجب أن يوازن الأرباح والخسائر، من أجل أن يجامل صديقاً ضَيَّعَ مجلس عِلم، ضيع درساً هو حلقةٌ في سلسلة، قبل أن يوافق على هذا المشروع الذي يُبْعِدُهُ عن مجالس العِلم يفكر تفكيراً سديداً أن حياته في طلب العلم، وأن سعادته أن يكون مع أهل الحق، فكيف يؤثر أن يغادر هذا المكان الطاهر، مكاناً جعل الله فيه الحق إلى مكانٍ كله فسقٌ ومعصية، قبل أن تغريك المغريات في السفر، قبل أن تسمع أن مئات الألوف تجمعها في عامٍ واحد في هذا البلد، امش هوناً، فكر في مصير المال إذا ضيّعت دينك.

الجهل أن تجهل ما عند الله من ثواب وعقاب وأن تجهل حقيقة الدنيا:

قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

الجاهلون الذي لا يعرفون الله، قد يحصِّل الإنسان علم الدنيا، وهو عند الله جاهل، فالجهل أن تجهل ما عند الله من ثواب، وأن تجهل ما عنده من عقاب، وأن تجهل ما في أوامر الدين من حكمة، وأن تجهل حقيقة الدنيا، وأن تجهل أين كنت وإلى أين المصير ؟ وأن تجهل لماذا خلقت ؟ هذا هو الجهل، فلو حَصَّلَ الإنسان أعلى شهادة ولم يكن بالمستوى المطلوب فهو جاهل، لذلك ربنا سبحانه وتعالى حينما وصف الكفار قال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

وقال:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

وقتهم ثمين، ليس عندهم وقتٌ يضيّعونه مع الجهلة، مع السُفهاء، والسلام هنا ليس من التسليم بل من السلامة، أي ينجون من جهل الجهلاء، ومن سَفَه السفهاء، ومن حُمق الحمقى، ومن ضلال الضالين، ومن خزعبلات المنجمين، يبتعدون عن هذه المجتمعات الموبوءة، عن أهل الفساد، عن أهل الجهل، عن أهل الانحراف، لا يلوّثون نفوسهم بمصاحبتهم.

الله سبحانه وتعالى جَلّت حكمته لا يجمع على عبده خوفين وأمنين:

قال تعالى:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

هذا الوقار وهذه الحكمة، وهذا التبصُّر الذي أنعم الله به عليهم بسبب عباداتهم التي يؤدّونها في الليل، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64))

(سورة الفرقان)

أي يصلون، يصلون صلاة الليل، وفي صلاة الليل الخير الكثير:

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا(6))

(سورة المزمل)

وقال:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))

(سورة الفرقان)

من علامة المؤمن أنه يخاف من الله عزّ وجل، هذا الذي يطمئن سوف يخاف، والذي يخاف سيطمئن، والله سبحانه وتعالى جَلّت حكمته لا يجمع على عبده خوفين وأمنين، إن أمِنَهُ في الدنيا أخافه يوم القيامة، وإن خافه في الدنيا أمّنَهُ يوم القيامة، فمن علامات المؤمن أنه قلقٌ دوماً قلقاً مقدساً، يقلق على مكانته عند الله، هل هو كما ينبغي ؟ هل في عمله خلل ؟ هل في واجباته تقصير ؟ هل في نيّته شائبة، هل يرجو الدنيا وهو لا يدري ؟ يخافون، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((رأس الحكمة مخافة الله))

[من مختصر تفسير ابن كثير عن ابن عباس]

كل عذاب الدنيا ينتهي إلى أمدٍ معين لكن عذاب جهنم عذابٌ أبديٌ سرمدي:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ (65))

(سورة الفرقان)

سيدنا علي رضي الله عنه يقول مخاطباً ابنه الحسن: **" يا بُني ما خيرٌ بعده النار بخيْر، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية".**

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))

(سورة الفرقان)

أي كان عذاباً ملازماً، العذاب في الدنيا يمضي، هذا المرض له آلامٌ تنتهي بعد أسبوع، وهذه الحُمّى فيها حرارة مرتفعة تنتهي بعد يومين، وهذه العملية الجراحية فيها تخديرٌ وبعد التخدير آلامٌ لعشرين ساعةٍ تقريباً، فكل عذاب الدنيا ينتهي إلى أمدٍ معين، لكن عذاب جهنم عذابٌ أبديٌ سرمدي:

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66))

(سورة الفرقان)

أسوأ مكانٍ يقيم فيه الإنسان أن يكون من أهل النار، وأسوأ مكانٍ يقيم فيه الإنسان وأسوأ مكانٍ يستقر به هو أن يكون من أهل النار، ما شرٌ بعد الجنة بشر، وما خيرٌ بعد النار بخير، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية.

المعاني المتعددة لكلمتي (إسراف) و (تقتير):

قال تعالى:

(إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا (67))

(سورة الفرقان)

ورد في هذه الآية تفسيراتٌ كثيرة، قال بعض العلماء: " من أنفق في غير طاعة الله درهماً واحداً فهو إسراف، ومن أمسك درهمه عن طاعة الله فهو تقتير "، إذا أنفقت درهماً واحداً في غير طاعة الله فهو إسراف، وإذا أمسكت الإنفاق عن طاعة الله فهو تقتير، أما الإنفاق الذي وصفه الله عزّ وجل بأنه قوام أن تنفق في طاعة الله ولا إسراف في الخير، إن كان لا خير في الإسراف فلا إسراف في الخير، هذا المعنى الأول.

بعضهم قال: **" من أنفق مئة ألف درهمٍ في حقٍ فليس مسرفاً، ومن أنفق درهماً واحداً في غير حقٍ فقد أسرف، ومن منع من حقٍ فقد قتّر "**، هذا هو المعنى الثاني لمعنى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

بعضهم قال: **" النفقة في معصية الله أمرٌ مُحَظور في الشريعة قليله وكثيره، ولكن الآية تنصرف إلى المُباحات "**، أي في شراء الطعام، في شراء اللباس، في تزيين البَيت، في فرش البيت، في هذه المُباحات التي أُبيحت للمؤمنين، المؤمنون إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، في شراء الطعام أو في شراء اللباس أو في شراء الحاجات، بينَ بين، بين الحِرمان وبين البذخ، هذا ما قاله بعض العلماء: **" إن هذه الآية تنصرف إلى المباحات وحدها، لأن إنفاق المال في معصية الله محرمٌ شرعاً، قليله وكثيره، جليله وحقيره "**، ولكن الآية تنصرف إلى المباحات فقط.

إذا أنفقت نفقةً على حساب أصحاب الحقوق فهذا إسراف وإذا قصّرْتَ عنهم فهذا تقتير:

بعضهم قال:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا (67))

(سورة الفرقان)

أن لا يفرط في الإنفاق فيضيّع أصحاب الحقوق، امرأتك لها عليك حق، أولادك لهم عليك حق، فإذا أنفقت مسرفاً في وجهٍ آخر على حساب أصحاب الحقوق فهذا إسراف، وإذا قَصَّرْتَ في إعطاء من لهم حقٌ عليك فهذا تقتير، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم]

فهناك أصحاب الحقوق، زوجتك لها عليك حق، أولادك لهم عليك حق، والدُك ووالدتك لهما عليك حق، إخوتك لهم عليك حق، أخواتك لهم عليك حق، جيرانك لهم عليك حق، فإذا أنفقت نفقةً على حساب أصحاب الحقوق فهذا إسراف، وإذا قَصَّرْتَ عن أصحاب الحقوق فهذا تقتير،والموقف الأكمل أن تكون

بين الإسراف والتقتير، بعضهم قال:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا (67))

(سورة الفرقان)

هذه الآية تطبق على كل واحدٍ من الناس بحسب حاله، فكل إنسان له مستوى في الدخل، وله مستوى في كسب المال، وله مستوى في الإنفاق، وله مستوى في المَعيشة، فبحسب حاله، وعياله، وخفة ظهره، وصبره، وجلده على الكسب، وصبره في الدين، هذه العوامل يجب أن تجتمع، هناك من إذا قَتَّر الله عليه لا يصبر، فهذا إذا أنفق كل ماله نقول له: قف إنك إن أنفقت مالك كله ربما اختل توازنك في الإيمان، ربما كفرت بالله، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يأخذ إلا من سيدنا الصديق ماله كله، قال:

" يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ؟ " قال: " الله ورسوله ".

عوامل خاصة تتحكم في مقدار الإسراف والتقتير:

يجب أن تعرف مدى باعِكَ في الدين، أنت بأي مستوى ؟ هل إذا أنفقت كل مالك وأصبت بفقرٍ شديد هل تصبر أم لا تصبر ؟ إن كنت لا تصبر فلا ينبغي أن تنفق مالك كله، من كان في دينه رقّة أو ضعف لا ينبغي له أن يتهوّر في إنفاق المال، هذه واحدة، فبحسب صبره في الدين، وبحسب صبره في النواحي الأخرى، هناك من له طريقةٌ خاصة في الحياة لا يستطيع أن يغيّرَهَا، يحب أن يكون بيته كذا وكذا، ودخله كذا وكذا، وطعامه كذا وكذا، إلى هذا المستوى، فهذا أيضاً له طريقة في الإنفاق، هذا عامل ثانٍ، العامل الثالث الدخل، الدخل له علاقةٌ بالإسراف وبالتقتير، والعامل الرابع طبيعة عياله، وطبيعة مجتمعه، إذاً هناك عوامل خاصة تتحكم في مقدار الإسراف والتقتير.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

أحد العلماء يقول: " ألا يُجيع ولا يُعري، ما هي النفقة المعتدلة ؟ ألا يجيع من لهم عليه حق ولا يعريهم من الكسوة، ولا ينفق نفقةً يقول الناس عنه لقد أسرف " فإذا أقمت احتفالاً وبذلت فيه مئات الألوف، وأنت بهذا المال تستطيع أن تؤوي عشرات الشباب في منازل، إن هذه النفقة يقول عنها الناس: إنها إسراف، ربما لو قيست إلى مستواك ليست إسرافاً، ولكن لو قيست إلى الحِسّ العام هذا إسراف، فإبراهيم النخعي العالم الجليل يقول: **" القوام أن لا تجيع ولا تعري، وألا تنفق نفقةً يقول الناس عنها إنها إسراف "**، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

مقياسٌ آخر من مقاييس التقتير والإسراف:

بعضهم يقول:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا (67))

(سورة الفرقان)

أي لا يلبسون الثياب للتجَمُّل، ولا يأكلون الطعام للذّة، بل يلبسون الثياب لتستر عوراتهم وتقيهم الحرّ والقر، ويأكلون الطعام ليدفعوا عنهم ألم الجوع وليتقووا به على طاعة الله عزّ وجل، هذا مقياسٌ آخر من مقاييس قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

عبد المَلك بن مروان سأل سيدنا عمر بن عبد العزيز حينما زوّجه ابنته فاطمة، قال: " يا عمر ما نفقتك؟ " ما مستوى دخلك ؟ كيف ستنفق على ابنتي ؟ ما نفقتك ؟ فقال عمر رضي الله عنه: " حسنةٌ بين سيّئتين " السيئة الأولى لم يسرفوا، والسيئة الثانية لم يقتروا.

(وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

كانت إجابته مستوحاةً من هذه الآية الكريمة، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: " كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه وأكله "، لمجرد أن تشتهي هذا الطعام تشتريه وتأكله، هكذا قال سيدنا عمر، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إنّ مِنَ السّرَفِ أنْ تَأكُلَ كُلّ مَا اشْتَهَيْتَ))

[سنن الدارمي عن أنس بن مالك]

القوام هو العَدْلُ وأن تبلغ بالنفقة الهدف وأن تكون مالكاً لحالك:

يجب أن تأكل كلما جُعْت لا كل ما اشتهيت، نحن قومٌ لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، ليس المعنى أنه مهما أكلنا لا نشبع.

أحد العلماء يقول: **"لا تكن ممن يجعلون كل رزقهم في بطونهم وعلى ظهورهم"** أي كل دخله طعام ولباس، أما الجنة وما تحتاج من إنفاق المال، إطعام الفقراء والمساكين، رعاية الأيتام والأرامل، الصدقات الجارية، هذه الأبواب الواسعة من الخير لا مادة لها في ميزانيّتهم، ميزانيتهم الطعام والشراب والكساء، يجعلون كل رزقهم في بطونهم وعلى ظهورهم.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

ما القوام ؟ القوام قال بعضهم: العَدْلُ، وبعضهم قال: القوام ما بلّغَكَ المقيل، سيدنا أبو عبيدة الجراح كان قائداً للجيوش الإسلامية في بلاد الشام، دخلوا عليه فرأوا في غرفته قدر ماءٍ مُغَطّى برغيف خبزٍ وهو جالسٌ على جلدٍ وسيفه معلقٌ على الحائط، فقالوا: " ما هذا ؟ " قال: **" ألا يبلغنا المقيل ؟ هو للدنيا وعلى الدنيا كثير ".**

القوام لابدّ من أن تأكل، لابدّ أن ترتدي ثياباً تستر عورتك، وأن تكون أنيقةً نظيفة، لا بدّ أن تنام على سرير، هذه الأشياء التي لا بد منها، هذا هو القوام، فقد يكون هناك بساطٌ، أو هناك أثاثٌ يحقق الهدف بخمسة آلاف، وهناك أثاثٌ آخر يجعلك تتيه على الناس إذا دخلوا إلى بيتك، هذا ثمنه خمسمئة ألف، فالذي يحقق الهدف من دون مَخْيَلَةٍ، من دون كِبْر، من دون أن تتيه على الناس، من دون أن تطلعهم على ما في بيتك فإذا هم صغار، طبعاً الغني المؤمن إنسانٌ فاضل، إنسان كريم، إنسان متواضع، لكن إذا دخلت على غنيٍ كافر لشعرت بالحرمان لأنه يتكبر عليك يقول سيدنا عمر:

" من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط ".

المقصود بالأغنياء ـ بهذا القول لسيدنا عمر ـ الأغنياء من غير المؤمنين، لكن الغني المؤمن متواضع يعرف قيمة النعمة، سخيٌ، من حوله يحبونه لسخائه، القوام هو العَدْلُ، وأن تبلغ بالنفقة الهدف، وأن تكون مالكاً لحالك في بعض التفاسير.

صفات التحلية وصفات التخلية كما وردت في القرآن:

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

قال: هذه الصفات كلها صفات التحلية، عباد الرحمن اقتبسوا هذه الصفات الكاملة من الرحمن، وأما صفات التخلية، هذه صفات التحلية، أما صفات التخلية:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا(68))

(سورة الفرقان)

التوبة من لوازمها الإيمان والعمل الصالح:

روى الإمام مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((قالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللّهِ أيُّ الذّنْبِ أكْبَرُ عِنْدَ اللّهِ قالَ أنْ تَدْعُوَ لِلّهِ نِدًا وَهُوَ خَلَقَكَ قالَ ثُمّ أيْ قالَ ثُمّ أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ قالَ ثُمّ أيْ قالَ أنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ فَأنْزَلَ اللّهُ تَصْدِيقَهَا (وَالّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللّهِ إلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ إلا بِالْحَقّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ))

[صحيح مسلم عن عبد الله]

(أثَامًا)

هنا العقاب، أي يلقى عقاباً في الدنيا، وأما في الآخرة:

(يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69))

(سورة الفرقان)

أي ذليلاً:

(إلّا (70))

(سورة الفرقان)

فتح باب الرحمة، فُتِحَ باب التوبة، قال تعالى:

(إلّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا (70))

(سورة الفرقان)

إذاً التوبة من لوازمها الإيمان والعمل الصالح.

أوجه ما في هذه الآية تبديل السيئات حسنات في الدنيا:

قال تعالى:

(فَأُولَئِكَ يُبَدّلُ اللّهُ سَيّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70))

(سورة الفرقان)

أوجه ما في هذه الآية تبديل السيئات حسنات في الدنيا، فخذ إنساناً وهو جاهل قبل أن يؤمن، قبل أن يعرف الله عزّ وجل، هذا الإنسان منحرف في أخلاقه، نظرته إلى النساء، لسانه في الغيبة والنميمة وقول الزور والبهتان والإفك والاستهزاء والفُحش والكذب، يده تبطش، عينه تزني، أذنه تزني، هذا الإنسان يأكل مال الناس بالباطل، يستعلي عليهم، هذه كلّها سيّئات، هو نفسه لو أنه عرف الله عزّ وجل وتاب إليه توبةً نصوح، واستقام على أمره، يصبح متواضعاً، يصبح عفيفاً، يصبح وقّافاً عند كتاب الله،

يجعل دخله حلالاً، يضبط لسانه، كان يقسو على زوجته فأصبح رحيماً بها، كان يقسو على زبائنه فأصبح رحيماً بهم، كان يستعلي على من هو دونه، فأصبح يتواضع له، إذاً كل موقف سيئ في الجاهلية، بعد أن عرف الله واستقام على أمره وتاب توبةً نصوحاً، أصبح هذا الموقف حسنةً بعد الإيمان.

أما من يتوهم أن السيئات تنقلب إلى حسنات وأن الإنسان يوم القيامة يقول: يا ليتني أكثرت من السيئات لأنها أصبحت حسنات، هذا المعنى لا يستقيم، لكنه في الدنيا حينما يتوب إلى الله عزّ وجل توبةً نصوحاً يبدل الله سيئاته حسنات، أي يهذب مشاعره، ويسمو قلبه، تسمو نفسه، تسمو أعضاؤه، يستقيم لسانه، تستقيم جوارحه، يطهر قلبه، يصبح عفيفاً، متجملاً، صبوراً، حليماً، متواضعاً، كل سيئاته من كبر، من استعلاء، من فحش، من بذاءة، من غيبة، من نميمة، من أكل مال بالحرام، كل هذه السيئات تنقلب إلى حسنات.

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70))

(سورة الفرقان)

لن تكون توبتك صحيحة ولا مقبولة إلا إذا تبدّل عملك من عملٍ سيّئ إلى عملٍ صالح:

لكن الآية الثانية وقف عندها العلماء في حيرة:

(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللّهِ مَتَابًا (71))

(سورة الفرقان)

هذه متاباً مصدر، أي يتوب توبةً، والمصدر يأتي لتأكيد فعله، وكلّم الله موسى تكليماً، أكلت أكلاً، نجحت نجاحاً، فربنا عزّ وجل يؤكد أنه:

(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللّهِ مَتَابًا (71))

(سورة الفرقان)

أي لن تكون توبتك صحيحةً ولا نصوحاً ولا مقبولةً إلا إذا تبدّل عملك من عملٍ سيّئ إلى عملٍ صالح، لو ادّعيت أنك تائب هذه التوبة لا قيمة لها، علامة التوبة الصحيحة أن هناك تبدُّلاً جذرياً يطرأ على عملك، كان الناس يكرهونك فأصبحوا يحبونك، كانت أقوالك غير سديدة أصبحت سديدة، كان الكذب يفشو في حديثك فأصبح الصدق مكان الكذب، فإياك أن تظن أن توبتك نصوح، أو أن التوبة مقبولة، أو أن التوبة صحيحة ما لم يطرأ تبدلٌ جذريٌ على عملك، قال تعالى:

(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللّهِ مَتَابًا (71))

(سورة الفرقان)

هذه هي التوبة الصحيحة المقبولة، هذا هو المعنى.

الزور هو الباطل الذي يزخرف ويزيّن ليبدو أنه حق:

قال تعالى:

(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

تعريف الزور الباطل الذي زُوِّرَ وزُخْرِف، كنظريةٌ باطلة لا أصل لها من الصحة، تشرح، وتفلسف، ويمهّد لها، ويضرب عليها شواهد إلى أن تبدو للناس الجهلة وكأنها صحيحة، فهذا هو الزور، الزور الباطل الذي يزخرف ويزيّن ليبدو أنه حق.

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

كل مجلسٍ فيه دعوةٌ باطلة لا يشهدونها، كل مجتمعٍ يزعم بأنه مجتمع راقٍ ؛ فيه اختلاطٌ، فيه مرونةٌ، فيه لباقةٌ، هذا باطلٌ مزور، باطلٌ أُلبِسَ لباس الحق، هذا الباطل المؤمنون الصادقون لا يشهدونه، أحياناً دعوةٌ باطلة ينبغي أن لا تحضرها، أحياناً سلوكٌ باطل ينبغي أن لا تكون فيه، مجتمعٌ منحرف ينبغي أن لا تجالسهم، مقصفٌ فيه معاصٍ كثيرة ينبغي أن لا تكون فيه، هذا زور تحت اسم الحضارة والرفاه والتقدم، تحت اسم أن هذا اللقاء لقاء ودي ولقاء بريء بين الجنسين، هذا باطل مزور ينبغي أن لا تشهده.

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ: آية لها عدة معان:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

كلمة بريء، وكلمة مَرِن، وكلمة واقعي، وكلمة متفتّح، هذه كلمات كلها كلمات تغطي الباطل بألفاظ مقبولة، فكل لقاءٍ، وكل حفلةٍ، وكل مجلسٍ، وكل نزهةٍ أساسها باطل غُطِّيَ هذا الباطل، قد يقول لك: سهرة مختلطة، لأن الإنسان بلغ من الرقي لا ينظر إلى زوجة صديقه إلا ببراءة، هذا باطلٌ مزوّر، لأن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان هذه الشهوة، فإذا انصرفت إلى غير الزوجة فهذا سلوك عدواني وباطل، فبعض المفسرين قالوا:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

أي مجلس فيه معصية، حفلة فيها مخالفة للشرع، ندوة أساسها باطل، مجموعة علماء يتباحثون في نظرية داروين، هذه نظرية كلها باطلة لأنها تنسف الدين من أساسه، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

لا على مستوى فكري، ولا على مستوى اجتماعي، ولا على مستوى فني، فن رفيع قائم على معصية، كيف يكون رفيعاً وهو يقوم على معصية ؟

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

هذا بعض معاني هذه الآية.

بعض معانيها الأخرى: الزور عند بعض المفسرين أعياد المشركين، كحفلات رأس الميلاد، المحلات كلها محجوزة، والعشاء فخم، وموسيقى راقصة، وهناك عري، ورقص، وأشياء كلها حرام، مسلم وتحجز لنفسك مكاناً في هذه الحفلة ؟!

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

إذا كنت في مجلس يُعَظَّمُ فيه إنسان من دون الله فهذا مجلس لا ينبغي أن تجلس فيه:

أعياد المشركين هكذا جاء في بعض التفاسير، تعظيم الأنداد، أي إذا كنت في مجلس يُعَظَّمُ فيه إنسان من دون الله فهذا لا ينبغي أن تجلس فيه، شيءٌ آخر الغناء:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

بعض العلماء قالوا: الغناء، لأنه يصرف الإنسان عن الله عزّ وجل، وقد يغريه بالمعصية، حفلةٌ فيها لعِب قمار:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

هذه من الزور أيضاً، حفلةٌ فيها جاهلية، هذه زور، فأي لقاءٍ، أي مجلسٍ، أية نزهةٍ، أي اختلاطٍ أساسه الباطل، أو أساسه الكذب، أو أساسه الانحراف، المؤمنون مبرّؤون عن حضور هذه المجالس، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

بمعنى يحضرون.

المؤمن لا يشهد إلا بما رأى وإذا مرّ على حديث فيه غيبة مرّ كريماً:

المعنى الثاني لا يشهدون بمعنى يدلوا بشهادتهم، أي أنهم أيضاً لا يشهدون إلا بما رأوا، على مثل الشمس فاشهد وإلا فدع، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لا يَسْكُتُ))

[صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه]

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

اللغو ما سوى الله، اللغو الباطل، اللغو الدنيا، اللغو المعصية، حديث فيه غيبة مروا كراماً، لا يستمعون، لا يصغون، لا يدلون، لا يضيفون على هذه المعلومات معلومات جديدة، قال تعالى:

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

معنى كراماً تقول: حجرٌ كريم صافٍ، يحافظون على صفائهم، على طهرهم، على ذاتهم الراقية، يحافظون على استقامتهم، يحافظون على صلتهم بالله، يحافظون على علاقتهم به.

اللغو هو كل سقطٍ من قول أو عمل شائن أو منحط كالغناء واللهو وسفه المشركين:

قال تعالى:

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

سيدنا عمر كان يجلِدُ شاهد الزور أربعين جلدة، ويلطِّخ وجهه، ويحلق رأسه، ويُطاف به في الأسواق، وقال أكثر أهل العلم: **" شاهد الزور لا تقبل له شهادةٌ أبداً "**، اللغو عند بعض المفسرين: كل سقطٍ من قول أو عمل، عمل شائن، عمل قذر منحط، والغناء من اللغو، واللهو من اللغو، وسفه المشركين من اللغو، مسابقة ملكات الجمال مثلاً هذه من اللغو.

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

مُزاح المشركين من اللغو، ذكر النساء في الأحاديث من اللغو، المعاصي كلها من اللغو، كراماً أي معرضين منكرين لا يرضونه، ولا يمالئون عليه، ولا يجالسون أهله.

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73))

(سورة الفرقان)

هذا القرآن يقرؤونه، يتفهمونه، يتدبرون آياته، يعقلونها، يقفون عند حدوده، يأتمرون بأمره، ينتهون عما نهى عنه، يصدِّقون وعده، يصدقون وعيده، شيء خطير، كلام الله رب العالمين، كلام خالق الكون، دستور الإنسان، منهجه، كيف يقرؤه هكذا ؟!

الزوجة الطائعة والأولاد الأبرار من النعم التي تعين على أمر الدنيا والدين:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73))

(سورة الفرقان)

بعضهم يقول: **" إذا تلوا كتاب الله في الصلاة لا يركعون ويسجدون وكأنهم ما قرؤوا شيئاً، يجعلون ركوعهم وسجودهم متعلقاً بهذه الآيات التي قرؤوها ".**

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ (73))

(سورة الفرقان)

وهم في الصلاة:

(لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا(74))

(سورة الفرقان)

أي يا ربِّ هب لنا زوجات وأولاداً طائعين لك، يعيننا على أمر الدنيا والدين، هذا التعبير الدقيق، هَبْ لنا زوجةً طائعةً وأولاداً أبراراً يطيعونك ويعينونا على أمر الدنيا والدين، النبي عليه الصلاة والسلام دعا لأحد أصحابه فقال:

((اللهم أكثر ولده وماله وبارك له فيه))

على الإنسان الطموح أن يكون داعية لله عز وجل في مقدمة الركب لا في مؤخرته:

الإنسان إذا بورك له في ولده وماله قَرَّت عينه، فالإنسان الذي أكرمه الله بزوجةٍ صالحة تقرُّ عينه، بمعنى لا ينظر إلى سواها، يراها منتهى آماله، أما إذا كانت شرسة، أو إذا كان في دينها رِقّة فإنك

تتشوّق إلى زوجةٍ صالحة مؤمنة، فلذلك من الدعاء القرآني أن تقول:

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ (74))

(سورة الفرقان)

لذلك من سعادة المرء في الدنيا أن تكون زوجته صالحة، وأولاده أبراراً، وأن يكون رزقه في بلده، وأن يكون منزله واسعاً ومركبه وطيئاً.

الزوجة الصالحة هي الدنيا، الدنيا كلها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، بمعنى أنها مطيعة لله عزّ وجل، مطيعةٌ لله، تأتمر بأمرك، تحفظ نفسها، تحفظ لك مالك، تصون بها بصرك عن محارم الله.

(هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74))

(سورة الفرقان)

هذا هو الطموح، كن داعيةً إلى الله عزّ وجل، كن إماماً للمتقين، كن قدوةً حسنةً، كن مثلاً أعلى، كن آمراً بالمعروف، لا تكن في مؤخرة الركب كن في مقدمة الركب.

حتى تكون من عباد الرحمن لابدّ من أن تصبر ولابدّ من أن تُجاهد نفسك وهواك:

قال تعالى:

(وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74))

(سورة الفرقان)

((رَأى عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ عَلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللّهِ ثَوْبًا مَصْبُوغًا وَهُوَ مُحْرِمٌ فَقَالَ عُمَرُ: مَا هَذَا الثَّوْبُ الْمَصْبُوغُ يَا طَلْحَةُ ؟ فَقَالَ طَلْحَةُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنّمَا هُوَ مَدَرٌ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنّكُمْ أَيُّهَا الرّهْطُ أَئِمّةٌ يَقْتَدِي بِكُمُ النّاسُ فَلَوْ أَنّ رَجُلا جَاهِلا رَأى هَذَا الثّوْبَ لَقَالَ إِنّ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللّهِ كَانَ يَلْبَسُ الثّيَابَ الْمُصَبّغَةَ فِي الإِحْرَامِ فَلا تَلْبَسُوا أَيُّهَا الرّهْطُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الثّيَابِ الْمُصَبّغَةِ))

[موطأ الإمام مالك وعن نافع مولى عمر بن الخطاب]

فإذا كنت أباً كن قدوةً صالحةً لأولادك، إذا كنت معلم كن قدوةً صالحةً لتلاميذك، إذا كنت في متجر، أو إذا كنت في معمل كن قدوةً صالحةً لمن معك.

(وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ (75))

(سورة الفرقان)

أي عباد الرحمن:

(يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا (75))

(سورة الفرقان)

الغرفة المكان المرتفع، أي المرتبة العالية في الجنة، أي أن هؤلاء عباد الرحمن لهم أعلى المراتب بما صبروا، من أجل أن تكون من عباد الرحمن فلا بدّ من أن تصبر، لا بدّ من أن تُجاهد نفسك وهواك، والدليل هذه الآية.

أعظم تحيةٍ في الجنة أن يحييك الله سبحانه وتعالى:

يلقون من قبل الله عزّ وجل، وهل من تحيةٍ أعظم من أن يحييك الله سبحانه وتعالى:

(وَيُلَقَّوْنَ (75))

(سورة الفرقان)

في الجنة:

(فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76))

(سورة الفرقان)

أما جهنم:

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66))

(سورة الفرقان)

آخر آية:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (77))

(سورة الفرقان)

الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا لذلك يدعونا لجنته ولرحمته سبحانه:

قال تعالى:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

قال تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (77))

(سورة الفرقان)

لولا أنه خلقكم ليسعدكم، لولا أنه يدعوكم لرحمته، لجنته، لولا هذه الدعوة، لو أن الناس كلهم كفروا ماذا يعني الله ذلك منهم:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ (77))

(سورة الفرقان)

بهذه الدعوة:

(فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77))

(سورة الفرقان)

سوف يكون عذاب النار لهؤلاء المكذِّبين ضرورياً ولازماً لهم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (01-20): تفسير الآيات 1 - 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-06-23

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب تسميتها سورة الشعراء:

أيها الإخوة المؤمنون، مع سورة جديدة من سور القرآن الكريم، إنها سورة الشعراء، وسميت سورةَ الشعراء لأن الله سبحانه وتعالى تحدث في مقطعها الأخير عن الشعراء.

أهم محاور السورة التوحيدُ:

وحقيقة هذه السورة تدور حول عدة محاور، أهم هذه المحاور التوحيد، ففي هذه السورة قوله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

أحد أهم أسباب الشقاء الإنساني هو الشرك، ومحور الإيمان باليوم الآخر، ومحور تكذيب الكفار لهذه الرسالة، ومحور العواقب الوخيمة التي تنزل بالكفار حينما يكذبون رسالات الله، هذه بعض المحاور التي تحوم حولها هذه السورة، ومع الدرس الأول من سورة الشعراء.

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم)

الحروف المتقطعة ومعانيها:

ثمة سُور كثيرة تبدأ بحروف شبيهة بهذه الحروف، ألم، ألر، ق، كهيعص، هذه الحروف التي تفتتح بها بعض السور المفسرون لهم في تفسيرها مذاهب شتى، بعض المفسرين يقول: الله أعلم بمرادها، بعضهم يقول: إن القرآن الكريم صِيغَ من هذه الحروف، وهذه الحروف مبذولة لكل عربي، كما أن الإنسان خلق من طين والطين مبذول.

إذاً جعل الطين إنساناً، وجعل هذه الحروف قرآناً، إنها لمعجزة، المعنى الأول أن الله أعلم بمرادها، والمعنى الثاني أن سور القرآن الكريم نُظمت من هذه الحروف التي بين أيديكم، ومع ذلك يقول الله عز وجل:

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

(سورة الإسراء)

نموذج هذه الحروف، بعض المفسرين يقول: إن هذه الحروف أوائل لأسماء الله تعالى، وبعضهم يقول: إن هذه الحروف أوائل لأسماء القرآن الكريم، بعضهم يقول: إن هذه الحروف أوائل لأسماء النبي عليه الصلاة والسلام، فالطاء تشير إلى أنه طاهر من كل ذنب وعيب، والسين إلى قدسيته، وأنه مصدر سلامة للبشر، والميم تشير إلى أنه محمود عند نفسه، وعند الله عز وجل، ومحمود عند الخلق، وبعضهم يقول: إن هذه الحروف اسم علم لهذه السورة، على كل كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: **القرآن حمّال أوجه.**

لكن الذي يلفت النظر حينما تأتي في الأعم الأغلب يتبعها كاف الخطاب، تلك يا محمد، فكاف الخطاب التي تأتي بعدها ترجح أنها أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا قلنا الطاء ترمز إلى اسم من أسمائه، وهو أنه طاهر، والسين إلى أنه سليم من كل ذنب، أو إلى أنه مقدس، والميم إلى أنه محمود، ربما كانت هذه الحروف أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام، لأن أغلب السور المفتتحة بهذه الحروف يأتي بعدها الخطاب موجهاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

فإن شئت أن تقول: الله أعلم بمراده فقد أصبت، لأن بعض المفسرين هكذا قال، وإن شئت أن تقول: إن القرآن الكريم من جنس هذه الحروف، ومع ذلك تحدى بني البشر أن يستطيعوا أن يأتوا بآية واحدة أو بسورة واحدة أيضاً صحيح، وإن قلت: هذه الحروف أسماء الله تعالى فهي وجهة نظر مقبولة، وإن قلت: هذه الحروف أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام فهي أيضا وجهة نظر مقبولة، وإن قلت: إنها أوائل أسماء القرآن الكريم أيضاً صحيح، وبعضهم يقول الطاء إشارة إلى طوبى في الجنة،

(طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

(سورة الرعد)

والسين إشارة إلى سدرة المنتهى، والميم إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، على كل هناك ثلاث سور تبدأ بـ (طسم)اسمها الطواسيم، وهناك سبعة سور تبدأ بـ (حم)اسمها الحواميم.

هذا بعض ما جاء في التفاسير حول تفسير هذه الحروف.

(طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2))

القرآن الكريم واضح الإعجاز:

هذا الكتاب الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه كتاب مبين، منهج مفصل، إعجازه واضح في نظمه، إعجازه واضح في مضمونه، إعجازه واضح في تشريعه، إعجازه واضح في الإشارات العلمية التي أشار إليها، إعجازه واضح في التوجيهات التربوية، في أخباره الغيبية.

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

ويا أهل الكتاب إن جاء في كتبكم السابقة أنه لا بدّ أن يظهر نبي في آخر الزمان، ومعه كتاب من عند الله فتلك آيات الكتاب المبين، هذه هي الآيات، وهذا هو الكتاب.

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

والمبين من أبان، وأبان بمعنى أظهر، البين البعد، فلأن القرآن آياته ظاهرة فهو مبين..

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

هذه الآيات آيات الكتاب الذي أنزله الله عليك، يا طاهر القلب، يا سليماً من كل عيب، يا محموداً عند الخلق.

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

حرص الأنبياء على هداية أقوامهم:

باخع نفسك بمعنى مهلك نفسك، ما سبب أنه كاد يهلك عليه الصلاة والسلام ؟ لأن قومه لم يؤمنوا، ما الدافع الذي جعله يشقي نفسه،

(طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2))

(سورة طه)

تلك الآية مشابهة لهذه الآية، يا طاهراً من الذنوب، ويا هادياً إلى علام الغيوب، كما جاء في تفسير الرازي:

(طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2))

شقاء الأنبياء شقاء مقدس، آلام علوية بسبب رحمتهم بخلق الله، إذا أردنا أن نطبق هذه الآية علينا، يعني ما حجم رحمتنا ؟ هل إذا اهتدى الإنسان إلى الله عز وجل حلت مشكلاته فقط ؟ والناس لو أنهم تائهون، لو أنهم شاردون، لو أنهم ضالون ولو أنهم معذبون، أيرضيك أن تكون أنت سعيداً ؟ أيرضيك أن تكون مهتدياً والناس في ضلال ؟ أيرضيك أن تكون سعيداً والناس في شقاء ؟ أيرضيك أن تكون موصولاً بالله والناس في ضياع ؟

حرص المؤمن على هداية الناس:

كلما نمت الرحمة في قلب المؤمن اتسعت دائرة اهتمامه، فالذي تعنيه نفسه فقط هذا في مستوى أدنى، والذي تعنيه أسرته هذا في مستوى أرقى، والذي تعنيه أقاربه هذا في مستوى أرقى، وكلما ارتقى قلب المؤمن وكلما سمت نفسه، وكلما تجلى الله عليه بالرحمة اتسعت دائرة اهتماماته.

فالنبي عليه الصلاة والسلام بنص هذه الآية الكريمة كاد يهلك نفسه بشدة حرصه على قومه، فهذه مقياس لنا، الإنسان طبعاً له أولاد وزوجة وأقارب وإخوة وأخوات، له جيران، له زملاء في العمل، له أشخاص ينتمون إليه، له جيران يحيطون به، أبناء أمته، أبناء وطنه، الإنسانية جمعاء، هل يرضيه أن يكون وحده مهتدياً ؟ هل يرضيه أن يكون وحده سعيداً؟ هل يرضيه أن يكون وحده موصولاً ؟ إذا كان يرضيك ذلك ولا يعنيك أمر الناس فأنت في المستوى الأدنى الذي لا يُرضي الله عز وجل.

النبي عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة، حينما وصل إلى الطائف وهاجمه أهلها هجوماً شديداً كذّبوه، واستهزؤوا به، وجاءه جبريل الأمين، وقال يا محمد: **أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين**، فقال:

((اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون))

فالإنسان المؤمن يستطيع أن يقيم موازنة بينه وبين هذه الحال، قد تقول أنا لست نبياً، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول لك:

((إِنّ اللّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

(صحيح مسلم)

فكيف رحمتك بزوجك، قد تكون لك زوجة، تعجبك، وتؤدي لك واجبك أداءً تاماً، ولكنها لا تصلي، أيرضيك ذلك ؟ أترضى أن تعيش مع امرأة ترضيك وهي شقية ؟

قد يكون لك إخوة لا يصلُّون، أو ليسوا ديّنين، أترضى أنت أن تكون سعيداً بربك موصولاً به، لك مجالس العلم و، أخواتك وإخوانك الذين هم من أبيك وأمك تائهون شاردون، أترتاح لهذا ؟

هذه الآية دقيقة جداً، يجب أن نخرج بها من ذواتنا، إذا أردت أن تسعد فأسعِد الآخرين، الإنسان أن يبقى نشاطه منصبًا على مصالحه، على كسب رزقه، على تأمين حاجاته، على تأمين حاجاته المادية من دون أن يرقى إلى مستوى آخر وهو أن يسعى لهداية الخلق،

((يا علي لأن يهدي الله بك قلب رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها))

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم))

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس))

(أبو داود عن سهل بن سعد بلفظ: خير لك من حمر النعم)

فهذه الآية يجب أن تدفعنا للخروج من ذواتنا، إلى أن ننطلق إلى خدمة الخلق، لأن الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعيالهم، هذه الآية يجب أن تجعل من النبي عليه الصلاة والسلام قدوة لنا، أسوة لنا، أيرضيك أن تكون سعيداً في قوم أشقياء ؟ أيرضيك أن تكون في بحبوحة في قوم محرومين ؟ ورد في الأثر:

((والله ما آمن، والله ما آمن، والله ما آمن، من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم))

(الطبراني عن أنس)

أنت في بحبوحة، والناس في ضيق، أنت في بيت واسع، والناس يتمنون غرفة واحدة، ألا تتألم، النبي عليه الصلاة والسلام كاد أن يهلك نفسه لشدة رحمته بالخلق، فأين أنا من هذه الصفة ؟ اسأل نفسك هذا السؤال: أين أنا منها ؟ ولو على شكل مصغر فحرصك على هداية زوجك هذا نوع من الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام، حرصك على هداية ابنك هذا نوع من الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام، حرصك على هداية أمك وأبيك إن كانوا في ضلال، حرصك على هداية إخوتك وأخواتك وأصهارك وأبناء عمك وأبناء خالك وجيرانك وزملائك ومَن حولك.

فلذلك هذه الآية يجب أن تدفعنا للعمل الصالح، يجب أن تدفعنا إلى هداية الخلق، إلى نقلهم من الضياع إلى اللقاء، من الشقاء إلى السعادة، من الضلال إلى الهدى، وهذا يحتاج إلى جهد كبير، إلى جهد في كسب قلوبهم، وفتح صدورهم، إلى خدمتهم بادئ ذي بدء، إلى تقديم المعونة لهم، إلى حلّ مشكلاتهم، تمهيداً لأن تلقي عليهم الحق كما عرفك الله إياه، وهذه شهادة من قبل الحق بسيد الخلق.

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

أتلفت نفسك يا محمد، أشقيت نفسك يا محمد، بعض هذا الاهتمام، بعض هذا الحزن، بعض هذا الألم:

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99))

(سورة الحجر)

شهادة الله على حرص النبي عليه الصلاة والسلام على هداية قومه:

شيء آخر، هذه الآية فيها شهادة من قبل الحق بسيد الخلق، إذاً هو حريص كما قال الله عز وجل:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة)

لذلك قالوا عنه صلى الله عليه وسلم: **إنه أرحم الخلق بالخلق.**

سؤال: هل يخفق قلبك إذا رأيت شقاءً إنسانياً ؟ هل يخفق قلبك بالرحمة إذا رأيت حيواناً معذباً ؟ هل يخفق قلبك بالشفقة إن رأيت مريضاً يتألم ؟ إن رأيت مشرداً ؟ إن رأيت تائهاً ؟ إن رأيت جائعاً ؟ إن رأيت عرياناً ؟ أم تقول: مالي وله، الله كافي العباد، أم تندفع إلى خدمته، تندفع إلى إطعامه، تندفع إلى تلبية حاجته.

هذه الآية دقيقة جداً ربنا عز وجل جعله قدوة لنا، وأمرنا أن نقتدي به وأن نجعله لنا مثلاً أعلى.

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

كأن الله سبحانه وتعالى يسلّي نبيه فيقول: يا محمد ليس عليك هداهم، بعض هذا الحزن، بعض هذا الشقاء، بعض هذا الإهلاك، إن إيمانهم ليس عليك، وليس إيمانهم منوطاً بك، وليس إيمانهم متعلقاً بك، إنك مبلغ ليس غير، إنك مبشّر ليس غير، إنك نذير ليس غير، ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء، لست عليهم بوكيل، لست عليهم بحفيظ.

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23))

(سورة الغاشية)

الإنسان يحاسب نفسه، يقول: هذا النبي قدوة لنا، هل يرضيني أن أكون أنا مهتدِيًا وأخي الشقيق غارق في الضلال ؟ لا أكلمه، ولا يعنيني أمره، لا أسأله، لا أزوره، لا أسعى لهدايته، لا أتقرب إليه، ولا آخذ بيده، كما يقول معظم الناس، هذه الكلمة تصدر عن قلب قاس، هذه الكلمة تصدر عن إنسان يحب ذاته فقط، مادام قد اهتدى انتهى الأمر، النبي عليه الصلاة والسلام بدأت متاعبه حينما عرف ربه، حينما عرف ما عنده من خير كيف قومه في ضلال، كيف قومه في عمى، كيف قومه في بعد عن الله عز وجل، هو ذاق طعم القرب وطعم السعادة، هو في هذه الحالة وقومه تائهون.. وقومه ضالون، هل تبكي على الناس ؟ هل يؤلمك ضلالهم ؟ هل يشقيك بعدهم عن الله عز وجل ؟ هل تتمنى أن تنفق من مالك كل شيء نظير أن يهتدوا ؟ هل تبذل الدنيا من أجل الدين ؟ إذا ثبت لك أن هذا الإنسان إذا خدمته اقترب من الله عز وجل هل تبذل هذه الخدمة سخية في سبيل الله أم تضن بها؟

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

والله هذه الآية عظيمة، هي شهادة ومثل أعلى، وهي قدوة، وهي مقياس، وهي دافع يدفعنا إلى خدمة الخلق، تدفعنا إلى هدايتهم، تدفعنا إلى أن نعتني بهم، يدفعنا إلى أن نرحمهم، تدفعنا إلى أن نتألم لألمهم، أحياناً الإنسان يكون في بحبوحة قد يشقى الناس من حوله لا يهتم، ألست مؤمناً ! من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، الناس في ضيق شديد وأنت تقول: لا عليّ شيء، ليس هذا هو المنطق الصحيح.

(أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ)

(سورة يس 47)

قضية الإيمان هي بيد الله وحده:

الله جل وعلا يطمئن النبي عليه الصلاة والسلام أن قضية الإيمان هذه ليست عليك، لو شئت يا محمد لجعلتهم مهتدين قسراً، يعني بإمكان رئيس الجامعة أن ينجح جميع الطلاب بعمل بسيط جداً، وهو أن يوزع على الطلاب أوراق الإجابة مطبوع عليها الإجابة كاملة، ويكلفهم أن يكتبوا أسماءهم وأرقامهم، ويعطي علامة تامة لكل الطلاب، وبذلك ينجح كل الطلاب، ولكن هذا النجاح لا قيمة له لا عند الطلاب، ولا عند الناس، ولا عند الجامعة، نجاح مزور، أساسه الكذب، فالله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة يقول:

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا)

(سورة يونس 99)

(لَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد 31)

ولكنه لا أقول: لم يشأ، ولكن شاءت مشيئته أن يكون الإنسان ذا مشيئة حرة، شاءت مشيئة الله أن يكون الإنسان حراً في اختياره، فلو ألزم لفقد الإنسان هويته، لألغي التكليف، ألغي الاختيار، ألغيت الأمانة، ألغي الثواب، ألغي العقاب، ألغيت الجنة والنار، ألغيت الكتب المنزلة، ألغيت الرسالات، انتهى كل شيء، الإنسان مخير، طبعاً مخير في دائرة محدودة، ومسير في دائرة أخرى، لكن الإنسان أن يبقى في الضلال، ويقول: هكذا شاء الله، هذا كذب وزور.

(سَيَقُولُ الّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذّبَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتّبِعُونَ إِلا الظّنّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

إذاً هذه دعوة كاذبة أن تقول: الله قدّر عليّ ذلك، سيدنا عمر كما قلت لكم كثيراً جاءه رجل شارب للخمر، فقال رضي الله عنه: **أقيموا عليه الحدّ**، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنّ الله قدّر عليّ ذلك، فقال عمر رضي الله عنه: **أقيموا عليه الحدّ مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله**، وقال: **يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.**

أنت مختار، مجرد الأمر والنهي يعني أنك مختار، لو ألزمناك أن تسير في طريق عرضه ستون سنتيمترًا بعرض كتفيك، وقلنا لك: خذ، فاليمين هذا أمر ليس له معنى، لا يكون للأمر معنى إلا إذا كنت في خيار، إلا إذا كان الطريق عريضاً بإمكانك أن تأخذ اليمين، أو تأخذ اليسار، لمجرد أن الله أمرك فأنت مخير، لمجرد أن الله نهاك فأنت مخير، ولمجرد أم المجرم يندم يوم القيامة على فعل الذنوب فهو

مخير، لو كان مجبراً على أن يفعل الذنب ما ندم المذنبون يوم القيامة، وقالوا هذا حظنا الله أجبرنا على ذلك.

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأنعام)

(إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)

الإيمان ليس قسريًا:

لو أن الناس كلهم أصيبوا بمرض واحد، وهو الشلل فرضاً، فإذا آمنوا بالله ذهب عنهم هذا المرض، إذاً يؤمنون جميعاً، وهذا إيمان قسري، أحياناً إنسان مع إنسان، واحد يكون قويًا، والآخر ضعيف، فيملي عليه أفكاره، فيعتنقها خوفاً من بطشه، هل هذا الاعتناق إيمان ؟ لا، إطلاقاً، هذا ترديد، لأنه يخاف بطشه، إذاً يقول ما يقول، هذا إيمان بدافع القسر والقهر، فربنا سبحانه وتعالى لو جعل الإيمان قسريًا، لو أجبر على الإيمان.. لو أن الإيمان الذي أساسه القوة يجدي، وينفع، ويسعد لفعله الله عز وجل، ولكنه لا يجدي، ولا ينفع، ولا يسعد.

فهذه الحقيقة الصارخة تفسر في ضوئها كل الآيات التي تقول:

(لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد 31)

لا نقول: لم يشأ، ولكن مشيئته شاءت أن يكون الإنسان ذا مشيئة حرة، لأن هذه المشيئة الحرة تثمن عمله، لا يكون لعمله قيمة إلا إذا كان ذا مشيئة حرة، إن لم يكن ذا مشيئة كسبية فعمله لا قيمة له، لا يسعد به ولا يشقى به، لا يرقى به في الجنة ولا يهوي به في النار.

(إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)

هذا الهدى القسري.

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

طريقة المشركين في مقابلة دعوة الأنبياء: الإعراض

يعني كلما جاءهم ذِكر أعرضوا عنه، والإعراض هو التكذيب، هنا معنى دقيق جداً ؛ هو أن الإنسان إذا أعرض عن الشيء فهو تكذيب حقيقي، لو فرضنا أنك أعرضت عن هذا المتكلم، وبقيت صامتاً لم تكذبه، ولم تجرحه، ولم تبين أنك غير معتقد به، فإعراضك عنه هو أحد أنواع التكذيب، بل هو أخطر

أنواع التكذيب، لأنك إذا ذكرت أنك غير معتقد به كان هناك مجال للمناقشة والحوار، أما إعراضك عنه فهو دليل التكذيب العملي.

فالإنسان ربما لا يقول: ليس هناك آخرة، أو لا يجرؤ إنسان في العالم الإسلامي على أن ينكر الآخرة، ولكن ألا يعمل الإنسان للآخرة فهذا تكذيب لها، أن يكون عمله للدنيا فقط، هذا تكذيب بالآخرة.. تكذيب عملي، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ)

الله اختار، لم يقل: من الله، ولا: من الغني، ولا من: القوي، بل قال:

(مِنَ الرَّحْمَنِ)

لأن هذا القرآن الكريم الذي جاءنا من الله عز وجل رحمة بنا أنزله على النبي عليه الصلاة والسلام، هذا التشريع الحكيم رحمة بنا، هذا النبي العظيم رحمة بنا، هذا الكتاب المبين رحمة بنا، إذاً:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ)

معنى ذكر: أي يذكرهم بفطرتهم، الله سبحانه وتعالى جبلهم جبلة عالية، فطر الإنسان على معرفة الله، جعل هذه النفس البشرية لا ترتاح إلا إذا آمنت، لا يذهب عنها قلقها إلا إذا اتصلت بالله عز وجل، لا تسعد إلا إذا اصطلحت معه، لا تطمئن إلا إذا أطاعته، لا تحس بالنشوة إلا إذا أحست بقربه، هكذا النفس، لذلك لو أن إنسانًا أتيحت له الدنيا من كل أطرافها، ولم يعرف الله عز وجل فهو في شقاء، قد يستغرب الإنسان أن الغني الذي في غنًى لا يتصور أن يكون هذا أشقى الناس إذا كان بعيداً عن الله، لذلك:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ)

كلمة ذكر: أنا أذكرك بشيء تعرفه، قد ألقي عليك شيئاً جديداً، وقد أذكرك بموعد جرى بيننا، تقول ذكرته ذكرته، فكلمة تذكير تعني أن الإنسان مفطور على حب الله عز وجل، وعلى الفطرة السليمة، يأتي التذكير معنى ذلك أن الفطرة السليمة التي فطرنا الله عليها هي فطرة تندفع إلى معرفة الله وطاعته، وإلى الاتصال به، قد تأتي الشهوات والهموم والأحزان والنواحي المادية فتطمس هذه الفطرة، ويأتي القرآن الكريم ليذكرنا بفطرتنا.

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

وهذا من أشدّ أنواع العجب ؛ أن تدعو الإنسان إلى حياته:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال 24)

أنت تدعى إلى أن تكون حياً لأن الضلال موت، والبعد عن الله موت، والذي يرتكب المعاصي هو ميت،

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

(سورة الأنعام 122)

إذاً حينما الإنسان يدعى إلى الله عز وجل يُدعى ليحيا بعد أن كان ميتاً، يدعى ليستيقظ، كيف يعرض ؟ كيف لا يستجيب ؟ كيف يتلكأ ؟ كيف لا يفكر ؟ لم لا يفكر ؟ لم لا يحقق ؟ لم لا يتأمل ؟

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

الإعراض أخ الكذب.. أخ التكذيب، بل هو أخطر أنواع التكذيب، لقد زُرت طبيباً كتب لك وصفة، شكرته عليها، ونقدته أتعابه، وصافحته، وكنت في منتهى الأدب معه، لمجرد أنك لا تشتري هذه الوصفة فقد كذبت علمه، عدم شرائك لهذا الدواء طبعاً إذا كان موجوداً فأنت تكذب علمه، هذا تكذيب خطير، لذلك ربنا عز وجل لما قال:

(إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

إعراضك عن الحق، يعني إعراضك عن القرآن، إعراضك عن مجالس العلم، إعراضك عن بيان الحق، هذا نوع خطير من أنواع التكذيب.

(فَقَدْ كَذَّبُوا)

من نتائج الإعراض التكذيب:

داموا أعرضوا فقد كذبوا.

(إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6))

الاستهزاء مآله الخسران:

أحياناً إذا كان جماعة راكبين في طائرة.. طائرة نقل جنود.. يوجد للسقوط قوانين، فإذا الإنسان عرف القوانين استخدم المظلة، ما هي المظلة ؟ هي تأدّب مع قوانين السقوط، حينما تنتشر المظلة لها طبعاً قماش كتيم لا ينقل الهواء، هذا القماش يجمع الهواء تحته فينشأ مقاومة لهذا الوزن فهذا المظلي ينزل إلى الأرض سالماً، فهذا الذي يستهزئ بقوانين السقوط.. يستهزئ بقوانين الهواء.. يستهزئ بقوانين الجاذبية، يحتقرها، ولا يبالي بها، ويلقي بنفسه من دون مظلة بعد دقائق أو خمس دقائق تتضح النتيجة:

(فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

طبعاً الذي تأدب مع قوانين السقوط، واستخدم المظلة نزل سالماً، والذي احتقرها، وكذبها، وألقى بنفسه من دون مظلة ينزل مكسراً، فالقضية قضية وقت فقط، عندما يعصي الإنسانُ اللهَ عز وجل، ويخالف شرعه، ويرتكب المحرمات، فهي قضية وقت فقط، لا بدّ أن يدفع الثمن، إما من سعادته الزوجية إذا أطلق بصره في الحرام، حيث يقول الله عز وجل له:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

وهو ينظر، ويقول: ماذا أفعل بعيوني، الطريق هكذا، ونحن في زمن صعب، فساد، والقضية الإيمان في القلب، إن الله جميل يحب الجمال، هذا استهزاء بهذه الآية، طبعاً سيدفع ثمن هذه المعصية شقاءً عائلياً أو زوجياً.

حينما يتعامل الإنسان خلاف الشرع في البيع والشراء سوف يدفع الثمن غالياً، فربنا عز وجل قال:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

أيّ مخالفة للشرع ؛ إنْ في العبادات، أو في الآداب، أو في المعاملات، أو في المحرمات، أو في الحقوق والواجبات، أي مخالفة من هذا القبيل لا بدّ أن يدفع المخالف ثمنها باهظاً، ولكن بعد حين، فلذلك العاقل هو الذي يرى النتيجة قبل المقدمة، أما هذا الذي ينطلق من دون وعي ولا تريث ولا تبصر ولا تأمل هذا يخبط خبط عشواء.

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

ربنا عز وجل قال في آيات أخرى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

انظر إلى المرابي انتهى به المصير، من أكل مالاً حراماً انظر إلى مصيره، لا بدّ أن يتلفه الله عز وجل بعد أن يتلف ماله، انظر إلى من يخالف الشرع في علاقته الزوجية كيف يصبح أشقى الأزواج، انظر إلى من يخالف الشرع في علاقاته الاجتماعية كيف أن الله يفضحه في عقر داره، انظر:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

فلذلك هذا قرآن، هذا كلام خالق الأكوان، هذا حق لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، هذا قطعي الثبوت، آياته في معظمها قطعية الدلالة، هذا قانون، هذا الكتاب فيه علاقات ثابتة لا تتبدل، ولا تتغير، ولا تعدل، ولا يزاد عليها، ولا يحذف منها، فإذا تعاملت مع كتاب الله فالأمر خطير جداً، تتعامل مع تعليمات الخالق، تعليمات الصانع، أنا هكذا أقول: هذه التوجيهات القرآنية تعليمات الصانع، فعندما يشتري الإنسان آلةً غالية الثمن فهو حريص على سلامتها، وعلى مردودها العالي، هذا الحرص يدفعه إلى تنفيذ تعليمات الصانع مئة بالمئة.

فالقرآن الكريم من تعليمات الصانع، فأنت حينما لا تعبأ بأحكام الشرع إنك لا تعبأ بتوجيهات الصانع فالنتيجة حتماً خطيرة، العلاقة الآن دقيقة جداً.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

آيات تدل على عظمة الله:

أي أليس أمامهم آيات دالة على عظمة الله، قبل أن نخوض في تفصيلات هذه الآية، هناك آيات تدل على أن الله عظيم وأنه يجب أن تعبده، ويجب أن تطيعه، ويجب ألاّ تكذب كتابه، فكأن الكون هو الدليل على الله عز وجل، إن كنت في حيرة، إن كنت في ضلال، إن كنت في شك، إن كنت في تردد، دونك الكون، هذا هو المعجزة، لو تأملت في خلق السماوات والأرض لعرفت ربك، وإذا عرفته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه وانتهى الأمر.

ظاهرة النبات والأشجار:

أولم يروا ظاهرة النبات ظاهرة صارخة واضحة جلية كالشمس، هذه الأشجار أشجار للزينة، أشجار للظل هذه تزرع، وهي دائمة الخضرة، كأنها مظلة أوراقها صغيرة تتراقص مع الرياح، شيء جميل هذه الشجرة خلقت خصيصاً كي تستظل بها.

هناك أشجار من أجل أن تزين الجبال مثل الصنوبريات، أشجار صممت في بنيتها، وفي شكلها، وفي أوراقها، وفي ديمومة خضرتها من أجل أن تكون غابات، هذا تصميم الخالق.

هناك أشجار صممت من أجل أن تأكل من ثمارها، أنواع الأشجار المثمرة.

هناك أشجار صممت من أجل أن تستفيد من خشبها، هذا خشب زان لصنع الأثاث، هذا خشب كندي لصنع النوافذ، لم كان له هذه الخاصة ؟ لئلا يتأثر هذا الخشب بالماء، والمطر والهواء، والشمس، على العوارض الجوية يبقى محافظاً على استقامته، وعلى خصائصه، إذاً هذه الأشجار صممت خصيصاً لصنع النوافذ، وهذه الأشجار صممت خصيصاً لتكون أخشابها مرنة متينة لتلقي الصدمات، فالحداد يضع خشب التوت تحت سندانه، فإذا هوى بمطرقته على الحديد إن طبيعة هذا الخشب فيه ألياف متينة ومرنة تمتص هذه الصدمات.

هناك نباتات ذات أشواك، سماها علماء النبات نباتات حدودية.

هناك نباتات تعطيك الليف كي تتنظف به، هناك نباتات تعطيك السواك، هناك نباتات تعطيك الخلّة من أجل تنظيف الأسنان، ومن أجل معالجة بعض أمراض الكلية، هناك نباتات تتغذى من سوقها، هناك

نباتات تتغذى من أوراقها، هناك نباتات تتغذى من أزهارها، هناك نباتات تتغذى من ثمارها، هناك نباتات تتغذى من جذورها، البصليات كلها، هناك نباتات تُخزّن (القمح، والشعير، والحمص، والعدس)، محاصيل تنضج في وقت واحد، أما الفواكه فتنضج تباعاً، ولها برنامج زمني.

ظاهرة النبات وحدها والله الذي لا إله إلا هو لو فكر الإنسان فيها ملياً لأخذه العجب العجاب، كأن الله يقول: كيف تكذبون، وأمامكم هذه الظاهرة.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

نظام الذكورة والأنوثة في الكون:

من جعل هذا النظام نظام التذكير والتأنيث في النباتات، في النبات الواحد أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة، أو أشجار مذكرة كما هو في التين، وأشجار مؤنثة، وكما في الصنوبريات أشجار مذكرة وأشجار مؤنثة، أو أعضاء التذكير والتأنيث في النبات الواحد، من جعل هذا التزاوج فأعطاك هذه الفاكهة، انظر إلى التفاحة، وإلى حجمها المناسب، وشكلها الجميل، ورائحتها العطرة، وقوامها الذي يتناسب مع أسنانك، وطعمها الطيب، وغذاؤها، وسكرها، وفيتاميناتها، كلها مجتمعة في هذه الفاكهة، اللون، والشكل، والقوام، والطعم، والفائدة.

كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيت الخلاء وخرج منه يقول:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته وأذهب عني أذاه))

(الجامع الصغير عن ابن عمر بسند ضعيف)

فهذا الطعام فيه قوة، وفيه لذة، وفيه أذى، الأذى أذهب الله عنا الأذى بعد قضاء الحاجة، والقوة تحس بعد الطعام والشراب أنك قوي، فهذه قوة الغذاء، والطعم، فهناك من يأخذ مواد عن طريق الأوردة والشرايين، وهناك من يأكل ما لذّ وطاب من الأطعمة، إذاً في الطعام لذة وقوة وأذى، فالأذى أذهبه الله عنك، والقوة بقيت في جسمك، والطعم الطيب أذاقك الله إياه.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

هذه الآية تكفيهم، فإذا لم يَجُل فكرُ الإنسانِ في هذه الآيات البينة فالطريق إلى الله غير سالك، لأن:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

نحن في الدنيا لا نستطيع أن نرى الله عز وجل، لكن نستطيع أن نرى آثاره، الكون كله من آثاره، فإذا وقفنا عند الأثر عرفنا المؤثر، نظرنا إلى الكون عرفنا المكوِّن، نظرنا إلى النظام عرفنا المنظم، نظرنا

إلى الصنعة عرفنا الصانع، نظرنا إلى الخلق عرفنا الخالق، تعرف الصانع، والخالق، والمنظم، والمكوّن، والمحكم من حكمته، والقدير من قدرته، والغني من غناه.

فيا أيها الإخوة الأكارم... باب واسع من أبواب معرفة الله عز وجل، وهو التأمل في خلق السماوات والأرض.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

آية بين أيدينا تحت سمعنا وبصرنا، ظاهرة النبات فقط، نباتات زاحفة مثل البطيخ، نباتات متسلقة كالخيار والبندورة، نباتات عملاقة، نباتات على شكل أشجار، نباتات أرضية كالفريز، نباتات تحت الأرض كالكمأة، نباتات غالية، نباتات رخيصة، نباتات من أجل أن نأخذ منها الألوان، نباتات من أجل أن نأخذ منها الأدوية، الأدوية من النبات والألوان من النبات وبعض حاجاتنا من النبات، حتى هناك نباتات نصنع منها سبحاتنا، المسابح، هناك نباتات نستفيد منها كأواني لوضع الطعام كأنها نحاس، نباتات للحدود بين البساتين شوكيات كلها، نباتات معمِّرة، نباتات سريعة، النخلة تعيش ما يزيد على ستة آلاف عام، هناك نخيل من عهد الفراعنة ويعطي كل عام، هناك نباتات تعطينا الزيت، وهي الزيتون.

التفكر في الآيات آية آيةً، واللهِ حينما يأكل الإنسان يفكر، هذا كرز، وهذا تفاح، وهذا مشمش، وهذا إجاص، هذه خضار، هذه فواكه، هذه بقول، هذه محاصيل، هذه حبوب.

المؤمن يأكل ويفكر، ولكن الكافر يأكل كما تأكل الأنعام، والنار مثوىً لهم، الدواب تأكل، ولكن تأكل وكفى، أما المؤمن فيأكل ويفكر، وما جعل الله هذه النباتات إلا من أجل أن نفكِّر، بل إن هناك الأزهار التي هي مئات، بل ألوف الأنواع، الأبصال وحدها مئات الألوف، كل زهرة لها لون، ولها طبع خاص، هذه تحتاج إلى الشمس، وهذه إلى تيار الهواء، وهذه إلى الظل، وهذه إلى ماء غزير، وهذه إلى قليل، هذه تحتاج إلى منطقة مرتفعة وباردة، وهذه إلى دافئة، هذا نبات استوائي، كل نبات له طبيعة، أليس ظاهرة النبات آية دالة على عظمة الله عز وجل، فربنا عز وجل بعد أن ذكر تكذيب المكذبين قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

لو رأينا هذه الآية لعرفنا الله عز وجل، وإذا عرفناه لا بدّ أن نعبده، ويستحيل أن نكذب، يعني كأن الطريق إلى الله عز وجل هو التفكر في خلق السماوات والأرض، هذه بداية الطريق.

كفر الإنسان بالآيات مع قوة وضوحها وعظمتها:

الذي يؤلم في هذا أن الآيات صارخة وواضحة.

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس 101)

ومع ذلك وما كان أكثرهم مؤمنين.

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ(106))

(سورة المؤمنون)

آيات القرآن، أو آيات الأكوان، هذه تتلى قراءةً، وتلك تتلى تذكيراً،

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ(106))

غلبت علينا شهواتنا، استعجلنا، واتبعنا الشيء العاجل.

(وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108))

هذه النتيجة.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9))

من عاند الحق قصمه الله:

عزيز لا ينال جانبه، ورحيم لمن تاب، فهذه دعوة الله عز وجل، من عاند الحق قصمه الله عز وجل، من ركب رأسه أذله الله في العالمين، من أراد أن يحارب الله ورسوله بات في خسران مبين، من أراد أن يطفئ نور الله فلا بدّ أن ينهزم، لأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال)

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

عزيز لا ينال جانبه، رحيم بخلقه، الحقيقة هذه السورة فيها ست قصص، وكل قصة تنتهي بهذه الآية:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9))

ماذا قال الله عز وجل:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(6))

إن شاء الله في الدرس القادم نتطرق إلى قصة سيدنا موسى مع فرعون، وكيف أن فرعون كذب سيدنا موسى، ثم كيف أن الله أهلكه، فجاءت الحوادث تؤكد دعوة سيدنا موسى، وتشير إلى تكذيب فرعون للنبي موسى، وكيف أنه دفع الثمن باهظاً، وهكذا قوم سيدنا إبراهيم، وقوم سيدنا موسى، وقوم سيدنا لوط، نبيًا بنبي، وقومًا بقوم.

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17))

قصة سيدنا موسى مع فرعون، في الملخص في آخر القصة:

(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69))

إلى:

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104))

هذه الآيات تأتي بعد كل قصة، سبع قصص في هذه السورة تؤكد هذه الآية:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

يجب على الإنسان أن يتعظ، كل قوم كفروا، وكذبوا أهلكهم الله عز وجل، وكل إنسان إلى آخر الدوران إذا كذب بالحق لا بدّ أن يهلك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (02-20): تفسير الآيات 10 - 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-06-30

بسم الله الرحمن الرحيم

إعادة وتذكير:

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من سورة الشعراء، في الدرس الماضي بينت لكم بفضل الله عز وجل في قوله تعالى:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(6))

أن القصص التي يقصها ربنا علينا في هذه السورة كلها تؤكد هذه الآية:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

العاقل هو الذي يستجيب لربه قبل أن يأتيه نبأ ما كان به مكذباً، فإما أن تستجيب في الوقت المناسب، وإما أن يأتيك نبأ ما كنت مكذباً به بعد فوات الأوان، عندئذ لا تلوي على شيء، ولات حين مناص.

القصة الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة كلها تؤكد:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

العاقل من يرى نتائج الشيء قبل أن تقع، فإذا رآها بعد وقوعها ما قيمة هذه الرؤية ؟

التذكير نوعان: تذكير بالفكرة وتذكير بالقصة:

شيء آخر، التذكير إما أن يكون بالفكرة، وإما أن يكون بالقصة، والتذكير بالقصة أبلغ، لأن الإنسان من طبيعته أنه ينجذب إلى أحداث إنسانية، فربنا سبحانه وتعالى عبر بالفكرة فقال:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

والآن يعبر عن هذه الفكرة مرة ثانية بالقصة، القصة كما قال الله عز وجل:

(وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود 120)

أحياناً يتثبت الإنسان من قصة وقعت، لأن القصة في حقيقتها حقيقة مع البرهان عليها، فالبرهان على هذه الآية هو هذه القصة، البرهان على قوله تعالى:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

البرهان على هذه الآية هي هذه القصة، والتي تليها، فالعاقل هو الذي يعرف النتائج قبل وقوعها، لأنك إذا عرفت النتيجة قبل وقوعها تلافيت وقوعها، لكن الذي يعرف النتيجة بعد وقوعها لم يبق شيء في حياته يستفيد من هذا الدرس، كما حلّ الأمر بفرعون، حيث آمن بعد فوات الأوان، ربنا سبحانه وتعالى قال له:

(أَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة يونس)

المبادرة إلى الإيمان والعمل الصالح:

يا أيها الإخوة المؤمنون... الآن الآنَ، وليس بعد غدٍ، وليس بعد مضي سنوات طويلة، وليس في خريف العمر،

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ)

(سورة الحديد 16)

آمن بالله وأنت شاب، أمن بالله وأنت صحيح، أمن بالله وأنت قوي، آمن بالله وأنت غني، آمن بالله وفي العمر فسحة، آمن بالله في مقتبل الحياة من أجل أن يكرمك الله في خريف العمر، الآيات والقصص كلها من أجل أن تعرف النتيجة قبل وقوعها.

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

إن قيل لك: هذه المعاملة حرام فاستجب، واطلب الدليل من كتاب الله أو من سنة رسوله، واستجب، فإن لم تفعل جاءتك النتيجة المزعجة، جاءتك النتيجة المؤلمة، دفعت الثمن باهظاً، هذا القرآن حينما نتلوه ليس لإملاء الوقت، ولا للمتعة، ولا لأخذ المعلومات، ولا للاطلاع، إنه كتاب مصيري، يتحدد مصيرنا في ضوء فهمه، وفي ضوء معرفة مراميه البعيدة ومغازيه الجليلة، فربنا عز وجل يقول:

(وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود 120)

حينما يقرأ الإنسان القصة يقرأ الحقيقة مع البرهان عليها، يعني قد نقول نحن: لا تفعل كذا وكذا فيأتي كذا وكذا، هذه فكرة، أما حينما نروي لك قصة إنسان خالف هذه التعليمات فدفع الثمن باهظاً هذه أبلغ، لأن الحقيقة التي تروى مجردة من القصة قد تصدقها أو لا تصدقها، لكن إذا سمعت القصة فكأن القصة وأحداثها برهان على هذه الفكرة النظرية.

الحكمة من تكرار القصص في القرآن:

شيء آخر، قد يسأل سائل: لماذا تكرار بعض القصص في القرآن الكريم ؟ سؤال: لماذا ربنا سبحانه وتعالى يعيد علينا القول ؟ قصة سيدنا موسى وردت في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، الجواب الأول أن الرحمة تقتضي تكرار التذكير، يعني أنت **(ولله المثل الأعلى)** تنبه ابنك، وتحذره، وتأمره بالخير مرات كثيرة، لكن خصمك حينما يبلغك الدعوة يتمنى لو ألا يبلغك إلا مرة واحدة، ويتمنى من أعماق قلبه أن تبلغها دون أن تعرف مضمونها، فلعلك تتخلف عن حضور الجلسة فيأخذ خصمك حكماً غيابياً، فالتبليغ مرة واحدة لا ينطوي على رحمة، ولكن تكرار التبليغ والذكر هذا أساسه رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسان.

شيء آخر، وهذه فكرة مهمة جداً: القصة مجموعة حلقات، فربنا سبحانه وتعالى في كل مرة يعيد علينا القصة يبرز جانباً من جوانبها المتعلق بالسياق العام وبالسورة، لأوضح لكم ذلك بمثال، إذا تحدثنا عن قصة إنسان تزوج، قصة مطولة، واستشهدنا بهذه القصة مرات عديدة، في مرة استشهدنا بهذه القصة على أن طول فترة الخطبة هذا يعكر العلاقة بين الزوجين، وفي مرة ثانية ذكرنا هذه القصة، ولكننا سلطنا الضوء على حلقة أخرى، على أن نجاح الزواج ببيت مستقل، هي قصة طويلة، وفي المرة الثالثة ذكرنا هذه القصة، وأخذنا منها حلقة جديدة لنؤكد بها حقيقة جديدة.

فالذي يقرأ القرآن من غير وعي، من دون تدبر يتوهم أن هذه القصص تتكرر هكذا بلا سبب، مع أن تدبر كتاب الله عز وجل ينبئنا أن كل قصة لهذا النبي الكريم وردت في القرآن الكريم إنما وردت من زاوية جديدة، وإنما سلط الضوء على أحداث فريدة في هذه القصة.

إذاً التكرار أولاً بدافع الرحمة، وثانياً التكرار في ظاهره تكرار، وفي حقيقته تناول هذه القصة من زوايا متعددة، قد تنظر إلى جبل قاسيون من طريق درعا فله صورة، وقد تنظر إليه من طريق بيروت له شكل آخر، وقد تنظر إليه من طريق حمص، وله شكل ثالث، وقد تنظر إليه من طريق التل، وله شكل رابع، إن تكاتف هذه الزوايا يعطيك صورة مجسدة لهذا الجبل، فهذه الزوايا المختلفة ليست متناقضة، إنما هي متفانية، هذا كلام رب العالمين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

في هذه السورة سورة الشعراء وردت هذه القصة بشكل خاص، فالله سبحانه وتعالى يقول، وكأنه يطمئن النبي عليه الصلاة والسلام من أن العاقبة للمتقين، وأن لباطل جولة ثم يضمحل، يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

قصة موسى مع فرعون:

مَن هم القومُ الظالمون ؟ قوم فرعون، الظالمون من معانيها أنهم ظلموا أنفسهم، أي إنسان ما عرف الله عز وجل، أو ما عرف نفسه بالله، ما حملها على طاعته، ما حملها على التقرب إليه، ما عرفها بحقيقة الدنيا فهو ظالم لنفسه مبين، وليس من ظلمٍ أشد، ولا أعظم، ولا أكبر من أن تبقي نفسك جاهلة تائهة شاردة ضالة لا تعرف حقيقة الحياة، أشد أنواع الظلم أن تظلم نفسك، أن تضيع عليها السعادة الأبدية، أن تجعلها تأتي يوم القيامة صفر اليدين، هذا أشد أنواع الظلم، أشد أنواع الظلم أن تعدّ العدة للحياة الدنيا فقط، فإذا جاء الموت كان كالصاعقة، هذا أشد أنواع الظلم، أشد أنواع الظلم أن تظن أن الله سبحانه وتعالى خلقنا عبثاً، أشد أنواع الظلم أن تظن أن الإنسان يترك سدى بلا حساب، أشد أنواع الظلم أن تعيش لحظتك، أن تقتنص اللذة من أي طريق وبأي ثمن، أشد أنواع الظلم أن تكون في عمى عن هذه الحقائق، قال:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

أشد أنواع الظلم أن تكون بعيداً عن حقائق القرآن الكريم، ألا تعرف لماذا أنت على هذه الأرض ؟ لماذا أنت في الدنيا، تعمل، وتعمل، وتعمل، لذلك ورد في الأثر القدسي:

((خلقت السماوات والأرض ولم أعي بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه إليك كل حين ؟ وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً))

(ورد في الأثر)

أشد أنواع الظلم أن تمشي في طريق مسدود، أشد أنواع الظلم أن تمشي في طريق ينتهي إلى الهاوية، هذا ظلم.

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى)

ما ظلمت أنت أحداً، بل ظلمت نفسك، ولأن تظلم نفسك أشد عليك من أن تظلم الناس جميعاً، ضيعت على نفسك الجنة، ضيعت عليها أن ترى رب العالمين يوم القيامة،

(كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

هذا ظلم، وهل مِن ظلم أعظم مِن هذا الظلم ؟

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ)

أمرُ الله لموسى بالذهاب إلى فرعون:

قوم فرعون ظلموا أنفسهم، وظلموا أتباعهم، ذبحوا أبناء بني إسرائيل، واستحيوا نسائهم، ولكن هناك علاقة بين أن تظلم نفسك، وأن تظلم الآخرين، فمن ظلم نفسه يكون من نتائج هذا الظلم أن تظلم الآخرين، لأنه في عمى، يريد الدنيا بأي ثمن، يحب أن يأخذ ما، له وما ليس له، أن يأخذ ماله، ومال غيره، أن يستمتع بما هو مباح له وما هو غير مباح له، هذا هو الظلم، فمن لوازم ظلمك لنفسك ظلم الآخرين، عناك علاقة جدلية بين ظلم النفس وظلم الآخرين، فمن ظلم الآخرين فقد ظلم نفسه، ومن ظلم نفسه فقد ظلم الآخرين، هذه علاقة مستمرة.

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11))

أَلَا يَتَّقُونَ

المعنى الأول: عجَبُ الله من قوم فرعون:

شيء عجيب، عَجَب عُجاب، الإنسان ألا يتقي، ألا يفكر، يفعل هذا الفعل وهو يعلم أنه معصية ألا يخاف الله رب العالمين الذي بيده كل شيء، بيده قلبه، بيده عيناه، بيده أذناه، بيده لسانه، بيده أعضاؤه، بيده شرايينه، بيده كليتاه، بيده عقله، بيده أهله وأولاده، بيده دخله، بيده صنعته، بيده من حوله، بيده من هم أقوى منه، بيده من هم أضعف منه.

(أَلَا يَتَّقُونَ)

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

* * *

الإنسان كيف لا يفكر، سيدنا النبي اللهم صلّ عليه حينما أسلم سيدنا خالد رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام:

((عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً))

(ورد في الأثر)

يعني من لوازم العقل أن تؤمن بالله عز وجل، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، من لوازم العقل أن تؤمن بالله، من لوازم التفكير أن تعرفه، من لوازم التفكير أن تستقيم على أمره.

(أَلَا يَتَّقُونَ)

الإنسان الذي يعمل عمل السوء باختياره، ويعرف النتيجة، ويراها أمامه في الآخرين، وهو لا يعي، أهذا إنسان ! أهذا مفكر ! أهذا إنسان عاقل ! كأن الله يعجب:

(أَلَا يَتَّقُونَ)

المعنى الثاني: عجب النبي عليه الصلاة والسلام:

أو أن النبي عليه الصلاة والسلام يعجب: ألا يتقون يا رب، كل هذا الوضوح.. وكل هذا الهدى، وهم يركبون رؤوسهم، يعبدون صنماً لا يضرهم ولا ينفعهم، يصدقون أن فرعون إله!!

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12))

حقيقة خوف موسى عليه السلام من تكذيب قومه:

الحقيقة هناك من يفهم هذه الآية فهماً على خلاف ما أراده الله عز وجل، إن سيدنا موسى من أولي العزم، ولا يعقل نبي عظيم من أولي العزم أن يتنصل من هذه المهمة، أو أن يتهرَّب منها، لا، لكنه يعلن ضعفه كي يستدر عطف الله عز وجل فيمده بالقوة، هو لا يتنصل، ولا يعتذر، ولا ينهزم، بل يقول:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

يعني أن مُدّني يا رب بقوة من عندك، مُدّني بحجة من عندك، مُدّني بقلب ثابت، هو يعلن ضعفه، لذلك الإنسان إذا دعا ربه من لوازم الدعاء أن يعلن ضعفه، اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي وعلمي، والتجأت إلى حولك وقوتك وعلمك، اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا أقل من ذلك، إذا أردت أن تدعو الله عز وجل فتبرأ من حولك وقوتك، تبرأ من تدبيرك، تبرأ من ذكائك، تبرأ من حكمتك، تبرأ من خبرتك، تبرأ من معطياتك.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي)

وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي

سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان في لسانه حبسة، مرض يصيب النطق، هذا المرض أسبابه نفسية، يعني الإنسان أحياناً يتضايق فينحبس لسانه، هناك علاقة بين الضيق النفسي وهذه الحبسة، ربنا عز وجل قال في سور أخرى:

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28))

فسيدنا موسى لم يكن فصيحاً في الدرجة العليا، ربما كان سيدنا هارون أفصح منه، مَن الأرقى عند الله عز وجل ؟ سيدنا موسى، إذاً هذا التفاصح، وهذا النطق، وهذا البيان وحده لا يكفي، سيدنا موسى هو النبي المرسل، وهو من أولي العزم، وفي لسانه عقدة، وفي نطقه حبسة، لا يقدم لا الطول ولا الطلاقة في الكلام، ولا وسامة الوجه، هذه أشياء لا تقدم ولا تؤخر، قد تسمع بأكبر جراح قلب في العالم لا تفكر أبداً بشكله، بل تفكر بخبرته، بيديه السحريتين، وبعلمه الكبير، قد يقال لك: هذا أكبر طبيب في العالم في جراحة القلب المفتوح، هل تفاجأ أنه قصير القامة، هل تزدريه إذا كان أسمر اللون، هل تزدريه إذا كان في رأسه قلة من الشعر ؟ هذه أشياء لا تقدم ولا تؤخر.

فهذا النبي الكريم عرف ربه وأحبه، واندفع إلى الدعوة إليه، أكان في لسانه حبسة أم لم يكن هذا شيء ثانوي لا يقدم ولا يؤخر، ومع ذلك قال: ويضيق صدري، وأخاف أن يكذبوني، فإذا كذبوني يا رب ضاقت نفسي، فأثر هذا الضيق على لساني، فزاده تلعثماً، وازداد انحباساً.

(وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي)

هو لا يتهرب من هذه المهمة، لا ينسحب منها، لا يتنصل منها، ولكن يحتاط لها.

(وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)

استعانة موسى بهارون:

هذا احتياط، لا إلى الداعي بل إلى الدعوة، لأن الدعوة عنده أعظم من الداعي، لو أنني أصابني العي، لو أنني انحبس لساني، لو أن عقدة ألجمت لساني يا رب، أرسل إلى هارون هو أفصح مني، فإذا تلعثمت، أي ارتبكت يأتي هارون فيبين لفرعون الحق الذي ندبتنا إليه يا رب العالمين.

(وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)

شيء آخر، قال يا رب:

(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ)

اعتذار موسى بالذنب الذي أصابه بقتل القبطي:

أنا لي عندهم سابقة، في قصة أخرى حينما لقي سيدنا موسى في الطريق قبطياً من حاشية فرعون وإسرائيلياً من بني قومه يتخاصمان، فوكزه موسى فقضى عليه، فولى هارباً، فهو عندهم قاتل، فقال:

(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

ومرة ثانية سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لا يتنصل، ولا ينسحب، ولا ينهزم، ولكن يحتاط، لا يحتاط لنفسه، ولكن يحتاط للدعوة، يقول: يا رب إذا قتلوني يكون أخي مكاني يتابع الدعوة، هل بعد هذا الحرص من حرص ! هل بعد هذا الحرص على نشر الدعوة حرص، إن تلعثمت يجيء هارون فيجيب عني، وإن قتلت يا رب يأتي هارون يتابع الدعوة من بعدي.

(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

ربنا عز وجل برحمته الواسعة وحكمته طمأنه فقال:

(قَالَ كَلَّا)

طمأنة الله موسى:

لم يقل: لا، لأن (لا) غير (كلا)، (لا) تفيد النفي لا يفعله، لن يفعلوا ذلك هذه **(لا)**، قال: كلا، يعني هو ينفي له أن يقع ذلك ويردعه من أن يفكر في ذلك، قال تعالى:

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

يعني باللغة الدارجة: أين أنا ؟ رب العالمين، وفرعون قلبه بيده سبحانه، نفسه بيده، كن فيكون وزل فيزول، أين أنا ؟

(قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

معية الله سبحانه:

إذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك، أبيات لصحاب هذا المقام:

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

* * *

هذا هو الإيمان.

(وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

(سورة الحج 18)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

إذا أعطى الله أعطى، وإذا مَنعَ منعَ، لو أن الأمة اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو أن الأمة اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، هذا هو الإيمان، لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هذا هو الإيمان، لا رافع إلا الله ولا خافض إلا الله، لا معطي إلا الله، ولا مانع إلا الله، لا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، لا قابض إلا الله، ولا باسط إلا الله، لا أحد غير الله.

(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا)

لا تقل هذا يا موسى، أين أنا ؟، أنت رسولي، يعني كل آية موجهة للنبي عليه الصلاة والسلام فللمؤمن منها نصيب، أحياناً يقول المؤمن: أخاف من أن يحدث لي حادث، أنت مؤمن وأنت على الله غالٍ، والدليل:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة)

استنبط الإمام الشافعي أن الله لا يعذب أحبابه، أهكذا ظنك بالله عز وجل، النبي عليه الصلاة والسلام أُعطي دواء ذات الجنب فغضب صلى الله عليه وسلم وقال: ذاك مرض ما كان الله ليصيبني به، حياتك غالية على الله عز وجل، وسعادتك الزوجية غالية على الله عز وجل، وسلامتك غالية، وراحتك النفسية غالية، لك معاملة خاصة، أنت ولي لله، أنت في ظل الله ورعايته، لا يتخلى الله عنك، إذا كانت هذه لسيدنا موسى فلكل مؤمن منها نصيب، أين أنا يا موسى ؟ أنا معك، إذا كان الله معك فمن عليك، يجب أن تكون للمؤمن معنويات عالية، أحياناً مؤمن يخاف خطراً جاثماً بسبب تافه، أهكذا يفعل الله معك، لا، ادعُ الله أن يهبك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

هذه اللقطة من السيرة: هذا مرض ما كان الله ليصيبني به، أنت بشكل مصغر جداً أنت مؤمن، يعني الله سيهديهم، ويصلح بالهم، لا بدّ أن يصلح لك بالك، لا بدّ أن يطمئنك، لا بدّ أن يتجلى عليك، لا بدّ أن يريحك، لا بدّ أن يسعدك، لأنك عبده، يا داود: لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، يا داود: هذه إرادتي في المعرضين فكيف إرادتي في المقبلين.

هذا الذي استقام على أمر الله، وقرأ كتاب الله، تحرى الحق في كسب المال وفي إنفاقه، عاكس نفسه، غض بصره عن محارم الله، خدم عباد الله، استمع إلى الحق، سعى برجليه ليحضر مجلس علم، أهكذا تظن بالله عز وجل، أنت لست على الله هيناً، هذا الذي هان الله عليه يهون على الله، لكن الله ليس عليه بهين، الله عندك عظيم، وإذا كان الله عندك عظيماً فأنت عنده مكرّم، الناس رجلان بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، فإذا كان الله عندك عظيماً فأنت عنده لست بهينٍ، اللهم احفظنا مما تحفظ

به عبادك الصالحين، أحياناً الإنسان تصيبه مصيبة كبيرة بسبب تافه، فالله عز وجل يحفظك، يحفظك من كل مكروه.

هذه الآية دقيقة:

(قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

أنا معكم إله خالق السماوات والأرض، كن فيكون زل فيزول، يقول لك أنا معك، المؤمن الحق عندما ربنا عز وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

المؤمن يصدق هذا،

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

ليس في كتاب الله من بشريات المؤمنين تصدقها، وتطمئن بها، وتشعر أنك أسعد الناس.

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

منهجية في الدعوة إلى الله:

قال شخص لخليفة من خلفاء بني أمية: سأعظك، وسأغلظ عليك، فقال له هذا الخليفة ولِمَ: الغلظة يا أخي ؟ إن الله أرسل من هو خير منك إلى من هو شر مني، أرسل موسى إلى فرعون، ومع ذلك:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فرعون الذي قتّل أبناء بني إسرائيل، وذبحهم، واستحيى نساءهم، الله سبحانه وتعالى أرسل له موسى كي يؤمن، يعني لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم جئتني تائباً غفرتها ولا أبالي.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

هدف الدعاة في الدعوة واحد:

فقولا: يا موسى ويا هارون، إنّا: (بالمثنى)رسول: بالمفرد، هذه لقطة ثانية، يعني الهدف واحد، ينبغي أن يكون الدعاة لهم هدف واحد، يجب ألا يختلفوا، يجب ألا يجرح بعضهم بعضاً، ما دام هذا الداعية يدعو إلى الله ورسوله وفق هذا الكتاب، وهذا الداعية يدعو إلى الله ورسوله وفق هذا الكتاب فلِمَ الخلاف ! ولِمَ المنافسة ! فقولا إنّا رسول: الهدف واحد، لذلك قول الصوفيين في أورادهم: إلهي أنت مقصودي، ورضاك هو مطلوبي، إذا قال كل داعية إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي لا بدّ أن يأتلفوا جميعاً، لا بدّ أن يلتقوا جميعاً، لا بدّ أن ينصر بعضهم بعضاً، لا بدّ أن يوقّر بعضهم بعضاً، أما هذا التنافس، وهذه الخصومات وهذا التجريح لا يليق بالدعاة إطلاقاً.

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

إذا عزّ أخوك فكن أنت معه، كن تحت جناحه، كن في خدمته، لم المنافسة، يعني يجب أن يكون الهدف واحداً.

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17))

يبدو أن دعوة سيدنا موسى كانت إلى قومه بني إسرائيل، لذلك ليس فرعون مقصوداً بهذه الدعوة بقدر ما هم مقصودون، أي بنو إسرائيل.

(أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

محاولة موسى إخراج قومه من مأزق فرعون:

لا تذبح أبناءهم، لا تستحي نسائهم، أرسلهم معنا كي يعبدوا الله، بنو إسرائيل لهم أنبياء قبل سيدنا موسى، جاءهم سيدنا يوسف بالبينات، جاءهم إسرائيل، يعقوب، هؤلاء أنبياء بني إسرائيل، لكن امتداد الزمن جعلهم ينحرفون، جعل هذه الشعلة تخمد في نفوسهم، جعلهم يعصون ينحرفون يبتعدون يقصرون، أصبحت دينهم طقوساً، أصبح أعمالاً لا معنى لها، لذلك استحقوا أن يؤدبهم الله على يد فرعون، الظالم سوط الله ينتقم به، ثم ينتقم منه، فلما جاء سيدنا موسى لفرعون قال:

(أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

نظر فرعون إلى سيدنا موسى، من هذا الذي يكلمني هذا الكلام ؟ فرعون الذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)

حجج فرعون في ردّ دعوة موسى عليه السلام:

1 – تربية ونشأة موسى في بيت فرعون:

أتي شخص اسمه موسى كان من قبل ربيباً في قصر فرعون أي خادماً، وقد فعل فعلةً نكراء، قتل قبطياً من حاشية فرعون، وولى هارباً، قال: أنت تقول لي أرسل معي بني إسرائيل، ألم نربك فينا وليداً ! ألم تكن طفلاً صغيراً عندنا ! ألم تأكل من هذا القصر ! ألم نرعك صغيراً !

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)

2 – مكث موسى مع قومه في مصر سنين:

حتى صرت يافعاً وشاباً، ونسيت ما فعلت يا موسى، وفعلت فعلتك التي فعلت، هذا التنكير للتعظيم، يقول لك ذاك المرض، قل اسمه، هذا للتعظيم، لأنه شيء عظيم جداً، نسيت فلان ماذا فعل ؟ ماذا فعل ؟ الذي فعله، هذا إبهام هدفه التعظيم.

(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

3– قتل موسى للقبطي:

كيف قتلت هذا القبطي ؟ الإله الذي بعثك إليّ هل يسمح لك أن تقتل هذا القبطي ؟ هكذا ظن فرعون أنه أجاب سيدنا موسى إجابة حاسمة، أنت كنت فينا ربيباً وليداً، ربيناك في هذا القصر، أطعمناك في هذا القصر، اعتنينا بك حتى صرت شاباً، فعلت فعلتك، ووليت هارباً، أنت تقول: أن أرسل معي بني إسرائيل ؟! موقف عصيب، بشكل نظري سهل، لكن تصوروا أن سيدنا موسى شخص مضطهد ـ طبعاً بنو إسرائيل مضطهدون في عهد فرعون ـ وقد تربى عندهم، وقتل منهم قبطياً، ويأتي ليدعو فرعون ليؤمن بالله رب العالمين، وليرسل معه بني إسرائيل، موقف عصيب جداً، فلا يعرف الشوق إلا من يكابده، ولا الصبابة إلا من يعانيها، سيدنا موسى قال:

(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

ردّ موسى على مزاعم فرعون:

بعض علماء التفسير قالوا: هذا استفهام من غير أداة استفهام، لكن السياق يفرض أن يكون استفهاماً، لأن النبي معصوم في رأي جمهور العلماء قبل الرسالة وبعدها، والدليل لما قص قصته على سيدنا شعيب قال:

(قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

لو كان سيدنا موسى ارتكب خطأ في هذا العمل ما قال له سيدنا شعيب: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، هو ماذا فعل ؟ رأى عدواناً من شخص قوي على شخص مستضعف، فوقف مع الحق، فوكزه فقضى عليه.

قال: نعم فعلتها، ولكن أنا لست ضالاً بهذا العمل، أنا وقفت مع الحق، كان بإمكان ألا أتدخل، وأطلب السلامة لنفسي، طبعاً لو أنت شاهدت إنساناً قوياً يضرب إنساناً ضعيفاً، طبعاً الموقف المريح أن تتابع المسير في الطريق، أن تقول: لا علاقة لي بهذا، يقول الإنسان: فخار يكسر بعضه، لكنك أن تقف مع الحق وتعرض نفسك للخطر.. لخطر الموت، قال:

(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

ما فعلت إلا ما يمليه عليّ الحق، يعني أراد أن يناقش فرعون بهذا الموقف.

(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ)

الخوف من جِبلّة البشر جميعا:

الإنسان يخاف، والنبي يخاف، يقول الله عز وجل:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الكهف 110)

أنا بشر، وسيدنا موسى بشر.

(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

امتنان موسى برسالة الله له:

أنا لست رسولاً فريداً في الأرض، أنا رسول من هؤلاء الرسل جميعاً، حينما خفتكم توجهت إلى مدين عشت مع نبي عظيم، هو سيدنا شعيب، ووهب لي ربي في هذه المرحلة حكماً، وجعلني نبياً، وأرسلني

إليكم، بعدئذٍ تقول لي: ألم نربك فينا وليداً. طبعاً فرعون استعلى عليه فقابله استعلاءً باستعلاء، وتهكماً بتهكم، قال:

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

استعباد فرعون لبني إسرائيل:

أنا لماذا رُبيت في قصرك، لأنك تذبح بني إسرائيل، لو أنك لا تذبحهم ما تربيت في قصرك، خافت عليّ أمي فقذفتني بالتابوت، والتابوت جاء إلى شاطئ قصرك، ما كان لك أن تربيني لو كنت عادلاً، لو لم تقتل أبناء بني إسرائيل لم أكن في قصرك.

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

جعلتهم عبيداً عندك، أخذت جهدهم بلا ثمن، وقتلت أبنائهم، واستحييت نسائهم، وتلك نعمة تمنها عليّ أيضاً أن عبدت بني إسرائيل، طبعاً موقف عصيب، موقف متين وجواب محكم.

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23))

إنكار فرعون لوجود رب سواه:

هو لا ينفي وجوده، ولكن ينفي قدرته، هذه نفي الشأن، تقول: مَن فلان ؟ يعني لا قيمة له.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

أنا الإله، هذا قول فرعون، كلمة وما رب العالمين ؟ سيدنا موسى فاجأه فقال:

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الله رب السماوات والأرض:

رب الكون، من أنت أمامه، إذا كانت المجرة تبعد عنّا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، وإذا كان أقرب نجم ملتهب بُعده عنّا أربع سنوات ضوئية، يعني نحتاج إلى أن نصل إليه بالسيارة إلى خمسين مليون سنة، أربع سنوات ضوئية تقابل خمسين مليون سنة بالسيارة، والأربعة آلاف سنة ضوئية، والمليون سنة ضوئية، والستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، وما رب العالمين ؟

أحياناً الإنسان يسب الدين أو يسب الإله، هذا صفر أو تحت الصفر لا يعرف عن الله شيئاً، أتعرف من تسب ؟ خالق السماوات والأرض.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

وكأن هذا سباب.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

معنى الربّ:

ما معنى رب ؟ يعني المربي والممد، إذا كنت تربي طفلك، واحتاج إلى دواء، ولا تملك ثمن الدواء أنت لست مربياً، معلومات جيدة، ولكن الإمكانيات لا توجد، كلمة رب تعني الحكمة في الرعاية مع القدرة في الإمداد.

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

من أمد الشمس بهذا النور وهذا اللهب، من حرك الأجرام السماوية، من حرك الرياح، من أنزل الأمطار، من أنبت النبات، من أطعم الطيور في السماء، من أطعم الأسماك في البحار، من أعطى هذه الشجرة ما تحتاج من مواد معدنية وأشباه معدنية، من يمد كل مخلوق بما يحتاج، من هو الحي القيوم قيام الأشياء به.

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وتقول: وما رب العالمين، أحياناً تجد نملة من يطعمها ؟

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

الدابة: أحياناً يوجد غزلان يعيشون في قمم الجبال، وفي قمم الجبال بعض الينابيع، وليس هناك من تفسير لينبوع ماء في قمم الجبال إلا أن يكون خزانه في جبل أعلى منه، يعني في جبل أعلى منه بعيد جداً هناك اتصال أنابيب موصولة من هذا الجبل العالي إلى الجبل الأدنى، هذا الوعل يحتاج أن يشرب، إذاً يخلق له ينبوع ماء في قمة الجبل.

وهذه السمكة التي تعيش في خليج ميريانة في المحيط الهادي حيث العمق يزيد على اثني عشر ألف متر، أعمق مكان في البحار، سمك هلامي من يأتيها بالطعام والشراب.

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الطيور، الأسماك، الوحوش، الحيوانات الأهلية، الدود، البكتريا، الفيروس، الكائنات الدقيقة، من يطعمها ؟ الله سبحانه وتعالى، لها أجهزة، تجد النملة لها قلب ولها بصر الدليل ضع يدك أمامها تقف معناها أنها لها بصر، تجد الحيوان له قلب، وله رئتان، وله أجهزة هضم، وغدد صماء، الحيوان ليس له قيمة عندك، بعوضة تعمل لها بيدك هكذا ماذا حصل، هذه البعوضة لها ثلاث قلوب، وعندها جهاز تخدير، وعندها جهاز تحليل، وعندها جهاز تمييع للدم، لها محاجم إذا كان السطح أملس، ولها مخالب،

يرف جناحها أربعة آلاف رفة في الثانية إلى مستوى الطنين.

(إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة 26)

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

من رب العالمين ؟ هذه البعوضة لو أن علماء الأرض اجتمعوا على أن يخلقوا ذبابة لا يستطيعون، تحداهم ربهم في أحقر مخلوق، ذبابة لا يستطيعون.

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

يعني يمدّ كل هذه المخلوقات، من يمد الشمس بالحرارة، من يمد الأرض بالحركة، الجبال بالشموخ، البحار بالماء، كل إنسان فيه خمسون نوع خمسون نسيج خمسون عضو خمسون غدة، هذا البنكرياس يحتاج إلى أنسولين ضعف إفراز الأنسولين حدث مرض السكر، خمسون ظاهرة لأن البنكرياس ضعف إفراز الأنسولين فيه، والأنسولين من أجل إحراق السكر في حرارة عادية.

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24))

فرعون استغرب، يعني دهش.

(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ)

استغراب فرعون من كلام موسى عليه السلام:

يريد أن يعزز مكانته، يريد أن يستنجد بمن حوله، يحتاج إلى إعادة اعتبار.

(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ)

كأنه يستهزئ، ما هذا الكلام هناك رب للعالمين، أيوجد غيري إله، كأنه يقول هكذا لأتباعه، هل تعرفون إلهاً غيري، هذا يدعي أن هناك إله خلق السماوات والأرض، فعندئذ فاجأه سيدنا موسى قال:

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

إثبات موسى لربوبية الله ونفيها عن فرعون:

يعني أنت لست إله يا فرعون، أنت ربيب والله هو الرب، أنت لست رباً، الله هو ربك، ربكم ورب آبائكم الأولين، الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، كان الله، ولم يكن معه شيء، هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، هو القديم الأزلي الأبدي، يعني ربكم ورب آبائكم الأولين.

حينما تضعف حجة الإنسان، وحينما يقع في حيص بيص كما يقولون، وحينما يسقط في يده يلجأ

للسباب، أثناء المناقشة الذي يسب الثاني، أولاً هو الضعيف، القضية إقناع، وحجة، ودليل، قال لك: أنت لا تفهم، انتهى النقاش، معنى ذلك أن أحد الأطراف سلّم، عندما يلجأ الإنسان للسباب معناها انتهى، ومعناها ضعف، معناها فقد الحجة، معناها أُسقط في يده، فقال فرعون:

(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

اتهام فرعون لموسى بالجنون:

رد على هذه الحقائق، رد على هذه البراهين، هذا كلام لا معنى له، فلذلك أصعب شيء في النقاش لست فاهماً رد عليه، إذا قلت له كذلك فأنت ضعيف لقد سقطت في الامتحان، لقد خسرت هذه الجولة، إما أن تقدم له الدليل، وإما أن تسكت، أما أن تقول له: إنك مجنون، هذا ليس نقاشاً، هنا فرعون وقع في الإحباط قال:

(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

هذا مجنون، والنبي عليه الصلاة والسلام رأى في الطريق مجنوناً فقال لأصحابه: **من هذا ؟** (اسمه تجاهل العارف) فقالوا: هذا مجنون، فقال:

((لا، هذا مبتلى، المجنون من عصى الله، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، المجنون من عصى الله عز وجل))

وتعلمون النمرود حينما ناقشه سيدنا إبراهيم فقال: **فإن ربي الذي يحي ويميت**، فقال: أنا أحيي وأميت، توهم النمرود أنه إذا عفا عن إنسان من حقه أن يقتل فقد أحياه، وإذا أمر بقتل إنسان فقد أماته فقال: أنا أحيي وأميت، فسيدنا إبراهيم علمنا النقاش الصحيح، ما تابعه في هذا الموضوع لأن فهمه كان سقيماً، جاءه بحجة أخرى فقال له:

(قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة)

سيدنا موسى قال:

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

الإنسان يجتمع فيقرر مثلاً إغلاق شيء، يقرر فتح شيء، يسمح، ويمنع، يعزل يعين، يعطي يمنع، الآن لو اجتمعت الدول كلها لاتخاذ قرار أن تطلع الشمس من مغربها صبيحة يوم كذا كلام فارغ، الإله هو الذي يفعل هذا، جميع بني البشر ليس في قدرتهم أن يفعلوا ذلك، فسيدنا موسى قال له:

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

دعوة إلى إعمال العقل:

يعني يجب أن تعقلوا، إنما الدين هو العقل، من لا عقل له لا دين له، من لا دين له لا عقل له، تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، إن الرجلين ليستوي عملهما، وبرهما، وصومهما، وصلاتهما، ويختلفان في العقل كالذرة جنبُ أحد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين.

(إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

لو أنكم تعقلون لكنتم عرفتم الله رب العالمين، عرفتم رب المشرق والمغرب، عرفتم ربكم ورب آبائكم الأولين، عرفتم رب السماوات والأرض إن كنتم تعقلون، أي اعقلوا.

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

عندئذ فقد فرعون صبره فقال:

(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)

مرحلة التهديد والضغط والوعيد:

فرعون قوي، لكن كل قوة تحتاج إلى فلسفة تساندها، فسيدنا موسى يخاطبه أمام ملأ منه، عندئذ لما بلغ بفرعون هذا المبلغ وانتقل من المناقشة إلى التهديد، وانتقل من الحوار إلى الوعيد، عندئذ قال سيدنا موسى:

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

قال موسى: لو أن معي على ما أقول حجة قاطعة ما تقول ؟ هنا لو قال فرعون لا أستمع إليها يفقد قيمته أمام من حوله، يعني وضعه في زاوية ضيقة.

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

اقتراح موسى على فرعون حجة مادية:

لو جئتك بشيء قطعي، دليل، حجة قاطعة، بمعجزة تثبت أني رسول من عند الله رب العالمين، عندئذ قال:

(قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

طبعاً اضطر مرغماً أن يعطيه مهلة كي يدلي بحجته التي تثبت أنه نبي مرسل من عند الله رب العالمين. **والحمد لله رب العالمين**

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (03-20): تفسير الآيات 23 - 68
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-08-04

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

في القرآن الكريم قواعد نظرية، وفيه تطبيقات عملية، القواعد النظرية كثيرة جداً، والقصص تطبيقات عملية للقواعد النظرية، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود)

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

تدور الأيام، يسعد أناس، ويهبط آخرون، الأحوال لا تستقر إلا على هذه القاعدة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

وقد يكون الخصمان المتصارعان لا تناسب بين قوتيهما، فرعون ورجل مستضعف من بني إسرائيل ومع ذلك:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

(سورة القصص 8)

لذلك إذا كنت مع الله فأنت الرابح دائماً، والنهاية لك، والعاقبة لك، والسعادة لك، والتوفيق لك، وأن تظهر على خصومك لك، وإذا كنت مع غير الله مهما علا شأن الإنسان فلا بدّ أن يدمر، لأنه اعتز بغير الله، لذلك ورد في الأثر القدسي:

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

(ورد في الأثر)

من كان مع الله لم يخف من شيء:

فيا أيها الأخ الكريم... اعتصم بالله، توكل على الله، قل له في مناجاتك له: يا رب ليس لي إلا أنت،

ليس لي أحد، لكنك إذا كنت معي فلا أحد يستطيع أن ينالني بسوء، إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فإن أقرب الناس يتخلى عنك، لو أن الأمة اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو أن الأمة اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف،

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر)

علاقتك كلها مع الله، علاقتك جملة وتفصيلاً، يعني أجهزتك لو أن الكلية توقفت عن العمل لابدّ من ثلاثين ساعة غسيل، وستين كيس سيروم، مبلغ ضخم كل أسبوع مرتين، تصبح الحياة جحيماً، بيد من هذه الكلية ؟ بيد الله عز وجل، صمام القلب بيد الله، الأوردة مرونتها تصلبها المواد المتعلقة بجدرانها من الكولسترول بيد الله عز وجل، الدماغ نمو عشوائي في الدماغ تصبح حياة الإنسان جحيماً، فالإنسان مفتقر إلى الله في مليونِ مليون جزء في جسمه، وأهله وأولاده، لو جاءه ابن معتوه يجعل هذه الأسرة في جحيم مستمر، لو أن ابنه فيه عاهة دائمة، لو أن مرضاً عضالاً أصاب أهله، الإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، فإذا قال: أنا، يكون جاهلاً، يا رب ليس لي إلا أنت هذا فضلك وكرمك.

هذه القصة تبين لو أنك أقوى أقوياء الأرض، وأراد الله أن يسلبك هذه القوة لسلبها منك، وأنت لا تدري، لو كنت أغنى أغنياء الأرض، وأراد الله أن يفقرك لا بدّ من أن تفتقر.

(وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

(سورة الرعد)

لذلك هذه القصة لو أنها وقعت، وانتهت، لكنها درس لا ينقضي، ملخص هذا الدرس:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ إذا كنت معتصماً بالله، إذا كنت مستقيماً على أمره، إذا كنت تسعى لرضاه، إذا كنت تقيم أمر الله عند الحلال والحرام، إذا كنت تعظم أمر الله عز وجل، إذا كان الله عظيماً في نظرك، أما إذا هان الله عليك هنت عليه، إذا هان أمره عليك هانت معصيته عليه، وهان غضبه عليك، وهان سخطه عليك، وهان إبعاده لك عليك، عندئذ تهون عليه، وعندها يعيش الإنسان حياة لا يحسد عليها أبداً.

فيا أيها الإخوة الأكارم... القصة معروفة فيها تفصيلات دقيقة، لكن أتمنى عليكم أن تقفوا عند كل دقيقة من دقائقها، عند كل جزئية من جزئياتها، عند كل موقف، كن مع الله ولا تبالي.

كن مع الله تر الله معك واترك الكل و حاذر طمعك

و إذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا مـا منعك

* * *

مواجهة موسى لفرعون بحقيقة ربوبية الله:

فرعون حينما قال له سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال:

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

لم يقل: ومَن رب العالمين، هو لا ينكر وجوده، ولكن ينكر شأنه، وقال فرعون في آيات أخرى:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى)

(سورة النازعات)

هو يدعي أنه رب قومه، رب مصر، فلما قال له: رب العالمين، قال:

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

فقال سيدنا موسى: رب السماوات والأرض، يعني أقرب نجم ملتهب لو أردت أن تصل إليه بسيارة لاحتجت إلى ما يقارب خمسين مليون سنة، أقرب نجم يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، تحتاج إلى أن تصل إليه ما يقارب خمسين مليون سنة، وأنت تقود هذه السيارة، لو عشت مئة سنة، يعني الإنسان وابنه وابن ابنه، إلى خمسين مليون سنة تقسيم مئة، خمسة وأربعة أصفار يعني خمسين ألف جيل، من أجل أن تصل إلى أقرب نجم ملتهب إلى الأرض، وما رب العالمين، نجم القطب أربع سنوات ضوئية، والمرأة المسلسلة مليون سنة ضوئية، وأحدث مجرة اكتشفت ستة عشر ألف سنة ضوئية، قال:

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الله رب الكون جميعا:

وهذا الذي عرفه العلماء عن الكون شيء محدود جداً، وكلما عرفوا شيئاً تبدى لهم أشياء، لذلك الإمام الشافعي يقول: كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي.

أحد كبار العلماء يقول: لم تبتل بعد أقدامنا ببحر المعرفة، وكلما تعمق الإنسان رأى جهله، ورأى ضآلة علمه، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا)

(سورة الإسراء)

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة 255)

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذه الشمس الملتهبة حرارتها في مركزها عشرون مليون درجة، في السطح ستة آلاف درجة، قبل أسبوعين الحرارة تسع وأربعون درجة، الناس قالت: حر لا يطاق، ستة آلاف درجة على السطح، ألسنة اللهب طولها نصف مليون كيلو متر، الألسنة فقط، حول الأرض كلها أربعون ألف كيلو متر، خمسمائة ألف كيلو متر طول لسان اللهب، محيط الأرض أربعون ألف كيلو متر، أيْ اثنا عشر مثل من محيط الأرض طول لسان اللهب من الشمس، ولو أن الأرض ألقيت في الشمس لتبخرت في ثانية واحدة.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وهذا نجم العقرب، برج العقرب، قلب العقرب الذي يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

اعرف الله أولاً، تفكر في خلق السماوات والأرض عندئذ تعرف أن كلمة الله تجعلك تخر له ساجداً، تفكر في خلق السماوات والأرض، مليون مليون مجرة هذه أحدث أرقام، وفي كل مجرة مليون مليون نجم، يعني لو أن غرفة في الشتاء أردت أن تكنسها، وقد دخلت إليها أشعة الشمس لرأيت في سماء الغرفة ذرات عالقة، ما الأرض بالنسبة إلى جزء من الكون إلا كذرة عالقة في سماء هذه الغرفة، والأرض نفسها، يمكن سوريا على الكرة الأرضية لا يتسع حجمها لكلمة (DMASCUS)، لا تكفي، لو أحبوا أن يضعوا العاصمة، واسمها بالإنكليزي لا يتسع حجم سوريا كلها على كرة أرضية لاسم العاصمة.

في بلاد آسيا وإفريقيا وأمريكا وأوربا وأقيانوسيا والقطبين وكل هذه اليابسة، خمس البحر، والبحر أربعة أخماس.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25))

إنكار فرعون ربوبية الله:

لأن فرعون يطرح على الناس أنه إله، وأنه ربهم، وأنه إلههم، فإذا قال سيدنا موسى: إنّ هناك إلها عظيمًا، رب السماوات والأرض، هو لا يحب أن يقبل ذلك، يريد أن ينكر ذلك، فقال ما هذا الكلام، وفي آية أخرى قال:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص 38)

ما رب العالمين ؟ فقال سيدنا موسى:

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

رَبُّكُمْ وربُّ آبَائِكُمُ الأوّلِين

ليس فقط رب السماء، بل وربك أنت أيها الملك، ربكم أنتم يا قوم فرعون، يعني هو رب السماوات والأرض أوجدها، وأمدها، وسيرها، وربكم أنتم، لأن الله عز وجل يقول:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

هو فعلاً رب السماوات والأرض، رب هذه المجرات، رب هذه الكازارات، رب هذه المذنبات، رب هذه النجوم الملتهبة، رب هذه الكواكب المنطفئة، رب هذه السيارات التي تسير حول بعضها بعضاً، رب هذا الفراغ الكبير، رب هذه المواقع الشاسعة.

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

ما وسع فرعون بعد أن سمع هذا الكلام الذي يلغي دوره، يلغي ربوبيته المزعومة، يلغي ألوهيته، ما وسع فرعون إلا أن يقول:

(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

اتهام فرعون موسى بالجنون:

ولكن المجنون كما قال عليه الصلاة والسلام من عصى الله، حينما رأى مجنوناً سأل أصحابه سؤال العارف من هذا؟ قالوا: مجنون، فقال: لا.. هذا مبتلى، المجنون من عصى الله، فهذا الذي يمشي في طريق مسدود هو مجنون، هذا الذي يمشي في طريق ينتهي إلى هاوية مجنون، لكن الذي يمشي في طريق سالك إلى جنة عرضها السماوات والأرض هو عاقل، لذلك والله الذي لا إله إلا هو أقلُّ مؤمن على وجه الأرض يعدُّ أذكى من أكبر شخصية كافرة، لأن الكافر حياته عريضة، لكن هذا الطريق العريض ينتهي بهاوية سحيقة، بينما المؤمن لو أن الطريق التي هو بها ضيقة لكنها نافذة إلى جنات ربه، لذلك:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

عندئذ قال سيدنا موسى:

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

الله ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما:

هذه الشمس من حركها ؟

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة)

أقوى أقوياء الأرض لو اتخذ قراراً بأن تطلع الشمس من مغربها هل يستطيع ! لو اجتمعت دول الأرض على أن تصمم أن تشرق الشمس من مغربها مستحيل، الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الشمس، وخلق القمر، وخلق الأرض وحركهما.

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

العقل هو القوة الإدراكية:

يعني اعقلوا، هذا العقل، هذه الجوهرة الثمينة لا ينبغي أن تبقى شاردة، لا ينبغي أن تعطل، هذه القوة العقلية الإدراكية لا ينبغي أن تعطل، مع الأسف الإنسان يوظف فكره وعقله في كسب المال فقط، أو في الاحتيال، أو في الإيقاع بين الناس، ولا يسخر الإنسان عقله لمعرفة ربه، والعقل أساساً حينما خلق الله السماوات والأرض قال:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

أعطاك ميزاناً، أعطاك هذا الميزان من أجل أن تعرف ربك فعطلت هذا الميزان، أو استخدمته في أغراض أخرى.

(إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

تعرفون أن الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب، وتعرفون أن الله سبحانه وتعالى ربكم ورب آبائكم الأولين، تعلمون أن الله سبحانه وتعالى رب السماوات والأرض.

يبدو أن فرعون أُسقط في يده، وأقيمت عليه الحجة، ولم يدر ماذا يفعل، عندئذ استنجد بقوته، الإنسان حينما يضعف في المنطق.. في المحاورة.. في المناقشة إما أن يستخدم قوته إن كان قوياً، أو أن يستخدم لسانه في السباب إن كان ضعيفاً، إذا حصل نقاش حادّ بين اثنين حينما ينهزم أحدهما، فهذا المهزوم إن كان ضعيفاً يستخدم لسانه البذيء، وإن كان قوياً يستخدم قوته، ويبدو أن فرعون حينما انهزم أمام سيدنا موسى في المناقشة والحجة قال:

(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)

ردُ فرعون بسلاح التهديد والوعيد:

هل هذا رد علمي على هذه الطروحات ؟هذا رد لا علاقة بها، هذا الرد لا يتناسب مع هذا الحوار، هو يؤكد له أن الله هو رب السماوات والأرض، أعندك دليل ينفي ذلك، هو يؤكد أن الله ربكم ورب آبائكم الأولين، أعندك يا فرعون دليل ينقض ذلك ؟! هو يؤكد أن الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب، أعندك يا فرعون دليل ينقض ذلك ؟! جاءه فقال:

(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)

ما علاقة هذا الكلام بهذا الحوار ؟ إنه استنجد بقوته، عندئذ سيدنا موسى قال له قولاً أحرجه، على أن الإنسان القوي لا بدّ أن يستعين مع قوته بفكرة، أو نظرية، أو بمبدأ، أو بعقيدة، لأن القوة وحدها لا تكفي، الإنسان يحتاج إلى قوة، وإلى فكر، أو إلى عقيدة، أو إلى مبدأ يغطي هذه القوة، فقال له موسى:

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

موسى يقترح على فرعون دليلا ماديا قاطعا بصدق رسالته:

لو أنني جئت بدليل قاطع على ما أقول، أنا أقول لك: إني رسول من رب العالمين، أنا أزعم أني رسول، فما قولك يا فرعون لو أتيتك بالدليل القطعي ؟ طبعاً لو كان النقاش بين فرعون وسيدنا موسى وحده لانتهى الأمر، ولكن النقاش بين ملأ، لذلك وقع فرعون كما يقولون في حيص بيص، بما أنه في عرض قطعي.

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

أو لو جئتك بدليل قطعي على أني رسول، أولو جئتك بدليل قطعي على أني صادق فيما أقول، أو على أن الله هو رب العالمين، ولست أنت.

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31))

وضعه في زاوية ضيقة في الحوار، وأحرجه، وجعله أمام من حوله، أمام الملأ في موقف حرج، فاضطر فرعون أن يقول:

(قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

فرعون يتحدى موسى عليه السلام:

الآيات الكونية لا حصر لها ولا عدّ:

سيدنا موسى ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، والحقيقة أن هناك آلافَ الآيات الكونية الدالة على عظمة الله، حينما تلد الأنثى غلاماً صغيراً أليست هذه آية عظيمة، لكن سبحان الله الأشياء التي تتكرر يألفها الناس، أيها الزوج ألا تعلم أن هذا الطفل الصغير كان نطفة من ماء مهين، حوين منوي واحد لقح بويضة أصبح هناك غلام فيه دماغ، فيه مئة وأربعون مليار خلية سمراء، أربعة عشر مليار خلية قشرية في الدماغ، في الجمجمة مفاصل منكسرة لتلقي الصدمات، ونخاع شوكي، و عمود فقري، وقلب له أربعة تجاويف، دسامات، رئتان، ومعدة، وأمعاء، كبد، وصفراء، وبنكرياس، وغدد صماء، وكليتان، وكظران، وعظام، وفيه معامل كريات دم حمراء، وعضلات، ومواد شحمية، وجلد، فهذا الغلام الصغير الذي يبكي يبحث عن ثدي أمه، فيشرب الحليب، ويتحول هذا الحليب إلى لحم وعظم، ينمو وزنه أليست هذه آية دالة على عظمة الله ! ولكن الناس ألفوها، وهذه المشكلة.

شروق الشمس أليس آية ؟ أن تلقي في الأرض بذرة، فإذا هي نباتٌ يعطيك من الخضراوات والثمار ما لذّ وطاب، هذه الفواكه الطيبة سكرية الطعم، ذات اللون الجميل، والرائحة الطيبة، والقوام المعتدل، والغذاء، والفيتامينات و، و، و، هذه من التراب يد من صنعتها ؟ أليست هذه آية ؟!

هذا الحليب الذي تشربه، هذه البقرة كيف تحول الدم إلى حليب، أربعمئة حجم من الدم تحتاج البقرة كي تصنع لتر حليب منه، أربعمئة حجم من الدم تجول حول الغدد الثديية من أجل تصنيع لتر حليب واحد، هذا المعمل الذي تحت سمعنا وبصرنا، أليس آية قاطعة دالة على عظمة الله ؟! من جعل هذا الحليب متناسباً مع بنية الجسم ؟ مواد سكرية، ومواد دهنية، ومواد شحمية، ستة عشر معدنًا، ثمان فيتامينات، مواد بروتينية، من جعل هذا ! هذا الحليب الغذاء الكامل، يعني البقرة نفسها تعرف ذلك، هل البقرة تعرف احتياجات الجسم ؟ وهل هذا الحليب لابن البقرة أم للإنسان ؟ للإنسان، لأن عجلها ربما لا يحتاج لأكثر من كيلوين، لكن هذه الكمية الكبيرة أربعين إلى خمسين، والآن هناك بقر يحلب ستين كيلوًا في اليوم، من أجل ابنها العجل ؟ هذه البيضة، آيات كثيرة، ولكن سبحان الله صار ذلك شيئاً مألوفاً، الأشجار، القمح، الأسماك، الرياح، الأمطار، البحار، ملايين مَلايين ملايين الآيات الدالة على عظمة

الله، ولكن الإنسان أحياناً هذا كله مألوف عنده، لعدم التفكر، للانهماك في الدنيا يصبح شيئاً مألوفاً، قال:

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32))

معجزة تحوّل العصا إلى ثعبان وخروج اليد من الجيب بيضاء:

إنّ تحوّلَ العصا إلى ثعبان شيء فوق طاقة البشر، شيء لا يستطيعه البشر، هذه هي المعجزة، وخرق للعادات على يد نبي أو رسول، لأن هناك تحديًا، هناك من يكذبه، فلا بدّ أن يأتي بشيء لا يستطيعه البشر مجتمعين، إذاً كأن الله سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء: إن هذا الإنسان رسولي، والدليل هذه المعجزة، فألقى عصاه، ليست هي كالثعبان، لو كان ساحراً إذا هي كالثعبان، فخيل لهم من سحرهم أنها تسعى، هذا تخييل، السحر شيء، والمعجزة شيء آخر، من أتى كاهناً فقد كفر، من أتى ساحراً فقد كفر، من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، ولا دعاء أربعين ليلة.

إذا كان الإنسان في نزهة، وأراد أن يتسلى بالودع أو نجمة، فهذا شيء مخالف للقرآن، إنك إن صدقت الكاهن كفرت بمحمد، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ)

(سورة النمل 65)

فالذي يقول لك: سوف تفعل كذا وكذا، هذا غيب، والذي يأتي الساحر لا ليصدقه، بل ليتسلى، اجعل التسلية في شيء آخر، من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، ولا دعاء أربعين ليلة.

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33))

كلمة (فإذا) هذه إذا الفجائية، يعني لم تكن حية، ولكنه قد سكنها، أو جمدها، ثم حركها، لا، كانت عصا، ألقى عصاه فإذا هي فجأة ثعبان كبير مبين واضح كالشمس، ونزع يده من تحت إبطه فإذا هي بيضاء للناظرين، يد تتألق كالمصباح، فرعون قال:

(قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

اتهام فرعون موسى بالسحر بعد رؤيته المعجزة:

طبعاً فوجئ فرعون، ودهش، وصعق، فعلاً إنه شيء فوق طاقة البشر، عصا بيده، فإذا هي ثعبان مبين، وتصبح يده مصباحاً متألقاً، فإذا هي بيضاء للناظرين.

(قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

من كلمة **(عليم)**يتضح أن فرعون هالته هذه المعجزة، لكنه يكابد، ولا يرضى أن يعترف أنه رسول، يقول: إن هذا لسحار، ولكنه عليم من مستوى رفيع.

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ)

انظروا إلى الانهيار المفاجئ.

(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

مشاورة فرعون قومه في شأن موسى

متى كان فرعون بهذه الأخلاق ؟ متى كان فرعون يخاطب قومه الذي قال لهم: أنا ربكم الأعلى، متى يقول لهم: ماذا تأمرون، في القصة انهيار مفاجئ، لأنه فَقَدَ الحجة، وسيدنا موسى لما ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، وحين نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين أعطى معجزتين لا يستطيع بنو البشر مجتمعين أن يفعلوها، وأن يأتوا بهاتين المعجزتين، عندئذ أسقط في يد فرعون، أما هذا الهبوط المفاجئ في الموقف من قوله: أنا ربكم الأعلى، ومن قوله: ما علمت لكم من إله غيري إلى قوله:

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

ماذا نفعل ؟ فقال الملأ من حوله:

(قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

إجماع فرعون وقومه على مواجهة موسى بالسحر:

يعني أخِّرْه قليلاً، هذا سحر، هم ركبوا رؤوسهم، وقالوا: هذا سحر، ونحن عندنا سحرة، فنجمع السحرة في أرجاء البلاد ليقفوا في وجهه، وليثبتوا أنهم أعلم منه في السحر.

(قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37))

سحّار صيغة مبالغة على وزن فعّال، إنّ هذا لساحر عليم، كلمة ساحر اسم فاعل، لكن سحّار صيغة مبالغة لاسم الفاعل، يعني يأتوك بكل سحّار عليم، أعلم مِن هذا الذي يدعي أنه رسول.

طبعاً هنا قفزة في القصة، أرسل فرعون رجاله وجنوده في أرجاء البلاد، وفي مختلف الأقاليم والأصقاع، وجمع كل ساحر عليم، بل كل سحّار عليم.

(فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

تحديد موعد التحدي:

فكان هناك لقاء مع فرعون.

(وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ)

المشكلة أنه توقع أن هؤلاء السحرة الذين سيجمعهم سينتصرون على سيدنا موسى، إذاً لا بدّ أن يكون هذا الانتصار أمام جمع غفير من الناس، وما كان يدري أن هذا الجمع الغفير الذي سيشهد هزيمة السحرة لن يكون إلى جانبه عندما يتأكدوا أن هذا نبي.. وأن هذا الإنسان نبي ورسول من رب العالمين.

(وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40))

يعني غلب على ظن فرعون وملأه أن هؤلاء السحرة الذين جمعهم فرعون سيحبطون سحر سيدنا موسى على حدّ زعمهم، وينتصر باطلهم على الحق.

أجر غلبة موسى: طلب

(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

السحرة من فرعون

يعني هذا ما ثمنه ؟ هؤلاء السحرة الآن أجراء منتفعون، هؤلاء السحرة أناس يعملون لا لمبدأ ولا لقضية، إنما يعملون ليقبضوا ثمناً باهظاً لسحرهم.

(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

يعني كم تدفع لنا يا فرعون ؟ ما هي الأشياء المغرية التي تغرينا بها حتى نفعل ؟

(قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

تشجيع فرعون السحرة بتقريبهم إليه حال الفوز:

أنتم إذا انتصرتم على موسى سوف أعطيكم عطاءاً جزيلاً، وسوف أجعلكم في قصري، أي مستشارين، طبعاً القصة فيها قفزات فنية، أي هذان السطران يردان شهرين أو ثلاثة بين إرسال الجنود والأتباع، وجمع السحرة، وجمع السحرة مع فرعون، ودعوة الناس إلى هذا اللقاء الحافل، ومساومة السحرة مع فرعون، هذه كلها في كلمات قليلة.

(فَلَمّا جَاءَ السّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قالَ نَعَمْ وَإِنّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرّبِينَ (42) قالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا)

بدء التحدي والمواجهة الميدانية وثقة موسى بالفوز:

واثق من نفسه، واثق أنه نبي، وأن هذا الذي سيفعله ليس سحراً، ولا خديعة، ولا تخيلاً، ولا تخييلاً، إنما هو حق من الله تعالى.

(قالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)

في بعض التفاسير: أن هؤلاء السحرة جعلوا في حبالهم التي طلوها بما يشبه الأفعى أو الثعبان جعلوا الزئبق، وجعلوا هذه العصي والحبال فوق أرض حارة، فلما تمدد الزئبق حرك الحبال فبدت كأنها تسعى.

(فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيّهُمْ وَقَالُوا بِعِزّةِ فِرْعَوْنَ)

قال أحدهم:

اجعل لربك كل عـزك يـستـقـر، ويثبت

فـإذا اعتـززت بـمن يموت فإن عزك ميت

* * *

سيدنا موسى واثق من نفسه.

(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ)

هنا نقطة مهمة جداً: لو أن هذا النبي الكريم ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، كما تخيلوا أن العصي والحبال تتحرك، يدعون أنهم توهموا أن هذه العصا بفعل السحر تتحرك، ولكن الله شاءت حكمته أن عصا سيدنا موسى التي أصبحت ثعباناً مبيناً أكلت كل حبالهم وعصيهم، لأنها لو كانت قضية تخيل أو سحر لبقي ثعبان سيدنا موسى الذي كان عصا قبل قليل، وبقيت الحبال والعصي، يعني هذا يتحرك، وهذا يتحرك.

(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ)

ابتلاع ثعبان موسى لكل ألاعيب السحرة:

تلقف بمعنى تبتلع، يعني أسرع طريقة في التهام الطعام تلقف، يعني كل حبل بلقمة واحدة.

(فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

السحرة يعلمون أنهم سحرة، وأنهم ما فعلوا إلا بعض الخدائع، بعض أنواع الخديعة البصرية، أما هذا ثعبان حقيقي، وهذا الثعبان أكل كل حبالهم وعصيهم، فعندئذ:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

سجود سحرة فرعون إيمانا بالله وإقرارا بالهزيمة:

الصلحة بلمحة، تحولوا في لمح البصر من عملاء إلى فرعون.. من أجراء إلى مؤمنين مصدقين.

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47))

هذا ليس من فعل البشر، عصاه تصبح ثعباناً، وتأكل كل الحبال والعصي، هذا من فعل الله خالق الكون.

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48))

عندئذ كاد فرعون يتميز غيظاً.

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ)

تهديد فرعون السحرة بأبشع أنواع القتل:

فقال لهم: آمنتم له، الدقة في اللغة لم يقل آمنتم به، بل آمنتم له، يعني أنتم آمنتم، أي انحزتم إلى جانبه انحيازًا هكذا، لمصلحة، لاتفاق سري لا أعلمه، آمنتم له.

لو فرضنا إنساناً دجالاً، شخصًا ما آمن له حتى يوهم الناس أنه على حق، أحيانا بعض الذين يلعبون ليبتزوا أموال الناس يكون حولهم أناس من طرفهم، يعطونهم المال الوفير على أثر ألعاب، فالمتفرج يصدق ذلك، فهذا يؤمن له، ولم يؤمن به، أن تؤمن لإنسان أن تنحاز له لمصلحة ما، ففرعون ما صدق أن هؤلاء السحرة آمنوا به، بل آمنوا له، آمنتم به أي صدقتموه، أما آمنتم له أي جاملتموه.

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ)

ما استأذنتموني في الإيمان.

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

يعني أنتم سحرة، وهو ساحر، لكنه ساحر كبير.

(فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

بدأ التهديد.

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ)

يعني أقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى.

(وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

هذا الموقف المدهش، أن هؤلاء السحرة الذين كانوا قبل قليل أجراء عند فرعون جاؤوا ليأخذوا ماله، وجاؤوا ليأخذوا على عملهم أجراً وفيراً، آمنوا إيماناً عظيماً وكان إيمانهم حملهم على أمر خطير.

(قَالُوا لَا ضَيْرَ)

صبر السحرة على أذى فرعون وحسن ظنهم بالله:

يعني افعل ما بدا لك، افعل ما تشاء، اقطع أيدينا وأرجلنا من خلاف، صلبنا في جذوع النخل، آمنا برب العالمين، لذلك من عرف الله زهد فيما سواه.

(قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

نحن آمنا، وسننقلب إلى الله، أي نرجع إليه، نتوجه نحوه، نتوب إليه، نقبل عليه، نسعد بقربه، افعل أنت ما شئت أن تفعل، والحقيقة لا شيء إلا الله، يعني لا إله إلا الله هذه الحقيقة، لا رافع، ولا خافض، ولا معز، ولا مذل، ولا معطي، ولا مانع إلا الله.

(إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا)

يعني لنا خطايا كثيرة، فلعلنا بهذه التوبة نطمع أن يخفر لنا ربنا خطايانا.

(إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)

فكانوا هم السابقين في إيمانهم بالله عز وجل.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ)

تخطيط فرعون لقتل موسى وأتباعه:

يبدو أن الله سبحانه وتعالى علم أن فرعون بلغ من الغيظ الدرجة القصوى، ولا بدّ أن يبيدهم عن آخرهم، فأوحى الله إلى سيدنا موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون.

(فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

هنا يوجد تناقض في كلام فرعون، أرسل ليحشر كل جنوده.

(فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54))

إذا كان هؤلاء شرذمة قليلين هل تحتاج أنت إلى أن تحشر كل الجنود، فثمة شيء معلن، هو يريد أن يقلل من شأنهم، لكن في الحقيقة يخافهم.

(فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ)

هنا جاءت اللحظة الحاسمة، فمِن أربعين أو خمسين سنة فرعون يقول أنا: ربكم الأعلى، الآن جاء الحساب.

(فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58))

مرحلة الانتقام من فرعون وقومه ونصر موسى ومن معه:

عندما خرج سيدنا موسى مع قومه من مصر باتجاه الشرق، باتجاه البحر الأحمر جمع فرعون جنده وقواته، واتبعهم ليقتلهم، وقال:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56))

على كلِّ الله سبحانه وتعالى استدرج فرعون بهذه الطريقة، فلما أوحى ربنا إلى سيدنا موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون استدرج فرعون وجنوده.

(فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ(59))

قال العلماء: إما أن بني إسرائيل عادوا إلى ما كان عليه فرعون من جنات، وعيون، وكنوز، ومقام كريم، أو أنهم عادوا إلى مثل هذه النعم بعد أن نصرهم الله عز وجل، كلا الرأيين صحيح.

(كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60))

اتباع فرعون مع جنوده آثار موسى وأتباعه إلى شاطئ البحر:

تبع فرعون موسى، فالمشكلة الآن أن سيدنا موسى وقومه متجهون باتجاه الشرق، الشرق فيه البحر الأحمر، وفرعون وما فرعون، وقوته، ومن حشرهم ليكونوا معه وراء سيدنا موسى وقومه، قوم سيدنا موسى إيمانهم متفاوت، إنسان يرى أنه في الطريق إلى البحر ليس معه سفينة، ولا قارب، ولا عدة، ووراءه فرعون بكل قوته فالموت محقق، العدو من ورائكم والبحر من أمامكم.

(فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ)

لما رأى فرعون وقومه، ومن حشرهم سيدنا موسى وقومه، وكانوا على وشك أن يلحقوا بهم والبحر من أمامهم فلا بدّ أن يقبض عليهم، ولا بدّ أن يبيدهم عن آخرهم.

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

صبر موسى وحسن ظنه بالله:

بالمنطق هذا البحر، وهذا فرعون، ونحن ضعاف، وهو أقوى منا، سيدنا موسى قال:

(قَالَ كَلَّا)

مستحيل، فإنّ الله وعدني بالنجاة، أحياناً يعد الله عز وجل المؤمن بشيء، وقد تأتي الأحداث على خلاف هذا الوعد، فيقع المؤمن بسوء الظن، وهذا ذنب كبير، لما وعد ربنا عز وجل المؤمن بحياة طيبة، لو أنه بدا لك أن هناك حياة غير طيبة فهذا امتحان لك، سيدنا النبي اللهم صل عليه في معركة الخندق جاءته قريش بجيشها وأبطالها ومعظم القبائل العربية، عشرة آلاف مقاتل جاؤوا ليبيدوا المسلمين عن آخرهم، واليهود نقضوا عهدهم مع النبي، وبدا الأمر أن الإسلام كله مع نبيه العظيم ومع أصحابه الكرام لا يعيشون إلا سويعات، قضية زمن، حتى قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم، ولم يقل رسول الله أن تفتح علينا بلاد كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، أين الوعد ؟ قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب)

وهذا الامتحان لا بدّ منه لكل مؤمن، فقد يبدو للمؤمن أحياناً أن الله تخلى عنه، ليسمع ماذا يقول، هل هو حسن الظن بالله، هل إيمانه بالله أقوى من هذا الحدث، أم أن هذا الحدث سحقه، فربنا عز وجل لا يصطفي المؤمن قبل أن يمتحنه، الإمام الشافعي سئل: رفع الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى، لا بدّ أن يبتلى المؤمن ليمتحن الله صدق إيمانه، ليمتحن الله عز وجل محبته الحقيقة لربه، ليمتحن صبره، ليمتحن توكله، فالصحابة الكرام امتحنوا:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (12))

وهذا الامتحان أعيد كذلك.

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا)

لم يقل: لا، لأن **(كلا)**أداة ردع، أي لا تقل ذلك.

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟

(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)

معجزة انفلاق البحر ونجاة موسى إغراق فرعون وقومه:

أصبح البحر الأحمر طرقاً عريضة راسخة يابسة.

(وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ)

سيدنا موسى دخل مع قومه، فرعون انتظر، ودهش، إلى أن خرج سيدنا موسى وقومه من الطرف الآخر، فتبعهم فرعون.

(وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66))

العاقبة لمن ؟ للمتقين، إذا كان الله معك فمن عليك، هذه قصة تتكرر، كن مع الله ولا تبال.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً)

آية كبيرة جداً، آية دالة على عظمة الله، آية دالة على أن الله وحده ولا أحد سواه.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68))

قصة موسى من التطبيقات العملية في القرآن:

القرآن فيه قواعد نظرية، وفيه تطبيقات عملية، وهذه القصة من التطبيقات العملية التي تؤكد القواعد النظرية، وهي قصة تعني كل مؤمن، لأن المؤمن في الحياة يحتاج إلى ركن ركين يلوذ به، ويلجأ إليه، وينصره على خصومه، فكن مع الله تلقَ كل راحة، وكل توفيق، وكل نصر، وكل تفوق، وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قصة سيدنا إبراهيم مع أبيه آزر ومع قومه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (04-20): تفسير الآيات 69 - 81
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-08-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الشعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه:

أي أيها النبي اتلُ على قومك نبأ إبراهيم، نبأ إبراهيم، أي قصة، أو خبر سيدنا إبراهيم، يبدو أن القصة الأولى في تفصيلاتها، وفي دروسها، ومواعظها كانت موجهة إلى بني إسرائيل، لكن كفار قريش يزعمون أنهم على دين إبراهيم، وأن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة، فالله سبحانه وتعالى أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتلو على هؤلاء المشركين قصة سيدنا إبراهيم، وكيف كان موحداً، وكيف كان يعبد الله وحده، وكيف كسر الأصنام.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

يقاس على ذلك أن المؤمن أحياناً يرى، أو يستمع، أو يشاهد قصة بليغة تجسد آية قرآنية، قصة ذات موعظة بليغة، قصة ذات مدلول كبير، قصة تنير لنا الطريق، لو أن المؤمن قرأ قصة، أو شاهد أحداث قصة، وتأثر بها تأثراً كبيراً فقياساً على ذلك ينقل هذه القصة إلى من يثق بدينه، لمن يتوسم فيه الصلاح، لمن يتعظ لمن يفكر، لمن يتأمل، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

ودائماً الحقائق التي تستقى من القصة أبعد تأثيراً من الحقائق المجردة، الاستنباطات التي تستنبطها من رواية قصة أبلغ من الحقائق التي تعرض مباشرة من دون حدث، ومن دون شخصية، ومن دون حركة مؤثرة في النفس.

ما قصة سيدنا إبراهيم ؟ واتل عليهم يا محمد، أي اقصص عليهم خبر إبراهيم، أبي الأنبياء، من أولي العزم، هو الذي بنى هذا البيت.

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ)

(سورة البقرة 127)

هل يرضيه أن يرى أصناماً حول هذا البيت ؟ هل يرضيه أن تعبد من دون الله حجارةً لا تنفع، ولا تضر ؟

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

طبعاً إنّ القصة في الأصل موجهة إلى قوم النبي عليه الصلاة والسلام، أو إلى مشركي قريش، ولكن القرآن الكريم موجه أيضاً إلى كل مؤمن إلى يوم القيامة.

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

إنكار إبراهيم عليه السلام على قومه عبادة الأصنام:

انظر.. قف متأملاً، هذا الذي يعيش مع أهله دون أن يفكر، ودون أن يتأمل تستهلكه الحياة، يستيقظ، يعمل، ينام، يأكل، يسهر، يسمر، ثم ينام، ويأكل، ويشرب، أين الفكر الذي أودعه الله فيه ؟ لِمَ لمْ تقف موقف المتأمل ؟ لِمَ لمْ تسأل نفسك أهي على حق أم على باطل ؟ هم مصيبون أم مخطئون ؟ هذا الذي يقول: إني وجدت هكذا، أهلي هكذا، بيئتي هكذا، مجتمعي هكذا، ظروفي هكذا، هذا ليس مهتدياً، بل يجب أن تقف موقف المتأمل، يجب أن تقف موقف الفاحص، لو كان في البيت اختلاط أو في البيت معاصٍ، لو كان هناك مخالفات تقول: ماذا أفعل هكذا أهلي، سيدنا إبراهيم سأل قومه:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

ما الذي تعبدونه ؟ رأى أصناماً تُعبد من دون الله، لا تنطق، ولا تسمع، ولا تستجيب، ولا تنفع، ولا تضر، فلم يعجبه ذلك، لم ير ذلك متوافقاً مع المنطق، ولا مع العقل، ولا مع الواقع، ولا مع عظمة الكون، هذا الذي خلق السماوات والأرض أيُعبد حجر من دونه !

الإنسان يجب من حين لآخر أن يقف وقفات تأملية، هل عملي صحيح ؟ هل كسبي لمالي صحيح ؟ هل إنفاقي لهذا المال صحيح ؟ هل علاقاتي الاجتماعية وفق ما يرضي الله ؟ لا تكن ممن تستهلكه الدنيا، تستهلكه الدنيا فجأة يصحو على قرع ملك الموت، هذه ساعة عصيبة.

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور)

حينما يلاقي الإنسان هذه الساعة ينتقل من كل شيء إلى لا شيء، فالإنسان العاقل قبل أن تأتي هذه الساعة يُعِدُّ لها العدة.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70))

يبدو أن الإنسان في فطرته لا ترتاح نفسه إلا إذا عبد الله وحده، فإذا ضلّ يعبد سواه، يعبد شمساً أو قمراً، مما قرأت في هذه الأيام أن أحداثاً دانية في جنوب شرق آسيا، أو غيرها أنّ قومًا يعبدون القمر،

فلما وطئت قدم الإنسان أرض القمر انقسموا أقساماً ثلاثة: قسم نفى هذا الحدث، وقسم وجد له تبريراً، أن القمر سمح أن يطأ الإنسان عليه، وقسم آخر كفر بهذا الإله، إن الإنسان في فطرته مفطور على أن يعبد خالق الكون، فإما أن يعبد الله عز وجل، وفي هذا انسجام مع فطرته، وإما أن يعبد من دونه أشياء لا تنفع ولا تضر، أليس هناك قوم عبدوا البقر ؟ قد تقف البقرة في عرض الطريق فتقطع الطريق، أهذا دين ! أليس هناك قوم عبدوا الشمس ؟ أليس هناك قوم عبدوا صنماً اسمه بوذا ؟ أليس هناك قوم عبدوا الميكادو، كما يزعم أهل اليابان، إذاً:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

هذا استفهام الإنكار، ما هذه الأصنام التي تعبدونها ؟ ما الذي تعبدونه من دون الله ؟

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً)

جواب قوم إبراهيم: نَعْبُدُ أَصْنَامًا

هذه المصيبة، لم يقولوا نعبد آلهة، قالوا نعبد أصناماً يعني نعرفها أصناماً، نعرفها أحجاراً، نعرفها أشياء لا تنفع ولا تضر.

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ)

نعبدها بشكل مستمر، معنى نظل أي نعبدها على الدوام، وكأنهم عطلوا تفكيرهم، وكأنهم مسخوا عقولهم، وكأنهم أناس لا يعرفون شيئاً ولا يهتدون.

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ)

هنا جاء السؤال الدقيق:

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

من صفات الإله المعبود الحقيقي السمع:

يعني من صفات الإله الذي ينبغي أن تعبده أن يسمعك، لأنك ضعيف في الأصل، إن الإنسان خُلق هلوعاً، بُنْيَتُك الخَلْقية أساسها الضعف، وحينما خلقك الله ضعيفاً فهذا لمصلحة إيمانك، لأنك إذا كنت قوياً استغنيت بقوتك، واستغناؤك بقوتك يعني أن تشقى بالبعد عن الله عز وجل، تشقى باستغنائك، تستغني بقوتك فتشقى باستغنائك، لكن الله سبحانه وتعالى خلقك ضعيفاً كي تفتقر بضعفك إلى الله فتسعد بافتقارك، لو أن الله عز وجل خلقك قوياً لاستغنيت بقوتك عن الله فشقيت باستغنائك.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72))

تعبد الله أم ماذا ؟ لأنك عبد ضعيف، أنت معرّض للهم والحزن، معرض لمرض عضال، معرض لأزمة مالية، معرض لشبح مصيبة جاثم على صدرك، معرّض لما لا يُعد ويحصى من المشكلات، فالمؤمن له ركن ركين يلجأ إليه، المؤمن يشعر أن قوة كبيرة ترعاه، أنه بعين الله، أن الله يحفظه، فلذلك:

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72))

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الدعاء مخ العبادة))

(الترمذي عن أنس)

يعني أنك عبد فقير، وأن الله غني قدير، وهو يسمعك دائماً في كل مكان، الإنسان أحياناً يكون له شخص ذو أهمية في المجتمع، لكن لا يستطيع في بعض المواقف الحرجة أن يصل إليه، اتّصَل به في الهاتف فقيل له: مسافر، هذا الذي عقدت عليه الآمال مسافر، هذا الذي تقول: أنا فلان حينما أطلب منه شيئاً يلبيني فوراً.. هو مسافر، هذا الذي عبدته من دون الله مسافر، أو قد يكون مريضاً، أو يكون خارج المنزل، أو قد يكون نُحِّيَ من عمله الذي أنت عقدت عليه الآمال.

فربنا عز وجل من لوازم الإله الذي يجب أن تعبده أن يسمعك في أي وقت، في خلوتك وفي جلوتك، في حِلّك في ترحالك، وأنت مسافر، وأنت مقيم، وأنت صحيح، وأنت مريض، وأنت قوي، وأنت ضعيف.

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

لذلك يقول الله عز وجل:

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

فائدة مسلكية: سؤال الله ودعاءه:

هل دعوت الله عز وجل ؟ هل سألته الجنة، وما قرب إليها من قول أو عمل ؟ هل استعذت به من النار، وما قرب إليها من قول أو عمل؟ هل سألته أن يكفيك بحلاله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته، وبفضله عن من سواه ؟ هل سألته العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة ؟ هل سألته

أن تحبه، وأن تحب من يحبه ؟ هل سألته عملاً صالحاً يقربك إليه ؟ هل سألته تفكيراً سديداً، ولساناً صادقاً، وقلباً ذاكراً، وجسداً على البلاء صابراً ؟ هل سألته عصمة في الدين ؟ هل سألته صلاح الدين والدنيا ؟ ماذا تفعل ؟ النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو دبر كل صلاة، وكان إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله يحب الملحين في الدعاء))

(الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال)

((وإن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع))

(الترمذي عن أنس)

و:

((الدعاء مخ العبادة))

(الترمذي عن أنس)

لكن قال الله عز وجل:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)

(سورة النمل 62)

أنت إذا كنت مضطراً تدعو الله بقلب متأجج، تدعو الله بدعاء حار، تشعر كأن كل خلية تدعو الله عز وجل، اجعل دعاءك دعاء المضطر، اجعل طلبك من الله طلباً ثميناً، اسأله كل شيء، اسأله خير الدنيا والآخرة، اسأله الحفظ، اسأله كل ما تطمح إليه، لذلك الله عز وجل يحب من عبده أن يسأله.

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

هذه الأصنام التي تدعونها لا تسمعكم إذ تدعون.

(أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

الأصنام لا تنفع ولا تضر:

الحقيقة: لا يسمعونكم إذ تدعون، لا ينفعونكم أو يضرون فقط، لكن هنا صفات الله سبحانه وتعالى الذي ينبغي أن تعبده له أسماء حسنى كثيرة، وله صفات فضلى كثيرة، لماذا اكتفى ربنا سبحانه وتعالى بقوله: يسمع عباده إذا دعوه، وأنه يملك نفعهم وضرهم ؟

الحقيقة أن أول صفة من صفات الإله الذي ينبغي أن تعبده أن يكون هناك اتصال بينك وبينه، ما دام الاتصال مقطوعاً فهذا ليس إلهًا، سيدنا إبراهيم لما رأى كوكباً قال: هذا ربي، فلما أفل وانقطع الاتصال قال: لا أحب الآفلين، لا يعقل أن يكون هذا رباً ما دام قد أفل، إذاً ينبغي أن يكون هناك اتصال دائم بينك وبيت الخالق، وينبغي أن يكون الخالق قديراً على كل شيء، على أن ينفعك، أو على أن يعاقبك، إذا

أيقنت أن الله يسمعك، وأن الله يراك، وأن الله قادر على أن ينفذ فيك حكمه نفعاً كان أم ضراً، إذا أيقنت ذلك حق اليقين تستقيم على أمره حق الاستقامة، هذا شيء ثابت، أنت في علاقاتك مع بني البشر إذا كان ثمة من هو أعلى منك، وكان مطلعاً على أعمالك بطريقة أو أخرى، وكان يفعل ما يقول بإمكانه أن يعطيك شيئاً ثميناً، وبإمكانه أن يسلبك شيئاً ثميناً، تجد نفسك بشكل أو بأخر منساقاً إلى طاعته، أما إذا كان الاتصال مقطوعاً أمره شديد، وعقابه كبير، لكن لا يراك فإنك تعصيه، يراك، ولكنه أضعف منك فإنك تعصيه، لكن متى تطيعه قطعاً ؟ إذا رأيته يعلم ورأيتَه يقدر، لذلك:

(اللّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق)

إذا أيقنت بعلمه وبقدرته استقمت على أمره، إذا نظرت فهو ينظر إليك، إذا أكلت مالاً حراماً ربما يُتلف مالك، إذا تطاولت ربما أهانك، إذا أخذت ما ليس لك ربما أخذ ما ليس لك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث المروية عنه:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

(الجامع الصغير عن البراء)

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

من صفات الإله الحق السمع والنفع والضر:

من صفات الإله الضرورية أنه يسمعك إذا دعوته.

(أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

لماذا تعبد الله ؟ لأن روحك بيده، حياتك بيده، أعضائك بيده، نقطة دم في مكان من الدماغ تسبب شللاً تاماً، بمكان آخر تسبب عمى، بمكان آخر فقدان ذاكرة، بمكان رابع فقدان عقل، نقطة دم لا يزيد حجمها عن رأس الدبوس لو تخثَّرت في بعض شرايين المخ لأصيب الإنسان بعاهة خطيرة تقلب حياته جحيماً، والمعدة بيده، والأمعاء بيده، والكبد بيده قد ينمو هذا الكبد نمواً سرطانياً، قد ينمو أي مكان في جسمك نمواً سرطانياً تنتهي الحياة، فحياة الإنسان بيد الله عز وجل، من بيده صمامات القلب ؟ من بيده الشريان التاجي في القلب ؟ من بيده حركاتك وسكناتك ؟ من بيده سمعك وبصرك ؟ من بيده سلامة عقلك ؟ من بيده سلامة أعضائك ؟ الله عز وجل ينفع ويضر، قد يحفظك فتعيش حياة آمنة مطمئنة طويلة مديدة بسعادة ورفاه ورضًى وسرور وتوكل، وقد تعيش حياة كلها متاعب.

فالإله يسمع، ويعلم، وينفع، ويضر، فما لك من طاعته بدّ، وما لك من محبته بدّ، وما لك من الإقبال عليه بدّ، فأته طائعاً قبل أن تأتيه خاضعاً، ائته طائعاً قبل أن تأتيه بالسلاسل، إذا جئته طائعاً من دون سلاسل فهذا موقف نبيل وشريف، هذا موقف حر.

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ)

الاحتجاج بالبيئة وتقاليد الآباء:

هكذا البيئة، انظر إلى صرعات العصر الحديث، بيئة تفاعل الإنسان مع البيئة، مرحباً بالبيئة إذا كانت نقية من كل معصية، أما بيئة كلها معاصٍ تفاعل مع البيئة، الواقع هذا فكره واقعي، الواقع يجب أن يكون وفق الشرع، فإذا كان خلاف الشرع فلا قيمة لهذا الواقع، كلمات البيئة، والواقع، والمعطيات، والظروف المحيطة بالإنسان هذه كلها فيها الحق، وفيها الباطل، فيها الخير، وفيها الشر، يجب أن تقبل منها ما هو خير، وما هو صحيح، ما هو مشروع، ما هو متوافق مع كتاب الله، أما عادات أساسها المعاصي، أساسها الاختلاط، أساسها أكل مال الناس بالباطل، أساسها تجاوز حدود الآخرين، هذه معاصٍ، تقول عادات تقاليد بيئة معطيات ظروف كل هذا كلام فارغ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، يعني هكذا التقاليد أن الشاب يظهر أمام النساء هذه تقاليد بالية، تقاليد فاسقة، تقاليد ليست من الحق في شيء.

فلذلك التقليد ليس إله، والعادات، والأعراف، والواقع، والبيئة، والظروف، أخي نحن ظرفنا هكذا، ليس عندنا حجاب، هكذا تربينا، ما معنى هكذا تربينا ؟ ليس لها معنى، يوجد إله خلقك يقول لك: افعل، ولا تفعل، يجب أن تفعل ما أمرك أن تفعله، وألاّ تفعل ما أمرك أن لا تفعله.

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ)

فكل واحد يقول: أنا بيئتي هكذا، هكذا تربينا، هكذا يفعل أبي، يُدعون جميعاً رجالاً ونساءً يوم العيد على مائدة واحدة هذا خلاف السنة، خلاف القرآن، الاختلاط أصبح كثيراً، هكذا يفعل أبي، هكذا الجيران، هكذا الحي، هكذا أسرتنا، هكذا بيئتنا، هكذا الواقع، هكذا الظروف، هذه الظروف، والبيئة، والمعطيات، وما إلى ذلك من هذه الأصنام التي عبدها الناس من دون الله، هم يعبدون المظاهر، فهو سمعته عند الناس أغلى عليه من سمعته عند الله، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين.

عدم عذر الإنسان بما وجد عليه الآباء:

أردت من هذه الآية أن الإنسان ليس معذوراً إذا قال: التقاليد هكذا، هكذا بيئتي، هكذا نشأتُ، هكذا علمنا أبونا رحمه الله، نعم رحمه الله، وأدخله الجنة، ولكن هل علّمك وفق الشرع ؟ إذا كان كذلك ليس هناك مانع، إما إذا كان خلاف ذلك، لو أن أباك له محل تجاري، والتعامل على أساس ربوي، فأنت ماذا تفعل ؟ هكذا علمني، هل أبوك إله ؟ لا.. أبوك عبد لله، يخطئ، ويصيب، فإذا أصاب فمرحباً بهذا الصواب، أما إذا أخطأ فيجب ألا تبقى على خطئه.

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75))

هذه الأصنام.

(أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77))

عداوة إبراهيم لعبادة الأصنام:

هذه العداوة قد يسميها بعض العلماء عداوة المآل، يعني لو كانت لك قضية بمكان معين، وإنسان أوهمك أن بيده حل هذه المشكلة، وابتز من مالك الشيء الكثير، ثم اكتشفت فجأة أنه ضعيف لا يستطيع أن يحرك ساكناً، بعد هذه المدة الطويلة، وهو يبتزّ مالك، وهو يقول لك: أنا أفعل كذا، وكذا، وبإمكاني أن أفعل كذا وكذا، وفلان مفتاحه عندي، وفلان لا يعصي لي أمر، ونمْ مطمئنًا، وادفع هذا المبلغ، ثم اكتشفت فجأة أن هذا الذي ابتز مالك ليس بإمكانه أن يفعل شيئاً، ألا ينشأ عداوة منك تجاهه ؟ طبعاً.

فهؤلاء الذين عبدوا الأصنام، وظنوها أنها تحفظهم، وأنها تنجيهم، وأنها تنقذهم، حينما اكتشفوا عند الموت أنها لا تنفع ولا تضر، وأنهم أخطؤوا خطأً كبيراً بعبادتها عندئذ ينشأ في نفوسهم عداوة لا حدود لها تجاه هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله.

والآن لو أن إنساناً دلك على عمل لا يرضي الله عز وجل، ووافقته على هذا العمل، وجاءك العلاج الإلهي، ألا تشعر بعداوة بالغة تجاهه ؟ بلى، لو أن إنساناً دلّك على معصية، أو دلك على خرق حدود الله، أو دلك على عمل يسخط الله، أو دلّك على ظلم الآخرين، أو شجعك على أن تخشى الناس، أو حملك على أن تأخذ مالاً ليس لك، لو أن إنساناً دفعك إلى هذا ثم دفعت الثمن باهظاً جاء العلاج الإلهي ألا تشعر أنه عدو لك ؟ عندئذ تعاديه أشد العداء، هكذا.

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77))

معنى قوله: إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ:

بعض المفسرين قال: إلا من يعبد رب العالمين، هذا القول، وهذا التفسير خطأ، لأنه لا يتناسب مع تتمة الآية:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

والأوجه أن تقول: إلا رب العالمين، وإلا من يعبد رب العالمين، أنت تحب الله رب العالمين الذي أسبغ عليك نعمة الوجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان)

والذي أسبغ عليك نعمة العقل، وأسبغ عليك نعمة البيان:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

وسخر لك ما في الكون جميعاً لك، وهبك نعمة العقل، وهبك نعمة البيان، أرسل لك الأنبياء، وأنزل عليهم الكتاب من أجلك، إذاً ينبغي أن تحبه، لأنه أنعم عليك بنعمة الوجود، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد.

(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)

وصف إبراهيم لرب العالمين:

من رب العالمين ؟

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

هذه هو، تقول مثلاً: فلان أحضر طعاماً، هذا كلام لا ينفي عن الآخرين أنهم لم يحضروا طعاماً، وجدت أمامك طعاماً كثيراً، من جاء بهذا الطعام ؟ يقول لك: فلان أحضر طعاماً، هذا الكلام يعني أنه أحضر طعاماً، وربما فلان آخر أحضر طعاماً أيضاً، ولكن إذا قلت: الذي أحضر الطعام هو فلان، هذه صيغة قصر.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

من لوازم الربوبية الخَلق والهداية:

أي أن الهداية لا تكون إلا من الله، لو قرأت مذهباً وضعيًّا، لو قرأت كتاباً لفيلسوف كبير، لو اطّلعت على نظرية معينة من صنع البشر هذا كله ضلال في ضلال، لأن الذي خلقك هو وحده الذي يهديك، إن الله هو الصانع، كمثل آلة معقدة جداً ليس في الأرض كلها جهة واحدة مخولة أن تعطيك تعليمات التشغيل والصيانة إلا الجهة الصانعة، وأنت تفعل كذلك عندك آلة معقدة لك جيران، لك جار موظف وجار صانع، وجار عنده محل تجاري، تبحث عن التعليمات المطبوعة التي جاءت مع هذه الآلة ولا تسأل أحد من هؤلاء لأنهم لا يعرفون، الجهة المخولة بإصدار تعليمات التشغيل، والصيانة هي الجهة الصانعة.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

فإما أن تكون مهتدياً من قِبل الخالق، وإلا فأنت في ضلال مبين قولاً واحداً، قولهم الإنسان أصله قرد هذا ضلال، وقولهم الإنسان كل شيء في حياته الجنس هذا ضلال، المادة كل شيء في حياة الإنسان الماديين هذا ضلال، اللذة كل شيء في حياة الإنسان الشاذ هذا ضلال، هذا كله أرضيّ، الفكر الذي ينكر وجود الخالق ضلال.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

إما أن تهتدي بالهدى الذي أنزله الله على أنبيائه فأنت مهتدٍ، وإلا فأنت ضال، الذي خلقني هو وحده يهديني، هذه العبارة فيها قصر في البلاغة، الذي جاء بهذا الطعام هو فلان، كلمة هو فلان أي وحده.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

لذلك كتاب في علم النفس مثلاً يقول: إن الشاب لما يكون في حياته الاجتماعية مع شابة تتهذب مشاعره وترق، يتهذب كلامه، هذا ضلال، لأنه خلاف القرآن، لا يوجد كتاب خلاف القرآن فيه حق إلا أن يكون مستقى من القرآن، فأصبح حقاً، كتاب أخذ أفكاره من كتاب الله، كتاب جاء بالدليل من القرآن فهو حق، أيّ كتاب جاء بأفكار مدعومة من القرآن والسنة فهو صحيح، وهو حق، أما كتاب آخر جاء بأفكار بحث علمي أن قليل من الخمر تنعش القلب، كلام فارغ، لأنه خلاف القرآن الكريم، هذا الكتاب الذي من عند الله، قولهم: هذا النبيذ يبعث في الجسم الحرارة، فهو ضروري في الشتاء، هذا كلام فارغ، لأنه خلاف القرآن، مما أسكر كثيرُه فملء اليد منه حرام، وانتهى الأمر، أنت عندك مقياس، وعندك منهج، وعندك دستور، عندك قاعدة هذا الخالق العظيم هذا الكون خلقه، وهذا القرآن كلامه، وكلامه مطابق لخلقه، هذه التعليمات لهذه الآلة، الصانع واحد الذي صنع هذه الآلة أصدر هذه التعليمات، إذاً هذه التعليمات تضمن سلامة الآلة وأداء مردودها أعلى أداء.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

يعني هدى من كتاب يبتعد عن الدين، يبتعد عن القرآن، يبتعد عن أمر الله عز وجل ضلال في ضلال، لكن يكون الباطل أحيانا في زخرف، له بريق مصطنع، الإنسان قد يؤخذ بظاهره، ولكن إذا طبقته على المدى البعيد تكتشف الخلل الخطير في داخله.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79))

من لوازم الربوبية: الرزق

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))

(سورة الذاريات)

لكن هناك سؤال دقيق: لماذا قدم الله الهدى على الإطعام والسقي ؟ لأن الهدى أخطر في حياتك من الطعام والشراب.

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

كيف قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان ؟ لأن المنهج مقدم على الحياة، والهدى مقدم على الإطعام والسقي.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79))

هو يطعمني، أنت إذا اشتريت فاكهة فإياك أن تتوهم أن هذا المال ثمن الفاكهة، هذا المال ثمن خدمة الفاكهة، ثمن خدمتها فقط، لو أن الله عز وجل لم يخلق هذه الفاكهة ولا هذا القمح ولا هذه الخضار.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة الملك)

الله عز وجل، إذا امتنعت السماء عن أن تنزل المطر بأمر الله عز وجل فكل هذه الأشجار المثمرة تصبح حطباً، وهذا رأيناه بأم أعيننا في إفريقيا، مساحات شاسعة يبست، الغابات، يبست الأشجار، ماتت الأبقار والأغنام، وهجر الناس الأرض، وهاموا على وجوههم، وصاروا يقفون وراء بعضهم بعضاً ينتظرون قطرات الماء تأتيهم من جهات بعيدة.

(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

العام الماضي الله عز وجل تفضل علينا بأمطار غزيرة، فكان كيس القمح إذا بذر يعطي سبعين كيساً، السنة اثنين أو ثلاثة أو أربعة، هو الرزاق، المحصول يكثر، ويكثر فتحار كيف تستخدمه، وكيف تخزنه، وماذا تفعل به، ويقل، ويقل حتى لا تدري ماذا تفعل به.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79))

إذا جلس الإنسان إلى مائدة، وأكل يقول: هذه مائدة الله عز وجل، لو أنه أعطاك هذا التفكير في خبرة تعمل بمصلحة أو بمهنة، لو أن هذا الفكر تعطل أخذ إلى المصحة أين الرزق ؟ تعطل الرزق، إذا معك مال فهذا من فضل الله عز وجل، يعني مكنك من عمل يدر عليك مالاً، خلل في الصحة يتعطل العمل، فلذلك الله عز وجل هو الرزاق الذي مكنك من كسب الرزق، هو الرزاق الذي خلق الرزق، وهو الرزاق الذي ساقه إليك مكنك من طلبه وخلقه وساقه إليك، هو الرزاق. فإياك أن تقول:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص 78)

الرزق رزق الله

لا، هذا رزق الله عز وجل، فإذا أكلت، أو شربت فاشكر المولى عز وجل على أنه خلق هذا الطعام، وعلى أنه جعلك سليماً معافى بإمكانك أن تأكل هذا الطعام، وعلى أنه يسر لك عملاً يدر عليك مالاً تشتري به هذا الطعام، كم مرة: خلق هذا الطعام، أعطاك صحة سليمة بإمكانها أن تأكل هذا الطعام، يسر لك عملاً يدر عليك مالاً تشتري به هذا الطعام، لذلك قل الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي أطعمنا، وسقانا، وإليه النشور.

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا خرج من الخلاء قال:

((الحمد الله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، وأذهب عني أذاه))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

يعني الطعام، أذاقني لذته، السيروم ليس فيه لذة، حقن في الوريد اثني عشر ساعة، وتنتهي، لكن بوجود صحتك فإنك تأكل تفاحة، أو بطيخًا، أو خضر، أو فواكه، أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، وأذهب عني أذاه، مسالك البول جارية، لو أنها انسدت لاحتاج إلى عمليات، وبحصة، وكلية تعطلت شيء صعب، أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، وأذهب عني أذاه.

(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

كلمة هو يعني إياك أنّ تتوهم أن مالك وحده يكفي لأن تأكل وتشرب، أو أن قوتك وحدها تكفي قوتك العضلية، أو أن خبرتك في هذا الموضوع، أو أنك متقن لهذه الحرفة، أو أن لك باعاً طويلاً في هذا المجال، فتقول: أنا تاجر عريق، صناعي كبير، طبيب لامع، محامٍ لامع، إياك أن تظن أن خبراتك ومعلوماتك وذكاءك ومالك هذا كله جعلك تأكل هذا الطعام، هذا الطعام من فضل الله سبحانه وتعالى، هو خلقه، ومكنك من أكله، وألهمك عملاً كسبت منه مالاً فدفعت ثمن هذا الطعام، أما قارون فقال:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ)

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

من لوازم الربوبية: الشافي هو الله:

أحياناً يمرض الإنسان، فيزور الطبيب، يصف له الدواء يشفى، ينسى أن الله عز وجل هو الذي شفاه، يتوجه بكل طاقته إلى بالشكر طبيب، الطبيب يشكر إذا خدمك لكن لا تنسَ فضل الله عز وجل.

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

إن الطبيب لـه علـم يدل بـه إذا كان للناس في الآجال تأخير

أما إذا ما انتهت أيام رحـلته حـار الطبـيب وخانته العقاقير

* * *

غلطة صغيرة من الطبيب تودي بحياة المريض، يعطيه دواءً، وما سأله سؤالا صار معه صدمة فتوقف قلبه فمات، واسأل أي طبيب تريد، هناك ما يسمى عند الأطباء الشفاء الذاتي، يعني الله عز وجل أحياناً مع أن الأطباء حكموا على هذا المرض بأنه عضال، وأنه لا شفاء له، وأن هذا المريض لن يعيش إلا أسبوعين، فإذا هو يعيش عشرين عاماً بعد قولهم، وإذا هذا الذي قال: لن يعيش إلا أسبوعين مات بعد خمس سنين، وبقي المريض يعيش بعد ذلك خمس عشرة سنة.

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

لذلك اليأس كفر.

(إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

مهما كان المرض عضالا.

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

مهما كانت المصيبة مؤلمة فإنّ الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، إذا أعطى أدهش.

هذه الآية تبث الأمل في النفس، مهما كانت القضية ليس لها حلّ، وأحياناً ربنا عز وجل من لوازم العلاج النفسي يلهم الطبيب أنه ليس هناك دواء هذه قضية معصية لا تتعب نفسك، وطن نفسك عليها طوال حياتك، إذا بهذا الطبيب رأى شيئاً أدهشه.

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

تقول لي: الطبيب قال: هذه علة دائمة، وهذه ليس لها دواء، هذا علمه، ذلك مبلغه من العلم، ولو علم العلم الكامل والشامل لقال لك: معلوماتي التي درستها تقول: كذا، وعند الله ما ليس عندي، الطبيب هكذا يقول، أنا الذي أعرفه هذا المرض لا شفاء منه، ولكن الله عز وجل قادر أن يشفيك منه، فتوجه إلى الله بالدعاء، هذا الطبيب المؤمن هكذا يقول، أما إذا جزم هذا الطبيب فهو لا يعرف ما عند الله.

(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

لأن الناس قد يتوهمون الهدى من غير الله جاءت هو تؤكد، وقد يتوهمون الرزق من غير الله فجاءت هو تؤكد، وقد يتوهمون الشفاء من الأطباء فجاءت هو لتؤكد، ولكن الناس قاطبة مؤمنهم، وكافرهم يعتقدون أن الذي يحي، ويميت هو الله، لذلك:

(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

الإحياء والإماتة من صفات الله:

ما الموت ؟ الموت هو أن يريد الله أن يموت هذا العبد، لكن مهما تكن العلل كبيرة، والموت لم يَحن بعدُ فهو في فسحة الحياة، لذلك لا خوض غمار الحرب يقرّب الأجل، ولا أي شيء آخر يقرب الأجل، ينهي الأجلَ اللهُ سبحانه وتعالى، هذا المعنى يبث في النفس الشجاعة، الإنسان له أجل محدود لا يتقدم ولا يتأخر.

(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82))

من معاني الموت:

الخطيئة هنا لها معنىً دقيق، في بعض التفسيرات الإشارية لهاتيتن الآيتين الأخيرتين أن بعض المفسرين يقول: إذا مرضت بمخالفته شفاني الله برحمته، وإذا مرضت بمقاساة الخلق شفاني الله بمشاهدة الحق، وإذا مات العبد بالمعاصي أحياه الله بالطاعات، وإذا مات بالخوف أحياه الله بالرجاء، وإذا مات بالطمع أحياه الله بالقناعة، وإذا مات بالعدل أحياه الله بالفضل، وإذا مات بالجهل أحياه الله بالعلم، وإذا مات بالفراق أحياه الله بالتلاقي.

المعنى الأول:

الحقيقي الموت هو الموت، وهو انفصال الجسد عن الروح، يعني نهاية الحياة الدنيا، هذا هو المعنى الحقيقي الأول.

المعنى الثاني:

من معاني الموت: الذي يعصي ربه كأنه ميت، والخائف كأنه ميت، الخائف بسبب الشرك كأنه ميت، والطامع في الدنيا ميت القلب، والبعد عن الله موت، والجهل موت، والعلم حياة، واللقاء مع الله حياة، وفضل الله حياة، والقناعة والرجاء والطاعة حياة.

في الدرس القادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

إن شاء الله نفصل فيها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (05-20): تفسير الآيات 82 - 89
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-08-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الشعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81))

إلى هنا وصلنا في تفسير الآيات.

(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

معنى الخطيئة المنسوبة إلى الأنبياء وعلاقتها بالعصمة:

كلمة (خطيئة) حينما تنسب إلى سيدنا إبراهيم، أو حينما ينسبها إبراهيم إلى نفسه عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، هذا يقودنا إلى موضوع دقيق هو عصمة الأنبياء، الله سبحانه وتعالى اصطفى من خلقه رسلاً ليبلغوا دعوته للناس، وهؤلاء الرسل أمرنا ربنا باتباعهم في كل حركاتهم وسكناتهم، فهل يعقل أن يقع خطأ من رسول ؟ هل يعقل أن يرتكب النبي أو الرسول معصية أو ذنباً، أو أن يقع في كبيرة، أهذا معقول ! ما الذي يحدث ؟

كيف يأمرنا ربنا سبحانه وتعالى أن نطيع أنبيائه ورسله وهم غير معصومين ؟ كأن الله يأمرنا أن نتبع المعصية أو الخطأ وهذا مستحيل، أو أن نلغي أمر الله لنا باتباعهم، أيضاً هذا مستحيل، لذلك علماء العقيدة، وما عليه جمهور العلماء أن الأنبياء من صفاتهم الأساسية العصمة، أي أنهم معصومون من أن يقعوا في كل أنواع المعصية، والخطأ، والمخالفة، والإثم في معتقداتهم، وفي أقوالهم، وفي أفعالهم، وأخلاقهم.

قضية عصمة الأنبياء شيء مقطوع بها، لو لم يكن الأنبياء معصومين لاختل ميزان الشريعة، لأن الله سبحانه وتعالى يأمرنا فيقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر 7)

لمّا أمرنا الله عز وجل أن نأخذ كل ما أمرنا به النبي فإذا كان يصح أن يقع النبي في خطأ، أو في معصية، أو في إثم، أو في مخالفة، سواء في معتقده، أو في أقواله، أو في أفعاله، أو في أخلاقه لو أن هذا ممكن لاختل ميزان الشريعة، نقول: يا رب كيف تأمرنا أن نتبعه، وها هو يخطئ ؟ أنلغي أمرك، أم نتبع خطأه ؟ كل هذا لم يكن، الأنبياء معصومون، ومعنى معصوم هذه اسم مفعول من عصم، ومعنى عصم أي منع، قال:

(سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ)

(سورة هود 43)

(وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)

(سورة يوسف32)

أي امتنع، فالله سبحانه وتعالى حدثنا عن أنبيائه الكرام جملة لا تفصيلاً، فقال:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ)

(سورة الأنعام90)

أي أنت أيها المؤمن مطالب أن تقتدي بهدي الأنبياء جميعاً، ونحن المسلمين مطالبين بأن نقتدي بهدي نبينا عليه الصلاة والسلام، آية أخرى يقول الله عز وجل:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب21)

إذاً هو أسوة حسنة، هو قدوة صالحة، وهو مثل أعلى، إذاً يستحيل الخطأ على الأنبياء لأنهم قدوة، بل لأن الله جعلهم قدوة فإذا جعلهم الله قدوة، ووقع منهم الخطأ ماذا نفعل ؟ أنقتدي بخطئهم هذا مستحيل ؟ أنلغي أمر الله بالاقتداء بهم هذا مستحيل ؟ يقودنا إلى أن نعتقد اعتقاداً جازماً بعصمة الأنبياء جميعاً والمرسلين.

معنى النبي، ومعنى الرسول ذلك الإنسان الذي لا ينقطع عن الله لحظة، فإذا كنت تحمل ضوءًا كشافاً ترى به كل شيء هل يعقل أن تقع في خطأ ! هل يعقل أن تهبط في حفرة ! مستحيل، الاعتقاد بعصمة الأنبياء جزء من العقيدة الإسلامية الصحيحة.

ولكن اليهود يعتقدون خلاف ذلك، يعتقدون أن سيدنا لوط شرب الخمر، وزنى بابنتيه، ويعتقدون أن نبياً آخر زنى بزوجة ابنه، ويعتقدون أن سيدنا إبراهيم ارتدّ بعد الإيمان، وعبد الأصنام، يعتقدون اعتقادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولو أن عندكم وقتاً كافياً، واطلعتم على ما في كتبهم المقدسة التي كتبوا فيها من عند أنفسهم لرأيتم العجب العجاب، نحن نعتقد أن الأنبياء جميعهم معصومون، وكذلك الرسل، وعصمتهم من لوازمهم، صفة أساسية من صفاتهم، ألا وهي العصمة.

شيء آخر، أحد الأئمة وهو الإمام القرطبي صاحب التفسير الجامع لأحكام القرآن يقول: العصمة إذا نسبت إلى النبي تعني امتناعه من أن يقع في كل المعاصي صغيرها وكبيرها، ولا تنسوا أن هذه المعاصي سماها النبي عليه الصلاة والسلام القاذورات، يعني كيف أن الإنسان أحياناً يشمئز من رائحة الجيفة، الجيفة حيوان مات في البرية، ومضى على موته بضعة أيام بعد أن ينتفع، وتفوح منه رائحة لا يستطيع الإنسان أن يواجهها هذه الرائحة التي لا تحتمل لو أن للمعاصي روائح، لو أن للخيانة رائحة، لو أن للكذب رائحة، لو أن للغدر رائحة لوجدنا أن رائحة هذه المعاصي تزيد عن رائحة الجيف، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللّهِ فَإِنّهُ مَنْ يُبْدِي لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللّهِ))

(موطأ مالك)

القاذورات المعاصي، الزنى قاذورة، عمل قذر فيه خيانة لهذه المرأة التي هي أختك في الإنسانية، إن أردتها فتزوجها، أما أن تقضي وطرك منها، وتتركها بعد أن سقطت فهذا عمل قذر، الزنى عمل قذر، والسرقة، والخيانة، والكذب، والبهتان، والغيبة، والنميمة، والإفك، والاستعلاء، والأثرة، كل هذه الصفات سماها النبي عليه الصلاة والسلام القاذورات.

لكن شيء آخر، يرجح العلماء أن تكون عصمة الأنبياء بعد النبوة بإجماعهم، وقبلها لماذا ؟ لأن الله عز وجل يقول لسيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(سورة طه)

معنى ذلك أن الإنسان إذا جاءته رسالة من عند الله، ويعلم من هذا المرسل أن له ماضياً سيئاً، أنه له جاهلية، فإن هذا الماضي يستمر أثره إلى ما بعد الرسالة، لذلك لا يمكن أن تكون عصمة الأنبياء بعد الرسالة فقط، إنها عصمة قبل النبوة وبعد النبوة ضماناً لمكانة النبي في أمته وفي هؤلاء الذين يدعوهم إلى الله، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان صغيراً كان إذا دعي إلى اللهو يقول عليه الصلاة والسلام: لم أخلق لهذا.

شيء آخر، وهو عن الأنبياء، الأنبياء معصومون، لكن الأولياء محفوظون، الله سبحانه وتعالى يحفظهم، كيف يحفظهم ؟ لو أن ولياً من أولياء الله عز وجل وقع في خطأ طفيف عالجه ربنا عز وجل، وألهمه الصواب، يشدد عليه في العتاب، مباشرة يترك هذا الخطأ، فهذا اسمه في علم العقيدة حفظ، الأنبياء معصومون عن الخطأ، والأولياء محفوظون، فهذا الذي عرف الله عز وجل لا يمكن أن يقع في كبيرة، ولا يمنع من أن يقع في شيء طفيف عن غير قصد، ومع ذلك الله سبحانه وتعالى يلفت نظره،

يضيق عليه، يعاتبه، يمنع عنه التجليات، يرسل له شيئاً يذكره، على كلٍ فالولي محفوظ والنبي معصوم وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحديد)

هذا هو الحفظ، معناه أن المؤمن معه مصباح كشاف يرى به طريق الحق من طريق الشر من طريق الباطل، يرى به الخير من الشر، الحق من الباطل، ما يصح، وما لا يصح، ما يجوز، وما لا يجوز، هذا النور الذي يقذفه الله في قلبه يكشف له متاهات الطريق، هذا هو الحفظ الذي وعد الله به أوليائه، ولكن الأنبياء لأنهم قدوة، ولأن النبي مقامه مقام التشريع، فأفعاله، وأقواله، وسكوته إقرار، حركاته، سكناته، أخلاقه، معاملاته كلها تشريع، لذلك لا يعقل أن يقع منه صلى الله عليه وسلم أي خطأ أو خلل، هذه العقيدة الصحيحة، وقد أخذت من آيات كريمة كثيرة أما إذا مرّ بنا آيات أخرى فيها شيء يشبه أنهم أخطؤوا، أو وقعوا في ذنب فهذا له موضوع أخر.

الموضوع الآخر أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا رأى فضل ربه عليه، وعظيم امتنانه عليه، ورأى أن عمله قد يستقل، إذا استقل النبي عمله أمام فضل ربه يشعر بالذنب، هذا شعور بالذنب من طرف واحد من طرف النبي عليه الصلاة والسلام، يعني في ميزان الشريعة النبي عليه الصلاة والسلام لا ذنب له، سيدنا إبراهيم في ميزان الشريعة لا خطيئة له، ولكن في ميزان الفضل فهو كمثل إنسان أعطاك بيتاً، وزوجك ابنته، وجعلك شريكاً له في العمل، فكنت في مرتبة دنيا في المجتمع، فإذا أنت إنسان ذو دخل كبير، ولك كرامة، ولك مكانة اجتماعية، كل هذا حصّلته من هذا الذي منحك العطاء، مهما قدمت له من تكريم تشعر في أعماقك أنك مقصر في حقه، هذا الشعور من طرف واحد هو الشعور بالذنب الذي قال الله عنه:

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

(سورة الفتح: 2)

شعور العبد أمام الرب شعور التقصير، هل عرف النبي عليه الصلاة والسلام ربه المعرفة الكاملة ؟ الجواب لا، لأن الله لا يعرفه إلا الله، لذلك:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا)

(سورة الإسراء)

هل عرف النبي عليه الصلاة والسلام فضل ربه عليه بالتمام والكمال ؟ لا.

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء)

شعوره أن معرفته ليست المعرفة المطلقة، وأن شكره ليس الشكر المطلق، وأن استجابته ليست هي الاستجابة المطلقة، هذا الشعور من طرف واحد من طرف النبي عليه الصلاة والسلام هو الشعور بالذنب الذي ذكر في الآية الكريمة، هذا معنى من معاني الذنب أو الخطيئة إذا عزيت للنبي عليه الصلاة والسلام أو لسيدنا إبراهيم.

سيدنا إبراهيم أكرمه الله عز وجل أعظم تكريم فجعله أب الأنبياء، جعله أمّة، كرمه تكريماً لا حصر له، شعور هذا النبي الكريم وهذا الرسول العظيم بأنه لم يوف ربه حقه، هذا الشعور يمكن أن يفسر معنى الخطيئة، في ميزان الشرع لم يرتكب النبي ذنباً، ولم يرتكب سيدنا إبراهيم خطيئة، ولكن في ميزان الفضل ربما كان شعور النبي عليه الصلاة والسلام أو شعور سيدنا إبراهيم بأنه شعور صحي، شعور يعبر عن وفائهم لربهم، وعن شكرهم له، وعن عبوديتهم التامة، إذا قست مقام العبودية إلى مقام الألوهية لا بدّ أن ترى أن هناك بوناً شاسعاً بين المقامين، لذلك هذا الذي عبر الله عز جل عنه:

(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

تفسير الخطيئة بقوله: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا

أما ما يدّعيه بعضهم أنّ هذا حينما قال: بل فعله كبيركم، هذا ليس كذباً هذا أسلوب تربوي في لفت نظرهم إلى عقيدتهم الفاسدة، حينما كسر سيدنا إبراهيم الأصنام ثم قال لقومه:

(بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

ليس هذا كذباً، إنما هو أسلوب تربوي صارخ في لفت النظر إلى الله عز وجل.

تفسير الخطيئة بقوله: إِنِّي سَقِيمٌ

وكما تذكر بعض الروايات حينما قال:

(إِنِّي سَقِيمٌ)

ليس معنى هذا أنه مريض في جسمه، ولكن سئم منهم، وشعر أنهم معرضون عن الله عز وجل، فإعراضهم عن الله أورثه ألماً نفسياً، هذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام:

(إِنِّي سَقِيمٌ)

فليس هذا كذباً، بل هو احتجاج، وحينما قال لما رأى القمر بازغاً:

(هَذَا رَبِّي)

هذا ليس اعتقادًا، بل هو احتجاج، يعني هو يدل قومه بطريق منطقي رائع كيف أن هذا النجم لا يعقل أن يكون إله، لأنه يغيب.

(فَلَمّا أَفَلَ قالَ لاَ أُحِبُّ الأَفِلِينَ)

لأن قومه يعبدون الشمس والقمر من دون الله، قال تعالى:

(فَلَمّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قالَ هَذَا رَبّي فَلَمّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبّي لأَكُونَنّ مِنْ الْقَوْمِ الضّالّينَ)

(سورة الأنعام)

حينما قال:

(هَذَا رَبّي)

ليس هذا اعتقادًا، إنما هو احتجاج، إذاً قوله: هذا ربي للشمس والقمر وللنجم، أو قوله:

(بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا)

هذا ليس من باب الكذب ولا الاعتقاد.

(وَإِذْ قالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنّ قَلْبِي)

(سورة البقرة260)

لم يقل إبراهيم عليه السلام لربه: هل أنت قادر على إحياء الموتى ؟ لو قال هذا السؤال لكان معنا الحق، ولكن قال: كيف تحيي الموتى، هو يسأل عن الكيفية، يريد أن يعرف سرّ الخلق، ليس هذا نقص في عقيدته، يعني كل من يقول: كيف تحي الموتى، إني سقيم، بل فعله كبيرهم هذا، هذه الأقوال لا ترقى إلى مستوى الخطيئة، بعض أقواله احتجاج، وبعضها أسلوب تربوي، وكل قول من أقواله يعبر عن حكمة بالغة في مخاطبته للمشركين.

على كل الخطيئة إذا نسبت إلى النبي أو إلى رسول معناها هي في ميزان الفضل لا في ميزان الشرع، أما في ميزان الشرع فلم يرتكب النبي عليه الصلاة والسلام، ولا أي نبي خطيئة ولا ذنباً، ولكن في ميزان الفضل ربما شعر النبي وهو الذي يفيض وفاءً لربه، يفيض حباً له ربما شعر أنه لم يقدم لربه ما ينبغي أن يقدم له، هذا الشعور بالتقصير دائماً هو الذي يستغفر من وهذا يقع بين الناس، شعور الإنسان المحسن إليه أمام المحسن دائماً شعور بالتقصير، يا أخي لم نوف إليك فضلك، نحن مقصرون معك، هذا كلامٌ قد لا يكون له تأثير، ولكن الفضل غمرهم عندئذ لا يستطيع أن يفي بهذا الفضل، هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَالّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ(83))

معنى الحُكْم ومقتضياته:

الحُكم كما قال بعض العلماء: القدرة على الفهم، وهذا شيء رائع أن يهبك الله حكماً أي فهماً وهو قدرة على فهم النص، قدرة على فهم سرّ التشريع، قدرة على فهم الحكمة، قدرة على فهم ما وراء النص، قدرة على فهم المغزى، هذا من فضل الله على الإنسان، سيدنا يوسف من فضل الله عليه أن علمه تأويل الأحاديث، فبعض العلماء يقول أن الحكم هو الفهم.

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً)

أحياناً الإنسان يقرأ آية آلاف المرات، ولا ينتبه إلى ما تنطوي عليه من معانٍ عظيمة، أحياناً يستمع إلى تفسرها يؤخذ بها يقول: كيف لم أفهمها حينما قرأتها ؟ الله عز وجل يؤتي بعض المؤمنين ميزة في قدرتهم على فهم القرآن، كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه: إلا أن يؤتى فهماً في كتاب الله، وكما دعا النبي عليه الصلاة والسلام لابن عمه العباس فقال:

((اللهم علمه التأويل))

(البخاري)

فهذه قدرة يختص بها الإنسان أحياناً لتفضل الله عليه في فهم النص فهماً عميقاً، فلذلك الله عز وجل حينما دعا سيدنا إبراهيم فقال:

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

بعضهم قال: الحكم هنا أي هب لي معرفة بك، وبحدودك، وبأحكامك.

من صفات الأنبياء: التواضع:

(وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

هذا من تواضعه، هو أبو الأنبياء وقال:

(وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

من علامة الإنسان الصالح أنه متواضع، وهذه صفة كريمة في سيدنا إبراهيم، ألحقني بهم يا رب، اجعلني مع الصالحين، أدخلنا في عبادك الصالحين، اجعلنا من المساكين، اجعلنا من عبادك الصالحين، من عبادك المؤمنين، لم يقل: رب هب لي حكماً، وأنا أول الصالحين.. لا، بل قال:

(وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

معنى: لِسَانَ صِدْقٍ:

اللسان هنا أي الثناء الحسن، فمِن نعم الله على الإنسان أن يثني الناس عليه بالخير، أن يثني الناس عليه لا في حضرته، بل في غيبته، لأنهم إذا أثنوا في حضرته فهذا الثناء ربما يشك فيه، إما طمعاً في نواله، أو خوفاً من عقابه، الناس أحياناً يثنون على بعضهم طمعاً فيما عندهم، أو خوفاً من بطشهم، ولكن الثناء الرفيع هو الثناء يكون في غيبتك.

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84))

لسان الصدق هو الثناء الحسن، وبعضهم قال: لسان الصدق في الآخرين اجتماع الأمم عليه، ألم يقل الله عز وجل:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

(سورة النحل)

أنت واحد، لكن لو دعوت إلى الله عزوجل... لو أحسنت إلى الخلق للهجت الألسن بفضلك والثناء عليك، لأن الإنسان عبد الإحسان، يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، هل أنت في قلوب الناس ؟ هل أنت في مشاعرهم ؟ هل العيون منعقدة عليك ؟ هل القلوب تميل إليك ؟ إذا كنت محسناً متواضعاً معطاءً طبعاً هذا يحدث، فلذلك سيدنا إبراهيم عليه وعلى سيدنا أفضل الصلاة والسلام تمنى أن يكون أمة، وكان كذلك، لا تكن واحداً، لا تأت ربك فرداً، إذا كنت خيراً معطاءً محسناً كل هؤلاء الذين أحسنت إليهم يحبونك، ويدعون لك، وتلهج ألسنتهم بالثناء عليك، لذلك هذا معنى قوله تعالى:

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

بعض العلماء قال: لسان الصدق في الآخرين الثناء الحسن، وخلود المكانة، فهناك أشخاص يعملون أعمالاً عظيمة في حياتهم، والناس يثنون عليهم، ولكن تتبدل الأوضاع، فيأتي من يجعلهم مجرمين، وهناك من يخرجهم من قبورهم، الثناء الحسن والمكانة الثابتة الدائمة، هذا مما تعنيه هذه الآية، فإذا تولى اللهُ الإنسانَ بإكرامه فليس في الأرض جهة تستطيع أن تنال منه.

اذهبوا إلى قبر النبي الشريف انظروا ماذا ترك من أثر، هذا الذي كتب كتاباً سماه المئة الأوائل، والذي قرأ تاريخ عظماء الشعوب على مرّ القرون واختار من هؤلاء العظماء مئة، ولمقاييس دقيقة جعل النبي عليه الصلاة والسلام على رأس المئة، لماذا ؟ لأن له تأثيراً يمتد إلى أزمان طويلة، ورأى له تأثيراً يمتد إلى مساحات شاسعة، ورأى له تأثيراً يمتد إلى أعمق الأعماق، فجعل مقياسه في اختيار العظماء قوة التأثير، واتساع رقعة التأثير، وامتداد أمد التأثير، فكان النبي عليه الصلاة والسلام في مقدمة هؤلاء

العظماء.

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

بعض العلماء قال: هذه الآية تشير إلى أن سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام دعا ربه أن يخرج من أمته من يدعو إلى الله عز وجل، فكان النبي عليه الصلاة والسلام دعوة أبيه إبراهيم، وبشارة أخيه عيسى .

سيدنا عيسى بشر قومه بنبي يأتي من بعده اسمه أحمد، وسيدنا إبراهيم من خلال هذه الآية واجعلي ـ أي من ذريتي ـ لسان صدق في الآخرين، إذاً هو النبي عليه الصلاة والسلام دعوة النبي.

وبعضهم قال: لسان الصدق في الآخرين الذكر الحسن، ونحن في كل صلواتنا كمسلمين، ألف مليون مسلم في اليوم خمس مرات يقولون في صلاتهم: اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، هذه دعوة سيدنا إبراهيم.

العلماء استنبطوا من هذه الآية أنه يجوز للرجل أن يسأل ربه أن يهبه عملاً صالحاً يكون سبباً في ذكر الناس له الذكر الحسن، هذه طبيعة النفس، يعني إذا كنت محسناً، وأثنى الناس عليك هذا شيء يثلج صدرك، بين أن يقول الناس عنه إنه لئيم، إنه شحيح، إنه منحرف الأخلاق، إن بيته مضطرب، إن أخلاق زوجته مشكوك بها، وبين أن يقول الناس عنك: إنك رجل صالح، مستقيم، ورع، عندك متواضع، لطيف، عفو، كريم، هذا معنى قول النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لذلك لا بأس كما قال علماء الفقه استنباطاً من هذه الآية لا بأس من الرجل أن يطلب من ربه عملاً صالحاً يكون سبباً في ثناء الناس عليه إذا قصد بهذا العمل وجه الله، إذا قصد السمعة فهذا منزلق خطير، والدليل على هذا المعنى أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: 39)

كيف يلقي الله على عبده المحبة ؟ يجعل الناس يحبونه، فلان محبوب، الناس يحبونه، هذه هي قوله ألقيت عليك محبة مني، فإذا كان الإنسان أكرمه الله بهذه المحبة لا ينبغي أن ينظر أنه بفضل ذكائه واستقامته وحرصه على سمعته أحبه الناس، لا والله هذا ثوب ألبسه الله إياه، ولو شاء خلعه عنه فابتعد الناس عنه، وأبوا أن يسلموا عليه، لذلك إذا أحبك الناس فاسجد لله شاكراً، لأن هذا فضل من الله عز وجل أسبغه عليك.

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

على كل الآية الثانية:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا)

(سورة مريم)

معنى: سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا

هذه الآية لها معنيان:

المعنى الأول:

سيجعل بين ذاته العلية وبين المؤمنين وداً، وهل كرامة أعظم عند الله أن تكون المودة بينك وبين الله.

المعنى الثاني:

وهو أقرب إلى الواقع، إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً مع الخلق، الناس يحبونهم لتواضعهم، وإحسانهم، وإنصافهم، وحبهم للخير، ورأفتهم، ورحمتهم، ولطفهم، وعفوهم عن الناس يحبونهم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))

(مسلم)

هذا الذكر الحسن من فضل الله عز وجل.

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85))

سؤال إبراهيم ربه الجنة:

سيدنا إبراهيم يسأل الله الجنة، موضوع الخطبة اليوم كان عن الجنة، هذا الذي يقول لك: لا ينبغي أن تسأل الجنة، ولا أن تستعيذ من النار، يعني ينبغي أن تكون عبادتك منزهة عن سؤال الجنة، عن الخوف من الله، أو الطمع في الجنة، آيات كثيرة لا حصر لها، وهذا أبو الأنبياء إبراهيم يدعو ربه أن يدخله الجنة، والجنة لا كما يظن بعض الناس من أنها طعام، وشراب، وحور عين، ليس غير، فيها طعام، وفيها شراب، وفيها فاكهة، وفيها أنهار من لبن، ومن عسل، ومن كل شيء ذكره الله في القرآن، وفيها فوق ذلك نظرة إلى وجه الله الكريم.

لذلك الجنة هي النعيم المطلق، فإذا سألت الله الجنة إنك إن فعلت هذا لا تسأله الطعام، والشراب،

والحور العين فقط، تسأله القرب منه، تسأله أن تنظر إلى وجهه الكريم، وأعظم عذاب يعذّب به أهل النار، وهم يحترقون فيها، هو أنهم عن ربهم يومئذ محجوبون، عذاب الحريق وعذاب الحجاب، عذاب فقدان نعيم الطعام والشراب، ونعيم القرب، لذلك:

(وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86))

وآخر لا علاقة له بهدفه هذه حالة صعبة جداً، فإذا ضل الإنسان الطريق، ومشى مئات الكيلو مترات خطأ، وعليه أن يعود منها كلها، إنه يتألم، ويندم أشد الندم، لذلك عندنا ضلال مبين، وعندنا ضلال بعيد، وكل أنواع الضلال يعني نهاية الشقاء أن تكون ضالاً، لذلك قال الله تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

ما سعادة الإنسان في الدنيا ؟

السعادة أحياناً من تعاريفها: أن تأتي حركتك اليومية مطابقة للهدف الذي خلقت من أجله، نضرب على ذلك مثلاً بالطالب إذا طالع الدرس، وفهمه، ما دام هو طالب، وفي عام دراسي، وعنده امتحان، وهو يعلق آمالاً عظيمة على هذا الامتحان، ساعات الدراسة ترتاح فيها نفسه، لأنه في الطريق الصحيح، لأن حركته هذه تطابق هدفه في هذا العام، وهو النجاح، فإذا ضيع يومين أو ثلاثة في نزهة ممتعة مع أن النزهة ممتعة، ومع أنه جلس مع رفاقه، وأكل ما لذّ، وطاب، ومتع نظره بالمناظر الجميلة، لكن حزناً عميقاً في، قلبه لأنه ضيع أياماً ثلاثة، لأن هذه النزهة مع أنها بريئة جاءت مخالفة للهدف الذي رسمه لنفسه، لذلك في ساعات الدرس والمذاكرة، في ساعات الجدّ والنشاط هناك راحة لا يعرفها إلا من ذاقها، هي راحة الإنجاز، وفي ساعة تضييع الأوقات هناك شعور عميق بالخيبة والإحباط والخسران. الآن الإنسان ما سعادته في الدنيا ؟ إذا كان في الطريق الذي يوصل إلى الله، إذا كان في الطريق الذي يرضى الله عنه، إذا كان يعمل عملاً يبتغي به وجه الله، إذا كان يعبد الله في كل شيء، إذا كان يخضع لله عز وجل في كل حركاته وسكناته، إنه في هذه الحالة يشعر بالارتياح الشديد، أما إذا خرج عن الخط الذي رسمه الله له يشعر بالضيق، لذلك عبارات الناس متضايق، عندي كآبة، عندي انقباض، الانقباض، والضيق، والكآبة، والقلق، والضجر، واختلال التوازن هذه كلها أسبابها أن حركته اليومية ليست مطابقة لهدفه.

لو أنه جلس في سهرة أو في نزهة يعصي الله فيها مع رفاق السوء، هذه المتعة الظاهرة لا تغني عن قلقه العميق، لذلك هذا الإنسان لا ترتاح نفسه إلا إذا عرف ربه، واستقام على أمره، من هنا قالوا: إن

دين الإسلام هو دين الفطرة، يعني يتوافق مع الفطرة، كلما كنت على الطريق الصحيح انعكس هذا اطمئناناً وشعوراً سليماً يغلف أحاسيسك.

(وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)

عدم الركون إلى البيئة الفاسدة:

هل من الضروري إذا كان الأب ضالاً أن يكون أولاده كذلك ؟ الله سبحانه وتعالى يقول لهذا الإنسان لمَ لمْ تفكر ؟ هذا إبراهيم عليه السلام قدوة لنا جميعاً، إن الإنسان إذا لم يفكر ضيع مستقبله في الدنيا والآخرة، الله عز وجل أعطانا هذا الفكر، أعطانا هذا العقل، نصب لنا الأدلة في الكون، فيجب أن نعمل عقولنا وأذهاننا في معرفة الله، يجب ألاّ نبالي بمعطيات البيئة، إذا نشأ إنسان في بيئة فاسدة فليس من الضروري أن ينطبع منها، إخوة كرام كثر نشؤوا في بيئة فاسدة، فلا الأب يرعى الدين، ولا الأم كذلك، الأخ ليس منضبطاً، بيت ليس فيه أي شعور ديني، ومع ذلك أعمل هذا الشاب فكره فعرف ربه، وكان إبراهيم عليه السلام قدوة له.

(وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

عندنا عذاب الخزي، الإنسان أحياناً يتألم، يلمّ به مرض عضال فيؤلمه أشد الألم، هذا شيء مؤلم، ولكن الخزي ألم آخر، أن تكون أمام الناس وينادى على هذا الشخص أنه سارق، مرة كنت في مكان وإنسان أمسك بتلابيب إنسان، واتهمه بالسرقة، يعني لا لون له، الإنسان أمام مجموعة من الناس إذا اتّهم بالسرقة، أو اتهم بعمل منافٍ للحشمة، إذا اتهم بعمل شنيع قذر فهناك عذابان ؛ العذاب المادي حينما يتلقى الصفعات، وعذاب الخزي والعار.

مرة قرأت في مجلة أن امرأةً تعمل في الفن سئلت: ما شعورك وأنت على خشبة المسرح ؟ فقالت: شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى وهي تعرض مفاتنها على الناس، تكلمت الصدق والحق شعور الخزي والعار، هذا شعور الخزي والعار لا يحتمل، ألآم السرطان تحتمل أحياناً، إذا وجد مؤمن واثق من رحمة الله، ومن عدالته، وجاءه هذا المرض يتألم، ويقول: يا رب لك الحمد، آلام لا تحتمل، لكن مع الإيمان تحتمل، لكن آلام الخزي والعار فعلاً لا تحتمل، لذلك إذا كان الإنسان يحب ذاته.. إذا كان يحب نفسه فعليه أن يستقيم على أمر الله، لئلا يقف هذا الموقف الذي فيه خزي وعار.

لو نظرتم إلى إحدى الصحف حينما يلقى القبض على أحد المجرمين، وحينما يصورون ترى أن عيني المجرم في الأرض لا يستطيع أن ينظر إلى المصور لماذا ؟ لأنه في حالة الخزي والعار، هذا الذي

يعتدي على أموال الناس وعلى أعراضهم، أو هذا الذي يسرق أموال الناس، ويلقى القبض عليه، ويساق إلى المحاكمة، إنه في وضع من أوضاع الخزي والعار، لكن هذا كله ينتهي عند الموت، لو حكم عليه بالإعدام، وأعدم انتهى الخزي والعار بعد شنقه، ولكن الخزي والعار يلازم الإنسان في جهنم إلى الأبد.

(وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)

الدعاء بعدم الخزي يوم القيامة:

إذا كان سيدنا إبراهيم عليه نبينا أفضل الصلاة والسلام يسأل الله ألا يكون في هذا الخزي والعار فكيف بنا نحن لا نسأل !

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ

يقول ربنا عز وجل في آيات أخرى:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف: 46)

المال الكثير بلا أولاد فيه غصة، أولاد كثر بلا مال فيه شقاء، لكن مال وبنون، أولاد حول الإنسان يرتدون أجمل الثياب تتورد خدودهم من الطعام الجيد، يسكنون في بيت فسيح، وغرف واسعة، هذه الغرفة للذكور وهذه للإناث، وهذا للطعام، وهذا للجلوس، وهذا للضيوف، المال والبنون، مال بلا بنون، أو بنون بلا مال شيء صعب.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أحياناً يكون للإنسان دخل كبير جداً، هذا الدخل يجعله في غنى عن أن يسأل الناس، يجعله في طمأنينة أحياناً، وقد يكون له أولاد نجب يقول: هذا الابن طبيب، وهذا الثاني مهندس، وهذا أخذ بورد، وهذا أخذ FRS من بريطانيا، وهذا معه أكريجيه من فرنسا، وهذا أصبح معاون وزير، ترى الأب يكاد يخرج من جلده حينما يتحدث عن أولاده، هكذا جعل الله عز وجل الحياة،

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لكن الله يقول:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

هذه الأموال الطائلة التي حصلها في حياته لا تنفعه.

(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32))

(سورة الحاقة)

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

ما هو القلب السليم ؟

ما هو القلب السليم ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

(صحيح البخاري)

الآن إذا صح القلب صحت الجوارح، وصح العمل، وصحت الوجهة، وإذا انحرف القلب انحرف العمل، وانحرفت الجوارح، وانحرفت الوجهة، لذلك المناط هو القلب، عبدي طهرت منظر الخلق سنين، زينت دارك، حسنت لباسك، حسنت مركبتك، هذا كله منظر الخلق، أفلا طهرت منظري ساعة، فالقلب السليم هو القلب الذي طهر من الشك والشرك، هناك آخرة ؟ الله أعلم، إذا لم يوجد اليوم الآخرة فإن تعبنا ذهب سُدى، ولكن بوجود اليوم الآخر ينال الإنسان جزاءه، هذا شاك ليس هذا هو الإيمان.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات 15)

المعنى الأول:

لذلك القلب الذي سلم من الشك والشرك هو القلب السليم.

المعنى الثاني:

القلب السليم هو قلب المؤمن لماذا ؟ لأن الله عز وجل وصف قلوب المنافقين بأنها فيها مرض:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا)

(سورة البقرة 10)

وصف الشحيح بأنه مريض قال:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة التغابن)

فالشحيح مريض نفسياً، والمتكبر مريض نفسياً، والمشرك مريض نفسياً، والشاكّ برحمة الله وعلمه وقدرته وأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى مريض نفسياً، المشرك مريض نفسياً، المغرور مريض نفسياً، الظالم مريض نفسياً، لذلك القلب السليم هو قلب المؤمن، وقلب المنافق والكافر مريض نفسياً.

المعنى الثالث:

وقال بعض العلماء القلب السليم القلب الخالي من البدعة، المطمئن بالسنة، يعني من هوي الكَفَرَة، هوي مخترعاتهم حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، فالقلب المتعلق بالبدع والأشياء التي لا ترضي الله عز وجل هذا قلب مريض، والقلب المطمئن إلى شرع الله، وإلى السنة هذا قلب سليم، هذا معنى ثالث من معاني القلب السليم.

المعنى الرابع المتعلق بالسياق:

القلب السليم هو القلب الذي سلم من آفات المال والولد، المال له آفات، وهي السرف، والتيه، والكبر، والبخل، والمبالغة في الإنفاق، والتبذير، هذه آفات المال، آفات الولد أن يبتغي به الدنيا فقط، ولا يلتفت إلى دينه، بل إلى دنياه، فالقلب السليم هو الذي سلم من آفات المال والولد.

والسليم في اللغة هو اللديغ، في اللغة العربية الصحراء تسمى مفازة تفاؤلاً بالفوز منها، الصحراء الملتهمة تسمى مفازة، والملدوغ يسمى سليماً تفاؤلاً له بالسلامة، والقلب السليم بهذا المعنى هو القلب الملدوغ الخائف من الله، المتحرق شوقاً إلى الله، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، فالقلب السليم بهذا المعنى هو القلب اللديغ، لديغ شوقاً إلى الله أو خوفاً من الله.

وأجمل هذه المعاني للقلب السليم: القلب المُخلِص والمخلَص، المخلِص لله، والخالص من كل شائبة، والقلب السليم بمعنى آخر هو القلب الذي سلم من الأوصاف الذميمة، وتحلى بالصفات الجميلة، كل قلب سلم من الأوصاف الذميمة وتحلى بالصفات الكريمة فهو قلب سليم.

والقلب السليم أن تعلم أن الله حق، وأن الساعة حق، وأن الله يبعث من في القبور، يعني كل التركيب النفسي مبني على أن الله حق، وأن الساعة حق هذا قلب سليم.

والقلب السليم الخالي من كل ذنب، السليم من كل عيب لا خبرة له بأمور الدنيا، يعني بعيد عن الدنيا مستغرق في الآخرة، هذا قلب سليم، هناك أشخاص بالعكس، في الدنيا له خبرات لا حدود لها، يعرف كيف تقتنص الفرص، يعرف كيف تؤكل الكتف، يعرف كيف يستفيد من الفرص.

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن الريح عادتها السكون

و إن درت شياهك فاحتلبها فما تدري الفطيم لمن يكون

* * *

هذا الخبير بأمور الدنيا، الجاهل بأمور الآخرة، هذا قلبه ليس سليماً، السليم بالعكس، لذلك ورد في الجامع الصغير:

((دخلت الجنة فإذا أكثر أهلها البله))

(الجامع الصغير عن جابر بسند فيه ضعف)

البله لا كما تفهمونها بادئ ذي بدء، الأبله هو البعيد عن معاصي الله، نظراته بريئة، وهناك إنسان ينظر يقول: هذه يمكن أن تقبل، يعني خبيث النفس، الأبله البعيد عن المعاصي، من معاني الأبله المطبوع على الخير الغافل عن الشر، والأبله في اللغة من غلب عليه حسن الظن بالناس، وطيب القلب، قلبه طيب، وحسن الظن بالله، والآن يسمونه أجدب، من كان طيب القلب، وحسن الظن بالناس، من طبع على الخير، وغفل عن الشر، من ابتعد عن معاصي الله.

أو المعنى الدقيق أنّ الإنسان ترك مبلغاً كبيراً خوفاً من الله يسميه الناس أبله، وهو في الحقيقة في منتهى الذكاء، بل إنه أبله في نظر البله.

سيدنا يوسف حينما قال:

(مَعَاذَ اللّهِ)

هو في نظر الزناة أبله أليس كذلك، دعته امرأة ذات حسن ومكان فلِمَ قال لها:

(مَعَاذَ اللّهِ)

فهذا النبي الكريم في نظر الزناة أبله، وكذلك الإنسان العفيف عن مال الناس في نظر المنحرفين أبله، فالأبله هو المطبوع على الخير البعيد عن الشر، أو الأبله هو البعيد عن معاصي الله، أو من غلبت عليهم سلامة الصدور، وحسن الظن بالناس، لذلك ورد في الجامع الصغير كما قلت قبل قليل:

((دخلت الجنة فإذا أكثر أهلها البله))

(الجامع الصغير عن جابر بسند فيه ضعف)

هؤلاء الذين حافظوا على فطرتهم السليمة، على نقائهم، على طهارتهم، على ذاتيتهم، لم يرتكبوا المعاصي، لم يخادعوا الناس، ولكن أكمل موقف يتمثل بقول سيدنا عمر رضي الله عنه قال: **<< لست بالخب، ولا الخب يخدعني >>**، أيْ لست من الخبث حيث أَخْدَع، ولست من الغباء حيث أُخْدَع، لا أَخْدَع ولا أُخْدَع، لست بالخب ولا الخب يخدعني، هذا أكمل موقف يقفه الإنسان المؤمن.

قد تجد إنساناً ضيق الأفق، محدوداً، لكنه طيب القلب، هذا لا يعجبك، وقد تجد إنساناً آخر ذكياً، يتوقد ذكاءً وخبثاً، وهذا لا يعجبك، ما الذي يعجبك ؟ هذا الذي يجمع بين الذكاء والكياسة، وبين الطيب والسلامة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن كيس فطن حذر))

[القضاعي بسند موضوع]

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

وفي الدرس القادم إن شاء الله نتابع قصة سيدنا إبراهيم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (06-20): تفسير الآيات 90 - 102
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-08-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الشعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)

تقريب الجنة للمتقين:

ربنا سبحانه وتعالى في أثناء الحديث عن قصة سيدنا إبراهيم بعد أن قال على لسان هذا النبي الكريم:

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90))

أي قربت فقربوا منها.

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)

ظهور جهنم للغاوين:

برزت أيْ ظهرت.

ومما يزيد السعادة سعادة أهل الجنة أن يكونوا على وشك الدخول فيها، وما يزيد ألم أهل النار أن يكونوا على وشك الدخول فيها، فأزلفت أي قربت، والإمام علي كرم الله وجهه يقول: كل متوقع آت، وكل آت قريب.

يدخل الصيف وينتهي، يدخل الشتاء وينتهي، يدخل العام وينتهي، تدخل المرحلة المعينة خمس سنوات، وتنتهي، وليسأل أحدنا نفسه هذا السؤال: كيف مضت هذه السنون من عمري ؟ كيف مضت هذه الأربعون، أو هذه الثلاثون، أو هذه العشرون، أو هذه الخمسون ؟ وليسأل نفسه سؤالاً آخر: هل بقي بقدر ما مضى ؟ فإذا كان الذي مضى قد مضى فالذي بقي سيمضي، فكلمة كل متوقع آت وكل آت قريب يعني الزمن حينما يمضي ليس في صالح الإنسان، لكنه في صالح المؤمن، مجرد مضي الزمن ليس في صالح الإنسان، كلما تحرك عقرب الثواني ثانية واحدة نقص العمر، كلما مضت ساعة، كلما

مضت ليلة، كلما مضى يوم، كلما مضى شهر... هكذا، لكن:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

الوقت، إما أن يستهلك وإما أن يستثمر، كالمال تماماً المال قد تنفقه فتستهلكه تشتري طعاماً وشراباً، وتصرف، وتنفق ثمن ألبسة، وحاجات، وألعاب انتهى، هذا مال مستهلك، لكن المال قد يستثمر في مشروع يدر أرباحاً طائلة، فإذا دفعت المال في مشروع استثماري فإنك بهذه الطريقة لا تستهلكه، وإنما تستثمره، والوقت أثمن من المال، فإما أن تستهلكه، وإما أن تستثمره، فمن تعرف إلى الله وأخلص له، وجهد في طاعته، وبذل من أجله الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وفي كل حركة وسكنة نوى أن يتقرب إلى الله عز وجل، إما بالتفكر، وإما بالتدبر، وإما بالاعتبار، من جعل حياته كلها في حله وترحاله، في عمله، وفي بيته، في ليله، وفي نهاره ذاكراً لله عز وجل، إنه بهذا يستثمر الوقت، ولا يستهلكه.

لأن الذي ورد في بعض الأحاديث أن ملك الموت ينبئ من حضرته الوفاة أنه يا فلان قد بقي من عمرك ساعة، فيبدي هذا العبد من الألم والحسرة ما لا يوصف، ويقول يا ملك الموت من شدة حسرته على مضي حياته لو أن له الدنيا بحذافيرها لتخلّى عنها نظير أن يضم إليه في هذه الساعة المتبقية ساعة أخرى، فلعله يعتذر، لعله يستغفر، لعله يتوب، لعله يعمل صالحاً، طبعاً ملك الموت يقول فنيت الساعات لا ساعة، لذلك كل يوم يخاطب ابن آدم ويقول: **يا ابن آدم ؛ أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود.**

الفائدة من هذه الآية:

الفائدة من هذه الآية أن الوقت أثمن شيء تملكه، لأنك أنت كلك وقت، أنت وقت، مجموعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، فأنت بين أمرين ؛ إما أن تستهلك الوقت، وإما أن تستثمره، إن استهلكته جئت يوم القيامة صفر اليدين وبدأت الحسرات والندم والألم.

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(100))

(سورة المؤمنون)

وإما أن تستثمره فتسكن نفسك، تستريح نفسك، ينشأ عندك حالة اسمها التوازن، تتوازن، تشعر بالاستقرار والطمأنينة، تشعر أنك وفق الطريق الصحيح، تشعر أن حركتك اليومية مطابقة لهدفك،

تشعر أن هذا الذي تفعله خلقت من أجله، هذا الذي يعرف الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

(مشكاة المصابيح عن أبي هريرة)

صمتي فكراً أفكر، نطقي ذكراً، نظري عبرة، والمؤمن في علاقاته مع الناس كلها يبتغي وجه الله حتى لو جلس مع أهله، حتى لو داعب أبنائه، حتى لو أخذهم نزهة إنما يفعل هذا ابتغاء مرضاة الله، حتى عمله الذي يكسب منه رزقه يعد في ميزان الحساب يوم القيامة عبادة بمجموعة شروط تحدثنا عنها من قبل.

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91))

خمسة أيام في حياة الإنسان:

1 - يوم مفقود:

دائما ضع في ذهنك أن هناك خمسة أيام في حياتك، يوم مفقود، هذا اليوم المفقود لا تبحث عنه إطلاقاً، ولا تفكر فيه، ولا تذكره لأن ذكره لا يقدم ولا يؤخر، يوم مفقود ما مضى فات.

2 – يوم مشهود:

وهو أخطر أيام حياتك، في هذا اليوم يمكن أن تتوب، في هذا اليوم يمكن أن تعمل صالحاً، في هذا اليوم يمكن أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، في هذا اليوم يمكن أن تحضر مجلس علم، في هذا اليوم يمكن أن تتقرب إلى الله، هذا اليوم المشهود أخطر أيام حياتك، بل إن الأيام اللاحقة إنما تتعلق بهذا اليوم، يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مولود ساعة المنية، لا بدّ من ساعة يوضع الإنسان في قبره، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت،

الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر.

***

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

***

ملك الموت تخطانا إلى غيرنا، فلان رحمة الله عليه، توفي والله شاب، كلما تنقلت من مكان إلى مكان تطالع هذه النعايا، يجب أن تعلم علم اليقين أنه لا بدّ من يوم يطالع فيه الناس نعي بعضهم بعضاً، اعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا.

3 - يوم موعود:

واليوم الموعود يوم القيامة، يوم الدين، يوم الحساب، يوم الجزاء، يوم الفصل، يوم تفنيد الأعمال، يوم الدينونة، يوم الطامة، هذا اليوم الذي يتحقق فيه اسم الله الحق، هذا الاسم يتحقق بشكل كامل يوم القيامة، لأن الحياة الدنيا دار ابتلاء، بينما الحياة الآخرة دار جزاء.

كل إنسان له مادة يمتحن بها مع ربه، فالغني مادة امتحانه الغنى، هذا اسمه في الجامعة مقرر، الغني عنده مقرر الغنى، والفقير يمتحن بالفقر، والقوي بالقوة، والضعيف بالضعف، والصحيح بالصحة، والسقيم بالمرض وما شاكل ذلك، فإذا رسب الغني، ونجح الفقير انعكست الآية، إذا نجح الضعيف، ورسب القوي.

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

القوي صار ضعيفاً والضعيف صار قوياً،

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111))

(سورة المؤمنون)

4 - يوم ممدود:

واليوم الممدود إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفد عذابها، يعني أخطر شيء موضوع الزمن، الأيام تمضي، الإنسان لو ترك الدين لو أدار ظهره لكتاب الله، لو جعل القرآن وراء ظهره، ذلك أنه لم يبال بحرامه ولا بحلاله، يريد الدنيا وزينتها، يريد المال، يريد الوجاهة، يريد النعيم، المتع الرخيصة، يأتي قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ))

لو أنك تركت الدين، لو تركت الإيمان باليوم الآخر، لو هان الله عليك ماذا ينتظر الإنسان ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بالأعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أوْ الدّجّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ؟ أوْ السّاعَةَ، فَالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

(سنن الترمذي 2228)

5 - يوم مورود:

فأنت بين خمسة أيام: يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موعود، ويوم ممدود، وأنت بين أن تستهلك الوقت، أو تستثمره، والآية توضح هذه الحقيقة:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

الوقت يستهلكه إلا المؤمن فإنه يستثمره.

(إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91))

هذا الذي غوى يعني خرج عن طريق الحق، ربنا سبحانه وتعالى رسم منهجاً، أنزل كتاباً، وضع دستوراً، وضع قواعد، سنّ سنناً، هذه من عند الصانع، والصانع هو الجهة الوحيدة التي يحق لها أن تصدر تعليمات افعل ولا تفعل، لأنها أخبر جهة بصنعتها، والدليل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة 21)

لا يصح أن تعبد غير الخالق، لأنك إذا عبدت غير الخالق خسرت خسارة لا حدود لها، لأن هذه الجهة التي تعبدها من دون الله لا تملك لك نفعاً ولا ضراً.

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92))

أين شركاؤكم اليوم ؟

لا بدّ أن تعبد، فإما أن تعبد الله، وإما أن تعبد غيره، العبادة هي الطاعة والمحبة، غاية الطاعة مع غاية المحبة، غاية الطاعة لأن الله هو وحده الذي يجب أن تعبده، وغاية المحبة، لأنك كإنسان مفطور على حب ذاتك، وحب سلامتك، وحب استمرار وجودك، وحب كمال وجودك، وجودك واستمراره وكماله لا يتحقق إلا بالله عز وجل، إذاً الذي منحك الوجود ومنحك السلامة، ومنحك كمال الوجود، ومنحك الاستمرار هو الله سبحانه وتعالى، إذاً ينبغي أن تحبه قبل كل شيء، فالعبادة طاعة تامة ومحبة تامة، ومن خضع لله ولم يحبه ما عبده، ومن أحبه ولم يطعه ما عبده.

(أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

لا يليق بالإنسان، ولا ينبغي له أن يعبد غير الله عز وجل.

(مِنْ دُونِ اللّهِ)

الله عز وجل خالق الكون ومن دونه المخلوقات، هل يوازى الخالق بالمخلوق ؟

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

(سورة النحل)

هل هناك نسبة تجمع بينهما، أيوازى خالق الكون مع مخلوق ضعيف ؟ لئيم أحياناً، أتوازى الذات الكاملة مع ذات طارئة ؟

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

(وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللّهِ)

لذلك أندم الناس من باع آخرته بدنيا غيره.

(هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ)

عجز المعبودات عن نصرة عابديها:

لا يستطيعون نصركم، لأنهم في الأصل لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، فما قولك بهذا الذي يعبده الكافر من دون الله، لا يستطيع نصره ولا أن ينتصر هو، لذلك الشيطان لما قضي الأمر يقول:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

(أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا)

إلقاء المعبودات من دون الله مع عابديها في جهنم:

كلمات القرآن معبّرة، كبكب هذا فعل ثنائي مضعف مثل زلزل، قلقل، زعزع، عسعس، دمدم، هذه الأفعال فيها معنى التكرار، يعني الكافر حينما يدخل النار لا يدخلها بمراسم استقبال، كما لو وضعت مئة شخص في شاحنة، ونزل بعد أن انقلب صندوق الشاحنة.

كُبكبوا فيها يعني يندفعون إلى النار بعضهم فوق بعض من دون ترتيب، من دون عناية، من دون اهتمام.

أحياناً البضاعة التي لا قيمة لها لا تنقل من الشاحنة إلى الأرض واحدة وَاحدة، بل يقلب هذا الصندوق،

فتأتي فوق بعضها بعضاً كالركام، فكلمة كبكبوا، أي دفعوا إلى النار بلا عناية ولا اهتمام، هذا الذي يليق بهم.

(فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95))

خطورة الشيطان:

الحقيقة أنّ الإنسان أحياناً لا يعرف خطورة الشيطان، ربنا عز وجل حينما خلق آدم لو أن الله سبحانه وتعالى زوّده بمنهج نظري، أو بدستور نظري لكان في الأمر مشكلة، ولكن الله عز وجل حينما خلق آدم زوده بدستور عملي، يعني كيف أن آدم عليه السلام كان في الجنة، وكيف أن إبليس وسوس له، وكيف أكل من الشجرة، وكيف عصى ربه في الظاهر، وكيف أنه هبط من الجنة، هذا درس عملي لسيدنا آدم ولذريته من بعده:

(إِنّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)

(سورة فاطر)

إن الله عز وجل أمرنا أن نتخذه عدواً، يقول ربنا عز وجل في سورة يس:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62))

مزالق الشيطان:

1 – إبعاد الإنسان عن الدين:

الشيطان ماذا يفعل ؟ الشيطان عنده مجموعة مزالق، يبدأ بالأسهل، أكبر عقبة بين الإنسان وبين معرفة الله، أو بين الإنسان وبين النجاة هي عقبة الكفر، يقول لك هذا الدين تصورات الضعفاء في العصور السابقة، هذا الدين تعبير عن الضعف البشري، هذا الدين من صنع محمد، هو إنسان ذكي جداً وعبقري، التركيز على عبقريته لا على نبوته من أجل أن تكفر بالدين، ومن أجل أن تكفر باليوم الأخر، ومن أجل أن تكفر بأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، فهذه إذا استطاع الشيطان أن يوسوس للإنسان أن هذا الدين لا صحة له، ولا قيمة له، ولا جدوى منه، إنه يفرق ولا يوحد، إنه تعبير عن ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة، هذا الدين يصلح لوقت كان العلم فيه متخلفاً، هذه شبكة الشيطان، فإذا ألقاها على الإنسان فرأى الدين شيئاً بعيداً عن الواقع، جعل الإنسان الدين وراء ظهره، وانطلق في الدنيا من أجل تحقيق

ذاته، وإشباع رغباته، وشهواته بأي ثمن، وبأي طريق، إذا فعل الإنسان هذا فقد اصطاده الشيطان من العقبة الأولى.

هناك أشخاص لهم اطلاعاتهم، ولهم ثقافتهم، لهم قراءاتهم، لهم تربيتهم، لهم بيئتهم يرفضون هذه المقولة، الدين حق، هذا دين الله، وهذا كتاب الله، وهناك دليل قطعي على أن هذا القرآن كلام الله.

2 - مزلق البدعة في العقيدة والعبادة وخطورته:

إذاً الشيطان لا يستطيع أن يصل إلى الإنسان من خلال هذه الشبهة، يأتيه من شبهة ثانية ؛ شبهة البدعة في الاعتقاد والعبادة، يعتقد أن أمة محمد مرحومة لا يوجد تكليف، يعني الله عز وجل لن يحاسب أمة محمد، لأنها أمة اصطفاها الله عز وجل، تراه يفعل ما يشاء، أو أن النبي عليه الصلاة والسلام بتفكير ساذج ضعيف سوف يسجد لله عز وجل، الحديث صحيح، ولكن له تفسير دقيق جداً، لأن شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام لا ينالها إلا من مات غير مشرك، والذي لا يشرك لا يعصي الله عز وجل، أما هذا الذي يفعل ما يشاء على أمل أن النبي عليه الصلاة والسلام يشفع له هذه بدعة في العقيدة، هي الذي يتمناها الشيطان، يتمنى أن تعتقد مجموعة عقائد فاسدة، لأن العقيدة الفاسدة من لوازمها السلوك المنحرف، فإذا لم يستطع الشيطان أن يصل إلى الإنسان من خلال الكفر أن يكفر بالدين، وأن يكفر باليوم الآخر، وأن يكفر بأسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، من أن يكفر بالكتب السماوية، والأنبياء، والمرسلين، إذا لم يتمكن الشيطان أن يقنع الإنسان بهذه الضلالات الفكرية يقنعه ببدع في الاعتقاد.

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى)

(سورة البقرة 111)

هذه بدعة من بدع الاعتقاد أملاها الشيطان على أهل الكتاب.

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)

(سورة البقرة 80)

هذه بدعة ابتدعها أهل الكتاب بوحي من الشيطان، فلو دخلت حتى في الأديان الأخرى ترى أن هناك بدعاً في الاعتقاد لا حدود لها لماذا ؟ حينما يعجز الشيطان عن أن يلقي الضلال والكفر في الإنسان يهبط درجة، ينتقل إلى إلقاء البدع في الاعتقاد، الإنسان مجبور على أعماله كلها، تقول: لِمَ لا تصلي، يقول: ترتيب سيدك، حتى الله يأذن، هذه بدعة في الاعتقاد، بدعة خطيرة، أصبحت مشلولاً، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، يعني إذا اعتقد أن الإنسان كريشة في مهب الريح.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال إيّاك إيّاكَ أن تبتلّ بالـماء

* * *

الجبر هو الاعتقاد بأن الإنسان مجبور على كل أعماله، وليس مخيراً إطلاقاً هذه بدعة تشل الإنسان، تشل حركته يقعد، ينتظر أن يحدث شيء خارق للعادة.

إذاً الشيطان إما أن يلقي الضلالة الكبرى، وهي الكفر، وإما أن يلقي ابتداعاً في العقيدة.. انحراف في العقيدة، على مستوى الأنبياء مثلاً يقول تعالى في حق يوسف:

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمّ بِهَا)

نبي عظيم هم بها، أنا شاب وليس نبي، هذه بدعة في الاعتقاد يعتقد أن الأنبياء ليسوا معصومين هذه بدعة خطيرة جداً، هذه تغطي انحراف الناس، يعتقد أن في القرآن تكراراً وتناقضاً، يعتقد أن هذه الآية ليست لهذا الزمان، هذه كلها بدع في الاعتقاد يجب أن نحاربها، ويجب أن نتحرز منها.

أو بدع في العبادة، قد يصبح الدين في النهاية زمراً وطبلاً ورقصاً، هذا الدين، بهذه الطريقة فتح أصحاب النبي العالم ؟! بهذه الطريقة عم الإسلام الخافقين ! مستحيل.

إذاً حينما يعجز الشيطان عن أن يلقي الكفر والبهتان في الإنسان ينتقل إلى بدع في الاعتقاد وبدع في العبادة، يصبح الدين مثلاً كرامات، أو منامات فقط، أو يصبح الدين خرقاً للعادات، يعني الولاية كلها في أن يخترق سهم في البطن هذه الولاية كلها، أو مثلاً حركات، وسكنات، ورقص، واهتزاز، وإغماء، وأصوات، ومزامير، وطبول، هذا هو الدين ! هذه بدع في العبادة وبدع في الاعتقاد.

فإذا كان هذا الإنسان منّور الذهن، والشيطان ما استطاع أن يصل إليه بهذه البدع هناك الكبائر، يقول بعضهم لا يضر مع التوحيد سيئة، مادام هو موحّد ويقول لا إله إلا الله، يعني سبحان الله ! أيعقل أن يأتي إنسان أمضى حياته كلها في المعاصي، والبهتان، والانحراف، والكذب، والانغماس في الشهوات يكفي أن يقول لا إله إلا الله هكذا وينتهي كل شيء، هكذا الدين !

هذا الذي أمضى حياته كلها في طاعة الله، وفي عبادته، وفي الصبر على ما أمر الله، وفي بذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس، يأتي إنسان منغمس في شهواته إلى قمة رأسه يكفي أن يقول أشهد أن لا إله إلا الله هكذا بهذه البساطة، هذه بدعة أيضاً، فلذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قالوا: وما حقها، قال: أن تحجزه عن محارم الله))

هذه بحقها، لا إله إلا الله حصني من دخلها أمن من عذابي، إذاً هذا الذي يفعل الكبائر ويقول: أنا مسلم، أنا أعلن الشهادتين، هذه أيضاً فرية من تضليل الشيطان، فالكبيرة كبيرة، وصاحب الكبيرة أمره خطير، السرقة، والكذب، والزنى، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وإيقاع الأذى بالناس، وترك الصلاة

هذه كلها كبائر، فمن فعل الكبائر يجب أن ينتظر من الله الشيء الوبيل، أو أن يتوب إلى الله عز وجل، يكفي أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وينتهي الأمر هذه من ضلالات الشيطان.

3 – الصغائر باب من أبواب الشيطان:

أحياناً الشيطان لا يستطيع أن يوسوس لهذا الإنسان الكفر والبهتان، ولا البدعة في الاعتقاد، والعبادة، ولا أن يحمله على الكبائر، يرضى الشيطان أن تقع في الصغائر، وأن تدوم عليها، وأن تستمر عليها، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لا صغيرة مع الإصرار))

مادام الإنسان مقيمًا على صغيرة، وهو مرتاح لها، ويظن أنه لا يحاسب عليها، هذه أيضاً من العقبات الكئود التي تقف بينك وبين الله عز وجل، الصغائر قال عليه الصلاة والسلام:

((إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ))

(مسند أحمد 3627)

عودٌ وراء عود وراء عود أصبحوا حزمة، وأصبح هناك نار عظيمة، فالمصافحة، أكل لقمة من حرام، نظرة، سبحان الخالق ! بعدما ينظر إلى امرأة جميلة، هذه كلها صغائر، هذه إذا اجتمعت على الإنسان تهلكه، وإذا أصرّ عليها تصبح كبائر، يعني الصغيرة انحراف بالمقود سنتمترًا واحدًا، سميت صغيرة لأن تلافيها سهل جداً، لكن لو أن هذا الانحراف استمر وآخرته بالوادي، كان الطريق طريقاً مستقيماً على يمينه واد سحيق، وحرف المقود سنتمترًا واحدًا، هي صغيرة لأن بإمكانك أن تعيد المقود إلى ما كان عليه، أما لو أنك أصررت على هذا الانحراف هذه الصغيرة لا بدّ أن تلتقي مع الكبيرة في التدهور، لذلك لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

الشيطان أحياناً يعجز عن إيقاع الإنسان في الكفر، ويعجز عن إيقاعه في فساد العقيدة، ويعجز عن إيقاعه في بدع العبادة، ويعجز في الكبائر وقد يعجز عن إيقاعه في الصغائر.

4 - مزلق المباحات:

بقي مزلقان خطيران، مزلق المباحات، الطعام والشراب مباح، الاعتناء بالبيت مباح، التنقل من مكان إلى مكان ضمن المباحات، إذا صرف الإنسان وقته في المباحات فوت عليه الطاعات، وهذا مزلق خطير من مزالق الشيطان ؛ أن تنصرف إلى المباحات، إلى الشيء الذي سمح الله به تجعله أكبر همك، تجعله مبلغ علمك، تجعله كل شيء في حياتك، هذه المباحات إذا توسع الإنسان فيها، واهتم بها، وجعلها

مبلغ علمه، ومنتهى آماله هذه المباحات تفوّت عليه الشيء الكثير.

إذا أحب الإنسان أن ينام، والنوم مباح، وكنت في مكان بإمكانك أن تأخذ الجواهر الثمينة، بدلاً أن تأخذ الجواهر نِمْتَ نوماً عميقاً، أنت لا زنيت، ولا فعلت شيئاً، أما هذا النوم في مكان يسمح لك أن تأخذ الجواهر الثمينة فهذا النوم فيه خسارة كبيرة.

5 - مزلق الدفع إلى الطاعات المرجوحة:

فإذا عجز الشيطان عن أن يحمل هذا الإنسان على أن يجعل هذه المباحات كل همه ومبلغ علمه، بقي هناك مزلق قبل الأخير، هذا المزلق يدفعه إلى الطاعات المرجوحة، هناك طاعة راجحة، وهناك طاعة مرجوحة، يعني يفضل عليها طاعة أخرى، يعني كل حياته يمضيها في طاعة جزئية جداً جداً، ويضيع عليه الشيء الكثير.

العبادات درجات وأنواع، هناك عبادة أرقى من عبادة، وعمل أرقى من عمل، وطاعة أرقى من طاعة، طلب العلم أرقى شيء، هناك من يكتفي من الدين بشيء محدود جداً، فهذا أيضاً عقبة بينك وبين النجاة في هذه الدنيا.

صار مجمل ما ذكراه الكفر، والبدعة في الاعتقاد، والبدعة في العبادة، والكبائر، والصغائر، والمباحات، والأعمال المرجوحة أي الأعمال التي هناك أعمال أفضل منها، هذه كلها من فعل الشيطان، ولآتينهم عن أيمانهم، وأنت في طريق الإيمان هناك ألف وألف مدخل للشيطان.

6 – عقبة الامتحان:

فإذا نجوت من كل هذه العقبات فهناك عقبة أخيرة هذه العقبة لا بدّ منها، عقبة الامتحان، لأن الله عز وجل يحب أن يرى من يحبه لذاته، ومن يحبه لما عنده، ومع أنك مستقيم على أمر الله، ومع أنك خاضع له، ومع أنك محب له قد تأتي الأمور على خلاف ما تشتهي ماذا تقول ؟ هل تجعل النبي عليه الصلاة والسلام قدوة لك، النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا جاءت الأمور كما يشتهي يقول: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا جاءت الأمور على خلاف ما يتمنى كان يقول الحمد لله على كل حال.

وأنت في استقامتك التامة، وأنت في ورعك، وأنت في محبتك لله، وأنت في اندفاعك إلى الله قد تأتي الأمور على خلاف ما تريد ماذا تفعل ؟ أنت متّبع للدين مشارطة، أنا مستقيم فيجب أن تكون الأمور كلها كما أريد هذا شرط، الله عز وجل لا يشارط، ولا يجرب، أنت عبد، ومع أنك تسير كما أمر الله اختار لك هكذا ماذا تقول ؟ الحمد لله رب العالمين.

هناك من الصحابة تحملوا من الشدائد ما تحملوا، النبي عليه الصلاة والسلام قال: أوذيت وما أوذي أحد مثلي، ماذا فعل النبي حتى يستحق هذا الأذى.

هذه عقبة لا بدّ منها، لم ينج منها الأنبياء لماذا ؟ الله امتحنهم، في الطائف ذهب إليها ماشياً تلقاه أهلها بالكفر، والصدّ، والعدوان، والاستهزاء، والسخرية، والأذى، ألجؤوه إلى حائط فوقف النبي عليه الصلاة والسلام يقول: إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى.

أريد من الإخوة الكرام أن يوطن كل واحد منكم نفسه حتى لا يفاجأ، الله يحب أن يمتحنك أحياناً، يحب أن يمتحن صبرك، يمتحن عبوديتك، يمتحن محبتك له، مادام الأمور ميسرة صحة طيبة دخل كبير، سرور بسط أولاد زوجة كل شيء مرتب الحمد لله، الله يريد أن يراك في المصيبة ماذا تفعل ؟ (تبرير) المؤمن يقول: الحمد لله رب العالمين، يهبط على قلب المؤمن من السعادة إذا جاءه شيء يكرهه عندما يقول: الحمد لله رب العالمين، يا رب أنا عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، يا رب لك الحمد على كل شيء.

هذه عقبة لا بدّ منها، ولا ينجو منها مؤمن، الأنبياء تحملوا هذه الشدائد، الإنسان أحياناً، وهو في قمة تألقه يفتقر ماذا يفعل ؟ يسرق ؟ لا يسرق، يأكل مالاً حراماً لا والله، يضغط على نفسه، ويضغط، ويضغط، ولا يأكل درهماً حراماً، هذا امتحان، هذه مصائب الامتحان والابتلاء، أحياناً يمرض الإنسان أو زوجته أو ابنه، تنشأ مشكلة ربنا عز وجل يحب أن يرى موقفك منها، ينظر ماذا تفعل، ماذا تقول، القضية دقيقة جداً.

فالشيطان هذا الذي ساقنا لهذا المعنى كلمة:

(فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95))

كيف يغوي الشيطان الإنسان ؟ بهذه الطرائق، يغويه من خلال هذه المسارب، وهذه، المزالق، وهذه الشبهات، وهذه البدع، وهذه الترّهات، وهذه الوساوس، فمن نجا منها فقد نجح نجاحاً كبيراً.

(قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97))

الخصومات يوم القيامة:

الضلال واضح كالشمس.

(إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

تنشأ خصومات يوم القيامة بين الذين عبدوا من دون الله وبين الذين عبدوهم، لأن الذين عبدوهم من دون الله كانوا في ضلال مبين، وأما الذين عبدوا من دون الله كانوا أيضاً مضلّين، هناك خصومات.

(تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ(99))

هؤلاء الذين وسوسوا لنا ودفعونا، هؤلاء الذين قادونا إلى هذا الكفر، أو قادونا إلى هذا الانحراف، هؤلاء كبراؤنا، هؤلاء الذين كنا نرمقهم بالعيون، كنا نظنهم على حق فإذا هم على باطل.

(وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101))

لا شفيع للمجرمين ولا صديق حميم يوم القيامة:

في الآخرة لا يوجد شفيع، ولا يوجد صديق حميم، لكن لماذا جمع الله الشافعين، وأفرد الصديق الحميم؟ قال بعض العلماء، وأظنه القرطبي: إن الشافعين لكثرتهم، والصديق الحميم لندرته، هناك من يشفع لك كثيراً، ولكن الصديق الحميم قلّما تجده.

(فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

كل هذه الدروس من أجل ألا يقف الإنسان هذا الموقف، نحن في بحبوحة، القلب ينبض إذاً يوجد حياة، يوجد أمل، يوجد توبة في إصلاح، يوجد إنفاق، يوجد اعتذار، يوجد تحلل من الحقوق التي عليك، كل شيء يصحّح في الدنيا، أما إذا ختم العمل، وانتهى الأجل انتهى كل شيء، يعني هذا الكلام من أجل ألا يقع، يذكره الله عز وجل من أجل ألا يقع.

(فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104))

إن شاء الله تعالى في الدرس القادم ننتقل إلى قصة نوح عليه السلام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (07-20): تفسير الآيات 105 - 122
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-09-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الشعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(107))

قصة نوح عليه السلام مع قومه:

ربنا سبحانه وتعالى يبين في هذه السورة ؛ سورة الشعراء قصة أخرى من قصص الأنبياء، إنها قصة سيدنا نوح مع قومه، فهؤلاء القوم كذبوا نوحاً، فلماذا قال الله عز وجل:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ)

لماذا جاءت الرسالة مجموعة جمعاً ؟ استنبط علماء التفسير من جمع المرسلين، أن الذي يكذب رسولاً واحداً يكذب كل المرسلين، لأن رسالات الأنبياء كلها واحدة، من مشكاة واحدة، من ينبوع واحد، من مصدر واحد، لها مبادئ واحدة، وثابتة، يؤكد هذا قول الله عز وجل في أكثر من موضع في كتاب الله.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء: 25)

رسالات الأنبياء كلها واحدة، فحواها أن توحّد الله وأن تعبده، التوحيد نهاية العلم، والتقوى نهاية العمل.

(لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

(سورة البقرة: 136)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة: 183)

هكذا ينبغي أن يكون، الدين كله واحد، مصدره واحد، مؤداه واحد، مبادئه واحدة، أما الذي طرأ على بعض الكتب التي أنزلت قبل القرآن من تحريف، ومن تغير، هذا الذي أبعدها الله عن كتابنا الكريم.

من تمام العقيدة الإيمان بجميع الرسل:

شيءٌ آخر، هو أن الله سبحانه وتعالى جعل من تمام عقيدتك وإيمانك أن تؤمن بجميع الرسل الذين من

قبل النبي عليه الصلاة والسلام من تمام العقيدة أن تؤمن برسالة سيدنا عيسى، وبرسالة سيدنا موسى وبصحف إبراهيم، وبكل الأنبياء والمرسلين، فالذي يكذب رسولاً واحداً إنما يكذب كل المرسلين، هذا الذي استنبطه العلماء من قول الله عز وجل:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(107))

معنى الأخوّة في الآية:

هنا بعضهم قال: إنّ الإخوة أخوّة نسب، وبعضهم قال: أخوّة في المشابهة، ربنا عز وجل قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة إبراهيم: 4)

هذا الرسول إنسان، من لحم ودم، له مشاعر، له عواطف له تفكير، لكن الله عز وجل أنعم، عليه ووهبه النبوة، واصطفاه على العالمين، لكنه هو في الأصل هو إنسان، يشعر بما تشعر، يؤلمه ما يؤلمك، يفرحه ما يفرحك، من هنا كانت بطولته، لو أن الله سبحانه وتعالى أرسل ملكاً إلى الناس لاحتج الناس فقالوا: هذا ملك يا أخي، هذا لا يحس بإحساسنا، هذا ليس عنده شهوة كالتي عندنا، هذا لا يحتاج إلى الطعام والشراب، لكن الله سبحانه وتعالى لحكمة بالغة جعل الأنبياء من البشر، وجعل المرسلين من البشر، وجعلهم ينطقون بلسان قومهم، وجعلهم من جلدة قومهم، لو أنه إنسان غريب جاء قوماً فدعاهم إلى الله عز وجل لشكّوا فيه، وتوجسوا منه خيفة، لكنه منهم، من بلدتهم، من بيئتهم، من قومهم، عاش عاداتهم، وتقاليدهم عاش محيطهم، عاش معطيات حياتهم، هذا معنى قول الله عز وجل

(قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

إما أنها أخّوة نسب، وإما إنها أخّوة في المشابهة يعني هو واحد منهم.

(قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

تذكير نوح قومه بعذاب الله:

يعني ألا تتقون عذاب الله بطاعته ؟ وإن شاء الله تعالى في درس قادم سأفصل في التقوى بعض التفصيل، ولكن بشكل موجز، الله سبحانه وتعالى ذو عقاب أليم، ذو عذاب شديد، كيف تتقي عذابه ؟ كيف تتقي عقابه ؟ كيف تتقي بلاءه ؟ كيف تتقي المصائب ؟ تتقيها بطاعة الله عز وجل لا ملجأ منه إلا

إليه، بطاعته تتقي ما عنده من عذاب، والتقوى تكون بأن تستنير بنوره.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: 35)

الله سبحانه وتعالى خلق الكون، ونوّره بالكتب، نوره بالأنبياء، نوره بالمرسلين، نحن نشق الطريق ونضع اللافتات، هنا منعطف خطر، وهنا منزلق خطر، وهنا تقاطع خطر، وهنا جسر، وهنا فرع وهذا الطريق إلى هنا، وهذا إلى هناك، هذه اللوحات إنما هي إرشاد لسالكي هذا الطريق، هذا تشبيه، والله سبحانه وتعالى خلق الكون ونوره بالعلم، والعلم نور، الكتاب نور، إذاً التقوى كيف تتقي الحفر كيف تتقي الوحوش ؟ كيف تتقي الحشرات المؤذية ؟ كيف تتقي المياه الوسخة ؟ لا بد من مصباح شديد، بهذا المصباح الشديد، ترى الخير خيراً، والشر شراً، ترى الخير فتأخذه، وترى الشر فتبتعد عنه.

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

الأمانة من صفات الأنبياء والمرسلين:

هذه الكلمة لها وقع لطيف، كلمة لها معانٍ كثيرة، النبي عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان يلقب بالأمين، في القرآن الكريم كلمات لها معانٍ كثيرة، فمن السذاجة أن تظن كلمة في القرآن معنى واحد، مثلاً ربنا سبحانه وتعالى قال:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)

(سورة النساء: 163)

وقال الله عز وجل:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص: 7)

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

(سورة النحل: 68)

فهل الوحي إلى النحلة كالوحي إلى أم موسى ؟! كالوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام، طبعاً كلمة الإيماء لها معانٍ متعددة في القرآن الكريم، فمن ضيق الأفق ومن السذاجة أن تظن أن لكلمة واحدة في كتاب الله معنى واحداً، وكلمة أمين هنا ذات مدلولات واسعة جداً، وما من مفاهيم ومدلولات نحن كمسلمين أحوج إليها منا.قال الله سبحانه وتعالى:

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

والأمانة من صفات الأنبياء الثابتة، الأنبياء لهم صفات ثابتة، بل هي سمات عميقة الصدق، والأمانة، والفطانة، والعصمة، فالأمانة أحد صفات الأنبياء الثابتة، كلمة أمين، لو عرضتها على إنسان لفهم منها شيئاً معيّناً، إذا أودعت عند هذا الإنسان شيئاً، ثم طالبته به يؤديه إليك بالوقت المناسب، وبالحالة الجيدة، هذا مفهوم الأمانة عند بعض الناس، ولكنك كإنسانٍ على وجه الأرض أنت قد حمّلت الأمانة فما الذي يميز الإنسان عن الحيوان ؟ ما الذي يميز الإنسان عن الملك ؟ لماذا سخر الله للإنسان السماوات والأرض بنص القرآن الكريم ؟

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الجاثية: 13)

لماذا ؟ هذا الكون الذي لا يعلم نهايته إلا الله، لا يعلم ما فيه من مجرات إلا الله، إذا كان التقدير الأولي مليون مَليون مجرة، إذا كان التقدير الأولي لما في المجرة من كواكب مليون مَليون، إذا كان بعض النجوم يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، إذا كان بين أرضنا وبين بعض المجرات ما يزيد على ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، هذا الكون كله مسخر للإنسان، لماذا ؟ لمَ لم يسخر للقرود هذا الكون لمَ لم يسخر للملائكة ؟ لمَ هذا الكون كله بسمائه ومجراته، وأفلاكه وأرضه، وما فيه جميعاً، مسخر لهذا الإنسان ؟ لأنه حمل الأمانة.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب: 72)

من مفهوم الأمانة: نفسك التي بين جنبيك:

أيها الإنسان نفسك أودعها الله أمانة عندك، فإما أن تزكيها، وإما أن تدسيها.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس: 9 - 10)

نفسك أمانة بين يديك، إما أن تعرفها بالله عز وجل، وإما أن تبقيها جاهلة، إما أن تحملها على طاعة الله، وإما أن تدلها على معصيته، إما أن تجعلها تتعلق بالجنة وما فيها، وإما أن تجعلها تتعلق بالدنيا وما فيها، إما أن تجعلها صادقة، أمينة، مخلصة، عفيفة، صابرة منصفة، تقية، نقية، طاهرة، وإما أن تجعلها لئيمة، خسيسة، دنيئة حقيرة، دميمة، بخيلة، شحيحة، أنانية.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس: 9 - 10)

أخطر مفهوم الأمانة أنك حمّلت الأمانة فكنت إنساناً لولا أنك حملت الأمانة فحملتها وقبلت حملها ـ في حين أن السماوات والأرض أشفقن منها ـ لما كنت إنساناً،

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

إنك قد حملت الأمانة، ونفسك أمانة، ولكن من أجل أن تهذب هذه النفس، ومن أجل أن تعرفها بربها، ومن أجل أن تحملها على طاعته، ومن أجل أن تجعلها تقبل عليه، من أجل أن تجعلها طاهرة من أجل أن تصبغها بصبغة الله عز وجل، أعطاك الله عز وجل مقومات الأمانة.

أنا قد أكلف إنساناً بمهمة كبيرة، أعطيه من الصلاحيات والمبالغ، والآليات ما يعينه على أداء هذه المهمة، صحيح أن الإنسان قبل حمل الأمانة بنص قول الله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب: 72)

لكن الله سبحانه وتعالى في الوقت نفسه أعطى هذا الإنسان مقومات هذه الأمانة.

مقومات الأمانة:

1 – الكون:

أولى هذه المقومات: خلق الكون وسخره له، ليكون هذا الكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، أتحب أن تعرف الله عز وجل ؟ هذا الكون بين يديك.

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات: 20)

أتحب أن تعرف الله عز وجل ؟ انظر إلى طعامك، انظر إلى شرابك، انظر إلى الجبال، انظر إلى السماوات والأرض، انظر إلى البحار، انظر إلى ابنك الذي كان نقطة من ماء مهين، انظر إلى النباتات بأنواعها، انظر إلى كل شيء تر الله وراءه، تر الله من خلاله، تر الله قبله، تر الله بعده، فمن مقومات الأمانة ما دام الهدف الكبير أن تزكي هذه النفس، والتزكية تكون بتعريفها بربها أولاً، وحملها على طاعته ثانياً، وإقبالها عليه ثالثاً، عندها تزكو، من أجل هذا الهدف العظيم، خلق الله الكون، وسخره للإنسان، وما قيمة هذا الكون لولا أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا هذا العقل، وميزنا فيه عن بقية خلقه، لذلك جميع الكائنات أودع الله فيها غريزة، الغرائز فيها آليات معقدة جداً، ولكنها لا تنمو، هذا الطائر

يطير بآلية معقدة، ولكنه لا يعرف غيرها، أودع الله الغرائز، وهي أعمال معقدة يقوم بها الحيوان من دون تعليم سابق، ولا كسب ولا فهم، إنما هذه الغرائز تؤدي وظيفته في الحياة، ولكن الله سبحانه وتعالى أكرم الإنسان بالعقل، أو بالفكر، فالفكر ينمو، انظر إلى المسكن كيف بدأ الإنسان، وكيف انتهى مسكنه، انظر إلى كل هذا المنجزات التي أنجزها الإنسان بفكره وعقله.

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن: 7)

ما قيمة الكون من دون عقل ! وما قيمة العقل من دون كون ! إنك بالعقل تعرف الله عز وجل، من خلال الكون، ولكن لئلا يضل هذا العقل، لئلا يختل، لئلا يطغى، لئلا يتجاوز، الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب، فجعل الكتاب ميزاناً على الميزان، عقلك ميزان، وإذا اختل هذا الميزان فهناك ميزان يضبطه، ألا وهو الشرع.

الكون أحد مقومات حمل الأمانة، والعقل أحد هذه المقومات.

2 – الشرع:

والشرع أحد هذه المقومات.

كيف ترقى إلى الله ؟ لا بد من شهوة يودعها الله فيك، من أجل أن تدفعك إلى الله إيجاباً أو سلباً، أودع في الإنسان حب المرأة، فإذا غض بصره عن محارم الله ارتقى عند الله، وإذا فعل ما أباح الله له ارتقى عند الله، في المرة الأولى ارتقى صابراً، وفي المرة الثانية ارتقى شاكراً، حب المال، وحب النساء، وحب العلو في الأرض، وأية شهوة أودعها الله في الإنسان يرقى بها مرتين، مرة إذا تركتها لله.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات: 40)

ومرة ترقى بها إذا فعلت ما أمرك الله بها.

العقل والشهوة والشرع وحرية الإرادة:

إذاً هذا الكون، وهذا العقل، وهذه الشهوة، وهذا الشرع ومنحك حرية الإرادة، لتكون أعمالك ثمينة، ذات قيمة، إنك تفعل هذا مختاراً، هذا حرية الاختيار، مع الشهوة، مع العقل، مع الشرع، مع الكون، هذه بعض مقومات حمل الأمانة، فإذا زكيت نفسك، يعني إذا فكرت في الكون فعرفت الله، ودرست الشرع فعبدته من خلاله بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، فكرت بالكون فعرفت الله.

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ (191))

(سورة آل عمران: 190 - 191)

بالكون تعرفه، فإذا أردت أن تعبده فبالشرع الذي أنزله الله على النبي عليه الصلاة والسلام تعبده، فكرت فيه فعرفته، درست الشرع فعبدته، أصبحت الآن في طاعته، إذاً أصبح الطريق إليه سالكاً، أقبلت عليه، فتجلى عليك، فسعدت بقربه، المقومات جاهزة، الكون، والعقل والشرع، والشهوة، والحرية، والإرادة، هذا كله من مقومات حمل الأمانة، فإذا قرأت بالقرآن الكريم قوله:

(إِنّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب: 72)

فهذه اسمها أمانة التكليف.

أمانة التبليغ:

وإذا وقفت أمام النبي عليه الصلاة والسلام في زيارتك له تقول أشهد أنك أديت الأمانة، هذا معنى آخر؛ أمانة التبليغ، قبل أن ينتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى قال كلمتين قال: جلال ربي الرفيع قد بلغت، يعني يا رب لقد بلغت الأمانة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان أميناً على رسالة الله عز وجل، ما زاد عليها، ما أنقص منها، ما كتم منها، فلما أصحابه قالوا: إن الشمس قد كسفت لموت إبراهيم، ماذا فعل النبي ؟ هذه لمصلحته، هذه القصة، وهذا الفهم يرفع من شأن النبي أمام الناس، ماذا فعل النبي الكريم ؟ جمع أصحابه وقام فيهم خطيباً، وقال:

((أيها الناس، إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحَدٍ ولا لحياته))

(البخاري)

لا علاقة لهذا بموت إبراهيم، فقوله هذا أمانة، لأنه لو سكت لكان هذا دجلاً، هي أمانة، فهذه أمانة التبليغ، قال تعالى:

(وَلَوْ تَقَوّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ)

(سورة الحاقة: 44)

لو تكلم كلمة من عنده، لو تكلم كلمة لصالحه، لو تكلم كلمة ليس قانعاً بها، لو تكلم كلمة ليكسب بها منفعة.

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

(سورة الحاقة 44 - 47)

(إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)

(سورة الإسراء: 75)

أمانة التبليغ، هي أمانة أخرى، فالأنبياء أمناء الله في خلقه لا ينطقون بكلمة إلا وفق الحق، أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قال له: يا رسول الله إنك تغضب، فهل أكتب عليك في ساعة الغضب والرضى، فما كان من النبي عليه الصلاة والسلام إلا أن أمسك بفمه وقال: والذي بعثني بالحق هذا اللسان لا ينطق إلا بالحق، في الغضب والرضى، أكتب. يؤكد هذا قول الله عز وجل:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم: 3 - 4)

لذلك قال علماء الأصول الوحي نوعان، وحي متلو، وهو هذا القرآن، ووحي غير متلو، وهو كلام النبي عليه الصلاة والسلام، هذه أمانة التبليغ.

الأمانة الأولى: أمانة التكليف:

أما العلماء فقد ألقى الله على عاتقهم أمانة كبرى، وهي أمانة التبيان الشرع مقنن، وانتهى الأمر، ما على العالم إلا أن يبين للناس ما نقله عن النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك ربنا عز وجل وصف الدعاة إلى الله فقال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب: 39)

(يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

ليس من عندهم شيء، ولا كلمة، ولا حرف،

((ابن عمر، دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

(علل بن أبي حاتم)

قال سيدنا أبو بكر إنما: **<< أنا متبع قول، ولست بمبتدع >>.**

((من كان يعبد محمداً فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت))

(البخاري)

لا يستطيع العالِم أن يتكلم من عنده ولا كلمة ولا حرف، إلا أن يأخذ عن كتاب الله، ووفق ما ينبغي أن يفهمه من كتاب الله، وإلا أن يأخذ عن رسول الله، هذه أمانة أخرى، أمانة التبيان.

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ)

(سورة آل عمران: 187)

الله سبحانه وتعالى قال عنهم:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب: 39)

هؤلاء العلماء الذين يدعون إلى الله عز وجل من صفاتهم الأساسية، وهذه الصفة مترابطة معهم ترابطاً وجودياً، فإذا ألغيت ألغي وجودهم، أنهم يخشون الله وحده، ولا يخشون أحد إلا الله، فلو أنهم خافوا من غير الله، لسكتوا عن الحق، وتكلموا بالباطل، فإذا سكتوا عن الحق، وتكلموا بالباطل فماذا بقي من تبليغ رسالات الله ؟ فهناك أمانة التكليف، أي إنسان حملها:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(الشمس: 9-10)

نفسك أمانة بين يديك، وأكبر خسارة أن تخسر نفسك،

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

(سورة الزمر: 15)

خسر نفسه، وضعها الله بين يديه أمانة فخسرها.

الشيء الثاني أمانة التبليغ: وهي الأمانة التي ألقاها الله على عاتق الأنبياء والمرسلين.

والأمانة الثالثة: أمانة التبيان، وهي التي ألقاها الله على عاتق كل داعية إلى يوم القيامة، فإذا سكت عن شيء إرضاء لزيد، أو عبيد فقد خان الأمانة، إذا تكلم شيئاً ليس قانعاً به، لجلب مصلحة له، فقد خان الأمانة، إذا تكلم بما لا يعلم فقد خان الأمانة، إذا أفتى بما لا يعلم فقد خان الأمانة، إذا لم يتعمق بالعلم، وأبقى أتباعه في جهل فقد خان الأمانة، هي أمانة التبيان، لذلك إما أن يرقى الإنسان إذا دعا إلى الله إلى أعلى عليين، وإما أن يهبط إلى أسفل سافلين ـ إذا لم يدعُ ـ هذه أمانة ثالثة.

أمانة الولاية:

هناك أمانة الولاية: سيدنا عمر بن عبد العزيز، دخلت عليه فاطمة بنت عبد الملك رأته يبكي، وهو يصلي، فقالت له: ما لك تبكي ؟ قال: دعيني وشأني، فلما ألحت عليه، قال يا فلانة: **إني وليت أمر هذه الأمة، فنظرت في اليتيم، والفقير، والأرملة، والمسكين، وذي العيال الكثير، والرزق القليل، وابن السبيل، والمقطوع، والأسير، (فكّر في آلاف الأشخاص) فعلمت أن الله سيحاسبني عنهم جميعاً، فلذلك أبكي والله لو تعثرت بغلة في العراق لخشيت أن يحاسبني الله عنها، لمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر** ؟ هذه أمانة الولاية.

سيدنا عمر لما قال لعبد الله بن عوف: انطلق بنا يا عبد الرحمن نحرس هذه القافلة، قافلة من التجار جاءت المدينة، وأقامت في المصلى، سيدنا عمر سمع طفلاً يبكي فانطلق إلى أمه، وقال: **يا أمة الله اتقي الله، وأحسني إلى صبيك**، ثم رجع إلى مكانه، فإذا به يبكي ثانية، ثم قام إليها وقال: **يا أمة الله اتقي الله، وأحسني إلى صبيك**، فلما بكى المرة الثالثة قال: **يا أمة السوء، مالي أرى صبيك لا يقر له قرار هذه الليلة**، قالت: **يا عبد الله ـ لا تعرفه ـ لقد أضجرتني هذه الليلة دعني وشأني، إنني أحمله على الفطام فيأبى**، قال: **ولمَ تحملينه على الفطام ؟** قالت: **لأن عمر لا يفرض لنا العطاء إلا بعد الفطام**، (يعني التعويض العائلي) فما كان من عمر إلا أن صاح، والألم يعتصر قلبه، **ويحك يا بن الخطاب، كم قتلت من أطفال المسلمين، ثم نادى في الناس**، أرسل منادياً ينادي، ألاّ تعجلوا على صبيانكم، إن العطاء سيفرض لكم حين الولادة، ووقف ليصلي الفجر، فإذا أصحابه لا يسمعون قراءته من شدة بكائه، هذه أمانة الولاية، كان يقول: **ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيمًا، لو أنزل الله أنه معذبٌ واحداً من خلقه لظننت أنه أنا**، هكذا كان يقول عمر رَضِي اللّه عَنْه، كان عمر يقول: **أود أن أذهب من الدنيا لا لي ولا عليّ، هذه أمانة الولاية، وأنت أيها الأخ المؤمن.**

ستحاسب عنهم واحداً وَاحداً، هل أديت لهم حقهم ؟

أمانة التولية:

هناك أمانة أخرى هي أمانة التولية، سيدنا عمر عيّن والياً، وقال له اذهب إلى عملك، واعلم أنك مصروف رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال، فاختر لنفسك، إن وجدناك أميناً، ضعيفاً، استبدلناك بضعفك، وسلمتك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوة، وأوجعنا ظهرك وأحسنا أدبك، وإن جمعت الجرمين الضعف والخيانة، جمعنا عليك المضرتين، وإن وجدناك قوياً أميناً زدناك في عملك، ورفعنا لك ذكرك، وأوطأنا لك عقبك.

ومرة عين والياً، قال له: **ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟** قال: أقطع يده، قال إذاً: **إن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عار، أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه** ـ انظر إلى هذه الأمانة ـ لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإذا وفينا لهم ذلك، تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية، هذه أمانة التولية.

لذلك هناك حديث شريف يقول عليه الصلاة والسلام:

((من استعمل رجلاً على عصابة - أي على جماعة - وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين))

(ورد في الأثر)

حينما تولي، ولو على مستوى معلم بالمدرسة إذا عين عريفاً على هؤلاء الطلاب يجب أن ينتقيه من ذوي الأخلاق الحسنة، لو انتقاه لقرابته، أو لسبب آخر، أو لأن هذا الطالب يقدم له بعض الهدايا، لو عينه عريفاً على هؤلاء الطلاب فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، وعلى هذا فقس، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللّهِ، قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا، قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ))

(أخرجه البخاري)

هذه أمانة التولية.

أمانة الواجب:

أما الأمانة الخطيرة فهي أمانة الواجب المعلم مؤتمن على هؤلاء الطلاب، هل أعطاهم علماً صحيحاً ؟ هل ضيع الوقت عليهم ؟ هل أمضى الوقت من غير فائدة ؟ هل أعد دروسه إعداداً جيداً ؟ الطلاب أمانة في عنق المعلم، والمرضى أمانة في عنق الطبيب، والموكل أمانة في عنق المحامي، هل نصحه بأن هذه الدعوى خاسرة وقال: ويا أخ الطريق مسدود، واذهب، وأعطه حقه، ودع هذا الطريق ! أم قال له المحامي لا، سوف تنتصر عليه، أنا عندي خبرة في هذا الموضوع هات دفعة أولى، يجعله يقف، ويسأل، وينتظر عدة سنوات، وأخيراً يخسر الدعوى، إن هذا الموكل أمانة في عنق المحامي، وأي شيء أي مصلحة أية حرفة، التاجر تأخذ ثمن هذه البضاعة، هل أعطيته بضاعة مقابل هذا الثمن ؟ أم هي دون هذا الثمن، لماذا أوهمته أن هذه البضاعة أجنبية ؟ لماذا أوهمته أن هذه البضاعة لا مثيل لها ؟ إن هذا الشاري أمانة في عنق البائع، لذلك الواجب التاجر، والصانع، والموظف والعامل، صاحب المصلحة، صنعة، هل نصحت له في هذه الصنعة ؟ إن إتقان العمل جزء من الدين، إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه، لماذا لم تتقن هذا العمل ؟ لذلك أي تقصير في العمل، أي مضاعفات له

تسجل على صاحب التقصير، خيانة، هذه أمانة أداء الواجب، شيء كثير يتعلق بالأمانة، يقول عليه الصلاة والسلام مخاطباً رجلاً، سأله أن يستعمله على ولاية. عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللّهِ، ألا تَسْتَعْمِلُنِي ؟ قالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمّ قالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ إِنّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقّهَا وَأَدّى الّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))

(أخرجه مسلم)

هذه بعض النصوص المتعلقة بالأمانة، هذا الحديث رواه الإمام البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((بَيْنَمَا النّبِيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السّاعَةُ ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُحَدّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السّائِلُ عَنِ السّاعَةِ، قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللّهِ، قَالَ: فَإِذَا ضُيّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا، قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السّاعَةَ))

(أخرجه البخاري)

إذا سلّمت إنساناً عملاً، ليس أهلاً له، ليس لديه خبرة غير مستقيم، سلّمت له هذا العمل، عندئذٍ فقد خنت الله ورسوله والمؤمنين، حديث آخر عَنْ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأْتِ الّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفّرْ عَنْ يَمِينِكَ))

(أخرجه البخاري)

أمانة العلاقات الأسرية:

شيء آخر العلاقات الأسرية، عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللّهم عَنْهمَا أَنّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ، وَالرّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيّدِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ، وَالرّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ))

(أخرجه البخاري)

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إذا قعدت المرأة على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

(ورد في الأثر)

إذا استقرت المرأة في البيت، أما إذا أمضت وقتها كله خارج البيت، والأطفال ضاعوا، وشردوا، هذه امرأة لا يحبها الله ورسوله، فإذا قبعت في بيتها ترعى أولادها، فقد أدت ما عليها من أمانة تجاه الله عز وجل.

أمانة المجالس:

هناك أمانة المجالس: إنسان تكلم لك بحديث والتفت التفاته يعني هذا الحديث يجب أن يبقى بينك وبينه، لأن المجالس بالأمانة، إلا أن هناك حالات ثلاث لا تجب أن تراعى فيها الأمانة، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((الْمَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ، إلا ثَلاثَةَ مَجَالِسَ، سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ، أَوْ فَرْجٌ حَرَامٌ، أو اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقّ))

(أخرجه أبي داود)

فلو كنت في مجلس، اتفق الحاضرون على أن يفعلوا فعلاً مشينًا فهذا المجلس ليس بالأمانة، اتفق الحاضرون على أن يسفكوا دماً، هذا المجلس ليس بالأمانة، اتفق الحاضرون على أن يقتطعوا مالاً حراماً، هذا المجلس ليس بالأمانة، إذا إنسان حدثك حديثًا فهو أمانة، لا ينبغي أن يقول لك: هذا الحديث اجعله بيني وبينك، لا ! يكفي أن يتلفت يمنة أو يسرة، وهو يلقي عليك الحديث، تلفته يمنة ويسرة يعني أن هذا الحديث أمانة، وانتهى الأمر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ))

(أخرجه الترمذي)

فالأمين سمي أميناً من مصدر الأمن، يعني الناس يطمئنون إليك، يرتاحون لك، لا يقلقون، أنت مؤتمن على أموالهم، وعلى أعراضهم، وعلى دمائهم، وعلى كل شيء يخافونه، فالمؤمن والأمين من اشتقاق واحد، هو أمين على أموال الناس، معنى أمين على أموال الناس، أحياناً يأخذ إنسان مبلغاً، ويكتب على نفسه هذا المبلغ، فإذا أنكر هذا المبلغ فهناك إيصال، وهناك دعوى، وهناك حجز على أمواله، التعريف الدقيق للأمانة، أن تؤدي ما عليك من دون أن تكون مداناً أمام الناس.

إنسان أودع عندك مبلغاً من المال ومات، وليس معه وصل، وأولاده لا يعلمون إطلاقاً، فلو سكت على هذا المال لا أحد في الأرض يطالبك، ومع ذلك ذهبت إلى الورثة وقلت لهم، إن أباكم قد أودع عندي هذا المبلغ، فكلوه هنيئا مريئا، أن تؤدي ما عليك من دون إلزام، ومن دون مسئولية، ومن دون إدانة، ومن دون مطالبة، فأنت أمين، أما إذا أديت ما عليك، وهناك سند يحجز على أموالك، هذه علاقة تجارية

الأمين أن تعفَ عن أموال الناس، وعن أعراضهم، وعن كل شيء بحوزتك لهم من دون أن تكون مداناً عند الناس، هذا معنى دقيق، لذلك الأمين يخشى الله وحده، ولا يخشى سواه، يؤدي ما عليه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا قَالَ:

((لا إيمَانَ لِمَنْ لا أمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(أخرجه أحمد)

لا إيمان، ينفي النبي عليه الصلاة والسلام عن الرجل الإيمان كله إذا كان ليس مؤتمناً،

((لا إيمَانَ لِمَنْ لا أمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مِنْ عَلامَاتِ الْمُنَافِقِ ثَلاثَةٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ))

(أخرجه مسلم)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

(ورد في الأثر)

الحقيقة أن الأمانة تشمل الأموال، تشمل الأعراض، تشمل الممتلكات، تشمل الحقوق الأدبية، مقالةٌ ليست لك، مجلة قديمة بيضتها، وقدمتها لمجلة لتنشر باسمك، هذه خيانة، أخذت فكرت من كتاب، وعزوتها إلى نفسك، أشر في الحاشية أن هذه الفكرة من الكتاب الفلاني، المؤلف فلان، هناك الأمانة العلمية، هي أيضاً أمانة، فالغش خيانة، لأن التصريح عن البضاعة مخالف للواقع، الغش يدخل في الخيانة، عكس الأمانة، التطفيف خيانة، عكس الأمانة، إذا أعطيته وزناً أقل من الوزن المتفق عليه، هذه خيانة، الغلو، أيام تلاقي بالسحارة ثلثها ورق، ثلثها حشيش، وأخذ على الوزن الكامل، فوق نوع وتحت نوع، والثلث حشيش، والسحارة بالماء وضعت، وزنها ستة كيلو حسبت 2 كيلو فقط، هذه دخلت بالخيانة، الغلول، أخذ الأموال العامة، إبلاغ الرسالات، النصيحة، الأمر بالمعروف النهي عن المنكر، إعطاء الحقوق لأصحابها، العدل، أداء الودائع، هذا كله من الأمانة، لذلك الذي جعلنا نخرج عن كلمة أمانة، نخرج عن سياق الآيات إلى موضوع الأمانة قول الله عز وجل:

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(109))

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ:

لم يقل الله عز وجل: وما أسألكم عليه أجراً، بل قال: من أجر، يعني مهما قلّ هذا الأجر، مهما كان طفيفاً فلا أسألكم عليه، أشد أنواع النفي، من لاستغراق أدق الجزئيات:

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)

حتى بعض الأجر، حتى الأجر المعنوي:

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111))

يبدو أن وجهاء قومه لا يستسيغون أن يجلسوا مع عامة الناس ومع الفقراء والمساكين.

(الأَرْذَلُونَ)

هنا هم الفقراء.

(قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113))

صبر الأنبياء على من اتبعوهم من الفقراء:

يعني أنا ما شأني وشأنهم، أنا علاقتي معهم علاقة الهدى، أما إن كانوا فقراء، أو كانوا أغنياء، إن كانوا وجهاء، أو كانوا مغمورين، هذا ليس من شأني أن أحاسبهم عليه.

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

(أخرجه الترمذي)

هذا الذي تظنه فقيرا، ليس له شأن قد يكون له شأن عند الله لا ترقى إليه النفوس الكبيرة.

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116))

جواب قوم نوح بالتهديد ودعاء نوح ربه بالنصر:

يعني نقتلك.

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118))

يعني احكم بيننا يا رب، وانصرني عليهم.

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122))

كل قوم كذبوا نبيهم، واستخفوا بدعوته أهلكهم الله سبحانه وتعالى عن آخرهم.

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قصة أخرى، ولكن قصة قصيرة متعلقة بالأمانة غابت عن ذهني. أبو لبابة صحابي جليل طلب أن يوفده النبي إلى بني قريظة ليستشيروه فيما هم صانعوا، بعد أن خان بنو قريظة رسول الله، يبدو أنه تكلم معهم، ولكن أشار إليهم إشارة تنبئ بما سيفعل النبي معهم، هذه الإشارة هكذا قال، يبدو أنه شعر أنه خان الله ورسوله، وعاد إلى المسجد، وربط نفسه بسارية المسجد، فكانت تأتيه زوجه فتفكه ليصلي، ويأكل، ثم يعود إلى وثاقه، إلى أن تاب الله عليه بعد تسعة أيام، وأنزل الله فيه قرآنا فقال الله عز وجل:

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة: 102)

فلما نزلت هذه الآية أبى إلا أن يفك النبي عليه الصلاة والسلام وثاقه، لما فك وثاقه، عاهد الله عز وجل على أن ينزل عن ماله كله في سبيل الله، لكن النبي عليه الصلاة والسلام، أمره أن يوزع الثلث فقط فهو أشار إشارة فقط، هذه الإشارة فيها خيانة عظمى.

سيدنا ابن رواحه حينما كان قائداً في مؤتة، وجاء دوره في المعركة تردد ثلاثين ثانية، قال:

يا نفس إلا تـقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صلـيت

إن تفعل فعلهما رضيتِ وإن تولـيت فـقد شـقيتِ

فقاتل حتى قتل، فلما كلم النبي أصحابه قال أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل، وإن لأرى مقامه في الجنة، ثم سكت عليه الصلاة والسلام، فلما سكت قلق أصحابه على أخيهم عبد الله بن رواحه فقالوا يا رسول ما فعل عبد الله ؟ قال: ثم أخذها عبد الله فقاتل بها حتى قتل، وإن لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه، تردد في بذل روحه، **(ثلاثين ثانية)**إنها لأمانة، فأنت أمانة عند الله، ونفسك أمانة بين يديك، وأبناؤك أمانة، وزوجتك أمانة، وعملك أمانة، وهذه الأمانة ربما شملت الدين كله، وربما شملت الحياة كلها، وربما شملت نشاطك كله، كل شيء تفعله، سوف تحاسب عليه، هل أديت ما عليك هل عففت عن ما ليس لك؟ هل أديت واجبك تماماً ؟ هل عرفت نفسك بالله ؟ وأخطر أنواع الأمانة أمانة التكليف.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (08-20): تفسير الآيات 123 - 135
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-09-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن من سورة الشعراء، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135))

كثرة ورود الأمر بالتقوى في سورة الشعراء:

معنى التقوى:

الحقيقة أن الأمر الإلهي بالتقوى ورد في هذه القصة مرات عدة، ولو نظرنا إلى القرآن الكريم، وما فيه من كلمات التقوى ومشتقاتها: اتقى، وقى، يقي، ق، اتقى، يتقي، اتقوا، كلمة التقوى ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمئة مرة، إذاً شيءٌ يجب أن نفهمه فهماً دقيقاً، التقوى من فعل وقى، وفعل وقى من الوقاية إذاً هناك خطر، تقول اتق المرض، اتق الجرثوم، اتق الحفرة، اتق النار، اتق الانزلاق، اتق هذا الخطر، فكلمة وقى تعني أن هناك خطراً كبيراً يتهدد الإنسان، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

(سورة الطور: 18)

وقاهم، إذاً عذاب الجحيم شيءٌ خطير، يجب أن نتقيه.

(وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ)

(سورة غافر: 9)

السيئات يجب أن تتّقى، وعذاب الجحيم يجب أن يُتّقى، وربما كانت السيئات طريقاً لعذاب الجحيم، هذا الفعل المضارع، الفعل الأمر.

(وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة البقرة: 201)

إذاً هناك وقى، ويقي، وق، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(سورة التحريم: 6)

وللمبني للمجهول:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة التغابن: 16)

إذاً هذا الأمر الإلهي الذي ورد ما يزيد عن ثلاثمئة مرة في القرآن الكريم يجب أن نقف عنده.

إن إمبراطور اليابان هذا الذي بنى النهضة الحديثة أرسل طلاباً سبعة إلى ديار الغرب ليتعلموا، يبدو أن الإمبراطور علق على تعلمهم آمالاً ضخمة، علق على تعلمهم آمالاً عريضة، فإذا عادوا إلى بلادهم، وقد خبروا ما في الحضارة الغربية، ربما ساهموا بشكل فعال وإيجابي في النهوض ببلادهم، يبدو أن هؤلاء الطلاب حينما ذهبوا إلى ديار الغرب، دهشوا بالحضارة، ودهشوا بالرفاه والرخاء، وربما انصرفوا إلى شيء آخر غير الدراسة، فلما أخفقوا في دراستهم وعادوا إلى بلادهم، أمر الإمبراطور بإعدامهم، إعداماً تاماً، وأرسل سبعة آخرين مكانهم، هؤلاء السبعة الآخرون في كل حركة وسكنه، وهم في ديار الغرب، يتذكرون ما حل بأسلافهم، فكأنهم يقولون: اتقوا الموت، ادرس كي تتقي الموت، تعلم كي تتقي الإعدام، ذاكر كي تتقي إنهاء الحياة، لا تضيع الوقت، اتق الإمبراطور، اتق عقابه الأليم.

التقوى تعني الحذر المستمر:

كلمة (اتق) في معنى الحذر المستمر، الطائرة مثلاً لها ميزات كبيرة جداً، ولكن الغلط في تصميمها يودي بحياة الركاب، لذلك الوقاية من السقوط يقتضي مضاعفة الاحتياطات، كل جهاز تتوقف عليه سلامة الطائرة، هناك جهازان يعملان في وقت واحد، يعني أي شيءٍ يمكن أن يصيبه العطب، هناك جهاز آخر بديل له، لأن السقوط سقوط مدمر.

الذي أريد أن أنقله إليكم، هو أن الإنسان، أي إنسان، لأنه إنسان أمامه خطر كبير، كيف أن هذا الطالب الذي أوفده ملكه إلى بلاد الغرب ليدرس ويتعلم، ويسهم في بناء أمته ودولته، هذا الطالب لو عاد إلى بلده، وقد أحرز العلم الصحيح لكان في قمة المجتمع، ربما أحد مواطنين اليابان الذين لم يتح لهم، أو لم يطمحوا إلى أن يدرسوا دراسة علية، كان في أمنٍ، وفي طمأنينة، أما هذا الذي طمح ليكون قمة في مجتمعه، ليكون عنصراً فعالاً، وبذلت حكومته من أجله الغالي والرخيص، هذا إذا فرط في مهمته، وضيع أمانته، فسوف يلقى عذاباً شديداً، أردت من هذا المثل والله سبحانه وتعالى يضرب في كتابه

الأمثال، أردت من هذا المثل أن هذا الطالب في كل لحظة، في كل ثانية، في كل حركة، في كل سكنه، في كل موقف، يذكر الذي حل بزملائه السابقين، فربما تنادوا فيما بينهم، يا فلان اتق الإعدام، يا فلان اتق الإمبراطور، يا فلان اتق المصير المحتوم، يا فلان اتق العقاب الأليم، يا فلان، يا فلان، كلمة (اتق) فيها خطر، خطر خطير خطر جاثم.

الآن: رُكِّب الملك من عقل بلا شهوة، المَلَك ليس فيه شهوة، المَلَك ما عنده أمانة حملها، ليس أمامه خطر المعصية، والحيوان ركب من شهوة بلا عقل، لم يكلف، لا يحاسب، ليس مخيراً، ولكن الإنسان ركب من كليهما، لذلك الإنسان ليس أمامه حل وسط، إما أن يكون في أعلى عليين، وإما أن يكون في أسفل سافلين، إما أن يكون فوق الملائكة، وإما أن يكون دون الحيوان، إما أن يسعد سعادة لا يسعدها أحد في العالمين، وإما أن يشقى شقاء لا يشقاه أحد في العالمين، إما أن يكون في قمة المخلوقات، وإما أن يكون في الحضيض.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة: 6 - 7)

إذاً لأنك إنسان، ما دمت من بني البشر، فأنت أمام الخطر لذلك جاءت الآيات الكثيرة، أن أيها الإنسان اتق الله، يعني اتق عقاب الله، فيما لو لم تحمل الأمانة، اتق عقاب الله بطاعة الله، كيف يتقي هذا الطالب حكم الإعدام في بلاده إذا عاد ؟ بالدراسة، كيف يتقي خطر الإمبراطور ؟ بطاعته، يعني أنت أمام خطر، لأنك حملت الأمانة يعني الأمانة، كما قال الفقهاء، الغرم بالغرم، الإنسان مؤهل ليكون أسعد المخلوقات، والكون كله سخر من أجله، لو أنه تقاعس، أو خان الأمانة لكان أشقى المخلوقات، يعني أنت إنسان ليس أمامك حل وسط فو الذي نفسه محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، ونحن الآن في وقت عصيب، نحن في الدنيا، وهذه الدنيا دار ابتلاء، دار امتحان، كل شيءٍ يحل ما دمت حياً ترزق، باب التوبة مفتوح، باب العلم مفتوح، باب العمل الصالح مفتوح، باب إصلاح الماضي مفتوح باب تبرئة الذمة من المخلوقات مفتوح، باب التحلل من المعاصي المتعلقة بحق الآدميين مفتوح.

فيا أيها الإخوة الأكارم، نحن في خطر، خطر أن نقع في شر أعمالنا، خطر أن نعصي الله، نحن في خطر أن نغفل عن اليوم الآخر نحن في خطر أن نغفل عن يوم الحساب، فلذلك وردت كلمة اتقوا الله في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمئة مرة. مثلاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى)

(سورة البقرة: 189)

العلماء قالوا: التقوى نهاية العمل، هناك أعمال في الدنيا لا تعد ولا تحصى، أعمال لكسب الرزق، أعمال ترفيهية، أعمال تجميلية، أعمال تزينية، أعمال علمية، أعمال لإحياء التراث الماضي، أعمال لا

جدوى منها، أعمال لها جدوى، الإنسان يتحرك في الحياة، يستيقظ منذ الصباح، يبحث عن عمل، إما عمل مشروع، أو غير مشروع، عمل جاد، أو غير جاد، عمل هادف أو غير هادف، عمل سامٍ أو عمل منحط، عمل نظيف، أو عمل قذر.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(4))

(سورة الليل: 1 - 4)

أعلى درجة في العمل، أن تتقي الله، أنت جئت إلى الدنيا من أجل أن تطيعه، ومن أجل أن تكون الطاعة ثمناً لسعادة أبدية لا توصف لذلك:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر: 1 - 3)

فكلمة (اتق) تعني أنك تسير بسرعة، أودع الله فيك الشهوات هذه الشهوات أودعها الله فيك لترقى إلى رب الأرض والسماوات، لو أنك تحب المرأة لا تدخل الجنة، لأن هذه الشهوة بها تخالف نفسك.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات: 40)

لولا أن الله زرع في نفسك الهوى، كيف تدفع ثمن الجنة، الله سبحانه وتعالى أعطاك ثمن الجنة، أعطاك هذه الشهوات، إما أن ترقى بها إلى الله صابراً، وإما أن ترقى بها إلى الله شاكراً.

صور تطبيقية للتقوى:

فيا أيها الإنسان اتق الله في شهوتك، يعني اتق السقوط، اتق أن تنفذ هذه الشهوة بطريقة نهى الله عنها، اتق أن تمارس هذه الشهوة بطريقة محرمة، أودعها الله فيك، ولكن الله جل جلاله جعل لكل شهوة أودعها في الإنسان قناة نظيفة لتصريفها، ليس في الإسلام حرمان، أودع فيك حب النساء، وشرع لك الزواج، الزواج عمل نظيف، زوجة وأولاد، بيت إسلامي، تسعد بها، وتسعد بك، وتسعد بأولادك ويسعدون بك، وهناك الزنى، طريق آخر لإرواء هذه الشهوة، فنقول نحن **اتق الله في شهوتك**، يعني اسلك في شهوتك الطريقة التي رسمها الله لك، هذه الشهوة كأنها بنزين، كأنها وقود سائل، خطر، إذا وضعت في مستودعاتها النظامية، وإذا سارت في الأنابيب المحكمة، من المستودع إلى مقدمة السيارة، وإذا انتقلت من هذا الأنبوب إلى جهاز التنظيم، ومن جهاز التنظيم إلى جهاز الاحتراق، فانفجرت في غرفة الاحتراق، حينما انفجرت دفعت المكابس، ودفع هذه المكابس ولد حركة دائرية، نقلت بها نفسك وأهلك وأولادك من جهة إلى جهة، أو نقلت بضاعتك، الانفجار لأنه في مكانه الصحيح، لأنه في

الطريق الصحيح، هذا الوقود الخطر، هذا الوقود المتفجر، لأنه في المكان الصحيح، وفي الطريق الصحيح، وفي الأسلوب الصحيح، ولد حركة ولو أن هذا الوقود السائل ألقي على السيارة، وجاءته شراره، لأحرق السيارة، فالشهوة إما أن تكون قوة محركة، وإما أن تكون قوة مدمرة.

فيا أيها الإنسان اتق الله في شهوتك، فانظر إلى هذه الشهوة التي أودعها الله فيك كيف سمح لك أن تنفذها ؟ كيف سمح لك أن ترويها من خلال الزواج، الإنسان يحب المال، اتق الله في المال يعني يجب أن تكسبه بطريقة يرضاها الله عز وجل، من طريق مشروع، من طريق المعاوضة، بالبيع والشراء، لا من طريق الربا لا من طريق الاحتكار، لا من طريق الاستغلال، لا من طريق الكذب لا من طريق التدليس، من طريق العمل المشروع.

أيها الإنسان اتق الله في كسب المال، أيْ اتق عذاب الله إذا كسبت المال بطريقة غير مشروعة، ويا أيها الإنسان اتق الله في إنفاق المال، يعني اتق عذاب الله فيما لو أنفقت المال بطريقة غير مشروعة هي معنى اتق، اتق شهوة المرأة، وشهوة المال، وشهوة العلوّ في الأرض، هذه شهوة مدمرة، اتق الله فيها، اجعل علوك في الأرض من طريق العلم والعمل والخلق، لا من طريق التعدي والجناية والتسلط، اجعل علوك في الأرض علواً عفوياً، كن محسناً، يحبك الناس، يرفعوك، ولا تجعل علوك في الأرض عن طريق الغصب والقهر والعدوان، فكلمة اتق الله يعني ابحث عن الطريق المشروعة التي رسمها الله عز وجل لإرواء هذه الشهوات، التي بها ترقى إلى رب الأرض والسماوات.

اتق الله في المرأة واليتيم، فهذه الزوجة التي ملكك الله إياها اتق الله بها، يعني عاملها كما أمر الله.

(وَعَاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء: 19)

واصبر عليها، لا تكن ظالماً لها، لا تكلفها ما لا تطيق، لا تحمل عليها، لا تكرهها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ، أَوْ قَالَ: غَيْرَهُ))

[أخرجه مسلم]

اتق الله في زوجتك، عاملها كما يريد الله عز وجل أن تعامل، عاملها بالإحسان، أكرموا النساء فوا الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً، لا أن أكون لئيماً غالباً، هذا معنى اتق الله، فهذه الشهوات التي أودعها الله بك يجب أن تؤمن، وأن تتيقن من أنه ما أودعها فيك إلا لترقى إليه، لو أنك لا تحب المال، كيف تتقرب إلى ذي العزة والجلال ؟ كيف ؟ أما إذا كنت تحب المال، وأنفقت هذا المبلغ لوجه، الله ولم يدر به أحد، لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك، أعطيت هذا المال على حبه، أطعمت الطعام على حبه، قدمت المال على حبه لا تبتغي

ثناءً ولا شكوراً، إذاً أنت اتقيت الله في المال.

كلمة (تقوى)رائعة جداً، المال معناه خطر المال، المال قنبلة، إذا أحسنت استخدامها، كنت خبيراً بها، قتلت بها عدوك في الحرب أما إذا كنت جاهلاً بها قتلت بها نفسك، فاتق الله في هذه القنبلة، يعني تعلم كيف تستخدم، مثلاً، فكلمة اتق الله ؛ أي تعلم الطريقة التي رسمها الله لهذا النشاط، لهذا الموقف، هذه واحدة.

هذا الكون الذي خلق الله عز وجل، هل اتقيت الله فيه ؟ لماذا خلقه ؟ لماذا خلق السماوات والأرض ؟ لماذا خلق هذه المجرات ؟ لماذا خلق هذه المذنبات ؟ لماذا خلق هذه الأجرام ؟ لماذا خلق هذه المسافات؟ التي لا يعلمها إلا الله، من أجل أن تعرفه، فإذا لم تفكر في الكون فقد عطلت الحكمة من خلقه، وكان الإنسان الذي لا يفكر في مستوى الحيوان، يأكل، ويشرب، يعيش ليأكل، فالكون يحتاج إلى تفكر، إذا فكرت بالكون، وعرفت رب الكون، فقد اتقيت الله بالكون.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج: 1 - 2)

شيءٌ آخر، إذاً الكون مسخر من أجل الإنسان، مسخر كما قلنا من قبل تسخير تعريفٍ، وتسخير تكريم، إذاً لا بد أن أؤمن بالله من خلال الكون، فإذا عطلت فكري عن النظر في خلق السماوات والأرض ربما كان هذا ندامة وبيلة، وخسارة فادحة يوم القيامة، فاتق الله في الكون، يعني أمرك أن تفكر في الكون، فكر به فاتق الله في الكون.

هذه الحرية التي منحها الله لنا، حرية الإرادة، هذه إما أن تستخدم بالعدوان على الناس، وإما أن تستخدم بالعمل الصالح، فإذا أحسنت استخدام هذه الحرية التي منحك الله إياها، والتي كرمك بها على المخلوقات كلها، فقد اتقيت الله في هذه الحرية، الإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، أنت مقيد، مقيد بالشرع، فإذا كنت مخيراً وإذا كنت ذا إرادة حرة، هذا ينبغي أن يكون مقيداً بالشرع، من أجل أن تثمن أعمالك وترقى بها إلى أعلى عليين، كيف يثمن العمل ؟ إذا كان صاحبه مختاراً فإذا ألغي الاختيار، ألغي الثواب، وألغي العقاب، وألغي التكليف، فحينما تكون مختاراً يجب أن تحسن الاختيار وبهذا تتقي الله، بعض الآيات التي تتحدث عن التقوى، الآيات كثير جداً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

(سورة الأنفال: 29)

حُكْم الله في هذا الموضوع معروف، أنت مأمور أن تغض بصرك، هذا حكم الله، فإن غضضت بصرك يجعل الله لك فرقاناً كيف ؟ كيف العلاقة بين غض البصر مثلا، وبين الفرقان الذي وعد الله به

المؤمن، إنك إن غضضت بصرك عن محارم الله، وكنت عبداً لله في هذا الأمر، وأطعته تشعر أنك من الله قريب، هذا القرب الإلهي يورثك نوراً يلقى في قلبك، ثمن طاعة الله عز وجل نورٌ يقذفه الله في القلب، وهذا النور الذي يقذفه في قلبك تكشف به الحقائق تكشف به الخير من الشر، تكشف به الحق من الباطل، تكشف به ما يصح، وما لا يصح، وحينما أطعت الله عز وجل كان ثمن هذه الطاعة أن ألقى الله في قلبك نوراً، أسعدك هذا النور، وجعل قلبك مبصراً، لأن الله عز وجل يقول:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج: 46)

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

أيْ إن تتقوا عذابه بطاعته يعني أدق معنى للتقوى، تتقي عذابه بطاعته.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أيْ اتقوا عذاب ربكم، لأنه عذاب بالعدل، وبالحق.

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أي اتقوا عذاب ربكم عن طريق اتباع منهجه، لا ملجأ من الله إلا إليه.

ثمة أم رحيمة، ولكنها شديدة في الوقت نفسه، فابنها لا يتقي غضبها وعقابها إلا بطاعتها، وهذا معنى حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلا إِلَيْكَ))

(أخرجه البخاري)

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة: 21)

العبادة طريق النجاة:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

يعني لا تتقون عذاب النار، لا تتقون عذاب الخزي والعار، لا تتقون السيئات في الدنيا، لا تتقون المصائب، لا تتقون سخط الله، إلا بطاعته، فيا أيها الناس:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

فالعبادة طريق التقوى، والتقوى هي النجاة، والتقوى من الوقاية.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة: 179)

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

في العقاب، في العقاب حياة للنفس:

أولا: إذا عاقبنا المذنب ردعنا بقية الناس عن الوقوع في هذا الذنب فكأنهم في حياة، إذاً إذا عاقبتم المذنب فهذا وقاية للمجتمع،

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وقال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة: 183)

إذا صامت جوارحكم عن المعاصي، وصمتم عن الطعام والشراب، تقربنا إلى الله عز وجل، لعل هذا العمل يكسبكم هذا الإقبال على عز وجل، وفي هذا الإقبال تحصل النجاة من عذابه، هذا معنى قوله تعالى:

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وقال عزوجل:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق: 2)

من يتق الله في تجارته، يجعل الله له مخرجاً من الأزمات التي تطحن التجار أحياناً، هؤلاء الذين يخالفون أوامر الشرع في البيع والشراء، وفي العلاقة بالناس، هؤلاء يقعون في شر أعمالهم، لكن الذي يتقي الله في تجارته يجعل الله مخرجاً من كل ضيق في عمله.

والذي يتقي الله في زواجه فيختار المرأة الصالحة، لا الحسناء في المنبت السوء، يختار المرأة الصالحة، ولو كانت أقل حسن من امرأة أخرى في منبت سوء، هذا الذي اتقى الله في زواجه، سيقيه الله من الحالات المدمرة التي تلاحق الأزواج غير المؤمنين الذين أرادوا من الزواج المتعة فقط، ولم يعبؤوا بشرع الله، ولا بحلاله، ولا بحرامه.

إذا:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

فالتقوى أن تتقي عذاب الله بطاعته، والطاعة درجات، هذا الذي ترك الكبائر هي درجة هذا الذي لا يسرق، ولا يزني، ولا يشرب الخمر، هذه درجة، هناك إنسان يترك الكبائر والصغائر، هناك إنسان يترك الكبائر والصغائر والخواطر، هناك إنسان يتقي الكبائر والصغائر والخواطر وما سوى الله فالتقوى درجات والدليل قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران: 102)

كلما ارتفع مستواك في الإيمان، يرتفع مستواك في التقوى، والتقوى هي طاعة الله في حركاتك وسكناتك، في تحركاتك، في نزهاتك، في أوقات لهوك، في عملك، كلما ارتفع مستوى المؤمن دقت الجزئيات التي يتقي الله فيها، لذلك قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين، ربما كانت هذه عند زيد حسنة، وعند عبيد سيئة، الأوامر لها مستويات.

كيف يطيع الإنسان ربّه ؟

شيء آخر متعلق بالتقوى، وهو الشيء المهم جداً، كيف يطيع الإنسان ربه ؟ هذا كلام دقيق، وسؤال خطير، لماذا زيد يطيع وعبيد لا يطيع ؟ قد يجتمع رجلان في مجلس، ويتلى على أسماعهم أمر الله، يتلى أمر الله في موضوع ما، لماذا يطيع فلان ولا يطيع فلان ؟

الجواب: إنك لن تطيع إلا إذا عرفت من هو الآمر، أنت في الخدمة الإلزامية، ومقدم على عيد، وتطمح بإجازة، لتمضي العيد بين أهلك جاءتك ورقة مكتوب عليها: لا تغادر الثكنة، ابقَ في الثكنة، التوقيع صديقك فلان، لا تعبأ بهذا الأمر، لو أن الموقع فلان متقدم عليك في الدورة، وله سلطة صار الأمر مهماً، كلما ارتفع مستوى الآمر عظم عندك الأمر، فإذا رأيت ورقة كتب عليها لا تغادر الثكنة، التوقيع قائد الوحدة، وتعلم علم اليقين أن في المغادرة سجن وتأخير في إنهاء الدورة ... إلخ، عندئذ تنفذ الأمر، إنك لن تنفذ الأمر إلا إذا عرفت من هو الآمر، وما حجم هذا الآمر، وما عنده من عقاب وما عنده من ثواب، إذا عرفت بالضبط من الآمر، وما حجمه وما رتبته، وما العقاب الذي بإمكانه أن يوقعه بك، وما الثواب الذي بإمكانه أن ينقله إليك، عندئذ تطيعه، لذلك لماذا لا يطيع الناس ربهم ؟ لأنهم لا يعرفونه، والله لو عرفوك يا رب لأطاعوك، لكنهم ما عرفوك يا رب، ما عرفوا ماذا يعني مخالفة أمرك، ما عرفوا ماذا تعني طاعتك تعني طاعتك سعادة الدنيا والآخرة، تعني طاعتك التوفيق في كل شيء تعني طاعتك، يا رب أن يسعد هذا الإنسان بها، سعادة لا توصف يعني يجب أن تقول، إذا كنت مطيعاً لله حقاً، واللهِ ليس في الأرض من هو أسعد مني، في أي ظرف، في أي مكان، في أي زمان، لأن الخير كله في طاعة الله، والشر كله في معصيته، ولو رأيت إنساناً واحداً يعصي الله وهو سعيد ـ حقيقة لا شكلاً ـ فهذه الآية ليست من كتاب الله، وحاش لله،

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه: 124)

و:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: 97)

إذاً: الشيء المهم أنك لن تطيع الله إلا إذا عرفته، ولن تطيعه أيضاً إلا إذا عرفت أمره، إذاً من أجل أن تطيعه، من أجل أن تتقي الله أي أن تتقي عقابه بطاعته، يجب أن تعرفه أولاً، ويجب أن تعرف أمره ثانياً، ربما تعرفه إذا فكرت في خلق السماوات والأرض، أو تعلمت من أولي العلم عنه الشيء الكثير، إما أن تفكر، وإما أن تستمع، إما أن تدرس، وإما أن تتأمل، لا بد من أن تلقي السمع، ولا بد أن تعقل.

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق: 37)

فلذلك أيها الإخوة الأكارم... موضوع معرفة الله شيء مصيري، ما لنا خيار فيه، يعني فلان يحمل دكتوراه مثلا، متى أخذها؟ أخذها، وهو نائم، أخذها بالتمني، أخذها بالطموح، أما أخذها بالكد والعمل، أخذها في سنوات سبع، هذا سؤال خطير، أنت مؤمن يقول لك: نعم والحمد لله، تقول له متى آمنت ؟ أي وقت خصصته كي تؤمن، متى عرفت الله ؟ كم كتابًا قرأت ؟ كم مجلس علم حضرت ؟ كم عالمًا التقيت؟ متى عرفت الله عز وجل ؟ لا يمكن أن تأخذ شهادة من أهل الأرض إلا بجهد جهيد، وبعرق شديد، وبوقت مديد، أما أن تعرف الله بلا جهد، وبلا وقت وبلا تعب، وبلا نصب، وبلا جلوس على ركبتيك في المساجد، وبلا قراءة طويلة، وبلا سؤال عريض، لا تعرف الله، إذا لم تكن تعرفه فلا تطيعه، لا تعبأ بأمره، يقول لك حط بالخرج، لا تدقق، من هون ليوم الله يفرجها الله، مثل الناس يا أخي أنا، حط رأسك بين الروس، وقول يا قطاع الروس، هذا كلام العوام هذا، كلام الجهل، كلام فاضح، أنت الآن في الحياة الدنيا، أمامك موت، وهذا الموت شيء مخيف من كل شيءٍ إلى لا شيء.

" كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذي العزة والجبروت "، " الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر"، " العمر مهما طال فلا بد من نزول القبـر ".

واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا.

قلت مرة: هذا الطالب الذي أحرز الدرجة الأولى على القطر في الثانوية العامة، لماذا أحرز هذه الدرجة ؟ لأن الامتحان، وصورة الامتحان، وشبح الامتحان، ووقت الامتحان، وخطورة الامتحان، وما وبعد الامتحان، ما غادر ذهنه ولا دقيقة، طوال العام الدراسي كلما هم أن يضيع وقتاً تذكر الامتحان، كلما هم أن يمضي وقتاً مع أصدقائه تذكر الامتحان، كلما همّ أن يقرأ قصة لا قيمة لها تذكر الامتحان، كلما هم أن يخرج من البيت تذكر الامتحان، والذي ينجو من الموت هو الذي يفكر في الموت، لذلك عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:

((كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَار، فَسَلّمَ عَلَى النّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، ثُمّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ أيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ قَالَ: أَحْسَنُهُ خُلُقًا، قَالَ: فَأيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ، قَالَ: أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ))

(أخرجه ابن ماجة)

لكن هذا الذي يعد العدة للقاء الله عز وجل سوف يكون الموت في حقه عرساً، الإنسان له عرس في الدنيا، يقول لك شهر عسل، قد يكون شهر بصل، هذا العرس تأتي بعده المتاعب، ولكن عرس المؤمن لا تعب بعده إطلاقاً، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبة، لا كرب على أبيك بعد الموت، لا يوجد كرب أبداً، **" اتقوا الله "** يعني اتق عذابه بطاعته، اتق النار بالهروب من أسبابها، اتق الله بطاعته، لا ملجأ منه إلا إليه.

من طرق معرفة الله:

1 - التفكر في الكون:

شيءٌ آخر، الآن لابد من أن تعرفه، لابد أن تفكر في الكون من أجل أن تعرف من هو الله عز وجل، من هذا الذي يأمرك أن تغض بصرك عن محارمه، من هذا الذي ينهاك، هو الله رب العالمين، مجرات، سماوات، أرضين، شمس، قمر، خلق دقيق خلق عظيم، خلق مبدع، خلق متناه في العظمة، هذا الذي خلقك يأمرك، وهذا خلقك ينهاك، لذلك لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت.

2 – معرفة أمر الله:

المرحلة الثانية: لابد من أن تعرف أمره، بالبيع والشراء، اسأل: هذه الطريقة بالبيع صحيحة أم غلط ؟ يقرها الشرع أم لا يقرها ؟ ترضي الله أم لا ترضي الله ؟ هذه الطريقة في الشراء، وهذه الطريقة في البيع، وهذه الطريقة في التعامل، في بيعك وشرائك، في وظيفتك، في عملك في صنعتك، بدكانك، في وظيفتك، في معملك، وراء مكتبك، مع أهلك، مع أولادك، ما حكم الله، طرق الباب جاءت امرأة أنظر إليها أم لا أنظر، أدخلها أم لا أدخلها، ما حكم الله في هذا الأمر، يجب أن تعرف الحلال والحرام، في كل مناحي الحياة، لذلك طلب الفقه كما قال عليه الصلاة والسلام:

((حتم واجب على كل مسلم))

عرفت الله يجب أن تعرف أمره، لابد من معرفته أولاً، ولابد من معرفة أمره ثانياً، من أجل أن تطيعه، فتتقي عذابه، من أجل أن تكون من المتقين، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة: 112)

من علامة إيمانكم طاعتكم لله عز وجل، فهذا الذي لا يطيع الله لا يعرفه أبداً، ليس مؤمناً به، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله))

(ورد في الأثر)

خشيتك لله علامة معرفتك له، ولا يمكن أن أصدق أن إنساناً يعصي الله قصداً، ويقول: أنا أعرفه.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال بديـع

لـو كان حبك صادقا لأطعته إن المـحب لمـن يحب يطيع

* * *

إذاً:

(اتَّقُوا اللّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة: 112)

(وَاتَّقُوا اللّهَ الّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة المائدة: 96)

المصير عنده، وجودك في الدنيا مؤقت، أنت ضيف، والدليل اقرأ النعايا كلها، كتب عليها وسيشيع إلى مثواه الأخير،البيت مثوى موقت، لا يعرف الواحد يبقى فيه أم ينتقل إلى غيره، يموت فيه أم بغيره أن بغسل بالبيت لا يعرف ؟ بالحمام بالمطبخ، هذا البيت موقت والمثوى الأخير هو القبر، إذاً ماذا يوجد في القبر ؟ يقول ربنا:

((عبدي رجعوا، وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت))

(وَاتَّقُوا اللّهَ الّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة المائدة: 96)

المصير عنده، تذهب إلى أمريكا، تذهب إلى اليابان، تذهب إلى أفريقيا، تصعد إلى القمر، تغوص بالبحر، إليه تحشر، بالنهاية لعنده أينما ذهبت.

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

(الطبراني في الأوسط عن سهل بن سعد بسند حسن)

(وَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

(سورة الحجرات: 10)

ملخص الدرس:

كملخص دقيق للدرس: أن كلمة التقوى ومشتقاتها وردت في القرآن كم قلت قبل قليل أكثر من ثلاثمئة مرة، وكلمة التقوى توحي أن هناك خطراً خطيراً، يتهدد الإنسان، لأن الإنسان حمل الأمانة، وهو معد ليكون أكرم المخلوقات وأسعدها، لكن إذا خالف الأمانة ولم يحملها حق حملها، وخانها، سوف يكون أشقى المخلوقات، من هنا جاءت كلمة التقوى، اتق عذاب الله بطاعته، التقوى تعني أن تطيع الله، لذلك قالوا نهاية العمل التقوى، نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى.

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب: 71)

ليكن همك الأول أن تطيع الله في كل شيء، في علاقاتك الشخصية، في علاقاتك التجارية، في علاقاتك مع من هم فوقك، مع من هم دونك، في كل شأن من شؤون حياتك، إذا أطعت الله فقد اتقيته، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتّقِينَ)

(سورة التوبة: 4)

إذا أردت أن يحبك الله عز وجل فثمن محبة الله أن تكون تقياً، والآية الثانية:

(أَمْ نَجْعَلُ الْمُتّقِينَ كَالْفُجّارِ)

(سورة ص: 28)

هل يُعقل، وهل تقبل على الله عز وجل، أن يعامل المتقي كالفاجر ؟ هذا الذي يتقي غضب الله، يتقي سخطه، يتقي معصيته يتقي عذابه، كإنسان فاجر، لا يبالي، إذاً كلمة التقوى حيث ما وردت قد ترد في حق الناس عامة، والدليل:

(يَا أَيُهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

وقد ترد في حق المؤمنين:

(يَا أَيُهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ)

وقد ترد في حق المؤمنين في درجات متفاوتة:

(يَا أَيُهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ حَقّ تُقَاتِهِ)

وأيضاً:

(وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِ)

(سورة الحج: 78)

ارفع مستوى الطاعة إلى أعلى درجة، وربنا سبحانه وتعالى يطمئن المتقين بأنهم سوف ينجون من عذاب الله بقوله تعالى:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر: 61)

فإذاً كلمة **(تقوى)**معناها أن هناك خطراً، بالدنيا والآخرة، إتلاف المال، دليل أن صاحبه لم يتق الله، لم يتق الله في كسبه فأتلف الله له ماله، الشقي في بيته، هذا ما اتقى الله في زواجه فصار في بيته شقياً، إن لكل سيئة عقاباً، ملخص الملخص ما من مشكلة على وجه الأرض في المجتمع البشري إلا بسبب خروج عن منهج الله عز وجل، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل والله سبحانه وتعالى خلق الكون، ونوره بالقرآن:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: 35)

هناك إشارات، وتوضيح، أنت خلقت لكذا وكذا إن فعلت هذا نجوت، إن فعلت هذا هلكت، طاعة الله في كذا وكذا، ومعصيته في كذا وكذا، فربنا عز وجل أعطاك هذا الكتاب هذا الكتاب منهج دقيق، أفعل ولا تفعل، فهو لنشرة تعليمات، تعليمات الصانع هذا الدفتر، أنت من صنعك ؟ الله عز وجل:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: 88)

أنت صنعك الله عز وجل، وهذا الكتاب تعليمات الصانع، فإذا أطعت الله في تعليماته، نجوت من عذابه، تكون متقياً، وإذا خالفته في تعليماته وقعت في شر عملك، وإذا كنت تحب نفسك وذاتك، إذا كنت تحب وجودك، وتحب استمرار وجودك، وتحب سلامة وجودك وتحب كمال وجودك، فاتق الله، أي اتق عذابه بطاعته.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (09-20): تفسير الآيات 123 - 140
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-09-15

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة هود عليه السلام:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة الشعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قصة سيدنا هود، يقول الله عز وجل:

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130))

ربنا سبحانه وتعالى يصف أهل الكفر بأن المتعة في الدنيا واقتناص اللذة فيها هي الهدف الأول، وأن علاقة أهل الدنيا علاقة المعرضين عن الله عز وجل بخصومهم، علاقة البطش والتدمير، فهو بين أن يكون غارقًا في لذاته، وبين أن يكون بطاشاً لأعدائه.

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ

المصانع كما قال عنها العلماء هي الحصون، وقال بعض العلماء هي البيوت، وقال بعضهم الآخر: المصانع ؛ هي مستودعات المياه الضخمة، على كلٍ أهل الدنيا يعملون للدنيا وكأن الموت شيءٌ لا علاقة لهم به.

المعاصي قوطع الصلة بالله تعالى:

المشكلة أن الذي يقطع الإنسان عن الله عز وجل هي المعاصي والذنوب، والمعاصي والذنوب، لها بحث طويل، ما الذي جعل هذا الإنسان يؤثر الدنيا على الآخرة ؟ هو أنه لم يذق طعم القرب، المعاصي التي تلبس بها، جعلت بينه وبين الله حجاباً، المعاصي كما قيل بريد الكفر، المعاصي حجاب بينك وبين الخالق، المعاصي تجعل صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض، فالحديث عن المعاصي حديث دقيق

يعني من السذاجة أن تظن أن المعاصي كلها من نوع واحد، المعاصي متفاوتة، والعصاة متفاوتون، إذا فهمت فهماً دقيقاً ماذا تعني المعصية وما درجات المعصية، وما حالات العصاة، وقفت موقفاً معتدلا، وموقفاً علمياً، لأن كل إنسانٍ إذا وجدته قد ارتكب معصية فكفرته فقد وقعت في حرج كبير، ما الذي تقع به ؟ أن ترى أن الناس كلهم كفار، وأن الناس كلهم بعيدون عن طريق الحق، وأنه لا جدوى منهم، بهذا تبتعد عنهم ابتعاد الزاهد والمتكبر، لكنك إذا عرفت أن للمعاصي أنواعاً منوعة، هناك درجات للمعصية، وهناك درجات للعصاة، هذا البحث نقف عنده قليلاً فلعل الله سبحانه وتعالى ينفعنا به.

قبل كل شيء، حينما يفتح إنسان محلاً تجارياً، أو محلاً لإصلاح السيارات، وحينما يعتقد أن كل عطبٍ يصيب السيارة هو بسبب نقص في الوقود، فقط، ليس عنده إلا تفسير واحد، فإذا جاءه صاحب سيارة يشكو له أنها توقفت، يقول له من قلة الوقود، هذا تفسير واحد لتوقف السيارة، أما أحياناً يكون المستودع قد عبئ كاملاً إلى القمة، ومع ذلك تقف السيارة، إذاً هناك أسباب كثيرة لتوقف السيارة، لا يمكن أن نفسر كل أنواع التوقف تفسيراً واحداً، أو بصفة واحدة، فهذا الموضوع دقيقٌ جداً، وينبغي أن نقف عنده قليلاً.

الإنسان لأنه إذا رأى معصيةً، فشعر أنه فوق هذا المستوى، يعني عير أخاه بها، ربما عافى الله سبحانه وتعالى أخاه وابتلاه، انظر كلام سيدنا يوسف ماذا قال:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف: 33)

حتى إن موقف المؤمن من إنسان عاصٍ يكون متوازياً، هناك موقف فيه تكبر، وهناك موقف فيه أدب، فلذلك العلماء قسموا العصاة، أو قسموا حالات العصاة أمام المعاصي إلى أنواع كثيرة.

أنواع العصاة أمام المعاصي:

1 – العصاة الجهّال:

أول نوع من العصاة هؤلاء هم الجهال ينطلقون إلى المعاصي كما ينطلق الجائع إلى الطعام، لا يفرقون بين طعام حلال، أو طعام حرام، طعام طيب، وطعام سيئ، طعام يجوز أكله، طعام لا يجوز أكله، إنسان جائع ينطلق إلى طعامه، من دون أي اعتبارٍ آخر، قال العلماء هؤلاء هم الجهال، وهؤلاء يشبهون في انطلاقهم إلى الشهوات، وإلى المعاصي، الحيوانات، الحيوان ركب من شهوة فقط، فحيثما

وجدت بغيته من طعام، أو شراب، أو لذة انطلق إليها وكفى، فالذي ينطق إلى المعصية من دون توقف، من دون تبصر، من دون سؤال من دون تأمل، من دون أن يسأل نفسه، هل هذه معصية، ما نوع هذه المعصية ؟ هل ترضي الله ؟ هل يرضي الله أن أعصيه، أو لا يرضيه، هذا الذي لا يعبأ، ولا يفكر في خالقه، ولا في نوع عمله، ولا في مؤدى معصيته، هذا إنسان مستواه في مستوى البهيمة.

بالمناسبة هناك موضوع دقيق جداً، الإنسان ما الذي يحركه ؟ أنت تتحرك نحو أشياء ترغب بها أو تحبها، ما الذي يجعلك تتحرك نحوها هو شيء واحد، هو أنك تملك تصوراً في ذهنك حول هذا الشيء إذا تصورت أن أخذ هذا المال بشكل غير مشروع، يعد ذكاءً، ويعد مكسباً، ويعد غنيمةً، ويعد مردوداً كبيراً بجهد قليل، إذا تصورت هذا فعلت هذه المعصية، هذا التصور الفاسد، فالإنسان دائما، الذي يدفعه إلى السرقة، أو يدفعه إلى أكل المال الحرام، أو إلى كسب أموال بالباطل، أو إلى أكل أموال الناس بالباطل، سوء تصوره للمال، المال له طريق مشروع نأخذه، وهناك طريق غير مشروع، إذاً الموضوع هو أن الذي يجعلك تتحرك حركة صحيحة، صحة التصور، والذي يجعلك تتحرك تحركاً مغلوطاً خطيراً، هو سوء التصور، أضرب على هذا مثلاً.

يوجد في السيارة مصباح أحمر اللون، إذا تألق معنى ذلك أن الزيت في المحرك قد قل عن المستوى الضروري، يجب أن تقف فوراً، وأن تضيف الزيت إلى المحرك، إذا تصورت أن هذا المصباح عندما يتألق، إنما يتألق من أجل أن يسليك في الطريق، هذا التصور ينتهي بك إلى إتلاف محرك السيارة، الذي يملك تصوراً صحيحاً لسبب تألق هذا المصباح الأحمر هو الذي يصون محركه، والذي لا يملك هذا التصور الصحيح هو الذي يتلفه.

إذاً ما الذي يجعلك تنطلق نحو الأهداف الصحيحة، وفق الوسائل الصحيحة ؟ هو أن تملك تصورات علمية ما هو العلم ؟ العلم ؛ علاقة ثابتة بين شيئين، مقطوع بصحتها، عليها دليل تطابق الواقع، أي شيء خالف الواقع يسميه العلماء الجهل، الجهل ما خالف الواقع، فإذاً كل تصورتك من أجل ألا تكون موصوفة بالجهل يجب أن تكون واقعية بكسب المال، بإنفاق المال، بالنظر في الطريق، في علاقتك مع الجار، أحياناً تكون علاقتك معه أنت أقوى منه، فتشعر أن قوتك تدعوك لتأخذ ما ليس لك، وأن هذا من قبيل المكان العلية في الحي، أنت إنسان قوي، وها قد أخذت شيئاً ليس لك، هذا التصور المغلوط يدفعك إلى المعصية، والمعصية تستوجب المعاقبة، إذاً الذي يدفعك، ويحركك نحو العمل الصحيح التصور الصحيح، في كسب المال، في إنفاق المال في علاقاتك بالنساء، علاقاتك بالجيران، علاقاتك بالزبائن، علاقاتك بكل إنسان، فالجهل تصور مخالف للواقع.

الحقيقة العلمية التي هي علاقة بين شيئين يجب أن تكون قطعية، فإن لم تكن قطعية فهذا هو الشك، والشك خمسون بخمسين، والوهم ثلاثون بسبعين، والظن سبعون بثلاثين، يعني أنت إذا لست متأكداً،

الحقيقة لما الإنسان يكون متردداً، في قبول فكرة هذا التردد يمنعه من أن يأخذ بها، يجب أن تكون تصوراتك للأشياء أولاً: مطابقة للواقع ثانياً: مقطوع بصحتها، ثالثاً: توافق المنطق، رابعاً: عليها دليل.

إذا أردت أن تجعل كل تفكيرك ومعارفك، ومعتقداتك، وقيمك من هذا النوع، فإن هذا الموقف العلمي يقودك شيئاً فشيئاً إلى التصرف الصحيح، ومن هنا فسر العلماء قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: 28)

لو أنك اطلعت على ما في الجراثيم من أمراض خطيرة، واطلعت على طرق العدوى، إذا اطلعت على هذه المعلومات اطلاعاً صحيحاً، فإن هذا يدفعك إلى أن تنظف الأشياء تنظيفاً تاماً، وأن تعقمها، فالسلوك الصحيح أساسه معتقد صحيح، الآن في عندنا قاعدة، العقيدة الصحيحة لا بد أن تثمر عملاً صحيحاً، والعقيدة الزائغة لا بد أن تثمر عمل منحرفاً، فهناك علاقة ترابطية بين صحة المعتقد، وبين صحة العمل، هذه علاقة ترابطية، أي خلل في العقيدة، ينتج عنه خلل في السلوك، أي خلل في السلوك أساسه خلل في العقيدة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون: 1 - 2)

هو نفسه،

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: 50)

العصاة من الدرجة الأولى، هؤلاء مشهدهم للمعصية مشهد الشهوة الحيوانية، هؤلاء ينطلقون إلى المعاصي من دون قيد أو شرط من دون توقف، من دون تريث، من دون تأمل، من دون مراجعة، من دون معاتبة، من دون محاسبة، هؤلاء هم أخطر نوع من العصاة لا يزال الله عز وجل يمدهم حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، من هنا تأتي بعض المصائب، مصائب قصمٍ، يعني هذا أعماله كلها سيئة يعيش ليقتنص الملذات، يعيش ليأكل، يعيش ليستمتع، بشكل صحيح أو غير صحيح، مقبول أو غير مقبول، من شيء مشروع أو غير مشروع، هذه الدرجة الأولى.

2 – الطبيعيّون:

الدرجة الثانية من العصاة: هؤلاء بعدوا عن الدين، ورأوا أن الإنسان له طبيعة خاصة، إن فعل هذا، فهو يفعل هذا تلبية لحاجاته النفسية، إنه بحاجة إلى المرأة، فإذا غازل امرأةً مثلاً فهذا ميل طبيعي، وحالة صحية، هؤلاء الذين يبحثون عن قواعد النفس البشرية بعيداً عن أوامر الدين، بعيداً عن نواهيه،

ربما ينصحون بعض المرضى باتخاذ صديقات، بعض علماء النفس، بعض أطباء النفس ينصحون بعض مرضاهم باتخاذ صديقات، هذا في مفهوماتهم، وفي تصوراتهم فهم بعيدون عن أوامر الدين، وعن نواهيه، إنما ينطلقون من أن هذا الإنسان كائن يعيش ليأكل، ويعيش ليستمتع، فهذا شيء طبيعيٌ من طبيعته، ولا شيء عليه، هؤلاء الذين غفلوا عن حقيقة الدين، وعن حقيقة الحياة، وعن جوهر الدين، هؤلاء ينطلقون إلى اقتناص الملذات بدافع من أنها شيء طبيعي لابد منه يحقق توازناً في الحياة النفسية، هذا نوع آخر من العصاة، نمط غربي، يعني ليس عنده قيود، كل شيء مباح، مادام هو ناجح بعمله، ودخله كبير، وتجارته رائجة، معمله نشيط، إنتاجه جيد، صادق في أقواله، انتهى الأمر، أما ارتكب هذه المعصية، أو تلك، هذا النموذج الغربي، نموذج يؤمن بالمادة، يؤمن بالإنجاز، أما علاقته بالآخرة، علاقته بالموت، علاقته بالله عز وجل فهي علاقة سيئة جداً، أو تكاد هذه العلاقة أن تكون معدومة.

مرة التقى رجلٌ بإنسان غربي قال له أنا لا يعنيني إلا ثلاثة أشياء، منزل أكبر، وسيارة أكبر، وزوجة أجمل، هذا كل مطالبه بالحياة، هؤلاء الطبيعيون، الصنف الأول الحيوانيون، حيوان أمام قطعة لحم، لا يخطر بباله أن هذه القطعة له أم ليست له، يأكلها، أم لا يأكلها، هذا خارج اهتمامه كلياً، النمط الثاني: الطبيعيون، يعصون وكأن المعصية جزء متمم لكيان الإنسان.

3 – الجبريُّون:

وهناك من يعصي ويعتقد اعتقاداً خطيراً جداً أن الله أجبره على هذه المعصية، أخي كله مكتوب، كاسات معدودة بأماكن محدودة، لا تعترض تنطرد، هكذا قدر الله عليه.

هي عقيدة خطيرة جداً، أن الله عز وجل أجبر عباده على المعصية فهو يعصي وكأنه لم يفعل شيئاً، هكذا قدر الله علي، يقول لك: يعصي، وهو مكلف بالطاعة، مكلف بأن ينتهي عن هذه المعصية بنص القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعلماء بلغوه، وسمع خطبًا، وحضر مجالس علم، وعرف كل شيء، ويقول لك بعد هذا: إن الله قدر عليه هذه المعصية، هذا كلام مرفوض، هذه عقيدة أهل الجبر، أهل الجبر، أو الجبريون، يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى أجبر عباده على المعصية، وأن الإنسان شأنه مع القدر كشأن ريشة في مهب الريح، و كل ما ارتكب معصية يعزوها إلى الله عز وجل، وبأن الله قدرها عليه، وهو لم يفعل أكثر من أن نفذ أمر الله في هذه المعصية.

عصى الله، ونفذ حكمه، لذلك لمَ جاءه سيدنا عمر رجل شارب خمر سأله لما شربت الخمر ؟ قال: يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليّ ذلك، فقال رَضِي اللّه عَنْه: **أقيموا عليه الحد مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله**، وقال: **ويحك يا هذا إن قضاء الله لن يخرجك من الاختيار إلى**

الاضطرار، الصنف الأول الحيوانيون، بهيمة، والإنسان بلا علم، وبلا معرفة بالله عز وجل شأنه كشأن البهيمة، ولو أردتم مني دليلاً فهذا هو الدليل:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: 5)

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف: 176)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان: 44)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون: 4)

هذا أول مستوى، مشهد الإنسان الحيواني، الذي لا يعنيه إلا قضاء شهوته، من أي طريق، بأي أسلوب، من أي جهة، يريد المال والمتعة بأي طريق، الثاني: إنسان مثقف، يرى أن المعصية شيء طبيعي جداً، شيء من كيان الإنسان، هذه حاجة الله أودعها بالإنسان، يفعل الموبقات، وكأنه ما فعل شيئاً، هو الأصل أن يكون إنتاجه جيد، وكلامه صادق بمعاملة، هذا نوع من المعاصي هؤلاء ينكرون الأديان كلها، ولكن آمنوا بشيء معين من بعض القيم.

أما الصنف الثالث فهو صنف يرتكب المعصية ويعتقد أن الله أجبر عباده على هذه المعصية، لذلك قال الإمام الحسن رَضِيَ اللّه عَنْه: **من حمل ذنبه على الله فقد فجر**، يعني هناك ذنبان، ألم يقل سيدنا عمر أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، لا يكفي أنه فعل هذه المعصية، بل عزا هذه المعصية إلى الله عز وجل، ما من عقيدة أخطر في الحياة من أن ترتكب المعصية وأن تطن أن هذه المعصية إنما أجبرك الله عليها، والرد القاطع بآية محكمة:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام: 148)

فمن تكلم بهذا الكلام فهو بنص القرآن مشرك، حُدّ مرتين:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام: 148)

والعلماء قالوا: بمجرد أنك تؤمر وتنهى، فأنت مخير، إذا قلت لإنسان: سر على اليمين معنى ذلك أن الطريق يحتمل يمينًا ويسارًا، وأنت مخير، مجرد الأمر أي أنت مخير.

ودليل آخر: ما من إنسان يوم القيامة كما حدثنا ربنا سبحانه وتعالى إلا ويعترف بذنبه وبخطئه، فلو كان مجبوراً على المعصية لما ندم، ولما استرجع، ولما عوتب، ولما قال:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر: 24)

على كلٍ، هذا الحديث تحدثنا فيه كثيراً، وعولج في دروس كثيرة جداً، عقيدة أهل الجبر أنهم يعصون الله عز وجل لأن الله قدر عليهم هذه المعاصي، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف: 28)

أيعقل أن يأمرك الله بشيء، وينهاك عن شيء، ثم يجبرك على أن تفعل هذا الذي نهاك عنه، ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياكَ إياك أن تبتل بالماء.

4 – القدريُّون:

وصنف آخر من العصاة: هؤلاء يعزون المعصية إلى فعلهم هم، هذا الذي يؤمن أنه خلق فعله، وأن الله لا علاقة له بالمعصية، وأنه قد يقع في الكون شيء لم يشأه الله عز وجل هذه أيضاً عقيدةٌ قدرية وهي عقيدةٌ غير صحيحة، هذا الذي يعتقد أن الله خلق فعله، يعني هو الذي أجبره على المعصية، هؤلاء الجبريون، وهؤلاء الذين يعتقدون أنهم خلقوا أفعالهم، وأن الله لا شأن له بهم، هؤلاء هم القدريون، على كلٍ هؤلاء الأصناف الأربعة، من العصاة منحرفون في عقيدتهم، منحرفون في سلوكهم.

موقف أهل الإيمان الصحيح من المعصية:

الرأي الأول: كل شيء وقع أراده الله، وأن كل شيء أراده الله وقع:

لكن أهل الإيمان ما رأيهم في المعصية ؟ رأي أهل الإيمان في المعصية أن كل شيء وقع أراده الله، وأن كل شيء أراده الله وقع، و أن إرادة الله متعلقة بالحكمة، والحكمة متعلقة بالخير المطلق، فهذا الذي وقع أراده الله، لحكمة بالغة، قد نعرفها، وربما لا نعرفها، لا نقول نحن: إن الله أجبر عباده على هذه المعصية، إذا كان أجبرهم لما يحاسبهم، وما ذنبهم، كما لا نقول: إن هؤلاء العصاة خلقوا أفعالهم، وكأنهم مستقلون عن الله عز وجل، وكأن شيئاً يقع في الكون من مشيئة الله، هذه عقيدة زائغة، وتلك عقيدة زائغة، ولكن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن كل شيء وقع أراده الله، لأنه لا يقع شيء بملكه إلا

إذا أراده الله، وأن كل شيء أراده الله أن يقع يجب أن يقع، لأن الكون ملكه والدليل:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة: 255)

لا يقع شيء إلا بإذن الله، ومشيئة الله، وإرادة الله، وعلم الله وقضاء الله وقدره، لكن هذا الشيء لماذا وقع ؟ هنا السؤال، مادام وقع فقد أراده الله، مادام الله قد أراد شيئاً فلابد أن يقع، لماذا وقع ؟ نقول الإنسان أحياناً قد يريد شيئاً بدافع من قوة قاهرة، وقد يريد شيئاً بدافع من إغراء شديد، وقد يفعل شيئاً لأنه جاهل، لكن الأشياء الثلاثة لا تليق بالله عز وجل، إرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، والدليل:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران: 26)

يجب أن تعتقد أن هذا الذي وقع خير، لكن هناك خير مطلق، وخير نسبي، حينما يصاب الإنسان بالزائدة الدودية الخير له أن ينقل إلى المستشفى، وأن يوضع في غرفة العمليات، وأن يخدر، وأن يشق بطنه، وأن يخرج الدم، ويأتي الجراح ويستأصل هذه الزائدة، هذا خير في حق هذا المريض، لذلك كل شيء يقع يعتقده أهل السنة والجماعة أنه خير، خير في حق من وقع في حقهم، وهذا يؤكد قول الإمام الغزالي رَضِيَ اللّه عَنْه: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان "**، أي ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، هذا الموقف المعتدل، موقف أهل السنة والجماعة، موقف أهل الحق، كل شيء وقع أراده الله، كل شيء أراده الله وقع، إرادته متعلقة بالحكمة البالغة، حكمته البالغة متعلقة بالخير المطلق، أنت كمؤمن قد تكشف الحكمة، وقد لا تكشفها، إن كشفتها فقد كشفتها، وإن لم تكشفها اعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الذي وقع هو في مصلحة هذا العبد، لأن الله سبحانه وتعالى لا يقضي لعباده إلا بالخير لكن العبد المريض الخير في حقه الحمية، والعبد الذي فيه مرض عضال الخير في حقه استئصال هذا العضو المتورم، والخير النسبي بحسب الحالات المرضية.

الرأي الثاني: لا حول عن معصية الله إلا به سبحانه:

هناك نظرة أخرى للمعصية، نظرة أهل التوحيد، أهل التوحيد يقولون: إن القرآن كله جمع في الفاتحة، وإن الفاتحة كلها جمعت إياك نعبد وإياك نستعين، يعني يا رب لا حول عن معصيتك إلا بك، ولا قوة على طاعتك إلا بك، فهذا الذي يقول: أنا مستقيم، هذا وقع في الشرك وهو لا يدري، ماذا تفعل لو أن

الله ضعف مقاومتك، ماذا تفعل لو جعل الله مقاومتك للذنوب هشة، تنهار، هذا يؤكده سيدنا يوسف:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(يوسف: 33)

أهل التوحيد يرون أن لا حول عن معصيته إلا به، ولا قوة على طاعته إلا به، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام: لا حول ولا قوة إلا بالله، أهل التوحيد إذا أطاعوا يرون أن هذه الطاعة بتوفيق الله، وبكرم الله، وبحفظ الله، وإذا خالفوا يروا أن هذه المخالفة محض عدالة الله ومحض مخالفتهم هم بسببهم، لذلك إياك نعبد وإياك نستعين، أحياناً يغفل عن إياك نستعين فتزل قدمه.

لقد أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى عن أن النبي المكرم سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ماذا قال ؟ قال:

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

(سورة إبراهيم: 35)

هناك افتقار لله عز وجل، هذا رأي أهل التوحيد في الذنوب.

الرأي الثالث: الإنسان بين التوفيق والخذلان:

هناك رأي آخر في الذنوب أن الإنسان بين حالتين، بين حالة التوفيق، وحالة الخذلان، فإذا وكلك إلى نفسك خذلك، وإذا عاملك بما هو في حقك خير فقد وفقك، فأنت بين أن تتكل على الله، فيوفقك، وبين أن تتكل على نفسك فيخذلك، جرب وقل: أنا، قل كلمة أنا فقط، أنا بهذه القضية خبير، تجد نفسك غلطت غلطة كبيرة، أنا لا أفعل هذه المعصية تزل قدمك وتفعلها، إذا قلت: أنا، وظننت أنك قوي الإرادة ذو شخصية قوية، تعرف الحق من الباطل، إذا اعتمدت على ذاتك، إذا اعتمدت على علمك، إذا اعتمدت على قوة إرادتك، إذا اعتمدت على حزمك، حينما تعتمد على ذاتك وقعت في الشرك وأنت لا تدري، لذلك يكون التأديب أن يكلك إلى نفسك فتقع المعصية، فالمعصية تقع ممن اتكل على نفسه في طاعة ربه، فإذا به يكتشف فجأةً أن هذه المقاومة قد تلاشت، وأن هذه الاستقامة التامة قد تبعثرت، لماذا ؟ لأنك اعتمدت على نفسك، واتكلت عليها فوكلك الله إليها، فضعفت مقاومتك وأصبحت هشة، فحينما يقع الإنسان في مثل هذه الحالة عليه أن يعود إلى ربه، وأن يستعين به، وأن يتذلل له، لئلا يقع في شرك من نوع خفي، وهو الاعتماد على الذات، يقول لك نعتمد على ذاتنا، من أنت ؟ أنت عبد صغير، لا تقوى على شيء.

الطالب في الامتحان قد يعتمد على قدرته الفائقة في هذه المادة فإذا هو في هذه المادة يأخذ علاماتٍ متدنية، وفي المواد التي يخاف منها، ويتكل على الله فيها يتفوق فيها، أصحاب المصالح، أصحاب

المهن العالية، الأطباء، المحامون، المهندسون، المدرسون، إذا قال: أنا وكله الله إلى نفسه، إذا قال يا ربي إني تبرأت من حولي وقوتي والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين، الطبيب قبل أن يشخص المرض عليه أن يستعين بالله، المدرس قبل أن يلقي الدرس، المحامي قبل أن يلقي المذكرة، أصحاب المهن، أصحاب الحرف، في المجال التعليمي، وفي المجال الصناعي، إذا قلت: أنا فقد اتكلت على نفسك، عندئذٍ يكلك الله إلى نفسك فتظهر الأخطاء، والمعاصي، والمخالفات.

الكون مظهر لأسماء الله الحسنى:

شيء آخر، أن هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، مظهر، من أسمائه الله سبحانه وتعالى له ذات، وله أسماء حسنى، وله صفات فضلى، وله أفعال، وله مفاعيل، الزلزال مفعول فعله الله سبحانه وتعالى، هناك انسجام بين ذاته، وبين أسمائه، وبين صفاته، وبين أفعاله، وبين مفعولاته، فالله عز وجل رحمن رحيم، إذاً يجب أن تكون أفعاله فيها رحمة، المؤمن يعتقد أن كل أفعال الله فيها أسماؤه كلها، من هنا فسر بعض المفسرين أن الله إذا تحدث عن ذاته أفرد، وإذا تحدث عن أفعاله استخدم ضمير الجمع:

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ)

(سورة الحجر: 23)

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه: 14)

قد يكون الحديث عن ذات الله فالحديث بضمير المفرد، وقد يكون الحديث عن أفعال الله فالحديث بضمير الجمع، لأن ضمير الجمع يعني أن كل أسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى في هذا الفعل، وهكذا يجب أن تعتقد، لذلك إذا تصورت أن الله سبحانه وتعالى لا ينزل على عباده قرآناً، ولا يبعث رسولاً، فأنت عطلت أسماء الرحمة فيه، أسماء الرحمة، والعدل، والإنصاف، واللطف، والحرص على إسعاد عباده هذا كله أنت عطلته، لذلك من عطل الأمر، والنهي، والثواب، والعقاب فقد عطل بعضاً من أسماء الله الحسنى، إذا قال لك شخص: يا أخي و الله لا يوجد عدالة في الحياة، وذكر لك قصصاً لا حصر لها من الظلم هذا ماذا فعل ؟ هذا عطل اسم الحق، فلذلك الإنسان أثناء حديثه وتفكيره، وتصوره، وقراءته، وكتابته، ينبغي أن يكون منسجماً مع عقيدته، من أسماء الله أنه رحيم، من أسماء الله أنه عظيم، أنه قدير أنه غني، أنه سميع، أنه مجيب، أنه الحق، ولابد للحق أن يظهر الحق، ولابد للحق أن يحق الحق، لذلك ماذا قال الله عز وجل ؟

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: 91)

إذا قلت: إن الله:

(مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)

فأنت ما عرفت الله،

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسّماوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر: 67)

إذا نفيت اليوم الآخر، ونفيت يوم الجزاء، ويوم الدينونة، ويوم الحساب، ويوم الفصل، أنت تنفي إحقاق الحق، وإذا نفيت إحقاق الحق نفيت اسم الحق عن الله عز وجل، إذاً لابد أن تؤمن بأسماء الله كلها الحسنى، وصفاته الفضلى كلها، وأن الله عز وجل لا يدع عباده من دون أمر ونهي، ولا من دون ثواب وعقاب، إذا قلت أنت، وأنت لا تدري.

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية: 21)

إذا قلت: فلان غارق بالمعاصي، والله يعطيه، وفلان مستقيم على أمر الله، والله حرمه، يتكلم بهذا يقول سبحان الله !! هذا تسبيح ليس في مكانه الصحيح، الله عز وجل في آيات كثيرة يقول:

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

وقال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص: 61)

بعض المعاصي تزيد في إيمان المؤمن !!!

الحقيقة أن هناك رأيًا دقيقًا، لكنه يحتاج إلى دقة في الفهم، هو أن بعض المعاصي تزيد إيمان المؤمن، كيف ؟ سمع مؤمن أن الله عز وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: 97)

وسمع أيضاً أنه:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه: 124)

لو أن إنساناً مثلاً زلت قدمه، وارتكب معصية، فشعر بالحجاب، ومع الحجاب الضيق الشديد، ومع الضيق الشديد المعيشة الضنك، عندئذٍ يزداد إيماناً بمصداقية هذا الكتاب، أحياناً في قضية يكون له منها موقف متردد، فيأتي الذنب أحياناً ليؤكد له أن هذا كلام الله، وأن كل خروج عن كلام الله يستوجب الشقاء في الدنيا والآخرة، أحياناً إنسان يغلط، يفعل شيئاً يأتي الرد من الله سريعاً هذا الرد يجعل إيمانه بهذه الآية يصل إلى أعمق أعماق نفسه، هذا نوع أيضاً من أنواع الذنوب، لذلك قيل أن أهل الدنيا في جحيم قبل الجحيم، وإن أهل الإيمان في نعيم قبل النعيم، ولما ربنا عز وجل قال، وحدث عن الجنة وقال: **"عرفها لهم "**، بعضهم قال: ذاقوا شيئاً من طعمها في الدنيا، وبعضهم قال: عرفها لهم أي جعلها معطرة لهم، وبعضهم قال عرفها لهم بمعنى أنهم يعرفونها، على كلٍ عرفها لهم، المؤمن في الدنيا يذوق من طعم القرب كما يذوق من طعم البعد، لذلك تأتي مشاعر البعد إثر بعض المخالفات لتعمق إيمانه بأن هذا الكلام هو كلام رب العالمين، لذلك قال ابن عباس رَضِي اللّه عَنْه: **<< إن للحسنة تألقاً في الوجه، ونوراً في القلب، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القبر، والقلب، وضيقاً في الرزق، ووهناً في البدن، وبغضاً في قلوب الخلق >>**، فالإنسان من أذواقه يعرف أنه مسيء، ويعرف أن هذا كلام الله عز وجل، أحياناً إذا زلت قدم الإنسان يتعمق إيمانه بآية كان متردداً في قبولها.

الأصل رحمة المذنبين وعدم الاستعلاء عليهم:

شيءٌ آخر، أحياناً قبل أن يذنب الإنسان، أو ينظر إلى العصاة كأنهم مِن سقطِ المتاع، وكأنهم لا شأن لهم عند الله سبحانه وتعالى، أما إذا زلت قدمه مرةً، وإذا وقع غلب على أمره، فزلت قدمه عندئذٍ يرحم المذنبين، هذا المذنب يجب أن ترحمه، يجب ألا تستعلي عليه، يجب أن تأخذ بيده، فهناك استقامة يعني تورث كبراً واستعلاءً، وتجبراً على عباد الله عز وجل، فربنا عز وجل يعالج الإنسان، تزل قدمه أحياناً، فينكسر لله عز وجل ويعرف أن هناك مذنبين متألمين جداً من ذنوبهم، ويحتاجون إلى أن تأخذ بيدهم، هذا معنى دقيق جداً.

علاقة المعصية بالذل والانكسار:

شيء آخر، الذنب كما قال ابن عطاء الله السكندري: رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً الإنسان إذا كان له أخطاء، ثم تاب منها، هذه الأخطاء تورثه تواضعاً لله عزوجل

، وتورثه رحمةً بالمخطئين، قبل التوبة:

(كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا)

(سورة النساء: 94)

كما كنت مقصراً، ومسيئاً، والله سبحانه وتعالى صبر عليك، وحلم عليك، حتى حملك على التوبة، فصرت مستقيماً، ارحم هؤلاء المقصرين، لا تيأس منهم، لا تعرض عنهم، لا تستعلي عليهم، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((الذنب شؤم على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن عيره به ابتلاه الله به، وإن رضي به فقد شاركه في الإثم))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

حالات المسلم مع المذنب: التعيير والتكبر والغيبة

أنت أمام إنسان مذنب لك معه ثلاث حالات مرضية، إن قلت في نفسك: لماذا يذنب ؟ هذه دناءة، فقد عيرته، إذاً تستحق أن تبتلى بهذا الذنب من قِبل الله عز وجل، هذا موقف متعجرف، موقف فيه تجبر فيه تكبر، من عيره ابتلي به، ومن ذكره فقد اغتابه، وأينما جلس فلان فعل كذا، أي أنك فضحته، فهذه غيبة، وإن قلت: والله نعم ما فعل، هذه الكلمة فقط، تكون شاركته في الإثم، ماذا ينبغي أن تقول ؟ يجب أن يكون لك موقف واحد، أن تقول: أرجو الله أن يتوب عليه، وأن يعافيني من هذا الذنب، هذا موقف العبودية، لذلك الإنسان أحياناً لا يرحم المذنب يتجبر عليه، أغلب الظن أن الله عز وجل يضعف مقاومته وتزل قدمه ويقترف الذنب نفسه، فالإنسان إذا كان مستقيم يكون متواضعاً مع استقامته حتى الله عز وجل يحفظ له نعمة الاستقامة، وينطلق من قوله تعالى إياك نعبد، وإياك نستعين، هذا معنى الرحمة.

إذا رأيت إنساناً مقصراً، مرتكباً بعض المعاصي، لا تستعلِ عليه، خذ بيده لعل الله عز وجل يجعل توبته على يديك، إذا استعليت عليه، واحتقرت عمله، وازوررت عنه، واشمأززت منه، وتكبرت عليه، هذا يزداد عنك بعداً.

سيدنا عمر بلغه أن أحد من يعرفه وصل إلى الشام، وبدأ يعاقر الخمر، ماذا فعل سيدنا عمر ؟ كتب له كتاباً أحمد الله إليك، غافر الذنب، قابل التوبة، شديد العقاب، ذي الطول، كلام رقيق، عرفه برحمة الله، وبأنه يقبل التوبة عن عباده، فهذا الإنسان العاصي الذي يعاقر الخمر، ما زال يقرأ كتاب سيدنا عمر حتى بكى وتاب، فلما بلغ ما حصل لهذا المذنب قال هكذا افعلوا بأخيكم، إذا رأيت أخاك واقعاً بمعصية لا تكن عوناً للشيطان عليه، كن عوناً له على الشيطان، استره وخذ بيده، وعاونه، ولو كان واقعاً بمعصية عاونه فلعله يميل إليك هي موقف الرحمة، إذا الإنسان لم يرحم المقصرين يوشك أن تزل قدمه

مثلهم، إذا لم يرحمهم، واستعلى عليهم واحتقرهم يوشك أن تزل قدمه مثلهم، إذا كنت في هذا الحال، انتقلت إلى حال آخر هو حال العجز والضعف، هذا حال صحي، لذلك قال: من عرف نفسه عرف ربه، من عرف ضعفه، عرف ربه القوي، من عرف فقره عرف ربه الغني، من عرف جهله عرف ربه العليم، فكلما ازددت في نفسك معرفةً ازددت معرفة بالله عز وجل، هذا معنى المعنى الآخر من عرف نفسه عرف الآيات الدالة على عظمته الله في نفسه عرف ربه كيف الله عز وجل خلق الجنين، كيف تلقحت البويضة ؟ كيف تمت الانقسامات، كيف كانت نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، ثم عظام، ثم لحم.

(ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)

(سورة المؤمنين: 14)

معاني: مَن عرف نفسَه عرف ربّه:

من عرف نفسه عرف ربه لها ثلاثة معان.

المعنى الأول:

عرفت ضعفك، عرفت قوة ربك، عرفت فقرك عرفت غنى ربك، عرفت جهلك عرفت علم ربك.

المعنى الثاني:

إذا عرفت طريقة تخليق الإنسان، آيات الله في خلق الإنسان عرفت الله عز وجل.

المعنى الثالث:

أنت قبل أن تقول أنا أعرف الله، هل عرفت نفسك ؟ هذا معنى النفي، ومعنى الأولوية، ومعنى الضد. على كلٍ مرتبة العجز، والضعف مرتبة صحية في علم التوحيد بقي مرحلة الذل والانكسار، بعض العارفين قال: طرقت أبواب الله كلها فوجدت ازدحاماً على كل أبوابه، باب العمل الصالح، باب الدعوة إلى الله، باب تصنيف الكتب النافعة، هذه الأبواب عليها ازدحام شديد إلا باباً لا يوجد عليه ازدحام، باب الذل والانكسار، لذلك قال الله عز وجل في الحديث القدسي أنا مع المنكسرة قلوبهم، الحزانى في كنف الله إن الله يحب كل قلب حزين، الحزانى معرضون للرحمة، هذا باب الذل والانكسار أسرع الأبواب إلى الله، ليس فيه ازدحام، ليس فيه طوابير كثير أسرع باب إلى الله وهو من أخف هذه الأبواب، باب الذل والانكسار، أي هو باب العبودية، والعبودية كما تعلمون غاية الخلق يعني اللهم اجعلني عبدك، قال

النبي الكريم هذه الكلمة وهو في سدرة المنتهى فكلما علا مقامك ازداد تحققك بعبودية الله عز وجل، هذا الموضوع عن الذنوب، يعني القسم الحيواني، والقسم الطبيعي، وأهل الجبر، وأهل القدرية، هؤلاء يفهمون الذنوب فهماً منحرفاً، ثم تأتي مراحل أخرى يعني أهل التوحيد، أهل التوفيق والخذلان، أهل الحكمة أهل الرحمة هذا كله من معانٍ دقيقة جداً المتعلقة بالذنب، على كلٍ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في حديث شهير ولكن الناس يفهمونه فهماً مغلوطاً حديث خطير في معناه الظاهري.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

(أخرجه مسلم)

معناه الظاهري أسرع إلى الذنب، أما المعنى الحقيقي فيعني لو لم تكونوا على درجة عالية من الحساسية، والإرهاف، تحسون بذنوبكم لذهب الله بكم، يعني هنا الإحساس بالذنب، الذي لا يحس بذنبه إنسان ميت، هناك إنسان يغتاب، ثم يذهب، وينام طوال الليل مرتاحاً، يأكل مالاً حرام، يؤذي الناس، مرتاح لم يفعل شيئاً، هذا ميت هذا، قال الله عز وجل:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: 21)

ميت، أما هذا الذي يغتاب أخاه فلا ينام الليل، هذا الذي ينظر إلى امرأة نظرة أزيد من النظرة الأولى، يشعر بانقطاعه عن الله عز وجل هذه علامة صحية، هذا في خير، لو لم تذنبوا، أي لو لم تحسوا بذنوبكم لذهب الله بكم، وأتى بقوم يذنبون، يعني إذا غلط يشعر أنه في خطأ كبير، أحدنا إذا كان عنده ابن، وارتكب غلط، وحينما ارتكب هذا الغلط على وجهه حمرة، وشعر بالخجل، وأطرق بصره إلى الأرض، واستحيا أن ينظر إلى أبيه، هذا الأب يضربه ؟ ليس معقولاً أن يضربه، هذا شعر بذنبه، هناك ابن يتكلم كلمة قاسية، أو نابية ويقول لأبيه: ماذا قلت ؟ هذا يحتاج إلى ضرب، لو لم تذنبوا، أي لو لم تحسوا بذنوبكم لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون، بمعنى يحسون بذنوبهم.

ملخّص الدرس: مَن هو المؤمن ؟

ملخص الدرس: هذا الذي تسره حسنته، وتسوؤه سيئته، فهو مؤمن ورب الكعبة، عَن ابْن عُمَرَ أَنّ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ رَضِي اللّه عَنْه خَطَبَ النّاسَ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ:

((قَامَ فِينَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِثْلَ مَقَامِي فِيكُمْ فَقَالَ: مَنْ سَرّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ))

(أخرجه أحمد)

أنت مؤمن إذا غلطت غلطة، وشعرت بانقطاع، لذلك كان لأحد العارفين شاب مؤمن عنده، سمع منه أن لكل سيئة عقاباً، ارتكب معصية، فشعر بالجفوة، فبعد أيام كان ينتظر العقاب من الله عز وجل على حسب كلام شيخه، مضى أسبوع، وأسبوعان، ولم يحدث معه شي، جسمه صحيح، ففي الصلاة ناجى ربه قال: يا رب، عصيتك، ولم تعاقبني، قال: فوقع في قلبه أن عبدي قد عاقبتك، ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي، يعني لا تكفي هذه ؟ إذا ارتكب الإنسان مخالفة فانقطع عن الله عز وجل جمعة أو جمعتين، الصلاة شكلية، انقباض، ضيق، ألا يكفيك هذا العقاب ؟ من عنده حساسية بالغة كل غلطة يرتكبها يحس بانقطاع عن الله عز وجل، هذه علامة صحية، والمؤمن مذنب تواب، كلما زلّت قدمه يعود إلى الله عز وجل.

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر: 53)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (10-20): تفسير الآيات 141 - 159 ، قصة سيدنا صالح مع قوم ثمود ـ درجات الطائعين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-09-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون مع الدرس العاشر من سورة الشعراء.

أيها الإخوة الأكارم، في الدرس الماضي تحدثنا عن أنواع منوعة من المذنبين، ومن لوازم هذا الموضوع الحديث عن أنواع منوعة من الطائعين، فكما أننا تناولنا في الدرس الماضي دركات العصاة، في هذا الدرس موضوع آخر متعلق بدرجات الطائعين.

أنواع الطائعين:

قبل كل شيء يقول عليه الصلاة والسلام:

((رأس الدين الورع، وركعتان من وَرع خير من ألف ركعة من مُخَلِّط، ومن لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله))

(ورد في الأثر)

من صفات المؤمن العدالة والضبط:

وفي هذا الموضوع شيء آخر، هو أنّ من صفات المؤمن العدل والضبط، أو العدل والضبط. الضبط: صفة عقلية، والعدالة: صفة نفسية، هناك أشياء إذا فعلها الإنسان سقطت عدالته، قال عليه الصلاة والسلام:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته وحُرمَتْ غيبته))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

من عامل الناس فلم يظلمهم، فمن ظلم الناس سقطت عدالته، وحدثهم فلم يكذبهم، مَن كذَب الناسَ سقطت عدالته، ووعدهم فلم يخلفهم ؛ مَن أخلف الناسَ وعدَه سقطت عدالته، من فعل هذا، أيْ من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته.

الفرق بين سقوط العدالة وجرح العدالة:

لكن بعض العلماء يفرق بين سقوط العدالة، وبين جرح العدالة سقوط العدالة شيء، وجرح العدالة شيء آخر، فمن أكل لقمة من حرام فقد جرحت عدالته، تطفيفٌ بتمرة، إذا رجح الميزان رجحت كفة البضاعة، عن الحد المطلوب بمقدار تمرة، فقد جُرحت عدالة المؤمن. وكذلك مَن تنزه في الطريق، وفي الطريق كاسيات عاريات، مائلات مميلات فقد جُرحت عدالته، مَن صحب الأراذل فقد جرحت عدالته، من أطلق لفرسه العنان فقد جُرحت عدالته، من قاد برذوناً، يعني حيواناً مخيفاً، أخاف به الأطفال فقد جُرحت عدالته، مَن مشى حافياً فقد جُرحت عدالته، من أكل في الطريق فقد جرحت عدالته، من كان حديثه عن النساء جرحت عدالته، يعني فلان عدالته مجروحة كإناءٍ مشعور، أما الذي عدالته ساقطة، فهو كالإناء المكسور، الفرق بين سقوط العدالة، وبين جرحها كالفرق بين الإناء المكسور، وبين الإناء المشعور، مَن علا صياحه في البيت حتى سمعه مَن في الطريق فقد جُرحت عدالته.

إذاً هناك سقوط العدالة، وهناك جرح العدالة، والنبي عليه الصلاة والسلام كما قلت قبل قليل قال:

((رأس الدين الورع))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

و:

((ركعتان من وَرَع خير من ألف ركعة من مُخَلِّط))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

و:

((من لم يكن له وَرَع يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله))

(ورد في الأثر)

أقسام الورع أربع درجات:

إنّ بعضَ العلماء الأجلاّء قسّم الورع إلى أربع درجات:

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

الدرجة الأولى: هي ورع العدول:

يعني أنّ هؤلاء لا يفعلون شيئاً حرمه الشرع، أو لا يفعلون شيئا حرمته فتاوى الفقهاء، يا سيدي كسب هذا المال حرام أم حلال ؟ يقول لك المفتي، أوْ مَن تستفتيه: حرام، فترك الحرام يجعلك في مستوى ورع العدول، فيما يتعلق في كسب المال وإنفاق المال والعلاقات الاجتماعية، ومعاملة الزوجة، ومعاملة

الأولاد في أيّ علاقة لك مع الآخرين، هناك موقف يعد في الشرع حلالاً، وموقف آخر يعد حراماً، فمن ترك المحرمات، أو من ترك ما أفتى به الفقهاء على أنه حرام فقد كان في مرتبة سماها بعض العلماء مرتبة ورع العدول، أما الذي يخترق هذه الحرمات يقع في الفسق حتماً وتسقط عدالته، ويثبت عصيانه، وربما انتهى إلى النار مصيره، مَن خرق هذه الحرمات، من خرق أوامر الشرع، من تجاوز الحد المعقول من خرج عن دائرة القبول، هذا تسقط عدالته، ويثبت فسقه وعصيانه وقد يقوده عمله، إن لم يتب منه إلى النار، طبعاً الحد الأدنى من الاستقامة أن تكون في هذا المستوى، الحد الأدنى من التدين، من الورع، من طاعة الله عز وجل أن تكون في هذا المستوى، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: 36)

أنت مخير، ولكنك إذا عرفت حكم الله عز وجل في أمر ما ينتهي اختيارك ؛ هذا حكم الله انتهى الأمر، وتنتهي حريتك كما يقولون عندما تبدأ حرية الآخرين، هناك تعديل لهذا القول ؛ تنتهي حريتك حينما تعرف حكم الله عز وجل، هذا حرام حَرَّمه خالق الكون، هذه تعليمات الصانع، يا أخي أنت لماذا تغض بصرك عن محارم الله، فتقول: أنا أنفذ تعليمات الصانع، لماذا تمتنع عن هذه الأرباح الفاحشة بطريق غير مشروع، مع أن أحداً لا يراقبك ؟ أنا أنفذ تعليمات الصانع.

ورع العدول هو الحد الأدنى، ومن نزل عن هذا الحد كان خارج الإسلام، لأن المسلم هو الذي انقاد إلى أوامر الله كلها طواعية، وهذا المعنى المقبول للعبودية لله عز وجل، غاية الخضوع لله عز وجل مع غاية المحبة، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما آمن بالقرآن مَن استحل محارمه))

(سورة الأحزاب: 36)

(ورب تال للقرآن والقرآن يلعنه)

(سورة الأحزاب: 36)

لكن كما أن المعاصي درجات، والعصاة أنواع، كذلك الطاعات درجات، والطائعون أنواع منوعة.

المرتبة الثانية: ورع الصالحين:

ورع الصالحين مرتبة أعلى من مرتبة ورَع العدالة، فالصالح يمتنع عما يتطرق إليه احتمال التحريم يعني يدع الشبهات، فَعَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ، اسْتَبْرَأَ

لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنّ لِكُلّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنّ حِمَى اللّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

(أخرجه البخاري)

قد يقال لك: هناك رأيٌ ضعيفٌ يجيز لك أن تفعل ذلك، أمّا رأي جمهور العلماء فلا يجيز لك أن تفعل ذلك، وقد تعثر على فتوى في كتاب تجيز أن تأكل هذا المال، لكن ما هم عليه أهل السنة والجماعة يمتنعون عن السماح بأكل هذا المال، إذاً هناك شبه، يعني ما دام هناك شبهة، ما دام هناك وجه من أوجه الحرام، ما دام هناك دليل ظني، ما دام هناك قضية خلافية فيها أخذ وفيها رد، فالصالح يدعُ الشبهات.

((الْحَلالُ بَيّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ، فَمَنِ اتّقَى الْمُشَبّهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنّ لِكُلّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنّ حِمَى اللّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

إذا أردت الفتوى فقد تجد لكل مخالفة فتوى، قد تجد لكل معصية تغطية، أما إذا أردت التقوى، فَلْتأْخُذْ بالأحوط، تدع الشبهة وتبقى في البيّنة، مَن ترك ما اشتبه عليه كان لما استبان أترك، ومن وقع فيما اشتبه عليه كان لما استبان أوقع، يعني دائما الشيطان إذا استطاع أن يقنعك أن تأخذ بشبهة جرك بعدها إلى شيءٍ واضح، جرك إلى معصية صريحة، وإذا بقيت متمسكاً بترك الشبهات، كانت هذه الشبهات التي تركتها هامشَ أمانٍ بينك وبين الحرام، لذلك:

((الْحَلالُ بَيّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ، فَمَنِ اتّقَى الْمُشَبّهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنّ لِكُلّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنّ حِمَى اللّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ))

في العلاقات المالية، في الاجتماعية، في كل مشكلة، في كل موقف الحلال بيّن، والحرام بيّن، أما المشتبهات إن كنت صالحا تدعها لله تدعها وترتاح، تدعها وتنام نوماً هانئاً، تدعها وتستريح، تدعها ويطمئن قلبك، الإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطّلع عليه الناس، ما دام هناك قلق، ما دام هناك تساؤُل، ما دام هناك حرج، فالأمر فيه شبهة، وترك الشبهات من صفات الصالحين، يعني أحياناً يقول لك شخصٌ: أنا تزوجت زواجاً شرعياً، بإيجابٍ وقبولٍ وشاهدين، وانتهى الأمر، ثم طلقت بعد مدة محدودة طلاقاً شرعياً، لا عليك، افعل مثلي، ولكن أترضى لابنتك أن تتزوج زواجاً مؤقتاً، الصيغة صحيحة، لم يكن التوقيت مشروطاً، إيجاب، وقبول، ومهر، وشاهدا عدل، فالزواج صحيح، لكن أنت

تنوي أن تطلق بعد حين، أيضاً الطلاق شرعي، فظاهر الإجراءات كله صحيح، لكن أنت لم تنو التأبيد في هذا الزواج، نويت التوقيت، ولو أن هناك من يقول هذا يجوز، مثلاً مذهب ابن حنبل يجوّز ذلك، هذه شبهة، إذاً دع هذه الشبهة لما استبان لك، هناك أشياء، هناك من يدعمها بفتوى، وهناك من يجد لها في بعض الكتب سماحاً، أو إجازة الصالح يدع الشبهات، ويبقى في البيّنات، يعني كما يقول بعض العلماء ليس كل شبهة يجب اجتنابها، ولكن كل شبهة يستحب اجتنابها إذا كنت صالحاً.

المرتبة الثالثة: ورع المتقين:

أرقى من هاتين المرتبتين، هي ورع المتقين: التقي يمتنع عن الحرام أصلاً، وعن الشبهات أصلاً، ويمتنع عن بعض الحلال مخافة أن يصل به إلى الحرام، هذا الذي عناه النبي عليه الصلاة والسلام، فَعَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ))

(أخرجه الترمذي)

فالانغماس في المباحات قد يجر إلى بعض المعاصي، وقد يجر إلى ترك مجالس العلم، الانغماس في الشيء الذي أحله الله عز وجل، والمبالغة به، قد يجر إلى حب الدنيا، وإلى الطمأنينة لها، فالتقيُّ لا يدع الحرام فقط كالعدل، ولا يدع الشبهة فقط كالصالح، ولكن يدع الحرام، ويدع الشبهة، ويدع المباحة، ليس كل المباح، يدع بعض المباح مخافة أن يصل به هذا المباح إلى محرم، لذلك صحَّ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا بَعَثَ بِهِ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ:

((إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

(أخرجه أحمد)

إذا جعلت النعيم همّك الأول، المباح، المشروع، إذا تفننت في أنواع الطعام والشراب، إذا تفننت في أنواع المتع المباحة، فهذه المتع المباحة، قد تجرك إلى الدنيا، قد تجعلك تخلد إلى الأرض قد ترغبك في الدنيا، قد تبعدك عن مجالس العلم، قد تبعدك عن طلب العلم قد تبعدك عن الهمة العالية في العمل الصالح، قد تحملك على أن تجمع المال من أجل أن تنفقه في هذه المباحات، قد تحملك على الجُبن، قد تحملك على الخَوف، قد تبعدك عن خطر تتوهمه من أجل أن تبقى في دنياك كما تريد، هذه المباحات قد تجر الإنسان شيئاً فشيئاً إلى بعض الشبهات والشبهات تجر إلى المحرمات وهكذا.

فالتقي أحياناً يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ))

(أخرجه الترمذي)

يدعم هذا القول وهذه المرتبة قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِيّاكَ وَالتّنَعُّمَ، فَإِنّ عِبَادَ اللّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

(أخرجه أحمد)

قد تتنعم، وقد تسعد، وقد تسر في بيتك، وقد يبارك الله لك في مالك، وقد تتنزه، وهذا كله يأتي إكراماً من الله عز وجل، أمّا أن يكون مقصوداً لذاته، وأن تسعى من أجله، فهذا يتناقض مع رسالة المؤمن في الحياة، لا تنسَ قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يُدعى إلى اللهو يقول: لم أخلق لهذا. يقول سيدنا عمر رَضِي اللّه عَنْه: **<< كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام >>**، أما الآن فالإنسان يكفي أن يتعلق بفتوى لإنسان، أيّ إنسان، ويقول: أنا أعمل بفتواه، والعهدة عليه وبذمته، وبرقبته، لكن لتعلمْ أن اللهَ عز وجل أمرك بالتمحيص، وأمرك بالتدقيق، والله سبحانه وتعالى قال:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ حَقّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنّ إِلّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران: 102)

(أَفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النّارِ)

(سورة الزمر: 19)

النبي عليه الصلاة والسلام وهو أعظم المخلوقات قدراً عند الله عز وجل قال:

((يا فاطمةُ بنتَ محمد، يا عباس عم رسول الله أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

(الترمذي عن عائشة)

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، مَن يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

(ورد في الأثر)

فهذا الإنسان الذي يتعلق بفتوى، يتعلق برأي العالم، ويأخذ في بعض الشبهات، هذا إنسان ربما انتقل شيئاً فشيئاً إلى المحرمات، لا تنسَ أن بعض المباحات تقودك إلى بعض الشبهات، وأن بعض الشبهات تقودك إلى بعض المحرمات، وإذا وقع الإنسان في الحرام انقطع عن الواحد الديان، فإذا انقطع عن الله عز وجل أصبح في ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، الله سبحانه وتعالى يخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

الدرجة الرابعة: ورع الصِّديقين:

الصّديق، طبعاً يدع الحرام، ويدع الشبهات، ويدع بعض المباحات، ويدع ما سوى الله قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالّذِينَ هُمْ عَنِ اللّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون: 1 - 3)

اللغو يعني كل ما سوى الله، لأن الإنسان يعيش حياة محدودة، هذه الحياة المحدودة هي إعداد لحياة أبدية، فأية دقيقة تذهب سدى يحاسب عنها الإنسان يوم القيامة، لذلك فالمؤمن لا يندم إلا على شيء واحد ؛ يندم على ساعة مرّت لم يذكر الله فيها، وربنا عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب: 41)

المؤمن كل وقته، وكل جهده، وكل طاقته لربه، وهذا الذي سأل بعض شيوخه، قال له: كم الزكاة يا سيدي ؟ قال له، عندنا أم عندكم ؟ قال: ما عندنا وما عندكم ؟ قال الشيخ: عندكم اثنان ونصف بالمئة، أما عندنا فالعبد وماله لسيده، فما عند السابقين السّابقين فالمال وصاحبه لله، وما عند أصحاب اليمين فالزكاة مبلغ قدّر شرعاً،

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91))

(سورة الواقعة: 88 - 91)

إنّ أصحاب اليمين ناجون، ولكنّ المقربين..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر: 54 - 55)

يجب على الإنسان أن يطلب أعلى درجة بالجنة، أخي أنا أريد وراء باب الجنة فقط، لمَ وراء الباب فقط ؟ كُنْ بصدرها، المؤمن طموح، حتى في طلبه الجنة طموح، فعليه أن يطلب الجنة في أعلى مراتبها، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران: 102)

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج: 78)

والباب مفتوح على مصراعيه، وكل شيء لا علاقة له بالآخرة فلن تستفيد منه شيئاً،

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

(سورة الكهف: 46)

في حياتك شيئان: شيءٌ يفنى، وشيءٌ يبقى، فكل عمل متعلق بشيء يبقى فهو منتهى الذكاء، ومنتهى التوفيق، ومنتهى العقل، وكل جهد تبذله من أجل شيء يفنى فهو خسارة في خسارة، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر: 1 - 2)

حياتهُ بضعة أيام، الأيام تمضي، الإنسان مُسْتَهلك، حينما يستهلك الوقت يستهلك هو، هو وقت ؛ لأن الإنسانَ، كُلما مضى يوم، مضى جزء من عمره، وعمره مجموعة أيام، إذاً مضى بضع منه فمرور الوقت فيه خسارة للإنسان، إلا إذا آمن وعمل صالحا وتواصى بالحق وتواصى بالصبر،

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر: 1 - 3)

فهذا الصدّيق يدع الحرام، ويدع الشبهات، ويدع المباح الذي يؤدي إلى شبهة، ويدع فوق هذا كل ما ليس له علاقة بالله عز وجل، والشيء الذي لا يوصله إلى الله والدار الآخرة خارج اهتمامه.

هذه بعض المراتب، أما مراتب الورع أن يعد الإنسان نفسه مسلماً، وهو غارق بالمعاصي، فهذا شيءٌ يحتاج إلى جهد كبير، وإلى توبة نصوح حتى يرقى في سلم أهل الإيمان.

عودة إلى القصة التي تركناها، والتي وصلنا إليها في الدرس الماضي، وهي قول الله عز وجل:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(145))

قصة سيدنا صالح عليه السلام:

هذه الآيات تتكرر في كل قصة بالضبط

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ)

فهو من قومهم، من أبناء جنسهم، من بني جلدتهم، منهم، من بلدتهم:

وتحدثنا بالتفصيل في درس ماض عن التقوى:

(إِنِّي لَكُمْ رَسولٌ أَمِينٌ)

قال عليه الصلاة والسلام:

((العلماء سُرُجُ الدنيا ومصابيح الآخرة، والعلماء أمناء الله على خلقه))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

هناك أمانة التبليغ ألقاها الله على كاهل الأنبياء، وهناك أمانة التبيين ألقاها الله على العلماء:

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(145))

من صفات المؤمن تقديم الخدمات الدعوية من غير أجر:

من صفات المؤمن أنه يعطي، ويقدم خدماته للناس من دون أن ينتظر منهم أجراً، قال تعالى:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

(سورة يس: 20 - 21)

القضية أنا أشبهها بمثل رجل ميسور الحال قال لك: عَلِّم ابني درساً، وخذ على كل درس مليون ليرة، فَرَضاً، أما إذا تقاضيت أي أجرٍ فلن أعطيك شيئاً، فهل يعقل أن تقبل بمائة ليرة تأخذها من الابن على هذا الدرس، وتضيع مليون ليرة ؟! فهذا الذي يفعل شيئاً من أجْل الله عز وجل فإن له عند الله ثواباً كبيراً، أما إذا تقاضى على عمله أجراً، أو طمع في الأجرة، أو طلب مكافأة، فقد أسقط ثوابه، وأحبط عمله.

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

واللهِ هذه آية دقيقة جداً، يا قوم:

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا آمِنِينَ

الأيامَ تمضي، اليوم استيقظت بحالة طيبة، وصحة جيدة، يا تُرى أكلَّ يوم هكذا ؟ إلى ما شاء الله، أما أن هناك حداً تنتهي هذه الحياة عنده. الآن أهل الدنيا، يحسبون لكل شيء حساباً إلا الموت، يعدون لكل شيء عدة إلا الموت، قال تعالى:

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا))

[أخرجه ابن ماجة]

فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا، ماذا ينتظر ؟ تمضي سنة، وثانية وثالثة، وربيع، وخريف، وصيف، وشتاء، بالصيفِ نلبس الخفيف ونذهب إلى المتنزهات، وبالشتاء نُرَكِّب المدافئ، ونأكل الحلويات، ونلبس الملابس الشتوية، يعني هناك صيف، شتاء، ربيع، خريف، كذلك من صف لصف، من معهد لمعهد، من جامعة لجامعة، من صفقة لصفقة، من وظيفة لوظيفة، وإلى متى ؟ يا تُرى إلى ما شاء الله ؟ لا ! هناك حَدّ ونهاية، بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا، يعني إن لم يكن له وجهة

إلى الله عز وجل، إن ألقى بهذا الدين جانباً، إن جعل القرآن وراء ظهره، إن قال: إن هذا الدين خرافة، إنه مجموعة غَيْبيَّات، إنه تعبير عن حالة الضعف التي يعانيها الإنسان القديم. هذا الذي يستَخِفّ بالدين ويقول لك الدين كذا وكذا، ماذا ينتظر من الدنيا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي]

قد يأتي الفقر فجأة، الذي أعطاك هذا المال قادر على أن يأخذ منك في لمح البصر،

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا))

هناك نوع من الغنى يحمل صاحبه على الفجور والعياذ بالله، فهذا الغنى بلاء من الله عز وجل. لي عليكم فريضة ولكم عليّ رزق، لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك، فَلأسلطنّ عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا))

هناك أمراض وبيلة تفسد على الإنسان حياته، تجعل حياته جحيماً لا يطاق.

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

هناك أمراض وبيلة تفسد على الإنسان حياته، تجعل حياته جحيماً لا يطاق، هذا الذي لا يريد الدين، يحب الدنيا فقط، ينطلق إليها بكل طاقته، لا يرى إلا الدنيا، هي مبلغ علمه، منتهى أمله، منتهى علمه ؛ الكلام تملّقاً لهؤلاء، ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا))

ما مات، تقدّم في السن حتى ضعف عقله، وانحنى ظهره، وضاق أفقه، وأصبح على هامش الحياة، وأصبح عِبْئاً على أهله، يتمنى أقرب الناس إليه الموت، أصبحت حياته لا تطاق، أما المؤمن الصادق عاش ستة وتسعين سنة سمعه مرهف، وبصره حاد، وأسنانه في فمه، وقامته منتصبة، قال له أحدهم: يا سيدي ما هذه الصحة ؟ قال يا بني حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية: 21)

مستحيل هذا الكلام:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

هذا المؤمن الذي استقام على أمر الله، الذي غض بصره عن محارم الله، الذي ضبط لسانه، الذي ضبط حواسه، هذا الذي أنفق ماله، هذا الذي جلس في المساجد ليتعلم كتاب الله، فهل يعاملُ كما يعامل الفاسق الفاجر، المنحرف، الذي يأكل المال من حلال أو من حرام، هكذا ظنكم برب العالمين ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

حياته، زواجه، عمله، وظيفته، تجارته، هذا كهذا ؟ سواء ؟ أليس للمؤمن ميزات أبداً ؟ هذا ظن الذين كفروا.

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ)

(سورة الفتح: 6)

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا))

يَخْرِف، لكن من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، هذه ضمانة يا أيها الإخوة، واللهِ التقيت مع أُناس بالتسعين، أو بالسابعة والتسعين، ولهم ذاكرة طيبة، ولهم شخصية قوية، بفضل القرآن الكريم، لذلك اقرؤوا القرآن، تعلموا القرآن، طبقوا القرآن، فهو ضمانة لمستقبلكم، ضمانة لخريف العمر،

((أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

هنا قال سيدنا صالح:

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

وبعده فهذه البيوت الفخمة في المدينة، أو في المصايف، هل أصحابها هُم هم من مائة عام ؟ لا ! اختلفت الأمور، إما أن الورثة أخذوا هذه البيوت، أو أن البيوت بيعت إلى أشخاص آخرين وكذلك، المحلات التجارية الضخمة في الأسواق المهمة أصحابها قبل مائة عام هُم هم ؟ لا ! اختلفوا:

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

يعني في كل فترة يحدث تبدل، أصحاب البيوت، أصحاب الحوانيت في المدينة، أصحاب البيوت الجميلة في المصايف، أصحاب المركبات الفخمة يتبدل الحال من إنسان إلى إنسان:

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

(فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148))

زخرفة الدنيا وغرورها كسراب بقيعةٍ:

يعني طلعُها طيّب..

(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150))

(طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

أي لطيف، أو تعني الرطب اللين، أو الرطب النحيل، أو الذي ليس فيه نوى، أو الناضج، أو المكتنز، هذا كله من معاني "

(طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

بمعنى نشِطين، أو بمعنى حاذقين بنحتها، أو بمعنى متجبرين أو بمعنى أشرين بطرين، أو بمعنى معجبين، أو بمعنى أقوياء، أو بمعنى فرحين، هذه معاني كلمة:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152))

الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعصية، وقال بعض العلماء: هم الذين عقروا الناقة، فاستحق قومهم الهلاك بعقرها:

(الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

قال تعالى:

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)

اتهام المنحرفين للمستقيمين بالسحر والجنون:

يعني أنت لأنك خرجت عن دين قومك فقد ضاع عقلك، فأنت مسحور، أو في معنى آخر، المسحرين، أي الذين يأكلون، يعني أنت تأكل مثلنا الطعام، ما الذي جعلك تفضلنا به، إما أنه اختلّ عقلك، وإما أنك بشر مثلنا، هذا معنى المسحرين.

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(154))

مرحلة تحدي ثمود لنبيهم صالح عليه السلام:

الآن بدأ التحدي، إن كنت نبيا صادقا فأتِ بآية، طبعاً من صفات المعجزة أنها تأتي بعد التحدي،

وهؤلاء قوم سيدنا صالح تحدوه، وجعلوا بينهم وبينه حداً فاصلاً، إما أن تأتي بآية، وإما إنك كاذب.

(قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

معجزة ناقة صالح:

قالوا: إن كنت نبياً صادقاً فأخرج لنا من هذا الجبل ناقة تشرب من هذا الماء، فقال النبي الكريم سيدنا صالح، طبعاً بأمر الله عز وجل وبقدرته، هذه ناقة الله:

(لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

هي تشرب الماء يوماً، وأنتم تشربون يوماً.

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157))

(فَعَقَرُوهَا)

الواو واو الجمع، الذي عقرها واحد، ولأنهم أقروا عقرها، وأقروا فعلته، فقد شاركوه في الإثم، فربنا عز وجل قال:

(فَعَقَرُوهَا)

مع أن الذي عقرها واحد إشارة إلى أن الذي يرضى عن فعل مجرم فهو مثله في الإثم، والذنب شؤم على غير صاحبه، من رضي به شاركه في الإثم، ومَن شمت به فقد وقع فيه، ومن ذكره فقد اغتابه:

(فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)

العبرة في القصة الموعظة: إياك أعني واسمعي يا جارة:

حينما بدت ملامح العذاب.

(فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159))

هذه كلها قصص تحمل الموعظة للآخرين، وهذه القصص تقع في كل يوم، يعني هذا الذي يقع في الأرض من زلازل، ومن كوارث عامة، هناك من يفسرها تفسيرات علمية له ولا يعتبر، وهناك تفسيرات إلهيه له توحي بالموعظة والعبرة، فربنا عز وجل:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود: 117)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (11-20): تفسير الآيات 160 - 175 ، قصة سيدنا لوط مع قومه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-09-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة الشعراء في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(164))

هذه الآيات تتكرر في مقدمة كل قصة، وفي دروس سابقة شرحت كلمة (التقوى)، وشرحت كلمة(رسول أمين) بالتفصيل، واليوم ننتقل إلى مضمون القصة.

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166))

قصة لوط عليه السلام مع قومه:

كل شيء مخلوق خير مطلق ولكن الخطأ في سوء الاستخدام:

إنّ كل شيءٍ خلقه ربنا سبحانه وتعالى خيرٌ مطلق، ولكن حينما يسيء الإنسان استخدام الشيء يقع في مشكلة كبيرة.

ونضرب على هذا مثلاً: المعمل الذي صنع السيارة، صنعها كي تحقق الراحة للإنسان، صُنعت كي تنتقل بالإنسان من مكان إلى مكان، فإذا أساء السائق استخدام السيارة، إذا أهمل صيانتها، إذا غفل في أثناء قيادتها تدهورت به، فهذا التدهور شر، ولكن هذا الشر ليس مخلوقاً إنما نتج عن سوء استخدام المركبة، أو عن تقصير في تنفيذ تعليمات الشركة الصانعة.

لذلك هؤلاء القوم، قوم لوط، لماذا أهلكهم الله عز وجل ؟ لأنهم عبّروا عن شهوتهم بطريقة غير صحيحة، بطريقة شاذة، بطريقة لم يرض الله سبحانه وتعالى عنها، الله سبحانه وتعالى خلق الزوجين الذكر والأنثى، وخلق المرأة بطريقة تكمل الرجل، وخلق الرجل بطريقة يكمل المرأة، فإذا ما حصل

انحراف، أو شذوذ، فهذا شر مستطير، ليس ناتجاً عن خطأ في خَلق الإنسان، لا ! بل ناتج عن جهله، وعن تفريغ شهوته بطريقة غير مشروعة، فالدينُ جاء ليبين للإنسان طريقة استعمال كل شيء، طريقة التعامل مع كل شيء، طريقة الاستفادة من كل شيء.

وإليكم مثلاً تقريبياً: لو وضعنا السكر في الطعام، في الطبخ، فهذا الطعام لا يأكل، مع أن الطبخ ثمين جداً، والسكر ثمين، وإذا وضعنا الملح في الشاي، فالشاي لا يُشرب، إذا وضعنا مسحوق التنظيف مع الطعام فالطعام لا يُأكل، فحينما نسيء استخدام هذه المواد، نقع في شر مستطير، والشر لا وجود له في الأصل، الكون خيرٌ مطلق، ولكن الشر ناتج عن جهلٍ في استعمال الأشياء، عن جهلٍ في التعامل مع الأشياء، عن جهلٍ في طريقة استخدام الأشياء، هذا هو الشر.

هؤلاء قوم لوط خالفوا سنة الله في خلقه، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون: 1 - 7)

اقترفوا عدواناً صارخاً، هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفةً تجري فيها، وبشكل أعم، ما من شهوة أوْدَعها الله في الإنسان إلا وخلق لها طريقةً نظيفةً مثاليةً يقرها المجتمع، ويقرها الله عز وجل لتفريغ هذه الشهوة، والحديث اليوم عن شهوة الجنس، فهؤلاء الذين خرجوا عن الطريق الصحيح، الذين خرجوا عن الأسلوب الصحيح وقعوا في العدوان، لأن هذه المرأة حينما خُلقت، خُلقت لتشكل مع الرجل أسرة نافعة، يعني السعادة. كل السعادة حينما يحقق الإنسان سنة رسول الله صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ في الزواج، فهذه زوجةٌ طاهرةٌ، وفيةٌ صادقة، ثمرة هذه العلاقة أولادٌ، يعرفون أمهم وأباهم، ينشؤون في بيت إسلامي، فيه التوجيه، فيه العلم، فيه الأخلاق، هذا هو التخطيط الإلهي.

قلت لكم سابقاً: إن امرأة تعمل في المسارح سئلت، ما شعورك وأنت على خشبة المسرح، قالت وهي صادقة: شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الجمهور، إن الحب يجب أن يبقى بين الزوجين، وفي غرفٍ مُغلقة، هذه هي الفطرة.

حينما أودع الله في الإنسان شهوة المرأة جعل لها نظاماً دَقيقاً دقيقاً، والقرآن الكريم طافح بالآيات التي تنظم علاقة الرجل بالمرأة نظام الأسرة، نظام الخِطبة، نظام العَقد، نظام الشهود، نظام الإرضاع نظام الطلاق، هذه كلها ضافية في القرآن الكريم، أحكام كثيرة ضافية وافية تنظم علاقة الرجل بالمرأة، أما حينما يسلك الإنسان لتفريغ شهوته طريقًا لم يخلق له، طريقا شاذاً، فقد وقع في شرٍ خطير، لأن الإنسان حينما ينحرف، أو حينما يعتدي فإنما يجرفه تيار الأهواء، والانحرافُ والاعتداءُ هما شيءٌ واحد لأنه:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: 50)

الانحراف يسبب شعور بالكآبة، لأن الله سبحانه وتعالى فطر الإنسان فطرةً عالية، قال تعالى:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: 30)

فإذا فعل الإنسان شيئاً يُرضي الله عز وجل، ويدعم الخير في المجتمع، ويسبب سعادة الآخرين، إذا فعل الإنسان هذا الشيء شعر بسعادة وطمأنينة، واستقرت نفسه، فإذا أفسد أخته في الإنسانية، أو إذا اعتدى على أعراض الناس، فقد حطمهم، وحطم نفسه، لذلك فربنا سبحانه وتعالى، جعل قوم لوط جرّاء هذه المعصية الكبيرة والشنيعة عبرةً للناس:

إنكار لوط عليه السلام على قومه مخالفتهم للفطرة:

(أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ(166))

أنتم معتدون، لأن الله سبحانه وتعالى جعل لهذه العلاقة مكاناً نظيفاً، ويثمر طفلاً يعين أبويه حينما يكبران، لكن الطريق الشاذ، طريق قذر، وطريق يسبب تحطيماً لنفسية الصغير، ويبعث شعوراً بالذنب لدى الكبير، إن هذا كله يفتت المجتمع.

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)

تهديد قوم لوط نبيّهم بالإخراج من الديار:

يعني نحن مصرون على إتيان هذه الفِعلة:

(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ)

عن تنبيهنا وتوجيهنا، ولومنا سوف نخرجك من أرضنا

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)

فما كان من سيدنا لوط إلا أن قال:

(قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ)

الأصل البراءة من المعصية وبغضها وإنكارها:

أنا أبغض عملكم، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((مَن شهد معصية فأنكرها، كان كمن غاب عنها، ومن غاب عن معصية فرضي بها، كان كمن شهدها))

(ورد في الأثر)

إنّ من واجب المؤمن إذا رأى معصية أن ينكرها، حتى ينجو من عذاب الله، ما معنى قول الله عز وجل:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال: 25)

فإذا وقعت المعاصي من أناسٍ، وسكت الباقون، لم ينكروا لا بقلوبهم، ولا بألسنتهم، ولم يغيروا هذا المنكر بأيديهم، فقد عم هؤلاء جميعا بلاء الله عز وجل، لأن سكوتك عن إنكار المنكر، دليل أنك رضيت به، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((الذنب شؤم على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن رضي به شاركه في الإثم، وإن عَيّره ابتلي به))

(الجامع الصغير عن أنس)

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

فإذا فُعِلت المعصية، إذا فُعلتْ المنكرات، وسكتَ المسلمون، ولم يُنكروا هذا لا بقلوبهم، ولا بألسنتهم، ولا بأيديهم، فقد عمهم بلاء الله عز وجل، ومن هنا، السكوت عن الحق ذنب كبير.

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168))

إنكار المنكر: قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ

اللهم إن هذا منكرٌ لا أرضى به.

مَن استطاع أن يزيل المُنكر بيده لم يَقبل الله منه أن ينكره بلسانه، ومن استطاع أن ينكرَ المنكر بلسانه، لا يقبل الله منه أن ينكره بقلبه، لا ! كل حالة لها حكم، إذا كان بإمكانك أن تزيل هذا المنكر فيجب عليك إزالته بالطريقة المناسبة، فابنتُك في البيت مثلاً، لك عليها سلطة، فإذا خرجت بطريقة غير إسلامية، وقلتَ: اللهم إن هذا منكر، ولا أرضى به، لا ! فهذا ليس منك مقبولا، لأنه بإمكانك أن تنكره، وأن تزيله بيديك، لكن متى يقبل إنكار اللسان ؟ إذا تعذر تغيير المنكر باليد، متى يقبل إنكار القلب ؟ إذا تعذر إنكار اللسان.

(قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(170))

قال ربنا عز وجل:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: 164)

إذا كنتَ في مجتمع فاسق، أوْ كنتَ في مجتمع فاسد، واستقمتَ على أمر الله استقامة تامة، فالله سبحانه وتعالى جعل لك معاملة خاصة، لك طريقة خاصة عند الله عز وجل تنجو بها من عقاب الآثمين، فاذكر هذه الآية في نفسك:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: 11)

أطع أمرنا نرفع لأجلك حبنا فإنا منحنا الرضى مَن أحبنا

و لُذْ بحمانا واحتمِ بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

إذاً ربنا عز وجل حدثنا عن سيدنا يونس حينما وقع في اليم والتقمه الحوت قال:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء: 87 - 88)

القانون المطّرد: وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ

انتهت قصة سيدنا يونس، وجاء التعقيب الذي جعل هذه القصة قانوناً شاملاً:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

في كل زمان وفي كل مكان، في كل ظرف، في كل عصر في كل مصر، من أي جنس.

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

(قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(170))

سنة الله في أنبيائه: النصر والتمكين:

الحقيقة هذا استهتار بأوامر الله عز وجل، قوم لوط استخفوا بأوامر الله، لم يقيموا لها وزناً، لم يعبؤوا بها، لم يعطوها ما تستحق من التعظيم، إذاً فماذا على المؤمن أن يفعل ؟ هذا سؤال دقيق، فحينما نقرأ هذه القصة فنحن المقصودون منها، يعني هؤلاء دمرهم الله عز وجل وانتهى ذكرهم، وأصبحوا قصة، وأصبحت هذه القصة قرآناً، معنى ذلك أنها درس بليغ لكل إنسان حتى نهاية الدوران، فما الحكمة ؟ ما الموعظة ؟ ما الدرس البليغ الذي يمكن أن نستنبطه من هذه القصة ؟ هؤلاء قوم لوط استخفوا بأوامر الله، خالفوا سنة رسولهم خالفوا أمر ربهم، خالفوا القانون الذي وضعه الله للإنسان، خالفوا التخطيط الإلهي للأسرة، خالفوا القناة التي سمح الله بها لإفراغ الشهوة، خالفوا نظام الكون، خالفوا تعليمات الصانع، خالفوا تعليمات المربي، خالفوا أمر ربهم، فأهلكهم الله عز وجل، فماذا ينبغي على المؤمن أن يفعلهُ ؟ المؤمن عليه أن يعظم حرمات الله، الدرس الذي يمكن أن يستنبط من هذه القصة، أن على المؤمن أن يعظم حرمات الله، قوم لوط استخفوا بحرمات الله، تجاوزوا الحدود، خرقوا القوانين، خالفوا التخطيط الإلهي، خالفوا التصميم، خالفوا تعليمات الصانع فذاقوا وبال أمرهم، أما المؤمن فعليه أن يعظم حرمات الله.

وجوب اجتناب حرمات الله ومواطن غضبه:

استمعوا أيها الإخوة الكرام إلى هذه الآية الكريمة:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة الحج: 30)

العلماء قالوا: ما معنى تعظيم حرمات الله ؟ أو بالأصل ما هي حرمات الله ؟ قال العلماء: حرمات الله ما أغضبه، أيْ الشيء الذي إذا فعلناه أغضب الله عز وجل، الطلاق مثلا، إذا طلق الرجل امرأته من غير شبهة، من غير سبب، يهتز له عرش الرحمان، لأنه يُغضبُ الله عز وجل، فاحذر من فعل شيءٍ يُغْضِبُ رب السماوات والأرض، وإذا غضب الله على إنسان، فقد انتهى هذا الإنسان إلى البوار والخُسران ز

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد: 28)

وإذا كان قوم لوط خاطئين، وإذا كانوا منحرفين، فاسدين معتدين، قد تجاوزوا الحدود، فما موقف المؤمن إذاً ؟ موقف المؤمن تعظيم حرمات الله، حرمات الله مغاضِبُه، أي الأشياء التي إذا فعلناها

غضب الله علينا، و حرمات الله ما نهى الله عنه، ما معنى تعظيمها ؟ ترك ملابستها، لكن المؤمن لا يدع المعصية فقط، بل يجعل بينه وبين المعصية هامشَ أمان، يعني نهراً عميقاً، له شاطئ زَلِق، فالحكمة تقتضي أن أدع بيني وبين النهر مسافة كبيرة، نسميها هامش الأمان، لذلك فربنا عز وجل قال:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: 187)

هناك حدود لله عز وجل، إذا اقتربت منها جذبتك إليها، كيف أن بعض التيارات الكهربائية، بعض الأسلاك الكهربائية التي يجري فيها تيار يزيد على آلاف الفولطات، إن هذا التيار يشكل حوله ساحة مغناطيسية، حيث إن الإنسان إذا اقترب منه جذبه التيار وأحرقه، لذلك يجعلون مسافةً واسعةً حول أسلاك الكهرباء ذات التوتر العالي، هذه المسافة هي هامش أمان، وأنت أيها المسلم لابد أن تضع بينك وبين حرمات الله ؛ أي مغاضِبَه، هامش أمان، والزنا يُغضب الله عز وجل، الله عز وجل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: 32)

أن تصاحب زانياً، أن تسهر سهرة مختلطة، أن تذهب إلى أماكن مشبوهة، أن تتجول في طرقات فيها نساء كاسيات عاريات، أن تقرأ أدباً رخيصاً، هذا كله اقتحام لهامش الأمان، هذه منطقة خطرة ربما جذبتك إلى الزنا، لذلك ما حَرُمَ فعله حَرُمَ الاستماع إليه، وحرُم النظر إليه، وحرُم الحديثُ عنه، ما حَرُم فعله هذه قاعدة أصولية، ما حرم فعله حرم استماعه، ما حرم فعله حرم النظر إليه، ما حرم فعله حرم الحديث فيه، هذا هامش الأمان،

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

لذلك الإنسان الشريف ليس هو الذي إذا واجه الزنا لا يزني، لكنه الذي يبتعد عن أسباب الزنا، فكل صديق سوء، كل رفيق سوء، كل أدب رخيص، كل عمل فني رخيص، كل سهرة مشبوهة، كل نزهة مختلطة، هذا كله من أبواب الزنا.

بعضهم قال: حرمات الله، ما وَجَب القيام به وحَرُم التفريط فيه. وبعضهم قال: حرمات الله ما وجب حفظه واحترامه، ربنا عز وجل قال:

تعظيم حدود الله وأوامره: وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ

(وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

أدقُّ تفسير لهذه الآية هو الدرس البليغ الذي يمكن أن يستنبط من هذه القصة، **" الحرمة: التحرُّج عن المخالفات "**، أجَل التحرج، هذا التحرج كلمة على وزن تفعُّل، وزن تفعل له معنيان لطيفان، فلان تأثم،

يعني تأثم على وزن تفعل، بمعنى خرج من الإثم، تأثّم، تحوّب خرج من الحوب، فلان تولّج دخل في الشيء، فلان تمنّى دخل في الأمنية، لذلك وزن تفعل في معنى الدخول أو الخروج، فإذا قلنا: فلان تأثّم أي ابتعد عن هذا الشيء مخافة أن يقع في الإثم به، فما هو تعظيم حرمات الله ؟ التحرج عن المخالفات والمجاسرات، التحرج، والتحرج: الخروج من الحرج يعني منطقة ضيقة، مشبوهة، مخيفة، زلقة ذات أبعاد خطيرة.

(وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ)

يبتعد عن كل شبهة، لذلك فعَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ ؛ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

(أخرجه البخاري)

أول شيء: ومَن يعظم حرمات الله، هناك شخص يرى أن أمر الله عز وجل شيء عظيم، بينما إنسان آخر يستخف بهذا الأمر، وكما أقول دائماً: هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، فالإنسان أحياناً يهون الله عليه، يهون أمره عليه، لا يبالي، أكان كسبه من حلال أم من حرام، لا يبالي أصلّى أما لم يُصَل، لا يبالي أصدق أم كذب، لا يبالي أخان أم اخلص، لا يبالي أفعلَ ما يرضي الله أم فعلَ ما يسخطه، يعني هان الله عليه، كيف يهون الله على إنسان ؟ يعني أن تهون أوامره عليه ؛ فإذا هان الله عليك هُنْتَ على الله، وحينما ترى المسلمين بأعداد كثيرة يزيدون على ألف مليون، وليست كلمتهم هي العليا، فالتفسير سهل جداً: هان الله عليهم فهانوا على الله.

قال الله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

(سورة النور: 55)

القضية إمّا أن تكون على مستوى جماعي، أو على مستوى فردي، فإذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فانظر ما لله عندك، إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك، هل أمْره عظيم عندك ؟ لذلك قالوا: مِن تعظيم الأمر والنهي، أن تطيع الله عز وجل لا خوفاً من عقوبته، ولا طمعاً في ثوابه، ولا مراءاة لخلقه. هذا الذي يعظم أمر الله ونهيه، ويطيع الله عز وجل، لا طمعاً في ثوابه، ولا خوفاً من

عقوبته، ولا مراءاةً لخلقه، بل لأنّ الله عز وجل يستحق العبادة، جاء في الأثر:

((لو لم أخلق جنةً ولا ناراً أمَا كنت أهلاً لأنْ أعبد ؟))

فأن تعبد الله من دون طمع بما عنده في الجنة، ومن دون فزع لما ينتظر العاصي من عذاب، ومن دون أن ترائي أحداً من خلق الله، إذا فعلت هذا فأنت ممن تعظم أمر الله ونهيه، أما إذا أردت بأمر الله منفعتك الدنيوية، أو خفت من عقاب أليم، أو أردت أن يمدح الناس استقامتك، فهذا التعظيم لأوامر الله تشوبه شائبة كبيرة.

الزلفى والمآب والزيادة:

شيء آخر، يقول ربنا سبحانه وتعالى عن أحد الأنبياء:

(وَإِنّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

(سورة صَ: 25)

ما الفرق بين الزُلفى وبين حسن المآب ؟

(وَإِنّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

قال العلماء: حسن المآب الجنة، لكنّ الزلفى القرب.

كأنْ يدعوك ملِك إلى طعام نفيس، تدخل قصره، وتأكل من طعامه، وليس بينك وبينه مودة، لكنّ الملك أحياناً قد يدعوك إلى طعام نفيس، ويبتسم في وجهك، يصافحك، يرحب بك، يجلسك إلى جنبه فهذه زلفى بمعنى التقريب، يعني ؛ أرقى شيء في الدين أن تتقرب من الله عز وجل.

(وَإِنّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى)

يعني القرب.

(وَحُسْنَ مَآبٍ)

فإذا نزّهتَ طاعتك عن أن تكون مشوبة بطمع، أو خوف، أو مراءاة كافأك الله بالزلفى، والزلفى التقريب، لذلك:

فلو شاهدَتْ عيناك مِن حســـننا الذي رأوه لمـا وليت عنا لغيرنا

* * *

هذه الزُلفى، وأمّا حسن المآب فيعني الجنة.

وإليك آية ثانية:

(لِلّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: 26)

الزيادة: القرب من الله عز وجل، وفي بعض التفاسير النظر إلى وجه الله الكريم.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

الزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم، فكلما ارتفع إخلاصك، ارتفعت مكافأتك، إذا عظمت أمر الله عز وجل نلتَ كل هذا، نحن نتحدث عن تعظيم أمر الله، لأنّ قوم لوط استهانوا بأمر الله، استخفوا به، خرقوا الحدود، مَن خرق الحدود، كما قال ابن عطاء الله السكندري فهو من الحضرة مطرود، فماذا يقابل هذا؟ يقابل هذا أن تعظم حرمات الله، وتعظيمُ حرمات الله أن يكون أمره ونهيه في منأى عن الطمع، أو عن الخوف، أو عن المراءاة، إذا فعلت ذلك.

(وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

وهذه آية ثالثة:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة: 72)

وكذلك:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر: 54 - 55)

القرب من الله عز وجل له ثمن واضح جداً، يقول سبحانه:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

(سورة الكهف: 110)

إنّ باب الله مفتوح، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ، لا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

(أخرجه الترمذي)

باب الله مفتوح، وثمن الدخول العمل الصالح، والعمل الصالح يرفعك:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: 132)

لذلك هناك من يريد الله ويريد ما عنده، وهناك من لا يريد الله، ولا يريد ما عنده، وهناك من يريد ما عند الله، فحسب؛ كبعض التجار، فهذا الذي يتاجر بالاستقامة، نعم يتاجر بها، فالاستقامة عنده من أجل أن يرزقه الله رزقاً كثيراً، يعني أنك تجدُ كلّ استقامته معلولة بعلل فهي ليست خالصة لوجه الله عز وجل.

من تعظيم أمر الله تعظيمُ آياتِه:

شيءٌ آخر، من تعظيم أمر الله، تعظيم آياته

مثلاً: سئل الإمام مالك رَضِي اللّه عَنْه هذا السؤال: **" ما معنى الرحمن على العرش استوى "** ؟ فلما سُئِل كيف استوى ؟ أطرق مالك مليّاً، وتصبب عرقا، ثم قال: **الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة**، هذا كلام دقيق جداً، إن ربنا عز وجل كيف يعلم ؟ كيف هو حي ؟ ما معنى أنه قادر ؟ ما معنى أنه مريد ؟ كيف ؟ وكما جاء في الحديث:

((إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا))

(أبو داود عن أبي هريرة)

فكيف ينزل، وكيف يغضب الله عز وجل ؟ كيف يرضى ؟ كيف يرحم ؟ كيف يضحك ؟

((عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل))

(البخاري عن أبي هريرة)

فكلمة العجب، وكلمة الضحك، وكلمة الرضى، وكلمة الغضب وكلمة العلم، والإرادة، والسمع، والبصر كلها صفات نفوّض الأمر فيها إلى الله سبحانه، ونؤمن بها على ظاهرها.

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه: 46)

كل هذه الكلمات التي وصف ربنا بها نفسه، يجب أن تقف منها موقف الإمام مالك، الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، فإذا أردت أن تسأل كيف يعلم الله عز وجل ؟ كيف يرى ؟ كيف يسمع ؟ هذا السؤال يؤدّي بك إلى ذات الله، والبحث في ذات الله خطر جداً، النبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نخوض في ذات الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((تفكروا في المخلوقات، ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا))

(الجامع الصغير عن ابن عباس بسند ضعيف)

فمن لوازم العبودية، هناك موضوعات خارج الخط الأحمر، هذه محظورٌ على العبد أن يخوض فيها، لأن الخوض فيها مزلة قدم، وهلاك محقق، لذلك من تعظيم كلام الله أن تقف عند الأوصاف التي وصف بها نفسه مِن دون تعطيل، أو من دون تجسيم، أوضح لكم ذلك: العصمةُ النافعة في هذا الموضوع أن تصف الله عز وجل بما وصف نفسه قال:

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

كيف ؟ لا أعرف، لكنه يسمع ويرى.

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: 10)

هكذا قال الله عز وجل، كيف ؟ لا أعلم، فيجب أن تثبت أسماء الله وصفاته من دون تشبيه، ويجب أن تنفي عن الله عز وجل كل ما يُشبه مخلوقاته، يجب أن تثبت من دون تشبيه، ويجب أن تنفي من دون تعطيل، ويجب أن تقول ليس كمثله شيء، هذه صفة الموحد لذلك أهل السنة والجماعة لا يشبهون، ولا يعطلون، لا يجسدون، ولا يعطلون الآية لا نعطلها، لما قال ربنا عز وجل:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

فهذه لا تعطّلها، لكن أيضاً لا نشبه الله عز وجل بمخلوقاته، أهل السنة والجماعة لا يشبهون ولا يعطلون، هذا الموقف المعتدل، كل ما وصف الله به نفسه تؤمن به كما جاء في القرآن، وكما جاء في سنة النبي العدنان، من دون زيادة ولا نقصان، أكرر هذا هو الموقف المعتدل، هذا من تعظيم أمر الله.

أول تعظيم: أن يكون خالصاً من الطمع، والخوف، والمراءاة.

ثاني تعظيم: ألاّ تجسد، وألاّ تعطل، وأن تؤمن بما وصف الله نفسه، وبما وصف النبي به ربه جل وعلا، من دون زيادة ولا نقصان، أنت إنسان لا يمكن أن تحيط بالواحد الديان مستحيل، إذاً قف في حدود الأدب، وكن في حد النص.

من تعظيم حرمات الله الأدبُ مع الله:

شيء آخر، يتعلق بالأدب مع الله عز وجل، من تعظيم حرمات الله، قوم لوط استخفوا بأوامر الله، وخرقوا الحدود، فأهلكهم الله عز وجل، قال العلماء: إذا استقام الإنسانُ على أمر الله، وعمل صالحاً ارتقت نفسه في سلم المعرفة، فإذا اتصل بالله عز وجل شعر بالسرور، وتجلى الله عليه باسم الباسط، يعني تلاقيه مسروراً، لكنْ هنا مزلقٌ خطير، ما هو هذا المزلق ؟ المزلق الخطير أن يكون مع الانبساط جرأة، جرأة تخرجك عن عبوديتك، فإذا الإنسان سُرَّ، كأنْ صلى قيام الليل، وتجلى الله على قلبه، فبكى بكاءً شديداً، وذابت نفسه محبة لله، فلا ينبغي أن يقوده هذا الانبساط إلى الجرأة على الله عز وجل، ومِن أخطار الانبساط الجرأة، أحياناً تقرّبُ إنساناً وتكرمه فيتطاول عليك، فيتكلّم كلمةً زائدة يتجاوز بها حده، أمّا ؛ كلما أنت قرّبته ازداد معك أدباً، فهي أعلى درجة في العبودية لله عز وجل، فالإنسان بحالات التقريب الإلهي لا ينبغي أن يتكلم كلمة نابية مع خلق الله، ولا ينبغي أن يحتقر خلق الله، ولا ينبغي له أن يَدِلّ على الله بعمله، لا ينبغي أن يتيه على الناس باستقامته، بإقباله، بصلاته، بحفظه لكتاب الله، بأعماله الصالحة الكبيرة التي مَنّ الله بها عليه، فمِن تمام الأدب مع الله، أن الله عز وجل إذا تجلى عليك باسم الباسط، يعني إذا كنت في حالة الانبساط لا ينبغي أن يقودك الانبساط إلى سوء الأدب مع الله عز وجل، يعني هناك أشخاصٌ ينجذبون، يقول أحدهم: سبحاني، هي كلمة فيها سوء أدب مع الله، ما أعظم شأني،

يعني بساعة الإقبال الشديد، وبساعة الغيبوبة غاب عن الوعي، فقال: سبحاني، ما أعظم شأني، هذا الانبساط قاده إلى الجرأة، ومن تعظيم حرمات الله أن السرور بالاتصال بالله عز وجل قد يحملك على الشعور بالأمن، أمنٌ معه راحةٌ ومعه كسل، يعني عَمِلَ أعمالاً صالحة، اتصل بالله اتصالاً شديداً، فاسترخى، وشعر بالأمن، هكذا بدا لَهُ.

لذلك قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قبل أن يموت كلمات شَكَّ تلامذته في أحواله، قبل أن يموت، وفي ساعة الاحتضار كان يقول: **" كلا بعدُ، كلا بعدُ، كلا بعدُ، قالوا: ما هذا ؟! كأنهم خافوا على إيمانه، ثم توفاه الله عز وجل، رآه أحد تلامذته في المنام، قال: يا سيدي ماذا فعل الله بك ؟ وما قولك: كلاّ بعدُ ؟ فقال: جاءني الشيطان، وقال لي: لقد دخلت الجنة، فقلت كلا بعدُ حتى يُخْتَم عملي "**، فالمؤمن لا يأمن الشيطان أبداً ما دامت روحه تصحبه، هناك شخص ما مثلاً يعمل أعمالاً صالحة، يلازم مجالس العلم، فيكتفي، ويقول: أنا ضمنت الجنة، مَن قال لك ذلك ؟ يجب ألا تأمن، لا تأمن إلا إذا دخلت الجنة، ما دمت في الدنيا، فأنت في دار ابتلاء، ما دمت في الدنيا فهناك أخطار، مادمت في الدنيا هناك مزالق، لذلك عن النَّوّاس بْن سَمْعَانَ الْكِلابِيّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَا مِنْ قَلْبٍ إلا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أصَابِعِ الرّحْمَنِ، إنْ شَاءَ أقَامَهُ، وَإنْ شَاءَ أزَاغَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: يَا مُثَبّتَ الْقُلُوبِ ثَبّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ قَالَ وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرّحْمَنِ يَرْفَعُ أقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

(أخرجه ابن ماجة)

من تعظيم حرمات الله عزوُ الفضل إليه سبحانه:

الشيء الأخير، من تمام الأدب مع الله عز وجل أنك إذا أكرمك الله بعمل طيب، إذا أكرمك بحال طيب، إذا أكرمك بقلب سليم إذا أكرمك بتجلٍّ كبير، إذا أكرمك بإقبال شديد، فلا ينبغي أن تعزو هذا إليك وتدَّعي: أنا أخي جهودي الكبيرة الجبارة في هذه السنوات الماضية قادتني إلى هذا الحال الطيب، لا، بل هذا من فضل الله عليك:

(وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء: 113)

وقال سبحانه:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)

(سورة النور: 21)

لذلك من سوء الأدب مع الله أنك في ساعات الإقبال تنسى أن هذا من فضل الله عليك، تعزوه إلى قدرتك، إلى استقامتك، إلى بطولتك، هذا من سوء الأدب مع الله.

الذي ساقنا إلى هذا المَوْضِع هو: لماذا قوم لوط عصوا ربهم ؟ لأنهم استخفّوا بالله عز وجل، استخفّوا بأمره، استهزؤوا بقوانينه، لم يعبؤوا بوعده ولا وعيده، ففعلوا خلاف ما أُمِروا ؛ وخرجوا عن مقتضى حال بني البشر، وأساؤوا، وتجاوزوا الحدود، واعتدوا فأهلكهم الله عز وجل، أمّا المؤمن فالحالة الصحيحة عنده أنه يعظم حرمات الله.

(وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

أول تعظيم: أن تكون طاعتك خالصة عن الطمع، والخوف والمراءاة.

وثاني تعظيمٍ: أن تقف مَعَ آيات الكتاب الكريم عند الحدود التي قالها الله عز وجل، من دون تجسيد ولا تعطيل.

وثالث تعظيم: ألاّ يقودك الانبساط إلى الجرأة، وألا يقودك السرور إلى الأمن، وألا يقودك الشهود إلى أن تعزو هذا إليك.

(رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ(171))

مَن والى قومًا فهو منهم:

أمّا امرأته فقد والتْ قومها، أحبّتْ قومها، شيء خطير، قال عليه الصلاة والسلام:

((من أحب الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

بعض الناس إذا رأى إنساناً منحرفاً أحبّه وأخلص له، وأقام بينه وبينه علاقة حميمة، فهذا دليل المجانسة، لأنه مَنْ جانَس جالس، ومن جالس جانس، فمَن هَوِيَ قوماً حشر معهم، مَن هوِيَ الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً.

فهذه امرأة لوط خانتْ زوجها خيانة الدعوةِ، ومالت إلى قومها المنحرفين، فاستحقت الهلاك.

(إِلّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمّ دَمّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173))

عاقبة أمر قوم لوط: ثُمّ دَمّرْنَا الآخَرِينَ

يقول المفسرون: إن الله سبحانه وتعالى خسف بهم الأرض، وأمطر عليهم حجارة من السماء، وأئمة الفقه استنبطوا من هذه الآية أن عقوبة مَن يفعل فعلة قوم لوط أن يُلْقى من شاهقٍ، أو أن يضرب بالحجارة حتى يموت، والنتائج الطبيعية لهذا العمل مرض الإيدز، ذلك الشبح المخيف الذي يهدد أمن البشرية الآن، يعني أنّ في المجتمعات الغربية، وفي أمريكيا، وفي أوروبا، وفي أفريقيا، إصاباتٍ في أعداد مخيفة، وحتى الآن ليس هناك دواء ناجع، وهذه عقوبة عاجلة.

وفي بعض الأحاديث عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:

((أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنّ، وَأَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنّ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلا فَشَا فِيهِمُ الطّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمِ الّذِينَ مَضَوْا))

(أخرجه ابن ماجة)

وكلكم يقرأ، ويسمع، ويطالع عن هذا المرض الخطير، مرض نقص المناعة، وربنا سبحانه وتعالى جعل هذا المرض الخطير عقاباً عاجلاً لهؤلاء المنحرفين، والإحصائيات الدقيقة، أنه تسعين بالمائة من حالات هذا المرض بسبب فعل قوم لوط، تسعين بالمائة قسم قليل بسبب تعاطي المخدرات، ومعاقرة الخمر والزنا، لكن هذه المعاصي الكبيرة في مقدمتها فعل قوم لوط، ومصيرُ هذا مرض خطيرٌ خطير، يعني شبح مخيف، تئنّ تحت وطأته نفوس الملايين من الذين ألقوا أوامر الله عُرْضَ الطريق.

(ثُمّ دَمّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنّ رَبّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (175))

هذا كلام الله عز وجل، فأيُّ انحرافٍ في علاقة الرجل بالمرأة، أو بغيرها فمصيرُه هذا المصير الحالك المُهلك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (12-20): تفسير الآيات 176 - 191 ، قصة سيدنا شعيب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-10-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة الشعراء، لا زلنا في هذه السورة وفي القصص التي أوردها الله فيها، ونحن اليوم مع قصة سيدنا شعيب، وهي آخر قصة في سورة الشعراء ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ)

قصة سيدنا شعيب مع أصحاب الأيكة:

الأيكة ؛ الشجرة الملتفة، يبدو أن هؤلاء القوم كانوا في أرضٍ خصبةٍ، وفيها أشجارٌ كثيفة، لكن المفسرين يقولون، إن سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، أُرسل إلى قومين اثنين، أرسل إلى قومه، أهل مدين، وأرسل إلى أصحاب الأيكة، والدليل أن الله سبحانه وتعالى حينما حدثنا عن أهل مدين فقال:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

(سورة الأعراف: 85)

بينما هنا يقول الله عز وجل:

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177))

حينما حدثنا عن أهل مدين قال:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

إذاً أهل مدين قوم سيدنا شعيب، بينما أصحاب الأيكة قوم آخرون أرسله الله إليهم، والأيكة هي الشجرة الملتفة، أما الأيك فجمع أيكة، يعني الغابة، ويبدو أن هؤلاء يعيشون في بحبوحة، وفي ظلٍ ظليل، وماء فرات، وحياة رخيّة، لكنهم كفروا بالله عز وجل، فأهلكهم الله عز وجل كما أهلك الأقوام السابقة.

(قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180))

تكرار الأمر بالتقوى لأهميتها:

هذه الآيات تتكرر مع كل قصة بالتمام والكمال، الآن الخطاب الخاص لأصحاب الأيكة:

(أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182))

الأمر باستيفاء الوزن وعدم بخض الناس أشياءهم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا وَزَنْتُمْ فَأَرْجِحُوا))

[أخرجه ابن ماجة]

فأن تزن بالقسطاس المستقيم هذا من لوازم الإيمان، وَالله سبحانه وتعالى يقول في سورة أخرى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

(سورة المطففين: 1)

الويل هو الهلاك، والشقاء لمن يبخس الناس أشياءهم، وإذا ذكر الله الوزن، فالمقصود أيضاً أشياء أخرى، يعني إذا أنت أقنعت البائع أن بضاعته سيئة، ولم يستطع أن يبيعها لرداءتها، وأنه تورط في شرائها، فانهارت معنوياته، و باعك إياها بثمن بخس، هذا من قبيل أنك بخست الناس أشياءهم، وأنت إذا كلفت أن تقيم داراً، أو تقيّم مركبة، أو تقيم أرضاً، فإذا كان لك مصلحة في أن يهبط السعر، ولا تعطي الرقم الصحيح، فأنت ممن ينطبق عليه قوله تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

فهذا التطفيف يكون في الكيل، والمساحة، والعدد، والتخمين، حتى يدخل فيها تقييم الرجال، يجب ألا يخرجك رضاك عن الحق، وكذلك ألا يخرجك غضبك عن الحق، فيبدو أن هؤلاء أصحاب الأيكة كانوا يبخسون الناس أشياءهم.

الآن جرب أن تبيع حاجةً فتعرضها على الناس، فإنهم يعطونك أقل الأسعار، فإذا أردت أن تشتري هذه الحاجات، يطلب منك أعلى الأسعار، ما معنى ذلك ؟ أن الذي عرض عليك سعر الشراء بخسك قيمتها، ومما تعلمون أن الذي يطفف بتمرة واحدة تجرح عدالته، وليس المقصود الوزن فقط، الوزن، و الكيل، والمساحة والعدد، الذي يقيس القماش، إذا قاسه مشترياً يرخى القماش ليشكل خطاً منحنياً فإذا قاسه بائعاً شد القماش، هذا يفرق بالثوب الواحد نصف متر، أو متراً، فهذا ممن يبخس الناس أشياءهم أو من المطففين.

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

إذا بعت سلعة غالية، تضع لها العبوة من ورق، أو من كرتون بنفس الثمن، بينما السلف الصالح يضعون في الكفة الثانية ورقة تماثل ورقة العبوة، لئلا يكون ثمن الورق بثمن الشاي، أو البن، فهذا كله من قبيل

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

بيع المضطر: الذي يشتري بثمن بخس من إنسان مضطرٍ ليبيع هذه السلعة، فقد بخس الناس أشياءهم، وأكل مالاً حراماً، مثلاً شخص ابنه في المستشفى، وهو مضطر أن يبيع هذه الخزانة فيأخذها المشتري منه بربع ثمنها، هذا من قبيل أنه بخس الناس أشياءهم.

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

النهي عن الفساد والإفساد:

الإفساد كلمة واسعة جداً، من صفات المنافقين أنهم مفسدون، يفسدون العقائد، ويفسدون الأخلاق، والعلاقات، الأخلاق تفسد، والعلاقات تفسد، والعقائد تفسد، وهذا كله من عمل المنافقين، والكافرين.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

(سورة البقرة: 11 - 12)

(وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185))

متى يعصي الإنسان ربه ؟

الحقيقة، سألت نفسي سؤالاً، وأنا أقرأ هذه الآيات، متى يعصي ؟ لمّا لم يستقم هؤلاء على أمر الله ؟ لمّا بخسوا الناس أشياءهم لما طفّفوا في الميزان، لما باعوا بيعاً حراماً، لما لم ينضبطوا، في عندنا سؤال كبير، هذا سؤال دائم، الآن ترى أنّ القرآن بين أيدي الناس، والخطب الرنانة ملْءَ أسماعهم، والأشرطة يسمعونها في البيت، وفي السيارة، والحق محيط بهم من كل جانب، والسؤال الخطير، لماذا يعصي الإنسان ربه ؟ بينما يستمع إلى الحق بشكل مستمر، الجواب: أن الإنسان يعصي ربه إذا لم يتيقن من أن الله عالم ومن أن الله قادر، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق: 12)

ربنا عز وجل اختار من أسمائه الحسنى الكثيرة، ومن صفاته الفضلى الكثيرة، اختار اسمين، العليم، والقدير، يعني أنك لن تطيع جهة، إذا لم توقن أن علمها بالمخالفة يطولك، وإنك لن تطيع جهة إذا لم توقن أن قدرتها تطولك، دعوا هذا البحث المهم، وتعالوا إلى الواقع، إنسان يصدر أمراً متى ينفذ بحذافيره، ومتى لا ينفذ، إذا كان الذي أصدر هذا الأمر قوياً، ويعني ما يقول، ويفعل ما يقول، وأنت موقن بذلك فلن توصيه، ولكنك تعصيه في حالة واحدة، إذا كان علمه بالمخالفة ناقصاً أنت في مكان ناءٍ، وقانون وتنظيم السير شديد جداً، لكن ما في المكان شرطة، مادام علم الذي أصدر هذا القانون لا يطولك فإنك تعصيه، وإذا كان يطولك علمه فإنك لا ولن تعصيه.

الإنسان يعصي في حالتين، إذا كان علم الآمر لا يطوله، أو إذا كانت قدرته لا تطوله، أما إذا تيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، بشكل طبيعي أكيد حتمي قطعي، تطبق الأمر، لذلك إذا علمت من قدرة الله ما علمت، أنك في قبضته، وأن كل شيء في حياتك بأمره، مبدئياً صحتك، أجهزتك، عقلك، أعصابك، أوردتك، قلبك، رئتاك الجهاز الهضمي، الكليتان، العضلات، العظام، كل خلية في جسمك إنما هي بأمره، وأهلك، وأولادك، ومن فوقك، ومن تحتك، وما حولك، والجراثيم، والعصيات، والفيروسات، كلها بأمره، وكلها جنوده، إذا علمت أن قدرته تطولك، وأن علمه يطولك فلا ولن تعصيه، يقول سبحانه:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه: 7)

يعلم الذي أسررت، والذي أعلنت، يعلم خواطرك، يعلم مشاعرك، يعلم طموحاتك، يعلم نواياك، إذا تحققت من علمه، وتحققت من قدرته، فالنتيجة الحتمية، الطبيعية، القطعية، أنك تستقيم على أمره، وأي إنسان لا يستقيم على أمر الله ففي يقينه بعلم الله خلل أو يقينه بقدرة الله خلل، أما لو تحقق من علم الله، ومن قدرته، التحقق الكافي، واليقين الكافي لرأى نفسه بشكل لا شعوري قد استقام على أمر الله.

مثل آخر: ما الذي يحكم حركة الإنسان اليومية ؟ لماذا فلان يسرق ؟ لماذا فلان يطلق بصره بالحرام ؟ لماذا فلان يغض بصره عن محارم الله ؟ لماذا قال سيدنا يوسف:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف: 23)

الاعتقاد الفاسد والتصور الخاطئ سبب المعصية:

ولماذا آلاف الآلاف من الناس إذا سمحت لهم فرصة كفرصة سيدنا يوسف يرونها مغنماً، لماذا هذا أقدم، وهذا أحجم ؟ لماذا هذا أكل مالاً حراماً، وهذا قال: معاذ الله، أموت جوعاً، ولا أقبض هذا المبلغ لماذا ؟ يعني سؤال آخر، ما الذي يحكم تصرفات الإنسان ؟ ما الذي يسيره؟ ما الذي يوجهه ؟ إنها تصوراته، فالسارق يتصور أن السرقة مغنم، وأنها جهد يسير، ودخل كبير، ولم يقبض عليه، فالذي يدفعك نحو هذا العمل، أو يحملك على أن تحجم عنه تصورات، هذه التصورات تعد تقليداً إذا افتقرت إلى الدليل، فالسارق مثلاً يقول: أخي هكذا الناس يفعلون، نحن مع الناس، هذا كلام عامة، مادام عملك ينطلق من فكرك وأنت تفتقر إلى الدليل، فهذا الموقف فيه تقليد أعمى.

ولا تنسوا أيها الإخوة، أنه لا يقبل التقليد في العقيدة، لو قبل التقليد في العقيدة، لكان كل الضالين وجدوا آباءهم على هذا الضلال فاتبعوهم، ولهم العذر عند الله عز وجل لكن ربنا عز وجل ما قبل من هؤلاء الناس أن يقولوا إنهم وجدوا آباءهم هكذا ففعلوا مثلهم، فالتقليد في العقيدة مرفوض، كل الرفض، وأشد الرفض، إذاً الذي يحكم هذه التصرفات، وهذه الحركة، وهذا الإقدام، هذا الإحجام، هذا الوصل، هذا الفصل، هذا العطاء، هذا المنع، هذا الغضب، هذا الرضا، هذه المسايرة، هذا الانسجام، هذا الاشمئزاز هذا التقزز، الذي يحكم كلماتك، مواقفك، مشاعرك، تصرفاتك سلوكك هو التصورات، فإذا خلت تصوراتك من الدليل فهو التقليد الأعمى، و التقليد لا يليق بالمؤمن، والتقليد مرفوض في عالم العقيدة.

الآن إذا افتقرت هذه التصورات إلى القطعية، يعني أنت لست متأكداً، أنت في شك، فهذا يسمى شك، أو وهم، أو ظن، سبعين بالمائة ظن، ثلاثين بالمائة وهم، خمسين بالمائة شك، فأنت بين الشك والوهم، والظن، ولا يقبل في العقيدة لا شك، ولا وهم، ولا ظن، لأنه ما دام لديك ظن، فيجوز حسب رأيك أنك لا تحاسب، فقول: أعصي إذاً، مادام هناك وهم أو شك، أو ظن، أنك لن تحاسب، أو أن الذي أمرك لا يراك، أو أنه إذا رآك فلن يعاقبك، مادام دخل الشك، والوهم، والظن، فهذا التصور لن يحملك على طاعة الله عز وجل، إذاً يجب أن تنتفي من أفكارك، وعقيدتك، التقاليد العمياء، والتقليد يعني الفكرة التي لا دليل عليها، و يجب أن تكون عقيدتك التي تسيرك قطعية، فإذا لم تكن مقطوعاً بصحتها كانت شكاً، أو وهماً، أو ظناً، فإن الشك والوهم والظن، لن يحملك على طاعة الله عز وجل وهذا تحليل علمي، لماذا الناس يستمعون إلى الخطب، والجوامع مليئة، يقول أحده لك: هذا الجامع فيه خمسة آلاف، هذا ثمانية آلاف، هذا عشرون ألفاً، غضّ المسجد، والمعاصي على قدم وساق، والكلام واضح وكلام الخطيب واضح، والآيات واضحة، والأحاديث واضح والأحكام واضحة، ومع ذلك هناك من يعصي،

إذاً إنّ في عقيدته أو في تصوراته، أو في أفكاره، تقليداً بلا دليل، أو في عدم قطع يعني في شك، أو وهم، أو ظن.

مرتبة العلم واليقين حاجز عن المعصية:

أما إذا كانت أفكارك، وتصوراتك، لا علاقة لها بالواقع، أو لم تطابق الواقع فهي عين الجهل، وقد كان سبب الخلاف الزوجي ذات مرة أن امرأة ألقت ماء مع ملح في طريق الزوج، هذا جهل وحمق، وهو زوج سيئ، أحمق في تصوراته فيعزى هذا الشقاء الزوجي إلى شيء لا علاقة له بالشقاء الزوجي، فكل شيء لا يطابق الواقع يعد جهلاً، فيجب أن تنفي من عقيدتك كل جهلٍ، أي كل فكرة لا تطابق الواقع ويجب أن تنفي كل تقليد، أو فكرة ليس عليها دليل، ويجب أن تنفي كل ظن، أو شك، أو وهم، إذا نفيت الشك والظن والوهم، ونفيت التقليد، ونفيت الجهل، فأنت إذاً مع العلم.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر 28)

إذا كانت أفكارك تنطلق من علاقة ثابتةٍ، مقطوع بصحتها يؤكدها الواقع، توافق المنطق، عليها دليل، إذا كانت أفكارك كلها هكذا فأنت إذاً في طريق الإيمان، وأنت في اتجاه الحق، وأنت مع الحق وأنت محفوف برعاية الله عز وجل، فالقضية قضية علم، أخطر عدو للإنسان هو الجهل، هذا الجواب مثل قوم شعيب، قوم ثمود، قوم عاد، لماذا فعلوا ما فعلوا ؟ لماذا عصوا ؟ ليس لديهم يقين أن الله سبحانه وتعالى يعلم سرهم ونجواهم، ولا يقين عندهم أن الله سيحاسبهم على أفعالهم حساباً عسيراً، فأنت لو ارتقت معرفتك إلى درجة اليقين، أن علم الله يطولك أينما كنت، وأن قدرته تطولك أينما كنت، تجد نفسك بشكل عفوي طبيعي مستقيماً على أمر الله من دون تردد، فهذا هو السر، لذلك العلماء أفردوا أبواباً طويلة في كتب التصوف لليقين، مرتبة اليقين عبر عنها النبي عليه الصلاة والسلام بالإحسان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِحْسَانُ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ))

[أخرجه البخاري]

لذلك قال العلماء: اليقين من الإيمان كالروح من الجسد، اليقين من الإيمان، يعني هذا الذي يأكل مالاً حراماً، لابد من أن يتلف ماله وإذا كان لابد من أن يتلف المال الحرام، إذاً لا تأكل هذا المال إطلاقاً، وما الذي يجعل المؤمن يستقيم على أمر الله ؟ يقينه أن هذه معصية، وأن لكل معصية عقاباً ولماذا يفعل الخيرات ؟ لأن الله عز وجل سيثيبه على أفعاله كل خير.

علاقة الحقائق بالقلب:

موضوع اليقين موضوع دقيق جداً، اليقين أن تستقر الحقائق في قلبك، و أن تنتقل من فكرك إلى قلبك، لقول الله عز وجل:

(لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)

(سورة الحج: 46)

قال العلماء: علاقة الحقائق بالنسبة إلى القلب كالعلاقة اليقينية بين القلب والحقائق، كعلاقة المرئي بالعين، كيف أني أرى أن هذا مصحف وأني متيقن من أن هذا مصحف مئة في المئة، كذلك المؤمن إذا بلغ درجة متقدمة في الإيمان تنتقل هذه الحقائق من أفكار إلى أشياء يراها من هنا العلماء قسموا بين علم اليقين، وبين عين اليقين، وبين حق اليقين.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

(سورة التكاثر: 5 -6)

نحن عندنا يقين حسي، هذا ماء، أمسكت هذه الكأس بيدي، وأحسست بأعصابي، تذوقته بأعصاب الذوق، هذا يقين حسي، هذا الإنسان وغير الإنسان مشتركان فيه، اليقين الحسي، الإنسان أرقى من ذلك، الإنسان أودع الله فيه هذا الفكر، أو ذلك العقل، بالفكر أو بالعقل ينتقل إلى يقين استدلالي، أنا موقن بشكل قطعي، ومئة بالمئة أن في أسلاك الكهرباء كهرباء، والدليل، الآثار، هذه المصابيح المتألقة فيقيني أن التيار الكهربائي يصل إلى هذا المسجد يقينٌ قطعي لأنني أرى الأثر، الأثر يدل على المؤثر، والخلق يدل على الخالق، والنظام يدل على المنظم، والتسيير يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير، فاليقين الحسي يقين سهل هو أن ترى بعينك، تسمع بأذنك، تحس بأعصابك، ولكن اليقين الاستدلالي هو يقين أيضاً، فالإنسان أحياناً بحسب المهنة والحرفة عنده أدلة مقطوع بها.

فمثلاً: لو أنّ أنبوب الوقود السائل مقطوع هذه المركبة لن تسير طبعاً لن تسير يقيناً، لأن المحرك يحتاج إلى وقود، والوقود مقطوع عن المحرك، فلن تسير، اليقين الحسي سهل، اليقين الاستدلالي أن ترى الله من خلال خلقه، أن ترى المؤثر من الأثر، أن ترى الخالق من الخلق، أن ترى المنظم من النظام، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، هذا اسمه علم اليقين، علم قطعي الثبوت، علم يقيني استدلال يقيني، من خلال هذا العلم نتعرف إلى الله عز وجل، لذلك ربنا عز وجل قال:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة آل عمران: 190-191)

سؤال ثانٍ: النبي عليه الصلاة والسلام جاءه سيدنا الصديق مع سيدنا حنظلة، قال له الصديق: **عندما نكون معك في المجلس نشعر أننا نحن وأنت في الجنة كهاتين** ـ وجمع بين السبابة والوسطى ـ وقال سيدنا حنظلة: **فإذا عافسنا الأهل ننسى**، يعني أن الإنسان في ساعة الدرس مسرور جداً، فإن يذهبْ إلى البيت فهذه الحقائق تغيب عنه ويعود ليعيش دنياه، فقد ضعف اليقين، أما إذا بلغ مرتبة اليقين، هذه الحقائق تبقى أمامه ماثلة انتقلت من عقله إلى قلبه، وأصبح يعيشها، وشتان بين من يفهم فكرة و بين من يعيشها، نأتي بمثل، ربنا عز وجل لما قال:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب: 71)

اليقين والصبر والسماحة:

الآية واضحة لا تحتاج إلى تفسير، لكن أنت كمؤمن إذا كنت مؤمناً مستقيماً على أمر الله عز وجل، ولك صديق منحرف، ضال فاجر، فاسق، لا يبالي من أين يكسب المال، وله ثروة طائلة، ويعيش حياة فيها رخاء وبحبوحة، فإذا شعرت بالحرمان أمام هذا الصديق المترف، إذا شعرت أن الله قد حرمك، وقد أعطاه فأنت لم تدرك معنى هذه الآية الكريمة:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

فهمُها سهل، ولكن أن تعيشها شيء آخر، أن تفهمها شيء سهل، أما أن تعيشها شيء آخر، لذلك إذا استقرت هذه الحقيقة في القلب، تصبح يقيناً وإذا بقيت في الذهن كفكرة فهذه الفكرة تغيب وتحضر، ففي ساعات الغضب، أو ساعات الشدة تغيب عنك هذه الفكرة، ترى أنك محروم، وأن هذا الفاسق الفاجر هو سعيد في حياته، وأن الله قد حرمك وأعطاه لكن في ساعات التذكر، تشعر أنك مؤمن، فإذا انتقلت هذه الفكرة من عقلك إلى قلبك أصبحت تعيشها، وإذا عشت هذه الفكرة هذا شيء ثمين جداً في حياتنا، العلماء قالوا: إذا تزوج الصبر باليقين ولد الإمامة في الدين، والدليل:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة: 24)

الصبر واليقين عنصران أساسيان في الإمامة في الدين، يعني إذا أردت أن تكون للمتقين إماماً، فعليك بالصبر، وعليك باليقين، وإن النبي عليه الصلاة والسلام جمع الإيمان كله في الصبر، قال:

((الإيمان هو الصبر والسماحة))

(سلسلة الأحاديث الصحيحة)

وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضلُ الإيمان الصبر والسماحة))

(سلسلة الأحاديث الصحيحة)

فإما أن الله أمرك بالبذل، أو نهاك عن أشياء، فإذا انتهيت عما نهاك عنه فهذا هو الصبر، وإذا بذلت ما أمرت به فهذه هي السماحة، فالدين كله صبر وسماحة.

من صفات الكافرين يوم القيامة، أنهم ليسوا بمستيقنين، قالوا:

(وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)

(سورة الجاثية: 32)

عدم اليقين هو الذي جعلهم يعصون خالقهم، نحن الآن مشكلتنا مشكلة اليقين، أما الأفكار سهلة، فكل واحد منا حضر واستمع خطباً دينية ومحاضراتٍ، وقرأ كتباً، وعنده أفكار جيدة جداً، لكنها لم ترقَ إلى مرتبة اليقين، فإذا ارتقت إلى مرتبة اليقين انقلبت إلى فعل حقيقي، ترجمت الأفكار إلى أعمال، وهذه مشكلة المشكلات في العالم الإسلامي، أفكار كثيرة، تعاطف مع الدين شديد، لكن من غير التزام، لأن اليقين ضعيف، اليقين بأن علم الله لا يطوله، أو أن قدرته لا تطوله، أو أن الحساب غير يقيني.

لا إرضاء للناس بسخط الله:

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا ترض أحداً بسخط الله))

(ورد في الأثر)

عَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ الْوَرْدِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالَ:

((كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنِ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ وَلا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا إِلَى مُعَاوِيَةَ، سَلامٌ عَلَيْكَ أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ وَالسَّلامُ عَلَيْكَ))

[أخرجه الترمذي]

إذا أرضيت إنساناً بسخط الله، معنى ذلك أن هذا الإنسان أكثر وجوداً بحياتك من الله عز وجل، لأنك أرضيته، وعصيت الله عز وجل، وهذا من علامات ضعف اليقين، كما قال النبي الكريم، إنه من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، هذا الإنسان وجوده صارخ أمامك، وعده مخيف، وعده محبب، وعيده مخيف، أمرك بشيء فيه مخالفة للشرع، فأنت انصعت إلى أمره، فأين الله عز وجل ؟.

قال له بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال له: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب، قال: ليست لي، قال: خذ ثمنها قال: والله إني بأشد الحاجة إلى ثمنها، فقال هذا الأعرابي أو هذا البدوي: **ولو**

قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟ لا حل لها، أنت تقدر أن تلعب على الناس كلهم، لكن على الله لا يمكنك ذلك، فأين الله ؟ هذه الكلمة، لو قالها الإنسان مستيقناً لحلت كل مشكلاته.

ملخص أسباب المعصية:

أنا أريد بهذا الدرس أن أوضح أنّ سبب المعاصي والمخالفات والتقصيرات هو عدمُ اليقين بعلم الله، أو بقدرته أو بمحاسبته، إنه من ضعف اليقين، كما قال سيد الأنبياء والمرسلين:

((لا ترض الناس بسخط الله))

(ورد في الأثر)

هل هم أغلى عندك من الله عز وجل ؟ استحييت أن تظهر بمظهر التخلف، صافحتك امرأة، فخجلت وصافحتها، وكأن الله عز وجل أمْره أخفُّ عندك من نظرة هذه المرأة لك، إنه من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على فضل الله، فالفضل فضله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره، لا حرص حريص ولا كراهية كاره، وإن الله تعالى جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، و جعل الهم والحزن في الشك والسخط.

درسنا اليوم اليقين، ولابدّ أن تعمل جرداً لكل معلوماتك يجب أن تنقلها من مرتبة التصديق، إلى مرتبة اليقين، إذا نقلتها إلى مرتبة اليقين انقلبت إلى عمل قطعي، لو أخذت هذا المال حراماً، لابد من أن يتلف المال ويتلف صاحبه، كفكرة مخيفة موقتاً.

لي قريب كان يدخن بشكل كبير، إلا أن الأمر انتهى به إلى مرض خبيث في رئتيه، على فراش الموت قال: والله إذا شفاني الله عز وجل لها عندي حساب عسير ـ يعني هذه السيجارة ـ لكن الموت جاء في وقت كان يظنه بعيداً، كان يسمع قبل أن يموت أنها تعمل سرطان بالرئة، فيقول: كله كلام بكلام، ويقول لك: مبالغات، أما حينما أصيب بهذا المرض انتقل إلى مرتبة اليقين، فعقد العزم الأكيد على ترك التدخين، لكن متى ؟ بعد أن تيقن، لكن هذا اليقين لم ينفعه، جاءه بعد فوات الأوان.

معرفة الحقيقة بعد فوات الأوان:

أخطر شيء بالحياة أن تعرف الحقيقة بعد فوات الأوان، ما من إنسان على وجه الأرض إلا و سيعرف الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق: 22)

وقال سبحانه:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(91))

(سورة يونس: 90)

مادام القلب ينبض، وفي الأجل فسحة فهذا هو الوقت المناسب للاستقامة على أمر الله، ولعقد الصلح مع الله، وللتوبة النصوح، أما إذا تمهل الإنسان، وسوف، وقال غداً أو بعد غدٍ، فقد يأتيه الموت في وقت يفاجئه، في وقت ليس مستعداً فيه للقاء الله عز وجل.

من علامات اليقين:

1 - قلة مخالطة الناس:

قال العلماء: من علامات اليقين قلة مخالطة الناس، يعني علاقته كلها مع الله عز وجل، بعض الناس علاقاته الاجتماعية بلغت إلى درجة النفاق، وفيها أكل مال حرام وفيها اختلاط، فهذا يقينه بالله ضعيف، فمن علامة اليقين قلة الاختلاط بالناس، يعني أيّ لقاءٍ فيه شبهة وفيه معصية، يعني هناك خلل، وممالأة للباطل، يتكلم بغير حقٍ مثلاً، فيه غيبةٌ، نميمةٌ، ومجالس اختلاط، في كذا وكذا، فيقينه أن الله عز وجل، ليس إلا الله.

ألا كل شيئا ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

* * *

2 – ترك المدح:

من علامات اليقين ترك المدح لهم في العطية، بل تمدحهم بحسب أمر النبي، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ))

[أخرجه البخاري]

لكن أن ترى لهم فضلاً عليك، الفضل لله عز وجل، من علامات اليقين أن الله هو صاحب الفضل، وأن تذمهم عند المنع، هذا من ضعف اليقين، أما إذا تنزهت عن ذمهم عند المنع، فقد عرفت أن هذا الشيء ليس لك، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر: 2)

ما جاء في الآية من معنى فهذا هو اليقين، ومن علامات اليقين، النظر إلى الله في كل شيء، كل قصة، كل مشهد، وراءه يدٌ رحيمة، يد حكيمة، يد عادلة إذا رأيت الله في كل شيء فأنت من الموقنين، أما إذا انغمست في حديث طويل، تقول: زيد قال، وعبيد قال، فلان تدخّل، وفلان توسط وفلان منع، وأين الله، من علامات اليقين أن ترى الله في كل شيء، أن ترى أنه ما من ناطق، ولا ساكت، ولا متصرف، إلا والله عز وجل هو الذي دفعه، أو، ألهمه أو منعه، أو كبّله.

يقول بعضهم: الطبيب والله شفى لي ابني، هذا من ضعف اليقين، قل الله عز وجل تفضل علي بشفاء ابني على يد هذا الطبيب، هذا كلام صحيح، أما أن تقول الطبيب شفى لي ابني، وفلان أنقذني، هذا كله من ضعف اليقين، فأنت لا ترى الله بل ترى زيداً أو عبيداً، أنت مع الناس ولست مع الله عز وجل، لكن كلما ارتقى مستوى الإيمان فلن ترى إلا الله فهو المانع، وهو المعطي، وهو القابض، وهو الباسط، هو المعز، هو المذل، هو المعطي، هو كل شيء.

كذلك الرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به على كل حال، هذا كله من علامات اليقين.

هؤلاء القوم، قوم سيدنا شعيب:

(أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182))

لما يغش الإنسان، أو يبخس الناس أشياءهم، يظن نفسه ذكياً، يعني تمكن أن يجلب لنفسه النفع، لو تيقن أن الله عز وجل بالمرصاد، وأن هذا المال سيتلفه، وأن سيحاسبه عليه، وأنه سيكيل له الصاع صاعين، ما فعل ذلك، إذاً لن تجد إنساناً يعصي ربه إلا وهو جاهل، وأكبر عدو للإنسان الجهل.

الفرق بين علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين:

العلماء فرقوا بين علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

علم اليقين: أن يقول لك إنسان صادق أنا عندي عسل تقول له صدقت، وأنت عندي صادق فهذا علم اليقين، فإذا زرته في البيت، وأراك العسل فهذا عين اليقين، فإذا أكلته فهذا حق اليقين، إن صدقته وهو الصادق هذا علم اليقين، فإن رأيته فهو عين اليقين، فإن أكلته وذقته فهو حق اليقين والإنسان يبدأ بعلم اليقين، يوقن بالجنة والنار، فإذا شارفهما فقد انتقل إلى عين اليقين، فإذا دخل الجنة فقد صار في حق اليقين.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

(سورة الزمر: 74)

هناك قول منسوب إلى بعض العلماء، وهو منسوب خطأ إلى سيدنا علي، يقول: **<< لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً>>**، فهو متيقن مما في القرآن الكريم، قبل كشف الغطاء، كيقينه بعد كشف الغطاء، إذاً هذه أعلى مرتبة في اليقين، بل إن أحد العلماء يقول: الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين، متيقن برحمته، متيقن بعلمه، متيقن بحكمته، متيقن بعدالته، أصابك ما أصابه، يا رب لك الحمد، هذا أمرك، وهذا فعلك، وهذه حكمتك، وهذا عدلك، وهذا لطفك، هكذا المؤمن.

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ إنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[أخرجه أحمد]

ينتقل المؤمن حالةٍ في اليقين عجيبة، لا أحد إلا الله عز وجل، كل هؤلاء الناس بيد الله، الأمور كلها بيده، هذا الذي وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، كل شيء وقع أراده الله، وإرادة الله عز وجل إرادة متعلقة بالحكمة البالغة، وحكمته البالغة متعلقة بالخير المطلق، والأمور عندما تأتيك برداً وسلاماً، أنت عبد لله مستسلم، وهو الحكيم، لكن لما يقصِّر الإنسان في عمله، أو يقصر في الاحتياطات، والأخذ بالأسباب، وإذا وقع تقصير وصار الأمر مؤلماً، هذا الشيء المؤلم ما عاد كما يظن، بل هو عقاب، وهذا جزاء التقصير، أنت متى تقول هذا أمر الله، وهذه حكمته، وهذه عدالته، حينما تأخذ بالأسباب، وبعدها تدع الأمر لله عز وجل.

درجات اليقين:

قال بعضهم: اليقين ثلاث درجات، تصديق الخبر من الصادق، والمشاهدة، والاستدلال، جاءك الخبر صدقته، جاءك الدليل العقلي زادك هذا يقيناً، رأيته، يعني أنت قلت: رأيت دخاناً، فقلت: لا دخان بلا نار، هذا استدلال، ذهبت إلى خلف الجدار فإذا النار تراها بعينك، هذا صار عين اليقين.

(وَلَا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتّقُوا الّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلّةَ الْأَوّلِينَ(184))

الجبلّة:

الجبلّة ؛ الخلق، يعني المخلوقات التي جاءت من قديم، فالله هو الخالق لكم ولأسلافكم.

(قَالُوا إنّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحّرِينَ)

عادة الكفار رميُ الأنبياء بالسحر والجنون:

أنت إنسان مثلنا، تأكل وتشرب، المسَحّر هنا يأكل ويشرب، طبعاً النبي رسول إنسان بشر، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إنّمَا أنَا بَشَرٌ أرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ))

[قطعة من حديث أخرجه مسلم]

صلى الظهر مرة ركعتين صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ ناسيًا، فعَنْ أَبِي سُفْيَانَ مَوْلَى ابْنِ أَبِي أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

((صَلّى لَنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ صَلاةَ الْعَصْرِ فَسَلّمَ فِي رَكْعَتَيْنِ، فَقَامَ ذُو الْيَدَيْنِ فَقَالَ: أَقُصِرَتِ الصّلاةُ يَا رَسُولَ اللّهِ أَمْ نَسِيتَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، فَقَالَ: قَدْ كَانَ بَعْضُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللّهِ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى النّاس فَقَالَ: أَصَدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَأَتَمّ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا بَقِيَ مِنَ الصّلاةِ، ثُمّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَ التّسْلِيمِ))

[أخرجه النسائي]

(قَالُوا إِنّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (187))

استعجال الكفار العذاب أكبرُ أنواع التحدي:

هذا أشد أنواع التكذيب والتحدي، أين العذاب، أنت يا شعيب تقول: إن ربك يعذبنا، هات العذاب، هذا أعلى درجة من التحدي والتكذيب.

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (187) قَالَ رَبّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظّلّةِ إِنّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189))

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ)

إنّ أشد أنواع التكذيب أن تطالب باستهزاء وعيد خصمك:

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (187) قَالَ رَبّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظّلّةِ إِنّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189))

ما هو عذاب يوم الظلّة ؟

تذهب كتب التفسير مذاهب شتى في تفسير

(عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ)

بعضهم قال: أصابهم حر شديد، فانتقلوا إلى البساتين، وفي البساتين أمطر عليهم الله صواعق من السماء، وأحرقتهم.

وبعضهم قالوا: جاءتهم سحابة استظلوا بظلها في أيام حر شديد، السحابة نفسها، بعد أن تجمعوا تحتها أيضاً أحرقتهم، على كلٍ يكفينا قول الله عز وجل:

(إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

يعني:

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11))

(سورة الدخان: 10 - 11)

وقال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج: 1 - 2)

المؤمن آمِن من عذاب الله:

لكن حال المؤمن يلخصه قول ربنا عز وجل قال:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر: 61)

وربنا عز وجل لما قال عن سيدنا يونس:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء: 87 - 88)

المؤمن وعده الله عز وجل بالنجاة، إذا أصاب الناس مكروه شديد يوم عظيم، عذاب عظيم، ضائقة عظيمة، وعد الله المؤمن بالنجاة، وهذا وعد محقق.

(إِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191) وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(192))

هذه الآيات إن شاء الله تعالى أتركها للدرس القادم، ولكن هناك آيات كونية تقع في العالم،هذه الزلازل، الفيضانات، هذا الخسف أحياناً،هذه البراكين حينما تفور، هذه الأمراض الوبيلة، مرض الإيدز، هذه كلها آيات مستمرة، يعني أنّ الله عز وجل جعل في هذا القرآن آيات، وجعل آيات كونية نراها كل يوم بأعيننا:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا)

(سورة الطلاق: 8)

وقال عزوجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

(سورة النحل: 112)

جيرانا.

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل: 112)

هي أيضاً آيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (13-20): تفسير الآيات 192 - 194
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-10-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

إعادة وتذكير:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة الشُعراء، في الدرس الماضي أنْهَيْنا سابع قِصَّة من قصص سورة الشُعراء، وقبل أن تردَ هذه القِصص تِباعًا بدأ ربّنا سبحانه وتعالى السورة بقَوله الكريم:

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[سورة الشعراء]

وبعد أن انتَهَتْ هذه القصص، قال الله عز وجل:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء]

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ

الشيء يكتَسِبُ قيمتهُ من نِسْبَتِهِ فإذا رأيْتَ كِتابًا مؤلِّفُهُ فلان، فقيمة الكتاب مِن قيمة فلان، كلّما ارْتَفَعَ المقام العِلمي، وكلّما تألّق اسم المؤلِف، كلّما كان الكتاب أعظم قيمةً، فما قولك بكِتابٍ أُضيف إلى خالق الكون ؟ فضل كلام الله على كلام عباده كَفضْل الله على عباده، فأنت أحيانًا تشتري الكتاب لِسَبب واحد، هو أنّ فلانًا مؤلِفهُ، فكيف إذ كنتَ أمام كتاب من عند خالق السماوات والأرض ؟ قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء]

فائدة القصص السبع الوارد في سورة الشعراء:

1 - المكذب مصيره الهلاك:

هذه القصص السّبع ؛ ماذا أفادَتْنا ؟ أفادتْنا أنّ كلَّ مَن يكفر، وكلّ من يكذِّب، وإن كل من يتحدّى الخالق

مصيرهُ الهلاك والدّمار، بشَكل أو بآخر ما الذي أهْلَكَ المُكَذِّبين ؟ جَهلُهم بالله عز وجل، وهذا الذي أقوله كلّ يوم.

2 – الجهل أعدى أعداء الإنسان:

إنّ أعدى أعداء الإنسان هو الجهل، لأنّ فِطرة الإنسان فطرة مركوز فيها حب الخير، مركوز فيها الإيمان بالله، مركوز فيها الانضِباط على أمره، مركوز فيها التوكّل عليه، فحينما يؤمن الإنسان بالله عز وجل تَهدأ نفسُه، وتطْمئنّ وتستقر وتسْعَد، وترْضى، فالفِطرة تُعينك على الإيمان بالله، وعقلك يُعينك على الإيمان بالله عز وجل، والكون يُعينك على الإيمان بالله، والكتاب يُعينك على الإيمان بالله عز وجل، والأبواب التي فتحها الله عز وجل تُعينُكَ على التّقرّب إليه، ما الذي يحول بينك وبين أن تكون سعيدًا في الدنيا والآخرة ؟ إنّه الجهْل، لذلك سأرْوِي لكم بعض أقوال العلماء فيما يتعلّق بالعِلم.

3 العلم أساس الإيمان:

يقول أحد العلماء: العِلم إنْ لم يصْحب السالك من أوّل قدَمٍ يضَعُهُ في الطريق إلى آخر قدَمٍ ينتهي إليه، فَسُلوكُهُ على غير الطريق ! وهو مَقطوع عليه طريق الوُصول إلى الله عز وجل، ومَسْدود عليه سبيل الهُدَى، فالشيء الوحيد الذي اعْتَمَدَهُ القرآن الكريم كَقِيمة يتفاضل بها العِباد ؛ وهو العِلم، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ)

[سورة الزمر]

الشيء الوحيد الذي أمرنا الله أنْ نزْداد منه هو العِلم، قال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

[سورة طه]

إذا أردْت الدنيا فَعَليك بالعِلم، وإذا أردْت الآخرة فَعَليك بالعلم، وإذا أردْتهما معًا فعليك بالعِلم، والعِلم لا يُعْطيك بعضهُ إلا إذا أعْطيْتَهُ كلّك، فإذا أعْطيْتَهُ بعضك لم يُعطِكَ شيئًا، ويظلّ المرء عالمًا ما طلب العِلم، فإذا ظنّ أنّه قد عَلِمَ فقد جَهِلَ ! لا ينْهَ عن العِلم كما قال بعض العلماء إلا قُطّاعُ الطُرق، ونُوّابُ إبليس !! هذا الذي ينْهاك عن أنْ تفْهَمَ القرآن، وعن أن تفْهَمَ سنّة النبي العدنان، هذا الذي يصْرفُكَ عن طلب عِلم لا خير فيه ؛ لا ينْهَ عن العِلم إلا قُطّاعُ الطُرق ونُوّابُ إبليس.

4 – كل الطرق مسدودة على الخَلق إلا طريق النبي عليه الصلاة والسلام:

يقول الإمام الجُنَيْد ـ رحمه الله تعالى ـ وكان من كِبار العلماء: **" الطُّرق كلُّها مَسْدودة على الخلق إلا من اقْتَفى أثر النبي عليه الصلاة والسلام ".**

فالطريق التي رسمها النبي عليه الصلاة والسلام هي الوحيدة السالكة إلى الله تعالى، فمن اقتفى أثر النبي فَطَريقُه سالكة إلى الله عز وجل، ومن اقتفى أثر أيّ إنسانٍ آخر لا علاقة له بالنبي عليه الصلاة والسلام فطَريقُهُ مَسْدودة ونحن نُعَبِّرُ أحيانًا عن إخْفاق إنسانٍ، وعن إحباط عمله، وعن ضَعْف تَفكيره، وعن خَيْبة أمله فنقول: إنّه يَمشي في طريق مَسدود، إذا أردْتَ أن تمشي في طريق سالكة، وإلى سعادة الدنيا والآخرة فاسْلُكَ سبيل النبي عليه الصلاة والسلام ؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى جعَلَهُ قدْوةً حسنة، وجعله أسوةً صالحة، ومثَلاً أعلى.

وقال عالمٌ آخر: **" عِلْمُنا مُقيّد بالكتاب والسنّة "**، ومنضبط، وفيه مقاييس صحيحة، ففي العالم الإسلامي ملايين مَلايين المَقُولات من قصص وأفكار وعقائد ؛ كُلُّ هذه المقولات يجب أن تُقاسَ بمِقْياس الكتاب والسنّة وإلا فهي غير صحيحة، وهذا مِقْياس دقيق، يقول لك قائل: كذا وكذا فقُلْ له أين الدليل ؟ هل هناك دليل على قولك من الكتاب والسُنة ؟ إن كان كذلك فعلى العَيْن والرّأس، وإن كان هذا الكلام من عندك ويفْتقر إلى الدليل فلا شأن لي به، ولا أُقيمهُ من أرضه، عِلمُنا مُقيّد بالكتاب والسنّة.

5 - لابد للمواقف والأعمال من ميزان:

عالمٌ آخر يقول: من لم يَزِن أفعاله انزلق، ولحقه الهوان، لماذا وَقَفْت هذا الموقف ؟ ولماذا أعْطَيتَ ؟ ولماذا تبسَّمْتَ ؟ ولماذا منعْت ؟ ولماذا غضبْت ؟ ولماذا رضيت ؟ ولماذا وصَلْت ؟ ولماذا قطَعتَ ؟ الإنسان يقف مواقف كثيرة ؛ منها مواقف الرّضا، ومواقف الغضب، مواقف العَفْو، ومواقف الثأر، ومواقف الاسْتِسْلام، مواقف العَطاء، ومواقف المَنْع، مواقف المديح، ومواقف الهجاء، هذه المواقف الكلاميّة والفِعْليّة والقلبيّة ؛ هذه المواقف يجب أن تزنَها بميزان، من لم يَزِن أفعالهُ وأحواله يتردّى ؛ لماذا أنا خائف ؟ مع أنّ الأمر بيَدِ الله، إذًا في أحوالي خلل، ولماذا أنا يائس ؟ مع أنّ الله سبحانه وتعالى بيَدِهُ كلّ شيء، إذاً هذه الحال التي أُعاني منها فيها خلل، مَنْ لمْ يَزِن أفعاله وأحواله في كلّ وقتٍ بالكتاب والسنّة فلا يُعَدُ في ديوان الرّجال، فالرّجُل هو الذي يزِنُ أفعاله، ويزن أقواله، ويَزِنُ أحواله في ضَوء الكتاب والسنّة، فإن جاءَتْ موافقةً لأوامر الله، فهو على حق، وإلا فليسَ اسمه في ديوان الرّجال.

ويقول عالمٌ آخر: **" من عمِلَ عملاً من بلا اتِّباع سنّة فباطِلٌ عمله "**، أن تقول: فلان قال كذا، من

فلان ؟ هل فلانٌ معصوم ؟ هو غير معْصوم إن كنتَ ناقِلاً فالصِّحَّة، وإن كنتَ مدَّعِيًا فالدليل ! ! هذا الذي لا يقتفي أثر النبي عليه الصلاة والسلام فهو في باطلٍ، وفي ضلال مبين.

6 – حسنُ الأدب والهيبة مع الله تعالى وبالاتباع لرسول الله:

ويقول بعض العلماء: **" الصُحْبة مع الله عز وجل بحُسْن الأدَب، ودوام الهَيْبة والمراقبة "**، فأنت مع الله بحُسْن الأدب، ودوام الهَيبة والمراقبة، وأنت مع رسول الله باتِّباع سنَّتِهِ، وأنت مع الأولياء بالاحْتِرام والخِدْمة، وأنت مع الأهل بحُسْن الخُلق، وأنت مع إخوتِكَ في الله بدَوامِ البِشْر ما لم يكن إثماً، وأنت مع الجُهّال بالدُّعاء لهم، وأنت مع النَّفْس بالمُخالفة، وأنت مع الشَّيْطان بالعَداوة، وخالف النَّفس والشيطان واعْصِهما !

ويقول عالمٌ آخر: **" مَنْ رأيْتُموهُ يدّعِي مع الله عز وجل حالةً تُخْرِجُه عن حدّ العِلْم الشّرْعي فلا تقربوا منه "**، الله عز وجل جَعَلَ بين أيدينا ميزانًا دقيقًا، لو تجاهلنا هذا الميزان وأهْمَلْناه، وعطّلناه، لضاعَ الإسلام، يجب أن يبْقى الإسلام كما بدأ، وضمان بقائِهِ أن يمْشِيَ المسلمُ على خطٍّ صحيح، وعلى منهَجٍ قويم وعلى مِقْياسٍ دقيق، والمِقياس الدقيق هو الكتاب والسنَّة، وكلّ باطنٍ يُخالف ظاهر الكتاب والسنَّة فهو باطل.

وابن عطاء الله السَّكَنْدري يقول: **" من ألْزَمَ نفْسهُ آداب السنّة نوّر الله قلبهُ بنُور المعرفة"**، ولا مقام أشْرف من مقام متابعة الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ؛ في حِلِه وترْحاله، وفي زواجه، وفي غضَبِهِ ورضاه، وفي رحمته وتواضعه وكرَمِهِ، في إقْباله على الناس وفي محبّتِهم له، وفي حَضَره، وفي شَجاعَتِهِ، ولا مقامَ لِبَني البشر أشْرف من مقام مُتابعة الحبيب عليه الصلاة والسلام ؛ في أوامِرِهِ ونواهِيه وأفعاله وأخلاقه وأقواله وإقراره.

7 – معرفة طريق الحق وسلوك جادتها:

من علِمَ طريق الحق سَهُل عليه سُلوكهُ، فالطريق إلى الله طريق مُسْعِدَة، ولكن أوّل شيءٍ فيها أن تعرف معالِمَها، كيف تمشي فيها وأنت لا تعرفها ؟ لابد أن تعرف أنّ هذا العمل يوصِلُ إلى الله، وأنّ معرفة كلام الله تعالى توصِلُ إليه، وأنّ قِراءة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام تَجعلُكَ أمام المَثَل الأعلى الذي ينْبغي أن تقْتَدِيَ به، وأنّ إنْفاق المال يُقَرّب إلى الله تعالى، وأنّ غضّ البصر عن محارمِ الله يُؤدّي إلى رضاء الله عز وجل، فلا يمكن أن تسْلُكَ الطريق قبل أن تعرفهُ، لذلك معرفة الطريق إلى الله فرْضُ عَين على كلّ إنسان، كيف تمشي في الطريق وأنت لا تعرفُه، يجب أن تعرف الطريق إلى الله،

من علِمَ طريق الحق سَهُل عليه سُلوكهُ:

((وصدَقة السّرّ تُطفِئُ غضَب الربّ))

(الجامع الصغير عن أبي سعيد بسند صحيح)

((وباكِروا في الصّدَقة فإنّ البلاء لا يتخطّاها))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

وفي الحديث:

((اتّق الله حيثما كنت، وأتْبِع السيّئة الحسنة تمْحُها، وخالق الناس بخُلق حسن))

(الترمذي عن أبي ذر)

فإذا عرفْتَ كيف تُعالجُ نفسَك ؟ وكيف تُقبلُ على ربّك ؟ وكيف تتلافى أخطاءَكَ ؟ وكيف تتُوبُ من ذنْبك ؟ كيف يرْضى الله عنك ؟ وكيف لا يرْضى ؟ هذا شيءٌ مهمّ جدًّا ؛ هو فرْضٌ عَيْن، وشيءٌ خطير ومصيريّ في حياة الإنسان: مَنْ علِمَ طريق الحق سَهُل عليه السُلوك فيه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلّم في أحواله وأقواله وأفعاله.

8 - ضوابط حال الإنسان:

الآن هذه الأحوال التي يُحِسُها الإنسان، التي يشْعر بها، يجب أن يكون لها ضابط، وإلا قد تودي بصَاحِبها إلى الهلاك، فيقُول أحد العلماء: أفضَلُ الأحوال ما قارنَهُ العِلم، فالحال من دون العِلم كالمُحَرّك من دون مِقْوَد ! فهذه المرْكَبة مصيرها إلى الهلاك، فلا بدّ أن يكون التَوْجيهُ صحيحًا حتَى نسْتفيد من دَفْع الحال، الحال يدفَع، والعِلم يُوَجّه، فإذا كان الدافِعُ قَويًا، والتَوجيه مُخِلاً، أوْدى بصاحِبه إلى الهَلاك، إذا كان التوجيه صائباً، وليس هناك دافِع، بَقيَ الإنسان في أرضِه، فلا بدّ من دافِعٍ، ولا بدّ مُوَجّه، العِلْم هو المُوَجّه، والحال هو الدافع.

ويقول بعض العلماء: كلّ حالٍ لا يكون عن نتيجة عِلْمٍ فإنّ ضَرَرَهُ على صاحِبه أكثرُ مِن نَفْعِهِ، فالحال الذي لا يكون نتيجة معرفةٍ بالله، ونتيجة اسْتِقامة على أمره، فالحال نتيجة طبيعيّة لما بُذِلَ في سبيل الله تعالى، فإذا لم يكن الحال نتيجةً طبيعيّة وتاجًا تُتَوّج به الأعمال الصالحة، والانضِباط التامّ فإنّ هذا الحال خَطِرٌ على صاحِبه.

والعِلم الحقيقيّ ما قام به الدليل، والعِلْم النافِع ما جاء به النبي الكريم صلى الله عليه وسلّم، وعِلْمٌ من دون دليل لا قيمة له، وهذا هَذَيان وتخْريف، فإلقاء الكلام على عواهِنِه، وهو كلام غير مسؤول، وكلامٌ لا ينفعُ، ولا يُجْدي، عِلْمٌ من دون دليل، وما كلّ عِلْمٍ بنافِعٍ، والعِلْم النافِع ما جاءنا عن النبي عليه الصلاة والسلام، والعلم ما قام عليه الدليل، والعِلْم النافِع ما جاءنا عن النبي عليه الصلاة والسلام.

ويقول بعضهم: العِلم خير من الحال، فالحال فُقاعَة صابون تأتي وتذهب ولا ضابطَ لها، ولكنّ العِلم حِصْنٌ حصين.

يا بنيّ: قال الإمام علي كرّم الله وجْهه: **<< العِلْم خير من المال، لأنّ العلم يحْرُسك، وأنت تحرْسُ المال، والمال تنْقصُه النّفقة، والعِلم يزْكو على الإنفاق، يا كُمَيل: ماتَ خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقِيَ الدّهر، أعْيانهم مفقودة، وأمْثالهم في القلوب موجودة >>.**

فالعِلْم خير من الحال، والعلم حاكم، والحال محْكومٌ عليه، والعِلم قائِد، والحال مَقود، العلم هادٍ، والحال تابع، والعلم آمر وناهٍ، والحال منفِّذٌ قابل، الحال سيْف إن لم يصْحَبْهُ العِلم فهُوَ مِخراقٌ في يد لاعِب، فالحال من دون عِلم خطير جدًا، ومِخْراقٌ في يد لاعِب، فهؤلاء الذين لا يعْتدُون بالعِلم، ولا يتأثّرون به، ولا يُقيمون له وزْنًا ؛ هؤلاء خطيرون في أقوالهم وأفعالهم، والحال مرْكب لا يُجارى، ومركب سريع، فإن لم يصْحَبْهُ عِلمٌ ألقى صاحبَهُ في المهالك.

والحال كالمال يُؤتاهُ البرّ والفاجر، فإن لم يصْحَبْهُ نور العِلم كان وبالاً على صاحبه، ما أريد مِن كلّ هذه الأقوال إلا أن أُرسِّخَ فِكرةً أساسيّة: أنّ أعْدى أعداء الإنسان هو الجَهل، الذي يُردي الإنسان، ويهْلِكُهُ، ويُشْقيه هو جهلهُ، لذا طلب العِلْم فريضة على كلّ مسلِم أيْ على كلّ شَخصٍ مسْلمٍ ذكرًا كان أو أنثى، وعلى كلّ من اتّصَف بالإسلام ذُكورًا وإناثًا.

نَفْعُ الحال لا يتَعَدَى صاحِبَهُ، النبي عليه الصلاة والسلام رأى إنسانًا يُصَلِّي في النّهار، فسأله عليه الصلاة والسلام: **من يُطْعِمُكَ** ؟ قال: أخي، قال:

((أخوك أعبد منك !))

لأنّ الحال ينفعُ صاحبَهُ فقط، لكنّه جاءهُ رجل يشْكو شريكَهُ فقال عليه الصلاة والسلام:

((لعلّكَ تُرْزَقُ به !))

لأنّ شريكهُ كان في طلب العِلْم، فالذي يطلب العِلْم يطلبُه لِمَجْموع البشر، بين أن تنتفِعَ وحدَك وبين أن تُصبحَ أمّة، وبين أن تكون فرْدًا وحيدًا بعِبادتك، وبين أن تُصبحَ أمّةً بعِلْمِكَ، لذلك طلب العِلْم فريضة على كلّ مسلم، فَنَفْعُ الحال لا يتعدّى صاحبهُ، ونفْعُ العِلم كالغَيْث يقَعُ على التِّلال والوِهاد، يقَعُ على الآكام وبطون الأوْدِيَة، وعلى منابت الشّجر، يُغيث كلّ شيء، العِلم هادٍ، والحال الصحيح مهْتدًى به، وهو تَركَة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يُوَرِثوا دِرْهمًا ولا دينارًا، ولكن ورّثُوا هذا العِلْم، فمن أخذ منه بنَصيب فقد أخذَ بحَظٍّ وافر، واللهُ عز وجل أعطى الملك لِمَن لا يحِبّه وأعطى المال لِمَن لا يحِبّه، قال تعالى:

(إِنّ قارُونَ كَانَ مِنْ قوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوز مَا إِنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ إِذّ قالَ لَهُ قوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص]

ولكنّ الذي يُحِبُّهُ ماذا أعطاهُ ؟ أعطاه الحكمة والعلم، قال تعالى:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[سورة القصص]

9 - العلم أعظم الضوابط لحال الإنسان:

العلم حياة القلوب، نور البصائر، وشفاء الصُّدور، ورياض العقول، ولذّة الأرواح، وأُنْس المسْتَوْحِشِين، ودليل المُتَحَيّرين، وهو الميزان الذي توزَنُ به الأقوال والأعمال والأفعال، وهو الحاكم المفرّق بين الشكّ واليقين، والغيّ والرّشاد، والهدى والضّلال، به يُعْرف الله عز وجل، وبِهِ يُعْبَد، وبِهُ يُذكر، ويُحمَدُ، ويُمجَّد، كلّ هذا بالعِلم، لذلك حُضور مَجلسُ عِلم حَتْمٌ واجب على كلّ مُسلِم، لا أحد يتعلّم من دون مجلسِ عِلم ؟ لا بدَّ مِن مَوْرِدٍ لك، لا بدّ من وقتٍ تُخَصِّصُه لِطَلب العِلم، بربِّكم هل في الأرض كلِّها إنسان أصبحَ يحْمِلُ دكتوراه من دون أن يذْهب إلى الجامعة ؟ ومن دون أن يفْتَحَ كِتابًا ؟ ومن دون أن يقرأ ؟ ومن دون أن يقتَطِعَ من وقْتِهِ الثّمين ما يطلب به العلم ؟ هذا الذي يتمنّى أن ينال كلّ شيءٍ من دون شيء لا ينال شيئًا ! هذا إنسان حالم، وإنسانٌ تائِه وإنسان ليس ذكِيًا، وكلّ شيء له ثَمَن، وكلّ درجة لها جُهْد، بالعلْم اهتَدى إلى الله السالكون، وبالعلم وصَلَ إليه الواصِلون، بالعِلم دخَل عليه القاصِدون، بالعلم تُعْرف الشرائِع والأحكام، بالعِلم يتميَز الحلال من الحرام، وبالعِلم توصَل الأرحام، العلم إمام، والعمل مأموم، وهو قائِد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، كما قال عليه الصلاة والسلام والمحدِّث في الخَلوة والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشُّبهة، وهو الغِنَى الذي لا فقْر بعده، ولا غنى دونه. فهؤلاء الأقوام قوم عادٍ وثمود، وأصحاب الأيْكة، هؤلاء دمَّرهم الله عز وجل بجَهلهم، مُذاكرة العِلم تسبيح، والبحث عنه جِهاد، وطلبُهُ قُرْبة إلى الله عز وجل، وبذْلُهُ صَدَقة، ومُدارسته تعْدِل الصِّيام والقِيام، والحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الطّعام والشّراب.

الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قال: **" الناس إلى العِلم أحْوَجُ منهم إلى الطّعام والشّراب، لأنّ الرّجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرّةً أو مرّتين، وحاجتُه إلى العِلم بعَدد أنْفاسِهِ ".**

والإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول: **" طلب العِلم أفضلُ من صلاة النافلة ".**

والإمام مالك كان عنده رجل اسمه ابن وهب فقال ابن وهب: كنتُ بين يدي مالك فوضَعْتُ ألواحي، وقُمْتُ أُصَلِّي، فقال الإمام مالك: **" ما الذي قُمْتَ إليه ؟ إنّ الذي قمت إليه ليس بأفضل من الذي قمتَ عنه ! "** هذا كلام الإمام مالك.

والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم استدلّ بأهل العِلم على أجلّ مَشْهود ؛ ألا وهو وحدانِيَّتُهُ، قال تعالى:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة آل عمران]

الله سبحانه وتعالى لا يستَشْهِدُ إلا بِشُهودٍ عُدول، وهذه شهادة من الله عز وجل لأولي العلم على أنّهم عُدول، ولأنّ شهادتهم قَرَنَها مع شهادته، ومع شهادة ملائكته، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المفسدين))

أنت بين مُغالٍ وبين مُبْطِل، قال تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلا الْحَقّ)

[سورة النِّساء]

وحَسْبُ من يطلب العِلم شرفًا أنّ النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَإِنّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

[رواه أبو داود]

كلّ هذه الأقوال، وهذه الآيات وهذه الأحاديث من أجْل أن يكون طلب العلم شُغْلكم الشاغل، والشيء الأوّل في حياتكم، لأنّ أساس المصائب والنّكبات، والشّقاء هو الجهل، والعالِم كما قال عليه الصلاة والسلام يستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحِيتان في البحر، وحتّى النّمل في الجحر، وإنّ الله وملائكته يُصلّون على مُعَلِّمي الناس الخير، وحسْبُ النبي عليه الصلاة والسلام أنّه قد أُمِرَ مِن قِبَل ربّ العِزّة أنْ يزداد عِلْمًا، قال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

[سورة طه]

فهذه الأقوال والأحاديث والآيات أردْتُ من خلالها أنّ هؤلاء الأقوام الذين دُمِّروا وصُعِقُوا، وأهْلكهم الله عز وجل، إنّما أُهْلكوا بِسَبب تكذيبهم، وما تكذيبهم إلا بِسَبب جَهلهم، وما جهلهم إلا أكبر أعدائهم. أمّا الآياتُ الكريمة التي ختمَ الله بها هذه السورة الكريمة، فهي تبدأ من قول ربّنا سبحانه وتعالى في آخر سورة الشّعراء:

(وَإِنّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء]

وَإِنَّه لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ

فالتنزيل إذاً هو هذا القرآن، وهذا الدستور، وهذا المنهج، وهذه القواعد التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، قال تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة]

وقال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

[سورة طه]

قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء]

عندنا في اللُّغة الإنزال، وعندنا التَّنزيل، الإنزال يعني أنَّ الشيء الذي نزَلَ، نزَلَ دُفْعةً واحدة، وأما التّنزيل فيعني أنَّ الشيء الذي نَزَلَ نزَلَ بالتَّدْريج، قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء]

نزل هذا القرآن بِحَسب الوقائِع، وبِحَسب المناسبات والظُّروف والحِكَم البالغة، فجاء تحريم الخمر بالتَّدريج، وجاءتْ الأحكام الشّرعِيَّة عَقِبَ الآيات الكَوْنِيَة، حِكْمةٌ ما بعدها حِكمة، ورحمة ما بعدها رحمة، قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الشعراء)

ثمَّ يقول تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

(سورة الشعراء)

جبريل الروح الأمين:

الرُّوح الأمين هو ملك الوحي سيّدنا جِبريل، لماذا اخْتار الله من بين صِفاته كلّها أنَّه أمين، لأنَّ هذا تشْريع الله عز وجل، ولو أنَّ جِبريل زاد أو أنْقَصَ، أو بدّل، أو غيَّر، أو حرَّف بدافِع النِسْيان، أو بدافِع العَمْد، أو بدافِع الخطأ، صار التَّشْويه في الشَّرْع، لذلك أخصّ صِفات سيّدنا جِبريل أنْ يكون أميًا، حتَّى سُمِيَ أمينَ وحي السَّماء، فهذا الذي نزل على النبي عليه الصلاة والسلام هوَ هو مِن دون زيادة، ومن

دون نقصان، ولا زَيْف، ولا تعديل، أو تبْديل، لا بدافعٍ بريء، ولا عن نِسْيانٍ، ولا عن خطأٍ، قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

(سورة الشعراء)

لماذا نزل القرآن ؟

ولكنّ الشيء الذي يَلفتُ النَظر لماذا نزل ؟ مع أنّ الله تعالى في كلّ مكان ؟

ربّنا سبحانه وتعالى وصَفَ نفسهُ بأنّه العليّ العظيم علو مكانة، والكبير المُتعال، ووصف نفسه بأنّه رفيع الدّرجات، وبأنه القاهر فوق عِباده، فَكُلّ شيءٍ يخرجُ من عنده إلى موطن الخلق والتّقدير لا بدّ أن ينزل، الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

(سورة الأعراف)

وقال تعالى:

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

(سورة الزمر)

وقال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة البقرة]

قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

[سورة الحجر]

لأنّه عليّ عظيم، ولأنه رفيع الدّرجات، ولأنّه قاهِرٌ فوق عِباده، ولأنَه الكبير المُتعال، فكُلّ شيء انتقل من عند الله إلى الخلْق والتّقدير لا بد أن ينزل استِنادًا إلى هذه الآية، وهذا هو معنى قول الله عز وجل:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

[سورة الشعراء]

ثمَ يقول تعالى:

(عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)

[سورة الشعراء]

معاني قلب النبي العدنان الذي نزل عليه القرآن:

وأما نُزول هذا القرآن العظيم على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، ففي هذا معانٍ كثيرة:

1 - قلب الإدراك:

من هذه المعاني: أنّ القلب المقصود في هذه الآية هو قَلْب الإدراك والشُّعور، فليس المقصود المِضخّة العضليّة التي تضخّ الدّم إلى أطراف الجِسم، فإن المضخة قلب الجسد، ولكن المقصود بهذا القلب قلبُ النّفس، فالله سبحانه وتعالى يقول كما في الأثر:

((عبدي طهّرت منظر الخلق سِنين أفلا طهّرْت منظري ساعة ؟))

فالقلب هو الإدراك والشُّعور، موطن الإدراك والشُّعور في النَفس، والدليل قوله تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ)

(سورة الأعراف)

والدليل قوله تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

(سورة الزمر)

2 - القلب له المكان الأول في الإنسان:

هناك كلمة عن القلب لا بد أن أُسْمِعَكم إيّاها ؛ القلب في الإنسان له المكان الأوّل، وعليه المعوّل في كل الأمور، ولا عجَب فهو القائد، والجوارح جُنود له وخَدَم، وهو الآمر الناهي، والأعضاء أتباع له وحشَم، وحسْبُكَ فيه قول الله تعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق)

3 - القلب حقيقة الإنسان:

والقلب حقيقة الإنسان، ومن عجيب أمر الله تعالى فيه أنّه جعَلَ ببَقاء قلب الجسد وصِحّته وانتِظام عمله حياةَ الجسد ونشاطه، وجَعَل بطَهارة قلب النّفس وسلامته، حياةَ الروح وازْدِهارها، والقلب هو الجانب المُدْرِكُ من الإنسان، وهو المخاطب، وهو المُطالب، وهو المُعاتَب، وهو محلّ العِلم والتّقوى، والإخلاص والذِّكْرى والحبّ والبغْض، والوساوس والخَطَرات، وهو موضِعُ الإيمان والكُفْر والإنابة والإصرار والطمأنينة والاضْطراب، والقلب هو العالِم بالله، والمتقرّب إلى الله، وهو المقبول عند الله إذا سَلِم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا استغرق بغير الله، وهو الذي يسعد بالقُرب من الله، ويشْقى بالبُعد عنه القلب منظر الرب، ولا يُفلحُ الإنسان ولا يفوز إلا إذا زكّاه، ولا يخيب ولا يشْقى إلا إذا دنّسهُ ودسّاه، لذلك سيّدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: **" تعاهَد قلبَك "**، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

[سورة الشعراء]

قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(195))

[سورة الشعراء]

الصحابة الكرام كانوا حول النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا نزل الوحي لا يرَونَ شيئًا، النبي عليه الصلاة والسلام لم يتلق الوحي عن طريق الحواس، فالإنزال تمّ مباشرة على قلبه صلى الله عليه وسلم، لو أنّ النبي عليه الصلاة والسلام تلقّى الوحي عن طريق السمع والبصر لسَمِع سيّدنا جبريلَ أصحابُه الذين هم حوله، أو لرأوْهُ، ولكنّ هذا الإنزال تمّ على القلب مباشرةً، قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(195))

[سورة الشعراء]

4 - القلب هو الجانب الملائكي:

قال بعض العلماء: القلب هو الجانب الملائكي في النبي عليه الصلاة والسلام، يتلقّى به الحق، واللِّسان هو الجانب البشري من النبي وهو الذي يُلقي به الحق، يتلقّى بقَلبه، ويُلقي بلِسانه، وبعضهم قال: نزل به الروح الأمين على قلبك، أي لأنّه طاهر ومُقدّس نزل على قلبه صلى الله عليه وسلّم، لذلك سيّدنا جبريل

جاء وصْفُهُ بكَلِمَتَين ؛ مرّةً روح القدس، ومرّةً الروح الأمين، وفي كِلا المعنيَيْن الأمانة والقُدْسِيَّة، وهما الأداء والانْضِباط والحفظ الثّبات.

5 – القلبُ أعجَب خَلْق الله:

كلمة عن القلب أُنهي بها الدَرس، لعلّك إن فتّشْتَ عن أعْجَب ما خلق الله تعالى في السماء والأرض، لم تَجِد أعْجَب، ولا أرْوَعَ، ولا أدَقّ، ولا أجْمَلَ من قلب الإنسان، تصلحُ أوتارهُ فيَفيضُ رحمةً، وشفقةً، وحُبًّا، وحنانًا ومعانٍ لِطافًا، وشُعورًا رقيقًا، حتّى يتجاوزَ في سُمُوّه الملائكة المُقَرّبين وتفْسُدُ أوتارهُ، فيَنْضَحَ قسْوَةً، ولؤْمًا، وسوءً حتّى يهْوي إلى أسفل السافلين، حوى على دِقّتِهِ كُنْه العالم، فما أدقّهُ، وما أجلّه، وما أصغرهُ وأعظمه، يكبرُ القلب ولا نرى كِبره، فيتضاءلُ أمامه كلّ كبير، ويصْغر ولا نرى صغَره فيتعاظم عليه كلّ حقير ! اتّحَدَ شَكل القلب واخْتلفَتْ معانيه، فقلْبٌ كالجَوهر الكريم صفا لونُه، وراق ماؤُه، وقلبٌ كالصّخر قويّ متين، ينفَعُ ولا يلْمعُ، وقلبُ هواء خفّ وزْنهُ وحال لونه، يموت القلب، لِمَ قال ربّنا عز وجل:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر]

فالكفار قلوبهم ميّتة، يموت القلب ثمّ يحيا، ويحيا ثمّ يموت، ويرْتَفِعُ إلى الأوْج، ويهبط إلى الحضيض، وبينما هو يُسامي النُّجوم رِفْعةً، إذا هو يلامس القاع ضِعَةً.

وجوب سَعَة صدر الداعي إلى الله:

يا أيّها الإخوة الأكارم، إنّ أعظم بُنات العالم قد امْتازوا بِكِبَرِ القلب، فالذي يدْعو إلى الله يجب أن يكون قلبهُ كبيرًا، يتّسِعُ لكل شيء، يتّسِعُ لأخطاء الناس وتجاوُزهم، وتطاوُلهم، لأنّ الله سبحانه وتعالى شرّفَهُ بهذه الدّعْوَة، ومن كان قلبهُ صغيرًا لا يتّسِعُ إلى الخلْق فهذا ليس أهلاً أن يدْعو إلى الحق، فالأنبياء العِظام تميّزوا بِكَبر قلوبهم، لذلك لِتَبقَ هذه الآية تَرِنُّ في أسماعِكم، قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

(سورة الشعراء)

هذا القرآن الكريم كما أراده الله هو بين أيدينا، لأنَ الذي نقلهُ نقله بأمانة لا حدود لها، سمّاهُ الله الأمين، ونزل به الروح الأمين على القلب مباشرةً، فلا سمْعَ ولا بصَرَ، قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(195))

[سورة الشعراء]

وإن شاء الله تعالى في الدرس القادم نتحدَّث عن الإنذار الذي هو صفة النبي عليه الصلاة والسلام، ونتحدَّث عن هذا اللِّسان العربيّ المبين الذي شرَّفنا الله به، فهناك أُمَمٌ كثيرة تغبطُنا على هذه اللغة التي نتكلَّم بها إنَها لغة القرآن، لذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه:

((تعلّموا العربيّة فإنّها من الدِّين))

(ورد في الأثر)

إنّ جزْءًا من دينِكَ أن تتعلّم اللغة العربيّة، لأنَّك بها تفْهم كلامه، وإذا فَهِمْت كلامه صَلَح عملُك، وإذا صلحَ عملك سَعِدْت في الدنيا والآخرة، ولذلك يكون تعلّم اللغة العربيّة شرطًا أساسيًا لتعلّم كتاب الله بل هو شرطٌ أساسي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (14-20): تفسير الآيات 194 - 202
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-10-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة الشُعراء، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ(194))

(سورة الشعراء)

من صفات النبي عليه الصلاة والسلام الإنذارُ:

كلمة (مُنذِرين) جَمْعٌ مفردها منذر، والمنذر اسم فاعل مِن أنْذَرَ، وأنْذَرَ من الإنذار، والإنذار يعني أنّ هناك خطرًا كامنًا، أين الخطر ؟ عند الموت، وحينما يقوم الناس لربّ العالمين، الخطر يوم الدِّين، والخطر يوم الدَّيْنونة، ويوم الجزاء، ويوم الفصْل، والناسُ نِيامٌ كما قال عليه الصلاة والسلام إذا ماتوا انتبَهُوا، والإنسان أحيانًا يهيمُ على وجههِ، ويسير وتقودهُ شهوته ويقوده هواه، وتقودُهُ نزواتُه، فجأةً يدفَعُ الثَّمَن باهِظًا، والنبي عليه الصلاة والسلام كما وصفَ نفسهُ بأنّه رحمةٌ مُهْداة، أنت حينما ترى شاخِصَةً على الطريق تُحَذِّرُك مِن مُنْحَدَرٍ خَطِر، أليْسَت هذه الشاخصة رحمةً بك، أنت حينما ترى تحْذيرًا كُتِبَ بالعربيّة على عمود الكهرباء ذي التَّوَتّر العالي، ألا ترى في هذا التَّحْذير رحمةً لك ؟ أنت حينما ترى لوحةً كُتِب عليها حقل ألغام، أليْسَ في هذه اللَّوْحة تَحذيرٌ لك من هذا الخطر المُمِيت، فكَلِمة إنذار تعني أنّ هناك خطرًا كامنًا في المستقبل وما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلا لِيُحَذِر، ويُنْذِر الأمّة مِن مغبّة هذا اليوم، قال تعالى:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

والعاقل هو الذي يأخذ الحيطة قبل أن يقَعَ في موقفٍ لا يستطيعُ أن يفْعل فيه شيئًا، أُعَبّر عن هذا المعنى بكَلمة: بعد فوات الأوان، فالعاقل هو الذي يحتاط للأمور قبل وُقوعها، والأقلّ من هذا عقلاً هو الذي يحتاط للأمور مع وُقوعها والعاجز هو الذي لا يحتاط للأمور لا قبل وُقوعها، ولا بعد وُقوعها، فعَنْ شَدّادِ بْن أوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللّهِ))

(رواه أحمد)

لذلك أفْرَدَ ربّنا سبحانه وتعالى في هذه الآية صِفَة النبي عليه الصلاة والسلام بأنّه من المنذرين، وما رسالات الله عز وجل إلى عباده إلا نوعٌ من الإنذار، قال تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

وقال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

(سورة طه)

لأنّك مِن بني البشر، ولأنّك إنسانٌ حُمِّلْتَ الأمانة، وأمانتك نفسُكَ التي بين جَنْبيْك ؛ هذه الأمانة إما أن ترقى بها إلى أعلى عِلِيّين، وإما أن يهْوي بها بعض الناس إلى أسفل السافلين، ما دام هناك أمانة فهذا يعني أنّ هناك مسؤوليّة، وما دام هناك حريّة فهناك مسؤوليّة، وما دام هناك تَكليف فهناك مسؤوليّة، وما دام هناك ابتِلاء فهناك مسؤوليّة، وما دام هناك أمر ونهي فهناك مسؤوليّة، فالمسؤوليّة مِن لوازم الأمر والنّهي، ومن لوازم التّكليف، ومن لوازم الابتِلاء، ومن لوازم الأمانة، والمسؤوليّة شيءٌ خطير جدًّا ؛ لماذا ؟ لأنّ الإنسان بعد أن يموت لا يستطيعُ أن يعود! قال تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة المؤمنون)

في بعض الآيات وُصِفَ النبي عليه الصلاة والسلام بأنّه بشير ونذير، ولكن لأنّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أفرَدَ صِفة النبي بأنّه نذير فالإنذار مِن ضِمْنِهِ التّبشير، الإنذار إن فعلتَ كذا وكذا نَجَوْتَ، وإن لم تفْعَل هلكْتَ، والإنذار أوْسَعُ مِن التّبشير، قال تعالى:

(لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195))

(سورة الشعراء)

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ

كلمة عربيّ نِسْبةً إلى كلمة عرب، وكلمة عرب اسم مأخوذ مِن كلمة عَبَرَ، ومعنى عَبَرَ انْتَقَلَ، وفي اللّغة العربيّة أفعال يُمْكن أن تُبدّل بعض حروفها، ويبقى المعنى هُو هو، كأن تقول: جَبَذَ وجذَبَ، أمْعَنَ وأنعمَ، وعربَ وعبَرَ، فاللّغة العربيّة تنقل لك المعنى مِن نفس قائلها إلى أُذن السامع، وربّنا سبحانه وتعالى لأنّه اخْتار هذه اللّغة العربيّة لغةً لِكلامه فهو شرفٌ عظيم، قال تعالى:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

(سورة الشعراء)

وقال تعالى:

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(سورة الزخرف)

الله عز وجل في آيتين وصَفَ كلامه بأنّه عربيّ، لذلك لا بدّ أن تنطَويَ هذه اللّغة على خصائص تَجعلها من أرقى اللّغات الإنسانيّة، فهذه اللّغة العربية التي حبانا الله بها لغة لها خصائص كثيرة، طبعًا هذا الذي يتكلّم العربيّة، هذه نِعْمةٌ لا يعرفها إلا مَنْ فقَدَها، لِسانُكَ عربيّ، وكلام ربّ العالمين باللّغة العربيّة، تعلُّمُ العربيّة يحتاج إلى جهد كبير، ولكنّ هذا الجهْد على أهل العربيّة يسير، ومن هنا قال سيدنا عمر رضي الله عنه: **<< تَعَلّموا العربيّة فإنّها من الدّين >>**، أيْ جزءٌ من دينك أن تُتقن العربيّة، لأنّ في إتقان اللّغة العربيّة قُدرةً على فهْم كلام الله عز وجل، وإذا فهمْتَ كلامه ففيه الحلال والحرام، وفيه الوعْد والوعيد، وفيه التّبشير والتّحذير، وفيه الحُكْم والقصّة والآية.

سَعَة اللغة العربية في التعبير والإيضاح:

شيءٌ مُهمّ في هذه اللّغة التي حبانا الله بها أنّ هذه اللّغة فيها طاقة على التّعبير واسِعَة، عبّرَ عنها علماء فقه اللّغة: " اتّساع العربيّة في التّعبير "، وقد ذكرتُ هذا المثل في درس سابق، حينما كنتُ أُفسِّر سورة يوسف. فالإنسان قد ينظر إلى الشيء، ومع هذا النّظر خَوْف، أنت في هذا لا تقول: نَظَرَ، ولكن تقول شَخَصَ، فشَخَصَ نظرٌ مع الخوف، وقد تنظر إلى الشيء وأنت تحب هذا الشيء، فالنّظر مع المحبّة لا يُقال له نظَر، يُقال حدّجَ، وقد قيل: " حدِّث القوم ما حدّجوك بأبصارهم "، والنّظر إلى الشيء مع الاستِمتاع به، لا يُقال له نَظَر، ولكن يُقال له رنا، رنَوْتُ إلى الشيء، أي أدَمْتُ النّظَر إليه مع الاستِمتاع به، فصار عندنا نظَرَ، وشخَص، وحدّج، ورنا، والنَظر إلى الشيء مع الدَهْشة يُقال له حَمْلَقَ، أي نَظَرَ بحِمْلاق العَين، والنّظَر إلى الشيء في ضَوءٍ خافت يُقال له: بَحْلَقَ، اتّسَعَتْ حدقة العَين، وإذا نَظَرْتَ إلى الشيء، ثمّ اختفى هذا الشيء: لا تقول نظرْتُ إليه بل تقول: لاح هذا الشيء، لاحَ نَجْمٌ في الأفق، ولاحَتْ طائرة بين الغيوم، وإذا نظرْتَ إلى الشيء، وتذكّرْت أنّ الله سبحانه وتعالى أمركَ أن تغضّ عنه البصر، لا تقول: لاحَ لي، ولكن تقول: لَمَحْتُ، لَمَحَ إذا نظرْتَ، ثمّ أعْرضْتَ، ولاحَ إذا ظَهَرَ الشيء ثمّ اختفى، وإذا نظرْتَ إلى الشيء ويداك عليه تتفحَصُهُ يُقال: استَشَفَّ، وإذا نظرْتَ إلى الشيء، وأنت تتطاول لِتَرى أبعادهُ يُقال: استَشْرفَ، وإذا نظرْتَ إلى الشيء مع احْتِقارهِ يُقال: نظر إليه شَزَرًا، وإذا نظَرْتَ إلى الشيء مع المسؤوليّة يُقال: شاهَدَ، ومنه الشاهد، وإذا كانت رؤيتُكَ ليْسَتْ بصَريّةً، بل هي قلبيّة يُقال: رأى، فَشَتّان بين رأى، وبين شاهَدَ، وبين نظرَ شزَرًا وبين لمَحَ، وبين لاحَ، وبين شَخصَ، وبين حدّج، وبين استَشفّ، وبين استشرف، فَمِن أولى صفات لغتنا العربيّة بفَضل الله عز وجل أنّها

تمتَلِكُ قدرةً واسعة على التّعبير، هذا عبَّرَ عنه بعض العلماء: **" اتِّساع العربيّة في التعبير ".** فَبَدَلَ أن تستخْدم كلمتين للتّعبير عن معنى دقيق تستخدم كلمةً واحدة، لأنّ لكلّ حالة من هذه الحالات كلمة تُوافقها تمام الموافقة، وربنا عز وجل قال:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

(سورة الشعراء)

اللغة العربية حروف لها معانٍ:

صفة أخرى ؛ أنّ في هذه اللّغة العربيّة حُروفٌ لها معانٍ، لو أخذت حرفاً من حروف هذه اللّغة تشعر أنّ هذا الحرف يوحِي لك ببعض المعاني، فَحَرفُ السِّين في أيّ كلمة يوحي إلى السامع أنّ الشيء فيه شيءٌ فيه أثرٌ نفسي داخِلِي، الحسّ والنّفس والأنس واللّمس والهمْس، فأية كلمة فيها حرف السِّين تشعر أنّ لهذه الكلمة معنى أساسه نفسي، همسَ في أذنه وأسرّ له، وأحسّ وأنِسَ، فالحرف وحده في هذه اللّغة التي حبانا الله بها له دلالته.

وحرف الغين مثلاً، هذا الحرف يعني الغَيْبوبة، غابَ وغرِقَ، وغيبة، وحرف الراء ففيه معانٍ التّكرار مرّ، وجرّ، وكرّ بعضهم قال: إنّ كلمة غَرِقَ ؛ حينما غاب هذا الشّخْص عن الأنظار وُضِعَتْ الغَين، وحينما تتالى سُقوطهُ وُضِعَتْ الراء، وحينما ارْتَطَمَ بالقاع وُضِعَتْ القاف، وفي حرف القاف تعبير عن الاصْطِدام، والصّوت طَرَقَ لصَقَ، إذًا الصِفة الأساسية الثانية في هذه اللّغة العربيّة التي اختارها الله لكَلامه أنّ هناك معاني متعلقةً بحُروفها وحدها.

من خصائص اللغة العربية: الاشتقاق:

شيء آخر، وهو أنّ الاشتقاق في اللّغة العربيّة شيءٌ لا يُصدّق، معنى الاشتقاق أنّ هناك أوزان، وزْن فاعِل على من قام بالفِعل، وهذا الوزن له صِيَغ مبالغة، وزن فاعول أي فاروق، وفعيل ككريم، ومِفعال كمِفضال، وفِعِلَ كَحَذِر، وهناك صِيَغ لِمُباغلة اسم الفاعل، وهذه كلّها قوالب يمكن أن يوضع فيها أيّ فِعل، وهناك أوزان وهناك بُنَى ـ جمع بنية ـ هذه الأوزان، وتلك البُنَى في اللغة العربية تستطيعُ بها أن تتّسِعَ في إحداث المفردات اللازمة فهناك اسم الفاعل وهناك صِيَغُ مبالغة اسم الفاعل، وهناك الصِّفة المشبّهة باسم الفاعل، وهناك اسم المفعول، وهناك اسم المكان، وهناك اسم الزّمان، وهناك اسم الآلة، وهناك اسم التّفضيل، وهذه كلّها قوالب يمكن أن يوضَع فيها كلّ فِعَل ؛ كَتَبَ في الماضي يكتبُ في المضارع، واكْتُب في الأمر، وكاتب اسم فاعل، ومكتوب اسم مفعول، ومكتب اسم مكان، وآلة كاتبة

اسم آلة، وعرف يعرف اعرف وعارف ومعروف وتعريف وعرّاف هناك المصادر والأفعال الماضية والمضارعة والأمر، والمشتقات، وأسماء الفاعلين وأسماء المفعولين، واسم المكان والزمان من اسم التفضيل واسم الآلة، وهناك الأفعال والأسماء وأسماء الأفعال، إذاً ففي اللّغة العربيّة اشتقاقات.

مثال عن أهمية الاشتقاق وفائدته: كسب واكتسب:

لذلك قال ربّنا سبحانه وتعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة)

فرْق كبير بين كسِبَ واكْتَسَبَ، والعلماء قالوا أيّة زيادةٍ في المَبْنى دليل زِيادةٍ في المعنى، فلماذا ربّنا قال: لها ما كسبَت ؟ ولماذا قال:

(وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

الكسب شيء، والاكتِساب شيءٌ آخر، الكَسْب أن تأخذ شيئًا عن بحث أو عن غير بحثٍ، وبعد تخطيط أو من دون تخطيط، وبصُعوبة أو من غير صُعوبة، كَسَبْتُ دِرْهَمًا، أما اكْتسَبَ أيْ جَعَلْتَ الكسْب مِهْنةً لك، أي هناك جُهود جبّارة بُذِلت حتى اكْتسَبْتَ هذا المال لأنّ الزّيادة في المَبنى دليل الزّيادة في المعنى، لذلك أيُّ عمَلٍ صالحٍ يُسَجّل لك:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ)

ولكنّ العمل السيّئ لا يُكْتبُ عليك إلا إذا أصْررْت عليه، ولم تتُبْ منه، وبالغْت فيه، وأعدْتَهُ مرّاتٍ كثيرة، ومن هنا هذه رحمة الله في خَلْقِهِ، قال تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أوْ أخْطأْنَا رَبّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبّنَا وَلا تُحَمّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

(سورة البقرة)

من خصائص اللغة العربية: أسلوب الحصر والقصر:

هناك في اللُّغَة أشياء دقيقة جدًا، لمّا قال ربّنا سبحانه وتعالى:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الأرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود)

مِن أجل أن تعْلَمَ أنَّ هذه اللُغة دقيقة، وأنّ هذا الكلام كلام ربّ العالمين، هل هناك احْتِمالات أخرى لِصِياغَة هذا المعنى ؟

الاحْتِمال الأوّل:

أن قال: **" وما الدّواب إلا على الله رزقها ! "** هذا احتِمال، طيّب لو قلْتُ هذا فماذا يفترق هذا القَول عن قول الله عز وجل:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ)

الدّواب معرفة، وكلمة (الدّواب) ما دُمْتَ قد عرّفْتَها فالمَقصود دوابّك، أو دوابّ أهْلِكَ، أو دوابّ منطقتك، أما إذا نكّرْتَها، فهذا تنكير الشُمول أيْ أيّةُ دابّة في الأرض، فحينما جاءَت كلمة **(دابّة)**نَكِرة معنى ذلك أنّ هذا التّنكير يُفيد الشُمول ؛ الدّواب الأهليّة والوحْشِيَة، والصّغيرة والكبيرة، الطائرة وغير الطائرة، والنافعة والضارّة، هذه كلّها على الله رزقها.

الاحتمال الثاني:

الآن سوف نُغَيّر العِبارة: وما دابّة إلا على الله رزقها، حَذَفنا كلمة مِن ! فماذا تعني كلمة مِن ؟ لو دَخَلَ الأستاذ على الطُلاب وقال: ما طالبٌ إلا وسأُعْطيهِ مُكافأةً في هذا الأسبوع، وأمامه خمسة وثلاثون طالبًا، إلا أنّ خمسة منهم كانوا غائِبين، فهو هنا يقصِد هؤلاء الطلاب، أما إذا أضاف كلمة مِنْ، فهذه لاسْتِغراق أفراد النّوع واحِدًا وَاحِدًا، وشمَلَ الطلاب الحاضرين والغائبين، فلمّا ربّنا قال: **" وما مِن دابّة"** صار معنى الكلام أنّه أيّة دابّة واحدةً وَاحدةً على الله رِزقها، هنا اسْتفدنا من كلمة **"دابة "** لأنّها نكرة، واسْتفدنا من كلمة **" مِنْ "** لاستغراق أفراد النوع، ولكن لو ألْغَينا الاستثناء والنّفي وقلنا: الدواب على الله رزقها، فماذا يعني النّفي والاستثناء ؟

إذا قلنا مثلاً: شَوقي شاعِر ؛ معنى ذلك أنَه شاعر، وقد يكون كاتِبًا، وقد يكون تاجِرًا، وقد يكون موظّفًا، أما إذا قلت: ما شَوقي إلا شاعرٌ، فأنت قصَرْتَ شَوقي على الشّعر، وإذا قلتَ ما شاعرٌ إلا شَوقي: قصَرْت الشّعر على شوقي، وهذا توضيح، قال تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الأرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود)

لو قال الله: الدواب يرزقها الله ! لا يعني هذا أنَ الله فقط الذي يرزق، فقد يرزقها الله وقد يرزقها غير الله عز وجل ! ففي سورة الفاتحة لو تقول: نعبد إيّاك يا ربّ ! هذه غير قوله تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

(الفاتحة: 5)

الفرْق كبير بينهما إذا قلتَ: نعبدُ إيَاك، أيْ نعبُدك يا ربّ، وقد نعبُد غيرك، أما:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

فحينما قدّمنا المفعول به على الفِعل أصْبحَ المعنى معنى قَصر ؛ لا نعبُد إلا إيَّاك، فلذلك لو ربّنا عز وجل قال: الدواب على الله رزقها ! معنى ذلك أن الدّواب على الله رزقها وعلى غيرِهِ، أما لما قال:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود)

هذا هو القَصر، وهذا فيه معنى الشُمول، ومعنى الاستغراق، ومعنى القصر، ولازلنا في الآية نفسها، لو ربنا عز وجل قال: وما من دابّة إلا الله يرزقها، ألْغَينا على: يرزقها أو لا يرزقها لا يوجد إلْزام، أما كلمة على تُفيد الإلزام ؛ أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفسَهُ برزْق العِباد، لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أُخالفْك في رزقك، أُنظر إلى القرآن الكريم:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

(سورة هود)

فتعلّم اللّغة العربيّة مهمٌ جدًا في فهم القرآن، وأيُّ تَغيير أو تَبْديل، كما أنك لو ألغَيتَ التّنكير وجَعَلت بدله التّعريف، لو ألغيت النَفي أو الاستثناء لاختلف المعنى اختلافًا بيّنًا، لذلك هذا القرآن لا يَعْرِفُ نَظْمهُ وإعجازهُ البياني إلا مَن عَرَفَ هذه اللّغَة، وهذه اللّغة اخْتِصاص، لذلك نكرر مرّة ثانيَة: تَعَلّموا العربيّة فإنّها مِن الدّين، وهي لُغَة كتاب الله عز وجل.

من خصائص اللغة العربية مادة الكلمة:

والشيء الآخر أن لدينا في اللغة العربية بحث آخر غير بحث الاشتقاق، وهو انتماء الكلمات إلى مجموعات أُسَريَّة، ويقال لها بدل كلمة الأُسرة: المادة ؛ الأسرة لها جدّ، وهو المصدر، الكتابة، والجد له أبناء، الفِعل الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل، وصِيَغُ مبالغة اسم الفاعل، واسم الآلة واسم المفعول، واسم المكان واسم الزمان، والصفة المشبّهة، هؤلاء كلّهم أولاده، نِظام اللّغة العربية نِظام أُسَر، ونُسمّيها الأسرة باللّغة العربيّة: المادّة، افْتَح المعجم في مادّة عَلِمَ: تجد فيها مصادر وأفعال وأسماء.

من خصائص اللغة العربية: النحتُ:

وعندنا باللغة العربية شيء اسمُهُ النَّحْت، إنسان قال: سبحان الله، بدَلَ أن تقول: قال فلان سبحان الله، تقول: سَبْحَلَ فلان، وإن قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله تقول: حَوْقَلَ، وإن قال الله أكبر، تقول: كبَّرَ، وإن قال: لا إله إلا الله، تقول: هلّلَ، وإن قال: أدام الله عِزّكَ: دَمْعَزَ ممكن أي أن تأخذ كلمة مِن مجموع كلمات، وهذا اسمهُ أيضًا النَّحْت.

من خصائص اللغة العربية: ظاهرة تغير المعنى بتغيّر الحركات:

وفي اللُّغة العربيّة ظاهرة الحركات، فكلمة قَدِمَ أيْ حضَرَ، أما قَدُمَ فمعناها أصبَحَ قديمًا، وكلمة برّ تعني اليابسة، وأما كلمة بُرّ فهي القمح، وكلمة برّ تعني الإحسان، كلمة خَلْق تعني البُنْيَة، وكلمة خُلُق تعني الأخلاق، والخَلِق الشيء المهترئ، وشتان بين المَنْصِبَ، والمَنْصَب، فبحركة ينتقل المعنى مئةً وثمانين درجة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام لمّا جاءه الأعرابي وقال له: يا رسول الله عِظني وأوْجِز، قال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

فقال: كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فَقُهَ الرجل))

(ورد في الأثر)

شتّان بين فَقِهَ وبين فَقُهَ، إذا قال: فَقِهَ أيْ عرَفَ الحُكْم، أما فَقُهَ أيْ أصْبَحَ فقيهًا الفِعْل الثلاثي مضموم العَيْن له معنى الاتّخاذ، حَسُن وكَرُمَ أيْ أصبح كريمًا، أما فقِهَ فتعني عرف ها الحُكم.

من خصائص اللغة العربية: الإعراب:

وعندنا في اللغة العربية بحث الإعراب أيضاً، فإذا قلت مثلاً في الوصية: فلان له عليّ ألف درهم ونصفُهُ، يا ترى ألف وخمسمئة درهم، أم ألف ونصف درهم ؟ بحَسب إعراب هذا الضّمير فإن أعدْتهُ على الألف فالوصيّة ألف وخمسمئة درهم، وإن أعدْتهُ على الدِّرهم فالوَصِيَّة ألف ونصف درهم ! إذًا دِقّة العربيّة متناهِيَة في هذا المجال، مُتَعَهّد قدّم مشروعاً، وخُصِمَ له من هذا المشروع خمسمئة ألف ليرة لأنّ مواصفاته أقلّ مِمّا يجب فأقام دعْوى، واحْتَكَم الطّرفان لِمَجمع اللّغة العربيّة، وهو يقول في المواصفات سأُقدِّم المواد مِن أجْود الأنواع، فَمِنْ هذه تعني التّبعيض، ولا تعني أنّه يُقدِّم أجْودَ الأنواع ! فَمِن معاني كلمة **" مِن "** كَسِبَ الدّعْوَى !!! اللّغة شيء دقيق جدًّا حينما تفهم كلام الله بهذه الدِّقة، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور)

فلولا (مِنْ)لَهَلَكْنا جميعًا، ولصار المعنى غض البصر عن الزّوجات والأمهات والأخوات والبنات كلهنّ !! أما مِن تعني غضّ البصر عن بعض النِّساء أيْ الأجنبيّات أما أمّك وابنتك وأختك وعمّتك وزوجتك فلا حرجَ عليك. أما فليحفظوا فروجهم، فأيّ خلل هناك فهو معصيَة، لماذا جاء غضّ البصر قبل حِفظ الفرج ؟ لأنّ غضّ البصر طريق إلى حفظ الفرْج، لو وقفْتَ عند كلمات القرآن كَلمةً كلمةً، وحركةً حركةً، تقديمًا أو تأخيرًا وإيجازًا أو تفصيلاً، تعريفًا أو تنكيرًا لأدركتَ الكثير، قال تعالى:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ)

(سورة الشورى)

قدّم الإناث تَكريمًا لهنّ، وأخّر الذُكور، ولكنه عرّف الذّكور، فالإناث جاءتْ سابقة، ولكنّها منكّرة، والذكور جاءَت معرّفة، ولكنّها متأخِّرة، مِن هذا القبيل هناك آلافُ آلاف القضايا اللُّغَويّة في القرآن حَيث يعْجز الإنسان أن يخْطُرَ في باله أنّ هذا الكلام ليس كلام الله، كلّما تعمّقْتَ في اللُّغَة وجدْت هذا الكلام لا يمكن لِبَشر أن يأتي بمِثْلِهِ، طبعًا هذا من الإعجاز اللُّغوي.

من خصائص اللغة العربية: الإحكام العددي:

أما الإحكام الذي في القرآن فهذا باب واسِع لا يعلمهُ إلا الله، مَن يُصَدِّق أنّ كلمة البَرّ جاءَت في القرآن ثلاث عشْرة مرّة حصرًا ؟ وكلمة البحر جاءت ثلاثًا وثلاثين مرّة ؟ افْتَح المعجم المفهْرس، فإذا جمَعْت البرّ إلى البحر أصْبح الرّقم سِتًا وأربعين، فإذا وضَعت الثلاث عشرة صورة، والسِتّة والأربعين مخرجًا، رأيْتَ نِسْبة البرّ إلى الأرض ! نِسبة عدد كلمات البرّ إلى البحر كَنِسبة البرّ إلى البحر بالضّبْط والتمام !! مَن يُصدِّق ذلك ؟

لو أحْصَيْت كلمة اليوم في القرآن الكريم لوَجَدْت كلمة اليوم وردت ثلاثمئة وخمساً وسِتّين مرّة بالضّبط! ولو أحصيْت كلمة الشّهر لوجَدتها وردَت اثنتي عشرة مرّة بالتمام والكمال.

وكلمات الجنَة تُساوي كلمات النار، وكلمات الدنيا تُساوي كلمات الآخرة وكلمات الملائكة تُساوي كلمات الشياطين، وهناك بُحوث في إحكام القرآن الحِسابي لا يعلمها إلا الله وكذا في إعجازه العِلمي، وفي إعجازِهِ البياني، وفي إعجازه اللُّغوي فكلّما ازْددْتَ، كلّما ازْددتَ عقلاً وفهْمًا لها.

فبالحِساب عرفْت كيف أنّ هذا القرآن كلام الله عز وجل، وكيف أنّ الله تعالى يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة)

وقوله تعالى:

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

كيف أنّ الله تعالى يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(سورة الأنعام)

وقوله تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف)

أيْ كأنّ الكتاب يُعادل السماوات والأرض، هذا خلْقُهُ، وهذا منهجهُ وكلامه وهذه أفعاله، ولا بدّ أن تتوافقَ أفعاله مع أقواله، مع منهجه، مع خلْقِهِ.

من خصائص اللغة العربية: الأوزانُ:

وعندنا الأوزان كذلك، فمثلاً وزن فَعَل شيء، ووزْنُ فاعَلَ شيء آخر ؛ فهذا فيه المشاركة كقاتَلَ وخادع وقاوَمَ وناضَل وراسَلَ؛ كلّها تفيد معنى المشاركة، وتقول كسَّرَ، قال تعالى:

(وَغَلَّقَتْ الأَبْوَاب)

(سورة يوسف)

مبالغة ؛ قطّعْتُ اللّحم: شيء، وقطَعَ اللّحم: شيءٌ آخر، وزْنُ فَعَّلَ غير وزْن فَعَلَ، وغير فاعَلَ، وغير اسْتَفْعَلَ، وزْنُ الثّنائي المضعَّف، قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

(سورة التكوير)

عَسْعَسَ، وقَلْقَلَ، وجَرْجَرَ، تشعر أنّ هذا الوزن له معنى التتالي، أي أنّ الحديث عن الأوزان لا ينتهي، وعن الإعراب لا ينتهي، وعن الأفعال، وعن الاشتقاق الصغير، والاشتقاق الكبير، وعن النّحت، وعن مناسبة الحروف ومَعانيها، وعن اتّساع العربيّة في التّعبير، قال ربنا عز وجل:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(195))

(سورة الشعراء)

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ

كُتِبَتْ هذه الآية على لوحة، وعُلِّقتْ في مَجمع اللّغة العربيّة بدمشق:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

(سورة الشعراء)

واضِحِ البيَان، ويكفي هذه اللّغة فخْرًا أنّ الله سبحانه وتعالى اختارها لِكَلامه، ويكفي الأمّة العربيّة فخْرًا أنّ الله اختارها لِرسالة نبيّه الكريم، ويكفي هذه البلاد فخْرًا أنّ الله تعالى اختارها متنزّلاً لِوَحْيِهِ العظيم.

قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)

(سورة الشعراء)

معنى قوله تعالى: وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ

المعنى الأول:

وإنّ هذا القرآن مذكور في كتب الأنبياء السابقة.

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: الهاء تعود على النبي عليه الصلاة والسلام.

فإما أنّ القرآن مَذْكور في الكتب السماويّة السابقة، وإما أنَ اسم النبي عليه الصلاة والسلام مذكور في الكتب السابقة.

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة الشعراء)

دعوة إلى تدبر القرآن الكريم:

يقول الله سبحانه وتعالى:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

لأنّ اسم النبي عليه الصلاة والسلام وردَ في الكتب السابقة:

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

(سورة الصف)

ففي الكتب المقدَسة اسم النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا بَحثٌ يَطُول، قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة الشعراء)

أليس هذا كله دليلاً لهم أنَّه من عند الله ؟!

كيف لو نزل القرآن على الأعجمي ؟ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ

أما الآية التالية فإنها تُعالِج أخْطَر موضوع في اللّغة، قال تعالى:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

(سورة الشعراء)

لو أنّ هذا القرآن الكريم نزل على إنسان أعْجمي ؛ غير عربي، ونزل بِلُغَة الأعاجم، وجاء هذا الأعجمي ومعه هذا القرآن باللّغة الأعْجَمِيَّة، وتلاهُ على مسامِع العرب الفصحاء، قال الله عز وجل:

(مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

إذا وقفَ إنسانٌ فيهم العربي، وتكلّم بالتُّرْكِيَّة أو الفارسية فلن يفْهموا شيئًا ! أو باللّغة اليابانيّة أو الصِّينِيَّة، فلن يفهموا شيئًا إطلاقًا، يقول ربّنا عز وجل:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الشعراء)

لو قرأ هذا الأعجمي القرآن باللّغة الأعجَمِيَّة عليهم، قال الله عز وجل:

(مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

هذا شيءٌ واضِحٌ وبديهي.

أما الشيء الدقيق فقوله تعالى:

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الشعراء)

معنى قوله تعالى: كَذَلِكَ سلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ

ما معنى هذا الكلام ؟ أيْ أن هذا القرآن إذا سَمِعهُ إنسانٌ بعيد عن الله عز وجل فلن يفْهمُ منه شيئًا، وهناك آياتٌ تؤكِّد ذلك، قال تعالى:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(فصلت: 44)

آية ثانية:

(وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا)

(سورة الإسراء)

ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنَ الإنسان إذا لم يُرِدْ معرفة الله عز وجل فهذا الكلام لا يؤثِّرُ فيه، إن لم يطلب الحقيقة فلن يتأثر بها مهما سَمِعها. فلو أنّ شخصًا دخل غرفةً يريد شيئًا، يريد كتاباً أو مفاتيح، وأعْطيته أنت رسالة ! فلم يقرأها، وإن قرأتَها أمامه فلن يسْمعها، هو بعيدٌ عنها، وهو في عالم آخر، وفي اهْتِمام آخر، وفي جوّ آخر، وفي هموم أخرى، ولذلك مَن جَعَلَ همومه همًّا واحدًا كفاهُ الله الهموم كلّها ! والإنسان يفْهم إذا تطابق همّهُ مع هذا الشيء المسْموع.

أحيانًا طالبٌ في صفّ من صفوف الجامعة له كِتاب مُقرَّر، فهو يشْغَلُ همَّهُ كلّه، ولو قرأتَ عليه كتاباً آخر فلن يفْهمُ منه شيئًا، كأنّ الله عز وجل يقول: مع أنّ هذا الكتاب بلِسانٍ عربيٍّ مُبين، ومع أنّ هذا الكتاب فيه الإعجاز العِلمي، وفيه الإعْجاز البلاغي، والإعجاز اللُّغَوي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز التاريخي، والإعجاز الحِسابي، ومع أنّ هذا القرآن فيه الخبر الصادق، والموعظة والقصص.. إلخ، فلو قرأهُ هذا الإنسان وهو لا يريد أن يعرف الحقيقة لما استطاع أن يفْهَمَ منه شيئًا، ولا يؤثِّرُ فيه، قال تعالى:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200))

(سورة الشعراء)

إذاً فالقرآن يحتاج إلى لغة عربيّة لِفَهمه، وإلى استِقامة عند قارئه، فلا بدّ من أن تكون مستقيمًا وطالبًا للحقيقة، وأن تكون مُتْقِنًا لهذه اللّغة حتى تفْهمَ كلام الله تعالى، فلو كان هناك انْحِراف بالسُّلوك، والآيات التي تُغطِّي انْحِرافه لا يقبلها، وهو إن لم يكن مستقيمًا يُصبْحُ قلبهُ مغلّقًا ربّنا عز وجل قال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

(سورة البقرة)

وقال تعالى:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة البقرة)

فالكُفْر يُغَلِّف القلب، فلذلك فإنّ هذا القرآن يحتاج إلى صفاءٍ وإلى استِقامةٍ.

أريد أن تكون هذه الآية واضحة في أذهانكم، ومعنى هذه الآية أنّ الإنسان ما لم يبْتَغِ الهدى، وما لم يبْحث عن الحقيقة، وما لم يطلب معرفة الله فإنّه لن يسمعَ شيئًا، نفسُهُ في واد، والحق في واد آخر. فنفسُهُ مشْغولةٌ بهُمومها، وشَهواتها، ونزواتِها، والحقّ في جِهَةٍ أخرى، ما لم يطلب الإنسان الحقيقة، وما

لم يبحث عنها، وما لم يرْغب في الوُصول إليها فإنّ الطريق أمامه مَسْدودة، فالرّغبة الداخلية هي الشّرْط الأوّل، لذلك فالعالِم مهمّتُهُ أن يوجِدَ هذه الرّغْبة قبل أن يُعْطِيَ هذه الحقيقة، لو أعْطَيْتَ الحقيقة والمستَمِعُ لا يرْغب فيها، ما أفادتْهُ شيئًا يجب أن تجعلَه يبحث عنها، فإذا ملّكْتَهُ إيّاها تملّكها، وهذا هو معنى الآية، ولكن معنى الآية الثانية، وهي قوله تعالى:

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(سورة الشعراء)

من العقل والذكاء التعاملُ مع الخطر قبل وقوعه:

المشكلة أنّ الحيوان يتعامل مع المحسوسات، أما الإنسان فإنّ الله تعالى أعطاه عقلاً وفِكْراً، وبهذا الفِكر يستطيع أن يرى الخَطَر قبل وُقوعِهِ، ويسوقون مثلاً، لذلك قِصّةً مشْهورةً ذكرتها مرات عديدة، مفادها أنّ سمكاتٍ ثلاث في غدير، مرّ به صيادان، وتواعدَا أن يرْجِعا، وشِباكُهما معهما ليَصيدا هذا السّمَك، فَسَمِعَت السمكات قولهما، أما أكْيسُهنّ فإنّها ارْتابَتْ وتخوّفَتْ وقالتْ: العاقل يحْتاطُ للأمور قبل وُقوعها، ولم تعْرُج على شيءٍ حتى خرجت إلى مكانٍ يتّصل بالغدير، ونَجَتْ.

وأما الكيّسة فَبَقِيَتْ في مكانها حتى عاد الصّيّادان، فذَهَبَتْ لِتَخرجَ من حيث خرجَت رفيقتها، فإذا بالمكان قد سُدّ، فقالتْ فرّطْتُ، وهذه عاقبة التّفريط، فالأقلّ ذكاء عند الخطر يتحرّك، والأكثر ذكاءً قبل الخطر، ثمّ إنّها - أيْ الكيّسة - تماوَتَتْ فطفَتْ على وجْه الماء فأخذها الصّيّادُ، ووضَعَها على الأرض بين النهر والغدير، فوَثَبَتْ في النّهر ونجتْ، وأما العاجزة فلم تزلَ في إدبارٍ وإقبال حتّى صيدَتْ.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((الْكَيّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنّى عَلَى اللّهِ))

(رواه أحمد)

البهائم والعاجزون والأغبياء متى يفهمون ؟ عند الغرق، قال تعالى:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

عند الغرق، وعند المصيبة، وعند تلف المال لمن يتعامل بالرّبا، وعندما يتلفُ ماله يقول: والله، هذا صحيح !! الربا حرام، حينما يكتشف خِيانة زوجتِهِ له يقول: والله عدم الاختلاط صحيح وحق !! لا يؤمن إلا بعد أن يدْفَعَ الثّمَن باهِظًا، وقد يكون الثّمَن أحيانًا حياته، لذلك قال الله بحَقّ هؤلاء:

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(سورة الشعراء)

هذا هو الإنسان الشهواني، وضعيف التفكير، وهذا هو الإنسان الغبيّ لا يتعامل مع الواقع إلا بعد أن دفع الثّمَن، فيأتيهم بغْتةً وهم لا يشعرون، وأما العاقل فالله تعالى أعطاه عقلاً، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ َاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ)

(سورة الأنعام)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (15-20): تفسير الآيات 201 - 214
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-10-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة الشُعراء، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(سورة الشعراء)

العاقل لا يدفع ثمن تعلمه الحقائق باهضًا:

مِن شأن الإنسان الذي كرّمه الله عز وجل بالعَقل ألاّ يدْفَعَ الثّمَن غالِيًا للحقائق التي يتعلّمها، فهل من الضروري أن ينفجر البيت حتى توقِنَ أنّ الغاز مادّة خَطِرة، أم من الضروري أن تأخذ الاحتياطات والتعليمات من دون أن تدفعَ ثمن هذا الدرس باهظاً، حياتنا فيها شروط مُعقّدَة جداً، والله سبحانه وتعالى كرّم الإنسان بالعقل، وبالعقل يستطيع أن يكتشف الخطر قبل وُقوعهِ، إذاً كان هناك فرق بين البهيمة والإنسان !! البهيمة لا تكتشف الخطر إلا عند وُقوعه، ولكنّ الإنسان بما أكرمه الله به مِن عَقلٍ يستطيعُ أن يكتشف الخطر قبل وُقوعِهِ، فالعاقل هو الذي يحتاط للأمور قبل وُقوعها، والله سبحانه وتعالى ذكر أنّ هؤلاء الكفار لا يؤمنون به حتى يرَوا العذاب الأليم، هل من الضروري من أجل أن تكتشف أنّ الربا يمحقه الله أن يُدَمّر المال ؟ إذا دُمِّر المال كلّه، وكُشِفَ لك في النِّهاية أنّ الربا يُدمِّر المال، فهذا الدرس دَفَعْتَ ثمَنَهُ باهظًا، ولكنّ الله سبحانه وتعالى بما أنْعَمَ عليك من نعمة العقل، مكّنك أن تكتشف بعقلك أنّ الآية الكريمة قَطْعِيَّة الثبوت، وأنّ معناها قَطعِيّ واضِح وأنّ هذا كلام الله عز وجل، وأنّ الله سبحانه وتعالى إذا قال فَعَلَ.

فلذلك إذا حكّم الإنسانُ عقلهُ، وقرأ كتابهُ، وتَعَرّف إلى القوانين القَطْعِيَّة والثابتة، عندها بدَلَ أن يدْفَع ثمن المعرفة باهظًا يدْفَعُ الثّمَن قليلاً، هل من الضروري أن تكتشف أنّ الاختِلاط حرام أن يُضَحِي الإنسان بزَوْجَتِهِ، طبعاً لا، ولذلك هذا جزاء من يعطِّل فكره، ومن يُجَمِّدُ عقْلَهُ، وجزاء الذي لا يؤْمِن بالقرآن حتّى يرى العذاب الأليم، فنحن المؤمنين إن شاء الله تعالى ينبغي أن نتعرّف إلى الخطر قبل وُقوعِهِ، ومن خِلال كتاب الله عز وجل، قال تعالى:

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202))

(سورة الشعراء)

عذاب الله بغتة في ساعة غفلة

هذه ساعة الغَفلة، أحيانًا يظنّ الإنسان أنّ الأمور تجري هكذا، وإلى ما لا نهاية، وهذا خطأٌ كبير، ووهم كبير، فالله سبحانه وتعالى يُرْخي الحبل، ويمهل إلى أن يظنّ الإنسان أنّه لا حِساب، وأنّه لا مسؤوليّة، وأنّه يفعَلُ ما يشاء، وأنّ الحق للقويّ، وأنّ السماوات والأرض صدفةٌ وجدت، وعندئذٍ يأتي عِقاب الله عز وجل بغْتةً فيَعْرف أنّ في السماء إلهًا لا يغْفَلُ عن كلّ منْحَرف، لذلك كما قال تعالى:

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202))

(سورة الشعراء)

عندئذٍ يأتي العذاب بغْتةً، قد يكون العذاب مرضاً عُضالاً، وقد يكون فقْد حُريّة، وقد يكون دماراً، وقد يكون هَواناً وإهانةً، الإنسان حينما تأتيه المصائب عندئذٍ يرْجو ربَّهُ أن يؤخِّر له هذا العذاب، قال تعالى:

(رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)

(سورة الدخان)

ثمّ يقول تعالى:

(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ)

(سورة الشعراء)

استعجال العذاب استهزاء:

لكنّ هؤلاء الكفار لِشِدّة كفرهم ولشدة جُحودهم، ولبُعْدِهم عن ربّهم وجهلهم بأسماء الله الحسنى يستْعْجِلون بالعذاب استِهزاءً، فيأتيهم الجواب، وسيّدنا عمر بن عبد العزيز كان إذا قام أو قعد، وإذا دخلَ مجلس الخِلافة، وقبل أن يحكم بين الناس يتلو هذه الآية:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء)

الاستدراج مِن سنة الله في الكافرين:

وأحيانًا يقع الإنسان في شبهة، ما هذه الشبْهة ؟ قد يرى أهل الدنيا يتمتّعون بصِحّة جيّدة، وبأموال طائلة، وبِبُيوت فارهة، وبمَركبات يقول: ما هذه المُفارقة ؟ المؤمنون مُعَذّبون وضِعاف ومستضْعفون وهؤلاء الكفار المنافقون الجاحدون والملحدون غارقون في النعيم والعِزّ، وهم ذوو الجاه، ويتمتّعون بكلّ ما لذّ وطاب، أقول هذا مِن حكمة الله عز وجل، والجواب أيضاً في قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

هل من آية في القرآن الكريم أوْسعُ من هذه الآية ؟ أبواب كلّ شيء ! كلّ شيء له باب، أبواب المال، وأبواب الملذّات، وأبواب الجاه، قال تعالى:

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

متاع الدنيا غرور قليل:

قال تعالى:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ)

(سورة آل عمران)

فالمؤمن العاقل لا يمكن أن يتمنّى أن يكون في وضْعٍ من الدُّنيا ممتازٍ على حِساب دينه، وما من إنسانٍ فيه ذرّة من إيمان يرضى، أو يتمنّى أن يكون مكان هذا الإنسان الغارق في ملذّاته، ويكون مكانه في جهله بالله، وفي جحوده، الآية الكريمة:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء)

الإنسان يعيش سنواتٍ معدودة، خمسين ستّين، وقد يمتدّ عمره إلى مئة سنة أو يزيد، ثم يدركه الموت، وكان في حياته كلها صحيحاً ذا عافية وقوة، وفرعون شاهد على ذلك، قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء)

فقد عاش عمرًا مديدًا من دون مرض، ولا ألمٍ، ولا فقر، ولا همّ، ولا حزن، قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء)

ثم يدركه أجله، ويكون عمله حسرات عليه.

وربنا عز وجل قال:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران: 197)

وفي آية أخرى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء)

خالق الكون يقول لك: قليل، ألسْتَ مُصَدِّقًا له ؟!

آية ثالثة: قال سبحانه وتعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص: 60)

أن تملك أكبر شركة في العالم هذا شيء، ولكنه متاع قليل إذ ينتهي بانتهاء العمر، وتحتلّ أرقى مكانة في المجتمع شيء، وأن تملك أكبر رصيد في العالم ؛ شيء كذلك، قال تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص: 60)

قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص: 61)

وأنت أيها المؤمن قد وعدك خالق السماوات والأرض وعَدَاً حسناً، كما وعدَكَ بالسَّعادة، ووعدكَ بالرِّضْوان ووعدك بالقُرب، ووعدك أن ترى وجهه الكريم قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ)

(سورة القصص)

فهل يستوي أهل الكفر وأهل الإيمان ؟ فالكافر والمؤمن كلامها يلقى جزاء ما قدّمت يداه، قال تعالى:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

وقال تعالى:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ)

(سورة التوبة)

قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص)

خُذْ من المال ما شئْت، وخُذْ من الجاه ما شئْت، وخُذْ من القوّة ما شئْت وخُذ من الوسامة ما شئْت، لكنّ المصير إلى النار، قال تعالى:

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ*لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران)

لمّا خرج قارون بزينته، قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

(سورة القصص)

بالتّعبير الفصيح هنيئًا له ! أحيانًا يرى الإنسان متاع الدنيا فيسيل له لعابهُ، والنبي الكريم علّمنا إذا رأيْنا بيتًا فخْمًا، أو مركبةً فارهةً، وشيئًا من متاع الدنيا كان يقول: اللهمّ لا عَيْش إلا عَيْشُ الآخرة ! قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء)

وقال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

لذلك هؤلاء أهل الدنيا الذين أعرضوا عن الله عز وجل قد يُعطيهم الله الدنيا بحذافيرها، ولكن ينطبق عليهم قول الله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206))

(سورة الشعراء)

ثم جاء الموتُ !!!

الأيام تسير هكذا وادعة هنيئة في نظر أحدهم، أفكلّ يوم يستيقظ صحيح الجِسم إلى ما شاء الله ؟! تخطّى الخمسين، وتخطّى السبعين، لكن لابدّ مِن يومٍ يشْكو ألمًا في أحد أعضائِه وهذا الألم يتفاقَم إلى أن يودِي بحَياته، فعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ أنّ رَسُولَ اللّهِ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ ؟ فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(رواه الترمذي)

قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء)

والإنسان بضْعة أيام، كلّما انقضى يوم انقضى بضْعٌ منه..

إلى متى أنت باللّذات مَشْـغـول وأنت عن كلّ ما قدّمْت مسؤول

* * *

قال تعالى:

(ثُمّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ)

(سورة الشعراء)

البطل مَن يعد العدّة لساعة الفراق:

البطل هو الذي يُعِدّ العُدّة لِساعة فِراق الدُنيا، والبَطل هو الذي يُعِدّ العُدّة لِنُزول القبر، والبطل هو الذي يُعِدّ جوابًا لِكُلّ شيء لله عز وجل، لماذا فعلت كذا ؟ يا ربّ، فعلتُ هذا مِن أجلك، ولماذا أعْطَيْتَ فلاناً ؟ ولماذا منَعْتَ فلانًا ؟ ولماذا غَضِبْتَ ؟ ولماذا ابْتَسَمْتَ ؟ ولماذا مَنَعْت ؟ ولماذا وَصَلْت ؟ ولماذا قَطَعْت ؟ هذا هو السّعيد، الذي يُعِدّ العدّة لِخَالقِهِ، كما قال تعالى:

(يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة المطففين)

ورد في الأثر أنّ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قال:

((تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا، فسألت السيّدة عائشة رضي الله عنها النبي عليه الصلاة والسلام قالَتْ: فقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، الرّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ ؟! فقالَ: الأمْرُ أشَدُ مِنْ أنْ يُهمّهُمْ ذَاكَ))

(رواه البخاري)

عراةً ومن دون طهور، وقد سألتْهُ مرّةً أيَعرفُ بعضنا بعضًا يوم القيامة ؟ قال: نعم، إلا في ثلاثة مواضِع عند الصِّراط، وعند الميزان، وإذا الصّحف نشِرَت ! في هذه اللّحظة لو وقعَتْ عَين الأم على ابنها، أو عَيْنُ الابن على أمِّه لا يعرفها، ولا تعرفهُ، وفي ما سوى هذه المواقف قد يعرف الابن أمَّه، وقد تعرف الأمّ ابنها، تقول له يا ولدي: لقد كان صدري لك سِقاءً، وحِجْري وِطاءً، وبطني وِعاءً فهل مِن حسنةٍ منك تجود بها عليّ ؟ فيقول الابن: ليْتني أستطيعُ ذلك يا أُمّاه، إنّني أشْكو مِمّا أنت منه تشْكين ! لذلك قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتّعُونَ (207))

(سورة الشعراء)

لا ينفعك في الآخرة إلا عملك الصالح:

ماذا يَنْفَعُكَ مالكَ حينما تُغادر الدنيا ؟ وماذا تنفعُكَ اللّذات التي أمْضَيْت بها السِّنين الطّويلة ؟ وماذا يَنْفعُكَ أصحابك ؟

وماذا ينفعُكَ أهلك ؟ وماذا ينفعُك من حولك ؟ قال تعالى:

(مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء)

لذلك أحد الصالحين اشْترى قبرًا، وكان يجْلسُ فيه كلَّ خميس، ويتْلو فيه قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100))

(سورة المؤمنون)

قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207))

(سورة الشعراء)

((لو أنّ الدنيا تعدِلُ عند الله جناحَ بعُوضة ما سقى الكافر منها شرْبَةَ ماء))

(الترمذي)

فليَنْظر ناظرٌ بعَقْلِهِ أنّ الله أكْرمَ محمّدًا أم أهانهُ حين زوى عنه الدُّنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمَهُ فلقد أهان غيره حين أعطاه الدنيا ! فهي لا شأن لها عند الله ؛ تافِهَةٌ، قال تعالى:

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ)

(سورة الشعراء)

مِن عدل ورحمةِ الله بعباده الإنذارُ قبل الإهلاك:

لا بدّ من أنْ يسْبِقَ الإهلاك إنذارًا، وهذا من رحمة الله عز وجل، قال تعالى:

(ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة الشعراء)

الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس مثقال حبّة من خردل، يُروَى أنّ سيّدنا عمر جاءهُ رجل قد سرق، فقال له: يا أمير المؤمنين، هذه أوّل مرّة قال: **كذبْت ! هذه المرّة الثانية ؛ إنّ الله لا يفضح مِن أوّل مرّة فالله سبحانه وتعالى يحذّر**، حينما يُصِرّ الإنسان على خطئِهِ عندئذٍ يأخذه الله عز وجل بذَنْبِهِ، وبعض الشُّعراء قال:

نهارك يا مغْرور سَهْوٌ وغفلــةٌ وليلـكَ نـومٌ والرّدى لازمُ
فلا أنت في الأيقاظ يقْظان حازم ولا أنت في النُّوام نـاج وسالمُ
تُسَرُّ بما يفنى وتفرح بالمُنــى كما سُرّ بالـلّذات حــالِمُ
وتسعى لما سوف تكْرهُ غِبّــهُ كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

* * *

هذا الذي يعيش لِوَقته ولذّتِهِ، ولا يعي على خير، ولا يرى ما سيكون ولا يُعْنى بالمستقبل، ولا يُعنى بساعة اللِّقاء، فهذا إنسان عطّلَ تفكيرهُ، وهذا مثلهُ كمثل البهيمة.

قال تعالى:

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ)

(سورة الشعراء)

لا حظ للشيطان في نزول القرآن:

هذا القرآن الكريم ما تنزّلت به الشياطين، إنّه لقَول رسول كريم، قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194))

(سورة الشعراء)

قال تعالى:

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211))

(سورة الشعراء)

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)

(سورة الشعراء)

هذا الشيطان إذا أراد أن يسترق السّمع يأتيه شِهاب ثاقب فَيُحْرِقُهُ.

قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

هذه الآية مركز الثِّقل في هذا الدرس، إنّها تدور حول الشِّرْك.

خطورة الشرك بجميع أنواعه:

أوّلاً: العلماء اتّفقوا على أنّ الشّرك نوعان ؛ شِرْك جليّ، وشِرْك خفي، شرْك ظاهر وشرك باطن، شرْك كبير وشرك صغير، ما هو الشّرْك الجليّ ؟ والكبير ؟ والظاهر ؟ الشّرك الجليّ أنْ تدّعِي جِهةً ؛ جمادًا أو حيوانًا أو إنسانًا أو كائنًا أياً كان أن تدّعيهِ إلهًا وتُسَوّيهِ بِرَبِّ العالمين، والله سبحانه وتعالى يقول:

(تَاللّهِ إِنْ كُنّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98))

(سورة الشعراء)

معنى: إِذْ نُسَوّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ:

كيف التّسْوِيَة ؟ أغلب الظنّ أنّ هذا الذي يعبد صنمًا من دون الله لا يُصدِّق نفسهُ أنّ هذا الصّنَم يُسيّر السماوات والأرض، ولكن كيفَ يُسَوّي هذا الإنسان تلك الآلهة التي ادّعاها من دون الله، إنّ التّسْوِيَة كما قال بعض العلماء في المحبّة والتّعظيم والعبادة، إذا أحْبَبْتَ هذه الجِهة ولْتَكُن إنسانًا، إذا أحْبَبْتَها وعظّمْتها وأطعتها فقد سوّيْتَهَا بِرَبِّ العالمين، لأنّ الجهة الوحيدة التي لا ينبغي أن يكون هذا لِسواها، والتي ينبغي أن تُعظّم، وتُحَبّ، وأن تُطاع هي الله سبحانه وتعالى، فأيُّ مخلوقٍ يتّجِه إلى ما سوى الله تعظيمًا ومحبّة وطاعةً فقد أشْرَكَ شِرْكًا كبيرًا، من علامات المُشْرك أنّكَ إذا تكلّمْتَ عن إلهِهِ المزعوم اسْتَشاط غضبًا، وأنّكَ إذا دَغْدَغْتَ أفكارهُ ومشاعِرَهُ بالثّناء عليه انتشى طربًا، وهذا من علامات المشرك، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)

(سورة النساء)

لكنّ العلماء حمَلُوا هذه الآية على معنًى مُضْمر وهو: إن لم يتوبوا ! والحقيقة أصْلُ الشّرْك اعتِقادُ المُشْرك أنّ هذا الذي يعْبُدُه من دون الله يستطيع أن ينقذهُ عند المِحَن !! ويستطيع أن يشْفعَ له !! وهذا هو أصل الشّرك، أنهم يعتقدون أنّ زَيْدًا أو عُبَيْدًا، أو أنّ هذا الصّنَم أو أنّ هذا النّوْء، أو أنّ هذا الحيوان بإمكانه أن يُبارك حياتهم، أو ينقذهُم من المهالك، وكذلك فهم يعتقدون بهذه الأصنام أنّها تشفعُ لهم وتنجيهم من عذابٍ مُحَقّق، وهذا هو أصْل الشّرْك، ومنه اعتقادُ الشّفاعة، فماذا يقول الله عز وجل عن الشّفاعة ؟ قال الله عز وجل:

(مَنْ ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة)

إذاً ليس في الكون جهة تستطيع أن تنقذكَ، أو أن تشْفَعَ لك، أو أن ترقى بك إلا الله عز وجل، فكلّ من يعتقِد أنّ جهةً من دون الله تستطيعُ أن تُنْجيك، أو أن ترفعَكَ فهذا شِرْك.

الآية الثانية:

(وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

(سورة الأنبياء)

وسبحان الله ! فإنّ القرآن ثلاث آيات مترابطة، الآية الأولى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة)

متى يأذن ؟ عندما يَرْضى عن عمل الإنسان، وعن قوله، ومتى يرضى عن عمله وعن قوله ؟إذا كان مُوَحِّدًا لله تعالى طائعًا له، سلسلة نُعيدها ثانيةً كلُّ ما سِوى الله لا يستطيعُ أن يشفع لك عند الله، إلا إذا أذِنَ الله،ومتى يأذن الله عز وجل ؟ إذا رضي عنك، وإذا رضي عن عملك وعن قولك، ومتى يرضى عن قولك وعن عملك ؟ إذا كنتَ موحِّدًا وطائعًا، لذا قال تعالى:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

مفهوم الشفاعة:

الشيء الآخر: شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه لا علاقة لها بهذا الموضوع، لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام سئل: يا رسول الله، من أسعد الناس ؟ ـ دقِّقوا في هذا الحديث، لأنّ مفهوم الشفاعة مفهوم في أصله صحيح، ولكن أصاب هذا المفهوم تشْويهٌ وتزوير وتعطيل إلى الدرجة التي أصبحَت الشفاعة تُسبِّب للإنسان كسلاً وقُعودًا وتساهلاً في طاعة الله عز وجل ـ هذا الذي يعتقدُ خطأً، ويعتقِدُ متوهِّمًا أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لن يدخل الجنّة حتى يُدْخِلَ أُمَّتَهُ قبله ؛ على معاصيهم وعلى انْحِرافاتهم وعلى أغلاطهم وعلى شرْكهم وعلى عُدْوانهم، فهو إنسانٌ واقعٌ في وهْمٍ كَبير كبير ؛ لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((يا فاطمة بنت محمّد، يا عباس عمّ رسول الله، أنْقذا نفْسَيكما من النار، فأنا لا أغني عنكما من الله شيئًا !))

(الترمذي)

((من يُبطِئُ به عمله لم يُسْرِع به نسبه، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

ولأنّ النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى بعضٍ من أُمّتِهِ يوم القيامة، فعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ أنّ النّبيّ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ تَلا قَوْلَ اللّهِ عَزّ وَجَلّ فِي إبْرَاهِيمَ:

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)

الآيَة، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ:

((اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلا نَسُوؤُكَ))

(رواه مسلم)

والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يقول:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

هذه آية أصْلٌ في نَفْي المفهوم الساذج والسَّخيف والمحدود في الشفاعة، ولكنَّ شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام حقّ، فمن يستَحِقّها ؟ يستَحِقّها مَن نجا مِن الشِّرْك، جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ: لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ))

(رواه البخاري)

خالصًا بها، أيْ حَجَزَتْهُ عن محارم الله تعالى، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ))

(رواه مسلم)

إذاً فالشَّفاعة لها معنى صحيح، وورَدَت فيها أحاديث صحيحة إلا أنّ العامَّة والجهلة فَهموها فهْمًا مُزَوَّرًا عطّلوا بها العدالة الإلهيَة، وعطّلوا بها سَعْي الإنسان لِمَرضاة ربّه، إذا مات الإنسان غير مشركٍ، وإذا كان موحِّدًا، ومخلصًا في توحيده استَحقّ شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام وربّنا سبحانه وتعالى بيَّن لِهَؤُلاء الذين اتَّخذوا أنْدادًا من دون الله يحِبُّونهم كَحُبّ الله، ولهؤلاء الذين عبدوا جِهاتٍ كَعِبادة الله، جِهاتٍ لا تنفعهم ولا تضرّهم، قال الله عز وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

(سورة العنكبوت)

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلامُ، إنِّي أعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللّهَ، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللّهِ، وَاعْلَمْ أنّ الأمّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقْلامُ، وَجَفّتِ الصُّحُفُ))

(رواه الترمذي عن ابن عباس)

والآية الكريمة:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

هذا هو الشِّرْك الجليّ، وهذا الشِّرْك الكبير، وهذا الشِّرْك المهْلِك، وهذا الشِّرْك الذي يتناقض مع العِبادة، ويتناقض مع الدِّين، فما هو الشِّرْك الخفيّ الذي يقع من معظم الناس ؟!!

الشرك الخفي صُوَرُه وآثاره السيئة:

الشِّرْك الخفيّ تُؤكِده آيةٌ كريمة وهي قوله تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

1 - عدم التوحيد في الأفعال:

آمن بالله تعالى خالقًا، وآمن بالله مربِّيًا، وآمن بالله مُسَيِّرًا، ولكنّه لم يُوَحِّد ربَّهُ في الأفعال، قال: فلان أزْعجني، وفلان أغضبني، وفلان أعطاني، وفلان حرمني، إذا لمْ يُوَحِّد في الأفعال، ويراها كلّها من الله عز وجل فقد وقعَ في نوْعٍ من الشِّرْك الخفيّ.

2 - الرياء اليسير:

ما الشِّرك الخفيّ ؟ العلماء قالوا: الرِّياء اليسير، تقول: هذا من أجل زَيْد، وهذا من أجل عُبَيْد، وأنت تقول هذا الكلام، وأنت لسْتَ قانعًا به من أجل فلان، وتغضَبُ غضبًا متصنّعًا من أجل علاّن، وأنت متظاهر بذلك، لكنك لسْتَ غاضِباً مِن أجْلِهِ، فالرِّياء اليسير نوعٌ من أنواع الشِّرْك الخفيّ.

3 - التصنُّع للخَلق:

التَّصنُّع للخَلق، كأن تُصلِّي صلاةً مُتْقَنَةً أمام الناس، وقد تكون غير ذلك فيما بينك وبين نفسك، وهذا من الشِّرْك الخفي، أنْ تُظْهر الورع إذا كنت تحت أنظار الناس، فإذا خَلَوْتَ تساهلْتَ في هذا الأمر، فالتَّصنُّع للخَلق نوعٌ مِن أنواع الشِّرْك الخفيّ.

4 – الحلف بغير الله:

ومَنْ حلفَ بغَير الله فقد وقعَ بالشِّرْك الخفيّ، كأن يحلِفَ بأُمِّه أو أبيه أو أولاده، وبأعزّ ما يمْلك، لذا مَن كان حالفًا فليَحْلف بالله تعالى، لكنّ الله عز وجل يقول:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

(سورة المائدة)

أما أن تحلف بغير الله فهذا نوعٌ من أنواع الشِّرْك الخفيّ.

5 - ربط مشيئة الله مع مشيئة العبد:

إذا قلتَ: ما شاء الله وشئْت، ما أراد الله وأردت، فهذا شِرْك لأنّ رجلاً جاء النبي عليه الصلاة والسلام فقال له: ما شاء الله وشئت، فغضب النبي أشد الغضب وقال:

((أجعلتني لله ندّا ؟ قل: ما شاء الله وحده))

(الأدب المفرد للبخاري عن ابن عباس بسند صحيح)

فكلمة: **(ما شاء الله وشئت)**نوعٌ من أنواع الشِّرْك الخفيّ.

6 - نسبة البلاء إلى العبد:

وكلمة هذا من الله ومنك ؛ هذا البلاء منك !! تعتقدُ اعْتِقادًا جازمًا أنّ هذا البلاء جاءك من فلان بالذات فهذا شِرْكٌ خفيّ، أين الله ؟ كيف سمح له أن يفعَلَ هذا ؟ وكيف سمَحَ له أن يطولك بكَلماته أو أفعاله ؟ إذا اعتقدْت أنّ فلانًا أو عِلاّنا بإمكانه أن يصيبَكَ بشَيء فهذا شرْك خفيّ.

7 – التوكل على العبد:

وإذا قلت: أنا بالله وبك فهذا شِرْكٌ خفيّ، وإذا قلتَ: ليس لي إلا الله وأنت، فهذا شِرْك خفيّ، قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

إذا قلتَ: أنا متوكِّلٌ على الله وعليك، قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

((أنَا أغْنَى الشُّركاء عن الشِّرك))

(ابن ماجه عن أبي هريرة)

8 – لولا كذا ....:

وإذا قلتَ: لولا أنت لم يكن كذا وكذا !! لولا هذا الطبيب لمات الابن ! ولولا المحامي لخَسِرنا الدَّعْوَى، ولضاعَ البيت، ولولا فلان لكُنتُ في حالةٍ صعبة، إذا عَزَوْت النَّفْع أو الضَّرر إلى إنسان فهذا شِرْكٌ خفيّ، وإذا قال شخصٌ لفلان: أنا تائبٌ إليك، فهذا شِرْك، المبالغة في تعظيم غير الله تعالى شِرْك خفيّ ز

9 - التوبة لغير الله:

وأن تعتقد أنّ هذا الإنسان تنتهي عنده آمالك وهو يرْفَعُك أو يخْفضك فهذا شِرْك، وقعَ أسيرٌ في عهْد النبي عليه الصلاة والسلام بيد المسلمين فقيل له: تُبْ، فقال هذا الأسير: اللهمّ إنّي أتوب إليك ولا أتوب لِمُحمّد !

فعَنِ الأسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ أنّ النَّبيّ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ أُتِيَ بِأَسِيرٍ فَقَالَ: اللّهُمّ إنّي أتُوبُ إلَيْكَ، وَلا أتُوبُ إلى مُحَمّدٍ، فَقَالَ النّبيُّ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((عَرَفَ الْحَقّ لأهْلِهِ))

(رواه أحمد)

لا يُتاب إلا لله عز وجل.

10 - النذر لغير الله:

ومَنْ نذر لغير الله فقد وقعَ في الشِّرك الخفيّ لأنّ النّذر يجب أن يكون لله وحده، هناك آيات كثيرة، قال تعالى:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا)

(سورة الإنسان)

النّذْر لله، ومن نذَرَ لغير الله فقد أشْرَكَ.

ومن توكّل على غير الله، ومن اعْتَمَدَ على غير الله، ومن أرْضى غير الله، ومن أراد غير الله، ومن توجّه لغير الله ؛ هذا كلّه شرْك خفيّ ونرْجو الله سبحانه وتعالى أن ننْجُوَ منه جميعًا.

11 – التذلل لغير الله:

كذلك التّذلّل لغير الله شرك، والخضوع ؛ شرْك، وأن تبتغي مرضاة زَيْد ؛ شِرْك.

12 – حمدُ غير الله على ما أعطاك:

وأن تحمَدَ الناس على ما أعطاك الله ؛ شرْك، وأن تذمّهم على ما منَعَكَ الله ؛ شرْك، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنه من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسَخط الله، وأن تذمّهم على ما لم يعْطِكَ الله))

13 – طلب الحوائج من ا لموتى:

ومن هذا القبيل طلبُ الحوائج من الموتى، إنسان ماتَ، والإنسان إذا مات انْقَطَعَ عمله، فإذا وقفْت على شُبّاك وليّ، وأمْسَكْتَ بالنافذة، وهززْتها بعُنْف، وقلت: يا فلان، فهذا شرْك خفيّ، ماذا يفعل لك هذا الوليّ القابعُ في قبره ؟ والدليل أنّ النبي عليه الصلاة والسلام قال الله في حقِه:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إلا مَا شَاءَ اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف)

إذا كانت هذه حال النبي عليه الصلاة والسلام، فما بالك بغيره من الناس، وهناك آية ثانية:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إلا مَا شَاءَ اللّهُ لِكُلّ أُمّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

(سورة يونس)

قال العلماء: إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملكُ لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فَلأنْ يعجز عن أن يمْلِكَ للناس النَفع والضرّ فهذا من باب أولى، وإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول: لا أعلم الغيب، فأيّ مخلوقٍ يدّعي ذلك فهو كاذِب، أيّ مخلوق يدّعي أنّه يملك الضرّ والنّفع فهو كاذب، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((مَنْ أَتَى حَائِضًا أو امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أوْ كَاهِنًا فَصَدّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمّدٍ))

(رواه الدرامي)

هذا كلّه من الشّرك الخفيّ.

14 - الاعتماد الخالص على الأسباب:

وقد بقي في الشِّرْك الخفيّ موضوع قصير، وهو أنّ بعض العلماء ومنهم الشّيخ الأكبر محيي الدين بن العربي في كتابه الوصايا يقول: **" الشِّرْك الخفيّ أن تعتمِدَ على الأسباب "**، فالمال سبب، فالذي معه المال والوفير ومعتمدٌ عليه، وواثق من كثرته، ويعلم أنّ المال يحل كلّ مشكلة، هذا الذي يعتمد على الأسباب وقعَ في الشِّرْك الخفيّ وهو لا يدري فلان قويّ البُنيَة، وقد اعْتَمَدَ على بنْيتِهِ، وقد اعتنى بصِحّته وظنّ أنّ عمرهُ مديد وقعَ في الشِّرْك الخفيّ، أو اعْتَمَد على جاههِ واعتمدَ على مَنْ حوله، وعلى جماعته، حينما تعتمد على الأسباب قد وقعْت في الشِّرْك الخفيّ فما معنى قوله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

العلاقة بين المعصية ونتائجها:

الحقيقة هناك معنى دقيق جدًا، فهناك علاقة بين المعصيَة وبين نتائِجها، وإنّ هذه العلاقة علاقة عِلْمِيَّة، أيْ: علاقةُ سبب بنَتيجة، وإن علاقة المعصيَة بنتائِجها، هي علاقة عِلْمِيَّة، إذ هي علاقة سبب بنَتيجة، فما معنى قوله عز وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

مَن اعتمد على ماله فقد وقعَ في شرْكٍ خفيّ، لماذا يُعَذّب ؟ في حال وُجود المال، يخاف أن يفْقِدَهُ، فَتَوَقُّعُ المصيبةِ مصيبةٌ أكبر منها، في حال وُجوده في هذا المنصب الرفيع يخاف أن يفْقِدَهُ، فخَوفُ فقْدِ هذا المنصب هو عذابٌ مستمرّ ؛ لأنّك من خَوْف الفقْر في فقْر، ومن خوْف المرض في مرض، وتوقّع المصيبة مصيبة أكبر منها، فالإنسان الذي أشْرك بالله فاعْتَمَدَ على بعض الأسباب يُعذّب لأنّه قد يتوهّم فقْدها في حال وُجودها، وإذا فُقِدَتْ منه فعْلاً يُعَذّب بفَقْدها، فأنت في حال وُجودها تتوهّم زوالها فَتَعَذّب، وفي حال زوالها فتُعَذّب بفقدها، أما إذا اعْتَمَدت على الله عز وجل، قال تعالى:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة القصص)

مَنْ اعْتمَدَ على ماله ذلّ، ومن اعتمَدَ على نسبه اخْتلّ، ومن اعْتمَدَ على الله لا ذلّ ولا اخْتلّ، لذلك:

اجْعَل لـربّك كلّ عِزّك يستقرّ ويثبـــتُ

فإذا اعْتَزَزْتَ بمَن يموت فإنّ عِزّكَ ميّـــتُ

* * *

جوهر القرآن التوحيد:

لو تتبَّعْتَ القرآن الكريم في أكثر آياته، تجد أنّ جوهر القرآن هو التّوحيد، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُون (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

هذا هو التوحيد، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُون)

(سورة الأنبياء)

الدِّين كلّه توحيدٌ وطاعة، وتوحيدٌ وعبادة، أما الشِّرْك يُسَبِّب الحِقد والشِّرْك يُسَبِّب النِّفاق، والشِّرْك يُسَبِّب المعْصِيَة، والشِّرْك يُسَبِّب الحُزْن والألم، والقهْر، أما إذا وحَّدْت الله عز وجل فقد أُزيحَتْ عنك جبال من الهموم، لذلك أعراض الشِّرْك كثيرة جداً، وكلها أعراض لمرضٍ واحد، ألا وهو الشِّرْك، والشِّرك عِلاجه التوحيد، والتوحيد عِلاجه التَّفكّر في خلق السماوات والأرض، ومعرفة كتاب الله عز وجل. وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نُتابع قوله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنّي بَرِيءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ (217) الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلّبَكَ فِي السّاجِدِينَ (219) إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

(سورة الشعراء)

الفرق بين اتخاذِ الأسباب والاعتمادِ على الأسباب:

بقي تعقيب صغير، ويتلخّص في الفرق بين الأخذ بالأسباب، والاعتماد على الأسباب، لا يعني أن عليك أن تُعطِّل الأسباب، فَلَكَ أن تأخذ بالأسباب، ولك أن تأخذ من كلّ شيءٍ سببًا، ولك أن تعالج ابنك عند الطبيب، فهذا لا يتعارض مع التوحيد، واعلم أنّ التوحيد أن تأخذ بالأسباب، والشِّرْك أن تعتَمِد على الأسباب، وفرْق كبير بين أن تأخذ بها وبين أن تعتمد عليها، فإنّ الأخذ بالأسباب دين.

عن ابن عباس قال: **<< كانوا يحجون ولا يتزودون، قال أبو مسعود: كان أهل اليمن أو ناس من أهل اليمن، يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون،** فأنزل الله عزوجل:

(وَتَزَوّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى)

الآية.

(أبو داود بسند صحيح)

ولِمُجَرَّد أن تعتمد على الأسباب فقد أشْركت، لماذا ؟ لأنَّ الله سبحانه وتعالى خلقَ الكون وَفْقَ نِظام دقيق، وهذا النِّظام لن يُخْرق من أجلك، فإذا أراد الإنسان أن يُقيم مشروعًا توفَّرت له أسباب النجاح، ومكان المشروع له قيمة، وحجم رأس المال له قيمة، طُرُق التَّعامل لها قيمة ونوع البضاعة لها قيمة، إن لم تأخذ بالأسباب سُبِقْت، وحينما تخلّف المسلمون عن ركْب بقِيَّة الأمم فإنَّما تخلّفوا بسبب فهْمِهم السَّقيم للتَّوكل فالتوكّل محلّهُ القلب، والأسباب محلّها الجوارح.

كأنَّني أريد أن أقول لكم: إيَّاكم أن تفهموا من التَّوحيد ترْك الأخذ بالأسباب، التوحيد أن تأخذ بالأسباب، ولكنَ الشِّرك أن تعتمد عليها، وتنسى الله عز وجل، والقصص التي لا تُعدُّ ولا تُحصى مفادُها أنَّ الإنسان لِمُجرَّد أن يعتمد على ماله أو على قوّتِهِ، أو على صِحّته أو على أهله، أو على مَنْ حوله، أو على جماعته عندئذٍ يؤدِّبه الله عز وجل، وإليكم هذه القصَّة الخِتامِيَّة:

أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام هم أشْرفُ البشر بعد الأنبياء باعوا أنفسهم لله عز وجل، وفَدَوْا نبيَّهم بأرواحهم، واتَّبعُوه في ساعة العُسْرة، ومع ذلك خاضوا معه بدْراً وأحداً والخندق، وهاجروا، وتركوا أموالهم وأولادهم، وأطاعوا ربّهم، وحينما قالوا والنبي معهم في حنين: لن نُغْلَبَ مِن قِلّة، واعْتَمَدوا على عددهم وعلى قوّتهم بعد فتْح مكّة كما قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

لما أعجبتهم قوته، وركنوا إليها تفرّقوا بَدَدا، هذا ملخّص الملخّص، فإذا كان أصحاب النبي صلوات الله عليه ورضي الله عنهم قد عالجهم الله من الشِّرْك الخفيّ، فَمَن نحن حتى لا نعالج ؟!! فَبِمُجَرَّد أن تقول: أنا وقعْتَ في الشِّرْك، وقعت في المطبّ، ولكن قل: الله، وهذا من فضل ربّي، لقد أعانني ربّي، وألهمني، وساعدني، ولقد نوّرني، فلذلك الطبيب الماهر قبل أن يُعالج المريض يقول: اللهمّ إنِّي تبرَّأتُ من حولي، وقوّتي، وعلمي، والتَجَأتُ إلى حولك، وقوّتك يا ذا القوّة المتين، وهكذا المعلِّم والمحامي والتاجر، وأيّ إنسان في أيّ عمل، وأنت كذلك عليك أن تعْلن براءتك من حولك وقوّتك وعلمك، وقل: يا ربّ، ليس لي إلا أنت، وهذا هو التوحيد، وما دُمْت معه فهو معك، فإذا قلتَ أنا وانْفَصَلت عنه، واسْتَغْنَيْت عن الله واتَّكَلْت على نفسِك أوْكَلَك الله إيَّاها، وهذا شيء مهمّ ودقيق في عالم الإيمان ؛ والتَّوْحيد، وإنَّ الذي يتناقض معه هو الشِّرك، نعوذ بالله من الشِّرْك الخفيّ والجليّ.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (16-20): تفسير الآيات 214 - 216
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-11-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة الشُعراء، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215))

(سورة الشعراء)

الأقربون أولى بالمعروف:

النبي عليه الصلاة والسلام أُمِرَ في هذه الآيات أن يُنْذِرَ عشيرته الأقربين، والأقربون أولى بالمعروف، الأقربون إليك أولى بتَوجيهك، الأقربون أولى بعِنايتِك، الأقربون نسبًا، والأقربون مكانًا، والأقربون في العمل، المؤمن يبدأ بمَن حوله، يبدأ بأهله وأولاده، ويبدأ بإخوته، وأخواته، ويبدأ بعَشيرته، ويبدأ بأبناء حَيّه، وبزُملائِهِ بالعمل ويبدأ بجيرانِهِ، هكذا كان توجيه الله تعالى لِنَبيّه صلى الله عليه وسلّم، قال تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء)

وهناك أُناسٌ يَدَعون بلدهم، ويبحثون عن عملٍ صالح في مكان آخر، لكنّ بلدهم أوْلى بهم، وهذا هو الأصل، وأقرباؤُهم أولى بهم، وعشيرتهم أولى بهم، البلد الذي احْتضنهم أولى بهم، قال تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء)

ما مِن علاقة أوْقَعُ في النّفس من علاقة الإيمان بين الأقارب، فإذا كان إخوانك وأخواتك مؤمنين، وكان أولادك على الطريق الصحيح فهذه سعادة ما بعدها سعادة، وهذا يُستنبط من قوله تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء)

ثم الآية التي تليها:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

أمْرُ اللهِ نبيّه عليه الصلاة والسلام بخفض الجناح والتواضع:

بادئ ذي بدْء، هذا تَوْجيه من الله سبحانه وتعالى للنبي عليه الصلاة والسلام في الطريقة التي ينبغي أن يُعامِلَ بها أصحابهُ، هذا توجيه، أو تربيَةٌ، أو تأديب، حينما سئل النبي عليه الصلاة والسلام عن الأدب الرفيع الذي يتحلّى به فما زاد أنْ قال:

((أدّبني ربّي فأحسن تأديبي))

(الجامع الصغير عن ابن مسعود بسند ضعيف)

وهذه الآية مِن تأديب الله سبحانه وتعالى واخْفض جناحك لِمَن اتَّبَعَك من المؤمنين.

معنى خفض الجناح:

خفْض الجناح كِناية، والكناية هي التّعبير عن الشيء ببَعْض لوازمِه، إذا أردْت أن تُعَبّر عن كرم الإنسان قد تستخْدمُ أُسلوبًا غير مباشر، فالكريم من لوازمهِ أنّ بابه لا يُغْلَق، دائمًا الضُيوف يدخلون منه، فإذا عبّرْتَ عن الكرم بطريقةٍ مباشرة تقول: فلان كريم، هذا الأسلوب اسمُهُ الأسلوب المباشر، أما إذا أردْتَ أن تعبّرَ عن كرم هذا الإنسان بطريقةٍ غير مباشرة تسْتخدم الكناية، وتقول: فلان بابهُ لا يُغْلَقُ، أي هو كريم، وإذا أردْتَ أن تُعَبر أنّ هذا الإنسان قد نَدِمَ، وقلتَ فلان نَدِم، فأنت اسْخدمْت الأسلوب المباشر، أما إذا أردْت أن تستخدم الكناية تقول: فلان عضّ على أصبعه ! قال تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)

(سورة الفرقان)

هذا كنايةٌ عن النّدَم الشديد، وخفضُ الجناح كِنايةٌ عن التواضع، فعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إنّ اللّهَ أوْحَى إلَيّ أنْ تَوَاضَعُوا، وَلا يَبْغِي بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ))

(رواه ابن ماجة)

والله سبحانه وتعالى يُوَجّه النبي عليه الصلاة والسلام، أو يؤدّبُهُ أو يُرَبّيه كي يكون متواضِعًا مع أصحابه، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

فوائد خفض الجناح:

يبْدو أنّ خفْض الجناح يؤلّف القلوب، وخفْض الجناح يُعين على المحبّة، والمحبّة أساس في الدّعوة إلى الله.

أحدُ المُعلِّمين القدامى الذين جاؤوا في العصور الساحِقَة، في التاريخ القديم وهو أفلاطون استَدعى ولِيًا من أولياء تلاميذه، وقال له: خُذْ ابنَكَ عنّي، فإنّه لا يُحِبُّني !

التّعليم أساسه المحبّة، والتّعليم بالقهْر وبالإلزام لا يُجدي، كما قال أحد العلماء: **" يا بني، نحن إلى أدبك أحْرص مِنّا إلى عِلْمك"!** فهذا الأدَب، وذاك العطف، وذاك التواضع من المعلِّم يجعل قلوب المتعلِّمين تميل إليه، لذلك قال ربنا عز وجل:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

(سورة آل عمران)

وقبلها يقول عزّ وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين)

(سورة آل عمران: 159)

هذه الرحمة التي اسْتكنّتْ في قلبك كان من آثارها هذا اللِين ؛ لينُ الجانب قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران)

من صفا الداعية المسلم خفضُ الجناح:

نحن أمام آية من آيات تربيَة الله سبحانه وتعالى للنبي عليه الصلاة والسلام، يجبُ علينا أن نأخَذ بها نحن، وعلى كلّ من دعا إلى الله، وتصدّى إلى هِداية الناس، وكلّ مَن نصّبَ نفسهُ إمامًا أو داعِيَةً، لا بدّ من أن يتخلّق بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، وإلا تأتي دعوته جَوفاء لا جَدوى منها. قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ)

(سورة الشعراء)

خفْضُ الجناح كِناية عن التواضع، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

هذه الآية وردَتْ في صيغةٍ أخرى في مكان آخر من هذا الكتاب الكريم:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

قاطبةً، أيْ أنت أيّها الأخ إذا دَعَوْت إلى الله فلا ينبغي أن تزدري مؤمنًا ليس من جماعتك، هذا ضيقُ أُفُق، وهذه نظرةٌ ضيّقَة، وهذه تُثير مشاعر العِداء، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

هذه مطلقة، ولو لم يتّبعوك، والمؤمن الصادق لا يغمط الناس حقّهم والمؤمن الصادق يعرف لكلّ ذي حقّ حقّه، والمؤمن الصادق ليس ضيّق الأُفق، ولا محدود النّظرة، وليس يَعنيه إلا مَن حولهُ، لا، ثم لا، والله للجميع، وفوق الجميع، وبابهُ مفتوح للجميع، ورحمته لكلّ الناس، وهذا الذي جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

((اللهمّ ارْحمني ومحمّدًا، ولا ترحم معنا أحدًا، فقال عليه الصلاة والسلام: لقد حجّرْتَ واسعًا))

(الترمذي عن أبي هريرة)

رحمة الله واسعة ! فالفرْق بين الآيتين، الآية الأولى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

والآية الثانية:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجر)

في عهْد النبي عليه الصلاة والسلام كان بعض المؤمنين في مكّة كانوا عَيْن النبي عليه الصلاة والسلام، وكان إيمانهم في قلوبهم، والنبي يعرف ذلك، لذلك هؤلاء الذين آمنوا بِقُلوبهم، واقْتَضَتْ المصْلحة ألا يظْهروا مَشْمولون بهذه الآية:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجر)

سواء كان إيمانه ظاهرًا أم غير ظاهر، وسواء كان معك أو ليس معك، المؤمن الصادق لا يغمط الناس حقّهم، ولا يزْدري الناس إن لم يكونوا من جماعته، وهذه نظْرةٌ ضيّقة محدودة لا تصلح إطلاقًا، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجر)

صور من تواضع النبي عليه الصلاة والسلام:

الشيء الآخر، ومما يؤكد تمسك النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الأدب العظيم، ومِمَّا يؤكِّد استجابته لهذا التَّوجيه الكريم، ومِمَّا يؤكِّد حِرْصه على التمسك بهذا التَّأديب مِن قِبَل الله عز وجل، كان عليه الصلاة والسلام إذا اجْتَمَع بأصْحابه كأنَّه كأحدهم، والدليل: إذا دخل عليهم رجل يُريدهُ، والنبي عليه الصلاة والسلام معهم، ولا يعرفُهُ فيقول: أيُّكم محمَّد ؟! ماذا نستنبط من هذا ؟ أنَّه كان عليه الصلاة والسلام إذا جلس مع أصحابه فهو كأحدهم تمامًا، وإذا سار مع أصحابه كان كأحدهم أيْضًا، وقد كان عليه الصلاة والسلام لا يعطي لِنَفسه امْتِيازًا أبدًا، والقصّة المشهورة حينما كان النبي مع أصحابه الكرام قال:

((وأنا عليّ جمع الحطب))

(ورد في الأثر)

هذا هو خُلُق النبي عليه الصلاة والسلام، والقصّة التي تعرفونها كذلك، وأتلوها على مسامعكم دائمًا يوم بدر

((... وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة....))

(شرح السنة عن ابن مسعود)

قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

إذا أردت أن يُحِبَّك الناس فتواضَعْ لهم، وإذا أردْت أن تكون طريقهم إلى الله فاخْفِض جناحك لهم، وهذا وصْفٌ، وفي هذه الآية جاء توجيهٌ يُسَمِّيه علماء التفسير تربية الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام، وقد يأتي وصْفٌ، وقد تكون هذه التربيَة تعليمًا لنا، فكلّ من دعا إلى الله عز وجل لا بدّ من أن يتواضع للمدعو، إذا أردْت أن تدعو صديقك الذي في العمل إلى الله فاخْفِض جناحك له، واجْلِس معه، ولا تسْتعلِ عليه، ولا تقل له: أنا أعلم، وأنت لا تعلم، فهذا يُنَفِّر قلبهُ منك، دع الحديث عن نفسك كليًّا، حدِّثْهُ عن الله عز وجل، وعن رسول الله واكْتَفِ بهذا، ودع نفْسَكَ في الظّل، بعيدًا عن الأضواء حتى يُحِبَّك الناس. النبي عليه الصلاة والسلام تَطبيقًا لهذا التَّوْجيه الإلهيّ العظيم كان يخْصفُ نعْلَهُ بيده، ويخيطُ ثَوْبهُ، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم، بل كان يكْنسُ بيتهُ، ويحلبُ شاته، ويخْدم نفسهُ، إذا كانت الزَّوجة نائمة فاخْدِمْ نفْسَكَ، وكان يقول عليه الصلاة والسلام:

((إنّما أنا عبْد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد))

(الجامع الصغير عن عائشة بسند صحيح)

وفي معظم وقتِهِ كما وصفه العلماء كان في مهْنة أهله، أيْ في خدمة أهله، فإذا حضَرَت الصّلاة خرج إلى الصلاة، وكانت الأمَة أي الجارية الصغيرة تأخذ بيَدِهِ فتنطلقُ به حيث تشاء، وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلّم، وكان عليه الصلاة والسلام تَطْبيقًا لهذا التوجيه الإلهي يمرّ بالصِّبْيان فَيُسَلِّم عليهم، ولو لم يعرف أسماءهم، يقول: السلام عليكم يا صِبْيان.

ومن هذا التّوجيه الكريم كان إذا أكَلَ لعَقَ أصابعه الثلاث، وهذا مِن السنّة، ومن تَوجيه الله الكريم أنّ النبي عليه الصلاة والسلام ما رُئِيَ مادًا رجْليْه قطّ، سيّد الخلق، وحبيب الحقّ، وما عابَ طعامًا قطّ، من تواضعه صلى الله عليه وسلم، ولم يكن ينتَقِمُ لِنَفْسِهِ قطّ، إنّما يغضَب إذا انْتُهِكَت حُرْمةٌ من حرمات الله تعالى، وكان عليه الصلاة والسلام يأكل مع الخادم ويُجالس المِسكين، ويمْشي مع الأرملة والمسكين، وكان يبدأ من لَقِيَهُ بالسّلام، ويُجيبُ دَعْوةَ من دعاه، ولو إلى أيْسَر شيء، قال مرّةً:

((لو دُعيتُ إلى ذِراع أو كراع لأجَبْتُ، ولو أهْدِيَ إليّ ذِراعٌ أو كُراعٌ لأجَبْتُ))

(الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند صحيح)

هذه أخلاقه صلى الله عليه وسلّم، وكان يعود المريض، ويشْهد الجنازة، ويرْكب الدابة، طبعاً ففي وقته أن ترْكب حِصانًا غاليَ الثّمَن شيءٌ يدْعو إلى الشّعور بالتّفَوّق، أما أن تركب دابّة قميئة فهذا شيء لا يفعلهُ إلا أواسط الناس، كان عليه الصلاة والسلام يركبُ دابّة مِمّا يرْكبهُ عامّة الناس.

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلّم أنّ امرأة كانت تخدمُ المسجد، ولا يعرفها أحد، بل لا أحدٌ يعرف أحدٌ اسمها، وكانت تخدم المسجد، ولما تُوُفِّيَتْ بدا لأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ورأوا أنّها أقلّ شأنًا من أن يذْكروا للنبي أنّها ماتَتْ ! ماتَتْ ودَفَنوها، فلمّا سأل عنها النبي عليه الصلاة والسلام، وأجابوه أنّها ماتَتْ، ودُفِنَتْ تألّمَ ألمًا شديدًا، وقال:

((هلاّ آذنتموني ؟!))

(متفق عليه)

فتوجّه إلى قبرها، واسْتغفر لها.

هذه أخلاقه، وإذا كنت من المؤمنين الصادقين فهذه أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

وبعض علماء السيرة جمعوا بعض شمائله في نصّ متّصل، من المناسب أن أقرأهُ لكم في مناسبة هذه الآية، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

من شمائله عليه الصلاة والسلام:

فقد كان عليه الصلاة والسلام جمَّ التواضع، وافر الأدب، يبدأ الناس بالسَّلام، وينصرفُ بكُلِه إلى مُحدِّثِهِ صغيرًا كان أم كبيرًا، أحيانا يحدِّثك ابنك مرَّةً، ومرَّتين، وثالثة، ثمَّ تقول له: ماذا قلْتَ لي ؟ النبي عليه الصلاة والسلام مِن أدبِهِ الرَّفيع أنَّه ينْصرفُ بكُلِّه إلى محدِّثه، صغيرًا كان أم كبيرًا، ويكون آخر من يسْحب يدهُ إذا صافحَ، وإذا تصدَّق وضَعَ الصَّدَقة بيَدِهِ في يد المسكين، لا يلْقيها له إلْقاءً، وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلَّم، وإذا جلس جلسَ حيث ينتهي به المجلس، ولم يُرَ مادًّا رِجْلَيْه قطّ، ولم يكن يأنفُ من أي عمل لِقَضاء حاجاته، من حمَلَ حاجته بيَدِهِ برؤ من الكِبْر، أو حاجة صاحبٍ أو جار، وكان يذهب إلى السوق، ويحملُ بضاعته ويقول: أنا أولى بحَمْلها، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

وكان يُجيب دعْوة الحرّ والعبْد والمِسكين، وكان يقْبلُ عُذْر المعْتذر، وكان يرْفو ثوْبهُ، ويخصف نعلهُ، ويخدم نفسهُ، ويَعْقِلُ بعيره، ويكنسُ داره وكان في مهنة أهله، وكان يأكل مع الخادم، ويقضي حاجة الضَّعيف والبائس، وكان يمشي هَوْنًا خافض الطَّرف، متواصل الأحزان دائمَ الفِكرة، ولا ينطق إلا لِحاجة، طويل السُّكون، إذا تكلَّم تكلَّم بجَوامع الكلِم، وكان دَمِثًا أي لطيفًا، ليس بالجافِ ولا المُهين يُعظِّمُ النِّعَم وإن دقَّتْ، فلو أنَّه شرب كأس ماء قال: الحمد لله رب العالمين الذي جعل هذا الماء مسْتساغًا، وجعل طريقه سالكًا، لا يذمّ من هذه النِّعَم شيئًا فهناك من يكشّر حينما يأكل، وكأنَّه قد اشْمأزّ منها، ولا تُغْضِبُهُ الدنيا، ولا ما كان منها، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضَّ بصرهُ، وكان يؤلِفُ ولا يُفَرِّق، يقرِّب ولا يُبَعِد، يُكَرِّم كريم كلّ قوم، ويولِّيه عليهم، ويتفقَّد أصحابه، ويسأل الناس عمَّا في الناس، كيف حالكم ؟ كيف أعمالكم ؟ كيف أهلكم ؟ هل أنتم مرْتاحون ؟ يسأل الناس عما في الناس، يُحَسِّنُ الحسَنَ ويُصَوِّبُهُ، ويُقَبِّحُ القبيح ويوهِّنُهُ، لا يُقَصِّر عن حقّ ولا يُجاوِزُهُ، ولا يحْسب جليسهُ أنَّ أحدًا أكرم عليه منه، من سأل حاجةً لم يردّه إلا بها، أو ما يسرّه من القول، وكان دائِمَ البِشْر، سَهل الخُلُق، ليّن الجانب، ليْس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب ولا فحَّاش، ولا عيَّابٍ ولا مزَّاحٍ، يتغافل عمَّا لا يشتهي، ولا يُخَيِّبُ فيه مؤمِّلاً، وكان لا يذمّ أحدًا ولا يُعَيِّرُهُ، ولا يطلبُ عَوْرتُه، ولا يتكلَّم إلا فيما يُرْجى ثوابُهُ، يضْحك مِمَّا يضحك منه أصحابه، ويتعجَّب مِمَّا يتعجَّبون، ويصبر على الغريب وعلى جَفْوَته في مسألته، ومنطقِهِ، ولا يقْطعُ على أحدٍ حديثاً حتى يجوزهُ، والحديث عن شمائلِهِ صلى الله عليه وسلَّم لا تتَّسِع له المجلّدات، فإذا شخص قرأ كتاب الجامع الصغير يجد في آخره أكثر من مئة حديث عن شمائله صلى الله عليه وسلَّم وكان جلّ ضَحِكِه التَّبسّم، وكان كذا

وكذا، وكان يأكل كذا وكذا، وكان إذا دخل بيْتهُ لفَّ ثوْبهُ، وهذه شمائلهُ صلى الله عليه وسلّم إذا اطّلَعَ الإنسان عليها ينبغي أن يجعلها طريقًا له في حياته.

الآن الشيء الذي يعْنينا هو أنَ الله سبحانه وتعالى وجَهَ النبي عليه الصلاة والسلام، أو أدّبَهُ أو ربّاه بهذه الآية: قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

هل في القرآن الكريم آياتٌ توجيهية أخرى للنبي عليه الصلاة والسلام ؟

والخلاصة أن علينا أن نحسن الاقتداء به عليه الصلاة والسلام، وهناك سؤال يفرض تنفسه هو: هل في القرآن الكريم آياتٌ أخرى تؤدِّب النبي عليه الصلاة والسلام ؟ وتكون هذه الآيات أيضًا منهجًا لنا في معاملة الناس ؟ الحقيقة في القرآن الكريم ما يزيد على سبْع عشرة آية تخْتصّ بتَأديب النبي عليه الصلاة والسلام من هذه الآيات، قوله تعالى:

(وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)

(سورة التوبة)

أيْ يستمِعُ إلى الناس، ويُصْدرُ أحكامهُ ارْتجالاً من دون بحْثٍ أو تدقيق، ويستمع إلى كلام الآخرين، ويتصرّف من دون دِرايةٍ، هكذا يتّهمُهُ أعداؤُهُ، والله سبحانه وتعالى علّمه أن يُجيبهم عن هذا النّقْد الجارح إجابةً لطيفةً هادئة، قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ)

(سورة التوبة)

أنا أسْتَمِعُ لِقَضاياكم ولمُشكلاتكم، ولا أتّخِذُ قرارًا من دون تحقيق أو بحْثٍ أو تبصّر، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات)

حتى النّقْد الجارح، وحتى النّقْد القاسي، إذا نُقِد به النبي عليه الصلاة والسلام علّمهُ الله سبحانه وتعالى أن يُجيب عليه إجابة هادئةً لطيفةً لا تجْريح فيها، قال تعالى:

(وَيَقُولُون هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ)

(سورة التوبة)

أستمع لكم لأنْفعَكُم، وأسْتَمِعُ لآخُذَ بيَدِكم، ولا أُبادِرُ إلى عمل من دون تدقيق أو بحثٍ أو دراسة أو متابعةٍ.

شيءٌ آخر، الله سبحانه وتعالى وجَّهَ النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة المائدة)

هذا موقف دقيق، فأحيانًا تتمنّى أن تتساهل مع زيْدٍ من الناس، لعلّه يأتي إلى المسجد، ولعلّه يصبحُ من إخوانك لعله يستقيم، إذا تساهلْت معه في الباطل، وإذا أفْتَيْتَ له فتيا لا ترضي الله، وترضيهِ هو، فهذا لا يصحّ في الدّعوة إلى الله عز وجل:

(وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة المائدة)

أي لا تتّبع أهواءهم رجاء أن يؤمنوا، قال تعالى:

(وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت)

من صفات الدَعوة إلى الله أن تردّ على الإساءة بالإحْسان، فأنت فوق مستوى الانتقام، وأنت فوق أن تردّ على السيّئة بسَيّئة مثلها، ولأنّك مثلٌ أعلى للناس، قال تعالى:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت)

من توْجيه الله عزّ وجل للنبي عليه الصلاة والسلام:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة فصلت)

هذا توجيه للنبي وتعليم لنا، فالله سبحانه سميع لاسْتِعاذتك، ولكن كلمة عليم تعني أنّ الاستعاذة باللِّسان لا تكفي، الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم لا تكفي باللسان أبدًا، لا بدّ أن تكون في القلب أيضًا، لابدّ أن تتّجِه النَفس كلّها لِرَبّها ملتجِئَةً إليه حتى تُقْبَلَ استعاذتها، لذا نسمعُ قِصَصًا كثيرة عن أناس يحسّون كوابيس في الليل، أو تعاوُنٍ بين الإنس والجنّ فأقول له:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة فصلت)

فيجيبني: اسْتَعَذْت، ولم يحدث شيء ! وإليك الجواب ؛ لم يحدث شيء لأنّك اسْتَعَذْت بِلِسانك فقط، ولكن يجب أن تتّجه النَّفس بكُلِّيَتها، وبِكُلّ مشاعرها، وبكلّ طاقاتها إلى الله عز وجل مستعيذةً به، حتى يحْمِيَكَ الله من نزْغ الشيطان، قال تعالى:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة فصلت)

إنه سميع عليم لما في قلبك.

تَوْجيهٌ آخر من الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

(سورة الحجر)

ما هو الصَّفْحُ الجميل ؟ هو الصَّفْح الذي لا غضب فيه، ولا تدمّر، ولا كِبْر.

فهذه توجيهات الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام، إنَّها توجيهات وتعليم لنا في الدرجة الأولى، وتوجيه آخر من هذه التوجيهات، وهذه التوجيهات كلّها على شاكلة:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

قال تعالى:

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

يعني لا تَطْمع بما عند الناس، أو لا تتمنّ ما أعطى الله بعض الناس من متاع أهل الدنيا، وهذا شأن من دعا إلى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

سيّدنا عمر دخل على النبي عليه الصلاة والسلام وقد استلقى على الحصير، وقد أثّر الحصير على خدِّه الشريف، فقال سيدنا عمر: **رسول الله ينام على الحصير، وكِسْرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟!**

فقال عليه الصلاة والسلام:

((أوَ في شكٍّ أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجِّلَت لهم طيّباتهم في حياتهم الدنيا، وإنّما هي نبوّة وليس ملكًا !))

قال تعالى:

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

قال تعالى:

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ)

(سورة المدثر)

وهذا توْجيهٌ آخر، أيْ لا تستكثر الناس بعَطائك، ولا تُعَلِّق أمَلاً على أنّ هذا العطاء يجعل الناس يلتفتوا إليك ويُحِبُّوك، أعْطِهم لله دون أن تنتظر منهم ولاءً ولا إقبالاً ولا التِفاتًا، ولا تمْنُن تسْتَكْثر بمَنِّكَ هذا

الناس حولك قال تعالى:

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

وليَكُن صبْرُك لله عز وجل، لا لِجهة أخرى، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلا بِاللَّهِ)

(سورة النحل)

قال تعالى:

(خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ)

(سورة الأعراف)

وهذا توجيه آخر من توجيهات الله عزّ وجل للنبي عليه الصلاة والسلام، وهذا الذي يدْعو إلى الله لا بدّ أن يتّسِمَ بالعَدل، والصّفْح لأنّ الصِّفَة التي تُخالف هذه الصِّفة لا تليق بمَن دعا إلى الله سبحانه وتعالى. توجيهٌ آخر، وما أكثر التّوجيهات، قال تعالى:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

(سورة آل عمران)

النبي عليه الصلاة والسلام شاوَرَ أصحابه قُبَيل معركة بدر، وشاورَهم قُبيل معركة أحد، وشاورهم قبل معركة الخندق، وكان يُشاورُهم مُشاورَةً حقيقيّة، لأنّ الله سبحانه وتعالى أمرهُ أن يُشاورَهم، ومن اسْتَشار الرّجال اسْتعار عُقولهم، وشيءٌ آخر من توجيهات الله عز وجل، كما في قوله تعالى:

(إِنّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقّ)

(سورة الأحزاب)

كان حياؤُه صلى الله عليه وسلّم يغْلب عليه، وكان يسْتحي أن يُواجِهَ أحدا بما يكْره، وكان يستحي أن يُنبهَ أحدًا إلى عملٍ يؤذي النبي، يحْتَمِلُ الأذى، ويخشى أن يُكَلِّمَهُ كلمةً تؤذيه، قال تعالى:

(إِنّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقّ)

(سورة الأحزاب)

الله عز وجل تولّى عنه تنبيه أصحابه ببَعض ما كان يؤذيه فيسْتحي من أصحابه، فهذه الآيات التي وجّه بها النبي عليه الصلاة والسلام أنْ شاورْهم في الأمر، وتحدَث عن حيائِه وعن أمْرِهِ، وعن الإعراض عن الجاهلين، وأمرهُ أن يصبر لله عز وجل، وأن لا يمدنّ عينيه، وأمره أنْ يصْفح الصّفْح الجميل، وأمرهُ أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم لسانًا وقلبًا، وأمرهُ أن يدْفعَ بالتي هي أحْسن، وأمره ألا يحْزنَ عليهم، وأن يترفّعَ عن عطاياهم، وأن يحكم بينهم بما أنزل الله، ولا يتّبع أهواءهم، هذه التوجيهات يجب أن يأخذ بها كلّ إنسان إذا أراد أن يُحدِّث الناس عن الله عز وجل، ويدعو إليه، وعلى كُلِّ ذكرْتُ هذه التوجيهات اسْتدراكًا للتوجيه الذي ورد في هذه الآية:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

(سورة الشعراء)

وفي الدرس القادم إن شاء الله سيكون مركز الثِقل في هذه الآيات بحْث التَّوَكّل، ومتى يكون صحيحًا ؟ ومتى يكون التوكل تواكلاً ؟ ومتى يُذمّ الإنسان على تواكله ؟ ومتى يُمْدح على توكله ؟ بحثٌ دقيقٌ إن شاء الله نجعلهُ موضوع الدرسِ القادمِ، وهو حول الآية الكريمة:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (17-20): تفسير الأية 217
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-11-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة الشُعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

(سورة الشعراء)

حقيقة التوكل:

أيّها الإخوة الأكارم، وعدْتكم في الدرس الماضي أن يكون الموضوع في هذا الدرس حول التَّوَكّل، لِوُرود هذه الآية الكريمة التي فيها أمْرٌ من الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام، والله سبحانه وتعالى أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين، فأيّ أمْرٍ مُوجَّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام هو في الوقت نفسِهِ مُوَجَّه إلى كلّ مؤمن، فأنت أيها المؤمن أمام نصّ قَطْعِيّ الثُّبوت، قَطْعِيّ الدلالة، يأمُرُكَ بالتَّوَكّل، فما هو التوكّل ؟

الله سبحانه وتعالى تحدَّث في القرآن الكريم عن التوكّل في آياتٍ كثيرة، من أبْرز هذه الآيات، قوله تعالى:

(وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة آل عمران)

إن الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين:

هذه آية صريحة، المؤمنون يجب أن يتوكّلوا على الله، إذاً فهمْنا من قول الله عز وجل في سورة الشعراء:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

على أنّها موجّهةٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وأيُّ أمْرٍ يقتضي الوجوب موجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام هو بالتّبَعِيَّة مُوَجّه إلى المؤمنين، ففي هذه الآية نصّ صريح يؤكِّد على كلّ مؤمن أن يتوكّل على الله، والإيمان كما يعرّفُه بعض العلماء: إقْرار باللِّسان، وعمل بالأركان، واعتقاد بالجنان، فهناك جانب داخلي، وجانب كلامي، وجانب سلوكي، ويبْدو أنّ الناس قد يُعَلّقون أهَمِيَّة كبرى على الجانب السُّلوكي، وقد يُغْفِلون على ما يجب أن يكون في نفْس المؤمن من أحوال، من لوازم المؤمن أنّه متوكّل، والتوكّل سعادة، ومن لوازم المؤمن أنّه مسْتَسْلِم، وأنه راضٍ أنه مُفَوّض، فلذلك إن لم نعْرف دقائق هذه المشاعر، وكيف تتم تنميتها ؟ وكيف السبيل إليها، فنحن لا تتوافر فينا صفة الإيمان، الإيمان مجموعة من الحقائق التي يجب أن تعتقد بها، ومجموعة من الأحوال التي يجب أن تشعر بها، ومجموعة من الأقوال التي يجب أن تنطق بها، ومجموعة من الأعمال التي يجب أن تفعلها، فالتّوَكّل حالة نفْسِيَّة تُلازم المؤمن، فما التوكّل ؟ قبل كلّ شيء نحن إما بالتّبَعِيَّة لقول الله عز وجل:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

أو بالأصالة مأمورون بالتّوكّل، قال تعالى:

(وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة آل عمران)

هذه اللام لام الأمر، إذا اقْترنَتْ بالفِعْل المضارع تجعله في المعنى فِعْل أمر فالفِعل أكْتُب فِعْل أمر، والفعل كتَبَ فعل ماضٍ، وهناك مضارع يكْتب، لو جاءَت لام الأمر مع الفعل المضارع يُصبحُ هذا الفعل في المعنى فعلَ أمر، قال تعالى:

(وَلْيُمْلِلْ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ)

(سورة البقرة)

فحيثما اقْترنتْ لام الأمر بالفعل المضارع جعلتْهُ في المعنى فعل أمر، وحيثما اقْترنَتْ لم بالفِعل المضارع جعلتْه في المعنى فعلاً ماضيًا ؛ لم يجْتهد لم ينْجح، وحيثما اقْترنَتْ لن بالفعل المضارع جعلتْهُ للمستقبل، بل إنّ التّوَكّل شرْط لازمٌ غير كافٍ للإيمان، والدليل قول الله عز

(وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة)

فإن لم تتوكّلوا فلسْتُم بمُؤمنين.

الناس مع التوكل قسمان:

إنّ التوكّل يفْرز الناس قِسمَين:

قسْم مؤمنٍ إيمانًا حقيقيًا، وقِسْم آخر إيمانهُ شَكلي لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، فالذي لا يتوكّل على الله ليْسَ مؤمنًا به، ولا يعرفُه أساسًا، من علامة أنّك تعرف الله، وأنّك مؤمن به أن تتوكّل على الله، قال تعالى:

(وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة)

فإن لم تتوكّلوا فلن تكونوا مؤمنين، هناك علاقة ترابطيّة بين الإيمان والتّوكّل، إذا توكّلْت فأنت مؤمن، وإذا آمنْتَ فأنت متوكِّل.

مقاييس التوكل كما جاءت في القرآن والسنة:

النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث يُعطينا مقاييس كقوله صلى الله عليه وسلّم:

((برئ من الشحّ من أدى زكاة ماله))

(الجامع الصغير عن خالد بن زيد بن حارثة بسند فيه ضعف)

هذا مقياس دقيق.

((وبرئ من الكِبْر من حَمَلَ حاجتهُ بيَدِهِ))

(الجامع الصغير عن أبي أمامة بلفظ سنده ضعيف: من حمل سلعته فقد برئ من الكبر)

و:

((من أكثر من ذِكر الله فقد برئ من النِّفاق))

(الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند ضعيف)

وهذا مِقياس، قال تعالى:

(وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة)

إن كنتَ مؤمنًا فلا بد أن تتوكّل على الله، وما أكْثر الهموم، وما أكثر أشْباه المصائب، وما أكثر المُقْلِقات في الحياة الدنيا، والله سبحانه وتعالى هكذا جَعَلَ الدُّنيا ؛ مَشْحونةً بالمُقْلِقات وبالمَخاوف، ومن أجل أن تلْتجئ إليه، فما هذه المشكلات ؟ وما تلك المخاوف ؟ وما هذه الأشباح إلا من أجل أن تنْدفِعَ إلى بابه، وأن تقف على بابه، وأن تُمَرِّغَ جبْهتك في أعْتابه، وهذه حِكمة المصائب، من أجل أن تندفِعَ إلى الله عز وجل إذًا قال تعالى:

(وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة)

إن كنتَ مؤمنًا فتَوَكَّل على الله، وإن كنت متوكِّلاً على الله فأنت مؤمن، هناك علاقة ترابطِيَّةٌ بين الإيمان والتَّوَكّل.

شيءٌ آخر، قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

أي: يَكْفيه، أحيانًا تُوَكِل أخًا لِحَلّ قَضِيَّة، وقد تُفاجأ أنّ هذا الأخ الذي وكَّلْتَهُ بهذه القضِيَّة ليس في المستوى المَطلوب، بل دون المستوى المطلوب، فخَسِرت هذه القضية، وقد تضَعُ ثِقَتَكَ بإنسانٍ فإذا هذا الإنسان ليْسَ في المستوى المطلوب لا إخلاصًا ولا علمًا ولا قُدْرةً، وقد ينقُصُه الإخلاص لك فَيُهْمِلُ هذا التَكليف، وقد يكون مخْلِصًا لك، ولكن ينْقصُه العِلم الغزير، فَيُخْفِقُ مَسْعاه، وقد يكون مخْلِصًا لك، ويتمتَّعُ بعِلْمٍ غزير، ولكنّ قدْرتهُ محدودة على حلّ هذه المشكلة، لكنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

رحمة النبي عليه الصلاة والسلام بالخَلق:

إنّ الله سبحانه وتعالى خَلَقَ العِباد لِيَرْحمهم، فهو الذي يُحِبُّهم، وهو الذي خلقهم لِيُسْعِدَهم، وما رحمة العباد فيما بينهم إلا جزءٌ يسيرٌ يسير من رحمة المولى القدير، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران)

أيْ برَحمةٍ جُزْئِيَّة، وهذا تنكير التَّقليل، وهو أرحمُ بنا من أنفسنا، وأرْحمُ بالابن مِن أُمِّه، قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة: 128)

كلّ هذه الرَحمة التي يمتلئ بها قلبُ النبي عليه الصلاة والسلام جزْءٌ يسير يَسير من رحمة الله عز وجل، والدليل قول الله عز وجل:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف)

هذه الألف واللام تُفيد الاسْتغراق، أيْ الرحمة كلّها عند الله عز وجل، إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو في الطائف، وقد وصَلَها مَشيًا على قَدَمَيْه هو وغلامهُ زَيْد، وقد ردّ أهلها عليه ردًا قبيحًا، وردًا غليظًا وردًا مُجافيًا، وكذّبوهُ وسَخِروا منه، وأغْرَوا به صِبْيانهم، وألجؤوه إلى حائط، وجاءهُ جبريل عليه السلام وقال: يا محمّد، أمرني ربي أن أكون طوْع إرادتك، لو شئْتَ لأطْبقْتُ عليهم الأخْشبَيْن !

يعني الجبلين قال: لا يا أخي اللهمّ اهْدِ قومي فإنّهم لا يعلمون ماذا فعَل النبي عليه الصلاة والسلام ؟ الواحدُ مِن الناس إذا مَسَسْتَهُ بِسُوء يتمنّى أنْ يُمَزِّقَكَ إربًا إربًا، إنْ مسَسْتَ مكانتَهُ، وإن مسسْتَ سُمْعتَهُ، وإن مسسْتَ ماله وحاجاته، فالنبي عليه الصلاة والسلام جاء ليَهْديهم فكان الأذى والصد ردّهم قال: **يا محمّد أمرني ربّ أن أكون طوْع إرادتك، لو شئْتَ لأطْبقْتُ عليهم الأخْشبَيْن !** يعني الجبلين قال:

((لا يا أخي اللهمّ اهْدِ قومي فإنّهم لا يعلمون لعلّ الله يُخْرِج من أصلابهم من يُوَحِّدُه))

هذه رحمة الله، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران)

أما الله سبحانه وتعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف)

الرّحمة كلّها عنده، إذًا كما قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

يُحِبُّنا ورحيمٌ بنا، وعلمهُ لا حدود له، أحيانًا تُعطي آلةً لإنسانٍ تتوهَّم أنّ فيه العِلم الكافي لإصلاحها، فإذا هو يُفْسدها، ويُخَيِّب ظنَّك فأنت توكّلْت عليه فأفْسَدَ لك الآلة، إذًا عِلْمهُ ليس في المستوى المطلوب، عِلْمُ الله عز وجل محيط، وبكلّ شيءٍ عليم، وأحيانًا تضعُ هذه الحاجة عن زَيْد، وزيْدٌ يُحِبّك ومخْلصٌ لك، وزيْدٌ علمهُ غزير، ولكنّ قدْرتَهُ محدودة، يقول لك: هذه ليْسَت في طاقتي، وتحتاج إلى توقيعٍ من فلان، وفلان لا يُوَقّعُها، حاوَلْتُ معه فَرَفَضَ، توسلت له فأبى.

أما ربّنا عز وجل فكل شيء بين أُصبعيه، والقلوب بين أُصبُعَيه كما قال عليه الصلاة والسلام، كُنْ فيَكُون وزل فيَزُول، إذًا محبّتُهُ وعِلْمُهُ وقُدْرتُهُ، قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

لذلك قالوا: إذا أردْتَ أن تكون أقوى الناس فَتَوَكّلْ على الله، لو كنْتَ مُجَنَّدًا في ثكنة، وكان لك رفيق عِرّيف، وهو يستطيع أن يتغاضى عنك إذا غبْتَ، وتنتهي هنا مسؤوليّته، ولكنّ هناك قضايا تحتاج أكثر من عِرّيف، لك ملازم رفيقك، هذا رتبتُهُ أوْسَع ولكن محدودة، فما قولك إذا كان قائِدُ الجيش مِن طرفك؟ أيُّ شيءٍ يعْسُر عليه في تطبيق الأنظمة النافذة ؟ كلّما كان الذي توكّلْت عليه عظيمًا كلّما أوْرَثَكَ أمْنًا واطْمِئْنانًا، كلّما رفعْتَ المسْتوى توسّعت في الراحة، فلِذلك:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

هناك آية أخرى تُفيد المعنى نفسه، قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلا)

(سورة النساء)

يكفيك أنّ الله عز وجل إذا توكّلْت عليه لا يُخَيب ظنَّكَ، لذلك يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((أنا عند ظنِّي عبدي بي فليظن بي ما شاء))

(الترمذي وابن ماجه)

ولا تقل: هذا الشيء صعب، قال تعالى:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء)

الأشياء التي تبْدو لك مستحيلة هي مسْتحيلة بحُكم العادة، ولكنَّها على الله ليْسَت مسْتحيلة، وسَلْ الأطِبَّاء عن الحالات التي تمَّ في الشِّفاء بعد أن كان الشِّفاء ميْؤوسًا منه ؟ يقولون لك: هناك آلاف الحالات شفيت شفاءً ذاتياً، فيا أيّها الأطِبَّاء، ماذا تُسمُّون شفاء هذه الحالات ؟ قالوا: الشِّفاء الذاتي، مرضٌ مَيْؤوسٌ منه، ومع ذلك إذا تدخَّلَتْ قدرة الله عز وجل أصْبح السقيم صحيحًا، والفقير غنِيًّا، والطريد آمِنًا، ولكن إيَّاك أن تتوكّل على الله عز وجل في الباطل ! يا محمّد، هكذا قال بعض من حَوْل النبي، **مثِّلْ بهم يتصدون قتلى المعارك من الكفار، هؤلاء كُفّار قريش الذين أخْرجوك، وعذّبوا أصْحابك، وقاتلُوك، وكادوا لك، وشَتَموك، واتّهَمُوك بالسِّحر والجنون، والشِّعْر، هؤلاء قد قتلْتهم ببَدْر مثِّلْ بهم** فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا أمثِّلُ بهم فيمَثِّل الله بي، ولو كنتُ نبيًّا !!!))

هذه النّقطة أتمنّى أن تقفوا عندها، يعني أن تتوكّل على الله لِتُؤْذيَ الناس ولِتَنال شيئًا ليس لك ؛ هذا شيءٌ مستحيل، إذا كان بعض البشر يُحابون أتباعهم على الباطل، فهذا ليس من صفات الله عز وجل،

((لو أنّ فاطمة بنتُ محمّد سرقتْ لقطعْتُ يدها))

(البخاري عن عائشة)

((يا فاطمة بنت محمّد، يا عبّاس عمّ رسول الله، أنْقِذا نفْسَيْكُما من النار فأنا لا أغني عنكما من الله شيئًا))

(الترمذي)

((من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبُه))

(الترمذي، أبو داود، ابن ماجه)

((لا يأتيني الناس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم))

(ورد في الأثر)

لا محاباة في الدِّين.

((لا فضْلَ لِعَربيّ على أعجميّ إلا بالتّقْوى))

(البيهقي عن جابر)

((الناس كلّهم بنو آدم، وآدم من تراب))

(الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة)

((الخَلْقُ كلّهم عِيال الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لِعِياله))

(البخاري عن عائشة)

الله سبحانه وتعالى لا يُحابي أحدًا.

قال سيدنا عمر رضي الله: **<< يا سعْدُ، لا يغرنّك أنّهُ قد قيل: خال رسول الله >> !** لا يوجد صحابي قال له النبي صلى الله عليه وسلّم:

((فِداك أبي وأمِي))

إلا سيّدنا سعْد، قال له:

((ارْمِ سَعْدُ، فداك أبي وأمّي))

(الترمذي وابن ماجه عن علي)

وكان إذا دَخَلَ سعْدُ، يقول: هذا خالي أروني خالاً مثل خالي، هل بعد هذه المحبّة محبّة ؟ هل بعد هذا الإيثار إيثار ؟ وهل بعد هذا التّكريم تكريم، ومع ذلك سيّدنا عمر الذي عرف الله عز وجل قال: يا سعْدُ، لا يغرنّك أنّهُ قد قيل خال رسول الله ! لا تغترّ، فالخلْق كلّهم عند الله سَوَاسِيَّة، وليس بعينه بينهم قرابة إلا طاعتهم له، وهذه المعاني تبثّ الطمأنينة في النّفس، يقول لك: أنا مَنْسوب !! قال عليه الصلاة والسلام:

((أنا جدّ كلّ تقيّ ولو كان عبْدًا حبشِيًا...))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

و:

((سلْمان مِنّا آل البيت))

(الجامع الصغير عن عمرو بن عوف)

قال تعالى:

(تَبّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبّ (1) مَا أغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5))

(سورة المسد)

فأبو لهب عمّ رسول الله **!! << ويا سعْدُ، لا يغرنّك أنّهُ قد قيل: خال رسول الله ! فالخلْق كلّهم عند الله سَوَاسِيّة، وليس بينهم قرابة إلا طاعتهم له >>.**

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ

إذاً هذا الكلام كلّه تمهيد لهذه الآية:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

إذا كنتَ على الحقّ فتوكّل على الله، وإن كنتَ على خِلاف الحق، فإن توكّلْتَ أو لم تتوكّل فلن يكون الله معك، قال تعالى:

(وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة)

معِيَّة الله مَشْروطة، لا توجد هناك مَعِيَة مطلقة، إن فَعَلْتُم كذا وكذا فلكم كذا وإلا فلا !! قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

فيا أيّها الإخوة الأكارم اِجْتَهَدوا أن تكونوا على الحقّ المبين، في بيعِكَ وشِرائِك، من دون غِشّ أو تدْليس، ومن دون غَدْر ولا استِغلال جهْل الشاري، غبْن المسترسل ربا وحرام ! وفي علاقتك بزَوْجَتِك لا تكن ظالمًا، إذا كنتَ على الحقّ المبين فتوكّل على الله، وفي أيّ حركاتك وفي أيّ نشاط، وفي أيّ تحرّك، كُنْ على الحقّ، ولا تخْشَ في الله لوْمة لائم، قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

و أحيانًا يكون للإنسان صاحب وثيق الصِّلة به، وهذا الصاحب له شأن كبير في المجتمع، هذا الصاحب يُدْخل على قلبهِ الطمأنينة، يقول لك: أنا فلان صاحبي ولا يهمني إذاً أحداً ! فإذا مات هذا الإنسان ؛ ماذا تفعل ؟ ربّنا عز وجل قال:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ)

(سورة الفرقان)

هؤلاء يموتون، قد يموت قبل أن يُعْطيكَ ما وعَدَك به، وقد تُعَلِّقُ على صُحْبَتِهِ آمالاً عريضة، فيموت بحادِث، أين آمالك ؟ ضاعَت مع هذا الحادث ! قد تُعَلِّقُ عليه أحلامًا فتقول: وعدني بهذا المنصِب، ووعدني بهذه الأرض، ووعدني بمُوافقته على سفري، فإذا ماتَ فجأةً أين هذه الوعود ؟ لكن كما قال الشاعر:

اِجْعَل لِربك كلّ عِزّ يستقرّ ويثبت فإذا اعْتَزَزْتَ بمَن يموت فإنَ عِزّك ميّتُ

***

لذلك قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ)

(سورة الفرقان)

الآية الأخيرة في التوكّل:

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران)

معنى ذلك أنَ كلّ عملٍ في الأرض لا ينْجح إلا بِشَرْطَين ؛ أن تأخذ بالأسباب التي رسمها الله عز وجل، وأن تتوكّل على الله عزو جل الذي يحدث أنّ هناك من يأخذ بالأسباب بِكُلّ طاقاته، ولكنّه لا يتوكّل فَيُخْفِق، وهناك من يتوكّل ولا يأخذ بالأسباب فيُخْفِق، إذًا الأخْذ بالأسباب والتّوكّل كلاهما شرط لازمٌ غير كافٍ، خُذْ بالأسباب وتوكّل على الله، لذلك قال تعالى:

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

هذا الطبيب، المحامي، المهندس، المُدرّس، البائع، التاجر، الصانع، قبل أن تقول خطّطْت، وقرّرْت، ودرستُ السوق والأسعار والمواد ؛ قُلْ: اللهمّ لا سَهْل إلا ما جعلتهُ سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئْت سهلاً، واللهمّ إنّي تبرّأتُ من حولي وقوّتي، والتجأتُ إلى حولِك وقوّتك يا ذا القوّة المتين، قبل أن تقول: أنا، أعْلِنْ افتقارك إلى الله عز وجل حتى تسْتحِقّ المعونة ؛ لأنّه من اتّكَلَ على نفْسِهِ أوْكلَهُ الله إيّاها، ومن شُؤْمِ العَبْد أن يعْتدّ بِنَفْسِهِ فيَكِلُهُ الله إليها قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

لأنّهم متوَكِّلُون.

صور عملية لحقيقة التوكُّل والأخذِ بالأسباب:

النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((لو أنّكم توكّلتم على الله حق توكّله لرزقتم كما يرزق الطير، تغدو خماصا، وتروح بطانا))

(الترمذي وابن ماجه عن عمر بن الخطاب)

هناك توكّل هوائي، وتوكّل فارغ، وتوكّل شكلي، وهناك تواكل، وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة...))

(أخرجه الحاكم)

ومعنى راحَ في الحديث السابق عاد إلى بيْتِهِ، على خِلاف استِعمال العامّة لهذه الكلمة، فلو طرقَ الإنسان بابك، وقال ابنك للطارق: راح بابا !! وكنت أنت داخل البيت، فابْنُكَ صادِق، لأنّ راحَ بِمَعنى عاد إلى البيت وغداً ذهب إلى عمله، ولكنّهُ كاذِبٌ شرْعًا لأنَ السائل فَهِمَ أنّه ليس في البيت، فهو صادقٌ لغةً، وكاذِبٌ شرْعًا ! لو أنّكم توكّلتم على الله حق التوكّل...." خِماصًا أي جائعة، بطنها فارغ، وتعود بطانًا أيْ ممْتَلِئَة، فهل يُفْهم من هذا أنّ الطّيْر بَقِيَتْ في أعْشاشِها وجاءها الرِّزْق ؟ قلّما من ينتبه لهذا الحديث، عامّة الناس يظنون أنّه يأتيها رزقها رغَدًا، طيّب هذه الطّيْر تركَت عشّها، وطارَتْ تبْحثُ عن رزْقها، إذاً التّوَكّل يُرافقهُ السّعي، والسيّدة مريَم، أليس الله سبحانه وتعالى قد تكفّلَ برزْقها ؟ ولكن ما قال لها: كُلِي، ولكنه لن يقل لها كما في قوله تعالى:

(وَهُزّي إلَيْكِ بجِذْعِ النّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًا)

(سورة مريم)

يحتاج الأمر إلى حركة وهزّة، فالسيّدة مريم أُمِرَتْ أنْ تهزّ جِذْع النّخْلة وهذه الطّيْر تغْدو خِماصًا، أُخرج من بيتك، واسأل، وابْحَث، ولكن أن تقْبعَ في بيتك، وتتمنَى أن يأتيك رزقك، فهذا سوء أدبٍ مع الله عز وجل، والنبي عليه الصلاة والسلام مِن أدْعِيَتِهِ الشّريفة يقول:

((اللّهمّ إنّي أسْألك التّوفيق مِن محابّك من الأعمال، وحُسْن الظنّ بك، وصدق التوكّل عليك..))

يعني هناك توكّل كاذب، وتوكّل صادق، فإذا قلْتَ توكّلْتُ على الله، وأعمالك كلّها معْقودة على زَيْد أو عُبَيْد، هذا توكّل كاذب، وتوكّلْتُ على الله، وأنت متوكِّل على فلان ؛ هذا توكّل كاذب، النبي عليه الصلاة والسلام يدعو ربه ويقول:

((اللّهمّ إنّي أسْألك التّوفيق مِن محابّك من الأعمال، وحُسْن الظنّ بك وصدق التوكّل عليك))

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن ابن عباس: أنّ الآية

(حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ)

قالها إبراهيم فنجَاه من النار، وقالها محمّد حينما قال له الناس:

(إنّ النّاسَ قدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

كان من الممكن لسيدنا إبراهيم أن ينْجُوَ من القبْض عليه، وكان من الممكن ألا يُفكِّر قومه بإحراقه بالنار، وكان من الممكن أن تسقط أمطار غزيرة تُطفئ النار، مكّنَ الله قوْم إبراهيم من القبْض عليه ومكّنهم مِن جمْع الحطب وإشعال النّيران، ومكّنهم أنْ يضعوه بطريقةٍ تجعله في وسط النار، كلّ هذا من أجل أن تكون هذه القِصّة شيئًا صارخًا جدًا جدًا على مدى الأجيال، فإذا الإنسان أُضرِمَت له النّيران بشَكل مُخيف وأُلْقِيَ فيها فهذا موتُهُ مُحَقّق، لكنّ النار عند أهْل السنّة والجماعة لا تُحْرقُ بذاتها، ولا تُحْرقُ إلا إذا سمَحَ الله لها أن تُحْرق، لذلك علماء التّوحيد يُلخِّصون هذه العقيدة بكَلمتين: عندها لا بها،

فالنار تُحْرق عند مشيئة الله لا بِقُوّة مودَعةٍ فيها، والدّواء لا يشْفي إلا عند مشيئة الله لا بقُوّة مودَعةٍ فيه، وهذه الخلايا لا تنْمو نُمُوًّا عَشْوائيًا إلا بمَشيئة الله لا بقُوَة مودعةٍ فيها، وهذا الدّسام يضيقُ بمَشيئة الله لا بقُوَة مودعةٍ فيه يجب أن تعْتَقِد أنّ كلّ شيءٍ لا يقعُ إلا بمَشيئة الله، يقولون عندها لا بها، لذلك جاءهُ جبريل، وقال له: ألَكَ حاجة ؟ قال: منك ؟ قال: لا، من الله عز وجل، قال: **" علمه بحالي يُغني عن سؤالي ! "** قال: حسبنا الله ونعم التوكل فنجّاهُ الله من النار، وإنسانٌ يُقْذَفُ في الماء فيلْتَقِمُهُ الحوت ! والله هذا شيءٌ مستحيل، قد يركب الإنسان مركبةً، ويكون احتمال في تدهورها بحدود كبيرة، وفي أثناء تدهْوُر هذه المركبة بنحو ذلك الإنسان الذي يركبها، علماً بأن احتمال نجاته كان ضئيلاً، ولو أنّ واحدًا ركِبَ طائرةً، واحْتَرَقَتْ في السماء ومقعده في مكان انْشِطارها مقعدُه فنَزَلَ هذا الراكب من ارْتِفاع ثلاثة أربعين ألف قدم، فالأمل بالنّجاة صِفْر !! لكنه نزل بغابات سويسْرا بالشِّتاء، ولكن سماكة الثلج على أغْصان الصّنوبر خمسة أمتار، فهذه الأغصان مع الأمتار الخمسة امتصّت الصّدْمة فَنَزَلَ واقِعًا على قدَميْه ! أما إذا وقعَ الإنسان في الماء، والتَقَمَهُ الحوت، وكان في ظلمات ثلاث ؛ في ظُلْمة البحر، وظلمة الليل، وظُلمة بطْن الحوت، فكم الأمل ؟! صفْر، ربّنا عز وجل قال:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

(سورة الأنبياء)

قانون: وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ

القصّة انْتَهتْ واتضح مصير يونس، وبدأ التّعليق الذي قلبَها إلى قانون، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

فكُلّما واجَهَك أمرٌ تذكّر سيّدنا يونس وتوكل على الله واستسلم لله مثله، وهو في بطن الحوت في ظُلْمة بطْنِهِ، وفي ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر، ولم يجعلها الله تعالى خاصّة به، وقال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

فكان قانونًا إلهياً لكل مؤمن. وكلّما ألمّ بك أمْر لن يكون أمرك أصْعب من سيدنا إبراهيم الذي ألْقيَ في النار، قال تعالى:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

لولا كلمة سلامًا لمات من البرْد، فالتَّوَكُّل يدفع في النَّفْس الطمأنينة ويبثّ الراحة والرّضا، ويبثّ فيك أنّ الله يُحِبُّك، وأنَّك بعَيْنِهِ، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

(سورة الطور)

وقالها النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه حينما قيل لهم:

(إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ)

أحيانًا يقولون لك: احْذَر ! فإنِّي قرأتُ شيئًا بعَيني ضِدَّك، ولكنك تسلك سبل الحق، فقُل له: حسبنا الله، ونِعم الوكيل، الله عز وجل بيَدِهِ كُلّ شيء، خُصومك بيَدِهِ، وحُسَّادُك بيدِهِ، وأعداؤُك بيَدِهِ، وأنفاسهم بيَدِهِ، وقلوبهم بيَدِهِ، وحركاتهم وسكناتهم بيَدِهِ وإلهاماتهم بيَدِهِ، وقُدراتهم بيَدِهِ، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود)

أنت علاقتك ليس مع الدَّواب المربوطة، ولكن بمَن هو ماسكها بيَدِهِ! فإذا قرَّبها من أحد أخافه بها، كالكلب العقور المخيف، قال تعالى:

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

علاقتك مع من بيَدِهِ زِمام هذه الوُحوش، ربّنا عز وجل قال:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق)

هناك أشخاص يُحِبُّون إيقاع الأذى، وهناك وُحوش فِعْلِيَّة في الصَّحراء، وهناك حشرات مُخيفة، وهناك ثعبان وأفعى وعقرب، وهناك إنسان كالعقرب يُحبّ أن يوقِعَ فيك الأذى:

أطِعْ أمْرَنا نرْفَعْ لأجلِكَ حُجْبنا فإنَ منَحْنا بالرّضا من أحبّنا

ولُذّ بحِمانا واحْتَمِ بجَنابنــا لِنَحْميك مِمّا فيه أشرار خلقنا

* * *

فهؤلاء الأشرار لهم دَوْر كبير جدًّا، وهو أنَّهم يُقَرِّبوك من الله عز وجل، وكلّما خوَفُوك تُقَرِّب من الله عز وجل أكثر، فهم لهم دَوْر إيجابي في مسارك لأن الإنسان المؤمن إذا خاف التَجَأ إلى الله عز وجل. النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهمّ لك أسْلمْتَ وبك آمنت، وعليك توكَلت وإليك أنبْتُ، وبك خاصَمْتُ...))

(أبو داود عن ابن عباس)

ولخّص هذا كلّه بدُعاءٍ فقال عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ بكَ وإليك))

(أبو داود عن علي)

أي أنا بك، عِلمي بك وقُدْرتي بك وحِلْمي بك، ورزقي بك، وأنت الهدف الأكبر

والنبي عليه الصلاة والسلام علّمنا هذا الدُّعاء ؛ قال:

((من خرج من بيته فقال: بسم الله، توكّلت على الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، يُقال له: هُديتَ ووُقيتَ وكُفيتَ))

(الترغيب والترهيب عن أبي هريرة)

الإنسان يخرج من البيت صباحًا، يا ترى يرجع من دون مشكلة ؟ قد تأتي مشكلة كبيرة بالنّهار، يذهب ماله كلّه، وقد يتعرض لحادث ما فيفقد بعض الأعضاء، وهناك مشكلاتٌ لا تعَدّ ولا تُحْصى، فإذا خرج الإنسان من بيته وقال: توكّلت على الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله يُقال له: هُديتَ، ووُقيتَ، وكُفيتَ، حتى إنّ بعض العلماء قال: إنّ التوكّل هو نصف الدِّين ! من أين لك بهذا ؟ قال لأنّ الله عزّ وجل يقول:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

القرآن كلّه جُمِعَ في الفاتحة، والفاتحة كلّها جُمِعَتْ في هذه الآية، إياك نعبد وإياك نستعين، فأحدهما الطاعة، والثانية التَّوَكُّل، ونصف الدِّين هو التَّوَكّل.

التوكّل عامّ:

بل إنَ بعض العلماء يقول: التوكل عامّ، فما مِن إنسان إلا ويتوكّل، ولكن هناك إنسان يتوكّل على الله لِيَستقيم على أمْرِهِ، ويتوكّل عليه لِيصلْح حاله مع ربّه، ومنهم من يتوكّل على الله من أجل الرِّزْق ؛ يا فتّاح، يا عليم، يا رزّاق، يا كريم، والتاجر يتوكّل على الله، فلعلّ الله سبحانه وتعالى يَجْبُر عنه هذه البضاعة، والمُزارع يتوكّل على الله فلعلّ الله عز وجل يُنْبتُ له الزّرْع والزّيْتون فيجني هذه الثمار فيعيش طوال العام، والصانع يدعو لعلّ الله عزّ وجل يُوفِّقُهُ إلى هذه الصِّناعة، والمعمل يحتاج إلى مواد أوّليّة، وله إنتاج، وعمّال، وأُجور، ويحكي لك همومًا لا تنتهي، فكلّ إنسان له عند الله تعالى هُموم.

وهناك من يتوكّل على الله في أمْر آخرته، يا ربّ اِهْدِني، واهْدِ بي يا ربّ أصْلِح حالي معك، ويا ربّ ألْهمني السداد والرّشاد، وألزمني سبيل الاستقامة، هناك من يتوكّل على الله لِصَلاح أمْر آخرتِهِ، قال: هذا أعلى أنواع التّوكّل وأسماها وأقْدَسها، وهناك من يتوكّل على الله من أجل دُنياه، اللهمّ أصْلِح لنا ديننا الذي هو عِصْمة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، فهذا يحتاج إلى زوجة

صالحة يأمرها فَتُطيعُه، وينظر إليها فتَسُرُّه، ويغيبُ عنها فتَحْفظهُ، وهذا يحتاج إلى بيت مُشْمس، مساحته مئة وعشرون متراً، ولكن هناك من يتوكّل على الله في المعاصي، أحيانًا يتلبّس بمَعْصِيَة فإذا كُشِف فالوَيْل له والثُّبور، ويقول: يا ربّ !! فالتَوكّل عام، ولكن هنيئًا لمن كان توكّله في ما يُرْضيه، في الدّرجة الأولى لِمَن كان توكّله لأمر الآخرة، وفي الدرجة الثانية لمَن كان توكّله في الدنيا في المباحات المَشروعة، وأحدهم قال لشيخه ـ فاسمع للحوار بينهما ـ أريد أن أعْصِيَ الله، فقال له شيخه: خمسُ أشياء إن فعلْتها لا تضرّك معْصِيَة، فقال له: ما هي ؟ قال: إذا أردْتَ أن تعصي الله عز وجل فلا تسْكُن أرضَهُ، فقال: وأين أسْكُن إذًا ؟! فقال له: أتسْكُن أرْضَهُ وتعْصيهِ ! وتشرب الماء الذي هو من خلْق الله عز وجل، فقال: هاتِ الثانِيَة ؟ قال له: إذا أردْت أن تعْصيه فلا تأكل رزْقهُ ! فقال: ماذا آكلُ إذًا ؟! قال: أتسْكن أرضهُ وتأكل رزقه وتعْصيه ؟!! فقال: هات الثالثة ؟ فقال: إذا أردْت أن تعْصيهِ فاعْصِهِ في مكانٍ لا يراك فيه ! فقال: إن الله بأيّ مكانٍ هو معنا، فقال: أتسْكن أرضهُ وتأكل رزقه وتعْصيه وهو يراك ؟! لذلك سيّدنا بلال يقول: لا تنظر إلى صِغَر الذّنْب ولكن اُنْظر على مَن اجْتَرَأتَ !

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه هذا لعمري في المقال بديعُ

لـو كان حُبُّك صادقًا لأطعْتهُ إنّ المُحِبّ لِمَن يُحِبّ يُطيعُ

* * *

أقوال العلماء في التوكل:

والأئمّة الكِبار لهم أقوال في التَوَكّل، لا مانِعَ من أن نسْمعها، فالإمام أحمد بن حنبل يقول: **" التّوكّل عمل القلب، وليس من عمل اللّسان، وليس من عمل الجوارح "**، يا ربّ توكّلتُ عليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك التوكّل بالقلب، فاللِّسان لا يُقدِم ولا يؤخِّر، قد تنطق بِلِسانك بِصِيَغ التّوكّل، وأنت غير متوكِّل على الله، القلب في أعماقهِ يجب أن يكون مطمئنًا إلى الله عز وجل راضِيًا بِحُكمه، وليس التّوكّل كما يقول الإمام أحمد من عمل اللّسان وليس من عمل الجوارح، فالأعضاء يجب أن تسْعى بالأسباب، أما التوكّل محلّه القلب، ولكن من تخلّف المؤمنين صار التّوكّل في الجوارح، والشِّرْك في القلب، ترَكُوا الأخْذ بالأسباب، ثمّ يقولون: توكّلْنا ! لا فأنت ما توكّلْت، فالتَوَكّل محلّه القلب أما الجوارح يجب أن تأخذ بالأسباب.

بعضهم قال: التَوَكّل عِلم القلب بِكِفاية الربّ للعبد، قال تعالى:

(أَلَيْسَ اللّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

(سورة الزمر)

هو الذي يكْفيك، وبعضهم قال: التَّوَكّل سُكون القلب فالاضْطراب والقلق والخَوف يشعران بعدم التوكل، فلان يوافق أو لا يُوافق، ماذا سأفعل لا ينام الليل !! ليس هذا هو المتوكِّل، فالمتوكِّل ساكن القلب، وعليه ترْك الاختيار والاسْتِرسال في مجاري الأقدار، نعم أنت مُخَيَر، ولكنّ المتوكِّل يُسَلِم اخْتِيارهُ إلى الله، أنا مختار، واخْتَرْتُ يا ربّ أن تختار لي أنت ما تريد في شؤون الزّواج، وفي شؤون العمل اللهمّ خر لي واختر لي.

من تعريفات التوكل:

التَوَكُّل في تعريفاته الدّقيقة **" الرّضا بالمقدور "**، فهذا الذي لم يرْضَ بِفِعْل الله عز وجل ليس مُتَوَكِّلاً، فهناك توكّل كاذِب.

قال بعض العلماء: تتوكَلُ على الله وأنت تكبُ عليه ! قال: وكيف ؟ قال: من توكّل على الله رَضِيَ بما يفْعلُ الله، مِن علامات التَّوَكُّل أن ترْضى عن الله، قال أحد الأشخاص، وهو في طوافه حول الكعبة: يا ربّ، هل أنت راضٍ عنِّي، فكان وراءهُ الإمام الشافعي، فقال له الإمام الشافعي: **وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرْضى عنك** ؟ قال: سبحان الله، ومن أنت يرحمك الله ؟ قال: **أنا محمّد بن إدريس !** قال: كيف أرْضى عنه وأنا أتمنَى رِضاه ؟ فقال له: **يا هذا، إذا كان سرورك بالنِّقْمة كَسُرورِكَ بالنِّعْمة فقد رضيت عن الله تعالى، وإذا رضيتَ عن الله رَضِيَ الله عنك فهل ترى أنّ يد الله حكيمة عليمة عادلة، وهذا الأمر مِن فِعْل الله، واصْبر لِحُكم ربّك.**

متى يكون الرّجل متوكِّلاً ؟ قيل: إذا رضي بالله وكيلاً، مِن معاني التَّوَكُّل الثِّقة بالله، كأنّك تُبْرِزُ عَجزك أمام الله عز وجل، والله عز وجل إذا توكَّلْتَ عليه فهُوَ حسْبُك، والطُّمأنينة إليه، والسُكون إليه.

ذو النُّون المِصري يقول: التَّوكّل ترْك التَّدبير، والانْخِلاع من الحَول والقوّة، أيْ تَرْك التَّدبير النَفسي، أنت تسْعى، أما أن تعتمد على حَوْلِكَ وقوّتك فأنت لسْتَ متوكِلاً، وبعضهم قال: التَّوكّل هو التَّعلق بالله في كلّ حال، في الرّضا وفي الغضب، وفي البحبوحة وفي الضّيِق، وفي الصِّحة، وفي المرض، وفي الخوف، والطمأنينة، وفي إقبال الدنيا وفي إدبارها، وفي العلوّ والانخِفاض، وفي كلّ شيء، وبعضهم قال: التَّوكّل نفيُ الشّكوك والتَّفويض إلى ملك الملوك، ومن توكّل على الله ولو كاد له من في السماوات والأرض فإن الله سبحانه وتعالى يُنَجّيه، ويجعل له من بين ذلك مَخْرجًا، أما من توكَل على زيد أو عُبَيد جعل الله الأرض هَوِيًا تحت قدَمَيْه، وقطّع أسباب السماء بين يديه.

إن شاء الله في الدرس القادم نُتابِعُ موضوع التَّوكّل، ونصل إلى موضوع العزيز الرحيم، ماذا يعني اسم العزيز ؟ لِقَول الله عز وجل:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

الحديث القدسي الذي كررتُهُ قبل قليل:

((ما من مخلوقٍ يعْتصِمُ بي من دون خلقي أعرفُ ذلك مِن نِيّتِه، فتكيدُهُ أهل السماوات والأرض إلا جعلْتُ له من بين ذلك مخرجًا، وما من مخلوقٍ يعْتصِمُ بمَخلوقٍ دوني أعرفُ ذلك من نيّتِهِ إلا جعلتُ الأرض هَويًا تحت قدَمَيْه، وقطّع أسباب السماء بين يديه))

ملخّص الدرس:

ملخّص الدرس ؛ إذا أردْتَ أن تكون أقوى الناس فتوكّلْ على الله، وإذا أردْت أن تكون أغنى الناس فَكُن بما في يدي الله أوْثَقُ منك بما في يديك، وإذا أردْت أن تكون أكرم الناس فاتّق الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (18-20): تفسير الأية 217
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-11-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن عشر من سورة الشُعراء، في الدرس الماضي وقفنا عند قوله تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

تذكير بما سبق:

وبيَنْتُ لكم بِفَضل الله تعالى بعض المعاني التي تنضَوي تحت مفهوم التَّوكّل، وكيف أنَّ الله سبحانه وتعالى أمر عباده المؤمنين بالتّوكّل، وأنَّ من لوازم الإيمان التَّوكّل، فمن توكّل فَتَوَكُّلهُ علامةٌ قاطعة على أنَّه مؤمن، وأيُّ مؤمن يجب أن يتوكّل على الله، إن توكّلت فأنت مؤمن، وإن آمنْتَ فيجب أن تتوكّل، ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من الدَّرس والبحث.

التوكل حالٌ قلبيٌ لا عبارات مردّدة:

الحقيقة أن التَّوَكّل حالٌ قلبي ؛ أن تقول شيئًا بِلِسانِك هذا لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، وحينما أصبحَ الإسلام عِباراتٍ تُردَدُ في الأفواه، رأيْتُم كيف أن حال المسلمين ظلَّ على ما هو عليه من التردي والتخلف ! ربّنا سبحانه وتعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور)

هذه وُعودٌ قَطْعِيَّة مِن قِبَل الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ)

(سورة التوبة)

قال تعالى:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

إلا أنّ الأمر هو أن الفريق الآخر وهُم المؤمنون أخَلُّوا بما عليهم، فكان الله سبحانه وتعالى في حِلٍّ من وُعوده الثّلاثة، إذًا حينما أصبَحَ الإسلام كلامًا، وألفاظًا، وحركاتٍ، وسكناتٍ، وفُرّغ من مضمونه العلمي والأخلاقي عندئذٍ أصْبحت كلمة المسلمين ليْسَت هي العليا، ولو أنّنا كُنّا مع الله لكان الله معنا.

معية الله نوعان عامة وخاصة:

ثمة شَيْءٌ دقيق جدًا هو أنَ مَعِيَّة الله عز وجل كما تعلمون مَعِيَتان ؛ مَعِيَّة عامَّة، ومَعِيَّة خاصّة، ربّنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الحديد)

هذه مَعِيَّة عامَّة ؛ يعني هو مع كُل مَخلوق، ومع كلّ كائِن، ومع كلّ حيوانٍ ومع كل نبات، ومع كلّ إنسان، ومع كلّ كوكبٍ ومع كل ذرّة قال تعالى:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام)

آيةٌ بِنَصّ القرآن الكريم، ولكنّ المَطلوب ليْسَتْ المعِيَّة العامّة هذه، ولكنّ المطلوب تِلْك المَعِيَّة الخاصَّة، قال تعالى:

(وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

(سورة المائدة)

العلماء قالوا: مَعِيَّة الله الخاصَّة حِفْظُهُ وتأييدُه ونَصرُهُ، إلا أنّ مَعِيّة الله الخاصَّة لها ثمن، ثمنها أن تستقيم على أمره، وأن تستجيب له، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال)

إذًا الشيء الذي أُحِبّ أن أقوله قبل متابعة الحديث عن التّوكّل أنّ الإيمان ليس شَكْلاً، وليس كلامًا، وليس حركاتٍ وليس مظاهر، إنّما هو شيءٌ آخر، قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس الإيمان بالتّمَني ولا بالتّحلّي...))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

ما من مخلوق على وجْه الأرض إلا ويتمنّى أن يكون مؤمنًا، ويتمنّى أن يكون صدِيقًا، ولكن ليس الإيمان بالتّمَني ولا بالتّحلّي ؛ لا أن ترتدي ثِيابًا إسلامِيّة، ولا أن ترتاد المساجد، وأنت مُعطّر مهفْهَف، ثمّ تعود إلى بيْتِك، وتتحدث نقداً للخطيب والخطبة، وأنت في واد والإسلام في واد، ليس الإيمان بالتّمَني

ولا بالتَّحلّي، ولكن ما وقر في القلب، وأقرّ به اللِّسان، وصدّقهُ العمل، معنى ذلك أن الإنسان إذا خلا قلبهُ من التَّوَكُّل فهو يعتمِدُ على زيْد أو عُبَيد، ويعتمد على ماله، أو صِحّته، أو على فلان، أو عِلاّن، أو على هذه الجِهة القويَّة، أو على هذه المكانة، أقول: إذا خلا قلبهُ من التَّوكّل، ومن الرّضا ومن الصَّبْر، ومن التَّسْليم، ومن التَّفْويض، فماذا بَقِيَ من إيمانه ؟! بَقِيَ هَيْكلٌ بلا مَضْمون، لذلك حينما نتحدَّث بالتَّفْصيل عن معاني التَّوَكُّل فهذا مِن صُلْب الإيمان، والحديث عن التَّوَكُّل له وظيفتان ؛ أوّلاً أن تعرفَ من هو المتوكَل عليه وما صفاته ؟ وثانيًا لِيَكون هذا البحث مِقياسًا لك وهدفًا لك، مِقياسًا تقيس به نفْسَكَ، وهدفًا تجْعلُهُ نُصْبَ عَيْنَيك، وهذا ما نقْصِدُ بالتَّوَكُّل، ربّنا عز وجل يقول:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

عقْربَ التَّوَكّل يُتابعُ عقْربَ التَّوحيد:

الآن هناك نقطة دقيقة، إذا صحَ أن نُشَبّه أنَ للتّوحيد عدّاداً له عقْرب، وإلى جانبه عدّاد آخر للتَّوَكّل وله عقرب، يجب أن تعلمَ عِلْم يقين أنَّ عقْربَ التَّوَكّل يُتابعُ عقْربَ التَّوحيد، وإذا ارْتَفَعَت إبْرةُ التَّوحيد ترتفِعُ معها إبْرةُ التَّوَكُّل، وكلّما علا توحيدك علا توكُّلك، وإذا انْخفض التَّوحيد انْخفضَ التَّوَكُّل ! لأنَّ هذه فِطرتُك، لأنَك لن تتوكَل على ضعيف، لن تتوكَل إلا على قويّ، ولن تتوكَّل على جِهةٍ لسْتَ متأكِدًا أنَ الأمر بيَدِها، متى تتوكَّل على إنسان ؟ إذا أيْقَنتَ أنَّهُ قويّ وأنَّ الأمر بيَدِهِ، عندئذٍ تطرُقُ بابه وتتوسَلُ إليه، وتُلْقي عليه بِكُلّ ثِقَلِك أما إذا كنتَ مُتَرَدِّدًا أو مرتابًا في قدرته على حلّ هذه المشكلة، أو مرتابًا في ولائِهِ لك، أو في عِلْمِهِ، أو في صلاحِيَّتِهِ، فأنت لن تتوكَّل عليه، لأنّه من السَّذاجة أن تظنّ أنَّك إذا قلتَ: يا ربّ توكَلْتُ عليك، فهل توكَلْت ؟! لا. والله، أنت ما فعلْتَ شيئًا، لأنَ التَّوَكّل ليس كلامًا تقولهُ بلِسانِك إنَّهُ حالٌ قلبي، إذا قلتَ توكَّلتُ عليك، فقد تكون في الحقيقة معْتَمِدًا على زيد، أو عُبَيد، أو فلان، أو عِلاّن، وأنَك واضِعٌ كلّ ثقتك فيهما، إذاً أنت لسْتَ متوكِّلاً البتَّة، ولو أعْلَنْتَ بلِسانك أنَّك توكّلت على الله ألف مرَّةٍ ومرَّة ! الكلام اللَّفظي لا قيمة له إطلاقًا، ولا يُقدِم، ولا يؤخِر، وإذا بَقِيَ الإسلام ألفاظًا تُرَدَّد، وأعمالاً تُقام، ومظاهر تُبْتغى فاقرأ على الأمّة السَّلام فالإسلام مضمون فِكري، ومضمون عقدي ومضمون أخلاقي، فإذا كان كذلك فهذا هو الإسلام.

من شروط التوكل معرفة الله:

اليوم نتحدَث عن التَوَكّل، الشيء الأوّل ؛ لن تتوكّلَ على الله إلا إذا عرفْتهُ، أحيانًا يُصاب الإنسان بمَرض عُضال يظنّ أو يعتقد أنّ الله سبحانه وتعالى لا يستطيعُ أن يشْفيَهُ من هذا المرض، ثلاثون طبيبًا قالوا: ليس لِهذا المرض دواء، وبلغ الدرجة الخامسة، ولا يمكن أن تُحلّ هذه المشكلة، إذا كنتَ معْتقِدًا أنّ الله لا يستطيع أن يشْفِيَكَ من هذا المرض العُضال الذي أجْمعَ الأطِبَاء على أنّه لا شِفاء له، فكيف تتوكّل عليه ؟ هنا المشكلة ! أنك لن تتوكّل على الله إلا إذا عرفْتهُ، يجب أن تعرفهُ خالقًا يجب أن تعرفهُ مُربِّيًا، يجب أن تعرفهُ مُسيّرًا، يجب أن تعرفهُ قدرتهُ كُنْ فيكون، وزلْ فيَزُول، لا توجد كلمة ثانية، آلاف الحالات من الأمراض التي أجمع الأطِبّاء على استحالة برء صاحبها، ومع ذلك شُفيَتْ شِفاءً تامًّا فصَعِقَ الأطِبَاء، وقالوا هذه حالة جديدة لا نعرفها: سمّوْها الشِّفاء الذاتي ؛ إنَه شفاء الله عز وجل، هناك حالات صِحِّيّة مُسْتعصِيَة، كيف تتوكّل عليه، وأنت لا تعلمُ أنّهُ بِقُدْرته أن يشْفيك، إنّ الحديث عن التَوَكّل هو حديث لا جَدْوى منه ما دامَتْ معرفة الإنسان قاصرة، ما دامَتْ معرفة الإنسان بالله محدودة، وما دامَتْ معرفتُهُ بالله لم تبْلُغ حدّ التَوحيد، فالتَوَكّل تشوبهُ شوائبُ كثيرة، والعلماء قالوا: لا بدّ من التَوَكّل على الله حقّ التَوَكل من أن تعرفهُ، وهنا السُؤال الدقيق: هاتوا لي طالبًا نالَ شهادةً عليا من دون أن يبْذِلَ من أجلها لا وقتهُ ولا جهده ولا ماله ! هذا من سابع المسْتحيلات، إذاً يجب أن تعرف الله، والسؤال الخطير؛ متى يجب أن تعرفه ؟ ووقتُكَ كُله من أجل الدنيا، تقول لأحدهم: احضَر هذا الدَرْس فيقول لك: ليس عندي وقت ! عندي سهرة، أو على محاسبة أو موازنة !! إذا امْتصّ عملكَ وقتك كلّه فأنت أكبر خاسِر نضْربُ على هذا مثلاً، لو أنَ طالبًا ذهب إلى بلدٍ أجنبي لِيَدْرس، وقد أرسل هذا الطالب بحيث لو نال هذه الشهادة فلهُ في بلدهِ أعلى منصب، وميزة، فذهبَ للدِّراسة، وهو مضْطرّ لِيَعمل ويدْرس، فإذا كان يكفيه ألف فرنك فرضًا، وهناك عمل بساعَتين، وأجرة هذا العمل ألف فرنك، ووجدَ عملاً ثلاث ساعات بألف وخمسمئة فطَمِعَ في المبلغ، ووجد عملاً آخر لمدة أربع ساعات بألفين ! إلى أن بلغ العشرة آلاف فرضًا في اليوم، فإذا امْتصّ عملهُ كلّ وقْته، وضيَعَ دِراستَهُ، ونَسِيَ مهمّتهُ، ونسِيَ البعثة والدِّراسة ونسي آماله العريضة فهل هذا العمل الذي درّ عليه مبلغًا كبيرًا في مصلحته ؟ لا لم يكن في مصلحته ! أنا أقول لكم: أيّ عملٍ مهما علا شأنهُ، ومهما كثُرَ دخْلُهُ، ومهما رفعَ صاحِبَهُ إذا امْتصّ وقْتَكَ كلّهُ فأنت أكبر خاسِر، إنّك مخلوقٌ في هذه الدُنيا من أجل أن تعرف الله سبحانه وتعالى، لأنّك إذا عرفْتهُ صحّ عملك، وإذا عرفْتهُ عبدْتَهُ، وإذا عبدْتهُ سَعِدْتَ بِقُرْبِهِ في الدنيا والآخرة، لا يصحّ العمل إلا بالمعرفة، وهذه نقطة مهمّة جدًا، العمل أساس التَصوّر، وأيّ عمل صالح أو طالح، حقير أو خطير، مُجدٍ أو غير مجدٍ، سيّئ أو جيّد، العمل أساسه التَصَوّر هذا الذي يسرق لماذا يسرق؟ لأنّهُ يتصوّر أنّ السرقة عملٌ

يعود عليه بالنّفع، دَخْلٌ كبير، وجُهْد قليل، وهذا الذي يكذب لماذا يكذب ؟ وهذا الذي يزني لماذا يزْني ؟ وهذا الذي يأكل الرّبا لِمَ يأكل الربا ؟ ما من إنسان يعمل عملاً إلا وقبل هذا العمل تَصَوّر لهذا العمل انطلق منه.

صحةُ العمل مِن صحة التصور:

إذًا إذا صحَّ تصوّرك صحَّ عملك، وإذا فسد تصوّرك فسدَ عملك، إذا اعْتَقَد إنسانٌ أنّ هذا الضوء الأحمر في ساعة السيارة إذاً تألّق فمعنى ذلك أنّه يُسَلِّيك في الطريق ! وهو ضوء الزَيت، هذا التّصَوُر يجعل هذه السيارة تقف وتدفعُ من أجل إصلاحها عشرات الألوف، أما إذا تصوَّرْتَ أنّ هذا الضَّوْء إذا تألّق معنى ذلك أنَ الزَّيْت قد انتهى، وإذا خطر لك أنّ الزَّيْت ولو يكفي لِمِتر واحدٍ ففي سيرك خطر كبير ولابدّ أن تقف فجأةً، أنا أقول لكم هذا الكلام من أجل أن نعتقِدَ جميعاً أنّ صِحّة المعرفة أساسها صحّة التّصوُّر، وصِحّة التّصوّر أساسها معرفة منهج الله عز وجل، لأنّ الجِهة الوحيدة في الكون التي يمكن أن تعْطِيَك الحقيقة الصافِيَة، قال تعالى:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

ليس في الكون إلا الله القادر على أن ينبئك بالحقيقة الصحيحة القَطْعِيَة في ثبوتِها ودلالتها، إذًا المشكلة يجب أن تعرف الله حتى تسْتقيم على أمره، وحتى تتقرّب إليه، وحتى ترْجو ما عنده، وحتى تخاف عذابهُ، يجب أن تعرف الله من أجل أن تتوكّل عليه، وتُفَوِّض له الأمر، وتستسْلِمَ له، ومن أجل أن تُحِبَّهُ ومن أجل أن ترضى بقضائِه وقدرِه، ومن أجل أن ترضى عن أفعاله، إذاً حجرُ الزاوية وركن الأركان، وأساس البنيان أن تعرف الواحد الدّيان وهذا يحتاج إلى وقت، وإلى جُهد وإلى مال، قد تضْطرّ إلى أن تركبَ سيارة لِتَحضر هذا الدرس، وقد تضطرّ أن تنفق من مالك في سبيل الله وقد تضطرّ أن تشتري كتاباً، وقد تضطرّ أن تعمل صالحًا بمالك، فإذا ظَنَنْتَ أنّكَ تعرف الله وأنت في راحتك التامّة وأنت في عملك، وأنت تعمل لِمَصلحتك، ولأجل بيْتِك، إذا أردْتَ ذلك فهذا من رابع المستحيلات، تلك أوَل نقطة في هذا الدّرس؛ لن تستطيع أن تتوكّل على الله إلا إذا عرفْتهُ أما إذا عرفْتهُ، وتوكّلْت عليه فأنت أقوى الناس، وأغناهم، وأكرمهم، وتشعر بمَشاعر لو اطّلَعَ عليها المُلوك، والله الذي لا إله إلا هو لقاتلوك عليها بالسّيف، ويُلقي الله في قلبك من الأمْن، والطُمأنينة والرضا، والشُعور بالراحة، والشُعور بالفوز، والفلاح، والنّجاح ما لو وُزّعَ على أهل بلْدةٍ لكفاهم، قال تعالى:

(أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

لكن بشرْط أن تعرف من هو الله ؟ وأن فلاحك في هذا الأمر عائدٌ له ؟ وبيَدِهِ الأمر كله ؟ إذا رأيْتَ أنّ الأمر كلّه إليه، ليس لك من الأمر شيء، قال الله عزوجل:

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

(سورة آل عمران)

هذا الذي أتمنّى عليكم أن يكون واضحًا في أذْهانكم ؛ التَّوَكّل على الله إذا شبَّهْناه بعَدّاد له إبرة، وإلى جانِبِهِ عدّاد آخر هو عداد التوحيد له إبره أيضاً، فعدّاد التّوحيد، وعدّاد التّوَكّل إنّ إبرتاهما تتحرّكان معًا، فكلّما ارْتَفَعَ مُسْتوى توحيدِك ارْتَفَعَ مستوى توكّلك، ولن تتوكّل إلا على الله الواحد الأحد ؛ في أمر الصِّحة، وفي أمر العمل، وفي أمر الزّواج، وفي أمر الخصومات، وفي أمر الأعداء والأصدقاء، وفي أمر كسْب المال وفي أمر إنفاقه، في أيّ شيءٍ، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، والتوحيد هو مُلَخّص الأديان كلّها، قال الله عزّ وجل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

كيف لنا بمعرفة الله عز وجل ؟ الصَنْعة تدلّ على الصانع، والخلْقُ يدلّ على الخالق والأقدام تدلّ على المسير، والماء يدلّ على الغدير، والبعْرة تدلّ على البعير، أفسَماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فِجاج ألا تدلاّن على العليم الخبير ؟!

مِن إعجاز الله في خلق الإنسان:

1 - حاسة الشمّ:

تحدّثْتُ اليوم في خطبة الجمعة عن الشمّ، فمن مِنّا يصدّق أنّ في كلّ شقٍّ من شِقَي الأنف مئة مليون خليّة شَمِيَة، مئتا مليون خلية شمْيّة في الأنف، ويخرج من هذه الخلايا الشميّة عدد كبير جدًا من الخيوط العصبية خمسون مليون خيط عصبي، بخَمسين مليون خيط عصبي، ثمّ تقلّ هذه إلى خمسين ألف، فالعصب الشمّي ضمنه مئة ألف عصب، والشيء الذي يَلفِتُ النّظر أنَ الشمّ شخصي، بينما السّمع والبصر موضوعي، فإذا وضعنا لوحة كُتِبَتْ عليها آية، لو رآها الناس جميعًا لقرؤوا الآية نفسها، ولو حدثَ صوْتٌ لسَمِعَهُ الناس بشَكل واحِد، ولكن لكلّ إنسانٍ بُنْيةٌ خاصّة في شمّهِ، هذا يُحِبّ هذه الرائحة، وهذا لا يُحِبّها، وهذا يحبّ هذه الأكلة لِنَكْهتها، وهذا لا يحبّها بهذه النَكهة، فالشمّ شيءٌ عجيب.

2 - الكريات الحمراء:

وقبل أسابيع حدّثتكم عن الكريات الحمراء، الكُرَيَّة الحمراء سبعة ميكرونات، أي سبعة أجزاء من الألف من الميليمتر، عددها خمسة وثلاثون مليون مليون، وفي كلّ ميليمتر مكعّب خمسة ملايين، وتعيش الكُريَة مئةً وعشرين يوماً، وتقطع مئة وستّين ألف رحلة، وتمرّ بأوْعِيَة تتناهى في الدِّقة والضّيق إلى حجْم الكريّة الحمراء، فهناك أوْعِيَة دموية لا تسمح إلا بمُرور كُرَيَّة كُرَيَّة، وسعة هذا الوعاء سبْعة ميكرون، وهناك أوعيَةٌ أضْيَق من سبعة ميكرون، هذه الكريّة تنضغِط، وتتطاوَل وتمشي في هذا الوريد، صُنْعُ مَن ؟ ويدُ مَنْ صنَعَتْ ؟ فالحديث عن الشمّ وعن السّمع لا ينتهي.

3 – حاسة الأذن:

وكذلك الأذن الوُسطى فيها جهاز بالغ التّعقيد يُضَعِّف الصّوت القويّ، ويُكَبِّر الصوت الضعيف، وأنت لا تدري، قد يأتي الصّوت ضعيفًا فهذا الجِهاز يُكَبّر الصّوت، وقد يأتي فَيُضَعِّفُهُ.

4 – حاسة العين:

وكذا الحديث عن العين لا ينتهي عَمَلِيَّة المطابقة في العين تُبيّنُ لِكُلّ ذي لبّ عظمة الله عز وجل.

5 – الكبد والمعدة والقلب:

أما الكبد فله خمسة آلاف وظيفة، ناهيك عن المعدة والأمعاء، والقلب هذا الذي يضخّ في اليوم ثمانية آلاف لتر !! ثمانية أمتار مكعّبة، كلّ متر مكعّب خمسة براميل !! ما هذا ؟

6 – العضلات:

والعضلات أنواع ثلاثة ؛ عضلات إرادِيَّة مخطّطة وعضلات لا إرادية ملساء، ونوعٌ ثالث مُعقّد جدًا هو عضلة القلب ؛ يعمل بلا كلل، ولا ملل، ولا راحة ولا مراجعة، لا يغفل ولا يسْهو، منذ أن يكون الإنسان في بطْن أُمِّه جنينًا، وإلى أن يحين حينُهُ.

هذا خلق الله:

إذا فكَّرْتَ في جِسمك، وإذا فكَّرْت إلى ما حولك ؛ في هذا الطّعام، وفي هذه الأزهار، وفي هذه الطيور، وفي هذه الثِّمار وفي هذه الخضراوات، وفي هذه المحاصيل، وفي هذه الجبال، وفي هذه التِّلال، وفي هذه الوِدْيان، في هذه المعادن، في أشباه المعادن، فيما هو جميل، فيما هو قاسٍ وفيما هو متين، فيما هو كثير، فيما هو قليل، في هذه العصافير اللّطيفة، في هذه الأسماك الرائِعَة ؛ أسماك للزّينة، وأسماك للطّعام شيءٌ لا يُصدَّق، لذلك يجب أن تعرف الله تعالى قبل أن تتوكّل عليه ويجب أن تعرف من هو الله، لأنَ على حجْم معرفتك تتوكّل عليه.

من لوازم التوكل معرفةُ قدرةِ الله وكفايته وقيوميته:

شيءٌ آخر ينقلنا إلى أنك مطالب أن تعرفَ قدْرتَهُ، وكِفايَتَهُ، وقيُّومَتَهُ، قال تعالى:

(اللّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة)

قيام كلّ شيءٍ بالله تعالى، فهذه الطاولة لولا أنّ الله سبحانه وتعالى أقامها لما قامَتْ، فلا جبل، ولا أرض، ولا سماء ولا كوكب، ولا شمس، قال تعالى:

(اللّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة)

هو قيُّوم السماوات والأرض، وكلّ شيءٍ قائمٌ به، كُنْ فيكون وزُلْ فيزول، فإذا كان الله قيُّوم السماوات والأرض فلماذا لا تتوكّل عليه ؟ يجب أن تعرف قُدرتهُ وكفايَتَهُ، وقيُّوميتهُ، وانتِهاء الأمور إلى عِلْمه، فأحيانًا تتمنّى على فلان أن يعلمَ هذا الموضوع، ولكن لا يعْلمُه، وأنت لا تُحِبّ أن تُعْلِمَهُ إيّاه، ولكن يجب أن تعلمَ أنّ الله يعْلم كلّ شيء، إذًا قبل التّوكّل تكون المعرفة، والمعرفة لها أبواب كثيرة، يمكن أن تعرف عظمة الله عز وجل من خلقهِ، ويمكن أن تعرف عظمة الله من شرْعِهِ؛ خلْقُهُ وشرْعُهُ يُنْبئنِكَ بعظمته، فإذا عرفْتَ عظمته عندئذٍ تعُدّ للمليون قبل أن تعْصيه لأنّك تفقدُ كلّ شيء إذا عصيته تفْقِدُ هذا الحِفْظ وهذه المَعِيَّة، وهذه الرّعاية، وهذا التّأييد وهذا النّصْر وهذا التّجَلِي وهذا الإقبال، كلّ هذا تفقدُهُ فجأةً لذلك لأنْ يُقَطّعَ جسدُ المؤمن إربًا إربًا أهْوَنُ عليه من أن يعصي الله عز وجل، المنافق يعْصي الله بيُسْرٍ وسُهولة، وبِسُرْعة، يبْدو ذنب المنافق كالدُّبابة، وذَنْبُ المؤمن كالجبل جاثمٌ على صدْره، الله سبحانه وتعالى يقول:

(ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

وهناك آية أخرى تُحَيّر، وهذه الآية تؤكِد أنَك إذا ذَكَرْتَ الله تعالى وَجِلَ واضطراب قلْبُكَ، طبْعًا اضْطِراب القلب إذا ذَكَرْتَهُ يعني أن تنظر إلى الآخرة، وما فيها من أهوال، وما فيها من نعيم مُقيم، فهل نَجَوْتُ من النار ؟ وهل أنا مؤهّل للجنّة، وإذا ذكرْتَ الله اطْمأنّ قلبك للدنيا لأنّ الله عز وجل لم يجْعل الدنيا عقبةً بينك وبين الله تعالى، قال الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

[سورة النساء]

وقال تعالى:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت]

معرفة الله بالتفكر في خَلقه وكلامه وأفعاله:

إذاً هذا حديث يطول، ويمكنك أن تعرف الله من التفكر في خلقه، فالتّفَكُّر إذًا عِبادة كالصّلاة، لماذا أنت تُصلّي ؟ لأنّها فرْض، ولأنّ الله تعالى أمَرَ بها أمْرًا مقطوعًا به، فالفرض هو الأمر القطعيّ الثبوت وقَطعيّ الدلالة، طيّب كم آية هناك في التّفَكّر ؟ إذًا تفكُّرك في خلق السماوات والأرض من أجل أن ترى عظمة الله، ومن أجل أن تزداد معرفتك بالله، هذا فرْض آخر، بل إنّ بعض العلماء جعل التّفَكّر فريضة من أجَلّ فرائِض الدّين إذا درسْتَ شريعة الله عز وجل فإنّك تعرفُه أيضًا، ولكنّك تعرفُه من جهة أخرى، لأنّ هذا الكتاب كلامه، وهذا الكون خلقهُ، وهذه الأفعال أفعاله، فَيُمكن أن تعرفهُ من خلال خلقه قال تعالى:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران)

ويمكن أن تعرفهُ من كلامه ومن شريعته، لأنّ هذا القرآن كون ناطق، ويمكن أن تعرفهُ من نبيه عليه الصلاة والسلام، لأنّ القرآن خُلقهُ ؛ تعْرفُه بالأسوة، وتعرفه بالخَلق، وتعرفُهُ بكَلامه وشرْعِهِ ويمكن أن تعرفهُ بأفعاله في الدنيا، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ)

(سورة الأنعام)

إذًا من أجل أن يكون التّوَكُّل صحيحًا لا بدّ أن تعرف الله عز وجل اِعْرِفْهُ وتوكّل عليه.

التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب:

الشيء الثاني: أجْمَعَ العلماء أنّ التّوكّل لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب أبداً، ومن قال لك: إنّ التّوَكّل يتناقض مع الأخذ بالأسباب فهذا جاهل، وما سبَب تأخير المسلمين وغلبة أعدائهم عليهم إلا هذا الوَهْم الباطل الذي روّجَهُ إبليس، التوكّل لا يتناقض مع الأخذ بالأسباب، فالله عز وجل حينما خلق الكون صمّمَهُ وفق قوانين، فإذا احْترمْتَ هذه القوانين وعملت بها، فهذا جزء من إيمانك بالله، فإذا احْتقرْتها ولم تُبال بها وجمَدْتها، ولم تأخذ بها فهذا جهل منك بالله، إنّ بعض العلماء يقولون: لا يصِحّ التّوَكّل إلا بالأخذ بالأسباب، فالطالب الذي يقول: أنا أخذْت بالأسباب وأنا مؤمن، وأنا أخدم هذا الجامع، وسوف يُنَجّحُني الله ! هذا كلام فارغ، وتاجر يختارُ بضاعة سيّئة من دون جهد، ولا يهتم بسِعرها ثمّ يقول: أنا أتوكّل على الله ! الله تعالى أمرك أن تبْحث وأن تختار البضاعة الجيدة، والسِّعْر المناسب، فأيّ عمل تهْملُ فيه الأسباب فأنت لسْتَ متوكِلاً على الله أبدًا، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)

(سورة الكهف)

من موجبات التوكل الأخذ بالأسباب:

أجْمَعَ العلماء على أنّ التوكّل لا يتناقض مع الأخذ بالأسباب، كما أنّهم أجمعوا على أنّه من موجبات التّوكّل الأخذ بالأسباب، الصانِعُ في مصنَعِهِ والتاجر في متْجرِهِ، والزارعُ في مزرعته، والموظّف وراء طاولتِه، والمُعلِّم في قاعة تدْريسه، والطبيب في حِرْفَتِهِ، والمهندس في مكتبه ؛ هؤلاء جميعا يجب أن يدْرُسوا الأسباب التي وضَعها الله عز وجل وأن يأخذوا بها، وأُريد أن أُوضِّح لكم هذه الحقيقة: السُّقوط له قانون، عرفه العلماء، ودرسه الطلاب في الثانويات والجامعات ؛ هذا القانون قائِم، ونافِذ إنْ أعْجَبَكَ أو لم يُعْجِبْك، وإن آمنْتَ به، أو كفَرْتَ، وإن أرْضاك أو أغْضَبَكَ، وإن انْتَبَهْتَ إليه أو غفلْتَ عنه، وإن اعْتَرَفْتَ به، أو لم تعترف، فلو أنّكَ واقف في طائرة، وكُلِّفْت أن تسقط منها لِمُهمّة فإذا آمنْتَ بقانون السُّقوط تستخدمُ المِظلّة، لأنّ المِظلّة مَبنِيّة على أساس قانون السُّقوط ؛ وزْنُ هذا المِظلّي واتساع رقعة المِظلّة، ونوع قِماشها المُحكم الذي لا ينفذ منه الهواء والأربطة المحكمة، فهذه المِظلّة مَبنِيّة على أساس قانون السُّقوط فإذا قلت: أنا لا أعْترف بها القانون ! لم يُقْنِعني، وما قيمة هذا القانون ؟ دَعُوهُ جانبًا !! نقول له: تفضّل وانْزلْ، استهزئ بهذا القانون وانْزل من الطائرة من دون مِظلّة وسوف ترى ما سيَكُون! قوانين الله عز وجل هكذا ؛ قائمة وموجودة ونافذة، عرفْتَ أم لم تعْرف، رضيتَ أم لم ترْض، أعْجَبَكَ أم لم يُعْجِبْك، في كلّ الأحوال، إما أن تأخذ بها فتَنْجو، وإما أن تُهْمِلها فتَهْلكَ، وهذا مُلخّصُ مُلخّص

المُلَخَّص ! يعني إذا أردْتُم أن تضْغطوا هذا الدّرس كلّه في كلمات إنّ لله عز وجل في كونه وفي خلْقه سُنَن، إما أن تأخذ بها فَتَنْجو، وإما أن تُهْمِلَها فتَهْلكَ.

إنك إذا أهْمَلْتَ هذه السُّنَن، فلو بكَيْتَ، ورَجَوْتَ، ودَعَوْتَ، ورفعْتَ صوتك بالدُّعاء كلّ هذا كلامٌ فارغ، أعمال لا جدْوى منها، وحركات زائدة عن الحدّ المعقول، هذا الذي أتمنّى عليكم أن يكون واضِحًا بين أيديكم، العلماء قالوا: إنّ مِن موجِبات التَّوَكُّل الأخذ بالأسباب، وهذا الكلام للطُّلاب والمُدرّسين والمهندسين والأطِبَّاء، وللمحامين وأصحاب الحرف، والصُّناع والمزارعِين، والموظّفين، ولكلّ إنسان، فإهْمال العمل وعدم الأخذ بالأسباب محبط، تُقدِم عملاً ناقِصًا من دون دِراية، ويقول: دع الأمور لِسَيِّدك!! هذا كلام زعْبرة ! وليس له أيّ معنى إطلاقًا.

إنّ مِن موجِبات التَّوَكُّل الأخذ بالأسباب، وما تخلّف المسلمون إلا بهذا المفهوم المغلوط، لأنّهم جعلوا التَّوَكّل في الجوارح، ولم يجْعلوه في القلب، التَّوَكُّل حال نفسي مكانه القلب، وأما الجوارح فيجب أن تعمل، فإذا أهْملت العمل أي توكّلْتَ بِجَوارحك ! فليسَتْ الجوارح مكان التَّوَكّل بل القلب، فالله عز وجل جعَلَ إنْجاب الأولاد يتمّ عن طريق الزّواج، وجَعَلَ الشِّبَع يتمّ بتَناول الطّعام، وجعَلَ الوُصول إلى بلد يحتاج إلى رُكوب وسيلة كالدابة، كلّ شيء له سبب، أنت أيُّها الإنسان مَقْهور بالعِلّة الغائِيَّة، لا تستطيعَ أن تأكل شيئًا إلا إذا زرعْتَهُ، لكنّ الله وحْده وهو خالق الكون أعمالهُ مُنَزَّهة عن العِلّة الغائِيَّة، فالله تعالى يقول للشيء: كُنْ فيَكُون، أما أنت فلا بدّ أن تزْرع هذه الفاكهة حتّى تأكلها، وهذا درْسٌ بليغٌ يوضع بين أيديكم.

على من التَّوَكُّل ؟ لنا عَوْدة لهذا الموضوع في الدرس القادم، قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

معاني اسم العزيز:

الآن دخلنا في اسم العزيز، من هو العزيز ؟

المعنى الأوّل:

إن القرآن الكريم فيه آيات كثيرة جدًّا طافحة بهذا الاسم الكريم، قال تعالى:

(إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وقال تعالى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فالعزيز مأخوذ مِن عزّ يَعِزُّ بكَسْر عَيْن الفِعْل، وهو بمَعنى نَدَرَ، أيْ لا مثيل له، ولا نظير، فالله عزيز لأنّه لا مِثْل له، ولا شبيه، وكلّ ما خطرَ بِبَالِكَ فالله خِلاف ذلك، الله سبحانه وتعالى لا يُشْبهُ شيئًا من خلْقه، فلا مِثْل له، ولا نِدَ له، ولا إله معه.

المعنى الثاني:

وعندنا فِعْلٌ آخر، هو عَزّ يَعُزُّ، بمَعنى غَلَبَ يغْلب، و ثمة مثلٌ عربي شهير يقول: مَن عزّ بزّ، أي من انْتَصَرَ وغلبَ له الحقّ أن يأخذ الغنائم والآية الكريمة:

(وَعَزّنِي فِي الْخِطَابِ)

أي غلبني في الخِطاب، إذاً عَزّ يَعُزُّ يعني غلبَ يغلب، فالعزيز يعني أنّهُ لا مِثْل له، ولا شبيه له من عزّ يعِزّ، ويعني أنَه القاهر فوق عباده من عزّ يعُزُّ.

المعنى الثالث:

وعندنا فِعْلٌ ثالث، هو عَزّ يَعَزُّ، بمَعنى اشتدّ وقوي، والدليل قوله تعالى:

(أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ)

(ص: 14)

بقي علينا ؛ لماذا قال الله عز وجل:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

الله سبحانه وتعالى له تِسْعةٌ وتسعون اسْمًا، لماذا اخْتار من بين أسمائِهِ كُلِها اسم العزيز، وقال لك:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

أُعِيدُ عليكم مرّةً ثانية: عندنا في اللّغة ثلاثة أفعال: عزَ يَعِزُّ، وعزّ يعُزُّ، وعزّ يَعَزُّ، **فالأوّل:** بمعنى ندر يَنْدر، شيء عزيز أي نادر وقليل، **والثاني:** بمعنى غَلَبَ يغلب، **والثالث:** بمَعنى اشْتدّ، وقويَ، نقول: تعزيز بمَعنى مُعاونة، ومُساعدة، وتأكيد وتدعيم، فالله سبحانه وتعالى عزيز من عزّ يَعَزّ، وعزيز مِن عزّ يَعُزُّ أي يغلبُ ويقْهر، وعزيز مِن عزّ يعَزّ أي اشْتدّ، وقَويَ، الآن الاسم الأوّل للتّنْزيه، عزَ يعِزُ أي لا مثيل له ولا نظير، وليس كمثله شيء، والاسم الثاني والثالث من صِفات الذات الذي يغلبُ، والذي يقْهر، قال تعالى:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

(الأنعام: 18)

وهو القويّ المتين. المعنى الثاني والثالث من أسماء الذات.

المعنى الرابع:

وهناك معنى رابع العزيز مُعِزّ، كأن تقول: هذا جرحٌ أليم بمَعنى مُؤْلِم، وزن فعيل بمعنى مُفْعِل، العزيز بمعنى المُعِزّ، هذا من أسماء أفعاله، فأوّل الاسم تنزيهي، واسمين من أسماء الذات، واسم من أسماء الأفعال، هو عزيز ليس كمثله شيء، وعزيز يغلب ويقهر من سِواه، وعزيز قويّ وعزيز يُعِزّ، وهذه معاني العزيز.

رأي الإمام الغزالي في معنى العزيز:

لكنّ الإمام الغزالي له تحليل رائِع جدًا لهذا الاسم، يقول: **العزيز الشيء الذي يقلّ وُجود مثله، وتشتدّ الحاجة إليه ويصْعب الوُصول إليه، فإذا اخْتلّ أحد هذه الشروط لا يسمّى هذا الشيء عزيزًا**، إذا قلّ وُجود مثله، واشْتدّت الحاجة إليه، ولكن سَهُل الوُصول إليه فليس عزيزًا، إذا قلّ وُجود مِثله، وصَعُب الوُصول إليه، ولكن لم نكن بحاجة إليه، فهذا ليس عزيزًا، ولو أنّهُ صعُب الوُصول إليه، واشْتدَت إليه الحاجة، ولكنّه كثير، فليس عزيزًا، فلا يُسمّى الشيءُ عزيزًا إلا إذا قلّ وُجود مثله، واشْتدّت الحاجة إليه، وصعُب الوصول إليه، أيْ لا يُنال جانبهُ، هذه صفات الأشياء إذا سمّيناها عزيزة أما إذا أردنا أن نفهم اسم الله العزيز، يَقِلّ وُجود مثله حتى لا يوجد إلا هو لا إله إلا الله، وتشْتدّ الحاجة إليه، وكلّ شيءٍ بيَدِهِ، ويصْعبُ الوُصول إليه فلا يستطيع أحدًا أن ينال منه، والأمور كلّها إليه، وليس في مقْدور أحد من خلقه أن ينال منه، وليس كمثله شيء، متفرّد في ذاته وصفاته وأسمائه وفي أفعاله.

كمالُ نُدْرة وُجودِه أنّه واحِد، وليس كمثله شيء، وكمال الصِفة الثانية شِدّة الحاجة إليه، وجميع المنافع عائدة إليه، وكمال أن يصْعب الوُصول إليه أنَه يصل إلى خلقه، ولا أحد من خلقه يصل إليه، بمعنى أنّه ينالهُ ولذلك قال بعضهم: العزيز هو الذي لا يُدْركُهُ طالبوه، ولا يعْجزهُ هاربوه، وهذا الاسم العزيز، واحِدٌ ليس كمثله شيء، كلّ الحاجات إليه، وكلّ المنافع بيَدِهِ، ولا يستطيعُ أحدٌ من خلقِهِ أن ينال منه، وعلى العزيز توكّل، وليس كمثله شيء، ولا شيء يصل إليه.

هل أدْركتم معي لماذا قال الله عز وجل:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

لماذا انتقى الله عز وجل من أسمائِهِ كلّها اسم العزيز ؟ لأنّ غيره لا شيء، ولا شيء سِواه، وغير الله وهم، وخيال وصورة، أما الحقيقة هو الله عز وجل، وغيره ليس بيدِه شيء، وغيرهُ مقهور، أما الله عز وجل لا شيء قبله، ولا شيء بعده، ولا شيء مثله، ولا شيء نظيره، والمنافعُ كلّها إليه، ولا أحد ينال منه، لا يُدركُهُ طالبوه، ولا يُعْجزهُ هاربُوه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من جلس إلى غنيّ فتضَعْضع له من أجل ماله ذهب ثلثا دينه !))

(الترغيب والترهيب عن أبي الدرداء بسند ضعيف)

لكن هناك آية دقيقة جدًا يقول الله عز وجل:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(المنافقون: 8)

إذا اعْتَزَزْتَ بالعزيز فأنت عزيز، الله عز وجل يُعطيك شيئًا من هذا الاسم، يرفعُ مكانتك، يمْنَع الناس من أن ينالوا جانبك وتشْتدُّ الحاجة إليك، يجعل الخير بيَدَيْك، إذا أحبَّ الله عبْدًا جَعَلَ حوائج الناس إليه، إذا أقْبَلْتَ على العزيز مُنِحْت شيئًا من هذا الاسم العظيم، والدليل قول الله عز وجل:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

فوائد اسم العزيز المسلكية:

تتميَّز، وتشْتدُّ الحاجة إليه، ويجعل الله حوائج الناس عندك، ويحْميكَ مِن خُصومك، ولا ينالكَ أحد، وإذا اعتَزَزْتَ بالعزيز فأنت عزيز، والدعاء المشهور: سبحانك إنَّه لا يعزّ من عاديت، ولا يذلّ من واليْتَ فالذي تُواليهِ يا ربّ يزْدادُ عِزًا، والذي تُعادِيه يزْدادُ ذُلاً، كُنْ مع العزيز تَكُن عزيزًا، وكُن مع الذليل تَكن ذليلاً، الله عز وجل قال:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(المائدة: 54)

ولا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه، وابْتَغوا الحوائِج بعِزّة الأنفس، فإنّ الأمور تجري بالمقادير، وشرف المؤمن قِيامُهُ بالليل، وعِزُّه اسْتِغْناؤُهُ عن الناس، واحْتجّ إلى الرجل تكن أجيرهُ، وتكن أسيرَهُ واسْتَغْنِ عنه تكن نظيرهُ، وأحْسِن إليه تكن أميرهُ، لذلك فالله عز وجل جعَلَ فضلهُ مبذولاً لِكُلّ الخلق، قال تعالى:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(النساء: 32)

قل لمن بات لي حاسِدًا أتدري على من أسأتَ الأدب ؟

أسأتَ على الله في فِعلِهِ إذْ لمْ ترْضَ لـي مـا وهَـبَ

ملِكُ الملوك إذا وَهَـب قُـم فاسْـألنّ عن السّـبب

الله يعطي ما يشـــاء فَـقِفْ على حــدّ الأدب

كما أنّ الله ربّ فلان فهو ربك، وكما أنّ فلانًا عبدُهُ فأنت كذلك عبْدُه فالعزيز اسم دقيق جدًا، وأتمنّى عليكم أن تزيدوا هذا الاسم بحثًا ودرْسًا لعلّ الله عز وجل ينفعَكم بهذا الاسم العظيم، وإلى درس آخر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (19-20): تفسير الآيات 217 – 220
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-11-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع عشر من سورة الشُعراء، في الدرس الماضي تمّ بِفَضل الله عز وجل شرْحُ طرفٍ من معاني التّوكّل التي ورد الحديث عنها في قوله تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

الشطر الأول للتّوكّل: العِلْم:

ويا أيها الإخوة الأكارم، التّوكّل عند بعض العلماء عِلْمٌ وحال وعمل، فالتّوَكّل لا يكون ولا يَصِحّ إلا إذا عرفْتَ الله سبحانه وتعالى، وقد يسأل سائل كيف أتعرّفُ على الله تعالى ؟ قبل كلّ شيء، لا بدّ من اقْتِطاعِ وقتٍ من أوقاتك الثّمينة للتَعَرّف إلى الله عز وجل، أما أن تمتصّ الحياةُ الدنيا كلّ وقْتِك فإنّك لن تستطيع التّعَرّف إلى الله عز وجل، فلا بدّ من تخصيص وقْت لِمَعرفة الله، كيف تعرف الله عز وجل ؟ إنَ التّوَكّل مرتبطٌ بمَعرفة الله، وإنّك لن تتوكّل إلا على القويّ، ولن تتوكّل إلا على الغنيّ، لن تتوكّل إلا على القدير، لن تتوكّل إلا على الحكيم، لن تتوكّل إلا على الرحيم، لن تتوكّل إلا على العزيز، إذًا: معرفة الله أوّلاً ثمّ التوكّل عليه ثانيًا.

أبواب معرفة الله: آياته القرآنية والتكوينية وأفعاله:

1 - الكتب المقروء:

هناك أبواب ثلاثة لِمَعرفة الله، الله سبحانه وتعالى خَلَقَ الخلْق، وجعلهم مَظْهرًا لأسمائِه الحسنى وصفاته الفضلى، والله سبحانه وتعالى أنْزَلَ هذا الكتاب، وهذا الكِتاب لو قرأْتَهُ، ولو تلَوْتَهُ حقّ تِلاوتِهِ، وتدبّرْتَهُ حقّ تَدَبُّرِهِ، لَعَرَفْتَ عظمة الله عز وجل من خلال هذا الكتاب.

2 – أفعال الله:

وشيءٌ آخر، وهو ما يجْري في الأرض من أفعال، هذه أفعال الله، والكون خلقهُ، وهذا كلامه، وهذه أفعاله، وخلقهُ يدلّ عليه، وكلامه يدلّ عليه، وأفعاله تدلّ عليه، فإذا شئْت أن تعرف الله عز وجل فحَسْبكَ

الكون، وإلا شئْتَ أن تعرف الله عز وجل فحَسْبُك هذا الكتاب، وإذا شئْتَ أن تعرف الله عز وجل فَسِرْ في الأرض، وانْظُر كيف كان عاقبة المكَذِّبين، هذه أبواب معرفة الله عز وجل، قد يقول قائلٌ معرفة أمره لا يكفي، هناك خَلْقٌ وهناك أمْر، وهناك ربّ عظيم، فهناك عِلْمٌ بأمر الله، وهناك عِلْمٌ بخَلقه، وهناك عِلْمٌ به، فالعِلْم بخَلقِهِ كما يحْدثُ في شتّى بقاع الأرض، بَحْثٌ ودرْسٌ واكْتِشاف واخْتِراع ؛ هذا كلّه معْتَمِدٌ على معرفة القوانين الدقيقة التي تنْظِمُ علاقة الأشياء المادّيّة بعضها ببعض، هذا عِلم خلق الله.

3 - الآيات التكوينية:

فالظّواهر الفيزيائيّة، والظّواهر الكيميائيّة، والظواهر الاجتماعيّة والاقتِصاديّة والفَلَكِيّة، والظواهر المادِيّة، الرّياضيات والفيزياء، والكيمياء والتاريخ والجغرافيا، علم النّفس وعِلم الاجتماع، هذه كلّها عِلومٌ من خلق الله، وقد تَفَوَّقَتْ بعض البلدان في هذا المِضْمار تفوُّقًا كبيرًا فهذا علم بخَلق الله، أما أنّ الإنسان إذا اسْتغرق في هذا العلم وبقِيَ محصورًا به، ونَسِيَ خالقه ومُربّيه، هذا العلم لا ينفعُهُ شيئًا، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ إنّي أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن عَيْنٍ لا تَدْمع، ومن أذن لا تسمع، وأعوذ بك من هؤلاء الأربع))

(الترمذي عن عبد الله بن عمرو)

فالعِلْم بخَلق الله مُتَعَلِق بالدنيا إذا أردْت به الدنيا، ويتعلّق بالآخرة إذا أردْتَ به الآخرة، فإذا درسْتَ الفلَكَ لِتَكْتشف العظمة الكامنة في خلق السماوات والأرض، فهذا العِلْم المتعلِق بخَلْق الله يوصِلُ إلى الله عز وجل، وإذا درسْتَ تشْريح الإنسان وأجهزته وأعضاءهُ، وبُنْيَتَهُ، وعلم وظائفه من أجل أن تبْحث عن عملٍ تقْتاتُ برِزْقه، فهذا عِلمٌ أوْصَلَكَ إلى الدنيا، أما إذا اتّخَذْت من هذا العِلْم سبيلاً إلى الله عز وجل كي تعرف عظمة خلقِه، ورَوْعَة صَنْعته، وإتقان خلقه، فهذا العِلم ؛ عِلم التشريح وعِلم وظائف الأعضاء يوصِلُك إلى الله عز وجل، فأيّ شيءٍ خلقه الله عز وجل، إما أن ترْقى به إلى الله، وإما أن تهْوي به إلى الدنيا، أو تنال به رضى الله وسعادة الدنيا، وأنت حرّ، وأنت مُخَيَّر، حتى العلوم المتعلِقة بخَلْق الله، إنّك إذا تأمّلْت في قوانينها، ودرسْت خواص الأشياء، وخصائص المادّة، فإنّ هذه العلوم تكشف له عن جانبٍ كبير من عظمة الله عز وجل، فهذا عِلْم خلْق الله.

أما العِلم بأمر الله تعالى، هذا القرآن الكريم، وهذه السنّة المطهَرة، إذا تلَوْت القرآن حقّ تِلاوته، وتدبَّرْت آياته حقّ تدبّره تكشف لك هذه الآيات عن جانبٍ عظيم من جوانب أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، وإذا تأمّلت في الخلق، وتأمّلت في الحركة التي تجري بينهم، وتأمّلت في تصرّف الله عز وجل

فيما يتعلّق بشؤونهم، إنّك إذا تأمّلت في هذا أيضًا تعرّفت إلى الله عز وجل، فهذه المصادر الثلاثة ؛ خلقُهُ: الكون، وكلامه: القرآن، وأفعاله: الحوادث كلها تدل عليه سبحانه، فَخَلْقُهُ يدلّ عليه، وكلامه يدلّ عليه، وأفعاله تدلّ عليه.

لكل إنسان مرتبة في معرفة الله:

ولكلّ إنسان في الأرض مرتبة في معرفة الله، فكلما ازْدَدْتَ تفكّرًا في آيات الله، وتتبُّعاً لأفعاله، وتدبّرًا في كلامه كلّما ارْتَفَعَت مرتبتُك عند الله عز وجل، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا بورك لي في يوم لم أزْدَدْ فيه من الله عِلْمًا))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

العلم هي قيمة الترجيح بين الخَلق:

وكما قلتُ من قبل: القيمة الوحيدة التي اعْتَمَدَها القرآن الكريم كَقيمة وحيدة للتّرجيح بين خلقِهِ هي العِلم، فإذا أردْت الدنيا فَعَلَيك بالعِلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معًا فعليك بالعِلم، ويظلّ المرء عالمًا ما طلب العِلم، فإذا ظنّ أنّهُ قد عَلِم فقد جَهِلَ، والعِلم لا يُعطيك بعضهُ إلا إذا أعْطَيْتَه كلّك، فإذا أعْطَيْتَهُ بعضك لم يعْطِكَ شيئًا.

إذاً لقد أردتُ من هذا الكلام أن أقول لكم: إنّ التَّوَكُّل لا يكون، ولا يصحّ إلا إذا عرفت الله عز وجل، تتوكّلُ على مَن ؟ على العزيز الرحيم وعلى الخَلاّق العليم، وعلى مَن بِيَدِهِ كلّ شيء، وعلى القويّ، وعلى القادر، وعلى الغني، والسميع، وعلى البصير، إذاً فلا بدّ من معرفة الله عز وجل، وقد قيل: أصل الدِّين معرفة الله، والذي جاء النبيّ عليه الصلاة والسلام وقال له: **" جِئْتُكَ لِتُعَلِمني من غرائب العِلم ! "** فقال عليه الصلاة والسلام:

((فماذا صَنَعْت في أصل العلم ؟ هل عرفْت الربّ ؟))

(ورد في الأثر)

هناك في الدِّين شيءٌ ليس ظاهرًا ظُهورًا صارخًا، كالبناء الشامخ، بناءٌ مؤلّف من طوابق عديدة، إنّ في هذا البناء شيئًا أساسيًّا خطيرًا جدًا، هو الأساس فالأساس تحت الأرض، والذي يبْدو لك هذه الطّوابق، ولو لم يكن هناك أساس مكين لانْهار البناء، لذلك فالإنسان إن لم يعرف الله حقّ المعرفة فشَهْوَةٌ صغيرة تُفْسِدُ أخلاقه، وتحت تأثير أيّ ضغط قليل يخرج عن اسْتِقامته، فهو مُعَرّض لإغراءٍ أو لِضَغْطٍ، فالإغْراء جاذب، والضّغط مانِع، فحياة الإنسان مَشْحونة بالضُّغوط والمُغْريات، فما لم يكن هناك إيمان كبير بالله عز وجل أساسه البحث والتّدقيق والمعرفة والتّفكّر والتّأمّل والدّرس، ما لم يكن

هناك إيمان قويّ فإنّ الإنسان ينْهار لِضَغْط يسير، أو لإغراءٍ قليل ! وعندها يفْقد إيمانه، وقد وصف عليه الصلاة والسلام إيمان الناس في آخر الزمان فقال:

((يصبح الرجل مؤمنا، ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا))

(الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة)

السور المكية دعوة إلى التفكر والتأمل:

لماذا ؟ لأنَه ما عرف الله عز وجل، والمشكلة التي يُعانيها المسلمون تتلخّص في عدم معرفتهم بربهم، إنّ النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاء بالإسلام أمضى مع أصحابِهِ ثلاث عشْرة سنةً في مكّة يدْعوهم إلى معرفة الله عز وجل، وإذا شئْتم فاقْرؤوا السُوَر المكِيّة، تقرؤون ماذا ؟ قال تعالى:

(وَالشّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

وقال تعالى:

(وَاللّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

(سورة الشمس)

وقال تعالى:

(وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4))

(سورة الفجر)

إذا قرأتم السُوَر المَكِيّة فلا تجدون فيها إلا الآيات الكونِيّة، وتكاد السُوَر المَكِيّة تقريبًا تتحدَث عن شيئين؛ عن الإيمان بالله من خلال آياته الكونية، وعن اليوم الآخر، وهذا هو أساس الإيمان، فإذا علّمْتَ الناس الأحكام الشّرْعِيّة قبل أن يعْرفوا المُشَرّع، وعلّمْتهم الأمر قبل أن يعرفوا الآمر، علّمْتهم أحكام الدّين قبل أن يعرفوا خالق الكون، عندئذٍ لا يستقيمون على أمر الله، آيةٌ كريمة مِن أدقّ الآيات التي وردَت في أواخر سورة الطّلاق، يقول الله عز وجل:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: من آية " 12 ")

أيْ أنّ خلْق السماوات والأرض من أجل أن تعلم، وعِلّة خلْق السماوات والأرض أن تعلم، قال تعالى:

(لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق)

يجب أن تعرف اسم العليم، واسم القدير، ويجب أن تعرف أنّ علمه يطولك، وأنّ قدرته تَطُولك، من أجل أن تستقيم على أمره، فإذا بقيَ الإسلام في حَيز التّفكير، وفي حيّز الثّقافة لا يقطف الإنسان ثماره، وإذا بقي الإنسان في حيز العواطف لا يقطف الإنسان ثماره، لن يقطف الإنسان ثمار الدِين فيَسْعَدَ به في الدنيا والآخرة إلا إذا أحاط به من كلّ جوانبهِ ؛ فهذا خلْقُهُ، وهذا القرآن كلامه، وتلك الحوادث أفعاله ومن خلال القرآن تعرف الله، ومن خلال الكون تعرف الله، ومن خلال الحوادث تعرف الله، تعرف الله إذا تأمّلت، وتعرف الله إذا قرأت، وتعرف الله إذا اسْتَمَعْتَ، لك أن تُفَكِّر ولك أن تقرأ، ولك أن تستَمِع، وهذه كلها طرقٌ موصِلةٌ إلى الله عز وجل، لذلك من أجل أن تكون أقوى الناس، ومن أجل أن يصِحّ تَوَكُّلك لا بدّ من أن تعرف ربّك، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنّ الصِّدق يهدي إلى البرّ...))

(الترمذي، أبو داود، ابن ماجه عن ابن مسعود)

إذا صدَقْت في معرفة الله فإنّ الله سبحانه وتعالى يهْديك إليه، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

فبمُجَرّد أن تنعقِد إرادة ورغْبة صادِقة مُصَمِمة على أن تعرف الله عز وجل، فإن ربّنا سبحانه وتعالى يُريك آياته الكَوْنِيَّة، ويُلْهِمُكَ أن تفكِّر بها، ويُسْمِعُكَ الحقّ من أهل الحقّ، ويجْمعك مع أهل الحقّ في مكانٍ حقٍّ وهو المسجد.

إذًا في التَّوَكّل أشياء ثلاثة، وهذا مُلخّص الدَرسين السابقين ؛ في التَّوَكُّل عِلم، وفي التَّوكّل حال وفي التَّوكل عمل، فالعلم هو أن تعرف الله، وهذا أساس الدِّين،

((ابن آدم اطلبني تَجِدني، فإذا وَجَدْتني وجَدْت كلّ شيء، وإن فِتُّكَ فاتَكَ كلّ شيء، وأنا أحَبُّ إليك من كلّ شيء))

(ورد في الأثر)

أصْلُ الدِّين معرفة الله تعالى، فالتَّفَكُّر عِبادة من أرقى العبادات، بل إنَّها لا تقِلُّ خطورة عن الصَّوم والصَّلاة، والآيات التي تحضّ على التَّفَكّر لا تُعدُّ ولا تُحْصى، اِقرأ القرآن قال تعالى:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس)

قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

قال تعالى:

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ)

(سورة الطارق)

هذه كلّها آياتٌ تحثّكم على التّفكّر في خلْق السماوات والأرض، واعلم جيداً أنّك لن تتوكّل على الله إلا إذا عرفْته، هذا جانب من جوانب الموضوع.

الشطر الثاني للتوكل: الحال:

الجانب الآخر أنّ التَوَكّل حال، كيف ؟ الجواب: لو أن أحدنا له قضيّة فيها خُصومة، ووكّلَ مُحاميًا بارعًا قَويًا، ومُتَفَهمًا للقوانين، وضليعًا في حِرْفَتِهِ، طليقًا في لسانه، وله مكانة كبرى في القصْر العدلي، إذا وكّلت هذا المحامي فإنّك تشْعر بشيءٍ من الطّمأنينة ؛ فكيف إذا كان الذي يتولّى عنك كلّ شيء هو خالق السماوات والأرض، الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنْ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 ")

نعم يُدافعُ عنك الله، ويتولّى أمْرك، و:

(اللّهُ وَلِيّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظّلُمَاتِ إِلَى النّور وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النّور إِلَى الظّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

إذا كان الله معك فمَن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ما من مخلوق يعتصِمُ بي من دون خلقي أعرف ذلك مِن نيّته فتكيدهُ أهل السماوات والأرض إلا جَعَلتُ له من بين ذلك مَخْرجًا، وما من مخلوقٍ يعتصم بمَخلوقٍ دوني أعرف ذلك مِن نِيّته إلا جعلْتُ الأرض هَوِيًا تحت قدَمَيه، وقطّعْتُ أسباب السماء بين يديه ! حالة المتوكِل هي حالة التّسليم، وحالة الرّضا، وحالة الطمأنينة وحالة السكينة والتّفويض، هذه كلّها ثِمار يانعة للتَوَكّل، شتّان بين إنسانٍ مقْهورٍ خائفٍ قلق ومضطربٍ يشعر بالقهْر والذلّ، والخنوع، والخَوفِ يأكل نفسه، وبين إنسانٍ آخر يشْعر بالأمن والعافية والسلامة والرّضا والتّسليم ؛ الفرْق كبير، ولذلك ربّنا عز وجل لما قال:

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من آية " 21 ")

من رابع المستحيلات، بل من سابع المستحيلات، بل من كل المستحيلات أن تكون حياة المؤمن النّفْسِيّة كَحَياة الكافر النّفْسِيّة ؛ هذه نفْسٌ قلقة مضْطربةٌ يائسة ومقْهورة وخانعة وذليلة، وهذه نفْسٌ مطمئنة وآمنة، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ

ما قولك بهذه الآية ؟ لو أنّ الله عز وجل قال: أولئك الأمن لهم، لكان المعنى لهم ولغيرهم، أما حينما قدّم الله عز وجل لهم أي الأمن لا يحسّ به أحدٌ سِواهم، والأمْنُ لهم وحْدهم فقط، لا يشْعر بالأمن إلا المؤمن، ولا يشعر بالطمأنينة إلا المؤمن، ولا يشعر بالسّكينة إلا المؤمن، هذه من ثمار التّوَكّل، وبشَكل بسيط جدًا أنت جنديّ مثلاً وصاحب أعلى رتبة في هذا الجيش يحِبُك حبًا جمًا، ويحْرصُ عليك حِرْصًا بالغًا، فعندئذٍ لا تخاف شيئًا، وهذا حال سيّدنا هود، حينما قال كما قال تعالى:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

إذا عرفْتَهُ توكّلت عليه، وإذا توكّلت عليه شعرْت بالأمْن والطُمأنينة.

الشطر الثالث للتوكل: العمل:

والشَطْر الثالث في التَوَكّل هو العمل، ربّنا عز وجل خَلَقَ الكون وخلقهُ وفق سُنَن دقيقة، وأيْضًا أشار في كتابه إلى سنن أخرى في التعامل مع عباده، فَمِن لوازم العبوديّة لله عز وجل أن تتأدّب مع هذه السُنَن، الله سبحانه وتعالى جعل لكل شيءٍ سببًا، وجعل لكلّ هدفٍ طريقًا، وجعل لكلّ غايةٍ وسيلة، وجعل لكلّ شيءٍ خِطّة، فأنت حينما تكون عبْدًا لله عز وجل حقًا تأخذ بهذه الأسباب، وتأخذ بهذه الوسائل، وتحترم هذه السُنن وتُطبّقها، لذلك كما قال العلماء: لا يتناقض التّوَكّل مع الأخذ بالأسباب بل إنّ الأصحّ مِن هذا أنّ الأخْذ بالأسباب من لوازم التّوَكّل، ما من طريقٍ يرفعُ المسلمين، ويجعلهم قادةً في الأرض إلا أن يأخذوا بهذا المعنى ؛ التَوَكّل محَلّهُ القلب، والجوارح محلّها السّعي، فإذا نقلْتَ التّوكّل من القلب إلى الجوارح فقد قعدْت عن الأخذ بالأسباب، وأكلَ قلبَك الخوف، وهذا ما يقعُ عند الناس، هناك كسلٌ، وهناك التِباس بين التّوَكّل وبين القعود، أو بين التّوكّل والتّواكُل ! فالذي يجب أن نعلمَهُ عِلْم يقين أنّ التّوكّل عِلمٌ وحال وعمل، كالتوبة تماماً، علم من أجل أن تعرف الله، وحالٌ وهو الشُعور بالأمْن والطمأنينة، والسّكينة وهذا من ثِمار التّوكّل والأخذ بالأسباب في كلّ حقل من حقول الحياة ؛ في عملك، وفي الطريق إلى الله.

فهذا الذي يقول: نحن عبيد إحسان، ولسْنا عبيد امتحان ! هذا الذي يرْجو الجنَة من دون عمل، وهذا الذي لا يُقدِم شيئًا للمجتمع، يكتفي أن يقول: سبحان الله، وربّ اغْفر لي ذنوبي ! نقول له: ماذا قدّمْت ؟ وماذا فعلْت ؟ ولماذا أنت في الدنيا ؟ الإنسان بلا عمل لا قيمة له، وقيمة المرء ما يُحْسِنُهُ، بل إنّ العمل الصالح هو الذي يُحدِّد مكانتك عند الله عز وجل والدليل قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: من آية " 132 ")

فحينما قال الله عز وجل:

(وَتَوَكّل)

فقد أمرَكَ بالتَّوَكّل، وكلّ أمر في القرآن يقتضي الوجوب، ولكنّ الله عز وجل كما قلتُ في الدرس الماضي: اخْتار من بين أسمائِهِ الحسنى كلّها اثنَين، لم يقُلْ لك: وتوكّلْ على القويّ، بل قال:

(وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

وقد بيّنْتُ لكم في الدرس الماضي أنّ العزيز كما شرحَ هذا الاسم الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: **أن العزيز هو الشيء الذي يَنْدُر وُجوده وتشْتدّ الحاجة إليه، ويصْعب الوُصول إليه**، وكمال هذه الصِّفات الثلاث الشيء الذي يندر وُجوده حتى لا يكون غيره ؛ لا إله إلا الله، وتشْتدّ الحاجة إليه حتى تكون جميعُ المنافع بيَدِهِ، المنافع كلّها بين يديه، ويصعب الوُصول إليه، ولا يستطيعُ مخلوقٌ أن ينالَ جانبهُ ! فإذا كان الله سبحانه وتعالى أحدٌ صمَد، وفرْد لا إله إلا الله، ولا مثيل له، وليس كمثله شيء، ويَنْدر وُجود مثله، بل لا إله إلا الله، وتشْتدُ الحاجة إليه، جميعُ المنافع المادّية والمعْنَويَة، والحقيرة والجليلة، والدُّنيَويَّة والأُخرَويَّة بيَدِهِ، وتشْتدّ الحاجة إليه، ويصْعُب الوُصول إليه، إذا كان الله كذلك فلمَ لا نتوكّل عليه ؟ ربّنا عز وجل يقول:

(وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ)

معنى الرحيم:

كلمة(الرحيم)، يُعَذِّب من يشاء، ويرحم من يشاء، فالرَّحيم هو الذي يسوق الخير للناس.

صور الرحمة وآثارها:

إذا كنتَ في برْدٍ شديد ودخلْت غرفةً دافئةً شعرْتَ بالدِّفْء يسْري في عُروقِك، فالدِّفْءُ رحمة، وإذا كنت في حرّ شديد، ودخلْتَ غرْفةً مُكَيَّفةً، وشعرْت بالبرودة تسْري في أوْصالك فالبرودة رحمة، وإذا

كنت في جوعٍ شديد، وأكلْتَ طعاماً شهياً، وشبعْتَ، وسَكَنَتْ جوارحُك بهذا الطّعام، فهذا الطعام رحمة، وإذا كنتَ في عطشٍ شديد يكاد الإنسان يأكل الثرى من هذا العطش، وشرب ماءً فراتاً عذْبًا باردًا وشعر بالريّ فهذا الريّ رحمة.

وإذا كان الإنسان وحيدًا لا أسرة له، وأكْرمَهُ الله بزَوجة صالحة سكَنَ إليها ؛ فهذه الزوجة رحمة، وإذا وهبَهُ الله طِفْلاً صغيرًا كان قرّة عينٍ له، فهذا الطِّفل رحمة، إذا رزقَهُ عملاً مُريحًا يدر عليه رزقًا معقولاً يكفي حاجاته من دون أن يُنافق، ومن دون أن يبذل ماء وجهه فهذا الرّزق رحمة، فأيّ شيءٍ تسْعَدُ به في الدنيا هو من رحمة الله عز وجل، ومن رحمة الله بك في الدنيا، وأمّا رحمة الله في الآخرة، أن يأتي ملكُ الموت بِشَكل أحبّ الناس إلى الإنسان، ثم إذا انتَقَلَ من دار الدنيا إلى الدار الآخرة من دون خوفٍ ولا وجل، ومن دون اضْطراب، فهذه النَقلة رحمة، وإذا اتّسَعَ القبر فصار فسيحاً وروضةً من رياض الجنَة، فهذا القبر رحمة، وإلا قطع الإنسان الصِّراط المستقيم سريعًا من دون وجل ولا خوف أو عُسْرٍ فهذا رحمة، فأيّ شيءٍ يُسْعِدُك هو رحمة.

إذاً فالرَحيم هو الذي يُعطي، والذي يُسْعِد، والذي يرْحم، والذي يُخَفِّفُ المتاعب، والذي يُزيل المصائب، والذي يُبْعِدُ الخوف والقلق، إن صفة العزيز تنتزعُ إعْجابهُ، وصفة الرحيم تنتزعُ محبة قلبك، إنّك تُعَظِم الله بالقَدْر الذي تُحِبُّه، الإنسان في الدنيا أحيانًا يُحِبُّ مخلوقًا ولا يُعْجَبُ به، أو يُعْجَبُ بمَخلوقٍ ولا يُحِبُه، قد تلتقي بمُدرّسٍ ذكيّ جدًا، مُطّلِع خبير وضليع في اخْتِصاصه، يتّقد ذكاءً ولكنّه قاسٍ في المعاملة ؛ إنّك تُعْجَبُ به ولكنك تُحِبُّه، وقد تلتقي بإنسان لطيفٍ وديع لكنّه في مجال اطِّلاعه على العلوم مُقَصِّر كثيرًا فأنت تُحِبُّه ولا تُعْجَبُ به، ولكنَ الله تعالى حينما حدّثنا عن ذاته العظيمة قال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

أنت تُجِلُّه وتكرم به، فالإجلال ينتزعُ إعجابك، والإكرام ينتزعُ محبّتك فتُجِلُّهُ وتُحِبُّه، لذلك ربنا عز وجل من أسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى اخْتار هذين الاسْمَين ؛ العزيز الرحيم..

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

العزيز الفرْد الصَّمَد، الذي لا مثيل له، والحوائج كلّها إليه، وبيَدِهِ كلّ شيء ولا يستطيعُ أحدٌ أن يصل إليه، هذا الشّرح لهذا الاسم ينْتزعُ كلّ إعجابك، وكلّ تقديرك، ولكنَ الرّحيم ينْتزعُ كلّ محبّتِك، يرْحمك وأنت جنين في رحمِ أُمِّك، ويرحمك بأن خلق لك أُمًا وأبًا، قال تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: من آية " 39 ")

أنظر إلى الأُمّهات والآباء ؛ حياتهم كلّها، ووقتهم كله، وتِجارتهم وسَعيُهم، وهواجسهم وخواطرهم،

وهمومهم من أجل أولادهم. كيف رحِمَ الله عبيده ؟ بهذه الطريقة ؛ جعلَ الأمّ والأب رمْز حنان الله عز وجل ورحمته، لذلك قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: من آية " 39 ")

أيْ ألْقيتُ في قلب الأمّ وقلب الأب هذه المحبّة، محبَّة الله تَجَسَّدَتْ على شكل محبّة الأم والأب، إذًا كما قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

اسمٌ يشدّ إعْجابَكَ، واسْمٌ يشدّ محبَّتَك، وهذا الإله العظيم العزيز الرحيم تَوَكَّل عليه..

فوّض إلينا الأمر في كلّ ما يكن ... فما القُرْب والإبْعاد إلا بأمرنا
ولا تعترضنا في الأمور فكلّ ... من أردناه اجْتَبَيْناهُ حتى أحبّنا
يُنادى له في الكون أنّا نُحِبُّه ... فيسْمَعُ مَن في الكون أمْرَ مُحِبّنا
أطِعْ أمْرنا نرفع مِن أجلك ... حُجْبنا فإنّا منَحْنا بالرّضا مَن أحبّنا
ولُذْ بحمانا واحْتَمِ بجنابنا ... لِنَحميك مِمّا فيه أشرار خلقنا

قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

ملخص التوكل:

إذًا التَّوَكّل عِلمٌ، وحال، وأخْذٌ بالأسباب، وهذا هو الملخَّص، والصحابة الكرام وصلوا إلى ما وصلُوا إليه بِسَبب حُسْن توكُّلهم على الله عز وجل، والمسلمون الذين جاؤوا بعد قُرون عِدّة وانحدروا إلى ما وصلوا إليه من التَّخَلّف بِسَبب تواكلهم على الله لا توكُّلِهم.

معنى: الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ

العزيز الرحيم يراك حين تقوم، أنت في بيتك تقوم إلى عملك فيراك، وتقوم إلى صلاتك فيراك، تقوم إلى شيءٍ مُباح فيراك، وتقوم إلى صلاة الليل فيراك، تقوم إلى خِدمة إنسان فيراك، وتقوم إلى عملٍ لا يرضى عنه فيراك، تقوم إلى عملٍ يُؤْذي بعض العباد فيراك، قال تعالى:

(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

(سورة الشعراء)

إذا خَصَّصْناها بالنبي عليه الصلاة والسلام، النبي عليه الصلاة والسلام يقوم حصْرًا لِخِدمة الخَلق،

وللاتِّصال بالحقّ، وإذا وسَّعْناها فأيُّ قِيامٍ يراك الله به، إذًا لا ينبغي أن تتوكّل على الذي لا يراك لأنّك عندما تشْتدُ الحاجة إليه لا يراك، غائبٌ عنك، أمّا ربّنا سبحانه وتعالى مادام يراك حينما تقوم فهو معك إذًا، فَتَوَكَّلْ على مَن هو معك دائمًا، قال تعالى:

(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

لذلك أعْبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، وفي الدُّعاء النبوي الشريف: اللهمّ اجْعَلنا نخشاك حتى كأنّا نراك، وأسْعِدْنا بِلُقْياك، قال تعالى:

(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

وبعضهم قال: هذه متعلِّقة بالصّلاة فقط حينما تقوم، والأولى أن تُوَسّع.

ثمّ يقول تعالى:

(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)

(سورة الشعراء)

وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجدين

التّقلُّب هو التَنَقّل من حال إلى حال، والساجدون له لهم مراتب كثيرة، فأنت لك عند الله تعالى حَجم، والله سبحانه وتعالى يعْرِفُهُ حقّ المعرفة، هناك إنسان قد يغْمطُك حقّك، قد يرفعُك إلى مستوى أنت لسْتَ فيه، أو قد يغضّ من شأنك وهو لا يعلمُ مِقدار حجْمك، قال تعالى:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

(سورة الإسراء)

أما الذي يرى تقلّبك في الساجدين، يرى مقامك الحقيقيّ، ويرى الدَّرجة التي أنت فيها هو الله عز وجل، فإذا اطمأنّ الإنسان إلى أنّ الله يعرف مقامه عنده، فما بالهُ يتألّم إذا أنكرَ الناس حقّه، وما باله يفْرح إذا رفعهُ الناس فوق المكان الذي هو فيه، لو معك كيلو غرام معدن، توهَم الناس أنّه ذهب ! فأثْنَوا عليك، وعلى هذه الثَّرْوَة وهو من التَنَك !!! من هو الخاسر ؟ أنت، ولو أنّ هذا المعدن ذهب وأوهَمْتهم خلاف ذلك ؛ كذلك أنت الخاسر ! إذا ظنّه الناس معدناً نفيساً، وهو معدن خسيس، من الخاسر؟ أنت، فهذه الآية:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ(219))

هناك عارفون بالله، بعض الفِرَق الإسلاميّة رفعتْهم فجَعَلتْهم في القِمّة، وبعضهم جعلوه في الحضيض، فبعضهم قال: الشيخ الأكْفَر، وبعضهم قال: الشيخ الأكبر ! يا تُرى تقْييم هؤلاء، أو تَقييم هؤلاء هل يرفعُ من رتبته أو يخْفضها ؟ كلّ إنسانٍ له عند الله تعالى مقام لا يزيد ولا ينقص، فإذا اطْمَأننْت أنّ مقامك عند

الله مَبْنِيّ على أساس دقيق جدًا؛ فهذا مِمَّا يُريحُ قلْبَكَ.

قال تعالى:

(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

قال الله عز وجل:

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

أهل السنَة والجماعة لا يُعَطِّلون الصفات:

وكما قلتُ من قبل: إنّ الله يسمع ويرى، وإذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا، ويد الله فوق أيديهم، فهذه الآيات أهل السنَة والجماعة لا يُعَطِّلونها، ولا يُجَسِّمون هذه الكلمات بحيث يصبح الله سبحانه وتعالى مُشابهًا لِخَلْقِهِ، عقيدة أهل السنَّة والجماعة لا نُجَسِّد ولا نُعطِّل، وقول الإمام مالك هو أجْمل قَولٍ في هذا الموضوع ؛ فقد قال: **" الاسْتِواء معلوم، والكَيْف مجهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعة "** ! وانتهى الأمر، هذا شيء فوق مستوى عقولنا، فالله تعالى إذا تكلّمت يسمعُك، وإذا سكتّ يعلم ما في قلبك، والإنسان إن تكلّمْت سمِع، وإن سكتّ جَهِلَ ! أما الله تعالى إن تكلّمْت سمِعَك، وإن لُذْتَ بالصّمْت علم الحقيقة، وعلم ما في قلبك، لذلك أن تقول شيئًا أو لا تقولهُ سيّان، وهذا ينقلنا إلى قوله تعالى:

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

(سورة البقرة: من آية " 284 ")

الله سميع عليم:

إن أبْدَيتهُ أو أخْفَيْتَهُ فهو سيّان عند الله تعالى، لأنّ نفسكَ مَكشوفةٌ أمام الله عز وجل كالصَّفحة البيضاء. سميعٌ لِقَولك عليم بحالك، سَميعٌ لِدُعائِك، عليم بخفايا نفسِك، سميعٌ لِتَوَسُّلاتك، عليم بنَواياك، فالذي يخفى على الناس يعلمُه الله، والذي تُبْديهِ يسْمَعُهُ، لذلك فأعلى درجة من درجات الإيمان أن تشْعر أنّ الله معك قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من آية " 4 ")

وأن تشعر أنّ الله عليك رقيب، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

(سورة النساء)

وأن تشعر أنّ الله بالمرصاد، إذا شعرْت أنَ الله بالمرصاد، وأنّه رقيب عليك، وأنَه معك أيْنما كنت، عندئذٍ لا بدّ أن تستْحي منه، ابن آدم استحي منّي فأنا أستْحي منك، وهذا الحال عبّر عنه الصُوفيُون بالمُراقبة، لو أنّ إنسانًا راقَبَ إنسانًا، هذا الإنسان ينضبط، لو شعر المؤمن أنّ الله تعالى يُراقبُهُ في خَلْوَتِهِ، وفي جَلْوَتِهِ وفي جِدّه وفي هَزْلِهِ، ومع أهله ومع الناس، وفي حضره، وفي سفرهِ ومع إخوانِهِ، ومنْفَردًا، هذا الشُعور لابد أن يستمر ليرقى صاحبه، لذلك قالوا: من علامات الإخلاص أن يستْوي عملك في السرّ والعَلن، وأن تستوي السريرة والجريرة، والباطن والظاهر، وهذا من علامات الإخلاص، أن تُصلِّي صلاةً منفردًا كما صليتها مُجْتَمِعًا، قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224))

أعداء النبي عليه الصلاة والسلام، وصناديد الكفْر في مكّة كانوا يتّهمون النبي عليه الصلاة والسلام بأنّ هذه الرّسالة افتراء، وهذا الوحي إن هو إلا رُؤى رآها، أو أمْلاها عليه الشياطين، فالله سبحانه وتعالى دافَعَ عنه، قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222))

الأفّاك هو الذي يختلق الكذب، والأثيم هو المنْحَرف، قال تعالى:

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)

بقي علينا إن شاء الله هذه الآيات الأخيرة، قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ(227))

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يُمَكِّننا من تفسير هذه الآيات، وسيكون الدّرْس القادمُ الدرسَ الأخير من سورة الشعراء بمشيئة الله، وننتقل بعدها إلى سورة النّمل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (20-20): تفسير الأية 221
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-12-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العشرين من سورة الشُعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ(227))

(سورة الشعراء)

تنزيل القرآن خالص من عند الله:

أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية اسْتئناف، الجُمَل تكون ابْتِدائِيَّة واسْتِئْنافِيّة، فهذه الآية اسْتِئنافٌ ساقهُ الله سبحانه وتعالى لِيُبَيِّن اسْتِحالة تنزّل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وفي آيات سابقة قال الله عز وجل:

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211))

(سورة الشعراء)

أي إنّ هذا القرآن لم تتنزّل به الشياطين، وفي هذه الآية:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ)

(سورة الشعراء)

مقامُ النبوّة مقامٌ منزّه عن الكذب والإفك، بينما الشياطين من صِفاتهم الثابتة أنّهم أفّاكون آثِمون، فالأفاك هو الذي يقلِبُ الحق باطلاً، والباطل حقًا الأفاك هو الذي يكذب، الأفاك هو الذي يوقِعُ بين الناس العداوَة والبغضاء، الأفاك هو الذي يُزَوِّرُ الحقائق، الأفاك هو الذي يقول ما لا يعْلم ويماري فيما يَعلِم، قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222))

(سورة الشعراء)

مقام النبوّة منزّه عن الكذب:

كأنّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يُبَيّن مقام النبوّة ؛ إنّه مقامٌ منزّه عن الكذب، وبالمناسبة فإنّ الكذب يتناقض مع الإيمان، فعَنْ أبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

(رواه أحمد)

في بعض أقواله صلى الله عليه وسلّم:

((المؤمن لا يكذب !))

لِمُجَرّد أن يكون الكذب داخلاً في حياتك بِشَكلٍ أو بآخر فالنبي عليه الصلاة والسلام نفى عنك الإيمان:

((المؤمن لا يكذب !))

فالمؤمن قد يُقَصِّر، وقد تَزِلّ قدمه، وقد يفْعل شيئًا ويندم عليه، ولكنَه لا يكذب، لذلك فمقام النبوّة مقامٌ عظيم منزّه عن الكذب، وعن الإثم، فالكذب هو انْحِرافٌ قولي، والإثم انْحِراف سُلوكي والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في بعض أحاديثه الشريفة:

((لا يستقيم إيمان عبْد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه))

(أحمد عن أنس)

لذلك فالذي يقول: التِّجارة شطارة ! هذه مبنيّة على الكذب، وبين أصحاب المِهَن هناك من يقول لك: لا بدّ من الكذب، هذا كلامٌ مرفوض، المؤمن لا يكذب ورزقهُ على الله، ومن ترَكَ شيئًا مخافة الله عز وجل عوّضَهُ الله خيرًا منه، إذا كان الرّزْق لا يأتي إلا بالكذب فلا كان هذا الرّزق، والله هو الغنيّ، فأنْ تقول: إنّ الكذب ضرورة فهذا كلام الشّيطان، فالله سبحانه وتعالى يُبَيّن في هذه الآية أنّ من يدّعِي أنّ الشياطين تتنزّل على النبي عليه الصلاة والسلام هذه دَعْوة باطلة ؛ لماذا ؟ لأنّ الشياطين لا يتنزّلون إلا على كل أفّاك أثيم، ومقام النبوة مقام عظيم مُنَزّه عن هذا الوصْف.

لا تنزل الشياطين إلا على مَن له قابلية:

هناك نقطة مهمَة جدًا لا بدّ أن نقف عندها، يقول الإمام القاشاني: **تنْزلُ الشياطين على مَن عنده استِعداد لِقبُولها**، فمن الذي عنده استِعداد لِقَبول الشياطين ؟ مَن كان على شاكلتهم من الخُبْثِ، والكَيْد، والمكر، والفساد، والخِيانة، وسائر الرذائل، وهذا القَوْل ينقلنا إلى حقيقة مفادُها: أنّ أحدًا لا يستطيعُ أن يُضِلّ أحدًا، والشيطان يضِلّ من كان على شاكلته، ومن كان عنده استِعداد لِتَقَبُّل أفكاره، ولِتَقَبُّل وساوسِه وانْحِرافاته، والإنسان له جِبِلّة، وهذه الجِبِلّة فطرها الله سبحانه وتعالى فِطْرةً نَقِيّة، وصفْحة بيْضاء، فإذا

دنَّسَها الإنسان بانْحِرافاته ومعاصيه وشهواته وجاء الشيْطان لِيُوَسْوِسَ لهذا الإنسان البعيد المنقطع ؛ فإنَّ هذا الإنسان يستجيب للشيْطان، الشيطان لا يستطيعُ أن يؤثِّر إلا لِمَن كان عنده استِعداد لِقَبوله، قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222))

(سورة الشعراء)

مُنحرفٌ في أقواله، منْحرفٌ في أعماله، والإثم فِعْل المعاصي، والموبقات، واتِّباع الشَّهوات، والمَيْلُ نحو الغرائز والأفعال القبيحة، فالأفَّاك الأثيم هو الذي تنزّل عليه الشّياطين.

من صفات المؤمن: عدم سماعه أقوال الشياطين:

شيء آخر، هو أنَّ المؤمن لا يمكن أن يُصْغي إلى قول الشياطين، لا يمكن أن يُصغي إلى وساوسهم، لا يمكن أن يستجيب لهم، هذه حقيقة فهذا الذي يقول لك: لا أستطيع، وهكذا فَعَلَ بيَّ الجن، وهكذا دخلوا فيّ، هذا كلّه كلام باطل، لا يقْبلُ وساوس الشياطين، ولا إيحاءات الجنّ، ولا يقْبَلُ تعاوُنَهُ مع الجنّ إلا إذا كان على شاكلتهم، وهذه حقيقة واقعة في الحياة اليوميّة، الإنسان السيّئ يُفْسِدُ مَن كان مثلهُ سيّئًا، أوْ من كان يمْلِكُ استِعدادًا للفساد، وعندهُ رغْبةٌ في الفساد يأتي المُفْسِد فَيُفْسِدُهُ، أما الذي سَمَتْ نفسُهُ، وارْتَقَتْ روحُه، واستقام على أمر ربّه واقبل عليه، وشعَرَ بالطهارة والعفاف، وشعَرَ بالقُرْب من الله عز وجل ؛ مِثْل هذا الإنسان لا يستطيعُ شيطان الإنس ولا شيطان الجنّ أن يُفْسِدَهُ، فلذلك على الإنسان ألاّ يقول كلّما زلّتْ قدَمَهُ: لعن الله الشيطان ويحمل الشيطان تبعة أعماله، بل عليه أن ينظر في حقيقة تصرفاته وأنها من فعل يده واكتساب نفسه ! إنَّ الشيطان نفسه يوم القيامة يقول، كما في قوله تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

هذا كلام ربّ العالمين، ما كان لي عليكم من سلطان فالشيطان إذاً لا يستطيع أن يُفْسِدَ إلا من كان عنده استْعداد للفساد، وإلا من كانت عنده رغبة الفساد، وإلا من كان على شاكلة الشيطان من الخبث والانحراف، والكَيْد، والخِيانة، والكذب والفجور، قال تعالى:

(اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

(سورة آل عمران)

كسبوا السيّئات، فجاء الشيطان فأزلّ أقدامهم، فلذلك إذا زلّتْ قدمُ الإنسان يجب أن يعلم عِلْم يقين أنّه

وحده يتحمّل المسؤوليّة كاملةً، ولا ينبغي له أن يُحَمِّلها أحداً، ولا أن يُحَمِّلَ بعضها للشيطان.

قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222))

(سورة الشعراء)

المؤمن ليس أفّاكًا، ولا يكذب، وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا شَعَرَ أنّ أحدًا من أهل بيْتِهِ قد كذَبَ يغضبُ غضبًا شديدًا، ويُقاطِعُه إلى أن يتوب، إذًا لمّا كان مقامُ النبوّة مُنَزّهًا عن الإفك والإثم والكذب والفجور حُقّ لِكُلّ مؤمن أن ينْفِيَ عن النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون للشياطين أو لبعضهم دَوْرٌ في إنزال هذا القرآن، أو في الوُصول إلى النبي العدنان عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى:

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)

(سورة الشعراء)

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ

النبي عليه الصلاة والسلام سألهُ ناسٌ عن الكُهّان، فقال صلى الله عليه وسلّم:

((إنّهم ليْسُوا بشَيء))

(الأدب المفرد عن عائشة بسند صحيح)

الحديث طويل، ولكن لو اكْتَفَينا بهذا الكلام لكفى ـ فكلّ ما يقوله الناس من أعمال الجنّ، ومن مكرهم، ومن أفعالهم ومن تآمرهم على الإنس، وبعِلْمهم بما سيَكُون أي علمهم الغيب، كما قال سيّد الخلق:

((إنّهم ليْسُوا بشَيء ! فقالوا: يا رسول الله: إنّهم يُحَدِّثون بالشّيء يكون))

وكثير من الإخوة الأكارم يسْمعون مِن أقاربهم، مِمّن حوْلهم، وممّن يلوذ بهم، أنَ فلانًا تنبّأ بكذا، وكان كذا، فما تفسير هذا ؟! أُجيب كما أجاب النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنّهم ليْسُوا بشَيء))

أمر الله بالاستعاذة من شر الشياطين والسحرة

ولكن الله سبحانه وتعالى أرشدنا في القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة إلى أن نسْتعيذ به، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق)

ودلّنا أن نستعيذ مرّةً ثانية، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6))

(سورة الناس)

والله سبحانه وتعالى وصف المتّقين فقال:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

وفي آية رابعة يقول الله عز وجل:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة فصلت)

أما أجمل ما في هذه الآية الأخيرة ؛ إنَه هو السَّميع العليم، فقد يقول لك قائل: أنا اسْتَعَذْتُ بالله، والشيْطان لم يبْرحني، فكيف تُفسِّر هذه الظاهرة ؟ إنَّه هو السميع العليم ؛ سمِيعٌ لاسْتِعاذتك باللِّسان، ويعلم ما إذا كان قلبك حقيقةً قد اسْتعاذ بالله، أم أنَّك اكْتَفَيْت بالاسْتِعاذة بِلِسانِك، يعني إذا كانت الاستعاذة باللِّسان هذه لا تكفي، ولا تفعل شيئًا، ولا تستطيعُ هذه الاستعاذة باللِّسان أن تدفعَ الشيطان، لذلك قال تعالى:

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة فصلت)

فإذا أَلَمَّ بالإنسان وسواس، أو ألمَّتْ به مشكلة، أو لاحَتْ له شبهة، أو جاءَتْهُ خواطر لا ترْضي فإنَّها من الشَّيطان إذاً فليَسْتَعِذ بالله، ولكن فليَسْتَعِذ بِقَلبهِ قبل لسانه وأن يتوجَّه إلى الله بِكُلِّيتِه، أن يلتجأ إليه، وأن يحْتمي بحِماه حتى ينقذهُ الله سبحانه وتعالى من هذه المِحْنة، فالنبي عليه الصلاة والسلام: فإنَّهم يُحَدِّثون بالشيء يكون ! فقال عليه الصلاة والسلام:

((تلك الكلمة من الحق يخطفها الجِنِّي، فَيُقَرْقِرُه في أذن وليّه، كَقَرْقَرَة الدّجاج فَيَخْلِطون معها أكثر من مئة كِذْبة))

(الأدب المفرد عن عائشة بسند صحيح)

حينما تنزل أوامر الله سبحانه وتعالى إلى الملإ الأعلى هناك من الشياطين من يستمعون، فإذا الْتَقَطَ أحدهم كلمةً ألقاها في أُذن الكاهن، ونسج على مِنوالها مئة كذبة، كما قال عليه الصلاة والسلام: كذبَ المُنَجِّمون ولو صدَقوا، ومن أتى كاهنًا فصدَّقهُ فقد كفر بما أُنزل على محمَّد، ومن أتى ساحرًا فصدقة لم تُقبل له صلاة أربعين صباحًا. قال تعالى:

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)

(سورة الشعراء)

تفسير:(يُلْقُونَ السَّمْعَ)

المعنى الأول:

من تفسيرات هذه الآية أنّ هؤلاء الشياطين يسترقون السّمع، ويُلقُون السّمع إلى الملائكة ليأخذوا بعض أمر الله للبشر، فَيَبُثُّون في أُذن الكُهّان لِيكذبوا عليه مئة كذْبة.

المعنى الآخر:

أنَ المنحرف يُلقي سمْعهُ، والأفّاك يُلقي سَمْعهُ إلى الكذب لذلك في نِظام المحاكمات يُقال: لا تُسْمعُ هذه الدّعوة، القاضي يرفض سماعها في الأصل، إذا كانت لم تستَوْفِ شُروطها الإجْرائِيَّة ومضمونها الصحيح، دَعْوى غير مَسْموعة، والمؤمن كذلك إذا كان في عالم القُدُس، وكان مع الله سبحانه وتعالى، وكان في طهارته وعِفّتِهِ لا يُلقي السَّمْع للشياطين، ولا لِوَساوسِهم، قال تعالى:

(وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)

(سورة الشعراء)

من صفات غالبِ الشعراء الكذبُ:

هؤلاء يكْذبون، والكذب كما تعرفون هو قلبُ الحقائق وتزويرها، وهناك من يقول: إنّ النبي عليه الصلاة والسلام شاعر، وفي آيات كثيرة أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه التُّهمة التي اتُّهمَ بها النبي عليه الصلاة والسلام من أنّه كاهن، ومن أنّه شاعر، في بعض الآيات الكريمة يقول الله عز وجل:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43))

(سورة الحاقة)

لا هو بقَول شاعر، ولا هو بقَول كاهن، بل هو قول رسول كريم، تنزيل من ربّ العالمين، هذا هو الحق، فهناك من ادّعى، ومن زعمَ من كُفّار قريش أنّ النبي عليه الصلاة والسلام شاعر، فكان هذا الردّ، وإذا زعمت أنّه شاعر، فالشُعراء يتّبعُهم الغاوون، الشُعراء ليْسُوا كذلك.

صور من كذب ومبالغات الشعراء:

من هو الشاعر ؟ هذا الذي يتكلّم كلامًا وفق هواه فقد يمدحُ مديحًا كاذبًا، وقد يهْجو هِجاءً ظالمًا، وقد يصِفُ حالةً ساقطة، وقد يُبالغ، كما جاء على لسان بعض من الشُعراء:

ولو أنّ النّســاء كمـن فقدْنا لفُضّلَت النِّساء على الرّجال

* * *

أراد شاعِرٌ أن يتقرّبَ إلى المعتصِم، فلما تُوُفِّيَت أُمّ المعْتَصِم، مَدَحَ أُمَهُ بقَصيدةٍ مَطْلعها:

ولو أنّ النّســاء كمن فقدْنا لفُضّلَت النِّساء على الرّجال

* * *

من أجل هذه المرأة التي لا يعرف التاريخ عنها شيئًا !! وهذا كذب هذه مبالغة، ومبالغة كبيرة، وبعض الشُعراء يمدح مديحا كاذبا، مديحا يخلو من كل حقيقة، يسبغ على ممدوحه صفات البطولة، والكرم، والشجاعة، والتّقوى، وهو ليس كذلك، إذًا هذا المديح الكاذب فيه معْصِيَة، لأنّ الله سبحانه وتعالى يغضب إذا مُدِحَ الفاسق فَمِن أجل مكاسب رخيصة، من أجل نوال محدود وعطاء قلّ أو كثر، كان هذا الشاعر يُصْبِغُ على ممدوحهِ صِفاتٍ كلّها ملفقة متكلّفة، لذلك فربّنا عز وجل قال عن هذا النبي الكريم:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ)

(يس: 69)

لأنَ من شأن الشعراء أن يكذبوا، هناك لَقَطاتٌ كثيرة من أقوال الشعراء ينحدر فيها الشاعر، ويسف إسفافاً:

أيّ عظيمٍ أتّقـي وأيّ مكانٍ أرتقـي
و كـلّ ما خلـق الله وما لـم يخلق
محتقر في نظري كشَعْرةٍ من مرْفقي

* * *

هذا قول المُتَنَبّي ! ما قيمة هذا الشِّعر ؟ هذا الكون العظيم الذي تحار به العُقول قال عنه المُتَنَبّي إنّه محْتقرٌ في نظرهِ، فهل يُعْقَلُ أن يكون النبيّ شاعرًا، هذا المتنبّي الذي قال مرّة:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبـي وأسْمَعَت كلماتي من بهِ صمَـمُ
أنام ملء جُفوني عن شـواردها ويســهر الخلْق جرّاه ويخْتصِمُ
الخيل والليل والبيـداء تعرفنـي والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

بكل فارس مِغْوار شجاع لا يهاب المنايا، كان في طريقه من بغداد إلى حلب أو من البصرة إلى حلب، فخرج عليه كمين فولّى هاربًا ! فقال له غلامه: ألم تقل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

فقال: قتلتني قاتلك الله، وعاد وقاتل حتى قُتِل، إذًا هناك مبالغات شيءٌ غير صحيح، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أعظمُ بكَثير وأسْمى بكَثير، من أن يكون شاعرًا، قال تعالى:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)

(سورة يس)

إنَّه رسول الله، الشاعر ينطلقُ من خيال، وقد يبتعد عن الواقع الإسلام دينُ الفِطرة، لذلك هناك تناقض بين ما هم عليه الشُعراء، وبين قواعد الدِّين، فليس من قواعِدِ الدِّين أن تكذب في المديح، وليس من قواعِد الدِّين أن تَهْجُوَ هِجاءً مقذعًا، ولا هِجاءً مُراً، وليس من قواعد الدِّين أن تُثير الغرائز بِشِعْر رخيص، وهذا كلُّه من صفات الشعراء، والنبي عليه الصلاة والسلام فهو فوق ذلك، ومن المبالغات إلى غزل إلى هِجاء إلى وصْف كلُّه ما أراده الله سبحانه وتعالى، ولكنّ الحقيقة التي أُحبُ أن أُقرِّرَها في هذا الدَّرس ؛ هو أنّ الإسلام لم يُهاجِم الشِّعْر لذاته، ولكن هاجَمَهُ لِمَضمونه، لأنّ مضمونه يتنافى مع قواعد الدِّين فكلّ شاعر سخَّر شِعرهُ للهجاء الباطل، وللمديح الكاذب، ولإثارة الغرائز، وللتَّحليق في عالم الخيال، مُبْتَعِدًا عن الواقع فهذا الشاعر ينطبق عليه قول الله عز وجل: والشعراء يتَّبعهم الغاوون.

حكم الشعر في الإسلام: كلام حَسَنُهُ حسَن، وقبيحُهُ قبيح:

إلا أنّ الشِّعْر كما يقول العلماء: كلام حَسَنُهُ حسَن، وقبيحُهُ قبيح، وهذا حُكمٌ فقهي في الشِّعر، نوَّهَ به النبي عليه الصلاة والسَّلام، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلانِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، أَوْ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ))

(رواه البخاري)

(مِن)هذه للتَّبعيض، فبعض الشِّعر فيه حِكمة، وبعض البيان في سِحر ما كلّ البيان ساحر، وما كلّ شعر حكيم.

في صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام تمثَّل قول لبيد، فقال:

((أصدق كلمة قالها لبيد: ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطل))

ولكنَّه عليه الصلاة والسلام ما أتمَّ البيت، لأنّ في تمام البيت مخالفة للحقيقة، فالبيت أصله:

ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطل وكـل نعيم لا محالـة زائل

* * *

فنعيم أهل الجنّة لا يزول، وهذا الكلام في الشطر الثاني غير صحيح.

شيءٌ آخر، الإسلام لم يُهاجم الشّعر لذاته بل هاجمهُ لِمَضْمونه، لأنّ الشّعر كلامٌ حسَنُهُ حسَنَ، وقبيحُهُ قبيح، لو أنّ الشاعر استَخْدم شِعرهُ في الحديث عن الله عز وجل، أو عن هذا الكون العظيم، أو عن النبي الكريم، أو أثار الهِمَم للأعمال الطّيّبَة، فهذا الشّعر حسَن، بعض الشعراء يقول:

أنظر لِتِلك الشّجــرة ذات الغُصون النّضـرة

كيف نَمَتْ مِن حبّــةٍ ؟ وكيف صارَتْ شَجَـرة

فابْحَث وقل مــن ذا الذي يُخرجُ منها الثمرة ؟

و انْظر إلى الشمــس جذوتها مُسْتَعِــرة

فيها ضِيــــــاء وبها حرارة منتشــرة

من ذا الذي أوْجَـدَها في الجوّ مثل الشّــرَرة

و انْظر إلى الليــل فمن أوْجَدَ فيه القمــر

و زانـهُ بأنْجُــمٍ كالدُّرر المنتشـــرة

و انْظر إلى الغَــيم فمن أنزل منه مطـرًا ؟

فصيّرَ الأرض بـــه بعد اصْفِرارٍ خَـضِرة

ذاك هو الله الــذي أنْعُمُهُ مُنْهَمِــــرة

ذو حِكمةٍ بالغــة وقدرةٍ مقـــــتدرة !

***

فالشّعر ليس حرامًا لِذاته، ولكنّ المديح الكاذب والهجاء الرّخيص والغزل وإثارة الغرائز ؛ هذا الذي هاجمه الإسلام، فإذا كان الشاعر في هذا المستوى حيث استمعنا لوصف الشجرة فأنْعِم به من شاعر، والقرآن الكريم استثنى فقال:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الشعراء)

استثناء الشعراء المؤمنين من شر الغواية:

لأنّك إن أردْتَ أن تُحْدِثَ موقفًا انفعالياً في الناس، فإنك تستخدمُ الشّعر، فهو يُحَرّك المشاعر، ويُحَرّك العواطف والبلاغة والقدرة التّعبيريّة شيءٌ ثمين إذا وُظِف للحق فأنْعِم به، وأكرم، لذلك الشّعر كلامٌ

حسنُهُ حسَن وقبيحُهُ قبيح، ولا ينبغي أن نُطْلقَ عليه حُكْمًا جائرًا وعامًّا، ولكنّ هؤلاء الذين زعَمُوا أنّ النبي عليه الصلاة والسلام شاعر، قال تعالى:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ)

وليس مقام النُّبوّة يقترب منه مقام الشّعر، ففي الشِّعر الكذب والهجاء، وخيالات وبُعْدٌ عن الواقِع، كافور الإخشيدي مدحَهُ المُتَنَبّي بقصيدة، جعل من هذا الإنسان أحد أصحاب رسول الله ! فلمّا غضِبَ عليه، ولم يُوَلِه العِراق قال:

لا تشْتر العَبد إلا والعصا معه إنّ العبيد لأنجـاس مناكيدُ !

* * *

وقال:

وفي كلّ أرضٍ وطِئْتُها أمم تُرعى بعَبْد كأنّهم غَنَم

يسْتخشِنُ الخزّ حين يلْبسُهُ وكان يُبْرى بظُفرهِ القلَمُ

* * *

هذا هو الشِّعر، رفعُه إلى مستوى عال جدًا، فلمّا أحْبط مسْعاه ويئسَ منه جعَلَهُ في أسفل سافلين، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقد نهانا عن أن يحمِلَكَ الغضب على أن تُبالغ، أو أن يحمِلَكَ الرضا على أن تُبالغ يجب أن تقف عند الواقع عند ما هو كائن، فكلّ زيادة وكلّ مبالغةٍ ليست من شأن المؤمن.

حال الشُّعراء مُنافيَةٌ لِحال رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فالنبي عليه الصلاة والسلام في مراتب عليا من الطّهر ومن العفاف، من الصِّدق ومن المروءة، ومن الواقِعِيَّة، أما هؤلاء الشُّعراء فإنهم يمْدحون ويهْجون ويتغزّلون ويُحَلِّقون بالخيال، ويبتعدون عن الواقع، فليس من يقول: إنّ النبي شاعر هو مُحِقّ بل هو مبطِل، قال تعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)

(سورة الشعراء)

هل هؤلاء الصّحابة في مستوى أن يكونوا أتباع شاعر ؟ لا والله! قال تعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225))

(سورة الشعراء)

تفسير: أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ

لم يقل الله عز وجل: في كلّ طريق يهيمون، قال: في كلّ واد ! يعني هناك متاهات، واد فيه مغاور، وفيه مسارب، وفيه اتِّجاهات متناقضة وفي حَيرة، والفِعْل هامَ تقول: هامَ على وجْهه سارَ بلا هُدَى،

ومن دون بصيرة، ولا هدف، فالشُعراء في كلّ وادٍ يهيمون، يميل مع مصلحته أينما مالت، حتى إنّ شاعرًا في العصر العباسي مدَحَ وهجا اثنَي عشر خليفة، يمْدحُهُ ثمّ إذا جاء خلفُهُ هجاه، فكُل هذا زورٌ وكذب وبهتان، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

(سورة الشعراء)

فهذا الذي مَدَحَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقَصيدة رائعة، له أبيات أخرى:

رمضان ولّى هاتِها يا ساقي مشْتاقة تسْعى إلى مُشتاق

يقصِدُ بها الخمر ! فهو إذا أراد النبي مدحه، وإذا أراد الخمر مدحها أهَذا مسلِم ؟ وهل هذا منضبطٌ ويؤخَذُ عنه ؟ إن أموره لا ضابط يضبطها، وتسترسل من دون حدود، هي فوضى ! لذلك ربّنا سبحانه وتعالى قال:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

(سورة الشعراء)

في كلّ واد تخوضون، تارةً يُتَّهَمُ بعض الشعراء بالزّندقة، وتارةً يُقال عنه إنّه مؤمن، وتارةً يؤمن بالآخرة، تارةً يرفض الآخرة، هناك اضطراب فِكري، واضطراب عقدي، واضطراب سُلوكي، فهل يمكن أن نأخذ شيئاً عن هؤلاء ؟ وإذا كان عندهم شيء يؤخذ، فهو المَقْدُرة اللُّغويّة والشِعريّة ليس غير، أما أن يكون الحقّ معهم فهذا أبْعدُ شيءٍ عن الواقع، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226))

(سورة الشعراء)

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ

سيّدنا عمر رضي الله عنه استعْمَلَ واليًا على البصرة اسمهُ النعمان بن عَدِيّ وكان هذا الوالي يقول الشَعر، قال قصيدة وقال في خِتامها:

لعلّ أمير المؤمنين يسوؤُه تنادمنا بالجَوثق المتهدِّم

فبَلَغَ سيّدنا عمر هذه القصيدة، فقال: إي والله، إنّه لَيَسُوؤني ذلك، ومن لَقِيَهُ فلْيُخْبرْهُ أني عَزَلْتُه، وكتَبَ إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ(3))

(سورة غافر)

أما بعد فقد بلغني قولك: وايْمُ الله إنَّهُ لَيَسُوؤُني ذلك، وإنِّي قد عَزَلْتُك ! فسيّدنا عمر كان حريصًا حِرْصًا بالغًا على أن يكون هذا العامل الذي يستَعْمِلهُ على مِصْرٍ، أو على قُطْرٍ من أقطار بلاد المسلمين في المستوى الراقي الذي لا تشوبُهُ شائبة.

موقف بعض شعراء الصحابة بعد نزول هذه الآية:

شيءٌ آخر مُتَعَلِّق بهذا الموضوع ؛ هو أنّ بعض أصحاب النبي عليهم رضوان الله، ومنهم سيدنا حسّان بن ثابت، ومنهم سيّدنا عبد الله بن رواحة، ومنهم كعب بن مالك كانوا شعراء، فحينما نزَلَ قوله تعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)

(سورة الشعراء)

أتَوْا النبي عليه الصلاة والسلام وهم يبْكون فقالوا: **يا رسول الله، إنّ الله سبحانه وتعالى حينما أنزل هذه الآية يعْلَمُ أنَا شُعراء، ونحن قد هَلَكْنا** فقال عليه الصلاة والسلام مُتَلَطِّفًا:

((إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأنتم هؤلاء !))

وهذا الاسْتِثناء مهمّ جدًا، فالإنسان الآن إذا كان يمْلكُ قُدْرةً لُغَوِيَّة، وشِعْرِيَّة، ووظَفَها في الحق، فهذا عمل طيّب، والآن بالمقاييس الملتزمة بالشِعر، يَعُدُّون الشِّعْر الملْتَزم من أرقى أنواع الشِّعْر، إن هذا الشِّعر الذي يُنافحُ عن قضيَّة، الذي يلْتَزِمُ مبدأ، ويُسَخَّرُ لِخِدمة أحداث عظمى، هذا شِعر مُلْتَزِم، فسيّدنا حسّان بن ثابت، وكذا سيدنا عبد الله ابن رواحة وكعب بن مالك كان شِعرهم مُوَظَّفًا في خِدمة الحق، فالنبي عليه الصلاة والسلام اسْتَثْناهم انطلاقاً من قوله تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

المؤمن يُجاهد بسَيفه ولسانه:

وقد أُثِرَ عن النبي عليه الصلاة والسلام أنَّهُ قال لِحَسَّان بن ثابت هاجِهم وجبريل معك، يعني أنه أذن له في هجاء الكفار ! وكان ديوان حسّان رضي الله عنه كله في مَدْح النبي عليه الصلاة والسلام، وفي الردّ على خُصومه، وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد في مسنده عن كعب بن مالك أنّه سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية فقال:

((إنّ المؤمن يُجاهد بسَيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنّما ترمونهم به نضح النبل))

(البغوي في شرح السنة عن كعب بن مالك بسند صحيح)

أيْ هذه القصائد التي ينظمها أصحاب رسول الله في الردّ على أعداء الإسلام كأنّها نِبال تُصيبهم، وهذا بعض ما جاء في السنّة المطهّرة عن شعراء الإسلام الذي نافحوا بشِعرهم عن هذا الدِّين العظيم.

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226))

(سورة الشعراء)

من صفات غالب الشعراء: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ

هذا شيءٌ خطير، يقولون ما لا يفعلون ! هم في واد وأفعالهم في واد قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

من صفات الشعراء المؤمنين: لا يلهيهم الشعر عن ذكر الله:

أجْمَلُ ما في هذه الآية أنّ الشّعر لم يُلْههم عن ذِكْر الله تعالى ؛ وهذا معنى، والمعنى الثاني أنّهم ذكروا الله كثيرًا في شِعرهم، فشِعْرُهم كلّه طافِح بالحديث عن آيات الله الكونيّة، وعن رحمته وعن عظمته، وعن قدرته، وعن نبيّه صلى الله عليه وسلّم، فإذا لم يشْغل الشّعر الشاعر المؤمن عن ذِكر الله، أو أنّه كان شعره ذكراً كثيرًا، فهذا من صفات الشاعر المؤمن. قال تعالى:

(وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)

[سورة الشعراء]

الأمرُ بالردِّ على شعراء الأعداء:

وهذا هو الردّ على الشُعراء الذين ناصَبُوا النبي العِداء، وكان حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم يرُدُّون على خصوم الإسلام، فإذا كان الشّعْر ردًا على خُصوم الدِّين، أو ذِكراً لآيات الله أو لأسمائه الحسنى، أو مَدْحاً للنبي الكريم، فهذا من حسنات الشعراء المؤمنين، قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)

(سورة الشعراء)

هذه مُطلقةٌ، يعني أيُّ ظالم، قال تعالى:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ

هذه لأيّ ظالم، وبعضهم قال: سيعلمُ الذين ظالمو من هؤلاء الشعراء، ظلَمُوا الناس بهجائهم، وظلموا بمَديحهم الكاذب، وبنفاقهم، وثرْثرتهم، وإثارة الغرائز، قال تعالى:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

سيّدنا الصِّديق رضي الله عنه حينما عَهدَ بالخِلافة إلى عمر بن الخطاب كتَبَ هذه الوصيّة فقال: **بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما وصّى به أبو بكر بن أبي قِحافة عند خُروجِهِ من الدُّنيا، حين يُؤْمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويصْدق الكاذب، إنّي اسْتَخْلفْتُ عليكم عمر بن الخطّاب فإن يَعْدِل فذلك ظنّي به، ورجائي، وإن يَجُر ويُبدِّل فلا عِلْم لي بالغَيب**، وهي وَصِيَّة رائِعة جدًّا، ومات وكان هذا الذي أوصى به أبو بكر بن أبي قِحافة عند خروجه من الدنيا.. إذاً:

هذا على قَول الله تعالى:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

وكان سيّدنا عمر يقول: **تعلّموا العربيّة فإنّها من الدِّين**، إذا أردْتَ أن تدْعُوَ إلى الله عز وجل واسْتخْدمْتَ اللُّغة السليمة، والعبارة الأدبيَّة القويّة، والنبي عليه الصلاة والسلام ففي ذلك أداء الرسالة الحق والخير قال:

((إنّ مِنَ الْبَيَان لَسِحْرًا، أوْ إنّ بَعْضَ الْبَيَان لَسِحْرٌ))

(رواه البخاري)

فإذا وُظِّفَتْ اللغة كما وظّفها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم في الحق فهنيئًا لمن فعله، وإذا امتلكَ أحد ناصِيَة البيان كَهَؤُلاء الشُّعراء المنحرفين الذين يكذبون ويأفكون ويتّهمون ويجورون ويظلمون فالويل له ثم الويل، لقوله تعالى:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة المؤمنون 023 - الدرس (8-1): تفسير الآيات 1 – 7..... 1

سورة المؤمنون 023 - الدرس (8-2): تفسير الآيات 1 – 11..... 26

سورة المؤمنون 023 - الدرس (8-3): تفسير الآيات 12 – 22..... 48

سورة المؤمنون 023 - الدرس (8-4): تفسير الآيات 23 – 33..... 68

سورة المؤمنون 023 - الدرس (8-5): تفسير الآيات 27 – 61..... 85

سورة المؤمنون 023 - الدرس (8-6): تفسير الآيات 62 – 72..... 105

سورة المؤمنون 023 - الدرس (8-7): تفسير الآيات 73 – 91..... 122

سورة المؤمنون 023 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 92 – 118..... 136

سورة النور 024 - الدرس (23-01): تفسير الآيات 1 –5..... 155

سورة النور 024 - الدرس (23-02): تفسير الآيات 1 –2..... 172

سورة النور 024 - الدرس (23-03): تفسير الآيات 3 –5..... 188

سورة النور 024 - الدرس (23-04): تفسير الآيات 6 –10..... 204

سورة النور 024 - الدرس (23-05): تفسير الآيات 11 –15..... 220

سورة النور 024 - الدرس (23-06): تفسير الآيات 16 –22..... 236

سورة النور 024 - الدرس (23-07): تفسير الآيات 23 –26..... 254

سورة النور 024 - الدرس (23-08): تفسير الآيات 27 –29..... 268

سورة النور 024 - الدرس (23-09): تفسير الآية 30..... 282
سورة النور 024 - الدرس (23-10): تفسير الآية 31..... 298
سورة النور 024 - الدرس (23-11): تفسير الآيات 31 –33..... 313
سورة النور 024 - الدرس (23-12): تفسير الآيات 33 –34..... 329
سورة النور 024 - الدرس (23-13): تفسير الآية 35..... 341
سورة النور 024 - الدرس (23-14): تفسير الآية 35..... 357
سورة النور 024 - الدرس (23-15): تفسير الآية 36..... 377
سورة النور 024 - الدرس (23-16): تفسير الآيات 36 –39..... 394
سورة النور 024 - الدرس (23-17): تفسير الآيات 37 –43..... 412
سورة النور 024 - الدرس (23-18): تفسير الآيات 43 –49..... 427
سورة النور 024 - الدرس (23-19): تفسير الآيات 47 –54..... 441
سورة النور 024 - الدرس (23-20): تفسير الآيات 55 –57..... 455
سورة النور 024 - الدرس (23-21): تفسير الآيات 58 –59..... 471
سورة النور 024 - الدرس (23-22): تفسير الآيات 60 –61..... 484
سورة النور 024 - الدرس (23-23): تفسير الآيات 62 –64..... 498
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-01): تفسير الآية 1..... 513
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-02): تفسير الآية 1..... 528
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-03): تفسير الآية 2..... 545

سورة الفرقان 025 - الدرس (13-04): تفسير الآيات 3 - 8..... 564
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-05): تفسير الآيات 9 - 16..... 580
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-06): تفسير الآيات 17 - 20..... 599
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-07): تفسير الآيات 21 - 31..... 620
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-08): تفسير الآيات 27 - 31..... 637
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-09): تفسير الآيات 32 - 44..... 659
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-10): تفسير الآيات 45 - 54..... 680
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-11): تفسير الآيات 54 - 58..... 703
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-12): تفسير الآيات 60- 72..... 726
سورة الفرقان 025 - الدرس (13-13): تفسير الآية 63 حتى الأخير..... 750
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-01): تفسير الآيات 1 - 9..... 771
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-02): تفسير الآيات 10 - 21..... 787
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-03): تفسير الآيات 23 - 68..... 805
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-04): تفسير الآيات 69 - 81..... 822
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-05): تفسير الآيات 82 - 89..... 837
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-06): تفسير الآيات 90 - 102..... 854
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-07): تفسير الآيات 105 - 122..... 867

سورة الشعراء 026 - الدرس (20-08): تفسير الآيات 123 - 135..... 883
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-09): تفسير الآيات 123 - 140..... 897
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-10): تفسير الآيات 141 - 159..... 913
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-11): تفسير الآيات 160 - 175..... 926
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-12): تفسير الآيات 176 - 191..... 941
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-13): تفسير الآيات 192 - 194..... 957
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-14): تفسير الآيات 194 - 202..... 971
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-15): تفسير الآيات 201 - 214..... 986
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-16): تفسير الآيات 214 - 216..... 1004
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-17): تفسير الآية 217..... 1016
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-18): تفسير الآية217..... 1032
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-19): تفسير الآيات 217 - 220..... 1046
سورة الشعراء 026 - الدرس (20-20): تفسير الآية 221..... 1059
الفهرس..... 1073

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

التفسير الكامل

تفسير من سورة النمل حتى العنكبوت

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (01-18): تفسير الآيات 1 - 6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-12-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة النمل.

بيْنَ يدي سورة النمل:

هذه السورة فيها تِبْيَانٌ لأمر التوحيد ولأمر الآخرة، وفيها مجموعةٌ من القِصَص ؛ قصّة سيدنا موسى، وسيدنا داود، وسيدنا سُليمان، وسيدنا لوط، وسيدنا صالح، في هذه السورة خاصّةٌ خصوصيّة هي: أن ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يبيّن لنا أن عَلِيّة القوم، وأولي الأمر معنيون بالهدى، وأنه يمكن أن تُتَّخَذَ قوتهم في سبيل هداية الخلق، هذا في الحديث عن سيدنا سليمان.

على كلٍ فيها توحيدٌ، وفيها بشارةٌ، وفيها إنذارٌ، وفيها حديثٌ عن يوم القيامة، وفيها ذكرٌ لقصّة مجموعة من الأنبياء سبق ذكرهم في بدء هذا الحديث، وفي مطلع هذه السورة يقول الله سبحانه وتعالى:

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1))

(سورة النمل)

معاني الحروف المقطعة: طس:

هذه الحروف التي تُفْتَتَحُ بها السوَرُ عادةً..

(الم(1))

(سورة البقرة)

(المر)

(سورة الرعد: من الآية 1)

(كهيعص(1))

(سورة مريم)

(طسم(1))

(سورة الشعراء)

(حم(1))

(سورة الأحقاف)

هذه الحروف سبق الحديث عنها في دروسٍ سابقة.

المعنى الأول:

بعضهم قال: **" الله أعلم بمراده "**، لقول الله عزّ وجل:

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من الآية 255)

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: **" إنّ هذا القرآن المُعْجِز من هذه الحروف "**، وربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

المادّة الأوليّة لهذا القرآن هذه الحروف، حروف الهجاء نعرفها جميعاً، وهي بين أيدينا جميعاً، وبإمكان كلٍ منّا أن يصوغ منها الكلمات، فَلأنّ هذا القرآن كلام الله عزّ وجل فهو معجز، ومن تعاريف القرآن الموجزة أنه الكلام المعجز، أي يَعجز البشر عن صياغة مثله، ولو سورة منه، لأن فيه إعجازاً بلاغيّاً، وفيه إعجازٌ لغوي، وإعجازٌ تشريعي، وإعجازٌ علمي، وإعجازٌ تاريخي، وإعجازٌ غَيْبي، فالحديث عن إعجاز القرآن لا ينتهي، لكنّه يُجْمَع بقولنا: **" إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله ".**

إذاً كأن الله سبحانه وتعالى يبيّنُ لنا أنّ هذا القرآن المعجز الذي هو كلام الله عزّ وجل مؤلف من هذه الحروف، فإن كان بالإمكان أن تأتوا بمثله أو بسورةٍ من مثله فافعلوا، هذا المعنى الثاني.

المعنى الثالث:

المعنى الثالث لهذه الحروف: أنها أوائل أسماء الله عزّ وجل.

المعنى الرابع:

أنها أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام، ويُرَجّحُ هذا التوجُّه الأخير أن السُّور التي تبدأ بهذه الحروف تأتي في أغلب الأحيان بعدها حروف الخطاب..

(طس تِلْكَ (1))

فكأنّ الله سبحانه وتعالى يُخاطب النبي عليه الصلاة والسلام بأسمائه التي تميّز بها، فمن أسمائه أنه طاهر، طاهر القلب، من أسمائه أنه سليم من كل عيب، فإذا شئنا أن نوجّه هذه الحروف على أنها أوائل

أسماء النبي عليه الصلاة والسلام، يؤكِّد ذلك أنه قد جاء حرف الخطاب بعدها، هذا وجه، ودائماً وأبداً إنّ القرآن الكريم حمّال أوجه، ودائماً وأبداً القرآن الكريم ليس مِلْكَ أحدٍ، ودائماً وأبداً كما قال الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه: **" في القرآن آياتٌ لمّا تُفسّر بَعْدُ ".**

إذاً: إمّا أن نقول: **" الله أعلم بمراده "**، وإما أن نقول: **" إن القرآن الكريم من جنس هذه الحروف "**، فيا معشر الإنس والجن إن استطعتم أن تأتوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن، فها هي الحروف بين أيديكم فافعلوا، إنّ هذا شيءٌ فوق إمكاناتكم، أو أن نفسِّر هذه الحروف بأنها **" أوائل أسماء الله الحسنى "**، أو أنها **" أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام والذي يدعِّم ذلك مجيء حرف الخطاب عقب هذه الحروف في أغلب الأحيان "..**

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1))

تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ

1 – دلالة اسم الإشارة:

كلُّكم يعلم أن هذه التاء اسم إشارة، وأن هذه الكاف كاف الخطاب، لكنّ اللام تسمى لام البعد، تقول: ذا، أي تشير إلى شيء، وتقول: ذاك، تشير إلى الشيء وتخاطبه، وتقول: ذلك، تشير إلى الشيء وتخاطبه، وتبيّن أنه بعيد، فلماذا جاءت هذه اللام في اسم الإشارة تلك ؟ لأن هذا القرآن الكريم عالي الشأن، بعيد المَرْمَى، هذا الذي تعنيه هذه الآية في قوله تعالى:

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1))

2 – معنى الآية:

آيات القرآن، الآية تعني العلامة، وأيَّةُ آيةٍ في القرآن الكريم تدلُّ على عظمة الله عزّ وجل، وهناك فرقٌ كبير بين كلام البشر وكلام خالق البشر، في كلام البشر حشوٌ لا طائل منه، وفي كلام البشر اضطراب، في كلام البشر خَلَل، في كلام البشر خَطَل، في كلام البشر عدم تنسيق، ولكن كلام الله سبحانه وتعالى مُبَرأٌ عن كل هذه العيوب..

(لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2))

(سورة السجدة)

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصّلت: من الآية 42)

فإذاً: أشار الله عزّ وجل إلى عُلوّ شأن القرآن، وإلى بعد مراميه عن طريق اللام، تلك، وأشار ثانيةً إلى أن هذه المقاطع التي تنتهي عندها الكلمات هي آيات، هي علامات، هي دلائل، هي إشارات إلى عظمة الله عزّ وجل في كل سورةٍ، في كل آيةٍ، في كل كلمةٍ، في كل حرفٍ، في كل حركةٍ، ولو أن الإنسان أمضى حياته كلّها في البحث في عظمة هذا القرآن وما تعنيه آياته، وما تَنِمُّ عنه دلالاتُه لأمضى عمره كله، ولم يُحِط به علماً، لأن القرآن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((القرآن غنىً لا فقر بعده، ولا غنىً دونه))

[ورد في الأثر]

وبعض الآيات الكريمة تؤكِّد هذا..

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109))

(سورة الكهف)

3 – تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ

أمّا أن يُذْكَر في هذه الآية القرآن والكتاب في ذلك إشارة هامة لابدّ من شرحها.

تعريف القرآن:

القرآن كما قلت قبل قليل: هو الكلام المعجز، فلا يمكن لبشرٍ أن يأتي بمثله، ولا بسورةٍ منه، هناك تعريفٌ أكثر شمولاً وأكثر دقّة، القرآن الكريم كلام الله المنزّل على النبي محمّدٍ صلى الله عليه وسلّم، المَكتوب في المصاحف، فأي شيءٍ آخر ليس في هذه المصاحف فليس قُرآناً، المنقولُ بالتواتر، والتواتر كما تعلمون معناه: إذا نقل كلاماً جمعٌ غفيرٌ ثقاة عدول عن جمع غفيرٍ ثقاة عدول من عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى يومنا هذا، نقول: هذا كلام متواتر، إذاً: القرآن فيه صفة النقل الشَفَهي، وفيه صفة النقل الكتابي.

معنى قرآن وكتاب:

هو قرآن من فعل قرأ يقرأ قرآناً وقراءةً، وهو كتاب من كَتَبَ بمعنى جَمَعَ يَكْتُبُ كتابةً وكتاباً، فالكتاب هو الجَمْع، كيف أن الكتابة تجمع الحروف في كلمات، وتجمع الكلمات في جُمَلْ، والجُمَلْ في عبارات، والعبارات في موضوعات، إذاً القرآن ثابتٌ شفهيّاً وكتابياً، ففي قوله تعالى:

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ (1))

إشارةٌ إلى أنه منقولٌ بالتواتر من رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى يومنا هذا، نقله جمعٌ غفيرٌ عن جمعٍ غفيرٍ عن جمعٍ غفيرٍ لا يمكن أن يتواطئوا على الكذب، أو يستحيل تواطؤهم على الكذب، أيضاً هو مكتوبٌ في كتابٍ اعتنى به النبي عليه الصلاة والسلام قبل وفاته، وجاء من بعده سيدنا عثمان جامعُ القرآن، فوحّد اللَهَجَات، وبعث به إلى الأمصار، وإلى يومنا هذا القرآن الكريم في حرزٍ مكين تولّى الله سبحانه وتعالى حفظه، إذاً:

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصّلت: من الآية 42)

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ (1))

قرآن يُقْرَأ، وكتابٍ يُكْتَب، تجده في المصاحف، وتسمعه من الحفظة، والله سبحانه وتعالى هو الذي سخّر هؤلاء العلماء الحُفّاظ، سخّرهم لحفظ هذا الكتاب، حفظوه في صدورهم، وحفظوه في السطور، فالقرآن الكريم محفوظٌ في السطور، ومحفوظٌ في الصدور، متواترٌ من جيلٍ إلى جيلٍ، ومنقولٌ من كتابٍ إلى كتاب، هذا يُدْخِلُ في قلب الإنسان الطمأنينة إلى أن هذا القرآن هو نفسه الذي أُنْزِلَ على النبي عليه الصلاة والسلام من دون زيادةٍ ولا نقصان.

4 – وَكِتَابٍ مُبِينٍ

أما كلمة مُبين تعني أنه واضح، هذا القرآن لبني البشر، فمن يدّعي أن القرآن بحرٌ إذا غُصْتَ فيه غرقت، ويقول: وما لنا وما للقرآن دعونا من تفسيره، هذا شيء فوق طاقتنا، فوق مستوانا، هذا كلام إلى حدٍ ما مقبول، أما أن يحملك هذا الكلام على ترك القرآن، وإلى جعله في مَنْأى عن فهمه، فهذا لم يُرِدْهُ القرآن الكريم لقول الله عزّ وجل:

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

الله سبحانه وتعالى يدعونا إلى تدبُّره، يدعونا إلى فهمه، يدعونا إلى التأمُّل فيه.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ: من الآية 46)

ما الذي يعرّفنا قدر النبي عليه الصلاة والسلام ؟ هو هذا الكتاب الذي جاء به، فأن نجلس في مجلسٍ عام، ونقرأ هذا القرآن، ونفهم مراميه وأبعاده، ونفهم دقائقه ومبهمه، وتفسير آياته وأحكامه الشرعيَّة، وآيات العقائد، وآيات اليوم الآخر، فهذا من صلب مهمّة الإنسان في الحياة.

لذلك القرآن هو نفسهُ الكتاب، الكتاب لأنه مكتوب، والقرآن لأنه متلوّ، والقرآن كما قلت قبل قليل: مصدر قرأ يقرأ قراءةً وقرآناً.

شيءٌ آخر، القرآن مبين، هناك آياتٌ متشابهات، لكن الله سبحانه وتعالى جعل معظم آياته محكمات، ففي القرآن الكريم..

(آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنّ أمُّ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران: من الآية 7)

هذه آيةٌ محكمة واضحة..

(وَأَقِمْ الصّلاةَ إنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: من الآية 45)

لو أنك قرأت القرآن تجد معظم آياته محكمة واضحة، وبعضها يحتاج إلى مُفَسِّر، بعضها يحتاج إلى أن تسأل عنها، وربنا سبحانه وتعالى أمرك بهذا، قال:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ(7))

(سورة الأنبياء)

فمعظم الآيات محكمة، والمحكم واضح لا يحتاج إلى تأويل ولا إلى تفسير، فهذا الذي يُعْرِضُ عن فهم القرآن بحجَّة أنه كلام الخالق، ومن غاص فيه فقد غرق، هذا الكلام إلى حدٍ ما مقبول ؛ أمّا أن يحملك هذا الكلام على هجر القرآن وعلى ترك فهمه فهذا كلامٌ باطل، لأنه كتابٌ مبين، ومعنى مبين أي واضح.

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22) إِلا مَنْ تَوَلّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (24) إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

هذا الكلام واضح.

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(2))

هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِين

1 – لابد للإنسان من نورٍ يمشي به، وهو الهدى:

الإنسان مخلوق يفني عمره وحياته في الدنيا، لكنّ الإنسان رُكِّبَت فيه الشهوات، مُنِحَ نعمة العقل، فيه نوازع، فيه حاجات جسديَّة، فيه حاجات نفسيَّة، فيه حاجات اجتماعيَّة، فيه صراعات، فيه مبادئ، فيه حاجات، فيه مُثُل، فيه شهوات، فيه قِوى ضاغطة، فيه قِوى جاذبة، فيه أشياء كثيرة، فإذا عاش الإنسان من دون نورٍ يَهتدي به، من دون منهجٍ يسيرُ عليه، من دون كتابٍ يهتدي بهديه فقد ضلّ سواء السبيل، فالله سبحانه وتعالى خلق الكون، ونوّره بالقرآن، ومن أسماء القرآن أنه نور تستنير به، من أسماء القرآن أنه فرقان يفرّق بين الحقّ والباطل، من أسماء القرآن أنه الكتاب الذي فيه المنهج، من أسماء القرآن أنه قرآن، وهذا الذي يُتلى،هو قرآن وهو كتابٌ، وهو فرقانٌ، وهو نورٌ، إذاً:

(هُدًى وَبُشْرَى (2))

الهُدى نهتدي به..

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

2 – ما هي البشرى ؟

أما البُشْرَى فإنه يبدو من هذه الآية أن هذه الدنيا دار عمل، وأن هذه الدنيا دار ابتلاء، دار امتحان، دار مَشَقَّة..

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(4))

(سورة البلد)

ولكنّ الآخرة هي دار الجزاء، دار النعيم المُقيم، دار السعادة، دار العطاء، دار الإكرام، دار التشريف، فالقرآن الكريم يهديك في الدنيا إلى سواء السبيل، ويُبَشِّرُكَ بأن بعد هذه الدنيا حياةً أبديَّة لا نغص فيها ولا نَصَب..

(هُدًى وَبُشْرَى (2))

تهتدي به من جهة، وتستبشر من جهةٍ ثانية، يضئ لك الطريق، ويكشف لك عن المستقبل البعيد.

(هُدًى وَبُشْرَى (2))

إنك تهتدي بأحكامه في علاقتك بزوجتك، إنك تهتدي بأحكامه في علاقتك بمن حولك، في البيع والشراء، إنّك تهتدي بأحكامه في علاقتك بربّك، إنك تهتدي بأحكامه في علاقتك بجسدك..

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2))

3 – هدى وبشرى للمؤمنين خاصةً:

لكن هذه اللام تحملُ إشارةً دقيقة، ليس هذا القرآن هدىً وبشرى لعامّة الناس، لأن الله سبحانه وتعالى يقول في آياتٍ أخرى:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصّلت: من الآية 44)

(وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا(82))

(سورة الإسراء)

إنه:

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2))

فهذا كلام من ؟ كلام الله، فإذا لم يكن الإنسان مؤمناً بالله عزّ وجل فهذا الكلام لا معنى له عنده، وإذا آمنت بالله، وعرفت الله عزّ وجل عندئذٍ تشعر بحاجةٍ ماسّةٍ إلى معرفة كلامه، إلى معرفة مَنْهَجِهِ، إلى معرفة أمره ونهيه، إلى معرفة نظامه، إلى معرفة سُنَنِه، هكذا، لذلك الصحابة الكرام قالوا: **" أوتينا الإيمانَ قبل القرآن "..**

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2))

حصراً، أما بقية الناس فإنهم يقرؤون القرآن، ولا يفهمون منه شيئاً، يقرؤون القرآن، ويخرجون منه كما يخرج السهم من الرميّة، لا يَعي شيئاً، يقولون:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا)

(سورة محمد: من الآية 16)

فلذلك الإيمان قبل القرآن، لأنّ هذا الكون كلّه دالٌ على الله عزّ وجل، فإذا عرفت أن هذا الإنسان عظيم فعندئذٍ تهتم برسالته، تهتم بأمره، تهتم بنهيه، تهتم ببرنامجه، تهتم بنظامه، تهتم بوعده، تهتم بوعيده، إذاً يجب أن نتعرّف إلى الله عزّ وجل، فإذا عرفناه حرصنا على فهم هذا الكتاب حِرْصاً لا حدود له، إذا عرفنا الله عزّ وجل حرصنا على فهم كلامه حرصاً لا حدود له، إذا عرفنا الله عزّ وجل حرصنا على تنفيذ أمره تنفيذاً دقيقاً، لذلك:

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2))

الإيمان يحتاج إلى جهدٍ:

والإيمان يحتاج إلى جُهد، ألا إنّ سلعة الله غالية، تريد جنّةً عرضها السماوات والأرض، تريد أن تسعد إلى الأبد، تريد أن تكون من عَلِيّة خلق الله عزّ وجل، من الذين اصطفاهم لدخول الجنّة، ولا تريد أن تبذل وقتاً أو جهداً في الدنيا لمعرفة الله عزّ وجل ؟ هذا شيءٌ عُجاب، هذا الذي يخوض ويلعب ولا يدري لِمَ يخوض ويلعب هذا إنسانٌ تائهٌ ضال، إذاً من قوله تعالى:

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2))

يتّضح أن الإيمان قبل القرآن، لو أن القرآن قبل الإيمان لقال الله عزّ وجل: **" هدىً وبشرى للناس "**، بينما هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وابتعدوا عن ربّهم، وصف الله القرآن بحقّهم بأنه عمى عليهم، بأنه لا يزيدهم إلا ضلالاً، إلا بُعداً، إلا خسارا.

من هم المؤمنون ؟ هؤلاء الذين يُعَدُّ القُرآن لهم هدىً وبُشرى، فأحياناً الإنسان لا يهتم بالطُرُق إلا إذا كان مسافراً، إذا كان مسافراً يقصد بلدةً معيّنة، وفي هذه البلدة يُعَلِّق آمالاً عريضة على بلوغها، عندئذٍ يُصْغِي إلى النشرة الجويّة، يصغي إلى حالة الطُرُق، يقرأ بعنايةٍ بالغة اللافتات من هنا البلد الفلاني، من هنا الفلاني، يديم الإصغاء إلى حالة الطُرُق، والنظر إلى اللافتات، والأسهم والإشارات، وهذا سببه الحرص على بلوغ هذه البلدة، فأنت إذا أردت الله عزّ وجل، أردت أن تصل إليه، من هذه الإرادة الجازمة يأتي اهتمامك لمعرفة كتابه، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، ماذا يُحِب وماذا يكره، ماذا يأمر وماذا ينهى، ماذا يَعِدُ المؤمنين وماذا يَعِدُ الكافرين، فلا يمكن أن نهتمّ بالقرآن إلا إذا عرفنا الواحد الديّان.

أعيد وأكرّر: **" أوتينا الإيمان قبل القرآن "**، فلابدّ من وقفةٍ طويلة لمعرفة الله، لابدّ من وقفةٍ طويلة في هذا الكون لمعرفة الخالق، لمعرفة المُربي، لمعرفة المسيّر، عندئذٍ ترى أن قرآنه، وكلامه، وكتابه في أعلى درجة من اهتمامك، وعنايتك، وبحثك عن الحقيقة.

مَا صفاتُ هؤلاء المؤمنين ؟

من هم هؤلاء المؤمنون ؟ الله سبحانه وتعالى وصفهم بأنهم:

(يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (3))

1 – الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

قد يسأل سائل: لماذا اختار الله من بين أركان الإسلام الصلاة والزكاة ؟

الحكمةُ مِن الربط بين الصلاة والزكاة:

بالمناسبة لابدَّ من التنويه أن الصلاة عبادةٌ بدنيَّة، بينما الزكاة عبادةٌ ماليَّة، الصلاة عبادةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بالخالق، بينما الزكاة عبادةٌ متعلِّقةٌ بالمَخلوق، فإذا أردت أن تلخِّص الدين كلَّه في كلمتين أقول لك: إن الدين اتصالٌ بالخالق، وإحسانٌ إلى المخلوق، وهكذا قال سيدنا عيسى عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(31))

(سورة مريم)

كأن الله سبحانه وتعالى جَعَلَ الصلاة ركناً في بابها، وجعل الزكاة ركناً في بابها، فالصلاة أساس العبادات، أنت تصوم من أجل أن تُصلي، وتحجُّ بيت الله الحرام من أجل أن تتصل بالله عزَّ وجل، وأنت تدفع زكاة مالك من أجل أن تُصَلِّي، إنها الفرضُ الوحيد الذي يتكرَّر، والذي لا يسقط بحال، الصيام يَسْقُطُ عن المريض وعن المسافر، والحج يسقط عن الفقير وعن غير المستطيع، والزكاة تسقط عن الفقير، أما الفرض الوحيد المتكرِّر الذي لا يسقط بحال فهو الصلاة، إنها عماد الدين، مَن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، إنها سيِّدة القُرُبات، وغُرَّة الطاعات، إنها معراج المؤمن إلى ربِّ الأرض والسماوات، إنها مناجاةُ الحق، إنها اتصالٌ بالله عزَّ وجل، إنها ذكرٌ لله..

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

لذلك اختار ربنا عزَّ وجل من بين أركان الإسلام كُلِّها الصلاة، هي في بابها ركن، فالصيام للصلاة، والحج للصلاة، والصلاة للصلاة، العبادات التي في جوهرها اتصالٌ بالله في رأسها الصلاة، ربنا عزَّ وجل اختارها واكتفى بها، قال:

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (3))

كل الأعمالِ التي في جوهرها إحسانٌ إلى المخلوق هي زكاة، إعطاء مالك للناس من أجل أن ترحمهم، ومن أجل أن تخفِّف من مآسيهم، ومن أجل أن يرضى عنك ربُّهم، هذه الزكاة، فربنا عزَّ وجل وصف المؤمنين وصفاً بليغاً موجزاً، جامعاً مانعاً قال:

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (3))

وما بال بَعْضِ الناس لا يزكي ؟ قال الله عزّ وجل:

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3))

2 – وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

لأنه حينما يجعل الإنسان اهتمامه كله في الدنيا، ويُسقِط الآخرة من حسابه، فأغلب الظن إنه لن يصلي، ولن يزكي، لأن الدنيا مبلغ علمه وغاية قصده، أما حينما تنتقل اهتماماته إلى الدار الآخرة، حينما يدخل الآخرة في حسابه اليَومي، فهؤلاء الذين يُدْخِلون اليوم الآخر، والوقوف بين يدي الله عزّ وجل يوم القيامة في حسابهم اليومي ؛ في بيعهم، في شرائهم، في نظراتهم، في غضّ بصرهم، في عطائهم، في منعهم، في غضبهم، في رضاهم، في صلتهم، في بعدهم فهؤلاء يبادرون بالصلاة والزكاة، والإنسان له حركات وسكنات كثيرة جداً، له نشاط كبير، وإذا أدخلت اليوم الآخر في حسابك اليومي تُبادر إلى الصلاة وإلى الزكاة.

فلذلك الإيمان باليوم الآخر يأتي في الدرجة الثانية بعد الإيمان بالله، فمن كان إيمانه بالله ضعيفاً فبالتالي يمكن أن يكون إيمانه باليوم الآخر أضعف، ومن لوازم الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، لأن اليوم الآخر هو الذي يعطي الدنيا فلسفة خاصّة، الدنيا فيها قويٌ وفيها ضعيف، فيها غنيٌ وفيها فقير، فيها ذو حَظٍ عظيم وفيها ذو حظٍ ضَئيل، فيها إنسان يملك وإنسان لا يملك، إنسان صحيح وإنسان مريض، هذه الحظوظ موزّعة في الدنيا توزيع ابتلاء، أما إذا اكتفيت بالدُنيا تحسُ أن في هذا العطاء إجحافاً، لمَ أعطى فلاناً ولَمْ يعط فلاناً ؟ أما إذا آمنت باليوم الآخر تشعر أن فهمك للدنيا يصبح فهماً صحيحاً.

فلذلك من لوازم الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر، إذا آمنت باليوم الآخر يصبح إيمانك هذا رادعاً لك عن أي عمل لا يرضي الله عزّ وجل، ما الذي يمنع القوي من أن يستخدم قوّته لأخذ مال الناس ؟ إيمانه باليوم الآخر، ما الذي يمنعك أن تنظر إلى امرأةٍ لا تحلُ لك نظرة شهوةٍ ؟ إيمانك باليوم الآخر، فلهذا وصف ربنا عزّ وجل المؤمنين بأنهم:

(يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (3))

وخصهم وحدهم بأنهم الذين يوقنون باليوم الآخر، وإليك الإيضاح، قال:

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3))

الفائدة من تَكرار لفظ (هُمْ): وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

لماذا جاءت هم مكرَّرة ؟..

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ (3))

بعضهم قال: هذه للقَصْر.. أي أن..

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (3))

وحدهم يؤمنون بالآخرة، الآن في معنى دقيق جداً: أن إيمانك باليوم الآخر لا عبرة به، ولا قيمة له إن لم يكن هناك في عملك اليومي ما يؤكِّده، فإيمانك عندئذٍ كلامٌ بكلام، ما من مسلمٍ على وجه الأرض يُنْكِرُ بلسانه اليوم الآخر، ولكنّ الذي لا يعمل لهذا اليوم، ولا يتقي الله، ولا يخشى الوقوف بين يديه هو بشكل عملي، وبشكلٍ واقعي ليس مؤمناً بهذا اليوم، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ (3))

أي هم وحدهم يؤمنون باليوم الآخر، لأنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ومن دلائل إيمانك باليوم الآخر إقامتُكَ للصلاة وإيتاؤك للزكاة، إذا آمنت بالله واليوم الآخر فلابدَّ مِن أن تصلي، ولابدَّ مِن أن تزكي، إذا ادَّعيت أنك مؤمنٌ بالله واليوم الآخر، ولم تصلِّ، ولم تزكِّ فإيمانك باطل، هذا كلُّه من كلمة (هم) الثانية..

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ (3))

شيءٌ آخر، (هم) الثانية قال عنها بعض العلماء: هي لوصفِ شأنهم، فأحياناً الإنسان يفعل شيئاً لا يُعَبِّر عن شأنه، وأحياناً يفعل شيئاً يعبِّر عن شأنه، فلو أن إنساناً أخذ شيئاً، ليس له، خطأً، هل نقول عنه: إنه سارق ؟ لا، ليس من شأنه أنه يسرق، أما إذا كان الإنسان له سوابق، وأخذ هذه الحاجة التي ليست له فهذا من شأنه، فربنا عزّ وجل بتكراره كلمة (هم) أشار إلى أن هؤلاء من شأنهم أنهم يوقنون باليوم الآخر.

فلذلك أيها الإخوة، دعونا من بعض التفصيلات، ولكن أقول: إنك في عملك اليومي إذا لم تدخل هذه الوقفة التي ستقفها بين يدي الله عزّ وجل، إن لم تُدْخِلْهَا في حسابك فلست مؤمناً، وانظر إلى هذا الذي يأخذ ما ليس له، يعطي أقلّ مما يجب أن يُعطي، هذا الذي يسهو، ينسى، يغفل، هذا الذي يتجاوز، يطغى، يبغي، يأخذ، يعتدي، فهذا ليس مؤمناً باليوم الآخر بشكلٍ قطعي، لأنه لو آمن بهذا اليوم العصيب، وبهذا الحساب العسير فلا يمكن أن يفعل هذا الذي يفعله، فلذلك سيدنا عليٌّ رضي الله عنه قال في بعض الحديث عن هؤلاء: **<< لا تجد في أعمالهم ما يُنْبِئُ أنهم مؤمنون باليوم الآخر >>.**

إذاً:

(تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3))

سؤالٌ مصيريٌ خطير: هل أنا مؤمنٌ باليوم الآخر ؟

شيءٌ مَصيري، شيءٌ خطير وضروري أن تسأل نفسك هذا السؤال: هل أنا مؤمنٌ باليوم الآخر ؟ لنضرب مثلاً التساهل في طاعة الله ؛ فإذا كان في بيت أحدنا معاصٍ، أو مخالفات، أو تقصيرات، إذا كان في تعامله اليومي تجاوزات، وكذلك لديه شيء من الحرام في دخله، وشيء من الحرام في إنفاقه، وشيء من الحرام في علاقاته مع الناس، في سهراته، في مجالسه، في نزواته، في نشاطه، في كلامه، كيف يمكن أن يكون هذا الإنسان مؤمناً باليوم الآخر ؟ لا يُبالي، لو أنه كان يبالي بهذا اليوم لسارع إلى الطاعة، إلى طاعة الله عزّ وجل، فهذا الذي يوهمك أنك لمجرّد أن تقول: أنا آمنت باليوم الآخر فتظن أنك مؤمن ؛ هذا يوقعك في الوهم، لن تكون مؤمناً باليوم الآخر إلا إذا كنت مستقيماً، لن تُفْرَزَ في صفِّ المؤمنين باليوم الآخر إلا إذا كان الإيمان باليوم الآخر واضحاً في عملك..

((الإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ، لا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[من سنن أبي داود عن أبي هريرة]

فهذا الذي يأخذ ما ليس له، هذا الذي يعتدي على حقوق الورثة، ويأخذ النصيب الأكبر، احتيالاً أو اغتصاباً، ويصلي ! كيف يكون هذا الإنسان مؤمناً باليوم الآخر ؟ هذا الذي يقع في المعاصي، ويعلم أنها معاصٍ، كيف يكون مؤمناً باليوم الآخر ؟ مستحيل، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لمّا جاءه أعرابي قال: **هل عرفت الرب** ؟، قال: **"نعم"**، قال: **" فماذا صنعت في حقِّه ؟ "** ثم قال له: "هل عرفت الموت ؟ " قال: **"نعم "** قال: **" فماذا أعددت له ؟ ".**

لابدّ أن يكون الإنسان واضحاً مع نفسه، لا أن يعيش بالوهم، ولا أن يعيش في أحلام ممتعة، لكنّها موهومة.

بين الحقيقة المرة والوهم المريح:

عندنا شيئان، عندنا وهم مريح، وعندنا حقيقة مُرّة، أنا أنصح كل أخ كريم أن يبحث عن الحقيقة المُرّة لا عن الوهم المريح، الوهم المريح يبعثه على أن يقول: نحن إسلام الحمد لله، نحن لنا الجنّة، نبينا سيشفع لنا، هذا وهم مريح، يريحك من التعب، والنَصَب، والانضباط، والبذل، والعطاء، والخوف، أما أن تقف عند حدود كتاب الله، أن تعرف ماذا يعني الإيمان باليوم الآخر ؟ إنه يعني الطاعة لله عزّ وجل، فإذا كان في الطاعة خللٌ، وكان في الطاعة تقصيرٌ، فهذا يدلُّ على ضعف إيمانك باليوم الآخر.

إذاً:

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ(4))

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

أي أنهم أسقطوا الآخرة من حسابهم، أغفلوا أن تكون أحدَ أهدافهم، يريدون الدنيا فقط، وهذا حال معظم الناس ؛ يريد بيتاً، وزوجة، ودخلاً، ومركبة، ومكانة، ورفْعَة، يريد أن يفعل كذا وكذا، وأن ينتقل من مكان إلى مكان، وأن يأكل ما لذّ وطاب، الرغبات الدنيوية كلُ همِّه، زخارف الدنيا تُصبْح كل علمه، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ (4))

زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ

همُّه التزيينات، همُّه أن يَغْرَقَ في النعيم، أن يغرق في المباهج، في المسرّات، همُّه أن يكون في أعلى درجة من المظهر الفخم، في بيته وفي حياته اليوميّة، وفي أثاث بيته، وفي مركبته، همُّه هذا المظهر..

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ (4))

التزيين بين كسب الإنسان وتقدير الله:

الحقيقة أنك إذا عزوت الشيء إلى الله عزّ وجل فهذا من باب أن الفاعل هو الله، وإذا عزوته للإنسان، أو إلى الشيطان فهذا يعني أن الإنسان مخيَّر، وأنّ هذا من كَسْبِهِ.

مثلاً: لا تقع في حيرة إذا قال الله عزّ وجل:

(وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة العنكبوت: من الآية 38)

وإذا قال الله عزّ وجل:

(زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ (4))

إذا عُزِيَ التزيين إلى الله عزّ وجل فهو من باب أن الله هو الفاعل، وإذا عزي التزيين إلى الشيطان فمن باب أن هذا العمل هو كَسْبٌ للشيطان، فإذا قال مدير المدرسة للطالب: لقد رسبت، معنى ذلك أن هذا من تقصيره، إن تقصيره وعدم اهتمامه وتهاونه أدى به إلى الرسوب، وإذا قال المدير لهذا الطالب: لقد رسَّبْتُك، بمعنى أن الذي اتخذ القرار هو المدير، فإذا عَزَوْتَ قرار الرسوب إلى المدير فمن باب التنفيذ، وإذا عزوته إلى الطالب فمن باب المسؤوليّة، فالإنسان لمجرّد أن يسقط الآخرة من حسابه اليومي، لمجرّد أن يجعلها خارج اهتمامه، وراء ظهره، لمجرّد أن تتربّع الدنيا على عرش قلبه، لمجرّد أن تصبح الدنيا أكبر همّ الإنسان ومبلغ علمه، لمجرّد أن تكون كل خواطره دنيويّة، عندئذٍ..

(زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ (4))

يظنُّ أن هذا العمل الذي يبتغي به الدنيا عظيم والحقيقة هو عند الموت لا قيمة له أبداً، وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا، فدائماً ليكن عندك مقياس دقيق: ما قيمة هذا العمل بعد الموت ؟ لو أنك فعلت كذا وكذا، زرت كذا وكذا، التقيت مع زيداً وعمرو، هذا العمل ضَعْهُ على مِحَكِّ القبر، فماذا ينفعك بعد الموت ؟ لا شيء، إذاً: لا قيمة له عند الله..

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(من سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4))

فَهُمْ يَعْمَهُونَ

معنى العمه:

معنى يَعْمَه: أي هو في حيرة، يحتار، المنافق كالشاة الحائرة بين الغنمين، مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، هذا المنافق لا هو مؤمن فيقطف ثمار الإيمان ؛ ولا هو كافر فيُقصَى من دائرة الإيمان، هو مذبذب..

((مثل المنافق كالناقة ربطها أهلها، لا تدري لا لمَ عُقِلَت ؟ ولا لمَ أُطْلِقَت؟))

[ورد في الأثر]

هذه الحيرة، هذا التيه، يقول لك: نحن في ضياع، نحن تائهون، لا نعرف ما المصير، لا نعرف إلى أين نحن سائرون، هذا كله كلام أهل النِفاق، لأنه حينما ترك الآخرة، وأعرض عنها، وأخرجها من حسابه، وجعل الدنيا مبلغ علمه ومنتهى أمله، الله عزّ وجل جعل عمله في نظره هو العمل الصحيح. أحياناً تجد إنساناً يتلف كسوة بيت بمئات الألوف لكي يغيّر لون الرخام، أو لون البلاط، يقول لك: لم يعجبني، فهل أنت مخلِّد في الدنيا ؟ ما إن ينتهي من كسوة هذا البيت حتى يأتيه مَلَك الموت، إلى أين هو يمشي ؟ لسان حاله ومقاله:

(يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ)

(سورة الزخرف: من الآية 56)

(زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ (4))

طبعاً الشيء المباح مباح، لكن حينما يَدَعُ الإنسان طريق الإيمان، حينما يَدَعُ الواحد الديَّان، حينما يطلق لشهوته العِنان، حينما يجعل الدنيا كُلّ شيء، حينما يجعل المال كل شيء، يجعله دينه ومعبوده عندئذٍ يضلُّ سواء السبيل..

(فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5))

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ

أي أنه خسر الدنيا والآخرة، في الدنيا لهم سوء العذاب، وفي الآخرة ليسوا خاسرين، بل هم الأخسرون، أي أنهم أشد الناس خُسْراناً، هذا الذي خسر نفسه يوم القيامة، خسر الجنَّة، خسر كل شيء، من هنا يقول الله عزّ وجل:

" ابن آدم، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليكَ من كل شيء ".

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ

في مطلع هذه السورة حديثٌ عن يوم القيامة، حديثٌ عن الإيمان باليوم الآخر..

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6))

هل عرفت خالق الكون ؟ هل عرفت ربَّ العالمين ؟ هل عرفت الإله العظيم ؟ هل عرفت صاحب الأسماء الحسنى ؟ وأنّ هذا القرآن من عنده..

(مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6))

1 – مَن هو الحكيمُ ؟

مَن هو الحكيم ؟ قال بعض العلماء: الذي يُحْكِمُ خَلْقَ الأشياء، أي أن خلق الله عزّ وجل مُحْكَم..

(ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ(4))

(سورة الملك)

الله عزّ وجل لم يجعل في هذا الكون خللاً ولا خطأً، ولا شيئاً غير مُحْكَم، فالحكيم هو الذي إذا صنع شيئاً أحكمه، والحكيم هو الذي يتقن التدبير، إذا رسم خطّةً تأتي هذه الخطّة مُحْكَمَةً، والحكيم هو الذي أحسن التقدير، إذا قدّر الأشياء جاءت تقديراته صائبةً مئة بالمئة، إحكامٌ في الخلق، وإتقانٌ في التدبير، وحُسْنٌ في التقدير، هذا من معاني الحكيم، هذا القرآن إذاً من لدن حكيمٍ عليم.

1 – مَن هو العليمُ ؟

شيءٌ آخر، عليمٌ بالبواطن، عليمٌ بالأسرار، عليمٌ بكل شيء، أنزلَ هذا القرآن بالحجم، والطريقة، والأسلوب، والنَظْمِ الحكيم، من معاني الحكيم المُقَدّس عن فعل ما لا ينبغي، إذا قلت: الله حكيم أي تقدّست ذاته عن فعل ما لا ينبغي، فكلّما عرفت الله عرفت حكمته، نزّهته عن كل شيءٍ لا يليق بذاته، حكيم، هل يليق بالله عزّ وجل أن يتخذ ولداً ؟ هل يليق بالله عزّ وجل أن يجعل الملائكة إناثاً، ويجعلهم بناته كما يزعمون ؟ هذا لا يليق بذاته التي أخص خصائصها الوحدانيّة، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة: من الآية 269)

إذاً: أراد الله عزّ وجل أن يُعَرّفنا أن هذا القرآن الكريم من عند خالق الكون، من عند الحكيم العليم، فالحكيم الذي أحْكَمَ خلق الأشياء، وأتقن التدبير، وأحسن التقدير، والحكيم المُقَدّس عن فعل ما لا ينبغي، والحكيم من كان مُصيباً في التقدير مُحسناً في التدبير، والحكيم من ليست له أغراض، وليس على عمله اعتراض، على كلٍ، كلُ ما في الكون، وكلُ شيء يعبّر عن حكمته جلّ وعلا، فإذا أردت أن تعرف الحكيم فدونك الكون ففيه تجسيدٌ لهذا الاسم العظيم، بل إن الحكمة من الأدلّة القطعيّة على وجود الله عزّ وجل، لولا الخالق لما كان في الكون حكمة، الحكمة: أيُّ شيءٌ يَرْجح بدليل، فالمرجّح هو الله سبحانه وتعالى، لا رجحان بلا مرجّح، فالحكمة أحد الأدلّة على وجود الله عزّ وجل.

3 – استنباط من اسم الحكيم: من عرف الله فهو حكيم:

قال بعضهم: من عرف جميع الأشياء، ولم يعرف الله عزّ وجل لا يسمّى حكيماً، لا يسمّى حكيماً إلا من عرف الله لأنه أصل الوجود، أصل الخير، أصل كل نعمة، فإذا عرفت النعمة، ولم تعرف المُنعم فلست حكيماً، إذا عرفت الخَلْق ولم تعرف الخالِق فلست حكيماً، إذا عرفت النظام، ولم تعرف المنظِم فلست حكيماً، إذا عرفت الكون ولم تعرف المكوّن فلست حكيماً، لذلك من عرف جميع الأشياء، ولم يعرف الله عزّ وجل لا يسمّى حكيماً، ومن عرف الله سُمّي حكيماً ولو كان ضعيف الفطنة، ولو كان مستوى ذكائه أقل مما يجب، إذا عرف الله وعرف الطريق إليه فقد عرف كل شيء، واهتدى إلى كل شيء، هذا الذي يقول: يا رب ؛ ماذا فقد مَن وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ هذا الذي عرفك ما فاته شيء، وهذا الذي لم يعرفك ما أخذ شيئاً.

مِن دلائل معرفة الله:

الآن من دلائل معرفة الله عزّ وجل:

أن تخافه.. **" رأس الحكمة مخافة الله "..** من دلائل معرفة الله عزّ وجل:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[من سنن الترمذي عن شداد بن أوس]

مِن دلائل معرفة الله عزّ وجل إيمانُك أنّ ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى.

من دلائل معرفة الله عزّ وجل أن تكون ورِعاً، إذا كنت ورعاً فأنت أعبد الناس، وإذا كنت قَنِعَاً فأنت أغنى الناس.

من دلائل معرفة الله عزّ وجل ترك ما لا يعنيك..

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

(من سنن الترمذي عن أبي هريرة)

ِ من دلائل معرفة الله عزّ وجل أنك تتعظ بغيرك ولا تتعظ بنفسك، وهذا أيضاً من دلائل معرفة الله عزّ وجل.

من دلائل معرفة الله أن تكون أكثر صمتاً، لأن الصمت دليل العقل ودليل التَبَصُّر والتأني.

ومن دلائل معرفة الله عزّ وجل أن تكون قانعاً بما أعطاك لأنك عرفته واستغنيت به عمن سواه.

من دلائل معرفة الله عزّ وجل أن تصبر لأن الصبر نصف الإيمان، واليقين هو الإيمان كلُّه.

لذلك موضوع الحكمة ؛ إحكامٌ في الخلق، حسنٌ في التقدير، إتقانٌ في التدبير، تنزيهٌ عن فِعل ما لا ينبغي، هذا بعض ما يعنيه اسم الحكيم.

كلُ شيءٍ في الكون بحكمةٍ ولحكمةٍ:

أما الكون كله فكل شيء فيه بحكمة ولحكمة ؛ بُعد الشمس عن الأرض بحكمة، شدّة الحرارة بحكمة، حجم الكرة الأرضيّة بحكمة، دورتها حول نفسها بحكمة، محورها المائل بحكمة، علاقتها بالشمس بحكمة، علاقة القمر معها بحكمة، أي شيءٍ خلقه الله عزّ وجل متعلِّقٌ بالحكمة المطلقة، فتكاد الحكمة تكون دليلاً أولياً أوله الأولوية على الله عزّ وجل.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى نبدأ بقصّة سيدنا موسى..

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ (7))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (02-18): تفسير الآيات 6 - 14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-12-15

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة موسى عليه السلام:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة النَمل، قلت لكم في الدرس الماضي: إن في هذه السورة تبشيراً وإنذاراً، ووعداً ووعيداً، وحديثاً عن توحيد الألوهية، وحديثاً عن اليوم الآخر، وفي هذه السورة أيضاً خمس قصص، قصةٌ لسيدنا موسى، وأخرى لسيدنا داود، ولِسَيدنا سليمان، ولسيدنا لوط، ولسيدنا صالح، وها نحن أولاءِ نبدأ القصة الأولى، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ (7))

(سورة النمل)

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ

1 – أدبُ القرآن في الكناية عن النساء:

لأهل في القرآن الكريم تَعْنى الزوجة، وهذا من أدب القرآن الكريم، فالمؤمن إذا أراد أن يتحدث عن زوجته، الأوْلى أن يتأدب بأدب القرآن الكريم فيقول: أهله.

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ (7))

وبالمناسبة ليس في القرآن الكريم كلِه اسم امرأةٍ إلا امرأةً واحدة، إنها السيدة مريم بنت عمران، وقد ذُكر اسمها لأن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ادّعت النصارى أنه ابن الله، فقال الله عزّ وجل في الحديث عنه:

((المسيح بن مريم))

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ (7))

2 – قصة خروج موسى إلى مدين:

كلكم يعلم أن هذا النبي الكريم ـ سيدنا موسى ـ خرج من مصر بعد قصته مع القبطي، وتوجَّهَ إلى مدين بلد سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وكيف تَمَّ التعارف بين سيدنا موسى وسيدنا شُعيب، وكيف أن سيدنا شعيبًا زوَّجَ سيدنا موسى من ابنته، وكيف أقام معه سنوات عديدة، قالوا: ثماني سنوات، وقالوا: عَشْرًا، وكيف عاد سيدنا موسى بأهله إلى مصر.

3 – رجوعُ موسى إلى مصر وضلاله الطريق:

وبينما هو في طريق العودة، فإنّ سياقَ الآيات يؤكِّدُ أنه ضَلّ الطريق، وسياق الآيات يؤكدُ أنه أصابه وأهله بردٌ شديد، إذاً هناك شيئان في هذه القصة، سيدنا موسى مع أهله، أي مع زوجته، في الطريق من بلاد مدين إلى مصر، وقد ضَلا الطريق وأصابهما بردٌ شديد، فالله سبحانه وتعالى يحدِّثنا ماذا جرى في رحلة العودة:

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا (7))

رحمةُ الله بموسى: إِنِّي آنَسْتُ نَاراً

1 – النكتة من تنكير كلمة (نارًا):

يبدو أن تنكير كلمة (ناراً) وراءَه نكتة بلاغية أو نحوها، لماذا جاءت كلمةُ (النار) نَكِرَةً ؟ يبدو أنه رأى وحده هذه الرؤية، وهذه ليست ناراً، لو أنها نارٌ حقيقية لأشار إليها بيده، هذه النار، أو هذه نار، لو أن الذي رأى النار هو وزوجته لأشار إليها، ولكن هذه رؤيةٌ خاصة.

2 – معنى: آنَسْتُ

ومعنى آنست: أي أحسست، ولا يقال: آنست إلا للشيء الذي تَميلُ النفس إليه، تقول: أنا آنست منه رُشداً، آنست منه عفةً، آنست منه أمانةً، أي شعرت بأمانته، شعرت بعفته، شعرت برشده.

فهذا النبي الكريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم وهو مع أهله، وقد استنبط بعض الفقهاء أنه لا يحقُّ للرجل أن يسافر بأهله إلا إذا أدى المهر بالكمال والتمام، فمتى استطاع موسى أن يغادر بلاد مدين إلى بلاد مصر ؟ بعد أن رعى لسيدنا شعيب غنمه السنوات المحددة، أو المدة المُتَّفَق عليها، والتي

عُدّت مهراً، وقد يسأل سائل: كيف أخذ سيدنا شعيب مهر ابنته ؟ أجاب النبي عليه الصلاة والسلام عن هذا السؤال فقال لأحد أصحابه:

((أنْتَ وَمَالُكَ لِأبيكَ))

[عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

على كلٍ ؛ رحل سيدنا موسى مع زوجته بنت سيدنا شعيب، وعبَّر عنها في هذه القصة بأهله، وهذا تعليمٌ لنا، هناك رجال طيبون، ولكن لم ينتبهوا لهذه الناحية، في أحاديثهم الطويلة عن زوجاتهم، ففي الجلسة الواحدة عشرات بل مئات المرات تجده يقول: قلت لفلانة، وقالت لي فلانة، يعني زوجته، فلانة قالت لي، وفلانة قلت لها، فهذا التصريح باسم الزوجة ليس من أدب المؤمن، لأن الاسم أحياناً يوحي بشيء، قد تكون هذه المرأة ليست فاتنة، لكن اسمها دلالته فاتنة، فالاسم أحياناً يعطي ظلالاً قد تثير خيال السامع، الأكمل أن تُعْرِضَ عن ذكر النساء بأسمائهن، هذا من قَبيل تأدُّب الإنسان بأدب القرآن الكريم، الأوْلى أن تقول: بنتي أو زوجتي، أو أهلي، أو أهل بيتي، هذا كله من قبيل التأدُّب.

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ (7))

3 – سَآتِيكُمْ مِنْهَا

لمَ لم يقل: سآتيكِ ؟ هذه وقفة، لِمَ قال: سآتيكم بضمير الجمع مع أن امرأته واحدة ؟ استنبط بعض علماء التفسير من عدول القرآن عن مخاطبة أهله بالمفرد، وإلى مخاطبة سيدنا موسى أهلَهُ بضمير الجمع، إلى أن الإنسان يأنسُ بأهله كما لو كانوا جماعة، فالله عزّ وجل قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم: من الآية 21)

فالسُكنى إلى الزوجة أُنْسٌ بها، فإنك تستأنس بزوجتك كما لو جلست في جماعةٍ تستأنس بهم، هذا ما يشير إليه قوله تعالى:

(سَآتِيكُمْ (7))

ليس من باب التعظيم، ولكن من باب الإشارة إلى أن الإنسان من جبلّته أنه يأنس بأهله كما لو كانت جماعة تؤنسه.

(سَآتِيكُمْ مِنْهَا (7))

منها من النار التي رأيتها..

(بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7))

سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ

وهو في الطريق ومعه أهله رأى ناراً، رأى وحده النار، ولم يقل: رأيت، بل قال: آنست ناراً، وفي التعبير بـ (آنست) شعور، يعني أنا أشعر أن هناك ناراً، وهو شعور ترتاح إليه النفس، لابدَّ من أن يكون حول النار أُناساً يخبرونه عن الطريق، فهو قد ضَلَّ الطريق، أو أن يأتي من هذه النار بشعلة تصطلي بها زوجته أي تستدفئ بها..

(سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7))

1 – معنى: تصطلُونَ

اصطلى بالنار أي تَدَفَّأ بها، وأحد الحكماء قال: الناس كالنار، تَدَفَّأ بهم، ولا تقترب منهم، إنك إن اقتربت منهم أحرقوك، وإن تدفأت بهم نفعوك، أي اقترب منهم اقتراباً معتدلاً.

(بِشِهَابٍ (7))

2 – معنى: شِهَابٍ

الشهاب، النور الممتد يسمى شهاب في اللغة..

(فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(18))

(سورة الحجر)

النور الذي يمتد كالخيط يسمّى في اللغة شهاباً، لكن الشهاب من معانيها الأخرى الشُعْلَة، والقبس أن تأخذ من هذه النار المضطرمة جزءاً توقد بها نارك، لذلك: الشعلة هي الشهاب، والقَبَس ما تأخذه من النار، أي جذوة مشتعلة، هذه اسمها قبس، ولذلك نقول: قَبَسٌ من نور الله، كأن القرآن الكريم نور، وأنت قرأت سورةً أي قرأت قَبَساً من نور الله.

(فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(8))

قصة المناجاة:

1 – فَلَمّا جَاءهَا

أي جاء النار التي رآها، والقصة تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى كَلّمَ سيدنا موسى تكليماً، والآية التي تقول:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ)

(سورة الشورى: من الآية 51)

2 – نُودِيَ

فأنْ يكلم الله موسى فهو من الوحي، أو أن يرسل له ملكاً فهو من الوحي، والتكليمُ المباشر من الوحي، والوحي كذلك تكليمٌ من وراء حجاب، فطرق الوحي متعددة، وفي أدق تعاريف الوحي إلقاء علمٍ بطريقةٍ خَفِيَّة.

الوحيُ إلى النبي عليه الصلاة والسلام:

الحقيقة أنّ النبي عليه الصلاة والسلام جاءه الوحي وهو في غار حراء، وموضوع الوحي كما قلت قبل يومين، أو البارحة خطيرٌ جداً، لأن الدين كله، والقرآن كله، والأحكام الشرعية كلّها، وهذا النظام الأمثل كله أساسه الوحي، فمن استطاع أن يلقي في نفسك شُبُهَةً في موضوع الوحي فقد هدم الدين من أساسه، لذلك فالنبي عليه لصلاة والسلام حينما روى كيف جاءه الوحي:

((فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3))))

[البخاري عن عائشة]

قد يسأل الإنسان: لماذا كان هذا ؟ لماذا ضَمّه سيدنا جبريل مراتٍ عديدة ؟ قال العلماء: لأن هناك في المستقبل أن يأتي مدعٍ، ويدّعي أنه كان نائماً فرأى هذا في منامه، وأنّ هذا ليس وحياً، إنما هي رؤيا، ولكن جاء سيدنا جبريل، وفعل بالنبي ما فعل ليكون هذا شيئاً واضحاً مؤكداً أن هذا الوحي جاءه، وهو في أتَمّ حالات اليقظة والوعي والعلم.

شيءٌ آخر، لماذا أصابه الخوف ؟ النبي عليه الصلاة والسلام بَلَغَ الدرجة المُثلى في الكمالات البشرية، والله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يلقى على قلبه السكينة، ولكن أصابه الخوف ليكون الوحي شيئاً منفصلاً عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام، منفصلاً عن كيانه وعن إرادته، ليس بإمكانه جذبه ولا بإمكانه ردّه، هذه النقطة الثانية، والثالثة ليس بإمكانه رده فأصابه الخوف، وليس بإمكانه جَذْبُهُ، هذا يعبّر عنه انقطاع الوحي، فيجب أن تعلم أن الوحي شيءٌ منفصلٌ تمام الانفصال عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام، أي إن إعلام السماء إلى الأرض كان وصياً، إلقاء المنهج من عند الله إلى سيد الخلق كذلك كان وصياً.

وقصة سيدنا موسى وردت في القرآن كما كنت قد قلت لكم من قبل سبعَ عشرة مرة، بل هذه القصة وردت أكثر من ثلاثٍ وعشرين مرة، وهي قصة طويلة، وفي كل مرة تسلّط الأضواء على بعض فقراتها، أو على مرحلةٍ أساسيةٍ من مراحلها، نحن الآن في وصفٍ دقيقٍ لتكليم الله لسيدنا موسى:

(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا(164))

(سورة النساء)

في سورةٍ أخرى يبدو أن التكليم كان من عند الشجرة المباركة، وقيل: إن حول هذه الشجرة بدا من بعيد نورٌ ساطع، ظنه سيدنا موسى ناراً، إنه نور، ووسط نور هذه الشجرة التي كان التكليم من ورائها، طبعاً في سورة أخرى قال تعالى:

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16))

(سورة طه)

وهنا في سورة النمل:

(فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا (8))

تفسير العلماء للآية:

والعلماء في تفسير هذه الآية ذهبوا مذاهب شَتَّى، ما الذي في النار ؟ أهو نور الله عزّ وجل، أو تلك الشجرة المُقَدَّسة، أو هذا التكليمُ المقدس، والله سبحانه وتعالى أشار إلى أن سيدنا موسى حول الشجرة، أو حول هذه النار، إذاً لماذا اصطفاه ؟ قدسه واختاره واصطفاه، الله سبحانه وتعالى، ما كان لله أن يتخذ نبياً إلا من صفوة خلقه..

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

فالأنبياء مُصْطَفَون، أيّ أن الله سبحانه وتعالى اصطفاهم من بين سائر البشر، وخصّهم بالنبوة، ومقام النبوة مقامٌ عظيم، إن النبي لا يَغْفَلُ لحظةً عن الله عزّ وجل، المؤمن ساعة وساعة، والقصة الشهيرة التي تعرفونها حينما كان سيدنا الصديق يمشي في طريق من طرق المدينة، فرأى سيدنا حنظلة يبكي، فعَنْ أبي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسيدِيِّ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً، وَسَاعَةً، ثَلاثَ مَرَّاتٍ))

(صحيح مسلم)

من هذا الحديث يفهم مقام النبوة، وأن الإنسان الذي لا يغفل عن الله عزّ وجل ولا لحظة، ولا ثانية هو النبي، طبعاً الله سبحانه وتعالى يصطفيه من بين خلقه، ويخصُّه بميزاتٍ يتميز بها عمن سواه، فهذا النبي الكريم في هذه البقعة المباركة عند هذه الشجرة التي حولها النور الساطع..

(نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ (8))

أن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا

ألا نقول نحن: تبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، تبارك الله رب العالمين ؟ ومعنى تبارك: أي كثر خيرك يا رب، البركة: الخير الكثير، تباركت يا رب أي: كثر خيرك..

(نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا (8))

1 – استئناس موسى بالمناجاة:

سيدنا موسى حول النار، وقيل الملائكة حول النار، فهناك أقوال عديدة، ولكن المقصود أن هذا المكان مكان المُناجاة، ومكان التَكْليم، ومكان النور الساطع، ومكان مقدّس، وأن هذا النبي الكريم في هذا الوقت عَلِمَ أنه نبيٌ مرسل، وقد اصطفاه الله عزّ وجل، وفي قصةٍ أخرى تعلمون حينما قال الله عزّ وجل:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(17))

(سورة طه)

إنها فرصةٌ لا تقدّر بثمن ؛ أن يخاطب الإنسان رب العالمين، فقال:

(هِيَ عَصَايَ)

(سورة طه: من الآية 18)

وأراد أن يطيل الحديث، إذْ يبدو أنه انغمس في سعادةٍ لا توصف فأجاب وأسهب.

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

(سورة طه: من الآية 18)

الله عزّ وجل هو السائل هو عليم، يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

(سورة طه)

هنا خجل، لعله استطردَ، ولعله أطال، ولعله أطنب، يا ترى أيليق به أن يطيل الحديث مع الله عزّ وجل، قال:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(18))

(سورة طه)

وهذا يعني أنه اختصر الحديث، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يُتابع الحديث، يقول له يا موسى وما هذه المآرب ؟ قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(18))

(سورة طه)

2 – من لم يق طعم القرب لم يذق شيئا:

فالذي أريد أن أقوله: الإنسان إذا ذاق الطيّبات كلها، إذا ذاق كل شيء، ولم يذق طعم القرب ما ذاق شيئاً، إذا مَلَكَ كل شيء، ولم تملكه المحبة لله عزّ وجل ما ملك شيئاً، إذا عرف كل شيء، ولم يعرف الله عزّ وجل ما عرف شيئاً، إذا وجد كل شيء ولم يجد ربه لم يجد شيئاً، إذا كان معه كل شيء ولم يكن الله معه لم يكن معه شيء، **" ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ".**

طبعاً هذا النبي الكريم ـ سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ـ اختصه الله بالتكليم، ليس معنى هذا أن المؤمن مَحْروم من هذه النعمة، فالله سبحانه وتعالى قد يتجلّى على قلبك، قد تشعر بالسعادة، قد تشعر بالأمن، قد تشعر بالسرور، قد تشعر بالطمأنينة، قد تشعر بأن الله يحبك، وهذا الشعور لا يقدّر بثمن، لو ذُقتَ الطيبات كلها وشعرت أن الله يحبك وأنك بعينه..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من الآية 48)

لو شعرت أنك محبوبٌ عنده، وأن الله ألقى عليك محبةً منه، نسيت كل شيء، لذلك أكبر عقابٍ يعاقب به الكُفّارُ يوم القيامة أن يحجبوا عن رؤية الله عزّ وجل..

(كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ(15))

(سورة المطففين)

وأطيب سعادةٍ يذوقها المؤمن يوم القيامة أن يرى وجه ربه..

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23))

(سورة القيامة)

وقد ورد في الأثر: " أن الإنسان إذا رأى ربه غاب خمسين ألف سنةٍ من نشوة النظرة "، أتضيّع هذه السعادة الكبرى من أجل لُعاعةٍ من الدنيا نختلف عليها، أيصح أن يعصي الإنسان ربه ؟

(فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(8))

وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الحكمة من ذكر التسبيح في هذا الموضع:

لماذا جاء التسبيح هنا ؟ التسبيح في اللغة هو التنزيه، وبعضهم يقول: **" هو التنزيه والتمجيد "**، فإذا قلت: سبحان الله ! أي يا رب، تعاليت عن أن تكون كذا وكذا، تعاليت عن أن تشبه خلقك، تعاليت عن أن تكون مُجَسَّدَاً، تعاليت عن أن تكون كأحدٍ من خلقك، تعاليت، فالله سبحانه وتعالى كَلّمَ سيدنا موسى، ولكن ليس ككلام البشر، ليس كلام الله عزّ وجل مقاطع وحروف واهتزازت صوتية.

(وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8))

أي سبحان الله عن أن يكون كلامه من نوع كلام البشر..

(وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8))

أي سبحان الله عن أن يكون وجوده في هذا المكان من نوع وجود البشر، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

(قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ(1)اللّهُ الصَّمَدُ(2)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(3)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4))

(سورة الإخلاص)

ليس كمثله شيء، فوق كل شيء، وليس فوقه شيء، في كل شيء لا كشيءٍ في شيء، فالحديث عن ذاته العَلِيَّة، وعن أسمائه الحسنى، وعن فاته الفُضلى، وعن أفعاله حديثٌ يُغَذِّي النفس، لذلك إن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، فإذا وقفت عند أسمائه اسْماً اسماً، وعرفت هذه الأسماء فربما كان هذا الطريق إلى الجنة، إذاً..

(أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8))

قصص إسرائيليات في مناجاة موسى عليه السلام:

وهناك قصص كثيرة تُروى عن هذه المناجاة، فالله سبحانه وتعالى كما قلنا في القرآن الكريم: كَلَّمَ موسى تكليماً، مرةً انقطعت المطر وقحطت الأرض وأجدبت السماء، فناجى موسى ربه، قال: **" يا رب أمطرنا أغثنا "**، فقال الله عزّ وجل " إن فيكم عاصياً "، فبعد حين نزل المطر، والسماء فتحت أبوابها، وكان المطر كأفواه القِرَب، فقال موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: **" يا رب من هو هذا العاصي ؟ "**، قال: **" يا موسى سترته عاصياً أفأفضحه تائباً "**، لقد تاب إلى الله، وكثيرةٌ هي الأخبار التي تتحدَّث عن مناجاة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لله عزّ وجل، قال: **" يا رب لا تبق لي عدواً"**، قال: **" يا موسى هذه ليست لي"** أليس هناك أعداءٌ لله عزّ وجل، قال له: هذه ليست لي.

على كلٍ نتابع القصة..

(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9))

أحياناً ربنا سبحانه وتعالى يتحَدَّث عن ذاته بضمير المُفْرَد، وأحياناً يتحدث عن ذاته بضمير الجَمْع، قال بعض العلماء: **" إذا كان الحديث عن الله عزّ وجل بضمير الجَمْع فهذا إشارةٌ إلى أسمائه الحسنى كلها، لأن كل فعلٍ من أفعال الله عزّ وجل أسماؤه الحسنى كلها داخلةٌ فيه "**، فأي حدثٍ يقع فيه رحمةٌ، وفيه لطفٌ، وفيه عدلٌ، وفيه رأفةٌ، وفيه علمٌ، وفيه خبرةٌ، وفيه قوةٌ، وفيه قدرةٌ، وفيه غنى، ولذ فإذا كان الحديث عن أفعاله فالحديث بضمير الجمع..

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى)

(سورة يس: من الآية 12)

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلا(23)فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا(24))

(سورة الإنسان)

إذا كان الحديث عن ذات الله يأتي ضمير المفرد.

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي(14)إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)

(سورة طه)

هنا الحديث عن ذات الله:

(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9))

يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

1 – معنى: العزيز:

تحدثنا عن هذا الاسم بشكلٍ تفصيلي في درسٍ سابق، وكيف أن العزيز هو الذي يندُر وجوده، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، وكمال هذه الصفات الثلاث، أي: يندر وجوده حتى لا يبقى غيره، وتشتد الحاجة إليه حتى تصبح المنافع كلها بيده، ويصعب الوصول إليه لا يستطيع أحدٌ أن ينال منه، ذلكم الله رب العالمين، ليس إلا الله، وكل الخير بيد الله، وليس لمخلوقٍ كائناً من كان أن ينال من جناب الله، هذا هو العزيز، هذا بعض ما في هذا الاسم من معانٍ.

2 – معنى: الحكيم:

أما الحكيم فيعد هذا الاسم دليلاً كبيراً جداً على قدرته، فالحكيم هو الذي إذا صنع شيئاً أحكمه، والحكيم هو الذي يتقن التدبير، والحكيم هو حُسن التقدير، فإذا دخلت إلى بيت، ورأيت مفتاح الكهرباء على ارتفاع متر وعشرين سنتيمترًا، ومن الممكن أن يكون هذا المفتاح على ارتفاع ثلاثة أمتار، قُبَيْل السقف، ويمكن أن يكون على ارتفاع عشرة سنتيمترات، أو على ارتفاع مترين، أو مترين ونصف، كله ممكن، هذا الذي يعمل في الكهرباء، يفتح الحُفرة في هذا المكان، أو في ذاك المكان، أو في ذاك المكان، ما دامت جاءت في المكان المناسب لسُكّان هذا البيت إذاً هذا ترجيح، شيءٌ راجح، وشيءٌ مرجوح، هذا المكان راجح، وذاك المكان قُبَيْل السقف مرجوح، لم يكن مقبولاً، لا ترجيح بلا مرجح، هذا هو اسم الحكيم..

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(5))

(سورة الرحمن)

حجم الشمس بحكمةٍ بالغة، بُعد الشمس عن الأرض بحكمةٍ بالغة، حجم الأرض بحكمةٍ بالغة، لو أن الأرض أصغر من حجمها الحالي لتطاير الإنسان من على سطحها، كما هو الأمر في القمر، فالإنسان الذي وزنه ستون كيلوًا على سطح الأرض يكون وزنه على سطح القمر عشرة كيلوات، لا يثبت إذا وقف، أو قعد، أو مشى، إذاً: حجم الأرض حجمٌ مدروس فيه حكمةٌ بالغة، وكذلك دورة الأرض حول نفسها فيها حكمةٌ بالغة، دورتها حول الشمس فيها حكمةٌ بالغة.

أن يكون النهار من ثماني ساعاتٍ إلى اثنتي عشرة ساعة حكمةٌ بالغة، أن يكون الليل مع النهار متناوبين حكمةٌ بالغة، الحكمة أحد الأدلة القطعية على وجود الله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى حكيم، أي أنه يضع كل شيءٍ في مكانه الصحيح، وفي القدر المناسب، وفي الوقت المناسب، وفي الحجم المناسب، وفي الشكل المناسب، وفي الطريق المناسبة، وفي الهيئة المناسبة.

(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9))

لابدّ لكلٍ منا من أن يُمضي وقتاً في معرفة الله من خلال التأمُّل في أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

سؤال: لو أن أحدكم سُئل ماذا تعرف عن اسم العزيز ؟ ينبغي أن تحدثنا حديثاً طويلاً طويلاً، هذا معنى أنك تعرف الله عزّ وجل، ماذا تعرف عن اسم الغَنْيّ ؟ ماذا تعرف عن اسم القدير ؟ ماذا تعرف عن اسم العليم ؟ ماذا تعرف عن اسم الكبير المُتعال، لذلك هذه الأسماء الحسنى ينبغي أن قف عندها، ويجب أن نتأمّل فيها، ويجب أن نتعرف إلى الله من خلالها.

(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ(10))

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ

معنى: وَلَمْ يُعَقِّبْ

التعقيب يعني الكرّ بعد الفرّ، فلان فَرَّ ثم عاد إلى المكان الذي فر منه، نقول: عَقَّبَ، فر وعقب، أو فر وكَرّ، والحرب كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((كرٌ وفر))

[ورد في الأثر]

حينما حرص سيدنا خالد رضي الله عنه في مؤتة على سلامة الجيش، وعلى حفظ أرواح أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وناور مع الروم حتى أنقذ هذا الجيش من براثن الهلاك، وبلغ النبي ذلك،

سمى هذا العمل نصراً، وسمى خالداً كراراً فرّاراً، فبحكمةٌ بالغة استطاع إنقاذ حياة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ (10))

يَا مُوسَى لَا تَخَفْ

1 – الخوف جبلّةٌ في الإنسان:

الحقيقة أن الخوف مركوزٌ في بُنْيَةِ الإنسان النفسيَّة، لقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19))

(سورة المعارج)

هذا ضعفٌ خَلْقيّ، الخوف مركوزٌ في بنية كل إنسان كائناً من كان:

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

2 – المستَثْنَوْن من الضعف الخَلقي الجِبليّ:

إلا المصلين، أي أن المصلين مستثنون من هذا الضعف الخَلْقِيّ، لماذا ؟ لماذا خلق الله الإنسان هلوعا ؟ من أجل أن يلجأ الإنسان إليه، من أجل أن يقف على بابه، من أجل أن يلوذ به، من أجل أن يستعيذ به، خلقه هلوعاً، لو أن الله عزّ وجل خلق الإنسان قوياً لا يخاف لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، خلقه هلوعاً ليلتجئ إليه، فيستغني باللجوء إليه، فيسعد بهذا اللجوء، فلذلك كل المصائب ـ إن صَحَّ التعبير ـ هدفها الكبير أن تدفعكَ إلى باب الله، وكل المُضايقات، وكل الشدائد هدفها أن تزداد قرباً، أن تزداد طاعةً، أن تزداد إقبالاً، أن تزداد علماً، أن تزداد معرفةً، إنها دوافع، هكذا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

ولكن قد يقول قائل: كلنا نُصلي، مع ذلك نخاف، الله عزّ وجل قال:

(إِلا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27)

إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(34))

(سورة المعارج)

قل: إنسان، فهذه الكلمة تنطبق على ستة آلاف مليون، قل: إنسان مسلم، أضف كلمة **" مسلم "**، فإن الدائرة تضيق حتى تصل إلى ألف مليون أو يزيد، قل: إنسان مسلم عربي، تضيقْ الدائرة حتى تصل إلى مئتي مليون، قل: إنسان مسلم عربي مثقّف، كلما أضفت صفةً ضاقت الدائرة، وربنا عزّ وجل وصف المصلين بثماني عشرة صِفَة، فإذا كنت من هؤلاء، وانطبقت عليك هذه الصفات كلُّها فأنت قطعاً مستثنى من الخوف، ومن الهّلع، ومن الجَزَع، ومن الحِرْص.

(فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ (10))

فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً

طبعاً هي ليست جِنّاً، إنها عصا، وقد أصبحت حيةً أو ثعباناً، بمعنى واحد، ثعبان مبين، أو حية كبيرة جداً، كأنها ثعبان، والمقصود من ذلك أن سرعة حركة هذه الأفعى جعلتها كأنها من الجِن.

(فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا (10))

السر أن الله عزّ وجل لمّا قال له:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17))

ليس القَصْدُ أن يعرف الله عزّ وجل ماهية ما بيده ؟ لا فإنه الله رب العالمين، ويعلم السر وأخفى، بل أراد أن يُلْفِتُ نظره أن هذه التي بيدك عصا، انتبه إليها، وبعد قليل سوف تكون حية..

(يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10))

العناية الإلهية: يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ

أجمل ما في هذه الآية كلمة لديَّ، أي أنّك إذا كنت معي لا تخف، وإذا كنت مع الله عزّ وجل فهو معك، كن مع الله تَرَ الله معك..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا ولُذ بحمانا واحْتَمِ بجنابنا

لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

****

إذا كنت مع الله كل الخلق بيده، كل المخلوقات قيامها بالله، حركتها بالله، روحها بالله، قوّتها بالله، لذلك:

(إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ)

إذا كنت لديَّ فلا ينبغي أن تخاف..

(إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا)

إِلَّا مَن ظَلَمَ

هنا نقطةٌ دقيقةٌ جداً في اللغة أتمنى أن تكون واضحةً عندكم..

(إِلَّا مَنْ ظَلَمَ)

الاستثناء المنقطع

هؤلاء الذين ظلموا ليسوا مرسلين، هذا اسمه استثناء مُنقطع، ما معنى الاستثناء المنقطع و المتصل ؟ تقول: حضر الطلاب إلا خالداً، خالد طالب، هذا استثناءٌ متصل، فإذا كان المستثنى منه من جنس المستثنى فهو استثناء متصل، أما الاستثناء المُنقطع كأنْ تقول: حضر الطلاب إلا المدرس، المدرس ليس طالباً، من نوعٍ آخر، لكن اشترك معه في الحضور، وتخلف المدرس، فإذا كان المستثنى منه من غير جنس المستثنى يقال له: استثناء منقطع. قد يفهم إنسان:

(إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ)

منهم.. لا، أعوذ بالله، الأنبياء معصومون عن أن يظلموا، العصمة صفةٌ ثابتة للأنبياء، معاذ الله أن يقع نبيٌّ في ظلم أحد، وكل قصةٍ ترويها الكُتب الإسرائيلية، أو ما يسمى في التفاسير الإسرائيليات، عن أن هذا النبي فعل كذا وكذا، وهذا النبي فعل كذا وكذا كل ذلك من قبيل الإساءات أو التجاوزات أو الافتراءات، هذه القصص لا أصل لها، ولا صِحّة لها لأن العصمة صفةٌ أساسيةٌ لجميع الأنبياء والمرسلين، إذاً:

(إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ(11))

إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ

وأيضاً هذا الإنسان الذي وقع في الظلم، ثم تاب منه، وعمل صالحاً أيضاً هذا لا ينبغي أن يخاف، لا النبي يخاف في حضرة الله عزّ وجل، ولا المؤمن المستقيم على أمر الله يخاف إذا طمأنه الله عزّ وجل، لذلك الحديث الشريف الجامع المانع، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

[مسند الفردوس]

الأمر كله بيد الإنسان، بمعنى: أنك إذا فعلت السيئة ؛ كأن تكون أكلت مالاً حراماً، أو روّعت إنساناً، أو اعتديت على إنسان طبعاً يجب أن تخاف، لأن الله بالمرصاد ولا بدّ من أن ينتقم منك، لكن إذا كنت خائفاً من الله خوفاً حملك على طاعته، وعلى أن تكون ورعاً، فالله سبحانه وتعالى يطمئنك لقول الله عزّ وجل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

(إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

أيْ مِن غير أن تصاب بالبرص، وهناك آيتان ؛ الآية الأولى أن هذه العصا أصبحت أفعى حينما ألقاها، والآية الثانية أنه أدخل يده في جيبه.

(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ)

الجيب فتحة الثوب، أدخلها ضمن ثوبه.

(تَخْرُجْ بَيْضَاءَ)

متألقة، منيرة، كأنها كوكب، كأنها مِشْعَل، كأنها مصباح..

(مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

من دون أن تؤذيك، من دون أن تحرقك، من دون أن تصاب ببَهقٍ ولا بَرَص.

(مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ)

فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ

الآيات مذكورة في مكان آخر من كتاب الله.

(فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (12))

خرجوا عن الطريق الصحيح، خرجوا عن منهج الله عزّ وجل، خرجوا عن الصراط المستقيم، اعتدوا، بغوا، طَغَوا، استكبروا، استعلوا..

فَلَمّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً

(فَلَمّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً)

1 – ما هي الآية ؟

الآية العلامة، الدليل، فالله عزّ وجل ما كان له أن يدعونا إليه من دون دليل..

وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنـه واحد

***

كل شيء ينطق بحمد الله، ينطق بعظمة الله، ينطق بقدرة الله، ينطق بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

(فَلَمّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً)

2 – معنى: مُبْصِرَةً

فهذه الآية لشدة وضوحها، ولشدة تألقها، ولشدة بيانها، كأنها تُبْصِر هي، هي ترى، إنها تُرى، ولكن هذا من باب القلب، تقول أنت مثلاً: كأن هذا الوجه شمسٌ، إذا أردت أن تشبهه بالجمال والإشراق والوضاءة، إذا قلت: كأن هذا الوجه شمسٌ، هذا تشبيه، وهدف هذا التشبيه أن تُعلي من قدر الوجه ووضاءَته، ورونقه وجماله، هناك تشبيهٌ معكوس، تقول: إن الشمس تشبه هذا الوجه، إنك الآن تبالغ مبالغةٍ كبيرة حينما عكست المُشَبّه إلى مشبه به، والمشبه به إلى مشبه، فهناك مِن الشعراءِ مَن يقول:

وبدا الصباحُ كأنّ غُرّتَه وجهُ الخليفةِ حينَ يُمتَدَحُ

***

البدر يشبه وجه الخليفة، وليس وجه الخليفة يشبه البدر، هذا من باب التشبيه المعكوس.

أيْ أن هذه الآيات لشدة وضوحها، ولشدة تألقها ليست مُبْصَرَةً، بل هي مُبْصِرةً، كأنها ترى.. يقول بعضهم: لم أر أشد صمماً من الذي يريد ألا يسمع، كما أنه ليس من الناس من هو أشدُ عمىً من الذي لا يريد أن يرى، فهذا الذي لا يحب أن يرى، ولا أن يسمع، هذا أعمى أصم، لذلك الآيات مبصرة واضحة كالشمس، ما في الكون عصا تصبح أفعى إلا من عند الخالق، والذي يفعل هذا رسوله، ومع ذلك..

(فَلَمّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ)

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ

المشكلة أن الإنسان يوم القيامة يجحد وينكر ما كان منه، فربنا عزّ وجل يقول على لسان الكفار:

(وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23))

قال:

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام)

أنا متأكد أن أبعد الناس عن ربه في أعماق نفسه، في قرارة نفسه موقنٌ بأن الدين حق، وأن الموت حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الاستقامة هي الطريق الصحيح، وأن طريق الشهوة طريقٌ مدمِّر، ولكن الله عزّ وجل كشف حقيقتهم، وقال على ألسنتهم:

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108))

(سورة المؤمنون)

إذاً:

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً)

ظُلْماً وَعُلُوّاً

الإنسان من أجل أن يبقى عالياً في الأرض ربما يكفر، من أجل أن تبقى بحوزته هذه الأموال ربما يكفر، ولكن ضعوا في أذهانكم الحديث النبوي الشريف:

((من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند فيه مقال]

هذا قانون في أي حقل، في التجارة، في الصناعة، في الوظائف، في العلم، في كل شيء، إذا تركت شيئاً لله عوّضك الله خيراً منه، مَن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، فهؤلاء الذين جحدوا بآيات سيدنا موسى، واستيقنتها أنفسهم، لماذا جحدوا بها ؟

(ظُلْماً وَعُلُوّاً)

لأن بحوزتهم أموالاً طائلة لن يتخلوا عنها، وهم في مراكز رفيعة يتبوؤونها، هم في قمة المجتمع، ولهم ميزاتٌ كبيرة، لذلك من أجل أن تكون بحوزتهم هذه الأموال الطائلة، ومن أجل أن يكونوا في هذا الموقع العالي، كفروا وجحدوا مع أن أنفسهم استيقنتها.

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14))

قانون ثابت: فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

لو لم يكن في كتاب الله ما يطمئن المؤمن على مصيره إلا قوله تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة الأعراف)

لكفى، الأيام تدور، وتدور، وفي النهاية لا يحق إلا الحق، المؤمن ينجو، ويرفع الله من شأنه وقدره، والكافر يسقط، ويصيبه الخزي والعار، هذا قانونٌ لا يتبدّل ولا يتغير، إذا أردت أن تكون النهاية لك، إذا أردت أن يكون المستقبل لك، إذا أردت أن تكون في الدنيا والآخرة من السعداء، فالزم منهج الله عزّ وجل.

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

(فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14))

السعيد من اتعظ بغيره، والشقي لا يتعظ إلا بنفسه.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى نأتي إلى قصةٍ من أجمل قصص القرآن الكريم، إنها قصة سيدنا سليمان مع السيدة بلقيس، وهذه القصة ربما أخذت منا درسين أو أكثر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (03-18): تفسير الآيات 15 - 19
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-12-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة النمل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

(سورة النمل)

بين قصة سليمان عليه السلام:

هذه القصّة قصّة سيدنا سليمان، وقد جاءت في مواضع أخرى من القرآن الكريم، ولكنها في هذا الموضع قد قُصّت علينا بتفصيلٍ وإسهاب، ومع أنها قُصّت علينا بتفصيلٍ وإسهاب إلا أن هذا التفصيل تناول حَلْقَتَين من حلقاتها، الحلقة الأولى قصّته مع الهُدْهُد، والثانية قصّته مع ملكة اليمن سبأ، ومن خلال هاتين الحلْقتين في هذه القصّة هناك استنباطاتٌ كثيرة.

1 – تحريفات وتبديلات اليهود:

أولاً: الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(76))

(سورة النمل)

ما من واحدٍ منكم إلا وهو يعلم أن اليهود قد حوّروا، وبدّلوا، وغيّروا، وأضافوا على التوراة ما ليس منها، حتّى غدت قصص الأنبياء عندهم قصصاً بعيدةً عن الواقع، الأنبياء في التوراة التي أضاف عليها من أضاف ؛ أشخاصٌ عاديّون يشربون الخمر، ويقعون في الزنا، ويحقدون، إلى ما هنالك من تفصيلاتٍ يَنْدَى لها الجبين، ويترفّع عنها الإنسان العادي، لذلك جاء القرآن الكريم ليقصُّ عليهم أكثر الذي كانوا فيه يختلفون.

2 – قصصُ القرآن دليلٌ على نبوة النبي عليه الصلاة والسلام:

الشيء الثاني: إن تلاوة هذه القصص على سيدنا محمّد دليل نبوّته، لقول الله عزّ وجل:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(44))

(سورة آل عمران)

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ (44))

(سورة آل عمران)

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (44))

(سورة آل عمران)

فأولاً: ربنا سبحانه وتعالى يصحِّح لبني إسرائيل ما زوَّروه في التوراة، والشيءُ الآخرُ أن هذه القصَّة أحد الأدلَّة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلَّم.

استنباطات من قوله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً

1 – فضلُ العلمِ وأهلِه:

قصَّة هذا النبي الكريم وُصِفَت في هذه الصفحات بتوسُّع وتفصيل، ولكن التركيز جاء على شيءٍ واحد وهو العلم، والدليل قول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

" وما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه "..

والعلم هو القيمة الوحيدة المرجِّحة التي اعتمدها القرآن الكريم، فالشيء الذي يرفعك هو العلم، والشيء الذي يخفِضُك هو الجهل، وأي شيءٍ آخر عَرَضٌ زائل يأتي ويذهب، ولا قيمة له، لا يرفع صاحبه ولا يخفضه، قد يكون الإنسان عند الله في أعلى عليين وهو فقير، وقد يكون في أعلى عليين وهو مريض، وقد يكون في أعلى عليين ونسبه غير معروف، وقد يكون في أعلى عليين وليس جميل الصورة.

بعض التابعين كان قصير القامة، أسمر اللون، أحنف الرجل، مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، ضيّق المنكبين، ليس شيءٌ من قبح المنظر إلا وهو آخذٌ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيّد قومه، إذا غضب غَضب لغضبته مئة ألف سيفٍ ؛ لا يسألونه فيمَ غضب ؟ وكان إذا علم أن شُرْبَ الماء يفسد مروءته ما شربه، فلا شكلُك، ولا مالك، ولا نسبك، ولا صحَّتك، ولا قوَّتك تغني عنك من الله شيئاً، ولكن العلم وحده هو الذي يرفعك عند الله، والدليل هذه الآية:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

2 – العلم يؤتيه الله مَن يشاء:

أيها الإخوة أن العلم يُؤتى من الله عزّ وجل، فإذا علمت أن علمك من الله، وأن الله سمح لك أن تتعلّم.

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا(85))

(سورة الإسراء)

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من الآية 255)

إذا أيقنت أن علمك من الله عزّ وجل لابدّ من أن تبادر إلى شكره.

الصفة الوحيدة الفارقة بين الإنسان والحيوان هي العلمُ:

يقول الإمام الغزالي: **" الإنسان شريفٌ لما خُلِقَ له، فلو افتخر بحجمه فالجمل أكبر منه، ولو افتخر بعِظَمه فالفيل أعظم منه.. أي أكثر عظماً منه.. ولو افتخر بشجاعته فبعض السِباع أشجع منه، ولو افتخر بسفاده بعض الطيور الوضيعة أكثر سفاداً منه.. أي جِماعاً.. ولو افتخر بشكله الجميل فبعض الحيوانات أجمل منه ".**

ما من صفةٍ يمكن أن تفتخر بها إلا وفي الحيوان ما هو أشد اتصافاً بهذه الصفة من الإنسان.

إذا افتخر بحدّة بصره، فأيُّ طائرٍ يرى ثمانية أمثال ما تراه أنت، إذا افتخر برهافة سمعه فهناك حيواناتٌ حقيرةٌ جداً في نظر الناس أشد سمعاً من الإنسان، إذا افتخر مثلاً بقوّة شَمِّهِ، فبعض أنواع الكلاب قوة شمِّه مليون ضعف عن قوة شم الإنسان، ما من صفةٍ، ولا حاسّةٍ، ولا شيءٍ يمكن أن يفتخر به الإنسان إلا وفي الحيوان ما تَفَوّق عليه، إلا أن الإنسان خُلِقَ ليعرف الله عزّ وجل، وأُعطي العلم، أنت يمكن أن تفتخر، أو يمكن أن تقول: أنا، إذا كنت عالماً، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

فالعلم علّة خلق السماوات والأرض..

" خلقت السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟! خلقت السماوات والأرض من أجلكَ فلا تتعب وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك ".

كل الكون مسخّرٌ من أجل الإنسان، والإنسان خُلِقَ من أجل أن يعرف الله عزّ وجل، لذلك كما قال الإمام الغزالي: **" الإنسان شريفٌ لما خُلِقَ له "**، لماذا خُلِقْتَ أنت ؟ خُلِقْتَ في هذه الدنيا كي تعرف الله عزّ وجل، فإذا عرفته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه..

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

آيةٌ صريحةٌ واضحةٌ محكمةٌ بيّنةٌ كالشمس الساطعة..

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

3 – طلبُ العلمِ فريضة على كمل مسلم:

لذلك العِلم ليس شيئاً نأخذه أو لا نأخذه، ليس شيئاً نتزيَّنُ به أو نستغني عنه، ليس حرفةً اخترناها أو اخترنا غيرها، لا، العلم كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح المتواتر:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك]

ما معنى فرض ؟ أبيّن لك معنى فرض من خلال هذه الأمثلة:

إنّ استنشاق الهواء فرض، أي ضرورة، وأيُّ شيءٌ يتوقف عليه بقاؤك، وتتوقف عليه حياتك، وتتوقف عليه سلامتك فهو فرض، فاستنشاق الهواء مثلاً فرض، وتناول الطعام فرض، وطلب العلم فرض، لأنك إن لم تطلب العلم فلابدّ من أن تقع، لكن لماذا تقع ؟ لأن الله أودع فيكَ الشهوات، والشهوات قِوى مندفعة، لابدّ لهذه القوى المندفعة من توجيه، الموجِّه هو العلم، قوّةٌ مندفعة، مركبةٌ مندفعة بأقصى سرعتها من دون مِقْوَد لابدّ من أن تتدهور، شيءٌ قطعي أودع الله فيك حبَّ الطعام والشراب لبقاء الفَرد، وأودع فيك حبَّ النساء لبقاء النَوع، وأودع فيك حبَّ العلو في الأرض لبقاء الذِكْر، هذه الشهوات التي أودعها الله في الإنسان هي حياديَّة، يمكن أن ترقى بها إلى أعلى عليين، ويمكن أن يهوي بها الإنسان إلى أسفل سافلين، إذا تزوّج، وسلك في زواجه الطريق الشرعي يسعد بزوجته، ويرقى بها، وترقى به إلى أعلى عليين، فإذا حاد عن الزواج إلى الزنا هلك وأهلك، إذا كسب المال الحلال بارك الله له فيه، وأنفقه على عياله، وتَنَعَّم به، وسعد به، وإذا كسب المال الحرام أتلف الله ماله، وأتلفهُ معه.

إذاً: موضوع العلم قضيَّة خطيرة جداً، فمثلاً: هل من الممكن لإنسان تأتي به من الطريق، ونقول له: اجلس على هذا المقعد، وهو مقعدٌ لربَّان طائرة، ومعك خمسمئة راكب، وتحلِّق بهم ؟ في أول غلطةٍ أنه يودي بالركّاب جميعاً، هذا كرسي ربَّان الطائرة، كرسي العلم، كم دورة مر بها لكي يعرف التحليق، وتجد الربَّان وإلى جانبه مساعد، هل من الممكن لإنسان من قارعة الطريق أن يقود طائرة ؟ والله قيادة النفس أصعب من أن تقود الطائرة، يمكن أن تقود نفسك إلى دار السلام من دون علم ؟ مستحيل، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك]

والله عزّ وجل قال:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

مجالات علم داود عليه السلام:

1 – تلاوة الزبور بصوت حسن:

ماذا آتى الله سيدنا داود ؟ قالوا: سيدنا داود في مواطن أخرى من كتاب الله آتاه ترتيل الزّبُور، هذا الذي يؤتيه الله، ترتيل القرآن، أو ترتيل كتاب الله، وهذا شيءٌ عظيم، وشيءٌ نفيس، فكلام الله سمح الله لك بتعلّمه، سمح الله لك بتلاوته حقّ تلاوةٍ، سمح الله لك بتفهُّمه، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ]

خَيْرُكُمْ.. اسم تفضيل، هناك أغنياء، وأقوياء، وأشخاص أصحاب صور جميلة جداً، وأناس يتمتّعون بصحّة جيّدة جداً.. قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ]

فسيدنا داود قال الله فيه: آتيناه علماً، من هذا العلم أنه علّمه ترتيل الزّبُور، فكانت الجبال والطير تؤوّبُ معه إذا تلا الزّبُور، حتى إن العلماء إذا سمعوا صوتاً عذباً شجيّاً من قارئ قرآن كريم، يُقال له: أُوتيت مزماراً من مزامير داود، فأحياناً إذا قرئ كلام الله بأداءٍ جيّد، وصوتٍ جميل فإنه يفعل في النفس فعل السحر، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يستمع إلى كتاب الله من عبد الله بن مسعود، وكانت عيناه تذرفان بالدمع، فالإنسان المؤمن إذا استمع إلى كتاب الله يتلى بأداءٍ حسن، ومن صوتٍ شَجِيّ فربّما طرب بسماع القرآن أكثر مما لو جمعت ذوّاقي الطرَب في العالم، فإنه لا يرقى طربهم جميعاً إلى مستوى طرب المؤمن بكتاب الله..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

2 – صناعة الدروع:

من عِلْمِ سيدنا داود أنه علّمه صناعة الدروع..

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ)

(سورة الأنبياء: من آية " 80 ")

3 – تليين الحديد:

من علم الله لسيدنا داود أنه علّمه تطويع الحديد، وعلّمه القضاء بين الناس، ولكن هذا النبي العظيم أهم شيءٍ تعلّمه أنه عرف الله عزّ وجل.

أصول مهمة:

مرّة ثانية: أصل الدين معرفة الله.

وأصل العبادة معرفة الشرع.

وأصل صلاح الدنيا معرفة طبائع الأشياء.

فهذه العلوم الماديّة التي إذا ذُكِرَت ظنّها الناس هي العلم ولا علم سواها ؛ الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والفَلَك، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، يظنُّ الناس أن هذه العلوم وحدها هي العلم، هذه بعض أنواع العِلم، هذا علمٌ بالخليقة، وهناك علمٌ بالشريعة، هناك علمٌ بالحقيقة، هناك علمٌ بالله، هناك علمٌ بأمره، هناك علمٌ بخلقه، هذه العلوم الماديّة المحسوسة التجريبيّة يمكن أن ترفع مستوى معيشتنا، يمكن أن تطوّع لنا الحديد، يمكن أن تختصر لنا الزمن، يمكن أن تقرّب المكان، ولكنّها لا تسعدنا، لا يمكن أن تسعدنا لأنها حرفةٌ من الحِرَف، أما العلم الذي يسعدك فهو العلم بالله عزّ وجل، ولا يسعدنا، ولا تَضْبِطُ سلوكنا، ولا تمنعنا من الزيغ، ولا تستأصل ما في النفوس من الحقد غير العلم بالله، فترى بعض العلماء الكبار من علماء المادّة غارقين في شهواتهم إلى قمّة رؤوسهم، أقول: بعضهم طبعاً.

إذاً هذه العلوم لا تكفي، لكنّ العلم الذي لابدّ من تعلّمه أن تعرف الله عزّ وجل.

" ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتّك فاتك كل شيء".

ماذا أوتي سليمانُ عليه السلام ؟

أما سيدنا سليمان فقد عرف الله عزّ وجل، آتاه الله المُلْك، علّمه منطق الطير، سخّر له الرياح، علّمه القضاء بين الناس..

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ)

(سورة الأنبياء: من الآية 79)

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ(78))

(سورة الأنبياء)

إذاً: في سوَرٍ أخرى، وفي قصصٍ أُخرى جاء تفصيل ماذا علّم الله نبيَّه داود، وماذا علّم الله نبيَّه سليمان، أما هنا جاء الكلام مختصراً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

وقفة مع (آتَيْنَا):

أنا أريد أن أقف عند كلمة.. آتينا.. إنّ نقطةً من الدم لا يزيد حجمها عن حجم رأس دبوس، إذا تجمّدت في بعض شرايين المخ يفقد الإنسان ذاكرته كلها، كل معلوماته، ثمانيةً وعشرين عاماً قضاها في التَعَلّم حتّى نال أعلى درجة جامعيّة، يفقدها كلها إذا تجمّدت نقطة دمٍ في دماغه، يقول لك: فقد ذاكرته، والعلم كله ذاكرة، لو أن هذه النقطة من الدم تجمّدت في مكانٍ آخر لأخذه أهله إلى المستشفى، مستشفى المجانين، بوساطة، وبترجٍّ، وبمسعى حثيث، إذاً: إذا سمح الله لك أن تتعلّم فهذا العلم من الله عزّ وجل، هو الذي علّمك، الله عزّ وجل قال:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113))

(سورة النساء)

إذاً: يجب أن نقف عند هذه الكلمة:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

العلم ما علّمك الله إيّاه، أمَا الإنسان إذا أُوكِلَ إلى نفسِهِ بأي لحظة يفقد علمه أو يُحال بينه وبين أن يَتَعَلّم.

الفائدةُ مِن تنكير كلمة (علمًا):

الشيء الآخر: كلمة **" علماً "**، هذه جاءت نكرة، لم يقل: ولقد آتينا داود وسليمان العِلْمَ، العلم (معرّفة)، وكأنه علمٌ معيّن، أما (علمًا) فنكرة، فهذا التنكير عند علماء البلاغة تنكير التعظيم.

شيءٌ آخر، هناك شيء قبل أن أنتقل إلى الفقرة الثانية.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

كلمة علماً هذه جاءت مُطْلَقَة، ومعنى ذلك أن العلم على إطلاقه ثمين، لقول الله عزّ وجل:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من الآية 9)

العلم ثمين، أيُّ علمٍ، لكنّ هناك علماً ممتعاً، أيُّ علمٍ ممتع، وهناك علمٌ ممتعٌ نافع، ينفعك في الدنيا، كشهادة اختصاصيّة نادرة، والناس على بابك يقفون، وكل واحد لابدّ من أن يدفع مبلغاً كبيراً، إذاً هناك

علمٌ ممتعٌ، وهناك علمٌ ممتعٌ نافعٌ، لكنْ هناك علمٌ ممتعٌ نافعٌ مسعد وهو العلم بالله عزّ وجل، أخطر ما في الموضوع أن كل علمٍ تنتهي قيمته، وينتهي أثره، وينتهي نفعه، وتنتهي متعته عند الموت هذا العلم لا قيمة له في الدار الآخرة، لو كنت من أعظم المؤرّخين وكتبت كتباً عدّة، وابتغيت بها الدنيا، وجمعت من ورائها مالاً طائلاً، وجاء ملك الموت وما عرفت الله عزّ وجل، هذا العلم لم ينفعك شيئاً.

وهذا تشبيه بسيط: لو أن إنساناً عنده مكتبة ضخمة، أربعة جدران ممتلئة بالكتب، من أدنى طبقةٍ إلى السقف، وعنده بعد أيّام، أو بعد شهر أو شهرين فحصٌ مصيري، يتوقف على نجاحه في هذا الفحص مستقبله ومصيره، هذا الإنسان العاقل يجب أن يختار من كل هذه المكتبة الكتاب المُقَرَّر، فما يُطْبَع في اليوم الواحد لا يستطيع الإنسان أن يقرأه إذا ترك كل أعماله في مائة عام، فتحصيل العلم بشكل شمولي مستحيل، لابدّ من أن تختار، يجب أن تختار الكتاب المُقَرَّر، والكتاب المقرَّر الذي يتعلّق به مصيرك في الدنيا والآخرة هو القرآن الكريم، هو الغنى الذي لا غنىً بعده ولا فقر دونه، ومن تعلّم القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حَقَّرَ ما عَظَّمَهُ الله..

(وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15))

وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ

دقِّقوا في هذه الآية، لو أخذنا ألف مؤمن، مائة ألف مؤمن، مليون مؤمن، وأردنا أن نرتِّبهم وفق سُلَّمٍ، فليس هناك إلا قيمةٍ واحدة وهي العلم، الله عزّ وجل قال:

(وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا (15))

بماذا فضّلنا ؟

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ(15))

إذاً: بماذا فُضِّلا ؛ سيدنا داود وسليمان ؟ بالعلم، إذاً: فما هي القيمة المرجِّحة في التمييز بين المؤمنين، في الترجيح بينهم، في التفاضل بينهم ؟ إنه العلم، ولا شيء غير العلم، لذلك: " إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم "، العلم نور يكشف لك الطريق، يكشف لك الحلال من الحرام، يكشف لك الحقّ من الباطل، يكشف لك الخير من الشر، يكشف لك النافع من الضار، يكشف لك الثمين من البخيس، النفيس من الخسيس، بالعلم..

(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ (16))

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُود

ميراثُ العلم أفضل ميراثٍ:

هذه الوراثة ليست وراثة مالٍ أو نبوّة ؛ ولكنّها وراثة العلم، لأن النبوّة كما تعلمون في علم العقيدة لا تُوَرَّث، ولكن الله عزّ وجل أشار بهذه الوراثة إلى وراثة العلم، أي كما كان داود عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام أوتي العلم كذلك أوتي ابنه سليمان العلم، فكأنّما سليمان ورث العلم من الله عزّ وجل، وجاء بعد أبيه داود، فكأنّما ورث هذه المكانة، وورث هذه المنزلة، وهذا المقام..

(وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ (16))

وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ

من معجزات سليمان عليه السلام: فَهْمُ لغة الطيور:

الآن هنا نقطة مهمّة جداً أتمنّى عليكم أن تقفوا عليها، هذه معجزة، أن يستطيع الإنسان أن يفهم على الطيور، وأن يَتَعَلَّمَ لغتها، وان تُسخَّر له الطيور، وأن تُسخَّر له الريح، فإذا أردنا أن نفهم هذه الآية فهماً بعيداً عن الصواب قلنا: إن سليمان من خلال التجربة عرف أصوات الطيور، وماذا تعني، هذا شيءٌ يعرفه العلماء.. علماء الأحياء..

افتح الآن كتاباً عن الطيور تجد أن هناك دراساتٍ وتجاربَ، وتسجيلاً لأصوات الطيور، هذا الصوت ماذا يعني ؟ بهذا الصوت يجتمعون، بهذا الصوت يتفرّقون، بهذا الصوت يحذرون، بهذا الصوت يدعو الذَكَرَ أنثاه، فالعلماء العاديون من خلال تجارب طويلة جداً، وبحوث، وإجراءات، وتسجيلات ربّما اكتشفوا ماذا تعني هذه الأصوات ؛ بينما علم سيدنا سليمان ليس من هذا القبيل، ذاك علمٌ تجريبي، ولكن علم سيدنا سليمان علمٌ لَدُني، هناك وفرقٌ بين العلم التجريبي والعلمُ اللدني، لو أخذت آلةً من هذه الآلات، وأنت لا تفقه في تصميمها شيئاً، فنزعت هذا الشريط فتوقّف الصوت، إذاً هذا الشريط للصوت، نزعت هذا المفتاح فارتفع الصوت كثيراً تقول: هذا المفتاح لضبط الصوت، مثل هذا العلم ـ العلم التجريبي ـ هو الذي يتعلّمه الإنسان من خلال الواقع، ولكنّ العلم الذي يُعَلِّمه الله لأنبيائه نوعٌ آخر، إما أن تكتشف حقائق العلم بالتجربة فعلمك تجريبي، وإما أن تأخذه من الله مباشرةً فعلمك لَدُنِّي، لذلك قالوا:

" الحقائق يكتشفها العلماء بالتجربة، وتنحدر إلى الأنبياء عن طريق الوحي " فهذا النبي العظيم تعلّم لغة الطير لا عن طريق التجريب ؛ بل عن طريق الإعجاز، فالله سبحانه وتعالى علّمه منطق الطير..

(وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ(16))

وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

1 – يجب أن تنسب الفضلَ لله وحدَه:

إذ تحدَّث الإنسان عما أعطاه الله عزّ وجل قد تزلُّ قدمه إلى الفخر، وقد تزلُّ قدمه إلى العُجب، وقد تزل قدمه إلى أن يحقِق بين الناس سمعةً مُتَألِقة، ليس هذا هو المطلوب، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ))

[الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

الله وحده يعلم إذا قلت عن نفسك ما قلت، وهو يعلم ما إذا كنت تبتغي الفخر أو تبتغي التبيان والتوضيح، أنت أحياناً تسلك سلوكاً معيّناً، فتقطف ثمار هذا السلوك، هذا درسٌ من الله عزّ وجل، فإذا وضّحت هذا الدرس للناس ليس هذا من قبيل الفخر ولا من قبيل العجب ؛ بل من قبيل إيضاح الحقائق، تبيين الحق، وتبيين الحق، عهدٌ أخذه الله على العلماء الذين يحتلون مكانة المعلمين، فسيدنا سليمان قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (16))

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)

(سورة ص: من الآية 35)

لكن الله يعلم أن هذا النبي العظيم حينما طلب الملك ما طلبه ليستمتع به، وما طلبه ليعلو به على الناس، ولا طلبه ليُسَخِّرَ هذا الملك لمصالحه الشخصيّة، إنما طلبه ليكون عوناً له على هداية الخلق، فالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))

[من سنن البخاري عن عمر بن الخطّاب]

إذا تحدَّثت عن هذا الشيء فلا مانع، أما إذا آتاك الله شيئاً خاصّاً بك، ومتعلِّقاً بالدنيا فليس من الحكمة، ولا من الرحمة، ولا من التواضع أن تحدِّث الناس به، فإذا أكرمك الله بالمعرفة، أو أكرمك الله بحالٍ طيّب، وذكرته للناس فمن أجل أن تشجِّعهم على ذلك، أما إذا ابتغيت به أن ترتفع على الناس فهذا فخرٌ نعوذ بالله منه، أما سيدنا سليمان قال:

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16))

ولمجرّد أن تعزو الفضل إلى الله عزّ وجل فهذا أحد أنواع الشكر، لذلك المؤمن كيفما تكلّم يقول: هذا من فضل الله علي، لقد أكرمني الله بكذا، لقد أعانني على فعل هذا العمل الطيّب، لقد سمح لي أن أدعو له، كل عملٍ طيّبٍ تعمله يجب أن تعزوَهُ إلى الله لا أدباً ولا تواضعاً بل حقيقةً، هذا الذي حصل، لو لا أن الله سبحانه وتعالى سمح لك لما أنطقك، لو لا أنه أعانك لما مكّنك، لو لا أنه ألهمك لما يَسّرَ لك..

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(88))

(سورة هود)

تكفينا هذه الآية، ما من عملٍ طيّبٍ في الأرض يحقّق نتائجه إلا بتوفيق الله تعالى، هكذا..

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللّهِ)

(سورة هود)

(وَقَالَ يَا أَيُّهَا النّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلّ شَيْءٍ (16))

2 – شمولية المُلكِ في قوله: وَأُوتِينَا مِن كُلّ شَيْءٍ

إنه يقصد بما آتاه الله من تسخير الرياح، ومن تعليم الناس، ومن معرفة الله عزّ وجل، ومن الحكم بين الناس والقضاء بينهم، هذا كلّه مشمولٌ بقوله تعالى:

(وَأُوتِينَا مِنْ كُلّ شَيْءٍ إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16))

لا يعرف الشوق إلا من يكابده، ولا الصبابة إلا من يعانيها..

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيّنَةٍ مِنْ رَبّي)

(سورة هود: من الآية 28)

الأمور واضحة جداً.

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود: من الآية 28)

يمكن أن يكون المؤمن بنظر من حوله من أقربائه، من جيرانه، من أصحابه أن تكون بائساً، فهو مسكين، وما حَصّل شيئاً من الدنيا بنظرهم، وهمه الله، ما له إلا هذا الهم ؛ الصلاة والعبادة فقط، هذا المؤمن الذي يظنّه بعض الناس ما حصّل شيئاً قد يكون من ملوك الدار الآخرة، قد يكون هذا المؤمن من أسعد الناس الذين حوله، قد يكون من أرفعهم عند الله مكانةً، فإذا جاءهُ ملك الموت انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار العمل إلى دار الإكرام، من دار التكليف إلى دار التشريف، من دار الابتلاء إلى دار الجزاء، وإلى الأبد في جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، فهذا واللهِ هو الطّموح، هذا والله النشيط، هذا والله الذي عرف كيف ينال الحظّ الأوفر..

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود)

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمْ الْمَفْتُونُ (6))

(سورة القلم)

البطولة لا لمَن يضحك أولاً ؛ بل لمن يضحك آخراً، هذه البطولة، الغنى والفقر ليس في الدنيا، الغنى والفقر بعد العرض على الله، الفوز ليس أن تشتري أرضاً ثم يرتفع ثمنها إلى مائة ضعف، ليس أن تمتلك بناءً ضخماً يغنيك ويغني أولادك من بعدك، لا، البطولة والغنى أن تُزَحْزَحَ عن النار وتدخل الجنّة..

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

البطولة لا أن تُرضي الناس، بل أن ترضي ربَّ الناس، البطولة لا أن تكون عند الناس ذا شأنٍ عظيم ؛ بل أن تكون في عين الله كبيراً، أن تكون بأعين الله كما قال الله عزّ وجل، البطولة أن تكون العاقبة لك، قال تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور)

وقال أيضاً:

(وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ(16))

3 – فائدةٌ مستنبطةٌ من قوله: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

لو قال: إن هذا فضلٌ مبين فما الفرق بين الجملتين ؟، نجد الفرق تحدده كلمة **" هو "**. فماذا تعني كلمة **" هو "** ؟..

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16))

أيْ كلُّ ما سواه ليس فضلاً، الفضل الوحيد هو أن تعرف الله عزّ وجل، وأن تستقيم على أمره..

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16))

لو قال: إنَّ هذا فضلٌ مبين، فإنها لا تعطي هذا المعنى..

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ (16))

هذا هو الفضل، وما سواه ليس فضلاً، وما سواه سراب، ما سواه وَهْم، ما سواه ظن..

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ (17))

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ

1 – تسخير الجن والإنس والطير لخدمة لسليمان:

الله سبحانه وتعالى سَخَّرَ لهذا النبي عدداً كبيراً من الإنس يعملون بأمره، وعدداً من الجن، وعدداً من الطَّيْر، سُخِّر لهذا النبي العظيم الجن ليس مجموعهم بل بعضهم..

(مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ (17))

يفيد هذا المعنى كلمة (من)، لأن من للتبعيض، أيْ سُخِّر لهذا النبي من الجن عدد، ومن الإنس عدد، ومن الطير عدد..

(فَهُمْ يُوزَعُونَ (17))

2 – فَهُمْ يُوزَعُونَ

أي يُجْمَعون، أيْ جمع الله له هؤلاء جميعاً، أولهم على آخرهم، أي جُمِعوا في موكبٍ واحد، أما الطير فيبدو مما سنصل إليه أنه ليس مطلق الطير ؛ بل نوعٌ خاصٌ من الطير يتفوّق على أمثاله، فليس من شأن الطير إذا حَلّقَ فوق مدينة أن يتعرّف إلى ملِك هذه المدينة، وإلى طاعته لله عزّ وجل، وإلى معرفته بالله، وإلى انحرافه أو استقامته، هذا ليس من شأن الطير، لكن هذا النبي الكريم سُخِّر له طيرٌ من نوعٍ خاص، عنده قوة إدراكٍ لا يملكها أمثاله من الطيور، والجن كما تعلمون..

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ)

(سورة الرحمن: من الآية 33)

من صفات الجن:

1 – الجنّ يرون الإنس ولا عكس:

المخلوقات بعضُها مكلّف، وهو الإنس والجن، مكلّفٌ بالأمانة، مكلّفٌ بتزكية نفسه، مكلّفٌ بطاعة الله عزّ وجل، فالجن مخلوقات خُلِقَت من مارجٍ من نار، سريعة الحركة كما ورد في القرآن الكريم، بعض الجن آمن مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، الجن لهم صفاتٌ، منها أنهم يرون الإنس، أما الإنس فلا يرونهم..

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: من الآية 27)

الجن مخلوقات نحن لا نراهم، لا نستطيع أن نقول عنهم إلا ما قاله الله عزّ وجل من دون زيادة، لأن سبيل الإيمان بهم هو الخبرُ اليقيني، الخبر الصادق، اليقين الإخباري، لذلك نكتفي بما ورد في القرآن الكريم في سورة الجن وفي مواطن أخرى، ليس للجن سلطانٌ على الإنس، والدليل:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

2 – الجنّ يوسوسون:

الجن يملكون الوسوسة..

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ(1)مَلِكِ النَّاسِ(2)إِلَهِ النَّاسِ(3)مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ(4)الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ(5)مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(6))

(سورة الناس)

هذا كلّه نعرفه من كتاب الله عزّ وجل، ولا نستطيع أن نضيف عليه شيئاً آخر، لا نستطيع أن نراهم، أما هم فإنهم يروننا، ويوسوسون، ولكن لا يملكون علينا سُلطاناً إطلاقاً..

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17))

جُمِعوا في موكبٍ واحد..

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ (18))

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ

هذا الموكب الذي فيه النبي الكريم سليمان، وفيه عددٌ كبيرٌ من الإنس ومن الجن ومن الطير، هذا الموكب الذي جُمِعَ له، وسُخِّر له، في أثناء تحرُّكه أتى على وادي النمل، هذه القصّة فيها عدد كبير من خَرْق العادات.

قصة سليمان:

1 – بين المستحيل عقلا والمستحيل عادةً:

الآن أريد أن أقف معكم قليلاً، نحن أحياناً نقول: هذا الشيء مستحيل عادةً، وهذا الشيء مستحيل عقلاً، فما الفرق بين المستحيل عادةً والمستحيل عقلاً ؟

هناك فرقٌ كبير، الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، والكون جائز الوجود، ممكن الوجود، أي أن الكون خُلِق هكذا، وكان من الممكن أن يكون على خلاف ما خلق عليه، الإنسان يتكلّم، وكان يمكن ألا يتكلّم، الإنسان يأكل وكان من الممكن أن يُخْلَق بلا طعام ولا شراب، الإنسان له حركة معيّنة، له بصر معيّن، فالذي خُلِقَ الإنسان به على هذا الوضع، هذا ممكن، ومعنى ممكن أي ممكن أن يكون في شيء آخر، ممكنٌ أن يكون الإنسان من غاز، أو من نور، أو من المعدن، ممكن، فكل شيء خلقه الله عزّ وجل نقول عنه: هذا ممكن، الكون كلُّه ممكن، والله سبحانه وتعالى واجب الوجود، في علم العقيدة هناك شيءٌ واجب الوجود، وهناك شيءٌ ممكن الوجود، وهناك شيءٌ مستحيل الوجود، وهو الله وحده.

عندنا الآن خرق للعادات، بحكم العادة مستحيل أن يمشي إنسان في الطريق فيستمع إلى نملة، ما تقوله لمثيلاتها، إذاً هذا خرقٌ للعادات، وأن تعرف النملة أن هذا نبيٌّ عظيم، وهؤلاء من حوله جنٌّ وإنسٌ وطير، أيضاً هذا خرق للعادات.

مجتمع النمل نظام مذهل:

بالمناسبة: لو أن هناك وقتاً، واطلعنا فيه على حقيقة مجتمع النمل لأخذنا العجبُ العُجاب، شيءٌ لا يصدّق، مجتمع النمل ومجتمع النحل من حيث النواحي الاجتماعيّة والنظام أرقى من بني البشر، هناك مستعمرات للنمل، هناك مزارع للنمل، النمل يربي بعض الماشية، فهناك حشرات خاصّة يقتات النمل على رحيقها، يربيها في مزارع، النمل له قيادة، النمل له نظام في الانضباط عجيب جداً، النمل يُرْسِل

استطلاعاً إذا تنقّل، النمل يخزّن موادّه الغذائيّة بعد أن ينزع الرشيم من القمحة، وفي بعض أنواع الحبوب لها رشيمان فينزعهما لئلا تنمو.

في النمل شيءٌ لا يصدّق، سواء في حركاته، انضباطه، وعدوانه، وحروبه، سِلمه، ونظامه، وزواجه، إنّ مجتمع النمل مجتمعٌ أرقى من مجتمع البشر من حيث التنظيم والانضباط، وكذلك مجتمع النحل.

كما قلت في أول الدرس: إذا افتخر الإنسان بنظامه ففي الحيوان من هو أشد منه انتظاماً، إذا افتخر بحجمه، إذا افتخر بعظمه، إذا افتخر بقوّته، إذا افتخر بجماله، إذا افتخر بسفاده، فأيُّ حيوانٍ، أيُّ صفةٍ يفتخر بها الإنسان ففي الحيوان ما يتفوّق بها عليه، إلا أن الإنسان خُلِقَ لمعرفة الله، فشرفُه من شرف مهمّته، فما دام في مهمّته فإنه يكتسب هذا الشرف العظيم، فإذا تخلّى عن مهمّته عاد إلى أسفل سافلين..

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(6))

(سورة التين)

إذاً:

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ (18))

يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

بينما كان سيدنا سليمان مع الجن والإنس والطير إذْ سمع سيدنا سليمان نملةً تقول:

(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(18))

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ: لا يجوز قتلُ النمل:

استنبط العلماء أنه لا يجوز للإنسان أن يدوس نملةً ويقتلها، لأن سيدنا سليمان لو حطم هذا النمل لكان ذلك من غير شعور منه ومن جنوده:

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

أما أن تُداس النملة بقدمٍ شاعرةٍ، تشعر أن هذه نملة، وأنت سوف تدوسها، هذا ليس من أخلاق المؤمن استنباطاً من هذه الآية، إذاً: أن تعرف النملة أن هذا نبيٌّ كريم، وأن هذا الحشر الذين معه سُخِّروا له..

(لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

وأنهم من الورع ومن اللطف بحيث أنهم لو قتلوا نملةً لا يشعرون، هذا خرقٌ للعادات، وأن يستمع هذا النبي العظيم لهذه النملة تخاطب مثيلاتها، وتحذِّرهم من هذا الموكب الذي قد لا يشعر فيدوسها جميعها بأقدامه، هذا أيضاً خرقٌ للعادات..

(فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا (19))

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَ

1 – التبسُّمُ من أخلاق الأنبياء والصالحين:

القهقهة ليست من أخلاق المؤمنين، النبي عليه الصلاة والسلام كان جُلُّ ضحكه التبسُّم.

(فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(19))

الشكر نعمة يثاب عليها الإنسان، فالله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

2 – الكونُ مسخّر تعريفا وتكريما:

فهذا الكون الذي سخّره الله لنا سخّره مرّتين، سخّره تسخير تعريف، وسخّره تسخير تكريم، فيجب أن يكون موقفنا من التعريف الإيمان، ومن التكريم الشكر والعِرْفان، إذا آمنا وشكرنا حقّقنا المهمّة في الأرض، فإذا آمنا ولم نشكر، أو شكرنا ولم نؤمن فقد اختلّت مهمّتنا، إذاً لابدّ من التضييق والعلاج، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

إذاً:

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ (19))

قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ

حدودُ الشكر:

الحدُ الأول: الحدُ الأدنى:

الشكر له حدّان، حدُه الأول: أن تعزو هذه النعمة إلى الله، ما دمت تقول: أنا، ولي، وعندي، فأنت لا تعرف الله عزّ وجل، قال الشيطان: أنا فأهلكه الله، قال:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف: من الآية 12)

وقال فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: من الآية 51)

فأهلكه الله عزّ وجل.

وقال قارون:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

أنا، ولي، وعندي، هذه الكلمات فيها شرك.

أما الشكر فأن تعزو النعمة إلى الله عزّ وجل.

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى (19))

هذا الحدُ الأدنى.

الحدُ الثاني: الحدُ الأعلى:

والحدُ الأعلى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

(سورة سبأ: من الآية 13)

أن تقابل النعمة بعملٍ طيّب، **" يا رب كيف أشكرك ؟** قال **" إنّك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني ".**

فأن تعزو النعمة إلى الله شكر، وأن تشكر الله عزّ وجل كثيراً شكر، وأن تعمل صالحاً شكر، وأن تفعلها معاً هذا نوعٌ طيبٌ من الشكر..

(أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ (19))

يا رب كيف أشكرك، وشكرك لا يتمُّ إلا بنعمةٍ أخرى مِن نعمك ؟ نعمة الشكر..

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ (19))

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ

أي أن تعمل صالحاً فهذه ترضي الله عنك، فقمّة السعادة أن تعمل صالحاً فيرضى الله عنك، أن يكون عملك في مرضاة الله عزّ وجل، المؤمنون ابتغوا رضوانه، والمنافقون كرهوا رضوانه..

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ)

(سورة محمد: من الآية 28)

أما المؤمن فيبتغي رضوان الله عزّ وجل، لذلك: **" إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي "..**

(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ (19))

وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ

في هذا الحال الطيّب، في هذا التجلي، في هذه السعادة الدائمة، في هذه الجنّة التي وعدت بها عبادك المؤمنين..

(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19))

بقي شيءٌ في هذه القصّة، هو أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ (16))

أو:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

فائدة جليلة: لماذا ذكر الله نعمة العلم على سليمان ولم يذكر نعمة الملك عليه ؟

الله عزّ وجل آتاه الملك أيضاً، فلِمَ لم يذكر الله الملك وذكر العلم ؟ قال بعض المفسّرين: لأنك إذا وضعت الملك إلى جنب العلم فليس بشيء، إذا وضعت الملك، وما أدراك ما الملك، إذا وضعته إلى جنب العلم فليس الملك شيئاً أمام العلم، لأن الله سبحانه وتعالى يعطي الملك لمن يحبُّه ولمن لا يحبُّه،

ويعطي المال لمن يحبُّه ولمن لا يحبُّه، لكن العلم اللدُنِّي، لكن العلم بالله لا يعطيه إلا لمن يحبُّه، فإذا أعطاك الله شيئاً يمتدُّ، تسعد به إلى الأبد، هذا الشيء المسعد إلى الأبد لا يمكن أن يُذْكَر معه شيءٌ يفنى مع الموت، من هنا كانت حكمة الله عزّ وجل أنه حينما ذكر أنه أعطى سليمان العلم لم يذكر معه الملك، لأن الملك لا يُقاس بالعلم، هل تقول: أعطيت فلان بيتاً وصحناً ؟ الصحن لا يُوازَن مع البيت، لذلك هذه بعض الحكمة من إغفال المُلك وإظهار العِلم.

يجب أن يعرف ذو العلم قيمة العلم:

شيءٌ آخر: اللائق بكل ذي علمٍ أن يَعْلَمَ قيمته، إذا شخص أتاه الله عزّ وجل العلم فلا يحسُن به أن يهين نفسه لأن الله كرّمه..

((ابتغوا الحوائج بعزّة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير))

[ورد في الأثر]

لا يستخف بعلمه، لا يضع علمه في مكان غير لائق به، لا يكون مع عامّة الناس، كيف ؟ هناك أماكن لا تليق بمن آتاه الله العلم أن يكون بها، كأن يُقحِم نفسه في مناقشاتٍ ما، في أعمال، في تصرُّفات، فالذي آتاه الله العلم ينبغي أن يُكَرّمه بالتعفُّف، أن يكرّمه بالعزّة..

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة المنافقون: من الآية 8)

فلا يليق بكل ذي علمٍ إلا أن يعلم قيمة علمه، وأن يعلم مصدر علمه، وهو الله عزّ جل، وأن يتوجّه إلى الله بالحمد.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16))

(وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا (15))

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ (19))

في سطرين أو ثلاثة جاء ذكر الشكر والحمد، وبيان الفضل ثلاث مرات، فمن آتاه الله العلم يجب ألا يضيّعه، يقول سيدنا علي: **<< قِوام الدين والدنيا أربعة رجال: عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم، وغنيٌّ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالِم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم >>.**

ما الذي يدعو الناسَ إلى التعلّم ؟

ما الذي يدعو الناس إلى التعلّم ؟ أن يكون العالِم في مستوى علمه، وأن تكون أخلاقه في مستوى أقواله، وأن يكون عمله مطابقاً لقوله، أن يكون متخلِّقاً بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، حتى يرغبَ الناس في علمه، فإذا ضيّع العالِم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره.

في هذا الدرس أنهينا قصّة سيدنا سليمان مع النمل، وبعدها ننتقل إلى هذا النبي الكريم مع الهدهد، وبعدها مع الملكة بلقيس.

سؤالٌ وفائدةٌ:

وبعد، فهنا سؤال يطرح نفسه: لماذا قدّم الله تعالى في هذه الآية الجن على الإنس ؟ قال تعالى:

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(17))

القاعدة: أن تقديمَ الجن على الإنس أو الإنس على الجن بحسب أهمية الموضوع، فإذا كان الحديث عن إعجاز القرآن، يقول الله عزّ وجل:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

وإذا كان الحديث عن خرق السماوات والأرض:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(33))

(سورة الرحمن)

فالإنس أرسخ قدماً من الجن في مجال اللغة والبيان، فقُدِّم على الجن.

هنا لما حشر ربنا عزّ وجل لهذا النبي العظيم الجن والإنس والطير فقط حشرهم ليُعينوه، ويبدو أن الجن أقدر على أن يتنقّلوا بسرعة من مكان إلى آخر من الإنس، وأقدر على عون سليمان من الإنس كذلك، فقُدِّموا على الإنس تقديماً يتناسب مع موضوع الآية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (04-18): تفسير الآيات 20 - 31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-12-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

مغزى القصة القرآنية:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة النمل، دائماً وأبداً نكرر هذه الحقيقة، وهي أن القصة في القرآن الكريم ليس المقصود منها حوادثها، ولا شخصيّاتها، ولا حوارها، ولا بدايتها، ولا نهايتها، ولا عقدتها، ولا خِتامها، ولكنّ شيئاً واحداً هو المقصود من القصة في القرآن الكريم إنه مغزاها، أحداثٌ وقعت وانتهت، ومضى عليها آلاف السنين، وأصبحت قرآناً يُتلى إلى نهاية الدوران، هذا كلام الله، كلام الله القديم، فماذا نستفيد نحن من هذه القصة ؟ لا تعنينا هذه المواقف، ولا تلك الحوادث، ولا هذه الحركات، ولا تلك السَكَنات، ولا تصوير الأحداث، يعنينا شيءٌ واحد، هو المغزى الذي أراده الله سبحانه وتعالى حين قصّ علينا هذه القصة، تعنينا العبرة التي ذكرها الله عزّ وجل فقال:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ)

(سورة يوسف: من الآية 111)

أين هي العبرة ؟ أين هو الدرس ؟ أين هو الاستنباط ؟ أين هو المغزى ؟ هذا الذي يعنينا في قصة سيدنا سليمان مع النمل تارةً، ومع الهُدْهُدِ تارةً، ومع الملكة بلقيس تارة ثالثة.

فيا أيها الإخوة الأكارم، هذا النبي العظيم التي أوتي المُلك، وفي درسٍ سابق بيّنت لكم أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

(سورة النمل)

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ

1 – فَضْلُ العلم على المُلك:

لم يقل الله عزّ وجل: إنه آتاه مع العلم المُلك لماذا ؟ لأنك إذا وازنت بين العلم وبين الملك لا يعدُّ الملك شيئاً ذا قيمةٍ أمام العلم، الملك شيءٌ زائل، والإنسان أحياناً في غضون أيامٍ يفقد ملكه، فالملك شيءٌ زائل؛ ولكن العلم شيءٌ باقٍ، من هنا لم يشأ الله عزّ وجل أن يضيف إلى العلم شيئاً إلا أن يكون في

مستواه، فالملك مع أن الله سبحانه وتعالى آتاه لسيدنا سليمان، ولكنه لم يُذْكَر حينما تكلم الله عن العلم الذي آتاه سيدنا سليمان، هذه واحدة.

2 – الأصلُ في القوة والملك أنهما في خدمة الحق:

الشيء الثاني، هو أن هذا الملك العظيم نستفيد من قصّته بشكلٍ مجمل، كيف أن القوة والمُلك يمكن أن توظّفَ في سبيل الحق، من قال لك: إن القوة طائشة ؟ أحياناً تكون هادفة، أحياناً توظّف القوة في سبيل نشر الحق، في سبيل إذاعة الهدى، في سبيل أن يحل الفضل والكرم والخُلُقُ في العالم، إذاً فالله سبحانه وتعالى جعل هذه القصة بين أيدينا لتكون الحقيقة الأولى فيها أن المُلك، وأن القوة، وأن السلطان يمكن أن يكون صاحبها في أعلى درجات الإيمان، يمكن أن يكون نبياً وهو في أعلى درجة من درجات الملك والقوة والسلطان، وكيف يمكن للملك والقوة والسلطان أن توظّف كلها في خدمة الحق، وفي نشر الحق، وفي نُصْرَة الحق، هذا هو محور القصة.

إذاً: محور القصة أن الملك ليس بشيءٍ إذا قيس مع العلم، لأن العلم يمتد أثره إلى الأبد ؛ بينما الملك ينتهي أثره عند الموت، يكفي أن يقف القلب ينتهي الملك، لمجرد أن يتوقّف القلب يُسْلَب الملك، لكن العلم يستمر مع الإنسان إلى أبد الآبدين، مِن هنا فقد أراد الله سبحانه وتعالى من هذه القصة أن إنساناً ما، إذا آتاه الله قوةً، إذا آتاه الله جاهاً، أو إذا آتاه الله شأناً، أو آتاه الله منصباً، أن يجعل قوّته في سبيل الحق، وفي خدمة الحق، وفي نُصْرَةِ الحق، كما أن المال وهو قوة في الأرض يوظّف في سبيل الله، وكما أن العلم وهو قوةٌ أخرى يوظّف في سبيل الله، كذلك القوة والسلطان يمكن أن توظفا في سبيل الحق.

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ (20))

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ

1 – من لوازم الراعي تفقُّدُ رعيّتِه:

سيدنا سليمان كان حازماً إلى جانب اليقظة فقام يتفقّد جنده، وتَفَقُّدَ الشيء من لوازم الحزم في الملك، يقابل التفقدَ التسيُّبُ، إما أن تتفقد، وإما أن تُسيب، والتسيب ليس من صفات الأمير الناجح، ولا الملك الحازم، ولا القائد الكفء..

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ (20))

بادئَ ذي بَدء حينما قال الله عزّ وجل:

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ (17))

ليس الجن والإنس والطير كلها مسخرة لسليمان عليه السلام:

ليس معنى هذه الآية أن كل الإنس الذين عاصروا هذا النبي الكريم سخروا له، وليس معنى الآية أن كل الجن سُخِّروا له، وليس معنى الآية أن كل الطير سُخر له، سَخَّر له بعض الإنس وبعض الجن وبعض الطير، شيءٌ ثالث: ليس معنى ذلك أن الطير التي سخرها الله له هي كغيرها من الطيور، طيورٌ خاصة عندها قوة إدراكٍ خاصة، عندها تميُّز، عندها حالاتٌ استثنائية لا توجد عند بقيّةِ الطيور، وسوف ترون معي بعد قليل معنى هذا الكلام..

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ (20))

فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ

لو أن الهداهِد كُلّها سُخِّرَت له لما أمكنه أن يعرف واحداً من واحد، ولكن هدهداً بعينه، وذاته، وهدهداً خاصاً سُخِّرَ له، وهو ذو إمكاناتٍ رفيعة، تفقَّدَهُ فلم يجده، وهذا من شأن القادة أن يتفقّدوا من معهم..

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20))

دروس في القيادة:

1 – سؤالُ سليمان عن سبب غياب الهدهد:

كلمة الهُدْهُد، هذه الألف واللام، أي الهدهد المعروف، المعهود، الذي أعرفه، الهدهد الخاص، المُعَيَّن، فحينما سأل عن الهدهد.. هنا نقطة مهمة جداً، أنت في مستوى القيادة إذا تساهلت مع أحدِ المرؤوسين، تساهلت معه، ولم تأخذه بالحزم، إذا شاع عنك أنّك لست حازماً، ولست محاسباً، ولست ضابطاً لأمورك، إذا شاع عنك ذلك هذا التسيُّب عند هذا الهُدهد ينتقل بالعدوى سريعاً، خلال أيام، خلال أسابيع، خلال أشهر، وعندئذٍ جميع الهداهد لا تحضر، ولا تقوم بالأعمال الموكلة إليها.. لذلك حينما تفقد الهدهد ولم يجده، عرف كلّ من حول هذا النبي العظيم أن الهدهد غائب، وغائب بلا إذن، ولو أنه غائب بإذنٍ شرعي لما سأل عنه هذا النبي الكريم، إذا أرسلت أنت إنساناً بمهمةٍ وغاب عنك أياماً لن تسأل عنه لأنك

أنت الذي أرسلته، إذاً: استنبط من هنا أن غياب هذا الهدهد، كان غياباً من دون إذنٍ، كان غياباً غير مشروع، وعرف.. حينما تفقّد سيدنا سليمان الهُدهد.. منْ حوله من الجن والإنس والطير أنه غائب بلا إذن، هم يرقبون موقفه، ماذا سيفعل ؟ سيسكت ؟ لا يحاسبه، لا يأخذ على يده، لا يضبط أموره، عندئذٍ هذا التسيب وهذا الخلل، وهذا التقصير يمتد إلى بقية الهداهد، وإلى بقية أنواع الطيور، وإلى الإنس، وإلى الجن، هذا درسٌ في القيادة.

2 – تعلّموا تسييرَ المسؤولية من سليمان عليه السلام:

إذا كنت أنت معلم مدرسة، وكلفت الطلاب بوظيفة، وطالب لم يكتب الوظيفة، جميع الطُلاّب قد كتبوا هذه الوظيفة باستثناء واحد منهم، فالطلاب عندها ينظرون إليك ماذا ستفعل ؟ لكنك لم تفعل شيئاً، وقلت له: أنت لمْ تكتب وظيفتك، فأنت حر، من جراء هذه الكلمة فسيأتيك في اليوم التالي نصف الطلاب من دون وظيفة، بالضبط، وبعد يومين لن تجد من الطلاب كلهم إلا واحداً أو اثنين كتبا الوظيفة، الطلاب راقبوك، ورأوا أنك لم تفعل شيئاً، لم تأخذ موقفاً حازماً، لم تضرب على يد أحدٍ، لم تتوعده، لم تهدده، لم تفعل شيئاً، قَصّرَ وترك واجبه وأهمل وأنت ساكت.

وكذلك على مستوى الأب، إذا كنت أباً وعندك أولادٌ عِدّة، وتجاوز أحد أولادك الحدود ولم تفعل شيئاً لا سلباً ولا إيجاباً، هذا التجاوز يسري بالعدوى بعد أيامٍ إلى الآخرين، إذا كنت مدير معمل، إذا كنت مدير مستشفى، إذا كنت مدير مدرسة، إذا كنت في منصبٍ قيادي، ووقع أحدٌ ممّن حولك بخللٍ، بتقصيرٍ، بذنبٍ، بمخالفةٍ، بتجاوزٍ، ولم تفعل شيئاً، فهذا التقصير فأسرى إلى بقية المرؤوسين.

فهذا الموقف إذاً موقف يعلِّمُنا كيف نكون آباء ناجحين، وكيف نكون معلِّمين ناجحين، وكيف نتصرف بشكلٍ صحيح مما يوصل إلى النتيجة المرجوّة، بعض أصحاب سيدنا عمر رضي الله عنه، قال له: **<< إن الناس خافوا شدتك، فبكى هذا الخليفة الرحيم، وقال: والله يا أبا ذر، لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى >>.**

كان يمشي هذا الخليفة العظيم يوماً ما في طرقات المدينة، رأى رجلاً قاعداً لم يأبه له، ولم يَقُم له، ولم يُبَجِّل سلطان الله فعلاه بالدرة، وقال: **<< ألا تهاب سلطان الله ؟ فإن سلطان الله لا يهابك >>**، لو تركه وشأنه لتفاقم الأمر ولتجاوز الناس، هذا درسٌ في القيادة..

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20))

غاب من دون إذن..

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا (21))

النبي عليه الصلاة والسلام يقول في بعض الأحاديث الشريفة:

((ضع السوط حيث يراه أهل البيت))

[ورد في الأثر]

يجب أن يعلم مَن حولك أنك في الوقت المناسب قد توقِعُ فيهم العقاب الأليم، والله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ)

(سورة الأنفال: من الآية 60)

أي أن هذه القوة ليست للاستهلاك ولا للاستخدام، ولكن أحياناً لكي ترهب عدوك، لذلك الدول الكبرى التي تملك أسلحةً فتّاكة تكون مرهوبة الجانب، قد لا تستخدم هذا السلاح، ولكنها تبقى مرهوبة الجانب، وكذلك الله سبحانه وتعالى أمرنا كمسلمين أن نُعِدَّ لأعدائنا القوة التي توقفهم عند حدهم، وتحجزهم عن أن يعتدوا علينـا، وعلى أراضينا.

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ (21))

لكن العدالة التي ينطق بها هذا النبيُ الكريم، والحقَ الذي رفع لواءَه هذا النبيُ الكريم، يجعله يُذعن للسلطان المبين إذا جاء به الهدهد، قال:

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21))

وْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ

طلب العذر قبل اللوم والعتاب:

إمّا أن يقدِّم الدليل المُقْنِع الواضح البيّن على سبب غيابه، عندئذٍ يكون غيابه مشروعاً وبإذنٍ شرعي، أو..

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ (21))

من هنا قال بعضهم: **" وكان لا يلوم أحداً فيما لا يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره "**، فقَبْلَ أن تَصُبَّ جام غضبك على أخيك، قبل أن تقول: سأفعل كذا وكذا، انتظر وقل: إما أن يأتيني بعذرٍ مقنع

بينٍ ظاهر، وإما لأفعلنّ كذا وكذا، أمّا أن تحكم عليه غيابياً، وهذا ليس من شأن المؤمن الذي ينضبط بالحق، ويذعن له، مع أنه نبيٌّ عظيم، ومع أنه غضب غضباً شديداً، ومع أن غياب الهدهد كان غير مشروع، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا كيف تكون الأمور، إذ لابدّ من أن يأتي بالسلطان المبين، أي بالعذر الشرعي، بالحجة المقنعة، بالدليل الواضح..

(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ (22))

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ

لم يطل انتظاره، فما هو إلا وقتٍ قصير حتى جاء الهدهد.

تعلّمْ حُسنَ الاعتذار من الهدهد:

الآن الهدهد يقف موقفاً في منتهى الذكاء، ألم أقل لكم قبل قليل: ليس هذا هدهداً عادياً، لا يمكن لهدهدٍ من عامّة الهداهد أن يكون بهذا الذكاء، وهذه الحكمة، وذاك الإدراك، وهذا العمق، فحينما تكون مُخالفاً وتواجه الذي خالفته وتراه في أشد حالات الغضب لابدّ من أن تسكب على غضبه الماء البارد حتى يَسْكُنَ غضبه، ما الذي يجعل هذا الملك العظيم المَرهوب الجانب يسكت، ويحجم عن إيقاع العذاب، ويحجم عن صب غضبه على الهدهد، وما الذي يجعله يتصرف بحكمة ؟ أن تأتيه بشيءٍ غريب، بنبأٍ خطير، بحادثةٍ فريدة، لابدّ من أن تنجو منه وذلك بأن تصرفه عنك إلى شيءٍ آخر، لا بدّ من أن تصرفه عنك إلى شيءٍ آخر، ماذا قال:

(فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ (22))

فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ

أحياناً يكون الابن متأخراً تأخراً شديداً، يدخل فيجد نفسه في جوٍ من الغضب سينصبُّ عليه، يأتيهم بخبر غريب: رأيت حادثاً مروعاً، فالأب والأم بدل أن يصبّا غضبهما عليه ينتقلان إلى موضوع غريب، ما الحادث ؟ ماذا وقع ؟ تبدّد الغضب وهدأت العاصفة، والهدهد هكذا فعل، قال:

(فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ (22))

أنت سليمان أيها الملك العظيم، يا من سُخِّرَت لك الطير، سُخر لك الجن والإنس، يا من سخرت لك الرياح، لكني

(أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ)

(وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22))

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ

كان الهدهد في سبأ، وسيدنا سليمان كان في القدس، ذهب إلى سبأ، وعاد من سبأ بنبأٍ يقين، يبدو أن سيدنا سليمان أراد أن يسمع ما النبأ ؟ ما هذا النبأ اليقين ؟ ما هذا الخبر الصادق ؟ ما هذه المشكلة الخطيرة ؟

استنباطات من قوله: إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

قال:

(إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ (23))

1 – الرجل والمرأة سواء في التكليف والتشريف:

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً))

[البخاري عن أبي بكرة]

دائماً وأبداً أقول لكم: المرأة كالرجل في شيئين ؛ في التكليف وفي التشريف، إنها مكلّفَةٌ كالرجل تماماً بأركان الإيمان، وأركان الإسلام، عليها أن تعرف ما يجب أن يعلم بالضرورة، عليها أن تصلي، وأن تصوم، وأن تحج، وأن تفعل كذا وكذا، وأن تلزم الشرع، مكلفةٌ بالإسلام والإيمان، إذاً هي مساويةٌ للرجل في التكليف، ومساويةٌ له في التشريف، مكلفةٌ مثله، ومُشَرَّفَةٌ مثله، والدليل:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(35))

(سورة الأحزاب)

2 – ليس الذكر كالأنثى:

إذاً: المرأة كالرجل تماماً في التكليف وفي التشريف، لكن المرأة امرأة، والرجل رجل، والله سبحانه وتعالى أودع فيها من الصفات النفسية، ومن الصفات العقلية، ومن البُنْيَة الجسدية، ومن العواطف الاجتماعية ما يليق بأنوثتها، فالمرأة امرأة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، إن كل شيءٍ فيها في خدمة وظيفتها الخطيرة، إن تفكيرها، إن بُنيتها، إن نفسيتها، إن عقليتها، إن أي شيءٍ فيها موظفٌ لخدمة هذا الدور الخطير الذي تقوم به في الأسرة.

والرجل عقله، وبنيته، وعضلاته، وتفكيره، وغَلَبَةُ عقله على عاطفته هذه كلها بعض مقومات الرجولة، وإن الرجل قد رُكِّبَ هذا التركيب لينجح في دوره خارج البيت.

إذاً: فمِنْ أين تأتي المشكلة ؟ من تبديل الأدوار، فهذا الجهاز كل شي فيه من أجل أن يعطيك البردَ في الصيف الحار.. مكيّف.. وهذا الجهاز كل شيءٍ فيه مُسَخَرٌ من أجل أن يشع لك بالدفْء في الشتاء، فإذا وضعت المكيّف في الشتاء والمدفأة في الصيف، تكون قد فعلت شيئاً غير مقبول، فمن أين يأتي الفساد ؟ من تبديل الأدوار، المرأة أكرمها الله بالجمال لتكون مُسْعِدَةً لزوجها، فإذا عَرَضَتْ هذا الجمال لكل إنسان، ولكل من يطلبه، عَمَّ الفساد في الأرض، الرجل آتاه الله العقل، والحكمة، والعضلات المفتولة، ليكون دوره خارج البيت دوراً قيادياً فَعّالاً، فإذا تخلّى عن دوره وصار مقوداً فقد بدّلنا المواقع، وبدلنا المواقف، من هنا قال عليه الصلاة والسلام وهو في أعلى درجة من درجات تكريم المرأة:

((ما أكرمهن إلا كريم، ما أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، يغلبهن لئيم))

[ورد في الأثر]

((لَا تُكْرِهُوا الْبَنَاتِ فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ))

[أحمد عن عقبة بن عامر]

((أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا))

[الترمذي عن عمرو بن الأحوص]

فأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام التي تتعلّق بإكرام المرأة لا تعدُّ ولا تُحصى، ولكن أن تسلِّمها وظيفةً لا تتناسب مع فطرتها فلا بدّ من أن يرجح عندئذٍ عقلها على عاطفتها، ولن يكون ذلك.

مثلاً يصعب على امرأةٍ أن تحكم بالقتل على إنسانٍ مجرم، فطبيعة بنيتها، عاطفتها، أمومتها، حبُّها لأولادها لا تمكنها من أن تنهي حياة مجرم، مع أن الله عزّ وجل يقول:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ)

(سورة البقرة: من الآية 179)

القتل أنفى للقتل، حياة المجتمع بقتل المجرم، لهذا فالمرأة قد لا تستطيع أن تفعل ما يوكل للرجل، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً))

[البخاري عن أبي بكرة]

لكن هذا الهدهد جاء بخبرٍ غريب..

(فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (23))

إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ

هذه الكلمة تُذَكِّرُني بآية..

(فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 44)

كل شيء، أنواع الأموال، أنواع البيوت، أنواع المركبات، أوتيت كل شيء،

(وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ)

يبدو أن الهدهد نظر إلى أمرها، وإلى عرشها، وإلى قصرها، وإلى جنودها، وإلى خدمها، وإلى حشمها، وإلى جيشها، وإلى إمكاناتها، وإلى طاقاتها..

(إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23))

إلى الآن الموقف معقول، امرأةٌ تملك أمةً، لها عرشٌ عظيمٌ، أوتيت من كل شيء، أيّ شيءٍ يخطر في بالك، ففيه أنواعٌ منوّعة، أي شيءٍ يراود خاطرك فمِن مثلِه أعدادٌ لا تحصى..

(وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23))

لكن المشكلة الخطيرة، لكنّ مصيبةَ المصائب، لكن الطّامة الكبرى..

(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ (24))

وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللّهِ

أين عقلهم ؟ أين تفكيرهم ؟ كيف حكموا على الشمس أنها ربُّهم ؟ أيعبدونها من دون الله ؟! ألا تغيب الشمس ؟

(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(78))

(سورة الأنعام)

مَن يدير الكون في غياب الشمس ؟

(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ (24))

وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ

وأنكى من ذلك أن الشيطان زَيَّنَ لهم أعمالهم، فالمشكلة الخطيرة أن الضال حينما يظن أنه على حق فأنت تحارُ كيف تهديه ؟ من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالمٌ فاتبعوه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهلٌ فعلِّموه، ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا شيطانٌ فاحذروه..

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ الأَخْسَرِينَ أَعْمالا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

فمن البليّة أن يعصي الإنسان ربه، ومن البلية الأشد والأنكى أن يعصي ربه، ويظن أنه بهذا مُفْلِح ومحقٌ، هذا هو الخطر، هذا أخطر ما في الانحراف، إذا كنت منحرفاً.. ولا سمح الله.. وتعلم أنك منحرف فالقضية سهلةٌ جداً، فسرعان ما تعود إلى الصواب، ولكن أخطر ما في الانحراف أن تظن أنك على صواب، وأن الناس كلهم على ضلال، وأنت بهذه الطريقة قطعت عليك طريق الهدى، قطعت عليك طريق الرجوع.

(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ(24))

فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ

السبيل إلى الله مسدودة، فالطريق إلى الله غير سالكة، شهواتهم كانت حجاباً بينهم وبين ربّهم، شِرْكهم كان عقبةً كؤوداً بينهم وبين التوحيد، معاصيهم أخجلتهم، الشرك أقعدهم، عمى بصيرتهم أربكهم، أيُّ هدهدٍ هذا ؟! ما هذا الهدهد الذي استطاع أن يصرف النبي العظيم عن أن يَصُبَّ عليه غضبه وحوّله إلى خبرٍ مثير، وكيف أن هذا الهدهد تَلَمَّسَ أن هذه المرأة التي..

(تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23))

وهي تسجد وقومها للشمس من دون الله، وأن الشيطان زين لهم الأعمال، فصدهم عن سبيل الله فهم لا يهتدون ؟

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ

والهدهد الآن يتساءل:

(أَلَّا يَسْجُدُوا (25))

ما الذي يمنعهم أن يكون سجودهم لله عزّ وجل، خالق الشمس والقمر، خالق الأرض والجبال، خالق الهواء والماء، خالق الطعام والشراب، خالق الإنسان، خالق كل شيء ؟ ما الذي يحول بينهم وبين السجود لله عزّ وجل ؟

(أَلَّا يَسْجُدُوا (25))

الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

مَن هو الله ؟ الذي.

(الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (25))

1 – مخبوءُ السماوات:

أيْ أن هذه السماء ما مخبوءٌ فيها ؟ المطر، بينما هي صافيةٌ، وبينما هي زرقاء صافية، وبينما اليأس قد انعقد على النفوس، بينما الناس يبتهلون إلى الله عزّ وجل بالغيث، ما هي إلا ساعاتٌ قصيرة حتى تتلبّد السماء بالغيوم وينهمر المطر انهماراً كأنها أفواه القِرَب، فإذا هذا المطر يُحْيي الأرض بعد موتها، فإذا الأرض تهتزُّ بهذه السقيا، فإذا بها تصبح ذات لونٍ بهيج..

(فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)

(سورة فصلت: من الآية 39)

إذاً:

(أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (25))

2 – مخبوءُ الأرض:

الأرض ماذا تُخْبئ ؟ النبات، تزرع بذرةً صغيرةً جداً قد لا ترى بالعين، فإذا هي نبتةٌ شامخة، تحمل لك الفواكه الطيّبة والخضراوات التي أنت بحاجة إليها، هذا الغذاء الأساسي الذي نقتات به، كيف أكلته؟ كيف جنيته ؟ كيف نبت ؟ فهذا شيء عجيب جداً، ابذر بذوراً معينة، البذور كلها في نصف دنم تقريباً لا

يزيد حجمها على خمسة غرامات، بعد تسعين يوما تقريباً ترى أن نصف الدنم هذا مليٌء بالنبات إلى ارتفاع مترين ونصف تقريباً، أو متر ونصف، وهو يحمل أنواع الخضراوات، أين كان هذا الحجم ؟ هذه النباتات كيف نَمَت وفق برنامجٍ خاص ؟ كيف أعطت ثمارها ؟ هذا هو الله عزّ وجل، اسجد لله شكراً وعرفاناً.

ولدينا أسئلة بسيطة جداً، فأنت ترى بأم عينك هذه البقرة التي تأكل الحشيش، ثم تُعطي الحليب، يا رب ما هذا المعمل الصامت ؟ يعمل بلا ضجيج، بلا وقود، أربعمائة حجم من الدم يحتاجها حجمٌ من الحليب، فالغدة الثديية للبقرة على شكل نصف كرة كأنها قربة، حول هذه القبة من الأعلى مجموعةٌ كبيرةٌ جداً من الأوعية الدموية، يجول في هذه الأوعية الدموية أربعمئة لتر من الدم، إلى أن يُستنبط من هذه الأربعمئة لتر لترٌ من الحليب في أسفل القُبّة، هذه البقرة تعطي في اليوم أربعين كيلواً، وهناك بقر هجين يعطي في اليوم ستين كيلواً حليباً، والحشيش نراه جميعاً بأم أعيننا، هل في الأرض كلها جهةٌ صناعيةٌ متفوقةٌ تستطيع تحويل هذا الحشيش الأخضر إلى حليبٍ، تصنع منه الجبن واللبن والسمن وما شاكل ذلك ؟ هذا من آيات الله، هذه الدجاجة تعطيك البيضة، هذا الخروف يعطيك الصوف، يعطيك الجلد، يعطيك اللحم، يعطيك الدهن..

(أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ (25))

3 – مخبوءُ الأرحام:

هذا الابن الذي أمامك كان نقطةً من ماءٍ مهين، في اللقاء الزوجي ثلاثمائة مليون حوين منوي، يتخلّق هذا الجنين من حوينٍ واحد لَقَحَ بويضة، وهذه البويضة تنقسم، وتنقسم، وتنقسم إلى أن تصبح علقةً فمضغةً، إلى أن تصبح جنيناً، بعد تسعة أشهر إذا هي طفلٌ صغير له عين، وله أذن، وله أنف، وله فم، وله لسان، وله لسان مزمار، وله مري، وله معدة، وأمعاء، وبنكرياس، وصفراء، وكبد، وأمعاء دقيقة وغليظة، وله أوردة وشرايين وقلب، ورئتان، وله عضلات وعظام، وله أظافر، وله شعر، وله كظر، وله بنكرياس، وله دماغ، وفص جبهي، وفص قفوي، وفص جانبي، وبصلة سيسيائية، ومخيخ، وأعصاب حس وأعصاب حركة، ولكل شعرةٍ وريد وشريان وعضلة وغدة دهنية وغدة صبغية، كل هذا مِن حوين واحد، يد من ؟ اسجد لله عزّ وجل، للذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، للذي خلق الأنعام من أجلك..

(وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

(سورة النحل: من الآية 5)

الآية الواضحة الصريحة، للطير:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ)

(سورة الملك: من الآية 19)

4 – الطيرُ:

قوام الطيران الريشة، الريشة في الوقت نفسه عديمة الوزن متينة القوة، وذا أراد الإنسان أن يمتِّن شيئاً زاد وزنه، على الريشة الواحدة ما يزيد على مئة ألف شارب، ولكل شاربٍ شويربات، الشويربات يزيد عددها على بضعة ملايين، ولكل شويربٍ كلاليب تجعل هذه الشويربات والشوراب سطحاً أملس يقاوم الهواء، وفي جسم الطائر ما يزيد على خمسةٍ وعشرين ألف ريشة.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَانُ)

(سورة الملك: من الآية 19)

اسجد لهذا الإله العظيم الذي خلق الطائر، والله قرأت كلمة منذ أيام: عن أعظم طائرةٍ صنعها الإنسان.. اركب طائرة مثلاً، فالطائرة ملخص علم البشرية، وهي تَقِلّ اليوم أربعمئة راكب ؛ يركبون، ويأكلون، ويشربون، وينامون، ويستريحون وهم في الجو، على أي شيءٍ محمولون ؟ ما هذا النظام البديع ؟ هكذا قال الله عزّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

إن أعظم طائرةٍ صنعها الإنسان لا تقترب من مستوى الطائر، وهناك كتبٌ بآلاف الصفحات عن الطائر تقرؤها، لا تملك إلا أن تسجد لله عزّ وجل، يا رب، ما هذا الخلق العظيم ؟ هكذا الطائر، وهكذا الأنعام، وهكذا الأسماك، مليون نوع من السمك في البحار، كلها طعامٌ للإنسان..

(لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)

(سورة النحل: من الآية 14)

لتأكلوا أنتم أيها البشر منه..

(لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(14))

(سورة النحل)

5 – من أجهزة الإنسان:

الكبد:

لهذا الإله العظيم اسجد، للذي خلق الكبد، خمسة آلاف وظيفة.

المعدة:

للذي خلق المعدة، وفيها خمسة وثلاثين مليون عصارة هاضمة، للذي خلق الأمعاء الدقيقة، تتجدد تجدداً كاملاً كلّ ثمانٍ وأربعين ساعة، وأنت لا تدري.

الدماغ:

اسجد لمن خلق هذا الدماغ، لمن خلق مئة وأربعين مليار خلية سمراء استنادية لم تعرف وظيفتها بعد حتى الآن.

العينً:

من العصب البصري يخرج عصبٌ فيه تسعمائة ألف عصب، من أجل تحقيق الرؤية الدقيقة، ادرس عن العين، وابحث عن العين، واقرأ عن الأنف.

الأذن:

واقرأ عن الأذن، وابحث ثم ابحث.

ما هذه الأذن ؟ الأذن الوسطى جهازٌ لتكبير الصوت إذا كان الصوت ضعيفاً، وجهازٌ لتخميده إذا كان قوياً، هل عندك جهاز كهربائي يكبّر، ويخَفِّض في آن واحد وأنت لا تدري ؟ ما قيمة هذا الصيوان، هذه القناة، غشاء الطبل، العظيمات الأربع، الأذن الداخلية، كيف تميّز الأذن نغماً تطربُ له ؟ كيف تعرف أن هذا الصوت على الهاتف صوت فلان ؟ اسجد لهذا الإله العظيم، الذي شَقّ لك هذا السمع، الذي شق لك هذا البصر، الذي علّمَكَ البيان، جعلك تنطق، إن كل حرفٍ من الحرف التي تلفظها يحتاج إلى سبع عشرة عضلة، فإذا ألقيت محاضرة في ساعة، كم من كلمة، وحرف، وكم عضلة اشتركت في الإخراج، وأنت لا تدري ؟

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4))

(سورة الرحمن)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ(30))

(سورة الملك)

6 – الماء:

ما هذا الخَزّان الذي يعطينا لهذه المدينة كل ثانية ستة عشر متراً مكعباً ؟ حينما تقل المياه يذعر الناس، يجأر الناس بالدعاء إلى الله عزّ وجل، ماذا نفعل إذا امتنعت السماء عن أن تمطر ؟

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12)مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا(13))

(سورة نوح)

لماذا لا تخشونه ؟

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا(14))

(سورة نوح)

من طور إلى طور إلى طور.

والله إن الآيات التي بثّها الله في الكون، التي بثها الله في جسم الإنسان، التي بثها الله في النبات، التي بثها الله في الحيوان، في الطيور، في الأسماك، في الجبال، في البحار، في الأنهار، شيءٌ لا يصدق، ولا تعدُّ ولا تُحصى، ولكن كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: **<< ما أكثر العِبَر وما أقل المُعْتَبرين>>.**

فهذا الهدهد، أيكون الهدهد أعلم منك، وأنت إنسان تملك كل القدرات والطاقات التي تعين على المعرفة؟ أيكون هذا الهدهد وهو الطائر أعلم من كثيرٍ ممن خلق الله عزّ وجل ؟

(أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25))

يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ

يعلم، يعلم خائنة الأعين، إذا امتد بصرك إلى نظرةٍ لا ترضي الله يعلمها، قد تنظر إلى امرأةٍ ولا يستطيع أحدٌ في الأرض أن يكشف هذه النظرة، وقد تكون طبيباً، وقد تعالج امرأةً، وقد تلقي نظرةً لا تباحُ لك إلى جهةٍ لا تشكو منها، من يعلم هذا إلا الله عزّ وجل ؟

(وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25))

تكلّم ما شئت، لكنه يعلم ماذا تُخفي، يعلم خواطرك الداخلية، يعلم نياتك، يعلم صراعاتك، يعلم طموحاتك، يعلم ماذا ترسم للمستقبل..

(وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26))

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

مِن ذكاء الهدهد:

الهدهد خاف أن ينتقم منه، فقال: أيها الملك العظيم:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26))

قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ:

((كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[مسلم]

ومرة أحد المذنبين وقف أمام الحجّاج، وقال له: **" أسألك بالذي أنت بين يديه أذل مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي ".**

قال بعض المفسرين: إن استخدام الهدهد لكلمة..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26))

أي وفوق الملك العظيم ملك الملوك، لذلك جاء في الحديث القدسي:

((أنا ملك الملوك ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسُخْط والنِقْمَة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم))

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26))

درسان بليغان من قصة سليمان مع الهدهد:

الدرس الأول: التروّي:

نحن عندنا في هذه القصة درسان بليغان، من دروس الذين يتولّون أمر بعض الناس ؛ معلم مدرسة، مدير مستشفى، مدير معمل، مهندس عندك في الورشة عشرة عمال، أول موقف لك من هؤلاء الذين ذكرتهم ألا تتعجّل، بل عليك أن تتروّى وتتبصّر، ثم تُصدر حكمك أو أمرك أو رأيك..

(مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(21))

الموقف الثاني:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

الدرس الثاني: عدمُ التسرُّع في الأحكام:

أيها الأخ الكريم... إذا كنت أباً، أو معلماً، أو مديراً، أو في موقعٍ قيادي، لا تصدر أحكامك بسرعة، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

قال تعالى:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

قل: نحن سوف نحقق الآن.. لا تحكم قبل أن تحقق، لا تصدر حكماً قبل أن تستقصي المعلومات، لأن المظلوم ليس بينه وبين الله حجاب، **"اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب "** تحقق، لا تعجل، لا تتخذ موقفاً ارتجالياً، لا تحكم حكماً سطحياً، لا تقل: فلان كاذب، قبل أن تتحقق..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(6))

(سورة الحجرات)

لا تصدر أحكاماً، لا تأخذ موقفاً، لا تباشر إجراءً ما، لا تقل: كذا وكذا، قبل أن تجمع المعلومات الصحيحة، قبل أن تستقصي الحقائق، الأناس الموفّقون في حياتهم هم الذين لا يصدرون أحكاماً إلا بعد بحثٍ ودرسٍ طويلين، قال:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

امتحان سليمان للهدهد: اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ

الآن.. بَدَأ الامتحان، كيف سيمتحنه هذا النبي العظيم ؟ قال:

(قَالَ سَنَنْظُرُ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28))

أعطاه كتاباً، نحن حتى الآن لا نعلم مضمون الكتاب، أعطاه رسالة، حمّلَهُ رسالة إلى ملكة سبأ، وقال: أيها الهدهد من أجل امتحان صدقك من كذبك ألق إليهم هذا الكتاب..

ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ

(ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28))

بحسب جوابهم أعرف صدقك من كذبك، الآن أصبح عندنا في القصة ما يسمّى قفزة فنية، يبدو أن هذا الهدهد ذهب إلى ملكة سبأ، وألقى إليها الكتاب من دون أن تعلم مَن ألقاه، أُلقِيَ إليَّ، ألقاه عليها وعاد، الآن المنظر ينتقل إلى سبأ، ننتقل معكم إلى سبأ، إلى اليمن، الملكة تقول لمن حولها:

تسلّم ملكة سبأ كتاب سليمان: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ)

يا أيها القوم، عِلية القوم، المستشارون، الوزراء، كبار أركان الدولة جمعتهم و..

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ)

لم تعرف من هو الذي ألقى ؟ هذا الفعل مبني للمجهول، فاعله مجهول.

(إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29))

يبدو أنها قرأت الكتاب، وعرفت أنه كريم، قالت:

(إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29))

لماذا هو كريم ؟ قال:

إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ:

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ)

ومَن سليمان ؟.

(وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

أيْ أن سليمان لا يتكلم عن شخصه، لا يتكلم باسمه، ولا باسم شعبه، ولا باسم دولته، يتكلم باسم الله الرحمن الرحيم، لماذا هو كريم ؟ لأنه من إنسانٍ يتحدّثُ عن الله عزّ وجل.

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

خير الكلام ما قلّ ودَل.

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31))

مضمون الكتاب: أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ

1 – خيرُ الكلام ما قلّ ودلّ:

انتهى الكتاب، في الأدب العربي إجاباتٌ تسمّى توقيعات، جواب مختصر، أناسٌ شكَوْا إلى أحد الخلفاء واليهم، فأرسل له كتاباً على شكل توقيع، **" أما بعد، فقد كثر شاكوك، وقلّ شاكروك، فإما عدلت وإما اعتزلت "**، انتهى الكتاب.

أحد الولاة وكان والياً للبصرة، طلب من الخليفة عشرة آلاف جذع لبناء دار له، فقال: أنبئني أدارك في البصرة أم البصرة في دارك ؟ انتهى الجواب، فهذا جواب بليغ، قال:

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(31))

يجب أن تأتيني أنت أيتها الملكة معَ قومك خاضعةً مذعنةً إلي.

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31))

ورد حديثٌ قدسي عن الله عزّ وجل فيما يرويه النبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

((ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيّته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا وجعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوقٍ يعصتم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيّته إلا جعلت الأرض هَوْيّاً تحت قدميه وقطّعْتُ أسباب السماء بين يديه))

فاعتصم بمن شئت، لن يجديك نفعاً إلا أن تعتصم بالله، اعتصم بنصف أهل الأرض بل بأهل الأرض كلهم، فلن يجديك نفعاً إلا إذا اعتصمت بالله، فسيدنا سليمان اعتصم بالله عزّ وجل، فحينما أرسل هذا الكتاب إلى ملكة اليمن، ملكة سبأ: بلقيس أذعنت، وسارعت إليه، وسوف نرى في الدرس القادم كيف أنها أذعنت، وكيف أنها خضعت، وكيف أنها سارت إليه، وكيف أنها أسلمت معه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (05-18): تفسير الآيات 27 - 40
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-01-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة النمل، وصلنا في قصّة سيدنا سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

(سورة النمل)

مقصَد القصة مغزاها:

وقد أخبرتكم في الدرس الماضي أن هذه القصّة ليست مقصودةً لذاتها، القصّة في القرآن الكريم مقصودةٌ لمغزاها، مقصودةٌ للعبرة منها، مقصودةٌ للدروس الثمينة التي تسْتَخْلَصُ منها، وقد بيّنت أيضاً أن هذه القصّة كأن الله سبحانه وتعالى ذكرها لمن آتاه الله القوّة، كيف أن القوّة في أعلى مستوياتها، وهو المُلك يمكن أن يوظّف في سبيل الحق، وفي سبيل الخير، لذلك قارون حينما قيل له:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ)

(سورة القصص: من الآية 77)

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

1 – استعمال العلم ابتغاء الآخرة: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ

آتاك الله علماً، ابتغ به الدار الآخرة، آتاك الله مالاً ابتغ به الدار الآخرة، آتاك الله مُلْكاً فابتغ به الدار الآخرة، آتاك الله ذكاءً فابتغ به الدار الآخرة، فأي شيءٍ آتاك الله إيّاه، كالحظوظ مثلاً التي وزّعها الله بين الخلق وزّعها بينهم لتكون مِعْوَاناً لهم إلى إحقاق الحق، فحينما تستخدم القوّة، أو الذكاء، أو المال، أو الجمال، أو الصحّة، أو العلم من أجل دُنيا، من أجل شيءٍ من الدنيا زائل فهذه هي الخسارة بعينها، أعطوك درهماً لتأخذ بدله مائة ألف أو مليوناً فأنفقته في شيءٍ تافه، استهلكته استهلاكاً رخيصاً..

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ)

2 – الأصل التحقُّق في الأمور لإقامة العدل:

فحتّى هؤلاء الذين آتاهم الله المُلك يمكن أن يرقى بهم الملك إلى أعلى درجات الجنّة، وقد يهوي بهم إلى أسفل سافلين، سيدنا سليمان آتاه الله الملك، وها هو ذا يوظِّف هذه القوّة التي أنعم الله بها عليه في سبيل خدمة الحق، فمن صفات القادة التحقيق..

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

لأن العدل أساس المُلك، على مستوى مُعَلِّم ابتدائي، إذا اشتكى لك طالب فحقِّق في الأمر، فإذا سحقت طفلاً صغيراً ظلماً فكأن عرش الله سبحانه وتعالى يهتز، وكذلك إذا قتلت حيواناً ظلماً، هذا الصياد الذي يقتل عصفوراً لغير مأكلة، يأتي هذا العصفور يوم القيامة وله دويٌّ تحت العرش كدوي النحل، يقول هذا العصفور: **" يا رب سَلْهُ لِمَ قتلني ؟ "** إذاً:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

أنت بصفتك أباً، أنتِ أيتها الأم، أنتَ أيها المعلِّم، أنتَ أيها الموظّف، يا من وكّلك الله على عشرة لابدّ مِن التحقُّق، لابدّ من أن تبني موقفك على معلومات صحيحة، لابدّ من تقصّي الحقائق، لابدّ من أن تقف الموقف العلمي، لابدّ من أن تكون مع الحق ولست مع نزواتك ولا شهواتك.

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ

كيف الدليل لمعرفة صدقه مِن كذبه ؟ قال:

(اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28))

كيف يكون ردُّهم ؟ كيف يكون الردُّ على هذا الكتاب ؟ كيف يتّخذون الموقف المُناسب ؟ يبدو أن الهدهد ألقى في قصر الملكة بلقيس هذا الكتاب من دون أن يشعرَ به أحد، فلمّا وجدوا كتاباً أعطوه للملكة، فقالت:

(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ (29))

موقفُ بلقيس من مضمون كتاب سليمان:

1 – مبدأ الاستشارة:

الآن هي تستشير عَلِيَّة القوم، بالمناسبة من استشار الرجال فقد استعار عقولهم، أنت يمكن أن تأخذ كُلّ هذا العلم، وكل هذه الخبرة، وكل هذا الإحكام بسؤالٍ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ما خاب مَن استشار ولا ندمَ مَن استخار))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال كبير]

الاستشارة لأولي الخبرة من المؤمنين، والاستخارة لله عزّ وجل، فمن استشار الرجال فقد استعار عقولهم، كيف لا والنبي عليه الصلاة والسلام وهو النبي، وهو الرسول، وهو الذي يُوحَى إليه، وهو المعصوم أمره الله سبحانه وتعالى أن يشاور أصحابه فقال:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)

(سورة آل عمران: من الآية 9 15)

وكيف لا، واللهُ سبحانه وتعالى وصف المؤمنين الصادقين فقال:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

(سورة الشورى: من الآية 38)

وما اعتدّ أحدٌ برأيه إلا هَلَك،

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

2 – ذكاء الملكة بلقيس:

يبدو أن هذه الملكة كانت على مستوى كبير من الذكاء، ماذا يمنع أن تسأل عَلِيَّة القوم، أن تسأل الملأ من حولها، أن تسأل كبراء قومها، أن تسأل أولي الخبرة، أولي العلم، أولي الحكمة..

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ (29))

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ

من كلمة أُلْقِيَ، هذا الفعل المبني للمجهول يتضّح أنها لم تعرف من ألقاه، لأن سيدنا سليمان هكذا أمر الهدهد، قال:

(اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ(29))

يا أيها القوم، يبدو أن حولها أناساً تثق بعلمهم، وبخبرتهم، وبقيادتهم، وبمشورتهم فشاورتهم، وما استبدّ أحدٌ برأيه إلا هلك، والنبي عليه الصلاة والسلام سيّد الخلق وحبيب الحق، نبيٌّ، رسولٌ، يُوحى إليه، معصوم ومع ذلك قال له الله سبحانه وتعالى:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159))

(سورة آل عمران)

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29))

كِتَابٌ كَرِيمٌ

كيف عَرَفَتْ أنه كريم، ونحن حتى الآن ما عرفنا الكتاب ؟ قال بعضهم: عرفت أنه كريم لأنه من سليمان العظيم، ويبدو أن هذا الملك العظيم كانت له سمعة طارت في الآفاق، فالمِلك يعرف مَنْ حوله من الملوك، وإذا كان من حوله ملكاً عظيماً فيبدو أن سمعة هذا الملك قد وصلت إليه، هذا أول احتمال، إما لأنه من سليمان، قالت إنه:

(كِتَابٌ كَرِيمٌ (29))

كتابٌ عالي الهدف، مضموناً وأسلوباً وهدفاً، في مضمونه كريم، وفي أسلوبه كريم، وفي هدفه كريم، عرفت أنه كريم لأنه من عند الكريم..

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ (30))

إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ

وعرفت أنه كريم على رأيٍ آخر لأنه.

(بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

وَإِنَّهُ بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من عند خالق الكون الرحمن الرحيم، إذاً: هو كريم..

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(30))

فكأنّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية فسّر هو ماذا تعني البسملة، فسليمان لا يتكلّم بسمه، بل باسم الله، يتكلّم نيابةً عن الله عزّ وجل، إنه رسوله، لكن يقولون: إذا أردت أن تشرب فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم.

1 – معنى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ما معنى باسم الله الرحمن الرحيم ؟ أن هذه النعمة التي بين يديك هي من عند الله الرحمن الرحيم، وأن هذا العمل الذي سوف تقوم به يجب أن يكون وَفْقَ كلام الله الرحمن الرحيم، البسملة قبل فعل الأشياء تعني شيئين، تعني أن تذكر نعمة المُنْعِم وأمر المُنعم، نعمته وأمره في الوقت نفسه..

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

2 – معنى: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

واسم الله الرحمن من أسماء الله الجامعة، والدليل:

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ)

(سورة الإسراء: من الآية 110)

لطيفٌ لأنه رحمن، لطيفٌ، وقديرٌ، وغنيٌ، وواسعٌ، يعطي ويمنع، يُعلي ويخفض، يعزّ ويذل لأنه رحمن..

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ)

(سورة الإسراء: من الآية 110)

بعضهم قال: **" الله "**: اسم الله الأعظم، أو **" الرحمن "**: اسم الله الأعظم، على كلٍ بسم الله، كلمة بسم الله، الله تعني اسم العَلَم على الذات الواجبة الوجود، اسم العلم علمٌ على واجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى، الأسماء الحسنى كلُها مجتمعة بكلمة الله، الله رحمنٌ رحيم، رحمنٌ في ذاته رحيمٌ في أفعاله، وهذا الكتاب من عند رسوله، إذاً إنه كتابٌ كريم..

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31))

أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ

البلاغة في الإيجاز، أي يا أيتها المَلكة لا تستعلي عليّ، فأنتِ ومن معكِ، وأنتِ وجيشك وشعبكِ بادروا إليّ مسرعين مسلمين..

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31))

كلامٌ مختصرٌ مفيد، لأنني أتكلّم باسم الله الرحمن الرحيم..

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

الكلام الموجز كلامٌ موحٍ، يوحي بأشياء كثيرة..

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي (32))

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي

هي امرأة، ولأنها امرأة لها طبيعةٌ خاصّة، هي أميلُ إلى المُلاينة منها إلى المُخاشنة، أميل إلى الصلح منها إلى الحرب، أميلُ إلى المهادنة منها إلى المخاصمة، طبيعتها الأنثويّة تقتضي ذلك..

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي (32))

ماذا أفعل ؟ أأستجيب لهذا الكتاب ؟ أتخلى عن مُلكي من أجله ؟ أخضع له ؟ أحاربه ؟ ماذا أفعل ؟.

(أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32))

مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُون

فهي لا تقود أمّتها إلا من خلال خبرةِ مَن حولها، طبعاً هؤلاء الملأ الذين من حولها لهم موقفٌ ثابت معروف، يطمئنونها بأنهم أولو قوّةٍ وأولو بأسٍ شديد، لا تجزعي، لا تخافي، نحن معكِ، عندنا قوة عاتية نقاوم بها أي تهديد، بإمكاننا أن نقاوم سليمان، أن نخذله، أن نحاربه، هذا كلامُ مَنْ حولَ الملكة دائماً..

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ (33))

قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ

يَرْوون أن سيدنا معاوية بن أبي سفيان جاءه كتابٌ من إنسان، قال فيه: **" أما بعدُ ؛ فيا معاوية إن رجالك قد دخلوا أرضي، فانْههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأنٌ والسلام "**، من هذا الإنسان الذي يخاطب أمير المؤمنين ؟ يخاطب الخليفة ؟ إنسان في الدرجة الدنيا من المجتمع يخاطب أعلى مستوى فيقول: **" فيا معاوية، إن رجالك قد دخلوا أرضي فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأنٌ والسلام "**، هذا تهديد، من هذا الذي يهدِّد ؟ قيل: إن سيدنا معاوية، وكان ابنه يزيد إلى جانبه فقال: **" ما رأيكَ يا يزيد ؟ "**. فأجاب، كما قال هؤلاء:

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ (33))

قال: **" أرى أن تُرْسِلَ له جيشاً أوله عنده في المدينة وآخره عندك ليأتوك برأسه "**، لكن معاوية تبسّم، وقال: **" غير ذلك أفضل "**، ثم كتب كتاباً قال فيه: **" أما بعد ؛ فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله "**، هذا الذي أرسل الكتاب هو عبد الله بن الزبير، وأبوه الزبير شهد له النبي عليه الصلاة والسلام أنه من حواريي هذه الأمّة، قال: **" أما بعد ؛ فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله أطال الله بقاءه، ولقد ساءني ما ساءه، والدنيا كلُّها هيّنة جَنْبَ رضاه، لقد نزلت له عن الأرض وما فيها "**، فجاء الجواب: من عبد الله بن الزبير.

أذكركم بكتابه الأول قبل نقل نص الكتاب الجديد: **" أما بعدُ ؛ فيا معاوية، إن رجالك قد دخلوا أرضي فانهم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأنٌ والسلام "**، هذا كتابه الأول، بعد أن أجابه بهذه الحكمة والذكاء، وهذه المُلاينة والمُلاطفة، وهذه السياسة الحكيمة، أجابه عبد الله بن الزبير فقال: **" أما بعدُ فيا أمير المؤمنين.. كان معاوية في الكتاب الأول.. أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحلّه من قومه هذا المحل"**، كان ابنه إلى جانبه فقال: **" انظر يا يزيد، يا بني من عفا ساد، ومن حَلُمَ عَظُم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب "..**

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32))

كتاب تهديد..

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31))

كتاب تهديد ووعيد، خضوع، ماذا أفعل ؟..

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ (33))

أربع كلماتٍ مُهلكات: أنا ونحن ولي وعندي:

بالمناسبة: أربع كلماتٍ مُهْلِكات: أنا ونحن ولي وعندي، (أنا) قالها إبليس فأهلكه الله عزّ وجل..

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(12))

(سورة الأعراف)

و (نحن)..

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ (33))

وانتهى أمرهم.

وأما (عندي) فقد قالها قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ)

(سورة القصص: من الآية 81)

وأما (لي) فقالها فرعون:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: من الآية 51)

فأغرقه الله عزّ وجل، لذلك أربع كلماتٍ مُهْلِكات، أنا ولي ونحن وعندي، لا تقل: أنا ؛ بل قل: الله تفضّل علي، قل: الله أسبغ عليَّ هذه النعمة، أكرمني بها، خصّني بها، هذا من فضل الله علي، لو تتبعتم أقوال الأنبياء العِظام ما رأيتم واحداً منهم يعزو نعمةً إلى ذاته..

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)

(سورة النمل)

لا تقل: أنا، ولا تقولوا: نحن، قالها أصحاب النبي في حنين رضي الله عنهم، قالوا: **" لن نُغْلَبَ اليوم من قلّة "**، كنّا في بدر ثلاثمائة فغلبنا قريشاً، الآن نحن عشرة آلاف مقاتل أحطّنا بمكّة وفتحناها، وانضمّ إلينا آلاف مؤلّفة، من يغلبنا ؟..

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

لا تقل: أنا، ولا تقولوا: نحن، ولا تقل: أنا لي ولا عندي..

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ (33))

وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ

نحن تابعون إليكِ، الأمر أمركِ، والرأي رأيكِ، والقرار قراركِ..

(وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ (34))

إن الملكة يقول لسان حالها للملأ من قومها: عندنا قضيّة، هذا الكتاب فيه تأكيد على أن مُرسله نبي ورسول، لكن بلقيس تردد وتساؤل، فإذا كان سليمان نبياً ورسولاً فلها موقف، وإن كان ملكاً فلها موقفٌ آخر، لأن..

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا (34))

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا

القرية هنا المدينة الكبيرة..

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا (34))

عَطّلوا مرافقها، دمّروا بيوتها، انتهكوا حرماتها..

(وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً (34))

وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً

هكذا العادة، فبلقيس في حيرة من أمرها، يا ترى هذا الكتاب من نبي أم من مَلِك ؟ إذا كان نبياً فلها موقف، وإن كان ملكاً فلها موقف..

(إِنَّ الْمُلُوكَ (34))

من عادة الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها، عطّلوا ما فيها، نهبوا ما فيها..

(وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً (34))

الكُبَرَاء، النبي الكريم علّمنا، فقال:

((أكرموا عزيز قومٍ ذل.. أكرموه.. وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين الجُهّال))

[ورد في الأثر]

هؤلاء الثلاثة من حقّهم عليكَ أن تكرمهم..

((أكرموا عزيز قومٍ ذل.. أكرموه.. وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين الجُهّال))

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(34))

وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ

يفعلون بنا، فإذا سلّمنا لهم بلادنا يأتون إليها، ويجعلون أعزّة أهلها أذلّة، ويفسدون هذه البلاد، هكذا العادة، يبدو أنها ذكيّةٌ جداً، الآن هي أمام مشكلة يجب أن تعرف ما إذا كان هذا الكتاب من عند نبيّ أم من عند مَلِك، فالنبي له علامة والمَلك له علامة.

يُروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه وهو عملاق الإسلام، دخل على النبي عليه الصلاة والسلام، وكان النبي مضطّجعاً على حصير وقد أثّر الحصر في خدّه الشريف، فبكى عمر، قال:

((يا عمر، لمَ تبكي ؟))

قال عمر: **" رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس.. هذا الذي يعبد النار.. ينام على الحرير ؟! "**، الأمر لم يتوازن عنده، ما درى له جواباً، هذا النبي العظيم سيّد الخلق وحبيب الحق، سيّد ولدِ آدم الذي يوحى إليه، مبعوث العناية الإلهيّة ينام على حصير ؟!

كان إذا صلّى قيام الليل نقلت السيدة عائشة رجليها من مكانها، لأن غرفته الصغيرة لا تتسع لصلاته ونومها، وهو نبيُّ هذه الأمّة، فكيف يستقيم عند عمر أن ينام هذا النبي على حصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟ فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام إجابةً تأخذ بالألباب، قال:

((يا عمر، إنما هي نبوّةٌ وليست ملكاً))

أنا لست بملك

((إنما هي نبوّةٌ، وليست مُلكاً))

جاءه جبريل وقال: **" يا محمّد، أتحبُّ أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ "** قال:

((بل نبيّاً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره))

سيدنا علي يقول: **<< فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه، فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا >>.**

يقول سيدنا علي أيضاً: **<< يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٌ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية >>.**

كل ما تملك من الدنيا لك بشرط أن يدقّ هذا القلب، فإذا توقّف القلب انتهى كل شيء، وصار لغيرك، أين البناية ؟ أين الشأن ؟ أين المكانة ؟ أين ما يتمتّع به هذا الميّت ؟ أين شأنه العظيم ؟ أين بيته الواسع ؟ أين زوجته ؟ أين أولاده ؟ أين مركبته ؟ أين محلّه التجاري ؟.. ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٌ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية.. لذلك الإمام الغزالي في الإحياء يقول: " إنّ أدنى درجات الفقه أن تعلم أن الآخرة خيرٌ من الأولى "، والدليل أن تسعى لها..

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء: من الآية 19)

أن تعلم أن الآخرة خيرٌ من الأولى فتسعى لها..

(قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34))

والله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسُخط والنِقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

[رواه الطبراني عن أبي الدرداء]

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(34))

بنا، لذلك يبدو أنها ذكيّةٌ كما قلت قبل قليل، أرادت أن تكتشف هل سليمان نبيٌّ حقّاً أم ملك ؟ قال بعضهم: **" إذا أردت أن تعرف نفسك من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة، فإنْ دخل عليكَ رجلان واحدٌ منها طلب منك والآخر أعطاك، فإذا كنت قد فرحت بالذي أخذته فأنت من أهل الدنيا، أما إذا كان فرحك بالذي أعطيته فأنت من أهل الآخرة "**، هذا مقياس دقيق جداً، رجلان دخلا إلى محلّك، واحد منهما قال لك: ادفع لي، والآخر قال لك: خُذ مني، فأنت بمن فرحت ؟ وبماذا فرحت ؟ فرحت بالذي أخذ منك فأنت من أهل الآخرة، فرحت بالذي أعطاك فأنت من أهل الدنيا، قالت:

(وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35))

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ

1 – أصحابُ المبادئ لا يُشتَرَون بالأموال:

لأن المال ثمين عند أهل الدنيا، فإذا كانت هذه الهديّة ثمينةً جداً وأرضتهم، أُعجبوا بها، انتهى الأمر، فهم أُناس طلاب دنيا، ليس نبياً عندئذٍ، أما أصحاب الرسالات.

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتّى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

هكذا أصحاب المبادئ، عرضوا عليه بأن يزوّجوه بأجمل فتاةٍ في مكّة، عرضوا عليه أن يجعلوه أغنى فتيان مكّة، عرضوا عليه أن يكون أمير مكّة على أن يدع هذه الدعوة فقال: **" والله لا أفعل "**، المساومة على المبادئ لا تكون، المؤمن لو أعطيته ملء الغرفة ذهباً على أن يفعل شيئاً نهي الله عنه، يقول: لا أفعل، افعل ما تشاء، يقولها بملء فيه لمن أراد أن ينال من دينه..

جاء النبيَّ خُبيبٌ رضي الله عنه، وكانوا يعذّبونه في مكّة، بعد تعذيبه تعذيباً شديداً، قال له أبو سفيان: **" يا خبيب، أتحبُّ أن يكون محمّدٌ مكانك وأنت في أهلك ؟ "**، قال خُبيب: **" والله ما أحبّ أن أكون في أهلي وولدي.. في أهلي، في بيتي مع أولادي، مع زوجتي.. وعندي عافية الدنيا ونعيمُها.. كل حاجاتي مؤمّنة مع الكماليّات.. ويصاب رسول الله بشوكة ".**

لا مساومات في الإيمان، عند أهل الإيمان المليون مثل الليرة، تحت قدمك، أي مبلغٍ إذا كان الثمن معصية الله عزّ وجل، تحت قدمك، أي شيءٍ في الدنيا إذا كان الثمن أن تقول كلمة الباطل، أن تقول ما

لم يأمرك الله به، لذلك قاضيان إلى النار وقاضٍ إلى الجنّة، هذا الذي عرف الحق فحكم به إلى الجنّة، الذي لم يعرف وحكم بالجهل فهو إلى النار، الذي عرف الحقّ، وحاد عنه، وحكم بالباطل، يدخل النار أيضاً، القضيّة قضيّة خطيرة، قضيّة سعادة أبديّة أو شقاء أبدي.

2 – اختبار بلقيس لحقيقة سليمان:

هي بهذه الهدية تكشف ما إذا كان هذا الكتاب الذي ألقاه الهدد من عند نبيٍّ أم من عند ملك، إذا كان نبي فالقضية سهلة، فيه رحمة، بسم الله الرحمن الرحيم، ليس معها مشكلة، ولا خوف فيما إذا دخلوا قرية، فإنهم لن يفسدوها، ولن يجعلوا أعزّة أهلها أذلّة، ما من شيء من هذا أبداً.

(وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

بالعدل والإنصاف، **" ما عرف التاريخ فاتحاً أرحمَ من العرب "**.. هذه الكلمة قالها غوستاف لوبون، مؤرّخ وفيلسوف فرنسي.. ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم، ولا أعدل من العرب، أحد الصحابة الكرام في بعض المعارك وضع سيفه ليجهزَ على كافر، أصحابه رأوه قد ابتعد عنه فجأةً، لماذا ؟ بصق هذا الكافر في وجهه، فقال هذا الصحابي: **" الآن إذا قتلته قتلتُه ثأراً لنفسي، والله لا أقتله في هذه الساعة "**، ما هذه الأخلاق ؟ هذه الأخلاق أين نجدُها ؟ يجب أن يكون العمل خالصاً لوجه الله عزّ وجل.

فإذا كان نبياً فهذه الهديّة لا تغريه، بل يردُّها، أما إذا كان ملكاً انتهى الأمر، ساومته، وانتهى الأمر.

لو فرضنا أنّ طبيباً قيل له: قل إن هذه الوفاة طبيعيّة، وهي في الواقع وفاة جرميّة، قل: طبيعيّة وهذا بيت، وهذه سيّارة، قد يكون هذا الطبيب ناشئاً لا يملك شيئاً من حُطام الدنيا، أما إذا كان مؤمناً والله لو عرضوا عليه أموال الأرض لا يكتب إلا الحق، هذا المؤمن، أما غير المؤمن فيبيعُ دينه بعَرَضٍ من الدنيا قليل..

(فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ (36))

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ

هذا استفهام توبيخي..

(أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ (36))

آتاه الله العِلمَ والحكمة، ما هذا المال ؟ ما قيمة المال ؟ ما قيمة الملك ؟

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكل نعيمٍ لا محالة زائلُ

***

(أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ (36))

فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم

آتاه الله العلم والحكمة، إن الله يعطي الملك لمن يحب، ولمن لا يحب، أعطاه لسليمان، وأعطاه لفرعون، ويعطي المال لمن يحب، ولمن لا يحب، أعطاه لسيدنا عبد الرحمن بن عوف، وكان من أغنى الصحابة، وأعطاه لقارون، ولكن العلم والحكمة لا يعطيهما الله إلا لمن يحب، فإذا كان عطاء أحدنا من نوع العِلم والحكمة فهذا عطاءٌ عظيم جداً..

(قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ (37))

بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ

1 – بماذا تفرحُ أيها المؤمن ؟!

الآن سؤال دقيق: ما الذي يفرحك ؟ أنا أقول لكم: قل لي ماذا يفرحك أقل لك من أنت، هل تفرح برضوان الله عزّ وجل ؟ فأنت مؤمنٌ وربِّ الكعبة، هل تفرح إذا صليت صلاةً خاشعة ؟ هل تفرح إذا قدّر الله على يديك عملاً صالحاً ؟ هل تفرح إذا تمّت هداية إنسان على يديك ؟ هل تفرح بهذا ؟ ربنا عزّ وجل قال:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من الآية 58)

فهنا مكان الفرح، أم نفرح بالدنيا ؟..

(بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36))

2 – بَلْ أنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ

هو يفرح بنشر الحق، سيدنا سليمان يفرح بأن يظهر الحق على الباطل، بأن يهتدي الناس إلى ربّهم، بأن يسعد الناس بمعرفة ربّهم وطاعتهم له، هذا الذي يفرحه..

(ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا (37))

تهديدٌ ووعيد..

(فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37))

ردُّ سليمان عليه السلام: فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ

كان الرد حاسماً وقاسياً وسريعاً، يبدو أنها عرفت لمجرّد أنه ردّ الهديّة، وأنه لم يعبأ بها، وما اكترث لها إذاً هو نبي، أصحاب الدعوات، أصحاب الرسالات لا تثنيهم الدُنيا عن أداء رسالاتهم، اتضح لها أنه نبي، طبعاً القرآن فيه فجوات، هذه يسمونها فجوة فنيّة، فالذي لم يذكره الله عزّ وجل عُرِفَ بالسياق..

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38))

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ

سيدنا سليمان عَلِمَ أنها في طريقها إليه، جاءته مذعنةً لدعوته، لذلك أراد أن يريها من عظمة المُلك ما يجعل إذعانها قلباً وقالباً، شكلاً ومضموناً..

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38))

1 – سليمان يطلب إحضارَ عرش بلقيس:

طبعاً عرشها في صنعاء، أو في اليمن، وهو في بيت المقدس، وبين اليمن والقُدس مسافاتٌ شاسعة تحتاج الطائرة الآن إلى قطعها لأربع ساعاتٍ أو أكثر، أمّا أن يأتي العرش بأكمله فهذه معجزة ؟ ماذا قال الهدهد ؟

(وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23))

عرش وهو عظيم، فالمَلِكُ بعرشه، طبعاً لا أدري ما تفصيلاته ولكن عرشٌ عظيم، فأذكر أنه حينما أنشئوا سد أسوان على نهر النيل فالبحيرة التي ستنشأ عن هذا السد ستغمر بعض آثار الفراعنة، والذي أذكره أن مئة دولةٍ تعاونت على نقل تمثالٍ ضخم من مكان البحيرة التي نشأت عن سدِّ النيل إلى مكانٍ آخر، نقل تمثال ضخم شيء يحتاج إلى خبرات، وإلى مُعِدّات، وإلى تكنولوجيا، وإلى رافعات، وإلى خبرات هندسيّة، وقد قرأت عن هذا الموضوع الشيء الكثير، أما أن يأتي عرش الملكة بلقيس من صنعاء إلى القُدس بلمح البصر !! فالله على كل شيءٍ قدير، قد يكون هذا ممتنعاً عادةً، ولكنّه ليس ممتنعاً عقلاً، لأن الله يقول: كن فيكون، زل فيزول..

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ (39))

الاقتراحُ الأول من الجن:

1 – قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ

الآن أنت جالس، الإنسان يجلس ساعة أو نصف ساعة ثمّ يقوم من مقامه لقضاء حاجة، لتناول طعام، قال عفريت لسليمان: ما دمت جالساً إلى فأن تقوم يكون العرشُ عندك، يبدو أن سيدنا سليمان ما أعجبه ذلك، رآه وقتاً طويلاً ومديداً، وتابع العفريت كلامه فقال:

(وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39))

2 – القوة والأمانة من صفات الملوك والحكام: وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ:

وكلمة قوي أمين فيها إشارة دقيقة إلى ما ينبغي أن يتمتّع به من توكِلُ إليه أمر، إذا أوكلت إلى إنسانٍ أمراً يجب أن يكون قوياً أميناً، القوة تشير إلى القُدْرَة، والأمانة تشير إلى الإخلاص، بالتعبير الحديث الكفاءة والإخلاص.

سيدنا عمر أرسل كتاباً عيّن بموجبه والياً فقال: **<< أما بعدُ ؛ فخذ عهدك، وانصرف إلى عملك، واعلم أنك مصروفٌ رأس سنتك.. سنة واحدة تجريبية.. وأنك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك ؛ إن وجدناك أميناً ضعيفاً.. أمين ولكنك ضعيف، لست حازماً، طبعاً الأمين الضعيف لا يصلح، أنت أمين لكنّك ضعيف فنعزلك فقط.. إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعفك، وسلّمتك من معرّتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً، استهنا بقوّتك، وأوجعنا ظهرك وأحسنا أدبك.. وإن جمعت الجرمين.. الضعف والخيانة.. جمعنا عليك المضرّتين.. العزل والتأديب.. وإن وجدناك أميناً قوياً.. هنا الشاهد.. زدناك في قوّتك ورفعنا لك ذِكْرَك، وأوطأنا لك عقبك >>**، وكل هذا أخذاً من قوله تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ(26))

(سورة القصص)

أنت بحاجة إلى إنسان عنده كفاءةٌ عالية، وعنده إخلاصٌ شديد، إخلاصٌ للمبدأ وكفاءةٌ فنيّةٌ عالية في كل الأعمال، حتى الزوج يجب أن يكون قوياً أميناً..

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ(26))

(سورة القصص)

(وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ (40))

الاقتراح الثاني للجن: قالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

أي آتيك به بأقل من لمح البصر..

(قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ (40))

لا نعلم نحن من هو ؟ قال بعضهم: سيدنا جبريل، قال بعضهم: سليمان نفسه، وهذا مستبعد، قال بعضهم: رجل آتاه الله اسمه الأعظم، قال بعضهم: مؤمن خصَّه الله بشيءٍ يفوق به أقرانه، نحن يعنينا أن هذا العرش جاء بلمح البصر..

(قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ (40))

انتهت برمش بعينه، قال:

(فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40))

فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي

1 – يجب أن تنسب الفضل إلى الله وحده:

عندما رآه ماذا قال ؟ هل قال: أنا ؟ لا. بل قال:

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40))

إذا كان إنسان معه اختصاص نادر يدرُّ عليه أموالاً طائلة يجب أن يقول دائماً: هذا من فضل ربي، إذا إنسان آتاه الله منزلاً فأوى إليه، هذا من فضل ربي، قال:

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40))

لابدَّ من وقفةٍ سريعة عند قوله تعالى:

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40))

وقفة مع قوله تعالى: هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي

أي شيءٍ تتمتَّع به إنْ في قوّتك الجسميَّة، وإنْ في سلامة حواسِّك، وإنْ في إدراكك السليم، وإنْ في هذه الحِرْفَة التي أنعم الله بها عليك، وإن في بيتك وزوجتك وأولادك، وأيّ شيءٍ تتمتَّع به هو في الحقيقة مَحْضُ فضلٍ من الله عزّ وجل، لمجرَّد أن تعزو هذا الفضل إلى الله فأنت أحد الشاكرين، فإذا عزوته

لغير الله فهذا أحد أنواع الكُفر، الشكر في حدِّه الأدنى أن تعزو النعمة إلى الله، وفي حدِّه الأعلى أن تقابل هذه النعمة بعملٍ طيّب، لقوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

(سورة سبأ: من الآية 13)

قال: **يا رب، كيف أشكرك ؟ فقال الله عزّ وجل: إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني ".**

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 153)

أي اذكروني لعبادي أذكركم برحمتي، فلذلك الفرق بين المؤمن والكافر أن المؤمن شاكر؛ والكافر جاحد، بمعنى أن هذه النعم التي أنعم الله بها علينا إنما أنعم الله بها علينا ليبتلينا هل نشكر أم نكفر، هل نعتدّ بجاهنا، هل نعتزُّ بقوّتنا، هل نتيه بعلمنا، هل نتيه بشكلنا، هل نتيه بمالنا ؟ أم نقول هذا من فضل الله علينا ونرجو الله أن يكون موظّفاً للحق ؟ لذلك:

(قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40))

مِن تعني هذا بعض فضل ربي..

(لِيَبْلُوَنِي (40))

لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ

ليمتحنني..

(أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (40))

لذلك قالوا: المال ليس نعمةً، إنما هو ابتلاء، فإذا أنفقته في طاعة الله انقلب إلى نعمة، الصحّة ليست نعمةً، هناك كفّار أصحّاء لكن هذه الصحّة والقوة إذا وظّفتها في طاعة الله انقلبت إلى نعمة، المنصب ليس نعمةً، أما إذا سخّرت قوّتك في هذا المنصب لخدمة الحق انقلب هذا المنصب إلى نعمة، وأي شـيءٍ في الدنيا لا يسـمّى نِعْمَة، بل هو نَعْمَة ـ بفتح النون ـ لا يسمى نِعْمة إلا إذا استخدمته في طاعة الله عزّ وجل، فإذا استخدمته لحظوظ الدنيا انقلب إلى نِقمة أو إلى نَعْمَة..

(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(27))

(سورة الدخان)

(لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ (40))

وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ

الله عزّ وجل غني عن العالمين، فكل شيءٍ تفعله لك..

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ(44))

(سورة الروم)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ(46))

(سورة فصلت)

يقول الله عزّ وجل للميّت حينما يوضع في قبره:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ معك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

فإذا فعلت صالحاً فلهذه اللحظة العصيبة، لهذه الحفرة الموحشة، لهذا اللقاء المُخيف، أما إن كنت مؤمناً:

(فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ(89))

(سورة الواقعة)

غداً نلقى الأحبّة محمّداً وصحبه

***

إذاً: قال:

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40))

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ

غنيٌ ولكنّه كريم، لو استغنيت عنه..

" لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، وكنت عندي مذموماً ".

إذاً: نضرع إلى أن الله يجعلنا من الشاكرين المؤمنين.

في درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى نتابع القصّة من عند قوله تعالى:

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (06-18): تفسير الآيات 40 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-01-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، لازلنا في قصة سيدنا سليمان والملكة بلقيس، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ(40))

(سورة النمل)

فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ

الشكر من لوازم الإيمان:

يبدو من هذه الآية أن هذا النبي الكريم سيدنا سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم حينما رأى هذا العرش الذي كان في صنعاء قد جاءه في أقلّ من لمح البصر، رأى أن هذه نِعمةٌ كبرى فشكر الله عليها، ومن صفات النبي عليه الصلاة والسلام أنه كانت تعظُم عنده النعمة مهما دَقّت، والشكر من لوازم الإيمان، فالإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الإيمان نصفان ؛ فنصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكر))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

و **" يا رب كيف أشكرك ؟ "**، قال: إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني "، فأن تعرف أن هذه النعمة من الله عزّ وجل نوعٌ من أنواع الشكر، وأن تَرُدّ على هذه النعمة بعملٍ صالحٍ تنفع به المؤمنين نوعٌ آخر من أنواع الشكر، وأن تذكر الله عزّ وجل عند كل حَجَرٍ ومَدَر، في الرخاء وفي الشدة، أن تذكر الله عزّ وجل عند الحاجة وأنت في غنى فهذا كله شكر لله تعالى، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أمرني ربي بتسع، خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة]

فهذا النبي الكريم.

(فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (40))

هل المالُ نعمة أم نقمة أم ابتلاء ؟

الآن ندخل في موضوعٍ دقيق دقيقٍ جداً، يا تُرى المال الذي بين أيدي الناس هل هو نِعمة ؟ من قال: نَعَم، فقد ضل سواء السبيل ؛ إنه ابتلاء، الزوجة التي تروق لك هل هي نعمة ؟ إنها ابتلاء، القوة التي آتاك الله إيّاها هل هي نعمةٌ ؟ إنما هي ابتلاء، فإذا أنفقت المال في طاعة الله، وتقرَّبْتَ به إلى الله أصبح المال نعمةً، وإذا أخذت بيد الزوجة إلى الله ورسوله وعرّفتها بربها، وألزمتها طريق الاستقامة، أصبحت هذه الزوجة نعمةً، وتلك القوة التي أنعم الله بها عليك، إذا سخَّرتها لإنصاف المظلومين ولخدمة الحق وأهله، هذه القوة نعمةٌ أنعمها الله عليك، يؤكِّدُ هذا المعنى قول سيدنا سليمان الذي وردَ قبل قليل، قال:

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي (40))

أساس الدنيا قائم على الابتلاء:

إذاً هو ابتلاء.

(أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (40))

فملخص الملخص أن الله سبحانه وتعالى:

(خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)

(سورة الملك: من الآية 2)

يعطيك المال لينظر ماذا تصنع به، يعطيك الصحة والقوة لينظر ماذا تصنع بها، يعطيك الشكل الجميل لينظر ماذا تصنع به، يعطيك ذُرِّيَّةً ذُكوراً وإناثاً لينظر كيف تعمل، إذاً أنت في الدنيا في مكان ابتلاء، والدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء، الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، أريد من هذا التفسير لتلك الآية، أن أحدنا إذا أعطاه الله مالاً فلا ينبغي أن يفرح به بالقدر الذي يفرح به إذا أنفقه في طاعة الله، إذا آتاه الله علماً، إذا آتاه قوةً، إذا آتاه منصباً، إذا آتاه ذريةً، أهلاً وأولاداً، ليست العبرة أن تؤتى هذه النعمة، ولكن العبرة أن تسخرها في طاعة الله عزّ وجل، عندئذٍ يصبح هذا العطاء نعمة.

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي(16)كَلا)

(سورة الفجر)

(كلاّ) أداة ردعٍ ونفي، ليس العطاء إكراماً، ولا المَنْعُ إهانةً، إنما العطاء ابتلاء، وإنما الحرمان دواء، إذاً هذا النبي الكريم يقول:

(فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40))

وهذه (من) للتبعيض، أيْ أنّ فضل الله عزّ وجل عظيم..

(وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113))

(سورة النساء)

إذا أتاك صحةً فهذا من فضل الله، إذا أتاك علماً فهذا من فضل الله، إذا أتاك مالاً فهذا من فضل الله، لأن فضل الله عزّ وجل لا تحدُّه الحدود، ولا يحصى، كيف لا والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم: من الآية 34)

لم يقل: وإن تعدوا نِعَم الله، بل قال:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم: من الآية 34)

من إسقاطات الآية في واقع الناس:

النعمة الواحدة لو أمضيت الحياة كلها في إحصاء فضائلها لما انتهيت، وإذا كنتم عاجزين عن إحصائها فأنتم عن شكرها أعجز، فإذا أردنا أن نستفيد من هذه الآية في حياتنا اليومية، فأيّ شيءٍ تنعم به فهو من فضل الله عزّ وجل، هذا العقل الذي أنعم الله به عليك، لولا هذا العقل لما كان للإنسان إلا ذلك المكان المعروف، وهو مشفى المجانين، أنعم الله عليك بنعمة العقل، نعمة الأهل، نعمة المأوى، نعمة الفِطْنَة، نعمة الفَهم، نعمة سلامة الحواس والأعضاء، هذه كلها نعم، لذلك الشكر من لوازم المؤمن، والمؤمن دائماً يتقلّبُ في نعم الله عزّ وجل، لكن الكافر يرى النعم ويستمتع بها، إلا أنه لا يرى المُنْعِم، وشتانَ بين من يرى النعم وبين من يرى المنعم، سيدنا سليمان قال في سياق هذه الآية:

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا (41))

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا

هذا العرش الذي جاء من اليمن إلى القدس في أقلّ من لمح البصر، ذكرت لكم في الدرس الماضي كيف أن بعض الآثار، معبد أبي سنبل كما أذكر، حينما أنشئ السد العالي في أسوان، صار هذا المعبد وسط البحيرة التي كانت من نتيجة هذا السد، مئة دولةٍ بآليات ومستوى عال جداً من الخبرات، ومستوى

متقدم من العِلم تعاونوا حتى نقلوا هذا المعبد من مكان إلى آخر، وهذا العرش العظيم، ألم يقل الهدهد:

(وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)

هذا العرش العظيم نُقِلَ من اليمن إلى بيت المقدس في أقل من لمح البصر، لذلك هذه المعجزات ومثيلاتها التي وردت في القرآن الكريم، هذه مستحيلةٌ عادةً، ولكنها ليست مستحيلةً عقلاً، لأن الله عزّ وجل إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، زُل فيزول، فمن عرف الله لا يستبعد أي شيءٍ جاء بالخبر الصادق، الذي عرف الله عزّ وجل، وعرف قدرته اللامحدودة يسهل عليه فهم المعجزات، أما الذي جهل الله عزّ وجل، وما عرفه، وتحكّمت به العادات ربما يحمله هذا الفهم الساذج القاصر على إنكار بعض المعجزات.

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41))

نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ

فكأن هذا النبي الكريم أراد أن يمتحن عقل هذه الملكة، لأن العقل قوام الدين، والعقل بشكلٍ أو بآخر أداة الإيمان بالله عزّ وجل، والإنسان شريفٌ بعقله، لأن الإنسان إذا افتخر بجسمه، بشكله، بحجمه، بوزنه، بإبصاره، بسمعه، بحركته، بعضلاته، بأعضائه، ما من حيوانٍ إلا ويفوق الإنسان في هذا المجال، لكن الإنسان شريفٌ لما خلق له، خلق لمعرفة الله عزّ وجل، وعقله هو الأداة التي وضعها الله عزّ وجل لمعرفة الله سبحانه، لذلك بعضهم يفسر قوله تعالى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(7))

(سورة الرحمن)

الله سبحانه وتعالى سمّى العقل في القرآن ميزاناً، وسمى الشرع في القرآن ميزاناً، وجعل الشرع ميزاناً على الميزان، أعطاك الله العقل ميزاناً تزين به الأمور، وأعطاك الشرع ميزاناً على الميزان، فمن هداه عقله إلى نتائج الشرع صَحّ تفكيره، ومن هداه عقله إلى نتائج تخالف الشرع ضَلّ عقله، والعقل يخطئ ويصيب، ولكن الشرع مصيبٌ دائماً، لأنه من عند الله عزّ وجل، فيبدو أن هذا النبي الكريم أراد أن يمتحن عقل هذه الملكة، لأن عقل الإنسان قوام دينه.

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41))

امرأةٌ تزوجها النبي عليها الصلاة والسلام، وقد ورد هذا الخبر في السيرة، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ ابْنَةَ الْجَوْنِ لَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَنَا مِنْهَا قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، فَقَالَ لَهَا:

((لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ))

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]

يبدو أن هذه المرأة ساذجة، ضعيفة التفكير، محدودة الأُفُق صدّقت ما قيل لها، فلما دخل عليها النبي عليه الصلاة والسلام قالت: **" أعُوذُ بِاللّهِ مِنْكَ "**، فقال عليه الصلاة والسلام لتوّه:

((لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ))

لأن هذه زوجته، وسوف تُبَلِّغُ عنه، وربما أخذ الناس عنها الشرع، وهي حينما قبلت أن تردد ما قيل لها إذاً هي في مستوى منخفض جداً من الإدراك السليم، لذلك فالنبي ما أرادها أن تكون له زوجة، وكذلك هذه الملكة، إن تنكير العرش يكشف لسيدنا سليمان ما إذا كانت مفكرةً أم لا..

(فَلَمَّا جَاءَتْ (42))

موقف بلقيس عند رؤيتها لعرشها:

1 – فَلَمَّا جَاءتْ

أي وصلت إليه، وكانت في طريقها إليه، هذه الملكة عرفت أن هذا الكتاب الذي أُلْقِيَ إليها كتابٌ كريم لأنه من سليمان، ويبدو أن هذا النبي العظيم والملك العظيم كانت سمعته تطير في الآفاق، يبدو أنها عَظَّمَت هذا الكتاب لأن شرف الكتاب من شرف المرسِل، شرف الرسالة من شرف المرسل، وقد ورد في نص الكتاب:

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

أيْ أنّ سليمان لا ينطق باسمه، بل ينطق بسم الله، الله خالق الكون، الرحمن في ذاته الرحيم في أفعاله.

(فَلَمَّا جَاءَتْ (42))

عندئذٍ توجّهت إليه، انتقلت من اليمن إلى بيت المقدس..

(فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ (42))

2 – قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ

نظرت إليه هو، وقد جرى عليه بعض التعديل طبعاً دون أن تعلم، كانت ذكيةً جداً، أجابت إجابةً لو أن هذا العرش عرشها لأصابت، ولو أن هذا العرش ليس بعرشها لأصابت، أجابت إجابةً لا يستطيع السامِعُ أن يأخذها بإجابتها، قالت:

(قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ (42))

هذه **" كأن "** تفيد التشبيه، كأن هذا العرش الذي أمامي هو عرشي، فإذا كان عرشها فعلاً فقد أصابت، وإذا كان بفعل التنكير يعني أنه ليس عرشها فقد أصابت، ففي كلمة:

(كَأَنَّهُ هُوَ (42))

إجابةٌ ذكيةٌ جداً، والإنسان أحياناً ذكاؤه يبدو في إجاباته، هناك جوابٌ مُفْحِم، هناك جوابٌ مُسْكِت، هناك جوابٌ قاطع، هناك جوابٌ أريب، هناك جوابٌ لبيب، وهكذا.

(وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42))

معنى: وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ

هذه الآية اختلف فيها المفسرون، بعضهم يقول: **" هذا قول الملكة بلقيس "**، أي أوتينا نحن العلم بأن هذا النبي نبي الله عزّ وجل، وما مجيئنا إليه إلا بدليل إسلامنا له، كلام الملكة بلقيس..

(وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا (42))

من قبل هذه الحادثة، من قبل أن ترى عرشها قد سبقها، هي أيقنت أنه نبيٌ عظيم، وأن الله سبحانه وتعالى سَخَّرَ له الجن والإنس والطير، وقد آتاه الله لُغَة الطير، أدركت كل هذا.

(وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42))

والشيء الذي يلفت النظر أن الدين عند الله الإسلام، وأن جميع الأنبياء الذين ورد ذِكْرُهُم في القرآن الكريم جميعهم مسلمين، وهذه بعض الآيات التي تؤكِّد ذلك:

(وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43))

وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ

لم تكن كافرةً، بل كانت من قومٍ كافرين، فالإنسان أحياناً ينشأ في بيئةٍ كافرة، لذلك قد ينكر قلبه تصرُّفات قومه، ما هم عليه من عادات وتقاليد، هو يميل إلى أهل الإيمان، هذا الذي ينشأ في بيئةٍ كافرٍ، ويحّكم عقله في هذا الذي هو عليه، ويهتدي إلى الله عزّ وجل، كأن الله سبحانه وتعالى يَعِدُ بهدايته، لقوله تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

(سورة العنكبوت)

(وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ (43))

هي كانت تعبد الشمس من دون الله، هكذا نشأت في هذه البيئة، ومن شَبَّ على شيءٍ شاب عليه،

والإنسان أحياناً يقال: إنه ابن بيئته، هذا قولٌ صحيح أحياناً، وابن وراثته، وابن محيطه، وابن معطياته، ولكن الأصح من كل ذلك أنه ابن نفسه، فالإنسان في جزء من حياته فاعل وليس منفعلاً، فليس الإنسان ماءً إنْ وضعته في المنحدر سال، أو حجرا إذا ألقيته من عَلٍ هوى.

الإنسان قد يمشي في عكس الاتجاه الذي يظن أنه سيمشي به، الإنسان له اختيار، لذلك فبعض عظماء العالم نشئوا في بيئات ليست في المستوى المطلوب.

(وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43))

معنى الصدّ:

معنى الصد أي أبعدها، أي صرفها، أي حجبها، الإنسان إذا تأمّلَ في العادات والتقاليد التي ورثها عن آبائه وأجداده يجب أن يقيسها بالشرع، فإذا وافقت الشرع كانت مقبولة، وإلا فعليه أن يَرْفُضَهَا، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أول امتحان هو امتحان العقل، أراد أن يمتحن عقلها فنكَّرَ لها عرشها، الامتحان الثاني أراد أن يُحَجِّمَهَا، لأن المتكبر لا يهتدي، هذه قاعدة، من تضخَّمَتْ ذاته ورأى نفسه فوق الناس فهذا هو الكبر وهو حجابٌ بينه وبين الهدى، أراد أن يحجمها بأسلوبٍ آخر، فقال الله عزّ وجل متابعاً هذه القصة:

(قِيلَ لَهَا (44))

لم يقل لها هو، يبدو أنها وصلت إلى بيت المقدس، واستقبلت رأت عرشها، وعرفت أنه هو، أجابت إجابة ذكية، وكانت تنطوي على فكرٍ ثاقب، والآن إلى مرحلةٍ أخرى من مراحل التحجيم.

(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ (44))

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا

1 ـ ما هو الصرحُ ؟

الصرح يشبه الليوان، أو الإيوان، أي بناءٌ بلا سقف، له جدران، يبدو أن إحدى الجهات مكشوفة وبعض جهات السقف مكشوفة أيضاً، هذا هو الصرح..

(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً (44))

مياهٌ متدفِّقة كانت تجري تحت البلاط الزجاجي لأرض هذا الصَرْح، البلور كان صافياً جداً إلى درجة أن الداخل لا يرى البلور بل يرى الماء.

(فَلَمّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنّهُ صَرْحٌ (44))

2 - معنى: مُمَرّدٌ:

هذا ليس ماءً، هذا صرحٌ ممردٌ ثقيلٌ من الزجاج.

(إِنّهُ صَرْحٌ مُمَرّدٌ (44))

معنى ممرد أي ثقيل..

(مِنْ قَوَارِيرَ (44))

3 - مِّن قَوَارِيرَ

أي من زجاج، عندئذٍ شعرت أن هذا النبي قد آتاه الله ملكاً لم يؤتِهِ أحداً من الملوك، من جهةٍ نبيٌّ عظيم وملكٌ عظيم، وفي مجال المساومات لم يقبل هديتها بل أراد أن يهديها إلى الإسلام..

(قَالَ إِنّهُ صَرْحٌ مُمَرّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي (44))

قَالَتْ رَبِّ إِنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

ظلمت نفسها فيما مضى من عمرها، فأخطر شيءٍ في حياة الإنسان أن يظلم نفسه، ومتى يظلمها ؟ إذا تركها جاهلة، قال الله عزّ وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّاهَا(10))

(سورة الشمس)

الفلاح، نبحث عن الفلاح، لن تكون فالحاً إلا إذا تطابقت مقاييس الفلاح عندك مع مقاييس الله في الفلاح، الإنسان أحياناً يظن أنه إذا اغتنى فقد أفلح، أو إذا قوي فقد أفلح، أو إذا انغمس في الشهوات فقد أفلح، ولكن الله عزّ وجل يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1))

(سورة المؤمنون)

الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّى(14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبّهِ فَصَلّى(15))

(سورة الأعلى)

الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّاهَا(10))

(سورة الشمس)

الفلاح هو أن تعرف الله عزّ وجل، والشقاء هو أن تجهل الله عزّ وجل، لذلك، يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

((ابن آدم، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

(قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي (44))

لذلك هناك قريةٌ زارها رجل، فإذا على قبور أمواتها تواريخ مُضحكة، هذا الإنسان عاش خمس سنوات، وهذا سبع سنوات، وهذا عشر سنوات، وهذا خمسة عشر عاماً، ما هؤلاء ؟ ما قصتهم ؟ هذه القرية لا يُعَدُّ من عمر الإنسان إلا السنوات التي اهتدى بها إلى الله عزّ وجل، فهذه الفترة التي أمضاها الإنسان بالمعصية والجهل والبعد عن الله عزّ وجل أمواتٌ غير أحياء، وربنا عزّ وجل قال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(21))

(سورة النحل: من الآية 21)

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

(سورة الأنعام: من الآية 122)

الكافر ميّت.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

فحينما نظرت إلى ماضيها، وكيف كانت تعبد الشمس من دون الله ؟ وكيف كانت ضالةً تائهةً ؟ وكيف كانت في شقاءٍ ما بعده شقاء؟

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

هذا قولها:

(إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي (44))

إنّ الإنسان قد ظلم نفسه قبل أن يستقيم، وقبل أن يعرف الله عزّ وجل، وقبل أن ينفق ماله في طاعة الله، وقبل أن يسارع لخدمة الخلق، لكن هذا الظلم يعرفه المؤمن في الدنيا ؛ والكافر يعرفه يوم القيامة، فالمشكلة أن الإنسان إذا عرف الحق وهو في الحياة فطريق الإصلاح مفتوح، أما إذا عرف الحقيقة بعد فوات الأوان فقد خسر الخسران المبين، لذلك قال تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27)يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا(28)لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولا (29))

(سورة الفرقان)

الحديث القدسي المعروف:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

(من صحيح مسلم عن أبي ذر)

لذلك:

(رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ (44))

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

1 – لا يكون الإسلام والخضوع إلا لله:

لو أنها قالت: وأسلمت لسليمان، فقد أشركت..

(وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ (44))

الإسلام لله عزّ وجل، لله رب العالمين.

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27))

(سورة الفرقان)

(وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ (44))

أي أن الذي يهديك إلى الله عزّ وجل يبين لك الحق، ويأخذ بيدك إلى الله عزّ وجل، وهذه كل مهمته، أما التوحيد لله عزّ وجل، الإخلاص لله عزّ وجل، الفناء في الله عزّ وجل، التوكّل على الله عزّ وجل، الاستسلام لله عزّ وجل.

(رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44))

2 – لا غالب ولا مغلوب في الإسلام:

شيءٌ آخر هو أنه في الإسلام لا غالب ولا مغلوب، فإذا اقتضى أن تعامل إنساناً بالقوة أو بالحيلة، وانتصرت عليه، أصبح أخاك في الإسلام، كلّكم يعلم أن سيدنا عُمَير بن وهب قد التقى بصفوان بن أمية في مكة، في أعقاب موقعة بدر، وبدر وما أدراكم ما بدر قُتِلَ فيها صناديد قريش، يقول عمير بن وهب: **" والله لولا ديون ركبتني، وأولادٌ صغار ليس لهم معيلٌ بعدي لذهبت وقتلت محمداً "**، هذا الكلام جرى بين عمير بن وهب وصفوان بين أمية وكانا مشركين، وهذا الكلام جرى في ظاهر مكة، ولم يعلم به إلا الله، فانتهزها صفوان مناسبةً ليشجّعَ عمير بن وهب على قتل سيدنا محمد، فقال له: **" أمّا عيالك فهم عيالي، وأما الديون التي ركبتك فهي علي بلغت ما بلغت، فامض لما أردت ".**

هذه القصة سأروي بعض فقراتها عليكم لأصل إلى أنه حينما يُسلم الإنسانُ فكل العداوات التي خلّفها في أيام الشرك تذوب كالملح، فحينما أحرجه صفوان وقال: **" أولادك هم أولادي، والديون التي ركبتك أنا أدفعها عنك بلغت ما بلغت "**، عندئذٍ توجّه عمير بن وهب واقتنى سيفاً مسموماً، وركب ناقته وتوجّهَ إلى المدينة المنورة، وصل إليها فرآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: **" هذا عدو الله عمير بن وهبٍ جاء يريد شراً "**، أخذ سيفه، وربطه بحمالته وقاده صاغراً إلى النبي عليه الصلاة والسلام. دخلا على النبي، وقال عمر: **" يا رسول الله، هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً، فدعني أضرب عنقه"**، لكن النبي عليه الصلاة والسلام نبي المرحمة، نبي الرحمة، نبي التسامح، نبي العَطْف، قال: **" يا عمر أطلقه "**، أي فك قيده، أطلقه عمر، قال: **" يا عمر ابتعد عنه "**، فابتعد عنه عمر، قال: **" يا عُمَير ادنُ مني "** فدنا منه، قال: **" يا عمير، سلِّم علينا "** فقال: **" عمت صباحاً يا محمد "**، قال: **" قل السلام عليكم "**، قال: **" لست بعيد عهدٍ بسلامنا "**، هذا سلامنا، فقال: **" يا عمير ما الذي جاء بك إلينا؟ "**، فقال: **"جئت أريد فكاك أخي من الأسر "**، فقال عليه الصلاة والسلام: **" وهذا السيف الذي على عاتقك لماذا جئت به ؟ "** قال: **" قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتها يوم بدر ؟** قال: **" ألم تقل لصفوان بظاهر مكة لولا ديونٌ ركبتني ولولا صبية صغار لذهبت وقتلت محمداً، فقال لك صفوان: أما ديونك فهي علي، وأما أولادك فهم أولادي ؟ "**، عندئذٍ يروي كتاب السيرة أن عميراً وقف من شدة

الدهشة، لأن هذا الكلام الذي جرى بينه وبين صفوان لم يدر به إنسان إذاً هذا رسول الله حقاً، وقف وقال: **" أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ".**

والقصة تَذْكُر أن صفوان وهو في مكة كلما التقى بأهل مكة يقول: **" انتظروا أخباراً سارة "**، وكأنه ينتظر أن يأتي خبر قتل سيدنا محمد، كان يخرج إلى ظاهر مكة ليتلقى ركبانها، ويسألهم: ماذا حصل ؟ مضى أسبوع وأسبوعان وهو يقول: **" انتظروا أخباراً سارة "**، ثم جاء الخبر بأن عمير بن وهب أسلم.

الذي أريد أن أقوله هنا: أن سيدنا عمر قال: **" والله دخل عمير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والخنزير أحبُّ إلي منه، وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أولادي "**، هذه اللقطة، فمهما يكن عدوك عنيفاً لمجرد أن يسلم صار أخاً لك، هذه عظمة الإسلام، بلقيس جاءت سيدنا سليمان مذعنة، مستسلمة، خاضعة، لم يعاملها كمغلوبة، فحينما أسلمت انتهى كل شيء، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات: من الآية 10)

المسلم أخ المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يسلمه، ولا يحقره وهكذا.

(رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44))

من علامات معرفة الله عزوجل:

كأنها عَرَفَت الله عزّ وجل، المشكلة أن كل إنسان يدّعي أنه يعرف الله، فالدعوة عريضة. ولكن إذا أردنا أن نقف عند بعض الدلائل التي تؤكِّد معرفة الله عزّ وجل، هناك بعض الدلائل.

1 – الهيبة من الله:

منها كما قال بعضهم: **" علامة معرفة الله عزّ وجل الهيبة منه، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته"**، حالة الخشوع، فالمؤمن في قلبه خشيةٌ من الله كبيرة.

2 – السكونُ:

علامةٌ أخرى **" المعرفة توجب السكون "**، والسكون يَعنى السكينة، إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من عباده، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينة، الشعور بالغنى، الشعور بالسكينة، الشعور بالرضا، هذه من علامات معرفة الله عزّ وجل، كلٌ يدعي أنه يعرف الله، ولكن هل في قلبك تلك السكينة، السكينة الركون إلى الله عزّ وجل.

3 – أنسُ القلبِ بالله:

قال العلماء: **" من علامة معرفة الله أنس القلب بالله، ومن علامة أنْس القلب بالله أن تُحِسّ بالقرب منه "**، فالمؤمن من الله قريب، والقرآن الكريم يقول:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(19))

(سورة العلق)

فالإحساس بالقرب من الله عزّ وجل هذا من علامة المعرفة بالله عزّ وجل.

الإمام الشبلي يقول: **" ليس لعارفٍ علاقة ـ أي أنّه وَحّدَ، توحيده جعله يضع كل علاقاته بالله عزّ وجل، اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كُلّها.. فليس لعارفٍ علاقة، ولا لمحبٍ شكوى، ولا لعبدٍ دعوى، ولا لخائفٍ قرار، ولا لأحدٍ من الله فرار".**

قال: **" من كان بالله أعرف كان له أخوف "**، فإذا كان هناك مؤشِّر لمعرفة الله فإن هذا المؤشر تابع لمؤشرٍ آخر، لخوفك منه، كلما ازدادت معرفتك ازداد خوفك، وكلما قلّت معرفتك قلّ خوفك، فمن كان بالله أعرف كان له أخوف، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية))

[ورد في الأثر]

4 ـ ضيق الدنيا وسَعتها على المؤمن منوطٌ بمعرفته بالله:

من علامات معرفة الله **" مَن عرف الله تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها، ومن عرف الله عزّ وجل اتسع عليه كلُّ ضيق "** كيف نوفِّق أنه من عرف الله ضاقت الدنيا بسعتها عليه، وأن من عرف الله اتسع له كل ضيق ؟ أي أن هذا الذي يبحث عن الله عزّ وجل، هذا الذي يعرف الله عزّ وجل، هذا الذي أراد معرفة الله عزّ وجل، لو أطعمته أطيب الطعام، لو أسكنته في أوسع القصور، لو طُفْتَ به في شتّى بقاع المعمورة، هو يهدف إلى غير ذلك، هذه الدنيا الواسعة المترامية الأطراف تضيق به، أما إذا جلس في ركنٍ ضيق ليطلب العلم، إن هذا الركن الضيّق يتسع له، فإذا كان المكان ضيقاً وحقق المؤمن به رغبته في معرفة الله عزّ وجل اتسع هذا المكان، وإذا اتسع المكان، وكان خواءً من معرفة الله عزّ وجل ضاق به المكان، فمن عرف الله تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها، ومن عرف الله تعالى اتسع عليه كل ضيق.

5 ـ صفاءُ العيش:

من عرف الله تعالى صفا له العيش، ليس معنى صفاء العيش أن يكون في بحبوحة، ولكن هذه النفس

وجدت بغيتها، وجدت ضالتها، ركنت لربها، قنعت به رباً، قنعت بعطائه، اطمأنت لوعده، خافت من وعيده، هذا أيضاً من علامات معرفة الله عزّ وجل، من عرف الله تعالى صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، خوف المخلوقين مؤشرٌ على الجهل بالله، ذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله عزّ وجل.

6 - قرارُ العين:

قالوا: **" من عرف الله عزّ وجل قرّت عينه بالله، وقرّت عينه بالموت، وقرّت به كل عين "**، أي أنه وصل إلى هدفه الكبير، الدنيا أصبحت عنده لا قيمة لها، أصبحت خارج اهتمامه، إذا عرفت الله عزّ وجل قرت عينك به، فإذا ذكر الموت فأنت له مشوق، لأن هذا الموت سينقلك من دار الغرور إلى دار الحقائق، إلى دار الشهود، إلى دار التكريم، إلى دار التشريف، إلى سعادةٍ أبدية، من هنا قالوا: **"الموت تحفة المؤمن "** فمن عرف الله قرت به عينه، وقرت عينه بالموت، وقرت به كل عين، لأن الإنسان في شغف، وفي شوق، وفي عطش شديد لمعرفة الله، فإذا عرف الله عن طريق الإنسان ارتاحت نفسه له، ومن لم يعرف الله تَقَطّعَ قلبه على الدنيا حسرات، لذلك سيدنا الصديق من الأوصاف التي وصِفَ: بها ما نَدِمَ على شيءٍ فاته من الدنيا قط، من عرف الله لم يبق له رغبةٌ فيما سواه.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(سورة المؤمنون)

وكلُّ ما سوى الله لغو.

لا تجتمع معرفةُ الله والرغبةُ في الدنيا:

الآن: **" من ادعى معرفة الله وهو راغبٌ في الدنيا كذّبت رغبته معرفته "**، قال: **" من عرف الله أحبه على قدر محبته به "**، إذاً حجم محبتك لله عزّ وجل بحجم معرفتك به، لذلك ازدد معرفةً تزدد حباً، ازدد معرفةً تزدد خوفاً، ازدد معرفةً تزدد زُهداً وهكذا، من عرف الله أحبه على قدر معرفته به، وخافه، ورجاه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ولهج بذكره، واشتاق إلى لقائه، واستحيا منه وأجله وعظمه على قدر معرفته به، لأن أصل الدين معرفة الله عزّ وجل.

في الدين أصول وفروع، أصل الدين أن تعرفه، وكيف تعرفه ؟ تعرفه من الكون، وتعرفه من الشرع، فإذا بذلت وقتاً ثميناً في معرفته من خلال الكون، وبذلت وقتاً ثميناً في معرفته من خلال الشرع، فقد وضعت يدك على جوهر الدين.

معرفةُ الله يلزم منها العلمُ بالله:

شيءٌ آخر، لا يوصف الإنسان بالمعرفة إلا إذا كان عالماً بالله، وبالطريق الموصل إليه، وبآفات الطريق، وبقواطع الطريق، وله حالٌ مع الله تشهد له بالمعرفة، يجب أن تعرفه، إذا أردت أن تدعو إليه يجب أن تعرفه، ويجب أن تعرف الطريق إليه، ويجب أن تعرف آفات الطريق وقواطع الطريق، ويجب أن يكون لك حالٌ معه تشهد لك بالمعرفة، والعارف بالله من عرف الله في وحدانيّته، وعرفه في أسمائه، وعرفه في صفاته، وعرفه في أفعاله، ثم صَدّقَ ذلك سلوكه، أي أن العمل، والتعامل اليومي يجب أن يكونا مصداقاً لهذه المعرفة، ثم أخلص له إخلاصاً شديداً، والإخلاص من لوازم معرفة الله عزّ وجل، أخلص له في قصده وفي نيّاته كلها، ثم انسلخ من أخلاقك الرديئة وآفات هذه الأخلاق، فلا يتناسب هذا الدين مع مساوئ الأخلاق، **"إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه "**، ثم تطهر من أدرانه ومخالفته، ثم صبر على أحكامه في نعمه وبلائه، ثم دعا إليه على بصيرةٍ بدينه وآياته، ثم جاءت دعوته مُطابِقَة لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام.

تعقيباتٌ على القصة:

التعقيب الأول: الأصل في القصة العبرة والمغزى:

تعقيبٌ سريع على هذه القصة، قلت مراتٍ عديدة في دروسٍ سابقة: إن القصة في القرآن الكريم ليست مقصودةً بذاتها، المقصود نحن، والمقصود أن نستنبط منها حقائق تُعيننا على الوصول إلى الله عزّ وجل، وقصة سيدنا سليمان تُنْبئنا أن الهدى يحتاج إلى إعمال فكر، وأن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يقول:

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ(44))

(سورة البقرة)

(أَفَلَا تُبْصِرُونَ(72))

(سورة القصص)

(أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ(50))

(سورة الأنعام)

(قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ(58))

(سورة غافر)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

(سورة آل عمران)

التعقيب الثاني: طريق الإيمان يحتاج إلى تواضع:

النقطة الثانية: أن طريق الإيمان يحتاج إلى تواضع، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت إخوته وحرمت غيبته))

[ورد في الأثر]

إذاً: تحتاج إلى صفة عقلية وصفة خلقية، الصفة العقلية الفكر اليَقِظ، هذا العقل أداة معرفة الله، جعله الله لك ميزاناً، فإذا أهملته دفعت الثمن باهظاً، وإذا أعملته عرّفَكَ بمعالم الطريق، ويأتي الشرع ليعطيك التفصيلات، إذاً ليس المقصود أن نقرأ القصة ؛ المقصود أن نعرف الحقائق التي انطوت عليها.

التعقيب الثالث: قدرة الله عزّ وجل لا يحدُّها شيء:

شيءٌ آخر، قدرة الله عزّ وجل لا يحدُّها شيء، إذا قال الله عزّ وجل:

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(1))

(سورة التغابن)

فنقل عرش من اليمن إلى بيت المقدس في أقل من لمح البصر، إذاً: قدرة الله لا تحدها حدود، والإيمان يحتاج إلى تواضع وإلى التزام، ويحتاج الإيمان أيضاً إلى فكرٍ يقظ لأنه أداة معرفة الله عزّ وجل.

التعقيب الرابع: قوام الدين والدنيا أربعة رجال:

أختم هذا الدرس بقول الإمام علي كرم الله وجهه: **<< قوام الدين والدنيا أربعة رجال ؛ عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضَيّعَ العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره >>.**

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (07-18): تفسير الآيات 45 - 53
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-01-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة النمل، انتهينا في الدرس الماضي من قصّة سليمان مع الملكة بلقيس، واليوم ننتقل إلى قصّةٍ أخرى، وهي قصّة قوم ثمود مع نبيّهم وأخيهم سيدنا صالح، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا (45))

(سورة النمل)

قصة صالح مع قومه ثمود: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً

1 – الحكمة من إرسال الأنبياء:

إرسال الله الأنبياء إلى الأمم حق، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى لحرصه على هداية الخلق لابدّ من أن يرسل إليهم من يبيّن لهم، وإذا انقطعت رسالات الله عزّ وجل بعد سيدنا محمد صلى وسلّم فإن الله تعهّد لهذه الأمّة أن يبعث إليها من يجدّد لها دينها، فهذا دور العلماء الذين ينطقون بالحق نيابةً عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فالإرسال مستمر.

وربنا سبحانه وتعالى له أساليبه في تبليغ الناس الحق، أحياناً يضيّق عليهم، وكلكم يرى أن الضيق الذي يقدّره الله عزّ وجل لأمّةٍ ما إنما هو في سبيل إيقاظها، التقنين الذي يقدّره الله لأمةٍ ما، إنما هو في سبيل تذكيرها، الإنسان حينما يقنّن فإنه يقنّن تقنين عجزٍ وتقنين ضعفٍ ؛ لكن الله سبحانه وتعالى حينما يقنّن فإنه يقنّن تقنين تأديبٍ وتذكير، فالمصائب تذكّر، والضيق يُذكّر، وأقوال الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه تذكّر، وكتاب الله الذي بين أيدينا يذكّر، وبعض الحوادث تذكّر.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنـه واحدُ

***

يا أيها الإخوة الأكارم... لن تُثْرَكَ سُدى لأننا لم نخلق عبثاً، أنا أردت من كلمة:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا (45))

فأنت أيها العبد لن تُثْرَكَ سُدى، لن يدعك الله من معالجته، فإما أن تأتيه طائعاً، وإما أن تأتيه على أثر مشكلةٍ، أو تضييقٍ، أو مصيبةٍ، أو زجرٍ، أو ما إلى ذلك، فربنا سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم،

ولن يسعدوا إلا بمعرفته، والاستقامة على أمره، لذلك لابدَّ من أن تأتيه طائعا، وإن لم تفعل فهو قادرٌ على أن يسوقك إليه سَوْقاً، فهذا كلام دقيق، أنت جئت إلى هذا المسجد، وسمعت هذا الدرس، أنت الآن أصبحت مسؤولاً عن كل شيءٍ سمعته، وهذا الذي لم يأتِ سيُسأل وسيُحَاسَب..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

هكذا بلا تذكير ؟ بلا شرع ؟ بلا منهج ؟ بلا كتاب ؟ بلا حساب ؟ بلا عقاب ؟..

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(38))

(سورة القيامة)

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(3)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(4))

(سورة القيامة)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة ص: من آية " 27)

فمن كلمة:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا (45))

أيْ قوم ثمود..

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من الآية 17)

لن يدع الله قوماً ولا أمَّةً، ولا فرداً ولا مخلوقاً من دون أن يَدُلَّه عليه، وفي الدعاء الشريف: **دلّنا بكَ عليك ".**

2 – المؤمنُ داعيةٌ مبلّغٌ:

إذاً: ماذا نستنبط من هذه القصّة ما دام الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً ؟ فأنت أيها المؤمن هكذا تستمع إلى كتاب الله صباح مساء، تحضر خُطَبَ الجمعة، تحضر مجالس العلم، قد يأتي مَن يذكِّرك، قد يأتي من يُلفِتُ نظرك، قد يأتي من يحذِّرك، قد يأتي من يبشِّرك فيجب أن تستجيب، دقِّقوا في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

الله سبحانه وتعالى يدعوكَ كي تكون حَيّاً، قد تقول: مَن أنا، هل أنا ميت ؟ ربنا سبحانه وتعالى يصف الكفّار بأنّهم ميّتون، قال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(21))

(سورة النحل)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

ما هو النذير ؟

حينما يهتمُّ الإنسان بدنياه فقط، ويُعْرِضُ عن آخرته، ولا يفكِّر فيها فهو في حكم الميّت، إذاً: فالله سبحانه وتعالى حينما قال في كتابه الكريم:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: من آية 37)

العلماء فسّروا النذير بأنه القرآن، وفسّروه بأنه النبي عليه الصلاة والسلام، وفسّروه بأنه سنُّ الأربعين، وفسّروه بأنه الشيب..

((عبدي شاب شعرك، وضعُفَ بصرك، وانحنى ظهرك، وضعفت قوّتك فاستحيي مني فأنا أستحيي منك))

وفسّر العلماء النذير بالمصائب، وفسّر العلماء النذير بموت الأقارب، فربنا سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا، خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليعرّفنا بذاته.

((اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتّك فاتك كل شيء وأنا أحبّ إليكَ من كل شيء))

إذاً: لابدَّ من معرفة الله عزّ وجل، وأصل الدين معرفة الله.

أتمنّى عليكم أن تقفوا معي على هذه الفكرة، قد يقول أحدكم: أنا طبيب، أنا مهندس، أنا تاجر، والعلم جميل لطيف لكن ليس هذا اختصاصي، من قال لك ذلك ؟ هذا العلم الديني يشبه التنفُّس، وجودك متوقِفٌ عليه، سلامتك متوقِفةٌ عليه، سعادتك متوقِفةٌ عليه، كمال وجودك متوقِفٌ عليه، استمرار وجودك متوقِفٌ عليه، وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك متوقِفٌ على تطبيق منهج الله عزّ وجل، فطلب العلم الشرعي فرض عين، لابدَّ من أن تعرف الله عزّ وجل وإلا فلابدَّ من أن تقع في متاهاتٍ كبيرة.

أنت كَسيارة منطلقة بسرعة، وسرعتها تعني هذه الشهوات التي أودعها الله في الإنسان، إنها تدفعك نحو إروائها، نحو الطعام والشراب، نحو تحقيق الملذّات، هذه الشهوات التي أودعها الله في الإنسان

كأنّها قوّةٌ محرّكة، هذه السيارة التي تنطلق بسرعةٍ فائقة، إنّ احتمال أن تتدهور من دون ضوءٍ كاشفٍ وهي تمشي في الليل، في ظلامٍ دامس، وفي طرقاتٍ ملتوية، احتمال تدهورها كم بالمئة ؟ الجواب مئة بالمائة، فأن تكون للسيّارة مصابيح كشّافة، هذه المصابيح ليست للزينة، ولا يمكن الاستغناء عنها، لا، إنها من ضروريات السيارة، وهذا العلم الذي تتعلّمه من ضروريات وجودك، من ضرورات سلامة وجودك، من ضرورات كمال وجودك، من ضرورات استمرار وجودك.

طرُقُ التذكير متنوّعة:

إذاً: الله سبحانه وتعالى لن يدع الناس سُدَىً ؛ لا جماعاتٍ ولا أفراداً، لابدّ من أن يذكِّر، قد يذكِّرك بنصيحة، وقد يذكِّرُكَ بضيق، وقد يذكرك بمصيبة، وقد يذكرك بطريقةٍ أو بأخرى، أما الموفّق والسعيد فهو من يتذكّر بالطريقة السليمة، هذا الكتاب كتاب الله، ولقد يسّره الله..

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ)

(سورة القمر: من الآية 17)

فلابدّ من أن تتذكّر، وإلا كانت العاقبة وخيمة، قال له: **" عظني وأوجز "**، فقال عليه الصلاة والسلام لهذا الأعرابي:

((قل آمنت بالله ثمّ استقم))

قال: **" أريد أخفّ من ذلك "**، قال عليه الصلاة والسلام:

((إذاً فاستعدّ للبلاء))

[ورد في الأثر]

ولو ذهبت تتأمّل طريقة معاملة الله لعباده تجد أن الهدف الأكبر هو أن يعرفوه، وأن يستقيموا على أمره، وأن يتقرّبوا إليه، فإن فعلوا كان بها، وإلا كانت الإجراءات الأخرى، كانت الأساليب الأخرى، فلهذا يقول الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا (45))

لماذا أرسل الله عزّ وجل صالحاً إلى ثمود ؟ أن اعْبُدُوا اللّهَ

لماذا أرسل الله عزّ وجل صالحاً إلى ثمود ؟ قال:

(أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ (45))

1 – أنت أيها الإنسانُ عبدٌ مملوك لله:

أنت عبدٌ لله، أنت لا تملك شيئاً، أنت مملوك ولست مالِكاً..

(قُلْ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة البقرة: من الآية 26)

ما دمت مملوكاً فيجب أن تعرف الذي يملكك ماذا يريد ؟ إذا دخلت إلى دائرة، وقد عُيِّنْتَ فيها موظّفاً، أول سؤالٍ تسأله: المدير ماذا يحب ؟ ماذا يكره ؟ كيف أستميله ؟ كيف أسترضيه ؟ كيف أتفادى أن أُغْضِبَهُ ؟ هذا شيء مهم جداً، إذا كنت عبداً في قبضة الله عزّ وجل، ولا تملك من الأمر شيئاً، فينبغي أن تعلم ماذا يرضي الله عزّ وجل، لو كنت حرّاً تفعل ما تشاء، أما إذا كنت عبداً ما هكذا تصنع العبيد، سؤال دقيق: من أنت، هل أنت حُرٌ أو عبدٌ ؟ هل أنت مالكٌ أو مملوك ؟ هل أنت قادرٌ أو مقدورٌ عليك ؟ هذا ينبغي أن تعلمه علماً أكيداً، فلذلك:

(أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ (45))

2 – المنهج الإلهي يتوافق مع الفطرة وعقل الإنسان:

الله سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان، وجعل له منهجاً، هذا المنهج الإلهي يتوافق ويتطابق تطابقاً تامّاً مئة بالمئة مع العقل البشري، وما من توجيهٍ إلهي يقول العقل السليم له: لا، أبداً، وما من شيءٍ يأتي به القرآن إلا والعقل يوافقه أتمّ موافقة، هذه ناحية، وهذا المنهج الإلهي أيضاً يتطابق مع الفطرة. قلت لكم مَرّةً كلمة قرأتها في صحيفة لا أحد ينتبه إليها، قد تبدو تافهة، ولكنّني استنبطت منها مغزىً عميقاً، سألوا امرأة تعمل في الفن، وهي في أوج نجاحها، في أوج تألّقِهَا، سألوها: ما شعوركِ وأنتِ على خشبة المسرح ؟ قالت: **" شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الجمهور "**، هذه المرأة التي ذكرت قبل قبيل لا تعرف ما الإسلام، ولا تعرف ما القرآن، ولا تعرف العربيّة، عاشت في بيئةٍ ماديّة، لكنّ فطرتها سليمة، ويبدو أنها صادقة مع نفسها حتى قالت هذا الكلام، هذا هو الإسلام، حينما تخالف المرأة أمر ربّها تخرج عن فطرتها، فكأنّ الدين هو الفطرة، أنت لا ترتاح إذا خالفتَ الفطرة التي فطرك الله عليها.

فهؤلاء الذين ينكرون وجود الله عزّ وجل ماذا يفعلون ؟ يذهبون إلى المنجّمين أحياناً، لماذا ؟ لأنه شعر أن هناك قِوى خفيّة بيدها مصيره، يا ترى كيف يموت ؟ متى يموت ؟ هل يوفّق أم لا يوفّق ؟ هل يأتيه مرض في وقتٍ مبكّر ؟ هل ينجو من هذا المرض ؟ تجد شخصاً كبيراً له شهادات عُليا، وله أفق واسع، وله مؤلّفات، ويحتل أعلى المناصب، يقف أمام بابَ منجّمٍ في بعض بلاد الغرب ليستطلع المستقبل، هو

يؤكِّد فطرته، فالإنسان لا يرتاح إلا إذا اطمأنّ إلى قوّةٍ غيبيّةٍ بيدها كل شيء، فالمسلم عرف أن هذه القوّة الغيبيّة هي الله عزّ وجل، أما غير المسلم يظنُّ أن المنجِّم يعرف، وأن فلاناً يعرف، وأن علاناً يعرف، وأن الكاهن يعرف، وأن الساحر يعرف.

فإذا أردت أن تسعد في الدنيا والآخرة فلابدّ من أن تتبع منهج الله عزّ وجل، هذا المنهج يتطابق أتمّ المطابقة مع العقل، لأن هذا كلامه، وهذا منهجه، والعقل الذي أودعه الله فيك من خلقه، والخالق واحد، منزّل هذا الكتاب هو ذاته خالق هذا العقل، إذاً: لا يمكن أن يقول الله لك شيئاً، ويقول العقل بخلافه، مستحيل، لا يمكن أن يقول الله شيئاً، وتقول الفطرة شيئاً خِلاف هذا القول.

في أي مجتمع، في أي زمن، في أي عصر، في أي مِصر، في أي ظروف، في أي بيئة، أيكون العدوان على زوجة صديقك عملاً مقبولاً ؟ لا، لأنّ الزنا محرّم، أيكون توليد المال من المال.. أي الربا.. شيئاً مقبولاً ؟ لا، هذا الذي يُنَمِّي المال عن طريق المال من دون أن يقدِّم شيئاً للمجتمع، من دون أن يعمل، حينما ينمو المال لا عن طريق العمل ولكن عن طريق المال نفسه، هذا هو الربا بعينه، إذا ماذا يعمل الربا ؟ هذا يجعل هذه الكتلة النقديّة الكبيرة في أيدٍ قليلة، نهاية هذا الوضع أن أناساً قليلين يملكون كل شيء ويأكلون ما يشتهون، بينما وأناسٌ كثيرون جداً لا يملكون شيئاً، هذا الخلل في المجتمع سببه الربا، ما دام هناك طريق لكسب المال من دون جهد، من دون بذل عمل، إذاً: هناك مخالفة للشرع، فنظام الله عزّ وجل، لأنه من عند الخالق، من عند الصانع، من عند العليم الخبير، من عند الخلاّق العليم، من عند خالق السماوات والأرض، من عند خالق الإنسان، من عند الذي صوّر الإنسان، والذي خلق بُنْيَة الإنسان يعلم كل شيء، فقرّر أن الربا حرام، وأن الإنسان لابدّ من أن يعمل.

فأنت مثلاً: إذا كنت تملك آلة غالية الثمن جداً، ومعها تعليمات، أتذهب إلى جارك الذي يعمل في عملٍ يدوي، ولم يقرأ شيئاً، والجهاز معقّد جداً، وهو جهاز إلكتروني يحتاج إلى خبراء، إلى مهندسين، أصابه عطب، هل تذهب إلى هذا الإنسان الجاهل كي يعطيك التوجيهات لاستعماله، أم تذهب إلى صاحب المعمل، أو إلى مهندس الشركة، أو إلى كُتيّبه الدقيق ؟ هكذا أنت، فالإنسان خَلْقٌ معقّد جداً، فيه شهوات، فيه ميول، فيه نوازع، له فكر، وله نفس، وفيه جانب اجتماعي، وجانب نفسي، وجانب عقلاني، تواجهه ظروف صعبة، ويحيا ضمن بيئات معقّدة، فكيف ينجو ؟ كيف يسعد ؟ كيف يرقى؟ كيف يحقِّق أهدافه في الدنيا والآخرة ؟ لابدّ من تطبيق منهج الله عزّ وجل.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ (45))

لو لاحظت القرآن كلّه، وقصص الأنبياء كلِّها، والرسالات السماويّة كلها تدعو إلى شيءٍ واحد.

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ (45))

مهمة المخلوق عبادة الخالق:

فهذا المخلوق معه منهج، هل طبّقت هذا المنهج ؟ في هذا المنهج عقيدة، يقول لك الله: مَن أنت ؟ أين كنت ؟ إلى أين المصير ؟ ماذا ينبغي أن تعمل ؟ افعل ولا تفعل، في هذا المنهج طرائق صحيحة لمعاملة الناس، هذه المعاملات، في هذا المنهج وسائل فعّالة للاتصال بالله عزّ وجل، فيه جانب منه عقائد، وفيه عبادات، كما أنّ فيه معاملات ؛ من في عمل أهم، ولا من عمل أعظم، ولا من عمل أخطر من أن تَعْكِفَ على هذا المنهج لتدرسه.

إذا حضرت مجلس علمٍ يُفَسَّر فيه كلام الله أنت ماذا تفعل ؟ أنت مخلوق جاء الله بكَ إلى الدنيا كي تحقِّق رسالة، وفي مجيئك للمسجد وسماعك تفسير كلام الله عزّ وجل هو مرحلةٌ أولى في تطبيق هذه الرسالة، كيف تطبّق هذا المنهج وأنت لا تعرف صاحب المنهج ؟ كيف تطبّق هذا المنهج وأنت لا تدري ما المنهج ؟ المنهج كتاب الله.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ(45))

الناس قسمان: فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ

الناس رجلان، فلو قَسَّمت الناس مائة قسمٍ، هذه الأقسام المائة لا تزيد عن أنها في فئتين فقط، فئةٍ مؤمنةٍ وفئةٍ كافرة، الفئة المؤمنة تسير على منهج الله، يشعر المؤمن أنه عبدٌ لله، وأن الله على كل شيءٍ قدير، وأن هذا الكتاب كتابه، الكافر يكذِّب ويعرض وتُحرّكُه شهواتُه، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

(سنن الترمذي عن ابن عمر)

وإذا رأيت ما يصيب الناس مَن همٍ أو حزنٍ، وما يصيبهم من قحطٍ، من انحباس الأمطار، هذا كلُه علاجٌ من الله عزّ وجل، وقد يُفَسَّر هذا بكلمتين: هان الله عليهم فهانوا على الله، فكيف هان الله عليهم ؟ إنك ترى الناس لا يبالون أطاعوا ربَّهم أم عصوه، يقول لك: لا تدقِّق، أكان كسبهم حلالاً أمْ حراماً ؟ أكان هذا الاختلاط يرضي الله أمْ لا يرضي الله ؟ لا يفكِّر، يهمُّه تحقيق رغباته، ما دام الله قد هان عليه إذاً هو أيضاً هان على الله، فلابدَّ من أن يُعَالَجْ..

(فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45))

وملّة الكفر واحدة، الكافر هو الكافر من عهد سيدنا آدم وإلى يوم القيامة ؛ أقواله، أفعاله، أفكاره، قِيَمُه، نزواته، طريقته في الحديث، طريقته في المُزاح، علاقته مع الناس مبنيَّةٌ على المنفعة والمصلحة، والأثرة وحبِّ الذات، وإنكار القيَم، ويريدها عوجاً، يبغونها عوجاً، والصدُّ عن سبيل الله، أبداً ملّة الكفر

واحدة، والمؤمنون منذ سيدنا آدم وحتّى قيام الساعة لهم طريقةٌ واحدة..

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادّون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم))

[ورد في الأثر]

المؤمن هو المؤمن والكافر هو الكافر، المؤمن في حركاته اليوميّة، في كسبه للمال، في إنفاقه للمال، في علاقاته الاجتماعيّة، في علاقاته بالله عزّ وجل، المؤمن هو المؤمن في كل زمانٍ ومكان، والكافر هو الكافر، أقوال أهل الكفر واحدة، أقوال أهل الإيمان واحدة، لذلك:

(فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45))

ينبغي أن توطِّن نفسك أن الذي لا يعرف الله لابدّ من أن يخاصمك، ولابدّ من أن يُسَفِّه أقوالك، ولابدّ من أن يبحث عن عيوبك، أما المؤمن فإذا عرف الله عزّ وجل اطمأنّت نفسه.

(قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ (46))

قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ

بعض الناس أحياناً إذا أردت أن تخوّفه، إذا أردت أن تحذّره، أن تَلْفِتُ نظره يقول لك: ائتني بعذاب الله، وأنا مستعد، هذا كلام الحمقى، كلام المغرورين، كلام التائهين، كلام الشاردين، كلام الجهلة، ائتني بعذاب الله، وهو واللهِ الذي لا إله إلا هو لا يحتمل ألَمَ الضرس، الذي يقول لك: ائتني بعذاب الله، ليفعل الله ما شاء معي، لا يحتمل آلام الأسنان فقط..

(قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46))

لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

رحمة الله، هذا التجلِّي الإلهي الذي يُصَبُّ على قلب الإنسان، هذه السعادة التي لا يعرفها إلا مَن ذاقها، هذا الشعور بالأمن الذي لا يُحِسُّ به إلا مَن دخل فيه..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

ما أمرَك الله بعبادته إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه بيده:

الإنسان إذا لم يعرف الله عزّ وجل تواجهه ملايين المُقْلِقَات، يا ترى هل يصاب بمرضٍ خبيث ؟ لا يَعرف، الأمراض بابٌ كبير من أبواب القلق، الأشخاص الآخرون الأقوياء أحد مصادر القلق عند أحدهم ؛ أهله وأولاده، عمله، كسب رزقه، فهناك مليون باب للقلق، إذا الواحد ما عرف الله عزّ وجل حياته مشحونة بالمُقلقات، بالمخاوف، بالأحزان، تجده دائماً متوتّراً، يائساً، مقهوراً، يشعر بالضياع، أما إذا عرفت الله عزّ وجل تقول ببساطة: هذا الإله العظيم الذي أمرني أن أعبده لا يمكن أن يكون مصيري إلا بيده، لو كان مصيري بيدِ غيره كيف يأمرني أن أعبده ؟ فأنت لو أن مصيرك بيدِ إنسان.

لو أن إنساناً ما بإمكانه فعلاً أن ينفعك أو أن يؤذيك، لك على الله حجّة، تقول: يا رب، أنا سأعبده لأنجو من شرّه، لكن ربنا عزّ وجل قال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: من الآية 123)

هذا الذي أمرك أن تعبده لا يمكن إلا أن يكون الأمر كلّه بيده..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

كيف تعبده، وأمْركَ بيد غيره ؟ لن تعبده، لن تستطيع أن تعبده، لذلك فإنّ كل إنسان يشرك بالله تجده يتصاغر لهذا الذي أشركه مع الله، ويتقصّى مرضاتهم، ويخاف من غضبهم لأنه يعتقد أن بيدهم نفعه وضرُّه، وهذا هو الشرك..

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

آيات التوحيد في كتاب الله لا تعدُّ ولا تحصى، كثيرةٌ جداً، فإذا قرأت كتاب الله عزّ وجل:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

((اعْلَمْ أنّ الأمّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بشَيْءٍ قدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بشَيْءٍ قدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقْلامُ، وَجَفّتِ الصُّحُفُ))

[الترمذي عن ابن عباس]

(أنْ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: من الآية 32)

إذا وحّدت فأنت تعبد الله ؛ أما إذا أشركت فأنت لا تعبد الله، تعبد هذا الذي أشركته مع الله، فالزوجة مثلاً: لو أنها اعتقدت أن زوجها إما أن يسعدها، وإما أن يشقيها، فأمرها بمعصية، فأطاعته فهي عندئذٍ مشركة، يجب أن تخرجي هكذا، يجب أن تستقبلي أصدقائي، فإذا رأت أن زوجها بيده أن يطلِّقها أو أن يبقيها، ونسيتْ ربَّها، فأطاعته فهي مشركة، لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، أما الزوجة المؤمنة فتقول له: لا أفعل هذا، فإذا بقلب زوجها يلين، فإذا بزوجها يهتدي على يديها، وهذا ممكن، والعكس صحيح أيضاً، وعلاقتك مع أخيك، مع أقربائك، مع جيرانك، مع من هو فوقك، مع من هو دونك، وهكذا..

(لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ لَعَلّكُمْ تُرْحَمُونَ (46))

العبرة بالقلب الطاهرة لا بالصورة:

أجل نستغفر الله، فهذه الرحمة بعينها، إن الله طيّبٌ ولا يقبل إلا طيباً، هذه الرحمة لا تتنزّل إلا على قلبٍ طاهر، لذلك قالوا: القلب بيت الرب..

((عبدي طهّرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة))

[ورد في الأثر]

هذا القلب ينظر الله إليه، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إنّ اللّهَ لَا يَنْظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وَأمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ وَأعْمَالِكُمْ))

[مسلم]

هل في هذا القلب غِش ؟ هل في هذا القلب حقد ؟ هل في هذا القلب حَسَد ؟ هل في هذا القلب ضغينة ؟ هل في هذا القلب عجب ؟ هل في هذا القلب إعراضٌ عن الله عزّ وجل ؟ إذا كان القلب سليماً نَعِمَت الحياة..

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أتَى اللّهَ بقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

(قَالُوا اطّيّرْنَا بكَ وَبمَنْ مَعَكَ (47))

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ

1 – معنى: اطَّيَّرْنَا:

معنى اطَّيَّرْنَا، أي تشاءمنا.

2 – انتشارُ التطيُّر والتشاؤم في الناس:

الآن دخلنا في موضوع دقيق، هناك أناسٌ يتشاءمون من بعض أيَّام الأسبوع، هناك أناسٌ يتشاءمون من بعض الأرقام، هناك أناسٌ يتشاءمون من بعض الأشخاص، يقول لك: قَدَمَهُ نَحْس، هناك أناسٌ يحبُّون أن يستطلعوا أقوال الكُهَّان، أقوال بعض المنجِّمين، هناك أشخاصٌ على أقلّ تقدير يقرؤون حظّك في هذا الأسبوع في بعض المجلات، هذا وُلِدَ في الشهر الفلاني، فهذا برجه برج العقرب، شروط برج العقرب، هذا كلّه باطلٌ لا أساس له من الصحّة، هذا كلّه هُراءٌ بهراء، هذا كله مخالفٌ للدين..

((مَنْ أَتَى حَائِضًا أو امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[من مسند أحمد عن أبي هريرة]

3 – التطيُّر رجمٌ بالغيب:

سؤال الكاهن كفرٌ بَواح، كفرت، إذا سألت كاهناً، مَن هو الكاهن ؟ هو مخلوق، هل يعلم الغيب ؟ ماذا قال الله لك ؟ الله سبحانه وتعالى يقول:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إلا مَا شَاءَ اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف: من الآية 188)

4 – إتيانُ السحرة والكهان من الكفر البواح:

إذاً: فالنبي عليه الصلاة والسلام على عُلوّ قدره وعظيم شأنه لا يعلم الغيب، فكيف تسأل كاهناً ؟ كيف تُصَدِّق منجِّماً ؟ حتَّى إنه من أتى ساحراً ولم يصدِّقه، فقط للتسلية، لم تُقْبَل له صلاة أربعين صباحاً، ولا

دعاء أربعين ليلة، هذا من أتى ساحراً فلم يصدِّقه، أما إذا صدَّقه فقد كفر، فقد وقع في الكفر البواح، وهذا هو الدجل، وهذا الخليط من الخُزعبلات والجهل، والخرافات على الناس، يقولون مثلاً: فُكّوا له السحر، صُبّوا له ماء مع ملح، وضَعوا له في طريقه ديكاً عندئذٍ ينتزع نهاره، هذا كلّه كلام الجُهّال، وهذه أباطيل وضلالات..

(قالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ (47))

أي أصابنا شؤمٌ يا أخي، أنت مِن وقت ما جئت أصابنا البلاء، وقد كنّا قبل مجيئك مرتاحين، مستقرين، أمورنا جيدة، دخلنا وفير، علاقاتنا طيّبة مع بعضنا، متوحِّدين، فلمّا جئت أنت يا أيها الذي تدعي أنك نبي جاءتنا المصائب، والأحزان، والهموم، والتمزُّقات، إذاً: نحن تشاءمنا بك، فقال لهم:

(قالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ (47))

قالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

أيْ أن الخير بيدِ الله والشر بيد الله، فإذا أصابكم شيءٌ فهذا بتقدير الله، وبعدله، وبحكمته، ليس هذا من عندي، الخير والشر بيد الله عزّ وجل، ومن أركان الإيمان أن تؤمن بالقدر خيره وشرّه من الله تعالى، فإذا أصاب إنسانًا مرضٌ عُضال قالوا: لأنه تزوّج فلانة، لا، ليس لها علاقة، هذا شيءٌ لا علاقة له إطلاقاً، هذا كلامٌ فارغ، الخير بيد الله، والشر بيد الله، وأيُّ شيءٍ يصيبك إنما هو بتقدير الله عزّ وجل، لا تتهم أحداً، ولا تتطير من أحد، ولا تتشاءم بأحد، لا بيوم، ولا تاريخ، ولا رقم، ولا شخص، ولا بيت، ولا مكان، ولا زمان..

(قالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ (47))

أي أن الله سبحانه وتعالى بحكمته وعدله قدَّر عليكم هذا الشر لحكمةٍ أرادها..

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47))

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ

1 – الأصل في الحياة الابتلاءُ والامتحانُ:

أنتم الآن في الامتحان، ربنا عزّ وجل يمتحن الإنسان، يمتحن هذا الإنسان بالرخاء، ويمتحنه بالشدّة، يمتحنه بالضيق، يمتحنه بالانفراج، فالإنسان معرَّض للامتحانات..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

مستحيل إلا أن يكون هناك ابتلاء وفتنة، أنت هنا من أجل الابتلاء..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ(2))

(سورة الملك)

سرُّ وجودك على هذه الأرض أنك لابدّ من أن تُمْتَحَن..

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15))

(سورة الفجر)

لا هذا ليس بإكرام، ليس هذا إكراماً إنما هو ابتلاء..

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي(16))

(سورة الفجر)

كلا، ليس هذا كلاماً صحيحاً، هذه المقولة ليست صحيحة، إن عطائي في الدنيا ليس إكراماً، إنما هو ابتلاء، وإن حرماني ليس إهانةً إنما هو دواء..

(قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47))

2 – الأمر كلّه بيد الله فلا تتّهم أحدًا !!!

يجب أن يعلم الإنسان علم اليقين أن مصيره بيد الله، وأن الله مالك المُلك، أيْ أنّ أجهزته كلها تعمل بأمر الله عزّ وجل، فإذا تعطّل أحد الأجهزة هكذا شاء الله ولحكمةٍ أرادها، لا تتهم أحداً، إذا جاء الرزق وفيراً هذه حكمة الله، وإذا ضاق الرزق عليك فهذه حكمة الله، ليس لك علاقةٌ بأحد، أن تتهم الناس، أن تتشاءم منهم، أن تتطيّر بهم، أن تعزو بعض الشرور إليهم، هذا كله كلام جهل.

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48))

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ

1 – معنى الرهط:

الرهط تعني العصابة، والعصابة ما دون العشرة.

2 – معنى العِصابة:

لكن لابدّ من بيان كلمة عصابة في اللغة: ففي وقتٍ سابقٍ لم يكن لهذه الكلمة من معنىً يؤذي، الكلمة كالكائن الحي، تولد وتنمو، وتتجه باتجاهاتٍ عديدة، فهذه حقيقة في اللغة، فمثلاً كلمة جرثوم كلمة شريفة جداً في أساس اللغة، وهي تعني أصل الشيء، فأحد الشعراء الكبار مدح المعتصم فقال:

خَليفةَ اللّهِ جازى اللّهُ سَعيَكَ عَن جُرثومَةِ الدِينِ وَالإِسلامِ وَالحَسَبِ

***

أيستطيع شاعرٌ الآن أن يمدح ملكاً فيقول له: أنت جرثومة الدين ؟ فكلمة جرثومة في أصل اللغة تعني أصل الشيء، لكن تطوّرت فأصبح لها معنىً آخر، إذْ سميّنا هذه الكائنات الدقيقة التي هي أصل الأمراض جراثيم، فإذا قلنا لإنسان الآن: أنت جرثومة هذا المجلس، فهذا سبابٌ.

إذاً: كلمة جرثومة تطوّرت، كذلك كلمة عصابة تطورت أيضاً، وهي تعني في الأصل مُطْلَقُ الجماعة، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأرْضِ))

[من صحيح مسلم عن عمر بن الخطّاب]

لكن حينما استعملت هذه الكلمة لأناسٍ خرجوا على القانون، فتقول: هؤلاء عصابة، صارت كلمة عصابة لها معنىً آخر. فلذلك:

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48))

يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ

1 – ما هو الإفساد ؟

الإفساد هو تفتيت المجتمع بالتفريق، بين أن يكون المجتمع متماسكاً متآخياً، محبّاً لبعضه، وبين أن يكون المجتمع متدابراً متحاسداً.

2 – النبيُ بيّن عواملَ الفساد لاجتنابها:

لذلك النبي الكريم بيّن عوامل الفساد فقال عليه الصلاة والسلام أشياء كثيرة منها:

((لا تَحَسّسُوا، وَلا تَجَسّسُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللّهِ إخْوَانًا))

[من صحيح البخاري عن أبي هريرة]

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللّهُ فِي حَاجَتِهِ))

[من صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر]

((الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي هريرة]

إذا طبّقنا هذا يكون المجتمع متماسكاً، فإذا لم نطبّق تفتّت المجتمع.

هؤلاء الرهط كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون.

(قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللّهِ (49))

معنى: تَقَاسَمُوا بِاللّهِ

أقسموا بالله.

(لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49))

لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

1 – دأبُ الكافرين التآمرُ على الأنبياء:

إنهم تآمروا على قتل هذا النبي الكريم، معنى تقاسموا أي أقسم بعضهم على بعضٍ بالأيمان المُغَلّظة، أيمكنك أن تقسم بالله لكي تقوم بجريمة ؟ أيسمح لك الله بذلك ؟ أحياناً الناس يستخدمون هذا، يقسم بشرفه لأفعلَنّ كذا سوءاً بفلان، يقسم بالله لأفعلنّ به كذا وكذا، وهذا العمل خلاف الشرع، كيف تشهد الله على معصية ؟ هؤلاء:

(تَقَاسَمُوا بِاللّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ (49))

2 – لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ

لنبيّتنّه بمعنى أن نتآمر عليه في الليل، ننفّذ هذا العمل ونقتله مع أهله..

(ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ (49))

3 – لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

بالليل، فهم يحتالون على ولي هذا النبي الكريم..

(وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49))

الآن:

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50))

وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

1 – ما هو المكر ؟

ما هو المكر ؟ المكر هو التدبير.

2 – من يمكر ؟

من يمكرُ في العادة ؟ الجانب الضعيف، لو أنه قوي لا يمكر.

3 – ما الشيء الذي يُبْطِلُ المكر ؟

ما الشيء الذي يُبْطِلُ المكر ؟ هو شيءٌ واحد أن يُكْشَف أمره، فإذا كان الإنسان ضعيفًا، وخطّط خطّة، فإذا كُشِفَتْ انتهى خطره، لكن الله سبحانه وتعالى مطلعٌ على كل شيء، وناظرٌ إلى كل شيء، يعلم السرّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين، يعلم ما تُفَكِّر به، يعلم ما تطمحُ إليه، يعلم ما تتمنّاه، يعلم ما يخفى عنك، يعلم السرّ وأخفى، فإذا كانت جهة من الجهات مكرت، فهذا المكر عند الله مكشوف، إذاً: أيُّ مكرٍ على وجه الأرض مخفق، لأن الله سبحانه وتعالى يكشفه، ويعاقب الماكر بمكرٍ يقابله، فإذا قال الله عزّ وجل:

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا (50))

4 – معنى: مكر الله:

من معاني مكر الله عزّ وجل أن مكره عقابٌ للماكرين.

من معاني مكر الله عزّ وجل أن مكره دفاعٌ عن المؤمنين.

من معاني مكر الله عزّ وجل أنه لصالح الفريقين، مكر الله عقابٌ للماكرين، ومكر الله دفاعٌ عن المؤمنين، ومكر الله لصالح الفريقين، لأن الله سبحانه وتعالى له أسماؤه الحسنى وصفاته الفُضلى..

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء: من الآية 110)

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50))

بعضهم يقول: هذا من باب المشاكلة، الله عزّ وجل ليس ماكراً، ولا يمكر، لكن إذا رأى جهةً كافرةً تمكر بالمؤمنين ماذا يفعل الله عزّ وجل ؟ يردُّ على مكرهم هذا بتدبيرٍ حكيم أيْ يبطل مكرهم، هذا التدبير الحكيم الذي يُحقُّ الله فيه الحق سمّاه الله مكراً مشاكلةً..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(15)وَأَكِيدُ كَيْدًا(16)فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا(17))

(سورة الطارق)

فإذا مكر الله عزّ وجل فليعاقب الماكرين، وإذا مكر الله عزّ وجل فليدافع عن المؤمنين، وإذا مكر الله عزّ وجل فمكره خيرٌ للفريقين، أو نسمي تدبير الله الحكيم مكراً من باب المشاكلة، وإذا عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم..

(فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ)

(سورة البقرة: من الآية 194)

هل يسمّى إنزال العقاب بالمعتدي اعتداءً ؟ هذا من باب المشاكلة، هذا من باب البيان والبلاغة، إما أن تسمي تدبير الله الحكيم مكراً من باب المشاكلة، وإما أن يكون مكرُ الله إحباطاً لمكر الكافرين، وإنقاذاً للمؤمنين، أو نافعاً للطرفين..

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(30))

(سورة الأنفال)

معنى خير الماكرين أن مكره لا يفشل أبداً، وأن مكره هو الأظهر، وهو الأقوى، أنت وضعت خطّة وربنا وضع خطّة، طبعاً الله خالق كل شيء، كن فيكون، بيده كل شيء، فمكر الله عزّ وجل هو الأظهر، وهو الأقوى، وهو الذي سينتصر، ومكره دفاعٌ عن المؤمنين، وعقابٌ للماكرين، وخيرٌ للفريقين، أو من باب المشاكلة..

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51))

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ

عاقبة مكرهم، أي نتيجة تدبيرهم أن الله دمرهم، لذلك بعض الأدعية تقول: **" اللهمّ اجعل تدميرَهم في تدبيرهم، اجعل الدائرة تدور عليهم.**

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51))

ألمْ يمكروا برسول الله حينما هاجر، وفي غار ثور، وفي الطريق إلى المدينة، ماذا كانت النتيجة ؟ أن الله سبحانه وتعالى هو الذي دافع عنه.

(فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52))

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

البيوت فارغة، مات أصحابها، أصبحت تَصْفِرُ الرياح منها صَفِيراً وتنعق فيها الغربان..

(فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53))

إياكم أن تعتقدوا أن البلاء عام، والرحمة خاصّة، البلاء خاص، والرحمة خاصّة، فلا خطأ عند الله عزّ وجل، ولا شيء طائش، ولا شظيّة طائشة، ولا خطأ غير مقصود، هذا لا يمكن عند الله، يستحيل على الله عزّ وجل، و لأنه إلهٌ مطلق، وبيده كل شيء، فكل شيءٍ وقع أراده الله، وإرادة الله عزّ وجل خيرٌ مطلق وحكمةٌ بالغة..

(وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53))

وموضوع التقوى بُحِثَ سابقاً، وسوف نقف عنده مرّةً أخرى إن شاء الله تعالى في مناسبةٍ قادمة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (08-18): تفسير الأية 53
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-01-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة النمل، كانت الآية وهي قوله تعالى:

(وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53))

(سورة النمل)

آخر آيةٍ في الدرس الماضي، أما قوله تعالى:

(وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53))

وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

1 – وقفة متأنية عند قوله تعالى: يَتَّقُونَ

لا بدَّ من وقفةٍ عند كلمة يتقون، الحقيقة أحياناً يمكن أن ندرس موضوعاً على مستوى القرآن الكريم كُلِّهِ، هذا النوع من التفسير سُمِّي التفسير الموضوعي، أي أن تأخذ التقوى في القرآن كله، وتستخرج الآيات التي تنوه بالتقوى وتصنفها تصنيفاتٍ دقيقة، وهذه التصنيفات ربما رأيت من خلالها موضوعاً متكاملاً دقيقاً جديداً كل الجدة، لم تكن لتقف عليه فيما لو قرأت آيات التقوى مع كل موضوعٍ على شكلٍ حيادي، أو على شكلٍ متصل بهذا الموضوع.

2 – التقوى جماعُ كلِّ خير:

الذي لا شك فيه أن كلمة التقوى وردت في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثمائة موضع، والأحاديث الشهيرة والصحيحة تؤكد في مجملها أن التقوى هي جماع كل خير.

3 – ما هي التقوى ؟

فما هي التقوى ؟ الحقيقة أن التقوى مشتقةٌ من فعلٍ ثلاثي، الفعل هو وَقَى، والوقاية تكون من شيءٍ خطير، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

(سورة البقرة)

4 – العبادة هي سبيل التقوى:

معنى ذلك أن العبادة هي سبيل الوقاية، فأنت إذا دعوت إلى الله يجب أن تعتمد على حاجات الإنسان الفطرية، وما منا واحد إلا وهو في حاجةٍ ماسةٍ جداً إلى أن ينجو من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، ففي نفس كلٍّ منا ميلٌ جامح وحاجةٌ مُلِحّة إلى النجاة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

(سورة البقرة)

في اللغة العربية هناك قاعدة: أن الفعل إذا حُذِفَ المفعول به المتعلِّق به أطلق الفعل، تتقون ماذا ؟ تتقون كُلّ خطر، كل مكروه، كل منزلق، كل شقاء، كل عذاب، كل ضيق، كل قلق، كل مصيبة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

(سورة البقرة)

إذاً: لا سبيل إلى تحقيق النجاة، ولا سبيل إلى تحقيق السلامة، ولا سبيل إلى أن يبتعد الإنسان عن شقاء الدنيا وعذاب الآخرة إلا بطاعة الله عزّ وجل، فلذلك فَسَّرَ بعضهم التقوى بأنها اتقاء عذاب الله بطاعته، أي لا منجى منك إلا إليك، لا يستطيع الإنسان أن ينجو من التأديب الإلهي، ولا من المعالجة الإلهية، ولا من العقاب الإلهي، ولا من القضاء الذي يقضيه الله عزّ وجل للإنسان إلا بطاعة الله عزّ وجل، هذه النقطة الأولى، إذاً: طاعة الله عزّ وجل سبيلٌ إلى التقوى.

5 – الإنسان له بناءٌ مؤسّسٌ على تقوى الله:

نقطة ثانية، الإنسان أيها الإخوة له بناء، معنى البناء أنت لك منظومة قيم، في الموضوع الفلاني لك موقف، في علاقتك بالنساء لك موقف، في علاقتك بكسب المال لك موقف، في علاقتك بإنفاق المال لك موقف، في علاقتك بالجوار لك موقف، في علاقتك بالبيع والشراء لك موقف، في علاقتك بالشهوة التي أودعها الله فيك لك موقف، هذه المواقف تنبع من رؤية أو من قيَم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

(سورة التوبة: من الآية 109)

أنت لك بناء، الأسرة لبنة، العمل لبنة، علاقتك بذاتك لبنة، علاقتك بالخالق لبنة، علاقتك بأهلك ؛ بالوالد، بالوالدة، بالإخوة، بالأخوات، بالأصهار، كل موقف، وكل حركة، وكل سكنة تنبع من رؤية أو من قيمة، فالمؤمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، إذاً فالله سبحانه وتعالى لا بدّ من أن يحميه.

6 – غيرُ المؤمن بناءُه مؤسّسٌ على الشهوة والمصلحة:

غير المؤمن أسّس بنيانه على الشهوة، على المصلحة، على انتهاز الفُرَص، على القَنْص، على حب الذات، على الأنانية، هذا البناء المبني على غير تقوى الله عزّ وجل كأنه على شفا جرفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنم، فكل إنسان له بناء، إما أن يبنى هذا البناء على تقوى من الله ورضوان، وإما أن يبنى هذا البناء على شفا جرفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنم.

7 – في الكون إلهٌ واحد يستحقّ العبادة:

الشيء الثاني: أن الإنسان حينما يفكر، ففي هذا الكون العظيم حقيقةٌ كبرى، سنقول حقيقة وحيدة، حقيقة ليس بعدها حقيقة هي الله سبحانه وتعالى، فهل من جهة بالكون تستحق أن يخْشى عذابها، أو أن ترجو رحمتها غير الله ؟ فهل في الكون جهة تستحق أن يرجى ما عندها، وأن يخشى عقابها غير الله عزّ وجل ؟ ربنا عزّ وجل يسأل، فإذا كنت في ثُكنة عسكرية فرضاً، فهناك جنود، هناك عرفاء، هناك رقباء، هناك حُرّاس، وهناك قائد هذه الوحدة، في حسب الظاهر بيده كل شيء، أليس من العقل أن ترجو رضاه، وأن تخشى عقابه، هذا مثل للتقريب.

حينما يفكر الإنسان في هذا الكون يرى أن كل شيءٍ قائمٌ بالله عزّ وجل:

(اللّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

أي قيام الشيء بالله، حياته بالله، كن فيكون زُل فيزول، إذاً: في الكون حقيقةٌ وحيدة ليس بعدها حقيقة، هي الله سبحانه وتعالى، أيعقل أن تخشى غير الله ؟ أيعقل أن ترجو غير الله ؟ أيعقل أن تطمع بعطاءٍ غير عطاء الله ؟ أيعقل أن تخاف من غير الله ؟ أيعقل أن تتقي عذاب غير الله ؟ أيعقل أن ترجو رحمة غير الله ؟ لذلك ربنا عزّ وجل في آية صغيرة قال:

(أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ(52))

(سورة النحل)

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(35))

(سورة يونس)

كيف تفكرون ؟ كيف تتأملون ؟

(أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ(52))

(سورة النحل)

8 – التوحيد مفتاح كلّ شيءٍ:

مِن هنا كان المؤمن في رعاية الله، لأنه لا يخشى إلا الله، المؤمن وحَّد جهته، المؤمن له وجهةٌ واحدة، ولو كانت على حساب كل العلاقات الأخرى، والعلائق عوائق، المؤمن كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((اعمل لوجهٍ واحد يَكْفِك الوجوهَ كلها))

[ورد في الأثر]

((من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

هذه كلمة وَحِّد، وحِّد الواحد، هذه كلمة بسيطة في ظاهرها، ولكنها عميقةٌ جداً في مدلولها، أنا لا أبالغ إن قلت: إنّ أكبرَ بابٍ من أبواب العذاب النفسي هو الشرك، قال تعالى:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

أحد أكبر أسباب العذاب في الدنيا ألا تكون موحِّداً، أن تدعو مع الله إلهاً آخر، لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ(52))

(سورة النحل)

ربنا عزّ وجل طمأنك فقال على لسان أحد رسله:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود)

قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: من الآية 123)

قال لك:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: من الآية 2)

قال لك:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

قال لك:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

قال لك:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

قال لك:

(أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من الآية 185)

فإذا خشيت غير الله، أو رجوت غير الله فلست متقياً، أي: لم تتّق الله عزّ وجل:

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ(52))

أنت في قبضته، ولماذا عليك أن تتقي الله ؟ لأن الله عليمٌ بك، وبكل ما يحيط بك..

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(194))

(سورة البقرة)

إذا كان الإنسان مراقباً فإنه يخافُ هذا الذي يراقبه، فربنا عزّ وجل رقابته عليك مستمرة، فما دامت رقابةُ الله عليك مستمرة ألا ينبغي أن تتقي الله ؟

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231))

(سورة البقرة)

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4))

(سورة المائدة)

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(203))

(سورة البقرة)

عليمٌ بكل شيء، شديد العقاب، سريع الحساب، إليه تُحشر، ألا تكفي هذه الدوافع الكبيرة كي تتقي الله عزّ وجل ؟

شيء آخر هذه الدوافع، سريع الحساب..

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

9 – اللهُ علّم عباده طريق التقوى:

النقطة الدقيقة أن الله عزّ وجل علّمك، علّمك من خلال هذا العقل الذي أودعه الله فيك، وعلّمك من خلال هذا الكون الذي نصب فيه الأدلة على عظمته، وعلمك من ملامح الفطرة التي فطرك عليها، وعلمك من خلال هذا الكتاب الكريم الذي أنزله على النبي العظيم، وعلمك من خلال السنة النبوية المطهّرة التي بينت هذا الكتاب، وعلمك من الحوادث اليومية، هذه الحوادث اليومية فيها تعليمٌ للإنسان، تشفّ هذه الحوادث عن قدرته، وعن حكمته، وعن عدالته، وعلّمك من خلال دعوة الدعاة وإلهام الملائكة، فأنت في حالة تعلم مستمر، والله سبحانه وتعالى يعلمك دائماً، إنْ في الكتاب، وإن في السُنَّة، وإن في الكون، وإن في العقل، وإن في الفطرة، وإن في دعوة الدعاة، وإن في إلهام الملائكة، أنت في حالة تعليم مستمر، فلمَ لا تتقي الله عزّ وجل ؟ هذا معنى قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللّهُ)

(سورة البقرة: من الآية 282)

نحن نشعر أننا في قبضة الله عزّ وجل، كل أجهزتك، كل أحوالك، ورأسُ مالك عقلك، نقطة دم صغيرة جداً إذا تجمّدَت في بعض شرايين المخ يفقد الإنسان عقله دفعةً واحدة، أو يفقد ذاكرته، أو يفقد سمعه أو بصره، أو يفقد حركته، إذاً: أنت في قبضة الله، بجسمك، وبروحك، وبنفسك، وببيتك، وبأهلك، وبأولادك، وبعملك، وبمن حولك، وبمن فوقك، وبمن تحتك، لذلك:

(أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ(52))

(سورة النحل)

10 – اللهُ هو أهلُ التقوى:

لكن هناك معنى دقيق جداً، وهو أنّك يجب أن تتقي ربك، لا لأنك بقبضته فحسب ؛ بل لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة، أي أنه رحمنٌ رحيم، ذو الجلال والإكرام، ذو الطّوْل والإنعام، يعلم السر وأخفى، عفوٌ كريم، رحمنٌ رحيم، لطيفٌ رؤوف، فأنت من جهةٍ تتقي ربك لأنك في قبضته، ومن جهةٍ ثانية تتقي ربك لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة، سبحان الله. فالإنسان يتوق إلى أن يتقرّب من إنسان عظيم، ولكن ألا يتوق إلى أن يتقرب من خالق الأكوان ؟ خالق الأكوان وضع نظاماً للتعامل معه، قد يكون شخص عظيم مزاجي الطبع، وأنت لا تدري كيف تتقرب إليه، قد يصل إلى قلبه بعض الناس صُدفةً أو بظروفٍ طارئة، لكن الله سبحانه وتعالى والخلق كلهم عباده، رسم لهم خطة علاقة منظمة تكون أساساً في تعامل العباد مع خالقهم سبحانه وتعالى، لا كما يتعامل الناس مع شخص ما له مزاجه وظروفه.

11 – اللهُ يحب المتّقين:

خلاصة هذه العلاقة أنّ ربنا عزّ وجل قال:

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(4))

(سورة التوبة)

فالتقوى منهم والعون والحب منه.

القضية واضحة كالشمس، الله عزّ يحب المتقين، أفلا يحب الإنسان أن يكون محبوباً عند الله عزّ وجل؟ إذا أحبك إنسان، إذا أحبك زيدٌ أو عبيد فماذا ينفعك حبه ؟ أمّا لو أحبك سيد الخلق وإذا أحبك الحق، أما سبحانه إذا أحبك فسيّشد الخلق، فحبه من حب الله عزّ وجل، وحبه ينفعك، أما إذا أحبك إنسانٌ قوي فيما يبدو للناس، فهذا الإنسان لا ينفعك حبه، ولا يضرُّك بغضه، ولكن إذا أحبك الله عزّ وجل ألقى حبك في قلوب خلقه فكنت عند الله وخلقه محبوباً..

ينادى لـه في الكون أنا نحبه فيسمع من في الكون أمر مُحِبّنا

***

إذاً: إذا اتقيت الله سبحانه وتعالى أحبّك الله، وهل من مرتبةٍ في الكون أرقى من مرتبة القرب من الله، الدنيا كلها مراتب ؛ مراتب مالية، مراتب علمية، مراتب اجتماعية، ومراتب رياضية، يقول لك: معه وسام ذهبي، هناك معه ميدالية برونزية، مراتب نفيسة ومراتب جسمية، ومراتب دينية، ألا تعتقد معي أن أعظم مرتبةٍ ينالها إنسانٌ على وجه الأرض هي القرب من الله، وأن يحبه الله عزّ وجل ؟

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(4))

(سورة التوبة)

هذا كلام بسيط، لكنه خطير، اتق الله أن تعصيه يحبك الله عزّ وجل، اتق أن تسخطه يحبك، اتق أن تخالف أمره، اتق عقابه بطاعته، اتق عذابه بالاستقامة على أمره، اتق ناره بالعمل لجنته، يحبك، لكن ألا تحب أن يكون الله معك ؟ الكلمة الشهيرة التي أقولها دائماً: إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

" ما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، وما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً ".

12 – معيّةُ الله بالحفظ ملازمةٌ للمتقين:

هل تدري أيها الأخ الكريم أن معيّة الله نوعان، معيةٌ عامة ومعيةٌ خاصة، الله مع كل مخلوق لقوله تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من الآية 4)

ولكن المعية الخاصة معية الحفظ، معية الرعاية، معية النصر، معية التأييد، ألا تتمنى أيها الأخ الكريم أن يكون الله معك ؟

(أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(194))

(سورة البقرة)

ألا يتمنى الإنسان أن يكون خالق الأكوان مدافعاً عنه ؟ ألا تتمنى أن يكون وليك هو الله عزّ وجل، الولي يخرجك من الظلمات إلى النور، يجعل لك مقعد صدقٍ عنده، يدافع عنك، يكيد لك، ألا تتمنى ذلك؟

(وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ(19))

(سورة الجاثية)

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(4))

(سورة التوبة)

(أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(194))

(سورة البقرة)

(وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ(19))

(سورة الجاثية)

وربنا عزّ وجل قال:

(أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّارِ(28))

(سورة ص)

فمن السذاجة، ومن الغباء، ومن ضيق الأفق، ومن الجهل أن تتصور أن هذا الذي استقام على أمر الله، وتعرف إلى الله، وأمضى وقتاً في تعلُّم العلم، وكان منضبطاً، ضبط حواسه الخمس، ضبط مشاعره، ضبط كسبه، ضبط إنفاقه، وكان محسناً أحسن إلى كل مخلوق، هذا المتقي الذي يتقي غضب الله، يتقي سخط الله، يتقي عذاب الله، أهذا المتقي أيعقل أن يعامل كالفاجر ؟ كالعاصي ؟ كالذي يفعل المعاصي على قارعة الطريق ؟ كالذي يتباهي بالمعصية ؟ شيء مستحيل، فلو أتيح لك أن تقرأ الآيات القرآنية التي تتحدث عن التقوى لوجدت أن في هذه الآيات معاني كبيرة جداً، وربنا عزّ وجل أمرنا أن نكون طَموحين، يقول بعضهم: أنا أريد مكاناً وراء الباب في الجنة، هذا كلام غير صحيح، ربنا عزّ وجل

علمنا في القرآن الكريم أن ندعو الله عزّ وجل ونقول:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا(74))

(سورة الفرقان)

13 – التقوى درجات ومستويات:

لا ترضى إلا أن تكون إماماً، والتقوى درجات، التقوى مستويات كبيرة جداً، في أدنى مستوياتها أن تتقي عذاب الله بطاعته، هذا الذي يغض بصره عن محارم الله يتقي الله، هذا الذي يخاف أن يأكل مالاً حراماً يتقي الله، هذا الذي يخاف أن يكذب يتقي الله، هذا الذي يخاف أن تصدر منه مخالفةٌ يتقي الله، هذا مستوى، فهناك أمرٌ إلهي جاءك بالنقل الصحيح، فهذا الرجل المؤمن يحاول أن يطبّق أمر الله، هذا نوعٌ من التقوى.

ولكن هناك درجة عالية من التقوى أنك إذا اتقيت الله عزّ وجل قذف الله في قلبك النور، فهذا سيدنا يوسف، بربكم امرأةٌ حسناء ذات منصبٍ وجمال، امرأة العزيز، وغلّقت الأبواب، وهو غير متزوج، وليس في بلده، وعبدٌ لها، وليس ممن مصلحتها أن يفشو هذا الأمر، وقد أمرته بذلك، لماذا امتنع ؟ ماذا رأى حتى قال: معاذ الله ؟ رؤية قلبية، هذا هو النور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، يرى به الخير خيراً والشر شراً، الحق حقاً، والباطل باطلاً، الصواب صواباً والخطأ خطأً، الصحيح صحيحاً والزيف زيفاً، هذا هو النور، لذلك فإنّ الدرجة الأولى أن تقرأ الأحكام، تقرأ الأوامر، تقرأ النواهي، تطبق، هذا مستوى من التقوى، أما المستوى الأعلى أن تجتهد في الطاعة، وأن تجتهد في الاستقامة، وأن تجتهد في البذل والتضحية حتى تنعقد الصِلَةُ مع الله عزّ وجل، إذا انعقدت هذه الصلة، فمن خلال هذه الصلة، يتجلى الله على قلبك بنوره، عندئذٍ تصبح مستنير القلب..

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46))

(سورة الحج)

عندئذٍ ترى في المعصية الوبال، والقطيعة، والدمار، والتأخُر، والتدهور، والعقاب، وعندئذٍ تقبل على الطاعة وتبتعد عن المعصية، هذا هو النور، الذي قال الله عنه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

(سورة الأنفال: من الآية 29)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد: من الآية 28)

نور تمشي به في الناس، هذا الذي يأخذ ما ليس له أعمى، هذا الذي يُمَتِّعُ عينيه بما لا يحل له أعمى، هذا الذي يؤثر نفسه على إخوانه أعمى، هذا الذي يستضعف إنساناً ويظلمه، يقول لك: هذه مقطوعة ليس لها أحد أعمى، لو أن قلبه استنار بنور الله لرَأى أن الله ولي هذه المرأة، فإذا تجاوز حده معها نكّلَ الله به، هكذا، فالمستويات كثيرةٌ جداً.

تزكيةُ وتقييم الناس مِن شأن الله وحدَه:

شيء آخر، وهو موضوع التزكية، موضوع تقييم الذات هذا من شأن الله عزّ وجل، مؤمنون كثيرون يخوضون فيما لا حق لهم أن يخوضوا فيه، تقييم الإنسان من شأن الله عزّ وجل، النبي عليه الصلاة والسلام حينما عاتب أحد أصحابه بقتل إنسانٍ في المعركة قال: **" لا إله إلا الله "**، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي سَرِيّةٍ، فَصَبّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا، فَقَالَ: لَا إلَهَ إلّا اللّهُ، فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((أقَالَ: لَا إلَهَ إلّا اللّهُ، وَقَتَلْتَهُ ؟!! قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، إنّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السّلَاحِ، قَالَ: أفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتّى تَعْلَمَ أقَالَهَا أمْ لَا فَمَا زَالَ يُكَرّرُهَا عَلَيّ حَتّى تَمَنّيْتُ أنّي أسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ))

[متفق عليه]

لذلك الأدب أن تحكم بالظاهر والله يتولّى السرائر..

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(17))

(سورة الإسراء)

الأدب أن تمتنع عن إصدار الأحكام على الناس، تقول: هذا من شأن الله، وليس من شأن البشر، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى(32))

(سورة النجم)

14 – التقوى خيرُ زادٍ:

الإنسان يتزوج، الإنسان يُجَمِّع الأموال، يقول: هذه الأموال تنفعني في خريف العمر، الإنسان أحياناً يبني بناء شامخاً، يقول لك: أريد بيتاً فيه كل جيد وجديد، ينتقي أفضل الأثاث، ينتقي أفضل الكسوة، ينتقي أفضل الأجهزة، وقد يقتني أفضل سيارة، يقول لك: أريد شيئاً جيداً، كلّه من نوع الزّاد، تزوّدتَ هذه المركبة، هذا البيت، هذا الأثاث، هذه الأجهزة الضخمة، تزودت بأموال تدخرها لوقت خريف

العمر، لكنّ ربنا عزّ وجل قال بكلمةٍ موجزة، قال:

(وَتَزَوّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى)

(سورة البقرة: من الآية 197)

أي أن أعظم زادٍ تدخره أن تتقي الله، لا أن تعصي الله، من هنا سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبةٌ قال:

<< الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني >>.

هذه قاعدة أيها الأخوة، الدين سليم ما لم تعصِ الله عزّ وجل، ما لم تقترب من حدوده، ما لم تعتدِ على حدوده، ما لم تخرق قواعد الاستقامة، ما لم تُسِئْ إلى إنسان، ما لم يكن في عنقك دينٌ لأحد، أو ظُلامةٌ لأحد، فقد سلم دينك ؟

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خرابُ

***

15 – التقوى سبيلُ الأمن والعافية والرضا:

دائماً وازن..

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ))

هذا أمن الإيمان، أنت مطمئن لعدالة الله، أنت مطمئن إلى أن الأمور كلها بيد الله، وأن الله رحمنٌ رحيم، أنت مطمئن إلى أنه لا إله إلا الله، أنت مطمئن إلى أنه لا رافع ولا خافض، ولا معز ولا مذل، ولا معطيَ ولا مانع، ولا باسط ولا قابض إلا الله، أنت مطمئن إلى أن الله سبحانه وتعالى يدّخِرُ لك عنده عطاءً كبيراً..

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(5))

(سورة الضحى)

إذا كنت كذلك فأنت في نعمةٍ لا تعدلها نعمة على وجه الأرض، نعمة أمن الإيمان، وإذا ادّعى أحد أن عنده أمناً بسبب الأموال الطائلة فهذا أمن مزيّف، لأن الله عزّ وجل قد يعاجل هذا الإنسان بمصيبةٍ لا قيمة للمال إطلاقاً في حلِها، وإذا كان عند الإنسان أمن بحسب صحته الطيبة، وتدريباته ونشاطه، ونظامٍ قاسٍ جداً يتبعه، هذا أمن مزيّف، الأمن الحقيقي أن تكون بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، هذا أعلى درجة من درجات الأمن، لذلك:

عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مِحْصَنِ الْخَطْمِيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنّمَا حِيزَتْ لَهُ الدّنْيَا))

[الترمذي]

إذا كنت كذلك فقد ملكت الدنيا بكل حذافيرها، أمن الإيمان، وسلامة الأبدان، وشيءٌ تقتات به، وانتهى الأمر، لذلك فالمؤمن لو أصابته مصيبة، ما دام دينه سليماً، ما دامت صحته طيبة، ما دامت أفعاله كريمة، فلا شيء في الدنيا يضيره.

هناك كلمةٌ قرأتها عن سيدنا الصديق، قرأتها قبل ثلاثين عاماً، ولا تبرح ذهني إطلاقاً، **" ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط ".**

مثلاً: يقول بعض الناس نادباً حظه: لو أخذت هذا البيت، الآن ثمنه ثمانية ملايين، وقد عرضوه علي فيما سبق بمئتي ألف، طال عمره فندب حظه، لو تزوجت فلانة، تأخّرت في قرار الزواج منها فخطبت.

ثمة كلمة في قاموس المؤمن يجب ألا تكون موجودة، هذه الكلمة هي: (لو)، يجب أن تشطبها من قاموسك:

((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم]

المؤمن لا يندم، ما دام سيدنا الصديق ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، فربنا عزّ وجل يدعونا ويقول:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

بهذه الطريق تنافسوا، في طريق معرفة الله، في طريق طاعته، في طريق فعل الخيرات، في طريق البذل والتضحيات، في هذا الطريق تسابقوا، أما التسابق في جمع الدرهم والدينار فمعركة قذرةٌ خائبةٌ، وكما يقولون في بعض الطُرَف: **" إن حماراً كان يقف في بعض الأمكنة، وكان الحرّ شديداً، والوقت ظهيرة، جاء رجل، وجلس في ظل هذا الحمار، واستمتع بظلِّه الظليل، قام ليشرب، جاء رجل آخر، وجلس مكانه، فلمّا عاد قال له: هذا المكان مكاني، لا إنه مكاني، من كلمة إلى كلمة تشادا، وتلاسنا، ثم تضاربا، وتلاكما، ثمّ ذهب الحمار، وذهب معه ظله "**، هكذا الدنيا، يأتي الموت فينهي كل مشكلة، دعاوى كثيرة جداً في المحاكم تنتهي بموت أحد المتخاصمين، أعطاك عمره، انتهت الدعوى وشُطِبَت، أما المؤمن فلا يندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، يسعى لمقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، يسعى لتقوى الله عزّ وجل، إذاً:

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)

(سورة البقرة: من الآية 197)

16 - تقوى القلوب أفضلُ لباس المسلم:

انظر إلى هذه المعاني الدقيقة، أحياناً تجد إنساناً قد أكرمه الله عزّ وجل بقِوامٍ جميل، بشكلٍ وسيم، قد يكون ذا ذوقٍ رفيع في ارتداء الثياب، له أذواق رفيعة جداً، قد يكون له ذوقٌ عالٍ جداً في اقتناء الأثاث، قد يختار مركبةً جيدة، قد يعتني بها عنايةً بالغة، قد يُلبِسُ أولاده أجمل الألبسة، قد يفرش بيته بأجمل الأثاث، ربنا عزّ وجل قال في كلمة:

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

(سورة الأعراف: من الآية 26)

لباس التقوى ذلك خير، هذا الذي ينفعك بعد الموت، هذا الذي يستمرُّ أثره إلى ما بعد الموت.

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

المظهر لا قيمة له..

((إنّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وَأمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ وَأعْمَالِكُمْ))

[من صحيح مسلم عن أبي هريرة]

القلب بيت الرب، ومنظر الله عزّ وجل، يقول الله عزّ وجل:

((عبدي، طهّرت منظر الخلق سنين، أفلا طهّرت منظري ساعة ؟))

ألا تستحيي من الله أن يطّلع الله عليك فيرى في هذا القلب حِقْدَاً، أو حسداً، أو يرى فيه أنانيّةً، أو حبّاً للذات ؟ ألا تستحيي من الله أن يطّلع الله على قلبك فيراه ممتلئاً بحبِّ الدنيا ؟ ألا تستحيي من الله عزّ وجل أن يطّلع على قلبك وفيه نيّةٌ ماكرةٌ لبعض المؤمنين ؟ ألا تستحيي؟..

((طهّرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة ؟))

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

(سورة الأعراف: من الآية 26)

(وَتَزَوّدُوا فَإنّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوَى)

(سورة البقرة: من الآية 197)

17 - التقوى طريقُ الجنة:

لكن عليك بتقوى الله دائماً، فكل شيء له ثمن كل شيء له ثمن، لو أن أحداً طلب مثلاً قطعة أثاث فاخرة جداً من مستوى رفيع جداً، فهذا الطلب العالي يقابله ثمن غالٍ دائماً، الشيء المتقن ثمنه غالٍ، والشيء غير المتقن ثمنه رخيص، ولكن هل في الحياة كلِّها، هل في الحياة الدنيا والآخرة عطاءٌ يفوق عطاء الآخرة ؟ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذه الآخرة الأبديّة

السرمديَّة، حياةٌ ما فيها نَغَص، ولا فيها قلق، ولا فيها حزن، ولا فيها منافسة، ولا فيها زوال، ولا فيها تَدَنّي، هذه الحياة فيها ؟ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)

(سورة السجدة: من الآية 17)

هذه الآخرة أتظنُّ أن ثمنها بسيط ؟ ثمنها يسير ؟ ركعتان تصلِّيهما وانتهى الأمر، ليرة تلقيها في يدِ فقير وانتهى الأمر، هكذا ؟ لا والله، ألا إنّ سلعة الله غالية، الله عزّ وجل قال:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

مستحيل أن تصل إلى الجنَّة، وأنت تؤثر حظوظك النفسيَّة، مستحيل أن يُسْمَح لك بدخول الجنَّة، وفي حياتك شهوةٌ مقيمٌ عليها، ألا فلتعلم أن سلعة الله غالية، وطريق الجنَّة ليست طريقاً محفوفةً بالرياحين، إنها طريقٌ محفوفةٌ بالمكاره، هكذا قال عليه الصلاة والسلام..

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

(من صحيح مسلم عن أنس بن مالك)

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلاثًا، ألا إنّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

(من مسند أحمد عن ابن عبَّاس)

يكفي أن تسترخي، يكفي أن تنساق مع هوى نفسك، يكفي أن تطلق بصرك، يكفي أن تطلق لسانك، يكفي أن تُصْغِي بسمعك إلى كلامٍ لا يُرضي الله عزّ وجل، يكفي أن تأخذ ما ليس لك، يكفي أن تغازل من تراها، يكفي أن تكون ذكياً وتستخدم هذا الذكاء في جمع المال، يكفي أن تكون لطيفاً وتستخدم هذا اللطف في إغواء الفتيات.

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلاثًا، ألا إنّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

18 ـ تقوى نبيِّ اللهِ يوسفَ وإحسانُ الله إليه:

لذلك ماذا قال سيدنا يوسف ؟ وماذا فعل ؟ شابٌ كالمَلَك وضعه إخوته في الجُب، وما أدراكم ما الجُب، ولو رحمة الله عزّ وجل لهلك في الجُب، شَرَوْهُ بثمنٍ بخس، اشتراه عزيز مصر، وجعله خادماً في القصر لتلقي الأمر، ولتحمُّل الأعباء، فدعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال، وهو في ريعان الشباب، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، رفض أن يحقِّق لذّته التي أودعها الله فيه، رفض أن يحقِّق الشهوة التي يموت الناس من أجلها اليوم، أودعوه في السجن بضع سنين، كل هذا لأنه يتَّقي الله، لذلك قال:

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(90))

(سورة يوسف)

19 - تقوى اللهِ وعلاقتها بالابتلاء:

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى سأله سائل: **" أندعو الله بالتمكين أم ندعوه بالابتلاء ؟ "** فتبسّم وقال: **" إنّك لن تمكّن قبل أن تُبْتَلى ".**

أقول لكم هذا الكلام: مستحيل لمؤمن يتعرّف إلى الله عزّ وجل ولا يبتليه الله، هذا أمر لا يكون، بل لابدّ من الابتلاء، هذه السيارة امتحنّاها في النزول، فإذا هي لها سرعةٌ فائقة، لابدّ من أن تُمْتَحَنَ في الصعود، تُمْتَحَن في الرخاء لابدّ من أن تُمْتَحَنْ في الشدّة، تُمتحن قبل الزواج مثلاً، وتمتحن بعد الزواج..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(3))

(سورة العنكبوت)

لذلك:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(11))

(سورة المائدة)

فإذا اتقيت الله عزّ وجل ربّما جاءتك المتاعب، ربّما وقف في وجهك المعترضون، الناس يرضون عن الفاسق دائماً، فإذا استقمت على أمر الله ترى أقرب الناس إليك يقف في وجهك، ويقال لك: لقد فرّقت الأسرة بهذا السلوك، لم نألف هذا السلوك، ما هكذا نشأنا، ما هذا الحجاب ؟ ما هذا التشدُّد ؟ ما هذا التزمُّت ؟ ربنا عزّ وجل يطمئنه فيقول:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(11))

ربنا عزّ وجل قال وهو يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن توفِّيت زوجته التي عدّها علماء السيرة سندَه من الداخل، وبعد أن توفي عمُّه الذي عدّه علماء السيرة سنده من الخارج، من الداخل فَقَدَ السَنَد، ومن الخارج فَقَدَ السَنَد، سمّى علماء السيرة هذا العام عام الحزن، تتابعت المصائب، تتابعت المِحَن، ومع ذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام ما غيّر ولا بدّل، ذهب إلى الطائف مشياً على الأقدام، قطع ثمانين كيلو متراً هو وخادمه زيد بن حارثة، في الطائف ردّه أهلها شرّ رد، كذّبوا دعوته، سخروا منه، ردّوا دعوته، رجاهم رجاءً حاراً فقال:

((اكتموا عني هذا الأمر))

وصل إلى أبواب مكّة، فإذا أنباء تكذيبه قد سبقته إلى مكّة، وفي مكّة هُدِرَ دمه، وكان يقول في هذه المِحنة الشديدة:

((إنّ الله ناصر نبيّه))

لا يمكن أن يعطي الله عطاء بلا امتحان، لا نبي، ولا صديّق، ولا مؤمن، ولا تقي، هذا مستحيل، أنك ترجو أن تصل إلى مرتبة عالية، إلى سعادةٍ أبديّة، إلى سعادة الدارين، إلى جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، إلى مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، أن تصل إلى مكانٍ عَلِيٍ عند الله عزّ وجل بلا ثمن ؟ بركعتين ؟ بليرتين وانتهى الأمر ؟ لا، هذا مستحيل، لذلك:

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ)

(سورة يوسف: من الآية 90)

قد تأتي المتاعب من الداخل، قد تأتي المتاعب من الجسم، كبعض الأمراض، قد تأتي المتاعب من العمل، قد تأتي المتاعب من الزوجة، قد تأتي المتاعب من الأولاد، الله عزّ وجل يريد أن يراك ماذا تفعل عند الشدّة ؟ هل تصبر أم تتبرّم ؟ هل ترضى أم تسخط ؟ هل تصبر صبراً جميلاً أم تقول: ماذا فعلت لله عزّ وجل حتّى فعل بي كذا وكذا ؟ إنّ الصبر عند الصدمة الأولى.

قلت لكم سابقاً: إن الجاهل يقول بعد أيّامٍ من نزول المصيبة ما يقول المؤمن ساعة تلقِي النبأ، فهي قضية زمن، المؤمن يقول: الحمد لله رب العالمين، الأمر أمرُ الله، والذي وقع أراده الله، والذي أراده الله وقع، وإرادة الله عزّ وجل متعلِّقةٌ بالحكمة البالغة، وحكمته البالغة متعلِّقةٌ بالخير المطلق، وما دام الشيء قد وقع فهو خير، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، إنّا لله و إنّا إليه راجعون، اللهمّ أجرني في مصيبتي، واخلفني خيراً منها، هكذا المؤمن، لذلك:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ(157))

(سورة البقرة)

الهدفُ من الآيات القرآنية والكونيةُ هو تقوى الله:

الحقيقة أن ربنا عزّ وجل حينما بيّن هذه الآيات ؛ الآيات القرآنيّة، والآيات الكونيّة، الهدف الكبير منها أن تتقي الله عزّ وجل.يقول الله عزّ وجل:

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(103))

(سورة آل عمران)

أما رأيت هذه الآيات الدقيقة ؟ فهذا الماء الذي يزداد حجمه إذا بلغت درجة حرارته (+ 4)، هذه القاعدة تشذُّ عن كل قواعد العناصر الكونيّة، هذا الشذوذ في القاعدة لولاه لما كانت حياةٌ على وجه الأرض، هذه ألا تفكِّر فيها ؟ هذا الطير الصغير في البيضة ينبت له في منقاره نتوءٌ حادٌ مدبَّب من أن أجل أن يكسر البيضة، بعد أن يخرج منها يذوب هذا النتوء، هذه ألم نفكِّر فيها ؟ هذه العين جعل الله في مائها مادّةً تقاوم التجمُّد، ولو أنّ أحداً سكن في فنلندا، أو الإسكيمو، أو القطب الشمالي، والحرارة سبعون درجة دون الصفر، بإمكانه أن يضع قبّعةً على رأسه، وثياب ثقيلة جداً على أطرافه كلِّها، لكن ليس بإمكانه أن يغطي عينيه حين يمشي، فلو مسّ الهواء الخارجي ذو الدرجة السبعين تحت الصفر ماء العين لتجمّد، لكن الله سبحانه وتعالى أودع في ماء العين مادّةً مضّادّةً للتجمُّد، فعل من ؟

هذا الدماغ فيه مركز يحسب تفاضل وصول الصوت إلى الأذنين، أنت تمشي في الطريق فزمّرت سيارة من خلفك، دخل الصوت من هذه الأذن، ومن هذه الأذن، لكن دخل لهذه الأذن قبل هذه الأذن بجزء من ألفٍ وستمئة جزءٍ من الثانية، هذا الجهاز يحسب من أيّ أذنٍ دخل الصوت أولاً ؟ من اليمنى إذاً: السيارةُ عن يمينك ومن خلفك، فيا أيها الإنسان ابتعد عنها نحو اليسار، وأنت لا تدري.

وهذا لسان المزمار يشبه شرطي السير الذي يعمل ليلاً ونهاراً، تحبُّ أن تشرب، تحب أن تأكل، يُغْلِقَ هذا اللسان الرغام.. القصبة الهوائية.. تحبّ أن تتكلّم، يغلق هذا اللسان المريء، لكن وأنت نائم كلّما تجمّع اللعاب في الفم ذهب تنبيهٌ إلى الدماغ، الدماغ أعطى أمراً للسان المزمار، فيفتح قناة المريء، ويغلق قناة التنفُّس، وأنت لا تدري، ففي الجسم أشياء لا تصدّق.

الآيات القرآنية المتحدِّثة عن التقوى:

الحقيقة هذه الآيات المتعلِّقة بالتقوى هي آياتٌ لم يمكِّني الوقت من شرحها في خطبة، ولكن والوقت محدود، لذلك حاولت في هذا الدرس شرح الآيات التي لم تُشْرَح في خطبة الجمعة.

من هذه الآيات ربنا عزّ وجل يقول:

الآية الأولى:

(وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى(17))

(سورة الليل)

الأتقى اسم تفضيل، فهناك في اللغة تقي وأتقى، وكذلك وأحسن، وكريم وأكرم، أما الأتقى ما صفاته الأساسيّة ؟ قال:

(الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى(18))

(سورة الليل)

المال: الله عزّ وجل أكرمنا به ليكون وسيلةً للتقرُّب إليه، أحد الصحابة الكرام قال: **<< حبّذا المال أصون به عرضي، وأتقرّب به إلى ربي>>.**

كلماتٌ بليغات أصون به عرضي ؛ أولادك، أهلك، أمك، أبوك بحاجةٍ إليك، صنت بهذا المال عرضك، وتقرَّبت به إلى ربّك، فربنا عزّ وجل يصف الأتقى لا يصف التقي، قال:

(وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى(17)الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى(18))

(سورة الليل)

لا تنسَ قوله تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(103))

(سورة التوبة)

أحياناً يخالف الإنسان أمر الله عزّ وجل فيأتيه العقاب سريعاً، وقد يكون العقاب مؤلماً، وربنا عزّ وجل إذا عاقب يعرف كيف يعاقب، إنّ عذابه أليمٌ شديد، فهذا العذاب الإلهي عذاب ردع، والدليل قال تعالى:

الآية الثانية:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(179))

(سورة البقرة)

فقد تتعرف إلى مؤمن كبير جداً، أساس إيمانه عقاب ناله من الله، خالف الشرع، فجاءه عقابٌ إلهي، فالقِصاص أحد الطُرق المؤديّة إلى التقوى.

شيءٌ آخر، هذا الذي يتقي الله عزّ وجل أليست لهذه التقوى ثمرةٌ يانعة ؟ إن ثمرة التقوى اليانعة النجاة من عذاب الله..

الآية الثالثة:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(61))

(سورة الزمر)

لم يقل الله عزّ وجل: لا يصيبهم السوء ؛ بل قال: لا يمسُّهم.

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(61))

الآية الرابعة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15)آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

(سورة الذاريات)

الآية الخامسة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(54))

(سورة القمر)

الآية السادسة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ(17))

(سورة الطور)

الآية السابعة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ(41))

(سورة المرسلات)

الإنسان أمره عجيب، أحد الصحابة زوجته طلبت منه حاجة لعل فيها حُرمة، فقال: **<< اعلمي يا أمة الله أن في الجنّة من الحور العين ما لو أطلّتْ إحداهنّ على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أن أضحي بهنّ من أجلكِ >>**، القضيَّة تجاريَّة، فلأن أضحي بكِ من أجلهن، فلذلك:

الآية الثامنة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15))

(سورة الذاريات)

لأن ربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ)

(سورة التغابن: من الآية 14)

هذه عداوة مآل، وليست عداوة الحال، أما لو أنّ إنساناً مشى في ركاب زوجته، وحملته على معصية الله وخسر الجنّة، لا يرى في الآخرة من هو أشدّ عداوةً منه لزوجته، ذلك، لأنها ساقتها في طريق

معصية الله، لذلك:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15))

(سورة الذاريات)

الآية التاسعة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(54))

(سورة القمر)

الآية العاشرة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ(17))

(سورة الطور)

الآية الحادية عشرة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ(41))

(سورة المرسلات)

الشيء الأخير: الحياة دواليبها تدور، وعلى مسرح الحياة أناسٌ يصعدون، أُناس يهبطون، أناس يربحون، أناس يخسرون، أناس يعيشون في بحبوبحة، أناس يعيشون في ضيق، أناس يفقدون حرّيتهم، أناس يتربّعون على مركز القوّة، الدولاب يدور، ولكن هذا الدولاب يدور، ويدور، ثم يستقر على مبدأٍ ثابت..

الآية الثانية عشرة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

الآية الثالثة عشرة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(132))

(سورة طه)

وباللغة الدارجة.. التقوى أقوى.. أي أن في النهاية لا يسعد إلا المتقي، لا يفوز إلا المتقي، لا ينجو إلا

المتقي، لا يُفلح إلا المتقي، لا ينجح إلا المتقي، لا يسعد إلا المتقي..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

(وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(132))

(سورة طه)

لكن من أجل أن تقطف ثمار التقوى يانعةً ربنا عزّ وجل يقول:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)

(سورة البقرة: من الآية 63)

بقوّة، هناك أخذ بلين ؛ ومسايرة، ومجاملة للآخرين، مواقفه دائماً ضبابيّة، دائماً متردِّد، دائماً مُرتاب، دائماً يُطيع الله ولكن على مضض، يخاف أن يعصيه، ولكن يرغب أن يعصيه، هذا الموقف المتردِّد الضبابي، موقف الأخذ والرد، موقف عدم الثقة، عدم اليقين، موقف المتخاذل، موقف متردِّد، هذه المواقف ليست من صفات المؤمنين..

الآية الرابعة عشرة:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(63))

(سورة البقرة: من الآية 63)

فقد يستحيي أن يقول: أنا أريد أن أصلي، يقول: اسمح لي أن أذهب فعندي موعد، قل له وافتخر: أريد أن أصلي، فالإنسان يجب أن يفتخر بدينه، يجب أن يفتخر بإسلامه، طبعاً وفق الحكمة، لكن:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)

آخر شيء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(سورة التحريم: من الآية 6)

فالإنسان كما هو مأمورٌ أن يقي نفسه النار مأمورٌ أن يقي أهله وأولاده النار ؛ من خلال التوجيه، من خلال المراقبة، من خلال الإكرام، من خلال العِقاب، يجب أن يكون المرء حكيماً، لكنّه مسؤولٌ عن أولاده وزوجته مسؤوليّةً لا حدود لها، والدليل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(سورة التحريم: من الآية 6)

عليكم بالقرآن قراءةً وحفظا وتعلُّمًا وتعليما فإنه أصل التقوى:

فحبّذا الإنسان كلّما مرّت به آيةٌ في القرآن الكريم متعلِّقةٌ بالتقوى حبّذا لو سجّلها، وحبذا لو جمعها في كُتيّب مع مثيلاتها، وحبذا لو صنّفها، وحبذا لو استنبط منها موضوعات دقيقة جداً، لعلّ الله سبحانه وتعالى ينفعنا بهذا القرآن، إنه منهجنا، إنه كتابنا، هذا كتاب العُمُر، هذا الكتاب المقرَّر، القرآن غنىً لا فقر بعده ولا غنىً دونه، ولا يوجد عمل في حياة الإنسان بلا استثناء أهم من تعلُّم كتاب الله.

فمن يقول: أنا على حسب فراغي أذهب إلى الدروس، هذا كلام فارغ، هذا الدرس يجب أن تأخذ وقته من زُبْدَةِ وقتك، لأنه لا عمل أشرف من تعلُّم كتاب الله، ألا يكفيكم قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ليس مني إلا عالمٌ أو متعلِّمٌ))

[ورد في الأثر]

إن لم تكن عالِماً، ون لم تكن متعلِّماً فلست من أمّة سيدنا محمّد، ألا يكفيك قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ))

من دون استثناء، من دون تحفُّظ..

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[البخاري عن عثمان]

والله الذي لا إله إلا هو لو تعلّمت آيةً واحدةً فعملت بها لسعدت بها أبد الآبدين، ألا يكفينا هذا الأعرابي الذي جاء النبي عليه الصلاة والسلام فقال: **" يا رسول الله عظني "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

فقال: **" قد كُفيت "**، القرآن ستمئة صفحة، اكتفى بآيةٍ واحدة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

صار فقيها، والله الذي لا إله إلا هو ؛ آيةٌ واحدة لو طبّقناها لكفتنا، ألا يكفيكم قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

ألا تكفي هذه ؟ لو كنتَ تحت رقابة إنسان لكنت في انضباطٍ ما بعده انضباط، ألا يكفيك أن الله يراقبك؟ ألا يكفيك أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يحزن قارئ القرآن))

[الجامع الصغير عن أنس بلفظ: لا يخرف..."، وفي سنده مقال]

مستحيلٌ أن يحزن، لأن أمرك كلّه بيد الله، والله رحمن رحيم، كريم، غفور، رحيم، لطيف، قدير، غني، الأمر كلّه إليه.

أرجو الله سبحانه وتعالى في الدرس القادم أن نتابع قصة سيدنا لوط.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (09-18): تفسير الآيات 54 - 58
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-02-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من سورة النمل، وصلنا في الدرس الماضي إلى مطلع القصّة الأخيرة من قصص هذه السورة، حيث أنهينا الحديث في التعقيب على قوله تعالى:

(وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53))

(سورة النمل)

تتِمّة لموضوع التقوى: الإيمان قبْل التقوى:

إذاً: كان الحديث في الدرس الماضي عن التقوى، ولكن لابدَّ من تعقيبٍ آخر متمِّمٍ لهذا الدرس، التقوى كما قال الله عزّ وجل:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(57))

(سورة المائدة)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من الآية 96)

في آيتين اثنتين جاء الإيمان قبل التقوى، الإيمان تصديقٍ وإقبال، والكفر تكذيبٌ وإعراض.

1 – طريق الإيمان هو العلمُ:

ولكن هذا التصديق ما طريقه ؟ ما طريق التصديق ؟ لا شكَّ أن طريق التصديق هو العلم، فالعلم هو الطريق الوحيد الموصل إلى الله عزّ وجل، لقول الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 28)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

<< اغدُ عالماً، أو متعلِّماً، أو مستمعاً، أو محبّاً، ولا تكن الخامس فتهلك >>.

الخامس أن تبغض العلم وأهل العلم، **<< اغدُ عالماً، أو متعلِّماً، أو مستمعاً، أو محبّاً، ولا تكن الخامس فتهلك >>**... والخامس أي الحالة الخامسة، وهي أن تبغض العلم وأهل العلم.

2 – العلمُ كلمةٌ ذاتُ مدلولٍ واسع:

الشيء الذي لابدّ من التعقيب عليه هو أن العلم كلمة ذات مدلول واسع جداً، فهذا الذي يدرس الطب يتعلّم، والذي يأخذ اختصاصاً في الهندسة يتعلّم، والذي يدرس أصول التجارة يتعلّم، وفروع الجامعة كما ترون أنواعٌ منوّعة، وكلّها تعطي العلم، فإذا مَرّت كلمة العلم في القرآن الكريم فهو معنى العلم الذي أمرنا الله به !! هذا العلم الذي يتعلّمه الطلاب في الجامعات أساسيٌ جداً لصلاح الحياة الدنيا.

كنت قد ذكرت في خطبةٍ قديمة: من أن علوم الكون، أو العلوم الحديثة، أو علوم الخَلْق، أو علوم الخليقة.. أسماءٌ متعدِّدة.. وهي أصلٌ في صلاح الدنيا، وعلم الشريعة أصلٌ في عبادة الله عزّ وجل، وعلم الحقيقة أصلٌ في معرفة الله، يجب أن تعرف الله، ويجب أن تعرف أمره، ويجب أن تعرف خصائص الأشياء، فإذا عرفت الله عرفت نفسك، عرفت من أنت، عرفت أين كنت، عرفت أين المصير، عرفت ما يجوز، وما لا يجوز، معرفة الرب أصل الدين، وأصل الدين معرفة الله عزّ وجل، ومعرفة الشرع أصل العبادة، فإذا عرفته، ألا ينبغي أن تعبده ؟ كيف تعبده ؟ لابدّ من أن تعرف أحكامه، وإذا تعلّمت العلوم الماديّة، هذه العلوم أصلٌ في صلاح المجتمع على المستوى الجماعي، وطريقٌ لكسب الرزق على المستوى الفَرْدِيّ، فالعلوم التي نتعلّمها في الجامعات مع أنها ثمينةٌ جداً، ولها علاقةٌ وطيدةٌ بحياتنا، ولكنّها شيء، ومعرفة الله شيءٌ آخر.

لذلك بعض الأئمّة القُدامى يسمّون هذا العلم باسم العلم الأعلى: وهو أن تعرف الله عزّ وجل، أن تعرف الهدف الذي من أجله خُلِقْتْ، أن تعرف أين كنت، أن تعرف أين ستكون، أن تعرف سرّ الوجود، حقيقة الحياة، جوهر الأشياء، سرّ التصرُّف الإلهي، هذا كلّه ينطوي تحت باب العلم الأعلى، يسميه اليوم الفلاسفة علم ما وراء الطبيعة، ويسميه السلف الصالح العلم الأعلى، وهذا العلم أصلٌ في صحّة العقيدة.

فيجب أن تعرف هويتك، أنت إنسان إذاً أنت مكلّف، مكلّفٌ بنفسك.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

مقوّماتُ التكليف:

1 – العقلُ:

حينما كلّفك الله عزّ وجل أعطاك مقوّمات التكليف، أعطاك عقلاً يتطابق تطابقاً تاماً مع الكون، وأساس الكون مبدأ السببية، مبدأ الغائيّة، مبدأ عدم التناقض، وأساس عقلك هكذا.

2 – الكون:

أعطاك كوناً سخَّره لك تسخير تعريفٍ وتسخير تكريم.

3 – الفطرة:

أعطاك الله فطرةً سليمة تحضُّك على فعل الخيرات وترك المنكرات، تؤلمك إذا انحرفت، وتريحك إذا اتبعت الطريق الصحيح، الفطرة عطاء إلهي، والكون عطاء إلهي، والعقل عطاء إلهي.

4 – المنهجُ والشرعُ:

أعطاك كتاباً أنزله على نبيّه الكريم، أعطاك سُنَّةً تفهم بها هذا الكتاب، أعطاك دعاةً يشرحون لك الأمور، أعطاك دروساً من خلال الحوادث، أعطاك إلهاماتٍ من خلال إلهامات الملائكة، أعطاك الرؤية، وأعطاك أشياء كثيرة، لذلك هذا العلم الذي نتعلّمه هو أصلٌ في معرفة الله عزّ وجل.

النقطة الدقيقة: أن هذه العلوم العصريَّة التي يتعلّمها الطلاب في الجامعات لم يكن الإسلام في لحظةٍ من اللحظات حَجَرَ عقبةٍ أمام هذه العلوم، إنها لصلاح الدنيا، وصلاح الدنيا مطلوبٌ في الدين، لأن الدين جاء ليحقِق المقاصد الخمسة الكبيرة ؛ حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ العِرْض، فالإسلام ما وقف لحظةً في وجه تقدُّم هذه العلوم، بل كانت هذه العلوم موازيةً له، لأن هذه العلوم من نوع والعلم الديني من نوعٍ آخر، لم تقف هذه العلوم موازيةً لهذا الدين، بل لم تنشأ تناقضاتٌ بينها وبين الدين إلا أن تكون هذه العلوم فرضيَّاتٍ ونظريات، كأن تناقض نظرية داروين في مبدأ خلق الإنسان، أو أن تكون النصوص الدينية التي تُصادم هذه العلوم نصوصاً غير صحيحة، أما صريح المعقول فلا يمكن أن يناقض صحيح المنقول.

الفهمُ العلمي والعقلية العلمية:

لكن قبل أن نمضي في الحديث عن القصّة الأخيرة في هذه السورة لابدّ من وقفةٍ صغيرة، لأن العلم طريق الإيمان، والإيمان طريق التقوى، وكان الحديث في الدرس الماضي عن التقوى، لابدّ من وقفةٍ قصيرة حول هذا الذي يسمونه ـ العقليّة العلميّة ـ التي رَعَاها الإسلام ونمّاها القرآن، من خلال القرآن فقط، من خلال آيات الله عزّ وجل ربّى ربنا سبحانه وتعالى عباده على الفهم العلمي والعقليّة العلميّة، فمثلاً:

لا للعقلية الخرافية !!!

نحن عندنا عقليّةٌ تسمّى العقليّة العاميّة، أو العقليّة الخرافيّة، يمكن أن ترى إنساناً يتمتّع بهذه العقليّة، فما صفات هذه العقليّة العاميّة والعقليّة الخرافيّة ؟ إنها تقبل كل شيء، إنها تصدِّق كل شيء، إنها تعتقد بكل شيءٍ ينتهي إليها، ومثل هذا الإنسان الذي عقليّته عقليّةٌ عاميّة خُرافيّة، كأن تستمع من زيدٍ أو من عبيد إلى كلامٍ تصدِّقه من دون تحقيق، من دون تمحيص، من دون سؤال، من دون طلب الدليل، من دون طلب الحُجّة، إذا كنت من هؤلاء فعقليّتك عاميّة، وعقليّتك خرافيّة، وهذه العقلية تتناقض مع صفات المؤمنين.

سأريكم بعد قليل كيف أن القرآن يربّي في الإنسان العقليّة العلميّة، أما أن تستمع وتصدِّق، أن يُلْقَى إليكَ كلامٌ فتقبله، أن تستمع إلى زيدٍ أو عبيد فتصدِّقه من دون سؤال، من دون جواب، لأن فلان قاله، هذه العقليّة الخرافيّة والعاميّة لا مكان لها بين المؤمنين، وهذا الذي يصدِّق كل شيء يكذِّب كل شيء، وهذا الذي يصدِّق كل شيء لأدنى ضغطٍ أو أدنى إغراءٍ يفقد كل شيء.

نحن نريد أن نبني شخصيّة المؤمن بناءً صحيحاً، لو أن هذا المؤمن ربّيناه على أن يقبل كل شيء، مثل هذا المؤمن ستنهار مقاومته أمام أصغر ضغطٍ، أو أمام أقلّ إغراءٍ، يقال: انتكس، لماذا انتكس ؟ لأن عقليّته في الأصل عقلية خرافيّة، وعقليته في الأصل عقلية عاميّة قَبِلتْ كل شيء من دون دليل، لذلك يمكن أن ترفض كل شيء من دون دليل، تمثِّلُ هذه العقلية آيةٌ كريمة يقول الله عزّ وجل:

(حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

(سورة المائدة: من الآية 104)

إذاً: هو يقول: هكذا قال الناس، أنا مع الناس، أنا مع الخط العريض، أكُلُّ هؤلاء الناس في ضلالٍ مبين؟ أنا مع هؤلاء، هذا الانتماء العفوي غير المدروس لأفكار عامّة الناس، لقيمهم، لمعتقداتهم من دون تمحيص، من دون تأمُّل من دون دراسة، صاحب هذه العقلية اسمه في العلوم الإنسانيّة عقليّته عقليّةٌ عاميّةٌ خرافيةٌ ليست بشيءٍ إطلاقاً إذا ما وُزِنَت بالعقليّة العلميّة.

صفاتُ العقلية العلمية:

1 – الدليل والحجة في الأمور العلمية:

ما صفات العقليّة العلميّة ؟ إذا كنت مؤمناً يجب أن تتمتّع بالعقليّة العلميّة، إذا كنت مؤمناً، وسوف ترى بالدليل القرآني كيف أن المؤمنين الصادقين يتمتّعون بعقليّةٍ علميّة، العقلية العلمية من لوازمها ألا تقبل

شيئاً من دون دليلٍ قطعي، وألا ترفض شيئاً من دون دليلٍ قطعي، فإن كان الموضوع موضوعاً نظرياً يتعلّق بالأفكار لابدّ من البرهان النظري والحجّة المنطقيّة، والدليل قال تعالى:

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(111))

(سورة البقرة)

هذا الموضوع فكري، وهذا الموضوع أساس في بحث العقيدة، وكذلك هذا الموضوع يتعلّق بالعقليّات، إذاً: فلابدّ من الدليل العقلي والحُجّةِ القاطعة..

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(111))

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة المؤمنون: من الآية 117)

هكذا صفات المؤمنين، لا يقبلوا إلا بالدليل العقلي والحجّة البالغة.

2 – الحواسّ الخمسُ هي الحَكَم في الماديات:

وإذا كان الموضوع متعلِّقاً بالمشاهدات الحِسيّة والأمور الماديّة فلابدّ من أن تكون الحواسُ هي الحَكَمَ الأخير في هذا الموضوع، والدليل قول الله عزّ وجل:

(وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ)

(سورة الزخرف: من الآية 19)

قالوا: العالَم بدأ كذا وكذا وكَذا..

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)

(سورة الكهف: من الآية 51)

حينما يزعمون أو يتخرّصون من أن العالَم بدأ بطريقةٍ كذا أو كذا، ربنا عزّ وجل يردُّ عليهم فيقول:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الكهف: من الآية 51)

فالموضوع إذا كان موضوعاً مُجَرّداً متعلِّقاً بالعقائد لابدّ من البرهان العقلي والحُجّة الناصعة، وإذا كان الموضوع حسياً لابدّ له من الدليل الحسي كالمشاهدة، والسماع، واللمس، وما إلى ذلك، وإذا كان الموضوع نقليّاً إخبارياً لابدّ من صحّة الرواية، قال تعالى:

(ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(4))

(سورة الأحقاف)

في العقليّات لابدّ من البرهان، في الحسيات لابدّ من المشاهدة والتجربة، في الإخباريات لابدّ من صحّة الرواية، هكذا يربي ربنا سبحانه وتعالى المؤمنين على عقليّةٍ لا تقبل إلا الحق ولا ترفض إلا الباطل.

3 – اليقينُ لا الشكُّ:

شيءٌ آخر، في الإسلام أو كما نَطَقَ به القرآن ؛ الظن مرفوض، إذا كنت في أمور العقيدة لست متأكِّداً، فإنك تقول: هكذا قال الناس ولعلّه كذلك، أرجو أن يكون كذلك..

زعم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهما لا تُبْعَثُ الأمـواتُ قلت إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسرٍ أو صحّ قولي فالخسار عليكما

***

هذا التردُّد، عدم اليقين، الشك، عدم الجزم، عدم القطع، هذا الظن ليس من صفات أهل الإيمان، قال تعالى:

(وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا(28))

(سورة النجم)

إذاً: الظن والشك والوهم كله مرفوض في العقيدة..

(مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا(157)بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)

(سورة النساء)

4 – رفضُ الأهواء والنزوات:

شيء آخر، أيضاً من لوازم العقليّة العلميّة أن ترفض الأهواء والنزوات، يقول الله عزّ وجل:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ)

(سورة النجم: من الآية 23)

قد يكون هواك في هذا الفعل، ولكن ليس من صفات المؤمن أن يتّبع الهوى، يجب أن تتبع العقل، آيةٌ أخرى:

(فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى)

(سورة ص: من آية " 26 ")

آيةٌ ثالثة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

الهوى مرفوض، وكذلك النزوات الشخصيّة، والمِزاج الشخصي مرفوضٌ في الحق، والظن مرفوضٌ أيضاً، ولابدّ من دليلٍ قطعيّ عقليّ في العقليّات، وحسيّ في الحسّيات، وصحيح في الإخباريّات، هكذا تبدو ملامح العقليّة العلميّة التي يجب أن يتمتّع بها المؤمن، وكل هذا من كتاب الله، لذلك إيّاكم أن

تتمتّعوا بعقليّةٍ خرافيّة، أو عقليّةٍ عاميّة تقبل كل شيء بلا دليل، أو ترفض بلا دليل، مثل هذه الأفكار التي تتأتّى إلى الإنسان من دون هذا التمحيص أغلب الظن أنه يفقدها أو يكذّبها أو ينكرها لأدنى ضغطٍ ولأدنى إغراء.

المؤمن كأنه قلعةٌ متينة، لكن لو لم يكن إيمانه مبنياً على هذه الأسس الصحيحة لأصبح إيمانه هَشًّا كبيت العنكبوت، سريعاً ما ينهار، البطولة لا أن تبدأ ؛ بل أن تثبت، كم من شابٍ انطلق إلى طاعة الله عزّ وجل، ولسببٍ تافه بعد أن عمل في وظيفة، بعد أن دخل الجامعة، بعد أن تزوّج انهار كل إيمانه، وعاد إلى سيرته الأولى، أين إيمانه ؟ لأنه لم يبْنِ إيمانه على تحقُّق، لم يكن يتمتّع بالعقليّة العلميّة التي لا تقبل إلا بالدليل، ولا ترفض إلا بالدليل.

5 – رفضُ الجمودِ والتقليدِ:

الشيء الآخر، من لوازم العقليّة العلميّة التي وردت ملامحها في القرآن الكريم، أن المؤمن يرفض الجمود والتقليد والتبعيّة الفكرية للآخرين، والله سبحانه وتعالى وصف أهل الكفر بأنّهم كذلك، قال:

(قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

(سورة البقرة: من آية 170)

التبعيّة الفكريّة، التقليد الأعمى، الانتماء العفوي للكبراء، للعُظماء من أهل الدنيا من دون تبصُّر هذا من صفات أهل الكفر، ربنا عزّ وجل ردّ عليهم فقال:

(أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ(170))

(سورة البقرة)

كيف يتّبعون ما ألفوا عليه آباءَهم ؟..

(أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (170))

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً))

[الترمذي عن حذيفة]

هذه التبعيّة الفكريّة،

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً))

من هو الإمَّعة ؟ هو الذي يقول: **" أنا مع الناس ؛ إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت "**، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[الترمذي عن حذيفة]

أما هذا الذي مع الخط العريض، مع التيار العام، مع عامّة الناس، كيفما يرتدوا ثيابهم يرتدِ ثيابه، ولاسيما النساء، على حساب دينهم، وعلى حساب قيمهم الأخلاقيّة، وعلى حساب انتمائهم الروحي، فهذا إذاً من ذوي التبعيّة العفويّة الجاهلة، تبعية للكبراء وللعادات والتقاليد، وهذه ليست من صفات المؤمنين، الأهواء والنزوات والميول الشخصيّة لا يمكن أن تكون موجّهة للإنسان في عالم الإيمان، الظن والريب والشك والوهم ليس من صفات المؤمنين.

العقليّة العلميّة لا تقبل إلا الدليل والحجّة والبرهان والخبر الصادق، من أجل هذا إذا بنيت إيمانك وفق هذه الأسس كان هذا العلم طريقاً إلى الإيمان، وكان الإيمان طريقاً إلى التقوى.

هذا تعقيبٌ على الدرس الماضي الذي بيّنت فيه أن التقوى أساسها الإيمان، وأن الإيمان أساسه العلم، والآن لمتابعة القصّة الأخيرة من سورة النمل، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

قصة لوط: وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

1 – وَلُوطاً:

جاءت كلمة ولوطاً منصوبة، واذكر لوطاً، أو ولقد أرسلنا لوطاً، ما دام جاءت منصوبة لابدّ من فعلٍ مقدّرٍ قبلها، ولقد أرسلنا لوطاً، أو واذكر لوطاً..

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

2 – وَلُوطاً: إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ

ما هي الفاحشة ؟

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)

(سورة النحل: من الآية 90)

أي الفعل الشنيع الذي إذا فعله الإنسان فُضِحَ بين الناس، هذه فاحشة، وليس من فاحشةٍ أشدُّ من أن تخالف السنن الطبيعيّة في علاقتك بالآخرين، ففعل قوم لوط فاحشةٌ وأية فاحشة، لأنهم أولاً خالفوا

الفطرة، قال ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ(7))

(سورة المؤمنون)

3 – مخالفة الطريق السليم عدوانٌ:

من ابتغى هذه الشهوة خلاف الطريق التي رسمها الله عزّ وجل فهو من العادين، ما من طريقٍ لقضاء هذه الشهوة إلا طريق الزواج، ولا شيء غير الزواج، هذا هو الطريق المشروع، هذه هي القناة النظيفة، هذه هي سُنَّة الله في خلقه، هذه هي السُنَّة الشريفة، أما من ابتغى لقضاء هذه الشهوة طريقاً آخر غير الزواج، كالزنا فهو فاحشة.

إنّ عمَلَ قوم لوط أشدُ أنواع الفواحش، بل هو إثمٌ مرّتين، أولاً: لأن العلاقة غير مشروعة، وثانياً: هي غير طبيعيّة، وبعيدة عن أن تكون مشروعةً، وعن أن تكون مألوفةً طبيعيّةً، فلذلك سمي عمل قوم لوط فاحشة..

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

معاني: وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ

المعنى الأول:

بعضهم قال: **" إنهم لشدّة فجورهم، وشدّة استهتارهم واستهانتهم يأتون هذه الفاحشة على مرأى من بعضهم بعضاً "**، ومن يرتكب المعصية يسمّى عند الله عاصياً، وأما من يفعلها أمام الناس، أو من يفتخر بها فيقول: فعلت كذا وكذا، هذا يسمّى عند الله فاجراً، والفاجر أشدُ من العاصي لأجل المقولة المعروفة: **" إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا"**، هذا الذي يفعل الفاحشة على مرأى من الناس، ومن علامات الساعة أن الزنا يكون على قارعة الطريق، والذين يذهبون إلى بلاد الغرب يعودون بهذا الانطباع، ففي المركبات العامّة، في أنحاء الطرق، في الحدائق، عشرات الألوف من الأجنّة يجدونها في زوايا الحدائق العامّة في بلاد الغرب، من علامات قيام الساعة أن يُرْتَكَبَ الزنا على قارعة الطريق، وكلمة:

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

لها معنيان، المعنى الأول: ربّما قام هؤلاء بهذا الفعل الشنيع على مرأى من بعضهم بعضاً، أو ربّما تحدّثوا به، فالحديث عن الفعل الشنيع شناعةٌ وفجور..

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

المعنى الثاني:

بعض العلماء قال: هناك معنىً آخر لهذه الآية، وهو المعنى الثاني: أنكم تعلمون أنها فاحشة، وتعلمون أنها عدوان، وتعلمون أنها مخالفةٌ لأمر الواحد الديّان، تعلمون أن هذا العمل قذر، وان هذا العمل يؤذي، وأن هذا العمل يضيّع المروءة في الفاعل والمفعول..

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ))

[من صحيح البخاري عن النعمان بن بشير]

الانحرافُ يولِد في النفس الكآبة والضيقَ والتأنيبَ:

فالإنسان له فطرة سليمة، أيّ إنسانٍ في أيّ مكان يتمتّع بفطرةٍ سليمة، فإذا فعل شيئاً خِلاف فطرته شعر بضيق، حتى إن علماء النفس وهم لا يعرفون عن الدين الإسلامي شيئاً، يذكرون أن من حالات الكآبة، المنحرفون إذا انحرفوا عن الطريق الصحيح فانحرافهم هذا يولِد عندهم حالاتٍ من نوع الكآبة والضيق، كل عملٍ غير أخلاقي تعقبه حالةٌ من الضيق الشديد هي مخالفة الفطرة، بل إن بعض الأمراض النفسيّة لها اسمٌ على خِلاف ما يعرفه الناس جميعاً.. الهيستريا.. الهيستريا مرضٌ عضويٌ أساسه نفسي، أي شلل، فتصاب العضويّة بشللٍ لا لأسبابٍ ماديّة، فالشرايين، والأوردة، والأعصاب، والجهاز الحسي والحركي في أعلى درجة من الجاهزيّة، ومع ذلك يصاب الإنسان بشلل حينما يبلغ تأنيب ضميره له درجةً عالية، هذا المرض مصطلح على تسمية الهيستريا وهو شللٌ عضوي لأسبابٍ نفسيّة، لأسباب فطرية، فيكون الإحساس بالكآبة.

سألوا إنساناً: لماذا لا تخون زوجتك ؟ قال: **" لا أستطيع أن أواجه شعوري بالذنب "**، هذه فطرة، الله عزّ وجل فطر الإنسان فطرةً عالية، فَطره على حبِّ الكمال، وأنْ تحبَّ الكمال شيء، وأن تكون كاملاً شيءٌ آخر، قد تحبُّ الكمال ولا تكون كاملاً، أما إذا كنت كاملاً فتلك هي الصبغة، وفرقٌ بين الفطرة والصبغة، الفطرة أن تحبَّ الكمال، والصبغة أن تكون كاملاً، لذلك قال الله عزّ وجل:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: من الآية 30)

وقال:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً)

(سورة البقرة: من الآية 138)

لذلك المعنى الثاني:

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

إنّ فطرتكم سليمة، إن فطرتكم تُنْبئكم أن هذا العمل فاحشة، من دون أن تسألوا.. فأحياناً الهرّة تملك فطرةً سليمة، فالهرّة مثلاً إذا أطعمتها قطعة لحمٍ تأكلها أمامك، أما إذا اختلست هي قطعة اللحم تَفِرُّ بها بعيداً لتأكلها في زاويةٍ، إذاً: هي تشعر أنك إذا أعطيتها هذه القطعة فهي إذاً تفعل شيئاً مشروعاً، فإذا اختلستها تشعر أنها مذنبة.. إذاً: فالإنسان يتمتّع بهذه الفطرة..

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

المعنى الثالث:

إنّكم حينما تأتون هذه الفاحشة، وقد انتهى إلى علمكم أن أقواماً كثيرة فعلوا المعاصي فأهلكهم الله عزّ وجل، فلابدّ لكم من مواجهة المصير ذاته ؛ قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(6)إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(7)الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ(8)وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ(9)وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ(10))

(سورة الفجر)

وهذا على مستوى حياتنا اليومية، ألم ينتهِ إلى سمعك آلاف القصص من أن فلاناً أكل مالاً حراماً فأتلفه الله، وأن فلاناً تتبّع عورات المسلمين ففضحه الله في عُقر بيته، وأن فلاناً أوقع الأذى بالناس فدمّره الله عزّ وجل، وفلاناً غشّ المسلمين فدمّر الله ماله، وفلاناً تكلّم في أعراض المسلمين فتكلّم الناس في عِرضِه، وفلاناً زنا فزُنِي بأهله، هذه القصص الصارخة أليست في متناول يدك ؟

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

عواقبَ الذين يعصون الله عزّ وجل.

المعنى الأول: تفعلونها على مرأى من بعضكم بعضاً، أو تفعلونها وتفتخرون بها.

المعنى الثاني: إنكم تبصرون أنها فاحشة، تعلمون أنها فاحشة بحسب فطرتكم السليمة.

المعنى الثالث: رأيتم بأمّ أعينكم، وانتهى إلى سمعكم أن هؤلاء الذين فعلوا الفاحشة كيف انتهوا إلى

مصائب وبيلة.

يتابع الله عزّ وجل قصّة هذا النبي الكريم مع قومه فيقول:

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55))

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

الجمعُ بين قوله: وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، وقوله: بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

ماذا تجهلون ؟ هنا السؤال دقيق جداً، كيف وأنتم تبصرون، هنا وأنتم تجهلون ؟ كيف أثبت الله لهم البصر، وكيف نعتهم الله بالجهل ؟ يمكن أن تكون عالِماً بجزئيّات وتفصيلات ولكن، لأنّك لم تعرف الله عزّ وجل، غاب عنك أن هناك إلهاً عظيماً سيحاسب حساباً عسيراً، فلو أن الإنسان عرف الله عزّ وجل لما عصاه، يستحيل في حقّ إنسانٍ عاقل أن يعرف الله ثمّ يعصيه، لا يعصي الله إلا من جَهِلَ به، لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه))

[ورد في الأثر]

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

[من سنن الدارمي عن مسروق]

لمجرّد أن تعصي الله عزّ وجل فأنت لا تعرفه، لا تعرف أن هناك إلهاً عظيماً عنده عطاءٌ كبير إذا أطعته، وعنده عذابٌ أليم إذا عصيته، فهذا الذي يلبّي شهوته الطارئة هو لا يعرف الله عزّ وجل..

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55))

معنى: بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

تجهلون ما أعدّ لكم من جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

تجهلون الثمن الباهظ الذي تدفعونه لهذه المعاصي، تجهلون الثمن العظيم، وهي الجنّة التي ضاعت عليكم بسبب هذه المعاصي، فالموضوع لا أن تعلم علماً جزئياً، بل لابدّ معرفة صحيحة بأدلّة، ربنا عزّ وجل وصف أهل الدنيا بأنهم لا يعلمون، وبعد هذه الآية مباشرةً قال تعالى:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم: من الآية 7)

لا يعلمون ويعلمون، كيف هذا ؟ ما عرفوا الله، وما عرفوا ما بعد هذه الدنيا، وما عرفوا ما ينتظرهم من عذاب، ولا من جنّةٍ لو أنهم أطاعوا، ولكنّهم عرفوا دقائق الأمور في الدنيا، عرفوا من أين تُؤكَل الكَتِف، عرفوا كيف ينتهزون المناسبات، وكيف يقتنصون الفُرَص، عرفوا كيف يستمتعون، عرفوا كيف يغرقون في ملذّاتهم، عرفوا كيف يجمعون المال، عرفوا كيف ينفقونه، تمتّعوا بأذواقٍ عالية في طعامهم، وشرابهم، وملبسهم، ورحلاتهم، ونُزهاتهم، وأفراحهم، وأتراحهم، وفي مظهرهم الخارجي، هذا كله عرفوه، ولكنّهم ما عرفوا الله الذي إليه مصيرهم، وما عرفوا الله الذي عنده حسابهم، وما عرفوا الله الذي عنده مكرهم..

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا (56))

والله في نفسي أن أوضِّح لكم.

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55))

إسقاط لمعنى الآية في واقع الناس:

مرّة ثانية، لو تصوّرنا أن مدينةً فيها نهرٌ ملوّث، وهذا النهر الملوّث يصيب سكّان هذه المدينة بأمراضٍ شتّى، القائمون على هذه المدينة أرسلوا الأطبّاء إلى بلاد الغرب ليتعلّموا، ويتفقّهوا في هذه الأمراض التي أصابت أهل المدينة، وأنشؤوا المستشفيات، وجاءوا بالأجهزة الراقية للتحليل والتصوير الشعاعي، وما إلى ذلك، أتسمي هذا الطب، وهذا التحليل، وهذا التصوير، وهذه المستشفيات، وهذه الأدوية الدقيقة جداً هل تسميها جهلاً ؟ لا والله إنها علم، ولكن أيهما أفضل، أن ندع هذا النهر الملوّث يسمِّم هذه الأجسام، ويصيب هذه النفوس بالأمراض والأوبئة، ونأتي بالأطبّاء، والصيادلة، والأدوية، والأجهزة، وننشئ المستشفيات ؛ أم نغلق هذا النهر، أو نغطي هذا النهر، أو أن نمنع تلوُّث هذا النهر ؟ إنّ من العلم لجهلاً، طبعاً الأولى معالجة موضوع النهر ففسد الذريعة.

نحن نسمح للشباب بكل عملٍ منكر، وبعد ذلك إذا انحرفوا يحتاجون إلى عمليّة جراحيّة، يجب أن نكافح المخدّرات، من أين جاءت المخدّرات في الأساس ؟ من ضعف الوازع الديني، تحتاج مكافحة المخدّرات إلى سنوات طويلة في المستشفيات، ويصاب المجتمع بالشلل، يجب أن نرعى أخلاق الشباب بادئ ذي بدء، يجب أن نحول بين المرض وبين أن يصل إلينا، رغم أنه لابدّ من تعلم الطب لمعالجة هذا المرض فيما إذا وقع والوصول إلى علمٍ من أعلى مستوى.

أنا أريد أن أقول: إن الإنسان أحياناً يتمتّع بذكاء، ولكنّه يشرب الخمر، يتمتّع بذكاء ولكنّه يكذب، يتمتّع بذكاء ولكنّه يظلم، يتمتّع بذكاء ولكنّه يأخذ ما ليس له، يتمتّع بذكاء ولكنّه يعتدي على الناس، قد يبني مجده على أنقاضهم، قد يبني غناه على فقرهم، هو ذكيٌّ فيما هو فيه، ولكن لو عرف أن هناك إلهاً عظيماً سيحاسبه عن كل حركةٍ وسكنة، وعن كل نفس، وعن كل كلمة، وعن كل درهم من أين كسبه وكيف أنفقه؟ لغيّر كل حساباته، كيف يجتمع في إنسان العلم والجهل ؟ إنسان يحمل أعلى شهادة ويشرب الخمر، هو في اختصاصه متفوّق جداً ؛ ولكنّ في العلم الأعلى جاهلٌ فيه، في العلم الضيّق متفوّق، ولكن في العلم الشمولي جاهل، في اختصاصه متفوّق، في حرفته متفوّق، في ذكائه متفوّق، في مطالعته ممتاز ؛ ولكن لأنه ما عرف الله عزّ وجل، وغابت عنه الحقائق الكبرى دفع الثمن باهظاً، لذلك: لا ينفع ذا الجد منه الجد، الأمور ليست بالذكاء فقط ولكن بالتوفيق، الهدى شيء والثقافة شيءٌ آخر، إذاً:

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55))

بيْنَ الأمِّيةِ والجهلِ:

الحقيقة أن الأميَّة شيء والجهل شيء، الأميَّة أن يكون وعاؤك فارغاً لا تعرف شيئاً، أنت أميّ، وأما الجهل فن يكون هذا الوعاء ممتلئاً بمعلومات غير صحيحة، مثلاً: مصباح في مقدّمة السيارة أو عند السائق، إذا تألّق فهذا التألّق يعني أن المحرّك ليس فيه زيت، وأن الأمر خطر، فينبغي أن يقف فوراً ليملأ الزيت، هذه معلومة صحيحة، إنسان آخر عندما يتألّق هذا المصباح فيقول: لماذا تألّق لا أعرف لماذا هو تألّق ؟ هذا الأميّ، إنسان ثالث يقول: هذا المصباح تألّق من أجل أن يسليني في الطريق، هذا هو الجهل، إذا فهمت الشيء فهماً مغلوطاً فهذا هو الجهل أما إذا فهمته فهماً صحيحاً فهذا هو العلم، أما إذا لم تفهمه فهذه هي الأميَّة.

لذلك الجهل يعني أنه قد يكون الإنسان مثقّفاً وهو جاهل، أي أنه عرف دقائق مهنته، عرف دقائق حرفته، عرف كيف يكسب المال، عرف كيف ينجو من بين براثن الناس، عرف كيف يرفع من شأنه بين الناس، عرف كيف يأخذ ما ليس له، هذا كلّه يحتاج إلى ذكاء، ولكن لأنه ما عرف الله عزّ وجل، ما عرف أن هناك إلهاً يعرف كل شيء.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر: الآية 19)

لأنه ما عرف الله، وما استقام على أمره فلابدّ من أن يكون علمه جهلاً، وذكاؤه غباءً، ونجاحه فشلاً، وتفوُّقه تدنياً، وهكذا..

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56))

مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ

هذا ردُ فعلهم النهائي، وفي هذا الموقف اضطراب وتناقص..

(أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56))

المعنى الأول لقوله: إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ

فالعلماء وقفوا من هذه الآية موقفين يوضحان اضطراب القوم وتناقضهم، بعضهم قال: إنهم قالوا هذا الكلام استهزاءً، أي فلان يحبُ الطهارة فيسخرون منه.

المعنى الثاني:

أن المنحرف في أعماق نفسه يعرف أنه منحرف، وأنه بشكل أو بآخر يقدِّر الطاهر، المرأة البَغِيّ إذا رأت امرأةً شريفةً عفيفة تتمنّى أن تكون مكانها، لا شك، لأن هذه المرأة البغي مفطورةٌ فطرةٌ سليمة، وهذه الفطرة تدعوها، أو تتوقُ إلى أن تكون مثل هذه الشريفة العفيفة، فإما أنهم قالوا هذا الكلام من باب الاستهزاء، وإما أنهم قالوا هذا الكلام من باب اليقين الداخلي، فربنا عزّ وجل وصف المشركين يوم القيامة..

(قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23))

(سورة الأنعام)

فقال الله عزّ وجل:

(انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(24))

(سورة الأنعام)

إذاً..

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ(57))

عاقبة قوم لوط: فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ

أي أصابها غبار قومها لأنها أحبّت قومها وآثرتهم على الحق أصابها من غبارهم، فاستحقّت الهلاك معهم، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من هوى الكفرة حُشِرَ معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

[ورد في الأثر]

إذا عرفت أن هناك من يفعلون الفواحش في الظاهر وفي الباطن ولكنّهم يتمتّعون بذكاء، وبأناقة، وبأبنية شاهقة، وبصناعة مُتقنة، وبحياة مرفّهة رغم أخطائهم وانحرافهم، وأنت تقدّرهم فهذه مشكلة..

((من هوى الكفرة حُشِرَ معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58))

توضيح بعض المفارقات في هذه السورة:

الجمعُ بين إثبات البصر والوصف بالجهل:

من أجل توضيح بعض المفارقات في هذه السورة، كيف أن الله سبحانه وتعالى أثبت لهم البصر، وكيف وصفهم بالجهل، لابدّ من كلمةٍ قصيرة عن العلم.

1 – العلمُ ثلاثة أنواع:

العلم أنواعٌ ثلاثة: علم الحقيقة، وعلم الشريعة، وعلم الخليقة، أو علمٌ بالله، وعلمٌ بأمر الله، وعلمٌ بخلق الله.

العلم بخلق الله، أو علم الخليقة من أجل صلاح الدنيا فقط، فالإنسان يستطيع أن ينال أعلى الشهادات وهو بعيدٌ عن الله بعد الأرض عن السماوات، يستطيع أن يتعلّم كل شيء، وأن يكون من أهل النار، هذا العلم كالحرفة تماماً يعينك على أمر دينك، ربّما وسّع الأُفُق، ربّما أعطاك موضوعيّة، ربّما أعطاك إدراكاً سليماً ولكن لا يكفي، لابدّ من أن تعرف الله عزّ وجل، لذلك الإمام أبو حامد الغزالي يقول: **" حيثما وردت كلمة العلم في القرآن الكريم فإنّما تعني العلم بالله ".**

2 – العصيان دليلُ الجهل:

قد يكون الإنسان مثقّفاً، ويحمل أعلى الشهادات، ولا يكون عالماً بالله، والدليل: يكفي أن يعصيه، يكفي أن تعصي الله لتؤكّد لكل الناس أنّك لا تعرف الله، لأنك لو عرفته ما عصيته، لو عرفت ما عنده من إكرام، وما عنده من عقاب ما عصيته، فالعلم بالله شرطٌ أساسي وهو أصل الدين، وأصحاب النبي عليهم رضوان الله ما تفوّقوا، ولا وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا لأنهم جرّدوا أنفسهم لمعرفة الله، معرفة الله

تتمُّ من خلال التفكُّر في خلق السماوات والأرض، تتمُّ من خلال التأمُّل في أحكام الشريعة، إذا عرفت الله عندئذٍ تنشأ عندك حالةٌ ملحَّةٌ كي تعبده، علم الشريعة أصلٌ في عبادة الله، تعرفه بالتفكُّر من طريق الكون، وتعبده بتطبيق العلم علم الأمر والنهي، فإذا أردت أن تأخذ اختصاصاً من أجل أن تعيش حياةً راقيةً هذا بحثٌ آخر.

الشيء الأساسي أن تعرف الله عزّ وجل كما قال الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه:

<< أصل الدين معرفة الله>>.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (10-18): تفسير الآيتان 59 - 60
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-02-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة النمل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59))

(سورة النمل)

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى

1 – الحمدُ مأمورٌ به:

النبي عليه الصلاة والسلام أُمِرَ في نص هذه الآية أن يحمد الله عزّ وجل، على كل شيء، من هذه الأشياء أنه أهلك الأقوام الكافرة المنحرفة، وفيها نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، الإنسان في كل حركاته وسكناته، في كل نشاطاته مغمورٌ بنعمة الله عزّ وجل.

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى (59))

2 – افتتاحُ الخطب والدروس:

هؤلاء الذين اصطفاهم الله لنشر الحق ولإبلاغ الرسالات، وقد استنبط العلماء الأقدمون أن كل كلمةٍ، وكل خطبةٍ، وكل كتابٍ يجب أن يفتتح بحمد الله عزّ وجل والصلاة والسلام على صفوته من خلقه، لذلك دَرَجَ الخطباء، والكُتّابُ، والعلماء، والمحاضرون، وكل من تصدى للكلام، بأن يفتتح كلامه بحمد الله عزّ وجل والصلاة والسلام على أنبيائه وصفوته من خلقه.

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى (59))

3 – السلام اسمٌ من أسماء الله:

السلام اسمٌ من أسماء الله عزّ وجل، إذا اقتربت من الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، وتوخّيْتَ رضاه، وجهدت في التقرُّب إليه فسلامٌ عليك، إن حياتك تغدو سلاماً، تغدو حياةً غنيةً بالعمل الصالح، غنيةً برحمة الله عزّ وجل، ثم إن الله عزّ وجل يُقَرّعُ أسماع المشركين..

(آللّهُ خَيْرٌ أَمّا يُشْرِكُونَ (59))

من المفارقات العجيبة: آللّهُ خَيْرٌ أَمّا يُشْرِكُونَ

هذا الصنم الذي اتخذته من دون الله إلهاً، أيوازن مع الله عزّ وجل ؟ أنت تقع في حيرة إذا وازنت بين شيئين على درجاتٍ متقاربة، ولكن لا تقع في حيرة إذا عُرِضَ عليك شيءٌ تافهٌ جداً، وشيءٌ عظيمٌ جداً، فالله سبحانه وتعالى أصل كل النِعَم، أصل كل شيء، بيده كل شيء، بيده ملكوت كل شيء، إليه يرجع الأمر، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، هو الذات الكاملة، هو الرحمن الرحيم، هو الغني القدير، هو السميع البصير، خالق السماوات والأرض، لا حدود لعظمته، أيوازَنُ هذا الخالق العظيم مع قطعةٍ من حجرٍ نُحِتَت، أو مع شهوةٍ تأجّجت، أو مع عرضٍ من الدنيا قليل، أو مع إنسانٍ فقير لا يملك النفع لنفسه ولا الضُر ؟!

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154))

(سورة الصافات)

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26))

(سورة التكوير)

(أَنّى يُؤْفَكُونَ(75))

(سورة المائدة)

هكذا يقول الله عزّ وجل، لذلك:

(آللّهُ خَيْرٌ أَمّا يُشْرِكُونَ (59))

ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يؤكِّد في هذه الآية هذه المفارقة العجيبة، كيف أن هذا الإنسان ينصرف إلى مخلوقٍ مثله ؟ ينصرف إلى صنمٍ أصمٍ أبكم لا يتحرك، ولا يتكلم، ولا يسمع، ولا يُجيب، أو ينصرف إلى إنسانٍ ضعيف ضعفاً شديداً لا يملك شيئاً، ينصرف إليه بكُلِّيَتِهِ، يعلِّق عليه الآمال، يتمنّى رضاه، يسعى للتقرب منه، من هنا يقول الله عزّ وجل في الحديث القدسي:

((إني والإنس والجن في نبأٍ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكَر سواي))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

من أجل أن يبين الله سبحانه وتعالى هذه المُفارقة الحادّة بين ما يدعونه من آلهةٍ من دون الله لا تنفع ولا تضر، ولا تقدم ولا تؤخر، ولا ترفع ولا تخفض، وبين خالق السماوات والأرض، يقول الله عزّ وجل:

(أَمّنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (60))

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

الله سبحانه وتعالى هو الخالق، هو الذي أوجد هذا الكون من عدم، كان الله ولم يكن معه شيء، هو خالق المكان، والزمان، والأكوان، خالق الليل والنهار، والشمس والقمر، خالق المجرات، والإنسان، وطبيعته، وفطرته، خالق طعام الإنسان وشرابه، خالق الأرض والجبال والسماوات.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (60))

1 ـ الكون كلّه من خَلق الله:

السماوات والأرض تعبيرٌ قرآني يعني الكون، أمَّنْ خلق هذا الكون، إذا كانت بعض المجرّات تبتعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، فما هذا الكون ؟ إذا كان أقرب نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، ونحتاج كي نصل إليه إلى زمنٍ يقترب من خمسين مليون عام بالمركبة العادية، فما القول في هذه المجرات المترامية الأطراف البعيدة ؟

2 ـ لم يُخلَق الكون عبثًا:

هذا الكون كله مسخرٌ للإنسان، ماذا يريد الله منا إذاً ؟ سخر هذا الكون بلا سبب ؟!

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: من الآية 115)

هكذا.

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

بلا حساب، بلا مسؤولية ؟

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ(17))

(سورة الأنبياء)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(38)مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(39))

(سورة الدخان)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة ص: من الآية 27)

الباطل الشيء الزائل، والعبث الشيء الذي لا هدف له، لم يخلق الله عزّ وجل السماوات والأرض عبثاً ولعباً، ولم يخلقها باطلاً، ولم يخلق الإنسان سدىً.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (60))

3 ـ الكون مسحة من ا لجمال الربّاني:

لمن هذا الكون العظيم ؟ الذي يلاحظه الإنسان أن كل شيءٍ في الكون في خدمة الإنسان، لو تصفّحت كتاباً في الأزهار لرأيت آلافاً مؤلفةً من أنواع الأزهار التي لا وظيفة لها إلا أن تُمْتِع عيني الإنسان، إذا تصفحت ما في الأرض من جمال تراه مسحة من جمال الله عزّ وجل، خلقه لتستمتع به، إذا درست نظام الزوجية، كيف خلق الله الإنسان، وخلق له من نفسه زوجةً يسكن إليها ؟ إذا تصفحت الصفات الأساسية للمرأة، الفيزيولوجية، النفسية، العقلية، الاجتماعية، لوجدتها متممة لصفات الرجل الفيزيولوجية، والنفسية، والعقلية، والاجتماعية، هذا التصميم الإلهي ما أبدعه.

نظام التوالد ما أبدعه ! كيف أن هذا الطفل الصغير أساسه حوينٌ منوي لقّح بويضةً، انقسمت البويضة إلى آلافٍ مؤلفة، وصلت إلى الرحم، تعلّقت بجداره، نَمَت، ما هي إلا تسعة أشهرٍ وعشر حتى يولد غلامٌ آيةٌ في الإبداع والإعجاز، له قلبٌ ورئتان، له عضلاتٌ وأعصاب، له معدةٌ وأمعاء، له دماغٌ ونخاعٌ شوكي، له أعضاء، له سمعٌ وبصر، له لسان وشفتان، يد مَن صنعته في بطن أمه ؟ الله سبحانه وتعالى.

هذا الفكر أيها الأخوة الذي أودعه الله فينا هو أعقد ما في الكون، وأثمن ما في الكون، فمن عطله، أو من استخدمه استخداماً لا يليق به، استخدم فكره للإيقاع بين الناس، أو للاحتيال عليهم، إنه بهذا يحتقر هذه الجوهرة الثمينة التي أودعها الله فينا.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (60))

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ(35)أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(سورة الطور)

فإذا شَحَّتِ الأمطار ماذا بيدنا أن نفعل نحن جميعاً ؟ ليس بيدنا شيء، إلا أن يتفضل الله علينا بماء السماء، نحن عبادٌ ضعاف.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (60))

وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء

نعمةُ الماءِ:

أريد أن ندقق في كلمة لكم، وأنزل لكم، هذا الماء الذي أنزله الله من السماء ليطهّرنا، للتنظيف، وليروينا للشرب، وليروي البهائم التي نعيش عليها، وليروي النبات الذي نقتات منه، كلمة لكم، أي هذا الماء المبارك الذي أنزله من السماء أنزله خصيصاً لكم، من أجلكم، من أجل حياتكم، من أجل أن تستقيم حياتُكم، من أجل أن تقوم حياتكم على الماء.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ (60))

أَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ

1 ـ كيف لو لم يكن النبات ؟!!

تصوّر أن نظام النبات ليس موجوداً، كيف نعيش ؟ كيف نأكل ؟ لو أن الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض حينما خلقها كمّياتٍ كبيرة جداً من الطعام والشراب، وجاء جيلٌ فأكل هذا الطعام والشراب، ماذا يفعل الجيل اللاحق ؟ نظام البذور من أبدعه ؟ من صممه ؟ من خطط له ؟ هذه الثمرة في بطنها بذرة، وفي هذه البذرة كُلُّ صفات هذه الشجرة، شجرة تفاح، لها قوامٌ معين، ولها شكل معين، ولها أوراق معينة، ولها طبيعة معينة، تحتاج إلى مرتفعات، تحتاج إلى برد، تثمر فاكهةً ذات حجمٍ معين ولونٍ معين، وشكلٍ معين، ورائحةٍ معينة، وقوامٍ معين، ومواد تركيبية معينة، ومواد سكرية، كل هذه الصفات الفرعية كامنةٌ في هذه البذرة، وعلى هذا قِس ؛ بذرة التفاح، بذرة الأجاص، بذرة العنب، كل شيءٍ خلقه الله عزّ وجل جعل آلاف ملايين الصفات الثانوية كامنةً في هذه البذرة.

2 ـ هكذا ينمو النبات:

من منا يصدق أن بعض البذور الغرام الواحد فيه أكثر من سبعين ألف بذرة ؟ البذرة فيها غلاف، وفيها مستودع للغذاء، وفيها رُشيم، الرشيم هو الجزء الحي من النبات، الرشيم نفسه فيه جذير، وسويق، وقمة نامية، فإذا جاءته الرطوبة نمت هذه القمة باتجاه الأعلى، ونما هذا الجذير باتجاه الأسفل، وعاش على هذا المخزون الغذائي، فإذا انتهى هذا المخزون الغذائي في البذرة صار بإمكان الجذير أن يأخذ مباشرةً

من التربة الماء والأملاح وما شاكل ذلك.

هذا النبات يقاوم البرد، لو أخذت هذه البذرة، وفتحتها أين تجد هذه المعلومة ؟ هذا النبات مديدُ الإثمار، يعطيك لستة أشهر، هذا النبات حبّته كبيرة، هذا النبات حبته صغيرة، هذا النبات حبّته قاسية، هذا النبات نسيجه كثيف، هذا النبات كروي الشكل، هذا التصميم المودع في البذرة من أودعه ؟ سؤال دقيق.. تستطيعون أن تفكروا في البذرة أياماً وشهوراً وسنوات ولا تنتهون، هذا النظام المعجز، ما من نباتٍ إلا وله بذور، وهذه البذور بعضها يعيش سنةً، أو سنتين، أو خمس سنوات، وبعضها يعيش أعواماً كثيرة بعض أنواع القمح استخرجت من الأهرامات وزُرِعَت فأنبتت، وقد مضى على تخزينها ستة آلاف عام.

الرشيم ؛ هو الكائن الحي، له محفظة غذاء، حبة الفاصولياء مثلاً ضعها في قطن مبلل وراقبها.. ينبت السويق، ينبت الجذير، بعد حين تمسك هذه الحبة فإذا هي فارغة، هذا المخزون الغذائي نما سويقاً، ونما جذيراً، هذا الجذر عبارة عن جذر وفروع صغيرة، وينتهي كل فرعٍ بكرةٍ صغيرةٍ اسمها القلنسوة، تشق طريقها في التراب، وقد تشق طريقها في الصخور، كيف يتم هذا ؟ لا أحد يدري، أفيها مادةٌ تذيب الصخر ؟ لا نعلم، وهذه القلنسوة تنتهي بأشعارٍ دقيقةٍ جداً، أشعار ماصة تمص الماء، تبحث عن الماء، فإذا زرعت النبات في الصحراء وكان الماء شحيحاً، غاص هذا الجذر إلى عمقٍ ثلاثةٍ وثلاثين متراً ونيفاً نحو الأسفل بحثاً عن الماء، والشجيرة صاحبة هذا الجذر لا يزيد ارتفاعها على متر، ما هذا ؟

الجذور لها أنواع منوّعة، هناك جذور ليفية، الأشجار التي نستخدمها للصناعة هذه لا بدّ من أن تقلع، إذاً جذورها ليفية، أما الأشجار المثمرة التي نستخدمها لغذائنا لها جذور من نوع آخر، بعض النباتات يزيد ارتفاعها على تسعين متراً، وفي جذعها أوعيةٌ تحمل دم النبات أو النسغ إلى الأعلى، وأوعيةٌ تأخذ هذا النسغ إلى الأسفل، هذا صنع مَن ؟ من صمم هذه الأوعية الدقيقة ؟

3 ـ حياة الشجرة بكل جزئياتها:

إنّ الأوعية الصاعدة تماماً كالأوردة والشرايين، وهي في داخل الشجرة، والأوعية الهابطة في لحائها، الأوعية الصاعدة لئلا تضيق فتحتها، زوّدها الله عزّ وجل بحلزونات مقوّية لها ليفية من أجل أن تبقى مفتوحة، والأوعية الهابطة زوّدها الله عزّ وجل بمصافٍ، هذا كله في حدود نصف ميليمتر، لو أخذت مقطعاً لشجرة لرأيت العجب العجاب، النسغ الصاعد، فكيف يصعد هذا النُسُغ ؟ الماء كيف يصعد نحو الأعلى ؟ على عكس مبدأ الجاذبية ؟ هذا صنع من ؟

الخاصة الشعرية، هذه كلمة، ولكن شجرة ارتفاعها تسعون مترا تمتص الماء من التربة، وهذا الماء

يصعد نحو الأعلى خلال أوعيةٍ محكمةٍ دقيقةٍ، مدعمةٍ بألياف حلزونية لئلا تضيق لمعتها، صنع من ؟ صنع الله خالق الأكوان، هذا النسغ الصاعد يصعد، ويصعد حتى يصل إلى الأوراق، والأوراق كما قال عنها بعض العلماء، فيها معملٌ يأخذ بالألباب.

إن أعقد الصناعات التي صنعها الإنسان، إن أرقى المعامل التي صنعها الإنسان، تبدو أمام معمل الورقة شيئاً تافهاً جداً، نسقي التربة، فتنحل المعادن في التربة، فيأتي الجذر عن طريق القلنسوة، وعن طريق الأهداب الصغيرة تمتص هذا الماء مع المعادن، ولكن الشيء الذي لا يصدق أن الغشاء الرقيق الذي يحيط بالأهداب الشعرية المتفرعة عن هذه القلنسوة يقوم بعمليات لا يعقل أن تصدّق، إلا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يفعل هذا.

هذا الغشاء يصطفي، هذه شجرة كرز، تحتاج إلى فسفور، إلى بوتاس، إلى معادن معيّنة، هذا الغشاء هو الذي يأخذ من التربة ما يحتاجه، من أجل أن تعطي هذه الثمرة طعم الكرز، هذه الثمرة تفاح، تأخذ كميات الحديد أكثر، هكذا قال بعض العلماء، وهذا الغشاء يتمتع بصفات مذهلة، هو الذي يصطفي، ولكن الله هو الذي يصطفي، فإذا كان عند الإنسان قائمة حاجات في بيته، أكثر من مائة حاجة، فوضع على الباب غشاء، أو ستاراً، هل هذا الستار بإمكانه أن يعرف ما أنت محتاجٌ إليه ؟ وبإمكانه أن يلتقط من الطريق ما أنت محتاجٌ إليه ؟ شيءٌ لا يصدق، فإذا تعمقت في فهم آلية الامتصاص يأخذك العجب العجاب، وتخر لله ساجداً.

جذير له فروع صغيرة، ينتهي بكرة هي القلنسوة، تنتهي بأشعار، لا ترى بالعين، هذه الأشعار لها غشاء، هذا الغشاء هو الذي يأخذ من التربة ما يعجبه وما هي بحاجةٍ إليه، هذه تفاح، وهذه أجاص، وهذا خوخ، وهذا جوز، وهذا توت، كل فاكهةٍ لها تركيبٌ خاص، لها طعمٌ خاص، لها لونٌ خاص، لها رائحةٌ خاصة، لها صبغياتٌ خاصة، لها مواد كيماوية خاصة، هذا الغشاء هو الذي يأخذ ؟!

4 ـ المعملُ الصامت:

لنَسِرْ مع هؤلاء إلى آخر الطريق، هذا الجذر يمتص الماء والمعادن من التربة، التي اختارها الغشاء على علمٍ لتلبّي حاجات النبات، يصعد هذا الماء من أطراف الجذور إلى أعلى قمة في الشجرة، إلى الأوراق، الورقة معمل يأتيها نسغٌ صاعد من الجذر، ماء ومعادن، تأخذ من الشمس طاقتها، وفي هذه الورقة مادة لا تزال تحيّر العلماء الكلورفيل، المادة الخضراء، تلتقط من الشمس بعض الطاقات، وتستعين بأملاح الحديد، وتصنع من هذا الماء، وفيه ثاني أكسيد الكربون الذي يدخل إلى الورقة من المسام، والحديد والأملاح، والكلوروفيل وسيط، تصنع النسغ النازل، فيصير هذا بطاطا، وهذا جزر،

وذاك تفاح، شيءٌ لا يصدق، معمل صامت، معمل يتجه نحو الشمس، يأخذ من الشمس الطاقة، ومن الهواء غاز الفحم، يتفاعل غاز الفحم مع الماء ومع المعادن، وينزل هذا النُسُغ محملاً بالسكر والنشاء، فإذا هو تفاحة أو أجاص، أو خوخ، أو توت، أو مشمش، أو سبانخ، شيء لا يصدق.

من الذي أعطى هذه الخضرة لونها، وشكلها وطعمها وقوامها وموادّها ؟ أإلهٌ مع الله.

يا أيها الأخوة الأكارم، ظاهرة النبات وحدها ظاهرةٌ كافيةٌ لمعرفة الله، بعض هذا البذور له أجنحة يطير عبر المحيطات من قارة إلى قارة، هذه الغابات العذراء التي خلقها الله عزّ وجل من زرعها ؟ لا أحد، لا أحد من بني البشر، ولكن بذور هذه الأشجار العملاقة مزودةٌ بأجنحة تحملها الرياح، وتأخذها من قارة إلى قارة، هذه المراعي من زرعها ؟ إن بعض الأعشاب الرعوية تزرع بطريقةٍ عجيبة، إن البذرة موجودةٌ في حلزونٍ، فإذا وقع هذا الحلزون على الأرض انغمس في التربة، فنزلت البذرة عبر هذا الحلزون إلى مسافةٍ تبعد بضع سنتيمترات عن سطح التربة، وبهذا تتم الزراعة ونحن لا ندري، النباتات العشبية والرعوية في المراعي، الغابات، هذه كلها تمت زراعتها بيد الواحد القهار ونحن لا ندري، أشياء كثيرة في النبات، لأن الله عزّ وجل يقول:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا (60))

5 ـ الله هو الذي أنبت كلّ شيءٍ:

أنبتنا، لمن عُزِيَ هذا الفعل ؟ إلى الله عزّ وجل، ماذا يفعل الإنسان ؟ يضع هذه البذرة تحت التربة ويسقيها وانتهي الأمر، هذا الرشيم من حَرَّكَهُ ؟ من أودع فيه الحياة ؟ من جعل هذا الرشيم يتحرك نحو الأعلى نمواً ؟ من جعل خلاياه تنقسم وتزداد على حساب المستودع الغذائي، ومن أودع في هذا الرشيم كل صفات النبات، أإلهٌ مع الله ؟ لذلك ربنا سبحانه وتعالى عزا هذا الإنبات إلى ذاته، قال:

(فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ (60))

إذا عَطِش النبات، الشجرة تستهلك ماء الأوراق أولاً، الأوراق تذبُل، ذبول أوراق الشجرة لفت نظرٍ إلى صاحبها أن اسقني، أنا عطشى، فإذا لم يستجب لها تستهلك هذه الشجرة ماء الأغصان، فإذا لم يستجب لها صاحبها تستهلك ماء الفروع، فإذا لم يستجب لها صاحبها تستهلك ماء الجذع، وآخر ماءٍ تستهلكه ماء الجذر حفاظاً على الأمل الكبير، لو أن هذا الفلاح غاب عن هذه الشجرة شهراً بأكمله، وسقاها تنبت من جديد، لو أن الشجرة تستهلك ماء الجذر لماتت بعد يومين من عطشها، من صمم هذا التصميم ؟ الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض.

6 ـ النبات قوام غذائنا وحياتنا:

هذا النبات الذي خلقه الله لنا، منه نأكل الأقوات، القمح والشعير والذرة والعدس والحمص هذه المحاصيل، وفي الخضراوات كلكم يعرفها، وفي الأشجار المثمرة، إذاً: هي قوام غذائنا، وهو قوام غذاء الحيوان، إذاً نحن بحاجةٍ ماسةٍ إلى النبات، مباشرةً، أو عن طريق نمو الحيوان بأكلها، ثم نتغذّى نحن عليه، أليس في هذا تيسيراً لنا، وإكراماً لنا ؟ لو أنك زرعت هذا الحقل كله من أجل أن ينبت كلأً تأكل منه البهائم، وحصدته، وانتهى الأمر لشعرت بمشقة، لا تحصده فينبت مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة وسادسة في موسمٍ واحد، أليس هناك حكمةٌ بالغة ؟ أليست أفعال الله سبحانه وتعالى لها غاياتٌ كبيرة ؟

هناك نباتٌ يكسو أجسادنا، القطن، والكتان، هناك نباتٌ يغذينا، هناك نباتٌ نتفَكّهُ به الفواكه، هناك نباتٌ يحسِّن طعم الطعام التوابل.

7 ـ هل فكرتَ في الخشب ؟!

هناك نباتٌ نستخدمه لأثاثنا وهو الخشب، والخشب أنواع منوّعة، هل فكّرت في هذا الخشب ؟ هذا الخشب نوعه يقاوم الرياح والرطوبة والماء، يصنع للنوافذ، أي خشبٍ آخر لا يصلح، من صمم هذا الخشب ليقاوم الماء والبرد والحر ؟ كل النوافذ التي تصنع من الخشب من هذا النوع الخاص، هذا الخشب يستعمل للأثاث داخل البيوت، أعطاه الله قوةً وصلابةً، وقسوةً ومتانةً.

هذا النبات يستخدم مثلاً قواعد للمطارق، حدثني أخ خبير يعمل في النسيج، قال لي: معمل نسيج جاء بعشر آلات حديثة جداً، الخيط ينقطع، فجاءوا بخبير به فنزع القاعدة الإسمنتية، ووضع قاعدة من خشب التوت، خشب التوت أليافه مرنة ومتينة، فحينما يضرب المكوك بآخر الآلة لا ينقطع الخيط، من خلق هذا النوع من الخشب خصيصاً لامتصاص الصدمات، خشب التوت يوضع تحت السنديان، فهذه الطرقات القوية يمتصها ويبقى محافظاً على مرونته.

خشب للصدمات، خشب للأثاث، خشب للنوافذ، خشب له رائحة طيبة، خشب له منظر جميل جداً ألوانه فاتحة، خشب يستعمل للصناعات الخفيفة، طري، استعماله سهل، حدثني أحد الأخوة الأكارم أن هناك ما يزيد على مائة نوع من الأخشاب الصناعية، يقول لك: هذا حور، وهذا جوز، وهذا خشب زان، وهذا خشب سنديان، هل فكرنا في هذه النعم ؟

إذا أردت أن تتنظّف هناك ليفٍ من نبات، إذا أردت أن تنظف أسنانك هناك السواك، إذا أردت أن تخلل ما بين أسنانك هناك نبات الخُلّة، إذا أردت أواني تستعملها فهناك نبات يصلح لصنعها، إذا أردت سبحة

تسبح الله عزّ وجل فهناك نبات له حبات كحبات المسبحة تماماً، إذا أردت أن تقيم بينك وبين جارك حدوداً مانعةً تمنع دخول الأشخاص الغُرباء هناك نباتات حدودية، إذا أردت الدواء، هناك نباتات للدواء، إذا أردت الروائح الطيبة هناك نباتات للروائح الطيبة، إذا أردت الأصبغة هناك نباتات للأصبغة، هذا كله من النبات، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ (60))

انظر إلى الورود هل في الأرض شيءٌ أجمل منها ؟ ألوانها المتناسبة، روائحها الشذيّة، طباعها الطيّبة، هذا الورد يعيش كذا شهر، هذا كذا سنة، له بطون، له فسائل، له أغراس، كلها متعة بينما القمح غذاءٌ رئيسيٌ لنا، وساقه غذاءٌ رئيسيٌ للحيوان.

(مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(33))

(سورة النازعات)

8 ـ وهل أتاك نبأ القمح:

هذه حكمة الله عزّ وجل، الشيء الذي يلفت النظر، لو أخذنا قطر ساق القمح إلى طول الساق خمسمائة ضعف، هل بإمكان الإنسان أن يبني بناءً ارتفاعه خمسمائة ضعفٍ عن قاعدته ؟ أعلى ناطحة سحاب في العالم، نسبة ارتفاعها إلى قاعدتها أحد عشر ضعفاً، أما خمسمائة ضعف فلا ؟

هل يمكن أن ننشئ بناء مربعاً ضلعه عشرة أمتار، وارتفاعه خمسة كيلو متر ؟ مستحيل، هكذا القمح، مساحة قطر الساق إلى طوله خمسمائة ضعف تقريباً، هذا خلق الله سبحانه وتعالى.

9 ـ ثم ماذا عن الفاكهة ؟!!

شيء آخر الفواكه تنضج وفق برنامج زمني دقيق جداً، الفاكهة الفلانية أول ما تثمر، بعدها فاكهة أخرى، وبعدها غيرها، خلال الصيف، هذا البستاني يتفرّغ كُلِّياً لجني محصول واحد، انتهى، ثم يتحول لجني المحصول الثاني، لو أن هذه الثمار كلها نضجت في وقت واحد ما العمل ؟ شيءٌ صعبٌ جداً، الآن الفاكهة الواحدة تنضج تباعاً، تباعاً، تباعاً، فحقل البطيخ ينتج البطيخ خلال تسعين يوما، خلال ثلاثة أشهر كل يوم ينضج قسم من هذا الحقل، وكيف ينضج ؟ له علامة، إلى جانب ثمرة البطيخ تجد حلزوناً، إذا كان يابساً فالبطيخة ناضجة، إذا كان أخضر لم تنضج بعد، من صمم هذا التصميم، قال:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(16))

(سورة النحل)

علامات، لكل فاكهةٍ علامة نضج لها خاصةٌ بها، الفاكهة الواحدة أنواع متعددة، التفاح عشرات الأنواع، العنب ثلاثمائة نوع، القمح ثلاثة آلاف نوع تقريباً، كل قمح له شكل، وله قوام، وله قساوة، وله مكوّنات، وله طباع، وله طريقة في النمو، هذا من فضل الله عزّ وجل:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا (60))

انتبه أيها المخلوق الضعيف: مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا

أي أنتم يستحيل عليكم أن تنبتوا هذه الشجرة، يستحيل عليكم.

أيها الأخ الكريم، إذا جلست إلى المائدة، وأمسكت بالبرتقالة، وأكلتها، هل تذكر نعمة الله عليك ؟ من جعل لها هذه القشرة، وهذه المادة الكحولية المطهرة، وهذه الحزوز، وهذا الغشاء الرقيق، وهذه الحبَّات الصغيرة الحبيبات الداخلية، الحبة فيها غشاء أيضاً، وكل حبة لها خيط موصولة إلى هذه البرتقالة، وهذا البرتقال للعصير، وهذا لونه أحمر، هذا سكري، هذا حامض، هذا أبو صرة، هذا رجعي، هذا باكوري، فكم نوع من البرتقال موجود ؟ كلها من طباع النباتات، وأنواع الليمون، أنواع الحمضيات الأخرى، هذه الأشجار، الشجرة وحدها أعظم آيات الله عزّ وجل.

ومِن الشجر ما توقدون منه النار:

أشجار غابات، للمنظر، أشجار عطرية، أشجار كالمظلات تزرع أمام البيوت، دائمة الخضرة، كشكل المظلة تماماً، أشجارٌ من أجل المطاط، ولا يزال المطاط الطبيعي أرقى أنواع المواد المرنة، أشجار للفلين، مواد عازلة، والأغرب من هذا أن هذا البترول الذي نستخدمه كل يوم وفي كل مناحي حياتنا إنما هو من النبات، إن هناك عصوراً مطيرةً جداً سببت في إنبات أشجارٍ عملاقة، هذه الأشجار العملاقة انطمرت تحت التربة فتكوّنت هذه الحقول البترولية، والدليل قول الله عزّ وجل:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(80))

(سورة يس)

قال: من الشجر الأخضر، فهذا الذي يجري في الكلوروفيل في الورقة، صناعة من أعقد أنواع الصناعة، هذه الورقة تصنع مواد الجذر، ومواد الساق، ومواد الأغصان، ومواد الثمار، فكل هذه الشجرة في حقيقتها بسبب هذه الورقة الخضراء التي هي معملٌ لها.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(80))

(سورة يس)

شيءٌ آخر متعلقٌ بالنبات.. الله سبحانه وتعالى قال:

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24))

(سورة عبس)

لا بدّ من التفكّر:

إذا جلست إلى الطعام، ونظرت إلى هذا الذي تأكله، يجب أن تفكر فيه، التفكر في هذا الطعام فريضةٌ إسلامية، بل إن التفكر من أرقى أنواع العبادات، لا تكن هكذا، النبي عليه الصلاة والسلام دخل مرةً بيت الخلاء، فلما خرج قال:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته))

[ابن السني عن ابن عمر بسند فيه ضعف]

الطعام، لم يأخذ السيروم.

((وأبقى في قوته وأذهب عني أذاه))

[ابن السني عن ابن عمر بسند فيه ضعف]

هناك لذة، وقوة، وأذى، الأذى أذهبه الله عنك، والقوة متعك الله بها، واللذة متعك الله بها.

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25))

(سورة عبس)

فكلما تعرفت إلى هذا الخالق العظيم أحببته، وكلما أحببته أطعته، وإذا أطعته سعدت بقربه.

الآن نحن درسنا في التفكر، الشجرة حيثما نظرت، شجرة سرو دائمة الخضرة، هذا حور للأخشاب، هذا زان للأثاث، هذا خشب للنوافذ، هذه شجرة توت، لها طباع، تعطيك ثمارها على مدار الصيف، لأن التوت لا يُخَزّن، أما الذي يخزن فينضج في يومٍ واحد، لو كان هذا الذي يخزن ينضج كالتوت تباعاً القضية مستحيلة، كالقمح مثلاً، هل تمسك سنبلةً سنبلة لتراها هل نضجت ؟ شيء مستحيل، المحاصيل في وقت واحد، الفواكه والثمار بالتدرج، تدخل إلى حقل الطماطم تجد بالمائة عشرة حمراء اللون والباقي أخضر، تقطف هذه الكمية، بعد أسبوع بالمائة عشرة، وهكذا خلال ستة أشهر، لو أن هذه الحبّات تنضج في يومٍ واحد، ماذا نفعل بها ؟

قال لي بعض الأخوة الأكارم، هناك نبات إذا أصابه البرد تتطامن أوراقه حتى تغلق على الزهرة حفاظاً عليها من الصقيع، من علم هذا النبات ؟ هناك نبات آخر يعيش على أكل الحيوانات، إذا مشى فوقه حيوان انكفأ عليه والتقمه، هناك نباتات عملاقة، فهذه أشجار الكافور ارتفاعها تسعون متراً، تسعون ضعفاً عن طول الإنسان، أشجار النخيل تعمّر ستة آلاف عام، من عهد الفراعنة هناك نخيل عمرها ستة آلاف عام، أشجار الزيتون تعمر ألوف الأعوام، ألفي عام تقريباً، هناك أشجار زيتون من

عهد سيدنا عمر هنا في الشام، هناك أشجار عمرها قصير.

ادرس عمر النبات، حاجته للماء، هذا نبات بعلي، هذا نبات سقي، الزيتون يعطي الزيت، زيت من أرقى أنواع الدهون، هذا يعطي المشمش، هذا يعطي التفاح، فهذه النباتات مجالٌ واسعٌ للتفكر.

إن النبات لا يحب إلاّ الرفعة والعزة:

شيءٌ أخير في موضوع النبات، أنك إذا زرعت شجرةً على سفح جبلٍ مائل، إنها لا تنبت متعامدةً مع سطح الأرض المائلة، لا، إنها تنبت نحو السماء مستقيمةً، كيف تنبت النباتات بهذه الطريقة ؟ شيء لا يصدق، في بعض الأوعية داخل الشجرة حبيباتٌ صغيرة لا تستقر إلا إذا كانت الشجرة على وضع صحيح، أرضٌ مائلة، زرعت فيها شجرة تنبت مستقيمة، لا تنبت مائلة، هذا له تفصيلات كبيرة جداً، كيف أن هذا النبات يتّجِهُ نحو الضوء ؟ لو جئت بأصيص فيه نبات وجعلته أفقياً، النبات يخرج نحو الأعلى، نحو الضوء، والجذر يتجه نحو باطن التربة، من علّمَهُ هذا ؟ الله سبحانه وتعالى، فهناك تجارب دقيقة جداً.

الشجر يسهم في نزول الأمطار:

شيء آخر، هذه الشجرة التي تزرعها هل تصدِّق أنها تعطي ما يزيد على أكبر صهريج ماء في الصيف الواحد، هذا الماء الذي تعطيه الشجرة يسهم في نزول الأمطار، ويسهم في ترطيب الجو، لو ذهبت إلى الغوطة الشرقية، واستعملت ميزان الرطوبة، لوجدت الرطوبة سبعين أو ثمانين بالمائة، في دمشق ثلاثين، الصحارى خمسة، إذاً: هذا الشجر يعطي الماء، يأخذ منك غاز الفحم ذلك الغاز السام، ويعطيك مكانه الأكسجين، لذلك النوم تحت الأشجار في النهار مُنَشِّط، هذه الأشجار تعطي الأكسجين دائماً، فهي تأخذ الذي لست بحاجةٍ إليه، ما هذا التوازن ؟ الإنسان يأخذ الأكسجين ويعطي غاز الفحم، تأتي الأشجار في النهار تأخذ غاز الفحم وتعطي الأكسجين ؟ تصميم من ؟ إبداع من ؟ صنع من؟ صنع الله الذي أتقن كل شيء.

هي آياتٌ للمتفكِّرين:

فيا أيها الأخ الكريم... هذا الفكر الذي أودعه الله فيك لتفكر في آيات مذهلة لا تمر بها مروراً سريعاً دون تدبّر، وأنت معرض، وأنت غافل، دقق، إذا عرفت أن هناك يداً عظيمة، يداً حكيمة خلقت فأبدعت، وصوّرت فأحسنت، وأمدّت فأكرمت، وسيّرت فحققت، عندئذٍ تستقيم على أمر الله عزّ وجل..

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 28)

فكر فيما تأكل، فليكن درسنا في هذا الأسبوع الشجرة، كلما وقعت عينك على شجرة، هذه لماذا خلقت ؟ من أجل خشبها، هذه من أجل أوراقها، هذه من أجل ثمارها، هذه من أجل ظلِّها، هذه من أجل نتاجها الطبي، هذه من أجل فاكهتها، وهكذا، وانظر إلى طباع النبات، هذا يحتاج إلى ماء كثير، هذا يحتاج إلى حرارة، هذا إلى برودة، لكن القمح الذي يعد قوتاً أساسياً للإنسان ينبت في كل مكان، وفي كل جو، ينبت في الأغوار، وفي السهول، وفي سفوح الجبال، في المناطق المعتدلة والباردة والقطبية، لأنه غذاءٌ أساسي، أما الغذاء غير الأساسي فينبت في قارة معيَّنة، الشاي في مكان، الحمضيات في مكان، وهكذا، فإذا فكرت في هذا الذي تأكله، أو هذا الذي تقع عينك عليه وصلت إلى الله عزّ وجل، النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى هلالاً قال:

((هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[من سنن أبي داود عن قتادة]

هو خيرٌ ينفعنا ضوءه، ويرشدنا إلى ربنا سبحانه وتعالى:

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (11-18): تفسيرالأية 61
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-02-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة النمل.

القرار لها معانٍ عِدّة من معانيها هناك معنىً مادي وهناك معنىً معنوي:

وقفنا في الدرس الماضي عند قوله تعالى:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60))

(سورة النمل)

الآية الثانية دقيقةٌ جداً:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

القرار لها معانٍ عِدّة، من معانيها أنّها مستقرّة بالمعنى المادي، ومن معانيها أيضاً أنها مكانٌ يستقرُّ فيه الإنسان، هناك معنىً مادي ومعنىً معنوي، مكانٌ لاستقراره، مكانٌ لسُكْناه، وهذه الأرض في الأصل مستقرّة، فربنا سبحانه وتعالى يسألنا:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

كأنّ هذا الكون الذي سخّره الله لنا، سخّره تسخير تعريف، وكأن الإنسان مُطالَبٌ بل واجبٌ عليه أن يُعْمِلَ فكره في هذا الكون حتّى يتعرّف إلى الله عزّ وجل، لأن العلم أصل كل حركة، أيّةُ حركةٍ تنطلق إليها لا بدّ من أن يسبقها العِلم، حتى تحرُّكك في طريق الإيمان يجب أن يسبقه العلم، فحينما يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم هذه الآيات الدالّة على عظمته، إنما يذكرها كي يلفت النظر إليها، وكي نُعْمِلَ عقولنا وأفكارنا في التأمُّل فيها:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

هذا الإله العظيم خلق الأرض بطريقةٍ يرتاح الإنسان فيها:

هذه الأرض لو أنها ذات تضاريس حادّة، نتوءات، وربنا سبحانه وتعالى خلق في بعض المناطق من الأرض أماكن بركانيّة تستحيل الحياة عليها، تضاريس حادّة، صارخة، ناتئة، مُدَبَّبة، صُلْبَة، من جعلها مستوية ؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

جعلها مستوية ولم يجعلها مسنَّنة، ولم يجعلها مدبَّبة، ولم يجعلها حادَّة، هذا الإله العظيم الذي خلقها بطريقةٍ يرتاح الإنسان فيها، ألا نشكره ؟ ألا نعرفه ؟ ألا نذكره ؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

هذا المعنى الأول، المعنى الآخر: من جعلها أفقيَّة الشكل ولم يجعلها مائلة ؟ لو أن الأرض مائلة لانجرفت تربتها بالأمطار، لو أن الأرض مائلة لاستحالت زراعتها، جعلها مستوية وجعلها أفقيَّة في وقتٍ واحد، وهذا من معاني:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعلها بين الصلابة والليونة ؟ لو أنها صخرٌ بازلتيٌّ قاسٍ كيف نزرعها ؟ كيف نستفيد منها ؟ كيف نحفر الآبار ؟ كيف نحفر الأساسات ؟ كيف نبني البيوت ؟ لم يجعلها صخريَّة قاسية صُلبة صلْدَةً، ولم يجعلها مائعةً سَيَّالةً يغوص فيها كل شيء.

للأرض اثنتا عشرة دورة ومع ذلك هي مستقرّة وساكنة سكوناً مطلقاً:

قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

لم يجعلها مسنَّنةً ولا حادَّة التضاريس، ولم يجعلها مائلةً بل جعلها أفقيَّةً، جعلها مستويةً وجعلها أفقيَّةً، وفوق هذا وذاك جعلها بين الليونة والصلابة، وجعل فيها معايش ؛ يمكن أن تبني عليها الأبنية، يمكن أن تحفر الآبار، يمكن أن تأخذ التربة، يمكن أن تحرث التربة:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

الله سبحانه وتعالى ـ شيءٌ آخر ـ هذا السكون العجيب، الأرض تدور حول نفسها، سرعة دورانها حول نفسها في خطِّ الاستواء ما يزيد عن مائتي كيلو في الساعة، لأن الأربعين ألف كيلو متر تُقسَّم على أربعٍ وعشرين ساعة فتقريباً الرقم كبير جداً، هذا الدوران حول نفسها، ودورانها حول الشمس في كل ثانية ثلاثون كيلو متراً، إذاً هي تدور حول ذاتها وتدور حول الشمس، ومحورها المائل يدور دورةً أيضاً، ومستوي دورانها يدور دورةً أيضاً، وميلان محورها تأرجح بين الدرجة الثالثة والثلاثين والسابعة والعشرين، المحور يتأرجح، والمحور يدور، ومستوي الدوران حول الشمس يدور، وحركتها مع القمر هناك حركةٌ جَيْبيَّة، تدور حول نفسها وحول الشمس ولها اثنتا عشرة دورة، قد لا يصلح هذا المكان

لتفصيل هذه الدورات، لها اثنتا عشرة دورة غير دورتها حول نفسها وحول الشمس ومع ذلك هي مستقرّة، سكون مطلق.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

السكون والاستقرار نِعَمٌ يجب أن يعرفها الإنسان:

أيستطيع الإنسان أن يصنع مركبةً متحركةً من دون اهتزاز ؟ اركب الطائرة، مع أن الطائرة فيها أعلى ما عند الإنسان من خبرات، ومع ذلك لا بدّ من بعض الاهتزاز، اركب سيّارة لا بدّ من بعض الاهتزاز، اركب مركبةً فضائيّة لا بدّ من بعض الاهتزاز، أما هذه الأرض لو أن اهتزازاً طفيفاً جداً حصل لتداعت الأبنية، أو تشقّقت الجدران، وكأن الله سبحانه وتعالى جعل الزلازل في بعض الأماكن ليلفِتَ النظر إلى أن نعمة السكون ونعمة الاستقرار هذه نعمةٌ يجب أن تعرفها أيُّها الإنسان، اضطرابٌ بسيط في قشرة الأرض يصبح عالي الأرض سافلها، تتداعى الأبنية، تنهار الجسور، وكل شيءٍ يقع، فلذلك عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعلها ساكنةً مع أنها تمرُّ مرّ السحاب ؟

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السّحَابِ)

(سورة النمل: من آية " 88 ")

دورةٌ حول نفسها، دورةٌ حول الشمس، تأرجحٌ في محورها، دورةٌ لمحورها، دورةٌ لمستوي دورانها، هذا كلّه والأرض مستقرّة، هذا البناء أُنْشِئ قبل أربعمائة عام وهو كما هو، لو أن هناك اهتزازاً لم تكن مستقرّة، من جعلها مستقرّة ؟

في دورانها حول الشمس تزداد سرعتها وتنقُص، تزداد حينما تصل إلى البُعد الأصغر بينها وبين الشمس لئلا تزيد جاذبيّة الشمس لها، تزيد من سرعتها حتّى ينشأ من هذه السرعة قوّةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة، من جعل هذه السرعة تزيد ؟ من جعلها تنقص ؟ من جعلها تزيد تدريجياً بلطفٍ شديد ؟ من جعل هذه الأرض على مسارها الصحيح منذ آلاف آلافِ آلاف آلاف الأعوام ؟

من نعم الله تعالى علينا أنه جعل الأرض تلزم خطّاً دقيقاً لا تحيد عنه:

قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر: من آية " 41 ")

القطار أحياناً يخرج عن خطِّ سيره، فيحتاج إلى رافعات كي تعيده إلى خطِّ سيره إلى هذه القضبان الحديديَّة، الأرض لم تخرج ولا مرَّة عن مسارها حول الشمس، بل إنَّنا جميعاً حينما نُمْسِكُ بالتقويم، نعلم أن الشمس تشرق في يوم الجمعة السادس عشر من شباط في الساعة السادسة واثنتين وعشرين دقيقة، هذه متى طُبِعَت ؟ طُبِعَت من أول العام، وهذه الأرقام معروفة قبل عشرات السنين وقبل مئات السنين، ما معنى ذلك ؟ أن حركة الأرض في دورتها حول نفسها وحول الشمس محسوبةٌ بأجزاء الدقيقة، إذاً من جعل هذه الأرض تلزم خطّاً دقيقاً لا تحيد عنه ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: من آية " 41 ")

من هي القوة الكبيرة التي تحافظ على سير الأرض على هذا المسار ؟

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ (61))

أمن جعلها مستقرَّة في هذا المسار، من جعلها مستوية أفقيَّة تربتها زراعيَّة ؟ من جعلها ساكنة ودليل سكونها الزلازل في بعض الأماكن، هذا البناء الذي كَلَّفَ عشرات الملايين بل مئات الملايين يُهْدَم في ثوانٍ عدَّة إذا اضطربت الأرض.

الجبال الرواسي من وظائفها الأساسيّة أنها تبقي الأرض في حالة سكونٍ أثناء حركتها:

يشتري بيتاً في الطابق العاشر وهو مطمئن، ولو أن هذه القشرة الأرضيَّة اهتزَّت لأصبح هذا البيت في باطن الأرض، حينما تسكن في بيت مرتفع نعمة الأمن هذه من أين أتت ؟ من أن الله سبحانه وتعالى جعل الأرض مستقرَّة، لو لم تكن مستقرَّة لا يمكن أن تبني بيتاً فوق بيت، وكيف جعلها مستقرَّة ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر: من آية " 41 ")

وقال:

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

(سورة النحل: من آية " 15 ")

هذه الجبال الرواسي من وظائفها الأساسيَّة أنها تبقي الأرض في حالة سكونٍ في أثناء حركتها، حركةٌ ساكنة هذا أرقى شيء، الإنسان لم يتوصّل بعد إلى تحريك شيء مع السكون التام، مع الحركة يوجد اهتزاز.

معنى الاستواء والأفقيّة والليونة والسكون هذا كلّه مأخوذٌ من الآية التالية:

معنى الاستواء، ومعنى الأفقيّة، ومعنى الليونة، ومعنى السكون هذا كلّه مأخوذٌ من قوله تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

شيءٌ آخر: هذه الحاجات نضعُها على الطاولة فتبقى في محلِّها بفعل الجاذبية، لو أنّك ركبت مركبةً فضائيَّة واجتزت المنطقة التي تنتهي فيها جاذبية الأرض، واقتربت من منطقةٍ تنعدم فيها الجاذبيَّة، لعرفت هذه النعمة الكبيرة، رواد الفضاء حينما وصلوا إلى القمر الجاذبيَّة هناك أقل بستة أمثال، فالرجل الذي وزنه على سطح الأرض ستون كيلو غراماً في القمر وزنه عشرة كيلو، فالحركة تبدو سهلة جداً، أي جهدٍ تبذله تقفز من على سطح القمر عشرات الأمتار، من جعل هذه الجاذبيَّة بهذا الميزان الدقيق ؟ لو أننا على سطح كوكبٍ آخر يزيد حجمه عن حجم الأرض بمرّاتٍ عديدة، لكان وزن الإنسان يزيد عن آلاف الكيلو غرامات، شيءٌ لا يطاق أن يكون وزن الإنسان ألف كيلو غرام، ولا يطاق أيضاً أن يكون وزنه عشرة كيلو، ولكن حجم الأرض يقرِّر نوع الجاذبيَّة.

الأرض تجذب الأشياء نحو مركزها:

روّاد الفضاء وهم في مركبتهم، في منطقة انعدام الجاذبية حياتهم في المركبة لا تُطاق، إذا أمسك بالقلم طار منه القلم إلى سقف المركبة، الأشياء تتحرّك وحدها من دون سبب، ليس لها وزن، فحياة الإنسان بلا وزن لا تطاق لا تحتمل، تضع قطع الأثاث في هذه الغرفة وتأتي بعد ساعة تجد أنها صارت في مكانٍ آخر مبعثرة لأنه ليس لها وزن، نسمة ريحٍ تنقلها من غرفةٍ إلى غرفة.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعل هذه الأشياء تستقرُّ عليها ؟ من جعل هذه الحاجات تنجذب إليها ؟

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ (61))

شيءٌ آخر: هذا البحر المسجور من ربطه في الأرض ؟ ألا تعرف أن الأرض كرة ؟ ألا تعرف أن البحر في جنوبها مُلتصقٌ بها ؟ من جذبه إليها ؟

شيءٌ آخر: هذا الهواء المُحيط بالأرض مرتبط بها، لو أن الهواء مستقلٌ عن الأرض، والأرض تدور بسرعة ألف وستمائة كيلو في الساعة والهواء ثابت، لنشأت أعاصير سرعتها ألف وستمائة كيلو في الساعة، البارحة كانت السرعة تسعين فحصلت أضرار شديدة، في أوروبا قبل أسابيع هَبَّت عاصفة سرعتها مائة وثمانين كيلو متر، اقتلعت المزارع كلّها، اقتلعت الأبنية، فكيف إذا كانت الرياح تزيد عن ألفٍ وستمائة كيلو متر في الساعة ؟

إذاً هذا الهواء ربطه الله بالأرض، هذا الماء مرتبط بالأرض، هذه الجبال راسيات، هذه الحاجات ثابتة، أنت إذا ركبت مركبتك وانطلقت بها في طريق هابطة، تشعر أنها تنطلق وحدها من دون محرّك، أية قوّةٍ هذه ؟ إنّها قوة الجاذبيّة، الأرض تجذبها نحو مركزها:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

تنظيم الكون بقدرة الله عز وجل بطريقة التجاذب:

الله سبحانه وتعالى يقول كلمةً واحدة، ولكن ينطوي في هذه الكلمة معانٍ لا تُعَدُّ ولا تحصى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

شيءٌ آخر: جعل الله سبحانه وتعالى الكون منظماً بطريقة التجاذب، هذا شيءٌ دقيقٌ جداً، أضرب مثلاً: أنت أحياناً بإمكانك أن تضع قطعتين من الصُلبِ والحديد على الطاولة، وقد تأتي بكرة، يجب أن تضعها في مكانٍ دقيقٍ جداً حتّى تبقى مستقرّةً لا تنجذب إلى هذه الكتلة ولا تنجذب إلى هذه الكتلة، وأعتقد أن هذه الكرة لو انحرفت عشر الميليمتر إلى أحد الطرفين لانجذبت إلى إحدى الكتلتين، أما أن تبقى هذه الكرة مستقرّةً في هذا المكان هذا يعني أن هناك حسابات دقيقة جداً بمعشار الميليمتر حتّى بقيت، هذا إذا كانت هاتان الكتلتان بحجمٍ واحد فلا بدّ من حسابٍ دقيقٍ في المسافات، فإذا اختلفت أحجام هذه الكتل يجب أن تضع هذه الكرة لا بالوسط بل في مكانٍ يتناسب مع حجم كل كتلة، هذا يحتاج إلى حسابات دقيقة جداً من أجل أن تستقرّ هذه الكرة بين كتلتين مغناطيسيّتين متباعدتين مختلفتين في الحجم، فإذا كان هناك كتل عديدة ومختلفة في الحجم، هناك حسابات معقّدة جداً، فإذا كانت هذه الكتل في الفراغ، واحدة هنا وأخرى هناك وهي متفاوتة في الحجم، وعليك أن تضع هذه الكرة الواحدة في مكانٍ تستقرّ فيه، لا تنجذب لا إلى هذه ولا إلى تلك، فهذا شيء مستحيل.

انجذاب و جذب كل كتلةٍ في الكون بحسب كتلتها وبحسب المسافة:

أما الكون فهو أعقد من ذلك، كل كتلةٍ في الكون تجذب وتنجذب بحسب كتلتها وبحسب المسافة، وهذه الكتل متحرّكة والكون مستقر، الأرض مستقرّة، انجذابها إلى الشمس بمقدار، انجذاب القمر إليها بمقدار، انجذابها إلى أية كتلةٍ أخرى بمقدار:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعل هذه الأرض وهي في الفضاء وحولها نجوم، وحولها كواكب، وحولها مجرّات، مجرّات كبيرة وصغيرة، مسافات بعيدة وقريبة، كلها متحرّكة في مساراتٍ دقيقة لا تحيد عن مساراتها ولا قيد

أنملة ؟ من منكم يصدِّق أن أعظم ساعة في العالم، ساعة بيج بن، تُضْبَط على مرور نجم، هذه الساعة التي نضبط عليها ساعاتنا، نعرف أنها تقدّمت عُشر الثانية، لأن هناك نجماً إذا رُصِدَ لا يتأخَّر في حركته ولا يتقدَّم ولا واحد من ألف بالثانية:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعلها مستقرَّة هكذا ؟ مستقرَّة في حركتها، مستقرَّة في انجذابها، لو أنها اقتربت من الشمس لانجذبت إليها، تزداد سرعتها حتَّى لا تنجذب إليها، هذه السرعة تزداد بشكلٍ تدريجي، من جعلها على مسارها ؟ من جعلها سابحةً في الفضاء ؟ لولا حركات النجوم لأصبح الكون كلُّه كتلةً واحدة، ينجذب بعضه إلى بعض ؛ الصُغرى نحو الكُبرى، خلال مدَّةٍ وجيزة يصبح الكون كلُّه كتلةً واحدة.

ما الذي يجعل هذا الكون بهذه الكيانات المتفرّقة، هذه درب التبّانة مجرّتنا، وهذه أرض، وهذا قمر، وهذا المريخ، وهذا المُشتري، وهذا بلوتو، وهذه المرأة المسلسلة، وهذا برج العقرب، وهذا برج الجوزاء، متحرّك، من هذه الحركة تنشأ قوى نبذ، وقوى الجذب متكافئة مع قوى النبذ، إذاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من آية " 2 ")

لا تنفي العمد، هناك عمد لا ترونها، قوى التجاذب.

الشمس بطاقتها ونورها وحرارتها داخلة في قوله تعالى أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا:

قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعلها مستقرَّة هكذا ؟ هذه كلُّها المعاني الماديَّة، الأرض مستوية، والأرض أفقيَّة، والأرض ذات تربة ليّنة، والأرض ساكنة، والأرض تبقى على مسارها من دون أن تنجذب، والأرض فيها جاذبيَّة تشدُّ الأشياء إليه، هذه كلُّها معاني ماديَّة لكلمة (قرار):

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

لكن هناك معانٍ أخرى، الإنسان كيف يستقرُّ عليها ؟ لولا الشمس لما استقرَّ الإنسان في الأرض، الشمس مصدر الطاقة، مصدر النور، مصدر الحرارة، مصدر التعقيم، لولا الشمس لما استقرَّ الإنسان على الأرض، فهذه الشمس:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(49))

(سورة القمر)

لو أنها أقرب إلى الأرض لاحترق ما على الأرض، لو أنها أبعد لتجمد ما على الأرض، إذاً الشمس بطاقتها ونورها وحرارتها وتعقيمها بقدر، إذاً الشمس داخلةٌ في هذه الآية:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

هذه الأرض وهذه الشمس، لو أن الأرض لا تدور حول نفسها، لكان أحد وجوه الأرض مقابلاً للشمس، والوجه الآخر مخالفاً لأشعّة الشمس، على وجهٍ ترتفع الحرارة إلى ثلاثمئة وخمسين درجة، الإنسان هل يستقرُّ في الأرض ؟ لا يستقر، وفي الوجه الآخر تهبط الحرارة إلى مئتين وخمسين درجة تحت الصفر، انتهت الحياة، لو أن الأرض لا تدور، وإذا كانت هذه الأرض لا تدور ليس هناك ليل ولا نهار، ليس هناك زمن، ليس هناك أسبوع، ولا شهر، ولا سنة، ولا عام، لو أنها دارت هكذا على محورٍ موازٍ لمستوي دورانها حول الشمس كأنّها واقفة، إذا دارت هكذا الشمس تغطِّي نصف الكرة المقابل لها ونصف الكرة الآخر بعيدٌ عن الشمس، أيضاً الإنسان لا يستقرُّ على الأرض.

الأرض وحجمها والشمس والهواء والماء والنبات هذا كلّه نجده في الآية التالية:

الآن محور دوران الأرض عمودي مع مستوى دورانها حول الشمس، لا يوجد فصول، الأشعّة عموديّة هنا صيفٌ إلى الأبد، ومائلةٌ هنا شتاء إلى الأبد، كيف تنبت المزروعات ؟ كيف يتبدّل الطقس ؟ كيف يتقلّب الجو ؟ كيف تأتي الأمطار ؟ الأرض لو أنها واقفة لا تدور ليست قراراً، لو أنها تدور على محور عمودي مع مستوي دورانها ليست قراراً، لا بدّ من أن يكون دورانها بمحور يميل على مستوي دورانها، لذلك تأتي أشعّة الشمس هنا مائلة، فإذا اختلف الأمر انعكست الآية، جاءت الفصول فكان الصيف والشتاء، والخريف والربيع، والليل والنهار.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

شدة أشعة الشمس، القدر الدقيق لهذه الأشعّة، الله عزّ وجل غلّف الأرض بطبقة أوزون، الآن في هذه الأيّام الحديث عنها يكثُر، غاز الفحم الناتج عن احتراق الأكسجين في المركبات والمعامل يسهم في خلخلة هذه الطبقة من الأوزون لذلك جو الأرض اختلف، وهناك ارتفاع في درجات الحرارة بسبب خلخلة هذه الطبقة، هذه الطبقة من الأوزون سمكها لا يزيد عن ميليمترات تغلِّف الأرض كلها، هذه داخلة أيضاً:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

المعاني التالية، الأرض وحجمها، والشمس، والهواء، والماء، والنبات، والكِساء، هذا كلّه يدخل أيضاً في قوله تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

تسخير الكون للإنسان لمعرفة الله عز وجل من خلاله:

مرّةً أخرى أيُها الأخوة، الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

معظم العلماء أجمعوا على أن التفكر عبادة من أرقى العبادات، إنها أقرب عبادةٍ توصل إلى الله عزّ وجل، لذلك هذا الكون سخّره الله عزّ وجل لنعرفه من خلاله، فهذا الذي يُعْرِضُ عن التفكّر في خلق السماوات والأرض كأنّه يُعَطِّل الهدف الذي من أجله خلق الله الكون، والحد الأدنى إذا مرّت بكَ في القرآن الكريم آية تشير إلى عظيم قدرته أو دقّة صنعته يجب أن تقف عندها.

إذا قرأنا القرآن فلنقف عند هذه الآيات حتّى نعرف الله عزّ وجل:

درسنا اليوم كان كلمة قرار، هذه الأرض جعلها الله قراراً، هناك خمس معاني ماديّة لهذا القرار، وهناك معانٍ كثيرة جداً تدعو الإنسان إلى أن يستقرّ عليها، أن يعيش عليها، الحرارة، والبرودة، والماء، والهواء، والطعام، والشراب، وغير ذلك، فالإنسان إذا قرأ القرآن ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

القضيّة قضية تَدَبُّر، وهذا القرآن بين أيدينا والله سبحانه وتعالى يسّره لنا، فإذا قرأنا القرآن فلنقف عند هذه الآيات حتّى نعرف الله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(28))

(سورة فاطر)

أي أن العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (12-18): تفسير الآيتان 61 - 62
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-03-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة النمل.

هناك مجموعة آياتٍ تأتي تباعاً إنها من فعل الإله العظيم:

وصلنا قبل درسين إلى قوله تعالى:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59))

(سورة النمل)

كأن الله سبحانه وتعالى فيما سيأتي من آيات يبيّنُ أنه لا إله إلا الله، وأن مقام الألوهية يقتضي خلق السماوات والأرض وتسيير الكون، يقتضي إسالة الأنهار، وخلق الجبال، هناك مجموعة آياتٍ تأتي تباعاً إنها من فعل الإله العظيم، فهل يستطيع أحدٌ من دون الله أن يدّعي أنه خلق السماوات والأرض ؟ هل تستطيع جهةٌ ما أن تدّعي أن بإمكانها أن تنزل من السماء ماءاً ؟ هل في الكون جهةٌ تدّعي أنها تنبت النبات ؟ إنبات النبات آيةٌ عظيمة تدل على عظمة الله عزّ وجل، هل من جهةٍ تستطيع أن تجعل هذه الأرض قراراً ؟ كيف أنها بحجمٍ مناسب، وبسرعةٍ مناسبة، وذات تربة مناسبة، وذات استواء مناسب، وذات جاذبية مناسبة، وفيها من الماء والهواء والنبات، وفيها كل شيءٍ يدعو إلى استقرار الحياة فيها، هذا تم شرحه في درسٍ سابق.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا (61))

الحقيقة هناك نقطة دقيقة جداً، هو أن الذي لا يعرف الله تدعوه ليعرفه من خلال الكون، أما الذي يعرف الله عزّ وجل تدعوه ليأخذ ما أمر الله، وينتهي عما نهى عنه، فأنت تدعو غير المؤمن إلى الإيمان بالله، وتدعو المؤمن إلى أن يطبق أمر الله عزّ وجل، فلذلك لا يكون التلقّي من الله قبل أن تؤمن به، فمن أجل أن تبني إيمانك بناءاً متيناً أساسه الحقيقة الثابتة، والحقيقة كما تعلمون علاقةٌ ثابتة مقطوعٌ بصحّتها يؤكّدها الواقع عليها دليل، يجب أن ننخل كل شيءٍ نتصوره ونبقي على هذه الحقائق الصرفة، لأن الحقيقة هي التي تنقذ الإنسان من شقاء الدنيا والآخرة.

من أراد معرفة عظمة الله عزّ وجل فحسبه هذا الكون:

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا (61))

ظاهرة الماء، هذه ظاهرةٌ تُلفت النظر، فالآيات التي تدل على عظمة الله لا تعدُّ ولا تحصى، ولكن حسبنا تلك الآيات التي وردت في كتاب الله، الآية التي ذكرها الله عزّ وجل في كتابه تعني أن نفكر بها، ففي الدرس الماضي تحدثنا عن أن الأرض قرار، جعلها الله قراراً، القرار المادي، والقرار المعنوي، وفي هذا الدرس نتحدث عن ظاهرة الماء، هذا الماء الذي جعله الله قوام الحياة، الذي جعل منه كل شيءٍ حي، هل تأملت في خواصه، لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، سيولته، تبخُّره، دخوله في أدق المسام، هذا الماء متى يَتجَمد، كيف يتجمد ؟ هذا الماء هل ينضغط ؟ لماذا لا ينضغط ؟ هذه الخصائص التي أودعها الله في الماء ألا ينبغي أن نفكر فيها كي نعرف عظمة الصانع ؟

أهل الدنيا مع الصنعة، ولكن أهل الإيمان مع الصانع، أهل الدنيا مع النعمة ولكن أهل الإيمان مع المُنعم، أهل الدنيا مع الخَلق، أما أهل الإيمان مع الخالق، أهل الدنيا مع النظام، أما أهل الإيمان مع المُنَظِّم، فمن هو المؤمن ؟ الكافر يرى ما يراه المؤمن، يتنعم بما يتنعم به المؤمن، يأكل، ويشرب، ويلهو، كل النعم التي خلقها الله عزّ وجل الكافر يستمتع بها، ويعرفها تماماً، يعرف أبعادها، ولكن المؤمن ينتقل منها إلى المُنعم، ينتقل من الخلق إلى الخالق، من النظام إلى المُنَظِّم، من الكون إلى المُكَوِّن، من النعمة إلى المُنعم، هذه النقلة هي جوهر الإيمان.

أما أي إنسان في أي مكانٍ وزمان، إنه يعرف الأرض، الأرض كرة تدور حول نفسها، تدور حول الشمس، يعرف الهواء، يعرف الماء، يعرف النبات، يعرف الطعام والشراب، يعرف الأزهار، كل هذه النعم التي خلقها الله عزّ وجل غير المؤمن يعرفها، ولكن المؤمن انتقل منها إلى صاحبها، انتقل منها إلى موجِدها، انتقل منها إلى من كان هو السبب في وجودها، التفصيلات أحياناً لها وظيفةٌ محدودة، فلا بدّ من العودة دائماً إلى الكُلِّيات، فما حجم التفكر في خلق السماوات والأرض، أنت يجب أن تعرف أن لك إلهاً عظيماً، الإيمان بالله شيءٌ تدعو إليه الفطرة، الفطرة تدعو إلى الإيمان بالله، والعقل يدعو إلى الإيمان بالله، فإذا أردت أن تعرف عظمة الله عزّ وجل فحسبك هذا الكون، وقد ورد: حسبكم الكون معجزة.

الله سبحانه وتعالى في آياتٍ كثيرةٍ حضنا على أن نعرفه من خلال الكون:

إذا أردت أن تعبد الله عزّ وجل دونك التشريع، لكن ليس معنى هذا أن التشريع فقط من أجل أن تطبقه، لو تأمّلت في التشريع الإلهي تعرف منه أيضاً عظمة الله عزّ وجل، في كل شيءٍ له آية، الكون آية، والتشريع آية، والحوادث آية، والفطرة آية، والعقل آية، إذاً حينما يسرد الله علينا بعض الآيات الكونية،

كأن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفكر فيها، يريدنا أن نقف عندها، يريدنا أن نتبصرها، يريدنا أن نعرف حجمها الحقيقي، يريدنا أن نخرج منها إلى المُنعم، إلى من خلقها، إلى من أوجدها، إلى من أحكمها، إلى من جعلها بهذا الإعجاز.

حينما تقرأ في القرآن الكريم آياتٍ تشير إلى عظمة الكون، معنى ذلك أن هذه الآيات ينبغي أن تكون موضوعاً من موضوعات التأمُّل التي حضَّنا الله عليه، الله سبحانه وتعالى في آياتٍ كثيرةٍ حضنا على أن نعرفه من خلال الكون.

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس: من آية " 101 ")

وقال:

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(6))

(سورة الطارق)

وقال:

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25))

(سورة عبس)

التعامل بين الماء وبين الهواء آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته:

إذاً قبل درسين تحدثنا كيف أن الله سبحانه وتعالى جعل الأرض قراراً، لم يجعلها مُسَنَّنَة جعلها مستوية، ولم يجعلها مائلة جعلها أفقية، ولم يجعل قوامها هُلاماً، ولا غازاً، ولا ماءاً، ولا صلباً، بل جعلها تربةً بالإمكان أن نتعامل معها، جعل فيها جاذبية، الأشياء تنجذب إليها، جعل الأرض تسير على مسارٍ دقيق لا تحيدُ عنه، ربط بها الهواء الذي فوقها، والماء الذي فوقها، هذا من معاني:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

كيف أن الله سبحانه وتعالى جعل الحياة مُمْكِنَةً على سطحها، جعل فيها النبات، والحيوان، والفلذات، والمعادن، وكل شيءٍ تحتاجه جعله وأودعه في الأرض، الآن يضيف الله عزَّ وجل على هذه الآية:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا (61))

بادئَ ذي بدء، هذه البحار التي خلقها الله عزَّ وجل، خلقها بحجمٍ معيَّن وبسطحٍ معين، ويبدو أن هذا السطح هو السطح المناسب لعملية التبخُّر وعملية هطول الأمطار، إذاً أن يكون البحر أربعة أخماس الكرة الأرضية، هذا قدرٌ معلومٌ من الله عزَّ وجل، من صنع حكيمٍ عليم، وأن يجعل الماء يتبخَّر بدرجاتٍ دنيا هذا أيضاً من آيات الله، فالشمس المُسَلَّطَة على مياه البحار تجعل بعضها يصبح بخاراً، وذلك

التعامل بين الماء وبين الهواء آيةٌ من آيات الله أيضاً، أن يحمل الهواء بخار الماء هذه آية، وأن يحمل الهواء بخار الماء بدرجاتٍ متفاوتة بحسب درجة حرارته هذه أيةٌ أيضاً، فإذا انخفضت هذه الدرجة تخلّى الهواء الذي يحمل بخار الماء عن بعض الماء، وهذا مبدأ المطر، هذه آيةٌ سادسة، وجود البحر، وجوده مالحاً آية، بهذا الحجم آية، بهذه المساحة آية، علاقة الحرارة بالماء والتبخُّر آية، علاقة التبخر بالهواء آية، أن يحمل الهواء بخار الماء آية، أن يتخلى عنه في بعض الدرجات آية، إذاً هل تستطيع جهةٌ في الكون أو جهةٌ في الأرض أن تدعي أن بإمكانها أن تنزل الماء من السماء ؟

لا يوجد في الكون جهةٌ يرجى خيرها ويتقى عذابها إلا الله عزّ وجل:

هذه أوروبا بعضها يعاني من العطش، هذه إفريقيا عانت من العطش ما عانت، ونحن لولا أن الله سبحانه وتعالى تداركنا بلطفه لكانت هذه السنة عجفاء، مياه الأنهار جفّت، وإذا جفت مياه الأنهار توقف النبات ومات الحيوان وتبعه الإنسان، الله سبحانه وتعالى يشعرنا من حين لآخر أن مصيرنا بيده، وأن حياتنا بيده، وأن الإنسان مهما علا في الأرض ومهما ادعى لنفسه العظمة هو عاجزٌ عن أن ينزل قطرة من الماء، فكلمة:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللّهِ (60))

وقال:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللّهِ(60))

إلى أين أنتم ذاهبون ؟ تعبدون من ؟ أفغير الله تتقون ؟ هل في الكون جهةٌ تتقى غير الله ؟ هل في الكون جهةٌ يرجى خيرها ويتقى عذابها إلا الله عزّ وجل، هذا الذي يعبده الإنسان من دون الله سواء أعترف بهذا صراحةً أم لم يعترف، على كلٍ ما العبادة ؟ غاية الإخلاص، غاية الحب، غاية الطاعة، غاية الشوق، غاية المحبة، غاية الانصياع، غاية التأمُّل، هل من جهةٍ تستحق أن تعبدها إلا الله عزّ وجل ؟ الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 21 ")

الشيء الملفت للنظر أنه كلما ذكر الله الأنهار في القرآن ذكر معها الجبال:

قال تعالى:

(وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا (61))

هذه أمطار السماء تنزل بشكلٍ لطيف، وكيف أن هذا الماء يذهب إلى باطن الأرض، وكيف أن هذا الماء يصبح أنهاراً، كلكم يعلم أن الأنهار لها ينابيع، أو وديان تجتمع فيها الماء، تنطلق غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً، هذه الأنهار بأحجامها، بأطوالها، بكثافتها ـ نهر الأمازون مثلاً ثلاثمائة ألف متر مكعب بالثانية ـ هذه الأنهار من أين جاءت؟ لها ينابيع، هي مياهٌ عذبة، من جعلها عذبةً ؟ الله سبحانه وتعالى، عن طريق هذه الدورة الرائعة، دورة التبخر، ثم السحاب، ثم المطر، ثم نزول المطر، ثم أن يودع هذا الماء في باطن الأرض، ثم أن ينبع على شكل أنهار، فإذا ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن آيةً من آيات الله الدالة على عظمته فمعنى ذلك أن هذا عنوان وعلى الإنسان المؤمن أن يتبع هذه الآية فيتأملها، لعل الله سبحانه وتعالى يهديه إلى أن يعرفه حق المعرفة.

شيءٌ آخر:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا (61))

الشيء الذي يلفت النظر أنه كلما ذكر الله الأنهار في القرآن ذكر معها الجبال، هذه الجبال التي جعلها الله للأرض أوتادَ، الأرض لها طبقات، طبقاتٌ عميقة، وطبقاتٌ سطحية، هذه الطبقات ليست متجانسة، الأرض تدور حول نفسها، لو أن هذه الأرض تدور والطبقات ليست متجانسة لاضطربت في دورانها، ائتِ ببيضةٍ وحاول أن تجعلها تدور من دون أن تسلقها، تضطرب، لأن موادها غير متجانسة، أما إذا سلقتها وأصبحت ذات قوام واحد تدور، إذاً هذه الطبقات التي جعلها الله في الأرض، الطبقة العُليا، والطبقة التي تحتها، والطبقة القارّية وما شاكل ذلك، هذه الطبقات ليست متجانسة، الله سبحانه وتعالى ذكر في بعض الآيات الأخرى أن الجبال جعلها أوتاداً، تربط الطبقات بعضها ببعض.

التلازم في ذكر الجبال والأنهار يعني أن الله تعالى جعل الجبال مستودعاتٍ للمياه:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

(سورة النحل: من آية " 15 ")

يبدو أن توزع الجبال في الأرض توزعاً محكماً يجعل دورانها مستقراً، فإذا كان هناك توزُّع غير محكم الدوران يضطرب، فمن أجل أن تدور الأرض من دون اهتزاز من دون اضطراب جعل الله هذه

الجبال في هذه الأماكن المتباينة في الأرض، إذاً تارةً يشير الله عزّ وجل إلى أن هذه الجبال جعلها أوتاداً، لأن الجبل الذي ترونه بأعينكم ثلثه ظاهر وثلثاه تحت الأرض، كالسن تماماً، السن له قسم ظاهر وقسم تحت النيرة، فالجبل الذي يبدو لنا منه لا يزيد عن الثلث والباقي مغروسٌ تحت الأرض ليربط هذه الطبقات بعضها ببعض، والهدف الآخر أن الله سبحانه وتعالى:

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

(سورة النحل: من آية " 15 ")

من أجل هذا الدوران المستقر، شيءٌ رائع أن الأرض تدور ومع دورانها هي مستقرة، نعمة الاستقرار لا يعرفها إلا من أصاب بلاده زلزال، ماذا يفعل الزلزال ؟ في ثوانٍ يجعل عاليها سافلها، هذه الأبنية الشاهقة تصبح في الأرض، لأن هناك اضطراباً طرأ على القشرة الظاهرة، هذه الأرض أيضاً ما دامت مستقرة فهذه نعمة من نعم الله الكبرى.

شيءٌ آخر، بما أن الماء يسيل من أعلى إلى أدنى، فشاءت حكمة الله عزّ وجل أن يجعل الجبال مستودعاتٍ للمياه، لذلك حيثما وردت كلمة الجبال ترد معها كلمة الأنهار، هذا التلازم في ذكر الجبال والأنهار في القرآن الكريم في الأعم الأغلب، هذا التلازم يعني أن الله سبحانه وتعالى جعل الجبال مستودعاتٍ للمياه، لذلك المياه تسيل من هذه الجبال وتتجه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لأن مستودعاتها عالية.

آية الماء وصفاته وخواصه ونزوله من السماء من آيات الله الدالة على عظمته:

شيء آخر هذه الجزر التي بثّها الله في البحار، كل جزيرةٍ لها عين ماء، ولها نبعٌ عذبٌ، هذا النبع العذب يعني أن هناك تمديداتٍ تحت سطح البحر متصلة إلى جبالٍ ساحلية، ليس هناك إلا هذا التفسير بحسب مبدأ الأواني المستطرقة، ما دامت جزيرة في البحر مستوية وفيها نبع ماء لا بدّ من مستودعٍ في مكانٍ مرتفع، وكم من آلاف الكيلو مترات تسيل هذه المياه من الجبال إلى الجزر، والجُزُر مهما كثرت لا بدّ لكل جزيرةٍ من نبع ماءٍ في مستوى حجمها، هذا أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته، وقد نجد في رؤوس الجبال بعض الينابيع، وهذه الينابيع في رؤوس الجبال ليس لها إلا تفسيرٌ واحد، هو أن مستودعات هذه الينابيع في جبالٍ أخرى بعيدة.

إذاً آية الماء، ظاهرة الماء، صفات الماء، خواص الماء، نزول الماء من السماء، المالح أو العذب، هذه الدورة التي أشار الله إليها من آيات الله الدالة على عظمته.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا (61))

للأرض:

(رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا (61))

الله جعل حاجزاً بين مياه البحر والأنهار إما بسبب فرق الارتفاع أو بسبب الطبقات الكتيمة:

هذه الآية:

(وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا (61))

أولاً من نعم الله عزّ وجل أن سطح البحر هو في أخفض درجة في الأرض، لذلك جميع المُرتفعات تقاس بدءاً من سطح البحر، مياه البحر مالحة، كل الينابيع تأتي من الجبال من مستويات أعلى من سطح البحر، إذاً لم تختلط مياه البحر بمياه الأنهار والينابيع، لو أنها اختلطت لأصبحت مالحة تمجها النفس، هذه واحدة، لو صدف أن وجد نبع ماءٍ في منطقةٍ دون سطح البحر، الله سبحانه وتعالى جعل الطبقات الكتيمة تحول بين مياه البحر ومياه الأغوار أيضاً:

(وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا (61))

سمي البحر بحراً، وسمي النهر بحراً للتغليب.

(وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا (61))

المعنى الأول: أن الله سبحانه وتعالى جعل حاجزاً بين مياه البحر وبين مياه الأنهار، إما أن هذا الحاجز بسبب فرق الارتفاع، أو أن هذا الحاجز بسبب الطبقات الكتيمة التي تمنع اختلاط المائَيْن، ولكن في موضوع آخر الله سبحانه وتعالى في بعض آياتٍ أخرى يقول:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20))

(سورة الرحمن)

حتى البحرين المالحين بينهما برزخ لا يبغيان، معنى لا يبغيان لا يطغى بحرٌ على بحر، أي أن مياه البحر الأحمر لا تطغى على مياه المحيط العربي، مياه المحيط الهندي لا تطغى على البحر الأحمر، البحر الأحمر لا يتصل بالبحر المتوسط، بين كل بحرين جعل الله حاجزاً.

البحرين المالحين بينهما برزخ لكن البحرين المالح والعذب بينهما برزخٌ وحجرٌ محجور:

قال تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20))

(سورة الرحمن)

المفسرون حاروا من قديم الزمان بتفسير هذا البرزخ، أين هو هذا البرزخ ؟ لو وقفت بين البحر الأسود والبحر الأبيض، بين الأبيض والأحمر، بين الأحمر والمحيط الهندي لا تجد برزخاً، تجد مياه متصلة، لو أخذت عينةً من مياه البحر الأحمر لوجدتها ذات قوامٍ وملوحةٍ وكثافةٍ ومكوّناتٍ خاصةٍ بها، لو أخذت عينة من المحيط الهندي لوجدت لهذه المياه كثافة ومقومات وملوحة تتناسب معه، وفي منطقة التماس يبقى المحيط الهندي محيطاً هندياً، والبحر الأحمر بحراً أحمر، هذا البرزخ رآه بعض روّاد الفضاء، بعض السفن الفضائية رأت خطاً بين البحرين، لذلك فسّره العلماء بأنه حاجز وهمي يمنع طغيان هذا الماء على هذا الماء، استقلالية كل ماء شيءٌ يلفت النظر، هذا الشيء كشفه العلم الحديث:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20))

(سورة الرحمن)

بل إن بعض العلماء رأى أن هناك تيّارات، حينما تصل هذه التيارات وقد حمّلها بأشياء من أجل أن تتضح حركة التيارات، هذه التيارات إذا وصلت إلى حدود البحر الآخر عادت ورجعت، لذلك:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(21))

(سورة الرحمن)

شيءٌ آخر، هو أن البحرين المالحين بينهما برزخ، لكن البحرين المالح والعذب بينهما برزخٌ وبينهما حجرٌ محجور، البرزخ من شأنه أن يمنع طغيان مياه كل بحرٍ على الآخر، والحجر المحجور من شأنه أن يمنع انتقال الأسماك من المياه العذبة إلى المياه المالحة.

عدم اختلاط الأمواج مع بعضها سواءٌ أكانت مالحة أم عذبة من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا(53))

(سورة الفرقان)

عدم اختلاط الأمواج بعضها ببعض سواءٌ أكانت مالحةٌ أم عذبة، وعدم طغيان بعضها على الآخر واحتفاظ كل ماءٍ بمكوناته، وملوحته، وكثافته، وما فيه من مواد هذا من آيات الله الدالة على عظمته، والعلم أمامه متسع كبير لكشف مزيدٍ من هذه الظواهر التي وردت في القرآن الكريم إذاً:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ (61))

أتستطيع جهةٌ ما أن تدّعي ذلك ؟ إذاً لا إله إلا الله:

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

كلمة لا يعلمون، الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات يقول:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم: من آية " 7 ")

الله سبحانه وتعالى أثبت لهم العلم، وفي الآية التي تليها مباشرةً قال:

(لا يَعْلَمُونَ(6)يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم)

الله سبحانه وتعالى نفى عنهم العلم وأثبت لهم العلم، ليس في هذا تناقض.

ربنا سبحانه وتعالى ذكر العلم وعنى به أن يعرف الإنسان ربه:

قال تعالى:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(6)يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

هناك علمٌ ينفعك في الدنيا، يمكن أن تدرس، أن تتعمق في موضوعٍ معيَّن، وأن تبحث في هذا الموضوع بنيّة أن تتقنه كي ترتزق منه، هذا العلم حرفةٌ من الحرف، العلم الذي تقف في حدوده الضيقة من دون أن تنطلق منه إلى خالق الكون هذا علمٌ نافعٌ للدنيا، حرفةٌ من الحرف، فأية دراسة عالية المستوى هدفها الوحيد إتقان اختصاص معين من أجل الارتزاق هذا علم، وعلم ينفع المسلمين وينفع الناس، ولكن إذا بقيت في حدوده الضيقة ولم تخرج منه إلى خالق الكون هذا علمٌ لا يقدم لك نفعاً في الآخرة، كما هي الحال عند الذين جعلوا من العلوم كل شيء من دون أن ينتقلوا منها إلى خالق الكون، إذاً ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

أن تعصي الله أنت لا تعرفه، قد تعرف كل شيء ولكن إذا لم تعرف الله عزّ وجل ولم تعرف لماذا كنت في هذه الدنيا لا تعرف شيئاً، هذه أمور دقيقة جداً، هذه العقيدة، يجب أن تعتقد عقيدةً صحيحة أساسها لماذا أنا في الدنيا ؟ لماذا خلقني الله عزّ وجل ؟ ما جدوى وجودي في الدنيا ؟ ما أفضل شيء أفعله في الدنيا ؟ إلى أين المصير ؟

ربنا سبحانه وتعالى ذكر العلم وعنى به أن يعرف الإنسان ربه.

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

خَلَقَ الله الإنسان ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد في افتقاره:

انتقال إلى موضوع جديد يتعلّق بالنفس الإنسانية:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62))

هؤلاء الذين ركبوا في الطائرة وماجت بهم واضطربت، وتوقّعوا أن تسقط، على اختلاف مشاربهم، ونوازعهم، وعلى اختلاف معتقداتهم، ومبادئهم، وعلى اختلاف منابتهم، لا يلجؤون إلا إلى الله، لو أن هذا الإنسان أنكر وجود الله في الأرض وركب في البحر أو في الطائرة، وشعر أنها على وشك أن تسقط، أو أن هذه الباخرة على وشك أن تغرق، دعا الله مخلصاً، إذاً هل هناك جهةٌ أخرى غير الله عزّ وجل تدعوها عند الشدة، هذه فكرة أولى، الإنسان ضعيف، خَلَقَهُ الله ضعيفاً لمصلحته، لأنه لو كان قوياً لاستغنى بقوته، فشقي باستغنائه، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد في افتقاره:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

أقرب شيء إليك هو الله عزّ وجل إن دعوته بلسانك سمعك وإن دعوته بقلبك سمعك:

ربنا سبحانه وتعالى فضلاً عن ذلك أعاننا على أنفسنا، الإنسان حينما يقع في مشكلة، حينما تَحُلُّ به مشكلة، كأن الله سبحانه وتعالى يدفعه إلى بابه، يقول: يا رب، بعد هذا الدعاء يكشِفَ عنه السوء، يشعر عندها أن الله عزّ وجل سمعه واستجاب له، وأن الله بيده كل شيء، فالله سبحانه وتعالى ليزيد معرفتك به قد يجعلك في وضعٍ حرج، ويطلب منك أن تدعوه.

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (62))

لكن للدعاء شروط، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

المسلمون يدعون الله ليلاً ونهاراً، ومعظم شعائرهم فيها دعاء، ومع ذلك قد يدعون الله سبحانه وتعالى ولا يستجيب، أليس الدعاء صحيحاً ؟ هذا يجب أن يدفعنا إلى معرفة شروط الدعاء، الله عزّ وجل في كتابه الكريم قال:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

أقرب شيء إليك هو الله عزّ وجل، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إن دعوته بلسانك سمعك، وإن دعوته بقلبك سمعك:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(3))

(سورة مريم)

خواطرك معلومةٌ عنده، سِرُّكَ مكشوفٌ لديه، نوازعك، صراعاتك، طموحاتك، إذا كنت ساكتاً وتحدِّث نفسك بحديثٍ طويل الله سبحانه وتعالى يعلمه.

شروط استجابة الدعاء:

إن الله عزّ وجل يعلم ما يخفى عنك، إذاً:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

قل: يا رب والله سبحانه وتعالى يقول: لبّيك يا عبدي، لكن لماذا لا يستجيب ؟ قال:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

إذا دعاني كما أريد أجبته كما يُريد، فما الشروط ؟ قال:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

(سورة البقرة)

كأن الله سبحانه وتعالى يقول: لا أستجيب لكم إلا إذا استجبتم لي، ولن تستجيبوا لي إلا إذا آمنتم بي، آمنوا بي، إذا آمنتم بي تستجيبون لأمري ونهيي، إذا استجبتم أستجيب لكم، فهذا الذي يريد أن يكون مستجاب الدعوة عليه أن يستجيب لله أولاً، هذا مستنبط من هذه الآية، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك:

موضوع الدعاء النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الدعاء مخ العبادة))

[أخرجه الترمذي عن أنس]

ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء، والدعاء سلاح المؤمن، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، إذاً الدعاء شيء خطير جداً، كأن الله سبحانه وتعالى يقول: كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، إذاً:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، كن فيكون:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ.))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

هذا شيء مهم جداً أن تعرف شروط الدعاء.

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

هل أنت عند الأمر والنهي ؟ هي يراك حيث أمرك ؟ هل يفتقدك حيث نهاك ؟ إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله، فانظر ما لله عندك، هل أنت حريصٌ على تنفيذ أمره ؟ على أن تبتعد عما عنه نهى.

إذا عَظّمت الله عزّ وجل تُعظِّم أمره فإذا استجبت له استجاب لك وهذه أول قاعدة:

قال تعالى:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

لكنهم لن يستجيبوا لي إذا لم يعرفوني، قيمة الأمر من الآمر، لو جاءك أمر من عريفٍ، أو من صديق، أو من زميل، أو من إنسان في مستواك لا تبالي به، كلما ارتفعت مرتبة الآمر عظم عندك الأمر، لذلك ماذا قال سيدنا بلال ؟ قال: **" لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت "**، قيمة الأمر تنبع

من عظمة الآمر، فالذي يعصي الله لا يعرف الله قولاً واحداً، هناك علمٌ بأمر الله، يمكن أن تعرف الله، ولكن قبل أن تعرف أمر الله يجب أن تعرف الآمر وهو الله عزّ وجل، وهذا ما فعله النبي عليه الصلاة والسلام، حيث مكث مع أصحابه ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى معرفة الله، فلما عرفوا الله جاء أمر الله عندهم عظيماً، إذا عَظّمت الله عزّ وجل تعظِّم أمره، انظر إلى دقة الآية:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

أي آمن بعظمة الله، آمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، من أجل أن يكون لأمره عندك قيمة، لن تكون لهذه الأوامر عند الإنسان قيمة إلا إذا عرف الآمر، اعرف الآمر واعرف الأمر عندئذٍ تستجيب لهذا الآمر العظيم، إذا استجبت له استجاب لك، هذه أول قاعدة.

في الآية التالية ليس هناك وسيط بين العبد وبين ربه:

قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

هناك نقطة مهمة جداً الآية:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

أو:

(يَسْأَلُونَكَ)

(سورة البقرة الآية: 219)

هذه الصياغة في كتاب الله وردت مَرّاتٍ عديدة تفوق عشر المرات:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ)

(سورة البقرة الآية: 222)

وقال:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

(سورة البقرة الآية: 219)

وقال:

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو)

(سورة البقرة الآية: 219)

في كل الآيات التي وردت على هذا النمط " يسألونك " تأتي كلمة " قل " بين السؤال وبين الجواب، إلا في هذه الآية الوحيدة اليتيمة:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

ليس هناك وسيط بين العبد وبين ربه، بمجرد أن تقول: يا رب، الله سبحانه وتعالى يقول لك: لبيك يا عبدي، يا رب قد تبت، يقول الله عزّ وجل: وأنا قد قبلت.

إياك أن تطمع أن يستجيب الله عزّ وجل لك إذا كنت معتدياً لأنه لا يحب المعتدين:

بعضهم ناجى ربه فقال: يا رب إذا كانت رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى هكذا:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44))

(سورة اطه)

يا رب إذا كانت رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى هكذا، فكيف رحمتك بمن قال: سبحان ربي الأعلى؟ إذا كانت رحمتك بمن قال: ما أرى لكم من إلهٍ غيري، فكيف رحمتك بمن قال: لا إله إلا الله، الإنسان إذا عاش حياته بعيداً عن معرفة الله، وعن الاتصال به، وعن التعامل معه وَفْقَ منهجه، فقد ضيَّع كل شيء، يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ الآية الثانية:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ(205))

(سورة الأعراف)

إياك أن تطمع أن يستجيب لك الله عزّ وجل إذا كنت معتدياً، الله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين، ولأنه لا يحبهم لا يستجيب لهم، فحينما جاء قوله تعالى:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً (205))

(سورة الأعراف)

ادعُه بهذا الشكل إنه لا يحب المعتدين.

الوقوف على باب الله من علامات العبوديّة فإما أن تقف طواعية وإما أن يدفعك إلى ذلك:

قال تعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (62))

المضطر هو الذي وضعه الله عزّ وجل في وضع حَرِج، إن في ماله، أو في صحته، أو في أولاده، هذا الوضع الحرج من خلق الله عزّ وجل، دائماً وأبداً الشيء الذي وقع أراده الله، والشيء الذي أراده الله

عزّ وجل يتعلق تعلقاً حقيقياً بالحكمة، وحكمة الله عزّ وجل متعلقة بالخير المُطلق، أي شيءٍ وقع قل: الحمد لله، لأنه لو لم يقع لكان الله ملوماً لماذا لم يقع ؟ الله سبحانه وتعالى لا يقع شيءٌ في ملكه إلا بإذنه، وهو حكيمٌ، وعليمٌ، وسميعٌ، وبصيرٌ، وخبيرٌ، إذاً ربنا سبحانه وتعالى قد يضع الإنسان في مشكلة، في ضرورة، أمام قضية، قد يخاف منها، قد يخشى، قد يقلق، لماذا وضعه الله في هذه المشكلة ؟ كأن الله سبحانه وتعالى يدعوه إلى أن يقف على بابه، الوقوف على باب الله من علامات العبوديّة، إما أن تقف على بابه طواعيةً، وإما أن يدفعك إلى أن تقف على بابه، لذلك:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (62))

المضطر إذا دعا الله عزّ وجل، الله سبحانه وتعالى يستجيب له، والقصص التي تتحدّث عن استجابة الله عزّ وجل لمن دعوه دعاء صادقاً لا تعد ولا تحصى، النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان في طريق الهجرة، وتبعه سراقة، وأراد به شراً، قال:

((يا رب اكفنا سراقة كيف شئت وأنى شئت))

غاصت قدما فرسه في الرمل، ووقع من عليها مرات عدة.

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلّهُنّ أمانُ

* * *

الله سبحانه وتعالى قد يمتحن المؤمن ولكن كل شيءٍ في النهاية لمصلحة المؤمن:

هناك شعور لا يعرفه إلا من ذاقه، هذا الشعور أن المؤمن يشعر أن الله سبحانه وتعالى يحبُّه، فبعض علماء العقيدة نهوا عن أن تقول إذا سُئِلت: هل أنت مؤمن ؟ تقول: إن شاء الله.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: من آية " 15 ")

الإيمان على وجه الجزم، فالمؤمن يشعر أن الله يحبه، والإمام الشافعي ماذا استنبط من قوله تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: من آية " 18 ")

الإمام الشافعي استنبط أن الله سبحانه وتعالى لا يعذِّب أحبابه، بمعنى أن المؤمن يسعدُ إذا شعر أنه على منهج الله، والله سبحانه وتعالى قد يمتحنه، لكن كل شيءٍ في النهاية لمصلحة المؤمن:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا)

(سورة التوبة: من آية " 51 ")

إذاً هذا الاضطرار الذي نوّه به الله سبحانه وتعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ (62))

هذا تفسير لإجابة الدعوة.

المشرك يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها أما المؤمن يأخذ بها ويعتمد على الله وهذا هو الفرق:

قال تعالى:

(وَيَكْشِفُ السُّوءَ (62))

إذاً قد يأتي السوء، من هنا النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لا ينفع حذرٌ من قدر.))

[رواه الحاكم عن عائشة بلفظ لا يغني حذر من قدر]

إذا كنت ذكياً، إذا أخذت لكل شيءٍ عُدَّتَهُ، إذا أردت أن تأخذ بكل الأسباب وأن تعتمد عليها، إذا جعلت الأسباب إلهاً وعبدتها من دون الله، إذا اتكأت عليها وظننت أنها تمنعك من دون الله فأنت في حالة شرك خفي، لذلك يؤتى الحذر من مأمنه، ولا ينفع ذا الجَد منه الجّد، كما قال عليه الصلاة والسلام في دعائه الشريف:

((لا ينفع حذرٌ من قدر ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل.))

[رواه الحاكم عن عائشة بلفظ لا يغني حذر من قدر]

لأن الحذر كأنك تعاند قدرة الله عزّ وجل، يأتيك من مأمنك، أي إنسانٍ أخذ بالأسباب واعتمد عليها فهو مشرك شرك خفي، أما المؤمن يأخذ بها ويعتمد على الله، هذا هو الخط الرفيع بين الإيمان والشرك، المشرك يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها، أما المؤمن يأخذ بها ويعتمد على الله هذا هو الفرق، الذي يعتمد على الأسباب قد يؤتى من مأمنه، قد يؤتى من اختصاصه، قد يؤتى من الشيء الذي هو فيه خبير، هذا الطبيب مثلاً اختصاصي في هذا المرض، يأخذ كل الاحتياطات ومع ذلك قد يصاب بهذا المرض، لأنه وقع في شركٍ خفي.

((لا ينفع حذرٌ من قدر ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل فادعوا الله عباد الرحمن.))

[رواه الحاكم عن عائشة بلفظ لا يغني حذر من قدر]

قال تعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ (62))

هذه نقطة مهمة جداً، الإنسان في حالة الرخاء يتعلق بزيد أو عبيد، يضع ثقته في فلان أو في علان، تجده موزعاً، مشتتاً، لكن إذا وقعت به ملمة يشعر شعوراً أكيداً أن الله وحده يمكن أن ينقذه منها، لذلك

الأطباء أمام حالات من الشفاء العجيب، شفاء مرض عُضال بلا سبب مبرر، أحدث اسماً في الطب اسمه الشفاء الذاتي، يبدو أن هذا المريض دعا ربه من كل قلبه، والله عزّ وجل استجاب له.

الإنسان إذا عرف أنه خليفة من سبقه وسيأتي بعده من يخلفه عرف أن الدنيا زائلة:

قال تعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ (62))

تتوارثون ما في الأرض من نعم، ومن بيوت، ومن حدائق، ومن بساتين، ومن أعمال، الإنسان إذا عرف أنه خليفة من سبقه، وسيأتي بعده خليفة يخلفه، عرف أن الدنيا زائلة، وربنا عزّ وجل قال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

من قوله تعالى:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

ماذا يعني ؟ أن هذا الاختيار مؤقّت:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

فكلمة خلفاء الأرض، أي أن هذا البيت سكنته بعد أناسٍ كثيرين، وسيأتي بعدك من يسكنه، هذا المحل الآن أنت فيه، ولكن هناك من يأتي بعدك ويأخذه، الحياة مؤقتة، الدنيا ساعة اجعلها طاعة، إذا شعرت بأن الحياة مؤقتة انطلقت إلى الآخرة، أما إذا جعلت الدنيا هي كل شيء، جعلتها معقد الآمال ومحط الرحال، فقد فقدت كل شيء.

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62))

هذه الآيات لها محور واحد هو أن تُوَحِّدَ الله عزّ وجل وكأن الدين كله توحيدٌ لله عزّ وجل:

هذه الآيات ؛ أول آية:

(آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59))

الآية الثانية:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60))

الآية الثالثة:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

الآية الرابعة:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62))

إذاً كأن هذه الآيات لها محور واحد، هو أن توحِّد الله عزّ وجل، وكأن الدين كله توحيدٌ لله عزّ وجل، توحيدٌ في ألوهيته، توحيدٌ في ربوبيته، توحيدٌ في تصرُّفاته، توحيدٌ في أسمائه وفي صفاته، هذا هو التوحيد وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

الدعاء مخ العبادة:

لا إله إلا الله نهاية العلم، ختاماً لهذا الموضوع تعقيبٌ سريع على الآية الأخيرة:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (62))

أي أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

أحياناً هذه المشكلة التي جعلتك مضطراً أن تدعو الله عزّ وجل، ربما عمّقت معرفتك بالله، تدعوه، سمع دعاءك واستجاب لك، أورثك معرفةً جديدة وحباً جديداً، فربما كانت بعض المشكلات من هذا القبيل، فالمؤمن يتلقّى ما يصيبه بصبرٍ جميل، ويدعو الله عزّ وجل، فإذا دعاه واستجاب له، تعمّقت معرفته بالله، وزادت محبته له، وكم من مؤمنٍ عرف الله على أثر مشكلة، كم من رجلٍ رفعه الله عزّ وجل مكاناً علياً على أثر مشكلة، كم من مؤمنٍ كان ذا انضباطٍ أشد على أثر مشكلة، لذلك الله سبحانه وتعالى يريدنا إذا ألمّت بنا مُلِمّة أن نلجأ إلى بابه، أن نقف على بابه، أن ندعوه تضرعاً، أن ندعوه رجاءاً، أن ندعوه خوفاً، فالدعاء مخ العبادة كما قال عليه الصلاة والسلام.

الدعاء اتصال حميم بين العبد و ربه فجوهر الدين الاتصال بالله:

في الحقيقة الدعاء مطلوبٌ لغيره تعبير دقيق، ما الشيء الذي طلب من أجله الدعاء ؟ الاتصال بالله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى يحب أن يسمع صوت عبده اللهفان، فقد تأتي مشكلة تدعوك إلى أن تدعوه،

فإذا دعوته وذقت طعم القرب وحلاوة المناجاة نسيت المشكلة، فالمطلوب حصل، وهذه المشكلات دفعتك إلى باب الله، وهذا ما أراده الله من هذه الآية:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ (62))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (13-18): تفسيرالأية 63
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-03-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة النمل.

ملخص عن حديث الدرس الماضي لبعض صفات الألوهية:

في الدرس السابق بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى بعضاً من صفات الألوهية، فخلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق ذات البهجة، وجعل الأرض قراراً، وجعل الأنهار من خلالها، وخلق الجبال رواسي وأوتاداً للأرض، وإجابة المُضطر إذا دعاه، وأن يكون الإنسان خليفة لمن قبله، وسلفاً لمن بعده، هذه كلها من لوازم الألوهية ولا تستطيع جهة في الأرض أن تدعي ذلك، لذلك ربنا سبحانه وتعالى بعد كل صفةٍ من صفات الألوهية يقول:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60))

(سورة النمل)

وقال:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

وقال:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62))

من أسماء الله سبحانه وتعالى الهادي وقد بيّن العلماء بعض معاني هذا الاسم:

يقول الله سبحانه وتعالى متابعاً خصائص الألوهية:

(أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (63))

لذلك من أسماء الله سبحانه وتعالى الهادي، وقد بيّن بعض العلماء ماذا يعني هذا الاسم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(142))

(سورة البقرة)

إذاً الله سبحانه وتعالى هو الهادي، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أن الإنسان يختار.

(يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(142))

(سورة البقرة)

معنى آخر الخالق وحده هو الذي يهدي.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي(78))

(سورة الشعراء)

معنى ثالث الإنسان الذي آمن بالله حق الإيمان يتولى الله سبحانه وتعالى إخراجه من الظلمات إلى النور، يتولى الأخذ بيده وإرشاده، لذلك يقول الله عزّ وجل:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(54))

(سورة الحج)

إذاً المؤمن بالذات مادام قد آمن بالله عزّ وجل حق الإيمان يهديه إلى صراطٍ مستقيم، وكيف لا، والمؤمن يقف في اليوم خمس مراتٍ ليردد في كل ركعةٍ من ركعاتها:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ(7))

(سورة الفاتحة)

كأن الله سبحانه وتعالى يجيبه حينما يتلو الآيات، فإذا أردت أن يحدِّثَكَ الله عزّ وجل، فاقرأ القرآن، وإذا أردت أن تُحَدِّثَهُ فادعوه، فالدعاء حديثٌ منك إليه، وتلاوة القرآن الكريم حديث الله إليك.

الدعاء كأنك تحدِّث الله وتلاوة القرآن الكريم كأنه يحدِّثُك:

تقول أنت في الصلاة:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ(7))

(سورة الفاتحة)

تقرأ ما تيسر من القرآن، يجيبك الله سبحانه وتعالى على هذا الدعاء:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة الإسراء: من آية " 53 ")

وقال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

وقال:

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: من آية " 53 ")

الدعاء كأنك تحدِّثه، وتلاوة القرآن الكريم كأنه يحدِّثُك.

إذا آمنت بالله تولّى الله هدايتك ونقلك من الظلمات إلى النور:

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنّ اللّهَ لَهَادِ الّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(54))

(سورة الحج)

أي أنك إذا آمنت بالله تولّى الله هدايتك، تولى الله نقلك من الظلمات إلى النور:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

قد جاء في معنى الاسم العظيم اسم الهادي وهو من أسماء الله الحسنى، وأسماء الله سبحانه وتعالى كلّها حسنى:

(قُلْ ادْعُوا اللّهَ أَوْ ادْعُوا الرّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء: من آية " 110 ")

المعنى الأول لكلمة الهادي أنه هدى جميع المخلوقات إلى جلب مصالحها ودفع مضارّها:

قال بعض العلماء: هدى جميع المخلوقات إلى جلب مصالحها ودفع مضارّها، الله عزّ وجل خلق وهدى.

(سَبّحْ اسْمَ رَبّكَ الأَعْلَى(1)الّذِي خَلَقَ فَسَوّى(2)وَالّذِي قَدّرَ فَهَدَى(3))

(سورة الأعلى)

وقال:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى(49)قَالَ رَبُّنَا الّذِي أَعْطَى كُلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى(50))

(سورة طه)

من معاني الهادي أنه هدى جميع المخلوقات إلى جلب مصالحها ودفع مضارّها، يستوي في ذلك الإنسان والحيوان بل والنبات، النبات يبحث عن الضوء، إذا زرعت شجرةً في أرضٍ منخفضةٍ تزداد طولاً إلى أن تصل إلى الضوء، وإذا افتقد الجذر الرطوبة في التربة، يمتد في أعماق التربة إلى قرابة ثلاثين متراً يبحث عن الماء، وإذا امتنع المُزارع عن سقي الشجرة أعطته الإشارة، تستهلك الشجرة ماء أوراقها أولاً، ثم ماء أغصانها ثانياً، ثم ماء فروعها ثالثاً، ثم ماء جذعها رابعاً، وتحافظ على ماء الجذر، لأن الأمل كله في الجذر، إذاً النبات هداه إلى جلب مصالحه ودفع مضاره، الحيوان هداه إلى رزقه، هداه إلى مأواه، هداه إلى الدفاع عن نفسه، هداه إلى البحث عن حاجاته، ودفع مضاره، وكذلك الإنسان.

المعنى الثاني الهادي هو الذي يهدي إلى طريق الحق:

إذا قلت: يا هادي، الهادي هو الذي يهدي المخلوقات إلى جلب مصالحها ودفع مضارها، هذا معنى. المعنى الثاني الهادي هو الذي يهدي إلى طريق الحق، في الأرض حقٌ واحد، الحق لا يتعدد، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتّبِعُوهُ وَلا تَتّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 153 ")

ما أكثر أنواع الباطل، الباطل يتعدد أما الحق لا يتعدد، لذلك إما أن تكون على الحق ؛ وإما أن تكون على الباطل، وليس هناك موقفُ ثالث، فإذا فسّرنا اسم الهادي بأنه الذي يهدي إليه، وإلى طريقٍ مستقيم، وإلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة فهذا من أسماء الذّات، وإذا بينا أن الهادي نَصَبَ الدلائل الدالة على وجوده، وعلى ربوبيته، وعلى ألوهيته، إذا قلنا كذلك فالهادي من أسماء الأفعال، كل شيءٍ في الكون يدل عليه، خلق السماوات والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار، الأرض وما فيها، ما عليها، وما في باطنها، الهواء، الماء، الجبال، الحيوانات، النباتات، الإنسان، كل شيءٍ خلقه الله جملةً وتفصيلاً يدل على الله سبحانه وتعالى فهو الهادي.

هدى المخلوقات إلى جلب مصالحها ودفع مضارها، وهدى الإنسان إلى طريق الحق، وجعل كل شيءٍ خلقه يدل عليه، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى هلالاً قال عليه الصلاة والسلام:

((هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ آمَنْتُ بِالّذِي خَلَقَكَ ثَلاثَ مَرّاتٍ ثُمّ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي ذَهَبَ بِشَهْرٍ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرٍ كَذَا.))

[سنن أبي داود: عن " قتادة "]

الهادي يخلق الهداية في نفوس الناس فمن طلب الهداية خلقها الله في قلبه:

بعضهم يقول: إن الهادي يخلق الهداية في نفوس الناس، من طلب الهداية خلقها الله في قلبه:

(قُلْ إِنّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 73 ")

اطلب الهداية والله سبحانه وتعالى يشرح صدرك لها، تسعد بها، تقنع بها، وبعضهم قال: الهادي هدى خواص عباده إلى ذاته، ومن خلال رؤية ذاته يرى هؤلاء مخلوقاته، وبعضهم قال: هدى عوام عباده إلى مخلوقاته، ومن خلال مخلوقاته يرون ذاته، فإما أن تهتدي من خلال الخلق إلى الحق، وإما أن تفهم الخلق في ضوء رؤيتك للحق.

على كلِ اسم الهادي من أسماء الله الحسنى، يهديك إلى سواء السبيل، يهديك إلى ذاته، يهديك إلى أمره، يهديك إلى شرعه، يهديك إلى حاجاتك، يهديك إلى دفع مضارك، يخلق في نفسك الهدى.

قال بعض العلماء: فما حظ الإنسان من هذا الاسم ؟ نحن كعباد لله عزّ وجل ما نصيبنا من اسم الهادي؟

قال بعضهم: **" أن يشتغل العبد بهداية الخلق إلى الحق ".**

إذا كنت عبد الهادي يجب أن تشتغل في هداية الخلق إلى الحق، هذا أعظم عملٍ تقوم به، أن تعرّف الناس بخالقهم، أن تعرف الناس بربّهم، أن تعرف الناس بمن بيده ملكوت أمرهم، إذاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والبَحر(63))

الله عزّ وجل جعل لكل شيءٍ علامة، جميع أنواع الفواكه لها علامة نضج، إذاً من الذي خلق العلامات، كل الأمراض لها علامات، أعراض الأمراض من الهداية، كيف يهتدي الطبيب ؟ ترتفع الحرارة، يصفر اللون، يزيد خفقان القلب، يعرف أن هناك خللاً في هذا الجسم، فالذي هدى الطبيب إلى تشخيص المرض هو الله سبحانه تعالى لوجود هذه العلامات، والذي هدى المزارع إلى قطف الثمار في أوقاتها هو الله عزّ وجل لأنه جعل لكل ثمرةٍ علامة نضجٍ، والذي هدى النحل إلى الأزهار هو الله عزّ وجل، والذي هدى الطير في رحلته الطويلة التي تزيد عن سبعة عشر ألف كيلو متر هو الله عزّ وجل.

الله عزّ وجل خلق وهدى لو خلق ولم يهدِ لهلك الإنسان:

قد تجد طائراً يعشش في بيت من بيوت دمشق، وليكن في حي الصالحية مثلاً، يهاجر في الشتاء إلى جنوب إفريقيا، يعود منها إلى الشمال، لو أنه انحرف نصف درجة لجاء في مصر، لو انحرف نصف درجةٍ أخرى لجاء في ليبيا، لو انحرف درجتين إلى اليمين لجاء إلى العراق، من هداه إلى أن يتجه بزاويةٍ دقيقةٍ جداً حتى يصل إلى دمشق لا إلى بيروت، ولا إلى تدمر، إلى دمشق، وإلى حي الصالحية، وإلى الحارة الفلانية، وإلى البيت الفلاني، حتى يعود إلى عُشّه الذي بناه قبل عام، من الذي يهدي ؟!!

سمك السلمون الذي يهاجر من ينابيع الأنهار في أمريكا، ويستقر في المحيط الأطلسي، ثم يعود إلى مسقط رأسه، هذا السمك يتجه غرباً، كيف يصل تماماً إلى مصب الأمازون، أو إلى مصب المسيسبي، أو إلى مصب هذا النهر بالذات، لو انحرف قليلاً لجاء في مصب نهرٍ آخر، ويظل يقاوم تيارات الماء والشلالات في الأنهار إلى أن يصل إلى مسقط رأسه وهناك يبيض ويموت، من هداه ؟!!

بعض أنواع الأفاعي في البحار تتجه من ينابيع نهر النيل إلى بحر الشمال تحت الماء، أيستطيع إنسان تحت الماء أن يتجه شمالاً في نهر النيل، فينتقل منه إلى البحر المتوسط، فيتجه غرباً إلى أن يقطع البحر

كله من مضيق جبل طارق، ثم يتجه شمالاً محازياً إسبانيا، ثم يتجه شرقاً ليدخل بحر المانش، ثم يتجه شمالاً ليتجه إلى بحر الشمال، وبعدها يعود، من الذي هداه ؟ الله هو الهادي.

هدى الأطيار، وهدى الأسماك، وهدى الوحوش في البراري، وهدى الحيوانات الأليفة، وهدى الإنسان، هداه إلى حاجاته، كل شيءٍ اسمه كشفٌ علمي هو من هداية الله عزّ وجل، ما كان لعالمٍ مكتشف أن يكتشف لولا أن الله ألقى في قلبه هذه الفِكرة، اكتشاف الثروات، اكتشاف المعادن، اكتشاف خصائص المواد، كل شيءٍ يخترعه الإنسان أو يكتشفه صنّفه علماء النفس في حقل الحدس الإشراقي، شيءٌ لا ندري ما هو، فكرةٌ تلقى في قلب هذا العالم، ومضةٌ تبرق في ذهن هذا المكتشف، هو الله، الله هو الهادي، الله عزّ وجل خلق وهدى، لو خلق ولم يهدِ لهلك الإنسان.

الهداية لها معنى آخر فالله تعالى أودع في الإنسان قوة إدراكية ليدرك ما حوله:

يهدي الطبيب إلى الدواء المناسب، يهدي الطبيب إلى تشخيص المرض الصحيح، يهدي المريض إلى الطبيب، خلق الأمراض وجعل لها علامات، خلق الأدوية وجعل لها علامات، وهدى العالم المكتشف إلى خصائص الدواء، وإلى علاقته بهذا الداء، فلو أمضينا أوقاتاً طويلةً جداً في الحديث عن الاسم اسم الله عزّ وجل الهادي لما انتهينا، شيءٌ لا ينتهي عند حد.

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يشير إلى معنىً واحد من معاني اسم الهادي، وهو أنه يهدي المخلوقات إلى جلب منافعها ومصالحها ودفع مضارها.

الهداية لها معنى آخر، من أودع في الإنسان هذه القوة الإدراكية ؟ هذا الحجر موجود وله ذرات تدور حول بعض النويّات، ولكن الحجر لا يدرك، النبات لا يدرك، الحيوان يدرك مصالحه فقط، هو يعيش لهذا الهدف، وكل ما يعينه على بلوغ هذا الهدف يدركه، لكن الإنسان يدرك كل ما حوله، من أودع فيه هذه الحواس الخمس التي يتلقف بها المعلومات من المحيط ؟ من أودع فيه هذا الفكر الذي يحلل هذه الإحساسات ؟

الإنسان أحياناً يرى أفعى في بستان، إذا نظر إليها ينطبع شكلها على شبكيته وهذا هو الإحساس، ثم تنتقل هذه الصورة من الشبكية عبر العصب البصري إلى الدماغ، فعلى شبكية العين يتم الإحساس، وبالدماغ يتم الإدراك، والإدراك متعلقٌ بالمفاهيم، حينما كان طفلاً صغيراً درس في الصف الثاني عن الأفعى، ورأى صورتها في كتاب العلوم، ثم رآها في زجاجة مُحَنَّطة، ثم رآها مرةً مع أبيه في بعض البساتين، هذه الصورة وهذا الشكل وهذا المنظر وهذه القصة التي سمعها عن أفعى لدغت طفلاً، يجتمع من خلال هذه المشاهدات والمسموعات مفهوم الأفعى حيوانٌ خطر وسام، لدغته قاتلة، فإذا انطبع شكل

الأفعى على شبكية العين هذا هو الإحساس، انتقلت هذه الصورة إلى الدماغ، يتمُّ في الدماغ الإدراك في ضوء المفهومات التي حصّلها الإنسان من خلال علاقته بالمحيط، الدماغ يدرك أن هذه الأفعى خطرة، الدماغ يعطي أمراً إلى الغدة النخامية، وهي ملكة النظام الهرموني، الغدة النخامية تعطي أمراً هرمونياً، الدماغ ومن معه الأوامر عصبية من خلال موجات كهربائية، لكن الغدة النخامية هي ملكة ومن معها الأوامر هرمونية، فالغدة النخامية تعطي أمراً إلى الكظر، الكظر يعطي أربعة أوامر، يعطي أمراً إلى القلب ليزيد وجيبه، يزيد خفقانه من أجل أن يمر الدم سريعاً إلى العضلات، لأن العضلات بحاجةٍ إلى قوةٍ للتحرُّك، والكظر يعطي أمراً آخر إلى كل الأوردة والشرايين، إلى كل الأوعية الدموية كي تُضَيّق لمعتها، لأن الإنسان وهو خائف ليس بحاجةٍ إلى شكلٍ وردي، بحاجةٍ إلى قوةٍ عضلية، فهذه غدة الكظر تعطي أمراً إلى كل الأوعية الدموية بتضييق لمعتها، فالخائف يصفر لونه، والخائف يزيد خفقان قلبه، ويصدر هرمون ثالث إلى الرئتين ليزداد وجيبها، حتى يتناسق ضربات القلب مع وجيب الرئتين، وأمرٌ رابع يتجه إلى الكبد لطرح كميةٍ إضافيةٍ من السكر، من هو الهادي ؟ الله سبحانه وتعالى.

الإنسان بالعقل والفكر يستدل على شيءٍ مُغَيّبٍ عنه بشيءٍ أمامه:

أنت لا تدري، أنت رأيت أفعى فولّيت هارباً، واصفر لونك، وخفق قلبك، وازداد وجيب رئتيك، ولو فحصنا الدم لكان فيه كمية سكر إضافية، ما دريت شيئاً، من الذي هدى ؟ من الذي هداك ؟ من الذي أودع فيك هذه القوة الإدراكية ؟ أدركت، انطبعت الصورة، حُلِّلت في الدماغ، عرف الخطر، انتقل الأمر من الدماغ إلى الغدة النخامية، الغدة النخامية إلى من معها، من معها الكظر أعطت أوامر، الله هو الهادي، أنت لا تدري فهذه حادثة واحدة.

جهاز الهضم معقد جداً، جهاز الدوران معقد جداً، أي جهازٍ تتمتع به في غاية التعقيد، الله سبحانه وتعالى هو الهادي، إذاً من أودع في الإنسان تلك القوة الإدراكية ؟ الإنسان بالعقل يستدل، ماذا قال هذا الأعرابي ؟ قال: **" الأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، والبعر يدل على البعير، أفسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟! "**

الإنسان بهذا العقل أو بهذا الفكر الذي أودعه الله فيه يستدل على شيءٍ مُغَيَّبٍ عنه بشيءٍ أمامه.

لو تتبعتم كيفية أو طريقة اكتشاف الجريمة، لرأيتم العجب العجاب، كل شيءٍ له أثر، لا يمكن أن يترك المجرم الجريمة من دون أثر، ولو شعرة، ولو بصمة، ولو خيط، ولو بطاقة، ولو ورقة، ولو نقطة دم، هذه تقود المحققين إلى خيوط الجريمة، الله هو الهادي، بل إن جريمةً ارتكبت في بعض ولايات أمريكا كما قرأت من دون أن يدع المجرم لهذه الجريمة دليلاً إطلاقاً، القاضي فكّر في أن هذا الذي ارتكب هذه

الجريمة لا بدَّ من أنه متخصصٌ في البحث عن المجرمين، إذاً قد يكون قاضياً، وكان عدم ترك الدليل دليلاً، إذاً الدليل هو الله عزّ وجل الذي خلقه، فالإنسان بالفكر يستدل وبالفكر يستقرئ.

هذا المعدن تمدد بالحرارة، من خلال تجارب عديدة يستنبط من أن المعادن تتمدد بالحرارة، هذا استقراء، عندنا استنتاج، ومحاكمة، وتذكّر، ومفاهيم، وعملية الرَبط، وعملية التعميم، هناك البناء، والتحليل، هذا كله من نشاطات العقل البشري، من أودع في الإنسان هذه القوة الإدراكية ؟ الله الهادي، هو الذي يهديك.

الإنسان مخلوق أول مكرم عند الله عزّ وجل:

من جعل هذه الحواس تلتقط هذه الصور ؟ العين تلتقط الصور وتخزنها في الذاكرة، هناك ذاكرة مرئيّات، والأذن تلتقط الأصوات وتخزنها في ذاكرة المسموعات، والأنف يلتقط الروائح ويخزنها في ذاكرة المشمومات، والجِلد يلتقط الأحاسيس ويخزنها في ذاكرة الإحساسات، هذه الذاكرة التي تَنْعُمُ بها فيها عددٌ لا يحصى ولا يعد من الصور، تقول هذا الإنسان رأيته قبل عشرين عاماً، انطبعت صورته في ذهنك، هذا الصيدلي تسأله عن الدواء، يقول لك: نعم عندي، إنها على الرف الثالث على اليمين، معنى ذلك أن هذا الصيدلي كل الأدوية في صيدليته منظمةٌ في ذاكرته، وكل الباعة كذلك، من الذي يهدي ؟ الله سبحانه وتعالى يهدي.

إذاً من جعل هذه الطاقة التي تدرك هذه المحسوسات تستدل، وتحاكم، وتتذكر، وتفهم، وتربط، وتحلل، وتركِّب، وتستنتج، وتستقرئ، وتستدل، الله سبحانه وتعالى، لذلك الإنسان مخلوق أول، مخلوق مكرم عند الله عزّ وجل.

الحقيقة موضوع الهدى موضوع دقيق جداً، آثرت أن يكون هذا الدرس متمحوراً حول الهدى، لأن هناك أفكاراً العوام يتداولونها، هذه الأفكار تعيق الإنسان عن أن يهتدي، يقول لك أحدهم: الله عزّ وجل هو الذي يهدي، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وكأنه لا علاقة له بالهدى، هذه فكرةٌ خطيرةٌ جداً، إذا نزعت عنك مسؤولية الهدى، وعزوت الهدى والضلال إلى الله عزّ وجل من دون فهمٍ صحيح، فهذا شيءٌ خطير، هذا يُقْعِدُكَ عن طلب الهدى.

الله عزّ وجل أنعم علينا بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ونعمة الإرشاد:

بعض الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، الله سبحانه وتعالى ماذا قال ؟ قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

الهدى علينا، أي أن على الله أن يهدي، وهذه (على) تفيد الإلزام، أي أن الله عزّ وجل ألزم نفسه أن يهدي الخلق إليه، وإلى طريق الحق، وإلى طريق سعادتهم، لأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، قال:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي(78))

(سورة الشعراء)

لا يهدي إلا الخالق، المخلوق لا يهدي إلا إذا أناب إلى الله، الله عزّ وجل قال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان: من آية " 15 ")

والآية الكريمة المعروفة عندكم:

(وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ)

(سورة الأعراف: من آية " 43 ")

إذا كنت مهتدياً فهذه نعمةٌ كبرى أنعم الله بها عليك، الله عزّ وجل أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد.

إما أن تكون مع هدى السماء أو أن لا تكون مهتدياً لأن الهدى من الله وحده:

شيءٌ آخر هو أن الهدى لا يسمّى هدى ولا يكون هدىً إلا إذا كان من الله:

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى)

(سورة البقرة: من آية " 120 ")

وقال:

(قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 73 ")

آيتين:

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى)

(سورة البقرة: من آية " 120 ")

وقال:

(قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 73 ")

لا يوجد هدى آخر من عند غير الله، ليس هناك هدىً من الأرض، يجب أن يكون الهدى من السماء، فإما أن تكون مع هدى السماء أو أن لا تكون مهتدياً، الهدى من الله وحده.

كل إنسان مخير في هذه الحياة الدنيا:

شيءٌ آخر، الله عزّ وجل قال:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

وقال:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

الإنسان إذا هداه الله عزّ وجل أو إذا اهتدى إلى الله يزيده الله هدىً، والإنسان مخير، الله عزّ وجل قال:

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من آية " 17 ")

وقال:

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)

(سورة مريم: من آية " 76 ")

وطريق الهدى هو الجهاد، جهاد النفس والهوى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

(سورة العنكبوت)

الهدى متعلق بالإنسان ولو كان متعلقاً بمحبة النبي لهدى الناس جميعاً:

الهدى من دون جهد مستحيل، هدى وأنت في بيتك، العلم يؤتى ولا يأتي، لا بدّ من أن تتحرك كي تهتدي، لا بدّ من أن تبذل وقتاً تعرف فيه ربك، لا بدّ من أن تبذل جهداً ثميناً في معرفة الله:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

(سورة العنكبوت)

مثلاً شهادة عُليا لا يمكن أن تنالها إلا بجهدٍ كبير، وعرقٍ غزير، ووقتٍ طويل، الشيء الذي أحب أن أنّوه به هو أن الله سبحانه وتعالى يقول: يا محمد:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

الهدى متعلق بالإنسان، لو أن الهدى متعلق بمحبة النبي لهدى الناس جميعاً:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

أي لن تستطيع أن تهدي من أراد غير الهدى، من أراد شهوته، من أراد ملذاته لن تستطيع أن تهديه:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

الله عز وجل لا يهدي القوم الظالمين ولا يهدي القوم الكافرين:

شيءٌ آخر، لست محاسباً على عدم هدايتهم:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 272 ")

يا ترى الله سبحانه وتعالى يقول في بعض الآيات:

(يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة المدثر: من آية " 31 ")

من هؤلاء الذين يهديهم إليه، ومن هؤلاء الذين يضلُّهم ؟ في آياتٍ كثيرة بيَّن الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين يهديهم، وهؤلاء الذين يضلُّهم، فمثلاً الله عزّ وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(50))

(سورة القصص)

لمجرد أن تقع في الظلم فإن الله لا يهديك، الظلم ظُلُماتٌ يوم القيامة، الذي يقع في ظلم زوجته، أو ظلم شريكه، أو ظلم جيرانه، أو ظلم من دونه، هذا لن يهتدي إلى الله عزّ وجل، لأن عمله السيئ حجبه عن الله، والله سبحانه وتعالى طيبٌ ولا يقبل إلا طيباً، وفي آيةٍ ثانية:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

لا يهدي القوم الظالمين ولا يهدي القوم الكافرين، الكافر مُعْرِض، هذا الذي أعرض عن الله عزّ وجل التفت إلى الدنيا، إلى الملذات المحرمة، إلى الشهوات المنحطة، إلى مآربه الدنيئة، إلى نزواته الشريرة، هذا الذي يلتفت إلى الدنيا ويدير ظهره للدين هذا كافر، لن يهديه الله عزّ وجل.

كل إنسان له انحراف لن يهتدي إلى الله عزّ وجل لعدة أسباب:

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(50))

(سورة القصص)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

وقال:

(وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(5))

(سورة الصف)

كل إنسان له انحراف لن يهتدي إلى الله عزّ وجل، لأسباب أولاً: لأن هذا الانحراف حجابٌ بينه وبين الله، ثانياً بدل أن يعتقد الحقيقة الموضوعية يدافع عن نفسه وعن انحرافه، يستخدم فكره وعقله لا لمعرفة الله عزّ وجل بل للدفاع عما هو فيه من انحراف، يصبح منطقه تبريرياً، يصبح منطقه في خدمة شهواته، شهواته أولاً وعقله لتبرير شهواته ثانياً، هذا الإنسان لن يهديه الله عزّ وجل.

أية خيانةٍ على وجه الأرض لابدّ من أن تُكْشَف لأن الله تعالى لن يهدي صاحبها إليه:

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(50))

(سورة القصص)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

وقال:

(وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(5))

(سورة الصف)

وقال:

(وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(52))

(سورة يوسف)

أية خيانةٍ على وجه الأرض لا بدّ من أن تُكْشَف لأن الله عزّ وجل لن يهدي صاحبها إليه..

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ(3))

(سورة الزمر)

الكاذب مع نفسه والمسرف لا يهديه الله عزّ وجل ولكنه يهدي من رجع وتاب إليه:

هذا الذي يدّعي أنه يحب الحقيقة ولا يبتغيها، يريدها تُكَأَةً لمآربه، ولا يريدها لذاتها، هذا كاذب مع نفسه، فالكاذب مع نفسه لا يهديه الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ(3))

(سورة الزمر)

وقال:

(إِنّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ(28))

(سورة غافر)

المسرف في الشهوات، المسرف في الظلم، المسرف في تجاوزه للحدود، المسرف في العدوان، هذا لن يهديه الله عزّ وجل، يهدي من ؟ الله سبحانه وتعالى يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام:

(يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنْ اتّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(16))

(سورة المائدة)

وقال:

(وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(27))

(سورة الرعد)

من رجع إلى الله، من تاب إليه، من اصطلح معه يهديه إلى سواء السبيل.

الله عزّ وجل يلهم المؤمن دائماً طريق الخير والنجاة والفوز والرضوان:

قال تعالى:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

(سورة يونس: من آية " 9 ")

المؤمن مسدد، المؤمن ملهم، الله عزّ وجل يلهمه دائماً طريق الخير، يلهمه النجاة، يلهمه الفوز والرضوان.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

(سورة يونس: من آية " 9 ")

ربنا عزّ وجل قال:

(وَاتّبِعُوهُ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ(158))

(سورة الأعراف)

أي أنك إذا اتبعت هذا النبي العظيم، إذا طبّقت سنته بجملتها وتفصيلاتها تهتدي إلى الله عزّ وجل:

(وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(158))

(سورة الأعراف)

وقال:

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(15))

(سورة النحل)

كل ما في الكون خُلِقَ ليهدي الإنسان والإنسان هو المخلوق الأول غافلٌ عن الله عزَ وجل:

الكون يهديك، وسنة النبي تهديك، والقرآن يهديك:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2))

(سورة البقرة)

القرآن يهديك، وسنة النبي تهديك، والكون يهديك.

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

الحوادث تهديك:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: من آية " 30 ")

الفطرة تهديك، والعقل يهديك، والكون يهديك، وكل شيءٍ يهديك فماذا تنتظر ؟ ألا يستحي الإنسان من هذه المخلوقات التي هي دونه بكثير والتي تسبّح بحمد الله دائماً:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

هذه الورقة تسبّح الله، هذا الغُصن، هذه الشجرة، هذه الزهرة، هذا المخلوق، هذا الحجر يسبح الله، والإنسان هو المخلوق الأول غافلٌ عن الله عزَ وجل، إذاً العقل يهديك، والفطرة تهديك، والكون يهديك، والقرآن يهديك، والنبي يهديك، والسنة تهديك، والحوادث تهديك، وإلهامات المَلَك تهديك، وقد يريك الله مناماً يهديك به، فالطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

الشيء الخطير أن يكون الإنسان ضالاً ويحسب أنه مهتدٍ:

لكن الشيء الخطير أن يكون الإنسان ضالاً ويحسب أنه مهتدٍ، هنا الخطورة، فالكفّار:

(وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ(30))

(سورة الأعراف)

هذه مشكلة كبيرة جداً.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

هو ضالٌ مضل ويحسب أنه مهتدٍ، والشيء الدقيق أن المهتدين قِلّة، ربنا عزّ وجل قال:

(فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(26))

(سورة الحدي)

وقال:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 116 ")

وقال:

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

(سورة يونس: من آية " 36 ")

الله وحده هو الذي يعلم من هو المهتدي ومن هو الضال:

الأكثرية في ضلال فلذلك:

(فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(26))

(سورة الحديد)

والحقيقة الله وحده هو الذي يعلم من هو المهتدي من الضال ؟

(وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا(6))

(سورة النساء)

وقال:

(وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا(79))

(سورة النساء)

الهدى القسري الذي لا يُبنى على اختيارٍ شخصي من الإنسان لا قيمة له:

على كلٍ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(13))

(سورة السجدة)

وهناك آياتٌ كثيرة تقول:

(لَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد: من آية " 31 ")

هذا الهدى القسري الذي لا يُبنى على اختيارٍ شخصي من الإنسان لا قيمة له إطلاقاً، لا عند الله، ولا عند الناس، ولا عند الذي تم الهدى له، فكلما مرت بكم مثل هذه الآيات يجب أن تفهموها فهماً دقيقاً، فالجامعة بإمكانها أن توزع أوراق الإجابة وقد كتبت عليها الإجابة الصحيحة، ويكلف الطلاب كتابة أسمائهم وأرقامهم ليس غير، ويعطى كل طالبٍ العلامة التامة، هذه طريقة من طرق النجاح العام، ولكن هذا النجاح لا قيمة له لا عند إدارة الجامعة، ولا عند الطلاب الناجحين بهذه الطريقة، ولا عند الناس.

سر رُقي الإنسان في الجنة أنه مخير:

كلما مرّ بكم آيةٌ بهذا المعنى:

(لَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد: من آية " 31 ")

لماذا لم يشأ ؟ لأن الإنسان مخيَّر، ولا قيمة للهدى إلا إذا جاء بطلبٍ منه، وبمحض اختيارٍ منه، أما إذا أجبر عليه لا قيمة له، فليس معنى هذه الآية أن الله عزّ وجل لا يحب الهدى للناس، لا، المعنى أن الله عزّ وجل كرّم هذا الإنسان أعظم تكريم، منحه حرية الاختيار، ولن يسعد في الجنة إلا إذا جاءه طائعاً، لا يكون العبد عبداً لله عزّ وجل إلا إذا أطاعه وبإمكانه أن يعصيه، لا يمكن لهذا العبد أن يرقى عند الله عزّ وجل إلا إذا أقبل عليه وبإمكانه أن يبتعد عنه، إذا لم تبتعد عن المعصية لا قيمة لهذا القرب وهذا الهدى، إذاً كل آيات القرآن التي تقول:

(لَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد: من آية " 31 ")

أي يا عبادي أنتم مخيرون، لو أنني سأجبركم على شيء لأجبرتكم على الهدى، ولكنكم مخيرون، إذاً سر رُقي الإنسان في الجنة أنه مخير.

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

قيمة العمل تأتي من حرية الاختيار، المسؤولية تأتي من حرية الاختيار، الجنة قيمتها من حرية الاختيار، النار عذابها من حرية الاختيار، لو ألغينا حرية الاختيار لما كان هناك وعدٌ ولا وعيد، ولا ثوابٌ ولا عقاب، ولا جنةٌ ولا نار، ولكان إنزال الكتب عبثاً، وإرسال الرسل لعباً، ولكان الثواب وهماً، والعقاب ظُلماً، وهكذا.

الإنسان مسيّر لما اختار وهو مسير لدفع ثمن اختياره:

إذاً آيات القرآن الكريم كثيرة تنطق بأن الإنسان مخير:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

وقال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة)

الإنسان في دائرة مخيَّر، وفي دائرة أوسع منها مسيَّر، هو مسيَّر لما اختار، والإنسان مسير لدفع ثمن اختياره، إذاً هذا الذي يقول: إلى أن يشاء الله، إلى أن يأذن الله، لا أصَلِّي حتى يأذن الله، هكذا يريد سيدك، وهذا ترتيب سيدك، هذا كلام ليس له معنى إطلاقاً، وكلام العوام كلامٌ مرفوض، وآيات الهدى واضحة تماماً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (14-18): تفسير الآيات 64 - 72
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-03-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الرابع عشر من سورة النمل.

في بدْء الخلق تتمثّل أسماء الله الحسنى وفي إعادة الخلق يتمثّل اسم الحق:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64))

(سورة النمل)

الله سبحانه وتعالى يطْرحُ أيضاً هذا السؤال على الناس، أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده؟ الله سبحانه وتعالى بدأ الخلق وسوف يُعيد الخلق، في بدْء الخلق تتمثّل أسماؤه الحسنى، وفي إعادة الخلق يتمثّل اسم الحق، قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64))

الإيمان بالله عز وجل من لوازمه أن تؤمن باليوم الآخر، لأنّ الحياة فيها قويّ وضعيف، صحيح ومريض، فيها طويل العمر وقصيره، وفيها أنواع مُنَوّعة من الحظوظ، الله سبحانه وتعالى وزّع الحظوظ في الدنيا توْزيع ابْتِلاء، فكلّ إنسانٍ حظُّه من الدنيا مادَة امْتِحانه مع الله عز جل، قال تعالى:

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (7))

(سورة هود)

الله تعالى وزّع الحظوظ في الدنيا توْزيع ابْتِلاء لكنّها في اليوم الآخر تُوَزّع توزيع جزاء:

لكنّ اليوم الآخر من أجل أن تُوَزّع الحظوظ ثانيةً توزيع جزاء، قال تعالى:

(وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (22))

(سورة الجاثية)

يوم الدِّين، ويوم الجزاء، ويوم الحِساب، ويوم الدّينونة، ويوم يقوم الناس لربّ العالمين.

في إعادة الخلق يأخذ كلّ إنسانٍ حقّه، ويُعْطى كلّ ذي حقٍّ حقّهُ، فالإنسان إن رأى الأمور على غير ما يرام في الدنيا فليصبر فنحن في دار ابتلاء، ونحن في دار عمل، ونحن في دار سِباق، ونحن في دار تكليف وامتِحان، أما اليوم الآخر فهو يوم الجزاء، ويوم العدل، ويوم القسط، ويوم الفصل، ويوم الدّينونة، قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (64))

هذه السماء من الذي جعلها تُمطِر ؟ هل في الأرض كلّها جِهةٌ تستطيعُ أن تتّخِذ قراراً بإنزال المطر، مهما علَتْ هذه الجِهة، ومهما سَيْطرَت، ومهما اتّسَعَ نفوذها، ومهما امْتَلَكَتْ من أسْلحةٍ، هل تستطيعُ جهة في الأرض أن تمتَلِكَ إنزال المطر ؟!! لذلك في البلاد المطيرة التي تشْهد عمّا يزيد عن ألف ميلي متر في العام، في العام الماضي عانَتْ من قحْطٍ وعطشٍ شديد، الله سبحانه وتعالى هو الذي يسْمحُ للسّماء أن تُمْطر، لو أنّ السماء أمْطرَت من الذي يجْعَلُ هذه البذْرة تُنْبتَ ؟ فهذه البذْرة فيها رُشَيْم، وإذا كان قد بلغنا أنّ بعض أنواع البذور السّبْعين ألف بذرة منها يساوي غراماً واحداً ! وكلّ بذرة فيها غِشاء، وفيها محفظة غِذاء، ورشيم حيّ، هذا الرُّشَيم مؤلّف من سُوَيْق، ومن جُذَيْر، من يجعل هذا الرُّشَيم ينبت في الجوّ المناسب ؟ وفي الرطوبة والدِّفء والضّوء ؛ ثلاثة شروط، هو الله ! لذلك من يرزقكم من السماء والأرض ؟ لو أنّ السماء لا تُمْطِر والأرض لا تُنبت هل يبقى على وجه الأرض إنسان ؟

آية النبات وحدها آية كافِيَةٌ لِمَعرفة الله عز وجل:

قال تعالى:

(أإله مَعَ اللّهِ (64))

هل تستطيعُ جهة في الأرض أن تدّعي ذلك ؟ هل تستطيعُ جهة في الأرض أن تقول: أنا أُنْبتُ النّبات وأُنزلُ المطر ؟ آية النبات وحدها آية كافِيَةٌ لِمَعرفة الله عز وجل، هذه الأشجار الآن أزْهَرَت وقد كانت أخْشاباً، من جعل هذه العُصارة تمشي فيها ؟ من جعَلَ هذا الماء الذي تمتصُّه من باطن التربة يصْعد إلى أعالي أغْصانها ؟ هل هناك مضَخّة ؟ ومن جعل هذه الأنابيب التي تصعدُ نحو الأعلى مُزَوّدة بأجهزة دقيقة جدّاً تُسمَى الخاصة الشّعريّة ؟ ومن جعل هذه الأنابيب الهابطة مُزوّدة بمَصافٍ ؟ هذه العُصارة الهابطة هي التي تصنع الفاكهة، فالمعمل هو الورق، والورقة تُصْنع فيها العُصارة الهابطة، وتهبطُ وتُصبحُ تُفّاحة أو كُمّثرى أو أنواعاً منوّعة من الفواكه، قال تعالى:

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ(4))

(سورة الرعد)

كلمة إنّ في الآية تعني التّوكيد:

الإنسان إذا لم يلتَفِت إلى هذه الآيات الصارخة، فإلى ماذا يلتفت ؟ قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (64))

ما قيمة المال لو لم يكن هناك الثّمرات ؟ مِن القِصص المألوفة أنّ إنساناً كان يقطعُ البوادي والقفار على راحلته، فضلّ الطريق، نفِدَ في هذه الرّحلة طعامه وشرابه، فلاحَ له عن بُعْدٍ شجرةً فأشْرقَ في نفسِهِ نور من الأمل، هرع نحْوها، فإذا إلى جانب الشّجرة برْكة ماءٍ، شربَ منها حتّى ارْتوى، ثمّ تولّى إلى الظلّ فإذا كيسٌ مملوء، فَسُرّ به سُروراً عظيماً وهو يحْسبُ أنّ فيه خبزاً، ولكن فتَحَ الكيس فما وجد به إلا لآلئ، فصاح قائلاً: وا أسفاه ! هذه لآلئ !! ماذا يفعلُ بها ؟ ما قيمة اللآلئ والجواهر والألماس والذّهَب إذا فقد الطعام والشراب، فالرزق في السماء والأرض، الأرض تُنبت والسماء تُمْطر، ولولا أنّ السماء تمطر والأرض تنبت لما كانت هناك حياة إذاً هذه العُمْلة ؛ النُّقود هي أشياء رمْزيَة، أما الأساس أنّ الله عز وجل هو الرَزاق ذو القوّة المتين، وكلمة إنّ في الآية تعني التّوكيد، تقول: إنّ العِلم نافعٌ، وتقول: العِلم نافعٌ، ماذا أضافَت إنّ على التَركيب ؟ التّوكيد، فالله تعالى قال:

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(58))

(سورة الذاريات)

أكّدَ لك أنّه هو الرزاق بكلمة (إنّ)، وأكّدَ لك أنّه رزّاق بكلمة (هُوَ)، وأكّدَ لك أنّه هو الرزاق بصيغة الرّزاق، وهي صيغة مبالغة على وزن فعّال.

كلمة (على) هنا تُفيد الإلزام والله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفْسهُ برزق المخلوقات:

قال تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (6))

(سورة هود)

مَن لاستغراق أفراد النّوْع، أيّةُ دابّة مهما ضؤُلتْ، وإنّ الله يرْزقُ النّملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظّلماء، قال تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (6))

(سورة هود)

أيُّ دابّة على سبيل الاستقصاء، وعلى سبيل التّقصّي إلا على الله رزقها، وكلمة (على) هنا تُفيد الإلزام، والله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفْسهُ برزق المخلوقات، لذلك قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (64))

يقول لك: الله هو المُسعِّر، فقبل سَنَتَيْن، الذين ضَمِنوا فاكهة المِشْمِش كما تُسمَّى دفعوا ثمنها عشرة ليرات للكيلو، فإذا أسعارها خمس ليرات، جاءَتْ كمّيات كبيرة جدّاً فانْخَفَضَتْ الأسعار، من جَعَلَ أسعار الحِمْضِيَّات في هذه السَّنة قليلة ؟ الله سبحانه وتعالى، يكثر المحصول فتنخفض الأسعار، لذلك إن قلتَ: إنّ الله هو المُسَعِّر فهذا كلامٌ صحيح لأنّ السِّعْر يتناسب مع الكميَّة، أحياناً تأتي الكمّيات خياليّة، كلّ سنة يظْهر لِعباده بعض آياته، في العام الماضي القطن كان بكَمّياتٍ كبيرة فربّنا عز وجل هو الرَّزاق، يُضاعف الكمّيات أضعافاً مُضاعفة فيهْبط السِعْر، لذلك هو المسعِّر، قال لي مرَّةً أخٌ: إنّ الدُّراق دائماً غالٍ وقد بيع الكيلو منه بليرة في سوق الخضار هذه المرة، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(58))

(سورة الذاريات)

الله عز وجل إذا قَنَّنَ فتقْنيئُهُ تقنين تأديب وليس عنده تَقنين عَجْز:

الله عز وجل إذا قَنَّنَ فتقْنيئُهُ تقنين تأديب، وإذا أعطى فهذا إكرام والله عز وجل ليس عنده تَقنين عَجْز، أما نحن بني البشر إذا قنَّنا فعن عَجْز، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (36))

(سورة سبأ)

وفي آية ثانية:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(27))

(سورة الشورى)

فهناك حِكمة مِن التَّضييق، قال تعالى:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً(16))

(سورة الجن)

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

(سورة الأعراف)

الرّزْق مُتَعَلِّق بالله تعالى فِعْلاً ومُتَعلِّق بالعبد اسْتِحقاقًا وحِكمةً:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ(66))

(سورة المائدة)

الرّزْق مُتَعَلِّق بالعَبد، ومتعلِّق بالله تعالى فِعْلاً، ومُتَعلِّق بالعبد اسْتِحقاقاً وحِكمةً، وفي الأثر:

((إنّ من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغْنَيْتُهُ أفْسَدتُ عليه دينه ـ لِمُجَرّد أن يغتني يعْصي، فرحمةً به يبقى في ضيق ـ وإنّ من عِبادي من لا يصْلحه إلا الغِنى فإذا أفقرْتُهُ أفْسدْتُ عليه دينه.))

[ورد في الأثر]

يُحِبّ العطاء لذلك الرّزق متعلِّق من حيث الفِعْل بالله عز وجل، ومن حيث الإنسان بالاسْتِحقاق أو الحِكمة، قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64))

قبل سنوات قليلة حصَلَتْ في إفريقيا مجاعَة، شحَّتْ الأمطار، ويبسَ النبات، ومات الحيوان وأوْشَكَ الإنسان أن يموت فرحل، الله عز وجل بيَدِهِ المِفتاح، والرّزق بيَدِهِ إما أن يفتحَهُ أو يقننه، أحياناً ترى أنّ هذه البلاد تُعاني مِن شُحّ الأمطار، وبلاد أخرى تُعاني من كثرتها حتى أصبَحَت سُيولاً قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21))

(سورة الحجر)

الإنسان في قبْضة الله لن يَنْجُوَ من قضائه إلا أن يكون كما يريد:

أحياناً يأتي الصّقيع فَيُتْلِفُ كلّ المحصول، قبل أربعة أسابيع جاءَت موجة صقيع في المنطقة الوُسطى من القطر ؛ تسعة تحت الصِّفر، محاصيل كثيرة تلِفَتْ، جاء الصّقيع في وقتٍ غير مناسب وإنّ الله هو خالق كلّ شيءٍ، وأنت تحت ألطاف الله عز وجل، وأنت في قبْضة الله تعالى، يكون لك محصول يُقدَّر بالملايين، من خِلال مَوْجة صقيع نصف ساعة يصبحُ أسود اللّون، قال تعالى:

(فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ(45))

(سورة الكهف)

الآية الكريمة:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(20)فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ (21) أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ(22)فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ(23))

(سورة القلم)

أنت وتِجارتك وزراعتك وصناعتك ومتْجرك وصحتك وصناعتك في قبْضة الله، لا يُنَجّيك ممّا يريد إلا أن تكون كما يريد، إذا كنتَ له كما يريد كان لك كما تريد ! ابْن آدم كُنْ لي كما أريد أكن لك كما تريد، كُن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بما يُصلْحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلّمْتَ لي فيما أريد كَفَيْتُكَ ما تريد وإن لم تُسلِّم لي فيما أريد أتْعَبْتُكَ فيما تريد، ثمّ لا يكون إلا ما أُريد وهذه حقيقة أساسيّة في الدِّين، إذا وصلتَ إليها وصَلْتَ إلى كلّ شيء، يعني أنت في قبْضة الله، لن تنْجُوَ من قضائه إلا أن تكون كما يريد، لذلك أرْجحكم عَقلاً أشدّكم لله حبّاً وطاعةً، كلّما رجَحَ العقل ارْتَفَعَ مستوى الطاعة، وكلّما انْخفض مستوى الطاعة فهذا لِخَلل في العقل، لأنّ المصير بيَدِهِ، مصيرك، وصحّتك، ورزقك، وأولادك، وأهلك، ومن حولك، ومن فوقك، ومن دونك، كلّهم بيَدِ اله عز وجل.

الله تعالى بيَدِهِ كلّ شيء وفي الكون حقيقة كبرى ولا حقيقة سواها وهي الله سبحانه:

سَمِعتُ قبل شهْرٍ أن عاصفةً من الرّياح هبّتْ في بلدٍ أوروبي، سرعتها مائة وثمانون كيلو متراً بالساعة، سبعون مؤسّسةٍ زراعيّة فلْسَتْ، ضاعَتْ أصولها، وحتى البناء قُلِعَ من أساسه، وحتى النباتات، والمحصول، والبيوت كلّها أصبَحَ هباءً منثوراً، فالرّياحُ تُدَمِّر والسيول والأمراض ؛ إذْ هناك أمراض للنباتات وأوبئة، أحياناً دُبابة تقضي على المحصول كلّه، وهناك أمراض تُصيبُ البشر، فَكُلّ الناس في قبضة الله عز وجل، هؤلاء في الغرب الذين حكّموا عقْلهم في كلّ شيء، واسْتَغْنوا عن الله عز وجل جاءَتهم الأمراض التي لم تكن في أسلافهم، فمرَض الإيدز ؛ هذا مرض وشبحٌ مخيف، أقلق الناس، وهزّهم من أعماقهم، فالله عز وجل بيَدِهِ كلّ شيء، وهذه حقيقة خطيرة، وفي الكون حقيقة كبرى، ولا حقيقة سواها وهي الله سبحانه وتعالى، فكلّ إنسانٍ يتجاهَلُ هذه الحقيقة، ويتجاهل أمرها ونَهْيَها، ويتجاهل ما عندها من عطاء وعذاب، إنسانٌ أحمق، فلو كنتَ بمَكان عملك، وشخصٌ أمرُهُ نافذ، وكلمته هي الأولى، بيَدِهِ كلّ التّفصيلات ؛ هل بإمكانك أن تتجاهل وُجودهُ أو سُلْطَتَهُ أو تأثيرهُ ؟ هذا فيما يتعلّق بعَملنا، فكيف فيما يتعلّق بعَلاقة الإنسان بالله عز وجل ؟ الله عز وجل يقول:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (64))

بدْءُ الخلق مَظْهرٌ لأسمائِهِ الحُسنى، وإعادة الخَلْق مَظْهرٌ لِعَدالته، أتمنّى عليكم أنْ تَفْهموا هذه الحقيقة ؛ الدُّنيا دار ابتِلاء وليْسَتْ دار جزاء فَيُمكن أن تُبْتَلى بها ويكون لك عند الله تعالى مقامٌ كبير، وقد تُعْطى

الدُنيا لأهل الدنيا، وليس لهم عند الله مِن شأنٍ إطلاقاً، معظم الناس يظنُّون أنّ الدنيا مِقياس رضاء الله عز وجل، وأنّ الله أكرمني، وأعطاني، وأخذ بيدِي، إذا كنتَ مستقيماً على أمر الله فهذا كلّه عطاء صحيح، فإيّاك أن تفْهم أنّ الدنيا وحدها مؤشّر لرضاء الله عز وجل إطلاقاً، ولكنّك إذا اسْتخدمتَ الدنيا في مرضاة الله عز وجل تُصبحُ الدنيا مؤشّراً لمرضاة الله عز وجل.

الإكرام بعد الطاعة مباشرة والعقاب بعد المخالفة مباشرة يُلغي الاختيار ويحل محله الاضطرار:

قال تعالى:

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي(16)كَلا)

(سورة الفجر)

ليس هذا ولا ذاك، وهذا كلامكم، وهذه مَقولتكم، لذا قال تعالى:

(كَلاَّ)

نَفيٌ ورَدْع وزجر، فليس عطائي إكراماً ولا مَنْعي هواناً، إنّما عطائي ابْتِلاء، وحِرْماني دواء، أتُرَى أنّ هذا الطِّفل الذي يُحِبُّه أبوه إذا التَهَبَتْ أمعاؤُهُ، ومنعهُ من الطّعام، أمَنْعُه ابنه من الطّعام يُعَدُّ إهانةً له ؟ لا والله:

((إن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

وفي رواية أخرى:

((إن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة))

[أخرجه البيهقي عن حذيفة بسند فيه ضعف]

فأنت إذاً في دار امْتِحان، وقد تكون مستقيماً على أمر الله، وقد تأتي الأمور على غير ما تريد، لِيَنظر الله كيف تفْعَل ؟

والنُقطة الثانيَة: لو أنّ الله تعالى أطَعْتهُ في شيء فجاء الإكرام مباشرةً خالفْتَهُ في شيءٍ فجاء العقاب مباشرةً، التغى الاختيار وحلّ محلّه الاضطرار، ما الفرق بين المؤمن والكافر ؟ إذا رأى الكافر أنّ هذه المعصِيَة تُسَبّب له مشكلة كبيرة، تركها وهو كافر، عندئذٍ يُلغى الاختيار، والله عز وجل مِن سنّتِهِ في خلْقهِ يمكن أن يَعْصيهِ الإنسان ويبقى صحيح الجِسم، قَويّ البُنْيَة، غَنِيّاً، وفي عمله متفوّقاً، إلى أمدٍ ثمّ يأتي الحِساب، ويمكن أن تُطيعَهُ وأن تبقى في وَضْعٍ مُحْرج، لِيَمْتَحِنَ حبّك له، أتُحِبُّه من أجل ما عنده أم من أجل ذاته ؟ والحديث القدسي:

((منْ أحبّنا أحببْناه، ومن طلبَ مِنّا أعْطيناه، ومن اكتفى بنَا عمّا لنا كنّا له وما لنا.))

[حديث قدسي]

الله سبحانه وتعالى يريد أن تستقيم على أمره حُبّاً به لا حُبّاً بما عنده ولذلك يمْتَحِنُكَ:

يا ترى أنت تستقيم على أمر الله طمَعاً في رِزْقٍ وفير ؟ هذه اسْتِقامةٌ مَشوبة، وتستقيم على طاعة الله طمعاً في رِفْعة مكانتك عند الناس ؟ هذه اسْتِقامة مَشوبة، الله سبحانه وتعالى يريد أن تستقيم على أمره حُبّاً به، لا حُبّاً بما عنده، ولذلك يمْتَحِنُكَ، وتستقيم على أمره والدنيا مُدْبِرَةٌ عنك، ويأتي إنسانٌ آخر يعْصيهِ والدُنيا مُقْبلة عليه، تقول: والله هذا شيءٌ غريب ! هذا يعصي الله ليل نهار ويزداد قوّةً وغِنىً، وهذا الطائع هكذا حاله ؟!! هناك حِكمة بالغة، لو أنّ الله سبحانه وتعالى أعقبَ الطاعة بثَوابها، وأعْقبَ المعْصيَة بعِقابها لالْتغى الاختيار، وصار هناك اضْطرار، ولانْتَفَتْ قيمة الأعمال، لا يمكن أن تُسمّى طاعتك طاعة إلا إذا أطَعْتهُ لِوَجهه الكريم، قال تعالى:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً(9))

(سورة الإنسان)

قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64))

في الآية التالية صِياغة قصْر وحصر فالغيب لا يعلمه إلا الله:

الآية التي بعدها قال تعالى:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

إذا قلنا الله يعْلمُ الغيب فهذه العِبارة لا تعني أنّ أحداً آخر لا يعلم الغيب، فالله يعلمُ الغيب، وقد يعلمُ الغيب غيره، لو أنّ الله عز وجل قال: للإنسان ما سعى، وقد يكون له ما لم يسْعى، أما لمّا قال:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى(39))

(سورة النجم)

فهذا فيه قَصْر وحصر، وفيه قَيْد، وربّنا عز وجل لو قال: الله يعلمُ الغيب، هذا لا ينفي أنّ جِهةً أخرى تعلمُ ذلك، ولكنّ الله عز وجل يقول:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

هذه صِياغة قَصْر، إذاً الله وحدهُ يعلمُ الغيب.

النبي مع رفْعة شأنِهِ ومع أنه سيد الخلق وحبيب الحق إلا أنه لا يعلم الغيب:

الآن إذا اعْتَقَدْت أنّ جِهةً في الأرض تعلمُ ما سيَكون ـ قال بعض العلماء ـ يُخْشى أن يكون هذا الاعتقادُ كُفْراً، فالغَيب لا يعلمُهُ إلا الله، والنبي عليه الصلاة والسلام مع رفْعة شأنِهِ، ومع أنّه سيّد الأنبياء والمرسلين وسيّد الخلق وحبيب الحقّ، ومع ذلك لا يعلم الغيب، والدليل قوله تعالى:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلا مَا شَاءَ اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(188))

(سورة الأعراف)

الإمام مالك فيما ترْوي الكُتب والسِّيَر رأى في المنام ملكَ الموت، فقال: **يا ملكَ الموت كم بقيَ لي من عمري** ؟ فأشار له بأصابعه ـ يعني خمسة ـ فاسْتَيْقظ الإمام مالك وهو يظنّ أنّهُ بقيَ له خمسُ سِنين وقال: **لمَ لا تعني هذه الإشارة خمسة أشْهر، أو خمسة أسابيع، لمَ لا تعني خمسة أيام، أو خمسة ساعات أو أقلّها**، فهب الإمام مالك صاحب دار الهجرة إلى الإمام ابن سيرين وكان وحيد عصْرِهِ في تفسير الأحلام، فقال له: **يا إمام رأيْتُ ملكَ الموت وسألْتُهُ كم بقيَ لي، فأشار لي خمسة ؟ فماذا تعني هذه الإشارة** ؟ فقال له هذا الإمام: **يقول لك ملكُ الموت: إنّ هذا السؤال من بين خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله !** فملكُ الموت لا يعْلمُ متى قبْض الأرواح، فهو يُؤْمَر أمراً فوْريّاً.

المَقصود في الآية غيب المستقبل أي ما سيكون بعد هذه الساعة وهذا لا أحدَ يعلمُهُ إلا الله:

قال تعالى:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

الغيب غَيب الماضي، وغَيب المستقبل، وغَيب الحاضِر، فَغَيْبُ الحاضر مثلاً ما يجري الآن في حلب، نحن هنا لا نعلمُ ما يجري، أما أهل حلب فيعلمون ما يجري، ولو اتّصلنا هاتفيّاً عرفنا ما يجري، لذلك الجنّ أحياناً تسْتخدِمُ غَيب الحاضِر لإيهام الناس أنّهم يعلمون الغيب، ولكنّ المَقصود في الآية غيب المستقبل، أي ما سيكون بعد هذه الساعة، هذا لا أحدَ يعلمُهُ، تجِدُ مدينة عامرة، وفجأةً يأتي زلزال يدمرها، فهناك زلزال وقع في قرية من قرى إيطاليا، وهذا الزلزال قبل خمسين عاماً أثناء التّنقيب وجدوا آثار مدينة مَعْمورة برَماد بُركاني، حينما نقّبوا عن الآثار وحقّقُوا هذه الآثار بالجبصين السائل رأوْا مدينة تقريباً بعد الظُّهر، وهي في أوْج نشاطها انفجرَ بركان في شمالها، وخرجَت منه حمم ورماد بركاني غطّاها على ارتفاع خمسة أمتار، الناس في بيوتهم كانوا يتناولون طعام الغذاء حتى أنّهم وجدوا نوع الطّعام، والأمّهات تحنو على أطفالها، ووجدوا بعض الأغنياء يدْفِعون إلى جمْع الذّهب والفضّة

لِيَهربوا بها ! من يعلمُ الغيب ؟ الله سبحانه وتعالى، الزّلزال قد يأتي فجأةً تُصبح الأمور بوَضْع آخر وقد يأتي موتٌ زؤام ومُعجّل، والإنسان قد يموت بحَادِث، وقد يموتُ بسَكتَة دِماغِيَّة.

المؤمن يأخذ بالأسباب ويعتمدُ على الله والكافر يأخذ بالأسباب ويعتمدُ عليها:

طبيبٌ سَمعتُ عنه كان يُثْبتُ للناس أنَ الرَكْض هو خَيرُ رياضة، وأنّ من يركض لا يصيبُه أيّ مرض، ماتَ وهو يركض ! طبيبٌ شهيرٌ جدّاً في مِصر، وهو أوّل طبيب في القلب ماتَ بسَكتة قلْبِيَّة !! من يعلمُ الغيب ؟ الله سبحانه وتعالى، وأيَّةُ جِهة أخرى لا تعلمُ الغيب، فلذلك الإنسان حينما يعْتَمِدُ على الأسباب يكون قد أشْرك، ولكنَ المؤمن يأخذ بالأسباب ويعتمدُ على الله، والكافر يأخذ بالأسباب ويعتمدُ عليها، فهذا الصاروخ الذي سمَوهُ المُتَحَدِّي بعد سبعين ثانِيَةٍ أصْبحَ كتلةً من اللّهَب !! من يعلمُ الغيب ؟ الله سبحانه وتعالى، لذا الحظوظ التي تكتب وترسم في المجلاّت برج كذا وبرج كذا هذه كلّها كلامٌ باطل، ومن فعلَ هذا فقد كفر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من أتى كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد.))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة.))

[مسلم عن صفية]

لذا انْتبِهوا، والله عز وجل قال:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

الله وحده العالم للغيب، لذلك قال أحدهم: بيني وبين الملك يومٌ واحد فما مضى انْقطَعَ خيْرُهُ وشرُّه، وما سيكون بِعِلم الله، هذا اليوم الذي أعيشهُ هو الذي بيني وبينه ! فَكُلّ إنسانٍ يُجْزِئُهُ لُقَيْماتُ خبزٍ وفِراشٌ ينام عليه، حديث:

((من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

من عدّ غداً من أجلِهِ فقد أساء صُحبة الموت:

ثمّ يقول تعالى:

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

هذا اللِّقاء الذي مع الله عز وجل ماذا أعْدَدْتَ له ؟ تجد الإنسان يُخَطِّط لِعشرين سنة قادمة، قال لي أحدهم: أخاف أن أُركِّب تدفئة مركزية، وأجعل الأنابيب تحت البلاط، وبعد مدة اضطر فأكسر البلاط، وبقيَ سنة في حَيْرة، وبعدها استقرّ الأمر أن يركِبّه داخلياً، قال لي: بعد عشرين سنة إذا صار هناك عِطل سأُقيم تركيباً ظاهراً ما الذي يُدْريك أنّك تعيش عشرين سنة أخرى ؟ والله الذي لا إله إلا هو التَقَيْتُ مع شخْصٍ خطّط لي لِعَشرة سنواتٍ قادمة، قال لي: سأتقاعَد أنا إن شاء الله، وأريد أن أعمِلَ إعارة للجزائر، وسأزور أوروبا كلّ صَيْفِيّة ؛ فرنسا وإنجلترا، وأرى المعالم والآثار والمتنزّهات، وبعد أن تنتهي الإعارة أفْتحُ محلاً تِجارياً أضعُ فيه هدايا، وأرتاح، وهذا الكلام قاله لي الساعة العاشرة صباحاً، كنت في مركز المدينة وأنا في طريقي إلى البيت رأيْتُ نَعْوَتَهُ على الجدران !! والله في اليوم نفسِهِ !!! لا تقل: بعد سنة وبعد كذا ! لذا من عدّ غداً من أجلهِ فقد أساء صُحبة الموت لذلك:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

أحدهم عنده دَين عند صاحب له، فالمدين عمرهُ خمسةٌ وثمانون والدائن عمرهُ اثنان وثلاثون سنة، تمازحا فقال الدائن للمدين: اِدْفَع لنا الدّين قبل أن تموت، فَماتَ قبل ذاك الشيخ بسَكتة قلبيّة، من يعلمُ الغيب ؟ الله سبحانه وتعالى، هناك إنسان قال عنه الأطِبّاء أنه انتهى، وكُتِبَت النَّعْوَة، واشترى النِّساء اللِّباس المناسب للعزاء، وانتهى كلّ شيء ثمّ أكْرمَ الله هذا الإنسان الميؤوس منه بالحياة، الذي كَتَبَ النَّعْوَة تحت أطباق الثرّى، والذي كُتِبَتْ نَعْوتُهُ حيّ يُرْزَق، دائماً إذا قال الإنسان: إن شاء الله فقد تأدّب مع الله، هذه ليْسَت كلمة والأجانب يسْخرون من المسلمين لاستخدام كلمة إن شاء الله، فهم إذا قالوا إن شاء الله دلّ هذا على عدم فِعلهم للشيء، فإذا قال لك إن شاء الله سآتي يعني لن يأتي، وإن شاء الله سأدفع يعني لن يدْفَع، أما إن شاء الله تعالى التي يقولها المؤمن له عزيمة تقْهر الجِبال أن يفْعل هذا الشيء إلا أن يُحاط به، فهو يقول إن شاء الله تأدّباً مع الله عز وجل قال تعالى:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

الموت حقّ والتَفكُّر به ليس تشاؤماً ولا يقدِّم ولا يؤخِّر لكنّ التّفكّر بالموت تهيئة له:

الإنسان يسأل سؤالاً محرجاً: أنا أموت في هذا البيت أم في بيتٍ آخر ؟ أموت بين أهلي ؟ أم في الطريق ؟ أو أنا مُسافر ؟ أين أموت ؟ قال تعالى:

(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34))

(سورة لقمان)

العِبرة أن تستَعِدّ للموت، هذا الأعرابي الذي قال للنبي عليه الصلاة والسلام أُريد أن تُعلِّمني من غرائب العِلم، فقال: **وماذا صنعْتَ في أصل العِلم** ؟ قال: وما أصل العِلم ؟ قال: **هل عرفْت الربّ** ؟ قال: إن شاء

الله، قال: **فماذا صنَعْتَ في حقِّهِ** ؟ هذا هو السؤال ؛ إذا كنتَ تعرف الله فماذا صَنَعْتَ من أجلهِ ؟ وماذا أعْطَيْت ومنعْت من أجله ؟ ومن وصلْت ؟ ومن قطعْت ؟ ومن وددت ؟ ومن عادَيْتَ ؟ وما الموقف الذي وقفْتهُ من أجل الله ؟ وما الذي تركْتهُ لله ؟ قال له: **هل عرفت الموت** ؟ قال: نعم، قال: **فماذا أعْدَدْت له** ؟ فقط هذا السؤال! الموت حقّ، والتَّفكّر بالموت ليس تشاؤماً ولا يقدِّم ولا يؤخِّر، لك عند الله أجل لا يزيد ولا ينقص، لكنّ التّفكّر بالموت تهيئةٌ له، واستِعداد له، وتأتي الدنيا وهي راغمة، ولقد أوحى ربّك إلى الدنيا أنّه من استخدمك فاسْتَخدميه، ومن خدَمَني فاخْدُميه، تفرّغ لِعِبادتي أملأ صدرك غِنىً، وخلقْتُ لك السماوات والأرض ولم أعْيَ بِخَلْقِهِنّ، أفَيُعْيِيني رغيفٌ أسوقُهُ لك كلّ حين.

((وعِزّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك، فلأُسلِطَنّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي، وكنتَ عندي مَذْموماً.))

[ورد في الأثر]

من حاسب نفسهُ في الدنيا حِساباً عسيراً كان حسابهُ يوم القيامة يسيراً والعكس صحيح:

قال تعالى:

(بَلِ ادّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ (66))

أيْ تتابعَ علمهم، بعضهم قال: هناك آخرة، وبعضهم قال: ليس هناك آخرة، وقد اختلفوا في هذا الموضوع، قال تعالى:

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66))

الطالب لا يكون الأوّل في القطر إلا بحَالة واحدة ؛ إذا كان الامتِحان ماثِلاً في ذهنه دائماً، أراد أن يذهب إلى نزهة فتذكّر الامتحان، فقال: لا، هذا الوقت ثمين جدّاً، وأراد أن ينامَ باكراً فتذكّر الامتحان، إذا تذكّر الإنسان الموت، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أكثروا ذكر هادم اللذات))

[رواه الديلمي عن أنس]

مفرق الأحباب، مشتت الجماعات.

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن سهل بن سعد البيهقي عن جابر]

قال تعالى:

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66))

تجد غير المؤمن ساحة نفسه كلّها دنيا، فهي أكبر همّه ومَبْلَغَ عِلمه، ولا يعرف إلا الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم، أما المؤمن دائماً يُفَكِّر كيف يُجيب الله عن هذا السؤال ؟ لمَ فَعَلْتَ كذا ؟ أجِب الله عز وجل، ودائماً في تصوّر الحِساب مع الله عز وجل، لذلك من حاسب نفسهُ في الدنيا حِساباً عسيراً، كان حسابهُ يوم القيامة يسيراً، ومن كان حِسابهُ لِنَفْسِهِ يسيراً كان حِسابهُ يوم القيامة عسيراً.

الكُفْر باليوم الآخر هو كفْر بالله فإذا كفرْتَ بالدار الآخرة فكأنّكَ كَفَرْت بعَدالة الله تعالى

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(68))

الكُفْر باليوم الآخر هو كفْر بالله أيضاً، إذا كفرْتَ بالدار الآخرة فكأنّكَ كَفَرْت بعَدالة الله عز وجل، غنيّ ويموت وهو غنيّ، وفقير يموت وهو فقير، ضعيفٌ ضعيف، وقويّ قويّ، ومظلوم وظالم، إذا كفرْت بالدار الآخرة فهذا نَوْعٌ من الكفر بالله عز وجل، فهؤلاء الذين يقولون:

(لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68))

هذه دَعْوى الكفار، وأنّ الحياة هي كلّ شيء، والموت نهاية كلّ شيء، لذلك يصحّ للإنسان أن يفعل ما يشاء حسب هذه العقيدة، وقد قال شاعر جاهليّ طرفة:

فإن كنتَ لا تستطيعُ دَفْعَ مَنِيّتي فدَعْني أبادِرْها بما ملكَتْ يدي

***

أيْ دعْني أعبّ منها ما أشاء، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69))

هذا دليل آخر، ونحن عندنا دليل كوني، ودليل قرآني، ودليل يومي وهو دليل الأحداث.

الفاء في هذه الآية تُفيد الترتيب على التعقيب أيْ قد يأتي العِقاب بعد الانحراف:

قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69))

هؤلاء الذين حاربوا الله ورسوله، وهؤلاء الذين أجْرموا، وهؤلاء الذين ظلموا، انْظُر إلى نهايتهم، فانظروا، والفاء في هذه الآية تُفيد الترتيب على التعقيب، أيْ قد يأتي العِقاب بعد الانحراف، وفي آية أخرى قد يأتي العِقاب بعد أمَدٍ طويل، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69))

وقال:

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70))

وقال أيضاً:

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(30))

(سورة الأنفال)

الله عز وجل مُطّلِع والمَكْر سِلاحُ الضّعيف، حينما يَنْكشفُ هذا المَكْر يفْقِدُ قيمته، فالله عز وجل يطّلِعُ على مَكْر الأعداء دائماً.

الله عز وجل مُطّلع على كل إنسان:

قال تعالى:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

لو خطّطَ الإنسان لِعَمل سيئ، والذي بيَدِه الأمر أخذ صورة عن تخطيطه، فهو يظنّ أنّ هناك مَنْجاة، فالإنسان حينما يمْكر يجب أن يعلمَ أنّ الله تعالى مُطّلِعٌ عليه، لذلك أن ترى أنّ الله رقيب عليك، وأن تعلم أنّ الله يعلم ؛ هذا سرّ الاستقامة، والإنسان إذا شعَرَ أنّه مُراقب تجده يلتزمُ الصحيح، ويأخذ احْتِياطه، ويضبط كلامه وحركاته وسكناته، إذا الإنسان راقبَ إنساناً ينضَبط، فكيف إذا راقبك الواحد الدّيان ؟ قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً(1))

(سورة النساء)

وقال أيضاً:

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70))

يقولون هذا اسْتِهزاءً، لمّا يأتي البلاء والعِياذ بالله، تجد كما قال تعالى:

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج)

اعْرف الله في الرّخاء يعْرفْك في الشّدّة:

سمعتُ أنّ امرأة في حادث زلزال تضعضع البناء الذي تسكن فيه، فمن خوفها حملتْ حِذاءها بدل ابنها!! هذا في الدنيا فكيف يوم الحشر ؟ فإذا عرف الإنسان الله تعالى في الرّخاء ؛ صحّتهُ طيّبة، ومالهُ وفير، مكانتهُ الاجتماعيّة مرْموقة، في هذا الوضع الجيّد عرف الله عز وجل، فإذا جاءَت الشّدة فالله سبحانه وتعالى يعرفهُ، اعْرفهُ في الرّخاء يعْرفْك في الشّدّة، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

وقال:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(47))

(سورة الروم)

وقال أيضاً:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87))

(سورة الأنبياء)

على كل إنسان أن يشكر الله عز وجل على نعمه الكثيرة:

قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ (72))

أيْ جاء تِباعاً:

(بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

لمّا يرى الإنسان نِعَم الله عز وجل، كَنِعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونِعْمة الهدى، ونعمة السّمع والبصر، ونعمة العقل والقوّة، ونعمة الزوجة والأولاد، ونعمة الصّحة عليه أن يشكر، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

أرجو الله عز وجل أن يجْعلنا من القلّة الشاكرة، لا من الكثرة الكافرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (15-18): تفسير الآيات 73 - 75
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-04-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الخامس عشر من سورة النمل.

الكون كلّهُ مُسخّر للإنسان:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

(سورة النمل)

هذه الآية تُذَكِّرنا بآية أخرى، وهي قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

كلمة إنْ شكرتم وآمنتم تُثير التّساؤل ؛ لماذا إن شكَرْتم وآمنتم من كلّ صِفات المؤمنين ؟ لماذا يتوقف العذاب إن شكرتم وآمنتم ؟ الجواب ؛ لأنّ هذا الكون كلّه ؛ وكلمة كلّه أحْدَث رقم أنّ هناك مليون مليون مجرّة بكُلّ مجرّة تقريباً مليون مليون نَجم، أبْعد رقم وصلنا له ستّة عشر ألف مليون سنة ضَوئيّة، المجموعة الشّمسيّة كلّها نقطة في درْب التّبانة والأرض نقطة إلى جانب الشمس، وبعض النُّجوم يتّسع للأرض والشّمس مع المسافة بينهما أقول لكم: الكون كلّهُ مُسخّر لهذا الإنسان لماذا ؟ هذا السؤال الدقيق في قوله تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

ألا توجد هناك مَسْؤوليّة ؟ ألا يوجد هناك حِساب ؟ ألا توجد هناك تَبِعة أو عِقاب؟ ألا يوجد دَفْع ثمنٍ ؟ هكذا تفعل ما تشاء، وتأكل ما تشاء، وتكسب من مال الناس ما تشاء، وتنفق ما تشاء، وتنظر إلى من تشاء، وتستمتِع بِمَن تشاء.

هذا الكون العظيم سخّرهُ الله تعالى للإنسان تسخير تعريفٍ بذاته وتسْخير تكريم:

هكذا قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

وقال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

الكون كلّه مسخَّر لهذا الإنسان وسيحاسب، أضرب مثلاً: جامعةٌ فيها أبْنِيَةٌ ومنشآت ومُدَرَجَات ومخابر وحدائق ودورٌ للسّكَن وأساتذة، يعني جامعة كلفتها ألوف الملايين وفيها طلاّب يتقاضَون رواتب، والسّكَن مجاني، والطعام جيّد، والمحاضرات، ووسائل الإيضاح، والأجهزة، والمخابر، كلّ هذا من دون امْتِحان ؟! يكفي أن يأتي الطالب إلى هذه الجامعة، ويأخذ درجة عليا من دون امتحان !!

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

هذا الكون العظيم المُسخَّر لهذا الإنسان سخَّرهُ الله له تَسْخيرين ؛ تسخير تعريفٍ بذاته، وتسْخير تكريم، ماذا ينبغي أن يكون ردّ الفِعل ؟ إذا أكرمك أحدهم ودعاك لإفطار في رمضان، أقلّ كلمة تقول له: شُكراً ! فإذا الإنسان تلقّى معروفاً من إنسان كان هذا هو الصّنيع، فكيف بمَن منَحَكَ الوُجود ؟ أحياناً أرى كتاباً مطبوعاً بالثّلاثينات أو العِشرينات يخطر ببَالي خاطر، أنَه حينما ألّفَهُ المؤلّف، وصفَّ حروفه الطابع، وحينما طُبِعَ، ماذا كنت أنا ؟ لم أكن شيئاً إطلاقاً.

موضوع الشّكر موضوع أساسي في حياة الإنسان:

قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

(سورة الإنسان)

نحن جميعاً، في سنة ألف وتسعمئة لم يكن مِنّا أحد، لم يكن لنا وُجود إطلاقاً، فهذا الإله العظيم الذي منَحَكَ نِعمة الوُجود، لم تكن شيئاً مذكوراً، وأوْجَدَكَ بأحْسن قِوام، قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

ثمانمئة ألف لون أخضر مدرّجة في عَينِكَ البشريّة، والعين تُفرّق بين درجتين، والله تعالى جعَلَ لك سمعاً، وجعل لك ذاكرة صَوْتِيّة، وجعَلَ لك بصراً تدرك الألوان وتُدرك الحجوم ؛ طول وعرض وارتفاع، الشيء بحَجمه الحقيقي، فالتّحميض فَوْري ! قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد)

منَحَكَ نِعمة الوجود، ونعمة الإمداد، فالرّئتان تحتاجان إلى الهواء وهو متوازن، ومنَحَك الماء والطعام والشراب والمأوى، أكرمك بالأم والأب، فَوُجودك سببه والداك ! فهذا العطف الشديد الذي جَعَلَهُ الله في قلْبَيْهما، فلذلك موضوع الشُكر موضوع أساسي في حياة الإنسان، من هو الكافر ؟ هو الذي ردّ على هذه النِّعم بالجُحود، وردّ عليها بالمَعْصِيَة.

الإنسان أمام مُهِمّتين مهمّة المعرفة و مهمة الشكر:

قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

بالدّرجة الأولى أنت أمام مُهِمّتين، مهمّة أن تعْرف، ومهمة أن تشكر فإذا صحا الإنسان يوم القيامة، والناس نِيام إذا ماتوا انْتبَهُوا، حينما تنقطعُ شهوات الدنيا التي تخدّر الإنسان وما أكثر هذه الشهوات ؛ اليوم عنده سهرة، وغداً اجْتِماع، واليوم أُمْسِيَة لطيفة، وحفلة تعارف، ورحلة ووليمة، فهذه الشّهوات مُخدِّرات، أما حينما يدخل الإنسان في قبره تصْحو نفسُه، فإذا عايَنَ الفضل الإلهي ورأى جحوده وكفرانه، ورأى معاصيه، ورأى أنّه آذى عباد الله، عندئِذٍ يصيبه من الألم ما لا يعلمُه إلا الله، فالإنسان عليه أن يعرف قبل فوات الأوان، قلتُ مرّة كلمة في محاضرة: طوبى لِمَن عرف الله قبل فوات الأوان، أما عند الموت فَفِرْعون قد عرف الله قال تعالى: آمنتُ بالذي آمنتْ به بنو إسرائيل، وأيّ كافر، قال تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

القضية سهلة، ما تعرفهُ عند الموت لا بدّ من أن تعرفهُ، ولكنّ البُطولة أن تعرف هذا الآن وأنت مُعافى وصحيح، وأنت تأمل الغنى وتخْشى الفقْر، مسْتمتعٌ بِقُوتك وسمعك وبصرك وبِشَبابك، هذا هو وقت المعرفة.

الإنسان له فِطرة عالِيَة فإذا كشَفَ بعد فوات الأوان أنّهُ جحود وكفور يتألّم ألماً شديداً:

أحياناً الإنسان بعد الخمسين والسّبعين يصبحُ مُحِبّاً للجوامع والمساجد، البطولة أن تحبها وأنت صحيح شحيح، وأنت معافى، وأنت غنيّ، ومتفرّغ، وشاب، من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام: ريح الجنّة في الشباب... وإنّ الله لَيُضاهي الملائكة بالشاب المؤمن يقول:

((انظروا إلى عبدي، ترك شهوته من أجلي))

[أخرجه ابن السني الديلمي في مسند الفردوس عن طلحة]

ثمّ هناك نقطة أخرى، وهي أنّ الإنسان لمّا يتعرّف إلى الله في سِنّ متأخّرة تكون حياته ترتّبَت على ترتيب غير طاعة الله تعالى، يُعاني مشكلاتٍ مع زوجته، وأولاده، وحرفتِهِ، وعملِهِ، أما إذا عرف الله عز وجل في وقت مبكِّر، سيكون زواجهُ إسلامياً وعملهُ صحيحاً، وعلاقاته كلّها صحيحة، فلذلك الذي يقوله الله عز وجل:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس)

منَحَكَ نِعمة الإيجاد، ومنَحَك نعمة الإمداد، ومنحَكَ نِعمة الإرشاد، فالكون يُعَرّفك به، وكذا العقل والفِطرة، والأنبياء يُعَرّفونك، والكتب تُعَرّفُك، والدعاة يُعرّفونك، والحوادث تُعرّفُك، والإلهامات تعرّفك والرّئة تُعَرّفُك، أنت مُحاصَر أيْنما ذَهَبْت لله آيةٌ تدلّ على أنّهُ واحِدُ، فإذا عرفت أنّ الله هو الحقيقة الأولى والأخيرة في الكون يجب أن تتعامل معه تعامل الطاعة والعبادة فهذا الفضْل، والحقيقة أن الإنسان له فِطرة عالِيَة، إذا كشَفَ بعد فوات الأوان أنّهُ جحود وكفور، وردّ على إحسان الله بالإساءة لِعِباده وأنّهُ ردّ على هذا الكون العظيم بإنكار آياته، وأنَهُ ردّ على إمداد الله وفضله الجزيل بالإساءة إلى خلقه، إذا كشَفَ لؤمَهُ وجحودهُ وكفرانه، يتألّم ألماً شديداً.

على الإنسان أن لا يعيش لحظته فقط بل يجب أن يعيش للمستقبل:

وردَ في بعض الأحاديث:

((إنّ العار ليلْزَمُ المرءَ يوم القيامة حتى يقول يا ربّ لإرْسالكَ بي إلى النار أيسرُ عليّ مِمّا ألقى، وإنّه ليَعْلَمُ ما فيها مِن شِدّة العذاب))

[صحيح عن جابر بن عبد الله]

هي ساعة صَعبةٌ جدّاً، والإنسان عليه أن لا يعيش لحظته فقط، فالذي يعيش لحظتهُ إنسان غبيّ، يجب أن تعيش للمستقبل، ماذا ينتظرني ؟ مهما عشتَ، فالأنبياء ماتوا، والملوك ماتوا، والأطِبّاء ماتوا، والعظماء ماتوا، والأغنياء ماتوا، ماذا ينتظرني ؟ هل تنتظرون إلا غِنًى مُطْغِياً ؛ هذا الغِنى من دون عِلم وبالٌ على الإنسان.

((وعِزّتي وجلالي إن لمْ ترضَ بما قسَمْتُهُ لك فلأسلِّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالكَ منها إلا ما قسمْتُهُ لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً.))

[ورد في الأثر]

الغِنى المطغي مُخيف، مالٌ وفير، والعلم غير موجود، شَهَواتٌ يقظة، وفِتَن يقظة، ومال تفعلُ به ما تشاء، فهذا الغني مُطْغٍ، فإذا الإنسان وُفِّق بعَملِهِ التِّجاري، وما حصّل علماً ديني يطْغى ! لذا العِلم

حارس، قال له: يا بنيّ، العِلْمُ يحرسُك، وأنت تحرس المال، فبالعِلم تَجْلب المال، وبالجهل تُبدِّدُهُ، وبالجهل تأكل الحرام، فتُبدِّدُه، وبالجهل تعتدي على أعراض الآخرين فَيُعْتَدَى على عِرْضك وتنشأ مشكلة كبيرة، ويمكن أن يكون هناك طلاق أو مشكلة كبيرة سببها الجهل، فأحياناً يقول لك أحدهم: ضاق نفسي ! وما أستطيع حضور مجلس العلم ! القضيَّة ليس قبول الدرس أو عدم قبوله، وإنَما القضيّة مصيريّة في حياة الإنسان، فأنت إما أن تكون عالماً، وإذا علمْتَ تنجو من عذاب الدنيا والآخرة، وإما غير عالم فلا بدّ من أن تغلط، إذا لم تكن يدك على المِقْود، وأُذنك غير مُفتَّحَة، فلا بدّ من حادث !!!

أنت إنسانٌ متحرّك، ولسْتَ إنساناً ساكناً، ما الذي يُحَرّكك ؟ الشّهوات، إذا كنت جَوعان فلا بدّ أن تأكل، ومن أجل أن تأكل تحتاج إلى مال وهناك جوع من نوْعٍ ثانٍ للمرأة، فإمّا أن يكون الزّواج طريقاً مَشْروعاً، وإما أن يكون الزّنى، ولا حلّ ثالث، إما الكسب الشريف وإما كسب منحرف، تجد سرقات، ومن هو السارق ؟ الذي يريد المال، ومن هو الزاني ؟ إنسانٌ يلبّي رغبة نفْسهِ من طريقٍ غير مَشْروع، فَبالعِلم تُلبّى هذه الحاجات من طريق مشروع، وبالجهل تُلبّى من طريق غير مشروع، وبالطريق المشروع هناك نماء، وأمْنٌ، وصيانة، ورقيّ، وبالطريق غير المشروع هناك فضائح، وتدمير، وهلاك، وعقاب، حينما تعرفُ أنّ هذا الإله العظيم سخَرَ لك هذا الكون، معنى ذلك أنّ هناك مهمّة كبيرةً مَنُوطةً بك، ومعرفة هذه المهمّة قبل طعامك وشرابك وقبل حاجاتك الأساسيّة، ويجب أن تعرف لماذا أنت هنا ؟

فضل الله على الإنسان يتجلى في كل عضو من أعضائه:

قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس)

فضْل الوجود وفضل الربوبيّة والألوهية، خلقَكَ في أحسن تقويم، وأجهزة تامّة، وعقل، وإدراك، وتصور، ومحاكمة، وذاكرة، وإحساس، وأعصاب حِسّ، وأعصاب حركة، ومنعكس شرطي، وجهاز دوران، وجهاز هضْم، وجهاز فرز فضلات، وجهاز تعرّق، وعضلات مُخطّطة، وعضلات ملْساء، عضلات من نوعٍ ثالث، فالقلب وحدهُ نوع من العضلات، طبيبُ قلبٍ من ألْمَع أطِبّاء القلب قال لي كلمة من يومين: والله علماء الأرض، لو استمرّوا في البحث عن عجائب القلب إلى يوم القيامة لا ينتهون، فقد دُعينا إلى مؤتمر أربعة آلاف وخمسمئة محاضرة، هذه المحاضرات كلّها فيما هو جديد في أمراض القلب، دسّاماته اخْتِصاص، وعضلته اخْتِصاص، وترويتُه اخْتِصاص، وكهرباؤه اخْتِصاص، أعطاك الله قلباً يعمل ليل نهار من دون كلل ولا ملل ولا مراجعة، ومن دون استراحة، منذ أن تدبّ الحياة في هذا الجنين وحتى يحين الحين، ويضخ لك ثمانية أمتار مكعَبة من الدَم في اليوم !! ويضخّ بالحياة ما يملأ

أكبر ناطحة سحاب في العالم ! والشريان التاجي له دسّام يُغلق بإحكام ويفتح بطلاقة، وأنت لا تدري، وجعل الشرايين كلّها كالقلوب، يقول لك شريان مرن، لمّا تأتي ضغطة قلب يتجاوَب معها ولمّا يتجاوب يرجع الضّغط بمُرونته ويمشى الدّم، ويصير كلّ شريان قلباً آخر، وأنت لا تدري ! في جسمك مئة وخمسون كيلو متر من الأوعيّة الدّموية والأوردة والشرايين والشّعريات وأنت لا تدري، وبكُلّ ميلي متر مكعّب خمس ملايين كريّة حمراء، اثنان ونصف مليون كريّة تموت في كلّ ثانية، واثنان ونصف مليون كريّة تولد في كلّ ثانيَة وأنت لا تدري، وعندك جهاز المناعة الذي هو شُغل العالم الشاغل، عندك كريّات بيضاء لها مراكز وقواعد عَسْكريّة، يدخل جرثوم ؛ هناك نوع من الكريات يفْحص الجرثوم وما نوعه ؟ وهذا مستطلِع ويأتي بالمعلومات وهناك نوع ثانٍ يُصنّع المصل في العقد اللّمْفاويَة، وهناك نوعٌ ثالث يُحارب، الكريات الحمراء قسم استِطلاع، وقسم تصنيع، وقسم حرب ومرض الإيْدز ما هو ؟ تعطّل هذا الجهاز، وهناك صفائح دَمَويّة للتّرميم.

أتَحْسَــبُ أنّكَ جُرْمٌ صغير وفيك انْطَوَى العالم الأكبر

***

خلق الله للإنسان ليس عبثاً:

هناك ثلاثمئة ألف شعرة بالرّأس، وهناك مليون شعرة بالجسم كلّه ! لكلّ شَعرة وريد، وشريان، وغُدّة صبغِيّة، وغدّة دَهْنِيّة، وعضلة، وعصب، أحياناً تقول: وقف شعر بدني ! من الذي وقّفَهُ لك ؟ هناك عضلات، عضلة، وعصب، ووريد، وشريان، وغدَة دهنيّة، وغدّة صبغيّة، ومليون شعرة موجودة في جسمك، وأنت لا تدري، فأنْ يعيش الإنسان على هامش الحياة ؛ أكلْنا، وشربْنا، وسَهرنا، وقعدنا، ولعبنا النرد، وشاهدنا الفيلم الفلاني، وأكلنا مالاً حراماً، وحصلنا أموالاً بأسلوب ذكي !! ما هذه الحياة ؟ حياة فوضى، لذلك قال الله عز وجل:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

وقال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

وقال أيضاً:

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاس)

أنا أقول لكم: والله إذا كشَف الإنسان فضل الله عليه ولُؤمهُ يتمنّى لو تُسوّى به الأرض، ويتمنّى لو يُسْحق، أهذا هو موقف الإنسان ؟ هذا الذي يؤذي الناس، والله تعالى أنعمَ عليه بالسّمع، والبصر، والعقل، والعضلات، هذا يجب أن يِنْسحِقَ سحقاً حينما يعرف الحقيقة، فالناس نِيام إذا ماتوا انتبهوا، والبطل من يُعِدّ لهذه اللّحظة التي تُراجعُ فيها الحِسابات.

الله تعالى له فَضْل على الناس وفضلهُ عليهم بأنّهُ منَحَهم فرْصةً للتّوبة وفرصةً للتّفكّر:

العلماء قالوا: من معاني هذه الآية أيضاً أنْ يمْهلَ الإنسان، ويعطيهِ فرْصةً، تجد إنساناً كافراً ومؤْذياً، ويتحدَى الإله أحياناً، ومع ذلك يأكل ويشرب، وتجد قلبهُ ينبض، وكذا حركاته وعضلاته، الله عز وجل له فَضْل على الناس، وفضلهُ على الناس بأنّهُ منَحَهم فرْصةً ؛ فرصةً للتّوبة، وفرصةً للتّفكّر، والله عز وجل يمهل ولا يهمل، قال تعالى:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

ما هو الشُكر ؟ الشُكر في أدقّ التعريفات أنّك إن عرفْت أنّ هذه النِّعمة من الله فهذا أحد أنواع الشُكر، كأن تجد نفسكَ في صِحّة، هذه الصِّحَة ليس صدفةً ؛ السكر مضبوط وكذا البول والكولسترول، تحلِّل تجد كلّ شيء طبيعيّاً، أما إن ارتفع الكولسترول كان هذا مشكلة، وكذا السكر، فأنت إن عرفْتَ أنّ هذه النِّعمة من الله عز وجل، فهذا أحد أنواع الشُكر، ولو أنّك دخلْتَ بيْتَكَ، وقد مكّنَكَ الله من شراء هذا البيت، فقد يكون البيت أجرةً، يحوي زوجتك وأولادك إذا عرفْت أنَ هذه النِّعَم من الله فهذا أحد أنواع الشُكر، لِمُجرّد أن تعرف أنّ هذه النِعمة من الله فهذا لوْنٌ من ألوان الشُكر، فالواحد لا يغفل عن هذا ! إذا أكلتَ أكلةً طيّبة وقلت: الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فقد شكرت، إذْ هناك من يأكل بالسيروم وكلّ ليلة بعَشرة آلاف ! وهناك من هو مَقطوع عن الطّعام ولا يُسْمَحُ له إلا بأكل أطعمةً قليلة كالخضر، هذه نِعمة، كذلك إذا كانت لك زوْجة صحيحة، فهذه نعمة من الله، وعندك أولاد بصحّة طيّبة، إذا دخلْت إلى البيت، وقلت الحمد لله على هذه النِّعمة، الله تعالى قال:

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم)

إن وجدَكَ شكوراً يزيدُك من فضْله، وقال تعالى:

(لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11))

(سورة الرعد)

يجب أن تؤمن وأن تشكر وأوّل درجة بالشكر أنْ تعرفَ أنّ هذه النِّعمة من الله:

إذا كنت في بَحْبوحة، ونِعْمة، وراحَة بال، وسلامة نفْس، وبوفاق زوجي، وعلاقة طيّبة مع الأولاد، وكلّهم أبرار، فهذا من نِعَم الله الكبرى، وهذه يجب أن تشْكرها، وأن تكون ملء سَمْعِكَ وبصرك لأنّ الله تعالى قال:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

لن تشكر إلا إذا آمنْتَ، يجب أن تؤمن وأن تشكر، فأوّل درجة يكفي أن تعْزو هذه النِّعمة إلى الله تعالى، هذه ليست بذكائك، ماذا قال قارون ؟ قال تعالى:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ(78))

(سورة القصص)

تجد أحدهم يقول: لو لم أكن على درجة لما أخذت هذا البيت، لو لم أدرس لما صرتُ بهذه المرتبة الاجتماعيّة ! وهذا عرقٌ بذلْتُهُ في عمري !! كلّ هذا الكلام شِرْك، وكلّه كلام جَهل، الله عز وجل منَحَكَ نِعمة الصِّحة، وأعطاك عَقلاً ترْتَزِقُ منه، لو كان هناك خلل، لكان في مشفى الأمراض العقلية ؟! ومن الذي يُدخلهُ ؟ أولاده أو زوجته !! هو الذي عمَّرَ البيت، وهو الذي ربَّبهُ، هذا إذا صار هناك خلل بالعقل، والدعاء الشريف: ومتِّعْنا اللهمّ بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا، وعقولنا ما أحْيَيْتنا واجْعلهُ الوارث مِنّا، لكنّ الله تعالى كريم، إذا أطاعه الإنسان في الصِّغر حفظه في الشيخوخة.

الدّرجة الثانية أن تذكر الله وأن تحمده والحمْد شُعور داخلي بالامْتِنان من الله عز وجل:

قال له: يا بنيّ، حَفِظناها في الصِّغَر فحَفِظها الله لنا في الكِبَر، ومن تعلّم القرآن متَّعَهُ الله بعَقله حتى يموت، والمؤمن ما أحلاه ! كلّما كبرَ بالسِّن كلّما ازْداد تألّقاً، وضياءً، من تعلّم القرآن متَّعَهُ الله بعَقله حتى يموت، لا يخرج من بؤرة الاهتمام للهامش، وإنّما يبقى في الاهتمام، هناك من يتقدّم به السنّ، يَمَلّ منه أهله فيَهْربون منه ويضعوه في غرفة ثانيَة ! وهناك من وُجوده مصدر سعادة الناس، فهذا الذي حفظ نفسه لمّا كان شابّاً ما زنى، وما شرب الخمر، وما أكل المال الحرام، وغضّ بصرهُ عن النّساء، وحرّر دخله، ولزم المساجد، وحضر مجالس العلم، وصلى، وصام، وزكّى، وذكر الله عز وجل، وخدم الناس، ودعا إلى الله، وأمر بالمعروف، هذا الجُهد الذي في الشباب هو في الشَيْخوخة وقار وعَقل،

ومكانة اجْتِماعية، وشُعور بالسّعادة، فأحدنا الطرق كلّها مفتوحة أمامه، ولا أحد أفضل من غيره، وفضل الله واسع ويسعُنا جميعاً، ويسعُ الأرض كلها، ويسعُ كلّ إنسان على وجه الأرض.

الدرجة الثانية أن تشعر هذا الشُعور بالامتِنان، فأوّل درجة أن تعرف أنّ هذه النِّعمة من الله، والثانية أن تشعر، وأن تُخاطب الله، يا ربّ لك الحمد والشكر على ما أنعمْتَ وفضّلْت، دائماً المؤمن يلْهَج بالشُكر حتى في المصيبة، وإذا أحبّ الله عبدهُ ابتلاه، فإن صبَرَ اجتباه، وإن شكر اقتناه، ثلاثة أطفال يمشون بالطريق، أحدهم سبّ الدِّين أو كلّهم سبّوا الدِّين، فلو رآهم شخصٌ يعرف أباهم لضربهم حبّاً لهم، فالله تعالى يؤدِّب الإنسان محض محبّة، ومحض اهْتِمام، ومعناه أنه مطموع بالإنسان، وفيه خير، إذا أحبّ الله عبده ابتلاه، فإن صبَرَ اجتباه، وإن شكر اقتناه، فالحالة الثانيَة هي حالة الحمْد، والحمْد شُعور داخلي بالامْتِنان من الله عز وجل:

هم الأحبة إن جـاروا وإن عدلـوا فليس لي عنهم معْدلُ وإن عدلوا

والله وإن فتَتوا في حبّهم كـبدي باقٍ علـى حبّهم راضٍ بما فعلوا

***

علامة الإيمان أن تحب الله لا في الرخاء فقط بل في الشدّة أيضاً:

علامة الإيمان أن تحب الله لا في الرخاء بل في الشدّة، أحدهم كان يطوف على الكعبة وهو يقول: هل أنت راضٍ عني يا رب ؟ فكان يطوف وراءه الإمام الشافعي فقال له: يا هذا، وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟! فقال: من أنت يرحمك الله ؟ كيف أرضى عنه وأنا أتمنَى رضاه ؟ فقال: يا هذا، إذا كان سُرورك بالنِّعمة كَسُرورك بالنِّقمة فقد رضيت عن الله، فإيمانك ليس على الرخاء، والصحّة الطيّبة، والدّخْل الكبير، وكلّ الأمور بخير، بالمصيبة الإيمان، يا ربّ لك الحمد، حديث:

((عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له))

[أخرجه مسلم في مسنده عن صهيب]

المؤمن أمره عجيب ودائماً يتلقّى الأمور من الله عز وجل على رِضى، لذلك قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

الدرجة الثالثة أن تعمل وأن تكون في خدمة عباد الله:

أوّل درجة من الشكر أن تعرف أنّ هذه النِعمة من الله، والدرجة الثانيَة ذِكْر، قال: يا ربّ كيف أشكرك؟ قال: يا موسى إنّك إن ذكَرتني شكَرتني، وإذا ما نسيتني كَفَرْتني، يتّبع عبد الله ويترك الله ؛ وهذا هو الشّرك، أما المؤمن لا ينسى الله.

أما الدرجة الثالثة فهي عمل، لقوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشّكُورُ (13))

(سورة سبأ)

نسأل الله أن يجعلنا من الأقليّة المؤمنة لا من الأكثريّة الكافرة، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

على وضعك الحالي والدّخل القليل، هذا هو الفضل، والله تعالى يكشف الغِطاء، فوالله الذي لا إله إلا هو حينما يُكْشف الغِطاء، ويُظهر الله لك ما ساقهُ لك في الدنيا من متاعب، وضيق مادّي، ومرض مخيف، وزوجة مُتْعِبة، وأولاد متعِبين، وجار سوء، وضياع أحياناً وخوف، وقلق، وحزن، خلل أصاب الجسم، لمّا يبيّن الله لك لماذا ساق لك هذه المتاعب ويريك في الآخرة لماذا ساقها لك يجب أن تذوب أنت المؤمن أو أيّ إنسان أن يذوب مِثل الشَمعة محبّة لله عز وجل، أما سيّدنا عليّ فقد قال: والله لو كُشِف الغِطاء ما ازْدَدْتُ يقيناً، لأنّه قبل كَشْف الغِطاء موقِن برحمة الله وحِكمته وعدالته وعَطْفِهِ ورأفتِهِ.

الإنسان بنيان الله وملعون من هدم بنيان الله:

لمّا تقرأ قوله تعالى:

(إِنّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنّهُ أَوّابٌ (43))

(سورة ص)

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا قضى شيئاً قال:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، و أبقى فيّ قوته، و أذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

هذا علم، هذا الطعام أذاقك الله لذّته وما أكلته عن طريق السيروم ! والتُفاحة عضضْتها وتلذذت بنُكهتها، أذاقك لذّتها، وأبقى فيك قوّتها، وأذهب عنك أذاه، فلا عمليّة جِراحيّة، ولا حصر بول بالمثانة، الطُرق كلّها سالكة، هكذا علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته قال: الحمد لله الذي آواني وكم ممّن لا مأوى له، اِذْهب إلى شرق آسيا، أجيال من الابن إلى الجد ينامون

على الطّرقات، أما أنت فتسْكُن في البيت، ومعك مِفتاح بيت، وهناك حمّام ومطبخ، فالدّرجة الثانية أن تذكر نِعَمَهُ.

والدرجة الثالثة أن تكون في خِدمة عِباده، الأغنياء أوْصِيائي، والفقراء عِيالي، كلّنا عباد لله عز وجل، يجب أن تسرّ أخاك وأن لا تُخيفهُ، لا تقْبلْ عملاً فيه تَخويفٌ للناس، المرعّبون في النار، ولا تُحمِّر وَجهَ إنسان وتُخْجِلُهُ وتحاصره وتُضايقه، الإنسان بنيان الله وملعون من هدم بنيان الله، ولا تبْتزّ ماله، ولا تعطيه بِضاعة مَغْشوشة وتأخذ مبلغاً غالياً، ثمّ يقول لك: هذه شطارة !! أهكذا المؤمن ؟ تبيعُه شيئاً مغشوشاً، فإذا الواحد ارْتقى إلى مستوى ثالث أصبحَ في خِدمة الخَلق، والخلق كلّهم عِيال الله، ولا يستطيعُ أن يؤذي إنساناً، ولا يغشّ ولا يؤذي، وهناك غشّ بالوزن وغشّ بالنّوع، وغشّ بالتاريخ، ينتهي المفعول ! فأوّل درجة بالشكر أنْ تعرفَ أنّ هذه النِّعمة من الله، وليْسَتْ من ذكائك، ولا من جهدك والدّرجة الثانية أن تذكر، والدرجة الثالثة أن تعمل، قال تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشّكُورُ (13))

(سورة سبأ)

هنيئاً لِمَن بلغَ الدرجة الثالثة، وشَعَر أنّهُ خادمٌ للخلق أحياناً، فالخلق كلهم الله يحبهم، تعطي ابنَ صديقك سكّرة فيقول لك أبوهُ شكراً، أنت ما أعطيْتها الأب، فلِمَ قال: شكراً ؟ لأنّه يعتبر هذا له، وكذا الحال إذا خَدَمْتَ عبداً مِن عِباده فهي لله عز وجل.

الإيمان نصفان بالسّراء شكر وبالضّراء صَبر وهذه مرتبة عالِيَة بالإيمان:

قال تعالى:

(مَنْ ذَا الّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ((245))

(سورة البقرة)

حديث:

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنّ عَبْدِي فُلَاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هذا هو الشكر، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

إعمل جاهداً أن تكون شاكراً، والإيمان نصفان ؛ نصف صبر، ونصف شكرٌ، بالسَّراء شكر، وبالضَّراء صَبر، وهذه مرتبة عالِيَة بالإيمان، أنت بلغْت مرتبةً بحيث ترى أنّ الله بيَدِهِ كلّ شيء، وأنّه لا يقعُ شيءٌ إلا بأمْر الله، والله اختار هذا الشيء الصَّعب فما عليّ إلا الصَّبر، وإن أعطاني فعليّ الشكر، فأنت بين الشُّكر وبين الصَبر، وهذا الإيمان، فالواحد إذا أدَى صوم رمضان، ففي هذا الشَّهر تقريباً كلّ الناس صائمون، ولكن فرْق بين الصِيام الكامل، الذي فيه الاستقامة التامّة، وغضّ بصر تامّ، وعدم سماع المُلْهيات، وصدق لسان، وتقصّى لكلّ أوامر الله عز وجل، وصلاة بإتقان والتراويح عشرون ركعة، لماذا تُصلّي ثماني ركعات فقط ؟ عمر رضي الله عنه صلّى بأصحاب النبي عشرين ركعة ! فهذه سنّة لا بدّ أن تُطبّق:

((عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ))

[الترمذي وأبو داود عن العرباض بن سارية]

على المؤمن أن يكون له عمل يبتغي به وجْه الله عز وجل:

أحياناً يقضي الإنسان خمس ساعات بكلام لا معنى لهِ، ومن أجل الصلاة يقول لك: ثماني ركعات ! وأعلى درجات الثَّواب أن تسْتمع إلى كتاب الله في صلاة وأنت واقف، وأنت في مسجد، هذه هي التراويح، وإذا أُتيح لك أن تسمع القرآن كلّه في التراويح فهذا هو قيام الليل، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

أوّل درجة بالشكر المعرفة، والثانية الذِكر، والثالثة العمل، وإنّك إن ذكرتني شَكَرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني، قال تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشّكُورُ (13))

(سورة سبأ)

ماذا قدَمت أنت ؟ قال تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) وَآخَرُونَ)

(سورة التوبة)

سَلْ نفْسكَ هذا السؤال: ما العمل الذي أعْدَدْتُه كي ألقى الله به ؟ ماذا فعلتَ من أجل الله ؟ وماذا أعْطيت؟ وماذا منَعْت ؟ وأيّ وقتٍ بذلْتَهُ في سبيل الله ؟ وأيّ جهْدٍ بذلْتَهُ في سبيل الله ؟ وأيّ خِبرةٍ قدّمتها في سبيل

الله ؟ أيّ عِلمٍ علّمْتَهُ في سبيل الله ؟ هل أمرْت بالمعروف ونهَيْت عن المنكر ؟ هل راعَيت الأيتام والأرامل ؟ هل كنت أباً مِثاليّاً ؟ وزوْجاً مِثاليّاً ؟ ماذا فعلْت كي تلقى الله بهذا العمل ؟ يمكن أن تأكل وتشْرب، تأكل كما يأكل العامّة من دون أجر ! وهذا بحكم العادة، ولكنّ الأصل أن يكون لك عمل تبتغي به وجْه الله عز وجل.

كلما رجحَ عقلكَ قلّ كلامك:

قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

(سورة النمل)

هناك شعور ورغبة في أن يمْدَحَك الناس وهذا معروف، وأحياناً يعمل الواحد عملاً صالحاً، ويكون إخلاصه ضعيفاً لله عز وجل، فهو إن دعا إلى وليمة ألحّ ؛ هل أعجبكم الطّعام ؟ من أجل أن يثنوا على هذه المبالغ الكبيرة المدفوعة في هذا الطعام، أما إذا كان الإطعام لله عز وجل فالأمر قد اخْتلفَ، قال تعالى:

(إِنّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9))

(سورة الإنسان)

كلما رجحَ عقلكَ قلّ كلامك، والله تعالى اطّلعَ على قلبك، وعرفَ إخلاصَكَ، وعرفَ محبّتَكَ، فالإنسان عند الله تعالى مَكْشوف ويستطيع بذكائه أن يتكلّم كلاماً مقبولاً، يقول لصديقات زوجته: تعالين واجلسن هنا فهو أكثر دفئاً، هن محرمات عليك وأنت لا تخشَ عليهن البرد، بل هناك محاولة منك للتعرف عليهن، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

الإنسان له أن يقول ما يشاء ولكنّ الله يكشِف حقيقته:

لماذا زرْتَ فلاناً ؟ لأنّك تعلم أنّ عنده اختلاط، قد تعجب بزَوْجته، فالله يعلم بالضّبط ما هي رغبتك ؟ فالإنسان له أن يقول ما يشاء، ولكنّ الله يكشِف حقيقته، وهذه الآية تقسمُ الظهر، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

هذا عامل أتيت به وتقول له: أريد مشاركتك، فهل صحيح أنك تريد مشاركته أم عملية ترغيب ليعمل عندك فترة ثم تطرده؟

أن تتلاعَبَ مع الموظف وتقول له الشغل موجود، حتى يتفانى في الخدمة ثمّ تضيّق عليه وتطردهُ، هذا يكشفه الله من أوّل الوقت، والشيء الذي لا يعلمهُ أحد يعلمُه الله، ويعلم أدقّ ما فيك، ويعلمُ ما يخفى عليك أيضاً، فالإنسان إذا تزوّجَ، وإذا شارك، يشتغل مع شريكه ويتعلّم منه ثمّ يقول له: انتهى ما بيننا !! ويصبح المحلّ كلّه باسمه، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

في علاقته مع النّساء، وبعَلاقته التِّجاريّة، وبحَركاته، وسكَناته، أحياناً يستطيع أن يظهر الإنسان بمَظهر أخلاقي وراقٍ أما الحقيقة فالله يعرفها، ولا تستطيع أن تخدع الله.

(إِنّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء]

أيّ شيءٍ غاب عنك الله سبحانه وتعالى يعلمه و هو مسجل في كتاب مبين:

قال تعالى:

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

(سورة البقرة)

وقال:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

إنّ **" للتوكيد، وكذا " اللام "** هي للتوكيد، فالطبيب قد يقول للمريض: تعال بعد شهر، فهل المريض يحتاج للمجيء أم فقط من أجل الدراهم ؟! وكذا المحامي والمدرّس، فهذه المِهَن منْ تَدريسٍ ومحاماة وطب وهندسة، تقول للتاجر: اختر لي أحسن بضاعة، فإذا به ينتقي لك أبْشع لون، أهكذا الدِّين والأمانة، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

قال تعالى:

(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75))

أيّ شيءٍ غاب عنك، حادثة وموقف، فالله سبحانه وتعالى يعلمها وفي كتاب مبين.

كلّ إنسان يستطيع أن يخْدم أخاه من خلال عمله وحِرفتِه:

آياتنا اليوم ثلاث، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75))

إذا الإنسان بدأ بطريق الشكر، وكلّ نِعمة يتمتّع بها يجب أن يعرفها أنَها من الله عز وجل، ثمّ عليه بشُكر الله تعالى عليها، ثم عليه أن يردّ عليها بخِدمة الخلق، وكلّ إنسان يستطيع أن يخدم إخوانه من خلال عمله، وكان السلف الصالح يفتحُ المحل التِجاري ويقول: نَوَيْتُ خِدمة المسلمين، إذا بِعْتَ الناس بسِعر معتدل، وكنت لطيفاً معهم، وما أرْهقْتهم فهذه خِدمة، لذا كلّ إنسان يستطيع أن يخْدم أخاه من خلال عمله وحِرفتِه ؛ كَطبيب ومحامي ومهندس ومدرّس وموظّف وتاجر:

((التّاجِرُ الأمينُ الصّدُوقُ: مع النّبيّينَ والصِّدّيقين والشُّهداء))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

((إن أطيب الكسب كسب التجار ؛ الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا))

[الجامع الصغير عن معاذ بسند ضعيف]

هناك تجار كبار إذا رأوا تاجراً شابّاً اشْترى صفقة أخافوه حتى يبيعها دون ربح، وإذا باعوا لم يُطْروا، يقول لك: هذه أحْسن شيء بالعالم وهي سيّئة !! وإذا كان لهم لم يُعَسِّروا، وإذا كان عليهم لم يمْطِلوا، فلا إمطال ولا تعسير، ولا ذمّ ولا مدح، ولا كذب ولا إخلاف وعد، وهم قليل، والآية الأخيرة:

(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (16-18): تفسير الآيات 74 - 79
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-04-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة النمل.

عِلّة تسخير السماوات والأرض من أجل أن تعلم أنّ الله يعلم:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(75))

(سورة النمل)

الآيتان الثانية والثالثة مررْنا بهما سريعاً، ونقف عندها قليلاً قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

الإنسان حينما يشعر أنّ الله يعلم ينضبط، بل إنّك إذا علمْت أنّ الله يعلم تستقيم على أمر الله، المشكلة هي هذا العلم ؛ قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا(12))

(سورة الطلاق)

لو أردْت أن تفهَمَ الآية فهماً دقيقاً لغوياً، لوجَدْت أنّ هذه اللام هي لام التّعليل، وأنّ عِلّة تسخير السماوات والأرض من أجل أن تعلم أنّ الله يعلم.

هذه الآية هي قانون الاسْتِقامة:

قال تعالى:

(أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً(12))

(سورة الطلاق)

هذه الآية دقيقة جدّاً، وكأنّها قانون الاستقامة، وأنت لن تستقيم إلا إذا شَعَرْت أن معك من يراقبك، لو أنّ وزيراً نظّمَ تنظيماً أو أصْدر قانوناً أو قراراً المواطن متى ينفّذ هذا القانون تنفيذاً حرفيّاً ؟ هناك حالتان ؛ ولا بدّ من شرطين إذا توافرا نفّذ هذا الأمر، الشّرْط الأوّل: أنّ هذا الوزير الذي أصْدر هذا الأمر يطولهُ عِلْمهُ، فقانون السّيْر مثلا يمكن أن تكون الساعة الثالثة ليلاً، ولا يوجد شرطي، فهذا الذي أصْدرَ قانون

السَّيْر لن يطولكَ علمهُ الآن، ولك أن تخالف، أما إذا كان بهذا المكان آلة تصوير تصوّر وتسجّل ليلاً نهاراً، فلن تخالف، أما إن لم يطُولك فإنّك سَتُخالف، فلاحِظ أنت أنّ أكثر الناس إذا شعَرَ بهذا المكان لا يوجد موظف، ولا تموين، ولا شرطي، حينها يُخالف، ومتى ينفّذ ؟ مادام هناك مندوب لهذا الوزير، أو مندوب لهذا الذي أصْدر هذا القانون، مادام له عَين، قد تكون عيناً بشَرِيَّة، وقد تكون عَيْناً آليّة، ولكن هناك حالة ثانية: لن تستقيم على أمر الله إلا إذا أيْقَنتَ أنّ هذا الذي يطولك علمهُ تَطولكَ قُدْرتُهُ أيضاً، يَعْلَمُ وبإمكانه أن يوقِعَ بك أذًى كبيراً، مِن أرْوَع الآيات هذه الآية، هي قانون الاسْتِقامة، أنت لن تستقيم إلا بِشَرطَين ؛ يجب أن توقِنَ أنّ الذي أمرَكَ بالاستقامة عِلمهُ يَطُولك، وأنّ قدرتهُ تطولك، فلو طالكَ عِلمُه، ولم تَطُلْك قدْرتُهُ، مثلاً شرطيّ سيْر، والمُخالف رتبة عالِيَة جداً في الشرطة، فلا يتأتّى للشرطي أن يكتب المخالفة، أو أنّه لو كتَبَ لا تنفّذ، إذاً إذا شعَرَ هذا السائق أنّ قُدرة هذا الشرطي لا تطولهُ هنا يُخالف.

معرفة الآمر والأمر شيئان متلازمان:

الله تعالى ماذا قال ؟ قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا (12))

(سورة الطلاق)

لِتَعلموا شيْئَين ؛ أنّ الله على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بِكُلّ شيءٍ عِلْماً، عِلْمُهُ يَطُولنا، وقدرتُهُ تَطولنا، وأنا متأكِّد أنّ إنساناً عاقلاً فيه ذرّة عَقل لو قال: كلّ مخالفة لله سأدْفَعُ ثمنها باهظاً لأنّ الله يعلم وهو قدير، يعلمُ مخالفتي وقدير على معاقبتي، فلا بدّ من أن يستقيم على أمر الله، فلكل سيّئة عقاب، ولكلّ حسنةٍ ثواب، والنبي عليه الصلاة والسلام لمّا دخل على بعض أصحابه وكان مريضاً، فقال: يا رسول الله، أُدْعُ الله أن يرْحمني، فقال الله عز وجل:

((وعزتي وجلالي ـ كما ورد في الأثر القدسي ـ لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

يا أيّها الأخوة الإنسان بدافع الحِرْص على سلامته، ولا أحد إلا ويحْرصُ على وُجوده، وعلى سلامة وُجوده، وعلى كمال وُجوده، وعلى اسْتِمرار وجوده، عليه بالاستقامة، وإذا اسْتَقَمْتَ على أمر الله فلِمَصْلحتك، ماذا تحتاج الاستقامة ؟ تحتاج معرفة الأمر والنّهي، إذاً تعلّم الفقه واجب على كلّ مسلم، أن تعرف في هذا الموضوع ماذا يريد الله عز وجل ؟ أيَجُوز أن أفعَلَ هذا ؟ هل هذا الشيء مُباحٌ أو واجب

أو فرض أو مكروه أو محرَم ؟ إذاً كيف تستقيم على أمر الله وأنت لا تعرف أمر الله، إذاً معرفة أمر الله لا يعْلو عليه شيء، إذا عرفْت الله لا بدّ من أن تعرف أمره.

أما إذا عرفت أمره قبل أن تعرفهُ تحتال على هذا الأمر، تحتال في دَفْع الزكاة، وتحتال في النَّظر للنِّساء، فإذا عرفت الأمر قبل الآمر، وإذا عرفت الآمر قبل أن تعرف الأمر كيف تُطيعُه ؟ إذاً معرفة الآمر والأمر شيئان متلازمان، وبعض العلماء اصطلحوا على تسْمِيَّة معرفة الآمر معرفة علم الحقيقة، ومعرفة الأمر علم الشّريعة، ولا بدّ من معرفة علم الحقيقة وعلم الشريعة.

حَجْمُ خَشْيَتِكَ من الله بحَجم عِلْمِكَ وكلّما ازْدَدْتَ عِلْماً ازْدَدْتَ خشيَةً:

إذا تعلّمنا شيئاً وأهْمَلنا الطّرف الثاني وقَعنا في خلل، إذا عرفْت الله من خلال الكون ولم تعرف أمرهُ كيف تستقيم على أمره ؟ وإذا عرفْتَ أمره، ولم تعرفه تحتال على أمره، والنبي عليه الصلاة والسلام عرّف أصحابه بذات الله في ثلاث عشرة سنة في مكّة، ثمّ جاء التّشريع، ونحن مُلْزمون بمَعرفة الله، ومعرفة أمره، ويجب أن تُعمّق عِلمَكَ على خطّيْن في آن واحد، إذا تفكّرْت في خلق السماوات والأرض كلّ يوم ؛ هذا التّفكّر يزيدك معرفةً بالله، ويزيدك معرفة بعَظَمتِه، وبأسمائه الحسنى، وبقُدرته، وكلّما كان حجم معرفتك بالله أكبر كان حجم خَشْيَتِكَ أكبر، والدليل قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(28))

(سورة فاطر)

َحَجْمُ خَشْيَتِكَ بِحَجم عِلْمِكَ، وكلّما ازْدَدْتَ عِلْماً ازْدَدْتَ خشيَةً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لا بورك لي بطلوع شمس يوم لم أزدد فيه علماً يقربني إلى الله.))

[ورد في الأثر]

اِزْدَدْ علماً تَزْدَدْ حُبّاً، اِزْدَدْ علماً تَزْدَدْ قُرْباً، اِزْدَدْ علماً تَزْدَدْ ورعاً، فالعِلْم هو الأساس، وحركة دون عِلم هي حركة عَشْوائِيَة، وحركة غير مُجدِيَة، فالعِلم هو مركز الثِّقل لذلك جعَلَهُ الله قيمةً وحيدةً مُرَجِّحةً بين خلقِهِ، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنّمَا يَتَذَكّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ(9))

(سورة الزمر)

قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً(12))

(سورة الطلاق)

عليم وقدير، وهذا هو قانون الاستقامة، إذا خالفْتَ أمر الله، أقول لكم وأنا متأكِّد مِن كلامي: لا بدّ من أنّ هناك خللاً في عِلمك بالله، ولا بدّ من أن يكون هناك خللاً في عِلمك بِعِلْمِهِ وقُدرتِهِ معاً، أو خللاً في علمه أو قدرته، إذا قال لك أحدهم: لا تدَقِق، فهذه عقيدة زائغة، وإذا قال: الله غفور رحيم، اختلت الاستقامة، يأكل المال الحرام بِحُجَة له أولاد ومضْطرّ، والناس كلّهم هكذا، ولا بدّ أن يغش، والناس يستأهلون الغشّ ! هكذا يقول هو، فأيُّ خلل في استقامتك أساس خلل في عقيدتك، لو صحَتْ عقيدتك لصحّت استِقامتك.

كلّما تحقّقت بعِلم الله بنَواياك انْضبَطتْ أمورك واسْتقامَت سريرتُكَ وعلانيّتُك:

يا أيّها الأخوة الأكارم أنت تطلب من الله الكرامة، وهو يطلب منك الاستقامة لأنّ الاستقامة عَين الكرامة، لما يكون الإنسان مستقيماً على أمر فهو في ظلّ الله عز وجل، وفي حِفظه ورِعايَتِهِ، فإذا شذّ عن الاستقامة، كأنّه خرج من ظلّ الله وصار معرّضاً لحجارة وأمطار وبرد وحر ومضايَقات، لذلك قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

الله يعلمُ كلّ شيء، فإذا بالغْتَ في معرفة أنَ الله يعلم، فقد نَجَوْت بِنَفْسِك، وقبل أن تقول كلمةً يعلم نواياك منها، وقبل أن تدعو إلى الله فالله يعلم النوايا، وقبل أن تأمر بالمعروف أو تنْهَ عن المنكر فالله يعلم النوايا، قبل أن تدعو أحداً إلى بيتِك أو تزوره يعلمُ النوايا، وقبل أن تعطي أو تمْنع يعلم النوايا، فكلّما تحقّقت بِعِلم الله بنَواياك انْضبَطتْ أُمورك واسْتقامَت سريرتُكَ وعلانيّتُك.

الحركة الإيمانية أو نُسمّيها النمو الإيماني، هناك نموّ اقتِصادي، هذه السنة مئة، السنة التي بعدها مئة وثلاثون، ثمّ مئتان، يقول لك هناك نموّ بالأرباح والدّخل، فنحن نحرصُ على نموّ دَخلنا وأرباحِنا، ألا ينبغي أن نحرصَ على نموّ إيماننا ؟ ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام جدّدوا إيمانكم ؟ ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام المغبون من تساوى يوماه ؟ ضربتُ مثلا من مدة، رصيف متحرّك وأنت على الرصيف، فإذا نزلت من على هذا الرصيف ووقفت في مكانك فأنت واقف أم مقصّر، بالقياس إلى هذا المتحرّك ؟ فإذا كان مجموعة مؤمنين إلى الله طريقهم، وأنت وقفتَ فما ازْداد علمك، ولا عملكَ، ولا ورعَكَ، ولا شوقكَ، ولا اسْتِقامَتَك فأنت في تقصير، وهذا معنى الحديث من لم يكن في زِيادة فهو في نقصان.

تكلّم أو اسْكُت فالله تعالى يعلم سرك وعلانيتك:

قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

تكلّم أو اسْكُت فهو يعلم الحالين، إذا كانت علانِيَتَكَ مُطابقةً لِسَريرتِكَ فهو يعلم، وإن جاءَتْ علانيتَكَ مخالفة فهو يعلم، إن كانت السريرة أطْهر من العلانيَة يعلم، وإن كانت العلانية أطْهر من السريرة يعلم، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

حال المراقبة شعور لا يعلمه إلا من مارسهُ، قال تعالى:

(إِنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

وقال تعالى:

(وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ رَقِيباً(52))

(سورة الأحزاب)

أيّ شيءٍ غابَ عن عِلمك هو في علم الله وفي كتاب مُسجّل:

قال تعالى:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

إنسانٌ خطّط، له مدير بالمدرسة أراد أن يشكوه للتّضْييق عليه، ورتّبَ له ترتيبات كي يُزيحَهُ من منصِبِه، وكتب ورقة وقال: أريد أن أبعث تقريراً للمفتش، التّقرير صور، وعند المدير نسْخة منه فالمدير يعلم ما في التقرير وكذا الحال عند الله ! فالله عز وجل يعلم، يمكرون ومكرهم يعلمه الله، وله نسخة منه، فالله يعلمُ مَكْر الماكرين، ويعلم تَدبير المدَبّرين، ويعلمُ خداع المخادعين، وتَدْجيل المُدَجّلين، وكذب الكاذبين، ويعلم صِدْق الصادقين، وإخلاص المخلصين، فكلّما بالغْت في الحركة يجب أن يَنْمُوَ إيمانك في خطّين في خطّ معرفة الله، وفي خطّ معرفة أمره، معرفة الله كأسمائه الحسنى ؛ علمه وقدرته وسمعه وبصرهُ وغير ذلك، ومعرفة أمره الحلال والحرام في كلّ شيءٍ تقريباً، فإذا نَمَتْ معرفتك بالله

تعالى، ونمت معرفتك بأمر الله وعرفت أنّ الله يعلم وقدير، تجد أنّك تستقيم على أمره بشَكل طبيعي ودون جهد، ودون مُصارعة، دون مُشادَة مع نفسك، قال تعالى:

(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75))

أيّ شيءٍ غابَ عن عِلمك هو في علم الله، وفي كتاب مُسجّل والمُسجّل بحَسب تفكير البشر أشدّ ثباتاً وأشدُ قوّةً كله مسجل.

هناك فرق بين الرادع والوازع فالوازع داخلي لكن الرادع خارجي:

الذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء، الله تعالى قال:

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(181))

(سورة آل عمران)

الإنسان إذا تكلّمَ كلاماً فيه تَجاوُز لِعُبوديَّته، وتجاوز في الأدب مع الله عز وجل، وتجاوز لِقَوانين الله، فهذه الكلمة سوفَ تُكْتب، وسوف يدْفعُ ثمنها باهظاً، لذلك عليه الصلاة والسلام قال:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

وقال:

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

قال تعالى:

(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75))

حكى لي شخص أنّه تحرك حركة خالف فيها النِّظام ببَلدٍ أجنبي، استَدعوه وعرضوا عليهِ شريطاً بصُورة ملوّنة على شاشة كبيرة، كلّه مُسجّل، لون سيارته ورقمها، والحقيقة أنّ انْضِباط العالم الغربي، انْضِباط خارجي لا ذاتي، فوسائل الضّبط راقِيَة جدّاً، وهذا ما سَنُسمّيه رادِع، وفي الإيمان وازع، وشتّان بين الرادع والوازع، فالوازع داخلي، والرادع خارجي شَخصٌ حدّثني أنّ بعض المسابح ذات المِياه المعْدَنِيَّة، هناك مادّة كيماويّة تتفاعَل مع البول وتطلع مادَة بنفسجيَّة اللّون لِمَن فعَلَ هذه الفعلة ! وهناك رجل معه جِهاز ضَوئي كشّاف يُسلّط عليه، هذا هو الرادِع، أما المؤمن فلا يفعل هذا إلا بدافِع خوفه من الله عز وجل، شتّان بين النِّظام الرّدعي والنِّظام الدّفعي الداخلي.

لا تستقيم حياتنا إلا بالخوف من الله عز وجل:

الله ماذا قال ؟ قال تعالى:

(إِنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(45))

(سورة العنكبوت)

تنهى الإنسان نهْياً ذاتيّاً، أما لمَا قُطِعَت الكهرباء في نيويورْك ارْتُكِبَت مئتا ألف سرقة، الصالة مراقبة تلفزْيونيّاً، أيْ الواحد إذا استقام لا فضل له، وأغلب محلاّت البيع فيها مع التَسعيرة مادَة دُفع ثمن البضاعة تُلغى، أما إن لم يُدْفع يخرج صوت من باب المخرج ! أي هذا سارق لا بدّ أن ينضبط، فهل هو هذا الذي أراده الله عز وجل ؟ هذا الضّبط الخارجي لا قيمة له إطلاقاً، فلو تعطّل هذا الضّبط لِسَبب أو لآخر تجد انْحِطاط ما بعدهُ انْحِطاط، أما الدّين فَيُنَمّي الإحساس الأخلاقي، والوازع الداخلي، وينمِي الانضِباط الذاتي، وتجد الإنسان يخاف من الله، قال له: بعني هذه الشاة وخُذْ ثمنَها ؟ فقال له: هي ليْست لي ! والقصَة معروفة، ثم قال له: ولكن أين الله ؟! هذا الإيمان كلّه ؛ أن تقول: إنّي أخاف الله ربّ العالمين، هناك كثير من المِهَن صاحب المهنة ثقة، فإذا لم يَخَفْ من ربّه يُؤذي إيذاءً كبيراً جدّاً، فلا تستقيم حياتنا إلا بالخوف من الله عز وجل، والحديث القدسي: يا موسى خَفْني، ويا موسى خف ثلاثاً ؛ خفني، وخِفْ نفسَك، وخَف من لا يخافني ! هذه المعاني التي توضّح معنى قوله تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(75))

الله عز وجل وضّحَ في القرآن الكريم كلّ الموضوعات الخِلافيّة في الكتب السابقة:

يقول تعالى:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76))

بنو إسرائيل اختلفوا في شأن المسيح عليه السلام، وفي شأن طبيعته أهُوَ من بني البشر ؟ أم هو إله ؟ واختلفوا أيضاً في الروح القدس، واختلفوا في السيّد المسيح أهُوَ ابن الله عز وجل أم نبي كريم ؟ واختلفوا في طريقة موتِهِ ؛ أصَلَبُوهُ أم شُبِه لهم، اختلفوا في قصص كثيرة عن الأنبياء وجاء القرآن مُهَيْمِناً قال تعالى:

(وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ(148))

(سورة المائدة)

مُهَيْمِناً على كلّ الكتب السابقة بمَعنى أنّ الله عز وجل وضّحَ في القرآن الكريم كلّ الموضوعات الخِلافيّة في الكتب السابقة، قال تعالى:

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً(30))

(سورة مريم)

وقال تعالى:

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ (171))

(سورة النساء)

في كلّ موضوع خِلافي جاءت الآية حَسْماً وفَيْصَلاً للموضوع:

إذاً كما قال تعالى:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76))

قال تعالى:

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنّ الّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظّنّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً(157))

(سورة النساء)

في كلّ موضوع خِلافي جاءت الآية حَسْماً وفَيْصَلاً للموضوع، بنو إسرائيل تقوّلوا على أنبيائهم تقوُّلاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، سيّدنا إبراهيم أبو الأنبياء هذا النبي العظيم قال: عرضَ زوجته على ملكِ مِصْر على أنّها أخته ! أيَفْعلُ هذا نبيّ ؟ هكذا قال بنو إسرائيل على سيّدنا إبراهيم، وبنو إسرائيل قالوا عن سيّدنا لوط أنّه شرب الخمر وزنى بابْنَتَيْه أهذا كلام ؟!! قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

الأنبياء نخْبة مُصْطَفَون أخيار، وعِبادٌ مُكْرَمون، ولا يسْبِقونه بالأمر وهم بأمرِهِ يعملون، وبنو إسرائيل قالوا عن سيدنا داود أنّه رأى امرأةً رائعة الجمال، فسأل عن زوْجها فإذا هو أحدُ جنودِهِ، فأرْسَلَهُ إلى معركةٍ وقال: قدِّموهُ لعلّهُ يقتل، وعندهُ تِسْعٌ وتسْعون امرأة، هذا نبيّ أم زير نساء ؟!!

القرآن الكريم هدى يُبيّن لك طريق سعادتك في الدنيا والآخرة:

قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76))

سيّدنا لوط قالوا زنى بابْنَتَيْه، وإبراهيم كذب، وعرَض زوجته على ملِك مصر على أنّها أخته، وسيّدنا داود أحبّ هذه المرأة، وسيّدنا سليمان قطعَ رؤوس الخيول وقوائِمَها لأنّها ألْهَتْهُ عن الصلاة !! ما ذنبها؟! لذا هناك بنْد اسْمُهُ الإسرائيليات في كتب التفسير ما أنزل الله بها من سلطان، تقولات على الأنبياء، والتي لا ترضي الله عز وجل، وتتناقض مع عِصْمَتِهم، فالأنبياء معصومون، وإن لم يكونوا معصومين، فمن المعْصوم ؟ إذا كان هذا النبي المرْسَل الذي يوحَى إليه غير معصوم أيَكون أحدُ الناس معصوماً ؟ وكيف يأمر الله سبحانه وتعالى باتِّباع أنبيائه وهم غير معصومين، فكأنَ الله يأمرنا بالمعصِيَة، إذاً هذه القصص كلّها باطلة، ولا أصْل لها، والقرآن الكريم وضّحَها تماماً فقال تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76))

ثمّ يقول تعالى:

(وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77))

حقيقة الهدى من أجل التوضيح ؛ لو أنّكَ سلّطْتَ مِصْباحاً كاشفاً على طريق وعِرَة لعرفْتَ الحفرة من الأكمة، والحيوان المؤذي وغير المؤذي، ومن الحيوان النافع، فالضّوء كشّاف، فالقرآن الكريم هدى يُبيّن لك طريق سعادتك في الدنيا والآخرة، وفي الزّواج افْعَل ولا تفْعَل، وفي البيع والشّراء، وفي كلّ حركة من حركاتك، وفي كلّ نشاط من نشاطاتك، هناك توجيهات إلهيّة من الهع عز وجل في كتابه الكريم أخبرنا عن حقائق ووجّهَ توجيهات، فإذا علمت الحقائق، واتبعت التّوجيهات فكأنّك على نور، وربّنا عز وجل في بعض آيات كتاب الله سمَاهُ نوراً مُبيناً.

أمرك أن تصلِّي وأن تستقيم فلما اسْتَقَمْت واتّقيْت شَعَرْت بالسعادة الحاصلة من اتِّصالك بالله:

قال تعالى:

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً(174))

(سورة النساء)

هو كلام الله عز وجل، أما رحمة فلها معنى آخر، أنت إذا اتبعت هدى الله في شأن الزّواج، هناك تعليمات، أوّل بنْد وعاشِروهنّ بالمعروف ؛ كأن تكون رحيماً وحليماً، حلمك ورحمتك وكرمك ومكانتك العلِيّة في البيت، هذا يجعل الزّوجة تحترمك وتُوَقِّرك وتتفانى في خِدمتك، فينشأ ما يُسمّى السعادة

الزّوْجِيَّة، هذه السّعادة رحمة من الله عز وجل تنْعم بها أنت، حينما اهْتَدَيْتَ بهُدى الله سَعِدْتَ بهذه الرحمة، فأيّ توجيهٍ إلهي، كأن يقول لك فلان: في البضاعة الفلانية تربح كثيراً، وينصحك أن تشتري منها، فأنت تشتري وتبيع وتربح، هذا المال تنعَّمْتَ فيه، واشْتريْت بيتاً واسعاً، أطْعمْتَ أهلك طعاماً جيداً، وارْتَدَيْت كساءً جيّداً، فهذه النِعَم التي أنت تسْتمتعُ بها بفضل هذا الموجّه، فالقرآن الكريم هُدًى ورحمة إذا أعطاك التّوجيهات ونفّذْتها تحسّ أنّ الله عز وجل أكْرمَكَ بهذا الزّواج، وأنت في التِّجارة اسْتَقَمْت على أمر الناس، وما كذبت عليهم، وما ماطلْتهم، وما عسّرْت عليهم، وما أثْنَيْت على بضاعتك، وهي ليْسَت كذلك، وما ذممتَ بضاعة الآخرين، وطبَقْتَ السنّة في البيع والشِّراء دون كذب أو احْتِيال أو تدليس، فالناس يثقون بك، ويُقْبلون عليك، زبائنك كثيرون أحبُوك وآثروك على أيّ بائعٍ آخر، وربحت منهم ربْحاً جيّداً، فهذه رحمة تنعم بها بعد أن طبّقْت هُداه طبعاً هذا في الزواج، وفي التِّجارة، وفي علاقتك بالله عز وجل، أمرك أن تصلِّي وأمركَ أن تستقيم، فلما اسْتَقمْت واتّقَيْت شَعَرْت بهذه السعادة الحاصلة من اتِّصالك بالله عز وجل.

الحياة الدنيا مليئة بالاتِّجاهات وكلّ يدّعِي أنّه على حقّ:

قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77))

أيُّ توْجيهٍ تُنَفِذُهُ يعْقِبُه رحمة، تغضّ بصرك عن محارم الله هذا توجيه واضح، وإذا طبّقْت الأمر بحزم يجب أن تشعر أنّ الله سيُكافِئك، تتمتّع بسَعادة زوْجيّة يفتقر لها أُناسٌ كثيرون، لأنّه حينما يعْصي الزّوج أو الزّوجة يتولّى الشيطان التفريق بينهما، فإذا غضَضْت بصرك عن محارم الله يتولّى الرحمن التوفيق بينكما، وتجد مودّة بالغة، وعلى هذا فقِسْ مع شريكك، إذا كنتَ مستقيماً على أمر الله يحبّك شريكك، وإذا كانت هناك أشياء من وراء ظهره ينْفُرُ منك وتصبح هناك مشاحنات وتنفكّ الشراكة بعدها، قال تعالى:

(وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(46))

(سورة الأنفال)

آية دقيقة جداً ؛ قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77))

تهتدي بهَدْي القرآن، ويرحمك الله إذا طبَقْت هذا الهدي، قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78))

الحياة الدنيا مليئة بالاتّجاهات، وكلٌّ يدّعِي أنّه على حقّ، وما من فئة، وما من مجموعة، وما من طائفةٍ، وما من مذهبٍ إلا وهو على حقّ والناس على باطل:

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32))

(سورة الروم)

كلّ إنسان يظن نفسهُ مِحْوَر العالم وأنّه الوحيد، فهذه المشاحنات والخِلافات، والأخذ والعطاء، والاتّهامات السَّريعة، وكلّ إنسان يتّهم الآخرين لأتْفَه الأسباب، وتنشأ عداوات لا مُبرِّرَ لها، ويعْتدّ بِنَفْسِه، ويحتقر الآخرين، ويُعظِّم قدراته إلى أقصى درجة، إذا كان بالعلم فهو العالم والناس كلّهم جهلة، وإذا كان بالاختراع فهو المخترع، وإذا كان بالتِجارة فهو التاجر، وإذا كان بالصِّناعة هو الصانع، دائماً يحتقر الآخرين، فهذه الخلافات والصِّراعات والمشكلات سَيَضَعُ الله لها حدّاً يوم القيامة.

على الإنسان أن يعتدل ولا يتطرف بأحكامه:

قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78))

أحياناً يتكلّم المحامي محاضرة بليغة وعظيمة، عريضة مع الأدلّة، والاستنباطات، والتبريرات، والتخفيفات، فإذا توقّف يتكلّم المحامي الآخر، والقاضي عنده بصيرة، وعنده أدلّة، يُنْهي هذا النِزاع بأن يقول: حَكَمْنا على فلان بالسِّجْن، وهو المذْنب، وينتهي الأمر، قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78))

قد تكون هذه الفئة الضالة، وهذه المحقّة، قد يكون العكس، فأهل التّصوف هم الدِّين وحده، وأهل العقيدة هم الدِّين وحده، وأهل الفقه هم الدِين وحده، فهذه مبالغة، ولكنّ الدّين فيه جانب عقائدي، وجانب عبادي، وجانب معاملات، وجانب خلقي، فالدِّين كلّ هذه الأشياء، ولا ينصر هذا الدِّين إلا مَنْ أحاطهُ مِن كلّ جوانبه، فإذا كنتَ من علماء الأصول ليس إلا أنت، وإذا كنت من علماء الشريعة ليس إلا أنت ! لا كلّ هؤلاء يُشَكِّلون محطّات في الطريق إلى الله عز وجل، وكلّ هؤلاء يشكِّلون أجزاء في الدين يكمل بعضهم بعضاً، إذاً كما قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78))

الإنسان لمّا يتطرّف بأحكامه لا بدّ له من أن يتراجع في يوم ما، فما عليك إلا أن تكون معْتدلاً.

الله عز وجل لا يقْبل للإنسان أن يتوكّل عليه وهو على باطل:

قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ (79))

هذا التَوكّل شيءٌ عظيم، والتَوَكُّل ليس كلمة تقال، أن تقول: توكّلت على الله، هذه قد يقولها أيّ إنسان، هذا كأن تقول: ألف مليون ! هذه كلمة، وهذه يقولها أفقر واحد، فبَيْن أن تلفظها وبين أن تملكها فرْقُ كبير، وبين أن تقول: توكّلتُ على الله وقلبك مع زيْد وعُبَيد على مالك وصحّتك ومكانتك، وعلى ابن عمّك وابن خالتك، أيُّ توكّلٍ هذا ؟ هذا كلّه شِرْكٌ ! الله عز وجل ليس عند القول، ولكن عند الشُعور وعند الحقيقة، ولن تتوكّل عليه إلا إذا عرفْتهُ، فأنت لن تُكَلِّفَ إنساناً عملاً خطيراً إلا إذا كان في مستوى هذا العمل، لن تكلّف إنساناً يشتري لك ذهَباً، وأنت تعرف وجود ذهب مزيّف، وأسعار باهظة، وبائعي أسعار غير معقولة، وهناك احتيال، لن تُكلّف من هو ضعيف الخِبْرة في هذا الموضوع، لن تعتمد إلا على الخبير والقويّ ولن تعتمد إلا على العالم والقدير، فالتَوكّل يحتاج إلى معرفة ثابتة اِعْرف الله ثمّ تَوَكّل عليه، هذا إذا علِمْت أنّ بيَدِهِ كلّ شيء ؛ عليم خبير قدير حكيم محبّ رؤوف رحيم، كيف أنّ الطفل الصغير وهو في حِجْر أُمِّه مرتاح لا مشكلة عنده، لا يخشى عَدُوّاً، ولا يخشَى مرضاً، ولا يخشى جوعاً، هذا الاسْتِسلام هو حال المؤمن، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، حديث ـ ناصيتي بيدك ـ هذا هو التَوَكّل، ولم لا، قال تعالى:

(إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79))

الله عز وجل لا يقْبل للإنسان أن يتوكّل عليه وهو على باطل، قال تعالى:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(55))

(سورة الأعراف)

كأنّه يقول لنا إن اعْتَدَيْتُم أنتم فأنا لا أستجيب لكم لأنّي لا أُحبكم، أنا لا أستجيب إلا للمُنصفين، وللمقسِطين، وأنا لا أستجيب إلا للمحسنين، والطائعين، والطاهرين، والمستقيمين، فإذا كنت من المعتدين فلا أستجيب لكم، لأنّي لا أُحبّكم، إنّ الله لا يحبّ الكافرين، ولا يحبّ الفاسقين، ولا يحبّ الظالمين.

المؤمن يسْتمدّ قوّته من حُسْن ظنّه بالله عز وجل:

قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79))

إذا كنت على الحق المبين توكّل على الله عز وجل، فلذلك المؤمن يستمدّ قوّته من حُسْن ظنّه بالله عز وجل، ويعلمُ عِلْمَ اليقين أنَ الله معه وأنّ الله لن يتخلّى عنه، ولن يتركهُ، وأنّ الله برَحمته وحِكمته يحفظ عبده المؤمن، وإنَ الله يحبّ المتوكّلين، هناك أشخاص إذا طمأنهُ شخص يطمئنّ ويرتاح أما إذا كانت هناك آية تطمْئِن يبقى قلقاً، وهذه مشكلة وهي ضعف في الإيمان خطير، ألا يكفيك تطمين الواحد الدَيان حتى يطمئنك إنسان ؟! قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً(97))

(سورة النحل)

ألا يكفيك قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

الله برَحمته وحِكمته يحفظ عبده المؤمن لأن الله يحبّ المتوكّلين:

ألا يكفيك قوله تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا(48))

(سورة الطور)

وقوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(51))

(سورة التوبة)

وقوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ(38))

(سورة الحج)

هذه الآيات:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدّاً(96))

(سورة مريم)

ألا يكفيك تطمين الواحد الدَيان حتى يطمئنك إنسان ؟! قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (17-18): تفسير الآيات 80 - 86
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-04-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة النمل.

الله تعالى شبّهَ الكفار بالأنعام وبالكلب وكأنهم خشب مسندة:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80))

(سورة النمل)

شيءٌ دقيق جداً، وهو أنّ الإنسان قد يكون حيّاً وميتاً في وقت واحد جسمه حيّ، وقلبه ينبض، ودمهُ يَجري، رئتاه تَخْفقان، وعضلاته تتحرّك، وأعصابه صالحة لِنَقل الإحساس والحركة، ولكنّ قلبه النفسيّ ميّتٌ، لا يعي على خير، وربّنا عز وجل في هذا الموضوع ضربَ أمثلة كثيرة، فقد شبَّهَ الكفار بالأنعام، قال تعالى:

(إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا(44))

(سورة الفرقان)

شبَّهَ الذين حملوا التوراة أيْ تلقّوْها مِن سيّدنا موسى، ولم يفقهوها، ولم يعرفوا أبعادها، ولم يُطبّقوها بالحُمُر، قال تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(5))

(سورة الجمعة)

شبَّهَ الكفار كأنّهم خُشبٌ مسنّدة، وشبَّههُم بالكلب، قال تعالى:

(إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(176))

(سورة الأعراف)

العناية بالجسد لا تنفعُ صاحِبَها شيئاً ولكنّ البُطولة أن تعتني بالنّفس:

الإنسان ولو كان يتمتّع بصِحّة طيّبة، وبجِسم قويّ، العِبرة بقَلب النفس، لأنّه كما قال تعالى:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88))

(سورة الشعراء)

ما الذي يعمله الناس الآن ؟ عِنايَةٌ فائقة بالجَسَد ؛ يخافُ على عَيْنَيْه، وعلى قلبه، ودائماً يُخَطِّط قلبهُ، وفُحوصات دَوْريَّة، وتحليلات مِخْبريّة لأنَّه يحرصُ على صحَته، وقلّما نجد إنساناً يحرص على صِحَّة نفسِهِ ! وصِحَّة النَّفس هي المُعوّلُ عليها، لأنَّ هذا الجسَد حينما ينتهي الأجل مصيرهُ إلى التراب:

إنّ الطبيب لـه عِلْمٌ يُـدِلّ بـه إن كـان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انْقضَتْ أيّام رحلتـه حار الطبيب وخانَتْهُ العقـاقيـر

***

مهما بالغْت في العناية به فلا بدَّ من ساعةٍ ينتهي فيها العُمُر، وينتقل فيها الإنسان إلى دار الحق، ولكنَّ البُطولة أن تعتني بهذه النَفس، والدليل قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

الكفار يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، يعرف من أن تؤكلُ الكتف، وكيف تقتنص الفرَص ؟ وكيف يكون الرّبح ؟ عنده حواسّ ثابتة جدّاً، في البيع والشِّراء، وفي المكاسب والمغانم، وفي المغانم، فهذه الخِبرات في الدنيا لا تنفعُ صاحِبَها شيئاً.

من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ومن آثر آخرته على دنياه ربحَهُما معاً:

قال تعالى:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

في الآية إشارة دقيقة وهي أنَّهم حتى في الحياة الدنيا لا يعلمونها على حقيقتها، بل يعلمون فقط ظاهرها! والحقيقة أنَ المؤمن يسْعَدُ في حياته الدنيا سعادةً لا يعرفها أهل الدنيا، لأنّ استِقامتهُ على أمر الله تعالى تجعلهُ يستحقّ حياةً هادئةً، وحياةً مطمئنَّةً، وحياةً متوازنةً، ولأنَّ توكّلهُ على الله تعالى يجعلهُ في طمأنينة، واعْتِقادهُ أنَّ الأمر كلّه بيَدِ الله تعالى يجعلهُ في راحةٍ قلبيّة ولأنَّ اعتقادهُ أنّ الله تعالى حكيم، وأنَّ أفعاله كلّها في حقه خير، هذا يجعلهُ ينفي من قلبه الغلّ والحسد، فَالمؤمن إذا صحَّت عقيدتهُ، واسْتقام على أمر ربّه، وصحَّ عملهُ ؛ حياته فيها ميزات لا يعرفها أهل الدنيا، فلذلك من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحَهُما معاً، والقضيّة خطيرة جدّاً، فأحياناً الإنسان لا يربح، وأحياناً يُحقق ربْحاً كبيراً جدّاً، وبرأس مالٍ قليل، أحياناً أرباحٌ طائلة بجُهودٍ صغيرة، أحياناً لا يربح، وأحياناً يدْفعُ خسارةً كبيرةً جدّاً، الإنسان إذا ضل طريق الحقّ يخْسرُ نفسهُ، ونفْسُه أثْمَنُ ما يمْلِكُ،

فالجود بها أعلى أنواع الجود، والضنّ بها أعلى أنواع البُخل، وخسارتها أعلى أنواع الخسارة، فربّنا عز وجل أشار في هذه الآية إلى أنّ هذا الكافر ميّت ! قال لي بعضهم: عدَ حياته قبل أن عرف الله عز وجل فقبل معرفة الله ؛ أمواتٌ غير أحياء ! كُتلة شهوات متحرّكة، إنسان هدفُهُ ذاته، يُؤْثِرُ حظّهُ على كلّ شيء، يُضَحّي بكلّ شيءٍ من أجل لا شيءٍ.

أعلى درجة في المؤمن خوفه من الله تعالى:

أحدُ السُياح جال في قريةٍ فإذا مقبرتها عليها شواهد كلّها مكتوب عليها أعمار الموتى بأرقامٍ قليلة، خمس سنوات، سبع سنوات، عشرون سنة، فسأل ما القِصّة ؟ فقالوا: نحن في هذه القرية لا نعدّ عمر الإنسان إلا بعد أن يؤْمن ! وبعد أن يعرف الله، وقبل هذا أموات غير أحياء!!

ليس مَن ماتَ فاسْتراحَ بمَيّتٍ إنّما الـمـيّت مـيّـت الأحياء

***

أحياناً لا يجد الإنسان نبْضاً في قلبه ! يا ترى هل هناك حياة ؟! يضَعُ مرآةً على أنف هذا المريض، فإذا كان هناك تنفّس ضعيف جدّاً، لا بدّ من أن يرتسِمَ على المرآة بعض بخار الماء، ويفتحون العَين ويوجّهون إليها ضوءاً شديداً، فإذا كانت هناك بقية حياة تضيقُ قُزَحِيّة العين، لا نبْض، ولا تنفّس، ولا ردود فِعل منْعَكِسَة إذن هو ميت، فأحياناً تلتقي بإنسان ميّت ؛ هو خبير بأُمور الدنيا، ولكن أمور الآخرة، وأمور الدِّين، وأمور ما بعد الموت، وأمور هذا الخالق العظيم، والإيمان، والطاعة لا يعرفُ عنها شيئاً ولا يريد أن يعرفَ، ويقول: هذا الموضوع لا يعنيني !! أموات غير أحياء، وأحياناً تجد إنساناً بالسِّتينات والسَّبعينات بالمقهى يلعب النَّرْد حتى ساعةٍ متأخِّرة من الليل، ولا يُصلِّي، ماذا أبقى لآخرته ؟ وكيف سيَلْقى ربَّهُ ؟ أموات غير أحياء !

هذا الذي يرتكبُ المعاصي جِهاراً ولا يُبالي، ويأكل مالاً حراماً، ويأكل شيئاً ليس له، ويحتجّ دونك القضاء، فهذا من الأموات غير الأحياء، والمؤمن ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ لو دَخَلَ عليه دِرهم حرام لما نام الليل ! يخاف الله عز وجل، وأعلى درجة بالمؤمن خوفه من الله تعالى، عندهُ حساسِيَّة بالغة، فأحياناً يكون للإنسان عصَب قد ضُغِط في بعض الفقرات، فيأتي الطبيب إلى مكان خاصّ في الرّكبة يضْربها بمِطْرقة خاصّة، فإذا الرّجل تحرّكت، فمعنى ذلك أنّ العصب جيّد، فإذا كان ردّ الفِعل ضعيفاً فهذا دليل التِهاب العصب، فعدم ردّ الفِعل دليل موت العصب فأحياناً يستمع الإنسان للقرآن، يضيقُ به ذرْعاً، ويحبّ أن يسمعَ الغناء، أموات غير أحياء، وأحياناً يضيقُ بسَماع الخطبة أو الدّرس الديني ويقف

على قدَمَيْه ساعات طويلة في حديث فارغ، وفي كلامٍ لا طعْم له أما أن يسْتمِعَ إلى درسٍ ديني، فهذا لا يحْتملُهُ !!

شيءٌ خطير أن يكون الإنسان ميّت ونعوذ بالله من موت القلب:

إذاً أموات غير أحياء، ويقرأ القرآن فلا يقْشعرّ بدنُه، الله عز وجل وصَفَ المؤمنين فقال:

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(23))

(سورة الزمر)

يقرأ القرآن فلا يضطرب قلبه، ولا تنهمرُ عَيناه بالدُموع، قلبهُ قاسٍ يُصلِّي وخواطرُهُ في تِجارته، وفي بيْتِهِ، وفي محلّه، وفي مشكلاته وحِساباته، حتى أنّ أحدهم قال لي: حينما أجد خللاً في الصُندوق لا أكتشفُ الخطأ إلا في الصلاة !! أهذه صلاة ؟! فهذا شيءٌ خطير أن يكون الإنسان ميّت، قد يكون في أبْهى زينة، وقد يكون وسيم القامة، جميل الشّكل، أنيق الملبس، أذواقهُ رفيعةٌ في بيتهِ، ومع ذلك ميّتُ القلب، ونعوذ بالله من موت القلب، حديث:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

أخاف من هذه الكلمة ؛ أموات غير أحياء، أن يموت قلب الإنسان:

((مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوُناً بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ))

[الترمذي عن أبي الجعد الضمري]

كان على قلبه الران، نكتت نكتة سوداء في قلبه.

أحوال أهل الدنيا شعور بالملل والضيق والقهر:

أن يدَعَ الإنسان مجالس العلم ما الذي يحصل ؟ يغْمِسُ في الدنيا، في مشكلاتها، وهمومها، وأحزانها، ويشعر بالقهر والضِّيق، ويشعر بالملل، ويشعر بعَدم الانشِراح، وهذه أحوال أهل الدنيا ؛ ضيق في ضيقٍ، أما النبي عليه الصلاة والسلام ماذا يقول:

((لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ولزارتكم في بيوتكم.))

[مسلم والترمذي وأحمد عن أبي هريرة]

الإنسان إذا حضَرَ مجلس العلم يشْعر بالراحة وبالانشراح، ومن علامات المؤمن الصادق كما قال عليه الصلاة والسلام:

((خيار أمّتي الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله))

[الطبراني عن عبادة بن الصامت]

أحياناً تلتقي بأخيك المؤمن فتقول ارْتاحَ قلبي ! كنتُ في ضيقٍ شديد فلمّا التَقَيْتُهُ ارْتاحَ قلبي هذه علامة الإيمان، حدّثني أخ دخَلَ على صديق له فإذا هو يبكي بكاء شديداً فقال له: **مالَكَ يا فلان** ؟ فقال: والله بقيتُ أُعاني من ضيق القلب يومين، فلمّا دخلْتَ عليّ ورأيْتُكَ زال عني هذا الضيق، فلهذا أبكي !! أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قال له:**يا رسول الله، إنّي كلّما رأيْتك اطْمأنّ قلبي، وارْتاحَت نفسي**، دخلَ عليه فرآهُ يبكي، فقال له: **مالكَ يا ثوبان تبكي** ؟ فقال:**أنا معك في الدنيا ولكن أيْن أنا في الآخرة ؟!! أخشى أن لا ألتقي بك**، فنزل من أجله قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَالرّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النّبِيّينَ وَالصِّدّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً(69))

(سورة النساء)

الكافر كالأموات تُحدِّثه عن آيات الله الباهرة فلا يتأثّر:

الإنسان إذا تركَ مجالس العلم فإنّ بطاريّته تفرغ من الكهرباء، فإذا شحَنها في كلّ أسبوع مرة أو أكثر من مرّة، وجد نفسه ممتلئة بالكهرباء وهكذا، فهذه مجالس الإيمان، وهذه مجالس يرضى عنها الله تعالى، والمؤمن في المسجد كالسّمكة في الماء ؛ مرتاح، والمنافق في المسجد كالعصفور في القفص، ولا يستحقّ كلمة عصفور، لأنَه أقلّ من هذا لذلك قال تعالى:

(إِنّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى (80))

الكافر ميت، قال تعالى:

(وَلَا تُسْمِعُ الصُّمّ الدُّعَاءَ (80))

تُحدِّثه عن آيات الله الباهرة فلا يتأثّر، وتحدّثه عن أحداثٍ وقعَتْ يتّضِحُ من خِلالها عظمة الله عز وجل فلا يتأثّر، أموات غير أحياء، قال تعالى:

(إِنّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمّ الدُّعَاءَ (80))

لكنّ هناك أخٌ حدَثني حديثاً ـ وهو الآن مسافر غائب، ردّهُ الله بالسّلامة ـ كان يستمِعُ إلى هذه الآية من قارئ، وعندهُ معلومات خاصّة من أنّ الذي لا يستمع وهو الأصمّ يؤْتيه الله قدْرةً فائقةً جدّاً على فهْم الكلام، فهو يفْهمُ الكلام من حركة الشّفاه، وهذا أكّدهُ لي أُناسٌ، فقال لي: وأنا أسْتمعُ لهذه الآية:

(إِنّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمّ الدُّعَاءَ (80))

نشأ في نفسي اعْتِراض، وهو أنّ الأصمّ يفهم ! فلمَا تلا القارئ قوله تعالى:

(إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80))

قال لي: والله الذي لا إله إلا هو كِدْتُ أُصْعق، لأنّ هاتين الكلمتين من إعجاز القرآن، لأنّ الأصمّ بما أوتِيَ من قُدراتٍ فائقة يفهم الكلام من حركة الشِفاه، فإذا ولّى هو مُدْبراً أيَفْهمُ شيئاً ؟ لأنّ الأصمّ قد يفهم بعض المعاني من حركات الشّفاه، أما إذا أدبر فماذا بقي ؟

من نوّر الله قلبهُ وفتحَ بصيرتهُ يرى الحق حقّاً فيتّبعَه ويرى الباطل باطلاً فيجْتنبه:

قال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ (81))

الذي فقَدَ بصرَهُ يُعطينا فِكرةً واضحةً عن عمى القلب، فالأعمى لا يرى ما في الطريق من حُفَر، ومن منزلقاتٍ، ويستطيعُ طفلٌ صغير أن يُضلِله، فلو أنّ شخصاً كفيف البصر، قال له طفلٌ: يا عمّاه هناك حفرة، لَوَقَفَ وبحث عن الحفرة بعصاه، لكن هناك إنسانٌ قلبه أعمى لذلك تأخذهُ بعض النّظريات، وتُذْهبُه بعض النّظريات، ساعة يؤمن وساعة لا يؤمن، أما الذي نوّر الله قلبهُ وفتحَ بصيرتهُ، رأى الحق حقّاً فاتّبَعَه، ورأى الباطل باطلاً فاجْتنَبَه، والله لو كُشف الغِطاء ما ازْدَدْتُ يقيناً، قال تعالى:

(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80))

الحق له طريقان طريق السمع وطريق الرؤية:

قال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ (81))

معناها الكافر أصمّ أعمى ميّت، فالحق له طريقان ؛ طريق السمع، وطريق الرؤية، فإما أن تنظر في خلق السماوات والأرض، وإما أن تنظر في بعض الحوادث فتَسْتنبط منها بعض الحقائق، وإما أن تجلس في مجلس علْمٍ فتستَمِعَ إلى الحق، منْفذُ القلب السّمعُ والبصر، وكلاهما مغْلقٌ، إذاً ماتَ القلب، يؤكِّدُ هذا قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(6)خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(7))

(سورة البقرة)

ما ذنبهم إذا ختَمَ الله على قلوبهم ؟ قال: لا، هذا خَتْمٌ حُكمي، والغَشاوةُ هي حبّ الدنيا، فهو الذي سدّ سمعهم وبصرهم، فإذا سُدّ السمع والبصر فالقلب خُتِمَ عليه من باب أولى، فإذا كان هناك مدْخل للبناء الخارجي وأظهرت لنا هذا الباب، فالأبواب الداخليّة حكماً مُغلقة، ولا قيمة لها، فما دام الباب الخارجي قد أُرتج فالأبواب الداخليّة مغلقةٌ حكماً، فحينما يقول الله عز وجل:

(خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(7))

(سورة البقرة)

هذا خَتم حكمي، جهاز تلقّي الحق الجاهز وهو السّمع، فتلقّي الجاهز السمع، والتأمّل والتفكّر هو العين، فالخَتم على قلبهم بسبب إغلاق سمعهم وأبصارهم وحبّ الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم:

((حب الدنيا رأس كلّ خطيئة.))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني عن أنس بن مالك]

المؤمن بالآيات هو المُؤهَل أن يفْهم ما جاء في كتاب الله:

قال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81))

المؤمن بالآيات هو المُؤهَل أن يفْهم ما جاء في كتاب الله، والمؤمن لا يمرّ على آيات الكون مرّاً سريعاً، والمؤمن إذا شرب كأس ماء يقف عنده طويلاً، كيف تحوّل هذا الماء المالح الأُجاج إلى عذب فرات ؟ لتر الماء في بعض البلاد النَفطيّة تُكلّف تحليتُهُ أكثر من خمسة أو ستة ريالات ! من جعَلَ هذا الماء في الأمطار والينابيع والأنهار ؟ الله سبحانه وتعالى، كأس الماء له معنى، إن جاءهُ مولود فهذا له معنى كبير، يعلمُ أنّهُ حُوَين منوي، تلقّحَت بُوَيْضَة، فإذا طِفلٌ كامل من جمجمة ودماغٍ وأعصاب، والأعصاب والخلايا الاستناديّة في الدِّماغ والنخاع الشوكي والعظام والعضلات المخطّطة والمَلساء، الرّغامى والمري والبلعوم، واللِّسان والأسنان والفم والأنف، العينان والأذنان، والمعدة والأمعاء والبنكرياس والكبد والصفراء والكليتان والكظر، معمل قائمٌ بذاته:

أتَحْسَــبُ أنّك جُـرْمٌ صغير وفيك انْطوى العالم الأكبر

***

من يؤمن بآياتنا هو الذي يستمع إلى الحق وهو المؤهّل أن يعقل وأن يسمع وأن يرى:

المؤمن لا يمرّ هكذا ! هذا الطِّفل يجعلهُ يسجد لله عز وجل، إذا أكل بيضةً يقف عندها طويلاً، إذا شرب كأس حليب وعلم أنَ هذا الحليب يحتاج إلى أربع مئة لتر دم من أجل تصنيعه، وأنَ هذه البقرة معملٌ

قائمُ بذاته، بل إنّ أعظم المعامل تعقيداً تبْدو أمام البقرة تافهة، تأكل وتحرث لك الأرض وتصنعُ لك الحليب، وقد ذلّلها الله عز وجل، فالبقرة آية، والدجاجة آية، والخروف آية، قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(72))

(سورة يس)

لو أنّ الله ركّب فيها أخلاق الضّبع، كيف تأكل الغنم ؟ وكيف تستفيد من لحمها ؟ لو أنّ الغنم ركِّبتْ فيه أخلاق الكلاب، هل بإمكانك أن تجمعَ مئة كلبٍ وتجعلها تسير معك ؟ كلّ واحدٍ في طرفٍ بِحَسب مهمّته، فهذا الذي يؤمن بآياتنا هو الذي يستمع إلى الحق وهو المؤهّل أن يفهم وأن يعقل وأن يسمع وأن يرى قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

هذه كلمة دقيقة جدّاً ؛ ما هو القول ؟ إذا وقع القول عليهم، ربّنا عز وجل قال:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(36))

(سورة هود)

الله عز وجل له قرار قَطعي، وهؤلاء لن يؤمنوا، أنت إذا كنتَ في الجامعة، أو بمَدرسةٍ أو معهدٍ والطالب لم يتقدّم إلى أيّ امْتِحان والنتائج لم تصْدُر بعدُ، هل بإمكانك أن تحكمَ عليه بالرُسوب مئة بالمئة ؟ نعم، لأنّ نِظام الامتِحان هكذا ينصّ، لا ينجحُ الطالب إلا إذا قدَم الامتحان، ونال الدّرجات الكافيَة لنَجاحِهِ، فإذا نالَ الدرجات التي هي أقلّ من النجاح لا ينْجح فكيف إذا تغيّبَ عن الامتِحان كلّه ؟ إذاً هناك قوانين، وفي ضوء القوانين بإمكان الإنسان أن يُصْدِر حكماً قاطعاً، فكيف الله ربّ العالمين ؟

الله تعالى له قوانين والآيات التالية تُظهر بعض هذه القوانين:

قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

الإنسان أحياناً يضلّ ضلالاً بعيداً إلى درجة أنّه لا أملَ في رَجعته، والخطير في حَياته أن يوغِل، ويبتعِدُ عن الحقّ بُعْداً كبيراً، أما المؤمن:

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي عن أنس]

إذا كان الحِجاب بينك وبين الله رقيقاً فهذا الحِجاب سهلٌ أن تُزيلَهُ، أما إذا بالَغْت في المعاصي، وابْتَعَدْتَ عن الدِّين، وأنْكَرْت العقيدة، وأنْكرتَ الأوامر فهنا تكون قد بلغت من البُعْد ما لا يُرْجى لك عَوْدةٌ، فربّنا عز وجل قال:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

الله له قوانين، من هذه القوانين في القرآن قوله تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

هذا قانون وقوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ(6))

(سورة غافر)

هذا قانون ثانٍ، وقال تعالى:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ(205))

(سورة الأعراف)

أيْ لا يستجيب لهم، لأنّه لا يُحِبّهم وهذا قانون رابع، فإذا قرأتم القرآن وأردْتم أن تستشِفُوا منه بعض القوانين فإن هذه القوانين مهمّة جدّاً.

الله تعالى يتعامل مع عباده وفق القانون التالي: منكم الصدق ومني العدل:

قال تعالى:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلا لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

هذا قانون، فيا عبادي تعاملي معكم وفق القانون التالي: منكم الصِّدْق، ومنّي العَدل، ففي ضَوء بعض القوانين الإلهيّة هؤلاء لا يُرْجى منهم شِفاء ولا أمل، أوْضَح مثلٍ هذا الطالب الذي تخلّف عن الامتِحان كله ولمَا تصْدر بعد النتائج، فهل في ضوء النِّظام الداخلي للجامعة ونظام امْتِحاناته أن تحكُم عليه حكماً قَطْعياً أنّه راسب ؟ نعم نحكم عليه حكماً قطعياً أنه راسب، هؤلاء الناس إذا تعلّقوا بالدنيا، وانْغَمَسُوا فيها، وأداروا ظهرهم للدِّين، بل كذّبوا بوُجود الإله، وكذّبوا بكل ما تمت إليه بصِلَة، هؤلاء ضَلّوا ضلالاً بعيداً، ففي بعض البلاد كدَولة الحِجاز اللّوحات على عرض الطريق تماماً، فاللّوحات على عرض الطريق وعالية جدّاً وفسْفوريّة، فأنت من مكانٍ بعيد إذا كنتَ تقود المركبة في الليل ؛ مِن هنا مكّة، ومن هنا الطائف، فمَعَ هذه اللّوحة الواضحة جداً، والكبيرة جدّاً، والصارخة جدّاً، والمضيئة جدّاً، واتّجَهْتَ إلى الطائف بدَل مكّة، هَدَفُكَ مكّة فاتّجَهْت إلى الطائف، نقول: هذا ضلال مبين ! لأنّ لوحةً كبيرةً جدّاً على عرض الطريق عرضها خمسة أمتار طولها ثلاثون متر، وخطّ كبير وفسفوري، ثمّ تذهب إلى الطائف بدَل مكّة فهذا ضلال مبين، فأحياناً الإنسان يكون اتِّجاهه حمص، وهناك طريق

يميني دَخَل به خطأ، حتى وصل إلى تدمر، فهذا ضلّ ضلالاً بعيداً، لكن هناك من يرجع بعد أمتار، وبعد واحد كيلو متر، أو مئة كيلو متر.

الذي ضلّ ضلالاً بعيداً ولعنه الله هذا أغلب الظنّ أنّه وقعَ القول عليه بعدم جَدْوى هِدايتِه:

قال تعالى:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللّهُ (23))

(سورة محمد)

الذي ضلّ ضلالاً بعيداً، ولعنه الله عز وجل، هذا أغلب الظنّ أنّه وقعَ القول عليه، أيْ صدَرَ عليه أمر بعدم جَدْوى هِدايتِه، ضلّ ضلالاً بعيداً، وأوْغَلَ في الضلال، وأوْغَلَ في غَصْب أموال الناس بالباطل، وأوْغَلَ في انتِهاك الأعراض، وأوْغَلَ في إيذاء الناس، أوْغَلَ في تَكذيب الدِّين، وأوْغَلَ في إنكار الوُجود هذا ضلّ ضلالاً بعيداً، يبْدو أنّ الله سبحانه وتعالى جمع في آخر الزمان هؤلاء الذين ضلّوا ضلالاً بعيداً، قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

أيْ طُبِّقَت عليهم السُّنَن الإلهيّة، فلو أنّ إنساناً ارْتَكَبَ جريمة قَتْل وحوكِمَ مُحاكمة عادلة، وارْتَفَعَت القضيّة من محكمة الجِنايات إلى محكمة النَقض، ومحكمة النَّقض صدّقت هذا الحكم، ورئيس الجمهوريّة صدّق هذا الأمر، وسيقَ إلى الزّنزانة لِينتظر حكم الإعدام، والجريمة خطِرة، فهل بإمكانك أن تحكم عليه قَطْعاً بالموت ؟ نعم، فهذه الآية لها حالات صعبة جدّاً، فالإنسان وهو الذي أتمنّاه على الله عز وجل أن لا يوصِلَ نفسهُ إلى طريقٍ مسدود، وأن لا يوصل نفسهُ إلى ضلال بعيد وعليه أن يتصل بأهل الحق، مجالس العلم تفعل في الإنسان فِعْل الصَّحْوَة دائماً، كلّما بدأ ينحرف يأتي هذا المجلس فيَصْحو من غفلته، نفسهُ سوّلت له أن يأكل مالاً حراماً، ولو تابعَها لانتهى، حضر إلى مجلس العلم، ذكر المتكلّم عواقب المال الحرام فخاف وتركه، لذلك هذه المجالس ضمانات لتَصحيح المسار الدائم، فإذا الإنسان صحح مسار مركبته تجده في بحبوحة وسلامة، أما إذا انْحرف انْحِرافاً بسيطاً واسْتمرّ هذا الانحراف، قد ينتهي به انْحِرافه إلى القاع، من هنا النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لاَ صَغِيرَةَ مَعَ الإِصْرَار))

[رواه ابن المنذر والديلمي عن ابن عباس]

أوْضَح مثل أن تكون على طريقٍ مستقيم تماماً، وعلى يمينك انْحِدارٌ خطير، وتقود مركبتك، لو انحرف المِقْود سنتمتر واحد، وثبّت يديك على هذا الانحراف، وأصْررْت عليه، فلا بدّ من أن تسقط هذه المركبة

في الوادي، أما تسْمية الصغيرة صغيرة لأنّه يسْهُل تعديلها، أما الكبيرة فهي انْحِراف بِنِسبة تِسعين درجة، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لاَ صَغِيرَةَ مَعَ الإِصْرَار))

[رواه ابن المنذر والديلمي عن ابن عباس]

فما دام هناك إصرار تَغدو كبيرة.

من علامات قيام الساعة خروج دابة من الأرض:

قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ (82))

هذه من علامات قيام الساعة، دابة من الأرض، أحاديث كثيرة جداً أكثرها ضعيف، وبعضها غير صحيح، والأحاديث الصحيحة المتعلّقة بدابّة الأرض ليس فيها تفصيلات، ولكن حينما تظهر نعرفها، قال تعالى:

(أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ (82))

بعضهم قال: هذه السيارة التي تعلّق الناس بها إلى درجة أنَهم هاموا بها، وقد تُكلِّمهم ! إما بمِذْياعها أو مُسجِلتها أو ببَعض أجهزتها، حينما قَطَعَ الناس آمالهم من الآخرة وجعلوها في الدنيا فقط أصْبحت هذه مَحْبوبةً وهذا رأيٌ من الآراء، ولكنّ الصحيح هو أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لم يذكر التَفصيلات المتعلِّقة بهذه الدابّة، إنّها من علامات قيام الساعة، وحينما تظهر نعرفها، هذا إن ظهرت ونحن أحياء، ولكن الدليل أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يقتنعون وضَعوا الدِّين وراء ظهورهم، وعَدُّوهُ خرافةً وأفْيون الشُّعوب، وعَدُّوه شيئاً غَيْبيّاً لا يعني شيئاً، والمتديّن إنسان ضعيف، وأُفقهُ محدود، وآمنوا بالمادّة، بالدِرهم والدّينار، كم تملك ؟ قيمتك بقيمة رصيدك وقيمتك من متاعك ؛ ما نوع بيتك ؟ وما مساحته ؟ وفي أيّ حيّ موجود ؟ ما نوع مركبتك ؟ ما دخْلك في الشهر ؟ سيّدنا عليّ يقول: **" يأتي على الناس زمان قيمة الرجل متاعه."** أي يستمدّ قيمته من نوع ثيابه، وربطة عنقه، من نوع حِذائه، لا من علمه، ولا من أخلاقه، قيمته من بيته، من سيارته، وتِجارته، ورصيده، كلّ هذا من مظاهر الجاهلية الثانية.

الدِّين هو دين الخالق ودستور قطعي الدلالة وهو منهَج متكامِل من تعليمات الصانع:

الله عز وجل قال:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى(33))

(سورة الأحزاب)

حينما قال أولى يعني أنّ هناك ثانية، فأين الثانية ؟ قال تعالى:

(أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

والله أيها الأخوة الأكارم يعْتصِرُ قلبي ألماً حينما أرى إنساناً يُكذّب بالدِّين ولم يسْمَح لِنَفسِه أن يقرأ عن الدِّين شيئاً، قبل أن يطّلِع عليه، هل تقبل إذا أتَتْكَ رسالة دون أن تفتحها، ودون معرفة المرسِل، ودون النَظر إلى توقيعه، ولم تقرأ ما فيها ثمَ تكذّبها ؟! هل هذا موقف علمي ؟ فقبل أن تكذّب ادرس، واطّلِع، واقرأ، واستَمِع، ثمّ خُذْ موقفاً أما أن يأخذ الإنسان موقفاً من الدِين مُعادِياً قبل أن يعرف ما الدّين ؟ الدِّين هو دين الخالق، ودستور قطعي الثُبوت، وقطعي الدلالة، والدِّين منهَج متكامِل، والدّين هو تعليمات الصانع، فقبل أن ترفض الدِّين اطّلِع على الدِّين، وهذا هو الموقف الشريف والعلمي، قبل أن تكون لك اعْتراضات وملاحظات وتحفّظات جمِّد كلّ ذلك، وانْكب على فهم الدِّين، اِفْهم كتاب الله عز وجل والسنّة النبويّة، تعرّف إلى العقيدة الصحيحة وادْرس سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وسيرة أصحابه، ولا تحكم على الدِّين إلا بعد أن تطّلِعَ عليه.

أعظم وأشرف وأخطر عمل في الدنيا أن تعرف الله عز وجل:

الآية الكريمة:

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

هل في الدنيا عمل أعظم وأشرف وأخطر من أن تعرف الله عز وجل ؟ ومن أن تعرفَ المهمة التي من أجلها جئت إلى الدنيا ؟ هذا عمل عظيم سبحان الله ! الذي يقول لي: لستُ فارغاً فلأيّ شيءٍ أنت فارغ؟! من أجل أعمال تافهة، ومن أجل دريْهمات تكسبها تُضيّعُ آخرتك ودُنياك، فكلمة لستُ فارغاً هذه الكلمة تدعو إلى الضّحِك، مثلاً طالب له امتحانات تخرّج، وإذا تخرج ربّما سيكون طبيباً، وربما سيكون له شأن، ودخل كبير، وسيشْتري بيتاً ومركبةً ثمّ نقول له: لِمَ لا تدرس ؟ فيقول: لسْتُ فارغاً لهذا !! فلأيّ شيءٍ أنت فارغ ؟! طبيب جاء من بلدٍ أجنبي، وفتَحَ عِيادة، ووضَعَ وقت العيادة من الخامسة إلى الثامنة، وجاءه مريضٌ الساعة السادسة، ثمّ يقول الطبيب: نعم ماذا تريد ؟ أنا لسْتُ فارغاً ! لماذا أنت هنا ؟ من أجل أن تعالج الناس، وتأخذ من أموالهم شيئاً، فهذا الذي يقول لك: أنا لسْتُ فارغاً بمَعرفة الله كهذا الطالب الذي يقول: أنا لسْت فارغاً للدِّراسة ! وهذا الطبيب المكلّف بمُعالجة الناس، والذي يقول: لا وقت لِمُعالجة المرضى ! هذا خِلاف المنطق، لذلك قال تعالى:

(أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

السُكوت قد يكون معبّراً:

قال تعالى:

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85))

السُكوت قد يكون معبّراً، أحياناً مع ابنك، فقد يتلبّس بذنب، وهناك أدلّة قاطعة، وأنت نبَهْتهُ أن لا يقعَ فيه، مَنْ فعَلَ هذا ؟ هذا السُكوت هو سُكوت الاعتراف بالذّنب، وسُكوت الإحْباط، يقولون: أُسْقِط في يدِهِ لذلك قال تعالى:

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85))

ماذا يتكلّم ؟ الحجّة عليها وقد ضيّعَ الآخرة كلّها، والدنيا مضَتْ وكأنّها ساعة، وانظر دِقّة القرآن، قال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81))

من آياتنا.

في الكون آيات كثيرة توصلنا إلى معرفة الله عز وجل:

قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً (86))

ألم يرَوا ؟ هذه هي الآيات، وهذا هو طريق معرفة الله عز وجل، أليس الليل والنهار تحت سَمع الإنسان وبصرهِ كلّ يوم ؟ كلّ يوم مغرب، وعشاء، وصبح، وعصر، هل فكّرْت بالشّمس والقمر والنّجوم ؟ وبالليل والنهار ؟ قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(86))

على كلٍّ ضاق الوقت، ولنا عودة في الدرس القادم إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (18-18): تفسير الآيات 82 - 93
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-05-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم مع الدرس الثامن عشر من سورة النمل.

العاقل يتلافى أن تنطبق عليه إحدى العقوبات لأن العقاب أليم والمصير محتوم:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

(سورة النمل)

في الآية الكريمة كما يقول بعضُهم مركزُ ثِقل، هذا المركز هو أن يقع القولُ عليهم، أي أن ربنا سبحانه وتعالى له سنن وله قواعد وله ثوابت وله قوانين، أحياناً تنطبق هذه السُّنة على زيد أو على عمرو أو على هذه الأمة أو على هذه الفئة أو على هذه القبيلة أو على هذه القرية أو على هذه المدينة، عندئذ يستحقُّون العذاب، فالإنسان المفكِّر العاقل لا يصل مع الله إلى درجةٍ أن يقع القولُ عليه أو أن تُطبَّق عليه بعض المواد، بعض السنن وبعض القواعد، والإنسان في حياته الدنيا يجتهد أن لا تنطبق عليه إحدى مواد قانون العقوبات، دائماً العاقل يتلافى أن تنطبق عليه إحدى مواد قانون العقوبات، لأن العقاب أليم، والعذاب أليم، والمصير محتوم، فالذي أتمنى أن أنقله إليكم قولُه تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

قال تعالى:

(أُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(36))

(سورة هود)

أي ذكَّرناهم وذكَّرناهم وبيَّنا لهم ووضَّحنا لهم وفصَّلنا وأرسلنا الآيات وأرسلنا المصائبَ وأرسلنا التَّذكير، أناسٌ دعوهم وأناسٌ ذكَّروهم.

الله عز وجل لا يأخذ الإنسان إلا باستحقاق:

قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

المواطن الذكي يجهد في تجارته وبيعه وشرائه وفي حرفته وفي نشاطه ونزُهاته أن لا تنطبق عليه إحدى قوانين العقوبات السارية، فالقضية كبيرةٌ جدّاً في تعامل الإنسان مع الإنسان، يتحاشى أن تنطبق عليه إحدى هذه المواد، ستّ عشرة سنة و ثماني عشرة سنة، عشرون، فكيف مع خالق السماوات و الأرض ؟ كيف مع الله الذي لا إله إلا هو، الذي بيده كل شيء، إليه يرجع الأمرُ كلُّه، بيده ملكوت كل شيء، قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

أي أن الله عز وجل لا يأخذ الإنسان إلا باستحقاق، ليهلك من هلك عن بينة و يحيا من حيي عن بينة. الحياة والإكرام بأسباب، و الهلاك بأسباب، لذلك النبيُّ عليه الصلاة والسلام كان يدعو الله فيقول:

((مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللّهِ حَاجَةٌ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضّأْ فَلْيُحْسِنْ الْوُضُوءَ ثُمّ لِيُصَلّ رَكْعَتَيْنِ ثُمّ لِيُثْنِ عَلَى اللّهِ وَلْيُصَلّ عَلَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ثُمّ لِيَقُلْ لا إِلَهَ إِلا اللّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ سُبْحَانَ اللّهِ رَبّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلّ بِرّ وَالسّلامَةَ مِنْ كُلّ إِثْمٍ لا تَدَعْ لِي ذَنْباً إِلا غَفَرْتَهُ وَلا هَمّاً إِلا فَرّجْتَهُ وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إِلا قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ))

[رواه الترمذي عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْن أبي]

ماذا قال عليه الصلاة والسلام لبعض أصحابه ؟

عَنْ رَبِيعَةَ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي:

((سَلْ فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنّةِ قَالَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ قُلْتُ هُوَ ذَاكَ قَالَ فَأَعِنّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السّجُودِ))

[رواه مسلم عَنْ رَبِيعَةَ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ]

الجنة ليست مكاناً بل هي مقامٌ و لو أنها مكانٌ لدخلها كلُ إنسان ولو كان مسيئاً:

كنتُ أضرب هذا المثل، الملِكُ بإمكانه أن يسكن ابنه في أجمل قصر، وأن يعطيَه أجمل سيارة وأفخم طائرة وأغلى يختٍ، فهل بإمكان الملِك أن يجعل ابنه أستاذاً في الجامعة ؟ تقول له: لا، هذه عليك لا عليه، ادرُس ونَلْ هذه الشهادة وأنا أفعل ذلك بعدها، يعني هناك شيء لا يتم إلا بجهد الإنسان، والجنة ليست مكاناً بل هي مقامٌ، و لو أنها مكانٌ لدخلها كلُ إنسان، ولو كان مسيئاً، ولو أن النعيم في الجنة نعيمٌ ماديٌ بحتٌ ؛ طعام و شراب ليس غير، لدخلها كلُ إنسان، و لكن الجنة مقام، بإمكانك أن تدخل إلى

الجامعة، إذا كانت لا تقرأ ولا تكتب ؟ الباب مفتوح، و الممرّاتُ سالكة، وقاعة المحاضرات مفتوحة لأولي العلم، هذا المقعد صف رابع رياضيات، صف رابع حقوق، صف رابع آداب أو ماجِستير أو دكتوراه، هذا المقعد الواحد لا يجلس عليه إلا من درس سنوات طويلة جدّاً حتى استحقّ أن يجلس في هذا المكان، حتى يفهم هذا المدرّس وحتى يتفاهم معه وحتى يستفيد من علمه، فقاعة المحاضرات مثلاً ليست مكاناً ولكنها مقامٌ لمن نال الثانوية، والصفّ الأول والصف الثاني والرابع، والآن إذا جلس في هذا المكان وجاء الأستاذ وملأ السُّبورةَ سِيناً وعيناً وجيماً يستمتع ويستغرق، أما إذا أتيتَ بإنسان لا يقرأ و لا يكتب ووضعتَه في أول صف لا يستفيد شيئاً، فهذا المقعد في هذه القاعة ؛ قاعة المحاضرات مكانٌ أم مقامٌ ؟ مقام والجنة مقامٌ، ولو كانت مكاناً لدخلها كلُّ الناس، فلذلك النبيُّ الكريم قال لأصحابه: عَنْ رَبِيعَةَ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي:

((سَلْ فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ قَالَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ قُلْتُ هُوَ ذَاكَ قَالَ فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

[رواه مسلم عَنْ رَبِيعَةَ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ]

العاقل لا يُوصِل نفسَه مع الله إلى طريق مسدود:

هناك جزء لا يستطيع أحد أن يفعله عن أحد هو أن تتعرّف إلى الله عز وجل، هو أن تصلِّي، هو أن تصوم، لذلك بعضُ العوام يقول: سقوط الصلاةَ، من جاء بهذا، إذاً كل إنسان يهمل الصلاة عند موته تُدفَع عنه صدقةٌ بسقوط الصلاة وسقوط الصيام وسقوط الحجّ وانتهى الأمرُ، قال تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى(39))

(سورة النجم)

هذه الآية اعتمد عليها الإمام الشافعي، وجعلها أصلاً أنه لا أحد يفعل عن أحد شيئاً، فلذلك قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

أي دائماً العاقل لا يُوصِل نفسَه مع الله إلى طريق مسدود، لا يوصل نفسه مع الله إلى أن تنطبق عليه إحدى السنن.

الإنسانُ في حياته الدنيا أحياناً يقع في مخالفة ينص عليها القانون، فيستنجد بأقرب الناس له، و يكون له مكانة كبرى يقول: لا، هذه لا أستطيعها كُتِب الضبطُ و المادة صريحةٌ والقانون ثابتٌ ولا مجال إطلاقاً، فأقربُ الناس له يتخلّى عنه، القضية صريحة، أنت ارتكبتَ المخالفة تنطبق عليك هذه المادة، والمادة

صريحة والضبطُ واضح، ويصعب سحب الضبطِ، هذا في تعاملك مع بني البشر، فكيف مع الله عز وجل.

على الإنسان أن يدرس القواعد القطعية الثابتة في تعامل الله مع عباده:

الذي أتمنّاه عليكم أن الإنسانَ يجب أن يدرس هذا القرآن، ويجب أن يدرس السنن الإلهية، القواعد القطعية الثابتة في تعامل الله مع عباده، وليجْهد أن لا يصل مع الله إلى أن تنطبق عليه إحدى هذه المواد، وهذا المثل أضربه كثيراً، إنسانٌ قتل وأُحيل إلى قاضي التحقيق، الجريمة ثابتة، وأُحيل لمحكمة الجنايات فحكمت عليه المحكمةُ بالقتل، بالإعدام، القرار رفِع إلى محكمة النقض، ومحكمة النقض درست القرار ووجدتْ أن الأدلة صحيحة والحكم صحيح فصدّقته ورئيس الجمهورية صدّق وعُين موعدٌ لتنفيذ حكم الإعدام، فهذا الذي أوصل نفسَه إلى أن تنطبق عليه إحدى مواد قانون العقوبات، قبل تنفيذ الحكم، إن شاء أن يضحك وإن شاء أن يبكي، وأن يدعو وأن لا يدعو، وأن يترجّى وأن لا يترجّى، الكلُّ سواء، فلا بدّ من تنفيذ هذا الحكم، أي أنه أوصل نفسه إلى طريق مسدود، وربُّنا عزّ وجل يقول:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

أي قولي الثابت، وسُنّتي الثابتة، والقاعدة المطلقة انطبقت عليهم، قال تعالى:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ(36))

(سورة هود)

انتهى، وقال تعالى:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً(16))

(سورة الإسراء)

آخرُ الآية التالية ينعطف على أوّلها فيفسِّرها:

قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

ما هو القول ؟ آخرُ الآية ينعطف على أوّلها فيفسِّرها، قال تعالى:

(أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

متى وقع القولُ عليهم ؟ حينما لم يؤمنوا بآياتنا، وحينما لم يوقنوا بآياتنا، وحينما استقرُّوا على أن لا يؤمنوا، والإنسانُ أحياناً قد لا يؤمن، لكن في نِيته أن يؤمن، قد لا يؤمن وهو متحفِظٌ، وقد لا يؤمن وهو في تردُّد، لكن أحياناً يأخذ قراراً.

أجمع المفسرون أن المقصود بكلمة (آياتنا) ليست آيات القرآن الكريم:

قال لي شخصٌ: ذهبتُ إلى البادية لأشتري بضاعة، صوف ؛ و كنتُ جاهلاً حتى بقواعد الدين، فتلاعبْتُ بالميزان ـ هكذا قال لي ـ هذا الأعرابي شعر أن هناك فارقٌ كبير بين الوزن الذي ذكرت له، وبين حقيقة هذه الكمّية، فنبّهني وحذّرني، وبعد أن غادرتُ المكانَ نشأ صراعٌ في نفسي، لماذا فعلت هذا؟ أأعود وأوضّح له حقيقة الأمر وأطلب منه السماح، أم أمضي في سبيلي، ماذا أفعل ؟ بقيتُ في صراع دقيق وعميق من مكان بيع هذه البضاعة إلى قرية قُرب دوما، في هذا المكان قلتُ لا بأس، وما أن قلتُ هذه الكلمة، حتى وجدت نفسي في الطريق وسط بركةٍ من الدِّماء، وقع حادثٌ والبضاعة تلاشت وتبعثرتْ ووقعت جريحاً.

أنا أدركتُ من هذه القصة أن الإنسان مادام في أخذ وردٍّ وما دام متحفّزاً وما دام في تردُّدٍ فإن الله عز وجل يعطيه مُهلةً، أما إذا أخذ قراراً، أما إذا استقرّ على شيء لا يرضي الله عز وجل، أما إذا ركب رأسَه، أما إذا قال: وماذا سيكون ؟ ليكُن ما يكون، فهذا وقع القول عليه وانتهى، قال تعالى:

(أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

أيّةُ آيةٍ هذه ؟ أجمع المفسرون أنها ليست آيات القرآن الكريم، مطلق الآيات، الشمسُ آية، والقمر آيةٌ، وابنُك آية، والزوجة آيةٌ، كأسُ الماء آية، وكأس الحليب آية، والبيضة آية، وقطعة اللحم آية، والأزهار آية، والأشجار آية، والثمار آية، كلُّ شيء حولك آية، ينطق بكلمة التوحيد، فلذلك لمّا يتجاهل الإنسان هذه الآيات و يعمى عنها أو لا يعبأ بها أو يسخر منها، و يستقر على هذه الحال و يقول: فليكُن ما يكون أنا أعرف هذه الدنيا، و ما سوى الدنيا خيالٌ في خيالٍ، هؤلاء الماديُّون هكذا أفكارُهم، يقولون: عِشْ لحظتك، عِش في اللحظة التي أنت فيها، اِكسب المالَ دون أن تدقِّق، حرام حلال، والكلمة الشائعة كلمةُ إبليس حلالٌ على الشّاطر، هذه كلمةُ إبليس، حلالٌ إذا كان الشيءُ حلالاً فقط، فلذلك الإنسانُ تكلِّمه هذه الدابّةُ أخرجناها لهم من الأرض.

هناك آيات خارقة للعادات وآيات من ضمن قوانين الكون:

قال تعالى:

(أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

لماذا خلق اللهُ هذا الكون بهذه العظمة وبهذا الإعجاز ؟ و لماذا سخّره لنا ؟ أتحبّ أن تعرف كيف خُلِقت؟ اُنظرْ إلى خلق ابنك، أتحب أن تعرف كيف يبدأ اللهُ الخلقَ ؟ انظُر إلى دورة النبات، بذرة، و أحياناً الغرام الواحد فيه أربعمئة بذرة، البذرة فيها رُشيم، و الرُشيم لو كبّرناه، نجد فيه سُوَيقاً وجُذَيراً،

وفيه معلومات تقريباً بآلاف الملايين، هذا النبات عملاق، وهذا النباتُ مقزّم، وهذا النباتُ باكوري، وهذا النبات يتأثر بالرطوبة والحرارة والبرودة، النباتُ كائنٌ حيٌّ له طبعٌ معيَّن، فكلُّ هذه المعلومات مودعةٌ في هذا البذرة، أتحبُّ أن ترى كيف يبدأ اللهُ الخلقَ ؟ انظُرْ إلى دورة النبات، بذرةٌ ينمو فيها هذا الرُشيم ويأخذ غذاءه من هذه المحفظة إلى أن يملك جُذيْراً صغيراً مع أشعار ماصّة إلى أن يستطيع أن يأخذ حاجته من التربة، عندئذ يستغني عن هذه المحفظة وتكون قد انتهت أساساً، ينمو ويتبع الضوءَ والحرارة، ثم يُورق، ثم يُزهِر، ثم يثمِر، ثم يصبح هشيماً تذروه الرياح، هذه دورة النبات، كلُّ شيء حولك آية، هذا الإنسان الجاهل الذي يمرُّ بهذه الآيات دون أن يعقلها ودون أن يقف عندها، إنسانٌ ضيَّع عمرَه سُدًى.

إذاً قوله تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا (82))

عندنا آيات خارقة للعادات وهناك آيات من ضمن قوانين الكون، فنزول المطر آيةٌ، لكنّ الأمطار ليست خرقاً للعادات، وهبوب الرياح آية، والبحرُ آية، الجبالُ آيةٌ، والينابيعُ آيةٌ، والأنهار آيةٌ، والماءُ العذبُ الفراتُ آيةٌ، والملح الأُجاج آية، هذه آياتٌ وفق مقتضى القوانين والسُنن، أمّا خروج الناقة من الجبل، هذه آيةٌ أيضاً.

الآية التالية أساسها خرقٌ للعادات:

قال تعالى:

(هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً(73))

(سورة الأعراف)

لكن هذه الآية أساسها خرقٌ للعادات، وأن يصبح البحرُ طريقاً يبَساً هذه آية، ولكن أساسُها خرقٌ للعادات، أن يكون السيّدُ المسيحُ من دون أبٍ آيةٌ، ولكن أساسها أنّها خرقٌ للعادات، فهناك الآيات التي هي وفقَ العادات وآيات تُعدُّ خرقاً للعادات، إذا كذّب الإنسانُ بالآيات المألوفة وربّما كان الكونُ بحالته الراهنة، بحالته التي هي فوق السنن أبلغُ في الموعظة والاستنباط ممّا لو كان في حالة أخرى، لذلك ورد في الأثر:

((حسبكم الكون معجزة))

هذه الآياتُ الصارخة الدالة على عظمة الله إذا لم يعبأ بها الناس وما فكّروا فيها وتجاهلوها وعدُّوها شيئاً من عاداتهم، يأتي الليلُ، ويأتي النهارُ، وتشرق الشمسُ، وتغيب الشمس، يأتي الصّيفُ ويأتي الربيع والخريف والشّتاءُ، تظهر هذه النباتات في الربيع، والأشجار المثمرة تعطي هذه الثمار اليانعة، نشتريها

ونأكلها، شيءٌ طبيعيٌ مألوف ونشرب هذا الماء العذبَ كأنه شيءٌ مألوفٌ جدّاً، هذا الماء كان ملحا أُجاجاً فكيف أصبح عذباً فراتاً ؟

هذا الذي يشرب الماء ويأكل ويتنزّه ويستمتع بالطبيعة ويقول: اليوم ليلة قمر و هذه أيام زهر، الاستمتاع بالطبيعة من دون التأمُّل بالذي أوجدها وبالذي أبدعها بالذي خلقها و بالذي كوّنها، بهذا الإله العظيم، هذا هو الجهلُ بعينه، فإذا بلغ الإنسان هذا المستوى إن هم كالأنعام، وربُّنا عز وجل قال:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا(44))

(سورة الفرقان)

وصف لمن تستهلكه الحياة وهو كالآلة ثم يأتي الموت عليه فيخسر كل شيء:

قال تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة)

وقال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقين)

وقال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50))

(سورة المدثر)

الله عز وجل يقول:

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلّ حين، لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك، فلأُسلِطَنّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي، وكنتَ عندي مَذْموماً.))

[ورد في الأثر]

قال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50))

(سورة المدثر)

الحياةُ استهلكتْه، وهو قطعةٌ في آلة يعمل بلا هدف ليلاً ونهاراً، ويجمع الأموالَ فإذا جاء الموتُ خسر كلّ شيء في ثانية واحدة.

الحديث الذي تحدِّثهم إياه الدابة أن الناسَ انغمسوا إلى قمّة رأسهم بالشهوات:

إذاً إذا كفر الناسُ ولم يوقنوا بآيات اللهِ الدالّة على عظمته عندئذٍ لا بدّ لهم من آيات تُعدُّ خرقاً لقوانين الكون، قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا (82))

بآياتنا الطبيعية لا يوقنون.

أمّا حديث الدابة فليس في كتاب الله ما يعطي تفصيلات لهذه الآية، هذه الآيةُ عدّها العلماءُ من أشراط الساعة، وهناك أحاديث كثيرةٌ فيها تفصيلات لهذه الدابة ولكنّها أحاديث ضعيفة، لذلك معظم المفسّرين ترفّعوا عن أن يوردوا هذه الأحاديث الضعيفة المتعلِّقة بهذه الدابّة، وعلى كلٍّ هذه الدابة حينما تظهر ـ إذا كتب اللهُ لنا عمُراً ـ نرى ما هي الدابة، وإلا فعلمُها عند ربي. قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ (82))

الدابة من الأرض، ومن للتبعيض، أي أن مكوّناتِها من الأرض، وهذه الدابة تكلِّمهم وتحدِّثهم، قال تعالى:

(أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

أي الحديث الذي تحدِّثهم هذه الدابة أن الناسَ انغمسوا إلى قمّة رأسهم بالشهوات، وفي الحديث:

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[رواه الترمذي عَنْ أبي هريرة]

ذكر من السنة الشريفة لبعض علامات قيام الساعة:

إذاً هناك أزمانٌ صعبة، يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغيّرَ، قال عليه الصلاة و السلام:

((كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً المنكر معروفاً ؟))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

كيف بكم إذا ضُيّعت الأمانةُ ؟ إذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة، أحاديث الساعة كثيرة، قال عليه الصلاة و السلام:

((يوم يكون المطرُ قيظاً والولدُ غيظاً ويفيض اللِّئامُ فيضاً ويغيض الكرامُ غيضاً فانتظر الساعةَ.))

[رواه ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة]

قَالَ:

((أَخْبِرْنِي عَنْ السّاعَةِ قالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السّائِلِ قالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا قالَ أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشّاءِ يَتَطاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ))

[رواه مسلم]

من علامات قيام الساعة أن يكثر الشجرُ، ويقلّ الثمرُ، ويعُقُّ الرجلُ أباه، ويبرُّ صديقَه، تجدُه مع أصدقائه في منتهى اللُّطف، ومع والديه في منتهى العنف والقسوة، هذه من علامات الساعة، فلذلك حينما ينغمس الناسُ في شهواتهم ولا يرون إلا الشهوات ويسعوْن لها سعياً حثيثاً، وحينما تشغل هذه الشّهوات كلّ ساحة نفوسهم، وحينما تصبح قيمة الإنسان ما عنده من مالٍ، كما قال سيّدُنا عليٌّ: " يأتي على الناس زمانٌ قيمةُ المرء متاعُه "، يستمدُّ شخصيتَه من بيته وأثاث بيته ومن ثيابه ومن مركبته فقط، قيمته الاجتماعية فيما يملك، لا فيما يعمل من الصالحات، لا فيما يعلم، فيما يملك، هذه كلُّها من علامات الساعة، فإذا بلغوا هذا المستوى انجرفوا نحو المادة، والمادةُ أعمتْ أبصارَهم، استحوذت على قلوبهم و ما رأوا غيرَ المادة، وفعلوا كلّ شيء من أجل شهواتهم، وداسوا بأقدامهم على قِيَمهم، و باعوا دينَهم بعرضٍ من الدنيا قليل، وباعوا القيم التي جاء بها الإسلام بأبخس الأثمان، فعندئذٍ وقع القولُ عليهم، وعندئذ:

(أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ (82))

فطرتُك السليمة تقتضي أن تؤمن فإن لم تؤمن فأنت قد خالفتَ الفطرةَ وتكلّفتَ ما لا تطيق:

قال تعالى:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً (83))

الفوجُ الجماعةُ، قال تعالى:

(مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83))

أي هناك حاجزٌ يُوقَفون ويُسألون لماذا كذّبتم ؟ لذلك اللهُ عزّ وجل يقول في حقّ هؤلاء حينما يخاطبون ربَّهم:

(ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23))

(سورة الأنعام)

يقول اللهُ عز وجل:

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(24))

(سورة الأنعام)

فطرتُك السليمة تقتضي أن تؤمن، فإذا لم تؤمن فأنت قد خالفتَ الفطرةَ، أنتَ تكلّفتَ ما لا تطيق.

وقوف العتاة والمضللين يوم القيامة ليُسألوا هل فهمتم فحوى كتاب الله تعالى:

قال تعالى:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83))

يبدو أن هؤلاء المكذِّبين، هؤلاء العُتاة، هؤلاء المُضلِّلين، هؤلاء الذين أرادوا أن يطفئوا نورَ الله بأفواههم، هؤلاء الذين تزعّموا حملةً ضدّ الدين، هؤلاء قال تعالى:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83))

يُوقفون ليُسألوا قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

لا أدري كيف أمثِّل هذه المثل، أيُعقل أن يأتيَك كتابٌ أو أن تأتيك رسالةٌ مختومة قبل أن تفتحها وقبل أن تقرأها وقبل أن تعرف من المرسِل وقبل أن تعرف فحوى هذه الرسالة وهي مُغلقة ومختومة، لا تعرف لا فحواها ولا مرسِلها، تقول: هذه كذبٌ، هذا الموقف هل هو منطقي، أيفعله عاقلٌ على وجه الأرض ؟ هذا الكتابُ القرآن الكريم، خطاب الله لهذا الإنسان، قبل أن تقرأه وقبل أن تفهمه وقبل أن تعقله وقبل أن تسأل عنه أهلَ الذِّكر، وقبل أن تفهم تأويلَه، وقبل أن ترى مراد الله منه، وقبل أن تقف عند أحكامه، وعند وعده وعند وعيده، وعند بشائره وعند إنذاراته، وعند آياته وعند أخباره، وعند جنّته و عند ناره، قبل أن تقرأ كلّ شيء تقول: هذا أساطير الأولين، هذه مغيّباتٌ، هذا ما وراء الطبيعة، أريد الواقع وأريد الشيءَ الملموس، أريد أن أحيا بكلّ جوارحي وبكلّ حاجاتي وبكلّ شهواتي، هذا كلام الناس، هذه مغيّباتٌ، دعْك منها.

الشيءُ الذي لا يُحتمَل أن يكذِّب الإنسانُ ويستخِفّ ويسخر وهو لا يعلم:

الشيء الذي أتألّم منه أنّ كثيراً من الناس قبل أن يستوعبوا الدِّين، وقبل أن يفهموا هذا الكلامَ العظيم، وقبل أن يقفوا عند سُنة سيد المرسلين، يكذِّبون بهذا الدين، أو يتعلّقون بالخلافيات، يعني أشياء صغيرةٌ جدّاً لا تقدِّم ولا تؤخِّر، وليست عقباتٍ في طريق الإيمان يتعلّقون بها، وينفخون فيها، ويكبّرونها،

ويختصمون، ويتحزّبون، ويتناقشون، ويتصارعون، ويتّهم بعضُهم بعضاً بالكفر، من أجل قشور في الأشياء الفرعية جدّاً، قبل أن تدخل في هذه الخلافيات، و في هذه الجزئيات، وفي هذه الفرعيات اِفهمْ لُبَّ الدين، و اعكف على هذا القرآن، وتعلّمْ آياته، وافهمْ مرادَ الله منه، وتعلّم سنة النبيّ، وادرُس العقيدةَ الصحيحة، هذا العملُ مقدّمٌ على البحث في الخلافيات، وكثيراً ما ترى مسلماً ما قولك بهذا الموضوع ؟ أنت لم ترَ من الإسلام شيئاً يستحقُّ المناقشة إلا هذا الموضوع، هل درستَ صلب الدين ؟ وجوهر الدين؟ وهل درستَ هذا الكتاب الكريم ؟ ما توافر عليه، هذا هو الشيءُ الذي لا يُحتمَل، أن يكذِّب الإنسانُ أو أن يستخِفَّ أو أن يسخر وهو لا يعلم، تماماً كما لو جاءك خطابٌ مُغلَقٌ قبل أن تفتحه، وقبل أن تقرأ مَنْ المرسِل، و قبل أن ترى التوقيع، و قبل أن ترى فحوى الرسالة، تقول: هذا كلام فارغ، هذا الذي لا يقرأ القرآن و لا يفهمه ويترفّع عنه ويقول: هذا كلام الأوّلين لا يصلُح لهذا الزمان، نحن في زمن العلم وزمن التّقدُّم والحضارة، زمن الكمبيوتر، زمن التصنيع والآلة، هذا كلام للصحراء، هكذا يقول بعضُ المسلمين المتفرنِجين المستغربين طبعاً، هؤلاء يوم القيامة يُقال لهم:

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

لماذا كذّبتم ؟ أدرستم وتحقّقتم وتأمّلتم ودقّقتم وبحثتم ورأيتم الأدلة.

على الإنسان أن يسألْ نفسَه: أنا ماذا أعمل في الدنيا ؟ وماذا قدّمتُ لله عز وجل ؟

قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

ما العمل الذي كان عندكم مُفضّلاً على هذا العمل ؟ إذا أرسلنا طالباً للدراسة إلى دولة أجنبية، ووعدناه بمنصب رفيع جدّاً وبدخلٍ خياليّ، فلما سألناه ماذا كنتَ تعمل ؟ قال لك: أنا لستُ متفرّغاً للدراسة، إذاً أنت فارغٌ لماذا ؟ ما هو العمل الذي فضّلتَه على الدراسة وأنت مبعوثٌ للدراسة، قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

كلمةٌ دقيقة جدّاً، قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

اسألْ نفسَك هذا السؤالَ، أنا ماذا أعمل في الدنيا ؟ قد تعمل عملاً لا طائل منه، ولا فائدةَ منه، أنا في الدنيا ماذا أعمل ؟ ماذا قدّمتُ لله عز وجل ؟ وهو يقول لك: لقد رزقتُك أولاداً وعلّمتك صنعةً ورُزقت منها رزقاً وفيراً، ماذا فعلتَ ؟ هذه الليالي في الشتاء في ماذا أمضيتها ؟ في لعبة النرد، في متابعة المسلسلات، ماذا فعلتَ في هذه السهرات الطويلة ؟ ماذا فعلتَ في هذه الأيام الطويلة ؟ ماذا فعلتَ في

الصيف ؟ ماذا فعلتَ في الشتاء ؟ وماذا فعلت في الربيع ؟ وماذا فعلت في الخريف ؟ ماذا فعلت بزوجتك ؟ لماذا لم توَجِهها إلى الله عز وجل ؟ ولِمَ تركتَها وشأنَها هكذا تفعل ما تشاء وتفتن الناسَ في الطريق ؟ وابنتُك لماذا لم تمنعها من هذا العمل ؟ أتحبُّ أن تقف الابنةُ يوم القيامة وتقول: يا رب لا أدخل النارَ حتى يدخل أبي قبلي.

الدينُ فيه حقائق خطيرة جدّاً لأن مصير الإنسان في الدين:

قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

ماذا تفعل، تعلّمتَ الطبَّ، لماذا تعلّمت الطبَّ ؟ خدمتَ المسلمين ونصحتهم ؟ تعلّمت المحاماة ؟ أدافعت عن المظلوم فيهم ؟ كنت موظّفاً هل خدمتَ الناسَ ؟ و كنت بائعاً أنصحتهم في بضاعتك ؟ و كنت عالماً أبذلتَ علمك أم كتمتَه ؟ ماذا فعلتَ ؟ هذا سؤالٌ دقيق، ماذا فعلتَ في حقّ الله عز وجل ؟ مَا أعطيت لله وما منعتَ لله ؟ هذا أخطرُ سؤالٍ، قال يا رسول الله علِّمني من غرائب العلم ؛ بعض اللّفتات الحلوة، قضية طُرَف، لأن من الناس من يريد درساً ممتِعاً، فيه طُرَفٌ، والدين ليس طُرفاً، الدين حقائق تُبكِي، قال تعالى:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ(59)وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ(60)وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ(61)فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا(62))

(سورة النجم)

الدينُ فيه حقائق خطيرة جدّاً، مصيرك في الدين، فلذلك هذا الأعرابي قال: يا رسول الله علِّمني من غرائب العلم، فقال عليه الصلاة و السلام ـ و قد عرف أنه إنسان تافهٌ ـ قال: **فماذا صنعتَ في أصل العلم؟** قال: وما أصل العلم ؟ قال: **هل عرفت الربّ**، أعرفتَ الآمرَ ؟ أعرفت الخالقَ ؟ أعرفت الموجِدَ ؟ أعرفت المسيِّرَ ؟ أعرفت المكوِّن ؟ أعرفت المنظِّم ؟ أعرفت هذا الربَّ الرحيم ؟ أعرفت حكمتَه ؟ أعرفت علمه وقدرته ؟ أعرفت عدالته ؟ قال: **فماذا صنعت في أصل العلم** ؟ قال: وما أصل العلم ؟ قال: **هل عرفت الربّ** قال: ما شاء الله، قال: **فماذا صنعت في حقِّه ؟ ماذا فعلت ؟**

لا بدّ من عمل عظيم يعِدُّه الإنسان لساعة لقاء ربه:

قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

واللهِ هذه الآية تكفينا، ماذا كنت تعمل في الدنيا ؟ أنشأتَ بيتاً فخماً وزيّنته بأحدث زينة، هذه مهمّتُك ؟ تاجرتَ تجارة رابحة وحصّلت منها الملايين، هكذا، أنا بعثتك إلى الدنيا لهذا الهدف فقط ؟ أن تجمع المالَ ؟ أن تعيش فقيراً لتموت غنيّاً ؟ قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

قال: **هل عرفت الموت** ؟ قال: ما شاء الله، قال: **وماذا أعددتَ له** ؟ سؤالان ؛ إذا قلتَ لي عرفتُ اللهَ، أقول لك ماذا صنعت في حقِه ؟ ماذا أعطيت ؟ ماذا بذلت من أجله ؟ ماذا أعطيت وماذا منعتَ ؟ من صادقت ومن عاديت ؟ من وصلت ومن قطعتَ ؟ في أيّ مكان حضرت ؟ هل حضرت مجالس العلم ؟ هل تعلّمت كتاب الله ؟ هل كنت وقّافاً عند حدود الله ؟ وإذا قلت لي عرفت الموت، أقول لك: ما أعددت للموت ؟ لا بدّ من عمل عظيم تعِدُه لهذه الساعة، يا ربي لقد فعلتُ كذا وكذا من أجلك، لذلك قال تعالى:

(إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23))

(سورة القيامة)

تنظر إلى الله عز وجل، وجوه متألِقة، وقال تعالى:

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ(40)تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ(41)أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ(42))

(سورة عبس)

حكم اللهِ قطعيّ لا يقبل المراجعة ولا الاستئناف ولا النقض:

وقع القول عليهم بما ظلموا، واستحقوا العقابَ، وصدر حكمٌ قطعي، وحكمُ الله عز وجل لا يقبل المراجعة ولا الاستئنافَ ولا النقض، هناك آيةٌ تؤكِّد ذلك، قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

أما قاضي الاستئناف يحكم، ويقول: باسم الشعب السوري قررنا ما يلي، ويأتي مَن حُكِم عليه هذا الحكم ويرفع استدعاءً لمحكمة النقض ويُنقَض هذا الحكمُ، لكن قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

حكم اللهِ قطعيٌّ، قال تعالى:

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85))

أحيانا سكوت المتّهم أبلغ من كلامه، يسكت، قال تعالى:

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85))

الآن جاء السببُ، لماذا كنتم عن آياتي غافلين ؟

من آيات الله عز وجل أنه جعل النهار معاشاً والليل سكناً:

قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(86))

هذا الليل، قال تعالى:

(فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً (96))

(سورة الأنعام)

قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً(11))

(سورة النبأ)

النهار معاش والليل سكنٌ، آية الليل والنهار، مَن جعل هذه الأرض تدور حول نفسها ؟ ومن خلق الشمسَ ؟ ولو أُلقِيت الأرضُ في الشمس لتبخَّرتْ في ثانية واحدة، في جوف الشمس حرارةٌ تزيد عن عشرين مليون درجة، وفي سطحها ستة آلاف درجة، وطول ألسنة اللّهب بليون كيلو متر، وعمر هذه الشمس منذ خمسة آلاف مليون عام، ويُحتمَل أن تستمرّ في هذا الوهْج والحرارة إلى خمسين مليون سنة قادمة لا تخبو وهذا الوقود لا ينفد، وهذه الطاقة لا تنتهي، فمَن يُمدُّها باستمرار ؟ شمس وأرض تدور حول نفسها ليلاً ونهاراً، ولو دارا بشكل مغاير لدورانهما الحالي لما كانت هناك حياة ولبقي الليلُ دائماً والنهار دائماً، بالنهار ثلاثمئة وخمسون درجة، وفي الليل مئتان وخمسون تحت الصفر، فلا حياة، ولو أنها هكذا تدور بمحور عمودي مع مستوى الدوران، لما وجدت الفصولُ الأربعة، ولا النباتات، فمن جعل هذا المحورَ مائلاً ؟ فصار ثمّة أشعة عمودية هنا، ومائلة هنا، صيف هنا، وهنا شتاء، وانعكستْ الآية هنا شتاء وهنا صيف، من جعل هذه الفصول تتبدّل ؟ هذه آية الله عز وجل.

من يطمئن في الدنيا اطمئناناً ساذجاً أبلهاً لا بدّ من أن يفزع يوم القيامة:

قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(86))

الليل سكنٌ، والأعصابُ ترتاح، من نظّم آلية النوم أساساً ؟ تجد سيارةً قيمتها ثلاثة ملايين، أربعة ملايين محطمة، نام سائقها، و النومُ سلطان، تتباعد الخلايا العصبية، فالسيّالة تنقطع نام، فإذا نام هل يقود السيارةَ ؟ يُذهِب السيارة ويذهِب نفسَه معها، مَن جعل هذا النومَ ترتاح أعصابُك به ؟ أدخُلْ إلى

غابة في الليل ترتعد فرائصك خوفاً، في النهار شيءٌ مُؤنِسٌ، والنهار مؤنِس، والليل مُخيف فيه ظلام وفيه مجهول، وراء كل أكمة تخاف، في النهار ترتاح، والنبيُّ الكريم يقول:

((سبحان الله ! أين الليل إذا جاء النهارُ ؟))

[شرح الجامع الصغير]

في الليل خائف، والطريق موحش، الشمس أشرقت، دخل الأُنسُ إلى قلبك، هذه الآية من آيات الله عز وجل، قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(86))

هذه آيات دالّة على عظمة الله عزّ وجل، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ (87))

لا بدّ من أن تفزع، إما أن تفزع في الدنيا فربُنا يوم القيامة يستثنيك من الفزع الأكبر، وإما أن تطمئن في الدنيا ولا بدّ من أن يفزع هذا الذي اطمأنّ في الدنيا اطمئناناً ساذجاً، أي اطمئناناً أبلهاً، الذي يطمئن في الدنيا اطمئناناً ساذجاً أبلهَاً لا بدّ من أن يفزع يوم القيامة، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ (87))

يوم القيامة نفختان في الصور نفخة تصعق ونفخة تحيي:

هناك نفختان ؛ نفخة تصعق النفوس، ونفخةٌ تحيي الموتى، يوم القيامة نفختان في الصور ؛ نفخة تصعق، ونفخة تحيي، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ (87))

هؤلاء الذين حُكِم عليهم بالإعدام عندما يُوضع مفتاحُ الباب في القفل عندهم ليُقدّم لهم الطعامُ ينخلع قلبُهم، يظنون أنهم قد جاءوا ليعدموهم، تجد أعصابهم منهارةً، هذا حالُ أهل النار، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ (87))

هؤلاء الذين عرفوه في الرخاء، عرفوه وهم شبابٌ، عرفوه وهم في حالة من اليسر، عرفوه في أوْج قوّتهم، عرفوه في الدنيا، خافوا منه والناس نيام، أطاعوه والناس في المعصية، صلوْا في الليل والناس مع من يحبُّون، ألم تقل رابعةُ مرَةً: " يا رب قد أغلقت الملوك أبوابها وآوى كلُّ أليف إلى أليفه ولم يبق إلا بابك "، الناسُ ينامون ويسمرون ويتحدّثون ويأكلون ويشربون ويتنزّهون، والمؤمن قلقٌ يخشى أن لا يكون اللهُ عنه راضياً، لا يطمئنُّ المؤمن إلا برضاء الله عز وجل، هذا القلق المقدّس المستمرُّ، هذا الذي يسمح لك يوم الفزع الأكبر أن تكون مطمئناً، لذلك

((وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة.))

[ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة]

ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابُه يوم القيامة يسيراً، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً كان حسابه في الآخرة عسيراً ؛ كلمة لا تأبه، ولا تدقِق ؛ هذه كلمة المنافقين، وكلمة الكُسالى، وكلمة السُذج الأغبياء.

أدلة من القرآن الكريم على أن الجنة محضُ فضلٍ والنارُ محضُ عدلٍ:

قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

وقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

وقال أيضاً:

(وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77))

(سورة النساء)

وقال تعالى:

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً(124))

(سورة النساء)

وقال:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

عدل، الجنة محضُ فضلٍ والنارُ محضُ عدلٍ.

الإنسان في الدنيا قد يقوى بجماعته وبمن يلوذ بهم ولكن يوم القيامة يأتي ربّه فرداً:

قال تعالى:

(وَكُلّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87))

أي أذلاء، والإنسان في الدنيا قد يقوى بجماعته وبترتيبه وبعشيرته وبأصدقائه وبمن يلوذ بهم، ولكن يوم القيامة يأتي الإنسانُ ربَّه فرداً.

الآن في القرآن الكريم هناك أشياء رائعة جدّاً، لو إنسانٌ يعاصر النبيَّ عليه الصلاة والسلام وسمع أن الجبال تمرُّ مرَّ السحاب، كيف يصدِّق ذلك ؟ الجبل راسخٌ في مكانه، مع أن الجبل يتحرّك، والآن شيء بديهي جدّاً، الأرض تدور حول نفسها بسرعة تزيد عن ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، والطائرات السياحية للسفر سرعتها ألف في الساعة، ساعتان من دمشق إلى جدة، لا بدَّ لها من أربعة أيام بالسيارة، وأشهر طويلة على الأقدام، فهذه الطائرة تقطع تقريباً تسعمئة كيلو متر في الساعة، الأرض تدور حول نفسها بسرعة تزيد عن ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، ومعها الجبال، أما دورتها حول الشمس فثلاثون كيلو متر في الثانية، منذ وصلنا وحتى الآن مضى خمسون دقيقة، خمسون ضرب ستين ؛ ستة في خمسة ثلاثون، ثلاثة آلاف ثانية في ثلاثة آلاف ثانية، وفي كل ثانية ثلاثون كيلو متر، ثلاثة آلاف وثلاثة آلاف، ثلاثة آلاف في ثلاثين رقم كبير، الأرض قطعت هذه المسافة منذ أن قلتُ بسم الله الرحمن الرحيم إلى الآن، أبداً، شيء بديهي جدّاً، لا داعي للمناقشة، الأرضُ تقطع في الفضاء الخارجي في دورتها حول الشمس في كل ثانية ثلاثون كيلومتر، في خمسين دقيقة الرقم كبيرٌ جدّاً، لذلك اللهُ عز وجل قال:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (88))

جبل قاسيون واقف، لا، وهي تمرُّ مرَّ السحاب، قال: مر السحاب هذا تشبيه، وجهُ الشبه في انعدام الصوت، محرك صغير لضخّ المياه يعكِّر على المتنزّه نزهتَه، طائرة صغيرةٌ تملأ الفضاءَ ضجيجاً صخباً، وسكانُ المناطق التي هي قُربَ المطارات يُصابون بصممٍ جزئي من أصوات الطائرات، مرور السحاب وهو يحمل سبعة آلاف طن، دون صوت، يمر بسرعة، حوالي مئة في الساعة، مئة كيلو في الساعة، من هذه السرعة يعرفون مجيء المنخفض، والآن فوق قبرص وفي اتّجاه الشرق الأوسط، وهكذا.

إذا قرأت هذه الآية ولم تكن مطّلعاً على حقيقة الأرض قد تظنُّ أنها من آيات يوم القيامة:

إذاً اللهُ عز وجل يقول:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

هذه الآياتُ لو فكروا فيها لما وقع القول عليهم، وإذا لم يقع القول عليهم ما أخرج اللهُ لهم دابةً من الأرض تكلمهم، و لمّا يتعامى الإنسان عن هذه الآيات عندئذٍ الله عز وجل يضطرُه إلى عذاب أليم، لكن لو أن هذه الآية قرأها الإنسانُ وكان بعيداً عن ذهنه أن الأرضَ كرَةً وأنها سابحةٌ في الفضاء، وأنها تدور، فجاءت هذه الآية في سياق آيات الآخرة، قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السّحَابِ صُنْعَ اللّهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ إِنّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

وترى ـ وقتها ـ الجبال، أي إذا أردت أن تقرأ هذه الآية ولم تكن مطّلعاً على حقيقة الأرض وعلى كُرويتها وعلى دورتها حول نفسها ولا حول الشمس قد تظنُّ أن هذه الآية من آيات يوم القيامة، قال تعالى:

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيّرَتْ(3)وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(4)وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(5))

(سورة التكوير)

إذا اطّلعتَ على حقائق الكون وعلى كرَوية الأرض وعلى حركة الأرض وعلى دورتها حول نفسها ترى أن الآية منفصلةٌ عن السياق العام.

من لطف الله أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس والسحاب فوقها ولا يوجد صوت:

قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السّحَابِ صُنْعَ اللّهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ إِنّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

أي أن حركة الأرض بلا صوت شيءٌ رائعٌ جدّاً، وصوت الطائرة والقطارُ والباخرة لا يُحتمَل، والسيارة أحياناً، تسافر إلى بلد قريب تشعر بضجيج، وبعد انتهاء السفر بساعتين أو ثلاثة أنت متضايق من دويّ المحرّك طوال الطريق، فربُّنا لطيف عزّ وجل، الأرضُ تدور حول نفسها وتدور حول الشمس ولها حجمٌ كبير جدّاً، والسحاب فوقها ولا يوجد صوتٌ، فيه لُطفٌ شديد، قال تعالى:

(إِنّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

الخبير غيرُ العليم، أي يرى ماذا تفعل، ويعلم ماذا تنوي، والغايات الحقيقية والخلفيات، والأهداف البعيدة، والمرامي، والصراعات، والطُموحات كلُّها يعرفها، قال تعالى:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89))

أي كما قال تعالى:

(وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77))

(سورة النساء)

في الحديث القدسي عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا.))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

العمل الصالح محفوظ عند الله تعالى ولو كان ذرّةً:

قال تعالى:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89))

أي حرامٌ أن تطيعه وأن تفعل الصالحات وأن يضيّع عليك عملك الصالح، والعمل الصالح محفوظ ولو كان ذرّةً، قال تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

مع أنه يوم القيامة يأتيك خيرٌ منها، قال تعالى:

(وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89))

أحياناً يكون عملك كلّه نظاميّاً، تأتي قوّةٌ من أجل ضبط المخالفات، وأصحاب المحلات ترتعد فرائصهم خوفاً، وأنت مطمئنٌ، وأمورُك كلّها منتظمةٌ، فالإنسانُ لما يطمئنُ وسط الخوف الشديد هذا فوزٌ عظيم.

اللهُ سبحانه وتعالى زاد مكة المكرمة تشريفاً وتعظيماً حينما نسبها إلى ذاته:

قال تعالى:

(وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89))

قال تعالى:

(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ (90))

أي يُلقَوْن في النار على وجوههم، قال تعالى:

(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90))

هذه أعمالُكم اِدفعوا ثمنَها، وهذه أعمالكم تلقَوْا حسابها، وكلُّ شيء له ثمنٌ قال تعالى:

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ (91))

طبعاً هي مكة، واللهُ سبحانه وتعالى زاد هذه البلدة مكة المكرمة تشريفاً وتعظيماً حينما نسبها إلى ذاته، قال تعالى:

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا (91))

بلدٌ آمنٌ وبلد حرام.

الإنسان في كل مكان في العالم يحاسب على فعله أما في الحرم المكّي فيُحاسَب على إرادته:

قال تعالى:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(3)الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4))

(سورة قريش)

لذلك الحرم المكّي يتميَّز عن بقية البلدان في العالم أن الإنسان إذا أراد فيه سوءاً يُحاسَب على إرادته لا على فعله، في كل مكان في العالم يحاسب على فعله، أما في الحرم المكِّي، قال تعالى:

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(25))

(سورة الحج)

من يرد فقط، قال تعالى:

(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(25))

(سورة الحج)

اللهُ عز وجل جعل هذه البلدةَ محرَّمةً، قال تعالى:

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا (91))

لكنْ لئلاّ تظنّ أنه ربُّ هذه البلدة فقط، وما سواها ليس له، قال:

(وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ (91))

له هذه البلدة، وله بلدتُك التي أنت فيها، وأينما ذهبت كلُّ البلاد له، والإنسانُ قد يتوهَّم أنه ربُّ هذه البلدة فقط، لا قال تعالى:

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ (91))

وكلُّ مكان في الأرض له.

العبادة يجب أن تكون مع غاية الخضوع و الشوق و الإخلاص:

قال تعالى:

(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91))

المستسلمون لأمر الله عز وجل هم الخاضعون له، لذلك العبادة مع غاية الخضوع ومع غاية الشوق ومع غاية الإخلاص، قال تعالى:

(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ (92))

أفرده اللهُ بأمرٍ خاصٍّ عناية به قال تعالى:

(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ (92))

لكنْ هنا في السياق، أن أتلو القرآن على الناس، والدليل قال تعالى:

(فَمَنِ اهْتَدَى (92))

بتلاوتك، وهناك فرق بين أن تتلوَه لنفسك وبين أن تتلوَه على الناس، هنا الآية أن تتلوَه على الناس، القرينة قال تعالى:

(فَمَنِ اهْتَدَى (92))

بهذه التلاوة، قال تعالى:

(فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92))

النبيُّ عليه الصلاة والسلام لا يُحاسَب عن الذين كفروا إنما هو منذِرٌ ومبلِّغٌ:

النبيُّ عليه الصلاة والسلام لا يُحاسَب عن الذين كفروا، إنما هو منذِرٌ، إنما هو مبلِّغٌ قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (272))

(سورة البقرة)

قال تعالى:

(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ(92))

تنتهي مهمّتي حينما أنذركم، قال تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ(21)لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ(22)إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ(23)فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(24)إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

على الإنسان أن يحمد الله عز وجل على كل شيء وعلى خلقه و إمداده و هدايته:

قال تعالى:

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93))

الحمد لله على خلقه، وعلى إمداده، وعلى هدايته، وعلى كلّ هذه الآيات، وكلّ هذه السنن، قال تعالى:

(سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا (93))

أي إما أن تعلم في الوقت المناسب أو لا بدّ من أن تعلم بعد فوات الأوان، قال تعالى:

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93))

أعمالُنا كلُّها في صحيفة عند الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (01-18): تفسير الآيات 1 - 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-05-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة القصص، وقبل المُضيّ في شرح آيات هذه السورة لابدّ من أن يُلقَى ضوءٌ على مغزاها العام، وعلى أغراضها الكبيرة، بل على محورها إن صحّ التعبير، ففي السُبْحَة خيطٌ لا يُرى، ولكنه يجمع كل حبّاتها، هذا الخيط الذي يُرى أثره ولا تُرى عينه إنه محور السورة.

مع سورة القصص:

1 – سورة القصص مكية: التوحيد والاستضعاف:

هذه السورة مكّية، نزلت على النبي عليه الصلاة والسلام وهو في مكة مع أصحابه، وكانوا مستضعفين، كانوا معذّبين، كانوا مكذّبين، وكفّار قريش هم في أقوى مكان، وفي أعتى نفسيّة، نزلت هذه السورة على قلب النبي عليه الصلاة والسلام في مكة المكرّمة لتكون تسلية وتخفيفاً لِما يعاني أولئك الأصحاب الخُلّص، الذين دفعوا في سبيل إيمانهم بالله عزّ وجل كلّ غالٍ ورخيص، ونفسٍ ونفيس.

2 – قصة موسى مع فرعون وقارون: حقائق وعبر:

شيءٌ آخر، في هذه السورة قصةُ سيدنا موسى مع فرعون، وقصة سيدنا موسى مع قارون، ففرعون يمثِّل قوة السلطان، وقارون يمثّل قوة المال، وتبيّن هذه السورة أن في الكون قوةً واحدة، ألا وهي قوة الله عزّ وجل، وفي الكون حقيقةٌ واحدة، ألا وهي الحقيقة الإيمانية الكبرى، وفي الكون قيمةٌ واحدة، ألا وهي قيمة الخلق، وكيف أن هذه القِيَم التي جاء بها القرآن، وهذه الحقيقة الكبرى تتصارع مع القوى العاتية، وكيف أن ملخّص هذه السورة توجزه العبارة التالية: إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ أيْ أنّ الله عزّ وجل مثّل في هذه السورة أقوى قوةٍ يمكن أن توجد على وجه الأرض، مع أضعف قوةٍ يمكن أن توجد على وجه الأرض، طفلٌ صغيرٍ رضيع، وملكٌ طاغيةٌ كبير، وكيف أن هذا الطفل الصغير الذي كان من المفروض أن يُذْبَح دخل إلى قصر فرعون، وتربّى في حجره، وحينما

كبر جاءته الرسالة، ودعاه إلى الإيمان، فلما استكبر وعلا في الأرض مشى موسى ببني إسرائيل إلى البحر، وكيف أصبح البحر طريقاً يبساً، وكيف خرج سيدنا موسى وتبعه فرعون، فأغرق الله فرعون.

3 – أهمية معالجة الموضوعات بالطريق القصصي:

فهناك حقائق كثيرةٌ جداً في هذه السورة، وربنا سبحانه وتعالى أحياناً يعالج الموضوع لا عن طريق الأفكار المجرّدة، بل عن طريق القصص، ولَعَمْري إن معالجة الموضوع من خلال القصة هي معالجةٌ مثاليّة، إذْ أن الإنسان أحياناً قد يرى ذاته في قصةٍ ما، قد يرى الأحداث التي يقرؤها في القصة تحلُّ له بعض الإشكال، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة يوسف: من الآية 111)

إذاً: مغزى هذه السورة تعكسه القصتان الأساسيتان اللتان في السورة، قصة سيدنا موسى مع فرعون، وقصة سيدنا موسى مع قارون، فرعون يُمَثِّل قوة السلطان، وقارون يمثل قوة المال، وكيف أن الله سبحانه وتعالى هو القوة الكبرى التي لا قوة معها في الكون، فإذا كنت مع الله عزّ وجل نَم مطمئناً، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أضعف الناس فتوكّل على غير الله، والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

4 – حقائق التوحيد مهمة جدا:

ويا أيها الإخوة الأكارم، حقائق التوحيد خطيرةٌ جداً، لأنه ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، ولأن نهاية نهاية نِهاية العلم هو: أن تقول، وأن تعلم أنه لا إله إلا الله، إذا عرفت أنه لا إله إلا الله إذاً فلا تخش أحداً سوى الله، ولا ترجُ أحداً سوى الله، ولا تعصِ هذا الخالق العظيم من أجل إنسان حقير صغير ضعيف فانٍ، لو أردت أن تعزو أكثر المعاصي، بل كل المعاصي لرأيت الشرك وراء كل هذه المعاصي، لو أيقنت أنّه لا إله إلا الله لاستقمتَ على أمره قطعاً.

5 – سورة القصص نزلت تسلية للنبي عليه الصلاةوالسلام:

إذاً: هذه القصة أنزلها الله على نبيّه عليه الصلاة والسلام في وقتٍ عصيب، في وقتٍ حرج، في وقتٍ كان فيه المسلمون مستضعفين مضطهدين، يُنَكّل بهم، يعذبون، فجاءت هذه القصة تسلية لهم، تقوية لعزيمتهم، بشارةً لهم بأن العاقبة للمتقين، والذي حصل أن العاقبة كانت للمتقين حقاً وصدقاً، قال تعالى:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء: من الآية 87)

وقال سبحانه:

(كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي إِنّ اللّهَ قَوِيّ عَزِيزٌ)

(سورة المجادلة)

كتب الله..

6 – سببُ تسميتها سورةَ القصص:

أمّا اسم هذه السورة فـ **" سورة القصص "**، من قوله تعالى لما وصل سيدنا موسى إلى بيت سيدنا شُعَيب، وقصّ عليه القصص:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمّا جَاءَهُ وَقَصّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ)

(سورة القصص)

7 – أثر البيئة في المسلم:

استنبط بعض العلماء أن الإنسان إذا انتقل من ديار الكفر إلى ديار الإيمان فقد نجا، واستنبط بعض العلماء أن البيئة لها أثرٌ كبيرٌ جداً في إيمانك، فإذا كنت مع أهل الكفر والفساد والضلال فإنّهم لا شك سيصرفونك عما أنت فيه من إيمان، وإذا انتقلت إلى أهل الإيمان فإنك تسعد برفقتهم، فلذلك لما انتقل سيدنا موسى من بلاد مِصر إلى بلاد مَدْيَنَ حيث النبي الكريم سيدنا شعيب جاءت البُشرى:

(قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ)

(سورة القصص)

وقد ورد في بعض الأحاديث أنه:

((من أقام مع المشركين فقد بَرئت منه الذمّة))

[الطبراني عن جرير]

والإنسان في نفسه أشياء تُشْبه البارود يسهُل تفجيرها، فقد أودع الله فيه الغرائز، كما أودع الله فيه الشهوات، فإن لم يكن على إيمانٍ عميقٍ، قوي، يُحَصِّن هذه الشهوات التي أودعها الله فيه فإن تفجيرها سهلٌ يسير، وإذا لم يكتمل إيمانُ الإنسان، وذهب إلى بلاد الكفر فاحتمال أنْ يقع في الفواحش، والتُرُّهات، والأباطيل، والبعد عن الحقيقة الكبرى احتمال كبير جداً..

((من أقام مع المشركين فقد بَرِئت منه الذمّة))

فأنت ـ أيها المسلم ـ مفروض عليك أن تهاجر من بلد يُعصى الله فيه إلى بلدٍ يذكَرُ فيه اسمه، أما الهجرة المعاكسة فأن تنتقل من بلدٍ كريمٍ طيّب تقام في شعائر الدين على نحوٍ أو آخر إلى بلدٍ فاسقٍ فاجرٍ بعيدٍ عن الله عزّ وجل، فهذه مغامرةٌ ومقامرة.

إذاً: كلمة القصص:

(فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

هذه بعض الملاحظات التي تُقال عادةً بين يدي السورة.

مقدمة تاريخية لسورة القصص:

ولكن إذا انتقلنا إلى تفصيلاتها فهناك مقدمةٌ تاريخية لابدّ منها:

كلكم يعلم أن سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما كان أميناً على أموال مِصر، وحينما ارتفع إلى أعلى وظيفة في مصر، وحينما جاء أبوه وإخوته إلى قصره، وأقاموا فيه، بعدها توالد بنو إسرائيل وازدادوا، حتى إنهم بلغوا مِئات الألوف، هكذا يروي التاريخ، طبعاً اطمأنوا، وتمكّنوا في الأرض، ولكن يبدو أنهم انحرفوا عن دينهم فيما بعد، دين أبيهم سيدنا إبراهيم، لما انحرفوا استحقوا المعالجة، فجاء فرعون، وكانت معالجتهم على يديه، لأن القاعدة: **" إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني "**، العرب في إسبانية فتحوا هذه البلاد، وكان الله معهم، فتحوا هذه البلاد، وأقاموا فيها شعائر الدين، فلما مالوا إلى اللهو، والموسيقى، والغِناء، وانغمسوا في الموبقات، والخمور، والجواري، والملاهي، تخلّى الله عنهم، فقوّى أعداءهم، ونَكّلوا بهم كلّ تنكيل، هذا قانون عام..، **" إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني "**، هذا يطبّق على الجماعات وعلى الأفراد، وفي هذه السورة توضيحٌ بالغٌ لهذا القانون..

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم)

(سورة القصص)

أقوال العلماء في الحروف المقطّعة: طسم

القول الأول:

هذه الحروف التي تُبْدأ بها بعض السور لها تفسيراتٌ كثيرة، من هذه التفسيرات، وهذا التفسير لا يُكَلِّفُ شيئاً: **" الله أعلم بمراده ".**

هذا أول معانيها.

القول الثاني:

ومن تفسيرات هذه الحروف أيضاً: أن هذا القرآن صيغ من مثل هذه الحروف، لكنّ الإعجاز في صياغته، وهذه الحروف بين أيديكم، فإن كان بالإمكان أن تأتوا بسورةٍ من هذا القرآن، أو عشر سورٍ مثله فافعلوا، الحروف بين أيديكم، إذاً هذا من إعجاز القرآن الكريم.

القول الثالث:

أنها أوائِلُ أسماء الله تعالى.

القول الرابع:

أنها أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام.

وعلى كلٍ فالقرآن حمّال أوجُه، والقرآن كما يقول بعضهم: ليس ملك أحد.

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2))

(سورة القصص)

من صفات القرآن:

1 ـ القرآن واضح مبين:

أيْ أنّ من شأن الكتاب أن يكون مبيناً واضحاً، لأنه كتاب الله عزّ وجل، ولأنه موجهٌ إلى كلّ الخلق، فلذلك ربُنا سبحانه وتعالى جعله مبيناً.

2 ـ القرآن متوافق مع الفطرة والعقل:

وفي بعض الأحاديث أن الدين متوافق مع الفطرة، فالإنسان يعرف أحكام الدين بشكلٍ فطري، لأنّ أصحاب النبي عليهم رضوان الله وصفهم الله عزّ وجل فقال:

(يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

(سورة الرعد: الآية 36)

هذا الذي أنزل إليهم يتوافق مع فطرتهم لذلك هم يفرحون:

((الحَلاَلُ بَيّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيّنٌ))

[الترمذي وابن ماجه وأبو داود عن النعمان بن بشير]

((الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطّلِعَ عَلَيْهِ النّاسُ، وَالبرُّ مَا اطْمَأَنّ إِلَيْهِ القلب))

[أحمد عن وابصة بن معبد]

إذاً: الكتاب مبين، لأنه متوافقٌ مع الفطرة، والكتاب مبين، لأنه متوافقٌ مع العقل، والكتاب مبين، لأنه كلام رب العالمين.

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(3))

(سورة القصص)

قصة موسى في سورة القصص:

1 – نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى:

كلمة:

(مِنْ)

للتبعيض، فالله عزّ وجل لم يذكر كل التفصيلات، وهذا توجيهٌ لنا، فإذا أردتَ أن تقصّ علينا قصةً فاذكر مِن أحداث هذه القصة، ومن مواقف أبطالها، ومن الحوار الذي جرى بينهم ما له علاقةٌ بنا، وما له مغزى كبير، أمّا أن تأتي بكل التفصيلات التي لا طائل منها، وبخاصة التفصيلات التافهة، فليس هذا من شأن العُقلاء، فلذلك:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ)

(سورة القصص: من الآية 3)

2 – العبرة من القصة الدلالات والعبر لا الأشخاص والأحداث:

أي أن كل شيءٍ ذكره الله عزّ وجل في هذه القصة له دلالة، وليس المعنيّ هذه الحوادث، ولا تلك المواقف، ولا هذا الحوار، المَعْنِي أن تخترق هذه المواقف إلى المغزى، إلى المدلول، الذي أراده الله عزّ وجل.

هذه قصةٌ وقعت منذ آلاف السنين، وكلُّ أبطالها تحت أطباق الثرى، وقد مضى عليهم آلاف السنين، المغزى: نحن المعنيُّون، لأن الله عزّ وجل شاء أن يجعلها من القرآن الكريم، أي جعلها تُتلى إلى آخر الدوران، إذاً: هناك مغزى، فكل من تلا هذه السورة يأخذ منها العبر والدلائل، إذاً:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى)

(سورة القصص: من الآية 3)

(مِنْ)

للتبعيض، إذا أردت أن تتلو علينا قصةً فاختر من حوادثها، من مواقف أبطالها، من حوار أبطالها، من مظاهر البيئة فيها ما له مغزى وله علاقةٌ بحياتنا.

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة القصص)

3 – المؤمن يُخاطب بالفروع، وغير المؤمن يخاطب بالأصول:

المؤمن يُخاطب بالفروع، ولكنّ غير المؤمن يُخاطب بالأصول، لا تحاول أن تثبت الملائكة لإنسانٍ لم يؤمن بالله بعد، أو الجن، أو البرزخ، هذا طريق مسدود، لا يخاطب الكافر إلا بأصول الدين، بينما المؤمن يُخاطب بفروعه، يخاطب بتاريخه، بتاريخ الأرض، بالتفصيلات.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)

(سورة البقرة: من الآية 183)

الزكاة والصيام كُلِّفَ بها المؤمنون لإيمانهم بالله عزّ وجل أولاً، ولإيمانهم بأن هذا الكلام كلامه، ولإيمانهم بحكمته، إذْ هم ينصاعون إلى تنفيذ أمره. إذاً:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ)

(سورة القصص: من الآية 3)

4 – القصة القرآنية حقٌ محضٌ:

هذه (الباء) باء الملابسة، أي هذه التلاوة، وهذه القصة بالحق، أي إنها قصةٌ وقعت فعلاً، لا صغيرة فيها إلا وقد وقعت، وهذه الرواية تطابق الواقع مطابقةً تامّةً من دون زيادة ولا نقصان، هذا معنى بالحق..

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

إذاً: المقصود من هذه القصة مغزاها، لذلك قالوا: من قرأ قصةً ولم يفهم مغزاها فكأنه ما قرأها، أو أنه لم يقرأ قصةً، القصة لها مغزى، فحيثما قرأت قصةً يجب أن تبحث عن مغزاها.

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

5 – القصة القرآنية يستفيد منها المؤمنون:

فهي إذاً تفيد المؤمنين، وكأنّ الله سبحانه وتعالى نزّه قصته هذه عن أن تكون لمجرّد الإمتاع، قد تقرأ أدباً ممتعاً ليس بنافعٍ، قد تقرأ قصةً تُمتع، ولا تنفع، وقد تقرأ مقالةً تنفع، ولا تمتع، لكن القصة التي في القرآن تنفع، وتمتع معاً، والمقصود أيها المؤمن أن تستنبط منها ما تشاء من الاستنباطات، إذاً:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قبل تحريك الحوادث، وقبل تحريك الشخصيّات، وقبل تطوير الحوادث، كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضع لنا ـكما يقال ـ فَرشاً تاريخياً، معالم البيئة، هذه القصة أين وقعت ؟ وقعت في مصر، ما الذي كان في مصر؟

ماذا فعل فرعون بمصر وأهلها ؟

قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: من الآية 4)

1 – إِنّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْض

أي ارتفع، استعلى على خَلق الله، بالَغَ في تمكين نفسه منهم، احتقر الذين معه:

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: من الآية 4)

2 – وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا

وكيف علا ؟

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعا)

(سورة القصص: من الآية 4)

أي استخدمهم فئاتٍ فئَاتٍ لأغراضه الشخصية، أو أنه فرّقَهُم كي يسود عليهم، ومعنى جعل أهلها شيعاً أي فِرقاً.

ومعنى الشيعة: بعض أفراد، كلٌ منهم يُشَايع البعض الآخر، نقول: شَيّعت جنازته، أي سِرْتُ في جنازته، فالشِيَع الفِرَق:

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

(سورة الروم)

كل مجموعةٍ تتعاون، تتكاتف، يُشايع بعضُها بعضاً على حقٍ أو على باطل، إذاً المشايعة على باطل هي العصبية العمياء، فلذلك:

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

أي استكبر، استكبر عن أن يعبد الله، استكبر عن أن يعترف بوجوده، واستكبر عن أن يكون في مستوى هؤلاء الذين يحْكمونهم، أي بنى مجده على أنقاضهم، بنى عزّه على ذُلِهم، بنى غناه على فقرهم، هذا معنى علا في الأرض، بنى أمنه على خوفهم، بنى حياته على موتهم:

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

وكيف علا ؟

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

فِرقاً، قسّمَهم إلى فئات، وإلى شِيَع، وإلى فِرَقٍ منوّعة، وإلى مجموعات، وأنشأ بينهم العداوة والبغضاء، وأرّث بينهم الخلافات.

(فَرِّقْ تَسُدْ) مبدأ فرعونيّ قديمٌ:

شيءٌ آخر، حينما جعلهم فرقاً، جعلهم فرقاً في خدمته، هذه الفرقة من أجل هذه القضية، وهذه المجموعة من أجل هذا الموضوع، وهذه الفئة من أجل كذا.

النقطة الدقيقة أن بني إسرائيل الذين هم على دين إبراهيم كانوا مخالفين مخالفةً كبرى لدين فرعون الذي قال:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

فهؤلاء بنو إسرائيل، وإن كانوا قد تركوا دينهم، لكن أصل دينهم عندهم معروف، إيمانهم بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون، وإيمانهم بما جاء به سيدنا موسى، لكنهم قصَّروا في تطبيق أمر ربهم، فسلط الله عليهم فرعون الذي لا يعرف الله عزّ وجل إطلاقاً، إذاً:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 4)

3 – يسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ

هذه الطائفة هي بنو إسرائيل:

(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة القصص)

4 – يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ

يروي التاريخ أن أحد الكَهَنَة قال له: رأيتُ في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكك، فبادر فرعون إلى قتل أبناء بني إسرائيل كلِّهم، والإنسان أحياناً بجهله بالله يظن أنه يستطيع أن يفعل لنفسه ما يشاء، وأن يفعل بعدوه ما يشاء، هذا من ضيق أُفُقِه، فقال: القضية بسيطة، ما دام هناك طفلٌ من بني إسرائيل سيقضى على ملكي فأنا سأذَبِّحُهم جميعاً، لكن هذا الطفل الذي سيقضي على ملكه ربَّاهُ في قصره، وهو لا يدري.

(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ)

5 – وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ

حتى إن القابلات كُنّ يطفنَ على الحوامل من بني إسرائيل، ويسجّلن عندهن حالات الحمل، فإذا وضعت هذه المرأة ذكراً أُخِذَ ابنها، وذبح، أيْ أنّه لم تستطع واحدة من نساء بني إسرائيل أن تنجو بابنها من الذبح.

(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية)

البنت يَدَعُها حيّةً، لقطع نسلهم وتقليل عددهم.

الفساد صفة دامغة لفرعون:

(إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

هذا وصف ربِّ العالمين لفرعون. هذا الطرف الأول:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

ما الحكمة مِن تمكين فرعون من بني إسرائيل ؟

ما الحكمة من ذلك ؟ لماذا مكّن الله هذا الفرعون من بني إسرائيل ؟ لماذا مكّنه في الأرض ؟ لماذا جعله عالياً في الأرض ؟ لماذا سمح له أن يذبّح أبناءهم ؟ لأنهم قصّروا عن ربهم، وخرجوا مع دين أبيهم إبراهيم، وتهاونوا في تطبيق شريعة ربّهم، فاستحقوا المعالجة، لكن هذه المعالجة هدفها إصلاح هؤلاء الضِعَاف.

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

1 – المنُّ على المستضعفين في الأرض منًّا مطلقا:

الله عزّ وجل قال في آيةٍ واضحةٍ جداً:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: الآية 5)

نَمُنَّ عليهم أيْ أن نعطيهم عطاءً، منه تمكينهم في الأرض أبدياً، عطاءً جزيلاً، لذلك لعلكم قرأتم قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

نعم، هو سبحانه يعلم، ونحن لا نعلم، الله سبحانه وتعالى كما يقول دائماً:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية 123)

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد: آية 19)

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال: آية 17)

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)

(سورة الأنفال: آية 17)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

آيات التوحيد تَبُثُّ الأمن والطُمأنينة في نفس الإنسان، لذلك فهذا الذي فعله فرعون سُمِحَ له أن يفعله، لهدفٍ نبيل، وهو:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

والإنسان على المستوى الفردي إذا ألمّت به مشكلة، وأصابته مصيبة، وضيّق الله عليه، أو لاح له شبحُ مصيبة، فلا يخف ولا يحزن، ولا يفْرق، ولا تضعف معنويّاته، لأنه:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

هذه الآية يجب أن تكون ماثلة أمام كل إنسان ابتلاه الله بسوء:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

نمنُّ عليهم بالإيمان، نمنّ عليهم بمعرفة الله، نمنّ عليهم بطاعتهم لله، نمنّ عليهم بالعمل للآخرة، نمنّ عليهم بدفعهم إلى طريق الجنّة، نمنّ عليهم أخيراً فنجعل لهم السيادة في الأرض.

لعلّ في المعاملة القاسية خيرًا:

فعندما يتلقى الإنسان معاملة موجعة، معاملة قاسية، فلعل فيها الخير.

مثلاً: لو فرضنا أن طفلاً صغيراً شَبَّ على كُرْهِ الدراسة، وكان أبوه له بالمرصاد، وقسا عليه حتى صار في مستقبل حياته شخصيةً ذات شأن في المجتمع، وإذا هو في بيته الفخم، وهو في مكانته العليَّة، وهو في نظافته الخُلُقيَّة، وهو في سمعته العطرة عند الناس، يقول: رحمة الله على والدي، لولا قسوته علي حينما كنت صغيراً لما كنت في هذه الحال.

حينما كان يضربه أبوه كان يتألّم منه، ولكن بعد مضي السنين رأى أن هذا الضرب هو عين الرحمة، هو عين الحب، هو عين الحكمة، هو عين العطف، هو عين الحنان، هكذا يجب أن نَفْهَم المصائب، أنها محضُ عطفٍ، محض لطفٍ، محض حكمةٍ، محض عدلٍ، الآية دقيقة جداً:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

هذا الإنسان تائه، هو تائه، شارد، غافل، غائص في الدنيا إلى قمة رأسه، همُّه الدرهم والدينار، همه الشهوة، همه الزينة، همه البُهْرُجُ، همه مُتَع الحياة، نسي ربه، نسي آخرته، تأتيه مشكلة، وكأنّ الله يقول له: أصْحُ يا عبدي، استيقظ.

إلى متى أنت في اللذات مشغولُ وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

ألم يأنِ لك أن تخشع لذكري ؟

فهذه المصائب رُسُل، ومُذَكِّرات، كأنّ الله سبحانه وتعالى يدفعك إلى بابه، انظر:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

قد يقتل: يا رب لماذا مَكَّنْتَه ؟ لماذا سلّطته ؟ لماذا أعطيتَه هذه القوة ؟ لماذا سمحتَ له يا رب ؟ فيأتي الجواب:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً)

هناك حكمةٌ بالغة يا عبدي، فوراء هذا التعذيب عطفٌ كبير، وراء هذه المصيبة رحمةٌ بالغة، وراء هذا التضييق حكمةٌ بالغة، وراء هذا التنْكيل حرصٌ شديدٌ على مستقبلك، فو الله الذي لا إله إلا هو، اسمحوا لي أنْ أقول لكل منكم: ما مِن مصيبة تأتيك ؛ من فقر، من خوف، من قلق، من مرض، من مشكلة، من ضيق، من حزن، لو أن الله سبحانه وتعالى كشف لك عن كل شيء ساقه لك في الدنيا، واللهِ الذي لا إله إلا هو ينبغي أن تذوب كالشمعة حباً لله، تذوب كالشمعة تماماً، لذلك: لو كُشِفَ الغطاء لاخترتم الواقع،

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: من الآية 216)

فالطبيب أحياناً يحمي مريضه من أطيب الطعام، قد يكون مريضه غنياً، وحالُه ميسور، يقول له: هذا الطعام ممنوع، هذا الطعام ممنوع، فهل هذا حقدٌ من الطبيب ؟ لا والله، هل هو تضييقٌ على المريض ؟ لا والله، هل هو منعٌ له من هذا ؟ لا والله، هذا علمٌ ورحمةٌ:

((إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا حَمَاهُ فِي الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ سَقِيمَهُ المَاءَ))

[الجامع الصغير عن قتادة بن النعمان]

((إِنَّ اللهَ لَيَحْمِي صَفِيَّهُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي الرَّاعِي الشَّفِيقُ غَنَمَهُ عَنْ مَرَاتِعِ الهَلَكَةِ))

[الجامع الصغير عن حذيفة بسند فيه ضعف]

إنها رحمة ما بعدها رحمة، هذا كلُّه من قوله تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

2 – تصييرٌ المستضعفين أئمَةً:

وهنا نقطة دقيقة جداً، لم يقُل الله عزّ وجل: ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم ملوكاً، بل ونجعلهم أئمةً يَأْتَمُّ الناسُ بهم، وربما كانت مرتبة الإمام أعلى من مرتبة الملك، لأن الملك تنتهي مهمّته في الدنيا، لو أنه حكم بالعدل، لو أنه فعل كلّ شيء، لكن الذي يأتمّ به فأعمالُهُ تستمر إلى أبد الآبدين، وما أراد الله من هذا التضييق أن يجعلهم ملوكاً مكان فرعون، لا:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

3 – توريثهم ملكَ فرعونَ:

دنيا وآخرة، يرثون مُلك فرعون، ويكونون أئمةً لأقوامهم، لذلك أذكِّرَكُم بقول سيدنا سعد من أجل أن تعرفوا قيمة هذا الكلام يقول: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس.. من هذه الثلاثة: ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عَلِمْتُ أنه حقٌ من الله تعالى>>.**

قال عليه الصلاة والسلام:

((يَا عَلِيُّ، لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

هناك شركات ميزانيتها كميزانيات عشر دول، لو أن هذه الشركة لك وحدك، فما قولك ؟ أضخم شركات العالم تبيع إنتاجها في كلّ بقاع الأرض، ولها ميزانياتٌ تفوق أرقاماً فلكية، وهي لك.

((يَا عَلِيُّ، لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ))

لك كل المحلات التجارية في العالم، في كل العواصم، في كل الشوارع، الطابق الأرضي، والقبو، والعلوي، كلها لك، كل شركات الطيران في العالم لك، كلُّ معامل السيارات لك، كل معامل النفط لك..

((يَا عَلِيُّ، لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ))

((خَيْرٌ لَكَ مِمّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ))

[الجامع الصغير عن أبي رافع بسند ضعيف]

فالتجارة الحقيقية، والربح الكبير: أن تكون سبباً في هداية إنسان، إنسان شارد، ضائع، ضال، شقي، تعيس، مُتَمَزّق، تأتي إليه لتعرفه بربه، تحمله على طاعته، تدفعه للعمل الصالح، هذا هو العمل الطيب، لذلك:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً)

بالصبر واليقين تُنالُ الإمامةُ في الدين:

لكن لكي تكون إماماً فلابدَّ من أمرٍ ؛ قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: آية " 24 ")

فهل أنت صابر ؟ فهناك امتحان صعب، سُئل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: **" يا إمام أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟** فتبسم، وقال: **" لن تُمَكّن قبل أن تُبْتلى "**، أي لن تنال رتبة الإمامة، ولن تكون داعيةً إلى الله حقيقة من دون دفع ثمن باهظ جداً ؟!! فهذه الدكتوراه مثلاً، حتى يقال له: دكتور، تفضل دكتور، فقد (ذاب بذر مخه) ثماني سنوات، ودراسات، وترجمات، وأطروحات، ومناقشات، وأعد

الفصل كله، أعده كله، أحياناً الأستاذ المشرف يستخدم طالبه لأعمال خاصة، كتبييض أشياء، لأنّ مصير الطالب رهن موافقته، فحتى يقال لفلان: دكتور، يكون قد بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، فأنت تريد جنة عرضها السماوات والأرض هكذا بركعتين صليتهما ؟! بليرتين لفقير؟! هذه هي العقبة، وانتهى الأمر ؟! شيء مضحك ! لأن طلب الجنة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوب:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: الآية 24)

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة: الآية 124)

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: الآية 39)

هذه من صفات الدعاة:

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

آيات كثيرة تُبَيّن الثمن الباهظ الذي ينبغي أن تدفعه كي تكون إماماً.

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: الآية 6)

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: الآية 55)

4 – تمكينُ الصالحين في الأرض:

أي: يا عبادي، لكم عليّ أن أستخلفكم في الأرض، أن أجعلكم خلفاء، وتكون كلمتكم هي العُليا، أنتم مهيمنون، مسيطرون، لكم يا عبادي أن أجعلكم خلفاء في الأرض، لكم عليَّ أن أُمَكِّن لكم دينكم، تمارسون شعائره وأنتم مطمئنون، لا تخشون لومة لائم، لكم عليَّ أن أُبدِّل خوفكم وقلقكم أمنا، ولي عليكم شيءٌ واحد، أن تعبدوني فقط.. لذلك:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

لله عليك أن تعبده، عليك أن تعبده حقاً وصدقاً فقط، ودع ما سوى ذلك له ؛ فإنه سيرفعُك يقرّبُك:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

(الشرح سورة)

أيْ أنّ الاكتئاب لا يُحتمل، الاكتئاب والضيق، والخوف والقلق، والسوداوية والشعور بالتمزُّق:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

والله هذا شيء جميل:

(وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)

هناك أحياناً همومٌ تسحق، يقول لك: أنا مسحوق، والله أحسُّ أن عليّ هموماً كالجبال، كأنّ جبلاً جاثمٌ على صدري:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3))

انسحقت فيه، وطأطأت ظهرك وعنقك من ثقله..

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

صار لك شأن، ولك مكانة، والناس يحبُّونك:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

الثمن باهظ:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6))

الثمن:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ)

فانصب في طاعته، في تطبيق شرعه، في العمل بأحكامه:

(وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

أي أطعني مخلصاً، هذه كلها تحقق معنى:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8))

أي أطعني مخلصاً، وهذا هو الثمن:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا)

(سورة القصص: الآية 5 - 6)

وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ

1 – الظالمُ والمعين للظالم في حكم ومصيرٍ واحدٍ:

من أعان ظالماً ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوباً على جبينه: آيسٌ من رحمة الله، من أعان ظالماً سلّطه الله عليه.

فالله ذكر فرعون، وهامان، ولكن ما شأن هامان ؟ لأنه أعان فرعون، وما شأن الجنود ؟ لأنهم أعانوا فرعون:

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

2 – الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه:

لذلك قيل: **" الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه "**، ينتقم به ليصلح المؤمن المُقَصِّر، ثم يُقَوّي هذا المؤمن المُقَصِّر حتى يصلح هذا الإنسان الكافر الذي لا يعرف ربه.

ملخّص هذه الآيات: إذا عصاني من يعرفُني سلّطت عليه من لا يعرفني.

2 – في سقوط الأندلس عبرة للمُعتبر:

واقرؤوا التاريخ ؛ حينما التفت المسلمون في إسبانية وفي الأندلس إلى الغناء، وإلى الموشّحات، وإلى الطرب، وشربوا الخمور، واستمتعوا بالجواري والغِلمان، وطفح أدبُهم بالسقوط والخلاعة والانحراف، جاء الإسبان، وتمكّنوا منهم، وقتّلوهُم، وشرّدوهم، فقالت أمُّ آخر ملك له:

ابكِ مثل النساء ملكاً مُضاعَاً لم تحـافظ عليه مثل الرجـال

***

وإذا عاد المسلمون إلى دينهم كانت لهم الغلبة، فهذا سيدنا صلاح الدين الأيوبي، وكُلّكم يعلم قصّته، وقف في وجه أوروبا بأكملها، أيْ أنّه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟.

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

هذا فَرشٌ تاريخي، تقديمٌ بيئي للقصة، القصة لم تبدأ بعد، أيْ أنّ هذه القصة التي سوف يتلوها علينا ربُنا سبحانه وتعالى من نبأِ موسى وفرعون وقعت في مِصر، وفي عهد فِرعون، وكان الوضع كما

يلي:

فرعون علا في الأرض، وجعل أهلها شيعا، وفعل كذا وكذا، والغاية النبيلة:

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

بدايات قصة موسى:

1 - وحيُ الله لأم موسى بإرضاع ابنها:

أوّل خيطٍ من خيوط القصّة:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص: الآية 7)

هذا الوحيُ وحي إلهام ؛ فالله عزّ وجل أوحى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذا وحي رسالة، وأوحى إلى أم موسى وحي إلهام، وأوحى إلى النحل ؛ هذا وحيُ غريزة، هناك وحي غريزة، ووحي إلهام، ووحي إرسال.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ)

(سورة القصص: الآية 7)

2 - إنه لأمرٌ عجيب: فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ

1 – معية الله الخاصة:

واللهِ هذا كلامٌ لا يكاد يصدّق، بل هو كلام عجيب !!! إلا أن يكون القائل هو الله سبحانه..

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص: الآية 7)

ترضعه، هو في حجرها، على صدرها، في عطفها وحنانها.

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

لأنني معه..

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه)

فأين هو موجود ؟ الشعور أن الله معك شعور لا يقدر بثمن، طبعاً الله مع كل إنسان، هذه معيةٌ عامةٌ لا ميزة فيها للإنسان، وهو معكم أينما كنتم، لكنْ لمّا يقول اللهُ تعالى:

(اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

(وَاللّهُ مَعَ الصّابرينَ)

(سورة البقرة)

هذه معيةٌ خاصة، معية الحفظ، معية التوفيق، معية العطف، والرعاية، والنصر والتأييد، فالبطل هو الذي يجتهد ليستحقّ أن يكون الله معه، العوام يقولون: خاطرك، له معك، الله معك، هذه العبادة، كلمة: (الله معك) ليس قليلة، اجتهد كي تستحق أن يكون الله معك، فإذا كان معك فلا تخشَ بأساً، موسى طفلٌ صغير لازال في المهد.

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

إذا خفت، أيْ إذا ساورك خوف وقلق عليه فألقيه في اليم.

من لطائف الآية: أمران ونهيان وبشارتان:

في الآيةِ أمران:

الأمر الأول: أَرْضِعِيهِ

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

أول أمر: فإذا خفتِ عليه فألقيه، فهو محفوظ في كنفنا، هنا نحن أمام نقطةٍ دقيقة جداً، هي: لو أنها أبقته في حجرها لحفظه الله عزّ وجل، ولكن يبدو أنها خافت، فهي ليست نبيةً ولا مرسلةً، خافت فطمأنها الله سبحانه:

الأمر الثاني: فَأَلْقِيهِ

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

النهي الأول والثاني: لاَ تَخَافِي ولا تَحْزَنِي

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)

(سورة القصص: الآية 7)

العلماء فرّقوا بين الخوف والحزن، الخوف توقُّع خطرٍ، أما الحزن ؛ تحقُّق الخطر، خطر وقع، وانتهى، فألمٌ بصاحبه حزن، لكنْ خطرا قد يقع، ففي النفس خوف..

البشارة الأولى والثانية: رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

(وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

هذه الآية تتضمّن ستة أشياء ؛ فيها أمران، ونهيان، وبشارتان:

(أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

فقصة سيدنا يوسف نقْلة مفاجأةٍ، ما مغزاها ؟ إخوة يوسف أقوياء أشداء، ائتمروا على قتله، وعلى وضعه في الجُب، ما الذي حصل في النهاية ؟ أن جعله الله عزيز مصر، ودخلوا إليه صاغرين، وقالوا:

(أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ)

(سورة يوسف: من الآية 90)

قال:

(قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف: من الآية 90)

أين مغزى القصة ؟ الجواب:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

لذلك في الأثر:

((أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد))

ماذا أراد كفار قريش ؟ أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم.، أخرجوه، قاتلوه، حاربوه، فلما شاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم. قتلى في بئرٍ في بدر قال:

((يا عُتبة بن ربيعة يا أمية بن خلف، يا شيبة بن ربيعة، خاطبهم بأسمائهم واحداً تلو الآخر، لقد كذّبتموني وصدقني الناس، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدّقني الناس، وكفرتم بي وآمن بي الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، فقالوا: أتخاطب قوماً جيفوا ؟ قال: ما أنتم بأسمع لي منهم))

[النسائي عن ابن عمر]

هم يسمعونني، فإذا كنت بطلاً فكن مع القوي، والله هو القوي، الله أبدي سرمدي قوي.

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

أيُ شيء كان باطلاً سواءٌ أكان فكرة، أو شخصاً، أو إنساناً فمآله:

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

إذاً:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

فقالوا:

موسى الذي رباه جبريل كافرٌ وموسى الذي رباه فرعون مُرْسَلُ

***

فموسى الذي رباه جبريل كافرٌ، هذا موسى السامري، رباه الوحيّ فكان كافراً، وموسى الذي رباه فرعون مُرْسَلُ.

(قَالَ أَلَمْ نُرَبّكَ فِينَا وَلِيداً)

(سورة الشعراء: آية 18)

فرعون رباه فكان مرسلاً، والبيئة لها أثر، ولكنّه محدود، فإنسان نشأ في قصر فرعون صار مرسلاً، وإنسان ربّاه الوحي فأصبح كافراً، فالإنسان له اختيار، اختياره هو الحاسم، لذلك:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة: من الآية 272)

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ)

(سورة القصص: آية " 8 ")

العناية الإلهية بموسى عليه السلام:

1 ـ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ:

دائماً الله عزّ وجل يرخي الحبل، افعل ما تشاء، إلى أن يتوهّم العبد أنه قادر على أن يفعل ما يشاء، ثم يشد الحبل فجأةً، هذا هو الابتلاء، هذا هو الامتحان بعينه.

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً)

(سورة القصص: من الآية 8)

لام العاقبة والمآل:

فمستحيل أن يلتقط إنسانٌ طفلاً، ويربيه عنده ليكون في النهاية عدواً له وحزناً، لذلك علماء النحو حاروا في هذه اللام، هي لام التعليل، أنا أدرس لأنجح، النجاح واضح في ذهني، أما فرعون فالتقطه ليكون له عدواً وحزناً، مستحيل، لذلك أعرب النجاة هذه اللام وحدها لام المآل، فهو التقطه، وكانت النتيجة وآلَ المآل إلى أنّ هذا الطفل أصبح عدواً لهم وحزناً.

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ)

2 ـ لا تَقْتُلُوهُ:

فالله عزّ وجل بيده كل شيء، ألقى حبه في قلب امرأة فرعون،

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا)

[سورة القصص: الآية 9]

ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ؟

((اللّهُمّ يَا مُثَبّتَ القُلُوبِ ثَبّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ))

[ابن ماجه عن النواس بن سمعان الكلابي]

أنت الآن مع الناس، الله أحياناً يلقي في قلب إنسان محبتك، فييسر لك أمرك، يلقي في قلب إنسان بُغضك، فيُعَسِّر لك أمرك، يلقي في قلب إنسان أن يعينك فيعينك، يلقي في قلب إنسان أن يزعجك فيزعجك، كلُّ البشر عِصيٌّ بيدي الله عزّ وجل، أدوات، علاقتك مع الله عزّ وجل.

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص)

إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ

الذي عند إحساس نامٍ يدرك فيما بعد إذا كان مصيباً أو مخلصاً، لما يقول لك ربنا عزّ وجل خالق الكون، الحق، الصادق، الخبير، العليم، الحكيم، معنى ذلك أنك مخطئ، قولاً واحداً، فالإنسان أيضاً يجتهد ألا يكون مخطئاً في نظر القرآن الكريم، قد يكون عمله في منتهى الذكاء عند الناس، (والله هنيئاً لك)، فمجتمع الكفر والنفاق أحياناً يثني على عمل، والعمل مخالف للشرع مخالفة تامة، فيقال: يا أخي

فلان شاطر، فلان فهيم، فلان دبّرها له، المغزى أن يكون العمل وفق القرآن الكريم، فبحسب الظاهر، وبمنتهى الذكاء، خطط فرعون وهامان ومَكّنا نفسيهما في الأرض، لكن الله قال:

(إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص)

كان خاطئاً، والعاقبة ليست لهم، فأنت دائماً اجتهد أن تكون وفق مقياس القرآن الكريم، أي أن تنطبق عليك وعلى تصرفاتك آية كريمة.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

(سورة التوبة: آية 9)

شيء جميل، إذا آمنت وعملت الصالحات انطبقت الآية عليّ، وصرتُ في دائرة معونة الله ورعايته.

(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

(سورة التوبة: آية 9)

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة البقرة)

فاجهد ألا تكون في ميزان نصوص القرآن خاطئاً.

(إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9))

(سورة القصص)

كثيرا ما تسمع ما يدعو به بعض الخطباء من على المنابر على اليهود وعلى أعداد المسلمين: اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم، يدبرون، ومن جرّاء هذا التدبير اجعل تدميرهم في تدبيرهم، وفرعون وملؤه لا يشعرون أن هذا الطفل الصغير الذي أُلْقِيَت محبته في قلب امرأة فرعون، والتي منعت فرعون من أن يقتله.

(عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَداً)

(سورة القصص: آية 9)

لم يشعروا أنّ هذا الطفل الصغير سوف يقضي على ملك فرعون.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (02-18): تفسير الآيات 8 - 15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-05-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة القصص، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(القصص)

القصة للاستنباط والعبر:

قلت لكم في الدرس الماضي: إن القصة إذا وردت في القرآن الكريم فالمقصود منها المغزى أو الاستنباط، وكل قصةٍ في القرآن الكريم فيها من الحقائق والاستنباطات والمغازي ما تُضيء لنا طريق حياتنا نحن، لو لم تكن هذه القصة تضيء لنا الطريق طريق الله عزّ وجل لما كان لها من معنى أن تَرد في قرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة، وقد انقضت، ومات كل أبطالها، على كلٍ نعود إلى متابعة القصة مع محاولةٍ متواضعة لاستنباط بعض الحقائق.

من العناية الربانية بموسى عليه السلام:

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(القصص)

يُستنبط أن فرعون هذا المعنيّ بهذه القصة لم يكن له ولدٌ، وذلك من قوله تعالى:

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

1 – لم يكن لفرعون ولد:

ولكن فرعون أعطى أمراً مشدداً بقتل كل أطفال بني إسرائيل الذُكور، فكيف نَجَا هذا الغلام مِن القتل ؟ ما الذي حصل ؟

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ)

2 – إلقاء محبة موسى في قلب مَن رآه:

أيْ أنّ الله عزّ وجل ألقى محبته في قلب امرأةِ فرعون، أحياناً ربنا سبحانه وتعالى يردُ على تدبيرٍ عظيم بتصرفٍ صغير، ما الذي نجىّ النبي عليه الصلاة والسلام من القتل في غار حِراء ؟ عنكبوت، هذا من آيات الله الدالّة على عظمته، لو أن جيشاً كبيراً مدججاً بالسلاح والعتاد هاجم جهةً ما، ورّدت هذه الجهةُ عليه بجيشٍ آخر، ودارت معركةٌ طاحنةٌ، ومات فيها آلاف القتلى، وأُصيب آلاف الجرْحى، وأسفرت هذه المعركة عن انتصار الجيش المُدافع، فإن هذا نصر، ولكن الله أحياناً يرسل رياحاً عاتية تقلب القدور الله وتقتلع الخِيام الله وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَرَدّ اللّهُ الّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً)

(سورة الأحزاب)

أيْ أن من دلائل عظمة الله عزّ وجل أنه يرد على التدبير العظيم والكيد الكبير بشيءٍ لا يُرى بالعين، أيْ أن هذا الطفل الذي سيقضي على مُلك فرعون ما سلاحه الشديد؟ سلاحه عاطفي، ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى ألقى محبته في قلب امرأة فرعون، ماذا يُستنبط ؟ يستنبط أنك في تعامُلك مع أي إنسان إما أن يلقي الله محبتك في قلبه، فإذا هو في خدمتك، وإما أن يلقي الله في قلبه بغضك، فإذا هو عدو شرس، ويؤكد هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))

(سنن الترمذي عن أنس)

فأنت في تعاملك مع الناس ؛ إذا أراد الله أن يُكرمك، وأن يرحمك ألقى حبّك في قلب الآخرين، ألقى حبك في قلب شخصٍ لا تعرفه، تلتقي به لأول مرة، فإذا هو يتمنّى أن يقدِّم لك كل شيء، وإذا أراد الله أن يؤدِّب إنساناً ألقى بغضه في قلب مَن حوله، فإذا هم يضيّقون عليه، إذاً: القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن، تدبيرٌ عظيم، فرعون جهّز جيشاً من القابلات كي تتبع كل قابلةٍ المرأة التي ستلدُ غلاماً ذكراً، ويجب أن تخبر عنه مسبقاً، وأن تتابع تطورات الحمل إلى أن يوضع، فتأخذه القابلة، فَيُلقى، أو يذبح، أو يقتل بشكلٍ أو بآخر، هذا الإجراء العظيم، وهذا التدبير الكائد، كلُّ هذا أخفق مقابل ميل قلب امرأة فرعون إلى هذا الطفل الجديد، كل كيد قريش باء بالفشل حينما جاءت حمامةٌ على باب غار ثور، حينما نسج العنكبوت بعض الخيوط، أي أنّ جيشاً عظيماً، ومطاردةً هائلة، وتدبيراً كائداً أُلغي بعنكبوت نسجت بيتها على فوهة غار ثور، وانتهى الأمر، ماذا يعني هذا ؟ يعني أن الله عزّ وجل حينما يريد أن ينصرك على خصمك، حينما يريد أن يكرمك بشيءٍ لا يُرى بالعين يلقي حبك في قلب الناس، وذلك معنى قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبّةً مِنّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

(سورة طه)

3 – الجمالُ الخُلُقي لموسى:

أيْ إذا ألقى الله محبتك في قلوب الخلق أصبح الخلق كلُّهم في خدمتك وفي طاعتك، أحياناً الزوج المؤمن، الصادق، المنيب، المخلص، الذي يقفُ عند حدود الله، يُلقي هيبته في قلب زوجته، وأحياناً حينما يعصي، حينما ينحرف، ويتجاوز حدود الله عزّ وجل تُنْزَع هذه الهيبة من قلب زوجته، فإذا هي تخاصِمه، فإذا هي تُنَاجزه، وإذا هي ترد عليه بكلمات أقسى، فأين الهيبة ؟ ضاعت الهيبة، إذاً قلب الزوجة بين أصبعين من أصابع الله عزّ وجل يقلبه كيف يشاء، قال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى: **" إنني أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي "**، وهذا الأمر صحيح، لأن قلب الزوجة بيدِ الله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل يقول:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

(سورة الأنبياء: الآية 90)

أحياناً قلب الشريك في التجارة أو غيرها ينفتح لك مادمت معه صادقاً، مخلصاً، وقافاً عند كتاب الله، فيلقي محبتك في قلب شريكك، فتأخذ المودة والمحبة طريقها إلى قلب الشريكين، فإذا هما متماسكان، متعاونان، فهذه لقطة، ولك أن تقيس عليها آلاف الحالات..

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ)

أيْ أنّ الله عزّ وجل كسا هذا الصبي الصغير من الجمال، والجلال، والبهاء، والبريق ما جعل قلب امرأة فرعون يذوب حباً لهذا الغلام، إذاً كل تدبير فرعون بقتل أبناء بني إسرائيل لئلا يقضوا على ملكه تلاشى، هذا الذي سيقضي على ملكه اقتحم عليه قصره، ودخل إلى عُقْر داره، وهو بين الأحضان يدلل، ويكرّم، ويُعتنى به، لذلك قال الله تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص)

عندما تكون مستقيما تصيبك العناية الإلهية:

البطولة أن تكون على المنهج، لأنك إن لم تكن على المنهج الصحيح فإنّ أقرب الناس إليك يقضي عليك، أقرب الناس إليك يتنكّر لك، لأن كل من حولك بيدِ الله عزّ وجل، فلذلك الإنسان العاقل لا ينجيه من الله إلا أن يكون مع الله، لا ينجيه من الله إلا أن يكون وقافاً عند أمر الله، أما ذكاؤه، حيلته، خبرته، قوته، جَمعه، هذا كله لا قيمة له عند الله عزّ وجل، لأنه يؤتى الحذِرُ من مأمنه، وعلى نفسها جَنَتْ

براقش، وإذا أراد الله إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لبّه، فأنا أريد من هذه اللُقطة، أو من هذه الآية الصغيرة أن تعرفوا أن قلوب الخلق كلّها بيدِ الله عزّ وجل، فإذا أراد الله أن يُكرمك ألقى حبك في قلوبهم، وإذا أراد أن يؤدّبك ألقى البغض والشك في قلوبهم، فإذا هم يتنكّرون لك، والقصص التي تسمعونها من أقربائكم وأصدقائكم كثيرة.

هناك مشكلة، أحدهم قال له الموظف: أنت امش، ولم يدقق، بينما دقق مع غيره، فلماذا دقق مع فلان، وخلق له مشكلة، وتساهل مع فلان ؟ لو سألت هذا الموظف يقول لك: والله لا أدري، هكذا ألهمني الله، أي أنك دائماً في علاقاتك مع الآخرين يلهم الله عزّ وجل من حولك بإكرامك أو بتأديبك، فالبطولة أن تكون معه، البطولة أن تكون وقّافاً عند أمره، البطولة أن تكون معتمداً عليه، البطولة أن تتّكِلَ عليه، البطولة ألا تشرك به شيئاً.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنا فإنا منحنا بالرضى من أحبنا

و لُذ بحمانا واحتم بجنابنــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

إنّ هذا الطفل الذي التقطوه، والذي ربُوه، وأكرموه سيُنهي ملكهم، وهم لا يشعرون، لذلك الدُعاء الذي يدعو به بعض خطباء المساجد على الأعداء: **" اللهم اجعل تدميرَهم في تدبيرهم "**، ليس هذا ببعيد، أيْ أنّ الكافر أحيانا يدبّر فيكون تدميره في هذا التدبير، لأن الله عزّ وجل مع المؤمنين دائماً.

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ)

من النكت والطائف القرآنية:

1 – امرأة فرعون:

لكنّ امرأة فرعون من النسوة اللاتي كَمُلْن، بنص حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام:

((كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى.]

هؤلاء النسوة اللاتي كملن، لذلك ماذا قالت امرأة فرعون ؟

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة التحريم)

معنى قوله: وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا

استنبط بعض العلماء أن على المرأة المؤمنة أن تصبر على زوجها المقصّر، أو على زوجها العاصي، أو على زوجها المنحرف، أي أن هذه المرأة التي تقول: أنا لا أريده، ضقت ذرعاً به، هذه لم تقتدِ بآسية امرأة فرعون:

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً)

(سورة القصص: آية " 10)

المعنى الأول:

فسر العلماء هذه الآية تفسيراتٍ عدة: أحياناً يكون قلبُ الإنسان ممتلئاً بهمومٍ كثيرة جداً، أحياناً يكون مهتماً لابنه ولزوجته المريضة، ولشريكه المسافر، وللبضاعة التي لم تُبَع معه، عنده مجموعه هموم، أحياناً تأتي مشكلة خطيرة جداً تتبدّد معها كل هذه الهموم، يصبح القلب فارغاً إلا من هذا الموضوع، نعم هذا يحدث، أيْ أنّ الإنسان في الأحوال العادية له هموم كثيرة، أحياناً من جهة صحته يساوره شيء من القلق، من جهة أولاده يلازمه خوفٌ من عدم النجاح، من جهة زوجته يوجد شعور بعدم الرضى، من جهة عمله يقول لك: الأسواق فيها كساد، من جهة أقربائه هناك خصومة، فإذا أراد أن ينام تتبدّد هذه الهموم همًّا هَمًّا، من جهة كذا، ومن جهة كذا، لكن لا سمح الله ولا قدّر ؛ لو أصابه مرضٌ عُضال وجاء التحليل بأن هناك مرضاً عُضالاً خطيراً فإنّ همّ الزوجة، وهمّ الولد، وهمّ الشريك تتلاشى، ويصبح فؤاد هذا الإنسان فارغاً إلا من هذا الهم، نعوذ بالله من هذا الهم، العوام يتوسلون إلى الله عزّ وجل أن يجيرهم من ساعة الغفلة، وبعضهم يقول: هي ساعة الغفلة عن الله عزّ وجل، الغافل يقتحم الأخطار، الغافل يقع في المعاصي، الغافل يقع في الشِرك، الغافل يقع في الكفر، فيأتي التأديب فجأةً من دون إنذار،

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً)

هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني:

يتراءى من قول ربنا عزّ وجل لأم موسى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ)

(القصص: آية 7)

من القتل..

(فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)

لا تخافي، ولا تحزني، إذا كان الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى أمّ موسى ألا تخاف ولا تحزن، إذاً فلا مانع من أن يصبح قلبها فارغاً من الخوف والحزن، هذا هو المعنى الآخر، لكن لقد أصبح قلبها فارغاً من الهم ومن الحزن..

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً)

(القصص: من الآية 10)

المعنى الثالث:

أنها حينما ألقت به في اليَمّ جاءتها الهواجس، وجاءتها الأحزان، وجاءتها الهموم، فخافت أن يغرق، وخافت أن يُقتل، وخافت، وخافت، ففرغ قلبها من العقل، فلا عقل، ولا ذرة عقل، أي أصبح فارغاً، أي أصبح قلبها فارغاً من الأمن، فارغاً من تطمين الله لها، جاءتها الهواجس، جاءتها الهموم والمخاوف والأحزان، هذا هو المعنى الثالث..

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّمُوسَى فَارِغاً)

يقولون: ما من شيءٍ في الأرض أقدس من قلبُ الأم، وقد قلت لكم سابقًا: إن قلب الأم طَبْع، بينما محبة الابن لأمه تكليف، أي أن المحبة والبر والإكرام تكليف، والنبي الكريم صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نهى عن أن يُفَرّقُ بين الشاة وبين ابنتها، ما قولكم ؟ هذا على مستوى الحيوانات، لا يجوز أن يُفرق بين الأم وبين وليدها، فما قولك إذا كان هذا على مستوى الإنسان ؟ إذا كان الذي يفرّق بين الشاة وبين وليدها قد وقع في معصيةٍ صريحةٍ بنص حديث رسول الله صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فكيف بالذي يفرق بين الأم وابنها ؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ فَرّقَ فليس منا))

[الجامع الصغير عن معقل بن يسار بسند ضعيف]

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

((لَعَنَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَنْ فَرّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا وَبَيْنَ الْأَخِ وَبَيْنَ أَخِيهِ))

[ابن ماجه]

وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ فَرّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرّقَ اللّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[سنن الترمذي]

هذا الذي يفرّق بين الأحبة ليس من أمة النبي عليه الصلاة والسلام..

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ)

كيف تُدفع الشهوة ؟

إن الشهوات لو رمزنا لها بوزن خمسة كيلو في ميزان، ولو رمزنا إلى قوة الإيمان بوزن عشرة غرامات، فإيمانٌ مقداره عشرة غرامات لا يقف في وجه الشهوات، إذا سمع الإنسان خطبة، أو قرأ كتابًا، أو سمع محاضرة في الدين أعجبته، فهذه عشرة غرامات مثلاً، الشهوات خمسة كيلو، فإلى أن تُصْبح كفة الإيمان في مستوى وزن الشهوات، وإلى أن يتحرك الميزان فستكون أنت في صراع، أنت في مرتبة مدافعة التدني، ولكن إذا قوي الإيمان، وأصبح وزنه مئة كيلو، والشهوات خمسة كيلو، عندئذٍ لا تستطيع الشهوة أن يكون لها إلى قلبك سبيلٌ، هذا نوع.

النبي عليه الصلاة والسلام وُصِف بأنه على خُلقٍ عظيم، لكنّ أخلاق المؤمنين بين أخذٍ ورد، بين شدٍ وإرخاء، في صراع، أي أن أحداً إذا تكلم معك كلمةً قاسية تقول: أأردّ عليه ؟ لا، لن أردّ عليه، السكوت أفضل، أنت في حالة صراع، لكن النبي عليه الصلاة والسلام بلغ مرتبةً في قوة الإيمان، وفي سموّ الخلق أنه أصبح متمكناً من أخلاقه..

(وَإِنّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

معنى: إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ

المعنى الأول:

ففؤاد أم موسى أصبح فارغاً، ما معنى أنه فارغ ؟

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ)

قال بعض المفسرين: **" عندما ألقته في اليَمّ كادت تصيح: وا ابناه، وا ابناه، ماذا فعلت بنفسي ؟ ".**

(إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ)

أي كادت تصيح.

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: **" حينما رُدّ إليها ابنها، ووضعته على ثديها، وأرضعته كادت تقول: هذا ابني من شدة الفرح ".**

المعنى الثالث:

وبعضهم قال: **" حينما سمعت من الناس أنّ في قصر فرعون غلاماً عزيزاً على فرعون اسمه موسى بن فرعون كادت تقول لهم: لا، هذا ابني ".**

وحينما قال الله تعالى:

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(القصص)

كادت أن تقول للناس: إن ابني سوف يرجعُ إليّ، وفي كل هذه الحالات لو تكلّمت لانتهت، ولكن الله سبحانه وتعالى سلّم، قال عزوجل:

(إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا)

(القصص)

لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا

أي ثبتناها بالصبر، ثبّتناها بالإيمان، ثبتناها بالعصمة، ألهمناها الصبر، لذلك:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة النحل: الآية 127)

سيدنا عمر كان يقول حينما تصيبه المصيبة: **<< الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ أَلْهمْتُ الصبر عليها >>.**

أيْ أن الإنسان إذا أصابته مصيبة، وصبر فليشكر الله عزّ وجل على أن الله سبحانه مكّنه من الصبر، وأعانه على الصبر، لقول الله عزّ وجل:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)

(سورة النحل)

إذاً..

(لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(القصص)

لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ

بوعدنا.

إن درجة الإيمان تحدد درجة التصديق، والإيمان في بعض تعاريفه تصديقٌ وإقبال، والكفرُ تكذيبٌ وإعراض..

(لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

من المؤمنين، أيْ من المصدقين بوعد الله ووعيده، والحقيقة أن بعضهم يقول لك أحياناً: فلان مؤمن، ثم تجده يفعل بعض المعاصي، وهو يقرأ كل يوم أن هذه المعاصي سوف يعاقبُ الله عليها، إذاً هو كأنه ليس مصدقاً، وهذا ينقلنا إلى موضوع دقيق:

التكذيب اللفظي والتكذيب العملي:

هناك تكذيبٌ لفظيٌ، وهناك تكذيبٌ عملي، والتكذيب العملي أخطر بكثير من التكذيب اللفظي، أي أن الطبيب إذا وصف لك دواء، وأنت شكرته بلسانٍ ذَرِب، وقولٍ بليغ، ولم تشترِ الدواء، فإن عدم شرائك الدواء دليل أنَّك لم تصدِّق هذا الطبيب، فحينما لا يطبِّق الإنسانُ القول فهذا أحد أنواع التكذيب، وهو لا يدري، وما من واحدٍ في العالم الإسلامي بإمكانه أن يصرّح بأنه غير مؤمنٍ بالآخرة، هذا الطرح ليس وارداً، ولكن هذا الذي لا يعمل للآخرة هو أحد أنواع المكذبين بها قطعاً، هذا الذي يعمل للدنيا فقط، هذا الذي تربَّعتْ الدنيا على عرش قلبه، هذا الذي كانت الدنيا أكبر همِّه ومبلغ علمه، هذا الذي زهد بالآخرة لو قال: أنا مؤمن بالآخرة فهو في الحقيقة مكذب، لأن عمله يكذب دعواه، إذاً..

(لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

فأنت حينما ترى إنساناً يأكل الربا ماذا تعتقد ؟ لاشك أنك ترى أنه عاصٍ، وقد يقول قائلٌ من ضِعاف المؤمنين: هنيئاً له، مالُه وفير، هذا هو التكذيب، إنَّك تكذِّب القرآن، وأنت لا يدري، يقول ربنا عزّ وجل:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: من الآية 279)

فهل أنت مصدق أن الله عزّ وجل لابدّ من أن يمحق ماله ؟ يقول لك: والله يا أخي حالته المادية جيدة، معَ أن دخله حرام، فالبطولة أن تكون من المؤمنين المصدِّقين بوعد الله ووعيده، وأنت هل تشعر أن كلّ

إنسان انحرف لابدّ له من عقابٍ في الدنيا أو في الآخرة ؟ هذا اليقين هو الذي يُلجِمَك عن معاصي الله عزّ وجل..

مبدأ الأخذِ بالأسباب كما جاء في قصة القصص: وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ

(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)

(القصص: من الآية 11)

أي تتبعي أمره، يبدو أنها حينما ألقته في اليَم، وشاطئ النيل بعضه خارج حديقة قصر فرعون، وبعضه داخل حديقة قصر فرعون، فلما ألقت أُم موسى طفلها في التابوت ألقته في اليم قالت لأخته: تتبعي هذا التابوت، تتبعي مسيره، هذه بعض التأويلات، فتتبعت مسيره حتى وصل، أو ساقه الله عزّ وجل إلى مكانٍ فيه شجرةٌ قريبةٌ من اليم، فهذا التابوت وقف عندها، وكان هذا على مرأى مِن امرأةِ فرعون.

هناك تفسيرٌ آخر: طبعاً أخذ فرعون الغُلام، وطلبت امرأته منه ألا يُقتل، وأحبّته حباً شديداً، وقالت له:

(قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً)

(القصص: من الآية 9)

طفلٌ رضيعٌ جائع صار يبكي، جاءوا له بمرضعٍ فلم يرضع، ثم بمرضعٍ ثانيةٍ، وثالثةٍ، ورابعة فلم يرضع، لذلك أمر جنودَه أن يبحثوا له عن مرضعٍ في المدينة، فأخته تتبعت الأخبار، وهذا تفسير آخر..

(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)

(القصص: الآية 11)

تتبعي أخباره..

(فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

الذكاء في تتبع الأثر: المراقبة عن بُعْدٍ:

رأتهم في حالة ارتباك يبحثون له عن مرضع، وهم لا يشعرون.

الآن تدبير آخر من تدابير الله عزّ وجل..

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

(القصص: الآية 12)

وَحَرّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ

التحريم الكوني: المنع:

العلماء قالوا: **" هذا تحريم منع لا تحريم شرع ".**

هذا الطفل الصغير بحاجة ماسة إلى حليب، ومع ذلك كلّما التقم ثدي امرأة مرضع عافه وأبى أن يشرب منه، وبقي يبكي.

إذاً: كل شيء بيد الله عزّ وجل، الطفل بيدِ الله، وحركة الماء بيدِ الله، وقلب امرأة فرعون بيدِ الله، وفرعون بيدِ الله، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ قال سيدنا هود:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

أول شيء: قلب امرأة فرعون، بل أول شيء: أن الله عزّ وجل ألقى على هذا الغلام مسحة جمال، ومسحة جلال، ومسحة بهاء، أحياناً تدخل إلى صف فيه خمسون طالباً، طالب واحد يَلْفِت النظر، وأنت لا تعرف ما السر، هذا الطفل جذبك إليه، الله عزّ وجل له أسرار، أحياناً يضع سره في بعض خلقه، يقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديثه:

((ما أخلص عبدٌ لله عزّ وجل إلا جعل قلوب المؤمنين تنهال إليه بالمودة والرحمة))

[ورد في الأثر]

أيْ يجعل سراً، أحياناً تقول كلاماً يقوله كلُّ الناس، ويكون لكلامك أنت تأثير عجيب، ما سر هذا التأثير في هذا الطفل ؟ الله يعلم ذلك، لكن يمكن أن نستنبط أن الإخلاص والتطبيق يسهمان في قوة التأثير، على كلٍ..

(وَحَرّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

(القصص: الآية 12)

هذا التحريم تحريم منع لا تحريم شرع.

والشيء الآخر:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمّ مُوسَى)

(القصص: الآية 7)

هذا وحـي إلهام لا وحي رسالة، وهناك وهي ثالث: وحي غريزة..

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النّحْلِ)

(سورة النحل: الآية 68)

فالكلمات في القرآن تأخذ معاني عدة..

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ)

(القصص: الآية 12)

أي من قبل أن تأتي أمّه، فقالت أخته للجنود القلقين، الباحثين عن مرضع لهذا الغلام بأمر فرعون:

(فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ)

(القصص: الآية 12)

أمارات رجوع موسى إلى أمه:

قالوا مَن ؟ قالت: أمي..

(وَهُمْ لَهُ َاصِحُونَ)

عندما قالت: وهم له ناصحون شكّوا في أمرها، كيف عرفتِ أنهم له ناصحون ؟ قالت: أيْ هم للملِك ناصحون، وليس للغلام، هي ارتبكت من شدة لهفتها أن يعود أخوها إلى أمه فقالت:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)

من شدة ولهها ورغبتها في أن يعود هذا الطفل الصغير إلى أمه تكلّمت كلمات زائدة فشكّوا في أمرها، قالوا: ومن أدراكِ أنهم له ناصحون ؟ قالت: أردت أنهم أهل بيتٍ ناصحون للملك في أمر هذا الغلام الذي يَحْرص على إرضاعه، عندئذٍ تمّ هذا الأمر على هذه الطريقة..

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ)

(القصص: الآية 13)

رجوع موسى إلى أمه:

جيء بأم موسى إلى قصر فرعون، وعلى مرأى من فرعون كما تروي الكتب أُعطي هذا الطفل ثدي أُمّ موسى فالتقمه بشغف، فشكّ فرعون في الأمر فقال: لماذا قَبِل ثديك، ولم يقبل أي ثديٍ آخر ؟ قالت: إنني طيبة الريح، طيّبة اللبن، وما من غلامٍ رضع مني إلا التقم ثديي، وهي أيضاً كانت ذكية، فعلى الإنسان أن يكون على شيء من الذكاء، ولولا فِطْنتها هذه لقتلها..

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا)

(القصص: الآية 13)

كَيْ تَقَرّ عيْنُهَا

1 – الذكاء مطلوب في المسلم:

فيما مضى تحدثنا عن أن سيدنا رسول الله أرسل حذيفة بن اليمان في معركة الخندق، وهي المعركة الحاسمة التي ربما انتهى الإسلام فيها، أقول: ربما، حسب تصوّر أصحاب رسول الله لشدة العدد والعُدد التي توفرت للمشركين، وما شاكل ذلك، فالنبي عليه الصلاة والسلام نَدَبَ سيدنا حذيفة ليستطلع في معسكر المشركين ماذا يحدث ؟ ماذا يخططون ؟ المهمة قاسية جداً ؛ أن يتسلل جندي إلى معسكر الشرك، هو مقتول لا محالة، فأبو سفيان شعر بحاسةٍ سادسة أن في القوم أُناساً غُرَبَاء فقال: **" لا آمنُ عليكم من عيون لمحمد فليتفقد كلّ منكم جليسه وصاحبه "**، انتهى سيدنا حذيفة، لولا أنه كان ذكياً جداً، فمباشرةً أمسك بيدِ من بجانبِه وقال له: من أنت ؟ وما اسمك ؟ فقال: **" أنا فلان، واسمي فلان ".**

2 – ذكاءُ أمّ موسى:

هذا موقف ذكي، فإذا وقف الإنسان مواقف تدلُّ على فطنته، فإن هذا من توفيق الله له، فيبدو أنهم شعروا أن أُم موسى من لهفتها، ومن حبها للطفل أنها أمه، فقالت: لا، لست أمه، لكنيّ طيبة الرائحة، طيبة اللبن، وكل طفلٍ التقم ثديي قبله..

وعدُ الله ووعيده نافذان ومُحققان مهما كانت الظروف:

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(القصص)

إن زوال الكون أهون عند الله عزّ وجل مِن ألا يتحقق وعده، لأن وعده حق.

أمثلة من وعدِ الله ووعيده التي لابد أن تتحقق:

المثال الأول:

عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فهذا وعد إلهي مطبّق في أي مكانٍ، في أي زمانٍ، في أي ظرفٍ، مهما تكن الظروف صعبة، وَعَدَك الله أيها الشاب المؤمن بحياةٍ طيبة، في بلد صعب، في بلد سهل، في رخاء، في سنوات الجدب، في سنوات الخصب، وعدك الله بحياةٍ طيبة، هذا وعدٌ إلهي.

المثال الثاني:

وعيد آخر:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

لا يمكن، ومهما كنت مرموقاً، مهما كنت، مهما كنت غنياً، مهما كنتَ قوياً، مهما كنت ذكياً، مهما كنت ذا عصبةٍ كبيرة، إذا أعرضت عن ذكر الله فلابدّ من المعيشة الضَنْك، بل إن بعض المفسرين قالوا: **" فما بال الأغنياء والملوك معيشتهم الضنك ضيقُ القلب، في قلوبهم من الضيق ما لو وزّعَ على أهل بلدٍ لكفاهم ".**

المثال الثالث:

وعدٌ آخر:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

المثال الرابع:

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(سورة المجادلة)

المثال الخامس:

هذا وعد آخر..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

وعود الله كثيرة، وله وعدٌ وله وعيد..

المثال السادس:

وفي الآية التالية وعيد، قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: الآية 276)

هذا وعيد فيه قاصمة للظهر، المحق والإتلاف.

أما قوله تعالى:

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة البقرة)

فهذا وعد..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص)

في سورة يوسف قال ربنا عزّ وجل:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

أمرُ الله هو النافذ، **" أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتُك ما تريد، وإذا لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".**

إن الله عزّ وجل إذا أراد شيئاً وقع، وأيُّ شيءٍ وقع أراده الله، فإذا كنت بطلاً فكن مع مشيئة الله، لأنها هي النافذة، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، إذا لم يشأ الله أمراً تعطّل لأتفه سبب، وإذا شاء الله أمراً قام على أضعف سبب، والله سبحانه وتعالى يخلق من الضعف قوةً، ومن الضيق فرجاً، ومن المرض صحةً.

وبعدُ، فهذه قصة سيدنا موسى وقد وردت في القرآن الكريم برقمٍ كبير، وردت ثلاثاً وعشرين مرة، لكن لو قرأتها قراءةً سطحية تظن أنها متكررة، أما إذا دققت فيها تجد أن كل مرةٍ وردت فيها هذه القصة أطلّت عليك من زاوية دقيقة.

قفزةٌ زمنية في قصة موسى: وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى

تطالعنا الآن في القصة فجوة، بعد أن رُدّ هذا الطفل إلى أمه التي أرضعته انتقلنا فجأةً إلى سن الرشد، طيلة ثماني عشرة سنةً أو تزيد لا ندري عنه شيئاً، يا ترى كم سنة بقي في قصر فرعون ؟ لا ندري، هل بقي في قصر فرعون كل هذه السنوات ؟ هناك إشاراتٌ دقيقةٌ وخفية تؤكد أنه لم يبقَ في قصره، بل خرج من قصره، لعل أمه أخبرته ماذا يفعل فرعون ببني إسرائيل، لعل أمه أخبرته من هو، لعله رأى بعينه ما يفعله فرعون في بني إسرائيل من ظلمٍ، ومن تقتيل أولاد، على كلٍ المعلومات انقطعت، إلى أن قال الله عزّ وجل:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى)

(القصص: آية 14)

معاني: أَشُدَّهُ:

المعنى الأول:

العلماء قالوا: **" بلغ أشده أي اكتملت قِواه الجسمية أي في السنة الثامنة عشره، واستوى أي اكتملت قِواه العقلية".**

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: **" في سنّ الثلاثين ".**

المعنى الثالث:

وبعضهم قال: **" في سن الثانية عشرة ".**

المعنى الرابع:

على كلٍ ربنا عزّ وجل يؤكد أنه بلغ أشده واستوى، بلغ أشده في قوته البدنية، وبلغ أشده في قوته العقلية..

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

يسأل الإنسان نفسه: ما نصيبي من هذا العطاء ؟ إذا كان نصيبه من المال وفيرًا فإن هذا نصيب قارون، وإذا كان نصيبه من القوة وفيرًا فإن هذا نصيب فرعون، أما نصيبه إذا كان من العلم والحكمة فقد ضحكت له الأقدار..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

معنى الحكم:

الحقيقة الحكم بعضهم يقول: **" إنه حينما تعلم حقيقة، وتضعها موضع التنفيذ فأنت حكيم ".**

لا يسمَّى الحكيم حكيماً ذلك الذي تعلم الأشياء النظرية فقط، لا يسمى الحكيمُ حكيماً إلا إذا طبق الذي عرفه، لذلك: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

من صفات الأنبياء: العلم:

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلمه.. وإن الله عالمٌ يحب كل عالم، فكن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامس فتهلك، واعلمْ أن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

لكن أروع ما في هذه الآية هذا التعقيب الذي يبثّ الأمل في قلب كل مؤمن..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

تذييل الآية ببشارة عظيمة: وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين

إن عطاء ربنا عزّ وجل ليس عطاءً اعتباطياً مزاجياً، بل هو عطاءٌ منضبط، عطاء وفق أُسس ثابتة، أي أنه لو لم يكن محسناً لما آتيناه حكماً وعلماً، كان محسناً فاستحق العلم والحكمة، ماذا قال الإمام الشافعي ؟ قال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبأني بأن العلم نـــورٌ ونـور الله لا يهدى لعـاص

***

بعضهم قال: **" لا تعصه في النهار يوقظك في الليل ".**

إذاً:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

يقول ربنا عزّ وجل:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة: الآية 269)

فضل العالم على العابد:

فإذا عبدَ إنسانٌ اللهَ من غير معرفة قد ينجو، ولكن لا يؤتى خيراً كثيراً، وأنت إذا عرفت الحكمة، ودعوت إلى الله وفق الحكمة فلا يستجيب الناس لك إذا قلت لهم: افعلوا كذا وكذا، أما إذا آتاك الله علماً وحكمةً، وبيّنت للناس أوامر الله عزّ وجل والحكمة منها، ونواهيه والحكمة منها، وبيّنت لهم طريق الحق، والوسائل المعينة على هذا الطريق، إذا آتاك الله علماً وحكمة، وهديت الناس، عندئذٍ يأتيك الخيرُ الكثير..

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة)

قد تكون عابداً، فخيرك محدود، نعم خيرك محصور محدود، لا تستطيع إلا أن تنفع نفسك كعابد، أما كعالم فلك أن تنفع الناس جميعاً، ولك أن تُحْيي الناس جميعاً..

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنّمَا أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً)

(سورة المائدة: الآية 32)

ثمة فرقٌ كبير بين أن تكون عابداً وأن تكون عالماً:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَجُلَانِ: أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

[الترمذي]

فالطُموح يجب أن يكون للحكمة، ربنا عزّ وجل يقول:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ)

(سورة البقرة: الآية 63)

من حكمة.

فإذا أردت أن تعلِّم الناس، فإذا بيّنت لهم مثلاً أن إطلاق البصر للحرام سوف يكلِّف صاحبه ثمناً باهظاً، فليكن بيانك بمثلٍ من واقع الناس وبحكمة.

هذا ما يفعله الجهل والطيش:

وإليكم هذه الواقعة، فأنا أعرف صديقاً لي، وله جار يسكن في بعض أحياء دمشق، وكان لهذا الجار أولادٌ شباب وشابّات، وقد زوّج بعض بناته الشابات، له هوايةٌ لا ينفّكُ عنها طوال سنين، أن يتجوّل في بعض شوارع المدينة المزدحمة بالنساء الكاسيات العاريات في أيام الصيف، لا يفعل شيئاً إلا أنه ينظر، مهما كان البردُ شديداً، أو الحر شديداً فهذا الطريق يمشي فيه ذهاباً وإياباً كل يوم، ولا يفعل شيئاً، نصحه أصدقاؤه فلم يستجب، إلى أن أُصيب بمرضٍ اسمه ارتخاء الجفون، وهو لم يمت بعد، ولا يستطيع الآن أن يرى إنساناً إلا إذا أمسك جفنيه بيديه، ورفعهما، فكثيراً ما يكون الجزاء من جنس العمل، قال تعالى:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

(سورة الشورى: من الآية 40)

فإذا أقنعت الإنسان أن إطلاق البصر يسبب شقاء زوجياً، وأحياناً يسبب انزلاقاً نحو الزنا، لأن الزنا مبدؤه من النظر، وإذا أقنعته أن من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه، إذا أقنعت الناس بالدخل الحلال، وبيّنت أن الدخل الحرام لابدّ من أن يدمّر، من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله، إذا بيّنت لهم الحكمة استجابوا لك، إذاً:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة: الآية 269)

إذاً فأنت بين المنزلتين: إما أن تكون عابداً، وإما أن تكون عالماً، وشتّان بين الوظيفتين، العابد خيرُه لنفسه، العابد يصلي، ويصوم، ويحج، ويزكي، ويعمل بمقتضى أوامر اللهُ عزّ وجل، ولكنه لا يستطيع أن يُقنع أحداً بأحقية الإسلام، هذا خيره محدود، وأما العالم فعلمه يحقق الخير الكثير له وللناس..

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

إذاً:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

هذه ليست له وحده، يا عبادي، كلُّكم عندي سواسية..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

الحكم والعلم جزاء للإحسان:

هذا الحكم، وهذا العلم كانا جزاء إحسانه، وأيٌّ واحدٌ منكم إذا أحسن فسوف أُعطيه الحكم والعلمَ، وهذه قاعدة ربانيّة، ويوضّح هذا عندما دخل سيدنا يونس في بطن الحوت..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الأنبياء)

في كل زمان وفي كل مكان، هذه التعقيبات تقلب القِصص إلى قوانين، التعقيبات تقلب القصة التي وقعت، وانتهت إلى قانون مستمر، ما أروع هذه التعقيبات..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

أثر الإخلاص في إتيان العلم والحكمة:

ورد في بعض الأقوال: **" أنه من أخلص لله أربعين صباحاً تفجّرت ينابيع الحكمة في قلبه، وأجراها الله على لسانه "**، أي أن الإنسان إذا أخلص لله، وإذا أطاعه طاعةً تامة، فهو يحتار، وهو يعجب من نفسه كيف أصبح طليق اللسان، يشعر وهو يتكلّم كأن سيلاً من المعلومات قد تدفّقت عليه، لا يدري ماذا يختار منها، وأحياناً الإنسان العاصي الغارق في شهواته لا يستطيع أن يتكلّم كلمة، فمن أخلص لله أربعين صباحاً تفجّرت ينابيع الحكمة في قلبه، وأجراها الله على لسانه، بعضهم يظن هذا حديثاً صحيحاً، وهو حديث مشكوك في أمره، أي أنه ضعيف، فأنا أشرت إلى أنه قول من الأقوال..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

حذفُ معمول الإحسان يدل على إطلاق الإحسان:

الإحسان مطلق، وأنا أُؤَكِّدُ لكم أن كلّ إنسان بفطرته يعرف ما هو الإحسان، كل واحد يعرف من دون تعليم، لك أن تُحْسِن، ولك أن تسيء، لك أن تسخر، إذا سخرت من إنسان وأنت أقوى منه حَجَّمْته، وشعر بالخزي، وشعر بالألم، ولك أن تثني عليه، لك أن تفضح، ولك أن تستر، لك أن تَمُنّ بعطائك، ولك أن تسكت، لك أن تستعلي، ولك أن تتواضع، لك أن توفِّق، ولك أن تفرّق، لك أن تغتاب، فالغيبة تتوافق مع شهوة النفس، ولك أن تسكت، فأوصيك أن تفعل المحامد، وأن تحسن النية والعمل..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

الإحسان إلى الحيوان:

النبي الكريم رأى رجلاً يذبح شاةً على مرأى من أُختها، فغضب عليه الصلاة والسلام، وقال:

((أتريد أن تميتها مرتين ؟ هلا حجبتها عن أختها))

[ورد في الأثر]

إذاً حتى عند ذبح الشاة فهناك إحسان.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[مسلم]

((وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ))

وكيف يكون الذبح حسناً ؟ قال:

((وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

إذاً تعذيب الحيوان إساءة، أحياناً يدوس الإنسان نباتاً يسبح الله عزّ وجل، زهرة صغيرة يدوسها، لماذا فعلت هكذا ؟ أنت لست محسناً، أحياناً يُطعم حيواناً جائعاً، وهذا الحيوان قد يكون غير نافع، قد يكون أحياناً كلباً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

[متفق عليه]

كلمة (إحسان) هذه كلمة شاملة. هناك آية تقول:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

إنّ اللهَ مَع المُحسنينَ

فهو مع المحسنين دائماً، الله يتولى الصالحين، يوجد إحسان في القول، وإحسان بالعمل، وإحسان بالسكوت، وإحسان مع الجار، مع الأخ، مع القريب، مع الصاحب، مع الابن، مع الزوجة، مع العدو، مع الحيوان، مع النبات..

(وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

لا يجتمع في القلب إيمان وإساءة:

أيها الإخوة الأكارم... المؤمن محسن، لا يجتمع الإيمان مع الإساءة، فإنسان مؤذٍ والناس يخشون أذاه، فهذا مستحيل أن يكون مؤمناً، المؤمن مصدر أمن، مصدر سلام، مصدر إحسان، مصدر رخاء للناس، كتلة خير، خير متنقِل، الكافر يحب الأذى، والناس رجلان: بَرٌ تقيٌ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌ هينٌ على الله عزّ وجل، فلا يوجد حل ثانٍ، إما أن تكون محسناً، وإما أن تكون مسيئاً في عملك، في بيتك، في كل حركاتك وسكناتك.

فصلٌ جديد من قصة موسى:

1 ـ دخول موسى المدينة في وقت القيلولة:

الآن نحن على عتبة مرحلةٍ جديدةٍ من القصة:

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا)

(القصص: الآية 15)

المدينة هي العاصمة، وفي بعض الكتب أنها مدينة عين شمس الآن، وهي في مصر، واسمها عين شمس، وكانت هي العاصمة على عهد فرعون..

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا)

أي في وقت القيلولة، في وقت النوم..

2 ـ موسى وحادثة الرجلين المقتتلين:

(فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ)

إسرائيلي..

(وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ)

من أتباع فرعون..

(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ)

3 ـ تدخّل موسى لفضّ النزاع:

معنى وكزه أي: ضربه بجمع يده..

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)

4 ـ وفاة الرجل الفرعوني بوكزة موسى:

فوقع ميتاً، أعوذ بالله ! لم يُرِدْ موسى أن يقتله، إن الله تعالى لم يقل: فقتله، لا، لو قال: فقتله، أيْ أنه أراد قتله.

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)

بل قال:

(فَقَضَى عَلَيْهِ)

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

وإن شاء الله تعالى في الدرس القادم نتابع هذه القصّة بَدْءاً من قوله تعالى:

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (03-18): تفسير الآيات 14 - 28
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-05-25

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بالآيات السابقة:

1 – نقلة زمنية في قصة موسى:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة القصص، وقد انتهينا في الدرس الماضي من الحلقة الأولى من حلقات هذه القصة، والآيات التي بعدها تنتقل فجأةً، وتخطو خطوةً واسعة فتغفل العمر الذي نشأ فيه سيدنا موسى.

2 – رجوع موسى إلى أمه:

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(القصص)

كان موسى رضيعاً.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى)

(القصص: من الآية 14)

3 – بلوغ موسى الأشدّ وإتيانه حكما وعلما:

أشده من حيث البُنية الجسمية، والاستواء من حيث النضج العقليّ، وقال المفسرون: **" هو سن الثلاثين"**، وقال بعضهم: **"سن الأربعين "**.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(القصص)

4 – خروج موسى من القصر:

إذاً: كان في نشأته محسناً، هكذا وصفه الله عزّ وجل، يا تُرى هل بقي عند فرعون ؟ هل استطاع هذا النبي العظيم أن يحتمل ما في قصر فرعون من ادعاءٍ بالكفر والألوهيّة والظلم ؟

هناك استنباطاتٌ دقيقة تشير إلى أن سيدنا موسى لم يحتمل أن يبقى في قصر فرعون، بل خرج من قصره، وفي الآيات التالية إشاراتٌ دقيقةٌ إلى أنه خرج من قصر فرعون.

على كلٍ، نحن الآن في القصّة أمام فجوة، وهذه الفجوة يسميها كُتّاب القصة: **" الفجوة الفنية "**، لأن الأحداث في القصة لا تُذكر إلا إذا كانت في خدمة مغزى القصة، فإذا كانت الأحداث عبئاً على القصة من حيث البلاغة، ومن حيث عمل الفن القصصي فلابدّ أن تُغْفَل، لذلك ربنا سبحانه وتعالى بعد أن ردّه إلى أمه قال:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى)

وحينما بلغ أشدّه واستوى..

(آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

5 – قانون عام: وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

وهذا التعليق ـ كما قلت في الدرس الماضي ـ قَلَب القصة إلى قانون، بل قلبها إلى سنةٍ من سنن الله الثابتة، فالمحسن له عند الله مكافأةٌ عظيمة، من هذه المكافأة أن يعلِّمه العلم، ويؤتيه الحُكم.

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ)

(القصص)

وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا

1 – دخول موسى المدينة على حين غفلة من أهلها:

لم يقل اللهُ عزّ وجل: ودخل المدينة في غفلةٍ من أهلها، المقصود أن يدخلها على حين غفلةٍ من أهلها، لأنه يبدو أنه خرج من قصر فرعون، لأنه لم يحتمل ما يجري في هذا القصر، يبدو أنه خاطَبَهُ، وناقشه، يبدو أنه أُبعد، إذاً لم يستطع أن يدخل المدينة.

2 – ما هي المدينة المقصودة في الآية ؟

المدينة هي العاصمة، قالوا: مصر، وقالوا: عين شمس، أي عاصمة فرعون، لم يستطع أن يدخل المدينة إلا على حين غفلةٍ من أهلها، في وقت القيلولة، والناس كلهم نيام، أو أكثرهم نيام.

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ)

3 – سكان مصر من بني إسرائيل كانوا من سلالة يوسف:

قلت لكم في درسٍ سابق: إن سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما استقدم أهله من الشام، من فلسطين، وأقام في مصر، فبنو إسرائيل توالدوا في مصر، وبلغوا أعداداً كبيرة، إلا أنَّهُم كانوا جميعاً يدينون بدين أبيهم إبراهيم، بينما فرعون كان يدَّعي الألوهية، وأتباعه معه يقبلون ذلك، إذاً هناك تناقضٌ بين بني إسرائيل في عقيدتهم الربَّانية، وبين فرعون وقومه في عقيدتهم الوثنية، هذا التناقض جعلهم مستضعفين في الأرض.

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ)

حادثة قتل موسى للرجل الفرعوني انتصارا للإسرائيلي: دروس وعبر:

من شيعته أي: أنه إسرائيلي، ومن عدوه أي: أنه قبْطي، وقد قال بعض المفسرين: **" إنه يعمل في قصر فرعون "**، بل إنهَّ طبَّاخ فرعون، وبعضهم قال: **" نجارٌ في قصر فرعون أو خباز ".**

(هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)

1 – موقف الإنسان من الظالم والمظلوم:

فإذا وجد الإنسان ظالماً ومظلوماً فله موقفان: الموقف الأسهل أن يبتعد عنهما، ويقول: لا شأن لي بذلك، والموقف الأصعب والأقرب إلى الحق أن تكون مع المظلوم ضدَّ الظالم، إذاً: هذه بطولة من هذا النبي الكريم، بإمكانه أن يبتعد، بإمكانه ألا يستجيب، بإمكانه أن يقول: ما شأني بهما ؟ ولكنَّه أراد أن يحقَّ الحق، وأراد أن يعين المظلوم، وأراد أن يأخذ على يدي الظالم، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ـ تعجّب أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ـ قالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ مظلوماً أمر واضح ـ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ))

[صحيح البخاري عَنْ أَنَس رَضِي اللّه عَنْه]

2 – طباع الأنبياء لا تخرج عن طباع البشر، لكن في الحق فقط:

فسيدنا موسى أمام رجلين، واحدٍ من شيعته يبدو أنه مستضعف، وقيل: إن هذا القِبْطيّ يريد أن يكلفه عملاً شاقاً بلا مقابل.

(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى)

سيدنا موسى له طبعه، كان حادّ الطبع،

(وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ)

(الأعراف: من الآية 150)

وهذا في سورة أُخرى، كان حاد الطبع، كان شديد الغضب للحق، طبعاً المؤمن إذا غضبَ غضِبَ للحق، والنبي عليه الصلاة والسلام لا تغضبه الدنيا، إلا أنه كان يغضب لله عزّ وجل، والمؤمن لا يغضب لأجل الدنيا، ولكن إذا رأى أن حرمات الله قد انتهكَت فإنه يغضب، وهذا الغضب المقدس، والذي لا يغضب لله ليس مؤمناً، بل إنّ من كمال الإيمان أن تغضب لله، وأن ترضى لله، وأن تُعطي لله، وأن تمنع لله، وأن تصل لله، وأن تقطع لله.

(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)

3 – من مظاهر تخلّف المسلمين نكوصهم عن نصرة المظلوم:

إن من مظاهر تخلّف المسلمين نكوصهم عن نصرة المظلوم، فلو فرضنا أنه كان في مركبة عامة إنسان معتدٍ، وإنسان معتدًى عليه، لا أحد يتكلم، ولا أحد ينبس ببنت شفة، ولو أن الناس نصروا الحق لرضي الله عنهم، وبعض الناس يقول: ما لي ولهذا الأمر ؟ من ترك الفُرَجْ نال الفَرَج، هكذا يقولون، لكن سيدنا موسى وقف الموقف المشرف.

(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)

لكن الإنسان ليس مكلفاً أن يلقي بيديه إلى التَهْلُكة، أما إذا كان بإمكانه أن ينصر الحق فليفعل، فإن الله سبحانه وتعالى يحبه، بل إن:

((عَدْل ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستين عاماً))

(الترغيب والترهيب عن أبي هريرة بسند ضعيف)

4 – الأصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ذلك هو الحد الأدنى، فأحياناً يجري حادث، حادث سير مثلاً، يُدعى أُناسٌ للشهادة بما رأوا فيرفضون، مع العلم أن الإنسان الذي ينسحب من المجتمع لا يقدِّم شيئاً، بلى إنه يضنُّ بالشهادة، يضن أن يشهد بما رأى، فإذا شهد بما رأى أحقَّ حقاً، وأبطل باطلاً، قد لا يفعل، وهذا الإنسان الذي لا يفعل شيئاً لا يقدِّم خدمةً، لا يُدْلي برأيٍ، لا يشهد بما رأى، فهذا إنسان انسحب من المجتمع، والأفضل أن تخالط الناس، وأن تصبر على أذاهم، وهذا أفضل ألف مرة من ألا تخالطهم، وألا تصبر على أذاهم، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، فإن أصبت أهلَهُ أصبت أهله، وإن لم تُصِب أهله فأنت أهله))

(الجامع الصغير بسند ضعيف)

لا يُزَهِّدنَّك في فعل المعروف ألاّ يقدِّر الناس هذا المعروف، سيدنا عمر رضي الله عنه حينما سأل عن معركة القادسية قال رسولٌ جاء منها قال: **" يا أمير المؤمنين، مات خلقٌ كثير، فقال: من هم ؟ اذكرْ لي أسماءهم، قال: إنّك لا تعرفهم، فبكى عمر بكاءً شديداً، وقال: وما ضرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم ؟ ".**

ومن أنا ؟؟

((اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، فإن أصبت أهلَهُ أصبت أهله، وإن لم تُصِب أهله فأنت أهله))

سيدنا موسى وقف الموقف الصعب، وقف الموقف الذي له ثمن، وقد يكون الثمنُ باهظاً، وقد يكون الثمن أنه خرج من المدينة خائفاً، وهذا الذي حصل، وقد كان الثمن أنه قد أُهدِر دمه.

(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)

5 – قوة موسى الجسمية:

سيدنا موسى لم يُرد قتله، لكنه كان قوي البنية، آتاه الله بُنيةً قوية، وآتاه نفساً حادةً، كان يغضب لله، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللّهِ، وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

(صحيح مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ)

والقوي.. لم يقل الغني، فالغنى قوّة، والقوة العضلية قوة، والعلم قوة، والشهادة العُليا قوة، والمركز الحساس قوة:

((الْمُؤْمِنُ الْقويُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضّعِيفِ))

فكلما ازدادت قوّتك اتسعت رقعة عملك الصالح.

(فَوَكَزَهُ مُوسَى)

فَوَكَزَهُ مُوسَى

1 – معنى الوكز:

معنى وكزه أي: ضربه بمجمع يده على صدره.. وشاءت القدرة الإلهية أن تكون هذه الضربة هي القاضية، لم يقل: فقتله، لأنه ما أراد قتله، لكن فقضى عليه، أي: وقع ميّتاً، قال تعالى:

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)

2 – قَتلُ الخطأ:

هذا اسمه القتل الخطأ، لأنه ليس هناك نيةٌ في القتل إطلاقاً، أراد أن يبعده عنه، أراد أن يدفعه عنه، فكانت هذه الضربة قاضية.

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)

هَذَا مِن عمل الشَّيْطان

1 - معنى: هَذَا مِن عمل الشَّيْطان:

فالأكمل والأرجح أن نفسّر هذه الآية بأن هذا الذي اعتدى، ولقي من هذا النبي الكريم هذه الضربة، هذا من عمل الشيطان، أي: أنه سار مع الشيطان، فخاصم هذا المستضعف، فاستحقّ هذا الجزاء، هذه الآية تُقَاس عليها مشاهد كثيرة، إذا رأيت إنساناً قد أُعدم شنقاً لجريمةٍ ارتكبها، أو لسرقةٍ سطا فيها، فانتهت به هذه السرقة إلى القتل فأُعدم، فإن هذا من عمل الشيطان، وهذا الذي أسْرَف في شهواته، فأصيب

بالمرض العضال فقل: هذا من عمل الشيطان، وهذا الذي سرق فقُطعت يده هذا من عمل الشيطان، وهذا الذي شَرِبَ الخمرة، فضاع صوابه فقتل أحبّ الناس إليه، هذا من عمل الشيطان.

2 ـ كل مشكلة ومصيبةٍ بسبب معصية الله تعالى:

ما من مشكلةٍ أو مأساةٍ أو مصيبةٍ تقع في الأرض إلا بسبب معصيةٍ لله عزّ وجل، وما من معصية لله عزّ وجل إلا بسبب جهلٍ، وسببٍ آخر هو وسوسة شيطانٍ، فسيدنا موسى قال: هذا من عمل الشيطان، وكل واحد منا إن رأى إنساناً يدفع الثمن باهظاً لخطيئته، لجريمته، لانحرافه، لمعصيته، لاختلاس أموال الناس بالباطل فلك أن تقول قياساً على قول هذا النبي الكريم:

(هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

الله عزّ وجل قبل أن يأتي بآدم عليه السلام إلى الأرض لقّن ذرّيته من بعده درساً لا ينسى.

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61))

أنت إما أن تكون عبداً لله، وإما أن يكون الإنسان عبداً للشيطان، إن لم تكن عبداً لله فلابدّ من أن تكون عبداً لجهةٍ أخرى، وليست العبودية إلا لله، وما سوى الله فهو الشرك.

(قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ)

إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ

1 – الجهل من أعدى أعداء الإنسان:

لكن لا تنسوا أيها الإخوة أن الجهل أعدى أعداء الإنسان، بل إن الجاهل يفعل بنفسه ما لا يستطيع عدوُّه أن يفعله به، **"إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً ".**

(قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ)

(سورة البقرة: آية "268)

2 – الشيطان عدو الإنسان:

الشيطان يقول على الله ما لا تعلمون، يوسوس، الشيطان يقول حينما يقع الإنسان، ويدفع الثمن باهظاً: إني أخاف الله رب العالمين.

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

(قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي)

(سورة القصص: آية: " 16)

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

أي أوقعتها في مشكلة، أوقعتها في تهمة القتل، أوقعتها في الملاحقة:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

الله سبحانه وتعالى ربّ النيات، فهو يعلمها، ولا تخفى عليه مع أنها نيات.

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

يعلم أن هذا النبي ما أقْدَمَ على وَكزِ هذا القبطي إلا انتصاراً للحق، وإلا دفعاً للباطل، وإلا نصرةً لهذا المظلوم، يعلمُ النيّة، وإن كان عمله قد انتهى بقتل هذا القبطي، ثم قال:

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)

(القصص)

عدم إعانة الظالم: فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ

1 – معنى: ظهيرًا:

معنى ظهيراً: أي: معيناً، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة المائدة)

2 – تحريمُ إعانة الظالم:

إذا قدمت قلماً لإنسانٍ ظالم ليوقِّع به فقد شاركته في الإثم، إذا هززت برأسك، وقلت له: نعم افعل، يستحق ذلك فقد شاركته في الإثم.

((من أعان ليدحضَ بباطله حقًا فقد برئت منه ذمة الله و ذمّة رسولِه))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند حسن]

((من أعان ظالماً سلّطه الله عليه))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود بسند موضوع]

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: من الآية 2)

أي: أنك إذا قدمت بيتاً ليُفعل فيه الفاحشة تحت غطاء أُجرة فهذه معاونة، إذا قدمت بناءً ليكون مكاناً لمعصية فهذا تعاون على الإثم والعدوان، لا تُعِنْ أحداً على معصية الله، لا بلسانك، ولا بيدك، ولا بمالك.

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)

(القصص)

هذا هو المؤمن، هذا حال المؤمن.

3 – الخوف شيءٌ مِن جبلّة الإنسان:

لكن حينما وقع هذا القبطي ميتاً إثر وكزةٍ من سيدنا موسى أصبح في المدينة خائفاً، هنا في هذا الآية إشارة إلى أن الخوف شيءٌ من جِبلّة الإنسان، ولا علاقة له بالإيمان، وموسى عليه الصلاة والسلام نبيٌّ عظيم من أُولي العزم، ومع ذلك خرج خائفاً، الخوف يخلقه الله عزّ وجل، والأمن يخلقه الله عزّ وجل، لكن في الأصل في بعض الآيات ربنا عزّ وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

4 – قد يخاف المؤمن:

الأصل أن المؤمن يُنْعِمُ الله عليه بنعمة الأمن، ولكن هذا لا يعني أن المؤمن لا يخاف، قد يخاف، لأن الله عزّ وجل يريد أن يمتحنه.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

الأصل أن المؤمن لا يخاف إلا من الله عزّ وجل، الأصل كذلك أن المؤمن لأنه لا يقع في الظلم فلا يخاف، ولكن هذا لا يعني أن الله سبحانه وتعالى لن يبتليه بشيءٍ من الخوف، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة)

فالخوف أحياناً علاج للنفس، والخوف أحياناً يلجئُ الإنسان إلى طاعة الله، الخوف قد يلجئُ إلى باب الله عزّ وجل، إلى مزيدٍ من طاعته، على كلٍ، لا يُعَدُّ الخوف نقصاً في إيمان الإنسان، لأن هذا النبي الكريم من أُولي العزم.

الآن ربنا عزّ وجل قال:

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ)

(القصص)

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ

الخوف بين العقاب والتربية:

لكن هذا الخوف أراده الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة، أي: أن هناك خوف تَرْقية، كما أن هناك خوف عقابٍ، قال ربنا عزّ وجل:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران: آية 151)

فالرعب أحياناً عقاب، وأما الخوف إذا أصاب الصالحين، وأصاب المؤمنين، وأصاب الأنبياء المرسلين فهو خوف ترقية، إما أن يكون عقاباً، وإما أن يكون ترقية، على كلٍ..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

من طبيعته الخوف أن يدفع المؤمن إلى باب الله عزّ وجل.

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ)

يترقب أن يُلقى القبض عليه، يترقب أن يُفضَح أمره، يترقب أن تكشف،هذه المشكلة التي حصلت.

(فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ)

مفاجأة من غير ميعاد: فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ

هو نفسه هذا الإسرائيلي.

(فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ)

سيدنا موسى استنبط أن هذا الرجل البارحة اعتدى عليه القبطي فنصره، واليوم يعتدي عليه قبطيٌ آخر، لعلّه قد انحرف عن الطريق الصحيح حتى استحقّ أن يُسَلِّط الله عليه هذا وذاك:

(قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)

فما كان جوابُ موسى إلاّ أنْ قالَ لَه: إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ

قلنا: مرة واحدة، وهذه مرة ثانية !! لأن الظالم سوط الله ينتقم به، ثم ينتقم منه.

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

فعندما يقع تسليطٌ مستمرٌ يكون كما قيل: **إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني "**، هناك تسليط، أمّا المؤمنون..

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة: آية 5)

أي: يا رب، نسألك ألا نقع في ذنب نستحق معه أن يُفْتَنَ بنا الذين كفروا، فيظلموننا، أي: أن سيدنا موسى استنبط من العدوان المستمر أن هذا الذي من شيعته غويٌ مبين.. قال له موسى:

(إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)

فقال هذا القبطي:

(يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ)

من استنباطات الآية:

1 – انكشافُ أمر موسى في قتله القبطي:

صاح بأعلى صوته، كيف عرف هذا القبطي أن موسى قد قتل قتيلاً البارحة ؟ قال بعض المفسرين: **" إن هذا الذي من شيعة سيدنا موسى حينما استنصر سيدنا موسى فقتل هذا القبطي، فامتلأ قلبه فرحاً، وربما أشاع ذلك بين إخوةٍ له، بين أقارب له، هذا الخبر سرى، فلما رأى القبطي سيدنا موسى مقبلاً عليه تذكّر ما قد روي البارحة فقال:**

(قالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)

2 – موسى عليه السلام معروف بالصلاح:

كذلك هناك استنباط آخر، هو أن سيدنا موسى هذا النبي العظيم قد عُرف بالصلاح، والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال: آية 1)

أي: أصلح بيننا، لماذا تريد أن تقتلني ؟ وكلمة

(جَبَّاراً فِي الأَرْضِ)

لا تعني أنه جبّار، سيدنا موسى أراد أن ينتصر للحق، ولكن هذا القبطي خاف القتل والموت، فوصَمَ هذا النبي العظيم بأنه جبّار، وهذا ليس صحيحاً، على كلٍ امتنع سيدنا موسى عن قتل القبطي، وسار في حال سبيله كما يقولون، وشاع الخبر بعد أن قال القبطي بأعلى صوته:

(قالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)

كان الخبر يُتناقل همساً، فإذا به صار خبراً عياناً، وصار حديثاً يُروى في أطراف المدينة، إذاً لابدّ من أن يلقى القبض على سيدنا موسى ليحاسَب.

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى)

(القصص: آية 20)

بداية قصة فرار موسى من مصرَ:

نصيحةُ رجل لموسى بالخروج من مصر:

هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون، وقيل: إنه ابن عم فرعون، ويبدو أنه يعرف هذا النبي العظيم، ولم يكن بعدُ قد أُرسل.

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ)

أي: أن هناك تبييتٌ لقتلك.

(فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

أي: أصبح سيدنا موسى مهدورَ الدم، وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حينما عاد من الطائف هُدِرَ دمه، فأرسل سيدنا زيداً إلى فلان وفلان وفُلان في مكة ليدخل في حمايتهم، فرفضوا جميعاً إلا واحداً، لم يرض أحدٌ غيره، وهو المُطْعِمُ بن عديّ قبل أن يدخل النبي في حمايته، والنبي كان وفياً له أشدّ الوفاء، وقد بقي مشركاً، حينما استعرض أسرى بدرٍ قال:

((لَوْ كَانَ مُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمّ كَلّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ النّتْنَى لأَطْلَقْتُهُمْ لَهُ))

(أبو داود عن جبير بن مطعم)

إكراماً له. سيدنا موسى الآن مهدور دمه.

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

أي: يبدو أنه قد عاين من ظلمهم الشيء الكثير.

توجُّهُ موسى إلى مدين:

الآن:

(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ)

(القصص: آية 22)

1 ـ من مصر إلى مدين عبر الصحاري والوديان:

تصوروا الآن مدين في شمال الجزيرة العربية، وسيدنا موسى الآن في مصر على ضفاف النيل، وسوف يمشي على قدميه، وقد سألت أحد أصدقائي الجُغْرافيين فقال: المسافة تزيد على ألفين وخمسمئة كيلو متر، من نهر النيل إلى خليج السويس، لا يستطيع أن يمشي في عمق الصحراء، لأن الصحراء

مهلكة، فلابدّ من أن يمشي مُساحلاً، لابدّ من أن يسير على طرف خليج السويس، وأن يصعد على طرف خليج العقبة ليصل إلى شمال الجزيرة العربية، حيث لا سلطان لفرعون على هذه البلاد، إذاً أمامه مهمةٌ صعبة، يمشي في الليالي، وفي الصحارى لا طعام ولا شراب..

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: آية 216)

2 - اللهُ خيرٌ حافظًا:

أي: أن أحدنا إذا لاقى في حياته صعوبة، لاقى مشقة، لاقى عَنَتاً، لاقى بعداً عن أهله، وسفراً صعباً، وعانى من دخلٍ قليل، ومرضٍ وبيل، هذا شاءه الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة، إذا كنت مستقيماً على أمر الله فلا تخشَ أحداً، لأنّ الله معك، ولابدّ من أن تنْكشفَ لك في المستقبل القريب الحكمة البالغة من ذلك.

(وَلَمّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ)

(القصص: آية 23)

وصولُ موسى إلى مدين:

وصل إلى مديّن، وصل منهك القِوى، جائعاً، عارياً، مُتْعباً، مُجْهداً، خائفاً، قلقاً، في أعلى درجات التعب.

(وَلَمّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمّةً مِنَ النّاسِ يَسْقُونَ)

(القصص: آية 23)

1 – ورودُه ماء مدينَ:

يبدو أن هناك بئراً، والناس يسقون أغنامهم من هذه البئر، والبئر تُؤَنّث وتُذكّر..

(وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ)

(القصص)

2 – امرأتان تذودان:

امرأتان واقفتان بعيداً عن هؤلاء الرجال الرعاة، تذودان أغنامهما عن أن تختلط بأغنام الرعاة.

(وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ)

3 – المروءة والعفة: مَا خَطْبُكُمَا ؟

سيدنا موسى في أعلى درجات المروءة، في أعلى درجات الشهامة، في أعلى درجات حبِّ الخير، وهو في هذه الحالة من التعب والقلق، والخوف والجوع والعطش كَبُرَ عليه أن تقف امرأتان تذودان أغنامهما، تنتظران أن يرحل القومُ لتسقيا أغنامهما:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

(القصص)

وليس في اللغة كلِها كلمةٌ أشد اختصاراً، وأعظم أدباً، و أشد إيجازاً للقيل والقال من هذه الكلمة:

(مَا خَطْبُكُمَ)

(قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

(القصص)

4 – أقوال العلماء في البنتين:

العلماء ليسوا على يقينٍ من أن هاتين البنتين ابنتا سيدنا شُعَيْب، بعضهم قال: **" هو قريبٌ لسيدنا شعيب"**، وبعضهم قال: **" هو سيدنا شعيب "**، لأنه إذا كان نبياً، وله أصحابه أيعقل أن يَدَع ابنتيه ترعيان الغنم ؟ هذا استنباط، ليس في القرآن ما يُؤَكِّدُ أن هاتين البنتين ابنتا سيدنا شعيب، وإن كان بعض العلماء يقول: إنهما ابنتا سيدنا شعيب، على كلٍ:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

(القصص)

من أحكام النساء:

يستنبط من هذا:

أن المرأة لا يصحُّ أن تُخَالط الرجال، ولا أن تزاحمهم، بل عليها أن تقف بعيداً عنهم.

وعليها أيضاً ألا تخرج من بيتها لقضاء حوائج المنزل، إذا كان أبوها أو أخوها، أو زوجها رجلاً قوياً قادراً على كفايتها، أما إذا كان مريضاً فلها العُذر.

(وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

فهنا تعليل..

(لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ)

نحن لا نُزاحم الرجال أولاً، وثانياً: ما كنا لنخرج إلى هذا المكان لو أن أبانا شابٌ قوي، ولكنّ أبانا شيخٌ كبير، هذه هي العلة، فلو أنّ امرأة مات زوجها، وأولادها صغار، واضطرت إلى أن تخرج من بيتها لشراء حوائجها فمعها العذر الكافي، ولكنّ امرأةً لها زوجٌ في البيت، وتخرج هي لتشتري اللحم والفاكهة والحاجات، وزوجها أو أخوها أو ابنها في البيت، فهذا ليس من أخلاق المسلمين.

(فَسَقَى لَهُمَا)

(القصص: آية 24)

رحمة موسى بالبنتين:

قال بعض المفسرين: **"إنه كان قويّ البُنية، شديد الهيبة، حينما أقبل على الرعاة فسحوا له المجال، وسقى لهاتين البنتين غنمهما ".**

(ثُمّ تَوَلّى إلَى الظِّلّ)

ليستريح، ومعنى تولّى إلى الظل، كان الوقت حاراً، وكان الوقت ظُهراً.

(فقالَ رَبِّ إنِّي لِمَا أنْزَلْتَ إلَيّ مِنْ خَيْرٍ فقِيرٌ)

(القصص)

العبدُ فقير، والله هو الغني:

أيها الأخ الكريم، خُلِقْتَ أنت في الدنيا للعمل الصالح، فالغنى هو غنى العمل الصالح، والفقر هو فقر العمل الصالح، والفقير الحقيقي من ليس له عملٌ صالح يلقى الله به، والغني الحقيقي من كان له عملٌ صالحٌ يُبَيّضُ وجهه يوم القيامة، هذا هو الغِنى، وذاك هو الفقر، وسيدنا علي يقول: **" الغنى والفقر بعد العرض على الله ".**

فسيدنا موسى فقير، لكن لماذا ؟ لمثل هذه الأعمال، والمؤمن الصادق إذا مضى عليه يومٌ من دون عملٌ صالح، من دون أمرٍ بالمعروف، من دون نهيٍ عن مُنكر، من دون إصلاح ذات البين، من دون أن يشفع في نزاع، من دون أن يوفِّق بين أمٍ وابنها، بين أخٍ وأخيه، من دون أن يعين مظلوماً، من دون أن يعين فقيراً، من دون أن يطعم جائعاً، من دون أن يكسوَ عارياً، إذا مضى عليه يومٌ من دون عملٌ صالح يعدُّه خسارةً في حياته.

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمّ تَوَلّى إلَى الظِّلّ فقالَ رَبِّ إنِّي لِمَا أنْزَلْتَ إلَيّ مِنْ خَيْرٍ فقِيرٌ)

ويأتي الفرَج من حيث لا يُشْعَرُ به:

اهتمام البنتين بموسى عليه السلام لقوته وأمانته:

هاتان البنتان رأتا في سيدنا موسى قوةً وأمانة، القوة واضحة، فعندما توجّه أمام الرُعيان فسحوا له المجال، رأوه رجلاً شديداً قوياً، طويل القامة، عريضَ المِنْكبين، وتبدو أنه اكتملت عنده جميع صفات الرجولة والمروءة، والبنت عندها حاسةٌ سادسة بالغة الحساسية في معرفة ما إذا كانت نظرات هذا الإنسان خبيثةً أم بريئة، إن غضه لبصره وعفّته الكاملة رفعته في أعينهما إلى مرتبة الأمانة، لذلك:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

(القصص: آية 25)

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحيَاء:

1 – المرة كلها في حيائها:

ما الذي يلْفِتُ نظر الرجل في المرأة ؟ حياؤها، ومن علامات قيام الساعة أن الحياء يُرفع من وجوه النساء، امرأةٌ وقحة تحدُّ النظر إلى الرجال، تمزح معهم.

2 – ويلٌ للديوث من النار:

وتُرفع النخوة من رؤوس الرجال، زوجته على الشرفة بلباسٍ متبذِّل، وهو لا يتكلّم كلمة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((ثلاثة لا يدخلون الجنة أبدا: الدّيّوث، و الرّجُلَة من النساء، ومدمن الخمر، قالوا: يا رسول الله، أما مدمن الخمر فقد عرفناه، فما الدّيّوث ؟ قال: الذي لا يبالي من دخل على أهله، قلنا: فما الرّجُلَة من النساء ؟ قال: التي تشبه بالرجال))

(رواه الطبراني)

هذا هو الديُّوث.

3 – من علامات الساعة رفع النخوة من رؤوس الرجال:

من علامات قيام الساعة أن تُرفع النخوة من رؤوس الرجال، فتجده يمشي مع زوجته متباهياً بها، أي أنها جميلة وقد أحسن انتقاءها، انظروا إلى انتقائي، يتمنّى أن تكون معه في أبهى زينة، يتمنى تجلس مع أصدقائه، يتمنى أن يكون اختلاط، هذا في بنص قول النبي ديوث، ولا يروح رائحة الجنة.

إذاً من علامات قيام الساعة، أن ترفع النخوة من رؤوس الرجال، وأن يذهب الحياء من وجوه النساء، نساءٌ وقحات، وأن تذهب الرحمة من قلوب الأمراء، لا رحمة في قلب الأمير، ولا نخوة في رأس الرجل، ولا حياء في وجه المرأة، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[سنن الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(فُجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

4 – لعن الله المتشبهات بالرجال:

أجمل ما في المرأة حياؤها، وحينما تفقد حياءها تفقد أنوثتها، وتصبح مسترجلة، فعَن ابْنِ أَبِي مُلَيْكَة قَالَ: قِيلَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللّه عَنْهَا إِنّ امْرَأَةً تَلْبَسُ النَّعْلَ فَقَالَتْ:

((لَعَنَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ الرّجُلَةَ مِنَ النِّسَاءِ))

[سنن أبي داود]

(فُجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

لعنها، بل لعن المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء.

(فُجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

علامة عفة المرأة حياؤها، ما الذي أعجبها فيه ؟ قوّته وأمانته، وعفته.

(فُجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

أعظِمْ بهذا الخطاب وأكرمْ: إنّ أبي يَدعُوك لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا

اسمعوا أيها الإخوة كيف تخاطب المرأة الرجل، في أبلغ قول، بكلام لا زيادة فيه، لا يحتمل جواباً:

(قَالَتْ إِنّ أَبِي يَدْعُوكَ)

إن أبي يدعوك على طعام الغداء مثلاً، يقول لها: ولماذا الدعوة ؟ تقول له: من أجل كذا وكذا، صار هناك حديث، وأصبح هناك سؤال وجواب، وأخذ وردّ، لا، هذا درس لكل المؤمنات، إذا دخلت امرأةٌ مؤمنة لتشتري حاجة يجب أن تقول القول الفصل من دون زيادة، ومن دون نقصان.

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

(سورة الأحزاب: آية 23)

(قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(القصص: الآية25)

لا حاجة بعد لجواب أبداً، انتهى الأمر، كلامٌ لا جواب له، لا زيادة، ولا تكسّر، ولا استعطاف، ولا لين في الكلام، لا يحقُّ لامرأةٍ أن تكون في كلامها ليّنةً إلا مع محارمها، لأن لينَ كلام المرأة يدعو إلى الشكِّ في أخلاقها، تخاطب بائعاً فتقول له: نحن جيرانك ؟ نحن كذا وكذا، هذا هو الفِسْقُ بعينه، إذا اضطرت المرأة أن تُخاطب أجنبياً فيجب أن تخاطبه بأوجز كلامٍ، وبأدقّ عبارة، بكلامٍ لا يُشَمُّ منه رائحة إطلاقاً:

(قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

سيدنا موسى يحتاج إلى أمن، لأنه خائف، والدليل:

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

الانتقال من الخوف إلى الأمن:

(قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

أي: أن هذه البلاد لا يطولُها حكمُ فرعون..

بعضهم ـ سامحهم الله ـ يقولون: إن موسى قتل قتيلاً، لو أنه قتل قتيلاً بالمفهوم المَدَنِيّ، وفرعون يلاحق قاتل القتيل أيُعَدُّ ظالماً ؟ لا، ولكن هناك ظلمٌ شديد.

(قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

طبعاً هاتان الفتاتان رأتا في سيدنا موسى رجلاً شهماً، قوياً، أميناً، تمنّتا لو أن أباهما استأجره ليكون راعي غنمٍ عندهم.

من تمام العناية الإلهية: يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ)

(القصص: آية 26)

واللهِ هذا مناسب جداً، لأنا نحن ضعاف، فقد سقى الغنم، وأهاب الناس، وكان عفيفاً، وكان، وكان، وقد يُفهم أن عفّته وأمانته وقعتَا في نفس إحداهما موقعاً حسناً.

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

من صفات الحاكم والوالي: القوة والأمانة:

مِن استنباطات سيدنا عمر بن الخطاب:

وقد قلت لكم في درسٍ سابق: **" إن سيدنا عمر استنبط من هذه الآية حكماً، فحينما عيّن أحد الولاة قال له: " اذهب إلى عملك، واعلم أنك مصروفٌ رأس سَنَتِك، وأنك تصير إلى أربع خلال: فاختر لنفسك، إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعْفك، وسلّمَتْك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوّتك، وأوجعنا ظهرك، وأحسنا أدبك، وإن جمعت الجُرْمَين جمعنا عليك المضرتين، وإن وجدناك أميناً قوياً ـ استنباطاً من هذه الآية ـ زدناك في عملك ".**

فكل أخ إذا كان عنده موظّف، إذا كان عنده مَن يعينه في أعماله، وكان قوياً أميناً فهو أثمن من الذهب، أغلى من كل شيء أن يكون معك إنسانٌ قويٌ أمين، القوة ترمُزُ إلى الكفاءة، والأمانة للإخلاص، ذو كفاءةٍ عالية، وإخلاصٍ شديد، قويٌ في اختصاصه، أمينٌ في أخلاقه.

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

زواج موسى بإحدى البنتين مقابل العمل: استنباطات وعبر:

الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة جعل المرأة ذات حياءٍ شديد، لعلّها تمنّت أن يكون زوجاً لها، ولكن لم تقل: يا أبت زوجني إياه، المرأة أساس بنيتها النفسية الحياء، فعبّرت عن رغبتها بشكلٍ لطيفٍ جداً، ويبدو أن أباها سيدنا شعيب على أرجح الروايات عرفَ ما أرادت، فكان جوابه:

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

(القصص: آية 27)

1 – جواز عرض الرجل ابنتَه للزواج:

وهناك استنباطٌ دقيق، في عصور التأخُّر والتخلُّف يرى الناس أنه من العار أن يعرضَ الإنسان ابنته على شابٍ توسَّم فيه خيراً، لكن هذا شيءٌ طبيعيٌ جداً، فأحياناً ينشأ زواجٌ ميمون، مبارَك، ويسعَدُ فيه الزوجان لكلمةٍ قالها أحد أولياء الأمور، لذلك من مشى بتزويج رجلٍ بامرأةٍ كان له بكل كلمةٍ قالها، وبكل خُطوةٍ خطاها عبادةُ سنةٍ قام ليلها وصام نهارها:

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

وقوله تعالى:

(إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

2– جواز النظر إلى المخطوبة:

لك أن تنظر إلى المخطوبة، من حَقّ الخاطب، انظرْ إليها لماذا ؟ من أجل أن يؤدَمَ بينكما، هل نظرت إليها ؟ من حق الخاطب أن ينظر إلى مخطوبته، والأب الذي يرفضُ ذلك أبٌ جاهل، الشرعُ أجدَرُ أن يُتَبع، إذا خطب أحدٌ فتاةً له أن ينظر إليها، ولكن لا ينبغي أن ينظر إليها قبل كلّ شيء، هناك عقبات، فإذا تفاهم الطرفان على كل شيء فعندئذٍ ينظر إليها، أما لمجرد أن يخطبها يطلب أن ينظر إليها، ولا زالت هناك عقبات غير متفق عليها، فإذا اتفق الطرفان على كل شيء من حقّ الخاطب أن ينظر إلى مخطوبته، أن يرى وجهها وكفّيْها، هكذا الشرع، وهناك حالات نادرة، فإذا كانت رؤية المخطوبة تسبب إحراجاً لها أو إزعاجاً لها، أو رآها خطابٌ كثيرون فلم يقبلوا بها، فحرصاً على سلامة قلبها وصدق شعورها هناك حديث آخر:

((إذا أراد أحدكم الزواج فليولج بصره))

(ورد في الأثر)

أيْ: فلينظر إليها بإذن أهلها، ومن دون أن تدري إذا كان النظر يؤدّي إلى حساسية، على كلٍ فإن نظر الخاطب للمخطوبة من الشرع.

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى)

هذا الإيجاب..

(عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ)

أن تعمل عندي راعياً للغنم ثماني سنوات.

(عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ)

3– وجوب المهر مهما كان نوعه:

هذا إحسان، فالعدل ثمانٍ، والإحسان عشْرٌ، وهذا هو المهر، وأيّ عقد زواج من دون مهرٍ فهو فاسد، يُصَحّحُ بمهر المثل، وهذا هو الإيجاب.

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

هذا الإيجاب، أما المهر:

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ)

4– الأصلُ في التزويج التيسيرُ على الخاطب:

إشارةٌ لطيفةٌ جداً لأولياء الأمور، لا تُكَلِّف خاطب ابنتك ما لا يُطيق، لا تعْنَد، لا تهتم بالمظاهر، لا تهتم بأقوال الناس، ولا سيما في هذا الوقت، فقد سمعت عن أهل بلدةٍ اجتمعوا جميعاً، واتفقوا على أن كل خاطبٍ يخطب فتاةً لا يُطالب إلا بشيئين يسيرين زهيدي القيمة، وإلا إذا كان ثمن الذهب عقبةً كؤودًا، ولابدّ من أن تقدِّم كذا وكذا وَكذا، ويكون البيت له هذه الصفات، كذا غرفة، والأثاث كذا صفاته، هذه الآن كلها عقباتٌ تعجيزية، لذلك عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ، قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، ثَلَاثَ مَرّاتٍ))

(الترمذي)

فيحلُّ السفاح محلّ النكاح، وكلّما ضاقت سبل الزواج اتسعت سُبُل الزنا، لابدّ من أن يكون لهذا الموضوع حل، والحل بيد أولياء الأمور، يجب أن تقبلَ بغرفةٍ واحدة، إذا كان الشاب مؤمناً صادقاً يجب أن تُعِيَنه، وأن يكون قول سيدنا شعيب نبراساً لك:

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصّالِحِينَ)

5 – تواضعْ مهما كنت صالحًا:

شيء آخر في الآية، كأن يقول لك: أنا.. ألا تعرفني ؟ لا، لم أعرفك، هناك شخص مُعْتَد بنفسه، هذا نبيٌّ كريم في أرجح الروايات قال:

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصّالِحِينَ)

أنا **" إن شاء الله "** أسرُّك، جملة **" إن شاء الله "**، فيها أدب جميل، فيها تواضع لله عزّ وجل، ليس فيها اعتداد بالنفس، وليس فيها كبر.

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ)

هذا القبول، الآن في عقود القِران يطلب كاتب العقد من أب الفتاة أن يجلس، ويُمسك بيدِ خاطب ابنته، ويقول: قل له: زوجتك ابنتي كذا وكذا بحكم الولاية عليها، والوكالة عنها، إلى آخره، وبعدها يقول له: قبلت، فالزواج إيجاب وقبول ومهر، وشاهدا عدل:

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ)

(القصص: آية 28)

من لطائف الآية:

1 – دعوا الأمور للرجال والمظاهر للنساء:

وفي هذه الآية إشارة لطيفة جداً، أي: دع الأمر بين الرجال، فإذا وصل إلى النساء فالأمر صعب جداً، النساء إذا أردنّ الحديث في مثل هذه الموضوعات يطالبنّ بما لا يحتمله الزوج، إذا أردت أن يكون زواج ابنك ناجحاً، أو زواج ابنتك ناجحاً فاجعل الأمر بينك وبين الرجال، ودع للنساء المظاهر.

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ)

2 – إثباتُ الخيار:

أنا بالخيار..

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

3 – أركان النكاح:

النبي عليه الصلاة والسلام بإدراكه العميق، بفهمه الدقيق، استنبط من هذه الآية أركانَ عقد النكاح إيجابٌ وقبولٌ، ومهرٌ وشاهدا عدلٍ.

قد يسأل سائل: هذا المهر صار منفعةً بيدِ الوالد، أي: أن سيدنا موسى رعى غنماً لسيدنا شُعَيب ثماني سنوات، وقد جاءت الروايات أنه رعاها عشر سنوات، على الأجل الأقصى، على كلٍ هذا المال صار ملك الأب، أو منفعةً بيدِ الأب، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَالًا وَوَلَدًا، وَإِنَّ أَبِي يُرِيدُ أَنْ يَجْتَاحَ مَالِي، فَقَالَ: أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ))

(سنن بن ماجة)

بقي علينا في الحلقة الثالثة من هذه القصة القرآنية التي فيها الموعظة، وفيها كل ما يُستنبط من أحكام الزواج على قصرها وعلى إيجازها، بقي علينا أن هذا النبي الكريم ما سافر بأهله إلا بعد أن أدّى ما عليه من مهر، لذلك الآن المحاكم الشرعية لا تُجيزُ للزوج أن يسافر بزوجته إلا إذا دفع المهر.

(فَلَمّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً)

(القصص: آية 29)

طبعاً هذه المرحلة الثالثة، ونَدَعها إلى درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (04-18): تفسير الآيات 29 - 40
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-06-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة القصص، وقد صلنا في قصة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام في الدروس السابقة إلى قوله تعالى:

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

(سورة القصص)

مقدمة تذكيرية:

قصة سيدنا موسى وردت في القرآن الكريم مراتٍ عديدة، وفي كل مرةٍ لها عرضٌ خاص، ولها زوايا خاصة، فالحلقةُ الأخيرة من قصة سيدنا موسى في هذه السورة بعد أن قضى موسى الأجل، والأجل هو مدة المهر الذي اشترطه عليه سيدنا شُعَيب، على أن يرعى غنمه ثماني سنوات أو عشر سنوات، وأغلب المفسرين على أن سيدنا موسى قد قضى الأجل الأتَم والأكمل، أي بقي في رعْي غنم سيدنا شعيب عشرَ سنوات بالتمام والكمال.

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ)

(القصص: آية " 29 ")

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ

1 – مِن قوامة الرجل السفرُ بأهله:

مِن حقّ الرجل، وله القِوامَةُ أن يسافر بأهله، يقول الله سبحانه وتعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

(النساء: آية 34)

التفضيل من جهتين ؛ من أن الرجل له القيادة بحكم بُعْد نظره في الشؤون العامة، وفي شؤون خارج البيت، وله حقّ القوامة بسبب إنفاق ماله.

2 – معنى: أهلِه:

فسار سيدنا موسى بأهله، وكلمة:

(بِأَهْلِهِ)

تعني أنهم جمعٌ، أي زوجته وأولاده، ويبدو أنه في الطريق أصابه بردٌ شديد، وفوق ذلك أنه ضلّ الطريق.

3 – معنى: آنَسَ:

و:

(آنَسَ)

بمعنى شاهد، رأى ما يؤنسه، ويُطمئِن نفسه.

(آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّور نَاراً)

(القصص: آية 29)

4 – وصوله إلى جبل الطور:

الطور جبل في سيناء، جبل الطور،

(مِنْ جَانِبِ)

يعني أنه كان يسير بمحاذاته.

(آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّور نَاراً)

أو هكذا بدا له..

(قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا)

5 – موعدٌ مع المناجاة:

وهذه حكمة الله عزّ وجل، أنه سيذهب إلى المناجاة، لعلّ أهله في المناجاة يكونون عبئاً عليه، فلذلك ألهمه الله عزّ وجل أن يبقيهم في مكانٍ من الطريق ليأخذ جذوةً من نارٍ، أو يأتي بخبرٍ عن الطريق، فضل الطريق، وأصابه بردٌ شديد.

(وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

6 – حرص رب البيت على سلامة أهله من كل أذى:

(بِخَبَرٍ)

عن الطريق.

(تَصْطَلُونَ)

أي تَسْتَدْفِئون بها، أيْ أنّ حِرص رب الأسرة على أسرته، وعطفَه عليهم، وعنايته بهم، وحرصه على سلامتهم هذه من صفات الأبوة، والأنبياء كانوا قدوة لنا حتى في أسرهم، وقدوة لنا في معاملتهم لزوجاتهم، وفي معاملتهم لأولادهم.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(القصص: آية 30)

المناجاة:

حصلت المناجاة، والله سبحانه وتعالى يقول في سورةٍ أخرى:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)

(الشورى: آية 51)

سيدنا موسى كَلِيمُ الله، كَلّمه الله عزّ وجل من وراء حجاب، والحجاب هو الشجرة.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ)

(القصص: آية 30)

1 – الشاطئ:

الشاطئ الطرف، شاطئ البحر طرفه، وشاطئ الوادي طرفه.

(نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ)

2 – البقعة المباركة:

البقعة مباركةٌ، لأن فيها حصلت المناجاة، والبركة الخير الكثير، فإذا كنت في بيتك مُصلّياً صائماً قائماً مطيعاً لربّك فهذا البيت مبارك، وإذا سخّرت هذه المركبة لخدمة الخلق، ولخدمة الناس فهذه المركبة مباركة، وإذا أقمت في مكانٍ جميل، وتحدّثت فيه عن الله عزّ وجل فهذا المكان مبارك، وإذا استخدمت قلماً في كتابة العلم الشريف فهذا القلم مبارك، فأيُّ شيءٍ يكون موطن الخير، أو موضع الخير، زمان الخير، مكان الخير، بيئة الخير، ظروفَ الخير، فهو الشيء المبارك.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ)

3 – لمثلِ هذا أمِرنا أن نصلي في المساجد:

والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نُصلِّي في المسجد، وأمرنا أن نصلي في بيوتنا، فلك أن تصلي الفرض في المسجد، ولك أن تصلي بعض النوافل في البيت، لئلا يكون البيت قبراً، بل ليكون البيت مباركاً، البيت الذي يُقرأ فيه القرآن بيتٌ مبارك، البيت الذي يُدعى فيه إلى الله بيتٌ مبارك، البيت الذي تقام فيه أوامر الله بيتٌ مبارك، المحل التجاري الذي تبيع فيه وَفقَ العدل والاستقامة محلٌ مبارك، المكان الذي تدعو فيه إلى الله مكانٌ مبارك، الشيء الذي تستخدمه في سبيل الله شيءٌ مبارك، أي أنه كان سبباً لهذا الخير الكثير.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ)

فالله سبحانه وتعالى يتجلّى على بعض مخلوقاته بشيءٍ من الجمال، فإذا بهذا الجمال يسبي العقول، فكيف إذا حصل هذا الاتصال بينك وبين مصدر الجمال ؟ كيف إذا كان الله هو المتكلِّم ؟ لذلك يوم القيامة ينظر أهل الجنة إلى وجه ربهم فيغيبون خمسين ألف عامٍ من نشوة النظرة، وأكبر عقابٍ يُعَاقبه الكافرون يوم القيامة أنهم عن ربهم محجوبون.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(المطففين)

وأعظم مقامٍ في الجنة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(القيامة)

4 – ليست الدنيا أكلا وشربا ومتاعا فقط:

قد يتوهم الإنسان أن الجنة طعامٌ وشراب، هي طعامٌ وشراب، وأنهارٌ من لبن ومن عسل، وفيها حورٌ عين، وولدان مخلّدون، هذا كلّه صحيح، ولكن يجب أن تعلم علم اليقين أن الجنة في حقيقتها تسمو على ذلك ؛ فيها رضوانٌ من الله عزّ وجل، فيها إقبال الله على قلب الإنسان.

5 – جنةُ الدنيا قبل جنة الآخرة:

إن العمل الذي فيه شرك لا يقبله الله عزّ وجل، والقلب المُشْتَرك لا يقبل عليه، العمل الذي في إشراك لا يقبلهُ الله عزّ وجل، والقلب الذي فيه غير الله عزّ وجل لا يُقبل عليه، فالجنةُ فضلاً على أن فيها من الثمرات والفواكه ما تشتهي الأنفس وتَلَذُّ الأعين، وفيها من الحور العين، وفيها ولدان مخلدون، وفي الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على وجه الأرض لغلب ضوء وجهها ضوء الشمس والقمر، كلُّ هذا صحيح، وأصحُّ منه أن في الجنة أيضاً رضوانٌ من الله عزّ وجل.

قد تدخل بيتاً فتجد في البيت كل شيءٍ مريحًا، ولكن أين صاحب البيت ؟ أين الترحيب ؟ أين الاستقبال؟ أين المؤانسة ؟ أين الشعور بأنّك أثيرٌ، وعزيز على صاحب هذا البيت ؟ إن كلّ مظاهر الضيافة، وكلّ الراحة، وكلّ الطعام الطيّب، وكلّ الإكرام ليس بشيءٍ أمام ترحيب صاحب البيت، وإكرامه وتقريبه، وأن يَخُصّك بشيءٍ من الودّ، فلذلك العقاب الأليم يوم القيامة هو الحجاب عن الله عزّ وجل.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(المطففين)

والعطاء العظيم أن تكون في رضوان الله، ورضوانٌ من الله أكبر، هكذا جاء في القرآن الكريم، ورضوانٌ من الله أكبر من كل هذه النِعَم التي أعدّها الله، وذكرها في القرآن الكريم.

فهذا النبي العظيم سيدنا موسى، وهو من أولي العزم، وهو كليم الله، وما استحق أن يكلِّمه الله عزّ وجل إلا لشدة حبه لله، وشدة تعلّقه بما عند الله عزّ وجل، ولصبره وتحمله كل المشاق في سبيل الله.

إن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في الطائف لاقى من التكذيب، ولاقى من الإيذاء ما لا يستطيع بشرٌ على الإطلاق أن يتحمّله إلا أن يكون نبياً، ومع ذلك ماذا قال ؟ قال:

((ربِ إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي، ولك العُتْبَى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

هذا حب، هل بعد هذا الحب من حب ؟ هل بعد خوف الجفوة من الحبيب من خوف ؟

مِن تفاصيل المناجاة:

إنّ سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام من أولي العزم، واستحقّ أن يكلمه الله عزّ وجل، فهو كليم الله طبعاً، وفي أماكن أخرى قال تعالى على سبيل المؤانسة:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

(سورة طه)

وفي أماكن أخرى من كتاب الله قال تعالى مفسحاً المجال لسيدنا موسى أن يناجيه:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

(سورة طه)

حينما سأله الله عزّ وجل، واللهُ يعلم كل شيء، فكيف يسأله ؟ قال موسى مجيبًا:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ)

يبدو أنه ذاب في هذه المناجاة من شدة الحب والوَجْد، فتابع الكلام، واستخدم أسلوب الإطناب:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

حينما قال:

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

(سورة طه)

ثم استحيا أن يكون قد أطال، فقال:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

(سورة طه)

فإذا أراد الله عزّ وجل متابعة المناجاة يسأله: وما هذه المآرب يا موسى ؟ لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُعْلِمَهُ أن هذه التي بيدك ما هي ؟ فقال:

(هِيَ عَصَايَ)

لأنها بعد قليلٍ سوف تكون حيةً تسعى، لتكون الآية واضحةً عند سيدنا موسى.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(القصص)

هذا قول العاشقين:

فليتك تحلو و الحياة مريرةٌ و ليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ و بيني وبين العالمين خرابٌ

***

فلو شاهدت عيناك من حُسننا الذي رأوه لما ولّـيت عنا لغيرنا
و لو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعتَ عنك ثياب العجب و جئتنا
ولـو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولو نـسمتْ من قربنا لك نسمةً لمُتّ غريباً واشتياقاً لــقربنا

***

ما هي العبرة من قصة موسى عليه السلام ؟!

1 – لابد لكل مؤمن من مناجاة لله عزوجل:

فهذه القصة لماذا أوردها الله عزّ وجل ؟ لماذا جعلها قرآناً يُتْلى إلى يوم القيامة ؟ من أجل أن يكون لنا نصيبٌ من هذه القصة، هل لك مع الله مناجاة ؟ هذا العبد المؤمن الذي سمع في دروس العلم أن كلّ معصيةٍ تسبب حجاباً، وكلّ معصيةٍ تسبب عقاباً، زلّت قدمه، ووقع في مخالفةٍ، وقع في جفوةٍ مع الله عزّ وجل، هو ينتظر العقاب، ينتظر التأديب، ينتظر وينتظر، مرّ يومٌ ويومان، وأسبوعٌ وأسبوعان، وليس هناك عقابٌ ولا تأديب، فناجى ربه، وقال: يا ربِّ، لقد عصيتك ولم تعاقبني، فوقع في قلبه: أنْ يا عبدي، قد عاقَبْتُك ولم تدرِ، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟.

أيْ: ألك مع الله مناجاة ؟ إذا وقفت في الصلاة أتشعر أنك واقفٌ بين يدي الله عزّ وجل؟

((لَوْ يَعْلَمُ المُصَلِّي مَنْ يُنَاجِي مَا انْفَتَلَ))

[الجامع الصغير عن الحسن مرسَلاً]

2 – الصلاة مناجاة:

الصلاة قربٌ، الصلاةُ ذكرٌ، الصلاة وعيٌ، الصلاة مناجاةٌ، الصلاة دعاءٌ، الصلاة اتصالٌ، الصلاة نورٌ، الصلاة حبورٌ، لا خير في دينٍ لا صلاة فيه، الصلاة عمادُ الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.

إذاً هذه المناجاة ألك منها نصيب ؟ ألك مع الله ساعةٌ تناجيه ؟ ألك مع الله ساعةٌ تدعوه ؟ ألك مع الله ساعةٌ تقرأ كتابه فَيَقْشَعِرُّ جلدك ؟ ألك مع الله ساعةٌ تناجيه فتبكي ؟ أهطلتْ من عينك دمعةٌ من خشية الله؟ أتحب الله عزّ وجل حباً صادقاً صحيحاً ؟ ما ذَكَرَ الله لنا هذه المناجاة وهذا اللقاء إلا ليكون لنا منه نصيبٌ، ولو كان يسيراً على قدْر إيماننا، على قدر استقامتنا، على قدر ورعنا، على قدر إخلاصنا، على

قدر معرفتنا، على قدر عملنا الصالح، لا بدَّ من اتصالٍ بالله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالى جعل الاتصال به منظماً.

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(يونس)

3 – المعصية حجاب من المناجاة فاحذروها:

ما دُمْتَ متلبّساً بمعصيةٍ فبينك وبين الله حجاب، وسُمْك هذا الحجاب بقدر المعصية، كلما ازدادت واقتربت من الكبيرة كان الحجاب ثخيناً، وكلما كانت صغيرة كان الحجاب رقيقاً.

من نتائج الحجاب: قد يَنْسى المرء بعض العلم بالمعصية، إذا غضضت البصر تماماً، وحرَرّت الدخل تماماً، وضبطت سمعك وبصرك، ولسانك، ويدك، ورجلك، والتزمت أوامر الشرع تماماً، ووقفت عند حدود الله تماماً فلا بدَّ من أن تشعر أنك من الله قريب، لا بدَّ من أنْ تشعر أنَّ الطريق إلى الله سالك، لا بدَّ من أن تشعر أن الصلة بالله شيءٌ محبّب، إنَّ أسعد لحظات المؤمن يوم يقف بين يدي الله ليصلي، هذه المناجاة، أنت إذا وقفت مُصلياً فإنك تناجي الله عزّ وجل، والأنبياء في مناجاتهم حالاتٌ متفوقةٌ جداً.

عَنْ حَنْظَلَة الْأَسَيِّدِيّ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم]

جوهر الدين هذا الاتصال بالله عزّ وجل، هذا الاتصال يحتاج إلى انضباط، يحتاج إلى أن تضع شهواتك كلها تحت قدمك، يحتاج إلى أن تؤثر الله في كل شيء، يحتاج أن تكون وَقّافاً عند حدود الله، كي تذوق طعم المناجاة التي ذاقها بشكلٍ فائقٍ جداً.

فأحياناً تشعر أن الله عزّ وجل يحبك، تشعر أن الله راضٍ عنك، تشعر أنك غالٍ عند الله عزّ وجل، تشعر أنك بأعين الله عزّ وجل.

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(الطور: آية 48)

قد تناجي ربَّك فتقول: يا ربِّ، هذا حالي لا يخفى عليك، يا رب، هذا جهدٌ مِن مُقِلٍّ.

لا بدَّ من مناجاةٍ مع الله عزّ وجل، إذا كنت محباً لله، إذا كنت مستقيماً على أمره.

وقفة مع قصة موسى:

أقف الآن عند هذه الآية كي نستفيد منها:

ما شأننا في قصةٍ وقعت قبل آلاف السنين ؟ فالله سبحانه وتعالى ما أراد من هذه القصة أن نأخذ عِلماً أن الله قد ناجى سيدنا موسى، طبعاً ناجاه سواء أعرفت أم لم تعرف، صدّقت أم لم تصدِّق، أأقررت أم لم تقرّ، ولكنّ الله عزّ وجل أراد من هذه القصة أن يكون لك نصيبٌ من هذه المناجاة، الله عزّ وجل هكذا يقول:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

(الكهف: آية 110)

هذه وصفة، اعمل عملاً صالحاً خالصاً لله عزّ وجل، وإذا شككت أن نفسك تأمُرك، وتوسوس لك أنك غير مخلص فاكتم هذا العمل عن الناس، أنفقْ من مالك، أعِنْ أخاك المؤمن، قدِّم شيئاً ثميناً تملكه في سبيل الله، ابذل من وقتك الثمين، ومن خبرتك، من مالك، من علمك، من جاهك، اعبُدِ الله عبادةً متقنةً، ثم انظر كيف أن الله سبحانه وتعالى يتجلى عليك، ثم ذُق طعم القرب.

سألوا امرأةً كانت متهَتِّكَةً، فلما عرفتْ ربها، والتزمت أوامر الله عزّ وجل، وتحجبَّت، سألها قريبٌ لها: كيف ضحّيتِ بحريتك وانطلاقاتك بهذا العمل ؟ فقالت: لو ذُقتَ من القرب من الله عزّ وجل الذي ذقتُ أنا لضحَّيتَ بحياتك من أجله:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعـانيها

إذاً:

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(القصص)

فأصحاب النبي عليهم رضوان الله ما الذي جعلهم لا ينامون الليل شوقاً إلى الله ؟ ما رأوا من عظمته، ما رأوا من كماله، ما رأوا من بديع خلقه، أقبلوا عليه، استقاموا على أمره، ووالوْا رسولَه.

ثوبان، هذا المولى لرسول الله عليه رضوان الله رآه النبيُّ مُصْفَرّ اللون قال: ما بالك يا ثوبان قد تغير لونك ؟ قال: والله مالي وجعٌ، ولكنني كلما رأيتُك ارتاحت نفسي، فإذا غبت عني اشتقت إليك، ثم ذكرت الآخرة فعلمت أنك مع النبيين والصديقين، وقد لا أكون معك، سكت النبي عليه الصلاة والسلام، فنزل قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَالرّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النّبِيّينَ وَالصِّدّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)

(النساء)

ذلك الفضل من الله، أين الشوق ؟ هؤلاء الأصحاب كان الواحد منهم كألف، عشرة آلاف صحابي فتحوا أطراف الدنيا، والآن ألف مليون مسلم ليست كلمتهم هي العُليا، لأن الحب والإيمان متلازمان، وهذا ما ينقص مسلمي زماننا، لأن أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً.

معجزة عصا موسى:

1 – وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ:

(وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ)

(القصص: آية 31)

2 – انقلابُ العصا ثعبانًا يسعى:

ألقى عصاه..

(فَلَمّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنّهَا جَانٌّ وَلّى مُدْبِراً)

3 – خوف موسى من هذا الوضع المفاجئ:

خاف، وهذه بشرية سيدنا موسى..

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(المعارج)

(وَلَمْ يُعَقِّبْ)

لم يلتفت..

(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

(القصص)

4 – اطمئنان موسى بكلام الله تعالى له: إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ

أنت رسول، وأنا معك فلا تخف.

من صور اطمئنان قلب النبي عليه الصلاة والسلام: حادثة غار ثور:

هذا الكلام ينقُلنا إلى موقف النبي عليه صلاة الله وسلامه في غار ثور، فقد وضع عليه الصلاة والسلام خطةً محكمةً للهجرة، سار مُساحِلاً، وبحث عن خبيرٍ للطريق، واختار ناقةً جيدة، واختار رفيقاً، وعَيَّن شخصاً يمحو الآثار، وشخصاً آخر يَتَّبع الأخبار، وشخصاً ثالثاً يأتي بالزاد، رسم خطةً دقيقةً جداً، غَطّى كل شيء، أعطى لكل شيءٍ تقديره، ومع ذلك وصل كفار قريش إلى غار ثور، سيدنا الصديق أصابه خوفٌ شديد، قال: يا رسول الله،

((لَوْ أَنّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا ـ فماذا قال عليه الصلاة والسلام ـ قَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللّهُ ثَالِثُهُمَا))

[متفق عليه]

بعد قليل قال الصحابي الجليل سيدنا الصديق: لقد رأونا يا رسول الله قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(الأعراف)

هنا السؤال: لماذا كان النبي عليه صلوات الله مطمئناً مع أن الخطة كلها انكشفت ؟ ما دام كفار قريش وصناديدُهم قد وصلوا إليه، وأصبحوا على مشارف الغار، فخطته لم تنجح، لو أن اعتماده على الخطّة لأصابه الهلع، ولكنّ اعتمادَه على الله، وأخذه بالأسباب، وتوكّله على رب الأرباب حال بينه وبينهم، وكل واحدٍ منا إذا واجه مشكلةً فأخذ لها الأسباب، واعتمد على الأسباب، ثم جاء الخطر فإن قلبه يكاد ينخلِع خوفاً، أما إذا أخذ بالأسباب، واعتمد على الله عزّ وجل فإنه يطمئن لوعد الله عزّ وجل ويسْلَم، فسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب وتوكلّ، والله سبحانه وتعالى طمأنه بأنه آمن، والآية الكريمة التي تُؤَكِّدُ أنه معصومٌ من أن يُقتَل، ورغم ذلك أخذ بالأسباب كاملة.

(وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(المائدة: آية 67)

هذه الآية تؤكد عصمته مِن أن يُقتَل، كذلك سيدنا موسى رسولٌ من أُولي العزم، فحياته مصونة، قال تعالى:

(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

ولعَمري إذا كان الله سبحانه وتعالى قد طمأنك فأيُّ شيءٍ آخر يدخل إلى قلبك ؟ لن يدخل شيء، وستكون آمناً.

(إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

لمَن يكون الأمن والأمان ؟!

الآن أنتقل من هذه لآية إلى آيات كثيرة في القرآن الكريم، لقد قال الله عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(النحل: الآية 97)

الآن نقول للشاب المتشائم السوداوي المِزاج اليائس، ضعيفُ الإيمان بكلام الله: خَالق الكون يعدك بحياةٍ طيبة ثمنها أن تؤمن بالله وتعمل صالحاً، ولن تخاف بعد ذلك !!.

(وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

إذا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(الحج: الآية 38)

وأنت مؤمنٌ ورَبِّ الكعبة، أتخاف بعد ذلك ؟! إذا طمأنتك آيات الكتاب، تخاف بعدها ؟! لذلك إذا قرأت هذا القرآن، وعرفت أنه كلام خالق الكون فلا يدخل إلى قلبك الخوف، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يحزن قارئ القرآن))

في قلب المؤمن من الطُمأنينة ومن الأمن ما لو وزّع على أهل بلدٍ لكفاهم، من طمأنه ؟ الله سبحانه وتعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

إن الله يعطي الصحة والذكاء والجمال والمال للكثيرين من خَلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

لا تخَف إلا من ذنبك:

فهذا كلامُ خالق الكون، يجب أن تصدِّقَهُ، يجب أن يكون عندك له مصداقية، فإذا طمأنك الله في آيات القرآن فيجب أن تطمئن، وإذا خوّفك في بعض الآيات فيجب أن تخاف، علامة إيمانك أنك تطمئنُ إذا طمأنك الله عزّ وجل، وتخاف إذا خوّفك الله عزّ وجل، فخَفْ مِن ذنبك.

في الأثر:

((يا موسى خف ثلاثاً: خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافُني))

خف نفسك أن تعصيني، فإن عصيتني تستحِق التأديب، هذا الذي لا يخافني خف منه، لأنه ليس منضبطا.

((خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني))

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يخافنّ العبدُ إلا ذنبه ولا يرجونّ إلا ربه))

[علل ابن أبي حاتم]

القلق والخوف مرض نفسي مدمِّر، المؤمنون بحول الله معافون منه، آيةٌ أردِّدها دوماً على مسامعكم آلافَ آلاف المرات، لا أشعر أني شبعت منها:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(الجاثية: من الآية 21)

أيُعقل أن يعاملك الله عزّ وجل وقد آمنت بالله، وعملت الصالحات كما يعامل الذين اجترحوا السيئات ؟ أنت منضبط، تحضر مجالس العلم، تصلي، تغضُّ بصرك، تنفق من مالك، ترجو الله، تخاف منه، تتقرب إليه، تعمل الصالحات، أتتوقع أن يعاملك الله عزّ وجل كما يعامل أهل الدنيا الضائعين، الشاردين، التائهين، العُصاة، الفُسّاق، الفُجّار ؟

نعمة الأمن:

إنك مستثنى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(الأنبياء)

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(الروم)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32))

(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

نعمة الأمن لا يعرفها إلا من فقدها.

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(قريش)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي، ابن ماجه]

نعمة الأمن خاصةٌ بالمؤمنين، أما أهل الدنيا فقد يأخذون كل شيء، ولكن نعمة الأمن لا يعرفونها، لأنهم أشركوا ألقى الله، ففي قلوبهم الخوف والفزع والقلق.

الآية الثانية:

(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

(القصص: من الآية 32)

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

أي ضع يدك في جيبك، جيب الثوب فتحته العُلوية، وهو غير الجيب الذي نعرفه نحن، الجيب فتحة الثوب من جهة العُنق، اسلكْ أي ضع..

(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ)

أي متألقة منيرة، كأنها مصباح، كأنها كوكبٌ دري.

(مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

والله سبحانه وتعالى أشار بهذه الآية إلى ما قاله اليهود في تلمودهم، وكيف حرّفوا التوراة، وقالوا: إن موسى عليه الصلاة والسلام حينما وضع يده في جيبه خرجت بَرْصاء..

(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)

معنى: وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ

الرَّهَب هو الخوف، لهذه الآية تفسيران:

التفسير الأول:

أنه لما رأى الأفعى خاف، فمدَّ يديه ليدفع عنه خطرها، قال تعالى:

(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

أي لن تؤذيك هذه الأفعى، فأنت من المؤمنين، إذاً هذا هو المعنى الأول.

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)

التفسير الثاني:

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ)

أي أن المؤمن إذا أراد أن يصلي يتطامَن، أي يَضمّ عَضُديه ويديه إلى صدره تأدُّباً مع الله عزّ وجل، أما التمطي، وتحريك الأطراف هكذا أو هكذا فلا يتناسب مع الخشوع، أما أن يضم الإنسان عَضَدَيه ويديه إلى صدره، ويقف متطامناً فهذا نوعٌ من الخشوع، إذاً: هذا تعليمٌ من الله عزّ وجل لنا أن الإنسان إذا صلّى فعليه أن يقف في خشوع، لا أن يَتَمَطّى، ولا أن يباعد بين أطرافه، ولا أن يتطاول، هذا لا يتناسب مع الخشوع، وقد علّم اللهُ سبحانه وتعالى هذا النبي الكريم، وعلمنا من خلال هذه الآية.

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)

من الخشية..

(فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

علة المعجزتين: فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

هاتان آيتان من آيات الله لسيدنا موسى.

وأما الذي كَرَّمَ الله به نبينا عليه الصلاة والسلام فهو أن معجزته ليست حِسِّية، إن معجزته باقيةٌ إلى يوم القيامة، إنها كتاب الله عزّ وجلّ، إن كتاب الله بين أيدينا، من أراد أن يُحَدِّث ربه فليصلّ، ومن أراد أن يُحَدِّثَه ربه فليقرأ القرآن، إنه كتابٌ بين أيدينا، لكن معجزة النبي موسى عليه الصلاة والسلام الأفعى واليدَ البيضاء انتهت، وأصبحت خبراً.

(فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

إِنَّهُم كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ

والفاسق هو الذي خرج عن أمر الله، هو الذي خرج عن إنسانيّته، هو الذي جهل مهمته فتبع شهوته، جهل نفسه كما جهل نفسه فتبع شهوته.

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

لذلك حينما دَمَّرهم الله عزّ وجل ما بكت عليهم السماوات والأرض.

موسى عليه السلام يتذكّر قتلَه القبطي، وخوفه من انتقام فرعون منه:

سيدنا موسى قال:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً)

(القصص: 33)

تذكر أنه قتل قبطياً.

(فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون)

تعليقات لطيفة على خوف موسى عليه السلام:

التعليق الأول:

هنا تعليق لطيف جداً: وهو أنه حينما ألقى السحرة عصيّهم وحبالهم، وخُيّل إليه من سحرهم أنها تسعى أوجس في نفسه خيفة موسى:

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

خاف سيدنا موسى، لماذا خاف ؟ رغم أن الله طمأنه وقال له:

(إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

لكن هذا الخوف الثاني خوفٌ من نوع آخر، الخوف الأول بشري، لأنه بشر، أما الخوف الثاني فخوف الرسول من أن تُكَذَّبَ دعوته، خاف على الدعوة، ولم يخف على شخصه، قال عزوجل:

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

(سورة طه)

أيْ أنّ هذا الذي فعله السحرة لا شيء أمام الآية التي معك، لذلك عصا موسى حينما ألقاها أكلت كلّ حبالهم وعصيهم، فإذا هي تلقف ما يأفكون، إذاً:

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا)

(سورة طه: آية 69)

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

إذاً: هذا الخوف كان على الدعوة لا على شخصه.

التعليق الثاني:

وثمة تعليقٌ آخر:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

هذا خوفٌ على الدعوة، لأنه إن قتلوه ضاعت الدعوة.

(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً)

(القصص: آية " 34)

معنى: وَأَخِي هَارونُ هُوَ أفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا

فبعض المفسرين يقولون: إن سيدنا موسى معه حبسة، الحبسة أي حالة غير سوية في النطق.

إنّ الإنسان أحياناً يضّطرب نطقه، التأتأة، والفأفأة اسمها في علم النفس الحبسة، الحبسة تزداد عليها الاضطراب النفسي، فسيدنا موسى خاف أن يكذّبه فرعون فيضطرب فينعقد لسانه، وفي إشارة أخرى إلى أن الفصاحة فصاحة القلب، ولو أنّ الفصاحة باللسان لكان المُرْسَل إلى فرعون هارون، لأنه كان فصيح القلب، فإذا كنت تعرف الله عزّ وجل، ولك اتصالٌ به فأنت الفصيح، ولو لم تكن في مستوى فصاحة الآخرين، قال سبحانه:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34))

(سورة القصص)

فَأَرسِلْهُ مَعِيَ ردْءًا يُصَدِّقُنِي

1 – حرصُ موسى عليه السلام على الدعوة:

فمن حرصه على الدعوة مرةً ثالثة خاف إذا ذهب وحده إلى فرعون أن ينعقد لسانه، أو أن يقتله فرعون بهذا القبطي الذي قتله سابقاً، فتنطفئ الدعوة، عندئذٍ قال تعالى:

(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ ردْءاً يُصَدِّقُنِي)

2 – معنى ردءا:

أيْ معيناً، فإذا انعقد لساني يتكلّم عني، إذا قتلني فرعون ينوب مكاني.

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً)

(القصص)

لا بد للدعوة من الحجة والسلطان:

السلطان هنا إما القوة القاهرة، وإما الحجة الباهرة، أيْ يا رب، كن في عوني، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

(سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)

(سورة القصص)

العاقبة للحق المبين ن فعليكم بالصبر واليقين:

حينما سار سيدنا موسى بقومه، وتبعهم فرعون، فرعون بكل قوته، وكل جيشه، وكل جبروته، وكل قسوته وراءهم، والبحر من أمامهم، وقال أصحاب موسى:

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

كما قال رجل منافق في معركة الخندق حينما رأى اليهود قد نقضوا عهدهم، والأحزاب جاءتهم من كل حدبٍ وصوب، ولم يبق للإسلام إلا ساعات، وينتهي الإسلام عن آخره، انظر كيف أن الله سبحانه وتعالى أنقذ الدعوة الإسلامية كلّها بالعنكبوت على غار ثور، هذا من عظمة الله عزّ وجل، وأنه يدفع

الخطر الكبير بالسبب الحقير، يدفع الخطر الكبير بشيءٍ صغير، هذا منتهى عظمة الله عزّ وجل، وكذلك في الخندق جاءت الأحزاب من كل حدبٍ وصوب، وقد رمت العربُ كلها النبيَّ عن قوسٍ واحدة، كلها جاءت لتستأصل المسلمين، واتفقوا جميعاً، وجاءوا بخيلهم ورَجِلهم، وأسلحتهم، وطوّقوا المدينة، والصحابة الكرام حفروا الخندق، وظهرهم محميٌّ لمعاهدةٍ بين النبي وبين اليهود، فإذا باليهود ينقضون العهد كعادتهم، فانكشف ظهر النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يبق للإسلام بحسب ما يبدو للعين إلا ساعات، وينتهي الإسلام مِن على الأرض، فما كان من أحد المنافقين إلا أن قال: أيعدنا صاحبكم أن تُفْتَح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدُنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟!! أين كسرى وقيصر ؟ لا يأمن أحدنا أن يقضي حاجته من شدة الخوف، ومع ذلك أرسل الله رياحاً عاتية قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، و أطفأت نارهم، ووقعوا في حيص بيص، وتبلبلوا، وذهبوا من حيث جاءوا.

(وَكَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب: آية 25)

فربنا أحياناً يؤخِّر النصر ليسمع ما تقول ؟ أحياناً ربنا عزّ وجل يرسل شبح مصيبةٍ، فالمؤمن القوي عندئذٍ يصبر، قال ربنا عزوجل:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

لكن هناك أشخاص ضعاف الإيمان إذا لاح شبح المصيبة يتزلزل إيمانهم، قال ربنا عزّ وجل:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب)

أحياناً بعض الناس يقوم بتحليلٍ في المخبر، فتكون النتيجة إيذاناً بمرضٍ خطير، ماذا يقول في نفسه ؟ ويكون التحليل خطأ، فالله امتحنه بأن لاح له شبح مصيبة، ماذا يقول في نفسه ؟ أيُنْكِرَ وجود الله عزّ وجل ؟ أيُنْكِرَ رحمته ؟ أيُنْكِرَ عدالته ؟ أينكر حكمته ؟ الله عزّ وجل يمتحنك، أنت في امتحان دائم، إذا كنت بطلاً، وجاءت الأمور على غير ما تشتهي فقل: الحمد لله على كل حال ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا جاءت الأمور وَفْقَ ما تريد فقل: الحمد لله بنعمته تتمُّ الصالحات، هذا شأن المؤمن، والمؤمن مُبتلى، سُئل الإمام الشافعي " أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لم تُمَكَّن قبل أن تُبْتَلى "، لأنه لا بدَّ من أن تبتلى ليمتحن الله إيمانك، ليمتحن الله صدقك، ليمتحن الله ثقتك به، ليمتحن الله اعتمادك عليه، ليمتحن الله علمك، ليمتحن الله معرفَتَك، ليمتحن الله صبرك، ليمتحن الله حسن ظنّك به، هناك ابتلاء، هناك امتحان، فقال أصحاب موسى:

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

لأن فرعون وراءنا، والبحر أمامنا، ماذا قال سيدنا موسى ؟ قال:

(كَلاَّ)

على أي شيءٍ اعتمد؟ ليس هناك أسباب مادية إطلاقاً، فرعون بقوته وجيشه وقسوته وراءه، والبحر أمامه،

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

أحياناً يتصور الإنسان أنّه على أرض، وهو على شاطئ بحر، قد تخرج موجةٌ فتأخذه إلى البحر، هذه المصيبة، كلما كان في أعماق الإيمان أصبح في مَنجاةٍ عن أن يتزلزل، أما إذا كان على حرف فسريعاً ما ينهار.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ)

(سورة الحج: آية 11)

لا تكن ممن يسيرون على الحرف، كن بالأعماق، والحياة تحتاج إلى بطولة، تحتاج إلى صبر، إلى جَلَد، والابتلاء لا بدّ منه.

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى)

(سورة القصص: آية " 36)

يوم الفصل بين موسى وفرعون:

هذه الآية الصارخة، عَصَا تُصْبِحُ أفعى، يدٌ تتألق كأنها كوكبٌ دُرِيّ، فماذا قال أهل الكفر ؟ والكفرُ فيه مكابرة، فيه جحود، فيه شهوة طاغية، هذه الشهوة الطاغية تحمل على التكذيب.

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى)

1 – الحُجّةُ بالحُجّة:

هذا سحر، وهذا افتراء، وهذا اختلاق ليس له أساس من الصحة.

(وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

(سورة القصص)

(وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ)

(سورة القصص: آية 37)

2 – إنّه لا يُفلح الظّالمون

هو الذي يعلم، وعلمُه تَمَثّل بهاتين الآيتين:

(وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدّارِ إِنّهُ لَا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ)

(سورة القصص: آية 37)

3 – العاقبةُ للمتقين:

العاقبة لمن ؟ للمؤمن، الأيام تدور، وتدور، وتستقر في صالح المؤمن، كن مع الله ولا تُبَال، كن مع الحق، ولا تكن مع الباطل، لأن الباطل زهوق، فلا تكن في خندقٍ ضد أهل الحق.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية 36)

(كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي)

(سورة المجادلة: آية 21)

(وَإِنّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمُ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية 55)

(بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

أي كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، ولابدّ أن تكون العاقبة لك.

أهل الدنيا لما رأوا قارون قالوا:

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

(سورة القصص)

(وَقَالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

(سورة القصص: آية 80)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198))

(سورة آل عمران)

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة القصص)

هذا الذي ظلم نفسه، وظلم غيره لا يفلح.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ)

(سورة القصص: آية 38)

ذكاءُ الأغبياء:

فرعون ذكي، ولكنه ذكاء غبي، الآن أراد حينما رأى هاتين الآيتين الصارختين، وشعر أن أتباعه وقعوا في ريب، وفي شك، وفي حيرة وقف موقفاً معتدلاً في الظاهر.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: آية 38)

كلام فيه تحفُّظ، فيه اعتدال، أي بحسب معلوماتي، وبحسب علمي المتواضع.

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

هذا الذي جاء به موسى غير صحيح، وهذا الذي يدعيه أنه رب العالمين غير صحيح، ليس هناك إله غيره، لكن ليس لديه إصرار، قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

بتحفظ، لأن ربنا عزّ وجل قال:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

(سورة النازعات)

العلماء قالوا: لمَ بدأ ربنا عزّ وجل بالآخرة، كان الأوْلى أن يقول:

نكال الأولى والآخرة. قال:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

لأنّه في الأولى ماذا قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

وماذا قال في الآخرة ؟

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

أيُّهما أشد كفراً ؟ المقولة الثانية، فبدأ الله بها.

(فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ)

فرعون يتحدى الذات الإلهية:

أيْ ابْن لي برجاً من الآجر، من الطين المُحَمَّى، أي اجعل هذا الطين مستوياً، وأوقد عليه ناراً، واصنع منه لبناتٍ، ثم اصنع منه برجاً..

(فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة القصص)

كأن الله عزّ وجل في نظر فرعون شخص، أوقد لي على الطين، اجعل لي صرحاً لأصعد عليه، فأطلع إلى إله موسى.

بعضهم قال: ابن لي مرصداً أرصد به الكواكب، أخذاً من قوله تعالى:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً)

(سورة غافر)

لعلي أرى النجوم فتنبئني إن كان هناك إلهٌ كما يدّعى موسى، أم هو من الكاذبين، إنه تفكيرٌ سخيف، هزيل جداً، وتفكير غبي.

(فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ)

(سورة القصص)

هؤلاء لا يقبلون الحق أبداً:

1 – المستكبر لا يقبل الحقّ أبدا:

العلّة هي الاستكبار، المستكبرون هم الكفّار، استكبر عن أن يؤمن، أما النجاشي فلم يستكبر، النجاشي آمن، والله سبحانه وتعالى زاده عزاً ورفعةً، والنبي عليه الصلاة والسلام خدم وفد النجاشي بنفسه إكراماً له، والنجاشي ملِك، ومع ذلك خضع للحق، قال: " إن هذا الذي جئت به، والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاةٍ واحدة "، هذه كلمة النجاشي، أما فرعون فاستكبر، والاستكبار دائماً بغير الحق،

الاستكبار باطل، ولا استكبار عند أهل الحق.

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ)

(سورة القصص: آية 39)

2 – الكافر باليوم الآخر لا يقبل الحق:

لهم معه مصالح، وله منافعهم الدنيوية معه، وكلها بغير الحق.

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

(سورة القصص)

ظنوا أنهم مُخَلّدون في الدنيا، ظنوا أن هذه الدنيا باقيةٌ لهم، ظنوا أن الموت هو نهاية الحياة، فإذا هو بداية حياةٍ أُخرى، ظنوا أن الحياة طويلة.

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

مِن سنن الله مع الظالمين: الاستدراج ثم القصمُ:

من سنن الله عزّ وجل أنْ يستدرج الكافر، اتبع فرعون سيدنا موسى، فلما صار الطريق في البحر يبساً تبعه، فلما خرج موسى وإخوانه من البحر أعاد الله الطريق اليابس بحراً.

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: آية 90)

فربنا عزّ وجل قال له:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ)

(سورة يونس: آية " 91 ")

فكل واحدٍ من بني البشر سوف يؤمن عند الموت، ولكن بعد فوات الأوان، البطولة أن تؤمن في الوقت المناسب، لذلك ربنا عزّ وجل نجاه ببدنه لأنه لشدة استكباره لا يصدِّق أحدٌ أنه غرق.

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُنَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس: آية 92)

وأغلب الظن أن المومياء التي في مصر هي فرعون موسى، هذه إلى الآن موجودة، وقد أُخِذت إلى فرنسا لبعض الترميمات، أكرر وأقول: أغلب الظن أن هذه المومياء هي فرعون موسى، لقوله تعالى:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40))

(سورة القصص)

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (05-18): تفسير الآيات 40 - 42
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-06-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة القصص، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40))

(القصص)

نقف وقفةً متأنِّيَة عند قوله تعالى:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

مصادر المعرفة ثلاثة: الكون ـ أفعالُ الله ـ كلامُ الله:

أيها الإخوة الأكارم، مصادر المعرفة ثلاثة: يمكن أن تتعرَّف إلى الله عزَّ وجل من خلال الكون، فالكون مظهرٌ لأسمائه الحسنى، ويمكن أن تتعرف إليه من أفعاله، لقوله تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

(كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الظّالِمِينَ)

(سورة يونس)

إذاً خلقه يُنْبِئُ عنه، وأفعاله تُنْبئ عنه، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أفعاله.

المصدر الثالث هو كلامه، البيان الإلهي.

1 – الكون:

إذاً: يمكن أن تعرفه أولاً من خلال خلقه، والكون يُنبئك أكثر ما يُنبئك عن أسمائه الحسنى، ويمكن أن تتعرَّف إليه ثانياً من خلال أفعاله، وأفعاله تنبئك أكثر ما تنبئك عن معاملته لعباده، من يحب ؟ من لا يحب ؟ من يوَفِّق ؟ من لا يوفِّق ؟ من ينصر ؟ من لا ينصر ؟ أما بيانه الكريم أو هذا القرآن الكريم، وهذا ثالثاً ففيه توضيحٌ لكل شيء.

إذاً: يمكن أن تعرفه من خلال خلقه.

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: آية 101)

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32))

(سورة عبس)

هذا مصدرٌ كبير من مصادر معرفة الله عزّ وجل.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

2 – أفعالُ الله:

هذا مصدر آخر، وهذه أفعاله، الكون خلقه، وهذه أفعاله..

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

(فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ)

(سورة العنكبوت: آية 40)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية 21)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

كيف يشهد الله تعالى للرسول بصدق القرآن ؟

هذه كلُّها قوانين مستنبطة من كتاب الله، ويؤكِّدُها الواقع، فكيف يشهد ربنا سبحانه وتعالى لهذا النبي العظيم أن هذا القرآن كلامه ؟ الإنسان يشهد لك بلسانه، يقول لك: أشهد أن هذا الشيء وقع أمامي، ولكنّ الله سبحانه وتعالى في آياتٍ كثيرة ذكر أنه يشهد لعباده أن هذا القرآن كلامه أنزله بعلمه، ربنا عزّ وجل؟ يشهد بأفعاله.

ربنا عزّ وجل إلى أوعد المُرابي بالحرب من الله ورسوله، فإن هذا وعيد في كتاب الله، والحياة اليومية، الأفعال الإلهية تؤَكِّد معنى هذه الآية، فإذا استقمت على أمر الله، وعشت حياةً طيبة فالحياةُ الطيّبة شهادة الله لك بأن الكلام الذي أُنزل على النبي حق وصدق، ومنه قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: آية 97)

إذاً: الحياة الطيّبة هي شهادة الله لك أيها المؤمن على أن كلام الله حق، والمعيشة الضَنْك شهادة الله للإنسان على أن القرآن كلام الله، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

وهذه شهادة والواقع اليومي يصدق ذلك، ولكن إذا اهتديت بالتي هي أقوم، بهدي هذا القرآن، فالتي هي أقوم شهادة الله عزّ وجل لك بأن هذا القرآن حق، إذاً أنت أمام مصدر كوني، الكون مصدرٌ لمعرفة الله، وأنت أمام مصدر عملي، وهو معاملة الله لعباده، للمؤمنين، للكافرين، للمستقيمين، للمنحرفين، للكاذبين، للصادقين، للأوفياء، للخائنين، للناصحين، لمن يَغُشُّون، معاملة الله لعباده شهادةٌ منه لعباده.

مِن أفعال الله: فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

لذلك فالآية الكريمة التالية:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

هي شهادة، أيْ أنّ هذا الذي ظلم نفسه أزهقها وأوجعها، وأشدُّ أنواع الظلم أن تظلم نفسك، وظلمُ النفس حينما تُبْقيها جاهلة، حينما لا تُعَرِّفها بمكانتها عند الله عزّ وجل، حينما لا تعرِّفها بمهمتها في الدنيا، حينما تطلق لها العنان، تطلقها لشهواتها فأنت بهذا تظلمها، أشدُّ أنواع الظلم أن تظلم نفسك، ومن ظلم النفس أن تبقيها جاهلة لذلك: **" طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ".**

1 – عليكم بالعلم:

العلم بابٌ إلى الله عزّ وجل، لقوله تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: آية 9)

إذاً:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

2 – لا ينفع الغنى:

هذا الذي غاص في الدنيا إلى قمّة رأسه، وجمع من أموالها ما لا سبيل إلى حصره، وحينما جاءه ملك الموت شعر أنه مُقْدِمٌ على حياةٍ لا يملك فيها نقيرًا، هذه الحياة الأبدية التي قال الله عنها في محكم تنزيله:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

رجل من الأغنياء المترفين ترك مالاً كثيراً جداً يزيد على ثمانمئة مليون، حينما حضرته الوفاة لقيه رجل من أهل العلم فقال له: ماذا أفعل ؟ قال: والله لو أنفقت مالك هذا كلّه الذي جمعته من حرام فلن يقبل منك هذا المال.

وهذه كلمة حق، فهذا الإنسان ظلم نفسه، لأنه متى عرف الحقيقة ؟ بعد فوات الأوان حينما صار على وشك الموت، وربنا عزّ وجل يقول:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31))

(سورة الحاقة)

(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ)

3 – انظرْ أين تمضي أوقاتك:

إذاً: إذا أمضيت الوقت، واستهلكته استهلاكاً رخيصاً، إذا استهلكت الوقت في طلب اللذائذ، إذا استهلكت الوقت في جمع الأموال، إذا استهلكت الوقت في التَمَتُّع في الدنيا، ولم تدر لماذا أنت في الدنيا، لم تدر

أين كنت، ولا إلى أين المصير ؟ لم تتعرف إلى الله عزّ وجل، ولا إلى منهجه فقد ظلمت نفسك ظلماً لا حدود له، لذلك يقول ربنا عزّ وجل:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

عبرٌ لمَن يعتبر:

1 - فرعون:

هذا ظلم، وفرعون نفسه لأنّه ظلم نفسه فاستكبرتْ عن أن تعرف الله عزّ وجل، أو عن أن تخضع للحق، وبنى مجده على أنقاض الآخرين ؛ بنى مجده على أنقاضهم، بنى غناه على فقرهم، بنى أمنه على قلقهم، بنى حياته على موتهم، حينما أدركه الغرق قال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس: آية 90)

فربنا سبحانه وتعالى أجابه فقال:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس: آية 91)

لا ينفع هذا الإيمان في هذه اللحظة، إذاً ظلم نفسه، وعاقبته الخُسْران المبين، وكلُّ شيءٍ جَمَّعَهُ في حياته خسره في ثانيةٍ واحدة، والنارُ كما قال الله عزّ وجل:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

2 - أبو جهلٍ وأبو لهبٍ:

أبو جهل أين هو الآن ؟ أبو لهب أين هو الآن ؟

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (3))

(سورة المسد)

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

هؤلاء الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام ما مصيرهم ؟ لم ينتصروا، بل خُذلوا، ولحقتْهم لعنة في الدنيا والآخرة.

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية 36)

عبرٌ لمَن يعتبر:

1 – مصيرُ آكلِ أموال الناس بالباطل:

هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، ظلموها بعدم تعريفها بالله عزّ وجل، وعدم تعريفها بمنهجه، والذين ظلموا الناس فأكلوا أموالهم ظلماً فمآلهم إلى حساب عسير.

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

[البخاري]

تتبّع الذي يأكل أموال الناس بالباطل، تتبّع الذي يأخذ أموال الناس ليتلفها لا ليؤدِيها لهم، كيف أن الله عزّ وجل يُتْلِفَه ؟ إذاً يمكن أن تستنبط دروساً بليغةً ومواعظ كبرى من تتبع حوادث الناس، هذا الذي ظلم نفسه فأبقاها جاهلة ما عرّفها بربها، وما عرّفها بمنهجها، جعلها تتيه في ظلمات الحياة، حينما حضرته الوفاة كاد أن يذوبُ ندماً على ما مضى، ولكن لات ساعة مندم، هذا الذي أكل أموال الناس بالباطل انظر كيف دمّره الله عزّ وجل، كيف سحقه، كيف حاربه، كيف أتلفه ؟

2 – جزاء المعتدي على أعراض الناس:

وهذا الذي اعتدى على أعراض الناس، انظر إلى مصيره، انظر إلى قذارته، انظر إلى حياته الداخلية كيف أنّها جحيمٌ لا يُطاق، ربنا عزّ وجل جعل لكل حسنةٍ ثواباً، وجعل لكل سيئةٍ عقاباً، **" بشِّر الزاني بالفقر ولو بعد حين "، " من يزن يُزن به ولو بجداره "**، إن كنت يا هذا لبيباً فافهم.

تتبع من أكل أموال الناس بالباطل، تتبع من اعتدى على أعراض الناس، هذا قانونٌ دقيقٌ دقيق يسري على الناس جميعاً، ولكن الناس في غفلةٍ عن هذا.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

3 – جزاء مَن ربّى أولادَه على تحصيل الدنيا ونسي دينَه:

هؤلاء الذين ظلموا أولادهم، اهْتَمَّ من أمر أولاده وحياتهم أن يكونوا شخصياتٍ مرموقةً في المجتمع على حساب دينهم، ما كان يبالي بدين أبنائِهِ، اهْتَمَّ فقط أن يكون ابنه ذا مركزٍ كبير، ومالٍ وفير ليعتَزَّ به، وليقوى جانبه بمعونة ابنه له، تتبَّعْ قصَّة هذا الإنسان ترَ أن هذا الابن صار عدواً له، فربنا عزَّ وجل يقول:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

(كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

هنا:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

هذا الابن يوم القيامة يقول: **" يا ربِّ لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي ".**

4 – جزاءُ إهمال الزوجة:

هذا الذي لم يأخذ بيدِ زوجته إلى الله عزَّ وجل، فهي قد أعانته على أمر دنياه، ولم يُعنها على أمر آخرتها، رضي منها المعصية، قَبِلَ أن تخرج كما تشاء، قَبِلَ أن تفعل ما تشاء مادامت مصالِحُهُ موفَّرةً لديها، انظُرْ إلى حياته الدنيا وإلى عاقبته، هذا ظلم امرأته ظُلماً من نوعٍ آخر، ظلمها إذْ لم يُعَرِّفها بربِّها.

5 – جزاء الظالم:

شيءٌ آخر، هذا الذي يظلم مَن هم فوقه بعدم تقديم النصيحة لهم، والذي يظلم من دونه بعدم رحمته لهم، انظر كيف كانت عاقبته، فهذه الآية دقيقة جداً، لأن الإنسان حينما يتعَلَّم شيئاً نظرياً، فهذا الشيء النظري ليس مُتأكِّداً من صحَّته، أما إذا استنبط حقيقةً من موقفٍ عملي فهذه حقيقةٌ مع البرهان عليها، لذلك كانت القصَّةُ ذات أثرٍ بليغٍ في السامع، لأن القصَّة حقيقة، ولكن مع البرهان عليها، فربنا سبحانه وتعالى قد يذكر في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكِّدُ أنه لا إله إلا الله، ولكن يسوق لك قصَّةً طويلة مغزاها:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

العبرة مِنَ القصة بالحقائق العملية لا بالحقائق النظرية:

قصّةُ سيدنا يوسف بأكملها مغزاها أنه لا إله إلا الله، وكذلك قصة سيدنا موسى مع فِرعَون:

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(القصص)

طفل صغير أُلقي في اليَم، التقطه آل فرعون، ألقى الله حبه في قلب امرأة فرعون:

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً)

(القصص: آية 9)

كيف أن الأمور جرت إلى أن كَبرَ سيدنا موسى، وتورّط مع قبطي.

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)

(القصص: آية 15)

جاءه من ينصحه.

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

كيف خرج منها خائفاً يترقّب، فتوجه إلى مدين، وبقي مع سيدنا شُعيب عشر سنوات، وكيف عاد إلى مصر ؟ وكيف وهو في طريق العودة ضَلّ الطريق، واشتدّ البرد، ولمح عن بعدٍ ناراً، وكيف ذهب ليأخذ قبساً من هذه النار، أو ليأخذ خبراً عن الطريق ؟ وكيف ناجّاه الله عزّ وجل ؟ وكيف كلّفه أن يعود إلى فرعون، وأن يجابهه ؟ كلُّ هذه القصّة تؤكّدُ أنه لا إله إلا الله.

فلذلك ؛ الحقيقة التي تستنبطها من قصّةٍ، أو من حدثٍ أبلغُ من الحقيقة النظرية، لأن الحقيقة النظرية تحتاج أنت إلى برهان عليها، أما هذه القصة فمعها برهانُها، فلذلك قيل: السعيدُ من اتعظ بغيره، والشقيُّ لا يتّعِظُ إلا بنفسه، فلذلك انظر إلى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فلم يُعَرّفوها بربّها، لم يعرّفوها بمنهجه، كيف أنهم في آخر العُمر ذابت نفوسهم ألماً وحسرةً على ما فرّطوا:

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29))

(سورة الفرقان)

هؤلاء الذين أكلوا أموال الناس بالباطل تتبع قصصهم، هؤلاء الذين اعتدوا على أعراض الناس، هؤلاء الذين بنوا مجدهم على أنقاض الناس، هؤلاء الذين بنوا غِناهم على فقر الناس، هؤلاء الذين بنوا أمنهم

على خوف الناس، هؤلاء الذين بنوا حياتهم على موت الناس، كل هؤلاء كلهم تتبع أخبارهم تجد أن عاقبتهم وخيمةٌ جداً.

لا تظلمنّ أبدا فتصاب بما لا تحمدُه:

يا أيها الإخوة الأكارم، حتى لو ظلم الإنسان حيواناً، مرّ بنا في دروس سابقة أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن التمثيل بالبهائم، ونهى عن أن تتخذ البهيمة غرضاً في الرمي، ونهى عن أن يذبح الإنسان الشاة أمام أختها، وأمرنا النبي عليه الصلاة والسلام أنْ نُحِدَّ السكين، وأن نُرِح ذبيحتنا، إذاً الإنسان أيضاً محاسبٌ إذا ظلم الحيوان.

وقد أخبر عن امرأةٍ دخلت النار في هرةٍ حبستها، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض.

وكيف أن الله سبحانه وتعالى غفر لامرأةٍ رأت كلباً يأكل الثرى من العطش، كيف أنها سقته فغفر الله لها، إذاً ظُلْمُ الحيوان له عاقبةٌ وخيمة، هذا الذي أمسك بهرةٍ، وصار يضربها على الجدران حتى ماتت، فوراً اختل توازنه، وصار معه مرضٍ عضال، وهذا الذي أراد أن يدوس كلباً بعجلات سيَّارته كيف أنه بعد أسبوع فقد يديه الاثنتين، الله عزّ وجل يقول:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

هذا الذي دخل إلى معمله، له معملٌ ضخمٌ للحلويات يرسل منه كل يوم طائرتين إلى بعض الدول الأخرى، دخل إلى معمله فلم يعجبه عَرْكُ العجين، فألقى هذا العجين على الأرض، وعركها بقدميه وحذائه، وقال للعامل: هكذا افعل، فَفَقَد رجليه، وهو الآن مُقيم بمدينة في أوربة، عنده أكبر معمل للحلويات خارج القطر:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

تتبع هؤلاء العصاة المذنبين، المتجبّرين، العُتاة، المعتدين تجد أن الله عزّ وجل بالمرصاد، لذلك فالإنسان العاقل هو الذي يخاف الله عزّ وجل، عقلك يقودك إلى أن تخاف الله، وعقلك يقودك إلى أن تُحِبَّ الله، والأثر القدسي الذي تعرفونه جميعاً قال:

((يا رب، أيّ عبادك أحبُّ إليك حتى أحبّه بحبك ؟ قال: يا داود، أحبُّ العباد إلي تقي القلب، نقي اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خَلقي، قال: يا ربِ، إنك تعلم

أني أحِبُّك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ (هنا الشاهد) قال: ذَكِّرْهُم بآلائي، وذكرهم بنَعْمَائي، وذكرهم ببلائي))

الآيات الكونية من أجل أن تُعَظِّمَهُ، والنِعَم من أجل أن تحبه، والنِقَم من أجل أن تخافه، إذاً لابدّ من أن يشتمل قلبك على مشاعر ثلاثة، هي مشاعر التعظيم:

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ)

(سورة الأنعام: آية 91)

هان الله عليهم فهانوا على الله، لابدّ من أن تُعَظِّم الله عزّ وجل:

(إِنّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

لم يرَهُ عظيماً، ماذا قال إبليس ؟

(قَالَ فَبِعِزّتِكَ لَأُغْوِيَنّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

آمن بالله خالقاً إبليس وآمن بالله رباً إبليس ولكن ما رآه عظيماً، إذاً يجب أن تشعر بعظمة الله عزّ وجل.. ذكرهم بآلائي، ويجب أن تشعر بمحبته.. وذكرهم بنعمائي، ويجب أن تشعر بالخوف منه.. وذكرهم ببلائي.

الحقيقة أنّ التوازن ضروري جداً، أحياناً يطغى عند الإنسان جانبٌ على جانب، يطغى جانب الطَمَع بالله عزّ وجل، أو جانب الحب، لكن من دون تقديم الثمن، من دون تقديم الموجبات:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبّاؤُهُ)

(سورة المائدة: آية 18)

ادّعاء..

(قُلْ فَلِمَ يُعَذّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: آية 18)

إذاً: لابدّ من أن تحبه حباً صحيحاً، وعلامة المحب الطاعة، الحب شيء داخلي في النفس، ومظهره الخارجي هو الطاعة.

تعصي الإله وأنت تظهر حبهُ هذا لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعتهُ إن المُحِبّ لمن يحب يطيعُ

****

إذاً: لابدّ من الحب، ولابدّ من الخوف، ولابدّ من التعظيم.

الفائدة مِنَ النظر في عاقبة الظالمين:

الحقيقة أنك إذا نظرت إلى عاقبة الظالمين تشعر عندها بالخوف حقاً، والخوف من الله حالة صحية، وضرورية، فكلما رأيت إنساناً انحرف عن طريق الحق، ثم دفع الثمن باهظاً فاستنبط أن هذا هو الثمن الباهظ الذي دفعه، واستنبط من انحرافه الذي ارتكبه حقيقة، وهي أن الله عزّ وجل لا يحبك أن تفعل هذا، هذا هو العاقل، العاقل من اتعظ بغيره، وربنا عزّ وجل يقول:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

انظرْ.

لا يُعقل أن يكون الحيوان أذكى من الإنسان !!!

ثمة شيء قد يبدو من الضروري أن أقوله لكم: بعض الحيوانات الذكِيَّة إذا رأت بعض أفرادها أكل طعاماً فمات لا يمكن أن تأكل هذا الطعام، إذا رأى أحد أفراده أكل طعاماً فيه سُم، ومات لتوّه فكل هؤلاء لا يمكن أن يقتربوا من هذا الطعام، أيكون الحيوان أذكى من الإنسان ؟

انظر أيها الأخُ الكريم، أنت أمام معارف غنية جداً، الله عزّ وجل علّمك كل شيء، ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

لماذا أمرنا أن نتقيه ؟ لأنه يعلِّمنا دائماً:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

هذه الواو حالية، والجملة حالية، لأن الله يعلمكم دائماً، فَلِمَ لا تتقوه ؟ علمكم بالكون، وعلمكم بالعقل، وعلمكم بالفطرة، وعلمكم بالأنبياء والرُسُل، وعلمكم بالكتب السماوية، وعلمكم بسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وعلّمكم من خلال الحوادث، وعلمكم من خلال الإلهام، وعلمكم من خلال الرؤية، الحوادث موجودة، والرؤية موجودة، والقرآن موجود، والسنة موجودة، والإلهام موجود، والأنبياء والرسل والكون والعقل كل هذا يعلمكم:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

المصائب بسبب الذنوب والمعاصي:

أردتُ من هذه الآية أن نأخذ منها حقيقة أساسية، هي أن الحوادث التي تجري تُعطينا معلومات دقيقة جداً عن طريقة معاملة الله لعباده.

إنّ مدينة من أفسق مُدن شمال إفريقية فيها نوادٍ للعُراة، وكل شيءٍ حرّمه الله مباحٌ في هذه المدينة، أصابها زلزال، فدُمِّرت في ثوانٍ ثلاث، وقلعةٌ من قلاع الفساد، فندقٌ كبير عدد طوابقه ثلاثون طابقاً، خُسِفتْ به الأرض فانهار، وابتلعته الأرض، ولم يبق منه إلا طابقه الأخير، وعليه اسمه الشهير.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هذه هي الأحداث، قد تقول: الزلزال لها أسباب أليمة، انزلاق في التربة، التواء في الطبقة التحتية للأرض، هذا التفسير العلمي صحيح، ولا يتناقض مع التفسير الديني، لأن الله عزّ وجل كل شيءٍ يكون قد وقع بأمره، هذا سبب، ولهذا السبب مسبّب، وهو الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل إذا أراد بقومٍ سوءاً جعل لهذا الدمار أسباباً مادية أيضاً، فلا ينبغي للإنسان أن يمر هكذا دون أن يجني عبرة وعظة.

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

رجل في دكانه، واثنان آخران تشاجرا أمامه، وأحدهم معه مسدس فأطلق على خصمه رصاصة، فأخطأت خَصْمَه، وأصابت صاحب هذا الدكان، أصابته في عموده الفقري، فأصبح مشلولاً لتوّه، قيل: ما ذنب هذا الإنسان ؟ جاء ليفتح محله التجاري، وليكسب قوت يومه، والحقيقة ليس هناك من جواب " لله في خلقه شؤون "، ولكن بعد حين تبيَّن أن هذا الرجل آكلٌ لأموال اليتامى ظُلماً، وأن هؤلاء اليتامى بذلوا محاولاتٍ مضنيةٍ في سبيل إرجاع حقهم فلم تفلح، إلى أن التقوا بعالمٍ جليل توفاه الله ـ رحمه الله ـ ليكون حكماً بينه وبينهم، أيضاً هذا المُحَكَّم العالم لم ينجح في تحقيق مطلب اليتامى، فكانت كلمتُه الأخيرة: اشكُوه إلى الله، هذا الكلام تمَّ في الساعة الثامنة مساءً، وفي الساعة التاسعة صباحاً جاءته هذه الرصاصة الطائشة، هل هي طائشة ؟ لا والله، بل مصيبةٌ وهادفة.

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

دع القرآن جانباً، وهو كلام الله، ولكن أنت أمام حوادث، حوادث يومية، هناك قانون دقيق تتبعه، ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله عنه أكثر.

ولكن الموقف الكامل منك ـ أيها الإنسان ـ أنه إذا أصابتك مصيبة فاتهم نفسك دائماً، هل هناك تقصير ؟ هل هناك انحراف ؟ هل هناك مخالفة ؟ هل هناك معصية ؟ هل هناك شرك خفي ؟ هل هناك إعجاب ؟

هل هناك اتكال على الذات ؟ هل هناك تعظيم لغير الله عزّ وجل ؟ هذا مع نفسك، أما مع الناس فأحسِن الظن بهم. عَنْ سَعْدٍ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللّهِ، أيُّ النّاسِ أشَدُّ بَلَاءً ؟ قالَ الْأنْبِيَاءُ، ثُمّ الْأمْثَلُ، فَالْأمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدّ بَلَاؤُهُ، وَإنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد]

إذا أصابتك المصيبة فاتهم نفسك، وإذا أصابت أخاك فاحسن به الظن، وإنّ حسن الظن بأخيك المؤمن من علامة إيمانك.

من علامة إيمانك أن تحسن الظن به، ولكن يجب أن توقن أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن الشيء إذا أراده الله وقع، وإذا وقع أراده الله، وأن الذي وقع فيه حكمةٌ بالغة، وإن حكمة الله عزّ وجل متعلقةٌ بالخير المطلق، هذه الحقيقة تكون للإنسان برداً وسلاماً، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((الإيمانُ بالقدَر يُذهِبُ الهمّ والحزنَ))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند فيه مقال]

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإنْ أصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أنّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإنّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشّيْطَانِ))

[مسلم]

أيها الإخوة الأكارم، إذاً ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(القصص: آية 40)

أدنى مؤمنٍ أذكى من فرعون:

إذاً: وفق هذه الحقيقة فإن أقلّ مؤمنٍ على وجه الأرض أذكى من فرعون، ما دام هذا المؤمن قد عرف أن له رباً عظيماً، وأن له شرعاً حكيماً، فالتزم أوامر الشرع، وانتهى عما نهى الله عنه، وسار في طريقٍ سالكة إلى الجنة، إذاً هذا التفكير البسيط الحقيقي الواضح يجعلك أذكى من أكبر الطُغاة، ماذا فعل فرعون ؟ عاش حياةً محدودة، لِيَعشْ مئة عام إن استطاع، ولكن جاءه الموت فخسر كل، يقول شيء وربنا عزّ وجل:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

وبحساب بسيط: مضى على موته أو غرقه سبعة آلاف عام، اضرب سبعة آلاف عام بثلاثمئة وخمسة وستين يوماً، ضرب اثنين، أي ضرب يوم وليلة:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً)

(سورة غافر)

والمزيد إلى يوم القيامة، وبعد يوم القيامة:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر: آية 46)

أين الذكاء ؟ إذاً هو غبي جداً، من هو الذكي ؟ الذي عرف الله عزّ وجل، وأرْجحُكم عقلاً أشَدُّكُم لله حباً، ورأس الحكمة مخافة الله.

أنت في أعلى درجات الذكاء، أعلى درجات الفلاح، أعلى درجات الفوز، أعلى درجات التوْفيق، حينما تكون متمثلاً أمر الله عزّ وجل.

سُئِل الإمام الجنيد: **" مَنْ وليُّ الله ؟ قيل له: أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال لهم: لا، قيل له: أهو الذي يطير في الهواء ؟ قال لهم: لا، ثم قال: الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام، المُطبّق لأمر الله عزّ وجل "**، أي أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، إذاً أنت من أولياء الله، أقلُّ مؤمنٍ على وجه الأرض أذكى من فرعون، أقلّ مؤمن لو أن حياته بسيطة، لو أن بيته متواضع، لو أن طعامه خشن، لو أن ثيابه متواضعة جداً، مادام قد عرف أن له رباً عظيماً، وأن لهذا الربِّ العظيم شرعاً حكيماً، فالتزم أوامر الشرع، وانتهى عما نهى الله عنه، فإنه عندئذٍ يشعر بطمأنينةٍ وسعادة، ويصير طريقه إلى الجنة سالكاً:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

(سورة القصص)

معنى: وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ

أئمة يدعون إلى النار، أي يدعون إلى أعمالٍ تستوجبُ النار.

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمّةً)

لها معنيان:

المعنى الأول: السابق إلى المعصية يقتدي الناسُ به مِن بعده:

السابق إلى المعصية يَقْتَدي به الناس من بعده، فالسَبّاق إلى المعصية بشكلٍ أو بآخر داعٍ لها.

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مَنْ سَنّ فِي الْإِسْلَامِ سُنّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنّ فِي الْإِسْلَامِ سُنّةً سَيّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

[مسلم وأحمد، واللفظ له عن جرير]

هذا الحديث واضح، وهو صحيح، لكن في حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))

[مسلم عن جرير]

التوفيق بين الحديثين السابقين:

الحقيقة أن التوفيق بين الحديثين قضية سهلة، البدعة بمعناها اللغوي كلُّ شيءٍ جديد، والبدعة بمصطلحها الديني أن تُحْدِث في الدين ما ليس منه، إذا أحدثت في الدين، في عقائده، أو في عباداته شيئاً جديداً ليس من الدين فهذا بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وانتهى الأمر.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة: آية 3)

بعد أن أكمل الله هذا الدين وأتمّه، أتمه عدداً، وأكمله نوعاً، أي أن عدد القضايا التي عالجها الدين تامّة، تُغَطِّي كل حاجات الإنسان، ونوعيّة المعالجة كاملة، معالجةٌ واسعة، كافية، وافية، وفضلاً عن هذا وذاك فالله سبحانه وتعالى رضي لنا هذا الدين، أيستطيع إنسان كائناً من كان أن يضيف عليه شيئاً ؟ مستحيل، إذاً كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))

ولاسيما في العبادات والعقائد، أما في المعاملات فإن ربنا عزّ وجل سمح لنا أن نجتهد، لذلك أنزل بعض آياته بشكلٍ مجمل، وسَمَحَ للعلماء أن يستنبطوا منها أحكاماً تفصيلية، ولكن الحديث النبوي الثاني الذي يقول:

((مَنْ سَنّ فِي الْإِسْلَامِ سُنّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ))

مثلاً: إنسان في الحر الشديد جاء بجديد في المساجد، هيَّأ لها جهاز تكييف مثلاً، أو في البرد الشديد هيَّأ جهاز تدفئة، أو وَفّر في المساجد ما فيه راحةٌ للمصلين، شيءٌ لم يكن على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ ماء ساخن، ماء بارد للشرب مثلاً، أو تبريد، وتدفئة، هذه أشياء جديدة لم تكن على عهد النبي

عليه الصلاة والسلام، ولكنها سنةٌ حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

لكن موطن الشاهد في الآية:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

(سورة القصص)

هذه محلُّها الفقرة الثانية من حديث رسول الله:

((وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

هذا الذي يبتدع شيئاً مخالفاً للسنة، مخالفاً للشرع، فيه اختلاط، فيه كشف عورات، فيه إيقاظ فتن، فيه تحريك شهوات، هذا الذي يفعل ذلك إذا سبق إليه فكأنّه داعيةٌ له، لذلك قالوا: أشد أنواع الذنوب هي التي تبقى بعد موت الإنسان.

مَن أسس ملهى ثم مات، وهذا الملهى بقي يعمل مئات السنين بعده، أسس دار قِمَار، أسس نادياً ليلياً، مثلاً، هذا الذنب يموت صاحبه، ويبقى الذنب، إذاً كل مَن اقترف هذا الذنب في هذا المكان فعليه وزره، ووزر من عمل به إلى يوم القيامة، هذه هي الطامة الكبرى حقيقةً، فالإنسان قبل أن يفعل شيئاً فيه مخالفةٌ للشرع، فيه خروج عن أوامر الدين، فيه إضلال للناس، فيه إفساد لعقائدهم، فيه إفساد لعلاقاتهم، فيه إفساد لزواجهم وأسرهم، هذا شيءٌ خطير، إنسان جلب إلى بيته بعض الأجهزة المُلهية، فإذا هو أمام مشكلات بين أولاده ليس لها حل، فالذي اخترع هذا الجهاز، والذي صنع هذا الجهاز، والذي اقتنى هذا الجهاز، والذي استخدم هذا الجهاز إلى يوم القيامة يتحملون الأوزار جميعاً، لذلك:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً)

المعنى الثاني: تحمّلُ نتائج المعصية يوم القيامة:

المعنى الواسع لـ:

(أَئِمَّةً)

أن كل من فعل شيئاً فيه إثمٌ، أو فيه مفسدةٌ، أو فيه إضلالٌ، فسوف يتحمّل كل النتائج إلى يوم القيامة، من هنا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

(سورة يس: آية 12)

فهذه المرأة الزانية إذا ربت ابنتها على الزنا، وجاء من هذه المرأة جيلٌ من الزانيات، قد يَعُدُّ الملايين إلى يوم القيامة، فكل هذا الجيل في صحيفة هذه المرأة التي ربّت ابنتها على الزنا، ولذلك فقبل أن تفعل

شيئاً، قبل أن تتخذ حرفةً، قبل أن تنشئَ مشروعاً، قبل أن تجري عادةً لم تكن من قبل، ادْرُسها، عُدّ للمليون، فإذا كان هذه اللقاء على معصية، أو كان هذا المشروع على ضلال، أو كانت هذه التجارة مُحَرّمة، أو كان جلب هذه البضاعة يؤذي الناس، قبل أن تفعل مثل هذا فكِّر مَلِيّاً:

((مَنْ سَنّ فِي الْإِسْلَامِ سُنّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنّ فِي الْإِسْلَامِ سُنّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

حينما اتفق الناس، أو حينما ابتدعوا مثلاً أن يجلس العريسُ على منصةٍ مع عروسه أمام المدعوات، فهذه سنة سيئة مخالفة للشرع، لأن الرجل يرى المدعوّات كاسيات عاريات، كلُّ مَن فعل هذا من بعده عليه وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة، فالكلمة، والبيت، والتجارة، والبيع، والشراء، والاجتماع، والمشروع، قبل أن تفعل شيئاً من هذا كله يجب أن تقيس هذا الشيء على الشرع، وتعرضه عليه، لأنّك إذا فعلت شيئاً فيه إضلال، أو فيه إفساد، أو فيه فتنة، أوفيه تحريكُ شهوة، فأنت ممن تنطبق عليهم هذه الآية، قال ربنا عزّ وجل:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

أيْ يدعون إلى عملٍ يستوجِبُ النار، فيجب أن يبقى هذا في ذهنك.

ليس معنى أن تكون داعية إلى النار أن تلقي خطباً في الدعوة إلى النار، لا، هذا معنى ضيق جداً، هناك أُناسٌ يدعون إلى النار بخطبهم، وألسنتهم، ومؤلّفَاتِهم، وكتبهم، ونظريّاتهم، لكنهم إذا قيسوا بالمعنى الواسع لهذه الآية فهُم قلّة، هذا الذي يُسَخِّر فكره، وذكاءه، وعلمه من أجل دعوة الناس إلى الكفر، وإلى البعد عن الله هؤلاء قِلّة، ولكن الآية تعني أن كل من يَسُنُّ سنةً سيّئة بشكلٍ أو بآخر، من حيث يريد أو لا يريد، يشعر أو لا يشعر فقد دعا إلى النار، وصار إماماً إلى النار.

المؤمن داعية إلى الجنة قولاً وعملاً:

إذا كنت بطلاً فكن داعية إلى الجنة، كن داعياً إلى الله عزّ وجل، الحياة تمضي، والذين دعوا إلى الله ماتوا، والذين دعوا إلى النار ماتوا، ولكن يوم القيامة هؤلاء في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وأولئك في عذابٍ مقيم إلى أبدِ الآبدين، فإذا أردت أن تدعوَ، إذا أردت أن تكون إماماً، إذا أردت أن تكون شخصية قيادية، إذا أردت أن تؤَثِّر في الآخرين فتعرّف إلى الله عزّ وجل، ودُلّ الناس إلى الله عزّ وجل، وهذه صنعة الأنبياء، وما من صنعةٍ أشرفُ من أن تكون سبباً في هداية الخلق:

((لأنْ يهديَ اللهُ بك رجلاً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت))

[الجامع الصغير عن أبي رافع بسند ضعيف]

((فَوَ اللّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللّهُ بكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سَهْل بْن سَعْدٍ]

((خيرٌ لك مِن الدنيا وما فيها))

[ورد في الأثر]

إذا أردت أن تؤثِّر في الآخرين، إذا أردت أن تكون إنساناً متميّزاً، إذا أردت أن تكون إنساناً إماماً، متفوّقاً، وهذا شيء جميل، ومطلب مشروع، لأن الإنسان عنده حب البقاء، لذلك يتزوّج، الطعام والشراب يوفِّر بقاء الفرد، والزواج يوفِّر بقاء النوع، والأعمال البطولية توفِّر بقاء الذكر، فإذا أردت أن يبقى ذكرك دائماً متفوّقاً قيادياً فلا مانع، فتعرّف إلى الله عزّ وجل، وتعرّف إلى منهجه، وادْعُ إليه، وإلى منهجه، أما أن يكون الإنسان داعية إلى النار فأعوذ بالله من ذلك، لذلك تجد بين الناس ضالاً ومضلاً، كما أنّ عندنا مهتدياً وهادياً، ضالاً مُضِلاً، وفاسداً مُفسِداً، وبعض الناس وظيفته الإفساد، فهو فاسد مفسد، ضال مضل:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

لا نصرة ولا نسب ولا خلة يوم القيامة: وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ

إذا وقع للإنسان في الدنيا مشكلة فهناك من ينصره ولو على باطل، فلا أحد يقع إلا وله أصحاب، أصدقاء، أقران، زملاء، أقرباء، ابن، أخ، يدفعون إذا وقع أو، يوسطون، أو يوكِّلون، تجد أن الأمور قد انفرجت، هذا في الدنيا، ولكن يوم القيامة:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

لا أحد معك:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: آية 94)

إنّك في الدنيا تجد لك أنصاراً وأتباعاً ومحبين، هذا كله في الدنيا، ولكنك تأتي يوم القيامة فرداً لا أحد معك إلا عمَلُك، لذلك: **" يا قيس، إن لك قريناً يُدَفَن معك وأنت ميّت، وتدفن معه وهو حي، إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك ".**

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

دعك من حُبِّ الناس، إذا أحببت نفسك فقط، إذا بالغتَ في حبِّ ذاتك يجب أن تُعدَّ لهذه اللحظة عدتها.

إن إخوانًا كثيرين في هذا المسجد رحلوا قبلنا، وهؤلاء بالعشرات ـ والله ـ وأنا هنا بفضل الله عزّ وجل منذ ثمانية عشرَ عاماً خطابة وتدريسًا، أذكر أن الإخوة الذين رحلوا عنا بالعشرات، ما مِن شهر أو

شهرين إلا وتجد أن أخاً رحل، فنقرأ له الفاتحة، وندعو له، ونحن على هذا الطريق سائرون، لأنك بضعةُ أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا.

كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت

***

الليل مـهما طـال فلابدّ من طلوع الفجر

و العمر مهما طال فلابدّ من نزول القبر

***

فيا أيها الإنسان سواءٌ في تربية بناته، في تربية أولاده، في علاقته بزوجته، في مهنته، في ببيعه، في شرائه، إيّاك أن تفعل شيئاً مخالفاً للسنة، فإذا كنت ذا شأن، وقلّدك الآخرون، دعوت وأنت لا تشعر إلى النار، فالمعلم له شأن عند طلابه، فإذا فعل شيئاً مخالفاً للسنة كأنه دعا إلى النار، والأب له شأن عند أولاده، إذا فعل أمامهم معصيةً وهم على صغر سنهم، ورأوا أن أباهم قد فعل هذا، وهو كامل في نظرهم، وفعلوا كما فعل فكأنّه دعاهم إلى النار، دعاهم إلى ما يستوجبُ النار، طبعاً هذا المعنى موسع جداً:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

هذا هو السقوط المخيف فانتبه أن يصيبَك:

1 – اللعن في الدنيا:

لذلك الصعود مُسْعِد، لكن السقوط صعب، المؤمن حياته في صعود مستمر، لأن ربنا عزّ وجل يحوطه بالعناية والرعاية، إنه صعود بطيء لكنه مستمر، أمّا الكافر فقد يصعد في الدنيا صعوداً حاداً، ويسقط سقوطاً مُريعاً:

(وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

(سورة القصص)

إنّ من أصعب الأشياء أن يَلْعَنَ الناس شخصاً في صُبْحِهم ومسائهم، في لهوهم جدِّهم، في حياته وبعد مماته، ذلك أن سمعة الإنسان متعلقةٌ بعمله، فإذا كان العمل صالحاً أثنى الناس عليه، وقد قيل: ألسنة الخلق أقلام الحق.

إن علامة المؤمن الصادق أن الناس يحبونه جميعاً، لأنه محسن، والذي يكذب على الناس، ويحتال عليهم، ويأكل أموالهم بالباطل، أو يخدعهم، ويَغُشُّهم، ويظلمهم، هذا يسقط شأنه عندهم، لذلك يلعنونه، ربنا عزّ وجل وصف النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

(فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)

(سورة الذاريات)

أي يا محمد، لست ملوماً عندي، ولست ملوماً عند نفسك، ولست ملوماً عند الناس، هذه نهاية العَظَمَة، نهاية الكمال، هناك إنسان عند الله ملوم، ذكي جداً، بذكائه يسترضي الناس جميعاً، لكنه مرتكبٌ معاصيَ كثيرة، فهو عند الله ملوم، وعند الناس محمود، مثلاً، وهناك إنسانٌ يحمده الناس، ولكنه ينوي لهم نيات خبيثة، فهو أمام نفسه ساقط، وعند نفسه مذموم، ولكنّ البطولة أن تكون محموداً عند الله، وعند الناس، وعند نفسك.

إن الإنسان بذكائه أحياناً يستطيع أن يسترضي الناس، ولكن حينما لا يكون في المستوى اللائق أمام نفسه فإنه يسقط من عين نفسه، والإنسان إذا احتقر نفسه عاش حياةً شقية، إذْ إن العمل الطيّب المستقيم، والصدق والإخلاص تورث في النفس احتراما للذات كما يقولون، واحترام الذات شيءٌ مسعِد، كن دائماً واضحاً في علاقتك، في مبدئك، في أقوالك، في أفعالك، لأن الوضوح يورث احترام الذّات، إذاً:

(وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

2 – الاحتقار والذل يوم القيامة:

واللهِ هذه هي المصيبة، أن يأتي الإنسان يوم القيامة وهو مقبوح، وهو محتَقَر، قال ربنا عزّ وجل:

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: آية 124)

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

(سورة الكهف)

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

قد ترفَعُ أُناساً، وقد تخفض أُناساً، ماذا قال سيدنا علي كرم الله وجهه ؟ قال: **" الغنى والفقر بعد العرض على الله "**، فلذلك هؤلاء:

(يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42))

ربنا عزّ وجل قال:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

بين الجنةِ والنار:

الجنة فيها أشياء لطيفة كثيرة، فيها من الطعام والشراب ما لذّ وطاب، فيها فواكه، وَهُمْ مُكرمون، فيها ما تشتهي الأنفس، فيها أنهار من خمر، وأنهار من لبن، وأنهار من عسل مُصَفّى، فيها أنهار من ماءٍ عذبٍ فُرات، فيها أشجار، فيها حور عين، لكن أعظم ثمنٍ من كلّ ذلك:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ)

(سورة آل عمران)

قلت هذا في درسٍ سابق: أحياناً تدخل إلى بيت، فيقدّم لك من الطعام ألذّهُ، ومن الشراب أطيبه، ولكنّ صاحب البيت غائب، تشعر بوحشة، أما إذا جاء صاحب البيت، ورحّب بك، وآنسك، وقرّبك، فهذا الترحيب، وهذا الإيناس، وهذا التقريب أثمن عند أُولي العقل من كل هذا الإكرام المادي، لذلك الجنة فيها مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيها أهمّ من ذلك، وهو رضوان الله عزّ وجل.

أمّا جهنم ففيها عذابٌ لا يحتمل:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105))

(سورة المؤمنون)

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا)

(سورة النساء)

وفيها أشد من عذاب النار:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

عذاب الحجاب، وعذاب النار، عذابان معاً، فهذا العذاب:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

(سورة القصص)

تأمّل صور المجرمين في الصحف، صور السارقين، عصابات السرقة والقتل، إذا صوّرهم المصوّر فإنك ترى وجوهاً كالحةً مسوَدّة.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42))

(سورة عبس)

في هذا اليوم أعني يوم القيامة، إما أن يكون لك وجه باسم مشرق، وإما وجه عابس كالح، فلتكن من ذوي الوجوه الناضرة، قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39))

(سورة عبس)

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9))

(سورة الغاشية)

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة آل عمران)

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107))

(سورة آل عمران)

أما أصحاب الوجوه الكالحة فقد قال تعالى:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

(سورة القصص)

حينما يصل الإنسان إلى هذا المستوى فالألم الذي ينتابُهُ من دناءته وقذارته، وانحطاط عمله، ولؤمه وكفره، وجحوده وإنكاره للجميل، وإيذائه للخلق، واستعلائه عليهم، وإيقاع الضُرّ بهم، هذا ألمٌ لا يحتمله الإنسان حينما يستيقظ على الحقيقة المرّة، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46))

(سورة القصص)

خاتمة:

هذه الآيات فيها معانٍ دقيقة جداً، وإن كان هذا لا يبدو في ظاهرها، هذه الآيات تُؤَكِّد أن القرآن من عند الله عزّ وجل، وهذه الآيات دلائل إعجاز القرآن، والإعجاز أنواع ؛ إعجازٌ في النظم، إعجازٌ في الشكل، وإعجازٌ في المضمون، وإعجاز المضمون أنواع، أحد بنود إعجاز المضمون ؛ غيب الماضي، وغيبُ الحاضر، وغيب المستقبل، وإن شاء الله تعالى في الدرس القادم سنوَسِّع الحديث عن إعجاز القرآن وَفق تلك الآيات الكريمة التي تأتي عَقِبَ هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (06-18): تفسير الآيات 43 - 45
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-06-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة القصص، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45))

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

من خصائص هذه الآيات: ابتداءها بقوله: وَمَا كُنْتَ...

هذه الآيات أيُّها الإخوة، تبدأ في معظمها بقوله تعالى:

(وَمَا كُنتَ)

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ)

(سورة القصص: آية 44)

(وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ)

(سورة القصص: آية 45)

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ)

(سورة القصص: آية 46)

القرآن كلام الله:

1 – إثبات الغيب المستقبلي في القرآن:

الحقيقة أن هذه الآيات تُثبتُ أن هذا الكتاب كلام الله، لأن هذا اسمه عند علماء القرآن غيب الماضي، الغيب أنواعٌ ثلاثة ؛ غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، فالأشياء التي مضت، والتي لا

يمكن أن يعلمها النبي عليه الصلاة والسلام، ما كان في مدين، وما كان في هذه القرون السابقة، ومع هؤلاء الأقوام، ومع هؤلاء الأنبياء، ما كان معهم، من أنبأه بخبرهم ؟ من أعطاه ما وقع بالتمام والكمال؟ إنه الله سبحانه وتعالى، فقد ورد في القرآن الكريم قصة سيدنا موسى مع فرعون، وقصة سيدنا موسى مع سيدنا شعيب، وقصة سيدنا يوسف، وقصة سيدنا يحيى، وقصة السيدة مريم، هذه القِصَص، قصص الأنبياء التي وقعت من قبل ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام بحكم أنه عاش في صحراء، بحكم أنه كان أُمِّياً، ما كان له أن يعلم هذه الحقائق، ولا أن يعلم هذه الأخبار، فإذا جاء بها صحيحةً كاملةً بوقائع دقيقةً، فهذا دليلٌ على أن هذا الكلام كلام الله.

2 – لا يمكن أن يترك اللهُ العبادَ بغير منهج:

ننتقل من هذه الفكرة إلى فكرةٍ أعَمّ وأشمل، الإنسان بادئ ذي بدء عليه أن يؤمن بالله خالق الكون، وهذا الكون بين يديه، إن هذا الكون بما فيه من آياتٍ دالةٍ على وجوده، وعلى عظمته، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى صفاته الفُضْلى، إن هذا الكون هو الدليل الأكبر على وجود الله، وعلى صفاته، وأسمائه، وعظمته، هذا الإله العظيم أيُعْقَل أن يَدَع عباده من دون تشريع، من دون توجيه، من دون تعريف، من دون، أمر، من دون نهي، من دون لفت نظر، من دون بيان ؟ هذا الكون يَدُلُّ على أن الله سبحانه وتعالى كاملٌ في أسمائه، كاملٌ في صفاته، فمن لوازم كمال الله عزّ وجل ألاّ يدع عباده هملاً مُعَطّلين عن الأمر والنهي، أتجد أباً يرى ابنه منحرفاً، ويبقى ساكتاً ؟ أتجد أباً لا يُعَرّف ابنه بالطريق الصحيح، بالهدف النبيل ؟ إذاً ربنا سبحانه وتعالى من كماله لا بدّ من أن يُرسل إلى هذا الإنسان خطاباً في كل عصر، إن هذا الخطاب هو كلام الله عزّ وجل.

حقائق مهمة:

1 – مَن لم يطبق كلام الله لم يفلح أبدا:

الآن عندنا قضية دقيقة سأوضحها لكم من خلال هذا المثل:

لو أن رجلاً موسراً من علية القوم، له أعمال واسعة، عَيَّن وكيلاً لأعماله، وأغدق على هذا الوكيل الشيء الكثير، هذا الوكيل إذا جاءه من سيّده خطاب يأمُرُهُ أن يدفع لفلان مبلغاً كبيراً، فهذا الوكيل إذا دفع هذا المبلغ، ولم يكن هذا الخطاب من عند سيده فقد خسر خسارةً كبرى، وإذا كان هذا الكتاب من عند سيّده، ولم يدفع صرفه من العمل، إذاً فالإنسان أمام وضعين ؛ إذا كان هذا الكلام كلام الله، ولم

يُطبّق الإنسان أمره ونهيه أهلك نفسه في الدنيا والآخرة، وإذا كان هذا الكلام كما يَظُنُّ بعض الناس وبعض الملحدين أنّه ليس كلام الله، بل هو كلامٌ من صنع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ونَفّذَهُ بحذافيره، ولم يكن كذلك، فقد ضَيّع حياته الدنيا، إذاً هذا الوكيل إذا جاءه خطابٌ من سيده، ما هو أخطر شيءٍ عليه أن يفعله ؟ أن يتأكّدَ من صحّةِ نسبة هذا الخطاب إلى سيده، هذا شيءٌ مفروعٌ منه، قبل كل شيء، قبل أن تفعل شيئاً أنت عبدٌ لله، ولك إلهٌ عظيم يدُلُّ عليه هذا الكون، فالكون فيه آياتٌ لا تعدُّ ولا تُحْصى، هذا الإله العظيم، والخالق الحكيم، والمربي الرحيم ما نسيك من فضله، ولا من توجيهاته، ولا من بياناته، ولا من تحذيره، ولا من تبشيره، أرسل هذا الخطاب، يجب أن تؤمن إيماناً قَطْعِيّا، والإيمان أنواع: إيمان ظني، وإيمان تَبَرُّك، وإيمان تقليدي، يجب أن تؤمن إيماناً قطعياً بأن هذا الكلام كلام الله، لماذا ؟ لأن فيه أمراً وفيه نهياً، معظم الناس لا يقفون موقفاً واضحاً من كتاب الله، فيه آيات تأمُر وآيات تنهى، وهو لا ينتهي ولا يأتمر، وإذا قرأ القرآن قال: صدق الله العظيم، وقَبّلَه من جوانبه الستة، ووضعه في مكانٍ من بيته مرموق، وهو لا يُطبّقُه، فإذا جاء ملك الموت، ورأى أنه انحرف انحرافاً خطيراً عن ربه، ولم يطبّق ما به، وقبل أن يأتي ملك الموت، كان يدفع ثمناً باهظاً لمخالفة هذا الكلام، فحينما يأكل مالاً حراماً، حينما يعتدي، حينما يحيد، حينما ينحرف، يدفع الثمن باهظاً، وحينما يأتي ملك الموت، يجد نفسه أنه خسر خسارةً كليةً وأبدية، فلذلك الإنسان عليه أن يقف موقفاً واضحاً من كلام الله عزّ وجل، هل هذا كلام الله ؟ ما الدليل ؟.

ما قولك أيها الأخ الكريم إذا كنت في مجلسٍ، وأردت أن تحدِّث الناس عن آيات الله، فقال لك أحدهم: ما الذي يؤكِّد لك أن هذا الكلام كلام الله ؟ بماذا تجيبه ؟ إذا سكت أُسقِطَ في يدك، إذا لم تجد جواباً شافياً مقنعاً لهذا الإنسان تزلزلت، وهذا الذي يبني إيمانه على سماع أقوال الآخرين من دون بحثٍ، من دون تَحَقُّقٍ، من دون تمحيصٍ، هذا الإيمان لا يصمُد أمام الشهوات.

2 – لا بد من العلم:

قلت لكم سابقاً: تصوروا ميزاناً في كِفّتِهِ الأولى وزن خمسة كيلوات، ولنرمز إلى هذا الوزن بالشهوات؛ التي هي حب المال، حب اللذائذ، حب العلو في الأرض، فكل واحد فيه ينطوي على شهوات لا يعلمها إلا الله، بعضها مشروع، وبعضها غير مشروع، بعضها مباح، وبعضها فيه انحراف، وفي الكِفّة الثانية العلم، إن لم يكن في الكفة الثانية علمٌ يقينيٌ قطعيٌ، مبنيٌ عن بحثٍ ودرسٍ، وتَحَقُّقٍ وبرهانٍ وحجةٍ فإن كفّة الشهوات تبدو راجحة، هذا العلم القليل، هذا التقليد اليسير، هذا السماع لبعض دروس العلم، هذا السماع لبعض الخطب لا يستطيع أن يقف في وجه هذا الوزن الكبير، قد يبحث الإنسان،

ويبحث، ويدقق، ويفكِّر، ويتأمّل، ويُطالع، ويقرأ، ويلتقي، ويسأل، ويجتمع، إلى أن تتكون عنده قناعاتٌ قطعيةٌ صحيحةٌ يقينيةٌ في الكفة الثانية، حتى يبدأ الميزان بالتحرُّك، حتى تقف، لأن العلم قيدٌ، ولابدّ من العلم اليقيني..، قال سيدنا علي: **" يا بني، العلم خير من المال، لأن العلم يَحْرُسُكَ، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق ".**

إن قضية التَعَلُّم قضية مصيرية، فقد يظن الإنسان أحياناً أنّه إذا كان لديه وقت فراغ حضر مجلس علم، وجاء ليستفيد، لكنّ ساحة نفسه مُمْتَلِئة بأشياء متعلقة بالدنيا، فإذا زاد عنده وقتٌ حضر مجلس علم، وإلا أعرض، هذا هو الغلط بعينه، لأن ما من شيءٍ أخطر في حياتك من أن تعرف الحقيقة، لا حباً بأحد، يجب أن تحب ذاتك قبل كلّ شيء، وكلكم يعلم أن الإنسان مفطورٌ على حب ذاته، على حب وجوده، على حب استمرار وجوده، على حب سلامة وجوده، على حب كمال وجوده، من أجل وجودك في الدنيا، من أجل سلامة وجودك في الدنيا، من أجل كمال وجودك في الدنيا، من أجل استمرار وجودك بعد الموت في جنةٍ عرضها السماوات والأرض لا بدّ من معرفة هذا الكتاب، أهو كلام الله حقاً ؟ إذا كان هذا الكلام كلام الله حقاً فما الدليل ؟ كلُّ شيءٍ من دون دليلٍ قطعي لا يصْمُد أمام الفتن، لا يصمد أمام الشهوات.

3 – كثرة الضغوط على الإنسان:

إنّ الإنسان في الحياة الدنيا مُعَرَّض إلى قوةٍ ضاغطة، وإلى قوةٍ جاذبة، الجذب إغراء، والضغط إكراه، هكذا شاءت حكمة الله عزّ وجل ؛ أن يكون الإنسان في حياته الدنيا مُعَرَّضاً لقوةٍ ضاغطة، يأتيه ضغطٌ من أهله، من زوجته، من أولاده، ممن فوقه، في العمل، يأتيه الضغط ليفعل معصيةً، لينحرف عن منهج الله، ليأكل مالاً حراماً، ليعتدي على الناس، ليُطْلِق بصره في الحرام، ليأخذ ما ليس له، هذا ضغط، وقد يأتيه إغراءٌ يدفعه إلى منكر، إلى معصية، إلى ندوة، إلى نُزْهَة، إلى لقاء لا يرضي الله عزّ وجل، فأنت أيها الأخ الكريم بين ضغطٍ وجذبٍ، بين قوى اجتماعيةٍ ونفسيةٍ ضاغطة، وقوةٍ أخرى جاذبة، ماذا تفعل ؟ لا بدّ لك من منهج.

دقق لو أنك اقتنيت آلةً غالية الثمن، إذا كانت هذه الآلة غالية الثمن خطيرة الوظيفة فإنك تحرص عليها حرصاً بالغاً، لاحظ نفسك فقبل كلّ شيء تبحث عن تعليمات الصانع، عن تعليمات الشركة الصانعة، بدافعٍ من حرصك على سلامة هذه الآلة، وعلى حُسْنِ سير عمل هذه الآلة، وعلى كفاءة هذه الآلة، وعلى مردود هذه الآلة، تبحث عن تعليمات الصانع، فهلاّ بحثت يا أخي عن تعليمات الخالق، عن منهج الخالق ؟ أيُعْقَل أن يكون الله عزّ وجل قد أنعم عليك بنعمة الإيجاد، وتركك هملاً بلا أمر، ولا نهي، ولا

تعريف، ولا بيان، ولا توجيه، ولا شيءٍ من هذا القبيل !؟ أيُعْقَل أن الله عزّ وجل أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ولم يبَيّن لك من أنت، وما دورك في الحياة، وما مهمّتك، وما هويتك ؟ ما معنى أنّك إنسان ؟ ولماذا حملت الأمانة ؟ ما معنى الأمانة ؟ ما هي مقومّات التكليف ؟ ما هي الحرية التي تتمتع بها ؟ ولماذا هذه الشهوة التي أودعها فيك ؟ سؤال خطير، لماذا أودع الله فينا هذه الشهوات ؟

4 – دافع تحقيق الشهوة عند الإنسان:

إنّ الإنسان أي إنسان، في أي مكانٍ وزمان يجد نفسه مندفعاً إلى تحقيق شهواته، يندفع إلى الطعام، وإلى الجنس الآخر، وإلى كسب المال، وإلى أن يكون ذا شأنٍ في الحياة، هذه الشهوات لماذا أودعها فيك ربُّ الأرض والسماوات ؟ هل من أجل أن يفتنك ؟ مستحيل، من أجل أن يوقعك في شباك الشهوة ؟ من أجل أن يدفعك إلى المعصية، إنه خالقٌ عظيم، وهذا الكون يؤكِّد عظمته لا يفعل هذا ؟ إذاً لا بدَّ من أن الله سبحانه وتعالى حينما أودع فيك هذه الشهوات إنما أودعها لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، ما أودعها فيك إلا لتكون هذه الشهوة دافعاً لك إليه، مُحَرّكاً إلى التقرب منه، كيف تتقرّب من الله عزّ وجل إذا لم تكن تحبُّ المال ؟ لأنك تحب المال، وإذا أنفقت المال في سبيله تشعر بالقرب، تشعر بالمؤاثرة، تشعر بأنك فعلت شيئاً عظيماً، لو أن هذا المال لا يساوي عندك إلا التراب فما قيمة إنفاقه ؟ كيف ترقى بغض البصر إن لم يحبّب إليك الله النساء ؟ ما قيمة غضّ البصر ؟ تغضُّ البصر فترقى إلى الله عزّ وجل، يتزوج الإنسان فيرقى، يرقى بالزواج شكراً، ويرقى بغض البصر صابراً، تكسب المال الحلال فترقى، ترقى شاكراً، وتترَفّع عن المال الحرام فترقى صبراً، تكظم غيظك فترقى صابراً، لولا أنك تغضب، فما قيمة كظم الغيظ ؟ لولا أنّك تستغفر فما قيمة الحلم ؟ لولا أنك تخاف فما قيمة التوَكّل ؟ إذاً الله سبحانه وتعالى حينما أودع فيك هذه الشهوات إنما أودعها فيك لترقى إلى رب الأرض والسماوات.

5 – حرية الاختيار:

وحينما منحك حرية الاختيار:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

لولا هذه الحرية التي مَتَّعَكَ الله بها لما استطعت أن تُثَمِّن أعمالك، وما قيمة الأعمال إذا كنت مُكْرَهاً عليها ؟ فمهما كان العمل عظيماً، ومهما كان جليلاً، ومهما كان خطيراً، إذا كنت مكرهاً عليه فلا قيمة له، إنه عملٌ ساقط لا قيمة له إطلاقاً، إذاً: ألا ينبغي أن تقرأ كتاباً لتعرف من أنت ؟ لماذا أنت في الدنيا؟ لماذا أنعم الله عليك بنعمة الإيجاد ؟ من أجل أن يرحمك:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية 119)

لماذا أنعم الله عليك بهذه الشهوات ؟ من أجل أن ترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، لماذا أنعم الله عليك بحرية الاختيار ؟ من أجل أن تُثَمِّن عملك، ما قيمة العمل من دون حرية ؟ لماذا فطرك فطرةً عالية ؟ أيُّ إنسان في أي مكانٍ وزمان نفسه تحب الفضيلة، تحب الخير، تحب الإنصاف، تحب العدل، تحب الرحمة، تحب العفاف، تحب النزاهة، تحب اللُّطف، هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لماذا ؟ من أجل أن تكون فطرتك عوناً لك على طاعة ربك، فإذا انحرفت عن منهج الله عزّ وجل عَذَّبَك ضميرك، كما يقولون، أو عذّبتك فطرتك، أو ضاقت نفسك، فإذا أقبلت على الله، وطبَّقْت أمره ارتاحت نفسك، هذا هو السر.

6 – المنهج الإلهي:

فيا أخي الكريم، لا بدّ من منهجٍ إلهي، لا بدّ من بيان إلهي، لا بدّ من كتابٍ كريم فيه تفصيل كلُّ شيء، فيه بيان كل شيء، إنه هذا الكتاب، المشكلة يجب أن تؤمن إيماناً قطعياً، إيماناً يقينياً، إيماناً لا ريب فيه، لا شك فيه، لا تردد فيه، لا حرج فيه، لا ضبابية فيه، يجب أن تؤمن هذا الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله، لأنك إذا آمنت بأن هذا الكلام كلام الله فهذا الإيمان يحملك على طاعة الله، بادئ ذي بدء حباً بذاتك، حباً بوجودك، وسلامة وجودك، واستمرار وجودك، وكمال وجودك، هذه هي الفطرة، أنت كعبدٍ جاءك هذا الخطاب، فإن كان من عند الله، وخالفت أمره أهلكت نفسك في الدنيا والآخرة، وإن كان فرضاً كما يَدَّعي المدعون من عند غير الله، ونفَّذْت ما فيه فقد حرمت نفسك ملذات الدنيا ومباهجها على حد قول الملحدين.

إذاً: القضية الكبرى في حياتك أن تعرف أن هذا الكلام كلام الله بالدليل، لذلك لا يقبل أهل السنة والجماعة الإيمان إذا كان تقليداً، لماذا ؟ يمكن أن تقلد مؤمناً في بعض تصرفاته، هذا مقبول منك، من قلّد عالماً لقي الله غانماً، أما أن تقلِّد الآخرين في العقيدة فهذا شيء غير مقبول، لماذا ؟ لو جاء إنسان مضل، وله مظهر صالح فقلدته في عقيدته الفاسدة فقد أهلكت نفسك، فلا بدّ من أن تتأكّد من صحة عقيدتك، لأن أهم موضوع بعد إيمانك بوجود الله، وبأسمائه الحسنى أن تؤمن بأن هذا الكلام كلامه.

ما هو الدليل على أن القرآن كلام الله تعالى ؟

ما هو الدليل الأكبر على أن هذا الكلام كلام الله ؟ أكبر دليل أنّ الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات الكريمة يقول:

(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

(سورة الطور)

الدليل هو أن هذا القرآن مُعْجِز، معنى معجز أن البشر يعجزون أن يأتوا بمثله، وما دام معجزاً إذاً فهو معجزةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، لأن الله سبحانه وتعالى حينما يُرْسل رسولاً أو نبياً.

كيف يشهد للناس أن هذا الإنسان هو رسوله ؟

الأنبياء السابقون: مثلاً حينما أرسل الله سيدنا موسى إلى فرعون، فقد زوّده الله بدليلٍ يؤكِّد صدق نبوته ورسالته، الله سبحانه وتعالى جعل العصا تنقلب ثعباناً بين يديه، هل بإمكان كلّ بني البشر مجتمعين أو منفردين في أيّ عصرٍ أن يصنعوا من العصا ثعباناً ؟ لا، أما سحرة فرعون فإن حبالهم وعصيهم كانت وهماً وخيالاً في نظر موسى عليه السلام، قال تعالى:

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

(سورة طه: آية 66)

ولكن سحرة فرعون حينما رأوا العصا تنقلب ثعباناً مبيناً كبّروا إيماناً، وقالوا:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

(سورة طه)

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48))

(سورة الشعراء)

معجزات الأنبياء:

هم جاءوا بأنابيب، ووضعوا فيها الزئبق، وضعوها على أرض مُحَمَّاة، فتمدَّدَ الزئبق، وتحرك، فحرَّك هذه الأنابيب، وكأنها أفاعٍ، أما حينما رأوا العصا تنقلب إلى ثعبانٍ حقيقي عرفوا أن هذا ليس بسحر، بل هذا نبيٌّ من عند الله حقاً، لأن هذا الفعل لا يستطيعه إنسانٌ كائناً من كان، إذاً بشكل مُبَسَّط حينما يرسل الله إنساناً نبياً رسولاً إلى قومٍ فإنه يزَوّده بالدليل، الدليل على أنه نبي، وعلى أنه رسول المعجزات، فالمعجزات أمرٌ يجريه الله على يدي نبي يفوق طاقات البشر، ويخرق قوانين الطبيعة وخواص المواد، ويتحدّى به النبي قومه، فلا يقدر أحدٌ على معارضته، هذا تعريف المعجزة، ولا يقدر أحدٌ على معارضته، و سُمِّيَت المعجزات أيضاً دلائل النبوة، أعلام النبوة، علامات النبوّة، وسمّاها القرآن البيّنة،

وسماها القرآن البرهان، وسماها القرآن الآية، إنها آيةٌ بينةٌ، برهانٌ، دلائل النبوة، أعلام النبوة، علامات النبوة، معجزات، أي شيءٌ خارقٌ لقوانين الطبيعة، فيه تجاوز لخواص المواد، لا يستطيعه الإنسان كائناً من كان، يتحدّى به النبي قومه سُمِّيَت ويدعوهم إلى الإيمان بالله عزّ وجل فهو.

كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى حينما أرسل الأنبياء والمرسلين زوّدهم بمعجزات حسّية، هذه المعجزات تتناسب مع طبيعة العصر الذي هم فيه، مع الشيء المتألِّق في هذا العصر، في عهد فرعون كان السحر قد بلغ شأواً رفيعاً، فجاء سيدنا موسى بمعجزةٍ تبطل سحرهم، في عصر سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام جاء سيدنا عيسى بإحياء الموتى، وهذا شيءٌ يفوق كل طاقات الطبيب، كان الطبُّ متفوقاً، ولكن في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كان قوم النبي عليه الصلاة والسلام قوم فصاحةٍ وبلاغة، قوم بيان، كانوا شعراء، كان عندهم أسواق للأدب، كانوا فُصَحَاء، كانت الفصاحة تجري على ألسنتهم كالماء العذب السلسبيل، لذلك جاءت معجزة النبي عليه الصلاة والسلام قُرْآناً يُتْلَى إلى يوم القيامة، والفرق كبير بين معجزة النبي عليه الصلاة والسلام التي هي القرآن والمعجزات الحسية التي جاء بها الأنبياء من قبله، تلك المعجزات وقعت، وانتهت، وأصبحت خبراً يصدِّقه المصَدِّقون، أو يكذِّبه المكذبون، ولكن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام هي قرآنٌ يتلى إلى يوم القيامة، بعد مئة عامٍ، بعد مئتي عام، بعد خمسمئة عام، بعد ألف عام، بعد ألفي عام، إلى يوم القيامة، هذه معجزةٌ قائمةٌ بذاتها بينةٌ واضحةٌ لكل ذي بصر.

الكرامة:

شيءٌ آخر أيها الإخوة، هذا ينقلنا إلى موضوع الكرامة ؛ هل هناك كرامة ؟ المعجزة فهمناها، هي خرقٌ لنواميس الكون، تجاوزٌ لخواص المواد، يتحدى بها النبي قومه، يؤكِّد بها نبوّته، يدعوهم إلى الله بها، ولكن الولي أله كرامة ؟ نعم، إن الكرامة ثابتةٌ بنَصّ كتاب الله عزّ وجل، ولكنّ الولي لا يتحدى بكرامته الناس، ولا يدعي بها النبوة، إنما هي في حقيقتها كرامةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، ولا يمكن أن تسمَّى الكرامة كرامةً إلا إذا كان هذا الذي أجراها الله على يديه متابعاً للنبي عليه الصلاة والسلام، فهذه الكرامة في حقيقتها تأكيدٌ لمعجزة النبي عليه الصلاة والسلام، فمثلاً إذا قال عليه الصلاة والسلام، إضافةً إلى التداوي عن طريق الطبيب:

((دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بالصّدَقَةِ))

[الجامع الصغير عن أبي أمامة بسند حسن]

فإذا وقع إنسان في مرض عضال، وقرأ حديث النبي عليه الصلاة والسلام وطبقه، ودفع جزءاً من ماله الثمين ابتغاء وجه الله عزّ وجل، لعلّ الله عزّ وجل يشفيه، أو يشفي ابنه، وتَمّ الشفاء بعد أن قال الأطباء:

إن هذا المرض لا شفاء له، ما اسمُ هذا الشفاء ؟ اسمه كرامة، ماذا يؤَكِّدُ ؟ يؤكد نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

فإذا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الأمانة غنىً))

[الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف]

فإذا كنت أميناً تغتني الغنى المادي، لأنك إذا كنت أميناً وثِق الناس فيك، وإذا وثِق الناس فيك فهذا أكبر رأس مالٍ تملكه، إنه ثقة الناس فيك، فإذا كنت أميناً وثق الناس فيك، إذا كنت أميناً، وأكرمك الله بالكفاية، ورزق الحلال الوفير فهذه كرامة، هذه كرامةٌ تؤكِّد نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا قال النبي عليه والسلام:

((بَشِّرِ الزاني بالفقر ولو بعد حين))

[ورد في الأثر]

إن أيّ إنسان في أعلى درجات الغِنى اتّبعَ الزنا فافتقر، هذا الفقر يؤكد نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ما ترَك عبدٌ أمرًا لله إلا عوّضه اللهُ خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند فيه مقال]

فإذا تركت شيئاً لله، والأمر يبدو لك صعباً، والطُرُقْ كلُّها مسدودة، سَدَّ الله عليك كل أبواب الحلال، فُتِحَ لك باب كسبٍ حرام، وأنت في أشد الحاجة لهذا المال، أنت على أحَرّ من الجمر لدرهمٍ واحد، جاءك مالٌ وفير من طريقٍ مشبوه، وطرق الحلال كلُّها مُغَلّقة، كُلّما فتحتَ باباً أغلق، كلما مشيت في طريقٍ سُدّ هذا الطريق، وقرأت هذا الحديث الشريف:

((ما ترَك عبدٌ أمرًا لله إلا عوّضه اللهُ خيراً منه في دينه ودنياه))

فإذا صدّقت كلام النبي، وأنت إذا صدقت كلام النبي صدقت نبوّته، لأن النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

إذا صدقت كلام النبي عليه الصلاة والسلام، وتركت هذا الشيء لله، ولم تعبأ بضيقك المادّي، فإذا بك فجأةً بعد حينٍ من الزمن قد فتح الله لك باباً لم يكن في الحسبان، هذه كرامة، كرامةٌ لمن ؟ كرامةٌ لك، لأنك تابعت النبي عليه الصلاة والسلام، وهي تأكيدٌ لنبوة النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك سيدنا سعد رضي الله عنه قال: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس، من هذه الأشياء الثلاثة: ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنّه حقٌ من الله تعالى >>.**

الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى عَلَمٌ من أعلام المسلمين، الفقيه الأول، العلماء جميعاً عالةٌ على هذا الفقيه الكبير، حديثٌ شريفٌ واحد أجرى في حياته انعطافاً تاريخياً، هذا الحديث النبوي الشريف:

((من طلب العلم تَكَفّل الله له برزقه))

[الجامع الصغير عن زياد بن الحارث الصدائي بسند فيه مقال]

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يُيَسِّر له أعماله، يرزقه رزقاً حلالاً طيباً بجهدٍ معقول، بجهدٍ قليل، بجهدٍ يتيح له أن يطلب العلم، أن يتعلّم العلم، لذلك حديثٌ شريف، يترك في نفس المؤمن أثراً طيباً، إذاً لابدّ من طلب العلم، لكن من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

فلو أنّ إنساناً حان وقت درس العلم، حان وقت مجلس العلم، فإذا شيءٌ يلوح له فيه كسب للمال، لو أنه فرضاً ترك مجلس العلم، ولحق هذا الكسب من المال، ما قولك في أن هذا الكسب يضيع منه، ويضيع منه مجلس العلم في وقتٍ واحد، فإذا آثرت دنياك على آخرتك خسرت الدنيا والآخرة، وإذا آثرت آخرتك على دنياك ربحتهما معاً، هكذا النبي قال

((ما ترَك عبدٌ أمرًا لله إلا عوّضه اللهُ خيراً منه في دينه ودنياه))

ومن ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

هذا رجل أكل المال الحرام ليعيش في بحبوحة، إنه رجل أنشأ عملاً فيه معصية لله عزّ وجل، أنشأ داراً يعصى فيها الله عزّ وجل، أنشأها، وربح منها أموالاً لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، وكان يخطط أنه إذا كبرت به السن وجد هذا المال الوفير ليقضي به حياته بشكلٍ رغيد، فإذا بمرضٍ خبيث يداهمه في وقتٍ مبكرٍ جداً، قال لي أحد تلامذتي، وهو قريبٌ له، وكان خاله: دخلت عليه فإذا هو يبكي، قلت: يا خالي ما يبكيك ؟ قال: يا بُني، جمعت هذا المال من أجل أن أستمتع به في خريف عمري، لكن هذا المرض عاجلني..، فمن ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

طبّقوا هذا الحديث، لا يمكن أن تبحث عن شيءٍ عن طريق معصيةٍ إلا فقدت هذا الشيء، وسقطت من عين الله عزّ وجل، وإذا بحثت عن شيءٍ يُرضي الله عزّ وجل رضي الله عنك، وأرضى عنك الناس، هكذا الحديث: كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى مُعَاوِيَةَ سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ))

[الترمذي]

فلا نبتعد كثيراً، لو أن إنساناً أرضى زوجته، وأسخط ربَّه، لابدَّ من أن يسخط عليه ربُّه، ولا بدَّ من أن تسخط عليه زوجته، لأنه أرضاها بسخط الله، إذا أرضى شريكه على حساب دينه، سيسخط الله عليه، وسيسخط عليه شريكه، فلذلك هذه الكرامة شيء رائع جداً، الكرامة أنَّك إذا طبَّقت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم تقطف ثمارها يانعةً، وقطف ثمارها كرامةٌ لك، وكرامةٌ رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتأكيدٌ لنبوّته، وتأكيدٌ لمعجزته.

إذاً: الكرامة ليس فيها تَحَدٍّ، وليس فيها إثبات نبوة، والولي الذي يجري الله على يده هذه الكرامة ليس بالضرورة أن يكون معصوماً، أما النبي حينما يجري الله على يديه معجزةً فلِيتحدَّى بها قومه، وليثبت بها نبوته، فهو بكل تأكيد معصومٌ من قِبَل الله عزّ وجل.

السِّحر:

وهناك شيءٌ ثالث يقودنا إليه الموضوع نفسه ؛ إنَّه السحر، الساحر يركب متن الفسوق والعصيان، الساحر فاجر، الساحر عاصٍ، والذي يأتي به لا علاقة له إطلاقاً لا بالكرامة، ولا بالمعجزة، إن الذي يأتي به من ضمن طاقة البشر، ولكنه بشر له مهاراتٌ خاصة، مهارات عالية جداً، من ضمن طاقة البشر، وطاقة الجن، وطاقة الحيوان، شيءٌ بإمكان المخلوق أن يفعله، إنسياً كان أو جنياً أو حيواناً، لكنّ المعجزة شيءٌ يفوق طاقة البشر، أمرٌ فيه خرقٌ لقوانين الكون، يجريه الله على يدي النبي الكريم ليثبت بهذا الشيء نبوته للناس.

إنّ الذي ساقنا إلى هذا الموضوع هو أن هذا الكلام كلام الله، قد نقرأه، وقد نستفيد منه، وقد نتبارك به، وقد نعجب بآياته، ولكن هل أنت مستعدٌ لهذا السؤال ؟

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ

ما الدليل على أن هذا الكلام كلام الله ؟ هل عندك دليل ؟ الحقيقة أن الآيات قد وردت في هذا الدرس:

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

(سورة القصص)

من جاءك بهذه الأخبار ؟ من تلا عليك هذه القصة ؟ من عرّفك بما حدث مِن آلاف السنين ؟ جاءت وقائع هذه القصص مطابقةً للواقع، لو أن هذه القصص من صُنْع النبي عليه الصلاة والسلام أو من تأليفه، وعند أهل الكتاب الكتب والقصص وما شاكل ذلك لكذّبوه فوراً:

(كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45))

(سورة القصص)

مراحل تحدي الله للناس بالإتيان بمثل القرآن:

شيء آخر أيها الإخوة الأكارم، كما قلت قبل قليل: ربنا عزّ وجل جعل هذا القرآن مُعْجِزاً، كما لا يستطيع إنسانٌ على وجه الأرض أن يجعل من العصا ثعباناً، أو أن يجعل البحر طريقاً يَبَساً، أو أن يجعل هذه النار المحرقة منطفئةً، أو برداً وسلاماً على إبراهيم، كما أنه لا يستطيع أي إنسان على وجه الأرض أن يصنع تلك المعجزات الحسية، كذلك لا يستطيع إنسانٌ على وجه الأرض أن يأتي بمثل هذا الكتاب، والدليل أن الله سبحانه وتعالى تحدّى الناس جميعاً:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء)

الآية الأولى:

(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

(سورة الطور)

الآية الثانية ربنا عزّ وجل خَفّف عنهم فقال:

(فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة هود)

الآية الثالثة خفف أيضاً فقال سبحانه:

(فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة يونس)

الآية الرابعة أخطر، قال عزوجل:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا)

(سورة البقرة)

هذه**(لن)**لتأبيد النفي، لا يستطيع أن يقولها إلا خالق الكون، الإنسان يقول لك: أنا أغنى الناس الآن، أما أن يقول إنسان: أنا أغنى الناس إلى الأبد، فهذا مستحيل، هذا ليس في طاقة البشر، الإنسان يقول: أنا أقوى الناس اليوم، أما أن ينفي أن يكون أحدٌ مثل قوته في المستقبل فهذا فوق طاقة البشر،

لكن الله سبحانه وتعالى قال:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا)

(سورة البقرة: آية 24)

بهذا الكلام تحدَّى الله سبحانه وتعالى العرب، وكانوا أعداء، ألِدَّاء، خصوماً، معاندين، وفعلوا كل شيء ليطفئوا رسالة النبي عليه الصلاة والسلام، فلو كان بمقدورهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بِعَشْرِ سورٍ من مثله، أو بسورةٍ واحدة لفعلوا.

وإليك أقصر سورة في القرآن:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3))

(سورة الكوثر)

هذه أقصر سورةٍ في القرآن الكريم، ربنا سبحانه وتعالى تحدَّاهم أن يأتوا بسورةٍ واحدة، ومع ذلك ما استطاعوا، إذاً أكبر دليلٍ على أن هذا الكلام كلام الله هو إعجازه، إعجازه بحثٌ طويل، وأتمنى على كلٍ منكم أن يفكِّر في هذا الموضوع، لأنه حينما يُفَكِّر في هذا الموضوع، ويمتلك الدليل القطعي على أن هذا الكلام كلام الله عندئذٍ يجد نفسه يطبِّق أمره، وينتهي عما عنه نهى، تماماً كما لو وضع في كفة خمسة كيلو، والكفة الثانية فيها خمسة غرامات من معلومات وقناعات لديك، هي غير متحرِّكة، عندك شيء من القناعات الخفيفة، عندك معلومات بسيطة تلقيتَها من المُعَلِّمين في المرحلة الابتدائية، سمعت بعض الخُطَب، سمعت بعض الدروس، هذه كلها غرامات لا تستطيع أن تقف في وجه هذه الشهوات التي رمزنا إليها بقوة خمسة كيلوات، فكلما تأمَّلت، كلما تعمَّقت، كلما درست، كلما بحثت، كلما ناقشت، كلما بحثت عن الدليل نَمَتْ معلوماتك، ونما إيمانك، وازداد هذا الوزن، فإذا كنتَ في بعض اللَّحظات تقف في طريق الشهوات ترتدع، وتستعمل المكابح، لأن هذا طريق الهلاك، فكلما نَمَتْ قناعات الإنسان انعكس هذا على سلوكه، كلما عرف الله أكثر أطاعه أكثر، لأن أرْجحَكم عقلاً أشدُّكم لله حبًّا.

الواقع شاهد على صدق القرآن:

بعض الأدلة على أن هذا الكلام كلام الله، الأدلة كثيرة جداً، فهذا الموضوع يحتاج إلى سنوات، عندنا إعجاز في مضمونه، هناك إعجاز تشريعي، كحكم قطع يدِ السارق، قبل أن نناقش الأمر مناقشة نظرية، في بعض البلاد المتقدمة بمقياس العصر في كل ثلاثين ثانية، وهذا رقم قرأته قبل عشر سنوات تقريباً، وهو إحصاء قديم، في كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة قتلٍ أو سرقةٍ أو اغتصاب، هذا إحصاء في عام واحد في بعض هذه البلاد المتقدمة بمقياس العصر، لا أقول: متقدمة إطلاقاً، قد تكون متأخرة جداً، لكن أقول: متقدمة بمقياس العصر، في بعض هذه البلاد جرى إحصاءٌ لعامٍ واحد فقط، تمَّ إحصاء ستة عشر

مليون سرقة وقعت في عام واحد، وفي بلاد أخرى تطبّق قانون قطع اليد، ترى العجب العجاب، ترى شيئاً لا يصدّق، ترى الأموال الطائلة توضع في أكياس على الشاحنات، وتنقَل من محافظة إلى محافظة.

فكما سُئل الإمام الشافعي:

يدٌ بعشر مئينٍ عسجدٍ وُدِيَتْ ما بالها قطعت في ربع دينارِ ؟

***

ديتها عشر مئات من الدنانير الذهبية، إذا قُطعت خطأً في حادث، فأجاب الإمام الشافعي فقال:

عزّ الأمانة أغلاها، وأرخصها ذُلّ الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

هذا إعجاز تشريعي، العالم بأنظمته الوَضْعِيَّة، بمشرّعيه، بحقوقييه، بأذكيائه، بقادته ما اهتدوا إلى أن قطع يد السارق ينشر الأمن في البلاد، لأن قطع يد السارق بمنزلة التطعيم، إذا رأى طفلٌ صغير يداً مقطوعةً معلّقة، وسأل أباه: ما هذا يا أبتِ ؟ وقال له أبوه: يا بني، هذا إنسان سرق فقطعت يده، فإن كراهية السرقة تسري في دم هذا الصغير، ويصبح المجتمع آمنًا.

أخطر شيء في المجتمع العدوان على المال وعلى العرض، لذلك أكثر الجرائم سببها عدوان على الأعراض، أو عدوان على الأموال، هذا الكلام كلام الله عزّ وجل، مِن عند حكيمٍ عليم، فصّلَ تفصيلات دقيقة في كسب المال، حرّم الربا، وأباح البيع، حرّم الغش، وحرم التدليس، وحرم الغرر، وحرم الغَبن، وربنا عزّ وجل في آيات كثيرة، والنبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة وضّح كلّ شيء في موضوع كسب المال، وأمر بغضّ البصر، وأمر بالزواج، ونهى عن السفاح، وأمر بالاستئذان، ومنع الخلوة، من أجل صون العرض، فلذلك في القرآن إعجاز تشريعي.

إنّ ما يعانيه الغرب الآن من هذا المرض العضال، مرض الإيدز معلومٌ لدى الجميع، بينما في المجتمعات المسلمة النظيفة العفيفة ـ والحمد لله ـ الناس في خير، وفي طُمأنينة، وفي دَعَة، هذا المرض الخطير، هذا الشبح الخطير بعيدٌ جداً عن بلادنا ـ والحمد لله رب العالمين ـ بفضل هذه النظافة الأخلاقية، بفضل هذا النظام، هذا المنهج، هذا الزواج الشرعي، وهذا البُعد عن كل انحرافٍ خطير.

تشريعات المعاملات في القرآن حكمة بالغة:

إذاً: في هذا الكتاب إعجاز تشريعي، علماء القانون في العالم، المُشَرّعون في العالم حديثاً وقديماً، القانون الروماني، قانون حَمورابي، قانون بلاد الفراعنة، ما اهتدوا إلى هذا التشريع، تشريع الزواج،

تشريع الطلاق، تشريع تعَدُد الزوجات، في مثل أيام الحروب وأيام الكوارث، تشريع المواريث، هل يعقل أن تضغط هذه القوانين المتناهية في التشعيب بآيات عدة في القرآن الكريم ؟ إذاً يمكن أن نقول: في القرآن إعجاز تشريعي، في ما جاء به من نظام، وغضّ البصر.

قرأت كتاباً ألّفه رجل من بلاد الغرب اسمه ألكسي كاريل، عنوانه: (الإنسان ذلك المجهول).. قرأت في هذا الكتاب جملة أدهشتني، هذا الكاتب بتأمُّلاته، وتصوراته، وبحثه عن الحقيقة اهتدى إلى أن خير نظام للحياة الاجتماعية أن يقصر الرجل طرفه على زوجةٍ واحدة، أن يقصر طرفه، ولم يقل: أن يبقى على زوجة واحدة، أي أن يغض بصره، ولم يقل: الله عزّ وجل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: آية 30)

هذه مدرسة، كيف أن الله سبحانه وتعالى ضماناً للسعادة الزوجية، وضماناً لهذا الإلف بين الزوجين، وضماناً لسلامة هذا العش الزوجي، أمر بغض البصر، وكل من يغضُّ بصره يعرف الثمرة، أولاً: يشعر أنه مع الله دائماً، لأن من غضّ بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه، فإذا كنت في الصلاة فأنت تصلِّي في اليوم خمس مرات، بينما أنت في موضوع غض البصر تتصل بالله في كل يوم آلاف المرات، كلّما مرّت أمامك امرأةٌ سافرةٌ متهتكةٌ، بدافعٍ مما أودعه الله فيك من شهوات يجب أن تنظر إليها، فإذا خِفْتَ مقام ربك، ونهيت النفس عن الهوى تشعر بهذا القرب من الله عزّ وجل، والمكافأة في البيت حينما يوفِّر الله لك مع أهلك سعادةً، حينما يبثّ في روع أهلك محبتك، وحينما يبث في رُوعك محبتهم، بفضل غض البصر، ففي القرآن إعجاز تشريعي، وتكفينا هذه الآية:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: آية 9)

هذا كلام مطلق، والمطلق على إطلاقه.

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

أقوم في حياتك الزوجية، وأقوم في حياتك الاجتماعية، وأقوم في حياتك التجارية، وفي حياتك الوظيفية، وفي حياتك الجسدية، وكلّما طبّقت آيات القرآن قطفت ثماره فوراً، هذا إعجاز تشريعي.

والله الذي لا إله إلا إن موضوع الإعجاز التشريعي يمكن أن يُمضي فيه الإنسان سنوات، فإذا وازن بين هذا التشريع العظيم والتشريعات الوضعية، فالمال كلّه لأكبر الأولاد عند بعض التشريعات الوضعية، ونصف المال للزوجة حين الطلاق، شيءٌ مخيف، لذلك يهجرها، ولا يطلِّقها، إنسان كد وعمل حتى جَمّع أموالاً طائلة، والمال شقيق الروح كما يقولون، لذلك إذا أراد أن يطلِّق امرأته تأخذ نصف ماله، فالأفضل عنده أن يهجرها، ويبقيها معلّقةً بلا تطليق.

إذاً: في القرآن إعجاز تشريعي، أنا لا أستقصي الآن، هذا الدرس لا يحتمل استقصاء، أضرب بعض الأمثلة، في القرآن إعجاز علمي.

صورٌ من إعجاز القرآن العلمي:

1 – الحوين المنوي:

الآن قد كشفوا أن الذي يحدد نوع الجنين هو الحوين المنوي، وليس البويضة، فهناك مورّثات ثلاثة وعشرين زوجاً، آخر زوج إما على شكل " X " أو " y " في الحوين المنوي، قال ربنا عزّ وجل:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

من نطفة لا من بويضة.

2 – وكل في فلك يسبحون:

وأشار القرآن إلى أن كل شيء يتحرّك، لذلك بدءاً من الذرة وانتهاءً بالمجرة:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

3 – دوران الأرض:

أشار إلى دورة الأرض حول نفسها فقال:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

(سورة النمل: آية 88)

4 – ارتفاع الضغط بالارتفاع إلى السماء:

من صعد في عهد النبي عليه الصلاة والسلام إلى السماء وشعر بقلة الضغط، وشعر بأن دمه يكاد أن ينفجر !؟ هذا شيء ما عرفه الإنسان إلا بعد أن ركب الطائرة:

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

(سورة الأنعام: آية 125)

5 – الحاجز بين البحرين:

ففي كتاب الله إشارات علمية كثيرة جداً كُشِفَت وعُرِفَتْ الآن:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(سورة الرحمن)

علماء البحار الآن اكشفوا أن بين كل بحرين برزخًا، حاجزًا وهميًّا، يمنع اختلاط البحرين، لكلّ بحرٍ ملوحته، وكثافته، وحرارته ومكوّناته، ولا يختلط هذا بهذا، وكذلك لكل بحر لونه، إذا ركبنا الفضاء، أو ركبنا المركبات الفضائية أو الطائرات رأينا بين البحر الأحمر والخليج، والبحر العربي خَطًّا، وبين البحر الأسود والأبيض كذلك ترى خطاً، وبين الأطلسي والمتوسط تجد خطاً أيضاً.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

البرزخ، والذرة، والحوين، والشمس.

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)

(سورة يس: آية 38)

إذ ا كان هذا هو القرآن فلماذا أنتم عنه معرضون ؟!

من رأى هذه الحقيقة ؟ لم تُرَ إلا في العصور المتأخِّرة، هذا إعجاز علمي، والحديث عن إعجاز القرآن العلمي حديثٌ طويلٌ جداً لا يكفيه أشهرٌ، وإن شاء الله تعالى في درسٍ قادم نتابع بعض هذه الألوان من إعجاز كلام الله عزّ وجل، حتى نتثبت، ونعلم أن هذا الكلام كلام الله، فإذا جاءك خاطب لابنتك وكان دِينُه رقيقًا، وجاءك خاطب آخر، وهو مؤمن، فإذا كنت مؤمناً بهذا الكلام أنه من عند خالق الكون فلابدّ أن تأتمر بأمر الله عزّ وجل وبنصيحته.

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: آية 221)

أما إذا كنت لا تعلم أن هذا الكلام كلام الله فإنك عندئذٍ تبحث عن الغنى، وعن الشكل، وعن المال، وما شاكل ذلك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (07-18): تفسير الآيات 43 - 46
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-07-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة القصص، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قول تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً...

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة القصص)

1 – وقفة مع: بَصَائِرَ وهُدًى رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

لابدَّ من وقفةٍ عند كلمة:

(بَصَائِرَ)

وعند كلمة:

(هُدًى)

وعند كلمة:

(رَحْمَةً)

وعند كلمة:

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

إن الله سبحانه وتعالى يصف الكتاب الذي أُنزل على سيدنا موسى، بل إن هذا الوصف ينطبق على كل كتابٍ سماوي، خالق الكون خلق الإنسان في أحسن تقويم، خلقه ليُسعده في حياةٍ أبدية، جاء به إلى الدنيا كي يستعدَّ لهذه الحياة الأبدية، لابدَّ من بيانٍ إلهي، لابدَّ من خطابٍ إلهي، لابدَّ من تنويرٍ إلهي.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور)

لابدَّ من توجيهٍ إلهي، لابدَّ من دستورٍ إلهي، لابدَّ من قانونٍ إلهي، الدستور والقانون والتوجيه، والبيان والإرشاد والخطاب، إنَّه جوهر كتاب الله عزَّ وجل، جوهره، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ)

(سورة القصص: آية 43)

2 – ما معنى: القرون الأولى ؟

القرون الأولى: قوم نوحٍ وعادٍ وثمود.

3 – معنى: بصائر:

بصائر جمع مفردها بصيرة، مدائن مدينة، وبصيرة على وزن فَعِيلة، وفعيل صيغةٌ من صِيَغ مبالغة اسم الفاعل، يعني الشيء الذي يبصر، الشيء الذي يجعلك تبصر.

4 – من مقتضيات (بصائر):

فكأنّ الله سبحانه وتعالى أنزل على رسله الكتاب كي نبصر الحقيقة، مع أن الله سبحانه وتعالى زَوّدنا بعقلٍ متطابقٍ تطابقاً تاماً مع الكون، وخلق الكون وفق سنن، لكل شيءٍ سبب، ولكل شيءٍ غاية، ولا يتناقض الشيئان، هذه سنةٌ ثابتةٌ من سنن الكون، وأودع فينا العقل كذلك، هذا العقل البشري جهاز إدراك، فهو قوةٌ مدركة، فلا تفهم الأشياء من حولها إلا بأسبابها، ولا تفهم الأشياء من حولها إلا بغاياتها، ولا تقبل التناقض، إضافةً إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون تجسيداً لأسمائه الحسنى، خلق في الكون آياتٍ لا تعدُّ ولا تحصى تدل عليه، وأودع فيك العقل، وزوّدك بفطرةٍ سليمة، ترتاح إذا عرفتَ الله، وسرت على منهجه، وفوق كل ذلك أنزل على رسله الكُتُب من أجل أن ترى، إن لم تر بعقلك، إن لم تر بفطرتك، إن لم تر بالحوادث رأيت بالكتاب، كأن الله سبحانه وتعالى نوّع مصادر الهدى ؛ يمكن أن تصل إلى الله بعقلك، ويمكن أن تصل إليه بفطرتك، ويمكن أن تصل إليه من خلال استقراء الحوادث، ويمكن أن تصل إليه من خلال الكُتُب التي نزّلها على رُسُله، فلذلك يقول ربنا عزّ وجل:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ)

(سورة القصص: آية 43)

5 – الكتاب بصائر وتبصرة:

إنّ الكتاب يُعينك على أن تبصر، يدعوك إلى أن تبصر، يجعلك تُبصر، بصائر جمع بصيرة، وبصيرة على وزن فعيلة، مؤنّث بصير، وفعيل بمعنى فاعل، صيغة مبالغة اسم الفاعل، فإذا عرفت الله عزّ وجل

من خلال هذا الكتاب، وعرفت لماذا أنت في الدنيا، أين كنت ؟ وإلى أين المصير ؟ وما مهمّتك في الدنيا ؟ وما طبيعة الحياة الدنيا ؟ ما جوهرها ؟ ولماذا خلقت ؟ إذا عرفت ذلك كله كان هذا الكتاب هدىً لك في الوسائل، الكتاب بَصَّرَك بالغايات، والكتاب هداك إلى الوسائل، بيّن لك الكتاب كيف تُعامل الآخرين ؟ كيف تأخذ ما لك ؟ وتعطي ما عليك، كيف تتزوّج، كيف تُزَوّج ؟ كيف تبيع ؟ كيف تشتري ؟ كيف تعامل الناس ؟ كيف تتصل بربك، بعد أن كان الكتاب بصائر لك في تعريفك بوجود الله، وأسمائه الحسنى، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة، ولمحة عن الماضي، ولمحة عن المستقبل.

الآن يعود الكتاب هادياً لك في المنهج التفصيلي، لذلك:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: آية 9)

لذلك:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

هذا كلام رب العالمين، كلام الذي خلق الإنسان..

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ)

فلا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يمكن أن ترى حادثةً، أو حالةً، أو شخصاً اتبع هدى الله عزّ وجل وشقيت نفسه أو ضل عقله، هذا كلام الخالق، مصداقيّته مئة في المئة.

يا أيها الإخوة الأكارم.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى)

(سورة القصص)

6 – الرحمة من نتائج كون الكتاب بصائر:

إذا عرفت الله عزّ وجل، واهتديت إلى ما يرضيه جاءتك الرحمة، لأن الرحمة مشروطةٌ بتطبيقه، فالكتاب بَصَّرَكَ بالحقيقة الكبرى في الكون ؟ بَصَّرَك بحقيقتك ؟ بَصَّرَك بمهمتك ؟ والكتاب هداك إلى الوسائل، إلى كل منهج تفصيليّ يحقق لك الغايات، فإذا عرفت الله عزّ وجل، وسرت على منهجه التفصيليّ كان الكتاب رحمةً لك.

وكلمة:

(رَحْمَةً)

من أوسع الكلمات، يرتاح جسمك، وترتاح نفسك، ويطمئِنُّ قلبك، وتسعد نفسك، ويستقرُّ فكرك، وتسكن أعضاؤك، وتستقرُّ في بيتك، إنها رحمة، وكلمة:

(رَحْمَةً)

تعني الشيء الذي ترتاح له، الشيء الذي يريحك.

7 – الرحمة مطلب كل البشر:

والإنسان لا يرتاح، ولا يطمئن، ولا تسكن نفسه إلا إذا كان مستنداً إلى قَويّ، إلا إذا طمأنه القوي على مستقبله، والناس الآن يبحثون عن الطمأنينة، يبحثون عنها في بعض الخُرافات أحياناً، هذا الذي يأتي المُنَجِّم أو المُنَجِّمة يبحث عن ماذا ؟ إنه يبحث عن الطمأنينة، وقد يبحث عن الطمأنينة من خلال مالٍ يُجَمِّعُهُ، وقد يبحث عن الطمأنينة من خلال علاقاتٍ متينةٍ مع شخصيَّاتٍ مهمةٍ يُقِيُمها، وقد يبحث عن الطمأنينة من خلال عنايةٍ فائقةٍ بجسده، إنه في النهاية يبحث عن الطمأنينة، ولكن الطمأنينة الحقيقية لا يملكها إلا الله عزّ وجل، فإذا كنت معه منحك إياها:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنعام)

مَن هم ؟ مَن هو الفريق الذي يستحقُّ الأمن ؟ الأمن كلمة دقيقة جداً، الأمن شيء، والسلامة شيء، السلامة عدم حدوث الخطر، ولكن الأمن عدم توقُّع الخطر، وأنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوَقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

واللهِ الذي لا إله إلا هو ما من نعمةٍ على وجه الأرض تفوق نعمة الأمن، ولا أمن إلا بالقرب من الله عزّ وجل، قد تطمئن بالمال فتأتي مصيبة لا يُجْدي فيها المال، أو مرضٌ عضال، ماذا يفعل هذا المال ؟ أنت مطمئنٌ بالقوة، فتأتي مصيبة لا تنفعها القوة، أنت مطمئنٌ بالصحة، أنت مطمئنٌ بالأولاد، فأيُّ مصدرٍ إذا اعتمدتَه ليكون مصدر أمنك غير الله عزّ وجل يجعله الله تأديباً لك، ومصدر قلقٍ لك، والجهة التي اعتمدتها جهةً لأمنك تغدو بالشرك بالله جهة قلقك:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

ألم يذكر الله عزّ وجل أن من نعمته على قريش أنه هو:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

إذا فقدت نعمة الأمن لا ينفع المال، ولا تنفع القوة، ولا تنفع العشيرة، ولا ينفع شيءٌ من هذا القبيل، لذلك حينما يفقد الإنسان رحمة الله عزّ وجل يبحث عن الطمأنينة في مظانٍ ليست صحيحة، يبحث عنها عند الأقوياء، يبحث عنها عند الأغنياء، يبحث عنها في المُتَع الرخيصة، يبحث عنها في مباهج الدنيا، ولكنّ هذه المصادر كلها مصادر مزيفة، والمؤمن وحده هو الذي ينعم بالأمن، وإنّ الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خَلقه، ولكنه يُعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

إذاً: من خصائص الكتاب أنْ يُبَصِّرك بالهدف الكبير، وبالحقيقة الكبيرة، وبحقيقتك وحقيقةِ الدنيا، وهذا الكتاب يهديك إلى المنهج التفصيلي في كل شؤون حياتك، مضافاً إليه السنة النبوية، لقول الله عزّ وجل:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: آية 7)

وإذا آمنت بمضمون الكتاب، واتبعت منهجه يصبح رحمةً على قلبك، والرحمة في الدنيا غايةُ كلّ حيّ، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت: آية 30)

(وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة القصص)

كلما جاءت في القرآن الكريم كلمة لعلّهم يتذكرون:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

(سورة عبس)

هذه إشارةٌ دقيقة إلى الفطرة، فأنت بالفطرة مؤمنٌ بالله عزّ وجل، فإن لم تؤمن تضايقت نفسك، وشعرت بالقلق، وشعرت بالضياع، وشعرت بالتمزُّق، وشعرت بتفاهة الحياة، ولا ترتاح النفس إلا إذا عرفت ربها، هكذا فُطِرَت، هكذا جُبلت، هكذا صُمِمّت، هكذا خُلقت، لذلك فالإسلام دين الفطرة، والدين الذي يتطابق مع طبيعة الإنسان تطابقاً كُلِّياً هو الإسلام، فإذا بحثت عن الإسلام بحثت عن فطرتك، وإذا بحثت عن الإيمان بحثت عن طبيعتك، إذا طبّقت مبادئ الدين قطفت الثمار اليانعة، لذلك:

(وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة القصص)

8 – لعلهم يتذكرون

أنت لا تقول لإنسان: تذكر هذه الحادثة، إن لم تقع الحادثة، تذكر هذا المنظر، إن لم ير هذا المنظر، قد تُطلع الإنسان على منظر فتقول: انظر إلى هذا المنظر، هذا مقبول، أما أن تقول له: تذكّر هذا المنظر، معنى تذكّر هذا المنظر أيْ قد رأيته من قبل، لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

(سورة عبس)

كان الله تعالى يقول: أنا حينما خلقتكم، وحينما فطرتُكم، فطرتكم على معرفتي، وجعلت فطرتكم لا ترتاح إلا بمعرفتي، فإذا عرفتموني فقد سعدت نفوسكم، من هنا قال الله عزّ وجل في الأثر القدسي:

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

إذاً: هذه معنى:

(بَصَائِرَ)

ومعنى:

(هُدًى)

ومعنى:

(رَحْمَةً)

ومعنى:

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة القصص)

ذكرتها لك فاملأ نفسك وقلبك وعقلك منها.

في القرآن الكريم إعجاز في المضمون وفي الشكل:

كما قلت في الدرس الماضي: في القرآن الكريم إعجاز، الله سبحانه وتعالى أرسل أنبياءه، وأرسل رسله، ولابدّ من أن يعطيهم دليلاً على أنهم أنبياؤه، لابدّ من أن يعطيهم دليلاً على أنهم رُسُلُه، ما الدليل ؟ الدليل هو المعجزات، لا يستطيع مخلوقٌ على وجه الأرض كائناً من كان أن يجعل العصا ثعباناً مبيناً، فإذا جاء إنسان، وألقى العصا التي بيده فإذا هي ثعبان مبين، إذاً هذا مؤَيَّدٌ من خالق الكون، فالمعجزة في أصلها دليلٌ قطعيٌ على نبوّة النبي ورسالة الرسول، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو

معجزة النبي عليه الصلاة والسلام، إنه يدُلُّ على أن النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله، لكنّ هذا الكتاب معجزةٌ باقية، بينما معجزات الأنبياء السابقين حادثة وقعت، وانتهت، وأصبحت خبراً، أكرر: هذا الكتاب معجزةٌ باقية، وقد تحدثت في الدرس الماضي، عن أن إعجاز القرآن موضوعٌ كبيرٌ جداً لا تكفيه دروس ولا حلقات، ولكن بشكل مختصر هناك إعجازٌ في المضمون، وهناك إعجازٌ في الشكل.

1 – الإعجاز في المضمون:

في المضمون: التشريع الذي في القرآن شيءٌ معجز، البشرية مع تطورها، ومع تداخل التأثيرات فيها، مع انتقالها من طورٍ إلى طور، يبقى تشريع القرآن الكريم تشريعاً صالحاً لكلّ زمانٍ ومكان، وقد ضربت على هذا بعض الأمثلة، كيف أن القرآن الكريم أمر بقطع يدِ السارق، والمجتمعات الحديثة التي تدّعي أنها مجتمعاتٌ متألِقة في كل ثلاثين ثانية ترتكب فيها جريمة اغتصاب، أو قتلٍ، أو سرقة، هذا في مجتمعات الغرب، وفي مجتمعات الشرق اهتدوا بعد فوات الأوان، وبعد أن دفعوا الثمن باهظاً إلى أنه لابدّ من تحريم الخمر، المجتمعات الآن في شرقها وغربها تقترب من الإسلام، لا حباً بالإسلام، ولا إيماناً به، ولكنها مُضْطَرّة، لأن الحل الإسلامي هو الحلُّ الأمثل.

إذاً هذا الكتاب الكريم مُعْجِز في تشريعه، مُعْجزٌ في قضاياه العلمية.

ليس في القرآن آية مناقضة للحقائق العلمية المقطوع بها:

أولاً: ما في القرآن الكريم آيةٌ واحدةٌ جاءت حقيقةٌ علمية وناقضتها، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لوجد الإنسان فيه نقصاً وخللاً.

مثلاً: من يخطر في باله في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن هناك وسائل للنقل حديثة سوف تكون، كانت الحياة يومئذ تقوم على الناقة، وعلى الحصان، وعلى الدوابِّ، يقول ربنا عزّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: آية " 8)

صورٌ من إعجاز القرآن من حيث المضمون:

1 – وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ

لو أن الآية انتهت عند هذا الحد، وجاء الإنسان المعاصر، وركب الطائرة، وركب السيارة، وركب

الباخرة، وركب هذه الوسائل السريعة، وقرأ الآية، والنبي عليه الصلاة والسلام مهما كان عبقرياً، مهما كان ذكياً، مهما كان متفوقاً فلا يستطيع أن يَخْرِقَ المجهول، لكن الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة قال:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

قولُه:

(وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

غَطّت كل الوسائل، إنه كتاب خالق الكون.

2 – أنثى العنكبوت هي التي تبني البيت:

في عهد النبي ما كان للعلم أن يعرف أن العنكبوت زوجان: ذكرٌ وأنثى، وأن الأنثى هي التي تبني البيت، لكن ربنا سبحانه وتعالى قال:

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً)

(سورة العنكبوت: آية 41)

بتاء التأنيث الساكنة، ولم يكن هذا معروفاً على عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

3 – قلة الضغط الجوي بالصعود إلى السماء:

لم يكن معروفاً على عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن الإنسان إذا صعد في الطبقات العليا من الجو قلّ الضغْطُ، وشعر بالضيق الشديد:

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

(سورة الأنعام: آية 125)

هذا من إعجاز القرآن العلمي.

4 – نوع الجنين يحدده الحُوين المنوي:

ما كان أحدٌ يعرف أن نوع الجنين يحدده الحُوين المنوي:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

5 – كل شيء يدور حول نواةٍ:

ما كان أحدٌ يعرف في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن كُلّ شيءٍ يدور حول نواة، قال تعالى:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة الأنبياء: آية 33)

6 – جريان الشمس:

ما كان أحدٌ يعرف في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن الشمس تجري:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة يس)

طبعاً المجال لا يتسع لاستقصاء الآيات، لكن أضربُ بعض الأمثلة، لأن القرآن طافحٌ بآياتٍ لا حصر لها تُبَيّن أن هذه الآيات لا يمكن إلا أن تكون من عند خالق الكون، لذلك قال الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه:

<< في القرآن آياتٌ لَمّا تُفسّر بعد>>.

إذاً في المضمون فيه إعجازٌ علمي، وفيه إعجاز تشريعي، وفيه إعجاز إخباري، القرآن فيه حديثٌ عن غيب الماضي، وآيات غيب الماضي، ليست أخباراً عن الماضي فحسب، بل إشارة إلى هذا العقل البشري، أنْ أيها الإنسان فَكِّر، هذا النبي الأمّي الذي ما قرأ، وما كتب، وما حَصّل من ثقافة عصره شيئاً، ولا اتصل، بل عاش في صحراء، عاش في البادية، من أين له هذه الأخبار الدقيقة ؟ من أين له أن يأتي بأخبار سيدنا موسى مع شعيب ؟ وسيدنا موسى مع فرعون ؟ مِن أين له أن يأتي بقصّة مريم الصديقة ؟

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ)

(سورة القصص: آية 44)

الإعجاز الإخباري في القرآن الكريم:

أي حينما حَمّلناه التوراة التي فيها الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وما كنت أنت يا محمد معه، فمِن أين جئت بهذه الأخبار ؟ ألستَ نبي الله ؟

(وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

ما حضرتَ معه المناجاة:

(وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)

(القصص: آية 45)

أيْ أنه جاء من بعد سيدنا موسى أقوامٌ وأقوامٌ وأقوام تطاول عليهم العُمُر، وأنهم نسوا حظاً مما ذُكِّروا به، وأنهم نسوا كتاب الله، نسوا التوراة التي أُنزلت على نبيّهم، إذاً يقتضي الأمر أن يبعث الله عزّ وجل في كل حِقْبةٍ رسولاً، حينما تضيع معالم الحقيقة، حينما يفرّغ الدين من مضمونه، حينما يغدو الدين طقوساً لا معنى لها، حينما تصبح الديانة شيئاً لا مغزى له يأتي نبيٌّ جديد ليجدد لأمتي دينها:

(وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً)

معنى:

(ثَاوِياً)

أي مقيماً.

(فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

كلمة:

(وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

أي أن إرسال الله الأنبياء والرسل سنةٌ ثابتةٌ من سننه تعالى. وهناك آيات أُخرى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

(وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

(سورة القصص)

أي تقتضي رحمة الله عزّ وجل، وتقتضي عدالته، وتقتضي حكمته، ويقتضي علمه أن يُرسلَ للناس في كل حينٍ رسولاً يرشدهم إلى ربّهم:

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا)

(القصص: آية "46)

إنها آياتٌ بعضها يأخذ برقاب بعض، بعضها يؤكِّد بعضها الآخر.

إخبار القرآن عن غيب الماضي والحاضر والمستقبل:

إن ما في هذا القرآن من أخبار، ما فيه من قِصَص، ما فيه من حوادث وقعت في الماضي السحيق، في الماضي البعيد، ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام أن يَعْرِفها، فطبيعته، وصحراؤه التي عاش فيها، وبيئته التي نشأ فيها، وانقطاعه عن العالم الخارجي، وأُمِّيَّتَه، وطبيعة المكان الذي نشأ فيه ما كانت تسمح له أن يطّلع على هذه الأخبار، هذا غيب الماضي.

وأما غيب الحاضر فكل مؤامرات اليهود التي حاكوها أنبأه الله بها في حياته، وقد تآمر أعداء النبي عليه الصلاة والسلام تآمروا على أن يباغتوه، وهو يصلِّي مع أصحابه، فجاءت آيات الصلاة في أثناء الحرب تكشف نواياهم الخبيثة.

عُمَيرُ بن وهب قصته معروفة، فقد تآمر مع صفوان بن أميَّة على أن يقتل النبي عليه الصلاة والسلام، فعندما قَدِمَ المدينة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يا عمير ألم تقل لصفوان كذا وكذا وكذا ؟))

فاعترف بما كان بينه وبين صفوان، وأسلم من فوره.

ففي السيرة المطهَّرة، وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة تشيرُ إلى غيب الحاضر، وآياتٌ كثيرةٌ كثيرة تشيرُ إلى غيب المستقبل.

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ)

(سورة الروم)

إنّ فتحَ مكة من غيب المستقبل:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ)

(سورة البقرة: آية 142)

هذه من غيب المستقبل، وفعلاً فقد قال السفهاء، ولو أن هؤلاء السفهاء سكتوا لنقضوا القرآن الكريم، قال عنهم: إنهم سفهاء، وقد قالوا ما قال الله عنهم، لو أنهم فكَّروا وسكتوا لأصبح كلام الله باطلاً:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

(سورة البقرة: آية 142)

هذه الآية من إعجاز القرآن في الإخبار بالمستقبل، وثمة آياتٌ كثيرة تتحدَّث عن المستقبل، والحديث عن علامات الساعة:

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ)

(سورة الإسراء: آية " 104)

تتحدث عن اليهود، وما سَيَطالهم في المستقبل.

(جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً)

هذا من غيب المستقبل:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

(سورة التوبة: آية " 33)

الآن الدين الإسلامي في بعض البلاد الغربية إما أنه الدين الثاني أو الثالث، وفي فرنسا عشرة ملايين مسلم، فإقبال الناس على الدين الإسلامي في شتَّى أنحاء العالم إقبالٌ منقطع النظير

لأن الإسلام يمثِّل الوسط، والكمال في الوسط، وكل المبادئ المتطرّفة تميل عن الوسط:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

(سورة التوبة: آية 33)

هذه الآية من غيب المستقبل، إذاً في القرآن آياتٌ فيها غيب الماضي، وآياتٌ فيها غيب الحاضر، وآياتٌ فيها غيب المستقبل، وهذه كلها من إعجاز القرآن الإخباري، هناك إعجازٌ علمي، وهناك إعجازٌ تشريعي، وهناك إعجازٌ إخباري.

من الإعجاز العلمي في القرآن: الإحكام الحسابي:

وهناك إحكامٌ حسابي، من يصدِّق أن كلمة (يوم) وردت في القرآن ثلاثمئة وخمساً وستين مرة، أي بعدد أيام السنة، وأن كلمة (شهر) وردت في القرآن اثنتي عشرة مرة، وأن كلمات (الجنة) تكافئُ كلمات (النار)، وأن كلمات (الدنيا) تكافئ كلمات (الآخرة)، وأن كلمات (الشياطين) تكافئ كلمات (الملائكة)، وأن كلمة (البَر) وردت في القرآن مع كلمة (البَحْر) بنسبة البرّ إلى البحر تماماً حتى في الأعشار، كلمة (البَرْ) وردت ثلاث عشرة مرة، وكلمة (البحر) وردت ثلاثاً وثلاثين مرة، ونسبة تسعة وعشرين في المئة تقريباً إلى واحد وسبعين هي نسبة البر إلى البحر، هذا إحكام عددي، وفيه أيضاً إعجاز رياضي، وإعجاز بلاغي.

لا يتسع المجال لا في درس ولا درسين، ولا في عام بأكمله للوقوف عند نقاط الإعجاز في القرآن الكريم، لكن كل نقطة من نقاط إعجازه تثبت للمؤمن أن هذا الكلام كلام الله، وأنك إذا أيقنت أن هذا الكلام كلام الله فيجب أن تأخذ به على أنه كلام الله، والله سبحانه وتعالى هو خالق الكون، وإليه المصير، فأنت أحياناً إذا ثبت لديك أن هذا الكلام كلام زيد من الناس، وتعرف مَن زيد، وما عند زيد من عطاء، وما عنده من عقاب، وإذا ثبت أن هذا الكلام كلامه، وأنّه يأمُرك بكذا، وينهاك عن كذا، فلماذا تنضبط ؟ ولماذا تفعل ما أمر، وتنتهي عما عنه نهى ؟ ليقينك بشيئين، بمن هو زيد، وأنّ هذا الكلام كلام زيد، هذا أنت تفعله وأنت لا تدري في تعامُلك اليومي، إذا لا تنسوا هذه الآية:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق: آية 12)

اختار الله عزّ وجل من بين أسمائه كلها القدرة والعلم، أيْ أنّك إذا أيقنت أن علمه يطولك، وقدرته كذلك تطولك ؛ قال سبحانه:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

هذا هو الله فاستقيموا:

فما من شيءٍ إلا وهو مُطّلِعٌ عليه، نياتك، أعماق نفسك، ما الذي تظن أنه لا يعلمه أحد ؟ خفايا مشاعرك، طموحاتك، أهدافك البعيدة جداً يعلمها، علمه يطولك، وقدرته تطولك، أنت كلك بيده، بدءاً من خلاياك، إلى أجهزتك، إلى أعضائك، إلى مشاعرك، إلى قلبك، إلى عقلك، إلى أهلك، إلى أولادك، إلى عملك، إلى من هم دونك، إلى من هم فوقك، كلهم بيده، إذا أيقنت أن علمه يطولك، وقدرته تطولك فلابدّ من أن تستقيم على أمره، ألا تستحيي أن تستقيم على أمر زيدٍ أو عبيد إذا أيقنت أن علمه يطولك وقدرته تطولك ؟!!

بربّك إذا كنت تقود مركبةً، والإشارة حمراء، وإلى جانب الإشارة ضابطٌ كبير في الشُرطة، وحوله الجنود مع درّاجاتهم النارية أتخترق هذه الإشارة الحمراء ؟ ضابط كبير في شرطة السير، وحوله الجنود، وهو يقف على هذه الإشارة بعيونٍ فاحصة، وأنت على الإشارة، أتخترق هذه الإشارة ؟ أتتخطاها مخالفاً ؟ لماذا لم تفعل ؟ وما من إنسانٍ على وجه الأرض فيه ذرة تفكير يَتَخَطّى الإشارة في هذا الظرف، أما بعد الساعة الثانية ليلاً فليس هناك شرطي، فَعِلْمُ واضع النظام في تلك الساعة لا يطولك، فأنت إذاً تتخطى، وقد تكون أحياناً أهم من هذا الذي يخالفك فتتخطى الإشارة، أما إذا أيقنت أن علمه يطولك، وقدرته تطولك فلن تخالف الأمر، ألا يستحيي المرء من الله عزّ وجل أن ينضبط مع إنسان، وأن يطبّق أمر زيد أو عبيد بدقة، بينما هو يعصي خالق الأكوان، حينما يعصي الإنسان ربه على ماذا يعتمد ؟ على صحته ؟ حينما يعصي الإنسان ربه على ماذا يعتمد ؟ على ماله ؟ على زوجته ؟ على أولاده ؟ على مكانته، على وظيفته، على قدرته ؟ كلُّها أمور جوفاء هزيلة، إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك ؟

لذلك أيها الإخوة الأكارم، هذا القرآن من عند الله، إذا أيقنت أنه من عند الله فلابدَّ من أن تأخذ مضمونه على محمل الجَدّ، يقولون: إن الكاتب العظيم هو الذي يؤلِّف كتاباً تقرؤه فتبدأ متاعبك، لماذا تقرؤه فتبدأ متاعبك ؟ لأن هذا الكتاب يضعك عند مسؤولياتك، ويبيّن لك الأخطار، لو أن إنساناً يشعر ببعض الضعف في صحّته، فالتقى طبيباً بارعاً، وقال له: هذه الأعراض بداياتٌ لمرضٍ خطير، فإنه لا ينام الليل، يفكِّر في العلاج، يفكِّر في الدواء، يفكِّر في الاحتياط، فكيف إذا كان الله عزّ وجل يقول لك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

(سورة التحريم)

أمر إلهي..

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

أنت لست مأموراً أن تتقي النار وحدك، بل عليك أن تتقي النار مع أهلك، مع زوجتك، مع أولادك، مع بناتك.

فيا أيها الإخوة المؤمنون، كلما عرفتَ الله عزّ وجل معرفةً أعظم عرفت خطر كلامه، قد يأتيك أمر معيَّن، والتوقيع من فلان، وهو برتبة عَريف، هذا الأمر لك منه موقف، فإذا كان الضابط الملازم فلان، فلك موقف آخر، فإذا كان ضابطاً ركناً، فلك موقف ثالث، وإذا كان له رتبة عالية جداً، وأنت جندي عنده فلك موقف رابع، أما إذا كان يحمل أعلى رتبة في الجيش، وبإمكانه أن يفعل بك ما يفعل، وأن يعطيك ما يعطيك، فكلّما علت الرتبة في التوقيع كان لك موقف آخر، فإذا كان الأمر من خالق الكون، مِن الذي إليه المصير:

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

ربنا عزّ وجل يقول للنبي عليه الصلاة والسلام:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً)

(سورة المدثر)

هذا الإنسان يا محمّد إن لم يستجب لك فدعه لي، أنا أعرف كيف أُداويه، أنا أعرف كيف أجعله يندفِعُ إلى بابي عقب مصيبةٍ مُرّة.

فيا أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو ما منا واحدٌ إلا وهو غالٍ على الله، ما منا واحدٌ إلا وهو مطلوب من الله عزّ وجل غالٍ فإما أن تأتيه مسرعاً بمحض اختيارك، وإما أن يسوقك الله إليه مسرعاً، لكن البطولة أن تأتيه وحدك مسرعاً، وأنت قويٌ، وأنت صحيحٌ، وأنت غنيٌ، وأنت معافى، من دون مصيبة، من دون مرض، من دون مشكلة.

هذا كله في إعجاز القرآن من حيث المضمون.

2 - إعجاز القرآن من حيث الشكل وصُوره:

أما إذا انتقلنا إلى إعجازه من حيث النظم والشكل، فحدِّث ولا حرج، هذا موضوع يحتاج إلى اختصاص، يحتاج إلى درس خاص، نظم القرآن الكريم، طريقته في تبليغ الأمر، طريقته في النهي، طريقته في العرض، نظمه للكلام، التقديم، التأخير، كيف يعدِل ربنا عزّ وجل عن الخبر للإنشاء ؟ وعن الأمر للوصف، وكيف ينتقل من المخاطب إلى الغائب ؟ وكيف في الآية الواحدة يخاطب العقل والقلب

معاً ؟ بنود إعجاز نظم القرآن بنودٌ طويلةٌ جداً، وعليها شواهد دقيقة، وتحتاج إلى اختصاص في اللغة، وأكتفي بشاهد واحد يوضح لكم بعض ما في كتاب الله من إعجاز، قال ربنا عزّ وجل:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الْأَرْضِ إلّا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: آية 6)

1 – تنكير الشمول: مِن دابّةٍ:

هذا قرآن، لماذا جاءت كلمة

(دَابّةٍ)

نكرة، ولم تأتِ معرفة ؟ لأن الله لو قال: الدوابُّ على الله رزقها، معنى ذلك أن الدواب التي تعرفونها، فـ (أل) التعريف، أو أنها (أل) العهد، أي الدواب الأليفة، أي الأنعام على الله رزقها، لكن الله عزّ وجل لما جاء بكلمة دابة جاء بها نكرة، فهذه إشارة إلى أن هذا التنكير تنكير شمول، تقول: طالبٌ، هذه الكلمة تنطبق على كل طالب في العالم، أما إذا قلت: الطلاب سوف نعطيهم الجوائز، تقصد أنت الطلاب المتفوقين، أو طلاّب هذه المدرسة، أو طلاّب هذا المسجد، إذا عَرّفت الكلمة خَصصتّها، فإذا نَكّرتها عممتها، فربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ)

هذا التنكير تنكير شمول، لكن إذا دخل معلم على طُلاّبه، وقال: سأعطيكم جوائز، هذا الكلام يشمل الحاضرين، ولا يشمل الغائبين، ثم تأتي كلمة (من).

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الْأَرْضِ إلّا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

فهذه:

(مِنْ)

تفيد استغراق أفراد النوع فَرداً فرداً، فإذا قال المعلم: ما مِن طالبٍ إلا وله جائزة، هذا الكلام شمل الغائبين، ومنهم اثنان غائبان يغطيهم، أما إذا قال: طلاّب هذا الصف لهم عندي جائزة، فالمقصود الحاضرين، إذاً لمّا نَكّر ربنا عزّ وجل كلمة:

(دَابّةٍ)

تنكير شمول أضاف لها:

(مِنْ)

لاستغراق أفراد النوع، ثمّ نفى واستثنى، لو قال: الدواب على الله رزقها، أي على الله نَكّر وعلى غير الله، ويقول لما ربنا:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

2 – تقديم ما حقه التأخير: إيّاك نعبد:

هنا في الجملة قصْر، فلو قال: نعبد إياك، لصار المعنى: نعبدك، ونعبد غيرك، أما:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ)

فتعني: لا نعبد إلا أنت، من تقديم المفعول به على الفعل، فصار في الجملة قصر، بأسلوب النفي والاستثناء:

(مَا مِنْ دَابّةٍ إلاّ)

إذاً الرزق مقصورٌ على الله عزّ وجل.

الآن لو قال الله عزّ وجل: ما من دابةٍ إلا الله يرزقها، فلا يعني على وجه الإلزام، فقد يرزقها، أو لا يرزقها، ولكن عندما قال:

(إلاّ عَلَى)

فإن (على) تفيد الإلزام، فكلمة (مِن) أعطت معنى، وكلمة (دابةٍ) أعطت معنى، وكلمة (من) حصرت في معنى محدد، ومثلها كلمة (ما) لها معنى، وكذلك كلمة (إلا) أفادت معنى.

ذات مرةٍ حاولت في هذه الآية أن أصيغها صياغة أخرى ؛ في اثنتي عشرة صياغة، فأشعر أن المستوى هبط فجأةً، فمِن حَذْفِ (من) هبط المستوى، ومن إلغاء القصر هبط المستوى، لذلك هناك إعجاز في نظم القرآن الكريم، والشواهد والدلالات على هذا البند كثيرة جداً، لكنها تحتاج إلى اختصاص، اختصاص في البلاغة، اختصاص في اللغة، في النحو، في الصرف، في بنية الكلمة، في أوزان الأفعال:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: آية 286)

3 – كسبت واكتسبت:

لماذا قال الله هذا ؟ لمَ لم يقل: لها ما كسبت، وعليها ما كسبت ؟ أو لها ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت ؟ هذا موضوعٌ دقيقٌ جداً، الفرق بين كَسَبَ وبين اكتسب كالفرق بين فَعَلَ وافتعل، الفرق دقيق جداً، وهذه كذلك لها بحث، ليس هنا مجال للحديث عن إعجاز القرآن اللغوي، لكن أهل الاختصاص والخبرة يدركون ذلك كما فعل السحرة ؛ سحرة فرعون حينما رأوا العصا أصبحت ثعباناً فقالوا:

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

(سورة طه)

واللهِ الذي لا إله إلا هو ؛ أهل اللغة إذا دققوا في نظم القرآن لا يملكون إلا أن يسجدوا لله عزّ وجل لشعورهم أن هذا الكلام كلام إله، وليس كلام بشر، بل إنه فوق طاقة البشر، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت: آية 42)

الحديث عن إعجاز القرآن حديث طويل، لكنّي أعطيكم مقتطفات، ونماذج على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر والقصر:

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ)

(سورة القصص)

أيْ أنّ هذا القرآن رحمةٌ من الله عزّ وجل من ربّك لقومك يا محمد عليه الصلاة والسلام.

(لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

هذه هي الفطرة.

وقفة مع الفطرة:

أيها الأخُ الكريم، مع وقفة قصيرة، لو لم تكن فطرة الإنسان كما هي عليه، لو لم تكن فطرته عالية لفَعَلَ السوء، ولارتكب المعاصي، واعتدى، وأكل مالاً حراماً، واعتدى على أعراض الناس، لو لم تكن فطرته عالية لما شعر بوخزِ الضمير، ولا بالانقباض، ولا بالضيق، ولا بالشقاء، بل بقي مقيماً على معاصيه حتى الموت، ولكن رحمة الله عزّ وجل تتمثل بهذه الفطرة التي فطره عليها، فطرةٌ عالية، هذه الفطرة كلما حاد عنها ضاقت نفسه.

الهستريا والشعور بالقلق:

مثلا: انتقلْ إلى بلاد الغرب حيث لا دين ولا خلق، ولا شيء من هذا القبيل، فإنك ترى عجباً، وقد قرأنا في علم النفس أن الشاب إذا فعل شيئاً منكراً شعر بحالةٍ اسمها الكآبة، الشعور بالكآبة، ما هي الكآبة ؟ هي مرض نفسي خطير، الإحساس بالكآبة هو تأنيب الضمير، يوجد مرض اسمه (الهستيريا)، والناس يستخدمون كلمة (هستيريا) بمعنى الجنون، ولكنه مصطلح في علم النفس دقيق، مرض (الهستيريا) هو شلل عضوي لسبب نفسي.

يُذكَر في كتاب علم النفس شاهدٌ عليها، أن طبيباً شاباً كان في زيارة مريض متقدِّم في السن له ابنةٌ شابة، وقد وضع يده على جسمها، وهذه خيانة في مهنة الطب، أصيبت يده بالشلل لشعوره بالذنب، رغم أنه طبيب، وهذا يعالج المرضى نفسياً، أصابه شلل عضوي كامل مَرَدُّه شعورٌ بالذنب، هذه هي الفطرة.

شاهد آخر: جنديّ في المعركة كان بإمكانه أن ينقذ رفيقه من الموت فلم يفعل، فأصيب بالشلل، هذا المرض اسمه (هستيريا)، وهو مرضٌ أساسه الشلل العضوي لأسبابٍ نفسية، لو فحصت الأجهزة العصبية تجدها سليمة، العضلات سليمة، مراكز التَنَبُّه سليمة، كل شيء في الإنسان سليم، لكنّ نفسه المذنبة ليست سليمة، وهي السبب.

موضوع الفطرة موضوع دقيق جداً، وأنت لا ترتاح إلا إذا استقمت على أمر الله، مادام هناك خلل، ومادام هناك كذب، ومع الكذب يتولّد انقباضٌ، ومادام عنده نفاق فهناك انقباض، ومادام لديه تقصير في العبادات فهناك انقباض، لو أن الإنسان استيقظ بعد طلوع الشمس وفاتته بصلاة، ولم يعلم أحد به، ولكنه يشعر بانقباض، وكأنه فَعَلَ ذنباً كبيراً، لكن إذا صلّى الفجر بشكل أو بآخر في وقت الفجر، وعاد إلى النوم، ويستيقظ بعد أن صلى الفجر في وقته براحة، هذه فطرة.

إن قالت لك أمك: أنا متألِمة يا بني، هل عندك دواء ؟ إذا قلت لها: الآن الحصول على الدواء صعب، فالساعة الثانية ليلاً، فقالت لك: لا عليك، وسكتتْ، هل ترتاح إذا نمت في فراشك ؟ وأنت تعلم أن هناك صيدليات مناوبة، فلو ذهبت إلى إحدى الصيدليات المناوبة، ولم تجد الدواء، وذهبت إلى الثانية، والثالثة، والرابعة، وعدت إلى البيت، في الحالتين أمك لم تأخذ الدواء، لكنك تنام مرتاحاً، لماذا ؟ لأنك فعلت الذي عليك، فقد ارتاحت نفسك، رغم أنّ الدواء لم يُحضَر، لكن في المرة الأولى شعرت بالضيق.

إن قالت لك زوجتك: ابنك حرارته مرتفعة، فأهملت أخذه للطبيب، فإنك تشعر بالضيق، فإذا ذهبت إلى الطبيب، وقال لك: يجب أن يبقى هكذا حتى الصباح، حتى أعرف بالضبط ما هو الموضوع، فإنك ترتاح، إذاً راقب نفسك تجد أنك لا ترتاح نفسك إلا إذا تصرّفت وفق الشرع فيما أمرك ونهاك، وأي مخالفةٍ للشرع تعود عليك بانقباضٍ وألمٍ نفسيّ لا يوصف، هذه هي الفطرة، وأكبر معين لنا على طاعة الله هو الفطرة، إذا حِدْتَ عنها شعرت بالقلق.

لذلك عيادات الأمراض النفسية في بلاد الكفر تفوق عيادات أمراض الجسد، بل إن النسبة التي قرأت عنها هي مئة وخمسة وخمسون في المئة، أي أن كل إنسان يُعالِج مرة ونصفًا عند طبيب نفسي، بينما أصحاب الأمراض الجسمية مرة واحدة بسبب الشعور بالانحراف.

قد ينجو الإنسان أحياناً من القانون، لكن هل ينجو من نفسه ؟ لا، إنه لا ينجو، إنسان دهس طفلاً في الساعة الثانية ليلاً، لا يوجد شرطة، ولا أحد يتعقبه، أول ليلة لم ينم، ولا الثانية، ثم مضى عليه عشرون يوماً لم يذق طعم النوم، ذهب إلى طبيب نفسي فقال له: ما القصة ؟ فقال له: هكذا جرى بعد الحادثة لم

أستطع النوم، فأخبره الطبيب أنه لا يمكن أن تنام إلا إذا دفعت دية هذا الغلام، فدفع ديته لأهله من وراء حجاب حتى استطاع أن ينام، إذاً: هذه هي الفطرة، فكلما جاء في القرآن:

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة الدخان)

ما فطركم الله عليه، وما أمركم، وما نهاكم عنه.

إنّ بنيتك مبنيّة وفق الإيمان، إذا خالفتَها تشعر بألم، فمثلاً بالنسبة لبيتك ؛ لو أنك تناولت طعاماً نفيساً وحدك في السوق، وأهلك وأولادك يأكلون طعاماً خشناً، هل ترتاح ؟ لا، بل إنك تتضايق، مع أن الطعام لذيذ، وهذا ضيق الفطرة لهذه الخيانة، من لهم غيرك ؟ ائتِ به إلى البيت، هذه هي الفطرة، هل تبتغي الراحة النفسية ؟ تصرّف وفق الشرع تماماً، كن عند الأمر والنهي، ولو في النظرة الخائنة، فلو أن الإنسان نظر إلى امرأة لا تحلُّ له نظرةً عابرة، وجاء ليصلي، فإنه يشعر أن بينه وبين الله حجابًا، لماذا نظرت يا عبدي ؟ لماذا نظرت إلى امرأةٍ لا تحلُّ لك ؟ فإذا كنتم تبتغون راحة نفوسكم فإن راحتها في طاعة الله عزّ وجل، إذا أحببتم نفوسكم، إذا كنتم مفرطين في الأنانية فأطيعوا الله عزّ وجل، تَقَصُّوا أمره في كل ما أمر عندئذٍ لتسعدوا.

في البيع، لو أنك كذبت على المشتري، وقلت له: إن هذا القماش جيد، وهو ليس كذلك، وحان وقت صلاة الظهر، فإنك لا تقدر أن تصلي الظهر، تدخل إلى الجامع فتتوضأ، وتصلي، لكنك لم تتصل بالله عزّ وجل، بينك وبين الله حجاب، لأنك غششت مسلماً، أو غششت غير مسلم.

لو أنك قَصَّرت في إطعام هِرّة، لو أنك ضربت حيواناً أليفاً فتألم، تشعر أنّ بينك وبين الله حجاباً، هذه هي الفطرة.

أنا أُلِحُّ على الفطرة، لأن الإسلام هو دين الفطرة، في معاملتك لزوجتك، لوالدتك، لأولادك، لأقاربك، لجيرانك، لزبائنك، لموظّفيك، للمراجعين، أمامك مُراجع، ومعاملته تحتاج إلى توقيع، وعندك صديق، والحديث لطيف، والقهوة ساخنة، فتقول له: تعال غداً، فهل يمكنك أن تصلي الظهر ؟ ما ذنبه هو، قد أتى من مكان بعيد، وبإمكانك أن تقطع الحديث الممتع مع صديقك، وأن تحُل له أمر هذه المعاملة، لذلك هؤلاء الذين يضعون العراقيل أمام الناس فإنهم يدفعون الثمن باهظاً، من أين يدفعونه ؟ من سعادتهم، دائماً عندهم ضيق، كل إنسان مخالف لقوانين الفطرة تجد عنده عصبية وضيقًا، وانفجارًا سريعًا، فوراً ينفجر، هذا كله ضيق داخلي، حينما يبني مجده على أنقاض الناس، حينما يبني سعادته على شقائهم، حينما يبني ثروته على فقرهم، حينما يعيش على حسابهم، حينما يعذِّبهم، حينما يخيفهم، فهذا صار أشقاهم، اختل توازنه الداخلي، تجده سريع الغضب، ينفجر بسرعة، ولأتفه سبب، إذا رأيتم أحداً انفجر لسبب تافه، فاعرفوا أنه مريضٌ نفسياً، وهذا خالف قوانين فطرته، ينفجر لأتفه الأسباب، يضرب ضرباً

مُبَرّحاً بلا سبب، قد يضرب ابنه لسبب تافه، أنا أعرف إنساناً يضرب طفله الصغير الرضيع إذا بكى، هذا عنده اختلال داخلي، وهذا الاختلال من مخالفة قوانين الفطرة.

السعادة كل السعادة في طاعة الله:

فيا أيها الإخوة الأكارم، السعادة كل السعادة تكمن في طاعة الله عزّ وجل، تقطف ثمارها في الدنيا قبل الآخرة، فالله تعالى يقول:

(إِنّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15))

(سورة الانفطار)

أما النعيم مطلق.

(إِنّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

من غير تحديد، في الدنيا للأبرار نعيم، بالإضافة إلى نعيم الآخرة.

(وَإِنّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15))

(سورة الانفطار)

في القرآن إشارات كثيرة إلى أن النعيم مستمر، إذا كنت مع قوانين الفطرة، إذا كنت مع أمر الله فأنت في نعيم داخلي، لذلك في قلب المؤمن سعادةٌ لا يعرفها إلا من ذاقها، لو قُسِّمت على أهل بلدٍ لكفتهم، ما هي السعادة ؟ أنه يتصرّف وفق أمر الله ونهيه، وهو مُنْسَجِمٌ مع كتاب الله عزّ وجل، لا كذب، ولا غيبة، ولا نميمة، ولا نظرة، ولا يأكل قرشًا من مال حرام، ولا استعلاء ولا كبر، ولا نفاق أبداً، بل هو منضبط في سمعه وبصره ولسانه، وكسب المال وإنفاقه، وفي بيته، ومع أهله وأولاده، كلما كنت أكثر انضباطاً كنت أكثر سعادةً، كل هذا الشرح جاء على كلمة:

(لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ)

(سورة الدخان)

وبعد، فما أكثر آيات القرآن الكريم التي تردفها (لعل) التي تفيد الرجاء، وما أكثر آياته التي تأتي فيها كلمة يتذكرون:

(كَلّا إِنّهَا تَذْكِرَةٌ)

(سورة عبس)

(لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ)

(سورة الدخان)

بقيت الآية التالية الدقيقة، ونرجئ شرحها للدرس القادم إن شاء الله:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (48))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (08-18): تفسير الآيات 47 - 54
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-07-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة القصص، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(47)فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ(48))

(سورة القصص)

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

1 – إعراب لولا:

أيها الإخوة، كلمة (وَلَوْلَا) يعربها علماء اللغة حرف امتناعٍ لوجود، (ولو) حرف امتناع لامتناع، تقول: لولا المطر لهلك الزرع، أي امتنع هلاك الزرع لوجود المطر، فهذه لولا:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(سورة القصص: آية 47)

2 – المصيبة لها أسباب مِن عمل الإنسان:

إذاً: المصائب في نص هذه الآية، وفي صريح هذه الآية، وفي الدلالة القطعية لهذه الآية لها أسبابٌ مِن عمل الإنسان.

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

3 – الفائدة مِن تنكير كلمة (مصيبة):

كلمة مصيبة هنا جاءت نكرة، أيْ أيَّةُ مصيبة، وهذا تنكير شمول، مصيبة في المال، مصيبة في النفس، مصيبةٌ في الهمّ والحزن، فقدُ بعض الأولاد مصيبة، أن يكون مُهاناً مصيبة، أن يكون خائفاً مصيبة، أن

يكون مريضاً مصيبة.

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ)

في الدنيا وفي الآخرة، فإن الموت مصيبة إذا أفضى إلى عذاب جهنَّم، بل إنه مصيبة المصائب: **" يا بني، ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكلُّ نعيمٍ دون الجنة محقور، وكلُّ بلاءٍ دون النار عافية ".**

4 – مصائب الدنيا أهون من مصائب الآخرة:

مصائب الدنيا أهون بكثير من مصائب الآخرة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

هناك عذابٌ أدنى، وهناك عذابٌ أكبر، كل أنواع العذاب في الدنيا تنتهي بالموت، والموت نهاية كل حي، لكن عذاب جهنم أبدي سرمدي، فالمصيبة مهما كانت كبيرةً يُنهيها الموت، لكن مصائب الدار الآخرة مصائب أبدية، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

هذا شيءٌ لا يحتمل:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(سورة الزخرف)

فإذا جَمَّد الإنسانُ عقلَه، وعَطَّله، وعاش لحظته كما يعيش عامَّة الناس فهو إنسان فَقَدَ عقله، إنسانٌ مغبون، ربنا سبحانه وتعالى سمَّى يوم القيامة يوم التغابُن، الإنسان يظن نفسه في الدنيا أنه قد تفوق، وقد حَصَّل، وقد جمع، وقد استعلى، وقد أخذ، فإذا به يوم القيامة بالنظر لمقياس الله عزَّ وجل ولمقاييس الدار الآخرة مغبون، ضَيَّع كل شيء، ولم يأخذ شيئاً، لذلك البطولة أن تأتي مقاييسُك في الدنيا وَفق مقاييس القرآن.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

إن موضوع المصائب موضوعٌ طويل، على كلٍ، في هذه الآية تقريرٌ من قِبل الله عزَّ وجل، وتوضيحٌ إلى أن كلَّ مصيبةٍ مهما دقت، ومهما كَبُرَت، نفسيةً كانت أم مادية، في الجسم أم في المال، في الروح أم في النفس، في الدنيا أم في الآخرة، في الأهل أم في الولد فهي مصيبة موجعة.

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

5 – القصاص من مقتضيات العقل السليم:

استنبط علماء التوحيد من هذه الآية أن العقل وحده يوجب القصاص، لأن الإنسان فُطِرَ فطرةً يعرف بها دائماً ما إذا كان على حقٍ أو على باطل، والإنسان لو لم يأته من يبلغِّه، لو لم يأته من يعظه، ولو لم يأته من يبيّن له فإنه يعرف بفطرته أنه على حق أو على باطل.

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

إن الله سبحانه وتعالى يحاسبك على ما فطرك عليه، فإذا أخذت شيئاً ليس لك ألا تعرف ذلك ؟ إذا اعتديت على إنسانٍ ما ألا تعرف ذلك ؟ إذاً قال علماء التوحيد: إن العقل وحده يوجب القصاص، أوَصَلَتك حقيقةٌ أم لم تصلك، لأنك مكلّف، أنت مكلف، معنى أنك مكلف أنك إنسان مخلوق متميّز، والكون كلّه مخلوقات.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)

(سورة الأحزاب: آية 72)

6 – الإنسان كائنٌ مخلوقٌ متميّز بالتكليف:

الجبال مخلوقات، وهي نفوس، والسماوات نفوس، والأرض نفوس كذلك، والملائكة نفوس، والحيوانات نفوس، ولكن الإنسان كائنٌ مخلوقٌ متميّز بالتكليف.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: آية 72)

الإنسان حمل الأمانة، ما الأمانة ؟ نفسه التي بين جنبيه، الدليل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

الله سبحانه وتعالى جاء بك إلى الدنيا، وجعل نفسك التي بين جنبيك، والتي هي أثمن شيء، والتي لا تفنى، بل هي خالدة إلى ما شاء الله، هذه النفس إما أن تسعد بها إلى الأبد، وإما أن تشقى بها إلى الأبد، أوكلها إليك، جعلها بين يديك، جعل أمر سموّها أو انحطاطها بيدك، والدليل:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية 148)

والدليل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

إذاً أنت إنسان متمَيّز، مخلوق متميز، بل إنّك المخلوق المُكَرَّم، الذي حملت الأمانة، وقبلت التكليف.

7 – بماذا كُلِّفتَ أيها الإنسان في الدنيا ؟

والتكليف أن تزكِّي نفسك في الدنيا حتى تكون هذه النفس مؤهلةً للسعادة الأبدية، أنت كُلّفت أن تعبد الله، وعبادة الله عزّ وجل تعني غاية الخضوع لله، وغاية الانصياع له، وغاية الحبِّ له، وغاية الطواعية له، وغاية الشوق إليه، ولن تحبه، ولن تطيعه، ولن تشتاق إليه، ولن تؤْثِرَهُ على ما سواه، إلا إذا عرفته، إذاً العبادة طاعة، غاية الطاعة، غاية الخضوع مع غاية الحب، أما طاعةٌ بلا حب فهذا كلام فارغ، وحبٌ بلا طاعة كلامٌ فارغ.

8 – ما هي العبادة ؟

ففي أدقّ التعبيرات: العبودية غاية الطاعة مع غاية الحب، ولن تكون هذه الطاعة، ولن يكون هذا الحب إلا إذا عرفت الله عزّ وجل، فإذا عرفت الله عزّ وجل أحببته غاية الحب، وأطعته غاية الطاعة، إذاً: ستسعد بقربه إلى الأبد، هذا ملخص الملخص، وهذا هو التكليف:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: آية 72)

العبادة طاعةٌ طوعية، ممزوجةٌ بمحبةٍ قلبية، أو غاية الطاعة مع غاية الحب، أساسها معرفةٌ يقينية، تفضي إلى سعادةٍ أبدية، فأن تعرف الله عزّ وجل هذا أخطر عملٍ تفعله في الدنيا، قبل الطعام والشراب، قبل اختيار المهنة، قبل الزواج، قبل أي شيء، لأنك إذا شَكّلت حياتك بعد معرفة الله، شكلتها وفق المنهج الصحيح، شكلت عملك، زواجك، علاقاتك ؛ أما إذا شكلت حياتك قبل معرفة الله عزّ وجل، شكلتها على نمطٍ مغلوط، عندئذٍ تدفع الثمن باهظاً بعد معرفة الله عزّ وجل.

فإذا أردتُم تلخيص الدين كلِّه بكلمات فهي: حبٌ في القلب، وخدمةٌ للخلق، يؤكِّد خدمة الخلق، يؤكد حبّ الله في قلبك، خدمتك للخلق، وتعبّر خدمتك للخلق عن حبّك للرب، فهي حبٌ في الداخل، وعملٌ في الخارج، يقول الله سبحنه وتعالى:

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

(سورة الزمر)

من الداخل إخلاص، أي حب، ومن الخارج طاعة لله عزّ وجل.

مقوّمات التكليف:

إذاً: أنت مكلّف، وحينما كلفك الله عزّ وجل أعطاك مقوّمات التكليف.

1 – العقل:

وفي الأثر:

((وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منك ـ أيُّها العقل ـ بك أعطي وبك آخذ))

[مشكاة المصابيح عن أبي هريرة بسند فيه ضعف]

بك أعطي الإنسان كل شيء، وبك آخذ منه كل شيء، أيْ بعقله.

و:

((إنما الدين هو العقل ومن لا عقل له لا دين له))

[الجامع الصغير عن جابر بسند فيه مقال]

و:

((أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً))

[ورد في الأثر]

إن الآيات التي تبيّن قيمة العقل في القرآن تزيد على ألف آية، والقرآن فيه ستة آلاف آية تقريباً، سُدُسُ القرآن يتحدّث عن العقل، فتبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، وإن الرجلين ليستوي عملهما وبرُّهما وصومهما وصلاتهما، ويختلفان في العقل، كالذرة جنب أُحُد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين.

أنت المخلوق المكرّم، المخلوق الذي قبل حمل الأمانة، المخلوق المكلّف، كلِّفت أن تسمو بنفسك في الدنيا حتى تسعد بها إلى أبد الآبدين، هذا التكليف له مقومات أحدها: العقل.

2 – الكـون:

الكون سخّره الله لك تسخير تعريفٍ وتكريم، تعرف هذا بعقلك، عقلك والكون يتكاملان، وبنية العقل مطابقةٌ تماماً لقوانين الكون، فبعقلك تعرف الله من خلال الكون، والكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى، العقل مُقَوّم، والكون مقوّم.

3 – الفطرة:

إن الله فطرك فطرةً عالية، فإذا خرجت عنها قيد أنمُلة عرفت ذلك بالضيق، والانقباض، وتعذيب الضمير ووخزه، واختلال التوازن، والشعور بالقلق، والتبرُّم، والضجر، هذه كلُّها عقابٌ نفسيٌّ عاجل، هذه الفطرة في خدمتك من أجل أن تبقى على الطريق، فمقومات التكليف: العقل والكون والفطرة.

4 – الاختيار:

أعطاك حرية الاختيار، لك أن تفعل هذا أو ذاك، ولك ألا تفعل:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية 148)

5 – الشهوة:

أودع فيك الشهوات لترقى بها صابراً أو شاكراً إلى رَبِّ الأرض والسماوات، العقل والكون والفطرة وحرية الاختيار والكسب والشهوة، هذه كلها من مقوّمات التكليف، وهذا حقك.

6 – الشرعُ الإلهي:

مثلاً كلّفنا إنساناً بعمل، وقال: إنه يحتاج إلى مركبة، فنقول له: خذ هذه المركبة، يحتاج معها إلى الدليل، فأعطيناه الدليل، يحتاج إلى خارطة، زودناه بخارطة، يحتاج إلى مبلغ من المال للإنفاق، فمولناه بالمبلغ، كلّفناه، وأعطيناه كل ما يحتاج، لابدّ من أن نحاسبه على تقصيره، فإذا راقبناه، ورأيناه قد انحرف، وذكّرْناه بالخطة المتفق عليها، إن هذا التذكير فضلٌ من المكلِّف، وليس حقاً للمكلّف:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً)

(سورة آل عمران: آية 164)

ثم يأتي الرُسل والأنبياء، والدعاة والكتب، وهذا من باب التذكير، إنك بالفطرة تعرف الحق من الباطل، وهذا الكلام كله استنباطٌ من قوله تعالى:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(القصص: آية 47)

أي أن الإنسان حينما يفعل شيئاً مخالفاً لفطرته فلابدّ من أن يُعاقب على ذلك، لما يتمتع به من العقل، لأن الله عزّ وجل أودع في الإنسان عقلاً يوجب التكليف، ويوجب الطاعة لله عزّ وجل.

نعيد عليكم سريعاً مقومات التكليف: العقل، والكون، والفطرة، والاختيار، والشهوة، والشرع، هذه مقومات التكليف.

أما إرسال الأنبياء النبي تلوَ النبي، والرسول تلوَ الرسول، فهذا من باب التذكير:

(كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ)

(سورة المدثر)

إنه تذكيرٌ لهذا المكلف ببنود الاتفاق، فحيثما وردت في القرآن الكريم كلمة تذكرة فإنما تعني أن هذا القرآن جاء ليذكِّر الإنسان بما عاهد عليه الله سبحانه وتعالى:

(كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55))

(سورة المدثر)

الآية:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(القصص: آية 47)

الحكمة مِن تخصيص الأيدي في قوله: بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

لماذا قال الله سبحانه وتعالى:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

الإنسان له أرجل أيضاً، وله لسان، لأن أكثر الأعمال يقوم بها الإنسان بيديه، هذا في البلاغة اسمه ذكر الجزء وقصد الكُل، أي كل أعماله، فأعمال اللسان هي كلامه، وهو محاسب عليها، أفكاره السيّئة، حركاته بأرجله، لكن الله سبحانه وتعالى ذكر:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

وقصد كل أعمال الإنسان الكسبية الاختيارية، الإنسان على ماذا يحاسب ؟ الفعل فعل الله عزّ وجل، يحاسب على انبعاثه إلى هذا العمل، أضرب لكم مثلاً لطيفاً:

الفعل هو فعل الله عزّ وجل، أي أنه لا يقع شيء في الكون إلا بفعل الله عزّ وجل، ولكن الإنسان على ماذا يحاسب ؟ حينما ينبعث ليطيع أو ليعصي فإنّ هذا الانبعاث للطاعة أو للمعصية هو الكسب الذي عَبَّر عنه القرآن بقوله تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: آية 286)

أي أن هذا الضوء مفتاحه عندي، وله مفتاح خُلُبي لا يعني شيئاً، ولا يتصل به، موضوع على الجدار، فإذا أمرتُ ابني أن يطفئ هذا الضوء فذهب ليطفئه، فلما وضع يده عليه أطفأته أنا، ماذا عرفت من هذا التصرُّف ؟ أن هذا الابن أراد أن يُطيعني، فإذا أبى عرفت ذلك، الفعل هو فعل الله عزّ وجل، والإنسان يحاسب على انبعاثه، وعلى كسبه للعمل، وليس غير:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا)

لا حجة للإنسان بعد البيان الإلهي الشافي:

هنا العلماء قالوا: **" لو أن الله عزّ وجل أصاب الإنسان بما يستحق في الدنيا، أو في الآخرة، لو أنه عصاه في الدنيا، ومات على معصيته، وعلى كفره، واستحق جهنم**، يقول له الله عزّ وجل في جهنم: لقد أعطيتك كل المقومات، أعطيتك العقل فلم تعمل له، خلقت لك الكون فلم تفكِّر فيه، جعلت لك فطرةً فلم تصغ إليها، منحتك حرية الاختيار فلم تستخدم هذا الاختيار فيما يُرضيني، أعطيتك شهوةً لترقى بها إليّ فهويت بها إلى جهنم، فماذا تريد مني ؟ يقول هذا العبد: يا رب، هذا كلام صحيح، لولا أرسلت إليّ رسولاً، وأنا في الدنيا لكي يذكرني.

حتى هذا الطلب لئلا يطلبه الإنسان في الآخرة، لئلا يقول الإنسان الذي أعطي كل مقوّمات التكليف، لئلا يقول يوم القيامة وهو في جهنم:

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

(القصص: آية 47)

لذلك أرسل الله للبشر رُسُلاً:

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

(سورة النساء: آية 165)

فإن التركيب صار:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ)

في الدنيا أو في الآخرة، وأغلب الظن المعنى هنا في الآخرة، لولا أنه إذا دخل جهنم جزاء عمله السيئ، وقال وهو في جهنم:

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

(القصص: آية 47)

جواب لولا محذوف:

الجواب محذوف، وتقديره: لما أرسلناك يا محمد:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

أين جواب الشرط ؟ جواب الشرط محذوف تقديره: لما أرسلناك، لولا أن الإنسان إذا عصى ربَّه في الدنيا، وعطّل عقله، وطمس فطرته، ولم يفَكِّر في الكون، واختار الشر على الخير، وفعل كل المعاصي، ومات على كفره، وعلى معصيته فاستحقّ النار، وفي النار عاتب الله عزّ وجل، وقال له: يا رب، أنا أخذت حقِّي كاملاً، ولكن لو ذكّرتني في الدنيا، لو أرسلت إليّ رسولاً فيذكرني، لولا أن الإنسان الذي سوف يحاسَب على عمله جزاءً وفاقاً بالعدل التّام، يقول هذا الكلام لما أرسلناك يا محمد، إذاً إرسال الرسل منّةٌ وفضلٌ من الله عزّ وجل.

فأحياناً الإنسان يُعطي ابنه الذي يدرس كل ما يحتاج، والمنهج الدراسي ممتاز، وهو أحسن مدرسة، وله أحسن أساتذة، وأحسن برنامج، وله غرفة خاصة، وهو معفوّ من الأعمال ليتفرغ للدراسة، فالتكليف انتهى، وكذلك حرص الأبِ الشديد موجود، فهو يراقبه في أداء مهمّته، فيذكِّره بالامتحان، ويذكره بالعهد، ويذكره بالتكليف.

إن الآية إذاً دقيقة جداً، ومن أدق الآيات، أي لولا أن الإنسان على الرغم من أنّه أخذ من الله كل ما يستحق، وخالف ما عاهد الله عليه لما استحق دخول النار، ثم يقول وهو في النار:

(لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

لمَا أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء، أرسلناك لئلا يقولوا وهم في النار:

(فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

أعتقد أن تفسيرها واضح.

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا)

(القصص: آية 48)

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا

هذا هو حال العرب قبل الإسلام:

جاء النبي عليه الصلاة والسلام، وجاء بالقرآن الكريم، الكتاب المُعْجِز على فترةٍ من الرسل، والعرب

في جزيرتهم، في جاهليةٍ جَهْلاء، في فوضى، يعبدون الأصنام، يئدون بناتهم، يسيئون الجوار، يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، يكذبون، لأنها جاهلية، حسبك قول الله عزّ وجل: جاهلية، ماذا قال الشهيد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ؟ قال للنجاشي:

((كُنّا قوْماً أهْلَ جَاهِلِيّةٍ ؛ نَعْبُدُ الأصْنَامَ، وَنَأكُلُ المَيْتَةَ، وَنَأتِي الفَوَاحِشَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، وَنَقْطَعُ الرّحِمَ))

[أحمد عن أم سلمة]

قالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى

هذه هي الجاهلية، فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يعرفون نسبه وأمانته، وصدقه وعفافه، فدعاهم إلى الله عزّ وجل، وجاءهم بهذا الكتاب، فذهبوا إلى اليهود وقالوا: يَزْعُم محمدٌ أنه نبي، فهل عندكم في كتبكم أنه سيبعث نبيٌّ في هذه الجزيرة ؟ ماذا قال أهل الكتاب ؟ قالوا: نعم، في كتابنا ما يؤكِّد بعثته، وما يؤكِّد أوصافه، وقد آن أوان ظهوره، وحين سمع العرب من اليهود أو من أهل الكتاب هذا التأييد وهذا التصديق برسالة النبي:

(فَلَمّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى)

قالوا: لو أنه نبيٌّ حقاً لجعل العصا ثعباناً مبيناً، لو أنه نبيٌّ حقاً لأصبحت يده بيضاء للناظرين، لو أنه نبيٌّ حقاً لأنزل عليه القرآن جملةً واحدة كما أنزلت التوراة:

(فَلَمّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى)

لولا أوتي محمد عليه الصلاة والسلام بمثل ما أوتي موسى، إن أمرهم عجيب، بماذا جاء موسى ؟ جاء بالتوراة، ماذا في التوراة وفي الإنجيل كذلك ؟

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

(سورة الصف: آية 6)

في الإنجيل والتوراة.

إذاً:

(أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ)

(القصص)

الجواب الإلهي: أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ

لماذا عندما قال لهم أهل الكتاب: عندنا في التوراة ما يؤكِّد دعوة النبي عليه الصلاة والسلام كفروا بهذا

الكلام ؟

(قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا)

(سورة القصص)

قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا

أي أنه لمّا جاءت الأخبار على ما يُخَالف هواهم رفضوها، فإذا جاءتهم على ما يوافق هواهم قبلوها، جاءتهم الأخبار بأن موسى عليه السلام جعل العصا ثعباناً مبيناً، وصارت يده بيضاء للناظرين، قبلوها، وطالبوا بها النبي عليه الصلاة والسلام، فلما قال لهم أهل الكتاب: إن في كُتبنا ما يؤكد بعثة النبي رفضوا هذا القول، إنها مناقشةٌ منطقيةٌ جداً:

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ)

إذا كنتم أيُّها العرب، أيها المشركون الذين عاصرتم النبي عليه الصلاة والسلام، إذا كنتم مؤمنين إيماناً حقيقياً قطعياً بما أوتي موسى من قبل، وما عند هذا النبي الكريم من بشارةٍ بظهور النبي محمد عليه الصلاة والسلام، إذاً يجب أن تؤمنوا به أيضاً:

(أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)

وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ

أي أنهم يكفرون بأصل الرسالة السماوية، لن نؤمن لا بموسى ولا بمحمد:

(إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)

الله سبحانه وتعالى يقول: إذا كان القرآن والتوراة سِحرين، وإذا كان الله سبحانه وتعالى لابدّ من أن يرسل لخلقه رسولاً وكتاباً:

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(القصص: آية 49)

التحدّي الإلهي: قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

1 ـ المنطق الإسلام في المناقشة والمحاورة:

الحقيقة أن لدى الإنسان فكراً وعقلاً، والعقل سلطان، حينما يستجيب للحق يستجيب لفطرته، ويستجيب لعقله، فإذا أراد أن يَتَّبع الهوى بدا على عقله الخلل، وبدا على فطرته الانحراف.

فمثلاً: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ ـ أصحاب النبي غضبوا غضباً شديداً، وقاموا إليه، أمّا النبي عليه الصلاة والسلام فناقشه بهدوءٍ كبير نِقاشاً منطقياً، فَقَالَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ))

[أحمد]

انظر فالعقل سلطان.

2 – من بنود المناقشة: أين البديل ؟

الآن لدينا مناقشة منطقية، إذا كان لله كتابٌ في أرضه، وأنتم تدّعون أن القرآن والتوراة سحران تظاهرا، أو تعاونا، وأنتم بكلٍ كافرون، فأتونا أنتم بكتاب من عند الله هو أهدى منهما نتبعه، دائماً أنت حينما تناقش إنساناً رفض شيئاً فقل له: فما هو البديل ؟ إذا كنت لا ترى في هذا الدين النظام الأمثل، فأيّ نظامٍ أمثل يحلُّ محلّه ؟ ما هو البديل ؟ إذا رفضت هذا فماذا عندك ؟ الرفض شيء سلبي، أما البطولة فأن تأتي بالإيجابيات، إذا كنت ترى أن قطع يد السارق عمل ليس مدنياً، ليس عملاً حضارياً، فكم سرقة في الغرب حدثت في عام واحد ؟ ستة عشر مليون سرقة، وفي كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة قتلٍ، أو سرقةٍ، أو اغتصاب، هذا هو البديل ؟ إذا رأيت في قطع اليدِ عملاً غير حضاري فهل ترى أن يموت آلاف الأشخاص كل عام بجرائم سرقة وقتل واغتصاب ؟ ما هو البديل ؟

يدٌ بعشر مئين عسجدٍ وُدِيَتْ ما بالها قطعت في ربع دينارِ

***

فأجاب الإمام الشافعي:

عِزُ الأمانة أغلاها وأرخصها ذُل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

فربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وهذا نقاش قرآني، فإذا رفضت هذا فما البديل ؟ ما الحل عندك إذاً ؟ إذا رفضت أمر الله عزّ وجل، إذا رأيت في شرع الله شيئاً قديماً لا يصلُح لهذا الزمان، ما الذي يصلح لهذا الزمان ؟ ائت بكتابٍ آخر، بمنهجٍ آخر، بدستورٍ آخر، بنظامٍ آخر، بتشريعٍ آخر متماسك لا يُعَدّل ولا يُبَدّل.

الآية دقيقةٌ جداً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ)

(القصص: آية 50)

اتباع الهوى سبب عدم الاستجابة للشرع:

قلتم: التوراة سحر، سَايرناكم فرَضًا، وقلتم: القرآن سحر، سايرناكم، تظاهرا، سايرناكم، ولكن ما البديل ؟ ائتنا أيها المنتقد بكتابٍ أهدى منهما نتبعه، إذا لم يأتِ بالكتابِ الذي هو البديل فربنا سبحانه وتعالى وَصَمَهُ بأنه من أهل الأهواء، يتبع الهوى، والإنسان إما أن يتّبع العقل، وإما أن يتبع الهوى، يعني أن يتبع شهواته، فالزاني لماذا يزني ؟ لأنه يتبع الهوى، لو أنه سار على منهج الله لتزوّج، والذي يكسب مالاً حراماً يتبع الهوى، والذي يعتدي على أموال الناس وعلى أعراضهم يتبع الهوى، والذي يغتصب ما ليس له، يتبع الهوى، إذا كنت صادقاً فيما تقول فما البديل ؟ وما النظام ؟ وما المنهج ؟ وما القانون ؟ وما الدستور ؟ وما الخطاب الذي نتبعه ؟

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

ربنا عزّ وجل يقول في بعض الآيات القرآنية قال:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

إذا دعاك إنسانٌ لترك الصلاة، ودعاك إلى أن تعيش كما تحب، دعاك إلى أن تتبع الهوى، دعاك إلى الشهوة، دعاك إلى الدنيا، دعاك إلى الانحراف، قبْلَ أن تستمع إلى كلامه، قبل أن تدقق في كلامه، قبل أن تقف عند كلامه، راقب أعماله، وانظر إلى دناءته، انظر إلى حقارته، انظر إلى شهوانيته، انظر إلى أنانيته، انظر إلى كسبه للمال، انظر إلى إنفاقه للمال، انظر إلى ذمته، انظر إلى لسانه:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

أي أرأيت إلى أعماله المنحطة ؟ أرأيت إلى نفسه الخسيسة ؟ أرأيت إلى دناءته ؟ أرأيت إلى أنانيته ؟ أرأيت إلى حبّه لذاته ؟ أرأيت إلى أنه إنسان هبط إلى مستوى الحيوان ؟

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11))

انظر إلى أمانته، إلى عفّته، إلى استقامته، إلى نظافته، إلى صدقه، إلى لطفه، إلى رحمته، يكفينا من المؤمن قبل أن يقنعنا استقامتُه التي هو عليها، ويكفينا من الكافر قبل أن يقنعنا انحرافُه الذي يشينه.

جرت مناقشة بين عالمين، قال أحدُهُما: **" إن الإنجيل طهّر روحي "**.. وبعد فترة ضبط متلبساً بجريمة زنا قذرة، فأي روحٍ طهّرها ؟ العمل دائماً هو الأبلغ، الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم، والشيء الذي يؤكِّد أن المؤمن على حق استقامتُه وخوفُه من الله عزّ وجل، إنّك ترتاح للمؤمن، وتطمئن له، لا تخاف أن يأكل ما ليس له:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

لذلك اتباع الهوى مشكلة كبيرة جداً، ومن الصعوبة بمكان أن تناقش إنساناً يتبع الهوى، لذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله: **" ما ناقشني عالمٌ إلا غلبته، ولا ناقشني جاهلٌ إلا غلبني ".**

المتبع للهوى لا يرضى بالحق، إذا كان الإنسان مُصِرًّا على أكل الربا فمهما جئته بالأدلة والبراهين والآيات والأحاديث والآثار والقصص يَقُلْ لك: لا، هو لا يقتنع، لأنه لا يريد أن يَقْتَنِع..

مصطلحان دقيقان: الفهمُ والتفهُّمُ:

هناك مصطلحان دقيقان:

أولهما: فهمٌ.

وثانيهما: تَفَهُّم.

إن الإنسان قد لا يفهم لماذا ؟ لأنه يريد ألا يفهم، لأنه إذا فهم يُحْرَج، أما المُتَفَهِّم فهو الذي عنده قابلية الفهم، فأحياناً تناقش إنساناً فتجده يردّ عليك رداً مزعجاً، رداً سخيفاً، يرد رداً غير معقول، فهذا يدافع عن شهوته، وعن هواه الذي يتبعه:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ)

من علامات المؤمن:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

الإنسان بين شهوات الطبع وأوامر التكليف:

قلت لكم سابقاً: أنت مكلّف، ومعنى لأنك مكلف أي أنت مكلف بأعمال ذات كلفة، وتحتاج إلى جهد، فطبْعك يدعوك إلى النوم، والله كلّفك بالصلاة فجراً، طبعك يدعوك إلى قبض المال من أية جهةٍ كانت، بأية طريقة، والله عزّ وجل كلّفك أن تنفقه، وألا تأخذه إلا من حلال.

أحياناً يأتيك عرضٌ مغرٍ فيه شُبُهَة، الله عزّ وجل كلفك ألا تأخذه إلا من حلال، وألا تنفقه إلا في حلال، فإن هذا تكليف، وطبعك يدعوك أن تنظر إلى النساء، لكن الله كلفك أن تغض البصر، وطبْعك يأمرك أن تنفجر على الناس لكي تشفي غليلك، والله أمرك أن تكظم غيظك، هذا تكليف، وطبْعك أمرك أن تتندر بقصص الناس في مجالسك، وهذا شيء ممتع، فضيحة في بيت، خلاف زوجي، خيانة زوجية، قضية مثيرة، تتحَدَّث عنها والناس تشرَئِبُّ لك بأعناقها، هذا هو الطبع، بينما التكليف أن تَكْتُمَ هذا السر، ألاّ تغتاب أحداً في مجلسك، هكذا هو التكليف:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

قد تهوى المال غير المشروع، واللهُ قد نهى النفس عن الهوى، قد تهوى التمَتُّعَ بشيءٍ لا يحل لك، واللهُ قد نهى النفس عن الهوى، قد تهوى النوم، والله أمرك بالصلاة فجراً، قد تهوى أن تُظْهِر ما عندك من حقد، والله أمرك أن تكظم غيظك، إذاً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

الإنسان بين الاستجابة لله والاستجابة للهوى:

هذه الآية فيها معنى دقيق جداً، معناها أن الإنسان إما أن يستجيب لهوى نفسه، وإما أن يستجيب لأمر ربه، والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية 24)

أنت أحد رجلين ؛ إما أن تستجيب لهوى نفسك فتَهلك وتُهْلِك، وإما أن تستجيب لنداء ربّك، فإذا استجبت لله عزّ وجل دعاك لما يُحيْيك نجوت، واعلمْ أن اتباع الهوى هوان، ومن هوى فقد هوى، أي من اتبع الهوى فقد هوى، أي سقط.

((ألاَ يَا رُبّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألاَ يا رُبّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألاَ يا رُبّ مكرم لنفسه، وهو لها مُهين، ألا يا رُبّ مهين لنفسه، وهو لها مكرم، ألا يا رب متخوّض و متنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له عند الله من خلاق، ألاَ وإن عمل الجنة حزن بربوة، ألاَ وإن عمل النار سهل بشهوة، ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا))

[الجامع الصغير عن أبي البحير بسند فيه مقال]

المؤمن يسير على منهج سليم:

المؤمن عنده منهج وكتاب، الحلال حلال، والحرام حرام، يجوز، ولا يجوز، مسموح، وغير مسموح، حلال وحرام، جائز وغير جائز، في كل موضوع ماذا قال الله عزّ وجل ؟ ما حكم الشرع فيه ؟ حلال، مباح، مكروه تنزيهاً، مكروه تحريماً، محرّم، فرض، مندوب، مستحسن، سنة، واجب، المؤمن الصادق في أية حركةٍ من حركاته، في أية سكنةٍ من سكناته، في بيته، في عمله، في الطريق، في نزهته، كل موقف له حكم شرعي، لذلك لو سألنا معظم الناس: أتحبون الله ؟ يقولون: نعم نحب الله، وهذا شيء جميل، فما علامة هذا الحب ؟

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي)

(سورة آل عمران: آية 31)

اتبعوني، فلا تكون محباً لله عزّ وجل إلا إذا كنت متبعاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم ولسنته، هذا المقياس الواحد، قال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى: **" عين طاعة النبي صلى الله عليه وسلم عين طاعة الله عزّ وجل، وحب النبي حب الله عزّ وجل "**، لماذا ؟ لأنه ليس للنبي عليه الصلاة والسلام أغراضٌ خاصة، ولا مطلبٌ خاص، ولا رغبةٌ خاصّة، ولا حظوظٌ خاصة، مطلبه، وهمُّه، وهدفه أن يعرّف الناس بالله عزّ وجل، لذلك: حبُّ النبي هو حبٌّ لله عزّ وجل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

وجوبُ موافقة الهوى للشرع فقط:

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

يجب أن تهوى القرآن، أن تهوى الإنفاق، أن تهوى العفّة، أن تهوى الورع، أن تهوى كلمة الحق، أن تكره الباطل، أن تكره المُزاح الرخيص، أن تكره الغيبة، إن لم يكن هواك تبعاً لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام فهذه علامةٌ خطيرة لأنه:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

انظر ماذا تهوى ؟ أتهوى أهل الحق أم أهل الباطل ؟ من تحب ؟ هل تحبُّ أهل الدنيا الأثرياء الأغنياء؟ تحب أن تكون معهم ؟ أن تكون في معيّتهم، أم تحب أن تكون مع أهل الحق ؟ أتحب الأسواق أم المساجد ؟ أتحب أن تعطي أم تأخذ ؟ من أجل أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يرضيك ؛ أن تعطي أم أن تأخذ ؟ المؤمن يحب أن يُعْطي، وهذه كلها علامات دقيقة جداً، إذاً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ)

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ

(أضَلّ) اسم تفضيل، الله عزّ وجل يُعَبّر عن ضلال هذا الذي اتبع هواه بعبارةٍ فيها تعجب..

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى)

هناك تحفظ لطيف جداً، لقد أودع الله في قلب الإنسان حبَّ المال، فإذا كسب المال، وفرح بكسب المال، من طريقٍ حلالٍ مشروع فإن هذا اتبع الهوى، ولكن بهدى من الله عزّ وجل، تاقت نفسه إلى النساء فتزوّج، هذا اتبع الهوى، ولكن بهدىً من الله عزّ وجل، فالشهوات التي أودعها الله في الإنسان لها قنواتٌ نظيفةٌ مسموحٌ بها، هذه القنوات النظيفة هي اتباع الهوى بالهدى، أما إذا اتبع الهوى من دون هدى من الله عزّ وجل فهو إذاً يزني، يُطْلِقُ بصره في الحرام، يأكل مالاً حراماً، وكلام الناس: " حلال على الشاطر "، بالحق، بالباطل، باحتيال، بألاعيب كلام شيطاني، لذلك يقول ربنا عزّ وجل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص)

فإذا بقي الإنسان في المنهج الإلهي، وتاقت نفسه إلى شيء ولم يفعله إلا وفق المنهج الإلهي فهذا لا غُبار عليه، النبي عليه الصلاة والسلام بلغه أن بعض أصحابه أراد أن يصوم الدهر، وآخر أراد أن يمتنع عن النساء، وآخر أن يترك الطعام والشراب، فقام فيهم خطيباً وقال:

((مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا ؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[سنن النسائي عن أنس]

إذاً: كل ما أودعه الله في الإنسان من الشيء إذا كُبِتَ كانت له مضاعفات خطيرة:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا)

بدعة..

(مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ)

(سورة الحديد: آية 27)

هم حينما ابتدعوها توهموا أنهم بهذا يرضون الله عزّ وجل، قال تعالى:

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

أي أنهم أخلُّوا بهذه البدعة، إذاً الأفضل أن تتبع السنة، النبي عليه الصلاة والسلام تزوج، فتزوّج أنت، له عمل، اشتغل راعي غنم، فاشتغل تاجراً، ليكن لك عملٌ ترتزق منه، هكذا السنة، فلا تَحِد عن السنة:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

المتّبع للهوى ظالمٌ لنفسه: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

أي أن هذا الذي يتبع الهوى يظلم نفسه، وظلم النفس هو أشدُّ أنواع الظلم، ظلم النفس أن تحرمها السعادة الأبدية، هل هناك ظلمٌ أشد من هذا الظلم ؟ ظلم النفس أن تحرم نفسك تلك السعادة الأبدية التي أعدّها الله لك، هذا أشدُّ أنواع الظلم، لذلك طلب العلم فريضة، ومعرفة أركان العلم فريضة، ومعرفة أركان الإسلام فريضة، ومعرفة حقيقة الدين فريضة، وطاعة الله فريضة، وفعلُ المعروف فريضة، هذا كلُّه من أجل تحقيق الهدف الذي خلقت من أجله:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

الذي يتبع الهوى يظلم نفسه، عندئذٍ ينحاز إلى هواه، فيرفض الحق، ودائماً الذي يُعاند هو الذي يتبع الهوى، جرّب في أي مناقشة الذي لا يقبل شرع الله عزّ وجل تجده متبعًا للهوى، هذه قاعدة إلهية في القرآن:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

لذلك:

(اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(القصص: آية 51)

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

1 – معنى: وَصَّلْنَا

(وصّلْنا):

هكذا وردت في الآية الكريمة، وصّلَ على وزن فعّل، تقول: قَطَعَ وقطّع، كَسَرَ وكسّر، وزن فعّل فيه مبالغة، أي قد توصل له رسالة فأوصلتها له، أما وصّلتها له، أي هي رسالة وتأكيد، وتأكدت بالهاتف أنها وصلت، وبذلت المستحيل كي تصل هذه الرسالة، أول نسخة، وثاني نسخة، وبعثتها مع إنسان مخلص وأمين، واطمأننت بالهاتف، فوصل لها معنى، ووصّل لها معنى، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ)

2 – معنى: وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ

أيْ آيّةً تلوَ آية، وسورةً تلوَ سورة، وكتابًا تلوَ كتاب، وقصة تلوً قصة، وحكمًا تلوَ حكمٍ، ووعدًا، ووعيدًا، وبشارة، وإنذارًا، وحكمًا، وآية كونية، وقصة قرآنية، ومثلاً قرآنيًا، ومشهدًا من يوم القيامة، وذكرًا للتاريخ، وأخبارًا من مضى، فالقرآن منوّع، فيه قوانين، وحِكم، وقواعد، وآيات كونية، وإشارات وسنن، هكذا توصيل القول:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

العهد، حمل الأمانة، التكليف، المقومات، كما قلت في مطلع الدرس:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

هذا القرآن توصيلٌ للقول، السنة توضيحٌ لهذا القول، العلماء عَبْرَ الحِقَبِ والقرون الذين سخَّرَهم الله عزّ وجل لبيان ما في هذا الكتاب الكريم وما في السنة المطهرة من باب توصيل القول..

أحياناً إنسان ينصحك، أحياناً واقعة تقع أمامك، كلمة تقال أمامك، هذا كلّه بتقدير عزيزٍ حكيم، وتوصيل لك:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54))

(سورة القصص)

سببُ نزول الآيات:

هذه الآيات نزلت في طائفةٍ من أهل الكتاب وفدوا على النبي عليه الصلاة والسلام، وأغلب الروايات تقول: إنهم وفدوا من عند النجاشي، وقد بعثهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام، التقوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، وقرأ عليهم سورة يس، فبكوا، وأبكوا، وأسلموا، هؤلاء من أهل الكتاب، والله سبحانه وتعالى وصفهم بهذه الآيات:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ)

(القصص: آية 52)

أي من قبل القرآن..

(هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ(53))

موطن استعمال كلمة (المسلمين) في القرآن:

1 – الموطن الأول:

إن كلمة(مسلمين) في القرآن تستعمل لكلّ من آمن بالله عزّ وجل، وأسلم نفسه له، فسيدنا عيسى وردت آية أنه من المسلمين، سيدنا موسى من المسلمين، وفرعون حينما أدركه الغرق قال: وأنا من المسلمين، أي أن الإنسان حينما يعرف الحقيقة، ويستسلم لها فهو مسلم، وهذا المعنى الواسع للإسلام.

2 – الموطن الثاني:

وله معنى آخر: الدين الذي جاء به النبي محمد عليه الصلاة والسلام هو الإسلام، أما كلمة الإسلام فلها في القرآن معنى واسع جداً، أيّ إنسان عرف الله عزّ وجل، واستسلم له فهو مسلم، لذلك تقول الآية:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ(53))

أي أنهم حينما كانوا أهل كتاب، وكانوا أيضاً مسلمين:

(أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (09-18): تفسير الآيات 51 - 57
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-07-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة القصص، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

1 – معنى: وَصَّلْنَا:

(وصّلنا) فعلٌ مُضَعَّف، والتضعيف يفيد المبالغة، أيْ أنّ القرآن وصل سورةً بعد سورة، وآيةً بعد آية، ومثلاً بعد خَبَر، ووعداً بعد وعيد، وبشارةً بعد إنذار، ومشهداً بعد مشهد:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ)

2 – معنى: وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ:

أي أن الله سبحانه وتعالى رحمةً بعباده وحرصاً عليهم أبلغهم الحقيقة بطريقةٍ أو بأخرى، بشكلٍ مستمر، وفي كل عصرٍ ومصر:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

2 – معنى: التذكّر:

والتذكّر هنا يعني أن الإنسان له فطرةٌ تتناسب تماماً مع الإيمان بالله عزّ وجل، وما عليه إذا طمست فطرته إلا أن يتذكّر.

إنّ الإنسان مكلّف بحمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيك.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

ومقوّماتها: الكون، والعقل، والفطرة، والشهوة، والاختيار، والشرع، والحرية، هذه مقوماتها، وفضلاً عن مقوماتها فالله سبحانه وتعالى ذكّر عباده في كل حين ليذكِّرَهُم بهذه المهمة التي جاءوا إلى الدنيا من أجلها:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ(52))

(سور القصص)

معنى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ

1 – هناك من أهل الكتاب مَن آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام:

دائماً هناك حجةٌ قائمةٌ على العباد، فأهل الكتاب مثلاً حينما رَدُّوا دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وحينما كفروا به فإن هناك فئة منهم آمنت، وأسلمت، وحسُن إسلامها، وكانوا من كبار أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، معنى ذلك أن الإنسان مخيَّر، هؤلاء فكّروا، وعقلوا، واستسلموا، وآمنوا، وجاهدوا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ)

من قبلِ القرآن آتيناهم التوراة والإنجيل:

(هُمْ بِهِ)

أيْ بالقرآن..

(يُؤْمِنُونَ)

لأنه من عند الله عزّ وجل:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة: آية 285)

مادامت المشكاةُ واحدة فالدعوة واحدة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

الله واحد، ورسالاته ذات مضمونٍ واحد، ولكنّها تختلف اختلافا في التفصيلات بحسب تطوّر المجتمعات، ولكن:

(لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة: آية 285)

هؤلاء أهل الكتاب حينما أخبرهم ربُّهم في كتبهم أنه سيأتي من بعدِ سيدنا عيسى رسولٌ اسمه أحمد، وجاءت بعض صفاته، وانطبقت هذه الصفات على النبي عليه الصلاة والسلام آمنوا به، وإلا فإذا تمَسّك الإنسان بالقديم، وقد جاء الجديد، فهذا التمسُّك يدلُّ على ضيق أُفقه، وتعصبه الأعمى، أنت مع الحق لا مع زيدٍ أو عبيد:

موقف أهل الكتاب المؤمنين من القرآن:

(وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ)

القرآن..

(قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)

أي إذا كان الإنسان مستسلماً إلى الواحد الدَيَّان فإنه يؤمن بالحق من أي مصدر، ومع أي إنسان، أما إذا اتخذ الحقّ الذي كان عليه إطاراً، وهو كما هو على شهواته عندئذٍ يأتي التعصُّب والانحياز، و إذا كان الإنسان مؤمناً حقيقةً فإن هذا الإيمان يدعوه إلى الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام، أما إذا اتخذ دينه لكسب الدنيا، أو اتخذه ليعلوَ بين الناس، عندئذٍ لا يفرّط بهذه المرتبة التي بلغها حفاظاً على مصالحه، إذاً اختلف الأمر:

(أُولَئِكَ)

مِن خصائص مَن أسلم من أهل الكتاب: يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرّتَيْنِ

هؤلاء أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام..

(يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرّتَيْنِ)

مرةً لأنهم آمنوا بسيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ومرةً لأنهم آمنوا بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام:

(يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا)

أي أن الإنسان حينما يدع دينه لدينٍ جاءه من بعد دينه من عند الله عزّ وجل فهذا شيءٌ يحتاج إلى جهد، وإلى تَحَمُّل، فلذلك هؤلاء أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام:

(يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا)

يؤتون أجْرهم مرتين لإيمانهم بنبيّهم سيدنا عيسى، ولإيمانهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم:

(وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ)

مِن صفات مَن أسلم من أهل الكتاب:

1 – يَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ

من صفاتهم أنهم يدرؤون، ومعنى يدرؤون أي يدفعون، يدفعون الذنب بالتوبة، يدفعون الطمع بالقناعة، يدفعون المعصية بالطاعة، يدفعون السيّئة بالحسنة:

2 – الإعراضُ عن اللغو:

(وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ)

(القصص: آية 55)

يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

اللغو هو الكلام الفارغ، الكلام العابث، الكلام غير المُجدي، الكلام عن الدنيا، الكلام عن سفاسف الأمور..

إيّاكم واللغو:

عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلاَقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا))

[الجامع الصغير بسند صحيح]

هذا الكلام الهراء من شأن المؤمن أنْ يعرض عنه والآية واضحة:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون)

وبعضهم قال: اللغو ما سوى الله. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ))

[متفق عليه]

كل شيء ما خلا الله باطل، أي أن كل شيءٍ ما خلا الله ينتهي عند الموت، تحدَّثْ عن الأموال ما شئت، هذا الحديث جدواه ما دُمْت حياً، فإذا جاء ملك الموت انتهى الموضوع، تحدث عن الأبنية وعن البيوت الفخمة، تحدث عن التُحَف، تحدث عن الرحلات، تحدث عن أي موضوع، ولكن هذه الموضوعات محدودة، وتنتهي بالموت، لكنك إذا تحدثت عن الله عزّ وجل، وزدتَ به معرفةً وله طاعةً، وانصعت لأوامره، وانتهيت عما عنه نهى، فهذا الشيء يبقى أثره بعد الموت، عندنا قاعدة: اجعل الموت حداً فاصلاً، فأيّ نشاطٍ، أي حديثٍ، أي جهدٍ تبذله، أي موضوعٍ تعالجه، أي قضيةٍ تهتم لها، أية مشكلةٍ تبحث فيها، إذا كان هذا الموضوع، أو تلك المشكلة، أو هذا الأمر، أو هذا الاهتمام يتّصل بما بعد الموت فهذا عملٌ مجدٍ، أما إذا كان ينتهي بالموت فهذا جهدٌ ضائع، لذلك قال الله عزّ وجل:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

(سورة الكهف: آية 46)

حينما وُصِف الشيء الآخر بأنه باقٍ وُصِفَ الأوّل بأنه فانٍ، هذا اسمه في علم الأصول المعنى المخالف:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ)

هذه الواو حرف عطف، والعطف يقتضي المغايرة، هذا شيءٌ آخر، هذا باقٍ إذاً هذا فانٍ:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

أن تسبح الله، وأن توحِّده، وأن تحمده، وأن تطيعه، وأن تعرفه، وأن تسعى إليه، هذا شيءٌ باقٍ، أما المال والبنون فهو زينة الحياة الدنيا، وهي فانية، إذاً أنت معك الآن مقياس، الحركة، النشاط، الجهد، التفكير، الانشغال، الاهتمام في موضوعٍ دنيوي خسارة، وفي موضوعٍ أُخروي ربح.

مثلاً: أنت تعلم علم اليقين أن هذه المئة ليرة قد تنفقها إنفاقاً استهلاكياً، وقد تستثمرها، أو الألف، أو المئة ألف، المبلغ إذا خرج منك إما أن يخرج استهلاكاً، وإما أن يخرج استثماراً، فإذا دفعت مبلغاً إلى جهةٍ ناجحةٍ في عملها فلا تشعر أنك قد خسرته، لأنه سيعود عليك أرباحاً كثيرة، إذاً دائماً نشاطك، تفكيرك، ذكاؤك، معلوماتك، مطالعتك، لقاءاتك، نزهاتك، حركاتك، سكناتك اجعلها استثماراً، ولا تجعلها استهلاكاً، لأنّك في الحياة الدنيا في وقتٍ محدود، كلما انقضى منه بضعٌ انقضى بضعٌ منك، لأنك وقت، والإنسان عامة بضعة أيام، كلما انقضى منه يومٌ انقضى بضعٌ منه.

كلما دارت عقارب الساعة يُستهلك الإنسانُ، لأن له نهاية ثابتة، والأجل ثابت، إذاً الحركة نحو الأجل مستمرّة، ومضيُّ الوقت فيه استهلاكٌ لذاتك، فهذا الوقت إما أن تستثمره، وإما أن تستهلكه، اجلس مع صديقٍ، وتحدّث عن أي شيء من دون أن تذكر الله عزّ وجل، هذا استهلاك، وتضييعٌ للوقت، نعم إنه استهلاكٌ للوقت في عملٍ غير مُجدٍ، هذا من سفاسف الأمور، أما التعاون مع أخيك على البرّ والتقوى، على أن تزداد معرفةً بالله، على أن تعمل عملاً صالحاً يرضيه، على أن تتصل به، على أن تدعو إليه، على أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، أن تفهم كلام الله، أن تفهم سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، أن تفهم أسرار الشريعة فهذا إنفاق للوقت في الخير، وكذا أيّ نشاطٍ له أثرٌ بعد الموت حاول أن تبقى فيه:

(أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(القصص)

حركةُ الإنسان أساسُها فلسفة واعتقاد:

فالحقيقة أنك لا تجد إنساناً ليس له فلسفة في الحياة، حتى الجاهل حركته تنطلق من فلسفة، فالآن العامي يقول لك: **"غُب على قدر ما تقدر"**، فهذه فلسفة، فهو يرى أن الدنيا هي كل شيء، فعليك أن تستمتع بها إلى أقصى شيء، هذه فلسفة، لا تجد إنساناً إلا ويتحرّك من فلسفة، أو من تصور بشكل أدَقّ، أو من فكرة، فإذا جاء هذا التصور مخالفاً للواقع كانت الخسارة والضلال.

إنّ الإنسان المؤمن هو إنسان جاءه من الله خطاب، هذا الخطاب فيه كلُّ شيء، فبدل أن يتوهَّم، ويتصوّر تصوراتٍ خاطئة، بدل أن يعتقد اعتقاد غير صحيح، اعتقاداً زائغاً، فهو يتصور الحقيقة لأنه في حيّز الخطاب.

الإنسان يتحرّك الحركة اليومية أساسها الاعتقاد، أساسها التصوّر، أساسها الفلسفة، فالبطولة أن تجعل تصوراتك وأفكارك ومعتقداتك وفق ما جاءك من الله عزّ وجل، هذا هو الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه حقٌ صرف، فإذا جاءت تصوراتك وفق ما في هذا القرآن فأنت من السُعَداء، لأنك تنطلق من العلم، ما العلم ؟ هو علاقةٌ ثابتة بين شيئين مقطوعٌ بصحتها، يؤَكِّدُها الواقع، وعليها دليل، فينبغي قبل أن تتحرك، قبل أن تقف مواقف معينة، أن تعطي قبل أن تأخذ، قبل أن تلتقي مع زيد أو عبيد، قبل أن تذهب مع هؤلاء في نزهتهم، قبل أن تضرب، قبل أن تطلِّق، قبل أن توافق، قبل أن ترفض، قبل أن تتحرك، هل تتحرك وفق الصواب ووفق تصور صحيح ؟ فهنا المشكلة، لذلك أعدى أعداء الإنسان هو الجهل، لأن الجهل سينتج عنه تحَرُّك مغلوط، وإذا اعتقد الإنسان أن الحياة محدودة،

وعليه أن يستمتع بها إلى أقصى درجة، فهذا كلام غير صحيح، هذه الحياة الدنيا زائلة، وبعدها حياة أبدية، فما موقف هذا الإنسان الجاهل حينما يأتيه ملك الموت ؟ إنه يقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا)

(سورة المؤمنون: آية 100)

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا)

(سورة المؤمنون)

فالبطولة كل البطولة أن تعمل عملاً لا تندم عليه، والعبرة من يضحك آخر الأمر، هناك من يضحك أول الأمر ثمّ يبكي.

((ألاَ يَا رُبّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألاَ يا رُبّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة...))

[الجامع الصغير عن أبي البحير بسند فيه مقال]

فنحن نريد المرحلة الأخيرة، نريد الحياة الأبدية ؛ إنّ الحياة الأبدية هي التي يعوّل عليها، لذلك: من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً.

(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ)

(سورة القصص: آية " 55 ")

هناك لقاءات فارغة، جلسة مضمونها سخيف، غيبة ونميمة، وفيها مخالفات، وفيها معاصٍ، هذه السهرة فيها غيبةٌ ونميمة، فيها حديث عن الدنيا، هذا لغو، أعرض عن اللغو، أعرض عنه حديثاً، أعرض عنه لقاءً، أعرض عنه نزهةً، أعرض عنه اجتماعاً، أعرض عن كل شيءٍ لا قيمة له.

(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ)

(سورة القصص: آية 55)

3 – لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ

فالمؤمن له ترتيب خاص، والمؤمن الصادق الصافي المُخْلص لو جلس مع أهل الدنيا يشعر بالبَوْن الشاسع بينه وبينهم، لا كبراً، ولكن شعوراً بالغُربة، هو له مستوى آخر، هو في واد، والناس في وادٍ آخر، هو يسعى لمعرفة الله ولمرضاته وللتقرُّب إليه، ويسعى في تهذيب نفسه وتزكيتها، والعمل على سموّها، والناس يسعون إلى شهواتهم وملذّاتهم من أي طريق، بحقٍ أو بباطل، لذلك من الصعب بمكان أن ينسجم مؤمنٌ مع غير مؤمن، فإذا حصل انسجام فالإيمان مشكوك فيه، مستحيل لمؤمن صادق صافٍ

أن يقيم علاقة حميمة مع إنسان كافر، البون شاسع في القيم والمثُل والمعتقدات والتصوّرات، وطريقة الحديث، وطريقة التعامل، والانغماس في الملذات:

4 – سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

(سورة القصص)

(لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ)

(سورة القصص: آية 55)

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6))

(سورة الكافرون)

لأن ربنا عزّ وجل قال:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة)

إذا فعلت هذا فأنت منهم:

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

(سورة المائدة: آية 51)

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

(سورة آل عمران: آية 28)

يعني أنه لم يأخذ شيئاً.

من واقع حياتنا مثلاً: إنسان مثقّف ثقافة عالية جداً، أي أنه غارق في العلم، وفي مطالعة الكتب، وفي البحث العلمي، وفي التأليف، فهل من الممكن أن يقيم خمسة أيام مع إنسان لا همّ له إلا بطنه، وإلا الحديث على الناس، والغيبة، والنميمة، والمزاح الرخيص، فهل من الممكن أن ينسجم هذان وأمثالهما، وأن يجتمعوا، أو يلتقوا، أو يتفاهموا، ويتعاطفوا ؟ هذا مستحيل، لذلك من صفات المؤمن أنه يشعر ببعدٍ شديدٍ عن الأشخاص التافهين، وبهوةٍ سخيفة فاصلة بينهم.

(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

(سورة القصص)

معنى السلام الوارد في هذه الآية:

قال العلماء: ليس هذا سلام بمعناه المعروف، هذا اسمه في القرآن سلامُ تركٍ، أي سلامٌ عليكم دعونا وشأننا، لكم دينكم ولنا ديننا، لكم مذهبكم ولنا مذهبنا، لكم اهتماماتكم، ولنا اهتماماتنا.

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

لا نبتغي أن نكون معهم، ولا أن نجلس معهم، ولا أن نلتقي معهم، ليس من أخلاقنا هذا، وتأتي تسلية الله عزّ وجل لهذا النبي العظيم:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: آية 56)

مبدأ الاختيار كما جاء في القرآن:

1 – الإنسان مخيّرٌ:

إن الإنسان مخيَّر، وهذا الاختيار صريح في قوله تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة القصص)

أي أن الله عزّ وجل يهدي من يشاء، بمعنى أن الإنسان إذا سار في الطريق التي رسمها الله عزّ وجل فعندئذٍ يهديه الله سبحانه وتعالى، والله عزّ وجل لا يهدي القوم الفاسقين، ولا يهدي القوم الظالمين، ولا يهدي القوم الكافرين، ولا يهدي من هو مسرفٌ كذّاب، ولا يهدي كيد الخائنين، فربنا عزّ وجل له ترتيب، يهدي الصادقين، يهدي المنيبين، يهدي التائبين، يهدي المتطهّرين، يهدي المحبّين، ولا يهدي إلا من سلك الطريق التي رسمها الله عزّ وجل للهدى، أما أن يستطيع النبي عليه الصلاة والسلام إحداث الهُدى في نفس الإنسان هذا ليس من شأن البشر، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يبيّن الطريق، وتبيان الطريق شيء، وإحداث الهدى شيءٌ آخر.

فأنت كأبٍ بكل وسائل إقناعك، بكل منطقك السليم، بكل قوة شخصيتك، بكلّ ما عندك من مغريات، بكل ما عندك من عقوبات، توَظِّفها جميعاً لإقناع ابنك أن يدرس، أما أن تعطيه كأس ماءٍ يُصبح بعدها عالماً بالفيزياء فهذا مستحيل، لأن عبء الدراسة على الابن، فيجب أن يجلس مع الكتاب، وأن يدرس،

وأن يفهم، وأن يحلل، وأن يناقش، وأن يبوّب، هذا العبء على الابن، أما الأب فعليه أن يُقْنعه بأن يدرس، فتارةً يُغْريه، وتارة يحذره، وتارة يقنعه، ويحبب له الدراسة، فالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وكلُّ من جاء بعده من الدعاة لا يستطيع أن يحدث الهدى في نفس الإنسان، ولكنه يستطيع أن يبيّن، وأن يحمل هذا الإنسان على أن يسلك طريق الهدى فقط، لأن مهمته أن يُقنع الناس بأن يسلكوا طريق الهُدى، إذاً: الداعي إلى الله عزّ وجل تنتهي مهمّته عند هذا، عند الإقناع، أما الحركة فهي من قِبَل الإنسان بالذات، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

2 – معنى المشيئة في هذه الآية:

من شاء الهداية، وسلك طريقها، واتبع ما أمر الله به عندئذٍ يتولى الله هدايته، إذاً من شأن الله عزّ وجل إحداث الهدى في قلب الإنسان، لكن الله سبحانه وتعالى لا يُحدث الهدى في قلب الإنسان إلا إذا طلب الإنسان الهدى، ودفع ثمنه، وكلُّ مسلمٍ على وجه الأرض يقول: اللهم اهدنا فيمن هديت، الدعاء سهل، لكن لا يدفع الثمن، ولسانه يدعو الله عزّ وجل بالهدى، ولكنّ فعله لا يؤكِّد مقولة لسانه.

إذا دخل واحد منا إلى محل سجاد، واختار سجادة ثمنها مئتا ألف، لو انتقاها، وقال: هذه أحبّها، خير إن شاء الله، فأين الثمن ؟ هل يكفي أن تشير إلى هذه القطعة كي يُعطيك إيّاها صاحب المحل ؟ هل يكفي أن تختارها بذوقك الرفيع ؟ لا.. أين الثمن ؟

((ألا إن سلعة الله غالية))

هنا المشكلة، أكثر المسلمين يتمنون الهدى، يا رب اهدنا، خير إن شاء الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ:

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

وَقَالَ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟))

(مسلم)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال: آية 72)

إذا وقفتَ موقفاً عملياً فأمرك كلامٌ في كلام، يقول لك: يا أخي، أنا آمنت بالله، فماذا فعلت ؟ ماذا أضفت؟ الله عزّ وجل موجود، آمنت به أم لم تؤمن، اعترفت به أم لم تعترف، ومن أنت ؟ الإيمان مرحلة لا بدّ منها، لكن لا تكفي إذا وقفنا عندها، في كتاب الله عزّ وجل أكثر من مئتي آية تقول:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة البروج: آية 11)

إنها تربط الإيمان بالعمل الصالح.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: آية 110)

(الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

(سورة فصلت: آية 30)

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

(سورة فصلت: آية 33)

لابد من الإيمان والعمل الصالح:

ليس في القرآن كُلِّه إشارةٌ إلى إيمانٍ بلا عمل، ما قيمة هذا الإيمان ؟ يقول لك: أنا أعتقد أن هذه المروحة تدور، خير إن شاء الله، وإذا اعتقدت فماذا أضفت ؟ فهي تدور، اعتقدتَ أم لم تعتقد، وماذا أضفت إذا اعتقدتَ أنها هي تدور، وهي فعلاً تدور ؟ إذا آمنت بالله عزّ وجل، ولم تفعل شيئاً، فلا أنت ما أطعته، ولا بذلت من أجله، ولا تقرّبت إليه، ولا غَضَضتَ بصرك عن محارم الله، ولا تحرّيت الحلال في كسب المال، ولا تحرّيته في إنفاقه، ولا أمرتَ بالمعروف، ولا نهيتَ عن المنكر، ولا تعلّمتَ العلم، ولا خدمتَ الناس، فماذا جرى ؟ وماذا حدث ؟ أؤكّد لك أن إبليس قال مثل مقالتك، فماذا قال ؟ في كتاب الله عزّ وجل قوله:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

فإبليس اعترف بوجود الله عزّ وجل، واعترف بأنه عزيز، ومع ذلك فإن إبليس كان رأس الكفر والضلال، إذاً:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

لا يستطيع النبي، ولا أيُّ إنسانٍ أن يحدث في نفس الإنسان الهُدى، ولكن يستطيع أن يدلّه عليه، أن يقنعه بالسير فيه، أن يبيّن، أن يوضّح، أن يفَصِّل، أن يُغْري، أن يوازن، أن يقارن، هذا كلّه من مهمّات

الداعية.

أحياناً تجد شطحات، منها كما يُروى أن أحد العارفين بالله نظر في إنسان فتاب إلى الله، هذه ليست للنبي، لعلها كرامة أكرمه الله بها، وانتهت، وقد لا تُكرر أبداً، وهذا ليس دائماً في طاقة البشر، والدليل:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2))

(سورة المسد)

هو عمُّ النبي عليه الصلاة والسلام، وقد سمع دعوة النبي صلى الله عليه وسلّم، ورأى النبي عليه الصلاة والسلام، ونظر إليه النبي عليه الصلاة والسلام، لكن:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

ومثله ابن سيدنا نوح، إذاً لا تستطيع أن تحدث الهدى، ولكن تستطيع أن تفصِّل، وتبيّن، وتوضِّح، وتقرِّر، وتوازن، وتقارن، وتبيّن الأسباب والنتائج والعواقب، وهذا كيف عامله الله عزّ وجل بعد أن استقام، وهذا كيف دمّر الله ماله بعد أن أكل الحرام، هذا كلّه توضِّحه للناس، عندئذٍ لعلهم يقنعون فيهتدون، الهُدى عمل لا يستطيع أحد أن يفعله لك إطلاقاً.

فالطالب أحياناً يقبلون منه أن يستلم كتابَ طالبٍ آخر، أو ما يشبه ذلك، أي ينوب عنه في أشياء جانبية، أما الامتحان فمن سيؤديه ؟ فهل من الممكن أن يقدِّم واحد طلباً للوزارة، وفيه أني مريض، وسيقوم أخي بأداء الامتحان بدلاً عني ؟ هذه مستحيلة، الامتحان لا يؤدِّيه إلا الشخص نفسه، بالكتب أو بالبطاقة معك توكيل فتستلمها، أما أن تؤدي امتحاناً مكانه فهذا مستحيل.

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: آية 56)

الهداية الربانية هداية توفيق:

فإذا عاد هذا الفعل على الله عزّ وجل، الله عزّ وجل يشاء الهداية وفق نظام، أي أن هدايته ليست مِزاجية:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً)

(سورة الإنسان)

هذا واضح، أنتم مخَيَّرون أيها العباد، لكن:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ)

فمشيئة العباد مشيئة اختيار، ومشيئة خالق الأكوان مشيئة فحصٍ واختبار.

نحن نقول: إن كل طالب يحمل شهادة ثانوية له أن يتقدّم بطلب إلى الجامعة ليختار الفرع الذي يحبّه،

هناك طالب حصل على مجموع قدره مئة وخمس علامات، وتقدم إلى كلية الطب، الجامعة تدرس هذا الطلب، هو اختار الطب، ولكن ليس لديه علامات تخوّله دخول كلية الطب، مشيئة الجامعة إذاً مشيئة فحصٍ واختبار، إما أن ترفُضَ الطلب لعدم إمكان هذا الطالب متابعة هذا الفرع، وإما أن توافق إذا حصل على المجموع الكامل، فهناك مشيئتان: مشيئة اختيار، ومشيئة فحصٍ واختبار، فأنت اطلب ما شئت، يا ربِ، أدخلني الجنة، كأن تقول أمام بيت فخم: اجعلوا هذا البيت ملكي، فأين الثمن ؟ ادفع الرُزَم المكدّسة حتى تملكه، وتنقل ملكيه لك، إذاً:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(القصص)

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

أيْ لا تُزَكِّ نفسك.

1 – التقييم ليس من شأن البشر:

أنا أقول: إن كل إنسان له عند الله مكانة لا يرفعها مدح المادحين، ولا يخفضها ذَمّ الذّامين، أنت معك في البيت كيلو من المعدن، بذكائك ومهارتك وقدرة إقناعك أقنعتَ الناس أنه ذَهَبٌ، والناس صدقوك أنه ذهب، بينما هي حديد، فمن الخاسر ؟ أنت ولو صدقوك، وإذا كنت تملك هذا الكيلو من الذهب الخالص، والنّاس يتهمونك أنك تملك الحديد، من الرابح ؟ أنت، لأنه في النهاية علاقتك مرهونة بنفسك، والعارفون بالله عزّ وجل هناك من يعظِّمهم إلى أعلى درجة، سلطان العارفين الشيخ مُحْي الدين رضي الله عنه وأرضاه، ويأتي أُناسٌ آخرون يسمونه الشيخ الأكْفَر، لا مدح المادحين يرفعه عند الله، ولا ذم الذامين يخفضه عند الله، بل مكانته يحددها عمله، وإخلاصه، وعلمه، وإقباله، وصفاؤه، ومحبته، لذلك فالقضية معلقة بك، هناك آية قرآنية تلغي كل المشكلات السابقة، قال تعالى:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

يعني أنه مضيعة وقت، أحدهم يقول: ابن خالتي أخذ الأولية، يرد عليه آخر: لا، لم يأخذ، لا، بل أخذ، وتضاربا، فاترك ابن خالتك، وانظر إلى نفسك، أنت ما معك من شهادة ؟ اترك ابن خالتك، واهتم بنفسك، من أنت ؟ ماذا يجديك أن تدافع عنه، أو ألا تدافع عنه ؟ هذا كلّه مستقى من قوله تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(القصص)

لدينا آية ثانية، وهي قوله سبحانه:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء)

أي أنك بشر، ولست إلهاً، لا تقل: فلان في جهنم، من قال لك ذلك ؟ هل أنت متأكِّد ؟ أنت لك الظاهر، والله عزّ وجل يتولى السرائر، وتَقْييم الآخرين ليس من شأن البشر، بل هو من شأن خالق البشر، وقد يعصي الإنسانُ اللهَ، نعم هو يعصي الله، لعلّه يتوب، ولعله يختم له بالإيمان، ولعله يموت عاصياً، هذه المعصية معصية، أما أن تحكم على مستقبل الناس فإن هذا تجاوز لمقام العبودية، أنت لك حجم، قل: الله أعلم، هداه الله، إذا رأيت إنساناً متلبّساً بمعصية فادْعُ له بالهدى، ولا تقل: هذا إلى جهنم، من قال لك ذلك ؟ هناك أشخاص بلغوا أعلى المراتب، ولهم بدايات سيّئة جداً.

سيدنا خالد كم مرة حارب النبي اللهم صلّ عليه ؟ وحينما أسلم خاض مئة معركة أو زُهاءها، وفي كل هذه المعارك حقق النصر، وفي سبع سنوات حقق من الإنجازات ما لا يحققه الآخرون في مئات السنين، القضية قضية.. **" اللهم اجعل خير عمرنا آخره، وخير أيامنا يوم نلقاك، نلقاك وأنت راضٍ عنا"**.. وقالوا:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

الإنسان مخيَّر، ويدفع الثمن، ويؤدي الطاعات، وله الجنة، أو اتبع الشهوات وله النار، ولكنني أُلِحُّ على فكرة قلتها كثيراً، يجب أن تطلب الهدى، وأن تدفع ثمن الهدى، إذا طلبته بلا ثمن فهذا ذنبٌ من الذنوب، لأن طلب الجنة من دون عملٍ ذنبٌ من الذنوب.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(القصص: آية 57)

شبهة الضعفاء ومرضى القلوب: وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا

من إسقاطات الآية في واقع المسلمين:

هذه الآية دقيقة جداً، لأنها مستمرة المعنى والمدلول، يقول لك شخص: إذا استقمتُ كما تقول أخسر عملي، خالق السماوات والأرض إذا أطعته هل تخسر شيئاً ؟ هل يُعْقل ألاّ يكون خالق السماوات والأرض ضامناً لك إذا آمنت به ؟ أترى هذا الإله العظيم يليق به إذا آمنت به، واستقمت على أمره أن يتخلّى عنك ؟ وأن يجعلك في الدرجة السُفْلى في المجتمع ؟ أيعقل أن تكون من نتائج الطاعة الخسران؟.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية 21)

هذا مستحيل في حق الله عزّ وجل، أيْ إذا كنت مؤمناً صادقاً هل تعامَل كما يعامَل الفاسق الفاجر؟.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

هذه آية واسعة جداً، تارةً يقول لك إنسان: لو أنني حضرت هذه الدروس فأنا أخاف، الله عزّ وجل الذي بيده ملكوت السماوات والأرض أليس في قدرته أن يحميك إذا أردت أن تتعرف إليه ؟ هل هناك إلهٌ آخر معه ؟

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل: آية 51)

إذا قلت: أخاف، أو إذا قلت: إذا استقمت في البيع والشراء أفَلِس، فالناس كلهم يعملون بهذه الطريقة !!! معنى هذا أنه هناك إلهين، يوجد إله يحكم الأسواق، وإله يحكم الآخرة، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

وهذه آية أخرى:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية 84)

هو نفسه الذي أنزل هذا القرآن، وحرّم عليك الربا، هو نفسه في الأرض إله، في البيع والشراء، والربح والخسارة، والمرض والصحة، يا أخي، إذا آمنا بمحمد نُتَخَطَّف من أرضنا، ما هذا الكلام ؟ الله عزّ وجل قال:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية 10)

مَن هم ؟

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

كيف ؟ هذا شيء خلاف المنطق، لأنه خالق الكون، فإذا آمن به إنسان، واستقام على أمره هل يفقد الحماية ؟ بالعكس، الحماية كلُّها تتوفر إذا آمنت به:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

صيغة:

(لَهُمُ الأَمْنُ)

غير (الأمنُ لهمُ)، لأن الصيغة الثانية معناها: الأمن لهم ولغيرهم، أمَا:

(لَهُمُ الأَمْنُ)

فالأمن خاصٌ بهم، ولا أحد يأمن مثلَ أمنِهم، ففي الجملة قصر، الأمن كله في معرفة الله، أي أن كل الأخطار، وكل المخاوف والمتاعب في قبضة الله عزّ وجل، فإذا اصطلحت معه، واستقمت على أمره أتخشى من شيء ؟ أين الله ؟ هو معك أينما كنت، كل شيءٍ بيده، ما قال لك: اعبدني يا عبدي إلا بعد أن طمْأنك، وقال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية 123)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية 36)

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

لا تخافي عليه، لأننا معه، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ هذه الآية دقيقة جداً لأن أُنَاسًا كثيرين يقولها بصِيَغٍ كثيرة، هذه الآية لها مليون صيغة، أنا أخاف أن أدفع زكاة مالي فيحسبونني صاحب دين، هذا أمر إلهي، أمر خالق الكون، أخاف ألا أصافحها فتحقد عليَّ، وتوشي لرئيسي بما حدث، اضطررت أن أصافحها:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

لا نقدر، أخاف إن أغلقت المحل أن أخسر إذا حضرت إلى سماع الدرس، فتقول عندئذٍ: عندنا الآن موسم، هذه الآية يصوغها الناس بآلاف الصيَغ، إما أن يربط تجارته بترك مجالس العلم، أو يربط سعادته بترك الصلاة أحياناً، أو يربط نجاحه في عمله بإظهار أنه لا دين عنده مثلاً، هذه كلها شرك بالله عزّ وجل:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الجواب الرباني:

الله عزّ وجل بماذا ردَّ عليهم ؟ قال:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(القصص)

أي وأنتم في الشرك فقد حَباكم الله عزّ وجل حَرماً آمناً، والناس من حوله يُتخطّفون، بعد أن آمنتم بالنبي عليه الصلاة والسلام هل تتخطّفون ؟ مستحيل.

يقولون: إن سيدنا موسى دعا الله بالغيث، فقال له الله عزّ وجل: **يا موسى، إن فيكم عاصياً لا أستجيب لكم، فقال موسى عليه السلام: من كان عاصياً لله فليغادرنا، بعد حين هطلت الأمطار بغزارة، فقال: يا ربِ من هو هذا العاصي ؟ فقال: يا موسى عجبت لك ! أأستره عاصياً، وأفضحه تائباً** ؟ فهل هذا معقول ؟ وأنتم بالشرك في أمن وسلام، وبعد أن آمنتم بالنبي عليه الصلاة والسلام تتخطّفون من أرضكم**!؟** وأنت مُقَصِّر في عبادة الله هطلت مثلاً وقعت في خمسين مخالفة، والله سترك وحفظك، بعدما استقمت، واصطلحت تقول: أخي أخاف على مركزي، على وظيفتي، أخاف على دخلي وتجارتي، أخاف إذا وضعت لابنتي الحجاب ألا تتزوج، إذا أطعت الله عزّ وجل تصبح ابنتك بلا زواج **!؟** هذا منطق سخيف جداً، إذا استقام على أمر الله، وفعل الصالحات يخاف أن يضيّع الدنيا، هذا المنطق ردّ الله عزّ وجل عليه فقال:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الواقع السيئ والمفهوم الخاطئة:

إذا لم تغشّ فلن تربح، هذا الكلام يشبه هذا الكلام تماماً، يا أخي ماذا نفعل ؟ الناس كلهم يغشون **!!!** أنا عندي أولاد، إذا لم أغش لا أربح، هكذا تقول ؟ الذي أمرك ألا تغش ألا يقدر أن يحميك من الخسارة ؟ الإله أمرك ألا تغش عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ مِنْ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ، مَا هَذَا ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ، ثُمَّ قَالَ:

((مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا))

(مسلم والترمذي واللفظ له)

إذا لم أغش لا أعيش، وإذا لم أكذب لا أعيش، عملي متوقف على الكذب، هذه الآية دقيقة جداً، يقول لك أحدهم: أنا لابد أكذب، وأقول له: هذه الدعوى رابحة، لكن هذه الدعوى حقيقة ليست رابحة، ماذا أفعل ؟ إنني مضطر أن أقول له: هي رابحة، وهذا دفع الحساب، أماطله ثماني سنوات، وأقول له بعد ذلك: لم أستطع شيئًا، وإذا لم أكذب لا أعيش، وإذا كان هذا الدواء لم نغير تاريخه لا يُباع معنا، أرميه

في سلة المهملات ؟! هذه القضية دائمةً، أي إن لم يعصِ الله فلا يربح، أقول: إن هذه مفارقة عجيبة وعجيبة، لأنه من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

إنه من المستحيل أن تعصي الله وتربح، ومن المستحيل أن تعصيه وتسعد، ومن المستحيل أن تعصيه وتتفوق، ما عند الله لا يُنالُ بمعصية الله.

إن شاء الله هذه الآية تحتاج إلى وقفة مَلِيَّة:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً)

(القصص: آية 57)

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5))

(سورة الفيل)

(يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (10-18): تفسير الآيات 57 - 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-07-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة القصص، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص)

مقدِّمــةٌ :

أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية غنيةٌ جداً، كيف أن الله عزّ وجل، بل كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال مثلاً:

((لَا يَقْضِي الْقَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ))

(ابن ماجه عن أبي بَكْرَةَ)

لماذا نهى النبي عليه الصلاة والسلام القاضي عن أن يقضي وهو غضبان، لأنه مُغَوَّش، حكمه غير صحيح، رؤيته غير صافية، ذهنه غير صافٍ، لذلك جاء العلماء، وحملوا على هذا الحديث حالات كثيرة جداً، فالقاضي لا ينبغي أن يقضي وهو جوعان، ولا ينبغي أن يقضي وعنده قضيةٌ تشَوِّشُ ذهنه، ابنه مريض، عنده مشكلة، غضبان، جائع، مريض، كل هذه الحالات مأخوذةٌ من علّة واحدة، كيف أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا)

(سورة الإسراء: الآية 23)

ما العلّة في ذلك ؟

العلّة ألاّ تؤذي أمك وأباك، إذاً أيّ شيءٍ آخر غير كلمة أُف يؤذي أمك وأباك أمرٌ محرَّم، يُحْمَل على هذا، القرآن إعجازه في إيجازه.

نعود إلى هذه الآية:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: 57)

وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا

1 – مناسبة الآية وعلاقتها بواقع المسلمين:

لهذه الآية مناسبة، ولهذه الآية سبب نزول، ولكن هذه الآية تُحَمِّلُ عليها حالاتٌ لا تعَدُّ ولا تحصى، فلمجرد أن تتوهَّم أن طاعة الله عزّ وجل تَضُرُّك، وأن معصيته تنفعك، فيجب أن تحكم على نفسك حكماً قاطعاً أنك في جهالةٍ عمياء، بمجرد أن تتوهَّم أن طاعة الله تضرك، وأن معصيته تنفعك في شَتَّى الميادين، في كل الاختصاصات، في كل الظروف الجليلة والحقيرة، فيما يتعلّق في رزقك، بعملك بمهنتك، بعلاقاتك الاجتماعية، حينما تعتقد أن الطاعة تضرك، وأن المعصية تنفعك، فاحكم على نفسك حكماً قاطعاً أنك في جهالةٍ جهلاء.

2 – الواقع يحكم على جهل الناس:

فمثلاً: لو أنك طبيبٌ، ورأيت شخصاً يدَّعي أنه طبيب، ونصح مريضاً، قال له المريض: ضغطي مرتفع، قال له: هذا جيّد، كلما ارتفع الضغط فهو حالة طيبة جداً، ألا تحكم على هذا المُدَّعي أنه جاهلٌ ؟ جهلاً قاطعاً، هذا الذي يدعي أنه طبيب، والذي يطمئن مريضه أنه كلما ارتفع الضغط كان إشارةً على صحة الجسم، تقول: هذا جاهل جهلا قاطعًا.

والقصة التي تعرفونها جميعاً ؛ أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه كان يُلْقي درساً في الفقه مع طلابه، ويبدو أن التكلف مرفوع بينه وبين طلابه، كان متألماً من رجله فمدّها مرةً، دخل شخصٌ طويل القامة، عريض المِنْكَبَين، ذو هيئة فخمةٍ، فأُخذ أبو حنيفة بهذا الشخص، فاستحيا أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه، ورفع رجله، هذا الرجل الوقور جلس في حلقته، وفي أثناء الدرس طرح سؤالاً، طبعاً الموضوع في صلاة الفجر، هناك فجرٌ كاذبٌ، وفجرٌ صادقٌ، وهناك طلوع الشمس، وصلاة الفرض بينهما، فقال له هذا الرجل المهيب: يا سيدي، كيف نُصَلِّي الصبح إذا طلعت الشمس قبل الفجر، فنظر إليه وقال: عندئذٍ يَمُدُّ أبو حنيفة رجله، مِن كلمة واحدة حكم عليه أنه جاهل.

لو أن مهندساً مثلاً قلتَ له: إن هناك شَقًّا في الدعامة الأساسية للبناء، وهذا الشق يتفاقم، قال لك: لا، هذا الشيء لا قيمة له إطلاقاً في البناء، ألا تحكم على هذا الشخص المهندس الذي يدَّعي أنه مهندس أنه جاهل ؟ لو قلت له: إن الحديد سعره مرتفع جداً، ما قولك يا أستاذ لو نلغي الحديد من البناء ؟ قال لك: لا مانع، ووجود الحديد أساساً ثانوي في البناء، ألا تحكم على هذا الإنسان أنه جاهل جهلاً قاطعاً ؟ ألم

يعرف أن الإسمنت يتحمّل قِوى الضغط، لكِنّه لا يتحمل قِوى الشد، فعند الشد لابدّ من تسليح، فأيّ إنسان قد يتكلم كلمة واحدة فتحكم عليه حكماً قاطعاً أنه جاهل.

لو أن إنسانًا قال لك: أنا مُخْتَص في اللغة العربية، فقلت له: أعرب كلمة جاء المعلِمون، فقال المعلمون: فاعل منصوب، ما هذا المنصوب ؟ المعلمونَ، ألا تحكم على هذا الإنسان أنه جاهل ؟ دون مستوى الكفاءة، حتى دون مستوى الابتدائية.

فالأمثلة كثيرة جداً، الصيدلي لو أن دواءً فيه مرهم اليود، وقال لك: هذا للاستعمال الداخلي، فإن هذا الصيدلي مجرم، وجاهل، وقد يقضي على هذا المريض، ففي كل المهن والحرف ؛ طبيب، مهندس، مدرس، محامٍ، تاجر، محاسب، مثلاً قال لك: أخي الربح أساسه ثمن الشراء + ثمن المبيع = الربح، ما هذا الكلام ؟ معنى ذلك أنه جاهل جهلاً قاطعًا في أمور المحاسبة.

3 – توهم ضرر الطاعة جهلٌ كبير:

الآن: لِمُجَرّد أن تتوهّم أن طاعة الله تضرك، وأن معصيته تنفعك فهذا هو الجهل بعينه، مهما حَصّلت من علوم، ومهما ارتفع مستواك العلمي، مهما درست، مهما اطلعت، تجد شخصًا يقول: أنا دَيّن، والحمد لله، ويفتخر بأنه ديّن، ولكن يتوهّم أحياناً أنه إذا أطاع الله عزّ وجل في هذا الموضوع خَسِرَ، هذا هو الجهل بعينه.

فمثلاً: إنسان أراد أن يتزوج، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من تزوج المرأة لجمالها أذلّه الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها أذله الله، فعليك بذات الدين تربت يداك))

[ورد في الأثر]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ ؛ لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

(صحيح البخاري)

وهو يخطب عثر على امرأةٍ غنيةٍ، لكن دينها ضعيفٌ جداً، قال: أنا أحُلُّ مشكلتي بغناها، ولم يعبأ بقول النبي عليه الصلاة والسلام، ولا بقوله تعالى:

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

(سورة البقرة: آية 221)

هذا إذا توهّم أن هذه المرأة الغنية تُسْعِدُهُ بمالها، أو تسعده بجمالها، أو تسعده بوجاهتها وأسرتها ونسبها، على حساب رقّة دينها، هذا الإنسان في الدين جاهل، لأنه لم يعبأ بقول الله تعالى، ولم يعبأ بقول

النبي عليه الصلاة والسلام، بل توهَّم أن طاعة الله باختيار الزوجة ذات الدين خسارة، وأن اختيار الزوجة الغنية والجميلة ربحٌ كبير، وهذا هو الجهل.

الآن: في معاملة الزوجة، تزوج امرأةً ما، في معاملتها لمجرد أن يعتقد أنه إذا قسا عليها قسوةً بالغةً سعد بها، ولم يعبأ بقوله تعالى:

(وَعَاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورةالنساء: آية 19)

فهذا إنسان جاهل، فيجب أن تنتبه في أي حركة من حركاتك، في أي سكنة من سكناتك، الزوجة لمجرّد أن تُؤثِر خاطباً غنياً رقيقاً في دينه على خاطب فقيرٍ متينٍ في دينه، فهذه جاهلة، يقال لك: أخي، هي تصلي قيام الليل، وحافظة للقرآن، لمجَرّد أن تختار الغنى مع رقة الدين، وتدع صلابة الدين مع الكفاف فهي فتاةٌ جاهلة، لا تعرف أن هذا الزوج المؤمن يسعدها، والله عزّ وجل معه، وإن كان فقيراً فسيغنيه الله، وأن هذا الزوج رقيق الدين سيستهلكها، وسيستمتع بها، ثم يلقيها لأدنى سبب، وسيحملها على معصية الله، وسيكون طريقاً لها إلى النار، هذا في الزواج.

أما في تربية الأولاد: فمن أجل أن يكون ابنك في مركزٍ مرموق تُضَحِّي بدينه، فأنت غير مُرَبٍّ، ولا تعرف من التربية الدينية شيئاً، آثرت دنياه على دينه، آثرت دنياه على آخرته.

مثلاً: أنت صاحب تجارة، وهذه البضاعة الآن رائجة جداً، وهي بضاعة محرمة، ماذا أفعل ؟

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص)

هذا الذي يصنع قِطَعًا مثلاً، ويوجد قطعة فيها تحريم، مثل النرد، أو التمثال، وهذا التمثال عليه إشكال في الفقه، فإذا صنعت شيئاً رائجاً، ولم تعبأ بحرمة ذلك، ولم تعبأ بأنه محظور عليك أن تفعله فأنت لا تعرف شيئاً، هذا في مجال الصناعة.

الطبيب مثلاً: إذا اعتقد أنه إذا أَلْقَى في رُوع المريض أن مرضه خطير، وأنه عليه أن يزوره كل أسبوع، إذا اعتقد هذا الطبيب أنه بهذه الطريقة يجلب له رزقاً كثيراً فهو جاهل، أما إذا اعتقد أن هذا الإنسان يجب أن يخدمه، وأن يُهَدِّئ من روعه، وأن يَبُثّ في نفسه الطمأنينة، وأن يعطيه العلاج المناسب في الوقت المناسب، فهذا طبيبٌ يعرف الله عزّ وجل، ويأتيه رزقٌ وفير من طريقٍ مشروع.

المحامي مثلاً: إذا اعتقد أنه لو تَكَلَّم الحقيقة المرة للناس لمَا استلم دعوى واحدة، أما إذا أوهمهم، وإذا زيف الحقائق أمامهم فيربح ربحاً وفيراً، إذا اعتقد أن الكذب طريقٌ إلى سعادته، وإلى وفرة دخله، وإلى بحبوحته، وأن الصدق يصرف عنه رزقاً وفيراً، لمجرد أن تعتقد أن الطاعة تَضُرُّك، وأن المعصية تنفعك فأنت لا تعرف شيئاً، واحكُمْ على نفسك بالجهل المُطْبق.

الآية واسعة جداً:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

إنّ منطق التاجر مثلاً الذي يبيع بضاعة، فإذا أراد أن يفرّق بين الدَين والتقسيط، وأراد بهذا البيع أن يربح ربحاً وفيراً، بينما شعر أنه بهذه الطريقة ربما وقع في مخالفةٍ شرعية، لكنه يربح، فآثرها على الطريقة الشرعية المفضلة، إذاً: هذا التاجر لو صلى وصام فهو لا يعرف الله عزّ وجل، حينما يؤْثر معصية الله عزّ وجل على طاعته، حينما يؤثر أن يقترض بالربا، ويحُل مشكلته، ولا يعبأ بأمر الله عزّ وجل فهو لا يعرف الله عزّ وجل، فلاحِظْ أن هذه الآية تدور معك في كل أحوالك، في كل نشاطاتك، في كل شؤون حياتك، في كل مجالات الحياة، في قطاعات الحياة:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

أين الله ؟ أيعقل أن تطيعه ويتخلّى عنك ؟ أيعقل أن تطيعه في كسب المال، وتكون فقيراً ؟ أيعقل أن تعصيه في كسب المال وتصبح غنياً ؟ أيجازي الله عباده الطائعين بالحرمان، ويكافئ عباده العاصين بالإحسان ؟ هل هذا شأن الله عزّ وجل ؟ هذا شأن الإله الذي تعبده ؟ الله سبحانه وتعالى يقول ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية 21)

هذا الإله العظيم الذي تعبده أيعقل أن يتخلى عن عباده المؤمنين ؟ أيعقل أن تكون معصيته طريقاً إلى السعادة، وأن تكون طاعته طريقاً إلى الهلاك ؟

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

هذا كلامٌ فارغ، الإله ضامن، الذي يأمرك بكذا وكذا هو خالق الأكوان، بيده كل الأمر:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية 123)

لا معنى أن تعبد الله عزّ وجل، ولن يحميك من خصومك، لا معنى أن تعبد الله عزّ وجل، وأن ترى في عبادته خسراناً مبيناً.

إذاً: هذه الآية الكريمة:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

لا تكليف سبيلُه معصية:

أي إنسان قال لك: ماذا أفعل ؟ هكذا السوق يحتاج، أو هكذا، ظروفنا صعبة، أو عندي أطفال كثيرون، أنا مضْطَر لكسب هذا المال بهذه الطريقة، إذا قال لك: أنا مضطر فأجبه إجابةً حاسمة، قال الله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية 286)

الله لم يكلفك من أجل كسب الرزق أن تعصيه، لم يكلفك من أجل أن تطلب ما أنت بحاجةٍ إليه أن تقع في مخالفةٍ لأمره، ففي الزواج، في معاملة الزوج، في اختيار الزوج، في اختيار الزوجة، في معاملة الزوجة، في تربية الأولاد، في المِهَن، فمثلاً تقول: إن هذا الصانع إذا علّمته هذه الحرفة ربما نافسني، إذاً: يجب أن أبقيه جاهلاً، وقد جاء به أبوه إليك، وهو صديقك من أجل أن تعلِّمه هذه الحرفة، فإن تُطِع الله عزّ وجل وتكن معه مخلصاً، وتعلمه هذه الحرفة تقع في خسارة كبيرة، إذاً: لابدّ من أن تعصي الله، وتخون صديقك، وتَدَع هذا الطفل الذي أخرجه من المدرسة، ووضعه عندك جاهلاً في هذه الحرفة، تستغله في خدماتك الشخصية، لن تفلح أبداً إذا فعلت هذا، كل واحد بحسب حرفته، بحسب اختصاصه، بحسب مهنته، بحسب عمله، يعلم كيف تكون الطاعة لله عزّ وجل، وكيف تكون المعصية.

بين منطق حياة ومقاييس الشرع:

دائماً بمنطق الناس، بمنطق الحياة هناك مقاييس، وهناك منطق الإيمان، وهناك مقاييس أُخرى، يُمكنك في منطق الحياة كلما خَفّضت أجر هؤلاء العمال ازداد ربحك، هذا كلام رياضي، كلما قَلّت النفقات ازداد الربح، أما إذا أعطيتهم رواتب معقولة، ورفعت من مستواهم المعيشي بدافعٍ من إخلاصك لله عزّ وجل وحبّك لعباد الله، الله سبحانه وتعالى في منطق الإيمان يُجْري الأمور على نحوٍ خاص، حيث تزداد أرباحك عما هي عليه قبل أن ترفع رواتبهم، المشكلة أن صاحب المتجر، وصاحب المعمل، والموظّف، والطبيب والمحامي، والمهندس، والمدرس لا يتعاملون بهذا المنطق.

المدرّس إذا ألقى في رُوع الطلاب أنهم ضعفاء جداً، وأعطاهم علامات متدنية جداً لعلهم يأتونه ليأخذوا دروساً خاصة منه فيربح، هذا منطق الناس، أما إذا أنصف الطالب الذي بذل جهداً كبيراً، وله أبٌ ظالم، أعطاه علامته المستحقة، وهو لا يرجو إلا أن يرضي الله عزّ وجل، لعل الله عزّ وجل يجري الأمور على نحوٍ آخر فيأتيه دخلٌ مشروع من طريقةٍ مشروعة، دائماً حينما يزداد إيمانك تَصْلُح قراراتك، كلما ارتفع مستوى الإيمان أصبحتَ موَفّقاً في اتخاذ القرار، لأنك تتخذ القرار في ضوء قواعد الدين لا في ضوء قواعد الدنيا.

عند الله لا يُنال بالحرام:

أيها الإخوة الأكارم، آيةٌ يجب أن نطبقها في كل شؤون حياتنا، يجب أن تعتقد أن ما عند الله لا ينال

بمعصية الله، يجب أن تعتقد أنه **" من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى ".**

تقول: إذا كذبتُ على هذا الإنسان أربحُ منه أرباحاً طائلة، فإذا صدقت، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ، وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ))

[سنن أبي داود عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَسِيدٍ الْحَضْرَمِيِّ]

هذه خيانة كبيرة جداً، وأنا أتمنى على كل أخ كريم في مهنته، وفي بيته، وفي كل علاقاته الاجتماعية، أن يضع هذه الآية نُصْبَ عينيه:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص)

لا مساومات في الدين:

أي إذا كنت أريد أن أجعل السهرة غير مختلطة أتكلّف أكثر، أما المختلطة ففيها ضيافة واحدة، أنت آثرت أن توفِّر شيئًا بالضيافة، آثرت ذلك على طاعة الله عزّ وجل، وإذا لم أجلس مع أخوات زوجتي فإنها تغضب، وإذا غضَبْت تعذبني، فسأرضيها، والزوجة إن لم تطع زوجها في معصية الله فإنه يطلقها، هذا هو الجهل بعينه..

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أحمد]

افعل ما بدا لك، قالت أم سعد لابنها: **<< يا بني، إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت>>**، هذه أم سيدنا سعد، فقال لها: **<< يا أمي، لو أن لك مائة نفسٍ، فخرجت واحدةً وَاحدةً ما كفرت بمحمد، فكُلي إن شئت أو لا تأكلي >>.**

إن المؤمن رجل مبدأ، عنده مسلّمات في حياته، مستعد أن يضحي بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس من أجل مبدئه، ليس عنده مساومات، رجال المبادئ ليس عندهم مساومات، ليس تاجرًا حتى نقول له: خفِّض لنا في السعر، فإنه لا مراعاة في الدين، لأن هذا شرع الله عزّ وجل.

تصور لو أن مهندسا متفوّقا في عمله، جاءه شخص، وقال له: أريد أن أعمِّر بناء، قال له: يلزمك خمسة أطنان من الحديد، وهذه للأقطار ستة ميلي، أو ثمانية ميلي، قال له: أبنيه بلا حديد، أو أنقص طُنا، هذا كلام فارغ هنا لا يوجد مساومة لأن هذه قواعد هندسية، هذا البناء لا يبقى متماسكاً إلا بهذه الأطنان من الحديد، وبهذه الأقطار، وبهذا التوزيع، هنا لا مجاملات.

البَطْن مفتوح، والطبيب يجري عملية دقيقة، وأنت ترجوه أن يغلق البطن، لا يستطيع حتى تنتهي العملية.

دائماً قواعد الدين قواعد قَطْعِيَّة لا يوجد فيها مساومة، واحد يقول لك: هذا التيار الكهربائي فيه خطر الموت، ستة آلاف فولط، مرسوم عليه جمجمة وعظمتان، هذا ليس قيداً، إنهم يقيدون حريتنا، وتجد أحد الناس أحب أن يتسلّق العامود، وهو يقول: يقولون: ممنوع، هذا ليس تقييدا للحرية، بل ضمان لسلامتك، هذه قضايا قطعية، هذا شيء ثابت ليس فيه مساومات، إذا كان لا يرانا أحد هل نصعد ؟ التيار وحده يعاقبك حتى لو لم يَرَك أحد.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الطاعات سبب للسعادة والمعاصي سببٌ للشقاء:

الله عزّ وجل جعل الطاعات أسبابًا لسعادتك، وجعل المعاصي أسبابًا للشقاء، فكل طاعة فيها بذور نتائجها، أي توجد علاقة علمية بين الطاعة ونتائجها، وتوجد علاقة علمية بين المعصية ونتائجها،ادفع الثمن، ربنا عزّ وجل قال:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: آية " 187 ")

وفي آية أخرى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

(سورة البقرة: آية 229)

كل أوامر الشرع لمصلحة الإنسان:

ويجب أن تعلم أن كل شيءٍ أمرك الله به فهو لمصلحتك، فإذا أحببت نفسك، فإذا كنت مسرفاً في حب ذاتك، وإذا كنت كما فطرك الله عزّ وجل ؛ مفطوراً على حب وجودك وعلى سلامة وجودك وعلى كمال وجودك وعلى استمرار وجودك فعليك أن تطيع الله عزّ وجل، هذه الأشياء الفطرية لن تتوفر إلا في طاعة الله، والله عزّ وجل يحفظك من كل مكروه، ويطمئنك، ويكرمك، وتشعر أن الموت مرحلةٌ إلى حياةٍ أبديةٍ أشدُّ سعادةً من هذه الحياة، هذا الحال وحده يكفي أن تَسْعَد، فلذلك يمتحن الإنسان نفسه، ولا يتوهم أنه مؤمن إيمانا كاملا، سيدنا عمر قال: **<< من شاء صام، ومن شاء صلى، ولكنها الاستقامة>>.**

الدِّينُ هو الاستقامة:

يجب أن تكون تصَوُّراتك كلّها متوافقة مع مقاييس القرآن الكريم، لذلك ما الذي أهلك الناس ؟ أنهم جعلوا الدين صوماً وصلاةً وحجاً وزكاة فقط، وما سوى ذلك فهم واقعون في شرك، وفي توَهُّم، لكن الأمر الإلهي وهذا الشرع ماذا تفعل فيه ؟ فأيهما أهم غضب الله أم غضب أمك ؟ يشعر أنه إذا عصى الله عزّ وجل، وأطاع أمه يرتاح، يجب أن تقِيم موازنات، الله عزّ وجل قال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

(سورة الإسراء: آية: 23 ")

الله سبحانه وتعالى له الطاعة وله العبادة، أما الوالدان فلهما الإحسان، والطاعة والعبادة شيء، والإحسان شيءٌ آخر:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

معنى: نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا

إن القرآن الكريم فيه إعجاز، فالتخطف من الأرض إذا اتبعناك، فإما أن ينصرف الناس عنا فنفتقر، وإما أن نحارب فنموت، والحقيقة الإنسان في الحياة حريص على شيئين، على وجوده وعلى رزقه، والإنسان أحرص شيءٍ يحرص عليه هو وجوده ورزقه، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تُقرّبُ أجلاً))

[ورد في الأثر]

يجب أن تعتقد أن رزقك مضمون، وأن عمرك لا يزيد ولا ينقص، إذا اعتقدت هذا كانت لك مواقف جريئة، وكانت لك مواقف مشرّفة، أما الخوف الشديد من نُقصَان الرزق، والخوف الشديد من انتهاء العمر قبْل أوانه فهو أحد أكبر أسباب المعاصي.

إنه بمنطق الناس، لو جاءك أمر ممن هو فوقك بأن تعصي الله، ومع الأمر تهديد، بمنطق الناس أنك إذا أطعت مَن هو فوقك سلمت ونجوت، وارتحت واسترحت، وأنك إذا عصيته سببت لنفسك كل المتاعب، هذا منطق الناس، لكن منطق القرآن:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: آية " 38 ")

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

فإذا جئت إلى منطق القرآن، وقلت:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللّهِ عَزّ وَجَلّ))

عندئذٍ تجري الأمور على نحوٍ غريب، ماذا يُلْقى في قلب هذا الإنسان الذي تحديتَه ؟ يشعر بقيمتك، يشعر بقوّتك، يشعر بسموّك، يصْغُر أمامك، يعتذر منك، أنت كنت متوقعاً غضبه، عنده حظوظ حمراء، لا مجال للرجاء وللمساومة والدلال، والطلب، ولا مجاملة في أمور الدين، ولا يوجد حل وسط، هذا أمر الله عزّ وجل، وكلّما عَظّمت أمر الله عزّ وجل أحبك الله.

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج)

كلما عَظّمْتَ أمر الله عزّ وجل، إذا أردت أن تعرف مالك عند الله فانظر ما لله عندك، فشأن الناس اليوم هان الله عليهم فهانوا على الله، أي طاعته ومعصيته سيّان، كسب المال الحلال كالحرام، يقول لك: لا تدقق، ما دام الله قد هان عليهم إذاً هم هانوا على الله، أي يسوق الله إليهم من الشدائد ما لا يطيقون.

النبي عليه الصلاة والسلام جاءه أعرابي قال له: " عظني ولا تطل قال:

((يا أعرابي قل: آمنت بالله ثم استقم، قال: أريد أخَفّ من ذلك قال: إذاً فاستعد للبلاء))

[ورد في الأثر]

لابد من متابعة المقاييس الشرعية ومراعاتها:

فأنا أتمنى من كل أعماقي أن كل أخ حاضر معنا، بكل حركة من حركاته يلاحظ مقاييسه، أي إذا أطاع الله عزّ وجل يخسر ؟ يقول لك: هذا مطعم، مطعم درجة أولى، إذا لم نبع فيه الخمر لا نربح، ماذا نفعل، نحن مضطرون، إذا كنت كذلك فأنت جاهل، وإيمانك صفر، إذا كنت تعتقد أن الربح يأتي من معصية الله فأنت لا تعرف من الدين شيئاً، قيسوا أشياء كثيرة جداً.

أحياناً يغش الإنسان، الكيلو في بعض المواد الغذائية سعره مرتفع إذا غششتها، بعض الأشخاص قالوا لي: يضعون مع الطحينة مادة (إسبيداج)لتبيضّ، ويزداد سعرها ليرتين، فيا صاحب معمل طحينة أتبيع مادة تُخَرّش الأمعاء من أجل أن تربح ؟ وبعد ذلك يصلي في أول الصف، هذا جاهل عند الله عزّ وجل، هذا ليس ديّناً إطلاقاً، إذا كنتَ تعطي المسلمين مادة غذائية تؤذيهم من أجل أن يزداد ربحك، وتصلي فالدين في واد، والحياة في واد آخر، الدين هو الحياة، الدين هو معملك، الدين في بيتك، الدين في متجرك، الدين في وظيفتك، الدين في عيادتك، الدين في مكتبك للمحاماة، هنا الدين، ليس الدين في المسجد، المسجد هذه عبادة شعائرية، هذه من أجل تقويم العبادة التعاملية، المسجد، الصلاة، الصوم

الحج، هذه ثلاث ساعات امتحان.

لو فرضنا أن طالبًا جاء إلى هذه الساعات الثلاث، وقد ارتدى أجمل الثياب، شيء جميل، جاء بشطيرة لعلّه يجوع، وأربعة أقلام احتياطا، وحبوب من الأسبرين لعلّه يتألّم من رأسه، وماء بارد، ولكنّه لم يدرس إطلاقاً، ما نفعُ هذه الأقلام الأربعة، وهذه الحبات الأسبرين، وهذه الشطيرة، وهذه الثياب الجميلة؟ شيء مضحك، هذه الساعات الثلاث أساها الدراسة، أساسها عام دراسي بأكمله، فكلما كان هناك جهدٌ كبير في أثناء العام الدراسي، كانت هذه الساعات الثلاث مجدية ونافعة، هذه هي المشكلة، حينما فهم المسلمون أن الدين أن تصلي، وأن الدين تصوم مع الناس، هذا رمضان، وأن الدين أن تحُج البيت، وانتهى الأمر، هذا هو الدين، ثم لا تدقق، يفعل ما يشاء، يكذب كما يريد، يأكل مال كما يشتهي، ينفق كما يريد، علاقاته الاجتماعية كلها غير صحيحة، يعطي نفسه ما تشتهي، هذا الفهم للدين فهم سقيم، هذا الفهم للدين جعلنا في مؤخِّرة الأمم، هذا الفهم للدين جعل للكافرين علينا سبيلاً، أما حينما يستقيم الإنسان استقامةً تامةً في عمله، وفي علاقاته، وفي كسب ماله، عندئذٍ يعرف ماذا يعني الدين، الدين أخطر شيءٍ في حياة الإنسان.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص آية 57)

قول آخر:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام آية 148)

احذر هذا النوع مِن الشرك:

لابد أن ينتبه كل إنسان إلى كلامه، فلمجرّد أن تقول: الله لا يريد أن يهديني، لم يشأ الله بعد، الله ما ألهمني أن أصلي، لمجرد أن تعتقد هذا فأنت مشرك.

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

ماذا قال المشركون ؟ قالوا: إن الإيمان بيد الله إلى أن يشاء الله نؤمن، ولو لم يشاء لم نؤمن، نحن ليس لنا علاقة، هذه عقيدةٌ شائعة بين المؤمنين، إلى أن الله يأذن، إلى أن سيدك يأذن، إذا قلت له: ألا تصلي ؟ ألا تغض بصرك ؟ هذا العمل حرام ؟يقول: ليس بيدي، الله لم يأذن لي الآن، هذا كلام الشرك، هذا عين الشرك، انتبه إلى كلامك:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

بيده الأمر، الآن:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: الآية 57)

هذا كلام مشركي مكة، إذا قلت قولاً يشبه هذا القول فأنت مثلهم تماماً، أخي إذا أطيع الله عزّ وجل سأخسر مركزي. فما هذا الكلام أنتظر، أو يقول: الله عزّ وجل ليس في الأرض، ولكنه في السماء فقط، ماذا قال الله ؟:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل: الآية 51)

يقول لك: أنا مضطر، هكذا يجب أن أعمل لكي أحافظ على مركزي.

لا تنسَ قول هذا التابعي الجليل لأحد ولاة يزيد، جاءه توجيه خلاف الحق، فسأل التابعي: ماذا أفعل ؟ قال: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله "**، وأنت قس على هذا القول كل شيء.

الردُّ الإلهيُّ: أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً

ماذا ردّ الله عليهم:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً)

(سورة القصص: الآية 57)

أي وأنتم في الكفر والشرك لكم حرمٌ آمن، فإن آمنتم بي تُتَخطّفوا من أرضكم ؟! هكذا يفعل الله عزّ وجل ؟ قبل المعصية كنت في بحبوحة، الآن بعد التوبة تفتقر ؟ حينما كنت على معصية الله يوفقك الله ويغفر لك، ويحلم عليك، فلما عرفته، واستقمت على أمره إذا فعلت هذا الأمر تخسر دخلك ؟! ما هذا المنطق ؟!! وأنت مقيم في المعصية لك دخل، فإذا أطعت الله عزّ وجل تفتقر ؟ لا..

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ)

(سورة العنكبوت: الآية 67)

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص: الآية 57)

لا يعلمون، فأنت متى تعلم ؟ تعلم إذا جاءت تصوُّراتك وفق ما في القرآن، متى تكون مهتدياً ؟ إذا كان هواك قد وافق ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((طوبى لمن وسعته السُّنّة، ولم تسْتهوه البدعة))

[ورد في الأثر]

أي أن الشيء الذي أمر به النبي تحبه أنت مؤمن، أما تحبُّ البدَع، تحب الصرعات الجديدة، تحب المُلهيات، تحب الأماكن غير النظيفة، تحب العلاقات غير الشريفة، تحب ما يغشاه الناس، تُحبُّ ما هو فحشاء، قل لي ما تحب أقل لك من أنت، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

[البغوي في شرح السنة عن عبد الله بن عمرو بسند ضعيف]

لا بد من الأخذ بالمقاييس الشرعية:

القضية دقيقة جداً، في مقاييسك، وازنْ بين مقاييسك ومقاييس القرآن، فهل تعظم أهل المال فقط ؟ وتهمل المؤمن الذي حالته المادية وسط، هذه مشكلة، هذا مقياس دنيوي، أما أن تقيس الأمور بمقاييس الشرع والقرآن، يجب أن تحترم هذا المؤمن كائناً من كان، بأي مرتبة اجتماعية، بأي مستوى اقتصادي، بأي درجة علمية، ما دام مؤمناً فهذا جدير أن تحترمه، فبتقييم الناس لاحظ مقاييسك قرآنية أم شيطانية، بطرق كسب المال أتتحرى الحلال ؟ فهل تفرح بكسب كبير حرام ؟ وتعدّ نفسك ذكيًا، شاطرًا، دَبّرت نفسك، ركزت وضعك، أمّنت مستقبلك على معصية الله عزّ وجل، أتفرح بدخل حرام حل لك كل مشاكلك ؟.

فطبيبٌ مثلاً، طبيب ناشئ ليس عنده شيء في الحياة، عُيّن طبيبًا شرعيًا، وكُلِّف بفحص جثة، إذا قال: الموت طبيعي، أعطوه خمسة ملايين، وإذا قال: الموت مشبوه بحادث قتل، لا يأخذ شيئًا، فهذا الطبيب حسب إيمانه، إذا كان مؤمنًا بالله عزّ وجل، إذا أطاع الله عزّ وجل الله سيكرمه، أما إذا قال:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص آية " 57 ")

أي نصبح بلا شيء، في كل شيء، فالآية دقيقة جداً تدور مع كل الناس، مع كل المهن، مع كل الحِرَف، مع كل الطبقات، مع كل الوظائف، مع كل العصور، والأمصار والبلدان، والأمكنة والأزمنة.

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)

(سورة القصص)

العلاقة بين الآيتين:

هل هناك علاقة بين هاتين الآيتين ؟ لو فرضنا أن الإنسان لم يعبأ بشرع الله، ولا بأمر الله، ولا بالهدى، واتبع مصلحته، واتبع ما يكسبه مالاً وفيراً، وعاش خمس سنوات أو عشر سنوات إلى أن يأتيه

الأجل، أليس هناك موت بعد هذا الغنى ؟ أنت حَصّلت الغنى من معصية الله، وعشت حياةً مرَفّهة في بحبوحةٍ كبيرة، أليس هناك موت؟ هذا الموت ألا ينهي هذه الحياة القائمة على معصية الله عزّ وجل، ماذا قال عليه الصلاة والسلام، والله حديث يقصم الظهر:

((بَادِرُوا بالأعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ ؟ فَالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

[سنن الترمذي عن أبي هريرة]

ثم ماذا ؟ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا

إن اتبعوا الهدى مع النبي يُتخطّفوا من أرضهم، إذاً أنكروا الرسالة وكفروا بالنبي، حفاظاً على مكتسباتهم ومكانتهم وزعامتهم ودخلهم، وشهواتهم... إلخ، ثم ماذا ؟ هنا سؤال، فكِّر.

قلت لإنسان: الجماد شيء له طول وعرض وارتفاع، له حيّز، صخرة لها وزن، ولها أبعاد، طول عرض ارتفاع، والنبات شيءٌ يشغل حيزاً وينمو، الحيوان شيءٌ يشغل حيزً وينمو ويتحرّك، الإنسان شيءٌ يشغل حيزاً، طول وعرض وارتفاع، وينمو، ويتحرّك ويفكر.

فلو أن إنسانًا غارقًا في المعاصي، هناك سؤال يوقفه عن حده، ثم ماذا بعد هذا ؟ إذا جاء ملك الموت، فعلت، ما فعلت، أكلت، ما أكلت، شربت، ما شربت، سكنت، ما سكنت، ترَفّهت، ذهبت، عُدت، سهرت، سَمُرت، استمتعت...إلخ، ثم ماذا ؟ **" سبحان من قهر عباده بالموت ".**

كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلابدّ من طلوع الفجر

و العمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر

***

أي أنتم يا أيها المشركون تعتقدون أنّكم إذا اهتديتم، أو اتبعتم الهدى مع النبي تُتَخطّفون من أرضكم، إذاً اكفروا، وبعد أن تكفروا، ثم ماذا ؟

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)

(سورة القصص: الآية 58)

لو أن الإنسان أقام على معصية الله، وحَصّل مالاً وفيراً، تمسّك بالكفر ليبقى في مركزه الكبير، تمسك بالمعصية ليصبح ذا شأنٍ كبير، وهذا الشأن الكبير إلى متى ؟ إلى ما لا نهاية ؟ وهذا الغنى إلى متى ؟ بل كلّه إلى نهاية، انظر إلى سوق من أسواق دمشق الرائجة، كل خمسين سنة تجر جُدُد، المحل سلّمه، أو أعطاه إلى ابنه، أو ابنه سلّمه، أو أعطاه إلى صهره، تجد تُجّار سوق الحميدية من خمسين سنة غير

الحاليين الآن، وبعد خمسين سنة قادمة، أو خمس وعشرون غير الحاليين، يختلفون، ثم ماذا ؟ ترك الدنيا، ثم ماذا ؟ القبر ؟ ثم ماذا ؟ الحساب، لو أنّكم آثرتم الدنيا، آثرتم المال وأبيتم الهُدى، قال الله:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)

(سورة القصص: الآية 58)

معنى: بَطِرَتْ:

أي فسدت أُثرِفَت، استعلت.

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ)

(سورة القصص: الآية 58)

فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ

عندك آلاف الأمثلة، يمكن أن يكون الهلاك الجماعي، يمكن أن يكون الزلازل، والفيضانات، والبراكين، حالات معينة، لكن في بكل بلدة حالات فردية، تحت سمعك وبصرك، كرجل عَمَّر بناء، ولم يسكنه، وعندنا رجل آخر اشترى بيتًا فلم يعجبه، فكسر البلاط، وكسر السيراميك، وغَيَّر التمديدات، وغيّر الأبواب، هذه الكسوة الكاملة خرّبها كلها، فتح الحيطان، أنشأ أقواسًا، صنع أبوابًا جرارة، وستائر متحركة على الكهرباء، وطاولات رخام، وتحته إضاءة، سنتين ونصفًا وهو يكسو هذه البلاطة حتى أصبحت مثاراً للعجب، شيء لا يصدّق، أقسم بالله جاره بعد أن انتهت بشهرين توفّاه الله عزّ وجل. تسمع عن أشخاص قد يعود أحدهم إلى بلده ومعه شهادة عُليا فلا يمارسها، يتزوّج فلا يدخل، يعمر بيتا فلا يسكن، هذه حالات يومية:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

هذه هي نهاية الملكية: وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ

البيت في النهاية ليس لك، لاحِظْ في النعي: وسيشيّع إلى مثواه الأخير، وبيت الدنيا مؤَقّت، وهذا الذي هلكنا أنفسنا من أجله، اعتن به ما شئت، إن كان كبيرا فهو مؤقّت، أو كان صغيرا فهو موَقّت، أو مزَيّنا فهو مؤقت...

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

الإهلاك الإلهي جزائيٌ موافقٌ لحجم الجريمة:

أما هذا الإهلاك ليس إهلاكاً عشوائياً، ولا مزاجياً، ولا خبطة عشواء كما يقول بعض الجهلة، قال:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

أنت تتألم أن قرية أصابها زلزال، قرية أصابها فيضان، بركان سار فقتل كل من في هذه البلدة، هذا هلاك، لكن هذا كلام الله، هذا كلام خالق الكون، هذا كلام الفعّال الوحيد في الكون، تقول لي: زلزال مثلاً، تقول إن الزلزال حركات باطنية غير مستقرة، صحيح، لكن هذا التفسير العلمي لا ينفي التفسير الديني، أن هذا فعل الله عزّ وجل، وأن الله عزّ وجل يقول:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

والآية المعروفة لديكم:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

هذا البراكين، هناك قرية في إيطاليا، الساعة الثانية بعد الظهر ثار بركانٌ اسمه (فيزوف fethof)، هذا البركان ثار، وصَبَّ على قريةٍ تقع في سفحه هذا السائلَ البركاني، فغمر القرية، وغطّاها بارتفاع ثمانية أمتار، بعد مئات السنين في أثناء التنقيب في هذه المنطقة وجدوا أحجارًا على شكل أشخاص، حقنوها بجبس سائل، ثم كَسَّروا هذه المستحثات، فإذا هي بلدةٌ جاءها هذا البركان، وقد مات أهلها عن آخرهم، حتى ملامح الناس، حتى الأم مع طفلها، حتى من في البيوت الغنية يجمعون الحلِي:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: الآية 65)

هذه الزلازل، أفسق مدينة في المغرب العربي (أغادير)، في خلال ثلاث ثوانٍ انتهت، يقولون: سبع درجات على سُلّم ريختر، أي زلزال مدمّر.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

هذا كلام خالق الكون، إن شاء الله في الدرس القادم نتابع هذه الآيات، الآية اليوم:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

خلاصة الدرس:

هذه آية هذا الدرس، وهي الآية تقريباً الوحيدة، وهذه الآية واسعة جداً غنية جداً، طبعاً النص محدود، أما العلة واسعة، علّتها إذا توهّمت أن معصية الله تنفعك، وأن طاعته تَضُرُّك فهذا منتهى الجهل، ومنتهى ضعف اليقين وضعف الإيمان، فإذا فهم الإنسان هكذا فعليه أن يجتهد اجتهادًا كبيرًا، وعليه أن يجدد إيمانه، وعليه أن يسعى لكي تكون مقاييسه موافقةً لمقاييس القرآن الكريم.

أسئلة في الموضوع

1 - السؤال الأول:

وردني سؤال ؟ هل نستطيع أن نحكم على كل من نرى عليه مصيبة أن هذا من ذنبٍ فعله ؟

2 – الجواب:

أنواع المصائب:

1 – مصائب المؤمنين دفعٌ ورفعٌ وكشفٌ:

هذا الحكم خاطئ، لأن المصائب أنواع منوّعة، هناك مصائب، القصم، وهناك مصائب الردع، وهناك مصائب الدفع، وهناك مصائب الرفع وهناك مصائب الكَشف، كل مؤمن له مصيبة خاصة به، قد يكون مؤمنًا مستقيمًا على أمر الله، لكن ربنا عزّ وجل يحبُّ أن يحثّ الخُطى إلى الله، هذه دفع، قد يكون المؤمن لو جاءته مصيبة فصبر عليها يرتفع عند الله أكثر، هذه مصيبة رفع، وقد يكون الكمال منطوياً في نفس إنسان لا يظهر إلا بظرف صعب، هذه مصيبة كشف، هناك دفع، وهناك رفع، وهناك كشف، هذه مصائب المؤمنين.

1 – مصائب غير المؤمنين قصم وردعٌ:

أما مصائب غير المؤمنين، إما قصم وإما ردع.

ليس من الشرع الحكمُ على الناس:

فما كل إنسان شاهدتَ عليه مصيبة بإمكانك أن تحكم عليه، هذا من شأن الخالق، دائماً عوّد نفسك الأدب، لا تحكم على الأشخاص، هذا ليس من شأنك، هذا من شأن خالق الأشخاص، فإذا رأيت إنسانًا مصابًا تقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه، من دون أن تُسمعه هذا الدعاء، ومن منتهى الفظاظة أن تُسمعه هذا الدعاء.

رأيت إنسانًا مبتلىً بعاهة، بمشكلة، بفقر، يجب أن ترحمه، يجب أن تعطف عليه، أن تساعده، هذا كلام العوام: (إن رأيت الأعمى طُبُّه)، هذا كلام الجهلة، يجب أن تساعده إلى أقصى درجة، وأن تدعو هذا الدعاء، أما أن تحكم عليه فهذا منتهى الجهل.

موقف المؤمن إذا أصابته مصيبة:

لذلك المؤمن الكامل إذا ألمّت به مصيبة يتّهم نفسه، فإذا حلت بأخيه يحسن الظن به، هذه قاعدة، ومهما بالغت في اتهامك نفسك كان هذا أفضل، قل مع نفسك: **" ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر "**، ومهما أسرفت في اتهامك فهو أفضل، أما أخوك فإيّاك أن تفعل معه ذلك، أخوك لعل مصيبته رفعٌ له، لعلها دفع، لعلها كشف، لعلها رُقِيّ، لذلك ماذا قيل ؟ قال ابن عطاء الله السكندري: **" رُبّ معصيةٍ أورثت ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعةٍ أورثت عزاً واستكباراً".**

والحديث المعروف والمشهور عندكم، أي إذا الإنسان أخوه وقع بذنب، قال النبي الكريم:

((الذنب شؤمٌ على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن رضي به فقد شاركه في الإثم، وإن عَيّره ابتلي به))

[الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف]

موقف المؤمن إذا أصابت المصيبة أخاه المؤمنَ:

خذ موقفًا دقيقًا جداً، إذا وقع أخوك بذنب أو بمصيبة، الله عزّ وجل يحميني من أن أقع كما وقع، ادعُ لنفسك بالحفظ وله بالمغفرة، أما أن تشمت به فإنك تبتلى بهذا الذنب، أما أن تعَيّره فإنك ستبتلى به، وإنْ تذكره للناس اغتبته، وإن ترضه عنه شاركته في الإثم.

عندك آية:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 155 ")

هذه مصائب المؤمنين.

(بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(157))

(سورة البقرة)

فليس لك حق أن تتهم إنسان بمشكلة أنه مذنب، لا تعرف، والدليل:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء)

أنت لست الخبير الله الخبير، أنت لست خبيرًا.

1 - السؤال الثاني:

ما المقصود بكلمة وردت في هذه الآية:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

(سورة محمد: آية " 15 ")

2 - الجواب:

ليس لخمر الآخرة من خمر الدنيا إلا الاسم فقط، لا غولٌ فيها، خمر الجنة لا تغتال العقل، لكن هذا تقريب لأذهان الناس، ففي الجاهلية كانوا غارقين في شرب الخمر، وليس لخمر الآخرة من خمر الدنيا إلا الاسم فقط، وهو من نوع آخر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (11-18): تفسير الآيتان 60 - 61
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-08-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة القصص.

والترابط والتسلسل بين آيات القرآن الكريم:

حجّة المشركين لعدم الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام:

أيها الإخوة الأكارم، في القرآن الكريم ترابطٌ وتسلسل بين آياته، وقد لا يبدو هذا لأوّل وهلة، فمثلاً ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص)

هذه مقولة مشركي مكة.

الردُّ الإلهي:

الردُّ الأول:

بماذا ردّ الله عليهم:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص)

هذا هو الرد الأول.

الردُّ الثاني:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

الردُّ الثالث:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

الردُّ الرابع:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

الردُّ الخامس:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)

(سورة القصص)

لو قُرأت هذه الآيات قراءةً سريعة، ولم يتعمّق في فهمها لظنّ المؤمن أن هذه الآيات تعالج موضوعاتٍ متفاوتة لا رابط بينها، ولكن إن شاء الله تعالى في هذا الدرس، وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى سوف ترون كيف أن كل هذه الآيات تتمحور حول محورٍ واحد.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

وقد ردّ الله عليهم بموضوعاتٍ شتّى، وبأساليب شتّى، قبل كل شيء عودةٌ إلى الآية الأولى.

عودة على الآية: وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا

1 – أوامر الدين ضمان للسلامة وليست تقييدا للحريات:

الإنسان أيها الإخوة إذا فَهِمَ أن أوامر الله عزّ وجل تقييدٌ لحريته، فهو جاهلٌ جهلاً مطبقاً، أما إذا رأى أوامر الله عزّ وجل ضمانًا لسلامته، فقد فَقُهَ في دينه، أضرب على هذا أمثلة كثيرة كنت قد ضربتها سابقاً:

إذا رأينا عمودَ كهرباء عليه خط توتر عالٍ، وقد كتب في أسفل العمود: **" لا تقترب، خطر الموت "**، هل ترى أن هذا المنع تقييدٌ لحريّتك أم ضمانٌ لسلامتك ؟ لو أن إنساناً قال: لو أنني صعدت إلى أعلى

هذا العمود، وأمسكتُ بهذا التيار ذي التوتر العالي، يا ترى أكون مخالفًا ؟ أأسجَن ؟ أأدفع غرامة ؟ ما المحذور ؟ هل هناك من يراقبني ؟ هل هناك شرطيٌ أو موظف كهرباء ؟ ما أسخف هذا الإنسان، إن التيار ذا التوتر العالي وحده يعاقبك، ولن يعاقبك أحد، بمجرد أن يلمس الإنسان هذا التيار يصبح قطعةً من الفحم، القضية أعمق من ذلك، إن في هذا المنع نتائج مُفارقته، إذا فهمت أوامر الدين هذا الفهم الصحيح أصبحت فقيهاً، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الأعرابي الذي قال: عظني وأوجز فقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

فقال: قد كُفيت ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((فَقُهَ الرجل))

[ورد في الأثر]

2 – فهمُ أوامر الدين تقييدا للحريات جهلٌ كبير:

فما دمت ترى الدين عبئًا عليك، وأن أوامره ثقيلة، وأنها تُقَيِّدُك من حركتك الحرة، وأن الدَيّن إنسان متقوقع، وأنه حبيس هذه الأوامر والنواهي، وأن الحياة تحتاج إلى انطلاق، وإلى تحرر، وإلى حرية، وإلى أن يفعل الإنسان ما يشاء، إذا فهمت هذا الفهم فأنت لا تعرف من الدين شيئاً.

في الدرس الماضي قلت لكم: لو أنّ إنساناً يدعي أنه طبيب، وقال: كلما ارتفع ضغط الإنسان فهذا دليل صحّته الجيدة، تحكم على هذا المُدّعي أنه جاهل، لا على أنه طبيب، ولا معاون طبيب، ولا ممرض، ولا مثقف، لأن هذا شيء بديهي، إذا قال لك إنسان يدّعي أنه مهندس: أنا بإمكاني أن أُنْشئ بناءً ارتفاعه مئة متر بلا حديد، تحكم عليه أنه جاهل، وعلى هذا فقس.

في مجال الدين لمجرّد أن ترى أن أوامر الله عزّ وجل عبءٌ عليك، وأنها ثقيلة، وأنها قيدٌ لحرّيتك، وأنها تحجزك عن مُتع الحياة، عن مباهج الحياة، وأن رجل الدين رجل مسكين محروم لم يذق مباهج الحياة، إذا فهمت الدين هكذا فاحكم على نفسك بالجهل، ولا أظن أن أحدًا من الإخوة الحاضرين هو كذلك، فاحكم على نفسك بالجهل المطبق، لذلك جاءت هذه الآية:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

أي أنك لمجرد أن تتوهم أن أمر الله يضرُّك، وأنّ معصيته تنفعك، إنْ في كسب المال، إنْ في إنفاق المال، إنْ في إطلاق البصر، أو في غض البصر، إنْ في ضبط النفس، إنْ في ضبط الحواس، إنْ في ضبط الحركة في الحياة، لمجرّد أن تتوهم، أو أن يأتي على خاطرك وهمٌ من أن طاعة الله تضرك

ومعصيته تنفعك، والكذب يُريحك، وينجّيك، ويسعدك، ويربحك، ويجلب لك المال الوفير، وأنّ الصدق يحرجك، ويتعبك، ويكثر أعداءك، إذا فهمت هكذا، فاحكم على نفسك بالجهل المطبق، لذلك النبي الكريم قال:

((من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب ممن اتقى))

[ورد في الأثر]

إذا توَسّلت إلى هدفٍ مشروع بوسيلةٍ غير مشروعة فهذا الهدف بعُدَ عنك، وإذا توسّلت إلى الهدف المشروع بوسيلةٍ مشروعة هذا الهدف اقترب منك، كلُّ هذه الدروس، وكل هذه الخطب، وكلُّ تفسير القرآن وتفسير السنة النبوية، من أجل أن توقن أن طاعة الله هي بابك الوحيد إلى سعادتك، وأن معصية الله عزّ وجل طريق كلّ شر وكل ضيق.

منطق الأحداث اليومية:

وقلت لكم في الدرس الماضي أيضاً: إن الله عزّ وجل جعل للأحداث اليومية منطقاً، وجعل للإيمان منطقاً آخر، فقد يبدو لك أنك إذا أنفقت زكاة مالك نقص مالك، إنّ هذا المبلغ خمسون ألفا الذي استحق عليك زكاةً لمالك هذا المبلغ إذا أنفقته حُرِمْتَ منه، هذا منطق الناس، هذا منطق الدنيا، هذا المنطق المادّي، هذا المنطق الظاهر، ولكن الله عزّ وجل له سنن أخرى، إذا أنفقت هذا المال كزكاةٍ لمالك فهناك إجراءاتٌ يجريها الله عزّ وجل تضاعف من مالك، في كلّ شيء ؛ لو أنك غَضَضتَ البصر عن هذه المرأة الجميلة يبدو لك، وبمنطق الناس أنك محروم، ولكن الله عزّ وجل إذا رآك عند طاعته يورثك حلاوةً في قلبك لا تنساها إلى يوم تلقاه.

((من غضّ بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه))

[ورد في الأثر]

إذاً: هناك منطقان، هناك مقياسان، هناك طريقتان في مُناقشة الأمور، طريقة أهل الدنيا، طريقة الماديين، طريقة الذين هم في قطيعةٍ مع الله عزّ وجل، هؤلاء لهم منطقٌ خاص، ويجعل الله تدميرهم في تدبيرهم، وفقرهم في كنز مالهم وشقاءهم في متعهم.

منطق العابدين لله عزوجل:

أما أولئك الذين عبدوا الله عزّ وجل يخلق الله لهم من كل ضيقٍ فرجاً، ومن كلّ همٍ مخرجاً، ومن كل عسرٍ يسرًا.

هذه الآية مركز الثقل:

فيا أيها الإخوة المؤمنون، أقف عند هذه الآية لأنني أشعر أنها مركز الثقل في هذه الصفحة، لأن الآيات كلها تردُّ على قول هؤلاء:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

فقد يبدو لك أن هذا السلوك الإسلامي يُخَسِّرُك، وهذه المخالفة تربحك، قد يبدو لك أنك إذا أرضيت زيداً وعصيت الله يقوى مركزك، وما دريت أن هذا التصرُّف إسفينٌ في مركزك، قد يبدو لك أنك إذا طبَّقت الشريعة الإسلامية، في إنفاق المال فإنك سوف تحرم من بعض مباهج الحياة، والعكس هو الصحيح، قد يبدو لك أنك إذا عزفت عن سماع الأغاني قد حرمت نفسك شيئاً ثميناً جداً في الحياة، وما تدري أنك إذا عزفت عن سماع الأغاني، واستمعت إلى كتاب الله تجلّى الله على قلبك بطريقةٍ لا يستطيع ذوّاقو الغناء في العالم أن يطربوا طربك، هنا المشكلة، فإما أن تكون عبداً، لله وإما أن تكون عبداً لشهوتك، إما أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، إما أن تستوحي مبادئ العقل، وإما أن تستوحي دوافع الشهوة، إما أن تعمل للآخرة، وإما أن تعمل للدنيا، هؤلاء كفار مكة قالوا بمنطقهم:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الإجابة المنطقية الواقعية لكلام كفار أهل مكة:

أول جواب عنهم: أنتم يا أهل مكة، حينما كنتم مشركين أنعمت عليكم ببلدٍ آمن، وفوق أنّه آمن تُجْبَى إليه ثمرات كل شيء، ربنا عزّ وجل قال:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

ربنا عزّ وجل قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

(سورة النحل 112)

ربنا ذكر الأمن والرزق، أحياناً الإنسان معه مالٌ وفير، ولكنه خائف، قد يكون مطمئناً، ولكنه فقير، إذا جمعت بين الأمن وبين الرزق فقد جمعت الدنيا من طرفيها.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

الإجابة يا كُفّار مكة، يا مشركي مكة، يوم كنتم تعبدون الأصنام حباكم الله عزّ وجل بلدًا آمنًا فيها خيراتٌ وفيرة، فإذا آمنتم بالذي خلقكم، إذا آمنتم بالمنعم، إذا آمنتم بالإله الواحد، إذا آمنتم بربّكم، إذا أطعتموه تخافون ؟ أو تفتقرون ؟ أهذا هو المنطق ؟! أهذا هو المنطق السليم ؟ أي يوم كنت تائهاً شارداً الله عزّ وجل وفّرَ لك صحةً طيبة، وأولاداً، وزوجةً، ورزقك من رزقه الطيّب، فإذا عرفت الحق وأردت أن تطيعه، وأن تدَع هذه المعصية، وأن تقطع علاقتك بزيد وبعبيد، الآن تأتي المشكلات، بعد أن تبت إلى الله تأتي المشكلات ؟! أهكذا الله عزّ وجل ؟ أهكذا يعامل عباده المؤمنين ؟ يوم كنت شارداً كان يحفظُك، يوم كنت منحرفاً كان يرعاك، فإذا رجعت إليه، وتبت إليه، وأنبت إليه، واستقمت على أمره عندئذٍ تأتي المشكلات، ويأتي الفقر، ويتضعضع مركزك في المجتمع، وتخاف على سمعتك ؟ أهذا منطقٌ سليم ؟

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا)

(سورة القصص)

رِزْقاً مِن لَّدُنَّا

1 - الرزق كله مِن عند الله عزوجل:

يا الله.. هذا الذي يكسب المال يظنُّ أنه ذكي، وأنه تاجرٌ ماهر، أو صانعٌ مُتْقِن، أو طبيبٌ ماهر، أو مهندسٌ بارع، أو محامٍ ضليع، وأنه لولا جدُّه واجتهاده لما كان هذا المال الوفير، هذا هو الشرك بعينه، ماذا قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص)

هذا هو الشرك، أنا، ونحن، ولي، وعندي، قال إبليس:

(أَنَاْ خَيْرٌ)

[الأعراف: من الآية 12]

فأهلكه الله عزّ وجل. وقال قوم الملكة بلقيس:

(نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ)

[النمل: من الآية 33]

فدمّرهم الله عزّ وجل.

وقال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص)

فخسف الله به الأرض.

وقال فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف)

فإذا دخل الإنسان إلى بيته لا يتوَهَّم بأنه هو الذي اشتراه بكدِّه، وعرق جبينه، هو حَصَّل شهادة عُليا، وله منصب مرموق، أو اشتغل بمحل تجاري منذ أمدٍ طويل، هو بذكاء بارع وجهد كبير جاءه هذا المال فاشترى هذا البيت، لا..

(رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا)

2 ـ كل شيء بإذن الله تعالى:

يجب أن ترى رزق الله عزّ وجل، أي امتحن نفسك بهذه المشكلة، قد تقرأ في الجريدة أن منخفضاً جوياً قادماً إلى الشرق الأوسط متمركزاً فوق قبرص، ماذا ترى ؟ هل ترى أنه منخفض جوي، أم ترى أن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق ذو القوة المتين ؟ هل ترى يد الله فوق أيديهم ؟ فيما تستمع من أحداث، إذا استمعت إلى بعض الأخبار هل ترى أن يد الله فوق أيديهم ؟ أن إذا طغى الإنسان وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وغرق في النعيم، ونسي الجَبَّار الأعلى، ونسي المبتدى والمنتهى، هناك هزاتٌ عنيفة، الله عزّ وجل من رحمته لا يدع الناس سدىً، قد يكون الرفاه والنعيم حجاباً بين العبد وربّه، فقد يزول هذا النعيم فجأةً، قد تنقلب الأمور، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام استعاذ بالله من فجأة النقمة،

ما بَينَ غَمضَةِ عَينٍ وَاِنتِباهَتِها يَغيرُ اللَّهُ مِنْ حالٍ إِلى حالِ

***

في ثانية، ست ساعات، ساعة، انتهى كل شيء، إذا قرأت، أو سمعت، أو تداولت، فلا تنس أن الله هو كل شيء، وأن يد الله فوق كل شيء، لا ترى الأحداث منعزلة عن فعل الله عزّ وجل فتقع في متاهة كبيرة.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال)

أول جواب:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً)

والقصة التي قلتها لكم في الدرس الماضي أن سيدنا موسى في المناجاة قال: **" يا رب ارزقنا، أمطرنا، أغثنا، فقال الله له: يا موسى، إن فيكم عاصياً، فالتفت إلى أصحابه، فقال: من كان عاصياً لله فليُغادرنا، بعد قليل انهمرت الأمطار، فناجى سيدنا موسى رَبّه فقال: يا رب، من هو الذي يعصيك ؟ فقال: عجبت لك يا موسى، أأستره وهو عاصٍ، وأفضحه وهو تائب".**

عندما كنت في الجاهلية قبل أن تعرف الله، كنت في رعاية الله، وفي حفظه، والله ربَّاك، ونقلك من حال إلى حال، وهداك إليه، فإذا عرفت الله، واستقمت على أمره، وغَضَضت بصرك تخاف على سمعتك ؟ يقول لك: لا أستطيع أن لا أصافح، أحرج،، ويتهمونني أنني دَيّن، لماذا ؟ هل الدين تهمة ؟.

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص)

هذا هو الرد الأول..

ثم ماذا بعد ذلك ؟!

الرد الثاني، إذا خفت على مركزك الاجتماعي وعصيت الله، أو خفت على ثروتك الطائلة من هذا المشروع، وتابعتها مع أن فيها معصيةً كبيرة، إذا خفت أن هذا المطعم الذي يبيع الخمر، إذا بعت حصتك منه بعد أن عرفت الله، إذا ظننت أنك إذا فعلت هذا تفتقر، إذاً تابعت العمل.

دائماً أيها الإخوة، راقبوا هذا السؤال: ثم ماذا ؟ عصينا الله، وتابعنا العمل في هذا المشروع الذي لا يرضي الله، ثم ماذا ؟ وحَصّلت منه أرباحاً طائلة، وحصلت منه رزقاً وفيراً ؟

هناك شخص له بعض المشاريع التي بُنِيَت على معصية الله، على فراش الموت ترك ثمانمائة مليون، فسأل أحد العلماء: ماذا أفعل كي يتوب الله عليّ ؟ فقال هذا العالم، وكان جريئًا، قال له: والله لو أنفقت هذه المبالغ كلها، ثمانمائة مليون، في سبيل الله لما قبلها الله منك، لأنها كلّها مال حرام.

فقط هذا السؤال: ثم ماذا ؟ عصينا الله، وقوي مركزنا، شيء جميل، عصينا الله، وازدادت ثروتنا، شيء جميل، عصينا الله، وسكنا في هذا البيت الفخم، شيء جميل، عصينا الله، وركبنا هذه السيارة، شيء جميل، عصينا الله، واشترينا هذه المزرعة، ثم ماذا ؟ لا يوجد إلا الموت بعد ذلك، والموت خسارة كل شيء في ثانيةٍ واحدة، فربنا عزّ وجل قال: أيها الكفار لو أنّكم توهّمتم أنكم إذا اتبعتم الهدى مع رسولي فسوف تتخطفون من أرضكم، إذاً يقول لكم منطقكم: ابقوا على كفركم، وعلى شرككم من أجل

أن تكونوا زعماء في الجزيرة، سادة هذه الجزيرة، من أجل تبقوا في مركزكم الكبير وفي دخلكم الوفير، شيء جميل، ثم ماذا ؟ قال:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)

(سورة القصص)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا

1 – معنى: بَطِرَتْ:

ما معنى بطرت ؟ معنى بطرت بالضبط طغت في معيشتها.

2 – مجالات البطر:

إنْ في كسب المال، أو في إنفاقه، إذا طغيتَ في كسب المال أخذت ما ليس لك، أو ضَيَّعت حقوق الناس، أو استغللت ضعفهم وفقرهم وحاجتهم، أعطيتهم دون ما يستحقون ونمت ثروتك، نما غناك على فقرهم، أو اغتصبت أموالهم، أو استخدمت قوّتك في كسب المال، أو استخدمت حيلك وذكاءك في كسب المال الحرام، أو غششت المسلمين في بضاعتهم، طغيت في كسب المال، ثم طغيت في إنفاقه، أترفت نفسك حيث إذا دخل عليك إنسان تضاءل أمامك، رأى نفسه صغيراً، ليس عنده شيء، عندك كل شيء، يقول لك: مساحة بيتي أربعمئة وثمانون متراً، يتكلمها ويقبض وجهه أيضاً، إذا طغيت في كسب المال فأكلته حراماً، ثم طغيت في إنفاقه فأحزنت كلّ من حولك، ثم ماذا ؟.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

3 – إنك لا تملك شيئا:

هل تعلم من هو المالك الحقيقي ؟ هو الله عزّ وجل، والدليل:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران)

عينك لا تملكها، أنت تستمتع بهذا البصر مادام الله قد سمح لك بذلك، فإذا شاءت مشيئته أن يفقد الإنسان بصره لسببٍ تافهٍ جداً ينتهي، أنت تستمتع بقوتك وحركتك مادام الله قد شاء لك ذلك، فهو المالك

لقوتك، حتى الحياة، حتى القوة، حتى السمع، حتى البصر، حتى العقل، قد يأخذ الإنسان أعلى شهادة علمية في العالم، ثم يختل عقله، فإذا هو في الطرقات يزعج الناس، ويخافه الناس، وإذا تمكّن أهله بوساطةٍ كبيرة أن يدخلوه مستشفى الأمراض العقلية يفعلون ذلك، فلا عقلك أنت مالكه، ولا سمعك، ولا بصرك، ولا صحتك، لا قوتك، ولا صمّام القلب، ولا الكبد، ولا عمل الكليتين، إلى الآن أمراض كثيرة جداً بلا سبب، فقر دم لا مُصنِّع، ما هذا ؟ فقر الدم اللامصنع، أي أن معامل كريات الدم في نقي العظام توقّفت فجأةً عن التصميم من دون أن نعرف السبب، هذا يحتاج كل يومين لترين من الدم أو ثلاثة إلى أن يموت، فقر الدم اللامصنع، هبوطٌ مفاجئ في وظائف الكليتين، ما هو السبب ؟ لا نعرف، إذا وقفت الكلى يحتاج كل أسبوع مرتين إلى غسيل، أو يحتاج إلى إجراء عملية تكلف مليون ليرة، والنجاح بالمئة ثلاثون.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

مالِك القلب والشرايين، والدَسّامات، ومالِك العضلات والرئتين، أحياناً حبة تظهر فتحكها هكذا فتكبر، بعد شهرين كان تحت التراب، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ))

[صحيح البخاري عَنْ حُذَيْفَة بْن اليَمَان]

أنا أريد أن أقول: لا تعتمد على شيء، اعتمد على فضل الله عزّ وجل، هذه الحركة بيد الله عزّ وجل، لك بصر حاد، التهاب بالعصب السمعي، لي قريب بأول حياته سمع تشويشا في أذنه ذهب إلى الطبيب، قال له: والله هذا مرض يأتي في مئة ألف حالةٍ حالةٌ واحدة، التهاب بالعصب السمعي ينتهي بالصمم، يا ترى أنا مالك لسمعك ؟ مالك لبصرك، مالك لعقلك، مالك لأعصابك، فقرة تنزلق نصف ميلي تسبب آلامًا لا تحتمل، يقول لك: معه مرض في الفقرات، شيء لا يحتمل، أو عرق النسا، إذا انسدت القناة الدمعية تصبح الحياة صعبة، تحتاج دائماً إلى محرمة لكي تمسح السيلان الدائم بالعين أو الأنف، لو أن المستقيم أصيب بالشلل، هل تحتمل الحياة، هذا معنى قوله تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

أنت لا تملك شيئاً، لو أن ذكاءك كلّه موظف في كسب الرزق، لو أن هذا العقل سلبه الله عزّ وجل، أين بقى مكتبك التجاري، ومراسلتك، ومركزك القوي مع الشركات؟ كله صفر، لا يبقى لك مكان إلا بالقُصَير.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

(سورة آل عمران)

تِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً

يجب أن ترى يد الله عزّ وجل دائماً:

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة القصص)

اذهب إلى تدمر وانظر، أكبر دولة في عصرها كانت، كان الطريق من دمشق إلى تدمر مظللاً بالأشجار كله، انظر إلى دولة الأنباط، بيوت، وحمامات، وأماكن للحفلات، كلها محفورة في الصخر، شيء لا يصدق، بيت محفور من الصخر له أربعة جدران، وجدارين للتهوية، وحمامات، وقصور ملكية، ومكاتب، وقاعات للمحاكمات، لو أن معي دليلا حتى أريك وظيفة كل مكان، الأهرامات، الهرم فيه نافذة مفتوحة بطريقة رائعة جداً، حيث لا تدخل الشمس منها إلى هذا الهرم إلا يوماً واحداً في العام، أنت كمهندس هل تستطيع أن تدرس حركة الشمس، وتضع نافذة ضيقة وعميقة، حيث تأتي أشعة الشمس على امتداد هذا الشق إلى داخل الهرم يومًا واحدًا فقط ؟ شيء لا يصدّق، ليس في مصر أحجار، من أين أتوا بهذه الأحجار ؟ فقال:

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً)

إما أن ذلك بعد ما دمّرهم الله بقي كم بيت من دون دمار استعمل، أو معنى آخر على كلٍ:

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً)

(قَلِيلاً): إما أنه استثناء في الزمن أو في المكان، وإما بعض المساكن سُكِنَت، أو سكنت فترة قليلة.

(وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ

ملكية الإنسان ملكيةٌ شكلية، لذلك سُئِل بدوي عن قطيع إبل يملكه، فقيل له: لمن هذا القطيع ؟ قال: **" لله في يدي "**، هذه اجعلها في بالك، لمن هذا البيت ؟ والله لله في يدي، الله سمح لي أن أسكنه، لمن هذه المركبة ؟ لله في يدي، لمن هذا المعمل ؟ لله في يدي، لمن هذه المزرعة ؟ لله في يدي، هكذا أجب، لمن هذه الدكان ؟ لله في يدي.

(وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

ربنا عزّ وجل رد رداً رابعاً، أول رد:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً)

الرد الثاني:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا)

الردُ الثالث: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا

الرد الثالث:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

أي في المركز، في العاصمة..

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

1 – علاقة هذه الآية بما قبلها:

ولكن ما علاقة هذه الآية بقوله تعالى:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

ما علاقتها ؟ العلاقة: أن يا كفار مكة هذا النبي قد جاءكم من عندي ليبلِّغكم، فإن كذبتموه استحققتم الهلاك والتدمير النهائيين، فآمنوا قبل أن تهلكوا:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً)

2 – هلاك الاستئصال وهلاك الضعف والهوان:

وها قد بعث في أمِّها رسولاً، وها قد أرسل النبي محمداً لأم القُرى ومن حولها، فالخيار أمامكم، إما أن تؤمنوا، وإما أن تستحقوا الهلاك، والهلاك هنا ليس هلاك ضعف، لأن من علامات قيام الساعة هلاك العرب، وهو هلاك ضعف، هلاك تشتت وتشردُم وتبعثر، هناك هلاك الاستئصال، كما أهلك الله قوم نوح، وقوم عادٍ، وثمود، وقوم فرعون، فإن هذا هلاك استئصال، فربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

انظر هذه:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ

تعبير فيه قَصْر وحصر، أي قطعاً الهلاك أساسه الظُلم، فإذا سمعت عن نبأ هلاك أمة بزلزال، بفيضان، ببركان، بتسليط الناس بعضهم على بعض، فهكذا ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: آية "65 ")

البراكين، الحمم، أو الصواعق..

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

الزلازل..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

هذا أيضاً نوع من الهلاك، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

الهلاك سببُه ظلمُ العباد:

فَسِّر الأحداث ما شئت، هذا التفسير الإلهي، يا أخي هنا منطقة براكين، شيء جميل، هنا حدثَ منخفض فتفاعل مع مرتفع جاء من أواسط آسيا، فنزلت أمطار غزيرة جداً، هناك أمطار موسمية جرّت سيولاً، جرفت المحاصيل، فهلكت القرى:

(إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

هكذا الآية، فَسِّرها ما شئت، فَسِّر تفسير جغرافي، وجيولوجي:

(إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

هذا هو التفسير الصحيح، هذا تفسير قرآني، عندما ربنا يريد أن يهلك القرى يجعل لها أسبابًا مادية، يجعل زلزالَ، بركانًا، فيضانًا، أمطارًا، رياحًا عاتية، يأتي إعصار على بعض المقاطعات في أمريكا يُدَمِّر كل شيء، لا يبقي ولا يذر، تفسر الإعصار بأنه حركة رياح استثنائية، وتفاوت في الحرارة، تفسر الإعصار خلخلة بالأوزون، فسر ما شئت، هذا هو التفسير الإلهي:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

هذا الرد الثالث.

الرد الرابع، لو أنكم آمنتم بالله وبرسوله، واتبعتم كتاب الله وسنة رسوله، ومن أجل هذا الإيمان خسرتم حياتكم ماذا يكون ؟ أنتم الرابحون.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

كما تدعون فرضاً، إذا آمنتم برسولي وبكتابي واتبعتم هذا الدين الحنيف، وكان من نتيجة ذلك أنكم خسرتم مركزكم، أو مالكم، أو شأنكم، أو أرضكم، أو حياتكم، أكنتم رابحين أم خاسرين ؟

وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ

اسمع الجواب:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة القصص: من الآية 60)

شيء.. فأقل كلمةٍ في اللغة تعبّر عن أدنى شيء هي كلمة شيء، النملة شيء، والقَشّة شيء، ونقطة الماء شيء، نقطة الماء ما قيمتها ؟ هل تروي إنسانًا ظمآنَ ؟ نقطة الماء شيء، الثانية، قل: ضاع مني ثانية، شيء:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ)

ليته قال: شيء، بل إنه قال:

(مِنْ شَيْءٍ)

و(مِن)للتبعيض، أيّ إنسان الله آتاه الله بيتًا، إنسان آتاه متجرًا، إنسان آتاه معملاً، هذا آتاه وظيفة، هذا آتاه ذكاءً، هذا قلمه سيّال، هذا طليق اللسان، هذا عنده قدرات فنية عالية، قدرات في التأليف:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ)

شكل، هيئة، طول، لون:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ)

عنده قدرة لغوية، عنده قدرة رياضية، وَرِث أموالاً طائلة، ملاك مثلاً... إلخ.

فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(القصص: من الآية 60)

متعة مؤقّتة، متعة لا ثمرة لها:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من الآية 77)

أنت تقول: صدق الله العظيم، فهل ترى أن متاع الدنيا كبير ؟ أو عظيم ؟ جليل ؟ خطير أم قليل ؟ الله يقول: قليل، هل أنت لك رؤية خاصة غير مقياس الله عزّ وجل ؟

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)

إما أن تستمتع به مباشرةً، وإما أن تفتخر به، الإنسان أحياناً يضع ثُرَيًا في بيته، إذا كنت تريد الإضاءة فضع بلورتين من مئتي شمعة، وهذا نفس الشيء، ثمنها ثلاثون ليرة، أو أربعون، لكن الثريا ثمنها ثلاثة عشر ألفا، ما الهدف ؟ الهدف هو الزينة، أحياناً الإنسان يعمل في بيته ورقًا، ويعمل أقواسًا، وهذه زينة، الهدف هو الزينة، يرتب نفسه، ويدهن ويعتني، الهدف هو الزينة، الحياة متعة أو زينة، إما متعة شيء ممتع، تأكل وتستمتع، تقبع في مكان بارد فتستمتع بهذه البرودة في الصيف، تقبع في مكان دافئ فتستمتع بهذا الدفء في الشتاء، تأكل الفاكهة الطيبة فتستمتع بها، تجلس في بيتك مشرفًا على مناظر جميلة فتستمتع بهذه الناظر، هذه هي المتعة، أو الزينة لا يوجد فيها متعة لكن فيها افتخار، فربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)

لذلك النبي الكريم كلما رأى شيئاً أعجبه كان له هذا الدعاء:

((اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَة))

(صحيح البخاري عن سَهْلٍ)

كذلك النبي الكريم يقول:

((إياك وفضول النظر، فإنه يبذر في النفس الهوى))

[ورد في الأثر]

قال لي أحدهم: رأيت سيارة، والله قالها ولا أدري أهو جاد أم غير جاد، قال لي: والله اشتهيت أن تدهسني من كثرة حبي لها،

((إياك وفضول النظر، فإنه يبذر في النفس الهوى))

كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَة))

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)

في اللغة العامية أحياناً يقول شخص لآخر: (خذها وانمحق)، خذها وخلصنا، يأخذها ـ ويفرح بها، لذلك:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

فجأةً من كل شيء إلى لا شيء، الآية الكريمة:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)

أي لو آمنتم بمحمد، وخسرتم هذه الدنيا، خير إن شاء الله ؟ أنتم الرابحون، لو أنكم آمنتم بمحمد، وخُطِفْتُم من أرضكم، أو خسرتم مكانتكم، أو دخلكم، أو تجارتكم، أو محبَّة الناس لكم، لو أن الدنيا كلها ذهبت من بين أيديكم لأنكم آمنتم فأنتم الرابحون، لأن هذا الذي أنتم تخافون عليه لا قيمة له عند الله عزّ وجل، بل إنه شيء تافه:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ)

تحرصون عليه، وتخافون عليه، وتعصون الله من أجله، وتكفرون بمحمد من أجل أن يبقى هذا الشيء بأيديكم:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران)

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ

أحياناً يكسب الإنسان رزقه، وأحياناً يكون رزقه مؤمَّنًا لمئة سنة قادمة، عنده أموال طائلة، هوايته ما أصبحت كسب الرزق، بل الجمع، يقول لك: أنا كوّنت هذه السنة عامودا، أو عامودين، أي مليونين، الهدف كان كسب الرزق، أصبح هناك هدف ثانٍ، وهو الجمع، هنا المشكلة:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

هناك شركة في أول العام، طبعاً بعد شهرين من الجرد، رقم الأرباح النهائي، وهذه قصة في أول السبعينيات ثمانية ملايين، وهذا رقم كبير في السبعينات، والآن قد يكون الرقم قليلا، أما في السبعينات فإنه كان رقما كبيرا جداً، تَلَقى النبأ الساعة العاشرة صباحاً، والساعة الثالثة كان قد توفّي..

وإذا أحد حصّل أموالاً طائلة، هذه الآية دقيقة كثير، وجميلة.

معنى الآية في السياق:

لكن الآية في السياق لها معنى آخر، أنتم إذا آمنتم تخسرون الدنيا، ولو فرضاً خسرتموها ماذا خسرتم ؟

خسرتم شيئًا تافهًا جداً، فالصحابة حينما قُتلوا في بدر وأُحد هل خسروا ؟ سيدنا حمزة أين قتل ؟ قُتِل في أُحد، وبُقِر بطنه، ولاكت هِنْدٌ كبده، هل خسر ؟ أين هو ؟ الدنيا شيء تافه ليس له قيمة:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(القصص)

أَفَلَا تَعْقِلُونَ

أين عقلك يا أخي ؟ وقد قلت مرة في خطبة: إن الجماد شيء يشغل حيزا، له وزن وطول، وعرض وارتفاع، وزن أي كثافة، هذا هو الجماد، صخرة أو إسمنت كثيف، يمكن أن تحمل في قارورة فيها سائل فيه ثلاثة سنتيمترات تقع من يدك، ويكون في القارورة زئبق له وزن، وكذلك الجماد يشغل حيّزًا**(طولا وعرضا وارتفاعا)**، أما النبات فيشغل حيزًا وينمو، والحيوان يشغل حيزا وينمو ويتحرك، والإنسان يشغل حيزًا وينمو ويتحرك ويفَكِّر:

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص)

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة القصص)

المشكلة في نقطتين، خيرٌ نوعاً، وأبقى أمداً، العوام لهم رأي: **" ساقية جارية ولا نهر مقطوع "**، كيف إذا كان هناك نهر جارٍ وساقية مقطوعة ؟ بالعكس أتوازن ؟ أي أن حياة الدنيا حياةٌ قصيرةٌ مشحونةٌ بالهموم والآلام، ومن أجل صحن سلطة تشتغل نصف ساعة، هذه الطبخة، ويُؤكل في خمس دقائق، لكي تأكل يجب أن تشتغل، من أجل شراء هذا البيت تجمع ثمنه ثلاث عشرة سنة، وتحتاج لفرشه ثماني سنوات أخرى، هكذا طبيعة الحياة:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)

(سورة البلد)

هكذا سنة الله في الخلق، فهذه الحياة القصيرة كي يقف الإنسان على قدميه بالأربعين، أربعون سنة للإعداد، محل اشتغل فيه، أو أصبح موظفًا أو طبيبًا، سكن في بيت رتّبه ونظّمه، أمّن له سيارة صغيرة لكي يصل فيها إلى عمله، يصل عمره أربعين أو خمسة وأربعين، بالخمسين أصبح معه مرض أسيد أوريك، بالخمسة والخمسين انزلاق فقرات، بالستين نعيه على الطرقات، وانتهى كل شيء، كلها على اثني عشرة سنة، حتى ينظم وضعه بالأربعين، والمنايا بين الستين والسبعين، كلما يموت ميت أسأل: كم

عمره ؟ فأرى أن العمر يهبط معدّله، يقول لك: ثماني وأربعون، اثنان وخمسون، واحد وخمسون، ثماني وثلاثون بالجلطة، لأن هذه الحياة قصيرة:

(وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة القصص)

الجنة خير وأبقى:

أي أن حياة الجنة في نعيم كبير وأبقى أي إلى أبد الآبدين، الإنسان في الدنيا لو كانت أموره كما يريد لكن عنده قلق عميق وهو قلق الموت، كلما كبر سنه قرّب، قرب من النهاية، عنده قلق عميق وهو المغادرة، أما في الآخرة:

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر)

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللّهِ)

لو آمنتم بمحمد يا كفار مكة، وخسرتم دنياكم، خسرتم دخلكم، مالكم، شأنكم، غناكم، بلدكم، حياتكم، أنتم الرابحين لأن:

(وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

ماذا رأى سحرة فرعون ؟ ومضى أمامهم الحق:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

(سورة طه)

اسمعوا الجواب، سحرة فرعون جاءوا لتعزيز الباطل:

(أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42))

(سورة الشعراء)

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

(سورة طه)

كل ما تملك أن تنهي حياتنا..

(إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

الآية الكريمة:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (13) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(17))

(سورة الأعلى)

أي أجمل بكثير وأطول إلى الأبد، والدنيا ضيقة وقليلة وأقصر:

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

أيتوازنون ؟ واحد موعود من الله عزّ وجل بوعدٍ حسن:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

1 – الوعدُ الحسنُ:

الحقيقة أنّ سبب سعادة المؤمن في الدنيا أنه موعودٌ من الله بوعدٍ حسن، هذا الوعد الحسن الذي وعده الله له يمتَصُّ كل مشكلةٍ، كل ضيقٍ، كل فقرٍ، كل مرضٍ، كل خوفٍ، كل قلقٍ.

مثل بسيط أضربه دائماً: أن إنسانًا فقيرًا جداً ودخله ألف ليرة، عنده ثمانية أولاد، بيته بالأجرة، مريض، أي أن مصائب الدنيا كلها اصطلحت عليه، إذا كان له قريب شاب يملك مئتي مليون، عم وليس له أبناء، ومات بحادث، أليست كل هذه الثروة له ؟ إلى أن يقبضها لابدّ من مرور سنة، لماذا هو في هذا العام من أسعد الناس، مع أنه لم يقبض درهماً واحداً ؟ لكن كل هذه الثروة تحوّلت له، لكن هناك إجراءات، وحصر إرث، وضريبة تركات، ومشكلات، حتى يقبض أول مبلغ، ويبيع البيوت، لماذا هو في هذا العام لم يأكل طعاما غير طعامه السابق، ولم يرتدِ ثيابًا جديدة، لم يقدر أن يضيف إلى حياته شيء، لكنه دخل في وعدٍ محقق، هذه هي المشكلة.

2 – الوعدُ الحسنُ يمتصُ الهموم:

المؤمن قد يبتليه الله بالفقر أو بالمرض، أو بزوجة سيئة، أو بأولاد متعبين، يمكن أن يكون هذا ابتلاء، قد يكون الإنسان مغمورا بمرتبة عادية في المجتمع، قد يكون له مشكلة مع أهله، على كلٍ، هذا كله ابتلاء، لكن ما الذي يمتصُ كل هذه الهموم ؟ أن الله جلّ في علاه وعده وعداً حسناً.

إذا وعدتَ صانعا أن يكون شريكا، أصبح إنسانا آخر على الوعد، يسر، وترتفع معنوياته، لذلك المؤمن له معنويات عالية، لأن الله وعده وعدا حسنا، بيته صغير، كبير، مظلم، مشرق، عال، منخفض، أجرة، ملك، كله ذلك سواء، صحته، شكله، زوجته درجة أولى، ثانية، ثالثة، خامسة، هذه كلها فترة مؤقتة:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ)

قطعاً إن وعد الله حق، معنى حق أي لابدّ من أن يتحقق:

(كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

خذها، خذ الدنيا كقارون:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

(سورة القصص)

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: الآية 81)

إن شاء الله في الدرس القادم نتابع ردود الله عزّ وجل على قولهم:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

خاتمة:

إنه قول قالوه، لكنه قول خطير جداً ينبئ عن جهلهم، الرد الأول، الرد الثاني، الثالث، الرابع، وهناك ردود أخرى تأتي إن شاء الله في الدروس القادمة، هذه الردود تؤكّد أن هذه الآيات ليست مفككة، بل إنها مترابطة، وأن كلمة سورة تعني مجموعة ذات وحدة موضوعيّة، فالسورة شيء مترابط، لكن إذا قرأ إنسان القرآن قراءة عابرة يراها مفككة، وأن كل آية لها معنى، أما إذا رأيت القرآن الكريم كلام خالق الكون ففيه تسلسل وترابط.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (12-18): تفسير الآيات 60 - 67
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-08-10

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بحقائق مهمة:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة القصص، في الدرس الماضي كانت الآيات المتتالية رداً من الله تعالى على هؤلاء المشركين الذين قالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: آية " 57 ")

1 – توهُ ضرر الطاعة جهلٌ مركّبٌ:

لقد ردَّ عليهم الله عزّ وجل، هم توَهّموا أن الهُدى يؤذيهم، ويضرُّهم ويخرجهم من ديارهم، ويجعلهم يخسرون مكتسباتهم، وبكلمةٍ مختصرة: هم رأوا أن الطاعة لله عزّ وجل تضرهم، وأن المعصية تنفعهم، ومن توّهم هذا فهو خِلْوٌ من الإيمان لا يفقه شيئاً.

وفي الدرس الماضي خشيت أن يُظَنّ أن اعتقادك أن الطاعة تضر، والمعصية تنفع، أي أن الطاعة مريحة، والمعصية متعبة، الحقيقة أن طاعة الله عزّ وجل مُكْلِفَة، ومعصيته تتمشى مع الشهوات، هذه حقيقة.

2 – الإنسان بين الطاعة التكليفية والطباع الشهوانية:

قلت لكم سابقاً: غضُّ البصر فيه كلفة، إطلاق البصر طبعٌ، يتمشى مع حب الإنسان لشهواته، إنفاق المال كلفةٌ، قبضه طبعٌ، حبس اللسان عن الغيبة كلفةٌ، إطلاقه في الغيبة طبعٌ، فإذا اعتقدنا اعتقاداً جازماً أن الطاعة تنفعنا، وأن المعصية تضرنا، ليس معنى هذا أن الطاعة سهلة، والمعصية صعبة، لا، الطاعة مُكْلِفة، والمعصية تتمشى مع طبيعة النفس، ولن ترقى إلى الله عزّ وجل، ولن تستحق الجنة إلا إذا دفعت الثمن:

فأحبابنا اختاروا المحبة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحب شرعاً

***

يقول أحد العارفين بالله:

فما حبنا سهلٌ وكل من ادعى.. سهولته قلنا له قد جهلتنا

أي أنْ تحب الله عزّ وجل لا بدّ من أن تدفع ثمن الحب، أن ترجو الجنة لا بدّ من أن تدفع ثمنها.

الطاعة هي المربحة:

ملخّص الدرس الماضي: من توهم أن الطاعة تضره، والمعصية تنفعه فهو جاهلٌ جهلاً مطبقاً، وليس معنى هذا أن الطاعة سهلة والمعصية صعبة، المعصية تتوافق مع رغبات النفس الأرضية، مع شهوات الإنسان، والطاعة تحتاج إلى جهدٍ، وإلى كلفةٍ، لكنها تتوافق مع العقل، وفي المدى البعيد، المعصية للحْظتك مريحة، أما لمستقبلك في الدنيا والآخرة فالطاعة هي المريحة، هذه هي الحقيقة، فربنا عزّ وجل ردّ على هؤلاء الذين قالوا:

شبهة جاهلية والردّ الإلهي عليها:

الشبهة الجاهلية:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الردّ الإلهي:

ردّ عليهم:

الردّ الأولُ:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً)

(سورة القصص: الآية 57)

حينما كنتم في المعصية كنتم في حرمٍ آمن، فإذا آمنتم، واهتديتم فهل يعقل أن تفقدوا أمْنَكُم ؟ وأن تفقدوا بلدكم وأرضكم ؟ هذا هو الرد الأول.

الردُّ الثاني:

أنتم إذا آثرتم مكتسباتكم، ومكانتكم، وأموالكم، وأرضكم، وأوطانكم، وأعرضتم عن الله عزّ وجل، ثم ماذا ؟

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59))

(سورة القصص)

الردُّ الثالث:

دققوا في هذه الآية:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

مِن أشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه، أن ينغمس في الشهوات حتى قِمَّة رأسه، ألا يبالي بالناس ولا بالفقراء، أن يهتم بذاته، بشهواته، برغباته، هذا ظلم، وإذا استخدم الإنسان نِعَم الله في معصيته، إذا استخدم نعم الله في الاستعلاء على خلق الله، إذا استخدم نعم الله في الضلال، هذا أشد أنواع الظلم:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

فلا ينبغي للإنسان أن يمر دائماً بالأحداث مرًّا سريعاً، ولا ينبغي أن يفهمها فهماً ساذجاً، ولا فهماً بسيطاً، يجب أن يفهمها فهماً عميقاً، يجب أن يضع الميزان الإلهي في تفسير هذه الأحداث.

الردُّ الرابع:

شيءٌ آخر، وهو ردٌّ رابعٌ، هو أن الإنسان إذا اهتدى إلى الله عزّ وجل، ولأنه اهتدى إلى الله فقد حياته، كما قال سحرة فرعون:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73))

(سورة طه)

أي لو أنكم في سبيل هدايتكم وإيمانكم بالله عزّ وجل خسرتم شيئاً من أموالكم أو حياتكم، فأنتم الرابحون، لأن الدنيا عرضٌ حاضر، والآخرة وعدٌ صادق، لأن الدنيا قصيرةٌ منقطعة، والآخرة خيرٌ وأبقى..

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص)

وربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من الآية 77)

الدنيا ساعة اجعلها طاعة.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

هذان لا يستويان:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً)

فرقٌ كبير بين المؤمن والكافر، بين مَن وعده الله وعداً حسناً، وبين مَن أعطاه الدنيا، ثم هو يوم القيامة من المحضرين، إلى هنا وصلنا في الدرس الماضي، ردّ الله على هؤلاء رداً أوّلياً، وثانياً، وثالثاً، ورابعاً.

الردُّ الخامس:

إنكم أيها المشركون إذا امتنعتم عن الهدى، امتنعتم عن أن تؤمنوا بهذا النبي العظيم، إذا آثرتم الدنيا على الآخرة، إذا آثرتم زعماءكم، وكُبَراءكم، إذا آثرتم صناديد الكفر في مكة، أن ترضوهم، وأن تخضعوا لهم، وأن تكفروا مثلهم، إذا آثرتم كلّ ذلك فانظروا ما مصيركم يوم القيامة.

لو فرضنا أنّ إنسانًا خضع لإنسان وقع في مخالفة كبيرة للقوانين النافذة، ثم استحقّ العقاب الأليم، وأن يودع في السجن سنواتٍ طويلة، فلما قيل لهذا الذي أرغمه وأجبره: انظر ماذا فعل فلان ؟ قال: ما شأني وشأنه، فليذهبْ إلى الجحيم، لو أن هذا المنظر، أو هذا الموقف الصعب اللئيم الذي فيه تخلٍ، لو أن هذا التابع عرف ما تبع سَيّدَهُ، فربنا عزّ وجل يردُّ على هؤلاء الذين قالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

يردُّ رداً خامساً: إنكم إذا آثرتم الضلال، وآثرتم أن تعبدوا الأصنام، وآثرتم الكفر والشرك، وآثرتم شهواتكم، وأبيتم الهدى اتباعاً لكبرائكم وزعمائكم وقادتكم المشركين في مكة، إنّكم إن فعلتم هذا فإليكم ما سوف تكون عليه حالكم وحالهم يوم القيامة، هذا الرد الخامس.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ)

(سورة القصص: من الآية 62)

من كلمة:**(يناديهم)**يُفهَم أنهم بعيدون، وأنهم محجوبون، وأنهم صاغرون.

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ)

(سورة القصص: من الآية 62)

هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة أين هم ؟ هؤلاء الذين عَبَدتموهم مِن دوني أين هم ؟ هؤلاء الذين أطعتموهم ؟ هؤلاء الذين ابتغيتم رضاهم، هؤلاء الذين ظننتم أنهم يفعلون كل شيء، هؤلاء الذي ظننتم أن بيدهم كل شيء، هؤلاء الذين أسبغتم عليهم صفات الإله، الإله هو الفَعّال هو المعبود، ولا معبود سواه، بيده الخير، بيده الشر، بيده العطاء، بيده المنع، بيده الرفع، بيده الخفض، بيده القبض، بيده البسط، بيده العِزّ، بيده الذُل، هذا هو شأن الإله، أنتم خلعتم على أشخاصٍ مثلكم صفات الإله، أولاً اعتقدتم أنهم يفعلون ما يشاؤون، وأن نفعكم وضركم بيدهم، لذلك انطلاقاً من هذا الاعتقاد عبدتموهم من دون الله، خضعتم لهم، أرضيتموهم وأغضبتم ربكم، أطعتموهم وعصيتم ربكم، رأيتم أنهم يفعلون كلّ شيء، ربنا عزّ وجل يوم القيامة:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

(سورة القصص)

هذا زعمكم هذا، وهمكم، هذا ادِّعاءكم، هذا ظنُّكم، هؤلاء ليسوا شركاء.

(فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

جواب الشركاء:

1 – البراءةُ من المتَّبعين:

الجواب لهؤلاء الشركاء، هؤلاء الذين عبدوا من دون الله، هؤلاء الكبراء، هؤلاء الزعماء الذين خضع الناس لهم في الدنيا، وعصوا ربهم.

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ)

(سورة القصص: من الآية 63)

أيْ حقّ عليهم قولُ الله عزّ وجل، هؤلاء الذين ظهروا بحجمهم الحقيقي عبيدٌ لله لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً.

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا)

(سورة القصص: من الآية 63)

هؤلاء أتباعُنا الذين أضللناهم بزعمهم.

(هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا)

(سورة القصص: من الآية 63)

2 – الإنسان مخيّرٌ:

نحن كنا ضالين فضلّوا معنا، نحن ما عرفنا الحق ولقّناهم شيئاً آخر، نحن كنا ضالين، ودعوناهم إلى الضلال فضلوا معنا، هم مخيّرون، وليسوا مجبرين، يا رب نحن ما فعلنا معهم شيئاً، وافقت رغباتهم رغباتنا، وافقت مصالحهم مصالحنا، ضلوا كما ضللنا، ضللنا كما ضلوا، توافق، لذلك يفهم من هذا الكلام أنه ليس إنسانٌ على وجه الأرض يستطيع أن يُضِلّ إنسانًا، لأن الإنسان مخير.

كنت أضرب هذا المثل المضحك دائماً: لو أن إنسانًا ذهب إلى قسم الشرطة، وكان يرتدي ثياباً بيضاء جميلة جداً، وقد وقع في حفرةٍ فيها ماءٌ آسن، ذهب إلى هذا المخفر، وادّعى أن فلانًا هو السبب، فجيء بفلان، قال له المحقق: هذا الذي تدعي عليه دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال له: لا والله، لم يدفعني، قال له: شَهَر عليك سلاحاً، وأجبرك أن تقع فيها ؟ قال له: لا والله، الرجل لم يفعل هذا، قال له: أمْسَكَ بكلتا يديه، ورماك فيها ؟ قال: لا والله، قال: لماذا تدّعي عليه ؟ قال: لأنه أمرني أن أنزل فنزلت بها، أين اختيارك ؟ أين إرادتك ؟ أين حريّتك ؟ أين عقلك ؟ أين فكرك ؟ أين محاكمتك ؟ فاعتقدوا اعتقاداً جازماً أنْ ليس إنسان لا يستطيع أن يضلّ إنسانًا، والدليل أن الشيطان يوم القيامة يقول:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)

(سورة إبراهيم: آية 22)

(مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

لا يمكن أن يجعل الله لأحدٍ على أحدٍ سلطانًا، حتى الشيطان:

(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: الآية 22)

لذلك إذا توَهَّمت أن فلانًا أضل فلانًا، هذا الذي أضلّه عنده رغبةٌ في الضلال، توافقت رغبة الضَالّ مع المُضِل، توافقت الرغبتان، لذلك هؤلاء الكبراء، هؤلاء عِلْية القوم، السادة، مَن بيدهم الحل والربط، هؤلاء إذا أمروا أتباعهم أن يعصوا ربهم، إذا عصى أتباعهم ربَّهم، وأطاعوا كبراءهم لا يستطيعون أن يعتذروا يوم القيامة، لأن الله عزّ وجل أعطى كل إنسانٍ حرية الإرادة، وأعطاه حرية الكسب، وأعطاه عقلاً، وأعطاه فطرةً.

مثلاً: لو أننا أعطيناك جهازًا إلكترونيًا، إذا وضعت فيه ورق النقد يكشف لك ما إذا كان مزوراً أو صحيحاً، هذا الجهاز صغير موضوع في جيبك، فإذا قبضت دراهم مزوّرة، وانطلتْ عليك، ومعك الجهاز لفحصها، ولم تفحصها، ألست مسؤولاً ؟ أين هذا الجهاز ؟ لمَ لمْ تستعمله ؟ يكفي أن تضع هذه الورقة النقدية عليه حتى يظهرُ على الشاشة ما إذا كانت هذه العملة مزوّرة أو صحيحة، القضية سهلة جداً، والجهاز في جيبك، فهذا الذي يقول: أنا انطلى علي ذلك، هذا نقد مزور، ما كنت أعرف ذلك، نقول له: لا.. لا عذر لك، الجهاز معك، هذا مَثل، وكذلك العقل، الله عزّ وجل أعطاك مفتيًا صغيرًا، وهو قلبك.

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الْأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِوَابِصَةَ:

((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ، فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ، وَقَالَ: اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ، ثَلَاثًا، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

[أحمد، الدارمي]

أعطاك عقلاً دقيقًا، معك ميزان عقلي، وميزان فطري، فإذا لم تستجب لهذا الميزان العقلي، ولا لهذا الميزان الفطري فأنت المسؤول، يقول أحدُهم: فلان أضلّني، لا.. وهذا الذي يقول: لعَن الله الشيطان، هو الذي أغواني، هذا كلام فارغ، كلام غير مقبول إطلاقاً، لذلك هؤلاء الذين حقّ عليهم القول:

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا)

(سورة القصص: الآية 63)

(هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا)

بزعمهم، هؤلاء الذين أضللنا بزعمهم.

(أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا)

نحن كنا ضالين، كنا غاوين فأضللناهم معنا، والدليل:

(تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

(سورة القصص)

هم عبدونا في الظاهر، ولكن رغبتهم وافقت دعوتنا.

(مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ

أي ما كانوا مجبَرين يا رب، ما كانوا مقهورين، هم ضلوا باختيارهم، وافقت شهواتهم دعوتنا، فضلوا على أيدينا، ولكنهم هم المسؤولون، لو فرضنا إنسانًا يرغب أن يسرق، وجاءه صديق له، وقال له: أتسرق معي ؟ قال له: نعم، فإذا وقعا في قبضة العدالة فلا حجة لأحدهما، هذا لماذا قبلت ؟ أنتَ مخيَّر، بملءِ اختيارك قبلت أن تسرقَ معه، هل يقول: أنا لا علاقة به، هو الذي أمرني ؟ أيُقبل هذا ؟ لا يقبل هذا، لا يقبل لإنسان وقع في مخالفةٍ للقانون أن يقول: فلان أمرني، نقول له: أين عقلك ؟ أين اختيارك ؟ أين مُفتيك الصغير ؟ أين الميزان الذي أعطاك الله إياه ؟

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9))

(سورة الرحمن)

عامل الناس كما تحب منهم أن يعاملوك:

سوف أعطيك ميزانًا صغيرًا، حديثٌ صغير جداً قاله النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الحديث أنت لا تحتاج إلى شيءٍ كبير في تطبيقه، آخر قال عليه الصلاة والسلام:

((عامل الناس كما تحب منهم أن يعاملوك))

[ورد في الأثر]

أنت بائع، يقول لك الله عزّ وجل: لِمَ غششت فلاناً ؟ فبماذا تجيب ؟ لو أن الله عزّ وجل قال لك: لو أنك أنت المشتري، وهو البائع، أترضى منه أن يغُشَّك ؟ تقول له: لا والله لا أرضى، لِمَ قلت هذه الكلمة لفلانة في الطريق ؟ لو أنها أختك، وإنسان قال لها هذه الكلمة أترضى منه هذا ؟ تقول: لا والله لا أرضى، هذا مقياس دقيق جداً، لِمَ تعامل زوجة ابنك هذه المعاملة ؟ لو أن ابنتك في بيتٍ أترضى أن تعامل هذه المعاملة ؟ تقول له: لا والله، هذا مقياس.

((عامل الناس كما تحب منهم أن يعاملوك))

إذاً:

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ)

مِن مسؤولية غواياتهم، أي نحن يا رب لسنا مسؤولين، لأنهم ما كانوا إيَّانا يعبدون، هم أحرار في كسبهم، هم أحرار في اختيار سلوكهم، وعقيدتهم، ومواقفهم، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ)

(سورة القصص: الآية 64)

موقف عصيب بين الأتباع والمتبوعين: وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ

الآن توجَّه الله عزَّ وجل إلى هؤلاء الأتباع الضالِّين قال لهم: ادعوا شركاءكم ليُنقذوكم من النار، ادعوهم ليدافعوا عنكم، موقف عصيب بين الأتباع والمتبوعين، بين الكبراء والصغار، بين عَلِيَّة القوم وبين الدهْماء، الإنسان يقول: الناس كلهم هكذا، هذا كلام باطل، ما أفعل ؟ **" ضع رأسك مع الرؤوس"!!!** هذا كلام الشيطان، كلام الجاهل، كلام الغبي، كلام التافه، كلام ضعيف الشَخْصِيَّة، أخي هكذا البيئة، هكذا التقاليد، هكذا العادات، أنا ابن بيئتي، ابن مجتمعي، ابن معطيات المجتمع، كله كلام مزخرف فارغ، الله عزَّ وجل قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من الآية 286)

انظر إلى هذا الموقف، أنتم يا أهل مكة إذا رفضتم أن تؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام، إرضاءً لكبرائكم، وزعمائكم، وقادة الشرك فيكم، إذا رفضتم الهدى إرضاء لهؤلاء الكُبَرَاء، فانظروا ماذا سيكون بينكم وبينهم الموقف يوم القيامة، سوف يتبرءون منكم، وسوف يكفرون باتِّباعكم لهم، وسوف لا يعتذرون عنكم.

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63))

(سورة القصص)

الإنسان حرٌّ في كسبه، وربنا عزَّ وجل تَوَجَّه ثانيةً إلى هؤلاء الأتباع..

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

(سورة القصص)

إنه مشهدٌ عظيمٌ: فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ

تصوَّر جماعة من اللصوص لهم كبير، وكان يدَّعي ويَتَبَجَّح بقوله: لا تخافوا، أنا أحميكم، أنا أمنعكم، أنا، أنا، فإذا وقعوا في قبضة العدالة، وصُوِّروا أذِلاَّء حُقَرَاء، وجاء التحقيق الشديد، ماذا يقول هذا

اللص ؟ يقولون له: أين وعودك لنا ؟ أين حمايتك ؟ أين هذه الحركة، دعوها لي ؟ إنه موقف مُخْزٍ، فالإنسان ليس معذوراً يوم القيامة، أخي والله استحييت، ما هذا استحييت ؟ أتستحي من الناس، ولا تستحي من الله عزّ وجل، خجلت يا أخي، الناس كلهم هكذا، كل شيء تقوله بناءً على ضغط الناس، وعلى توجيههم، وعلى تقاليد بالية، وعادات مزيّفة، وعلى ضغط اجتماعي، هذا كله باطل يوم القيامة، لذلك اسعَ لرضاء الله عزّ وجل، ولا يهُمّك شيء:

(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)

(سورة الأحزاب: الآية 37)

أنا أعتقد أن هناك آلاف المعاصي يفعلها الناس حفاظاً على سمعتهم في المجتمع، لكي لا يتكلم أحد عليهم، آلاف المعاصي تقترف حفاظاً على مكانتهم، هذا الذي يعصي الله، ويُرْضي إنساناً ليكن هذا موقفه يوم القيامة، ربنا عزّ وجل رحمةً بنا أعطانا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، قبل أن يحْصُل، هذا موقفكم من كبرائكم إذا اتبعتموهم وعصيتم ربّكم.

(وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

(سورة القصص)

ولكن لا ينفع الندم عند ساعة الندم.

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

احذروا هذا السؤال: مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ

فالإنسان جاءه من الله خطاب، جاءه قرآن، جاءته سنة، استمع إلى خطبة الجمعة، إلى توجيه الله عزّ وجل، وإلى توجيه النبي صلى الله عليه وسلم، ماذا كانت إجابتك ؟ ماذا كان موقفك ؟ ماذا كان رد فعلك؟ ماذا فعلت ؟ ماذا أعطيت ؟ ماذا منعت ؟ من وصلت ؟ من قطعت ؟ هل غضبت لله ؟ هل رضيت لله ؟ ما الموقف الذي وقفته في سبيل مبدئك ؟ ماذا أجبتم المرسلين ؟ الله عزّ وجل يقول في كتابه العزيز:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

هذا القرآن اعتقده قرآنا أو غير قرآن، إن كان قرآنا فماذا فعلت ؟ إذا كان غير قرآن فهل بحثت في هذا الكتاب، وتأكّدت أنه كلام الله ؟ هل معك حجةٌ قوية على أنه ليس كلام الله ؟ خُذْ موقفًا واضحًا، هذا الموقف المائع الضبابي الزئبقي، تبرُّك فارغ، تعصيه، وتتبَرَّك به، تمسك المصحف تقبله من ستة وجوه، لأنه كتاب الله، وفي التعامل اليومي لا تأخذ بأحكامه، في التعامل المادّي لا ترعى له حقاً، في

التعامل الأخلاقي لا تقيم له وزناً، في كسب المال لا تهْتَم بأوامره، في إنفاق المال لا تنضبط بنواهيه، في علاقتك بأهلك وأولادك تفعل الذي يحلو لك، ومع ذلك تتبَرّك به، هذا موقف مائع، موقف ضبابي، موقف غير واضح، فإما أن تؤمن به على أنه كلام الله بالحجة القاطعة والدليل القاطع، وعندئذٍ أنت أمام موقف حرج، إما أن تعصي الله عزّ وجل، وإما أن تطيعه، أما أن يكون إيمانك به إيماناً شكلياً، وأنت تخالف مضمونه فليس هذا من خلق المسلم:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

فلان دعاك إلى الله، قل له: إما أنك كاذب أو صادق، صادق افعل ما يقول لك، طالبه بالدليل، هذا الذي ينقل العلم ليس عنده شيء، **<< إنما أنا متّبع ولستُ بمبتدع >>**، هكذا قال سيدنا الصديق، **<< أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>.**

لا يستطيع العالِم أن يفعل شيئاً إلا أن ينقل لك كلام الله وسنة رسول الله، وتنتهي وظيفته، ليس عنده شيء، ماذا أجبته ؟ما الموقف الذي وقفته ؟ ما المعصية التي تركتها بناءً على توجيهه ؟

مرة ركبت مع أخ في سيارته، سألته عن هذه السيارة: متى اشتراها ؟ سؤال عابر، لكن الله ألهمني هذا السؤال، قال لي: أنا ليس عندي مركبة، وضاقت نفسي كثيراً، بيتي بعيد، وعملي بعيد وأولادي كُثُر، وليس عندي ذكور، وكنت لا أعرف أوامر الشرع اشتريت ورقة (يا نصيب) لعلّي أربح الجائزة الكبرى، أو أقلّ من الكبرى، فأقتني مركبة، بعد أن اشتراها بيومين دخل إلى مسجد ليصلي صلاة الجمعة، فإذا موضوع الخطبة عن اليانصيب، قال: والله حينما أيقنت أنها حرام سحبت الورقة من جيبي ومزّقتها، يقول هذا الأخ: أنه بعد أيام وأسابيع جاءته صفقةٌ كبيرةٌ جداً ما كان يعهدُها من قبل، واستطاع أن يوفِّر ثمن هذه المركبة التي يركبها الآن، فأنا تأثّرت، ودمعت عيني، قلت: كأن الله عزّ وجل يقول له: أنت يا عبدي، مزّقت هذه الورقة خوفاً مني، وأنا أبقيك بلا مركبة ؟ أنت لماذا مزّقتها ؟ خوفاً مني، ذكرت هذه القصة، هو حينما قال الخطيب: هذا حرام سحب الورقة ومزّقها، هذا الجواب:

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

مزّق الورقة، قيل لك: لا ينبغي أن تجلس مع نساء أجنبيّات، ماذا أجبت المرسلين بهذا الحكم ؟ يجب أن تمتنع عن كل سهرةٍ مختلطة، قيل لك: هذا الكسب فيه شبهة الربا، ماذا أجبت المرسلين ؟ الإجابة أن تمتنع عن هذه الصفقة، أو عن هذه الطريقة في التعامل، هذه الإجابة قيل لك: إن هذا العمل حرام، ماذا أجبت المرسلين ؟ قيل لك: يجب أن تؤدِّي زكاة مالك، ماذا أجبت المرسلين ؟ قيل لك: ينبغي أن تحرص على أن تكون زوجتك في مظهرٍ إسلامي، ماذا أجبت المرسلين ؟ الإجابة تعني رد فعلك، ما ردُّ فعلك ؟ ما موقفك ؟ ما العمل الذي فعلته تطبيقاً لهذا التوجيه الإلهي ؟ ما الشيء الذي تركته في سبيل الله ؟ ما

الذي فعلته ؟ ما الذي أنفقته، ما الذي منعته ؟ لماذا رضيت ؟ لماذا غضبت ؟ لماذا وصلت ؟ لماذا قطعت ؟ أي:

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

أي ما المواقف التي وقفتموها بناءً على توجيه الله لكم ؟ ماذا وقفت ؟ كيف اخترت زوجتك بعد أن قال الله لك:

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 221)

هذا كلام الله عزّ وجل، وإذا بحثت عن امرأةٍ كي تكون لك زوجة كيف تختارها في ضوء هذه الآية ؟ يجب أن تختارها مؤمنةً قبل كل شيء، لأنها أمٌ أولادك، ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من الآية 77)

أنت ماذا أجبت المرسلين بهذه الآية ؟ انهمكت إلى الدنيا ؟ غصت فيها ؟ أم بقيت فيها في حدود الشرع؟

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66))

(القصص)

هذا هو حالُهم: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُون

من التصوير البلاغي في القرآن: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء

هذه صورة من أروع الصور، العمى يجب أن يصيبهم هم، قال: لا.. الأنباء عَمِيَت عليهم، أي جاءتهم الأنباء، ولكنها لم تصل إليهم، كانوا في عُزْلةٍ شديدة، أي أن شقاءهم، وخجلهم، ودناءتهم، وصغارهم كأنّهم في معزلٍ عن الأخبار، لم تعمَ قلوبهم، بل عميت عنهم الأخبار.

إنّ الإنسان أحياناً يكون في هم كبير جداً، وأخبار مثيرة جداً لا يسمعها، لا يفهم منها شيئاً، ألم نقل لك: أن فلانًا توفي ؟ يقول لك: والله لم أنتبه، معنى ذلك أنه داخل في عزلة شديدة، داخل في همّ كبير، داخل في قضية أنسته كل شيء، هذه معنى قول الله عزّ وجل:

(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ)

الإنسان أحياناً يأتيه خبر ينسيه كل خبر، تأتيه قضية تنسيه كل قضية، تأتيه مشكلة تنسيه كلّ مشكلة، حينما عرف أنّه في شقاءٍ أبدي، وأن هذه الجنة التي وعد الله بها المؤمنين خسرها خسارةً أبدية، وأن

كل خسارةٍ في الآخرة لا تعوّض، في الدنيا التاجر يفلِس، ومع ذلك بعد سنوات فإنه يعود كما كان، الطالب يرسب في صفه، ولكنه يعيد السنة فينجح، فكلما جاءت مشكلة في الدنيا فإن هناك تعويضا، وهناك تصحيحًا، أما يوم القيامة فإن هذه الخسارة خسارةٌ أبدية، فلما أيقن أنه خسر الآخرة، وخسر الجنة، وأنه في جهنم، وبئس المصير إلى أبد الآبدين، دخل في عزلةٍ شديدة، ودخل في ألمٍ شديد، لذلك إضافةً إلى العذاب المادّي إلى عذاب النار الذي ألمَحْ به القرآن:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء: من الآية 56)

إضافةً إلى هذا العذاب المادي هناك عذابٌ نفسيٌ لا يحتمل، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[الجامع الصغير عن جابر بسند فيه]

إذا فاتَ الإنسانَ شيء ثمين جداً في الدنيا خسر خسارة كبيرة جداً، ضيّع فرصة ثمينة جداً لا تعوّض، يقول لك: أحسست أن قلبي سيقف، شعرت بضيق لا يحتمل، ضاقت عليّ الأرض بما رحُبَت، هذا عذاب الدنيا فيكف بعذاب الآخرة ؟ فلذلك ربنا عزّ وجل سرّب لنا هذا السؤال، في الآخرة توجد أسئلة، يوجد امتحان صعب، لكن رحمةً بنا فإن ربنا عزّ وجل هذه الأسئلة أسرّبها لنا في الدنيا من خلال هذه الآيات، السؤال الخطير هو:

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

ماذا قدَمتَ ؟

أي ماذا فعلت ؟ قال له: يا عبدي ماذا فعلت من أجلي ؟ يا ربِ تركت الدنيا زهداً بها وحباً بك، وفعلت كذا، فقال له: أما زهدك فقد تعجّلت فيه الراحة لقلبك، وأما كذا فلك، وكذا فلك، ولكن ماذا فعلت من أجلي ؟ تقول: أنا أغض بصري، هذا شيء جميل، بارك الله بك، ولكن أرَحْتَ نفسك، ودخلت في الصفاء والروحانية، أو تقول: أنا دخلي حلال، بارك الله بك، فأنت ضمنت أن يكون مالك محفوظًا، أو تقول: أنا ليس عندي اختلاط، بارك الله بك، كذلك ضمنت حياة مستقرة ليس فيها فتن ومشكلات، ولكن ماذا قدّمت ؟ بماذا ضَحّيت ؟ ماذا فعلت من أجلي ؟ ما الشيء الثمين الذي قدّمته ؟ هذا هو السؤال: ماذا أفعل من أجلك ؟ يقول لك: هل واليت فيّ ولياً ؟ هل عاديت فيّ عدواً ؟ هل قدّمت خدمة لمسجد ؟

ساهمت ببناء مجتمع مسلم ؟ قدمت لبنة في بناء خيريّ ؟ علّمت الناس العلم ؟ عاونت على نشر الحق ؟ كنت دعمًا للحق ؟ وهّنت الباطل وقويت الحق ؟ نصرت المؤمنين ؟ عاونتهم وساهمت بفعل خير ؟ ماذا فعلت من أجلي ؟ السلبيات جيدة جداً، ولكنها غير كافية.

إذا كان الطالب في المدرسة طالبا ملائكيًا، لا يؤذي أحدًا، ولا يضرب زميله، نظيف، ساكت، هادئ، ولكنه لا يدرس، في آخر السنة السلوك جيد جداً، والنتيجة رسوب، في الرياضيات ضعيف، في الفيزياء ضعيف، في العربي ضعيف، السلوك جيد، والنتيجة رسوب، ولكن ماذا فعلت من أجلي، ماذا قدّمت ؟ السؤال دقيق، بماذا تلقى الله غداً ؟ قال له: **يا فلان لا صدقة، ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً** ؟ هذا السؤال أخطر سؤال بالنسبة لنا، بماذا تلقى الله يوم القيامة ؟ ما العمل الذي تقدمه لله عزّ وجل ؟ يا ربِ اشتريت بيتًا، آويت نفسك، ويا ربِ زينته، عملت هكذا، ورتبت أموري، نظّمت أموري، أنا أنيق بلباسي، مرتّب، عندي أذواق في الطعام والشراب، لي أذواق بالرحلات والسياحة، هذا الكلام لا يُحكى كله، ولكن ماذا فعلت من أجلي ؟

يقولون: إن أحد الصحابة جاء النبي عليه الصلاة والسلام ليجاهد معه، ولكن هذا الصحابي كان فقيراً لا يملك دابةً يركبها، فالنبي ردّه لأنه لا يوجد دواب، حينما ردّه انهمرت عيناه بالدموع، فربنا عزّ وجل إكراماً له ذكره في القرآن الكريم:

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ)

(سورة التوبة: آية " 92)

عاد إلى البيت، فناجى ربه وقال: يا ربِ، أنا لا أملك شيئاً، لكنني تصدّقت بعرضي على المؤمنين، فأي مؤمنٍ شتمني، أو نال مني أُشْهدك أني سامحته، يقال: إن النبي قال في اليوم الثاني: **من تصدّق الليلة** ؟ هذا شخص لم يدفع شيئًا، ليس معه شيء، لأنه فقير جداً، النبي أُخبر من قِبل الله عزّ وجل أن الله قَبِل صدقته، الله عدّها صدقة، تصدّق بعرضه على المؤمنين، أي أن أي مؤمن شتمه أو نال منه قال: يا ربِ أنا أسامحه، وهذا الذي أملكه.

القصد من القصة أنه يجب أن تقدم شيئاً، دعوة، عملاً صالحًا، خدمة، صدقة، معونة، مساهمة في بناء مسجد، مساهمة في خدمة الناس، رعاية لأولادك، خدمة لإنسان لا تعرفه، لابدّ من أن تقدِّم شيئاً، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، والعمل الصالح يرفعه: **لا صدقة ولا جهاد، فبمَ تلقى الله إذاً؟.**

أحياناً أب مثالي ربىَ أولاده حتى كبروا، زوّجهم وأرشدهم، علّمهم، ربّاهم، حتى جعلهم عناصر طيّبة في المجتمع، ربىَ بنات على طاعة الله، على حفظ القرآن، على طاعة الزوج، حجّبهم، إلى أن زوّجهم، أي أن هذا حد أدنى، أولادك شهادتك، حد أدنى، بيت مسلم، بيت منضبط، اشتغل، عمل، قدّم للمسلمين

سلعة نظيفة، متقنة، سعرها معتدل، لم يكذب عليهم، ولا غشهم، ولا استعلى عليهم، ولا استغل حاجتهم لهذه السلعة، كان منصفًا، هذا عمل تَلْقى الله به، إنسان له والدان أكرمهما، النبي الكريم يقول:

((رغم أنف عبد أدرك والديه فلم يدخلاه الجنة))

[مسلم عن أبي هريرة]

أي أنك إذا أكرمت والديك، وكنت باراً بهما فهذا العمل يكفي أن تلقى الله به.

عندك بر الوالدين، هداية الزوجة والأولاد، إتقان العمل في صنعتك ومهنتك، عدم غش المسلمين، قلنا لك سابقا: إن حرفة الإنسان ومهنته إذا كانت مشروعة في الأصل، ومارسها بطريقةٍ مشروعة، لم يكذب، لم يغش، لم يدلِّس، وابتغى بها أن يكفي نفسه وأهله، وأن ينفق من المال الذي كسبه منها في طاعة الله، وابتغى منها نفع المسلمين، ولم تشغله هذه الحرفة عن طاعة الله ؛ لا عن صلاةٍ، ولا عن مجلس علمٍ، هذه الحرفة نفسها هي عبادة لله عزّ وجل، أي يجب أن تنقلب أعمالك من عادات إلى عبادات، قمنا الصبح وأكلنا، وذهبنا إلى الشغل، وفتحنا المحل، الظهر تغذينا ونمنا، وعشية عندنا سهرة، هذه عادات، يجب أن يكون الطريقُ واضحاً، إذا فتحت باب محلك التجاري لماذا أنا أعمل هذا العمل ؟ يجب أن أبتغي بهذا العمل وجه الله، يجب أن أخدم المسلمين، يجب أن أكسب مالاً أنفقه في طاعة الله، يجب أن أكفي أهلي وأولادي، يجب أن يكون عملك خالصاً لله، حتى مهنتك، حتى حرفتك، حتى تربية أولادك، حتى لو أخذت أهلك نزهةً، إنك بهدف أن تُدخل على قلبهم السرور، من لهم غيرك؟ حتى إذا جلست مع أهلك مساءً هذه الجلسة من العبادة، حتى إذا اشتريت ثياباً لبستها إنَّك تمثل المسلمين، تمثِّل هذا الدين العظيم، لا ينبغي أن يكون في مظهرك نقدٌ، أو شيءٌ تنتقد فيه، لذلك المؤمن كل أعماله خالصة لوجه الله، حتى لو أخذت قسطاً من الراحة، النوم يُكتب لك عبادة، لأنك تنام لتقوى على طاعة الله عزّ وجل، إذا دخلت في هذه المعرفة انقلبت أعمالك كلُّها عبادة، إذاً:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67))

(سورة القصص)

آهٍ لولا رحمة ربي: فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ

تاب وآمن وعمل صالحاً، تاب عن كل ذنبٍ سبق منه، وآمن بالله، ومن مقتضيات الإيمان بالله أن يكون عمله صالحاً فعسى إن كان مخلصاً..

فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ

(أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

وكلمة (عسى) جاءت تحفظاً من أجل الإخلاص، فعسى إن كان مخلصاً..

(أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

الردُّ السادس:

الرد السادس على قول هؤلاء المشركين:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: من الآية 57)

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(سورة القصص)

ربنا عزّ وجل يخلق ما يشاء، هو الخلاّق، هو الخالق لأفعال عباده، هؤلاء الذين خافوا أن يخطفوا إذا اهتدوا، من هو الفعال ؟ هو الله عزّ وجل، هل هناك فاعل إلا الله عزّ وجل ؟ هل يقع فيه ملكه شيءٌ ليس من إرادته ؟ أنتم إذا خِفْتُم من بني البشر فإن هذا الخوف فيه شرك، لمجرّد أن تخاف من إنسان، ولا تخاف من الواحد الديّان فهذا أحد أنواع الشرك، لأنك اعتقدت أن هذا الإنسان فيه قوة، بيده أن يفعل شيئاً، بيده أن ينفع، بيده أن يضُر، هذا الاعتقاد شرك، فإذا خفت أن تتخطف من أرضك، وأن تفقد حياتك على يدِ هؤلاء الذين تخاف منهم فهذا نوعٌ من أنواع الشرك:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ

هو الخالق، هو خالقٌ لأفعال عباده، ماذا قال سيدنا هود ؟ قال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

أي وحوش كاسرة كلها مربوطة بأزمّة محكمة بيدِ عليمٍ، حكيمٍ، قديرٍ، عادلٍ، منصفٍ، لطيفٍ، خبيرٍ، غنيٍ، قويٍ، فإذا خفت من هذه الوحوش، ولم تر تلك الأزمّة التي تربطها بهذه اليدِ العليمة الحكيمة فأنت

لا تعرف شيئاً، لمجرد أن تخاف من إنسان فهذا الخوف فيه معنىً من معاني الشرك، يجب أن تعتقد أن هذا الإنسان ليس بيده شيء، الأمر بيدِ الله عزّ وجل، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَاعْلَمْ أَنّ الْأُمّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفّتْ الصُّحُفُ))

[الترمذي عن ابن عباس]

إذاً علاقتك مع الله عزّ وجل:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

لمجرّد أن تخاف من إنسان فهذا نوعٌ من الشرك، أما هذا الإنسان إذا سمح الله له أن يصل إليك يصل إليك، أنت تخاف من الله قال له:

((موسى خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافُني))

[ورد في الأثر]

لا خيار لأحدٍ أمام أمر الله: مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

أن أسمح له أن يصل إليك طبعاً. ويختار من الشرع الحكيم، والتوجيه الصحيح، والأمر النافع، والنهي عن كل شيء ضار، يختار:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

(القصص: آية " 68)

فأمام أمر الله ليس لك اختيار، لا تقل: أنا رأيي كذا، أنا أرى كذا، لا أعتقد أن هذا الشيء لهذا الزمان صالح، أن تُدْلي برأيٍ مع أمر الله عزّ وجل، ومع نهيه هذا بعيدٌ عن أن تؤمن بالله عزّ وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من الآية 36)

الله عزّ وجل أمرك بغضّ البصر، والله أنا رأيي أنه لا أغض بصري غضًّا كاملاً، أنا لا أنظر بشهوة، بل أنظر بلا شهوة، أنت عندك حل وسط، عندك رأي ثانٍ، فالآية لستَ مقتنعاً بها، فاتخذت حلاً آخر، هذا خلاف الإيمان كله:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية 36)

مع أمر الله ليس هناك اختيار، هو الخالق، هو الصانع، هو الخبير، هو العليم، أنت لا شيء هو العالم، هو العليم، هو الحكيم، إذاً:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

ويختار لهم من الشرائع:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللّهِ وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ)

(سورة القصص)

إن شاء الله نعود لهذه الآية مرة ثانية في الدرس القادم لأهميتها الكبيرة ولما تنطوي عليه من معانٍ دقيقة، ونتابع ردود الله عزّ وجل على مقولة هؤلاء الكفّار:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (13-18): تفسير الآيات 64 - 72
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-08-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة القصص، لا زلنا في الآيات التي ردَّ الله بها على قول كفّار مكة:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: من الآية 57)

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ)

(سورة القصص: من الآية 64)

تذكير بما سبق:

لو أن الإنسان أحجم عن الهدى أو رفض الهدى، أو لم يعبأ به، اتباعاً لكبراء القوم، وانصياعاً لسادتهم، وإرضاءً لأسياده، فالله سبحانه وتعالى قَصَّ علينا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، حيث يتخلى هؤلاء الكبراء عن أتباعهم..

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا)

(سورة القصص)

أي يدَّعون أننا أغويناهم..

(أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

(سورة القصص)

فليسوا مقهورين، بل هم مخيَّرون، وإنما وافقت شهواتهم دعوتنا فظلوا معنا، إذاً: يُسْتَنتج من هذه الآية أنه لا يستطيع أحد أن يُضِلَّ أحداً، لسببٍ بسيط هو أنه لا سلطان لأحدٍ على أحد من حيث التفكير والسلوك، والدليل:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

(وَقِيلَ ادْعُوا)

هذا شُرِحَ في الدرس الماضي.

(مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

(سورة القصص)

ولكن الوقفة التي ينبغي أن نقف عندها..

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

(سورة القصص)

المفهوم الواسع للآية:

لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

أي إذا جاء العذاب، فهذا الذي أطعته، وعصيت الله عزّ وجل، هل يستطيع أن يصرف عنك العذاب ؟ وهذه الآية لو وَسَّعنا مفهومها في حياتنا اليومية، أي لو أن إنساناً أطاع شخصاً، وعصى الله عزّ وجل، واقتضت هذه المعصية عقاباً من الله عزّ وجل، فهذا الذي أرضاه، وأطاعه هل يستطيع أن يمنع عنه هذا العذاب ؟ الجواب: لا يستطيع، لذلك:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أحمد عن علي]

وقبل أن تطيع فلاناً، وتعصي الله فَكِّر مليّاً لو أن مرضاً خبيثاً عضالاً أصابك، هل بإمكان الذي أرْضَيته، وعصيت الله عزّ وجل أن يصرفه عنك ؟ ولو أن فقراً شديداً قَدَّره الله عليك فهذا الذي أطعته، وأرضيته، وعصيت الله فهل بإمكانه أن يصرفه عنك ؟ فأجمل تعليقٍ يقال في هذه الآية حينما قال أحد التابعين لوالٍ من ولاة يزيد، وقد جاءه توجيهٌ من يزيد بخلاف ما أمر الله عزّ وجل، فقال: ماذا أفعل ؟ فقال هذا التابعي الجليل: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

فقبل أن تعصي الله، وقبل أن ترضي الناس، وتُرضي شريكك، وزوجتك، ومَن هو فوقك، قبل أن ترضي مَن هو دونك، قبل أن ترضي جارك، ورفقاءك، أي حينما تُرضي أشخاصا، وتعصي خالق الكون، هؤلاء الأشخاص على كثرتهم وقوّتهم، واتصالهم الشديد، وحبهم لك فهل بإمكانهم أن يمنعوا عنك مصيبةً قدّرها الله عزّ وجل ؟ لا، بل يتعاطفون معك بكلماتٍ معسولة، إذ يقولون لك: والله نحن تألمنا لهذا المصاب كان الله بعونك، وإذا كان الأجل أرسلوا إكليلاً من الورود وعليه عبارةٌ لطيفة، وانتهى الأمر، هذا كلُّ ما يفعله الناس إذا أرضيتهم، وعصيت الله عزّ وجل..

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ)

(سورة القصص)

عدم استجابة الشركاء لمتّبعيهم:

هؤلاء الذين ادّعَيْتُم أنّهم آلهة، في عصر النبي عليه الصلاة والسلام قالوا: اللات والعُزّى آلهة، وإذا كنتَ في عصرٍ آخر توَهّمت أن شخصاً ما بيده الخير والشر، فبيده أن ينفعك أو أن يضرك، وأنت لم تقل: إنه إله، ولكنك أعطيته صفات الإله، فإذا توَجّهت إليه بكليّتك، ورأيت أن غضبه خطير، وأن رضاه كبير، فإنّك جعلته إلهاً وأنت لا تدري، ليست العبرة أن تقول: هذا الإنسان إله، هذه لا يقولها أحد، وفي عصر النبي والعصر الجاهلي كانوا يقولون: إن ودّاً ويغوث ويعوق ونسرا آلهة، ولكن عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ: شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ فَذَكَرْتُهُ فَأَبْكَانِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أَتَخَوّفُ عَلَى أمّتِي الشِّرْكَ وَالشّهْوَةَ الْخَفِيّة، قالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَتُشْرِكُ أُمّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ ؟ قالَ: نَعَمْ، أَمَا إنّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قمرًا، وَلَا حَجَرًا وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشّهْوَةُ الْخَفِيّةُ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ))

[أحمد]

إذا اتجهت نفسك إلى الأشخاص لترضيهم، وهم في نظرك كبار جداً بيدهم نفعك وَضَرّك فهذا الشيء، هو الذي يعيق الإنسان عن طاعة ربه، فلذلك..

(فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ

لو أنهم كانوا يهتدون إلى الله عزّ وجل لما عبدوهم، ولما أطاعوهم، ولا خضعوا لهم، واستسلموا لمشيئتهم، ولما رأوا حجمهم كبيرا، ولكن يرون الله أكبر، فهذه كلمة (الله أكبر)، والله لو أن الإنسان قالها ألف مرة، وأطاع مخلوفاً، وعصى ربه ما قالها ولا مرة، لأنك لو رأيته أكبر من هذا لما عصيته، دائماً لو أنه جاءك أمر من شخص مهم وشخص أقل أهمية، ترعى حق المهم، لمجرد أن تطيع الله عزّ وجل، وأن تعصي زيداً أو عبيداً، ولو لم تقل بلسانك: الله أكبر قلتها بنفسك، أما بمجرد أن تعصي الله عزّ وجل كي تطيع إنساناً فأنت في أعماقك، بل في شعورك، بل لسان حالك يقول: فلانٌ أكبر من الله، لأنك أطعته، وعصيت الله، إذاً:

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ(65))

(سورة القصص)

وقفت في الدرس الماضي وقفةً أُخرى عند هذه الآية:

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ

ليست العبرة أن تجيب، فأنا أذكر طبيباً نصح مريضاً بترك التدخين، ونصحه في وجودي، وكنت معه، وبعد أشهرٍ عِدَّة أصابه مرضٌ عضالٌ بسبب التدخين، فهذا المريض سكت لم يجب، الطبيب نصح، والمريض سكت، ما هي الإجابة ؟ لو أنه هزّ برأسه فليست هذه هي الإجابة، فما موقف هذا المريض من التدخين ؟ هل امتنع عنه ؟ إذاً: أجابه بالإيجاب، وهل تابع التدخين ؟ إذن أجابه بالسلب.

فما موقفك من هذه الدعوة ؟ وما موقفك من هذا الأمر الإلهي ؟ ما موقفك من هذا الحكم ؟ ومن هذا التوجيه ؟ هذا معنى قوله تعالى:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

ما الموقف الذي وقفتموه ؟ هل ناصرتموهم ؟ وهل عاديتموهم ؟ أو صَدَّقتموهم ؟ أم كَذَّبتموهم ؟ واستجبتم لدعوتهم ؟ أم رفضتم هذه الدعوة ؟.

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66))

(سورة القصص)

لا مخرج إلا بالتوبة:

دائماً وأبداً الله سبحانه وتعالى يفتح باب التوبة، فما من شيءٍ يبُثُّ الأمل في النفس أشدّ من أن الله سبحانه وتعالى جعل باب التوبة باب النجاة، فالتوبة صَمَّام أمان، فإذا زاد الضغط على الإنسان تأتي التوبة صمَّام أمان، وإذا غرق الإنسان في ذنوبه تأتي التوبة حبل نجاة، وإذا أُحْكِمَت عليه السبل كانت التوبة باب الخلاص، فكُلّما ضاقت بك الأمور، وسُدّت أمامك السبل فالله سبحانه وتعالى يفتح لك باب التوبة..

(فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

(سورة القصص)

إن كلمة (عسى) تفيد الرجاء، وترجيح الرجاء، وهذا الذي يبقى، والذي يُخِلُّ بصِحَّة التوبة وبصحة الإيمان هو عدم الإخلاص، فإذا كان مخلصاً:

(فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

الردّ القرآني السادس على قول المشركين:

والآن جاء الردُّ السادس على قول هؤلاء المشركين:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: الآية 57)

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)

(سورة القصص: الآية 68)

مشيئة الله مطلقة صحيحة: وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ

مشيئة الله عزّ وجل مشيئةٌ صحيحة، لأن الإنسان أحياناً قد يختار شيئاً وهو مكرهٌ، ومضغوط عليه، وقد يختار شيئاً بدافع الرغبة والإغراء، فإذا كان الإنسان تحت تأثير الضغط أو الإغراء يختار شيئاً غير صحيح، وغير حكيم، وقد يكون جاهلاً، أو مُسَيَّراً، فمشيئة الإنسان ليست كمشيئة الله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ويختار، وليس في الكون كلِّه جهةٌ تستطيع أن تمنع الله أن يفعل ما يشاء، ولا أن تدفعه إلى أن يفعل ما لم يشأ، والله حكيمٌ وعليمٌ وقديرٌ وغنيٌّ، إذاً: مشيئته هي المشيئة الصحيحة.

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

يخلق ماذا ؟ عندنا خلق تكويني، أي لا يقع في الكون فعلٌ إلا بمشيئة الله، فهذه الفكرة استيعابها سهل، أما أن تعيش هذه الفكرة فقد طهرت نفسك من كل قلق، فإذا شعرت أن هذا الكون العظيم بمجَرّاته، وبسماواته وأرضه، وبالبشر جميعاً الأقوياء منهم والضعفاء، وبالذين يملكون أسلحةً فتّاكة، فإذا شعرت أنه لا يقع شيءٌ في الكون إلا بمشيئة الله، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم، وهو العليم، وهو العادل، وهو القدير، وهو اللطيف، إذاً: هذا التشعُّب، وهذا التشرذم والضيق والشرك هو الذي يأكل القلوب.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

أساساً: من علامات قيام الساعة كما قال الله عزّ وجل:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس: الآية24)

أي شعر بعض البشر الأقوياء أنّهم قادرون عليها، أن الأرض كلّها في قبضتهم، يرون ما يشاءون، ويفعلون ما يريدون، ولكن الله سبحانه وتعالى كذّبهم في آياتٍ كثيرة، فقال تعالى:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: الآية 10)

قال تعالى:

(مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود: الآية 56)

لا يقع شيءٌ في الكون إلا بإذن الله عزّ وجل:

الفكرة هنا أنه لا يقع شيءٌ في الكون، ولا يحدث حادث، ولا يتحرّك متحرّك، ولا ينطلق حجر، ولا يهبط بناء، ولا يتزلزل جبل، ولا ينفجر بركان، ولا يفيض نهر، ولا تشِحُّ الأمطار إلا بإذن الله عزّ وجل، هذا هو جوهر الإيمان، إذا شعرت أن الله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء.

أفعال العباد فيها للإنسان الكسب فقط، أو الانبعاث إلى العمل، فأنت تختار أن تذهب إلى المسجد، وعن هذا الاختيار الله سبحانه وتعالى يعطيك القوة كي تُحَقِّقه، فمجيئك إلى المسجد هو باختيارك، ولكنه بفعل الله عزّ وجل، وإذا أراد إنسان أن يؤذي إنساناً، فالإنسان له المشيئة والاختيار، والكسب والانبعاث، ولكن القوة التي يؤذيه بها هي قوة الله عزّ وجل، وهذا هو التوحيد، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، أي أن الأشياء لا تفعل بذاتها، بل بمشيئة الله، عندها لا بها، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

الأفعال كلها من خلق الله، فهذا الذي يقول:

(إِنْ نَتّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

كأنّه مُشْرك، وكأنه يرى أن الله عزّ وجل لا دخل له بأفعال العباد، ماذا قال الله عزّ وجل:

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

(وَقَالَ اللّهُ لَا تَتّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل: الآية 51)

فحينما توَهَّم هؤلاء بقولهم:

(إِنْ نَتّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الفعل بيد من ؟ فلو كان بيد جهة أخرى غير الله عزّ وجل، فالكلام مقبول وصحيح، ولكن الفعل كلّه بيد الله، فكيف يُعْقَل أن تهتدوا إلى الله وأن تأتي جهةٌ، وتوقع فيكم الأذى ؟.

مثلاً: لو أن مؤسسةً، أو وزارةً، أو معملاً، أو منشأة لها مدير عام بيده كل شيء، ولا يمكن أن يحدث شيء في هذه المُنْشَأة إلا بعد موافقة المدير العام، فإذا كان هذا المدير العام قد أرسلك في مهمّة، تقول

له: أخشى أن أُعاقب غداً بسبب الغياب عن الدوام ؟ يقول لك: من يعاقبك غيري ؟ أنا الذي أعاقب، وأنا أرسلتك بمهمة، أيعقل أن أعاقبك على أنّك نَفّذت هذه المهمة ؟ إذ لا ينفذ قرار عقابك إلا بتوقيعي، وإذا قال هذا الموظف لهذا المدير العام الذي بيده كلُّ الأمور: أخشى أن أنفذ هذه المهمة فأعاقب غداً لتخلُّفي عن الدوام ؟ يقول لك: عجباً ! هل في هذه الدائرة إلا مديرٌ واحد ؟ وهل ينفذ كتاب عقابٍ إلا إذا وقّعته أنا ؟ أنا الذي أرسلتك.

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الله عزّ وجل ردّ عليهم فقال:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

(سورة القصص: الآية 68)

الله خالقُ أفعال العباد:

هو الخلاّق، وهو الذي يخلق أفعال العباد، والعباد لهم الاختيار فقط، أما الذي يخلق أفعالهم فهو الله عزّ وجل.

فحينما توهّم المعتزلة أن الإنسان خالق أفعاله، ضلّوا ضلالاً مبيناً، فالإنسان لا يخلق أفعاله، بل ينبعث إلى أفعاله، ويكسب أفعاله فقط، أما فعلُ الإنسان فهو فعل الله عزّ وجل، والإنسان له الثواب أو العقاب على انبعاثه لهذا العمل، وعلى كسبه له، وهذا معنى قوله تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: الآية 286)

فمعنى هذه الآية:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

مشيئته هي النافذة.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود: الآية 65)

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

(سورة الفتح: الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال: الآية 17)

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)

(سورة الأنفال: الآية 17)

هذه الآيات كلها تؤكِّد ذلك..

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

إن الإنسان أحياناً يبيع طائرة، ولكن أمر هذه الطائرة ليس للشركة الصانعة، ولمن يركبها، وقد تهوي، وقد تقصِف، فهذا الشيء لا ينطبق على خلق الله عزّ وجل، فكلُّ شيءٍ خلقه الله عزّ وجل..

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف)

أي أن أمر هذا المخلوق بيد الله عزّ وجل، الله خالق كل شيء، وهو على كل شيءٍ وكيل.

لو أنكم تقرؤون كتاب الله عزّ وجل، وتبحثون عن آيات التوحيد، فآيات التوحيد تَبُثُّ في النفس الطمأنينة، والشعور بالأمن، فالأمر بيد الله عزّ وجل، كن مع الله ولا تبال.

كن مع الله تر الله معك واترك الكلّ وحاذر طمعك

***

أساساً: ما يجري من الناس من خوف، ومن قلق، ومن شعور بالقهر، فهذه كلُّها مشاعر الشرك، لأنك ظننت أن زيداً أو عبيداً بيده كلُّ شيء، وبيده أن ينفعك، أو أن يضرُّك.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ:

((يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[الترمذي]

هذا هو الاعتقاد الصحيح..

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

هذا الخلق التكويني، أي أنه خلق الشمس، وخلق القمر، والليل، والنهار، والأمطار، وشُحَّ الأمطار، بيده الأمر، فقد خلق الغنى والفقر، والقوة والضعف، وهو الذي خلق هذا الزلزال، وأجرى هذا البركان، وفاضت الأنهار، أو شَحَّت الينابيع، يخلق ما يشاء، هذا الخلق التكويني، وفلان تطاول على فلان، وفلان ذاق بأس فلان، والآية معروفة:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: الآية 65)

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

هذا الخلق التكويني، خلق الكون، ومظاهره، وخلق الأفعال، فالأفعال كلها بيدِ الله، لذلك من أجمع عبارات التوحيد، أن كلّ شيءٍ وقع أراده الله، وأن الله إذا أراد شيئاً وقع، فلك أن تفهم هذه العبارة على شكلين، شاء الله أن يكون هذا الأمر فكان، وكان هذا الأمر، إذاً: شاءه الله، ومادام هذا الأمر قد كان، إذاً: شاءه الله، مادام الله قد شاء هذا الأمر فلابدّ من أن يكون، وهذا قول النبي الكريم:

((وَمَا شَاءَ اللّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ))

[أبو داود]

ومشيئته متعلقةٌ بالحكمة، وحكمته متعلقةٌ بالخير المطلق، دائماً مشيئته حكيمة، وكل شيءٍ وقع لو لم يقع لكان نقصاً في الحكمة.

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

معنى: وَيَخْتَارُ:

والآن.. ويختار، أي يختار ماذا ؟ ويختار ما يشاء، قال العلماء: يختار أي يختار لكم التشريع المناسب، وربنا عزّ وجل خلق الإنسان، وعلّمه القرآن، وخلق السماوات والأرض، وأنزل على عبده الكتاب، فهناك خَلق وتوجيه، التوجيه أمر تكليفي، أما الخَلق فأمر تكويني، والخلق كن فيكون، ولذلك يوجد فرق كبير بين الأمر التكويني والأمر التكليفي، فربنا عزّ وجل إذا قال لهذا الجبل: زُل يزول فوراً..

(كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

الأمر التكويني والأمر التكليفي:

فوراً، هذا أمره التكويني، أما أمره التكليفي ؛ فقد أمرنا بغض البصر، وهناك آلاف الأشخاص يطلقون أبصارهم، إذا عُصِي أمر الله التكليفي فشيء طبيعي جداً، هو لم يأمر أمراً تكوينياً، بل أنه أمر تكليفي.. ونحن نضع إشارة منع المرور بلوحة صغيرة حمراء على عمود على يمين الطريق، فهل معنى ذلك أن هذه اللوحة تمنع المركبة من السير في هذا الطريق ؟ لا تمنعها، ولكن تُحَذِّر، فهذه اللوحة منع للمرور هذا أمر تكليفي، أما إذا وضع في عرض الطريق قطع إسمنتية كبيرة ومكعبات كبيرة جداً، فكل مكعب

خمسة أمتار مكعّبة مع إسمنت مسلح، نقول: هذا أمر تكويني، وهذه الحواجز تمنع مرور المركبات فهو منع تكويني، أما لوحة " ممنوع المرور " هذا أمر تكليفي، فيجب أن نفرّق دائماً بين الأمر التكويني، والأمر التكليفي، الأمر التكويني:

(كُنْ فَيَكُونُ)

زُل فيزول، فليس في الكون كله شيءٌ يستعصي على أمر الله، فإذا استعصى إنسان على أمر الله، لأن الأمر تكليفي لا تكويني، ولو أن ربنا عزّ وجل أراد لنا الهدى القسري لجعل تكاليفه أوامر تكوينية لا أوامر تكليفية.

إذاً يمكن أن أمنع المرور من الطريق لا بأمرٍ تكويني بل بوضع مكعّبات من إسمنت مسلّح كبيرة لا.. لا، أنا أمنع المرور بأمر تكليفي بلوحة صغيرة، والإنسان بإمكانه أن يخترق هذا الأمر، أن يعصيه، لأنه أمر تكليفي، أما الأمر التكويني فهو المنع، فلذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

هذا الأمر التكويني، ويختار هذا الأمر التكليفي، ففي كل شيء الله خلقك، وأعطاك توجيهاً، فأنت مخير إما أن تستجيب أو لا تستجيب، فربنا عزّ وجل نصحك بأن تستجيب، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: الآية 24)

إذاً:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

(سورة القصص: الآية 68)

المعنى دقيق جداً، هذا المعنى الأول ينطبق على قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: الآية 36)

المعنى الأول لقوله: مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَة

1 – وجوبُ الانقيادِ إلى حُكم الله ورسوله من غير تردد لا نقاش:

إنّ الإنسان إذا أمره الله بأمر فالعاقل ليس له مع أمر الله رأي إطلاقاً، لأن الله عزّ وجل اختار لنا هذا التشريع، فنحن ليس لنا خيار فيه، لأنه من عند حكيمٍ عليم، فأن تقول: أنا أفعل أو لا أفعل، أنت مخير، ولكن إذا اخترت ألاّ تفعل فهناك ثمن باهظ، وإذا كنت عاقلا تختار أن تفعل، في الأصل أنت مخير، لك

أن تفعل أو ألا تفعل، ولكن رأي العبد الحادث الضعيف لا شيء أمام هذا التشريع الحكيم، وأنت أيها الإنسان ليس لك اختيار إذا كنت عاقلاً.

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

إذا أعطى الله عزّ وجل في موضوع حكماً فالأمر لله عزّ وجل.

2 – مخالفة أحكام الله سببٌ في الهلاك:

مثلاً أعطى حكمه في الربا، وقال:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: الآية 276)

هذا حُكم الله عزّ وجل، فتقول لي: رأي الشخصي، وقناعتي، وأنا قارئ مقالة، وفلان له رأي في الموضوع، فأقول: هذا كله كلام فارغ، رأي وقناعة ورؤية، وحقيقة، وقضية نسبية ظروف صعبة، فمعنى ذلك أنك تبدي مع الله رأياً، ومعنى ذلك أنك ترى أن حكم الله عزّ وجل فيه خلل، وأنت ترممّ هذا الحكم، لذلك الآية:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

(سورة الأحزاب: الآية 36)

والشيء اللطيف أن سيدنا عمر كان وَقّافاً عند كتاب الله، هكذا يأمر الله عزّ وجل فسمعاً وطاعةً يا رب، وهكذا يأمر النبي عليه الصلاة والسلام فسمعاً وطاعةً يا رسول الله، وهكذا الإيمان بالله العظيم، آمنت به رباً عظيماً، وخالقاً حكيماً، ورؤوفاً رحيماً، وهذا أمره، فكلما وقع الإنسان في مشكلة فهناك جواب مُسكِت، أتحب الله عزّ وجل ؟ نعم، فأنت واثقٌ من حكمته ؟ وواثقٌ من عدالته ؟ ومن رحمته ؟ نعم، ولطفه ؟ فهذه مشيئته، إن لم ترضَ بها فأنت لا تعرفه، وأنت لست مؤمناً به، وهذا هو الإيمان، ولذلك فالنبي الكريم إذا جاءت الأمور كما يحب كان يقول:

((الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصّالِحَاتُ، وَإِذَا رَأى مَا يَكْرَهُ قالَ: الْحَمْدُ لِلّهِ عَلَى كُلّ حَالٍ))

[ابن ماجه عن عائشة]

وإذا جاءت على غير ما يحب يقول:

((الْحَمْدُ لِلّهِ عَلَى كُلّ حَالٍ))

[ابن ماجه عن عائشة]

والحديث المعروف، عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنّ أَمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[مسلم]

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)

خلقك، واختار لك هذا الشرع الحكيم..

(الْحَمْدُ لِلّهِ فَاطِرِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة فاطر: الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام: الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: الآية 1)

خلق الكون، وأعطاك التوجيهات، مثل بسيط ومبسّط: شُقّ الطريق، ووضعت الشاخصات ؛ فهنا منزلق خطر، وهنا تقاطع خطر، وهنا طريقٌ ضيّقة، وطريقٌ صاعدة، ومنعطفٌ حاد، وهذه لوحات قبل مسافات، قبل ألف متر، قبل خمسمائة، شُقّ الطريق وضعت الشاخصات، خلق الكون أُنزل الكتاب، خلق الله الكون ونَوّره بالقرآن:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: الآية 35)

عندك آلة ومعها تعليمات، وشيء مادي ومعه توجيهات، فأنت آلة، مخلوق من أعقد الآلات في الكون، ومعك كتاب تعليمات الصانع، وهو القرآن الكريم:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

(سورة القصص: الآية 68)

المعنى الثاني للآية: مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَة

هناك معنى آخر دقيق، والمعنى الآخر أنه عندما يختار الإنسان شيئا فاختياره جزئي لا كُلي، ولماذا جزئي ؟ لأن الفعل ليس له، لو فرضنا إنسانا اختار أن يقتل إنساناً، وهو اختار فقط، أما المشيئة فتحتاج إلى اختيار، وإرادة وقدرة، فهو يملك الإرادة، لكنه لا يملك القدرة، إذاً: مشيئته ناقصة حتى يسمح الله، فهذه عقيدة مريحة جداً، فلو كان لك عدو مخيف فقوته بيدِ الله عزّ وجل، قد ينوي لك هذا العدو شراً كبيراً، لكن لا يستطيع أن يوقع من شرّه إلا بالقدر الذي يسمح الله له به.

إذاً: أما أنتم أيها البشر فما كان لكم الخيرة الصحيحة الكاملة، لأن قوتكم بيدِ الله عزّ وجل، فتختارون شيئاً فالله عزّ وجل إما أن ينفِّذ أو لا ينَفِّذ، فلو وُجد مخلوق مربوط بزمام متين، وأنت أرخيت الزمام فيتحرك، وهو يبدو لك أنه حر، ويتوهم أن حركته حرة، لكن في أية لحظة يُشَدُّ الزمام فإذا هو في

القبضة.

فإذاً المعنى الأول: أن الإنسان لعلمه الناقص، ولعبوديته لله عزّ وجل، ولأنه كائن حادث محدود، علمُه من علم الله، فما كان لهذا الإنسان أن يكون له اختيار مع اختيار الله عزّ وجل، وما كان له أن يبدي رأياً مع شرع الله عزّ وجل:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

لا في الخَلق، فخلق الله أكمل خلق، فأي تغييرٍ في خلق الله يدفع الإنسان الثمن باهظاً، والآن هناك، أمراض العصر كلها بسبب تغيير في خلق الله، فمثلاً: هذه الدجاجة يجب أن تنمو في أربعين يوماً، إذاً: يجب أن نعطيها الهرمونات التي تُسَرّع النمو، ولكن هذه الهرمونات إذا تراكمت في جسم الإنسان فقد تسبب السرطان، فالإنسان خُلِقَ، ولكنه غير كامل، وأي شيءٍ صممه الإنسان على المدى البعيد فله أخطار وبيلة، ويبدو لأول وهلة وفي المدى القريب أنه رائع، ومريح، وكامل، لكن كل شيء يغيّر الإنسان فيه خلق الله عزّ وجل فالثمن التلوث، والتلوّث الآن هو الطامة الكبرى في العالم، ما التلوث ؟ هو تغيير في تصميم الخلق، المركبة تسبب أمراضاً وبيلة جداً، أما الحصان فيقي من أمراض القلب، ومن أمراض الكبد، والكليتين.

خلاصةُ المعنيين في الآية:

المعنى الأول: أن ربنا عزّ وجل خَلَقَه الخَلقَ كاملاً، وربنا صمم طبيعة نظيفة، ونحن لوثناها بهذه الغازات والسموم، جعل طبقة أوزون تحمي الناس من أشعة الشمس القاتلة، خرقناها بالأقمار الصناعية إلى أن تخلخلت، وعندما تخلخلت ارتفعت نسبة سرطان الجلد إلى سبعين في المئة في أماكن التخلخل، وفي تلك البلاد، فالأوزون تخلخل، والحرارة ارتفعت، فأصبح في البلاد التي لم تألف المكيّفات أصبح المكيف ضرورة، بسبب أن الحرارة في الأرض ارتفعت درجة، كلمة درجة شيء مخيف جداً، ارتفعت درجة بسبب ازدياد غاز الفحم في الجو، وهذا من تغيير خلق الله عزّ وجل، والبحث يطول، فهذه المبيدات نستعملها بشكل كبير جداً، هذه قتلت كل الكائنات الطبيعية، وكان يوجد توازن بين الكائنات، هذه الحشرة تقضي على هذا المن فلمّا أبدنا الحشرات بالكيميائيات أصبح هناك خلل بالتوازن، أي أنه في الصناعة، والتجارة، والبيئة، والأجواء، حتى في مساكننا، الضجيج، والتلوث، وهذا كله خطأ أو تغيير لخلق الله، وربنا عزّ وجل قال ذلك قال:

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ)

(سورة النساء: الآية 119)

فالإنسان ما كان له أن يختار شيئاً أكمل من خَلق الله عزّ وجل، لله الكمال المطلق، وما كان له أن يختار شرعاً أكمل من شرع الله، فشرع الله هو الكامل، فأنت إنْ في الخلق، وإن في التشريع أمام كمال مطلق في الخلق، وكمال مطلق في التشريع، بل إن معظم الأمراض التي يعاني منها الناس اليوم إنما هي أمراض بسبب خلل في تطبيق منهج الله عزّ وجل، والدليل ربنا عزّ وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80))

(سورة الشعراء)

ما قال: وإذا أمرضني فهو يشفين، بل قال: وإذا مرضت، المرض عُزِيَ إلى الإنسان لخلل في حياته.

إنّ رجلا كان في بلد غربي فالتقى مع شخص فقال له: أنا من بلد مسلم، وسمى له اسم البلد، فمن حديث إلى حديث قال له: الإسلام سببُ تخلُّفِنا نحن، فهذا الشخص الأجنبي أخذه من يده إلى أضخم مستشفى في هذه البلدة في أوروبا، وقال له: اقرأ، كُتِبَ على هذه المستشفى بحرفٍ كبير: **" نحن قومٌ لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع "**، وكُتب تحتها: **محمد بن عبد الله**، قال له: هذه الكلمات هي الطبُّ الوقائي كلُّه.

فأنت أولاً ليس لك الحق أن تصوّر خلقاً آخر غير خلق الله عزّ وجل، هو الخلق الكامل، وحتى في التشريع فإن تشريع الله هو الكامل.

فأول معنى:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

ما كان لهذا الإنسان أن يختار خلقاً آخر، أو أن يختار تشريعاً آخر فالخلق كامل.

والمعنى الآخر: أن الإنسان اختياره جزئي، فالعمل يحتاج إلى إرادة وإلى قدرة، والإنسان يملك الإرادة، أما القدرة فلا يملكها، لذلك يأتي اختياره ناقصا:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69))

(سورة القصص)

يا ترى عندما قالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: الآية 57)

رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ

أحياناً الإنسان يحتجّ، بأن يقول: أنا ليس عندي وقت لأن أحضر الدروس، فالله يعرف الحقيقة، أليس

عندك وقت أم أنت لا ترغب ؟ فالإنسان له أن يقول ما يختار، وله أن يدّعي ما يشاء، وأن يعلن ما يشاء، ولكن ما يكِنُّه صدره من الداخل يعلمه الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

يعلم السر الذي تكتمه عن الناس، ويعلم الشيء الذي يخفى عنك، هذا علم الله عزّ وجل، ثلاثة مستويات، يعلم علانيّتك، أي ما تقوله، ويعلم سرك، ويعلم ما يخفى عنك:

(وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

(القصص)

ولذلك إذا شعر الإنسان أن الله يراقبه يستقيم قلبه، فالغِل، والحسد، والضغينة، والتنافس، والغيرة أحياناً، هذه كلها مشاعر مرضية يعلمُها الله عزّ وجل، فالإنسان رأس ماله القلبُ السليمُ:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

هذا الذي لا ينطوي على حقدٍ، ولا على ضغينة، ولا على شعورٍ بالعلو، هذا القلب السليم رأس مال الإنسان يوم القيامة، لأن كل شيء يفنى، فكل متاعه، وكل دنياه تفنى، ويبقى القلب السليم:

(وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)

(القصص: الآية 70)

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

الله مصدر النعم في الدنيا والآخرة:

في الدنيا وفي الآخرة هو مصدر كل النعم، له الحمد، لو قال الإنسان: الحمد له، تعني الحمد له ولغيره، أما له الحمد، فحينما قدمنا له على كلمة الحمد أصبح هنا معنى القصر، أي الحمد كلُّه لله عزّ وجل، وأيُّ نعمةٍ جاءتك من إنسانٍ إنما هي من الله في حقيقتها، ولذلك إذا جاءت الإنسانَ نعمةٌ من إنسان فأول شيءٍ يشكرُ الله عزّ وجل، لأنه خلق هذه النعمة، ومكّن منها هذا الإنسان، وألهم هذا الإنسان أن يقدمها لك:

(لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ)

الحكم له، أي الرأي الأخير له، كل شيء متوقفٌ على حكم الله عزّ وجل، المرض يشفى أو لا يشفى، له الحكم، يوفّق هذا التاجر أو لا يوفّق له الحكم، ينجح هذا الزواج أو لا ينجح، له الحكم:

(وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة القصص)

وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

ما دُمت راجعاً إليه وسوف يحاسبك لابدّ من أن تستقيم على أمره، أي لابد من أن تعبده، ولذلك قال بعض الفلاسفة: **"لا معنى للأخلاق من دون إيمانٍ بالله، وإيمانٍ بيوم الحساب، وحسابٍ في هذا اليوم"**

أي هناك إيمان بالله، واليوم الآخر، والحساب، فإذا اختل أحد هذه الثلاثة فإن الإنسان لا يستقيم على أمر الله، ولن يستقيم إلا إذا آمن بالله، وآمن باليوم الآخر، وآمن بالحساب الدقيق في هذا اليوم:

(لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

أما آخر آية في هذا الرَدّ على قول هؤلاء المشركين:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

لماذا لا يطيع الإنسان الله عزّ وجل ؟ لأن معرفته بالله ضعيفة، أنت لا تطيع إنساناً إلا إذا عرفت قيمته، وإلا إذا عرفت ما عنده من خيرٍ وإذا أطعته، وما عنده من عقابٍ أليمٍ إذا عصيته، إذاً: معرفة الآمر يجب أن تكون قبل معرفة الأمر، فكيف تعرف الله عزّ وجل ؟ هذا الكون الذي أمامك ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72))

(سورة القصص)

الردُ السابع على قول المشركين:

كلمة أخيرة: ربنا عزّ وجل انتقل فجأةً إلى آيةٍ كونية، الحديث عن قول الكفار:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

والله رد على هؤلاء أول رد، والثاني، والثالث، والرابع، والخامس، فجأةً:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ

بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73))

علاقة هذه الآيات بما قبْلها:

قد يسأل سائل ما علاقة هذا الموضوع بالموضوع المتسلسل ؟ الحقيقة توجد علاقة متينة جداً، فهؤلاء الذين قالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

لم يروا عظمة الله عزّ وجل، ولا وحّدوه، كيف نعظمه، وكيف نوحده ؟ إذا فكرنا في مخلوقاته فربنا عزّ وجل رسم الطريق، أي أن هذا التوهُّم بأن الطاعة تضر والمعصية تنفع، وهذا الظن، وهذا الشرك، والخوف، والقلق، كلُّ هذه الأمراض الناتجة عن الشرك، وكل هذه المعاصي أساسها ضعف الإيمان بالله، فالآن خذ لنفسك مقياساً، حينما تعصي الله فاعلم علم اليقين أن معرفتك بالله لازالت قاصرة، وهي في حجمٍ لا يكفي لطاعته، ومتى يكون حجم المعرفة كافياً ؟ إذا حَمَلَتْك المعرفة على طاعة الله عزّ وجل، فإذ وُجدت المعاصي فمعناه أن حجمَ المعرفة قليل، إذ لم تعرف الخالق العظيم، ولا المسيّر الحكيم، ولم توحِّد خالقك، ولم توحِّد الألوهية، ولم توحِّد الربوبية، ولا رأيت رباً واحداً، ولا إلهاً واحداً، ولا خالقاً واحداً، ولكن رأيت زيداً وعبيداً، إذاً: هناك شرك، فإذا كان للطاعة والمعصية عداد أو مؤشّر فتأكّد أن هذا المؤشر يتزامن ويتوافق مع مؤشِّر الإيمان، فكلما ازداد إيمانك ازدادت طاعتك، وازداد ورعك، وازداد خوفك، وازدادت خشيتك، وكلما ضعف الإيمان ضعفت الطاعة، والورع، والخشية، والشوق وما إلى ذلك، فربنا عزّ وجل دلّنا على الطريق فقال: إنكم لن تستطيعوا أن تطيعوني إلا إذا عرفتموني، ولن تستقيموا على أمري إلا إذا خفتم مني، ولن تعملوا الأعمال الصالحة إلا رجوتم جنّتي، فإذا لم تعرفوا قدر الله عزّ وجل، وما عنده من نعيمٍ مقيم ومن عذابٍ أليم، فقد تضعف الطاعة، فربنا عزّ وجل رسم الطريق طريق النجاة، أي فكروا في الليل والنهار.

وإن شاء الله في الدرس القادم نفصّل في هذه الآية.

مرة ثانية، إذا فكّر الإنسان فيها فيما بينه وبين نفسه فشيء رائع جداً بعد صلاة الصبح:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ)

سِرُّ الليل والنهار:

ما سِرُّ الليل والنهار ؟ أي متى يصبح النهار سرمداً، والأرض تدور فتتوقف عن الدوران، أو الشمس

انطفأت، أو دارت دورةً مع دورتها حول الشمس كالقمر، فيصبح الليل سرمداً والنهار سرمداً، أو دارت على محور أفقي، نهار وليل، موضوع دقيق جداً أي متى يكون الليل سرمداً والنهار سرمداً ؟ في أي الأحوال ؟ الأرض كرة لها محور مائل تدور حول نفسها، دورة حول الشمس، فهذه الموضوعات موضوعات علمية، فربنا عزّ وجل يُلفِت النظر لهذا الموضوع:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً)

من قدرةِ وحِكمة الله في الخَلْق:

النهار سرمد، أي الحرارة ثلاثمائة وخمسون درجة، فوق الصفر، والليل سرمد أي الحرارة مئتان وخمسون تحت الصفر، فالحياة مستحيلة، فلو جعل الله الليل سرمداً أو النهار سرمداً لكانت الحياة مستحيلة، يقول الله عزّ وجل:

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ)

فهل هناك جهة قوية في العالم تجتمع، وتتخذ قراراً، وتصنع الليل، لا يوجد عندكم ليل ؟ هذا ليل، فأية فئة، وأية دولة قوية، وأية مجموعة، وأية منظّمة، تجتمع، وتقرر إحداث الليل، أو إحداث النهار:

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ)

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73))

إذاً: هذه الآية الكونية من هنا الطريق إلى الله عزّ وجل، فكِّر في خلق الله عزّ وجل حتى تعرفه، وتعرف عظمته، وربوبيّته، وألوهِيّته، ووحدانيته، وتستقيم على أمره، إذاً: هذه الآية فيها مفتاح الخلاص، لئلا يقول الإنسان:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

تأتي هذه الآية لتبيّن للإنسان الطريق إلى معرفة الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (14-18): تفسير الآيات 71 - 75
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-08-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة القصص، وآية اليوم:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73))

(سورة القصص)

ردٌّ أخير وبيانٌ لطريق الله تعالى:

الحقيقة أن هذه الآيات ردٌّ أخير، وبيانٌ خطير للطريق إلى الله عزّ وجل، فهؤلاء الذين قالوا:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: الآية 57)

ردَّ الله عليهم ردوداً كثيرة، ولكن كيف السبيل ؟ لئلا تقول:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

معرفةُ الله سبيلٌ من سُبل الاتباع:

قد يقول قائل: أنا إن استقمت على أمر الله تتوقف تجارتي، فما السبيل الذي إذا اتبعته ؟ ألا تقول هذا الكلام ؟ إذا عرفت الله عزّ وجل فلا تقول هذا الكلام، فإذا لم تعرفه تقول: إذا آمنت، إذا استقمت، إذا تركت هذه الطريقة في التعامل، ولم أفعل هذه المعصية أموت من الجوع، فهذا لسان حال معظم الناس الجهلة، فما السبيل إلى أن تؤمن بالله الإيمان الكافي حتى لا تقول هذا الكلام ؟

قلت لكم قبل أسابيع عدة: لمجرّد أن تتوهَّم أن المعصية تنفعك والطاعة تضرك، فإسلامك، وإيمانك، وصلاتك، وصومك، وحجُّك، وزكاتك لا قيمة لها عند الله إطلاقاً، لأنك ما عرفت الله أبداً، فخالق الكون إذا أمرك بأمر ثم تعتقد أنك إن أطعته تخسر، وإن عصيته تربح ! أنت لا تعرف الله عزّ وجل، فلذلك ربنا عزّ وجل رسم الطريق الذي إذا اتبعته عرفت عظمة الخالق، فإذا عرفت عظمة الخالق رأيت أن الخير كل الخير في طاعته، وأن الشرّ كله في معصيته، إذاً فالقضية قضية رؤية، فإذا كنت ترى أن

طاعته مَغرم، وأن معصيته مغنم فالطريق طويل أمامك، وأنت تحتاج إلى عملٍ كبير، وإلى جهدٍ جهيد، أما إذا وصلت إلى أن الخير كلّه في طاعته، وأن الشر كله في معصية الله فقد وصلت إلى أول الطريق، فمن أجل أن تصل إلى أول الطريق، وأن تضع يدك على جوهر الدين، وقدمك في الطريق الصحيح، أسْلك هذا السبيل..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ

أنتم لماذا تستخفُّون بأمر الله ؟ لأنكم لا تعرفون الله، هذا الخطاب موجه لأهل الدنيا، هؤلاء الذين قالوا:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ)

لماذا استخفّوا بالهدى ؟ ورأوا أن الهدى مغرم، وأن الضلال مغنم؟ ورأوا في طاعة الله خسارة ؟ وفي معصيته ربحٌ كثير، هذه حال معظم الناس، إن لم يبع بهذه الطريقة يخسر، وإن لم يفعل بهذا المطعم ما هو شائعٌ يخسر، وإن لم يبع هذه الألبسة يخسر، وإن لم يجامل، ويدار، ويداهن يخسر، فحياته كلّها مصالح، وأهداف خسيسة، أما المؤمن فحياته كلها مبادئ، وقِيَم نابعة من هذا الكتاب، فلذلك كأن الله سبحانه وتعالى قال: يا عبادي، لئلا تقولوا هذا الكلام..

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

ولئلا تتوهموا أن المعصية مغنمٌ، وأن الطاعة مغرمٌ، وأن أمر الله لا قيمة له، ولئلا تكونوا كهؤلاء فاسلكوا هذا السبيل، ما هو السبيل ؟ يجب أن تعرف الآمر قبل الأمر، إنها كلمة موجزة، ولكنها بليغة، إذا عرفت الأمر قبل الآمر فقد تستخفُّ به، ولا تأخذ به، وتحتال عليه، وهنا تظهر الحِيَلُ الشرعية، كل الحيل الشرعية أساسها أن هذا الإنسان ما عرف الله، وضع زكاة ماله في رغيف خبزٍ، وقدّمها للفقير، ثم قال له: هَبْني هذا الرغيف، وخذ مئة ليرة، أعطاه الصغير هذا الرغيف، وفيه خمسة آلاف ليرة، فهذه حيلةٌ شرعية تعني أنّك لا تعرف الله عزّ وجل.

1 ـ أصلُ الدين معرفةُ الله:

فيا أيها الإخوة الأكارم، أصل الدين معرفة الله، فإن عرفت الله عرفت عظمته، وأنّه الخالق، وأنه لا عبادة إلا للخالق..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: الآية 21)

عرفت أنه المُرَبّي، لأنه رب العالمين، والمُسَيّر، وعرفت أسماءه الحُسْنى وصفاته الفُضْلى، وعرفته المعرفة التي تدفعك إلى طاعته.

2 ـ المعصيةُ دليلٌ على جهل العاصي بربّه:

يا أيها الإخوة الأكارم، حقيقة خطيرة، إذا كنت مقيماً على معصية الله فأنت لا تعرف الله، وهذه حقيقةٌ مُرّة يجب أن تتقبّلها، لأن الحقيقة المرة خيرٌ من الوهم المُريح، فقد تتوهم أنك مؤمن، ولكنك لمجرد أن تعصي الله وأن تُرضي زيداً أو عبيداً، فأنت لا ترضي الله عزّ وجل، أو معرفتك بالله بحجمٍ لا يحملك على طاعته، معرفة ساذجة، أو معرفة غير مبنية عن بحث ودرس، معرفة تلقيتها ممن علمك فيما مضى من دون أن تتحقق، ومن دون أن تتبنى هذه المعرفة، فلذلك وألا ترى في معصية الله مغنماً، وألا تجد في طاعته مَغْرَماً، من أجل ألا تقول كما قال هؤلاء:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

3 – من منهج التفكّر: التفكّرُ في الشيء، وفي خلاف ما هو عليه:

لِتَضَعَ يدك على جوهر الدين، وأن تكون من الفائزين يجب أن تسلُك هذا الطريق في معرفة الله، هذا الطريق أساسه التفكّر في الشيء، وبخلاف ما هو عليه، هذا منهج التفكر.

التفكر في العين:

يمكن أن تُفَكِّر في أن هاتين العينين لو أنهما عينٌ واحدة فما الذي يحصل ؟ الذي يحصل أنك لا ترى إلا بُعدين، طولاً وعرضاً، أما البعد الثالث فلا تُمَيِّزه، أنت بعينٍ واحدة لا تستطيع أن تضع الخيط في ثقب الإبرة، بعين واحدة تظن أنه دخل، وبين الخيط وثقب الإبرة عشرة سنتمترات، ولكن بالعينين يتضح البعد الثالث.

إذاً: لو فكّرت في العين، لو أن العينين عين واحدة، ولو أن هذه العين ليس فيها إلا عُصَيّات، وليس فيها مخاريط، لرأيت الأشياء بلونين أبيض وأسود فقط، لو أن هذه العُصيات أو المخاريط ليست مئة وثلاثين مليوناً، بل عشرة ملايين، لرأيت الصورة ضبابيةً، ولو أن هذا العصب البصري لم يكن على ما هو عليه، لو لم يكن في الدماغ مركزٌ للإبصار، لو لم يكن في الأذن مركزٌ للسمع وقنواتٌ دائرية للتوازن، أي أنك كلما رأيت شيئاً من خلق الله، لو فكرت أن هذا الشيء بخلاف ما هو عليه لعرفت قيمة هذا الشيء، فربنا عزّ وجل لفت نظرنا إلى آية واحدة قال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة القصص: الآية 71)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

الليل سرمد، أي أن الأرض لو أنها واقفة لا تدور، وهذه هي الشمس، نصف الكرة نهارٌ إلى الأبد، ونصفها الآخر المقابل لكرة الشمس ليلٌ إلى الأبد.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً)

(سورة القصص: الآية 72)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

إذا كان الليل سرمداً فمعنى ذلك أن الحرارة مئتان وخمسون تحت الصفر، الحياة منعدمة في الوجه المُضيء، لأن الحرارة ثلاثمئة وخمسون فوق الصفر، فنحن في الدرجة الخمسين لا نتحمّل، يقال لك: شيء لا يُطاق، الأرض تدور، لو أنها توقفت عن الدوران لأصبح النهار سرمداً والليل سرمداً، ومَن الذي أمَرها أن تدور ؟ الله سبحانه وتعالى، من الذي أعطاها هذه السرعة المناسبة ؟ لو أنها دارت كل ساعةٍ دورة فنصف ساعة ليل، ونصف ساعة نهار، فلا النهار صار معاشاً، ولا الليل صار لباساً، ولو كانت الدورة كل السنة مرة، ستة أشهرٍ بأكملها ليل، ننام ونقوم، ننام ونقوم، والليل مخيمٌ علينا، وستة أشهرٍ نهار.

إذاً: المشكلة أن هذا الفكر إذا انطلق من جموده، وتأمّل في خَلق الله عزّ وجل لخرّ ساجداً لله.

أولاً: الأرض تدور، مَن جعلها تدور ؟ الله سبحانه وتعالى، من دورتها حول نفسها جعل الليل والنهار، ولو توقّفت عن الدوران لأصبح النهار سرمداً، والليل سرمداً إلى يوم القيامة، ولأصبحت الأرض في ليلها السَرْمَدِي قبراً جليدياً، ولأصبحت الأرض في نهارها السرمدي جحيماً أبدياً، وانتهى الأمر، من جعل هذه الأرض تدور، دورتها بسرعة نصف كيلو متر في الثانية بالضبط، فالنقطة على خط الاستواء، تدور أربعين ألف كيلو متر في أربع وعشرين ساعة، قَسِّم أربعين ألف كيلو متر على أربع وعشرين ساعة، يطلع ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، طبعاً الطائرات التجارية سرعتها تسعمئة كيلو متر، والحديثة تسعمئة إلى ألف، الأرض تدور بسرعة ألف وستمئة كيلو متر بالساعة، قسِّم على الدقيقة والثانية، تدور نصف كيلو متر في الثانية، فهي تدور، ومَن أعطاها هذه السرعة ؟ وهذا من عظمة الله عزّ وجل.

إنّ الإنسان يعمل ثماني ساعات، ويأتي إلى البيت يأكل ويجلس مع أهله ساعتين أو ثلاثاً، فتغيب الشمس، فيصبح مرتاحاً، ولكن تصوّر النهار ستة أشهر، أو النهار سنة والليل سنة، أو تصور أن النهار

ساعة والليل ساعة، فهذه أول حقيقة.

فربنا عزّ وجل أمرنا أن نُفَكِّر في بهذه الأرض من صممها بهذا الحجم ؟ أنت وزنك على الأرض ستون كيلوًا، ولو انطلقت إلى القمر لكان وزنك عشرة كيلو بالضبط، والحركة صعبة جداً على القمر، ولو أنك على كوكبٍ حجمه كبير لكان وزنك ثمانية أطنان، وحركتك كتحريك صخرة، إذاً: ربنا عزّ وجل جعل حجم الأرض مناسباً، وجعلها تدور من أجل أن يكون الليل والنهار، وجعلها تدور بهذه السرعة المناسبة، هذه أول دورة.

دوَرات الأرض:

وكل الناس يعتقدون أن للأرض دروتين فقط، دورةٌ حول نفسها ودورةٌ حول الشمس، مع أن للأرض حتى الآن اثنتي عشرةَ دورة، اخترت لكم من هذه الدورات ست دورات، لأن الست الأُخَر لا يمكن أن تشرح هنا إلا على سبورة، وعلى وسائل إيضاح.

الدورة الأولى:

فالدورة الأولى حول نفسها.

الدورة الثانية:

والدورة الثانية حول الشمس، وسرعة الأرض حول الشمس ثلاثون كيلو متراً في الثانية، فإذا كان الدرس ساعة، فثلاثون كيلو متراً ضرب ستين ضرب ستين، فنقطع في درسٍ كهذا الدرس مئات الألوف من الكيلو مترات.

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

(سورة النمل)

الأرض والجاذبية:

هذه حول الشمس، ولكن حول الشمس عندنا مشكلة ؛ أن مسار الأرض حول الشمس ليس مساراً دائرياً، بل هو مسار إهليلجي على شكل بيضوي، وفي الشكل البيضوي قطر أصغر وقطر أكبر، والمعلوم عندكم ففي الجاذبية أن الأرض إذا اقتربت من الشمس جذبتها الشمس، فلو أن الأرض سارت

بسرعةٍ ثابتة حول الشمس، وجاء المكان الذي يضيق فيه المِحور، وتقلّ مسافته لا بدّ من أن الشمس تجذبها، لأن قانون الجاذبية أساسه الكتلة مع المسافة، جداء الكتلة مع مربع المسافة، إذاً: يجب أن تزيد الأرض من سرعتها في النقطة الحرجة، وقد تنشأ من هذه الزيادة قوة نابذة تُكافئ القوة الجاذبة، ويجب أن تزيد هذه السرعة بشكلٍ تدريجي، لأنها لو زادتها بشكلٍ مفاجئ لانهدم كل شيءٍ على الأرض، ولو أن السرعة زادت فجأةً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وكل ما على الأرض يصبح قاعاً صفصفاً، فالله حكيم، رفع السرعة لئلا تنجذب الأرض إلى الشمس، ولكن هذه السرعة التي ارتفعت تدريجياً وهذا ما يُسَمَّى بالتسارع وبالتباطؤ، فأن تزداد السرعة شيئاً فشيئاً بنظامٍ دقيق، وأنت على هذه الأرض فكِّر في الذي صممها، بحجمها، وبشكلها، وبحركتها وحول نفسها، وبحركتها حول الشمس، وبازدياد سرعتها، وبأن تكون هذه الزيادة بلطفٍ شديد، وسرعة الأرض حول الشمس ثلاثون كيلو متراً في الثانية، تدور الأرض دورةً حول الشمس بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، ومئتين وستة وخمسين جزءا من ألف، لذلك فسنة كبيسة، كل أربع سنوات، وشباط تسعة وعشرون يوماً، لأن الأرض تدور حول الشمس بثلاثمئة وخمسة وستين يوماً وربعاً، أربعة أرباع تساوي يوماً بكامله، أما الأرض وهي بحجمٍ كبيرٍ فتدور حول نفسها بثلاث وعشرين ساعة وستة وخمسين دقيقة وأربع ثوان وخمسة وتسعين جزءًا من ألف من الثانية، وهذا الرقم دقيق جداً لا يزيد ولا يقلّ، هذه يد الله عزّ وجل..

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسّماوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر: الآية 67)

هذه هي الحركة الثانية، حركتها حول الشمس.

والآن ربنا عزّ وجل قال: الأرض تدور حول نفسها حركة، وحول الشمس حركة.

الدورة الثالثة:

والشمس تجري لمستقر لها:

(وَالشّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرّ لَهَا)

(سورة يس: الآية 38)

إذاً: الأرض حول نفسها، وحول الشمس، والشمس ماشية إذاً لها حركة ثالثة، وحركة الشمس مئتان وأربعون كيلو مترا في الثانية، نصف كيلو في الثانية حول نفسها، وثلاثون كيلومترا في الثانية حول الشمس، مئتان وأربعون كيلومترا في الثانية حركتها مع الشمس في درب التَبّانة، وهذه الحركة الثالثة.

الدورة الرابعة:

هذه الأرض تدور حول محورٍ وهمي، وهذا المحور إما أن يكون قائماً على مستوى الدوران، وإما أن يكون مائلاً، وإما أن يكون موازياً لمستوى الدوران، الأرض تدور هكذا حول الشمس، فهذه الأرض إما أن محورها عموديٌ على مستوى الدوران زاوية قائمة، وإما أن محورها موازٍ لمستوى الدوران، وإما أنّ محورها مائل، شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يكون محور الأرض مائلاً، تصوّر محوراً هكذا، عمودياً على مستوى الدوران والشمس من هنا، هنا صيفٌ سرمدي، وهنا ربيعٌ سرمدي، وهنا شتاءٌ سرمدي، والآية أوسع من ذلك.

قل أرأيتم إن كان الصيف سرمداً إلى يوم القيامة ؟

قل أرأيتم إن كان الشتاء سرمداً إلى يوم القيامة ؟

قل أرأيتم إن كان الخريف سرمداً إلى يوم القيامة ؟

إذا طال الشتاء على الإنسان تضجر نفسه، ويشتاق للصيف، ويطول الصيف عليه فتشتاق نفسه إلى الشتاء، هذا التبدُّل من صيفٍ إلى خريفٍ إلى شتاءٍ إلى ربيع، هذا شيء مُسعد منعش، فلو أن المحور عمودي على مستوى الدوران والشمس من هنا، فأشعة الشمس عمودية في هذا المكان، أي في خط الاستواء، إذاً: صيفٌ سرمدي، وإذا كانت مائلة في هذا المكان فربيعٌ سرمدي، أو كانت أشدّ ميلاً في هذا المكان فشتاءٌ سرمدي، لأن محور الدوران هكذا، ولو كانت الأرض تدور هكذا، والشمس من هنا فلا يوجد ليل ونهار، بل نهار سرمدي وليل سرمدي، والأرض تدور، وإذا توقفت عن الدوران صار ليل سرمدي، ونهار سرمدي، ولو دارت ومحورها أفقي لصار النهار سرمدياً والليل سرمدياً.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

هذه الحركة، وهذا المحور المائل من ميزته أنه مادام مائلاً، فإن أشعة الشمس تأتي إلى هنا إلى أسفل الكرة الأرضية عمودية، وهنا يكون صيف، وتأتي إلى شمالها، أي أعلاها مائلة إذاً: هنا شتاء، وحينما تصبح الأرض هكذا بعدما تمشي نصف دورة تأتي الشمس عمودية على القسم الشمالي فيصير الصيف، ومائلة على القسم الجنوبي فيصير الشتاء، إذاً: لأن المحور مائل فصار صيف، وشتاء، وربيع، وخريف، وصار نبات، والنبات يحتاج إلى برودة، وإلى طور بارد، وطور معتدل، وحار حتى تنضج الفواكه، فأساس النبات تَبَدُّل درجات الحرارة، فهي دورة نباتية، إذاً لو اعتقدت أن هذا المحور عمودي لا يوجد فصول، وأفقي يصبح الليل سرمدياً والنهار سرمدياً، ولا يوجد فصول، الله جعله مائلا، لكن هذا الميل، هذا المحور المائل يدور حول نفسه دورة كل خمسة وعشرين ألف سنة مرة، ولذلك في كتب الإغريق نجم الشمال ليس نجم القطب، بل النسر الواقع، والآن أنه نجم القطب، ولكن بعد كذا ألف سنة

يعود النسر الواقع نجم الشمال لا نجم القطب، لأن محور الأرض المائل يدور حول نفسه بشكل مخروط، كل خمسة وعشرين ألف سنة دورة، وهذه الدورة الرابعة، فمرةً يكون نجم القطب نجم الشمال كما هي الحال الآن، وبعد آلاف السنين، وقبل آلاف السنين كان النَسر الواقع هو نجم الشمال، إذاً: عندنا حركة رابعة للأرض، دورة المحور حول نفسه كل خمسة وعشرين ألف وثمانمائة سنة دورة، ونحن لا ندري.

الدورة الخامسة:

وهذا المحور يميل عن العمود المتعامد مع مستوي الدوران يميل اثنتين وعشرين درجة، ويزداد هذا الميل إلى ثلاثٍ وثلاثين درجة، ويعود إلى اثنتين وعشرين درجة، والميل من ثلاث وثلاثين إلى اثنتين وعشرين درجة، هذه حركة خامسة، وهذه الحركة كل أربعين ألف سنة مرة، الحركة الرابعة كل خمسة وعشرين ألف وثمانمائة سنة مرة، فدورة المحور حول نفسه شَكّل مخروطاً، أما الحركة الخامسة فالمحور نفسه انحرافه يزداد ثلاثاً وثلاثين درجة، ويقلّ اثنتين وعشرين درجة، من ثلاث وثلاثين إلى اثنتين وعشرين ألف سنة، وأنتم لا تدرون.

لكن بعض علماء الجُغْرافيا فسّروا انتقال خطوط المطر، وتغير حالة الجو، مثلاً: من دمشق إلى بغداد كان الطريق كلّه أشجارا والآن صحراء، ماذا قال النبي الكريم ؟ هناك عالِم بريطاني أسلم لأنه اطّلع على حديثٍ لرسول الله، هذا الحديث لا يمكن أن يكون من عنده إلا من خالق البشر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا...))

[مسلم]

وكان هناك عصور مطيرة، عصور خصب، إنها عصور الألف ميليمتر في العام، وكان الربع الخالي كله أشجاراً، وغابات وأنهاراً وبحيرات، ويؤَكِّد هذا أن مدناً بأكملها مطمورةً تحت الرمال في الربع الخالي في الجزيرة العربية، إذاً كانت أراضي غَنّاء كلها بساتين، وأنهار، وينابيع، وأشجار، ومدن، وقرى، وبادية الشام كانت كلّها أشجاراً، وتدمر كانت في قلب الغابات، والآن صحراء، إذاً: هذه الحركات أربعون ألف سنة حركة محور، خمسة وعشرون ألف سنة حركة، فهذه تفسِّر انتقال خطوط المطر وتبدُّل حالة الجو في العالم، وتغير الخصب، والنماء، والتصحر، وما إلى ذلك، فالنبي ماذا قال ؟ قال:

((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا...))

أي كانت، والمستحثات في الجزيرة العربية تؤكد ذلك، هذا العالِم البريطاني أسلم لأنه اطلع على هذا الحديث الشريف:

((لَا تَقُومُ السّاعَةُ حَتّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا...))

عندنا شيء آخر: الأرض تدور حول الشمس في مسار إهليلجي، وكل مسار إهليلجي له مركزان، الدائرة لها مركز واحد، أما الإهليلجي فله مركزان، فلو أتيت بمسمارين، وثبّتهما على سطح، وأحضرت خيطاً عقدته فأصبح دائرة، وجئت بقلم رصاص فشددت الخيط، وأدَرْتَه فيظهر معك شكل بيضوي، والسبب لأن هناك مركزين للدائرة، مركزا قريبا ومركزا بعيدا، فمركز دورة الأرض حول الشمس ينتقل من مركز أعظمي إلى مركز أصغري بمدة قدرها تسعون ألف سنة، فأصبح عندنا خمسة وعشرون ألف سنة دورة، وأربعون ألفاً دورة، وتسعون ألف سنة تَبَدُّل مركز فلك الأرض.

الدورة السادسة:

وهناك دورة سادسة، فالأرض تدور حول الشمس في مستوى، السطح الذي يمر منه خط دورانها اسمه مستوي الدوران، الأرض تدور حول الشمس هكذا، والأرض هنا والشمس هنا، وهذا المستوي يدور حول نفسه هكذا، في مدةٍ قدرها مئة وعشرة آلاف سنة، دورة الأرض حول نفسها، فدورة الأرض حول الشمس، ودورتها مع الشمس مئتان وأربعون كيلو مترا في الثانية، ودورة محور الأرض خمسة وعشرون وثمانمئة ألف سنة الدورة الواحدة، وتبدُّل محور الأرض من زاويةٍ دنيا اثنتان وعشرون إلى ثلاث وثلاثين كل أربعين ألف سنة مرة، وتبدُّل مركز الأرض كل تسعين ألف سنة مرة، ومستوى الدوران كل مئة وعشرة آلاف سنة مرة، وهناك ست دورات أُخرى يصعب شرحها في هذا المكان، يلزمها سبورة وأفلام، ومجَسّمات، فللأرض اثنتا عشرة دورة:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

هل هذا الإله العظيم يُعصَى ؟!

أهذا الإله العظيم يُعْصى ؟ ماذا قال سيدنا بلال ؟ قال: **<< لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت>>.**

أهذا الإله العظيم يُعصى أمره ؟ ولا تُرْجَى جَنّته ؟ ولا تُخشى ناره ؟ أهذا الإله العظيم الذي خَلق هذا الكون كُلّه من أجلك لن يسألك عن شيء؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: الآية 115)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

يا أخي الكريم، اعرف الله أولاً، وطبّق أمره ثانياً، أما إذا عرفت الأمر قبل أن تعرف الآمر فإنك ستستخف بالأمر، وستحتال عليه، ولا تأخذ به، وهكذا.

انظر إلى:

1 – اليد:

إذاً: هذا منهج في التفكير، لو أن الإنسان بلا هذا المفصل فكيف يأكل ؟ كالهرة تماماً ؛ صحن على الأرض، وينبطح، ويلحس بلسانه، إذا لم يكن له مفصل، فإذا أكل الإنسان رأى الحركة مناسبة، وقد وصلت اليد إلى الفم، وفيها أصابع، وكل إصبع فيها ثلاث سلاميات، وإبهام، ألغ الإبهام وانظر، أفبإمكانك أن تعمل عملاً واحداً بلا إبهام ؟ أن تكتب رسالة ؟ أن تخيط ثوباً ؟ أن تغلق سيارة ؟ أن تفتح باباً ؟ أن ترتدي الثياب بلا إبهام فقط، فكر هكذا، الرسغ.. مفصل دائري، وهذا المفصل الدائري معقد جداً، مفصل أُنْسي، ومفصل وَحْشي.

2 – العنق:

العنق دائرة شبه كاملة تقريباً:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ)

ولو كان عنق الإنسان ثابتاً مع جذعه، وناداه أحد الناس يجب أن يدور بأكمله مئة وثمانين درجة، فطلبه شخص آخر: فدار دورة ثانية، بينما جعله الله لطيفاً، ينظر هكذا، ويدير وجهه هكذا، والحركة سهلة، وهذا هو منهج للتفكير:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً)

3 – المفاصل:

ولو ألغى لك مفصل الرقبة، والفكين، أو الأسنان، أو اللسان، أو الشم، ولو كان الأنف في مكان آخر، أو باتجاه فتحتين نحو الأعلى مثلاً، والطعام نحو الأسفل، هكذا التفكير، هذا خلق الله:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8))

(سورة الانفطار)

4 – قنوات التوازن في الأذن:

ولو لم يكن قنوات توازن ففي الأذن الوسطى ثلاث قنوات فيهما سائل، وبجدار القنوات أشعار حسّاسة كثيراً، فلو مال الإنسان قليلاً فإن السائل يحافظ على أفقية سطحه، فيلامس الأشعار التي على اليمين، فيتنبه الإنسان، فلو مال يصحح وضْعَه على الفور، ولو لم توجد الأشعار الحساسة، فيجب أن يكون له قاعدة استناد بعرض سبعين سنتيمترا حتى يظل واقفاً، والدليل: أن الميت لا يقف، ومن يستطيع أن يوقف ميتاً ؟ مستحيل، لأن جهاز التوازن تعطل، فيقع على الفور، والله جعل للإنسان قدمين لطيفين، فلو لم يوجد جهاز توازن فتكون قدمه بعرض سبعين سنتيمترا ؟ وإذا سار الإنسان على طين، وحمل حذاءه، وبه كيلوين من الطين يرى أن المشي أشغال شاقة، فكيف لو كانت قدمه خمسة وعشرين كيلوا، ومتخذّة شكلاً هرمياً، كيف له يقف ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ)

ولو ألغى ربنا عزّ وجل جهاز التوازن فهنا تصبح الحياة جحيماً، وكذلك المفاصل..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

5 – العين والأذن:

ولو جعلها عيناً واحدة ترى بُعدين فقط، ولا يوجد بعد ثالث. وأذناً واحدة، فتطلق السيارة بوقها فتندفع إليها، أما من خلال وجود أذنين فإن الصوت يدخل إلى الأذنين، والسيارة على اليمين، فيصل الصوت من الأذن اليمنى إلى مركز الإحساس في الأذن قبل الأذن اليسرى بواحد على ألف وستمئة وخمسة

وعشرين جزءًا من الثانية، فعرف الإنسان أن السيارة عن يمينه، فانطلق نحو اليسار، وهذا شيء بسيط جداً، إنه جهاز بالغ التعقيد في الدماغ يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين، والتفاضل هو واحد من ألف وستمئة وخمسة وعشرين جزءاً من الثانية، وبهذا التفاضل يعرف الإنسان جهة الصوت، ولو كان له أذن واحدة لسمع الأصوات بلا جهات، ولذلك قد يندفع إلى مكان الخطر:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

قس عليها، ألم نجعل له أذنين ؟ لكن جعل لك لساناً واحداً لأن اثنين صعب، وأنف واحد، أما عينان وأذنان، وهذا منهج التفكير، الشيء وخلاف ما هو عليه:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة القصص)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

معنى سرمداً أي دائماً..

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ)

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّه

أي هل هناك جهة في الأرض تعقد اجتماعاً على مستوى رفيع، وتتخذ قراراً بإحداث الليل ؟ فمهما ارتفع مستوى أقوى دولة في العالم، ونخبة القادة في العالم لو اجتمعوا، وقرروا أن يصنعوا ليلاً، فأي ليل هذا ؟

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ)

لو أن الإنسانية مجتمعة فإنها لا تستطيع:

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

ولو جعل لكم الليل والنهار معاً، هذا أسلوب في البلاغة اسمه اللّف والنشر، كيف اللّف والنشر ؟ أن تأتي بشيئين أو أكثر، وتعيد على كلٍ منهما بالترتيب، فربنا عزّ وجل قال:

وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ

الليل..

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

1 – الليل سَكَنٌ وراحة:

النهار.. النهار معاش للسعي، والليل للسكن، لكن الحضارة الحديثة جعلت الآية معكوسة، فأصبح ليل الناس نهاراً ونهارهم ليلاً، وهذا يُسيء إلى صحتهم، لأن ساعة نومٍ في أوّل الليل لا تعدلها ثلاث ساعات في آخر الليل، فهذه الكهرباء، وهذه أجهزة اللهو التي فيها ما لا يُرْضي الله عزّ وجل يمضي الناس وقتهم الطويل وراءها إلى ساعةٍ متأخرة من الليل، أما ساعات الرحمة، وساعات التجَلِّي، والصلاة، والذكر، وتلاوة القرآن، والأنوار، والدعاء، والتَهَجُّد فالناس فيها نيام.

كنت البارحة في مسجد في صلاة الفجر، فرأيت سبعة يصلون فقط، والمسجد في حي مكْتَظ، فقلت: سبحان الله ! كل هذه الأبنية، وكل بناء بخمسة أو ستة طوابق، وكل طابق فيه شقتان أو ثلاث، سبعة أشخاص أو ثمانية، والآن اعمل جولة في مساجد دمشق صباحاً تر قليلاً جداً، صفاً ونصفاً أكثر شيء، ورَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((لَوْ يَعْلَمُ النّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصّفِّ الأوّلِ، ثُمّ لَمْ يَجِدُوا إلا أنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[صحيح البخاري عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ]

ولكن أصبح ليلُ الناس نهارا، ونهارهم ليلا، وتصميم ربنا غير هذا، التصميم:

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

في الليل سكن، وراحة..

لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ)

معنى ابتغاء فضل الله في النهار:

الابتغاء من فضل الله إما بالعمل بكسب الرزق، وإما بكسب العمل الصالح، وأنت في النهار تدعو إلى

الله، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتتصدّق، وترعى اليتيم، وترعى الأرملة، وتُعِين أخاك، أو أن تكتسب مالاً تكفي نفسك وأهلك وأولادك، وتنفق منه في طاعة الله، إذاً: ربنا عزّ وجل صمم الليل للسكن والراحة والنوم، وصمم النهار للعمل الصالح:

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

الأمر التكويني والأمر التكليفي:

في هذه الآية إشارة إلى الأمر التكويني، وإشارة إلى الأمر التكليفي، فالله كَوّن الأرض ليلاً ونهاراً، الليل للسكن، والنهار للعمل، ولكنّه أمرك أن تشكره لهذه الآيات الدّالة على عظمته..

فيا أيها الإخوة الأكارم، على الإنسان أن يفكر في هذه الآيات التي لا تعدُّ ولا تحصى، والتي أحاطنا الله بها، لقوله تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

(سورة القصص)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ

هؤلاء الذين زعمتم أنّهم آلهة، أو أعطيتموهم صفات الآلهة، في الماضي قالوا: هذا ودٌ إلهٌ، ثم إله الشمس، وإلهُ القمر، وإله المطر، وإله الخير، وإله الشر، هكذا كان الإغريق، وهذه الشعوب التي هي في آسيا وإفريقيا الوثنية تَدّعي أن هذا الشيء إله، وفي بلاد المسلمين أحياناً الإنسان يدّعي أن زيداً إله، لا يقول: هو إله، بل يقول: يؤذيني، وينفعني، ويرفعني، ويخفضني، ويعطيني، ويحرمني، فمعنى هذا أنك عملته إله، فإما أن تدّعي أن هذا الشيء إله، وإما أن تُسْبغَ على إنسانٍ ما صفات الإله ؛ بالعطاء، والمنع، والضُرّ، والنفع، وما إلى ذلك، فربنا عزّ وجل يوم القيامة يقول:

وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً

(أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً)

فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ

هذا شهيد الأعمال، اقرأ كتابك، فهو شهيد على أعمالنا:

(فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)

(سورة القصص)

لماذا فعلتم كذا وكذا ؟

(فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ)

عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ

لا لهذه الجهة، ولا لتلك الجهة، وربنا عزّ وجل قال:

(زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ)

(سورة النور: من الآية 35)

ولكنها عُلوية، والحق عُلوي، فلا يوجد حق شرقي، وحق غربي، بل الحق عُلوي:

(فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

(سورة القصص)

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ

كلُّ هذه النظريات، وهذه الدعاوى، وهذه الأضاليل، وهذه الأوهام، وهذه التحَزُّبات، وهذه الانقسامات، وهذه كلها ما أرادها الله، وما أنزل بها من سلطانٍ، لأن الحق واحد لله، الحق له فقط، والآن شاهد عملي، كل الآيات مترابطة:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: من الآية 57)

وهؤلاء آثروا دنياهم على هُداهم.

مثَلٌ بشري في القرآن على الطغيان: قارون:

الآن هذا مَثَلٌ عملي: قارون آثر دنياه على الهُدى:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص: الآية 76)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (15-18): تفسير الآيتان 76 - 77
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-08-31

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا لم يفرَز القرآن على حسب الموضوعات ؟

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة القصص، وصلنا في الدرس الماضي في سورة القصص إلى قصة قارون، والحقيقة أن بين آيات القرآن الكريم اتصالاً، وارتباطاً، وتسلسلاً، وقد يسأل سائل: لمَ لا تكون آيات الإخباريات في فصل، والكونيات في فصل، والقصص في فصل، وما شاكل ذلك ؟ لِمَ لا يُفْرَزُ القرآن فرزاً موضوعياً إن صَحَّ التعبير ؟

الحقيقة هذا القرآن كتاب هدايةٍ وإرشاد، وربنا سبحانه وتعالى هو الحكيم الخبير، يأتيك بآيةٍ كونية تنبهر لها، ويأتيك بخبرٍ من التاريخ فتتَّعِظُ به، ويأتيك بقصةٍ فتتأثر بها، فمن خبرٍ إلى قصةٍ إلى آيةٍ إلى مشهدٍ إلى إنذارٍ إلى بشارةٍ، فتنوُّع الموضوعات يسير مع النفس البشرية، ولذلك فتنظيم آيات القرآن تنظيمٌ نفسي، لأنه في الأصل كتاب هدايةٍ وإرشاد، فلذلك جاءت قصة قارون.

علاقة قصة قارون بسورة الأحزاب:

ولكن ما علاقتها بالسورة ؟ لها ارتباطان بالسورة.

الارتباط الأول هو أن الله سبحانه وتعالى في مطلع السورة حدَّثنا عن فرعون، وفرعون يُمَثِّل القوة الآمرة الناهية، إذا طغت وبغت فمصيرها هو الهلاك، والقوة الثانية التي تأخذ بالأبصار هي قوة المال يمَثِّلها قارون، فقوة الملك والسلطان يمثلها فرعون، وقوة المال والعلم يمثلها قارون، قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: الآية 78)

إذاً: قد يُعْطي الله الملك لمن لا يحبه، وقد يعطيه لمن يحبه، فسيدنا سليمان آتاه الله الملك، وقد يُعطي المال لمن لا يحبه.. مثل قارون، وقد يعطي المال لمن يحبه.. سيدنا ابن عوف، وسيدنا عثمان، صحابةٌ كرام أجلاء أعطاهم الله المال، فإذا كان المال يُعطى لمن يحب ولمن لا يحب، والقوة تعطى لمن يحب ولمن لا يحب، إذاً لا علاقة لها بالحب والبُغْض، مادامت القوة تعطى لمن يحب الله عزّ وجل ولمن لا يحب، أعطاها لسليمان، وهو يحبه نبيٌّ كريم، وأعطاها لفرعون وهو لا يحبه، والمال أعطاه لقارون وهو لا يحبه، وأعطاه لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو يحبه، فإذا كان الشيء يُعْطى أولا

يعطى، إذاً لا علاقة له بالحب والبغض، ولذلك: إذا كان أحد الناس قد آتاه الله المال فلا يذهَبَنّ به الظن إلى أن هذا المال الذي آتاه الله عزّ وجل دليل حب الله له، لا.. فهذا استنباط غلط، استنباط غير صحيح والأدلة قطعية، وإذا جعل الله الإنسان قوياً لا يذهَبَنّ به الظن إلى أن الله يحبه، قد يحبه وقد لا يحبه، يحب الله عبده إذا عبده، ويبغضه إذا عصاه، هذا هو المقياس، فحب الله وبغضه هو في الطاعة والمعصية، لذلك:

سُئِلَ الإمام الجنيد: **" من ولي الله ؟ أهو الذي يطير في الهواء ؟ قال: لا، قالوا: أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال: لا.. الولي كل الولي الذي تجده عند الأمر والنهي "**، أن يجدك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك.

هذه أول علاقة، وقد انتهت قصة فرعون بالغرق، وانتهت قصة قارون بالخَسْفِ، فإذا كان الله عزّ وجل يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، ويعطي القوة لمن يحب ولمن لا يحب، فما الشيء الذي لا يعطيه إلا لمن يحب ؟

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

(سورة القصص: الآية 14)

إذا عرفت الله عزّ وجل، وعرفت منهجه، والطريق الصحيح، ولماذا أنت في الدنيا، وسرّ وجودك، ومهمّتك في الدنيا، وسِرْتَ في الطريق الصحيح، وجاءت حركتك اليومية مطابقةً لهدفك في الحياة فأنت ممن يحبهم الله عزّ وجل، لأن نعمة الإيمان لا تعدِلُها نعمة:

إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

قصة قارون:

القصة:

(إِنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ)

(سورة القصص: الآية 76)

1 – مَن هو قارون ؟

هو من قوم موسى، وموسى نبيٌّ كريم، نبيٌّ من أُولي العزم، وقيل: إنه ابن عمه، وقيل: إنه على صلةٍ معه شديدة:

(إِنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى)

إذاً: هناك استنباطٌ دقيق هو: أن الإنسان لو عاش مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم يَسِرْ على منهجه فهذا لا ينفعه شيئاً:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

(سورة المسد)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللّهِ شَيْئًا، يَا عَبّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيّةُ عَمّةَ رَسُولِ اللّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللّهِ شَيْئًا))

[البخاري]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا مِنْ رَجُلٍ يَسْلُكُ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا إلّا سَهّلَ اللّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقَ الْجَنّةِ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أبو داود]

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمَ النّحْرِ فَقَالَ:

((لِيُبَلّغْ الشّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنّهُ رُبّ مُبَلّغٍ يَبْلُغُهُ أَوْعَى لَهُ مِنْ سَامِعٍ))

[ابن ماجه]

إنّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ

(إنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى)

كان منهم:

(فَبَغَى عَلَيْهِمْ)

1 – معنى: فَبَغَى عَلَيْهِمْ

معنى بغى عليهم أي خرج عن منهجهم، وطريقتهم، وجادّة الصواب، وبغى بمعنى طغى، وأخذ ما ليس له، واعتدى، وتجاوز، وانحرف..

(فَبَغَى عَلَيْهِمْ)

2 – لماذا بَغَى عَلَيْهِمْ ؟

وقد يسأل سائل: لماذا بغى عليهم ؟ هنا المشكلة، المشكلة هي الغنى، ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام استعاذ بالله من الغنى المُطْغي.

هناك شيء خطير جداً وهو الغنى المُطْغِي، فما الغنى المُطْغِي ؟ إذا نما مالُك بأسرع مما ينمو إيمانك يَخْتَلُّ التوازن، المال كثير، والمغريات كثيرة، فأين أسهر هذا اليوم ؟ معي مالٌ وفير، وهذا المال إذا نما ولم يُنْمِ معه الإيمان بالسرعة نفسها فإن الخطر هو اختلال التوازن، والطغيان، والفسق، والغرور، والانحراف جاثم، والخطر قائم، فربنا سبحانه وتعالى كأنَّه في هذه القصة أشار إلى الغنى المُطْغِي، أي من دون علمٍ بالله عزّ وجل يحمل الغنى صاحبه على الفجور، والفسق، والعدوان، وأن يفعل كل شيء:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)

وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ

ليس عنده كنزٌ واحد، بل كنوز، والكنز يُعَبَّر به عن المال الوفير، وكلكم يعلم أن كل مالٍ مهما كَبُر إذا دفعت زكاته فليس بكنز، هكذا قال عليه الصلاة والسلام، وأن كل مالٍ مهما قلّ إذا لم تُدفع زكاته فهو كنز، والكنز كما تعلمون:

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

(سورة التوبة)

(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)

كلمة:

(وَآتَيْنَاهُ)

أي أن هذا الكنز لم يُحَصِّله بذكائه، ولا بعلمه، ولا بخبرته، ولا بإمكاناته كما يزعمون، الإنسان إذا قال: أنا هذا حَصَّلته بخبرتي، أو بعلمي، أو بتدبيري، أو بقوّتي، أو بجاهي، أو بسُلطاني، أو بسهري الليل الطويل، أو بكدي وتعبي، أو بعرق جبيني، فهذه كلُّها كلمات الشرك، ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال:

(وَآتَيْنَاهُ)

إذاً زعمه باطل:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: الآية 78)

الله عزّ وجل يعطي ويمنع، يرفع ويخفِض، يبْسِط ويقبض، ويُعِز ويُذِل:

مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ)

معنى ناء بالحمل، أي حمله بتعبٍ شديد، أي حملَهُ وقد انحنى ظهره، وكاد لا يستطيع، فناء بالحمل أي ثَقُلَ عليه الحمل.

مفاتيح كنوزه، أي مفاتيح خزائنه، وصناديقه التي يودع فيها المال.

لو أن عصبةً، والعصبة كما تعلمون من ثلاثة إلى عشرة، وقيل: من عشرة إلى عشرين، وقيل: أربعون، على كلٍ أصَحُّ الأقوال أن القرآن الكريم وصف إخوة يوسف بأنهم عصبة، والعصبة عشرة أو تسعة، وما شاكل ذلك، إذاً: عشرة رجالٍ أشِدَّاء، أقوياء، مَفتولو العضلات، لو أرادوا أن يحملوا مفاتيح كنوزه لكان هذا الحِمْلُ عليهم ثقيلاً، فكم هي كنوزه ؟

يروى أن بعض أغنياء اليهود واسمه روتشيلد كان يضع سبائك الذهب في غرفةٍ كبيرة، وكثيراً ما اقترضت منه الحكومة، دخل مرةً إلى غرفة سبائكه الذهبية فأُغْلِقُ عليه الباب خطأً، والباب لا يفتح إلا من الخارج، فبقي أياماً، وكان لكثرة أسفاره وتَنَقُّلاته اعتاد أهله أنه يغيب فجأةً، وينتقل من بلد إلى بلد، فظنوه مسافراً، إلى أن ألوى به الجوع، فجرح أصبعه، وكتب على جدار هذه الغرفة: **" أغنى رجل في العالم يموت جوعاً ".**

ولذلك الذي يظُنُّ أن المال هو كل شيء هو في ضلالٍ كبير، تمُرُّ الأيام والسنون فإذا بريق المال يضعف، ويكتشف الرجل حقيقةً، ولكن بعد فوات الأوان ؛ أن المال ليس كل شيء، ولكنه شيء، فإذا جاء ملك الموت يكتشف الرجل أن المال ليس بشيء إطلاقاً، إذاً:

(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ)

مفاتحه جمع مَفْتَح، والمفتح هو المفتاح، مفتاح، مفاتيح، مَفْتَح، مَفاتِح:

(مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

رجال أشداء، أقوياء..

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ)

إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ

1 ـ بماذا يكون فرحُ المؤمن ؟

هنا موطن الشاهد، يا أخي الكريم... ما الذي يُفْرِحُك ؟ وما الذي يملأ قلبك سروراً وغبطةً ؟ ويجعلك تطيرُ فرحاً ؟ ويجعلك في انبساط ؟ أهو المال ؟ فإذاً أنت من أهل الدنيا، أم هي معرفة الله عزّ وجل ؟ إذاً أنت من أهل الآخرة، قال بعض العلماء: **" انظر ما الذي يفرحك ؛ أن تأخذ أم أن تعطي ؟ إذا كان الذي يفرحك أن تأخذ فأنت من أهل الدنيا، أما إذا كان فرحك بأن تعطي فأنت من أهل الآخرة "**، هذا مقياس دقيق جداً:

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ)

لا تفرح بهذا المال، لأن هذه الدنيا كما قال النبي الكريم:

((دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء))

[ورد في الأثر]

الرخاء مؤَقّت، والشقاء مؤَقّت، وقد جعلها الله دار بلوى، وليست دار استقرار، ولا دار مقام، ولا مَحَطّ الرحال، ولا نهاية الآمال، إنها ممر وليست مقراً..

((قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقْبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

إذاً لا تفرح ربنا عزّ وجل قال:

(فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: الآية 58)

2 ـ الغنى ليس معيار زائدا على الإيمان:

المؤمن يفرح برضوان الله، أي إذا شعرت أن الله يحِبُّك، وأن الله راضٍ عنك حُقّ لك أن تفرح، وكذلك إذا اصطلحت مع الله، وإذا أزلت هذه المعصية، وإذا قدر الله على يديك عملاً صالحاً، وإذا هديت إنساناً إلى طاعة الله، فهذا هو الفرح الحقيقي، إذا فهمت آيةً من كتاب الله حُقَ لك أن تفرح، إذا فهمت سنة النبي، وإذا وقفت على دقائق سيرة النبي، أما إذا كان فرحك بالمال، فهذا الذي يفرح بالمال.. طبعاً المعدوم إذا جاءه المال ليمسك رمقه فهذا فرح طبيعي، أما بعد أن يقضي الإنسان كل حاجاته، فإذا كان

همه الأول أن يُكَدِّس الأموال، وأن يجمعها فهو من زمرة قارون، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنّه يُحْشَر مع قارون، فهذه القصة قصة أصحاب الأموال ممن هم بعيدون عن الله عزّ وجل.

لا تقل لي: هذا الرجل غني إذا كان مؤمناً، فهذا مؤمن فقط، لا يضاف على الإيمان كلمة واحدة، لأنّك إذا رأيت غنياً مؤمناً فإنك تشتهي الغنى منه من تواضعه، وسخائه، وحُبّه للناس، ورأفته بهم، إنفاقه من ماله عليهم، لا تقل لي: غني مؤمن، قل لي: مؤمن فقط، كلمة مؤمن غني لا معنى لها، مؤمن أي متواضع، يعرف الله عزّ وجل، فإذا تحدثنا عن الغنى فالغنى مرافق للبعد عن الله عزّ وجل، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِذَا أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، وَلا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

[سنن الترمذي]

الغني غير المؤمن يُشعِرُكَ بالحرمان، وأنه لا قيمة لك، فقيمتك عنده بقدر ما تملك من مال، ولهذا قال سيدنا عمر: **<<من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط، ومن جلس إلى غنيٍ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، وشرف المؤمن قيامُه بالليل، وعِزُّه استغناؤه عن الناس، ولا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، وابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير >>.**

(قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

(سورة القصص)

لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ

وطبعاً هذا الفرح المُقَيد بالمال، فالله عزّ وجل لا يحبك أن تفرح بالدنيا لأنها زائلة، وخلقك للآخرة، ولعطاءٍ كبير، فإذا فرحت بهذا النزر اليسير فأنت لا تعلم شيئاً، وربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: الآية 77)

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

ولذلك: قل لي ماذا يُفْرحك أقل لك من أنت. راقب نفسك تماماً، ما الذي يملأ قلبك فرحاً ؟ أن يكون الله راضياً عنك أم أن يكون جيبك ملآن ؟ وما الذي يفرحك ؟ أهذه الأوراق المُكَدّسة في خزانتك، أم هذه الأعمال الصالحة المُسَجّلة في صحيفتك ؟ أيفرحك أن تكون سبباً في هداية مخلوق، أو أن تكون سبباً في حرمان أُناسٍ كثيرين ؟ خلصتهم الصفقة، فما الذي يفرحك ؟

(قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

لماذا يعطي الله المال للإنسان ؟ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ

ولكن الآن جاء الشيء الخطير جداً، لماذا يعطي الله المال للإنسان ؟ ولماذا يعطيه الصحة ؟ والعلم ؟ والخبرة ؟ وقوة الإقناع ؟ والجاه ؟ والقوة والسلطان ؟ فإذا آتى الله الإنسان شيئاً فلماذا يؤتيه إيَّاه ؟ وهنا جاء الجواب:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: الآية 77)

كلّ شيءٍ آتاك الله إياه إنما آتاك إيَّاه لهدفٍ واحد هو: أن تستثمره، لا أن تستهلكه، وهذا درسنا كله، إن آتاك الله مالاً فعليك أن تستثمره في العمل الصالح، ومعونة الضعفاء، وإطعام الجياع، وإيواء المُشَرَّدين، وتزويج الشباب، وتأمين حاجات الضعاف والمساكين، وهكذا، وسيدنا أبو ذر الغفاري قال: **<< حبذا المال أصون به عرضي، وأتَقرّب به إلى ربي>>.**

المال قوة كبيرة جداً، أن تكون ذا مالٍ وفير، وبإمكانك أن تدخل إلى قلوب الآلاف من الناس، هذا بإقراضه، وهذا بالإحسان إليه، وهذا بمعونته، وهذا يأتي معك إلى المسجد، وهذا يتوب على يديك، وهذا يُقْبِلُ معك على الله عزّ وجل، وهذا تأخذ بيده، عن طريق المال:

" يا داود، ذَكِّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جُبِلَتْ على حُبِّ من أحسن إليها، وبُغْضِ من أساء إليها ".

وقد تُلبّي حاجة إنسانٍ فتفيده بهذه الحاجة أضعاف ما تفيده بمحاضراتك الفَصيحة والبليغة، والإنسان عبد الإحسان، وأصحاب الأموال والله الذي لا إله إلا هو أمامهم أبوابٌ للعمل الصالح لا يعلمها إلا الله، إنها أبوابٌ مفتحةٌ على مصاريعِها..

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

عمومُ قولِه: آتَاكَ اللّهُ

الآية عامة، مطلقة، آتاك الله علماً فابتغ به الدار الآخرة، وآتاك الله شأناً فانصر به الضعفاء، واطلب به الدار الآخرة، وآتاك الله قوة إقناع، ولساناً طليقاً فانصر به المظلومين، وابتغ به الدار الآخرة، وآتاك الله قوةً فابتغ بها الدار الآخرة، آتاك الله خبرةً فارجُ بها الدار الآخرة، وآتاك الله علماً فاطلب به الدار الآخرة:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

فأنت الذي معك إما أن تستثمره، وهذا هو العقل، وإما أن تستهلكه.

مثلاً: لو معك عشر ليرات، كل ليرة يمكن أن تجلب لك مليوناً بطريقة معينة، فذهبت، واشتريت بهذه الليرات طعاماً وأكلته، هذه خسارة كبيرة جداً، فهذه الورقات العشر يمكن أن تجلب لك عشرة ملايين بطريقةٍ أو بأُخرى، أنت استهلكتها ولم تستثمرها، فالمال ينبغي أن تستثمره في إنفاقه في سبيل الله، أما إذا أنفقته على التَرَفِ، والسَرَفِ، والرفاهية، والانغماس في الملذّات فقد استهلكته، هذا إذا كان مباحاً، أي إذا لم يوجد معاصٍ، إذا أنفته في المباحات فقد استهلكته، أما إذا أنفقته في الأعمال الصالحة فقد استثمرته:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

1 – مفهومٌ شائع غير صحيح:

إن معظم الناس يفهمون هذه الآية على غير ما أراد الله، إذا دَخَلْتَ إلى بيتٍ، ورأيت صاحبه قد عُنِيَ به عناية، قال لك: أخي، الله عزّ وجل قال:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

وإذا انغمس الإنسان في الطعام والشراب وبعض المَلَذّات يقول لك: الله عزّ وجل قال:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

2 – المعنى الصحيح للآية:

مع أن هذه الآية من أدَقّ الآيات، أي يا أيها الإنسان، أنت لماذا جئت إلى الدنيا ؟ من أجل العمل الصالح، نصيبك من الدنيا هو العمل الصالح، وكل شيءٍ آخر لا قيمة له، لأنه زائل، فإذا أرسلنا طالباً إلى دولة أجنبية له مهمةٌ واحدة، وهي أن يدرس، فلو أنه أمضى هذا الوقت في المتنزّهات، والأماكن اللطيفة، واللقاءات، والسهرات، والندوات، وبعض الملاهي، والحفلات، والحدائق، وفي النوم، والراحة، والاستجمام، والسباحة، والرياضة، فماذا يفعل ؟ يعمل شيئاً خلاف مُهمّته، وخلاف نصيبه من هذا البلد، نصيبه من هذه البلدة أن يأتي بشهادةٍ عُليا، وأن يحمل دكتوراه، فأية حركةٍ، وأي نشاطٍ، وأي تصرفٍ، وأي سلوكٍ لا يتصل بمهمته فهو مضيعةٌ وخسارةٌ وحمق:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

أيها الإنسان، كما قال الله عزّ وجل:

((عبدي، خلقتُ لك السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحَقِّي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك، عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلّ حين، لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي، إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرّية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تُريد، ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر القدسي]

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: الآية 77)

هذا الذي قُلتُه خطبة: " يا بشر، لا صدقة ولا جهاد، فبمَ تلقى الله إذاً " ؟

3 – سؤال خطير: بماذا تلقى الله عزوجل ؟

والله الذي لا إله إلا هو ما من سؤالٍ أخْطَرُ من هذا السؤال، بمَ ألقى الله عزّ وجل ؟ فما العمل الذي هَيَّأته للقبر لساعة الفِراق ؟:

(وَالْتَفّتِ السّاقُ بِالسّاقِ (29) إِلَى رَبّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدّقَ وَلَا صَلّى (31) وَلَكِنْ كَذّبَ وَتَوَلّى (32) ثُمّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيّ يُمْنَى (37) ثُمّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّى (38))

(سورة القيامة)

فالذين يدرسون، ويتعبون، ثم يحصلون على الشهادات هؤلاء المساكين يأخذون هذه الشهادات ليفتخروا بها، أو ليكسبوا بها المال فقط، لا.. وأنت تَعَلّمت علماً ينبغي أن توَظِّف هذا العلم للدعوة إلى الله عزّ وجل، أنت أصبحت طبيباً، فيجب أن تستغل طِبّك في هداية الخلق والإحسان إليهم، وأصبحت تاجراً، فيجب أن تبذل هذا المال في تقوية معنويّات المؤمنين، وإشعارهم أنّهم في رعاية الأغنياء وحفظهم، لا، هم منبوذون، بل هناك من يرعاهم.

يا أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية تكفي، والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله غيرها لكفت.

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: الآية 77)

شهاداتك، زواجك، ابتغِ به الدار الآخرة، وهذه الزوجة اطلب بزواجها الدار الآخرة، وبيتك اجعله بيت ذكرٍ وقرآنٍ، ودعوة إلى الله عزّ وجل، وهذه غرفة الضيوف يجب أن تشهد لك يوم القيامة كم من سهرةٍ

فيها ذُكِرَ الله، أم كم من سهرةٍ لُعِبَ فيها الشطرنج، أم بالنرد، أم بالحفلات، أم بالمزاح، أم بالغيبة، غرفة الضيوف ابتغ فيها الدار الآخرة، وكذلك غرفة الجلوس، وغرفة الطعام الفقراء والمساكين على أطيب الطعام، شَرُّ الطعام طعام الولائم، لأن الأغنياء يُدْعَون إلى هذا الطعام والفقراء محرمون منه، فاسعدْ بهذه الغرفة غرفة الطعام، وكذلك بهذه المركبة، انتقل بها إلى المسجد، واجعلها في خدمة أهل الحق، يركب معك المؤمنون أصحاب البيوت البعيدة، فوَظِّف هذه المركبة في خدمة أهل الإيمان، ابتغ بها الدار الآخرة، هذا الثوب الجديد الذي اشتريته اطلب به الدار الآخرة، وانو به أن تكون ذا مظهرٍ حسن مقبول عند الناس، أنت مؤمن تُمَثِّل هذا الدين العظيم، كُنْ بهيئةٍ حسنة، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ، حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ))

[أبو داود عن أبي الدرداء]

فابتغ بهذا البيت الدار الآخرة، وإذا اشتريت كتباً فاطلب بها الدار الآخرة اقرأها، وافهمها، وادع إلى الله بها، وهذه آيتنا اليوم، هذه آية هذا الدرس..

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

شعار المؤمن: إلهي، أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، وذلك إذا تَزَوَّج المؤمن، وإذا سافر، وإذا جلس مع أهله وأولاده، وإذا لبس الجديد، وأكل الثريد، كله أعمال صالحة، لأنه لا يبتغي بهذا إلا الله والدار الآخرة، لا يبتغي بها الدنيا.

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: الآية: 77)

4 – يا لها مِن حسرة إذا جئتَ إلى الدنيا ثم غادرتَها ولم تعرف لماذا عشتَ ؟

آه، أن تأتي إلى الدنيا، وأن تغادرها، ولا تعلم لماذا أنت في الدنيا ؟ إذا نظرت إلى ميتٍ في نَعْشِهِ، وقد وضع النعش على القبر، ورُفِعَ الغطاء، وحُمِلَ هذا الميت في كفنه، وأدخل في القبر، فالسؤال خطير: هذا المَيّت هل جاء إلى الدنيا وغادرها، وقد عَرَفَ لماذا هو في الدنيا ؟ وهو في زحمة كسب المال جاءته أزمةٌ فأودت به، وهو في زحمة رحلاته الممتعة جاءه مرضٌ عضال فأنهى حياته، وهو في زحمة خصوماته مع الناس، دعاوى في قصر العدل لها ثماني سنوات، جاء ملك الموت فأنهى الدعوى، وشطبت، وتوفى المُدَّعي، وهكذا أنت أيها المؤمن يجب أن تأتي إلى الدنيا، وأن تغادرها، وقد عرفت مهمتك.

5 – ماذا تركتَ وراءك في الدنيا من الأعمال الصالحة ؟

والنبي الكريم مثل أعلى، جاء للدنيا وغادرها، ماذا ترك ؟ ترك الهدى، والفضيلة، والسعادة، والأنوار التي أشرقت حتى الصين، قد تذهب إلى أقصى البلاد، إلى أقصى آسيا مثلاً فترى مئذنةً يُذْكَر الله فيها، وترى مسجداً، وترى مؤمناً في أذربيجان، وفي أقصى الشمال، وأقصى الجنوب، وأقصى الشرق، وأقصى الغرب، هذا ما فعله النبي، فماذا فعلت أنت ؟

وبشكل آخر، ماذا تركت في الدنيا من أعمالٍ صالحة ؟ هل كنت أباً مثالياً ؟ أيّتُها المؤمنة هل أنتِ أمٌ مِثاليَّة ؟ وهل أنتِ أمٌ صالحة ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((أيُّما امرأةٍ قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[ورد في الأثر]

قعدتِ على بيت أولادك، اعتنيت بهم، أطعمتهم، نَظّفتهم، وهكذا.

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ

ما هو نصيبك من الدنيا ؟ قال:

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ)

(سورة القصص: الآية 77)

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

الله عزّ وجل أحسن إلينا بنعمة الإيجاد، فكل واحد منا سنة 1900، لم يكن أحد منا موجودا، ولم يكن له اسم بالسجلات، من أنت ؟ فلان الفلاني، ألف وتسعمئة ؟.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد ؛ جعلك من أبوين يعطفان عليك، يقدِّمان لك كل شيء، ربياك حتى كَبُرْت، نعمة الإمداد، الهواء، والماء، والطعام، والشراب، والفواكه، والمأوى، والفِراش الوثير، والماء الوفير، وما شاكل ذلك، ثم أنعم الله عليك بنعمة الإرشاد، إذاً: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: الآية 77)

أنواع الفساد: وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ

النوع الأول:

هنا آيةٌ دقيقةٌ جداً، هذا الغني، إذا أراد أن يَغْرَقَ في الترف، أي إذا أراد أن يجعل من بيته قبلة الأنظار، أن يجعل من أنماط حياته الراقية مساراً للإعجاب، فماذا يفعل ؟ يُفْسِد وهو لا يدري، لماذا ؟ لأنه يخلق شعور الحرمان عند الناس، ويخلق فيهم الحسد، والبغضاء، والحرمان، ولذلك فالفقراء إذا رأوا الغني قد ألمّت به المُلِمّات لماذا يفرحون ؟ لما عندهم من حسد وبغض، أما إذا كان هذا الغني متواضعاً، وكان معتدلاً في طعامه وشرابه وبيته، من دون إسرافٍ ولا مخيلةٍ، لا يشعِر الناسَ بالحرمان، ولذلك المبالغة في الترف، والزينة تخلق في قلوب الناس الحسد والضغينة والإحساس بالحرمان، هذا أول أنواع الفساد، لم يفعل شيئاً، لطيف المعشر، رقيق الحاشية، متواضع، لكنه أغرق نفسه في نعيمٍ لا نهاية له، فكلّما رأى فقيرٌ هذا البذخ، وهذا الترف، والإنفاق وفي الطعام، وما شاكل ذلك شعر بالحرمان، والصغار، وبالانكماش، وإذا كان غير مؤمنٍ شعر بالحقد، والحسد، والضغينة، هذا هو أول أنواع الفساد، حينما يبالغ الغني في زينته، وعرض ما عنده، حينما يغْرَق في النعيم والترف، والملذّات، طعامه وشرابه، ورحلاته، ونزهاته، وثيابه، ويعرضها على الناس، ويذكر لهم مصدرها هذه أجنبية، وسعرها، وأنواعها، وكثرة الثياب بالخزانة، فإذا فعل الغني هذا أفسد وهو لا يشعر، وهذا أول أنواع الفساد.

النوع الثاني:

أن يحرم أصحاب الحقوق حقوقهم، وهذا فساد آخر.

النوع الثالث:

أن يأخذ ما ليس له، وهذا أصعب، فإيقاع الإحساس بالحرمان فساد، ومنع الحقوق فساد، وغَصْبِ الأموال فساد.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

في الأثر:

((أن الأغنياء يحشرون أربع فرقٍ يوم القيامة، فريقٍ جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وهي قضية سهلة جداً، يحاسب بلمح البصر، وفريقٍ جمع المال من حلال، تجارة مشروعة، وأنفقه في حرام، على ملذّاته ولياليه الحمراء وموائده الخضراء، وسهراته المخملية كما يقولون، فيقال: خذوه إلى النار، فحسابه كذلك سريع، وفريقٍ جمع المال من حرام، عنده ملهى أو مقْمَرة، وأنفقه في حلال، تزوج، واشترى بيتاً، وأكل وشرب، فيقال: خذوه إلى النار، أيضاً حسابه سريع، وفريق جمع المال من حلال، وأنفقه في حلال، فهذا الذي يحاسب، ويقال: قفوه فاسألوه، وهل تاهَ بماله على عباد الله، هل قصّر في حق جيرانه، هل قال من حوله: يا رب قد أغنيته بين أظهرنا فقصّر في حقنا))

هكذا يروي النبي عليه الصلاة والسلام، أنه وقف ينتظر حسابه رآه طويلاً جداً، سؤال وراء سؤال، قائمة أسئلة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فما زال يُسأل ويسأل))

فهذا الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال.

فأنا أريد أن أقول لكم: ليس الغني الشاكر بأقلّ أجراً من الفقير الصابر، ولكن الغنى مسؤولية، يحتاج إلى إيمان لكي يكون متواضعا، لأن الحديث القدسي:

((أحب الطائعين، وحبّي للشاب الطائع أشد، أحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد، أحب المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد، وأبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاثٍ أشد، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض المتكبّرين، وبغضي للفقير المتكبّر أشد، أبغض البخلاء، وبغضي للغني البخيل أشد))

[ورد في الأثر]

إذاً:

(وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

مهمتك معرفة الله، ومعرفة أمره، استقامتك على أمره، والأعمال الصالحة التي تقرّب إليه، أن تكون مع أهل الحق،

(وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

الإحسان مبتَغى كل مؤمن، والإساءة هدفُ كل كافرٍ:

بل إن نصيبك من الدنيا يُلخَّص بهذه الآية.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ)

(سورة القصص: الآية 77)

جوهر عملك الإحسان.. فالأنبياء العظام جاءوا إلى الدنيا فأعطوا ولم يأخذوا، والأشرار أخذوا ولم يعطوا، فأنت ماذا أعطيت ؟ وماذا قدّمت للمسلمين ؟ ولأمتك، ولأبناء بلدك، وماذا فعلت ؟.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ)

(سورة القصص: الآية 77)

فباللغة الحديثة استراتيجية المؤمن الإحسان، واستراتيجية الكافر الإساءة والأخذ، والمؤمن العطاء والإحسان.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: الآية 77)

كم معنى ؟ ثلاثة: أول معنى: إذا بالغت في إظهار ما عندك للناس، وافتخرت به، وجمعت الناس، وأطلعتهم على ما عندك، وأثمان ما عندك، وكيف أمضيت العطلة، وأين سافرت ؟ وماذا أنفقت ؟ وفي أي فندق نزلت؟...إلخ، فهذا ماذا يفعل في نفوس المؤمنين ؟ يفعل الإحساس بالحرمان، والضيق، وفي نفوس غير المؤمنين، الضغينة والحسد والبغضاء والحقد، أول نوع من الفساد.

ومن الفساد أن تمنع حقوق الآخرين.

فهو يرضى بهذا المعاش القليل، وأنت في بحبوحة كبيرة، يرضى، لكن هذا المبلغ لا يكفيه، فأعطه ما يكفيه، ولك عند الله الأجر والثواب، إذاً: حرمان الآخرين من الحقوق هذا فساد.

وأن تأخذ ما ليس لك أيضاً فساد، ففي إلقاء بذور الحسد والحقد إفساد، وفي حرمان أصحاب الحقوق إفساد، وفي العدوان على أصحاب الحقوق إفساد.

(وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

فيجب أن تسعى أن يحبك الله عزّ وجل، فهو يحب المحسنين، ويحب الصادقين، والتوّابين، والمؤمنين، ولا يحب المفسدين، والفاسقين، والكافرين، والظالمين، فالآية دقيقة.

(إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

ماذا قال قارون ؟ هذا ما يكون في الدرس القادم، أجابهم فقال:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

بذكائي وخبراتي، وسهري الطويل، وسَعْيي وإمكاناتي، لا، هذا من جهدي، وأنا حرٌ بمالي، هذا الموضوع إن شاء الله نبحثه في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (16-18): تفسير الآيات 77 - 83
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-09-07

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخّصُ الدرس الماضي:

1 – قوة السلطة وقوة المال:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة القصص، وقد بدأنا في الدرس الماضي قصة قارون، وبيّنتُ لكم أن هذا الإنسان يُمَثِّل قوة المال، فإذا كان فرعون يمثل قوة السلطان فإن قارون يمثلُ قوة المال.

2 – ليس المال والسلطة معيارا لمحبة الله لعبدِه:

وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى يُعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، وكذلك يعطي القوة لمن يحب ولمن لا يحب، إذاً المال والقوة لا علاقة لهما برضوان الله عزّ وجل، رضوان الله عزّ وجل أساسه طاعته، فإذا كنت على منهج الله عزّ وجل ومطبقاً لأمره فأنت في رضوانه، وإذا كنت مخالفاً لأمره، أو في معصيته فأنت في سَخَطِه، أما أن تكون غنياً أو فقيراً فهذا لا يُقَدِّم ولا يؤَخِّر، لأن الله سبحانه وتعالى أعطى المال لمن يحب، أعطاه لسيدنا ابن عوف، ولمن لا يحب مثل قارون، وأعطى القوة لمن يحب، مثل سيدنا سليمان، ولمن لا يحب مثل فرعون، فمادام الشيء يعطى لمن يحب ولمن لا يحب فهو إذاً ليس مؤشراً صحيحاً على حبِّ الله عزّ وجل، أما ما يدّعيه بعض الأغنياء من أن الله يحبهم، والدليل أنه أعطاهم المال، هذا كلامٌ لا يقوم على أساس.

3 – فبغى عليهم بماله:

إذاً بينت لكم في الدرس الماضي أن هذا الإنسان قارون كان من قوم موسى

(فَبَغَى عَلَيْهِمْ)

والبغي هو الخروج عن المنهج، والخروج عن الصراط المستقيم.

(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)

(سورة القصص: الآية 76)

وإن كانت هذه الواو عاطفة إلا أن بعض العلماء يقول: إن سبب بغيه وانحرافه وطغيانه هو هذا المال الذي جعله الله بين يديه، إذاً: إذا نما المال بأسرع مما ينمو الإيمان فهناك خطرٌ كبير، وهو أن يختلّ التوازن، ويصبح هذا المال سبباً ليحمل صاحبه على المعصية، هذا سمّاه النبي عليه الصلاة والسلام الغِنى المُطْغِي، الغنى المُطْغِي أن يَدْفَعُكَ المال إلى معصية الله..

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)

(سورة القصص: الآية 76)

أيضاً المال إذا دُفِعَتْ زكاته فليس بكنز، أما إذا لم تدفع زكاته فهو كنزٌ، وأصحاب الكنوز لهم حسابٌ خاص عند الله عزّ وجل.

(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

(سورة القصص)

4 – لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ

هذا مقياس دقيق، قال له قومه العلماء العقلاء:

(لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ)

أي بالدنيا.

المؤمن يفرح بطاعة الله:

لذلك قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، المؤمن يفرح بطاعته لله، يفرح بفهمه لكتاب الله، يفرح بفهمه لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، يفرح إذا أمر بالمعروف إذا نهى عن المنكر، إذا وفّق بين اثنين، إذا كان شفيعاً في نِكاح، إذا دعا إلى الله، يفرح إذا قدّر الله على يديه عملاً يُسْعِده في الآخرة، هنا يفرح فرحاً عظيماً، لذلك إذا فرحت بالدنيا فهذه علامة، وإذا فرحت بالعمل الصالح فهذه علامة، لذلك قال بعض العلماء: **" إذا فرحت بالعطاء فأنت من أهل الآخرة، أما إذا فرحت بالأخذ فأنت من أهل الدنيا "**، هذه قاعدة..

(لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

هناك آيات أخرى يصف الله سبحانه وتعالى فيها أهل الجنة، ويصف أحوال المتّقين ويقول:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من الآية 58)

فكلمة هنيئاً، تهانينا، مُبارَك، هذه الكلمات نقولها اليوم لمن يحوز بيتاً أو مركبةً، أو متجراً، أو بستاناً، أو حديقةً، أو منصباً رفيعاً، ولكنّك إذا أردت أن تكون صادقاً مع أخيك، كلمة هنيئاً ومباركاً، وأرجو لك التوفيق، هذه الكلمات يجب أن تقال لمن اصطلح مع الله عزّ وجل، ولمن قدّر الله على يديه الأعمال الصالحة، لمن سمح الله له أن يعرفه، لمن سخره الله في خدمة العباد، لمن اصطنعه الله لنفسه، لمن جعله الله داعيةً للحق، إذا كنت في عملٍ طيّب تسعد به في الآخرة حقاً فهنيئاً لك ومبارك، أما البيت الفخم فلا بدّ من أن تتركه، والزوجة الجيدة لا بدّ من أن تتركها، أو من أن تتركك، والمال الوفير لا بدّ من أن تتركه، إذاً: هذا الكلام لا معنى له.

5 – وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ

وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: من الآية 77)

أي أن الله عزّ وجل آتاك هذا المال، وكلمة مال في الفقه لا تعني المال فقط، تعني كل شيء، البيت مال، مال غير منقول، هكذا يعبّرون في بعض البلاغات، أموالهم المنقولة وغير المنقولة، أمواله غير المنقولة ؛ البستان، البيت، المنقولة ؛ هذا النقد الذي بين أيدي الناس، إذاً: كُلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ به فهو مال، المركبة مال، البيت مال، الثياب مال، فربنا عزّ وجل قال:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

ماذا فعلتَ فيما آتاك الله ؟

والله هذه الآية يجب أن تكون شعار كلّ مسلم، آتاك الله بيتاً هذا البيت كيف تستخدمه ؟ في سهراتٍ حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل ؟ في القيل والقال ؟ في الغيبة والنميمة ؟ في لعب النرد ؟ في سهرةٍ مختلطة لا ترضي الله عزّ وجل ؟ أم أن هذا البيت الذي اشتريته تستخدمه في تعريف الناس بالله عزّ وجل.

هذه الغرفة كم شهدت من لقاءاتٍ أثمرت توبةً نصوحاً، غرفة الجلوس جلست فيها أنت وأهلك وأولادك كيف كان الحديث ؟ هل ابتغيت بها وجه الله ؟ غرفة الطعام كما قُلت، هذه المركبة، هذه الشهادة العالية التي نِلتها استخدمتها في العلو، أم في إقناع الناس بالحق ؟ إذا عرف الناس أنك تحمل شهادة عُليا، يظنون بك أنّك عالم، فإذا وظّفت هذه الشهادة في تعريف الناس بالله فقد ابتغيت بها الدار الآخرة.

أنجبت أولاداً لماذا أنجبتهم ؟ هل ليكونوا أولاداً صالحين يعبدون الله من بعدك ؟ أم كي تعتز بهم ؟ فلان طبيب، فلان يحمل شهادة كذا، بعثته إلى لندن ليتعلم لغة إنكليزية ليكون له لغة جيدة، ولم تنتبه ماذا فعل في هذه البلدة، وقع في الزنا، أو وقع في الحرام، المهم أن يعود من هذه البلاد الكافرة يحمل شهادة عُليا كي تزهو به أمام الناس هكذا ؟ أأنجبت هذا الولد كي تفتخر به أم من أجل أن يكون ولداً صالحاً يعبد الله من بعدك ؟..

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

حتى صِحَّتُكَ، فهذه الصحة إذا نعمت بها بماذا تستخدمها في الاسترخاء وفي الاستمتاع ؟ أم تستخدم هذه الصحة في طاعة الله، وفي خدمة الخلق ؟

هذا الذكاء الذي أعطاك الله إياه أتستخدمه في جمع المال أم في التفكّر في الواحد الدَيّان ؟ كيف تهدي الناس ؟ كيف تُعين الناس ؟ كيف توفِّق بين الناس ؟ هذا الذكاء.

هذه العضلات، هذه العين ترى بها مباهج الدنيا أم ترى بها آيات الله عزّ وجل ؟

هذه الأذن تستمع بها إلى الغناء أو إلى الكلام الساقط، أم تستمع بها إلى الحق وإلى القرآن الكريم ؟

هذا اللسان تستخدمه في الإيقاع بين الناس أم في الفُحش والبذاءة، أم تستخدمه في نقل الحق للناس، في الأمر بالمعروف ؟

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ)

آتَاكَ اللهُ فكراً، آتاك الله عينين، أذنين، لساناً، يدين، رجلين، صحة، فراغاً، أمناً.

الأمن من نعم الله عزّ وجل، أنت مطمئِنٌ هادئ البال، هذا الأمن استخدمته في النزهات، أم في عبادة الله عزّ وجل ؟ هذه آية سبحان الله ! تَسَعُ الناس جميعاً، كنت أقول هذه العبارة دائماً: لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفتنا:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

أنت نجّار أعطاك الله عزّ وجل هذه الصنعة أتستخدمها في تقديم صنعةٍ متقنةٍ فيها نصيحةٌ، وفيها اعتدال في السعر لمسلمٍ حتى يدعو لك طوال حياته ؟ جزى الله عني فلانا صنع لي هذه الغرفة، والله جيدة ممتازة سعرها معتدل، أنت حدّاد، أنت بائع، هل أطعمت الناس طعاماً صيحاً طيباً نظيفاً بسعرٍ معتدل أم غششتهم ؟ أنت بائع أقمشة أي شيءٍ آتاك الله عزّ وجل:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

أن تبتغي بما آتاك الله الدار الآخرة، هذا هو نصيبك من الدنيا، أي جئت إلى الدنيا، وخرجت منها من أجل أن يكون لك عملٌ صالحٌ تسعد به إلى الأبد، نصيبك من الدنيا العمل الصالح فأن تبتغي..

(فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

هو نصيبك من الدنيا، وقد ضربت لكم مثلاً في الدرس الماضي: أن إنسانا أرسلته حكومته إلى بلد أجنبي كي يحصِّل شهادة عُليا، مرة إمبراطور اليابان أرسل سبعة طلاب يابانيين في مطلع عصر النهضة ليتعلموا العلوم العصرية في فرنسا، هؤلاء الطلاب اليابانيون يبدو أن بريق الحضارة، ومباهج الحياة في فرنسا سَلَبَ لُبَّهُم، فسقطوا وأمضوا أوقاتهم فيما لا علاقة له بالدراسة، وبعد سنواتٍ أربع عادوا مخفقين فأعدمهم الإمبراطور، وأرسل سبعةً آخرين، السبعة الآخرين كُلّما حَدّثتهم نفوسهم أن ينزلقوا، أو أن يستمتعوا تذكّروا هؤلاء الذين دفعوا الثمن باهظاً، فمن أجل ماذا أنّك جئت إلى الدنيا؟ النبي عليه الصلاة والسلام حينما دُعِيَ إلى اللهو قال كلمةً لا تُنسى، تكتب بماء الذهب قال:

((أنا لم أخلق لهذا))

[ورد في الأثر]

خُلِقَ النبي عليه الصلاة والسلام، وخلقت أُمّتُه وجميع الناس لهدفٍ نبيل، هذا هو النصيب من الدنيا:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

6 – وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

مدرّس، طبيب، مهندس، بائع، صانع، نجّار، من أصحاب المهن الرفيعة أو غير الرفيعة، ماذا فعلت كي تلقى الله عزّ وجل ؟ ما الشيء الذي قدّمته ؟ ما الشيء الذي أعددته لساعة اللقاء مع الله عزّ وجل ؟ هذا:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

وكيف أن معظم الناس يفهمون هذه الآية على نحوٍ آخر، أي إذا ذهب إلى نزهةٍ، وأكل، وشرب، واستمتع، وكذا يقول لك: الله عزّ وجل قال:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَ)

وإذا جلس مع أهله، وأمضى سهرةً في كلام فارغ يقول لك: **" ساعة لك وساعة لربك ".**

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

لا.. هذه الآية ما أراد الله بها إلا المعنى الذي يفرضه السياق، سياق الآيات:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

أن تبتغي فيما آتاك الله الدار الآخرة هو نصيبك من الدنيا، إذاً: إذا أرسلنا طالباً إلى بلدٍ أجنبي ليُحَصِّل شهادةً رفيعةً عاليةً قد يبعث له أبوه كل شهرٍ برسالة يقول له: لا تنس الدراسة يا بني، لا تنس أن ينتهي هذا العام، وقد نجحت بتفوّق، لا تنس أنك لم تذهب إلى هذه البلدة إلا كي تدرس، إيّاك أن تحيد يميناً أو

شمالاً، وأنت جئت إلى الدنيا من أجل أن تعرف الله، وأن تستقيم على أمره، وأن تعمل الصّالحات تقرُّباً إليه كي تسعد في الدنيا والآخرة:

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ)

(سورة القصص: من الآية 77)

منحك الله نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، أنت حسنة من صنع الله عزّ وجل، وجودك حسنة، إمدادك حسنة، هدايتك حسنة، بماذا تقابل هذا العطاء ؟

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

7 – وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ

فُسِّرت في الدرس الماضي أن الفساد، إذا بالغت في طعامك وشرابك وزينتك، والناس من حولك في حرمان، أوقعت فيهم مشاعر عدة، عند المؤمنين يشعرون بالحرمان، وعند غير المؤمنين يشعرون بالحِقد والبغض والكراهية، فإذا قصّرت في حَقّهم فقد أفسدتهم، فإذا اغتصبت أموالهم فقد أفسدتهم، إظهار الزينة يضاف إليها التقصير في أداء الحقوق، يضاف إليها العدوان على حقوق الآخرين، هذا كله مما تعنيه كلمة:

(وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

8 – وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ

وكم أتمنى عليكم أن تقرؤوا كتاب الله عزّ وجل، وتبحثوا ماذا يحبُّ الله عزّ وجل، وماذا لا يحب ؟ وهذه واحدة منهم:

(لَا يُحِبُّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ (38))

(سورة الحج)

(إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77))

(سورة القصص)

لا يحب الكاذبين، لا يحب الظالمين، لا يحب الفاسقين، بل يحب المؤمنين، يحب الصادقين، يحب التائبين، يحب التوابين، يحب الصابرين، هكذا..

إلى هنا وصلنا في الدرس الماضي، أردت أن ألخِّص ما قيل في الدرس الماضي حتى تأتي القصة منسجمة. يبدو أن من حول قارون قالوا له هذا الكلام: يا قارون:

(وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ)

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي

أنفق هذا المال في طاعة الله، ابحث عن الحقيقة، هكذا.. فكان جوابه:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

دققوا في الصياغة:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ)

(سورة القصص: من الآية 77)

هذا المال الوفير، هذه الكنوز التي ينوء بحمل مفاتيحها أولو العصبة من أقوياء الرجال، هذا المال آتاك الله إيَّاه، هو من فضل الله، هو محض فضلٍ، ماذا قال قارون ؟ قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ)

أغفل الله عزّ وجل، لم يقل: إنما آتانيه الله، بل قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ)

فعل أوتي مبني للمجهول، أي أغفل الفاعل، ما أراد أن يعترف أن الله أعطاه هذا المال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ)

أنا عليم بطرق كسب المال، بأسرار التجارة، بأصول الصناعة، بفنّ التسويق، بفن البيع، بالأساليب الذكية في تحصيل المال وفي استثماره، فهؤلاء الذين يستثمرون أموالهم في بلاد أجنبية وبنسب عالية جداً، وينقلون هذا المال من عملةٍ إلى عملةٍ على حسب الأسعار، هم في أعلى درجة من الذكاء، ويوزّعون أموالهم مع شركات متعددة ومع دول متعددة، فهؤلاء كما يدّعي قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أي أنا متمَرّس، أعرف كيف أكسب المال، وكيف أستثمره، وكيف أُنَمِّيه بوتيرة عالية، وكيف أوزّعه في مشاريع متعددة، وفي بلاد متعددة ضماناً للأخطار، وكيف أجمع الفائدة المركبة، وكيف أُحَصِّل هذا المال، هذا علم:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أربع كلمات محظورة على المؤمن: أنا، ونحن، ولي، وعندي:

حينما تقول: عندي، فأنت كقارون، حينما تقول: لي فأنت كفرعون، حينما تقول: أنا، فأنت كإبليس، حينما تقول: نحن، فأنت كجماعة بلقيس، أربع كلمات محظورٌ على المؤمن أن يذكرها هي: أنا، ونحن،

ولي، وعندي، قال إبليس:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف: من الآية 12)

فأهلكه الله.

وقال أصحاب بلقيس:

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)

(سورة النمل)

وقالها فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي)

(سورة الزخرف: من الآية 51)

فأغرقه الله.

وقال قارون:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

القضية أعمق من كلمات تقولها، القضية مشاعر، أي إذا شعرت أن هذا البيت من تَعبك وعرق جبينك، أنت عصاميّ، صاحب إرادة حديدية، تملك وسائل ناجحة في كسب المال حتّى حصّلت هذا البيت، هذه مشاعر قارون:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

انظرْ وتأمّل أين أنت مما تقول:

ليست القضية قضية أدب مع الله فحسب، قضية الحقيقة، إنسان بأوج نشاطه التجاري، لو أن نقطة دمٍ لا يزيد حجمها على حجم رأس دَبّوس تجمدت في بعض شرايين الدماغ لاختل عقل الإنسان، ولساقه أهله المحبّون إلى مستشفى الأمراض العقلية، فأين:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أحيناً وهو يسير على يمين الطريق تأتي سيارة طائشة تصطدم به، ينقطع عموده الفقري، أين:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة آل عمران: من الآية 26)

مالك قوّتك، وعضلاتك، وعظامك، وشرايينك، وأوردتك، وأعصابك، وقلبك، ورئتاك، والكبد، والمعدة، والأمعاء، والدماغ، والجمجمة، والكليتان، والكَظر، والدرقية، والثُخامية، والطحال،

والبنكرياس، إذا تعطل أصبح معه مرض السكر، وإذا الطحال تعطّل أصبح معه فقر دم، إذا تعطلت الكليتان يجب غسيلهما أسبوعياً، أين أنت:

(عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أيُّ علمٍ عندي ؟

(قُلِ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: من الآية 26)

(قَالَ إِنّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

لستَ حرًّا في إنفاقك للمال ولو كان ملكًا لك:

الحقيقة كلامه أعمق من ذلك، أراد قارون أن يقول: أنا هذا المال حصّلته بجهدي وبعلمٍ أمتلكه، إذاً: أنا حرٌ في إنفاق المال، والمؤمنون كانوا يدعونه إلى أن ينفق من ماله في الخير، قال: لا هذا المال حصّلته بجهدي، وبتعبي، وبعرق جبيني، وأنا أملك خبرات، ومعلومات، وعلوم شتّى في كسب المال وتثميره وجمعه، إلخ.. إذاً: هو ملكي، وأنا حرٌ في إنفاقه، ودعوتكم للإحسان مرفوضة، هذا كلام قارون:

(قَالَ إِنّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

الحقيقة الكلام يسوقنا إلى موقف الإسلام من هذه الموضوعات، الإسلام يُقِرُّ التَمَلُّك لأن حب التملك شيء فطري بالإنسان، ويبدو أن هذا التملك له وظائف مهمة جداً، وحينما تلغى الملكية ربما هناك مضاعفات خطيرة جداً، لذلك الذين نادوا بإلغائها عادوا إليها الآن، إذاً: الإسلام يُقِرُّ التملك، ولكن الإسلام يضع حدوداً صارمةً لكسب المال، الإسلام يُحَرّم أن يلد المالُ المالَ، عن طريق الربا يلد المالُ المال، الإسلام يضبط كسب المال، ويضبط إنفاق المال، ولا يَحْرِم المسلم من ثمرة جهوده، لكنّه يحول بينه وبين أن يسرف حتى يصبح مفسداً، ويحول بينه وبين أن يقبض حتى يصبح مُقَتِّراً، لا يسمح الإسلام لأتباعه أن يكونوا مسرفين، ولا أن يكونوا مقترين، ولا أن يكسبوا المال كيفما يشاءون، ولا أن ينفقونه كيفما يشاءون، الإسلام وسطي، والحقُّ وسطٌ بين طرفين، والفضيلة مَكْرُمَةٌ بين رذيلتين، والتطرف فيه خطأ كبير، لذلك العالَم يشهد الآن أن المتطرفين يتجهون إلى الوسط، أي إلى الإسلام، لا عن قناعةٍ بالإسلام، ولكنهم مُرْغَمون من أجل أن يعيشوا، من أجل أن يستمروا، إذاً:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمّةً وَسَطاً)

(سورة البقرة: من الآية 143)

فأن تلغي حق الإنسان في التمَلُّك مشكلة، وأن تطلق يده مشكلة، لابدّ من قواعد لابد من حدود، الإسلام أقَرّ شيئاً ومنع شيئاً، أقرّ شيئاً وقنن شيئاً، لذلك حينما قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

يقصد من هذا الكلام أن هذا المال بما أنني كسبته بعلمي وبجهدي، وبتعبي وعرق جبيني، أنا حرٌ في إنفاقه، الجواب: لا إن هذا المال من اسمه: ما.. لك.. أي ليس لك، ماله، أي ليس له:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ(32))

(سورة الحاقة)

كيف ردّ الله عليه ؟ هو أوتي هذا المال، وأغْفَلَ الله الواحد الديّان لم يقل: إن الله قد آتاني إياه، بل قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً

كيف ردّ الله عليه ؟ هذا الذي كسب المال بقوته وعلمه وذكائه، وعنده خبراتٌ كبيرةٌ في الحفاظ عليه، وفي تنميته واستثماره، كيف يفقد ماله كُلّه، إذاً: هو مُدّعٍ، وليس صادقاً:

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً)

(سورة القصص: من الآية 78)

إذا كان هذا المال قد جاء بقوّتِك فحافظ عليه، أليس هناك أمثلة كثيرة جداً قديماً وحديثاً عن إنسان يملك ثروات طائلة فَقَدها في ساعاتٍ ثلاث ؟

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً)

أحياناً يقول أحدنا: فلان معه كذا مليون، رقم كبير، يوجد أغنياء في العالم معهم كذا ألف مليون بالعملات الصعبة، ومع ذلك فإن الله عزّ وجل قادر أن يمحق هذا المال، لأن إيتاء المال بأمره، ومحقه بأمره:

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ)

لو أن هؤلاء أصحاب الأموال صادقون فيما يقولون، واقعيّون لمنعوا مالهم أن يُهْلَكَ، ولمنعوا أن يُدَمَّر، لامتنعوا من فقد مالهم، قال:

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ)

لا من مستواه..

(مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً)

قوة المال، وقوة السلطان:

(مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

(سورة القصص)

معنى: وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ

هذه الآية دقيقة جداً ولها معاني كثيرة.

المعنى الأول:

أنه عندما يرتكب الإنسان خطأ، أو ذنباً، أو جريمة، الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه إلا بالتحقيق، لعلّه مظلوم، لعله لم يفعل هذا هو، ولكن فعله غيره، لعله ما أراد هذا، جُرْم غير مقصود، لا يوجد تصميم، لا يوجد كذا، فكل إنسان يرتكب ذنباً في عالمنا لابدّ من قاضي تحقيق يسأله، ويستجوبه، ويأخذ إقراره، ويعرض عليه، ويُحْرِجُه أحياناً، من أجل ماذا ؟ من أجل أن يظهر الحق، وأن يأتي الحكم عادلاً وصحيحاً.

فالله سبحانه وتعالى إذا ارتكب العبد ذنباً أو جريمةً هل الله بحاجةٍ أن يسأله ؟ هو العليم، عليم بمكنونات نفسه، بما تنطوي عليه نفسه، بنواياه الحقيقية، بحجم عمله، بحجم مخالفته، فربنا عزّ وجل ليس كمثله شيء، الإنسان يَسْأل ليعلم لأنه لا يعلم، يُحَقِق، يحب أن يتأكّد، يحب أن يكون معه الدليل على جُرْمِيَّة هذا المجرم، يحب الاعتراف.

أما إذا وقع الإنسان في معصيةٍ، هذه المعصية بنواياها، بمطامحها، بحجمها الحقيقي، بآثارها كله في علم الله عزّ وجل، فلذلك ليس من شأن الله عزّ وجل إذا أراد إيقاع العقاب بعبدٍ مجرمٍ أن يسأله، لماذا السؤال ؟ فالسؤال ليس له معنى، أما حينما قال الله عزّ وجل في آيةٍ أخرى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

قالوا: هذا سؤال التقريع والتوبيخ لا سؤال العلم، سؤال التقريع والتوبيخ، أما سؤال العلمِ فالله عزّ وجل مُنَزَّهٌ عنه، لذلك هؤلاء المجرمون يوم القيامة يُقْذفون إلى النار مباشرةً من دون سؤال، لأن الله يعلم أعمالهم، نواياهم، خبث نفوسهم، دناءتهم، حجم أعمالهم، حجم معاصيهم، فليس هناك حاجة أن يُسألوا، هذا المعنى الأول:

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

لأن هذه الذنوب في علم الله عزّ وجل، والله عزّ وجل ليس بحاجةٍ أن يَسْأل.

المعنى الثاني:

قد يبدو هذا المعنى أيضاً من خلال هذه الآية، فإذا ارتكب الإنسان جريمة، وحُكِمَ عليه بالإعدام، وهو في طريقه إلى المشنقة تَذَكَّر القُضاة أن عليه مخالفة سير، فهل يحاسَبُ عليها ؟ لا.. لا يحاسبونه، لأنه فقد حياته كلها، أي أن الجريمة أن تكْفُر بالله عزّ وجل، فليس بعد الكفر ذنب، الجريمة الكبرى أن تكفر بالله، أن تأتي إلى الدنيا، وأن تذهب منها وأنت في غفلةٍ عن الله عزّ وجل، لذلك هذه الذنوب التي تقترفُها هي تحصيل حاصل، هي نتائج طبيعية، أعراض طبيعية لانحراف الإنسان:

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

هذا المعنى الثاني.

المعنى الثالث:

أن ربنا عزّ وجل إذا أَخَذَ

(أَخَذَ أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِر)

أي حينما يقع الذنب يأتي العقاب، لأن الإنسان إذا سُئِل: لماذا فعلت كذا ؟ يحتال، ويفكر بالدفاع عن نفسه دفاعاً غير صحيح، هذا ما يقع عند الناس، الإنسان يرتكب ذنباً كبيراً جداً، فإذا استدعي للتحقيق يقول: أنا ما قصدت هذا، قطعاً يبادر الكذب والاحتيال، والمراوغة، يعاقب فوراً، أما حينما يُسأل سوف يزوّر الحقائق، سوف يَدَّعي، سوف يتَنَصّل، سوف يكذب:

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

لذلك ورد في بعض الأحاديث الصحيحة حديث يحتاج إلى تأويل، وهو عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

[صحيح مسلم]

هذا الحديث لا يمكن أن نأْخُذَهُ على ظاهره، هذا الحديث يحتاج إلى تأويل، أي أن الإنسان علامة حياته أنّه يحسُّ بذنبه، وعلامة موته أنه لا يحسُّ بذنبه، فمثلاً إنسان في سهرة، والسهرة فيها غيبة، واحد اغتاب كثيراً، وذهب فصلى العشاء ونام، هذا ميت القلب، هذا ما حسَّ بذنبه، لا يوجد عنده نبض إطلاقاً، ملكاته كلّها معطلة، لكن المؤمن الصادق إذا نطق لسانه بكلمة غيبة واحدة يَخْتَلُّ توازنه، ولا

ينام الليل ويدفع الصدقة مباشرةً، علامة صحة إيمانك إحساسك بذنبك، وكلما ارتقى الإيمان ازدادت حساسية المؤمن بذنبه، هناك ذنوب خواطر أحياناً، هناك كلمة، هناك حركة حاجب، هناك ابتسامة في غير موضعها، هناك نظرةٌ قاسية، هناك دفعٌ للباب بقوة، هذا ذنب كبير في حضرة الأم أو الأب، كلما ارتقى مستوى الإنسان امتلك شعوراً حسّاساً بالذنب في إدراك ذنبه، وكلّما هبط مستواه تَبَلّد حسّه، وصار يقول: ماذا أفعل أنا، أنا جيد، إذاً كلما ارتقيت في سُلّم الإيمان ارتقى معك شعورك بالذنب، لو لم تذنبوا أي لو لم تشعروا بذنوبكم لذهب الله بكم، أنتم موتى، هكذا يقصد الحديث، وأتى بقومٍ يذنبون يعني إذا أذنبوا شعروا بذنوبهم فاستغفروا، فيستغفرون فيغفر الله لهم:

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

الملاحظ أن إخواننا الكرام الذين لهم صلة بالله عزّ وجل، وقناعات صحيحة، وإدراك لأوامر الله عزّ وجل، لو أن شخصاً أخطأ أو اغتاب، أو نظر نظرة في غير موضعها، أو أشار بشيء فيه مخالفة، أو كان سبباً في أذى، يأتي، ويسأل في لهفة كبيرة، ما هذه اللهفة ؟ هي لهفة إحساسه بذنبه، وهناك من يفعل الموبقات كلها، ويرتكب كل الحماقات، ويخرج عن الشرع كله ومع ذلك يقول لك: أنا جيد، أنا ممتاز، هكذا يقولون، إذاً اعرف أنه كلما ارتقيت عند الله عزّ وجل ازدادت مشاعرك المُرْهَفة في إحساسك بالذنب، وكلّما هبط المستوى تلبّد الحس.

هذا سيدنا عمر، ومع ذلك...

سيدنا عمر قال: **<< ليت أم عمر لم تلد عمر >>.**

عمر عملاق الإسلام الذي قال عنه النبي الكريم:

((لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

((فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ))

[صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِيهٍ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ))

[البخاري عن سعد بن أبي وقاص]

هذا عمر ماذا يقول ؟ يقول: **<< ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيمة >>.**

عمر عملاق الإسلام يقول: **<< لو أن بغلة في العراق تَعَثَّرت في الطريق لحاسبني الله عنها، لمَ لمْ تُصْلِح لها الطريق يا عمر ؟ >>.**

انتبهوا إلى هذه الفكرة المهمة جداً، كلما ارتقى مستواك في إيمانك ارتقى إحساسك بالذنب..

سيدنا عمر كان مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف في إحدى الليالي، فرأوا قافلةً قد استراحت في مكانٍ ما من طرق المدينة، فقال له: تعال نحرس هذه القافلة لوجه الله، وهما في حراسة هذه القافلة بكى طفلٌ صغير، فتوجَّه عمر إليه، وقال لأمه: أرضعيه، فأرضعته، ثم بكى، فقال: أرضعيه، ثم بكى، فغضب، وكان عصبي المزاج رضي الله عنه، فذهب إلى أمه وقال: **يا أمَة السوء أرضعيه**، فقالت: أيها الرجل، ما شأنك بنا، إنني أفطِمه ؟ قال: **ولمَ تفطمينه** ؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، أي التعويض العائلي لا يصرف إلا بعد الفطام.. تَروي كتب السيرة أنَّه صُعِقْ، وقال مخاطباً نفسه: **ويحك يا ابن الخطاب، كم قتلت من أطفال المسلمين** ؟ هكذا تروي السيرة، وذهب إلى المسجد، وصلّى بأصحابه صلاة الفجر، ويقول أصحابه: إنهم ما سمعوا صوت قراءته من شدة بكائه، وأصدر للتَوّ قراراً بمنح التعويض العائلي للأطفال من ساعة ولادتهم، إنه إحساس بالذنب.

قال لأحد ولاته: **<< ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً ؛ فإن جاءني من رعيتك من هو سارق لأنه عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنَسُدّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفِر لهم حرفتهم، فإذا وفّينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فأشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية >>.** عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْن جَعْفَرٍ قَالَ:

((أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرّ إِلَيّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ النّاس، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَار، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمّا رَأَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَنّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَار، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللّهِ، فَقَالَ: أَفَلَا تَتّقِي اللّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الّتِي مَلّكَكَ اللّهُ إِيّاهَا، فَإِنّهُ شَكَا إِلَيّ أَنّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[أبو داود]

قد يكون عند الشخص حيوان أحيانا، أو عنده إنسان تحت ولايته، فهل يا ترى أكل، ما أكل، كيف وضعه ؟ كلما ارتقى مستواك يرتقي إحساسك بالذنب، لذلك: **" رأس الحكمة مخافة الله "**، وكلّما هبط المستوى تلبد الإحساس بالذنب، يقول لك: ماذا فعلنا ؟ وقد خرب الدنيا، ويقول لك: لم أفعل شيئًا، هذه علامة تلبُّد الحِس:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

(سورة القصص: من الآية 79)

من مقاييسُ أهل الدنيا:

1 – خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ

كل عصر له زينة، أي في كل عصر ووسائل للظهور أمام الناس في الاحتفالات، يقول لك: عقد القِران تم في الفندق الفلاني، وكلّف ثمانمائة ألف ليرة، قدّموا مع كل كتاب، أو مع كل شيء من الحلوى قطعة بكذا وكذا، فهناك أوصاف لعقود القران لا تصدّق، هذه الزينة، في البيوت أحياناً، أي تزيين البيت إلى درجة متناهية، في الثياب وأنواعها، فيفتخر بنوع ثيابه، ومكان شرائها، وسَنَة صنعها، هذا كله كما قال سيدنا علي قال: **<< يأتي على الناس زمان قيمة المرءُ متاعه>>**، أي قيمة الإنسان فقط تستمَدُّ من متاعه، من مساحة بيته، من موقع بيته، من ثمن بيته، من مركبته، من ثيابه، يا ترى أجنبي أم وطني ؟ تستمد من نوع ثيابه، وهكذا..

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

هذا مقياس.

2 – قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

الحقيقة أن هذه القصة فيها مقاييس كثيرة، هذا مقياس آخر، أي إذا رأيت شيئاً من متاع الدنيا ؛ قصراً منيفاً، سيارةً فارهةً، بستاناً جميلاً، مزرعةً أنيقةً، إذا رأيت شيئاً فخماً من متاع الدنيا، وذابت نفسك حباً له، وتمنيتَ أن تكون مكان صاحبه، فهذه علامةٌ خطيرةٌ جداً:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

أحياناً تسمع من الناس أن فلاناً مبسوط، يكون له خمسين معصية، وهو تارك صلاة، وشارب خمر، ولكن معه أموال طائلة، ويتمتع فيها كما يشاء، فيأتي إنسان ضعيف الإيمان يقول: مبسوط، لا ينقصه شيء، حظه طيب، دَبّر نفسه، رَكّز وضعه، هذا هو كلام الشرك بعينه، هكذا قال:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

3 – يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

أي حينما تُثني على أهل الدنيا، وتمدحهم، وتشرئبُ عنقك تعظيماً لهم، ويسيل لعابك تمنياً أن تكون

مثلهم فهذه علامة أنّك من أهل الدنيا، هكذا:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

فضلُ العلم: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

علامة المؤمن أنه لا يتمنّى إلا رضوان الله عزّ وجل، لا يتمنّى إلا أن يحبه الله، يرضى عنه:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

(سورة القصص: من الآية 80)

أوتوا العلم، فإذا أحب الله عبداً آتاه العلم:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

(سورة القصص: من الآية 14)

انظر إلى نفسك ؟ ماذا نلت من الله ؟ نِلْتَ كما نال قارون ؟ أو كما نال فرعون ؟ أو كما نال بعض الأنبياء ؟ حظك من الله مالٌ، أو قوةٌ، أو علمٌ ؟ إذا كان حظك من الله العلم فأنت من المحبوبين:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

(سورة القصص)

سعةُ أفق العلماء: يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

الكافر أُفُقُهُ ضَيّق، نظرته قاصرة، يعيش لحظته، هذا شيء موقّت سيمضي، هناك حياةٌ أبدية، البطولة هناك.. **" الغنى والفقر بعد العرض على الله ".**

في القبر إن كان لك أعمال صالحة في الدنيا فأنت الغني، وإن لم تكن لك أعمال صالحة فأنت أفقر الفقراء، ولو كنت في الدنيا أغنى الأغنياء.

لماذا نطلب العلم ؟ كي تصحّ رؤيتنا، كي نرى الحق حقاً والباطل باطلاً، كي لا نؤْخَذ بالمظاهر الفارغة والقشور، كي نعرف حقائق الأشياء، هذه الدنيا جوهرها أربعة أشياء: أن تعرف الله، وأن تطيعه، وأن تدعو إليه، وأن تصبر.

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

أربعة أشياء هي لبُّ الدنيا، فهؤلاء الأولون:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)

(سورة القصص: من الآية 79)

أيْ هنيئاً لك على هذا البيت، على هذا المتجر، على هذا الدخل الكبير، على هذا البستان، الله يزيدك من فضله، هو ذابت نفسه معه، أما المؤمن:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

(سورة القصص)

الصابر ما استجاب إلى نزواته الطارئة، استجاب إلى عقله الراجح.

قد كنت قديماً أضرب لطلابي مثلاً: رجل ركب دَرَّاجة، وهو يسير على طريق مستوٍ، وصل إلى طريقين، طريقٍ نازلة محفوفة بالرياحين والبساتين والأزهار، وتنتهي بحفرةٍ سحيقةٍ ما لها من قرار، فيها وحوشٌ مفترسة، وطريقٍ صاعدة مملوءةٍ بالغبار والأكدار والصخور، لكنها تنتهي بقصرٍ منيف، هو مُلكٌ لمن يصل إليه، وضِعَ قبل هذا المفرق إن صح التعبير لوحةٌ تفصيلية تشير إلى أن هذا الطريق ينتهي بحفرة، وهذا الطريق ينتهي بقصر، قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بربْوَةٍ، ثلاثًا، ألا إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بسَهْوَةٍ، وَالسّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ، وَمَا مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَيّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلّهِ إلا مَلأَ اللّهُ جَوْفَهُ إيمَانًا))

[مسند أحمد عَن ابْن عَبّاس]

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بربْوَةٍ، ثلاثًا، ألا إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بسَهْوَةٍ))

طريق النار سهل، مع الشهوات، مع الانحراف الأخلاقي، مع إطلاق البصر، مع كسب المال الحرام، مع إنفاقه، مع السياحات المختلطة، مع الرفاه، مع الطعام والشراب، مع الاستمتاع بالنساء الأجنبيات، هكذا هذا طريق جهنم، سَهْلٌ بسَهْوَةٍ، لا يحتاج إلى جهد، لا يحتاج إلى مجاهدة فالقضية سهلة، لكن طريق الجنة يحتاج إلى كُلْفَة، إلى تفكّر، إلى استقامة، إلى صلاة في أوقاتها، إلى بذل المال..

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بربْوَةٍ، ثلاثًا، ألا إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بسَهْوَةٍ))

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

عاقبةُ قارون: فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ

أربع كلمات، خسفنا به، كلمتان، وبداره الأرض، كلمتان، فانتهى قارون، أربع كلمات، كما ينتهي غيره في ساعات:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

(سورة القصص)

فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ

لم يكن مستقيماً على أمر الله عزّ وجل كي يحميه ربنا عزّ وجل وينقذه، لم تكن له جماعة نصحوه حتى يمنعوه، على كلٍ لقي نتيجة عمله، لذلك المشكلة أن الإنسان يجمع الدنيا ليرة فوق ليرة، وحجراً فوق حجر، والله سبحانه وتعالى يأخذها منه في ثانية واحدة، فالبطولة كما قال النبي الكريم:

((إذا أردت إنفاذ أمرٍ تدبّر عاقبته))

هذا الطريق ما نهايته ؟ طريق جمع المال ما نهايته ؟ كقارون، طريق القوة والظلم ما نهايته ؟ كفرعون، طريق معرفة الله وطاعته وخدمة العباد نهايته سعادة في الدنيا والآخرة:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت: من الآية 30)

(وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ)

(سورة القصص: من الآية 82)

موقف الذين تمنوا مكان فرعون:

هذه من ألفاظ التعجُّب..

(وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا)

إذاً: لم يصح قوله:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

الجواب: أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، الرزق رزق الله عزّ وجل، يبسط ويقدر، يُعْطي ويمنع، يرفع ويخفض، يعزُّ ويذل، هكذا الله عزّ وجل:

(وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة القصص)

هناك آية قرآنية أشعر معها بمشاعر خاصة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

الأمور تدور، وتدور، وتستقر على فلاح المؤمن، وعلى نجاحه، وعلى سعادته، قد يعيش المؤمن في ضيق، وقد يكون مستضعفاً، وقد يكون مريضاً، ولكن العاقبة له، وقد يَقْوى الكافر، ويجولُ ويصول،

ولابدّ من أن يُهْلكه الله عزّ وجل:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

آخر آية:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

تلك الدار الآخرة هذه آية أيضاً من الآيات المحكمة، تلك، هذا الشيء العظيم الممتد إلى الأبد، هذه الدار الآخرة..

(نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

بعيد عن الكبر، والاستكبار، والغطرسة، والعنجهية، والاستعلاء، والفخر، يعيش في وادٍ آخر، عاش في وادي طاعة الله، في وادي العبودية لله عزّ وجل، يعرف حجمه الحقيقي، يعرف مهمته بالحياة، يعرف لماذا خلق ؟ يعرف الوسيلة الفعالة لسعادته، غائب عن الناس في معرفة الله، في خدمة الناس، غائب عن مظاهر الدنيا، عن زخرفها، عن بهرجها، عن مباهجها:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ)

أحياناً ترى طالباً مُهْتَماً بدراسته اهتماماً بالغاً، وطالباً يُمْضي وقته في الطرقات، هذا في وادٍ وهذا في وادٍ، هذا في مستوى وهذا في مستوى، هذا في عالم، وهذا في عالم، المؤمن في عالم آخر، في عالم الرُقِيّ، عالم السمو النفسي، عالم المعرفة، عالم التطبيق، عالم العبودية، عالم العطاء، عالم فعل الخير، عالم فهم الكتاب، فكما قال ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم العطائية: **" لا يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول ".**

إذا أنت كنت في مكان جميل جداً، ودعوت إنساناً لهذا المكان، وذهب، وعاد، وقال: والله معك حق، والله صدقت، شيء جميل، فإذا دعوت الناس إلى الله، والناس ذاقوا طعم القرب، طعم النظافة الروحية، طعم الطُهْر، طعم اللقاء مع الله عزّ وجل، طعم العمل الصالح، طعم خدمة الخلق، طعم فهم كتاب الله، فأنت في وادٍ آخر، في عالم آخر، لك اهتمامات نبيلة جداً ؛ أما الإنسان الغارق في شهواته في وحول المال، في كَسْبه للمال، في جمعه للمال، في صراعاته مع الناس، في خصوماته، في أحقاده، في متاهاته، هذا مسكين وهالك، أمواتٌ غير أحياء، هكذا قال الله عنهم:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من الآية 21)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

فلذلك:

(تِلْكَ الدّارُ الْآخِرَةُ)

تلك، هذه الدار العظيمة، الأبدية، السرمدية، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّه عَنْهم قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ اللّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:

(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرّةِ أَعْيُنٍ)))

[صحيح البخاري]

(تِلْكَ الدّارُ الْآخِرَةُ)

إن المؤمن إذا توفاه الله عزّ وجل يرى مقامه في الجنة فيقول: لم أر شراً قط، في كل حياته، ينسى كل متاعب الدنيا، والكافر يرى مكانه في النار فيقول: لم أر خيراً قط، فكل الولائم، وكل السهرات الرائعة، وكل النُزَهات الجميلة، وكل المباهج التي عاشها، وعاش ثمانين سنة، لا يفوّت سفر، ولا سياحة، ولا سهرات، كلُها يقول: لم أر خيراً قط، إذا نظر إلى مكانه في النار:

(تِلْكَ الدّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ)

(سورة القصص)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (17-18): تفسير الآيات 79 - 83
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-09-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة القصص، وصلنا في الدرس الماضي إلى أواخر قصّة قارون، وكيف أن الذين يُريدون الحياة الدنيا حينما نظروا إليه وهْوَ في زينته، قال بعض العلماء: **" كان في أبهى زينة، وفي أكمل زينة، وكان قصده أن يعلوَ في الأرض على بقية خلق الله عزّ وجل ".**

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)

(سورة القصص: من الآية 79)

موازين النظر عند أهل الدنيا:

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى حينما يَقُصُّ علينا بعض القصص، من خلال القصة يضع الله سبحانه وتعالى الموازين، ومن خلال القصة يُقَرِّر بعض القواعد، فهذا ميزانٌ لكل إنسان، أي إذا نظر الإنسان إلى أهل الدنيا، إلى قصورهم، إلى بيوتهم، إلى طعامهم، إلى شرابهم، إلى مَرْكَبَاتِهم، إلى لباسهم، إلى زينتهم، إلى نُزُهاتهم، إلى رحلاتهم، إلى أعراسهم، إلى أفراحهم، إلى أتراحهم، إذا نظر الإنسان إلى أهل الدنيا، وذابت نفسه شوقاً ليكون مثلهم فهذه علامةٌ خطيرة إنّه من أهل الدنيا.

قال لي بعضهم، وقد قفل من الحج، قال لي كلمةً منذ خمس سنوات تقريباً، ولا أنسى هذه الكلمة قال: **" ليس في الناس من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ".**

أي أن من علامة المؤمن الصادق أنه يقول لك بكل حرفٍ من حروف هذه الكلمة: ليس في الأرض من هو أسعد مني، وقد يكون ذا دخلٍ متوسط، أو أقلّ مما يحتاج:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

موازين النظر عند أهل العلم:

هناك رؤيةٌ أُخرى، الرؤية اختلفت:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

(سورة القصص)

قبل أن أنتقل إلى هذه الآية الثانية، هناك معنى في الآية الأولى لم أذكره في الدرس الماضي:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

كيف جمعتم المال، وكيف استمتعتم به ؟!

هؤلاء الذين قالوا هذا القول هل سألوا أنفسهم كيف جُمِعَ هذا المال ؟ وكيف استطاع صاحبه أن يستمتع به ؟

يبدو أن الإنسان لو عُرِضَ عليه طريقة جمع المال، وكيف أنه جُمِعَ على حساب الآخرين، اقْتُطِعَ من لقمة عيشهم، أُخذ من تعبهم وعرقهم، فإنّ صاحب الضمير الحر لا يقبل أن يكون ذا مالٍ وفير إذا جمع هذا المال بطريقةٍ غير مشروعة، والإنسان لا يرضى أن يعيش على أنقاض الناس، ولا أن يغنى على فقرهم، ولا أن يعيش على موتهم، ولا أن يبني مجده على أنقاضهم.

إنّ الإنسان إذا رأى غنياً يَرْفُلُ في أثواب الغنى، ورأى بحبوحته وإنفاقه للمال العجيب فيجب أن يسأل سؤالاً آخر: كيف جُمع هذا المال ؟ قد يجمع بالغصب والاحتيال والقهر، قد يجمع بطريقةٍ لا ترضي الشرع، ولا ترضي الضمير الحر.

هذا ما ينجرُ عن كسب المال الحرام:

1 – المتشبّع بالمال الحرام مآله الشحُ والبخلُ:

الشيء الآخر، أن كل من يجمع المال بطريقةٍ غير مشروعة يكسب بعده الشُحُّ، وهناك علاقةٌ وطيدةٌ بين الإثراء وبين الشح، قد يبدو لك هذا غريباً، كلما رفع الإنسان مستوى إنفاقه كلما أصبح شحيحاً، لأنه في سبيل الحفاظ على هذا المستوى المرتفع لابدّ من أن يمنع الحقوق، لابدّ من أن يَغْصِب الأموال، لابدّ من أن يحتال، لابد من أن يُنافق، إذاً الإنفاق الكبير له مضاعفاتٌ كبيرة، أولى هذه المضاعفات: أنه يُكْسِبُ صاحبه الشُح.

2 – المتشبّع بالمال الحرام كثير المعاصي:

شيءٌ آخر، الإنفاق الكبير يحتاج إلى مالٍ وفير، وهذا المال الوفير في سبيل الحفاظ على مستواه ربما حَمَلَ الإنسان نفسه على معصية الله عزّ وجل، إذاً:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

رؤية المؤمن لكاسب المال الحرام:

أنت أيها الأخُ الكريم، ألك رؤيةٌ تخالف بها رؤية عامّة الناس ؟ قد يرى الإنسان هذا العمل صواباً، وهذا الكسب ذكياً، وهذا الإنفاق رفعةً، وهذا الحِرْصَ ذكاءً، هل لك رؤيةٌ أخرى تخالف بها رؤية عامة الناس ؟ وفي الحديث عَن عَبْد اللّهِ بْن عَمْرو بْن العَاصِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَنَحْنُ عِنْدَهُ:

((طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، فَقِيلَ: مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ قَالَ: أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمّنْ يُطِيعُهُمْ))

[أحمد]

ينبغي أن تكون للمؤمن رؤيةٌ خاصة به نابعةٌ من كتاب الله، نابعةٌ من سنة رسول الله، يجب أن تكون له رؤية وله قِيَم، من رؤيته الخاصة، ومن قيمه الإيمانية يأخذ مواقف أخرى، غير المواقف التي يألفها الناس جميعاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

(سورة القصص: من الآية 80)

وقفات تأملية مع قوله: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ

1 – العلم قوةٌ:

أوتوا العلم.. وهذا أكبر عطاء، في أول السورة مرّ بكم كيف أن رمز القوة، وهو فرعون دَمَّرَهُ الله عزّ وجل، وهذا الثاني قارون هو رمز المال أيضاً دَمَّرَهُ الله عزّ وجل، بقي العلم، الذي يبقى هو العلم، لأن العلم كما قال الإمام عليٌ كرم الله وجهه: << العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة >>.

2 – فكِّرْ قبل أن تقول: يا ليتني مثل فلان !!!:

إذاً: قبل أن تقول: يا ليت لي مثل فُلان، يا ليت لي مثل عِلاّن، يا ليتني أملك هذا الرقم، يا ليت لي هذا الرَصيد، يا ليتني أملك هذا البيت الفخم، وهذه الحديقة الغَنّاء، وتلك المزرعة الرائعة، وهذه المركبة الفاخرة، قبل أن تقول هذا الكلام أيرضيك أن تكسب المال مثلما يكسب هؤلاء ؟ أيرضيك أن تُحاسب على كل درهمٍ كسبته يوم القيامة ؟ أم تحب أن تكون ناجياً يوم القيامة ؟ لذلك القضية أخطر من أن يتمنى الإنسان أن يكون ذا مالٍ عريض:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

3 – السعادة بالفوز يوم القيامة:

أقول لكم مرةً ثانية، والمعنى ذكرته كثيراً هو: أنك إذا قرأت كتاب الله عزّ وجل، وتلوت قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

إذا شعرت أن زيداً أو عبيداً، وقد آتاه الله المال الوفير، إذا شعرت أن هذا الإنسان قد أعطاه الله، وحرمك فأنت لم تقرأ قوله تعالى، أنت لست في مستوى الآية، طفلٌ صغير يقرؤها، البطولة أن تكون في مستواها، أي إذا قال الله عزّ وجل يصف المؤمنين:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

يجب أن يكون هذا شُعُورُك، هذا إحساسك، هذا ارتباطك:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

يجب أن تقول: ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني.. لأن المال عرضٌ حاضر يأكل منه البَرُّ والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه مَلِكٌ عادل.

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

4 – رؤية العالِم رؤيةٌ خاصة:

أي إذا كنت من طلبة العلم، إذا آتاك الله العلم يجب أن تملك رؤيةً تختلف عن رؤيةِ الآخرين، كيف ؟ أحياناً يكسب الإنسان مالاً حرام فيُثْنِي عليه كل هؤلاء الضّالون، المُكَذِّبون، الشاردون، التائهون، يرونه ذكياً بهذا القِسم، يرونه حكيماً، يرونه بالعبارة الدارجة: (شاطراً، فهي شطارة)، ولكن أهل

الإيمان يَرَوْنَهُ غبياً، يرونه أحمق، يرونه بعيداً، يرونه مطروداً، يرونه ملعوناً، فالبطولة لا أن يكون المال بين يديك، البطولة أن تكون في رضوان الله عزّ وجل، وهؤلاء الذين كان المال بين أيديهم بالألوف المُؤلّفة فقدوه في ساعات، والله سبحانه وتعالى إذا أعطى أدهش، وإذا حاسب فَتّش..

كما يقولون، كما أن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يعطيك المال الوفير بجهدٍ يسير قادرٌ أيضاً على أن يَسْلُبَكَ هذا المال كله في ثوانٍ معدودات:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

فهذا الذي استوقفني هذه المرة أن الذين أوتوا العلم لهم رؤية خاصة، لهم قيمٌ خاصة، لهم أحكامٌ خاصة، لهم تقييمٌ خاص، لهم وصفٌ خاص، إن لم تكن صارخاً في إيمانك فلست بمؤمنٍ، كلمة صارخ، الألوان لها موجات، أشد موجات الألوان طولاً اللّون الأصفر، لذلك في المطارات يَصْبغون كلّ المركبات بهذا اللون لتكون هذه المركبة ذات لونٍ صارخ كي تتقيها الطائرة في أثناء الهبوط والإقلاع.

5 – المؤمن متميّز في كل جوانب الحياة:

أضرب على ذلك مثلاً: المؤمن يجب أن يكون صارخاً في أخلاقه، في رؤيته، في عِفّتِهِ عن المحارم، في عفته عن المَطامِع، في زهده، في قناعته، في رضاه بأمر الله ونهيه، في رِضَاهُ بقضائه وقدره، في أخلاقه، في أمانته، في استقامته، في وفائه، في تواضعه، في عِزّته، لعلك تعرف المؤمن من أنه يُصَلِّي ويصوم.. " من شاء صام ومن شاء صلى "

يجب أن تعرفه في التعامل معه، يجب أن تعرفه من خلال صنعته، من خلال مِهْنَته، من خلال طِبِّه، من خلال عطائه، من خلال أخذه، المؤمن صارخ، لذلك يقولون: " ألسنه الخلق أقلام الحق ".

أي يجب أن يُثني الناس جميعاً على هذا المؤمن، لأن أخلاقه ظاهرة، عندما سأل النجاشي سيدنا جعفر عن النبي الكريم اللهم صل عليه قال له:

((كنا قوماً أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار... حتى بعث الله فينا رجلاً ـ دققوا ـ نعرف أمانته وصدقه وعفافَه ونسبه))

[أحمد عن أم سلمة]

وأنت أيها الأخ الكريم، إذا أردت أن تدعو إلى الله عزّ وجل يجب أن يرى الناس أمانتك رأي العين، ويجب أن يرى الناس صدقك وعِفّتك، هذه أشياء لابدّ منها.

إذاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

ما علاقة الصابرين بسياق الآية ؟

ما علاقة الصابرين بسياق الآية ؟ أي لا تستطيع أن تملك هذه الرؤية، أن ترى رؤية خلاف رؤية عامّة الناس، أن ترى الشيء الثمين عند الناس قبيحاً، وأن ترى القبيح جميلاً، أن تُؤْثِر الفقر على كسب المال الحرام، هذا الشيء يحتاج إلى رؤية صحيحة وإلى صبر، أي إذا فَكَّرت في الكون، وعرفت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره صابراً، صبرت عن الشهوات، وصبرت على الطاعات، وصبرت على المصائب، إلى أن نَمَت هذه المعرفة في نفسك عندئذٍ تملك هذه الرؤية الصادقة، فأن تمتلك رؤية خاصة، تمتلك رؤية صحيحة نابعة من كتاب الله، أن تمتلك منظومة قيم تُقَيّم بها الأشياء، أن يكون لك موقف مغاير لِعَامَّةِ الناس، ودهمائهم الناس وسوقتهم، هذا يحتاج إلى جهدٍ كبير، وإلى صبرٍ طويل، يجب أن تكون صابراً:

(وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

هؤلاء هم الصابرون:

الذين صبروا عن الشهوات، والذين صبروا عن المُغْريات، والذين صبروا للضغوط، قد يأتيك ضغطٌ شديد وأنت في فاقةٍ شديدة، ويأتيك مالٌ وفير بطريقةٍ غير مشروعة، الصابر يصبر على دخله المحدود ولا يرضى هذا المبلغ الذي فيه شُبُهَة، عندئذٍ يُقْبِل على الله عزّ وجل، ويتَجَلّى الله على قلبه، ويملك الرؤية الصحيحة، والنظر الثاقب، والقيمة الصحيحة، عندئذٍ تنطبق عليه هذه الآية، أي أن تملك رؤيةً صحيحة تُقَيّم بها الأشياء على خلاف عامة الناس ودَهْمَائهم وسوقَتِهم، أن تتميز عن الناس برؤية توافق رؤية القرآن الكريم، هذا يحتاج إلى صبر، يحتاج إلى جهد، لذلك:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت: من الآية 69)

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

على من تعود الهاء في (به)؟ على القرآن الكريم، أي احضر مجالس العلم، افهم كلام الله عزّ وجل، هذا نور الله عزّ وجل، هذه مائدة الله عزّ وجل، هذا الكلام نورٌ من الله سمّاه الله نوراً، وسمّاه ذكراً، وسمّاه قرآناً، وسمّاه كتاباً، وسمّاه فُرْقاناً، وهناك أسماء كثيرة للقرآن الكريم، فُرْقان تُفَرّق به بين الحق والباطل، نور يهديك سواء السبيل، إذاً لابدّ من أن تصبر على فهم كتاب الله، لابدّ من أن تصبر على مدارسته، لابدّ من تأتي إلى الجامعة، جامعة المُسلمين هو المسجد، ليس في التاريخ العلمي أن طالباً نال

الشهادات العُلا وهو في بيته، لابدّ من أن يطرُق أبواب الجامعة، وإذا أردت أن تعرف كلام الله، أن تعرف أمره ونهيه، أن تعرف الحلال والحرام، أن تعرف سرّ وجودك، غاية خلقك، وجهة سيرك، إذا أردت أن تعرف مهمتك في الحياة لابدّ من أن تحضر مجالس العلم كي تفهم كلام الله، كي تسعى إلى تطبيقه، إذاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

العلم يؤتى ولا يأتي..

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

(سورة القصص: من الآية 80)

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَن وَعَمِلَ صَالِحًا

أي إذا آمنت بالله، وعملت صالحاً، الدين كلمتان: آمن وعمل صالحاً.

الجانب الاعتقادي والسلوكي في الدين:

هناك جانب اعتقادي، وجانب سلوكي، الاعتقادي هو الإيمان بالله، وما يتبعه من إيمان باليوم الآخر، والملائكة، والأنبياء، والكُتُب، والقضاء والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، هذا الجانب الاعتقادي، الجانب السلوكي أن تستثمر هذا الإيمان في طاعة الله عزّ وجل، أي أنت بالكون تعرفه وبالشرع تعبده، إذاً أنت أمام اعتقادٍ وسلوك، اتصالٍ بالخالق وإحسانٍ إلى المخلوق:

(وَيْلَكُمْ)

ويحكم.. يا طول هلاككم، ويلكم لا تستعجلوا، لا تقعوا في خطأٍ كبير، لا تَتِيهوا عن جادّة الصواب:

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل أن الإنسان خُلِق عجولا:

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

(سورة الإسراء)

يُحِبُّ المكسب السريع، يحب المتعة القريبة، يحب المال الذي يأخذه بطريقةٍ سهلة، يحب أن يأكل ويشرب، يحب أن يعلوَ في الأرض، هذه العَجَلة في الإنسان سبب رُقِيّه، لأن الإيمان والرقي أن تؤثر الآخرة على العاجلة، والهدف البعيد على الهدف القريب، والمكسب المُتَأخِّر الحلال عن المكسب المُسْتَعجل الحرام، هنا البطولة لا أن تكون كالناس، عامة الناس يستهويهم المكسب السريع، المكاسب الآنية، يعيش الإنسان التائه لوقته للحظته:

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

طبعاً هناك مجالات للاستمتاع في الحياة كثيرة، ولكن أن تتعرف إلى الله عزّ وجل يحتاج هذا إلى صبر، أن تفكِّر في الكون، أن تتلوَ كلام الله عزّ وجل، أن تفهم أبعاده، أن تفهم السُنة، أن تكون مطبقاً لها هذا يحتاج إلى جهدٍ كبير.

هذا ما حدث لقارون في آخر المطاف، ويحدث لأشباه قارون:

ما الذي حصل ؟ الله عزّ وجل قال:

(فَخَسَفْنَا بِهِ)

(سورة القصص: من الآية 81)

أي أن الأرض ابتلعته، توجد قرية في المغرب اسمها أغادير، هذه من أجمل الأماكن السياحية على شاطئ الأطلسي، وفيها من الفسق والفجور ما لا يحصيه إنسان، أُصيبت بزلزال، فيها فندق من أشهر الفنادق في العالم، هناك أسماء لامعة للفنادق في العالم، وهذا الفندق يَعُدُّ من الطوابق ثلاثين طابقا، وكيف أن الأرض انشقّت وابتلعته، ولكن ليكون هذا الحدث عبرةً للناس لم يبق منه على سطح الأرض إلا الطابق الأخير، رقم الثلاثين، وعليه اللوحة الكبيرة التي تُعْلن عن اسمه، وكأن هذه اللوحة شاهدةٌ لهذا القبر الكبير، إذاً: أن تبتلع الأرض شيئاً شيء فهذا مألوف، فربنا عزّ وجل قال:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ

ممتلكاته، هذه الكنوز التي لا يقوى على حملها أولو القوة، هذه الكنوز، وما فيها، وما حولها أصبحت تحت الأرض.

هؤلاء أشباه قارون:

والآن باخرةٌ من أشهر بواخر العالم حينما صُنِعَت في بريطانية على ما أذكر طُبعَت نشرةٌ لها، في هذه النشرة كُتِب: "هذه الباخرة لا يستطيع القدر أن يُغْرِقَها " اسمها التيتانيك أقلعت في عام ألفٍ وتسعمئة واثني عشر من لندن، أو من ميناء بريطاني إلى بوسطن، لشدّة إتقانها صنعت من جدارين، حيث لو أن جداراً تَخَرَّب فالثاني يمنع وصول الماء، لذلك لم تصنع لهذه الباخرة قوارب نجاة، وقد ركب هذه الباخرة أثرياء أوروبا، قَدَّر بعض المختصِّين أن الحِلي التي تزينت بها النساء بمئات الملايين بل بألوف

الملايين، وفي أول رحلةٍ لها وفي عرض البحر ارتطمت بجبلٍ ثلجي شطرها شطرين، وما أغاثها أحد لظنه أن هذه الباخرة لن تغرق، ومات جميع ركابها، وقبل سنوات فيما أذكر عثروا على حطامها في قاع المحيط، وهناك من يقدِّر الثروات الموجودة في قِيعان المحيطات بألوف ألوف الملايين، باخرة مَحَمّلة بالذهب غرقت:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

هذا شيء مألوف جداً، ربنا عزّ وجل إذا أعطى أدهش، وإذا سلب الإنسان ماله فهذا شيءٌ لا يحتمل. فهذا قارون، أحياناً المال يُسْلَب من دون خسف، بل بطريقة أخرى، بطريقة جديدة، ربنا يتحفنا باستمرار بطرائق جديدة لسلب المال:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة القصص)

اعملْ عملاً لا تندم عليه !!!

يا أيها الإخوة الأكارم... أنا أقول: البطولة، وهذه الكلمة أستعملها كثيراً، البطولة أن تعمل عملاً لا تندم عليه، هذه هي البطولة، البطولة أن تضحك أخيراً، لا أن تضحك أولاً، هناك إنسان يأتيه المال كثيراً، فيضحك ويرقص ويمشي فوق الأرض، ولكن يجب أن نرى مصير هذا المال، ومصير صاحبه، فهذه الحقيقة دعها في ذهنك، البطولة أن تضحك أخيراً، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

(سورة المؤمنون)

هناك آية أخرى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

البطولة أن تضحك في الأخير:

ما هي البطولة ؟ أن تكون آخر الضاحكين، لا أوّلهم: " ألا يا رُبّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة، ألا يا رُبَّ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة ".

البطولة أن تضحك أخيراً، والبطولة أن تعمل عملاً لا تَنْدَم عليه، والبطولة أن تكون في خريف العمر مؤمناً تَتَمَتَّع بصحّتك، وبعقلك: " من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت ".

أعود وأقول مرات كثيرة وأعني ما أقول: من نشأ على طاعة الله عزّ وجل، هذا الشاب الذي نشأ في طاعة الله هذا له مستقبل باهر، له شيخوخة من أعظم الشيخوخات، فإذا عرف الإنسانُ الله في شبابه يزداد وقاراً، و حلماً، وعلماً، ومكانةً، واستمتاعاً بكلّ حواسِّه في شيخوخته، البطولة أن تفكِّر لهذا الأمد البعيد، البطولة إذا أردت إنفاذ أمرٍ تَدَبَّر عواقبه.

فهذا قارون بتقييم الأذكياء كان أحمق، لماذا ؟ لأنه بدأ حياته مستمتعاً وانتهى مدَمَّراً، وكل إنسان لا يفكر في خالق الكون، ولا في أمره، ولا في نهيه، ولا يحَدِّث نفسه بطاعة الله عزّ وجل، ولا يفكر في نهايته ومصيره والدار الآخرة هو كقارون، يعيش لحظته، يعيش وقته، المال بين يديه لابدّ من أن يستمتع به، إذاً:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

مَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ

الإنسان في الدنيا أحياناً له أعوان، له أنصار، له أقرباء، له أهل حي، له أحفاد، له زُمَلاء، أحياناً يكون له علاقة مع جماعة مؤمنة، مع جماعة غير مؤمنة، أي له انتماءاته هؤلاء يناصرونه على الحق أو على الباطل بشكل أو بآخر، ولكن إذا أراد الله بإنسانٍ شيئاً أبعد الناس كلّهم عنه، أبعدهم عنه جميعاً، حتى إن أقرب الناس إليه يتخلّى عنه:

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

(سورة الحج: من الآية 18)

أعرف إنساناً كسب المال حراماً، وكان كسبه لهذا المال على حساب صحّة الآخرين، وعلى حساب لقمة عيشهم، وأشاد بناءً فخماً جداً في أحد أحياء دمشق يُعَدُّ البناء الأول، في سنٍ ليست متقدمة مرض مرضاً عضالاً، فكانوا يأتون له بالطعام، وكلما سأل عن زوجته، لم تستجب له زوجته، من حين لآخر كل عشرة أيام تأتيه زوجته لتلقي على مسامعه أقسى العبارات، ثم ضاقوا به ذرعاً فنقلوه إلى حيٍ آخر في قبوٍ من أقبية الأبنية، وبقي على هذا ثماني سنوات.

قبل أن تكسب المال بطريقةٍ مشروعة أو غير مشروعة، قبل أن يكون مالُك على حساب فقر الآخرين فكِّر في قارون..

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة القصص: من آية 81)

أي إذا أراد الله عزّ وجل بقومٍ سوءً فلا مردّ له..

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

إذا أراد ربنا عزّ وجل سلبَ إنسانٍ شيئاً فلن يستطيع أحد في الأرض كلها أن يحول بين الله وبين هذا الأمر أو هذا القدر..

(فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

(سورة القصص)

حينما كان في قوّته وفي أوجه، وفي بحبوحته ما استقام على أمر الله حتى يكون في منجاةٍ من عذاب الله، ما فكر في الله عزّ وجل، لذلك الحديث الشريف:

((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ...))

[أحمد عن ابن عباس]

وأنت في بحبوحة، وأنت معافى في جسمك، وأنت في صحتك التامّة، وأنت في أوج حياتك عندك زوجة وأولاد، وأنت في أمن ودعة واستقرار، في هذا الوضع اعرف الله عزّ وجل، حتى تستحق أن ينجيَك الله عزّ وجل إذا جاءتك الشدة، وأن تنطبق عليك الآية الكريمة:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء: من الآية 88)

(وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

لم يستطع أن يمنع عن نفسه هذا العقاب، والذين كانوا معه تَخَلّوا عنه في لمح البصر، وهكذا.

عقابُ ظالمٍ واحدٍ ردعٌ لغيره:

هناك من يسأل: أن هذا الإنسان الظالم الغني الذي حصل ماله بطريق غير مشروع، وربنا عزّ وجل بطش به، أليس هناك آخرون مثله ؟ فلماذا لم يبطش بهم الله سبحانه وتعالى ؟

الجواب: أن الله سبحانه وتعالى إذا عاقب الظالم في الدنيا لا يعاقب جميع الظالمين، بل عقاب الله لهذا الظالم عقابٌ يُسَمَّى رَدْعِيّ ليردع به بقيّة الظالمين في كسب المال، وإذا كافأ المحسن مكافأةٌ تشجيعية، الجزاء تشجيعي، والعقاب رَدْعي، ولكن الحساب الدقيق يوم القيامة:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: من آية 185)

لأن الله عزّ وجل من حكمته وسنته..

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 44)

أبواب، وليس باباً واحداً ؛ باب الأموال، وباب المُتَع، والشهوات، والبيوت، والمزارع، أبواب كل شيء:

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورةالانعام)

هذه سُنَّة الله مع عباده، فإذا ربنا عزّ وجل عاقب أُناساً دون آخرين، ما الإجابة ؟ عاقب هؤلاء ليردع هؤلاء، فإذا تاب هؤلاء نجوا، وإلا سيأتيهم الدور..

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

(سورة الإسراء)

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ)

وهذا الشيء بين أيديكم وتحت سمعكم وبصركم:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

(سورة الإسراء)

(وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة القصص: آية 82)

وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ

(وَيْ) من ألفاظ التَّعَجُّب، إذاً هذا البطش الذي كان بقارون هذه آثاره الطيّبة، آثاره الطيبة أنه رَدَعَ هؤلاء الذين تمنوا مكانه بالأمس، فلذلك: العاقل من اتعظ بغيره، والشقي لا يتعظُ إلا بنفسه، من علامات الشقاء الإنسان لا يتعظ إلا بنفسه:

(وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ)

(سورة القصص: من الآية 82)

يُعْطي ويمنع، هو المعطي وهو المانع، وهو القابض وهو الباسط، وهو الرافع وهو الخافض، وهو المُعِزُّ وهو المذل، وهو النافع وهو الضار، لا إله إلا هو، الأمر كله بيده، له الخلق والأمر، إليه يرجع الأمر كله، هذا هو التوحيد، كلما ازداد توحيدك ازدادت استقامتك، وازدادت راحتك، وازدادت مكانتك.

: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ

الآن التعقيب الرائع تلك هذه الـ (تِ) اسم إشارة، واللام للبعد والكاف للخطاب، تلك، قال علماء التفسير: الله عزّ وجل أشار إليها عن بعد تعظيماً لها، أي أن هذه الدار الآخرة العظيمة التي خُلقتم من أجلها أنتم أيها البشر، هذه الدار الأبدية السَرْمَدِيَّة، لا قلق، ولا مرض، ولا خوف، ولا حزن، ولا فقر، ولا مُشاحنة، ولا كبر..

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

(سورة القصص: من الآية 83)

نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ)

لمن ؟

(نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ)

قال بعض العلماء: فرعون يُمَثِّل العلوّ في الأرض وقارون يُمَثِّل الفساد..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

إذاً: هذا بعض التفاسير، أما ما هو العلو ؟ الآن العلو هو أن الإنسان إذا أراد عن طريق طعامه وشرابه وثيابه وبيته ومركبته أن يظهر أمام الناس بشكلٍ يستعلي عليهم، أي إذا استخدمت أي شيء لوظيفته فأنت لا تبغي علواً في الأرض، أما إذا استخدمته كي تستعلي به على الناس.

نكتة لطيفة من الآية:

والآية دقيقة جداً، أن الله سبحانه وتعالى يتوَعَّد لا على العلو في الأرض، ولكن على ماذا ؟ على إرادته..

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ)

لا يستعلون في الأرض ؟ لا.. لا..

(لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ)

شيء خطير جداً، الوعيد ليس على الاستعلاء في الأرض ولا على الفساد، بل على إرادة العلوّ والفساد، في الآية مشابهة في سورة النور يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة النور: من الآية 19)

أي أنك لو سمعت قصةً عن مؤمن قد تكون غير صحيحة، ولكنك ارتحت إليها، لم تقل شيئاً، لم تنقلها، لكنك ارتحت لأنه وقع في هذه المشكلة، الوعيد لا على أن تشيع الفاحشة بين الناس، أن تشيع فيهم هذا الخبر ؟ لا.. الوعيد على أنك أردت أن تشيع هذه الفاحشة، على رغبتك..

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ)

(سورة النور: من الآية 19)

هناك آية ثانية:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

(سورة هود: من الآية 113)

ليس النهي أن تكون مع الظالمين ؟ لا.. ولكن أن تركن إليهم، أن ترتاح إليهم، أن تنسجم معهم، أن تستأنس بوجودهم غير أن تعينهم..

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)

(سورة هود: من الآية 113)

ثلاث آيات دقيقات جداً، أنت منهيٌ عن أن تَرْكَنَ إليهم، فكيف بأن تُعِينهم ؟ فكيف بأن تساعدهم ؟ لذلك: من أعان ظالماً سَلّطه الله عليه، عقاباً له، ومن أعان ظالماً ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ على جبينه: آيسٌ من رحمة الله.

أنت منهيٌ لا على أن تعين الظالم، منهيٌ على ألا تركن إليه، لا تركن إليه، لأنه ظالم، ومنهيٌ عن أن تحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، يكفي أن تُحب، أن ترتاح نفسك، لأن هذا المؤمن وقع في مشكلة يقول: الحمد لله، ولو قلتها في نفسك، وهذه علامة النفاق:

(إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ)

(سورة التوبة: الآية 50)

هذه علامة النفاق، لمُجَرَّد أن تفرح بأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فقد وضعت نفسك في خندق المنافقين، ولمجرد أن تركن للذين ظلموا، لم تتكلم كلمة، ولم تعنهم، ولكنك ترتاح لهم، تأنس بوجودهم، تحبهم، لك معهم علاقاتٌ حَميمة فقد وقعت في مخالفة الآية.

والآن:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا)

لو أن الله عزّ وجل قال: للذين لا يستعلون ولا يفسدون، ليست هكذا الآية:

(لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

أي يجب ألا تريد، لو أن إنساناً أراد، ولم يتمكن وقع في المعصية، لو أراد، قال الإمام علي كرم الله وجهه قال: << لو أردت أن يكون لك شراك نعلٍ تباهي به أخاك فأنت ممن تعنيهم هذه الآية >>.

يا ليت، لو كان عندي بيت، يأتي إلى عندي أصدقائي لأريهم أربعمئة متر، وليس عندك إلا مئة متر، أنت لم تفعل شيئاً إطلاقاً، لكن تَمَنَّيت أن تستعلي على الناس، على التمني:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

مِن صور العلوّ في الأرض:

العلو: ممكن أن تطعم الناس، أما لو أردت بهذا الإطعام أن تستعلي عليهم، دخلت في الآية، يمكن أن تسكن بيتاً، أما إذا أردت من هذا البيت أن تستعلي به على الناس فقد دخلت في هذه الآية.

يمكن أن تكون تاجراً، أما إذا جلست في مجلس تتحدَّث عن حجم تجارتك، وعن نجاحاتك، وعن، وعن من أجل أن تستعلي عليهم فقد دخلت في الآية.

يمكن أن ترتدي ثياباً نظيفةً أنيقةً جميلةً، أما أن تريد بها أن تزهو على الناس فقد دخلت في الآية، شيء خطير جداً.

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

لمُجَرَّد أن تستخدم الشيء لا لوظيفته، ولكن لتستعلي به على الناس دخلت في الآية، هذا في الطعام والشراب، واللباس، والزينة، والمركبة، والمصنع، والمعمل، والتجارة، والسياحة.

يمكن أن تأخذ أهلك إلى مكانٍ ما، تروّح عن أنفسهم، أما أن تعود في المجالس لتقول كيف استمتعت في المكان الفلاني، وكم أنفقت، وكم فعلت، دخلت الآية..

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

العلو أن تكون أعلى من الناس، النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق، وحبيب الحق، كانوا في سفر، وأرادوا أن يأكلوا فقال أحدهم: علي ذبح الشاة، وقال الثاني: عليّ سلخها وقال الثالث: علي طبخها، قال النبي الكريم:

((عليّ جمع الحطب))

قالوا: نكفيك ذلك، قال:

((لا.. أعرف ذلك لكن الله يكره أن يرى عبده متميّزاً على أقرانه))

قوله تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ)

العلو ردٌ للحق واحتقارٌ للناس:

النبي عليه الصلاة والسلام سُئِلَ عن الكبر.. فعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ؟! قَالَ: إِنَّ اللّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ))

(صحيح مسلم)

بالتعريف الدقيق:

((بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاس))

معنى بطر الحق، أي رد الحق، أن ترى نفسك فوق هذا الشرع، أنت لست مقتنعاً بهذا الحكم الشرعي، لست مقتنعاً بهذه الآية، إذا رأيت نفسك لا تنصاع لأمر الله عزّ وجل، ولا لحكْمِهِ فأنت متكبر. لمجرد أن ترى نفسك فوق السنة، النبي عليه الصلاة والسلام من سُنَّته أن تَلْعَق الإناء، أنت تركت طعام بالإناء من أجل أن تزهو أمام الناس.

لمجرد أن ترد السنة، أو القرآن، أو الشرع، أو الحق فأنت متكبّر، بل كافر، فالكبر بطر الحق، وغمط الناس، غمط الناس أن تحتقرهم، أن تزدريهم، أن لا ترى إلا نفسك، أن تهمل من حولك، لكن التواضع قبول الحق، وإنصاف الناس، فالعلو في الأرض من معانيه الكبر، والكبر بطر الحق وغمط الناس، ولا فساداً، كما شرحنا قبل درسين، لمجرد أن تشعر الآخرين أنهم محرومون وأنت الذي تملك كل شيء، قال:

((إني أعلم ذلك، ولكني أكره أن أتميّز عليكم، لأن الله يحب من عبده أن يراه متميزاً على أقرانه))

هذا الفساد، العلو أن تُشْعِرَه بالحرمان، أن تغتصب ماله فساد، أن تحمله على المُنْكَرات فساد، أن تُزَيّن له الدنيا فساد.

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

وهذه الآية الأخيرة تُزَيّن القصّة كلها، كأنها تاجٌ لها:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

الأمور تجري، والحياة تتحرك، وأشخاص يصعدون، وأشخاص يهبطون، وهذا يغتني، وهذا يفتقر، وهذا يمرض، وهذا يَصِحّ وفي النهاية:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

أي أن المُتَّقي هو الفائز، المتقي هو الناجي، المتقي هو السعيد، المتقي هو الفالح، المتقي هو الذَكِيّ، المتقي هو الذي يسير في طريقٍ سالكة، فإذا مشى إنسان في طريق غير سالكة، ثمَّ فوجئ فهذا هو شأن الكافر، يسير في طريق عريضة جداً، ولكنها غير نافذة، أما المؤمن فلو أن الطريق الذي يسير فيه ضيقةٌ، لكنها سالكة إلى الجنة، لذلك أقل مؤمن على وجه الأرض أذكى من أكبر كافر، لأن الطريق سالكة إلى الجنة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

هاتان الكلمتان في هذه الآية تكفي كل مؤمن:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

أي أن الباطل مهما جال وصال فالعاقبة للمتقين، هذا الكافر مهما ارتفع فالعاقبة للمتقين، هذا المؤمن مهما ضعف فالعاقبة للمتقين، هذا المستقيم مهما افتقر العاقبة له، هذا العاصي مهما اغتنى فالويل له، إذاً:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

فهذه السورة، أو هذه القصة تَصلُح لكل إنسان، عندما ربنا عزّ وجل حدّثنا عن فرعون وحدثنا عن قارون فقال:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ)

كفرعون..

(وَلَا فَسَاداً)

كقارون..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

أي للمؤمنين الذين أوتوا العلم، وصبروا على طلب العلم، وحضروا مجالس العلم، وأرادوا أن يعرفوا سرّ وجودهم، وحكمة حركتهم، ووجهتهم حتى يفلحوا ويسعدوا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (18-18): تفسير الآيات 84 - 88
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-09-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن عشر والأخير من سورة القصص، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى التعقيب الكريم الذي جاء بعد قِصّة قارون، وهو قوله تعالى:

(تِلْكَ الدّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ (83) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

(سورة القصص)

فاعلُ الخير سعيد بعمله:

قالوا: فاعل الخير خيرٌ من الخير، أي مهما كان عمل الخير عظيماً فلا بدّ من أن تطويه الأيام، ولا بدّ من أن ينتهي بعد نهاية العالم، ولكن فاعل الخير سيسعد به إلى الأبد، لذلك فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر، مهما كان هذا العمل خطيراً ؛ الذي ألقى قنبلةً على مدينة في اليابان فأبادت ثلاثمائة ألف رجل في ثانيةٍ واحدة، هذا العمل بعد مضي مئة عام نسيه الناس، ولكن الذي فعله شرٌ هو شر من الشر، وسيشقى به إلى أبد الآبدين.

الشيء الخطير أنّك أخطر ما في الكون، مهما كان عملك طيباً فأنت أطيب منه، مهما كان عملك خيراً فأنت خيرٌ منه، ومهما يكن العمل سيّئاً فالذي فعله أسوأ من الشر، فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر.

يقول الله سبحانه وتعالى:

(جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا مَنْ)

(سورة القصص: من الآية 84)

من المعاني المستنبطة من قوله: مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا

أي أنه مهما كانت هذه الحسنة عظيمةً، مهما كان حجم هذا العمل كبيراً، فله عند الله عزّ وجل من السعادة الأبدية، ومن التقلّب في جنّات النعيم ما هو خيرٌ من هذا الخير، حتى إن بعضهم يقول: **" من أطعم لقمةً ابتغاء وجه الله عزّ وجل جاء يوم القيامة يراها كجبل أحد ".**

((يا عليُّ، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس))

[الجامع الصغير عن أبي رافع بسند فيه ضعف]

((فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[مسند أحمد عن سهل بن سعد]

خيرٌ لك من الدنيا وما فيها لأن الله شكور.

إذاً:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

أي فعلت صالحاً، بذلت من وقتك الثمين، بذلت من خبرتك الغالية، بذلت جاهك من أجل ضعيف، بذلت مالك الذي حَصّلته بعرق جبينك من أجل إطعام بطنٍ جائع:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

فَوّتّ على نفسك دُنيا عريضة، خشية الله عزّ وجل، جاءك عرضٌ مُغْرٍ، لكنك أردت مرضاة الله عزّ وجل، ففاتك ربحٌ كبير:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

من أتعب نفسه في سبيل أهله، وأولاده، ومن حوله:

(فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة: من الآية 245)

إذا فعلت الصّالحات فكأنك أقرضت الله عزّ وجل، إذا فرّجت عن مكروب، إذا واسيت محزوناً، إذا أعنت فقيراً، إذا طمأنت خائفاً، إذا بذلت معروفاً، إذا أدّيت نصيحةً، إذا أمرت بمعروفٍ، إذا نهيت عن منكرٍ، إذا أدخلت الفرح على قلوب الصغار، إذا جَبَرْتَ خاطر زوجتك.

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

يقول هذا الكلام خالق الكون، يقول هذا الكلام ربُّ العالمين، إذا قال لك إنسان: أنا أعطيك مبلغاً كبيراً، وحجمه كله مئة ليرة، وكل ما يملك مئة ليرة، فكلمة كبير مما يملك مئة ليرة لها معنى، إذا قال لك إنسان، وهو يملك مئة ألف: لك عندي مبلغٌ كبير، كلمة كبير من الإنسان الثاني لها معنى آخر، إذا قال لك غنيٌ كبير: لك عندي مبلغٌ كبير، لها معنى ثالث، فإذا قال لك ملك الملوك: لك عندي خيرٌ كثير، فالملك ماذا يعطي ؟ يعطي قلم رصاص ؟ إذا أراد أن يقدِّم الملك هدية فماذا يقدم ؟ ممحاة صغيرة ؟ قلم رصاص ؟ مئة ليرة ؟ كتاباً صغيراً ؟ أم يقدِّم لك بيتاً مثلاً، أو مركبةً فارهةً، أو منصباً رفيعاً ؟ فالعطاء يتناسب مع المعطي، فعندما ربنا عزّ وجل يقول لك:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

أنت كمؤمن هذا كلام الله عزّ وجل، ماذا تفهم من كلمة:

(فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

دللت إنساناً على الله عزّ وجل، أتعبت نفسك من أجله، بذلت وقتك الثمين، كم سهرت من ليالٍ من أجله؟ كم بذلت من مالٍ تأليفاً لقلبه ؟ إلى أن عرف الله، واستقام على أمره:

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

أنت تعامل خالق الكون، ولا تعامل إنساناً عادياً، شحيحاً، حريصاً، لئيماً، بخيلاً، ينسى المعروف، يجحد، إنك تعامل خالق الكون..

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)

(سورة المدثر)

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

هذا الصحابي الذي عَيَّنه النبي عليه الصلاة والسلام القائد الثالث في معركة مؤتة، والذي مات أخوان له فيها، سيدنا زيد، وسيدنا جعفر، فلما جاء دوره في رفع الراية، ورأى نفسه على وشك الموت المحقق، يبدو أنه تردد فقال:

يا نفس إلا تـقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت و إن توليت فقد شـقيت

***

قِسْتُ زمن هذين البيتين، فإذا هما ثلاثون ثانية، أي أنه تردد ثلاثين ثانية، أحْجَم ثلاثين ثانية. النبي عليه الصلاة والسلام وهو في المدينة المنورة مع أصحابه قال:

((أخذ الراية أخوكم زيد، فقاتل بها حتى قُتِل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة))

ثم سكت، فلما سكت خاف أصحاب النبي على صاحبهم عبد الله بن رواحة فقالوا: **يا رسول الله، ما فعل عبد الله "** ؟ قال:

((ثم أخذها عبد الله، وقاتل بها حتى قُتِل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه))

هبط درجة.

لو أن إنساناً أعطاك محلاً، وكنت صانعاً، فأصبحت تاجراً، زوجك ابنته، أعطاك بيتاً كبيراً، أعطاك مركبةً، خلال أعوام قليلة صرت إنساناً شهيراً غنياً وجيهاً، رأيته في الطريق يمشي وأنت معك سيَّارة،

قال لك: يا فلان أوصلني إلى البيت، أنت ماذا فعلت ؟ سكت ثلاثين ثانية، ثم قلت له: تفضّل، هذا السكوت في حقك جريمة مع هذا الإنسان، فربنا عزّ وجل إذا دعاك لفعل الخيرات تتردد ؟! هل يوجد تردد هنا ؟ من علامة المؤمن أنه إذا دُعي إلى الخير ألقى بنفسه عليه، طُرِقَ بابك، هذا السائل ساقه الله إليك لينظر ماذا تفعل ؟.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

[مسلم]

الحديث معروف عندكم، فأنا أرى أن المؤمن الصادق أكبر همّه في الحياة الدنيا أن يعمل عملاً صالحاً يُرضي الله عزّ وجل، يا رب، هل أنت راضٍ عني ؟ هل خدمت عبادك كما تريد ؟ هل أنا في موضع رضاك يا رب ؟

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

له خيرٌ منها في الدنيا.

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه خيراً منه في دينه ودنياه))

[ورد في الأثر]

إذا أنفقت، عبدي أنفق أُنفق عليك، إذا أعنت فستجد من يُعينك، إذا نصرت فهناك من يَنْصُرك، إذا واسيت فهناك من يواسيك، إذا ذكرت الله عزّ وجل في ملأٍ من الناس ذكرك الله في ملأٍ خيرٌ منهم، يأتي اسمك عطراً جداً في ملأٍ خيرٍ من هؤلاء، أنت تحدّثت أمام شخصين أو ثلاثة عن الله عزّ وجل، وأثنيت عليه، وعلى أسمائه الحسنى، وصفاته الفُضْلى، فجاء اسمك في مجمعٍ كبير، وجاء من يذكرك بخير.

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

أنت تعامل خالق الكون، تعامل أكرم الأكرمين، تعامل من بيده ملكوت السماوات والأرض، إنّه من يقول للشيء: كن فيكون، الأمراض كلها بيده، الجراثيم كلها بيده، عضلة القلب، وصمام القلب، والشريان التاجي، والضغط العام، وعمل الكُليتين، وعمل الكبد، وعمل الرئتين، والأعصاب، كلها بيده، وأهلك بيده، وأولادك بيده، خصومك بيده، وأعداؤك بيده، والعالم كله بيده، يقول لك:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة: من الآية 245)

فأنت الآن إذا رأيت بيتاً، وأنت ساكن في بيت، تقول: أنا أشتريه، وأبيعه فأربح مئة ألف، هذا أرخص من سعره بمئة ألف، فكيف إذا قيل لك، ادفع ليرةً، وخذ مليوناً، ومعك هذه الليرة وتبخل فيها ؟! هذا رقم قليل، نسبة قليلة، ادفع صدقةً، وخذ جنةً عرضها السماوات إلى الأبد، أتبخل ؟ قال تعالى:

(مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ)

(سورة محمد: من الآية 38)

لذلك:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: من الآية 29)

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

(سورة الروم)

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ)

هذا كرم الله عزّ وجل وهذه عدالته..

(فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة القصص)

هنا سؤال:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ)

مُفْرَد..

(فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

عشرة أمثال، عشرون مثلاً، سبعون مثلاً، سبعمئة.

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لكن:

(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ)

جاءت السيّئات جمع وهنا مفرد، فلمَ لم يقل الله عزّ وجل: من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا بها..

مثلاً:

(فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ)

ربنا عَدَلَ عن الضمير إلى الاسم الظاهر، تأكيداً على أن هذا الذي يعمل السيّئات عَمِلَها عن قصدٍ وتصميم وبنيّة الاستمرار، عملها قاصداً مريداً، ونوى الاستمرار عليها:

(فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ)

جاءت متكررة، عملها مرةً بعد مرة، أكّد عليها، أرادها، صمم عليها، لم يَتُبِ منها، أعادها.

(إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة القصص)

الآن انتهت قصة قارون مع التعقيبين الذين جعلاها قواعد ثابتة لكل من يقرأ القرآن.

في نهاية السورة ملخّصاتٌ هامة:

معنى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ

الآن جاءت نهاية السورة، ويجب أن تعلموا أيها الإخوة، أن السورة الكريمة تأتي في نهايتها مُلخّصاتٌ مكثفةٌ جداً، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ)

أي يا محمّد..

(لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

(القصص: من الآية 85)

المعنى الأول:

إن الذي فرض عليك هذا القرآن أن تقرأه، وهذا القرآن أن تتدبره، وهذا القرآن أن تتلوه، وهذا القرآن أن تُبَلّغه، لرادُّك إلى مقامٍ عظيم لا يعلمه إلا الله..

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((سَلُوا اللّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، وَمَا الْوَسِيلَةُ ؟ قَالَ: أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنّةِ لَا يَنَالُهَا إِلّا

رَجُلٌ وَاحِدٌ، أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ))

[الترمذي]

إذا دعوت إلى الله، أمرت بالمعروف، نهيت عن المنكر، دَللت الناس إلى الله عزّ وجل، حببتهم إلى الله، بيّنت لهم، فصّلت لهم، أقنعتهم، ضربت لهم الأمثال، أخذت بيدهم، تَحَمّلت أسئلتهم، تحمّلت أحياناً تجاوزهم، إلى أن وَصَلْتَهم بربهم فاستقاموا على أمره، وسعدوا بقربه، إن الذي فرض عليك القرآن أمرك أن تدعو إلى الله، أن تتلو عليهم القرآن، أن تبينه لهم لرَادُك إلى معاد.

أحياناً نرسل إنساناً إلى مهمة صعبة، لكن حينما يعود يكون له استقبالٌ عظيم، وجائزةٌ عظيمة، ومرتبةٌ عظيمة، ومقامٌ كريم، واحتفالٌ كبير، وأوسمةٌ، وما إلى ذلك، الإنسان أحياناً يرسل إنساناً إلى مهمة صعبة خطرة، فإذا عاد من مهمته ناجحاً كان له التكريم الذي لا حدود له.

المعنى الأول لهذه الآية: إن الذي فرض عليك القرآن أمرك أن تتلوه، أمرك أن تُبَلِّغه، أمرك أن تُبَيّنه، أمرك أن تدعو إلى خالق الكون:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

إلى معادٍ كريم، إلى مقامٍ كريم، إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض، هذا هو المعنى الأول.

إذاً: نحن كمؤمنين قياساً على هذا المعنى، إذا دعوت إلى الله هل تعرف مكانك عند الله عزّ وجل ؟ هل تعلم ماذا ينتظرك من خيرٍ عظيم ؟ ماذا يعد الله لك من مقامٍ كريم، ماذا يُخَبَّأ لك من سعادةٍ أبدية، أنت مؤمن جاء في آخر الزمان، في الثمانينات، في السبعينات، أردت بإخلاصٍ شديد أن تهدي الناس إلى الله، أن تُرْشِدَهم إلى ربّهم، أن تقرّبهم من خالقهم، أن تَصِلَهُم بمن خلقهم، هل تعلم ماذا أُخْفِيَ لك ؟ ماذا خُبِّئ لك ؟ ماذا ينتظرك من إكرامٍ وسعادةٍ ؟ لأن القرآن الكريم إذا خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام، فالمؤمنون مخاطبون بالآيات نفسها على قدر إيمانهم، فإذا قال الله عزّ وجل للنبي عليه الصلاة والسلام:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من الآية 48)

معنى ذلك أن كل مؤمنٍ له من هذه الآية نصيبٌ على قدر إيمانه، إذا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ)

يا محمّد..

(لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

أي وأنت أيها الأخ الكريم، أيها المؤمن، إذا حضرت مجلس علم، واستوعبت الآيات، وتأثّرت بها، فأردت أن تنقلها إلى لآخرين ؛ إلى جيرانك، إلى إخوانك، إلى أصدقائك، إلى أهلك، إلى أولادك، إلى

زملائك، إلى من تُحِبُّه، بينت لهم بجهدٍ جهيد، وفَصَّلت لهم، ودعوتهم إلى هذا المجلس، ودعوتهم إلى معرفة الله:

(لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

لك عند الله عودةٌ مشرفة، هناك عودة مُبَجَّلة، عودة موقَّرة، عودة مُسْعدة، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

أي سيسألك عن أمانة التبليغ، هل بَلّغت ؟ إنك إذا ذهبت إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام تقول: يا رسول الله، يا نبي الله، يا حبيب الله أشهد أنَّك أدّيت الرسالة، وبلّغت الأمانة، ونصحت الأمّة، وكشفت الغُمّة، ومحوت الظُلمة، وجاهدت في الله حقّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد. أنك إذا دعوت إلى الله فقد صرت مسؤولاً، كلما فعلت شيئاً: يا عبدي، هكذا تقول للناس ؟ هل أنت في مستوى كلامك ؟ دعوتهم إلى الصدق، هل أنت صادق ؟ دعوتهم إلى غضّ البصر، هل أنت غاضٌ لبصرك ؟ دعوتهم إلى الأمانة، هل أنت أمين ؟ دعوتهم إلى النُصْح، هل تنصح زبائنك ؟ ألا تستحي مني أن تدعو الناس إلى شيء وتخالفهم أنت ؟! فهذه مبدأ المسؤولية.

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

سيحاسبك، سيرى ماذا فعلت ؟ هل كان سلوكك بمستوى دعوتك ؟ هل انفصلت دعوتك عن سلوكك ؟ هل كانت دعوتك في وادٍ وأنت في وادٍ ؟ هل طبّقت في بيتك ما أمرت به إخوانك ؟ هل كنت قدوةً صالحةً لهم ؟ هل سبقتهم إلى طريق الخَيْرات أم قَصَّرت عنهم ؟ أم جعلت الدعوة مهنةً وحرفةً تسترزق منها ؟:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

سيحاسبك، سيكشف عملك، فإذا قال الإنسان للناس: قال الله تعالى، فالقضية سهلة، لا تحتاج إلى قراءة وكتابة، لكن هناك المسؤولية، هل أنت في مستوى هذه الدعوة ؟ هل فعلت شيئاً خلاف ما تقول ؟ هل في شخصيّتك ازدواج ؟ هل لك مظهر ومخبأ ؟ هل لك ظاهر وباطن ؟ هل لك جلوةٌ وخلوة ؟ هل أنت في مستوى ما تقول ؟:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

انتبه قبل أن تقول، قبل أن تقول لابنك: يا بني كن صادقاً، فهل أنت صادقاً مع الناس ؟ تقول: والله اشتريتها بأغلى مما أبيعك إيّاها، هل أنت في هذا الكلام صادق ؟ حينما تنصح ابنك أن يكون صادقاً،

هل أنت صادقٌ مع الناس ؟ القضية خطيرة جداً، لذلك ألفٌ كَأَف، وواحدٌ كألف، لماذا صنع الأنبياء المعجزات ؟ لأنه ليس عندهم ازدواجية، فعلوا ما قالوا، الله عزّ وجل لم يقل: لقد كان لكم في رسول الله عالمٌ شهير، ولا خطيبٌ بارع، قال:

(أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: من الآية 21)

ربنا اختار الأسوة الحسنة، لم يقل: مؤلِف، بَحّاثة، علاّمة، خطيب، لا، بل قال:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

ما أمر الناس بشيء إلا كان سبّاقاً له، وأنت إذا أردت أن تدعو إلى الله عزّ وجل لا تفكر أن الناس أغبياء، الناس أذكى مما تظن، هم يراقبونَك، يضعونك تحت المِجْهَر، يُسَلِّطون عليك أشدّ الأضواء، فإذا أردت أن تقول كلمةً فكن في مستواها، وإلا فالله عزّ وجل سيحاسبك..

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

هذا هو المعنى الثاني.

المعنى الثالث:

تَروي كتب التفسير أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة، الله عزّ وجل جعل في فطرة الإنسان أن يحب بلده، ووطنه:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)

(سورة النساء: من الآية 66)

المعنى الثالث، أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما غادر مكة مهاجراً، ووصل الجحفة، تروي بعض كتب التفسير أن هذه الآية نزلت في هذا الموضع، أي يا محمد، لا تحزن، سوف تعود فاتحاً لمكة، أُخرجت منها في سبيل الله، وسوف تعود فاتحاً لها.

وأنتم أيها الإخوة الأكارم يقابل هذه الآية قول النبي الكريم..

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عَوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[ورد في الأثر]

إيّاك أن تظن أنك إذا تركت شيئاً لله ضاع عليك، لا والله لا بدّ من أن يؤتيك الله خيراً منه في الدنيا والآخرة.

إن الذي فرض عليك القرآن، دعوت يا محمد إلى الله، فعاداك الناس، وتآمروا على إخراجك،

وأخرجوك، لا بدّ من أن تعود إليهم فاتحاً وظافراً، لا بدّ من أن يُعِزّك الله عزّ وجل، لا بدّ من أن يرفع قدرك، لا بدّ من أن يذل أعدائك:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

أحياناً يكون الشاب ناشئًا في تدين، فيعاديه إخوته، وأهله، وأبوه، والجيران، وبيت عمّته، وبيت خالته، يقولون: انجذب، وتَمَشْيَخ، وصار عقله صغيرًا، وهم عندهم اختلاط، وسهرات، وحفلات، وانطلاقات، وهو جالس في غرفته وحيداً، خائف من أن يعصي الله، وصار منكمشًا على نفسه، لا بدّ من أن يرفعه الله فوقهم، لكن:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

الحبل الآن مرخى، لا بدّ من أن يرفعه الله فوقهم، لا بدّ من أن يعزّه، لا بدّ من أن يُغْنِيه، لأنه آثر مرضاة الله عزّ وجل، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، طبعاً لأنك تخشى الله عزّ وجل رفضت هذه النزهة المختلطة مع أهلك، ذهبوا إلى المكان الفلاني، وتناولوا أطيب الطعام، وشربوا أطيب الشراب، وضحكوا، ولعبوا، وتراشقوا بالثلج، وأنت جالس بالبيت تخشى أن تكون معهم، لا بدّ من أن يرفعك الله عزّ وجل، دُعيت إلى حفلةٍ إلى سهرةٍ، إلى دعوةٍ فيها ما لا يرضي الله فقلت: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين، بدوت وكأنك جاهل، خائف، هم منطلقون، لا يهابون شيئاً.

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[ورد في الأثر]

الله عزّ وجل يحب المؤمن الواثق:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

لا تكن ضعيف النفس، أنت وليُّ الله عزّ وجل:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة يونس)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت)

يحبك الله عزّ وجل أن تَعْتَزّ به، وأن تَثِقَ بنصره، وأن تثق بتوفيقه، وأن تثق بدفاعه عنك.

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من الآية 38)

لذلك:

(إِنّ الّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ)

دعوت إلى القرآن، إلى رب القرآن، إلى ربِّ السماوات، والأرض، دعوت إليه فتآمر عليك قومك فأخرجوك، لا بدّ من أن تعود إلى مكة، وهم مُطَأْطِئو الرؤوس.

لما استعرض أبو سفيان جيش رسول الله قال: يا ابن أخي، ما أعقلك ! وما أحكمك ! وما أرحمك ! وما أوصلك ! قال:

((ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟))

والله الذي لا إله إلا هو أرواحهم جميعاً مُعَلّقَةٌ بين شفتيه، عشرة آلاف سيفٍ متوهجٍ في ضوء الشمس، تنتظر هذه السيوف كلمةً من رسول الله.

((ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟))

هؤلاء الذين عذّبوه، هؤلاء الذي عذّبوا أصحابه، هؤلاء الذي أخرجوه، ائتمروا على قتله، قاطعوه، حاربوه، فعلوا به كل ما فعلوا..

(إِنّ الّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضعُ به آخرين، اقرأهُ، أتْقِن تجويده، احْفظه، تَفَهَّم تفسيره، اعْمل به، هذه المعاني كلُّها مستفاده من قوله تعالى:

(يَتْلُونَهُ حَقّ تِلَاوَتِهِ)

كتاب الله كتابك المُقَرر، اجعله كتاب الحياة، اجعله كتاب العُمر، احرص على فهم آياته آيةً آية:

(إِنّ الّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

المعنى الرابع:

جاء به ابن عبّاس رضي الله عنه، قال: حينما قال الله:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللّهِ أَفْوَاجاً (2) فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنّهُ كَانَ تَوّاباً(3))

(سورة النصر)

فهذا الصحابي الجليل فهم من هذه السورة نعي النبي عليه الصلاة والسلام، لماذا ؟ لأن الأنبياء أهدافهم الكبيرة تجعلهم إذا حققوا أهدافهم فلا شأن لهم بالحياة بعدها، أما عامّة الناس، يعيش أحدُهم ليأكُل، أو يأكل ليعيش، ما دام الأكل موجوداً، والبيت موجوداً، وزوجة موجودة، فهذا هو المطلوبُ عنده، أما العظماء فأهدافهم كبيرةٌ جداً، فإذا حققوها فلا معنى لحياتهم بعدها، لذلك:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللّهِ أَفْوَاجاً (2))

انتهت حياتك يا محَمَّد..

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

هكذا فهم الصحابي الجليل ابن عبّاس هذه السورة، وفَهِمَ هذه الآية أيضاً:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

فإذا رَدّك إلى مكّة، فتحت مكّة، ودانت لك الجزيرة، انتهت مُهِمَّتُك، وهذا الذي حصل، بعد الفتح بزمنٍ يسير جاءت وفاة النبي عليه الصلاة والسلام.

وبعضُهم قال:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

أي إلى الموت، أو إلى الحشر، أو إلى القيامة، أو إلى الجنة، وبعضُهم يَفْهم هذه الآية فهماً عملياً، أي إذا أراد أن يسافر، وتمنى على الله أن يرجع، لا أن يرجع في نعش، بل يرجع على قدميه يتلو هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

الإنسان يسافر فيرجع، أو لا يرجع..

على كلِ المعاني كلها:

المعنى الأول:

إذا دعوت إلى الله عن طريق هذا القرآن كما قال الله عزّ وجل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

إذا جاهدت الناس في تعليم القرآن فإن الله عزّ وجل رادُّك إلى معاد لك مقامٌ كبير.

المعنى الثاني:

لك حسابٌ عسير، سيسألك هل كنت في مستوى هذا القرآن ؟ النبي عليه الصلاة والسلام كان قُرآناً يمشي، السيدة عائشة سُئِلت عن خلقه فقالت:

((كان خلقه القرآن))

[مسلم]

فهل أنت في مستوى القرآن ؟ أنت مُطبِّقٌ للقرآن ؟ وهذا المعنى الثاني.

المعنى الثالث:

إذا تركت شيئاً لله عوّضك الله خيراً منه في دينك ودنياك.

المعنى الرابع:

أن الإنسان إذا حقق أهدافه الكبرى انتهت مهمته في الحياة، أي أنت لك مهمة في الحياة، قبل أيام خطر في بالي مثل:

الجامعات المتقدِّمة جداً التي فيها أموال طائلة تُبْذَل من أجلها إمكانيات هائلة، فيها حدائق غَنَّاء، فيها ملاعب، فيها مسابح، فيها مطاعم من الدرجة الأولى الخدمة فيها ذاتية، وفيها أماكن للنوم راقية جداً، طبعاً وفيها قاعات تدريس، وفيها مكتبات، ومخابر، إذا انتسب طالب لهذه الجامعة أعجبه مسبحها، وأعجبه ملعبها، وأعجبته حديقتها، وأعجبه الطعام فيها، وأعجبته غرفته، فصار يمضي وقته بين النوم في غرفته، وبين اللعب في الملعب، والسباحة في المسبح، والتنَزُّه في الحديقة، وهكذا، من ملعبها، إلى مسبحها، إلى حديقتها، إلى الطعام، إلى النوم، يومٌ إثْرَ يوم، وأسبوع إثر أسبوع، وشهر إثر شهر، ثم ماذا ؟ نسي أخطر ما في الجامعة، نسي الدراسة، نسي قاعات التدريس، نسي المُطالعة، نسي التهيئة للامتحان، نسي نيل الشهادة، والله الذي لا إله إلا هو مع أن هذا مثلٌ غريب لكنه أيضاً غير بعيد عن الحقيقة.

أي أن هذا الذي يلهو في الدنيا ؛ يأكل، ويشرب، وينام، ويعمل، ويحَصِّل الأموال، ويسافر، ويعود، وينسى لماذا هو في الدنيا ؟ لماذا خلقه الله عزّ وجل ؟ إنه في خسارةٍ كبيرة، إذاً: أنت لك مهمة هل عرفتها ؟

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة القصص)

قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

أجمل دعاء سمعته مرة من رجل قال لي: الحمد لله على وجود الله، الله يعرف المهتدي من الضال، والمُحِق من المُبطل، والصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق، الله يعرف، أي إذا توهَّم الناس أنك غير صادق، وأنت عند الله صادق فلا تثريب عليك، إذا اتهمك الناس بأنك غير عالم، وأنت عند الله عالم فلا تثريب عليك، إذا اتهمك الناس بأنك غيرُ مخلص، وأنت مخلص فلا يهُمُّك الأمر، لأن علاقتك مع الله عزّ وجل.

لكن لو كان معك كيلو معدن، وقد استطعت بذكاءٍ كبير أن توهم الناس بأنه ذهب فصدّقوك، فأنت الخاسر، هذا الذي معك حديد، وإذا كان معك كيلو ذهب، وظنّوا أنه حديد أو معدن رخيص فأنت الرابح، علاقتك مع الله فقط..

ـ من عرف نفسه ما ضَرّتْهُ مقالة الناس به.

ـ كُن مع الله ولا تُبال.

ـ كن مع الله ترَ الله معك.

قال سيدنا عمر لرسول قائد الجيش الذي جاء يبشّره بالنصر: **" من الذين قتلوا في القادسية يا فلان ؟** قال: مات خلقٌ كثير، قال له: من هم ؟ قال: إنك لا تعرفهم، فبكى سيدنا عمر، وقال: **<< وما ضَرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم>>.**

من أنا ؟ فإذا عرف الله انتهى الأمر، إذا عرف نيتك وإخلاصك، وصدقك واستقامتك، وتَحَرّيك للحق، لِيَقُل الناس عنك ما شاؤوا، وكلامهم لا وزن، له لا قيمة له، كما قال النبي الكريم:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند ضعيف]

العبرة أن تكون في رضوان الله، أن تكون صادقاً مع الله، أن تكون مُخْلِصاً مع الله، أن تكون عند الأمر والنهي، أن تكون في طاعة الله..

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتـقي الله البـطل

***

قال أحد العلماء الكبار في العصور السابقة، ويبدو أنه لسببٍ من غيرةٍ، أو عداوةٍ، أو حسدٍ، رَوّج عنه بعض خصومه ما رَوّجوا، فقال له واحد ذات مرة: والله يا سيدي، إني أُشْفِقُ عليك مما يُقال عنك، فقال: هل قلتُ أنا عنهم شيئاً ؟ قال: لا والله، قال: إذاً عليهم فأشفق.

عليهم وليس عليّ، أنا لم أخالف أمر الله إطلاقاً، هل قلت عنهم شيئاً ؟ قال: لا، قال: إذاً عليهم فأشفق، فإذا كنت مع الله فلا تُبال، إن الله لا يتخلّى عنك، ولا يُسْلِمُك لأحد، ولا يفضحك، لأنه هو الولي الحميد:

(قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

أحياناً يكون الضال طليق اللسان، قوي الحجة، عنده قوة تأثير، وهيمنة على الناس، والمُحِق أحياناً يكون قاصراً، فيتوهّم الناس أن الحق مع فلان، النبي قال هذا، قال:

((لعل أحدكم ألْحَنُ بحُجّتِهِ من الآخر))

[البخاري]

جاء خصمان إلى النبي، واحد طليق اللسان قوي الحجة، حلف، وجاء بأدلة أن الحق معه، قال:

((فإذا قضيت له بشيء، فإنما أقضي له بقطعةٍ من نار))

انظر إلى هذا الحديث، أي إذا نجوت من النبي فإنك لا تنجوَ من الله عزّ وجل.

مثلاً: يقول لك: أنا تزوجت زواجاً شرعياً، بإيجاب، وقبول، وشاهدي عدل، ومهر، ولا يوجد أي مخالفة شرعية، ولكن في نيّتي أن أطلقها بعد أن أنتهي من الدراسة في هذا البلد، قد تنجوَ من القضاء الإسلامي، لأن العقد شرعي فعلاً، الزواج شرعي، إيجاب، قبول، هناك ولي، شاهدا عدل، مهر، لا توجد أي مشكلة، لكن لست على التأبيد، في نيّتك أن تطلقها، هل تنجوَ من الله عزّ وجل ؟ لا تنجو، الله عزّ وجل له أمر تكليفي، وله أمر تكويني.

مثلاً: أمرنا بقطع يدِ السارق، هذا أمر تكليفي، وربنا أحياناً يقطع يدَ السارق بأمر تكويني، أي بحادث، فإذا لم تقطع اليد بأمرٍ تكليفي، فإذا عُطِّل هذا الأمر أو لم يُطبق، قد تُقْطَع هذه اليد بأمرٍ تكويني، إذا نجوت من تدمير المال، أو من إتلاف المال بأمرٍ تكليفي، فإنك لا تنجو من أمرٍ تكويني.

إذا امتنعت عن دفع الزكاة قد يأتي أمرٌ تكويني فيأكل الأخضر واليابس، ودليل إخلاص النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)

(سورة القصص: من الآية 86)

مَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ

أي أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يعلم أنه سيكون نبياً، دليل إخلاصه أنه لم يكن يعلم، لو أنه يعلم لكان مُفْتَرياً، لم يطلبها، ولا فكر بها، ولا خطرت في باله:

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ)

لو أن هذه الدعوة النبوية ليست من عند الله عزّ وجل لعرف النبي ما يفعل، لكن لأن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يعلم إطلاقاً أنه نبي، وأنه رسول، وأن كتاباً سَيَتَنَزَّلَ عليه، هذا يؤكِّد إخلاصه لله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ)

حتى إن قوله تعالى:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى (7))

(سورة الضحى)

ما هو الضلال في حَقّ النبي ؟ النبي رأى قومه منحرفين، ضائعين، شاردين، تائهين، جاهلين، وليس عنده الوسيلة كي يهديهم، كان في حيرةٍ شديدة من أمره، ماذا يفعل؟ فلما جاءه الوحي:

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ)

(سورة الحجر: من الآية 94)

هذا هو معنى الضلال، أي أنه لم يكن يعرف ما الطريق إلا هدايتهم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ)

فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ

الآن ما معنى إلا رحمةً من ربك ؟ أي حينما ألقي إليك هذا الكتاب كان إلقاؤه برحمةٍ من ربك، أراد أن يرحمك ويرحم أمتك:

(فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ)

(سورة القصص)

المعنى الأول:

أي لا تكونن معيناً لهم، أي أنّك لا تفعل هذا، وهذا نهيٌ المقصود منه أُمّته بالتبعية، لذلك، **من أعان ظالماً سلّطه الله عليه**، ومن أعان ظالماً ولو بشطر كلمة، فإذا كان لك صديقٌ موظف، وسوف يوقِع عقوبة بحق موظف صغير، وأنت شعرت أن هذا الموظف مظلوم، قال لك: ما هو قولك ؟ لم تقل له شيئاً، ولكن هززت له برأسك، فأنت قد أعنته على هذا الظلم، **من أعان ظالماً ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ على جبينه آيسٌ من رحمة الله**، إذاً:

(فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ)

المعنى الثاني:

لا تكونن ظهيراً لهم، أي لا تكونن بين ظَهْرَانِيهم، **من أقام في بلد المشركين فقد برئت منه ذمة الله.** أنت ساكن في بلدك الإسلامي، توجد مجالس علم، وتوجد مساجد، لك أهل، لك دخل مقبول ويكفيك، ولكن أنت طموح، فذهبت إلى بلدٍ ترتكب فيه فاحشة الزنا على قارعة الطريق، أينما تحوّلت فالمعاصي من كل جانب، من أقام مع المشركين فقد برئت منه ذمة الله، وأغلب الظن أن هذا الذي يعتَدّ بنفسه، ويقيم في بلد الكفر أغلب الظن أنه بعد مدةٍ ليست بالقليلة يصبح منهم، يقول لك: يا أخي، والله انجرفت والتيار قوي، أربعون محطة تعمل أربعا وعشرين ساعة باستمرار، شيء مغرٍ، طبعاً من أقام مع المشركين برئت منه ذمّة الله، قال العلماء:

(فَلَا تَكُونَنّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ)

بمعنى لا تُقِمْ معهم.

المعنى الثالث:

قال بعضهم: هذه أمرٌ بالهجرة، لماذا هاجر النبي ؟ من هذه الآية:

(فَلَا تَكُونَنّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ)

(سورة القصص: من الآية 87)

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

أدعُ إلى معرفة ربك، وادعُ إلى طاعة ربك، وادعُ إلى عبادة ربك:

(وَلَا تَكُونَنّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة القصص)

كن خالصَ الطاعة، وخالص الوجهة، وخالص النية.

أحياناً الإنسان يكون مطيعاً لله، لكن الوجهة لغير الله عزّ وجل، كأن يلهو بعمله، وبشغله، أحياناً يكون مطيعاً لله، وله وجهة إلى الله، مطيع وله وجهة، وخالص النية:

(وَلَا تَكُونَنّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ)

(سورة القصص: من الآية 88)

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ، أيُّ جهةٍ تدعوها مع الله فهي باطلة:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

(سورة القصص: آية " 88 ")

لماذا لا تدعُ مع الله إلهاً آخر ؟ لأنه لا إله إلا هو، هذه دعوة باطلة، هذا تزييف للحقيقة، هذا وهم، هذا جهل، هذا تصوُّر كاذب:

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ)

لأنّه:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص)

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ

المعنى الأول:

من معاني هذه الآية: أي أن أي عمل في الدنيا مهما بدا عظيماً، أخي هذه البناية فيها مئة واثنا عشر طابقًا، بُنِيت من الحديد الصرف، فيها ثلاثون مصعداً، هذا المعمل يغطي العالم بإنتاجه، أُقيم نفقٌ تحت البحر بين فرنسا وإنكلترا، شيء جميل، بني أطول جسرٍ في العالم، هذه أجمل، وصلنا إلى القمر، قال: كل شيء هالك إلا ما ابتغي به وجه الله، هذا معنى من معان هذه الآية:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ)

تأتي يوم القيامة:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2))

(سورة التكوير)

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(4))

(سورة الانفطار)

مهما كان العمل عظيماً، والبناء شامخا، والجسر طويلا، والتقنيات عظيمة، وإنجازات، اكتشفنا الفيروس الفلاني، عملنا كذا، وصلنا إلى أعماق البحار، وصلنا إلى الفضاء، أرسلنا مركبة إلى المشتري، بقيت ست سنوات تسير بسرعة ثلاثين ألف كيلو في الساعة، قال:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

أي ما ابتُغي به وجه الله، الأنبياء أعمالهم خالدة، وغيرهم أعمالهم بائدة، خالدة وبائدة، هذا المعنى الأول:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

المعنى الثاني:

كل شيءٌ هالكٌ مستقبلاً:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ)

(سورة يونس: من الآية 24)

في كل منظر للمدن الغربية ؛ الحدائق، وناطحات السحاب، والشوارع، والنظافة، والترتيب، والجسور، والحدائق العامة، وحدائق الحيوان، والمتاحف، والأبنية، والأدراج المتحركة:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً)

ما هذه الخراب ؟ كان هنا مدينة اسمها باريس:

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً)

هذه قيام الساعة..

(كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس: من الآية 24)

إذاً:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ)

مستقبلاً.

المعنى الثالث:

الإنسان وجوده غير ذاتي، فهو في حكم الهالك، إذا كان عندك آلة متحرّكة كهرباؤها من عندك، أنت في أي لحظة تضغط على الزر فتوقفها، هل لها أن تفتخر بحركتها؟

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ)

هالك لأن وجوده غير ذاتي، لولا أن الله تجلّى عليه لما كان، كن فيكون، زُل فيزول، فإما أنه هالكٌ مستقبلاً، أو أنه الآن هالك.

الإنسان استيقظ الصبح، ولا علة فيه، الله شاء لك ذلك، إذا كانت زوجته نائمة بجواره، فجسّته فرأته شديد البرودة، فاستيقظت فرأته ميتاً، مَسّت يدها يده في أثناء الليل فشعرت ببرودة في يده، فاستيقظت فإذا هو ميت، فإذا استيقظ أحدنا صباحاً يرى، ويسمع، حركته صحيحة، أجهزته وأعضاؤه، معنى هذا أن الله سمح له أن يستيقظ، أنت في الأساس هالك، والنائم ميت:

(ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ)

(سورة الأنعام: من الآية 60)

إذاً:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ)

ما معنى شيء ؟ كل شيء أي كل موجود مهما بدا تافهاً، الشيء تعني الموجود:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

لم يقل: الحُكْمُ له، بل قال:

(لَهُ الْحُكْمُ)

لو قال: الحكم له، ولغيره، أما له فقصراً وحصراً، هو الحاكم، الأمر أمره، القرار قراره، الفعل فعله، التنفيذ تنفيذه:

(لَهُ الْحُكْمُ)

وأما أنتم فأنتم مُخَيَّرون:

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة القصص)

وسوف يحاسبكم:

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ)

وحده.

ما هو الشرك ؟ أن ترى الحكم بيدِ غير الله، أن ترى أن فلاناً ينفعك، بإمكانه أن ينفعك، بإمكانه أن يَضُرَّك:

(لَهُ الْحُكْمُ)

حصراً، وقصراً:

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

لتحاسبوا عن أعمالكم صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (01-16): تفسير الآيات 1 - 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-09-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب تسمية سورة العنكبوت:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة العنكبوت، وقد سميَّت بهذا الاسم لورود آيةٍ في هذه السورة تتحدَّث عن العنكبوت.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4))

أيها الإخوة الأكارم.

(الم)

القول في الحروف المقطعة:

إذا قُلت كما قال بعض المفسِّرين: الله أعلم بمراده، فهذا حق، وإذا قلت: هي أوائل أسماء الله الحُسنى فقد قُلت حقاً، وإذا قلت: هي أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام فقد قلت حقاً، فإذا قلت: إن القرآن الكريم المعجز من هذه الحروف كان إعجازه، وهذه الحروف متداولةٌ بين أيديكم..

(فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(23))

(سورة البقرة)

فهو حق.

وقد مرَّ بنا سابقاً في مرَّاتٍ عديدة تفسير هذه الحروف التي افتُتِحَتْ بها بعض السور، أمَّا قول الله عزَّ وجل:

(أَحَسِبَ)

أصل الاستفهام واستعمالاته اللغوية:

هذه الهمزة همزة استفهام، تقول: أفلانٌ حضر ؟ أأنت قلت لفلان كذا ؟ الاستفهام كما تعلمون طلب العلم مجهولة، ما اسْمُكَ ؟، كم الساعة ؟ ما المبلغ الذي تملك مثلاً ؟ هذا هو الاستفهام، ولكن الاستفهام يخرج عن غرضه الأساسي إلى أغراض كثيرة، من هذه الأغراض التقرير..

(أَحَسِبَ النَّاسُ)

معنى: أَحَسِبَ النَّاسُ

بمعنى حسِبَ الناسُ، هذا استفهام تقريري، وهناك استفهامٌ إنكاري، وهناك استفهامٌ توبيخي، وهناك استفهامٌ تَعَجُّبي، وأنواع الاستفهامات كثيرةٌ جداً، كلُّها خرجت عن مقصد الاستفهام الأول.

على كلٍ هذا الاستفهام في مطلع هذه الآية استفهامٌ تقريري، هذه:

(أَحَسِبَ النَّاسُ)

تعني لقد حَسِبَ الناس، هذا هو المعنى، أما معنى حَسِبَ بمعنى ظنّ، وليس غريباً عنكم أن تعرفوا أن الوهم، والشك، والظن، وغلبة الظن، واليقين، والقطع، هذه مستويات قبول الحقيقة، قد تتوهَّم، وقد تشك، وقد تظن، وقد يغلب على ظنِّك، وقد تتيقَّن، وقد تَقْطَع، أعلى درجات اليقين هو القَطع، لذلك القرآن قطعيُّ الثبوت، قطعي الدلالة وظنيُّ الدلالة..

(أَحَسِبَ النَّاسُ)

هذه بمعنى أظنّ الناس، حَسِبَ بمعنى ظنّ، عندنا فعل حَسِبَ، وعندنا فعل حَسُبَ، أي افتخر بحسبه، وعندنا كذلك فعل حَسَبَ، أي عَدّ، وعندنا أيضاً اسم فعل (حَسْبُكَ)، وهذه الكلمة اسم فعل أمر، بمعنى يكفي، اللغة العربيَّة دقّتها تأتي من أن السين إذا حركتها فلكل حركة معنى، حَسَبَ، وحَسُبَ، وحَسِبَ، وحَسْبُ، حَسُبَ أي افتخر بحسبه ونسبه، وحَسِبَ بمعنى ظنّ، وحَسَبَ بمعنى عدّ، وحَسْبُكَ هذا، أي يكفيك هذا..

(أَحَسِبَ النَّاسُ)

أي أيظنُّ الناس ؟

(أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

قل ما شئت، قل: أنا مؤمن، فهل تُترَك بلا امتحان ؟ قل: أنا أحمل شهادة دكتوراه، هكذا ؟ أفتدع الدولة إنساناً يضع على غرفة بيته لقب دكتور من دون أن تُحاسبه، من دون أن تطالبه بالشهادة، وبالترخيص، هكذا ؟ إنسانٌ مثلك فرضاً لا يقبل منك أن تدّعي شيئاً لست في مستواه..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا)

لا بد للمؤمن من امتحان وفتنة:

أن تقول أنا مؤمن، ثم تأتي ظروف ضاغطة، وظروف مُغرية، فماذا تفعل ؟ لو أن الأمر بسيط يكفي أن تقول: أنا مؤمن والحمد لله، وأن تصلي هذه الصلوات الخَمْس، وأن تصوم رمضان، وأن تحجَّ البيت، وأن تؤدي زكاة مالك، وانتهى الأمر، لكانت القضية سهلة جداً، ولكن إذا قلت: أنا مؤمن، فهناك امتحاناتٌ لا نهاية لها، لابدَّ من أن تكشف من أنت.

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: من آية " 179 ")

ليس الإيماء بالادّعاء:

تقول: أنا أحبُّ الخير، لكنَّك قاعدٌ في البيت، يأتي من يطرق بابك، ويقول لك: هل لك في خيرٍ ساقه الله إليك ؟ تعتذر، إذاً هذه دعوى، هذا الكلام كذب، تقول: أنا أحبُّ الخير، أنا أحب التضحية، أنا أحب الفداء، أنا أحب الصدقات، أنا أحب مجالس العلم، فيأتيك زائرٌ قليل الشأن من غير موعدٍ تُضَحِّي بمجلس العلم من أجله، أين حبُّك لمجالس العلم ؟ قل له: اذهب معي يا رجل، جئتني على غير موعد، وأنا عندي موعد، أيُّ شيءٍ تدَّعيه، أي شيءٍ تقوله لابدَّ من أن تُكْشَفَ حقيقتك فيه، أنا أُحبُّكِ يا أمي حباً جماً، والله إن تزوَّجت لأفعلنّ كذا وكذا، ولأفعلنّ كذا وكذا، هذا كلام، فإذا تزوَّج قلب لأمِّه ظهر المِجَن، وكره بقاءها، واستثقل حياتها، وتمنَّى أن تموت، إذاً هذه دعوى وكلامٌ باطل، أنا أحب الله، ولن أعصيه أبداً، يأتيك إغراءٌ شديد تنهار قِواك، تنهار مقاوماتك فتعصي الله عزَّ وجل.

إذاً: لو أن القضيَّة بالادعاء لكانت القضيَّة سهلة جداً، لو أن الإنسان إذا قال: أنا مؤمن أفيعدّ مؤمناً ؟ وإذا قال: أنا محسن، أفيعدّ محسناً ؟ وإذا قال: **" أنا تقي، أفيعدّ تقياً ؟ وإذا قال: أنا طائع أفيعدّ طائعاً، القضيّة إذاً سهلة جداً، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:**

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا)

أن تقول: أنا مؤمن، وتُتْرَكْ بلا امتحان، بلا ابتلاء، بلا ظروف كاشفة، بلا ظروف تُلقي ضوءاً على حقيقتك، على نياتك إذاً لابدَّ من امتحان ليرى صدقك، يقول الإنسان لزوجته: والله لن أتخلَّى عنكِ ما حييت، فإذا أصابها مرضٌ عُضال استثقل حياتها، وتمنَّى لو يطلقها، ويرتاح منها، إذاً هو كاذب بهذا الكلام، فلك أن تقول ما تشاء، قل ما شئت، وعلى الله أن يكشفك على حقيقتك، ادَّع الورع، فهناك

ظروفٌ تكشف ما إذا كنت ورعاً أو غير ورع، ادّع الطاعة، فهناك ظروفٌ تكشف حقيقتك، ادّع برّك لوالديك، فهناك ظروفٌ تكشف حقيقتك.

ذات مرّة سُئل الإمام الشافعي: يا إمام، **" أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء ؟ فتبسّم، وقال: لن تُمَكّنَ قبل أن تُبْتَلَى ".**

يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

من أنواع الفتن والبلاء:

1 – الزوجة:

الزواج ابتلاء، الله عزّ وجل يريد أن يرى طاعتك بعد الزواج هل تستمر ؟ التزامك في المسجد هل يَضْعُف ؟ اندفاعك للعمل الصالح هل يخبو بعد الزواج ؟ إذاً الزوجة كانت لك فتنة، امتُحِنْتَ بها فرسبت، أم أن الزواج لم يُغَيّر في التزامك نحو المسجد، ولا في أعمالك الصالحة، ولا في اندفاعك للخير، ولا في طاعتك لله عزّ وجل، ولا شيء غير طاعة الله تحرص عليها الحرص كلّه، والزوجة إن رضيتْ، أو لم ترض سيّان، مادام الله راضياً، الزواج فتنة.

2 – المال:

أما بالنسبة للمال فقد يقول أحد الناس: والله لو آتاني الله مالاً لأفعلنّ كذا وكذا، ولأنفقنّ منه على كل محتاج ومسكين، ولأبنينّ المساجد والمستوصفات، ولأنفّقنه على الأقارب والأيتام، آه، لو أن معي مالاً كثيراً لفعلت وفعلت، فربنا عزّ وجل يؤتيه مالاً، فإذا هو يبخل، ويضنُّ به، إذاً رسب في الامتحان.

كلكم يعلم أمر ثعلبة، قال: **" يا رسول الله أدعو الله أن يغنيني "، قال: يا ثعلبة، قليلٌ تشكره خيرٌ من كثيرٌ تكفره ".**

النبي عليه الصلاة والسلام كأنه رأى أن هذا الإنسان إذا وُضِعَ على مِحَكِّ الامتحان فلن ينجح، أصرّ ثعلبة إصراراً شديداً فدعا النبي له بالغنى، فتوالدت أغنامه حتّى ملأت شِعابَ مكّة، واغتنى غنىً واسعاً، ولقد كان ثعلبة حمامة المسجد قبل غناه، هكذا سمّاه الصحابة، لأنه ما فاتته تكبيرةُ الإحرام خلف سيّد الأنام في كل صلاة.

فلمّا اغتنى، وملأتْ غنمه شِعاب مكّة غاب عن مسجد رسول الله تغيّر، ثم أبتْ نفسه أن يقعد على أرض المسجد، بعد عامٍ بعث إليه النبي عليه الصلاة والسلام من يأخذ زكاة ماله، فقال ثعلبة لرسول رسول الله: **" قل لصاحبك لا زكاة في الإسلام"**، فقال هذا الرسول: **" أو ما تراه صاحباً لك ؟!.. صاحبي لي.. أجمعت مع منع الزكاة كفرك بمحمّد ؟ ".**

وربنا عزّ وجل قال:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ)

(سورة التوبة)

فالمال امتحان، والزواج امتحان، تسمع درساً في المسجد عن الصبر، فتقول: يا أخي، الصبر صفة المؤمنين ؟ والله لئن ابتلاني الله بمرض لأصبرَن، ولأمرّغنّ وجهي في أعتاب الله عزّ وجل، ولأسألنّه أن أكون كذا وكذا، فيأتيه المرض، فيكفر، ويتبرّم، ويقول: يا رب، ماذا فعلت أنا حتى أبتلى ؟ فالمشكلة أنك تستطيع أن تقول ما تشاء، أو قل ما تشاء، ولكن الله عليه أن يكشفك على حقيقتك، كيف أنت في الفقر ؟ وكيف أنت في الغنى ؟ هل أنت في الفقر صابر ؟ وهل أنت في الغنى شاكر ؟

3 – المرض:

كيف أنت في الصحّة ؟ هل هذه القوّة توظِّفها في طاعة الله، أم في نيل شهواتك ؟

وكيف أنت في المرض ؟ هل ترى أن هذا المرض علاجٌ إلهيٌ رحيم، وأن الله بيده كل شيء ؟

4 – السفر:

يمتحنك في الإقامة وفي السفر، إذا سافرت خارج بلدك، هل تضعُف استقامتك وتقول: لا أحد يعرفني هنا ؟ فإذا كانت استقامتك في بلدك بسبب خوفك على مكانتك الاجتماعيّة والدينيّة، يبتليك الله بالسفر، بالسفر ماذا تعمل ؟ تنظر إلى النساء الكاسيات العاريات، تقف مَلِيّاً أمام الحانات، تقرأ ما لا يُسمح لك أن تقرأه، وأنت في السفر، السفر ابتلاء، امتحنك الله عزّ وجل، إذاً استقامتك في بلدك ليست حباً بالله عزّ وجل بل حفاظاً على مكانتك، فالله عزّ وجل يتولّى أن يكشف كل إنسانٍ على حقيقته بشكلٍ دقيق، ربنا عزّ وجل يقول::

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

لابدَّ من أن يُبْتَلى الإنسان، قد يكون في وضع ليس مُضطراً أن يدخل عليه مالٌ حرام، له دخلٌ مشروعٌ ويكفيه، قد تضيق الأمور ويقلُّ دخله، أو تقلُّ قوّته الشرائيَّة، عنده أولادٌ كُثُر، عنده عيال، الراتب لا يكفي، السلع غالية، قبل سنوات كان يقول: والله لو قَطّعوا يدي إرْبَاً إرباً فلن آكل درهماً حراماً، كلام طيّب، ولكن حينما ضاقت به سُبُلَ المعيشة مدَّ يده إلى الحرام، إذاً هو ما كان صادقاً بهذا الكلام بل كان كاذباً.

هل تدَع وزارة الصحّة إنساناً يكتب على بيته: الدكتور فلان، يحمل شهادة بورد الأمريكيَّة، ويكون كاذباً بهذا الكلام ؟ أين الشهادة ؟ أين التصديق ؟ أين الترخيص ؟ في أي جامعة درست ؟ ما الثبوتيّات ؟ ما الدلائل ؟ وزارة الصِحّة لا تسمح لإنسان أن يتلاعب، قد يدّعي إنسان ما الإيمان، وهو ينطوي على ضعفٍ في الإيمان، فيُوْضَع من قبل الله عزّ وجل في ظروفٍ صعبة، هذه الظروف الصعبة لابدَّ من أن يوضع فيها كي يُكْشَفَ على حقيقته.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

قد يقول: أنا تقي، أنا لا أتأثّر بالنساء الأجنبيّات إطلاقاً، هذا مجرد كلام، يضعه الله في ظرفٍ عصيب فإذا قَدَمَهُ تزل، لماذا ؟ لأنه كان كاذباً في دعواه، فالإنسان كلّما كَبُرَ عقله كلّه ضبط لسانَهُ، لم يتكلّم كلماتٍ ليس في مستواها..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

ما هي الفتنة ؟

ما هي الفتنة ؟ بعض العوام يفهمون الفتنة بمعنىً محدود، الفتنة لا تعني الشر، الفتنة تعني أن تُكْشَفَ حقيقتك، فلان مثلاً معه مبلغٌ يسير، وجاءه صديقٌ حميم، وطلب منه هذا المبلغ، فقدمه له، نقول: هذا الإنسان فُتِنَ فنجح في هذا الافتتان، أي أنه دُعِيَ إلى عملٍ صالح، إذا كان معه مبلغٌ يسير فاستجاب سريعاً لرد لهفة صديقه، ودفع هذا المبلغ، الله عزّ وجل فتنه، أي أظهر كماله، أظهر حبَّه للخير، أظهر حُبَّه للإحسان، أظهر مؤاثرته لأخيه، أظهر اندفاعه للعمل الصالح، ليس معنى الفتنة أن تَسْقُط، الفتنة تعني أن تنجح، أو أن تسقط.

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا)

(سورة طه: من آية " 40 ")

أيْ أظهرْنا ما في نفسك، لذلك الإنسان له مظهر وله مَخْبَر، له كلمات يَدّعيها، وله حقيقة ينطوي عليها، له علاقات خارجيَّة منضبطة وله علاقات خاصّة غير منضبطة، والله سبحانه وتعالى لابدَّ من أن يكشف هذا الإنسان.

حدّثني أخ تاجر عنده موظّف، قال لي: أغدقت عليه مبلغاً، أي راتباً جيّداً يكفيه وأسرته، وكان صاحب المتجر يشعر أن هناك نقصاً في المواد التي في الدكان، أو نقصاً في المبالغ، قال لي: ذات يومٍ أرسلت له شخصاً من قِبَلي بعد الساعة الثامنة ليشتري حاجات، وأنا جئت إلى مكتبي في الساعة الحادية عشرَة، وسألته: هل جاء أحد ؟ قال له: لا، هل اشترى أحد ؟ قال له: لا، وأمرت هذا الإنسان أن يأتيني بعد الظهر ليرُدّ البضاعة أمامي، جاء بعد الظهر فلمّا دخل إلى المحل، ومعه البضاعة ليردها: اصطبغ وجه الموظف باللون الغامق، وشعر بخيانته، فهذا إنسانٌ امتحن إنساناً، ورسب، أعطاه معاشاً معقولاً يكفيه ؛ لكنّ هذا الموظّف في هذا المحل التجاري حدّثته نفسه أن يأخذ ما ليس له، أن يأخذ من غَلّة الصندوق، وأن يأخذ من بعض البضاعة، فلمّا شكّ صاحب هذا المحل لجأ إلى هذا الموقف الذكي، وأرسل من يشتري بضاعةً قبل أن يأتي هو، وسأله وأكّد عليه: هل جاء أحد ؟ هل اشترى أحد ؟ قال له: لا، أمر الشاري ثانيةً أن يعود بعد الظُهر ليردّ البضاعة، فكُشِفَ هذا الموظّف، إذا: الإنسان قادر على أن يكشف حقيقة إنسان مثله، فكيف خالق الأكوان ؟

قل ما شئت، أسبغ على نفسك ما شئت من الصفات، والله عزّ وجل متكفّلٌ أن يكشف كل إنسانٍ على حقيقته..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

يقول لك أحدهم: أنا لا أتأثر بالنظر إلى النساء، هذا كلام كاذب، التقوى أقوى، الشرع أقوى وأحوط، هذه الدعوى تعقبها زَلّةُ قدمٍ كبيرة، إذاً كان كاذباً في هذا الإدعاء، فلك أن تدّعي مع الله الصلة، و لك أن تدّعي مع الناس الإحسان، و لك أن تدعي مع نفسك الورع، و لك أن تدعي ما شئت، والله سبحانه وتعالى لابدّ من أن يكشف حقيقة الإنسان في هذه الدنيا قبل أن يموت، هذه آيةٌ خطيرةٌ جداً.

فالعباد مكشوفون أمام الله عزّ وجل، نفسك صفحةٌ بيضاء، الدخائل، الصراعات، المشاعر، الخواطر، الطموحات، النيات العميقة، النيات البعيدة، قد تعقد شراكةً، وتقسم لشريكك أن هذه الشراكة أبديّة، وأن الموت وحده يفرّق بيننا، وأنت في أعماق نفسك تخطِّط لهذه الشركة أن تستولي عليها بعد أمدٍ طويل، بعد أن تكتشف سرّ هذه المصلحة من شريكك، الله عزّ وجل..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

فلذلك ليحرص الإنسان حِرصاً بليغاً على ألا يتكلّم بما ليس فيه، والمؤمن لا يكذب، وهو صادق، ويتكلّم الحقيقة، فإذا أنِسَ الله منك صدقاً، واستقامةً كان الامتحان يسيراً، الامتحان عملية كشف هذا المعدن الطيّب، لذلك المؤمن لا تزيده الأيّام إلا رفعةً، لأن حقيقته عالية جداً، فما على الامتحان إلا أن

يكشف جوهره الثمين، أما غير المؤمن فحقيقته متدنيّة، مظهره مقبول، له مظهر طيّب، له مظهر صالح، أما حقيقته غير طيّبة، لذلك الأيّام تفضحُهُ وتكشفه على حقيقته.

نسأل الله عزّ وجل أن يثبّت أقدامنا، وأن يسترنا بستره الجميل..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أي أيها العباد، لا تحسبوا أنني غافلٌ عنكم، أيها العباد، لا تحسبوا أنكم بدعواكم تكذبون على الناس، وتفعلون ما تريدون، إنني كفيلٌ أن أكشفكم على حقيقتكم..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا)

تقول: أنا كذا، ومتروك بلا امتحان ؟ فلو أن طالباً قال: أنا أقوى الطُلاب في الرياضيات، فالأب قد يصدِّق ؟ يقول له من خلال سؤال بسيط: أين مذاكراتك ؟ أين علامات الامتحان، ائتني بها ؟ أين جلاؤك ؟ طالب هل بإمكانه من أن يدَّعي أنه أقوى الطلاب في الرياضيات بلا دليل، بلا امتحان، بلا أوراق مذاكرات، بلا أوراق امتحان ؟ وقد يقول آخر: أنا أقوى الطلاب في اللغة العربيّة، أنا الأولي في المدرسة، كلامٌ لابدّ من أن يُكْشَف مضمونه.

قد يذهب طلابٌ إلى بلاد الغرب ليتلقّوا العلوم، يكذبون على أوليائهم: لقد نجحنا إلى الصف الثاني، ولقد... وبعد أربع سنوات تأتي وثيقتهم بالطرد من الجامعة، إذاً مع إنسان مثلك لا تستطيع أن تكذب، مع إنسان عادي لابدّ من أن يكشف الكذب آجلاً أو عاجلاً، فهل مع خالق الأكوان تنطلي عليه هذه الدعوى ؟

إنه حديث يصم ظهر المدّعين:

ورد في الحديث:

((إِنّ الرّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنّةِ))

لم يقل: إنه من أهل الجنّة، بل يعمل بعمل أهل الجنّة، أي أنه يتمسّح بالمؤمنين، يقلِّدهم لينتزع إعجاب الناس، كي تروج تجارته، كي تزداد مبيعاته، كي يثق الناس به، كي يعطونه الأموال الضخمة، إذاً:

((إِنّ الرّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنّةِ حَتّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ـ وهو كشف حقيقته ـ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النّارِ فَيَدْخُلُ النّارَ))

(صحيح البخاري: عن " عبدالله ")

هذا معنى الحديث، إنه منافقٌ كبير، إنه يعمل صالحاً فيما يبد للناس لينتزع إعجابهم، ليحقِّق مصالحه، ليروّج بضاعته، ليرفع مستوى مبيعاته، هكذا.

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

اقرؤوا التاريخ: وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

اقرأ التاريخ، اقرأ تاريخ الأنبياء والمرسلين، اقرأ تاريخ الذين عاصروا الأنبياء، اقرأ تاريخ الأمم والشعوب، ماذا ترى ؟ ترى أن الله سبحانه وتعالى كشف كل إنسان، الخائن كشف خيانته، والصادق كشف صدقه، والمستقيم كشف استقامته، والدَجّال كشف دَجَلَهُ، وأحياناً يقع حدث في العالَم فيكشف أوراق الجميع، حدث واحد، هذا الإنسان كان يدّعي كذا فانكشف على حقيقته، وهذا الإنسان، وهذا الإنسان، وهذه الجهة، وهذه الجهة، أحياناً تقع الأحداث لتكشف الأوراق، وهذا من فتنة الله عزّ وجل للناس..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

فهذا الذي ينفق أموالاً طائلةً على ملذّاته، والأمور مغطّاة، ولا أحد يعرف عنه شيئاً، وفجأةً ينكشف أمره، وتفضح دخائله..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أحياناً بعض الناس يتخذ من المظاهر الدينيّة ستراً له، فجأةً يُكْشَفُ أمره، يُضْبَط بعمل شائن، بعمل قذر، بعمل منحرف.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

فكلّما ازدادت معرفتك بالله عزّ وجل ازداد خوفك منه، وازداد قلقك، لأن الله عزّ وجل لابدّ من أن يكشف الإنسان..

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: من آية " 179 ")

لابدّ من كشف الأوراق، لابدّ من كشف الدخائل، والله يسترك مرّةً ومرّةً و مرّةً، ثمّ يفضحك لتبدو على حقيقتك، لئلا يُغَشّ الناس ويخدعون، لئلا تُغَشّ أنت بنفسك، هذه من سنة الله في خلقه، فالإنسان أحياناً تكون له علاقات شائنة، وتكون له أعمال خَفِيَّة..

(مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ(63))

(سورة المؤمنون)

وأحياناً يكون للإنسان مخالفات في بيته بعد أن يُغَلِّق الأبواب، لكنّه يبدو أمام الناس بمظهرِ تقيّ ورع، ثم تشاء الأقدار وبطرائق عجيبة أن يُكشف في عُقْر بيته، يكشفه أهله في عقر بيته، أصدقاؤه، فلذلك هذه

الآية خطيرة، وهذه الآية عامّة، لم يقل الله: أحسب المؤمنون، ماذا قال ؟ لقد قال:

(أَحَسِبَ النَّاسُ)

وإن خالها تخفى على الناس تُعلَم:

وكلمة الناس شائعة، عامّة، أيْ أنّ أيّ إنسانٍ لابدّ من أن يُكشف على حقيقته، قل ما شئت، ادّع ما شئت، اظهر أمام الناس بأعلى الصفات، بأكرم حال، بأتقى مظهر، إذا كان لك أعمال أنت من دون هذه الأعمال لها عامل فهذه تُكْشَف لا محالة، ولكن الله ستّير يسترك المرّة تلو المرّة، فإذا علمَ أنك مقيمٌ على هذه المعصية فلابدّ من أن يفضحك كي تتوب منها، وكي تظهر حقيقتك، ولئلا تَغُشّ الناس، حتى إن بعضهم يقولون: الأجانب لهم مثل، قالوا: **" تستطيع أن تخدع الناس جميعاً لبعض الوقت، وتستطيع أن تخدع إنساناً لطول الوقت، أما أن تخدع جميع الناس لطول الوقت فهذا مستحيل "**، لذلك أحياناً حدث واحد يكشف أوراق الجميع، يفضح الجميع.

ذات مرّة تواجدت أسرة، وأسرة، وأسرة في حفل في فندق، وتكلّم إنسان من الأغنياء في ساعة غيبوبة، وقال: فلانة وفلانة وفلانة عشيقات له، ففضح كل زوجات هؤلاء على رؤوس الأشهاد، وهذه العلاقات الراقية فيما يبدو كلّها كُشِفَت خباياها وظهرت، علاقات خيانة زوجية في ساعة غيبوبة عن الوعي، وافتضح حال أولئك جميعاً على مرأى ومسمع مشهودين.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

الادعاءات والخفايا تُفْضَح، وتُكْشَف، والله عزّ وجل قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

أي خائن، إذا خنت صاحب هذا المتجر، إذا خنت زوجتك، إذا خانتك زوجتك، إذا خُنت شريكك، إذا خانك شريكك، إذا خنت جارك، إذا خانك جارك، أية خيانةٍ على الإطلاق فإنّ الله لابدّ من أن يكشفها..

(وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

والقصص التي تقرؤونها، وتسمعون عنها لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فهذه آية كما يقول بعض العلماء: تقصم الظهور، أنت علاقتك مع الخالق، فلا مزح مع الخالق، ولا تغطية، ولا تعمية، ولا ذكاء، لا مع الله خداع، ولا مخادعة.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

(سورة البقرة)

مع الله ليس هناك ماكر، ولا دَجّال، الله يكشف الناس جميعاً، فلذلك إذا كانت علاقة الإنسان مع الله

وحده فعليه أن يبني هذه العلاقة على الصِدق، وعلى الوضوح، وعلى الصفاء، وعلى الطهر، وعلى الاستقامة، وعلى الخضوع لله عزّ وجل ؛ وإلا فأية علاقةٍ أخرى تبنى على غير هذه العلاقة لابدّ من أن تُفْضَح.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

فهذه الآية كلها بدأت شرحها بمثل: إنسان اشترى عيادة، ووضع لافتة بأحلى مظهر، كتب عليها: الدكتور فلان الفلاني، اختصاصي في أمراض القلب، يحمل شهادة بورد من جامعة كذا، هكذا الأمور بلا محاسبة ؟ بلا كشف أوراق، بلا سؤال، بلا ترخيص، بلا إبراز شهادة ؟ مستحيل، أنت مع إنسان يكشفك، فكيف مع خالق الأكوان ؟

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

لابدّ من أن تُفْتَن، أحد الحُجّاج يطوف بالبيت ويقول: **" يا رب، هل أنت راضٍ عني ؟ "**، كان وراءه الإمام الشافعي، فقال له: **" يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتّى يرضى عنك ؟ "** فقال: **" يرحمك الله من أنت ؟**، قال: **" أنا محمدٌ بن إدريس الشافعي "**، قال: **" كيف أرضى عنه، وأنا أتمنّى رضاه، ما هذا الكلام ؟ "**، قال: **" يا هذا، إذا كان سرورك بالنِقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ".**

الإيمان الحقيقي يظهر في الشدائد:

تلاحظ أكثر الناس في الرخاء يقول لك: الحمد لله، يا رب، لك الحمد، الله متفضِّل، فهل هذا هو الإيمان؟ لا والله، الإيمان أن تأتي الشدائد وأن تقول معها: يا ربي لك الحمد، هذا فعلك، وهذه يدك الكريمة، وهذا قدرك، وهذا قضاؤك، وهذه حكمتك، وهذه رحمتك وأنا راضٍ بها، البطولة في الضرّاء لا في السرّاء، معظم الناس إذا جاءهم الإكرام الإلهي يحمدون الله عزّ وجل.

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(11))

(سورة الحج)

لذلك أنا دائماً أقول للإخوان الأكارم: البطولة أن يبدو حمدك وشكرك، وأن تبدو معرفتك بالله عزّ وجل في الشدائد، فليس من المعقول لإنسان أن يمتحن سيارة بالطريق الهابطة، مستحيل، أية سيارة مهما كانت رديئة الصناعة، مهما كانت قديمة، مهما كانت ضعيفة، مهما كان فيها خلل إنها في الطريق الهابطة تهوي سريعاً، لكن المركبة لا تُمْتَحَن إلا في الصعود، وأنت أيها المؤمن لا تُمْتَحن إلا في الشدائد، لذلك قال أحدهم للنبي عليه الصلاة والسلام:

((إني أحبُّك يا رسول الله، قال: انظر ما تقول، قال: والله إني أحبُّك، قال: انظر ما تقول، قال: والله إني أحبُّك، قال: إن كنت صادقاً فيما تقول للفقر أسرع إليكَ من شراك نعليك))

[ورد في الأثر]

ليس معنى هذا الفقر المادي، لكنّ هناك شدائد، تدّعي حبّاً لله عزّ وجل، تدعي طاعةً له، تدعي شوقاً إليه، تدّعي فناءً في ذاته، تدّعي هياماً به، فقد تفتن هذا المدّعي فتاةٌ، قد تفتن هذا المدّعي دُرَيْهماتٌ، قد يفتن هذا المدعي الأصدقاء، فالإنسان العاقل لا يدعي، لأنه يعامل خالق الأكوان الذي يعلم ما تخفي الصدور.

إذاً هذه الآية كما أقول لكم، وأنا والله صادقٌ في هذا الكلام: تقصم الظهر.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ)

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

لا بد لكل جامعة من امتحان فتنبه لامتحان الله:

بلا امتحان، فمثلاً جامعة ؛ قاعات التدريس، المدرّجات، الملاعب، المكتبات، المَطعم، المقاصف، الحدائق، قد كلِفت ألوف الملايين، والمخابر ؛ لكل طالب مجهر، وكل طالب له مخبر كيميائي صغير، ولكل أربعة طلاب أستاذ مشرف، ولكل عشرين طالبا أستاذ مدرّس، وأستاذ مصحِّح، وأستاذ باحث، وقد كلّفت هذه الجامعة الدولة ألوف الملايين، وقد قُبِلَ الطلاب فيها، فتصوّر فلا يجري امتحان ؟ هكذا تأتي وتحضر، وتسمع المحاضرات، وتفتخر أمام المجتمع أنك طالب جامعي، وتحمل قميصاً أبيض، وتمشي فيه بالطريق، وبعد ذلك تُعْطَى شهادة بلا امتحان ؟ أفتفعل هذا جهةٌ أرضيَّةٌ ؟ هذه الجامعة الضخمة لها امتحانٌ قاسٍ، لها امتحانٌ صعب، أحسب الطلاب أن ينالوا الشهادات العُليا بلا امتحان وبلا سؤال ؟! فهناك امتحان شفهي، وامتحان عملي، وامتحان تحريري، وامتحان لياقة، وامتحان مقابلة، والمواد كثيرة، مواد للفصل الأول، وأخرى للفصل الثاني، ونجاح ورسوب وإكمال، هكذا جامعة صغيرة لا ترضى أن تمنحك شهادة بلا امتحان، وخالق الأكوان تريده أن تدخلك الجنّة إلى الأبد، هكذا بركعتين تصليها، وليرتين تتصدق بهما، وانتهى الأمر، ركعتين قمت بهما، وليرتين ألقيت بهما إلى فقير، وانتهى الأمر ؟ تستنفذ العمر مع شهواتك على هواك، واختلاط، وذهاب وإياب، هكذا ؟ هذه سذاجة، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية..

((مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، ألا إنّ سِلْعَةَ اللّهِ غَالِيَةٌ، ألا إنّ سِلْعَةَ اللّهِ الْجَنَّةُ))

(سنن الترمذي عن أبي هُرَيْرَةَ)

تخطب ودّ الله عزّ وجل، وتطلب جنّةً عرضها السماوات والأرض، وتريد أن تكون من النُخْبَة، من صفوة الناس مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بلا عمل، بلا جهد، بلا مؤاثرة، بلا صبر، بلا تحمّل للمشاق ؟!

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

هكذا ببساطة وبسذاجة ؟ واللهِ إنّ إنساناً ذا ذكاء متوسّط لن تستطيع أن تحتال عليه، يقول لك: أين التوقيع ؟ أين شهادة المنشأ ؟ أين تصديق السفارة على صحّة هذا البيان ؟ تفضل قدِّم الثبوتيات، مع إنسان لا تستطيع أن تتلاعب ؛ أتتلاعب مَعَ خالق الأكوان ؟ لقد خاب ظنُّك.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا)

أخي أنا مؤمن، وأحسن منك إيماناً، خير إن شاء الله إنها دعوى لسان.

(وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

سنة الامتحان بين الرسوب والنجاح:

هذه سنّتنا في العباد، هكذا نفعل مع كل إنسان، ظروف يخلقها الله عزّ وجل، الشريف الذي يدّعي الشرف ينجح أو يرسُب، والعفيف ينجح أو يرسب، والقوي ينجح أو يرسب، والغني ينجح أو يرسب، والمتزوج ينجح أو يرسب، والأعزب ينجح أو يرسب، والمريض ينجح أو يرسب، المرض امتحان، والصحّة امتحان، والغنى امتحان، والفقر امتحان، والقوة امتحان، والضعف امتحان، والذكاء امتحان، والغباء امتحان، والوسامة امتحان، والدمامة امتحان، والزوجة امتحان، والولد امتحان، والبيت امتحان، كله امتحان.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا)

فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِين صَدَقُوا

الله يريد الصادق، القضية إذاً بالصدق، الصدق نوعان، إما أن يأتي الخبر مطابقاً للحدث، وهذا صدق الأقوال، هذا معروف عن فلان، فهو صادق غير كاذب، أما الصدق الذي يقوله عن الله عزّ وجل فنوعٌ آخر، وهو مطابقة الحدث للقول، تقول: أنا أحب الله، هذا قول، هل أفعالك مطابقةٌ لهذا الادّعاء ؟ تقول أنا أطيع الله عزّ وجل، هل أفعالك مطابقةٌ لهذا الادعاء ؟ تقول أنا أكره الدنيا وأحب الآخرة، هل عملك

يؤكِّد هذا الادعاء ؟ ولنضرب مثلاً: إذا مشى إنسان في الطريق بلا ثياب، فهل هناك موقف أشد حرجاً على إنسان معروف له قيمته يمشي في الطريق بلا ثياب ؟ شيء لا يحتمل أساساً، والله الذي لا إله إلا هو؛ هذا الذي يدَّعي ما ليس عنده، ويتبجَّح، ويفعل أفعالاً ذات وقعٍ مُزْعِجٍ كما لو سار عارياً..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أنت متى آمنت ؟ تقول: أنا آمنت، ولكن متى آمنت ؟ أنا لا أحمل أي شهادة عُليا، فهل أستطيع أن أقول: أنا معي دكتوراه، هكذا ببساطة، هذه الشهادة كلمة تقولها ؟ أم أنها سبع سنوات بعد الليسانس تدرسها، وتؤلِّف أطروحة، وهناك من يقرأ هذه الأطروحة ويراجعها، ويأمرك أن تعيد كتابة فصولها مرّاتٍ عديدة، ويحاسبك على كل كلمةٍ، وعلى كل مرجعٍ، وتؤلّف لجنة كبيرة من أستاذ مشرف، ومن ثلاثة دكاترة لمناقشة هذه الأطروحة، وقد تنجح أو لا تنجح، أن تقول: أنا أحمل دكتوراه هل العمليَّة سهلة ؟ أهذه الدكتوراه كلمة أم جهود جبَّارة ؟ هذه الشهادة للدنيا، فهل يكفي على صعيد الإيمان أن تقول: أنا مؤمن ؟ متى آمنت ؟ على يد من آمنت ؟ ما المجالس التي حضرتها ؟ ما الكتب التي قرأتها ؟ من عَلّمك القرآن ؟ على يد من قرأته ؟ على يد من تعلّمت تفسيره ؟ هكذا مؤمن بلا مقدِّمات، بلا أسباب، بلا دراسات، بلا جهود، بلا إنفاق ؟ مستحيل..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

أيها الإخوة... لو أننا أمضينا هذا الدرس كلّه في آيةٍ أو آيتين فلا حرج، إذ العبرة من كتاب الله أن نكون في مستواه، أن نطبّقه، فالقضية قضيَّة مصيريَّة، وقضيَّة خطيرة، القضيَّة ليست أن تقرأ سوراً طويلة، وأن تقرأ آياتٍ كثيرة، القضيَّة أن تكون في مستوى كل آية، يجب أن توقن أنك إذا فعلت شيئاً لا يرضاه الله عزّ وجل لابدَّ من أن يكشفك للناس، لابدَّ من أن تُفضح، فأية دعوى لابدَّ من أن تُكْشَف، أي ادعاءٍ لابدَّ من أن يُكْشَف، إذاً الآية الكريمة ينبغي أن نحياها كل هذا الأسبوع، وأن نشعر أين نحن منها، لأن الصحابة الكرام كانوا يقرؤون عشر آيات ولا يقرؤون غيرها حتَّى يتمُّوا تطبيقها، هكذا كان الصحابة. فهذا كتاب العُمر، وهذا كتابٌ مقرَّر، وهذا منهج كل مسلم، إذاً الله عزّ وجل يقول: أنا لن أتركك تدَّعي كما تشاء، لابدَّ من أن أمتحنك، فالامتحان لا أقول: صعب، ولكن لابدَّ منه، إذاً يجب أن نُهَيِّئ أنفسنا، وأن نجعل باطننا موافقاً لظاهرنا، وسرائرنا موافقةً لعلانيَّتنا، وأن نجعل ما نقول كما نفعل، وما نفعل كما نقول، حتَّى ننجو من امتحان الله الصعب، ومن الفتنة التي لابدَّ منها لكل إنسان.

كلمة أحسب الناس، لم يقل: أحسبَ المؤمنون..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

ويجب أن تعلم أيها الأخ أن هذه سُنَّة الله في خَلْقِهِ، والدليل:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

غزوة الخندق بين التمحيص وكشف الحقائق:

مثلاً: أصحاب رسول الله.. كمثل أخير يؤكِّد هذه الآية.. أصحاب رسول الله كلهم يعرفون أنه رسول، وكلهم يُحِبُّه، الكلام واحد، الانتماء واحد، الالتصاق واحد، المعاونة واحدة، كلُّهم مع النبي، جاءت معركة الخندق، جاء عشرة آلاف مقاتل ليستأصلوا المسلمين، ليبيدوهم عن آخرهم، واليهود نقضوا العهد، كُشِفَ ظهر المسلمين، وأصبح الإسلامُ فيما يبد للناس قضية ساعاتٍ معدودات، فهؤلاء المؤمنون أهُمْ في درجة واحدة ؟ لا، بعضهم قال، وهم المنافقون: " لقد وعدنا صاحبكم أن تُفْتَح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمنُ أن يقضي حاجته "، لم يقل لقد وعدنا رسول الله، أما أصحاب النبي الصادقون فقال الله عنهم:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا(23))

(سورة الأحزاب)

الله ماذا قال ؟ قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا(11))

(سورة الأحزاب)

هناك زلزال يكشف المؤمن، والمنافق، والكافر، والفاسق، والفاجر، وكثير الإيمان وضعيف الإيمان، والمحب والمبغض.

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ)

حدث واحد يقع في بلد يكشف حقيقة الناس كلِّهم، هذا يخاف، هذا لا يخاف، هذا يترك الطاعة، هذا لا يتركها، هذا يتمسّك بها أكثر، هذا يتبرّأ منها، حدث واحد يكشف الناس.

وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى

لذلك ذات مرّة في بعض الجامعات الإسلاميّة دُعِيَ كبار المفكِّرين، والعلماء، والكتّاب إلى مناظرة في مساواة المرأة بالرجل، وكل هذه المحاضرات مُفادها أن المرأة مساويةٌ للرجل تماماً، ورأي الإسلام أن المرأة مساويةٌ للرجل من حيث التكليف والتشريف، مكلّفةٌ كالرجل بالإسلام والإيمان وطاعة الله عزّ وجل، ومشرّفةٌ كالرجل بالضبط، والدليل:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)

(سورة الأحزاب: من آية " 35 ")

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

(سورة آل عمران: من آية " 195 ")

آيات كثيرة جداً، فالمرأة مساويةٌ للرجل من حيث التكليف، ومساويةٌ له من حيث التشريف، لكن المرأة ليست كالرجل، لقول الله عزّ وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من آية " 36 ")

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3))

(سورة الليل)

كيف أن الليل ليل والنهار نهار، وأن بينهما بَوْنًا شاسعًا، كذلك المرأة امرأةٌ ببنيتها، وطبعها، وأنوثتها، ونفسيّتها، وعقليّتها، وعلاقاتها الاجتماعيّة، وكذلك الرجل، له بنيّةٌ مختلفة، كل بنية تشابه وظيفتها التي خُلِقَت من أجلها، ففي هذه الندوة التي أُقيمت في الجامعة، وحضرها كبار المفكِّرين، والباحثين، والعلماء، والأساتذة، وتُلْقَى فيها المحاضرات عن أن المرأة مساويةٌ للرجل تماماً، جاء إنسان ببضعة فئران، وألقاها في القاعدة في أثناء هذه المحاضرة، فإذا بالنساء يَصْرَخْنَ، ويخرجن من القاعة مذعورات، فالبنية مختلفة، هذه الواقعة أبلغ من كل هذه المحاضرات، أجلْ البنية مختلفة، فالله عزّ وجل:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(3))

على هامش هذه المحاضرة إليك قصّة هذه المرأة التي شَكَت إلى النبي قالت: " يا رسول الله إن فلاناً ـ أي زوجها ـ تزوجني وأنا شابّة ذات أهلٍ ومالٍ وجمال ؛ فلمّا ذهب جمالي، ونثرت بطني، وكبرت سني، وتفرّق أهلي، قال: أنتِ عليّ كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا ـ فأنا المربية ـ وإن ضممتهم إليّ جاعوا ـ فهو الذي يكسب الرزق ـ.

المرأة امرأةٌ والرجل رجلٌ، له وظيفةٌ خطيرةٌ ولها وظيفةٌ أخطر، له كرامته ولها كرامتها، له مهمّته ولها مهمتها، مكلّفٌ ومكلّفةٌ، مشرّفٌ ومشرّفةٌ، ولكن المرأة بطبيعتها وبنيتها وعقليّتها ونفسيتها، وما حباها الله من رقّة عاطفةٍ ومن سرعة استجابةٍ، ومن حدسٍ سريع تناسب وظيفتها الخطيرة في تربية الأولاد، فإذا تداخلت الأوراق ضاع المجتمع.

إذاً هذه الآية التي تلوناها على مسامعكم، واستمعتم إلى تفسيرها، أرجو الله عزّ وجل أن ينفعنا بها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (02-16): تفسير الآيات 4 - 6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-10-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة العنكبوت، في الدرس الماضي بحسب توفيق الله عزّ وجل كان شرح الآية الكريمة:

(الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3))

هذه الآية أصلٌ في التكليف:

هذه الآية تُعَدُّ أيضاً من الآيات الدالة على التكليف، تكليف الإنسان، المخلوق الأول، المخلوق المُكَرَّم، والمخلوق المُكَلَّف، هو المخلوق الأول لأن كل السماوات والأرض سُخِّرَتْ من أجله..

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا)

(سورة البقرة: من آية " 29 ")

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

والمخلوق المُكَرَّم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الإسراء: من آية " 70 ")

أنت مخلوقٌ أول، ومخلوقٌ مكرم، ومخلوقٌ مُكَلَّف.

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

أنت مكلفٌ بهذه النفس البشرية أن تُنْقِذَهَا، وأن تعرفها بالله عزّ وجل وأن ترقيها، وأن تسعدها في معرفة الله عزّ وجل وطاعته في الدنيا، والقرب، منه والسعادة في الآخرة، والدليل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

إذا جاء في القرآن الكريم كلمة:

(قَدْ أَفْلَحَ)

فهذا كلام خالق الكون، خالق الكون يقول لك:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

لأنك إذا زَكَّيْتَها، وعرّفتها بالله عزَ وجل فقد حققت أمانة التكليف، وقد حققت المهمة التي من أجلها خلقت، يفهم من هذه الآية أيضاً:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أنك مُكَلَّف، مكلفٌ بهذه النفس كي تُعَرِّفَهَا بالله عزّ وجل.

دعوة القرآن إلى التأمل في الكون وفي النفس:

لكن الله عزّ وجل أعطاك مكوّنات التكليف، ومقوماته، سخّر لك الكون، وجعله دالاً على أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، ففي الكون يمكن أن ترى أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من خلال تأمُّلك في خلق السماوات والأرض.

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس: من آية " 101 ")

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

إذاً هناك دعوة..

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25))

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

(سورة الطارق)

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2))

(سورة الشمس)

مقومات التكليف:

آياتٌ كثيرة جداً بَثَّها الله في الكون، وأشار إليها في القرآن، وجعل هذه الآيات دليلاً على عظمة الله عزّ وجل، فإذا فكر الإنسان في الكون توصّل من جولته التأمُّلِيَّة إلى معرفة الله عزّ وجل:

1 – الكون:

أعطاك الكون.

2 – العقل:

أعطاك العقل، العقل كما يقرر العلماء هو ميزةٌ كبيرةٌ جداً منحها الله للإنسان، فبالعقل تتعرف إلى الله عزّ وجل، ولكن العقل ميزان، والفطرة ميزان، وجعل الله الشرع ميزاناً على الميزان، فما دام العقل يعمل وفق أوامر الله ونواهيه، وكذلك إذا توصّل العقل إلى النتائج التي قررتها الشريعة، فهذا التفكير صحيحٌ ومنطقي، أما إذا جَنَحَ العقل، وابتعد عن الذي جاء به القرآن الكريم، فهذا عقلٌ ضالٌ وعقلٌ مغرور..

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

(سورة المدثر)

إذاً من مقوّمات التكليف الكون، من مقوّمات التكليف العقل.

3 – الفطرة:

من مقوّمات التكليف الفطرة، منحك الله فطرةً عالية، ترتاح إذا فعلت الخير، وتشقى إذا فعلت الشر، ترتاح إذا آمنت بالله، وتشقى إذا كفرت به، ترتاح إذا سرت على منهج الله وتشقى إذا حدت عنه، أول مقوم الكون، والعقل، والفطرة.

4 – الاختيار:

وأعطاك حرية الكسب.

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

انبعاثك إلى العمل هذا باختيارك، أما الفعل فهو فعلُ الله عزّ وجل، والعلماء يقولون: إن الأشياء لم يودِع الله فيها قوةً ذاتية، ولكن الله عزّ وجل جعل فعله عندها لا بها، أي عند مشيئته، لا بقوةٍ مودَعَةٍ في الأشياء.

إذاً: أعطاك الله حُرّيَة الكسب، وأودع الله فيك الشهوات لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، الكون، والعقل، والفطرة، وحرية الكسب.

5 – الشهوة:

والشهوة إذا فعلت شيئاً، الشهوة هدفها تثمين العمل، إذا تركت شيئاً لله فهذا الشيء الذي تركته له قيمة عندك، ولكنك آثرت رضاء الله على شهوة النفس، لذلك:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

هذه مقومات التكليف، فإذا استخدم الإنسان هذه المقومات، وتعرف إلى الله عزّ وجل معنى ذلك أنه لا بدّ من ابتلاء، لا بدّ من حساب، لا بدّ من سؤال.

قلت لكم في الدرس الماضي: إن جامعة عظيمة تُنشأ بقاعاتها، بمدرجاتها، بمكتبتها، بحدائقها، بملاعبها، بمطاعمها، بمساكن الطلاب فيها، بمختبراتها، أيعقل أن يترك الطلاب بلا امتحان ؟!

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

هكذا، بلا سؤال، فآيات كثيرة..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: من آية " 115 ")

لذلك هذه الآية تشير إشارةً دقيقةً إلى أن الإنسان مكلّف، والدليل أنه مبتلى، والدليل أنه يمتحن..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أي أن هذا الطالب في الجامعة أيكتفي منه أن يقول: درست هذه المادة، وأتقنتها، وينجح ؟

جامعة كلفت مُنْشِئِيها ألوف الملايين، وقبلنا فيها الطلاب، أيعقل أن يقبل من الطالب في الجامعة أن يقول: أنا درست هذه المادة، وتمكّنت منها، فيعطى الشهادة ؟ أيقال له: أنت نجحت لأنك قلت: إنك درست هذه المادة، شيء مضحك، أتفعلها جامعة ؟ أن يقول الطالب بلسانه: لقد درست هذه المادة جيداً، إذاً تعال، وخذ مئة على مئة، وانتهى الأمر، لا، بل لابدّ من امتحان، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

من دون أن يمتحنوا، من دون أن يُبْتَلوا، من دون أن يتحقق من إيمانهم، من دون أن يتحقق من صدقهم في إيمانهم، من دون أن يتحقق من صبرهم، من معرفتهم، كل ضعفٍ في الإيمان يظهر في امتحانٍ معين، فمن ادعى حب الله عزّ وجل.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في المقال بديع

لو كـان حبك صادقاً لأطعـته إن المحب لمن يحب يطيع

***

كل دعوى لها ما ينقضها:

فدعوى حُبِّ الله عزّ وجل تنقضها المعصية، دعوى الشوق إلى لقاء الله عزّ وجل ينقضها كراهية الموت، دعوى أن هذا الإنسان لا تأخذه في الله لومة لائم ينقضها أن ينهار أمام ضغطٍ خفيف، دعوى أن يصبر الإنسان على أمر الله ينقضه أن ينهار أمام إغراءٍ طفيف، فالذي ينهار أمام إغراء، أو أمام ضغط، أو تستحوذ عليه شهوته، أو ينطلق إلى غاياته الدنيوية ضارباً عرض الطريق بأوامر الله عزّ وجل، هذا امتحن ورسب، إذاً نحن في امتحان، ما دام القلب ينبض فأنت في امتحان، وكما قلت في الدرس الماضي: لك أن تقول ما شئت، ولكن الله عزّ وجل سوف يضعك في ظروفٍ دقيقةٍ بالغة التعقيد، هذا الذي تدّعيه لا بدّ من أن يكشف على حقيقته، إن خيراً فخير وإن شراً فشر..

وكلٌ يدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

***

عدي بن حاتم في ضيافة النبي عليه الصلاة والسلام: دروس وعبر:

شيء ثانٍ، ذات مرةٍ سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام جاءه أحد ملوك الجزيرة، اسمه عدي بن حاتم، دخل عليه فقال عليه الصلاة والسلام: " من الرجل ؟ " قال: " عدي بن حاتم "، قال: " فرحَّبَ بي، وأخذني معه إلى البيت "، وهذا من التكريم، في الطريق استوقفته امرأةٌ ضعيفةٌ مسنة تكلِّمه في حاجتها فوقف معها طويلاً، فقال عدي بن حاتم: " والله ما هذا بملك "، فلما دخل البيت، قال: قذف إلي بوسادةٍ من أدمٍ محشوةً ليفاً، وقال: " اجلس عليها "، قلت: " بل أنت "، قال: " بل أنت "، قال: " فجلست عليها، وجلس هو على الأرض "..

هذه قصة تعرفونها.. قال: " إيه يا عدي بن حاتم، ألم تكن ركوسياً ؟ "، قال: " بلى "، قال: " أو لم تَسِرْ في قومك بالمرباع ؟ "، قال: " بلى "، قال: " فإن هذا لا يحل لك في دينك "، قال: " فعلمت أنه نبيٌّ مرسل يعلم ما نجهل "، قال: "إيه يا عدي بن حاتم، لعلّه إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين أنك ترى ما ترى من حاجتهم.. " أي من فقر أصحابه، إذاً الفقر ابتلاء، أحياناً يكون المرء فقيراً ومستقيماً، ويرى إنساناً غنياً، منحرفاً يزداد انحرافاً، ويزداد غنىً، أما الفقير المستقيم فهو يزداد تواضعاً لله عزّ وجل، ويزداد استقامةً على أمره، ويزداد فقراً، هذه فتنة.

لا بد من الامتحان، وبعد الصبر الفرج:

لا تنسوا أن أصحاب رسول الله عليهم رضوان الله في معركة الخندق، ربنا عزّ وجل قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(12))

(سورة الأحزاب)

المنافقون بعض مَنْ عاصر النبي عليه الصلاة والسلام، ويقول أحد الأشخاص: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجاته !! إذاً:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ)

لكن..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا)

(سورة الأحزاب)

إذاً: أن تكون في ضائقةٍ من العيش، وأنت مستقيمٌ على أمر الله، وأن ترى إنساناً في بحبوحة، وهو يصول ويجول، ويطغى، ويبغي، فهذا امتحان، هل أنت واثقٌ من عقيدتك ؟ هل أنت واثقٌ من أن الرزق بيد الله عزّ وجل، هل أنت واثقٌ من أن الأمر بيد الله ؟ هل أنت واثقٌ من أن الدنيا لا قيمة لها ؟ لا تعدل عند الله جناح بعوضة ؟ أم ماذا ؟ ادّع ما شئت فهذا امتحان، أن تكون أنت في ضائقة على استقامتك، والآخرون في بحبوحة على انحرافهم، هذا أحد أنواع الامتحان.

أحياناً يسأل المدرس طالباً سؤالاً، يأتي الطالب بالجواب صحيحاً، فيقول له المدرس: غلط، ليمتحن مدى ثقته بنفسه، فالطالب الضعيف يقول: غلط، يقف، ويتخلى عن صوابه مباشرةً، أما الطالب المتمكن فيقول: لا، هذا هو الصواب، فأحياناً تمتحن فيما إذا كنت مؤمناً أو غير مؤمن، وأحياناً تمتحن فيما إذا كنت واثقاً من عقيدتك، ما الذي ينجيك يوم القيامة ؟ أن تكون على أمر الله عزّ وجل، ما أعلى مرتبةٍ ينالها الإنسان في الأرض ؟ أن يكون في رضوان الله،

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

إذا شعرت أن الله راضٍ عنك، وأن الدنيا قد تفلّتت من يديك فهذه السعادة، سيدنا الصديق يوصف بأنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، فإذا أطاع الإنسان الله ورسوله يجب أن يشعر بالفوز الكبير.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

قد تقرأ الآية، وقد تفهمها، ولكن لست في مستواها، إن شعرت بالحرمان، وأنت مطيعٌ لله ورسوله فأنت

لست في مستوى الآية، وإنْ لم تكن واثقاً من أن طاعة الله هي كل شيء، لست واثقاً من أن الإيمان بالله هو كل شيء، فهذه فتنة.

عودة إلى عدي بن حاتم:

قال له: " لعله يا عدي بن حاتم إنما يمنعك في دخولٍ من هذا الدين ما ترى من حاجتهم ـ ترى أصحابي فقراء، ضعفاء.ـ وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوّهم "، هذا امتحان آخر، أنك إذا عرفت الله عزّ وجل، وسرت على أمره فالجميع يعادونك، إذا كان الإنسان منحرفاً فلا يرضيه أن يستقيم قريبه، يتمنى عليه أن يعود كما كان، أن يكون على شاكلته، فحينما يتجه الشاب إلى الله عزّ وجل بالتوبة النصوح يرى معارضةً ممن حوله، من أقرب الناس إليه، حتى ممن في البيت، هذا امتحان، فحينما تأتيك المضايقة لأنك عرفت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، وتثبتّ، فهذا ابتلاءٌ آخر.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

إنسان يؤمن بالله عزّ وجل، ويستقيم على أمره، يلقى معارضة شديدة ممن حوله، فيتخلى عن اتجاهِه، يقول لك: راحة الحياة من دون دين، هذا امتُحِن فرسب، إذاً إيمانه ضعيف، وإنسان آخر يتجه إلى الله ورسوله، ويستقيم على أمره، ولا تزيده المعارضة إلا تَمَسُّكاً بالله وبرسوله، امتُحِن فنجح. من السهل جداً أن تقول: أنا مسلم، أنا مؤمن، أنا لن أعصي الله عزّ وجل، ثم لضغطٍ خفيف تتخلّى عن طاعته، ولإغراءٌ طفيف تتخلى عن طاعته، إذاً أنت راسب..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

إذاً كما قال عليه الصلاة والسلام: إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم "، فأنت يجب عليك أن تكون مع الحق لا مع الأكثرية..

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا)

(سورة يونس: من آية " 36 ")

سيدنا علي يقول: " نحن نعرف الرجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرجال "، الأصل هو الحق، فلو أن أناساً كثيرين كانوا على غير الحق فكثرتهم لا تأبه لها أنت، وإذا كانت القِلّةُ على الحق فأنت مع الحق.

الشعور بالغربة امتحان فتنبّه يا عبد الله:

وهناك امتحان آخر، هو أن تشعر بالغربة في مجتمعك، إذا عرفت الله عزّ وجل، إذا استقمت على أمره

هذا الطريق في البيع والشراء حرام، ولكنه شائعٌ بين التُجّار تصبح كأنك غريب، إذا أردت أن تغض بصرك عن محارم الله تشعر بالغُربة، الكل ينظر، وينظر بنَهَم، وأنت تستحي أن تنظر إلى امرأةٍ أجنبيةٍ عنك، تحس بالغربة، إذا تحرّجت عن أخذ مبلغٍ من طريق مشبوه فاتهمت بالغباء، وأحسست بالغربة، هذا امتحان أيضاً.

أحياناً الامتحان لمعرفة مقدار المعلومات، وأحياناً الامتحان لمعرفة ثقتك بهذه المعلومات، تأتي بعض المضايقات، قال له: لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ترى ما من كثرة عدوهم، وايم الله ليوشك أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف، ولعله إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين أنك ترى أن المُلك والسلطان في غيرهم.. قد يكون الصحابة مستضعفين ضعافاً لا شأن لهم، هناك قوى كبيرة جداً تعاديهم في مكة، وفي أطراف الجزيرة، هم ضعاف هاجروا، وتركوا بلدهم إلى الحبشة وإلى المدينة، أنت تحب القوة، إذاً أنت لست مع الحق مع القوة، إذاً انحزت إلى القوي المُبطل، وتركت المُحِقّ الضعيف، فأنت لست مع الحق أنت، بل مع القوة، هذا امتحان، فأن تقول كلمةً، وتعدّ هذه الكلمة صحيحة بلا امتحان، هذا مستحيل.

أعيد إلى أذهانكم هذا المثال، جامعة ضخمة جداً، قال أحد الطلاب: إني درست هذه المادة دراسة جيدة، فمستحيل أن يقبل هذا الكلام، وأن توضع لك علامة مئة بالمئة ؛ إلا أن تقدِّم امتحاناً، هذا الامتحان يثبت صواب كلامك أو خطأك، قال له: "وايم الله ليوشكن أن تسمع بالحصون البابلية مفتحةً بالعرب "، أن تسمع بهذه الحصون، وقد فتحها العرب.

كن مع الحق دائما وفي كل شيء:

لقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى كل ذلك، كأن النبي عليه الصلاة والسلام عرّفنا من هذه القصة، وذاك التوجيه أن هناك امتحاناتٍ، فإذا أردت أن تكون مع الحق قد يكون الحق ضعيفاً، قد يكون أصحاب الحق فقراء ضعفاء، قد يكون هناك عِدَاءٌ كبير لأهل الحق، أنت مع من ؟ أنت مع الحق.

والشيء بالشيء يذكر، يروى أن أبا جعفر المنصور كان خليفةً عباسياً، وكان عنده الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى، وعنده قاضٍ من ألدِّ أعداء أبي حنيفة، فقال هذا القاضي لأبي حنيفة في حضرة المنصور: " يا أبا حنيفة، إذا أمرني الخليفة بقتل امرئٍ أأقتله أم أتَرَيَّث، فلعله مظلوم ؟ سؤال مُحْرِج، قال أبو حنيفة رضي الله عنه: " الخليفة على الحق أم على الباطل ؟ رد له الكرة، قال: " هو على الحق "، قال: " كُن مع الحق "، فلما خَرَجَ قال: " أراد أن يُقَيِّدَنِي فربطته ".

أردت من هذه القصة كُن مع الحق، يا ترى أنت مع الحق أم مع القوي ؟ مع الحق أم مع الشهوة، أحياناً تُملي عليك شهوتك أن تدافع عن فكرة الاختلاط مثلاً، فأنت لست مع الحق، أنت مع الشهوة، قد تُملي عليك مصلحتك المادية أن تدافع عن طريقةٍ في التعامل في البيع والشراء فيها شبهة الربا، أنت مع مصلحتك لا مع الحق، فكلما ادَّعيْتَ أنك مع الحق يأتيك ظرفٌ مُعَقَّد، فإذا بك تكشف على حقيقتك، فلذلك ليتعامل الإنسان مع الله عزّ وجل بصدقٍ وإخلاص.

احذروا هذا الصنف: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ

أحياناً ترى بلداً أجنبياً في غاية الرفاه، في غاية الطمأنينة، في غاية الأمن والوداعة، كل شيءٍ فيه على ما يرام، وهذا البلد يُشاقق الله ورسوله، أي أن الدين قد أُلْغِي من حياتهم كُلِّياً، الشهوات مستعرة، الفتن يقظة، هذا امتحان، ضعاف الإيمان يزلزلون، وتجدهم يقولون: انظر تجد الإنسان محترماً عندهم، حاجات مؤمَنة، كل شيء ميسور، وهم يعصون الله كل يوم، في طُرُقَاتهم، وفي أنديتهم، وفي مسابحهم، فالمعاصي على قدمٍ وساق، ومع ذلك هذا البلد قوي جداً، وفي رفاه، هذا امتحان، هذا الامتحان معناه أنك لم تقرأ قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

ليس بابا، بل أبواب، ليس شيئاً واحداً، كل شيء..

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

هذا كذلك امتحان، فيجب أن تعتقد أن حياتك منذ سِنّ التكليف وحتى نهاية الحياة سلسلةٌ متصلة من الامتحانات.

الامتحان يشمل جميع النواحي الحياة:

كما قلت في الدرس الماضي: زواجك امتحان، وعملك امتحان، والمرض امتحان، والصحة امتحان، والفراغ امتحان، والشُغل امتحان، هناك شغل ينسيك طاعة الله عزّ وجل، امتحنت فرسبت، وهناك فراغ يُنسيك الله عزّ وجل امتحنت فرسبت، والزوجة امتحان قد تطغى من أجلها، وقد ترضيها بمعصية الله عزّ وجل، قبل الزواج ممتاز، بعد الزواج صار لديه ضعف، قبل التجارة ممتاز، لما كان لك دخل محدود كنت ورعاً جداً، بعد مزاولة التجارة صرت تقول: لا نقدر عندنا أولاد هكذا السوق كله، ماذا

نفعل ؟ زلت قدمه، التجارة امتحان، الوظيفة امتحان، والامتحان مستمر، وحياتنا سلسلةٌ متصلة من الامتحانات.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

كلامك ادّعاءٌ سهل، والوقائع تمتحنه، وأنت مكلف، وما دمت مكلفاً فلابد من امتحان، أنت طالب في مدرسة لابدّ من الامتحان، والدليل الامتحان سُنّة، الابتلاء سنة، الفتنة سنة، من سنن الله عزّ وجل..

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

(فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا)

فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا

أي ليتحقق علمه، الله عزّ وجل يَعْلَم، ولكن حينما تفعل يتحقق علمه ويؤاخذك على عملك لا على علمه فيك، وهذه من رحمة الله بنا، أنه يؤاخذنا على أفعالنا. لا على علم الله بنا، هو يعلم ؛ ولكن حينما تفعل يتحقق علمه..

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

أنواع الصدق:

قلت لكم في الدرس الماضي: إن الصدق نوعان، مطابقة الأقوال للأفعال، أو مطابقة الأفعال للأقوال:

1 – مطابقة الأقوال للأفعال:

الأول معروف، فلان صادق فلان كذاب.

2 – مطابقة الأفعال للأقوال:

الثاني مهم جداً في الطريق إلى الله عزّ وجل، فقد تأتي الدعوى كبيرة جداً، والعمل قليل، نقول: فلان صِدْقُهُ قليل، يدعي أنه محبٌ لله كلام كبير، فإذا وضعته على المِحَك جاء حبه قليلاً ضعيفاً، يدعي أنه ورع فإذا تحاكك بالدرهم والدينار بدا ورعه ضعيفاً قليلاً، فهذا الصدق صدق الأفعال، أن تأتي الأفعال مطابقةً للأقوال..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

أيْ هؤلاء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه كما قال اله عزّ وجل.

الآية الثالثة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

ربنا عزّ وجل قال:

(أَمْ حَسِبَ)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا:

معنى حِسِبَ:

معنى حسب أي ظَنّ، الذين يعملون السيئات، يعني أشمل كلمةٌ تشير إلى من يعصي الله عزّ وجل هم الذين يعملون السيئات ؛ سواء أكانوا مشركين، غير مشركين، موَحِّدين، الذين يعملون السيئات..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ)

معاني: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا:

المعنى الأول:

ما معنى ذلك ؟ فإذا نسبت الفعل للإنسان، تظن أن هذا الذي يفعل كذا وكذا هو يفعل هذا باختياره، ويفعله بقوّته، خالق أفعاله، وكأنه سَبَقَ الله عزّ وجل، وكأن الله لا علاقة له بهذا الفِعل، هذا أحد أنواع الإشراك، يجب أن تعلم علم اليقين أنه لا يقع شيءٌ في الكون إلا بقُدرة الله، وبعلم الله، فإذا نسبت الفعل إلى الإنسان، إذا عَزَوْتَ الفعل إلى الإنسان تتوهم أن هذا الذي يفعل كذا وكذا و كذا، هذا الإنسان خالق فعله، كأنه سبق الله عزّ وجل، وكأن الله لا علاقة له به، مع أن الله عزّ وجل يقول:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من آية " 84 ")

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال: من آية " 17 ")

أكثر من أربعين أو خمسين آية تؤكِّد أن الله عزّ وجل بيده كل شيء..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

لذلك كلمة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

أي أن هؤلاء الذين يعملون السيئات لا يعملونها إلا بقدرة الله عزّ وجل وعِلمه، وضمن خِطّةِ الله عزّ وجل، هم لم يسبقوا، فعلوها بإذن الله وبحكمةٍ بالغة، والظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه..

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

إذا شعرت أن الفعل بيد الله ترتاح نفسك، ويطمئن قلبك، ويدخل على قلبك الأمن والدَعَة، أما إذا اعتقدت أن الإنسان خالق فعله، فهذا الإنسان قد يفعل شيئاً ما أراده الله، يجب أن تعلم علم اليقين أن كل شيءٍ وقع أراده الله عزّ وجل، لماذا أراده ؟ لأنه وقع، لأنه لو لم يرده الله عزّ وجل ما وقع، وكل شيءٍ أراده الله وقع، كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلِّقَةٌ بالحكمة، وأن حكمته متعلقةٌ بالخير المطلق، هذا هو التوحيد.

إن الإنسان ينبعث إلى أن يفعل كذا، ينبَعِث، يمده الله بالقوة، القوة فعلُ الله عزّ وجل، وانبعاثه إلى هذا الشيء هو كسبه، هذا ما هو عليه أهل السُنَّة والجماعة..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

هذا المعنى الأول، أي أنَّه ما من إنسان مهما كَبُر، ما من قوةٍ مهما عظمت، إلا وهي في قبضة الله عزّ وجل، فإذا تحرّكت فبعلمه، وإذا تحرّكت فبقدرته، بقدرته وبعلمه، إذاً هذه الجهة حينما فعلت، أو تركت، أو اقتحمت، أو اجتاحت، أو أعطت، أو منعت، أو وصلت، أو قطعت، هذه الجهة تفعل هذا بعلم الله ولم تفعله بمبادرةٍ منها، أي أنها ما سبقت بهذا أمر الله عزّ وجل، هذا المعنى الأول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

المعنى الثاني:

هؤلاء الذين يعملون السيئات يتوهَّمون أحياناً أنهم فعلوا السيئات، ونجوا من عقاب الله عزّ وجل، سبقوا الله عزّ وجل، يقول لك: ليس عندي أي خللٍ، بينما ماله حرام، مطعمه حرام، ومشربه حرام، والله سبحانه وتعالى يُرخي له الحبل، إلى أن يتوهَّم أن الله غافلٌ عنه، أو أن الله لن يحاسبه، أو أنه نجا من عقاب الله، فيتوهم خاطئاً أنه سبق الله عزّ وجل وأفلت من عقابه.

المعنى الثاني: أنه فعل المعاصي، واغتصب أموال الناس، وظلمهم، وهو في أشد حالات القوة، يقول لك: أين الله عزّ وجل ؟ فأنا فعلت ما شئت، ولم يحدث لي شيء !! الله عزّ وجل قال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

وقال ربنا عزّ وجل:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

هذه الفاء في الآية السابقة على الترتيب والتعقيب، وقال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

مرة بالفاء ومرة بثم، بالفاء إذا جاء العِقاب تالياً للذنب، فهذا ممكن، حلف يميناً غموساً في المحكمة، وبعد ربع ساعة دُهِس، ممكن، وأحياناً يفعل السيئات، ويمضي عليه الأسبوع تلو الأسبوع، والعام تلو العام، وهو في أتم الصحة والقوة، وهو يقول: لم يحدث لي شيء، إنك في قبضة الله عزّ وجل، الحبل مُرخى، وهذا استدارج من الله عزّ وجل، أنت ما سبقت الله عزّ وجل، في لحظةٍ واحدة يَشُدُّ الحبل، فإذا أنت في العقاب والعذاب الأليم.

إذا شاهد الإنسان جهة أو مخلوقاً يفعل كل ما يشتهي من المعاصي، وهو يزداد صحةً وقوةً وغنىً ووجاهةً، فهذا كله فتنة له..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

معنى: سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

هذا حكمٌ سيئ، هذا حُكْمٌ خاطئ، هذا حكمٌ غير صحيح، أن تتوهم أنك إذا فعلت السيئات سبقت الله عزّ وجل، وأفلت من عقابه، إما أنك نجوت من عقابه، أو فعلت شيئاً بقوتك الذاتية كما تتوهم، مع أن القوة بيد لله عزّ وجل.

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

المعنى الثاني: حكمٌ سيّئ يعود على صاحبه بالوبال والبوار:

أي أن هذا الحكم سوف يسوئه، بمعنى أنه إذا توهّم الإنسان أنه يفعل ما يشتهي، ولا يعاقب فإنه يزداد طغياناً، أما الإنسان الذي يتيقن أنه إذا فعل الشر فسوف يحاسب، هذه حالة طيبة، العمل سيّئ الآن، ولكن هناك رجوع إلى الله، وندم، وتوبة، واستغفار، وإقلاع عن الذنب، ما دُمت تعتقد أنك إذا فعلت

الذنب لابدَّ من أن تعاقب فهذه الحالة حالة جيدة، معنى ذلك أن هذا الحال، وهذا الشعور، أو هذا اليقين، أو هذا التصوُّر، أو تلك العقيدة، لا بدَّ من أن تحملك على التوبة، أما إذا توهَّمت أنك تفعل السيئات، وتنجو من عقاب الله عزَّ جل، قال:

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

فهذا حكمٌ سيئٌ جداً سوف يعود عليهم بالهلاك والبوار.

ألم أقل لكم مرة: إن رجلاً سمع من شيخه أن لكل سيئةٍ عِقاباً، ففعل شيئاً مخالفاً للشريعة، فتصور أن الله عزَّ وجل سوف يعاقبه، هو ينتظر ؛ ينتظر مرضاً، ينتظر حادثاً، ينتظر مشكلة في البيت، ينتظر مشكلة في عمله، بقي ينتظر أسبوعين أو ثلاثة إلى أن ناجى ربه فقال: يا رب، لقد عصيتك فلم تعاقبني؟ قال: **" فوقع في قلبه أنْ يا عبدي، قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ ".**

افهموا على الله أفعاله:

الإنسان أحياناً إذا كان تعامله مع الله صحيحاً، يقول لك: أنا فهمت على ربي، أكرمه ففهم سر الإكرام، ضَيَّقَ عليه، ففهم سر التضييق، ألم يقل الإمام الشعراني: **" أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي ".**

أحياناً الإنسان يضجر من زوجته، أحياناً تكون هذه الزوجة مسخَّرة من قِبل الله عزَّ وجل لتذكير الزوج، فإذا بلغ الإنسان مرتبةً بدأ يفهم على الله، يشعر أن هذا الشيء ساقه الله له لحكمةٍ، وهذا الشيء ضيَّق الله به عليه لحكمةٍ، إذا بدأ يشعر أن أفعال الله كلها غايةٌ في الحكمة والرحمة، والعدالة واللطف، عندئذٍ يرتاح لقضاء الله وقدره، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الإيمان بالقدر يُذهب الهم والحزن))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند فيه مقال]

((مَا شَاءَ اللّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ))

(سنن أبي داود عن عَبْدَ الْحَمِيدِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ عن أُمّهُ)

((لِكُلّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتّى يَعْلَمَ أَنّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(مسند أحمد عَنْ أَبِي الدّرْدَاءِ)

وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

أرقى عقيدة تُريحك في الحياة الدنيا وفي الآخرة أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، لا معبود إلا الله، لا رافع إلا الله، لا خافض إلا الله، لا مُعطي إلا الله، لا مانع، لا رازق، لا باسط، لا قابض، لا مذل، لا معز إلا

الله، ومَن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، واعمل لوجهٍ واحد يكفك الوجوه كلها، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

إذاً:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

لهذه الآية معنيان:

المعنى الأول:

يظنون أنهم خالقوا أفعالهم ؟ يظنون أنهم مستقلون بأفعالهم عن الله عزّ وجل ؟ وكأنهم سبقوا الله عزّ وجل أي ليسوا في قبضته، هذا هو شرك بالله، من يعتقد هذا فإنه مشرك، الإنسان لا يملك إلا الكسب..

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

الكسب أن ينبعث إلى الشيء فقط، أما القُدرة التي تحقق هذا الشيء هي قدرة الله عزّ وجل، والأمر كله بيد الله، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

أي أنهم فعلوا السيئات، ونجوا من عقاب رب الأرض والسماوات، وكأنهم سبقوا الله أو تحدوا الله عزّ وجل، قال: لا، قد أُعَجِّل لكم العقاب وقد أُؤخر، لهذا قال الله عزّ وجل:

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ

بعض العلماء فسروا لقاء الله بالجنة، من كان يرجو الجنة فإن الجنة آتيةٌ لا ريب، وسوف تلوح للإنسان بعد الموت..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

أي سميعٌ لدعائكم عليمٌ بنياتكم .

مِن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم:

الله عزّ وجل يعبّر عن المستقبل بالفعل الماضي، علماء اللغة يقولون: من باب تحقق الوقوع، أي أن وعد الله حق، فإذا وعد الله المؤمن بالجنة فالجنة حق، حتى إن بعضهم حينما قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

ينشأ هنا غموض إذ يقول أحدهم: أنا والله لم أر، فالمسألة دقيقة جداً، قال العلماء: إن الخبر إذا ورد في القرآن فكأنه شيءٌ مشاهدٌ لصدقه، ما دام الخبر جاء في القرآن فكأنك تشاهده، ما دام الوعد في القرآن فكأنه وقع.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللّهِ)

(سورة التوبة: من آية " 111 ")

لذلك:

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ)

الإنسان وقتٌ:

الحقيقة الزمن يمر سِرَاعاً، والإنسان كما تعرفون زمن، الإنسان وقت، الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضْعٌ منه، والذي مضى من حياته أربعون عاماً، يسأل نفسه هذا السؤال: كيف مضت هذه الأعوام الأربعون ؟ كلمح البصر، وهكذا تمضي الحياة، وكل شيء مضى وسوف تحاسب عليه.

الحقيقة أن الإنسان لابدّ من أن يعرف الحقيقة، ولكن الكثيرين يعرفونها عند الموت، أما البطل فهو الذي يعرفها قبل فوات الأوان، ألم يقل فرعون:

(آمَنْتُ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا الّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

وقال تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

الحقيقة لا بدّ من أن تُعرف، ولكن يعرفها بعضهم عند الموت، أما المؤمن فيعرفها قبل الموت كي يستثمرها، ويستفيد منها.

إذاً:

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ)

لكن ربنا عزّ وجل له حكمة، له حكمة يفتح عليك أو لا يفتح، يتجلّى على قلبك أو لا يتجلّى، يُلهمك هذا الطريق أو ذاك الطريق، ما دمت قد سلّمت أمرك لله عزّ وجل فالله ربك، يتولى نقلك من حال إلى حال، من مقام إلى مقام، من منزلة إلى منزلة، من مستوى إلى مستوى، من عمل إلى عمل، البطولة أن تكون ذا نيات طيّبة، وعلى الله الباقي..

(بَلْ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)

التكاليف متناقضة مع الطباع:

الحقيقة ولحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل جعل التكاليف متناقضةً مع الطِباع، هذا هو الجهاد، التكليف يتناقض مع الطبع، طبعك يدعوك إلى النوم، وأنت مُكَلّفٌ بصلاة الفجر، طبعك يدعوك إلى أن تنظر إلى المرأة، والتكليف يأمرك أن تغض بصرك عنها، طبعك يأمرك أن تقبض المال، والتكليف أن تنفقه، طبعك يدعوك أن تتحدث عن الناس كي تروي غليلك، والتكليف يأمرك ألا تغتاب أحداً، فالتكليف يأتي دائماً مناقضاً للطبع كي نرقى إلى الله عزّ وجل، لو جاء التكليف موافقاً للطبع فلا يوجد رقي إلى الله..

لو أن إنساناً الآن ذهب لينام، وكان متعباً، ونام فماذا يشعر أنه فعل ؟ إذا جاء التكليف موافقاً للطبع فلن ترقى إلى الله عزّ وجل، ولو أن الله عزّ وجل ما أودع فيك الشهوات لا ترقى إلى الله، ماذا فعلت إذا غضضت بصرك عن امرأةٍ، وأنت لا تحب أن ترى امرأةً ؟ لكن لأن الله أودع في قلبك حب النساء، وحب المال، وحب العلو في الأرض، وبعدها غضضت، وأنفقت، وتواضعت فأنت ترقى إلى الله، لولا الشهوات لم تَرْقَ، إذاً التكاليف جاءت كي ترقى إلى الله، اسمه تكليف لأنه شيء مُكَلِف، الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وغض البصر، وذكر الله عزّ وجل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإنفاق المال، هذه كلها تكاليف.

أن تحب الأمُّ ابنها هذا طبع، لذلك لم تؤمر بذلك، أما أن يبَرّ الابن أمه، هذا تكليف، لذلك أمر به:

(وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

الشيء الذي هو طبع لا حاجة معه لأمر ولا نهي، وهو شيء طبيعي جداً، فالإنسان يفعله بلا شعور أنه أطاع الله عزّ وجل، أنت جائع فأكلت، ماذا فعلت ؟ ما فعلت شيئاً، هكذا دعتك فطرتك، دعتك جِبِلّتُك، دعتك بُنيتك، أما إذا فعلت شيئاً خلاف ما أنت عليه من طبع، عندها ترقى إلى الله عزّ وجل، لا نرقى إلى الله إلا بمخالفة الطبع، والدليل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)

مِن أنواع الجهاد: فهمُ القرآن وتعلّمه وتعليمه:

عندنا آية قرآنية يقول الله عزّ وجل فيها:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

(سورة الفرقان: من آية " 52)

على من تعود الهاء ؟ على القرآن..

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(سورة الفرقان)

إذاً فَهم القرآن، وتعليم القرآن، وتطبيق القرآن نوعٌ من الجهاد..

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

بتلاوته، وفهمه، وتعليمه وتطبيقه، الجهاد أنواع، هناك جهاد النفس والهوى، وجهاد الكفّار، وجهاد التعليم والتَعَلّم..

(وَمَنْ جَاهَدَ)

الجهاد في هذه الآية مطلق: وَمَن جَاهدَ

الله أطلقها، وفي القاعدة الأصولية المطلق على إطلاقه..

(وَمَنْ جَاهَدَ)

إما بماله، أو بوقته، أو بعقله، أو بعضلاته..

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)

فإذا تجشّم الإنسان فرضاً المشاق، وركب السيارات، وأودع بالمصرف مبلغاً، ليس لنا علاقة، أهذا حلال أم حرام ؟ ولكنّا نضرب مثلاً، فماذا فعل ؟ أودع في هذه الجهة مبلغاً للاستثمار، ثم تجده يقول: أنا دفعت، فهذه لك آخذ بها إيصالا، والربح في آخر العام بالمئة ثلاثون، أتمنن علينا بعد هذا ؟ ركبت سيارات، ووصلت عنده بعد ساعة، وانتظرت، ودفعت المبلغ، وقبضت إيصال، ماذا فعلت ؟ هذه المشقة تجشّمتها أنت لمصلحتك، عادت عليك بالنهاية.

ربنا يطمئننا إذا فكرت، وآمنت، واستقمت، وغضضت بصرك، وحضرت مجلس علم، وتعلمت وعلّمت، وخدمت، وبذلت، وأنفقت، أنت لم تفعل شيئاً لغير ذاتك، لأنه تواب، ذلك عائد عليك.

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

الله غنيّ عن العالمين:

هو غني لكنه حميد، غنيٌّ عنك، لكنه يُعاملك معاملةً تحمده عليها.

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (03-16): تفسير الآيتان 5 - 6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-10-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ)

معنى لقاء الله:

المعنى الأول:

الحقيقة أن لقاء الله من معانيه أن يقف العبد بين يدي ربّه ليس بينه وبين الله حِجاب، هذا اللقاء قال بعض عنه المفسِّرين: إنه يوم القيامة.

المعنى الثاني:

وقال بعض المفسِّرين في لقاء الله عزّ وجل: هو أن يلقى وعده ووعيده، وثوابَهُ وعقابه.

المعنى الثالث:

وقال بعض المفسِّرين في لقاء الله عزّ وجل: هو أن تَلْقَى حكم الله في كل شيء،

(وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

أيها الإخوة الأكارم...

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ)

أي أن تقف بين يدي الله عزّ وجل ليس بينك وبينه حجاب، تُعْرَضُ عليه أعمالك، وعليك أن تدافع عن نفسك، وعليك أن تدلي بحجّتك عن كل عمل، أو أن يأتي ذلك اليوم الذي تلقى فيه جزاء عملك ؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر، أو ذلك اليوم الذي تنال فيه الثواب أو العقاب، أو ذلك اليوم الذي يحكمُ الله فيه بين عباده..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ)

هذا هو لقاء الله، لقاء الله أن تقف بين يديه ليس بينك وبينه حجاب، لقاء الله أن يقع وعده ووعيده، لقاء الله أن تلقى ثوابه وعقابه، لقاء الله أن ترى حُكْمَهُ في كل شيء..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ)

كلُّ آتٍ قريبٌ:

أضرب لكم بعض الأمثلة: إذا جاء رمضان، في أول يوم من أيام الصيام تقول: ما أبعد العيد، وما هي إلا أيامٌ وليالٍ معدودة حتّى يأتي العيد، إذا دخلت في العام الدراسي تقول: ما أبعد الامتحان، ما هي إلا أسابيع وأشهر حتّى يفاجئك الامتحان، إذا دخلت في مشروع مُدّة العقد فيه خمس سنوات، ما هي إلا أيام وليالي وأسابيع وأشهر وسنين قليلة حتّى يحلّ الموعد المَطلوب، كيف يمضي الصيف ويأتي الشتاء، ويمضي الشتاء ويأتي الصيف ؟ كيف وصلت إلى سن الأربعين والخمسين ؟ كيف مضت هذه السنون ؟ هكذا..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ)

ما دام أجل الله الذي وَقَّتَهُ وعَيَّنَهُ ليلقى كل إنسانٍ جزاءه آتياً، فإنه إذاً قريب..

(إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ)

(سورة يونس: من آية " 4 ")

فهذا اليوم الذي سمّاه الله يوم الدين، يوم الجزاء، يوم الحساب، يوم الدينونة، هذا اليوم سيأتي، وما دام سيأتي والوعد من قِبَل الله عزّ وجل إذاً في حكم أنه قد أتى.

مِن إعجاز القرآن: الإخبار عن المستقبل بصيغة الماضي:

من إعجاز القرآن قول الله عزّ وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من آية " 1 ")

أنا متى أستعجل الأمر ؟ إذا لم يأتِ بعد، الله عزّ وجل قال:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

تستعجلوه، وهو لم يأتِ، وقد عبّر الله عنه بالفعل الماضي لقد أتى، إذاً وعد الله ووعيده في حكم الواقع، ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((كأني أرى أهل الجنّة في الجنّة يتنعّمون، وأهل النار في النار يتصايحون))

[ورد في الأثر]

هكذا الإنسان إذا أيقن أن هذا الكلام كلام الله عزّ وجل.

بعضهم يفسِّر:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

قد تسأل أنت: والله أنا لم أرَ هذا الشيء، هذا خبر، كان يتوقّع أن يقال: ألم تسمع بخبر أصحاب الفيل ؟ لمَ ربنا عزّ وجل عَدَلَ عن قوله ألم تسمع بألم ترَ ؟ قال العلماء: لأن إخبار الله عزّ وجل في حكم الشيء المُشَاهد..

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللّهِ)

(سورة التوبة: من آية " 111 ")

إخبار الله عزّ وجل في حكم المشاهدة، لذلك قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ)

على المؤمن أن يرجو لقاء الله وأن يستعدّ له:

على ذكر كلمة يرجو ربنا سبحانه وتعالى قال:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللّهَ كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب)

الحقيقة أنّ الإنسان يسأل نفسه هذا السؤال: ماذا يرجو ؟ هناك من يرجو مالاً، هناك من يرجو جاهاً، هناك من يرجو بيتاً، هناك من يرجو مركبةً، هناك من يرجو مكانةً، لكن المؤمن يرجو لقاء الله، يرجو الله واليوم الآخر، يرجو ما عند الله من ثواب، يرجو ما عنده من تَكْرِمَة، يرجو مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، هذا الذي يرجوه المؤمن، لذلك الكلمة الشهيرة عند من أخلص قلبه لله عزّ وجل، **" إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ".**

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ)

أن تقف بين يديه ليس بينك وبينه حجاب، أن تتصل به، أن ترى الحقيقة، أن يُكْشَفَ الغِطاء..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

أن يقوم الناس لربِّ العالمين، أن يُحَجَّمَ الإنسان.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)

لا محالة آتٍ، لذلك قيل: " كل متوقع آت وكل آتٍ قريب "، ما دمت في طريقك إلى هذا الشيء فكأنّك وصلت إليه، وما دام هذا الشيء في طريقه إليك فكأنما وصل إليك، فالآية دقيقة جداً:

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)

إذاً ماذا علينا أن نفعل ؟ أن نُطَهّر قلوبنا وأن نضبط ألسنتنا..

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

الله سميع للأقوال عليم بكل شيء:

سميعٌ لدعائكم، عليمٌ بأحوالكم، أي أنك إذا تكلّمت فهو سميع، وإذا صمت فهو عليم، وعلمه علم كشفٍ وإحاطة، إذا تكلّمت فهو سميع، وإذا صمت فهو عليم، إذاً ما دام هناك لقاءٌ مع الله فستُسأل.

هيّئ جوابا لسؤال الله لك:

مرّة استنصحني إنسان يعمل في وظيفة تبدو للناس مزعجة، وبإمكانه أن يضبط هذا بمخالفةٍ، والمخالفة جزاؤها السجن، فاستنصحني، فقلت له: افعل ما تشاء، اكتب كما تشاء، ضع الناس في المكان الفلاني ما تشاء، ولكن إذا كنت بطلاً حقيقةً فهيّئ لله جواباً يوم القيامة عن كل عَمَلٍ تعمله.

هذا الكلام الصحيح، أنت مدرّس، أنت طبيب والمريض بين يديك مستسلم واثق، قل له: تعالّ كل يوم، وادفع مئة ليرة يومياً يصَدِّق ويأتيك كل يوم، وأنت محامٍ، أنت مهندس، أو أنت مدرّس، قل ما تشاء ولكن هيّئ لملك الملوك يوم القيامة جواباً، هيّئ للواحد الديّان جواباً، ماذا تقول يوم القيامة لربّك ؟

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز ما من آيةٍ يُكْثِرُ تلاوتها كهذه الآية:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء)

هذا الكلام لنا جميعاً، كل منا له عمل، بإمكانه أن يصدق وأن يكذب، بإمكانه أن ينصح وأن يَغُش، بإمكانه أن يتساهل وأن يتعاسر، بإمكانه أن يُعطي أو ألا يعطي، بإمكانه أن يرحم أو أن يقسو، بإمكانه أن ينصف أو أن يظلم، الله عزّ وجل جعلك في دار ابتلاء، جعلك في دار امتحان لينظر كيف تعملون ؟ كيف تفعلون ؟ ما الموقف الذي سوف تقفه ؟ ماذا تفعل، أتعطي أم لا تعطي ؟ أترحم أم لا ترحم ؟ **" إذا**

أردتم رحمتي فارحموا خلقي "، أتنصف أم لا تنصف ؟ أتقسو أم لا تقسو ؟ فالبطولة أن تهيّئ جواباً لمن يطّلع عليك في سرّك ونجواك، هذه البطولة..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ)

ترجو الجنّة ؟ إنها آتيةٌ، ترجو ثواب الله ؟ إنّك في الطريق إليه، ترجو ما عند الله من مكانةٍ، وما عند الله من سعادةٍ ؟ إنك في الطريق إليها..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ)

هذا يوم الدين، يوم الواقعة..

(الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4))

(سورة الحاقة)

في هذه السورة..

(فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنّي ظَنَنْتُ أَنّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنّي سُلْطَانِيَهْ (29))

إلى آخر الآيات.

إذاً:

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ)

إذا كنتَ على يقين بسمع الله وبصره فراقب أقوالك وأعمالك:

إذاً فاجتهد، فاجتهد في دعائك، واجتهد في تطهير قلبك، وتطهير نفسك، لأنه سميعٌ عليم، يسمع دعاءك، وعليمٌ بحالك، أنت متكلِّم وهو سميع، أنت ساكت وهو عليم، فأنت محاصر..

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(سورة النساء)

الآن ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنّ اللّهَ لَغَنِيّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

تمهيد بين يدي الآية:

الحقيقة، أنني أتمنّى أن أُمَهّدَ لهذه الآية تمهيداً ما..

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

إذا صحَّت عقيدة الإنسان، أو عرف سرَّ وجوده، عرف لماذا هو في الدنيا، عرف طرفاً عن جلال الله وعظمته، عرف لماذا كانت الحياة، لماذا كان الكون، وكيف أن هذا الكون سُخِّرَ له، إذا عرف حقيقة الكون، والحياة، وحقيقة وجوده، فإنه ينطلق انطلاقاً صحيحاً، إذاً: أن تعرف سرَّ وجودك، وأن تعرف فلسفة الحياة، وكنْهَ الكون، هذا شيءٌ مقدَّمٌ على كل شيء، ليس هناك من مهمةٍ أعظم ولا أخطر في حياتك من أن تتعرَّف إلى الله، وإلى حقيقة الدُنيا، وإلى سرّ وجودك، إذا عرفت هذا تفهم أن الدنيا دار ابتلاء.

مثلاً: المدرسة هل يُعْتَنى بأثاثها لدرجة أن الإنسان إذا جلس على هذا الكرسي ينام ؟ لا، فالكرسي فيها عادي، لأن الهدف الأساسي من وجود الطالب في هذه المدرسة التَعَلُّم، إذاً المقعد طبيعي عادي، المرافق عاديَّة، لكن هناك أماكن أخرى كالمتنزَّهات أماكن جميلة جداً، فيها أسباب الراحة والرفاه.

الطبيب مثلاً: إذا كان في غرفة العمليَّات له ثياب قد تكون ليست لائقة ولا أنيقة، لأن هنا أهمّ ما في الأمر أن تكون هذه الثياب مُعَقَّمة، أهم ما في الأمر أن تكون الآلات معقَّمة أيضاً، لكن في بيته يرتدي ثياباً أخرى، فيجب أن تعرف هذه الدنيا، وما سرُّ وجودك فيها ؟ إنما هو الابتلاء، يقول لذلك ربنا عزّ وجل:

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)

معنى الجهاد في الآية:

ما معنى جاهَدَ ؟ جاهد بمعنى بذل الجهد، وتحمّل المشقّة، فيها شيء إيجابي، وشيء سلبي، تحمُّل المشقّة والمتاعب والصعاب، هو جهاد، وبذل المال والنفس جهاد، في الجهاد بذلٌ، وفي الجهاد صبرٌ، إذاً ربنا عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)

الدنيا مُرَكَّبَةٌ على بذل الجهد:

كأن الله عزّ وجل جعل الحياة الدنيا مُرَكَّبةً على بذل الجهد، والحق أن الحياة الدنيا مُرَكَّبةٌ على بذل الجهد..

(يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ)

(سورة الانشقاق)

الكدح بذل أقصى الجهد..

(إِلَى رَبِّكَ)

يوجد كدح إلى غير الله..

(إِنَّكَ كَادِحٌ)

من أجل المال، من أجل المكانة، من أجل المُتعة..

(إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ)

يجب أن ينتهي هذا الكَدْحُ إلى الله عزّ وجل، أن يكون الله هو المقصود من هذا الكدح..

(إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6))

هذا الكدح لابدّ من أن تلاقيه، إذاً طبيعة الحياة الدنيا طبيعةٌ بذلٍ وجهدٍ وصبر، بذل الجهد، وتحمُّل المشاق، هذه طبيعة الحياة الدنيا، لذلك قالوا: الدنيا دار تكليف لا دار تشريف، الآخرة دار تشريف، الدنيا دار عمل، الآخرة دار جزاء، يجب أن تعرف فلسفة الدنيا، أنت هنا في بذل جهدٍ، إنّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، لا تصفو لإنسان، لا تصفو لإنسان كائناً من كان، لا راحة لمؤمنٍ إلا بلقاء وجه ربّه، إنّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح ؛ فيها أمراض، وهموم، وأحزان، ومتاعب، وفقر، وضيق، وشدّة، وحزن، ومصيبة، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، لأن الرخاء مؤقّت، والشقاء مؤقّت، كله ماضٍ، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

شيءٌ آخر، ربنا سبحانه وتعالى يقول في الآية الأولى التي ذكرتها قبل قليل:

(يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

الآية الثانية:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

(سورة البلد)

أي أن طبيعة حياته، طبيعة الحياة الدنيا تقتضي أن يَتَكَبَّدَ الإنسان المشاق، فلمّا يفهم الإنسان فلسفة الحياة الدنيا على أنها بذلٌ للجهد، وتحمُّلٌ للمشقّة يتقبّل فيها كل شيء، أما إذا فهم أنّ الحياة الدنيا راحة واستمتاع، ورفاه وإنفاق للمال، وتناول ما لذّ وطاب من المأكولات، والاستمتاع بالمباهج حلالاً أو حراماً، فهذا شأن أهل الدنيا، هذا شأن البعيدين عن الله عزّ وجل، هذا شأن الجُهّال، يفهمون الدنيا على أنها مكانٌ للراحة، للاستجمام، للسرور، للنزهات، للولائم، للسياحة، للتمتُّع بمباهج الدنيا، هذا الفهم فهم

خطير، فأنت في دار عمل، أنت في دار ابتلاء، أنت في دار كَدْحٍ، أنت في دار تَكَبُّدٍ، أنت في دار جهادٍ.
فهو في لآخرة إما في سرور، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

الجزاء في الآخرة، التشريف في الآخرة، الاسترخاء في الآخرة، السرور في الآخرة، في جنَّةٍ لا نصب فيها، ولا حزن، ولا شقاء، ولا قلق، ولا مرض، ولا فاقة، ولا أي شيء من مثل هذا.

أردت من هذا التمهيد أن الإنسان إذا عرف أن سرّ الحياة أساسه بذل الجهد يقبل بالتكليف، لذلك ما هو التكليف ؟ التكليف شيءٌ فيه كُلْفَة، الله عزّ وجل خلق الإنسان على طبعٍ، وجعل التكليف مُناقضاً له، فهذا الجسم يميل إلى الراحة، وأنت مُكَلَّفٌ أن تصلي، هذا الجسم يميل إلى أن يستمتع، وأنت مكلَّفٌ أن تغضّ بصرك عن محارم الله، هذا الجسم يميل إلى اللذّة، وقد تؤمر أن تدع أيّة لذّةٍ لا ترضي الله عزّ وجل، فأي شيءٍ كلّفك الله به مبنيٌّ على بذل الجهد، مبنيٌّ على الكُلْفَةِ، ولا ترقى إلى الله عزّ وجل إلا إذا كان هذا الأمر فيه كلفةٌ عليك، لذلك أُمرت بغضّ البصر، أُمرت بأداء الصلوات، أُمرت بالصيام، أُمرت بالحَج، أُمرت بكف اللسان عن الغيبة والنميمة، أوامر كثيرة مأمورٌ بها تتناقض مع طَبْعِكَ.

هذا هو الجهاد بذل الجهد في طاعة الله عزّ وجل، وتحمُّل الشدائد والمشاق، كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعرفه.

من معاني الجهاد:

والحقيقة أن الجهاد ل معانٍ كثيرة:

مثلاً: قال ربنا عزّ وجل:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

ما معنى:

(جَاهَدُوا فِينَا)

يعني بذلوا جهداً كبيراً كي يعرفونا، بذلوا جهداً كبيراً كي يستقيموا على أمرنا، بذلوا جهداً كبيراً كي ينفقوا من أموالهم في سبيل الله، ففي الحياة جهد، هذا الجهد إذا كان في سبيل الله عزّ وجل فالله سبحانه قال:

(لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

معنى ذلك أن السبيل إلى الله بذل الجهد، المجاهدة..

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

الحقيقة المجاهدة أنواع:

1 – جهاد العدو:

من المجاهدة أن تجاهد العدو، يقول لك: الجهاد.

2 – جهاد النفس والهوى:

ومن المجاهدة أن تجاهد النفس والهوى:

((رَجَعْنا مِن الجهادِ الأصغر إلى الجهادِ الأكبر، مُجهادة العبد هواه النفس والهوى))

3 – جهاد الشيطان والمغريات:

ومن المجاهدة أن تجاهد الشيطان والمُغْرِيَات، عندك مصدر إغراء: الشيطان والشهوات، ونفسك مصدر قَلِق مُقْلِق، والعدو كذلك، فإذا قلنا: الجهاد ؛ نعني به جهاد العدو، ونعني به جهاد النفس والهوى، ونعني به جهاد النفس ضدّ الشيطان والشهوات.

والجهاد يكون بالبذل ويكون بالصبر، بذل المال جهاد، بذل الوقت جهاد.

4 – جهاد طلب العلم:

الإنسان إذا أتى إلى مسجدٍ ليتلقّى درس علمٍ، ليتعرّف إلى كتاب الله، إلى حديث رسول الله، إلى موضوعاتٍ في الفقه، إلى سُنّة رسول الله، هذا جهاد لأنه بذل وقته، بذل وقته رخيصاً في سبيل معرفة الله عزّ وجل.

إذاً:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

الجهاد أحياناً يكون ببذل المال، جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وفي آياتٍ كثيرة بدأ الله فيها بالمال، وثنّى بالنفس، بدأ بالمال لأن بذل المال أهون على صاحبه من بذل النفس..

(وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 72 ")

صار معنى الجهاد فيه بذل وفيه تَحَمُّل، البذل إيجابي والتحمُّل سلبي، إذاً: معنى الجهاد الدقيق: **" أن تبذل ما في وسعك وأن تتحمّل المشاق قدر وسعك "**، بذلٌ وتحمُّل، إذا فهمنا الحياة الدنيا هكذا لا يعنينا الرفاه، والتَرَف، والسرف، و تهيئة الأمور حتى تغدو مريحةً إلى درجةٍ ننسى فيها مهمّتنا في الدنيا، نأكل ونشرب، ونسكن، ونتزوّج، ونعمل، ولكن لهدفٍ كبير دون أن تكون الدنيا هي محطُّ رحالنا، ومنتهى آمالنا.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

(سورة التوبة)

من علامات المنافق كره بذل الجهل وتحمل المشقة:

المنافق يكره بذل الجهد، يعطي نفسه ما تشتهي، ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ))

ربطها، ملكها، سيطر عليها، حملها على الطاعة، دفعها إلى مرضاة الله عزّ وجل..

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللّهِ))

(سنن الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ)

إذاً من علامات المنافقين أنهم يكرهون بذل الجهد، ويكرهون تحمُّل المشقّة، فهو يريد الدين ثقافة فقط، معلوماتٍ، قصصاً، ومن دون انضباط، من دون غض بصر، من دون تحرير الدخل من الحرام، من دون حمل النفس على طاعة الله عزّ وجل، يأخذ بكل الرُخَص، والفقهاء قالوا: **من تصيّد الرخص في المذاهب كلها فقد وقع في التلفيق "**، والتلفيق هو رقّةٌ في الدين.

(فَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(سورة الفرقان)

تعلُّمُ القرآن وتعليمُه من الجهاد:

كلمة (به) تعود على القرآن الكريم، أي فهم كتاب الله، حسن تلاوته، أن تتلوه حقّ تلاوته، أن تفقه معانيه، أن تتدبّر آياته، أن تعمل به هذا جهاد، معك كتاب مقرّر ؛ فيه آيات، فيه قصص، فيه وعد وفيه وعيد، فيه أخبار الأمم السالفة، فيه بشارات، فيه تحذيرات، أن تقف على معاني هذا الكتاب، أن تفهمها، أن تعمل بها، أن تعيشها، أن تدعو إليها، أن تُلقِنَها للناس، أن تعلِمها لغيرك، هذا جهاد، قال تعالى:

(فَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

أي بالقرآن

(جِهَادًا كَبِيرًا(52))

إذاً إنفاق المال من الجهاد، تَحَمُّل المشقّة من الجهاد، فهم كتاب الله وتعليمه للناس والعمل به من الجهاد..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

(سورة المائدة: من آية " 35 ")

ما الوسيلة ؟..

(وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة)

أحياناً يأتي ما بعد الواو تفسيراً لما قبلها، ما الوسيلة ؟ أن تجاهد في سبيل الله نفسك وهواك، إذاً: اللغة المُستعملة حديثاً ليست عربيّة.. استراتيجية المؤمن في الحياة، مركز الثقل في الحياة عنده بذل الجهد، بينما أهل الدنيا أساس حياتهم التلقي، والراحة، والانغماس في الملذّات، والاسترخاء، والاستمتاع بكل مباهج الدنيا، لذلك فالمؤمن حياته مجموعةٌ من المتاعب، المتاعب المقدّسة في سبيل معرفة الله، في سبيل التعريف به، في سبيل التَقَرُّب إليه، في سبيل اخذ نفسه بالعزائم، وحياة أهل الدنيا أساسها ؛ الراحة، والرفاهيّة، والسرف، والترف، والانغماس في الملذّات، لماذا كان العلم ضرورياً ؟ من أجل أن تعرف سرّ وجودك، فالمؤمن يعرف أن الله عزّ وجل خلقه في الدنيا كي يعرفه..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق)

فائدة: أواخر سور القرآن تلخيص للسورة:

أواخر السور ؛ كما عوّدنا ربنا سبحانه وتعالى فيها تلخيصٌ للسورة كلها، فسورة البقرة تنتهي بقوله تعالى:

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة)

أقول: مِن، من تفسيرات هذه الآية لأن القرآن الكريم حمّال أوجه، ولا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يقول: هذه الآية هذا تفسيرها، هذا كلام الله، وكلام الله لانهائي..

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

فحينما تفسِّر، أو حينما تُدْلِي برأي في آيةٍ أو حديثٍ الأوْلى أن تقول: من لأن من للتبعيض، من تفسيرات هذه الآية أن الله عزّ وجل يقول:

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)

كلمة السماوات والأرض تعني الكون، والكون يعني ما سوى الله، كان الله ولم يكن معه شيء، الكون من خلق الله، فالكون ما سوى الله، لله هذه اللام لام الملكيّة، ولكن إذا ملك الإنسان قد يملك ولا يحكم، وقد يحكم ولا يملك، قد يملك ولا ينتفع، هو مالكٌ بيتاً، ولكنّه مؤجّر منذ ثلاثين سنة، وقد ينتفع ولا يملك، وقد يملك وينتفع، والمصير ليس له، عملت المحافظة تنظيم فهدم البيت، قد يملك ولا يحكم، قد يملك، ولا ينتفع، وقد ينتفع ولا يملك، وقد ينتفع ويملك، وليس له المصير، لكن إذا قال الله عزّ وجل: لِلّهِ، أي أن هذا الكون مِلْكُهُ مُلْكاً وتصرُّفاً ومصيراً، والملكيّة تامّة والتصرُّف تام والمصير لله عزّ وجل، ماذا يعني هذا الكلام ؟ يعني كما قال العلماء:

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ)

نحن في الدنيا إذا شعر الإنسان بآلامٍ في أمعائه، فإذا سكت فالطبيب لا يعلم، أما إذا أبدى هذه الآلام للطبيب فالطبيب قد يعالجها، وقد لا يعالجها، قد يستطيع وقد لا يستطيع، وقد يبدي وقد لا يُبدي، لكن أحياناً بالعناية المشدّدة يكون القلب موصولا بجهاز التخطيط الإلكتروني، وتجد أن التخطيط مستمر، والنبض مستمر، والضغط مستمر، فالمريض إن تكلّم أو لم يتكلّم فالطبيب يعرف مستوى تخطيطه ونبضه وضغطه، فسواءٌ كلام المريض أو سكوته هو بالعناية المشدّدة، أما بالعناية غير المشدّدة فإذا تكلم نعالجه، وقد نستطيع، وربما لا نستطيع، وإذا سكت فلا أحد يعرف ما به، فربنا عزّ وجل يقول:

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)

أي أن السماوات والأرض ومن فيها، وما فيها، ومن عليها، ومن تحتها، ومن وسطها، ومن فوقها..

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ)

إذا وُجِد خلل، أو مرض، أو انحراف، أو شهوة، أو إصرار، أو كِبر، أو شِرك، أو استعلاء، إذا كان هناك خلل، وإذا كان هناك ضَغَن، ودَرَن، و قصور، إن أعلنت أو سكت، إن أبديت أو أخفيت، إن أسررت أو أعلنت، إن تكلّمت أو سكت..

(يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ)

تشبيه بسيط جداً، كهذا المريض في العناية المشدّدة، الطبيب عينه على التخطيط، وعينه على الضغط وعلى النبض، فالمريض لم يعد لكلامه قيمة إطلاقاً، إن قال: أنا مرتاح والنبض مئة وثمانون، فكيف أنت مرتاح ؟ إذا قال: أنا ضغطي نازل، وضغطه ثلاثة وعشرون، فكلامه لم يعد له معنى.

العلاج الإلهي:

فأنت كمؤمن أنت في العناية المشدّدة، إن أردت تتكلّم أو تظل ساكتاً، تبدي أو تخفي، تعلن أو تكتم كله سواء..

(يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّه)

فالبطولة هناك طريقان للشفاء، كيف أن في الطب أيضاً طريقين: طريق المعالجة السريريّة، وطريق العمل الجراحي، إذا انتبه أحد لنفسه في الوقت المناسب، وكان عنده رغبة صادقة في الشفاء قد يعالج علاجاً لطيفاً من دون إزعاج، من دون فتح بطن، من دون تخدير عام، من دون أن يسيل الدم، من دون أن يشعر بآلام، فإذا أصرّ على خطئه، أصرّ على ضلاله، على انحرافه، يأتي العلاج الجراحي، فإذا خالف الإنسان، وعصى، وقصّر، أو فعل شيئاً لا يرضي الله عزّ وجل، إما أن يستغفر، ويتوب، ويصلح، ويقبل حتى يَطْهُر، وإما أن ينتظر العلاج الإلهي، وربنا عزّ وجل علاجه دقيق، وعلاجه صعب أحياناً، ومصيبته مصيبة، إذا أصاب الله الإنسان بشيء، فالله سمّاها مصيبة، لأنها تصيب الهدف تماماً.

فهذه الآية سبحان الله تلخيص لسورة البقرة:

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

إذا ندم الإنسان، وتاب توبة نصوحا، وتراجع، وأصلح، وأقبل، وأقلع وعزم..

(فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ)

صار العلاج سريريًا، حبتان يأخذهما المريض، حمية بسيطة، وانتهى الأمر ؛ أما إذا أصرّ الإنسان على خطئه صار العمل الجراحي ضرورياً، ساعتها الله عزّ وجل يُضَيّق عليه، يتوب عليه ليتوب، معنى يتوب عليه ليتوب أي يحمله على التوبة، يعني يسوق له من الشدائد ما يحمله بهذه الشدائد على التوبة، فإذا تابَ تاب عليه، توبة الله قبل توبة العبد لها معنى، وبعد توبة العبد لها معنى، قبل توبة العبد أن يحمله الله على التوبة، وبعد توبة العبد يكون قبول التوبة، هذه الآية كلّما قرأناها نتذكّر المعنى..

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)

ما في السماوات والأرض مُلْكٌ لله، مُلْكَاً تاماً وتصرُّفاً ومصيراً..

(وَإِنْ تُبْدُوا)

أيها البشر..

(مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ)

أنت في العناية المشدّدة نفسك مكشوفة عند الله، أحوالك، أقوالك، مشاعرك، صراعاتك، طموحاتك، تمنيّاتك، نواياك كلّه مكشوف، أنت مكشوف عند الله عزّ وجل..

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ)

لأنك في العناية المشدّدة..

(فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

أنت مخيَّر بأن تحب العلاج الأسهل، العلاج السريري، تناول الحبوب، تناول الأدوية، حِمْيَة بسيطة، كله ممكن، أما إن كنت لا تريد فأمامك عمل جراحي، وفيه مهانة وذل، الله عزّ وجل عنده عذاب مهين، وعنده عذاب عظيم، وعنده عذاب أليم، وأحياناً يجمع عذابين بآنٍ واحد، عنده قلق، الإنسان أحياناً يقلق، يخوّفه، فتجد قلبه فارغاً، أحيانا يَلُفّ في قلبه الانقباض، تجد أنه متضايق ؛ يشعر بانقباض، وخوف، وقلق، وحزن، واختلال توازن، و شعور بالفقر دائماً وبالحرمان، وآلام بالجسد، وفي أمراض وبيلة، وفي مضايقات خارجيَّة، وفي مواقف مهينة، فإذا لم يقبل الإنسان بالإقلاع، والندم، والإقبال، والاستغفار، والاتصال بالله، فهناك علاجات لكنّها مُرّة، فالبطل الذي يأتي طوعاً في الوقت المناسب.

وهناك آية ثانية:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من آية " 18 ")

فربنا عزّ وجل جعل من لوازم أهل العلم أنهم يشهدون للخلق أن الله قائمٌ بالقسط أي عادل، فأية قصّةٍ، أو أي تفسيرٍ، أو أي توجيهٍ، أو أي حديثٍ، أو أية دعوةٍ، أو أية نظريّةٍ، أو أية فكرةٍ، أو أية مبدأٍ يوحي بأن الله ليس بعادل فهذا باطلٌ في باطل، وهذا المتكلِّم جاهل بشهادة ربنا عزّ وجل..

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من آية " 18 ")

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

(وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا)

(سورة النساء)

الفتيل: خيط في نواة التمر..

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)

(سورة النساء)

(لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة غافر)

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة العنكبوت)

كلُّها آيات قطعيَّة الدلالة، فلذلك أية قصَّة تسمعها خلاف هذه الآيات ارفضها، وإن لم ترفضها قل كما أقول لك، قل: هذه القصَّة أسمعتني منها فصلاً، وهذا الفصل لا يكفي كي نحكم على أصحابها، إن لم نسمع فصولها كلّها لسنا مُؤَهّلين أن نحكم على أصحابها، وهذا رد لطيف، أما توجد قصص مفادها، وظاهرها أن الله ظالم، مفادها في الظاهر أن الله عزّ وجل يعذب المستقيم ؛ بينما المنحرف قوي، وفي نعمة، هكذا، هذا كلام مؤدّاه أنه لا توجد حكمة إلهيَّة، فلذلك الله عزّ وجل قال:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من آية " 18 ")

والذي ورد في الأثر أنه: **" من أحيا ليلتي العيد أحيا الله قلبه يوم تموت القلوب ".**

فمن إحياء ليلة القدر صلاة التَهَجُّد، وقد صليناها بحمد الله عزّ وجل، ومن إحياء ليلة العيد صلاة التسابيح.

شرح كيفية صلاة التسابيح:

صلاة التسابيح عبارة عن ثلاثمائة تسبيحة يجب أن نقولها في أربع ركعات، التسبيحات هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وهذه الجمل الأربع تعد مرة أو تسبيحة واحدة، نبدأ بعد تكبيرة الإحرام بدعاء الاستفتاح، سبحانك اللهمّ وبحمدك، ونعد خمس عشرة مرّة سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ويمكن للشخص بأصابعه أن يعد خمس عشرة مرّة، وبعدها يقرأ الإمام الفاتحة، وما تيسَّر من القرآن، ونرجع نعد كذلك عشراً، بالركوع عشراً فصار العدد خمساً وثلاثين، وعند كل حركة عشر، أي في كل ركعة خمس وسبعون مرّة.

الله عزّ وجل قال:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصّالِحَاتُ)

(سورة الكهف: من آية " 46 ")

تفسير الباقيات الصالحات:

في بعض التفاسير الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أما المال فقد يكون معك ألف مليون، ولكن (سبحان الله) أفضل من هذا المال كله، لأنها صالح يبقى.

في تفسير الآية إذا قلت: سبحان الله، أي سبّحت الله، أي نزّهته، ومجّدته، هذه سبحان الله، والحمد لله

حمدته، ولا إله إلا الله وحدّته، والله أكبر كبّرته، إذا سبّحته وحَمِدّته ووحدته، وكبرته فقد عرفته، وإذا عرفته هذه المعرفة أفادتك إلى أبد الآبدين، أما المال والبنون فتنتهي بموت الإنسان.

الآية جميلة المعنى جداً.

(المَالُ وَالبَنُونَ)

لكن موضوع القراءة الشكليّة الجافة الجوفاء ليس لها معنى، الإسلام لم يكن هكذا، فإذا قلت: سبحان الله يجب أن تسبّح نفسك بعظمة الله عزّ وجل، لا إله إلا الله ألا ترى مع الله إلهاً آخر، الله أكبر مهما عرفت عن عظمته فهو أكبر، فإذا عاين الإنسان، وحاول، وتأمّل في معاني هذه التسبيحات، والتهليلات، والتكبيرات فعليه أن يعانيها، ويعيش معانيها ومدلولها لكي تحقق التسابيح معناها، والهدف الذي نرجوه من ورائها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (04-16): تفسير الآيتان 8 - 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-10-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

إظهار الروابط بين الآيات الكريمة:

من باب إظهار الروابط بين الآيات الكريمة، لأن كلام الله عزّ وجل كلامٌ مترابط، قال تعالى:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)

(سورة هود: من آية " 1 ")

من معاني أُحكمت أنها ترابطت، فحينما قال الله عزّ وجل:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

وجه العلاقة بين الآية الأولى والآية الثامنة:

إذاً هناك فِتَن ؛ فتنٌ كبيرة، وفتنٌ صغيرة، فتنٌ خطيرة، وفتنٌ حقيرة، ربنا عزّ وجل يُبَيِّن أن هناك فتنة خلاصتها: إنسانٌ نشأ بين أبوين، عطفا عليه، حدبا عليه، أكرماه، كانا سبب وجوده، ربياه تربيةً بشكلٍ أو بآخر، فلما كبر هذا الغلام وأصبح يافعاً، هناك احتمالٌ أن يأتيه أمرٌ من والديه خلافاً لما جاء به القرآن الكريم، أو خلافاً لما أمر به الله عزّ وجل، ما موقف الابن من هذه المشكلة ؟ هذه فتنة، فبما أن الأب هو سبب وجود الإنسان، وبتربيته في الظاهر سبب بقائه، وسبب وجوده من حيث الصورة، أما الحقيقة هو الله عزّ وجل، وسبب بقائه من حيث الصورة.

أما الحقيقة فوجوده وبقاؤه بفضل الله عزّ وجل، ولكن ما من علاقةٍ في الحياة الدنيا أمتن من علاقة الأب بابنه والأم بولدها، فلو أن هذا الأب المُربي والأم المربية كانا على غير الحق، وأمرا هذا الابن بما لا يرضي الله عزّ وجل، بشيءٍ خلاف المنهج الإلهي، هذه فتنة، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

وَوَصَيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا

1 – معنى وَصّينا:

وصينا بمعنى عَهِدْنَا، ووصينا هنا بمعنى أمرنا.

2 – لماذا أمر الله الإنسان أن يحسن لوالديه ؟

ولماذا أمر الله الإنسان أن يحسن لوالديه ؟ لأن حُبَّ الأب لابنه، وحب الأم لابنها طبعٌ، لذلك لا تجد في القرآن الكريم ما يشير إلى أن يُؤمر الإنسان أن يحب ابنه، أو أن تحب الأم ابنها، لأن هذا طبع، تحصيل حاصل، ولكن الذي أمر الله به الإحسان إلى الوالدين لأنه تكليفٌ، الإنسان قد يبني بيته، قد يعيش مع أهله، مع زوجته، وقد يرى في الإحسان إلى والديه عبئاً، ومشقةً، وكلفةً، لذلك ربنا سبحانه وتعالى أمر الإنسان بالإحسان إلى والديه، هذا تكليف.

ومعنى تكليف أيْ أنّ فيه كلفة، ومعنى أن فيه كلفة، أي أن فيه رقيّاً إلى الله عزّ وجل، كل شيء فيه كلفة فيه رُقيّ، كل شيء متوافق مع الطبع لا ترقى به، فإذا تناولت الطعام وأنت جائع، تناولك الطعام لا ترقى به إلى الله عزّ وجل، لأنه توافق مع طبعك، أما الشيء الذي ترقى به فهو الشيء الذي تُخالف فيه نفسك وهواك.

قد يرى الإنسان الشاب أن سعادته في زوجته، وفي أولاده، وقد يرى في حالاتٍ نادرة أن أباه وأمه، وقد تقدمت بهما السِّن عبءٌ عليه، لذلك جاءت توصية الله عزّ وجل للإنسان أن يرعى أمه وأباه، وأن يكون باراً بوالديه، قال تعالى:

(وَوَصّيْنَا)

أي عهدنا، وفي السياق أمرنا، الإنسان أي إنسان..

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

بالأم والأب.

لذلك عَنْ عَبْدِ اللّهِ بن عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللّهُ عَزّ وَجَلّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ...))

[النسائي]

وفي حديثٍ آخر عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنّانٌ، وَلَا عَاقٌّ وَالِدَيْهِ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ))

[أحمد]

لأن الأب في الظاهر سبب وجودك، ورعايته لك حينما كنت صغيراً سبب استمرار وجودك، ربي اغفر لي ولوالدي ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً "، وجميع مبادئ العدل والإنسانية والرحمة تقتضي أن ترد هذا الجميل إلى أبويك.

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

سبب نزول الآيات:

روى الترمذي عند تفسير هذه الآية عَنْ سَعْدٍ قَالَ: **<< أُنْزِلَتْ فِيّ أَرْبَعُ آيَاتٍ، فَذَكَرَ قِصّةً، وَقَالَتْ أُمّ سَعْدٍ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللّهُ بِالْبِرّ ؟ وَاللّهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا، وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتّى أَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ، قَالَ: فَكَانُوا إذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:**

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي)

الْآيَةَ >>.

[الترمذي]

هذه قصةٌ وردت في أسباب نزول هذه الآية.. ثم أنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل، ولم تشرب، حتى قال ابنها سعد: يا أمي، لو أن لك مائة نفسٍ فخرجت واحدةً وَاحدةً ما كنت لأكفر بمحمد، فكُلي إن شئتِ، أو لا تأكلي.

لكل إنسان حدود:

الآية دقيقة جداً، لكل إنسان حدود، لكل جهةٍ حقوق وواجبات، أما أن تختلط الأمور، الأب والأم يُحْسَنُ إليهما، ويرعى حقهما إلى ما لا نهاية، أما أن يحملاك على معصية الله، أما أن يحملاك على أن تكفر بالله فهذا شيءٌ مخالفٌ لأمر الله عزّ وجل، قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيّاهُ)

(سورة الإسراء: من آية " 23 ")

العبادة لله وحده..

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء: من آية " 23 ")

العبادة لله عزّ وجل، والإحسان للوالدين، أما أن تختلِطَ الأمور فتصبح العبادة للوالدين، والإحسان لغير الوالدين فهذا شيءٌ ليس وارداً في أصل الدين، إذاً قال تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا)

كلكم يعلم أن هناك إسلام، أيْ أن تنصاع لأمر الله عزّ وجل انصياعاً تاماً، وأنّ هناك إيمان، والإيمان أن تُصَدِّق وأن تُقْبل وأن تتجه، الإسلام طاعة، انصياع إلى كل أوامر الله وترك ما نهى الله عنه، هذه مرتبة الإسلام.

مرتبة الإحسان والإيمان والإسلام:

مرتبة الإيمان أعلى من ذلك، أن تقبل على الله عزّ وجل وأن تتجه إليه، لذلك:

(قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات: من آية " 14 ")

مِن هذه الآية اتضح أن مرتبة الإيمان فوق مرتبة الإسلام، ولكن فوق المرتبتين مرتبة الإحسان، والنبي عليه الصلاة والسلام قال عن الإحسان:

((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))

(صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ)

أي أنك إذا كنت في حضورٍ مع الله، من لوازم هذا الحضور الإحسان بمُطلق معانيه، إلى الخلق، إلى نفسك، إلى من هو قريب، إلى من هو بعيد، فإذا أردت أن تضغط الدين كلّه كله في كلمة واحدة إنه الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، ولن تكون محسناً إلا إذا كنت في حالة حضورٍ مع الله عزّ وجل. الإنسان أحياناً يرغِّب في الجزئيات والتفصيلات، ولكنه أحياناً أخرى يرغب في الكلمات ذات المدلولات الكبيرة وذات الإيجاز القليل، فالإحسان إذا كنت في حالة حضورٍ مع الله عزّ وجل، من لوازم هذا الحضور، من علامات هذا الحضور أن تكون محسناً الإحسان:

((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))

بيان علاقة هذه الآية بما قبلها: فتنة الإنسان بوالديه:

إذاً علاقة هذه الآية بالتي قبلها، أنّ أقرب الناس إلى الناس والداه، نشأ بين أحضانهما، نشأ في بَيْتِهما، نشأ في حبهما، نشأ في رعايتهما، إذاً هناك علاقات وشيجة جداً، متينة جداً، علاقات مُتَمَيِّزَة، علاقات من الدرجة الأولى، بحكم الفطرة، بما أن الإنسان فطر على حب أولاده، وعلى العطف عليهم، وبما أن هذا الطفل الصغير تلقى العطف والرحمة والحنان، والشفقة والعناية والرعاية من أمه وأبيه، إذاً كانت هناك علاقات متينة جداً، هذه العلاقات إنما صممها الله عزّ وجل كي يستطيع الأب أن يأخذ بيد ابنه إلى الله، هذا الحُب طريق الهدى، والحقيقة حينما تريد أن تهدي إنساناً لا تستطيع أن تصل إلى قلبه إلا

بالإحسان، لذلك فالإنسان الأول المؤهّل ليهدي الإنسان الآخر هو الأب بالنسبة إلى الابن، لأن الأب كله إحسان، الأب كُتْلةٌ من الإحسان والأم كذلك، إذاً هذا التصميم الأسَري الذي صممه الله عزّ وجل.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم: من آية 21)

وهؤلاء الأولاد الذين هم ثمار هذه العلاقة، وثمار هذه المحبة، وثمار هذه المودّة، إذا نشأ الأولاد في حجر آبائهم وأمّهاتهم، هناك ميزة وهناك مشكلة، الميزة إذا كان هذا الأب مؤمناً فتِلك العلاقة المتينة جداً عاملٌ مساعدٌ على هِداية الابن، الذي له ابن، وبالغ في الإحسان إليه وإكرامه، والعطف عليه، ورعايته، وتوجيهه، هذا الأب يستطيع قبل أيّ إنسانٍ آخر أن يأخذ بيده إلى الله ورسوله ؛ لكن الأب الضال تنشأ من خلالِهِ مشكلة، إذا كان الأب مُنْحَرِفاً، أو الأب ضالاً أو بعيداً عن جوهر الدين، أو لم يفهم الدين فهماً عميقاً، هذه العلاقة المَتينة التي أرادها الله بين الأب وابنه، هذه تغدو عُنْصُراً سلبياً في الدعوة إلى الله عزّ وجل، إذاً أول أنواع الفتن في حياة الإنسان أن يُفْتَنُ بوالديه، ربنا عزّ وجل قال:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

أي أيها الإنسان أنت مكلفٌ أن تحسن إلى أمك وأبيك ليس غير، أما العبادة فلله عزّ وجل، وقد يفتن الإنسان إذا تلقّى أمراً من أمه وأبيه بغير ما يرضي الله عزّ وجل، هذه أول فتنة..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

من هذه الفِتَن أن يكون الإنسان ذا علاقةٍ متينةٍ مع والديه، وقد يأمراه بغير ما يأمر به الله عزّ وجل.

معنى الإحسان للوالدين:

الشيء الثاني:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

معنى (حسناً) هذه الكلمة مصدر حَسُنَ، يَحْسُنَ حُسْنَاً، المقصود: ووصينا الإنسان بوالديه توصيةً حَسَنَةً، فأنت أيها الإنسان موصى من قبل الخالق بالإحسان لوالديك، وكلكم يعلم أن المحسن لوالديه له في الدنيا جزاءٌ، وفي الآخرة جزاء، له في الدنيا معاملةٌ طَيِّبَةٌ من لله عزّ وجل، وتوفيقٌ في أعماله، وعوام الناس يعرفون هذه العلاقة، وله في الآخرة عند الله مقامٌ خاص لبره لوالديه، لِذا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:

((قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُجَاهِدُ ؟ قَالَ: لَكَ أَبَوَانِ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ))

[متفق عليه]

إذا بر الإنسان أمه وأباه هذا العمل ربما يكفي كي تلقى الله وهو عنك راضٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ

رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((إِنِّي جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ، وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا))

[النسائي، أحمد]

القول الشائع: **" الجنة تحت أقدام الأمهات ".**

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ)

الاستثناء من طاعة الوالدين:

هنا المُشكلة، ربنا عزّ وجل بدأ بالوصية الحسنة، تم ذكر المشكلة التي قد تقع، قال سبحانه:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

ماذا تعني ما ليس لك به علم ؟

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ)

معنى: وَإِنْ جَاهَدَاكَ

أي وإن حملاك، وإن دفعاك، وإن أمراك

(أَنْ تُشْرِكَ بِي)

أن تعبد غيري، أن تذعن لغيري، أن تطيع غيري، أن تعصيني..

(فَلاَ تُطِعْهُمَا)

(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

هذه الآية أصلٌ في أن التقليد مرفوضٌ في المعصية وفي الإيمان، فالإيمان لا يقبل تقليداً، لا يقبل إلا تحقيقاً.

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

لو سُمِحَ لإنسان أن يقلِّد إنساناً لكان هذا التقليد عذراً للضال، تقول: يا رب، تابعت فلاناً فأضلني، لذلك لا يقبل الإيمان إلا تحقيقاً عند أهل السنة والجماعة، وهذه الآية تؤكِّد ذلك:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)

(سورة محمد: من آية " 19 ")

الآيات القرآنية التي تتحدّث عن العقل، وعن أن العقل دليلٌ إلى الله عزّ وجل، وعن أن الإنسان يجب أن يُعْمِلَ عقله في معرفة الله عزّ وجل تقترب من ألف آية، وفي الأثر:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

فإذا كان الأب والأم على جانبٍ من الإيمان والتقوى والصلاح لا توجد مشكلة إطلاقاً، لأن أمر الأب والأم من أمر الله عزّ وجل، وطاعاتهما عندئذٍ واجبة، ماذا قال سيدنا الصديق ؟ **<< أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>.**

ولكن المشكلة أن ينشأ الإنسان في وسط غير مؤمن، في بيئة غير مؤمنة، له أب غير مهتدٍ إلى الله عزَ وجل، الأب له أمر ونهي، هذه من الفتن الكبيرة التي قد يتعَرَّض لها الإنسان حينما ينشأ في هذه الحياة الدنيا، يا أخي ؛ قال لي أبي ذلك، أبي رباني، هذا توجيهٌ من الله عزّ وجل، يقول الله عزّ وجل:

(فَلَا تُطِعْهُمَا)

يا أمي لو أن لكِ مئة نفسٍ فخرجت واحدةً وَاحدةً ما كنت لأكفر بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي، أما سيدنا سعد فقد كان باراً بأمه، هنا البطولة، أن تكون باراً، وأن تكون محسناً، وأن تكون راعياً، وأن تكون كريماً، أما في أمور العقيدة أمور الدين، فهذه لله وحده.

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ)

احذروا معصية الله، فإن الله يقول: إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ

هذه الكلمة دقيقة جداً، أنت الآن أيها الإنسان تعيش مع أمك وأبيك، تعيش إلى أمدٍ محدودٍ جداً، ربما بعد حين تستقل عنهما في بيت، أما إذا عصيتني وأطعت أمك وأباك، فالبقاء في النهاية معي.

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ)

العودة إلى الله عزّ وجل، لن يكون معك أحدٌ يُدافع عنك، أو يحمل عنك التَبعَة.

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ)

من معنى:

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ)

نستفيد أنّ الإنسان مهما طال عمره فـ:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

البطولة أن تنظر إلى هذا الرجوع إلى الله عزّ وجل، لهذا الحساب الدقيق، لهذه الأبدية في الجنة أو في النار، هنا البطولة، لا أن ترعى حياةً مؤقتةً، لا أن ترعى حياةً فانيةً سريعة الزوال، وشيكة الانتقال:

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ)

معنى: فَأُنَبِّئُكُمْ

معنى فأنبئكم، أي أنا معكم كنت في الدنيا ؛ عليمٌ بحركاتكم وسكناتكم، عليمٌ بكل مقتضيات حياتكم، بكل أفعالكم، بكل نياتكم، إذاً ما دام الله عزّ وجل معنا فهو عليمٌ بأفعالنا، وما دامت الرجعة إليه..

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ)

فالأمر غداً جلياً واضحاً. إذاً عنده الحساب، فالبطولة أن تحسب حساباً لهذه الرجعة ولهذا العلم الإلهي الذي يعلم كل حركاتنا وسكناتنا.

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9))

مَن هُم الصالحون ؟

من هم الصالحون ؟ قال العلماء: هم الهداة، لقول الله عزّ وجل:

(وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(101))

(سورة يوسف)

دعاء الأنبياء.

ودعاء نبي كريم:

(رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)

(سورة الأنبياء)

أي الصالحون بعطائنا، الصالحون لإكرامنا، الصالحون لهذه الجنة الأبدية السرمدية، الصالحون لإكرامنا.

إذاً الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

بدأ بالتوصية بالحسنى، وثنّى بأنه من الفتن التي قد يتعرض إليها الإنسان أن يتلقّى أمراً ممن كان سبب

وجوده، وممن كان سبب استمراره في وجوده، برعايته، وتربيته، هذه العلاقة المُتميزة، إما أن تكون في عالم الإيمان عاملاً سلبياً أو عاملاً إيجابياً..

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

هؤلاء الذين عرفوا الله عزّ وجل، واستقاموا على أمره هؤلاء دخلوا في الصالحين لعطائنا، دخلوا في زُمرة المهتدين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقفة موجزة عند مرتبة الإحسان:

وقفة قصيرة عند مرتبة الإحسان، ما دام الله عزّ وجل قال:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

الإحسان أيها الإخوة، كما قال بعض العلماء: لُبُّ الإيمان، الإيمان ؛ صلاة وصوم وحج وزكاة، وأمر ونهي، ومعاملات، وعبادات، وأخلاقيات، يمكن أن تلخِّص الدين كله بالإحسان، إذاً هو لُبُّ الإيمان وروح الإيمان، وكمال الإيمان، مَن حسُنتْ عبادته، وساء عمله فقد ابتعد عن جوهر الدين، من صام وصلّى وزعم أنه مسلم، ولم يكن محسناً إلى أقرب الناس إليه، إلى والديه، إلى أهله، إلى أولاده، إلى جيرانه، إلى من معه، إلى من هم فوقه، إلى من هم دونه ليس مسلماً، إذاً هو لُبُّ الإيمان، ربنا عزّ وجل قال:

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

إنها آيةٌ جامعةٌ مانعة، أي أنه سبق لك من الله إحسان، وجودك إحسان، أن يَمُدَّكَ بما تحتاج هو إحسان، أن يرشدك إليه هو إحسان، نعمة الإيجاد إحسان، نعمة الإمداد إحسان، نعمة الإرشاد إحسان، إذاً أنت حَسَنَة من الله عزّ وجل، أنت في مجملك إحسانٌ من الله:

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

يجب أن ترُدَّ الجميل، لذلك لما ربنا عزّ وجل قال:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا)

(سورة البقرة: من آية " 29 ")

وفي آية ثانية قال سبحانه:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

الكون كله مسخرٌ لك أيها الإنسان، تسخير تعريف وتسخير تكريم، ردُّ الفعل الأول أن تعرفه، وردّ الفعل الثاني أن تشكره، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

هذا درس موجز، أساسيات الدين..

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ)

وجودك إحسان، إمدادك إحسان، هدايتك إحسان، زوجتك إحسان من الله لك، أولادك، أجهزتك، أعضاؤك، ما حولك، الأرض بجبالها، بوديانها، بسهولها، بهذا الطعام الذي أعده الله لك، بهذه الأشياء التي حببها إليك، كُلُّكَ إحسان من الله عزّ وجل..

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

كيف تكون محسناً ؟

((أن تعبد الله كأنك تراه))

إذا كنت في حالة حضورٍ مع الله عزّ وجل عندئذٍ تكون محسناً.

((فإن لم تكن تراه فإنه يراك))

وهذه المرتبة، مرتبة الإحسان أعلى من مرتبة الإيمان، إسلامٌ فإيمانٌ فإحسان، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((هل جزاء من علم أنه لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمدٌ إلا الجنة ؟))

ما هو الإيمان ؟ أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، وأن تتابع النبي في سيرته وفي سُنَّتِهِ، العملية إيمان وعمل، هذا هو الإحسان.

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ)

بأن تعرف الله، وبأن تنفذ أمره.

(إِلاَّ الإِحْسَانُ)

وهو دخول الجنة، الإحسان الأول الإيمان والعمل الصالح، والإحسان الثاني هو الجنة، وأنت في الأصل أثرٌ من أثر إحسان الله للإنسان، وعليك أن تفعل شيئاً يقابل هذا الإحسان بالإحسان، ورد في بعض الأحاديث:

((هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة))

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

إذاً: يجب أن تسعى إلى أن تكون حاضراً مع الله عزّ وجل حتى تكون محسناً، حتى يكون إحسانك رداً لجميل الله فيك.

أنواع الإحسان

العُلماء بينوا أن الإحسان على أنواع أربعة:

النوع الأول: إحسان القصد:

أنت لك قصد من حضورك في هذا المسجد، إذا أردت الزواج لك قَصد، إذا أدرت العمل لك قصد، أحياناً تغضب، ولك من غضبك قصد، أحياناً تحزن، أحياناً تعطي، تمنع، تأخذ، تصل، تقطع، ما من حركةٍ يتحرّكُها إنسانٌ عاقل إلا وله قَصْدٌ منها، الإحسان في القصد أن تكون مقاصدك متوافقةً مع الشرع، هذا الإحسان.

نبدأ بالإحسان من مستوياته الأولى، حينما تفعل شيئاً، حينما تنبعث إلى فعلٍ شيءٍ، حينما تُقْدِمُ على عمل، حينما تقدم على تجارة، على وظيفة، على دراسة، حينما تقدم على زواج، حينما تقيم هذه الحفلة، حينما تذهب للتعزية، حينما تبتسم، حينما تعبس، حينما تضحك، حينما تغضب، حينما ترضى، لا بدّ من قصدٍ وراء هذه الأفعال إذا كنت عاقلاً، العاقل لا بدّ له من قصدٍ وراء كل أفعاله، الآن هنا السؤال بطرح نفسه: هل هذا القصد موافقٌ للشرع ؟

المحسن يحرص على أن يكون قصده في كل عملٍ موافقاً للشرع، حتى إذا اشتريت لأهلك طعاماً، ما قصدك ؟ قصدك أن تعتني بهم كي تأخذ بيدهم إلى الله ورسوله، إذا اشتريت لِباساً ما قصدك ؟ أن تمثِّل المؤمنين، يجب أن يكون مظهرك حسناً، اجعل قصدك التقرُّب إلى الله دائماً، هذا أحد أنواع الإحسان في القصد، يجب أن تهُذِّبَ القصد بالتَعَلُّم، كلما طلبت العلم جاءت مقاصدك موافقة لمقاصد الشريعة، أما إذا كان قصدك أن تظهر عند دعونهم لمنزلك ما عندك من تحف ومن أثاث، ومن أشياء تعجب الناس فهذا لا يتوافق مع مقاصد الشرع، وأحياناً تدعو إلى وليمة وقصدك ليس إرضاء الله عزّ وجل، إذاً من الإحسان أن تجعل قصدك مطابقاً لمقاصد الشريعة، هذا أحد أنواع الإحسان.

النوع الثاني: الإحسان في العزم:

الآن من الإحسان أن تجعل هذا القصد بعزيمةٍ صادقةٍ حقيقةً، أحياناً الإنسان يسمع عن قيام الليل، يقول لك: إن شاء الله أريد أن أقوم الليل، لكنه لا يملك الإرادة الكافية لذلك، الإرادة ضعيفة، كل واحد من

المؤمنين له تمنيّات كبيرة جداً، يا ترى هل واقعة مطابقٌ لتمنياته ؟ الله أعلم، إذاً فضلاً عن ذلك يجب أن تمتلك عزيمةً تجعل هذا القصد الشريف واقعاً، ما قيمة هذه النوايا الطيبة إذا كان لك واقع بعيد عن الواقع الذي تطمح إليه ؟

إذاً أول شيء في الإحسان أن يكون قصدك مطابقاً للشريعة، وسبيله العلم، الشيء الثاني أن تربي نفسك تربيةً بحيث تمتلك ناصيتها، الصوم يربّي الإرادة، كل أمرٍ فيه معاكسةٍ لشهوات النفس، الأمر حقيقةً هو أمر، وفي حقيقته تربيةٌ لإرادة الإنسان حتى يستطيع أن ينتصر على ذاته.

النوع الثالث: إحسان الأحوال:

هناك شيء آخر إحسان الأحوال، يجب أن يكون لك حالٌ مع الله، يجب، أن يكون لك قصدٌ شريف، وعزيمةٌ صادقة وحالٌ مع الله، والحال مع الله لا يتأتّى إلا بطاعته، كلما أطعته كلما تجلّى عليك، كلما أطعته كلما شعرت بالطمأنينة، كلما شعرت بالاستقرار، كلما شعرت بالثقة، كلما شعرت بالغنى، حال الغنى، والزُهد، والشعور بالتوازن، والاستقرار، والطمأنينة، والأمن، هذه أحوال أهل القرب، تقترب من الله ثم تخاف ؟! تقترب من الله ثم تشعر بالفقر ؟ أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها، إذاً عندنا بالإحسان درجة أخرى أن يكون لك حال مستعِدٌ مع الله، طاعتك لله عزّ وجل، وأعمالك الصالحة تشعرانك بالطُمأنينة، تشعرانك بالقرب، لذلك فالسبيل إلى أن تمتلك حالاً طيّبَاً تسعد به أن تكون مُتَقَصِّيَاً لطاعة الله عزّ وجل في كل شيء، وأن تتقرب إلى الله بخدمة عباده، طاعته وخدمة عباده يجعلانك في حالٍ طيب تسعد به هذا من الإحسان.

فالإحسان الثالث إحسان الأحوال، يجب أن تكون أحوالك حسنة، فيها قُرْبٌ مع الله عزّ وجل، فيها تجلٍ من الله عزّ وجل، هذه الأحوال أسبابها طاعة الله عزّ وجل، والتقرب إليه بخدمة الخلق، وصحبة الصادقين، لقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

النوع الرابع: إحسان العمل:

بقي علينا إحسان ثالث إحسان العمل، إحسان العمل أن يكون موافقاً للشرع، ما من شيءٍ إلا وللشرع حكمٌ فيه، هذا أمر، وهذا نهي، وهناك واجب، مستحب، مباح، مكروه، كراهة تحريمية، كراهة تنزيهية، مُحَرَّم، فإذا كانت أعمالك كلها مطابقةً للشرع جاء عملك حسناً، وإذا كنت فضلاً عن ذلك محسناًبالمعنى

الدقيق، أي لك عطاؤك، ولك خدمتك، هذا أيضا ينطوي تحت كلمة الإحسان في العمل.

النوع الخامس: الإحسان في الوقت:

وأما الإحسان في الوقت وهو من أخطر أنواع الإحسان، فأن تجعل وقتك كله في طاعة الله، ألا يكون عملك نَوْبِيًّا، أي ساعة لك وساعتان لربك، أو ساعة لك، وساعة لربك، هذا ما يقوله عامة الناس، الإحسان في الوقت أن تجعل وقتك كُلّهُ في طاعة، وفي عبادة، وفي خدمة، وفي تعلُّم، وفي تعليم، وفي الأمر بالمعروف، وفي النهي عن المنكر، لأن المؤمن لا يندم يوم القيامة إلا على ساعةٍ مَرّت لم يذكر الله فيها.

عندنا إحسان في القصد، وإحسان في العزم، وإحسان في الحال، وإحسان في العمل، وإحسان في الوقت، الإحسان في الوقت اجتهاد، في أن تجعل جُلّ أوقاتك في طاعة الله، في خدمة الخلق، في معرفة الحق، في التعليم، في التعلُّم، في الأمر، في النهي، في طلب مرضاة الله عزّ وجل.

كلمة:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

ملخّص الموضوع:

فَرّعنا منها موضوع الإحسان الذي هو مرتبةٌ تفوق مرتبة الإيمان، ومُلخّص الموضوع، أنك إذا كنت في حالة حضورٍ مع الله عزّ وجل، فمن لوازم هذا الحضور أنك تكون محسناً إلى نفسك، وإلى أهلك، وإلى من حولك، وإلى كل مخلوق، وهذا الإحسان ما هو إلا رَدٌّ لإحسان الله إليك، أحسن إليها إذ أوجدك، وأحسنَ إليك إذ أمَدّك، وأحسنَ إليك إذْ هداك..

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان)

إحسانك ردٌ لهذا الجميل، لبعض الجميل..

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (05-16): تفسير الآيات 10 - 18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-02

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تذكيرية:

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة العنكبوت، تَذْكرون أن الله سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة قال:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أن تكون في مدرسةٍ عالية فيها كل ما يحتاجه الطالب، وقد أُنْفِقَ على بنائها مئات الألوف، بل عدّة ملايين، وأن تُجَهَّزَ بالمختبرات، وقاعات التدريس، وقاعات المحاضرات، والحدائق، والمطاعم، وأن تدخل هذه المدرسة، وأن تكتفي منك إدارة هذه المدرسة أن تقول لها: إنني متفوّقٌ في هذه المادّة، فيقبل هذا الكلام وتنجح، هذا مستحيل..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

إذاً هناك فِتَن، والفتنة في أدق تعاريفها إظهار ما في النفس، فقد يُفْتَن الإنسان فينجح، وقد يُفْتن فيرسُب، قد يفتن فيأتي الواقع مؤكِّداً لقوله، وقد يُفتن فيأتي الواقع مكذِّباً لقوله، والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يَقْبَلَ منك قولك: إنك مؤمن، بل لابدَّ من أن يفتن الإنسان، أي لابدَّ من أن يُمْتَحَن.

بعض موطن الفتنة:

الفتنة الأولى: فتنة الوالدين:

ربنا عزّ وجل في هذه السورة بيَّن لنا بعض المواطن التي يُفْتَنْ فيها الإنسان، أول مَوْطِنٍ يُفْتَن من قِبَل أبويه، فكما أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه العاطفة الأصيلة بين الآباء والأبناء من أجل أن ينمو الأبناء، وأن ينشئوا في حجر آبائهم، هذه العلاقة الأبويّة قد توظّفُ في غير مصلحة الإيمان..

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

هذه فتنة، والله سبحانه وتعالى يُعْبَد، والأبُ والأم يُحْسَنُ إليهما، وفرقٌ كبير بين العبادة وبين الإحسان، لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

الفتنة الثانية: فتنة الوالدين: دعوى الإيمان بالله:

الفتنة الثانية، يقول الله عزّ وجل:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبّكَ لَيَقُولُنّ إِنّا كُنّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)

لو أن الله عزّ وجل قال: **" ومن الناس من يؤمن بالله "** اختلف المعنى اختلافاً كلياً، الله عزّ وجل قال:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ)

ومعنى يقول أيْ يَدّعي، يدّعي أنه مؤمن، وأنا متأكِّد أنه ما من إنسانٍ في العالم الإسلامي يصلي الصلوات الخمس إلا ويدّعي أنه مؤمن، والقضيّة ليست بالدَعوى، لو أن القضيّة بالدعوى فالأمر سهلٌ جداً، فالله قال:

(وَمِنَ النّاسِ)

هذه (مِن) تفيد التبعيض، أيْ أنّ بعض الناس يقول: أنا مؤمن، يقول: أنا مؤمن، تَبَجُّحاً، يقول: أنا مؤمن، تأكيداً لإيمانه، يقول: أنا مؤمن، افتخاراً، يقول: أنا مؤمن، هكذا ليتعالى على أقرانه..

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ)

الله عزّ وجل لا يمكن أن ينخدع، ولا يمكن أن يَخْدَع.

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: من آية " 142 ")

فهذا الذي ادّعى أنه مؤمن، وقال: إنه مؤمن، وأكّد أنه مؤمن ربنا عزّ وجل يمتحنه..

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ)

معركة الحق والباطل قديمة وأبدية:

كلُّكم يعلم أن هناك كفرا وإيمانا على مَرّ الزمان، وهناك معركةٌ قديمةٌ وأبديّةٌ بين الكفر والإيمان، أهل الحق مع الحق، وأهل الباطل مع الباطل، أهل الحق يعبدون الله عزّ وجل، وأهل الباطل يعبدون شهواتهم، ومنذ القديم يسعى أهل الحق لهداية أهل الباطل، ويسعى أهل الباطل لإغواء أهل الحق، هذه معركةٌ قديمةٌ قِدَمَ الإنسان، منذ أن كان الإنسان على وجه الأرض فهذه المعركة قائمة.

فإذا آمنت، أو ادّعيت الإيمان، أو ذهبت إلى المسجد، أو صليت الصلوات الخمس، أو غضضت بصرك عن محارم الله، أو ترفّعت عن أكل المال الحرام، أو فعلت شيئاً يثبت أنك مؤمن، أو أردت أن تنحاز إلى أهل الإيمان، أو أردت أن تكون مع المؤمنين في مشاعرهم، في طموحاتهم، في آلامهم، في

آمالهم، إذا أنس الناس منك أنك مع المؤمنين، وأنك في صفِّ أهل الإيمان، وأنك مع الحق هناك محاولاتٌ دائمةٌ، وقديمةٌ، ومستمرّةٌ، ومستقبليّةٌ، هناك محاولاتٌ لزحزحتك عن إيمانك، لذلك كما أن الطالب المُقَصِّر يتمنّى أن يكون جميع الطلاب مقصِّرين ليستأنس بهم، كما أن الطالب المُهمل لواجباته يتمنّى أن تتسع هذه الدائرة كي تصبح ظاهرة اجتماعيّة، كي تصبح قانوناً، فلذلك بعض الناس يُرغِمون المؤمنين على أن يعودوا إلى الكفر.

بالمناسبة، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلّا لِلّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النّارِ))

[متفق عليه]

صورة لثبات الإيمان: سحرة فرعون:

لو أن الدنيا بأكملها، لو أن السماء أطبقت على الأرض، لو أن كل من على الأرض كفر، ولو أن كل من على الأرض هدّد المؤمن فإنه لا يتزحزح عن إيمانه، هذا هو الإيمان، والدليل:

حينما سخّر فرعون السَّحَرَة ليكونوا دعماً له في علاقته، أو في خصومته مع سيدنا موسى، فقد جاءوا بحبال وفَرّغوها، ووضعوا فيها الزئبق كما تروي بعض الكُتّاب، وضعوها على مكان ساخن، لعلّ الزئبق إذا تمدّد تحرّك، وحرّك معه الحبال، أما سيدنا موسى فحينما فقد ألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين، وهم سحرة عمالقة في السحر، فكانوا أولَ منْ عرفَ أن هذا ليس بسحر ؛ بل هذه معجزة، فقالوا:

(آمَنّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

(سورة طه)

ماذا قال فرعون ؟ فرعون يمثِّل القوّة، وكما قال في موضعٍ آخر:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى)

(سورة النازعات)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: من آية " 38 ")

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنّهُ لَكَبِيرُكُمْ الّذِي عَلّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنّكُمْ فِي جُذُوعِ النّخْلِ وَلَتَعْلَمُنّ أَيّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

(سورة طه)

ماذا قالوا ؟.

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72))

(سورة طه)

أيْ كل ما تملك أن تزهق أرواحنا، ونحن إذا أزهقت أرواحنا انقلبنا إلى جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، هنا موطن قوّة المؤمن، والله عزّ وجل وعده بحياةٍ طيّبة..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

مِن سنن الله الجارية:

1 – محاولات أهل الباطل إضلال المؤمنين:

شيءٌ طبيعي أنّك إذا آمنت، إذا صلّيت، إذا غضضت بصرك عن محارم الله، إذا تحرّيت الحلال في كسبك، إذا تحرّيت الحلال في إنفاقك، إذا أردت أن تكون مع المؤمنين شيءٌ طبيعيٌ جداً أن يأتي أهل الباطل ليُعيدوك إلى جادتهم، أن يأتي أهل الباطل ليقنعوك بباطلهم، هذه هي المعركة، بين أهل الشهوات وأهل القُرُبات، بين أهل العقل وأهل المصلحة، فإذا حاول أهل الباطل أن يقنعوا هذا الذي يقول: آمنت، بلسانه ولم يؤمن فعلاً، وضغطوا عليه بطريقةٍ أو بأخرى، سريعاً ما تنهار نفسه، وينضمُ إلى الكفّار.

لدينا مثل يقرّب هذه الحقيقة: الإسمنت مادّة معروفة، إلا أنها لا تُعطي إنذاراً قبل أن تنهار، هذه مشكلتها، الإسمنت يتحمّل قِوى ضغط عالية جداً، لكنه لا يتحمّل قِوى شدّ إطلاقاً، لذلك يُسَلّح، فلو فرضنا أن مهندساً أنشأ شُرْفَةً، وهذه الشرفة بدا عليها بعض الخلل، ماذا نفعل ؟ قال المتخصصون: لابدّ من أن نحمِّلها بعض الأوزان، فإن سقطت كان هو المطلوب، وإن صمدت أكّدت أنها سليمة البناء.

2 – ابتلاء المؤمن بالظروف العصيبة:

إذا ادّعى الإنسان أنه مؤمن فربنا عزّ وجل يضعه في ظرفٍ عصيب، فإذا سقط في الامتحان فهذا تعريفٌ له وتعريفٌ للناس، وحفزٌ له على أن يجدِّد إيمانه، هذا امتحان مهم جداً، أنت لولا الامتحان تسترسل، تنشئ لك قصوراً من الخيال، لولا الامتحان لظننت أنك على شيء، وأنت لست على شيء، لولا هذا الامتحان لا تعرف حجم إيمانك، الإنسان قد يبالغ بحجم إيمانه، قد يظنُّ أنه مؤمنٌ كبير، وهو

في الحقيقة مؤمنٌ صغير، فمن نعمة الله علينا، من فضل الله علينا أنه يُحَجِّمنا دائماً، كلّما أشط بك الخيال، وظننت أنك مؤمنٌ كبير يأتي الامتحان الصعب، فإذا أنت مع شهوتك، فإذا أنت مع مصلحتك، فإذا أنت تخاف على مكتسباتك، فإذا أنت تستجيب لهذا الضغط أو لهذا الإغراء، فالمؤمن لا يستجيب لا لضغطٍ ضاغط ولا لإغراءٍ جاذب، لا تؤثِّر فيه السياط اللاذعة، ولا سبائك الذهب اللامعة، لا هذه ولا تلك، ولكنه مع الله عزّ وجل..

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72))

(سورة طه)

هناك من يَدَّعي الإيمان، وما أكثرهم، يأتي الامتحان ليفرز هؤلاء، لهذا قال الله عزّ وجل:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: من آية " 179 ")

مستحيل أن يدّعي كل إنسان أنه مؤمن، والأمر يبقى هكذا، لذلك:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ

أي فإذا أوذي من أجل إيمانه بالله، له مركز، هُدِّدَ في مركز الذي يشغله، إن بقيت تصلي فلن تبقى في هذا المكان، إذا فعلت كذا وكذا تُحْرَم من كذا وكذا، إن قلت كذا تدفعْ كذا، هناك من يقول له ذلك، وهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام مسخَّرون من قِبَل الله عزّ وجل ليمتحن إيمانه، فقد يأتون بقطعة إسمنت.. شاهدتها بعيني.. يأتون بها إلى المَخبر، يمسكونها من أعلى، ويضعون في أسفلها أوزاناً متدرّجة في الصعود، على أي وزن انقطعت هذه قوّة تحمُّلها، عند ذلك الوزن الذي انقطعت معه، فيقولون: السنتيمتر المربّع يتحمّل مائتي كيلو من الضغط مثلاً، أما على الشد فيتحمّل أقلّ بكثير، فأنت مؤمن، ولك حجم، تأتي الضغوط أو الإغراءات على أي وزن تفلت ؟ على أي وزن تعصي ؟ على أي مستوى تهديد تترك دينك ؟ على أي مستوى إغراء تقول: أخي أنا مضطر، فماذا أفعل ؟ فلذلك هناك قِوى جذب، وهناك قِوى ضغط.

الإنسان مُعَرَّض لضغوط ولإغراءات من قِبَل أهل الباطل، إذا فعلت كذا وكذا نجعلك في هذا المكان، نعطيك هذا المبلغ، نرفعُ من قدرك، وإن لم تفعل أمامك كذا وكذا، هذه معركةٌ قديمة ومستمرّة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، معركة أهل الإيمان مع أهل الكفر والبهتان، فلذلك ربنا يحذِّرنا..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا)

دعوى الإيمان لا تنفع:

هو قال بلسانه، القضيَّة سهلة، أخي أشهدُ أنه لا إله إلا الله، لو أنها تنتهي عند هذه الكلمات فالقضيَّة سهلة جداً، ولكن هناك ضغوط، هناك مُغْرِيَات، قد ترى فتاةً جميلة فإذا أنت تنساق إلى الزواج منها على عِلاّتها، على تهتُّكها، على تبدُّلها، أين إيمانك ؟ انتهى الإيمان، لذلك أهل الدنيا ينهارون عند نقطتين ؛ عند المال والنساء، نقطتا ضعفٍ عند الإنسان الكافر المال والنساء، سريعاً ما ينهار الإنسان ؛ أما المؤمن عنده صمودٌ في هاتين النُقطتين، لذلك التعامل مع المؤمن صعب جداً، صعب لأنه إنسان ذو مبدأ لا يُغَيِّر ولا يُبَدِّل، والدليل النبي عليه الصلاة والسلام وهو نبيٌّ مُرْسَل يأتيه الوحي، وجاء بالمعجزات، ومع ذلك لما جاء الضغط شديداً على من كان معه.

أمثلة عن الامتحان في عهد الصحابة:

1 – امتحان غزوة الأحزاب:

ماذا قال أحدهم ؟ قال: **" أيعدنا صاحبكم أن تُفْتَحَ علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته "**، جاء الضغط الخفيف فقال: صاحبكم، ولم يقل رسول الله.

2 – امتحان ثعلبة:

وثعلبة الذي آتاه الله الأموال الطائلة فأرسل النبي الكريم له إنساناً ليأخذ زكاة ماله قال: " قل لصاحبك ليس في الإسلام زكاة "، الذي قال: أيعدنا صاحبكم، هذا جاءه ضغطٌ فانكشف إيمانه، والذي قال: **" قل لصاحبك: ليس في الإسلام زكاة "**، جاءه إغراءٌ فانتقض إيمانه، فالبطولة أن يموت الإنسان مؤمناً، والآية الكريمة:

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)

(سورة الإسراء)

الإنسان أحياناً في بدايات حياته يدخل مُدخل صدق، ولكن وهو في درب الحياة يأتيه المال الوفير، والمال يُطْغِي، أو يأتيه الضغط الشديد وكاد الفقر أن يكون كفراً، فالضغط الشديد والإغراء الشديد هما امتحانٌ قاسٍ لأهل الإيمان، لذلك ماذا قال سيدنا علي ؟ قال:**<< عَلِمَ ما كان، وعلِمَ ما يكون، وعَلِمَ ما سيكون، وعلِم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون>>.**

دعوى الإيمان تحتاج إلى بيّنة:

أنت مستقيمٌ مادمت على هذا الدخل، لو جاءك دخل يبلغ عشرة أضعافه فالله أعلم ونحن لا نعرف ما الذي يحصل، كل إنسان له نقطة ضعف ينفك فيها، فالإنسان إذا اهتم بإيمان حقيقي، بنى إيماناً صحيحاً، نعم إيمان، كلمة إيمان، ولا أبالغ كأن تقول: دكتوراه، هذه كلمة ؟ سنوات طويلة، ابتدائي، وإعدادي، وثانوي، وليسانس، ودبلوم عام، ودبلوم خاص، وماجستير، ومواد، وأُطروحة، ومناقشة، ثم مواد ومناقشة، حتّى ينال هذا الإنسان لقب دكتور، فإذا قال إنسان: أنا دكتور بلا دراسة فهذا مجنون، كلمة إيمان، متى آمنت ؟ متى جلست على ركبتيك حتّى آمنت ؟ متى فكّرت في خلق السماوات والأرض ؟ على يد من آمنت؟ أيّ المجالسِ حضرت ؟ أيّ كتابٍ قرأت ؟ كيف تعاملت مع الله ؟ هل طبّقت العبادات؟ هل قُمت بالواجبات ؟ هل أطعت الله ورسوله ؟ هل ضبطت شهواتك ؟ كيف آمنت ؟ هكذا آمنت..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ)

أخي أنا مؤمن والحمد لله، على ماذا ؟ أين عملك ؟ أين ورعك ؟ أين محبّتك ؟ أين مؤاثرتك ؟ أين إخلاصك ؟ أين بذلك؟ أين تضحيتك ؟ أين انضباطك؟ مؤمن..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ)

معنى الإيذاء:

أي جاءته مشكلةٌ بسبب إيمانه، لأنه قال: أنا صائم فعل معه فلان كذا وكذا إيذاءً واستطالةً.

(فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ)

أول ضغط أو إكراه أو وعيد قال: لا، هذا شيء صعب لا يحتمل، أي أنه وازن وجعل هذا الضغط الإنساني العابر المؤقّت جعله كعذاب النار، وهذا مِن أخسر الخاسرين، ضغطٌ من بني البشر وضغطٌ عابر ومؤقّت وقد لا يتحقّق، الله يمتحنك به، يجب أن يكون شعارك دائماً كما قال سحرة فرعون:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

(سورة طه)

طبعاً إنّ الله عزّ وجل لطيف يُحِبُّ أن تعرف نفسك، من أنت ؟ ما مستوى إيمانك ؟..

(فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ)

جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ

فهذا الضغط، هذا الوعد، هذا الوعيد، هذا الإكراه جعله مساوياً لعذاب النار، وعذاب النار أبديّ، الله عزّ وجل قال:

(لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا(13))

(سورة الأعلى)

هذا عذاب النار، شيء لا يُحتمل، فلو وازنت بين عذاب الدنيا وبين عذاب النار، القضيَّة بسيطة جداً فلا مجال للمقارنة بينهما..

(وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ)

دعوى الإيمان عند المكاسب والمصالح:

هذا الذي يدَّعي الإيمان، هذا الذي ينتمي للإيمان انتماء شكلي، انتماء مصلحياً..

(وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)

إنه يحبُّ الإيمان بأن يكون فيه مكاسب، مغانم، توفيقات، عطاءات، دائماً يَتْبَعُ العطاء، إذا كان هناك شيء مريح، مثلاً كأن يكون احتفال، أو توزيع مكاسب، أو وليمة، أخي نحن منكم وفيكم يا أخي لمَ لمْ تدعونا ؟ إذا كان تكليف تراه يلحقه فلن، فقد اختفى، الإيمان عند مكاسب، فعند المكاسب هو مؤمن ؛ وعند المتاعب تجد كل واحد يأخذ موقفاً، لذلك:

(وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)

فالله يكشف الإنسان كشفاً كاملاً..

(وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ)

هؤلاء من المنافقين فاحذروا أن طريقهم:

ربنا عزّ وجل وصف هؤلاء الذين يقولون: آمنا بالله فإذا أوذوا في الله جعلوا فتنة الناس كعذاب الله، وإذا جاء النصر، قالوا: إنا كنا معكم، هذه صفات المنافقين، أي إذا أراد الإنسان الإيمان كمكاسب ورفضه كمغارم، أراده مغانم ورفضه مغارم، أراده تشريفاً ورفضه تكليفاً، أراده قبضاً ورفضه دفعاً، أراده شُكراً ورفضه صبراً، قال العلماء: هذا في تقويم الله له منافق..

(وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ)

ظاهره يتجلى بإيمان، وباطنه حجودٌ وكفران.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ)

ادِّعاء الكفار تحمّل مسؤولية المعصية وتبعاتها:

بربّكم هذه الكلمة ألا يقولها معظم الناس ؟ أخي ضعها في رقبتي، مَن أنت ؟ من أنت حتّى تقول: أنا أتحمّل هذه المسؤوليّة ؟..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ)

يحملك على المَعصية، يحملك على كسب الحرام، يحملك على تنمية المال تنمية ربويّة، يحملك على إطلاق البصر، يحملك على حضور حفلات ماجنة، يحملك ويقول لك: ضعها في رقبتي، لم يعد هناك مكان في رقبتك لكثرة ما حملتها من أوزار..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ)

هم كاذبون، كلامٌ لا يعني شيئاً، كلام سمّوْه خطابياً إنشائياً لا يعني شيئاً..

(وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ)

لا يحمل أحدٌ وزر أحدٍ: إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

كلمة:

(مِنْ شَيْءٍ)

الشيء هو أقل ما يمكن أن يوصف، كل شيء ممكن اسمه شيء، و(مِن) لبعض الشيء..

(وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

إنهم بهذا الكلام كاذبون، هذا كلامٌ فيه كذبٌ كبير، قد يقول لك أحدهم: أخي امش معي، إلى أين أمشي معك ؟ إلى هنا، إلى هذا المحل الفلاني، تقول: لا يجوز، فيقول: لا تدقِق ضعها برقبتي، هذا كلام أهل الدنيا، كلام المنافقين، كلام البعيدين عن الله عزّ وجل، كل إنسان محاسب بعمله وبقوله.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

فالإنسان غير المؤمن من غبائه، ومن سوء طالعه، ومن ضيق أفقه أن يصدِّق من يقول له: افعل هذا، وضعه في رقبتي، قال تعالى:

(وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

والأغرب من هذا:

(وَلَيَحْمِلُنّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ)

مَن دلّ على معصية تحمّل وزرها:

تأكّد أنك إذا دللت إنساناً على معصية وفعلها فالوزر نفسه تتحمّله أنت من غير أن ينقص من أوزارهم شيء.

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

(سورة النساء: من آية " 85 ")

الكفيل حطّاط ويُعزّم، إذا دللت إنساناً على معصية، على كسب حرام، على إرواء شهوة بغير ما يرضي الله عزّ وجل، على إنفاق مال في طريق غير مشروع، على تنمية مال بطريق غير مشروع، إذا دللت إنساناً على معصية فأنت تتحمّل كامل الوزر من دون أن ينقُص من وزره شيء، هذه الحقيقة خطيرة، إذاً ما الذي سيحصل ؟ إنّ هذا الذي دلّه على معصية سيتحمّل إثم معصيته هو وإثم كل مَن دلّهم عليها..

(وَلَيَحْمِلُنّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

أحياناً يفعل الإنسان شيئاً ثم يموت، وهذا الشيء قد يستمر، ولو أن الله عزّ وجل كشف له يوم القيامة أن مئة ألف فتاةٍ غَوَت بسبب هذا العمل الذي فعلته، ومن بعده تركت الدنيا، وكل هذه المعاصي في صحيفتك، واللهِ الذي لا إله إلا هو عندها يَعُد الإنسان إلى مائة مليون قبل أن يقول كلمةً فيها إشارةً إلى معصية أو دلالة على معصية..

(وَلَيَحْمِلُنّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

المفتري مسؤولٌ عن افترائه:

أخي هكذا الدين، الدين يسر، هذا افتراء على الدين، إذا قال واحد لك: الحديد غالٍ لا تضع الحديد في البناء، أو ضع حديد بالمائة واحد، وأنت صدّقت، وحفرت الأساسات، دفعت ثمن الإسمنت، ثمن العمّال، وفي الطابق الثاني انهار البناء، لماذا صدّقته ؟ لِمَ لَمْ تسأل الخبراء ؟ فتسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

لماذا صدّقته ؟ فهذا افتراء، الإنسان عليه أن يتبع سبيل الله، أن يتبع سبيل من أناب إلى الله، أمّا أهل الدنيا إذا اتبعنا سبيلهم أوردونا موارد التهلُكة.

أنا ألاحظ أناساً كثيرين يستشيرون في زواج بناتهم أصدقائهم وهم ليسوا على علم، يأتيهم خاطب لا دين له، فيقول صديق السوء: ثم بعد ذلك يعطيه دعماً، يعطيه تشجيعاً، ثمّ تقع الطامّة الكبرى، يفعل في هذه الفتاة ما لا يفعله إنسان غريب عن الدين، لماذا استرشدت بهذا الإنسان ؟ الله عزّ وجل يقول في حديث قدسي:

((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ))

(من صحيح مسلم عن أبي ذر)

استهدِ اللهَ عزّ وجل، اسأل إنساناً تثق في دينه، بعلمه، بفهمه لكلام الله، استنصحه..

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً)

قصة نوح مع قومه:

1 – إقامة نوح مع قومه ألف سنة إلا خمسين عاما في الدعوة:

سيدنا نوح بقي في قومه تسعمئة وخمسين عاماً..

(فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

2 – إهلاك الله الظالمين من قوم نوح بالطوفان:

هم ظالمون ؛ هذه حال، أيْ حال كونهم ظالمين أخذهم الطوفان..

(فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ(15))

3 – إنجاء الله نوحا ومن آمن به:

وهذا شيء مفرح، أن ينجي الله عزّ وجل المؤمن، ويهلك الكافر بالفيضانات، بالزلازل، بالبراكين، بالمشكلات العامة، بالأوبئة، بالاجتياحات، أما المؤمن الذي حَصّل ماله حلالاً فله عند الله معاملة خاصّة..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

والآية واضحة:

(فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ(15))

قصة وعبرة:

إليكم قصّةً كنت أرويها قديماً، وهي رمزيّة، ولكن لها معنىً عميق، خلاصتها: أن امرأةً جاءت سيدنا نوح وقالت له: يا نوح، إذا جاء الطوفان فأخبرني، قال لها: نعم، يبدو أنه جاء الطوفان، وركب نوحٌ عليه السلام في السفينة مع أصحابه، وفي زحمة الطوفان والأمواج كالجبال تَذَكَّرَ هذه المرأة، وقد نسيها لأنه بشر، والنبي الكريم صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يقول:

((إنّمَا أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أذْكُرُ كَمَا تَذْكُرُونَ، وَأنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ...))

[مسلم عن ابن مسعود]

فلمّا انتهى الطوفان، والطوفان كان عامّاً، جاءته هذه المرأة وقالت: يا نوح، متى الطوفان ؟ لأن الله عزّ وجل وعد المؤمن أن يُنجيه فالله عزّ وجل، نجّاها بقدرته من دون أنْ تركب السفينة بسبب إيمانها، إذاً:

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16))

يا أيها الناس اتقوا غضب الله وسخطه:

اتّقِ غضب الله، اتقِ بلاءه، اتقِ فتنته، اتقِ أن تُعَذّبَ لانجذابك من قِبَل إنسان، اتقِ أن تدفع ثمن المعاصي باهظةً، واتقوه..

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً، وفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه، إذا رأيت أن طاعة الله، وتقواه، وعبادته خير فأنت عالِم، وإن رأيت في الطاعة إحراجاً، وفي العبادة مَغْرَمَاً، وفي اتقاء الله خسارةً فأنت لا تعلم ولو نلت أعلى الشهادات، مقياس العلم أن ترى في طاعة الله وعبادته وتقواه كل الخير، وأن ترى في معصيته والانحراف عن منهجه كُلّ الشر، هذه القضيّة بل هذه المعادلة مقياس ثابت جداً..

(وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

الخير في تقوى الله:

فإنْ كنت تعلم فإنّك ترى أن طاعة الله هي الخير، وربنا عزّ وجل لحكمةٍ أرادها فأحياناً يبدو لك الخير في معصيته، يبدو لك أن شراء هذا البيت لا يكون إلا باقتراض مالٍ بفائدة، وأن البيت مناسب جداً،

والبيت سعره مناسب جداً، والمبلغ ميسور من طريق مصرف مثلاً، والفائدة يسيرة، قد ترى كل الخير في هذا الطريق المشبوه، فإذا قلت: إني أخاف الله رب العالمين، عندئذٍ يُيَسِّر الله لك هذا البيت نفسه من طريقٍ آخر، عملية امتحان أحياناً تُقْدِمُ على معصية، ويتراءى لك أن الخير بهذه المعصية، فإذا غلّبت إيمانك وقلت: إني أخاف الله رب العالمين، قد يأتي الخير من طريقٍ آخر، لذلك:

(وَمَنْ يَتّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

(سورة الطلاق)

(إِنّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنّ الّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

كل معبودٍ من دون الله كذب وإفك مفترى:

إنما أداة قصر، أي أن كل ما تعبده من دون الله هو وَثَن، والوثن لا ينفع ولا يضر..

(وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً)

أما التعليلات، والتفسيرات، والتمهيدات، والتحليلات هذه كذبٌ كلها، إفكٌ في إفك، الإفك هو الافتراء، وهو الكذب، إذاً هذا الذي تعبده صنماً لا ينفع ولا يضر، وهذا الكلام الذي تُرَمْزُ به له كلامٌ كاذب، والدليل أن هذه الأصنام..

(لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرّزْقَ)

لا رازق إلا الله: فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرّزْقَ

وهذه القاعدة مهمّة جداً، أحياناً تتوهّم أو يتراءى لك أن رزقك بيد فلان، إذا صدّقت فهذه الآية تنطبق عليك، تتوهّم أنه إذا رضي عنك فلان كنت في الأوج، فإذا غضب عليك كنت في الحضيض، إذا رضي عليك زيد أعطاك مالاً وفيراً، فإذا غضب عليك حرمك من كل شيء، مع أن من أبسط قواعد الإيمان:

((وَاعْلَمْ أَنّ الأُمّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوك إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفّتِ الصُّحُفُ))

(من سنن الترمذي عن قيس بن الحجّاج)

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: من آية " 2 ")

هذا الإيمان، أمّا كآيات أن تقرأها وتفهمها القضيَّة سهلة، أما أن تكون في مستواها، وأن تعيشها، وأن تبني مواقفك في ضوء هذه الآيات فهذا المطلوب، المطلوب أن تكون صامداً، أن تؤمن أن الله عزّ وجل لا ينساك من رزقه، وأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تُقَرِّبَ أجلاً، وأن كلمة الباطل لا تزيد في الرزق..

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: من آية " 36 ")

" من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى ".

إذا توهَّمتَ أن المعصية تزيد في رزقك، وأن الطاعة تنقص في رزقك فهذا هو الجهل الكبير، لذلك:

(إِنّ الّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً)

هذا كلام الرَزّاق العظيم، كلام الله رب العالمين، كلام الخالق الذي بيده كل شيء..

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرّزْقَ)

" من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى ".

(وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

الله هو المستحق للعبادة وحده:

أطيعوه، واشكروا له أنْ خلقكم، أنعم عليكم بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، أعطاكم الأموال، والبنين، والزوجات، والأهل، والبيت، أعطاك هذه الصحّة، أعطاك هذه الحواس..

(وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

فإذا عبدت غيره، وابتغيت الرزق عند سواه سوف تُحاسب على هذا..

(وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرّسُولِ إِلّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

فإن فعلت خيراً فلنفسك، وإن أسأت فعليها، أيْ أنّ عملك لك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (06-16): تفسير الآيات 16 - 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17))

إبراهيم مع قومه:

قوله:

(وَإِبْرَاهِيمَ)

معطوفة على:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً)

ولقد أرسلنا نوحاً، ولقد أرسلنا إبراهيم..

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ)

فحوى دعوة الأنبياء: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

الأنبياء جميعاً من دون استثناء فحوى دعوتهم:

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

الدين كله أن تؤمن بوجود الله، وبتوحيده، وأن تعبده، جانب عقائدي، وجانب سلوكي، السلوك أن تعبده، والعقيدة أن توحِّدَهُ، أي أن تؤمن بوجوده وتوحده، لذلك الآية الكريمة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

أي أنك إذا قلت لي: هل بإمكانك أن تضغط الدين كله في كلمتين ؟ قلت: نعم، أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، وأن تعبده، أمّا أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، فكل شيءٍ في الكون ينطق بهذه العقيدة.

وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحد

***

وأمّا أن تعبده فالعبادة غاية الخضوع لله عزّ وجل، مع غاية الحَب، خضوعٌ مع الحب، لو أنه خضوعٌ فقط لا يسمى عبادة، لو أنه حبٌ فقط لي تسمى عبادة، الخضوع والحب أساسه المعرفة.

العلم هو الطريق الوحيد إلى الله:

إذاً: العلم قبل كل شيء، إذاً الطريق الوحيدة التي لا ثاني لها إلى الله هي العلم، لذلك ربنا عزّ وجل لم يعترف بأية قيمةٍ تواضعنا عليها، الجمال، والذكاء، والقوة، والغنى، والمال فكل هذه لا قيمة لها، أما العلم وحده في القرآن فهو قيمةٌ مُرَجّحَة..

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من آية " 9 ")

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه)

حب الوجود وسلامته وكماله واستمراره مطالب كل إنسان:

إذاً: أيها الإخوة الأكارم... من أجل أن ننجو وأن نسعد، لأن الإنسان مفطورٌ على حب وجوده، وعلى سلامة وجوده، وعلى كمال وجوده، وعلى استمرار وجوده، من أجل أن نكون كما فطرنا لا بدّ من أن نعبد الله، ومن أجل أن نعبده لا بدّ من أن نعرفه، كيف نعرفه ؟ إنّ ذاته لا يمكن أن نراه ولكن نرى آثاره، نرى آياته، آياته الدالة على وجوده، آياته الدالة على وحدانيّته، آياته الدالة على أسمائه الحسنى، آياته الدالة على صفاته الفُضلى، آياته الدالة على أنبيائه، آياته في كتابه، فإذا أُطْلِقَت كلمة (الآية) فإنما تعني الدليل على وجوده، وعلى وحدانيته، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى صفاته الفضلى، وعلى نبوة أنبيائه، وعلى رسالة رسله، وعلى قضائه وقدره، فالكون ينطق بوحدانيته، في خلقه، وأفعال الله عزّ وجل لو تتبعتها لوجدت فيها أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى، وكلامه لو قرأته وتدبرته لوجدت فيه الحق الصِرف، إذاً:

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ)

اعرفوه، واعرفوا أمره، وطبقوا أمره، حتى تسعدوا في الدنيا وفي الآخرة، ولو سألت ستة آلاف مليون إنسان.. فأهل الأرض الآن بالرقم التقريبي يعدون ستة آلاف مليون.. لو سألت هؤلاء الناس جميعاً من

دون استثناء: ما هي المطالب الثابتة عندهم ؟ لأجابوا بلسانِ القال ولسان الحال: السلامة والسعادة، والسلامة والسعادة لا تتحققان إلا بمعرفة الله وطاعته، لذلك منهج الله عزّ وجل:

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ)

عدم عبادة الله شقاء الإنسان:

لكن أحياناً يأتيك أمر فإذا نفّذته فقد نفذته، وإن لم تنفذه لم يحدث شيء، لو قيل لك: تعالَ اذهب معنا إلى هذه النُزهة، فإن ذهبت كان بها ونعمت، وإن لم تذهب فلا يحدث شيء، أما عبادة الله عزّ وجل إن عبدته فقد عبدته حقاً، وإن لم تعبده شَقيت إلى الأبد، فالقضية دقيقة، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاتَّقُوهُ)

لأنكم إن لم تعبدوا الله فسوف تهلكونا، وسوف تُعَذّبون، وسوف تَشْقَوْن، وسوف يمضي الإنسان حياته الأبدية كلها في عذابٍ لا يحتمل.

إذاً: الموضوع ليس اختيارياً، بمعنى الله إما أن تعبده، وإما ألا تعبده، لا، إما أن تعبده فتنجو، وإن لم تعبده فتهلك، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ)

مفهوم التقوى الشامل:

أي عبادته وتقواه، معنى التقوى أي اتق عذابه بطاعته، اتق سخطه برضوانه، اتق الكفر بالإيمان، اتق الشرك بالتوحيد، اتق إتلاف المال بحسن كسبه، اتق سَخَطَ الله عزّ وجل بحسن إنفاق المال، اتق العَطَبَ بهذه الحواس بأن تجعلها في طاعة الله عزّ وجل، العين التي تَغُضُّ عن محارم الله أغلب الظن أن الله يحفظها، والأذن التي لا تسمع بها إلا الحق، أغلب الظن أن الله يحفظها، واليد التي لا تحرّكها إلا في طاعة الله أغلب الظن أن الله يحفظها، إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(اعْبُدُوا اللّهَ وَاتَّقُوهُ)

أي اتقوا غضبه برضوانه، اتقوا عذابه بطاعته، اتقوا عذاب الآخرة بمعرفته.

(اعْبُدُوا اللّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ)

طاعة الله وتقواه خير لكم:

هذا كلام الخبير، كلام الصانع، كلام الخالق..

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ)

فيا أخي الكريم، إذا توهَّمْتَ أن الخير في غير طاعة الله، وفي غير عبادته، فيجب أن تتهم نفسك بالضلال المبين، إذا توهمت الخير في معصيته، إذا توهمت الخير في المال فقط، إذا توهمته في الجاه فقط، إذا توهمته في اللذائذ فقط، إذا توهمته فيما سوى الله، فاحكم على نفسك بالضلال المبين، لأن الله عزّ وجل يقول:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ)

هذا كلام الخالق، هذا هو الخير يا عبادي، ما سوى ذلك ليس خيراً إنما هو شرٌ مبين:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

كل إنسان يعصي الله مدموغ بالجهل:

إذاً: كل إنسانٍ يعصي الله عزّ وجل يمكن أن تَدْمَغَهُ بالجهل، لو أنه يحمل أعلى شهادة، لأن الله عزّ وجل يقول، وهذا كلام خالق الكون:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

فإن رأيتم طاعة الله، وعبادته، وتقواه ليست خيراً فأنتم لا تعلمون، لذلك **" كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه**، المهم أن يكون مقياسك وفق هذه الآية، أن ترى الفلاح والنجاح، والفوز والتفوق، والسعادة، في طاعته ؛ وأن ترى الشقاء والحرمان، والخزي والعذاب والقهر والتفاهة في معصيته، قال ربنا عزّ وجل قال:

(فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

(سورة الكهف)

لا قيمة لهم عند الله، لا شأن لهم عند الله، لهم صغارٌ عند الله هؤلاء الذين يعصونه، لذلك: مَن أسعد الناس ؟ أسعد الناس، من كان في طاعة الله، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، هذا أكبر نصر على عدوك إذا كنت أنت في طاعته وهو في معصيته، لا تعاقب من عصى الله فيك بأشد من أن تطيع الله فيه هو عصى الله فيك، وأنت أطع ربك فيه..

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

لا تكون عالماً إلا إذا عرفتَ الله، لا تكونُ عالماً إلا إذا عبدته، لا تكون ذا رؤيةٍ صحيحة إلا إذا سِرْتَ على منهجه، فإذا اقتنى إنسان آلة ثمينة جداً، قمة الذكاء تعني أن يتبع تعليمات الصانع لهذه الآلة، وإلا يتلفها، ويخسرها، أو يأتي مردودها ضعيفاً:

(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا)

الشرك الجلي والشرك الخفي:

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ: شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ، فَذَكَرْتُهُ فَأَبْكَانِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلَا قَمَرًا، وَلَا حَجَرًا، وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ))

[أحمد]

هناك شركٌ جلي، وهناك شركٌ خفي، الشرك الجلي أن تقول: بُوذا إله مثلاً، وأن تعبده من دون الله، هذا شركٌ جلي، أما الشرك الخفي أن تتوهَّم أن مصالحك عند زيد، وأن عُبَيْداً بإمكانه أن يوقع فيك شراً، وأن فلاناً بإمكانه أن يعطيك، وأن عِلاّناً بإمكانه أن يمنعك، وأنه إذا رضي عنك فلان فأنت أسعد الناس، وإذا غضب عليك فلان فأنت أشقى الناس، هذا التصوُّر هو الشرك بعينه، لأنه يتنافي مع لا إله إلا الله، ربنا عزّ وجل قال:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)

(سورة محمد: من آية " 19 ")

والعلم يحتاج إلى جُهد، أكثر الناس يتوهّمون أنهم بمجرد أن يقولوا: لا إله إلا الله، انتهى الأمر، وصار مسلماً.

مثلاً: لو أن إنساناً قال: مليون ليرة، مئة مليون ليرة، ألف مليون ليرة، هل ملكها ؟ فرقٌ كبير بين أن تقول: ألف مليون، وليس في جيبك ثمن رغيف خبز، وبين أن تقول: ألف مليون، وأنت تملك هذا المبلغ؛ فرق كبير جداً، فأن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله فالقضية سهلة، ينطق بها كل إنسان، أما أن يكون لهذه الكلمة عندك رصيد، هذا الرصيد هو الذي يحملك على طاعة الله، وعلى أن ترضى بقضائه، وعلى أن تحبه، وعلى أن تتبع سبيله، وعلى أن ترى يده هي اليد الكبرى في الكون.

(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

إذا كان لك رصيدٌ من هذه الكلمة، رصيد كبير هذه تضفي عليك سعادةً وسكينةً، وأمناً وطمأنينةً، وتوازناً واعتدالاً، وثقةً وإقبالاً، وحكمةً وعزةً وكرامةً.

مِن ثمار لا إله إلا الله:

1 – العزّة:

من ثمار الإيمان بلا إله إلا الله العزة، لأنك تعلم علم اليقين أن أمرك كله بيد الله، وأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً، وأن هؤلاء الناس جميعاً لا يملكون لك شيئاً ولو اجتمعت كلمتهم..

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر)

إن خليفة عظيمًا كان يحج البيت، التقى بتابعي جليل يُكنى أبا حازم، قال له: سلني حاجتك، قال: والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما التقى به خارج المسجد، قال: سلني حاجتك، قال: والله ما سألتها من يملكها، أفأسألها من لا يملكها ؟ فلما قال له: سلني حاجتك، قال: أنقذني من النار، قال: هذه ليست لي، قال: إذاً ليس لي عندك حاجة، فهناك غنى عند المؤمن.

قال أبو جعفر المنصور لأبي حنيفة: يا أبا حنيفة، لو تغشيتنا.. تعال إلينا، تفضل عندنا وزرنا، نحن نحبك، نأنسُ بك، قال له: ولمَ أتغشّاكم، وليس لي عندكم شيءٌ أخافكم عليه ؟ وهل يتغشّاكم إلا من خافكم على شيء ؟

قيل: **" احتج إلى الرجل تكن أسيره، استغن عنه تكن نظيره، أحسن إليه تكن أميره "**، من ثمار الإيمان بلا إله إلا الله العزة، فلا يوجد نفاق بعدها، لأن هناك رؤية، تدخل إلى دائرة مثلاً، لك معاملة سفر، يجب أن يوقعها المدير العام، فهل تتوسل للآذن ؟ تبذل ماء وجهك أمام الآذن ؟ أمام موظف الاستعلامات ؟ أمام ضارب الآلة الكاتبة ؟ أمام الحاجب ؟ أمام مدير المكتبة مثلاً ؟ أنا يهمني المدير العام، علاقتي كلها معه، هذه الدائرة ثلاثة طوابق فيها مئتا موظف، الذي يوقع الموافقة المدير العام، ما لي حاجة لأن أبذل ماء وجهي لغيره، هذه أشياء بسيطة جداً.

2 – راحة القلب وخلوه من الحقد:

لذلك إذا آمن بأنه لا إله إلا الله سعدت بالدنيا، وارتاح قلبك، ولن يكون في قلبك حقد أبداً، أنّى لك الحِقد؟ لأنه لا يقع شيءٌ بالكون إلا بعلم الله، وبأمره، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن..

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

فإذ آمنت بأنه لا إله إلا الله نجوت من الحقد.

3 – النجاة من الندم:

إذا آمنت بأنه لا إله إلا الله نجوت من النَدَم، يقول لك: محروقٌ قلبي ضاع البيت من يدي، لا، فما كان لك ليس لغيرك، وما كان لغيرك ليس لك.

((لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(سنن الترمذي: عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ)

هذا الإيمان، نجوت من الحقد، نجوت من النَدَم.

4 – النجاة من الحسد:

نجوت من الحَسَد، الله سبحانه وتعالى هو الحكيم..

قل لمن بات لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب ؟

أسأت على الله في فعله إذ لم ترض لي ما وهب

***

الحسود لا يرى حكمة الله عزّ وجل، لا يرى علم الله، لا يرى عدالته، فإذا آمنت بأنه لا إله إلا الله نجوتَ من الحسد، نجوت من الحِقد، نجوت من الندم.

5 – النجاة من التبعثر والشتات:

نجوت من التبَعْثُر، اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفِكَ الوجوه كلها، ومن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها.

لك وجهة واحدة، مُجَمَّع، العدسة ضعها في أشعة الشمس، وضع تحتها ورقةً في محرقها تحترق الورقة، لماذا ؟ لأن هذه الأشعة كلها مجمعةٌ في نقطة واحدة، تفعل شيئاً عظيماً، أما إذا كانت هذه الأشعة مبعثرةً فلا تحرق شيئاً، فالمؤمن مجتمعٌ، وليس متفرقاً.

((مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))

(من سنن ابن ماجة عن عثمان بن عفان)

هذا التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والموحد لا يرى مع الله أحداً، نفسه ملتفتة ضارعة إلى الله عزّ وجل:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

الإيمان قول واعتقاد وسلوك:

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة))

ما أروع كلامه، قال:

((بحقها))

لأنه من يقول: لا إله الله بغير حقها ألوفٌ مؤلّفة، ألوف الملايين، ألف مليون مسلم الآن هل يقولونها بحقها ؟

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند ضعيف]

دائماً الإنسان الموفق في حياته والنبيه لا يعيش في الأوهام، إيمانك له حجم، هذا الحجم قد يكون كافياً أو غير كافٍ، فإذا لم يحملك إيمانك على طاعة الله عزّ وجل بقي فكرة، معلومات، ثقافة، عواطف، وظلّ السلوك غير مستقيم، لديك انحرافات، ومخالفات، ومعاصٍ، إذا لم يحملك إيمانك على طاعة الله عزّ وجل فإيمانك يحتاج إلى تجديد، فيه خلل، فيه نقص، امتحنْ إيمانك، دقق في معاملاتك، في بيتك، في علاقاتك الاجتماعية، في بيعك في شرائك، في عطائك وفي منعك، في نُزهاتك، وسفرك، وحلك وترحالك، هل هناك مخالفات ؟ إذا كان هناك مخالفات فحجم إيمانك غير كافٍ، إلى أن يحملك على طاعة الله، هذا هو الحد الأدنى، هذا هو الحد الأدنى من الإيمان الذي يحملك على طاعة الله عزّ وجل.

(إِنّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً)

الأوثان المادية والمعنوية:

1 – الأوثان المادية:

أي أصناما، إما أنها أصنام مادية كهبل واللات، ونسر، ويعوق والعُزّى.

2 – الأوثان المعنوية:

وإما أصنام معنوية.

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان: من آية " 43 ")

الهوى قد يكون إلها، قد تجد من يقول: أنا هوايتي كذا، هوايتك كذا فهي إله من دون الله، تُضَيّعَ من أجلها الصلاة والعمل الصالح، فإما أن تتخذ نفسك هواك وإلهك، وإما أن تتخذ الآخرين آلهة من دون أن تقول: أنتم آلهة، هذا الشرك الخفي، والشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، وأن تبغض على العدل.

لك صديق عنده خلل في سلوكه، عنده تقصير شديد، تحبه حُبّاً جماً، محبتك لهذا الصديق الذي ليس مستقيماً محبةٌ مشبوهة، فيها شرك خفي، وإذا قدمت لك نصيحة، وأخذتك العزة أن تقبلها، فهذا أيضاً شرك خفي، إذاً فالأوثان أنواع، أوثان من أحجار، وأوثان من لحم ودم، وأوثان من شهوات، هذا قول النبي الكريم:

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ: شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ، فَذَكَرْتُهُ فَأَبْكَانِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلَا قَمَرًا، وَلَا حَجَرًا، وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ))

[أحمد]

فالشهوات إذا سيَّرتها في القنوات الشرعية النظيفة هذه ليست شركاً، الإنسان تزوج، هذه الشهوة سيرها أو صبّها في القناة الشرعية، كسب المال الحلال، أما الشهوة الخفية التي عناها النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث فهي التي تحملك على معصية الله، أو تحجبك عن طاعته، أو تبعدك عنه، لذلك: لا حقيقة في الكون إلا الله، أي شيءٍ قرّبَكَ إليه فهو عمل صالح، وأيّ شيءٍ أبعدك عنه فهو عمل سيّئ.

(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً)

مِن حجر، وهذه قبيلة (ود) صنعت إلهاً من تمر، فلما جاعت أكلته، فقالوا: أكلت ودٌ ربَّها، قبيلةٌ أخرى نحتت إلهاً وعبدته من دون الله، فجاء إنسان ليقف أمامه خاشعاً فرأى عليه بللاً، فإذا هو بول، فقال:

أربٌ يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه لقد ضل من بالت عليه الثعالب

***

(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً)

وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا

تتحدثون عن هذه الأصنام حديثاً كأنه شيء له فعل وله عمل، ويمنح ويمنع، يعطي ويغضب ويرضى، اختلاق، افتراء، كلامٌ لا أصل له، كلامٌ فارغ ليس له أصل، أحياناً يتكلم الإنسان كلاماً ليس له معنى، وليس له أصل، لو قال لك واحد: أنا ذهبت مثلاً إلى أمريكا، وعُدت في ساعة، تقول له: أنت مجنون، هذا كلام ليس له أصل، هذا الكلام اختلاق، لأن الواقع لا يؤكِّده.

(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً)

أيْ أنكم تحيطون هذه الأوثان بهالة من القُدْسِيَّة، تفترون على الله الكذب، توهمون الناس أنها مقدسة، هكذا.

(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

الرزق والتدبير بيد الله وحده:

إن أيّة جهةٍ في الأرض مهما قَوِيَت فهي بيد الله وقبضته:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

إذْ يتوهّم أحياناً بعضُ الكُبراء أن بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

هل في الأرض كلها جهةٌ مهما قويت، مهما علا شأنها، مهما ادعت فهل تستطع أن تُصدر قراراً بإنزال المطر ؟ في إفريقيا، بعض الأماكن بإفريقيا حبست عنها أمطار السماء سبع سنوات، عندي

صور لهذه المناطق، الأبقار والأغنام مُلْقَاة جلدا فوق عظم، واضطر أهلها أن يهاجروا من هذه البلاد، ماذا نفعل لو أن الله عزّ وجل حبس عنا الأمطار ؟

المستحق للعبادة هو الخالق الرازق المالك لكل شيء:

هذه الأنهار كلها جافة الآن، نرجو الله عزّ وجل أن يغيثنا بسقيا رحمة، فمن الذي يستحق العبادة ؟ الذي يملك أن ينزل الأمطار، والذي يملك أن ينبت النبات، نأكل طعاما وشراباً وخبزاً، ولحماً وحليباً وجبنا، وفواكه وخضراوات، هذه من يخلقها ؟ يجب أن تعبد الذي خلقك، والذي يرزقك، والذي إليه المصير.

الإمام الشافعي يرى عند قراءة الفاتحة أن تقرأ في الركعة الثانية مَلِكِ يوم، وفي الركعة الأولى مَالِك يوم الدين، فمَن هو المالك ؟ قالوا: المالك هو الذي يملك ولا يحكم، والمَلِك هو الذي يحكم ولا يملك، ولكن الله عزّ وجل مالكٌ ومَلِك، أيْ أنه يملك كل شيء، ما معنى أن الله يملك ؟ أي يملك ويتصرّف وإليه المصير، قد تملك ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، قد تسكن بيتاً ليس ملكاً لك، ولكنك منتفعٌ به، وقد تمتلك بيتاً، ولست منتفعاً به، وقد تمتلك بيتاً وتنتفع به، ولكن مصيره ليس لك.

يجب أن تعبد الذي خلقك، وأن تعبد الذي يملك لك الرزق، هذا الهواء الله عزّ وجل زود الغلاف الجوي بطبقة أوزون تمنع الأشعة القاتلة، في بعض الأماكن صارت خلخلةٌ في هذه الطبقة، لأسباب كثيرة.

قرأت مقالةً أن عدداً كبيراً جداً من الأشخاص أصيبوا بسرطان الجلد، لخلخلة هذه المادة، لو أن الله عزّ وجل بقدرته أزال هذه المادة، ماذا نفعل ؟ لو أنه حبس عنا الأمطار، ماذا نفعل ؟ لو أن نِسَبَ الهواء تغيّرت أصبح الهواء غير كافٍ، لحدث للإنسان ضيق نَفَس، لو أن هذا النبات لم ينبت ماذا نفعل ؟ نعبد من إذاً ؟ نعبد الذي خلقنا والذي أمدنا بالرزق، بالهواء، بالماء، بالخبز، بالطعام، بالشراب، إذاً:

(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ)

الترغيب في سؤال الله والترهيب من سؤال الناس من غير ضرورة:

لذلك فالإنسان يطلب من الله رزقاً..

((من جلس إلى غني فتضعضع له، ذهب ثلثا دينه))

[الترغيب والترهيب عن أبي الدرداء بسند ضعيف]

((أَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ))

(صحيح البخاري عن الزبير بن العوام)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَفْتَحُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ))

[أحمد]

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)

((ابتغوا الحوائج بعزّة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير))

[الجامع الصغير عن عبد الله بن بسر بسند ضعيف]

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ، قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ ؟ قَالَ: يَتَعَرَّضُ مِنْ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ))

[الترمذي، أحمد]

((شرف المؤمن قيامُهُ بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)

أبى الله إلا أن يجعل رزق عبده المؤمن من حيث لا يحتسب،

(وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

أحياناً يسدُّ ربنا عزّ وجل أمامك كل الأبواب من أجل أن تلجأ إليه، من أجل أن تخاطبه، أن تدعوه، من أجل أن يسمع صوتك.

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)

كن عن همومك معرضاً وكِلِ الأمور إلى القضا

و ابشر بخيرٍ عاجـلٍ تنس بـه ما قد مضى

فلربّ أمرٍ مســخطٍ لك في عواقبه رضـا

و لربما ضاق المضيق ولربما اتســع الفضا

الله يفعل ما يشـــاء فـلا تكوننّ معترضا

اللـه عودك الجميل فقس على ما قد مضى

****

هذه الأبيات تعقيبٌ على كلمة:

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)

صلّ قيام الليل، واسجد وقل: يا رب، ارزقني رزقاً حلالاً طيباً بعزة النفس، فهو ربُّ الجميع..

ملك الملوك إذا وهيب لا تسـألنّ عن السبباللهِ

يعطي من يشـاء فقف على حـد الأدب

***

اجعل لربك كل عزك يستقـر ويـثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنيّ آدم إن سألته قد يغضب

***

الله عزّ وجل يغضب إن تركت سؤاله.

((إن الله يحب المُلحين في الدعاء))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند موضوع]

((من لا يدعُني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند ضعيف]

((إن الله يحب من عبده أن يسأله شِسْع نعله إذا انقطع))

[الترمذي عن أنس]

كن مع الله لحوحاً، اسأله، قف ببابه.

(مِنْ دُونِ اللّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ)

أطعْهُ فقد أنْعَمَ عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، وسخر لك ما في الكون جميعاً، منحك نعمة العقل، فطرك فطرةً عالية، أودع فيك الشهوات لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، أعطاك حُرية الاختيار، ألا ينبغي أن تشكره ؟

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان)

الرجوع إلى الله فتهيأ لذلك اليوم:

أين كنت في عام ألف وتسعمئة مثلاً، أين كنت ؟

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

فما دام الرجوع إلى الله عزّ وجل، قال العلماء: حينما يوضع الميت في القبر فلأول لحظةٍ يقول الله عزّ وجل:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

فإذا كنت بطلاً ؛ فهذا الذي سوف تكون معه إلى الأبد ولا أحد معك إلا هو، فيجب عليك أن تطيعه، يجب أن تُرضيه، يجب أن تحبّه، فإذا كان مثلاً موظفٌ في دائرة، وشعر أن المدير العام سينتقل تجده يسأل: من الذي سيأتي بعده ؟ يتقصى، يقول: قبل أن يداوم عندنا، نقدّم له هدية، نكرمه، الإنسان بمنطق الدنيا يخاف أن يأتي شخص لا يعرفه، قد تكون مشكلته معه صعبة، أما الله عزّ وجل فإنه يبذل عطاءه أمامك، هذا الكون تعرّف إليه من خلاله، وهذا الشرع طبّقْهُ، وهذه الأعمال الصالحة افعلها في سبيله..

(وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

أصلٌ مِن أصول النبوة: وَعَلَى الرَّسُولِ إلاّ البلاَغُ المُبِينُ

النبي عليه الصلاة والسلام يبيّن، وتنتهي مُهمّته عند حدود.. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((لَمّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

دَعَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا، فَعَمّ وَخَصّ، فَقَالَ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النّارِ، يَا بَنِي مُرّةَ بن كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النّارِ، فَإِنّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلّهَا بِبَلَالِهَا))

[مسلم]

إذاً:

(وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا)

حكمة اقتران الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر:

لماذا هؤلاء لا يعبدون الله عزّ وجل ؟ لماذا لا يتّقوه ؟ لماذا يعصونه ؟ لأنهم ما آمنوا بهذه الساعة ساعة اللقاء، ما آمنوا باليوم الآخر، فربنا عزّ وجل في أكثر آيات الإيمان يذكر الإيمان باليوم الآخر مُقْتَرِنَاً بالإيمان بالله، لأنك لن تستقيم على أمر الله إلا إذا أيقنت بوجود الله، وأيقنت بعلمه،و أيقنت باليوم الآخر، وأيقنت بالحساب، لو ألغينا اليوم الآخر فلا أحد يستقيم إلا إذا آمن باليوم الآخر، الله موجود، لكن لن يستقيم أحد، الله عزّ وجل أودع في هذه النفوس الشهوات، وأعطاها قوى في الظاهر، هذه القوى مع

هذه الشهوات تندفع نحو مصالحها، ما الذي يُلجمها ؟ الخوف من الله، خوف الحساب، سيدنا النبي اللهم صلِّ عليه أرسل خادماً في حاجة، تأخر كثيراً، كان بيده سواك، فقال عليه الصلاة والسلام:

((والله لولا خشية القِصاص لأوجعتك بهذا السواك))

[ورد في الأثر]

ما الذي يلجم المؤمن ؟ الإيمان قيد الفتك، هذه المعرفة بالله عزّ وجل، اليقين بوقوفٍ بين يدي الله عزّ وجل، لو أن الناس خافوا من الله عزّ وجل انتهت كل مشاكلهم، هذا الذي يعتدي، هذا الذي يأخذ ما ليس له، لماذا ؟ لضعفٍ بإيمانه، لو أيقن يقيناً قطعياً أنه سيدفع الثمن باهظاً، وأنه لن يتفلّت من عقاب الله عزّ وجل لارتدع ولاستقام.

يروون أن أحداً كان يطوف حول الكعبة ويقول: **" رب اغفر لي ذنبي، ولا أظنك تفعل "**، وكان وراءه رجل، قال له: **"يا هذا، ما أشد يأسك من رحمة الله "**، قال له: **" ذنبي عظيم "**، قال له: **ما ذنبك ؟ فذكر له أنه دخل إلى بيت فرأى فيه رجلاً فقتله، وامرأةً فسألها أن تعطيه كل ما تملك، أعطته دنانير ذهبية، فقتل ولدها الأول، فلما رأته جاداً في قتل الثاني أعطته درعاً مُذْهَبَةً، أعجبته، فالدرع من الذهب، فإذا عليها بيتان من الشعر، قرأهما فأُغمي عليه:**

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسـرف في القضاء

فويـلٌ ثم ويـلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرض مـن قاضي السـماء

***

إذاً: الإنسان العاقل تجده يخاف من الله عزّ وجل، الله عنده أمراض وبيلة، وأمراض عُضالة، وعنده أمراض ماحقة، سبحان الله فذنوبٌ كثيرة يؤَخِّرها الله إلى الدار الآخرة إلا ذنب الكِبْر وذنب الظلم، هذان الذنبان من خلال تتبع الحوادث فالله سبحانه وتعالى يُعَجِّل عقابهما، فالإنسان كلما نما عقله نمت معرفته وازداد خوفه، الطبيب يحرص على تنظيف الفواكه والخضار حرصاً شديداً، لماذا ؟ نما علمه، مما يعاني كل يوم هؤلاء المرضى من: جراثيم، أوبئةٍ، حالات إسهال، كله من تلوث الخضار والفواكه، فكلما نما علمه ازداد حرصه، وإذا كان للطاعة مؤشر فهذا المؤشر يتوافق مع مؤشر المعرفة، كلما ازدادت معرفتك ازدادت طاعتك.

مرة دخلت بناء ضخما، فوجدت صاحب البناء في حالة همّ شديد، قلت: ما القصة ؟ قال: تعالَ انظر: بناء قائم، وانظر إلى هذا الشق في هذا الجسر، والله كان شقا واضحا، ولكن سمكه بقدر اثنين من المليمترات، وقال جاء دكتور مهندس قال له: البناء في خطر، لا بدّ من تدعيم الأساس، قلت: لو جاء بدهّان لقال له: يحتاج إلى معجون، فبين أن تملأ هذا الشق بالجبصين، وبين أن تدعم الأساس مسافة كبيرة جداً، بقدر ما بين العلم والجهل.

فكلما ارتقى علمك ازداد خوفك، والذي يقول لك: أنا لا أخاف من الله، قل له: نعم قولك حق، لأنك لا تدرك شيئاً، كلما ضعف العقل ضاق الأفق، وعمّ الجهل، ورافقه تفلّت.

أقسام البشر:

البشر نوعان ؛ موصولٌ منضبطٌ محسن، ومقطوع متفلت مسيء، ولا ثالث لهما، ما دمت عارفاً بالله عزّ وجل، عارفاً لعدالته، عارفاً لحكمته، عارفاً للقاء معه يوم القيامة فإنك تستقيم على أمره، وتخدم خلقه، وتحسن إليهم، فإذا كان هناك جهلٌ فالإنسان يتفلّت، إذاً كل هذه المعاصي، وهذا التفلت، وهذا الشِرك، واتباع الشهوات سببها عدم اليقين بالدار الآخرة، لهذا يقول الله عزّ وجل:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

أدلة اليوم الآخر: عقلي ونقلي:

فاليوم الآخر له دليلان، دليل عقلي ودليل نقلي:

1 – الدليل النقلي:

النقلي ما جاء به القرآن الكريم، هذا هو الدليل النقلي.

2 – الدليل العقلي:

لكنّ الدليل العقلي هو أنّ خالق الكون من خلال الكون تعلم أنه خالقٌ عظيم، أسماؤه حسنى، صفاته فضلى، لا يعقل أن يَدَعَ عباده هكذا من دون حسابٍ أو عقابٍ أو جزاء، لأن هذا يتنافى مع عدالته ومع كماله، فهناك غني، وفقير، وهناك قوي، وضعيف، وهناك حاكم ومحكوم، ومريض وصحيح، فلا بدّ من أن يقف الناس جميعاً لربِّ العالمين، ويعطى كل إنسانٍ ما يستحق.

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

فالله عزّ وجل قرّب هذا من أذهاننا، الشيء إذا صنعته أول مرة ففي ذلك جهد كبير، المرة الثانية أهون، والثالثة أهون، ولله المثل الأعلى، الله ليس كذلك، كن فيكون، علمه قديم، لكن نحن بني البشر إذا أردنا أن نعيد صناعة الشيء مراتٍ ومرات لا بدّ من أن نستسهله، فربنا عزّ وجل يدعونا إلى التفكّر في أصل الكون، أليس الله قد خلقه ؟ إذاً لا يصعب عليه أن يعيد بناءه مرةً ثانية..

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللّهُ يُنْشِئُ النّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21))

العذاب دائماً خلاف السرور والرحمة، ربنا عزّ وجل وصف الجَنّة بأنها رحمة..

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظّالِمِينَ أَعَدّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

(سورة الإنسان)

((فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

(يُعَذّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (07-16): تفسير الآيات 19 - 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى.

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

أَوَ لَمْ يَرَوْا

حيثما وردت كلمة:

(أَوَ لَمْ يَرَوْا)

و: أَلَمْ تَرَوْا)

فهي تفيد أنّ الشيء الذي سيأتي بعدها آيةٌ ظاهرةٌ، بيّنةٌ، دالّةٌ على عظمة الله عزّ وجل..

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيّنّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

(سورة ق)

الآيات التي بثّها الله في الكون آياتٌ ظاهرةٌ، بيّنَةٌ، واضحةٌ، كلّها دالّةٌ على عظمة الله عزّ وجل.

وفي كل شيء له آية يدلُ على أنه واحدُ

***

أهداف بث الآيات في الكون:

ننتقل إلى معنى دقيق جداً، هو أن كل شيءٍ بثّه الله في الأرض من آيات له هدفان كبيران:

الهدف الأول:

أن تتعرّف إلى الله من خلاله، وهذا الهدف يتصل بالآخرة.

الهدف الأول:

أن تنتفع به في الدنيا وأن تشكر الله عليه.

موقف المؤمن من آيات الله:

إذاً: أنت دائماً مع خلق الله عزّ وجل، ويجب أن يكون لك موقفان.

الموقف الأول: موقف الإيمان:

الموقف الثاني: موقف الشكر:

موقف الشكر.الإيمان والشُكر.

خلق السموات والأرض له وظيفتان: تعريف وإكرام:

لأن كل شيءٍ خلقه الله عزّ وجل له وظيفتان، أداة للتعريف وأداة للإكرام، الله عزّ وجل عرّفك بذاته من خلال هذا الكون، وأكرمك بهذا الكون، فكأن الكون قد سُخِّر لك مَرّتين، سُخِّر لك تسخير تعريف، وسُخِّر لك تسخير تكريم، فأنت مطلوبٌ كي تؤمن به، وأنت مستهدفٌ كي تَشْكُرَهُ، مِن هنا قال الله عزّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سور النساء)

أيْ أنّكم إذا آمنتم وشكرتم حقّقتم الهدف الذي من أجله خُلِقْتم، يجب أن تؤمن ويجب أن تشكر، فلو أن إنساناً قدّم لك جهازَ هاتفٍ من مستوى رفيع جداً، وقال لك: هذا أنا صمّمته، وهو لك مني هديّة، فماذا يكون ردُ فعلك ؟ إنّك تتأمّل هذا الجهاز، ترى دقّة هذا الجهاز، ترى خدمات هذا الجهاز، ترى شكل هذا الجهاز الأنيق، ترى جُزْئِيّاتِه الدقيقة، ترى عمله المنتَظم، ترى حساسيّته البالغة، ترى بعض الأشياء الآليّة فيه، فأنت كلّما تأمّلت هذا الجهاز ازددت إكباراً، واحتراماً، وتبجيلاً لهذا الذي صنعه، وما دام قد قُدِمَ لك هديّةً من قِبَلِه فينشأ معك شعور آخر، وهو شعور الشكر، فأنت ما دمت تعرف الله عزّ وجل وتشكره فأنت على الصراط الصحيح، أنت في الموقع الصحيح، أنت في الهدف الصحيح، فعندما سأل سيدنا موسى ربّه فقال:

" يا رب، أيّ عبادك أحبُ إليك حتى أحبّه بحبّك ؟ قال: يا موسى أحبُ عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يأتي إلى أحدٍ بسوء، أحِبّني وأحِبّ من أحبّني وحبّبني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبُك وأحبُ من يحبُك فكيف أحبّبك إلى خلقك ؟ قال: ذكِّرهم بآلائي ونَعمائي وبلائي ".

هذا الكلام يُستنبط منه أنه لابدَّ من أن يكون في قلب المؤمن شعور المحبَّة لله عزَّ وجل، وشعور الخوف منه، وشعور التعظيم له، تعظيمٌ وخوفٌ ومحبَّة، الآيات الكونيَّة من أجل أن تُعَظِّمَهُ، والمصائب والبلايا من أجل أن تخافه، والنِعَمُ الكثيرة من أجل أن تحبَّه، إذاً تعظيمٌ وحبٌّ وخوف، لذلك ربنا عزَّ وجل يقول:

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

كأن الله يدعوك إلى أن ترى، هل رأيت ؟ فالحياة تستهلك كل الناس، أنت مستهلك من قِبَل أهلك، وأولادك، وعملك، وتجارتك، وصناعتك، ووظيفتك، أم إنَّك لك وقفات مع الله عزَّ وجل ؟ ربنا قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ)

هل تأمَّلت مرَّةً ؟ هل فكَّرت مرَّةً ؟ هل دَقَّقت ؟ إذا شربت كأس الماء ما ردُّ الفعل عندك ؟ البحر ملحٌ أُجاج من جعله عذباً فُراتاً ؟ إذا تناولت رغيف الخبز، هذا القمح مَن صمَّمه لك ؟ إذا تناولت الحليب واللبن ومشتقَّات الحليب..

(وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

(سورة النحل: من آية " 5 ")

ردّ الفعل ؟ لابدَّ مِن رَدَّيْ فعل، الفعل هو خلق السماوات والأرض ولأ، وتسخير هذا الكون لك ثانياً، فردُّ الفعل العِرفان والشُكْرَان، الإيمان والشكر، لذلك لا تنجو من تأديب الله ولا من معالجته إلا إذا عرفته وشكرته..

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سور النساء)

هذه الآية يُسْتَنْبَط منها أنك إذا كنت في ضيق، إذا كانت الأمور على غير ما تريد، إذا ظهرت عقباتٌ في حياتك، إذا كنت منقبض القلب، إذا كانت الأمور مُعَسَّرة فارجع إلى هذه الآية..

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

معنى هذا أن هناك خللاً في الإيمان أو في الشكر، ربنا عزَّ وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سور الأنعام)

لو أنَّك آمنتَ وظلمتَ، لو أنك آمنت ولم تشكر، لو أنك شكرت ولم تؤمن، فمن أجل أن تنجو من تأديب الله، من عقوبة الله، من معالجة الله، من تربية الله، من أجل أن تنجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة يجب أن تؤمن وأن تشكر، يجب أن تعرف الله، وأن تعرف نِعَمَهُ، يجب أن تعرف المُنْعِمَ والنِعمة، هكذا.

وجوب النظر والتأمل والتفكر في الكون:

إذاً حيثما قال الله لك:

(أوَلَمْ يَرَوْا)

يجب أن ترى، يجب أن تجلس كي تتأمّل، يجب أن تستمع، إما أن تأخذ العلم خالصاً، وهذا لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع، إما أن تطبخ هذا الطعام، وإما أن تأكله جاهزاً، إذا جئت إلى مجلس علم تناولت هذا الطعام الإلهي جاهزاً، أجل إنه الغذاء الإلهي، وإذا جلست كي تتأمّل ربّما هداك تأمُّلك إلى شيءٍ من هذه الحقائق.

إذاً إما أن تتلقّى، وإما أن تتأمّل، على كلٍ لابدّ من نشاطٍ تَعَرُّفيّ، ما دام الله عزّ وجل قد خلق فيك القوّة الإدراكيّة والتي ميّزك الله بها عن كل المخلوقات، إذاً: لابدّ من أن تبذل نشاطاً في معرفة الله عزّ وجل وفي شكره..

(أوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ)

دعوة إلهية إلى التفكر: أوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُه

1 – التفكر في النفس المخلوقة:

قد يقول قائل: أنا ما شاهدت كيف خُلِقْت ؟ لكن الله عزّ وجل جعل نظام البَشَر على أساس التوالد، فإذا كنت غائباً عن نشأتك هذه نشأة ابنك أمامك، تعلم علم اليقين أن هذا الابن الذي أمامك، الذي يلعب، الذي يضحك، الذي يتثاءب، الذي يتكلّم، الذي يبتسم، الذي يأكل، له فم، له لسان، له لسان مزمار، له مَريء، له معدة، له أمعاء، له كبد، له صفراء، له بنكرياس، أمعاء دقيقة، أمعاء غليظة، زُغابات ماصّة، أوردة، شرايين،قلب، رئتان، كبد، له كليتان، كظران، رُغامى، له قصبتان، قلب، دماغ، مخ، مخيخ، له بصلة سيسائيّة، نخاع شوكي، فقرات ظهريّة، له عظام بعضها ثابت وبعضها متحرّك، عضلات، شعر، أظافر، له قِوام، وله نَفْس.

هذا الذي أمامك يلعب في البيت ؛ كان كما تعلم حُويناً منويّاً لا يُرى بالعين، ثلاثمائة مليون حوين في اللقاء الواحد، تختار البويضة حويناً واحداً، إذاً إذا قلت: أنا لا أعرف كيف خُلِقْت فهذا ابنك أمامك، ما أحد يعرف أكثر منك، أن هذا الابن الذي أمامك كان حويناً، وكان بُويضةً، ولُقِّحَت هذه البويضة،

وتكاثرت ونَمَتْ، والتصقت بجدار الرحم، وجاءها الغذاء إلى أن أصبحت كائناً كاملاً في تسعة أشهر، ثم خرجت إلى الدنيا، وبدأت تنمو، إذاً:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ)

2 – التفكر في البذرة المخلوقة:

البذرة التي تزرعها لها غلاف، ولها مخزون من النشويات، ولها رشيم كائن حي، أخرجوا من الأهرام قمحاً زُرِعْ فنبت، معنى هذا أن الرُشيم بقي حيّاً ستّة آلاف عام، في حبة القمح رُشَيْم حي، إذا جاءته الرطوبة، وجاءه الغذاء، وجاءه الضوء ينمو سويقاً وجذيراً، هذا الرشيم يصبح شجرة، يصبح نبتة، يصبح شَجَراً له صفات لا يعلمها إلا الله..

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ)

دقق النظر في ظاهرة النبات هذه، فهي وحدها ظاهرةٌ كافيةٌ كي تسجد لله ؛ سجود الطائعين، سجود الخائفين، سجود الموقنين، فلك أن ترى عملية نمو النبات لنعلم كيف يُبدئ الله خلقه.

3 – التفكر في الحيوان المخلوق:

لك أن ترى الحيوان كيف يُبدئ الله خلقه، هذه البيضة التي أمامك تأكلها وتقول: أكلت اليوم بيضاً، هذه البيضة لو بقيت تحت أمِّها لأصبحت حيواناً كاملاً فيه عضلات، فيه رئتان، فيه قلب، فيه أوعية، فيه دم، فيه شرايين، فرخ (صوص)، حيوان كامل، إذاً مَن حوّل هذا السائل الأصفر والأبيض إلى كائن يتحرّك، ويزقزق، ويلوذ بأمِّه، ويكبر وينمو، تأكل منه لحماً، وتأكل منه طعاماً لذيذاً ؟

البيض أمامك، والحليب أمامك، وخلق الإنسان أمامك، الله عزّ وجل لم يبعدك عن وسائل الإيضاح، بل جعلها متوافرةً أمامك، بثّها في كل مكان، وربنا عزّ وجل يقول:

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

(سور الذاريات)

آياتٌ كثيرةٌ دالّةٌ على عظمته.

إذاً:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ)

الحكمة من استعمال فعل الرؤية لمن لم ير:

سألني سائل فقال: كيف يقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سور الفيل)

قد يقول قائل: واللهِ أنا ما رأيت ماذا حصل، ما كنت وقتها، هذا خبر تاريخي، ويقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ)

الجواب: أن إخبار الله عزّ وجل من اليقين بحيث يُشابه الرؤية، أيْ إذا قال الله عزّ وجل في كتابه:

(أَلَمْ تَرَ)

يجب أن ترى، أن هذا الخبر الذي ذكره الله لنا في القرآن الكريم، لأن الله هو القائل، إذاً كأنه وقع على مرأى منك، كأنه وقع أمامك لشدّة الصدق، إذاً ما دام الله عزّ وجل يقول:

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

إذاً يجب أن نرى، لهذا فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أمِرْتُ أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

[مشكاة المصابيح للتبريزي عن أبي هريرة]

أما قوله تعالى:

(كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ)

معنى: يُبْدِئُ

قال بعض علماء التفسير: **" إما من الإبداء أو من الابتداء "** وكلاهما صحيح، واللهُ عزّ وجل يُظهر لك قدرته وعظمته من معرفة خلقك، فأنت لا تعرف ماذا في أحشائك، فيها كبد، وصفراء، ومعدة، وأمعاء، وعضلات، وطبقة شحميّة، وقصبة هوائية، ومَريء له حلقات، وحنجرة، ولسان مزمار، ولسان، وغدد لُعاب، وعضلات وجه.

في الإنسان أشياء مُعَقّدة، والله عزّ وجل لحكمةٍ أرادها جعل من أنواع الغذاء اللحم، وجعل هذا الحيوان الذي ذلّله لنا نرى من خلال تشريحه الداخلي، أن أعضاءه مشابهةٌ تماماً لأعضاء الإنسان، فإذا أردت أن تشتري اللحم ترى الكبد والكليتين، وترى القصبة والرئتين، ترى القلب، ترى العضلات، ترى العمود الفقري، ترى العظام، ترى المفاصل، هذا كلّه تراه عند بائعي اللحم، إذاً الله عزّ وجل أعطاك دروساً، فإذا كان الإنسان مكرّماً عند الله عزّ وجل بحيث لا يُفْتَح بطنه ليتعلّم به وهو حي، وهناك

مخلوق سخّرها الله لنا كي نأكلها، وجعل أعضاءها مشابهةً تماماً لأعضاء الإنسان، فتعرف على جزيئات أجسامنا من خلالها.

من آيات الله في الإنسان: الكبد:

الكبد في بعض النظريات الحديثة له خمسة آلاف وظيفة، أيْ أن له دوراً خطيراً جداً، فإذا تَعَطّلَ كبد الإنسان لا يستطيع أن يعيش أكثر مِن ثلاث ساعات، مخبر مركزي، الكبد بإمكانه أن يحوّل المواد الشحميّة الدهنيّة إلى مواد سكريّة، وبإمكانه أن يحوّل المواد السكريّة إلى شحميّة.

ليس عندنا في الحياة مستودع فيه خشب وفيه حديد، فإذا لزمنا حديد أكثر من الخشب نحول الخشب إلى حديد، هذا فوق طاقة البشر، هذا ما يفعله الكبد.

الكبد يفرز هرمون التجلّط، وهرمون التمييع، ومن إفراز هذين الهرمونين بشكلٍ دقيقٍ يكون الدم بهذا القِوام المناسب، قال العلماء: لو أفرز الكبد هرمون التجلّط زيادة عن حدِّه الدقيق لأصبح الدم وَحَلاً في الأوعية، ولو أفرز الكبد هرمون التميُّع زيادة عن حدِّه لسال دم الإنسان كلِّه من رُعاف واحد، وانتهى الأمر.

أتحســب أنك جِرْمٌ صغير وفيكَ انطوى العالَم الأكبرُ

***

هذا معنى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ)

خلقُ الإنسان بين يديك، وخلقُ الحيوان بين يديك، وخلقُ النبات بين يديك، وإذا قرأت عن ظهور مجرّاتٍ جديدة، وعن اختفاء مجرّات، وعن اتساع بعض المجرّات، وعن انكماش بعض المجرّات، وعن الثقوب السوداء في الفضاء الخارجي، فإذا أردت أن تَطّلع تماماً هناك بدءٌ للخلق ثم إعادة في الفَلَك..

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

إثبات البعث: إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ

هذا هو الدليل النقلي والعقلي على الدار الآخرة، ما دام الله عزّ وجل قد خلقنا مِن لا شيء، مِن العَدَم فَلأنَ يعيد خَلقنا من باب أوْلى، فلأن يعيد خلقنا شيءٌ عليه يسير، لكن كلمة..

(إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

هذا تقريبٌ لنا، كيف ؟ الإنسان بحسب حياته إذا كان الشيء موثّقًا باكتتابه فهو أقوى، يقول له: كتبتُ عَقْداً ؟ قد يكون هناك بيعٌ تمّ شفهياً، بعتُك واشتريتَ، أما إذا كان هناك عقد يشعر الإنسان أن العقد أمتن، وأقوى، وأثبت، فربنا عزّ وجل كي نفهم نحن رحمته قال:

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

(سورة الأنعام: من آية " 54 ")

ربنا عزّ وجل جاء بألفاظ الكتابة مع أن قوله كتابة، لكن تقريباً لأذهاننا قال:

(كَتَبَ)

كذلك هنا تقريباً لأذهاننا قال:

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

مع أن فعل الله عزّ وجل: كن فيكون، زُل فيزول، لكن تقريباً لأذهاننا، ونحن إذا صنعنا شيئاً، وأردنا أن نعيد صنعته نشعر باليسر في المرّة الثانية، كلّما تكرّر العمل شعرنا باليُسْر، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

منزلة الإيمان باليوم الآخر:

لذلك الإيمان باليوم الآخر شيءٌ دقيقٌ جداً وخطيرٌ جداً، ولو أن الإنسان آمن بالله فقط ولم يؤمن بالدار الآخرة فلن يستقيم على أمر الله، أحد أسباب الاستقامة التامّة على أمر الله أن تؤمن أن هناك حياةً أبديّة وفيها حسابٌ دقيق، أن تؤمن أن الله عزّ وجل وزّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسيوزّعها ثانيةً في الآخرة توزيعَ جزاء، من هنا تنتقل اهتماماتُك، تنتقل طاقاتك، تنتقل أعمالك لتُرْضِيَ بها ربّك كي تسعد بقربه في الدار الآخرة..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

من الإعجاز العلمي في القرآن: قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ

كلمة في الأرض أيضاً فيها إشارةٌ دقيقة، يا ترى لِمَ لَمْ يقل الله عزّ وجل: قل سيروا على الأرض ؟ لِمَ قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

مع أن الإنسان يسير على الأرض ؟ قال: هذه إشارة إلى أن الغلاف الهوائي جزء من الأرض، ومربوطٌ بالأرض، والدليل لو أن الغلاف الهوائي لا علاقة له بالأرض لنشأت تيّارات من العواصف والأعاصير

سُرعتها تزيد على ألف وستمئة كيلو في الساعة، وكلُّكم يعلم أن الهواء إذا زادت سرعته عن مئة كيلو متر يصبحُ مُدَمِّراً، فأشدُّ أنواع الأعاصير عتواً التي تدمِّر كل شيء ولا تبقي شيئاً، في بعض البلاد تأتي الأعاصير فتنسف المدينة بأكملها، لا يبقى حجرٌ على حجر، ولا شجرٌ، ولا معملٌ، ولا نباتٌ ولا شيء، هذه الأعاصير العاتية سرعتها ثمانمئة كيلو متر، لو أن الهواء مُسْتَقِلٌ عن الأرض.. والأرض تدور والهواء ثابت لنشأت أعاصير سرعتها ألف وستمئة كيلو في الساعة فدَمَّرت كل شيء، لهذا يُعَدُّ الهواء متمِّماً للأرض، جزءً من الأرض، والهواء مرتبط بالأرض بفعل الجاذبيَّة، إذاً:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

ربنا عزَّ وجل قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

يا أيها الناس أدخِلوا اليومَ الآخرَ في حساباتكم:

استنباطاً من هاتين الآيتين كلّما تحرَّك المؤمن حركةً يتصوَّر أنه واقفٌ بين يدي الله عزَّ وجل في النشأةِ الآخرة، في إعادة الخلق، ويسأله الله عزَّ وجل: لماذا فعلتَ كذا ؟ لماذا أعطيت ؟ لماذا منعت ؟ لماذا سَخِرْتَ ؟ لماذا اغتبت ؟ لماذا جَرَّحت ؟ لماذا ظلمت ؟ لماذا أخذت ؟ لماذا اغتصبت ؟ إذا أدخلْتَ اليوم الآخر في حساباتك اليوميَّة في كسب المال، في إنفاق المال، في صنعتك، في وظيفتك، في طِبِّك، في هندستك، في تدريسك، في علاقتك بأهلك، إذا أدخلت اليوم الآخر، وهذا الموقف العصيب الذي نقفه، ونحن بين يدي الله عزَّ وجل، عندئذٍ تستقيم على أمر الله، لذلك بعض الناس أو معظم الناس يتحرَّكون في دُنياهم، ولا يُدخِلون اليوم الآخر في حساباتهم، لا يُدخِلون مستقبلهم البعيد، يقول لك: أنا حينما أكبَر أحتاج إلى دخل كبير، أنا حينما أكبر أحتاج إلى عمل بعد الوظيفة، فدائماً تفكيره مُنْصَرِف إلى مستقبله في الدنيا، أما ما بعد الموت فهذا خارج الحساب، أما إذا آمنت بالله عزَّ وجل، وآمنت باليوم الآخر تجعلُ الآخرة كل همِّك، ومنتهى علمك، ومحطّ آمالك..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)

إعمالُ الفكر عند كل حركة في الكون:

إذاً المؤمن الصادق كلّما تحرَّك فهذا الفكر يعمل، يفكِّر، وإذا تأمَّل خلق الله، إذا تأمَّل ما حوله، مَن حوله، الظواهر الطبيعيَّة، هطول الأمطار، هبوب الرياح، الرعد، البرق، قوس قُزح مثلاً، هذه الينابيع

التي تنبع، هذه البقرة التي سخَّرها الله لنا وهي معمل صامت، هذه الأشجار: هذه لأخشابها، وهذه بظلِّها، وهذه بثمراتها، وهذه بأوراقها، وهذه بأزهارها، وهذا النبات حدودي، وهذا النبات دوائي، وهذا النبات جمالي، وهذا النبات غذائي، وهذا النبات للأثاث، فإذا نظر الإنسان وتأمّل، فالإنسان العاقل لا يمرُّ هكذا على الأشياء، إذا جلس ليأكل فهذه المائدة يفكِّر فيما فيها مادّة مَادّة، صفيحة صفيحة، هذه مَن خلقها ؟ مَن صمَّمها ؟ مَن جعلها بهذا الترتيب ؟

هذه:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ)

الشجر في الخريف تجد أن أوراقه اصفرّت، وأصبح خَشَباً، تظن أنه خشب يابس، يأتي الربيع فتزهر هذه الأشجار، ثمَّ تورق، ثم إذا هي بهجةٌ للناظرين، كل ذلك تم وجرى بفعل الله سبحانه وتعالى. فالحديث في هذه الآيات إذاً عن الدار الآخرة.

الآية الأولى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

والآية الثانية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

من لوازم اليوم الآخر: العذاب والرحمة:

أخطر ما في اليوم الآخر أنّه..

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ)

" فو الذي نفس محمّدٍ بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنّة أو النار ".

إما في جنَّةٍ يدوم نعيمُها ؛ أو في نارٍ لا ينفد عذابها، ليس هناك حالة ثالثة، الإنسان أحياناً في الدنيا يكون إما في سعادة، أو في شقاء، أو في حالة وسط بينهما، دخله قد يغطي حاجاته الأساسيَّة، أما الثانويَّة فلا يستطيع، فهذا في الدنيا في حالةٌ ليس فيها تألّق، وليس فيها هموم، أيْ حالة وسط، لكنَّ الآخرة إما عذابٌ لا يحتمل، وإما نعيمٌ لا يوصف..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اللَّهُ

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

لذلك يقولون: إنّ المؤمن إذا نظر إلى مقامه في الجنّة يقول: لم أرَ سوءاً قط، إنه ينسى كل متاعب الحياة الدنيا، كل الشدائد التي ساقها الله له، كل المتاعب، كل المصائب، كل المِحَن، كل البلايا ؛ وإذا نظر الكافر إلى مقامه في النار يقول: لم أرَ خيراً قط، من هنا قال سيدنا علي لابنه الحسن:

" يا بني، ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنّة بشر، وكل نعيمٌ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية"..

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

الاختيار من موجبات الحساب والعذاب:

لماذا يُعَذِّب مَن يشاء ؟ لأنك إنسان، لأنك حملت الأمانة، لأنك قلت: أنا أهلٌ لها يا رب، الله عزّ وجل يقول:

(إنّا عَرَضْنَا)

الله ما ألزمك بل عرض عليك عرض..

(إنّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا وَأشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

حملها الإنسان، قال: أنا أهلٌ لها، أعطاك الله نفسك أمانة، لأنك رضيت أن تقبل هذه الأمانة، وأن تكون أميناً عليها، وأن تُزَكِّي نفسك، وأن تعرّفها بربّها، سخّر الله لك الكون إكراماً لك، أعطاك العقل، والعقل وحده هو الذي كرّمك به، قوّة إدراكيّة هائلة، أعطاك القوة فيما يبدو، القوة قوة الله عزّ وجل، أعطاك الكون، أعطاك العقل، أعطاك القوة، أعطاك الفِطرة، أعطاك حرية الاختيار، أعطاك الشهوات، أعطاك الشريعة وهي الميزان الدقيق، هذه كلّها مقوّمات الأمانة، ولكنّك أعرضتَ ؛ فالكون ما فكّرت به، والعقل ما استخدمته، والقوة وظّفتها في الباطل، والاختيار ؛ فاخترت الشر واخترت الشهوة مثلاً، والفطرة طَمَسْتَها، والشريعة كذّبتها.

قالوا: الدهر يومان، يومٌ لك ويومٌ عليك، والمصيبة أن الدلائل التي جعلها الله عزّ وجل مذكِّرةً لك فَرّغوها من مضمونها، ربنا عزّ وجل قال:

(أوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكّرَ وَجَاءَكُمْ النّذِيرُ)

(سورة فاطر: من آية " 37 ")

ما هو النذير ؟

1 – القرآن:

النذير هو القرآن.

2 – النبي:

والنذير النبي العَدنان.

3 – الشيب:

والنذير الشيب.

4 – سن الأربعين:

والنذير سِنُّ الأربعين .

5 – سن الستين:

والنذير سنُّ الستين .

6 – المصائب:

والنذير المصائب.

7 – موت الأقارب:

والنذير موت الأقارب.

حتّى المصيبة التي يسوقها الله عزّ جل للإنسان كي يصحو، كي يعودَ إلى الله، كي ينتبه، كي ينعطف انعطافاً نحو الله عزّ وجل يُفَرّغها من مضمونها ويقول:

(وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ)

الدهر يومان: يومٌ لك ويومٌ عليك، فالقدَر سَخِر منه، لذلك الكون ما فكّر فيه، والعقل استخدمه للإيقاع بين الناس، والفكرة طمسها، والقوة وظّفها في الشر، وحرية الاختيار جعلها لشهواته، والشهوة مارسها بدون هدى من الله عزّ وجل، مارسها بشكل عشوائي، والشريعة كَذّبها، والمصائب فرّغها من مضمونها، لذلك يأتي يوم القيامة ليدفع الثمن باهظاً..

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

أما الذين كانوا:

(قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19))

(سور الذاريات)

هؤلاء:

(وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ)

فنحن في الآخرة بين أن نُعَذّب وبين أن نُرْحَم، الرحمة هي الجنّة.

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

(سور الإنسان)

(وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

قال بعضهم: لِمَ لَمْ يقل الله عزّ وجل: وإليه ترجعون، بل قال:

(تُقْلَبُونَ)

تقلّب المقاييس يوم القيامة:

يبدو أن الإنسان عندما ينتقل للآخرة تتغيّر كل المقاييس بالنسبة له ؛ كل شيء حقّقه في الدنيا من مكاسب ينتهي، يُقَيَّم بمقياس آخر، فأنت قد تكون في بلد وهذه العملة رائجة جداً، فإذا أردت أن تفتخر فتقول: عندي كذا مليون، أما لو نقلت هذا المال إلى بلد آخر، فهذا المال لا قيمة له هناك، بمقياس ذاك البلد هذه العملة غير مقبولة، مرفوضة، فالمشكلة أن الإنسان يصاب بصعق، أن كل شيء جَمَعَهُ في الدنيا، جمع الدنيا أو جُمعَتْ له، ثم يدفنُ في القبر فيقول الله عزّ وجل:

((عبدي رجعوا، وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحيُّ الذي لا يموت))

أين مالك ؟ أين أعمالك الصالحة ؟ يا رب، أنشأت بناء، يا رب، فعلت كذا، أنشأت معملاً، حقّقت أكبر دخل، هذه للدنيا ولكن ماذا فعلت من أجلي ؟ لذلك قال سيدنا علي: **<< الغني والفقر بعد العرض على الله >>.**

إذاً:

(وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

إذاً: المعنى يقترب من قوله تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سور الواقعة)

مقاييس أُخرى، مقياس العمل الصالح، مقياس نفع الناس، مقياس الاستقامة على أمر الله، مقياس الشرع فقط، أما الآن فالناس لديهم مقاييس كثيرة يُقَاسون بها فيرتفعون، مقياس الجمال، مقياس الذكاء، مقياس المال، مقياس النَسَب، مقياس الوجاهة، مقياس القوّة، هذه كلها مقاييس يُقيِّم الناس بها، أما في الآخرة مقياسٌ واحد، ماذا فعلتَ مِن عملٍ خالصٍ لوجه الله؟

ففي هذا اليوم الذي ننقلب فيه إلى الله، ننقلب، كأنه يوجد انقلاب، كل شيء للدنيا يبقى في الدنيا، قد يكون أغنى الأغنياء وفي الآخرة من أفقر الفقراء، وقد يكون أسعد السعداء في الدنيا أشقى الأشقياء في الآخرة.

((ويا ربّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة))

[الجامع الصغير عن أبي البحير بسند ضعيف]

وقد يكون أذكى الناس فيبدو في الآخرة من أغبى الناس، هكذا، موضوع المقاييس.

(وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

من معاني تقلبون إضافةً إلى ترجعون أن المقاييس تختلف اختلافاً كبيراً.

الشيء الثاني:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّماء

إنسان يستعصي ؟ يتمرّد في الدنيا ؟ ينجو من عذاب الله ؟! ينجو من حسابه، من تأديبه ؟ أين ؟ هناك قصّة أرويها دائماً، وهي رمزيّة، أن شخصاً كان عند سيدنا سليمان ورأى إنساناً عنده يحدّق النظر إليه فقال: **"من هذا يا سليمان ؟ "** قال: **" هذا مَلَكُ الموت "**، فطار قلبه خوفاً، وقال: **" خذني إلى أطراف الدنيا "**، والرياح كانت مُسَخَّرة لسيدنا سليمان، فنقله إلى الهند، وبعد أيّام مات هناك، فالتقى

بملك الموت، وقال له: **" يا ملك الموت، لماذا فعلت هذا ؟ "**، قال: **واللهِ بينما أنا أنظر إليه، وأنا معي أمر بقبض روحه في الهند، فأقول: ما الذي جاء به إلى هنا ؟ "**، والأمر لديّ أن أقبض روحه في الهند، فكنت أنظر ليه متعجباً حائراً، قال ربنا عزّ وجل:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

أحياناً يَتّجه الإنسان إلى حتفه، وهو لا يدري، يصر على أن يركب هذه الطائرة فتكون نهايته، يصر.

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

قوله تعالى:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)

يا أيها الإنسان أنت في قبضة الله:

أي أنتم في قبضة الله، كيفما تحرّكت فأنتَ في قبضته، إنسان استيقظ صباحاً، الله عزّ وجل سمح لك أن تستيقظ، وأعطاك فرصة ليومٍ جديد، حركتك في هذا اليوم منحة من الله عزّ وجل، بأي لحظة، وربنا عزّ وجل نوّع في الموت، يجعل الموت بعد مرض عضال بعد اثنتي عشرة سنة، يقولون لك: اثنتي عشرة سنة طريح الفراش، يجعل الموت لسببٍ تافهٍ جداً من جرّاء عمليّة لوزات مات، سكتة قلبيّة فمات، سكتة دماغيّة فمات، فالموت يبدو لنا قريباً، ويبدو لبعضهم بعيداً، فمعنى ذلك أنك في قبضة الله، الذي ينهي الحياة، فإذا انتهى الأجل قبضت إليه، ولو كنت قوياً، لو كنت شديداً، لو كنت عتيداً، لو كنت صحيح الجسم..

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

لا في الأرض ولا في السماء، إذا كنتم في السماء لستم بمعجزين، وإن كنتم في الأرض لستم بمعجزين، ألاَ إنّ مخلوقات الأرض لا تُعجزه في الأرض، ومخلوقات السماء لا تعجزه في السماء، كلاهما يؤيّد أن الله عزّ وجل بيده الخلق والأمر..

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

لا وليّ ولا ناصر إلا الله:

ليس من ولي يرعاكم، ويمدُكم حتّى تستغنوا عن رحمة الله، أو يَحْجُزُكُم عن الله، وليس من ولي يغيثكم فتستغنوا عن رحمة الله، ولا من نصير يمنعكم من عقاب الله، المعنى دقيق، الولي فيها معنى إيجابي،

ليس من جهة تمدُّكم بالخيرات حتَّى تستغنوا عن فضل الله، ولا من نصير يحجزكم عن عذاب الله، لا ولي ولا نصير.

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

والحبل مُرخى، فإذا آن الأوان شدَّه الله عزّ وجل، فإذا أنتم في قبضته، وقالوا: سبحان من قهر عباده بالموت..

الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلابدّ من نزول القبر

****

والشيء الذي هنا يقال: كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت، ما دام الموت نهاية كل إنسان، إذاً يجب أن تفكِّر في طاعة خالقك العظيم الذي إليه المصير..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سور الغاشية)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي)

اليأس سببٌ للكفر بآيات الله واليوم الآخر:

هذا الكفر بآيات الله الكونيَّة الدالّة على عظمته، الله عزّ وجل قال:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت: من آية " 53 ")

الآيات في جسمك، الآيات فيما حولك، الآيات فيمن حولك، الآيات في خلق السماوات والأرض، والآيات في القرآن، هذه مطلقة، آيات الله الدالّة على عظمته ؛ الآيات الكونيَّة أو القرآنيَّة..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

ما عَبئوا بها، ما وقفوا عندها، ما استفادوا منها، ما تأمّلوا فيها، مروا عليها مرور الكرام أي سريعاً..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ)

موضوع الآخرة خارج حساباتِهِ، يقول لك: نحن الآن نعيش في الدنيا، وهذه الدنيا هي الحياة الواقعيَّة، هذا الواقع، يقول لك: أنا إنسان واقعي، للدنيا فقط، أما هذا اليوم الآخر الذي أخبرنا الله عزّ وجل عنه بأدلّةٍ عقليَّةٍ ونقليَّةٍ فهذا لم يعبأ به..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي)

يريد الدنيا، وقد يئس من رحمة الله، من عطائه، والرحمة هنا الجنّة، لقوله تعالى:

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ)

فهذا النعيم المقيم، هذه الجنان التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذه لم يعبأ بها، لم يهتمّ لها، لم يطلبها، لم يَرْجُهَا..

(يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

فإما أن ترجو رحمة الله، وإما أن تيأس منها، والدعاء: نرجو رحمتك، ونخشى عذابك "، يجب أن ترجو الله والدار الآخرة، يجب أن تعمل للآخرة، أن تسعى للجنّة..

(وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ)

نحن في قصّة سيدنا إبراهيم، وفي سياق القصّة مرّ الحديث عن اليوم الآخر..

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

مع نبي الله إبراهيم وقد ألقي في النار:

أيْ كان من الممكن ألاّ يستطيعوا القبض عليه، عندئذٍ لا تظهر آيات الله عزّ وجل، كان من الممكن أن يقبضوا عليه، ثم يتفلّت من أيديهم، كان من الممكن أن يضرموا النار، أو أن يقتلوه قتلاً، قتلاً عادياً، كان من الممكن أن يضرموا النار فتأتي أمطار غزيرة فتغرق النار وتطفئها، ولكن شاءت حكمة الله أن يلقوا القبض عليه، وأن يجتمعوا، وأن يقرّروا أن يحرقوه في النار، وأن يأتوا بنارٍ عظيمة ويوقدوها، وأن يضعوه فيها وأن تغدو النار برداً وسلاماً على إبراهيم، لتظهر آيات الله عزّ وجل، لذلك قال أهل السُنّة والجماعة: **" عندها لا بها "**، أي أن النار لا تحرق بذاتها، والله عزّ وجل ما أودع في النار قوة الإحراق بشكلٍ ثابت، فلا تحرق إلا إذا أراد الله، إذاً كل شيء في قبضة ربنا عزّ وجل وبيده..

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سور الزمر)

كانت هذه القصّة بهذه الطريقة، إذْ أُلقِيَ القبض عليه، وساقوه وحاكموه، وأضرموا النار إلى أن أصبحت ناراً عظيمة، وألقوه فيها، فوجئوا بأن الله عزّ وجل جعل هذه النار برداً وسلاماً، لو لم يقل: سلاماً لَماتَ من البرد وهو في النار، بل كانت برداً وسلاماً.

إذاً فالله عزّ وجل خلق الكون وَفق أسباب، ولئلا تظن أن السبب هو الذي يخلق النتيجة، عطّل السبب، عطّله أو ألغاه، في النار عطّل السبب، وفي خلق آدم ألغاه، الإنسان يحتاج إلى لقاء الذكر بالأنثى كي يأتي المولود بطريق التلقيح، وبالنسبة لسيدنا آدم أو سيدنا عيسى ألغى السبب، وفي النار عطّل السبب،

إذاً:

الأشياء لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله عزّ وجل.

وهذه العقيدة مريحة للإنسان، كل شيء مخلوق بيد الله عزّ وجل، وما أودع الله في الأشياء قوّةً ثابتة فيها، بل إنّ هذه الأشياء لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله عزّ وجل، إذاً:

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع شرح هذه القصّة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (08-16): تفسير الآيات 24 - 27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ(25))

لا للمودة مع الضلال:

هذه الآية الخطيرة، أي إذا رأى هذا الإنسان أن حسن علاقته بالناس القائمة على الضلال أعظمَ عنده من حسن علاقته مع الله فهذا أمرٌ خطير، فكلمة " الله أكبر " تفيدنا في هذه الآية، أنك إذا رأيت أن علاقتك بالناس، وأن حسن علاقتك بالناس، وأن هذه المودة بينك وبين الناس، أن تعيش معهم في سلام، أن تنجو من ألسنتهم، من معارضتهم، من رفضهم، من تقريعهم، أن تحافظ على مودتك معهم ولو على حساب عقيدتك، ولو على حساب دينك، هذا النموذج البشري نموذج هالك، الذي يُؤْثر حُسْن علاقته بالناس على حسن علاقته بالله، الذي يُؤْثر الضلالة مع المودة، على الهدى مع الجفوة.

لو أنك اخترت منهج الحق، لو أنك آمنت بالله عزّ وجل ووقفت عند حدوده، لا شك أن هؤلاء الضالين سوف يبتعدون عنك، يقطعون معك مودتهم، أنت ممن ؟ هل دنياك أغلى عليك من آخرتك ؟ أم آخرتك أغلى عليك من دنياك ؟ هل حسن علاقتك مع الناس هو كل شيء ؟

مثلاً على أضيق من ذلك: هناك من يرجو السلامة في بيته، له زوجةٌ تعيش وفق هواها، فلو أراد أن يقيدها أو أن يحملها على أمر الله عزّ وجل لتبرمت، ولخاصمت، ولابتعدت، ولنكّدت حياته، لذلك يُؤْثر رضاها على رضاء الله عزّ وجل، فهذه الآية أردت أن أعيد عليكم تفسيرها، مع أني مررت عليها مروراً سريعاً في الدرس الماضي، لشعوري أن هناك مرضاً اجتماعياً خطيراً، هو حينما يضعف إيمان الإنسان، وتقوى عنده علاقاته منع الناس، قد يساير الناس في ضلالهم، إما في اعتقادهم الضال، أو في سلوكهم المنحرف، كلام الناس مثلاً:

يا أخي هكذا المجتمع، نحن نعيش بين الناس، لو أننا جاهرنا بالحق، لو أننا وقفنا هذا الموقف، لو أننا ما صافحنا النساء، لو أننا وقفنا في البيع والشراء موقفاً شرعياً لأصبحنا أضحوكةً بين الناس، ولتحدّث

الناس عنا، لساروا بأخبارنا، هذا النموذج الذي يُؤْثر حسن علاقته بالناس على حسن علاقته بالله، الذي يؤثر سلامته على عقيدته، الذي يؤثر دنياه على آخرته، هذا النموذج عند الله مرفوض، بل إنه في صف المنافقين، بل إنه في صف الهالكين.

علاقة الآية بواقعنا:

طبعاً قد يقول أحدكم: ما علاقة هذه الآية بواقعنا ؟ هذا قرآن أيها الإخوة، ما ذكر الله هذه القصة في قرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة إلا لأنها تمثل نموذجاً متكرراً، إذا ذكر الله في كتابه العزيز قصةً تُتلى إلى يوم القيامة إذاً هذه القصة ليس المعنيّ بها أنها وقعت وانتهت، بل إنها نموذج متكرر، إنها نموذج بشري، متكرر، إذاً نحن المعنيون.

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

والآية الكريمة في سورة الزمر:

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

(سور الزمر)

أي أيعقل أن نعبد غير الله ؟ لأن أمرنا كله بيد الله، هو خالقنا، هو مربّينا، هو مسيرنا، نحن له مِلكاً وتصرُّفاً ومصيراً، إليه المصير، إليه الرجوع، إذاً لا يعقل أن نعبد غير الله.

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)

(سور الزمر)

ثم يقول الله عزّ وجل:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سور الزمر)

لك مهمةٌ واحدة أن تعبده وأن تشكره، إذاً هذا الذي يؤثر سلامة علاقته بالناس فشأنه مرفوض، وكذلك علاقته بآبائه وأجداده..

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

(سور الزخرف)

سيدنا إبراهيم حينما قال:

(هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77))

(سور الشعراء)

أيْ أن آثار البيئة، آثار العلاقات الاجتماعية، آثار المُحيط، آثار القيَم السائدة، آثار العادات والتقاليد، آثار الإرث الذي ورثناه عن الآباء إذا كان على غير الحق، هذا كله يجب أن يُعَطّل..

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ)

عبادة الأوثان من غير غطاء شرعي وعقلي:

أيْ أنتم اتخذتم هذه الأوثان، ولا تملكون حُجَةً على عبادتها، من دون غطاء عقلي، من دون دليل قطعي، لكن مسايرةً مع الناس، أردتم السلامة، أردتم هذه المودة بينكم وبين أهلكم، أردتم هذه العلاقة الحسنة مع قومكم، فأيّ إنسان الآن بعد أن ظهر الحق، وأنزل الله هذا القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام، أيّ إنسان في عقيدته، أو في مواقفه، أو في حركاته، أو في نشاطه، يؤثر سلامته على حساب عقيدته، يؤثر الضلالة على الهدى، الضلال مع المودة على الهدى مع الجفوة، إذا أردت أن تتخذ من هؤلاء الناس آلهةً فهذا هو الشرك بعينه.

هذا شأن العامّة وحالهم، أما الخاصة فماذا قالوا ؟ المفكرون من عُبّاد الأوثان قالوا: إنه لا يمكن لبشرٍ أن يحيط بالله تعالى، ولا أن يقبل عليه، إذاً نتخذ هؤلاء الأوثان زلفى إلى الله، أي هم اخترعوا ديناً، هم اخترعوا هذه الفكرة، المُشكلة أنه يجب أن تعبد الله لا على رأيك، ولا وفق هواك، يجب أن تعبد الله كما يريد الله عزّ وجل، يجب أن تعبد الله وفق أمر الله عزّ وجل، فما كل إنسان أراد أن يعبد الله على هواه تُقبل هذه العبادة منه، ودائماً وأبداً أقول لكم كما قال أحد العلماء الأفاضل: إن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً ؛ خالصاً ما ابتغي به وجه الله عزّ وجل، وصواباً ما وافق أمر الله عزّ وجل.

التقليد ليس حُجة فاعبد الله وفق ما أمر به:

لو انتقلنا من عامة الناس الذين يحافظون على علاقاتهم مع من حولهم، مع مجتمعهم، مع بيئتهم، مع أهليهم، مع تقاليدهم وعاداتهم، مع تراثهم إن صَحَّ التعبير، مع اعتزازهم بآبائهم، اعتزازهم بطقوس آبائهم، فالإنسان أحياناً يولد من أب مشرك فرضاً، أو يعتقد بدين أرضي، كالدين البوذي مثلاً، هو يعتز بقومه وبأمته، وبهذه التقاليد التي ورثها عن آبائه وأجداده، ويرفض الحق، هذا النموذج غير مقبولٍ عند الله عزّ وجل، إذاً هؤلاء العامة.

أما الخاصة فأرادوا أن يعبدوا الله وفق هواهم، فنقول: هذا كلام مرفوض، يجب أن تعبد الله كما يريد اللهُ، يجب أن تعبد الله وفق شرع الله، يجب أن تعبد الله كما أمرك الله، إذاً أنت لا يغتفر لك سوء عملك

أن تقول: نيّتي طيبة، أنا أنوي نية طيبة أردت أن أعبد الله عن طريق هذا الوثن ليقربني إليه زلفى، لا، فالله عزّ وجل جعل شرعةً ومنهاجاً، المنهاج الطريق الموصل إلى هذا الشرع العظيم، إذاً يجب أن تتقصّى في أن تعبد الله كما يريد الله عزّ وجل.

أيضاً أقوال الخاصة: إننا نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى هذا كلامٌ أيضاً مرفوض.

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

مودة الحياة الدنيا زائلة بزوال سببها:

لذلك قالوا: مودة الحياة الدنيا تزول بزوال الدنيا، أما المودة التي بينك وبين إخوتك المؤمنين هذه مودة الدار الآخرة، وشتانَ بين المودتين، مودة الدنيا تنتهي بزوال الدنيا، أساسها مصالح، أساسها أُنْسٌ شيطاني، قد يستأنس العاصي بالعصاة، وشارب الخمر بشاربي الخمر، والمرابي بالمرابين، مودة الدنيا أساسها الأنس الشيطاني، وتنتهي هذه المودة بانتهاء الدنيا.

معنى الآية: إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ

ولكن أيها الإخوة... لندقق في هذه الآية.. حينما قال الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

(سورة التغابن: من آية " 14 ")

قد يقرأ الإنسان هذه الآية فيشعر بحرج، زوجتي التي عشت معها عمراً طويلاً، أقرب الناس إلي، ابني فلذة كبدي كيف يقرر القرآن الكريم أنه عدوٌ لي، العلماء قالوا: في الآية نقطتان:

المعنى الأول:

الأولى أن من للتبعيض، ليس كل الزوجات، وليس كل الأولاد عدوٌ للإنسان، لكن بعض الزوجات وبعض الأولاد.

المعنى الثاني:

أن تكون العداوة حقيقيةً، هذا أندر من النادر، ولكن العداوة التي أرادها الله في هذه الآية عداوة مآل. ما الفرق بين عداوة الحال وبين عداوة المآل ؟ عداوة المآل إن هذه الزوجة التي تحبها حباً جماً، والتي تحرص على إرضائها، وترغب في مودّتها، وتحرص على أن تكون مسرورة، ضاحكة، قد تكسِبُ مالاً

حراماً من أجلها، من أجل إرضائها، قد تحملك على ما لا تستطيع، قد تبحث عن مالٍ حرام كي ترضيها، كي ترضي غرورها، كي تتباهى أمام زميلاتها، أمام صديقاتها، أمام جيرانها، أمام أخواتها، أمام مَن هُم في سنها، حينما ينكشف الغطاء يوم القيامة ترى أن هذه المودّة التي أردتها مع زوجتك كانت طريقاً إلى النار، هذه المودة التي آثرت بها مودة الله عزّ وجل، آثرتها على مودة الله، كانت طريقاً إلى الهلاك، عندئذٍ تنشأ عداوةٌ ما بعدها عداوة، كيف يقول ابنٌ يوم القيامة: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، كيف ؟

إذا أطلق الأب لابنه العنان، أعطاه المال الوفير يفعل به ما يشاء، وسافر هذا الابن، وفعل ما فعل، وارتكب الفواحش، وعاد مسروراً، وقد شعر أن أباه يُحِبّه حباً جماً، عاد عاصياً، عاد منحرفاً، عاد منغمساً في وحول الشهوات بمال أبيه، حينما يرى الابن أن أباه بدعمه وبماله وتوجيهه أوصله إلى النار، يقول: يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، إذاً هذه العداوة التي ذكرها الله عزّ وجل في القرآن الكريم ليست عداوة حال في الأعم الأغلب، عداوات الأهل نادرة، سنة الله عزّ وجل أن يحب الأب ابنه، وأن يحب الابن أباه، وان يحب الزوج زوجته.

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)

(سورة الروم: من آية " 22 ")

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت: من آية " 37 ")

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

(سورة الروم: من آية " 21 ")

إذاً هذه المودة التي جعلها الله بين الزوجين مودةٌ دائمة وثابتة في فطرة الإنسان، ولكن إذا استجبت لطلبات الزوجة، وكسبت المال الحرام، وحملتك طلباتها على أن تعصي الله عزّ وجل، عندما ينكشف الغطاء يوم القيامة تنكشف لك حقيقةٌ خطيرة، أن هذه الزوجة التي كانت أقرب الناس إليك، وهذا الابن الذي كان فلذة كبدك انقلب إلى عدو، لأنه كان السبب في هلاكك، إذاً هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

(سورة التغابن: من آية " 14 ")

عداوة المآل في الأعم الأغلب لا عداوة الحال، عداوة المآل أن يحملك حُبُّك لزوجتك على أن تعصي الله، أن يحملك حبك لابنك على أن تعصي الله، أن يحمل حب الابن أباه على أن يعصي الله، من أجل أن تبقى المودة مع الأب يسير الابن في طريق الضلال إرضاءً لأبيه، فإذا هذه المودة التي أرادها في الدنيا، وانتهت بانتهاء الدنيا، تصبح أساس العداوة يوم القيامة، لذلك قال تعالى:

(الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

(سورة الزخرف: من آية " 67 ")

هذه العلاقات الحميمة، هذه الصداقات المتينة، هذه العلائق الوشيجة بين الناس، يسهرون سهرةً إلى أنصاف الليل، إلى منتصف الليل، الضحك، والسرور، والحبور، والمُزاح، يقول لك: والله لا أشبع من صديقي.

(الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ)

(سورة الزخرف 67)

لذلك فالمؤمن يُبْدِلُهُ الله عزّ وجل علاقةً طيبةً دائمةً حتى الآخرة مع المؤمنين، والدليل ربنا سبحانه وتعالى يصف المؤمنين بأنهم على سررٍ متقابلين، أما أهل الدنيا فتنقلب مودتهم عداوة شديدةً يوم القيامة، هذا الكلام كله مأخوذٌ من قوله تعالى:

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

فطرة التدين عند الإنسان:

عندنا شيء آخر، أن الإنسان فطرته فطرة تَدَيُّن، لأن الله عزّ وجل يقول:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: من آية " 30 ")

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً، كما أقول لكم دائماً: العبادة طاعةٌ طوعية، لو أنها طاعةٌ قسرية ليست عبادة، طاعةٌ طوعية أساسها معرفةٌ يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية، بل إنها طاعةٌ طوعيةٌ ممزوجةٌ بمحبةٍ قلبية، والدليل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: من آية " 30 ")

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً هذه هي الفطرة، هذه جِبِلَّتُكَ، هذه طبيعتك، هكذا فطرتَ، لذلك في النفس فراغٌ لا يملؤه إلا الإيمان، في النفس حاجةٌ لا يغطيها إلا معرفة الواحد الديَّان، في النفس قلقٌ لا يسكّنه إلا طاعة الرحمن، في النفس آمالٌ لا تدرك إلا بمعرفة الله عزّ وجل، هذه الفطرة.

المعبود الحق له منهج حق:

لكن هؤلاء الذين يعبدون الشمس والقمر، ويعبدون البقر في بعض بلاد الدنيا، ويعبدون أصناماً وآلهةً من صنع أيديهم، هؤلاء لماذا يفعلون هذا ؟ قال بعض المحللين: هؤلاء حينما عبدوا الشمس أو القمر أو النجوم، أو عبدوا البقر أو ما سواها، حققوا، أو أشبعوا في نفوسهم فطرة التديُّن، ولكن الشمس والقمر

ليس لها منهج تسير عليه أيها الإنسان، فهو يسير مع شهواته، يحقق كل شهواته الأرضية، ويحقق ما فطر عليه من حب التديُّن، لذلك سهل جداً أن تعبد صنماً، الصنم ليس له أمر ونهي، ليس له منهج، أما الله فله منهج.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

الله عزّ وجل حرم الربا.

(وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

(سورة البقرة: من آية " 275 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ)

(سورة الحجرات: من آية " 11 ")

الحقيقة أنه لا بد أن تعبد الله خالق الكون، هذا يلزمه اتباع المنهج، يلزمه افعل ولا تفعل، يلزمه الأمر والنهي، يلزمه منظومة قِيَمٍ يجب أن تسير عليها.

إذاً: إذا اتجه الإنسان لعبادة صنمٍ أو حجرٍ أو شمسٍ أو قمرٍ أو نجومٍ أو حيوانٍ، إنما يفعل هذا ليتحرر من القيود، من أوامر الدين ونواهيه، أما إذا عبدت الله عزّ وجل خالق الكون، الله عزّ وجل أمره ونهيُهُ يوصلانك إلى سعادةٍ أبدية، فيها مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

إذاً أيها الأخ الكريم ابحث عن مودّات الدار الآخرة، كوّن لك صداقات مع المؤمنين، فهذه هي المودة التي تنعقد بينك وبينهم، هذه مودةٌ خالدة، مودةٌ تستمر بعد الموت، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

[الترغيب والترهيب عن أنس بسند فيه مقال]

إذاً: عليك أن تعرض عن مودة أهل الدنيا، فمودة الآخرة هي التي تبقى، أما مودة الدنيا فلا تبقى، وكلُّكم يعلم أن الإنسان إذا شُيِّعَ إلى قبره هناك من يتبعه إلى حافة القبر، هم أهله وأقرباؤه وأصدقاؤه، أما ماله غير المنقول فيبقى في مكانه ؛ بيته، مكتبه، مركبته، فالبطولة، أو المعول عليه ما يدخل معك في القبر، شيئان: مالُك يبقى في مكانه، وأهلُك يَصِلون معك إلى شفير القبر، أما المُعَوَّلُ عليه فهو ما يدخل معك في القبر ألا وهو عملك.

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الآن ربنا عزّ وجل أراد أن ينقلنا إلى الدار الآخرة ليرينا مصير هذه المودة، العلاقات الطيّبة، العلاقات الحميمة، من أجل أن تبقى مع قومك رفضت الهدى، من أجل ألاّ يقال عنك إنك خرجت عَمّا عليه أهلُك

وأقرباؤك رفضت الهدى، هذه العلاقات الطيبة انظر إلى مصيرها..

(ثُمّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

لا نسب يوم القيامة ولا خُلّة:

العوام يقولون أحياناً في إنسان: " لعن الله الساعة التي تعرفت فيها عليه "، من الممكن أنّ إنساناً ينشئ علاقة مع إنسان آخر، ويدلك على طريق فيه كسب مال سريع، لكن بطريق غير صحيح، ثم يلقى القبض على هذا الإنسان، ويودع في السجن، ففي أثناء الكسب والإنفاق والصَرْف تنشأ علاقة حميمة مع هذا الإنسان، ولكن بعد أن يلقى في السجن يلعن الساعة التي تعرّف فيها عليه.

إذاً:

(ثُمّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

والحديث الشريف الذي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث سألت السيدة عائشة النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا، قالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ الرّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ ؟! فَقَالَ: الأمْرُ أشَدُ مِنْ أنْ يُهِمّهُمْ ذَاكِ))

(صحيح البخاري)

معنى غرلاً أي بغير خِتان.

وعَنْ عَائِشَةَ أنّهَا ذَكَرَتِ النّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا يُبْكِيكِ ؟ قالَتْ: ذَكَرْتُ النّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: أمّا فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ فَلا يَذْكُرُ أحَدٌ أحَدًا، عِنْدَ الْمِيزَانِ، حَتّى يَعْلَمَ أيَخِفُ مِيزَانُهُ أوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ، حِينَ يُقَالُ:

(هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)

حَتّى يَعْلَمَ أيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ، أفِي يَمِينِهِ أمْ فِي شِمَالِهِ، أمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ، إذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنّمَ))

(من سنن أبي داود عن عائشة)

وفيما سوى هذه المواقف قد يعرف بعضنا بعضاً، فإذا وقعت عين الأم على ابنها تقول له:

((يا بني، جعلت لك بطني وعاءً، وحجري وطاءً، وصدري سقاءً، فهل من حسنةٍ يعود عليّ خيرُها اليوم ؟.))

النبي عليه الصلاة والسلام بكى في هذا الموقف العصيب فقال:

((يقول هذا الابن لأمه: ليتني أفعل هذا يا أماه، ليتني أستطيع أن أفعل ذلك يا أماه، إنني أشكو مما أنت منه تشكين))

فهذه العلاقات، علاقات الدنيا، علاقات القرابات، علاقات المودّات، الشركاء في الدنيا، الجيران، الأصحاب، الأخِلاّء، هذه العلاقات كلها تتلاشى، ويأتي الإنسانُ ربّه فرداً..

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

معنى اللعن:

معنى يلعن، اللعن الإبعاد، فالإنسان أحياناً يرى شخصاً بوضع لا يُحتمل، ذا رائحة كريهة، ومنظر قبيح، وتطاول في الكلام، وبذاءة في اللسان، ثيابُهُ قذرة، تفوح منه رائحةٌ كريهة، فأنت تبتعد عنه ابتعاداً لا حدود له، فيوم القيامة أهل النار يَنْفُرُ بعضهم من بعض، يبتعد بعضهم عن بعض، يلعن بعضهم بعضاً، لأن الإنسان يلبس ثوب عمله، اللؤم، الدناءة، الخيانة، القذارة، الخيانة الزوجية، شُرب الخمر، الاستئثار، الأنانية، أن يعيش على أنقاض الآخرين، أن يبني غناه على فقر الآخرين، أن يبني مجده على أنقاض الآخرين، أن يبني أمنه على خوف الآخرين، أن يبني حياته على موت الآخرين، هذه المواقف اللئيمة، مواقف الخِسّة والدناءة والقذارة، هذه المواقف أثواب يرتديها الناس يوم القيامة، فكل واحد مشمئز منه، هو يدعو للقرف، وهو يُقَرِّفُ أيضاً كما يقولون..

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

معنى الكفر في قوله: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ

معنى يكفر، أي أن هذا الكلام الذي كان يقوله في الدنيا أصبح يوم القيامة لا أساس له، كلام فارغ، كلام لا معنى له، كلام باطل، هذه معنى: يكفر بعضكم ببعض، فكل الدعاوى التي كانت تقال في الدنيا أصبحت الآن باطلة، لماذا ؟ لأنه كُشِفَ الغطاء، هذه الدعاوى تهاوت، هذه النظريات تداعت، هذه الأفكار تلاشت، هذه العقائد تهافتت، هذا الطرح إن صح التعبير تهاوى، هذه الفكرة وهذا التصور كله غلط، لا أساس له من الصحة، لا أصل له. إذاً:

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ)

الآن هذا الذي ادّعى دعوة باطلة، واعتقد اعتقادا باطلاً، واعتقد عقيدة زائغة، وتوهم أن الدنيا كل شيء، هذا الاعتقاد الباطل يصحبُه سلوك منحرف، سلوك باطل، السلوك أساس العدوان، والانحراف، والتجاوز، والخسة والدناءة، والقذارة واللؤم والخيانة.

إذاً:

(وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

إذاً كما قال الله عزّ وجل:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

(سورة طه 123)

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، بالمقابل من اتبع سبيل الشيطان يضلُّ عقله، وتشقى نفسه، فيكفر بمعتقداته، ويبتعد عن شخصه لقذارته..

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

سؤال وجواب:

الحقيقة أنّ لدينا سؤال دقيقاً: القصة عن سيدنا إبراهيم، وهم قد ألقوْا سيدنا إبراهيم في النار، وقال الله عزّ وجل في موضع آخر حكاية عنه:

(حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ)

لكن الله كان معه، فخذلت آلهتهم، ونصره الله، وقال الله عزّ وجل:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(69 سورة الأنبياء)

إذاً أما أنتم أيها الكفار اليوم فإنكم في النار، وما لكم من ناصرين، لكن هذا الكلام قيل يوم القيامة.

السؤال:

ماذا قيل في الدنيا ؟

الجواب:

في الدنيا قيل:

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

فما الفرق بين هذه الكلمة وهذه الكلمة ؟ كلاهما كلامٌ يقال، الأولى قيلت في الدنيا والثانية قيلت في النار، في الدنيا:

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أي من غير الله.

(وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ)

معنى ذلك أن الله وليُّكم ونصيركم في الدنيا إن عدتم إليه، فالإنسان في الدنيا ما له من دون الله من ولي ولا نصير، معنى ذلك أن الله وليٌ له، ونصيرٌ له إذا رجع إليه، وتاب إليه، والأمل مفتوح، أما بعد الموت فلا توبة، إذ لم يعد هناك حاجة لأنْ يقول الله لهم:

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ)

(وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

في الدنيا كان لها معنى، في الدنيا أيها الإنسان إذا اعتززت بمخلوقٍ آخر ما لك من دون الله من ولي ولا نصير، الولي هو الذي يرعاك، والنصير هو الذي ينصرك عند الشدة، واللهُ عزّ وجل وليٌ ونصير، في الدنيا لمن استقام على أمره ولمن تاب، أما في الآخرة:

(وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

كيف ألقيتم إبراهيم في النار من أجل أن تنصروا آلهتكم ؟ لكن الله نصره، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ أما يوم القيامة فربنا عزّ وجل وعدهم النار:

(وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

لا يوجد جهة من الجهات تحول بينهم وبين النار، أو أن تدفع عنهم النار.

(وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ)

قصة وعبرة:

قبل أن ننتقل إلى الآية الثانية لا أنسى قصةً رويتُها لكم كثيراً، ولكن في التكرار فائدة:

أحد التابعين كان عند أحد ولاة يزيد بن عبد الملك، جاءَ هذا الولي توجيهٌ من " يزيد "، هذا التوجيه مخالفٌ لأمر الله عزّ وجل، وقع هذا الوالي في حرج، أينفذ أمر يزيد ويعصي الله، أم يعصي يزيد ويطيع الله ؟ كان عنده أحد كبار التابعين، سأله النصيحة، فقال له كلمة تكتب بماء الذهب: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

هذه المقولة أعِدْها على نفسك آلاف المرات، إذا كنتَ وقعت في موقفٍ حرج، إما أن ترضي زيداً، أو

أن ترضي ربك، قل: إن الله يمنعني من زيد، ولكن زيد لا يمنعني من الله، لو أن الله شاءت حكمته أن يبتليني بمرضِ عُضال، زيد كل ما في وسعه أن يزورني في المستشفى، وأن يقدم لي باقة ورد فقط، أما أن يمنعني من الله، فلا، ولكن الله إذا كنت معه، مطبقاً لأمره، موالياً له يمنعني من كل الناس، والدليل قول الله تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُون (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

إذاً: إن **" يزيد "** لا يمنعك من الله، ولكن الله يمنعك من **" يزيد "**، فإذا تعارض أمر البشر مع أمر خالق البشر، إذا تعارض أمر الحَق مع أمر الخَلق، كن مع الحق ولا تبال، لأن كلمة الحق لا تقرّب أجلا، ولا تقطع رزقاً..

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

بين إبراهيم ولوط عليهما السلام:

يبدو كما تروي كتب التاريخ أن لوطاً عليه السلام وهو ابن أخيه لسيدنا إبراهيم.

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ)

لم يؤمن من قومه إلا لوط مع تلك المُعجزة الباهرة، أن النار أصبحت برداً وسلاماً على إبراهيم..

(وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

معنى هجرة إبراهيم وهجرانه قومَه:

المعنى الأول:

المفسرون قالوا: لو أن سيدنا إبراهيم بقي مع قومه، ولم يؤمنوا به، فدعوتهُ لهم بعد أن رأوا المعجزة لا معنى لها، وسكوته إقرارٌ بعملهم، إذاً لا معنى أن يبقى معهم بعد أن ظهرت هذه المعجزة ؛ أنهم أوقدوا ناراً عظيمة وألقوه بها، ثم جعلها الله برداً وسلاماً عليه ومع ذلك لم يؤمنوا، إذاً الكلام معهم ليس له معنى، والسكوت منه إقرار، إذاً:

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

انتقل من بلاد الرافدين كما يقال إلى وادي الأردن، هذا معنى.

المعنى الثاني:

الله عزّ وجل ليس له جهة تُهاجر إليه بها، ولكنك إذا كنت بأرضٍ فيها ضلال، وفيها معاصٍ، وقد أُكرهت على المعصية، فيجب أن تهاجر إلى ربك إلى أرضٍ يُعْبَدُ الله فيها، إلى أرضٍ تستطيع أن تقيم شعائر الله فيها، إلى أرضٍ تُصَلِّي وأنت آمن، إلى أرضٍ تقيم الإسلام في بيتك وأنت آمن.

فما بال هؤلاء الناس الذين أنعم الله عليهم ببلدٍ آمن، هذه البلدة، والفضل لله عزّ وجل تقام فيها شعائر الدين، نصلي في المساجد، ونحضر دروس العلم، ونفعل في البيوت ما شئنا من تحجيب زوجاتنا، ومن إقامة الصلاة، أما إذا أردنا المال وحده، وذهبنا إلى بلاد الكفر حيث تجري الفاحشة على قارعة الطريق، وحيث لا يستطيع الأب المسلم أن يربي بناته على الإسلام إطلاقاً، لأن البيئة فاسدة، من أجل الدرهم والدينار ضيَّع دينه وآخرته، فالإنسان مطالب أن يهاجر إلى بلدٍ يقيم فيها شعائر الله عزّ وجل ؛ يصلي ويصوم ويزكي ويحج ويفعل في بيته كل أوامر الدين، هذا المطلوب.

إذاً المعنى الآخر للآية:

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

أيْ أنا ذاهبٌ إلى أرضٍ أعبد الله فيها، هذه هي الهجرة، فمثلاً لو ضيقنا الأمثلة، في مساء الجمعة يوم عطلة، وهناك أماكن كثيرة تقضي فيها السهرات، أماكن كثيرة جداً، إذا كنت ميسور الحال فاليُسْرُ شيء مشجع، ولكنك آثرت بيت الله عزّ وجل على كل هذه الأماكن، هذه السهرة فيها معصية، وهذه فيها اختلاط، وهذه فيها فساد، وهذه فيها غيبة، وهذه فيها تَبَذُّل، وهذه فيها كلام لا يرضي الله، وهذا المكان موبوء، ثم تركت كل هذا، وهاجرت إلى الله، فأن تأتي بيت الله عزّ وجل، يمكن أن تنطبق هذه الآية على من يدع كل شيء ويأتي بيت الله عزّ وجل.

قد تسافر إلى بلد، وتلتقي بهذا البلد بالعلماء فقط، وهناك أماكن كثيرة جداً لا ترضي الله عزّ وجل، أنت هاجرت إلى الله، قد تسافر إلى البلاد المُقَدَّسة لتقوم بعمرة أو بحج في وقت الحج..

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

فإذا ذهبت إلى مكان، وأردت من هذا المكان مرضاة الله عزّ وجل فكأنك هاجرت إلى الله عزّ وجل.

المعنى الدقيق للهجرة:

ولكن المعنى الدقيق: أنك إذا كنت بأرضٍ تُكرَهُ فيها على معصية الله ولم تتركها إلى أرضٍ يُعبد الله فيها فأنت آثم، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

وقال بعضهم: إن التصوف كله في هذه الآية:

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

أيْ أنّ إنساناً أحب الله من كل قلبه فأراد أن يكون مع الله في كل أحواله:

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)

الابن الصالح هبة من الله:

كلمة:

(وَهَبْنَا لَهُ)

تعني أن الابن الصالح هِبَةٌ من الله عزّ وجل، فمن كان له ولدٌ صالح فليسجد لله عزّ وجل ويضرع له: يا رب، لك الحمد على هذه النعمة، وما من نعمةٍ أعظم من أن يكون لك ولدٌ صالحٌ يعبد الله من بعدك، ويعلّم الناس من بعدك، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إنّ أطْيَبَ مَا أكَلَ الرّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإنّ وَلَدَ الرّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ))

[النسائي]

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

أجر الدنيا والآخرة:

أي أن ربنا عزّ وجل بَدّلَ كل متاعبه خيرات، بدل كل حاجاته مسرّات، وهب له إسحاق ويعقوب، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، وآتاه عِزّ الدنيا وعز الآخرة.

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(46 سورة الرحمن)

يُفْهَم من هذه الآية الكريمة أن المؤمن إذا آمن بالله حق الإيمان، واستقام على أمر ربه حق الاستقامة، وعمل الصالحات، لعل الله سبحانه وتعالى يكرمه في الدنيا والآخرة، أخذاً من هذه الآية:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

فحتى في الدنيا، فإنّ الله سبحانه وتعالى يرفع فيها المؤمن ويكرمه فيها.

(وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

معنى: لَمِنَ الصَّالِحِينَ

أي الصالحين لعطائنا، فالبطولة أن تكون صالحاً لعطاء الله، ولن تكون صالحاً لعطاء الله إلا إذا قُمْتَ بعملٍ يصلح للعرض على الله، واعلم يقيناً أنك تحتاج إلى عملٍ يصلح للعرض على الله حتى تكون صالحاً لعطاء الله.

وفي درسٍ قادمٍ إلى شاء الله نتابع قصة سيدنا لوط في قوله تعالى:

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (09-16): تفسير الآيات 27 - 35
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس التاسع من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قصّة سيدنا لوطٍ عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام، ولكن نريد أن نقف وقفةً يسيرة عند آخر آيةٍ في قصّة سيدنا إبراهيم، حينما قال الله عزّ وجل:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

يستفاد من قوله تعالى:

(وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا)

مكافأة الله للمؤمنين يوم القيامة: وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا

أن المؤمن إذا آمن بالله عزّ وجل، واستقام على أمره، وعمل صالحاً لابدّ من أن يكافئه في الدنيا أيضاً، أما أن يكون المؤمن في الدنيا كغير المؤمن، أن يُعَامل المؤمن كالكافر، المستقيم كالمنحرف، المحسن كالمسيء فهذا مستحيل، مستحيل أن تكون مؤمناً ويتخلّى الله عنك، مستحيل أن تكون حياتك، وعلاقاتك، ومهنتك، وزواجك، وبيتك، أن تكون كغيرك من الناس، لابدّ من أن تُبْتلى، ولكنه في نهاية المطاف لابدّ من أن تُكْرَم، لابدّ من أن تنال كرامة الله عزّ وجل إذا كنت وَفْقَ ما أراد، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من آية " 21 ")

شيءٌ مستحيل.

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ)

(18 سورة السجدة)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(61 سورة القصص)

لذلك:

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(139 سورة آل عمران)

كأن الله سبحانه وتعالى يحبُّ من المؤمن أن ترتفع معنوياته، يحب من المؤمن أن يكون واثقاً بعطاء الله عزّ وجل، يحب من المؤمن أن يشعر أن له عند الله منزلة، أن له عند الله مكانة، أما هذا الذي يرى نفسه كغيره من غير المؤمنين، من العصاة، من الضائعين، من الشاردين، وأنه ينتظر بلاء الله عزّ وجل، لابدّ من أن تُمْتَحَن، لابدّ من أن تُبْتَلَى، ولكن لابدّ من أن تستقر أحوالك على الإكرام الإلهي، لأن الله سبحانه وتعالى هذا وعدهُ، هكذا وَعَد الله المؤمنين، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

والذي يُثْلِجَ الصدر كما يقولون أن المؤمنين ارتباطهم بدينهم أكبر بكثير من مستوى قناعتهم، لأنهم حينما آمنوا بالله، وحينما اصطلحوا مع الله، وحينما تابوا توبةً نصوحاً، وحينما عملوا الصالحات بدّل الله حياتهم، جعلها حياةً طيّبة كما وعدهم، جعل نفوسهم طيّبة، حياتهم طيّبة، جعل قلوبهم مطمئنّة، جعلهم يشعرون بأنهم عند الله من المقرّبين.

إذاً تعليقاً على قوله تعالى:

(وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

قياساً على تلك القصّة ؛ المؤمن إذا آمن بالله، واصطلح معه، واستقام على أمره لابدّ من أن ينتظر الخير..

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

من خير.

(هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(51 سورة التوبة)

بين الأجر والأجرة والأجر والجزاء:

الآن ننتقل إلى قصّةٍ ثانية، وهي قصّة سيدنا لوطٍ عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام، لا تنسوا أن كلمة الأجر تختلف عن الأُجرة، الأجرة في الدنيا، أما الأجر فيشمل الدنيا والآخرة، ولا تنسوا أن كلمة الأجر تفترق عن الجزاء، فالأجر للخير، والجزاء للخير والشر، الأجر شيء، والأجرة شيءٌ آخر، الأجرة في الدنيا، أما الأجر ففي الدنيا والآخرة، والأجر غالباً هو العطاء الإلهي الذي يكون تعويضاً

عن عبادة الإنسان لله عزّ وجل العبادة الحقيقيّة، وأما الجزاء فالجزاء يشمل العقاب والإكرام، أما الأجر فيختلف عن الجزاء في أنه للإكرام فقط.

قصة نبي الله لوطٍ عليه السلام:

(وَلُوطاً)

أي وأرسلنا لوطاً..

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

ما هي الفاحشة ؟

ما الفاحشة ؟ الفاحشة العمل القبيح أو القول القبيح، أي عِظَمُ القبح في القول والعمل هذه فاحشة، والحياة الدنيا طافحةٌ بالفواحش، الخيانة الزوجيّة فاحشة، الزنا فاحشة، تضييع العقل في شُرب الخمر فاحشة، فعِظَم القبح، القبح الشديد في الأقوال والأفعال تسمّى فواحش، سيدنا لوط قال لقومه:

(إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

قوم لوط أول من أتى هذه الفاحشة: مَا سَبَقَكُم بها مِن أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ

ففي إشارة إلى أن هذه الفاحشة إنما فعلها قوم لوط أول الناس، لم يُسْبَقُ إليها، وبعض المفسّرين قال: إنها شاعت في قوم لوط شيوعاً لم يكن من قبل، إما أنها شاعت شيوعاً لم يكن من قبل، أو إنها كانت أول ما وقعت من قوم لوط..

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ)

الحسَن ما حسّنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع والعقل تبعٌ لذلك:

الفاحشة العمل القبيح، العمل القبيح الذي قَبَّحَهُ الشرع، وقبّحه العقل، و الشرع دائماً متوافقٌ مع العقل، العقل مقياسٌ أودعه الله فينا، والشرع ميزانٌ أنزله الله على أنبيائه، فالذي قبّحه الشرع يقبّحه العقل، والذي قبّحه العقل يقبّحه الشرع ؛ ولكن إذا قبّح الشرع شيئاً، والعقل لم يقبّحه فالعقل قد ضَل، الأصل هو الشرع، إذا قبّح الشرع شيئاً فالعقل إذا قبّحه كان سليماً، وإذا لم يقبّحه كان مُنحرفاً، فالأصل هو الشرع، أي أن القبيح ما قبّحه الشرع، والحسن ما حسّنه الشرع، فربنا عزّ وجل مع أنه أعطانا ميزان العقل، إلا أن هذا الميزان ضُبط على ميزان الشرع، وكل إنسان مؤمن عليه أن يضبط تصوُّراته،

مفهوماته، موازينه، مقاييس الفوز عنده على ميزان الشرع، وإلا ما الضلال المبين ؟ أن يكون لك مقياس غير مقاس الشرع، أن يُحَسِّن عقلك شيئاً قبّحه الشرع، وأن يقبّح عقلك شيئاً حسّنه الشرع هذا هو الضلال، مِن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ أرنا الحقّ حقّاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطلَ باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[ورد في الأثر]

خطورة إعمال العقل وترك النقل:

الدليل الآخر، أن هناك أشياء كثيرة لو عُرِضَت على العقل البشري قبل سنواتٍ عدّة لَكَذّبها، الآن العقل يصدِّقها، إذاً هو قاصر، ما كان يكذِّبه في الأمس يصدِّقه اليوم، إذاً هو مقياسٌ، ولكنّه يُستعمل في الحدود التي وضِعَ لها، وفي حدود المعطيات التي بين يديه، فلذلك الأصل هو الشرع.

كما نقول دائماً: الدين نقلٌ، والعقل لفهم النقل، وإذا تعارض النقل مع العقل، واستحال التأويل فالنقل هو الأصل، ولابدّ من أن يكتشف العقل بعد حين صواب النقل، لأن النقل عن الله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالى قرآنه وكلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإذا وجدت النقل، ولم تفهم حكمته فعليك أن تأخذ به بكلتا يديك، لأن العقل فيما بعد سيكتشف حكمته.

والبشرية الآن تعاني ما تعاني لأنها أخذت بعقلها فقط، من هم الغربيون ؟ أُنَاسٌ حكّموا العقل في كل شيء، إلى أن فسدت حياتهم، حقّقوا إنجازاتٍ حضاريّة كما يقولون في الآلات، والأجهزة، وغزوا الفضاء ؛ ولكن في علاقاتهم الاجتماعيّة، وعلاقاتهم الأسرية لأنهم حكّموا العقل، وألقوا بالشرع في عرض الطريق وراء ظهورهم، فجاءت حياتهم جحيماً لا يطاق.

إنّ ربع مليون مصابون بمرض الإيدز، وقد ذكّرني أخٌ كريم أن هذا الرقم هو الذي أُبْلِغَ عنه فقط، أما الحالات التي لم يُبَلّغ عنها فحالاتٌ كثيرةٌ جداً، وإنّ عشرة ملايين إنسان يحملون هذا المرض، وهذا مرض مخيف مدمِّر، مِن أين جاء هذا المرض ؟ من انحراف الإنسان عن منهج الله عزّ وجل، إذاً منهج الله هو الأصل، فإذا تعارض العقل مع النقل فالنقل هو الأصل، والعقل بعد حين يفهم حكمة النقل.

لذلك ينبغي للمؤمن أن يستسلم لله عزّ وجل إذا رأى الكون، وما فيه من آياتٍ باهرات، ورأى الشرع، وما فيه من إعجاز، ورأى القرآن وما فيه من إعجاز، ورأى أفعال النبي عليه الصلاة والسلام الدالّة على نبوّته يجب أن يستسلم، حينما تصل بعقلِك إلى الله عزّ وجل، وبعقلك إلى إعجاز هذا الكتاب، فإذا جاءك في هذا الكتاب شيءٌ، ولم تَتّضح لك حكمته يجب أن تستسلم له، لأنك بعد أن آمنت بالله بعقلك وبرسوله بعقلك وبكتابه بعقلك، لابدّ من أن تستسلم، وأن تنتظر أن الله عزّ وجل يكشف لك بعد حينٍ عن حكمة هذا الأمر.

دائماً يجب أن يتّضح لديكم أن حجم المؤمن، وأن عبوديّة المؤمن، وأن مستوى المؤمن ليس في البحث عن الحكمة، وتعليق تنفيذ الأمر على معرفة الحكمة، بل أن يُسَلِّم لما جاءه عن الله ورسوله.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36 ")

الأمر التشريعي والأمر التكويني:

ولا سيما أنه عندنا أمران: هناك أمر الله التشريعي، وأمر الله التكويني، فإذا قال الله لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية "30 ")

هذا أمر تشريعي، وأما أن تقول: هذا الشيء لا يُطبّق في هذا الزمان، وأنا طاهرٌ عفيف لا أتأثّر بالنظر، فهذا كلامٌ فارغ، معنى ذلك أنك تأتي بحكمٍ آخر، وإذا قضى الله شيئاً ؛ كأن جعل هذا الإنسان عقيماً، أو جعل له ذريّةً من البنات فقط هذا أمرٌ تكويني، يجب أيضاً أن تستسلم..

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ)

الفطرة السلمية في حب نكاح المرأة:

هنا نواجه نقطة دقيقة جداً، أن ربنا عزّ وجل فطرنا فطرةً معيّنة، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ)

(سورة آل عمران: من آية " 14 ")

فكل رجلٍ أوْدَعَ الله فيه حبّ المرأة.. شيءٌ جميل.. لكن الله عزّ وجل جعل لهذه الشهوة قناةً نظيفةً طاهرً نقيّةً، إنها قناة الزواج، ما من شهوةٍ أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها طريقاً نظيفاً للسير فيه.

لنأخذ على ذلك موضوع النساء: بعد أن أودع الله في الإنسان حبّ النساء سمح له بالزواج، فالزواج قناةٌ نظيفةٌ مشروعةٌ طاهرةٌ نقيّةٌ بنّاءَةٌ، وإذا زنا الإنسان خرج عن أمر الله عزّ وجل، خرج عن شرعه، خرج عن منهجه، خرج عن تعليمات الصانع، فيدفع الثمن باهظاً، ولكن فعْلَ قوم لوط شيءٌ آخر، فحتّى لو زنا الإنسان فهذا الزنا فاحشة، وله مضاعفات، فيه اختلاط أنساب، وخيانات، ومشكلات كثيرة جداً، لهذا حرّمه الله عزّ وجل، بل إن الله عزّ وجل أبلغ من أن يُحَرّمه فقال:

(وَلا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان: من آية " 68 ")

نفى عن المؤمنين أنهم يزنون، والنفي أبلغ من النهي عند علماء الأصول..

(وَلا يَزْنُونَ)

وهناك نهيٌ عن الزنا، وعن مقدّمات الزنا، وعن الاختلاط، وعن كل ما أدّى إلى الزنا، لقوله تعالى:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا)

(32 سورة الإسراء)

مراحل الإنسان في التعامل مع الغير: الإدراك والانفعال والسلوك:

وهذه نقطة مهمّة جداً أتمنّى عليكم أن تكون واضحة عندكم مفادها: أنّ الإنسان في تعامله مع من حوله، مع المحيط الذي يحيط به في ثلاث مراحل ؛ الإدراك، والانفعال، والسلوك.

مثلاً: لو أن إنساناً رأى في بستان حيَّة، بحكم معلوماته ومفهوماته التي درسها في المدارس، أو ملاحظاته في بعض المتاحف الزراعيَّة، أو قراءاته، أو تجاربه السابقة، أو القصص يدرك أن هذه أفعى، حصل إدراك، إذا كان الإدراك صحيحاً لابدّ من انفعال، ما الانفعال ؟ أن يضطرب، وإذا كان الانفعال صحيحاً لابدّ من سلوك، إما أن يهرب منها، وإما أن يقتُلها.

جئت بهذا المثل لأنه ما من علاقةٍ مع المحيط الخارجي إلا وينتظمها هذا القانون، إدراكٌ، فانفعالٌ، فسلوك، فيمكن أن ترى وردةً جميلة، تدرك أنها جميلة، وتنفعل بجمالها، وتقول: سبحان الله ! ما أجملها، إلى هنا لست مؤاخذاً على شيء، لو نظرت إلى وردة، إلى شجرة، إلى بيت، إلى حديقة، إلى بحر، إلى شيء جميل أودع الله فيه شيئاً من جماله، إنّك إن أدركت، وإن انفعلت فلا شيء عليك، إلا في موضوع المرأة، الوردة لو قطفتها تُحاسَب، لو أخذتها من غير حقٍ تُحاسب، لكن موضوع المرأة موضوعٌ آخر ؛ محرّمٌ أن تنظر، ومحرّمٌ أن تنفعل، ومحرّمٌ أن تخطو، لأن الله عزّ وجل هكذا أمرنا، فقال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: من آية "30 ")

الحكمة مِن تقديم غض البصر على حفظ الفرج:

ويبدو أن تقديم غضّ البصر على حفظ الفرج تقديمٌ دقيقٌ جداً، بمعنى أن الإنسان لا يستطيع حفظ الفرج ما لم يغضّ البصر، فأن يأتي غضّ البصر قبل حفظ الفرج معنى ذلك أن غض البصر طريقٌ إلى حفظ الفرج، إنّك في الوردة إن نظرت إليها، وأدركت جمالها، وانفعلت بهذا الجمال، ولم تقطفها ولم تعتدِ عليها لا يحدث شيءٌ إطلاقاً، ولست آثماً في شيء، إلا أنك في موضوع المرأة، النظر يؤدي إلى

الانفعال، والانفعال يؤدي إلى السلوك، هذه معصيةٌ فيها قوّة جذب، وكل معصيةٍ فيها قوة جذبٍ حُرِّمَ عليك مُقَدِّماتها..

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا)

(32 سورة الإسراء)

يؤكِّد هذا قول الله عزّ وجل:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: من آية " 187 ")

الزنا خروج عن منهج الله واللواط خروج عن الفطرة:

لابدّ من أن تدع هامش أمانٍ بينك وبين المُحَرَّمات المتعلِّقة بالنساء، ولكن هذا الإنسان الذي أودع الله فيه حبَّ النساء، واقترف جريمة الزنا.. فالزنا جريمة.. ماذا فعل هذا الإنسان ؟ إنه خرج عن منهج الله، لكنَّه لم يخرج عن فطرته، الفطرة أن الله أودع في الإنسان حبَّ النساء، خرج عن منهج الله، خرج عن تنظيم الله عزّ وجل، عن أمره ونهيه، ولكنَّه حينما اقترف هذه الجريمة لم يخرج عن فطرته، أما جريمة اللواط ففيها خروجٌ عن الفطرة الإنسانيَّة التي فطر الله الناس عليها، لأسباب كثيرة..

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ)

الله عزّ وجل قال:

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 223 ")

معنى الحرث مكان الزراعة، إنك تزرع هذا الماء فينبت ذلك الغلام، الذي يسميه بعض الأدباء: ثمرة القلب..

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)

إذاً العلاقة في موضع الحرث، ربنا عزّ وجل قال:

(فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)

أنَّى بمعنى كيف، بمعنى أين، بمعنى متى، علماء الأصول استفادوا من كلمة:

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)

أنه يجب أن يكون هذا الإتيان في موضع الحرث لا في موضعٍ آخر، إذاً كلمة أنَّى بمعنى أين مرفوضة في هذه الآية لأدلّةٍ كثيرة، هؤلاء قوم لوط..

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ)

موضعٌ قَذِر، وطريقٌ يؤدي إلى دمار النوع البشري، وتعطيلٌ للمرأة، ماذا قالت بنت الحارث لابنتها حينما زُفّت إلى زوجها ؟ قالت: **" يا بنيّتي، إنّ الوصيّة لو تُركَت لفضل أدبٍ تُركت لذلك منكِ، ولكنّها تذكرةٌ للغافل ومعونةٌ للعاقل، ولو أن المرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، أو لشدّة حاجتهما إليها لكنتِ أغنى الناس عنه.. دقِقوا في قول هذه المرأة.. ولكن النساء للرجال خُلِقْن ولهُنّ خُلِقَ الرجال ".**

إنه تصميم إلهي، صانع صمّم هذا الكائن ليكون زوجةً، أودع فيها رجاحة العاطفة، أودع فيها رقّة الإحساس، أودع فيها طبيعة الانقياد، أودع فيها صفاتٍ نفسيّةً كثيرة تؤهِّلها أن تكون زوجةً صالحة، وأودع في جسمها أجهزةً تؤهِّلها لأن تنجب الأولاد، ويبقى النسل مستمرّاً، وتحافظ البشريّة على نوعها، وأودع فيها أنماطاً سلوكيّة، وقدرات عقليّة، وخصائص نفسيّة تؤهِّلها لأن تكون في أداء مهمّتها، أو أن تؤدي مهمّتها على أكمل وجه، وصمّم الرجل ببناءٍ عقلي، وبناءٍ نفسي، وبناءٍ اجتماعي، وبناءٍ عَضَلِي مادي يؤهله ليحقِّق مهمّته في الحياة على أكمل وجه.

هذه هي الفطرة، الزنا محرّم، ولكن الذي يستقل بالرجال من دون النساء انحرف لا عن مبادئ الشريعة؛ بل انحرف عن مبادئ الفطرة أيضاً، سلك سبيلاً شاذاً، وهذا المرض العضال الذي يهدِّد البشريّة من أقصاها إلى أقصاها، ما من ناقوس خطرٍ يُدقُّ الآن بأشدّ إيقاعاً على النفس من ناقوس خطر هذا المرض العضال الذي تعاني منه البلاد المُتَحَلِّلة، البلاد التي لا منهج لها، البلاد التي لا تؤمن بمنهج الله عزّ وجل.

إذاً:

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ)

تفسيرات الآية:

لهذه الآية تفسيران:

التفسير الأول:

أن هؤلاء القوم الشاذين حينما يأتون الرجال يقطعون النسل، هذه المرأة التي كرّمها الله عزّ وجل، والتي صمّمها تصميماً تُكَمِّلُ به الرجل، ويؤلِّف معها أسرةً طيّبة، تنجب الأولاد الأطهار، هذا التصميم الإلهي عُطِّل..

(وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ)

قطعتم سبيل الزواج، قطعتم سبيل الله عزّ وجل.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم: من آية " 21 ")

قُطِعَ هذا السبيل، قُطع النسل، قُطِعَت هذه العلاقة الطيّبة، ولا أكتمكم أن هناك حقائق اجتماعيّة في بلاد الغرب يندى لهنا الجبين، وقد لا تُصدّق لهولها، الآن تجري عقود زواج في الكنائس في بلاد أمريكا وأوروبا زواج بين الشبّان أنفسهم، فهناك انحرافاتٌ لا يتصوّرها العقل، انحرافٌ لا عن منهج الله فحسب ؛ بل انحرافٌ عن أصل الفطرة..

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ)

التفسير الثاني:

هناك تفسير آخر لهذه الآية، وهو أن قوم لوط كان إذا مرّ بهم شبّانٌ أخذوهم عنوةً وفعلوا بهم الفاحشة، وعذّبوهم، هذا المعنى الآخر، وهو المعنى التاريخي.

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ)

جرائم قوم لوط:

الجريمة الأولى: هذا الانحراف السلوكي، والجريمة الثانية أن تُرْغِمَ إنساناً على أن تفعل به الفاحشة، هذه جريمة ثانية، والجريمة الثالثة أنكم تأتون هذه الجريمة المنكرة في ناديكم أمام بعضكم بعضاً، جرائم متراكبة، جريمة الشذوذ الأخلاقي، وجريمة الإكراه عليه، وجريمة إتيانه أمام الملأ، إذاً هذا الذي يأتي هذه الجرائم الثلاث واقعٌ بشكلٍ مخيف وبواقع مدمّر.

قرأت البارحة أن مليون طفل في أمريكا يُعْتَدَى عليهم من قِبَل آبائهم، هناك دراسة علميّة، وتقارير أصوليّة من قِبَل آبائهم، إذاً هذه جريمة رابعة أو خامسة.

(وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ)

موقف نبي الله لوط من عَمَل قومه: التنبيه والتحذير:

يبدو أن سيدنا لوط عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام نبّههم، وحذّرهم، و أوعدهم، وخوّفهم، وأنذرهم، يبدو أنه خوّفهم بعذاب الله.

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

جواب قوم لوط لنبيهم: تحدّي عذاب الله:

وهذا شأن العصاة، كلّما حذّرته من عقاب الله، وكلّما حذّرته من عذاب الله، تقول له: يا أخي ربنا كبير، عنده أمراض مخيفة، عنده فقر شديد، عنده عذاب مهين، وعذاب أليم، وعذاب مديد، وعذابُهُ كبير، وعذابُهُ عظيم، أنت كُلُّكَ بيده، لو أن الكلية تعطّلت، وتوقّفت لأصبحت الحياة جحيماً، لو أن هذا الجهاز تعطّل لأصبح الموت قريباً، لو، ولو، كلّما ذكّرته بعذاب الله استهزأ وقال: ائتنا بعذاب الله.

سمعت مرّة أنّ إنساناً يعمل في حقل ألغام استهزأ بالله، وقال: إن كان موجوداً فليثبتْ وجوده، داس على لُغْمٍ من دون أن ينتبه، فانفجر في وجهه، وفقد بصره، قلت: سبحان الله ! فالله سبحانه وتعالى أعطاه فرصة ليتوب، فكلّما خوّفتَ هؤلاء، وأنذرتهم، وحَذّرتهم، وبيّنت لهم قالوا:

(ائْتِنَا بِعَذَابِ اللّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ)

لذلك يوم القيامة يقول ربنا عزّ وجل لهؤلاء الكفّار المنحرفين:

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: من آية " 37 ")

ما هو النذير ؟

1 – القرآن:

يقول الإمام القرطبي في تفسيره: النذير هو القرآن، بيانٌ إلهي، تحذيرٌ ربّاني، تفصيل، مشاهد يوم القيامة..

(فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنّي ظَنَنْتُ أَنّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنّي سُلْطَانِيَهْ (29))

(سورة الحاقة)

فالقرآن نذير..

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتّخَذْتُ مَعَ الرّسُولِ سَبِيلا)

(27 سورة الفرقان)

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

آياتٌ كثيرة في **" جزء عَمّ "** فيها إنذار وتحذير، فالقرآن نذير، والنبي عليه الصلاة والسلام نذير.

2 – سن الأربعين:

وسِنُّ الأربعين نذير..

(إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

(سورة الأحقاف: من آية " 15 ")

سنُّ النُضْج، والتعقب..

((من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شرُّه فليتجهّز إلى النار))

[ورد في الأثر]

3 – سن الستين:

وسن الستين نذير.

4 – الشيب:

والشيب أيضاً، يقول الله عزّ وجل في بعض أحاديثه القدسيَّة:

((عبدي، لقد شاب شعرك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، فاستحي مني، فأنا استحيي منك))

[ورد في الأثر]

5 – المصائب:

والمصائب نذير.

6 – موت الأقرباء:

وموت الأقرباء نذير، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

أما حينما يأتي العذاب ترى هؤلاء المتنطِّعين، المتعجرفين، المتغطرسين، المتكبرين، المُكابرين تراهم لا يلوون على شيء، تراهم خانعين، عليهم ذلّةٌ وقتر من ضعفهم وخوفهم.

الحقائق تُكشف بعد الموت:

يا أيها الإخوة الأكارم... القضية قضية وقت، هذه الحقائق لابدّ من أن تُكشف عند الموت.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(22 سورة ق)

فالقضيَّة قضية وقت، والمهم أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان، فإذا ما عرفها الإنسان الآن فلابدّ من أن يعرفها، ولكن بعد فوات الأوان.

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

الجهل بقدرة الله سبب استعجال العذاب:

انظر أيها الإنسان لو اختلّ شيء من جسمك ماذا كان سيحصل لك ؟!!

هذا الذي يقول: ائتنا بعذاب الله هل نسي أن هذا القلب بيده ؟! ضربات القلب، انتظام ضربات القلب، تَضَيُّق الشرايين، عمل الرئتين، الكليتان، اتصال الأوامر من الدماغ إلى العضلات، لو تعطّل هذا الاتصال لأصابه شلل، هذا الذي يقول: ائتنا بعذاب الله هل عرف نفسه ؟ لو عرف نفسه لعرف ربَّه، لو عرفت أنك لا تستيقظ صباحاً إلا إذا كانت آلاف الأجهزة، والغدد، والأعضاء، والأنسجة تعمل بأدق انتظام، لو أن شيئاً واحداً اختل لأصبح عليلاً..

أعرف رجلاً أصابَهُ مرض اسمه **" فقر دم لا مُصنِّع "**، أي أن معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام توقّفت عن صنع الكريات الحمراء، لماذا ؟ لا أحد يدري، لا زال هذا المرض مجهولاً..

إنسان آخر له صحّةٌ جيّدةٌ جداً ذوى كما يذوي العود، قالوا: لأن طحاله بدل أن يأخذ كرية الدم الميّتة ليحلِّلها إلى عناصرها، صار يأخذ الكريَّة الحيَّة والميّتة، فصار معه فقر دم، ومات بهذا المرض، واسم هذا المرض نشاطٌ زائدٌ في الطحال.

إنسان آخر مات من الرُّعاف، قَلَّت في دمه الصُفيحات الدمويَّة، فيمكن أن ينزف دمه كلّه من الرُّعاف، ومات بهذا المرض.. فيا ترى هل يهتم الإنسان بالصُفيحات الدمويَّة، أم بالأعصاب، أم بالبنكرياس، أم

بالغدد، أم بالطحال، أم بالكبد، أم بالنُخامية، أم بالدرقيّة، أم بالكظر، أم بالكليتين ؟ هذا الذي يقول: ائتنا بعذاب الله. إنسان جاهل جهلاً مطبقاً، لا يعرف الله، ولا يعرف نفسه، ولو عرف نفسه لعرف ربّه، لو عرف أن كل هذه الأجهزة تعمل بانتظام لشكر الله ساعاتها كلها.

إن الإنسان يقف على قدمين لطيفتين، لولا جهازٌ أودعه الله في الأذن الداخليّة وهو جهاز التوازن، إنه أنصاف أقواس، ثلاثةُ أقواس فيها سائل وفيها شعيرات، فإذا مال الإنسان يمنةً أو يسرةً تنبّهت هذه الشعيرات، فشعر باختلال توازنه، فعدّل توازنه، لو لا هذه القنوات قنوات التوازن للزمه أن يسير على عكّازين دائماً، أو أن تكون أقدامه باتساع خُفِّ الجمل كي يكون استناده مطمئناً أو مستقراً، هذا الذي يقول: ائتنا بعذاب الله هل يعرف من هو ؟ لا تستيقظ صباحاً إلا وآلاف الأجهزة، والخلايا، والأنسجة، والغدد الصم وغير الصم تعمل بانتظام.

أعرف رجل ـ رحمه الله ـ خرج من معمله يبحث عن بيته فلم يجد بيته، بقي ساعةً من حيٍ إلى حي، أصابه فقدُ ذاكرةٍ جُزْئِيّ، فما وصل إلى البيت إلا بعد أن ذهب إلى بيت ابنه وقاده ابنه إلى بيته، فمن أنت ؟

هناك فقدُ ذاكرة، كما أن هناك فرط تذكّر، دخل ابنٌ على أبيه، وكان مسافراً، ثم عاد فقال له: من أنت ؟ ما عرفه، فلذلك هذا الذي يقول: ائتنا بعذاب الله إنسان جاهل، لا يعرف نفسه، لو عرف نفسه لعرف ربّه.

إن مئة وأربعين مليار خليّة استنادية في الدماغ لم تُعْرَف وظيفتها بعد، أربعة عشر مليار خلية سمراء قشريّة في الدماغ ؛ مركز المحاكمة، مركز التصوُّر، مركز التذكّر، مركز السمع، مركز البصر.

هذه العين، واللهِ الذي لا إله إلا هو العين وحدها آيةٌ دالّةٌ على عظمة الله، هذه الشبكية عشر طبقات، وفي هذه الطبقات العشر مئة وثلاثون مليون عُصيّة ومخروط، كلُّها مرتبطة بأعصاب دقيقة جداً يجمعها العصب البصري الذي تعداده أربعمئة ألف عصب تُجمعُ بعصب واحد، هذه الشبكيّة بعُصياتها ومخاريطها تتأثر بالضوء، وينِشأ من تأثُّرها بالضوء تيارٌ كهربائيٌ متفاوت الشدّة يُنْقَل إلى الدماغ فترى الصورة، لكن كيف ترى الصورة على حقيقتها ؟ والله لا ندري، بحجمها الكبير ؟ لا ندري، بألوانها الدقيقة ؟ لا ندري، وفي العين عملية مطابقة معقدّة جداً يعجز عن فهمها الأطبّاء، فهذا الذي يقول:

(ائْتِنَا بِعَذَابِ اللّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ)

هو جاهل، كتلة جهل متحرّكة، ما الشلل ؟ إنسان فجأة تجد أنه أصبح مشلولاً، شيء لا يحتمل، النقل تعطّل، شريانٌ صغيرٌ في المخ لو ضاق عن حجمه الحقيقي لنسي الإنسان كل معلوماته، يقول أحدهم: واللهِ أنا كنت طبيباً.. خير إن شاء الله.. قد ينسى الإنسان كل معلوماته، وكل خبراته، وكل تجاربه إذا تضيّق شريانٌ في الدماغ، إذاً دماغٌ، وسمعٌ، وبصرٌ، وذاكرةٌ، ومحاكمةٌ، وتصوُّرٌ، وقلبٌ.

القلب له مركز كهربائي مستقل عن الجسم، وهناك مركزٌ ثانٍ احتياط، ومركز ثالث، ثلاث عُقَد كهربائيَّة في القلب من أجل أن تضمن له ضرباته المنتظمة، هذا الذي يقول:

(ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

هذا موضوع الأعصاب ؛ الإنسان فيه شرايين يُقَدَّر طولها بمئة وخمسين كيلو متر، وفي كل ميليمتر مكعَّب خمسة ملايين كريَّة حمراء، وفي كل ثانية يموتُ اثنان ونصف مليون كريَّة حمراء ويولد كذلك، فأنت هل ستهتم بنقي العظام، أم بالطحال، أم بماذا ؟ إذاً الإنسان كلّما زاد علمه زاد أدبه مع الله، كلّما زاد علمه زادت خشيته، كلّما زاد علمه زاد تواضعه، كلّما زاد علمه زاد خوفه، لذلك قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: **" كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي ".**

وعلامة العالِم التواضع، وعلامة الجهل التكبُّر، يقول الإمام الشافعي أيضاً: **" ما ناقشني عالِمٌ إلا غلبته، وما ناقشني جاهلٌ إلا غلبني "**، لأنه جاهل..

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)

إنه فساد في كل شيء، لذلك: رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ

يبدو أن في هذا العمل فساداً كبيراً، إنه فساد في العلاقات الاجتماعيَّة، فساد في الزواج، فهذا الطفل إذا فعلت به الفاحشة أصبح إنساناً آخر، أين عزّته ؟ أين كرامته ؟ أين شرفه ؟ أين طموحه ؟ أين مكانته ؟ أصبح شيئاً حقيراً قذراً دنيئاً، فهذا فساد كبير، فساد في الأطفال، فساد في الفاعلين، فساد في الزواج، فساد في كل علاقة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ.. وَقَوْلُهُ: الْحَالِقَةُ يَقُولُ: إِنَّهَا تَحْلِقُ الدِّينَ))

(من سنن الترمذي: عن " أبي هريرة ")

فساد علاقات اجتماعيَّة، فساد علاقات أسريَّة، فساد زواج، فساد اتصال..

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

مجيء الملائكة إلى قوم إبراهيم بالهلاك:

أيْ أن ملائكة الله عزّ وجل هم رسُلُهُ هنا في هذه الآية، جاءوا سيدنا إبراهيم ليبشروه بغلامٍ عليم، وبأن امرأته سوف تَلِد، في أثناء هذه البشارة..

(قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ)

يبدو أن هناك مسافةً قصيرةً بين قرية سيدنا إبراهيم وقرية سيدنا لوط، تَروي بعض الأخبار التاريخيَّة أن قوم لوط كانوا على سواحل بحيرة لوط، وقد سُمِيَّت بحيرة لوط باسمه أو البحر الميّت..

(إِنّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

الظلم سبب الهلاك:

انظروا إلى التعليل، إهلاك القُرى له سببٌ وجيه فقرى لوط كانت ظالمة..

(قَالَ إِنّ فِيهَا لُوطاً)

لكن ! إنّ فِيهَا لُوطًا، فكيف يُهلَكون ؟!!

قال بعض المفسِّرين: إن إبراهيم عليه السلام لا يُعْقَل أن يصدِّق، أو أن يعتقد أن عذاب الله عزّ وجل سيصيب قوم لوط مع لوط، ولكن أراد هذا النبي الكريم أن يدعو الله عزّ وجل بأن يُمْهِلَهُم قليلاً لأن فيهم لوطاً، أو إكراماً للوط، إما أن يمهلهم، وإما إكراماً لهذا النبي الكريم يؤخّر عنهم العذاب، على كلٍ حينما قال الله عزّ وجل:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 33 ")

مِن ميزات هذه الأمة: وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ

فهذه ميزةٌ لأمّة سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، ما دامت محبّة هذا النبي في قلوبنا، وما دامت سُنّته في سلوكنا، فكأن الله سبحانه وتعالى طمأننا أنه لن يعذِّبنا، والمعنى الذي يَصِحُ مع وجوده صلّى الله عليه وسلّم فيما بين قومه، ما دام النبي بين ظهرانيهم، أو ما دامت سنته مطبّقةً في سلوكهم، أو محبّته قائمةً في قلوبهم فلن يُعَذّبوا..

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

إذاً:

(قَالَ إِنّ فِيهَا لُوطاً)

أي لعلّهم يهتدون، أو إكراماً له..

(قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا)

جواب الله: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا

الله عزّ وجل عَدْلُهُ مُطْلَق، حكمته مطلقة، خبرته قديمة، علمه قديم، فالإنسان كما نقول: لو أصدر مائة حكمٍ عادلٍ وحكماً ظالماً يسمّى عند الناس عادلاً، لكن حضرة الله عزّ وجل هو المُطْلَق، فأحكامه كلّها عادلة، تصرُّفاته كلها حكيمة.

كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل ما أراده الله وقع، إرادته متعلِّقةٌ بالحكمة المُطلقة، وحكمته متعلِّقةٌ بالخير المطلق، قالوا:

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

وعْدُ الله بإنجاء لوط ومن آمن به وتعذيب من كفر:

أيْ أصابها غبار قومها، أحَبَّت قومها وأقرّتهم على عملهم، لذلك من غاب عن معصيةٍ فرضي بها كان كمن شهدها، ومن شهد معصيةً فأنكرها كان كمن غاب عنها، إذا رأيت معصيةً لا تقبل بها، أنْكِرها بقلبك وإلا تشترك مع صاحبها في الإثم، يكفي أن تقول لإنسان كسب مالاً حراماً: دبَّرَ حاله، قال له: ما شاء الله عليك، وعلى هذا الذكاء، إلى أين أنت ماشٍ ؟ أنت بهذا شاركته بالإثم، هذا الكسب الحرام إذا أثنيت على صاحبه، أو باركت له، أو أقررته على عمله فقد شاركته في الإثم..

(إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

إلاّ امرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرين

أحبَّت قومها، وأقرّتهم على معصيتهم، وخانت زوجها، لا خيانة فراش ولكن خيانة دعوة، لذلك قال الله عزّ وجل:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

(10 سورة التحريم)

(وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ)

مجيء الملائكة إلى سيدنا لوط في أحسن صورة بَشَرٍ:

الله عزّ وجل جعل هؤلاء الملائكة حَسَنِي الوجوه، شباب في مقتبل عمرهم، هكذا جعلهم في هذه الصورة، وأسبغ عليهم جمالاً أخّاذاً، فلمّا جاءوا سيدنا لوط ضاق بهم، خاف عليهم أن يعتدي قومه عليهم..

(سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35))

السعيد من وُعِظ بغيره، والشقيّ مَن اتعظ بنفسه:

لذلك السعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ بنفسه، ربنا عزّ وجل جعل قوم لوط عبرةً للإنسانيّة من بعدهم إلى يوم القيامة، والحقيقة إما على مستوى جماعي، أوْ على مستوى فردي، فكل انحرافٍ فيه ضربةٌ قاصمة..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

إن على المستوى الفردي أو على المستوى الجماعي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (10-16): تفسير الآيات 36 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-12-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37))

قصة شعيب مع قوم مَدين:

ربنا سبحانه وتعالى يُحَدِّثُنَا عن أقوامٍ كفروا بربهم فأذاقهم الله جزاء كفرهم وانحرافهم، من هؤلاء قوم مدين، قوم سيدنا شُعَيْب، فقال تعالى:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ)

1 – سرُّ وجودك عبادة الله:

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ)

(56 سورة الذاريات)

أي أن سر وجودك على الأرض، ومجيئك إلى الدنيا أن تعبد الله عزّ وجل، والعبادة طاعةٌ طوعية، أساسها معرفةٌ يقينية، تفضي إلى سعادةٍ أبدية.

إن الإنسان يرقي إلى أعلى درجات خُلِقَ لها حينما يعبد الله عزّ وجل، لذلك ما من نبيٍ ولا رسولٍ إلا دعا إلى عبادة الله عزّ جل، لأنك لا ترقى إلا إذا عبدته، والعبادة الخضوع الكامل، الانصياع الكامل، الحُب الكامل، الشوق الكامل إلى الله عزّ وجل، الإنسان حينما يغيب عن عبادة ربه غاب عن ذاته، غاب عن سر وجوده، غاب عن الهدف الذي خُلق له.. أنت إذا عبدته فأنت في ظل رحمته، وظل حفظه وتوفيقه، فإذا حِدْت عن أمره دفعت الثمن باهظاً..

(وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ)

2 – لا تستقيم عقيدة المرء في الدنيا إلا إذا آمن باليوم الآخر:

لا تستقيم عقيدة المرء في الدنيا إلا إذا آمن باليوم الآخر، لأن الله سبحانه وتعالى خَلَقَ السماوات والأرض تعبيراً عن أسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى، ولكن اليوم الآخر تجسيدٌ لاسم الحق، كل المظالم في الدنيا، كل الحظوظ، وزّعت الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، اليوم الآخر هو الأساس، فإذا أغفله الإنسان وقع في فراغٍ فكريٍ كبير، حياةٌ قصيرة مشحونةٌ بالمتاعب، ما سرُّها ؟ حياةٌ قد تنتهي في وقتٍ مبكر، قد لا يكون في الحياة فرصةٌ للاستفادة من الإعداد لها، سؤالٌ كبير:

يعد الإنسان نفسه ليحيا حياةٍ طيبة، قد لا يبقى في حياته الوقت الكافي ليستمتع بما أعد له، أما إذا آمنا باليوم الآخر تحل جميع المشكلات، وتسوى فيها جميع الحسابات، إنها الحياة السرمدية الأبدية ؛ لا نغص، ولا قلق، ولا خوف، ولا حزن لمن عرف ربه في الدنيا، واستقام على أمره.

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

النهي عن الإفساد في الأرض:

والإفساد ؛ إفساد العلاقات، إفساد علاقة النفس بربها، إفساد علاقة المرء بأهله، إفساد علاقة المُسلمين ببعضهم، إفساد علاقة الإنسان بالإنسان، فأية علاقةٍ بين العبد وربه هناك من يفسدها بإلقاء الشُبُهَات، هناك من يفسدها بالحمل على المعاصي والمُحَرّمات، العلاقة بين النفس وربها، بين الأخ وأخيه، بين الشريك وشريكه، بين الرجل وزوجته، هذه العلاقات أهل الباطل الكفار يَسْعَوْنَ في الأرض فساداً، يعثون في الأرض مفسدين..

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37))

انظروا كيف كان عاقبة المكذبين:

أهلكهم الله عزّ وجل، والحقيقة أن هذا الهلاك هلاك الدنيا إذا كان على أثر كفرٍ وانحراف تبعه هلاك إلى أبد الآبدين.

(وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)

وَقَد تَبَيّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِم

ربنا سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يبقي لبعض الأقوام الظالمة شيئاً من آثار بلادهم، دليلاً على هلاكهم، وعلى أن أمر الله عزّ وجل هو الحق، وعلى أن العاقبة للمُتقين، فهلاك الأمم وبقاء آثارهم، نحن أحياناً نزور الآثار، والحقيقة أن المؤمن إذا زار الآثار فلهذه الزيارة عبرةٌ كبيرة..

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وأفئدَة فما أغنى عَنْهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم مِنْ شَيء)

(سورة الأحقاف: من آية " 26")

أقوام أشد منا قوةً وأكثر جمعاً وأعظم حضارةً دّمَّرَهُمُ الله عزّ وجل ولقوا نتيجة أعمالهم.

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37) وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ)

وهذه سنة الله جارية في الأقوام المكذّبين:

الأقوام التي كفرت وانحرفت أهلكها الله عزّ وجل، بعضها أهلك بريحٍ صَرْصَر، بعضها أُهْلِكَ بالصيحة، بعضها أهلك بحجارةٍ من السماء، بعضها أهلك غرقاً، والأحداث التي من حولنا أيضاً تؤكِّد هذه المعاني..

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(112 سورة النحل)

إذاً كلما وقع زلزالٌ، أو هَلاكٌ، أو فيضانٌ، أو حروبٌ أهليةٌ مدمرةٌ، هذه كلها من آيات الله عزّ وجل، لأن الله سبحانه وتعالى ما كان له أن يهلك القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون.

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

(سورة الكهف59)

(وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ)

من آثارهم..

(وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)

تزيين الشيطان الأعمال للإنسان:

الحقيقة الإنسان حينما ينتقل إلى عملٍ ما، ينطلق من تصور أن هذا العمل في مصلحته، وله منه مكسبٌ

كبير، إن كانت رؤيته غير صحيحة، إن كانت رؤيته ضبابية، إن كانت رؤيته ليست كما يريد الله عزّ وجل، هذا هو الضلال وقع في الانحراف ؛ أما إذا تمتع الإنسان برؤيةٍ صحيحة كان مهتدياً، ما هو الهدى ؟ أن ترى وفقَ ما أراد الله عزّ وجل.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

هذه مصيبةٌ كبيرة، أن تنظر إلى الشيء من زاويةٍ مَغْلوطة، أو أن تراه رؤيةً مغلوطة، أو أن تظنه خيراً وهو شر، أن تظنه حقاً وهو باطل، الضلال في حقيقته رؤيةٌ غير صحيحة، لذلك البطولة أن تُصَحِّحَ رؤيتك دائماً وفق ما أراد الله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى أعطاك ميزان العقل، وأعطاك ميزان الفطرة، وأعطاك ميزان الشرع، فإذا وافق عقلك ميزان الشرع أنعم به من عقل، إذا وافقت فطرتك ميزان الشرع أنعمْ بها من فطرة، أما الميزان الذي لا يُخطئ، فهو الشرع الذي أنزله الله على نبيه.

إذاً: كلما استخدمت عقل الشرع، وأعملت عقلك، وكلما ركنت إلى فطرتك، وجاءت نتائج العقل والفطرة موافقةً للشرع فأنت على حق، أما إذا هداك عقلك إلى خلاف الشرع هذا العقل قد ضَل، وقد انحرف، وقد طغى، وقد بغى، وهذه الفكرة قد انطمست.

فنحن نركن إلى الفطرة إذا كانت موافقةً للشرع، نركن إلى العقل إذا جاء موافقاً للشرع، أما إذا ابتدع الإنسان شيئاً مخالفاً للشرع فقد وقع في ضلالٍ مبين.

إذاً: الخطورة أن يزيّن الشيطان للإنسان عمله، فيرى عمله صائباً، يرى عمله صحيحاً، يرى عمله فيه فلاحٌ ونجاح، هنا الخطورة، لأنه ما من إنسانٍ يُقْدِمُ على شيءٍ إلا ويتوهَّمُ أنه صواب، ما من قاتلٍ يقدم على جريمته إلا ويظن أنه سيكسب بهذه الجريمة خيراً كثيراً، فإذا وقع في أيدي العدالة وسيق إلى دفع ثمن جريمته، عندئذٍ يندم ولات ساعة مندم.

البطولة أن تفعل فعلاً لا تندم عليه:

البطولة أيها الإخوة أن تفعل فعلاً لا تندم عليه، فكل من أسرع، وانطلق إلى عملٍ ليس متأكداً من مطابقته للشرع، كل حركاتك وسكناتك إن لم تكن وفق منهج الله عزّ وجل، كل حركاتك وسكناتك إن لم تكن وفق ما أَمَرَ الله، وما عنه نهى فهذه الحركات طائشة، وسوف يدفع الإنسان ثمنها باهظاً.

(وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ)

لأن.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا)

(27 سورة النساء)

أي أن الله عزّ وجل هو الخالق، هو العليم، هو الحكيم، يريد أن تكون في سعادة، يريد أن تسعد في الدنيا والآخرة، أعطاك المنهج الصحيح..

(وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا)

(فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

للأسف الشديد: فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ

أي أنهم كانوا عقلاء، حدثني صديقٌ لي قال: كنت في بلادٍ في أقصى الشرق ؛ حضارة، والتقدم، والتقنية، والتكنولوجيا، شيء يفوق حد الخيال، وهم يعبدون بوذا، فقال مدير شركة أطلعه على منجزات شركته، شيءٌ لا يصدق، فلما أخذه إلى المعبد قال: يا سبحان الله ما أبعد البَوْنَ بين هذه الحضارة وهذا التصنيع، وهذه الدقة، والإتقان، والصناعة ؛ وبين هذه العبادة التي لا معنى لها، ولا تقف على قدميها، إذاً: هذا من أخطر أنواع الضلال، أن تكون في ناحيةٍ متفوقاً، لك تفوقٌ كبير في اختصاصك، أو في صناعتك، أو في زراعتك، أو تجارتك، فإذا انتقلنا إلى عقيدتك، وإلى طقوسك، وإلى دينك، وإلى ما تعتقده وجدنا بوناً شاسعاً بين هذا وتلك، فربنا سبحانه وتعالى أشار إلى هذا:

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

فشعوبٌ بأكملها تعبد البقر، إذا مَرّت بقرةٌ في عرض الطريق انقطع السير، فإذا دخلت هذه البقرة إلى مكانٍ، لها أن تأكُلَ أي شيء ولو كان ثميناً، بل إنهم يعانون من أشد أنواع المجاعات وأعداد الأبقار يفوق حد الخيال، هذه عقيدةٌ زائغة، هذا هو الانحراف في الفكر، هذا هو الكفر بعينه، أن تعبد من دون الله مخلوقاً لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، فلذلك لا يصح العمل إلا إذا صَحَّت العقيدة، أية عقيدةٍ فاسدة يقابلها انحرافٍ في السلوك.

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

أي كانوا عقلاء في أعمالهم، في دُنياهم، في تجارتهم، في مساكنهم، في علاقاتهم، الإنسان أحياناً يهبط، يتفوّق في الدنيا، فإذا سألته عن الآخرة، سألته عن دينه، عن عقيدته، هبط هبوطاً مخيفاً.

(وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)

لا يستطيع عبدٌ أن ينفلت من قبضة الله:

ما كانوا سابقين، أي أن الكافر لا يستطيع أن يتفلّت من قبضة الله عزّ وجل، مهما فكّر وخطط، وفعل، وَدَبّر هو في قبضة الله، لذلك الإنسان لضعف إيمانه يتوهم أن هذه الجهة وضعت هذه الخطة وسوف تنفذ، أما المؤمن يرى أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، يرى أنه لا إله إلا الله، يرى أنه لا يقع شيءٌ في ملك الله إلا بأمر الله..

((لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرّهِ حَتّى يَعْلَمَ أنّ مَا أصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأنّ مَا أخْطَأهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(من سنن الترمذي: عن " عبد الله ")

(وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)

أي أن الإنسان إذا عصى الله عزّ وجل لا يسبق مشيئة الله عزّ وجل، هو في قبضته..

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً)

قاعدة مطّردة في العذاب: فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ

قال: **" يا رب لقد عصيتك ولم تعاقبني !! قال: عبدي قد عاقبتك ولم تدر "**، فإذا توهّم الإنسان لحظةٍ واحدة أن هذه المعصية تنفعه، وأنها تكسبه مغنماً كبيراً، هذا هو الجهل بعينه، هذا هو الحمق بعينه.

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ)

وفي الأثر:

((إن لكل سيئةٍ عقاباً))

أي انحرافٍ له ثمنٌ تدفعه في الدنيا والآخرة.

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً)

أنواع العذاب:

1 – معنى: حاصبا

أي حجارةً من السماء كقوم لوط..

(وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصّيْحَةُ)

2 – الصيحة:

(فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

(37 سورة العنكبوت)

(وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ)

3 – الخسف:

كما فعلنا بقارون..

(وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا)

4 – الغرق:

كما فعلنا بقوم نوحٍ وقوم فرعون..

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

استعرض معي الآيات:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

(77 سورة النساء)

نواة التمرة فيها خيطٌ رفيعٌ جداً في الشِقّ الذي في النواة، هذا هو الفتيل، فإذا وضعت النواة على لسانك من أحد طَرَفَيْهَا شعرت بنتوءٍ مدبب هذا هو النقير، ولهذه النواة غشاءٌ رقيق هو القطمير، فربنا عزّ وجل من خلال بيئة العرب الصحراوية، ومن هذه الفاكهة التي تتواجد عندهم..

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)

(124 سورة النساء)

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

(77 سورة النساء)

ولا قطميراً..

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

إذاً:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(47 سورة الأنبياء)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

أشد أنواع الظلم الجهل:

والحقيقة أن أشد أنواع الظلم أن تبقي نفسك جاهلةً، أن لا تعرفها بمهمّتها، أن تبقيها جاهلة، أن لا تزكيها، أن تحببها بالدنيا، ولقد خلقت لغيرها، لا تنس قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما دعاه الصغار إلى اللعب وكان صغيراً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لم أخلق لهذا))

إذاً خلق لماذا ؟

((خلقت لك السماوات والأرض فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضه عليك))

مثل بسيط أسوقه لكم: قديماً كانت مدارس داخلية، فمدرسة من أشهر المدارس لها قاعات للمطالعة، وفيها مهاجع، وفيها مطعم، فالطالب في هذه المدرسة الداخلية عليه أن يمضي الوقت الذي بعد الدراسة في المُطالعة، عليه أن يقرأ، عليه أن يكتب، عليه أن يتدرّب، أما المطبخ ففيه الموظفون، والطباخون والعمال بحيث يأتيه الطعام جاهزاً في الساعة السابعة مساءً، فهذا الطالب طعامه مضمونٌ له، وهو مكلفٌ للدراسة، ما قولكم بطالبٍ ترك قاعة المُطالعة وتوجّه إلى المطعم ليتفقد أحوال الطباخين والأطعمة، وما تم في صنع هذا الطعام، وهذا الطعام، ضمن له الطعام فانشغل به، وكُلِّف بالدراسة فتشاغل عنها، هذا حال بعض الناس، ربنا عزّ وجل يقول:

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الزخرف: من آية " 32 ")

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23))

(سورة الذاريات)

الرزق يحتاج إلى سعي، والرزق مضمون، أما معرفتك بالله عزّ وجل، عملك الصالح، هذا مكلفٌ به، فما قولك بإنسان أعرض عن معرفة الله، وعن طاعته، وعن العمل للآخرة وانشغل بما ضُمِنَ له، وهذا منتهى الضلال، الذي ضمن لك تسعى له سعياً حسيساً، والذي كلفت به تهمله إهمالاً شنيعاً، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

(سورة النجم)

فليس لك إلا ما سعيت، فالذي ضمن لك يجب أن ترتاح من قِبَلِهِ، والذي كُلفت به يجب أن تسعى له.

الآن بعد أن عرض الله علينا هذه القصص، الأقوام السابقة كيف انحرفت في عقيدتها، وكيف انحرفت في سلوكها، وكيف ظلمت، وبغت، وطغت، وكيف أهلكهم الله عزّ وجل، يقول الله عزّ وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

الإنسان كما قال الله عزّ وجل في آيةٍ أخرى:

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

(28 سورة النساء)

هكذا خُلِقَ الإنسان..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

(سورة المعارج)

هو هلوع.

وفي آيةٍ ثانية:

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

(سورة النساء)

وفي آيةٍ ثالثة:

(وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولا)

(11 سورة الإسراء)

إذاً: هو ضعيف، وعجول، وهلوع، لنأخذ الآية الثانية:

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

ربنا عزّ وجل شاءت حكمته أن يكون الإنسان ضعيفاً، لو أن الله خلقه قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، وفي الأساس الإنسان ضعيف، ومعنى كونه ضعيفا أنه بحاجة إلى ركنٍ ركين، يحتاج إلى شيءٍ يَدْعَمَهُ، شيءٌ يركن إليه، يحتاج إلى من يُدافع عنه، يحتاج إلى من يأخذ بيده، هكذا طبيعة الإنسان.

حتى في الدنيا، الإنسان يسعد أشد السعادة إن كان له قريبٌ له مركزٌ قوي، تراه يفتخر به، كلما نابه أمرٌ يتصل به، يشعر بالطمأنينة أن هناك شخصاً قوياً يُحِبُّهُ، تسكن نفسه، هذه فطرة الإنسان، لأن الله سبحانه وتعالى خلقه ضعيفاً، من لوازم ضعف الإنسان أنه يسعى إلى ركنٍ ركين، إلى جهةٍ قويةٍ يعتمِدُ عليها، إلى جهةٍ قويةٍ تدافع عنه، يسعى إلى جهةٍ قويةٍ يطمئن بقربها، يفتخر بقوتها، هكذا طبيعة الإنسان.

أحد أسباب سعادة المؤمن أنه يؤمن أن كل ما في الكون بيد الله عزّ وجل، حتى خصومه بيد الله، حتى الأشخاص الأقوياء الذين يظنهم الناس أقوياء هم في قبضة الله عزّ وجل، هذا الشعور، حتى الوحوش الضارية، حتى الجراثيم الفتّاكة، حتى أعراض الطبيعة، هذه كلها بيد الله، فأحد مصادر سعادة المؤمن شعوره بأن كل ما في الكون بيد خالقه، فإذا كانت علاقته بخالق علاقةً طيبة، علاقةً حسنة، علاقة حُبٍ، علاقة طاعةٍ، علاقة انصياع، علاقة توكلٍ، شعر بسعادةٍ لا يعرفها إلا من ذاقها، لهذا قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف ".**

مثلاً شابٌ دُعِيَ إلى الخدمة الإلزامية، في الجيش هناك آلاف الرُتَبَ الكبيرة، في الجيش عقوبات، وسجن، وأعمال شاقة، فما قولك إذا كان والد هذا الشاب قائداً للجيش، بماذا يشعر هذا الشاب إذا كان والده قائداً الجيش، القائد الأعلى للجيش ؟ يشعر بطمأنينة، ولا يخشى كل هذه الرُتَب، هذا مثل للتبسيط، المؤمن ربنا عزّ وجل قال:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُون (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

الشعور بالأمن نعمة عظيمة:

فلو حللنا سر سعادة المؤمن في الدنيا يكون هذا الشعور، هو ضعيف الإنسان، والمؤمن إنسان ضعيف، لكن حينما استقام على أمر الله، ونفذ شرع الله، واعتمد على الله، وتوكل على الله، واستسلم لقضائه وقدره، شعر بالقرب منه، وشعر بهذا الشعور المُطَمْئِن، فلذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(81 سورة الأنعام)

من هو الإنسان الحقيقي الذي يتمتع بالأمن ؟ الأمن مهمٌ جداً لأن السلام شيء، والأمن شيءٌ آخر، السلام أن لا تقع مصيبة، أما الأمن أن لا تتوقع مصيبة، وفرق كبير بين أن لا تقع المصيبة وبين أن لا تتوقع المصيبة، إن توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، إنك من خوف الفقر في فقر، إنك من خوف المرض في مرض، توقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها، ربنا عزّ وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(81 سورة الأنعام)

من هو هذا الإنسان الذي عافاه الله من القَلَق، من الخوف، من الشعور بالقهر، من توقُّع المرض ؟ من توقع الفقر ؟ من توقع المصيبة ؟ أي إنسانٍ هذا الإنسان الذي ملأ الله قلبه أمناً وطمأنينةً ورضى، وشعوراً بقربه من خالقه ؟ ربنا عزّ وجل قال:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

أحد أسباب سعادة المؤمن في الدنيا شعوره أن الكون كُلّه بيد الله، وأن الأمر كله بيد الله، وأن يد الله فوق أيديهم، وأنه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وأنه إليه يُرْجَعُ الأمر كله، هذا التوحيد يلقي في قلب المؤمن سعادةً ما بعدها سعادة، الأمر كله بيد الله وهو محبٌ لله، وهو على استقامةٍ تامةٍ على أمر الله، هذا الشعور.

هناك شعور آخر يسعد به المؤمن، أوضحه بمثل أضربه كثيراً لكم:

إنسان فقير جدا عنده أولادٌ كُثُر، بيته ضيق، دخله لا يكفي مصروفه، معذّب، محتاج إلى كل شيء، مهدد، له عمٌ ليس له أولاد يملك ثروةً طائلة تزيد على مئات الملايين، توفي عمه فجأةً بحادث، وهذه الملايين كلها آلت إليه، ولكن إلى أن تصل إلى يده لا بدّ من مضي عامٍ أو أكثر حتى تنتهي قضايا الإرث ما إلى ذلك، نحن نسأل: هذا العام الذي هو بين موت عمه وبين قبض ثروته ـ خلال عام ـ لماذا هذا الإنسان الفقير هو أسعد الناس، مع أنه لم يقبض درهماً من إرث عمه ؟ نقول دخل في الأمل، دخل في الوّعد، كما قال الله عزّ وجل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(61 سورة القصص)

إذاً حللنا تحليلاً علمياً سر سعادة المؤمن، أولا: شعوره أن الله عزّ وجل يحبه، وأن الله بيده كل شيء حتى خصومه، حتى أعداؤه، حتى الجراثيم، الآن تعيش أوروبا خوفاً وهلعاً من أمراضٍ كثيرة، أما المؤمن فيعلم أن لكل شيءٍ حقيقة:

((لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(من سنن الترمذي: عن " عبد الله ")

إذاً: شعوره بأن الأمر بيد الله، وأنه يحب الله ورسوله، وأن الله لن يضيعه، لن يسلمه، لن يتركه، لن يضيّع عليه عمله، هذا شعورٌ لا يوصف.

انتقلنا إلى الآية الكريمة:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

مثل عظيم لمن يعتبر: عبادة الأوثان كبيت العنكبوت:

الإنسان دائماً يركن إلى قوةٌ تدعمه، إلى قوةٍ يطمئن لها، إلى قوةٍ تدافع عنه، إلى قوةٍ يحتمي بها، يلجأ إليها، قال هؤلاء الذين ما عرفوا الله عز وجل، ما قدّروه، ما اهتدوا إليه، يلجئون إلى قوى أرضية يعتمدون عليها، هذه القوة الأرضية لا تزيد على بيت العنكبوت، ما هذا البيت ؟ قال:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

ما اتخذ الله وليّه ؛ بل اتخذ زيداً وليّه، عُبيداً وليّه، فلانا وليّه، عِلاّنا وليّه، قال: فلان صديقي، وله منصب رفيع، فلان والدي، وله ثروةٌ طائلة، فلان مثقف ثقافة عالية يعرف الأمراض كلها، إذاً لا يصاب بمرض، أي أنه يعتمد على علمٍ، أو على قوةٍ، أو على مال يركن إليها، هذا ماذا فعل ؟ هذا اتخذ من دون الله أولياء، أي اطمأنت نفسه إلى قوى أرضية، إلى مخلوقاتٍ فانية..

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

إذاً: الله هو الولي، ربنا عزّ وجل قال:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ)

كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ

فهذا البيت عبارة عن شبكة خيوط، بيت العنكبوت هل يدفع حراً ؟ أي هل له جدران وسقف ؟ هل يدفع قراً ـ أي برداً ـ ؟ هل يدفع عدواً ؟ هل له حراسة أو له سور خارجي ؟ لا يوجد، بيت العنكبوت لا يدفع حراً، والبعض يظن أن خيط العنكبوت غير متين، فهذا القول غير مقبول، إذا أمكننا أن نسحب الفولاذ بخيوطٍ دقيقةٍ جداً تشابه في قطرها خيط العنكبوت، لكان خيط العنكبوت أمتن من خيط الفولاذ المساوي لقطره، هذه حقيقة جانبية.

من الإعجاز العلمي في الآية: أنثى العنكبوت تنسج البيت:

الشيء الآخر في الآية إعجازٌ علمي، الآن اكتشفنا أن أنثى العنكبوت هي النَسَّاجة، هي التي تنسج خيوط بيت العنكبوت، والله سبحانه وتعالى يقول:

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ)

بتاء التأنيث الساكنة..

(بَيْتاً)

إذاً: أول فكرة أن خيط العنكبوت فيه إعجازٌ في الخلق، رفيعٌ جداً متينٌ جداً، حتى إنه أمتن من خيط الفولاذ، إذا كان بإمكان بني البشر أن يسحبوا خيط فولاذٍ بقطر خيط العنكبوت لكان خيط العنكبوت أمتن من خيط الفولاذ، هذا شيء.

شيء آخر، أن التي تصنع البيت هي الأنثى، ولم تكن معطيات العلم في عصر النبي عليه الصلاة والسلام كافيةً لمعرفة علامة الذكورة والأنوثة في العنكبوت النَسَّاجة، ولكن العلم الآن اكتشف أن أنثى العنكبوت هي صانعة البيت، فجاء قوله تعالى:

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً)

ومع ذلك على مستوى البشر، بيت العنكبوت بيتٌ ضعيف، بإمكانك بخنصرك أن تزيله كله، خيوط رفيعة جداً، بيتاً لا يقي حراً، ولا يقي قراً، ولا يدفع عدواً، ليس له جدرانٍ وسقفٍ، فهذه العنكبوت إذا احتمت بهذا البيت، مثلها كمثل إنسانٍ بعيدٍ عن الله عزّ وجل احتمى بجهةٍ أرضية، ظن أنها تقيه، أنها تحميه، أنها تحفظه، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ)

(123 سورة التوبة)

هذه معية خاصة، والمعية الخاصة أي معهم بالحفظ، والرعاية، والتوفيق، إذا كنت مع الله كان الله معك..

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

***

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ إذاً هؤلاء الأقوام ؛ الفراعنة، قوم هود، قوم عاد، قوم ثمود، قوم شعيب، قوم سيدنا موسى، هؤلاء الأقوام الذين ظلموا، وبغوا، وطغوا، واستعلوا

كيف دمرهم الله عزّ وجل ؟ إنهم حينما احتموا بقوتهم، واحتموا بتدبيرهم، واعتدّوا بما يملكون، دَمَّرَهُم الله عزّ وجل، مثلهم كمثل هذه العنكبوت:

(اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

وَإِنّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

فإنسان مثلاً لا يعقل أن يتخذ قطعة قماشٍ تحميه من الرصاص في المعركة، يكون أحمق، فهذه القطعة لا تمنع الرصاص، لا بدّ من الفولاذ، لا بدّ من درعٍ، لا بدّ من حِصْنٍ، لا بدّ من ترسٍ يقيك هذا الرصاص، إذاً تأكّدت أن هذا الذي اتخذته ولياً لا يحميك فاتخاذه حُمْقٌ وغباء، اتخذ وليٌّ يحميك، الله سبحانه وتعالى ولي الذين آمنوا، ثم يقول الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِن شَيْءٍ

فالإنسان فيما بينه وبين نفسه إذا كان اعتماده على زيدٍ أو عبيد، أو على ماله، أو على قوته، أو على ذكائه، أو على علمه، أو على عشيرته، أو على زوجته، يقول لك: لي زوجةٌ شابة، مدبّرة، أحياناً أي جهةٍ تعتمد عليها اعتماداً فيه أحد أنواع الشِرْك، ربنا سبحانه وتعالى يَغَار، ومعنى يغار أنه يُخَيّبَ ظنك إذا اعتمدت عليه، اجعل همك أن تعتمد على الله عزّ وجل، لا تجعل ما دون الله عزّ وجل ولياً لك، ما دون الله عاملهم بالإحسان..

((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُهُ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أَخُوَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ))

[البخاري عن ابن عباس]

بمجرد أن تعتمد على غير الله عزّ وأن تركن إلى غيره، وأن تثق بغيره، وأن يَبُثّ غير الله في قلبك الطمأنينة، فقد وقعت في الشرك وأنت لا تدري، وتأديب الله عزّ وجل إذاً أن يُخَيّبَ ظنك في هذا الذي اعتمدت عليه.

الفرق بين التوحيد والشرك:

قال العلماء: الفرق بين الشرك والتوحيد، المؤمن الموحِّد يأخذ بالأسباب، والمشرك بالأسباب، والفرقُ بينهما أن المؤمن يأخذ بالأسباب، ويعتمد على رب الأرباب ؛ بينما المشرك يأخذ بالأسباب، ويعتمد عليها.

مثلاً: إنسان سافر بمركبته، إذا راجعتها قبل السفر مراجعة جيدة، وضبطت كل شيٍ فيها، واعتمدت على هذه المراجعة، قد تفاجأ بأنها قد تقطعك في الطريق، كان اعتمادك على مراجعتك لهذه المركبة، أما إذا راجعت ما فيها من خلل واعتمدت على الله عزّ وجل، هذا هو الموقف السليم.

لذلك حتى في العمل تأخذ بالأسباب، وتعتمد على الله، في تجارتك، في صناعتك، في وظيفتك، في دراستك، في كل شؤون حياتك، في علاقاتك الداخلية والخارجية، تأخذ بالأسباب وتعتمد على الله، أما إذا أخذت بالأسباب، واعتمدت عليها فقد أشركت، لهذا كلما أقدمت على عمل قل: **" اللهم إني تبرّأت إليك من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين ".**

هذا الشعور بالفقر شعور حقيقي، وشعور علمي واقعي، وليس شعوراً وهمياً، يجب أن تشعُر أنه ليس لك من الأمر شيء.

الإنسان أحياناً يتوجّهُ بالدعاء إلى الله عزّ وجل يقول: يا رب، توكلت عليك، ليس لي سواك، أحياناً يدعو بهذا الدعاء ونفسه معتمدة على زيد، في أعماقه أو في عقله الباطل شعور أن فلانا لن يتخلّى عنه، وفلان قوي، فليس المهم أن تقول بلسانك: توكلت عليك يا رب، المهم أعماق قلبك على من هي المعتمدة، على من هي مُتَّكِلَة ؟ إلى من تلجأ في الشدة ؟ فربنا عزّ وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)

معنى الآية:

أي أنك إذا دعوت غير الله في قلبك في أعماقك، الله يعلم هذا، فالبطولة لا أن يكون هذا اللسان كما يريد الله عزّ وجل، البطولة أن يكون قلبك كما يريد، أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الله وحده هو الولي ولا ولي سواه، هو القوي ولا قوي سواه، هو الرافع ولا رافع سواه، هو الخافض، هو المعز هو المذل، فهذه إن الله يعلم، فالإنسان قد يدعو بلسانه ربه وهو معتمدٌ على غير الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل لا يحاسبك على اللسان يحاسبك على ما استقر في الجَنَان، في القلب، الله يعلمه..

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)

كلمة من دونه، من دون الله هو واجد الوجود، الذات الكاملة، هو القوي، هو الغني، من دون غير قوي، غير غني من دونه، أي جهةٍ دون الله عزّ وجل لا تملك شيئاً لا نفعاً ولا ضُراً، ولا موتاً ولا حياةً، ولا رزقاً ولا نشوراً، فلذلك من الغباء ومن الجهل أن تتجه بكُلِّيَتِكَ إلى غير الله عزّ وجل، عبدٌ فقيرٌ مثلك، العوام يقولون مثل: (حيل المفلس عن المفلس ترى العجب).

لما يعتمد الإنسان على غير الله عزّ وجل كأنه يتجه مفلس إلى مفلس، يقول له: والله لا يوجد معي شيء، **"... ليتني يا أماه، إنني أشكو مما أنت منه تشكين ".**

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ)

العبرة في الأمثال بالمغزى:

الحقيقة المثل أحياناً يُضْرَب، إنسان يستمع إليه، ولكن لا يعقل المَغزى، إنسان يستمع إليه، ولا يدرك أبعاد المثل، قال:

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

الأمثال يعقلها العالمون:

لذلك العالم، الإنسان إذا أعمل عقله في الكون، وحضر مجالس العلم، ونمت معرفته شيئاً فشيئاً، ما من مجلس علمٍ إلا ويرفعك عند الله درجة، وهذه الآيات إذا فهمتها (أصبحت رُكناً من أركان إيمانك)، كلما حضرت مجلس علم نما إيمانك، واستقرت هذه الحقيقة وتثبتت، إلى أن تشعر بعد حين أنك إنسان آخر لك رؤيةٌ صحيحة، هذا الشيء لا أفعله ولو قُطِّعْتُ إرباً إرباً، هذا الشيء لا أقترفه، فما الذي منعك من فعل هذا الشيء مع أنك كنت تفعله من قبل ؟ معرفتك بالله عزّ وجل، فالعلم سلاح، أنت كلما ازددت علماً ازددت قوةً على الشيطان.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي]

كلما ازددت علماً ازددت تَمَنُّعاً، ازددت تحصناً، قوةً على خصم، فلذلك: الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ))

(من سنن أبي داود: عن عبد الله بن داود)

فكن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً.

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

مَن هم العالِمون ؟

الآية الأخيرة، من هم العالمون ؟ عالمون بماذا ؟ عالمون بأن الله:

(خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ)

خَلَقَ اللهُ السّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقّ

الآية دقيقة جداً، الله عزّ وجل قال:

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا)

(سورة ص: من آية " 27 ")

آية ثانية:

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء16)

إذاً: الله عزّ وجل نفى أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، ونفى أن يكون خلق السماوات والأرض لَعِبَاً، نفى الباطل ونفى اللعب.

ما هو الحق وما هو الباطل ؟

الباطل الشيء الزائل، واللاعب الشيء العابث، إذاً ما معنى بالحق ؟

(خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ)

من آيتين أُخْرَيَين يتضح معنى هذه الآية، الحق شيءٌ خلاف الباطل، الباطل زائل، الحق إذاً دائم، الحق شيءٌ خلاف اللعب، واللعب هو العبث ؛ أما الحق فهو الشيء الهادف، إذاً من معاني الحق أنه الشيء الهادف الدائم، الباقي، الثابت، إذاً حينما خلق الله السماوات والأرض خلقها لا يبقى إلا وجه الله والكل يزول، إذاً: الإنسان باقٍ إلى أبد الآبدين، يذوق الموت حينما ينفصل جسده عن نفسه، يذوقه ذوقاً ولا يموت..

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(77 سورة الزخرف)

فأنت خُلِقْتَ أيها الإنسان لتبقى إلى أبد الآبدين، إما في سعادةٍ أبديةٍ، وإما في شقاءٍ أبدي، إذاً إذا علمت أن الله خلق السماوات والأرض بالحق، وأنت مما في السماوات والأرض، خلق السماوات والأرض لهدفٍ كبير.

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من آية " 119 ")

خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا، خلقنا لنسعد به في أبد الآبدين، إذاً خلق الله الكون ليسعده، وخلق الإنسان ليكون سيّد الكون، المخلوق الأول كلّفه بالأمانة..

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(10 سورة الشمس)

إذاً العالمون بأن الله خلق السماوات والأرض بالحق، فأكثر العوام يقولون لك: سبحان الله ! الله خلقنا للعذاب، كلام كله جهل، كله حُمْق، كله قصور في الإدراك، خالق هذا الكون ماذا يستفيد من تعذيبنا ؟

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

(سورة الزمر: من آية " 7 ")

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

(من صحيح مسلم: عن " أبي ذر ")

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

معنى ذلك أنك خُلِقْتَ كي تعرفه، وكي تشكره وتقبل عليه، إذاً:

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

ما خلقها لعباً بلا طائل، ما خلقها عبثاً..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: من آية " 115 ")

لا، ما خلقها باطلاً..

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(36 سورة القيامة)

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

الذين يعلمون، جاء بالتفسير..

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (11-16): تفسير الآيات 41 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-12-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة العنكبوت، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة العنكبوت]

خلق الإنسان ضعيفًا لمصلحته

بينت لكم في الدرس الماضي بفضل الله عز وجل وتوفيقه أن الإنسان خلق ضعيفاً، هكذا أراد الله عز وجل أن يكون الإنسان وضعفه لمصلحته، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه إلى الله، فيسعد بافتقاره، ولو أنه خلقه قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، خلقه ضعيفاً، ومن شأن الضعيف أنه يحتاج إلى ركن ركين، يحتاج إلى قوة يلتجئ إليها، إلى قوة يحتمي بها، إلى قوة يستعيذ بها، إلى قوة تكون سنده وعونه في متاعب الحياة، ما الذي يحصل ؟ بدل أن يلتجئ الإنسان إلى خالق الكون، إلى المربي، إلى المسير، إلى الذي معك أينما كنت، إلى الذي يعلم سرك ونجواك، إلى الذي بيده كل شيء، قال تعالى:

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

[سورة هود، من آية " 56 "]

مِن جهل الإنسان لجوءه إلى إنسان ضعيف مثلِه:

الإنسان في جهله وضلاله بدل أن يلتجئ إلى خالق الكون إلى مربيه، إلى مسيره، إلى صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى إلى من بيده ملكوت السماوات والأرض، إلى من بيده كل شيء إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، إلى من يسمع سره ونجواه، إلى الحكيم العليم، إلى الغني القدير، إلى صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، اتجه الإنسان إلى غير الله عز وجل، بحسب رؤيته غير الصحيحة رأى أن المال قوة فانكب على المال يسعى في جمعه وادخاره، وشعر أن المال قوة، وأنه يعصمه من كل البلايا والمحن، فالذي يركن إلى المال، ويعتمد عليه، ويلوذ به، ويراه حصناً له من كل مكروه إنسان جاهل، والعوام يقولون: الدراهم مراهم، وهذا النظر، وهذا الفكر فيه إشراك بالله عز وجل، قد

يكتشف الإنسان إن عاجلاً أو أجلاً أن المال ليس كل شيء، بل هو شيء، بل إن من مصائب الدنيا ما لا يستطيع المال أن يفعل بها شيئاً، لو أن هناك مرضاً عضالاً أصاب الإنسان ماذا يفعل المال ؟

المعنى الواسع لقوله: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ:

إذاً المعنى الواسع لقوله تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

[سورة العنكبوت]

المال لا يحلُّ جميع المشكلات:

بالمعنى الواسع: إذا ركنت إلى المال، واتخذته ولياً، وظننت أن المال يحل كل مشكلة، وأنه عز في الدنيا، وأنه يفعل المستحيل، وأنه يذلل العقبات فقد وقعت في فخ الشرك، وعلاج هذا الإنسان أن يأتيه شيء لا يستطيع المال أن يفعل شيئاً.

كنت عند طبيب، جاءته مكالمة هاتفية لذوي مريض، سمعت بأذني لشدة ارتفاع الصوت: أن يا طبيب، المبلغ الذي يحتاجه ندفعه في أي مكان في العالم، قال: لا والله، هذا الشيء ليس له حل، المرض مستفحل، وفي الدرجة الخامسة، ولو ذهبتم به إلى أي بلد في العالم فالنتيجة معروفة كما هي هنا.

أدركت أن المال في بعض الحالات لا يفعل شيئاً، فمن اعتمد على المال كمن اتخذ بيت العنكبوت بيتاً له، مع أن بيت العنكبوت كما قلنا في الدرس الماضي لا يقي حراً، ولا يقي قراً، ولا يدفع عدواً، هناك مجموعة خيوط ليس غير، إذاً لنعد المال القوة التي يراها معظم الناس قوةً قوية، فإذا رضي الله عنك، وحفظك من كل مكروه تسعد في الدنيا، ولا تسعد بكثرة مالك، لا يمنعك من الله إلا أن تكون في رضاه، فإن لم تكن في رضاه ومعك مالٌ كثير هناك مجموعة كبيرة جداً من المشكلات والأمراض لا يحلها المال، يحلها حفظ الله وتوفيقه، لذلك الذي يعتمد على ماله فقط، ويستغني عن الله كمن يتخذ بيت العنكبوت مأوىً له.

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة العنكبوت]

ربنا عز وجل تشاء حكمته أن يعالج هذا الذي اعتمد على المال بطريقة دقيقة، يرسل له مشكلة المال فلا يفعل فيها شيئا، هناك من يعتمد على قوة السلطان، يرى أن القوة التي بيدها مقاليد الأمور، هي كل شيء، فكل من يخاف سخطها يرضيها، يتقرب إليها إلى درجة أنه على حساب دينه، ثم يكتشف فجأةً أن

الأمر كله بيد الله، وأنه لا يقع شيء في الكون إلا بإذنه، وأن أي جهة من الجهات مهما علا شأنها، ومهما قويت لا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا أن يشاء الله، فنسي الأصل واتجه إلى الأداة، وهؤلاء الأقوياء أدوات بيد الله عز وجل، فإذا احتميت بهم ما منعوك من الله، لكنك إذا احتميت بالله عز وجل منعك من كل مخلوق.

إذاً من يعتمد على صديق أو قريب له مركز، له قوة، له ترتيب معين، يعتمد عليه، ويطمئن إلى دعمه له، ويجامله، ويعصي الله من أجله، ويتملق له، ويتقرب إليه اعتماداً على قوته وعلى كلمته النافذة فقد اتخذ بيت العنكبوت مأوىً له:

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

إنسان يعتمد على صحته فيرى نفسه شديداً قوياً، متين البنية، دقيق الأجهزة، صحيح الجسم، يجري تحليلات كثيرة، فإذا المعايير كلها طبيعية، يعتمد على قوته، ويظن أن هذه القوة تبقى معه إلى أبد الآبدين، مع أن الله سبحانه وتعالى يجعل من بعد ضعف قوةً، ومن بعد قوة ضعفاً، فمن عرف الله في شبابه كان خريف عمره خريفاً مسعداً، ومن نسي الله في شبابه جاءه خريف العمر مشقياً، إذاً الذي يعتمد على شبابه كأنه اعتمد على بيت العنكبوت، الذي يعتمد على ماله كأنه اعتمد على بيت العنكبوت، الذي يعتمد على أقربائه من أولي الأمر والنهي كأنه اعتمد على بيت العنكبوت، والذي يعتقد أن العلم هو كل شيء يحصل أعلى الدرجات، كل قضية تحل بالعلم هذا أيضاً شرك، العلم شيء مهم جداً، ولكن أن تنسى الله من أجله، وأن تستغني عن الله به قد يكون العلم نفسه وبالاً على صاحبه.

مغزى الآية: الإبعاد عن كل أنواع الشرك:

الأخذ بالأسباب والاعتماد عليها من دون الله شركٌ:

إذاً: أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أن يبعدنا عن كل أنواع الشرك، وأن يبين لنا أن الذي يعتمد على غير الله عز وجل كمن التجأ إلى بيت العنكبوت، والقضية قضية نفسية، هناك من يأخذ بالأسباب، وهو مشرك، وهناك من يأخذ بالأسباب، وهو مؤمن، المؤمن مطالب بأن يأخذ بالأسباب، والمشرك يأخذ بالأسباب، الفرق دقيق جداً، المؤمن يأخذ بالأسباب، ويعتمد على الله، المشرك يأخذ بالأسباب، ويعتمد عليها، لأنه اعتمد على الأسباب استحق من الله أن يتخلى عنه، وأن يريه ما الأسباب، وما تفعل الأسباب وحدها، لذلك الحديث الشريف: عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَلَكِنّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمّا نَزَلَ وَمِمّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ عِبَادَ اللّهِ))

[من مسند الإمام أحمد]

مهما تكن ذكياً، مهما تكن دقيقاً، مهما تأخذ لكل شيء حساباً، مهما تعد لكل ثغرةٍ غطاءً، مهما فعلت من الأسباب المادية مما تقي نفسك القدر، ونسيت الله عز وجل، فإن الخطر يأتي من حيث لا تحتسب، وهذا سر من أسرار الله عز وجل، يؤتى الحذِر من مأمَنه.

إن طبيب القلب المتفوق البارع الذي يقيس ضغطه، ونبضات قلبه كل يوم، أو كل أسبوع، والذي يفعل كل ما من شأنه أن يبقى قلبه قوياً، ويعتمد على علمه فقط، وعلى تدريباته، قد يصاب بأزمة قلبية، ما تفسير هذا ؟

طبيب القلب يعمل ليلاً نهاراً في صيانة القلب وعلاجه، لأنه أخذ بالأسباب، واعتمد عليها فأوكله الله إليها.

وطبيب الجهاز الهضمي قد يصاب بقرحة في المعدة، حينما تعتمد على الأسباب، حينما تركن إليها، وتنسى الله عز وجل تؤتى منها، تؤتى من موقعك الحصين، تؤتى من هذا الموقع الذي تحصنت به، لأن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه شيء، وإرادته طليقة، وعلى الرغم من أن لهذا الكون قوانين، وسنناً، وقواعد، على الرغم من كل ذلك الله سبحانه وتعالى من قدرته أن يفاجئك بمشكلة أخذت أنت كل الاحتياطات لتلافيها، ومن قدرته أن يحميك من مشكلة، فنسيت أن تأخذ الاحتياطات لها، فالله خالق كل شيء، لا شيء قبله، ولا شيء بعده.

إذاً: نهاية العلم التوحيد، والتوحيد ليس كلمة تقولها، لو أنها كلمةً تقولها القضية سهلة جداً، أحياناً إنسان يسأل طبيباً قال له: يا طبيب، علمني كيف أكتب الوصفة، ضحك الطبيب ملء فمه، قال: هذه الوصفة محصلة علم الطب كله، كل شيء درسته في كلية الطب، كل التدريبات، كل الملاحظات، كل التجارب، محصلتها كتابة هذه الوصفة.

لذلك علمك كله، وحضور مجالس العلم كله، وصلواتك كلها، وإقبالك كله، وأعمالك الصالحة، واستقامتك، محصلة هذا كله أن توحد الله عز وجل، أن لا ترى مع الله أحداً هذا المؤمن، أن لا ترى غير الله، هناك في الحياة قوى كثيرة جداً، قوى كثيرة ومخيفة، ومادمت ترى هذه القوى على أنها مستقلة عن إرادة الله عز وجل فهذا شرك خطير، وإذا رأيت إنساناً أو جهةً تملك قوةً، وبإمكانها أن تفعل كل شيء، وهي مستقلة فيما يبدو عن الله عز وجل في أفعالها فهذا هو الشرك، أما إذا رأيت هذه القوة بيد الله وحده، وأن هذه القوة لا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا إذا أراد الله عز وجل، لا يمكن أن تنفعك بشيء، ولا أن توقع فيك شيئاً إلا إذا أراد الله عز وجل فهذا هو التوحيد.

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً)

[سورة الأنعام، آية " 80 "]

إلا إذا سمح الله لهذه القوة أن تطولك، لذلك قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُون)

[سورة هود]

إذاً: عدّد ما شئت: قوى المال، قوى السلطان، قوى العلم، الصحة، الذكاء، المركز المرموق، هذه القوى التي تراها قوى حقيقية، وبيدها مقادير بعض الأمور، ولها إرادة مستقلة عن الله عز وجل، إذا كنت كذلك فإن صلاتك، وصيامك، وحجك، وزكاتك، وعقيدتك لم تستفد منها إطلاقاً، إنها مفرغة من مضمونها، هذا الدين الذي تعتنقه، وترى معه أن زيداً أو عبيداً، أو فلان أو علان بيده الأمر، وبيده أن ينفعك، أو يضرك، إذاً أنت اعتنقت ديناً مفرغاً من مضمونه، اعتقادك شكلي، لا يقدم ولا يؤخر، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

العجيب أن آيات القرآن الكريم كلها تدور حول هذه النقطة، كأن التوحيد محور كتاب الله، وحينما قال الله عز وجل:

(قُلْ إِنّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ أَنّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

[سورة الكهف، آية " 110 "]

لخص الله عز وجل بهذه الآية القرآن كله، هذا هو التوحيد، لذلك من الشرك تتأتى كل المشكلات، بل إن عذابات لا تعد ولا تحصى تتأتى من الشرك، والدليل قوله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذّبِينَ)

[سورة الشعراء]

الشرك عذاب نفسي:

تعذب نفسك، تشعر أن فلان بيده أمرك ولا يحبك، ويتمنى أن يحطمك، ولا حول لك ولا قوة، هنا المشكلة، أما إذا رأيت أن الأمر كله بيد الله، وأن الله يحب عباده جميعاً، بل:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات 13)

وأن المؤمن له حياة طيبة، وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا بأمر الله عز وجل، هذه العقيدة وحدها شفاء للنفوس، لذلك الأمراض النفسية قلما تقع عند المؤمن لأنه موحد، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، اعمل لوجه واحد يكفك الهموم كلها، المؤمن قضيته سهلة، المؤمن مجموع الشمل.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إلّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[الترمذي]

حينما تطيع الله عز وجل، حينما تصطلح مع الله عز وجل حينما تستسلم لأمر الله عز وجل، حينما تنقاد لهذا المنهج الرفيع الرباني هل تعرف ما تفعل ؟ إنك تسعد نفسك إلى أبد الآبدين، لأن انتماء الإنسان إلى ربه، والتزامه بأمره شيء مسعد، مسعد لنفسه، وهناك آثار أخرى فهو موفق في عمله، سعيد في بيته، ناجح في عمله، واللهُ سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بحياة طيبة، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل]

الحياة الطيبة أكبر دليل على صدق هذا الكتاب، وعلى صدق هذا الدين، وعلى أن هذا الدين منهج الله عز وجل، قال تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة العنكبوت]

الإعجاز العلمي في هذه الآية: بيت العنكبوت:

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن في الآية إعجازاً علمياً، والدليل أن معطيات العلم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ما كانت لتسمح أن يعرف العلماء، أو الملاحظون، أو من يعملون مع الحيوانات أن هذه الحشرة، أو أن هذا المخلوق أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت، والدليل:

(اتَّخَذَتْ بَيْتًا)

هذا كلام خالق الكون، وخالق العنكبوت، والأنثى هي التي تنسج هذا البيت.

وفي الآية أيضاً ملاحظة أخرى، وهي أن خيوط العنكبوت على ضعفها لو أمكننا أن نسحب معدن الفولاذ خيوطاً بقطر خيط العنكبوت لكان خيط العنكبوت أمتن من خيط الفولاذ.

أخ كريم أطلعني على ملاحظة قرأها في كتاب أردت أن أنقلها إليكم، وهي أن من خصائص بيت العنكبوت أن الأنثى تأكل الذكر، وتقضي عليه، وأن أولاد العنكبوت يأكل بعضهم بعضا.

فمن أسباب ضعف هذا البيت هذا العدوان الداخلي على الأفراد بعضهم بعضا، إذاً هذا البيت ضعيف في بنيته، خيوط لا تقي حراً، ولا قراً، ولا عدواً، ضعيف في بنيته الاجتماعية.

وكما قال الإمام علي كرم الله وجهه: **<< في القرآن آيات لما تفسر بعد >>.**

كلما تقدم العلم كشف شيئاً من إعجاز القرآن، لأنه كلام الواحد الديان، ولو تأملنا في الآيات أكثر لوجدنا فيها أشياء كثيرة، قال تعالى:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)

[سورة الكهف]

ويجب أن تعلم أنه مهما أوتيت من علم أنك مشمول بقوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة العنكبوت]

وجهُ التمثيل ببيت العنكبوت:

الله سبحانه وتعالى حينما مثل لك الأولياء الذين تدعوهم من دونه ببيت العنكبوت، هذا مثل من قِبَل الخالق العظيم، فإذا اعتمدت على غير الله فكأنما تعتمد على بيت عنكبوت، ضعيف في بنيته، ضعيف في علاقاته الاجتماعية، والله سبحانه وتعالى يعلم ما إذا كنت موحداً أو مشركاً، يعلم ما إذا كنت معتمداً عليه أو على أحد خلقه، يعلم ما إذا كنت معتمداً على حفظه أم على مالك، يعلم ما إذا كنت معتمداً على جاهك أو على توفيقه، هذا كله مطلع عليه، بل إن محصلة إيمانك كلهِ أن توحده، وأن تعتمد عليه.

آخر نقطة أقولها قبل أن أنتقل إلى آية ثانية: ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك إلى أن الأمر كله بيده، لو أن أمراً بيده، وأمراً بيد غيره أنت معذور أن تعبد غيره، ما أمرك أن تعبده وحده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود، آية " 123 "]

كله، كله إعرابها توكيد، يعني إليه يرجع الأمر أي الأمر كله، أما حينما قال الله عز وجل:

(إِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

معنى ذلك أنه ما من صغيرة ولا كبيرة، ولا قريبة ولا بعيدة في حياتك إلا بيد الله عز وجل، فمن الغباء والحمق أن تتجه إلى غيره، من ضعف الإيمان أن ترضي الناس بسخط الله، من ضعف الإيمان أن تحمدهم على ما أعطاك الله، من ضعف الإيمان أن تغضب منهم لشيء منعه عنك، لذلك يجب أن تعلم أن إنساناً إذا وصل إليك بالأذى فكأنه عصا بيد الله عز وجل، علاقتك مع الله، ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو عنه الله أكثر.

حينما تصل إلى مرتبة أن تحاسب نفسك، وأن تتأمل لماذا فعل الله بك هذا، إذا فهمت على الله أن هذه من أجل كذا، هذا الموقف الحرج الذي أصابك بسبب أنك أحرجت زيداً أو عبيداً، وهذا المال الذي تلف بين يديك بسبب أن في كسبه شبهة، وأن هذا الإنسان الذي تطاول عليك بسبب أنك تطاولت على زيد أو عبيد، إذا شعرت أن هناك حساباً دقيقاً، وإلهاً عادلاً تعلم عندئذٍ حلاوة الإيمان.

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة العنكبوت)

هو عزيز منيع الجانب، حكيم، يضع كل شيء في مكانه الصحيح، معنى الحكيم أي كل شيء وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، لذلك حينما يأتي الإنسانَ ملكُ الموت يستعرض حياته كلها، فيرى كل ما ساقه الله إليه من صعوبات، من مشقات، من مضايقات، خلقه بهذا الشكل، بهذا الجسم، من هذه الأم، من هذا الأب، بهذا الحي بهذه المرتبة، من هذه الطبقة، يسر له سبيل العلم أو العمل أو التجارة أو الوظيفة، كان كذا وكذا، سافر، يكشف هذا الإنسان ساعة الموت، كما قال الله عز وجل:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق]

يكشف أن كل شيء ساقه الله إليه محض فضل وإحسان، لذلك يلخص الإنسان حياته كلها بكلمة واحدة، قال تعالى:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة يونس]

هذا معنى قول الإمام علي كرم الله وجهه: **<< لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع >>.**

الغنى الحقيقي:

هناك نقطة مهمة جداً، أن الحياة فيها غني، والغنى معروف، يأكل ما يشاء، ويرتدي أجمل الثياب، ويتنقل بين أجمل الأماكن، والناس يحبونه، ويبجلونه، ويعظمونه، وبإمكانه أن يذهب إلى حيث يريد، وأن يفعل ما يشاء بحسب الظاهر، وهناك إنسان فقير لا يستطيع أن يفعل شيئاً، لو لم يكن هناك آخرة لم تستقم الحياة هكذا.

إنسان أعطي كل شيء في الحياة، وإنسان حرم من كل شيء، هذا قوي، وهذا ضعيف، هذا صحيح، وهذا مريض، هذا غني، وهذا فقير، لو لم يكن هناك دار آخرة تسوّى فيها الحسابات الحياة، وتعدل فيها الإمكانات، إذا أعطانا الله في الدنيا الحظوظ بتفاوت حينما وزعت الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء الحياة، فسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، فلذلك البطولة أن تكون في طاعة الله، أعطاك الله هذا أو

لم يعطك البطولة في الآخرة لهذا يقول الإمام علي كرم الله وجهه: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >>.** الغنى الحقيقي، قال تعالى:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران]

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

[سورة العنكبوت]

إن الله يضرب من الأمثال ما يشاء:

قال كفار قريش: إن رب محمدٍ يتحدث عن العنكبوت والذبابة، إنهم ما عقلوا عظمة المثل الذي ضربه الله عز وجل، لا يعقل هذه الأمثلة إلا العالمون، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا)

[سورة البقرة، آية "26 "]

بعوضة، لهوان شأنها على الناس، إذا وقعت على يدك بعوضة تقتلها، ولا تشعر بشيء إطلاقاً، لو قتلت بعض الحيوانات لشعرت بحرج، لشعرت بضيق، لعلني أخطأت، تقول: لعل الله يحاسبني، أما إذا قتلت فهي هينة..

لها ثلاثة قلوب، وجناحا البعوضة يرفان في الثانية الواحدة أربعة آلاف رفة إلى مستوى الطنين، وفيها جهاز رادار تتجه في الظلام الدامس إلى جبين النائم لا إلى الوسادة، ولا إلى قطعة الأثاث، إلى جبين النائم فيها جهاز رادار، فيها جهاز تحليل دم، دم يعجبها، ودم لا يعجبها، لذلك أخوان ناما على فراش واحد، الأول يصاب بلدغ البعوض، والثاني لا يصاب، جهاز رادار، وجهاز تحليل، وجهاز تخدير فإذا لدغت الإنسانَ لا يشعر إلا بعد أن تغادره، وجهاز تمييع للدم، رادار، تحليل، تخدير، تمييع، ثلاث قلوب، أربعة آلاف رفة في الثانية، لها أرجل فيها محاجم كي تقف على سطح أملس على ضغط الهواء، وبأرجلها مخالب تمكنها من أن تقف على سطح خشن.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

[سورة البقرة: آية " 26 "]

(وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ)

[43 سورة العنكبوت]

حينما قال الله عز وجل:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك]

بين البعوضة والحوت !!!

عظمة خلق البعوضة لا تقلّ عن عظمة خلق المجرة، ولا عن عظمة خلق الفيل، ولا عن عظمة خلق الحوت، الحوت يصل وزنه في بعض الحالات إلى مئة وستين طنا، أنثى الحوت إذا أرضعت ابنتها في كل رضعة ثلاثمئة كيلو، ثلاث رضعات في اليوم طن من الحليب، إذا أراد الحوت أن يأكل وجبة سريعة كي يسد رمقه قليلاً كانت وجبته أربعة أطنان، يفتح فمه ويسير، فإذا تجمع في فمه أربعة أطنان من السمك يكتفي بها كوجبة سريعة تسد رمقه بعض الشيء.

والبعوضة على صغرها وجبته والحوت على كبره، دماغ الحوت له وزن، فيه خمسون طن من الشحم ـ دهن الحوت ـ الحوت المتوسط ينتج تسعين برميل زيت حوت، الحوت عظيم، والبعوضة عظيمة، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت).

الحوت عندما يأكل سمك، السمك فيه حسك تفرز معدته مادةً تتواجد على رؤوس الحسك المؤنفة كي لا تؤذي جهازه الهضمي، هناك دقائق في الخلق لا يعلمها إلا الله، لذلك الكون أوسع باب لمعرفة الله وأوسع باب إذا تأملت في خلق السماوات والأرض، قال تعالى:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة البقرة: آية " 164 "]

أنت محاط بآلاف الآيات، بملايين الآيات، الذي أتمناه على كل مؤمن إذا شربت الماء تتفكر من جعله عذباً فراتاً، وتتفكر لو كان ملحاً أجاجاً ؟ إذا تناولت رغيف الخبز هذا القمح من صممه موافقاً تماماً لحاجاتك ؟ تأمل في خلق الله إذا تناولت قطعة جبن، تأمل في هذا الحليب من صممه ؟ إذا تناولت قطعة لحم فهذه الأنعام مَن خلقها خصيصى لنا ؟ قال تعالى:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

(سورة النحل)

اعرف الله مِن خلال خَلقِه:

إذا أعْمل الإنسان فكره في خلق السماوات والأرض عرف الله عز وجل، وكلما ازداد علمك بالله عز وجل ازدادت خشيتك له، والدليل قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

[سورة فاطر]

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة العنكبوت]

إنسان يعيش خمساً وخمسين سنة، أربعاً وخمسين سنة، الحياة الدنيا ظنية لا يقين فيها، أما الآخرة فيقينية، إنسان يعيش ثلاثاً وثلاثين سنة، أو خمس عشرة، هناك حالات وفاة في الخمس سنوات حالات وفاة في العشرين سنة، في الثلاثين سنة، فلا سن ما فيه حالات وفاة، شاب ليلة عرسه يموت فجأة، إنسان عاد من بلاد الغرب يحمل دكتوراه مات بحادث قبل أن يستمتع بهذه الشهادة، فالحياة هذه ظنية، أي أن تبقى بها إلى سن الستين هذه قضية ظنية غير يقينية، أو إلى سن الخمسين ظنية، إنسان يهيئ نفسه أربعين سنة، ويأخذ أعلى الشهادات حتى يسكن في بيت متواضع، ويتزوج، بقي له عشر سنوات، الإنسان يشعر أن القضية لها سؤال كبير، أنه ألهذا خلقنا ؟ ألهذه الحياة القصيرة ؟ كل هذا الإعداد الطويل لحياة قصيرة مشحونة بالمتاعب والهموم والأحزان، العالم كله مآسٍ ساعة، لا فيها أمطار، وأحيانا لا مواد، وهذا عنده أولاد ذكور وليس عنده إناث، وهذا عنده إناث وليس عنده ذكور، هذا يشكو من علل خَلقية ومشكلات، إذا لم يكن هناك آخرة فالحياة تبدو غريبة، يصعب فهم الحياة بلا آخرة، ماذا يقول ربنا ؟

(خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقّ)

[سورة العنكبوت]

الحق والباطل:

المعنى الأول:

كلمة الحق نعرفها من آيتين أخريين، حينما قال الله عز وجل:

(أَمْ نَجْعَلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتّقِينَ كَالْفُجّارِ)

[سورة ص]

بل خلقهما بالحق، الشيء الباطل هو الشيء الزائل، أما بالحق فهو الشيء الثابت والدائم، فيا أيها الإنسان خلقت لتبقى، خلقت لتبقى إلى أبد الآبدين، وما هذه الحياة الدنيا إلا إعداد لهذه الحياة الأخرى، والآن توضح الأمر، مادام إعداداً إذاً هي مدرسة، إذاً هي دار ابتلاء، وأروع كلمة قالها النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموضوع:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

(خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقّ)

أي أن الخلق خلق السماوات والأرض شيء أبدي سرمدي، الموت حالات تحوّلٍ من حالة إلى حالة، ثوب تخلعه، ثوب الجسم تخلعه، ولك ثوب آخر في الآخرة إذاً قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران]

الموت أخطر حَدَثٍ في الحياة:

تذوق الموت ولا تموت، تخلع عنها هذا الجسد الذي حملها في الدنيا، إذاً أنت مخلوق لا لحياة قصيرة، لحياة أبدية إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفذ عذابها، فالقضية خطيرة، لذلك لما قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك]

هنا سؤال، لماذا قدم الموت على الحياة ؟ قال: لأنه تقديم أهمية، أنت حينما تولد أمامك خيارات كثيرة، مؤمن أو غير مؤمن، موحد غير موحد، محسن مسيء، أنت مخير، أما إذا جاءك الموت ختم عملك، وانقضى أجلك، وانقلبت إلى ربك، ما لك من خيار، وأصبحت في ممر إجباري.

" فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ".

الموت أخطر، الحياة فيها خيارات، أمامك تغير، تعود إلى الله تنيب إليه، تؤمن بعد الكفر، توحد بعد الشرك، تحسن بعد الإساءة، هناك خيارات، أما إذا جاء الموت، وختم العمل، وانقضى الأجل أصبحت في ممر إجباري، إما إلى الجنة وإما إلى النار، لهذا ربنا عز وجل يقول:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك]

(خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقّ)

[سورة العنكبوت]

خلقت لتبقى.

المعنى الثاني:

المعنى الثاني قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الأنبياء]

إذاً الحق خلاف اللعب، والحق خلاف الفناء، باطلاً يعني زائلاً، ما خلقناهما باطلاً، بل خلقناهما للاستمرار، وما خلقناهما لاعبين، بل خلقناهما لهدف كبير، لذلك كلمة الحق تعني السمو في الهدف، والثبات في الوجود، الشيء الثابت الهادف، أنت مخلوق بالحق أي خلقت لتبقى، وخلقت للهدف عظيم.

خلقت السماوات والأرض فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تتعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك.

من صفات الإنسان: الهلع والجزع:

إذاً حيثما وردت كلمة بالحق في القرآن الكريم، القرآن فسرها أعلى أنواع التفسير، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج]

ما معنى هلوعا ؟ الله فسرها قال:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

[سورة المعارج]

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر]

ما اليقين ؟ الله فسرها بآية ثانية:

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)

[سورة المدثر]

الموت، إذاً أعلى أنواع التفسير ما فسره القرآن، في مكان الكلمة جاءت موجزة، وفي مكان آخر جاءت مفصلة، وهذه الكلمة بالحق بآيات أخرى نفى الله عز وجل أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، والشيء الباطل هو الشيء الزائل، إن الباطل كان زهوقا، الزاهق الزائل.

إذاً الحق عكس الباطل، الباطل شيء زائل، أحياناً ننشئ جناحاً في معرض، هذا الجناح يبنى من قماش ليلغى بعد أسبوعين، من مواد خفيفة جداً، أما إذا وجد بناء ضخم فهذا البناء يبنى ليبقى من قماش فالشيء الباطل الشيء الزائل من قماش والحق باقٍ، الله عز وجل هو الحق.

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي خلقها لتبقى، وأنت أيها الإنسان مخلوق لتبقى، والموت حالة خاصة، حالة خلع ثياب، وثياب أخرى ترتديها بعد الموت، أما قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف]

الإنسان خلق من نور الله عز وجل، خلق ليبقى، الكون كله باقٍ طبعاً يختلف من شكل إلى شكل، من صورة إلى صورة، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب]

المعنى الثاني:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)

[16 سورة الأنبياء]

معنى لاعبين أي عابثين فالحق عكس العبث، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة]

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ)

[سورة القيامة]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون]

الحق يعني الشيء الهادف، الثابت الهادف، كلمة الحق تعني أنك ثابت وهادف، لك هدف كبير خلقت له، فإذا غاب عنك هذا الهدف الكبير كان الضلال المبين.

الإنسان سافر إلى باريس مثلاً، استيقظ، أخطر سؤال يطرحه على نفسه: لماذا أنا هنا ؟ إذا كنت تاجراً أين المؤسسات والمصانع ؟ إذا كنت سائحاً أين المتنزهات والمقاصف ؟ إذا كنت طالباً أين الجامعات والمعاهد ؟ إذا كنت في مهمة أين اللقاءات والمباحثات ؟ الحركة تتحدد إذا عرفت الهدف، إذا عرفت لماذا أنت في هذه المدينة تأتي حركتك صحيحةً موفقةً، فإذا كنت طالباً وانشغلت بالسياحة ضيعت السفر سدى، إذا كنت تاجراً، وانشغلت بلقاءات جانبية لا جدوى منها ضيعت التجارة، البطولة أن تعرف لماذا أنت في الدنيا من أجل أن يأتي عملك صحيحاً.

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة العنكبوت]

الدرس القادم إن شاء الله تعالى إن أحيانا لهذا الدرس، قوله تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت]

تأملوا في هذا الأسبوع في معنى قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

فهمٌ مغلوطٌ:

أكبر من الصلاة، بعضهم فهم هذه الآية خطأً، أنا مادمت أذكر الله لا أصلي، لقوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

هناك معانٍ كثيرة جداً، ولعل الله ينفعنا بها جميعاً من قوله تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصّلاةَ إِنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (12-16): تفسير الآية 45
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-12-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت]

أهمية الصلاة في الإسلام:

هذه الآية ذات أهمية كبيرة جداً، لأن الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، ولا خير في دين لا صلاة فيه، إنها عماد الدين، وعصام اليقين، وغرة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات. الله سبحانه وتعالى يقول:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ)

[سورة العنكبوت]

الإنسان مخلوق، وأسماء الله الحسنى تقتضي أن يرشده الله، أن يعرفه، أن يأمره، أن ينهاه، أن يبين له، أين كان، وما مهمته في الدنيا، وإلى أين المصير ؟ وما قيمة الدنيا، وما سر وجوده فيها ؟ وما أفضل شيء يفعله فيها ؟ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ونوره خلق الكون وأنزل هذا الكتاب.

الأمر الموجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ثلاثة أنواع:

إذاً: الله سبحانه وتعالى يأمر الناس من خلال أمره للنبي عليه الصلاة والسلام، والأمر الموجه إلى النبي على أنواع ثلاثة:

1 – الأمر الخاص بالنبي:

نوع موجه إلى النبي خاصة، وهذا ما اتفق عليه العلماء على أنه من خصوصيات النبي عليه الصلاة والسلام.

2 – الأمر الموجّه إلى المؤمنين من خلال النبي:

وأمر موجه إلى المؤمنين من خلال أمر النبي، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

[سورة الأحزاب]

لا يوجد في الكون إنسان أشد تقوىً لله من النبي، إذاً: هذا الأمر موجه إلى المؤمنين من خلال أمر النبي.

3 – الأمر الموجّه إلى النبي والمؤمنين معًا:

وأمر موجه إلى المؤمنين والنبي معاً، فحينما يقول الله عز وجل يخاطب رسول الله عليه وسلم:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ)

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، إذا كان هذا الأمر موجهاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام فهو موجه استناداً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إِنّ اللّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ...))

[مسلم عن أبي هريرة]

الأمر بتلاوة القرآن:

هذا الأمر موجه إلينا، إذاً أنت مأمور أن تتلو هذا الكتاب، لأن فيه تعريفاً لحقائق الكون والحياة وحقيقة الإنسان، هذا الكتاب تعليمات الصانع، هذا الكتاب نشرة إيضاحية لسر وجودك في الدنيا.

إذاً: أيها المؤمن، عليك أن تتلو هذا القرآن، لأنه خطاب خالق الأكوان لهذا الإنسان، شيء عجيب جداً أن يعرض الإنسان عن تلاوة القرآن قبل أن يفهم مضمونه، هل تصدق أن إنساناً جاءته رسالة لم يفتحها، ولم يقرأها، بل نبذها، المنطق يقول: اقرأ ما في الرسالة، إن أعجبتك فخذ بها، وإن لم يكن كذلك فانبذها، أما أن تنبذها قبل أن تقرأها، قبل أن تقف على حقائقها، قبل أن تعرف مرسلها، قبل أن تعرف سرها، حكمتها، فهذا موقف فيه غباء شديد.

أنت إنسان خاطبك الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة: آية " 21 "]

يا أيها الذين آمنوا، افعل لا تفعل، أعطاك أمرا، أعطاك نهياً، ووعد وأوعد، بيّن و فصّل، وذكّر

الماضي والحاضر والمستقبل، إذاً: نحن المؤمنين مأمورون أن نتلو هذا الكتاب من خلال أمر الله لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يتلو ما أوحي إليه.

يجب أن نتلوه كي نعرف الله عز وجل، فإذا عرفناه فلابد من حركة، لابد من موقف، لابد من توجه، لابد من اتجاه إلى الله عز وجل.

أنت أولاً:تعرفه، وثانياً: تتصل به، أولاً: تعرفه، وثانياً: تطيعه، تعرفه، تتقرب إليه، تعرفه تسعد بقربه.

الآية منطقية:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلاةَ)

لو تذوقنا معنى

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ)

إذا قلت: سأقيم بناءً في هذا المكان، كلمة أقيم بناءً كلكم يعلم ماذا تعني هذه الكلمة ؟ إقامة البناء تحتاج إلى شراء أرض، تحتاج إلى رخصة، تحتاج إلى حفر أساسات، تحتاج إلى مواد أولية، تحتاج إلى منفذين، تحتاج إلى صنعة، تحتاج إلى وقت، تحتاج إلى نضج، تحتاج إلى عوامل معينة، كسوة خارجية وكسوة داخلية، فكلمة: أقم بناءً في هذا المكان تعني عملاً جاداً، عملاً كبيراً، عملاً هادفاً، عملاً ذا مراحل، الله عز وجل يقول:

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ)

فلابد من أن تصلي، ولابد من أن تحدث مع الله صلة، ولابد من حسن علاقة مع الله عز وجل حتى تكون هذه الصلة.

منزلة الصلاة في الإسلام:

1 – في الصلاة معاني العبادات الأخرى:

يا أيها الإخوة الأكارم، الصلاة كلها سر الدين، الصلاة وحدها، لا تنسى أن في الصلاة معنى الحج، وفي الصلاة معنى الصيام، وفي الصلاة معنى الزكاة، وفي الصلاة معنى الاتصال بالله عز وجل، توجهك إلى بيت الله الحرام أخذت الصلاة من الحج، التوجه نحو الكعبة، وأخذت الصلاة من الصيام، وأنت في الصلاة ممتنع عن الطعام والشراب، وكل حركة خارجة عن حركات الصلاة، وأخذت من الزكاة أن الوقت هو أصل المال، فإذا أنفقت الوقت في سبيل الله صليت الظهر فرضاً وسنةً، فكأنما أنفقت مالك، لأن الوقت أصل المال، ولن تحصّل المال إلا بالوقت، وأخذت من الاتصال بالله جوهر هذه

الصلة، الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، ولا خير في دين لا صلاة فيه.

2 – الصلاة هو الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحالٍ:

الشيء الثاني: هو أن الصلاة هي الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال، لا في سفر ولا في حضر، ولا في صحة، ولا في مرض، ولا في قتال، ولا في خوف، ولا في شبع، ولا في جوع، الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال، إنها الصلاة، الصيام يسقط عند السفر، وعند المرض، والحج يسقط عند عدم الاستطاعة، والزكاة تسقط عند الفقر، ولكن الصلاة هي الفرض المتكرر، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

3 – الصلاة ذِكرٌ:

أقِمها من أجل الذكر، أقمها من أجل أن تذكرني، ذكر الله هو جوهر الصلاة، وفي آية أخرى يقول الله عز وجل:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق]

4 – الصلاة قُربٌ:

الصلاة إذاً حالة قرب من الله عز وجل، والصلاة حالة ذكر، والصلاة حالة قرب، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء]

الصلاة حالة وعي، حالة قرب، وحالة ذكر، وحالة وعي.

5 – الصلاة حالة أخلاقية:

يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

[سورة العنكبوت]

إذاً الصلاة حالة أخلاقية، مستحيل أن يجتمع في الإنسان منكر أو فحشاء وهو يصلي، مادمت متصلاً بالله فأنت طاهر، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند ضعيف]

الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

[سورة المؤمنون]

قال بعض العلماء: الخشوع ليس من فضائل الصلاة، بل من فرائضها، لعظم الصلاة في الإسلام الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

[سورة طه]

يعني من صلى في البيت فعليه أن يصلي مع أهله، إذا صلى مع أهله، وضمن صلاتهم فكأنما نفذ هذه الآية الكريمة.

والصلاة أيها الإخوة، لا تعني أن تصلي خمس مرات، وأن تشرد بين الصلوات كما يشرد البعير عن صاحبه، قال تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج]

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

(سورة البقرة)

وفي بعض تفسيرات هذه الآية بين الصلاتين لتكون ملتفتاً إلى الله عز وجل.

تاركُ الصلاة فيه ضعفٌ خُلقي: إنه الهَلَع والجزع والمنع:

يجب أن تعلم علم اليقين أن كل إنسان لا يصلي فيه ضعف خلقي، من هذا الضعف قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20))

[سورة المعارج]

ما أن يلمح شبح مشكلة، أو شبح مصيبة، أو يلمح نازلة، أو رزية، أو مرضاً حتى تنهار قواه، من هو الهلوع ؟ إذا مسه الشر جزوع، وإذا مسه الخير منوع، جزوع على وزن فعول، صيغة مبالغة، يعني كثير الجزع، وكثير الهلع، وكثير المنع، جزوع ومنوع، قال تعالى:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المعارج]

إلى آخر الآيات، هؤلاء مستثنون من هذا الضعف الخُلقي.

إن الإنسان خلق هلوعا، فلولا الصلاة لكان هلوعاً جزوعا منوعاً، أما المصلي فاستثناه الله من هذا الضعف الخلقي.

ضعف المسلمين وذلهم بسبب ترك الصلاة والتهاون فيها:

شيء آخر، هل تصدقون أن كل ما تعانيه الأمة الإسلامية من مصائب، ومن رزايا، ومن مشكلات، ومن ضعف، ومن تفكك، ومن و من، إلى ما لا نهاية بسبب تركهم الصلاة أو تهاونهم فيها، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم]

أضاعوا الصلاة، فاتبعوا الشهوات، أو اتبعوا الشهوات لأنهم أضاعوا الصلاة، بين إضاعة الصلاة، واتباع الشهوات علاقة ترابطية أضاعوا الصلاة فاتبعوا الشهوات، اتبعوا الشهوات فأضاعوا الصلاة، فسوف يلقون غيا، ولقد لقي المسلمون ما لقوا بعد أن أضاعوا الصلاة، وليست إضاعة الصلاة تركها، يا ليت، ولكن إضاعة الصلاة ترك موجباتها.

مِن موجبات الصلاة:

ـ من موجبات الصلاة الاستقامة على أمر الله.

ـ من موجبات الصلاة تحرير الدخل.

ـ من موجبات الصلاة إنفاق المال في وجوهه.

ـ من موجبات الصلاة ضبط الجوارح، وغض البصر.

ـ من موجبات الصلاة الكف عن سماع ما لا يرضي الله عز وجل.

إذا ضبطت جوارحك كلها وحررت دخلك، ونفذت كل الأوامر التعاملية فيما بينك وبين نفسك، وفي ما بينك وبين الناس عندئذٍ تشعر بطعم الصلاة، وتذوق حلاوة الإيمان، وتشعر بطعم القرب، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم]

من خصائص الصلاة:

1 – الصلاة عقلٌ:

النبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق هو حبيب رب العالمين، سيد ولد آدم، هو المبلغ عن الله عز وجل يقول:

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

[ورد في الأثر]

2 – الصلاة ميزان:

ليس لك من هذه الصلاة إلا ما عقلت منها، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة ميزان))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند فيه ضعف]

ميزان لأعمالك إذا فعلت هذا العمل، إن كنت تستطيع أن تصلي بعده صلاةً صحيحة تقبل بها على الله عز وجل، فهذا دليل أن هذا العمل صحيح، أما إذا أوقعك هذا العمل في حالة خجل، وصار هذا العمل حجاباً بينك وبين الله عز وجل هذا دليل أن صلاتك، وأن هذا العمل لا يرضي الله عز وجل:

((الصلاة ميزان، فمن وفى استوفى))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند فيه ضعف]

من وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمارها، الصلاة ميزان فمن وفى استوفى، وفِّها حقها تستوفِ ثمراتها، وفِّها حقها تستوفِ ما أعد الله للمصلين من نعيم مقيم.

3 – الصلاة موعدٌ مع الله:

شيء آخر، النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا حضرته الصلاة فكأنه لا يعرفنا، ولا نعرفه لعظم هذا اللقاء أنت على موعد مع الله عز وجل، أنت على موعد مع خالق الكون وجعلت قرة عيني في الصلاة، إذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه إطلاقاً.

عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ، قَالَ مِسْعَرٌ: أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((يَا بِلالُ، أَقِمِ الصَّلاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

[أحمد]

ولسان حال بعض المصلين: أرحنا منها، صليت ؟ نعم، الحمد لله، ارتحنا أننا صلينا، يجب أن ترتاح في الصلاة، لا أن ترتاح منها.

4 – الصلاة مناجاة:

شيء آخر، لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل، راقب نفسك وأنت عند عظيم في مكتبه هل تعبث بسبحة ؟ هل تقرأ جريدة ؟ هل تقرأ مجلة ؟ هل تنظر إلى السقف أو إلى قطع الأثاث، أو إلى بعض الأشياء ؟ هل تخرج دفتراً تتلهى به ؟ أما إذا كنت عند إنسان تظنه عظيماً كلك التفات إليه، كلك توجه نحوه، تجلس في غاية الأدب، في غاية الإصغاء، في غاية الاهتمام، إذا كنت مع من تظنه عظيماً هكذا، فكيف إذا كنت مع ملك الملوك، ومالك الملوك ؟ لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل))

[الجامع الصغير عن الحسن مرسلا بسند ضعيف]

لا يلتفت لشيء آخر لو يعلم من يناجي.

5 – الصلاة نورٌ:

و النبي عليه الصلاة و السلام يقول:

((الصّلاةُ نُورٌ))

[الترمذي عن أبي مالك الأشعري]

إذا صليت صلاة كما أراد الله، إذا صليت الصلاة التي أمر بها رسول الله، إذا صليت الصلاة التي وصفت في القرآن الكريم ألقى الله في قلبك نوراً فرّقت به بين الحق و الباطل، رأيت الخير خيراً، والشر شراً، هل تصدقون أن كل المآسي التي يعانيها الإنسان هي بسبب خطأ في رؤيته، يرى أن كسب هذا المال مغنماً كبيراً يكسبه حراماً فيذيقه الله ألوان العقاب، ألوان العقاب سببها كسب هذا المال، و كسب هذا المال سببه خطأ في الرؤية.

إذاً أعمالك كلها أيها الأخ الكبير أساسها رؤية، إما أن تكون هذه الرؤيا صحيحة، وإما أن تكون غير صحيحةً، إن كانت صحيحةً وفقت وسعدت، وإن لم تكن صحيحة دفعت الثمن باهظاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الصّلاةُ نُورٌ))

نور يقذفه الله في قلبك، ولا يعرف هذه المعاني إلا من اتصل قلبه بالله عز وجل، إلا من شعر أن الله جل في علاه مع كل مؤمن وإذا تجلى على المؤمن أسعده سعادة لا توصف،

((الصّلاةُ نُورٌ))

وقال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة طهور))

[ورد في الأثر]

إنّ المصلي إذاً كان طاهراً من الحسد، طاهراً من الغش، طاهراً من الكبر طاهراً من البعد عن الله، طاهراً من الأثرة، طاهراً من الحقد، طاهراً من الضغينة، طاهراً من الكبر، أبداً الصلاة طهور، الصلاة نور والصلاة حضور، أرحنا بها يا بلال، ولو يعلم المصلي من يناجي ما التفت، أو ما انفتل كما ورد في الحديث.

6 – الصلاة معراج المؤمن:

والصلاة معراج المؤمن إلى رب السماوات، وليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها، والصلاة ميزان فمن وفى استوفى، والصلاة قرب، قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق]

7 – الصلاة ذِكرٌ:

والصلاة ذكر، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

8 – الصلاة وعيٌ:

والصلاة وعيٌ، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء]

هذا الذي لا يعلم ما يقال حكمه حكم السكران، الذي يصلي، ولا يعلم ما قال في الصلاة، ولا يقف على مدلولات الآيات في الصلاة حكمه حكم السكران في الصلاة، وكل مصائب المسلمين منطوية في قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

[سورة مريم]

نصيحة للآباء:

والآباء الذين يحرصون حرصاً لا حدود له على تقدم أبنائهم في الدراسة، وعلى مذاكراتهم، وعلى علاماتهم في المذاكرات، يعطونهم الجوائز إذا تفوقوا، ويعنفونهم إذا قصروا، ويهملون أمرهم بالصلاة فهم مخالفون بهذا الأمر قول الله عز وجل:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

[سورة طه]

أين هم من كتابهم، من تطبيق دينهم ؟ وقوله تعالى:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

[سورة البقرة]

لابد من أن يكون لك صلة بين الصلاتين، وهذا مضمون قول الله عز وجل:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج]

عموم معنى: اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ

أيها الإخوة الأكارم... آية اليوم:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

[سورة العنكبوت]

غض البصر من إقامة الصلاة، ضبط اللسان من إقامة الصلاة تغتاب المسلمين وتزعم أنك مسلم ؟! ما قيمة هذه الصلاة ؟ قم وصلِّ إنك لم تصلِّ، من إقامة الصلاة ضبط اللسان، من إقامة الصلاة ضبط العين، من إقامة اللسان ضبط الأذن عن سماع ما لا يرضي الله عز وجل.

((من استمع إلى صوت قينة ـ أي مغنية ـ صب في أذنيه الآنك يوم القيامة، قيل: وما الآنك ؟ قال: الرصاص المذاب))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

ضبط اللسان عن الغيبة والنميمة، والسخرية، والاحتقار، والبهتان، والإيقاع بين المسلمين، والتحريش بين المؤمنين، ضبط العين عن عورات المسلمين، ضبط الأذن عن استماع الغناء، ضبط الفكر عن خواطر لا ترضي الله عز وجل، ضبط اليد عن أن تبطش ضبط الرجل عن أن تسعى إلى ما لا يرضي الله عز وجل، هذا كله من إقامة الصلاة، تحرير الدخل من إقامة الصلاة، التواضع من إقامة الصلاة، الزهد من إقامة الصلاة، أقم الصلاة، يعني افعل أفعالاً كثيرةً جداً كلها حول محور واحد، وهو حسن العلاقة مع الله، حتى إذا وقفت لتصلي رأيت الطريق سالكاً إلى الله، هذه معنى:

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ)

قد نفهم هذا الأمر فهماً ساذجاً جداً، أخي أقم الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، هذا من إقامة الصلاة، أما إقامة الصلاة التي أرادها الله عز وجل بضبط كل جوارحك، وضبط كل حركاتك وسكناتك، وعلاقاتك وفق منهج الله عز وجل، ما من شعور يشعره المصلي، وقد وقف بين يدي الله عز وجل من أنه على منهج ربه، مطيع لله عز وجل في كل شؤون حياته، هذا الشعور هو الذي يعينك على الصلاة، شعورك أنك على طاعة الله، وفق منهج الله، وفق أمر الله هذا الشعور الذي يعين على الصلاة.

أقِم الصلاة كما أرادها الله:

إذاً هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

[سورة العنكبوت]

هذه الألف واللام في الصلاة ماذا تعرب ؟ يعني إن الصلاة المعهودة، إن الصلاة التي أرادها الله عز وجل، إن الصلاة التي تنجو بها، إن الصلاة التي تجعلك على صلة مع الله حقيقية هذه الصلاة، لماذا قال الله عز وجل:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة]

معنى هذا أن هناك صلاة ما أرادها الله، كذب وصلاة، غش وصلاة، احتيال وصلاة، ظلم وصلاة، كبر وصلاة، هذه الصلاة التي معها الكبر، والغش، والحسد، والضغينة، والحقد والاستعلاء، وكسب المال الحرام، هذه ليست صلاة.

هل عرفتَ أيها المصلّي بين يدي مَن تقف ؟!

ورد في الحديث القدسي:

((ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي))

هل عرفت من تصلي له ؟ هل عرفت من تقف بين يديه، هل عرفت من تقول بحقه: الله أكبر، سمع الله لمن حمده، هل عرفت من تقول له: سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى.

((ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي ـ استقامة، تعظيم ـ ولم يصر على معصيتي...))

توبة تلو توبةٍ كلما وقعت في مخالفةٍ تبادر إلى التوبة،

((إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع ـ بذل ـ وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب...))

[ورد في الأثر]

كل ذلك لي إخلاصاً.

الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة:

دخلنا في موضوع جديد، كف الجوارح عن الشهوات المحرمة من إقامة الصلاة، والبذل والتضحية، وإنفاق المال، وتقديم الخدمات وتقديم الخبرات، ومعاونة المؤمنين، وغير المؤمنين ورعاية اليتامى والأرامل، وإنفاق المال هذا أيضاً من إقامة الصلاة، إقامة الصلاة بالكف عن المحارم، وبالبذل، كف وبذل الكف سلبي والبذل إيجابي، إذاً حينما قال الله عز وجل:

(وَأَقِمْ الصّلاة)

أنت إذا أردت أن تلقى إنساناً تحرص على لقائه المثمر، قد تقدم له هديةً، هديتك إلى الله عز وجل خدمة عباده، والدليل قوله تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف]

كيف تحتال كي تصل إلى قلب هذا الإنسان بهدية تزيل الضغن من قلبه ؟ كيف تحتال إلى كسب ود هذا الإنسان بتقديم خدمة لأحد أولاده ؟ كذلك إذا أردت أن تعقد مع الله صلةً، إذا أردت أن تتصل به، أن تنعم بقربه، أن يتجلى الله عليك قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبّهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف]

قضية مبذولة لكل الناس، كل إنسان إذا أراد أن يلقى الله عز وجل لقاءً في أثناء الصلاة فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحد. عمل صالح بنية عالية.

((ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب كل ذلك لي إخلاصاً ـ عظم الله وائتمر بأمره، وتاب من ذنبه، وبذل، وضحى مخلصاً ـ وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً...))

أخلاق الجاهلية التعسف الظلم، الكبر، الحقد، هذه أصبحت مكارم أخلاق، هذه أصبحت علامة المصلي، المصلي يجب أن تحبه لابد من أن تذوب به وجداً، لأنه كامل، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً، إذا أحب الله عبداً في أثناء الصلاة منحه خلقاً حسناً.

((على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نورا يدعوني فألبيه...))

كان في عمى فأصبح على بصيرة، كان في جهالة فأصبح على علم.

((يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يمس ثمرها، ولا يتغير حالها))

(وَأَقِمْ الصّلاةَ إنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

[سورة العنكبوت]

ما هي الفحشاء والمنكر ؟!

إن الصلاة التي أمر بها الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر، الفحشاء ما قبح فعله وقوله، تعريف الفحشاء في اللغة، الشيء الذي عظم قبحه فعلاً وقولاً، هناك قول فاحش، وهناك عمل فاحش، والمنكر كل شيء أنكرته العقول السليمة، المنكر ما أنكرته العقول، والفحشاء ما عظم قبحه كلاماً أو فعلاً، أول مكاسب الصلاة، أول ثمار الصلاة، أول نتائج الصلاة.

من مكتسبات الصلاة:

1 – أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر:

أول مكتسبات الصلاة أنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، يصلي إذاً لسانه منضبط.

2 – الانضباط الداخلي:

هنا نقطة، ومعنى دقيق: أنت قد تنضبط خارجياً، مثلاً: لو أن إنساناً يحب الغناء، وسمع أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن سماع الغناء كف عن سماع الغناء، حينما يكف عن سماع الغناء انضبط خارجياً، لو أنه ركب مركبة، وأطلق فيها المذياع على أغنية كان يحبها، وتجاوبت نفسه مع هذه الأغنية ما الذي يقال في هذا المقام ؟ يقال: إنه انضبط خارجياً، لكن نفسه بقيت متعلقة بهذا الماضي الذي عاشه، ولكن المصلي إذا صلى صلاة صحيحة بعد حين، بعد وقت يطهر من الداخل، المؤمن في أول طريق الإيمان يشتهي المعاصي، ولا يفعلها، ولكن بعد مرحلة من الزمن يمقت المعاصي، ويكرهها صار هناك تطور هذه من آثار الصلاة، فإذا فكرت أن الله أمر بكذا، ونهى عن كذا قضية سهلة، إذاً لا تفعل هذا الأمر، يا ترى لا تفعله وأنت مشتاق إليه ؟ لا تفعله وأنت متمنٍّ أن تفعله، لا تفعله وأنت تغبط من يفعله، هذه مرتبة.

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ)

[سورة العنكبوت]

الله عز وجل نهى عن الغيبة، نهى عن النميمة، نهى عن الربا، نهى عن أشياء كثيرة، لكنك إذا اتصلت بالله عز وجل.

هناك شيء آخر، ما هو الشيء الآخر ؟ أن النفس الإنسانية تنتهي من داخلها الآن، لا تحب الفحش، لا تحب هذه المعصية، قال عليه الصلاة و السلام:

((نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه))

[ورد في الأثر]

لو أتيح لك أن تفعل هذه المعصية، ولن تحاسب عليها لتفعلها، هذه من ثمرات الصلاة، نفسك تعاف الرذيلة، تعاف المعصية، تعاف المنكر، وقد وصف النبي عليه الصلاة والسلام هذه الحالة، فعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللّه عَنْه عَن النَّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((ثَلاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبّ عَبْدًا لا يُحِبُّهُ إلا لِلّهِ عَزّ وَجَلّ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النّارِ))

[مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ ابن ماجة ـ أحمد]

من علامة صحة الإيمان أن الله سبحانه وتعالى إذا أنعم عليك بنعمة الإيمان، وانتقلت من حال إلى حال لا شيء يزعجك، ويمقتك، ويحز في نفسك كأن تذكر حياة الجاهلية، كيف كنت متفلتاً ؟ كيف كنت غير منضبط لا في أقوالك، ولا في أفعالك، ولا في شهواتك، لذلك علامة المصلي أن نفسه تتهذب من

داخلها، لذلك كل حضارة الغرب قائمةً على الردع الخارجي، وعظمة حضارة الدين أنها قائمة على الوازع الداخلي، وشتان بين إنسان يرتدع تحت سطوة السلاح.

مثل بسيط، في بعض مدن أمريكا انقطعت الكهرباء قبل عدة أعوام، في ليلة واحدة تمت مئتا ألف سرقة، ما دام هناك ضبط خارجي وكاميرات تلفزيونية، وحسابات دقيقة، وأجهزة إنذار مبكر، وطرق مراقبة كلها بالرادار، هناك انضباط، حضارة الغرب كلها قائمة على الردع الخارجي، وحضارة الدين قائمة على الوازع الداخلي.

قال ابن عمر لأحد الرعاة: **بعني هذه الشاة**، قال له: **ليست لي**، قال له: **قل لصاحبها أنها ماتت**، قال له: **ليست لي**، قال له: **قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب**، قال له: **ليست لي**، قال له: **خذ ثمنها**، قال: **والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، أنا في أشد الحاجة لثمنها: ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟**

هذا هو الدين، هذا هو الإسلام، والله الذي لا إله إلا هو من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله، كل أعماله بلا جدوى، ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط.

حضارة الغرب قائمة على الرادع الخارجي، الانضباط السلوكي هناك بسبب أجهزة بالغة الدقة، لو أن إنسانا تجاوز السرعة المقررة التقطت لسيارته صورة مع لوحته الخلفية، ودفع الثمن الباهظ جزاء هذه المخالفة، إذاً لا خير في حضارة قائمة على الردع الخارجي، ونِعْمَت الحضارة القائمة على الوازع الداخلي، كلما ارتقينا كلما انتهينا من داخلنا لا من خارجنا، من دون رقابة، المؤمن لا يستطيع أن يأكل قرشاً من حرام لو قطعته إرباً إربا، يقول لك: أين الله ؟ ليس في إمكانه أن يكذب إطلاقاً.

لذلك أيها الإخوة الأكارم... هذه الآية من الآيات الدقيقة جداً:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ)

[سورة العنكبوت]

الصلاة التي أرادها الله، الصلاة التي شرعت، التي صلاها النبي عليه الصلاة والسلام، التي صلاها أصحاب النبي، صلوها ففتحوا العالم، ملكوا ما بين الخافقين، رفرفت راياتهم في مشارق الأرض ومغاربها، رفع الله ذكرهم، مكنهم في الأرض، استخلفهم في الأرض، مكن لهم دينهم، أبدلهم من بعد خوفهم أمنا، هذه الصلاة التي شرعها الله عز وجل.

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَر وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت]

هذه آية إن شاء الله تعالى لنا عودة إليها في الدرس القادم، لأنها آية دقيقة جداً،

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

أكبر من ماذا ؟ يا ترى ذكر الله لعبده أم ذكر العبد لربه ؟ يا ترى ذكر العبد لربه في الصلاة، أم خارج الصلاة، أكبر من ماذا ؟ حول هذه الآية بحث دقيق جداً.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكنني أن أشرحه لكم في الدرس القادم.

لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف:

هناك شيء، أخ كريم حدثني أن رجلاً ديناً في تركيا أمر تلميذاً له أن يقتل ابنه، خبر تناقلته الإذاعات قبل أيام، فقتله، ثم قال له: اصعد إلى الجبل تجده هناك، صعد إلى الجبل فلم يجده، فقدم شكوى، فأودع هذا الرجل السجن، هذا الخبر استوضحت، أو تبين لي أن هناك حكم شرعي دقيق جداً في هذا الموضوع.

عَنْ عَلِيٍّ رَضِي اللّه عَنْه قَالَ:

((بَعَثَ النّبيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ سَرِيّةً، وَأَمّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَار، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النّبيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا، وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمّ دَخَلْتُمْ فِيهَا، فَجَمَعُوا حَطَبًا، فَأَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمّا هَمُّوا بِالدُّخُول، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنّمَا تَبِعْنَا النّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِرَارًا مِنَ النّار، أَفَنَدْخُلُهَا ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا، أَبَدًا إِنّمَا الطّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[مسلم ـ النسائي ـ أبو داود ـ أحمد]

انقسم أصحابه فريقين، فريق همّ أن يقتحمها تنفيذاً لأمر هذا الأمير، لأن هذا الأمير أمره رسول الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

[سورة النساء]

وفريق قال: لا، إنما آمنا بالله ورسوله فراراً من النار، أفنلقي أنفسنا بها، واختصموا، وتوجهوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، اسمعوا ما قال عليه الصلاة والسلام للذين أرادوا أن يقتحموا النار:

((... لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنّمَا الطّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

أين عقلكم (إنما) أداة قصر، الطاعة بمعروف، إذا أمرك هذا الرجل أن تصلي بالمعروف، أن تغض بصرك، أن تؤدي زكاة مالك، أن تنزه دخلك عن الحرام، إذا أمرك فيما هو معروف.

وقال بعض العلماء: المعروف هو أمر الله، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، انظروا إلى الدين ما أوضحه، شيء رائع جداً أن يكون الإنسان على بصيرة، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة يوسف]

((إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

حصراً.

سيدنا الصديق رضي الله عنه:

ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر.

لو وزن إيمان الخلق مع إيمان أبي بكر لرجح.

ما ساء ني قط.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبًا رَأْسَهُ فِي خِرْقَةٍ، فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمّ قَالَ: إِنّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَمَنّ عَلَيّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتّخِذًا مِنَ النّاسِ خَلِيلاً لاتّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ خُلّةُ الإِسْلامِ أَفْضَلُ، سُدّوا عَنّي كُلّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ))

[البخاري]

ومع ذلك قال: **<< قد وليت عليكم، ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>.**

رائع جداً أن يكون المتعلم واعياً. إذاً حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنّمَا الطّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

قال العلماء: المعروف هو أمر الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، إذاً لا طاعة بخلاف الشرع، هذه القصة كانت سبب نزول قوله تعالى الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

[سورة النساء]

لهذه الآية تفسير دقيق جداً إن شاء الله تعالى في الدرس القادم بعد صلاة العشاء، لأنها متممة لهذه القصة التي حصلت على عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (13-16): تفسير الآيتان 45 - 46
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-12-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة العنكبوت، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت]

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ

بقي من هذه الآية قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

معنى الذكر لغة واشتقاقه:

أيها الإخوة الأكارم، الذكر، والذكرى، والتذكر، من اشتقاق واحد، تذكّر الشيء أي أن تستعيده، أن تستحضره، والله سبحانه وتعالى يصف القرآن الكريم كله بأنه ذكرى، قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

[سورة عبس]

معنى ذلك أن الإنسان فُطر على أن يعرف الله، فطر على أن يستقيم على أمره، فطر على أن يسعى للتقرب منه، فطر على أنه لا يرتاح إلا بالإقبال عليه، هذه فطرة الله عز وجل، فالقرآن الكريم كله، ودعوة الأنبياء كلها هي إنما قائمة على تذكير الإنسان بفطرته، وحينما يهتدي الإنسان إلى فطرته يسعد في الدنيا والآخرة، لذلك يفيدنا في هذه الآية آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الروم]

الوجهة الخالصة والاستقامة التامة: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا:

أقم وجهك أي أن يقيم الإنسان وجهته الخالصة في استقامة تامة إلى الله، وأن يقومها كلما انحرفت عن طريق معرفة الله أولاً، وطاعته ثانياً، والتقرب إليه ثالثاً، إنه إن فعل هذا مائلاً إلى الله تاركاً كل ما سواه.

إن أقمت وجهتك الخالصة إلى الله، وقومتها كلما انحرفت في استقامة تامة إليه عن طريق معرفته أولاً، وطاعته ثانياً، والتقرب إليه ثالثاً، مائلاً إليه من كل قلبك، تاركاً كل ما سواه، إنك إن فعلت هذا لزمت فطرتك، انسجمت مع فطرتك، حققت فطرتك، حققت وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك، هذا المخلوق لا يسعد إلا بالله، آية دقيقة جداً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ)

أحياناً يلقي الإنسان بصره إلى جهة ثابتة دليل الاهتمام البالغ، إذا كنت تعبأ بشيء، وتخاف أن ينفجر تبقى عينك على الساعة،

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا)

أن تقيم وجهك لله في استقامة خالصة وتامة مائلاً إليه تاركاً كل ما سواه، إن فعلت هذا فقد حققت فطرتك، وحققت سر وجودك وحققت سلامة وجودك، وحققت كمال وجودك، وحققت استمرار وجودك، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا)

إن فعلت هذا فقد لزمت فطرة الله.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللّهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا)

كلمات قليلة أنقلها لكم من كلمات بعض العارفين بالله: **في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله ".**

مهما بالغت في طمأنينة قلبك عن طريق وفرة المال، عن طريق مركزك القوي، عن طريق تأمين كل حاجاتك، ففي القلب شعث، تفرق، لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفي القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، لو جلست مع أصدقائك، مع أقربائك، مع محبيك، لو جلست في مكان تحبه وفي زمان تحبه، لكن في القلب وحشة لا يزيلها إلا الإنس بالله، وفي القلب حزن لا يذهبه إلى السرور بمعرفة الله، وفي القلب قلق لا يسكنه إلا الاجتماع على الله والفرار إليه، وفي القلب نيران حسرة لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه والصبر على كل ذلك، وفيه فاقة ـ يعني فقر ـ لا يسدها إلا محبته.

مهما حاولت، كلمة أعرفها في الوقت المناسب، إذا تقدم بك العمر، والإنسان وصل إلى خريف العمر، فإذا قال: والله لا شيء أجمل من معرفة الله، ولا شيء أسعد من قربه، ولا شيء أنفع من طاعته، هذا

الكلام إن عرفته في الوقت المناسب فأنت أسعد الناس، أما إذا عرفته بعد فوات الأوان فهذه مشكلة، البطولة أن تعرف الله في الوقت المناسب.

إذاً حينما قال الله عز وجل:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

إنك إن ذكرت الله حققت فطرتك، إنك إن ذكرت الله اطمأننت إليه، إنك إن ذكرت الله سعدت بقربه، إنك إن ذكرت الله زال عنك الخوف، والقلق والحزن والضياع، والتشتت، والتبعثر، والضيق، والشعور بالوحشة، والشعور بالفقر، كل المشاعر المدمرة التي تحيل حياة الإنسان جحيماً إنها تذوب إذا عرفت الله عز وجل لذلك:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

تفصيلات: ذكر الله:

الآن ندخل في تفصيلات معنى ذكر الله أكبر:

معنى الذكر:

أن حالة تصيب النفس هذه الحالة تحفظ النفس كلما يلقى إليها من معرفة، فالإنسان إما أن يكون في حالة ذكر أو حالة نسيان.

الذكر يشبه الحفظ، لكن الحفظ حيازة، والذكر استحضار، والذكر نوعان، ذكر عن نسيان وذكر عن حضور، فلان يذكر إما أنه ذكر بعد أن نسي وإما أنه دائم الحضور.

أنواع الذكر: ذكر بالقلب وذكر باللسان:

يا أيها الإخوة الأكارم، والذكر نوعان أيضاً، ذكر لسان وذكر قلب، وربما كان ذكر القلب هو المعني، وهو المقصود، قال الله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً(43))

(سورة الأحزاب)

أيضاً هذه الآية تلقي ضوءاً كاشفاً على قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

فإن أرقى أنواع التفسير أن تفسر القرآن بالقرآن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42))

إن فعلتم ذلك.

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(43))

أيها الإخوة الأكارم، اقتدوا بسيدنا سعد بن أبي وقاص الذي كان يقول: << ثلاثة أنا فيهن رجل، وكلمة رجل في القرآن لا تعني أنه ذَكَرٌ، لا، قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ)

[سورة النور]

تعني أبطالا، كلمة رجل، قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب]

يقول سيدنا سعد: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفي ما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، وما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى >>.**

هذا الكلام كلام النبي حق من الله تعالى، لأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ماذا يقول عليه الصلاة والسلام في شأن الذكر ؟

أحاديث في فضل الذكر:

الحديث الأول:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ))

[أحمد]

هذا المجلس إن شاء الله تعالى من حلق الذكر، نذكر فيه الله تعالى، حلق الذكر المكان الذي يذكر فيه الله خالصاً لوجهه، هذا الحديث الشريف رواه البيهقي.

الحديث الثاني:

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ صَلّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللّهَ حَتّى تَطْلُعَ الشّمْسُ، ثُمّ صَلّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجّةٍ وَعُمْرَةٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: تَامّةٍ، تَامّةٍ، تَامّةٍ))

[الترمذي]

إذاً: أن تذكر الله عز وجل ذكراً خفياً عقب صلاة الفجر، وأن تصلي ركعتين الضحى، كانت لك هذه الصلاة، وهذا الذكر، وتلك صلاة الضحى كأجر حجة وعمرة، تامة، تامة، تامة، هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي.

الحديث الثالث:

عَنْ أَبِي الدّرْدَاءِ رَضِي اللّه عَنْه قَالَ: قَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((ألا أُنَبّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكْرُ اللّهِ تَعَالَى))

[ابن ماجة ـ أحمد ـ مالك]

أن تذكر الله عز وجل هذا الحديث أيضاً رواه الإمام أحمد في مسنده.

الحديث الرابع:

روى البخاري مسلم في صحيحيهما عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِي اللّه عَنْه قَالَ: قَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَثَلُ الّذِي يَذْكُرُ رَبّهُ وَالّذِي لا يَذْكُرُ رَبّهُ مَثَلُ الْحَيّ وَالْمَيّتِ))

[مسلم]

قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ)

[سورة النحل]

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنّ اللّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر]

ليس مـن مات فـاســتراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

***

<< يا كميل، مات خُزان المال، وهم أحياء ـ وهم في أوج حياتهم ـ والعلماء باقون ما بقي الدهر >>

إذاً: الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه كالحي والميت.

أصحاب النبي عليهم رضوان الله سألوا النبي عليه الصلاة السلام: أي جلساءنا خير ؟ نجلس مع من، نلتقي مع من، نخاطب من نصاحب من، نحب من ـ فقال عليه الصلاة والسلام:

((من ذكركم الله رؤيته، يعني إذا رأيتموه تذكرتم ربكم))

هناك إنسان إذا رأيته تذكرت الدنيا، إذا رأيته تذكرت الشهوات، إذا رأيته تذكرت الموبقات، وأما الذي يجب أن تجلسْ معه هو من ذكركم الله رؤيته، وزاد في عملكم منطقه، يعطيك حجة قوية، يحاصرك، فإذا كنت مضطرًا أن تسير في طريق الإيمان، وذكركم في الآخرة عمله، هناك من يدعو إلى الزهد، وليس زاهداً، هناك من ترى عمله مخالفاً لقوله، عمله في وادٍ، وقوله في واد، فهذا الذي ذكّركم الله رؤيته، وزاد في عملكم منطقه، وذكركم في الآخرة عمله هذا اجلسوا إليه وصاحبوه.

فالمؤمن عليه أن يختار مؤمناً يصحبه، أن يختار أخاً في الله يتصل به يمحضه وده، يمحضه محبته، لا أن يوزع قلبه بين أناس غافلين، قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف]

الإمام مسلم في صحيحه يروي **من شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يذكر الله في كل أحيانه في السراء وفي الضراء، في إقبال الدنيا، في إدبار الدنيا، في الشدائد، في الرخاء، في الصحة، في المرض، في الليل، في النهار في السفر، في الحضر، في الأزمات، في حالات الراحة النبي عليه الصلاة السلام كان يذكر الله في كل أحيانه، وإن الله أمر المؤمنين ما أمر به المرسلين.**

ويقول عليه الصلاة والسلام:

الحديث الخامس:

عَنْ سَعْدِ ابْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ، وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي))

[أحمد]

وهذا من تمام الأدب مع الله عز وجل، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((إن من الناس مفاتيح لذكر الله تعالى إذا رأوا ذكر الله بهم))

الحديث السادس:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللّهَ فِيهِ إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[الترمذي ـ أحمد]

وفي رواية ثانية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي مَجْلِسٍ فَتَفَرّقُوا، وَلَمْ يَذْكُرُوا اللّهَ عَزّ وَجَلّ، وَيُصَلّوا عَلَى النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلا كَانَ مَجْلِسُهُمْ تِرَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[الترمذي ـ أبو داود]

وفي رواية ثالثة عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللّهَ فِيهِ إلا رَأَوْهُ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أحمد]

أن تجلس مجلساً لا تذكر الله فيه.

الآن نعود إلى قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

أيها الإخوة الأكارم، آية دقيقة جداً هذه تمهيدات لهذه الآية، يقول الله عز وجل:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

معنى: وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ

المعنى الأول:

يقول بعض العلماء: ذكر الله أكبر ما في الصلاة، لقوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

هدف الصلاة أن تذكر الله، فهل أن تذكره بلسانك أم بقلبك ؟ بلسانك وبقلبك، إن ذكرته بلسانك، ولم يكن الذكر في قلبك فهذا الذكر الظاهري لا يكفي، المعول عليه هو القلب، والقلب مفتاحه اللسان،

لذلك قال تعالى:

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي(14))

[سورة طه]

المعنى الأول:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

أي أكبر ما في الصلاة كلها.

المعنى الثاني:

الآن عندنا معنى آخر، يا ترى ذكر الله للعبد أم ذكر العبد لربه ؟ القرآن حمال أوجه.

المعنى الأول: ذكر الله لعبده، والدليل، قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

[سورة البقرة]

ينادى لـه فـي الكـون أنّا نحـبه فيسمع من في الكون أمر محبنا

***

المعنى الأول:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

لعباده إذا ذكروه أكبر، من ذكرهم له تَذْكُره ويذكرك، إن ذكرك الله عز وجل ذكره أكبر من ذكرك له، إذا ذكرته فأنت مفتقر إليه، لكن إذا ذكرك أغناك، إذا ذكرك رحمك، إذا ذكرك أسعدك، إذا ذكرك حفظك، إذا ذكرك وفقك، إذا ذكرك يسر لك الأمر، إذا ذكرك قربك، فرق كبير جداً بين أن تذكره، وبين أن يذكرك، الله سبحانه وتعالى هكذا يقول:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

ما ذكرني عبدي في ملأ من خلقي إلا ذكرته في ملأ خير منه، لذلك يقول العلماء: ذكر الله للعبد أكبر من ذكر العبد لربه، هذا المعنى، ذكر الله للعبد أكبر من صلاته كلها، هو قطع عمله، وتوجه إلى المسجد، وتوضأ، وصلى، إذا ذكرك الله ذكراً فهو خير من كل صلاتك، مهما قلت: أنا بذلت، وتوضأت، وصليت، وأغلقت محلي التجاري، إياك أن تمن على الله، لأن ذكر الله لك أكبر من كل صلاتك، بل إن ذكر الله لك أكبر من كل عملك، هكذا جاء في بعض التفاسير.

المعنى الأول: ولذكر الله ما في الصلاة.

المعنى الثاني:

ذكر الله للعبد أكبر من ذكر العبد لربه، ذكر الله للعبد أكبر من صلاته، ذكر الله للعبد أكبر من كل عمله، إذاً أنت لا بعملك، ولكن بفضل الله عز وجل.

المعنى الثالث:

هناك معنى كان يجب أن أقوله في أول المعاني، وهو أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(وَأَقِمْ الصّلاةَ إنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

أكبر من أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر فهذا شيء سلبي، هذا المصلي لا يفعل المنكر ولا الفحشاء، هل هذه هي كل الصلاة ؟ لا، ذكر الله أكبر من أن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر، إنها في حدودها الدنيا، إنها في بداياتها، إنها في حدها الأدنى تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولكن في حدها الأعلى ولذكر الله أكبر، كأنك إذا انتهيت عن الفحشاء والمنكر فهي حالة التخلية، فإذا ذكرت الله عز وجل فهي حالة التحلية، فلا ينبغي أن تكون الصلاة فقط تنهى عن الفحشاء والمنكر، بل هي أعظم من ذلك، النهي عن الفحشاء والمنكر شيء سلبي، هذا المصلي لا يكذب، لا يسرق، لا يزني، لا يقتل، لا يفحش في الكلام، ولكن هذه الصلاة يجب أن تسمو في الإنسان، ترقى به إلى الله عز وجل.

المعنى الأولي المأخوذ من قوله تعالى:

(إنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

أكبر من نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر.

المعنى الرابع:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

ذكر العبد لربه أكبر من كل ما في الصلاة، أكبر من أركان الصلاة، أكبر من كل طاعاته، لأن الأعمال الصالحة كلها من أجل أن تصلي، لأن العبادة كلها من أجل أن تصلي، لأن الحج من أجل أن تصلي، لأن الصوم من أجل أن تصلي، لأن الزكاة من أجل أن تصلي، ذكر العبد لربه أكبر من كل أركان الصلاة، من وقوف، وركوع، وسجود، وقراءةٍ، إلى آخره، ذكر العبد لربه أكبر من كل الصلاة، أكبر من كل طاعته، من كل أعماله لأنها الهدف، الهدف أن تسعد بالله عز وجل.

المعنى الخامس:

بعضهم قال:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

الصلاةُ ذكر، والحقيقة أن فيها أذكارا قولية، الله أكبر، سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك:

(بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضّالِّينَ (7))

[سورة الفاتحة]

هذا ذكر لله عز وجل، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ)

[سورة الزمر]

الله أكبر، سبحان ربي العظيم، ففي الصلاة فيها أذكار قولية، ولكن هذه الأذكار القولية قصدُها وهدفها أن يصل هذا الذكر إلى القلب، اللسان يفنى، أما القلب فيبقى، يقول تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلّا مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

[سورة الشعراء]

فكلما انتقلت هذه الأذكار من اللسان إلى الجَنان فقد أفلحت ونجوت.

المعنى السادس:

شيء آخر، الصلاة ذكر بمعنى، أنك إذا صليت فأنت ذاكر لربك.

قد تجلس مع إنسان تراه نسي الصلاة، هو يصلي، لكن إذا وجد حديث مُمتع، أو كان في قضية، أو حل مشكلة، أو اجتماع ينسى الصلاة، لمجرد أن تنسى الصلاة فأنت ضعيف الاهتمام بربك، لكن الإنسان إذا بادر إلى الصلاة في وقتها، ولم تشغله أعماله عن صلاته، فمجرد أن تأتي الصلاة فأنت ذاكر لله عز وجل،

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

إذا أردت أن تفعل شيئاً، أن تنجز عملاً، أن تكتب رسالة، أن تعقد اجتماعاً، أن تجري محاسبةً، فلا تنسَ أن ذكر الله أكبر، فإذا شغلت بهذا العمل، وسهوت، وتفاعلت مع هذا العمل، ونسيت الصلاة، لم

يعد عندك ذكر الله أكبر، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام فيما ترويه السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تقول:

((كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ))

[البخاري]

من شدة تعظيمه للصلاة.

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

علاقة الآية: وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ بختامها: وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ

لكن لو تساءلتَ أيها الأخ الكريم: ما علاقة قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

ما من كلمة مناسبة لهذه الآية من قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

يعني يا عبدي، إنني أرى عملك، فإن كان عملك صالحاً أعانك على أن تذكرني، وإن ذكرتني ذكرتك، وإن كان عملك سيئاً حجبك عن أن تذكرني، وإن لم تذكرني لا أذكرك.

إذاً: أن يأتي الله عز وجل بقوله:

(يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

شيء مهم جداً، يعني أن عملك أيها العبد هو سبب صلاتك، وعملك سبب حجابك، إن كان عملك كريماً أكرمَك، وإن كان لئيماً أسْلمك، فانظر إلى عملك.

كل إنسان بإمكانه أن يدخل إلى قاعة الامتحان، ويجلس على كرسي، وأن يمسك بقلم وأمامه ورقة، أما إذا لم يكن قد درس، فما قيمة هذا الجلوس ؟ وما قيمة هذه الأقلام ؟ وما قيمة هذه الأوراق والمسودات ؟ فالقضية قضية عمل، فمن كان عمله طيباً رأى أن الطريق إلى الله سالك، وأن إقباله على الله سهل، وأن اتصاله بالله محقق، وأنه يكتشف أن الصلاة أسعد ما في الحياة، ومن كان عمله سيئاً، من ظلم الناس، واعتدى عليهم، وأكل أموالهم، وغشهم، واحتال عليهم، واستعلى عليهم، وأهانهم، إن هذا الإنسان لا يستطيع أن يذكر الله عز وجل، فلذلك إذا أردت أن تقيم الصلاة فافحص عملك.

الإعداد لكل صلاة بالاستقامة الكاملة:

يجب أن تَعدّ للصلاة بعد أن تنتهي منها، تعد للصلاة القادمة، فمن صلاة الفجر وحتى صلاة الظهر

يجب أن تعد لصلاة الظهر، تعد بغض البصر، تُعد بالصدق، تعد باستقامة اللسان، تعد بضبط الجوارح، تعد بأن لا تقع في غيبة، ولا نميمة، ولا بهتان، ولا فحش، ولا كذب، ولا تدليس، ولا كبر، ولا استعلاء، ولا طغيان، ولا عدوان، ولا مجاوزة، ولا احتقار ولا سخرية، هكذا، مادام هناك ضبط للجوارح، واللسان، للقلب، إذا أذن الظهر فقد أقمت الصلاة، هذه الساعات الطويلة التي أمضيتها في طاعة الله وخدمة خلقه تعينك على أن تصلي.

أذن الظهر، وصليت الظهر، الآن تهيئ نفسك لصلاة العصر عن طريق الضبط والخدمة، والعمل الصالح، لذلك ما من كلمة أروع من أن تكون ذيلاً لهذه الآية من كلمة:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

الله عز وجل يرى، وإنك ـ أيها العبد ـ مكشوف أمامه، قال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

[سورة القيامة]

إنك مكشوف أمام نفسك، فكيف أمام الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم ما خفي عنك، يعلم السر، ويعلم ما يخفى عنك ؟

أيها الإخوة الأكارم، الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، وكل ثمار الدين تجنونها في الصلاة.

عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: قَالَ: مِسْعَرٌ أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((يَا بِلَالُ، أَقِمْ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود، أحمد]

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ))

[النسائي]

في الصلاة اشتقاقُ مسحةٍ من الجمال الإلهي:

إنّ التفاحة مخلوقة، أعطاها الله شيئا من جماله، طعمها خاص، إذا تناولت ما لذ من الطعام والشراب فهذا اتصال، حينما تبلع هذه اللقمة ما الذي يحصل ؟ يدفع اللسان هذه اللقمة إلى سقف الحلق، هناك أعصاب الذوق والحس، تشعر بالطعم حينما تحاول أن تبتلع هذه اللقمة، هذا اتصال، إذا ألقيت نظرةً على مكان جميل تشعر براحة، إذا ألقيت نظرةً على جبل أخضر، أو على بحر أزرق، أو على طفل

وديع، أو على شيء نفيس، هناك تناسق بالألوان، تشعر بشيء من السرور والراحة، فما قولك إذا وقفت بين يدي الله عز وجل، إنك تتصل بمنبع الجمال، بأصل الجمال، كل ما في الكون من جمال هو مسحة من جمال الله عز وجل، فلذلك الصلاة هي القصد، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُون)

[سورة الذاريات]

حالة الاستغراق في الله، الاستغراق في محبته، في الإقبال عليه، وفي القرب منه، قال تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

[سورة القمر]

لذلك قال تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، أن تنتهي بها عن الفحشاء والمنكر شيء سلبي، آثار سلبية، أما آثارها الإيجابية فإذا ذكرت الله ذكرك الله عز وجل، وإذا ذكرك الله أنعم عليك، وأمدك بمدد منه، وحفظك، ووفقك، ورفع شأنك، وأسعدك، وقربك، وأكرمك.

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

[سورة البقرة]

وإذا ذكَرك الله عز وجل فذِكْره لك خير من كل عملك، من كل صلاتك، من كل طاعتك، أما أنت إذا ذكرته، ذكرك له في الصلاة خير من كل أركان الصلاة، ماذا يعني أن تقف، وأن تركع، وأن تسجد، وأنت غافل وساهٍ، فلذلك ذكر العبد لربه في الصلاة أهم ما في الصلاة، أكبر ما في الصلاة، أبرز ما في الصلاة، خير ما في الصلاة.

آية عظيمة في الذكر:

وآيات الذكر كثيرة جداً من أبرزها:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42) هُوَ الّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً(43))

الحكمة من إفراد النور وجمع الظلمات:

النور مفرد، أما الظلمات فجمع، لماذا ؟ الظلمات رمز الباطل والباطل متعدد والنور رمز الحق والحق

واحد لا يتعدد، لذلك الحق يجمع والباطل يفرق، الحق واحد، كل من سار في هذا الطريق التقى مع أخيه، أما الباطل فمتعدد، قال تعالى:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

[سورة الحشر]

فمن ثمار الصلاة أن الله سبحانه وتعالى قال:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب]

(وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

[سورة إبراهيم]

من أساليب الدعوة إلى الله: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة العنكبوت]

حينما قال الله عز وجل: يا محمد اتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب، هذا الكتاب اتله على الناس، ولكن إياك أن تجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فالدعوة إلى الله ليس من أهدافها الخصومات والمشاحنات، وكسر الرأس، وإقامة الحجة، والتحطيم لا، كلما كنت أقرب إلى الله عز وجل سموت عن هذا المستوى، مع أن الله سبحانه وتعالى أمر النبي عليه الصلاة والسلام فقال له:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة العنكبوت]

معنى: أَحْسَنُ:

أحسن اسم تفضيل، فإذا كان هناك عشر عبارات حسنة فيجب أن تختار الأحسن، إذا كان هناك أساليب كثيرة كلها حسنة يجب أن تختار الأحسن.

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة العنكبوت]

هدف الدعوة هداية الناس لا الاستعلاء عليهم:

ليس هدفك أن تقيم عليه الحجة، أن تحقره، أن تصغره أن تسحقه، أن تنتصر عليه، أن تستعلي عليه، لا ليس هذا من أهداف المؤمن، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أدبه الله عز وجل قال تعالى:

(قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة سبأ]

من يصدق هذا الكلام ؟ كلام الله، يا محمد، قل لهم:

(وَلاَ تُسْأَلُونَ)

تطييباً لقلوبهم، إن ظننتم أن عملي في الدعوة إلى الله جريمة إنكم لن تُسألوا عن ذلك، وأنتم في معارضتكم، وفي إطفائكم للحق، الله عز وجل علم النبي أن يسميه عملاً، قال تعالى:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة سبأ]

الحق إما معنا أو معكم، ونحن إما على خطأ أو على صواب، هذه تسوية كاملة، وهذا من أدب المناقشة، لذلك الله عز وجل يقول:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة النحل]

إن دعوت إلى الله، إن دعوت إخوانك، أصدقاءك، أصحابك، تلامذتك، هناك محبة، وثقة، ومودة، ورحمة، بالموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، أما إذا جادلت هذا الشخص الخصم، هذا الشخص المعارض، فهذا الشخص عنده حساسية بالغة، هذا الشخص ينبغي أن ترحمه، أن تتلطف معه، لا أن تستعلي عليه.

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

كأن الله سبحانه وتعالى يعلمنا طريق عرض الحق، لا تكن عنيفاً، الله سبحانه وتعالى يقول للنبي عليه الصلاة والسلام:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران]

هذا في حقّ النبي فكيف بمَن هو دونه !!!

وأنت رسول، وأنت نبي، وأنت يوحى إليك، وأنت المعصوم، وأنت سيد ولد آدم، لو كنت فظاً غليظ

القلب لانفضوا من حولك، فكيف إذا لم تكن نبياً، ولا رسولاً، ولا يوحى إليك، ولا معصوماً، بل كنت إنسانا عاديا، إذا كان النبي على كماله، وعلى رفعة شأنه، وعلى عصمته، وعلى انفراده بالمقام العالي، وعلى أنه يوحى إليه مأمور أن يكون لطيفاً مع أصحابه،

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

فكيف إذا دعا إلى الله إنسان عادي فهذا يجب أن يضاعف من المودة والرحمة والتواضع كي يجذب قلوب الناس إليه.

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

[سورة العنكبوت]

إذاً: كما قال عليه الصلاة والسلام:

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

[ورد في الأثر]

قد قلت لكم في درس سابق: قال تعالى:

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ)

[سورة النمل]

يجب أن تعمل صالحاً لا وفق مزاجك، ولا وفق اجتهادك، ولكن وفق ما يريد الله سبحانه وتعالى.

إن شاء الله تعالى في درس قادم نصل إلى الآيات التالية، وهي قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48))

[سورة العنكبوت]

لماذا كان النبي عليه الصلاة والسلام أمّياً ؟ وما الحكمة من ذلك ؟ وما كان يضره لو كان متعلماً يقرأ ويكتب ؟ وماذا كان ينتج عن ذلك، هذا موضوع دقيق جداً، أمّيّة النبي عليه الصلاة والسلام، هذا إن شاء الله تعالى ندرسه في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (14-16): تفسير الآيات 47 - 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-01-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي بتوفيق الله إلى قوله تعالى:

(وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ)

[سورة العنكبوت]

وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ

يعني كما أنزلنا على موسى التوراة، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى داود الزبور، كما هو شأن الله عز وجل في إرسال الرسل، وإنزال الكتب كذلك أنزلنا إليك الكتاب، أي هذا القرآن، وإذا سماه الله قرآناً فلأنه يُقرأ، وإذا سماه كتاباً فلأنه مكتوب.

(وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ)

هؤلاء أهل الكتاب لهم أنبياء، لهم كتب يعرفون بها ما الوحي، وما الكتاب، وما النبي، وما المعجزة، هذا شيء يعرفونه، وشيء يألفونه.

فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

ومن هؤلاء العرب، ومن هؤلاء من يؤمن به، هؤلاء الذين ليسوا أهل كتاب، بل هم مشركو مكة، ومِن هؤلاء من يؤمن به.

إذاً: كذلك يعني كما أنزلنا على موسى التوراة، وعلى داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل،

(وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

أيْ هذه سنة الله في خَلقه أن لا يدع عباده بلا أمر، ولا نهي، ولا تعريف ولا توجيه، ولا إرشاد، ولا تبين، ولا إخبار، ولا إنذار، ولا إعذار، ولا وعد، ولا وعيد، هذا شأن الله، شأن رحمته، شأن حكمته، شأن حرصه على هداية الناس، شأن أنه خلقهم ليرحمهم، خلقهم ليسعدهم.

من لوازم رحمة الله عز وجل، من أسماء الله الحسنى أنه هو الهادي، وبشكل مبسط وتمثيل بسيط: إذا رأى الأب ابنه في طريق غلط فلا يمكن لأب أن يسكت، لابد من أن يوجه، لابد من أن يُحذّر، لابد من

أن يُعلّم، من أن يبين، فالمسؤولون يشقون طريقاً، وبعد شق الطريق يضعون اللافتات رحمةً بمن يمر على الطريق، هنا منعطف خطر، وهنا منزلق خطر، وهنا طريق ضيقة، وهنا تقاطع خطر، وهنا قطار سيعبر الطريق، ما هذه اللافتات، ما هذه الشاخصات إلا رحمة بهؤلاء المارة، بأصحاب المركبات، لئلا يصابوا بالأذى والهلاك.

شأن الخالق العظيم أنه لا يَدَع خلقه معطلِين عن الأمر والنهي، لا يدَع خلقه بلا توجيه، بلا تعريف، بلا تبيين، بلا أمر لصالحهم، بلا نهي عما يؤذيهم، بلا وَعد يبشرهم، بلا وعيد يخوفهم بلا بيان لحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان بلا إشارة إلى الماضي السحيق، بلا تعريف بما ينتظر الإنسان في المستقبل البعيد، هذا كله من شأن الله عز وجل.

(وَكَذَلِكَ)

يعني كما أنزلنا على موسى التوراة، وعلى عيسى الإنجيل، وكذلك أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن، لأن هذا من شأن الله، هكذا تقتضي رحمة الله.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((.... يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[مسلم ـ الترمذي ـ ابن ماجة ـ أحمد ـ الدارمي]

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)

ينبغي أن يؤمنوا به، لأنهم أصحاب كتاب يعرفون ما النبي ؟ وما الوحي ؟ وما الكتاب ؟ وما الشرع ؟ ومن بعض هؤلاء العرب المشركين مِن أهل مكة مَن يؤمن به، مَن حَكَّم عقله، وأدرك أن هذا النبي إنما هو نبي من عند الله، وأن هذا القرآن كلام الله، فيؤمن به.

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الْكَافِرُونَ

هذا الذي يرفض الإيمان، هذا الذي يجحد آيات الله في الكون، وآيات الله في القرآن، إنما هو كافر بنعمة الله، ما عرفها، وما قدرها حق قدرها، الآية الأساسية في هذا الدرس قوله تعالى:

حكمةُ اللهِ في أُمِّيَّةِ النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

النبي عليه الصلاة والسلام أميٌّ، هكذا وصفه الله عز وجل، وقد لا يرتاح المسلم بسذاجة إلى أن النبي أميٌّ، إن عظمة النبي تكمن في أنه أمي، لماذا ؟

لو أن الله سبحانه وتعالى جدلاً أو فرضاً جعله يقرأ ويكتب، لو أن هذا النبي الكريم تعلّم القراءة والكتابة، وقرأ ثقافة عصره، واستوعب ما في هذا العصر من ثقافة، والثقافة تعني خبرات البشر المتراكمة، ثقافة أية أمة، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقرأ، ويكتب، وقد استوعب ثقافة عصره كما هو الوصف لبعض العباقرة، أو لبعض المبدعين، أو لبعض الأدباء، أو لبعض العلماء، يقولون: إنّ فلاناً قد استوعب ثقافة عصره، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام استوعب ثقافة عصره، وكان يقرأ، ويكتب، ولو اطلع على ما في الكتب، وما في الحضارات، ثم جاءه الوحي، إن أيّ إنسان سيسأله كل يوم، وفي كل وقت، مع كل كلمة يتلوها على قومه، يا رسول الله، أهذه من عندك أم من الوحي ؟ يختلط الوحي بالثقافة، ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقرأ، ويكتب، وقد استوعب ثقافة العصر لجعل الناس الوحي دراسةً، لجعل الناس الوحي ثقافةً، لجعل الناس الوحي اطّلاعاً، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ، ويكتب لتوصلنا بهذا إلى إنكار نبوة النبي، وإلى إنكار الوحي، ولكن حكمة الله جل وعلا شاءت أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام أمياً.

ولا يذهبن بكم الظن أن كلمة أُمّي تعني أنه لا يعلم، لا، قد يأتينا طبيب من أرقى فروع الاختصاص، ولكنه يجهل لغتنا جهلاً مطبقاً، فهو في لغتنا أُمّي، وهو يمثل أعلى درجات العلم، وكلمة أمي تعني أنه لا يقرأ لغة.

أنا أحياناً حينما أُمسك ورقة تخطيط قلب لا أفهم منها شيئاً، فأنا أُمّي في هذا، أما إذا قرأها طبيب فيقول: القلب سليم، أو فيه اضطراب، أو فيه اضطراب في النظم، أو ما شاكل ذلك.

لذلك معنى أمي:

يا أيها الأمي حسـبك رتبـةً في العلم أن دانت لك العلماءُ

***

كلما ارتفعت قيمة المعلِّم ارتفعن قيمة التلميذ:

الآن إنسان يحمل ليسانس أو ماجستير في الشريعة، يأخذ بعض الأحاديث الشريفة فيدرسها، ويحللها، ويدرس صيغها ومضامينها وأبعادها، يؤلف كتيباً صغيراً، يمنح على هذا الكُتَيب لقب دكتور، لأنه فهم بعض أحاديث النبي، فلذلك إذا قلنا: إن النبي أمي يجب أن نقول: ولكن يوحى إليه، من الذي يوحي إليه؟ إذا قلنا: إن فلاناً تلميذ فلان، كلما ارتفع المدرس ارتفع معه التلميذ، أنا أستاذي فلان، هؤلاء الأطباء قد يقولون: أنا فلان الفلاني البروفيسور الفلاني، الذي أجرى عشرة آلاف عملية قلب مفتوح هو أستاذي، كلما رفعتَ من قيمة الذي علّمك ترتفع معه، من الذي علم النبي عليه الصلاة والسلام ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، وكفى بنبينا شرفاً وفخراً أن الله أوحى إليه.

لذلك مرةً جرت مناقشة بين أناس لا يقدّرون أُمّية النبي وأناس يعرفونه قدره حق القدر، فقالوا: أنتم نبيكم أمي، فكان الجواب: ولكنه يوحى إليه، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يقطع على كل الناس، وعلى كل المشككين، وعلى كل الكافرين، وعلى كل الملحدين، أن يقطع عليهم طريق إنكار نبوة النبي، فجعله أمياً لا يقرأ ولا يكتب، لماذا ؟ ليكون الوحي ظاهرةً جلية.

ظاهرة الوحي:

أيها الإخوة الأكارم، موضوع أمّية النبي ينقلنا إلى ظاهرة الوحي، ظاهرة الوحي هي الأساس في الدين، كل هذا القرآن جاءنا عن طريق الوحي، هذا الكلام كلام الله، بما فيه من أوامر ونواهٍ وأخبار، وتحليل وتحريم، وما فيه من وعد ووعيد، ما فيه من توجيه، كل ما في هذا الكتاب جاءنا عن طريق الوحي، إذاً: موضوع الوحي موضوع خطير جداً في الإسلام، لأنه على فهمه الدقيق، وعلى اليقين به يترتب كل فهمك لكلام الله ولسنة نبيه.

أيها الإخوة الأكارم، في الوحي شيءٌ يجب أن يُعلم عِلماً يقينياً، هو أن ظاهرة الوحي تتمثل في شيء و، في حقيقةٍ خارجة عن إرادة النبي لا يملك جلبها ولا ردّها، لو أنه يملك جلبها لاختلط الشيء، لو أنه يملك ردها لاختلط الأمر، حقيقة الوحي أن الوحيَ مستقل تمام الاستقلال عن كيان النبي، لا يملك جلبها متى شاء، ولا ردها متى شاء، لذلك عَنْ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ:

((كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، قَالَ: وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ...))

[متفق عليه]

ليكون هذا الوحي واضحاً وضوح الشمس أنه ليس حلماً، وليس رؤيةً نفسيةً، ولا خيالاً، ولا وهماً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ))

فهو ليس بنائم، وعاد إلى البيت وهو خائف وقال:

((زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي))

هذا الوحي ليس حالةً نفسيةً، ليست شفافيةً نفسيةً، ليس رؤيةً نفسيةً يملك استحضارها متى شاء، وردها متى شاء، لا، الوحي شيء خارج تماماً عن إرادة النبي، لا يملك جلبها، ولا ردها.

هذا معنى دقيق جداً، لأن موضوع الوحي، وموضوع أمّية النبي موضوعان متكاملان، النبي عليه الصلاة والسلام لأنه أمي إذاً فهو مقطوع عن ثقافة عصره كلياً، فكل ما جاء به ما هو إلا وحي يوحى.

بعض الدلائل على ظاهرة الوحي:

عندنا بعض الدلائل التي تبرز ظاهرة الوحي، لا على أنها كما يدّعي بعض المستشرقين رؤية نفسية، ولا على أنها شفافية، ولا على أنها شيء ألِفه النبي عليه الصلاة والسلام، أو أحد فروع عبقريته، لا، ظاهرة الوحي ظاهرة مستقلة استقلالاً تاماً وخارجةً عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام.

الدليل الأول:

أول دليل على ذلك: أن هناك فَرقاً كبيراً جداً بين أسلوب القرآن و أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف، أليس كذلك ؟ لمجرد أن تقرأ آيةً تقول: هذا قرآن، ولمجرد أن تقرأ حديثاً شريفاً تقول: هذا حديث، هناك بون شاسع، وفرق كبير، وتمايز واضح بين أسلوب القرآن وأسلوب النبي عليه الصلاة والسلام هذا أولاً.

لو أن الوحي شيء من عند النبي كما يدعي الكفار، أو كما يدعي أعداء الإسلام، الوحي كان ينقطع، ويتألم النبي أشد الألم، وينتظر الوحي انتظاراً ممضاً، ولا يأتي الوحي، ماذا يعني ذلك ؟ لو أن الوحي شيء من عند النبي لجاء به كما شاء.

الدليل الثاني:

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ:

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ:(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)))

[ابن ماجه]

ماذا قال ؟ قال: ما أظن إلا أنك قد بنت منه ـ أي هذا طلاق لقد طلقكِ طلاقاً فيه بينونة كبرى ـ فجاء الوحي بحكم آخر.

كان عليه الصلاة والسلام يُسأل فلا يجيب، وينتظر الوحي، حينما اتّهم المُرجفون في المدينة، اتهموا أمهم أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ما اتهموها به، والأمر معروف عندكم، أصاب النبي غم شديد، هذه الزوجة الطاهرة بنت أحب الناس إليه تُتّهم تتهم في عفتها، ماذا فعل النبي ؟ تأخر الوحي شهراً بأكمله، فالوحي حقيقة مستقلة عن مشيئة النبي لا يملك جلبها ولا دفعها، وحينما جاء جبريل النبي عليه الصلاة والسلام وارتعد منه خوفاً، وقال:

((زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي))

وحينما ضمه ضمةً، وحينما انقطع الوحي فقال الله عز وجل:

(وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(5))

[سورة الضحى]

هذا كله يؤكد أن الوحي شيء لا علاقة للنبي به، إنما هو خارجي عنه يأتيه بمشيئة الله وينقطع عنه بمشيئة الله.

الدليل الثالث:

شيء آخر، لو أن هذا الوحي من عند النبي لما ذكر النبي العتاب هناك عتاب في أماكن متعددة من كتاب الله، قال تعالى:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى(4))

[سورة عبس]

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

[سورة التوبة]

إذاً: جاء الوحي بتوجيه مخالف لاجتهاد النبي عليه الصلاة والسلام، وفي هذا ما يؤكد على أن الوحي ظاهرة مستقلة عن النبي عليه الصلاة والسلام.

الدليل الرابع:

كلكم يعلم أن السيدة امرأة عمران، هذه المرأة المؤمنة التي قال النبي نقلاً عما قالته:

(إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[سورة آل عمران]

والقصة معروفة، وكانت موضوع الخطبة اليوم، قال تعالى:

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

[سورة آل عمران]

هذه الحادثة ما تعرفها أنت، وأنت أميٌّ، وما أخبرك أحد بها، أما:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ)

لها تفسير رائع جداً:

النبي عليه الصلاة والسلام لا يقرأ، لا يقرأ كتاباً، ولم يكن معهم حينما وقعت لهم هذه الحادثة التي وقعت قبل مئات السنين، أليس هذا دليلاً على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ لذلك هذه الآية التي قالها الله عز وجل:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

أنت لا تقرأ، ولا تكتب، ولكن قد يسأل سائل: كيف قال الله عز وجل:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2))

[سورة العلق]

إشكالات مدفوعة، وأوهامٌ مرفوعة:

الإشكال الأول:

كيف يأمر أن يقرأ، وهو لا يقرأ ؟ الجواب سهل جداً:

القراءة أيها الإخوة إما من كتابٍ، وإما من محفوظٍ، النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يقرأ من كتاب،

أما قوله تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7))

[سورة الأعلى]

لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، أنت حينما تقف بين يدي الله عز وجل ألا تقرأ فاتحة الكتاب أمياً كنت أم متعلماً، فالقراءة من المحفوظ هذه القراءة لا علاقة لها بهذه الآية، ولكن المقصود في قراءة هذه الآية أن تقرأ من كتاب.

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

الإشكال الثاني:

أمّا ورد في السنة المطهرة من أحاديث يُشم منها أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يعرف القراءة والكتابة فأكثرها ضعيف بل موضوع، وإذا قيل: إن النبي كتب فهذا بمعنى أمر بالكتابة، ألا تقول مثلاً: إن فلان بنى هذا البناء، يعني أمر ببنائه، فلان رجل كبير ما عرف موقع البناء، إذا قلت: فلان أقام هذا البناء، أي سمح بإنشائه، أو أمر بإنشائه أو موّله، فإذا ورد في السنة الصحيحة أن النبي عليه الصلاة والسلام كتب بمعنى أنه أمر بالكتابة، ألا نقول: الملك الفلاني كتب إلى الملك الفلاني، فهل هو كتب ؟ هو أعطى توجيهاً، وهناك من كتب له.

إذاً: أي حديث ورد في السنة يفهم منه أن النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ ويكتب فهذه الأحاديث أكثرها ضعيف، وبعضها موضوع، أما ما كان منها صحيحاً فهو بمعنى أنه أمر بالكتابة، وعلى كلٍ الذي لا يقرأ ولا يكتب لا يغيب عنه أن هذا كلام يكتب، وأن هذا حرف طويل، وأن هذا حرف مطموس، هذه الأشياء لا تنافي أمية النبي عليه الصلاة والسلام، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ ويكتب قال تعالى:

(إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

هؤلاء المشككون، هؤلاء المنكرون لنبوة النبي يتخذون من تعلمه القراءة والكتابة مطعناً في نبوته، أساساً ماذا يقول أعداء النبي وأعداء المسلمين ؟

إن الراهب بحيرا علمه كل شيء في هذه الزيارة العابرة، فكيف إذا كان يقرأ ويكتب ؟

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

قال تعالى:

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

هذه الآية دقيقة جداً أيها الإخوة، ومما يدل على أنك عالم، ومما يدل على أنك أوتيت العلم أن ترى أن هذا الكلام كلام الله، وما دور النبي عليه الصلاة والسلام إلا دور المبلغ الأمين، هذا كلام الله، بل أبلغ من ذلك كما قال سيدنا سعد: **<< إذا كنت ممن أوتيت العلم ترى أن حديث النبي عليه الصلاة والسلام حق من الله تعالى >>**، تنفيذاً أو فهماً دقيقاً، لقوله تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

[سورة النجم]

إذاً: كلما ارتقى مستوى علمك، كلما ارتقى مستوى إيمانك ترى إعجاز هذا القرآن، ترى أن هذا القرآن كلام الله عز وجل، قال تعالى:

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ)

هذا القرآن ليس من عند النبي، ولا من عبقريته، هناك من يضفي على النبي صفات العبقرية والإبداع، هو كذلك، ولكن يتوصلون من ذلك إلى إنكار نبوته، يقولون: هو عبقري، مصل كبير، عنده نفس شفافة، تراءى له ما يصلح أمته من بعده، هذا كلام فيه لغم، هذا كلام فيه مطبّ كبير، النبي عليه الصلاة والسلام رسول الله جاءه الوحي من عند الله فنقله بأمانة بالغة كما جاءه.

قال تعالى:

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

القرآن الكريم آياته واضحة بينة في صدور الذي أوتوا العلم، إذاً: من هو الذي يعلم ؟ في آية أخرى قال تعالى:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة آل عمران]

كيف يُعْرَف الرجل أنه من أولي العلم ؟!

يا أيها الأخ الكريم، إذا رأيت يد الله هي المسيطرة، وهي الفعالة، ولا يد سواها، إذا رأيت أنه لا إله إلا الله، لا معبود بحق، لا رافع ولا خافض، ولا معز ولا مذل، ولا معطي ولا مانع، ولا رازق ولا باسط ولا خافض، إذا رأيت ذلك فأنت من أولي العلم، لقول الله عز وجل:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة آل عمران]

ويجب أن ترى مع وحدانيته في التصرف يجب أن ترى عدالته حتى تكون من أولي العلم، إذا رأيت وحدانيته في ألوهيته، ورأيت وحدانيته في ربوبيته، ورأيت وحدانيته في الخلق، ورأيت وحدانيته في الأمر، ورأيت عدالته، ورأيت أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى فأنت من أولي العلم هذا شاهد. الشاهد الآخر، إذا رأيت هذا الكلام كلام الله، وأنه كلام معجز في نظمه، معجز في تشريعاته، في بلاغته، في أخباره، في وعده في وعيده، في حقائقه العلمية، في أساليبه التربوية، إذا رأيت هذه الرؤية فأنت أيضاً من أولي العلم، قال تعالى:

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ)

هناك قوله تعالى:

(وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الْكَافِرُونَ)

الكافر هو الذي أعرض عن الله عز وجل، والكافر هو ظالم لنفسه حرمها كل خير، قال تعالى:

طلبُ الكفار من الرسول الآيات الحسية:

(وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ)

يبدو أن الذين عاصروا النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يطلبون منه المعجزات.

النبي صالح فتق الجبل فظهرت منه ناقة، هؤلاء الذين كانوا مع النبي عليه الصلاة والسلام تساءلوا لمَ لمْ يأتِ النبي بآية من هذه الآيات ؟

الحقيقة هذه آيات حسية، والنبي عليه الصلاة والسلام جاء بمعجزة عقلية، والآيات الحسية تتناسب مع طفولة البشرية، بينما الآيات العقلية تتناسب مع تطورها، ومع تقدمها، الآيات الحسية لا يراها إلا من عاصرها، وبعدئذٍ تصبح خبراً يُصدّق أو يُكذّب، أما الآيات العقلية فهي معجزة النبي الخالدة، وأنت بعد ألف عام وزيادة تقرأ الكتاب، فترى إعجازه، وإذا رأيت إعجازه آمنت برسالة النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ)

لو أن النبي جاء بآية

جواب النبي لقومه: قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ

حسية ظاهرة كما جاء موسى وعيسى والنبيون من قبله فماذا أجابهم النبي بأمر الله ؟ قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللّهِ)

الله هو الذي اختار هذه الآية، ولم يختر آية حسية، هو الحكيم، هو القدير، أنا لا شأن لي بذلك، أنا لا أملك جلباً ولا دفعاً، ولا نفعاً ولا ضراً، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ))

أنا في الحقيقة لا أزيد على أنني كُلفت من قِبل الله عز وجل أن أنذركم عذاب يوم عظيم، وأُبيّن لكم موجبات هذا الإنذار، أنا أنذركم، وأُبين لكم، هذا حجم النبي عليه الصلاة والسلام، ليس في إمكان النبي أن يأتي بآية، ليس بإمكان النبي أن يبدل آية مكان آية، ليس بإمكان النبي أن يقترح على الله شيئاً، قال تعالى:

(وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللّهِ)

هو الذي يملكها، وهو الذي اختار لكم هذه الآية:

(وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

كفى بالقرآن آية ومعجزة:

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ)

ألا يكفيهم هذا القرآن معجزة ؟ هذا القرآن في حلاله وحرامه، في أمره ونهيه، في وعده ووعيده، في أخباره وفي قصصه، في أمثاله وفي حِكمه، في ذكره عن الأقوام السابقة، في ذكر المغيبات عن الإنسان، هذا القرآن بهذه الصياغة وبهذا النظم وبهذا الإعجاز وبهذه الفصاحة وبهذه البلاغة.

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

القرآن رحمة وذكرى وشفاء:

هذا الكتاب رحمة كبيرة، ولذلك القرآن الكريم ذكر شفاءَين: العسل فيه شفاء للناس لأجسامهم، والقرآن

شفاء لما في الصدور، فذا أردت أن يشفى جسمك فتناول العسل، وإذا أردت أن تشفى نفسك فاقرأ القرآن، ولم يرد لفظ الشفاء في القرآن إلا في موضعين، في موضع شفاء الأجسام، وموضع شفاء النفوس، قال تعالى:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

[سورة الإسراء]

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

المؤمن يكون القرآن له ذكرى، فإذا طبقه يكون له رحمة، أما الآية التالية فدقيقة جداً في فهمها، قال تعالى:

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

الله جل في علاه يشهد لي أن هذا الكلام كلامه، بربكم كيف يشهد الله بذلك ؟ الله في عُلاه يشهد لي، وتكفيني شهادته أن هذا الكلام كلامه، وليس من عندي.

محور الآيات اليوم كله إثبات أن هذا القرآن كلام الله، ليس من عند النبي، إن هو إلا وحي يوحى، لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، كيف ؟ بعض الأمثلة:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل]

كيف يشهد الله لنبيه أن القرآن كلام الله ؟

هذه آية وردت في القرآن، شيء جميل، إذا جاء مؤمن، وآمن بالله، واستقام على أمره، وعمل صالحاً لابد من أن يشعر أن شيئاً تغير في حياته، شعر بسعادة، شعر بطمأنينة، شعر بقربه من الله عز وجل، شعر أن معاملة الله له تغيرت، صار موفّقاً، صار مصيباً في كلامه، صار مُسدّداً في أفعاله، يشعر أن تطوراً جذرياً طرأ على حياته، يشعر أن انقلاباً كاملاً طرأ على حياته، كان في الجحيم فصار في النعيم، كان في التشتت فصار جمع الشمل، كان في التشتت فصار في الجمع، كان في البعد فصار في القرب، كان في الجفوة فصار في المودة، كان في التعسير فصار في التوفيق، هذه الحياة الطيبة وما فيها من توفيق، وتسديد، وحفظ، ورعاية، وإكرام وتجلٍّ وقرب، أليست شهادةً من الله عز وجل على أن

هذه الآية كلامه، كيف يشهد لك الله عز وجل ؟ كيف يشهد الله عز وجل للنبي أن هذا الذي جاء به ليس كلامه، بل هو كلام الله؟

الطريق الأولى: الحياة الطيبة:

أنك إذا طبقت وعده قطفت الثمار، وإذا تجاوزت حدوده دفعت الثمن.

الفكرة دقيقة جداً، مثلاً: الحياة الطيبة من طمأنينة القلب، إلى سلامة الجسم، إلى وفرة في الدخل، إلى شيء من الراحة النفسية، إلى شيء من توفيق الله عز وجل، هذا لا يفعله إلا الله، هذا قَدَر الله عز وجل، فإذا آمنت بالله، واستقمت على أمره، وشعرت بما وعدك الله إذاً فهذه الحياة الطيبة هي من قدر الله لك، قدرها لك تأكيداً لوعده في القرآن، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل]

وهكذا شهد الله للنبي أن هذا القرآن هو كلام الله، وشهد لك أن هذا القرآن كلامه.

الطريق الثانية: أفعال الله:

إذا قرأ إنسان قوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

[سورة البقرة]

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

[سورة البقرة]

كان هذا شاهدا على أن هذا كلام الله، إنسان مرابٍ ذكي جداً، ويبدو أن المال بين يديه لا يعد ولا يحصى، وأنه يزداد توفيقاً، ومنعةً، وغنىً، ثم بضربة قاصمة أصبح صفر اليدين، بين عشية أو ضحاها أصبح مشرداً، أين أمواله الطائلة ؟ أين ممتلكاته ؟ أين عوائد أمواله في البنوك ؟ محقه الله، أليس مَحْقُ هذا المرابي شهادة من الله لك أيها الإنسان أن هذه الآية كلامه ؟ هذه الشهادة.

مثل آخر: إنسان ما عبأ بهذا الدين قال: ما هذا الدين ؟ سلوك قديم لا يتناسب مع هذا العصر، هذا عصر العلم، هذا الدين أشياء غيبيات، وعاش كما يشتهي، ولم يستقم على أمر الله، أخذ المال مما أراد بحق أم بغير حق، وأطلق لشهواته العنان بحق أم بغير حق، فإذا حياته قطعة من الجحيم يقول لك: ليس في الأرض من هو أشقى مني، أليست هذه الحياة الشقية التعيسة التي فيها القهر، والخوف، والقلق،

والتشتت، والتبعثر، والتمزق، واليأس، أليست هذه الحياة الضنك شهادة الله له على أن قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه]

هذه شهادة، أنا أريد من هذه الأمثلة أن أصل إلى تفسير هذه الآية

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

أيها الكفار، كما يقول النبي لكفار مكة، يكفيني شهادةً أن الله يشهد لي بأنني رسوله، وأن هذا الكلام كلامه كيف ؟ ذلك حينما يتحقق وعده ووعيده.

فرضاً: طالب دخل إلى الصف فرأى على السبورة الكلمة التالية:

كل من لم يكتب الوظيفة غداً فسيفصل عن المدرسة أسبوعا.

يا ترى هذا الكلام كلام المدرس، أم كلام طالب خطه جيد ؟ أم مزحة كلام جاد، ما هذا الكلام ؟ هو حمله على أنه كلام أحد الطلاب، وفي اليوم التالي ما كتب الوظيفة، فلما علم المدرس أنه ما كتبها عد ساعة صدر قرار عن مدير الثانوية بفصله أسبوعاً، قرار الفصل ألا يشهد لهذا الطالب أن هذا الخط الذي على السبورة هو خط المدرس وكلامه ؟ والدليل قرار الفصل.

هذه الفكرة، والحياة الطيبة التي تحياها شهادة الله لك على أن هذه الآية كلامه، والحياة الضنك التي يعيشها المعرض شهادة الله لهذا المعرض على أن هذه الآية كلامه، ومحق أموال المرابي شهادة من عند الله على أن هذه الآية كلامه، وحينما تربو أموال الصدقات وتزيد، ويمحق الله الربا، ويربي الصدقات، إذا تصدقت بمالك.

لا يوجد أخ من الإخوة الحاضرين يدفع شيأً من ماله إلاّ ويقول: والله يا أخي الله عوضني أضعافا مضاعفة، هذا التعويض من قبل الله عز وجل على صدقتك أليس شهادة من الله عز وجل على أن هذا الكلام كلامه ؟

إذاً هذه الآية مهمة جداً:

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

حينما تطبق أمر الله، وتقطف ثماره اليانعة، وأنت في الحياة، هذه الثمار اليانعة هي شهادة الله لك، وأن هذا القرآن كلامه، وحينما تحيد عن منهج الله، وتدفع الثمن باهظاً، هذا الثمن الباهظ شهادة الله للمنحرف أن هذا القرآن كلامه، لذلك اقرأ القرآن، فكلما رأيت أمراً أو نهياً فاحرص على تنفيذ الأمر، وترك النهي، وراقِب الذين أكلوا مالاً حراماً كيف أن الله سبحانه وتعالى يمحق مالهم، وأن الذين اختاروا الطريقة المشروعة في كسب المال كيف أن الله يزيد من أموالهم، راقب الآيات الكريمة ترَها مطبقة.

إنّ إنكار القرآن لا يُوقف تطبيقه، القرآن مطبّق، كما تقول: للسقوط قانون، إذا ألقيت حجراً من طائرةٍ

هذا الحجر خاضع لقوانين السقوط، إنك إن صدقت هذا القانون أو لم تصدقه فهو واقع، تصديقك لا يلغي تطبيقه، ولا علاقة له بتطبيقه، صدق أو لا تصدق، هو واقع، وأوامر الله، وعده واقع، ووعيده واقع، وهذه الحياة بين يديك، إنه بإمكانك أن تعرف الله من خلال الكون، عن طريق التفكر، قال تعالى:

(وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

[سورة آل عمران]

الطريق الثالثة: تدبر القرآن:

وبإمكانك أن تتعرف إلى الله عز وجل من خلال القرآن عن طريق التدبر، الأمر، النهي، والوعد، والوعيد، البشارة، الإنذار، حقيقة الحياة، حقيقة الإنسان، حقيقة ما بعد الموت، أين كنا قبل الموت ؟ ما التكليف ؟ ما الرسالة ؟ ما الأمانة ؟ كله تعرفه.

وبإمكانك أن تتعرف إلى الله من طريق ثالث، عن طريق النظر في الحوادث، الحوادث أفعاله، والكون خلقه، والقرآن كلامه وكل هذه الطرق سالكة إليه، يمكن أن تعرفه من خلال خلقه ومن خلال أمره ومن خلال أفعاله، فلذلك قال تعالى:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

يجب أن توقن أنه آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، يجب أن توقن يقيناً يشبه يقينك بوجودك، يجب أن توقن يقيناً يشبه يقينك بأشعة الشمس، وهي في كبد السماء أن هذا القرآن كلامه، وأن أمره واقعٌ، وأن وعده واقعٌ، وأن وعيده واقعٌ، يكفي أن تطبق شيئاً وفق ما أمر القرآن، قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء]

في زواجك، في تجارتك، في صناعتك، في بيعك، في شرائك في علاقاتك، في أفراحك، في كل مناسبة من حياتك، فيما بينك وبين الله، فيما بينك وبين أهلك، فيما بينك وبين أولادك، فيما بينك وبين الناس:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء]

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه]

قال تعالى:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

هو يشهد لي لأن الفعل مطابق لكلامه، أفعاله مطابقةٌ لكلامه، والآن عند الناس جميعاً بالفطرة حينما يصاب إنسان، حينما يتلف ماله كله يشعر الناس جميعاً لعل في هذا المال حرمة، لعله اغتصب من حرام، حينما يُقدم إنسان على إيقاع الأذى بالآخرين ينتظر الناس أن يوقع فيه الأذى، هناك إله عادل، هناك وعد ووعيد، هذه الآية مهمة جداً هي محور الدرس كله:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

الطريق الرابعة: التوفيق والتيسير والتعسير:

التوفيق، قوله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

[سورة الليل]

التيسير شهادة الله لك أنك أعطيت، وأحسنت، وصدقت فتيسر أمرك، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

[سورة الليل]

والتعسير شهادة الله عز وجل على أن هذه الآية كلامه، قال تعالى:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ)

إنها قضية وقتٍ فقط !!!

لا يوجد إنسان على وجه الأرض كائناً من كان إلا وهو يبتغي السلامة والسعادة، فإذا علمت أنك إذا حدت عن منهج الله دفعت الثمن باهظاً في حياتك الدنيا، وفي أخراك لا تفعل هذا.

الأزمة هي أزمة علم، والأصح من ذلك وقت، لأنه لو علم الكافر ما عند الله من ثواب لأطاعه، ولو علم الكافر ما عند الله من عقاب لانتهى عما عنه نهى، ما الفرق بين الكافر والمؤمن ؟ موضوع العلم، فرعون وهو يغرق قال تعالى عنه:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس]

إذاً: القضية قضية وقت أيضاً وليست قضية علم، لابد من أن تعلم ما جاء به الأنبياء من قبل ولكن عند الموت، لكن عند الموت لات حين مناص، لا ينفع الندم بعد فوات الأوان، إذاً الدرس كله ملخص

بكلمتين، المشكلة مشكلة علم أو جهل، الجاهل يفعل في نفسه ما لا يفعله عدوه به، لو أحضرنا أعدى أعداء الإنسان، وقلنا له: افتك بهذا الإنسان، هو بين يديك، لا يستطيع هذا العدو أن يفتك بهذا الإنسان كما يفتك هذا الإنسان بنفسه إذا كان جاهلاً.

الخروج عن منهج الله سبب مشكلات الأرض كلها:

والله الذي لا إله إلا هو ما من مشكلة في الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، مشكلات الأسَر، مشكلات الزواج، مشكلات الطلاق، البيع الشراء، كسب المال، إنفاق المال، مشكلات الصحة أبداً، ما من مشكلة في الأرض إلا بسبب الخروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، فالمشكلة مشكلة جهل، لهذا قال الله عز وجل:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر]

بعد مشكلة الجهل مشكلة وقت، فإما أن تعرف قبل فوات الأوان، وإما أن تعرف بعد فوات الأوان، بعد فوات الأوان لابد من أن تعرف، قال تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق]

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[سورة الفجر]

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً(28))

[سورة الفرقان]

إنها مشكلة وقت، إذاً: فما الإنسان ؟ بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بعض منه، مشكلتنا مشكلة علم أو جهل، ومشكلة علم بالوقت المناسب، وليست علمًا فقط، وأنت شاب صحيح، قوي، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

[الحاكم]

لا تحب أحداً، أحبب نفسك وحدها، إذا أحببت وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك فهذا منهجك.

هذه تعليمات الصانع، أنت آلة معقدة، إما أن تسحقها، وإما أن تعطبها وتعطلها، وإما أن تجعل مردودها ضعيفاً، وهذه التعليمات، لا تحب أحداً، أحب نفسك، إن أحببت نفسك فهذا منهج الله، والدنيا ساعة اجعلها طاعة، والقبر صندوق العمل، والموت قريب.

نحن في هذا الجامع أنا والله أذكر أكثر من خمسين أخا توفوا ـ رحمهم الله ـ كل فترة يوجد أخ توفي، رحل عنا، أين هو ؟ دخلت إلى بيوت فخمة جداً، أين أصحابها، أين هم ؟ تحت أطباق الثرى رهن أعمالهم، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ(51))

[سورة المدثر]

خلقت لك السماوات والأرض، ولم أعيَ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (15-16): تفسير الآيات 52 - 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-01-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة العنكبوت، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

من معاني شهادة الله بأحقية القرآن ورسالة النبي العدنان:

هذه الآية أيها الإخوة لها معانٍ كثيرة، في الدرس الماضي تحدثت عن بعض معانيها.

المعنى الأول:

المعنى الآخر: هو أنك إذا كنت على حق، يكفيك طمأنينة أن الله يعلم ذلك، يكفيك شعوراً بالأمن والراحة أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، فإذا وحّد الإنسان استراح قلبه، وإذا أشرك أصابه عذاب شديد، لقول الله عز وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذّبِينَ)

(سورة الشعراء)

إن أعلى أنواع العلم أن توحد الله عز وجل، نهاية العلم التوحيد، إن كذبوك، إن كنت على حق، وهناك من سَخِر منك، إذا كنت على حق، وهناك من استخف بآرائك، إذا كنت على حق، والله سبحانه وتعالى راض عنك، وهناك من يشكّك فيك، هذه آية دقيقة جداً.

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً)

لماذا ؟ لأن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، هو العليم، لهذا يقول الإمام علي كرم الله وجهه:

<< من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به >>.

حينما لا تستطيع أن تقنع الآخرين بأنك على حق، أو حينما يتعنت الآخرون، حينما يجحد الآخرون، حينما ينكر عليك الآخرون، كفاك فخراً وطمأنينة وشعوراً بالإنصاف أن الله يعلم نياتك، ويعلم أنك على الحق.

(قُلِ اللّهُ ثُمّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأنعام)

هذا معنى آخر من معاني قوله تعالى:

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً)

المعنى الثاني:

هو أن النبي عليه الصلاة والسلام رسول الله، من الذي يشهد للنبي عليه الصلاة والسلام أنه رسول الله؟ الله سبحانه وتعالى، كيف شهد الله لسيدنا موسى أنه رسوله ؟ أعطاه معجزات، أمسك بالعصا فإذا هي ثعبان مبين، ونزَع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، ضرب بعصاه البحر فإذا البحر طريق يبس، هذه المعجزات الحسية شهادة الله عز وجل لرسوله موسى عليه السلام أنه نبيه، وحينما أحيى سيدنا عيسى الميت، وحينما أبرأ الأكمه والأبرص، شهد الله عز وجل لسيدنا عيسى أنه رسوله، فكيف شهد الله عز وجل لنبينا عليه الصلاة والسلام أنه رسوله ؟ لا بد من أن يعطيه شيئاً لا يستطيعه البشر ! لا بد من أن يكون معه دليل من خالق البشر، إن معجزات الأنبياء السابقة كانت معجزات حسية، والمعجزات الحسية تنقضي بانقضائها وتصبح خبراً، فإما أن يُصدّق، وإما أن لا يصدق، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لكرامته على الله عز وجل، ولأنه سيد الأنبياء والمرسلين، ولأنه سيد ولد آدم، ولأنه سيد الخلق وحبيب الحق، أكرمه بمعجزة من نوع آخر ! أكرمه بمعجزة خالدة، بإمكان أي إنسان جاء بعد النبي أن يكتشف بالدليل القطعي أن سيدنا محمداً هو رسول الله من خلال هذه المعجزة التي بين أيدينا، معجزة النبي عليه الصلاة والسلام لم تكن معجزة حسية وقعت، وانقضت، وأصبحت خبراً يصدق أو لا يصدق، إنها معجزة خالدة إلى يوم القيامة. الرسول الكريم قال:

((ألا ترضون أن يشهد الله لي بأني رسوله ؟!))

[ورد في الأثر]

كيف ؟ هذا الكتاب الذي بين أيديكم.

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء)

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً)

القضية متسلسلة ومنطقية، ما الذي يشهد لنا أن هذا الإنسان هو رسول الله ؟ إنه القرآن، وما الذي يؤكد لنا أن هذا الذي بين أيدينا كلام الله ؟ هو الإعجاز، إذاً بإمكانك عن طريق قراءة القرآن وتدبره، والتأمل فيه أن تكتشف إعجازه، فإذا اكتشفت إعجازه كان هذا القرآن دليلاً لك على أن سيدنا محمداً صلى الله

عليه وسلم هو رسوله، فإذا كان القرآن كلامه، والنبي رسوله، إذاً أنت ليس لك إلا أن تذعن لأمر الله عز وجل، لذلك كل ما جاء به القرآن، وكل ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام هو من عند الله، فإما أن تكون عبداً لله، وإما أن تأبق عن عبادته !

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

إن الطبيب مسموح له أن ينظر إلى أحد أعضاء المرأة لمعالجته، لو أن عين الطبيب نظرت إلى مكان آخر لا يبعد عن المكان الأول إلا بعشرين سنتيمترا، هل في الأرض كلها جهة تستطيع كشف خيانة هذه العين ؟ لا، لكن الله سبحانه وتعالى قال:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

العين قد تخون، قد تنظر إلى ما ينبغي، قد تجعل بؤرة النظر إلى مكان آخر غير العضو الذي يعالجه الطبيب، إذاً الله سبحانه وتعالى وحده يعلم، يعلم كل شيء، يعلم خائنة الأعين، يعلم ما تخفي الصدور، يعلم السر، ويعلم ما هو أخفى من السر، هناك علانية تُعلنها، وهناك سر تخفيه، وهناك شيء يخفى عنك أنت ! إن الله يعلمه.

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً)

المعنى الثالث:

الكتاب بإعجازه يشهد لنا أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسوله، والنبي عليه الصلاة والسلام يحدثنا عن ربه يقول كذا، وكذا، وكذا ز

المعنى الرابع:

المعنى الذي طرحته في الأسبوع الماضي: إن هذا القرآن أيضاً إذا شئت أن يشهد الله لك أنت أيها المؤمن أنه كلامه فإليك التفصيل !

طبّق آية من آياته، نفّذ أمراً من أوامره، ثم انظر كيف أن الأحداث الخارجية، وكيف أن القضاء والقدر يتجه لتحقيق الوعد الذي وعدك الله إياه في القرآن ! وسقتُ على هذا آيتين في الأسبوع الماضي.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

الحياة الطيبة التي هي من قدر الله عز وجل إنما هي شهادة الله لك ـ أيها المؤمن ـ أن هذا القرآن كلامه، والمعيشة الضنك التي هي من قدر الله تعالى، هي شهادة الله لك ـ أيها المؤمن ـ أن القرآن حق.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

إذاً: هناك إعجاز في القرآن، وهناك تأويل القرآن، والتأويل هنا بمعنى خاص، وهو أن يقع الوعد والوعيد، وقوع الوعد والوعيد هو تأويل القرآن، إذا دُمّر مال المرابي فهو تأويل آية الربى، إذا نما مال المتصدق فهو تأويل آية الصدقة، إذا حفظ المال من التلف هو تأويل آية الزكاة، إذا نجح الإنسان في الحياة في شتى الميادين هو تأويل قوله تعالى:

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

طمأنينة المؤمن التي يتميز بها عن الآخرين هو تأويل الله لقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت)

حينما يأتيك رزق من حيث لا تحتسب، وأنت قائم على أمر الله هو تأويل قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

خلاصة طرق معرفة أن القرآن والنبي العدنان من عند الله الرحمن:

لذلك الأحداث الخارجية تؤكد آيات القرآن الكريم، إذاً إما أن تنظر في آيات القرآن الكريم فترى فيه من الإعجاز اللغوي، والإعجاز البلاغي، والإعجاز البياني، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز الإخباري، والإعجاز التاريخي، والإعجاز الرياضي، والإعجاز الحسابي، وإما أن تتأمل الأحداث، فإذًا هي تؤكد القرآن الكريم، الأحداث الخارجية كلها تؤكد آيات القرآن الكريم. لذلك قيل: إنك إذا أردت أن تعرف الله عز وجل فتأمل في آيات الله الكونية، وتفكر فيها تتعرف إليه، وإن أردت أن تتعرف إلى الله تعالى تأمل في آياته القرآنية، وإن أردت أن تعرف الله تعالى انظر إلى الأحداث الخارجية، الأحداث الخارجية تؤكد لك أنه في السماء إله وفي الأرض إله، وآيات القرآن تؤكد أنه كلامه، والكون يجسّد أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

معنى علم الله عزوجل: يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأرض

كلمة (يعلم) كما قلنا في درس سابق: إن الله سبحانه وتعالى منزه حتى عن صفات الكمال التي تخطر في بالنا، لأنه كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، أنت إذا رأيت هذا الكأس انتقل من هذا المكان إلى هذا المكان تقول: علمت بانتقاله، لكن إذا أنت نقلته فهذا علم آخر، علم الله من نوع آخر، لا كعلم الإنسان، فقد يراقب الإنسان شيئاً قد تحرك، يقول: أعلم أنه يتحرك، أعلمُ أنه انتقل، ولكن لا يقع شيء في الكون إلا بقدرة الله ومشيئته وبعلمه.

فإذا قلنا: إن الله يعلم فالعلم له معنى آخر غير المعنى الذي يتبادر إلى أذهان الناس حينما يقولون: نعلم أو لا نعلم.

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ)

ما هو الحق والباطل ؟

ما الباطل ؟ ما تعريف كلمة الباطل ؟ الشيء الزائل، والحق واحد، ما تعريف الحق ؟ في الأصل الحق هو غير الباطل، والحق هو غير اللعب، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة التغابن)

فخلق السماوات والأرض ثابت بالحق، الحق ملازم له، وحينما نفى الله عز وجل عن خلق السماوات والأرض أن يكون هذا الخلق باطلاً قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

(سورة ص)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الدخان)

حينما نفى اللعب والبطلان عن خلق السماوات والأرض، وأثبت أن خلق السماوات والأرض كان بالحق، إذاً: ما الحق ؟ هو شيء مناقض للباطل، والباطل هو الشيء الزائل، فالحق إذاً: هو الشيء الثابت إلى الأبد، هذا هو الحق، اللعب هو العبث، عمل لا جدوى منه، أو لا هدف له، يقول ربنا عز وجل:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

فخلق السماوات والأرض ليس باطلاً، أو ليس مؤقتاً، لم يخلق الله السماوات والأرض للفناء، بل خلق الإنسان للبقاء، وخلق الكون تسخيراً من الله عز وجل لهذا الإنسان كي يعرف الله عز وجل.

إذاً: الوقفة عند كلمة الباطل، حينما تبني جداراً بلا قواعد، تبني جداراً بلا شاقول، حينما يبني إنسان جداراً بلا أصول، فإن هذا الجدار لا بد من أن يقع، جدار بالباطل، والباطل لا بد من أن يقع.

أحياناً ترى بأم عينك كيف أن الباطل لا يصمد أمام الحق، وكيف أن الباطل ينتهي، ويتداعى كبيت العنكبوت.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ)

وَالَّذِين آمَنُوا بِالْبَاطِل:

ما هو الإيمان بالباطل ؟

آمن بفكرة لم ترد في كتاب الله، آمن بحقيقة أو بنظرية مناقضة لكتاب الله عز وجل، سلك سلوكاً بعيداً عن منهج الله عز وجل، أحل شيئاً حرمه الله هو باطل، حرم شيئاً أحله الله هو باطل، سلك طريقاً بعيداً عن طريق الله عز وجل هو باطل، اعتقد شيئاً مخالفاً للعقيدة التي جاءت في كتاب الله هو باطل.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ)

آمنت بالباطل عقيدة، آمنت بالباطل سلوكاً، آمنت بالبطل هدفاً، آمنت بالباطل وسيلة، أي شيء خارج عن كتاب الله وعن سنة رسول الله، بل أيّ شيء خارج عن منهج الله هو باطل، والحقيقة الهندسية كما تعلمون أن بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، فإذا زاح الخط عن الاستقامة التي بين النقطتين فهو خط مائل، أو منحنٍ، أو منكسر، والباطل يتعدد، أما الحق فلا يتعدد، لهذا يقول الله عز وجل:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

(سورة يونس)

هناك حق، وغير الحق ضلال قطعاً، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ)

اعتقد شيئاً مخالفاً لكتاب الله، سلك سلوكاً مخالفاً لسنة رسول الله، أَلِفَ شيئاً لا يرضي الله، ابتعَدَ عن شيء يحبه الله، إذا خرج عن منهج الله اعتقاداً أو سلوكاً فقد آمن بالباطل، فإذا آمن الإنسان أن هذا المال لا بد من أن يستثمر بفائدة ربوية، هكذا منطق الحياة، فقد آمن بالباطل، وإذا استثمره بفائدة ربوية فقد سلك سلوكاً باطلاً، فهذه الآية مطلقة، والمطلق على إطلاقه، وهذه الآية جامعة.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

استنباطات من قوله تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

1 – خسارة أهل الباطل شاملة للدنيا والآخرة:

أحياناً حينما يستخدم الإنسان كلمة (خسر) أو (خسارة) فلا بد من أن يصفَها، خسر ماله، خسر جهده، خسر وقته، خسر شيئاً، خسر بيتاً، خسر زوجة، خسر صديقاً، لكن كلمة الخسارة في كتاب الله جاءت غير مقيدة، لهذا إن من أشد أنواع الخسارة أن تخسر الدار الآخرة.

إن من أشد أنواع الخسارة أن تخسر رضوان الله عز وجل، إن من أشد أنواع الخسارة ألا تعرف عن الله شيئاً، إن من أشد أنواع الخسارة أن تكون دنياك عريضة عامرة، وآخرتك خربة.

إن من أشد أنواع الخسارة أن تأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة، وقد أكلت مال هذا، وشتمت هذا، وسفكت دم هذا، وعيّرت هذا، واستعليت على هذا، فيأخذ هذا من حسناتك، وهذا من حسناتك، وهذا من حسناتك، فإذا انقضت حسنات هذا الإنسان، ولم تفِ بما عليه طرحت عليه سيئات الآخرين فيطرح في النار ! هذه خسارة.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

2 – المؤمن لا يندم على شيء من الدنيا:

المؤمن لا يندم على شيء فاته من الدنيا إطلاقاً، لأن هدفه كبير، هدفه أن يكون في رضوان الله، لذلك تهون عليه الدنيا، والدنيا هينة على أهل الإيمان، عظيمة على أهل البطلان.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

3 – العاقل يراجع معتقداته:

لهذا مما يقتضيه العقل أن تراجع كل معتقداتك:

هل تعتقد شيئاً مخالفاً لما جاء في القرآن الكريم ؟ هل تعتقد أن أصل الإنسان قرد، مثلاً ؟ وهذا مخالف لما جاء في القرآن الكريم.

هل تعتقد أن تثمير المال بفائدة ربوية ضرورة ؟

هل تعتقد أن طبيعة العصر تقتضي الانطلاق ؟ والاختلاط والحيوية كما يدّعون ؟ هل تعتقد فكرة أو مذهباً أو نموذجاً أو سلوكاً مخالفاً لما جاء في القرآن الكريم ؟ هذا هو الإيمان بالباطل.

هل تعتقد أن المال هو كل شيء ؟ هذا هو الباطل.

هل تعتقد أن الذكاء هو كل شيء ؟ هذا باطل.

هل تعتمد على الأسباب هذا شرك ؟

إن القضية تحتاج إلى مراجعة تصورات الإنسان، ومعتقداته، وما يقتنع به وتصرفاته.

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)

من صفات الأحمق والجاهل استعجالُ العذاب:

دائماً من صفات الأحمق أنه يتحدى، يستعجل، متى العذاب ؟ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ! هكذا يقول الكفار دائماً !

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)

طبعاً عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، يقول لك: دع الله يأخذني، ويميتني، لا أريد هذه الحياة، ادخل الجنة، وأغلق الباب خلفك، هذا استعجال للعذاب.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)

هناك آية أخرى، يقول الله عز وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل)

استعمال القرآن الماضي لشيء مستقبلي وأمثلة لك:

المثال الأول: أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه

انظر لهذه البلاغة في الآية، أتى كيف يستعجلونه ؟ هذا من إعجاز القرآن أتى، لو أنك تنتظر صديقاً يقول لك: أبوك استعجله، اتصل به بالهاتف، قل له: تأخرت علينا، هل يعقل أن يقول لك ابنك: لقد جاء فلان يا أبت، تقول له: استعجله، واتصل به بالهاتف ؟ جاء، وانتهى الأمر، دخل البيت ! ما معنى هذه الآية ؟ كيف أتى أمر الله ؟ وكيف ينهانا الله على أن نستعجله ؟

في الآية إعجاز، أمر الله لا محالة واقع، القضية قضية زمن فقط، وعد الله لا محالة واقع، وعيد الله لا محالة واقع، وعد الله بنصر المؤمنين لا محالة واقع، وعيد الله بخذلان الكافرين لا محالة واقع، وعد الله بحياة طيبة للمؤمن لا محالة واقع.

إنّ أمر الله أيْ قضاؤه وقدره، وقضاء الله وقدره إما مكافأة للمؤمن، أو عقاب للمجرم.

إذاً:

(أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه)

قضية وقت، مجيئه محقق، فالقرآن يستخدم الفعل الماضي مكان الفعل المستقبل تحقيقاً لوقوعه، كقوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

(سورة المائدة)

المثال الثاني: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ النَّاسِ

هذا القول من الله تعالى لم يقع بعد، هذا القول يقوله هذا النبي الكريم يوم القيامة ! ولكن حينما قال الله عز وجل:

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى)

عبر عن ذلك العلماء فقالوا: إن القرآن يستخدم الفعل الماضي مكان الفعل المضارع، أو الفعل الاستقبال تحقيقاً للوقوع.

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل)

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة العنكبوت)

القضية ليست على استعجال هؤلاء، لكل إنسان أجل، هذا الأجل فيه حكمة بالغة، هذا الأجل حكمته أن يأخذ الإنسان فيه أبعاده.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك)

الأبعاد الحقيقية للإنسان:

إنّ الإنسان أحياناً لا يأخذ أبعاده الحقيقية، ومطامِحه، وأهدافه، ورغباته، وطاعته لله، ومعصيته لله،

وورَعه، وتفلّته، وصبره، وضجره، وحلمه، وغضبه، وكرمه، وبخله لعشر سنوات، ولا يأخذ أبعاده إلا بفترة زمنية محدودة، لهذا يقول الله عز وجل:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر)

عشتم عمراً كافياً، أخذتم في هذا العمر أبعادكم، فالقضية ليست على قول زيد أو عُبيد.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ)

ربنا عز وجل جعل لكل إنسان أجلاً محدداً، مثلاً يقول الطالب لأستاذه: أسقِطني في صفي أستاذ، الآن أسقطني ! لا، ستسقط في الفحص، معك مدة حتى شهر حزيران، يقول الطالب: الآن أسقطني، وضع لي علامة الصفر ! لا، معك فترة ما، فأولاً: يعطى الطالب فرصة لعله يدرس، لعله يراجع نفسه، لعله يعود عن هذا الاستعجال، لعله يفكر، لعله يتراجع.

وثانياً: هناك نظام عام لا بد من أن يمضي عام دراسي، يأخذ فيه الطالب كل أبعاده.

إذاً:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً)

ربنا عز وجل قال:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55))

(سورة الزمر)

احذروا المحطات السبع الحتمية:

اجتماعات، أو إلى سهرات، أو إلى زيارات، أو ما شاكل ذلك، نعود وننام، ونستيقظ، ونذهب، ونعمل، ونأكل، وننام، إلى متى هذا النمط الرتيب ؟ إلى ما لا نهاية ؟ كل يوم أفعل إلى ما شاء الله ؟ لا، هل الخط البياني صاعد دائماً ؟ لا،

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا))

فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟ هناك مفاجآت في الدنيا، والمفاجآت لا بد منها،

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا))

فجأة جاءك المال الوفير، هذا المال جاء على غير علم، فاختل التوازن، رفضت حياة التقشف، ورفضت حياة الاستقامة، رفضت حياة طاعة الله عز وجل، مال وفير لا بد من أن تفعل كذا، وكذا،

وكذا، لا بد من أن تذهب إلى هذه الجهة، وأن تسافر، لا بد من أن تقتني هذا الجهاز، وهذا الجهاز، لا بد من أن تلتقي مع زيد أو عبيد، لا بد من أن تسكن غير هذا البيت،

((أوْ غِنًى مُطْغِيًا))

أن يحملك المال على معصية الله، أن يدفعك المال إلى الدنيا، أن يدفعك المال إلى أن تعلو على خلق الله، أن يدفعك المال إلى المعاصي والآثام، أن يدفعك المال إلى الفجور.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بالأعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أوْ هَرَمًا مُفْنِّدًا ؟ أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ ؟ فالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

(سنن الترمذي)

يستيقظ في صبيحة أحد الأيام فإذا ماله كله ذاهب، وليس ذلك على الله بعزيز،

((أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا))

يفسد حياة الإنسان.

((أوْ هَرَمًا مُفْنِّدًا))

يجعله في أرذل العمر.

((أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أو الدّجّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ، فَالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

لذلك قال:

(وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً)

العوام دائماً يستعيذون بالله من ساعة الغفلة، فقد يتوهم الإنسان أن الله راض عنه، وقد يكون الله غير راضٍ عنه، الحبل مرخى، يمرح، ويفرح، ويذهب، ويأتي، ويعود، ويتكلم، ويتبجح، ويتطاول، ويتعجرف، ويستعلي، ويتحدث عن نفسه، وعن ماله، وعن مغامراته، وعن رحلاته، وعن إقامته، وعن، وعن، وعن.. فجأة أصابه مرض عضال!

(وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً)

بين حياة المؤمن وحياة الكافر:

أما المؤمن فلا ينتظر إلا الخير من الله عز وجل.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(سورة التوبة51)

ما كتب الله لنا من خير، فهناك فرق كبير بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن، فحياة المؤمن فيها استبشار وأمل.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص 61)

حياة الكافر فيها مفاجآت ساحقة، فيها مفاجآت مدمرة، فيها مفاجآت متعبة.

(وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)

أول استعجال لعذاب الدنيا.

يوم الحساب والعقاب:

وثاني استعجال لعذاب الآخرة.

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

جهنم مهيأة، والقضية قضية وقت.

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(55))

فالإنسان المؤمن وهو في الدنيا حركاته محسوبة عليه، سكناته محسوبة عليه، مواقفه محسوبة عليه، جوارحه محسوبة عليه، لماذا نظرت ؟ لماذا لم تنظر ؟ لماذا تكلمت هذه الكلمة ؟ لماذا سكت عن الحق ؟ لماذا استمعت لهذا الشيء ؟ لماذا عبست في وجه فلان ؟ لماذا هششت لفلان وهو على باطل ؟ لماذا أعطيت هذا ولم تعطِ ذاك؟ لماذا منعت هذا ؟ لماذا وصلت فلانا ؟ لماذا قطعت فلانا ؟ لماذا غضبت ؟ لماذا لم تغضب ؟ كل هذا أنت محاسب عليه !

(يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(55))

نحن الآن في دار عمل، وغداً نقدم على دار جزاء وحساب.

تشريف الإنسان بالعبودية:

الآن اسمعوا أيها الإخوة:

(يَا عِبَادِيَ)

ألا تقشعر جلودكم لهذه الكلمة ؟ لقد أضيف العباد إلى الله عز وجل، إضافة تشريف، لكرامة العباد على الله، لأن الإنسان هو المخلوق الأول، لأنه هو المخلوق المكرم.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا)

تشريف المؤمنين بالإيمان:

الله عز وجل يخاطب المؤمنين، أما الكفار فما آمنوا به حتى يستمعوا إلى خطابه !

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

معنى الآية:

ما معنى هذا الكلام ؟ يا عبادي الذين آمنوا إياكم أن تعصوني، لا بد من أن تطيعوني، خلقتكم للعبادة، فإذا كنتم في مكان تفتدون فيه بدينكم فارحلوا عن هذا المكان إلى مكان آخر تطيعون الله فيه.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

لا تعبدوا غيري.

(فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

حينما يأتي المفعول به مقدماً فهو يفيد الحصر،، أي اعبدوا الله، ولا تعبدوا أحداً سواه، أطيعوا الله، ولا تطيعوا أحداً سواه.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

سبب نزول الآيات:

هذه الآيات كما يروي المفسرون: أنها نزلت في حض المؤمنين في مكة على الهجرة إلى المدينة.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

من لوازم الآية ومقتضياتها: الهجرة بمفهومها الواسع:

إذا آثرتم أن تبقوا في بلدكم، وتفتنون في دينكم، هذه الحياة لا تدوم لكم، لابد من الموت ! كل نفس ذائقة الموت، فإذا آثر الإنسان الدنيا، ثم ماذا بعد الدنيا ؟ أليس الموت؟ ماذا بعد الغنى إلا الموت، ماذا بعد الوجاهة العريضة إلا الموت، ماذا بعد النجاح الكبير في الحياة إلا الموت، ماذا بعد التفوق إلا الموت، ماذا بعد أن تملك الدنيا، وما فيها إلا الموت.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

إذا ضاق بك المقام هنا، اذهب إلى هناك، لذلك باب الهجرة قد انتهى من مكة إلى المدينة بعد الفتح.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا))

(صحيح البخاري)

لا هجرة بعد الفتح، الهجرة انتهت، لكن الهجرة مشروعة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة وقت الهجرة.

عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَدَّهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

(صحيح مسلم)

الغريمان الأساسيان للإنسان: الفقر والموت:

الحقيقة أن الإنسان يخشى شيئين، أولهما: الموت، والثاني: الفقر، ولأن الأمر بيد الله وحده، لذلك قطع الله أمر الموت، وأمر الرزق عن العباد، بمعنى أن أحداً من بني البشر لا يستطيع أن يؤثر في أجلك، ولا في رزقك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً))

[ورد في الأثر]

مغزى الهجرة: فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ

هنا في الآية عندما دعا ربنا عز وجل هؤلاء المؤمنين في مكة إلى الهجرة، ما الذي يخافون منه ؟ يخافون أن يموتوا في الطريق ! لأن قريشا كانت تترصد لهم، ويخافون أن يفتقروا، لأنهم إذا جاءوا إلى المدينة لا شيء عندهم، كما يقول بعضهم: اقتلعوا من جذورهم، تركوا أموالهم وبيوتهم وتجارتهم، وجاءوا إلى بلد لا يعرفون أحداً فيه، فربّنا عز وجل طمأن هؤلاء قال:

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

يجب أن يكون شغلك الشاغل عبادة الله، هدفك الأسمى أن تعبده، هدفك الأكبر أن تعبده، لا شيء يعلو على هذا الهدف، لا شيء يقلق إلا أن تعبده.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا)

إن كنتم حقاً مؤمنين، إن عرفتموني، وعرفتم حقيقة الحياة، وكيف أنها دار عمل، وعرفتم حقيقة الآخرة، وكيف أنها دار جزاء، وعرفتم أبدية الآخرة، وزوال الدنيا، وشدة انقضائها، إن عرفتم هذه الحقائق، وعرفتم ما عندي من إكرام كبير، وعرفتم ما بعد الموت للكفار من عذاب أليم.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

عليكم أن تعبدوني بأي ثمن ! ولو كان الثمن أن تخرجوا من أرضكم !

(فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

ولا تخافوا أن تكون الهجرة سبباً في موتكم، لأن كل نفس ذائقة الموت، الموت الذي تخافون منه، لا محالة آت في الوقت الذي هو مقرر، هذه الفكرة مريحة جداً، لي عند الله أجل لا يزيد ولا ينقص، لا يزيد ثانية، ولا ينقص ثانية، وهذا الأجل بتقدير الله عز وجل العليم الحكيم، لهذا عندما قال أحد الشعراء:

إن الطبيب له علم يُدل به إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انقضت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقير

***

كلكم يعلم أن الإنسان يكتَب نعيه أحياناً، ويعيش ثلاثين عاماً بعد كتابة النعي ! وإنسان يرتجى طول عمره، فإذا هو في ثوان معدودة أصبح من أهل القبور ! هكذا الحياة، فقال:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

المصير المحتوم:

أنت مصيرك إلى الله عز وجل، ماذا أعددت لهذا اللقاء ؟ ماذا هيأت له ؟ ماذا ادخرت له، ماذا تزودت له ؟ بمَ تلقى الله إذاً ؟ لا صدقة ولا جهاد، جهاد النفس والهوى، فبمَ تلقى الله إذاً ؟

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

والله الذي لا إله إلا هو لو أدركنا حقيقة الموت، جاء في بعض الآثار: أنه ما من بيت إلا ومَلَكُ الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات ! فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله، وانقطع رزقه ألقى عليه غم الموت! فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثوبها، والصارخة بويلها، يقول ملك الموت: **فيمَ الجزع ؟ ومما الفزع ؟ ما أذهبتُ لواحد منكم رزقاً، ولا قرّبت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً !**

فو الذي نفس محمد بيده، لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم !

أي أنهم ينسون أن يغسلوا الميت ! فإذا شُيع هذا الميت رفرفت روحه فوق النعش، تقول: **يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة علي !**

فو الذي نفس محمد بيده لو ترون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوة - تذهب القابلية نهائياً - ولا شربتم شراباً، ولذهبتم إلى الصُعدات تضربون وجوهكم، وتزمون أنفسكم، هكذا ورد في بعض الآثار.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

هذا أخطر حدث في حياة الإنسان، أخطر من الحياة والولادة، لماذا ؟ الولادة فيها خيارات كثيرة أمامك، أما الموت فليس فيه خيار، فإذا سيق رجل للإعدام، إذا بكى هل يخلصونه مما هو فيه ؟ البكاء والتوسل هل ينجيانه من الإعدام ؟ لا، لو ضحك هل ينجو ؟ هذا ممر إجباري، ضحكه كبكائه، وصراخه كصمته، وتوسله ككبريائه، هذا الحكمُ لا بد من أن يقع، لذلك قال ربنا عز وجل:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

(سورة الملك)

خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاة

بدأ بالموت، لأن حدث الموت أخطر في حياة الإنسان من حدث الحياة، كمثل أول العام الدراسي، فأوله سهل، الفرص كلها واسعة ومفتوحة، تدرس أو لا تدرس، تهدر بعض الوقت أو تستغله، تنتبه أو لا تنتبه، تتشاغل، تكتب، تؤدي الواجبات، تهملها... هناك خيارات واسعة جداً، ولكن دخولك على قاعة الامتحان يترتب عليه النجاح أو الرسوب، الإكرام أو الإهانة، هنا ضاقت الخيارات.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57) وَالَّذِينَ آمَنُوا)

الوجه المشرق ليوم القيامة:

لكن أيها الإخوة الأكارم، استبشروا، هذا كتاب إرشاد، ربنا عز وجل يعطيك الصورة المخيفة، ومعها الصورة المشرقة، قال:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً)

لننزلنهّم في جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لا فيها متاعب، ولا خوف، ولا فيها قلق، ولا فيها كبر، ولا فيها مرض، ولا خصوم،

ولاأعداء، ولا فيها مؤامرات على إنسان، لا يوجد أي شيء أبداً، بل فيها نعيم مقيم ! لنبوئنهم أي لنُنْزِلنّهم.

(لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ

سؤال: مَن هم العاملون ؟

من هم العاملون الذين صبروا ؟ التكاليف كلها مكلفة، أمرك بغَضّ البصر، أنت بغَضّ البصر تعاكس شهوتك، أمرك بضبط اللسان، ضبط اللسان فيه كلفة، هذه حرام، هذه غيبة، هذه نميمة، هذه بهتان، هذه سخرية، هذه كلمة فاحشة، أمرك بضبط الأذن، وبضبط اليد.

الجواب: هم الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون:

فيا أيها الإخوة الأكارم.

(الَّذِينَ صَبَرُوا)

صبروا على طاعة الله، وصبروا عن الشهوات، صبروا على المصائب، صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ عند المصيبة، صبرٌ تكليفي، وصبر تكويني، أمر ونهي، تكليف وقضاء وقدر، فالصبر عند المصيبة هو صبر على أمر تكويني، والصبر على الطاعة، أو عن المعصية هو صبر على أمر أو نهي تكليفي.

(الَّذِينَ صَبَرُوا)

والصبر هو الإيمان كله !

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللّهِ، مَنْ تَبِعَكَ عَلَى هَذَا الأَمْرِ ؟ قَالَ: حُرٌّ وَعَبْدٌ، قُلْتُ: مَا الإِسْلاَمُ ؟ قَالَ: طِيبُ الْكَلاَمِ، وَإِطْعَامُ الطّعَامِ، قُلْتُ: مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ: الصّبْرُ وَالسّمَاحَةُ...))

(مسند الإمام أحمد)

الصبر أنك إذا جاءك شيء خارجي تتلقاه بالرضى، والسماحة البذل، فأنت إما أن تأتيك الأشياء من خارجك تقبلها، وترضى بها، وإما أن تبذل.

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

لا بد من الحركة:

ويا أيها الإخوة المهاجرون، يخاطب الله المؤمنين في مكة أن هاجروا.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال)

بربكم إذا فكر أحدكم، وفكر، وفكر، وقال: هذا المصباح متألق، ماذا فعل ؟ وماذا قدم ؟ هو متألق، إذا قال: هو منطفئ، ولكنه في الحقيقة هو متألق، وإذا قال: متألق، فهو متألق، هل أضاف شيئاً ؟ أردت من هذا المثل أن أقول لكم: إذا آمنت بالله ماذا فعلت ؟ أقول لك: لن تفعل شيئاً إلى أن تأخذ موقفاً، إلى أن تنتهي عما عنه نهى، إلى أن تأتمر بما به أمر، إلى أن تعطي، إلى أن تفكر، لأن الإيمان مع سكون هذا ليس له جدوى، لا طعم له، لا يقدم ولا يؤخر، أنا مؤمن أن الله موجود، إن آمنت أو لم تؤمن الله عز وجل موجود فالأمر سيّان ! أنا مؤمن بالجنة، وهي في الحقيقة موجودة فعلاً، المشكلة ماذا فعلت ؟ حتى إن بعض الناس يحب من العلم غرائبه، وعجائبه، والقصص المثيرة، هذه ليس لها قيمة، الطُرَف، القراءات، القصص الرائعة، اللقطات، الشذرات، كتاب رائع جداً، ممتع مسلٍّ، هذا ليس له قيمة ! نقول له: فماذا صنعت في أصل العلم ؟ وأصل العلم أن تعرف الله، وأن تعمل عملاً من أجله ! ما الشيء الذي بذلته من أجله ؟ ما الشهوة التي ضبطها من أجله ؟ ماذا فعلت؟

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

إذا ما أخذت موقفاً، تقول: أنا لدي عواطف إسلامية رائعة، والبيت متفلّت، وغير منضبط ! ما قيمة هذه العواطف ؟ أنا لدي ثقافة إسلامية جيدة، ما قيمة هذه الثقافة ؟ أين التزامك ؟ أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، فلذلك قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

لا تتشاغل بما ضمنه الله لك عما افترضه عليك:

وأنا أنصح نفسي وإياكم أن تجيبوا عن هذين السؤالين: هل تعرف الله ؟ قل لي: نعم، ماذا صنعت في حقه ؟ هل تعرف الموت ؟ تقول: نعم، ماذا أعددت له ؟ هذان السؤالان لا ينبغي أن يفارقا مخيلتك، يجب أن يكون هذان السؤالان شغلك الشاغل ! فلذلك ربنا عز وجل يقول:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ)

فلا تخش الرزق.

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

(سورة الذاريات)

قبل أربعين عاما تقريباً كان هناك ثانوية في دمشق شهيرة جداً، فيها قسم ليلي، الآن الثانوية ليس فيها قِسمٌ ليلي، أما أنا فأعرف أنه كان فيها مهاجع في الطابق الثاني، وكان فيها مطعم كبير جداً، وقاعات مطالعات، وقاعات تدريس، ويوجد مطبخ وطباخون، وموظفون، وموجهون، وقائمون للمكتبة، وموجّهون ليلاً ونهاراً، هذا الطالب الداخلي ما مهمته الأولى ؟ أن يدرس، لذلك بعد الدوام هناك قاعة مطالعة، مكتبة ضخمة جداً، والطاولات مريحة، والإضاءة جيدة، ومطبخ في الساعة السابعة تماماً يقرع الجرس، ويذهب الطلاب إلى المطعم ليأكلوا، دققوا ! لو أن هذا الطالب ترك قاعة المطالعة، وترك القراءة والدراسة، وذهب إلى المطبخ يتفقد أعمال الطباخين، ماذا صنعتم، هل قشرتم البصل ؟ هل فعلتم كذا ؟ هذا عمل تافه.

أردت من هذا المثل أن أقول لكم: لا تتشاغل بما ضمنه الله لك عما افترضه عليك،

((خلقت لك ما في السماوات والأرض فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك، عما افترضته عليك))

فرضَ الله عليك أن تعرفه، وأن تذكره، وأن تستقيم على أمره، وأن تطيعه، وأن تعمل الصالحات تقرباً إليه، وأن تقرأ كتابه، وأن تحضر مجالس العلم، وأن تفهم أمره ونهيه، وضمن لك رزقاً، فإياك أن تنشغل بطلب الرزق عما افترضه الله عليك !

الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ يروى أن حديثاً شريفاً غيّر مجرى حياته ! قال:

((من طلب العلم تكفل الله له برزقه))

[ورد في الأثر]

بمعنى أنك إذا سعيت إلى طلب العلم فالله سبحانه وتعالى يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب، لا أقول لكم: لا تسعوا ! اسعوا في مناكبها، ولكن بجهد معقول يأتيك أجر يكفيك، لذلك:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

ربنا يخاطب أهل مكة من المؤمنين الذين لم يهاجروا بعد، إن خفتم أن تموتوا فالموت مصير كل إنسان، كائناً من كان، وإن خفتم أن يذهب الرزق فرزق الله مضمون، وهذان الشيئان إذا أيقنت أن حياتك بيد الله وحده، وأن الرزق بيد الله، تنتهي كل المشكلات !

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (16-16): تفسير الآيات 61 - 69
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-01-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر والأخير من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

التناقض الفكري عند الكفار:

هذا السؤال أيها الإخوة لو سألت أي إنسان: من الذي خلق الكون ؟ لأجابك إجابة عفوية: الله سبحانه وتعالى ! كأن الله عز وجل من خلال هذه الآية يبين التناقض الفكري الذي يقع فيه الكفار، هم من جهة يؤمنون أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، ومعنى خَلَقَ السماوات والأرض أي أن الأحوال التي تكون عليها الأرض بيد الله.

إذاً: الأمطار بيد الله، إنبات النبات بيد الله، الينابيع بيد الله، تكثير الحيوانات الأهلية بيد الله، أي الرزق بيد الله، والإنسان في أكثر اهتماماته معني بوجوده ورزقه، فإذا كان وجودك بيد الله، ورزقك بيد الله، فإلى أين تذهب ؟ كيف تنصرف عن الله إلى ما سواه؟ هذا سؤال كبير جداً.

إذا كان هناك واحد من أهل الدنيا يقر أن هناك إلهاً غير الله، هنا نناقشه، أما إذا كان كل إنسان يجيب إجابة عفوية على الفطرة أن الله هو الخالق، وهو الرب وهو المسيّر، خلق الكون وخلق الأرض، ومن لوازم الخلق خلق الأمطار، وأنبت النبات، وجعل هذا الجو، خلق الهواء، وخلق الماء، كل هذا الذي نحن نستعين به، أو تقوم عليه حياتنا إنما هو بيد الله.

فإذا آمن الإنسان أن الله هو الخالق، وهو المربي، وهو المسيّر، وأن الإنسان قائم في وجوده على فعل الله عز وجل، فإلى أين يذهب ؟ مَن يعبد ؟ إني والإنس والجن لفي نبأ عظيم، أخلُق ويُعبَد غيري، وأرزق ويُشكَر سواي، وُجودك ورزقك بيد الله عز وجل، إلى أين تذهب ؟ إلى أين تنصرف ؟ أية جهة تعبد ؟ هل من جهة في الكون كله مؤهلة أن تعبدها إلا الله عز وجل ؟ ولئن سألتَ هؤلاء الكفار المعرضين المكذبين، هؤلاء الذين ردوا دعوتك هؤلاء الذين سخروا من هذه الدعوة:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

عظمةُ القدرةِ: وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

الشمس والقمر:

لو أن الشمس انطفأت فجأة لأصبحت الأرض قبراً جليدياً ! لأصبحت الحرارة على الأرض ثلاثمئة وخمسين درجة تحت الصفر ! انتهت الحياة.

إذاً: ربنا عز وجل جعل هذه الشمس ضياءً لنا، ودفئًا لنا، وجعلها تنظيماً لحياتنا، وجعلها تعقيماً لها، لها وظائف صحية معقِمة، وهي تضيء لنا، وتدفئنا، وتنظم حياتنا.

طبعاً عن طريق الشمس، ودورة الأرض حول الشمس يكون الليل والنهار، نعلم عندئذٍ عدد السنين والحساب.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

الشمس مسخرة، والقمر مسخر، والكون كله مسخر لهذا الإنسان ! من باب أولى أن المسخَّر له أكرم من المُسَخَّرْ، فأنت أيها الإنسان سُخِرت لك السماوات والأرض، فأنت موجود في الدنيا لمهمة خطيرة، أعَرفت هذه المهمة ؟ إن لم تعرفها فالندامة عظيمة !

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

لا قيمة لإيمانٍ لا تؤكده أعمال صالحة:

إذا آمنت بالله فما قيمة هذا الإيمان إن لم تؤكده الأعمال ؟ ما قيمة هذا الإيمان إن لم تترك هذا الشيء امتثالاً لأمر الله ؟ وإن لم تفعل هذا الشيء تنفيذاً لأمر الله، وإن لم تصل هذا الإنسان رغبة بما عند الله، تصل وتقطع، وتغضب وترضى، وتعطي وتمنع، وتأتمر وتنتهي، هذه من لوازم الإيمان بالله عز وجل، فمن لم يكن له عمل يجسِّد إيمانه بالله عز وجل فما قيمة هذا الإيمان ؟ ماذا فعلت أنت ؟ إذا كانت الشمس ساطعة، وقلت: إنها ساطعة، ماذا أضفت ؟ لو أنك قلت: إنها ليست ساطعة، لكن هي ساطعة، وإذا قلت: هي ساطعة، فهي ساطعة، ماذا فعلت ؟ لم تفعل شيئاً إن لم تأخذ موقفاً، هكذا قال الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(72 سورة الأنفال)

موقفُ الإنسان تجسيدٌ لإيمانه:

الموقف الذي تأخذه يجسّد إيمانك، وإلا فالإيمان غير كافٍ، كل منا يظن أنه مؤمن، ولكن المقياس الدقيق هو أن الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله فلا قيمة له ! الإيمان الذي لا يحملك على أن تأتمر بأمر الله، وأن تنتهي عما نهى عنه الله، الإيمان الذي لا يحملك على أن تعطي امتثالاً لأمر الله، وعلى أن تمنع خوفاً مما عند الله من عقاب، الإيمان الذي لا يحملك على أن تتقرب إلى الله ما قيمة هذا الإيمان؟ العمر ثمين جداً، نحن في وقت عمل، في دار الحياة الدنيا هي دار عمل وانقطاع، فهي دار عمل وسوف تنتهي، والآخرة دار جزاء وخلود.

إنّ كل ثانية من حياتنا غالية جداً، وحتى لا يقع الإنسان في أوهام يظن أنه مؤمن، وهو ليس كذلك، نقول له: راجع نفسك، راجع حساباتك، حاسب نفسك حساباً عسيراً، حتى يكون حسابك يوم القيامة يسيراً، راجع أيامك يَوماً يوماً، هذا اليوم ماذا فعلت ؟ ما الشيء الذي قربني إلى الله عز وجل ؟ هل تعلمت علماً زادني قرباً من الله ؟ هل عملت عملاً زادني قرباً منه ؟ لا يرقى الإنسان إلا بشيئين: بالعلم والعمل، هل تعلمت شيئاً من كتاب الله؟ هل تعلمت شيئاً من حديث رسول الله؟ هل عرفت بعض الأحكام الفقهية الضرورية في تعاملك مع الناس ؟ هذا هو العلم.

ماذا فعلت بهذا العلم ؟ هل علمت هذا العلم ؟ هل بينته للناس، هل رعيت أرملة، هل رعيت مسكيناً ؟ هل عطفت على يتيم ؟ هل بررت أمك وأباك ؟ هل أحسنت إلى جيرانك؟

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في يوم لم أزدد فيه من الله قرباً))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه ضعف]

وجوبُ محاسبة النفس:

هذا الذي يجيبك عفواً، الله الذي خلقنا، هو يسأل سؤالاً كبيراً: ماذا فعلت من أجله؟ ما الذي يجسد إيمانك به بوجوده، وربوبيته وألوهيته، وبأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى؟ ماذا فعلت؟

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

كلام طيب، كلام مقبول، ولكن العمل لا يؤكده، الشيء الذي أتمناه على كل أخ كريم أن يعلم أن الله عز وجل ينظر إلى عمله، وإلى قلبه، أما شكله فلا ينظر إليه.

((إن الله لا ينظر إلى صوركم، وإنما إلى قلوبكم، وأعمالكم))

[مسلم عن أبي هريرة]

فلذلك على الإنسان أن يبادر إلى طاعة الله عز وجل، وألا يرضى بإيمان لا يحمله على طاعة الله، بل يمتحن إيمانه، ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قال: وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند فيه مقال]

من علامة المؤمن أنه يقلق ! كما قال بعض التابعين: " التقيت بأربعين صحابياً صاحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم واحد إلا ويظن أنه منافق " ! أي يحاسب نفسه حساباً عسيراً، كيف عبادتي؟ هل هي كما يرضي الله عز وجل ؟ كيف صلاتي ؟ كيف كسبي للمال ؟ سؤال دقيق، هذا الذي يقول لك: لا تدقق، هو جاهل.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

هذا الحديث الذي أتلوه عليكم كثيراً:

((يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة، فريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال، فيقال: خذوه إلى النار، أما الذي جمع المال من حلال، وأنفقه في حلال، يقال: هذا قفوه فاسألوه))

[ورد في الأثر]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

فأن تقول: أنا مؤمن، هكذا على الفطرة، بشكل عفوي، وليس في عملك، وفي كسبك للمال، وإنفاقك للمال، ولا في تجارتك، ولا صناعتك، ولا وظيفتك، ولا مهنتك، ولا حرفتك، ولا تعاملك مع أهلك وأولادك، وجيرانك والمسلمين ما يؤكد هذا الإيمان، فهذا ليس بالإيمان !

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ: أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ))

(مسند الإمام أحمد)

المؤمن قلق، يراجع نفسه، له ساعة يخلو بها مع ربه، له جلسة، يحاسب نفسه، فيه مخالفات، و فيه معاصٍ، كلمة قلتها ليست مناسبة، مبلغ من المال فيه شبهة، حساب معلق مع زيد، وحق معلق مع عبيد، هل عليّ أشياء لم أقم بها وهي من الواجبات الدينية ؟ هذا الحساب الدقيق من علامة المؤمن أنه يحاسب نفسه حساباً دقيقاً.؟

لا لازدواجية المعايير:

ربنا عز وجل يظهر لنا التناقض.

الحقيقة أيها الإخوة الأكارم، لو أن الإنسان سار في الطريق عارياً كما خلقه الله، أليس في هذا العمل جنون واضح ؟ ألا يظهر الإنسان بأبشع صورة لا يتمناها ؟ لو أنه سار في الطريق عارياً، هل تصدقون أن في الحياة العقلية والفكرية ما هو أبشع من أن تسير عارياً ! إنه التناقض، إنه ازدواجية المقاييس، أنت حينما ترى ابنك في محلك التجاري يُزمع أن يحمل شيئاً، فتصيح به: لا تحمل هذا من أجل ظهرك، أخاف عليك، فإذا كان عندك عامل، وحمل فوق طاقته، تقول له: أنت شاب احمل ! هذا التناقض أبشع من أن تسير عارياً في الطريق، تناقض فكري، أن تقيس الناس بمقياس، وأن تقيس نفسك بمقياس، إذا أصابتك المصيبة تقول: هذه ترقية، فإذا أصابت غيرك مصيبة تقول: هذا عقاب، من أدراك أنه عقاب ؟ هذا تناقض.

أن تعامل ابنتك بطريقة لا تعامل بها زوجة ابنك في البيت، هنا العطف والتسامح، والتساهل والشفقة، وهناك الحساب الدقيق، تناقض هذا أبشع من أن تسير عارياً في الطريق!

لذلك التناقض الذي ظهر هنا:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

كلام طيب وجيّد، إذاً لِمَ لا تطيع الله عز وجل لِمَ لا تأتمر بأمره ؟ لِمَ تطلق لشهواتك العنان ؟ لِمَ تكسب المال من هنا أو من هنا بلا حساب دقيق ؟ لِمَ لا تقوم بالعبادات كما أراد الله عز وجل ؟ هذا التناقض.

لذلك أيها الإخوة، ليحرص كل منا على أن لا يتناقض مع ذاته، ليكن صادقاً مع نفسه، إذا كان صادقاً مع نفسه أحبه الله، لا تستخدم مقاييس متعددة، استخدم مقياساً واحداً، قس نفسك، وقس الناس بميزان واحد، والله الذي لا إله إلا هو إنّ ميزانًا واحد لو طبقه الناس لاختفت كل مشكلاتهم: عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، وانتهى الأمر.

إذا كنت وراء طاولة في دائرة حكومية هل ترضى إذا كنت تراجع في قضية موظفاً، هل ترضى أن يهمل طلبك ؟ هل ترضى أن يسوّف طلبك ؟ هل ترضى أن يعقد عليك الأمر ؟ هل ترضى أن يبتز مالك ؟ إذا كان هذا يؤلمك لا تفعل هذا مع الناس، وإن كنت مريضاً هل ترضى من هذا الطبيب أن يكبر عليك الأمر ؟ أن يوهمك بخطورة مرضك ليبتز مالك ؟ إذا كنت طبيباً فلا تفعل هذا، هل ترضى إذا أتيت إلى محام أن يوهمك أن دعواك رابحة، وهي ليست كذلك ؟ ليأخذ جزءاً من مالك ! فإذا كنت محامياً فلا تفعل ذلك.

قضية التناقض كما لو أن الإنسان سار عارياً، كيف أنه محتقَر، يقال له: مجنون، وكذلك الذي يقيس الناس بمقياس، ويقيس نفسه بمقياس، يقيس أولاد الناس بمقياس، ويقيس أولاده بمقياس، هنا يعطي وهنا يمنع، هنا يبالغ في الرفاه، وهنا يقتّن، لا تستخدم مقياسين اثنين حتى يحبك الله عز وجل، هؤلاء المتناقضون قال تعالى عنهم:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

أين أنتم ذاهبون ؟ إلى من تلتفتون ؟ إلى من ترجون ؟ من تخافون ؟ هذا الذي يخشى غير الله، يرجو غير، الله يعطي لغير الله، يمنع لغير الله، هذا متناقض مع نفسه.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

صورٌ مِن عظمة الله عزوجل:

1 – إنزال المطر من السماء:

حينما تنحبس السماء، ينحبس ماء السماء، هل في الأرض كلها جهة مهما علت بإمكانها أن تصدر قراراً بإنزال المطر ؟ ألا ترى أن الناس جميعاً مفتقرون إلى الله عز وجل ؟ ما أرى واحداً في الأرض في سنوات القحط والجفاف إلا ويقول: يا رب أغثنا، كبير وصغير، وعالم وجاهل، وقوي وضعيف، يا رب أغثنا، ربنا يعلمنا، والنبي عليه الصلاة والسلام يؤدبنا، من أدب النبي عليه الصلاة والسلام أنه يقول:

((اللهم أرنا نعمك بكثرتها لا بزوالها))

[ورد في الأثر]

ينبغي إذا كنت صحيح البنية، موفور المال أن تسجد لله عز وجل شكراً، لأنك إن لم تعرف هذه النعمة بوفرتها، فلا بد من أن تعرفها بفقدها.

2 – إحياء الأرض بعد موتها:

من نزّل من السماء ماء فأحيا بها الأرض بعد موتها ؟ هذه الأرض الميتة القاحلة، هذه الأشجار اليابسة، هذه التلال الجرداء مفتقرة إلى ماء السماء، من نزّل من السماء ماءً فأحيا بها الأرض بعد موتها ؟ أرض ميتة.

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ)

(5 سورة الحج)

فنبت الكلأ.

مرة قال لي أحدهم: نزلت أمطار كنا في أشد الحاجة إليها، قال: والله هذه الأمطار قيمتها عشرات الملايين، بل قريبا من ألف مليون ! قيمة هذه المطار في الوقت المناسب، لذلك فإن الإنسان يرى نعمة الله دائماً، لا يرى منخفضاً جوياً متمركزاً فوق قبرص باتجاه الشرق الأوسط، سرعته مئتان كيلو متر بالساعة، يرى رحمة الله متجهة للشرق الأوسط، لا يرى أن المنخفض عارض طبيعي، يرى أن إنزال الأمطار بيد الله، وأن حبسها بيد الله، وأن الله إذا حبسها لا يعني ذلك نقصاً في القدرة ولا عجزاً، ولكن تأديباً وعلاجاً.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)

على ماذا ؟ الآية هكذا:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)

الحَمْدُ للّهِ على كل شيء:

وقف جائز بعدها، قال بعض المفسرين: الحمد لله على أن الحق واضح كالشمس، إذا كنت أنت مع الله معك الحجة والبينة، وؤلاء المعرضون هؤلاء البعيدون هؤلاء المكذبون لا يستطيعون أن يكذبوا الحقائق الكبرى، إنهم يصدّقونها، ولا يستفيدون منها، الحمد لله الذي عرفت الله، وسرت على أمره، الذي عرفت الله، واهتديت بهداه، الحمد لله هكذا.

أنت مع الحق، أنت إذا فكرت في هذا الكون وتلوت هذا القرآن وفهمت هذا الكتاب المقدس، وعرفت أن ما جاء به النبي من عند الله، هل تعلم من أنت ؟ أنت مع الحق الذي لا يتكرر، ولا يتعدد، حق واحد أنت معه.

الناس رجلان: مؤمن وغير مؤمن، فإذا كنت مع المؤمنين، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إذا كنت مع من عرفوا الحقيقة الأولى والأخيرة **فـ:**

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

ولو عقلوا لعرفوا، ولو عرفوا لحمدوا، وما الإنسان إلا عقل يدرك، وقلب يحب، وأرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، سنسميه كسبا كبيرا، لا يعدله كسب في الدنيا، أن تعرف الله عز وجل، وأن تهتدي بهديه، وأن تسير في طريق الجنة، هذا هو الغنى، هذا هو الفوز والنجاح والفلاح، هذا هو الغنى كما قال سيدنا علي: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >>**، كسب كبير.

((ابن آدم، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

كل شيء في الدنيا ينتهي بالموت:

تقول لي: أنا فقير، دخلي محدود، بيتي صغير، أو بالأجرة، وظيفتي سيئة، في بيتي مشكلات، لو أن المشكلات كلها اجتمعت على إنسان، وعرف الله، واستقام على أمره فهو الرابح الأول، ماذا قال سيدنا علي كرم الله وجهه ؟ قال: **<< يا بُني، ما خيرٌ بعدَه النار بخير، وما شرٌ بَعْدَه الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية >>.**

كل المشكلات تنتهي بالموت، وما بعد الموت سعادة أبدية، وكل ما في الدنيا من مباهج تنتهي بالموت، وما بعد الموت شقاء أبدي، لذلك كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، وكفاك سعادة أنك في طاعته، وربنا عز وجل يقول:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

أهذا يوازي هذا ؟

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

ما من شيء أعظم عند الله عز وجل، وما من نعمة وهبها الله لك أعظم من هذا العقل، به ترقى، وبه تشقى، به تكسب، وبه تخسر، فمن أعمل عقله في معرفة الله وطاعته سعد به، ومن استخدم عقله في جمع المال فقط، أو في الإيقاع بين الناس، أو في جمع الناس حوله لتأمين مصالحه من دون أن يتقي الله عز وجل فهو الخاسر الأكبر.

فلسفة الحياة وحقيقتها: لهو ولعبٌ:

يا أيها الإخوة الأكارم، اسمعوا من الله عز وجل إلى توضيحٍ لحقيقة الدنيا: إذا قرأ الإنسان القرآن لماذا يسعد ؟

لأن في القرآن الكريم فلسفة الكون والحياة والإنسان، هذه الآية من فلسفة الحياة وحقيقتها، الله سبحانه وتعالى واهب الحياة، خالق الكون يقول لك:

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

كلمة (هذه) اسم إشارة، ومن معانيها التحقير، وما هذه الدنيا بمالها ونسائها، ومراكزها ومتعها، وشهواتها ومباهجها، وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو.

ما هو اللهو ؟!

ما هو اللهو ؟ الشيء الذي يشغلك عن شيء خطير، الشيء الحقير الذي يشغلك عن شيء خطير، هذا هو اللهو.

إذا جلس طالبان يلعبان الورق ليلة الامتحان ماذا نسمي لعب الورق ؟ نسميه لهواً، لأنهما ألهيا بشيء حقير عن شيء خطير.

إذا دخل إنسان ليشتري منك بضاعة بمئة ألف، وأنت انشغلت عنه بقراءة قصة سخيفة، قلت: ليس لدي وقت، فهذا لهو، الشيء الحقير إذا شغلك عن شيء خطير فهو لهو، الدنيا كلها بما فيها من مال، ومن بيوت فخمة، من مزارع، من مركبات، من نساء، من أطعمة وأشربة، من حفلات، من نزهات، من رحلات، من سرور ظاهري، من لذائذ، من متع رخيصة، من ملهيات، من مسلسلات، الدنيا كلها وصفها الله عز وجل بكلمة واحدة قال:

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ)

ما هو اللهو ؟!

ما هو اللعب ؟ الشيء الذي لا جدوى منه، لو فرضنا فريقان لعبا كرة القدم، وانتصر هذا على ذاك، ماذا فعل الأول ؟ وماذا فعل الثاني ؟ في الحقيقة كلها أشياء معنوية، الشيء الذي لا طائل منه، الشيء الذي لا جدوى منه، الشيء الذي لا هدف له، الشيء الذي ينقضي بانقضائه، ويزول بزواله، هذا اللعب، ربنا سبحانه وتعالى وصف الحياة الدنيا بصفتين: إما أن تشغلك عن شيء خطير، إما أن يكون الشيء حقيراً، ويشغلك عن شيء طير، وإما أن تعمل عمل لا فائدة منه، حركة طائشة، حركة بلا هدف.

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)

وإنّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ

الحيوان مصدر الحياة، حياة لا موت بعدها، شباب لا هرم بعده، لذة لا شقاء بعدها، الحياة الخالصة من كل نغص، من كل شائبة، من كل شيء مقلق.

(وَإِنّ الدّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)

في قوله تعالى:

(وَمَا هَذِهِ)

اسم الإشارة هذا يعني التحقير، وليس ضمير فصل:

(وَإِنّ الدّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

الحيوان مصدر مبالغة للحياة، حياة لا نغص فيها، حياة لا هم فيها، حياة لا حزن فيها، حياة لا قلق فيها، حياة لا انقطاع لها، حياة لا خروج منها، حياة لا مزعجاً فيها.

(لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

لو علموا ما عند الله من سعادة أبدية لأقبلوا عليها.

مع تناقض آخر من تناقضات أهل الدنيا: الإخلاص في الشدة والشرك عند الفرَج:

الآن مع تناقض آخر من تناقضات أهل الدنيا:

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

الآية بين منطوقها ومفهومها:

طبعاً الآية لها منطوق ولها مفهوم، الإنسان في حالة السراء، في الضيق، في المرض، في الفقر، عدو خطير يهدده، هم كبير يقلقه، مصيبة كبيرة تنزل بساحته، مرض لا ينيمه الليل مثلاً.

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

إذا أزيح عنه هذا المرض، أو زال عنه هذا الخوف، أو زال عنه هذه المصيبة يعود إلى شِرْكه، وإلى كفره، وإلى عناده، وإلى معاصيه، وإلى شهواته، هذا موقف مخزٍ في الإنسان، أن يعرف الله في الشدة، وأن ينساه في الرخاء، أن يعرفه في إقبال الدنيا، وينساه في إدبار الدنيا، أن يعرفه في المرض، وينساه في الصحة، أن يعرفه في الخوف، وينساه في الأمن، أن يعرفه في الفقر، وينساه في الغنى، أن يعرفه أمام مصيبة تقع به، وينساه إذا زالت هذه المصيبة، هذه الآية لها منطوق ولها مفهوم، ليس شرطاً أن

تركب سفينة وأن يهتاج البحر بك، وأن تصبح هذه السفينة كريشةٍ في مهب الريح، وتقول عندها: يا رب ليس لنا إلا أنت، لا، يشبه ركوب السفينة مرض، يشبه ركوب السفينة عدو يهددك، يشبه ركوب السفينة شيء مقلق، شبح مصيبة.

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

فلذلك يجب على الإنسان أن يعرف الله في السراء والضراء، وفي الصحة والمرض والغنى والفقر، والقوة والضعف، وفي كل أحواله وأطواره يجب أن يعرف الله.

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

لغة التهديد: لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ

هذه اللام لام الأمر، فإذا أمرك الله بشيء يكرهه لك فإنما هو يهددك، هكذا قال المفسرون، فإذا أمرك الله بشيء يكرهه لك فإنما هو يهددك، فاكفر بالله، وسوف ترى، وتمتع، ماذا قال سيدنا إبراهيم ؟

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة)

إذا رأيت إنساناً غارقاً في المعاصي والشهوات، وهو في بحبوحة، وهو في قوة، ويملك زمام الأمور، ويقول: أنا وأنا، فهذا شيء ليس مفخرة له، قال تعالى:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

بعضهم يقول: يا أخي، أهل الغرب هؤلاء غارقون في المعاصي، غارقون في الرذيلة، غارقون في الزنى، وفي شرب الخمر، وهم أقوياء، هم يفعلون ما يشاءون، هكذا يظنون، فأجبهم بقوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

أي اكفروا، أمر تهديد، من هو الفائز ؟ من هو الرابح ؟ من هو السعيد ؟ من هو الناجي ؟ من هو المفلح ؟ من هو المتفوق ؟ فسوف يعلمون، افعلوا ما شئتم وسوف تعلمون من هو الذي سيلقى عقاباً، ومن هو الذي سيلقى جزاءً.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَكْفُرُونَ)

نعمة الأمن في الحرم:

هؤلاء كفار مكة، ينعمون في بلد آمن من حولهم الناس يُتَخَطَّفون، يُغار عليهم، تسلب أموالهم يعتدى على نسائهم، وهم في مكة آمنون مطمئنون.

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

الذي وفّر لهم هذا البلد الآمن، يكفرون به، ويؤمنون بأصنام من صنع أيديهم، نحتوها بأيديهم، وينسبون لها كل خير ؟

إسقاط على واقعنا:

نحن ما علاقتنا بهذه الآية ؟ الذي منحك هذه الصحة، الذي أعطاك هذه الزوجة، هؤلاء الأولاد، هذا البيت تسكنه هذه الحرفة تعمل بها، هذه القدرات تكسب بها رزقك، هذا الإله العظيم تكفر به، وتعرض عن أمره ونهيه، وتقبل على إنسان لا يملك لك من الله شيئاً ؟ لا ينفعك، ولا يضرك، القرآن له منطوق وله مفهوم، له معنى متعلق بسبب نزوله، وله معنى واسع جداً.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

إيّاكم وكفر النعمة !!!

مانح الحياة، ومانح الوجود، مانح الصحة، ومانح هذه الأجهزة، هذا السمع، هذا البصر، هذا الفكر، هذا اللسان، هذه الأطراف، هذه الأصابع، هذه الأوعية، والشرايين، و الأعصاب، و العضلات، و القدرات، هذه الإمكانات، هذا البيت، هذه الزوجة، هؤلاء الأولاد، هذا الذي منحك كل هذه النعم تكفر به ؟ ولا تعبأ بأمره ونهيه، وتدير ظهرك لكتابه، وتقبل على إنسان ضعيف مثلك، لا يملك لك نفعاً ولا ضراً.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

أشدّ الناس ظلما الذي يفتري على الله كذبا:

أشد الناس ظلماً لنفسه، أشد الناس خسارة، أشد الناس ندماً يوم القيامة، من افترى على الله كذباً، يقول لك: الله لن يحاسبنا، افترى على الله كذباً، أو قال لك: لا تعرف، لعلك تطيعه طوال حياتك فيضعك في

جهنم، أهكذا الله عز وجل ؟ لعلك تعصيه كل عمرك فيضعك في الجنة، يقول لك: ليس هناك قاعدة، وهذا الكتاب أليس قاعدة ؟ هذا افترى على الله كذباً، أو افعل ما بدا لك، يفهم الشفاعة التي هي ثابتة في الكتاب والسنّة، يفهمها فهماً ساذجاً، افعل ما شئت، والنبي يشفع لك، هذا افترى على الله كذباً، أو أن الخمر ليست محرمة، الله أمرنا أن نجتنبها فقط، ولم يحرمها، هذا الذي يفتري عقيدة زائفة، يفتري حكماً باطلاً، يفتري توجيهاً مغلوطاً، هذا الذي يفهم القرآن فهماً خاصاً به بلا أصول، بقراءة عصرية، هذا الذي يفهم كتاب الله عز وجل فهماً خاصاً به، من دون دليل، من دون أصول:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذّبَ بِالْحَقّ لَمّا جَاءَهُ)

إما أن يخترع شيئاً باطلاً يغطي به شهواته، وإما أن يرد الحق لا يقبله.

(أَلَيْسَ فِي جَهَنّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

وعيدٌ للمفترين:

هذا الجواب، هذا الذي يفتري على الله كذباً، أو هذا الذي يرد الحق إذا جاءه، هذا مصيره في جهنم.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذّبَ بِالْحَقّ لَمّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

أما الآية المطمِئنة الأخيرة في هذه السورة:

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)

وَالّذِينَ جاهَدُوا فِينَا

طاقته، نشاطه، تفكيره، وقته، خبرته، علمه، عضلاته، كل شيء يملكه أنفقه في سبيل الله، بذل غاية الجهد، بذل كل ما يملك فينا في سبيلنا في سبيل معرفتنا في سبيل طاعتنا في سبيل التقرب إلينا في سبيل نيل رضائنا.

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)

وقته، إمكاناته، ماله، صحته، مكانته، وجاهته، ذكاءه، معلوماته، كل عضلاته، كل خبراته، علمه، وحرفته، كل شيء بذله رخيصاً في سبيل الله، في سبيل معرفتنا، في سبيل طاعتنا، في سبيل التقرب إلينا، في سبيل نيل رضائنا.

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)

أنواع الجهاد: جهاد النفس والشيطان وأعداء الله:

قال بعض العلماء: هناك ثلاثة أنواع للجهاد: أن تجاهد النفس والهوى، وهذا أعظم أنواع الجهاد، وأن تجاهد الشيطان، وأن تجاهد أعداء الله عز وجل.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

جائزة المجاهد في سبيل الله:

هؤلاء الله عز وجل يطمئنهم، لا بد من أن تصلوا إلينا، لا بد من أن نعينكم على طاعتنا، لابد أن نعينكم على بلوغ رضائنا.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

ابشروا، سبلنا هي السبل الموصلة إلينا، سبيل الطاعة، سبيل الرضوان، سبيل الجنة، سبيل السعادة، سبيل السلم، أن تكون في سلام مع الله، ومع الناس، سبيل الحمد، هذه السبل كلها لله، والسبل إلى الله كثيرة، سبيل لطاعته، سبيل لتقواه، سبيل لمرضاته، سبيل للفوز بجنته، سبيل لمحبة أنبيائه ورسله، سبيل لأن تسعد بقربه.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

معية الله للمحسنين:

بين المعية الخاصة والمعية العامة:

وهذه كما قلت في الخطبة اليوم: هذه المعية الخاصة، وفرق بين المعية العامة والخاصة، الله مع كل مخلوق، هذه المعية العامة، وهو معكم أينما كنتم، ولكن له معية خاصة، هو مع الصابر، مع المتقي، مع المحسن، مع المؤمن، معه بالنصر والتأييد، والتوفيق والحفظ، هذه المعية الخاصة ثمنها أن تكون محسناً مع من ؟ مع كل الخلق، بقولك محسن، بعملك محسن، بحرفتك محسن، بوظيفتك محسن، بتجارتك محسن، بصناعتك محسن، بكل شيء تفعله، في بيتك محسن، مع جيرانك محسن، مع الخلق كلهم محسن معهم.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

ومن السذاجة والغباء، وضيق العقل والحمق أن تظن أن معية الله تنالها بلا ثمن أو بثمن بخس.

(وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة)

هذه معية الله عز وجل، فالإنسان لا يطمع بمعية الله بلا ثمن أو بثمن بخس سخيف، ألا إن سلعة الله غالية، وطلب الجنة من دون عمل ذنب من الذنوب.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

هذه الآية بشارة لكل مؤمن:

والله الذي لا إله إلا هو، هذه الآية وحدها فيها بشارة كبيرة لكل مؤمن، أيها المؤمن: مادام همك أن تعرفنا، مادام همك أن تطيعنا، مادام همك أن تتقرب إلينا، مادام همك أن تبذل كل شيء من أجلنا، فأبشر، فإنك سوف تصل إلينا، وتهتدي إلى سعادتك وجنتك، ومعية الله عز وجل ثمنها أن تكون محسناً.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

يجب أن تكون محسناً، يجب أن يفتقدك الناس إذا غبت عنهم، إذا دخلت البيت يجب أن يكون عند أولادك عيد، لأنك محسن، فإذا كنت قاسياً عليهم، فإذا كنت بخيلاً يتوخى الأولاد أن لا تكون بينهم، فكنْ محسنا في عملك، في دائرتك، في متجرك، في مصنعك، في دكانك، في زراعتك، في أي شيء، محسن مع الوالدين، مع الزوجة، مع الأقارب، مع الجيران.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا)

بذلوا كل جهدهم، كل طاقتهم، كل علمهم، كل خبرتهم، كل عضلاتهم، كل وقتهم، كل شبابهم فينا، من أجل معرفتنا، وطاعتنا، والتقرب إلينا.

(فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

سبل السعادة والسلام، والأمن والراحة والرضوان، والفوز والنجاح والفلاح.

(وَإِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

هذه الآية تكفي كل مؤمن، ولتكن في قلبه دائماً، ولتكن في ذهنه دائماً، وهي ختام هذه السورة الكريمة التي هي سورة العنكبوت، والحمد لله أولاً وآخراً.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة النمل 027 - الدرس (18-01): تفسير الآيات 1 - 6..... 1

سورة النمل 027 - الدرس (18-02): تفسير الآيات 6 - 14..... 19

سورة النمل 027 - الدرس (18-03): تفسير الآيات 15 - 19..... 38

سورة النمل 027 - الدرس (18-04): تفسير الآيات 20 - 31..... 59

سورة النمل 027 - الدرس (18-05): تفسير الآيات 27 - 40..... 79

سورة النمل 027 - الدرس (18-06): تفسير الآيات 40 - 44..... 97

سورة النمل 027 - الدرس (18-07): تفسير الآيات 45 - 53..... 113

سورة النمل 027 - الدرس (18-08): تفسير الآية 53..... 131

سورة النمل 027 - الدرس (18-09): تفسير الآيات 54 - 58..... 154

سورة النمل 027 - الدرس (18-10): تفسير الآيات 59 - 60..... 171

سورة النمل 027 - الدرس (18-11): تفسير الآية 61..... 185

سورة النمل 027 - الدرس (18-12): تفسير الآيات 61 - 62..... 194

سورة النمل 027 - الدرس (18-13): تفسير الآيات63..... 213

سورة النمل 027 - الدرس (18-14): تفسير الآيات 64 - 72..... 230

سورة النمل 027 - الدرس (18-15): تفسير الآيات 73 - 75..... 245

سورة النمل 027 - الدرس (18-16): تفسير الآيات 74 - 79..... 260

سورة النمل 027 - الدرس (17-18): تفسير الآيات 80 - 86..... 273
سورة النمل 027 - الدرس (18-18): تفسير الآيات 82 - 93..... 286
سورة القصص 028 - الدرس (01-18): تفسير الآيات 1 - 9..... 308
سورة القصص 028 - الدرس (02-18): تفسير الآيات 8 - 15..... 332
سورة القصص 028 - الدرس (03-18): تفسير الآيات 14 - 28..... 355
سورة القصص 028 - الدرس (04-18): تفسير الآيات 29 - 40..... 379
سورة القصص 028 - الدرس (05-18): تفسير الآيات 40 - 42..... 404
سورة القصص 028 - الدرس (06-18): تفسير الآيات 43 - 45..... 427
سورة القصص 028 - الدرس (07-18): تفسير الآيات 43 - 46..... 444
سورة القصص 028 - الدرس (08-18): تفسير الآيات 47 - 54..... 465
سورة القصص 028 - الدرس (09-18): تفسير الآيات 51 - 57..... 485
سورة القصص 028 - الدرس (10-18): تفسير الآيات 57 - 59..... 503
سورة القصص 028 - الدرس (11-18): تفسير الآيات 60 - 61..... 522
سورة القصص 028 - الدرس (12-18): تفسير الآيات 60 - 67..... 542
سورة القصص 028 - الدرس (13-18): تفسير الآيات 64 - 72..... 560
سورة القصص 028 - الدرس (14-18): تفسير الآيات 17 - 75..... 578
سورة القصص 028 - الدرس (15-18): تفسير الآيات 76 - 77..... 593
سورة القصص 028 - الدرس (16-18): تفسير الآيات 77 - 83..... 608

سورة القصص 028 - الدرس (17-18): تفسير الآيات 79 - 83..... 628
سورة القصص 028 - الدرس (18-18): تفسير الآيات 84 - 88..... 645
سورة العنكبوت 029 - الدرس (01-16): تفسير الآيات 1 - 3..... 665
سورة العنكبوت 029 - الدرس (02-16): تفسير الآيات 4 - 6..... 681
سورة العنكبوت 029 - الدرس (03-16): تفسير الآيات 5 - 6..... 700
سورة العنكبوت 029 - الدرس (04-16): تفسير الآيات 8 - 9..... 716
سورة العنكبوت 029 - الدرس (05-16): تفسير الآيات 10 - 18..... 729
سورة العنكبوت 029 - الدرس (06-16): تفسير الآيات 16 - 21..... 743
سورة العنكبوت 029 - الدرس (07-16): تفسير الآيات 19 - 23..... 760
سورة العنكبوت 029 - الدرس (08-16): تفسير الآيات 24 - 27..... 778
سورة العنكبوت 029 - الدرس (09-16): تفسير الآيات 27 - 35..... 793
سورة العنكبوت 029 - الدرس (10-16): تفسير الآيات 36 - 44..... 810
سورة العنكبوت 029 - الدرس (11-16): تفسير الآيات 41 - 44..... 828
سورة العنكبوت 029 - الدرس (12-16): تفسير الآية 45..... 843
سورة العنكبوت 029 - الدرس (13-16): تفسير الآيات 45 - 46..... 860
سورة العنكبوت 029 - الدرس (14-16): تفسير الآيات 47 - 52..... 876
سورة العنكبوت 029 - الدرس (15-16): تفسير الآيات 52 - 59..... 894
سورة العنكبوت 029 - الدرس (16-16): تفسير الآيات 61 - 69..... 913

الفهرس.....928

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

القرآن الكريم

تفسير من سورة الروم حتى الأحزاب

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (01-14): تفسير الآيات 1 – 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-01-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الأول من دروس سورة الروم.

إعجاز الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(الم (1))

(سورة الروم)

هذه الحروف الثلاثة ذهب المفسرون في تفسيرها مذاهب شتّى، وقد ذكرت لكم في بعض الدروس القديمة بعض هذه المذاهب، وأودُّ أن أبرز في هذا الدرس أحد هذه المذاهب في تفسير هذه الحروف التي هي فواتح السور.

بعضهم قال: إن القرآن الكريم، هذا الكتاب المُعْجِز الذي يعجز البشر على أن يأتوا بمثله، ولا بسورةٍ من مثله، ولا بأقلّ من ذلك، إنما هو من حروفٍ بين أيديكم.

(الم (1))

العلماء حلّلوا جسم الإنسان، فيه كميّة من الماء بالمئة سبعين، فيه دهن، فيه مواد بروتينية، فيه حديد، فيه كالسيوم، قرأت مرّة قائمة بما ينطوي عليه جسم الإنسان، هل يستطيع البشر جميعاً إذا أخذوا هذه المواد أن يصنعوا إنساناً ؟ هناك سر، سر الحياة لا يعلمه إلا الله.

هذا الحليب الذي نشربه وهو من الغذاء الأساسي، العلماء حلّلوا هذا الحليب وعرفوا مكوّناته، هل في الأرض كلِّها جهةٌ تستطيعُ من هذه المكونات الماديّة أن تصنع هذا الشراب السائغ ؟ مستحيل.

هذه البيضة عرف العلماء مكوّناتها، لو جئنا بهذه المكوّنات هل نصنع بيضةً ؟ الإنسان، الحيوان، النبات، هذه الفواكه والثمار، يقول لك: سكر بالمئة ثلاثة عشر، مواد كذا، معادن وفيتامينات كذا، آت بالسكر والمعادن والفيتامينات واصنع تفاحةً، لا تستطيع، هذا من إعجاز الله عزّ وجل.

بعض اتجاهات المفسِّرين في فهم فواتح السور:

ربنا عزّ وجل يقول لك: هذا القرآن كلام الله، كلامٌ معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيه تشريع، فيه أخبار، فيه وعد، فيه وعيد، فيه قواعد، فيه ثوابت، فيه قوانين، فيه غيب ؛ غيب المستقبل، غيب الماضي، وهو من حروف بين أيديكم، هل بإمكان الإنس والجن ولو اجتمعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن ؟

فهذا بعض اتجاهات المفسِّرين في فهم فواتح السور، بعضهم يقول: هي أوائل لأسماء الله الحسنى، بعضهم يقول: هي أوائل لأسماء النبي عليه الصلاة والسلام، بعضهم يقول: الله أعلم بمراده، بعضهم يقول: إن القرآن الكريم وما ينطوي عليه من إعجازٍ عظيم هو من هذه الحروف، وهي بين أيديكم وفي متناولكم، فإن ادعيتم أن هذا القرآن من عند محمّد فاصنعوا مثله، فألِّفوا كتاباً مثله:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2))

كلكم يعلم أنه في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كان الفُرْسُ وكان الروم، الروم أهل كتاب، والفرس وثنيّون يعبدون النار، ويروي بعض المؤرّخين أنه في عام ستمئة وثلاث عشرةَ وقعت موقعةٌ عظيمةٌ بين الفرس والروم، وانتهت هذه الموقعة بغلبة الفُرس على الروم، وقد استولى الفرس على دمشق وعلى بيت المقدس، كان هذا قبل الهجرة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، هكذا تروي كتب التفسير.

خلفيّة هذه الآية أو مناسبتها، أنه جرى نقاشٌ بين كفّار مكّة وبين المؤمنين حول الإيمان، وحول الكفر، وحول وجود الله عزّ وجل، وما إلى ذلك، فحينما غلب هؤلاء الفرس الروم، والفرس وثنيُّون ككفّار مكة، والروم يؤمنون بكتابٍ سماوي، فكان هذا حُجّةً لهم على أنّهم لو كانوا على حق لانتصروا.

هنا يجب أن نقف قليلاً، الحق حق والباطل باطل، وليس هناك علاقة بين أن يكون الحق قوياً أو الباطل قوياً، أحياناً ربنا عزّ وجل يقوّي الحق وأحياناً يقوي الباطل، وإن كانت القوة ضروريّة للحق.

تقييم العقيدة الصحيحة لا يكون من خلال قوة الكفار أو ضعفهم:

إذا أردت أن تُقَيِّمَ العقيدة الصحيحة من خلال قوة الكفّار أو ضعفهم هذا دليل غير صحيح، لأن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما التقى بعدي بن حاتم، وكان ملكاً في الجزيرة العربيّة، قال له: يا عدي لعلّه إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ـ المسلمون فقراء، فقراء لا يملكون شيئاً ـ وأيم الله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتّى لا يوجد من يأخذه، ولعلّه يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوّهم، ولعلّه إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من أن المُلْكَ والسلطان في غيرهم ".

إذاً الحق حق والباطل باطل، فربنا عزّ وجل له حكمةٌ بالغة، فقد يأتي وقتٌ يكون الحق فيه قوياً، وقد يأتي وقتٌ آخر ـ ولله حكمةٌ بالغة ـ يكون فيه الباطل قوياً، فأنت لست مع القوة والضعف، ولا مع الكثرة والقلّة، ولا مع زيدٍ أو عبيد، أنت مع الحق، فإن كان الوقت وقت قوةٍ للحق فأنعم بهذا وأكرم، وإن كان الوقت وقت ضعفٍ للحق كن مع الحق ولا تأخذك في الله لومة لائم، إذاً لا ينبغي أن ترى أن الحق مع القوي ولا أن الباطل مع الضعيف، ولا أن الحق مع الضعيف والباطل مع القوي، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَتِلْكَ الأَيّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النّاس)

(سورة آل عمران: من آية " 140 ")

إذا قَوّى المؤمنين فهو يمتحنهم، وإذا قوىّ الكافرين فهو يمتحنهم، والبطولة أن تنجح في الامتحان، فهؤلاء الكفار الذين كانوا يتحاورون مع بعض المؤمنين، وفي أثناء الحوار جاءوا بدليل: لو أن المؤمنين على حق لانتصروا، والدليل أن الروم غُلِبوا، فقال الله عزّ وجل:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ (3))

معنى في أدنى الأرض، هذه الألف واللام (أل) العهد، أي أرض العرب، إذا إنسان قال البيت: يعني بيته، وإذا قال: الدكان، يعني بهذا دكّانه، في أدنى الأرض وصلت رحى المعركة بين الفرس والروم إلى مشارف الشام، بل إن بعض كُتّاب التاريخ يقولون: إن الفرس ـ كما قلت قبل قليل ـ فتحوا دمشق وبيت المقدس قُبَيْلَ الهجرة، في عام ستمئة وثلاثة عشر.

إعجاز القرآن هو في الوقت نفسه دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام:

قال تعالى:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3))

هنا، فهل في الأرض كلِّها جهةٌ تستطيع أن تحكم على المستقبل ؟ لا يستبعد أن يكون هذا الكلام ـ وهو كذلك ـ من دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يستبعد أن يكون هذا الكلام من دلائل إعجاز القرآن، إنّ إعجاز القرآن هو في الوقت نفسه دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام، إذا كان هذا الكتاب معجزاً إذاً الذي نزل عليه هو رسول الله.

إذاً كلكم يعلم أن الغيب أنواعٌ ثلاثة ؛ غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

(سورة آل عمران)

أي أنت يا محمّد من أين جئت بهذه الأخبار الصحيحة ؟ أنت لا تعرفها، ولم تقرأ عنها، لم تقرأ عنها كان النبي عليه الصلاة والسلام أُمِّيّاً:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(48))

(سورة العنكبوت)

أنت لا تقرأ ولا تكتب، فهذه المعلومات التي تتكلّم عنها المُغْرِقَة في البعد التاريخي إنك لا تعرفها قراءةً ولا كتابةً، بقي أن تكون معهم ـ أي أنك شاهدتها ـ طبعاً هي قديمة جداً، فربنا عزّ وجل جعل من إعجاز القرآن ومن دلائل نبوّة النبي العدنان، هذه الأخبار المتعلِّقة بغيب الماضي، وتلك الأخبار المتعلِّقة بغيب المستقبل.

الله عزّ وجل نفى عن سيدنا محمد علم الغيب:

إذاً حينما قال الله عزّ وجل:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3))

أي جهةٍ في الأرض لا تعلم الغيب، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، وإذا تكلّم عن علامات قيام الساعة ليس من قبيل أنه عَلِمها بذاته ؛ أعلمه الله إيّاها، لأن الله عزّ وجل نفى عنه علم الغيب، قال تعالى:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف: من آية " 188 ")

لكن الله عزّ وجل أعْلَمَهُ:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

إذاً غيب الماضي لا يعرفه النبي، ومع ذلك جاء بقصص ووقائع تؤكِّد أنه نبي، وأن هذا القرآن كلام الله.

أنواع الغيب:

مثلاً، بمصر حكم الفراعنة حِقَبَاً طويلة، إلا في مرحلةٍ قصيرةٍ جداً حكم فيها المُلوك لا الفراعنة، ومن الغريب أن القرآن الكريم في معرض الحديث عن سيدنا يوسف لم يذكر اسم فرعون ؛ بل ذكر اسم الملك، فقال تعالى:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)

(سورة يوسف: من آية "54 ")

هذا كلام الله، هل يستطيع النبي عليه الصلاة والسلام أن يَطّلِع على تاريخ الفراعنة الذي يمتد في الماضي سبعة قرون ؟ وأن يعرف أن الفراعنة حكموا حقباً طويلةً ما عدا فترةٍ قصيرةٍ من الزمن حكم فيها ملوك الهكسوس، ففي القرآن ذكرٌ للفراعنة:

(إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ(8))

(سورة القصص)

في آية أخرى:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)

(سورة يوسف: من آية "54 ")

غيبُ الماضي يدل على أن هذا القرآن كلام الله، وغيب الحاضر أيضاً، أي الشيء الذي غاب عنك في الوقت ذاته، في الوقت نفسه، ماذا يجري الآن في أطراف الدنيا؟ لا نعلم إلا إذا أُخْبِرْنا، وأما غيب المستقبل فهذه الآية الكريمة من غيب المستقبل:

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ)

جاء بعضهم ـ بعض كفّار مكّة ـ إلى سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وقالوا: إن صاحبك يزعُمُ أن الروم سيغلبون في بضع سنين، قال: صدق ـ اسمه الصديق ـ هذا التصديق، هذا الشعور أن ما قاله النبي حق، وأن ما جاء في القرآن حق، هذا هو الفرق بيننا وبينه رضي الله عنه.

كلّما ازداد الإيمان بعظمة الله عزّ وجل ازدادت مصداقيّة كلامه عندنا:

تقرأ الآية:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 221 ")

يأتيك خاطب لابنتك ؛ ماله وفير، بيته كبير، شكله وسيم، دينه قليل، تؤثره على الشاب المؤمن، المصداقيّة ضعيفة:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: من آية " 276 ")

تتساهل في ذلك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

تتساهل في ذلك، إذاً إحساسك، وشعورك، ويقينك أن هذا القرآن كلام الله، وأن وراءه ما وراءه، وراءه خيرٌ كبير لمن طبّقه، ووراءه شرٌ مستطير لمن خالفه، هذا الشعور بمصداقيّة كلام الله عزّ وجل ينمو

مع نمو الإيمان، كلّما زاد إيمانك بالله عزّ وجل ازداد إيمانك بكلامه، كلّما ازداد إيمانك بعظمة الله عزّ وجل ازدادت مصداقيّة كلامه عندك.

السفهاء هم الذين ينتقدون انتقال القبلة من بيت الله الحرام إلى بيت المقدس:

إذاً لو أن الروم لم يغلبوا الفُرس في بضع سنين، أين هو هذا القرآن ؟ في آيات أخرى يقول الله عزّ وجل:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاس مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

(سورة البقرة: من آية " 142 ")

ربنا عزّ وجل قال: سَيَقُولُ ـ فالسين للمستقبل ـ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاس. هؤلاء الذين سوف يقولون: مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ وصفهم الله عزّ وجل بأنهم سفهاء، فلو حَكَّم هؤلاء السفهاء عقولهم وسكتوا ماذا يحدث ؟ يكون هذا الكتاب باطلاً، هذا من إعجاز القرآن، فالله عزّ وجل قال:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاس)

(سورة البقرة: من آية " 142 ")

هؤلاء الذين ينتقدون انتقال القبلة من بيت الله الحرام إلى بيت المقدس سمّاهم الله سفهاء، ولا بدّ من أن يقولوا ذلك، ولو لم يقولوا ذلك لكان هذا القرآن باطلاً، ومع ذلك، ومع أنهم وصفوا بأنهم سفهاء قالوا:

(مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

(سورة البقرة: من آية " 142 ")

سيدنا الصديق حينما تحاور مع بعض الكفّار وقالوا له: يزعم صاحبك أن الروم سوف تغلب في بضع سنين، تروي بعض الكتب أنه راهنهم، ومعنى بضع سنين، أي من ثلاثة إلى تسعة، وفي السنة السابعة غلبت الروم الفرس، وهذا من إعجاز القرآن الإخباري ومن دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3))

الإيمان هو أن ترى أن الأمر كُلّه لله:

لذلك عندما يتحدّث ربنا عزّ وجل عن المستقبل أحياناً يتحدّث عنه بالفعل الماضي:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من آية " 1 ")

لم يأتِ إذاً، كيف يقول عنه أتى ؟ شيءٌ غريب، لأن الأمر الذي سيأتي من عند الله لا بدّ من أن يأتي، لأن كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وما هو مُقَدَّر لا بدّ من أن يقع:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ(4))

الإيمان كلّه أن ترى أن الأمر كُلّه لله، من قبل انهزامهم ومن بعد انتصارهم.

كُلّما ابتعدت عن الله رأيت الكثرة وكلّما اقتربت منه رأيت الوحدة:

قال تعالى:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (4))

الأمر دائماً بيد الله، وكلّما عَمُقَ إيمانك، وكلّما ارتقى إيمانك لا ترى مع الله أحداً، ترى يد الله فوق أيدي الناس جميعاً، قال تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية: 10)

كُلّما ابتعدت عن الله رأيت الكثرة، وكلّما اقتربت من الله رأيت الوحدة، كلّما ابتعدت عن الله رأيت شُرَكَاءَ لله، وكلّما اقتربت من الله عزّ وجل رأيت أن الله عزّ وجل لا إله غيره، لذلك جاء في سورة يونس:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا (24))

(سورة يونس)

لشدّة قوّتهم:

(أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا (24))

(سورة يونس)

أمرنا لا أمرهم:

(لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(24)وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(25))

(سورة يونس)

لله الأمر دائماً من قبل غلبتهم ومن بعد انتصارهم:

إذاً:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (4))

ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، يجب أن تعلم علم اليقين أن الأمر بيدِ الله، هذا هو الإيمان، ولا شيء يزعج الإنسان ويسحقه ويؤلمه كأن يرى أن الأمر بيد زيدٍ أو عُبَيْد وبيدِ فلانٍ وفلان، أما الأمر لله:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

لكن قبل أن يُغْلبوا وبعد أن يَغْلِبوا، قبل هذا وبعد هذا، قديماً وحديثاً، يميناً وشمالاً، فوقاً وتحتاً الأمر بيد الله:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (4))

هذه قبل وبعد ظرفا زمان بُنيا على الضَمّ لانقطاعهما عن الإضافة، أي:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ (4))

نصرهم:

(وَمِنْ بَعْدُ (4))

نصرهم، من قبل غلبتهم ومن بعد انتصارهم:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4))

التأويل بمعنييه العام والخاص:

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ملّة الكفر واحدة.))

[ورد في الأثر]

لو دخل مؤمن على مئة منافق فيهم مؤمنٌ واحد لحنّ هذا المؤمن إلى ذاك المؤمن ولو دخل منافقٌ على مئة مؤمن وفيهم منافقٌ واحد لحنّ هذا المنافق إلى ذاك المنافق، فهذه قصّةٌ قديمةٌ جداً، قديمةٌ قِدَمَ سيدنا آدم، هناك الكفر والإيمان، هناك الشِرك والتوحيد، هناك الإحسان وهناك الإساءة، هناك العدل وهناك الجور، هناك الخير وهناك الشر، هناك الحق وهناك الباطل، هناك المُحسن وهناك المسيء، هناك المؤمن وهناك الكافر، هناك الموحِّد وهناك المشرك، أبداً ؛ المؤمن مع المؤمن، المشرك مع المشرك، الكافر مع الكافر، الزاني لا ينكح إلا زانيةً، الفاسق مع الفاسق، المرابي مع المرابي، العفيف مع العفيف، أبداً، هذه سنّة الله في خلقه.

أولاً حينما غلب الروم الفرس لماذا فرح المؤمنون ؟ لشيءٍ خطيرٍ جداً، وهو أن هذا الكتاب من عند الله والدليل وقوعه، ربنا عزّ وجل قال:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس: من آية " 29 ")

تحدّثنا سابقاً عن أن تأويل القرآن له معنى خاص وله معنى عام، التأويل بمعناه العام كالتفسير، إذا كانت الآية واضحة أو فيها كلمة غامضة نفسّرها، أما إذا كانت الآيات فيها خلاف ظاهر مع آيات أخرى نؤوّلها، فالتأويل إلى حدٍ ما يشبه التفسير، وللتأويل معنىً خاص وهو أن الله عزّ وجل إذا وعد المرابي بأن يمحق الله ماله، فإن محق مال المرابي تأويل آية الربا، وإذا وعد المؤمن بالحياة الطيّبة، الحياة الطيّبة تأويل هذه الآية، وإذا وعد المُعْرِض عن ذكر الله عزّ وجل بالمعيشة الضنك، فإن المعيشة الضنك تأويل هذه الآية، فالتأويل وقوع الوعد والوعيد.

أسباب فرح المؤمنين بنصر الله:

الآن لماذا فرح المؤمنون بنصر الله ؟ لأن القرآن ذكر هذا قبل أن يقع، فلمّا وقع كان مصداقاً على أن هذا القرآن كلام الله، هذا أحد أسباب فرح المؤمنين بنصر الله.

الشيء الآخر: المؤمنون أقرب إلى أهل الكتاب منهم إلى عُبّادِ النار، فلو أنت مع إنسان له كتاب سماوي وإنسان آخر مُلحد، ترى أنك أقرب إلى هذا الكتابي من هذا المُلحد، هذا المعنى الثاني، إذاً:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3))

سيغلبون من إعجاز القرآن الإخباري، ومن دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، و:

(فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

وقد وقع هذا، وقعت مغلوبيّة الروم في عام ستمئة وثلاثة عشر، وبعد سبع سنوات انتصر الروم على الفرس واستردوا منهم المواقع التي أخذوها، والأمر لله عزّ وجل من قبل ومن بعد.

بعض آيات من القرآن الكريم على أن الأمر بيد الله:

دائماً الأمر بيد الله، اسمعوا بعض الآيات:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية: 10)

وقال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: 123)

وقال:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية: 84)

وقال:

(وَاسْمَعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

وقال:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

وقال:

(اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

آيات من القرآن تبث الطمأنينة في النفس:

هذه الآيات:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

هذه الآيات تَبُثُّ الطمأنينة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

(سورة العنكبوت: من آية " 4 ")

أيستطيع الكافر مهما كان قوياً أن يفعل شيئاً غير إرادة الله عزّ وجل ؟ هل يستطيع الكافر أن يتفلّت من عقاب الله عزّ وجل ؟ أبداً، هذا معنى قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

(سورة العنكبوت: من آية " 4 ")

الأمر كلّه بيد الله ومع ذلك علينا أن نأخذ بالأسباب:

قال:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5))

انظر إلى معنى ينصر من يشاء، يعني أن الله عزّ وجل مطلق الإرادة يفعل ما يشاء، الأمر بيده، النصر بيده، الهزيمة بيده، بثّ الرُعب في الناس بيده ـ النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

أن يراك الناس ضعيفاً بيده، أن يروك قوياً بيده، أن يهابوك بيده، أن يستصغروك بيده، أن تقوى على عدوّك بيده، أن يقوى عليك عدوُّك بيده، أن تظهر بيده، أن تختفي بيده، أن تنتصر بيده، أن تنهزم بيده:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (4))

لكن سؤال: ما دام الأمر كلّه بيد الله، هل معنى ذلك أن لا نأخذ بالأسباب ؟ هنا المشكلة، أتمنّى على الله عزّ وجل أن يُمَكِّنَنِي من أن أوضِّح لكم هذه الحقائق الدقيقة، في حياتنا اليوميَّة، في عملنا، في زواجنا، في تجارتنا، في دراستنا، في كل نشاط حياتنا، أنت بين رجلين رجل آمن بالأسباب وعبدها من دون الله واعتقد أنها كل شيء، فأخذ بها واعتمد عليها، وقد يُفاجأ الإنسان أنه أخفق في حياته.

فقد سمعت عن طبيب اعتقد أن الجري اليومي هو كل شيءٍ في صحّة الإنسان، وأن هذا الذي يجري يومياً لن يصاب بمرضٍ في القلب أبداً، اعتقد هذا، وكتب مقالات، وعمل ندوات، وألّف كتباً، وكان يجري كل يوم، مات فجأةً وهو يجري لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، لماذا ؟ لأنه آمن بالأسباب وحدها، ووضع فيها كل ثقله، وضع فيها كل آماله، من اختصاصه يؤتى، لذلك قالوا: **" يؤتى الحذر من مأمنه"**، لماذا يؤتى الحذر من مأمنه ؟ لأنه عبد الأسباب من دون الله، اعتقد بها وعبدها، هذا الإنسان قد لا ينجح في حياته، لذلك من أسباب النصر الكثرة أليس كذلك ؟!!

الأخذ بالأسباب وإغفال قدرة الله عز وجل شرك بالله:

أصحاب النبي عليهم رضوان الله حينما فتحوا مكّة وجدوا أنفسهم من الكثرة الكثيرة، عشرة آلاف مقاتل مع سيوفٍ متوهِّجة، فقالوا: **" لن نُغْلَبَ اليوم من قلّة "**، فماذا كانت النتيجة ؟

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

ألقى في قلوبهم الخوف والرعب، فما علاقتنا نحن بهذه الآية ؟ أنت في عملك إذا قلت: أنا متمكِّن، أشركت، أنا متفوّق، أنا خبير، لا بدّ من أن تُخْفِق تأديباً لك على الشرك بالله عزّ وجل، هذا إنسان، الغربيون يمثلون هذا الصِنْف، أخذوا بالأسباب كلِّها، (تشالنجر) وهي المركبة الفضائيَّة، هذا الاسم معناه باللغة العربية المتحدي، الضبط، والمراجعة، والعَد التنازلي، وقطعة قطعة، وصمّام صمّام، وجهاز جهاز، دقّة ما بعدها دقّة، وحسابات دقيقة، رياضيات وفيزياء وكيمياء، وفيها سبع رواد للفضاء، ركبوا مركبتهم، وبعد سبعين ثانيةً أصبحت كتلةً من اللهب.

إذا عبدت الأسباب من دون الله ونسيت الله عزّ وجل، أغفلت قدرة الله عزّ وجل ونسيت أن الله بيده كل شيء، نسيت أن الله قادرٌ على كل شيء، نسيت أن الله بقدرته أن يقلب كل شيء رأساً على عقب، هذا الوضع هو شرك، فهذا نموذج، هذا النموذج مرفوض أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد عليها.

التواكل على ربنا عز وجل مرفوض تماماً:

النموذج الثاني: تواكل على ربنا عزّ وجل، وكسل، وقعود، وخمول، وعدم العمل، وعدم السعي، وعدم الاهتمام نموذج مرفوض، ولو توكّلت على الله، لو قلت: ليس إلا الله، لا رَبَّ إلا هو، لا إله إلا الله، إليه يرجع الأمر كلّه، بيده الخير، نحن عبيد عنده، هذا التوكّل بلا سعي نموذج مرفوضٌ آخر.

هذا مرفوض وهذا مرفوض، هذا خلاف ما أراده الله عزّ وجل، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما وقف يدعو ربَّه قُبَيْلَ معركة بدر وقع من على كتفه الرداء لشدّة قلقه وإلحاحه في الدعاء، بعض كُتّاب السيرة قالوا: لعلّه كان يخشى أن لا يكون قد أخذ بالأسباب التي أمره الله بها.

أنت في دراستك، في تجارتك، في علاقاتك، في مشاريعك، في إنجازك، في مهنتك، في حرفتك، في صِحَّتَكَ، في تربية أولادك، يجب أن تأخذ بالأسباب وأن تتوكّل على ربِّ الأرباب، توكل حقيقي، أن تأخذ بالأسباب أخذاً حقيقياً، وأن تتوكّل على الله توكّلاً حقيقياً، فلو أخذت بالأسباب، وتوكّلت عليها، وألْهَتَهَا واعتمدت عليها، ورأيتها كل شيء، وقعت في الشرك ولا بدّ من التأديب، ولو توكلت على الله وحده، وكنت كسولاً خمولاً لم تأخذ بالأسباب لوقعت في خطأ كبير.

من يأخذ بالأسباب يستحق أن تُخْرَقَ له القواعد والعادات:

النبي ماذا قال ؟ قال:

((مَن أكل الطين فكأنما أعان على قتل نفسه))

[الطبراني عن سلمان بسند ضعيف، وانظر الجامع الصغير]

من أكل فاكهةً قبل أن يغسلها فقد أعان على قتل نفسه، أليس هناك من يقول: أخي كُل وسَمِّ بالله ؟ أهذا هو الدين ؟ لا والله، طالب لا يدرس، يقول أنا الحمد لله ما تركت فرض صلاة هذا لا يكفيه، لا بدّ من الدراسة، مثقف جاهل لا يجدي، طبيب جاهل يؤذي الناس، فالمسلمون لا يتقدّمون ولا يفلحون إلا إذا أخذوا بالأسباب، والذين أخذوا بالأسباب ولم يتوكّلوا على الله لا يفلحون، هذا الذي أتمنّى عليكم أن تكونوا في مستواه.

حقيقة قرآنيَّة خطيرة جداً، الله عزّ وجل بيده الأمر:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ (5))

لكن هذه المشيئة رسمت لنا طريقاً، النبي عليه الصلاة والسلام حينما هاجر، ما من إنسان على وجه الأرض يستحق النصر كرسول الله ومع ذلك أخذ بالأسباب كلِّها ؛ عيَّن إنساناً ليتلقَّف الأخبار، وآخر ليمحو الآثار، وثالث ليأتيه بالزاد، ورابع ليدلّه على الطريق، سار مُساحلاً، دخل غار ثور، صحب سيّدنا الصديق، أخذ الحيطة والحذر، وتوكّل بعدها على الله.

فلمّا جاؤوا إلى الغار، وقال له الصديق: " يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا "، عندئذٍ قال عليه الصلاة والسلام:

((يَا أبا بَكْرٍ مَا ظَنّكَ باثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا))

[متفق عليه]

قال له: **" لقد رأونا "**، فقال له: " يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ(198))

(سورة الأعراف)

حينما تأخذ بالأسباب تستحق أن تُخْرَقَ لك القواعد والعادات، هذه حقيقة.

من الحماقة أن تظن أن معية الله عز وجل بلا ثمن:

الإنسان قد يتمنّى أن يكون الله معه، يتمنّى أن ينصره الله، أن يدافع عنه، أن يحفظه، أن يوفِّقه، يتمنى، ولكن هذه المعيَّة معيَّة الله عزّ وجل من السذاجة والحمق والغباء والجهل أن تظنَّها بلا ثمن، لها ثمن باهظ، فقد قال الله تعالى:

(إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة: من آية " 12 ")

هذه هي المعيَّة، أن تؤمن بالله، أن تصلي صلاة صحيحة، أن تزكي، أن تُحسن، أن تؤمن بالرسول، أن تنصره، أن تعينه، هكذا، فلذلك لا تطمح أن يكون الله معك من دون أن تكون معه:

كن مع الله ترى الله معك واترك الكلَ وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ؟ ثم من يعطي إذا ما منعك؟

***

الشيء الثاني: عليك أن تأخذ بالأسباب وأن تتوكّل على الله عزّ وجل:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5))

عزيزٌ لا يُنَالُ جانبه، رحيمٌ خلق عباده ليرحمهم.

آيات من القرآن الكريم عن وعد الله:

قال تعالى:

(وَعْدَ اللّهِ (6))

وقال:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: من آية " 55 ")

وقال:

(وَعْدَ اللّهِ لَا يُخْلِفُ اللّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

الآية التالية تنفي العلم عن أكثر الناس وتثبته:

هنا المشكلة، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ)

قد يقول قائل: كيف نفى الله عزّ وجل عنهم العلم ثمّ أثبت عنهم العلم، قال:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ (7))

إذا دخلت إلى دائرة ولك معاملة مهمّة جداً وتحتاج إلى موافقة، فرأيت أشخاصاً وراء مكاتب، وموظّفين كُثُر، ولافتات كُتِبَ عليها أسماؤهم، وغرفاً، وحُجّاباً، وطوابق، لو رأيت كل هذا، ولم تعرف من الذي بيده وحده حق التوقيع على هذه المعاملة، فأنت تعلم ولا تعلم، تعلم أن هذه الدائرة هي الدائرة الفلانيّة، وأن هؤلاء موظّفون، ولكن غاب عنك من يستطيع وحده أن يوقّع لك هذه المعاملة، وأن يمنحك هذه الموافقة، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

أي أنهم عرفوا الدنيا، عرفوا ما فيها من ثروات، عرفوا ما فيها من مباهج، عرفوا ما فيها من بيوت فخمة، من مركبات فارهة، من طعام لذيذ، من لباس أنيق، من نساء جميلات، هذا كله عرفوه، يعلمون من أين تؤكل الكتف، كيف يقتنصون المُناسبات، كيف ينتهزون الفرص، كيف يكسبون المال، أذكياء جداً، كيف يشترون بأرخص الأسعار ويبيعون بأغلى الأسعار، كيف يوهمون الناس، كيف يَرْبَحون

الأموال الطائلة، هذا كله معروف عندهم، فهم أذكياء في هذا، نابهون ؛ ولكن غاب عنهم لماذا هم في الدنيا ؟ غاب عنهم أن هذه الدنيا مزرعة الآخرة، غاب عنهم أن هذه الدنيا من أجل أن تعرف الله عزّ وجل، غاب عنهم أن هذه الدنيا من أجل أن تتقي ربّك، غاب عنهم أن هذه الدنيا من أجل أن تطيعه، من أجل أن تحسن إلى خلقه.

الذي يعلمُ ظاهر الأشياء كمن لا يعلم:

هذه الحقائق الكبرى ؛ لماذا أنت في الدنيا ؟ أنت في الدنيا في دار عمل والآخرة دار جزاء، أنت في دار تكليف والآخرة دار تشريف، أنت في دار أهم ما فيها العمل الصالح وسوف تأتي إلى دار أهم ما فيها النعيم المقيم، هذه الحقائق الكبرى غابت عنهم، يعرفون أسعار الأراضي، أسعار البيوت، هذا البيت مناسب وهذا غير مناسب، هذا اللون يناسب هذا اللون، خبرات في الدنيا من أعلى مستوى، كسب المال، إنفاق المال، تأثيث البيت، اختيار موقع البيت، اختيار الزوجة، كيف تُخْطَب الفتاة، كيف تُجَهّز، كلّه يعلمونه علماً لا حدود له:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

أما أخطر شيء في حياة الإنسان هو مجيئه للدنيا، في ضوء الدنيا يتقرّر مصيره الأبدي، لماذا خُلِق ؟ أين كان ؟ أين المصير ؟ ما عرف كتاب الله، ما عرف ربّه، ما عرف أسماءه، ما عرف صفاته، ما عرف النبي، ما عرف قيمته، ما عرف أن حديثه الشريف وسنّته المطهّرة هي خلاصٌ لنا من كل مشكلاتنا، ما عرف هذا:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا (7))

لهذا قال العلماء: **" الذي يعلمُ ظاهر الأشياء كمن لا يعلم "**، كأنّه جاهل، مثلاً: هل تصدّق أن الطبيب هو إنسان يرتدي ثوباً أبيض، ويضع نظارات، ويقتني سمّاعة ؟ فهذا الطبيب فقط ؟ فمعنى ذلك أنك لا تعرف شيئاً، الطبيب ثلاثة وعشرون سنة دراسة، هذا مظهره، فلو جاء إنسان جاهل لا يقرأ ولا يكتب ارتدى ثوباً أبيض، ووضع نظارات، وحمل سمّاعة، وأخذ ورقة وأقلام وكتب هل صار هذا عندك طبيب ؟ فالذي يعلم الظاهر ولا يعلم الباطن، كأنه جاهل، فهو عند الله جاهل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

يجب أن نعرف سرّ الوجود لا أن نبقى في الظاهر:

لذلك قال بعضهم: مساكين أهل الدنيا، جاءوا إلى الدنيا وخرجوا منها ولم يأنسوا بالله عزّ وجل، ذاق الطعام والشراب، وذاق المنزل الفخم والنساء، وذاق الحِرَف والمِهَن، وكسب المال، والتجارة، والسفر، والاختصاص، كل هذا ذاقه، والأصدقاء، والندوات، والسهرات، والرحلات، لكن ما ذاق طعم القرب من الله عزّ وجل، ما أنِسَ قلبه بذكر الله، ما أقبل على الله، ما خشيه، ما خافه، ما رجاه:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

ما فيها من طعام وشراب، وزينة، وبُهْرُج، ومباهج، ولكن غاب عنه سِرُّها، غابت عنه حقيقتها، غابت عنه فائدتها، خطورتها، فلذلك إذا كنت تعلم شيئاً وتغيب عنك أشياء فأنت لا تعلم:

قل لمن يدّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

***

لذلك يجب أن نعلم الحقيقة الأساسيّة، لا أن نبقى في الظواهر، في القشور، في الصور، في الأشياء الثانويّة التي لا تقدِّم ولا تؤخِّر، يجب أن نعرف سرّ الوجود:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

أخذوا بالأسباب وما استفادوا، تركوا الأسباب وتوكّلوا على الله وما استفادوا، لأنك ما عرفت الحقيقة، لا بدّ من أن تأخذ بالأسباب ولا بدّ من أن تعتمد على الله عزّ وجل.

لا نريد إنساناً ساذجاً يؤلِّه الأسباب ويعتقد بها وينسى الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

مثلاً: لو فرضنا راكب سيارة انقطعت به في الطريق، فنزل ورفع يديه إلى السماء وصرخ، ودعا، واستغاث، واستجار، واستعطف، وبكى، ماذا يحدث ؟ تبقى السيارة واقفة، المنطق أن تفتح غطاءها وأن تنظر ماذا فيها، وأن تجد أين الخلل ؟ إذا كان هناك خلل أصلحه، هذا الموقف العملي، المؤمن عقله علمي، لكن بعد أن صحّح الخلل يا ربي وفقتني لمعرفة الخلل، هنا الدعاء شيءٌ جميل، اللهمّ يا هادي، عرفت الخلل توفّق إلى إصلاحه، هنا تدعو، أما أن تبقي الغطاء مغلق، والمحرّك مُعَطّل، وترفع يديك وتدعو وتستجير هذا كلّه كلامٌ فارغ، كلام فيه سذاجة.

تقول: لا بدّ لي من أن أكشف العطل، كذلك أنت بهذا غلطان، يمكن ألا تعرف العطل حتى ولو عملت عشر ساعات، قال لي أحدهم: تركت سيارتي في مكان، وركبت مئة كيلو متر ورجعت من أجل برغي

يحتاج إلى شد، لم يخطر على بالي، فهذه المشكلة، لا نريد إنساناً خيالياً ساذجاً، دعاء دُعاء ويوجد خلل في حياته، المعاصي الكثيرة، المخالفات، الثغرات ؛ ولا نريد إنساناً يؤلِّه الأسباب ويعتقد بها وينسى الله عزّ وجل.

الكثير من الناس عرفوا ظاهر الحياة الدنيا وغفلوا عن معرفة الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7))

سؤال: هل عرفوا الحياة الدنيا ؟ الجواب لا لم يعرفوها، والدليل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا (7))

ما عرفوا حقيقة الدنيا، ما عرفوا لماذا نحن في الدنيا ؟ ما عرفوا أجمل ما في الدنيا، ما عرفوا أسعد ما في الدنيا، ما عرفوا أنظف ما في الدنيا، المؤمن بحياته النقيّة، الطاهرة، باستقامته، بورعه، يعيش حياةً سعيدةً لا يعرفها الآخرون، هم عرفوا ظاهرها ؛ عرفوا مساحة البيت، عرفوا أناقة البيت، عرفوا أنواع الطعام، أنواع اللباس، أنواع المركبات، كيف الدخل الكبير، عرفوا هذا وغفلوا عن معرفة الله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل يقول:

(أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (8))

كل ما في الكون يسير وفق منهج و نظام معين:

أي يا أيها الإنسان أما رأيت أن هذا الكون تحكمه قوانين دقيقة جداً ؟ أما رأيت أن هذا الكون تحكمه سُنَن ؟ أما رأيت إلى هذا الكون مبنياً على الأسباب والمسبّبات ؟ أما رأيت أن هذا الكون له غايات عظيمة ؟ ألم يهدك عقلك الذي بُنِيَ على السببيّة والغائيّة أن لهذا الكون سبباً، وأن لهذا الكون غايةً ؟ هل ترى أن الأمور هكذا تجري ؟ أتفكرت في خلق السماوات والأرض ؟ أتفكرت في خلق جسمك وما فيه من آياتٍ باهراتٍ على عظمة الله عزّ وجل ؟ أنظرت إلى طعامك ؟ أنظرت إلى نَسْلِك ؟ كيف تشكّل هذا الغُلام الصغير ؟ ألم تعرف أنه من ماءٍ مهين، من حوينٍ صغير، كل ثلاثمئة مليون حوين لا يُعادلوا سنتيمتر مكعّب ؟ والبويضة تلقّحت من حوينٍ واحد، والمورّثات وما أدراك ما المورّثات، خمسة آلاف مليون معلومة على الحوين ؟ فلان طويل، فلان قصير، فلان أبيض، فلان أسمر، فلان له شعر سبط، شعر غير سبط، عينان زرقاوان، عينان سوداوان، خدٌ أسيل، خدٌ ناتئ، عينٌ كبيرةٌ واسعةٌ، وعينٌ صغيرةٌ، جسمٌ مفتول، جسم طويل، جسم قصير، طِباع، أنواع منوعّة من الطباع:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (8))

كل شيء يسير وفق منهج، وفق خطّة، وفق تصميم، وفق هدف، وفق نظام، وأنت بلا نظام ؟!

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

كل شيء خلقه الله خلقه ليبقى:

بلا نظام:

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(3)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(4))

(سورة القيامة)

قال:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115))

(سورة المؤمنون)

انظر للدعوة إلى التفكّر، أي أنك أيها الإنسان لست مسيّباً، لست طليقاً:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38))

(سورة المدثر)

إنك محاسب، هناك نظام يجب أن تعرفه، هناك تشريع يجب أن تأخذ به، هناك أمر يجب أن تأتمر به، هناك نهي يجب أن تنتهي عنه:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (8))

أي أنه خلقهما لهدفٍ كبير، وخلقهما لتبقيا لا لتفنيا، كل شيء خلقه الله خلقه ليبقى، فالحق نقيضه الباطل، والباطل الشيء الزائل، والحق نقيضه اللعب واللعب يعني العبث، عمل لا طائل منه.

للكون تشريع دقيق علينا أن نكشفه ونطبقه:

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9))

أي أنك إذا تفكّرت في خلق السماوات والأرض تعلم أن لهذا الكون إلهاً عظيماً خلقه فأبدعه، وجعله وفق نظم، وقوانين، وسنن دقيقة جداً، وأن الذي خلق الكون بهذا الإعجاز، وبهذه الدقّة، وبهذا الإحكام، وبهذا النظام لن يدع الإنسان سُدى، فيمكن أن تستنبط من خلق السماوات والأرض أن لهذا الكون إلهاً، وله نظامٌ دقيق، وله تشريعٌ دقيق، وعليك أن تكشف هذا التشريع وأن تطبّقه.

طرق معرفة الله عز وجل:

يوجد عندنا شيءٌ ثانٍ: إذا شئت أن تستنبط العبر من السابقين فانظر، فانظر إلى كل قومٍ كفروا ربَّهم، وتجاوزوا حدَّهم، وطغوا وبغوا كيف أن الله أهلكهم:

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف: من آية " 59 ")

وقال:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(22))

(سورة الحديد)

يوجد عندك طريقين: إما طريق التفكّر في خلق السماوات والأرض، وإما طريق التفكّر في أفعال الله عزّ وجل، كيف أن الكريم يكرمه الله عزّ وجل، وأن المستقيم ينصره، وأن المنحرف يخذله، وأن الأمين يغنيه، وأن المختلِسَ يفقره، وأن المرابي يمحق ماله، وأن المتصدِّق يُنَمِّي ماله، إذا أردت أن تعرف الله من خلال الكون فدونك الكون.

إذا أردت أن تعرفه من خلال أفعاله فهذه أفعاله أمامك، هذه أفعاله، وهذا خلقه، وهذا قرآنه، لك أن تعرفه من كلامه، ولك أن تعرفه من خلقه، ولك أن تعرفه من أفعاله.

المحسن يثاب على إحسانه والمسيء يحاسب على إساءته:

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (9))

تجد شريكين أحدهما ظلم الآخر، الله مع الضعيف دائماً، تجد زوجين أحدهما كان ظالماً للآخر، الله مع المظلوم، أولاد اختلس أحدهم أموال أبيه كلها وجعل إخوته بلا شيء كيف أن هؤلاء الأخوة المظلومين الضعاف يغنيهم الله عزّ وجل، وقد يفتقر هو، دع القرآن، دع الكون، لو تتبعت أفعال الله عزّ وجل في عباده، انظر إلى زوجين أقاما زواجهما على طاعة الله، تجد أن الله عزّ وجل يوفِّق بينهما، انظر إلى

زوجين أقاما زواجهما على معصية الله عزّ وجل، انظر إلى تاجر أقام تجارته على نُصْح المسلمين، وعلى الإخلاص لهم، والصدق في المعاملة، كيف أن الله ينمّي ماله، انظر إلى تاجر يكذب ويغش كيف أن الله يمحق ماله، انظر إلى أي شيء، انظر إلى أي مخلوق تجد أن المحسن يثاب على إحسانه، والمسيء يحاسب على إساءته، إن شئت أن تعرف الله من خلال الكون:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ(8))

إن شئت أن تعرف الله من خلال أفعاله:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(9))

لمعرفة الله تعالى علينا أن نسلك أحد الطرق الثلاثة التالية:

الذي أتمنّاه على الله عزّ وجل أن يسلك الإنسان أو يسلك أحدكم إلى معرفة الله هذه الطرائق الثلاث ؛ كتاب الله طريق، والكون طريق، وأفعاله طريق، فلان استقام فرفعه الله، فلان غشّ الناس فخذله الله، فلان كان صادقاً فرفع الله شأنه، فلان كذب على الناس فعاقبه الله عزّ وجل، فلان أخلص، فلان خان، فلان أعطى، فلان منع، فلان استقام، فلان انحرف، فلان أطاع، فلان عصى، تتبع ؛ في حقل الزواج، في حقل الشراكة، في حقل التجارة، في حقل العمل، في حقل الدراسة.

تتبّع تجد أن الله يعطي لكل إنسانٍ حقّه، وأن أحداً لن يفلت من عقاب الله، ومن ظنّ أنه يتفلّت من عقاب الله فهو أحمق، وهو غبي، هذا طريق.

الطريق الثاني: انظر إلى الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والرياح والأمطار، والنبات والحيوان وخلق الإنسان، ترى آيات دالّة على عظمة الله، أهذا الخلق المعجز، أهذا النظام الدقيق، أهذه السنن المحكمة هل يعقل أن يكون الله عزّ وجل خلقك بلا هدف ؟ هكذا سدى ؟ بلا حساب ؟ بلا سؤال ؟ بلا منهج ؟ مستحيل، هذا كتابه، وهذا خلقه، وهذه أفعاله، وأفعاله وكتابه وخلقه متطابقةٌ تطابقاً تاماً.

في الدرس القادم إن شاء الله عزّ وجل نصل إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (02-14): تفسير الآيات 10 - 16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-02-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثاني من سورة الروم.

مقوّمات الأمانة التي كلّف الله بها الإنسان:

الآيات التي فُسِّرَت في الدرس الماضي يمكن أن يُلقى عليها ضوءٌ جديد، فمثلاً حينما قال الله سبحانه وتعالى في هذه السورة:

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(5))

(سورة الروم)

إلى آخر الآيات، أي أن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الكون، وحينما خلق الإنسان، هذا الإنسان هو المخلوق الأوّل، المخلوق المكرّم الذي أعدّه ليَسْعَدَ في جنّاتٍ عرضها السماوات والأرض، هو في الدنيا أودع فيه الشهوات ليرقى بها إلى الله، أعطاه العقل ليكون قوةً إدراكيّة، مَنَحَهُ حريَّة الاختيار لتثمّن أعماله، خلق له الكون وسخّره له ؛ تسخير تعريفٍ وتسخير تكريم، أعطاه فيما يبدو قوّةً، فهذه القوة، وتلك الشهوة، وهذا الاختيار، وذاك العقل، وتلك الفطرة، وتسخير الكون، هذا كلّه من مقوّمات الأمانة التي كلّفه بها، والأمانة أن يعرف الله أولاً، وأن يعبده ثانياً، ليسعد في الدنيا والآخرة ثالثاً.

الخروج عن منهج الله تعالى سبب شقاء الإنسان:

أنا الآن أُلَخِّص، أجمع ما تفرّق من معاني في كلماتٍ موجزة، فما منا واحدٌ إلا ويتمنى أن يسلم، ما منا واحدٌ إلا ويتمنّى أن يسعد، متى يشقى الإنسان ؟ إذا خرج عن منهج الله، فربنا سبحانه وتعالى خلق الكون، وخلق الإنسان، وكلّفه بالأمانة، وقَبِلَ بها:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

لمّا قَبِلَ بها أعطاه العقل قوّةً إدراكيّة، سخّر له الكون مظهراً لأسماء الله الحُسنى وصفاته الفُضلى، سخّره تعريفاً به وتكريماً له، أعطاه الشهوة كي يرقى بها، أعطاه حريّة الاختيار كي تُثمّنَ أعماله، أعطاه فيما يبدو قوّةً كي يتحرّك بها.

الآن إذا عطّل عقله، ولم يفكرّ في ملكوت السماوات والأرض، واتبع شهوته، لا بدّ من رسولٍ يذكره بفطرته، لا بدّ من رسولٍ يذكره بالأمانة التي حملها، لا بدّ من رسولٍ يذكره بالمهمّة التي جاء من أجلها قبل أن ينتهي أجله ويشقى إلى أبد الآبدين.

الآن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته واقتضت رحمته أن يُرسل لهذا الإنسان رسولاً، كيف يصدّق الإنسان أن هذا رسول الله ؟ كيف ؟ إنسان من بني آدم، من طين كالبشر، شكله كشكل البشر، أعضاؤه كأعضائهم، كيف يُصَدِّق هؤلاء الناس الضالون، المنحرفون، الذين انغمسوا في شهواتهم واتبعوا أهواءهم، كيف يصدِّقون أن هذا الإنسان رسول الله ؟

أعطاه معجزة، سيدنا موسى أعطاه العصا، ليس في طاقة البشر كلِّهم أن يصنعوا من العصا ثعباناً، أعطى السيّد المسيح قوّة إحياء الموتى، كأن الله يقول لهؤلاء البشر: هذا رسولي، أعطى لسيدنا موسى السحر، أعطاه أن تكون العصا ثعباناً مبيناً، أرسل الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمّتنا، أعطاه معجزة هذا الكتاب.

إعجازات القرآن الكريم:

إذاً بادئَ ذي بدء الله سبحانه وتعالى خلقنا وكرّمنا وجعلنا في المرتبة الأولى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

عندما قَبِلَ الإنسان حمل الأمانة سَخَّرَ الله له الكون، معرّفاً بذاته ومكرّماً له، أعطاه العقل ليفكِّر في هذا الكون، منحه فطرةً سليمةً كي تكون مقياساً له على حُسْنِ عمله أو سوء عمله، كل عملٍ سيئ وراءه انقباض، ضيق، شعور بالشقاء، أعطاه القوة، أعطاه الشهوة، أعطاه الاختيار.

هذا الإنسان نسي، وغفل، واتبع شهوته، أودع فيه الشهوات ليرقى بها فجعلها إلهاً، أعطاه العقلَ ليتعرّف إلى الله به، فسخّره في جمع الثروات والإيقاع بين البشر، إذاً لا بدّ لهذا الإنسان الضال المُنحرف الذي عبد شهوته، وعبد من دون الله آلهةً لا تنفعه ولا تضرُّه، لا بدّ لهذا الإنسان من رسولٍ مذكِّرٍ، لكن هذا الرسول لن يُصَدَّق، إذاً لا بدّ لهذا الرسول من معجزة.

النبي عليه الصلاة والسلام جاء بهذه المعجزة، هذا القرآن من دلائل إعجازه، هناك إعجاز إخباري، هناك إعجاز بياني، هناك إعجاز عِلمي، هناك إعجاز تشريعي، هناك إعجاز تَرْبَوِي، هناك إعجاز لغوي، هناك إعجاز حسابي، هناك إعجاز رياضي من جملة إعجازات القرآن الكريم، ومعنى إعجاز أي أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله، من جملة إعجازاته إعجازه الإخباري، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

الآية التالية من دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام:

قد فصّلت هذا في الدرس الماضي، وقد وقع، لا يملك الغيب إلا الله، ذكرتُ إلى جانب هذا الإعجاز الإخباري قوله تعالى:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ)

(سورة البقرة: من آية " 142 ")

فعلاً قال بعض العرب ـ الذين وصفهم الله عزّ وجل بأنهم سفهاء ـ قالوا هذا القول، ولو أنهم فكّروا لسكتوا، فإذا سكتوا أبطلوا هذا القرآن.

أيها الأخوة هذا القرآن دليل أن النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله، إعجازه يؤكِّد نبوّته، إذاً هذه الآية من دلائل نبوّته، قد يقول قائل: وماذا يعنينا كُلُّ هذا ؟

الذي ألاحظه أنه ما من مشكلةٍ تصيب الفرد أو المجتمع في الأرض، ما من أزمةٍ، ما من قضيّةٍ، ما من مأساةٍ، ما من دمارٍ، ما من آلامٍ إلا ولها أسباب، أسبابها خروج هذا الإنسان عن منهج الله، ولماذا يخرج هذا الإنسان عن منهج الله ؟ حينما لا يصدِّقه أما نحن حينما نتعامل في الدنيا إذا صدّقنا أن هذا القرار، أو هذا التوجيه، أو هذا المَنْع من قِبَل من بإمكانه أن يفعل بنا ما يفعل نلتزم، إذاً على قدر ما تصدِّق بهذا القرآن تلتزم أمره ونهيه، هنا المشكلة.

في القرآن آيات الإعجاز الإخباري من أجل أن نصدِّق أن هذا القرآن كلام الله:

هذا الذي يخالف آيات القرآن الكريم، يخالف أمر الله عزّ وجل أو يقع فيما نهى عنه، يجب أن يعلم علم اليقين أن مصداقيّة هذا القرآن عنده ليست كافية، لا يمكن لإنسانٍ عاقل أن يعلم علماً يقينيّاً أن هذا القرآن من عند الله عزّ وجل، وأن الله بيده كل شيء ؛ بيده سعادتك وبيده شقاؤك، بيده صحّتك وبيده مرضك، بيده غناك وبيده إفقارك، لا يمكن لإنسانٍ عاقل يصدِّق ويوقِنُ أن هذا القرآن كلام الله ويخالفه.

ربنا عزّ وجل جعل في القرآن بعض الآيات التي يُسَمِّيها علماء التفسير الإعجاز الإخباري، من أجل أن نصدِّق أن هذا القرآن كلامه، الآن الآيات الأولى تقول:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ(6))

إذا وعد الله وعداً، أو أَوْعَدَ وعيداً فلا محالة واقعٌ:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

هذا كلام الله عزّ وجل، أكثر الناس يرون الأمر بيدِ زيد أو عُبيد.

شعور الإنسان البعيد عن الله عزّ وجل شعور مرضي:

ماذا قال الله عزّ وجل عن آخر الزمان ؟ قال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

هذا شعور الإنسان البعيد عن الله عزّ وجل، القوي، شعورٌ غريب، شعورٌ مرضي، يظنُّ أن الأمر كله بيده، وأنه قادرٌ على كل شيء، وأنه قادرٌ على أن يفعل كل شيء:

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

أمر الله:

(لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

وقال:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(58))

(سورة الإسراء)

عقاب من يخالف منهج الله تعالى كما ورد في بعض الآيات القرآنية:

يا أيها الأخوة الأكارم الإنسان يجب أن يفكِّر تفكيراً سديداً، القضيَّة لا تَحْتَمِل المُماطلة، ولا تحتمل أن تأخذ هذا الكلام على أنه كلام طيّب مبارك، فتقول: جزاه الله عنّا كل خير، والله درس لطيف، درس

جميل ممتع، القضيَّة أخطر من ذلك، أنت أمام منهج فإما أن تتبعه ؛ وإما أن تدفع الثمن باهظاً.

ترون أيها الأخوة، ترون بأمّ أعينكم، يقول الله عزّ وجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

(سورة النحل)

دقِقوا في هذه الآية، من كل مكان رزقٌ وفير لا يُحصى، حياةٌ في أعلى درجات الرفاهية والنعيم:

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

آيةٌ ثانية:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

هذا الزمن هو زمن التوبة والعودة إلى الله عز وجل:

أيها الأخوة القضيَّة قضيَّةٌ تتعلّق بسلامتنا، بسلامة الإنسان، إنسان له خالق وهذا منهجه، فهذا كتاب، كتاب الله عزّ وجل أمرك بشيء ونهاك عن شيء، لا تأخذ هذا الكتاب على مَحْمَل أن تأخذه أخذاً بسيطاً دون أن تهتمّ له، إن لم تهتمّ له فالنتيجة مؤلمةٌ جداً، والله سبحانه وتعالى يُمهل ولا يُهمل.

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(102))

(سورة هود)

وقال:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12)إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ(13))

(سورة البروج)

لكن:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(14))

(سورة البروج)

هذا الزمن أيها الأخوة زمن التوبة، زمن العودة إلى الله عزّ وجل، العودة إلى كتابه، أنت مسلم يجب أن تكون مسلماً حقّاً، ما المُخالفات التي أنت مُقَصِّرٌ فيها ؟ ما المعاصي في علاقاتك كلِّها ؛ في بيعك، في شرائك، في كسب مالك، في إنفاق مالك، في شهواتك، ما المباح، ما المحرَّم، ما الممنوع، ما الحق، ما الباطل ؟

الحكمة من قصة سيدنا يوسف:

يا أيها الأخوة الأكارم الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا من خلال مطلع هذه السورة أن هذا القرآن كلامه، والدليل الإعجاز الإخباري:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(6))

ربنا عزّ وجل في قصّة سيدنا يوسف ساق قصّة طويلة من أطول قصص القرآن الكريم، من أجل ماذا؟ من أجل أن يُرِيَنَا جميعاً أن الأمر كلّه بيده، إخوة يوسف ائتمروا على قتل يوسف، وضعوه في غيابت الجُب، لكن الله جلّ وعلا أراد أن يرفعه، وأن يجعله في أعلى مراتب الدنيا والآخرة، ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

هذه الآية دعوها في أذهانكم دائماً:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

في الآية التالية أمران ونهيان وبشارتان:

ذكر الله عزّ وجل قصّة سيدنا موسى، ربنا عزّ وجل أمر أم موسى أن تُلْقِيَهُ في اليَم:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(7))

(سورة القصص)

أمران، ونهيان، وبشارتان:

(أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص)

أرضعيه وألقيه في اليم:

(وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(7))

(سورة القصص)

طفلٌ صغير في صندوقٍ خشبي، في نهرٍ عظيم، يدُ من سَيَّرته إلى قصر فرعون ؟ وفرعون رأى في الرؤيا أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على مُلْكِهِ، بدل أن يتوب إلى الله عزّ وجل ويعود عمّا

هو فيه قَتْلَ أطفال بني إسرائيل كلّهم ما الذي حصل ؟ أن هذا الطفل الوديع الذي رَبّاه في قصره هو الذي قضى على ملكه:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

أدلة من القرآن الكريم على وحدانية الله سبحانه فالأمر كله بيده وحده:

فكِّر، الأمر بيدِ الله، إيّاك أن ترى أن مع الله إلهاً آخر، الأمر بيدِ الله وحده:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود الآية: 123)

وقال:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية: 10)

وقال:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنّ اللّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية: 17)

وقال:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

وقال:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: 54)

وقال:

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيل)

(سورة الزمر)

وقال:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِك فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

جوهر الحياة الدنيا أن تعرف الله وتستقيم على أمره وتتقرّب إليه:

هذا التوحيد يُرْيحُ الإنسان، ما عليك إلا أن تعبد الله، ما عليك إلا أن تتوب من ذنوبك، ما عليك إلا أن تستقيم على أمره، وإلا فالعقاب أليم وشديد:

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(102))

(سورة هود)

الآن يقول الله عزّ وجل:

(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا(7))

معنى هذا أنهم لا يعلمون، إذا عَلِمْتَ كيف تسكن في بيتٍ فخم ؟ وكيف تأكل أطيب الطعام، وكيف تركب أجمل المركبات ؟ فأنت لا تعلم حقيقة الدنيا، أنت جئت إلى الدنيا لمهمّةٍ كبيرةٍ خطيرة، أنت جئت إلى الدنيا لتعرف الله عزّ وجل، جوهر الحياة الدنيا أن تعرف الله وأن تستقيم على أمره وأن تتقرّب إليه، فإذا غفلت عن هذه المهمّة أنت لا تعلم، إذا أُرسِلْتَ إلى بلدٍ أجنبي كي تُحَصِّلَ أعلى شهادةٍ علميّة، وفي هذا البلد نسيت الدراسة وعرفت أين أفخم المطاعم، وأجمل المقاصف، وأجمل الأندية، وانتقلت من مطعمٍ إلى مطعم، ومن نادٍ إلى نادٍ، ومن مقصفٍ إلى مقصف، هذا يعلم أم لا يعلم ؟ نقول: إنه لا يعلم لأنه نسي مهمّته الأساسيّة فهو لا يعلم، نسي الهدف الذي من أجله خُلِقْ:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

للإيمان ثلاثة مظاهر تصديقٌ بالقلب وإقرارٌ باللسان وعملٌ بالأركان:

من الآية رقم واحد إلى الآية السابعة ربنا عزّ وجل أشار إلى إعجاز كتابه الإخباري، في مصدر آخر، الحقيقة هذه الصفحة والنصف فيها ثلاث مصادر للمعرفة.

المصدر الآخر للمعرفة:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ(8))

أيها الأخوة الإيمان له ثلاثة مظاهر، الإيمان محلّه القلب، وهو إقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان، الحياة قصيرة والمهمّة خطيرة، يجب أن تعرف ما الإيمان، ليس الإيمان أن تُصلي ؛ الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وغَض البصر، والصدق، والأمانة، والإحسان، وترك الغيبة والنميمة هذا كلّه مَظْهَر، مظهر سلوكي للإيمان، والإيمان فضلاً عن ذلك تصديقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل))

[من الدر المنثور عن الحسن]

الآن كيف يدخل الإيمان إلى القلب ؟ هنا السؤال:

(قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات: من آية " 14 ")

مهمة الفكر:

أن تنصاع إلى أمر الله هذا إسلام، أما أن يستقرّ في قلبك تصديقٌ أن الله سبحانه وتعالى خالقُ الكون، وهو ربُّ العالمين، وهو الإله المسيّر، وهو واحدٌ في خلقه، وواحدٌ في تربيته، وواحدٌ في تصرُّفه، وأن أسماءه حُسنى، أن تصدّق هذه الحقائق هذا يحتاج إلى جهد، وما لم يُبْذَل هذا الجهد فأنت لن تطيع الله عزّ وجل، لذلك القضيّة كيف يدخل الإيمان في قلبي ؟ التصديق محلُّه القلب، واللسان يقرُّ بهذا التصديق، والعمل يؤكِّد هذا التصديق، التصديق يُعَبِّر عما في القلب، والسلوك يجسِّد هذا التصديق، وما لم يتفكّر الإنسان في خلق السماوات والأرض فلن يدخل الإيمان في قلبه، ماذا يقول الله عزّ وجل ؟

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

عرفوا ظواهر الأشياء، عرفوا صوَرَهَا، عرفوا ما يبدو لأعينهم، ولكن الحقائق العميقة ؛ سرُّ وجودك، حكمة وجودك، عظمة ربِّك، هذه كيف تعرفها ؟

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلّا بِالْحَقّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنّ كَثِيرًا مِنَ النّاسِ بِلِقَاءِ رَبّهِمْ لَكَافِرُونَ(8))

أنت إذا رأيت آلةً معقّدةً ألا تستطيع أن تحكم على صانعها بكذا وكذا ؟ هذه مهمّة الفكر، مهمّة الفكر أن ينتقل من شيءٍ محسوس إلى شيءٍ مُجَرَّد، من شيءٍ مُشَاهَد إلى شيءٍ مُغَيَّب، من الخلق إلى الخالق، من الكون إلى المكوِّن، من النظام إلى المُنَظِّم، من التسيير إلى المُسير، هذه مهمّة الفكر، فكلّما أعملت فكرك في الكون ازداد إيمانك بالله، وازداد تصديقك بالله، وازداد هذا القلب امتلاءً بمعرفة الله، إذا امتلأ قلبك معرفةً بالله عزّ وجل أقرّ لسانك بهذا، فإذا أقرّ اللسان بهذا ظهر هذا في السلوك، هنا مَحَطُّ الشاهد، هنا بيت القصيد، هناك سؤال كبير: لماذا الناس هكذا ؟ يستمعون إلى خطب كثيرة ويقرؤون ومع ذلك لا يلتزمون وما داموا لا يلتزمون فالله سبحانه وتعالى يسوقُ لهم من الشدائد لكن كيف السبيل ؟ ما قيمة سماع درس أو مجلس علمٍ إن لم يُحْمَل صاحبه على تطبيقه ؟!!

معرفة عظمة الله تحتاج إلى بحث ذاتي ومِرَاس و جهدٍ كبير:

يا أيها الأخوة الأكارم هذه آيةٌ دقيقةٌ جداً:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

كيف نعلم يا رب ؟

(أَوَلَمْ يَتَفَكّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ (8))

أنتم لا تعلمون سرّ الحياة، أنتم لا تعرفون عظمة الله عزّ وجل، هكذا كأن الله يقول:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

لا يعلمون عظمة الله عزّ وجل، أما أن تقول: الله خالق الكون فالقضيّة سهلة جداً، قالها إبليس، قال:

(فَبِعِزّتِكَ لأُغْوِيَنّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

(سورة ص)

أن تعترف بخالقٍ للكون هذا شيءٌ لا يُقَدِّم ولا يؤخِّر، ولكن أن تعرف عظمة الله عزّ وجل، أن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى، أن تعرف أن الأمر كله بيده، أنه في السماء إله وفي الأرض إلهٌ، هذه هي المعرفة، وهذه المعرفة لا تنشأ فجأةً بل تحتاج إلى بحث ذاتي، إلى مِرَاس، إلى جهدٍ كبير، لذلك ربنا سبحانه وتعالى في هذه السورة يبيّن:

(أَوَلَمْ يَتَفَكّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ (8))

هل فكّرت في خلق السماوات والأرض ؟ أمر إلهي.

الآيات الكونيّة الدالّة على عظمة الله عزّ وجل كثيرة جداً:

قال تعالى:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة آل عمران)

أبواب معرفة الله واسعةٌ جداً ؛ كأس الماء الذي أمامك، طفلك الذي أمامك، رغيف الخبز الذي تأكله، الشمس التي تُشْرِق، القمر الذي يظهر، الجبل، المطر، الرياح، البُحيرات، البحار، الأنهار، النباتات، الحيوانات، أنت محاطٌ بآلاف آلاف الآيات الكونيّة الدالّة على عظمة الله عزّ وجل:

(أَوَلَمْ يَتَفَكّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلّا بِالْحَقّ (8))

هذا الذي يقول: الله خلق الكون هكذا ونحن كلُّنا في شقاء، هذا ما عرف أن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض بالحق، معنى بالحق أنه خلق السماوات والأرضَ لهدفٍ كبير، معنى بالحق أنه خلق السماوات والأرض خَلْقاً ثابتاً، حكيماً، وليس زائلاً، وليس لعباً:

(وَأَجَلٍ مُسَمًّى (8))

أي أن هذه الحياة الدنيا أساسها أنه لا بدَّ من يومٍ يُحَاسَب الناس فيه، هناك أسئلة كبيرة جداً، هناك قويٌّ وهناك ضعيف، هناك ظالمٌ وهناك مظلوم، هناك غنيٌّ وهناك فقير، هناك ذكيٌّ وهناك أقلُّ ذكاءً، يا رب لماذا وزَّعت هذه الحظوظ بشكلٍ متفاوت ؟ يأتي الجواب هذه الحظوظ وُزِّعَتْ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توَزَّع في الآخرة توزيع جزاء، وسيأخذ كلٌّ من الناس حقَّه.

الكون بما فيه من آياتٍ والقرآن بما فيه من إشاراتٍ بابٌ كبيرٌ جداً لمعرفة الله تعالى:

إذاً الكون بما فيه من آياتٍ عظيمةٍ دالَّةٍ على وجود الله وعلى أسمائه الحسنى مصدرٌ كبيرٌ لمعرفة الله، والقرآن بما فيه من إشاراتٍ، وإرشاداتٍ، وأحكامٍ شرعيَّةٍ، وإخبارٍ، ووعدٍ، ووعيدٍ أيضاً بابٌ كبيرٌ جداً لمعرفة الله سبحانه وتعالى.

الآن يوجد عندنا شيءٌ ثالث:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9))

إذا شئت فابحث في الحوادث ترى أن الله عزَّ وجل وراء كل شيء، ترى أن يد الله تعمل في كل شيء، ترى أن حكمة الله ظاهرةٌ في كل شيء، ترى أن قدرته خارقة، ورحمته ظاهرة، ولطفه عَميم، وعقابه أليم، وعطاءه كبير، وأخذه مُخيف، بعفويةٍ بالغة، بفطرةٍ صافية، دون أن تُكِدَّ ذهنك، ما تسمع وما ترى، تجد أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

ترى بعينك قُدرة الله أحياناً فتخضع لها، ترى بعينك رحمته أحياناً، ترى لطفه، ترى عقابه، ترى عدالته.

القرآن الكريم كلام الله و الكون خلقه و الحوادث أفعاله:

يا أيها الأخوة الأكارم اجعل من الحوادث درساً، ومن الأكوان درساً، ومن القرآن درساً، وفي صفحةٍ ونصف بَيَّن الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم كلامه، وأن هذا الكون خَلْقُهُ، وأن هذه الحوادث أفعاله، فإن شئت أن تعرفه من أفعاله فافعل تأمّل في أفعاله، تأمّل:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9))

إن شئت التفكّر في خلق السماوات والأرض ؛ تفكّر في الشمس، تفكّر في القمر، تفكّر في السحاب، تفكّر في المطر، من بإمكانه أن يُنْزِلَ المطر بعد اليأس والقنوط، بعد أن أصبح ماء الشُرب مهدّداً ؟ ماء الشُرب لا الزرع، فالزرع انتهى، بعد أن أصبح كأس الماء مُهَدَّداً، جاءت الخيرات من السماء، هذا فعل من ؟ أية جهةٍ في الأرض بإمكانها أن تفعل هذا ؟ أن تنزل المطر، أن تتخذ قراراً بإنزال المطر ؟ لا أحد، هذا فعله، وهذا خلقه، وهذا قرآنه، والله سبحانه وتعالى أودع فينا العقل، وأرجحكم عقلاً أشدُكم لله حبّاً.

أسوأ عقابٍ يعاقب به الإنسان يوم القيامة أن يدخل النار:

لذلك أيها الأخوة الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أمِرْت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً.))

هذا الحديث جزء من حديث طويل يقول فيه عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي بتسع: خشية الله في السرّ والعلانيّة، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعفو عن من ظلمني، وأعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً.))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

الإنسان أحياناً يسعد بتأمّل عقلي وحيد، تأمّل إلى أين أنت ذاهب ؟ أي طريقٍ تسلك ؟ ما الهدف الذي يبرق أمامك ؟ لماذا خُلِقت ؟ تأمّل في حياتك الخاصّة، في بيتك ؛ يا ترى أنت وفق المنهج ؟ وفق ما أمر الله عزّ وجل ؟ إليكَ هذه الحوادث، كل الحوادث تؤكِّد لك أن الله عزّ وجل بيده كل شيء، ووعده واقع، ووعيده واقع، وكل ما تسمع وما ترى إنما هو تحقيقٌ لوعد الله ولوعيده:

(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى (10))

السُّوأى مؤنَّث الأسوأ، كما أن الحسنى مؤنَّث الأحسن، هناك أنواع كثيرة جداً من العقاب في الدنيا ؛ لكن أشدّ عقابٍ يعاقب به الإنسان أن يدخل جهنَّم، قد يعاقب في الدنيا بقلّةٍ في رزقه، بمرضٍ في جسمه، بنقصٍ في ماله، بمرضٍ في أولاده:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155))

(سورة البقرة)

لكنّ أشدّ العقاب طُرّاً، أسوأ عقابٍ يعاقبه الإنسان يوم القيامة أن يدخل النار:

(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى (10))

أي العقاب الأسوأ.

الآيات الكونيّة أو الحوادث أو القرآن علامات دالّة على عظمة الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10))

الآيات الكونيّة، أو الحوادث، أو القرآن، كلّها آيات، أي علامات دالّة على عظمة الله عزّ وجل، فلماذا:

(كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10))

الإنسان إذا بدت له آيةٌ كونيّة، أو سمع آيةً قرآنيّة، أو رأى حادثاً فيه عبرةٌ بالغة ما من واحدٍ منا إلا وحوله أناسٌ أصابتهم بعض المصائب بسبب انحرافهم، أو أكرمهم الله عزّ وجل بسبب استقامتهم، أو نَمّى أموالهم بسبب تصدقهم، أو محق مالهم بسبب أكلهم الربا، أو فرّق بينهم وبين أزواجهم بسبب انحرافهم في أخلاقهم، فما من معصيةٍ إلا ولها عقاب، فالإنسان حينما ينظر يجب أن يرتدع:

(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10))

الصحابة الكرام من علامات توفيقهم أن الآية الواحدة كانت تكفيهم ليعودوا عن أخطائهم:

الآن يقول الله عزّ وجل:

(اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (11))

بدأ الله الخلق، خلقنا في هذه الدنيا، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن معظم الناس غافلون عن إعادة الخَلق، يعيشون وقتهم، يعيشون لحظتهم، يعيشون زمانهم، يعيش ما دام في متعة، في بحبوحة، ينسى أن هناك يوماً آخر، وحساباً وعقاباً، وجنّةً وناراً، ونعيماً مقيماً، وعذاباً أليماً:

(اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ ثُمّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11))

لذلك الإنسان قبل أن يتحرّك، قبل أن يقف هذا الموقف، قبل أن يعطي، قبل أن يمنع، قبل أن يغضب، قبل أن يرضى، قبل أن يصل، قبل أن يقطع، قبل أن يبتسم، قبل أن يعبس، هل أعددت لله جواباً عن هذا الموقف ؟ هذه الآية تكفي، فالصحابة الكرام من علامات توفيقهم أن الآية الواحدة كانت تكفيهم، آية واحدة تكفي:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(سورة النساء)

تكفي:

(إِنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

تكفي:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا)

(سورة فصلت: الآية 30)

تكفي:

(فَمَنْ اتّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

تكفي:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 79 ")

تكفي، هذه الآية:

(اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ ثُمّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11))

العاقل يصلُ إلى الشيء بعقله قبل أن يصلَ إليه بجسده:

السؤال المتبادر: كيف بلغت هذا العمر ؟ والله ما هو إلا ما بين طرفة عينٍ وانتباهتها، قبل أيام كنت صغيراً، الأيام مضت، والسنون مضت، قبل فترة من الزمن كان رمضان في تشرين، يقول لك: حرب تشرين يساوي العاشر من رمضان، رمضان مع تشرين، الآن رمضان مع ماذا ؟ دارت الأيام صار رمضان في الربيع، جاء في الصيف، وهكذا الأمور تدور، إذاً:

(اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ ثُمّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12))

معنى يبلس الإنسان حينما يُفَاجأ ولا يملك جواباً، هذا هو الصَعْقُ، لذلك العاقل يصلُ إلى الشيء بعقله قبل أن يصلَ إليه بجسده، يفكِّر، فالطالب المتفوّق ما سرُّ تفوُّقه ؟ أن لحظة الامتحان لا تغيب عنه أبداً، هذا سرُّ اجتهاده ونجاحه، أما الطالب الكَسول ينسى الامتحان، يعيش وقته، يعيش فترة حياته في أثناء العام الدراسي كما هي، هو مع أصدقائه، في جوٍ مرحٍ، في نزهة، أي أنه يسترخي، لكن الطالب الذي يتفوّق من علاماته أن لحظة الامتحان لا تغيب عنه أبداً، لذلك هذه الآية:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12))

كل الناس يوم القيامة سواسية ولا ينفعهم إلا عملهم:

ماذا ينفع المال ؟ لا ينفع المال، ولا القوة، ولا الدنيا بأكملها، كله شيءٌ زائل، الدنيا ساعة اجعلها طاعة، معنى يبلس أي يُصْعَق، وينعقد لسانه فلا يستطيع أن يتكلّم بكلمةٍ واحدة:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ (13))

لا يوجد إنسان ما له علاقات، له شُرَكاء، له أقرباء، له أصحاب، له زملاء، له جيران، لا توجد قضيَّة إلا فلان يعرف فلاناً، فلان وسَّط فلاناً، هذا منطق الحياة الدنيا، تظن فلاناً لا أقرباء له فيدعمه عشرات، كلُّهم يتصلون بكَ إذا أردت أن تفعل به شيئاً، في علاقات، في ترابط، في مَوَدّة، في مصالح متبادلة، في لقاءات، لكن ربنا عزّ وجل يقول يوم القيامة:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13))

يتضح لهذا الإنسان حينما يُصْعَق، وحينما يُساق ليحاسب عن كل أعماله، أن كل هؤلاء الذين اعتمد عليهم في الدنيا، وتقوّى بهم، وجعلهم أنداداً لله عزّ وجل لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، لا يستطيعون أن يقدِّموا ولا أن يؤخِّروا، لا يستطيعون أن يصرفوا عنه عذاباً ولا أن يجلبوا له نفعاً، هذه ساعة الغَفْلة، فالناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، فالإنسان لا يغتر لا بماله، ولا بعلمه الدنيوي، ولا بجماعته، ولا بأنصاره، ولا بأقربائه، ولا بمن يُناصرونه لأن هؤلاء جميعاً هذا حالهم يوم القيامة:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14))

يوم القيامة الناس رجلان مؤمنٌ وكافر:

أحياناً تجد جمعاً كبيراً، يتجمّع الناس لمصلحةٍ معيّنة، الجمع ترونه بأمِّ أعينكم، لكن يوم القيامة:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14))

في الدنيا تحسبهم جميعاً لكن قلوبهم شتّى، أما في الآخرة تراهم بعينك متفرّقين، تراهم بعينك متفرّقين وقلوبهم كانت في الدنيا متفرّقة:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15))

في النهاية ؛ الناس رجلان مؤمنٌ وكافر، كل التقسيمات في الدنيا باطلة، الناس جميعاً على اختلاف ألوانهم، وأجناسهم، ومللهم، ونِحَلِهم، وقوّتهم، وضعفهم، وغناهم، وفقرهم لا يزيدون عن رجلين:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا (15))

في الدنيا عرفوا الله عزّ وجل:

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (15))

استقاموا على أمر الله، وطبّقوا شَرْعَهُ، وتقرّبوا إليه:

(فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15))

كل شيءٍ تسمعه أو تقرؤه من حوادث الكون والحياة إنما هو آيات:

حتّى عند الموت يكون القبر روضةً من رياض الجنّة أو حفرةً من حفر النيران:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16))

أتمنّى على الله عزّ وجل أن أكون قد بيّنت لكم بعض ما يمكن أن يؤْخَذ من هذه الآيات ؛ أي أن القرآن مصدر، والكون مصدر، والحوادث مصدر، وأنت في دنيا وسيعقبها آخرة، وفي الآخرة ليس إلا رجلان ؛ مؤمنٌ قد عمل الصالحات فهو في روضات الجنّات، وكافرٌ:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (16))

آيات القرآن، أو آيات الكون، أو آيات الحوادث، كل شيءٍ يجري إنما هو آيات، كل شيءٍ تسمعه أذنك، كل شيءٍ تقرؤه من حوادث الكون والحياة إنما هو آيات، آياتٌ كونيّة وآياتٌ قرآنيّة وآياتٌ فعليّة:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16))

لو اطلعت على إنسان مُقَيَّد وهو في زنزانة ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه، ألا ترثي لحاله، والله هذا مصير كل إنسان يكفر بالله عزّ وجل ويفعل السيئات، هم:

(فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16))

من لوازم الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر:

أيها الأخوة حينما قال الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7))

جاءت الآية الكريمة:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ (16))

الحقيقة من لوازم الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر يَحُلُّ كل المشكلات، إن رأيت قوياً منقضاً على ضعيف وامتلأ قلبك ألماً من هذا القوي، إيمانك باليوم الآخر يحلُ هذه المشكلة، لذلك من علامات الإيمان بالله أن تؤمن بيومٍ يقف الناس فيه جميعاً ليلقوا جزاء أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

الشيء الثاني: لو أردت أن ألخِّص هذا الدرس بكلماتٍ قليلة، كل آيةٍ في هذا الدرس تؤكِّد أن الأمر بيد الله، وما من شيءٍ يورثُ الألم والضيق أن ترى أن الأمر بيد فُلان أو فلاناً، هذا شيءٌ لا يحتمل، أما الشيء الذي يُرضي الإنسان ويريحه من آلامٍ لا تحتمل أن ترى أن الأمر بيد الله، هذا واضحٌ من قرآنه، والدليل:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ (3))

بيد الله عزّ وجل، بلّغك سلفاً قبل أن يقع:

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (4))

التوحيد هو أن ترى بقلبك أن الأمر بيد الله وأنه لا فاعل مع الله:

إذا فكّرت في نفسك:

(مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى (8))

توقن أن الأمر بيد الله، وإذا فكّرت كيف يُعامل الله سبحانه وتعالى عباده الطائعين، والمجرمين، وترى مصير المرابي، ومصير المصدِّق، مصير الزاني، مصير السارق، مصير الكافر، مصير المؤمن، فإن قرأت القرآن رأيت أن الله هو الواحد الديّان، وإن نظرت في ملكوت السماوات والأرض رأيت أن الأمر كله بيد الله، وإن تأمّلت في الحوادث التي تجري حولك تسمعها ليلاً نهاراً، يجب أن ترى أن الله بيده كل شيء، إذاً ليس إلا الله، ولا إله إلا الله:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

ليس معنى ذلك أنك إذا آمنت أن الأمر كله بيد الله ودخل إلى بيتك لص تقول: سبحان الله هذا بيد الله، لا، فليس هذا هو المعنى ؛ فالمعنى أن تطرد هذا اللص لأنه دخل بقضاء الله، وأنت عليك أن تردّه أيضاً بقضاء الله، لكن من أجل أن لا ترى مع الله أحداً، من أجل أن لا تتمزّق النفس من الشِرْكِ يجب أن توَحِّد، والتوحيد طريقه طويل، التوحيد ككلمة سهل، أخي لا إله إلا الله، يقولها الناس كلُّهم، ولكن أن ترى بقلبك أن الأمر بيد الله، وأنه لا فاعل مع الله.

طريق الإيمان بالله هو التفكُّر بالآيات:

ربنا عزّ وجل قال:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25))

إلى آخر الآيات، أرجأت هذه الآيات لدرسٍ قادم، أو لدرسين قادمين كي نعلم أن طريق الإيمان بالله التفكُّر بالآيات، أنت بالكون تعرفه وبالشرع تعبده، من أجل أن تؤمن يجب أن تفكِّر، فسورة الروم في معظمها آياتٌ دالّةٌ على عظمته، كلّما ازددت معرفةً بالله ازددت له طاعةً، فإذا وجدت أن في طاعتك خللاً معنى ذلك أن في الإيمان خلل، إذاً تعرّف إلى الله عزّ وجل من خلال الكون، أو من خلال الحوادث، أو من خلال القرآن.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (03-14): تفسير الآيات 17 –19
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-02-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثالث من سورة الروم.

كلمة (سبحان) من التسبيح:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(19))

(سورة الروم)

الحقيقة أنه قبل أن نشرح هذه الآية والآيات التي تلي هذه الآية لا بدَّ من مقدمة، كلمة (سبحان) من التسبيح، والآية الكريمة التي تعرفونها جميعاً:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا(46))

(سورة الكهف)

أجمع أكثر المفسرين على أن الباقيات الصالحات هُنَّ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، الحقيقة التي أتمنى أن أضعها بين أيديكم هو أن تقول: الله خالق الكون، هذا شيءٌ يعرفه كل الخلق.

أي عقيدةٍ تعتقدها إن لم تحملك على طاعة الله لا تكفي:

قال تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّه)

(سورة لقمان: من آية " 25 ")

أن تقول إن الله خالق السماوات والأرض، وأن تكتفي بهذا القدر من المعرفة البسيطة، هذه المعرفة البسيطة لا تَحْمِلُكَ على طاعة الله، هذه المعرفة البسيطة لا تحملك على أن تستسلم لله، هذه المعرفة البسيطة لا تحملك على توحيد الله، ولا على تكبير الله، ولا على حمد الله، فما مشكلة الناس جميعاً ؟ أنهم يعرفون الله معرفةً بسيطة، يرونه في السماء إلهاً ؛ ولا يرونه في الأرض هو الإله، يتعاملون

بقوانين الأرض بمعزلٍ عن قوانين السماء، فالذي أتمناه على كل أخٍ كريم أن لا يكتفي بمعرفةٍ بسيطةٍ تناهت إلى سمعه من خلال درس دينٍ، أو خطبة جمعةٍ، أو توجيه أب، لا بدَّ من أن يوسع حجم معرفته بالله عزَّ وجل، الذي يجب أن نعلمه جميعاً أن طاعتك لله منوطةٌ بمعرفتك به، فإذا كان في السلوك تقصير، إذا كان هناك معصية، فاعلم علم اليقين أن المعرفة بالله ليست كافية لذلك رافقها معصية، إذا كان هناك خوف شديد من قوى الأرض تَيَقَّنَ واعلم علم اليقين أن معرفة الله عزَّ وجل ليست كافيةً لبث الأمن في قلبك.

نحن نريد النتيجة، الثمرة، ما ثمرة الإيمان ؟ أن تشعر بالطمأنينة، أن تسعد بالله، أن تقبل عليه، أن تطيعه، أن تسير على منهجه، ما دام هناك خروج عن منهج الله، ما دام هناك قلق، ما دام هناك رؤية لقوى عديدة في الكون، ما دُمْتَ ترى أن في الكون قوىً كثيرة، وكل قوةٍ تملك ذاتها، وتفعل فعلها، فأنت لا تعرف الله عزَّ وجل، فكأن الله عزَّ وجل من خلال هذه الآيات لا يرضى منا أن نقول: هو خالق الكون، لا يرضى منا هذه الأفكار البسيطة التي هي القَدْرُ المشترك بين عامة الناس، أي عقيدةٍ تعتقدها إن لم تحملك على طاعة الله لا تكفي معناها، لا أقول لك: ليست صحيحة، أقول لك: لا تكفي.

كلما نما حجم معرفتك بالله نمت خشيتك منه:

لا يكفي أن تقول: الله خالق الكون وأنت مقيم على مخالفات في بيتك، وفي عملك، وفي كسب رزقك، وفي إنفاق مالك، لا يكفي أن تقول: الله خالق الكون ولست مستسلماً له، ولست راضياً بقضائه، ولست خاضعاً لمنهجه، لا يكفي أن تقول: الله خالق الكون وترى أن الأمور في الدنيا ليست صحيحة.

لذلك أيها الأخوة هناك دعوةٌ من الله عزَّ وجل إلى مزيدٍ من معرفة الله، كيف تعرفه ؟ في هذه الآيات التي سوف نأتي على ذكرها وشرحها إن شاء الله تعالى دليلٌ قويٌ قطعيٌ على أنه لا طريق إلى معرفة الله تعالى إلا في أن تجول في كون الله، فالكون مظهرٌ لكماله، حقيقةٌ خطيرة هي:

الله موجود، والله واحد، والله كامل، موجود وواحد وكامل، لذلك الإيمان بوجود الله، والإيمان بوحدانيّته ـ لا يوجد معه شريك ـ والإيمان بذاته الكاملة، كلما تأملت في خلق الله في السماوات والأرض عُدّتَ من هذا التأمل بمعرفةٍ جديدة.

الذي أريد أن أقرره في هذا الدرس أنه كلما نما حجم معرفتك بالله نمت خشيتك منه، مثل بسيط: أنت تخشى هذا الأمر الخطي على حجم الموقّع، كلما ارتفعت رتبة موقّع القرار تزداد تأدباً معه، وانصياعاً له، ومبادرةً إلى تطبيقه، إذاً ربنا سبحانه وتعالى لا يرضى منا أن نعترف بوجوده، يريدنا أن نعرف عظمته، يريدنا أن نعرف وحدانيته، يريدنا أن نعرف كماله، من هنا جاءت هذه الآيات الكريمة كي

تُعَرِّفُنا بذاته، وكما يقولون: العلم حرف والتكرار ألف، ربنا ذكر بعض الآيات ؛ لكن أنت يجب أن تستنبط أن كل شيءٍ تقع عينك عليه هو آية من آيات الله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(فَسُبْحَانَ (17))

هذه سبحان مصدر من سَبَّحَ، وسَبَّحَ فعل مُضَعَّفَ الوسط، أساسها سَبَحَ، والإنسان إذا سَبَحَ ابتعد عن شيء وأوغل في شيء، ابتعد عن الشط وأوغل في لُجَجِ البحر، فكلمة سَبَّحَ فيها معنيان في وقتٍ واحد، المعنى أن تُنَزِّهَ الله سبحانه وتعالى عن أن يشابه مخلوقاته، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ؛ ليس بصورةٍ، ولا جسمٍ، ولا متبعضٍ، ولا متجزّئٍ، ولا متناهٍ، ولا متلونٍ، وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك.

بل إن الأبلغ من ذلك أن الله سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عن صفات الكمال لدى مخلوقاته، أي أن الله كريم لا ككرم عباده، عفوٌ رحيم لا كعفو عباده ورحمتهم، أرقى من ذلك بكثير.

أصل الدين معرفة الله:

الجانب الأول من (سبحان) التنزيه، أن تنزه الله عن كل ما لا يليق بذاته الكاملة، عن كل نقصٍ، عن كل مشابهةٍ لمخلوقٍ، والشق الثاني الإيجابي، أن تجول، أن توغل في البحر، أن تمخر عُبابَهُ، أن تبتعد عن الشاطئ، أن تغوص في أعماقه، هذا هو التسبيح، لذلك:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ (46))

(سورة الكهف)

ربنا يتكلم كلام خالق، تصور بنون بلا مال شيء لا يطاق، عندك أولادٌ كُثُر ولا تملك مالاً تنفق عليهم، أو عندك مالٌ طائل وليس عندك ولدٌ تنفق عليه، شيءٌ مؤلمٌ جداً، فربنا عزّ وجل يقول:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (46))

(سورة الكهف)

لما قال:

(وَالْبَاقِيَاتُ (46))

(سورة الكهف)

كأنه وصف المال والبنون:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ (46))

(سورة الكهف)

إذا كانت الباقيات الصالحات ؛ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أي أن تُسَبِّحَهُ، أي أن تنزهه عن كل نقص، وأن تمجده في كل كمال، وأن تَحْمَدَهُ، وأن توحِّدَهُ، وأن تُكَبِّرَهُ، فإذا سبَّحته،

وحمدته، ووحدته، وكبرته فقد عرفته، فقد عرفته معرفةً تليق به، أو عرفته معرفةً تحملك على طاعته، أو عرفته معرفة تدعوك إلى أن تسلِّمَ له، عرفته معرفةً أرتك أنه لا إله إلا هو، عرفته معرفةً أرتك حكمته، رحمته، عدالته، عطفه، عرفته معرفةً هذا الذي نبحث عنه، أصل الدين معرفة الله.

معرفة الله من خلال خلقه باب كبير من أبواب معرفة الله:

ماذا نستفيد لو عرفنا أمره قبل أن نعرف ذاته ؟ عرفنا أمره ولم نعرف عظمته، ما النتيجة ؟ نحتال على أمره، نتلافى تطبيق أمره، نفعل أشياء مضحكة لأننا عرفنا أمره قبل أن نعرف ذاته.

لذلك ربنا عزّ وجل في هذه الآيات والتي تليها يدعونا إلى معرفته من خلال خلقه، هذا بابٌ كبير من أبواب معرفة الله، يدعونا إلى معرفته من خلال خلق السماوات والأرض، ويمكن أن تعرفه ـ كما قلنا في الدرس الماضي ـ من خلال أفعاله، لو تتبعت مصير الظالم، لو تتبعت مصير المُرابي، لو تتبعت مصير الزاني، لو تتبعت مصير شارب الخمر، لو تتبعت مصير من أقام زواجه على معصية، كيف أن هناك عواقب، وهناك عقوبات، وهناك نتائج مريرة، لو تتبعت المستقيم، المُصلِّي، الحافظ لفرجه، الحافظ لبصره، الذي تحرر دخله من كل شبهةٍ، أنفق ماله فيما أمر الله، لرأيت التوفيق والسعادة والتأييد والنصر والحفظ وما إلى ذلك، إذاً لك أن تعرفه من خلال خلقه، ولك أن تعرفه من خلال كتابه.

أما اليوم الدعوة إلى معرفته من خلال كونه، من خلال الخلق، فكل إنسان أعطاه الله فكراً فاستخدمه في كسب المال فقط، وفي الإيقاع بين الناس، أو في كسب إعجابهم، أو في التفوّق عليهم، ولم يستخدم هذا الفكر في معرفة الله عزّ وجل، فقد احتقر وعَطّلَ أعظم شيءٍ منحه الله له.

نحن كما كنت أقول لكم دائماً: المؤمن يتبع توجيه النبي عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

إذا رأى ابنه أمامه، هذه آية لا ينبغي أن يمر عليها مر الكرام، أليس هذا ابنك ؟ نعم، ألا تعرف معرفةً يقينيةً أن أصله من حوين، خليةٌ واحدة لا ترى إلا بالمجهر، وقد أودع في هذا الحوين خمسة آلاف مليون معلومة، هذا رقم دقيق، خمسة آلاف مليون معلومة أودعها الله في هذا الحوين الذي لقح البويضة، وكيف تم خلق الإنسان، حوين وبويضة إذا هُما بشرٌ سوي ؛ إنسان، هيكل عظمي، مفاصل، عضلات، جلد، أوعية، شرايين، دماغ، قلب، دَسَّامَات، بطاريات في القلب، رئتين، بنكرياس، معدة، أمعاء، غدة نُخَامية، أليست هذه آية، لماذا نمر عليها ؟!!

ربنا عزّ وجل خلق الكون كي يكون دليلاً عليه:

كأس الماء أليس آيةً ؟ رغيف الخبز أليس آيةً ؟ الشمس أليست آيةً ؟ المؤمن لا يستمتع بالكون استمتاعاً بل يتعظ به اتعاظاً، لا يأخذ جانبه الدنيوي يأخذ جانبه الأخروي، لما ربنا عزّ وجل خلق الكون خلقه كي يكون دليلاً عليه:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد

***

الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَسُبْحَانَ اللّهِ (17))

لكن وقف العلماء عند هذه الآية وقفةً متأنّية:

(فَسُبْحَانَ اللّهِ حِينَ تُمْسُونَ (17))

الساعة العاشرة صباحاً أليس هناك تسبيح لله ؟ فعظمة الله قاصرة على المساء والصباح ؟ أجمع العلماء على أن هذا المصدر من سَبَّحَ يراد به الطلب، أي: سبحوا الله، هو مصدر إخباري يفيدُ الطلب، أي أيها المؤمنون سَبّحوا ربكم، أي فكروا في ملكوته، فكروا في خلقه، نزهّوه، مَجّدوه، جولوا جولاتٍ في آلائه، ألم يرد في الحديث القدسي عن سيدنا داود قال:

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: يا داود أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني ـ الحب أساس ـ وأحب من أحبني ـ وأن تحب المؤمنين أساس ـ أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي))

[ورد في الأثر]

كنت أقول لكم دائماً: أن الداعية ما مهمته ؟ أن يقرّبَ الناس إلى الله، هؤلاء الشاردون يلتفتون إلى الله، هؤلاء العصاة يتوبون من ذنوبهم، هؤلاء البعيدون يقتربون من ربهم، هذه مهمة الداعية ؛ أن يعرف الناس بالله، أن يدعوهم إليه، أن يدفعهم إلى بابه، أن يحملهم على طاعته، أن يبيّنَ لهم جوانب عظمة الله عزّ وجل.

الدعوة إلى التسبيح حين يأتي المساء:

هل تصدقون أن كل إنسان له مظهر ديني، أو له اتجاه ديني، أو معروف بين أهله وأقربائه أنه جيد ـ تلميذ الجماعة الفُلانية ـ أن أي إنسان يحمل صفةً دينية إن في مظهره، وإن في سلوكه، وإن في انتمائه،

وإن في خلفيّته، وإن في اتجاهه، ويسيء إلى الخلق، يقوم بدور معاكس للدعاة تماماً، الداعي يُقَرّب وهو ينفِّر، لذلك ورد في الحديث القدسي:

((إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[من الدر المنثور عن جابر بن عبد الله]

هنا سبحان الله هي مصدر سَبَّحَ، تسبيحاً وسُبحاناً، لكن هذا المصدر أريد فعله، وهو سَبِّحوا، فإذا قلنا سبحان الله حين تمسون، كأنك قيدت هذه العظمة في وقتٍ معين، وهذا مستحيل على الله عزّ وجل، هذا المعنى لا يليق بالله عزّ وجل أن تقيد هذا المعنى بوقت إلا أن يفهم التسبيح بأنه دعوةٌ إلى التسبيح أي:

(فَسُبْحَانَ اللّهِ حِينَ تُمْسُونَ (17))

معنى (تمسون) تدخلون في المساء، معنى المساء حدث جغرافي، حينما تغيب الشمس دخلتم في المساء، ولكن هذه الحضارة جعلت النهار ليلاً والليل نهاراً، جعلت الناس يمضون كل الليل في سَهَرٍ وينامون أكثر النهار، كأن هذه الحضارة مخالفة لتصميم الله عزّ وجل، ساعةٌ في أول الليل لا تعدلها ثلاث ساعاتٍ في آخر الليل، فالإنسان حينما يمضي وقته في السهر، ضيع عليه خيراتٍ كثيرة.

(فَسُبْحَانَ اللّهِ حِينَ تُمْسُونَ (17))

أي سبحوا ربكم حين يأتي المساء.

الآية التالية أصلٌ في فَرضِيّةِ الصلوات الخمس:

قال تعالى:

(وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17))

سبّحوا ربكم حينما يأتي الصُبح، أجمع أكثر العلماء على أن هذه الآية أصلٌ في فَرضِيَّةِ الصلوات الخمس، فحينما (تمسون) صلاة المغرب والعشاء، وحين (تصبحون) صلاة الفجر.

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (18))

هنا الجملة اعتراضية، أي أن الله سبحانه وتعالى بقدر ما هو عظيم، بقدر ما هو كريم، أنت بحياتك يمكن أن تُعَظِّمَ إنساناً دون أن تحبَّهُ، لك أستاذ في الجامعة في اختصاصه متفوق جداً ولكنه قاسٍ، فأنت تُكبر هذا المعلم ولا تحبه، وقد يكون لك قريب في غاية البساطة والطيب والتواضع لكن معلوماته محدودة جداً، فأنت تحبه جداً ولا تكبره، في حياة الناس شخص تحبه ولا تعظمه، وشخص تعظمه ولا تحبه، ولكن أن ترى إنساناً في الوقت نفسه تحبه بقدر ما تُعَظِّمُهُ، هذا شيء نادر جداً، لكن الله سبحانه وتعالى في آياتٍ كثيرة يصف ذاته:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ(78))

(سورة الرحمن)

وقال:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ(27))

(سورة الرحمن)

جلال وإكرام، فهنا (سبحان الله) تعظيماً، وتنزيهاً، وتمجيداً.

من حجبته النعمة عن المنعم هذه النعمة لابدّ من أن تزول:

قال تعالى:

(وَلَهُ الْحَمْدُ (18))

ما الذي ينتج من معنى لو أن الله عزّ وجل قال: والحمد له، عكسناها، كي تعرفوا عظمة القرآن، الحمد له، تقول: هذا القلم لي، هل يمنع أن يكون لك دفتر أيضاً ؟ إذا قلت: هذا القلم لي، هذه العبارة (القلم لي) هل يمنع أن يكون لك شيء آخر ؟ لا يمنع، أما حينما أقدم الجار والمجرور على الاسم صار في عندنا قصر، الحمد له ولغيره، أما له الحمد وحده، لذلك أية نعمةٍ ومنحةٍ، أية مَزِيَّةٍ وملكةٍ تتمتع بها، أي عقلٍ تستخدمه، أية حاسةٍ تبصر بها، أية أذنٍ مرهفةٍ تسمع بها، أية يدٍ تبطش بها، أي لسانٍ تنطق به، أية زوجةٍ تنعم بها، أي بيتٍ تأوي إليه، أي مركبةٍ تركبها، أية مادةٍ تستخدمها، أي طعامٍ تأكله، أي شيءٍ تنعم به منذ أن ولدت وحتى الموت، له، له الحمد.

من السذاجة، من الحمق، من الغباء، أن تتجه بكليتك كي تحمد إنساناً لا علاقة له بهذه النعمة، إنه من ضعف اليقين كما قال عليه الصلاة والسلام، إنه من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، إنه من ضعف اليقين أن تَحْمِدَهُم على رزق الله، إنه من ضعف اليقين أن تذمهم على ما لم يؤتك الله، أن تذمهم على شيءٍ حرمك الله منه، أو أن تحبهم على نعمةٍ منحك الله إيّاها، فالتوحيد التوحيد، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، حتى في النِعَم له الحمد، الحمد له وحده.

كل إنسانٍ اتجه إلى نعمةٍ يَنْعُمُ بها، نعمة المال فرضاً، رأى المال قوةً له، اعتمد عليه، من سنن الله عزّ وجل أنه يفقده هذا المال، كي يرى الذي أعطاه المال، حينما تحجبُك النعمة عن المنعم، هذه النعمة لا بدّ من أن تزول، فهذه الحقيقة خطيرة يا أخوان، حينما تحجبك هذه النعمة عن المنعم، أغلب الظن هذه النعمة سوف تزول كي ترى المنعم، لذلك ماذا قال عليه الصلاة والسلام في دعائه الشريف:

((اللهم أرنا نعمتك بكثرتها لا بزوالها))

[ورد في الأثر]

إذا حجبتك الزوجة عن الذي أهداك إيَّاها لا بدَّ من أن تسوء العلاقة بينك وبينها، إذا أرضيتها وعصيت الله، حجبتك عن الله، إذا حجبك المال عن الذي أعطاك المال، أغلب الظن أن هذا المال يزول كي ترى المنعم، فكل إنسانٍ تمتَّعَ بشيءٍ في الدنيا إن كان موفقاً أو ذكياً أو عاقلاً يجهد أن يرى المنعم من خلاله، لا أن يكتفي بالنعمة.

من مراتب الشكر أن تعرف أن هذه النعمة من الله:

الأجانب رأوا النعمة فقط، استمتعوا بها واستكبروا بها ؛ لكن المؤمن الصادق إذا أنعم الله عليه بنعمة لا يغيب عنه المنعم أبداً، لا يغيب عنه أن هذا من فضل الله لذلك قالوا: **" من مراتب الشكر ثلاثة، المرتبة الأولى يكفي أن تعرف أن هذه النعمة من الله، فهذا أحد أنواع الشكر، فسيدنا المسيح قال: " يا رب كيف شكرك ابن آدم ؟، قال: علم أنه مني فكان ذلك شكره ".**

يكفي أن تعرف أن هذه الصحة ليست من جهدك، وليست من ذكائك، إنها بتوفيق الله عزّ وجل، وأن هذا الطفل الذي جاء سليماً معافىً ليس لشدة عناية أمه بنفسها في أثناء الحمل، لا، بتوفيق الله عزّ وجل جعله سالماً كاملاً، له سمعٌ وبصرٌ وأيدي ولسان، وله ثقب بتوال، المولود في رحم أمه، لا هواء، الله عزّ وجل جهزه برئتين، وجهزه بعينين، وجهزه بقلبٍ وكل ما يحتاج، كيف يتنفس هذا الطفل وهو في بطن أمه ولا هواء في الرحم ؟ الرئتان معطلتان، ودورة الرئتين معطلة، القلب بين الأذينين فيه فتحة، ينتقل الدم من أذين إلى أذين عبر هذه الفتحة، ودم الأم هو الذي يُنَقِّي دم الجنين، فحينما ينزل هذا المولود إلى الأرض، هذا الثقب الذي بين الأذينين يُغْلَقَ، يد من تغلقه ؟ يد الله عزّ وجل، كل خمسمئة ألف مولود مَولود واحد هذا الثقب يبقى عنده مفتوحاً، لون الطفل أزرق لا يستطيع أن يمشي مترين، لأن الدم بدل أن يذهب إلى الرئتين كي يُنقَّى يرى الطريق أقرب من هنا، ينتقل من أذين إلى أذين.

الآن لو أردنا أن نجري عملية في قلب فالقضية تكلف مئات الألوف، قريباً من مليون، فتح القفص الصدري وتجميد القلب تبريداً، ثم وصل الأوردة والشرايين في قلب صناعي، ثم فتح القلب إلى أن يهمد، ثم فتح وإغلاق هذا الثقب، ثم إعطاؤه صعقةً كهربائية قد يعمل وقد لا يعمل، إذا لم يعمل نقول: عظم الله أجركم، فيد من تدخل إلى داخل القلب كي تسد هذا الثقب ؟

قلب المؤمن مليء بالتحميد والتعظيم:

وله الحمد، عندك ولد أعضاؤه سليمة، حواسه سليمة، قلبه يعمل، رئتاه جيدتان، ثقب بوتال مغلق، الغدد الصمّاء تفرز، الكليتان نشيطتان، وله الحمد، الحمد لله على صحّتك، والحمد لله على أهلك،

أعطاك زوجة، زوجة من بني البشر ؛ لها أحاسيس، لها مشاعر، لها فكر، تكلمها تفهم عليك، أو لا تفهم عليك أحياناً، تكلمها تكلمك:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

(سورة الروم: من آية " 21 ")

هذه وله الحمد، يجب أن تقف وقفة خشوع لهذه الصيغة، فليس الحمد له ؛ بل وله الحمد، إياك أن تظن أن نعمةً تنعُمَ بها هي من فضل غير الله، هي من فضل الله دائماً، فلذلك قلب المؤمن مليء بالتحميد والتعظيم، فالحديث القدسي:

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: يا داود أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقه، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي))

[ورد في الأثر]

إذا سمعت أن نجماً يبعد عن الأرض عشرين ألف مليون سنة ضوئية، ألا يقشعرُ جلدك ؟ عشرون ألف مليون سنة ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، وفي الدقيقة ضرب ستين، وفي الساعة ضرب ستين، وفي الأربع والعشرين ساعة ضرب أربع وعشرين، وفي السنة ثلاثمئة وخمسة وستين، أي ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربعة وعشرين ضرب ثلاثمائة وخمسة ستين هذه بالسنة، ما يقطعه الضوء في سنةٍ واحدة، ضرب عشرين ألف مليون.

الكون وما فيه من آيات الله الدالة على عظمته:

أجريت على آلة حاسبة حساباً بسيطاً، بلغني أن أقرب نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض، أقرب نجم ملتهب الكوكب غير النجم، الكوكب مثل القمر، أما المُلتهب مثل الشمس ـ أقرب نجم ملتهب للأرض بعده عنا أربع سنوات ضوئية، والله أجريت على الآلة الحاسبة حساباً تقديرياً، لو أن هناك طريق بيننا وبين هذا النجم ومعنا سيارة، كم من الوقت نستغرق كي نصل إليه بهذه السيارة ؟ الرقم جاء قريباً من خمسين مليون عام، فقلت:

يا رب نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة، أول قفزة من أربعة إلى أربعة آلاف، إذا كان خمسين مليون عام لأربع سنوات ضوئية، معناها أن القطب ضرب ألف أربعة آلاف، أي خمسين ألف مليون سنة، قلت:

هذه المرأة المسلسلة، التي تبعد عنا مليون سنة ضوئية، انتقلنا من أربع سنوات إلى أربع آلاف إلى مليون سنة، وهذه المجرة الأخيرة عشرين ألف مليون سنة ضوئية، فهذا الكون ألا يدهشك ؟ هذا الذي خلقه أينسى ؟ أيعبد غيره ؟ أيزهد بوعده ؟ ألا تخشى وعيده ؟

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

***

قال تعالى:

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154))

(سورة الصافات)

وقال:

(فَأَنَّا تُصْرَفُونَ(32))

(سورة يونس)

وقال أيضاً:

(أَفَلا تَعْقِلُونَ(116))

(سورة يونس)

قال تعالى:

(قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ(62))

(سورة النمل)

العبادة مرتبة عالية جداً:

ورد في الحديث القدسي:

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري))

[الجامع الصغير عن أبي الدرداء بسند ضعيف]

الناس يعبدون بعضهم بعضاً، ماذا معنى يعبده ؟ إذا رأيت أن زيداً من الناس بيده مقادير أمرك، إنك تعبده ولا تدري، إذا أرضيت إنساناً وعصيت الخالق هذه عبادة، أن تطيع زوجتك في معصيةٍ فقد عبدتها من دون الله، أن تؤثر هواك على طاعة الله فقد عبدت هواك من دون الله، والدليل:

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 23 ")

العبادة مرتبة عالية جداً:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

(سورة الإسراء: من آية " 1 ")

ربنا عزّ وجل أعلى صفة وصف بها النبي الكريم سيد الخلق وحبيب الحق أنه عبدٌ لله، عبد، هل أنت عبدٌ له ؟ هل أنت مؤتمرٍ بأمره منته عما عنه نهى ؟ هل عرفته ؟ إذا عرفته يكفي أن يصح عندك أن هذا الكلام كلامه وأن هذا الأمر أمره كي تبادر إلى طاعته، إذاً:

(فَسُبْحَانَ اللّهِ (17))

أي سبحوا ربكم حين تمسون، جاء المساء، غابت الشمس إلى صلاة المغرب، فأنت تُسَبّح الله، تنزّهَهُ، تجول في كمالاته، تجول في أسمائه الحسنى، في صفاته الفضلى، تقف بين يدي الله عزّ وجل وتقرأ:

(بِاسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ(1)الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرّحْمَنِ الرّحِيمِ(3)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(4)إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ(5))

(سورة الفاتحة)

هذه الصلاة، النبي الكريم قال:

((الصلاة عماد الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

وقال أحد الصحابة: **" إذا حضرت الصلاة فكان الرسول لا يعرفنا ولا نعرفه".**

على كل مسلم أن يسبح بالله و يعاهده على الطاعة:

قال تعالى:

(فَسُبْحَانَ اللّهِ (17))

أي من يجيبني ؟ أي سبحوا الله، أي قوموا إلى الصلاة، قُم فصلي، قم فسبح، قم فنزّه، قم فمجّد، قم فاحمد الله، قم فعاهده على الطاعة:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ(5))

(سورة الفاتحة)

استعن به، اتل أمره، اخضع لأمره في الركوع، اطلب منه المدد في السجود، وهكذا:

(فَسُبْحَانَ اللّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17)

طبعاً هنا تمسون أي تدخلون في المساء، تصبحون تدخلون في الصباح، كلكم يعلم أن أصبح، وأضحى، وأمسى، وبات، وما برح، ومافتئ، وما فتئَ، وليس، وصار، هذه أفعال ناقصة لكن أحياناً هذه الأفعال تأتي تامّة، تقول: أصبح القوم، ما معنى أصبح القوم ؟ أي دخلوا في الصباح، أمسى القوم دخلوا في المساء، فقط، لكن إذا قلت: أصبح الطالب رقيق المشاعر، هذه فعل ماض ناقص.

أصل الصلاة هنا أن تسبّح الله:

هنا معنى تصبحون وتمسون أي تدخلون في الصباح والمساء، أي إذا جاء المساء قم فصل صلاة المغرب وصلاة العشاء، وأصل الصلاة هنا أن تسبّح الله، لذلك أول شيء في الصلاة تقول: **" سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك "** ثم الحمد لله رب العالمين وهكذا.

إذاً تمسون تعني صلاة المغرب والعشاء، وتصبحون تعني صلاة الصبح:

((وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[سنن ابن ماجة عَنْ سَمُرَةَ ابْن جُنْدَبٍ]

معنى في ذمة الله، أضرب مثلاً هل تستطيع أن تضرب منتمياً إلى وزارة الداخلية كشرطي مثلاً ؟ لا تستطيع لأن العقاب مضاعف، فالدولة تحميه، وهذا الذي يصلي الصبح في جماعة فهو في ذمة الله، أنت عندما تعتدي عليه، أو تسيء له، أو تغتابه، تتجاوز حدّك معه، تأكل ماله، تهينه أحياناً، لا يحق لك ذلك فهو في ذمة الله ما دام قد صلى الصبح في جماعة، فسبحان الله، لذلك:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((من أكرم أخاه فإنما يكرم الله))

[ابن النجار عن ابن عمر والديلمي عن جابر]

إذا أنت أكرمت أخاً مؤمناً لا تعرفه إلا أنه مؤمن، فكأنما أكرمت الله عزّ وجل، إذا استقبلت أخاً مؤمناً ورحبت به، عاونته على قضاء حاجته، له مشكلة ساعدته، طلب منك حاجة لبيتها له، أنت أقرضت الله قرضاً حسناً، والحديث معروف عندكم، يقول الله عزّ وجل:

((يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ))

[صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين:

إذاً:

(وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17))

سبحان الله فالإنسان إذا صلى الصبح في وقته يشعر أنه في ذمة الله، في حفظ الله كل نهاره، لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفك النهار كله، أنت الآن في حصانة، فعلاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، أي أنك ممنوع من أن تناله بسوء، كذلك كل إنسان صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله، في ذمته، وفي حفظه، وفي رعايته.

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18))

السماء أمطرت له الحمد، حبست ماءها له الحمد، يجب أن تحمده في السرّاء والضَرّاء:

((بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره...))

[متفق عليه عن عبادة بن الصامت]

أنت كمؤمن طبعاً أن تحمده في الرخاء قضية سهلة جداً ؛ ولكن البطولة أن تحمده في الضراء، الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين.

(وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18))

هذه صلاة الظهر:

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا (18))

العشي صلاة العصر:

(وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18))

العلماء وقفوا عند ظاهرة: تمسون فعل، تصبحون فعل، تظهرون فعل، أما العصر (عشياً) اسم، لا يوجد هنا فعل، قال: لأن صلاة الصبح في انتقال من الليل إلى النهار، صلاة المغرب والعشاء في انتقال من النهار إلى الليل، في تحول، أنت كنت في البيت نائماً، وقت الصلاة انطلقت بعدها إلى عملك، لكن صلاة العصر ليس فيها تحوّل، الصبح انتقال من الليل إلى النهار، المغرب غياب الشمس، العشاء غياب الشفق الأحمر، الظهر زوال الشمس عن كبد السماء، العصر لا توجد حركة، لا يوجد فعل، في استمرار، فجاء العشي اسماً ولم يأت فعلاً، هذا المعنى.

الحياة والموت لهما معنيان معنىً حقيقي ومعنى مجازي:

قال تعالى:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19))

وقال:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (19))

الحياة والموت لهما معنيان، معنىً حقيقي ومعنى مجازي، المعنى المجازي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

المؤمن حي، والكافر ميّت، الموصول بالله حي، والمقطوع عن الله ميت، المستقيم على أمر الله حي، والمُنحرف ميت، الذي يعرف الله حي، والذي لا يعرفه ميّت، وربنا عزّ وجل قال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من آية " 21 ")

وقال أيضاً:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

كل إنسان مقبور بشهوة من الشهوات، هذا مقبور في تجارته، هذا مقبور في النساء، هذا مقبور في المال، لهذا سيدنا علي قال لابنه: **" يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء ـ أموات وهم أحياء، أي وهم في أوج حياتهم، في أوج حيويتهم، في أوج قوتهم، في صحتهم التامة، في استمتاعهم بكل شيء، هؤلاء أموات ـ مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".**

من عمل بما علم جمع المجد من أطرافه:

مثلاً علماؤنا الأجلاء عبر العصور التوالي، أبو حنيفة النعمان يُذكَر في اليوم والليلة في العالم الإسلامي ملايين المرات، والإمام الشافعي، وسيدنا صلاح الدين، وسيدنا أبو بكر، وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان، وعمر بن عبد العزيز، والإمام الجُنَيد، والشيخ محي الدين، العلماء، أما أن تذكر اسم إنسان غني عاش سنة ألف وثمانمئة وخمسة عشر بالشام ؟ اذكر لي اسم واحد لأعطيك ما تريد، لا تذكر، "مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر"، باب العلم مفتوح لكل واحد، اطلب العلم من المهد إلى اللحد، طلب العلم فريضةٌ، أنت إذا أتيت إلى بيتٍ من بيوت الله، وفهمت كلام الله، تعلمت، درساً فوق درس، وجلسة إثر جلسة، وموضوعاً بعد موضوع، وكتاباً بعد كتاب، تصبح عالماً، فإذا عملت بما علمت جمعت المجد من طرفيه، فلذلك:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (19))

أحياناً تجد شاباً في منتهى الأدب والخشوع، ومعرفة الله، والاستقامة، والحب، وأبوه لا يصلي، وقد تجد أب من أرقى الآباء له ابن ضال، في الحالة الأولى أخرج الحي من الميت، والحالة الثانية أخرج الميت من الحي، هذا معنى مجازي.

عظمة الله في خلقه:

المعنى الحقيقي: انظر إلى البذرة، هذه البذرة تبدو لك ميتة، حبة قاسية، القمح بقي بالأهرامات ستة آلاف سنة، فلما زرعوه أنبت، فهذه الشجرة التي تضج حياةً، تأكل من المشمش بذرة خشبية، من الزيتون بذرة كلها خشب، هذه البذرة تبدو لك ميتة، ولكنك إذا وضعتها في التربة وجاءتها الرطوبة وجاءها الماء أنبتت رشيماً، فكأن الله أخرج من هذه الشجرة التي تضج حياةً بذرةً تبدو لك ميتة، فإذا زرعت هذه البذرة الميتة أعطت حياةً:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (19))

الأشجار في الشتاء حطب، قد لا تصدِّق، لو أخذت غصن أحد الأشجار وكسرته تجده حطباً، خشباً يابساً، فإذا جاء الربيع ارتدت هذه الشجرة حُلّةً بيضاء قشيبة، زهر رائع جداً، لطيف، له رائحة فوّاحة، من أين جاء هذا الزهر ؟ أرض جرداء، تذهب إليها في الربيع فترة الحياة، سيدنا عمرو بن العاص وصف لسيدنا عمر بن الخطاب بلاد مصر، فقال له:

" يا أمير المؤمنين مصر طولها شهرٌ ـ أي مسيرة شهر ـ وعرضها عشرٌ ـ عشرة أيام، طولها مسير شهر وعرضها عشرة أيام ـ يخط وسطها نهرٌ ميمون الغدوات مبارك الروحات ـ نهر النيل ـ فإذا هي عنبرةٌ سوداء ـ أي أرض تربة سوداء ـ إذا هي درةٌ بيضاء ـ عندما النيل فاض فمنظرها من فوق بيضاء، كأنها درة ـ ثم هي زبرجدة خضراء ـ بساط أخضر في الربيع ـ ثم هي عنبرةٌ سوداء فتبارك الله الفعال لما يشاء ".

الأشجار أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (19))

أرض ميتة، بالربيع ترى آلاف أنواع الأزهار على الطريق، غير الحشيش الأخضر، كلها خضراء، أزهار قصيرة وطويلة، وبنفسجية، وصفراء، وبيضاء، وحمراء، لو أردت أن تعد الأنواع تجدها آلافاً مؤلفة، وكل زهرة لها ألوان متناسقة، ولها حجم مناسب، ولها بُنية خاصة، ولها ترتيب خاص، أين كان هذا كله ؟ هذه الشجرة كأنها قطعة حطب مُشَعَّبَة، أزهرت فأورقت فأثمرت، أين كان هذا كله ؟ هذه آياته.

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (04-14): تفسير الآية 20
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-02-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الرابع من سورة الروم.

عملية التغذية:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(19))

(سورة الروم)

هذه الآية الثانية، يضاف إلى المعاني التي قيلت في الدرس الماضي، أن الإنسان قد يتناول بعض المواد، هذه المواد تنقلب في جسمه إلى أنسجة حيَّة، هذه الأنسجة تُسْتَهْلَكَ فتنقلب إلى مواد ميّتة، فعملية التغذية ؛ عملية تناول مواد ميّتة، ثم تصبح حيَّة، ثمَّ تعود ميّتة، لو دقّقنا في عملية تمثيل الغذاء وطرح الغازات السامّة والفضلات، وتناول بعض المواد لوجدت أن هذه المواد في أصلها مواد ليس فيها حياة، تنقلب في جسم الإنسان إلى أنسجةٍ حيَّة، تتولّد عنها طاقة، ثم تتحوّل إلى مواد يفرزها الجسم خارجاً، إذاً هذا أيضاً مما يضاف إلى قوله تعالى:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19))

أساس السعادة العبادة والعبادة أساسها المعرفة التي تتطلب الوقوف عند آياته سبحانه:

أيها الأخوة الأكارم آية اليوم:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

الحقيقة أن الإنسان أحياناً إذا أراد التعرُّف على إنسانٍ آخر ؛ له أن يلتقي به، له أن يرى صورته، أن يحدِّثه، أن يقرأ كتابه، هناك قنواتٌ عدّة كي تعرف إنساناً ما، ولكنّك إذا أردت أن تعرف خالق الكون ليس من سبيلٍ إليه إلا سبيلٌ واحد هو أن تتعرّف إلى آياته، لماذا الآيات لا بد من أن نتأمّل فيها ؟ لأنه لا يمكن أن تطيعه إلا إذا عرفته، ولا يمكن أن تسعد إلا إذا أطعته، مطلبك الأساسي أن تسعد، والسعادة أساسها العبادة، والعبادة أساسها المعرفة، والمعرفة قناتُها الوحيدة أن تقف عند آياته.

طبيعة الإنسان ليس في إمكانه في الدنيا أن يرى الله جهرةً، أنت قد ترى الشيء مباشرةً ؛ ترى لونه، ترى حجمه، ترى أبعاده، ترى جُزْئيّاته، أما فيما يتعلّق بحضرة الله عزّ وجل ليس كمثله شيء، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، إذاً إذا أردت أن تسعد لا بد من أن تعبد، إذا أردت أن تعبد لا بد من أن تعرف، إذا أردت أن تعرف لا بد من أن تتأمّل في آياته، إذاً:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

هذا استفهام إنكاري، أي يا عبادي هل من طريقٍ إلي إلاّ الآيات ؟ هل من طريقٍ إلى معرفتي إلا هذه الآيات التي نصبتُها لكم ؟ هل من طريقٍ إلى القرب إلي إلا عملٌ طيّب أساسه معرفةٌ بي ؟ فإذا وقفنا الآن عند بعض الآيات فليس المقصود هذه الآيات ؛ بل المقصود ربُّ الأرض والسماوات، المقصود أن ترى الله من خلال خلقه، المقصود أن تنتقل من شَطٍ إلى شَط، إذا كان الكون شَطّاً فمعرفة الله هي الشَطُّ الآخر، لا بد من أن تعبر هذا الجسر.

الفرق بين أهل الدنيا وأهل الآخرة:

الفرق بين أهل الدنيا وأهل الآخرة أن الأجانب وقفوا عند هذه الآيات، درسوها، وتأمّلوها، ودرسوا القوانين، والعلاقات، وتبحّروا، وتعمّقوا، والدليل ما وصلوا إليه، ولكنهم ما أرادوا أن يعرفوا الله من خلال هذه الآيات، فبقوا في الجَهْل، أما المؤمن إذا رأى هذه الآيات لا بد من أن ينتقل منها إلى معرفة الله عزّ وجل، اليوم آية واحدة:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

أينما التفتت ترى التراب، خُذ حَفْنَةً من تراب، قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ (20))

بشر، إنسان، يوجد في دماغك مئة مليار خليّة استناديّة لم تُعْرَف وظيفتها بعد، توجد على القشرة الدماغيّة أربعة عشر مليار من الخلايا السمراء التي فيها المُحاكمة، فيها التذكّر، فيها السَمع، فيها البصر، فيها التخيُّل، فيها التصوُّر، فيها المركز الحركي، فيها مركز الإحساس، هذه قشرة الدماغ لو أصاب جزءاً طفيفاً منها خللٌ فقد الإنسان حركته، وأصيب بالفالج، شريان في الدماغ تضيّق، أصيب بفقد ذاكرته، أو فقد بصره، هناك عمىً ليس أساسه العين، العين سليمة ولكن أساسه تعطل مركز البصر في الدماغ، فلان أصيب بسكتة دماغيّة، أي أن شرياناً في دماغه انفجر، وعندما انفجر تعطّلت التغذية عن بعض أجزائه، فماتت الخلايا العصبيّة، بموتها يفقد الإنسان سمعه، أو بصره، أو ذاكرته، أو حركته.

حفظ الله عز وجل الدماغ لأنه مناط التكليف:

هذه الحفنة من التراب كيف صارت مئة مليار خليّة، ليس مليون بل مليار، مئة مليار خليّة وفوق خمسة عشرَ أو أربعة عشرَ مليار من الخلايا السمراء التي تتوقّف عليها حياتك العقليّة، ذاكرتك، كل خبرات الطبيب في ذاكرته، يكتب الدواء على الفور لأنه موجود في ذاكرته إن هذه الأعراض يناسبها هذا الدواء، كل خبرات البائع في ذاكرته، الصانع، المزارع، التاجر، أصحاب المِهَن الحرّة، أصحاب المهن الراقية، كل النشاطات والطاقات في الذاكرة، لو فقد الإنسان ذاكرتَه فقد كل شيء.

لكن هذه الحفنة من تراب كيف أصبحت دماغاً ؟ وخلايا الدماغ لا تنمو، وخلايا الدماغ لا يصيبها السرطان حتّى الآن، القشرة الدماغيّة، مكان التفكير، مكان الوعي، مكان الإدراك، مكان التصوّر، مكان التخيُّل، مكان التذكُّر، لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، لأن هذا الدماغ مناط التكليف، وما دام الدماغ مناط التكليف فقد حفظه الله عزّ وجل من أي ورمٍ خبيث، فهذا الدماغ حفنة تراب، فهكذا تقول الآية:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

هذه العظام، عظم الفخذ لكي يأتي شكل الإنسان رائعاً، هذا العظم له عنق، ولهذا العنق مُشاشة وهذه المشاشة تتمفصل مع الحوض، الإنسان أحياناً يحمل خمسمئة كيلو، صندوق حديد، هناك إخوة يعملون في نقل صناديق الحديد، لكن أين يقع كل هذا الثقل ؟ على عنق الفخذ، فكل عنق فخذٍ في الإنسان يتحمّل ضغط مئتين وخمسين كيلو، الإنسان يتحمّل ضغط قدره خمسمئة كيلو، حفنة تراب هشّة كيف أصبحت بهذه المتانة ؟

من جعل في هذه العظام معامل ؟ في جوف العظام مادة هلامية هي معامل كريات الدم الحمراء، هذا المعمل ينتج في الثانية الواحدة اثنين ونصف مليون كريّة حمراء، في كل ثانية، وهناك مرض خطير اسمه فقر الدم اللا مصنِّع، هذه المعامل في هذا المرض تكفُّ عن صنع كريات الدم الحمراء، والسبب حتى الآن غير معروف، فهذا التراب أيكون معملاً لكريات الدم الحمراء ؟!!

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

بعض آيات الله الدالة على عظمته:

هذا العظم إذا انكسر، العظم ينمو، كيف يقف هذا العظم عن النمو، من رسم له خطاً وهمياً أن قف عند هذا الحد ؟ من أسماء الله الباسط والقابض، عظام الفخذ تنمو، وفي سن العشرين تقف عند حد، هذا السؤال المُحَيِّر: من الذي يأمر هذه العظام أن تقف عند هذا الحد ؟ لو لم تقف لكان هناك مرضٌ خطير اسمه مرض العَمْلَقَة، هذه الأسنان تقف عند حدِّها، هذا الفك يقف عند حدِّه، عظام الجمجمة تقف عند

حدِّها، فهذه العظام بعضها مسطّح كلوح الكتف، بعضها أسطواني، والأسطواني له مشاشة، والمشاشة متمفصلة بحفرة، هناك سائل لمنع الاحتكاك، هناك ألياف، هناك روابط، هناك عظام مسطّحة كالجمجمة، لها مفاصل منكسرة تتمفصل بتداخلها، فما هذا التصميم ؟ عظام الجمجمة، من جعل هذه الجمجمة تدور ؟ هكذا إذا سمعت صوتاً من ورائك تدير رأسك فقط، أما لو لم يكن هذا المفصل الدائري لاضطررت أن تدور جميعاً بجسمك كلّه، من جعل هذا المفصل حركته دائريّة ؟

عظام الرسغ أيضاً، فهذه العظام لو كُسِرَتْ، الإنسان يعيش سبعين أو ثمانين سنة، توقّف نمو العظام في سن الثمانية عشر، عمره خمسة وستون كُسرت رجله، قال: إن هذه الخلايا تستيقظ، كانت نائمة ثلاثين سنة فاستيقظت وبدأت تنمو كي يلتئم العظم، وما دور الطبيب إلا أن يضع العظم وضعاً مُحْكَمَاً فقط ويضع له الجبصين، ويقول لك: انتهت العملية، عندئذٍ العظم يتولّى، ولكن من جعل هذا العظم بهذه المتانة ؟

ميناء الأسنان أيها الأخوة يأتي بعد الماس في قساوته، نحن نصف الأشياء إما بالمتانة وإما بالقساوة، قِوى الشد نَصْفُهَا بالمتانة، أمتن شيء في الحياة الحبل الفولاذي، وقالوا: إن القمر مربوط بالأرض بجاذبيّة تساوي كتلاً من الفولاذ قطره خمسين كيلو متر، هذه قِوى التجاذب، فقوى الشد نصفها بالمتانة، وقوى الضغط نصفُها بالقساوة، وميناء الأسنان يأتي في قساوته بعد الماس، بعد أقسى حجر طبيعي، هذا التراب الذي تراه بعينك، تسير عليه، تحفر الأرض، تنقله من مكانٍ إلى مكان، يصبح هيكلاً عظمياً مدروساً، عظم الحوض ربنا عزّ وجل قال:

(ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(13))

(سورة المؤمنون)

الرحم يقع في المتوسِّط الهندسي تماماً في الجسم، لو أخذت خطاً طولياً وخطاً عرضياً يتعامدان عند الرحم، من وضع الرحم في هذا الحوض ؟!!

العضلات وحدها تعتبر من آيات الله الدالة على عظمته:

شيءٌ آخر: هذه العضلات، ما قيمة الهيكل العظمي من دون عضلات ؟ كل عضلةٍ تُحَرِّك عَظْمَاً، لكن العضلة كيف تتقلّص ؟ من منكم فكّر في هذه الآية من آيات الله الدالّة على عظمته ؟ تقلّص هذه العضلة، عضلات مخطّطة يأتيها أمر عصبي، ما الذي يحصل ؟ كيف تنكمش هذه العضلة فترتفع يدك، وكيف تنبسط ؟ لو اطلعت على إنسانٍ من دون جلد لرأيت في عضلاته العجب العُجاب، عضلة باسطة، وعضلة قابضة، وعضلة مائلة.

العين فيها عضلة وحشيَّة، عضلة إنسيَّة، عضلة مائلة، حركات العين، حركات الرأس، ملامح الوجه، عضلات البطن، عضلات الظهر، عضلات اليدين، عضلات الرجْلين، هذه العضلات من خلقها ؟ عضلات ملساء لا إراديَّة، عضلات مخطَّطة إراديَّة، وعضلة القلب عضلةٌ قائمةٌ بذاتها، لأنها تعمل ثمانين عاماً دون كللٍ أو تعب، منذ أن ينبض القلب في الجنين إلى أن يحين الحين وهذا القلب ينبض، يستريح بين النَوْبَتَين راحةً تكفي لزوال حمض اللبن في أجزاء العضلة، هذا القلب يضخُّ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعَّبة ؟! هذه أشياء بديهيَّة إخواننا الأطباء يعرفون ذلك.

لكن في بعض البلاد المتقدِّمة عمرانياً هناك ناطحات سحاب، بعض العمارات مئة واثنا عشر طابقاً، لو أخذنا ناطحة من ناطحات السحاب مساحتها ألف متر مربَّع، أي قطرها تقريباً ثلاثة وثلاثون متراً، مساحة الناطحة ألف متر مربَّع، وارتفاعها ثلاثمئة متر، الإنسان في عمر ستين سنة يملأ هذا البناء دماً بضخّ قلبه، فقلب الإنسان في عمر متوسِّط يضخُّ دماً يملأ هذا البناء الشاهق.

هذا القلب، هذه العضلة التي حار العلماء فيها، هذه من تراب، فيها دَسَّامات، فيها شريان مغذٍ للعضلة نفسها، فيها أوردة، فيها فتحات، فيها أذينين، فيها بطينين، فيها أشياء محيّرة.

ومن آياته سبحانه جلد الإنسان وشعره وأوعيته:

لهذا أيها الأخوة:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

لو نظرت إلى إنسان على مستوى العضلات فقط، لولّيت منه فراراً ولمُلئت منه رعباً، أما الإنسان بالجلد ؛ غلاف أنيق، محكم، مرن، فيه خلايا دهنيَّة ـ إذا دخل الإنسان إلى الحمام يشعر أنه بحاجة إلى مادَّة دهنيَّة تغلِّف جلده ـ هناك غدد دهنيَّة، هناك أشعار، وغدد تَعَرُّق، ونهايات عصبيَّة للحرارة، والبرودة، والضغط، واللمس، والخشونة، والنعومة، فالجلد لوحده اختصاص قائم بذاته، وأمراض الجلد لا يعلمها إلا الله، وهذا من تراب.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

الشعر، في رأس الإنسان توجد ثلاثمئة أو أربعمئة ألف شعرة، لكل شعرة شريان يغذيها، ووريد يأخذ الدم الراجع منها، وعصب حِسِّي، عصب محرِّك، وعضلة، وغدَّة دهنيَّة، وغدَّة صبغيَّة، ثلاثمئة ألف شعرة في رأسه لكل شعرة عصبٌ، ووريدٌ، وشريانٌ، وغدَّة دهنيَّة، وغدَّةٌ صبغيَّة:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

الأوعية، في جسم الإنسان الأوعية طولها خمسين كيلو متر، الأوعية قلوب، الله عزّ وجل جعل الوعاء مرن، فعندما يتلقى من القلب النبضة يتوسّع لمرونته، توسُّع هذا الوعاء بدافع مرونته ينضغط مرّة ثانية، صار الوعاء قلب يتوسّع وينقبض، فالله عزّ وجل جعل للإنسان هذا الضغط الشرياني، أساساً كلّما كان الإنسان شاباً كانت شرايينه مرنةً، ومعنى مرنة أي تريح القلب، فإذا تصلّبت تعب القلب، فمن جعل هذه الشرايين مرنة تتجاوب مع القلب، من جعل لها عضلات تضيقها وتوسُّعها ؟

يقول لك: هناك أدوية موسِّعة للشرايين، وهناك أدوية مضيّقة، طبعاً كل إنسان يدخّن توجد في الدخان مادّة تضيّق هذه الأوردة فتجد وجهه دائماً أصفر، وقلبه تعبان من ضيق الأوعية، والوضوء يجعل الوجه وردي اللّوْن، السبب أن الماء البارد ينبّه أعصاب الأوعية فيوسِّعها، اسمه وضوء من الوضاءة، هذه الأوردة والشرايين لها علم قائم بذاتها.

كلّما زادت معرفتك بالله زاد خشوعك له:

أنا أقول لكم عناوين يا إخوان، عناوين موضوعات، كل موضوع اختصاص، كل موضوع يحتاج إلى عشرة سنوات دراسة، كل موضوع فيه خمسمئة أو ستمئة مرجع، فلان جرّاح أوعية، فلان مختص بالأمراض العصبيّة ذات المنشأ الهضمي، في أمراض عصبيّة ذات منشأ آخر، فهذا التفكير، هكذا يجب أن تفكِّر من أجل تعرف الله عزّ وجل، من أجل أن ترى عظمة الله عزّ وجل، من أجل أن تخشع له، من أجل أن تطيعه، كلّما زادت معرفتك بالله زاد خشوعك له:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

هذا البلعوم يعمل ثمانين عاماً بلا كَلَل ولا مَلَل، كلّما أردت أن تبلع شيئاً أغلق فتحة الرئتين إغلاقاً محكماً، فلو دخل إلى الرئتين قطرة ماء لكان هناك مضاعفات خطيرة، فإذا أردت التنفُّس أغلق فتحة المري، وأنت نائم يجتمع اللعاب في فمك، فيتنبّه الدماغ، فيأمر البلعوم فيفتح، وكأنّه شرطيٌ للسَيْر، هذا يعمل ثمانين عاماً من دون كلٍ أو ملل وأنت لا تدري، فالإنسان عند طبيب الأسنان لأنه لا يستطيع أن يغلق فمه كي ينتقل اللعاب إلى المري، فيضع له ماصة لتمتص هذا اللعاب الزائد، اللعاب آية من آيات الله الدالّة على عظمته.

هذه البروستات التي يتحدّث عنها الناس كثيراً، هذه أيضاً غدّة تقف على مفترق الطرق، طريق ماء الحياة وطريق البول، فإذا كان لزاماً للبول أن يخرج أغلقت ماء الحياة وفتحت طريق مجرى البول، البول مادّة حمضيّة، إذاً هذه الغدّة تفرز مادّة قلويّة تتعادل مع المادّة الحمضيّة لئلا يتخرّش المَجرى، أما إذا أراد أن يخرج ماء الحياة، المجرى كان فيه بول، فتفرز هذه الغدّة مادّة مطهّرة، ثم مادّة معطِّرة، ثمّ

مادّة سكريّة، وأنت لا تدري، هذا المذي والمني، المذي هكذا، مواد معطِّرة ومطهِّرة ومغذِّية تفرزها البروستات، وتعمل لإغلاق مجرى البول تارةً، وإغلاق مجرى ماء الحياة تارةً أخرى، ثمانين عاماً من دون كللٍ أو ملل، وهي تراب، حفنة من تراب تصبح جهازاً بالغ التعقيد، هذه آياته الدالّة على عظمته.

المري والكلية من آيات الله الدالة على عظمته أيضاً:

المري من جعله عضلات دائريّة على شكل حلقات ؟ لو علّقت إنساناً من رجليه وناولته كأس ماء لصعد الماء نحو الأعلى طبعاً، بأي وضعٍ أنت إذا أكلت شيئاً ينتقل إلى المعدة ؛ بوضع أفقي، بوضع قائم، بوضع مقلوب، بأي وضعٍ شئت بفضل هذه العضلات الدائريّة المتلاحقة التي تتقلّص تباعاً، ومن آياته، تأكل وأنت مستريح.

أي جسمٍ يدخل إلى الرغامى هناك أشعارٌ تطرده نحو الأعلى، هذا هو السُعال والقَشَع، إذا دخل جسم إلى الرغامى هذه الأشعار تطرده نحو الأعلى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

هذه الكُلية التي يمرُّ بها الدم في اليوم خمس مرّات، خمس مرّات ويقطع فيها طريقاً طوله مئة كيلو متر، والكلية الواحدة فيها طاقةٌ لتصفية الدم تعادل عشرة أمثال حاجة الجسم، فأنت مزوّد بكليتين فيهما طاقة لتصفية البول تعادل عشرين حاجتك، هذا من اسم السلام، وأنت لا تدري، وكل عشرين ثانية نقطة بول تنزل من الكلية إلى مستودع، لو أنه لا يوجد مستودع أي إلى الخارج مباشرة لكان الإنسان يحتاج إلى فوط، فهناك مستودع، وعضلات قابضة، لو لم يكن هناك عضلات قابضة لاحتجنا إلى تنفيس للهواء وإلا فلا ينزل البول، فكِّر، عندما كان يقضي النبي الكريم حاجته كان يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الأَذَى وَعَافَانِي))

[سنن ابن ماجة: عَنْ " أَنَس بْن مَالِكٍ "]

مستودع يكفيك ثماني ساعات، أنت مسافر لاجتماع مهم، تلقي خطاباً، فالله ساترك، لو رأساً يخرج البول لكانت المشكلة كبيرة جداً.

المثانة والحالبان من الآيات الدالة على عظمته سبحانه:

هذه المثانة من آياته، والحالبان من آياته، وهذه العضلة إرادية، لو كانت عضلة غير إراديّة لوقع الإنسان في متاهة كبيرة جداً، وهي من أغرب عضلات الجسم، إراديّةٌ إلى حد، إذا البول ملأ المثانة وعاد إلى الكليتين تفتح لا إرادياً، دقِّق:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

عضلةٌ إراديَّةٌ إلى حدٍ ما، فالإنسان عندما يأكل، يتنفّس، يشرب يجب أن يفكر هذا صنع من ؟!!

(صُنْعَ اللّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: من آية " 88 ")

لو لاحظت مجسّماً بمحلات الألبسة الجاهزة تجد أن قاعدته ستين أو سبعين سنتيمتر لكي يقف هذا الإنسان الذي صنع من جبصين أو شمع، الإنسان يقف على قدمين لطيفتين، ما السر في ذلك ؟ جهاز في الأذن اسمه جهاز التوازن، وهو مكوّن من ثلاث قنوات فيها أشعار، فيها سائل، الإنسان عندما يميل يتنبّه فيعيد توازنه، لولا هذا الجهاز في الأذن لما أمكن الإنسان أن يركب دراجة إطلاقاً، لو كان وزن القدمين عشرين كيلو، وعرضها مئة وأربعون سنتيمتر، صار المشي أشغالاً شاقّة، أما ربنا عزّ وجل جعل للإنسان قدمين لطيفتين وزنهما خفيف بفضل جهاز التوازن، والدليل هل بإمكانك أن تجعل ميّتاً يقف على قدميه ؟ يموت فيقع لأن هذا الجهاز تعطّل، وأنت أساسك من تراب:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

العين والأذن من إبداع الله عزّ وجل:

هذه العين فيها العجب العُجاب، القرنية، هذه الطبقة الشفّافة شفافية تامّة، كيف تتغذّى ؟ تتغذّى بالحلول، أي أن الشريان يأتي إلى الطرف يعطي الخليّة غذاءها وغذاء جارتها، ينتقل الغذاء من خليّة إلى خليّة من أجل ضمان شفافيّة الرؤية، هذا من إبداع الله عزّ وجل، لو لم تكن هذه الخاصّة موجودة ـ خاصّة الحلول ـ لرأيت نفسك تنظر من وراء شبكة بالضبط، سيكون هناك شبكة من الأوردة والشرايين وترى من خلال شبكة، لكن ربنا عزّ وجل جعل هذه القرنية شفّافة، وجعل وراءها القُزحيّة، ووراءها جسم بلوري، وخلط زجاجي، وجعل في الشبكيّة مئة وثلاثين مليون عصيّة ومخروط، وجعل عصباً مكوناً من تسعمئة ألف عصب ينتقل إلى الدماغ، ولو جئت بلونٍ أخضر ودرّجته ثمانمئة ألف درجة فالعين البشريّة ترى الفرق بين درجتين، تجد الناظر يقول: هذه أغمق، هذه أفتح، لو دَرّجت اللون ثمانمئة ألف درجة فالعين ترى الفرق بين درجتين.

الأذن فيها غشاء الطبل، والاهتزاز، والمطرقة، والسندان، نحن لا يوجد لدينا إلا جهاز تكبير، أما الأذن فيها جهاز بالغ الدقّة، الصوت الضخم يخَفِّفه والضعيف يكبّره بآنٍ واحد وأنت لا تدري، بشكلٍ لا شعوري الصوت العالي يخفِّضه هذا الجهاز، والمنخفض يضخِّمه، ولا يزال موضوع السمع شيئاً مُلْغِزاً في علم الطب، الإنسان كيف يسمع النغم ويطرب له، وكيف يسمع الضجيج فينزعج منه ؟ ما الفرق بين الضجيج وبين النغم ؟ هذا من ألغاز العلم حتى الآن:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

الغدة النخامية والطحال والكبد من الآيات الدالة أيضاً على عظمة الله تعالى:

الغدّة النخاميّة الصغيرة في الدماغ ملكة الجهاز الهرموني، ملكة، كل الغدد تأتمر بأمرها، الإنسان إذا رأى أفعى في بستان يرى الأفعى فتنطبع صورتها على الشبكيّة، تنتقل للدماغ، الدماغ يأمر هذه الغدّة النخاميّة بالتصرُّف، هذه الغدّة تعطي أمراً هرمونياً إلى الكظرين فوق الكليتين، الكظران يعطيان أربعة أوامر ؛ أمر للأوعية بالتضيُّق، فيصفر لون الخائف، أمر للقلب بالتسرُّع، أمر للرئتين بازدياد الخَفَقَان، وأمر للكبد لطرح كميّة من السكر زائدة، وأنت لا تدري، أنت من تراب، فما هذه التعقيدات البالغة ؟ الطحال مقبرة لكريات الدم الحمراء، والطحال معمل دم احتياط، لو قُصِفَت معامل الدم، هناك معامل دم أخرى جاهزة للصناعة، فالطُحال معمل للدم احتياط، والطحال مقبرة، والطحال مستودع، مستودعٌ لكريات الدم الحمراء، ومعملٌ احتياطي، ومقبرةٌ تتحلّل بها هذه الكريات وأنت لا تدري.

الكبد، الكبد يقوم بخمسة آلاف وظيفة، والكبد بإمكانه أن يعيد بناء نفسه في ستة عشر أسبوعاً، لو جاء الجرّاح وقطع بالمشرط أربعة أخماس الكبد وبقي الخُمس، الكبد يعيد بناء ذاته في ستة عشرَ أسبوعاً، أسرع الخلايا في الإنسان في نموها خلايا الكبد، وأنت لا تدري، الكبد يقوم بخمسة آلاف وظيفة، الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات، وتَشَمُّع الكبد أخطر مرضٍ في الإنسان أساسه الخمر، شرب الخمر يؤدي إلى تشمُّع الكبد، أي تَعَطُّل وظائفه.

البنكرياس والطحال والكبد والصفراء كلها لها وظائف خطيرة في الإنسان:

أيها الأخوة هذه عناوين، أنا أعطيكم عناوين، كل موضوع يحتاج إلى خمس سنوات دراسة، خمس سنوات كتب ومراجع كي تختص بأمراض الكبد، أو أمراض الغدد.

هذه الغدّة الدرقيّة فيها شيء عجيب، فيها الدَرَقِين الذي يعين على الاستقلاب، والاستقلاب تحوُّل الغذاء إلى طاقة، إذا كانت هذه الغدّة نشيطة يصبح الإنسان كله نشيطاً، كل شيء يأكله يُصبح طاقة، إذا ضعفت هذه الغدّة يصبح خامل الجسم يميل للراحة، إذاً يذهب جزء من غذائه إلى التخزين فيزداد وزنه، الغدد دقيقة جداً، بالمعايير، مفرزات الغدّة النخاميّة تُنَشِّط الغدّة الدرقيّة، مفرزات الدرقيّة تثبّط الغدّة النخاميّة، في توازن دقيق.

البنكرياس، أنت تحرق السُكّر في درجة سبع وثلاثين، أحضر سكّر وضعه على كفّك لا يحترق إلا بدرجة مئة، ما المادّة التي تحرق السكّر في درجة منخفضة ؟ هي الأنسولين المفرز من البنكرياس،

فالذي يضعف بنكرياسه يصاب بمرض السكر، السكر هو سكر متراكم في الدم غير محترق، فلكي يحرقوا هذا السكر يحتاج إلى إبرة من الأنسولين، البنكرياس له وظيفة خطيرة في الإنسان، الطحال له وظيفة، الكبد له وظيفة، الصفراء لها وظيفة.

فإذا أحد الأشخاص استأصل الصفراء، لا يستطيع أن يأكل مواد دهنية، لأن الصفراء هي التي تفرز مادّتها فتذيب الدُهن وتهضمه، لئلا تتراكم في جسمه.

هذه عناوين موضوعات بين أيديكم، وأصلك من تراب:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

الحنجرة، هذا الدرس إلقاؤه بهذه الحنجرة، هي عبارة عن فتحة لها قُطر مُعَيَّن دقيق جداً، لو اتسعت قليلاً ذهب الصوت، ولو ضاقت لانحبس الصوت، وكل إنسان له نبرة لصوته، كانوا قديماً يظنون أن الإنسان له بصمة واحدة، الآن قزحيَّة عينه بصمة، لا يوجد إنسان بالخمسة آلاف مليون إنسان تشبه قُزحية عينه قزحيَّة عينٍ أخرى، أبداً، بصمته هويَّة، وقزحيَّة عينه هويَّة، ونبرة صوته هويَّة، وبلازما الدم هويَّة، والزمرة الدمويَّة هويَّة، والزمر النَسيجيَّة هويَّة، الله خلق الإنسان فرد، خلقه على صورته.

للإنسان حياة عقليّة وحياة نفسيّة وحياة اجتماعيّة:

أيها الأخوة الآية الكريمة تقول:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

هذه فيها معنى آخر، الطبع، فلان انطوائي، وآخر مُنْفَتِح، وثالث اجتماعي، ورابع انعزالي، وخامس حاد، وغيره هادئ، وآخر أنيق، أو أقل أناقة، هذا انفعالي وذاك عصبي المزاج، وغيره متشائم أو متفائل، وهذا سهل وذاك ممتنع، توجد طباع مختلفة، من صمَّم هذه الطباع ؟ الطباع علم قائم بذاته يُدَرَّس في الجامعات اسمه علم الطباع.

حتى بين الذكر والأنثى، طفلة صغيرة تأتي بوسادة وتجعلها ابنتها، وتربت على ظهرها، وتسكتُها، وتطعمها، أما الطفل يركب قضيباً وكأنه يمتطي حصاناً، فمن صمَّم هذا الطفل الصغير على طباع، وعلى أشكال، وعلى أخلاق، وعلى تصرُّفات تتناسب مع وظيفته ؟

(إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

تجد في سن الثامنة عشر الشاب يَخْشن صوته، تنمو عضلاته، ينمو شعره في أماكن معيَّنة، الفتاة لها ترتيب آخر، ينمو صدرها، فما هذا الترتيب ؟ هذا من تصميم الله عزّ وجل.

شيءٌ آخر: أنت في حياة نفسية تعيشها غير هذا الجسد، تحس بالخوف، تحس بالغضب، تحس بالرضى، تحس بالتشاؤم، تحس بالثورة، بالانفعال، أحياناً تهدأ، أحياناً ترجو، يمر على الإنسان مشاعر عديدة جداً، نحن درسنا في الجامعة ثلاثمئة مرض نفسي، أمراض، ومشاعر، وأحوال، أنت لك عالم قائم بذاته وهو عالم النفس، والآن يوجد علم نفس الشيوخ، وعلم نفس الصغار، علم نفس المَعوقين، هذه النفس غير الجسد، أحياناً الإنسان يفقد ثقته بنفسه فينعكس هذا بحبسة في اللسان، يتأتىء بسبب ضعف الثقة بنفسه، هناك أمراض عضويّة كثيرة جداً أسبابها نَفْسِيَّة، هناك شلل سببه نفسي وهو شعور بالذنب يُجَسَّد بشلل، لا يشفى إلا عندما ترجع ثقته بنفسه، فالنفس عالم قائم بذاته.

هناك حياة عقليّة، يوجد عندنا إدراك، وإحساس، ويقين، وتصوُّر، وتذكُّر، وتخيُّل، ومحاكمة، العقل عالم قائم بذاته، توجد حياة عقليّة للإنسان، وحياة نفسيَّة، وحياة اجتماعيَّة ؛ الإنسان يألف أخاه، الإنسان يأنس بزوجته أحياناً، بأهله، بأقربائه، أحياناً ينتقل من بلد إلى بلد ويدفع مئة ألف ليرى أمَّه، هذه حياة اجتماعيَّة، الله عزّ وجل ثبّتها بالإنسان.

تنوّع القدرات والمواهب والمشاعر والطباع من آيات الله الدالة على عظمته:

من ركّب هذا الإنسان بهذه الطريقة ؟ هناك حياة جسميَّة، حياة عقليّة، حياة نفسيَّة، حياة اجتماعيَّة، ربنا قال:

(إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

هذا مهندس، هذا طبيب، هذا محام، هذا مدرّس، هذا بنّاء، هذا طيّان، هذا دهّان، هذا كهربائي، هذا محاسب، هذا فنّان، هذا خطّاط، هذا رسّام، هذا موسيقي، هذا محتال، هذا منحرف، أنواع منوّعة، ملكات وقدرات، هذا عنده قوة إقناع، هذا عنده قوة تأثير، هذا عنده قوة جذب، هذا عنده قدرة في الذاكرة كبيرة جداً، يسمع الاسم فيحفظه من أول مرة، هذا ذاكرته أرقام، هذا ذاكرته وجوه، هذا ذاكرته صور.

(إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

راقب الناس، فلان عنده بيت أنيق جداً كل يعتني به، وآخر بيته لا ينتظم لأنه مهتم بشيء ثان، شخص آخر مهتم بالتُحَف، واهتمام الآخر بالمال، فلان مهتم بالعلاقات الاجتماعيَّة، وغيره مهتم بالمناصب، اهتمامات:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(1)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(2)وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى(3)إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(4))

(سورة الليل)

من صمَّم هذا التصميم ؟ يوجد في الشام خطاطين ثلاثة أو أربعة أو خمسة، لو كان فيها مليون خطّاط لماتوا كلهم من الجوع، كل مهنة تجد أنها تتناسب مع حاجة البلد، هذه المهن الراقية، هذه المهارات الفنيَّة، هذا النبوغ، تجده متوازناً مع حاجة كل منطقة.

الله تعالى أعطى الإنسان عقلاً وألهمه:

قال تعالى:

(ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

أنت فكِّر بالحياة العقليَّة للإنسان، وبالحياة الاجتماعيَّة، بالحياة النفسيَّة، بتنوّع القدرات، بتنوُّع المواهب، بتنوُّع المشاعر، فكِّر بالطباع ؛ من صمَّم هذا التصميم ؟!! وكله من تراب، أليست هذه آيةً دالّةً على عظمة الله عزّ وجل، هذه الآية يمكن أن تكون موضوعاً لأفكار شتّى وكثيرة في كل يوم، فالإنسان لا يمر على الآيات مرور الكرام، فأي شيء فعله يقف عنده.

(وَمِنْ آيَاتِهِ (20))

هذه الـ(من) للتبعيض، أي من بعض آياته:

(أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

معنى من تراب، سيدنا آدم من تراب ثمّ نفخ فيه من روحه، خذ إنساناً ميّتاً ماذا يساوي ؟ هو مسمار حديد، وقليل من الكلس، ودهن قليل، الإنسان عبارة عن لوح صابون، وحوالي لترين كلس، وتقريباً مسمار من حديد، وسبعين بالمئة منه ماء، ثمنه كله خمس وعشرون ليرة إذا كان ميتاً، أما وهو حي مصلح عظيم، ونبي عظيم، سيدنا رسول الله قلب وجه الأرض، أساسه تراب، وقد تجد إنساناً ترك أثراً كبيراً جداً في العالَم لما حباه الله من ذكاء وعبقريَّة، ومثال ذلك اختراع الطائرة، تطير في الجو وفيها ثلاثمئة وخمسين راكباً، مكيَّفة، آكلين، مرتاحين على مقاعد وثيرة، هذا من آثار الدماغ، الله أعطى الإنسان عقلاً وألهمه.

التفكير عبادة وفريضة لأنه القناة الوحيدة لمعرفة الله:

قال تعالى:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

انظر للآلات الحديثة، وأنت جالس تتصل بآخر هاتفياً في اليابان، تسمعه وكأنه يجلس بجانبك، بجهاز التلكس الحديث، تضع أصبعك على الزر (M) فيصل إلى آخر الدنيا في الثانية نفسها، ما هذا ؟ هذه من آثار العقل الذي أكرمنا الله به، فالإنسان لا يمشي هكذا كالأنعام، الأنعام ماذا تفعل ؟ تأكل، وتشرب، وتتنعَّم، وليس هناك تفكير يهديها إلى خالقها.

إن شاء الله في درسٍ قادم نتابع هذه الآيات، هذه آيات دقيقة جداً وموضوعات، عناوين لموضوعات كبيرة جداً، والتفكير عبادة وفريضة، وآياتٌ كثيرةٌ تأمركم أن تفكِّروا، ولن تتعرَّفوا إلى الله إلا من خلال التفكير، فهو القناة الوحيدة لمعرفة الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (05-14): تفسير الآية 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-02-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الخامس من سورة الروم.

نظام الزوجية من آيات الله الكبرى:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(21))

(سورة الروم)

أيها الأخوة لا بدَّ من مقدمةٍ لمثل هذه الآيات، من أجل أن تسعد في الدنيا والآخرة لا بدَّ من أن تعبد الله، ومن أجل أن تعبده لا بدَّ من أن تعرفه، ومن أجل أن تعرفه لا بدَّ من أن تُفَكِّرَ في آياته، لو أردت معرفة إنسان يمكن أن تلتقي به، وتحدِّثه، وترى صورته، وتقرأ كتابه ؛ ولكنك إذا أردت أن تعرف خالق الكون، ليس من طريقٍ إلى معرفته إلا الطريق الاستدلالي، لأن الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ولكن يُعْرَفُ بالعقل، والله سبحانه وتعالى خلق العقل على مبادئ متوافقةٍ مع مبادئ خلق الكون، فإذا أعمل الإنسان عقله في الكون عرف رب الكون، والذي يؤكد هذا الكلام أن الله عزّ وجل في هذه السورة يذكر آياته العديدة:

(وَمِنْ آيَاتِهِ (21))

الشيء الآخر، أن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، وهناك مستحيل الوجود، أي مستحيلٌ أن يكون الجزء أكبر من الكل، هذا مستحيل عقلاً، والله سبحانه وتعالى واجب الوجود عقلاً، ما سوى المستحيل والواجب هناك الممكن، فالكون كله ممكن، ممكن أن يوجد وأن لا يوجد، أو أن يوجد على هذه الشاكلة أو على شاكلةٍ أخرى، إذاً كان من الممكن أن يَخْلُقَ الله الناس كلهم دفعةً واحدة، دون نظام الزوجية، دون ذكر وأنثى، دون إنجاب أولاد، البشر كلهم يُخْلَقون دفعةً واحدة، ولكن شاءت حكمة الله عزّ وجل أن نوجد في الأرض تِباعاً على نظام الزوجية، يبدو أن نظام الزوجية آيةٌ كبرى من آياته جلّ جلاله.

الطريق الاستدلالي هو الطريق الوحيد لمعرفة الخالق:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ (21))

الحقيقة مقدمة ثالثة وهي: أن الآيات كثيرة، بعضها قريب وبعضها بعيد، أقرب الآيات إليك نفسك التي بين جَنْبَيْكَ، لهذا ربنا عزّ وجل يقول:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت: من آية " 53 ")

أول فكرة من مقدمات الدرس: لا بدّ من أجل أن تسعد في الدنيا والآخرة من أن تعبد الله عزّ وجل، والعبادة بنص القرآن الكريم خُلِقْنَا من أجلها.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِي(56))

(سورة الذاريات)

العبادة طاعةٌ طوعيةٌ ممزوجة بمحبة قلبية تسبقها معرفةٌ يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية، هذه السعادة أساسها الطاعة مع المحبة، وهذه الطاعة مع المحبة أساسها المعرفة، معرفة الله عزّ وجل لا بدّ إلا أن تكون عبر قناةٍ واحدة، هي القناة الاستدلالية عن طريق العقل، لكن هذه القناة واسعة جداً، فالطريق إلى الله عزّ وجل، إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنـه واحـد

***

الآيات على أنواع منها ما هو قريب ومنها ما هو بعيد:

أي شيءٍ نظرت إليه يدلك على الله، إلا أن الآيات على أنواع ؛ منها ما هو قريب ومنها ما هو بعيد، فلو حدثتك عن مجرةٍ بعدها عن الأرض كذا ألف سنة ضوئية، وحجمها كذا، وقوامها كذا، وكثافتها كذا هذه آية، ولكن إذا حدثتك عن نفسك التي بين جنبيك، وعن جسدك، وعن أعضائك، هذه آيةٌ قريبةٌ جداً.

الفكرة الثالثة: كان من الممكن أن نأتي دفعةً واحدة، بلا نظام الزوجية، بلا ذكرٍ وأنثى، لأن الكون كله ممكن، ولكن شاءت حكمة الله عزّ وجل أن نأتي على نظامٍ صَمَّمَهُ الله عزّ وجل وهو نظام الزوجية، أن يكون البشر ذكراً وأنثى، وأن يقترنوا، وأن ينجبوا الأطفال، وأن تنمو المجتمعات، وأن يكون الإنسان مفتقراً إلى الطعام لبقاء جسده، ومفتقراً إلى الزوجة لبقاء نوعه، ومفتقراً إلى العمل الصالح لبقاء ذكره، لا بدّ من أن يبقى جسدك إذاً تأكل وتشرب، وأن يبقى نوع البشر إذاً لا بدّ من التزاوج، وأن تبقى سعيداً

في جنةٍ عرضُها السماوات والأرض إذاً لا بدّ من العمل الصالح، فإذا أكلت فلبقاء جسدك، وإذا تزوّجت فلبقاء نوعك، وإذا عرفت الله عزّ وجل وأطعته وعملت الصالحات فلبقاء ذكرك إلى الأبد في جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

الآن آية اليوم:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(21))

(من) هذه من أدوات اللغة العربية، حرف جَر، لكن لهذا الحرف معانٍ عِدَّة، فمن للتبعيض، ومن للبيان، ومن لابتداء الغاية، هنا (من) بعض آياته، أي أن آياته ليست عشرة وهذه واحدة منها، آياته لا تعد ولا تحصى، آيات كلمة جمع.

(وَمِنْ آيَاتِهِ (21))

الآيات جمع آية، والآية معناها العلامة، الله عزّ وجل لا تدركه الأبصار، ولكن مما يدلُ على وجوده، مما يدل على علمه، مما يدل على قُدرته، مما يدل على حكمته، مما يدل على رحمته، مما يدل على لطفه أن خلق لكم، فمن للتبعيض، والآيات جمع آية، والآية هي العلامة الدالة على الشيء.

للآية التالية عدة معان:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (21))

المعنى الأول: أن السيدة حواء أم البشر خلقت من ضلع آدم عليه السلام، هذا هو المعنى الأول، فما من شيءٍ أقرب إليك من ابنك لماذا ؟ لأنه منك مثلاً، أقرب كائن إليك هو ابنك لأنه منك، كان جزءاً منك، ما من مخلوقٍ أقرب إلى المرأة من ابنها لأنه جزءٌ من جسمها انفصل عنها بالولادة، جزءٌ منها، فإذا أردنا أن نعبر عن شدة التناسب، وشدة الالتصاق، وشدة الانسجام لا بدّ من أن نستعمل كلمة (من)، من أنفسكم، هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: أن ماء الحياة الذي أودعه الله في الإنسان منه يتشَكّلُ الذكر والأنثى، والآية تقول:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

إذاً هذه المرأة هي من الرجل، بالتعبير العلمي من مائه، وماؤه إما أن يتشكل تشكلاً على شكل أنثى أو على شكل ذكر.

أما المعنى الأوسع والأقرب إلى معنى هذه الآية: أن الله عزّ وجل كما خلق لك فكراً خلق لزوجتك فكراً، كما خلق لك قلباً ينبض بالأحاسيس خلق لها قلباً ينبض بالأحاسيس، كما خلق لك عيناً ترى بها جمال الأشياء خلق لها عيناً أيضاً ترى بها جمال الأشياء، فلو جئت بذكرٍ وأنثى لرأيت الأعضاء إلى حدٍ ما والأجهزة ؛ السمع، البصر، الشم، النُطق، اللسان، الفكر، الأيدي، الأرجل، الحركات، من مخلوقٍ واحد في الأساس فبين الذكر والأنثى نقاط تشابه كثيرة جداً هي سبب الانسجام، وفي نقاط تكامل هي سبب الانسجام، إذا التقت النقاط المتشابهة بين الذكر والأنثى كان هذا سبيلاً إلى الانسجام بينهما.

هناك انسجام وتكامل بين بُنية جسم المرأة والرجل:

إذا تكاملت الصفات بينهما ؛ هو مفتول العضلات وهي ذات خطوطٍ أخرى، هو يغلب عقله على عاطفته وهي تغلب عاطفتها على عقلها، هو يدرك الأشياء البعيدة وهي تعيش لوقتها، هناك نقاط لقاء بين الزوجين الذكر والأنثى ونقاط خلاف، لكن نقاط الخلاف هذه متكاملة، أي أن كل طرفٍ منهما مفتقرٌ إلى ما عند الثاني ويكمل نفسه بالطرف الآخر، والطرف الآخر مفتقرٌ إلى ما عند الأول ويكمل نفسه بالطرف الآخر، فصفات المرأة والرجل إما هناك انسجام، خمسة أصابع، عينان، أذنان وغير ذلك، أو هناك تكامل بين بُنية جسم المرأة والرجل، إذاً هذا معنى قوله تعالى:

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ (21))

لو أن الإنسان ينجب طفلاً من مخلوقٍ آخر ليس من بني البشر، مثلاً هل هذا ممكن ؟ يقول لك الآن: طفل أنابيب، هي عملية نقل الماء إلى رحم المرأة، يقول لك: عقل إلكتروني هذا حاسب، آلة حاسبة معقدة جداً، أما أن تقول: عقل، فلا توجد محاكمة، إذاً معنى:

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ (21))

أي أن المرأة مشابهةٌ للرجل، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إنّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرّجَالِ))

[من سنن الترمذي: عن "عائشة"]

الصفات إما متوافقة أو متكاملة بين الزوجين وهذا أدعى إلى الانسجام والسكنى:

الشيء المختلف متكامل، إما أن هناك صفات متوافقة، أو صفات متكاملة، وهذا أدعى إلى الانسجام، وإلى السكنى، وإلى الأنس، وإلى ما سيذكره الله عزّ وجل في هذه الآية:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا (21))

الحقيقة ربنا عزّ وجل يَخْلِقُ عند الإنسان حاجة ثم تلبى هذه الحاجة في جهةٍ ما، نحن لا نشعر، فالإنسان يأنس بزوجته ولكن من خلق في نفسك نقصاً وافتقاراً إلى الجنس الآخر ؟ الله سبحانه وتعالى، ومن خلق فيها نقصاً وافتقاراً إلى الجنس الآخر ؟ الله سبحانه وتعالى، إذاً معنى السكنى، هناك فرق بين أن تسكن فيه وتسكن إليه، أنا أسكن في هذا البيت، (في) للظرفية، أسكن فيه، أما أسكن إليه، للأشياء المعنوية، فالإنسان إذا كان في بيته ومع أهله وأولاده يشعر بالطمأنينة، يشعر بالراحة، لو سافر إلى مكانٍ بعيد ومعه أهله وأولاده يطمئن، هذا سر، النبي عليه الصلاة والسلام يقول: المرء حيث أهله، والمرء حيث رحله.

الإنسان معلق بشيئين ـ طبعاً الإنسان العادي ـ معلق بأهله وماله، المرء حيث أهله، والمرء حيث رحله، إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا (21))

أي أن نعم الله كثيرة، نعم الهواء، ونعم الماء، ونعم الصحة والأعضاء، ومن هذه النعم الجليلة أن الله سبحانه وتعالى خلق فيك هذا النَقْصَ الذي لا تتممه إلا المرأة، وخلق فيك هذا الافتقار الذي لا يسكنه إلا المرأة، لو أن الآية: أن الرجل عنده افتقارٌ إلى الجنس الآخر، والجنس الآخر ليس عنده افتقارٌ إلى الرجل، الحياة لا تقوم، الحياة تفسُد، تصبح الحياة شقاءً، لولا أن الله عزّ وجل جعل في كل طرفٍ فراغاً وافتقاراً وحاجةً إلى الطرف الآخر لما رأيت زوجين على وجه الأرض، هذه النقطة قَلّمَا ينتبه إليها الناس، كل طرفٍ فيه نقصٌ وافتقارٌ وحاجةٌ إلى الطرف الآخر، والطرف الآخر فيه نقصٌ وافتقارٌ وحاجةٌ إلى الطرف الآخر، فإذا التقيا كان الانسجام وكانت السكنى، سكن إليه غير سكن عنده وغير سكن فيه، سكن إليه أي ارتاح إليه، لهذا النبي عليه الصلاة والسلام أمر الخُطّاب أن ينظروا إلى مخطوباتهم قال:

((انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا))

[من سنن الترمذي: عن " المغيرة بن شعبة"]

يجب أن تنظر إليها كي يتم هذا الانسجام وتتحقق هذه الرغبة.

(لتسكنوا إليها) هذه آية لكنها جُزء من مجموعة آيات:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

الحقيقة (لتسكنوا إليها) هذه آية ؛ لكن هذه الآية جُزء من مجموعة آيات، فأن تطبقها وحدها قد لا تنجح فيها، يتممها آية ثانية:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

لو الإنسان قرأ هذه الآية وحدها لقال لك: التي عندي لا تعجبني، لا أرتاح لها، مثلاً لم أحسن اختيارها، يقول لك: والله أنا لا أسكن إليها، نقول له: القرآن جُمْلَةٌ من الأحكام والأوامر والنواهي، لا يمكن أن تأخذ آيةً وحدها بمعزل عن بقية الآيات، الله عزّ وجل أمرك أن تغض بصرك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

إذا نفذت الآية الثانية ترى أن هذه الآية حقيقة فعلاً، الله عزّ وجل مكافأةً لمن يغض بصره عن محارم الله يلقي في قلبه حب زوجته، يراها أجمل النساء، يرتاح إليها، يسكن إليها، هذه الآية من لوازمها الآية الثانية، وربنا عزّ وجل وصف القرآن الكريم بأنه مثانيَ، أي أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسرها، فمن أجل أن تكون الزوجة سكناً كما أراد الله عزّ وجل، يجب أن تطبق الآية الثانية:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

وأطهر.

طاعة الله تخلق مودة بينك وبين أهلك:

الشيء الثاني أن الله عزّ وجل يقول:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

معنى جعل بمعنى خلق، أوضح هذه الآية بالقصة التالية: أعرف رجلاً مقيماً في بلد عربي، يأتي كل عام شهراً إلى بلده الشام، ويحاول أن يخطب فتاةً يحبها وتعجبه، أول عام ما وفِّقَ إلى فتاةٍ تعجبه، أمضى شهراً وعاد بخفي حُنَين، وعاد في السنة الثانية، والثالثة، الشيء الدقيق أنه في السنة الرابعة أو الخامسة لا أذكر، بقي الأسبوع الأول والثاني والثالث ودخل الرابع وبقي لمغادرة بلده أيامٌ عدة، إذا هو يُدَلُّ على فتاةٍ مناسبةٍ جداً له، وبالطبع خطبها أهله له، رآها أُعْجِبَ بها في اليوم الأول، عقد القران في اليوم الثاني وسافر في اليوم الثالث، الذي يلفت النظر أن هذه الفتاة وهي في المطار تودِّع زوجها الذي لم يمض على عقد قرانهما إلا أربعٌ وعشرون ساعة بكت بكاءً مراً في المطار.

قلت في نفسي: إذا كنت أنت في المطار لحاجةٍ ما، ورأيت إنسان يحمل محفظته ويتَّجه نحو الطائرة، هل بإمكانك أن تبكي، البكاء ليس باليد، أما هذه الفتاة بعد أربع وعشرين ساعة تبكي بكاءً مراً لأن الذي خطبها البارحة اليوم مسافر، هذا من خلق الله.

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

الإنسان حينما يرى مودةً بينه وبين أهله، أو حينما ترى المرأة مودةً بينها وبين زوجها، هذه المودة من خَلْق الله عزّ وجل، لا تجلبها الأموال الطائلة، ولا البيت الواسع، ولا القوام، ولا الشكل، ولا الجمال ؛ ولكن يخلقها الله عزّ وجل، فإذا كنت مطيعاً لله عزّ وجل، الله جلّ وعلا يخلق هذه المودة بينك وبين أهلك، أما لو لم تكن مطيعاً لله، لو وفّرْتَ كل شيء، وفرت الأموال الطائلة، وفرت البيوت الفاخرة، وفرت المركبة الفارهة، سخرت كل علم النفس من أجل أن يميل أهلك إليك، لن تستطيع أن تحدث هذه النتيجة.

الحب حالة نفسية تمثل بالمودّة التي تعبّر عنها:

قال تعالى:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

ما هي المودة ؟ في رأي بعض المفسرين: المودة أثر من آثار الحُب، إن كان هناك حبٌ بين الزوجين تجسَّدَ هذا الحب بالمودة، السيدة عائشة رضي الله عنها، كانت تسأل النبي عليه الصلاة والسلام: كيف حبك لي ؟ فيجيبها ويقول: " كعقدة الحبل "، أي حب متين، لا ينفك، لا يفتر.

ملاحظة أخرى من ملاحظات الإيمان، الزوجان المؤمنان ينمو حبهما نماءً مُتَّسِقًا مع الأيام، أما زواج أهل الدنيا قد يبدأ بحبٍ جارف وقد يفتر هذا الحب إلى أن يقع الخلاف، والشقاق، والجفاء، والبُغْض، إلى أن يقع السُباب والشتائم، إلى أن يقع الكيد، إلى أن ينتهي بالطلاق، لذلك الزواج الذي يُبْنَى على طاعة الله عزّ وجل يتولى الله التوفيق بين الزوجين، ويخلق الله بحكمته البالغة هذا الحب بين الزوجين، إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا (21))

السُكْنَى هنا إذاً وجود افتقار عند كل طرف ونقص وحاجة يملؤهُ الطرف الثاني، ولو أن هذا الأمر بقي عل شكل طرفٍ واحد، لأصبحت الحياة تعيسةً جداً، ولكن كِلا الطرفين مفتقرٌ إلى الآخر، أنا حينما أكون في بعض عقود القِران أدعو بهذا الدعاء: اللهم اجعل كلاً منهما قرة عينٍ للآخر، أي أن يكون الزوج قرة عينٍ لزوجته، وأن تكون الزوجة قرة عينٍ لزوجها، أن يرتاح الإنسان مع أهله، وسر هذا التوفيق هو طاعة الله عزّ وجل، غض البصر يؤدِّي إلى هذا الحب، وهذا الحب يُجَسَّد بماذا ؟ بالمودة، الكلمة اللطيفة، اللفتة اللطيفة، الإكرام، الإطعام، إدخال السرور، الثناء، الشكر، هذه كلها مودة أساسها

الحب، والكلمة القاسية، واللفتة القاسية، والعبارة القاسية، والاشمئزاز، والبُعْد، هذا جفاء أساسه البُغض، البغض حالة نفسية تمثل بالجفوة الخارجية، والحب حالة نفسية تمثل بالمودّة التي تعبّر عنها.

الله تعالى خلق المودة والرحمة معاً في قلب الإنسان:

إذاً معنى مودة كما جاء في بعض التفاسير: ما يجسد الحب الذي يقع بين الزوجين، وهذا من آيات الله عزّ وجل. سُئل النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَن أعظم الرجال حقاً على المرأة ؟ قال: زوجها))

[الجامع الصغير عن "عائشة " بسند فيه ضعف]

الفتاة قبل الزواج انتماؤها، وولاؤها، وحبُّها، واعتزازها بأبيها، فإذا جاء الزوج، ولاؤها، وحبها، وانتماؤها، واعتزازها، واهتمامها، لزوجها، بين عشيةٍ أو ضحاها، وهذا من سِرّ الله عزّ وجل في خلقه.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً (21))

فقط مودة، فإذا كبرت سنها انصرف عنها، فإذا مرضت مرضاً يمنعه من أن يسكن إليها انصرف عنها، لا، فربنا عزّ وجل قال:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

لو أنها مرضت، لو أنها كبرت، يخلق الله في قلب الرجل إلى جانب المودة الرحمة، الرحمة أن تبادر إلى مَسْح الجراح، إلى مسح الألم، إلى إنقاذ الإنسان من ورطة، أي أنها مشاعر داخلية لا تحتمل رؤية الشقاء البشري، الطفل الجائع، أو زوجة متألمة جداً، الرجل بحسب الآية يجب أن يبادر إلى معالجتها، إلى إكرامها، وكذلك المرأة، إذاً كلام ربنا دقيق جداً، ليست قضية مودة ورحمة، هذه مترادفات، لا، ليست مترادفات، كلام خالق الكون موزون وزناً دقيقاً جداً.

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

المودة إن كانت في صحةٍ طيبة، وإن كانت في أبهى زينة، وإن كان زوجها قوياً، غنياً، مقتدراً، بينهما المودة، المودة تعبيرٌ عما بينهما من حبٍ أودعه الله في قلبيهما بناءً على طاعتهما لله عزّ وجل ؛ لكن هناك أعراض، هناك أمراض، هناك كِبَر، هناك عاهات، هناك أمراض عُضالة، هناك مُشكلات، لو أن الله عزّ وجل خلق المودة فقط هذه لا تكفي في بعض الحالات، خلق المودة والرحمة معاً.

نصيحة أم لابنتها قبل زواجها:

له منظر لا يحتمل، في قلب الأم رحمة، فتسعى إلى معالجته، وتطبيبه:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(21))

كما أن الشمس والقمر آيتان، كما أن الليل والنهار آيتان، كما أن منامكم بالليل والنهار آيتان، كما أن البَرْقَ والرَعْدَ آياتٌ من آيات الله عزّ وجل، كما أن تقوم السماء والأرض بأمره:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

امرأة نصحت ابنتها، قالت: **" يا بنيتي إن الوصية لو تركت لفضل أدبٍ تركت لذلك منك، ولكنها تذكرةٌ للغافل ومعونةٌ للعاقل، ولو أن المرأة استغنت عن الزوج لغِنَى أبويها، أو لشدة حاجتهما إليها لكنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ ولهن خلق الرجال ".**

تقول لها: **" أي بنيتي إنك فارقت العش التي فيه درجت، وخلّفت البيت الذي فيه نشأت، إلى وكرٍ لا تعرفيه وقرينٍ لا تألفيه، فاصبح بملكه عليكِ قريباً ومليكاً، أي بنيتي كوني له أمةً يكن لكِ عبداً وشيكاً، خُذي عني عشر خصال تكن لكِ ذخراً وأجراً ؛ الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتفقُّدُ لموضع أنفه، والتعهُّد لموضع عينه، فلا تقع عينه منكِ على قبيح، ولا يشم منكِ إلا أطيب ريح، والكُحل أحسن الحُسْنِ والماء أطيب الطيب المفقود ".**

ذم الزوج أمام الأهل والجيران منافٍ للإسلام:

النظافة وحدها تقرّب النفوس فيما بينها لأن الإنسان ثبت أن لجلده رائحةً عطرة، فلو نظّفْتَ الجلد له رائحةٌ ذاتية تغنيه عن دفع الأموال الطائلة لشراء الروائح الطيبة، والكحل أحسن الحسن والماء أطيب الطيب المفقود. ثم تقول هذه الأم لابنتها:

" وإيّاكِ والترح إن كان فرحاً والفرح إن كان تَرحَاً، فإن الأولى من التقصير والثانية من التكدير، وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً يَكُن أشد ما يكون لكِ إكراماً، وكوني أشد ما تكونين له موافقةً، يكن أطول ما يكون لكِ مرافقةً، واعلمي أنه لن تصلي إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت، والله يُخَيِّرُ لكِ ".

أي أن الإسلام لا ينفصل، نظام متكامل، فبيتك ؛ هذا البيت يجب أن يكون إسلامياً، يجب أن تأتي مواصفاته كما جاء في القرآن الكريم وإلا لست مؤمناً، مستحيل، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

أية امرأةٍ تَذُمُّ زوجها بين أهلها، وبين صديقاتها، وبين جيرانها هذه امرأةٌ ليست مؤمنةً بالمعنى الذي جاء في هذه الآية، أين المودة ؟ إنني أكره المرأة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إنني أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها))

[ورد في الأثر]

وقال:

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

[مسند أحمد: عَنْ " ثَوْبَانَ "]

كل شيء خلقه الله له وظيفتان وظيفة نفعية ووظيفة استدلالية:

إذاً هكذا الزواج وهكذا البيت المسلم، مودةٌ أساسها الحب وحبٌ أساسه الطاعة، تطيع الله عزّ وجل فيخلق الله عزّ وجل بينك وبين أهلك الحب، الحب يظهر على شكل مودّة إن كان هناك مشكلة ؛ مرض لا سمح الله، عَجْز، شيء طارئ، شيء يحول بينك وبين أن تكون المودة فهناك الرحمة، إما أن تكون ودوداً، وإما أن تكون رحيماً، لأن الله عزّ وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

(سورة النحل: من آية " 90 ")

إن لم يسعك العدل، يسعك الإحسان:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21))

زواجك آية من آيات الله، يجب أن تتأمل فيها، يجب أن تفكر أن الله عزّ وجل كل شيء خلقه له وظيفتان، هذه الفكرة أقولها كثيراً، الزوجة لها وظيفة، لها وظيفة أنك تسكن إليها، وبينك وبينها مودةً ورحمة، تنجب لك الأولاد، وتعينك على أمر دينك وعلى أمر دنياك، انتهت وظيفتها ؟ لا والله، بقيت وظيفتها الأهم، أن هذه الزوجة دليلٌ لك على الله عزّ وجل، لأنها من آياته، إذاً أي شيء الله عزّ وجل خلقه له وظيفة نفعية، وله وظيفة استدلالية، بها تعرف الله، وبها تشكره، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: من آية " 147 "]

رد الفعل على نِعَم الله نوعان شكرٌ ومعرفة، بما أن الكون ومن ضمن الكون الزوجة، بما أن الكون قد سُخِّرَ لهذا الإنسان تسخير تعريفٍ وتكريم، رد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت فقد حققت الهدف من وجودك، إذا آمنت وشكرت، أن تؤمن بالله وأن تشكره، إن كنت كذلك:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

الاختلاط يفسد العلاقات الزوجية:

الآن كل ما قيل في شأن الزوجة لو عُكِسَت الآية فالمعنى صحيح، أيَّةُ زوجةٍ ومن آيات الله لها أن هذا الزوج مخلوقٌ من طبيعةٍ مشابهةٍ لها، من آيات الله الدالة على عظمته لها أن بينهما مودةً ورحمة، فليست الآية خاصة بالرجال، بالمناسبة كلمة زوج تعني الزوج والزوجة، وزوج جَمْعُها أزواج والأزواج هم النساء، إذاً ما قيل من نعمٍ ساقها الله لهذا الرجل من خلال المرأة، المعاني كلها يمكن أن تقال للمرأة من خلال الرجل.

أيها الأخوة الأكارم الفكرة الأساسية في الدرس، أن الله عزّ وجل يصف الزواج بهذه الصفات ؛ هي سكن، وبينهما مودةٌ ورحمة، والزواج آية، فكل إنسان يتفحَّص علاقاته الداخلية، إن كانت كذلك فهذه بشارة، وإن لم تكن كذلك فعليه أن يبحث عن الخَلَل، هل هناك إطلاقٌ للبصر، هل هناك معصيةٌ تستوجب أن تكون البغضاء والشحناء بين الزوجين ؟ هل هناك مخالفةٌ من قبل الزوجة أو الزوج يقتضي أن يصبح البيت جَحيماً ؟ النبي الكريم يقول لامرأةٍ:

((فَانْظُري أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ))

[مسند أحمد: عَن " الحُصَيْن بْن مِحْصَن"]

الزوج للزوجة جنتها أو نارها، وكذلك الزوجة للزوج، إما أن تسعده وإما أن تشقيه، الإنسان حينما يواجه مشكلة لا ينبغي أن يواجهها بسذاجة، واجهها في ضوء هذه الآية، لا بدَّ من خلل، ابحث عن الخلل، أي معصيةٍ في البيت، أية مخالفة ؛ في العلاقات، في الزيارات، في اللقاءات، إذا في اختلاط قد لا تكون المودة والرحمة بين الزوجين، الاختلاط يفسد العلاقات الزوجية كما يفسد الخل العسل، لأن الإنسان بشكل طبيعي وبديهي يحب الأكمل، فلو التقى مع امرأةٍ أجنبيةٍ يقول: هذه أخت زوجتي مثلاً، لا يوجد أحد غريب نحن أهل، ابنة حماك غير زوجتك، فإذا الإنسان سمح لنفسه أن يختلط مع نساء أجنبيات معه، رُبَّما أفسد هذا الاختلاط العلاقة الزوجية، عندئذٍ يقرأ الآية لا يراها منطبقة عليه، يقول لك: أنا لست سعيداً بزواجي، أنا شقي، لا أحب زوجتي، لا أراها كما ينبغي أن تكون، ليست ملء سمعي وبصري، لأنك مخالف.

توجيهات نبوية للأزواج:

الاختلاط يفسد العلاقات الزوجية، إطلاق البصر يفسد العلاقة الزوجية، الخروج عن السُنَّة في التعامل بين الزوجين يفسد العلاقة الزوجية، اقرأ السنة، اقرأ أبحاث الزواج، اقرأ آداب الزواج، هذا شرع، هذه

تعليمات الصانع، من أجل أن تنال هذا الوصف الدقيق أن تكون الزوجة سكناً للزوج، وأن تكون المودة والرحمة بينهما سائدةً ابحث عن التوجيهات النبوية، النبي الكريم يقول:

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ أي يعدل الجهاد في سبيل الله))

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان: عن "أسماء بنت يزيد الأنصارية"]

هذا توجيه نبوي لكل امرأةٍ ؛ خدمتها لزوجها، ولأولادها، وحسن إشرافها على أولادها، وحسن إدارتها للبيت، وأن تكون زوجةً صالحةً هذا يعدل الجهاد في سبيل الله، هذا التوجيه، توجيه الرجال:

((أكرموا النساء فو الله ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ابن عساكر: عن "علي" بسند فيه مقال كبير]

هذا توجيه الرجال، التوجيه الثاني:

((إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ إلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[من سنن ابن ماجة: عن " أبي هريرة "]

((من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا))

[الديلمي: عن " أبي سعيد"]

الذي يحجم عن الزواج لأسباب مادية ليس منا، ما عرف الله عزّ وجل، ما عرف أنه من حق المسلم على الله أن يعينه عند الزواج، ما شكا إليه رجلٌ ضيق ذات يده إلا قال له: اذهب فتزوج، إذاً يجب أن نأخذ بأقوال النبي الكريم.

التسامح و المعاشرة بالمعروف أساس الحياة الزوجية السعيدة:

يا ترى ما الذي يفسد العلاقة ؟ إذا دخلت على أهلك فسلِّم عليهن، سلم، تسامح، وعاشروهن بالمعروف، فليس المعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها بل أن تحتمل الأذى منها، وهي كذلك، فإذا طبق الزوج وطبقت الزوجة توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام سعدا سعادةً كبيرة.

((أيما امرأة خرجت من بيت زوجها بغير إذنه لعنها كل شيء طلعت عليه الشمس والقمر إلا أن يرضى عنها زوجها))

[الديلمى: عن "أنس"]

((إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً لِفِرَاشِ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلائِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ))

[سنن الدارمي: عَنْ " أَبِي هُرَيْرَةَ "]

((أيما امرأةٍ امتنعت عن زوجها تلعنها الملائكة حتى تصبح))

[ورد في الأثر]

((إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ))

[صحيح البخاري: عَنْ " أَبِي هُرَيْرَةَ "]

هذه هي توجيهات النبي الكريم، هناك توجيهات خاصة بالنساء، خاصة بالأزواج، فنحن يجب أن نعلم، هذه تعليمات الصانع، النهاية هذه الآية، إذا طَبَّقَ الأزواج والزوجات التعليمات النبوية يصبح الأزواج كما وصفهم الله عزّ وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(21))

الشيء الأخير أن كل شيءٍ خلقه الله لك له وظيفتان ؛ وظيفة نفعية ووظيفة استدلالية، فإذا انتفعت بالشيء يجب أن تشكر الله، وإذا كان هذا الشيء دليلاً لك على الله يجب أن تعرفه، فإذا كنت في طريق المعرفة والشكر أغلب الظن أن الله تعالى لا يعذبك.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (06-14): تفسير الآيات 22-24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-03-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس السادس من سورة الروم.

تعبير الله عز وجل عن الكون في القرآن بكلمة السماوات والأرض:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

(سورة الروم)

هذه الآيات التي تَرِدُ تِباعاً، والتي يبيّن الله تعالى فيها بعضاً من آياته، لأن (من) كما تعرفون للتبعيض:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا (21))

وقال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (22))

(سورة الروم)

وقال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

كلمة السماوات والأرض تعبيرٌ قرآني عن الكون، فنحن اليوم نستخدم مصطلح الكون، في القرآن عَبَّرَ الله عنه بكلمة السماوات والأرض، السؤال الأول هو: أن هذا الكون ما حجمه ؟ شيءٌ لا يعقل، فكلما مرت سنة أو سنتان اكتشفت مجرةٌ تبعد عنا عشرات بل مئات بل ألوف بل ألوف الملايين من السنوات الضوئية.

السماوات والأرض خلقت للإنسان بالدليل القطعي:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(47))

(سورة الذاريات)

معنى موسعون أي هذا الكون لا نهاية لاتساعه، أو يزداد اتساعاً، إما لا نهاية لاتساعه، كلما تقدم العلم اكتُشفت آفاقٌ جديدةٌ لم تكن معروفةٌ من قبل، أو أن هذا الكون يزداد اتساعاً قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(47))

(سورة الذاريات)

ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، مجرة اكتشفت حديثاً، لذلك يا ترى ما حجم الكون ؟ لا نهاية لحدوده، يا ترى ما عدد مجراته ؟ بعضهم يقول: مئتا ألف مجرة التي أُحصيت حتى الآن، وقرأت في كتابٍ آخر مليون مليون مجرة، وفي كل مجرة مليون مليون نَجم، وفي كل نجم أبعادٌ وأقطار لا يعلمها إلا الله، بعض النجوم يزيد حجمه عن حجم الشمس بمئتي مليون مرة، وبعض النجوم يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، هذه النجوم بعضها كواكب، وبعضها نجوم، بعضها ملتهب، وبعضها مُبَرّد، بعضها مُذنَّبات، بعضها عناقيد، بعضها كازارات، بعضها كواكب، بعضها جُزُر، بعضها كويكبات، أي أن المعلومات عن الفلك شيءٌ لا يصدق، وكل هذا الكون، أو أن السماوات والأرض خلقت للإنسان بالدليل القطعي، الآية الأولى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا)

(سورة البقرة: من آية " 29 ")

الآية الثانية:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

الأرض ذُكرت في القرآن للتخصيص لأننا عليها وهي من أرقى الكواكب:

الآن ربنا عزّ وجل يشير:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (22))

طبعاً الأرض ذكرها على التخصيص لأننا عليها، ولأنها من أرقى الكواكب، الحياة، الهواء، النبات، الحيوان، الليل، النهار، الجاذبية، القوام، هذه خُلِقَت خصيصاً للإنسان، لأن الله تعالى يقول:

(وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ(10))

(سورة الرحمن)

حينما قَدَّمَ الأرض هذا على سبيل التخصيص والقصر:

(وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ(10))

(سورة الرحمن)

الأرض بحجمها، بقوامها، بكثافتها، بجبالها، بأنهارها، ببحارها، بكائناتها، بأطيارها، بأسماكها، بحرارتها، برياحها، بكل شيءٍ فيها، وضعت خصيصاً للإنسان، أو صممت بحيث تُلبّي حاجات الإنسان، أبسط هذه الحاجات أن الإنسان له طاقة على العمل، له طاقة فلا بدّ من أن يرتاح، الليل في الأرض لا يزيد عن عشر ساعات، إلى اثنتي عشرة ساعة، إلى ثماني ساعات، الليل يتناسب مع حاجة الإنسان، أما أي نجم آخر، الليل ثلاثين ليلة، فثلاثين يوم تساوي ليلةً واحدة، فالإنسان نام ثمانية ساعات أو عشر ساعات، استيقظ فوجد أن الدنيا ليل، عمل في الليل، رجع فنام، تحس أن هذا الكوكب لا يتناسب مع طبيعة الإنسان، فحجم الأرض ودورتها حول نفسها وحول الشمس، وطبيعة الحرارة عليها، والرطوبة، والماء، والهواء، والحيوانات، والنباتات، هذا كله مصممٌ للإنسان.

من تكريم الله للإنسان أن جعله فرداً لا يتكرر:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

قد يسأل سائل: ما وجه التناسب بين خلق السماوات والأرض وبين اختلاف ألسنة الإنسان وألوانه ؟ الشيء الثابت الآن أن الإنسان فردٌ لا مثيل له، كنا قبل عشر سنوات نعتقد أن للإنسان بصمةً لا تتكرر، ثم ظهر حديثاً أن لكل إنسان تركيبٌ خاص في قُزَحِيَّة العين لا يتكرر أبداً، فقزحية العين هويةٌ له، وبصمته هوية له، فهاتان هويتان، الآن اكتشف أن هناك زمراً نسيجية غير الزمر الدموية، وأن إنسانان في الخمسة آلاف مليون، أي أن أكثر من إنسانين لا يتشابهان في الخمسة آلاف مليون، هذا أحدث بحث ألقي في بعض المؤتمرات الطبية، أي ألفين وخمسمئة مليون زمرة نسيجية، وقد يقال بعد ذلك: أن كل إنسانٍ له زمرةٌ نسيجيةٌ خاصة، فبصمة اليد هويةٌ للإنسان، قُزحية العين هويةٌ للإنسان، بلازما الدم هويةٌ للإنسان، رائحة الجلد هويةٌ للإنسان، كل إنسان له رائحة خاصة، وعلى أساس هذه الرائحة الخاصة تكتشف بعض الكلاب البوليسية المُجْرِم، يُعطى هذا الكلب جزءاً من أدوات المجرم ؛ من سلاحه، من ثيابه، من أماكن بصماته، والكلب يتَتبَّعُ رائحة هذا المجرم إلى أن يصل له، إذاً للإنسان رائحة جلد خاصة، وللإنسان كيمياء دم خاصة، وللإنسان قزحية خاصة، وللإنسان نبرةٌ صوتيةٌ خاصة لا تتكرر، فالله عزّ وجل من باب التكريم لهذا الإنسان أنه خلقه على صورته في بعض تفسيرات هذا الحديث، أي أن الله فرد ومن تكريم الله للإنسان أن جعله فرداً لا يتكرر ؛ لك وجهٌ، ولك ملامح، ولك صوت، ولك رائحة، ولك قُزَحِيَّة، ولك بصمة، ولك كيمياء للدم.

اختلاف اللغات والألوان والأصوات من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ (22))

بعض العلماء فسر اختلاف الألسنة على اختلاف اللغات ؛ هذا لغته عربية، وهذا لغته فرنسية، وذاك إنكليزية، وذاك إسبانية، وهذه لغة هندية، وكُرْدِيَّة، وباكستانية، وإفريقية، وصينية، وعدد اللغات بالآلاف، عدد اللغات التي يتكلّمَهُا الإنسان على وجه الأرض بالآلاف لكل لغةٍ مفرداتها، وأفعالها، وأسماؤها، وقواعدها، ونحوها، وصرفها، ولهَجاتها، وحروفها، إذاً اختلاف اللغات هذا من آيات الله الدالة على عظمته.

بعضهم قال: لا، اختلاف نبرات الصوت، اختلاف إيقاعات الصوت، اختلاف الموجات الصوتية، والدليل أنك حينما تستمع إلى مكالمة هاتفية تقول: فلان حدّثني، من دون أن يذكر اسمه، إذاً إنك تملك ذاكرةً صوتية، تعرف من خلال هذه الذاكرة الصوتية نبرات كل شخصٍ يتصل بك، وهذا من آيات الله.

الألوان، آلة التصوير تصور لك مئة شخصٍ بلونٍ واحد تقريباً، أو بفارق بسيط جداً، لكن لو نظرت بعينك الطبيعية إلى ألوان هؤلاء المئة لرأيت كل واحدٍ منهم يتميّز بلونٍ غير لون أخيه، إلى أن نقول: إن كل إنسانٍ له لون، إذا كانت العين البشرية تُفَرّق بين ثمانمئة ألف لون أخضر، لو أن لوناً واحداً دَرَّجْنَاهُ ثمانمئة ألف درجة، فالعين البشرية تفرّق بين لونين، لذلك اختلاف الألوان، واختلاف الأصوات، كأن اللون يعطي الإنسان هويةً خاصة، وكأن الصوت يعطي الإنسان هويةً خاصة، هذا شيء ثابت وواقع.

القرآن يعطي الإنسان عناوين للمواضيع وعلى الإنسان متابعة الموضوع:

لكن ما علاقة خلق السماوات والأرض باختلاف الألسنة والألوان، هناك تفسيرين مثلاً الله عزّ وجل قال:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(1)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(2))

(سورة الليل)

كلام جميل، آيةٌ كونية، آية الليل والنهار، وقال:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(2))

(سورة الليل)

ما علاقة الليل والنهار بالذكر والأنثى ؟ يجب أن تكتشف أن هناك علاقةٌ بينهما، يبدو أن الليل والنهار متكاملان، وأن الذكر والأنثى متكاملان، كما أنك بحاجةٍ ماسةٍ إلى ليل ترتاح فيه، تسكن فيه، أنت بحاجةٍ ماسةٍ إلى نهار تعمل فيه، كذلك الأنثى تُهَيِّئ للرجل السَكَن، والرجل يهيئ للأنثى الرزق، إذاً متكاملان، إذاً من طبيعةٍ واحدة ولكنهما مفترقان ومتكاملان، يبدو أن الله عزّ وجل حينما قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ (22))

إن اختلاف الألوان له علاقةٌ بخلق السماوات والأرض، الذين في المنطقة الحارة لهم لون، في المنطقة المعتدلة لهم لون، في المنطقة الباردة لهم لون، كأن لون الإنسان له علاقةٌ ببيئته، في الصحراء أم في الحضر، في الساحل أم في الداخل، في المرتفعات أم في المنخفضات، في المنطقة الحارة أم في المنطقة المعتدلة أم في المنطقة الباردة، هناك علاقةٌ بين اللون وبين البيئة التي يحياها الإنسان، بل إن لون الإنسان يُعَدُّ وسيلةً من وسائل الدفاع عنده، ففي المناطق الحارة اللون الداكن أقرب إلى التكيُّف مع هذه البيئة، وفي البلاد الباردة اللون الفاتح أقدر على تكيُّف أصحابه مع بيئتهم، إذاً موضوع اللون موضوعٌ دقيقٌ جداً هو من آيات الله الدالة على عظمته، القرآن أحياناً يعطينا عناوين للموضوعات، وعلى الإنسان أن يتابع الموضوع.

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

السماع هو اليقينٌ الإخباري الحسي:

الحقيقة قبل قليل:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21))

بعد ذلك:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24))

بعد ذلك:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23))

يا ترى ما حكمة الله عزّ وجل في هذه النهايات التي انتهت بها الآية الكريمة ؟ في آية انتهت لقوم يعقلون، ولقوم يتفكرون، ولقوم يسمعون، وللعالمين، وغير ذلك.

كلمة (يسمعون) الشيء الذي لا يستطيع عقلك أن يدركه لا يمكن أن تدركه إلا بالسماع، السماع إذاً هو اليقينٌ الإخباري، أنت كإنسان عندك يقينٌ حسي، وعندك يقينٌ عقلي، فكري، استدلالي، وعندك يقينٌ إخباري، اليقين الحسي حينما ترى الشيء بعينك، أو تسمع صوته بأذنك، أو تلمسه بيدك، هذا يقين

حسي، هذه المحسوسات، والإنسان وغير الإنسان بإمكانه أن يدرك المحسوسات، أما اليقين الفكري أو الاستدلالي هذا يقين من نوع آخر، بمعنى أن الإنسان يرى شيئاً ويحكم على صانعه، يرى نظاماً يحكم على مُنَظِّمِهِ، يرى تسييراً يحكم على مسيّره، يرى كوناً يحكم على مُكَوِّنه، يرى خلقاً يحكم على خالقه، هذه مهمة العقل، الاستدلال، أن تستدل بشيءٍ مادي على شيءٍ مُغَيَّبٍ عنك، هذا معنى قوله تعالى:

(ألم(1)ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة)

مهمة العقل الاستدلال:

ما معنى الإيمان بالغيب ؟ أنك رأيت الشمس قلت: من خلقها ؟ من أودع فيها هذه الحرارة ؟ من جعلها تسير بسرعة مئتي كيلو متر في الثانية ؟ من جعل هذه الطاقة متتابعة وليست خامدة ؟ من جعلها بهذا الحجم ؟ من جعلها بهذه الكثافة ؟ هذا يقين استدلالي، وهذا سر الإيمان فيه، فلا تستطيع أن تعرف الله عزّ وجل إلا باليقين الاستدلالي، باليقين الحسي لا تستطيع لقوله تعالى:

(لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام: من آية " 103 ")

لكن باليقين الاستدلالي، يقولون: (لم يُرَ الله بالعين ولكن بالعقل عرف)، الإنسان بعقله يستطيع أن يتعرّف إلى الله عزّ وجل، ذات الله، وصفاته، أسماؤه.

الماضي السحيق، المستقبل البعيد، هذه أشياء لا يمكن أن يعرفها العقل، العقل يحتاج إلى شيء أمامه مادي، من هذا الشيء يصل إلى الخالق، يحتاج إلى نظام، من هذا النظام إلى مُنَظِّم، أما إذا أردت أن تبحث في ذات الله بعقلك لا تستطيع، تهلك، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[ورد في الأثر]

في منطقة، في خط أحمر، إذا أردت أن تفكِّرَ بعقلك في ذات الله عزّ وجل لا بدّ من أن تهلك، لأن طبيعة الإنسان، وطبيعة عقله، وطاقة عقله، وقدرة عقله، لا تؤهِّلُهُ أن يتعرف إلى الله مباشرة إلا من خلال الكون، فلو ألقينا بورقة دخينة ـ هذه رقيقة جداً ـ بفرن لصهر الحديد، قلنا ماذا حل بها بعد ساعتين، أية ساعتين هاتين ؟ هي من الوهج تبخّرت.

لا يجوز البحث في ذات الله بعقلك مباشرةً:

قال تعالى:

(وَلَمّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّا وَخَرّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوّلُ الْمُؤْمِنِينَ(143))

(سورة الأعراف)

تجلى الله عزّ وجل على الجبل جعله دكاً، إذاً الإنسان لا يستطيع أن يرى الله عزّ وجل في الدنيا، حواسه عاجزة، لا تحتمل، تحترق، سيدنا جبريل في المعراج قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: أنا إذا اخترقت احترقت، كل إنسان له مقامٌ معلوم.

لقد أردت من كلمة: مرة لقومٍ يتفكرون، مرة لقومٍ يعقلون، مرة لقومٍ يسمعون، ومرة للعالمين، سماع الموضوعات المتعلقة بذات الله عزّ وجل، بذاته، بصفاته المتعلقة بالماضي السحيق، بالمستقبل البعيد، بالذي غَيَّبَهُ الله عنا، فإنسان ذكي جداً قد يوضع أمامه جهاز يكشف أسراره واستعماله، جهاز مُعَقَّد جداً في حلب حدثنا عنه، مهما كان الإنسان ذكياً، مهما كان عبقري لا يستطيع، فلا بدّ من شيءٍ أمام عينيك تفكر فيه وتستنبط منه، لذلك لا يجوز البحث في ذات الله بعقلك مباشرةً، إن فعلت هذا احترقت، أو هلكت، وهذا يؤكِّده قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[ورد في الأثر]

هلاك مُحَقّق، إذاً هذه المعلومات التي تتحدث عن ذات الله، وعن الماضي، وعن المستقبل، هذه جاءت أخباراً في القرآن الكريم، ربنا أخبرنا عن الملائكة، عن الجن، عن ذاته، عن ما بعد الموت ؛ من برزخ، من نشور، من صراط مستقيم، من حَوْض، من ملائكة عذاب، من ملائكة رحمة، وما شاكل ذلك.

الذي يستخدم عقله في ذات الله عزّ وجل فيهلك فلا يلومن إلا نفسه:

أخبرنا عن الماضي السحيق:

(إِنّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

إذاً يجب أن تعرف حدودك، رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، ميزان صنعته أعلى شركة في العالم ؛ لكن كتب عليه خمسين كيلو، ما دمت تستخدمه في حدود خمسين كيلو فهو من أدقّ الموازين، فإذا وزنت به مئة كيلو كسرته، فإذا كسرته لا ينبغي أن تتهم الصانع بأن صنعته ليست متقنة، لا، فأنت أسأت استعماله، فالذي يستخدم عقله في ذات الله عزّ وجل فيهلك فلا يلومن إلا نفسه، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[ورد في الأثر]

هناك خط أحمر، لهذا قال سيدنا الصديق: **" العجز عن الإدراك إدراك "**، وقال العلماء: **" عين العلم بالله عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به "**، أي أنك إذا قلت: أنا أعرف الله فأنت لا تعرفه، وإذا قلت: أنا لا أعرفه إذاً فأنت تعرفه، إذ شعرت بعجزك أمام قدرته فأنت تعرفه، فإذا قلت: أنا أعرفه، أعرف كل أفعاله هذه كذا وهذه كذا، إذاً أنت لا تعرفه لأنه:

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من آية" 255")

معرفتك بالله عزّ وجل على قدر تفكيرك بالكون:

قال:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا(85))

(سورة الإسراء)

إذاً عندنا يقين إخباري، وعندنا يقين استدلالي، عندنا يقين حسي، عندنا يقين إشراقي، اليقين الإشراقي هذا ثمنه باهظ، معرفةٌ بالله عزّ وجل من خلال الكون، استقامةٌ على أمره تماماً، أعمالٌ صالحة هذه: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم، هذا اليقين الإشراقي، من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعمل.

أما الاستدلالي أنت والكون، كل شيءٍ في الكون يدل على أن الله عزّ وجل واحد وعلى أنه كامل، على أنه موجود، لذلك يعد الكون كتاباً مفتوحاً بين يديك، ما عليك إلا أن تقرأ فيه، وكلما قرأت منه صفحة ازداد علمك بالله درجةً، فمعرفتك بالله عزّ وجل على قدر تفكيرك بالكون، معرفتك بالله عزّ وجل وأسمائه الحسنى على قدر جولات فكرك في هذا الكون، لهذا آياتٌ كثيرةٌ جداً تَحُضُّنا على التفكير، وما هذه الدروس الأربعة:

ومن آياته، ومن آياته، من آياته، إلا حضٌ لهذا الإنسان على أن يُجيلَ فكره في ملكوت السماوات والأرض:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ(3))

(سورة الملك)

في الآية التالية الفاء تفيد الترتيب على التعقيب إلا في مرحلة واحدة:

اليوم في الخطبة تحدّثنا عن أن الله عزّ وجل حينما قال:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ(12)ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(13))

(سورة المؤمنون)

انظر إلى ثم:

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(14))

(سورة المؤمنون)

من علقة إلى مضغة، من مضغة إلى عظام، من عظام إلى لحم، فاءات، فاء، فاء، والفاء تفيد الترتيب على التعقيب إلا في مرحلة واحدة:

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً(14))

(سورة المؤمنون)

أحدث مكتشفات علم الأجنة أن النطفة حينما في الأسبوع الثاني والثالث يتباطأ نموها، يتباطأ لأنها منشغلة في تأمين مصادر رزقها من جدار الرحم، هذا التباطؤ عَبَّرَ الله عنه بكلمة (ثم)، إذاً هذا الكلام كلام خالق الأكوان، كلام الذي يخلق الأجنة في بطون الأمهات، كلامه.

(العالَمين) أي كل الناس مكلّفون وكلهم مدعوّون إلى الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

قال: (للعالَمين) هكذا جاءت، وفي قراءةٍ (للعالِمين)، للعالِمين جمع عالِم، وللعالَمين جمع عَالَم، الفرق بين العالِمين والعالَمين العالَمين أي أن هذا القرآن لكل الناس، كل الناس مكلّفون، كل الناس مدعوّون إلى الله عزّ وجل، الإنسان يولم وليمة، فيختار بعض أصدقائه، يدعون بعضهم، والباقون غير مدعوّين

لأسبابٍ كثيرة، ولكن الله سبحانه وتعالى خلق الناس ودعاهم جميعاً إلى الهُدى، خلقهم من نفسٍ واحدة، ودعاهم جميعاً إلى الهدى والسعادة، يؤكِّد هذا قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 21 ")

إذا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

أي لكل الناس، لكل العوالم، القريب والبعيد، المُثقف وغير المثقف الأمي، العالم والجاهل، الغني والفقير، القوي والضعيف، المتخلف والمتقدم، المتحضر وغير المتحضر.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

أنت مطلوبٌ أكثر مما أنت طالب، أنت مطلوب، لأن الله سبحانه وتعالى خلقك ليسعدك، أنت مطلوب، مطلوبٌ لحضرة الله عزّ وجل، مطلوب ليرحمك، مطلوبٌ ليغفر لك.

بعض الأحاديث النبوية الشريفة عن رحمة الله بعباده:

إذا كان ثلث الليل الأخير ينزل ربكم إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائلٍ فأجيبه، هل من داعٍ فألبيه، هل من طالب حاجةٍ فأقضيها له، هل من مستغفرٍ فأغفر له حتى ينفجر الفجر.

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ هَلْ مِنْ تَائِبٍ هَلْ مِنْ سَائِلٍ هَلْ مِنْ دَاعٍ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

[صحيح مسلم: عَنْ " أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ "]

وقال:

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟ وَقَالَ فِيهِ: حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ))

[مسند أحمد: عَنْ " أَبِي هُرَيْرَةَ "]

مطلوب، ولا أدل على ذلك من قلب الأم، ما مطلب الأم الأساسي ؟ أن يكون ابنها في أسعد حالة، أن يأكل أطيب الطعام، إذا ترك طعاماً نفيساً وتناول طعاماً خَشِنَاً تغضب عليه، لأنه فوت عليه هذه الأكلة اللذيذة، هذا قلب الأم، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى امرأةً تقبّل ولدها قال لأصحابه:

((أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا: لاَ وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: اللَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِوَلَدِهَا.))

[مسند البزار: عن "عمر بن الخطاب"]

والله عزّ وجل حينما قال:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب))

[ورد في الأثر]

السعادة تكون بمعرفة الله عز وجل والشقاء بالبعد عنه:

أيها الأخوة الأكارم لا يوجد شر بالكون، شر مقصود لذاته لا يوجد، دائماً دع في نفسك هذا المثل: أب طبيب جراح، ينطوي على قلبٍ كله رحمة وعقل، كله علم، فإذا شعر أن ابنه يعاني من التهاب الزائدة، الأب بنفسه أخذ ابنه، ووضعه على المشرحة، وخدّره، وجاء بهذا المبضع، وجرح الجلد، وفتح الجلد، ونفر الدم، واستأصل هذه الزائدة الدودية، هل يقال: هذا العمل شر ؟ إطلاقاً، أما فتح البطن فيما يبدو للناظر الساذج شر، كذلك المصائب التي ترد على الناس تكون سبباً لهدايتهم، سبباً لتوبتهم، لعودتهم، كأن الله يري آياته، إما أن تراها وأنت في الرخاء، وإما أن تراها وأنت في الشدة.

ومن آياته الدالة على عظمته أيضاً منامكم بالليل، كأنك وأنت نائم تنفصل نفسك عن جسدك، قد ترى مناماً مُسْعِدَاً، كأن ترى أنك في منطقةٍ جميلةٍ، ترى أنك قد نجحت في الامتحانات، ترى أنك قد ارتفعت إلى أعلى المقامات، تشعر أنك سعيدٌ سعادة كبرى وأنت على سريرٍ خشبيٍ متقشفٍ خَشِن، فما سر هذا المنام ؟ كأن المنام دليلٌ على أن سعادة الإنسان في الآخرة حق، تستيقظ وأنت في غاية السعادة، وأنت في نشوةٍ ما بعدها نشوة، لو أن إنساناً رأى النبي عليه الصلاة والسلام، يقول لك: بقيت شهراً وأنا غارقٌ في نشوة هذه الرؤيا، معناه أن النفس لها عالم آخر، لها قوانين، أنت في المنام تنتقل، تسافر إلى أقصى البلاد، تلتقي مع أبعد الناس، تطمح إلى أعلى الدرجات ؛ وقد ترى مناماً كابوساً، ترى أنك في وضعٍ سيئ، ترى أنك في حالةٍ متدهورة، ترى أنك في مرضٍ عُضال، ترى أنك في حادث سيارةٍ مخيف، ترى أن الذين حولك قد فقدتهم، تقوم مُنْزَعِجاً، هذه آيةٌ من آيات الله، كأن الله يؤكِّد لنا أن فيك نفساً، وهذه النفس تسعد وتشقى، وأنت أنت، قد يَسْعَدُ إنسان في منامه وهو في أشقى حالاته، وقد يشقى إنسان في منامه وهو في أسعد حالاته، إذاً لك نفسٌ تسعد بعملها الصالح، وتشقى بعملها السيئ، تسعد بمعرفة الله عزّ وجل وتشقى بالبعد عنه، لذلك:

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ (23))

هذه بعض الآيات.

النوم دليل على أن هناك موتاً أبدياً:

الآية الثانية: أن هذا الجهاز العصبي الذي يعمل طوال عشر ساعات أو أكثر، في تلقِي الصور، والأصوات، والمشمومات، والمسموعات، وتحليلها، وإدراكها، وإصدار أوامر معاكسة استجابة لهذه الصور، في نشاط دائم، في حالات من النشاط عالية جداً، يأتي ينام فيرتاح، لو أن إنساناً قاد مركبة في الليل يقول لك: تحطمت أعصابي، هذه الأضواء الباهرة، والتجاوزات، والمخاطرات، دائماً في حالة يقظة دائمة، يأتي النوم، يكون النوم نعيماً له، ماذا في النوم ؟ هذه الأعصاب تتباعد، فإذا تباعدت انقطعت السيَّالة العصبية، يستيقظ الإنسان بعد يوم عملٍ مُضْنٍ وهو في أشد حالات النشاط، نعمة النوم، من آيات الله الدالة على عظمته، وتَدُلُّ على عظمته حياة الإنسان النفسية التي يعيشها، يسعد بها أو يشقى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ (23))

النوم موتٌ مؤقّت، أيضاً النوم علامة أو دليل على أن هناك موتاً أبدياً، فالنبي الكريم كان يدعو فيقول:

((إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا))

[مسند أحمد: عن " أبي هريرة "]

اليوم أحد إخواننا الأكارم توفي رحمه الله، البارحة كان لا يشكو شيئاً، وقد استمع إلى شريطٍ من دروس جامع العثمان، ثم فجأةً وقع ميتاً، الموت قريب جداً، النبيّ الكريم كان يقول:

((إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا حَفِظْتَ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ))

[مسند أحمد: عن " أبي هريرة "]

النوم موتٌ مؤقت وهو من آيات الله الدالة على عظمته:

النوم موت مؤقت:

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ)

(سورة الأنعام: من آية " 60 ")

معنى يتوفاكم أي أنت في النهار مُخَيَّر، في الليل أخذ منك اختيارك، أعطاك الاختيار في النهار، وسلبه في الليل، أما عند الموت أخذه نهائياً، مغادرة بلا عودة عند الموت، أما كل ليلة تموت موتاً مؤقتاً، فالإنسان عليه أن يعلم أن هذا النوم من آيات الله الدالة على عظمته، أولاً هو موت مؤقّت، وثانياً النوم يؤكِّد الحياة النفسية التي تسعد وتشقى من دون أن يكون للجسد علاقةٌ بهذه السعادة والشقاء، أليس كذلك؟ تسعد إلى أعلى الدرجات وتشقى إلى أخفض الدرجات وأنت أنت.

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (23))

بعض المفسرين قالوا: بالليل والنهار، النهار نوم القيلولة، النبي الكريم قال:

((قيلوا فإن الشياطين لا تقيل))

[أخرجه الطبراني: عن "أنس بن مالك"]

القيلولة نوم بعد الظهيرة، وبعضهم قال: لا، ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله في النهار.

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا(11))

(سورة النبأ)

في الليل ترتاح، وتسكن، وتعبد الله، وتفكر، وتقرأ القرآن ؛ وفي النهار تعمل وتكسب الرزق.

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ (23))

على الإنسان أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح لأن الله تعالى هو الرزّاق:

أشار العلماء إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(مِنْ فَضْلِهِ (23))

أي إيّاك أن تتوهم أيها الإنسان أن هذا المال الذي بين يديك إنما هو من كسبك، بجهدك، بذكائك، بخبرتك، بتعبك، بكَدِّك، بعرق جبينك، لا أبداً، إنه من فضل الله عزّ وجل، فلو أن الله عزّ وجل أخذ شيئاً من عقلك لأودعك أهلك في مَصَحٍ عقلي، بواسطة، بجهد جهيد، أين رزقك ؟ أين معملك ؟ أين دكانك ؟ أين وظيفتك ؟

رجل كان يعمل بمنصب رفيع جداً، معاون وزير، فقد بصره، خلال شهر كانوا يأتونه بالمعاملات إلى البيت ليوقّعها، فقد منصبه، قال كلمةً لا أنساها، قال: والله أتمنى أن أجلس على قارعة الطريق وأمد يدي للناس وأن يرد الله لي بصري.

إذا الإنسان الله رزقه لا يقول: هذا جهدي، ذكائي، خبرتي، باعي الطويل في التجارة، تصميمي، جَلَدي، متابعتي، لا، هذا من فضل الله عزّ وجل، بحركةٍ بسيطة يفقد الإنسان ذاكرته، صديق قال لي: خرج صاحبي من معمله إلى بيته، نسي بيته، بقي في الطريق ساعة أو أقل يبحث عن بيته في الشام، إلا أنه يذكر بيت ابنه، فذهب إلى ابنه، قال له: يا بني أين بيتي ؟ فالإنسان عاجز، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ (23))

أي أنك تسعى، على الإنسان أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح، الله سبحانه وتعالى هو الرزّاق، أعطاك القدرات، والإمكانات، والذاكرة، فلو طبيب نسي ذاكرته، خسر شهادته كلها، كل الخبرات

مكانها في الذاكرة، إذا الإنسان فقد ذاكرته، كان في صيدلي له ابن بأمريكا، فدخل عليه قال له: من أنت؟ لا أعرفك، كان فاقداً لذاكرته.

من عاش تقياً عاش قوياً:

قال تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ(67))

(سورة يس)

رجل كان يحتل منصباً كبيراً جداً ـ القصة من أربعين سنة ـ اتصلت زوجته بمخفر للشرطة: أن زوجي خرج ولم يعد، وجدوه في أحد أحياء دمشق (بالقنوات)، وقد ضل الطريق، لذلك:

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)

(سورة الحج: من آية " 5 ")

هناك مقولة قالها شيخ وقور: " يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً." فهي منهاج قويم وقول سديد.

عندي كتاب عن ألفاظ القرآن الكريم، ألفه أحد علماء الأزهر، هذا العالِم عاش مئة وثلاثين عاماً متمتعاً بكل ملكاته العقلية والجسمية، من عاش تقياً عاش قوياً، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، المؤمن له شيخوخة رائعة جداً، تكريماً له لأن له ماضٍ مشرف في طاعة الله عزّ وجل، من كانت له بدايةٌ محرقة كانت له نهاية مشرقة.

تشكل البرق والرعد من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(24))

كلكم يعلم أنك إذا دَلَّكْتَ شيئاً بشيء ينتج ما يسمّى بالكهرباء الساكنة، فالسيارة حينما تسير من احتكاكها بالأرض تشحن بكهرباءٍ ساكنة، فإذا وضعت بها مفتاحاً تشعر بشرارة، أي هذه المركبة مشحونةٌ بكهرباءٍ ساكنة، كذلك هذه السُحُبَ في أثناء حركتها تشحن بكهرباءٍ ساكنة، فإذا صدف أن كان أعلى السحابة كهرباء إيجابية موجبة وفي أسفلها كهرباء سالبة وحصل تفريغ ينشأ البرق، البرق كما يقول العلماء: ينشأ من تفريغ شحنات كهربائية ساكنة في السحب، إما في سحابة واحدة وهذا هو البرق الطولي، أو في سحابتين وهو البرق العرضي، أو إذا لامست كتل السحب رؤوس الجبال المؤنّفَة، هل

تصدقون أن البرق ينشر حرارةً تزيد عن ستة آلاف درجة، هذه الحرارة إذا وصل البرق إلى الأرض كانت صاعقة، الصاعقة تُحْرِقُ كل شيء، لذلك بعض البيوت يوضع لها جهاز أو عمود حديدي ليأخذ هذه الصاعقة ويفرغها في باطن الأرض، كذلك بعض الشاحنات يضعون لها سلسلة حديدية تجري على الأرض من أجل تفريغ الصاعقة، هذا معنى البرق، البرق تفريغ الشحنات الكهربائية في السحب، لكن هذا البرق ينشر حرارةً تزيد عن ستة آلاف درجة، الأمر الذي يجعل الهواء يسخن إلى درجة الانفراغ. ما يفرغ الهواء بفعل هذه الحرارة العالية تأتي كتل الهواء لتملأ هذا الفراغ، من تصادم هذه الكتل ينشأ الرعد، فلا رعد بلا برق، ولا برق بلا رعد، وكل برقٍ معه رعد، ولكن الشيء الذي يلاحظ أنك ترى البرق وبعد حينٍ تسمع الرعد، لأن الصوت ينتقل بسرعة ثلاثمئة وثلاثين متراً بالثانية، بينما البرق ينتقل بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو بالثانية، ترى البرق أولاً ثم ترى الرعد ثانياً، فالبرق ظاهرة طبيعية شهيرة، أحياناً ترى أن الأفق كله أضاء والتمع بالبرق.

المؤمن يعبُد الله خوفاً وطمعاً:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا (24))

تخاف البرق كصاعقة، وترجوه كسحابٍ مُمْطِر، تخشى شره وترجو خيره، والله سبحانه وتعالى دائماً يحبك أن تخشاه وأن ترجوه، فإذا خشيته فقط يَئست من فضله، وإذا رجوته بلا خشية تجاوزت حدوده، فالموقف المعتدل بقدر ما تخشاه بقدر ما ترجوه، لذلك المؤمن يعبُد الله خوفاً وطمعاً قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (24))

البرق الخُلّب هو البرق الذي لا يمطر، قال بعض الشعراء:

حرٌ ومذهب كل حرٍ مذهبي ... ما كنت بالغاوي ولا المتعصبِ
يأبى فؤادي أن يميل إلى الأذى ... حبُّ الأذية من طباع العقربِ
لي أن أرد مساءةً بمساءةٍ ... لو أنني أرضى ببرقِ خُلّبِ

***

البرق الخُلّب البرق الذي لا مطر في سحابه، برق ورعد ولا توجد أمطار، والحقد في اللغة انحباسٌ المطر، سماءٌ كلها غيوم ولا مطر.

(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (24))

كأن الأرض كائن حي يموت بالعطش ويحي بالريّ، لذلك هذه الأمطار التي أكرمنا الله بها، وهذه الثلوج التي أكرمنا الله بها، جعلت المياه لا تنقطع عن دمشق في هذه الفترة، ولولا ذلك لكان كأس الماء مهدداً بالخطر، هذه من آياته.

بعض الآيات تتفكر بها وبعضها تعقلها وبعضها تسمعها:

إذاً البرق ظاهرة جغرافية يعرفها كل إنسان، أما في أساسها تفريغ شحنات كهربائية، تصل الحرارة إلى ستة آلاف درجة، يحدث انفراغ في الهواء، تأتي كتل الهواء كي تملأ هذا الفراغ فتصطدم، من اصطدامها ينشأ الرعد، وفي سورة بالقرآن اسمها سورة الرعد.

(وَيُنْشِئُ السّحَابَ الثِّقَالَ(12))

(سورة الرعد)

وقال:

(إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24))

إذاً نُلَخِّصُ هذه الآيات ؛ بعض هذه الآيات تتفكر بها، وبعضها تعقلها، وبعضها تسمعها، ولا بدّ من أن تسمع ومن أن تعقل:

(وَقَالُوا لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أوْ نَعْقِلُ مَا كُنّا فِي أصْحَابِ السّعِيرِ(10)فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأصْحَابِ السّعِيرِ(11))

(سورة الملك)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (07-14): تفسير الآيات 25-29
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-03-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم لا زلنا في آيات الله الدالة على عظمته، فمع الدرس السابع من سورة الروم

القيام تعبيرٌ قرآني عن كمال قدرة الله عزّ وجل:

نتابع الآيات التي وردت والتي تتحدّث عن ملكوت السماوات والأرض، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

(سورة الروم)

الإنسان ينام ويقعد ويقوم، في أي حالاته يكون أقدرَ على تحقيق مراده ؟ في القيام، كلّما عَظُمَ الأمر قعد الإنسان، فإذا كان أشدّ عظمةً قام له، فالقيام تعبيرٌ قرآني عن كمال قدرة الله عزّ وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

السماء والأرض كما قلت لكم من قبل تعبيرٌ قرآنيٌ عن الكون، الكون كله ؛ بمجرّاته، بكازاراته، بكواكبه، بمذنّباته، بأبعاده الفلكيّة الشاسعة، هذا الكون التي تُعَدُّ الأرض بالنسبةِ إلى المجموعة الشمسيّة ذرّةً صغيرةً جداً في فلاة، والتي تعدُّ المجموعة الشمسيّة في مجرّة درب التبّان ذرّةً في فلاة، والتي تعدُّ مجرّة درب التبّان في باقي المجرّات ذرّةً في فلاة

كل شيءٍ قائمٌ بالله سبحانه وتعالى ومتحرّكٌ بأمره:

الكون لا حدود له وهو يتسع باستمرار:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(47))

(سورة الذاريات)

هذا الكون قد حدّثتُكم عنه كثيراً من قبل، عن بعض الأبعاد التي بين المجرّات:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

بعضهم قال: أن تقوم السماء أي أنّ السماء والأرض قائمةٌ بالله ولولا الله لزالتا:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر: من آية "41 ")

الزوال هنا بمعنيين: بمعنى عدم خروجها عن خطِّ سيرها، أو بمعنى استمرار بقائها، لولا الله عزّ وجل لزال الكون، انتهى، إذاً قيام الشيء بالله، أي أن وجوده بالله، وجوده على ما هو عليه من حركةٍ أو سكونٍ بالله، فأنت وجودك بالله عزّ وجل، وأنت بعض ما في الأرض، أي أن تكون أو لا تكون أنت قائمٌ بالله، الآن:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

بعضهم قال: السماء والأرض تقوم بالله، فإذا تحرّكتْ تحرّكت بأمر الله، هذا الإله العظيم كل شيءٍ قائمٌ به، متحرّكٌ بأمره، يؤكِّد هذا قوله تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

يؤكِّد هذا قوله تعالى:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من آية "54 ")

ربنا عزّ وجل يُعَرِّفنا بذاته من خلال القرآن الكريم:

الأمر أمره، يؤكِّد هذا قوله تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية "123 ")

إذاً ربنا عزّ وجل من خلال القرآن الكريم يُعَرِّفنا بذاته، أن الشمس لولا أنها قائمةٌ بالله لما قامت، القمر لولا أنه قائمٌ بالله لما قام، الأرض لولا أنها قائمةٌ بالله لما قامت، قيامها بالله، وحركتها بالله، وائتمارها بأمر الله، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

أنت كلّما رأيت إنساناً ذا شأنٍ وخطر، كلّما عرفت أن فلاناً بيده القضيَّة، إلى قناعته يرجع الأمر، مُخَوَّلٌ بتوقيع الموافقة، كلّما عرفت أن الأمر بيد فلان توجَّهت إليه، ما القصدُ من قول الله عزّ وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

أي أن قيام كل شيء وحركة كل شيء بالله عزّ وجل، فكيف تتوجَّه لغيره ؟ كيف ترجو غيره ؟ كيف تخاف من غيره ؟ كيف تسعى إلى غيره ؟ كيف تذهب إلى غيره ؟ كيف تعقد الآمال على غيره ؟ كيف تخشى غيره ؟!!

وجود الإنسان بيد الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

إذاً القيام دليل كمال قدرة الله عزّ وجل، و(بأمره) أحياناً من باب التوضيح نضرب الأمثال، لأن هناك قاعدةٌ ثابتة:

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى)

(سورة النحل: من آية " 60 ")

كل مثالٍ نضربه للتوضيح فقط، الإنسان أحياناً يعطي أمراً لابنه فلا ينفِّذ، فيضطر أن يتحرّك ليحقِّق حاجته، معنى هذا أن قدرته على ابنه ليست كاملة، في بعض الحالات ينفِّذ وفي بعض الحالات لا ينفِّذ، فحينما لا ينفِّذ يقوم الأب بنفسه بالتنفيذ، هذا شيء واقع في حياة الأسَر، لكن إذا أصدر إنسان أمراً فنُفِّذَ فوراً، ما معنى ذلك ؟ معنى هذا كمال قدرته عليهم، إذاً لم يقل الله عزّ وجل: ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بقدرته بل قال:

(بِأَمْرِهِ (25))

الأقوياء لا يحتاجون إلى استخدام عضلاتهم يحتاجون إلى توقيع فقط، إلى إصدار أمر، فإذا كان أمرهم نافذاً فهذا دليل قوّتهم، ودليل تمكّنهم، ودليل انصياع الناس لهم، إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

ما أردت أن أوضِّح لكم هذه الآية حبّاً بالتوضيح ؛ بل حبّاً بالقصد النبيل الذي وراء هذه الآية، أي يا أيها الإنسان إلى أين أنت ذاهب ؟ إلى أين أنت تتوجّه ؟ على من تَعْقِدُ الآمال ؟ من ترهب ؟ من تخاف ؟ الأمر كلّه بيده ؟ وجودك في أصله بيد الله عزّ وجل، إن لم يتجلّى الله عليه، لا وجود لك، هذا الكبد إذا تجلّى الله عليه قام بخمسة آلاف وظيفة، فإذا تخلّى الله عنه صار قطعة لحم سوداء اللون، القلب إذا تجلّى الله عليه نبض، وتحرّك، وضخّ الدم، فإذا منع الله عنه تجليه وقف، الدماغ، الإنسان

أتحسـبُ أنك جرمٌ صغير وفيكَ انطوى العالَم الأكبرُ

***

ربنا عزّ وجل أمره كُن فيكون زُل فيزول:

لكن لو أن الله عزّ وجل تخلّى عن الإنسان لثانية يموت، ما قيمة الميّت ؟ الإنسان بلا روح لا يزيد ثمنه بكامله عن خمسٍ وعشرين ليرةً سوريّة، لأن سبعين بالمئة منه ماء، وكمية الماء صفيحتان، فيه

فوسفور يكفي لصنع علبة عود ثقاب، فيه كلس يكفي لتبييض بيت للدجاج، فيه حديد يكفي لصنع مسمار، لو أردت أن تأخذه كمواد لا قيمة له إطلاقاً، لكن بهذا التجلِّي الإلهي الدماغ يفكِّر، ويحاكم، ويخترع، ويكتشف، ويتصوَّر، ويتخيَّل، وفي ذاكرته سبعين مليار صورة ـ إذا عاش الإنسان سبعين سنة أو ستين سنة تخزِّن ذاكرته ما يعادل سبعين مليار صورة ـ ومشمومات، ومسموعات، ومبصرات، وذاكرة أرقام، وذاكرة وجوه، وهذه مخبَّأة في مكان بعيد لأنه لا يحتاجها، وهذه الصورة مخبَّأة في مكان قريب، وهذه مخبّأة في مكان متوسِّط، وهذه تُلقى في المهملات وأنت لا تدري، الذاكرة وحدها لو أردت أن تقف عند دقائقها لأخذك العجب العجاب، هذا بتجلي الله عليك، فلو منع عنك التجلي وسحب منك الروح ما قيمة الدماغ ؟ فكل عضوٍ من أعضائك إذا تجلى الله عليه فعل المُعْجِزات، فإذا تخلّى الله عنه صار قطعة من لحمٍ سريعة التفسُّخ، سريعة الفساد، هذا معنى قيام الشيء بالله عزّ وجل، لولا أن الله عزّ وجل يتجلّى على مخلوقاته لما كان هناك مخلوقات، فربنا عزّ وجل كُن فيكون زُل فيزول، لا شيء:

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا)

(سورة الأعراف: من آية " 143 ")

كان هناك جبلاً، أين الجبل ؟ انتهى، هذا المعنى دقيق، أي قيام الشيء، أقرب مثل: آلة تسجيل تصدح بالصوت المرتفع، لما تسحب المأخذ الكهربائي ـ الوصلة ـ ينقطع الصوت فجأةً، أصبحت قطعة من البلاستيك، إذاً كل هذا الصوت، وكل هذه الدقّة في هذه القوّة المحرّكة، وهذا المكيّف، وهذا البرّاد، وهذه الغسّالة، وهذه الأدوات المعقّدة إذا قطعت عنها الطاقة أصبحت لا شيء، توقّفت، إذاً قيام الشيء بالله عزّ وجل ؛ بل إنّ الآية تشير إلى معنى أدق هو: إذا قطعت الوصلة عن هذه المسجِّلة ينقطع الصوت وتبقى مسجِّلة، أما لو قُطِع الإمداد الإلهيُّ عن الأشياء لزالت، فوجود الأشياء قائمٌ بالله عزّ وجل، وحركتها بأمره، فهذا أقصى درجات كمال القدرة، من كمال قدرة الله عزّ وجل أن وجود الشيء قائمٌ بالله، وحركته بأمر الله

الكون وما فيه بيد الله وحده فأطع أمره واتبع منهجه:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

قيام الأشياء كلِّها به، وحركتها بأمره، لماذا أنت منصرفٌ عنه ؟ لماذا ترجو غيره ؟ لماذا تتضعضع لغنيٍّ ؟ لماذا تُذْهِب ماء وجهك لغيره ؟ لماذا تتذلّل لغيره ؟ لماذا ترجو وتدعو غيره ؟ فلذلك:

ويُعَابُ من يشكو الرحيـ ـمَ إلى الـذي لا يـرحمُ

***

أعداؤك الذين تتوهّم أنهم قادرون عليك قيامهم بيد الله عزّ وجل، قيامهم وحركتهم بيد الله عزّ وجل، كن مع الله ولا تبالي.

كن مع الله ترى الله معك واترك الكلّ وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه؟ ثم من يعطي إذا ما منعك؟!

***

إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: من آية " 255 ")

قيام الكون به، وحركة كل ما في الكون به، فأنت لا ترجو غيره، فاعبده وتوكّل عليه، والزم طاعته، وقف على أعتابه، وأطع أمره، وطبّق منهجه، ابتغ رضاه، ولا تبالِ بسواه، إذاً لا تنصرف عنه إلى غيره

الأمر التكويني والأمر التكليفي:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

لكنّ السماء والأرض

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا(72))

(سورة الأحزاب)

إذاً السماوات والأرض لم تقبل التكليف، حينما عُرِضَ عليها التكليف أبت هذا التكليف وأشفقت منه، إذاً هي غير مكلّفة، تأتمر بأمر الله، أمر الله التكويني مُنَفَّذٌ فيها، أتينا طائعين، ما سوى الإنسان لا يعصي أبداً لأنه غير مكلّف، ولا يستنكف عن طاعة الله عزّ وجل، فالذي قَبِلَ التكليف، وأعطي الاختيار، وحُمِّل الأمانة، وكُلِّفَ أن يعرف الله، من الذي كُلِّفَ أن يطيعه ؟ من الذي كُلِّفَ أن يضبط شهواته ابتغاء مرضاته ؟ فالإنس والجن في الكون كلِّه مُكَلَّفان بطاعة الله، فالإنسان إما أن يطيع وإما أن يعصي، ولكن هذه الطاعة وهذا العصيان سوف يدفع ثمنُه باهظاً، متى ؟ يوم القيامة، يقول الله عزّ وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

أمر الله التكويني منفّذٌ في السماوات والأرض كلِّها، أما الإنسان منفّذٌ فيه أمره التكليفي، الأمر التكويني هو فعل الله عزّ وجل، أما الأمر التكليفي هو أمر الله، الطريق سالكة، أما توجد لوحة كُتِبَ عليها ممنوع

المرور، هذا أمر تكليفي، لكن بإمكانك أن تخالف الأمر، ولكن تدفع الثمن باهظاً، أما الأمر التكويني هو أمرٌ كأن تأتي بمكعّبات من الإسمنت المسلّح تَسُدُّ بها الطريق، فأمر الله التكويني نافذٌ في السماوات والأرض

الأمر التكليفي الإنسان مكلف أن ينصاع لأمر الله عزّ وجل وإلا سوف يدفع الثمن:

نعود إلى الأمر التكويني وإلى الأمر التكليفي:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

الإنسان مأمور أمراً تكليفياً، يحاسب، ويجازى بالجنة، ويعاقب بالنار:

(ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25))

قال أحدهم لبعض العلماء: **" أنا أرغب أن أعصي الله " ـ هكذا قال له ـ قال: " لا عليك ولكن احرص أن تعصيه في مكانٍ لا يراكَ فيه "، قال: " لا يكون هذا "، قال: "إذاً كيف تعصيه وهو يراك ؟ "**

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من آية " 4 ")

إذاً أنت مكلّف بأمر تكليفي وسوف تدفع الثمن، أمرك بغض البصر، أمرك بأكل المال الحلال، أمرك بإنفاق المال، هذا كلّه أمرٌ تكليفي وعلى الإنسان أن ينصاع لله عزّ وجل وإلا يدفع الثمن، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ (25))

ليحاسبكم، ليجزيكم على أعمالكم، ليثيب محسنكم، ليعاقب مسيئكم، ليدخل المؤمن الجنّة إلى أبد الآبدين، ليدخل الكافر النار إلى أبد الآبدين

ملكيّة الإنسان للأشياء محدودة بينما مُلكيّة الله للكون لا حدود لها:

قال تعالى:

(ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26))

مرّةً ثانية كلمة (له) هذه اللام هي لام المُلك، أنت تقول: هذا القلم لي، لكن أن يملك الإنسان شيء، وأن يكون الكون كلّه ملكاً لله شيءٌ آخر، وله معنىً آخر:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (26))

خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً، خلقاً قد تقتني شيئاً لم تصنعه أنت، وقد تقتني شيئاً لا تستطيع أن تحافظ عليه إلى ما شاء الله، إذاً ملكيّة الإنسان للأشياء ملكيّةٌ محدودة، بينما مُلكيّة الله للكون بهذا المعنى:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (26))

خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً، الإنسان قد يملك بيتاً ولا ينتفع به، وقد ينتفع ببيتٍ وهو لا يملكه، وقد يملكه وينتفع به ولكن ليس له مصيره، لكن الله عزّ وجل له من في السماوات والأرض خَلْقاً، الخالق هو المالك والمتصرّف، المربي والمسيّر، هو المالك والمصير إليه، إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26))

أي خاضعون، الإنسان ضعيف وهو مفتقر إلى الهواء، و الماء، والطعام، مفتقر إلى جو دافئ وإلا يموت، مفتقر إلى جو معتدل وإلا يموت، مفتقر إلى إنسانة يسكن إليها هي زوجته، وأولاد يأنسُ بهم، مفتقر إلى مال يكسبه، مفتقر إلى ذاكرة، وإلى بصر، وإلى سمع، وإلى نُطْق، وإلى أجهزة، من مري، وأمعاء، وطُحال، وكبد، وبنكرياس، وأوعية، وشرايين، مفتقر إلى أشياء كثيرة، فالإنسان هو عبدٌ، والله هو الرَّبُ، فإذا عرفت من أنت عرفت ربّك، وإذا لم تعرف من أنت ما عرفت الله عزّ وجل، كلّما ازددت معرفةً بذاتك ازددت تواضعاً لربّك، وكلّما ازددت معرفةً بربّك صغرت ذاتك، المتكبّر لا يعرف الله هذه قاعدة، كلّما تضخّمت ذاتك كان ذلك على حساب عبوديّتك لله عزّ وجل، وكلّما نَمَت العبوديّة عندك لله عزّ وجل تضاءلت ذاتك، وعرفت حجمك الحقيقي، وعرفت حدّك فوقفت عنده

الإيمان بالله وباليوم الآخر شيئان مُتلازمان:

قال تعالى:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26))

أي خاضعون:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

الحقيقة أن الشيء الذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى كثيراً ما ذكر الإيمان به وقرنه بالإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالله وباليوم الآخر شيئان مُتلازمان متلاصقان، فإذا آمنت بالله ولم تؤمن باليوم الآخر ورأيت الدنيا هي كل شيء انحرفت عن أمره، أما إذا آمنت بوجود الله خالقاً ومربياً ومسيراً، وآمنت أنه لا بدّ من أن ترجع إليه، وأن تقف بين يديه، وأن يسألك عن كل شيء، عن كل عمل، عندئذٍ يأتي الإيمان بالله مع الإيمان باليوم الآخر متلازماً، ما الشبهة التي ترد على الكفّار حينما لا يؤمنون

باليوم الآخر ؟ يتساءلون في البعث والنشور كيف يعيد الله هذا الخلق ؟ شيء صعب، ردَّ الله عليهم بهذه الآية، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

بدأه، خلق السماوات والأرض، خلق الشمس والقمر، خلق النجوم والمجرّات، خلق الإنسان، خلق الجبال، والبحار، خلق الأسماك، والأطيار، لكن كل هذا سوف يُعاد

الحظوظ وزّعَت في الدنيا توزيع ابتلاء ولابدّ من أن توزّع في الآخرة توزيع جزاء:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

السؤال الدقيق: لماذا يعيده ؟ ليتحقّق اسم الحق، ليتحقّق اسم العدل، لأن الله سبحانه وتعالى وزّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء ؛ فلان ابتلي بالغنى وآخر بالفقر، ذاك بالقوة وذلك بالضعف، وغيره بالذكاء أو بقلّة الذكاء، فلان بالوسامة وصاحبه بالدمامة، هذا الغني ماذا فعل بالمال ؟ والفقير ما رد فعله؟ هذا القوي ماذا فعل بقوّته ؟ والضعيف ما موقفه؟ هذا الذكي في أي شيءٍ سخَّر ذكاءه ؟ وهذا الذي أقل ذكاءً ماذا فعل ؟ هذا الدميم هل صبر على دمامته ؟ وهذا الوسيم هل تاهَ بجماله ؟

الله عزّ وجل وزّع الحظوظ على مستوى الدخل، والمال، والزوجة، والأولاد، والمسكن، والمكانة الاجتماعيّة، كل شيءٍ لك منه نصيب هو حظُّك من الله عزّ وجل، وزّعت الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، فإذا وزعت توزيع ابتلاء ولم يكن هناك آخرة فهذا ظلمٌ شديد، ما ذنب الضعيف والفقير ؟ وما ذنب المريض والدميم ؟ وما ذنب العاجز والمعتوه ؟ ما ذنب هؤلاء ؟ لا، الحظوظ وزّعَت في الدنيا توزيع ابتلاء، ولا بدَّ من أن توزّع في الآخرة توزيع جزاء لذلك من لوازم أسماء الله الحسنى أن يعيد الخلق مرّةً ثانية، تسوّى الحسابات، تسوّى الأمور، يُقتصُّ من الظالم، ينتصر المظلوم، يُقتَصُّ من الغني المُسْرِف، يُكَرَّم الفقير الصابر، لا بدَّ من يومٍ آخر تسوى فيه الحسابات لأن الله له أسماءٌ حسنى، أسماؤه حسنى، أن يخلق أناساً أقوياء وأناساً ضعفاء، أناساً معتدين وأناساً معتدى عليهم، أناساً أغنياء أناساً فقراء، هكذا وتنتهي الحياة ولا شيء بعد الموت ؟ هذا لا يتناسب مع كمال الله عزّ وجل

الله تعالى يبدأ الخلق ثم يعيده كي يدفع كل إنسانٍ ثمن اختياره:

إذاً:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

يعيده

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(15))

(سورة طه)

يعيده كي يجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، يعيده كل يدفع كي إنسانٍ ثمن اختياره، ثمن موقفه، ثمن إيمانه، ثمن كفره، ثمن طاعته، ثمن معصيته، ثمن إقباله، ثمن إدباره وهكذا:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

لكن أيها العباد إذا ظننتم أن إعادة الخلق شيءٌ صعبٌ فهذا عندكم لا عند الله عزّ وجل، أنتم إذا صنعتم جهازاً أو أداةً أو قطعة أثاثٍ، إنّ أصعب شيءٍ في صناعتها المرّة الأولى، المرّة الثانية تكون أخف وأسهل، هذا من طبيعة البشر ؛ لكن الله عزّ وجل فيما أجمع عليه المفسّرون البدء كالإعادة، لأن الله عزّ وجل لا نهاية لقدرته، لا حدود لقدرته، فالبدء بالخلق كإعادته، ولكن قرّب الله المعنى إلينا وقال: أنتم إذا أعدتم صنع الشيء يبدو عليكم هيناً في المرّة الثانية، فهذا تقريبٌ لأذهان الناس

العزيز هو الشيء الذي يقلّ وجوده وتشتدّ الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه:

بعضهم قال: كلّما فكّرتم في ملكوت السماوات والأرض، وتعرّفتم إلى عظمة الله عزّ وجل، رأيتم الإعادة أهون عليه، كلّما ازددتم تعظيماً لقدرة الله عزّ وجل ولحكمته ولعلمه رأيتم الإعادة أهون:

(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27))

المثل الأعلى، أي أن الله عزّ وجل ليس كمثله شيء، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك:

(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى (27))

أحياناً تستخدم أمثلة كثيرة لتوضيح بعض الحقائق، لكنها لا تنطبق على حضرة الله عزّ وجل إلا من باب التقريب، دائماً إذا أردت أن تضرب الأمثال قل: لله المثل الأعلى كي تنجو من التجسيم، تنجو من أن تشبّه الله بخلقه:

(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27))

كلمة العزيز، أن الشيء إذا كان نادراً سُمِّيَ عزيزاً، فإذا اشتدَّت الحاجة إليه سمي عزيزاً، فإذا صَعُبَ الوصول إليه سمي عزيزاً، فالعزيز هو الشيء الذي يقلُّ وجوده، وتشتدُّ الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، هذا التعريف اللغوي

لو أردنا أن نطبّق هذا التعريف على اسم العزيز، الله عزّ وجل لا إله إلا هو، هذه الصفة ندرة الوجود، كمالها أن يصبح هذا الشيء واحداً لا مثيل له، إذاً أكمل صفةٍ في المقطع الأول ندرة الوجود الشيء عزيز، فالله واحد لا شريك له، ليس كمثله شيء

الله سبحانه وتعالى يحتاجه كل شيء:

الآن كلّما اشتدَّت الحاجة إلى شيءٍ سمي عزيزاً، الهواء عزيز لأننا بأشد الحاجة إليه، لكن الله سبحانه وتعالى يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، الابن يحتاج والده، عليه أن يمدَّه ببعض الدراهم، ببعض التوجيهات، أن يسكنه في بيت، أن يُطْعِمَهُ، لكن أعضاء الابن مستقلّة عن الأب، لكن الله سبحانه وتعالى كما يشرح العلماء يحتاجه كل شيء

كلمة شيء من أوسع الكلمات الدالّة على الجماد، والحيوان، والنبات، من الذرّة حتّى المجرّة، هذا هو الشيء، يحتاجه كل شيء في كل شيء، ويصعب الوصول إليه، أما بالنسبة إلى الله عزّ وجل يستحيل الوصول إليه، بمعنى يستحيل أن تصل إليه وتحيطَ به، لا تدركه الأبصار:

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من آية " 255 ")

وقال:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا(85))

(سورة الإسراء)

تصل إليه عبوديّة، ولن تصل إليه إحاطة، إذاً:

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27))

حكيمٌ في خلقه، حكيمٌ في أفعاله، حكيمٌ في صفاته، في خلقه، وفي أفعاله

الشرك الخفي :

الآن إذا آمن بعضهم بالله إيماناً سطحياً، وانعقدت آمالهم على غير الله، وتوجّهوا لغير الله، فقد أشركوا، وهذا هو الشرك الخفي، الجلي أن تعبد غير الله، والخفي أن تعقد الآمال على غير الله، أن ترجو غير الله، أن تحب غير الله، أن تخاف من غير الله، هؤلاء الذين عقدوا آمالهم على غير الله أشركوا، وربنا

عزّ وجل يُفَنِّدُ عقيدة الشرك، يفنِّدها أدقّ تفنيد، لا بأفكار مجرّدة وبتعريفات دقيقة، لا، بل بشكل مبسّط منتزع من حياتنا، قال:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ (28))

من واقع حياتكم، من تجارتكم، من حياتكم الاجتماعيّة، تاجر عنده محل تجاري ضخم وله قيمة عالية جداً، في أروج سوق في المدينة، ومساحته كبيرة، وعند هذا التاجر موظّف صغير يقوم بخدمات عاديّة كأن يجلب القهوة والشاي مثلاً، قال:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ (28))

فهذا الموظّف الذي في هذا المحل الكبير والذي له أجرٌ يسير، وعملٌ محدود، هذا الإنسان الصغير هل بإمكانه أن يتصرف بملكية هذا المحل ؟ هل بإمكانه أن يغيّر نوع البضاعة ؟ هل بإمكانه أن يعقد صفقة؟ هل بإمكانه أن يجلس معك على الحساب آخر السنة ؟ ويقول: أين نصيبي ؟ كم ربحت ؟ هل بإمكانه أن يفعل هذا ؟ هو ليس له شيء في هذا المحل لأنه موظّف محدود

لا شريك لله الواحد الأحد:

ربنا عزّ وجل يقول:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ(28))

طبعاً الشريك يخاف شريكه، ويحسب له حساباً، له حقٌ عنده، له نصف الأرباح، يسأله عن الحسابات، يسأله عن قيمة الأرباح، الشريك يحاسِب، الشريك له الحق أن يَطّلع، لكن هل تقبل أنت من عامل في محلِّك التجاري أن يعاملك كشريك ؟ ماذا ربحت اليوم ؟ أين الحسابات ؟ أين أنت ذاهب ؟ لو أن صاحب المحل خرج يقول له: إلى أين أنت ذاهب ؟ كم ستغيب ؟ هل تقبل أن يقف هذا الموقف صانعٌ في محلِّك التجاري ؟!!

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ(28))

هذا الموظّف الصغير لم تخلقه أنت، ومع ذلك لا ترضى أن يسألك، ولا ترضى أن يشاطرك الأرباح، أنت لم تخلقه، فكيف بالله العظيم الذي خلق هذا المخلوق، هو خلقه، هو أوجده، وهذا المخلوق يدّعي أنه شريكٌ لله عزّ وجل، يدّعي أنه يفعل، ويتصرف، وينفع، ويضر، والأمر بيده، إذاً كما أنك كإنسان لا ترضى لموظّفٍ صغيرٍ عندك في محلك الكبير أن يسائلك ويتدخل في أمورك وتجارتك، فكيف ترضى

أن يكون مخلوقٌ لله عزّ وجل يدّعي أنه شريكٌ لله ؛ في تصرفاته، وفي نفعه، وفي ضرّه، وفي فعله، وفي تركه ؟

المؤمن يسير وفق الشرع أما غير المؤمن فيسير وفق الهوى:

إذاً:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ(29))

أيها الأخوة الأكارم يجب أن تُصَنِّفَ نفسك أحد شخصين ولا ثالث لهما، إما أن تنطلق في تصرُّفاتك، في مواقفك، في علاقاتك، في كل شيءٍ تفعله من هوىً أو من علم، إما أن تنطلق من هوى نفسك، أو من العلم بالله عزّ وجل، فالمؤمن يسير وفق الشرع، يسير وفق ما يمليه عليه منهج الله عزّ وجل، أما غير المؤمن يسير وفق الهوى، وفق نزواته، وفق شهواته، وفق ميوله الرَخيصة، إذاً:

(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ (29))

ظلموا مطلقة ؛ ظلموا أنفسهم، وظلموا أهلهم، وظلموا مصيرهم ما عرّفوها بربها، وظلموا إخوانهم، وظلموا من حولهم

عدم الاهتداء إلى الله عزّ وجل إلا إذا بحثت عن أمر الله:

قال تعالى:

(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29))

الذين ظلموا من صفاتهم أنهم يتّبعون أهواءهم، وعلى الإنسان ـ في كل عملٍ يعمله وقبل كل موقفٍ يقفه ـ أن يسأل نفسه هذا السؤال: أنا بهذا الموقف هل أتبع الهوى أم أتبع العقل ؟ هل أتبع الشرع أم أتبع المَيْل ؟ هل أتبع مصلحتي أم أتبع أمر ربّي ؟ النبي عليه الصلاة والسلام في كل موقفٍ حتّى إذا غضب كان يغضب لله عزّ وجل، فلن تكون مؤمناً ولن تهتدي إلى الله عزّ وجل إلا إذا بحثت عن أمر الله، ووقفت الموقف الذي يرضي الله في كل شؤون حياتك، هؤلاء الذين ظلموا، وحينما أطلق الله الظلم أي جعله شاملاً، ظلم نفسه أي حرمها من معرفة الله، ومن الآخرة، حرمها من سعادةٍ أبديّة، من لذّة القُرْب، حرمها من تجلي الله، حرمها من التوفيق والسعادة، حرمها من السرور والاستقرار، من الأمن والطمأنينة، حرمها من شعورها أنها راضيةٌ لله عزّ وجل، هذه الخيرات الثمينة كلها قد حُرِمَ منها الإنسان، لماذا ؟ لأنه اتبع هواه بغير علم

هل يُفْهَم أنه يوجد هوى بالعلم ؟ ممكن نفهم الآية فهماً دقيقاً، أن الله عزّ وجل أودع في النفس الشهوات، هذه ميول، أهواء، ولكن ما هي القناة التي سَمَحَ بها الشرع لتصريف هذا الهوى ؟ حبُ النساء له قناةٌ واحدة هي الزواج

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(7))

(سورة المؤمنون)

قنوات شرعية سمح الله عز وجل بها لتصريف الهوى:

إذاً هوى النساء له قناةٌ وحيدةٌ نظيفةٌ سمح بها الشرع، وأمر بها، ويرضى عنك بها ولا غضاضة وهي الزواج، المؤمن يتبع هواه بعلمٍ أي أنه وضع ميوله وفق منهج الله عزّ وجل، المال محبّب، الله عزّ وجل أودع في الإنسان حبّ المال، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ)

(سورة آل عمران: من آية " 14 ")

هناك عدّة وسائل لكسب المال، هناك وسائل محدودة سمح بها الشرع، الكسب الحلال، الميراث، الهبة، إما أن توهب هذا المال هبةً صحيحةً أساسها الرضا من دون تخجيل أو استحياء، الهبة، أو الميراث، أو الكسب المشروع، وهناك عشرات بل مئات الأساليب غير المشروعة:

((من أصاب مالاً من نهاوش أذهبه الله في نهابُر))

[ابن النجار عن أبى سلمة الحمصى]

بالخداع، والكذب، والتدليس، والغِش، والإيهام، والتخويف، واستخدام القوّة تبتز أموال الآخرين، أو افتقار الناس لعلمك أنت مصدّق كطبيب، أنت محامٍ موثوق عند الناس، تقول له: هذه الدعوى ناجحة ولكن أعطني أتعابي مقدّماً، الطبيب يقول لهذا المريض: افعل كذا، ائتني بهذا التحليل، تعال مرّةً ثانية، افعل كذا، أنت مصدّق، هناك آلافُ آلاف الأساليب غير المشروعة لكسب المال، المال محبّب عند كل إنسان، لكن المؤمن أنفذ هذه الرغبة في القناة التي شرعها الله عزّ وجل فقط، حتّى اللسان، الحديث محبّب للإنسان أما هناك غيبة، ونميمة، وبهتان، وإفك، وسخرية، واستعلاء، وكبر، وتجريح ؛ وهناك دعوة إلى الله، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، ونصيحة، هناك مزاح بريء كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام، هناك أيضاً قنوات للسان مسموح بها، السماع:

((مَنْ جَلَسَ إِلَى قَيْنَةٍ يَسْمَعُ مِنْهَا صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الْآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ]

هناك أشياء تسمعها فتعصي الله، لكن سماع القرآن، سماع مديح النبي عليه الصلاة والسلام، سماع الشيء الذي سَمَحَ به الشرع ممكن، فهذه الأذن، وهذه العين، وهذا اللسان، وهذه اليد، وهذه الرّجل، يمكن أن تتحرّك وفق منهج الله، ممكن لهذه الشهوات أن تُفَرّغ في القنوات الشرعيّة التي أرادها الله عزّ وجل، هكذا المؤمن، لذلك المؤمن يَحْرَصُ حرصاً بالغاً على معرفة حكم الله في هذا الأمر، ما حكم هذه القضيّة أهو فرضٌ ؟ أهو واجبٌ ؟ أهو مندوبٌ ؟ أهو مباحٌ ؟ أهو مكروهٌ ؟ أهو حرامٌ ؟ ما حكم هذا الأمر ؟ كيف أتزوج ؟ كيف أطلِّق ؟ كيف أخطب ؟ كيف أفعل ؟ كيف أبيع ؟ كيف أشتري ؟ كيف أزور أقاربي ؟ كيف أصل رحمي ؟ من ألتقي بهم ؟ من يجوز أن أختلي بها من محارمي ومن لا يجوز ؟ من لي أن أصافحها ؟ وهكذا

الشهوة إما أن تكون قوّةً محرّكة وإما أن تكون قوةً مدمِّرةً:

هذا الإنسان الشارد الكافر يعيش على هامش الحياة بلا ضابط، كان أمره فُرُطاً، يعيش وفق نزواته الشخصيّة:

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بربْوَةٍ ثَلاثًا ألا إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بسَهْوَةٍ))

[مسند أحمد عن ابن عبّاس]

يسترخي، يبحث عن المال من أي طريق، يقضي لذّته بأي وسيلة، يستمتع من دون حرج، ما في عنده حَرَج، ذنب المنافق كالذبابة، وذنب المؤمن كالجبل الجاثم على صدره، فلذلك:

(بَلِ اتَّبَعَ الّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (29))

تَعَلّم كيف تُفَرّغ هذه الأهواء في قنواتها الصحيحة، فصحيح أنك إنسان من لحم ودم، تعلّم العلم، اعرف أمر الله عزّ وجل كي تفرّغ ما عندك من أهواء في القنوات الصحيحة، مفطورٌ على العلو في الأرض لك أن تعلو عند الله، لك أن تبتغي العِزّةَ عند الله، تشعر بنشوة إذا كنت عند الله أثيراً، إذا كان الله يحبُّك، إذا كان الله يرعاك ويحفظك تشعر أن هذا الميل فُرّغ في العمل الصالح، فكل ميلٍ أودعه الله فيك إما أن يُفرّغ في قناةٍ قذرة، قناةٍ منحرفة ؛ وإما أن يفرّغ في قناةٍ نظيفة، المثل الدقيق أن هذا الوقود السائل ـ البنزين ـ وقود متفجّر، لو وضِعَ في مستودعه المحكم، وسار في المواسير المحكمة إلى الموزّع، ومنه إلى غرف الاحتراق، وأصابته الشرارة في الوقت المناسب، وانفجر فدفع المكبس، وهذه المكابس المتلاحقة تشكل حركة دورانيّة، نقلتك أنت وأهلك إلى مكانٍ جميل بهذه المركبة عن طريق هذا الوقود السائل، أما هذا الوقود السائل نفسه لو صببته على هذه المركبة وجاءتها شرارة لأحرقتها الشهوة إذاً إما أن تكون قوّةً محرّكةً وإما أن تكون قوةً مدمِّرةً، فانتبه، ليس هناك إنسان بلا شهوات، حتّى المؤمن

على الإنسان أن يستقيم على أمر الله أو يستعد للعذاب والبلاء:

النبي الكريم ماذا قال ؟ قال:

((لا يَخْلُوَنّ رَجُلٌ بامْرَأةٍ إلا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشّيْطَانُ))

[سنن الترمذي عن ابن عمر]

أي رجل مع أي امرأة، هذا منهج الله عزّ وجل، فتعيش حياة كلها دعة وأمن، أما إذا خرقت الحدود فأنت من الرحمة مطرود، إذا خرقت الحدود خرجت من مظلّة الله عزّ وجل، إذا خرقت الحدود تعرّضت للبلاء

" يا رسول الله عظني ولا تطل "، قال: " قل آمنت بالله ثمّ استقم "، قال: " أريد أخفّ من ذلك " قال: " إذاً فاستعدّ للبلاء "

((عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ أبيهِ أنّ رَجُلاً قالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ أخْبِرْنِي أمْرًا فِي الإسْلَامِ لا أسْأَلُ عَنْهُ أحَدًا بَعْدَكَ، قالَ: قُلْ آمَنْتُ باللّهِ ثُمّ اسْتَقِمْ قالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ فَأيّ شَيْءٍ أتّقِي ؟ قالَ: فَأشَارَ بيَدِهِ إلَى لِسَانِهِ))

[مسند أحمد عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ أبيهِ]

ملخّص الملخّص: إما أن تستقيم على أمره وإما أن تستعد للعذاب والبلاء، هذا كلام مُجْدٍ كلام فيه صراحة ليس فيه مجاملة، إما أن تستقيم على أمره وإما أن تستعدّ للبلاء، والله سبحانه وتعالى لن يدعنا من علاجه

(فَإنْ كَذّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(147))

(سورة الأنعام)

إذا رأيت أُناساً يَدّعون أنهم مسلمون وتأتيهم المصائب من كل جانب يجب أن تقف متأمّلاً قليلاً

على المؤمن أن يوقع أهواءه المشروعة وفق منهج الله وشريعته:

قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

معنى هذا أن هناك خطأ، هناك خطأ بالإيمان، هناك خطأ بالشُكران، خلل بالاستقامة، هناك سوء فهم، هناك عقيدة فاسدة، انحراف في السلوك، تجاوز، ظلم

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنّصَارَى نَحْنُ أبْنَاءُ اللّهِ وَأحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أنْتُمْ بَشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: من آية " 18 ")

أي لو أنكم صادقون في أنكم أحباب الله عزّ وجل لما عذّبكم، إذاً الإنسان يفكِّر لئلا يضيع العمر سُدى، لئلا يضيع العمر بين مجيء وذهاب من دون تطبيق، لئلا يقول إنسان بعد حين: ما استفدت شيئاً، نفسي قد مَلّت وسَئِمَت، نقول له: لا، أنت لو طبّقت لذابت نفسك حبّاً لله عزّ وجل واندفاعاً إلى طاعته، هذا ما توحيه كلمة:

(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (29))

إذاً تعلّموا من أجل أن توقعوا أهواءكم المشروعة وفق شريعة الله، وفق ما أراد الله، تعلّموا من أجل أن تفرغوا ميولكم التي أودعت فيكم في القنوات الشرعية النظيفة، فالمؤمن يأكل، ويشرب، ويتزوج، ويتعلّم، ويتنزّه لكن ضمن القانون، لا اختلاط، ولا مشروبات محرّمة، ولا انتهاك لحرمات الله، ولا تجاوزات، ولا كذب، ولا غيبة، ولا نميمة، ولا كسب مال حرام، ولا عدوان، ولا ظلم

ليس في الإسلام حرمانٌ أبداً ولكن هناك تنظيم:

إذاً تعلموا العلم لأن:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك]

فريضة، كما أن الهواء فريضة لوجودك، طلب العلم فريضةٌ لسعادتك، من أجل أن تقع هذه الأهواء في موقعها الذي أراده الله، من أجل أن تُفرغ هذه الميول التي أودعها الله فيك في القنوات التي شُرِعَت لها لذلك أقول هذه الكلمة وأعني ما أقول، وأتمنّى أن تدقِّقوا فيها: ليس في الإسلام حرمان، قد يتوهَّم المتوهِّمون أن الإنسان إذا أسلم قُيِّد، هذه حُرِمَهَا، وهذه حرمها، لا، ليس في الإسلام حرمانٌ أبداً، ولكن في الإسلام تنظيم، هذه الميول تُنَظَّم، هذه الشهوات تُفَرَّغها في قنواتها الصحيحة، موضوع النساء يُحَلُّ في الزواج، وما سوى الزوجة غَضٌ للبصر، موضوع المال يُحلُّ في الكسب الحلال وفي الإنفاق الحلال، موضوع الأذن هناك شيءٌ يطربك، هناك شيءٌ لو عرفت ما فيه من طرب لعزفت عن كل طرب:

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ))

[سنن أبي داود عن أبي سعيد]

والله قال لي أحدهم ـ وأنا أثق بكلامه ـ أنه كان من هواة سماع الأشياء التي لا ترضي الله عزّ وجل، حينما تعرّف إلى الله أصبح يكرهها، وأصبح يحب كلام الله عزّ وجل.

((الله أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت له))

[عبد الله بن محمد الرازي عن أبي سليمان الداراني]

التوبةُ التوبة، الطاعةُ الطاعة، فالذي يسعدك أن تطبّق أوامر الله عزّ وجل، أن تعقد الصلح معه، أن تفتح معه صفحةً جديدة، أن تجعل من بيتك بيتاً مسلماً ؛ من أهلك، من زوجتك، من بناتك، من أولادك، أن تجعل من عملك عملاً صالحاً، أن تجعل مهنتك واقعةً في الطريق المشروع، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، اختر مهنةً شريفة تنفع بها المسلمين، اختر سلوكاً صحيحاً تنفع به الناس من أجل أن يرضى عنك ربُّ الناس، لأن هذه الدنيا ساعة اجعلها طاعة

كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طـال فلا بدّ من نزول القبر

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (08-14): تفسير الآيات 30-32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-03-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثامن من سورة الروم.

هذه الآية من أبرز آيات هذه السورة فهي من أصول الدين:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرت اللّهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(30))

(سورة الروم)

هذه الآية أيها الأخوة من أبرز آيات هذه السورة ؛ بل هي من أدقِّها، بل إنّ هذه الآية من أصول الدين، ما علاقتها بالتي قبلها ؟ بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى آياته الدالّة على عظمته:

(فَسُبْحَانَ اللّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيّ مِنَ الْمَيّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيّتَ مِنَ الْحَيّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدّةً وَرَحْمَةً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللّيْلِ وَالنّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزّلُ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلّ لَهُ قَانِتُونَ (26) وَهُوَ الّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27))

إلى آخر الآيات، وبعدها:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

إذا تيقّنت أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، وأنه هو الرب، وأنه هو المسيّر، وأن أسماءه كُلّها حُسنى، وأنه كاملٌ كمالاً مطلقاً، موجودٌ وواحدٌ وكامل، وأنّ الأمر كلّه بيد الله ؛ أمر حياتك، وأمر من حولك، وأمر ما حولك، إذا رأيت أن الله بيده كل شيء فماذا أنت صانع ؟ ماذا أنت فاعل ؟ إلى أين ينبغي أن

تتجه ؟ ماذا تعمل ؟ ما المطلوب منك ؟ أبعد كل هذه الآيات تتوجّه إلى غيره ؟ أبعد كل هذه الآيات تعقد الأمل على غيره ؟ أترجو غيره ؟ أتهاب غيره ؟ أتخشى غيره ؟ أتطمع في غيره ؟ أتطيع غيره ؟

على الإنسان الاتجاه إلى الله وحده و لا أحد سواه:

مثلاً لو أن لك معاملةٌ أو قضيّةٌ في ملف، إذا وقِعت بالموافقة فسوف يتحدّد مصيرك في الحياة، كأن تكون بعثةٍ دراسيّةٍ سوف تعود وأنت تحمل أعلى الشهادات وتحتل أعلى المناصب، توجّهت إلى هذه الوزارة، فيها آلاف الموظّفين، توجّهت إلى الأول فقال لك: لا أستطيع أن أوقِع لك هذه المعاملة، توجّهت إلى الثاني اعتذر، إلى الثالث لا يملك حقّ التوقيع، إلى أن ثبت لك أن من بيده توقيع هذه المعاملة هو فلان، ماذا عليك أن تفعل ؟ أن تدع كل هؤلاء، أن تُعْرِضَ عن كل هؤلاء، أن تهمل كل هؤلاء وتتجه إليه، وحالك مع الناس أن تتركهم، وأن تتجه إلى الله وحده، فهنا الله عزّ وجل بيّن آياته ونفى الشرك:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29) فَأَقِمْ وَجْهَكَ(30))

معنى ذلك أنك بعد هذه التحقيقات، وبعد هذا التدقيق، وبعد هذا الفَهْمَ، وبعد هذا البحث، وبعد هذا التأمّل، وبعد السؤال والجواب، وبعد التوضيح، وبعد التبيين، وبعد كل هذه الأدلّة القائمة على وجوده، وعلى وحدانيّته، وعلى كماله، واحدٌ في ذاته، في أسمائه، في صفاته، في تصرُّفاته، أمرك كلّه بيده، ماذا أنت فاعل ؟

الآية التالية كأنّها جوابٌ لكل هذه الآيات:

قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

كأنّها جوابٌ لكل هذه الآيات، ومن آياته، ومن آياته، ومن آياته، ومن آياته، كلها آياتٌ دالّةٌ على وجوده، ووحدانيّته، وكماله، وإن أشركت غيره تكن كهذا الذي بيّنه الله عزّ وجل:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ(28))

بعد أن بيّن وحدانيّته، وربوبيّته، وألوهيّته، وأن الأمر كله بيده، وأن الشرك ظلمٌ عظيم قال لك:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

على الإنسان أن يبذل ما في وسعه في التوجه إلى الله:

أيها الأخوة هذه الآية كما قلت قبل قليل آيةٌ من أصول الدين، من أبرز آيات هذه السورة، ولو فهمناها حقّ فهمها، ولو وقفنا على دقائقها وأبعادها ما وسعنا إلا أن نتوجّه إلى الله وحده:

(فَأَقِمْ (30))

كلمة فأقم، الإنسان كما يقولون لا يكون قادراً على أن يحقِق كل أفعاله إلا إذا كان قائماً، وهو مضجع له حركة محدودة، وهو قاعد له حركة محدودة، أما إذا كان الأمر يعنيه وكان الأمر ذا بال، الأمر خطير، الأمر مصيري يقف، قال:

(فَأَقِمْ (30))

إذاً معنى القيام هنا معنى كمال القدرة، أي يجب أن تبذل كل ما في وسعك، يجب أن تستنفد قدرتك، يجب أن تعطي كل ما عندك:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (30))

الانصراف الكلي إلى الدين مثّله الله عزّ وجل بالآية التالية: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا:

كيف عندما يكون مع الإنسان ضغط مرتفع وخطير، وهو يقيس ضغطه تجد أن عينيه مركّزتان على ساعة الضغط، لا يلتفت عن المؤشّر، كيف إذا كان يقود سيارة بسرعة فائقة عيناه على الطريق لا يمكن أن يلتفت، لأن الالتفات يعني الهلاك، كيف إذا كان معه ورم وأخذ خزعة للتحليل، حينما يمسك بالتحليل ويفتح الورقة كيف يركّز عينيه على هذه الورقة ويقرأ إذا كان ورماً طبيعياً أو غير طبيعي، كأن الله سبحانه وتعالى عبّر ـ الفكرة دقيقة ـ كأن الله سبحانه وتعالى عبّر عن التفات الإنسان إلى ربّه، وعن تفكّره في آلائه، وعن طاعته التامّة له، وعن أعماله الصالحة، وعن اهتمامه الشديد بعباداته، عن اهتمامه الشديد بأوامر الله عزّ وجل، هذا الانصراف الكلي، هذا الاستغراق في كمال الله عزّ وجل، هذا الانصياع إلى أمر الله، هذا الإقبال على الله، هذا التركيز، هذا الاهتمام، هذا الصدق، هذا الانصراف، هذه الحالة وما فيها من تفكّر، ومن عبادات، ومن صلوات، ومن أدعية، ومن حضور مجالس علم، ومن اهتمام بأمر الله في مأكله، ومشربه، ومتجره، ومصنعه، هذا الانصراف الكلي إلى الدين مثّله الله عزّ وجل بصورة فقال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

رأي بعض المفسرين بإقامة الوجه:

قال بعض المفسِّرين: إقامة الوجه أي إقامة الوجْهَةِ، أي اتجاهك إلى الدين، وقال بعضهم: إقامة الوجه أي تصويب العمل وفق ما أمر الله عزّ وجل، والأصحُّ أن هذه الكلمة تجمع بين المعنيين، أن تتجه بكليّتك إلى الله عزّ وجل، وأن تجعل من عملك مطابقاً لأمر الله ونهيه تماماً، أي تصحيحٌ في الوجهة وفي السلوك، تصحيحٌ في الوجهة إلى الله عزّ وجل وفي السلوك:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ (30))

والوجه يُعَبَّر به عن ذات الإنسان:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26)وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ(27))

(سورة الرحمن)

وقال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ (30))

الله سبحانه وتعالى يخاطب من ؟ يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام، أي يا محمد أقم وجهك للدين، هناك إنسان يجعل الدين وراء ظهره، لا يبالي أكان مطعمه من حلال أم من حرام، لا يبالي أصلى أم لم يصل، لا يبالي أوقع في معصيةٍ أم لم يقع، لا يبالي أكان الله راضياً عنه أم ساخطاً، لا يبالي، لا يدقِق، ليس معنياً بهذا الموضوع، ليس مهتماً به، لا يعلِّق عليه كبير أهميَّةٍ، فسيَّان إن كان مستقيماً أو منحرفاً، طائعاً أو عاصياً، مخلصاً أو خائناً، مقبلاً أو مدبراً، ليس عنده ذلك الصدق وهذا الاهتمام.

سمي الدينُ ديناً لأن كل الخلق يدينون له ويخضعون له:

ربنا عزّ وجل يقول:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (30))

كلمة دين ماذا تعني ؟ دان إلى الشيء أي خضع له، ويوم القيامة يسمى يوم الدينونة، يوم الخضوع، والإنسان لما أودع الله فيه من عقلٍ ولما أودع الله فيه من فطرة عالية لا يدين إلا للحقّ والكمال ـ دقِق ـ الإنسان بما أودع الله فيه من عقلٍ وما فطره عليه من فطرة عاليةٍ لا يدين ولا يخضع إلا للحق وإلا للكمال، فأنت لن تحترم إنساناً كاذباً، لن تخضع له نفسياً، لن تبجِّله، لن تعظِّمه، لن تنساق له، لن تنقاد له ما دام كاذباً، ما دام محتالاً، ما دام خائناً، ما دام متلوّناً، ما دام له وجهان، له موقفان، الإنسان غير الأخلاقي لا يُلفِتُ نظرك، لا يجذب اهتمامك، لا يصرفك إليه، إذاً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (30))

سمي الدينُ ديناً لأن كل الخلق يدينون له، يخضعون له، ما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بشيءٍ وقال العقل: لا، ولا نهى عن شيءٍ وقال العقل: نعم، الدين كله حق قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من آية " 9 ")

النبي عليه الصلاة والسلام عرفه الصحابة للنجاشي بقولهم: "حتَّى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه... "، لو كان مخطئاً، لو كان منحرفاً ـ لا سمح الله ـ ما دان الناس له، ولا خضعوا لسنَّته، ولا عظَّموه، ولا أحبُّوه بعد مماته بألفٍ وخمسمئة عام.

الإنسان يخضع للحق ويخضع للكمال:

إذاً بالدين يوجد شيئيان الصحة العقلية والكمال النفسي، وأنت أيها الإنسان لا تخضع ولن تخضع إلا لما هو صحيحٌ عقلياً ولما هو كاملٌ نفسياً، فسمي الدينُ ديناً لأنه نظام الله عزّ وجل، لأنه دين الله، لأنه من عند الله، لأنه نزل على أكمل الخلق وحبيب الحق، فسمَّاه الله ديناً أي يُدانُ له، يُخْضَع له، أنت لا تخضع لقوله وتقول: اثنان زائد اثنين يساوي خمسة بل تقول: لا، بملء فمك، لكن إذا قيل لك: اثنين زائد اثنين يساوي أربع تقول: نعم هذا صحيح، إذاً أنت لا تخضع إلا للحق لأن الله أودع فيك عقلاً، ولا تخضع إلا للكمال لأن الله فطرك فطرة عاليَة، إذاً عندما سمَّى الله هذا النظام الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ديناً فهو اسمٌ على مسمًّى، لأن النفوس تخضع له، تخضع لتعاليمه، تخضع لما في القرآن من آياتٍ كونيَّة، تخضع لما يتصف به النبي من صفاتٍ أخلاقيَّة، فالإنسان يخضع للحق ويخضع للكمال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

إذاً إقامة الوجه تعني الإقبال على الله عزّ وجل، والانصراف عمن سواه، إقامة الوجه للدين تعني أيضاً أن تجعل عملك مطابقاً لمنهج ربك في كل حركاتك اليوميّة، عندنا منهج افعل ولا تفعل، عندنا أمر وعندنا نهي، يجب أن تجعل من سلوكك اليومي مطابقاً لهذا الأمر والنهي، هذا معنى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ (30))

أي أن تركِّز عينيك في شيء لا تحيدُ عن هذا الشيء مهما حدث من ظروف صعبة، فهذه استعارةٌ تمثيليَّة لحالة المؤمن مع ربّه، الدين عنده هو كل شيء، طاعة الله هي كل شيء، إقباله على الله هو كل شيء، رغبته في الدار الآخرة هي كل شيء، توقيع أعماله وفق الشرع هو كل شيء، حبُّه لله هو كل شيء، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (30))

العبادة هي طاعة طوعيّة ممزوجة بمحبّةٍ قلبيّة:

أما حنيفاً، الأحنف هو الذي يميل في سيره، حنيفاً أي مائلاً، فما الفرق بين طاعة الله عزّ وجل وطاعة إنسانٍ قوي ؟ طاعة الإنسان القوي قد لا يُرافقها مَيْلٌ له، في نفور لكنه قوي، تطيعه وأنت لا تحبُّه، وإذا أحببته ولم تطعه لست عابداً له، فمن تعاريف العبادة أنها طاعةٌ طوعيّةٌ ممزوجةٌ بمحبّةٍ قلبيّة، مما يميّز الدين عمّا سواه أن الإنسان يطيع الله ويحبُّه، فمن أحبَّه ولم يطعه ما عبده، ومن أطاعه ولم يحبَّه ما عبده، لا تكون العبادة عبادةً إلا إذا كانت طاعةً ممزوجةً بمحبّة، أو العبادة نهاية الطاعة مع نهاية المحبّة، أن تطيعه إلى أقصى درجة، وأن تحبَّه إلى أقصى درجة، إذاً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

قلنا: القيام هو التعبير عن كمال القدرة، أي ابذل كل جهدك، ابذل كل طاقتك، ابذل كل وقتك، ابذل كل مَلَكَاتك في معرفة الله وفي طاعته وفي التقرُّب إليه، الوجه أي يجب أن تتجه إلى الله وأن توقِع أعمالك وفق أمر الله:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (30))

لمَ يُدان له ؟ لأنه حقٌ وكمال، هذه قاعدة مهمّة جداً: النفوس جميعاً لا تخضع إلا للحق، لا تدين إلا للكمال، ما الذي يجعل الناس يحبونك ؟ أخلاقك، ما الذي يجعل الناس ينصاعون لك ؟ علمك الذي لا شائبة فيه، إذاً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

مائلاً إليه مُعْرِضَاً عمن سواه، هذا معنى حنيفاً بدقّةٍ بالغة، مائلاً إليه معرضاً عمن سواه.

الآية التالية تؤكِّد تطابق الدين تطابقاً تامّاً مع الفطرة:

الشيء الذي يلفت النظر أنه قال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرت اللّهِ الّتِي فطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا (30))

هذه الآية تؤكِّد تطابق الدين تطابقاً تامّاً مع الفطرة، ما يأمُرك به الدين هو ما تحتاجه فطرتك، لو فرضنا أعطينا أمراً بشرب الماء أنت ظمآن، فحينما تعطش، تظمأ تشعر أن كل خلية في جسمك تقول لك: أنا بحاجةٍ إلى الماء، حينما يظمأ الإنسان يشعر أن كيانه كله مهزوز، وأنه في أمسّ الحاجة إلى شربةِ ماء، فإذا جاءت التعليمات من جهةٍ ما: عليك أيها الإنسان أن تشرب وأنت في أمسّ الحاجة إلى الشرب، نقول: هناك تطابقٌ دقيقٌ بين هذه التعليمات وبين حاجة الجسم، هذا مَثَل.

أي أمر إلهي الفطرة في أمسّ الحاجة إليه، وأي نهيٍ إلهي الفطرة في بُنْيَتِها أبعدُ شيءٍ عنه، فالإنسان إذا كان باراً بوالدته أو بوالديه يشعر بطمأنينة، يرتاح، إذا أدّى ما عليه من واجبات، كانا في حالة مرضٍ فعالجهما، ينام مرتاح الضمير، هذه فطرته، الله عزّ وجل حينما أمرك ببرّ الوالدين نفسُك لا ترتاح إلا إذا كنت باراً بوالديك، فإذا كنت عاقاً لهما تشعر بالضَجَر، والتمزُّق، واختلال التوازن، إذاً أمر الله لك ببرّ والديك يقابله حاجة فطرتك إلى برّ الوالدين.

حينما يأمرك الله بالعدل وأنت تعدل في قسمتك، في معاملتك لأولادك، في معاملتك لموظّفيك، في معاملتك لإخوانك، في معاملتك لجيرانك، فطرتك، بنيتك النفسيّة ترتاح لهذا العدل وتأبى الظلم، إذاً إذا فعلت شيئاً أمرك الله به تشعر أن هذا العمل يريحك، يجعلك في سلام مع نفسك، يرتاح ضميرك، يرتاح خاطرك، ترتاح أعصابك، تطمئن نفسك، تشعر بثقة، تشعر بتفوُّق، إذاً ما هذا التطابق الدقيق بين الفطرة وبين أحكام الدين ؟

أمر الله ونهيه متطابقان تطابقاً تاماً مع الفطرة:

كنت ضربت من قبلُ مثلاً أعيده مرّةً ثانية: هناك خارطة لسوريّة نافرة، مجسّمة، لو ضربنا حولها إطاراً وصببنا فوقها جبساً سائلاً، وبعد أن جفّت هذه المادّة أصبح هناك قالب لها، لو وضعنا هذا القالب على هذه الخارطة هناك تطابق مئة بالمئة، هكذا الدين مع الفطرة تطابق تام، أحياناً تشتري قطعة لمركبتك من المعمل الصانع، تضع هذه القطعة في مكانها على مستوى ميليمترات، في أماكن القطع الثانويّة تأتي في مكانها الطبيعي لماذا ؟ نقول لأن هذه القطعة من المعمل الذي صنَعَ هذه المركبة، تطابق مئة في المئة، لذلك يجب أن تؤمن بهذا التطابق.

أنت إذا نفّذت أوامر الدين فقد حقّقت فطرتك، لبّيت نداء فطرتك، أعيد عليكم المثل الأول: إذا كنت في عطشٍ شديد، أو في ظمأٍ شديد، وشعرت أن كل خليّةٍ من خلاياك تقول لك: أريد أن أشرب، وجاءتك تعليمات: عليك أن تشرب، فهذا الذي تحس به في كل حُجَيْرَةٍ في جسدك إنما هو مطابقٌ لما في هذه التعليمات، إذاً الذي يسلك سبيل الله عزّ وجل في زواجه يسعد ؛ أما الزاني يشقى، يشعر بالكآبة، يختل توازنه، يشعر كأنه ارتكب جريمة وأن الأرض تضيق من حوله، يشعر أن السماء لا تسعه، وهذه المرأة إذا تزوّجت وفق كتاب الله وسنة رسوله تشعر بالطمأنينة ؛ فإذا زلّت قدمها تشعر بالانهيار، هذه هي الفطرة.

لنا أن نوسّع الموضوع ؛ الهرّة إذا أطعمتها قطعة لحمٍ تأكلها أمامك، هي مطمئنة أنها لا تفعل شيئاً مخالفاً للفطرة، فإذا خطفتها فإنها تأكلها بعيدةً عنك، إذاً هي تشعر، فالذي يريد أن ترتاح نفسه عليه أن

يحقِق السلام معها، الإنسان أحياناً ضميره يعذِّبه، ينهار من داخله، الإنسان أحياناً يختلُّ توازنه، الإنسان أحياناً يحتقرُ نفسه، الإنسان أحياناً يشعر بشقاءٍ ما بعده شقاء، لماذا ؟ إذا خالف فطرته، أو إذا خالف أمر ربّه، أبداً، هذه حقيقة مسلَّمٌ بها، أنت إذا اتبعت أمره وابتعدت عن نهيه تشعر بسلام مع نفسك، لأن أمر الله ونهيه متطابقان تطابقاً تاماً مع فطرتك، هذا الذي قاله الله عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

كلمة (فطرة) هي مركز الثقل في الآية:

إن فعلت هذا فقد حقّقت فطرة الله:

(الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (30))

إن فعلت هذا فقد لزمت فطرة الله التي فطر الناس عليها، فهذه المركبة صُمِّمَت لتسير على طريقٍ مُعَبَّد، فإذا سرت بها على طريقٍ وعرة كأنها تناديك وتقول لك: اجعلني على طريقٍ مُعَبَّدة، تصميم هذه المركبة لطريقٍ معبَّدة، فإذا خالفت ما صمِّمت له وسرت بها في طريقٍ وعرٍ كله حفر وأكمات تشعر أنها لم تُخْلَق لهذا الطريق، فأنت خالفت تعليمات الصانع، هذه الكلمة هي مركز الثقل في الآية:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرت اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (30))

أي يا عبادي أنا خلقتكم وفق بُنْيَةٍ مُعَيَّنة، وهذا الدين الذي أنزلته على محمدٍ عليه الصلاة والسلام متطابق تطابقاً تاماً مع بُنْيَتِكُم، فإن ائتمرتم بأمر الله وانتهيتم عما نهى عنه الله عزّ وجل فقد لزمتم فطرتكم، وحقّقتم هذه الفطرة، فسعدتم في الدنيا والآخرة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرت اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (30))

الفطرة أن تحبّ الكمال أما الصبغة أن تكون كاملاً فالفطرة شيء والصبغة شيء آخر:

بالمناسبة: الفطرة شيء والصبغة شيءٌ آخر، الفطرة أن تُحِبُّ الكمال، أن تحب العدل، أن تحب الرحمة، أن تحب الإحسان، وأما الصبغة أن تكون محسناً، أن تكون عادلاً، أن تكون رحيماً، كل مولودٍ يولد على الفطرة، فالسارقون إذا سرقوا شيئاً ثميناً يحبون أن يقتسموه بالعدل، فقد يقول بعضهم لبعض: " لا يجوز أن تفعل ذلك يا أخي، هذه لي "، شيء جميل والله، فكلُّكم سارقون، هؤلاء الذين يسرقون يقتسمون سرقاتهم بالعدل، هذه فطرة، هم ليسوا عادلين بهذا العمل ولكن تنقصهم الصبغة، الفطرة شيء والصبغة شيءٌ آخر، الفطرة أن تحبّ الكمال، أما الصبغة أن تكون كاملاً:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً)

(سورة البقرة: من آية " 138 ")

الصبغة أن تكون رحيماً، أن تكون عادلاً، أن تكون مُنْصِفَاً، أن تكون رقيقاً، أن تكون عطوفاً، هذه الصبغة، أما الفطرة أن تحبَّ العدل والرحمة والإنصاف وإلى ما هنالك:

(فطرت اللّهِ الّتِي فطرَ النّاسَ عَلَيْهَا (30))

هكذا خُلِقَت النفوس:

((يا داود ذكِّر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.))

[حديث قدسي رواه البيهقي عن عمير بن وهب]

الآية التالية صيغت صياغةً خبريّة يُراد بها الأمر والنهي:

قال تعالى:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ (30))

الآية دقيقة جداً، أي أيها الناس لا تبدِّلوا خلق الله، هذه آيةٌ صيغت صياغةً خبريَّة يُراد بها الأمر والنهي، الصياغة الإنشائيَّة، أي لا تبدِّلوا خلق الله، لا تخترعوا أوامر ونواهي تتناقض مع الفطرة، لا تحدثوا في حياتكم نظاماً يتناقض مع الفطرة، لا تبدِّلوا الدين تبديل يتناقض مع الفطرة، فهذه فطرة الله في دينه وفي خلقكم فإيَّاكم أن تحيدوا عن هذه الفطرة:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ (30))

المعنى الأول: أن هذه الفطرة ثابتة في كل إنسان، وفي كل زمان، وفي كل مكان، قديماً وحديثاً، الآن وغداً وبعد غد وإلى يوم القيامة، المحسن محبوب والمسيء مبغوض، المنصف محبوب والظالم مبغوض، من الآن إلى يوم القيامة، الذي يعطي للناس ما لهم ويأخذ ما له محبوب، والذي يأخذ ما ليس له مبغوض، هذه الفطرة:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ (30))

عندنا ثوابت في الكون، الآن أكبر نظريَّة فاسدة: أن الأخلاق تتبدّل بتبدُّل الظروف، هناك ثوابت في الحياة الإنسانية، هناك ثوابت فوق المكان والزمان وفوق كل شيء، نبدِّل نظام حياتنا، نبدل أثاث بيوتنا، نبدل ثيابنا، مثلاً أنماط طعامنا وشرابنا، أنماط السكن هذه متبدِّلة بحسب الظروف، بحسب الأماكن، بحسب البرودة والحرارة، بحسب الغنى والفقر، بحسب المواد الأوليَّة في كل منطقة، نوع الأثاث، نوع البيت، نوع الثياب، نوع الطعام، أنظمة التعليم تتبدّل، أنظمة التجارة تتبدّل، أنظمة الزراعة تتبدّل، أما في قيَم ثابتة، أن يسيء الإنسان إلى أمّه هذه قيمة ثابتة، هذه طبعاً قيمة مدانة في كل العصور، وفي كل

الظروف، وفي كل الأحوال، أن يكون الإنسان صادقاً هذه قيمة ثابتة، أن يكون الإنسان رحيماً هذه قيمة ثابتة، أن يكون الإنسان مُنصفاً هذه قيمة ثابتة.

السنن ثابتة في الدين وفي الخلق:

قال:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (30))

قواعد الفطرة، مبادئ الفطرة، هذه أشياء ثابتة فوق المكان والزمان، فوق التبدُّلات، فوق الظروف، فوق المُعْطَيات، فوق المُنْعَطَفات، فوق التحوُّلات:

(فطرت اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (30))

هذا المعنى الأول، أما المعنى الثاني: أي أن كل الناس وفق هذه الفطرة، لو جئت بإنسان مشرك ملحد، أحسن إليه تجد أنه يحبُّك، هكذا الفطرة، لو سألت امرأة غير مستقيمة إن كانت صادقة لقالت: إنني أحتقر نفسي لأنني أعرض مفاتني على الجمهور، لو سألتها بلسان الفطرة وكانت صادقةً مع نفسها لاحتقرت نفسها، وأنَّ هذه المرأة الساقطة تشتهي أن تكون مثل المرأة الكاملة لأن هذه فطرة، فلو دقّقت في أوامر الدين، كل أوامر الدين مُتَفِقَة مع الفطرة، فأنت إذا أطعت الله عزّ وجل لا تزيد عن أن تحقِّق فطرتك، وتشتري راحة نفسك، فالصادق محترم، والزاهد والعفيف في غنى، عنده حالة غنى:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

إذاً:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (30))

أولاً هذه السُنَن ثابتة إن في الدين وإن في الخَلق، وشيءٌ آخر، ليس هناك فرق بين أمة وأمة، شعب وشعب، بلد وبلد، زمن وزمن، هذه الفطرة ثابتة منذ آدم وحتى يوم القيامة، البشر جميعاً هكذا فطرتهم، والدليل أنك تقرأ قصّةً وقعت حوادثها في أقصى الدنيا تشعر أن الإنسان واحد، الإنسان هو الإنسان في كل مكانٍ وفي كل زمان ؛ مشاعره، قِيَمَهُ، تمزُّقه، صراعاته، نداء شهوته، نداء عقله، الإنسان واحد، البُنية واحدة، التصميم واحد، القواعد واحدة، القيم واحدة، الخصائص واحدة.

كل إنسان يتطابق مع أي إنسان آخر تطابقاً كاملاً من حيث القواعد النفسيّة:

قال تعالى:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

أي أنهم يضعون لأنفسهم قواعد يحرّمون فيها الحلال أو يحلِّلون فيها الحرام، إنهم يشقون بهذه القواعد، فإذا وجد الاختلاط وجد الشقاء، ووجد النفور الزوجي، وكانت البيوت كالجحيم ؛ ومع الانضباط السعادة الزوجيّة، هذه قاعدة، ومع التعامل الصادق العزّة، ومع الكذب في ظُلم، أبداً هذه قواعد عامّة ثابتة مطلقة:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

أي أنهم غفلوا عن هذه الحقيقة أنهم إذا أطاعوا ربّهم حقّقوا فطرتهم، حقّقوا بنيتهم النفسيّة.

علم النفس يقوم على قوانين، وما سرُّ هذه القوانين ؟ سرُّها أن الإنسان له بُنية واحدة في كل مكان، قضية الخَجَل، والغضب، والرضا، والصراع الداخلي، ومعنى علم نفس أي في قواعد ثابتة، هذا مبني على أن الإنسان له بُنية ثابتة، فكلمة:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (30))

أي أن الناس جميعاً، كل إنسان يتطابق مع أي إنسان آخر تطابقاً كاملاً من حيث القواعد النفسيّة، فالنفوس جُبِلَت على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، فإذا كنت مُربياً، إذا كنت زوجاً، إذا كنت أباً يجب أن ترعى هذه القواعد وإلا فأنت لا تدري شيئاً من العلم، فالسنن ثابتة.

الأكثريّة دائماً بعيدة عن الحق والأقليّة هي التي على الحق والصراط المستقيم:

الشيء الآخر:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

الإنسان إذا كان مع الحق لا يشعر بوحْشة، بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء:

((إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[سنن ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك]

ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

مرّة خليفة سأل عالِماً: ما قولك في هذه القضية ؟ أنا أقول كذا وفلان يقول كذا، قال له: " يا سيدي أكثر الناس مع قولك "، ففرح الخليفة وظنّ أن هذا مَدْحٌ له، لكن الله تعالى قال:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ (30))

أي أن الأكثريّة دائماً بعيدة عن الحق، والأقليّة هي التي على الحق والصراط المستقيم:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (31))

المؤمنين بإقامة وجههم للدين القيّم أنابوا إلى ربّهم:

هنا يوجد سؤال، كيف قال ربنا عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

الخطاب موجّه للنبي عليه الصلاة والسلام ؟ ثم يقول الله عزّ وجل:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (31))

إذاً هذا الخطاب موجّهٌ للنبي وبالتالي لكل المؤمنين:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (31))

أي أن المؤمنين بإقامة وجههم للدين القيّم أنابوا إلى ربّهم:

(وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31))

ربنا عزّ وجل اختار من الطاعات الصلاة ؛ ومن المعاصي الشرك، لأن الصلاة هي أُمُّ العبادات، هي أصل العبادات، هي سيدة العبادات:

((لا خَيْرَ فِي دِينٍ لا رُكُوعَ فيه))

[مسند أحمد عَنْ عُثْمَانَ بْن أبي العَاص]

الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، جوهر الدين اتصالٌ بالخالق:

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31))

ربنا عزّ وجل أمرنا بأول الطاعات ونهانا عن أخطر الذنوب:

قال تعالى:

(يَا بُنَيّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

(سورة لقمان)

ربنا عزّ وجل أمرنا بأول الطاعات، ونهانا عن أخطر الذنوب:

(إِنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة النساء: من آية " 48 ")

من هؤلاء المشركون ؟

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32))

أخطر ما في الحياة أن نتفرّق، أن نصبح شيعاً وأحزاباً، أن نصبح جماعات ؛ متناوشة، متعادية، متباغضة، هذا من عمل الشيطان، الدين يجمع ولا يُفَرّق لأن الإله واحد والنبي واحد والقرآن واحد، إذاً لا بدّ من أن نجتمع، فإذا تفرّقنا جَماعات جماعات، وتخاصمنا، وتبادلنا التُهَم، وأصبحنا كقوله تعالى:

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32))

من الخطر أن يكون انتماؤك لجماعتك على حساب انتمائك لمجموع الأمّة:

حينما يكون انتماؤك لجماعتك على حساب انتمائك لمجموع الأمّة فهذا خطرٌ كبير لذلك إن رأيت مؤمناً من غير جماعتك ولم تحبّه فأنت لست بمؤمن، يجب أن يكون الانتماء لكل المؤمنين، لكل المسلمين، أما أن تُضَيّق الأمر مثل الشخص الذي جاء النبي عليه الصلاة والسلام، ووقع في تصرُّف شاذ، فالصحابة قاموا له، فالنبي أبعدهم عنه فقال: " يا ربي ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً "، هذا مثال حال بعض الجماعات، ارحمنا ولا ترحم معنا أحداً، المؤمن يحب كل المؤمنين، يحب كل المسلمين، يجب أن يكون انتماؤك لمجموع المؤمنين، لمجموع المسلمين، لا انتماءً خاصّاً ضَيّقاً يجعلك تتعصّب، وتبتعد، وتحقد على الآخرين، وتتهمهم بشتّى التُهَم:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(32))

أما (منيبين إليه) لا بدّ من أن نعود إليه، نعود إليه بقلوبنا وبأعمالنا:

(وَاتَّقُوهُ (31))

التقوى هنا تعني الطاعة، أي في النهاية:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

لا بدّ من أن تطيع الله.

الصلاة تحتاج إلى إقامة وإقامتها طاعتك لله عزّ وجل:

قال تعالى:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (31))

فكيف:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

الصلاة تحتاج إلى إقامة، وإقامتها طاعتك لله عزّ وجل، إنّ طاعتك تُؤَهِّلك كي تصلي:

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ (32))

كإنسان جعل الدين شريعة فقط وأغفل القلب، إنسان بالغ في الاعتناء بالقلب على حساب الشريعة، إنسان رأى الدين ثقافةً ليس غير، إنسان رأى الدين نشاطاً اجتماعياً ليس غير، لا، إنّ الدين عقيدة، والدين شريعة، والدين طُهْر، والدين إقبال، والدين مكارم أخلاق، والدين خدمة، الدين هو كل هذه الأشياء، أي إنسان يظنُّ أن الدين جانب واحد وينمي هذا الجانب على حساب جوانب أخرى ويهمل بقيّة الجوانب بل ويحتقرها هذا فرّق الدين وجعله شيعاً، فالدين مجموعة أجزاء.

لا يفلح إلا من أحاط الدين من كل جوانبه:

الدين انفتاح على المجتمع، هو عمل صالح، ومعلومات دقيقة، وحقائق علميّة، يجب أن تجمع كل هذه الأشياء، أما إذا نما عندك جانبٌ على حساب جوانب أخرى فهذا هو العَرَجَ، أو هذا هو التفريق الديني، فليس الدين معلومات وثقافة، يقول لك: فكر إسلامي، ولكن أين السلوك ؟ أين الاستقامة ؟ أين الطهر ؟ أين العفاف ؟ الدين ليس قلباً طاهراً فقط ؛ ولكن معلومات دقيقة ؟ أين العلم ؟

((ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه))

[من كشف الخفاء]

عند بعض الناس تنمو المعارف النظريّة على حساب الطهر النفسي والكمالات الأخلاقيّة، وعند غيرهم تنمو العناية بالقلب على حساب المعلومات الدقيقة والعقيدة الصحيحة، لا بدّ من أن تنمو كل هذه الأجزاء جنباً إلى جَنب، لا يفلح إلا من أحاط الدين من كل جوانبه، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ (32))

فرّقوه، الدين عند أناس أناشيد وطرب، وفرق أناشيد فقط، وعند غيرهم الدين نشاط اجتماعي فقط، وعند فئة ثالثة الدين زخرفة فقط، الدين خُلُق، الدين عبادات، الدين علم، الدين عقيدة، الدين صدق، الدين أمانة، الدين إخلاص، فلا بدّ من أن نحوط الدين من كل جوانبه.

((إنّ هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صاحبتموه))

[من الدر المنثور عن جابر بن عبد الله]

قال تعالى:

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32))

علامة الإيمان الصحيح أن تنتمي إلى مجموع الأمّة لا أن تكون متعصّباً وضيق الأفق:

تمزُّق الأمّة أساسه أنكم أنتم على حق ونحن على باطل، أنتم على باطل ونحن على حق، هذه المُشاحنات، الدين له جذع واحد موحِّد، فإذا عدنا إلى منابعه حُلّت كل مشكلاتنا وانتهت هذه البغضاء والشحناء والخصومات، فلذلك علامة الإيمان الصحيح أن تنتمي إلى مجموع الأمّة لا أن تكون متعصّباً، لا أن تكون ضَيّق الأفق، لا أن تكون بعيداً عن الروح العامّة:

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32))

البطولة أن تكون فَرِحَاً بعد الموت، لأن الفرح في الدنيا لا قيمة له، فرحون في الدنيا، هناك تجمُّع ولكن ليس على أساس من الحق، أي تجمُّع له فوائد كثيرة، أما لا بدّ من تَجَمُّعٍ أساسه الحق، أساسه هذا المنهج الصحيح الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (09-14): تفسير الآيات 33-38
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-03-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم مع الدرس التاسع من سورة الروم.

حالات مرَضية يتلبس بها الإنسان المُعرض عن الله:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(33))

(سورة الروم)

الآن نحن أمام حالات يَتَلَبَّسُ بها الإنسان المعرض، ربنا عزّ وجل يصف لنا هذه الحالات لئلا نقع بها، أو لئلا نتلبَّس بها، هي حالات مرضية، مظهر من مظاهر البُعد عن الله عزّ وجل، مظهر من مظاهر ضَعف الإيمان، مظهر من مظاهر ضعف اليقين، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ (33))

أي عامة الناس، الإنسان العادي، أما كلمة (مَسّ) أحياناً تريد أن تعرف ما إذا كانت هذه المكواة حامية أم لا، تمسها بإصبعك مساً خفيفاً لا ضغط فيه ولا بُطْءَ فيه.

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ (33))

يُفهم من هذا أن الإنسان لا يحتمِل، يقول لك: كريزة رمل فلم أنم الليل، وهي كل عشر دقائق، لو كان عشر ساعات، لو كان على أشد !

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (33))

ما الذي يحدث ؟ الإنسان بفطرته حينما تأتيه مصيبة، حينما يقع في مشكلة، يشعر شعوراً ثابتاً لا يحتاج إلى بُرهان، ولا إلى دليل، أن الله سبحانه وتعالى بيده إنقاذه من هذه الوَرْطَة، هناك حالات، أُنَاسٌ عقيدتهم إلحادية، ركبوا في الطائرة، فلما مَرَّت فوق جيوبٍ هوائية، وشعروا أنهم موشكون على خطرٍ كبير، قالوا: يا الله، عقيدتهم إلحادية، إذاً الإنسان بفطرته حينما يقع في ضائقة، في مشكلة، أكثر الناس الذين ينكرون وجود الخالق، حينما تأتيهم أمراضٌ عضالة يعودون إلى الله، هذه فطرة الإنسان، أي أن كل الأسباب الأرضية تبدو أمامهم مُقَطَّعَة.

البطولة أن تعرف الله في الرخاء والشدة:

البطولة أن تعرف الله في الشدة، البطولة أن تعرفه معرفةً صحيحة، حينما يأتي البلاء الشديد تقول: يا الله، جميع البشر من كل الأجناس، والألوان، والمعتقدات إذا داهمتهم المصيبة قالوا: يا الله، هذا شيء ثابت ؛ في البحر، في الجو، في البر، في الزلازل، في الأعاصير، في الفيضانات، في الحروب الأهلية، إذا داهمتهُم المصيبة قالوا: يا الله، قال: هذا شأن أي إنسان، لو أنه عاد إلى الله عند المصيبة وحينما كشفها الله عنه بقي على إيمانه وعلى استقامته، الأمر طبيعي جداً ومقبول وهذا إنسان طيّب.

ما كل إنسان يأتي إلى الله طوعاً، هناك أشخاصٌ كثيرون جداً، بل إن معظم المؤمنين جاءوه قسراً، موقفٌ جيد وطيب إن جئته طوعاً أو قسراً، ولكن الموقف العجيب، والموقف الغريب، والموقف غير الأخلاقي، أن تأتيه كرهاً عند الشدة، فإذا تفضل الله عليك وأزاح عنك هذه الشدة تنسى، وتعزو هذه النعمة إلى غيره، إلى أشخاص، إلى أنداد، إلى شركاء، هنا المشكلة، إذاً هذه حالة مرضية تصيب الأشخاص البعيدين عن الله عزّ وجل، حالة مرضية تصيب من تاهوا في درب الحياة:

(وَإِذَا مَسَّ (33))

الأمراض تأتي بآلام غير مستمرة، يبدو أن الآلام المستمرة لا يحتملها إنسان، (وإذا مس) تماماً أنت كما تمس المكواة، بأقل ضغط ممكن، وبأقل فترة ممكنة، فإذا أردت أنت أن تعرّف ابنك بأن هذه مدفأة، وأن لها خطراً، ماذا تعمل ؟ تأتي بإصبعه وتمسكها بيدك، وتضعها لأقل من ثانية بسرعةٍ شديدة، كي يشعر أن هذه نار، هذا الموقف اللطيف، الهادف إلى تعريف هذا الابن بأن هذه مدفأة وأنها مؤذية.

الله تعالى يسوق للإنسان مصيبة مخففة لعله يعود إلى منهجه و يستقيم على أمره:

ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض، إذا أراد الله عزّ وجل أن يسوق لإنسان مصيبة يسوقها له مخففة، قليلة الوقت والتأثير لعله يعود، وشأن الطبيب أنه كلما قال له المريض: لم أستفد من هذا الدواء يرفع له المستوى، ويضاعف له الكمية هذا سماه ربنا عزّ وجل: العذاب الصُعُد، عندما لا يتأثر هذا المريض بهذا الدواء، يرتفع مستوى الدواء وترتفع شدته.

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ (33))

الضُر مطلقة ؛ يا ترى ضر في صحتهم ؟ ممكن، ضر في أموالهم ؟ ممكن، ضر في زوجاتهم ؟ ممكن، ضر في أولادهم ؟ ممكن، ضر في أعمالهم ؟ ممكن، ضر في دخلهم ؟ هذه تنكير شمول، أحياناً نُنَكِّر بقصد أن تنطبق هذه الحالة على كل حالة، أي ضرٍ مادي أو معنوي، شديدٍ أم خفيفٍ، قريبٍ أم بعيدٍ، يمس الجسم، أو الصحة، أو المال، أو الأهل، أو المشاعر، أحياناً توجد مصائب مشاعر، توضع

في موقف تهان فيه ولا تستطيع أن تقول كلمة، يقول لك: بقيت شهر لا أنسى هذا الموقف، هذه مصيبة، ربنا عزّ وجل حكيم، في صيدليته أدويةٌ كثيرة، كل إنسان يصيبه بمصيبةٍ يهتزُّ لها.

صاحب المال الكثير لا يتأثر بفقد ماله، هذا كرامته غاليةٌ جداً، مصيبة صاحب المال إذا حاد عن طريق الحق، وإذا خالف منهج الله عزّ وجل، بأعز شيءٍ عليه وهو كرامته، أما هناك شخصٌ المال عنده كل شيء وهو فقيرٌ جداً، هذا مصيبته في ماله، العبرة أنها مصيبة، أي أنها تصيب الهدف، من أصاب يُصِيبُ فهي مصيبة.

(وَإِذَا مَسَّ (33))

أنا تذوقت كلمة (مس)، فرحمةٌ بالإنسان تأتيه مصيبةٌ سريعة وطفيفة، بحيث تدع في نفسه أثراً، أما نحن ـ هذه كلمة أقولها بدقةٍ بالغة ـ من لم تُحدِث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر، هنا المصيبة، فإذا جاءت مصيبة وقال الإنسان: هذا شأن الدهر، الدهر يوم لك ويوم عليك، إذا عزا هذه المصيبة إلى قِلّةِ حظه، إلى بيئته، إلى سوء طالعه، إلى شؤمِهِ، إلى يوم، إلى رقم، إلى صديق، عالج المصائب معالجة خرافية، من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظةٌ فمصيبته في نفسه، هنا المصيبة أكبر.

أقرب اسم من أسماء الله الحسنى للإنسان هو اسم الرب:

قال تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ (33))

ضُر أي شيءٌ يضُرُّهُم، شيءٌ يؤلمهم، شيءٌ يقلقهم، شيءٌ يهمهم، شيءٌ يوترهم.

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ (33))

بحكم فطرتهم، وبحكم طبيعتهم وجبلّتهم والإيمان الذي غرسه الله فيهم حينما خلقهم:

(دَعَوْا رَبَّهُمْ (33))

أقرب اسمٍ من أسماء الله الحسنى لهذا الإنسان اسم الرب:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2))

(سورة الفاتحة)

دعوا ربهم، فأقرب كلمة للطفل الصغير كلمة أمي، لكل شيء، لأن أقرب إنسانٍ إليه هي أمه، أقرب اسم من أسماء الله الحسنى لهذا المخلوق هو اسم الرب، من التربية، يُرَبِّيكَ في جسدك، يربيك في نفسك، يربيك في عقلك، يربيك في دينك، يربيك في أخلاقك.

أخ كريم حدثني بقصة، وهو يحدثها للآخرين، فإذا حدّثت بها لا مانع: أن جاءه إلى محله أو دكانه شخص ليشتري من عنده حاجة، هو يبيع بالجملة، فلما طُلب منه قطعتين أو ثلاثة، رأى في هذا إهانة له، فرفض أن يبيعه، قال لي: بقيت واحداً وعشرين يوماً ما دخل محلي إنسان، أدَّبَني رَبّي، رَبَّاني.

من الشرك أن تعزو الفضل إلى جهة غير الله عز وجل:

إذا الإنسان تأمل كيف ربنا يربي الإنسان، إذا قال أنا أربّيه، إذا عزا نعمة إلى غير صاحبها يربيه الله عزّ وجل، إذا تكلم كلمة غير لائقة يربيه الله عزّ وجل، لذلك بعض العارفين بالله قال: أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، وأحياناً من مركبته، وأحياناً من علاقاته العامة، فربنا عزّ وجل يربي، هذه:

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (33))

يا رب، يا جَبّار الخواطر، يا رب ليس لي غيرك، يا رب ليس إلا أنت، كلمات لطيفة جداً، عند الشدة، عند المرض العضال، عند فقد المال كله، عند مصيبة كبيرة، شيء جميل، موقفٌ رائع، وموقف طيّب، أن تدعو ربك عند الشدة، لكن المشكلة في هذه الآية، أن هذا الإنسان حينما داهمته الشدة، وحينما أحدقت به المصيبة، وحينما نزلت به الكارثة قال: يا رب، بكل قلبه، بكل جارحةٍ من جوارحه، بكل خليةٍ في جسمه، أما الموقف الذي يُعْتَصَرُ القلب له يوم القيامة:

(ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً (33))

هنا الرحمة بمعنى كشف هذه الشدة، كشف هذا الضُر، التحليل طلع سليم، وَرَمٌ عادي، التهاب السحايا عند ابنه مَرَّ بسلام، الخطر الكبير مر بسلام، زال الخطر، العلاقة المتوترة مع رئيسه في الدائرة انتهت، هذه المشكلة ضَعُفَت، البضاعة وصلت، البضاعة خُلِّصَت، البضاعة بيعت، هذا الدين حُصِّل، هذه القضية انتهت، هذا الشَبَح للمصيبة زال:

(ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً (33))

هنا المُشكلة، يقول لك هذا الطبيب ممتاز، بوصفةٍ واحدة شفي ابني، فأين الله ؟ نسي الله عزّ وجل، هذا المحامي بارع، يا أخي القصر العَدلي كله بيده كالخاتم، حينما نجوت من هذه الدعوى، والحكم ربحته بفضل هذا المحامي فقط ونسيت الله عزّ وجل، هكذا كلما أزيح عن كاهله همٌ، أو غمٌ، أو معضْلةٌ، أو مشكلةٌ، أو مصيبةٌ، أو نازلةٌ عزاها إلى ما سوى الله، هذا هو الشرك بعينه، بالمناسبة هذا لا يمنع إذا جاءك خير من إنسان أن تشكره، وأن تبالغ في شكره، وأن لا تنسَ له فضله، هذا من شأن المؤمن، ولكن لا يعني هذا أن تنسى فضل الله عليك، أن تنسى الذي سَخَّره لك، أن تنسى الذي سمح له أن يقدم

لك هذه الخدمة، هنا المشكلة، فإذا جاءه خير، جاءته نعمة، أزيحت عن كاهله هذه المصيبة عزاها إلى جهةٍ غير الله عزّ وجل.

صلاة الشكر هي الموقف الذي يبيضُ به وجهك أمام الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً (33))

كلمة (ثم) هذه على التراخي، تأتي المصيبة فالإنسان يظن أن ليس لها حل، هي القاضية، هي التي تنهيه، هذا هو وَهم، وهذا من الشيطان، ثم الله عزّ وجل يدع هذه المصيبة جاثمة على قلب الإنسان ليمتحن إيمانه، ليمتحن ثقته بالله، ليمتحن حسن ظنه به، (ثم) على التراخي، ثم يأتي الفرج، تحل المشكلة، يشفى المريض، يعود المال، تنجوا البضاعة، يخرج من السجن:

(ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً (33))

دقة القرآن رائعة لم يقل: إذا هم، لا، بل قال:

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ (33))

هناك أشخاصٌ يبدءون إيمانهم بالله عزّ وجل عن طريق الشدة، فإذا زالت عرفوا لله فَضْلَهُ، وعرفوا لله نعمته، وعرفوا لله لُطفه، وعرفوا لله رحمته، وذابوا شكراً، ولقد علمنا النبي عليه الصلاة والسلام صلاة الشكر، إذا جاءتك نعمة، إذا نجوتَ من مصيبة، إذا نجحتَ في امتحان، إذا أزيح عن كاهلك مُصاب، مباشرةً توضّأ وصلّ ركعتين شكراً لله عزّ وجل، هذه صلاة الشُكر، إذا صلّيت صلاة الشكر فقد وقفت الموقف المُشَرّف من الله عزّ وجل، الموقف الأخلاقي، الموقف الذي يبيضُ به وجهك، قال:

(ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33))

يعزو لك هذا الخير إلى زيد أو عُبيد، أو إلى ذكائه وخبرته، أو إلى صحوته ويَقَظَتِهِ، أو إلى كياسته، يتفَنّن، أو إلى فلان المحامي، أو الطبيب، أو فلان صديقه الحميم له مركز قوي، اتصل به بالليل فأنجده، نسي الله عزّ وجل.

اللام في كلمة (ليكفروا) لام الأمر وهي أمر تهديد أي اكفروا وأنا سأحاسبكم:

إياكم أيها الأخوة الأكارم أن تقعوا في هذا الخطأ، إذا جاءت مشكلة وأزاحها الله عنك قل: يا رب ليس إلا أنت، لا إله غيرك، أنت الذي أنقذتني، أنت الذي كَرّمْتَنِي، أنت الذي عفوت عني، أنت الذي رحمتني، أنت الذي لطفت بي، أنت جعلت لُطْفَكَ عن طريق زيد أو عُبيد، سخره لك، عليك أن تشكره،

وأن تُبالغ في شكره، وأن تقابله بعملٍ طيب من دون أن تنسى الله عزّ وجل، هو الأصل، هو الأول والآخر.

الآن كلمة (فريقٌ منهم) هذه مُبَشِّرَة، فما كل إنسان تأتيه مصيبة ويتوب ينسى فضل الله عزّ وجل، بعض الناس، لذلك من عرفني في الرخاء عرفته في الشدة، اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة، قال:

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34))

من أوجه التفاسير أن هذه اللام لام الأمر، أي اكفروا، هذا اسمه أمر تهديد، كأن يقول الأب لابنه: افعل أنا سأريك، هذا ليس أمر في الحقيقة، سمي هذا الأمر أمر تهديد، أنتم هكذا ؟ إذاً اكفروا وأنا سأحاسبكم.

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ (34))

من نِعم، من عطايا، من إكرام، من لُطف، من رحمة.

المتعة مؤقتة ومحدودة لمن كفر وجحد:

قال تعالى:

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا (34))

التمتع محدود، سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان كلما دخل دار الخلافة، يقول:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

(سورة الشعراء)

المُتعة مؤقتة، كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى ذَكَرَ في قصة سيدنا إبراهيم أن سيدنا إبراهيم دعا ربه فقال:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

(سورة البقرة: من آية " 126 ")

فقط المؤمنين:

(مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

(سورة البقرة: من آية " 126 ")

ربنا عزّ وجل رد عليه قائلاً:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة)

البطولة من يضحك أخيراً:

قال تعالى:

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34))

إذاً البطولة في الذي يضحك أخيراً، لا الذي يضحك في أول الأمر، في الذي يضحك أخيراً:

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110)إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ(111))

(سورة المؤمنون)

إذاً هنا (ليكفروا) أمر تهديد:

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34))

لكن يوجد سؤال: (ليكفروا) خطاب للغائب، (فتمتعوا) الكلام للمخاطب، هذه ظاهرة في البلاغة اسمها التفات، هذا الالتفات دليل تحريك النفس، أحياناً يقول إنسان لشخص أمامه، ويخاطب شخصاً آخر يقول له: قل لفلان إنني غاضبٌ منه، لتحريك وجدانه، لتحريك شجونه، لتحريك قلبه، قل لفلان إنني غاضبٌ منه، فجاء مرة بصيغة الغائب ومرة بصيغة المخاطب.

من كفر بالله تعالى سيحاسب حساباً عسيراً يوم القيامة:

قال تعالى:

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34))

بعضهم قال: هذه لام العاقبة لام المآل، ثم كانت عاقبتهم أنهم كفروا بالله وتمتعوا وسوف يحاسبهم الله حساباً عسيراً.

(أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35))

هذا الكلام ـ حينما عزوا هذا الفضل إلى غير الله ـ هل هذا الكلام جاءهم به ملك ؟ أو نزل به عليهم سلطان ؟

(أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا (35))

أي ملكاً:

(فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35))

أي أن هذا الكلام ما مصدره ؟ ما حُجيِّتُهُ ؟ من أين جاؤوا به ؟ من علمهم إياه ؟ أين قرؤوه ؟ الإنسان أحياناً يتكلم كلاماً ليس له معنى، من دون دليل، وفي الإسلام منهج: إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مُدَّعِياً فالدليل، يقول لك: هكذا رأيي، من أنت حتى يُعتدَّ برأيك ؟ من أنت ؟

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتمُ حتى يكون لكم عِنْدُ ؟

***

هنا:

(أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35))

هل جاءهم ملك فأوحى لهم، أم هل عندهم حجةٌ قطعيةٌ مع الدليل تنطق بموقفهم الصحيح ؟

(رحمة) جاءت هنا نكرة للتقليل:

الآن الآية الأخيرة:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً (36))

كذلك الذوق غير الطعام، إذا قال لك أحدهم: ذق لي هذا الطعام، فهل تأكل كل ما في القدر ؟ مستحيل، معلقة واحدة، لقمة واحدة، قال:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً (36))

يأخذ شهادة، ينسى أن يصلي، يربح بهذه الصفقة، تأتيه سفرة مهمة، تجده قد نسي الله عزّ وجل:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً (36))

(أذقنا) تشبه (مَسَّ)، أي شيء قليل، أذقنا، وبعد ذلك (رحمة) نكرة، نكرة للتقليل، قال تعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف: من آية " 58 ")

وقال:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

وقال:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

اختل توازنه، قال: فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء.

(إن) تفيد احتمال الوقوع أما (إذا) تفيد تحقق الوقوع:

قال تعالى:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

كان من الذين يرتادون الدروس في المسجد تزوج فانقطع، يقول لك: والله مشغولين يا أستاذ، موسم، الموسم يشغله، والزوجة تشغله، وإذا سافر لمهمة انشغل.

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

هذه (إذا) نقطة مهمة جداً، (إذا) تفيد تحقق الوقوع، كقوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1))

(سورة النصر)

أي أن نصر الله لا بد من أن يأتي، أما (إن) تفيد احتمال الوقوع:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا)

(سورة الحجرات: من آية " 6 ")

(إن) تفيد احتمال الوقوع، أما (إذا) تفيد تحقق الوقوع، إذاً:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً (36))

الرحمة هي الأصل، جاء معها إذا، الآن الآية دقيقة جداً وهذا كلام خالق الكون فرحمة الله هي الأصل ولا بدّ نازلة، هذه رحمة الآن تنزل، أسمعني أحد الأخوة شريطاً لخطبة لأحد علماء دمشق، يقول هذا العالم: يا رب نحن في كانون الأول وكأننا في صيف، في شهر كانون الأول كان كأس الماء مهدداً، ماء الشرب، أعلمني أحد الأخوان الكرام أن مستوى مياه نبع الفيجة ارتفع إلى أعلى مستوى، مع أن الأمطار كلها الهاطلة حتى هذا التاريخ لا تكفي رفعه لهذا المستوى، فاستيقنوا أن لهذا النبع حوضاً لا يعرفونه من قبل، وهذه رحمة الله عزّ وجل، في بعض المناطق نزل في أربع ساعات مئة وخمسة مليمترات من المطر، في أربع ساعات، أي نصف ما ينزل في دمشق في المواسم الطيبة، في أربع ساعات.

أي شيءٍ ينتهي عند الموت الفرح به ضعفٌ في التفكير:

قال تعالى:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

يفرح بنزول المطر، عنده مزرعة، البئر امتلأ، أو عنده مشروع زراعي انتعش، وإذا لم يكن مستقيماً فرحه خُلُبي، كالفرح الذي يقوله الله عزّ وجل:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً (36))

الدنيا من عرفها لم يفرح لرخاء، ربنا عزّ وجل قال:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من آية " 58 ")

المؤمن يفرح برضوان الله، يفرح بفضل الله، يفرح بالعمل الصالح، يفرح بحفظ كتاب الله، بفهم كتاب الله، يفرح إذا الله عزّ وجل أجرى على يديه عملاً صالحاً، يفرح إذا الله استخدمه، جعله خادماً لعباده، يفرح إذا الله عزّ وجل جعل حوائج الناس إليه، يفرح إذا كان يحب الله ورسوله، يفرح إذا كان طليق اللسان في ذكر الله عزّ وجل، هذا فرح حقيقي، أما إذا فرح بالمال فالمال زائل، إذا فرح بالزواج الزواج زائل، أي شيءٍ ينتهي عند الموت الفرح به ضعفٌ في التفكير، ربنا قال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

وقال:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

وقال:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من آية " 58 ")

آيات من القرآن الكريم على أن فرح الكفار محدود وزائل:

الفرح بالدنيا، قارون، قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من آية " 78 ")

وقال:

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79))

(سورة القصص)

أما المؤمنون قالوا:

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ)

(سورة القصص: من آية " 80 ")

ربنا عزّ وجل قال:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)

(سورة آل عمران)

افرح إذا الله عزّ وجل سمح لك أن تعرفه، سمح لك أن تذكره، سمح لك أن تجلس بمجلس علم، سمح لك أن تعمل أعمالاً صالحة، سمح لك أن يكون دخلك حلالاً، أن يكون عملك طيّباً، أن يكون لسانك طليقاً، هذا فضل الله عزّ وجل.

الله عزّ وجل لم يعزُ الرحمة إلى شيء:

قال:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

اختل توازنه، صار يقفز، لم يعد يمشي، من فرحه، نسي أن يصلي، نسي الله عزّ وجل، أحياناً الإنسان بالزواج يندهش، يريد الزوجة، عبدها من دون الله، أمرها هو النافذ، رغبتها هي النافذة، أما المؤمن راسخ في إيمانه، " لمن هذا الوادي ؟ قال: هو لك، قال: أتهزأ بي ؟! الوادي كله ملك لرسول الله، قال: هو لك."

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ (36))

ربنا عزّ وجل الرحمة لم يعزها إلى شيء، قال:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

الرحمة (إذا)، و(إذا) لتحقُق الوقوع.

السيئات التي تصيب الناس محض عدلٍ والرحمة التي تصيب الناس مَحض فضلٍ:

قال تعالى:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ (36))

معناها السيئة ليست أصلاً في الأرض، الشر ليس أصلاً، الشر طارئ، الشر له هدف علاجي فقط، فالإنسان يفتح مدرسة، يبني بناء ضخماً، يؤسس المدرسة، ينظم أمورها، ينشئ نظاماً داخلياً، يعيّن مدرسين، ينشئ ملاعب، ينشئ مكتبة، شيء جميل، وأحياناً المعلم يضرب الطالب، والمدير أحياناً يفصل الطالب، هل نقول: أنشئت هذه المدرسة لضرب الطلاب، لا، هذا الكلام مستحيل، الضرب حادث

طارئ، ومرحلة، ولهدفٍ معين، فربنا عزّ وجل مع الرحمة جاءت (إذا)، لكن مع المصيبة جاءت (إن)، أي أن الشر احتمالي، إذا حدث انحراف، مرض، كِبْر، إسراف، عُجب، تطاول، تقصير بالحقوق، شرك، إعجاب بالنفس، يأتي التأديب الإلهي، فالأصل الله نصر المؤمنين ببدر، أما لما قالوا: " لم نغلب من قلة "، قال لهم: قفوا لأقول لكم:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا)

(سورة التوبة: من آية " 25 ")

هذا الذي لفت النظر، إذا أذقنا الناس رحمةً، لكن تصبهم سيئةٌ:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

أي لا سيئة بلا سبب.

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

لذلك السيئات التي تصيب الناس ـ دققوا جيداً ـ محض عدلٍ، والرحمة التي تصيب الناس مَحض فضلٍ.

القنوط لا يعرف الله عزّ وجل أبداً:

الآية دقيقة، أول شيء (أذقنا) أعطيناهم شيئاً من الدنيا، شهادة، كم ألف، أو كم مئة ألف، أو كم مئة مِئة ألف، (أذقنا)، زوجة ممتازة، أولاد نُجَبَاء، إذا أذقنا الناس رحمةً فرحوا بها:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

أولاً (إن) تفيد الاحتمال، ثانياً السيئة ليست هي الأصل، السيئة شيء طارئ، وهدفها علاجي، وفوق هذا وذاك:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

أي من أفعالهم، من اقترافهم، من كسبهم، من انحرافهم، من تقصيرهم، هذه الباء للسببية:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

وقال:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36))

أي يقنطون من رحمة الله، أجمل ما في الآية، فالنعمة نسيتني من أجلها، والمشكلة بسيطة قلت: أريد أن أنتحر، لا يوجد أمل، ظلمات بعضها فوق بعض، الحياة لا تطاق، حياة كلها متاعب، الله خلقنا للشقاء، إذا كان خبراً سيّئاً، علاقة سيئة مع الزوجة، تجده يقول لك: النساء لا يطاقون، الزواج شقاء، من أجل مشكلة واحدة أصبح الزواج شقاء هكذا الإنسان البعيد عن الله عزّ وجل، سريعاً ما يفرح،

سريعاً ما يقنط، فالقَنوط لا يعرف الله عزّ وجل أبداً، ربنا عزّ وجل يخلق من الضعف قوةً، من الضيق فرجاً، من المرض شفاءً، من الفقر غنىً، من الذُلّ عزاً.

الرحمة وقوعها حَتْمِي أما السيئة وقوعها احتمالي وعلاجي:

قال:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

أي ما من عثرةٍ ولا اختلاج عرقٍ ولا خدش عودٍ إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر.

(إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36))

يقول لك: المستقبل مُظلم، صار في تصحر بالشرق الأوسط، فلا توجد أمطار نهائياً، نحن على مشارف مجاعة، والناس ماتوا من الجوع، وتركوا البلد، وشحَّت المياه بل أصبحت معدومة، وانتهى كل شيء.

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36))

والله شيء جميل، الرحمة من الله محض فضلٍ، والسيئة من الله محض عدلٍ، الرحمة هي الأصل، وقوعها حَتْمِي، أما السيئة ليست أصلاً، وقوعها احتمالي وعلاجي، لكن هذه الحالة المرضية ما حلها، ما شفاؤها ؟

الأمر بيد الله عزّ وجل كن فيكون زل فيزول:

الآية الثالثة:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (37))

ما رأوا أن الأمر بيد الله عزّ وجل، كن فيكون، زل فيزول ؟ والله أعرف شخصاً أصابه مرض عُضال، العملية الجراحية لا بد من أن تُجرى في بلد بعيد جداً، كُلْفَةُ العملية قبل عشر سنوات بِقَدَر ثمن بيته تماماً، موظف بسيط عنده بيت سعره ثمانمئة ألف، وعنده أولاد صغار، ومرض عضال، ورم خبيث من الدرجة الخامسة، وأخذت عينات من جسمه إلى إنكلترا، الأطباء قالوا: لا فائدة، والله زرته وبكيت عنده حينما رأيت أولاده الصغار، بعد سبعة أشهر تراجع المرض تلقائياً، والقصة منذ اثني عشر سنة، والرجل حي يرزق، في أتم صحته الآن، شخص أعرفه كما أعرف نفسي، وأعرف أطباءه جميعاً، وأنا عشت المشكلة، أخذوا خزعة إلى بريطانيا، والقضية منتهية، فكانت الفكرة أن يبيع البيت ونجاح العملية بالمئة ثلاثين، أين القنوط ؟ كن فيكون، زل فيزول، وإذا مرضت فهو يشفيني، بالتجارة،

وبالزراعة، وبالصناعة، وبالأمراض، وبالعلاقات الزوجية، وأصلحنا له زوجه، يقول لك: كانت عندي زوجة ظالمة أصبحت الآن مَلَك، الله عزّ وجل أعانك عليها.

(أَوَلَمْ يَرَوْا (37))

هؤلاء الذين فرحوا لهذه الرحمة فاختل توازنهم وعصوا ربهم، وهؤلاء الذين يئسوا وقنطوا لهذه السيئة ورأوا أن المستقبل مظلم:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (37))

كل شيء بيده.

الله تعالى يحب الملحين في الدعاء:

هذا الدسام الذي في قلب الإنسان بيد الله عزّ وجل، الشرايين مسدودة، يفتحها الله إذا أراد من دون عملية، شخص قال لي: كدت أضيق بحياتي ذرعاً، قال لي: لا أملك ثمن عملية القلب، كيف حالك ؟ قال لي: والله الآن بخير الحمد لله، تراجع المرض وحده، هذا شيء واقع، هذا يسميه الأطباء: الشفاء الذاتي، الله يتدخل مباشرةً.

لا أقصد من هذا الكلام أن أروي لكم قصصاً نادرة، بل قصدي أن تتيقنوا أن الله بيده كل شيء، وأنك بالدعاء أنت أقوى إنسان، وليس بينك وبين الله حجاب، يا رب، يقول لك: لبّيك يا عبدي، اسأله كل حاجاتك، اسأله شسع نعلك إذا انقطع، اسأله ملح الطعام، هكذا ورد الدعاء.

((من لا يدعوُني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((إن الله يحب الملحين في الدعاء))

[رواه الحكيم ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة]

الله يحب أن تطلب، تترجاه، تعيد وتكرر، تلح كثيراً بالسجود بقيام الليل، أما أمام الناس كن عزيزاً، شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس، البطولة أن تعتز أمام الناس، وأن تمرّغَ جبهتك بين يدي الله عزّ وجل، ادخل لغرفتك وابكِ وأغلق الباب واسجد وقل: يا رب ليس لي سواك، هذه افعلها، على قدر ما تستطيع تذلل لله، لأن التذلل إلى الله عز، أما مع الناس كن عزيزاً.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37))

العمل الصالح هو زاد المؤمن في الآخرة:

المهمة الأخيرة:

(فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38))

يبدو أنك جئت إلى الدنيا من أجل العمل الصالح، أول حالة مرضية، وثاني حالة مرضية، والحل أن تُشَمِّر وأن تنطلق للعمل الصالح فهو زادك في الآخرة، وهو الذي يسعدك في الآخرة، انظر إلى الآيات وترابطها العجيب:

(فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38))

لا تكن من هؤلاء، ولا من هؤلاء، وفكر، وافعل هذا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (10-14): تفسير الآية 39
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-03-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم مع الدرس العاشر من سورة الروم.

تسعة أعشار المعاصي من كسب الرزق ومن إنفاق الرزق:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ(39))

(سورة الروم)

أيها الأخوة الأكارم هذه الآية تحتاج إلى تفصيلٍ شديد، لأن تسعة أعشار المعاصي من كسب الرزق ومن إنفاق الرزق، وكلكم يعلم قول النبي عليه الصلاة والسلام أنه:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[سنن الدارمي عن معاذ بن جبل]

لكل موضوع سؤال: وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ، موضوع المال موضوعٌ دقيقٌ جداً. أولاً هذه الآية لها معاني كثيرة، سأختار المعنى الأول، فهو لا يتعلق بالربا، يتعلق بأن الإنسان أحياناً، يقدِّم للناس، شيئاً، هديةً، خدمةً، قرضاً، وفي نيّته أن يأتيه منه خيرٌ كثير، فإذا قدَّم قرضاً لإنسانٍ موسر، على أملٍ أن هذا الإنسان يكافئه عليه أضعافاً كثيرة، فحينما تنتفي نية العمل الصالح، حينما تنتفي نية خدمة الآخرين، القصد أن يُعْطِي ليستفيد، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ (39))

هذه الآية، بهذا المعنى البسيط، تُذَكِّرُنَا بآيةٍ ثانية، يقول الله عزّ وجل:

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

(سورة المدثر)

معنى تمنن أي إنك تعطي الناس عطاءً من أجل أن تزداد مكانتك، أو من أجل أن تتلقى خدمات الناس، بشكلٍ أو بآخر حينما تفعل عملاً صالحاً وفي نيتك أن تزداد سمعتُك أو مكانتك، أو تزداد خدماتك، أو تزداد عُزوتك، فهذا المعنى وهذا التوجُّه مرفوضٌ عند المؤمنين، ولا تمنن، ولا تعطي، وتستهدف

بعطائك الاستكثار، تخدم هذا، وتساعد هذا، وتُهدي هذا، وتقرض هذا، من أجل أن تشعر أن الناس جميعاً يحبونك، وأن الناس جميعاً في خدمتك، وأنك عزيزٌ عليهم، هذه نوايا أرضية.

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ: من معاني الآية:

1 ـ إن كانت النية أرضية فهذا المال الذي تنفقه لا يربو عند الله:

إذاً المعنى الأول:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ (39))

إن كانت النية أرضية، إن كانت النيّةُ أن يزداد خيرك، أن يزداد مالك، أن تزداد مكانتك، أن يزداد جاهُك، إن كانت هذه النية فهذه النية لا تجعل هذا العمل الصالح مقبولاً عند الله، بل إن هذا المال الذي تنفقه لا يربو عند الله، أي لا يزداد.

الآية الثانية التي تلتقي مع هذه الآية:

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

(سورة المدثر)

أي لا تُعطي عطاءً وفي نيّتك أن يعود عليكَ أضعافاً كثيرة، هذا المعنى الأول الذي لا علاقة له بالربا، بمعنى أن الإنسان حتّى لو قدّم خدمات للناس، حتّى لو وقف موقفاً مشرّفاً، حتّى لو ردّ لهفتهم، حتى لو جبر كسرهم، حتى لو أعانهم بجهده، بعضلاته، بوقته، بجاهه، من أجل أن يزداد رفعةً، وأن يزداد مكانةً، وأن يزداد عزوةً، هذه النوايا وهذا العطاء وهذا الإنفاق لا يربو عند الله ولا يقبله الله سبحانه وتعالى، هذا المعنى الأول لهذه الآية.

2 ـ من أقرض المال من أجل أن يعود عليه بربح جزيل هذا هو الربا:

أما المعنى الثاني: حينما تقرضون المال من أجل أن يعود عليكم بربح جزيل، هذا هو الربا، أنت حينما تعاون الناس تطيع الله عزّ وجل، وحينما ترابي فيهم تستغلُّ حاجتهم لتنتفع في الدنيا، الناس رجلان ؛ رجل يعين إخوانه المؤمنين في ساعات شدّتهم، وساعات ضيقهم من أجل أن يرضى الله عنه، لذلك هذا القرض حسن، لا يبتغي منه شيئاً إلا رضوان الله عزّ وجل، فأنت أمام طريقين لا ثالث لهما، إنسان مقتدر، إنسان غني، التقى مع إنسان فقير، مع إنسان محتاج، مع إنسان مصاب، فإما أن يقف منه موقف

المؤمن الذي يرجو ربَّه، وإما أن يقف منه موقف الإنسان الأرضي الشهواني الذي يرجو مصلحته، فإما أن تقرضه، وإما أن تستغل حاجته فتقرضه بالربا.

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ (39))

أنت ماذا تريد ؟ تريد الدنيا العاجلة ؛ أم تريد الآخرة الباقية ؟ إن أردت الدنيا العاجلة تقول كما يقول عامّة الناس: يا أخي هذا المال لا يُعقل أن أُقرضه بلا فائدة، إنني أضيع قيمته، أخسر قيمته، إنني لا أستغله عندئذٍ، لا أستفيد منه، فلا ينبغي للمرء أن يفعل شيئاً من هذا.

الشيء الآخر: إذا كنت مؤمناً تقرض القرض الحسن وتبتغي به الله عزّ وجل، أريد أن أقف قليلاً عند مضار الربا، لماذا حرّمه الشرع ؟ أولاً الموضوع يحتاج إلى تأنٍّي، كان هناك جهات تُعطي أرباحاً جزيلةً على إقراض الأموال، إنسان يملك مليون ليرة، فأي جهةٍ تعطيه بالمئة ثمانية عشر أو بالمئة عشرين، فهذا المليون يحقِّق له دخلاً في السنة مئتي ألف ليرة، فالإنسان الذي يستثمر ماله عن طريق الإقراض الربوي، لماذا يعمل ؟ لماذا الجهد ؟ لماذا تحمُّل المسؤوليَّة ؟ لماذا تحمُّل مجيء البضاعة، وبيع البضاعة، وإقراض ثمن البضاعة، وتحصيل ثمن البضاعة، وشَحن البضاعة، وأن تكون عُرضة للمسؤوليَّة أمام التموين، وأمام الجمرك، وأمام الماليَّة، كل هذه المتاعب مع الجهد الكبير ينتهي إذا وضعت مالك في جهةٍ استثماريَّةٍ ربويَّةٍ تعطيك عليه عشرين في المئة كل عام.

أخطار الربا على المجتمع الإسلامي:

لو أن الإنسان الذي لا يعرف الله عزّ وجل خيَّرته بين أن يضع هذا المال في مشروع زراعي، أو تجاري، أو صناعي، وأن يتحمّل المتاعب، وتأمين المواد الأوليَّة، وضبط المواد، وضبط الأسعار، وتحمُّل المسؤوليَّة أمام جهات حكوميَّة كثيرة جداً، وكل جهة لها عقوباتُها الرادعة، ولها ضوابطها، ولها سجنها، أو أن تضع هذا المبلغ في جهةٍ بعيدةٍ عن أعين الرُقباء، وأن تأخذ مالاً وفيراً كل عام، إذا سُمِحَ بالربا ما الذي يحصل ؟ يُحْرَم المجتمع من كل مشروعٍ إنتاجي، هذا الشيء الطبيعي.

الماء أين يتحرّك ؟ نحو الأسفل دائماً، لو أن الماء واجهه طريق صاعدة وطريق هابطة يمشي للأسهل، هكذا طبيعة الماء، والمال دائماً يبحث عن تنميته من دون جهد، فلو سمحنا بالربا لتعطّلت الحياة، كم من ألوف ألوف الملايين التي تُستَثمَر في بلادٍ أجنبيَّة، وبلاد المسلمين في أشدِّ الحاجة إلى هذه الأموال !! ما الذي يجعل هذه الأموال تتجه نحو الاستثمار الربوي ؟ هو السهولة، أما إذا كان الربا محرّماً في مجتمعٍ ما، ليس أمام هذه الأموال من خيارٍ إلا أن تُستَثمَر في بلاد المسلمين، ولكنت عندئذٍ رأيت المشاريع الزراعيَّة، والمشاريع الصناعية، والمشاريع التجاريَّة، رأيت الخدمات، رأيت الحاجات

مؤمّنة، المواد الأوليّة مؤمّنة، طبعاً، لذلك أول خطر من أخطار الربا أنه يحرم المجتمع الإسلامي من الخيرات التي كان من الممكن أن يوفِّرها له هذا المال الذي في أيدي المسلمين.

الشيء الثاني: لو أن إنساناً أراد أن يستثمر ماله في بلاد المسلمين، إذا كان هناك مجال لتأمين ريع من هذا المال كبير جداً، متى يغامر ويضع ماله في الاستثمار الزراعي، أو الصناعي، أو التجاري ؟ إن لم يأخذ ربحاً أضعافاً مضاعفة عن ربح الفائدة لا يفعل هذا، إذاً الربا يسهم بشكل أو بآخر في رفع الأسعار، أبداً، فهل يرضى إنسان أن يضع ماله في الاستثمار الزراعي، أو الصناعي، أو التجاري بربح أقل من أربعين بالمئة ؟ لماذا ؟ لأنه بإمكانه أن يأخذ العشرين بالمئة من دون تعب، فإذا بذل جهداً كبيراً وتحمّل المخاطرة والمغامرة إذاً معنى ذلك أنه سيأخذ عن هذا الجهد الإضافي ربحاً إضافياً.

أكبر أخطار الربا أنه يسهم في رفع الأسعار:

إذاً ما الذي يُسْهم في رفع الأسعار في كل بلاد العالَم ؟ وجود مؤسّسات ربويّة، هذه المؤسّسات تسهم في رفع الأسعار، ماذا يعني رفع الأسعار ؟ أن المال يُتداول في أيدٍ قليلة ويُحرم منه الكثرة الكثيرة، واحد يملك مليوناً، ومليون لا يملكون واحداً، إذاً متى يتمزّق المجتمع ؟ إذا أصبحت قلّةٌ قليلة تملك آلافاً كثيرة، وكثرةٌ كثيرة لا تملك شيئاً، عندئذٍ تنشأ الأحقاد، وتنشأ المنازعات، وتنشأ الصراعات، فخالق الكون، خالق النفوس هو الذي حرّم الربا، بالربا يُحرم المجتمع من كل خيرٍ يجلبه له توظيف المال في مشاريع إنتاجيّة، ولوجود الربا ما الذي يحصل أيضاً ؟ يحصل أن المجتمع يصبح فئتين، فئةٍ قادرةٍ على كل شيء في الإنفاق ؛ وفئةٍ محرومةٍ من كل شيء، هذه الهوّة الكبيرة بين الأغنياء والفقراء، وبين القادرين على الإنفاق والعاجزين عنه، ينشأ معه الأحقاد، والمنازعات، والصراعات.

الشيء الثالث: أنت حينما توظِّف مالك في مشروع ؛ في تجارة، في زراعة، في صناعة، في خدمات، هل تدري أنك تهيّئ فرصاً للعمل لآلاف المواطنين ؟ تحتاج إلى دفتر فواتير، وهذا يحتاج إلى مطبعة، وإلى حبر، وإلى موظّفين، وإلى عُمّال، وإلى صيانة آلات، هذه المطبعة تُعيل عشرات الأُسَر، أنت تحتاج إلى دفتر فواتير، أنت تحتاج لنقل هذه البضاعة، إلى وسائط نقل، وإلى أصحاب السيارات، تحتاج إلى طبع اللاصقات، تحتاج إلى محاسبة، تحتاج إلى محاسب، محل تجاري بسيط، بالعين المجرّدة يعمل فيه أربع أشخاص، أما بالعين غير المجرّدة يعمل فيه ألف شخص، ألف إنسان يعمل في هذا المحل وأنت لا تدري، إذاً حينما نفسح المجال لاستثمار المال عن طريق الربا ماذا نعمل ؟ ننشر البطالة، فأكبر أخطار الربا، أنه يسهم في رفع الأسعار، ورفع الأسعار يسهم في حدوث هوّة كبيرة بين

المواطنين، بين فئةٍ غنيَّةٍ جداً وفئةٍ محرومة، وهذا له آثار اجتماعيَّة، وآثار نفسيَّة، وآثار خُلُقِيَّة، وحينما نسمح بالربا معنى ذلك أننا نُشيع البطالة في المجتمع.

عندما حرَّم ربنا عزّ وجل الربا هو الخبير، هو العليم، هو الحكيم، هو الذي يعرف طبيعة النفوس، البديل هو القَرض الحسن، القرض الحسن معاونة هدفها إرضاء الله عزّ وجل، والربا استغلال حاجة الضعيف ليربو مال الغني.

الفرق بين القرض الحسن والقرض الربوي:

الحقيقة ما الذي يحصل ؟ أنك إذا أقرضت إنساناً ليعمل بهذا القرض، العلماء فرّقوا بين القرض الاستثماري والقرض الاستهلاكي، القرض الاستهلاكي إنسان اقترض لشراء دواء، لإجراء عمليَّة جراحيَّة، لماذا استقرض ؟ لأنه فقير، وفوق أنه فقير عليه أن يعيد هذا المبلغ مع فائدة، إذاً أرهقته، هو مرهقٌ في ثمن أجر العمليَّة الجراحيَّة، وفوق العمليَّة الجراحيَّة أرهقته بالفائدة، إذاً ماذا فعلت أنت ؟ أنت سحقته، وازداد الغني غنىً، هذا القرض الاستهلاكي.

أما القرض الاستثماري لو أقرضت إنساناً ليتاجر، ليفتح محلاً تجارياً، هل تدري أن الربح دائماً مُحَدَّد؟ بمعنى أنه هناك منافسة، وهذه المنافسة تحدِّد الربح، أحياناً الربح يساوي الفائدة، فأنت إذا أقرضته قرضاً استثمارياً جُهْدُهُ ضاع في الفائدة لك وبقي فقيراً ولو طالبته برأس المال فقط بقي له ربحه فقط، لكن ربحه صار فائدةً لك، إذاً حتَّى في القرض الاستثماري أنت سحقته، سحقت صاحب القرض الاستهلاكي وسحقت صاحب القرض الاستثماري، بالاستثمار إذا كان الربح بالمئة عشرة، تكون أنت قد أخذت فائدة وبقي هو بلا ربح، أخذ قرضاً وفتح محلاً واشترى بضاعة وباعها، هذا الجهد يُترجم بربح بالمئة عشرة، أو عشرين، فأنت فائدتك لهذا القرض استغرقت ربحه إذاً بقي فقيراً، أما لو أنك طالبته برأس المال فقط، وأصبح الربح له، اغتنى، وإذا اغتنى أصبح مصدراً لإنعاش الآخرين.

شيء عجيب جداً كيف أن القرض الحسن يشيع الغنى بين الناس، والقرض الربوي يشيع الفقر فيهم، القرض الربوي يسحق الناس جميعاً، من استقرض قرضاً استهلاكياً، ومن استقرض قرضاً استثماريّاً كلاهما مسحوق، أما القرض الحسن الذي أمر الله به يشيع الغنى بين الناس، إن أقرضته لعملٍ إنساني عليه أن يعيد أصل المال فقط، وإن أقرضته لعملٍ تجاري عليه أن يعيد أصل المال، في كلا الحالين بقيت فيه بقيَّة، بقي فيه رَمَق، أما إذا أقرضته قرضاً ربوياً أكلت جهده، وأكلت تعبه، وجعلته فقيراً، وجعلته عالةً على الناس.

ليس في القرآن الكريم كله آية توعّدت العصاة بحربٍ من الله ورسوله كآية الربا:

لماذا حرّم الله الربا ؟ لأن الربا يمزّق المجتمع، يبدو أن كل معصيةٍ عقابها على قدر ضررها، بما أن الربا يُفَتِّت العلاقات في المجتمع كلِه، ويجعل المجتمع طبقتين ؛ طبقة فقيرة وطبقة غنيّة، طبقة مسحوقة وطبقة ساحقة، طبقة لا تملك شيئاً وطبقة تملك كل شيء بسبب ارتفاع الأسعار وتجمُّع الأموال في أيدٍ قليلة، لأن الربا يشيع ضرره في المجتمع كلِه لذلك جاء تحريمه شديداً، وما في القرآن الكريم كله آيةٌ توعّدت العصاة بحربٍ من الله ورسوله كآية الربا:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ(279))

(سورة البقرة)

حرب من الله ورسوله، لأن الربا نتائجه تَعُمُّ المجتمع كله، فشرب الخمر، تعود نتائجه الخبيثة على شاربه، أما الزنا على الزاني وعلى المَزْنِيّ بها، أما الربا على المجتمع بأكمله، لذلك ورد في بعض الأحاديث أن درهم الربا أشد عند الله من ستٍ وثلاثين زنوة:

((دِرْهَمٌ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاثِينَ زَنْيَةً))

[مسند أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ]

كلما ازداد الخطر ازداد الإثم، كلما اتسع نطاق الأذى اتسع الجُرم، الذي يقتل إنساناً يحاسب كمن يقتل خمسة ؟!

ربنا عزّ وجل عندما حرم الشيء حَرّمَ أصله:

يا أيها الأخوة الأكارم عندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا (39))

أي دفعتم أموالكم لترابوا فيها، النقطة الدقيقة، يوجد أشخاص يحتالون على الله عزّ وجل، كل من يحتال على الله عزّ وجل معنى ذلك أنه يقول: أنا لا أعرف الله، إيمانه صِفْر، يشيع بين الناس جميعاً بيع العِينَة، أي أن الإنسان يبيع شيئاً بثمن مؤجّل، ثم يشتريه بثمن مُعَجّل، يبيع هذا الكتاب بمئة ليرة ديناً، ثم يشتريه بثمانين نَقْداً، هذا الكتاب يبيعه ألف مرة في الأسبوع، ماذا فعل ؟ هو مرابٍ ؛ لكن جعل من البيع والشراء إطاراً للربا، هذا لا يخفى على الله عزّ وجل، فلما ربنا عزّ وجل حرم الشيء حَرّمَ أصله، أما شكليّاته هذه يحاسب عليها المرء لو أنه أقام الربا بشكل شَرعي، بشكل بيع وشراء.

مثال آخر: مثال مُبَسّط جداً يوضح المعنى، لو صاحب سيارة، قال لإنسان: خذ هذه السيارة وأعطني كل يوم ألف ليرة، ما الذي يحصل ؟ أن سائق السيارة قد يكون هناك فترة من الوقت لا يوجد فيها عمل،

لا يوجد ازدحام، في عُطل رسمية، يظلم بهذا العمل، لأنه كلّفه بمبلغ فوق طاقته، وإذا جاء سائق السيارة وأعطى صاحبها مبلغاً زهيداً جداً فقد ظلم صاحبها، لو كان الربح بينهما، لا تَظلمون ولا تُظلمون، ما الفرق بين الشراكة وبين الربا ؟ الشريك في الربح والخسارة، إذا أنت أقرضت إنساناً مبلغاً ولك ربحٌ ثابت فهذا هو الربا، أما إذا أقرضت إنساناً ليعمل بالمال، فأنت شريك بالمال وهو بالجهد، ربح مئة مناصفة، خمسين مناصفة، ألف مناصفة، في رحمة، في عدل، إذاً هذا الذي يختار طريق الربا، طريق استثمار أمواله بالربا، فأناس كثيرون الآن، مسلمون، يقول لك: شَغِّل لي هذا المبلغ، وأريد ربحاً ثابتاً حلالاً، من هذا الذي قال لك حلالاً ؟ حينما يثبت الربح صار الربا، إن كان ربح أكثر ظلمك، وإن رَبحَ أقل ظلمته، أما إذا قلت: الربح بيني وبينك مناصفةً، انتهى الأمر، أصبح في عدل وأصبح في رحمة، الفرق بالضبط بين قرض ربوي وبين قرض مضاربة.

كل قناة حرمها الله عزّ وجل يقابلها قناة نظيفة طاهرة:

الواقع الآن أن هناك بعض الأشخاص معهم فائض مالي، ما الذي يعملون به ؟ إما أن يستثمره بالربا في بنوك، بمؤسسات ربوية، وإما أن يقرضه ضِراباً، أي مضاربة، أن يستثمره في جهات استثمارية شرعية، لكن إذا أقرضه أخذ ربحاً قليلاً فقد ظُلِم، وإذا فرض على المستثمر ربحاً باهظاً ثابتاً فقد ظَلَمَهُ، فالذي يأخذ بالعَجَب أن أُناساً كثيرون جداً ومسلمون، ويصلون في المساجد يستثمرون أموالهم عند تُجار، أو عند معامل، يفرض عليه ربحاً ثابتاً، أريد على هذه المئة ألف، أريد ألفين كل شهر، هل يعجبك هذا ؟ قد يكون التاجر ضعيف النَفْس، أو ضعيف المعلومات، أو ضعيف الإيمان، أو بضائقة شديدة فيقبل ذلك، فالذي قبل وقع في الربا، والذي أجبر أوقع في الربا، حينما يكون الربح ثابتاً فقد دخلت في متاهة الربا.

مثل آخر، قلت له: أريد ألفين بالشهر، ظلمته، لم تعمل، أعطاك ربحاً قليلاً فقد ظلمك، فإذا كان كما سَنّ الشرع لنا المضاربة أو القِراض كلاهما بمعنى واحد، أي استثمار المال من جهة، والجهد من جهة، والربح بينهما، هذه عمليةٌ مشروعةٌ أثابها الشرع فكل شيء تراه محرماً له بديل محلل، كل قناة حرمها الله عزّ وجل يقابلها قناة نظيفة طاهرة إذاً:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا (39))

آتيتم الناس أموالكم، لتستردّوها بنسبٍ عاليةٍ جداً، لترابوا فيها، قال:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ(39))

نحن في رمضان، فإذا قدمت زكاة مالك أنعشت الفقير، ربنا عزّ وجل قال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُم (103))

(سورة التوبة)

أيها الأخوة الأكارم هذه الآية من أدق الآيات، خُذ يا محمد، الخطاب الآن موجَّهٌ لا إلى النبي بوصفه نبي، بل موجهٌ للنبي بوصفه ولي أمر المسلمين، إذاً أي ولي أمر مسلمين عليه أن يأخذ الزكاة، الزكاة تؤخذ ولا تُستجدى، سيدنا الصديق قاتل مانعي الزكاة لأنها حق الفقير، الأغنياء أوصيائي، والفقراء عيالي ومن منع مالي عيالي أذقته عذابي ولا أبالي، خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ما قال: خذ من مالهم، لو قال: خذ من مالهم، ماذا يعني ذلك ؟ أن الزكاة تجب في مالٍ واحد، فخذ من أموالهم، الزروع، الأبقار، الأغنام، العسل، مشروع تفاح، تجارة، قطع غيار، مفروشات، تاجر عمار، جميع أموال المال تجب فيها الزكاة، خذ من أموالهم، و(من) تعود على المسلمين، الزكاة تؤخذ من أغنياء المسلمين، وترد على فقرائهم، خذ منهم صدقةً تؤكد صدقهم مع ربهم، تؤكد تصديقهم لدين ربهم، تؤكد التصديق وتؤكد الصدق، وسمَّاها الله صدقةً:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ (103))

(سورة التوبة)

الفقير ممتلئ حقداً، ممتلئ يأساً، ممتلئ حِنقاً، ممتلئ غضباً، ممتلئ توتُّراً، يأتي هذا المال الطيب، المال الطاهر، المال مال الزكاة تدفعه للفقير فينتعش به، وأفضل أنواع الزكاة ما أنعشته دائماً، إذا أمنت له عملاً بهذا المال، أسكنته في بيت، يسَّرت له رأس مال صغير، ماكينة يعمل عليها، جعلته مُنتجاً، أشرف أنواع الزكاة ما جعلت الفقير مُنتجاً، هو بعد ذلك يدفع الزكاة، إذا نقلته من فقيرٍ يستجدي إلى غنيٍ يدفع فقد ضيَّقت الفقر في المجتمع كثيراً، يجب أن تنقُل الإنسان الفقير المُستجدي إلى إنسانٍ غنيٍ يدفع.

أفضل أنواع الزكاة ما قلبت المستجدي إلى منتج:

إذاً ماذا طهَّرت الزكاة ؟ طهرت الفقير من ماذا ؟ من الحِقد، من الغضب، من الحِرمان، من التَوَتُّر، ألم يقل الإمام عليٌ كرم الله وجهه: **" كاد الفقر أن يكون كفراً ".**

كم من طلاقٍ تمَّ بسبب الفقر ؟ كم من أذىً وقع بسبب الفقر ؟ كم من جريمةٍ ارتكبت بسبب الفقر ؟ فإذا دفعت مال الزكاة للفقير طهرت الفقير من الحقد ومن غليان الحِقد، من الثورة الداخلية، من الشعور بالحِرمان، من الشعور بأنه دون المجتمع.

إذا أدّى الغني زكاة ماله، يطهر من ماذا ؟ يطهر من الشح، من البُخل، من الأثَرَة، من أن يُحِسّ أنه فوق المجتمع، لكن وإذا أدى الغني زكاة ماله، المال يطهر من تعلّق حق الغير به، إذاً كلمة: تُطَهّرُهُمْ، طَهّرَت المال، وطهرت الفقير، وطهرت الغني.

مرةً ثانية، أفضل أنواع الزكاة ما قلبت المستجدي إلى منتج، وإلى دافع للزكاة، أما تعطيه شيئاً لا يفعل معه شيئاً، بمَنٍ وغطرسةٍ واستعلاءٍ، ليست هذه هي الزكاة، بلطفٍ وأدبٍ وحياءٍ وسترٍ وتواضعٍ وشعورٍ أنه فضّل عليك حينما قبل زكاة مالك، تفضل عليك، لأنه إذا لم يقبلها ماذا تفعل ؟ كان الرجل في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يسير الأيام والليالي ليبحث عن رجلٍ يقبل زكاة ماله، الأمر الذي حَمَلَ الخليفة الراشد على أن يدفع الزكاة لكل الغارمين، لمن عليهم الدين، هذا يطهرهم، فما معنى: وَتُزَكِّيهِمْ ؟

راقب شعور الغني حينما يدفع زكاة ماله لأسرةٍ فقيرةٍ مؤمنةٍ مستورة، هذه الأسرة تشتري أطيب الطعام، يرتدي أبناؤها أجمل اللباس، تعمُّ الفرحة والبسمة، بماذا يشعر الغني ؟ يشعر بقيمته، والله معنى ذلك أنني فعلت شيئاً، أشخاص يتعهّدون بعض العمليات الجراحية الصعبة، ينفقون أجورها، أسرة عمّتها الفرحة، عمّها السلام، عمها البِشر، عمتها السعادة بفضل هذا المال الذي أنفق على مُعيلها، إذاً تزكي نفس الغني، يشعر أن الله يحبه، وأنه فعل شيئاً ثميناً، وأنه خفف المآسي عن الناس، وأنه أحل البَسْمَة محل العبوس، نمت نفس الغني.

هذا الفقير الضعيف المُسْتَضْعَف، الذي يشعر أن الناس قد نسوه، إذا جاءته زكاة المال يشعر بقيمته في المجتمع، بخطورته، هناك من يذكرني، هناك من يعنيه أمري، هناك من يهتم لي، هناك من يساعدني، ومال الغني ينمو أيضاً.

وجوب الزكاة في كل أنواع المال وعلى جميع المسلمين:

تنمو نفس الغني، وتنمو نفس الفقير، وينمو مال الغني، كله ينمو معاً، ويطهر الفقير من الحقد، والغني من الشُحّ، والمال من تعلّق حق الغير به، وتجب الزكاة في كل أنواع المال، وتجب على جميع المسلمين، وتؤخذ ولا تعطى، تؤخذ عنوةً ولا تعطى، لأنها حق المجتمع، وزكاة المال تُرَمِّم الفروق الطبقية، فمعظم الناس لهم بيوت مريحة، فيها الماء، والكهرباء، والتدفئة، والأثاث الجيد، واللباس الجيد، والطعام الجيد، فهذه أعلى درجة في المجتمع، أن يتجانس أفراده، الزكاة ترمم، لذلك في حكمة بالغة جداً من فرض الزكاة على الأموال غير النامية مثل الورق والفضة والذهب، قال: إن حكمة الشارع من

فرض الزكاة على الأموال غير النامية دفعها للاستثمار، فهذا المال إن لم تستثمره في مشروعاتٍ إنتاجيةٍ تعود بالنفع على الناس، تأكله الزكاة، كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

((اتَّجِرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى لا تَأْكُلُهَا الزَّكَاةُ))

[موطأ مالك عَنْ مَالِك]

اتجروا في أموالهم، فكأن الزكاة سوطٌ لاذع يُلاحق كل من يخزن ماله، إن خزنته فسوف يستهلك بعد أربعين عاماً، فينتهي، أما إذا استثمرته، فقد حفظت أصله ونفعت الناس به.

استثمار مال اليتيم لصالحه:

جاء في بعض التوجيهات القرآنية:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا (5))

(سورة النساء)

لم يقل لأوصياء اليتامى ارزقوهم منه، قال:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا (5))

(سورة النساء)

هذه إشارة إلى أنه لو قال ارزقوهم منه لسمح لك أن تطعم اليتيم من أصل ماله، يجب أن تطعم اليتيم لا من أصل ماله بل من رَيع ماله:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا (5))

(سورة النساء)

هذه إشارة إلى أن مال اليتيم يجب أن يستثمر لصالحه، إذاً هذه الآية الكريمة فيها توجيهٌ إلهيٌ عظيم:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ (39))

المعنى الأول: إذا فعلت خيراً، قدمت هدايا للناس، قدمت خدمات، من أجل أن يحبك الناس، أن يرفعوك، أن يعظموك، هذه نوايا شيطانية أرضية لا قيمة لها، المعنى الثاني: إذا أقرضت الناس مالك قرضاً ربوياً ليربو عند الناس فلا يربو عند الله.

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ (39))

بها:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39))

دافع الزكاة لا يتلفُ ماله في بَرٍ ولا في بحر:

في النهاية دافع الزكاة لا يتلفُ ماله لا في بَرٍ ولا بحر، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ما تلف مالٌ في برٍ ولا بحرٍ إلا بحبس الزكاة))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

إذا أردت صون مالك، ونماء مالك، ونماء نفسك، وأن يحبك الفقير فأدِ زكاة مالك.

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ (39))

تزكو بها النفس، يزكو بها المال، يزكو بها الفقير، يزكو بها الغني:

(تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّهِ (39))

هذه الإخلاص:

(فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39))

الذين يزداد مالهم ويزداد قربهم من ربهم عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (11-14): تفسير الآيات 40-41
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-04-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم مع الدرس الحادي عشر من سورة الروم.

الإيمان بالله عزّ وجل إيمان تحقيقي من خلال الكون ومن خلال الفكر:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(40))

(سورة الروم)

أيها الأخوة الأكارم الإنسان إذا تأمّل في الأكوان، وجال فيها جولاتٍ طويلة، فكّر في خَلْقِهِ، فكر في طعامه وشرابه، فكّر في ظاهرة النبات التي حوله، فكر في الأمطار والبحار، فكر في الأطيار والحيوانات، هذه الجولة الطويلة تنتهي بحقيقةٍ يقينيّة وهي أنه لا بدّ لهذا الكون من خالق، لكن من هو هذا الخالق ؟ ولماذا خَلَقَ ؟ وماذا يريد منا ؟ هذا يجيبنا عنه القرآن الكريم، جاء الجواب:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (40))

أي يا أيها الإنسان أعطيتك عقلاً أو فكراً، وأعطيتك كوناً سخّرته لك ؛ تسخير تعريف وتسخير تكريم، إذا أعملت عقلك في هذا الكون، فلو عندك قطعة قماش ومعك متر بإمكانك أن تقيس هذه القطعة بهذا المتر، خلق الكون وأعطاك قوةً إدراكيّة، خلق الكون وأعطاك عقلاً، صمّم الكون على أن كل شيءٍ فيه له سبب، وركّب في عقلك مبدأ السببيّة، خلق الكون وصمّمه على أن كل شيءٍ له غاية، وركّب عقلك على مبدأ الغائيّة، خلق الكون ولم يجعل فيه تناقضاً وركّب عقلك على مبدأ الهويّة، فمبادئ عقلك تتوافق توافقاً كاملاً مع مبادئ خلق الله عزّ وجل، عندما تفكّر تصل إلى الله، أو تصل إلى أنه لا بد لهذا الكون من خالق، إذاً الإيمان بالله عزّ وجل إيمان تحقيقي من خلال الكون ومن خلال الفكر.

عندما ينتهي دور العقل يأتي دور النقل أي القرآن:

قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة آل عمران)

إذاً عقلك يصل إلى حقيقةٍ يقينيَّة وهي أنه لا بدَّ لهذا الكون من خالق، فأنت أمام مركبة ـ سيارة ـ أمام آلة حاسبة، أمام كمبيوتر، أمام جهاز هاتف، هل يعقل أن تقتنع أن هذا الجهاز صنع من غير صانع ؟ كم مهندس مصمِّم، كم مهندس منفِّذ، المواد الأوليَّة، القوالب، الحقن البلاستيكي، الصمَّامات، المراجعة الأخيرة، تجميع القِطَع، غير ممكن، فإذا فكرت قليلاً في الكون وصلت إلى أنه لا بدَّ لهذا الكون من خالق، لا بدَّ له من مربٍ، لا بدَّ له من مسير، يأتي القرآن، الآن انتهى دور العقل وجاء دور النقل، يقول لك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (40))

إذا تساءلت أيها الإنسان عن خالق الكون إنه الله:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

العين واللسان وغيرهما من آيات الله الدالة على عظمته:

هذا التصميم، عينان:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

(سورة البلد)

قرنيَّة، وقُزَحِيَّة، وعدسة، وخلط مائي، وخلط زجاجي، وعضلات إنسية، ووحشيَّة، وعلويَّة، وسفليَّة، ومائلة، وشبكيَّة مكوَّنة من عشر طبقات، مئة وثلاثين مليون عصيَّة ومخروط وعصب بصري، تسعمئة ألف عصب في الدماغ، عن طريق الدماغ تتم الرؤية، العين:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا)

(سورة البلد)

هذا اللسان كل حرفٍ تنطق به يُسْهِمُ في صنعه سبعة عشرَ عضلة، فإذا نطقت بكلمة مكوَّنة من عشرة حروف، تسهم في هذه الكلمة حوالي ثمانين عضلة، أي ثمانين حركة، فلو جملة من خمس كلمات، مقطع من خمس جمل، خطبة من خمس مقاطع، كم حرف ؟!!

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9))

(سورة البلد)

قال:

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(64))

(سورة غافر)

الله عزّ وجل أوجد الإنسان من عدم:

إذا فكّرت في طعامك، في شرابك، في ابنك، في زوجتك، في النبات ؛ النبات الحدودي، ونبات الزينة، ونبات الأخشاب، ونبات الثمار، ونبات العطريات، الله قال:

(وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 99 ")

تصل إلى أنه لا بدّ لهذا الكون من خالق، من هو ؟

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (40))

الله عزّ وجل أوجدك من عدم، قال:

(ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

الله خلق الكون وفيه عناصر، وصلوا الآن إلى مئة واثني عشر عنصراً أو مئة واثنين، هذه العناصر هي أبسط المواد في الكون، كل هذه العناصر على الحرارة تتمدّد، وعلى البردة تتقلّص، مبدأٌ ثابت، فكل الأجسام تتمدّد بالحرارة وكلها تنكمش بالبرودة، إلا الماء، إذا رفعت درجته من ثلاثين إلى أربعين يزداد حجمه، برّدته إلى الخمسة والعشرين يتقلّص، وهكذا إلى أن تصل درجة الحرارة إلى زائد أربعة، بقدرة قادر، الآية تنعكس، تحت الأربعة يزداد حجمه، هل تعلم أن هذه الظاهرة لها علاقةٌ بهذه الآية:

(ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

القرآن الكريم فيه عناوين موضوعات:

هل تصدّق أن الماء لو لم يزدد حجمه حين التبريد تحت الأربع درجات لا يمكن أن يعيش على وجه الأرض شيء ؟ لأن الماء عندما يزداد حجمه تقل كثافته، وعندما تقل كثافته يطفو على سطح الماء، فالمحيطات تتجمّد كلها طبقة عليا، وتحت المحيطات الماء دافئ وفيه حيوانات، في أسماك، لو أن الماء إذا تجمّد قلّ حجمه، فازدادت كثافته، فرسب إلى قاع البحر، بعد سنوات عدّة تصبح البحار كلها بحاراً متجمّدةً، ينعدم التبخُّر، ينعدم السحاب، تنعدم الأمطار، يموت النبات، يموت الحيوان، يموت الإنسان، هذه الخاصّة، لذلك تسأل في إفريقيا مثلاً، منطقة صحراويّة انقطعت عنها الأمطار، فماتت النباتات، تبعتها الحيوانات، هجرها السكّان، ونحن ـ لا سمح الله ولا قدّر ـ كنا قبل أشهر على هذا الطريق، طريق التصحُّر والجفاف، لولا أن منّ الله علينا وأكرمنا وتفضّل علينا بهذه الأمطار التي أيقظت الآمال في المحاصيل وفي الينابيع، أبداً، فإذاً لو أن الماء يصغر حجمه كلّما برّدته إلى ما لا نهاية، لانعدمت الحياة من على سطح الأرض وانتهى كل شيء إذاً:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

ساق السُحُب، أنزل الأمطار، نبت الكلأ، أكل الحيوان، ازداد وزنه، أكلته أنت، نمت المحاصيل ؛ القمح والشعير وغيرها، نمت الأشجار المثمرة، نمت الخضراوات أكلت، وشربت، وتطهّرت بهذا الماء المبارك، إذاً هذا القرآن فيه عناوين موضوعات:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (40))

أنت في أي صورة ما شاء ركّبك، أي أن الله عزّ وجل جعل الإنسان متوازناً، لو أن جهاز التوازن التهب يختل توازنه، يحتاج إلى كرسي يمشي عليه، أما أنت تقف على قدمين لطيفتين صغيرتين مقبولتين، لولا هذا الجهاز ـ جهاز التوازن ـ لاحتجت إلى قاعدة استناد عرضها سبعين سنتيمتر كالتماثيل، هكذا القاعدة أو أقدام كبيرة جداً، انظر إلى تصميم خلقك، انظر إلى جهاز التوازن، انظر إلى السمع والبصر، انظر الكليتين، انظر الرئتين، انظر القلب، الأوردة، الشرايين، العضلات.

الله خلقك وقدّر لك رزقك لذلك فمستقرٌ ومستودع:

قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

يوجد سؤال دقيق جداً هو أن الله عزّ وجل ما قال: هو الذي خلقكم ثمّ يرزقكم ؛ بل إنه قال:

(ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

أي أنه جاء بالفعل الماضي، تقريباً لو أن إنساناً أرسل شخصاً إلى دولة أجنبيّة لمهمّة، دراسة مثلاً، نقول له: أودعنا لك في المصرف الفلاني ـ مع التحفّظ على جواز هذا العمل شرعاً ـ أودعنا لك ما يكفيك طوال ست سنوات من أجل أن تطمئن، لذلك:

((عبدي لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

[ورد في الأثر]

لأنه:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

بالفعل الماضي، لمجرّد أنه خلقك قدّر لك رزقك، لذلك فمستقرٌ ومستودع، هذه الدابّة لها مستقر ولها مستودع، أنت مستقر في دمشق، ولك مستودع ماء في المكان الفلاني الله يغذيه، ارتفع منسوب المياه إلى أعلى درجة من دون أن تكون الأمطار الهاطلة في المنطقة كافية لرفع هذه النسبة، قالوا: إذاً لا بدّ من حوضٍ إضافي، اتصل بهذا الحوض لا نعلم عنه شيئاً، فأنت لك مستقر في دمشق، ولك مستودع في

الغوطة، بعض الفواكه والثمار، بعض الخضراوات، وأحياناً يكون لك مستودعات في بلاد بعيدة، تأكل الأرز أحياناً، مستودعك في الصين، فمستقر ومستودع.

رزقك يصل إليك بطريق أو بآخر فاصبر على الحرام يأتيك الحلال:

قال تعالى:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22)فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ(23))

(سورة الذاريات)

ما دام الله عزّ وجل قد خلقني وخلق مع خلقي رزقي وانتهى الأمر، أفيعقل أن أعصيه من أجل الرزق؟ اصبر على الحرام يأتيك الحلال، اللهمّ اكفنا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، فبشكلٍ أو بآخر هذه التفّاحة على الغصن الرابع على الفرع الثالث في الشجرة السابعة في البستان الفلاني هي لك حينما خُلِقَت، خُلقَت لك، أنت مستقر في دمشق وهي في هذه القرية، هذه التفاحة تصل إليك ؛ إما شراءً، وإما هديّة، وإما تسوُّلاً، وإما سرقة، وإما صدقة، هي لك، لذلك اللهمّ اكفنا بحلالك عن حرامك، لا بدّ من أن يصل هذا الرزق إليك، فإن كنت طاهر النفس جاءك من طريقٍ مشروع، من طريقٍ شريف، من طريقٍ عزيز، وإن لم تكن كذلك جاءك من طريقٍ آخر، لك عنده رزق.

((عبدي لي عليك فريضة ولك عليّ رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطنّ عليكَ الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموما))

[ورد في الأثر]

شيئان بيد الله سبحانه وليسا بيد البشر وهما عمرك ورزقك:

قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

لذلك قيل: " كلمة الحقّ لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً "، لا تخف، شيئان خطيران في حياتك ؛ عمرك ورزقك، هذان الشيئان من أجل أن تطمئن ليسا بيد البشر، وأحياناً ترى أن فلاناً سيقطع عنك رزقك، إذاً تعصي الله من أجل أن يرضى، هذا هو ضعف الإيمان، إذاً أنت لا تعرف الله عزّ وجل، فالذي خلقك هو الذي رزقك وليس سيرزقك، رزقك وانتهى الأمر، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ (40))

أحياناً في بعض الجبال في شرق آسيا، وجدوا جبلاً في قمّته تماماً نبع ماء، وهذا من أغرب الغرائب، في قمّة جبل نبع ماء ! هذا يقتضي أن يكون مستودع هذا النبع في جبلٍ آخر بعيدٍ عنه وأعلى منه، لا يمكن أن ينبع الماء من قمّة جبل إلا إذا كان مستودعه في جبلٍ أعلى منه، فلمّا بحثوا وجدوا أن في هذا الجبل تسكن بعض الحيوانات في هذه القمم العالية، فمن أجل أن لا تُرهَق في النزول والصعود سخّر الله لها هذا النبع في هذا المكان، الله عزّ وجل لا ينسى الوعل، لا ينسى نملةً سوداء على صخرةٍ صمّاء في ليلةٍ ظلماء، لا ينساها من الرزق، أينساك أنت ؟ أنت الإنسان المكرّم المخلوق الأول سوف ينساك ؟ تعصيه من أجل الرزق ! لذلك ربنا يمتحنك، يضيّق عليك، يسد عليك كل المنافذ لينظر ماذا تفعل، أتعصيه ؟ فإذا صبرت جاءك الرزق من حيث لا تحتسب:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (3))

(سورة الطلاق)

لا يوجد في الأرض كلها جهةٌ تستطيع أن تدعي أنها تخلُق وترزق وتميت وتحيي:

قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ (40))

هذه الأفعال بيدِ من ؟ أيّةُ جهةٍ في الأرض بإمكانها أن تدّعي هذه الأفعال مهما علا شأن هذه الجهة، مهما ارتقت، مهما قويت، مهما تحكّمت، مهما سيطرت، هل في الأرض كلها جهةٌ تستطيع أن تدعي أنها تخلُق، وترزق، وتميت، وتحيي ؟ الجواب:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ(40))

هؤلاء الذين تدعون من دون الله، هؤلاء الأصنام، هؤلاء الأشخاص الذين تعتقدون أنهم أقوياء، هؤلاء الذين تظنّون أن بيدهم مقدّرات الناس:

(هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ (40))

عندما انحبست أمطار السماء ماذا فعلنا ؟ اجتمعوا، وقرروا، ودرسوا الأمر بشكل بيّن، واتخذوا مقترحات، واتخذوا قراراً بإنزال الأمطار، أين الأمطار ؟ ما في إلا الدعاء، يقول لك: غداً منخفض جوي، ما جاء، غداً توقُّع أمطار، ليس هناك أمطار، غداً هناك منخفض باتجاه القطر، ما في مطر، وبعد هذا قالوا: بإذن الله تعالى، معترفين بعجزهم.

العمر بيد الله عزّ وجل لا يزيد ولا ينقص أبداً:

قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ (40))

تجد إنساناً له آمال كثيرة، وخلال ثوان صار خبراً، صار أثراً بعد حين، المرحوم فلان، فقد كان البارحة ملء السمع والبصر، قوة شخصيّته، معلوماته، ذكاؤه، منصبه، فأين هو الآن ؟ صار تحت الأرض، الله يميت:

إن الطبيب له علمٌ يُدِلُّ بــه إن كان للناس في الآجال تأخيرُ

حتّى إذا ما انتهت أيّام رحلته حـار الطبيب وخانته العقاقيـرُ

***

والله أعرف شخصاً كُتِبَت نعوته، وخرجت من بيتي مع صلاة الفجر، واتجهت إلى مكان توضع فيه النعوات لأرى أين العزاء وكيف الجنازة، لأن غرفته سُلِّمت في المستشفى وقال الطبيب: بقي له ساعة فقط، ولا أمل بالشفاء، ونزل أهله اشتروا الثياب المناسبة، وكُتِبَت النعوة، لم أجد النعوة في مكانها في الصباح، بلغني أنه تحسّن قليلاً، وبعد هذا انتعش، ثمّ صح، أما الذي كتب النعوة فهو تحت أطباق الثرى، والذي كُتِبَت له لا يزال حيّاً يُرْزَق، يجب أن تؤمن أن العمر بيد الله عزّ وجل لا يزيد ولا ينقص أبداً:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ (40))

خَلْقُكَ، ورزْقُكَ، وحياتك، وموتك بيده، إلى أين تذهبُ ؟ من ترضي ؟ تطيع من ؟ علامَ تُعَلِّق الآمال على زيد أو عُبيد ؟ علامَ تتوسّل لفلان ؟ رزقك بيد الله، والعمر بيد الله، والحياة بيد الله، والممات بيد الله، السؤال الدقيق في عندنا استفهام إنكاري:

(هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ (40))

على المؤمن أن يستعد للقاء الله بالاستقامة والطاعة والعمل الصالح:

أنا سأروي قصّة لأنني تأثّرت بها جداً، ورويتها لكم كثيراً، مرّة كنت في مدرسة لي دروس فيها، وفجأةً نشأ وقت فراغ لمدة ساعة، ذهبت إلى مدير الثانويّة وجلست عنده قليلاً، حدّثني الحديث التالي، قال لي: والله أنا أرغب في الذهاب إلى الجزائر وأعمل إعارة، قلت له: خير إن شاء الله ؟ قال لي: هناك أقيم أربع أو خمس سنوات ـ بتفصيلات رائعة ـ أربع صيفيات لن آتي إلى سورية، سألته: لماذا ؟ قال لي: أريد أن أرى أوروبا هذه الزيارات العابرة لا تجدي، أريد أن أبقى صيفيّةً في فرنسا أتعرّف إلى

معالمها، إلى متنزّهاتها، إلى آثارها، إلى متاحفها، إلى معاملها، والصيفيّة الثانية بإنكلترا، والثالثة بإيطاليا، والرابعة بأسبانيا، قال لي: أقيم أربع أو خمس سنوات ثم أعود إلى بلدي، عندئذٍ أتقاعد من وظيفتي، قلت له: والله شيءٌ جميل، قال لي: افتح محلاً فيه هدايا وتحف، وبعد هذا يكبر أولادي فأضعهم في المحل، وأعمل منه ندوة، أقضي فيه وقتاً ظريفاً، والله عمل لي خطّة لعشرين سنة قادمة، والله الذي لا إله إلا هو في اليوم نفسه، في المساء كنت في مركز المدينة وتوجّهت إلى بيتي مشياً على الأقدام، في الطريق رأيت نعوته معلّقة على الجدار، في اليوم نفسه.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ (40))

من منّا يعرف متى الأجل ؟ كل إنسان في باله عشر سنوات، خمسة عشر، عشرين سنة إلى الأمام، فهو يريد أن يغيّر البيت، يريد أن يغير المعمل، يريد أن يغير المركبة، يريد أن يتزوج، يريد أن يطلق زوجته، يريد فك شركته مع شريكه، هل يعرف هذا الإنسان متى ينتهي أجله ؟ إن كنت لا تعرف فاستعد للموت، استعد للقاء الله بالاستقامة، بالطاعة، بالعمل الصالح.

من فعل شيئاً خلاف منهج الله عز وجل أفسد في الأرض:

قال:

(هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ (40))

هؤلاء الذين تدعون من دون الله هل بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً من هذا ؟

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40))

فما أجَلّهُ وما أعظمه من أن يكون له شركاء في الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، هذه أفعال الله عزّ وجل، هذه أسماء الخالق، الرازق، المحيي، المميت، هذه أسماء أفعاله، كما عندنا أسماء ذاته الحي، وأسماء صفاته الرحمن، ثم يقول الله عزّ وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(41))

أول حقيقة في هذه الآية أنه لا يمكن أن يبدو الفساد إلا إذا فعلت شيئاً خلاف منهج الله، لو ألغينا الإنس والجن، هؤلاء المكلّفون المختارون، لو ألغينا من الكون الإنس والجن، تجد أن الكون يعمل بانتظامٍ رائع، لماذا ؟ لأن كل ما سوى الإنسان خاضعٌ لله عزّ وجل.

(ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(11))

(سورة فصلت)

الكون رفض حمل الأمانة فهو مسيرٌ من قِبَل الله عزّ وجل:

كل ما في الكون عدا الإنس والجن:

(لا يَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(6))

(سورة التحريم)

الكون كله ما في معصية عنده، لأنه:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

الكون رفض حمل الأمانة إذاً هو مسيرٌ من قِبَل الله عزّ وجل، إذاً ليس له ذنب، لذلك مجتمع الحيوان، مجتمع النبات، مجتمع الجبال، البحار، كلّه يعمل بانتظام، أما الإنس والجن لأنهم مُخَيَّرون ولأنهم حملوا الأمانة فإذا خرجوا في أفعالهم عن منهج الله عزّ وجل ظهر الفساد في الأرض.

استهلكنا النفط استهلاكاً غير طبيعي، استهلاك ترف، فارتفعت نسبة غاز الفحم في الهواء، تخلخلت طبقة الأوزون في الجو، صار الآن في سرطانات جلدية كبيرة جداً في دول أوروبا وأمريكا، هذا بحث التلوُّث، قرأت من فترة كتاباً عن التلوُّث، إذا قرأت هذا الكتاب تجده كله تفسيراً لهذه الآية، تلوث بالأصوات، ضجيج دائم، وهذا الضجيج الدائم يضعف السمع، يقول لك: الطائرة مئة وخمسة وعشرين ديسيبل، والمروحة لها مُعَيَّرة، فسكّان المدن دائماً في ضجيج دائم، والدليل يوم الجمعة أو يوم فيه عطلة رسميَّة تجد هدوءاً عجيباً، هذا الهدوء يريح الأعصاب، لو ذهبت إلى قريةٍ من قرى الريف تجد الحياة رائعة جداً، سر روعتها الهدوء، إذاً هناك تلوث صوتي ونحن لا ندري، دائماً أصوات محرّكات المكيف، صوت المروحة، صوت السيارة، الضجيج العام، صوت الناس، المِذياع، المُسَجّلات، الإشارات في الهواء.

من يتحرك خلاف منهج الله عز وجل لابدّ من أن تفسد حياته:

إذاً:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

المياه ملوّثة، قبل كذا عام كان الناس يشربون من نهر يزيد، ماءاً صافياً، الآن نهر يزيد لونه أسود، كل المياه الملوثة تصب فيه، وهذه المياه الملوّثة التي نسقي بها المزروعات هناك رأي فقهي: أنه لا يجوز أكل المزروعات التي تشرب من مياه سوداء لأن بعض آثار التلوث تصل إلى هذه الخضراوات، والهواء ملوّث، اذهب إلى جبل قاسيون، وهذه دمشق من أنقى مدن العالم، دمشق الآن من أنظف مدن

العالم بمقياس التلوث، ومع ذلك اذهب إلى جبل قاسيون تجد سحابة فوق دمشق، هذه سحابة تلوُّث، الغازات، والسيارات، والمعامل، وكل شيء يحترق يصدر عنه غاز فحم، هذا التلوُّث رفع درجة الحرارة في العالم كله، هذه الدرجة سبَّبت انتقال خطوط المطر، وسبَّبت بعض التَصَحُّر والجفاف.

أنتم حينما تتحرَّكون خلاف منهج الله عزّ وجل لا بدّ من أن تَفْسُدَ حياتكم، الآن كُلْ فاكهة والله ليس لها طعم إطلاقاً، ما السر ؟ السبب المخصِّبات الكيماويَّة، والهرمونات، هرمون نمو، وهرمون عقد ثمار، ومخصبات، أما بالسماد الطبيعي يصبح للفاكهة طعماً لذيذاً، مكافحة الحشرات غير طبيعي كله بمواد كيماويَّة، هذه المواد مع الأمطار تختلط مع التربة، التربة أصبحت حامضيَّة، طبعاً أنا لا أدخل في هذه الموضوعات تفصيلياً ولكن لو أن الإنسان قرأ يعرف.

يقول لك: بعض أنواع السرطانات بسبب المواد البلاستيكيَّة إذا استعملتها مع مواد حامضة أو حارة، إذ تترسَّب بعض الأصبغة في الجسم بشكل تراكمي، وبعض أنواع الشراب التي كلها مواد كيمائية، شربها بشكل مستمر يسبِّب أوراماً خبيثة.

الفساد بالمعنى المادي هو اختلال البيئة:

الآن الإيدز مثلاً، بسبب انحراف الأخلاق مرض نقص المناعة في الإنسان، أنا أتكلّم أشياء غير منتظمة لكن هناك تلوُّث أخلاقي سبَّب أمراضاً وبيلة، هناك تلوث في الجو سبَّب أمراضاً في الرئة، هناك تلوث في الطبقات العليا والتخلخل سبَّب سرطانات الجلد، فهذا الفساد بالمعنى المادي هو اختلال البيئة، أي أن الجو ملوّث، الأصوات فوق طاقة الأذن البشريَّة، المياه ملوّثة، الخضراوات ليس لها طعم إطلاقاً من هذه الأسمدة الكيماويَّة المكثّفة، المظهر رائع جداً أما المخبر سيئ جداً، يقول لك الأجداد: كان الخبز له طعم، له رائحة، أما الآن فهو مثل النشاء، منظره جميل جداً ناصع أبيض لكن ما فيه طعم الخبز الذي يعرفه أجدادنا، حتى الحليب، وحتى البيض الذي يأكله الناس من هذه المداجن ليس له الطعم الأصلي، هذا من ثمار أو من نتائج انحراف الإنسان في تعامله مع الطبيعة، هذا المعنى الأول.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

البحر، إما البحر على حقيقته أو مدن البحر وقرى البحر، وأحياناً ممكن أن نفهم الآية فهماً آخر: فساد العلاقات، فساد الأخلاق، فساد الذمّة، فساد العهد، والإنسان في غير مكانه الطبيعي.

((إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ))

[صحيح البخاري: عَنْ " أَبِي هُرَيْرَةَ "]

الابن تطاول على أبيه، والأم ليست في المكان الصحيح، المرأة ليست في مكانها الصحيح، إنها في مكانٍ آخر، الزوج معذّب، والزوجة منطلقة، ففي خطأ بالحياة، هذا معنى آخر.

عندنا معنى مادي وهو ما تعانيه الطبيعة بأجوائها، وبتربتها، وبحيواناتها، أخ كريم حدّثني قائلاً: اتُخِذْ قرار بكل دول أوروبا وأمريكا بإيقاف المُفاعلات النووية، لماذا ؟ قال: لأن هذه المفاعلات تنشر حولها دوائر موت، لا نبات، ولا حيوان، ومخلوقات إنسانيَّة مشوهَّة من الإشعاع الذري، إذاً حتى كهربائنا عن طريق المفاعل النووي لها مشكلة هذا الذي تشير له الآية، حينما يمارس الإنسان حياته وفق هواه، ولا يعبأ بشرع الله عزّ وجل، يضرب بالشرع عرض الحائط، عندئذٍ يدفع الثمن.

فساد البيئة سببه عدم تقيُّدنا بأمر الله عزّ وجل:

كذلك الآن ظهور النساء بشكل فاضح في الطرقات، هذا أيضاً تلويث للأخلاق، تجد الشاب هذا وقت بناء مستقبله، وقت دراسته، وقت انتباهه إلى قيمه، إلى فروسيّته، إلى بطولاته، فهو في أوج الشباب، والبنت في أوج الإغراء، فأصبح هناك تلوث في الأخلاق، أصبح هناك انصراف عن الدين، انصراف عن الإنجازات الطيّبة، فهذه الآية دقيقة جداً:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

لكن هذه الباء باء السببيَّة:

(بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (41))

ما نعاني من فساد في البيئة بسبب عدم تقيُّدنا بأمر الله عزّ وجل، هذا الحيوان إذا ذبحناه يراق دمه فينقص وزنه، إذاً نعمل له صعقة كهربائيَّة فنكسب الوزن، الله عزّ وجل حرَّم أكل الدم، لأن كل الأمراض موجودة في الدم، الدم محرَّم أكله، فما لم تذبح الذبيحة وفق الشريعة الإسلاميَّة بشكل صحيح، ما لم تُزَكّى الذبيحة، ما لم يخرج دمها كلياً ولحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل جعل قلب الذبيحة لا يتحرَّك من الدماغ، لو تحرَّك من الدماغ لكان أول حركة بالسكين توقَّف القلب، يبقى الدم في الذبيحة، لا إن القلب له مصدر كهربائي ذاتي، مولِّد ذاتي، نذبح الذبيحة والقلب يضخ، ماذا يفعل القلب ؟ ليضخَّ الدم إلى خارج الذبيحة فتصبح نقيةً حمراء اللون، أو زهرية اللون، حدّثني صديق فقال لي: الذبيحة التي دمها فيها زرقاء اللون كأنها جيفة ؛ أما التي دُبحَت وفق الشريعة الإسلامية ذات لون زهر، زهر رائع جداً. تأكل لحماً في علبة، ماذا في هذه العلبة ؟ علبة فيها لحم، هل تعرف من أين أتت ؟ أين دُبح اللحم ؟ كيف دُبح ؟ لا تعرف، فيظهر الفساد معنا، أحدهم قال لي: لا يا أستاذ المُعَلّبات الأجنبيَّة هذا كله وفق الشريعة الإسلاميَّة، قلت له: والدليل، كُتِبَ على علبة سردين " دُبحَت وفق الشريعة الإسلاميَّة "، لكي تعرف أن هذا كله كلام صحيح، على علبة سردين كُتِب دُبح هذا السمك وفق الشريعة الإسلاميَّة، مسكوا

سمكة صغيرة وسمّوا بالله وذبحوها ووضعوها لك في العلبة، الإنسان قبل أن يأكل يجب أن يفهم هل هذا اللحم صحيح أكله ؟ يجوز أكله أم لا يجوز أكله ؟

ظهر الفساد ليس فقط في البر والبحر بل وفي الجو أيضاً:

قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (41))

الفساد الأخلاقي في البر وفي البحر، تجد هذه السفن فيها المسابح، وفيها النوادي الليلية، وفيها الرقص، وفيها الخمر، في السفن في عرض البحر، وهذه السفينة الكبرى ـ التيتانيك ـ التي أغرقها الله عزّ وجل، حينما صُنِعَت قيل في نشرة بيانيّةٍ لها: إنّ القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة، في أول رحلة من رحلاتها من بريطانيا إلى أمريكا غرقت في عرض البحر، قال: فيها من حلي النساء ما يفوق مئات الملايين، أفخر ما في العالم من أثاث، ومن ثريات، ومن أدوات في هذه السفينة، هذه:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

الآن في الجو يقول لك: لكي يتسلّى الراكب نضع له أفلاماً ليتسلى، قد تكون أفلاماً منحطّة جداً، السفر ثلاثة عشر ساعة، فالفساد أصبح في البر، وفي البحر، وفي الجو، وحتى في الجو ينتقوا المضيفات من أجل إغراء الركّاب، مضيفة بأزهى زينة، بسن الشباب، بثياب فاضحة تجول بين الركاب وتقدّم المشروبات المحرّمة، أين صار الفساد أيضاً ؟ كذلك في الجو، فظهر الفساد في البر والبحر والجو.

المعنى الأساسي: أن الفساد فساد البيئة، أي أن الفواكه بلا طعم، يقول لك: هذا الكيس أنتج مئة كيس، مرّة الله عزّ وجل أذاقنا من هذه الخيرات قبل أربع سنوات على ما أذكر، كيس القمح في الحسكة أعطى سبعين كيساً، مزارع واحد قبض على السعر الواحد ثمن قمحه ثمانية وخمسين مليون ليرة، جاء لنا في هذه السنة ثلاثة ملايين ونصف طن، وكل استهلاك القطر مليون طن، الله عزّ وجل إذا أعطى أدهش.

كلمة فساد كلمة مطلقة تشمل كل انحراف وتفسخ:

الفساد فساد التربة، فساد الإنتاج، فساد الطعم، فساد الريح، فساد الهواء، فساد الماء، توسعها أكثر ؛ فساد العلاقات الاجتماعيّة، فساد الأخلاق، فساد الأفكار، هناك عقائد زائغة كثيرة، أفكاره فاسدة، سلوكه فاسد، أخلاقه فاسدة، كلامه فيه فساد، مزاحه فيه فساد كلمة فساد كلمة مطلقة تشمل كل انحراف، كل تفسُّخ، كل شيء سيّء:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا(41))

الآن مرض الإيدز في أمريكا ـ في أخبار غريبة جداً ـ هذا المرض جعل حياة الناس جحيماً، لأن كل إنسان قد يحمل هذا المرض وهو لا يدري، قد يحمله عشرات السنوات وهو لا يدري، فأي لقاء صار مشبوهاً قد ينتج عنه مرض خطير يودي بحياة الإنسان، فأصبح هناك ذعر، حتى مرّة قرأت أن شرطياً لاحق مجرماً، فقال المجرم له: إيدز، فهرب الشرطي منه:

(وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (41))

من انحرافهم الأخلاقي:

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا (41))

المجتمع الغربي مظهره شيء وحقيقته شيءٌ آخر:

مثلاً لا نريد قطع يد السارق، لأنه عمل همجي لا يليق مع الجو الحضاري والعلمي، عمل قاسٍ، ستة عشر مليون سرقة في عام واحد إحصاء قرأته من عشر سنوات أو أكثر، إحصاء فيدرالي، قال: في كل ثلاثين ثانية تُرتكب جريمة قتلٍ أو سرقةٍ أو اغتصاب، فقد أخذوا جرائم القتل والاغتصاب والسرقة، جمعوها وقسّموا على ثواني السنة، السنة كم ثانية ؟ الساعة 60 دقيقة، والدقيقة 60 ثانية، والنهار 24 ساعة، كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة سرقةٍ أو جريمة اغتصابٍ أو جريمة قتلٍ، كذلك هذا فساد اجتماعي، واذهب الآن إلى بلد متقدِّم جداً يقول لك: احذر أن تمشي وحيداً في الليل، إذا واجهك إنسان بمسدّس أعطه كل ما معك وأنقذ نفسك، إذا دخلت إلى فندق يقول لك: سلِّم كل شيء تملكه لأول واحد يعترضك حفاظاً على حياتك، فما هذه الحياة إذاً ؟! لا تستطيع أن تقف على الموقف بسيارتك وإلا يكون الباب مغلقاً، بعد المغرب لا يوجد تجوُّل أبداً، هذا شيء واقع جداً في بلاد بمقياس العصر راقية جداً، اختلاط أنساب، زنا محارم، زنا بالأقارب، أمراض وبيلة جنسيَّة، لواط، سرقة، هذا الفساد، فتجد أن المجتمع الغربي مظهره شيء وحقيقته شيءٌ آخر، لا حياة زوجيَّة، ولا استقرار، لا نظافة بالعلاقات، فهي مبنيَّة على الجنس، مبنيَّة على ابتزاز الأموال، مبنيَّة على القهر، مبنيَّة على القسوة.

نحن في مدينةٍ بارك الله لنا فيها، نحن في أرقى بلاد العالَم، أنا أقول كلاماً وأعني ما أقول، أنا أقرأ كثيراً، نحن في أرقى بلاد العالَم رغم كل متاعبنا، عندنا علاقات أُسَرِيَّة طيّبة، عندنا فلان وفلانة أزواج فقط ولا توجد خيانات، الخيانات الزوجيَّة، وزنا المحارم ؛ الأب مع ابنته، والأخ مع أخته، هكذا الفساد، فعندما يترك الإنسان الدين يصير أشقى الناس، والانتحار بنسب مرتفعة جداً.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(41))

أنت عليك أن تعود إلى منهج الله عزّ وجل، قال لك: غض بصرك، فغض بصرك فقط، غض البصر يسبّب سعادة زوجيّة، أنت تغض وهي تغض، إذاً يخلق الله بينكما المودّة، قال لك: حرّر كسبك ـ رزقك ـ الله عزّ وجل يبارك لك في هذا الرزق، وتنعم به.

للقضاء على الفساد علينا العودة إلى منهج الله عزّ وجل:

النتيجة أو خلاصة الدرس كله: أي خروج عن منهج الله يسبّب الفساد في الأرض، بأوسع معاني هذه الكلمة ؛ فساد في التربة، فساد في الهواء، في الأمطار ؛ الآن أمطار حامضيّة، أمطار سوداء، تُربة مالحة، حتى فساد في الأنعام، حتى الآن يعطوا الدجاجة هرمون لكي تنمو بأربعين يوماً، تُمنع من النوم، إضاءة شديدة جداً، دائماً متوترة الأعصاب، تأكل باستمرار، في اليوم الأربعين يصير وزنها كيلو، أنت تأكلها وتخاصم الناس، لماذا أنت هكذا ؟ لأن التي أكلتها موتّرة كثيراً، لأنها لم تنم أربعين يوماً، غير هذا هرمون تنمية، هذا الهرمون يتراكم في الإنسان ويسبّب سرطانات، تأخذ هرمونات في العلف، هرمون للنمو، الوضع كله غير طبيعي، فصار الفساد بالمعنى المادي هو أي خروج عن منهج الله عزّ وجل، فالفساد بالحياة، بطعامنا، بشرابنا، بأنعامنا، بمزروعاتنا، بمياهنا.

أوسع قليلاً: ظهر الفساد الأخلاقي ؛ المعاصي، والفجور، والزنا، والخمر في البر والبحر والجو.

(بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا (41))

تجد أرضاً مَحْلاً، إنتاجاً قليلاً، المياه ملوثة، علاقات اجتماعيّة كلها متوتّرة، يغدو الولد غيظاً، والمطر قيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً، هذه من علامات قيام الساعة، عقوق الوالدين منتشر جداً، أطفال شاردون، شباب ضائع مثلاً، لأننا تركنا منهج الله عزّ وجل، لا حل إلا أن نعود إلى منهج الله عزّ وجل، أن نعود للمنهج في زواجنا، في كسب مالنا، المرأة في البيت مربية أولاد، والرجل يعمل، وإلا مع تداخل هذه العوامل نحن في مشكلة كبيرة جداً.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (12-14): تفسير الآيات 42-45
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-04-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثاني عشر من سورة الروم.

أي طريقٍ يفضي إلى الله عزّ وجل هو وسيلة إليه:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42))

(سورة الروم)

أيها الأخوة قالوا: " الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق"، أي أن هناك طرقٌ كثيرةٌ إلى الله، وقد عَبَّرَ الله عنها بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

(سورة المائدة: من آية " 35")

أي طريقٍ يفضي إلى الله عزّ وجل هو وسيلةٌ إليه، من هذه الطرق:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42))

لو تتبعت المستقيم، أو تتبعت المُنحرف، لو تتبعت المُرابي، أو تتبعت من انضبط بأمر الله عزّ وجل، لو تتبعت الخائن، ما مصيره ؟ يمكن أن تستنبط حقائق كثيرة جداً من الحوادث لأن الكون وحده، هذا الكون من خلق الله، والحوادث أفعال الله، والقرآن كلام الله، والعقل مقياسٌ أودعه الله في الإنسان، لا بدّ من تطابقٍ تام بين ما يمليه العقل، وبين ما تمليه الفطرة، وبين ما يمليه الواقع، وبين ما تمليه الأحداث، وبين ما يمليه الخلق، وبين ما يمليه القرآن.

ليس في الأرض من فساد إلا إذا تحرّك الإنسان بغير منهج الله عزّ وجل:

الدين يعبر عن وحدة الوجود، ليس هناك تناقض، ليس هناك تنافر، الفساد في جوهره أساسه أن يَتَحَرَّكَ الإنسان حركةً اختياريةً بغير منهج الله عزّ وجل، فحينما صممت هذه المركبة، في أصل التصميم صممت لتنقلك إلى مكانٍ تحبه أنت وأهلك، أما حينما تتدهور، وتصبح عبئاً على صاحبها، ويصاب أصحابها بالعطب والعطل، فلأنهم أساءوا استخدامها، ليس في الأرض من فساد إلا إذا تحرّك الإنسان بغير منهج الله عزّ وجل، هذا معنى قوله تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

أنت إذا قرأت في القرآن آية، هذه الآية أعطت حكماً، قررت حقيقة، بيّنت اتجاهاً، دلّت على شيء، حرّمت شيئاً، أحلت شيئاً، وعدت، أوعدت، وضحت، حذرت، أنذرت، أية آية ما الذي يؤكدها ؟ الواقع، أي آية قرآنية تُلقي حكماً، تبين بياناً، تحذر تحذيراً، تعد وعداً، توعِد وعيداً، تقرر حقيقةً، تحَذِّر من شيء، تُرَغِّب في شيء، ما الذي يؤكده كله ؟ الواقع:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا)

(سورة الأنعام: من آية " 11 ")

ابحث، تأمّل، الإنسان عليه أن يتأمل الحوادث، وأن يتفكر في الكون، وأن يتدبّر القرآن، إن تدبرت القرآن أوصلك إلى الله، وإن تأملت الحوادث أوصلتك إلى الله، وإن تأملت في الأكوان أوصلتك إلى الله عزّ وجل، الكون وَحْدَة، وحياتك أيها الإنسان الكريم وَحْدَة، لا يوجد شيء لك، شيء لربك، هذه للدنيا، هذه للآخرة، المؤمن له منهج، يجب أن يكون متوازناً، يجب أن يُعطي كل ذي حقٍ حقه، إن لأهله عليه حقاً، إن لأولاده عليه حقاً، إن لعمله عليه حقاً، إن لإخوانه عليه حقاً، إن لربه عليه حقاً، إن لجسده عليه حقاً، فأعط كل ذي حقٍ حقه، وربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42))

تستطيع من خلال ما يجري معك أن تستنبط حقك:

ربنا عزّ وجل عندما قال:

(وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ: من آية " 39 ")

هذه آية ومعناها واضح، ولا تحتاج إلى تفسير، ألم يمر معك أنك أنفقت مبلغاً من المال والله عزّ وجل عوضه عليك أضعافاً مضاعفة ؟! هذا الواقع الذي يؤيّد هذه الآية، يؤكدها، يبرهن عليها، فأنت ما عليك إلا أن تسير في الأرض، انظر إلى المُخْلِص كيف أن الله يتولاّه، انظر إلى غير المخلص كيف أن الله يخزيه، انظر لمن جمع مالاً من حلال كيف أن الله ينميه له، انظر إلى من جمع مالاً من حرام كيف أن الله يتلفه، انظر لمن تزوج فتاةً يبتغي بها وجه الله كيف أن الله سبحانه وتعالى يلقي الحب والودّ بينهما، انظر إلى من تزوج فتاة على نيةٍ لا ترضي الله عزّ وجل، كيف أن الله يوقع بينهما العداوة والبغضاء.

تستطيع من خلال ما يجري معك، من خلال ما يجري مع أقرب الناس إليك، مع جيرانك، مع إخوانك، مع الأقربين، مع الأبعدين أن تستنبط حقك.

الأمور بخواتيمها حينما نلقى الله عز وجل:

ربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ (42))

هذه الآية فيها إعجاز، لأنه يقال: سار على الأرض، أما سار في الأرض، هذا غير مألوف، نحن نمشي على سطح الأرض، ولكن كشف العلماء أن هذا الغلاف الغازي جُزْءٌ لا يتجزّأ من الأرض، لو انفصل عنها لنشأ في الأرض تيارات من الرياح تزيد سرعتها عن ألفٍ وستمئة كيلو متر في الساعة، ومعنى هذا التيار أنه لا يبقى شيءٌ على وجه الأرض، الأعاصير التي تزيد سرعتها عن مئتي كيلو متر تدمِّر، ثمانمئة كيلو متر لا تبقي ولا تذر، يقال: أكثر من مئتي كيلو متر تدمِّر، فلو أن الرياح على سطح الأرض زادت عن ألفٍ وستمئة كيلو متر، لما بقي على سطح الأرض شيء، إذاً هذا الهواء جزءٌ لا يتجزأ من الأرض، لذلك لم يقل الله عزّ وجل: قل سيروا على الأرض:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ (42))

انظر لكلمة عاقبة، هذه كلمة مهمة جداً، الأمور بخواتيمها، الأمور بالنتائج، الأمور بخريف العُمُر، الأمور حينما نلقى الله عزّ وجل، الأمور حينما نقف بين يدي الله عزّ وجل، فالبطولة أن تعد لهذا اليوم العصيب، لهذا الخريف، لهذه الوقفة، لهذه الساعة، لهذا القَبر، هنا البطولة، فهناك أشخاصٌ غافلون، تأتيهم الدنيا فيرقصون، ولا يعلمون أنهم سيبكون:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ (42))

الإنسان لا يخضع بعقله إلا للحقيقة ولا بنفسه إلا للكمال:

هؤلاء الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام ما مصيرهم ؟ وهؤلاء الذي نصروه ما مصيرهم ؟ هؤلاء الذين وقفوا مع الحق ماذا كانت عاقبتهم ؟ وهؤلاء الذين عارضوا الحق ماذا كانت عاقبتهم ؟

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ (42))

هذه " من قبل " إذا بني الظرف على الضَم قطع عن الإضافة، أو إذا قطع الظرف عن الإضافة بُنِيَ على الضم، أي على تقدير شيءٍ آخر، أي من قبل ذلك:

(كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42))

لذلك إذا استنبطت الحقائق من الحوادث والعِبَر، وإذا استنبطت المَغْزَى، ما عليك إلا أن تتعظ أي عندما يستعمل إنسان هذه القطعة في مركبته فتتدهور مركبته، وأنت عندك مركبة أخرى، أتستخدم هذه

العجلة من هذا النوع ؟ لا، فالموقف الطبيعي العقلاني، الموقف الذي لابدّ منه أن تستنبط الحقائق وأن تبني عليها مواقفك، لذلك ربنا عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ (43))

سُمِّيَ الدين ديناً لأن العقل المطلق يدين إليه، لأن النفس البريئة ذات الفطرة العالية تخضع له، الإنسان لا يخضع بعقله إلا للحقيقة، ولا بنفسه إلا للكمال، هكذا فطرته، وهذا عقله، عقله مركبٌ من مبادئ، وفطرته مركبة من قيَم، فالبشر جميعاً يحبون الخير، يحبون الإحسان، يحبون الإنصاف، يحبون العدل، فخذ هذه القاعدة: عقلك لا يخضع إلا للحقيقة، وفطرتك لا تخضع إلا للكمال، فإذا جمع الدين بين الحقيقة والكمال لا بد من أن تخضع له إذا كنت حراً، إن لم تكن لك أهواء، إن لم تكن لك مصالح، إن لم تكن لك مطامح، إن لم تكن لك انحرافات، إن لم تكن لك شهوات تقيم عليها، إن كنت حراً في عقلك وحراً في نفسك تخضع للدين، وما سُمِّيَ الدين ديناً إلا لأن النفس الكريمة الحرة تدين إليه وتخضع إليه.

الإنسان إذا اتجه إلى الدين شعر بإنسانيته:

تأمّل أوامر الله عزّ وجل، تأمل توجيه الله تعالى للأبناء تجاه أمهاتهم وآبائهم، أليس هذا التوجيه سديداً حكيماً يجعل الأسرة متماسكةً:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)

(سورة لقمان: من آية " 15 ")

وقال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء: من آية " 23 ")

راقب توجيه الله للإنسان في تعامله مع أمه وأبيه، في تعامله مع إخوته، في تعامله مع شركائه، في تعامله مع جيرانه، في تعامله مع من هم دونه، مع من هم فوقه، التوجيه عقلاني، والتوجيه كامل، ندعوك لا إلى شيءٍ ينقضي بالموت، لا إلى جهةٍ أرضيةٍ لها مصالح، ندعوك إلى الله عزّ وجل، إلى خالق السماوات والأرض، وهذا منهجه، ما دام الله عزّ وجل ذا أسماءٍ حسنى وصفاتٍ فضلى، إذاً يجب أن يكون كلامه متوافقاً مع أسمائه الحسنى، حقٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حقيقةٌ لا تشوبها شائبة، قطعيٌ في ثبوته، قطعيٌ في مدلولاته، قطعيٌ في خيره، هكذا:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (43))

الدين، الإنسان إذا اتجه إلى الدين شعر بقدسيته، شعر أنه مخلوقٌ مكرم، مخلوقٌ أول، شعر أنه خُلِقَ لمهمةٍ عظيمة، الإنسان إذا اتجه إلى الدين شعر بإنسانيته، أما إذا اتجه إلى الدنيا شعر بحيوانيته، ما

الدنيا ؟ طعامٌ، وشرابٌ، ولذائذ، واسترخاءٌ، ونزهةٌ، ومرحٌ، ولعبٌ، وتفاخرٌ، وتكاثرٌ، هذه الدنيا، وهذه تقضي عند الموت، أما إذا اتجهت إلى الله عزّ وجل شعرت أنك مخلوقٌ مكرم، مخلوقٌ أول، هذا معنى الدين، الدين ما يُخْضَعُ له بالضرورة، ما يخضع عقلك له، وما تخضع فطرتك له.

لو ألغيت الدين تصبح حياة الإنسان عبثاً لا جدوى منها:

من دون دين ينشأ عندك مليون سؤال: لماذا فلان قوي وفلان ضعيف ؟ لماذا زيد غني وعمرو فقير ؟ لماذا خالد صحيح وغيره مريض ؟ لماذا فلان وسيم وفلان دميم ؟ ولماذا إنسان مُعَمِّر وهذا مات في السابعة من عمره ؟ لولا أن الله عزّ وجل أنزل هذا القرآن وبين فيه كل شيء لظهرت عندك مشكلاتٌ كثيرة، أسئلة كثيرة جداً، الإنسان فيلسوف بفطرته، فما معنى هذه الحياة ؟ أربعون عاماً كي نسكن في بيت، ونعمل عملاً متواضعاً، ونكسب قوت يومنا، ويأتي ملك الموت في الستين، في الأربعين، في الخمسين، أهكذا الحياة بلا هدف ؟ لو ألغيت الدين تصبح حياة الإنسان عبثاً لا جدوى منها، حياة سخيفة، حياة تافهة، حياة مفتقرة إلى المضمون، شكل بلا مضمون، لذلك ربنا قال:

(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

(سورة التوبة: من آية " 36 ")

هو الذي يجعلك قيماً، إنسان قيم أي ثمين، الإنسان حياته غالية، وهذا الفكر أعظم شيء خلق في الكون:

((ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك أعطي وبك آخذ))

[زوائد عبد الله بن الإمام بسند فيه ضعف: عن "الحسن البصري مرفوعاً "]

هذا الفكر، أيليق بالإنسان أن يستخدمه لأغراض تافهة، لجمع المال فقط، للإيقاع بين الناس، لإضحاك الناس، لدغدغة عواطفهم الخسيسة، للعلو في الأرض، أم أن هذا الفكر أعطاك الله إياه كي تعرفه ؟ فالإنسان إذا عرف الله تقدست نفسه، ومعنى تقدست أي أصبحت كاملة.

(فأقم وجهك) هذه الآية فيها تمثيل:

إذا اتجه الإنسان إلى الدنيا أصبح صغيراً عند الله عزّ وجل، قال:

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 124")

قال:

(فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(105))

وقال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ (43))

معنى (فأقم وجهك) هذه الآية فيها تمثيل، لو أن الأمر خطير جداً، لو أنك تراقب عداداً سيبنى عليه شيء خطير، إطلاق مركبة مثلاً، وأنت عليك أن تراقب رقم الصفر حتى تضغط الزر، كيف أن العينين تُحَدِّقان في هذا العداد، في هذه الساعة، في هذا المؤشِّر، إذا كان شيء خطير جداً وأنت تراقبه أقم وجهك، أي تسديد النظر، إحكام الوجْهَة إلى شيءٍ دون زيغٍ يميناً ولا شمالاً ـ أقم وجهك ـ فالإنسان إذا تابع أوامر الله عزّ وجل، قرأ القرآن بعنايةٍ بالغة، بتدبرٍ شديد، استنبط الأمر والنهي، طبّقَ الأمر، انتهى عن النهي، التعلُّم والتطبيق، هذا يعبر عن اهتمام بالغ، (أقم وجهك للدين) يترجم أن تطلب العلم، وأن تتعلم ما ينبغي أن تتعلمه، وأن تفعل ما ينبغي أن تفعله، لديك هدف كبير جداً يدفعك إلى أن تسدد نظرك إلى الدين، فأقم وجهك، ووجه الإنسان ذاته، فلان يبتغي بهذا وجه الله، أي يبتغي ذات الله.

الإنسان العاقل لا يصل فجأةً إلى يومٍ مع الله لا مرد له:

قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ (43))

الحقيقة الإنسان بحياته في مواقف كثيرة، لو أخطأ بإمكانه تلافي خطأه، اشترى هذا المحل التجاري موقعه غير مناسب، من الممكن أن يبيعه ويشتري محلاً آخر، حتى لو تزوج امرأةً وشعر أن الحياة معها مستحيلة، يطلقها، حتى لو أنه أقام في مكانٍ وشعر أن هذا البلد لا يرتاح له، يسافر منه، هناك أشياء كثيرة رغم أنها مصيرية وأساسية في حياة الإنسان لكن يمكن تغييرها، أما إذا وصل إلى الدار الآخرة ولم يكن مؤمناً في الدنيا، ولم يكن عمله صالحاً، هذا اليوم لا مَرَدَّ له، معنى مرد هذا مصدر، مصدر ميمي، رد يَرُدُّ رداً ومَرَدّاً، أي أن هذا اليوم لا يُرَد، لا يُدفع، لا يتلافى خطره.

كإنسان ارتكب جريمة، وحوكم، والحكم صدر بإعدامه، والحكم صُدِّق، وسيق للتنفيذ، فالآن لا توجد وسائط، يترجى، يتوسّل، يقدم اعتذار، يقدم مذكرة إلى القاضي، يبيّن، يوضح، انتهى الأمر، هذا اليوم حينما يصعد الرجل ليشنق لا مرد له، فهذا من باب التقريب، والإنسان العاقل لا يصل فجأةً إلى يومٍ مع الله لا مرد له، هذا اليوم الذي لا مرد له هو يوم القيامة، أو ساعة الموت.

العلم لا يعطيك بعضه إلا إذ أعطيته كُلّكَ:

قال تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

ويتابع قائلاً سبحانه:

(كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(100))

(سورة المؤمنون)

يمكن أن يكون هذا اليوم عند الموت، أو عند البعث والنشور، على كلِ صفة هذا اليوم أنه لا مرد له، لا تستطيع جهةٌ في الأرض أن تدفعه، ولا أن تؤخره، ولا أن تُعَطِّلَهُ، ولا أن تنجّيك منه، فكأن الله عزّ وجل يقول: إن لم تفعلوا فسوف تندمون، فسوف يأتي يومٌ لا ينفع فيه الندم، فسوف يأتي يومٌ لا مَفَرّ لك منه، للخلاص منه، لا مندوحة عن أن تدفع الثمن الباهظ:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ (43))

أي وجهك، يجب أن تعطي الدين كُلّك، هذا الذي يعطي الدين بعضه ؛ يصلي ركعتين، ويدفع ليرتين، ويظن أن الأمر قد انتهى، نريد اهتمامك، نريد وقتك، نريد طاقتك، نريد عقلك، نريد عضلاتك، نريد مالك، هكذا أقم وجهك للدين، كما قال الإمام الغزالي: **" العلم لا يعطيك بعضه إلا إذ أعطيته كُلّكَ، فإذا أعطيته بعضك لا يعطيك شيئاً "**، أي أن كل طاقته، وذكائه، ووقته، وماله، وعضلاته، وخبراته، ومكانته للدنيا، وله في هذا الأسبوع كُلِهِ ساعةٌ يحضر بها خطبة الجمعة فقط، يرتدي ثيابه، ويأتي، ويستمع، ويعود، أما هو لا يتغير على مخالفاته ومعاصيه، ماذا أعطيت الدين ؟ لا بد من حضور مجالس العلم، لا بد من معرفة منهج الله عزّ وجل، لا بد من أن تكون وَقّافاً عند كتاب الله، هذا الذي يفعل ما يخطر له هذا إنسان ضائع، سيدنا عمر كان وقّافاً عند كلام الله، هذا الموقف يرضي الله أم لا يرضي الله.

لن تقف في وجه الشهوات إلا قناعات كبرى:

قلت مرةً أن الله عزّ وجل أودع في الإنسان بعض الشهوات، هذه قوى، قوى محركة، لن تستطيع قناعاتٌ طفيفةٌ، بعض خطبٍ حضرتها في حياتك، بعض دروس الدين استمعت إليها من أستاذك في المدرسة، هذه القناعات الخفيفة الباهتة، هذه القناعات، هذه المعلومات الضئيلة، هذه النُتَف اليسيرة لن تستطيع أن تقف في وجه الشهوات، أما لن تقف في وجه الشهوات إلا قناعاتٌ كبرى، فلو أن إنساناً لم يطلب العلم، ولكن من خلال بعض الخُطب وبعض الدروس عنده فكرة باهتة عن الدين، هذه الفكرة

الباهتة، الفكرة اليسيرة لا تقف أمام شهواته، أمام امرأةٍ تخطر في الطريق أمامه، كيف يغضُّ بصره عنها، يملأ منها عينيه، هذا المال الذي يتراقص أمامه كيف يتركه في سبيل الله ؟ يأكله بفمه ويديه ورجليه، هذه الشهوات التي أودعها الله في الإنسان، لا تستطيع معلوماتٌ طفيفة، ولا دروسٌ قليلة، ولا قناعاتٌ يسيرة أن تقف في وجهها، لو أن لها وزناً كما لو قيل، إذا كان وزن شهواتك كبيراً، قناعات قليلة لا تكفي كي تنضبط، لا بد من درسٍ بعد درسٍ، وخطبةٍ بعد خطبة، ولقاءٍ بعد لقاءٍ، وسؤالٍ بعد سؤال، واستيضاحٍ بعد استيضاحٍ، وتساؤلٍ بعد تساؤلٍ، وبحث بعد بحث، وقراءة بعد قراءة، لا بد من أن تقرأ القرآن كله، وأن تقف عند حلاله وحرامه، لا بد من أن تتأكد لماذا أنت في الدنيا ؟ ماذا بعد الموت ؟ كلما نَمَت قناعاتك عندئذٍ تقول: لا أفعل، أول مرةٍ تقول: لا أفعل خوفاً من الله عزّ وجل، معنى ذلك بدأت قناعاتك تكافئ شهواتك، أما إذا كانت قناعاتك تزيد عن شهواتك بآلاف الأضعاف، تقف موقف سحرة فرعون، قال:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ(49))

(سورة الشعراء)

والآية معروفة ردوا عليه قال:

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

المؤمن يجهد أن لا يبقى على الحرف بل يبقى في الأعماق:

الخلاصة إن كانت شهواتك أقوى من قناعاتك فالإنسان لا بد من أن يعصي الله، وإذا كانت قناعاتك تكافئ شهواتك تقع في الصراع المرير، أما إذا كانت قناعاتك أكبر بكثير مما عندك من شهوات تقف مواقف بطولية بلا صراع، بلا مُكابدة، بلا تَمَزُّق، هذا الحق، ربنا لم يقل عن النبي الكريم: وإنه ذو خلقٍ عظيم، لا، بل قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

أي متملك لناصية نفسه، أي أنه إذا وقف موقفاً حليماً، ليس عن صراعٍ، وعن سؤالٍ وجواب، وعن أخذٍ ورد، لا، النبي عليه الصلاة والسلام متمكن من أخلاقه، لأن قناعاته وقربه من الله وكماله شديد جداً، فأي شيءٍ مهما استفزّه لا يخرجه عن حلمه، ينبغي أن تكون في الأعماق، فلو وقف إنسان على

ساحل على البحر وجاءت موجةٌ عاتية ترديه في البحر، فإذا كان أبعد قليلاً احتمال أن تأتي موجة وتأخذه إلى البحر أقل، كلما اقترب في الأعماق كان في مأمَن، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ)

(سورة الحج: من آية " 11")

المؤمن ليجهد أن لا يبقى على الطرف، على الحرف، على موطن خطر، أن يبقى في الأعماق.

على الإنسان أن يحاسب نفسه عن كل صغيرة وكبيرة:

أضرب مثلاً: تكون المعاصي على شكل كرات، هذه الكرات تكبر كلما كبرت المعصية، وازداد إثم صاحبها، وتكون ذا ضرر أكبر إذا كان حجمها أكبر، طبعاً أن ينظر الإنسان إلى امرأةٍ لا تحل له هذه معصية، الزنا أيضاً معصية، ولكن هذا شيء وهذه شيء، ويمكن أن نشبّه استقامة الإنسان بالمُنْخُل، فكلما صغرت ثقوب هذا المنخل ـ إن صح التعبير ـ كلما حجز أكبر عدد من المعاصي، وكلما كبرت هذه العين سَرَّبَ المعاصي، هناك منخل ينخل الدقيق عن السميد مثلاً ـ ناعم جداً ـ إلى أن يحاسب الإنسان نفسه عن كل صغيرةٍ وكبيرة، فلذلك عودة إلى الآية الكريمة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ (43))

هذا الطريق المسدود، هذا الموقف الصعب:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8))

(سورة المدثر)

الإنسان أحياناً الله عزّ وجل يتوفاه وعنده خمسة أو ستة أولاد، فأحدهم يذهب إلى المقبرة ليشتري قبراً، والثاني يحضر صانع القهوة، والثالث إلى مكتب دفن الموتى، والرابع إلى المطعم لإحضار الطعام، فهكذا العادة، أما خلاف السنة، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا فَقَدْ أَتَاهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ أَوْ أَمْرٌ يَشْغَلُهُمْ))

[سنن ابن ماجه: عَنْ " عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ "]

السُّنة أن يقدّم الطعام لأهل الميت، لا أن يصنعه أهل الميت وهم في مصابهم، على كلٍ حينما يبدأ حفار القبر بحفر القبر نتذكر أنه كان في بيتٍ فخم، وكان في عزٍ وسلطان، وكان في نعمةٍ فارهةٍ، وكان ذو شأن كبير، وكان يأكل ما لذ وطاب، وينام على أفخر الأسِرَّة، ويلتقي بأحب الناس إليه، له زوجةٌ تروق له، وله أولاد، وله أموال.

الإنسان إذا دخل في جماعة له ميزات هذه الميزات يفقدها كلها عند الموت:

قال تعالى:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8))

(سورة المدثر)

سينتقل من هذه الجنات والعيون، من هذه النِعَم إلى حفرةٍ صغيرة:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10))

(سورة المدثر)

البطولة أن نسعى لهذا اليوم فلن يدافع عنا أحد، أما في الدنيا نقول: فلان منا، فلان من جماعتنا، هناك من يدافع عنه، من يدفع له الكفالة، ويخرج بسند كفالة، من يتوسّط له، حياتنا الدنيا قائمة على التجَمُّعات، تجمعات منوّعة، فالإنسان إذا دخل في جماعة له ميزات، فهذه الميزات يفقدها كلها عند الموت:

(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43))

يتفرقون، ليس هناك أنساب، ولا عشائر، ولا قبائل، ولا جماعات، ولا تكتُّلات، ولا تجمُّعات:

(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43))

إذا انطلق الإنسان من حبّ ذاته عليه أن يعمل الصالحات:

الآن يقول الله عزّ وجل:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

انظر إلى كلمة (على)، على تعني الفوقية، تصور إنساناً يضع أثقالاً فوقه، هذه الأثقال سوف تضغط عليه، كل أعماله السيئة عليه، كأنها أوزان موضوعةٌ فوق رأسه، لو إنسان سيهبط عليه طبقٌ من حديد، فكلما ملأه بالأثقال سيدفع الثمن هو، لو بقي طبقاً من دون وزن بإمكانه أن يدفعه، بإمكانه أن يوقف نزوله عليه، أما إذا ملأه أثقالاً:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

أي أن أوزار كفره عليه، تبعات كفره عليه، مسؤولية كفره عليه، العذابات عليه، الآثار السيّئة عليه، لو أن إنساناً أغوى فتاة، وهذه الفتاة انقلبت من فتاةٍ شريفةٍ طاهرةٍ يمكن أن تكون زوجةً صالحةً، أماً رؤوماً ؛ إلى فتاةٍ ساقطةٍ، وأنجبت فتياتٍ ساقطات، هذه الفتيات إلى يوم القيامة وزرُها وإثمها على عاتق من أفسد الأولى.

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

أي أن إثم كفره عليه، وزر كفره عليه، أثقال كفره عليه، تبعات كفره عليه، عذابات كفره عليه:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

أي أن من عمل صالحاً فلنفسه، هذه اللام لام التملُّك، هو يعمل لنفسه، فالإنسان لو أنه يحب ذاته إذا انطلق من حب ذاته عليه أن يعمل الصالحات، إذا انطلق من حب ذاته، إذا انطلق من حرصه على سلامته، إذا انطلق من حبه لوجوده، إذا انطلق من حبه لسلامة وجوده، إذا انطلق من حبه لاستمرار وجوده، إذا انطلق من حبه لكمال وجوده، هذا شيء بديهي، لا يوجد إنسان إلا ويحب وجوده، ويحب سلامة وجوده.

التصور من خصائص الإنسان:

من يحب أن تتوقف كليتاه عن العمل ؟ لا أحد، لا والله، من يحب أن يصاب قلبه ؟ من يحب أن يصاب جسمه ؟ أن يفقد سمعه ؟ أن يفقد بصره ؟ أن يكون فقيراً ؟ أن يكون ذليلاً ؟ أن يكون مقهوراً ؟ أن يكون شريداً ضائعاً مهاناً، من يحب ؟ ما من واحد منا ومن غيرنا ومن أهل الأرض إلا ويحب السلامة، ويحب البقاء، أن يعمر طويلاً، ويحب كمال وجوده أن يكون غنياً، وأن يكون في بحبوحة، وأن يكون عزيزاً مكرماً معززاً مبجلاً وهكذا.

إذا انطلقت أيها الإنسان من حبك لذاتك، من حبك لسلامتك، من حبك لاستمرارك، من حبك لكمالك، فعليك بطاعة ربك، لأنه:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

المشكلة الفرق بين الحيوان والإنسان أن الحيوان لا يملك التصور، فما هو التصوّر ؟ أن تتصور، أو أن تتخيل شيئاً لم يكن موجوداً، هذا الإنسان يتصور المستقبل، فلماذا الطالب يدرس ؟ لو ربطت حيواناً بشجرة ساعات بل عشرات الساعات لا يمل، لا يحس بالزمن، يعيش لحظته، أما الإنسان يتصور أن هناك امتحان باليوم الخامس من حزيران، وهذا الامتحان سيحدد مصيره، فإذا نجح نال الشهادة العُليا، ربما عُيّن في وظيفة مرموقة، ومكنته هذه الوظيفة من الزواج، من تأثيث بيت، فيدرس، هذا التصوّر يدفعه للدراسة، فالتصور من خصائص الإنسان، فلذلك:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

المؤمن يتصور أن هذه الحياة خطٌ بيانيٌ صاعد لذلك لابدّ من طاعة الله عزّ وجل:

هذا الذي يعيش لحظته، يعيش وقته، هذا متخلف عقلياً، هذا عَطّلَ في ذهنه طاقة التصور، عاش شبابه، عاش كهولته، عاش رجولته، عاش حيويّته، عاش نجاحه في التجارة، نجاحه في العمل، عاش مرتبته العالية، عاش سيطرته، لكن لم يعش مستقبله، لم يعش خريف عمره، لم يعش حينما تضعف قواه، لم يعش حينما يُنَحّى عن وظيفته، حينما يفقد ماله، حينما يأتيه ملك الموت، حينما يصاب بالعطب والعطل، ما عاش هذه المعاني، أما المؤمن يتصور أن هذه الحياة خطٌ بيانيٌ صاعد، فمن أجل أن أجعله صاعداً صعوداً مستمراً لا بد من طاعة الله عزّ وجل، فإن لم أطع الله عزّ وجل، لا بد لهذا الخط البياني من أن يتحوّل نحو النزول، ثم:

(يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)

(سورة الحج: من آية " 5 ")

شخص مرموق المكانة، بالعهود السابقة ـ بالعهد العثماني ـ احتل أرفع المناصب، خرج من بيته ولم يعد، اتصلت زوجته برجال الشرطة، عثر عليه في بعض أحياء دمشق، ضل بيته، لم يعرف بيته.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)

(سورة الحج: من آية " 5 ")

الذي له أقرباء تقدموا بالسن، ولم يكن شبابهم في طاعة الله، لهم حال يرثى له، خرج من بؤرة الاهتمام، أصبح على هامش الحياة، وجوده ثقيل، كلامه ممل، ظلّه ثقيل، يتمنى أقرب الناس إليه موته، ثم يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ.

الذين سخّروا كل طاقتهم في سبيل الله هؤلاء في شبابٍ دائم تكريماً لهم:

تتبع حياة مؤمن، حياة إنسان عرف الله، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، هذا في شباب دائم، والواقع يؤكد ذلك، هؤلاء الذين عرفوا الله، الذين حفظوا القرآن، الذين دعوا إلى الله عزّ وجل، الذين سخّروا كل طاقتهم في سبيل الله، هؤلاء في شبابٍ دائم تكريماً لهم:

((ولا يعذب الله قلباً وعى القرآن))

[الدارمي وابن أبي شيبة: عن " أبي أمامة "]

إذا أنت في شبابك، في وقت الحيوية والنشاط، وقت الانطلاق، وقت الطاقات، كلها ضبطتها في سبيل الله، أينساك الله في خريف العمر ؟! والله في قصص كثيرة جداً أكثر من أن تحصى عن أناسٍ عرفوا الله عزّ وجل في شبابهم، فمتعهم الله بقواهم العقلية، والجسمية، والاجتماعية، والنفسية إلى أن توَفّاهم الله عزّ وجل، لذلك:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

إذا الإنسان عنده مركبة، والزجاج الأمامي مرتفع الثمن، وجاء بمطرقة وكسره فهو بهذا العمل يكون قد غاظ من ؟ كسر زجاج مركبته، يكون انتقم مِن مَن ؟

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

افعل ما تحب، زجاج، وغالي الثمن، هذا وإن وجد، فهل لإنسان عاقل له مركبته التي يحرص عليها، والتي تقدم له خدمات عظيمة، أن يمسك بالمطرقة ويكسر زجاجها الأمامي باختياره، ثم يقول: أنا شفيت حقدتي، بمن شيت حقدك ؟!!

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

على المؤمن أن يحتكم للحق لا للقضاء:

أخطاء الإنسان، ماله الحرام، تجاوزه، عدوانه، استعلاؤه، تخطيه لحقوق الآخرين، كبره، عليه كفره، الكبر معه إهانة، والإسراف معه فقر، والعز بالباطل معه ذل بالحق، والعدوان تجد عدوان مقابله، تضييع الحقوق، هناك من يضيع حقوقك، هذه الآية دقيقة جداً:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (44))

كان متواضعاً، كان منصفاً، كان محسناً، أخذ ما له، ترك ما ليس له، اعترف بالحق من دون شهود، احتكم للحق لا للقضاء، إذا كان الحق ثابتاً لا يحتاج إلى قضاء، لا تحتاج إلى قاض، فما دام الحق ثابتاً ادفع الحق من دون دعوى، من دون محامٍ، هذا المؤمن، يراقب الواحد الديان، يطوف واحد في الكعبة، قال له: " يا رب اغفر لي ذنبي ولا أظنُّك تفعل "، أي لن تغفر لي، يسير وراءه رجل قال له: " يا هذا ما أشد يأسك من رحمة الله ؟! " لماذا أنت يائس ؟ قال له: " ذنبي عظيم "، قال له: " ما ذنبك ؟ قال: " دخلت إلى بيت معتدياً، رأيت فيه رجلاً فقتلته، رأيت امرأةً مع ولدين فقلت للمرأة: أعطني كل ما عندكِ، أعطتني دنانير ذهبية، فقتلت ولدها الأول، فلما رأتني جاداً في قتل الثاني أعطتني درعاً مُذْهَبَة، طُلِيَت بماء الذهب، ثمينة جداً، أعجبتني، بدأ يتأمّلها ويتفَحّصُها فإذا عليها بيتان من الشعر:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فويل ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماء

***

لو واحد له عمل بإمكانه أن يؤذي الناس، ومسموح له ذلك، يمكِّنه من إيقاع الأذى بالآخرين، فليعد للمليون قبل أن يوقع الأذى بالآخرين، لأن هؤلاء الآخرين لهم رب، وسوف ينتقم منه، هيئ لله جواباً

دائماً، حتى في علاقتك مع أهلك قبل أن تُطلِّقَها ظلماً، هيئ لربك جواباً عن هذا الطلاق، قبل أن توقع الأذى بفلان، هيئ لله جواباً.

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

العقاب والجزاء في الدنيا عقاب عينات:

الآية الأخيرة:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45))

الحقيقة أن هذه الدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء، هذه الدنيا دار عمل والآخرة دار تشريف، هذه الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، فربما ربنا عزّ وجل في الدنيا كافأ بعض المحسنين تشجيعاً لنا، وربما عاقب بعض المسيئين تحذيراً لنا، فالعقاب والجزاء في الدنيا عقاب عينات، القصد منها التعليم، أما الحساب الدقيق، والجزاء الأوفى الكامل، دفع رصيد الحساب، ربما أعطي المؤمن دفعة على الحساب في الدنيا، أما إعطاء الرصيد يوم القيامة، ربما وجدت مؤمناً مستقيماً على أمر الله ومع ذلك دنياه ضيّقة وخَشِنَة، نقول له: الجزاء يوم القيامة، لكن ربنا عزّ وجل شاءت حكمته أحياناً أن يكافئ المحسن في الدنيا على إحسانه تشجيعاً لبقية المحسنين، وأن يعاقب المسيء على إساءته ردعاً لبقية المسيئين، فهذا الإحسان تعليمي، والعقاب تعليمي وتحذيري، أما الحساب الأخير، والكامل، والأوفى، والرصيد، هذا يوم القيامة، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(45))

الدين يقوم على رُكنين أساسيين:

لاحظوا دائماً (آمنوا وعملوا الصالحات)، هكذا الدين ؟ الدين علم وعمل، إن ألغيت العلم لم يبق دين، أخلاق بلا صلاة بعد عن الدين، إذا ألغيت العمل لم يبق دين، الدين يقوم على رُكنين أساسيين، العقيدة والسلوك، العلم والعمل، الإيمان والعمل الصالح، فإذا وردت كلمة وعملوا الصالحات وحدها مع الإيمان، معنى ذلك الاستقامة والطاعة والأعمال الصالحة، والإيمان إذا وردت مع الأعمال الصالحة معناها العقيدة، أي أنه تَعَرَّف إلى الله، وصَحَّت عقيدته، واستقام على أمره، وعمل الصالحات، فهذه الكلمة تأتي في القرآن مئات المرّات ـ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ أي أنهم تعرفوا إلى الله عزّ وجل وأطاعوه، جاءت بشكل آخر:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا)

(سورة الأنبياء)

هذه العقيدة:

(فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

الطاعة في الإسلام وفي الأديان كلها علمٌ وعمل، عقيدةٌ وسلوك، إيمانٌ وعملٌ صالح، كأنهما جناحان للطائر، بجناحٍ واحد يقع الطائر، نما عقله على حساب عمله، نما عملُه على حساب عقله، لا بد من عقلٍ مُدْرِك، ولا بد من سلوكٍ مستقيم.

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (45))

الكافر حركته في الحياة تتناقض مع سرّ وجوده:

الآية الكريمة الشهيرة:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة العصر)

وقال:

(مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45))

لأن الكافر حركته في الحياة تتناقض مع سر وجوده، فكما أن الأب لا يحب ابنه الكسول، لأن الأب عالم وطموح ويطمح من ابنه أن يكون مثله في علمه مثلاً، أن يكون له مرتبة عالية، فالله عزّ وجل ـ ولله المثل الأعلى ـ لا يحب الكافر.

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[من صحيح مسلم: عن " أبي ذر "]

لكن لا يحب الكافرين لأنهم فعلوا شيئاً حرمهم من عطاء الله عزّ وجل، مع أن الله خلقهم ليرحمهم.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِي(56))

(سورة الذاريات)

ليتعرفوا إليه، وليطيعوه، وليسعدوا بقربه.

الذي يعصي ربه يأبى رحمته وجنته وإكرامه:

هذا الذي رفض رحمة الله عزّ وجل، رفض عطاء الله عزّ وجل، رفض أن يسعد إلى الأبد في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، الله لا يحبه، لأنه رفض عطاءه، قال:

((عجب ربكم لقومٍ يقادون إلى الجنة بالسلاسل))

[رواه أحمد والبخاري: عن " ابن مسعود "]

وقال:

((مَنْ أطاعَنِي دَخَلَ الْجَنّة وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أبَى))

[صحيح البخاري: عَنْ " أبي هُرَيْرَةَ "]

وقال أيضاً:

((كُلُّ أمّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنّة إلا مَنْ أبَى قالُوا يَا رَسُولَ اللّهِ وَمَنْ يَأبَى قالَ مَنْ أطاعَنِي دَخَلَ الْجَنّة وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أبَى))

[صحيح البخاري: عَنْ " أبي هُرَيْرَةَ "]

هذا الذي يعصي ربه يأبى رحمته، يأبى جنّتَهُ، يأبى إسعاده، يأبى إكرامه، وهكذا:

(لِيَجْزِيَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إنّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45))

في الدرس القادم إن شاء الله عودة أخرى للآيات الكونية، كما قلت لكم في مطلع الدرس الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، في طريق النظر في الحوادث مرت معنا:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ (42))

طريق التدبر في القرآن كما نفعل الآن، والطريق الثالث التفكّر في ملكوت السماوات والأرض، تفكرٌ في الكون، وتأملٌ في الحوادث، وتدبرٌ للقرآن، هذه الطرق كلها إلى الله سالكة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (13-14): تفسير الآيات 44-47
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-04-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم مع الدرس الثالث عشر من سورة الروم.

الهدى يرفعك والكفر يسحقُكَ:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

(سورة الروم)

أيها الأخوة الأكارم الأدوات في اللغة ككلمة على، وحتّى، ومتى، والـ لام، وعن، ومِن، هذه كُلها أدوات، أي كلمات لها معانٍ لا تبدو إلا مع غيرها من الكلمات، فربنا عزّ وجل يقول:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

الكفر عَلَيْهِ أي فوقه، سيسحقه، أما الهُدى والإيمان:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من آية " 5 ")

الهدى يرفعك ؛ والكفر يسحقُكَ، الكفر عليك ؛ والهدى لك، لذلك ربنا عزّ وجل حينما جاء بكلمة عليه:

(فَعَلَيْهِ (44))

أي كمن يضع في صندوقه المواد الضارّة، والمواد المتفجّرة، والمواد المؤذية، والمواد المُمْرِضَة، فكل شيءٍ يفعله الإنسان سيدفع ثمنه باهظاً.

البشر صنفان إما موصول منضبط محسن أو مقطوع متفلِت مُسيء:

قال تعالى:

(مَنْ كَفَرَ (44))

الكفر ـ كما تعلمون ـ فيه جانب فكري، وجانب نفسي، وجانب سلوكي، الجانب الفكري التكذيب بما جاء به الأنبياء والمرسلون، الجانب النفسي الإعراض عن الله عزّ وجل، الجانب السلوكي التفلّت من منهج الله، الانسياق وراء الشهوات، فالكفر من جهة تكذيب، من جهة إعراض، من جهة انحراف، فيمكن أن نقول: إن البشر صنفان موصول منضبط محسن ؛ مقطوع متفلِت مُسيء، فلا بدّ أن يكون

المرء أحد رجلين مؤمن بخالق الكون، مؤمن بمنهجه، إذاً منضبط بهذا المنهج، يتقرّب إلى الله بالأعمال الصالحة، إذاً يُقبلُ على الله، لأن الطريق مع الله سالكة، كذّب بهذا القرآن، أو بما جاء به الأنبياء، أو بالحق، فلمّا كذّب ليس هناك منهج، إذا آمنت بالله يجب أن تؤمن مع الإيمان بالله بمنهجه، بشرعه، بكتابه، فالذي كفر بالله من باب أولى هو كفر بمنهجه، إذاً متفلِت، له حركة واسعة جداً.

مثلاً طالب في أول حياته منضبط، وقته مُنَظّم، دوامه في المدرسة منظّم، دراسته منظّمة، هذا الطالب مع مرور الأيام يزداد رُقِياً في بنائه النفسي، وبنائه العقلي، وبنائه الشعوري إلى أن يصبح ذا مكانةٍ مرموقةٍ في المجتمع ؛ الطالب الآخر الذي كان متفلِتاً من أي هدف، من أي نظام، كان يفعل ما يشاء، ينتقل من مكان إلى مكان، من بُستان إلى بستان، من رفيق إلى رفيق، من نُزهة إلى نزهة، فيما يبدو هذا متفلِت، هذا حر، الأول مُقَيَّد بدوام المدرسة، بوظائفه، بواجباته، بتعليمات والده، هذه القيود رفعته إلى أن أصبح في ذروة المجتمع، بينما هذا التفلّت جعله في أسفل سافلين.

الهدى في خدمتك أما الضلال فهو سجن لك:

النقطة الدقيقة جداً: أنه يبدو لك أن الضال لا قيد يقيّدُهُ لأنه يفعل ما يشاء، يأكل ما يشاء، يذهب إلى أي مكان يشاء، يلتقي مع من يشاء، ينتهك حُرُمَات من يشاء يتمتع بالحريّة ؛ ولكن هذه الحرية في ظاهرها حرية وفي حقيقتها قيد:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38))

(سورة المدثر)

المؤمن منضبط، آمن بالله عزّ وجل، ما دام آمن بالله الله له منهج، هناك شيء يقول لك الله عزّ وجل: افعله، فأنت كمؤمن ليس لك أن لا تفعله، وهناك شيء آخر أمرك أن لا تفعله، فأنت مقيّد ليس لك أن تفعله، فيبدو لك أن الإيمان فيه قيود، طبعاً في صلوات خمس، وغض بصر، وعدم مصافحة النساء مثلاً، وتحرّ الدخل ؛ هذه شبهة، هذه ربا، هذه علاقة ربويّة، هذه كذب، هذه تدليس، هذه غيبة، هذه نميمة، فيبدو لك أن هناك أوامر دقيقة جداً أنت مُقَيَّد بها، لكن هذه القيود ترفعك إلى أن تحتلّ مكانك الصحيح، المخلوق الأول والمكرّم، بينما التفلّت الذي يبدو على شكل حريّة عند بعض الناس، هذا التفلّت يجعلك في قيد المعاصي، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24))

(سورة سبأ)

الهدى معها (على)، الهدى يرفعك، أنت على الهدى، الهدى في خدمتك ؛ أما الضلال هو سجنٌ لك:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38))

(سورة المدثر)

الكفر هو تفلّت من منهج والمنهج لمصلحتك:

قال تعالى:

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ)

(سورة البقرة: من آية" 81 ")

هنا تقريباً الآية لها معنى يقترب من ذاك المعنى:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

كفره فوقه يسحقُهُ، لأن الكفر تبعات، الكفر إنكار حقيقة، فإذا كُشِفَت الحقيقة في وقتٍ لا ينفع فيه كشفُها، لا ينفع فيه الندم، فهناك الندم الأبدي، هناك الخسارة الأبديَّة، الكفر تفلّت من منهج، والمنهج لمصلحتك، والمنهج تعليمات الصانع، المنهج تعليمات صيانتك، المنهج وسائل لسعادتك، فلمَّا كفر الإنسان بوجود الله، وكفر بمنهجه، فلا يوجد عنده منهج يقيّده فتفلّت، فلمَّا تفلّت أساء وأخذ ما ليس له، فاستحقّ العقوبات، إذاً حياته سلسلة من التبعات، والمسؤوليات، والمضايقات، والمعالجات، والجحيم، وفي النهاية شقي إلى أبد الآبدين، هذا معنى قوله تعالى:

(مَنْ كَفَرَ (44))

أنت عندك جانب فكري، يؤمن أو يكفر، وجانب نفسي، يُقْبل أو يعرض، وجانب سلوكي، ينضبط أو يتفلّت، يحسن أو يسئ، لهذا قال النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم:

((ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل))

[الجامع الصغير: عن " أنس "]

الإيمان تصديق وإقبال والتزام والكفر تكذيب وإعراض وتفلّت:

انظر إلى الناس الآن أكثرها بالتمني، كلّما ذكر الإيمان يقول: يا رب اجعلنا مؤمنين، الحمد لله، دعوات، تَنَهُّدَات، تمنيّات، تطلّعات، ولكن بعيداً عن الاستقامة، بعيداً عن التطبيق:

((ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي))

[الجامع الصغير: عن " أنس "]

يوم الجمعة لباس أبيض وزي إسلامي يضفي عليك الوقار والصلاح والتقى ولكن لا انضباط، ولا وقوف عند كتاب الله، ولا كسب حلال، ولا صدق، ونحن نريد الاستقامة

((ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي))

[الجامع الصغير: عن " أنس "]

نعلِّق مصحفاً في المركبة، ونطلق النظر يميناً وشمالاً نتابع الفتيات في الطريق والمصحف معلّق في المركبة، في مدخل المحل كُتِبْ: **" إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً "** وإذا باع واشترى غش، وكذب، وهناك سعرين، ودجل، فلذلك ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وأقرّه اللسان وصدّقه العمل.

هناك جانب عقلي، وجانب نفسي، وجانب سلوكي، فالإيمان تصديق وإقبال والتزام، والكفر تكذيب وإعراض وتفلّت، التفلّت معه إساءة، فربنا عزّ وجل يقول:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

عَلَيْه، أما:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من آية " 5 ")

المؤمن فوق الهدى، الهدى في خدمته، المؤمن يرفعه الهدى ليس عبئاً عليه، أما الكفر يضغط عليه ساحقاً.

القرآن إعجازه في إيجازه:

قال تعالى:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (44))

طبعاً هنا توجد عندنا نقطة في اللغة دقيقة جداً، القرآن الكريم فيه إيجاز، والإيجاز يحتاج إلى توقُّد ذهن، طبعاً المعنى من كفر وعمل سوءاً فعليه كفره، ومن آمن:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

ربنا عزّ وجل قال:

(مَنْ كَفَرَ (44))

لم يذكر وعمل سوءاً، أنت تشتقها من: (من عمل صالحاً) بالمقابل، ولمّا ذكر المؤمنين ما قال: ومن آمن ؛ بل قال:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (44))

تشتقُّ آمن من كفر، مقابل آمن كفر، ومقابل عمل صالحاً عمل سوءاً، فالبلاغة في الإيجاز.

من يقرأ القرآن يتوقد ذهنه:

هناك آية أوضح من ذلك:

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 13 ")

ما المعنى الدقيق ؟ فئةٌ مؤمنةٌ تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرةٌ تقاتل في سبيل الشيطان، هذا المعنى الكامل، فالقرآن إعجازه في إيجازه، الذي يقرأ القرآن يتوقّد ذهنه:

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 13 ")

ما قال: مؤمنة بل قال: فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ، يا ترى هذه الفئة هل مؤمنة ؟ تستنبط أنها مؤمنة من قوله:

(وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 13 ")

إذاً الأولى مؤمنة، ولكن يا ترى الكافرة تقاتل في سبيل من ؟ في سبيل الشيطان ولكن لم يذكر هذا الله عزّ وجل.

الاشتباك في البلاغة:

قال:

(فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 13 ")

انظر إلى الإيجاز، لو أن الله عزّ وجل قال: فئة مؤمنةٌ تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرةٌ تقاتل في سبيل الشيطان، كم كلمة ؟ أما عندما جعلك تستنبط المؤمنة من كلمة وفئة كافرة، وجعلك تستنبط تقاتل في سبيل الشيطان من تقاتل في سبيل الله، هذا هو الإيجاز كذلك هنا:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

هذا اسمه في البلاغة الاشتباك، معاني مشتبكة كل معنى يدل عليه معنى مقابل:

(مَنْ كَفَرَ (44))

وعمل سوءاً، من لوازم الكفر أبداً، والدليل:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

لو وجدت كافراً أعماله صحيحة هو منضبط، محسن، متواضع، ليس له أغراض شخصيَّة دنيويَّة، دائماً منضبط بالكمال، إذاً الإيمان لا حاجة له، التغى الإيمان.

جاء الكفر مفرداً والإيمان جمعاً لأن الإيمان يجمع والكفر يفرّق:

لكن:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

تجد هناك حماقات، انحرافات، تجاوزات، انتهاك للحُرُمات، إنسان ينمو على حساب مجموع، إنسان يجمع أموال طائلة على حساب فقر أناس كثيرين:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

إذاً:

(مَنْ كَفَرَ (44))

والمعنى المشتق: وعمل سوءاً فعليه كفره وإساءته:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (44))

أي ومن آمن وعمل صالحاً:

(فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

بعضهم قال: جاء الكفر مفرداً والإيمان جمعاً، لأن الإيمان يجمع والكفر يفرّق.

لا يجمع إلا الإيمان:

ربنا عزّ وجل قال:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر: من آية " 14 ")

لا يجمع إلا الإيمان، والدليل:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 63 ")

أحياناً الكفار ينفقون أموالهم الطائلة ليصدّوا عن سبيل الله، قال:

(فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: من آية " 36 ")

أنت إذا أنفقت المال بعيداً عن منهج الله، بعيداً عن هدف التأليف بين المؤمنين، إذا أنفقت المال على أناسٍ غير مؤمنين بالله عزّ وجل من أجل أن توفِّق بينهم، من أجل أن تقرّب بينهم، هذه الأموال الطائلة التي تنفقها لا تزيدهم إلا بعداً وحسداً وبغضاً، والدليل قوله تعالى:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 63 ")

مجتمع المؤمنين الكامل لا مشكلة فيه لأن كل إنسان يعرف حدوده:

من علامات الإيمان أن المؤمن يهفو قلبه إلى مؤمنٍ في طرف الدنيا، يشعر بالمودَّة، والمحبَّة، والقرب، بل إن من علامات الإيمان أن يكون أخوك المؤمن الذي في آخر الدنيا أقرب إليك من أخيك النَسَبيّ وأنت لا تدري، من أخيك الذي من أمِّك وأبيك، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ))

[صحيح البخاري: عن " السيدة عائشة "]

وقال:

((إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض متوادون وإن بعدت ديارهم وأبدانهم، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض))

[كنز العمال: عن " علي بن أبي طالب"]

أن تقول لمؤمن جاء من بلدٍ آخر: أنت أجنبي، والله هذه جريمة، هذا أجنبي ؟ هو أخوك في الله، ليس بينك وبينه فرقٌ إطلاقاً، هو من جلدتك، من جِبِلّتك، من طينَتِك، أقرب الناس إليك ولو كان قد ولِدَ في طرف الدنيا الآخر، هذا الإيمان، هذه عظمة الإيمان، الإيمان يجمع ولا يفرّق، الكفر يفرّق، لأن الكفار ليس لهم منهجٌ من خالقهم يسيرون عليه، مناهجهم أرضيَّة، والمناهج متضاربة، متناقضة، المصالح متناقضة، لا انضباط ومصالح متناقضة إذاً لا بدَّ من عدوان، لا بدَّ من أن يأخذ الكافر ما ليس له، فإذا أخذ ما ليس له نشأت العداوة والبغضاء، ونشأت الأزمات، والصراعات، والحروب، وأصبحت الأرض كلُّها في شقاءٍ عميم، خالق الكون له منهج، له مبادئ، له أوامر، له نواه، له حدود، له تشريع، فأنت تأخذ ما لك وتدع ما ليس لك، تقف عند حدك، رحم الله عبداً عرف حدَّه فوقف عنده، مجتمع المؤمنين الكاملين ليس فيه مشكلة لأن كل إنسان يعرف حدوده:

(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(65))

(سورة النساء)

كلمة حر كلمة راقية جداً لا تليق إلا بالمؤمن:

الحديث الشريف هو الحكم بيننا، النبي الكريم قال كذا وقال كذا، آية أخرى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36 ")

ليس لي اختيار، أنا مخيَّر في أن أؤمن أو لا أؤمن، أما إذا آمنت فهناك منهج:

((الإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ لا يَفْتِكُ مُؤْمِن))

[من سنن أبي داود: عن " أبي هريرة "]

يقول لك المؤمن: أنا لا أستطيع أن أفعل هذا، أنا مقيَّد بالشرع، والله وسام شرف له، هذا وسام شرف، البطولة أن تكون طليق الإرادة والقوة، وأنت مقيَّد بالشرع، بالكمال، بالموقف الأخلاقي، فلذلك إذا شعر الإنسان بنفسه أنه قوي كأن يكون مقتدراً مادياً، قوة عضلية، اجتماعية، نفسية، وشعر أن له خصوم لكن الشرع قيَّده، هذا القَيْد وسام شرف، عليه أن يرفع رأسه عالياً، يا رب لك الحمد الذي عرَّفتني وجعلتني أنضبط بمنهجك أأتمر بأمرك وأنتهي عما عنه نهيت.

لذلك كلمة حر أنا أستكثرها على أهل الدنيا وأقول له: غير منضبط، أقرب لهم من كلمة حر، الحرية تعني ؛ حر التفكير، حر الإرادة، حر ليس تبعاً لأحد، ليس عبداً لتقاليده، لشهواته، كلمة حر كلمة راقية جداً لا تليق إلا بالمؤمن، أما أن تقول لإنسان ليس مؤمناً، متفلتاً من منهج الله عزّ وجل، يفعل ما يحلو له، يتحرّك من دون منهج، أن تقول له: حُر، لا والله، هذه كلمةٌ لا يستحقُّها، ربنا عزّ وجل يقول:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (44))

كلمة (عمل صالحاً) أي أنه عمل عملاً يصلح أن يعرضه على الله عزّ وجل، إذا وقفت يوم القيامة بين يدي الله عزّ وجل وسألك: كنت معلِّماً وهؤلاء الطلاب ماذا فعلت لهم ؟ ماذا علَّمتهم ؟ إلى ماذا وجَّهتهم؟ ما القيَم التي رسَّختها فيهم ؟ هل أقمت بينهم أمر الله عزّ وجل ؟ هل عدلت بينهم ؟ إذا كنت طبيباً هؤلاء المرضى الذين جاءوك، منحوك ثقتهم، هل أخلصت لهم أم ابتززت أموالهم ؟ هل أوهمتهم أن مرضهم خطير، وأن عليهم أن يأتوك كل أسبوع، أم طمأنتهم وكنت حكيماً ؟ أنت كمحام، كطبيب، كمدرّس، كصاحب متجر، كصاحب معمل، كصاحب مستشفى، ماذا فعلت ؟

اللسان جزء من قوة الإنسان:

كل شيءٍ تفعله سوف تُسأل عنه، والبطل أيها الأخوة هو الذي يُعدُّ لله جواباً صحيحاً، لأن الإنسان جزء من قوّته لسانه، فهناك أشخاص منحرفون جداً ولكن عندهم قوة إقناع عالية جداً، تجده دائماً يبدو لك

وكأنه ملاك من السماء، وهو غارق في إيقاع الأذى بالناس، فإذا حدّثك حدّثكَ بالقيم والفضائل والانضباط والتواضع، هذا قوته في لسانه، بإمكانه أن يخدع بعض الناس إلى أمدٍ طويل، وبإمكانه أن يخدع كل الناس إلى أمدٍ قصير، ولكن يوم القيامة ربنا عزّ وجل يقول:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ)

(سورة يس: من آية " 65 ")

سلاحه سحبناه منه:

(وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(65))

(سورة يس: من آية " 65 ")

لا طليق لسان في الآخرة، يزوّر الحقائق ويكلمك كلاماً مقنعاً:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

البطولة أن تراقب الله عزّ وجل بكلماتك وحركاتك وسكناتك:

الموقف مع الله صعب جداً، فلا طلاقة لسان تفيد ولا حجة تنفع، والدليل النبي عليه الصلاة والسلام سيّد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم، المخلوق الأول الذي يوحى إليه قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

الذي بلغ سدرة المنتهى، لو استطعت بذكائك، بقدراتك اللفظيّة، بطلاقة لسانك، بحجّتك، أن تنتزع من فمه الشريف حكماً لمصلحتك وأنت لست على حق، هل تنجو من عذاب الله، إنه قال:

((إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار))

[البخاري: عن "أم سلمة"]

الموقف مع من ؟ مع الله عزّ وجل، مشكلتك مع الله، ألم يقل له: "بعني هذه الشاة وخذ ثمنها "، قال له: " ليست لي "، قال له: " قل لصحابها ماتت ".

الآن يقول له: كن ليناً، ولا تكن صعب المداس، أي اكذب، دلِّس، تجاوز الحدود، لا تدقِّق، لا تشدِّد، لا تتزمّت، قال: " بعني هذه الشاة وخذ ثمنها "، قال له: " ليست لي "، قال له: " قل لصاحبها ماتت "، قال له: " ليست لي "، قال له: " قل له أكلها الذئب ـ يا أخي ـ وخذ ثمنها "، قال له: " والله إنني لفي أشدِّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدّقني فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟ ".

هذه مشكلتك، هذا المؤمن:

((الإِيمَانُ قَيّدَ الْفَتْكَ))

[من سنن أبي داود: عن " أبي هريرة "]

بموضع ثقة إن كان طبيباً، إن كان محامياً، إن كان مهندساً، إن كان مدرّساً، الناس يثقون بك، فالبطولة أن تراقب الله عزّ وجل بكلماتك، بحركاتك، بسكناتك.

لن تنجو من عذاب الله إلا إذا كنت في مرضاة الله عزّ وجل:

أيها الأخوة الأكارم الموضوع موضوع مصيري، وليست القضية أنه درس علم حضرناه، والله ممتع وفيه أمثلة جميلة، فيه تفسير عميق ؛ بل القضيّة أخطر من ذلك، القضيّة متعلِّقة بمصيرك الأبدي وعلاقتك مع الله فقط، ما دام النبي عليه الصلاة والسلام حكم لك بشيء ولم تكن على حق لا تنجو من عذاب الله، القضيّة لم تنتهِ، لا تنجو إلا إذا كنت كما يريد الله عز وجل، لا تنجو إلا إذا كنت في مرضاة الله عزّ وجل، فلذلك:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

وشيءٌ آخر ـ وإن كان الوقت ضيّقاً ـ لو أتيح لك أن تتتبّع معاملة الله للناس في الدنيا لعرفت الحقيقة، المستقيم مُكَرَّم، الطائع لله عزّ وجل معزّز، الله يدافع عنه، يحميه، يكرمه، ينصره، والمنحرف يدفع الثمن باهظاً في الدنيا قبل الآخرة، وإن كان الرصيد في الآخرة، هناك دفعات على الحساب للمؤمن تشجيعاً له، وهناك ضربات على الحساب للكافر ردعاً له، دفعات على الحساب وضربات على الحساب، أما رصيد الضربات يوم القيامة، ورصيد الدفعات يوم القيامة، الحساب التام:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: من آية " 185 ")

هذا المعنى لو رأيت إنساناً كافراً منحرفاً يزداد قوّة يزداد شأناً:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران)

أبواب المعرفة ثلاثة:

قال تعالى:

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، ومع ذلك الدنيا على أنها قصيرة ومحدودة مليئة بالعظات والعبر، أنا أعطيك ثلاثة أبواب للمعرفة، أتحب أن ترى الله من خلال الكون ؟ الكون يكفي، أتحب أن ترى الله من خلال أفعاله ؟ تتبّع المستقيم، تتبع المنحرف، تتبع الزاني، تتبع العفيف، تتبع الصادق، تتبع الكاذب، تجد أن الكاذب له معاملة من الله، والصادق له معاملة، أي أن الخيارات كثيرة جداً، وإن شئت أن تعرفه وأن ترى الله من خلال كلامه فدونك القرآن، هذا القرآن باب، والكون باب، وأفعال الله عزّ وجل باب.

الحقيقة الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، من كأس ماء تعرف الله، من ابنك الذي في البيت يلعب أمامك تعرف الله، من رغيف الخبز تعرف الله، من الشمس والقمر تعرف الله، من الليل والنهار تعرف الله، من الزلازل تعرف الله، بلد مستقرّة، أبنية شامخة، ثلاثة عشر طابق، خمسة عشر، عشرين، أربعين، الناس في طمأنينة، ترى بعينك كيف أن بعض البلاد يصبح عاليها سافلها، في دقائق، في ثوانٍ، إذاً نعمة الاستقرار من نعم الله الكبرى، فإن لم تعرفها وأنت مستقر ربّما عرفتها في وقت آخر، إذاً:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

لمؤمن من حبّه لذاته يطيع الله ويستقيم على أمره:

من باب ضرب الأمثلة: إذا كان لديك صندوق في البيت فتحته ووضعت فيه ألف ليرة وقفلته، فتحته مرّة ثانية ووضعت خمسة آلاف، كلّما فتحت هذا الصندوق ألقيت فيه مبلغاً كبيراً، والصندوق لك ومفتاحه معك، فأنت ماذا فعلت ؟ فخدمت من ؟ فعلت معروف مع من ؟ فعلت معروف مع نفسك:

(فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

الحقيقة المؤمن يحبُّ ذاته، ومن حبّه لذاته آثر الباقية على الفانية، ولطموحه آثر الباقية على الفانية، المؤمن من حبّه لذاته أطاع الله، من حبّه لذاته استقام على أمره، من حبّه لذاته أنفق الغالي والرخيص والنفس والنفيس، لأنه يعرف مع من هو يتعامل، إنه يتعامل مع جهة القرش بألف، بعشرة آلاف، بمئة ألف، تطعم لقمة لزوجتك تراها يوم القيامة كجبل أُحُد.

إنسان ما إذا أنشأ شركة استثماريّة وأعطى بالمئة أربعين، تجد الناس يذهل عقلهم ويقبلون عليه إقبالاً منقطع النظير، يمكن أن يسحب أموال البلد كلها إذا أعطى أربعين بالمئة، أما ستين أو سبعين تتعطّل كل المصالح، لاجتماع المال عنده، وإذا كان الاستثمار بالمئة مليون وثابتة وليس هناك تفليس بعد ذلك، نصاب بأمراض قلب من وراء الاستثمارات الضخمة، الله عزّ وجل عطاءه لا يقدّر بثمن، فالبطولة أن تعرف مع من تتعامل.

التجارة أن تتاجر مع الله لأن الله يحب أن تربح عليه:

الله عزّ وجل يحبُّ أن تربح عليه، الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10))

(سورة الصف)

تجارة الدنيا مختلفة يقول لك: سنة اشتغلنا، واستقبلنا بضاعة، ودفعنا مصاريف باهظة، ودفعنا ضرائب، فكان الربح بالمئة خمسة عشر، بالمئة ثمانية عشر، بالمئة عشرين، بالمئة خمسة وعشرين، هكذا الدنيا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(11))

(سورة الصف)

هذه التجارة، أن تتاجر مع الله لأن الله يحب أن تربح عليه، إذا التاجر أعطاك ربحاً معقولاً يقول لك: والله بضاعته مجبورة، أي أنه طلعت من عينه، أحب لي أن أربح، هكذا كلام التجار، ربنا عزّ وجل يحب أن تربح عليه، يحب أن تنفق من مالك في سبيله، إنفاقاً استهلاكياً، إنفاق الناس كله استهلاكي ؛ على ترتيب البيوت، على التزيين، على العناية، على الرفاهية، على الطعام، على الشراب، على اللباس، ما ترك شيئاً لآخرته، كل دخله إنفاق استهلاكي، ألا تريد إنفاقاً استثمارياً ؟ اجعل جزءاً من دخلك لله لكي يأتيك أضعاف مضاعفة، هكذا قال سيدنا عمر عندما أمسك بتفّاحة، فقال: **" أكلتها ذهبت أطعمتها بقيت "**. والله شيءٌ رائع: **" أكلتها ذهبت أطعمتها بقيت ".**

على الإنسان أن ينفق المال إما استهلاكياً أو استثمارياً:

أنت إما أن تنفق المال إنفاقا استهلاكياً، وإما أن تنفقه إنفاقاً استثمارياً، والاستثمار غالٍ كثيراً، بالمئة مليون، بالمئة عشرة ملايين، بالمئة مليار، وشيء مضمون وثابت:

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مئة حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(261))

(سورة البقرة)

وقال:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(45))

نحن عندنا الآخرة وعندنا الإيمان بالله: آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وقضائه وقدره خيره وشرّه. من بين هذه الخمس أركان للإيمان يوجد ركنان أساسيان جداً: الإيمان بالله وباليوم الآخر، لو ألغيت الإيمان باليوم الآخر لا معنى للعمل الصالح، كأنك إذا لم تؤمن باليوم الآخر أصبحت الحياة بلا معنى، لأن العمر قصير والمطالب كبير جداً، أما إذا آمنت باليوم الآخر أصبح لهذه الحياة معنى، أصبحت أنت في مدرسة، في مزرعة، أصبحت الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، أصبحت الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، فهكذا تنظم الحياة.

إذا صحّ إيمانك بالآخرة تحاسب نفسك على كل حركةٍ وسكنةٍ:

الآن المسلم يقول لك: أنا آمنت بالآخرة، ولكن عملياً إيمانه بالدنيا فقط، تجد أنه يحسب حساباً لكل شيء في الدنيا ؛ أما هذه الحياة الأبديّة خارج اهتمامه، والدليل تجد أنه على مشارف الخمسين ولا يصلي، بالخمسينات ماله حرام، نساؤه كاسيات عاريات، ليس له منهج، يقول لك: أنا الحمد لله مؤمن بالله وباليوم الآخر، هذا كلام لا معنى له في الأساس، إذا الإنسان آمن باليوم الآخر تجده في كل حركة وكل سكنة يهيئ جواباً لله عزّ وجل، فهذه الزوجة بهذا الشكل أترضي الله عزّ وجل ؟ كيف ستواجه الله عزّ وجل يوم القيامة ؟ وهذا العمل، هذه تجارة مرفوضة، هذه التجارة مشبوهة لأن البضاعة ممنوعة في الإسلام، هذه الطريقة بالتعامل ممنوعة.

الإيمان بالآخرة إذا صح يقلب حياة الإنسان رأساً على عَقِبْ، إذا صحّ إيمانك بالآخرة تحاسب نفسك على كل حركةٍ وسكنةٍ، وعلى كل نَفَس، لأنك آمنت أن هناك يوم آخر وسوف تسأل عن كل أعمالك، وبعضهم يقول: يا رب كل شيء لا تسألنا عن شيء، هذا كلام خلاف القرآن، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحج)

وقال:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115))

(سورة المؤمنون)

وقال:

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

هكذا ؟!

الله تعالى يحاسب كل الناس غني وفقير لأنه هو حق:

مثلاً جامعة كلفة الأبنية فيها مئات الملايين، الحدائق، المكتبات، المخابر، لكل خمس طلاب دكتور له رواتب ضخمة، وله معاش تقاعدي، وله مكافآت، وتجلس في الجامعة وبدون امتحان، فقط لأنك دخلت إلى الجامعة أثناء العام الدراسي عدة مرّات، وتحمل على يدك ثوباً أبيض، ماشي أمام رفاقك كالطاووس، وبعد ذلك تمنح دكتوراه، هل هذه جامعة ؟ هناك امتحانات ؛ أسبوعيّة، وشهرية، وسنوية، وفصليّة، وهناك أطروحة، ومؤلّفات، ودكاترة، ودكاترة مشرفين، فجامعة بلا امتحان ! غير معقول. نريد أن نعيّن أطبّاء، كل واحد يصلح أن يكون طبيباً، أم أن الدولة تقول: أين شهادتك المصدّقة ؟ من وزارات عدة:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115))

(سورة المؤمنون)

هكذا قوي وضعيف ؟ القوي أكل الضعيف، والحياة انتهت ولم يبقَ شيء، يقول لك: هكذا ترتيبه، يجب أن يحاسب كل الناس، غني وفقير، الغني أنفق المال جزافاً على شهواته الثانويّة، والفقير يتحرّق على لقمة طعام، والحياة انتهت، وانتهى كل شيء ولا يوجد حساب، الغني لا يحاسب والفقير لا يحاسب ؟!

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

لأنه هو حق.

ندم أهل النار شديد لأنهم خسروا أنفسهم إلى الأبد:

ربنا عزّ وجل قال:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(45))

معنى هذا ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؛ وليعاقب الذين كفروا وفعلوا السيئات، هذه اللام لام المآل، أو لام العاقبة، قال:

((إن أهل النار ليبكون حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، وإنهم ليبكون الدم))

[الجامع الصغير: عن " أبي موسى "]

هذا الندم الشديد لأنه ضيّع نفسه، خسروا أنفسهم، خسروا الأبد، خسروا الجنّة وتمتّعوا بالدنيا، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ)

(سورة التوبة: من آية " 38 ")

دائماً يعتذر، همّته ضعيفة، يرغب الراحة، يرغب الاستقرار، لا يحب أن يعمل أعمالاً صالحة، لا يحب أن يبذل ماء وجهه لأحد، يريد أن يرتاح، مواعيده، وسهراته، ولقاءاته، وسروره، ونزهاته، وزوجته، وأولاده، وعمله هذا كل شيء في حياته، هذا الذي أحبَّ الدنيا واطمأن لها، رضوا بالحياة الدنيا:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ)

(سورة التوبة: من آية " 38 ")

أدلة من السُنة الشريفة على أن متاع الحياة الدنيا قليل:

قال:

(مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

قليل، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط ـ إبرة ـ غرس في البحر من مائه))

[الطبراني: عن " المستورد بن شداد"]

الآن اذهب إلى الساحل السوري، واركب قارباً وأخرج دبوساً وأنزله في البحر، وأخرج محرمة وامسح الدبوس، بماذا رجع هذا الدبوس ؟ هذا المخيط أو الإبرة بماذا رجع ؟ قال:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ))

[من نن الترمذي: عن " سهل بن سعد "]

أدلة من القرآن الكريم على أن متاع الحياة الدنيا قليل:

الآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

الآية الثالثة:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من آية " 77 ")

يا مساكين (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)، فأحياناً من باب تقريب الأمثال: طعام نفيس جداً، كلف مئات الليرات، يأتي الابن من المدرسة ويأكل طعاماً خشناً جداً، فتقول له أمه: يا بني انتظر، أنا هيَّأت لك طعاماً طيّباً، طعاماً نفيساً:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

الآية الرابعة:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60)أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

هكذا ؟!!

أعلى مرتبة ينالها الإنسان في الكون أن يرضى الله عنه:

قال تعالى:

(لِيَجْزِيَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إنّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45))

ألا تحبّ أن يحبُّك الله عزّ وجل ؟ والله إذا أحبَّك إنسان عادي له مرتبة، في ليلتها لا تنام الليل، إذا تصورت صورة معه تضعها في حقيبتك، وكلّما التقيت مع إنسان تقول له: كنت وفلان معاً انظر هذه الصورة، أنت تتمنّى شخص فوق العادي بقليل يكون صديقك تسهر معه أو تتصوّر معه، ألا تحبُّ أن يحبُّك خالق الكون ؟ ألا تحب أن يرضى عنك خالق الكون ؟ والله كلمة:

(رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

(سورة المائدة: من آية " 119 ")

لو نعقل معناها، فأعلى مرتبة ينالها الإنسان في الكون أن يرضى الله عنه، المال يزول، والمراتب تزول، والوجاهات تزول، والمناصب تزول، والبيوت الفاخرة تزول، والمركبات الأنيقة تزول، كله يزول، أما إذا كان الله راضياً عنك هذا لا يزول ؛ بل تسعد به إلى الأبد، فإذا قرأت الآية الكريمة:

(لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشّجَرَةِ)

(سورة الفتح: من آية " 18 ")

ألا تشعر برعشة ؟ ألا تشعر أن قلبك خفق.

في العبوديّة لذائذ وسعادات لا يعلمها إلا من ذاقها:

عندما قال سيدنا رسول الله لسيدنا معاذ:

((يَا مُعَاذُ، وَاللّهِ إنّي لَأُحِبُّكَ، وَاللّهِ إنّي لَأُحِبُّكَ))

[سنن أبي داود: عن " معاذ بن جبل "]

ألا تتمنّى أن يحبُك رسول الله سيد الخلق ؟ عندما قال النبي الكريم لسيدنا سعد:

((ارْمِ سَعْدٌ فِدَاكَ أبي وَأمّي))

[أخرجه الشيخان: عن " علي بن أبي طالب "]

ألا تتمنّى أن تكون كسيدنا سعد ؟ وعندما دخل على رسول الله فقال:

((هذا خالي فليرني امرؤ خاله))

[الترمذي: عن " جابر بن عبد الله"]

هذه المراتب العليا أن تكون عند خالق الكون محبوباً:

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما ولّيت عنا لغيرنا

***

الإنسان يبحث عن السرور ويتصور أنه إن سهر بهذا الفندق أو مع الجيران، سيشعر بالسرور، أنت تعرف ما عند الله عزّ وجل، أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني، ترغب في الدنيا والدنيا زائلة:

فلو شـاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما ولـيت عنا لغيرنا

ولـو سمعت أذناك حسـن خطابنا خـلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

***

والله في العبوديّة لذائذ، هناك سعادات لا يعلمها إلا من ذاقها، الذي ذاق الطعام والشراب، واللذائذ المباحة ـ لم أقل المعاصي المباحة ـ والبيوت الفخمة، والمركبات الفارهة، والعز، والسلطان، والأناقة، واللبس، والسهرات، والنزهات، والاحتفالات، وركوب الطائرات، والسكنى في الفنادق، الذي ذاق هذه الأشياء وذاق طعم القرب يقول لك والله لا توجد نسبة بينهما، حتّى أن أحد العارفين بالله قال: "والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف ". والله في نفس المؤمن من سعادة لو وُزّعَ على أهل بلدٍ لكفاهم، ما السعادة ؟ أن تشعر أن خالق الكون يحبك، وأنت غالٍ عليه:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، أطلق بصرك كما تشاء، ليس لك قيمة عند الله، أما القيمة إذا غضضت البصر، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن يقول:

((انظروا إلى عبدي، ترك شهوته من أجلي))

[أجه ابن السني الديلمي في مسند الفردوس: عن " طلحة "]

الإيمان مرتبة أخلاقية وجماليّة وعلميّة:

سيدنا يوسف عندما دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال، لو قَرَّب ما كان سيدنا يوسف، ولكان شخصاً من الأشخاص التافهين الذين مروا بالحياة، لأنه قال:

(مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف: من آية " 23 ")

هل عندك في حياتك موقف كهذا ؟ إن كان متعلِّقاً بالنساء ؟ أو متعلِّقاً بكسب المال الحرام، تقول: معاذ الله هذا المبلغ لا أخذه لأنه ليس لي، عندك الموقف دائماً معاذ الله ؟ عندك موقف صُلب لا يلين ؟ كنت أقول مرّة في أول خطبة في هذا المسجد، خطبتها عام أربعة وسبعين: أن الإيمان مرتبة أخلاقية، ومرتبة جماليّة، ومرتبة علميّة، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه، مرتبة علميّة، المؤمن عنده علم، ومرتبة أخلاقية ؛ لا تقوى سبائك الذهب اللامعة ولا سياط الجلادين اللاذعة على أن تقوّض إيمانه، موقف.

السحرة قالوا لفرعون:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

سرّ السعادة تطابق الهدف مع الحركة:

قال أبو سفيان لخبيب بن عدي: " أتحبُّ أن يكون محمدٌ مكانك ؟ " خبيب بن عدي صحابي جليل، على وشك أن يموت قتلاً، سأله أبو سفيان فقال له: " يا خبيب أتحبُّ أن يكون محمدٌ مكانك ـ ما هو قولك ؟ ـ وأنت معافى "، فانتفض خبيب وقال: " والله ما أحبّ أن أكون في أهلي وولدي ـ مع زوجته وأولاده هذه تمام الحياة ـ وعندي عافية الدنيا ونعيمها ـ ليس العافية فقط، الصحة، بل النعيم أي عنده ورود، وعنده مكيف، وعنده سيارة على الباب، وعنده مشاريع للصيف ـ وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة ـ ليس مكاني بل بشوكة ـ "، قال أبو سفيان: **" والله ما رأيت أحداً يحب أحداً كحبِّ أصحاب محمدٍ محمداً ".**

هذا هو الإيمان، هل عندك مثل هذه المواقف ؟ أي أن الدنيا كلها تحت قدمك، هذا الإيمان، لا أفعل ورب الكعبة ولو قُطعت إرباً إرباً، هل عندك موقف كهذا ؟ هذا الإيمان، ليرة، مئة ليرة، ألف، مئة ألف،

مليون، مئة مليون هي عنده كالصفر، فيها شبهة لا تأخذها بل تقول: معاذ الله، هذا هو الإيمان، لا تقوى سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة، على أن تقوّض إيمانهم، هذا الإيمان.

الإيمان مرتبة أخلاقيّة، ومرتبة جماليّة، أي أنه يعيش في سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، ما هي السعادة؟ تطابق الهدف مع الحركة، افترض أحد الطلاب بعد شهر أو بعد أسبوعين عنده فحص لمادّة مهمّة جداً يتوقّف نجاحه عليها، يتوقّف تخرُّجه عليها ـ طب مثلاً ـ وإذا أخذ الشهادة يستطيع فتح عيادة، ويتزوج، فجاء أصدقاؤه وأخذوه نزهة، لماذا هو في هذه النزهة مُنْقَبِض ؟ مكان جميل، طعام طيب، مناظر جميلة، أصدقاء محبون، لماذا أنت أيها الإنسان في هذا المكان الجميل مع هؤلاء الأصحاب الأفاضل، ومع هذا الطعام اللذيذ أنت منقبض ؟ لأن هذه الحركة تتناقض مع هدفه.

خذ هذا الطالب وضعه في غرفة قميئة مظلمة، تراه قد قرأ هذا الكتاب المقرَّر وفهمه، يشعر براحة، ما هذه الراحة ؟ هي تطابق الهدف مع الحركة، إذا سألتموني عن سر السعادة أقول لكم: إذا تطابق الهدف مع الحركة شعرت بالسعادة، ذهبت إلى فرنسا لعقد صفقة، فلم تجد فندقاً جيداً، ولا مطعماً جيداً بعد الظهر كله مغلق، ولكن قابلت مدير المعمل وأخذت صفقة رابحة جداً، إنك تنسى أن الفندق درجة خامسة، والطعام سيئ جداً، كل شيء تنساه لأن هدفك تحقّق، فلو نمت في فندق جيد، ودخلت مطعماً ولكن البضاعة ما بيعت، وعدّت بخفي حنين فأنت تقيس، فسر السعادة أن تشعر أن حريتك جاءت مطابقةً لهدفك.

إذا أردت أن يحبّك الله فكن تقياً ومستقيماً:

إذاً:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(45))

ألا تحب أن يحبك الله عزّ وجل ؟ افتح القرآن، إذا واحد أحب أن يقرأ القرآن يقرؤه كل مرّة بهدف، إذا أردت أن تعرف الله من يحب اقرأ الآيات، إن الله يحب الصادقين قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(222))

(سورة البقرة)

وقال:

(فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(76))

(سورة آل عمران)

إذا أردت أن يحبُّك الله فكن تقياً، وكن مستقيماً، وكن صادقاً، وكن أخلاقياً، وكن متطهّراً، المحبوبات معروفة، التعامل مع الله تعامل واضح جداً، الله لا يوجد عنده إنسان أفضل من إنسان، هذه حقيقة أساسيَّة، قال سيدنا عمر لسيدنا سعد:

" يا سعد لا يغرّنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له ".

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (14-14): تفسير الآيات 46-60
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-05-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة الروم.

أفعال الله عزّ وجل واحدة منها ما هو مادي ومنها ما هو توجيهي:

مما يُلفت النظر في الآيتين وهما:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(46))

(سورة الروم)

ما العلاقة بين هذه الآية، وبين قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(47))

أي أن أفعال الله عزّ وجل واحدة، منها ما هو مادي، ومنها ما هو توجيهي، فكما أن الله سبحانه وتعالى يُرسل الرياح مبشرات بالأمطار، والأمطار إذا هطلت ذاق الناس رحمة الله عزّ وجل، كذلك يُرسل الله المرسلين بالهُدى، فإذا كان المطر حياةً للإنسان، فإن الهدى حياةٌ للقلب، فجوهر الفعل واحدٌ، إن أرسل المطر تحيا به الأجسام، وإن أرسل الرسل بالبينات والهدى تحيا بهم القلوب.

انتهاء الفعل المادي بإحياء الأجسام و انتهاء الفعل المعنوي بإحياء القلوب:

الله عزّ وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

عامة الناس يعنون بحياة الجسد ؛ بصحته، بنشاطه، بسلامة أعضائه، بسلامة أجهزته، بسلامة حواسِّه، ولكن غاب عنهم أن النفس هي الخالدة، حياة الجسد مؤقتة وتنتهي بالموت، ولكن النفس هي الباقية، فلأن يُعْنى الإنسان بنفسه ؛ بطهارتها، بسلامتها من العيوب، بطهارتها من الذنوب، باصطباغها بصبغة علام الغيوب، لأن يُعنى الإنسان بنفسه من باب أولى، كلٌ منا إذا شعر أن في أعضائه خللاً بسيطاً بادر إلى الطبيب، لماذا لا نبادر إلى من يطبب قلوبنا ونفوسنا إذا شعرنا أن في نفوسنا خللاً ؟!!

ربنا عزّ وجل حينما جمع الآيتين، أراد من هذا الجمع بين الآيتين أن يبين أن فعل الله واحد، الفعل المادي ينتهي بإحياء الأجسام، والفعل المعنوي ينتهي بإحياء القلوب.

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48))

ماذا تفهم لو أن الله عزّ وجل قال: يُرسل الله الرياح، لو أن لفظ الجلالة جاء بعد الفِعل، يرسل الله الرياح ؟ وماذا تفهم كما قال الله عزّ وجل: (الله الذي يرسل الرياح)، لا شك أن الصيغة القرآنية تفيد القَصر، الله وحده.

الله عزّ وجل واجب الوجود وما سوى الله ممكن الوجود وهناك مستحيل الوجود:

هل عرفت أيها الإنسان من هو الذي يحرك الرياح ؟ هل عرفت أيها الإنسان من هو الذي يسوق السحاب ؟ هل عرفت أيها الإنسان من الذي ينزل المطر فتحيا به الأرض بعد موتها ؟ فهذا كله مستفادٌ من قوله تعالى: (الله)، والله كما تعلمون صاحب الأسماء الحسنى، علمٌ على الذّات، علمٌ على الذات الكاملة، الواجب الوجود، الله عزّ وجل واجب الوجود وما سوى الله ممكن الوجود، وهناك مستحيل الوجود، فما يناقض أسماء الله الحسنى مستحيل الوجود، والله سبحانه وتعالى واجب الوجود، الله علمٌ على الذات، أي اسم الذات.

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (48))

لذلك الإنسان عندما يعزو هذه الأمطار، وتلك الفيضانات، هذه الرياح، وتلك السحب، وهذه النباتات والأرض المُخْضَرَّةَ، إذا عزيت لغير الله عزّ وجل هذا هو الشرك.

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري؟))

[الجامع الصغير: عن أبي الدرداء]

قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ (48))

الحقيقة أيها الأخوة عندما يذكر ربنا عزّ وجل في القرآن الكريم بعض الآيات الكونية لا شك أن هذه موضوعاتٌ نموذجيةٌ للتفكّر، الموضوعات المتعلِّقة بالتفكر لا تعد ولا تحصى، فكل ظاهرةٍ في الكون هي في الأصل موضوعٌ صالحٌ للتفكر، ولكن عندما يختار ربنا عزّ وجل لنا من بين مَلايين ملايين الآيات، يختار موضوعاً، فالأولى أن نُعْنَى بهذا الاختيار وأن نفكر فيه، فربنا عزّ وجل يسلك بنا طرائق شتّى، تارةً يعرفنا بالكون كطريقٍ إليه، وتارةً يعرفنا بالقرآن كطريقٍ إليه، وتارةً يعرفنا بالحوادث

كطريقٍ إليه، وتارةً يُثير فينا التفكير العقلاني ليوصلنا إليه، إذاً الله عزّ وجل يسلك مع الإنسان طرائق شتى، من هذه الطرائق الكون.

تحريك الرياح له فوائد كبيرة جداً:

حينما يختار الله عزّ وجل آيةً من الكون فهذا موضوعٌ نموذجي هو في متناول الناس جميعاً، لعل هناك بعض الموضوعات تحتاج إلى ميكروسكوبات، إلى تلسكوبات، إلى إحصائيّات، إلى ثقافة رفيعة جداً، إلى درجات علمية عالية ليست في متناول جميع الناس، لكن ربنا عزّ وجل حينما يختار هو موضوعاً للتفكر، هذا الموضوع موضوعٌ بين أيدي الناس، كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم، مثقفهم وغير مثقفهم، من كان في المدينة ومن كان في الريف قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ (48))

تحرُّك الرياح له قوانين معقدة جداً، الحرارة، فبالحرارة يتمدد الهواء، فإذا تمدد تخلخل، وإذا تخلخل قل الضغط فيه، يقول لك: الضغط منخفض، أي هناك حرارة، الحرارة مددت الهواء فصار الضغط منخفضاً، وفي الأماكن الباردة الهواء منكمش، كثافته عالية لذلك يكون الضغط مرتفع، فالهواء من طبيعته أنه ينتقل من الضغط المرتفع إلى الضغط المنخفض، الضغط المنخفض مخلخل يجذب الهواء، تختلف درجات الحرارة بين المناطق الدافئة والمناطق الباردة، بين سواحل البحار وبين أعماق الصحراء، هذا الاختلاف في درجات الحرارة يحرّك الرياح، وهذا تبسيط بالغ للحركات، حركات الرياح علم قائم بذاته تدرس في الجامعات لسنواتٍ طويلة، ولكن من باب التبسيط، كيف الإنسان أحياناً يبسط المطر، يقول لك: إبريق ضع فيه ماءً إلى أن يغلي، وائتِ بكأسٍ بارد ضعه على فوهة هذا الإبريق، ترى أن بعض قطرات الماء قد تساقطت، هذا تبسيط بالغ للمطر، ومع ذلك لا بأس به، فالله عزّ وجل قال:

(اللّهُ الّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ (48))

تحريك الرياح له فوائد كبيرة جداً ؛ منها تجديد الأجواء، الأجواء تلوث أحياناً، تأتي الرياح فتجدد هذه الأجواء، والرياح تسوق السُحُب، إذا ساق الله السحب من مكانٍ إلى مكان، لو أن السحب تمركزت فوق البحار ماذا نستفيد منها ؟ فالبحر كله ماء، لكن من رحمة الله عزّ وجل أن هذه السحب يسوقها الله سبحانه وتعالى إلى مناطق عطشى، إلى مناطق جدباء، إلى مناطق محتاجةٍ إلى ماء السماء، إلى رحمة الله عزّ وجل.

الفرق بين رؤية المؤمن ورؤية الكافر للأمطار:

السحب يراها كل الناس، والأمطار يراها كل الناس، ولكن فرقٌ كبير بين رؤية المؤمن ورؤية الكافر، المؤمن يرى أن يد الله عزّ وجل، اليدُ الرحيمة، اليد الحكيمة، اليد الرازقة، هي التي تحرك الرياح وتسوق السحاب، فالمؤمن إذا رأى الأمطار تنهمر، تنهمر مع الأمطار دموعه شكراً لله عزّ وجل، هذه الرؤية هي التوحيد، وغير المؤمن يقول: هناك منخفضٌ متمركزٌ فوق المكان الفلاني باتجاه القطر مثلاً، فدائماً يجب أن لا ننسى، يجب أن ننتقل من النعمة إلى المُنعم، من الكون إلى المكوّن، من النظام إلى المنظِّم، من الأسباب إلى المُسَبِّب، هذا هو الإيمان، قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (48))

شيء آخر، من صمم أن الهواء يتحمّل بخار الماء، الهواء يحمل بخار الماء، يقول لك مثلاً: دمشق مستوى الرطوبة 35، لو ذهبت إلى الغوطة مستوى الرطوبة 70، على سواحل البحار مستوى الرطوبة 90، عندنا مقياس حرارة ومقياس رطوبة، معنى الرطوبة أي تحمُّل الهواء لبخار الماء، الشيء اللطيف أو الدقيق هو: أن الهواء يحمل بخار الماء بنسبٍ تتوازن مع حرارته، فمتر مكعب من الهواء في الدرجة ثلاثين يحمل خمسة غرامات بخار ماء، لو صارت الدرجة عشرين يتخلى عن غرامين، كل حرارة لها كمية ماء يحملها الهواء، في الجو الحار الهواء يحمل كميات من بخار الماء كبيرة جداً، فإذا ساق الله هذه السحب إلى مناطق باردة، أولا الهواء الشفّاف يحمل بخار الماء، هناك درجة بين الهواء الشفاف وبين الأمطار هي السحب، السحب ذرات من بخار الماء مُنْعَقِدَة في الهواء، فإذا واجهت هذه السحب مناطق باردة تخلت عن كميتها الزائدة، طبعاً هذا أيضاً تبسيط للأمطار.

السحاب علم قائم بذاته وهو من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (48))

السحاب علمٌ قائمٌ بذاته، يوجد سحاب رُكامي، يوجد سحاب خُلَبي، يوجد سحاب مُتَقَطِّع، يوجد سحاب مُتَّصل، هذه أيضاً أشكال وأنواع وخصائص وحركات واتجاهات.

(اللّهُ الّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ (48))

هناك مناظر طبيعية للسحب شيءٌ يأخذ بالألباب، ألوان متدرجة، سماكات متدرجة، على كلٍ من يرى السحب وهو في الطائرة المنظر لا يصدق، كأنها جبال، جبال ووديان، قمم مؤنّفة وقمم منكسرة، انحدارات حادة وانحدارات بسيطة، تلال وأكَمَات، وكأن الثلج قد غَطّاها، هذا منظر السحاب من فوق

السحاب، نحن نرى السحاب من تحت السحاب، نراه سقفاً، ولكن إذا رأى الإنسان السحاب وهو فوق السحاب ـ في الطائرة ـ يراه كما وصفه الله عزّ وجل كأنه جبال، فكلمة من جبالٍ لا يتذوقها إلا من رأى السحاب من فوق السحاب، فهذا السحاب قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفn يَشَاءُ (48))

أشكال، وأنواع، وكُتَل، ومن منا يصدق أن السحابة الواحدة أحياناً سماكتها تبلغ سبعة كيلو متر، السحابة الواحدة فيها آلاف الأطنان من الماء.

لابدّ من ذراتٍ تنعقد عليها حبات المطر وهذا هو الودق:

ربنا عزّ وجل قال:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

(سورة النمل: من آية " 88 ")

لها سرعة، وبلا صوت، وفيها الخيرات، إذاً:

(فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا (48))

معنى كسفاً أي قِطَعاً.

(فَتَرَى الْوَدْقَ (48))

لا بد من ذرات تنعقد عليها حبّات المطر، لا بد من ذرّاتٍ وهي إما الغبار، أو بعض المواد، أو بعض الغازات، لا بد من ذراتٍ تنعقد عليها حبات المطر وهذا هو الودق.

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ (48))

الإنسان حتى لو لم يكن مزارعاً ارتباطه بالأمطار ارتباط مصيري:

طبعاً حبات المطر لطيفة، ويتجلّى فيها اسم اللطيف، لو أن حبات المطر أكبر من ذلك لكانت مؤذية، وكلكم يسمع أو يقرأ عن حب العزيز إذا كان بحجمٍ كبير فإنه يؤذي النبات كله، ويؤذي الإنسان والحيوان وحتى الجماد.

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(48))

تجد المزارع، والآن أصبح غير المزارع، والمدني، تعلّق الناس بالأمطار تعلّق عام، لو أنك ساكن في بيت وفي أعماق المدينة فأنت مرتبط بالأمطار، لأن أسعار الخضراوات والفواكه لها علاقة بالأمطار، لأن انقطاع المياه عن بيتك له علاقة بالأمطار، عندما بعث الله هذه الموجة من السحب الكثيفة والأمطار

الغزيرة توقف انقطاع المياه في البيوت، يوجد علاقة، فالإنسان حتى لو لم يكن مزارعاً ارتباطه بالأمطار ارتباط مصيري، مرة سمعت صاحب معمل أقمشة يقول لصديقه: هذه السنة بعنا كميات كبيرة من الأقمشة للجزيرة، قال له: ما السبب ؟ قال له: الموسم كان طيباً، انتبهت أنا أن معمل الأقمشة يبيع كميات كبيرة جداً إلى مناطق الجزيرة، قال له: ما السبب، قال له: الأمطار كانت غزيرة، فهذا الرزق من السماء يحرك كل شيء، إذا الأمطار غزيرة، المزارع زرع وحصد، فيشتري، معناها تحركت البلد كلها.

الله عز وجل حرك الأمطار ليكون الناس على اتصالٍ بربهم:

قال تعالى:

(فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (48))

في موضوع المطر ربنا عزّ وجل ثبّت أشياء وحَرّك أشياء، ثبت حركة الأفلاك مثلاً شروق الشمس ثابت، لا يوجد عندنا دعاء للشروق: يا رب الشمس لم تشرق اليوم، يا رب نرجوك أن تساعدنا، الشمس تشرق بشكل ثابت ورتيب، هكذا حكمة الله، ثبّت الشمس والقمر والنجوم والمجرات، حركة الأفلاك ثبّتَهَا، أما الأمطار حَرّكَهَا، حركها ليكون الناس على اتصالٍ بربهم:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

(سورة نوح)

تلقي نظرة على بعض البساتين في شهر كانون الأول، ولك أن تُلقي هذه النظرة الأخرى على بعض البساتين في هذه الأيام، يا ترى الأرض كلها قد أنبتت ؟ من كل زوجٍ بهيج، اللون الأخطر نضر، الأزهار فوّاحة، الأرض ارتوت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج.

(فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48))

المؤمن لعمق إيمانه يفرح بماء السماء، ولكن يفرح إذا اهتدى إلى صاحب النعمة وهو الله سبحانه وتعالى، فدائماً الإنسان إذا فرح بالدنيا فقط، واكتفى بالدنيا، هناك مشكلة، المشكلة أن الدنيا تنتهي، ففي بعض البلاد الأجنبية الأمطار فيها ألف ميليمتر في السنة، والبلاد كلها خضراء، والغابات كثيفة جداً، والأنهار غزيرة، والينابيع فوّارة، يا ترى لو أن الدنيا جاءت كما نريد ولم نكن في المستوى الذي يريده الله عزّ وجل، هل هذه نعمة ؟ المؤمن الحقيقي يفرح بطاعته لله عزّ وجل، وبعمله الصالح لأن هذا الذي يسعد في الأبد.

المؤمن يعلم أن تقنين الله عزّ وجل لم يكن عن عجزٍ بل كان عن تأديبٍ:

قال تعالى:

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49))

معنى مبلسين أي يائسين، الإنسان لجوج، إذا انحبست أمطار السماء، تجد الناس يقولون: انتهى الأمر، الأنهار جَفّت، دخلنا في التصحُّر، الجفاف عَم، المواسم انتهت، الأشجار سنقطعها، تجد يأسه سريعاً، ودائماً ربنا عزّ وجل يُخَيِّبُ آمال أو توقُّعات المتشائمين، هناك أماكن في الغوطة مجاري المياه زرعوها، ظنوا أن القضية انتهت، الأنهار جَفّت، ولن تجري بعد اليوم، فلما جاء تفجُّر نبع الفيجة قبل أشهر، وصلت مياه بردى إلى العُتَيْبَة، وعاد إلى ما كان عليه قبل سنواتٍ طويلة، زرعوا أرضه في بعض الأماكن، إذاً:

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49))

أي يائسين، الإنسان سريع اليأس سريع التفاؤل، المؤمن لا يقنط من رحمة الله، أدق فكرة في هذا الموضوع: أن المؤمن يعتقد أن تقنين الله عزّ وجل لم يكن عن عجزٍ ؛ بل كان عن تأديبٍ، لأنه كُن فيكون.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: من آية " 21 ")

سمعت أن قرية في إيطاليا هطل فيها أمطار في الليلة الواحدة مئتين وخمسين ميليمتر، أي أن أمطار السنة كلها نزلت في ليلة واحدة، ونحن هنا في دمشق في بعض أوقات المطر في ليلة واحدة، في أربع ساعات هطل ستة وستين ميليمتر، في أربع ساعات هطل من السماء ما يوازي أمطار العام الماضي بأكمله، أي أن الأمطار التي هطلت في العام الماضي كله في دمشق نزلت في أربع ساعات، وانتهى الأمر، فلذلك الأمر بيد الله.

المطر رحمة وانحباس المطر نِقْمَة:

لا تنسوا هاتين الآيتين:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من آية " 96 ")

قال تعالى:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

الآن الأمر الإلهي:

(فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللّهِ (50))

المطر رحمة، وانحباس المطر نِقْمَة، وآثار رحمة الله المراعي، أحياناً تمطر السماء على البادية بأرقام قد لا تصدقونها، أرقام فلكية، فنوفر استيراد علف بمئات أو بألوف الملايين، كمية أمطار تهطل على البادية فتنبت العشب، نوفر من خلال هذه الأمطار ألوف الملايين علف مستورد.

(فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (50))

أرض ميتة، أشجار يابسة، غُبار، الجو كله غبار، تأتي الأمطار فتنقي الأجواء، تُنبت الكلأ، تَدِبُّ الحياة في هذه الأشجار، تزهر، تورق، تثمر، الإنسان يأكل، والحيوان يأكل، والكل يشكر.

الماء تحيي الأرض والاتصال بالله عزّ وجل يحيي النفوس البعيدة عن الله:

قال تعالى:

(فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(50))

أتمنى على الأخوة الأكارم أن لا يبتعدوا عن المغزى البعيد لهذه الآيات، أيضاً الإنسان يكون مَيّتَ القلب، قلبه ميت، نفسه مريضة، مُتشائم، يائس، لا يفعل خيراً إطلاقاً، يتمنى أن يأكل وحده، وأن يعيش وحده، وأن يموت الناس جميعاً، فإذا دخل الإيمان في قلبه صار إنساناً آخر، صار غَيْرِيًّا، صار يحب الآخرين، يحب خلق الله كلهم، صار لقلبه حياة، كما أن الماء تحيي الأرض، كذلك الاتصال بالله عزّ وجل يحي النفوس التي ماتت بالبعد عن الله عزّ وجل قال:

(إِنّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50))

لكن الرياح التي تبشّر بالأمطار قد تكون رياحاً عاتية تدمر الحرث والنسل، والأمطار التي ترونها تحيي الأرض بعد موتها قد تكون أمطاراً تسبب فيضانات تدمر قرى بأكملها، فكل شيء بحده المعتدل نعمة، وبحده المفرط نقمة، فالنبي الكريم كان يستعيذ بالله من الريح:

((اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً))

[الطبراني والبيهقي عن ابن عباس]

الريح مدمرة تدمر كل شيء.

(فَأَمّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطّاغِيَةِ(5)وَأَمّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(6)سَخّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(7)فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ(8))

(سورة الحاقة)

الكفر هو التكذيب والإعراض وإيقاع الأذى بالآخرين:

الآن هذه الرياح لو جاءت باردة دون الصفر هذا هو الصقيع، بساتين، مزروعات، مشاريع، أشجار مثمرة، خضراوات، فواكه، كلها تسود وتموت، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا (51))

رأوا النبات قد مات، اصفر.

(لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51))

انظر إلى إنسان ضعيف المعرفة بالله عزّ وجل، سريعاً ما يستخفُّه الفوز، وسريعاً ما يستفزه المصاب، فهناك أشخاص يكفرون بالله لمصيبةٍ ألمّت بهم، معنى ذلك أن إيمانه صفر، علامة المؤمن الصبر، مهما أصابه يقول: يا رب لك الحمد، أما هذا الذي يخرج عن طوره، ويتكلّم بكلماتٍ لا تليق بحضرة الله عزّ وجل بسبب أن مصيبة أصابته، لهو إنسانٌ لا يعرف الله عزّ وجل، قال:

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51))

معنى الكفر هو التكذيب، ومعنى الكفر هو الإعراض، ومعنى الكفر هو إيقاع الأذى بالآخرين، فالإنسان حينما يرى أن الله عزّ وجل ما أكرمه، أو أنزل به مصيبةً يكفر، يكذِّب رحمته، يكذب حكمته، يكذب عدالته، ويعرض عنه، وقد يدع الصلاة.

الكافر مَيّتٌ ماتت نفسه فهي لا تعي على خير:

قال تعالى:

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى (52))

هذه إشارةٌ دقيقةٌ جداً إلى أن الكافر مَيّتٌ، ماتت نفسه، فهي لا تعي على خير، قال عليه الصلاة والسلام:

((من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه ـ أي يختم على قلبه ـ))

[الترمذي عن أبي الجعد]

صار إنساناً كتلة من اللحم والدم تبحث عن شهواتها، هكذا المُنقطع عن الله عزّ وجل مخلوق يبحث عن ملذّاته، عن شهواته، من دون انضباط أو منهج، من دون قيَم:

(فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى (52))

هذا ميت، المقطوع عن الله ميت، غير المؤمن بالله ميت، الذي يؤذي الناس ميت، الذي يحب ذاته ميت.

(فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ (52))

طبعاً الصُمّ الذي لا يسمع، فإذا دعوت إنساناً أصماً كيف يسمع ؟ لا يسمع، لكن الإنسان من عادته أنه يتوصل إلى نقل المعلومات للأصم بالإشارات، أليس كذلك ؟ لو أنك جلست مع أشخاص مصابين بالصمم لرأيت العجب العجاب، هناك إشارات كثيرة جداً يعبر بمقتضاها عن أفكاره وعن عواطفه، لكن لو أن الأصم أدار لك ظهره كيف تُسمِعُه ؟ أي أن وسائل الإعلام الصوتية والحركية قد انقطعت.

دائماً وأبداً يجب أن نعرف الآمر قبل الأمر:

قال تعالى:

(فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52))

لو كان هذا الأصم مُقْبلاً وكان أصماً، يمكن أن تؤشِّر له، تعطيه بعض الإشارات يفهم عليك مُرادك، لكن إذا أدار ظهره لك، إذاً انقطعت عنه كل صلةٍ صوتيةٍ أو حركيةٍ.

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53))

هذه الآية دقيقة جداً، إذا الإنسان فكر بالكون أولاً عرف الله عزّ وجل، وإذا قرأ أمر الله عزّ وجل، أو تعرّف إلى كتابه، أو فهم كلامه فهماً دقيقاً جداً عرف الله عز وجل، فدائماً وأبداً يجب أن نعرف الآمر قبل الأمر، لأنك إذا عرفت الآمر قبل الأمر كان الأمر عظيماً عندك، أما إذا قرأت الأمر ولم تعرف الآمر، كان الأمر تَرْكُهُ لا يكلفك شيئاً.

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ (53))

كيف ربنا عزّ وجل أحياناً يقول لك:

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(6))

(سورة سبأ)

الله عزّ وجل ينفي عن النبي الهدى مرة ويثبت له الهدى مرة أخرى:

قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(52))

(سورة الشورى)

يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

مرة الله عزّ وجل ينفي عنه الهدى ؛ ومرة يثبت له الهدى، إذا نفى عنه الهدى بمعنى: أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيع أن يصل إلى قلب الإنسان فيلزمه وهو مختار، وهو حر في اختياره، أما إذا أثبتنا للنبي عليه الصلاة والسلام الهدى، بمعنى أنه ينطق بالحق، إذا كان الهدى هو أن ينطق بالحق فهو:

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(6))

(سورة سبأ)

أما إذا كان الهدى أن يصل هذا الكلام إلى القلب فإنه ليس في إمكانه أن يهدي الناس:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

يكاد يكون المعنى نفسه:

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53))

المتقي آمن بالله أولاً وأراد أن يطيعه ثانياً فجاء الكتاب هادياً له ثالثاً:

قال أصحاب النبي عليهم رضوان الله: **" أوتينا الإيمان قبل القرآن "**، آمنا بالله عزّ وجل، بعد أن آمنا به آمنا بكلامه، فلما ربنا عزّ وجل قال:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2))

(سورة البقرة)

من هو المتقي ؟ أن تتقي شيئاً موجوداً، آمنت بوجود الله عزّ جل واتقيت أن تعصيه، هذا المتقي، فمتى آمنت بالله عزّ وجل ؟ إذا فكرت في ملكوت السماوات والأرض لأن الكتاب هدىً للمتقين، أي أن المتقي آمن بالله أولاً، وأراد أن يطيعه ثانياً، فجاء الكتاب هادياً له ثالثاً، آمن، وأراد، وجاء الكتاب هادياً له.

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ(53))

ومعنى (تسمع) هنا بمعنى أن يبلغ الكلام مكانه الطبيعي، لأن:

(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ(21))

(سورة الأنفال)

السماع الذي أراده الله عزّ وجل هو الذي يحملك على التطبيق، هو الذي ينقلك من طور السماع إلى طور التطبيق.

لفتة من الله عزّ وجل إلى آياتٍ في خلق الإنسان:

الآن عودةٌ إلى، طبعاً الله عزّ وجل قال:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت: من آية " 53 ")

الآن لفتة من الله عزّ وجل إلى آياتٍ في خلق الإنسان، قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ (54))

لمَ لمْ يقل الله عزّ وجل: الله الذي خلقكم ضعافاً، ضعافاً حال، خلقكم ضعافاً، لكن:

(خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ (54))

أي أنك مركّب من ضعف، لست مخلوقاً قوياً وجاءك الضعف طارئاً، لا، فأنت مجبول من مادةٍ اسمها الضعف، أي ثلاثمئة مليون حوين، حوين من هذه الثلاثمئة مليون يدخل إلى البويضة التي لا تُرى بالعين، ثلاثمئة مليون حوين لا يشكلون سنتيمتر مكعب، ثلاثمئة مليون، من حوين واحد، هذا الحوين له رأس، وله عنق، وله ذيل، وله مقدمة فيها مادة نبيلة، هذا الحوين يدخل للبويضة، إذا دخل البويضة، يوجد ممر بين المبيض وبين الرحم، تتلقح البويضة وتنقسم إلى عشرة آلاف قسم من دون أن يزداد حجمها، فلو أن حجمها ازداد لتوقّفت في هذا الأنبوب، وليس في إمكانها أن تسير.

خُلِقَ الإنسان من مادةٍ هي الضعف فالضعف موجود فيه:

إذاً أنت مخلوق من ضعف، من حوين، وبويضة منقسمة، وحجمها لم يزدد، وصلت هذه البويضة الملقحة المنقسمة إلى الرحم، إما أن تعلق وإما أن لا تعلق، فأنت ضعيف، فإن لم تعلق، سقطت، وهناك عُقم سببه أن الرحم لا تحمل هذه البويضة، فأنت من ضعف مخلوق، أي بويضة ملقّحة، صار لها استطالة، شبه رأس، دماغ، أحشاء، أطراف، حواس، ظلت هذه البويضة تنمو ؛ من نطفةٍ، إلى علقةٍ، إلى مضغةٍ مخلقةٍ، وغير مخلقةٍ، إلى أن أصبح الجنين، ويحتاج إلى الدم من أمه، مجهز برئتين لا تعملان، ليس في الرحم هواء، مجهز بقلب يتحرك في وقت معين، مجهز بحواس إلى آخره.

خرج صغيراً، ليس في هذا الطفل الصغير إلا منعكس المص، كتلة من اللحم والدم، طبعاً عضلات، وعظام، وأوعية، وشرايين، وأعصاب، ودماغ، وأعضاء، وحواس، لكن لا يتكلم، ولا يرى، ولا يسمع، أبداً، إلا أن منعكس المص هو الذي زوّده الله به، معنى منعكس أي رد فعل غير إرادي، مثلاً إذا لامست يد الإنسان جمرة يسحبها سريعاً، هذا منعكس، كذلك منعكس المَص، حينما يولد الطفل يضع فمه على ثَدي أمه، يحكم إغلاق شفتيه على حُلمَة الثدي ويسحب الحليب، لولا الحليب لمات جوعاً،

جعل الله له سلاحاً وحيداً وهو البكاء، إذا لم يبك يموت الطفل، يجوع فيموت ؛ لكن يجوع فيبكي فيطعمونه، فكل حاجاته يُعَبِّر عنها عن طريق البكاء، ضعيف، يحتاج إلى أم رؤوم، تطعمه، وتنظفه، وتسقيه، وتدفئه، الإنسان ضعيف، يبقى محتاجاً إلى والديه إلى أمدٍ طويل.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ (54))

أروع ما في الآية (من ضعفٍ)، أي خلقت من مادةٍ هي الضعف، أي أن الضعف من جِبِلَّتِكَ، الضعف موجود فيك.

آيات من القرآن الكريم على ضعف الإنسان:

قال تعالى:

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً (54))

فالحقيقة الضعف:

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19))

(سورة المعارج)

قال:

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا(28))

(سورة النساء)

حتى لو كبر، نقطة دم في دماغه تجعله مشلولاً، في مكان تجعله أعمى، في مكان تجعله أصماً، في مكان تفقده ذاكرته، أي أن الإنسان ضعيف، شيء آخر ضعيف ولو كان قوياً، يحتاج إلى كأس ماء. يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس إذا منع عنك ؟ قال له: بنصف ملكي، قال له: فإذا منع إخراجه؟ قال له: بنصف ملكي الآخر.

الإنسان ضعيف الحوافز والدوافع التي أودعها الله فيه:

أنت مفتقر لكأس ماء، مفتقر لطعام تأكله، مفتقر إلى امرأةٍ تقيم معها، حاجة الله عزّ وجل أودعها بالإنسان، فأنت ضعيف، ضعيف في حاجاتك، ضعيف في ميولك، ضعيف الحوافز والدوافع التي أودعها الله فيك، قال:

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً (54))

الإنسان يتوهَّم أنه قوي، صار شاباً، فعلاً عضلاته مفتولة، عنده قوة عضلية جيدة، وعنده حركة نشيطة جداً، هذا سن الشباب، اندفاع شديد، عضلات متينة مفتولة، عظام متينة، أعصاب متينة، طُموحات، ثوران، اندفاع.

(ثُمّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوّةٍ ضَعْفًا (54))

انظر إلى إنسان متقدم بالسن وهو يصعد سلماً، يصعده دَرجة درجة، وبعد خمس درجات يرتاح خمس دقائق وعندما كان شاباً كان يصعد كل أربع درجات معاً، كان يمشي ركضاً، الآن يمشي هواماً، صار كلما تقدمت به السن ولا سيما إن لم يكن مؤمناً في شبابه، تضعف ملكاته، تضعف ذاكرته، ينسى، يعيد القصة مئة مرة، يصبح له صفات الطفولة أحياناً.

(ثُمّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً (54))

مكافأة الله للمؤمن أن يمتعه بعقله وسمعه وبصره وقوته إلى آخر حياته:

الحقيقة المؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((من جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

[الجامع الصغير عن أنس]

من مكافأة الله للمؤمن أن يمتعه بعقله وسمعه وبصره وقوته إلى آخر حياته، هذه من مكافأة الله للمؤمن، لكن سُنَّة الله في الخلق أن الإنسان بعد سن معينة يتراجع، قال لي أخ متقدم بالسن: أنا سبحان الله كنت قبل خمسين سنة أنشط من الآن، قلت له: طبعاً.

(ثُمّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوّةً ثُمّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ (54))

أي إنسان قوي أو ضعيف، عاجز أو منطلق، مُتَّقِد الذهن أو كثير النسيان، مشلول أو نشيط، هو من خلق الله.

(يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54))

لكن بشارة لكل مؤمن، إن حفظت الله يحفظك، والكلمة الشهيرة: **" يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً "**، فالمؤمن كريم على الله عزّ وجل، له على الله كرامة، ومن كرامته عليه أن يحفظه، والحديث الشريف القدسي أن:

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك فاستح مني فأنا أستحي منك))

[ورد في الأثر]

من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة:

الإنسان إذا دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، بعد الأربعين سن التُقى، الورع، العمل الصالح، تلاوة القرآن، الإعداد للدار الآخرة، هكذا، كما قال الله عزّ وجل في الحديث القدسي:

((أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد))

إنسان في الخامسة والخمسين جالس بالقهوة، يلعب النرد، بلا صلاة، مشكلة، منظر قبيح جداً، إنسان في سن متقدمة يمضي وقته في سخافات الحياة، في القيل والقال، في لعب النرد، في الغيبة، في النميمة، هذا شيء، وإن كانت المعصية معصية، في أي سن، لكن تبدو المعصية أقبح وأقذر في سن متقدمة، فمن دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، والإمام القرطبي يفسر:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: من آية " 37 ")

النذير هو سن الأربعين، والنذير هو الشيب، والنذير هي المصائب، والنذير هو القرآن، والنذير هو النبي العدنان، والنذير هو موت الأقارب، هذا كله نذير.

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا (55))

والله الحياة حلم، قال: الدنيا ساعة اجعلها طاعة، كل واحد منا يسأل نفسه هذا السؤال: أنا كم عمري ؟ ثلاثين، كيف مضت ؟ يقول لك: كلمح البصر، البارحة طفل، البارحة كان بالمدرسة، الآن أصبح مهندساً، وبعد عدد من السنين يتقاعد، بعد فترة يأتي مَلَكُ الموت، مراحل ؛ كنا صغاراً، أصبحنا شباباً، أصبحنا كهولاً، أصبحنا شيوخاً، أصبحنا على حافة القبر، لو سألت شخصاً عاش تسعين عاماً يقول لك: والله مضت كأنها ساعة، جاء رمضان وانتهى رمضان، وأقبل الصيف، وبعد حين ينتهي الصيف ويأتي الشتاء، كنا في الستينات، بالسبعينات، بالثمانينات، الآن التسعينات، وهكذا، إلى أن يأتي ملك الموت، يختم العمل، إما إلى جنةٍ يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفد عذابها.

ساعة اللذة دقيقة ودقيقة الألم ساعة:

الوقت يمضي سريعاً، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، ما مضى فات والمؤمّلُ غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، بين يومٍ مفقود، يومٍ مشهود، يومٍ موعود، يومٍ مورود، ويومٍ ممدود.

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ (55))

لكن دقيقة الألم ساعة، وساعة اللّذة دقيقة، إذا الإنسان كان بنزهة يقول لك: الوقت مضى سريعاً، كما قال الشاعر:

إن يطل بعدك ليلي فلكم بتُّ أشكو قصر الليل معك

***

ساعة اللذة دقيقة، ودقيقة الألم ساعة، الله عزّ وجل قال:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(46))

(سورة غافر)

فرعون مضى على موته ستة آلاف سنة تقريباً، أو سبعة آلاف سنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، ضرب اثنين، (غدواً وعشياً)، وأصحاب النبي عليهم رضوان الله أيضاً في جناتٍ، القبر روضة من رياض الجنة، فالإنسان إذا كان عمله طيب الوقت يمضي سريعاً وبراحة، وإن كان عمله سيئاً يمضي الوقت بثقلٍ شديد.

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55))

أي كانوا ينصرفون إلى شهواتهم وإلى ملاذهم.

الله عزّ وجل جعل الكون دالاً عليه فمن مات كافراً وخُتِمَ عمله ليس له عذر:

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(56))

أي أن المدة المقررة قد أمضيتموها، وعشتم العمر الذي رسمه الله لكم، وقد حذركم ربُّكم وأنذركم ولم يدع طريقةً من طرائق هدايتكم إلا سلكها، ومع ذلك أصررتم على عنادكم وكفركم.

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57))

أحياناً المُقَصِر يعتذر، يقبل عذره، يقدِّم أسباباً موجبة لتقصيره يقبل منه ذلك، لكن الإنسان إذا مات كافراً وخُتِمَ عمله ليس له عذر لأن الله عزّ وجل جعل الكون دالاً عليه، أعطاه العقل، أعطاه الفطرة، الحوادث تؤكِّد ما في القرآن، القرآن وضّح كل شيء، الأنبياء بيّنوا، والعلماء وضّحوا، فالحوادث، والفطرة، والعقل، والكون، والقرآن والتشريع، والعلماء، والدعاة، والأحوال، والمنامات، كلها في خدمة الإنسان، ومع ذلك لم يهتدِ إلى الله عزّ وجل.

(من كل مثل) لها معنيان ؛ إما كنماذج بشرية أو كأساليب تربوية:

قال تعالى:

(لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللّهِ (56))

أي في الأجل الذي كُتِبَ لكم، في العمر الذي رسمه الله لكم، أي جاءتكم الليالي والأيام، والسنون، والفصول، والأشهر، والأسابيع، والحر، والقر، والربيع، والخريف، والغنى، والفقر، والمرض، والصحة، لقد تقلبتم على كل أحوال الدنيا قال تعالى:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ(58))

هنا الآية لها معنيان: إما أن الله عزّ وجل صوّر الكافر، والمنافق، والفاجر، والمؤمن، والمتقي، والمسلم، والناجي، والهالك، أو أنه سلك سبيل التحذير، والإنذار، والوعد، والوعيد، والتصوير، والتبشير، والتخويف، فإما أن يكون (من كل مثل) إما كنماذج بشرية، أو كأساليب تربوية، كلاهما صحيح.

من لا يوقن بالآخرة لا تحزن عليه:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ (58))

لو أنهم طلبوا آيةً معينة وجئتهم بها:

(لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58))

حتى لو جاءت الآيات المعجزة حسيّةً لكفروا بها، قال تعالى:

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59))

معنى لا يعلم أي لا يطلب العِلم، إذا الإنسان لم يطلب العلم فهو في حكم من لا يعلم، فإن رفض العِلم يطبع على قلبه، قلبه لا يعي إلا الدنيا.

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ (60))

أي أن كل وعدٍ وعد الله به لابدّ أن يأتي.

(وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60))

هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة لا ينبغي أن يدخلوا على قلبك الحزن والهم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (01-13): تفسير الآيات 1 - 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-05-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة لُقمان:

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3))

الكون طريق لمعرفة الله، والقرآن سبيل لعبادته:

أيها الإخوة، أولاً: كما تعلمون أن الكون كلّه في كفّة، وأن كتاب الله في كفّة، والدليل أن الله عزّ وجل يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة فاطر: من الآية 1)

وفي آيةٍ ثانية يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)

(سورة الكهف1)

الكون طريقٌ لمعرفة الله، والكتاب طريقٌ لعبادته، هذا الإله الذي خلق الكون له أمرٌ، ونهيٌ، وتوضيحٌ، وتعريفٌ، وتبيينٌ، وتفصيلٌ كلّه في القرآن، لذلك ليس في حياة الإنسان كلها شيءٌ أهم ولا أعظم من أن يفهم كلام الله، لأنه خطاب الله لهذا الإنسان، فالله هو الذي خلق المجرّات، خلق السماوات، خلق الأرض، خلق الموت والحياة، خلق الحيوان والنبات، خلق الشفاء والأمراض، الذي خلق كل شيء، والذي بيده كل شيء، والذي إليه مصير كل شيء هذا كلامه ؛ فيه توضيح وتعريف، وتبيين وتنبيه، وتحذير وتبشير، ووَعد ووعيد، وتطمين وتخويف.

ليس شيء يعلو على كتاب الله:

إذاً: ليس في حياة الإنسان كلها كتابٌ يعلو على هذا الكتاب، أو ليس في حياة الإنسان كلِّها اهتمامٌ يجب أن يزيد على اهتمامه بهذا الكتاب، لأن الإنسان كائن من أعلى الكائنات، مخلوق أول، الله عزّ وجل أودع فيه من عجائب الكون..

أتحسبُ أنّكَ جُرْمٌ صغير وفيك انطوى العَالَم الأكبرُ

***

العقل:

الحديث عن عقل الإنسان لا ينتهي في سنوات، فالعقل البشري أعظم ما في الكون، بل إن العقل البشري على عظمته عاجزٌ عن فهم ذاته، فالجانب العقلي في الإنسان، هل تغيَّر وضعُ الحيوانات كلها منذ أن خُلِقَت وحتَّى الآن ؟ هيَ هي.

1 – مجال العقل الاجتهادُ الدنيوي:

أما الإنسان فحينما استخدم العقل لا في معرفة الله ؛ ولكن في حياته الدنيا، في تطوير حياته، أين سَكَن ؟ وماذا ركب ؟ وكيف اتصل ؟ وكيف صعد إلى أعلى السماوات ؟ كيف وطأت قدمه على القمر ؟ وكيف غاص في أعماق البحار ؟ وكيف نقل الصورة ونقل الصوت ؟ وكيف اخترع هذه الأجهزة.

2 – مساهمة العقل في الإنجازات الحضارية:

فمن ركب طائرةً مثلاً ثلاثمائة راكبٍ يركبون، يأكلون ويشربون وهم في أطباق السماء، هذا أحد إنجازات العقل الذي أودعه الله فينا، فالإنسان عنده عقل، فهو طاقة خطيرة جداً إن وجِّهَت فعلت المعجزات، وإن وجِّهَت نحو الشر فعلت الكوارث، والحديث عن الأسلحة الحديثة، والكيماويَّة، والقنبلة العنقودية، والقنبلة الذكيَّة، وأشعَّة الليزر، ليست عنا ببعيد، هذا كله من إنجاز العقل حينما أراد أن يدمِّر أخاه الإنسان، فأعظم ما في الكون هو هذا العقل الذي أودعه الله في الإنسان، إما أن يرفعه إلى أعلى عليين ؛ وإما أن يهبط به إلى أسفل سافلين.

الحديث عن العقل بمعنى الفكر، عن إمكاناته، عن طاقاته، فمكان الذاكرة لا يزيد على حبَّة العدس، هذا المكان يختزن أكثر من سبعين مليار صورة في عمر يزيد على ستين عاما، وتستدعيها متى تشاء، فهي مُبرمجة، مؤرشفة ـ باللغة الحديثة ـ يمكن أن تختزن هذه الصورة في مكان بعيد لا تحتاجها، أو في مكان قريب، تقول: هذا الوجه ألمحه، وهذا الصوت أعرفه، وهذه الرائحة شممتها، وهذه الأكلة أكلتها..

أتحسبُ أنّكَ جرْمٌ صغير وفيك انطوى العَالَم الأكبرُ

***

أنت الكائن الأول، أنت المخلوق الأول، المخلوق المكرّم، فالحديث عن عقلك لا ينتهي، وكل ما تراه عينك في هذه الأرض من إنجازات تسمى حضارية، هي ثمرة من ثمار العقل حينما توجّه إلى الدنيا، أما إذا توجّه هذا العقل إلى معرفة الله.

إن عقل الإنسان فيما يبدو أسعد بعض البشريّة، أسعد الأغنياء، أجهز، يقول لك: وأنا في السيارة أبعث رسالة مصوّرة إلى أي مكان في العالم، بواسطة جهاز نقل الصور في السيارة، وأنا أتصل، فهذا العقل البشري أسعد بعض الناس، أو أسعد الأغنياء، ولكن إذا اتجه هذا العقل إلى معرفة الله سَعِدَ صاحبه إلى أبدِ الآبدين.

((إن الله لما خلق العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أشرف منك، فبك آخذ، وبك أعطي))

[ورد في بعض الآثار، راجع كشف الخفاء]

الحديث عن العقل ذو شجون، المعرفة الإنسانيّة، أنواع العلوم التطبيقيّة والمحضة، هذا الذي تراه عينك في كل موضوع آلاف المراجع، آلاف المصادر، علماء، بحوث، تجارب، هذا العقل، هذه الطاقة الهائلة صُرِفَت إلى الدنيا، فكانت هذه ثمراتها، فلو صُرِفَت إلى الآخرة فما تكون ثمارها ؟ سعادة أبدية.

سعادة النفس وشقاؤها سرّ من أسرار الخَلق:

وهذه النفس البشريّة، وما فيها من مشاعر، من أحاسيس، كيف تغضب، كيف ترضى، كيف تسعد، كيف تشقى، كيف تخجل، كيف ينشأ فيها الصراع، عالم قائم بذاته، عِلم النَفْس لازال في البدايات، لازال يحبو، علم النفس، ولقد ألّف رجل كتاباً وسمّاه.. الإنسان ذلك المجهول.. لا تزال هذه النفس ذات طبيعةٍ مجهولة.

امرأةٌ في بلدٍ أوروبي، وهي في المطبخ ترى ابنها قد دُهِس، وهو في باريس، تصف الحادث وصفاً دقيقاً، رأته بعينها، وبعد أيامٍ جاء نعشه إلى البيت مع تقريرٍ تفصيلي بالحادث كما رأته هي، كيف ؟ لا أحد يدري، سَمُّوا هذه الظاهرة التخاطر النفسي، سيدنا عمر وهو على المنبر رأى سارية خلف الجبل في بلاد فارس، فقطع الخطبة وقال: **<< يا ساريةُ الجبلَ الجَبلَ>>**، سيدنا سارية قال: **<< أسمع صوت أمير المؤمنين يحدِّرنا الجبل >>**، فسِّروا ذلك ! لا نعرف، لا يوجد تفسير، الحادثة وقعت، لكن ما تفسيرها ؟ الله أعلم، لا تزال النفس في غموض شديد جداً.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوح !!!

أما الروح فلا نعلم عنها شيئاً، ولكن آثارها واضحةٌ جداً، الإنسان يفكِّر، يحل معادلة، يحل مسألة، يخطِّط، يؤسس بفكره، يهيّئ كلمة، يتذكّر، يتصوّر، يتخيّل، يراجع موضوعاً، يأكل فيه الغدد اللعابيّة، المريء، المعدة، الأمعاء، البنكرياس، الغدد الدرقية، النخاميّة، الكبد، العضلات، القلب، فأعقد آلة في الكون هو الإنسان، لو قُطِعَ عنه إمداد الله عزّ وجل، أو سُحِبَتْ منه الروح، يضع أهله له لوحين من الثلج في نفس اليوم لكي لا تفوح رائحته، الدنيا شديدة الحرارة ستفوح رائحته، لا نستطيع، قبل دقيقتين كان مصدر حيويّة في البيت، كان في البيت يتكلّم، ويمزح، ويضحك، ويعطي أوامر، ويستقبل ضيوفاً، ويصدر توجيهات، والناس بين يديه خاضعون، ما الذي حدث بعد ذلك ؟ صار يحتاج إلى لوحين من الثلج، هذه هي الروح..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوح قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا)

(85 سورة الإسراء)

لا نعلم شيئاً عن الروح، بالروح الكبد يقوم بخمسة آلاف وظيفة، فإذا انسحبت الروح يصير (كيلو سوداء) ثمنه ثمانون، أو تسعون أو مئتا ليرة.

بالروح ترى العين ثمانمئة ألف لون أخضر مع التفريق بين الدرجات، بين درجتين، بدون روح توضع العين، أو عين الدواب توضع في القمامة، فليس لها استعمال إطلاقاً، بالروح هذا الدماغ يخترع يكتشف، يُحَلل، يركِّب، من دون روح يصبح نخاعاً ثمنه كذا، من دون روح.

جسم الإنسان سرّ أيضًا:

جسم الإنسان كما قلت لكم سابقاً: فيه حديد يصنّع مسمار واحد، وفيه كلس يطلي بيت دجاج، وفيه مواد تصنّع لوح صابون، وبالمئة سبعون من وزنه ماء، فالإنسان كمواد لا يزيد ثمنه على خمس وعشرين ليرة.

أمّا أنْ يأتي إنسان كالأنبياء العظام يقلبون وجه التاريخ، يبثون الفضيلة، والهدى في الأرض، فهل هناك إنسان وحده في ربع قرن يفعل كما فعل النبي، حيث عمّ الإسلام في الخافقين، فالإنسان عظيم ؛ أما الإنسان الخاسر فهو الذي لا يعرف قيمة نفسه، هو الذي يعيش على هامش الحياة، هو الذي يأتي ويقول: نعيش لنأكل، هذا مستوى منخفض جداً، هناك مستوى أعلى يقول: نأكل لنعيش، وهذا مستوى فيه جهل، أما المؤمن فيقول: نعيش لنعرف الله، ولنعمل عملاً صالحاً يسعدنا إلى الأبد.

هذا الإنسان روحه سِر، نفسه سرّ، جسمه لا يزال الطب في بحوث جبّارة، ولم يتقدّم إلا إلى القليل، لا زال القلب سراً، الأعصاب سر.

طبيعة الموت سِرّ:

لا تزال طبيعة الموت سرّاً، فما هو الموت ؟ توقُف القلب ؟ لا، الآن يوصلون الأوعية عن طريق قلب صناعي، الدم يجري في الجسم إلى ما شاء الله، والإنسان مَيّت، ليس توقُف القلب هو الموت، يا ترى توقُف نشاط الدماغ ؟ ربّما، فكلمة (ما الموت ؟) إلى الآن غير معروفة.

فما هو المنام ؟ الإنسان ينام في غرفة قميئة مظلمة، يرى نفسه في جنان مع أحبابه، يقوم من الفراش وهو من أسعد الناس، فما الذي حدث ؟ قد ينام رجلان في غرفةٍ واحدة، فيرى إنسان نفسه مع الثعابين، ومع الوحوش، ومع أعدائه، وقد وقع من على سطحٍ، وقد دهسته سيارة، وقد نُقِلَ إلى مكانٍ بعيد، وقد مات ابنه فيبكي في الليل، وإنسان آخر يرى نفسه من أسعد الناس، وهو نائم، فما هو النوم ؟ ما هو الحُلُم ؟ ما تفسير هذه الأحلام ؟

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا)

(سورة الإسراء **(8))**

لا بد للإنسان من كتاب ومنهج:

فإذا تحرّك الإنسان من دون علم سيغلط، وسيتحرّك حركة عشوائيّة، وسيأخذ ما ليس له، وسيطغى، وسيعتدي، إذاً لابدّ من منهج، لابدّ من كتاب، لابدّ من توجيه، لابدّ من افعل ولا تفعل، لابدّ من هذا الشيء حلال وهذا حرام، هذا يجوز وهذا لا يجوز، هذا ينبغي وهذا لا ينبغي، هذا يُرضي الله وهذا لا يرضي الله.

إن الإنسان بلا كتاب لا يساوي شيئا، والدليل أن الله سبحانه وتعالى قال:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن1-4)

عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ

يا رب، أيعقل أن تعلِّم الإنسان القرآن قبل أن تخلقه ؟ لا، يخلقه ويعلِّمه، ولكن قدّم القرآن على خلق الإنسان، لأن حياة الإنسان من دون قرآنٍ لا معنى لها، حياة حيوانيّة، حياة عشوائيّة، تخبُط، تحرُك

أعمى نشاط فارغ، نشاط غير هادف، إذاً لا شيء في الحياة كلها يعلو على فهم كلام الله، فحينما تأتي إلى مجلس علمٍ لتفهم كلام الله إياك أن تتوهَّم أنك استهلكت الوقت، إنَّك تفعل المهمَّة التي من أجلها خُلِقْتَ، إياك أن تتوهَّم أنك حينما تترك العمل فتأتي إلى حضور هذا الدرس، لا، هذا هو العمل الأول، هذا هو العمل الذي لا يعلو عليه عمل، أن تفهم منهجك، كلام الخالق، أي كتابٍ على وجه الأرض فيه الحق وفيه الباطل، فيه الخطأ والصواب، فيه الجيد والسيئ، فيه الصحيح وغير الصحيح، فيه الصالح والطالح، كتاب فيه انسجام وكتاب فيه تناقض، فيه بحث وافٍ وبحث غير وافٍ، فيه معالجة عميقة ومعالجة سطحيَّة، هذا شأن كتب البشر، لكنك إذا أقبلت على كتاب الله لا ريب فيه، لا خلل، لا نقص لا سطحية، لا بساطة، لا تناقض، لا انحراف، لا مبالغة، لا تصغير، لا تهويل..

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة 2)

كيف أن الكون كاملٌ في خلقه، كيف أن الله عزّ وجل يقول:

(صُنْعَ اللّهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ إِنّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

(88 سورة النمل)

إذا رأيت عظمة الخالق في خلقه فهذا كلامه، ففي هذا الكلام من العظمة والدقّة والوضوح والنفع والخير بقدر ما في هذا الكون من إتقان، هذا كلامه، فلذلك الذي دعاني لهذه المقدِّمة أن الله عزّ وجل يقول:

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ

هذا الكتاب حكيم ؛ حكيم في حجمه، لو أن هذا القرآن سبعة آلاف صفحة، لو أن فيه تفصيلات دقيقة جداً لَمَلّت النَفس، لو أن فيه موضوعات مبوّبة، تقول: هذا الموضوع لا تتفاعل نفسي معه، إنه منسّق تنسيقا من عند الخالق ؛ فيه آياتٌ كونيَّة، آياتٌ توجيهيَّة، آياتٌ فيها بُشرى، آياتٌ فيه إنذار، صورٌ من أهل الجنَّة، صور من أهل النار، تشريعٌ حكيم، أخبارٌ صادقة، حديثٌ عن المستقبل، موضوعات يأخذ بعضها برقاب بعض، كلها من أجل أن تتعرَّف النفس إلى ربّها، كل هذه الموضوعات من أجل أن تأخذ بيدك إلى الله.

لذلك لا شيء في حياتك كتأسيس عمل، وتأسيس مشروع، وإقدام على زواج، وتحضير لشهادة عُليا، لا شيء في حياتك يعلو على أن تفهم كتاب الله لأنه منهجك، والإنسان بلا منهج لا معنى له، وليته لا معنى له بدون كتاب، ولكنه سوف يخطئ، وسوف يتجاوز، وسوف يقتحم، وسوف يطغى، وسوف يبغي، أما

إذا عرف حدوده، عرف حدَّه فوقف عنده، عرف التوحيد، عرف معنى لا إله إلا الله، عرف معنى خَلْقِهِ في هذه الدنيا، عرف سرّ وجوده.

فيا أيها الإخوة الأكارم، كلّما تاقت نفسي إلى موضوعٍ آخر غير القرآن الكريم لا أجد موضوعاً أجدى، ولا أنفع، ولا أقوى، ولا أقوم من كلام الله عزّ وجل، كلام خالق الكون، قال:

(تِلْكَ)

القرآن معجزة إلى قيام الساعة:

وهذا من رحمة الله بنا، أن الأنبياء جميعاً أتوا بمعجزاتٍ حسيّة، فالعصا صارت أفعى، هذه من رآها ؟ رآها نفرٌ قليل، وأصبحت خبراً يروى، سيدنا عيسى أحيا الميّت، ولكن من رآه فعل هذا ؟ نفرٌ محدود، ثم أصبح خبراً يصدّق أو لا يُصدّق، بحسب إيمان الإنسان، لكن النبي عليه الصلاة والسلام جاء بمعجزةٍ هي بين أيدينا، منذ أن جاء وإلى قيام الساعة، هذه المعجزة بين أيدينا، اقرأ وتأمّل، اقرأ ودقِّق، اقرأ وتدبّر، هل في الأرض كلها كتابٌ يمضي على نزوله من السماء خمسة عشر قرناً، والعلوم تقدّمت في هذه الحقبة تقدُّماً مذهلاً.

موافقة العقل والفطرة للقرآن:

إن بعض العلماء يقول: **" إن التقدُّم العلمي كله للبشريّة منذ أن وجِدَت وإلى قبل خمسين عاماً في كفّة، ومن خمسين عاما وحتى الآن في كفّة ثانية "**، ومع ذلك لم يظهر لا في علم الفلك، ولا في علم الطب، ولا في علم الجيولوجيا، ولا في علم النبات، ولا في علم الحيوان، حقيقةٌ علميّةٌ قطعيّةٌ تتصادم مع آيةٍ قرآنيّة، هذا لأنه كلام خالق الكون.

دائماً وأبداً أقول لكم: هذا الخالق العظيم، الكون خلقه، والقرآن كلامه، والحوادث أفعاله، والعقل مقياسه أودعه فينا، والفطرة أيضاً خَصِيصَةٌ خصّ الإنسان بها، فيجب أن يلتقي الكون مع القرآن مع العقل مع الفطرة مع الحوادث، هذا الانسجام لابدّ منه، ما يفعله الله موجود في القرآن، وما في القرآن يفعله الله، وما يفعله الله وما في القرآن يقرُّه العقل، وما يقرُّه العقل ترتاح له الفطرة، فالحوادث والخلق والكتاب والعقل والفطرة من أصلٍ واحد، من عند الله..

(الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

معنى: الحكيم:

1 – موضوعات القرآن تامة عددا:

ومعنى حكيم، مثل قريب.. هذه الثريّا، يمكن أن يكون ارتفاعها بعشرات الأماكن، بدءاً من السقف وحتى الأرض، لو كانت على الأرض فهذا المكان ليس حكيماً، لأن الثريا أخذت مساحةً منه، وآذت العيون، لو ارتفعت قليلاً لما أمكن السير تحتها، لو ارتفعت قليلاً لسار من تحتها القصير، ولارتطم بها الطويل، لو كانت في السقف لبَعُدَ نورها، هناك مئة احتمال، وعلى مستوى السنتيمترات ألف احتمال، لكن في هذا المكان تقول: في هذا المكان حكيم، فالممكن متعدِّد، أما هذا المكان فهو الراجّح، ولا راجح بلا مُرَجِّح، معنى هذا أن هناك جهةٌ حكيمةٌ قدّرت هذا، فكما أن خلق الله فيه حكمةٍ بالغة، كذلك كلامه فيه حكمةٍ بالغة، أي أن مجموع الموضوعات التي عالجها القرآن الكريم مجموعٌ تام، يغطي كل شؤون حياة الإنسان.

2– موضوعات القرآن كاملة نوعا:

إن طريقة معالجة أي موضوع طريقةٌ كاملة وافية، لا فيها اختصار مخل، ولا فيها إطناب ممل، كتابٌ حكيم، طريقة عرض القصص فيها حكمة بالغة، طريقة إيراد الأوامر والنواهي فيها حكمة بالغة، طريقة تحريم الخمر بالتدريج فيها حكمة بالغة، سكوته عن أشياء فيه حكمةٍ بالغة، تفصيله في أشياء فيه حكمةٍ باللغة، إيجازه في أشياء فيه حكمةٍ بالغة، تجاوزه عن أشياء فيه حكمةٍ بالغة، لو أن هناك وقتاً طويلاً، لو تناولت القصص القرآنيّة، والآيات الكونيّة، ولكن لماذا اختار ربنا عزّ وجل هذه الآيات الكونيّة من بين آلاف ملايين الآيات ؟ لحكمةٍ بالغة، لماذا عرض علينا هذه القصّة بهذه الطريقة ؟ لحكمةٍ بالغة، لماذا جاءت الأوامر هكذا ؟ لحكمةٍ بالغة..

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

فكِّر، تدبّر، تشعر أن هذا الكلام كلام خالق الكون، وأن هذا الكلام يحتاج منك كل وقتك، وكل جُهدك، وكل طاقتك، وكل قلبك، وكل اهتمامك، قال هذا الكتاب:

(هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ

1 – معنى الهدى:

ما معنى كلمة هدى ؟ أخي هديته إلى البيت، معنى هديته أي هناك إنسان يدل إنسانا، هناك جهتان، كلمة هدى فيها جهتان.

مثلاً إذا قلنا: تجارة، كلمة تجارة كلمة واحدة ؛ ولكن من مقتضياتها بضاعة، وشراء، ومبيع، وربح، حينما تقول: تجارة، أي اشترينا سلعةً، وبعناها بسعرٍ أعلى، وربحنا فارق السعرين، أليس كذلك ؟ الآن إذا قلت: هدىً، كلمة هدى تعني أن جهةً دلّت جهةً، لا يكفي جهتان، جهةٌ دلّت جهةً هذا كلام ناقص، ما إتمامه ؟ على ماذا دلّت ؟ جهة دلّت جهة على شيء، أي أن الدلالة الموصلة إلى المطلوب، فكلمة هدى تعني أن خالق الكون دلّ المخلوق على هدفٍ يُسْعِدُهُ، خالق الكون دلّ مخلوقاته على هدفٍ ثابتٍ يسعدهم في دنياهم وفي أخراهم، هذا هو الهدى.

2 – الخالق هو الذي يدل خلقه على الخير:

ولكن الذي يَدُل، من هي الجهة المؤهّلة أن تدلّ الخلق ؟ فهل يصح لإنسان أن يهدي إنساناً في معزل عن هدى الله عزّ وجل ؟ لا يصح، الإنسان جاهل، وعاجز، وأُفُقُه محدود، وعلمه محدود، له مصالح، فمثلاً لو قلت لإنسان لا دين له: دُلّني على قماشة مناسبة، يدلّك على الكاسدة، لأنه يريد أن يصرّفها، هل يصح لإنسان في معزل عن كتاب الله أن يهدي الناس ؟ فهل هناك هدى أرضي، الجواب: لا، فلا توجد جهة في الأرض بإمكانها أن تهدي لأنها عاجزة، لأنها محدودة، لأن آفاقها محدودة، لأنها ليست خبيرة بطبيعة النفس البشريّة، لأن لها مصالح، لأن لها قضايا، لأنها طرف، إذاً لا يمكن للهدى إلا أن يكون سماوياً.

3 – محدودية المخلوق تدل على محدودية أساليبه وأهدافه:

وحينما كان الهدى أرضياً رأيتم بأعينكم كيف يتصارع الناس، ويتقاتلون، وهذه الأهداف التي بقيت سنوات وسنوات أصبحت أهدافاً غير صحيحة، وتلاشت بعد سبعين عاماً، فإذا اخترع الإنسان لنفسه هدى، إذا اخترع أهدافاً، إذا رسم الإنسان أهدافاً، وسار نحوها فهناك مغالطة كبيرة، قد يكتشف بعد قرون أنه كان واهماً، وأن هذا الكلام مخالفٌ لطبيعة النفس البشريّة، قد يكتشف بعد فوات الأوان، وبعد

أن يدفع الثمن باهظاً، وبعد أن يدفع الغالي والرخيص يكشف أنه كان واهماً، وأنه كان مخطئاً، وأنه كان جاهلاً، وأحداث التاريخ بين أيديكم، هؤلاء الذين ابتعدوا عن الله وقالوا: لا إله، ووضعوا أهدافاً أرضيّة وساروا نحوها، بعد سبعين عاماً رأوا أن هذه الأهداف غير صحيحة، وأنها باطلة، وأنها تشقي، ولا تسعد، أليس كذلك ؟

4 – وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

إذاً: الهدى لا يمكن إلا أن يكون من الله، لماذا ؟ لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر 14)

لو أن عندك آلة غالية الثمن، أو عقلاً إلكترونياً، جهازاً معقداً جداً صنعته أرقى شركة، أيعقل أن تذهب إلى بائع الخضار في حَيّك تقول له: تعالَ أخبرني عن طريقة عمله، أو عن طريقة صيانته، لا، مع احترامنا الشديد لأي إنسان، لكن هذا الإنسان ليس مؤهلاً أن يعرف دقائق هذا الجهاز.

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة الفرقان14)

أنت في شؤونك لا يمكن أن ترجع لإنسان ما، وتقول له: دلني ماذا أفعل ؟ هذا الذي تسأله لا يعرف شيئاً، هذا إنسان مثلك، يجب أن تسأل خالق الكون، يجب أن تسأل الصانع، يجب أن تسأل الخبير، يجب أن تسأل المُصَمِّم، فأحياناً إذا كانت السيارة غالية جداً، يقول لك: أخذتها على مركز الصيانة الذي أسسته الشركة الصانعة، لها فرع، لأن فيها خبرة، إذا كان الإنسان مركبته غالية عليه يأخذها إلى الخبير، إلى الجهة الصانعة يسألها، وإذا كان جسمه فيه خلل يسأل عن أحسن طبيب، عن أحسن اختصاص، عن اختصاصه، وعن شهاداته، وعن خبراته، وعن تجاربه، وعن عمر تجاربه، فهذه النفس تسلمها لمخلوق، تسلمها لكتاب تقرأه، تسلمها لجهةٍ في الأرض تخطط لك.

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة الفرقان14)

هذا الكتاب هدىً، معنى هدىً أن هناك جهة تَهْدِي، وجهة تُهْدَى، وهدف، هذا الهدف إذا كان من وضع الخالق فهو هدف ثابت، ليس فيه مفاجآت، وأنا أؤكد لكم أن أي إنسان يضع لنفسه هدفاً، هو يضعه، أو يسمح لإنسان آخر، أو لجماعة، أو لجهة أن تضع له هدفاً، ويسير نحوه، لابدّ من أن يصعق في مرحلةٍ من مراحل حياته حينما يكتشف أن هذا الهدف باطل، وأن هذا الهدف غير مسعد، وأن هذا الهدف لا

يوصل، وأن هذا الهدف كان سخيفاً، وكان قميئاً، وليس يليق بالإنسان أن يسعى إليه، أما إذا طلب الإنسان من الله عزّ وجل أن يضع له الهدف، فالله عزوجل قال لك:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة لعصر 1-3)

يا عبدي، افعل ما شئت، فأنت في خسارة، لأنك وقت، والوقت يمضي، لأنك بضعة أيام، ولابدّ من أن تمضي، افعل ما شئت، فأي عملٍ لا يتصل بإيمانك بي، وبعملك الصالح، وبالدعوة إلي، وبصبرك على أمري فهذا عملٌ خاسر.

يمكن أن تتملك أكبر شركة في العالم، وأنت في خُسر، يمكن أن تصل إلى أعلى منصب في العالم وأنت في خُسر، يقول لك: حصل اضطراب بنظم القلب، وكان قد سَيَّر الجيوش، حَرَّك ثلاثين دولة، ثم أصابه اضطراب بنظم القلب، لآن إنسان ضعيف.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ((3))

فهدى..

الملخص: ليس في الأرض كلها جهةٌ تستطيع أن تهدي، لأنها لا تستطيع، لأن مقوماتها لا تمكِّنها من ذلك، أو لأنها لا تريد، لو استطاعت لا تريد، لكن خالقك هو الذي يهديك، فلذلك:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف 28)

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان: من الآية 15)

اتبّعوا سبيل الله ولا تتبعوا سبل الناس:

ارجع إلى من أناب إلي، اتبع سبيل من عَرَّفَكَ بهذا الكتاب، لا يوجد إنسان في الأرض يحق له أن يقول لك: هذا من عندي، من أنت ؟ أنت مثلي عبدٌ لعبد، لا يحقُ لإنسان إلا أن يقول لك: قال الله عزّ وجل، أنا عبد، إلا أن يقول لك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا حديث صحيح، قاله النبي فقط، أما أن يقول لك إنسان: هذه من عندي خذها، فمن أنت ؟ هذه ضعها برقبتي ؟ من أنت، هذه بذمتي، وبرقبتي، وضعها في الخُرْج، ولا تسأل، وأنا أقول لك هكذا، من أنت ؟

قصص من حرص السلف على عدم اتباع أقوال الرجال المخالفة للشرع:

1 – مع الفاروق عمر بن الخطاب:

ألم يقل سيدنا عمر لأحد ولاته عندما جاءته رسالة منه يقول فيها: **<< إن أناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم، لست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسهم بالعذاب، فإن أذنت لي فعلت >>**، قال له سيدنا عمر: **<< يا سبحان الله ! أتستأذنني في تعذيب بشر ـ من أنا ؟ ـ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله، من أنا حتى تستأذنني في تعذيب بشر ؟ قال له: " أقم عليهم البينة ـ أليس معك دليل، إثبات قطعي، حجة، مستمسك ـ أقم عليهم البينة، فإن قامت فخذهم بالبينة، فإن لم تَقُم البينة عليهم فادعهم للإقرار ـ للاعتراف ـ فإن أقروا فخذهم بإقرارهم، فإن لم يقروا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم >> ـ فليس هناك سوى هذه الثلاث قنوات مسموح بها، إمّا البينة، أو الحلف، أو الإقرار، أو حلف اليمين ـ وايم الله لأن يلقوا الله بخياناتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم<<.**

2 – مع الحسن البصري:

سيدنا الحسن البصري كان عند أحد ولاة بني أمية، كان والياً ليزيد، جاءه توجيه من يزيد فيه انحراف، أو فيه مخالفة لأمر الله عزّ وجل، فالوالي احتار، وعنده الحسن البصري، قال له: **" ماذا أفعل ؟ "**، والله قال له كلمة تكتب بماء الذهب، قال له: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

لا أحدَ يردُّ عنك قضاء الله:

إذا أطعت الله عزّ وجل فإنه يحميك من يزيد، ولكن إذا أطعت يزيد وعصيت الله فإن يزيد لا يستطيع أن يحميك من الله.

فهذه اجعلها في أعماقك، أي إنسان، زوجتك، لو أطعتها في معصية لا تستطيع أن ترد عنك مرضاً عُضالاً، هي تبكي فقط، صديقك، شريكك، أعلم منك، لو أطعته في معصية هؤلاء جميعاً لا يستطيعون أن يردوا عنك شيئاً أراده الله، قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس:

((وَاعْلَمْ أنّ الأمّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بشَيْءٍ قدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بشَيْءٍ قدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقْلامُ، وَجَفّتِ الصُّحُفُ))

[سنن الترمذي عَن ابْن عَبّاس]

من كمال التوحيد العلاقة مع الله وحده:

روعة الإيمان أن علاقتك مع جهة واحدة، مساكين أهل الدنيا، متمزقون، علاقته مع فلان وفلان، إذا أرضى فلاناً يغضب فلان، يقول: يجب أن أزوره، ولا يراني، إن زار فلانا، وعلم فلان يغضب مني، إن قدم نحو زيد يغضب عُبيد، إن أعطى فلاناً يغضب عِلّان، هناك تمزق، أما المؤمن فعلاقته مع جهةٍ واحدة..

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ قَالَتْ: إنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ الْتَمَسَ رضَا اللّهِ بِسَخَطِ النّاس كَفَاهُ اللّهُ مُؤْنَةَ النّاس، وَمَنْ الْتَمَسَ رضَا النّاس بِسَخَطِ اللّهِ وَكَلَهُ اللّهُ إلَى النّاس))

[الترمذي]

هذا هو التوحيد، فأقول لك بصراحة: العلم كله في التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، التوحيد أن ترى الله في كل شيئاً، وأن لا ترى معه شيء، أن تراه في كل شيء ؛ في كل تصرُّف، في هطول الأمطار، في شُح السماء، وفي إقبال الدنيا، وفي إدبارها، في الصحة، في المرض، في القوة، في الضعف، في الالتقاء، في التفرُّق، أن ترى الله في كل شيء، وأن لا ترى معه شيئاً، هذا هو التوحيد.

(هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

البداية بالهدى والنهاية بالرحمة:

الهدى البداية، فإذا وصلنا إلى نتيجة لا يمكن لجهةٍ في الأرض أن تقدم لك الهدى، الهدى من خصائص الله عزّ وجل، من خصائص الصانع، الخالق، المُصَمِّم..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ)

لماذا ؟

(الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 21)

لأنه هو الخالق، لا توجد جهة تستحق العبادة.

المناسبة وليس في الكون كله جهة تستحق أن تهبها حياةً، ولا أن تهبها عمرك، ولا أن تهبها قوّتك، ولا أن تهبها شبابك، ولا أن تهبها علمك، إلا الله عزّ وجل، هو أهل التقوى وأهل المغفرة، فهل من المعقول لإنسان يقدم كل حياته لإنسان ؟! هذا الإنسان ماذا يفعل معه ؟ لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، فالهدى الدلالة، فما هي النهاية ؟ البداية الانتساب للجامعة، النهاية طبيب، البداية فتح محل تجاري، النهاية أصبحت غنياً، نريد النتائج..

(وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

البداية الهدى والنهاية الرحمة، فإذا سرت على دلالة الله عزّ وجل تجلّى الله عليك بالرحمة، فأسعدك في الدنيا والآخرة، فأنت منتهى آمالك، منتهى مطالبك، تحب وجودك، وسلامة وجودك، واستمرار وجودك، وكمال وجود، هذه رحمةٌ الله عزّ وجل تحتاج إلى هدى.

المراقبة سبيلٌ للهدى:

يجب أن تعلم علم اليقين أن أية حركة تتحركها هي في علم الله تعالى.

مثلاً لو فرضنا إنساناً يتناول الطعام في بيته، وفي قميصه زر مقطوع، لا يهمه ذلك، أو كان جالساً جلسة غير نظامية، أما لو كان في عقد قران، ويُصوّر تراه يعتدل على الفور، لا يفتح فمه في أثناء التصوير، بل يغلقه، لماذا ؟ لأن هذه مسجلة عليه، يعرضونه، لماذا فلان جالس هذه الجلسة، لا، هذه الجلسة ليست جيدة، فإذا حضرت عقد قران تصحح وضعك، يقول لك: يصورونني، يجب أن تعلم أن أي حركة، وأي سكنة، وأي موقف، وأي غضب، وأي رضا، وأي إعطاء، وأي منع، وأي تساهل، وأي تفلّت، وأي انضباط كله مسجل إلى الأبد..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء14)

جاءوا بجهاز تصوير راداري لمخالفات السير، جاءوا به حديثاً، ووضعوه بطريق المطار، ضبطوا سائقا بمخالفة سرعة زائدة، فأحبوا أن يمتحنوه، أنك أنت كنت في المطار يوم كذا وكنت، مخالفاً السرعة، الله يصلحه ويهديه، حلف بدينه، بربه، لم يكن بالمطار إطلاقاً، تفضل الصورة، أليست هذه السيارة ملكك، هذه التاريخ عليها مع الصورة، فسكت.

هكذا الآخرة، إنها كشريط مسجل بالصورة والصوت، ألم تفعل كذا ؟ ألم تقف هذا الموقف ؟ ألم تنظر إلى فلانة من ثقب الباب ؟ عليك تصوير، ولا تدري بنفسك، أنت تتصور، ألم تفعل كذا ؟ ألم تُضِف

الماء للحليب داخل بيتك ؟ ألم تقل كذا وأنت في هذا ليس صادقاً ؟ فأين أنت ذاهب ؟ كله مسجل، لذلك الإيمان أن ترى أن الله معك، الإيمان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك، هذا الإيمان، تحت المراقبة.

والله إذا عرف الإنسان نفسه أنه مراقب تجده يأخذ احتياطات بالغة جداً، فإذا كان في طريق يقول لك: هذا لا أريد أن أمشي فيه، فأي شيء تجده قد أخذ احتياطا بالغا، إذا راقبك إنسان تجد أنك ضابط للسانك، و ضابط حركاتك، وسكناتك، وكلماتك، وهاتفك ضبطته كله، فكيف لو راقبك الواحد الديان ؟ فأنت تحت المراقبة، في بيتك، مع أولادك، مع زوجتك، وأنت تأكل، أكلت اللحم وحدك، ألا يراك الله ؟ يا ترى أطعمت من حولك بالعدل ؟ كنت موضوعياً ؟.

فكلمة هدى إذا عرفت أن الله يطلع عليك استقمت، فإذا استقمت جاء التجلي، شعرت بسعادة، شعرت بسرور، شعرت برقي أنك إنسان كريم على الله عزّ وجل، مخلوق مكرّم، مخلوق عالي المقام، جالس لمهمة خطيرة جداً، جاء الله بك إلى الدنيا كي تتعرف إليه، كي تهدي خلقه، تجد عملك موظّف لله، مصلحتك، فلا يوجد عندك أخذ ما ليس لك، لا، فهذه مصلحتك بخدمة المسلمين، تربح وتعيش، لكن الهدف الأول أن تخدم المسلمين، وأن تنفق على نفسك أهلك.

الطبيب لخدمة المسلمين، والمهندس، والمدرس، والبائع، والصانع، والعامل، دخلت بيتك، هذا البيت ليس للمتعة، لهداية الزوجة والأولاد والبنات، هؤلاء خلفاؤك من بعدك، هؤلاء عملك الصالح، هؤلاء استمرارٌ لك بعد مماتك، فإذا خلف الرجلُ ابنا متفوقا في العلم الديني مثلاً، إذا كنت قد تركت أثراً كبيراً، فأنت تعيش في زمن دقيق جداً، كل شيء مسجل عليك، فإياك أن تضيّع ساعةً، أو دقيقةً، أو ثانيةً، هدىً، البداية الهدى، والنهاية الرحمة.

إنّ كلمة رحمة فيها كل شيء، تبدأ من الطمأنينة إلى الاستقرار النفسي، والشعور بالسعادة والشعور بالقرب من الله عزّ وجل، والشعور بالتفوق والفلاح..

(هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

الإحسان:

مجالات الإحسان:

هل أنت محسن ؟ أيضاً كلمة جامعة مانعة، أحسنت في إيمانك، أحسنت في عقيدتك، أحسنت في استقامتك، أحسنت في خدمتك، أحسنت في مهنتك، أحسنت في أبوّتك، أحسنت في أخوّتك، أحسنت في بنوّتك، أحسنت مع جيرانك، أحسنت مع زبائنك، أحسنت مع نفسك، أحسنت مع الحيوان حينما ذبحته، هل جعلت السكين حاداً، قال له: هلا حجبتها عن أختها ؟ أحسنت مع الحشرات حينما قتلتهم، عذبتهم أم قتلتهم قتلاً سريعاً، أحسنت مع الطبيعة، هل لوّثت البيئة، فالمحسن لو قام بنزهة وأكل، يجمع الفضلات في كيس، ويأخذها معه، أما أن يرمي القشور ويمشي فإنه ليس محسنًا !! كلها محلات جميلة، كلها بقايا طعام وقشور، هذا العمل ليس إحساناً، كلمة محسن بدءاً من عقيدتك، مروراً بعبادتك، واستقامتك، وعملك الصالح، ومهنتك، وبيتك.

(هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (02-13): تفسير الآيات 4 - 9 ، صفات المحسنين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-05-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثاني من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3))

هؤلاء هم المحسنون، والقرآن أحياناً يَسْلُكُ أسلوب الإيجاز، فالمحسن هو مَن أحسن في عقيدته، وأحسن في استقامته، وأحسن في عمله، هؤلاء هم المحسنون..

صفات المحسنين:

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

الصفة الأولى: إقامة الصلاة:

1– معنى إقامة الصلاة:

وكأن الله سبحانه وتعالى جمع الدين كلّه في كلمتين: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، إقامة الصلاة أي: تحسين العلاقة مع الله، فهذه الصلوات الخمس التي نصليها ما هي في الحقيقة إلا اتصال العبد بالله عزّ وجل، ولكن من السذاجة أن نظن أنه بمجرّد أن يقف الإنسان متوضِّئاً، ويتّجه نحو الكعبة، ويكبّر تكبيرة الإحرام، ويقرأ دعاء الثناء، والفاتحة وسورة، ويركع، ويسجد، من السذاجة أن يظن أن هذه صلاةٌ وكفى، لن تستطيع أن تقيم الصلاة، لأن الله عزّ وجل يقول:

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

كيف أنك تقيم البناء، لابدّ من جهودٍ كبيرة تسبق إنشاء البناء، كذلك أن تقف بين يدي الله عزّ وجل مصلياً من دون أن تكون مستقيماً على أمره، إنّ هذه الصلاة جوفاء، أن تقف بين يدي الله عزّ وجل مصلياً من دون أن يكون دخلُك حلالاً، فهذه صلاةٌ جوفاء، أن تقف بين يدي الله عزّ وجل مُصلياً من دون أن تضبط جوارحك، فهذه صلاةٌ جوفاء، لذلك ربنا عزّ وجل وصف الناس مع تقدُّم الزمان فقال:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

(سورة مريم: من الآية 59)

2- معنى إضاعة الصلاة:

العلماء قالوا: إنّ إضاعة الصلاة ليس تركها، ولكن إضاعتها حينما لا نخشع فيها، ومتى لا نخشع فيها؟ إذا تخلّلتها المعاصي ؛ دخله حرام، كلماته ليست منضبطة، جوارحه ليست منضبطة، لا يسير على منهج الله، فإذا قام ليصلي ماذا يفعل ؟ لذلك المنافقون وصفهم الله عزّ وجل فقال:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى)

(سورة النساء: من الآية 142)

لأن الصلاة عند المنافق لا معنى لها، يقف، ويركع، ويسجد، ولا يشعر بشيء، فهي أقرب إلى الحركات الإيمائية، وأقرب إلى الطقوس منها إلى الصلاة، ولكن هذا الذي ضبط جوارحه، هذا الذي أنفق ماله، هذا الذي سار على منهج الله عزّ وجل، هذا الذي تَقَصَّىَ أوامر الله فطبّقها، هذا الذي تقصّى نواهيه فاجتنبها، هذا الذي أنفق ماله الحلال على حبّه، أطعم الناس بماله، أنفق ماله في سبيل الله لا يبتغي رياءً ولا سمعةً، هذا الذي إذا وقف ليصلي انهمرت دموعه، وشعر أنه قريبٌ من الله عزّ وجل.

حقيقة الصلاة من خلال الكتاب والسنة:

قال تعالى عن الصلاة:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق19)

من معانيها الاقتراب..

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه14)

(إِنّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: من الآية 45)

((الصلاة ميزان، فمن أوفى استوفى))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

((الصَّلاةُ نُورٌ))

[من سنن الترمذي عن زيد بن سلام]

((الصلاة طهور))

كما قال عليه الصلاة والسلام..

((الصلاة معراج المؤمن))

كما قال عليه الصلاة والسلام..

((لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل))

[الجامع الصغير]

الصلاة مناجاة، هذه تعريفات الصلاة في الكتاب والسنّة، ربّما عرّفها الفقهاء تعريفاً آخر، قال الفقهاء: **" هي أقوالٌ وأفعالٌ مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم "**، هذا تعريف ظاهر الصلوات، ولكن حقيقة الصلاة:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق19)

حقيقة الصلاة:

(لا تَقْرَبُوا الصّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: من الآية 43)

حقيقة الصلاة أن تفهم ما تقرأ، أن تعقل ما تقرأ..

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

[ورد في الأثر]

لذلك أول ما يُسْأل عنه العبد يوم القيامة صلاته، الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.

هؤلاء هم المحسنون، هذا الكتاب الحكيم الذي هو هدىً، أي دلالة، البداية بالدلالة، والنهاية بالرحمة للمحسنين، لماذا أحسنوا ؟ لأنهم استناروا بنور الله، ومتى استناروا ؟ عندما صلوا..

(الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَاةَ)

له اتصالٌ بالله عزّ وجل، له اتصالٌ في أثناء الصلاة، وله اتصالٌ خارج الصلاة، وأما الاتصال خارج الصلاة فقد أشارت الآية الكريمة:

(الّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

(سورة المعارج 23)

من معاني الصلاة:

أي أنك إذا خرجت من بيتك وقلت: **" يا رب، إني أعوذ بك من أن أضِلَ أو أضَل، أو أزلّ أو أزَل، أو أجهل أو يُجْهَل علي"**، فأنت في صلاة، إذا دخلت بيتك، ودعوت الدعاء المأثور فأنت في صلاة، إذا

أقدمت على عمل وقلت: **" اللهمّ إني تبرّأت من حولي وقوّتي، والتجأت إلى حولك وقوّتك يا ذا القوّة المتين "**، فأنت في صلاة، إذا أردت أن تدخل السوق فدعوت الدعاء المأثور فأنت في صلاة، فلماذا سَنّ النبي هذه الأدعية في كل حركات الإنسان ؟ في عمله، في بيته، إذا أقدم على عملٍ معيّن، لأن الدعاء مُخُّ العبادة، والدعاء نوعٌ من أنواع الصلاة، فأنت تصلي في أثناء الصلاة، وتصلي خارج الصلاة من خلال الدعاء، من خلال الذكر، من خلال التسبيح، من خلال التحميد، من خلال التكبير، من خلال التهليل، من خلال قراءة القرآن.

إذاً:

(الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَاةَ)

المعصية حجاب في وانقطاع في أثناء العبادة:

الآن سأقف وقفة قليلة جداً، أوضِّح هذا بمثل: عندك أجهزة كهربائيّة كثيرة ؛ عندك المكواة، وعندك البرّاد، وعندك المروحة، وعندك المسجِّلة، وعندك المكيف مثلاً، وعندك هذه الثريات، وعندك أجهزة كثيرة جداً، كل هذه الأجهزة عبءٌ عليك إن لم تسرِ فيها الكهرباء، أما إذا سَرَت الكهرباء فيها قطفت ثمارها جميعاً، المروحة أدّت وظيفتها، والبَرّاد أدّى وظيفته، والمدفأة أدّت وظيفتها، والمكواة أدّت وظيفتها، كل هذه الأجهزة الكهربائيّة إن لم تسرِ فيها الكهرباء فهي عبءٌ على صاحبها، أما إذا سرت فيها الكهرباء قطف ثمارها.

وهذا الشريط الكهربائي إذا كان متقطِّعاً، فالكهرباء واقفة، الكهرباء لا تسري إلا إذا كانت الدارة مغلقة، ما دام فيه قطع فالكهرباء واقفة، معطّلة، وما دامت الكهرباء معطّلة فكل هذه الأجهزة معطّلة.

ولقد أردت من هذا المثل أن أوضِّح أنه: إذا أقام الإنسان على معصية، وأصرّ عليه صغيرةً أو كبيرة انقطع عن الله عزّ وجل، إذاً تصبح العبادات عبئاً عليه، الصلاة ثقيلة، والصيام ثقيل، إن لم تستقم على أمر الله لا تذوق حلاوة الصلاة، إن لم تبذل الغالي والرخيص لا تذوق حلاوة الصلاة، إن لم تضبط جوارحك كلّها على منهج الله لا تذوق حلاوة الصلاة، فإذا أخذت من الدين بعضه، واستمعت إلى بعض مجالس العلم، ولم تكن منضبطاً كما أراد الله عزّ وجال، ربّما وقفت في الصلاة لم تشعر بشيء، ربّما جاء رمضان وذهب رمضان ولم، تشعر بشيء، ربّما ذهبت إلى الحج وعدت من الحج، ولم تشعر بشيء، لا تشعر بالقرب إلا إذا دفعت ثمن القرب..

تعصي الإله و أنت تُظْهِرُ حبّه ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبُّك صادقاً لأطعته إنّ المحبّ لمن يحبُّ يطيعُ

***

والله أيها الإخوة الأكارم، كل ثمار الدين في طاعة الله، كل ما في الدين من بهجة، من نورانيَّة، من شعور بالأمن، من شعور بالقُرب، من شعور بالتفوُّق، من شعور بالفوز، من شعور بالفلاح، كل سكينة النفس في طاعة الله عزّ وجل، فهذا الذي يعصي الله لا يعرفه، وحينما عصاه جعل بينه وبين ربّه حجاباً، والمعاصي بريد الكفر، والذنوب تقطع الإنسان عن ربّه.. اللهمّ لا تقطعنا بقواطع الذنوب..

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

إن لم تصحّ صلاة الإنسان يجب أن يقلق قلقاً كبيراً، يجب أن يهتم، لهذا كله كن مهتماً أيها الإنسان، الآن ما الذي يهمّ الإنسان ؟ ما الذي يَقْلق له ؟ ما الذي يجعله واجم الوجه ؟ ما الذي يجعله مُنقبض الصدر ؟ إن لم يُيَسَّر إلى عملٍ جيّد، إن لم يُوفّق إلى زواج، إن لم يشتر بيتاً، ولكن المؤمن الصادق ينقبض، ويقلق، ويتألم، ويحزن إن كانت صلاته جوفاء لا معنى لها، لذلك:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه 14)

الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيدة القُرُبات، وغرّة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، والذي يذوق طعم القُرْبِ في الصلاة يعرف معاني هذه الكلمات، كان عليه الصلاة والسلام كما تقول السيدة عائشة كان يحدِّثنا ونحدِّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا نعرفه ولا يعرفنا "، أيْ أنه دخل في الصلاة.

عَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ، قَالَتْ:

((كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ))

[البخاري]

تهيئة الظروف المناسبة للصلاة:

إذا أتقن الإنسان الصلوات الخمس فقط ؛ أي أتقن قيامها وركوعها وسجودها، إذا صلاّها وكان فارغ القلب، لو كان منشغلاً، وصلّى تصبح الصلاة جوفاء، كل وصل، نم وصل، انهَ عن هذا العمل وصل، فمن أجل أن تكون الصلاة كما أراد الله عزّ وجل يجب أن تهيّئَ لها الظروف المناسبة.

فمن الظروف المناسبة أن تصلي، وأنت خالي الذهن، لو جاءتك رسالة فتحدِّثك نفسك: ماذا قال فيها ؟ هل فيها حوالة أم لا ؟ اقرأها، ثم صل يا أخي، لئلا تنشغل بها في الصلاة، فدائماً فرّغ قلبك للصلاة، صلّ في غرفةٍ هادئة، هذا الذي يصلي وقلبه مشغولٌ بزيدٍ أو عُبيد ما ذاق طعم الصلاة..

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

الصفة الثانية: إيتاء الزكاة:

الزكاة إحسان إلى الخلق:

هذه الآية نزلت في مكّة المكرّمة قبل تشريع الزكاة، إذاً الزكاة هنا بمعنى الإحسان، أي أن الدين اتصالٌ بالخالق وإحسانٌ إلى المخلوق، هناك حركة نحو السماء وهي الصلاة، وحركة نحو الأرض، وهي الإحسان، فإن لم يكن لك بالله صلة، وإن لم يكن لك مع الناس إحسان ما عرفت معنى الدين، الدين في جوهره اتصالٌ بالخالق وإحسانٌ إلى المخلوق، وفي بعض الآيات الكريمة أشار الله عزّ وجل إلى هذا المعنى المُكَثَّف فقال:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

(سورة مريم31)

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

الصفة الثالث: الإيمان باليوم الآخر:

1– الموت دافع إلى الإحسان والعمل الصالح:

لكن ما الذي دفعهم إلى ذلك ؟ أن الحياة تنتهي بالموت، وأن بعد الموت حياةً لا تنقضي الحقيقة لا يمكن أن تستقيم على أمر الله، ولا يمكن أن تندفع إلى باب الله إن لم تؤمن بالآخرة، الدنيا زائلة..

((أتاني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس))

[الجامع الصغير]

2– الحياة تنتهي بالموت:

الحياة تنتهي بالموت، بعد الموت حياةٌ أبديّة، لذلك يقول الله عزّ وجل في سورة الفجر متحدّثاً عن هذا الإنسان الضائع:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر24)

أية حياةٍ هذه ؟ الحياة الأبديّة، لأن هذه الحياة التي نعيشها سمّاها الله الحياة الدنيا، دنيا وليست عليا، حياة إعدادٌ للحياة الأبديّة، تهيئةٌ للحياة الأبديّة، قال:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

1 – المهتدي فوق الهدى:

وبيّنت في دروسٍ سابقة كيف أن المهتدي فوق الهدى، وأن الهدى في خدمة المُهتدي، وأن الهدى جاء ليرفع المهتدي، وأن الهدى جاء ليكرّم المهتدي، وأن الهدى جاء ليحفظ المهتدي، فأنت كلّما اتبعت الهدى كان هذا لصالحك، كان هذا من أجلك، كان هذا من أجل أن تكون في أعلى مكان..

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى)

2 – الضالّ منغمس في الضلال:

أما الكافر..

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)

(سورة الروم: من الآية 44)

وأما الضلال فاستخدم الله معه كلمة في..

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة سبأ)

المهتدي على الرغم من أنه يبدو أنه مقيّد بالشرع، لكن هذا القيد هو الذي رفعه إلى أعلى عليين، بينما الضال على الرغم من أنه يبدو للناس حراً في تصرُّفاته، إنّ هذه الحريّة المزيّفة تقوده إلى الحبس، وإلى القيد، وإلى الدخول في القهر، والذل، والهَوان..

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

الناس كلهم يسعون إلى الفلاح، ويختلفون في حقيقته:

من منا لا يحبُّ أن يكون فالحاً ؟ شهد الله أنه ما من إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى أن يكون من الفالحين، ومن الفائزين، ومن المتفوّقين، ومن الناجحين، النجاح هدف كل إنسان ؛ ولكن المشكلة أن الإنسان إذا عميت بصيرته لا يعرف من أين النجاح، يظنُّه من هذه الجهة، وهو في هذه الجهة المعاكسة.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

الآن يقول الله عزّ وجل:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

(وَمِنَ النَّاسِ)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ

1 – فائدة قرآنية: لا للتعميم:

هذه من للتبعيض، أي بعض الناس..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي)

2 – معنى الشراء:

ما هو الشراء قبل كل شيء ؟ أنت حينما تشتري حاجةً وتعطي الثمن، يجب أن تعلم علم اليقين أنه لو لم تكن هذه الحاجة أغلى عندك من هذا الثمن لما اشتريتها، ففي نَفْس المشتري لا يمكن أن تشتري شيئاً إلا إذا رأيته أغلى من ثمنه عندك، وأما البائع فلا يبيع شيئاً إلا إذا رأى ثمنه أغلى منه، إن رأيت أن ثمنه كبير لا تشتريه، لا تشتري إلا إذا رأيت أن هذا الشيء أغلى من هذه الأوراق التي تدفعها للبائع، والبائع لا يبيع هذه السلعة إلا إذا رأى هذه الأوراق أغلى من هذه السلعة، فعمليّة الشراء في أساسها عملية مُبادلة، تأخذ السلعة، وتدفع النقد أو الثمن.

3 – المغبون مَن اشترى شيئا بثمن باهظ:

مثلاً: إذا دفع الإنسان ثمناً باهظاً، وأخذ سلعةً سيئةً يشعر بالخسارة والندم، يشعر بأنه مغبون، يشعر بالضيق، يتألّم جداً، إذا شعر أن هذه السلعة ليست كما يحب، ليست كما يريد، ليست من بلد المنشأ، إنها مزوّرة، إنها صُنِعَت في بلدٍ آخر، إنها غير جَيّدَة، إذاً: هو يرى أن الثمن الذي قدّمه كبير جداً، وأنها لا تستحقُ هذا الثمن، إذاً البيع والشراء عمليّة مبادلة، تأخذ شيئاً، وتعطي شيئاً، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَمِنَ النّاس مَنْ يَشْتَري لَهْوَ الْحَدِيثِ)

4 – الوقتُ أعظمُ رأس مال الإنسان:

هو قدّم وقته، وأثمن ما تملكه أنت الوقت، لأنك وقت، إذا قدّمت وقتك قدّمت نفسك، من أنت ؟ أنت بضعة أيام، أبداً، فكل إنسان حينما يموت هذا مات عن عمر سبعين عاماً، وهذا مات عن ستين عاماً، هذا مات عن خمسين عاماً، هذا مات عن أربعين عاماً، إذاً: الإنسان في حقيقته وقت، مجموعة سنوات، ومجموعة أشهر، ومجموعة أسابيع، ومجموعة أيام، ومجموعة ساعات، ومجموعة دقائق، ومجموعة ثوانٍ، حتى العظماء أحياناً يقولون لك: مات في الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين، والثانية السابعة والخمسين، وحينما ولد عُرِفَ متى ولد، إذاً: عاش في هذه الدنيا كذا عام، لذلك أثمن شيءٍ تملكه هو الوقت، لأنك وقت، ولأنك في حياة يُبْنى عليها، إما في جنّةٍ يدوم نعيمها أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

فمثلاً للتوضيح: أنت على طاولة الامتحان مدة ثلاث ساعات أو ساعتين كما في الجامعة الآن، هذه الساعات ربّما بني عليها مستقبلك، فإذا كنت متمكّنا من هذه المادّة، وكتبت كتابة جيدة، الأوراق صُحِحَت، نلت علامةً جيدة، أصبحت طبيباً، فتحت عيادةً، جاءك الناس، جاءك الدخل الوفير، فتزوجت، واشتريت بيتاً، وعشت حياةً كريمةً، مثلاً، إذاً هذه الساعات الثلاث، أو هاتان الساعتان اللتان كتبت فيهما، بني عليهما أنك أصبحت طبيباً.

5 – الدنيا امتحان لحياةٍ أبديّة:

لكن الدنيا كلُها امتحان، امتحان لحياةٍ أبديّة، وأخطر ما فيها الامتحان.. لو فرضنا أن طالباً أمضى هذه الساعات في التفكير فيما سيأكل غداً مثلاً، هذا غير معقول، فهذا وقت ثمين جداً، لو أن قلمه تعطّل تجد معه قلماً آخر، أراد أن يُصلِح هذا القلم، فكّه كله، وطلب كأسا من الماء لكي يغسله، هل معقول أن يصلِح قلمه في أثناء الامتحان ؟ يستهلك نصف ساعة، هذا غير معقول، هل معقول أن يجري حساباته

في أثناء الامتحان ؟ غير معقول، هل معقول أن يفكر متأملاً حوالي نصف ساعة بلا سبب ؟ هذا الوقت محسوب عليه، يجب أن تعلم علم اليقين أنك في امتحان، وأن أخطر ما في الامتحان الوقت.

ما هو لهو الحديث ؟

النشاط الكلامي بأقسامه الثلاثة: المحرم والمباح والواجب:

فهذا الذي يشتري لهو الحديث، اللهو هو أي شيءٍ شغلك عن العظيم فهو اللهو.

إذاً: عندنا معنى يشتري، ومعنى الحديث هو الكلام، الإنسان له نشاط كلامي، أي أنه يتكلّم ؛ حق، باطل، مِزاح، كلام جاد، كلام مفيد، كلام مُمتع، كلام غير ممتع، كلام ضار، يعصي الله بالكلام، أحد أكبر نشاطات الإنسان هو الكلام، قال أحد الصحابة الكرام:

((يَا نَبِيّ اللّهِ، وَإِنّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النّاسَ فِي النّار عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[سنن الترمذي عَنْ مُعَاذِ بْن جَبَلٍ]

يجب أن تعلم أن هذا اللسان حينما يتحرّك، ومارس نشاط الكلام، هذا الكلام إما أن ترقى به إلى أعلى عليين ؛ وإما أن تهبط به إلى أسفل سافلين، معاصي الكلام ؛ الغيبة، النميمة، الإفك، الافتراء، الإيقاع بين الناس، الإفساد، إفساد العلاقات، السخرية، الاستهزاء، الفُحش، البذاءة، الاحتقار كأن يحتقر إنساناً بكلمةٍ، أو بنظرةٍ، أو بعبارة، أن يقلِّد إنساناً في حركاته، وسكناته، وأقواله، وأفعاله.

وهناك كلام مباح ؛ ماذا أكلت اليوم ؟ وكيف كان الطعام ؟ ومن أين اشتريت هذه الخضار ؟ وكم دفعت ثمنها ؟ هؤلاء الأناس العاديون أحياناً يستهلكون أوقاتهم في كلامٍ لا معنى له، والنبي عليه الصلاة والسلام كما تعلمون، دخل إلى المسجد فرأى رجلاً تحلّق الناس حوله، فهو سأل سؤال العارف فقال:

((من هذا ؟ " قالوا: " هذا نسّابة "، قال عليه الصلاة والسلام: " وما نسّابة ؟ " فقالوا: " يعرف أنساب العرب "، قال: " ذلك علمٌ لا ينفع من تعلّمه ولا يضر من جهل به))

[ورد في الأثر]

نحن إذا قسّمنا النشاط الكلامي إلى أقسام ثلاثة، نشاط محرّم مثل: غيبة، نميمة، فساد، تفريق، سخرية، محاكاة، استهزاء، احتقار، فُحش، بذاءة، ونشاط يرفعك إلى أعلى عليين مثل: ذكر الله، تعريف الناس بالله، الإرشاد، الدلالة على الله، الأمر بالمعروف النهي عن المنكر، وكلام ليس محرّماً، وليس مندوباً، وليس عملاً صالحاً إنما هو مباح ؛ كالحديث عن الطعام والشراب، وأشياء لا تقدّم ولا تؤخّر، فالإنسان

إذا تكلّم في الصِنْفِ الأول وقع في المعاصي، وقع في الحُجَب، وقع في الضلال، وقع في البعد عن الله عزّ وجل، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلّمُ بالْكَلِمَةِ مِنْ رُضْوَانِ اللّهِ عَزّ وَجَلّ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَرْفَعُهُ اللّهُ بهَا دَرَجَاتٍ، وَإنّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلّمُ بالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوي بهَا فِي جَهَنّمَ))

[من مسند أحمد عن أبي هريرة]

أحياناً بكلمة يدفع الزوج إلى تطليق زوجته، كلمة يجعل هذا الطفل مشرّداً، أحياناً زوجة الأب توغر صدر الأب على ابنه الذي ليس منها، يطرده في ساعة غضب، هذا الطفل يهيم على وجهه، وقد ينحرف، قد يرتكب السرقة، قد يرتكب الفعل المنافي للحِشْمَة، وقد يغيب عن البيت أياماً عديدة، بسبب كلمة قالتها هذه المرأة لتشفي غليلها من ابن زوجها، فوقف الأب موقفاً أحمق، طرده من البيت، فانحرف، كلمةٌ.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بهَا بَأْسًا يَهْوي بهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النّار))

[الترمذي]

ربّما تكلّم الإنسان بكلمة دفع صاحبها إلى جريمة قتل، فلذلك هناك كلام يهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين، وهناك كلام يرفعك إلى أعلى عليين، وهناك كلام مُباح، ولكن علّته أنه يستهلك الوقت، كهذا الذي أراد أن يُصلِّح قلمه أثناء الامتحان، معه قلم ثانٍ، أو أراد أن يعد دراهمه أو يجري حساباته أثناء الامتحان، فيجب أن تترك الكلام المباح الذي لا طائل منه صوناً للوقت..

((إنّ اللّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

[من سنن الترمذي عن المغيرة بن شعبة]

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[الجامع الصغير عن أنس]

((مِنْ حُسْنِ إسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

((إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها))

[الجامع الصغير عن الحسن بن علي]

فمن علامات الإيمان أن تنشغل بهمومٍ عُليا، بهمومٍ مقدّسة، قال:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَري لَهْوَ الْحَدِيثِ)

الشعر والفن غير الهادف من لهو الحديث:

الشعر غير الهادف من لهو الحديث:

جئت لا أعلم من أين ولــكني أتيتُ

ولقد أبصرت قدّامي طريقاً فمشيــت

أين كنت ؟ أين أصبحت ؟ لست أدري

و لماذا لست أدري ؟ لســت أدري

***

فما هذا الكلام ؟، هناك شعر في الهجاء، وشعر في الرثاء..

ولو أن النساء كمن فقدن لفضِّلت النساء على الرجال

***

من هذه المرأة التي ما ذكرها التاريخ ؟ كلامٌ فيه مبالغة كبيرة جد، فالشعر إن لم يكن ملتزماً بالدعوة إلى الله عزّ وجل فهو من لهو الحديث.

قصّة ثمانمائة صفحة تمضي بها أسبوعاً أو أسبوعين، مغزاها كلمتان، هذا من لهو الحديث، الأعمال القصصية، الأعمال المسرحيّة أحياناً، إذا ما كان فيها مغزى كبير جداً فهي لهو، طبعاً إذا قرأت قصّة أو قصيدةً، وشعرت أنها حرّكت مشاعرك العُليا وتفكيرك المرتفع فأنت أمام فنٍ رفيع، فإن لم تحرّك إلا التافِهَ من مشاعرك والمبتذل من أحاسيسك فأنت أمام فنٍ رخيص.

مِن أنواع لهو الحديث:

الفن الرخيص أن تقرأ شيئاً يحرّك المشاعر البهيميّة في الإنسان، هذا من لهو الحديث، شعر، قصّة، سهرة ليس فيها شيء إلا حديث وغيبة، ونميمة، ومزاح رخيص، وتعليقات لاذعة، وتقليد، ومحاكاة، أنت أرقى من ذلك، هذا لهو الحديث، سواء كان كلامًا، أو لقاء، أو نزهة، أو كان قراءة كتاب أو مجلّة أو قصّة، كقراءة مجَلاّت متعلِّقة بفلانة وفلان، المجتمع المخملي مثلاً، وماذا فعل فلان ؟ ومتى تزوّجت فلانة ؟ ولماذا طُلِّقَت فلانة ؟ أين أنت، أعندك وقتٌ لهذا ؟ هذا من لهو الحديث، قال:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَري لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

تفسير القرطبي للآية: لهو الحديث هو الغناء:

الحقيقة الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، أسهب في تفسير هذه الآية، وأردت أن أنقل لكم شيئاً عن تفسير هذه الآية لهذا الإمام الجليل، يقول:

(وَمِنَ النّاس مَنْ يَشْتَري لَهْوَ الْحَدِيثِ)

" لهو الحديث: الغناء، في قول ابن مسعودٍ وابن عبّاسٍ وغيرهما "، فلهو الحديث عند القُرطبي هو الغناء في قول ابن مسعودٍ وابن عبّاسٍ وغيرهما، قال: **" وهو ممنوعٌ بالكتاب والسُنّة "**، لأن الغناء يثيرُ الغرائز، ويحرّك الشهوات، ويغري بالمعصية، ويدفع إلى ما حرّم الله عزّ وجل، ويعيش الإنسان في أجواء معيّنة، فالغناء ممنوعٌ بالكتاب والسنّة.

الآيات الدالة على تحريم الغناء:

وهذه الآية هي إحدى الآيات الثلاث التي استدلّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه..

الآية الأولى:

(وَمِنَ النّاس مَنْ يَشْتَري لَهْوَ الْحَدِيثِ)

الآية الثانية:

(وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

(سورة النجم 61)

اسمدي لنا أي غني لنا.

أحياناً إذا الإنسان استغرق في الغناء أصبحت حياته كلها غناء، وهو يعمل يسمع الأغنيات، فتصدح في المحل التجاري، وهو في المعمل تصدح الأغنيات، وهو في مركبته يستحضر هذه الأشرطة ليسمع الغناء، وهو في بيته، في كل حركاته وسكناته غارقٌ في الغناء.

الغناء والقرآن لا يلتقيان، فإذا كانت حياتك غناءً فأنت بعيدٌ عن كتاب الله بُعْدَاً شديداً، فلذلك الآية الثانية:

(وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

(سورة النجم61)

الآية الثالثة:

والآية الثالثة التي استدلّ بها العلماء على تحريم الغناء..

(وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ)

(سورة الإسراء: من الآية 64)

أحياناً يموت المُغني فيموت معه أناسٌ كثيرون، هناك من ينتحر لموت بعض المُغَنِّين، هناك من يزور قبره، ومعه المسجِّلة ليسمع إلى أغنياته التي كان يَطْرَبُ لها، وقد يأتي علماء كبار ليعزّوا بوفاة بعض المغنيين أيضاً، وهذه مشكلة كبيرة جداً، على كُلِ هذه الآيات الثلاث استدلّ بها العلماء على تحريم الغناء ..

(وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ)

قال مُجاهد: **الغناء والمزامير**، حلف ابن مسعود بالله الذي لا إله إلا هو ثلاثَ مرّات على أن لهو الحديث هو الغناء، هذا عندما سئل عن قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ)

أقوال الصحابة والسلف في هذه الآية:

1 – قول ابن مسعود:

فقال: **<< الغناء والذي لا إله هو هو، ردّدها ثلاث مرات >>.**

2 – قول ابن عمر:

عن ابن عمر قال: **<< إنه الغناء >>.**

وبهذا قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول.

وعن ابن مسعودٍ أيضاً قال: **الغناء ينبت النفاق في القلب.**

أنا أنقل لكم ما في التفاسير، هذا تفسير القرطبي، وعنوان هذا التفسير **" الجامع لأحكام القرآن ".**

3 – قول مجاهد:

وقال مجاهد وزاد: **" إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء، وإلى مثله من الباطل "**، أي أنك جلست إلى كاهن.

طبعاً:

((مَنْ أَتَى حَائِضًا أو امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

هذا إن صدقه، أما إذا لم يصدقه..

((من أتى ساحراً فلم يصَدِّقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، ولا دُعاء أربعين ليلة))

[ورد في الأثر]

لأن الاعتقاد بأن إنساناً يعلم الغيب هذا كفر، لأنه رد لقوله تعالى:

(قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلا اللّهُ)

(سورة النمل: من الآية 65)

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن 27)

حتى لو سألت: أخي انظر لي في الفنجان، فيقول لك: والله سيأتيك مبلغ من المال، أمامك مشكلة. سيتزوج أحدهم من أقربائك، خير إن شاء الله، هذا لهو الحديث، هذا كلام لا معنى له، دائماً كن جادّاً، لك أن تلهو لهواً بريئاً، إذا جلس الإنسان مع أهله، وكان إذا دخل بيته كما كان النبي عليه الصلاة، كان إذا دخل بيته بسّاماً ضحّاكاً، لك أن تسأل، أن تجيب، أن تمزح مزاحاً بريئاً، لك أن تستمتع بما أباح الله لك، من دون أن تقع في معصية اللهو، واللهو أن تنشغل بشيءٍ تافه عن شيءٍ ثمين، أن تنشغل بالخسيس عن النفيس.

لو أن أحداً غاص في البحر ليأخذ اللؤلؤ، فجاء بالأصداف، وانشغل بها عن اللؤلؤ فهذا لهو، فأي شيءٍ تفعله يتناقض مع هدفك الكبير هو لهو.

قال مجاهد: **" إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل ".**

أي قصّة باطلة، قصيدة باطلة، عمل فني باطل لا يقدِّم شيئاً، يستهلك الوقت من دون أن تستفيد منه، أنت وقت، أتُسْتَهْلَكَ هكذا بلا ثمن ؟

4 – قول مالك بن أنس:

وقال ابن القاسم: سألت الإمام مالك عن قوله تعالى:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ)

(سورة يونس: من الآية 32)

قال: لهو الحديث..

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ)

الحق واحد، الحق طريق مستقيم، الحق خط مستقيم بين نقطتين، فأي انحرافٍ عن هذا الخط فهو باطل.

5 – قول البخاري:

الإمام البخاري في صحيحه عقد باباً سمّاه: باب كل لهو باطل إذا شغل عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه: تعالَ أقامرك، وقوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً)

قال: **" إذا شغل عن طاعة الله "**، فهو مأخوذٌ ليضلّ عن سبيل الله.

سبب نزول الآية: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ

بعض علماء القرآن الكريم، ولا سيما من تتبّعوا أسباب النزول، أوْرَدَ في سبب نزول هذه الآية القصّة التالية:

اشترى النضر بن الحارث كتب الأعاجم، فكان يجلس بمكّة، فإذا قالت قريش: إن محمداً قال كذا، ضحك منه، وحدّثهم بأحاديث ملوك الفرس، ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمّد، وقيل: كان يشتري المُغَنِّيَات، فلا يظفر بأحدٍ يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينةٍ فيقول لها: أطعميه، واسقيه، وغني له، ويقول: هذا خيرٌ مما يدعو إليه محمد من صلاةٍ وصيامٍ، وأن تقاتل بين يديه.

هذه القصّة أوردها بعض المفسّرين في تفسير قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

يدفع له مغنيةً، يقول لها: أطعميه واسقيه، وغني له.

إنّ الإنسان إما أنه مع عقله أو مع شهوته، إما يسعى أنه لآخرته أو لدنياه، فالسعيد من سعى لآخرته، ومن كان مع ربّه.

أحاديث نبوية محذِّرة من الغناء:

الحديث الأول:

يقول عليه الصلاة والسلام في حديث أبي أمامة:

((ما من رجلٍ يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما عن هذا المنكب، والآخر على المنكب الآخر، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتّى يكون هو الذي يسكت))

[ورد في الأثر]

لأن الغناء يتناقض مع الهدف الكبير من وجودك في هذه الدنيا.

الحديث الثاني:

ويقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام الترمذي من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ قَالَ:

((أَخَذَ النّبيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِيَدِ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ: فَوَجَدَهُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ: فَأَخَذَهُ النّبيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ: فَبَكَى: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرّحْمَنِ: أَتَبْكِي ؟ أَوَلَمْ تَكُنْ نَهَيْتَ عَنْ الْبُكَاءِ ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ، صَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، خَمْشِ وُجُوهٍ، وَشَقّ جُيُوبٍ، وَرَنّةِ شَيْطَانٍ))

[الترمذي]

أي الغناء والمزامير في الأفراح وفي الأتراح، هذان الصوتان ينهى عنهما النبي عليه الصلاة والسلام.

الحديث الثالث:

وفي حديثٍ آخر رواه الإمام جعفر بن محمد، عن أبيه عن جدِّه، عن عليّ رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلّم:

((بعثت بكسر المزامير))

[كنز العمال]

الصوت الحسن والتغني بالقرآن:

لكن سأقف وقفة قليلة، ما من حاجة عند الإنسان إلى أن يستمع إلى شيء يطربه، أنا أقسم لكم، واسألوا أياً من تحبون ممن تثقون بحديثهم، إن المؤمن ليطرب طرباً بالقرآن لا يصل إليه ذوّاقو الغناء في

العالم، حينما نهاك عن الغناء سمح لك أن تتغنّى بالقرآن، المؤمن إذا استمع إلى القرآن من صوتٍ شجي، يفعل هذا الصوت مع هذا الكلام المقدّس، مع كلام خالق الكون في نفسه فعلاً لا يرقى إليه أي ذواقٍ للغناء، فأحياناً مديح النبي، أحياناً صوت المؤذّن الشَجّي، أحياناً ابتهالاتٌ يسمعها من أناسٍ وهبهم الله صوتاً رخيماً وشجياً، مدائح نبويّة، فكل كلامٍ يرقى بك إلى الله إذا كان بصوتٍ حسنٍ وعذبٍ هذا شيءٌ مسموحٌ به، فأنت حينما تترك الغناء خوفاً من الله عزّ وجل، هناك شيءٌ آخر يحلُّ محلّه، تطرب بالقرآن، تطرب بمديح النبي العدنان، تطرب بالابتهال إلى الله عزّ وجل، فما من شيءٍ أودعه الله في الإنسان إلا وجعل له قناةً نظيفةً يسري عبرها.

الحديث الرابع:

وفي حديثٍ آخر:

((بُعِثْتُ بهدم المزامير والطبل))

الحديث الخامس:

وروى الترمذي من حديث عليّ رضي الله عنه أنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا فَعَلَتْ أُمّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً حَلّ بِهَا الْبَلاءُ))

[من سنن الترمذي عن أنس بن أبي طالب]

الإنسان بين سكرة الأغاني وسعادة القرآن:

فبعضهم يقول: إنّ كبار المغنين الذين أسكروا الناس بأغنياتهم هم سبب تخلّفنا وسبب تقهقرنا، هكذا قال بعضهم في أعقاب النكسات التي ألمّت بأمّتنا، شعبٌ غارقٌ في الغناء، غارقٌ فيما لا يرضي الله عزّ وجل، هذا كيف يتحرّك إلى طاعة الله ؟ كيف يصدر منه الخير ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا فَعَلَتْ أُمّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً حَلّ بِهَا الْبَلاءُ.. فذكر منها.. وَاتُّخِذَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ..))

صار الغناء جزءً أساسياً من حياة الإنسان.

لآن إذا دخلت إلى المحلات التجاريّة، إلى المعامل، أينما تحرّكت تجد الأغاني تصدح بأعلى أصواتها، حتّى إذا سافرت لا تنجو من الغناء، بمركبة عامّة لا تنجو منها، لكن لو أن الإنسان تعرّف إلى الله عزّ وجل يقشعرُّ جلده إذا تليت عليه آية..

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

(سورة الأنفال: من الآية 2)

هكذا وعد الله، الإنسان المؤمن يطرب أشدّ الطرب، يمر بسعادة نفسية لا يرقى إليها كل ذواقي الغناء في العالم.

الحديث السادس:

وفي حديثٍ آخر رواه ابن المبارك عن أنس بن مالك قال عليه الصلاة والسلام:

((من جلس إلى قينةٍ يسمع منها صبّ في أذنه الآنك يوم القيامة قيل: وما الآنك ؟ قال: الرصاص المذاب))

[ورد في الأثر]

الحديث السابع:

وفي حديثٍ قدسي أن الله تعالى يقول يوم القيامة:

((أين عبادي الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان ؟ أحِلّوهم رياض المِسك، وأخبروهم أني قد أحللت عليهم رضواني))

[ورد في الأثر]

الحديث الثامن:

وفي روايةٍ أخرى يقول الله عزّ وجل للملائكة:

((اسمعوهم حمدي وشكري وثنائي، وأخبروهم أن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون))

بشرى للمغني التائب: مَن ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرا منه:

طبعاً الحياة ابتلاء، ربّما كان الغناء محبّباً للنفس، لكن المؤمن حينما يرجو ما عند الله، ويترك ما يحبّ في سبيل الله، فإن الله عزّ وجل يعوّضه خيرٌ منه، لذلك:

((ما كان الله ليعذِّب قلباً بشهوةٍ تركها صاحبها في سبيل الله))

مهما كنت متعلِّقاً، لذلك بعض كبار المغنِّين في العالم، حينما عرفوا الله عزّ وجل، أنفقوا كل ثرواتهم على شراء اسطواناتهم وإتلافها خوفاً من الله عزّ وجل، هناك مغنون كبار في إيطاليا لهم قصص شهيرة حينما دخل الإيمان في قلوبهم ندموا على فعلتهم، هناك أناسٌ يعملون في حقول الفن، حينما عرفوا الله عزّ وجل ذاقوا من السعادة ما لا يعرفونها من قبل.

قرأت بعض المقالات عن أناس تابوا إلى الله، وكانوا غارقين في المعاصي، يصفون أحوالهم مع ربّهم كما يصف العارفون بالله، لذلك إذا دخل الإنسان في حضرة الله عزّ وجل يذوب شوقاً وحبّاً، ويستنقع في الرحمة استنقاعاً، فكبار المغنين أصبحوا من كبار المؤمنين، والشيء الذي يؤسَفُ له أن تجد بعض المنشدين، أو بعض قرّاء القرآن أصبحوا مغنين، هذه الشيء نكسة خطيرة جداً، أما العكس فشيءٌ طيّب.

الحديث التاسع:

وفي حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين في الجنة، قيل: ومن الروحانيون يا رسول الله ؟ قال: قراء أهل الجنة))

[أجرخه الحكيم عن أبي موسى الأشعري، وقال السيوطي: ضعيف]

أخرج الترمذي، وهذا الحديث في نوادر الأصول، وفي كتاب التذكِرة:

((مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ))

[من سنن ابن ماجة عن ابن عبد الله بن الحسين]

وخمر الآخرة شيءٌ آخر..

((مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ))

[من صحيح البخاري عن ابن الزبير]

((ومن مات وعنده جارية فلا تصلوا عليه))

[ورد في الأثر]

يقصد بالجارية هنا المغنية.

يقول لك: **ترك أربعمئة وخمسين شريط غناء، ماذا نفعل فيهم ؟ أتلفها كلها.. ""**

((ومن مات وعنده جارية فلا تصلوا عليه))

وقال الإمام القرطبي: **" الاشتغال بالغناء على الدوام سفهٌ تُردُّ به الشهادة "**، لا تقبل شهادته، إذاً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا)

هذه الهاء تعود على آيات الله..

(هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

وعيد مَن يتخذ آيات الله هزوا:

هناك عذاب أليم، وعذاب عظيم، وعذاب مهين، فالذي يتخذ لهو الحديث ليضلّ الناس عن سبيل الله، معنى هذا الإنسان مخلوق ليسير في سبيل الله، فأي شيءٍ يعيقه عن سبيل الله، أي شيءٍ يصرفه عن سبيل الله هو لهو.

ما هو اللهو ؟ أن تشتغل بالخسيس عن النفيس هذا هو اللهو، فالإنسان له هدفٌ كبير نفيس، فإذا اشتغل بالخسيس، أمضى وقته في الخسيس، استهلك وقته في الخسيس، ضيّع رأس ماله الكبير، وهو حياته في الخسيس، ونسي النفيس فقد انطبقت عليه هذه الآية:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ)

إذاً يجب أن تكون في سبيل الله، معنى السبيل الطريق، أي أنت في الطريق الموصل إلى الله، العقبات التي توضع في الطريق من قِبَل الناس يجب أن تتجاوزها، يجب أن تقفز عليها، لا ينبغي أن تكون هذه العقبة أمامك مانعاً..

(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

الضلال مقرون بالجهل:

لأن الضلال معه جهل دائماً، ليست هذه كما قال: قيد احترازي بل هذا قيد وصفي، أي أن من خصائص الإضلال عن سبيل الله أن الجهل يرافقه دائماً..

(بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

حينما كنّا في الجامعة قرأنا عن شاعر أمضى حياته في الغَزَل، ما مات إلا متسوّلاً على أبواب المساجد..

(أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

حينما جعل من الشعر، هذه الأداة البيانيّة الرائعة، جعل منها طريقاً للفسق والفجور، ولدعوة الناس إلى الانحراف والمعصية فله عذابٌ مهين، فإذا آتى الإنسان الله طلاقة لسان، وقدرةً في الشعر، يمكن أن تُستخْدَم في الحق، وهؤلاء المغنين الكبار الذين ماتوا، قرأت عن حياتهم كانوا في أول حياتهم قُرّاء قرآن، وكانوا مؤذنين، فهذه الطاقة الفنيّة التي يملكونها لو كانوا وظّفوها في القرآن، وفي دعوة الله عزّ وجل لجمعوا بين الدنيا والآخرة، ولكنّهم آثروا الشهرة الزائفة على طاعة الله عزّ وجل..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً)

فائدة مهمة: لا يجتمع في قلب المؤمن غناء وقرآن:

هذا كلام واضح كالشمس، لا يجتمع في جوف المؤمن غناءٌ وقرآن، كلٌ أحدهما يطرد الآخر، فالقرآن يطرد الغناء، أو الغناء يطرد القرآن، فإذا امتلأ جوف الإنسان غناءً لم يبقَ فيه مكان للقرآن، تجده إذا أراد أن يستمع في الإذاعة إلى القرآن يقول لك: اقلب المحطّة، لا يتحمّل، يشعر بانقباض إذا سمع القرآن، لأن جوفه ممتلئ غناءً..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9))

فمن أراد أن يتوسّع في موضوع الغناء فليعد لتفسير القرطبي في تفسير هذه الآية:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (03-13): تفسير الآيات 8 - 11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-05-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7))

العلاقة بين الآيتين السادسة والسابعة:

الآن الآية التي تَلي هذه الآية تتحدّث عن أهل الإيمان، ولكن يجب أن ننظر إلى العلاقة بين الآيتين، يقول الله عزّ وجل بعد قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ)

هذا الذي يُغَنِّي، أو يحبُّ الغناء، أو غارقٌ في الباطل، أو في الشهوات المُنحرفة، أو الذي يبحث عن لذّته، يبحث عن اللذّة، هذا الذي آثر الشهوة على طاعة الله، هذا الذي آثر الدنيا على الآخرة، هذا الذي أراد الشهوة العاجلة على الجنّة الآجلة.

اسمعوا أيها الإخوة قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

هذا هو المؤمن الذي له الجنة في الآخرة:

أي أن المؤمن الذي خاف الله في الدنيا، الذي ضبط جوارحه، الذي كَفَّ أذنه عن سماع ما لا يرضي الله عزّ وجل، الذي غضّ بصره، إذا دُعي إلى شيءٍ لا يرضي الله قال: إني أخاف الله رب العالمين، هذا المؤمن الذي بدا في الدنيا أنه قد حرم نفسه هذه الملذّات، هذا المؤمن الذي بدا لأهل الدنيا أنه حرم نفسه هذه المباهِج، هذا المؤمن الذي ظنّه أهل الدنيا متقوقعاً على نفسه، بعيدٌ عن المُتَع، بعيدٌ عن مباهج الحياة، بعيدٌ عن ما في الحياة من لذّات، هذا المؤمن..

هنا دقّة الآية بعد قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

هؤلاء ما ضاع عليهم شيء ؛ بل كسبوا كل شيء، وأهل الدنيا حَصَّلوا شيئاً، وضيَّعوا بعدها كل شيء، استمتعوا، استمتع بعضهم ببعض، استمتعوا بالملذّات، استمتعوا بالمُحَرَّمات، غاصوا في الشهوات، ومع ذلك جاء الموت فأنهى كل هذه اللذات، ووضعهم أمام حسابٍ عسير.

النقطة الدقيقة أن يبحث في أعماقه عن سعادته ؛ ولكنّه يكون ذكياً جداً، اختار سعادةً لا تنقضي، اختار سعادةً أبديّةً على لذائذ مؤقّتة، أنا أستخدم السعادة واللذّة، اللذّة دائماً مؤقّتة، ودائماً يعقبها نَدَم وتعقبها كآبة، بينما السعادة متنامية وأبديّة، فلذلك دقّة القرآن الكريم أن هناك ترابطاً بين الآيات، عندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7))

هؤلاء المؤمنون الذين ضبطوا شهواتهم، وكفّوا جوارحهم عن المعاصي، وظنّهم أهل الدنيا محرومين، ظنّهم أهل الدنيا مُقَيَّدين هؤلاء هم الطُلقاء..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39))

(سورة المدّثر39)

المؤمن طليق، حتى إذا دخل قبره يمتدُّ قبره مَدَّ بصره، بل إن قبره روضةٌ من رياض الجنّة.

إذاً: من هو الذكي ؟ هل هو الذي نال شيئاً موقّتاً وضيّع الأبد ؛ أم الذي ضبط نفسه في هذه الحياة الدنيا؟ الحياة الدنيا ليس فيها حرمان للمؤمن، ولكن فيها نظافة، فيها نظام، فيها قنوات نظيفة بإمكانه أن يُمَرِّر شهواته عَبْرَهَا، المرأة من خلال الزواج، والمال من خلال الكسب الحلال، والرفعة في الدنيا من خلال العمل الصالح، إنك إن عملت صالحاً ارتقيتَ اسمك في الدنيا، إنك إن كسبت مالاً حلالاً بارك الله لك فيه، إنك إن أردت أن تُحْصِنَ نفسك بزوجةٍ صالحة وفّقك الله إليها، لو دقّقت في حياة المؤمن تجد أن حياة المؤمن ليس فيها شقاء، وليس فيها شعور بالذنب، ليس فيها شعور بالتَمَزُّق، ليس فيها شعور بالانقباض، ومع ذلك من آثر آخرته على دنياه..

والله أيها الإخوة الأكارم، لو عقلنا أبعادَ هذا الحديث لكنّا أناساً آخرين..

((من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ـ دنيا وآخرة ـ ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً))

[ورد في الأثر]

لذلك قال ربنا عزّ وجل بعد:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7) إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

هذه إنّ تفيد التوكيد، تقول: العلم نافعٌ، أو العلم نورٌ، مبتدأ وخبر، مسند ومسند إليه، أما إذا قلت: إنّ العلم نافعٌ، أكّدت هذا الإسناد، فربنا عزّ وجل يقول:

كلامه حق ؛ ولا يؤكِّد لأن كلامه ليس بحق، لكنّه يؤكِّد لنا، ويقول لك:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

وقفةٌ قصيرة عند..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

الدين إيمان وعملٌ:

الذي يَلفت النظر أن كلمة:

(الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

تدور في كل القرآن، إشارة إلى أن الدين اعتقاد وسلوك، فأي فرقةٍ، أي جماعةٍ، أي مجتمعٍ، أي طائفةٍ فَصَلَت الاعتقاد عن العمل، أكّدت على العمل على حساب الاعتقاد، أو أكّدت على الاعتقاد على حساب العمل هي فئةٌ عرجاء.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثَمَرَ، كما أن الإيمان بلا عمل لا قيمة له، كذلك العمل من دون إيمان لا يكون، وإذا كان فلأهدافٍ دنيويّة، فإن واجهت إنساناً مُحْسِنَاً، وليس مؤمناً بالله عزّ وجل فهو ذكيٌّ ذكاءً اجتماعياً، بحيث يحصِّل متعته الاجتماعيّة من خلال ثناء الناس عليه، هذا شأن أهل الغرب، هذا شأن الأذكياء دائماً، دائماً الذكي يلتقي بعمله مع الأخلاقي في النتائج ؛ ولكنهما يختلفان في البواعث، البواعث متباعدة، هذا باعثه على هذا الموقف الأخلاقي، ذكاءه ومصالحه الأرضيّة، وذاك باعثه مواقفه الأخلاقيّة إرضاء الله عزّ وجل، هذا يسعد بأخلاقيّته إلى أبد الآبدين، لأنه أراد بهذا وجه الله الكريم، وهذا يقطف ثمار أخلاقيّته في الدنيا فقط..

(وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ)

(سورة البقرة200)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

إذاً: إذا أراد الإنسان العمل الصالح من دون إيمان ففي نيّته خلل، هو ينوي انتزاع مديح الآخرين، ينوي السمعة، ينوي المركز الاجتماعي، والله سبحانه وتعالى ربُّ النيات، والذي يقول لك: أنا مؤمن، ويركِّز على ما في الإسلام من أفكار، ولا ترى في عمله ما يوافق أفكاره، كلا الطرفين قد ضَيَّع شطر الدين، لذلك دائماً وأبداً أكثر من ثلاثمائة أو أربعمائة آية تقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

الإيمان والعمل شرطان متلازمان غير كافيين:

أي أن إيمان بلا عمل لا قيمة له، وعمل بلا إيمان لا قيمة له، يمكن أن نقول: الإيمان والعمل شرطان لازمان غير كافيين، عندك أسطوانة غاز ولكن ما عندك رأس، عندك رأس وما عندك أسطوانة، لا الرأس وحده يُجْدِي ولا الاسطوانة وحدها تجدي، نقول: الاسطوانة ورأس الغاز شرطان لازمان غير كافيين، كلٌ منهما شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، فالنقطة دقيقة جداً:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

افحص عملك دائماً، وعملوا الصالحات مطلقة، إتقان عملك جزءٌ من الدين، افحص عملك، إخلاصك في بيعك وشرائك جزءٌ من الدين، والدين في المعمل، والدين وراء الطاولة كموظّف، والدين في العيادة، والدين في المكتب الهندسي، والدين في مكتب المحاماة، والدين في المِهَن، وفي التعامل، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أبواب العمل الصالح كثيرة:

عمل صالحاً ؛ في مهنته، في علاقاته، في أفراحه عمل صالحاً، في أحزانه عمل صالحاً، في لقاءاته، في نُزهاته، في مرحه، في كل نشاطاته الحياتيّة عمل صالحاً، فعمل صالحاً، أي أنه طبّق الأمر، واجتنب الأمر، وتقرّب إلى الله، بشكل مختصر، طبّق الأمر، واجتنب النهي، وقدّم شيئاً من ماله أو من وقته، أو من علمه أو من خبرته في سبيل الله، فالتزام الأمر، واجتناب النهي، وبذل المعروف، بمجموع هذه النشاطات الثلاثة هو العمل الصالح، وأن تعتقد بأن الله خالق الكون، وربُّ الكون، وإله الكون، موجودٌ، وواحدٌ، وكامل، أسماؤه حسنى، صفاته فضلى، هذا هو الإيمان، وأن تؤمن به وبرسله وباليوم الآخر والقدر خيره وشرّه، هذا الدين كلمات مجملة، موجزة، مكثّفة. إنّ حرف توكيد..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا)

آمن بالله خالقاً، آمن به رباً، آمن به مسيّراً، آمن به رحيماً، آمن به حكيماً، آمن به كبيراً، آمن به غنياً، آمن به موجوداً، آمن به واحداً، آمن بأنه كاملٌ..

(وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف 180)

والعمل الصالح أن يتقرّب إليه بما رزقه، الغني بماله، والعالِم بعلمه، والوجيه بمكانته، والخبير بخبرته، والقوي بعضلاته، والفارغ بوقته..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

لكن هم السعداء، هؤلاء هم الأذكياء، هؤلاء هم الفائزون، هؤلاء هم الرابحون، هؤلاء هم المتفوّقون، هؤلاء متى تُعْرَف مكانتهم ؟ حينما يقول الله عزّ وجل:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يس 59)

ابتعدوا عنهم.

الدنيا دار الامتحان والفرز:

في أثناء العام الدراسي تكون الأوراق مختلطة، كل الطلاب يأتون الساعة الثامنة، يرتدون ثيابهم الأنيقة والنظيفة، كلهم طلاب، عند أهلهم، وعند المجتمع، وفي الطريق يرتدي زيّ الطالب، لكن من الذي يعرف المجتهد من الكسول ؟ هذا يُكشَف يوم الامتحان، أو يوم إعلان النتائج، هُناك الفَرْز. الآن نحن في الدنيا، المؤمن موظّف، المؤمن تاجر، المؤمن قد يكون صانعاً، قد يكون حاجباً مؤمناً،

يأكل ويشرب كغيره من الناس، له بيت، وله غرفة ضيوف، وغرفة استقبال، وغرفة نوم، ويأكل، ويشرب، ويعمل، الأوراق مختلطة، لكن متى تظهر بطولة المؤمن ؟ حين يقوم الناس لرب العالمين، هذا عرف الله، هذا قدّم الغالي والرخيص، هذا كان همُّه مقدّساً، همُّه أن يعرفه، همه أن يعبده، همه أن يتقرّب إليه.

ثمن النجاح في الامتحان جنات عدن:

فلذلك هؤلاء المؤمنون، الصادقون، المخلصون الذين كان عملهم صالحاً، هؤلاء ليس لهم جنّة نعيم ؛ بل لهم جناتٌ النعيم، هناك معنى للجمع، أي جنّة القرب، وجنة الفواكه التي تقدّم لهم مما يشتهون، وجنّة الحور العين، هكذا قال أحد أصحاب رسول الله، طولب بشيءٍ فوق طاقته، طالبته زوجته بشيءٍ ما فعله أصحابه من قبل، قال: **" يا فلانة، إن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهنّ على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهنّ من أجلك ".**

كلمة جنّات، القرب جنة، أنهار من عسل مصفّى، و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، و أنهار من خمر لذّةٍ للشاربين، لا فيها غولٌ، طعمها مستساغ، ولا تغتال العقول، العسل مصفّى، الخمر لذّة للشاربين، اللبن لم يتغيّر طعمه، الماء غير آسن، السدر مخضود ليس فيه شوك، فهذه جنّة ؛ جنّة الطعام والشراب، جنة حور العين، جنة الأبد، الإنسان في الدنيا دائماً قلق، هل يا ترى الله يطول في عمره ؟ لا يعرف، فعندما يستقرُّ وضعُ الإنسان الاجتماعي، والمالي، وينجح في الحياة ينشأ عنده قلق الموت، يا ترى متى سأموت ؟ بعد كم سنة ؟ هناك شيء اسمه قلق في الدنيا، أما في الآخرة فالمؤمنون خالدون فيها أبدا..

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

ربنا عزّ وجل اختار من الجنات النعيم، لأن هذا الذي يشتري لهو الحديث يتوهّم أنه في نعيم، النعيم الحقيقي لهؤلاء المؤمنين الصادقين، المستقيمين، الملتزمين الذين ائتمروا بما أمر الله، وانتهوا بما عما عنه نهى، هكذا..

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

جنّات، والنعيم نعيمٌ لا ينقطع، أحد الشعراء وهو لبيد قال:

ألا كل شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ

***

سمع النبي هذا البيت فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللّهَ بَاطِلٌ))

[متفق عليه]

هذا كلام شعراء، ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ، هذا صحيح، أما كل نعيمٍ لا محالةَ زائلُ، فهذا باطل، لأن نعيم أهل الجنّة لا يزول..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ جَنّاتُ النّعِيمِ)

أي أن هذه الدنيا المحدودة، هذه السنوات العشرون، أو العشر، أو الثلاثون، فالإنسان حتى يستطيع أن يقول لك: أنا، بعد أربعين سنة من حياته، حتى يقول: أنا، ويكتب: مجاز في الآداب مثلاً، أو دكتور، أو بورد مثلاً، حتى يكون له بيت مرتّب، حتى يكون له عيادة، حتى يكون له مركبة، هذه تحصل في الأربعينات، والناس يموتون في الخمسينات، كلما مات أحد يسأل: متى مات ؟ في الثالثة والخمسين، أو التاسعة والأربعين، أو الثالثة والستين... فكل العملية عشر سنوات، عشر أو عشرين سنة، أن نضيّع الآخرة من أجل هذه السنوات العشر، وفيها نكد.

لا سعادةَ للمُعرض عن الله أبدا:

أقول لكم هذه الكلمة: أنا أتحدّى أن يسعد إنسانٌ في الدنيا، وهو معرضٌ عن الله عزّ وجل، أبداً..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه 124)

لو كان غنياً، ولو كان قوياً، سُئِلَ بعض العلماء: ما بال الملوك والأغنياء مع هذه الآية ؟ قال: ضيق القلب، إن في قلب هؤلاء من الضيق، والقلق، والضعف، والخوف، والتشاؤم، والانقباض ما لو وزّع على أهل بلدٍ لكفاهم.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)

(سورة الكهف 107)

الآية الثانية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل 97)

القرآن كلام خالق الكون، هو الذي يدعوك للإيمان بالقرآن، أنك إذا طبّقت آياته قطفت ثماره، هل تظن أن هناك أدلّة على إعجاز القرآن، وهذه الأدلّة كافية ؟ لا والله، الأدلّة الكافية أنك إذا غضضت بصرك عن محارم الله أورثك الله لذّةً وسعادةً إلى يوم تلقاه، أنك إذا استقمت على أمره لا تخاف ولا تحزن..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت 30)

أنك إذا التزمت أمره غمرك بالأمن..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام 82)

دخل رجل إلى بعض الفنادق في بلاد أوروبا، فرأى لوحة على السرير: **" إذا أرقت في هذه الليلة فهذا لا يعود إلى نوع الأثاث، ولا إلى الفراش، بل إلى ذنوبك أنت".**

إذا ارتكب إنسان المعاصي، ارتكب الموبقات، تفلّت من منهج الله عزّ وجل، تحرّك حركة عشوائيّة، قادته نفسه، استهدف هواه، هذا شقيٌ، ففي بالإيمان سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، إذاً:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

معنى: خَالِدِينَ:

1 ـ السعادة وعدم الملل:

معنى خالدين، هناك معنى إضافي على الاستمرار، أحياناً الإنسان يقبع الإنسان في مكان سنوات، عشر سنوات، خمسين عاماً، أما كلمة خالدين، فخلد إلى الشيء أي مال إليه، أي أن هذا الاستمرار مع الميل، مع السعادة، مع السرور، فليس معنى الخلود هو الاستمرار فقط، لا.. للخلود معنى آخر، معناه السعادة المتعاظمة، السعادة المتنامية، الإنسان مهما كان في مكان جميل، فالإنسان إذا جلس في مكان جميل أول يوم يكون فرحاً كثيراً، ثاني يوم وثالث يوم، أقصى مدة أسبوع، ويقول لك: والله مللنا، يكون في أجمل مكان، وسط جبال خضراء، تطل على ساحل جميل، ليس عنده هموم، الأماكن الجميلة في الدنيا متعتها محدودة، واسأل سُكّان بلد جميل تجد أنهم ملّوا، اسأل إنساناً عنده شرفة مطلّة على الشام يقول لك: والله من شهر لم أدخل إليها، اسأل إنساناً عنده حديقة جميلة يقول لك: والله من كذا شهر لم أدخلها، الجمال في الدنيا محدود، والجمال في الدنيا يُمَلّ، عندما قال ربنا:

(خَالِدِينَ فِيهَا)

2 ـ تجدُد المتعة:

معنى الجمال في الآخرة متجدِّد، لو لم يكن متجدِّداً ومتنامياً لما كان الإنسان فيها خالداً، الخلود هو المَيل المستمر، فأنت قف في شرفة قطار، والقطار واقف، مهما كان المنظر جميلاً تقف خمس دقائق، وبعدها تجلس وتمل، القطار إذا كان ماشياً، وينقلك من واد إلى واد، من جبل إلى جبل، من بحيرة إلى بحيرة، ما دام هناك تجدُّد فلا يوجد ملل أبداً.

إذاً: لا يكون الإنسان في الآخرة خالداً إلا إذا كانت المُتَعُ متجدِّدةً ومتنامية، هذا معنى خالدين فيها، الله عزّ وجل قال:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

دائرة المسموعات والمرئيات والخواطر:

فكل مشاهداتك لا تفيدك في توقُّع ما في الآخرة، وكل مسموعاتك لا تكفي، وكل خواطرك، مع أن هناك ما لا عينٌ رأت، دائرة المشاهدات محدودة جداً، كل واحد منا يعرف خمسة أو ستة بلدان من العالم، يقال: والله فلان يعرف اليابان، ما شاء الله، وأمريكا، وإفريقيا واستراليا، هذا نادر جداً، هذا يعرف أوروبا، هذا اليابان، هذا آسيا، هذا الأردن فقط، هذا ذهب إلى تركيًا، هذا على العمرة فقط، المشاهدات محدودة.

أما المسموعات فأنت تسمع في الأخبار عن مئتي بلد في العالم، وأسماء عواصم، وأسماء قبائل، وأسماء بُلدان، وأسماء دول، تسمع عن المجرات، فالمسموعات واسعة جداً، فدائرة المشاهدات بالنسبة إلى دائرة المسموعات نسبتها ضعيفةٌ جداً، ودائرة المسموعات إذا قيست بدائرة الخواطر نسبتها ضعيفةٌ جداً، الحديث القدسي يقول:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

هذه هي قيمة الدنيا عند رسول الله:

هذه الآخرة أنضيعها من أجل لُعاعةٍ من الدنيا ؟!

1 – الأنصار وقسمة غنائم هوازن:

((لَمّا أعْطى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا أعْطى مِنْ تِلْكَ الْعَطايَا في قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذا الْحَيُّ مِنَ الأنْصَارِ فِي أنْفُسِهِمْ، حَتّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، حَتّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، إنّ هَذا الْحَيّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذا الْفَيْءِ الّذِي أصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذا الْحَيّ مِنَ الأنْصَارِ شَيْءٌ منها...))

ماذا قال النبي الكريم بعد أن جاءه الصحابي سعد بن عبادة وقال: يا رسول الله إنّ قومي وجدوا عليك في أنفسهم غصبوا منك من أجل هذا الفيء، أي الغنائم، فالنبي الكريم بعد معركة هوازن وزّع الغنائم على المؤلّفة قلوبهم، أما الأنصار فما خصّهم بشيء، ووكّلهم إلى إسلامهم، هو حكيم، فالأنصار يبدو أنهم وجدوا عليه في أنفسهم، لأن عطاء رسول الله شرفٌ عظيم، وفاتَهُم هذا الشرف، هكذا نفسر نحن، فتململوا، وتضايقوا، ووجدوا، وتألّموا، سيدنا سعد كان صريحاً، لأنه لا مجاملات في الإسلام، ولا مواقف مبطّنة، فقال له: **" يا رسول الله إن قومي وجدوا عليكَ في أنفسهم في هذا الفيء الذي قسمته "** قال النبي:

((فَأيْنَ أنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، مَا أنَا إلا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ النّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ، فَرَدّهُمْ، فَلَمّا اجْتَمَعُوا أتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذا الْحَيُّ مِنَ الأنْصَارِ، قَالَ: فَأتَاهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَحَمِدَ اللّهَ، وَأثْنَى عَلَيْهِ بِالّذِي هُوَ لَهُ أهْلٌ...))

اسمعوا الآن إلى كلام النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلالا فَهَدَاكُمُ اللّهُ ؟ وَعَالَةً فَأغْنَاكُمُ اللّهُ ؟ وَأعْدَاءً فَأَلّفَ اللّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُم ؟ قَالُوا: بَلِ اللّهُ وَرَسُولُهُ أمَنُّ وَأفْضَلُ، قَالَ: ألا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ ؟ قَالُوا: وَبِمَاذا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ وَلِلّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: أمَا وَاللّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أتَيْتَنَا مُكَذّبًا فَصَدّقْنَاكَ، وَمَخْذُولا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلا فَأغْنَيْنَاكَ، أوَجَدْتُمْ فِي أنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدّنْيَا تَألّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إلَى إسْلامِكُمْ ؟ أفَلا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ أنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَ الّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأ مِنَ الأنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأنْصَارِ، اللّهُمّ

ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، قالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَتَفَرّقْنَا))

[مسند أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ]

يا معشر الأنصار... من أجل لُعاعةٍ ـ انظر إلى انتقاء الكلمة ـ لعاعةٍ من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم.. أي شيء تافه جداً، الدنيا كلُّها عند النبي تافهة..

فلان ثمن بيته ثلاثة وعشرون، أنت ألا ترضى أن يحبك الله، وأن تكون طائعاً لله، هذا خير من هذا البيت الواسع، فالبيت لن يطول، اقرأ النعوات، كلها: وسيشيَّع إلى مثواه الأخير، معنى هذا أن البيت الحالي مثوى مؤقّت، شيء موقت..

((ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ يا معشر الأنصار أما إنكم لو قلتم..))

اسمعوا الآن السياسة الحكيمة، اسمعوا الوفاء، اسمعوا العفو، اسمعوا مكارم الأخلاق..

((يا معشر الأنصار، أما إنكم لو قلتكم فلصدقتم ولصدِّقتكم..))

إذا قلتم هذا الكلام فأنتم صادقون ومصدّقون، أتيتنا مكذّباً فصدّقناك، وطريداً فآويناك، ومخذولاً فنصرناك، بدأ بفضلهم عليه، أذابهم..

((يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ؟))

ألم تكونوا ضالين ؟ كنتم منحرفين ؟ كنتم ضائعين ؟ كنتم شاردين ؟ كنتم شاربي خمر ؟ كنتم متخاصمين ؟ كنتم أعداء متباغضين..

((ألم تكونوا ضُلالاً فهداكم الله ؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله ؟..))

ما قال لهم: فأغنيتكم.. إنه أديب، قال عليه الصلاة والسلام:

((ألم تكونوا ضُلالاً فهداكم الله ؟))

ما أنا الذي هديتك، لي فضل عليك..

((ألم تكونوا ضُلالاً فهداكم الله ؟ ألم تكونوا أعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله؟ أوجدتم علي في أنفسكم من أجل لُعاعةٍ تألفتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟))

وأنا معكم

نحن الآن إذا كان مصير أحدنا في الدنيا أن الله يحبه، ألا تكفي هذه ؟ نصيبه أن الله راضٍ عنه، نصيبه أنه مستقيمٌ على أمر الله، نصيبه أنه متعففٌ عن المال الحرام ألا تكفي هذه ؟

2 – قصة بكاء عمر في بيت النبي:

سيدنا عمر دخل على النبي، سيد الخلق، وكان مضطجعاً على حصير أثر على جنبه الشريف، فبكى عمر، قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:

((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ، قَالَ: فَجَلَسْتُ، فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَقَرَظٍ فِي نَاحِيَةٍ فِي الْغُرْفَةِ، وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللّهِ، وَمَالِي لَا أَبْكِي، وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَلِكَ كِسْرَى وَقَيْصَرُ فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ نَبِيُّ اللّهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ ؟ قَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ، وَلَهُمْ الدُّنْيَا، قُلْتُ: بَلَى))

[ابن ماجه]

يجب على الإنسان إذا كان مستقيماً على أمر الله أن يشعر بالغنى، يشعر أنه فائز، متفوق، يشعر أن الله عزّ وجل كَرَّمَهُ بالهدى..

(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال23)

لا يوجد من الإخوة الحاضرين مَن إذا استمع إلى الحق إلا وله بشارة عند الله، البشارة أن الله عَلِمَ فيه خيراً، والدليل أنه أسمعه الحق:

(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

إذاً:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا)

من لوازم الخلود: الاستمرار والتجدد والتنامي:

الخلود إذاً هو التجدد والتنامي، ليس معنى الخلود الاستمرار، فمثلاً: تقرأ بالقرآن الكريم يقول لك:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر)

(سورة النور36)

الإنسان يتوهم أحياناً أن كلمة (رجل) تعني الذكر، لا، فكلمة رجال هنا في هذه الآية لا تعني أنهم ذُكْرَان، تعني أنهم أبطال، كما قال سيدنا سعد قال: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، ما صليت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها ـ هذه الرجولة والبطولة ـ وما سرت**

في جنازةٍ فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، وما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى >>.

فكلمة خالدين لا تعني أنهم مستمرّين فقط، تعني أن سعادتهم متناميةٌ ومتجددةٌ.

(وَعْدَ اللّهِ حَقّاً)

خالق الكون وَعَدَ..

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللّهِ)

(سورة التوبة)

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء 87)

تحقّق وعد الله وعيده: وَعْدَ اللّهِ حَقًّا

لذلك ربنا عزّ وجل مثلاً قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل1)

فبربكم من منكم رأى هذه الحادثة ؟ ولا واحد، ولا أنا رأيتها، كيف يقول الله:

(أَلَمْ تَرَ)

لو قال: ألم تسمع معقولة أكثر.

(أَلَمْ تَرَ)

قال بعض المفسرين: إخبار الله عزّ وجل لأنه من الله عزّ وجل في حكم المّرْئِيّ، من أخبرك عن هذه الحادثة ؟ خالق الكون كأنك تراه، تصديقك لما قاله الله عزّ وجل يرقى إلى مستوى الرؤية، هذا معنى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

لم يقل ألم تسمع.. ووعد الله عزّ وجل يأتي دائماً أو أحياناً كثيرة بصيغة الماضي، لماذا ؟ القضية انتهت..

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل)

لم يأت بَعْدُ، والدليل:

(فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

في حكم المأتي.

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117))

(سورة المائدة)

هذا الشيء لم يحصل بعد، هذا الشيء سيحصل يوم القيامة، كيف قال الله:

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى)

لأن إخبار الله عن المستقبل في حكم الماضي، إخبار الله عزّ وجل عن شيءٍ لم تره في حكم رؤيته، هذا معنى قوله تعالى:

(وَعْدَ اللّهِ حَقّاً)

يجب أن تؤمن، ماذا قال النبي:

((كأنني بأهل النار يتصايحون، وكأنني بأهل الجنة يتنعمون))

[ورد في الأثر]

كأنه رأى، وأنت كمؤمن، إن رأيت إنساناً منحرفاً فلك أن تقول: كأنني أراه سيحاسب، كأنني أراه سيعالجه الله عزّ وجل، وإن وجدت إنساناً مستقيماً وفي ضائقة مادية شديدة، قل وأنا معك: كأنني أراه سيوَفّق، كأنني أراه سينصره الله عزّ وجل، لأنه الآن في الامتحان، إن وجدت الإنسان المستقيم فتتفاءل، خالق الكون وعده، من أنت ؟ خالق الكون وعده.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

هذه الحياة مؤقتة، هذه امتحان، وقد سئل الإمام الشافعي: **أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء ؟ "**، فقال الإمام الشافعي: **"لن تُمكّن قبل أن تبتلى "**، فأي مؤمن طلب رضاء الله عزّ وجل فأمامه امتحان، هل تريد ما عند الله ؟ من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه..

ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا

***

(وَعْدَ اللّهِ حَقّاً)

إنّ زوال السماوات والأرض أهون على الله من أن لا يكون وعده حقاً، فإذا وعد المُنحرف بالدمار قل: كأنه دُمِّر..

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدّى اللّهُ عَنْهُ ـ وفّقه ـ وَمَنْ أَخَذَ ـ يكون ذكيا جداً، وأخذ احتياطاً بالغ ـ يُرِيدُ إِتْلافَهَا ـ رأينا بأم أعيننا ـ أَتْلَفَهُ اللّهُ))

[صحيح البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

هذا قول سيدنا سعد: **<< وما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى>>.** فإذا أخبرك النبي عن الله بشيء فهو لا ينطق عن الهوى، إن هو وحيٌ يوحى، فلك أن تقول: كأنني أرى وعد الله قد وقع، وكأنني أرى وعيد الله قد وقع، هكذا قال النبي:

((كأنني بأهل الجنة يتنعمون))

[ورد في الأثر]

هذا أحد الصحابة قال: **<< كيف أصبحت يا فلان ؟، قال: أصبحت كأنني أرى أهل الجنة يتنعمون، وأهل النار يتصايحون، قال: عبدٌ نور الله قلبه، عرفت فالزم >>.**

إذا شاهدت مثلاً شاهدت إنساناً راكباً مركبة، ماشياً في انحدار شديد، وأنت متأكد أنه لا يوجد معه مِكبح، وتراه بعينك ماشياً بسرعة عالية جداً ألا تقول: لابدّ من أن يتدهور، لأنه قانون حتمي، لم يتدهور بعد، انتظره على أول منعطف، شيء قطعي، إن وجدت متفجرة، ولها فتيل طويل، وأشعلنا أول الفتيل، ماذا تقول ؟ بعد قليل سوف تسمع صوت انفجار، لأن الفتيل يمشي، شيء بديهي جداً، فقوانين ربنا عزّ وجل حتمية الوقوع، لأنه الخالق، وهكذا قال الله عزّ وجل.

(خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

علاقة العزيز الحكيم بوعد الله:

فما علاقة العزيز الحكيم بوعد الله حقاً، فإذا وعدك إنسان وعدا، وأتيت على وعده، يقول لك: والله لا تؤاخذني، لم أتمكن، ألم يصغر في نظرك قليلاً ؟ وهو ألا يستحي أمامك قليلاً ؟ من هو العزيز ؟ الذي لا ينال جانبه، لو أن الله عزّ وجل وعد المؤمن، ولم يفِ بوعده لم يعد عزيزا، لأنه عزيز فإذا وعد وفى، إله لا راد لقضائه، لا توجد جهة ثانية تجبره، واحدٌ أحد فردٌ صمد..

(قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ (1) اللّهُ الصَّمَدُ (2))

(سورة الإخلاص)

مِن لوازم العزة: عدمُ الافتقار:

أي أن وجوده ليس مفتقراً لشيء آخر، الإنسان يقول لك: والله لم أتمكن، هذا يحتاج إلى توقيع من جهة عالية، لم يوافق، دائماً في عنده أعذار، أما ربنا عزّ وجل خالق كل شيء، كن فيكون.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ

أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ، إيّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

لا تقل لي: أقدار، وليس لي حظ، الدهر قلب لي ظهر المِجَن، والأقدام سخِرت مني، والدهر يوم لك ويوم عليك، والدهر خوّان، هذه كلها كلمات الجهل، لا يوجد إلا الله..

((يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدّهْرَ، وَأَنَا الدّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

لا يوجد إلا الله عزّ وجل فلان مسكين لا يوجد عنده حظ، ما هذا الحظ ؟ غير موفق، أي أن المعالجة أمامه، ولا حظ له، ويده حمراء، هذا كلام كله ليس له معنى.

الإنسان وقانون التيسير والتعسير:

البشر صنفان:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

هذا القانون، هذا قانون التيسير والتعسير، وإذا وجد التعسير فهو لصالح المؤمن:

(فَإِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

(سورة الشرح)

لا يغلب عسرٌ يُسْرَين.

(فَإِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

الكلمة المعرّفة بـ (أل) إذا تكررت فهي ذاتها، أما النكرة إذا تكررت اختلفت، فصار عندنا عسر واحد ويسران.

(فَإِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

هناك معنى دقيق جداً، أي أن هذه المصيبة في طياتها الفرج، في طياتها التوبة، في طياتها اللجوء إلى باب الله عزّ وجل، في طياتها الإكرام، ظاهرها مصيبة، حتى إن بعض العلماء فسر قوله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان 20)

قالوا: النعم الباطنة هي المصائب، كل المصائب نعمٌ باطنة، ظاهرها مُزعج، وباطنها مُسعد.

إذاً:

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

الكون والكواكب:

أولاً الكون مؤلف من كُتَل، كواكب ونجوم، هذه الكتل متفاوتة في الحجم، متفاوتة في المسافة، لولا أن هذه الكتل، وهذه الكواكب، وهذه النجوم تدور، لأصبح الكون كله كتلةً واحدة بفعل الجاذبية، لكن لأنها تدور، كل كوكب أو كل نجم في أثناء دورانه ينشأ عن دورانه قوى نابذة، كما لو أخذت وعاء من الماء مفتوحاً من جهة وأدرته هكذا، إذا جعلته في الأعلى جهة الفتحة نحو الأسفل، فالماء لا ينزل، وهذا الشيء معروف، لماذا لا ينزل ؟ لأن الماء اندفع بقوة نابذة بفعل الدوران، وهذا مبدأ عصارات الفواكه، مبدأ تنشيف الألبسة، الدوران السريع ينشئ قوى نابذة دائماً، فالكون متوازن، قوى التجاذب تكافئ قوى التنابذ، فربنا عزّ وجل قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

لو أتينا بكرتين مغناطيسيّتين، وضعناهما على سطحٍ ثقيل، لابدّ من أن تتجاذبا، إلا إذا وضعناهما بمكان دقيق جداً مدروس على مستوى الميكرون، هذا الشيء فوق طاقة البشر، ثلاث كرات أصعب، أربع أصعب، أو أربعة بحجوم متفاوتة فهذا أصعب بكثير، أو كرات في الفراغ أصعب وأصعب، أو كرات متحركة في الفراغ متجاذبة فيما بينها بقانون دقيق جداً، والمحصلة حركة من دون تصادم، هذا الشيء يكاد يكون معجزا.

قيل: إن القمر مربوط بالأرض بقوة جذب تكافئ حبلاً من الفولاذ المظفور قطره خمسون كيلو مترا، القمر مربوط، والشمس كذلك، بين كل كوكبين قوى تجاذب، فكأن هذه السماوات مرفوعة بعمد، ولكن لا ترونها، هذه العَمَد هي قوى التجاذب، لذلك:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(ترونها) قَيْدٌ وَصْفِي، لا قيدٌ احترازي..

(بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ

1 ـ علاقة الجبال باستقرار الأرض:

كيف أن العجلة على السرعة العالية تضطرب، يضعون لها الرصاص، يضعها على ميزان، وفي أثناء الدوران يظهر المؤشر بخمسة غرامات، تقف العجلة، يعرف مكان الخمس غرامات، يضع الخمس غرامات، الآن على الدوران السريع تبقى مستقرة، كذلك هذه الجبال جعلها الله في أماكن محددة، فتكون الأرض في أثناء الدوران السريع مستقرة، ولولا أنها مستقرة لما قام بناء، والدليل الزلازل، فالزلازل تعليم لنا، لأن الله عزّوجل يقول:

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل 61)

من جعلها مستقرة ؟ من جعل الأشياء تستقر عليها بقوى الجاذبية ؟ من جعلها متحرّكة ساكنة؟ فالسكون الحركي هذا أصعب شيء، الشيء الساكن ساكن، والمتحرك متحرك، أما السكون الحركي، فهل يمكنك الركوب في طائرة دون الشعور باهتزاز؟ مستحيل، مهما تكن الطائرة غالية من حين لآخر تحس باهتزاز ؟ تركب مركبة من دون اهتزاز، قطار بلا اهتزاز ؟ لا يمكن ذلك، لكن الأرض تسير بسرعة ثلاثين كيلو متر في الثانية، ومع ذلك مستقرة، من جعلها مستقرة؟ من جعلها متحركة ساكنة ؟ من جعل الأشياء عليها مستقرة؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

إذاً..

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

2 ـ طبيعة الجبال:

أي لئلا تميد بكم، في شيء آخر.. أن الأرض طبقات، فهذه الجبال لها أوتاد في أعماق الأرض تعادل ضعفي ارتفاعها فوق الأرض، كالسن تماماً، له جذر يساوي ثلثي نتوئه فوق النيرة، فالجبل له ارتفاع فوق سطح الأرض، وله جذر ممتد في أعماق الأرض، هذا الجذر يربط طبقات الأرض بعضها ببعض، فإذا دارت الأرض لاختلاف كثافة طبقاتها تبقى مستقرة، لو أنها دارت وطبقات متفاوتة في الكثافة لاضطربت، والدليل: ائت ببيضة غير مسلوقة ودوّرها تضطرب، لو سلقتها لا تضطرب، بالسلق تصبح متجانسة، من دون سلق تصبح متفاوتة في التجانس، فمن معاني:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

هذه الجبال جعلها الله كالأوتاد تربط طبقات الأرض بعضها ببعض، المعنى الآخر: الدوران السريع يسبب اضطراب، وضعُ هذه الجبال في أماكن محددة يجعل الأرض تدور باستقرار، تدور من دون اضطراب.

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ

الأنعام، من كل دابة، أنت بحاجة إلى غنم، إلى ماعز، إلى بقر، إلى جمال، بحاجة إلى كلاب للحراسة، هذه الدواب بثها الله في الأرض كلها لها فوائد، لها وظائف منها، وشيء ملموس، وشيء غير ملموس، وشيء مباشر شيء وغير مباشر..

(وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

مجموعة آيات ؛ آية قوى التجاذب فيما بين الكواكب والمجرات، آية الجبال، وكيف أنها تحقق التوازن وتربط طبقات الأرض بعضها ببعض، وآية بَثَّ فيها من كل دابة، وآية المطر..

(فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ)

ذلكم الله رب العالمين..

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل88)

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

أسلوب التحدي: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ

أي أن هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله هل فعلوا هذا ؟ هل أنزلوا الماء من السماء؟ هل ألقوا في الأرض الرواسي والجبال ؟ هل أمسكوا السماوات والأرض؟

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر41)

إنّ بقاء كل كوكبٍ على خط سيره يحتاج إلى قوة جبارة، من يمسك هذه السماوات من أن تزول ؟ الله رب العالمين..

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ)

(سورة الحج 65)

آية أخرى.

(هَذَا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

بَلِ الظّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

ما هو الضلال المبين ؟

لو فرضنا إنساناً يسير في طريق عريض جداً، وعلى عرض الطريق لوحة مرتفعة ومكتوبة بمادة مشعة، أحياناً بعض الطرقات الكبيرة يقول لك: هنا مكة، كلمة (مكة) عرضها ثمانية أمتار، فلو رأى الشخص هذه اللوحة، وسار في طريق آخر نقول: هذا ضلال مبين، لأن اللوحة واضحة جداً، فلأن الحق واضح جداً كان الابتعاد عن الحق ضلالاً مبيناً، شيء كبير ألم تره ؟ لوحة كبيرة جداً مشعة ألم ترها ؟ الإنسان لمَ يضل عن سبيل الله عزّ وجل، ليس سبيل الله صعب الإدراك، ولا صعب الالتماس، لا، هو شيء واضح، قال له: **" يا إمام متى كان الله ؟ "**، فقال له: **" ومتى لم يكن ؟ "**، كان الله ولم يكن معه شيء، فلذلك الضلال ضلال الضالين ضلالٌ مبين، وهناك ضلال بعيد، البعيد أن الإنسان يمشي في طريق، ويتوغل في مئتي كيلو متر بعيداً عن الطريق الأساسي، هذا ضلال بعيد، في ضلال مبين، إذاً:

(هَذَا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

ما هم الظالمون ؟

مَن هم الظالمون ؟ الذين ظلموا أنفسهم بعدم إيمانهم بالله، وهذا أشد أنواع الظلم، أشد أنواع الظلم أن تظلم نفسك، فإذا قال الإنسان كلمة (ظلم) فإنه ينصرف ذهنه إلى ظلم الآخرين، لكن الحقيقة الكبرى أن أشد أنواع الظُلم أن تظلم نفسك، أن تحرمها من معرفة الله، أن تحرمها من طاعة الله، أن تحرمها من الإقبال على الله، أن تحرمها من الاتصال بالله، هذا الظلم، هذا الظلم الكبير، هذا الظلم الذي لا يغتفر، لذلك:

(بَلِ الظّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

نعمة الهداية:

إذا عرف المؤمن الله عزّ وجل، وألقى الله في قلبه نوراً يرى أهل الدنيا ضالين، يراهم تائهين، يراهم شاردين، يراهم في ضلال مبين، يراهم في طريق مسدود، أو طريق ينتهي بحفرةٍ سحيقةٍ ما لها من قرار، فلذلك يجب أن تعلم علم اليقين أن أثمن نعمةٍ أنعم الله بها عليك أنه عَرَّفَكَ بذاته، وهداك إليه، ودلّك على ذاته، وألهمك رُشْدَكَ، وجعل هذا الشرع بين يديك، هذه نعمةٌ عُظمى..

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرّقُوا)

(سورة آل عمران 103)

وحبل الله هو القرآن.

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النّار فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا)

(سورة آل عمران)

إذا كان الإنسان في الجاهلية تاركا للصلاة، منحرفاً، يأكل المال بالحرام، ينتهك حُرُمات الله، له انحرافات في شهواته، غارقاً في ملذاته، تائهاً، شارداً، هذا هو الضلال المبين، هذا هو الشقاء، هذا هو الظلم الكبير، لذلك:

(بَلِ الظّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(هَذَا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

كلمة (من دونه)، أي أن شيءٍ سوى الله دون الله، فإذا كنت مع الله عزّ وجل كان معك، إذاً:

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

***

هذه الآيات سنشرحها في الدرس القادم إن شاء الله:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنّ اللّهَ غَنِيّ حَمِيدٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (04-13): تفسير الآية 12، الشكر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-05-31

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

الحكمة موهبة ربانية وليست مكسبا إنسانيا:

قال بعض العلماء: **" الحكمة من المواهب لا من المكاسب ".**

هناك عملٌ تفعله، وهناك عطاءٌ تأخذه، فالحكمة من المواهب، إذا وهب الله الإنسان الحكمة سعد في الدنيا والآخرة.

الحكمة القرآنية في إخفاء طبيعة لقمان الحكيم:

1 – من حكمة القرآن إغفال الأسماء:

ولكن ما تعريف الحكمة ؟ وقبل أن نعرف الحكمة، من لقمان ؟ العلماء اختلفوا فيما إذا كان هذا الحكيم الذي ذكره الله عزّ وجل نبياً أم عبداً صالحاً، وهنا تبرز قضيةٌ في القرآن، القرآن الكريم ذكر أشياء، وأغفل أشياء، إذا ذكر الشيء فهناك حكمةٌ بالغة، وإذا أغفله فهناك حكمةٌ بالغة، فإذا أراد الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة أن يُغْفِلَ ما إذا كان هذا الحكيم نبياً أو غير نبي، فأنت إذا أردت أن تطلع، أو أن تبحث، أو أن تستقصي ما إذا كان هذا الحكيم نبياً أو غير نبي فكأنك تفسد على الله حكمته، هذا ينقلنا إلى موضوع آخر.

2 – العبرة بالنموذج لا بالمشخّص:

الموضوع الآخر هو أن الله سبحانه وتعالى في القصص القرآني يذكر رجلاً، ويغفل اسمه، هذا أبلغ، فإذا أردنا أن نبحث عن اسمه ماذا فعلنا ؟ كأننا أردنا أن نُحَدِّدَ أو أن نخصص ما أغفله الله، لماذا أغفل الله اسم بعض الأشخاص في القصص القرآني، لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُعَلِّمنا أن الشخص ليس معنياً بالموضوع، المعني هذا النموذج البشري، لو أن الله عزّ وجل حدد هؤلاء الأشخاص بأسمائهم وأماكنهم لأصبح هذا المُشَخَّصُ غير مكرر، لكن الله عزّ وجل أراد حينما أغفل اسم هذا الشخص الذي ذكره في قصته أن يكون مكرراً، فبين أن يكون هذا الشخص ذكره، وأغفل اسمه نموذجاً متكرراً صالحاً لكل مكانٍ وزمان، وبين أن تكون قصةً تاريخيةً وقعت وانتهى الأمر.

ربنا عزّ وجل حيثما خَصَّص، وشَخَّص فنحن نبحث عن حكمة ذلك، وحيثما لم يشخّص، ولم يحدّد، ولم يذكر فهناك حكمةٌ بالغةٌ لا تقلّ عن حكمته إذا شخص، إذاً القرآن الكريم أحياناً يشخّص، وأحياناً لا يشخّص، يقول: ذي القرنين، من ذو القرنين ؟ بحث العلماء واستفاضوا، وتعمّقوا وسألوا، هذا طريقٌ مسدود، لأن الله سبحانه وتعالى لم يشخص ذا القرنين، لم يذكر اسمه لحكمةٍ بالغةٍ، وهي أنه نموذجٌ متكرر، قد يصل الإنسان إلى أعلى قوة، وهو صالحٌ، خائفٌ، منيبٌ، متواضعٌ، طائعٌ خَيّر.

فأيّ منصبٍ مهما علا يمكن أن يوظف في طاعة الله، ويمكن أن يوظف في خدمة الآخرين، فربنا عزّ وجل لو أنه ذكر اسم ذا القرنين اسمه، ومكانه، وزمانه، وتحديداً وتشخيصاً، لأصبحت هذه القصة تاريخاً، ولتوهّمنا أنه نموذج لا يتكرر، ولكن الله عزّ وجل حينما لم يشخصه وعممه، ولم يحدد اسمه ومكانه وزمانه، جعل من هذه القصة نموذجاً إنسانياً متكرراً.

إذاً: إذا أغفل الله عزّ وجل اسم أحد أشخاص في قصصه فهي حكمةٌ بالغة، ولا معنى، ولا جدوى، ولا ذكاء، ولا نجاح في تقصّي من هو فلان ؟ لأن المغزى لا يتعلق بالأسماء، يتعلق بالحوادث، يتعلق بالعِبَر، يتعلق بالدروس، إذاً: يمكن أن نستنتج القاعدة التالية:

الله عزّ وجل حكيمٌ حكمة لا حدود لها، إذا شَخَّصَ أبطال القصص، وإذا لم يشخِّصهم، فإذا شخص فالحكمة في التشخيص، وإن لم يشخص فالحكمة في عدم التشخيص، ولا معنى أن نبحث في هذا الموضوع الذي أغفله الله عمداً.

3 – باب الحكمة مفتوح لكل الناس:

فسيدنا لقمان، أليس بالإمكان أن يقول الله عزّ وجل: إنه كان نبياً رسولاً، وانتهى الأمر، كل هذا الخلاف ينتهي حينما يقول الله عزّ وجل: إنه كان نبياً رسولاً، لكن ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

الأضواء هنا مسلطة كلها على الحكمة، لا على ما إذا كان نبياً أو رسولاً، أو حكيماً، أو صالحاً، أو عبداً الأضواء هنا مسلطة على حكمته، وكيف أن كل إنسانٍ إذا استمد من الحكيم يُصبح حكيماً، إذا اتصل بالحكيم يصبح حكيماً، إذا أقبل على الحكيم يصبح حكيماً، فإذا قلنا: إنه نبي، وانتهى الأمر، النبوة كما يُعَرِّفُهَا العلماء ليست كَسْبِيَّة، أما إذا قلنا:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

لم يذكر الله عزّ وجل ما إذا كان لقمان نبياً أو غير نبي، معنى ذلك أنك أيها الإنسان أمامك باب مفتوحٌ لتكون حكيماً، والدليل:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة: من آية " 269 ")

إذاً: الباب مفتوح، أما إذا شَخَّصْنَا، وحددنا، وخَصّصنا تصبح قصةً تاريخيةً لا تتكرر، ربنا عزّ وجل يريد منا أن يكون هؤلاء الأشخاص مُثُلاً عُليا لنا، مناراتٍ لمجموع المؤمنين.

إذاً: لو قرأتم في التفاسير حول لُقمان الحكيم، هل هو نبي ؟ هناك علماء يستنبطون أنه نبي من بعض الأحاديث الحَسَنَة، ليست الصحيحة ولا الضعيفة، وبعضهم يستنبط أنه غير نبي، ونحن نُغْفِلُ ما أغفل الله ذكره، هذا أصح منهج في فهم القرآن، نبحث فيما ذكر الله، ونغفل ما أغفل الله، لأن الله حكيمٌ في إغفاله، وفي ذكره، وتخصيصه.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ)

كلمة:

(آتَيْنَا)

كما قلت قبل قليل: هذه من المواهب، أي أنك إذا أقبلت على الله عزّ وجل يجب أن تتوقع أن الله سيؤتيك شيئاً، شيئاً ثميناً، إذا أقبلت عليه قد تؤتى بصيرةً، إذا أقبلت عليه قد تؤتى حكمةً، وكم من إنسانٍ دَمَّرَ نفسه بحُمقه، دمر نفسه بعمى بصيرته، دمر نفسه بغضبه.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

4 – عطاء الله بقدْر الإيمان والإخلاص والاستقامة:

وإذا ذكر الله عطاءً أعطاه لبعض الأنبياء أو لبعض عباده الصالحين فذلك ليكن معلوماً لديكم أن المؤمن بقدر إخلاصه، وبقد استقامته، وبقدر إيمانه له من هذا العطاء نصيب.

5 – الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ:

إذاً: الحكمة ليست قاصرةً على لُقمان الحكيم ؛ بل الحكمة ضالة المؤمن، كما قال عليه الصلاة والسلام أينما وجدها التقطها:

((الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا))

[سنن ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

6 – الْحِكْمَةُ أثمنُ عطاء:

ما الحكمة ؟ طبعاً ما دام الله عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة: من الآية 269)

هذا كلام خالق الكون، هذا كلام الله عزّ وجل:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

أنت أيها الإنسان الخير الذي تبحث عنه هل تراه في الحكمة أم في المال ؟ أم في القوة أم في الصحة ؟ أم في كثرة العدد ؟ أم في الشأن، أم في الوجاهة، أم في الوسامة، أم في الذكاء ؟ ربنا عزّ وجل يبين لنا وهو الخبير..

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر 14)

ويُنْبِئُنا بأن أثمن عطاءٍ تناله أن تكون حكيماً، أثمن عطاءٍ على الإطلاق تناله من الله أن تكون حكيماً، ما الحكمة إذاً ؟ الحكمة نوعان: مفردةً ومقترنةٌ بالكتاب.

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

آياتٌ ثلاث أو أربع في القرآن الكريم وردت فيها الحكمة مقترنةً بالكتاب، إذا جاءت الحكمة مع الكتاب لها معنى، وإن جاءت الحكمة مفردةً لها معنى.

ما هي الحكمة ؟

1 ـ معنى الحكمة إذا جاءت غير مقرونة بالكتاب:

1 – النبوة:

ماذا قال العلماء الأجلاّء في تعريف الحكمة إذا جاءت مفردةً ؟ بعض العلماء فسر الحكمة بالنبوة.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

أي أن الأنبياء عندهم من الحكمة، ومن حُسْنِ التصرف، ومن الحصافة، من إدراك أبعاد الأمور، ومن التصرفات الصحيحة الموزونة ما يدهش العقول، فحتى كلمات الأنبياء موزونة، حتى الحروف..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

بعض العلماء قالوا: الحكمة هي النبوة.

2 – القرآن:

وبعضهم قال: الحكمة هي القُرآن، أي أنك إذا قرأت القرآن، وإذا فهمت القرآن، وإذا عملت بالقرآن، فهي الحكمة..

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

من أوتي القرآن ورأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد حَقَّرَ ما عَظَّمَهُ الله، فإذا سمح الله لك أن تفهم كلامه، إذا سمح الله لك أن تقبل على كلامه، إذا سمح الله لك تُطَبّق كلامه فأنت من أسعد الناس، لقد أوتيت الحكمة، وما من حكمةٍ أعظم من أن تفهم كلام الله، لأن كلام الله كله حكمة، الحكمة كلها من الله عزّ وجل، أنت مع كلام خالق الكون، أنت مع كلام المُطْلَق، مطلقٌ في كماله، مطلقٌ في علمه، مطلقٌ في غناه، مطلقٌ في قدرته، إذاً التفسير الآخر للحكمة النبوة.

والتفسير الثاني علم القرآن، وقال ابن عباسٍ رضي الله عنه: **<< الحكمة علمُ القرآن ؛ ناسخه ومنسوخه، محكمه ومتشابهه، مُقدّمِهِ ومؤخّرِهِ، حلاله وحرامه، وأمثاله >>**، أي أنك إذا قرأت القرآن؛ عرفت أن هذا أمر وهذا نهي، هذا وعد وهذا وعيد، هذا مثل، وهذه قصة، وهذا مغزى القصة، وهذه آيةٌ كونية، وهذه آيةٌ بيانية، وهذا نظمٌ معجز، وهذا توجيهٌ سديد، وهذه حقيقة، فإذا جُلْتَ في

القرآن، إذا جال فكرك في آيات الله، واستمتعت به، وذابت نفسك تعظيماً لمُنْزِلِهِ، هذه حكمةٌ بالغة، هذا رأي ابن عباسٍ رضي الله عنه في الحكمة.

3 – القرآن وفهمه وتفسيره:

وقال بعض العلماء: الحكمة هي القرآن والفهم فيه، وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه.

4 – الإصابة في القول والفعل:

وقال بعضهم: الحكمة هي الإصابة في القول والفعل.

أحياناً يتكلم الإنسان كلمة يبقى أسبوعاً أو أسبوعين متألماً أشد الألم من هذه الكلمة، لأنه لم يكن بها حكيماً، أحياناً يقف موقفاً، أحياناً يتكلم كلمةً، أحياناً يقبل إقبالاً، أحياناً يمتنع، أحياناً يصل، يقطع، يغضب، يرضى، ينطلق، ينكَمِش، الموقف الذي لا حكمة فيه يؤلم صاحبه أشد الألم، لذلك لا ترتاح النفس إلا إذا كانت حكيمة، أصحاب الحساسية البالغة، أصحاب الفِطْرَةَ السليمة، أصحاب الحِس المُرْهَف، لو أنهم تكلموا بكلمة ليست حكيمةً يتمزّقون، تتفطر قلوبهم ندماً على هذه الكلمة..

((إنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ لا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النّارِ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيّةَ كَذَا وَكَذَا، تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

[أبو داود]

وقد سمعت أن بعض المياه المالحة التي تفرزها بعض المدن، تبقى في البحر تسير ما يزيد على خمسةٍ وثمانين كيلو مترا، لشدة كثافتها، ومع ذلك البحر طاهر، أما أن تقول امرأةٌ عن امرأةٍ: إنها قصيرة، أو إنها دميمة، هذا الذي يُقَلِّد الآخرين، هذا الذي يهزأ لشكلهم (ولا دخل للإنسان في شكله)، أنت حاسب الإنسان على أعماله، على أخلاقه، لك أن تحاسبه على أعماله، لك أن تحاسبه على أخلاقه، أما مجرد التهكّم على خلق الإنسان هو في الحقيقة تهكمٌ على خلق الله عزّ وجل، فالإنسان ليس له دخل في خلقه ؛ كون هذا طويل، وهذا قصير، وهذا وسيم، وهذا دميم، هذا لونه كذا، وهذا لونه كذا، هذا عنده غُنَّة، وهذا عنده بَحّة، هذا عنده حبسة في كلامه، هذا ليس إليه هذا إلى الله عزّ وجل، فلذاك قال صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

إذاً الحكمة هي الإصابة في القول والفعل.

قلت لكم سابقاً: إن امرأةً لها ابنٌ مِن زوجها، فإذا أرادت أن تسقي أبناءها الحليب، سقت أبناءها الذين من صلبها حليباً سليماً، أما أبناءها من زوجها فتسقيهم حليباً نصفه ماء، ونصفه حليب، وفيما يروي بعضهم أنها عُذِّبَت عذاباً لا حدود له لهذه التفرقة، إذاً: هي ما أصابت في الفعل، فالإنسان عنده مَزْلَقِين؛ أن يخطئ في أقواله، وأن يخطئ في أعماله.

على كلٍ الخطأ غير المقصود مغفرته سهلة، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))

[سنن ابن ماجه]

أما الخطأ المقصود في القول أو في العمل فهذا يهوي بصاحبه إلى أسفل سافلين.

5 – معاني الأشياء وفهمها:

قال بعض العلماء: الحكمة هي معاني الأشياء وفهمها، الأشياء لها ظاهر، ولها باطن، لها شكل، ولها حقيقة، فالحكمة أن تفهم بواطن الأمور، أن تفهم حقائق الأشياء، أن تفهم الخلفية، أن تفهم ما بين السطور، أن تفهم ما يُدَبَّرَ في الخفاء، من الحكمة أن لا تكون ساذجاً، لك الظاهر، هناك أناسٌ أوتوا الحكمة، يفهمون أن وراء هذه الأحداث شيئاً آخر، إذاً: من معاني الحكمة أن تفهم فهماً دقيقاً، أن تفهم فهماً صحيحاً، أن تمتلك رؤيةً صحيحةً، هذا من معاني الحكمة.

6 – الورعُ في الدِّين:

وقال الإمام الحسن رضي الله عنه: **" الحكمة هي الورع في دين الله ".**

ولعله رضي الله عنه أراد أن يذكر الحكمة بنتائجها، أي ملخص الملخص أن تكون ورعاً، و

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مُخَلِّط))

[الجامع الصغير عن أنس يسند فيه مقال]

ومن لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله، فالإمام الحسن رضي الله عنه ذكر الحكمة بثمارها، وبنتائجها، الحكمة أن تكون ورعاً.

2 ـ معنى الحكمة إذا جاءت مقرونة بالكتاب:

7-السّنة:

أما الحكمة إذا جاءت مع كتاب الله عزّ وجل فهي كما قال الإمام الشافعي: السُنَّة..

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة البقرة: من الآية 129)

الكتاب هو المصدر الأول، والسنة كلام النبي عليه الصلاة والسلام ؛ أقواله، وأفعاله، وصفاته، وشمائله، وإقراره إذا رأى شيئاً وسكت فهو من السنة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يسكت على سلوكٍ غير صحيح، لأنه حُمِّلَ الأمانة..

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

الإنسان غير المكلف بهذه الرسالة العظيمة قد يرى خطأً، ويسكت عليه طلباً للسلامة، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام ما سكت عن خطأٍ أبداً لأنه مُكَلَّف.

هذه المرأة التي قالت لزوجها أو لقريبها الذي جاهد مع رسول الله ومات على فراشه، قالت له:

((رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ))

سمع النبي كلامها، إن سكت فكلامها صحيح، لأنه نبي مشرع، سكوته تشريع، فقال لها:

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[صحيح البخاري عن خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ]

ومن أدراك أن الله أكرمه قولي: أرجو الله أن يكرمه.. هذا الموقف هو التألِّي على الله، هذا ليس من اختصاصك، هذا من شأن الله عزّ وجل، أنت لك أن تدعو، لك أن تقول: أرجو الله أن يكرمه، أرجو الله أن يغفر له، أرجو الله أن يعفو عنه، أرجو الله أن يكون في الجنة، ليس لك إلا الرجاء، أما إذا تجاوزت الرجاء إلى التقرير، فلان في الجنة، من أنت ؟ فلان ليس مؤمناً، من أنت ؟ ليس هذا من شأنك، هذا كما قال بعض العلماء: هو التألِّي على الله، أن يتجاوز الإنسان قدره، وأن يتطاول، وأن يُقَيِّم، وأن يجعل من نفسه وصياً على الناس، أو مُقَيِّمَاً له، أو قاضياً، وقد قال بعضهم: نحن لسنا قضاةً، ولكننا دعاة، فرقٌ كبير بين أن تكون قاضياً تحكم على الناس من برجك العاجي ؛ وبين أن تكون داعية إلى الله عزّ وجل، تدعو الناس إلى الله عزّ وجل، وإلى طاعته، وإلى السير في طريق الإيمان.

إذاً: إذا جاءت الحكمة مع الكتاب فهي السنة، إن جاءت وحدها، بعضهم قال: هي النبوة، بعضهم قال: هي فهم كلام الله عزّ وجل، بعضهم قال: هي إصابة القول والعمل.

المعنى العام للحكمة:

لكن هناك من يقول: الحكمة أن تفعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، كيف ؟ الشيء له حق، وله حد، وله وقت، من حق هذا النبات أن تسقيه، وإذا سقيته يجب أن تسقيه بقدر لا تزيد ولا تنقص، وفي الوقت المناسب، من حقه أن تسقيه بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب، فإن فعلت هذا فأنت حكيم في الزراعة، مع أولادك ؛ يجب أن تغضب بالقدر المناسب، يجب أن تغضب أو لا تغضب، هذا الموقف يجب أن تتغاضب له، فإن لم تغضب فقد انحرفت، لم تكن حكيماً، وفي موقفٍ آخر يجب أن لا تغضب، فإذا غضبت فلست حكيماً، في هذا الموقف يجب أن تُعْطِي، هناك يجب أن لا تعطي، هناك إعانة على المعصية لا تعطي، إن أعطيت في الموطن الذي لا ينبغي أن تعطي فلست حكيماً، وإن لم تعط في الموقف الذي ينبغي فلست حكيماً، إذاً: أن تفعل الحق في الحد المناسب، وفي الوقت المناسب، أن تفعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، إذاً: فأنت حكيم هذا بعض ما قاله العلماء عن الحكمة.

على كلٍ ماذا قال الله عزّ وجل هنا عن الحكمة ؟ فالكلام له سباق كما يقولون، وله سياق، وله لحاق، السباق ما جاء قبله، والسياق ما جاء معه، واللحاق ما جاء بعده، فربنا عزّ وجل حينما قال:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

ماذا قال قبل هذا الكلام ؟ قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(11))

الحديث هنا عن الشرك:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ)

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

إلخ..

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

الحكمة باعتبار سباق الآية ولحاقها:

1 ـ الحكمة باعتبار سباق الآية هي التوحيد:

الحكمة التوحيد إذاً، الطيش والسفه والحمق أن يكون الإنسان مشركاً، والحكمة أن يكون موحِّداً، سباق هذه الآية يلقي ضوءاً على معنى الحكمة، كل مشركٍ ليس حكيماً، الحكمة كل الحكمة في التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لن تكون حكيماً إلا إذا كنت موحِّداً، ما دام يتجه ذهنك إلى هذه القوة، وإلى هذه الجهة، وإلى هذا المكان، وفلان بإمكانه أن يفعل، وأن لا يفعل، وهذه الفئة لها قوّتُهَا، ولها تحديد مصيرك، إذا نظرت إلى زيدٍ أو عُبيد، أو إلى فُلان أو عِلاّن، أو إلى جهةٍ أو إلى أخرى لم تكن حكيماً، لأنه لم يكن في الكون إلا الله..

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: من الآية 2)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

(سورة الشورى31)

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة آل عمران: من الآية 160)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف 26)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر 62)

((لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[سنن الترمذي عن جابر بن عبد الله]

هذه الحكمة، الحكمة أن تكون موحِّداً، لسباق الآية، لأن سباقها يقول:

(هَذَا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11) وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ)

أي كان موحداً، ولم يكن مشركاً، فالحكمة كلُّها في التوحيد، والحُمْقُ كله في الشرك، وإن الشرك لظلمٌ عظيم، وأقول لكم: نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، فإذا كنت موحداً وطائعاً فأنت في الأوج، أنت المتفوق، أنت الفالح، أنت الناجح، أنت الفائز، أنت سعيد، إذا كنت في العقيدة موحداً، وفي السلوك طائعاً، توحيد بلا طاعة لا قيمة له، وطاعة بلا توحيد لا قيمة لها، إذا كنت في العقيدة موحداً، وفي السلوك طائعاً فقد نلت المجد من طرفيه، وعرفت حقيقة الدين، ووضعت يدك على جوهر الدين، وحققت الفوز في الدنيا والآخرة، الحكمة إذاً هي التوحيد في سباق هذه الآية.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

2 ـ الحكمة باعتبار لحاق الآية هي شكرُ الله على النعم:

أما لحاقها فما دام الله قد وهب لك الحياة، وهب لك الوجود، فأنت أحد نعم الله عزّ وجل، ألست موجوداً؟ ألست حياً تُرزق ؟ أليس لك اسمٌ في السجلات الرسمية ؟ أليس لك حَيّزٌ تشغله ؟ أنت موجود، ما دمت موجوداً فهذه نعمةٌ من الله عزّ وجل، بعد أن أوجدك ألم يُمِدّكَ بأبوين يعطفان عليك، رَبَّيَاك حتى أصبحت قوي العود ؟ من أودع في قلب الأم الرحمة والحنان، من أودع في قلب الأب حب الكسب من أجلك، حتى جعلك شاباً سوياً ؟ إذاً أنعم عليك بالوجود، وأنعم عليك بما يحفظ لك الوجود وهما الأبوان، لذلك في أكثر الآيات يأتي الأمر ببر الوالد، مع الأمر بعبادة الله عزّ وجل..

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء: من الآية 23)

هذه الواو حرف العطف يقتضي المجانسة، أمرك أن تعبد الله، وأمرك أن تكون باراً بوالديك.

إذاً: سباق الآية يعني أن الحكمة هي التوحيد، ولحاق الآية يعني أن الحكمة أن تشكر الله على نعمٍ لا تعد ولا تحصى، لو أنك نظرت في نعمةٍ واحدٍ، ينقضي العمر، ولا تنقضي خيرات نعمةٍ واحدة، والدليل:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم: من الآية 34)

أنتم عاجزون عن إحصائها، فلأن تكونوا عاجزين عن شُكرها من باب أولى، إذا كنتم عاجزين عن إحصائها فأنتم عن شكرها أعجز.

مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ

إذاً: هذا الذي يفسر قول تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

إنه شيء دقيق جداً، فأنت أمام مهمتين، مهمة الإيمان بالله، وما دام الله منعماً، ومهمة شكره، فإذا آمنت وشكرت انتهت المعالجة، حققت المراد الإلهي، حققت الهدف الذي من أجله خلقت..

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

مثلاً:ولله المثل الأعلى، الأب كل طلباته من ابنه أن يكون مجتهداً، دَيِّنَاً، مهذباً، حسن المظهر، نظيفاً، فإذا حقق الابن هذه الغايات انتهى التأديب، انتهى نهائياً، وهذا معنى قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

تسخير الكون تعريفا وتكريما:

إن هذا الكون سخره الله لنا تسخيرين ؛ تسخير تعريف وتسخير تكريم، لو فرضنا أنك جاءتك هدية، جهاز كهربائي دقيق جداً من أعلى مستوى من أشهر المعامل، وقدم لك خدمات كبرى، وهو هدية، أنت أمام موقفين، موقف الإعجاب بدقة الصنع، وموقف الاهتمام بمن قَدَّمَهُ لك، لو قدمه لك الصانع نفسه ينشأ عندك شعوران ؛ شعور التعظيم لدقة الصنع، وشعور الامتنان، لأنه قدم لك هدية، فأنت سخر الله لك الكون تسخيرين، تسخير تعريف، وتسخير تكريم.

ردُ فعلِ الإنسان تجاه تسخير الكون تعريفة وتكريما:

تسخير التعريف يكون رد فعلك الطبيعي الإيمان، وتسخير التكريم يكون رد فعلك الطبيعي الشُكران، فإذا آمنت، وشكرت وصلت إلى المَجد، ووصلت إلى الأهداف الكبيرة التي رُسِمَت لك..

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

إذاً: الشكر شيء أساسي، ربنا عزّ وجل أثنى على بعض الأنبياء بآيةٍ إذا قرأتها وكنت يقظاً صافي النفس تذوب:

(شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ)

(سورة النحل: من آية " 121)

إنها نِعمٌ كثيرة لن تحصي عدّها، ولن تبلغ شكْرَها:

أيّ نبيٍ هذا ؟ سيدنا إبراهيم، شاكراً لأنعمه، يا ترى نحن نشكر نعم الله عزّ وجل ؟

1 – ماذا لو حبس عنك خروج الفضلات ؟!

النبي عليه الصلاة والسلام علمنا إذا أفرغ أحدنا مثانته أن يقول:

((إذا خرج أحدكم من الخلاء فليقل: الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأمسك علي ما ينفعني))

[الجامع الصغير عن طاووس مرسلا]

ولا يعرف آلام حبس البول إلا من ذاقه، كان عليه الصلاة والسلام يقول بعد قضاء الحاجة:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

إنّ الإنسان يمكن أن يأخذ مادة السيروم، ويعيش عليه، لكن:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

انظر إلى هذا الفهم العميق للطعام ؛ فيه غذاء، وفيه لذة، وفيه فضلات، الغذاء تقوّيت به، واللذة استمتعت بها، والفضلات ذهبت عني، شاكراً لأنعمه. النبي عليه الصلاة والسلام كما تروي بعض الأحاديث:

((كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت))

[ورد في الأثر]

2 – كيف أنت مع الثوب الجديد ؟

إذا ارتدى الإنسان ثوباً جديدًا: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: لَبِسَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَوْبًا جَدِيدًا فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي أَخْلَقَ فَتَصَدَّقَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا جَدِيدًا فَقَالَ:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي أَخْلَقَ فَتَصَدَّقَ بِهِ كَانَ فِي كَنَفِ اللَّهِ، وَفِي حِفْظِ اللَّهِ، وَفِي سَتْرِ اللَّهِ حَيًّا وَمَيِّتًا))

[الترمذي]

3 – هذه نعمة النوم فكيف حالك معها ؟

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَانِي، وَآوَانِي، وَأَطْعَمَنِي، وَسَقَانِي، وَالَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، وَالَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَلَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، وَإِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ، أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ))

[أبو داود]

فهو يرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويفكر بفكره، إذا رأى إنساناً أذهب الله عقله، مع أنه قوي البنان، ولكنه ساقط الشأن بين المجتمع، يقول لك: مجنون، فإذا وهبك عقلاً فاحمد الله.

هناك قصة معرفة عندكم، لما دخل وفد الحجازيين على سيدنا عمر بن عبد العزيز، فتقدمهم غلامٌ صغير لا تزيد سنه على الحادية عشرة، انزعج الخليفة، قال له: **" اجلس أيها الغلام ـ من أنت ؟ ـ وليَقُمْ مَن هو أكبر منك سناً "**، فقال: **"أصلح الله الأمير، المرءُ بأصغريه ؛ عقله ولسانه، فإذا وهب الله العبد لساناً لافظاً، وعقلاً حافظاً فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الآمة من هو أحق منك بهذا المجلس "**، وانتهى الأمر، إنه كلامٌ موجزٌ بليغ.

إذاً: شاكراً لأنعمه، بمعنى أن الله عزّ وجل منحك نعمة الوجود، فهل شكرت هذه النعمة ؟ منحك نعمة الإمداد، فهل شكرت هذه النعمة ؟ منحك نعمة الإرشاد، فهل شكرت هذه النعمة ؟ منحك نعمة العقل، منحك فطرةً سليمة، منحك أجهزةً وأعضاء، منحك زوجةً وأولاد، منحك مأوى، منحك مهارات تكسب بها رزقك.

كل إنسان أعطاه الله مهارات ؛ هذا في مهنة، وهذا في حرفة، وهذا حرفة فكرية، هذا طبيب، وهذا مهندس، وهذا محامٍ، وهذا نجّار، وهذا صانع، وهذا حدّاد، كل إنسان الله أعطاه مهارات يكسب بها قوته، إذاً يجب أن نشكر.

والشكر كما قلت لكم: في حده الأدنى أن تعرف أن هذه النعمة من الله، وفي حدها الأوسط أن يمتلئ قلبك امتناناً له، وفي حدها الأعلى أن تقابل هذه النعم بالعمل الصالح لقوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ)

(سورة سبأ 13)

ماذا فعلت ؟

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 152)

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

4 – ماذا فعلتَ بنعمة الهدى ؟

أنت اهتديت، حاولت أن تهدي الآخرين ؟ الله عزّ وجل أنعم عليك بنعمة الهدى، حاولت أن تشكر هذه النعمة بأن تبث هذا الهدى في الآخرين ؟ حاولت أن تمد يدك إلى إنسانٍ ضال فتنقذه من ضلاله ؟ حاولت أن تمد يدك إلى إنسانٍ شارد ترده إلى صوابه ؟ حاولت أن تأخذ بيد الضعيف، بيد المسكين، بيد الحاجة، شكراً على نعمة الله عزّ وجل ؟

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)

كل إنسان مسبوغٌ بنعم الله عزوجل:

لكن المشكلة أنك إذا كنت شاكراً فإن هذا الشكر يعود عليك، يعود إليك، لأن الله غنيٌّ عن شكر العباد..

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

من كلام العوام أنهم يقولون لك: ليس لي حظ، هذا كلام ليس له معنى، يقول لك: الدهر قلب لي ظهر المِجَنّ، كلام ليس له معنى، كلام فارغ، يقول لك: أيّامي سوداء، جاء في الحديث القدسي:

((يَسُبُّ بَنُو آدَمَ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ))

[صحيح البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ]

((يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فَلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا))

[مسلم عن أبي هريرة]

لا يوجد إلا الله عزّ وجل، والنبي يقول:

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه.

إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

لا تنسوا هذه الآية:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

بالحكم تكسب كل شيء وبالحُمق تفقد كل شيء:

أنت بالحكمة تكسب المال، وبالحمق تبدده، أنت بالحكمة تجعل من الزوجة السيئة صالحةً، وبالحمق تجعل الصالحة سيئةً، أنت بالحكمة تستطيع أن تستمتع بالحياة بشكلٍ نظيف، وبالحُمق تفقد كل شيء، ورُبَّ أكلةٍ منعت أكلات، ألا يا ربَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً ـ شهوة ساعة ـ ألا يا ربَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، يا ربَّ مهينٍ لنفسه وهو لها مكرم، ألا يرب شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً، لعدم وجود الحكمة، لذلك:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

[سورة محمد 1]

من لوازم الكفر الضلال، العمل فيه خطأ، فيه انحراف، لأنه أعمى..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قَالَ كَذَلِكَ)

[سورة طه 124]

أي كنت أعمى في الدنيا..

(أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى)

[سورة طه 126]

(وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)

مَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ

إذا كان مع الإنسان ـ مثلاً ـ صندوق حديد، كلما جمع مبلغا فتح الصندوق، ودفع هذا المبلغ فيه، وقفله، فأنت تعطي من ؟ لا تعطي أحدًا، هذا المال مالك، أنت تجمع هذا المال، بإمكانك أن تقول: أنا دفعت مئة ألف في الصندوق، لا، ليس لك فضل على أحد، أنت بهذا جمعت مالك في صندوقٍ واحد.

(وَمَنْ يَشْكُرْ)

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ)

(سورة الحجرات: من الآية 17)

هو الذي يمنّ عليكم، حتى إذا عرفت الله، وحتى إذا استقمت على أمره، وحتى إذا تقرّبت إليه، وحتى إذا شكرته ما فعلت شيئاً إلا لنفسك !!

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

(وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ

أي غنيٌّ عن إيمان العباد، لكنه لا يرضى لهم الكفر، لأنه رحيمٌ بهم، هو غنيٌّ عنهم آمنوا أو كفروا، لكن رحمته تقتضي أن لا يرضى لهم الكفر، وإن يؤمنوا به ويشكروه يرضه لهم، هذا شأن الذات الكاملة، مع أنها غنيةٌ عن العباد إلا أنها حريصةٌ على هدايتهم، وعلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، لذلك ومن هذا المنطلق تأتي جميع المصائب حرصاً من الذات الكاملة على إسعاد العباد، فالعبد إذا كان شارداً، ضالاً، منحرفاً، تأتيه عناية الله عزّ وجل، هناك التذكير، وهناك المعالجة بالمصائب، وهناك التخويف، كل هذا من أجل أن ينيب الإنسان إلى الله عزّ وجل، فإذا عاد إلى الله حلت كل مشكلاته.

" إذا رجع العبد العاصي إلى الله، نادى منادٍ في السماوات والأرض: أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ".

والله الذي لا إله إلا هو لا يصح أن تقول لإنسان من أعماق نفسك: هنيئاً لك، إلا إذا اصطلح مع الله، إلا إذا تاب إلى الله، وإذا تاب العبد إلى الله توبةً نصوحاً أنسى حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه، والإسلام يجبّ ما قبله، والإسلام يهدم ما كان قبله...

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا)

[سورة الزمر: من الآية 53]

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الذاريات 50)

هكذا جاء في القرآن الكريم.

لا بد مِن إيمان يصمُد مع الفتن الهائجة:

شيء آخر.. يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق، الحياة فيها فتن، إيمان العجائز، إيمان الاستسلام، الإيمان الصوري الشكلي، ما تلقيته في المدرسة، ما تسمعه من بعض خطباء المساجد من دون جهد، ومن دون شيء، هذا الإيمان لا يكفي في عصر الفِتَن، ربما كان يكفي في زمنٍ قديم عندما كان الناس كلهم صُلَحاء، الإيمان التقليدي مع أنه مرفوض عند علماء التوحيد، غير مقبول، لا تقليد في الإيمان، الإيمان تحقيق لا تقليد، ومع ذلك الناس في مجموعهم صُلَحَاء، فإذا سار الإنسان على منهج الناس، أغلب الظن أنه ينجو، أما الآن الفتن كلها يقظة، فإذا سرت في الطريق لا تستطيع أن تنجو من الفتنة إلا بإيمانٍ قوي، مجرد أن تنظر نظرة من دون انضباط صار الحجاب بينك وبين الله عزّ وجل، لأن الله أمرك بغض البصر، والنساء في الطريق كاسياتٌ عاريات مائلاتٌ مميلات.

لا تستطيع الآن أن تنتقل من بيت إلى بيت من دون إيمان، الطرقات مزينة، الأسواق، المحلات التجارية، النساء يخطرن في الطرقات بأبهى زينة، فإذا كان إيمانك ضعيفاً تنساق، تطلق البصر في النساء، ومن ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنم، ومن غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يومٍ يلقاه.

هل تعلم أيها الأخ الكريم أنك في اليوم الواحد تصلي خمس مرات، ولكن إذا سرت في الطريق كل غض بصرٍ يُعَدُّ صلاةً لك، لماذا تغضض ؟ لا توجد جهة تمنعك، لا يوجد في الأرض كلها قانون يمنع النظر، وهذه حكمة الله عزّ وجل، أحياناً تلتقي القوانين الأرضية مع الشرائع السماوية، فالسرقة محرمة في الدين وفي القانون، فإذا امتنع الإنسان عن السرقة، فالله أعلم ؛ إما خوفاً من الله عزّ وجل، وإما خوفاً من أن يسجن، أو أن تُهْدَرَ كرامته، لكنك إذا غضضت بصرك عن محارم الله، ليس في الأرض كلها تشريع يأمرك أن تغض بصرك، بل ليس في الأرض كلها جهةٌ تحاسبك على ذلك، بل ليس في الأرض كلها جهةٌ تستطيع أن تكتشف هذه المعصية،

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: الآية 19]

طبيب أمامه امرأة يعالجها مسموح له أن ينظر إليها، لكن الله وحده يعلم ما إذا كان نظره إلى الموضع الضروري أو غير الضروري، هذا من يعلمه ؟ الله عزّ وجل، لذلك غض البصر عبادة الإخلاص، إذا غضضت بصرك عن محارم الله فأنت ـ وربِّ الكعبة ـ مخلص، لأنه لا توجد جهة تتملقها بهذا، وهذا الذي أردت أن أقوله لكم: حينما يستقيم الإنسان على أمر الله، يشعر أن الطريق صار أمامه سالكاً إلى الله عزّ وجل.

(وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(14))

إن شاء الله تعالى في دروسٍ قادمة نحاول أن نتابع شرح هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (05-13): تفسير الآيات 13 – 15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-06-07

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

نقف عند كلمة:

(وَإِذْ قَالَ)

1 – كيف تستخدم البيان والكلام ؟

أي أن هذا البيان الذي علّمه الله الإنسان، هذه الميزة التي خَصَّه الله بها، كيف يستخدمها ؟ كما أن الإنسان بالبيان يرقى إلى الواحد الديّان، كذلك بالبيان، واللغة، والكلام يهوي إلى أسفل سافلين..

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

[سنن الترمذي عن أبي هريرة]

هناك كلمة كفر، وكلمة فسق، وكلمة عصيان، وكلمة استهزاء، وكلمة جحود، وكلام تطاول، وكلمة تحدٍّ، هناك معاصٍ يرتكبها اللسان لا تُعَدُّ ولا تحصى، كما أن الإنسان باللسان يرقى إلى أعلى عليين، كذلك الإنسان باللسان يهوي إلى أسفل سافلين.

إذاً: الخصائص النفيسة التي خصَّ الله الإنسان بها خصائص حياديَّة يمكن أن تستخدم في الحق، ويمكن أن تستخدم في الباطل، وهل نشر الكفر إلا عن طريق اللغة، والبيان، والخطابات، والتأليف، والنشرات وما إلى ذلك ؟ هل نشر الضلال إلا عن طريق اللغة ؟ هل نشر الفتن، هل تحريض الناس على ارتكاب المعاصي إلا عن طريق اللغة ؟ وهل دعوة الأنبياء إلا عن طريق اللغة ؟ الهدى يتمُّ عن طريق اللغة ؛ والإضلال يتمُّ عن طريق اللغة، إذاً: هذا البيان الذي خصَّ الله به الإنسان كيف يستخدمه ؟

2 – استخدام لقمان الحكيم اللغة لبيان الحق:

سيدنا لقمان استخدمه في بيان الحق، فأنت حينما تشعر أن الله أعطاك هذا اللسان، أعطاك هذه العين لترى بها عورات المسلمين ؛ أم لترى بها ملكوت السماوات والأرض ؟ أعطاك هذه الأذن لتستمع بها إلى الغناء والباطل والغيبة والنميمة ؛ أم لتستمع بها إلى الحق، أعطاك هذه اليد لتبطش بها ؛ أم لتعين بها الضعيف ؟ أي أن كل شيءٍ أعطاك الله إياه يمكن أن يوظّف للحق كما يمكن أن يوظّف للباطل، هذا هو الاختيار، سيدنا لقمان وظّف اللغة، وظّف البيان، وظّف القول لنشر الحق..

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ)

3 – إِنّ وَلَدَ الرّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ:

بالمناسبة الإنسان الذي لا يَمُتُّ إليك بصلة إن هديته، وإن لم تهده فهناك من يهديه، أما ابنك ليس له إلا أنت، فأن تهدي ابنك هذا عملٌ عظيم، لقول النبي عليه الصلاة والتسليم:

((إِنّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنّ وَلَدَ الرّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ))

[النسائي عن عائشة]

لأنه جزءٌ منك، ولأنه امتدادٌ لك، ولأنه صدقةٌ جارية، طبعاً..

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

المؤمن يسأل الله عزّ وجل ذُرِّيَّةً صالحة..

(رَبّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيّاتِنَا قُرّةَ أَعْيُنٍ)

(سورة الفرقان25)

تقرُّ به العين. إذاً:

(وَإِذْ قَالَ)

هذا البيان الذي خصّ الله به الإنسان، كيف يستخدمه ؟ تعلّمت اللغة، تعلّمت القراءة والكتابة لتقرأ ماذا؟ لتقرأ قصصاً ماجنة ؛ أم لتقرأ كتاب الله ؟ لتقرأ موضوعاً يزيدك علماً وقرباً ؛ أم لتقرأ موضوعاً يزيدك بعداً وانحرافاً ؟ هذه اللغة، فاللغة عاملٌ حيادي، إما أن ترقى بها إلى أعلى عليين ؛ وإما أن تهوي بها إلى أسفل سافلين، فربنا عزّ وجل يبين كيف أن الهداية تتمُّ عن طريق البيان، والحوار، والسؤال، والجواب، والتعليق، والاستيضاح..

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ)

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ

1 – منزلة الموعظة:

كلمة الوعظ لها الآن في هذا العصر وقع غير مَرْضِي عنه، يقول لك: أخي كفاك مواعظ، إياك أن تعظ الناس، فكلمة وعظ ليست كلمةً محبَّبة، ما السبب ؟ الحقيقة وأنا أقول لكم: إن أتفه عملٍ ـ دقِّقوا في كلامي ـ إنّ أتفه عملٍ تفعله في حياتك أن تعظ الناس، أتفه عمل، وقد تستغربون، وإن أعظم عملٍ تفعله في حياتك أن تعظ الناس، أعظم عمل لا يرقى إليه عمل، ولا يسمو فوقه عمل، ولا يطمح إنسانٌ أن يصل إليه أن تكون واعظاً، وأتفه عملٍ هو أن تكون واعظاً، كيف ذلك ؟

هذا الكلام فيه تناقض، والحقيقة إذا كان الوعظ عملية قراءة كتاب، وحفظ بعض المعلومات، وإلقائها على الناس، وجذب وجوه الناس إليك، والله هذا أتفه عمل، لأنه سهل لا يكلِّف شيئاً ؛ بل يجلب نفعاً، وميزاتٍ، ووجاهةً، وهكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ))

[من سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

2 – حقيقة الموعظة بين الواعظ والموعوظ:

إنه سهلٌ جداً أن تعظ الناس، ولا يعرف الشوق إلا من يُكابده، فأن تقول للناس: ادفعوا أموالكم، أنفقوا، والله هذا سهل، أما حينما تنفق أنت، تعرف معنى الإنفاق، الإنفاق يحتاج إلى جهد، هذا المال مُحَبَّب، والله عزّ وجل قال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران)

المال محبَّب، الله عزّ أودع حبَّ المال في قلوب البشر، فإنفاق المال يحتاج إلى مخالفة لطبيعة النفس، هنا التكليف، فالحقيقة أن يقول الإنسان للناس: أنفقوا أموالكم، فالقضيَّة سهلة جداً لا تكلِّفه إلا حركات في فمه، وإخراج حروف على نحو معيَّن، قال الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام، فالموعظة على مستوى أن تقرأ شيئاً، وأن تلقيه على أسماع الناس عمليةٌ في منتهى البساطة والسهولة، بل إنها أتفه عملٍ تفعله، يبدو أن الناس حينما رأوا من يعظهم، وهو ليس في مستوى وعظه، وحينما رأوا أن هناك

من يحترف الدين، أو من يرتزق بالدين، أو من يُنَصِّبُ نفسه واعظاً، وهو ليس في مستوى الوعظ، هذه الممارسات الخاطئة، وهذه الأعمال التي ينفر منها الناس، هي السبب في أن كلمة وعظ ليست محبَّبَةً عند الناس، ولكن الأنبياء وعظوا، أنفقوا من مالهم ثم تكلموا.

قصة وعبرة:

هناك قصّة معروفة عندكم: عبدٌ له سيّد، ولهذا السيّد شَيْخ، وكان هذا الشيخ يأتي دار تلميذه من حينٍ إلى آخر، فيرى هذا العبد احتفال سيده الكبير بشيخه، فخطر في باله أن يسأله أن يأمر سيده أن يعتقه، ففعل، فقال هذا الشيخ: أفعل إن شاء الله، ومضى أسبوع تلو أسبوع تلو أسبوع، ولم يحدث شيء، فزاره مرّةً ثانية، أعاد عليه الطلَبَ مرة ثانية فقال: أفعل إن شاء الله، ومضى شهرٍ تلو شهرٍ تلو شهرٍ، ولم يحدث شيء، وزاره مرّةً ثالثة، وأعاد عليه الكرّة، وقال له الشيخ: أفعل إن شاء الله، وبعد أسبوعين استدعاه سيده، وأعتقه بناءً على توصية شيخه.

دار سؤالٌ كبير في ذهن هذا العبد: ما دام هذا التوجيه لا يكلِّف الشيخ إلا كلمةً يقولها لسيده، فَلِمَ لمْ يقلها منذ أشهر طويلة ؟ التقى به، وسأله هذا السؤال، قال له: يا ولدي، لقد كلّفتني شيئاً كبيراً، لقد اقتصدت من نفقتي مبلغاً أعتقت به عبداً، وبعدئذٍ أمرت سيدك أن يعتقك.

هذه قصّةٌ لها مغزى كبير، أي أنك إذا طبّقت وأخلصت يجعل الله في كلامك سراً، والتطبيق بلا إخلاص غير مقبول، والإخلاص من دون تطبيق لا يكون أساساً، لو طبّقت أمر الله عزّ وجل، وأخلصت في تطبيقه، يجعل الله في كلامك روحانيّةً وسرّاً تهفو القلوب إليها، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أخلص عبدٌ لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودّة والرحمة))

[ورد في الأثر]

كلمات تغيّر مفهومها بمرور الزمن:

1 – كلمة (الموعظة)من الكلمات التي تغيّرت نظرة الناس إليها:

إذاً: وعظ ـ وإن كان كلمة قاسية ـ فهو من أتفه الأعمال التي يفعلها الإنسان، إذا كان هو في واد ووعظه في واد، يأمر بما لا يأتمر، ينهى عما عنه لا ينتهي، يدعو الناس إلى شيء وهو بعيدٌ عنه، يأمرهم بشيء ولا يسبقهم إليه، ما سرُّ عظمة الأنبياء ؟ يمكن أن نجمّع هذا السر في كلمةٍ واحدة: أنهم

قالوا بألسنتهم ما فعلوه في حياتهم، ليس في حياة الأنبياء ازدواجيَّة، ليس في حياة الأنبياء اثنينيَّة، ليس في حياة الأنبياء ظاهرٌ وباطن، خلوةٌ وجلوة، حياة الأنبياء كلٌّ موحَّد، والمؤمن كذلك ؛ ما في قلبه على لسانه، ما في لسانه في قلبه، سرُّه كعلانيَّته، سريرته كظاهره، وحينما يكون هناك وعَّاظ كلامهم في واد وعملهم في واد، يرتزقون بالوعظ، ويطلبون الدنيا منه، عندئذٍ تسقط هذه الكلمة **(الوعظ)**و يراها بعض الناس في الحَضيض، لكن ربنا عزَّ وجل قال:

(وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا)

(سورة النساء63)

وكذلك:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ)

فالوعظ يستطيعه كل من أوتي لساناً وأثراً من عِلْمٍ، كمن أوتي شيئاً من علمٍ، قرأ كتاباً في التفسير، قرأ كتاباً في الحديث، قرأ كتاباً في الفقه، سمع بعض القصص، أي إنسان اطلع على بعض المعلومات، وله لسان طليق بإمكانه أن يعظ الناس، ولكن هذا الإنسان لا يُجْري الله الخير على يديه، لأنه ليس صادقاً، وليس مخلصاً، أما إذا كنت مطبّقاً لما تقول، صادقاً فيما تقول، مخلصاً فيما تقول، عندئذٍ يصبح الوعظ أعلى عملٍ، وأشرف عملٍ، وأغلى عملٍ يفعله الإنسان، عندئذٍ تأخذ كلمة الوعظ بريقاً.

أضرب لكم بعض الأمثلة:

2 – كلمة (جرثومة):

هناك كلمات كان لها بريق، ثمَّ خبا بريقها بسبب نوع استعمالها، فمثلاً: كلمة جرثومة هي أصل الشيء، يأتي شاعر إلى خليفةٍ عظيم، فيمدحه بقصيدةٍ ويقول له:

أنت جرثومة الدين والإسلامِ والحسبِ

***

يقول: أنت أصل الدين، وأنت أصل الإسلام، أما حينما اكتشفت كائنات حيَّة لا تُرى بالعين، وهي أصل الأمراض، سميت جراثيم، فإذا قلت لإنسان الآن صديقٌ لك في معمل أو في وظيفة: أنت جرثومة هذه الدائرة، إنها ذنب، فانظروا كيف أن هذه الكلمة حينما كانت تستعمل بطريقةٍ معيَّنة كان لها بريق، وعندما استعمِلت بطريقةٍ أخرى خبا بريقها.

3 – كلمة (عصابة):

كلمة وعظ، كلمة عصابة..

((اللّهُمّ إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أهْلِ الْإسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأرْضِ))

[مسلم]

هذا دعاء النبي، والعصابة: الجماعة، أما حينما استخدمنا كلمة العصابة لقطّاع الطرق والمجرمين فقد أصبح لهذه الكلمة معنىً آخر، فالكلمة كالكائن الحي كما يقول علماء اللغة: تولد، وتنمو، وتصبح شابّةً، وتشيخ، وتموت، الكلمة كائن حي، هكذا عرّفها علماء اللغة، فكلمة الوعظ الآن مرفوضة، فإذا أردت أن تعلِّق تعليقاً ساخراً على كلام تقول: لا تَعِظْنَا، لكن ربنا عزّ وجل يقول:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ)

إذا وجد صدق، إنسان امتلأ علماً، وامتلأ حباً لله، وامتلأ انضباطاً بأوامره، وامتلأ استقامةً على أمره، هذا إذا أراد أن ينشر الحق، أن ينشر الفضيلة، أن يدعو إلى الله عزّ وجل، هذا أشرف عمل، أما إنسان فارغ، لكن أراد أن يتّخذ من الوعظ رزقاً، ودنيا، ومكسباً رخيصاً، هذا الإنسان له شأنٌ آخر، هذا تعليقٌ طفيف على كلمة:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ

1 – التوحيد من أصول الدين:

كنت قبل أشهر ضربت مثلاً لأوضّح فيه معنى الشرك، الحقيقة الإسلام فيه أصول، وله فروع، من أصول الإسلام التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، وما من مشكلةٍ نُعاني منها إلا بسبب نقص في توحيدنا، متاعب الإنسان، مشكلاته النفسيّة كلها بسبب الشِرك..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء213)

الأمر كله بيد الله..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُون (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود56)

2 – التوحيد من أصول الدين:

حينما يشرك الإنسان، حينما ينسب لزيدٍ أو لعُبَيْدٍ فعلاً، حينما يظنُّ أن فلاناً بإمكانه أن يفعل كذا وكذا، حينما يُعّلق آماله على زيد أو عبيد، على فلان أو علان فقد أشرك، والحقيقة كما قال بعض العلماء: نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، فأرقى عمل أن تطيع الله عزّ وجل، وأرقى علم أن توَحِّد، فليس عجباً أن يكثِّف الله عزّ وجل فحوى دعوة الأنبياء كلِّهم بالتوحيد..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي)

(سورة الأنبياء25)

3 – الدين كلّه توحيد:

فإذا أردت أن أضغط لك الدين كلّه بكلمتين أقول لك: وحِّد واعبد، آمن بأنه لا إله إلا الله، آمن بالله خالقاً، وربّاً، ومسيراً، وآمن به، وبوحدانيّته، وبكماله، آمن بوجوده، وبوحدانيّته، وبكماله، آمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى، إذا آمنت ووحدت فقد بلغت قمّة العلم، لأن فحوى دعوة الأنبياء كلِّهم هو التوحيد، والعمل لا يصلح إلا بالعبادة.

4 – ما هي العبادة ؟

العبادة كما تعرفون طاعةٌ طوعيّة، فأنت في أرقى مستوياتك حينما تطيع الله عزّ وجل في كامل أوامره، وتنتهي عن كل ما نهى عنه، العبادة كما تُعرّفُ دائماً: طاعةٌ طوعيّةٌ ممزوجةٌ بمحبّةٍ قلبيّة..

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفًا)

أي مائلاً..

(فِطْرَةَ اللّهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم 30)

طاعةٌ طوعيّةٌ، ممزوجةٌ بمحبّةٍ قلبيّةٍ، تسبقها معرفةٌ يقينيةٌ، تفضي إلى سعادةٍ أبديّة.

يقول لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه:

(يَا بُنَيّ لَا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

مثالٌ واقعي لبيان الشرك:

ضربت مثلاً مراراً وسأعيده ثانياً: إنسان مهمّته أن يصل إلى حلب، وهناك سيأخذ مبلغاً كبيراً في وقتٍ محدّد، توجّه إلى محطّة القطار، فإذا ركب القطار الذاهب إلى حلب، ولو ارتكب آلاف الأخطاء، أو عشرات، أو مئات، فقد يدفع ثمن بطاقةٍ في الدرجة الأولى، ويجلس في الدرجة الثالثة، ولكنّه يصل، وقد يتضوّر جوعاً، وفي القطار مركبة تبيع بعض الأطعمة وهو لا يدري، وقد يركب في مقعدٍ معاكسٍ لاتجاه القطار فيصاب بالدوار، يحدث هذا لكنه يصل، وقد، وقد...وقد يقبع في مقطورةٍ فيها شباب يصيحون، ويمزحون، وهو في سن غير هذا السن فينزعج، وقد يركب في مركبة فيها طفل صغير كثير البكاء وينزعج، وقد، وقد... لكن هناك خطأ إذا ارتكبه لا يغتفر، وهو: أن يتجه إلى مقطورةٍ واقفةٍ لا علاقة لها بالقطار المتوجّه إلى حلب، فكل هذه الأغلاط تُصَحّح وتنتهي، والقطار يصل.

إذا آمن الإنسان بالله عزّ وجل، آمن به خالقاً، آمن به رباً، آمن به إلهاً، آمن بوجوده، وآمن بوحدانيّته، وآمن بكماله، فكّر في الكون فعرفه، قرأ القرآن فعرفه، تأمّل في الحوادث فعرفه، المؤمن مذنب توّاب، كل بني آدم خَطّاء، لكن إذا ادعى أن مع الله إلهاً آخر فهذه مشكلة كبيرة، إذا اتجهت إلى جهةٍ لا تملك لك نفعاً ولا ضراً، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فلأن لا تملك لك من باب أولى، هنا المشكلة أن تعقد آمالك على زيد..

قصة في التوحيد من حياة السلف:

ثمة قصّة معروفة عندكم، عندما جاء توجيه من أحد خلفاء بني أميّة لوالي البصرة، وكان عنده الحسن البصري رضي الله عنه، يبدو أن هذا التوجيه مخالفٌ لبعض القواعد الدينيّة، وقع هذا الوالي في حيرة، ماذا يفعل ؟ أمرٌ جاء من أعلى، فإن نفّذه وقع في إثم، وإن لم ينفّذه وقع في سخط السلطان، سأل الإمام الحسن البصري وقال: ماذا أفعل ؟ قال الحسن البصري كلمةً: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

أي مخلوق إذا أطعته، وأسخطت الله عزّ وجل، هذا المخلوق لا يمنعك من الله، ولكنك إذا أرضيت الله عزّ وجل، ولم تبالِ بسخط هذا المخلوق، الله عزّ وجل يمنعك منه، هذا هو التوحيد.

إذاً:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ)

خطورة الشرك:

إيّاك والشرك..

(إِنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة النساء 48)

1 – خطورة الشرك الخفي:

طبعاً على مستوى العالم الإسلامي ليس هناك شركٌ جَلِي، ليس هناك صنمٌ يُعْبَد، لا، ولكن هناك شركٌ خفي، وقد ورد في بعض الأحاديث:

((إنّ أخْوَفَ مَا أتَخَوّفُ عَلَى أمّتِي الإشْرَاكُ باللّهِ، أمَا إنّي لَسْتُ أقولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلا قمَرًا، وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أعْمَالا لِغَيْرِ اللّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيّة))

[سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس]

((الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة، وأدناه أن تبغض على عدلٍ، وأن تحبّ على جورٍ))

[تخريج أحاديث الإحياء]

أن تحبَّ إنساناً ليس كما يجب أن يكون، تحبه لمصلحةٍ، فهذا أحد أنواع الشراك، وأن تغضب لنصيحةٍ وُجِّهَت إليك ثأراً لمكانتك، فهذا أحد أنواع الشرك، وإما أن تجعل من نفسك ومن شهواتك إلهً، وهكذا قال الله عزّ وجل، الآية الكريمة هي:

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان 43)

2 – الأخذ بالأسباب والتوكل على الله:

إما أن تجعل من أهوائك آلهةً تعبدها، وإما أن تجعل من بعض الناس آلهةً ترضيهم بسخط الله، فكيف تدعو فلاناً إله ؟ هذا شيء قد يكون له جواب، حينما تعلِّق عليه الآمال، وحينما ترجو رضاه، وتخاف من سخطه، على حساب طاعتك لله عزّ وجل، وعلى حساب دينك، فهذا هو الشرك، وقد يكون هذا الشرك شركاً جلياً، فلذلك الشيخ محي الدين رضي الله عنه، له تعريف دقيق يقول فيه: **" إذا أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فهذا شركٌ خفي ".**

مثلاً: أجريت مراجعة لمركبتك، وقال لك المختص: حالتُها جيّدة جداً، فقلت: لن يحدث معي شيءٌ في هذا السفر، هذا شرك، لأنك أخذت بالأسباب، واعتمدت عليها، المؤمن يأخذ بالأسباب ويعتمد على الله،

إن لم يأخذ بالأسباب فقد عصى، وإن أخذ بالأسباب، واعتمد عليها فقد أشرك، وخلطٌ دقيقٌ جداً بين أن تأخذ بالأسباب وتعتمد عليها، وبين أن لا تأخذ بالأسباب، في الأولى أشركت، وفي الثانية عصيت، المؤمن يأخذ بالأسباب، ويتوكّل على ربِّ الأرباب، في اللحظة التي تقول فيها: أنا ؛ مُعْتَدّاً بنفسك، مُعْتَدّاً بعلمك، مُعْتَدّاً بمالك، مُعْتَدّاً بصحّتك، مُعْتَدّاً بقوّتك، فقد أشركت، وإذا أشرك الإنسان سقط من السماء إلى الأرض.

3 – ما هو الجهل ؟

فما هو الجهل ؟ الجهل كل شيءٍ خلاف الواقع، يعرّفون العلم بأنه: علاقةٌ ثابتةٌ مقطوعٌ بصحّتها، يؤيّدها الواقع، عليها دليل، فإن لم تكن هذه العلاقة ثابتةً، فليست علماً، إن لم يكن مقطوعاً بصحّتها، هي إذاً شكٌّ، أو وهمٌ، أو ظن، إن لم يكن عليها دليل فهي تقليد، إن لم تكن مطابقةً للواقع فهي جهل، كل شيءٍ يخالف الواقع فهو جهلٌ، إذاً أنت حينما تتجه إلى إنسان معلِّقاً عليه الآمال، وهذا الإنسان ضعيف، فلو أن الله عزّ وجل جَمَّدَ ذرّةً من دمائه في بعض شرايين دماغه لفقد ذاكرته، في مكان آخر أصبح مشلولاً، في مكان ثالث أصبح أعمىً، في مكان رابع اختلّ توازنه العقلي، إذاً: هذا الذي تعتمد عليه هو بيد الله عزّ وجل، فقوامه، وملكاته وأجهزته وأعضاؤه كلها بيد الله، فإذا اتجهت إلى مخلوق، وتركت الخالق فهذا جهل، لأن الواقع خلاف ذلك.. هناك آية أبلغ:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا)

(سورة الأعراف 188)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فلأن لا يملك للآخرين نفعاً ولا ضراً من باب أولى.

بين الهدى البياني والهدى التوفيقي:

لو قال لك إنسان: أريد أن يلتقي بك ابني كي تهديه إلى الله، وكأنه يظن أن كلمة منك تكفي لهدايته، فقلت له: والله أنا ابني ليس كما أريد، ما معنى هذا الكلام ؟ معناه لو كان بالإمكان أن أصنع الهُدى في نفس إنسان لفعلت هذا مع ابني، ولكن الله يهدي من يشاء..

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص56)

إنك لا تستطيع أن تخلق أثر الهدى في النفس الإنسانية، ولكن:

(وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

مجمل هذا الكلام بمعنى أنك من حيث التبليغ تهدي إلى صراطٍ مستقيم، أما من حيث إحداث الأثر فهذا ليس بيدك، لأن الإنسان مخيَّر.

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

الشرك ظلمٌ عظيم:

ظلمٌ لمن ؟ ظلمٌ لصاحبه، فإذا أشرك الإنسان، وأمضى حياته متجهاً إلى غير الله، وانقضت حياته، وجاءت الحياة الأبديَّة كان خاسرًا، لذلك في القول المأثور: **" إن الميت حينما يوضع في قبره يقول الله عزّ وجل له:**

((عبدي، رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق معك إلا أنا، وأنا الحيُّ الذي لا يموت))

إذا أمضى الإنسان كل حياته مع الناس، زيد وعَبيد، وفلان، والجهة الفلانيَّة، وحقّق نتائج كبيرة جداً، ارتقى إلى أعلى المراتب، وحَصّل أكبر الأموال، فجاء ملك الموت..

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

كل شيءٍ حصّله يفقده في ثانيةٍ واحدة، فالبطولة ليس أن تعيش في الدنيا مرفوع المَقَام، ولا كثير المال ؛ البطولة أن تلقى الله عزّ وجل وهو راضٍ عنك، أن تعرفه في الدنيا كي تسعد بهذه المعرفة في الآخرة، أما إذا أمضيت الحياة الدنيا في الشِرك، فأنّى لك أن تستطيع أن تسعد بالله في الآخرة ؟!

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

إذا كان العظيم قال عن شيء إنه: عظيم، فما قولك ؟

مثلاً: لو قال لك طفلٌ صغير: أنا معي مبلغٌ كبير، كم تُقَدِّره ؟ طفل في صف أول ابتدائي، قال لك: أنا معي مبلغ كبير، أي خمس ليرات، عشر، خمس عشرة، مئة، أما إذا قال لك إنسان تاجر كبير جداً: أنا معي مبلغ كبير، فكلمة كبير إذا قالها طفل فلها معنىً، وإذا قالها طفل لها معنىً آخر، تقول: له مئتا عمود، أي مئتا مليون، أنت لا تعرف مقدارها، كلمة عظيم من غني تختلف عنها من طفل، فإذا قال ربنا عزّ وجل:

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

إذا قال العظيم عن الشرك: إنه شيءٌ عظيم، فكم هي عظمة الشرك ؟ فالشرك كل سعادتك بهذه المدينة، وكل المشكلات تُحلُّ إذا وصلت لهذه المدينة، واتجهت إلى مقطورةٍ لا علاقة لها بالقطار الذاهب إلى المدينة، هذا هو الشرك، المركبة واقفة، أما هي فإنها فخمة من الداخل، لَفَتَ نظرك فخامتها، لفت

نظرك مقاعدها، لفت نظرك جُدرانها، لفت نظرك أناقتها، لكنها واقفة، وأنت كل مشكلتك بالوصول إلى المدينة، فإذا اتجهت إلى مركبةٍ لها علاقة بالقطار، وصلت، وقد ترتكب في هذه السفرة عشرات الأغلاط كلها مغفورة، أما الغلط الذي لا يغتفر أن تتجه إلى مركبةٍ لا علاقة لها بالقطار، وإذا توجَّه الإنسان إلى إنسانٍ آخر، أو إلى جهةٍ، أو إلى جماعةٍ، أو إلى أي شيء، واعتقد به القوّة والغنى، وأنه يعطي ويمنع، ويرفع ويخفض، ويعز ويذل، وهو ليس كذلك، فهذا جهل..

(إِنّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

لذلك ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، اسمع آية التوحيد..

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُون (55) إِنِّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود 56)

من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام الجامعة المانعة الموجزة البليغة أنه قال:

((وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ))

[صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لا خوف للعبد إلا من الذنب والمعصية:

((لا يخافنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجونّ إلا ربّه))

[كنز العمال موقوفا عن علي]

أية جهةٍ مهما كانت مُخيفة لا ينبغي أن تخاف منها، لماذا ؟ لأنها بيد الله الذي:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف)

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر62)

خَلَقَ مخلوقات قويَّة، وخلق مخلوقات لها وضع مخيف، ولكن الله عزّ وجال مالِكُها، فالمؤمن لا يخاف إلا من الله، يا موسى خف ثلاثاً، خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني، أي لا تأمن له.

((لا يخافنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجونّ إلا ربّه))

الشيء الذي ينبغي أن تخاف منه هو أن تُخْطِئ، أن تنحرف، أن تأكل حقوق الآخرين، أن تطغى عليهم، أن تبغي، أن تتجاوز الحد، من هذا فَخَفْ، لأن الله عزّ وجل بالمرصاد، أما جهةٌ قويّةٌ مخيفةٌ فهي بيد الله..

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود 56)

هذا معنى:

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ

1 – المجانسة بين المعطوف والمعطوف عليه:

الآن عندنا ملاحظة: أن الله سبحانه وتعالى حينما يعطف شيئاً على شيء، العطف يقتضي التجانس، أو المقاربة، فأنت مثلاً لا تقول: والله اشتريت أرضاً وملعقة، لا يتناسبان، تقول: اشتريت أرضاً وحانوتاً، اشتريت بيتاً ومركبة، اشتريت كتاباً ودفتراً، اشتريت ملعقة وشوكة، العطف يقتضي التقارب.

2 – بر الوالدين معطوف على طاعة الله:

فربنا عزّ وجل رفع برّ الوالدين حينما عَطَفَهُ على طاعته..

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء)

وهذه الباء لها تفسير لطيف جداً أنتم تعرفونه، كلمة أحسن في اللغة يرتبط بها إلى، لا الباء، فعل أحسن يتعدّى بـ **(إلى)**، أما ربنا عزّ وجل فعدّاه هنا بالباء، والباء من معانيها الإلصاق، لأن الإحسان إلى الوالدين لا يُقْبَل إلا منك بالذات مباشرةً، فإنسان في بحبوبحة، عنده سائق، يقول للسائق: خذ والدي إلى نزهةٍ، هذا غير مقبول، خذ لوالدي هذه الفاكهة، لا، يجب أن تقدِّم الفاكهة بذاتك لوالديك، يجب أن تأخذه إلى النزهة بنفسك، لأن الإحسان إلى الوالدين لا يُقْبَل إلا من الابن بالذّات، هذا معنى قوله تعالى:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

ربنا عزّ وجل رفع برّ الوالدين حينما عطفه على عبادة الله عزّ وجل..

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء)

وهنا:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

3 – طاعة الوالدين بين الطاعة والطبع:

إذا كان الله عزّ وجل هو الخالق، فوالداك السبب في وجودك، السبب الذي جعله الله، لأن الله المسبّب وهما السبب، طبعاً هناك شيءٌ آخر هو: أن الله سبحانه وتعالى أودع في قلب الأمّهات والآباء حبّاً لأولادهم، وهذا سرُ الخَلق، أنت تجد الأم، أيّة أم في قلبها من الرحمة بابنها الشيء الذي لا يوصف، لذلك أي شيءٍ موجود طبع الإنسان لم يكلف به أغفله، أما التكليف جاء ليُطالبك بما ليس في طبعك، كيف ؟ من طبعك أن تقبض المال، التكليف أمرك أن تنفقه، من طبعك أن تنام، التكليف أمرك أن تستيقظ، من طبعك أن تتحدّث عن قصص الناس لأن هذا شيءٌ مسلٍ، التكليف أمرك أن تضبط لسانك، من طبعك أن ترى هذه الأم، وقد كبرت سنُها أصبحتْ عبئاً عليك، وأن تلتفت إلى زوجتك، التكليف أمرك أن تعتني بأمِّك.. يا رسول الله من أعظم الرجال في حقّ المرأة فقال: **" زوجها "**، فلمّا سُئل: من أعظم النساء في حقّ الرجل قال: **"أمُه..**

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

الأم مفضّلة على الأب، قال عليه الصلاة والسلام:

((أُمَّكَ، ثُمّ أُمَّكَ، ثُمّ أُمَّكَ، ثُمّ أَبُوكَ، ثُمّ أَدْنَاكَ، أَدْنَاكَ))

[صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ)

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ

ما هو الوهن ؟

الوهن هو الضعف، ما معنى وهن على وهن ؟ هذه تشبه ظلٌ ظليل، أي أن الضعف يتنامى، كلمّا كبر حجم الجنين ازدادت حاجته إلى الغذاء، والجنين إما أن يأتيه الغذاء، وإما أن يأخذ من أمِّه الغذاء، أي أنه يحتاج إلى كلس، فإما أن تشرب أمُه الحليب بكميّاتٍ جيّدة حتّى تؤمّن له هذا الكلس، إما إذا قصّرت فالجنين يأخذ الكلس من عظامها ومن أسنانها، ف إذا أهمل الإنسان تغذية زوجته الحامل يدفع الثمن

باهظاً، كان بثمن حليب صار بطب الأسنان، لأن الجنين يأخذ من كلس أمِّه إن لم يكن في غذائها ما يكفيه، هذا معنى:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ)

كلّما كبر حجم الجنين ازدادت حاجته، وأخذ من جسمها، من قوّتها، من حيويّتها، من أعضائها..

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ

1 – مدة الرضاع عامان كاملان:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ)

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمّ الرّضَاعَةَ)

(سورة البقرة)

فتمام الرضاعة حولان كاملان، وفي آية أخرى:

(وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا)

(سورة الأحقاف)

1 – أقلّ مدة الحمل ستة أشهر:

استنبط العلماء من هاتين الآيتين أنه: يمكن للحمل أن يكون في ستة أشهر، هذا حدُّه الأدنى، فإذا ولدت زوجة من حملها في ستّة أشهر فهذا ابنه في نظر الشرع، لأنه أدنى حد للحمل ستّة أشهر من موازنة الآيتين ببعضهما..

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي)

أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيّ الْمَصِيرُ

1 – مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللّهَ:

هنا المشكلة..

(وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيّ الْمَصِيرُ)

قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللّهَ))

[من سنن الترمذي عن أبي سعيد]

هناك نمط غير مقبول، نمط أرْعَن، أنه إذا جاء لإنسان خير من إنسان يقول: هذا سخَّره الله لي، هو ليس له فضل، أنا أشكر الله عزّ وجل، هذا الموقف غير إسلامي، وغير شرعي، ومخالف للسُنَّة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللّهَ))

الدليل: إذا جاءك معروف من خلال مخلوق ليس مخيَّراً، أي مسيَّراً، فأحياناً يحدث شيء في عالَم الطبيعة، يُساق لك خير لا من طرف إنسان مخيَّر، بل من طرف حيوان أعجمي، طبعاً الشكر وحده لله عزّ وجل، لكن إذا جاءك خير من طرف إنسان مخيَّر، فالله عزّ وجل هو الأصل في هذا المعروف، هو الذي سمح له أن ينفعك، وهو الذي ألهمه أن ينفعك، هو ألهمه وسَمَحَ له، هو الذي جعل هذا المعروف يتَّجه إليكَ.

إذاً: الله عزّ وجل هو أصل هذا المعروف، إذاً الشكر لله أولاً، لكن هذا الإنسان المخلوق، المخيَّر، وباختياره أراد أن ينفعك، ألا يستحقُّ أن تشكره ؟ فلذلك المؤمن لا ينسى المعروف، بل إن من أخلاق المؤمن أنه إذا فعل معروفاً مع الآخرين نسيه وكأنه لم يفعله، أما إذا فعل الآخرون معه معروفاً ذكره حتَّى فلا ينساه، هذا شأن المؤمن، والنبي عليه الصلاة والسلام أكَّد على هذا المعنى، وربنا عزّ وجل يقول:

(وَلا تَنسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)

(سورة البقرة)

فبائع مثلاً يقول للمشتري: أخي رزقي على الله، هذا المشتري اشترى من عندك كميَّة ضخمة، يحتاج إلى مؤانسة، إلى ملاطفة، هذا الموقف المتعجرف المنسوب إلى توحيد موهوم، هذا موقف غير إسلامي، وهذه الآية تؤكِّد ذلك:

(اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)

2 – الشكر لله وللوالدين:

لأنني سُقْتُ لك هذا الخير عن طريق والديك، هما قضيا وقتاً طويلاً في رعايتك، في حملك، في تغذيتك، في تربيتك، في تنميتك، إذاً يجب أن يتَّجه شكرك لله أولاً ثمَّ لوالديك اللذين كانا سبب وجودك، واللذين كانا ممرّ فضل الله عزّ وجل إليك..

(إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

لماذا يجب أن تشكر الله عزّ وجل ؟ لأنه إليه المصير، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن.

3 – موقف المسلم من الوالدين غير المسلمَين:

الآن عندنا مشكلة أخرى هي: أن هذا الأب الذي أعطاه الله هذه المكانة، ورفع الإحسان إليه حينما عطف الإحسان إليه على عبادته، هذا الأب قد يكون ضالاً، وقد يكون كافراً، وقد يكون عاصياً، وقد يكون فاسقاً، فما موقف الابن البار من أبٍ منحرف ؟ جاء الجواب:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي)

لا طاعة للوالدين في الشرك والمعصية:

هنا معنى الشرك أي على أن تطيعهما وتعصيني: طلقها يا ابني، طلقها لم أحبها، الزوجة جيدة ممتازة، من أجل أن أرضي نزوة أبي أطلِّق زوجتي، فهنا الشرك بمعنى أن تطيع والديك على حساب طاعتك لله، أمرك أبوك أن تتعامل مع الناس في تجارتك تعاملاً ربويًّا يقول: برضاي عليكَ افعل كذا، فإذا كنت مجاملاً، وأطعت الأب، وعصيت الرب، فقد وقعت في شركٍ عظيم، جعلته إلهاً يُطاع من دون الله، مع أنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.. أم سيدنا سعد قالت له: " إما أن تكفر بمحمّد، وإما أدع الطعام حتّى أموت "، فأجابها سيدنا سعد ببرودة، وقال لها: **" يا أمي، لو أن لكِ مائة نفسٍ فخرجت واحدةً وَاحدةً، ما كفرت بمحمّد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي "**، وبعد هذا أكلت..

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

الحدود الشرعية لا مساومة فيها:

في حياة المؤمن قضايا ليست خاضعةً للمساومة، الآن في المؤتمرات واللقاءات شروط مسبقة، مثلاً، هذا الموضوع لا يمكن أن يُدْرَجَ في جدول الأعمال، إذا أردتم اللقاء والمناقشة، احذفوا هذا الموضوع، وكذلك المؤمن إذا تناقش مع الآخرين هناك موضوعات ليست خاضعةً للمساومة أبداً، فيدعوك شريكك إلى معصية الله فتقول: يا أخي استحيت ولم أقدر، الله بعث لنا رزقا سوياً، هذا كلام فارغ، وليس له معنى أبداً، ضغط عليك والدك، أعطاك بيتاً، ضغط عليك والدك كي تعصي الله يقول لك: لا تفرّق العائلة يا بني، الله يرضي عليك، نحن هكذا تربينا، فهل أنتم شرع ؟! عندنا شرع، فأحياناً يأتي للإنسان ضغوط من والديه لتطبيق شيء، أو لمخالفة الشرع..

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي)

معنى تشرك هنا بمعنى أن تعصيني، وأن تطيعهما، في مصلحة دنيويّة..

(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

بعض المفسِّرين قالوا:

(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

أي أراد من نفي العلم نفي الوجود، أحياناً الإنسان يقول: فلان لا شيء، هو شيء، ووزنه خمسة وثمانون كيلوا، كيف لا شيء ؟ ولكن يقصد لا شيء، أي ليس له قيمة، أحياناً نعبّر عن نفي الوجود بنفي العِلم، يقول لك: فلان، فيرد قائلاً: من هو فلان، لا أعرفه، هو يعرفه، ولكن لا يعرف له مكانةً..

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ فمن أنتمُ حتى يكون لكم عندُ

***

أحياناً ننفي العلم بالشيء كي ننفي الشيء، أو ننفي قيمته، فربنا عزّ وجل، إذا قال له أبوه: هذه تقاليد، والعادات، هكذا نشأنا، هكذا ربينا، هكذا نحن في بلدنا، هذا كلام ليس له معنى إطلاقاً..

(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

يقول لك: في العرس يجب أن تدخل، وأن تصمد أمام الآخرين، أمام النساء، هكذا العادات، لكي لا يظنوا أن فيكَ عاهة يا بني، هذا خلاف الشرع، فهناك أمثلة كثيرة جداً ؛ من اختلاط، من أكل مال حرام، من احتفالات كلها لا ترضي الله عزّ وجل، وهذه مشكلة يعانيها الشباب، إذا تاب شاب إلى الله توبة نصوحاً يعاني من أهله، يعاني من ضغوط اجتماعيّة، من طرف الأهل، فإذا أراد أن لا يجري اختلاطاً في حياته الاجتماعيّة يُتّهم بالمجافاة، والعداوة، ويسيءُ الظن بإخوته، فتُفسَّر طاعته الله تفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان، هنا:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

لكن..

(وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

لكن مع ذلك: وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً

صاحبهما في الدنيا مصاحبةً لا ينكرها الشرع، ولا ينكرها الكَرَم، هناك شخص إذا أعطاه أبوه توجيهاً خلاف الشرع يقول له: أنت لا تفهم، أنت كافر، أعوذ بالله، هذا جفاء، يمكن لك أن تعتذر عن تلبية طلب من والديك بأدبٍ جم، يمكن أن ترفض تنفيذ طلب لوالدك بمنتهى اللطف، هنا قوله تعالى:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أنْ تُشْرِكَ بي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

كن كريماً معهم، واسِهم، قدِّم لهم الخدمات تلو الكلمات، ليّن كلامك معهم، هذا كلُّه مطلوب، ولو كانوا على خلاف ما تريد، ليس هذا من شأنك، أدِّ الذي عليك واطلب من الله الذي لك، هذه قاعدة، لكن تقول لي: والله إنّ والدي جعلني أفعل كذا خلاف الشرع، هكذا أحب والدي، معنى هذا أنت صفر، أنت لا شيء، أين استقلاليتك ؟ أين إيمانك ؟ أين عزيمتك ؟ أين ورعك ؟ لكن أرجو الله عزّ وجل أن يكون الآباء في المستوى المطلوب.

مشكلة معاكسة:

هناك مشكلة معاكسة: الأب يأمر بالصلاح والابن لا يستجيب، هذه مشكلة ثانية، لكن توجد حالات معيَّنة كأن يأمر الأب بما لا يأمر به الله عزّ وجل، والقاعدة: لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق..

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الذي أعقب النهي الأول:

(فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

لا بدّ من مرجعية وطريق صحيحة: وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ

فلابدّ لك من مشربٍ صحيح.

((ابن عمر، دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

الإنسان الذي رجع إلى الله رجع، رجع إليه بأوامره ونواهيه، رجع إليه بعلمه، وأطاعه، هذا اتبع سبيله..

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

المرجع والمصير إلى الله:

أنبّئكم بحقيقة أعمالكم، وأنبّئكم بنتائج أعمالكم، أنت على صواب وأنت على خطأ، وهذه النتيجة كانت كذا وكذا..

(فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وفي درسٍ آخر إن شاء الله نتابع تفسير هذه الآيات بفضل الله وعونه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (06-13): تفسير الآيات 16 - 20
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-06-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس السادس من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

يَا بُنَيَّ

1 ـ الحكمة من النداء بلفظ البنوة:

كلمة يا بنيَّ ماذا يستنبط منها ؟ هذه اللفظة تفتح القلب، لفظة محبَّبة، فكأن الله سبحانه وتعالى من خلال وصيَّة سيدنا لقمان، يعلِّمنا أنه عليكَ أن تفتح قلب الإنسان قبل أن تفتح عقله، قل له: يا أخي، قل له: يا صديقي، قل لابنك: يا بني، هذه الكلمات تفتح القلب، فإذا فُتِحَ القلب صار الطريق سالكاً إلى العقل، القسوة لا تُجدي.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران 59)

2 ـ يجب اختيار أحسن الألفاظ في الدعوة ومخاطبة الناس:

يجب على الأب أن يستخدم ألطف عبارةٍ مع أولاده، لأنه كأب لا يكفي أنه أب حتى يحبَّه أولاده، لا بدَّ من أن يكون كاملاً، حتى في كلماته، حتى في عبارته، فإذا قرأت قوله تعالى في سورة لقمان، وفي وصيَّة هذا الحكيم الذي هُناك خلافٌ في نبوَّته، على كلِ الحكيم أدق كلمةٍ تطلق على سيدنا لقمان..

(يَا بُنَيَّ)

هذه الكلمة تعلّم منها الكثير، تعلّم منها أن تستخدم ألطف عبارةٍ مع الآخرين، تعلّم منها أن تُنادي الإنسان بأحب الأسماء إليه، تعلّم منها أن تقيم جسوراً من المودَّةِ قبل أن تقيم جسوراً من الفكر بينك وبين الآخرين، النبي عليه الصلاة والسلام رسولٌ، نبيٌ رسولٌ معصومٌ يوحى إليه، ومع كل هذه الميزات..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران)

َ نبيٌّ، رسولٌ، معصومٌ، سيّدُ ولد آدم، يوحى إليه..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)

(سورة آل عمران)

فكيف بداعيةٍ من عامة الدعاة، فكيف بمؤمنٍ من عامةِ المؤمنين، ليس لك أي ميزة، فإذا كنت قاسياً في دعوتك، هذه القسوة هي سدٌ منيع بينك وبين الآخرين ؟ إذاً:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة المؤمنون 96)

أحسن: اسم تفضيل، انتق أحسن كلمة، وانتق أحسن تصرُّف، وانتق أحسن موقف، كي ينفتح القلب لك، فإذا انفتح القلب لك صار الطريق سالكاً إلى عقلهم، هذا مما يستنبط من قول الله عزّ وجل في وصية سيدنا لقمان لابنه:

(يَا بُنَيَّ)

يجب أنْ يعوّد الإنسان نفسه بأن يخاطب أهله، وأولاده، وجيرانه، وزملاؤه، ومن حوله، بألطف كلمة، وبأحب أسمائهم إليهم.

مر بنا أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما سأل زيد الخَيل:

((من أنت ؟ قال: أنا زيد الخيل، قال: بل زيد الخير لا زيد الخيل))

[السنة للبغوي عن ابن مسعود]

فقد أراد أن يُبَدِّلَ اسمه، زيد الخير لا زيد الخيل، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نخاطب الناس بأحب أسمائهم إليهم، هذا من السنة، هذا من قوله تعالى:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا)

يَا بُنَيَّ إِنَّها

1 – عودُ الضمير في قوله: إنّها:

هذه الهاء على من تعود ؟ قال بعضهم: إن الخَصْلَة الحسنة، أو أن الخصلة السيئة، أو إن الحسنة، أو إن السيئة، أو إن نصيبك من الرزق، كل هذه المعاني تحتملها الهاء، إنها، خصالك الحسنة، خصالك السيئة، حسناتك، سيئاتك، أرزاقك، بالمفرد، خصلتك الحسنة، تصرف حسن، موقف حسن، نظرة

حُسْنَى، موقف حسن، عبارة حسنة، أي أن الحسنة مهما دقت، ومهما صغرت، ومهما تناهت في الصغر..

(إِنَّهَا إِنْ تَكُ)

إلى أن تصل هذه الحسنة..

(مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ)

إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ

حبة الخردل لا وزن لها، هي لها وزن، ولكن لا يَرْجَحُ بها ميزان، مهما كان الميزان دقيقاً، لصغر حجمها، وضآلة هيكلها، وصغر جرْمها، إذا وضعتها على ميزانٍ حسّاس لا يتحرّك، فعملك الحسن، مواقفك، أنقذت نملةً، نزعت قشةً من المسجد وضعتها في جيبك تنظيفاً له، ابتسمت في وجه صغير، ناولت حاجةً وقعت من إنسان، انتظرت أعطيت دورك لإنسان أشد منك حاجة، أنا أضرب هذه الأمثلة لأن..

(إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ)

العمل الصالح مهما تناهى في الصغر، الخصلة في الإنسان مهما دَقّت، الحسنة مهما ضؤلت ؛ بالمقابل الموقف السيئ، السيئة، الخصلة السيئة مهما ظننتها صغيرة، إذا أصررت عليها فليست صغيرة، إنها كبيرة..

(إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ)

أي جزء من حبة الخردل، وحبة الخردل لا وزن لها، وإذا كان لها وزنٌ لا يرجح بها الميزان، نحن مع المثال القرآن الكريم، المثال طريقةٌ رائعةٌ في التعبير، والله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ضرب الأمثال، لا زلنا مع هذا المثل الرائع الذي ساقه الله عزّ وجل تعبيراً عن علمه، وعن قدرته، قال:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ)

لك رزقٌ في حجم حبةٍ خردل، لا بدّ من أن يصل إليك.

بعض المفسرين قالوا: ما دام الله عزّ وجل ذكر على لسان سيدنا لقمان وصيةً حكيمةً رائعةً، يقول فيها:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ طج)

اتبع سبيل من أناب إليّ.. الزم أهل الحق..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة 119)

قد يقول قائل: أنا مشغول، أنا مشغولٌ في طلب الرزق، من أين أطعم عيالي ؟ من أين آتي برزقهم ؟ ماذا نأكل ؟ أين أسكن ؟ كيف أتزوج لا بيت عندي ؟ ليس في يدي عملٌ له دخلٌ وفير، فإذا جاء الأمر الإلهي من خلال وصية سيدنا لقمان..

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

قد يقول قائل: أنا مشغولٌ بطلب الرزق، جاء الجواب: لو أن رزقك يعدل حبة خردل لجاء الله بها إليك، هذا معنى ثانٍ، لو أن لك رزقاً في حجم حبة الخردل لساقها الله إليك، هذا المعنى ورد في القرطبي، ما دام الله عزّ وجل يقول:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

أي الزم أهل الحق، احضر مجالس العلم، تفهّم كلام الله عزّ وجل، فهم سنة نبيه، تفهم أحكام الفقه، اتلُ القرآن، تفقّه في القرآن، هذا كله يحتاج إلى وقت، وإلى مواصلات، ووقت للجلوس، ووقت للصلاة، لا بدّ من أن تستهلك وقتاً في معرفة الله عزّ وجل ومعرفة أمره، هذا الوقت الذي تستهلكه إيّاك أن تقول: أنا لست فارغاً، أنا مشغول في طلب الرزق، جاء الجواب:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ)

معنى: حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ

إذاً: كلمة:

(حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ)

إما أنها تعني الحسنة مهما صغرت، أو السيئة مهما تضاءلت، أو الرزق مهما دَقّ، هذا المثل إلى أي شيءٍ يصل بنا، قال:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ)

لو أن هذه الحبة الدقيقة التي قد لا ترى بالعين، والتي قد لا يرجحُ بها ميزان، لو أن هذه الحبة الدقيقة كانت في جوف صخرةٍ، فهي في حرزٍ حريز، وفي خفاءٍ عن الأعين، لا يوجد مكان أشد تحصيناً، وأشد احترازاً، وأشد خفاء من أن تكون هذه الحبة من الخردل في جوف صخرةٍ، لا يعلمها أحد.

(فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ)

فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ

1 - الشيء بين الرؤية والتناول:

هنا شيئان، قد يكون الشيء في متناول يديك، ولكنك لا تراه، وقد تراه، ولكن ليس في متناول يديك، هما حالتان دقيقتان، قد تقع قطعة معدنٍ صغيرةٍ جداً وسط آلة، ولا تملك وسيلةٍ لالتقاطها، هي في متناول يديك، ولكنك لا تملك أن تلتقطها، وقد ترى شيئاً واضحاً تماماً، ولكنه ليس في متناول يديك، فهذه الحبة من الخردل لو أنها إلى جانبك، ولكن في صخرةٍ، في خفاءٍ عنك، إنك لا تراها، ولكن الله يراها، الله عليم، أو أن هذه الحبة من الخردل على القمر، وقد نُقِلت لك صورتها، إنك لن تستطيع أن تصل إليه إلا بأجهزة معقدةٍ جداً، إذاً: إما أن تكون قريبةً منك، ولكن في خفاءٍ عنك، وإما أن تكون بعيدةً عنك لا تطولها يداك، لكن الله سبحانه وتعالى عليمٌ قدير، هذا للتعليم.

2 - لن تستقيم إلا إذا أيقنتَ بعلم الله:

أي أنك أنت لن تستقيم على أمر الله عزّ وجل إلا إذا أيقنت أنه يعلم، ولن تستقيم على أمر الله عزّ وجل إلا إذا أيقنت أنه مع علمه يطولك بقدرته، يطولك بعلمه، وحينما قال الله عزّ وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا: أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق12)

أي أنه اختار من بين أسمائه كلها التسعة والتسعين اسمين اثنين، القدير والعليم، فإذا أيقنت أنه يعلم، وإذا أيقنت أنه يقدر، يعلم ويقدر، فكيف تعصيه ؟ إن كان يعلم، ولا يقدر قد تعصيه، فإذا أصدر شخص قراراً وأنت أقوى منه، فإذا خالفت هذا القرار أمامه، هو يعلم أنك تخالفه، ولكن لا يقدر على أن يوقع فيك عقوبة، إذاً تخالفه، إذا كان يعلم، ولا يقدر تخالفه، وإذا أصدر إنسان قراراً وهو يقدر أن يعاقبك ؛ ولكن خالفته في مكانٍ لا يطولك علمه، تعصيه، راقب نفسك متى تخالف ؟ إذا أيقنت أن علم هذا الآمر لا يطولك، أو أن قدرته لا تطولك، أما إذا أيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه.

الطريق مثلاً مراقب بالرادار، فإذا تجاوزت السرعة المقررة التقطت لك صورة، ولست قوياً تستطيع أن تتفادى هذه المخالفة، إنك أضعف ممن سيوقع بك العقوبة، إذا أيقنت أنه يعلم، وأنه يقدر لا يمكن أن تعصيه..

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق 12)

إنّ علّة خلق السماوات والأرض أن تعلموا، لذلك العلم هو الطريقُ الوحيدُ الموصل إلى الله عزّ وجل، ليس هناك من طريقٍ آخر، العلم هو القيمة الوحيدة التي اعتمدها الله في القرآن الكريم، وجعلها قيمةً مرجحةً بين خلقه، قال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر 9)

إذاً ماذا أراد الله بهذا المثل ؟

(يَا بُنَيّ إِنّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ)

تطولها يدك، لكنك لا تعْلمها..

(أَوْ فِي السّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

يطولها علمك، ولكن لا تقدر أن تصل إليها، لكن الله يعلم ويقدر. يا بني إنها حسناتك، سيئاتك، أرزاقك.

يَأْتِ بِهَا اللّهُ

(يَا بُنَيّ إِنّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ)

1 – لا يضيع شيء عند الله تعالى:

إن كانت حسنةً يأتي بها ليجزيك عليها، وإن كانت سيئةً يأتي ليجازيك عليها، وإن كان رزقاً يأتي به إليك، لكن سياق الآيات، ما دام الله عزّ وجل أمرنا أن نتبع سبيل من أناب إليه، لا ينبغي أن نحتجّ بضيق الوقت أو بكسب أرزاقنا، لأن الرزق يصل إليك، بل إن الرزق مما تكفّل الله به.

2 – الأرزاق مضمونة فاشتغلوا باتباع سبيل الله:

هناك نقطةٌ مهمةٌ جداً: شيئان أحدهما تكفل الله لك به، والثاني أمرك به، الأول لا يحتاج إلى همٍ كبير، ولا إلى جهدٍ كبير، ولا إلى قلق، ولا إلى انشغال بال، الثاني يحتاج إلى سعيٍ منك، الأول: الرزق تكفّل الله لك به، والثاني: والسعي في طلب الآخرة تركه لك، قال تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى)

(سورة النجم39)

ليس لك إلا ما سعيت، أما الأول:

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ)

(سورة الزخرف32)

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)

(سورة الذاريات23)

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

(سورة الذاريات22)

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

(سورة الزمر36)

آياتٌ كثيرة بيّنتْ أن الله تكَفّل بأرزاقنا، وآياتٌ كثيرة حثتنا على العمل من أجل الآخرة.

3 – لا تشتغلوا بالمضمون لكم وتتركوا ما وجب عليكم:

ما قولكم بإنسانٍ عكس الآية ؟ الذي طُلِبَ منه تركه، والذي ضُمِنَ له سعى إليه، مثل طالب داخلي في مدرسة ثانوية، مكلف أن يدرس، قاعة المطالعة مجهزة بالوسائل المريحة، بالإضاءة، بالمكتبة، بالمقاعد الوثيرة، بالمناضد المستوية، بالماء البارد، والإدارة تكفّلت بتقديم الطعام الجيّد النفيس في أوقات محددة، فهذا الطالب بدل أن يقبع في غرفة المطالعة ليدرس ما طلب منه، توجّه إلى المطبخ، وسأل: ماذا فعلتم بالشيء الفلاني ؟ هل أنجزتم هذا الطعام ؟ هذا الطعام موكولٌ إلى غيرك، وقد تكفّل لك به، وأنت عليك أن تدرس، ترك ما طلب منه، واشتغل بما ضمن له، هذا مرض المسلمين، تركوا ما طلب منهم، واشتغلوا بما ضمن لهم، فالمؤمن ينطلق ساعياً فيما طُلِبَ منه، ويتّكِلُ على ما ضمن له، وبالطبع الاتكال لا يعني أن لا تسعى، ولكن أن لا تنسحق من أجل الرزق، أي أن لا تعصي الله من أجل الرزق، أي أن لا تنسى الآخرة من أجل الرزق، هذه المعاني المستنبطة من قوله تعالى:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ)

إذاً: أي عملٍ تعمله سُجّل لك، أي سيئةٍ تقترفها سُجّلت عليك، لذلك إذا أيقنت أن الله يعلم، وأنه يقدر، لابدّ من أن تستقيم.

4 – عدم الاستقامة دليل على خلل في العقيدة:

السؤال الآن: إن لم تكن مستقيماً فما تفسير ذلك ؟ إن لم تكن مستقيماً فاعلم علم اليقين أن هناك خللاً في عقيدتك، إن لم تكن مستقيماً يجب أن تعلم أن إيمانك بعلم الله ضعيف، وأن إيمانك بقدرته ضعيف، جدد إيمانك، لأن الإيمان الذي لا يعقبه عملٌ لا قيمة له، بل إن حجم الإيمان لا يُعَدُّ كافياً إلا إذا حملك على طاعة الله، حجم إيمانك، إن كان للإيمان حجم، إذا أردنا أن نقيس الإيمان بوحدات، وحدات الإيمان لا تغدو كافيةً منجّيةً إلا إذا حملتك على طاعة الله عزّ وجل، هذا المعنى المستفاد من قوله تعالى:

(فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

أي يعلم من دون أن تشهد، فإذا أراد الإنسان أن يعلم أوقع فيك الخوف، راقبك، الله سبحانه وتعالى لطيف، يعلم من دون أن تشعر، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، يعلم السر، يعلم ما خفي عنك، يعلم ما أعلنت، يعلم ما أسررت، يعلم دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، يعلم ما في أعماق البحار، يعلم ما في أقطار السماوات والأرض، إذا آمنت بعلم الله عزّ وجل وآمنت بقدرته، حملك إيمانك هذا على طاعته، ماذا تنتظر إذاً ؟

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

إذاً:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)

الجانب العملي من وصية لقمان لابنه:

1 ـ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ

ليس لك إلا الله، هو العليم وهو القدير وإليه المصير، ماذا تنتظر؟ لابدَّ من أن تقيم علاقةً طيبةً معه، لابدَّ من حسن علاقةٍ مع هذا الخالق العظيم، لذلك:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

الأمر كله بيده، والمصير إليه، وعلمه مطلق، وقدرته مطلقة، وأمرك إليه، بيده ملكوت السماوات والأرض، إذاً:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

اتصل معه.

أحياناً حديث عادي بيد من الأمر ؟ إذاً: زُره، لك قضية بهذه الدائرة، من الرجل القوي بهذه الدائرة ؟ من بيده التوقيت ؟ من الذي يقرر ؟ من صاحب القرار ؟ فلان، إذاً: زُر فلانا، الاستنتاج منطقي، ما دام الله يعلم، وقدير، وبيده كل شيء، إذاً:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)

إياك أن تتجه إلى غيره، إياك أن تنصرف إلى سواه، إياك أن تعلق الآمال على إنسانٍ مثلك.

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)

لماذا قال الله عزّ وجل:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

2 ـ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ

1 – الحكمة من اقتران إقامة الصلاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فلِمَ لمْ يقل: أقم الصلاة، وآتِ الزكاة، وصم رمضان، وحج البيت، لمَ جاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد إقامة الصلاة ؟

لأنك بالصلاة تصلح شأنك، وبالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر تصلح غيرك، ولن تستطيع أن تصلح غيرك إلا إذا أصلحت شأنك، إذاً أقم الصلاة لإصلاح ذاتك، ثم أمر بالمعروف، وانهَ عن المنكر لإصلاح غيرك، المؤمن كالوعاء، إذا امتلأ الوعاء لابدّ من أن يفيض، فإذا لم يفض معنى ذلك لم يمتلئ بعد، مؤمن عرف الله عزّ وجل، ذاق طعم قربه، ذاق حلاوة الإيمان، ذاق حلاوة التيسير في الحياة الدنيا، شعر بالأنس ويبقى ساكتاً !! يقول: مالي وللناس، لا، هذا مستحيل، ما دمت قد عرفت الله عزّ وجل فلابدّ من أن تذكره كما ذكرك غيرك، لابدّ من أن تُعَرّفَ به كما عُرّفْتَ به، لابدّ من أن تهدي الآخرين كما هديت إليه، إذا امتلأ الوعاء لابدّ من أن يفيض، أن يفيض الوعاء هذا دليل امتلائه، فإن لم يفِضْ هذا دليل عدم امتلائه، إذاً:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ)

كلمة: (ليس لي علاقة)، كلمة: (ما لي وله)، (له رب يحاسبه)، (لا أحب أن أدخل في أشياء تتعبني)، (دع الناس للناس)، هذا كلام إبليس، يجب أن تحاول أن تهدي الآخرين، أهلك، زوجك، أولادك، جيرانك، أقرباءك، زملاءك في العمل، إنسان توسّمت فيه الخير، لأنك مأمور بذلك:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

2 – ما هو المعروف والمنكر ؟

المعروف هو ما شرعه الله عزّ وجل من طاعات وأوامر، والمنكر ما نهى الله عنه، المعروف والمنكر هو الشرع الحكيم، لكن ما دام الإنسان مخيراً، وما دام بين الحق والباطل معركةٌ أبديةٌ أزلية، قديمةٌ قِدَمِ الإنسان، مستمرة إلى نهاية الدوران، فلابدّ لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من أن يعارض، ومن أن توضع العقبات أمامه، لابدّ من أن يحارب، لابدّ من أن يُتّهم، لا بدّ من أن يُكاد له.

إذاً:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

لأنك إذا واجهت الصِعاب، واجهت المشاق، كَبُرْتَ عند الله عزّ وجل، الشيء الذي يأتيك بسهولة لا قيمة له، الله عزّ وجل لابدّ من أن يمتحنك، لابدّ من أن يمتحن صدقك في طلب الحق، لابدّ من أن يمتحن صدقك في طلب الهداية للناس، لابدّ من أن يمتحن مقدار ما تتحمّل في سبيل الله، إذاً:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

3 ـ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

1 – الناس معادن ومشارب مختلفة:

الناس معادن، هناك معدن لا يتأثر لا بالأحماض، ولا يتأثر بالحرارة، ولا بالبرودة، وهناك معادن سريعة التأثّر، هذا معدن خسيس، فالناس معادن، من أجل أن يظهر معدنك النفيس لابدّ من أن تمتحن بمحكٍ دقيق، فالمحك يكشف ما إذا كان المعدن نفيساً أو خسيساً، إذاً:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

2 – لنا في الأنبياء والصحابة والصالحين أسوةٌ في الصبر:

ولك في رسول الله أسوةٌ حسنة، لك في أصحابه الكرام أسوةٌ حسنة، لك في العلماء العاملين أسوةٌ حسنة، لأنك إذا تحمّلت المشاق في سبيل الله شعرت أن الله يحبك، وأن الله راضٍ عنك، وأنك بأعين الله عزّ وجل، لا ترقى إلا بتحمُّل المشاق، لكن تأكّد أن الله في النهاية سينصرك، لما دخل النبي مكة المكرمة بعد أن خذله أهل الطائف، وبعد أن شمتوا به، وبعد أن كذّبوه، وبعد أن سخروا منه، وبعد أن آذوه، وبعد أن أغروا به سفهاءهم، وكان قد خرج من مكة يائساً من هداية أهل مكة، عاد إليها، وكأن بعض الناس قد غمزوا ولمزوا، وكان في أدنى درجة من الضعف، إن صَحَّ أن يكون للدعوة النبوية خطٌّ بياني، الخط البياني وصل إلى الحضيض عَقِبَ ذهابه إلى الطائف صلى الله عليه وسلم، حينما شمت به بعض الناس، ما زاد عن أن قال: إن الله ناصر نبيه، انظر إلى الثقة بالله عزّ وجل، وأنا أقول لكم: قد يمتحن الله بعض المؤمنين، لكن اصبر، واستبشر، وتيقن أنك إذا كنت على الحق فالله معك..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل79)

لماذا تتوكل ؟ لأنك على الحق، لأن الله مع الحق.

الآن:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

4 - وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ

ما دام الله عزّ وجل قد أمرك أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر، فإذا صَعَّرْتَ خدك، وأمَلْتَ خدك، وهذا كنايةٌ عن الكبر والفخر والعجب واحتقار الآخرين، فإن هذا مرضٌ قبيح، شنيع، وهو مرضٌ يصيب بعض الناس، إذْ يفخر بنفسه، ويعجَب بشخصيته، وأفكاره ومواقفه، ويرى كل الناس دونه، ويحتقر الآخرين، جمع الله عزّ وجل كل هذه المعاني الذميمة في كلمة:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

لا تَمِل رأسك عجباً وفخراً وكبراً واستعلاء وغطرسةً واحتقاراً للآخرين..

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

5 - وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً

1 – إيّاكم والكبرياء والعلوّ فإن الدنيا تزول:

فإذا جاءت الدنيا كما تشتهي إيّاك أن تحملك الدنيا على أن ترقص طرباً..

لكل شيءٍ إذا مـا تم نقصان فـلا يغرّ بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ مـن سره زمنٌ ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ ولا يـدوم على حالٍ لها شان

***

قال مَلِكٌ لوزيره: قل لي كلمةً إن كنت فرحاً أحزن بها، وإن كنت حزيناً أفرح بها، قال له: كل حالٍ يزول.

فالدنيا تزول، فلو أن إنساناً مصاب بمرض عضال، يموت، وينتهي هذا المرض، ويزول، زوجة سيئة، لابدّ من أن تتركها أو أن تتركك، فسيأتي وقت يحصل فيه فصل.

عندما أمر ربنا من خلال وصية لقمان الحكيم، أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر، هذا الآمر بالمعروف وهذا الناهي عن المنكر لابدّ من أن يكون محبباً إلى الناس، متواضعاً، لطيفاً، خافض الجناح لهم، يعيش معهم، يتحسس آلامهم، يعيش مآسيهم، يعيش أفراحهم، يعيش مسرّاتهم، لابدّ من أن تكون مع الناس، لا أن تكون في برجٍ عاجي، أنت في واد والناس في واد.

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

لا تستخفك الدنيا، لا تفرح بها، لا تجعلها منتهى آمالك، لا تجعل الدنيا أقصى نوالك، الدنيا مؤقّتة، كن كمسافرٍ استظل بظل شجرة، كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل.

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

2– معنى الآية:

أي كِبْرَاً، وعجباً واختيالاً، واحتقاراً..

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

أحياناً تجد شخصاً نجح في التجارة، أو نجح في وظيفته، أو نال مركزاً حسّاساً، تجد من حركاته وسكناته، وابتساماته، وتعليقاته اللاذعة، واستعلائه على الآخرين، تجده في مكانٍ لا تتمنى أن تكون

مكانه، ماذا حصل له ؟ استخفّه هذا المنصب، أو استخفّه هذا الدخل الكبير، أو استخفّته هذه التجارة الواسعة، أو استخفّه هذا المنزل الفخم، فجعل يَعْرِضُ ما عنده على الناس، ويستجدي مدحهم وثناءهم.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

6 ـ إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

1 – خطورة الكِبر:

أحد أصحاب النبي عليهم رضوان الله، عندما قال النبي:

((لا يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

((إنّ الرّجُل يُحِبُّ أنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً))

فقَالَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

((إنّ اللّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقّ وَغَمْطُ النّاس))

[صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

لا، الكبر بطر الحق، وغمط الناس، بطر الحق أن ترد الحق، أن ترفض الحق، أن لا تقبل الحق، تقول له: هذا كلام الله، فيقول لك: دعك من هذا.

هذا أمر الله، هذا توجيه النبي، هذه سنة رسول الله، فإذا رفضت الحق وجدت نفسك أكبر منه، وجدت أن الحق يقيّدك، أحببت أن تكون طليقاً، هذا بطر الحق أي رد الحق، وغمط أو غمص ـ بروايتين ـ و غمص الناس أي احتقارهم، فتعريف الكبر عند النبي عليه الصلاة والسلام بطر الحق و غمص الناس.

(إنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

2 – من علامات آخر الزمان قيمة الرجل مِن متاعه:

لذلك من علامات آخر الزمان أن قيمة الرجل متاعُهُ، يستمد الإنسان الآن شخصيته من مساحة بيته، من موقع بيته، من أثاثه، من نوع ثيابه، يقول لك: هذا أجنبي، كنت ساكتا، فهو ينبّهك بقوله: هذه أجنبية، لا يوجد عنده شيء ثانٍ، يستمد مكانته من متاعه، من أثاثه، من أذواقه، من رحلاته، من إنفاقه..

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالا لُبَدًا)

(سورة البلد6)

كلفتني هذه النزهة كذا ألف، كلفني هذا العرس كذا مائة ألف، كلفتني هذه الحفلة، هذه الوليمة، يستمد قيمته من متاعه، ومن إنفاقه.

3 – أثمن شيء عند المؤمن معرفة الله:

أما المؤمن فهو عنده شيء ثمين جداً، عنده معرفة الله عزّ وجل، يحدثك عن الله عزّ وجل حديثاً مُمْتِعَاً، يستغني به عن حديث الدنيا، لذلك:

((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَتَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرٍ إلا تَفَرَّقُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[مسند أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ألزم نفسك أن يكون لسانك رطباً بذكر الله، أينما جلست ذكِّر بآيةٍ كونية، بآيةٍ قرآنية، بموعظة، بحديثٍ شريف، بحكمٍ فقهي، بسيرة صحابي جليل، بسنةٍ نبوية، ذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد تنقذ إنساناً بكلمة..

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

(سورة إبراهيم)

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة المائدة32)

فهل ذقت مشاعر إنسان ساهم في هداية مخلوق، هذا المخلوق أسس أسرة، والأسرة مؤمنة، صالحة مستقيمة، أنجبت ذريةً صالحة، كل هذا الخير في صحيفتك، هل شعرت بهذه المشاعر ؟ ابذل جهداً من أجل ذلك.

قال تعالى:

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

7 ـ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ

1 – معنى القصد في المشي:

القصد هو الاعتدال، لا تمش في الأرض، ذليلاً، خانعاً، ولا تمش مفتخراً، مختالاً متكبراً، ولكن بين أن تكون خانعاً وبين أن تكون متعجرفاً، واقصد في مشيك، اقصد حد الاعتدال في مشيك، في ركوب

مركبتك، في حركاتك، في سكناتك، لا تكن متعجرفاً، لا تصعر خدك للناس، ولا تكن ذليلاً تسارع إلى تقبيل أرجلهم بلا سبب.

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)

كن بين هذا وذاك..

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ)

2– معنى الغض من الصوت:

لا ترفع صوتك، لأن الصوت المرتفع من دون سبب، من دون مبرر مذمةٌ بالإنسان، حتى لو دعوت الله عزّ وجل، إنك لا تدعو أصم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، الدعاء من آدابه أن يكون بصوتٍ معتدل، إن الله لا يحب المعتدين في الدعاء.

إذاً:

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

3– احذرْ أن تكون ممّن يشبه هذا المُمَثَّلَ به:

فالله عزّ وجل ضرب هذا المثل لئلا ينساق الإنسان وراء صوته الجوهري، وراء حبال صوته المرتفعة، ليصيح بالناس، ليوقع فيهم الخوف، أو الفزع، أو الاستغراب..

(إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصوْتُ الْحَمِيرِ)

وفي مثل آخر قال ربنا عزّ وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة)

أي لا تكن علاقتك بكتاب الله عزّ وجل علاقة حَمْل من دون فهمٍ، افهم كلام الله، ولا يكن صوتك مرتفعاً، صيَّاحاً، صَخَّاباً، النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن صيَّاحاً، ولا صخّاباً، ولا فاحشاً، كان ليّن العريكة، كان جَمّ التواضع، كان وافر الأدب، يبدأ الناس بالسلام، ينصرف بكله إلى محدثه صغيراً كان أم كبيراً، يجلس مع العبد والخادم، يقضي حاجة الضعيف والبائس، استوقفته امرأةٌ فوقف معها طويلاً تكلمه في حاجتها، قال عدي: **" والله ما هذا بأمر مَلِك إنه نبيٌ مرسل ".**

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

4- المؤمن يُعرَف من خُلُقه الحسن:

هذه آدابٌ عاليةٌ جداً، فالمؤمن في حركاته، وسكناته، في أخلاقه، في مواقفه، في تصرُّفاته، متميّز، إيّاك أن يعرفك الناس من صلاتك فقط، يجب أن يعرفوك لا من صلاتك فقط ؛ بل من تعاملك، من حديثك، من لهوك، لهو بريء، من مزاحك، مزاح لطيف لا يجرح أحداً، من أقوالك، من أفعالك، من إتقان عملك، من حرفتك، من مهنتك، من جيرتك، يجب أن تُعْرَفَ لا من صلاتك أنك مسلم، يجب أن تعرف من معاملتك، إذا عرفت من معاملتك أحبَّ الناس صلاتك، أما إذا رأوك تصلي وتسيء إليهم كره الناس صلاتك، وكرهوا مع صلاتك دينك، ونَفَّرْتَ من الدين، فأنت إما أن تكون داعية ؛ وإما أن تكون منفِّراً، فبأخلاقك العالية تجذب الناس إليك، وبأخلاقك الفَظّةِ الغليظة تبعد الناس عنك، وإذا بعدوا عنك بعدوا عن دينك وعن صلاتك.

5 – قاصمة من قواصم الظهر: الجمعُ بين المَظهَر الديني والسلوك المنفِّر:

إنّ أخطر إنسان في المجتمع هو الإنسان الذي له مظهر ديني، أو هوية دينية، أو خلفية دينية، أو انتماء ديني، ويسيء إلى الناس، هذا أخطر إنسان، لأنه مِعْوَلٌ يُهدم به الدين، وأهل الدنيا يسلِّطون الأضواء كلها على المؤمن، فإذا تَنَفَّسَ، يقولون: مؤمن يتنفس، فإذا أكل، فكيف إذا فعل المنكرات، فإذا مارس حياته الطبيعية يراقبونه ويحسبون عليه أنفاسه، فكيف لو فعل السيّئات ؟ يُشَهِّرُون به، ويجعلون من دينه خرافةً، أنت على ثغرةٍ من ثُغَرِ الإسلام فلا يؤتَيَنّ من قِبلك، أنت حارس أنت سفير تمثل هذا الدين، يجب أن يعرفك الناس بالتعامل، بالصدق، بالأمانة، بالتواضع، بالإنصاف، إيّاك أن تقيس الناس بمقياسين.

6– قاصمة من قواصم الظهر: ازدواجية المعايير في التعامل:

ما من شيءٍ أقبح منظراً من أن يمشي الإنسان عارياً كما خلقه الله، الإنسان وهو عارٍ بشعٌ جداً، وليس أقل بشاعةً فيما لو استعمل مقياسين في وقتٍ واحد، كمن عامل زوجة ابنه بمقياس، وعامل ابنته بمقياس، هذه ابنته ذنبها مغفور، أما زوجة ابنه فلا يغفر لها ذنب، أن تقيس موضوعاً واحداً بمقياسين !! ابنك في المحل التجاري إذا حمل شيئاً ثقيلاً تصيح به، تقول: أخاف على ظهرك يا بني، ضع هذا الحمل، وعندك صانعٌ في سن ابنك، تقول له: احمل، أنت شاب، ألا تستحي من الله عزّ وجل أن تعامل ابنك بطريقةٍ وابن الناس بطريقة ؟ أأنت مؤمن ؟ لا ورب الكعبة، إن لم تعامل الناس جميعاً بمقياسٍ

واحد، قال: يتيم عندي يا رسول الله أأضربه ؟ قال له: نعم (ضمن مقياس)، قال له: اضربه مما تضرب منه ولدك، إذا فعل ابنك فعلاً يستحق الضرب، وفعل هذا اليتيم فعلاً مشابهاً، اضرب هذا اليتيم لأنه لو فعل ابنك مثل ما فعل لضربته، هذا المقياس.

أنت بائع، يأتي إنسان كبير ناضج تحسب له حسابًا، تعطيه أجود بضاعة بسعر معتدل، تأتي امرأةٌ ضعيفة فقيرة فتستغل ضعفها وفقرها وجهالتها، وتبيعها أسوأ بضاعة بأعلى سعر، وأنت مؤمن ! فإذا أذن المؤذن توجهت إلى المسجد ! هذا هو الدين ! جاءك طفلٌ صغير فبعته أسوأ بضاعة بأغلى سعر، وجاءك الكبير فحسبت له حساباً، ليس هذا هو الإيمان، يجب أن تعرف بمعاملتك، باستقامتك، بطهرك، بتواضعك، بإنصافك، بإعطاء كل ذي حقٍ حقه، حتى يرضى الله عنك، حتى تكون سفيراً لهذا الدين، حتى تكون داعيةً صادقة له.

7 – داعية من نوع خاص: الدعوة بالصمت والسلوك:

أنا أقول لك مرةً ثالثة ورابعة وخامسة: يمكن أن تكون أكبر داعيةٍ في الأرض وأنت ساكت، بدون أي كلمة، بمعاملتك، بمواقفك المُشَرّفَة، بمواقفك الأخلاقية، بمواقفك المُنصفة، هذا هو الدين، إنسان يرفع الدين بنظر الناس إلى لسماء، وإنسان يضعه في الوحل، وكلاهما يصلي، هذا في كذبه واحتياله وغِشّه جعل الدين في الوحل، وهو لا يدري، وهذا باستقامته وصدقه جعل الدين في السماء وهو لا يشعر.

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُم مّا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

1 – التفكّر في الكون:

أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المُكَرّم، فماذا أقول لك ؟ ألست مصدقاً أن كل هذه السماوات من أجلك، ما موقفك ؟ ما رد فعلك ؟ ما شعورك تجاه هذا الخالق العظيم ؟ مجرة تبعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية مسخرةٌ لك، والشمس، القمر، الهواء، النبات، الأطيار، الأسماك، أنواع الفواكه والخضراوات، قال لي أحد الإخوة الأكارم زار معرض فراشات في بلد أجنبي قال: والله دُهِشْت، عشرات الألوف بل مئات الألوف من أنواع الفراشات ذات الألوان الزاهية التي تحار لها العقول، كلها خلقت من أجلنا كي نمتع بها أبصارنا.

عند صديقي كتاب في ثمانية عشر مجلداً، كل مجلدٍ يزيد على أربعمئة صفحة، في كل صفحةٍ صورةٌ لزهرةٍ أساسها من الأبصال فقط، أنواع الأبصال التي تنبت الأزهار من أجل ماذا ؟ هل من أجل أن نأكلها ؟ لا والله.

يروى أن إنساناً أعطى دابة وردة لتشمها، فأكلتها الدابة.

كم نوعا من النبات المخلوق من أجل أن تمتع نظرك به فقط ؟ من أجل رائحته ؟

(أَلَمْ تَرَوْا)

أصوات العصافير ألا تكفي، أسماك الزينة، لمن خلقت هذه ؟ أسماك الطعام بحث آخر ؟ أسماك الزينة شيء يحيّر العقول، عند بائعي أحواض الأسماك، سمك أسود فاحم، سمك فسفوري، سمك شفاف، سمك صغير، سمك مُجَنَّح، سمك بَيْضَوي، أنواع الأسماك، أنواع الأطيار، أنواع البلابل، هذا كلّه من أجل أن تُمَتِّعَ سمعك وبصرك.

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ)

(لَكُمْ)

أي خصيصى لكم..

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

1 – هذا هو الماء فاعتبروا بما فيه:

هذا الماء، هذا الماء الشفاف، لا لون، لا طعم، لا رائحة، انسيابي، نفوذ، تبخره بدرجات منخفضة، غليانه ثابت، هذا الهواء ليس له حجم، الهواء بيننا، لكن لا يحجبنا عن بعضنا، لكن له من القوة أنه يحمل طائرة وزنها ثلاثمائة و خمسين طن، فمن أين هذا الهواء؟ هذا الهواء الذي بيننا، لا يحجبنا عن بعضنا، يحمل طائرةً تزن ثلاثمئة وخمسين طنًا، إذاً هذا شيء مهمّ، هذا الماء اللطيف، إذا أراد أن يتمدد ـ مجازاً ـ كما قال الله عزّ وجل:

(يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ)

(سورة الكهف77)

هذا الماء إذا أراد أن يتمدد لا يستطيع معدنٌ من أقسى المعادن في الأرض أن يقف في وجهه، بل إن طريقة شق الصخور الآن يكون بثقب في الصخر وإملائه بالماء، ثم يبرد الماء، فالصخر ينشق

ويتصدّع، هذا الماء إذا أراد أن يتمدد بفعل البرودة الشديدة لا يمكن لمعدنٍ مهما كان قاسياً أن يقف في وجهه، لذلك محرك سيارة أحياناً ينشق، إذا كان الماء ليس فيه مادة مضادة للتجمُّد، وذلك في البرد الشديد.

إذا ذهبت إلى فلندا، الحرارة هناك سبعون تحت الصفر في الشتاء، أعلى درجة قرأت في البرودة سبعون تحت الصفر، فأنت بإمكانك أن تضع ليديك أشياء تقيها البرد، ليديك وأذنيك، ورأسك وكل شيء، إلا العينين ترى بهما الطريق، ليس بإمكانك أن تضع فوقهما شيئاً تحفظهما من البرد، وفي العين ماء، كيف لا يتجمد ماء العين ؟ لأن الله عزّ وجل أودع في ماء العين مادةً مضادةً للتجمد، حتى لا يفقد الإنسان بصره إذا كان في بلد شديد البرودة.

وهذا الماء، جاءوا بمكبس يزن ثمانين طناً، وضعوا مترا مكعبا من الماء، وضغطوا، لم تتمكن ثمانون طنًا أن تضغط هذا المتر مكعب ولا مليمترا واحد، الماء لا ينضغط، أساس الهيدروليك أن السائل لا ينضغط، فتنتقل الحركة من مكان إلى آخر.

إذاً: هذا الماء، هذا الهواء، هذه الأطيار، هذه الأسماك، هذه الأزهار، هذه الأفلاك، البحار، البحر الأزرق، النبات أخضر، السماء زرقاء، الأزهار حمراء وصفراء، ما هذا ؟ قال:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (07-13): تفسير الآيات 7 -13 ، من وصايا سيدنا لقمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-06-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، لا زلنا في سورة لقمان، وفي الدرس السابع من هذه السورة، والحديث عن سيدنا لقمان الحكيم وهو يعظ ابنه، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

وقفة قصيرة على عتبةِ باب الحكمة:

قبل أن نتابع موعظة سيدنا لقمان لابنه نقف وقفةً صغيرةً أو قصيرةً عند الحكمة..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

1 – من تعريفات الحكمة:

الحقيقة من بعض التعاريف التي تعرّف بها الحكمة: أنها تجارب إنسانيّة مكثّفة في كلمات، فإذا استقى الإنسان الحكمة من تجاربه قد يدفع ثمنها باهظاً، بعد أن تقع الطامّة الكبرى يقول: يا ليتني لم أفعل هذا، نعم هذه الحقيقة كانت غائبةً عني، أما حينما يؤمن الإنسان بالله عزّ وجل، ويؤمن بكتابه، ويأتي كتابه، وهو كلام الله عزّ وجل من عند الخبير، من عند الصانع، يقول له: افعل ولا تفعل، فكأنه أخذ الحكمة المطلقة في الوقت المناسب، وقبل فوات الأوان، ومن دون أن يدفع ثمنها باهظاً، وهناك أناسٌ يتقدّمون في السن، وفي آخر حياتهم يكتشفون حقائق دقيقةً جداً، ولكن لم يبقَ في حياتهم وقتٌ للاستفادة من هذه التجارب، والفرق بين المؤمن وغير المؤمن، هو أن المؤمن حينما آمن بالله عزّ وجل، وآمن بالحقّ من عنده، وآمن بهذا القرآن، كان هذا القرآن توجيهات حكيمة، صحيحة، فيها حقٌ صِرْف..

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت: من الآية 42)

2 – من الحكمة معرفة الحقيقة قبل فوات الأوان:

لذلك طبّقها في وقتٍ مبكِّر، وقطف ثمارها، واستفاد منها، وسَعِدَ في دُنياه وأخراه، أما الذي يبتعد عن كلام الله، ويبتعد عن الحق الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، ثم يبتعد عن مجالس العلم، ويتحرّك في الحياة من دون توجيه خالقه، ومن دون منهج، سوف يكتشف بعض الحقائق، ولكن أغلب الظن أنه يكتشفها بعد فوات الأوان، أو بعد أن يدفع ثمنها باهظاً.

مثلاً: هناك إنسان رأى في الأرض ما يشبه قُنبلة، يا ترى هل هي قنبلة، أم ليست قنبلة، لقد اقترب منها ليفحصها، فإذا انفجرت بين يديه، في أقلّ من ثانيةٍ واحدة عرف أنها قنبلة، ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن أطاحت به، فهذا مثل رهيب جداً، ولكن الحياة الدنيا فيها ما يشبه هذا المثل، أي أنه يتحرّك على هواه، يتحرّك بدافع من شهوته، ومن مصلحته، فبعد فوات الأوان، وبعد أن يدفع سعادته الزوجيّة ثمناً، وبعد أن يدفع ماله كلّه ثمناً لأخطائه في البيع والشراء، يكتشف حقيقة، ولكن بعد فوات الأوان، فالبطولة كُلّها أن تعرف الحق في الوقت المناسب، أن تستفيد من الحق، أن تستثمره، وأن تنتفع به، وأن تقطف ثماره في الدنيا، فالحقيقة التي لا ريب فيها هو أن كل إنسانٍ كائناً من كان إذا جاءه الموت عرف الحقيقة، والدليل:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق22)

وهل من إنسانٍ أكثر من فرعون كفراً ؟! وأكثر منه كبرا ؟ واستعلاءً وادِّعاءً ؟ لقد ادّعى أنه إله، فقال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى)

(سورة النازعات 24)

هكذا قال، ومع ذلك حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس 90)

إذاً: ذا نستنبط ؟ أن الحقيقة لابدّ من أن تُعرف في وقتٍ ما، من هو المؤمن ؟ ومن هو السعيد ؟ والذكي؟ والموَفّق ؟ من هو الفالح ؟ والمتفوّق ؟ والفائز ؟ إنه الذي عرف الحقيقة في الوقت المناسب، في مُقتبل العمر، لأنه إذا عرف الحقيقة في مقتبل العمر شكّل حياته وفق الحق، واختار صنعةً تتناسب مع مبدئه، وحرفةً يوظِّفها في سبيل آخرته، وزوجةً تعينه على أمر دينه، اختار كل الخيارات التي هي مُتَاحَةٌ أمامه وفق معرفته بالحق، إذاً شكّل حياتَهُ إن صحّ التعبير، في عمله، وزواجه، وعلاقاته، وإقامته، وتحرُّكاته، وتصرُّفاته وفق الحق سعد وأسعد، سعد بالحق وسعد به من ارتبط به، ومن تعلّق به، ومن عامله، وشاركه، وتعامل معه.

إذاً: أردت من هذه المقدّمة أن هناك أشخاصاً في خريف عمرهم يكشفون الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان، يقول لك: فلان عاركته الأيّام، فلان أمضى حياته في هذا المجال فاكتشف هذه الحقيقة، لكنّك إذا آمنت بالله عزّ وجل خالق الكون، والخالق هو الصانع، وعنده الحق الصرف، والحقيقة التي لا ريب فيها..

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر 14)

هل من خبيرٍ أكثر خبرةً من الله عزّ وجل ؟ هو الصانع، والخالق، يقول لك: افعل ولا تفعل، غضّ بصرك، واجعل دخلك حلالاً أبارك لك فيه، حَدِّد علاقتك مع الناس وفق الشرع تأمن شرّهم.

إذاً: نحن لا نريد حكمةً نستقيها في خريف العمر، وبعد فوات الأوان، وبعد أن ندفع الثمن باهظاً، بعد أن ندفع كل شيء.

قرأت كتاباً مرّة لأحد المفكّرين الغربيين وعنوان الكتاب **" الإنسان ذلك المجهول "**، ومحور هذا الكتاب أن الغرب أن ضيّع الحياة الصحيحة التي ينبغي أن يحياها الإنسان، فالغرب يحيا حياةً ماديّةً عالية المستوى ؛ ولكن على حساب قيمه ومبادئه، بعد أن ضيّع أثمن ما في الحياة عرف الحقيقة.

حينما أثبت الله عزّ وجل لأهل الدنيا أنهم يعلمون، قال:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7))

(سورة الروم 2-7)

حينما أثبت الله لهم العلم بالدنيا أثبت لهم العلم بظاهرها، صورها، وطلاءها الخارجي، وزيفها لا حقيقتها، لذلك قال بعضهم: **" مساكين أهل الدنيا، جاءوا إليها وخرجوا منها ولم يعرفوا أجمل ما فيها، إنها معرفة الله عزّ وجل، إنها طاعته، إنها الأُنْسُ به "**، فلذلك:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

أتمنّى حكمةً تأتيني من كتاب الله، وأتمنى حكمةً أعرفها في مقتبل العمر، كي أُشَكِّلَ حياتي وَفْقَهَا، لا أتمنى حكمةً تأتيني بعد فوات الأوان، تأتيني وأنا على فراش الموت، تأتيني والنَدَمُ يعتصر قلبي، هذه لا قيمة لها، لأنها جاءت متأخِّرةً، فإذا عرف الطالب هذا البحث قبل أن يدخل الامتحان، وكان هذا البحث سؤال الامتحان شيء، وإذا دخل الامتحان، وما عرف الإجابة، وبعد أن خرج من الامتحان فتح الكتاب، وقرأ البحث وفهمه، ما قيمة هذا الفهم ؟ بعد فوات الأوان، إذ فَهِمَه بعد الرسوب.

إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

بعض حِكَمِ لقمان الحكيم:

الحقيقة من قَبيل أن الله عزّ وجل حينما وصف لقمان بالحكمة، أو بأنه قد أوتي الحكمة، فلاشكّ أن هذا الإنسان الحكيم له حِكَمٌ كثيرة، تناقلتها بعض الكتب، ولذلك أردت أن أقرأ عليكم بعض الحِكَم التي نُسِبَت إلى سيدنا لقمان الحكيم..

الحكمة الأولى:

قال:

<< يا بني، إنك منذ أن سقطت إلى الدنيا استدبرتها، واستقبلت الآخرة، فدارٌ أنت إليها تسير أقرب إليكَ من دارٍ أنت عنها متباعد >>.

1- المغزى من الحكمة: الإنسان قريب إلى الموت:

هذا الإنسان نزل من بطن أمِّه إلى الدنيا، الآن هو يقترب من الآخرة، ويتباعد عن الدنيا، فالدار التي يتجه إليها أقرب إليه من الدار التي يبتعد عنها، إنك إن ركبت مركبةً، وتوجّهت بها إلى حلب، لو قطعت عن دمشق كيلو مترا واحداً، ما دامت هذه المركبة متحرّكة، وما دامت متّجهة إلى حلب، فحلب مع حركة المركبة الثابتة أقرب إليكَ من دمشق، لأنك تتباعد عن دمشق، ومع مُضي الزمن تتباعد، ومع مضي الزمن تقترب، فهذه حكمةٌ بالغة، إذاً: العاقل هو الذي يعمل للآخرة، ولدارٍ هو إليها متّجه، لا يعمل في دارٍ هو عنها مُنصرف، شتّان بين هذا وبين ذاك العاقل.

الحكمة الثانية:

<< يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم فيمنعوك >>.

المغزى الأول: فوائد مجالسة العلماء:

لماذا ؟ هم أشخاصٌ عاديون ولكن الله امتنّ عليهم بمعرفة الحقيقة، فإذا عرفت الحقيقة وأخذتها عنهم بالدليل، ليس بعد النبي عليه الصلاة والسلام إنسان يحقُّ له أن يقول: خذ الحقّ مني، من أنت ؟ بل إنه يقول لك: أنقل لك الحق عن رسول الله، أنقل لك ما في كتاب الله، فقيمة العالِم من أنه أمينٌ على شرع الله، ينقل لك ما في الكتاب والسُنّة بأمانةٍ بالغة، أما أن يعطيك شيئاً من عنده فلا:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: من الآية 3)

المغزى الثاني: لا للإضافة على الإسلام ولا للحذف منه:

من أجل أن يبقى الإسلام كما بدأ، لا يجوز أن يضاف إليه شيء ولا أن يُحْذَف منه شيء، ولا أن يؤوّل إلى وفق ما أراد الله عزّ وجل، لا إضافة، ولا حذف، ولا تأويل، يبقى الإسلام كما هو ويستمرُّ كما أراد الله عزّ وجل، فإذا أُضيفت عليه أشياء ليست منه، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ))

[مسلم عن السيدة عائشة]

كل ما ليس من هذا الشرع مردودٌ عليه، وهذا الكتاب، وهذه السنّة..

<< يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم فيمنعوك >>.

المغزى الثالث: لا لمجادلة العلماء:

لا تسألهم سؤال المُتَعَنِّت، لا تسألهم سؤال الفاحص، أحدهم قال: **" يا بني، نحن إلى أدبك أحوج منا إلى علمك "**، الإنسان بالأدب يبلغ ما يريد، وبغير الأدب يُحْرَم ما يريد، هذا من مواعظ سيدنا لقمان..

الحكمة الثالثة:

<< وخذ من الدنيا بلاغاً ولا ترفضها فتكون عالة على الناس >>.

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إن الله تعالى إذا أحب عبدا جعل رزقه كفافا))

[كنز العمال عن علي]

المغزى الأول: الكفاف لا العفاف:

ليس معنى الكفاف أن تكون فقيراً، ولكن معنى الكفاف أن تكون مكتفياً، فالنبي دعا لمن يحبُّه أن يرزقه كفافاً.

قال: **<< يا بني، خذ من الدنيا بلاغاً ـ أي الكفاف ـ ولا ترفضها فتكون عالةً على الناس، ولا تدخل فيها دخولاً يضرُّ بآخرتك >>.**

المغزى الثاني: لا لأعمال تضيّع الآخرة:

فهناك أعمال إذا أقدمت عليها ضيّعت آخرتك، وهناك شبهات، وهناك مزالق، وتُرُّهات، وانحرافات، فإذا دخلت في مداخل الدنيا دفعت الثمن باهظاً من آخرتك..

<< يا بني، ولا تدخل فيها دخولاً يضرُّ بآخرتك، وصم صوماً يقطع شهوتك، ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة، فإن الصلاة أحبُّ إلى الله من الصيام، يا بني، إن الدنيا بحرٌ عميق قد هلك فيها عالَمٌ كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان، واجعل شراعها التوكُّل، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك >>.

هذه من حِكَمِ سيدنا لقمان كما تناقلتها بعض الكتب، وقد يسأل سائل ما مدى صحّة هذه الحِكَمْ ؟ الجواب: خذ الحكمة ولا يهمّك من أي مكانٍ خرجت، حِكَم تتفق مع كتاب الله عزّ وجل ومع شرع النبي عليه الصلاة والسلام.

الحكمة الرابعة:

<< يا بني إن تأدّبت صغيراً انتفعت به كبيراً >>.

المغزى: تربية في الصغر ثمرات في الكبَر:

الذي يرعى نفسه وهو صغير يقطف ثمار تربيته وهو كبير، ومن لم تكن له بدايةٌ محرقة لم تكن له نهايةٌ مشرقة..

الحكمة الخامسة:

المغزى: أهمية العلم:

<< يا بني من اهتمّ بالأدب تكلّف علمه، ومن تكلّف علمه اشتدّ له طلبه، ومن اشتدّ له طلبه أدرك منفعته، فاتخذه عادة >>.

فمثلاً هؤلاء الذين لا يحبُّهم الله عزّ وجل ماذا أعطاهم ؟

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص 76]

وفرعون آتاه الله المُلك، والأنبياء ماذا آتاهم الله عزّ وجل ؟ آتاهم العلم والحكمة، فإذا جمعت إلى المال العلم والحكمة فقد حصّلت من الدنيا طرفيها، فما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا ؛ وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل، كما يقولون.. فإذا آتى الله عزّ وجل الإنسان مالاً، فلا ينبغي أن يقنع به بل يجب أن يبحث عن العلم، لأن بالعلم حياة القلب، وسعادةً إلى الأبد..

الحكمة السادسة:

<< يا بني خَفِ الله عزّ وجل خوفاً لو أتيت القيامة ببرّ الثقلين خفت أن يعذِّبك الله، وارجُ الله رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر لك الله>>.

المغزى الأول: أهمية الجمع بين الخوف والرجاء:

هذا كلام دقيق، أي يجب أن يجمع المؤمن بين الرجاء وبين الخوف، فالرجاء إذا تفاقم، وإذا نما نمواً غير طبيعي على حساب الخوف، وقع في المعاصي وهو يطمع برحمة الله، وقد تلتقي مع إنسان تراه مقيماً على معاصٍ كثيرة ومع ذلك يرجو رحمة الله، فهذه سذاجة، وغباء، وتفاؤل أبله..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر 92-93)

قد تلتقي بإنسان يحرص على طاعة الله عزّ وجل وهو شبه يائسٍ من رحمة الله، هذه أيضاً حالة مَرَضِيَّة، هناك حالتان مَرَضيتان: أن تخاف خوفاً يحملك على اليأس من رحمة الله، وأن ترجو رجاء ساذجاً يجعلك تقع في المعاصي، ولا تبالي بها، فهذا رجاءٌ مَرَضي، وذاك خوفٌ مَرَضي، أما الرجاء

السَوِيّ والخوف السوي أن تجمع بينهما معاً، أن يأتلف عندك الرجاء والخوف، فالمؤمنون يعبدون الله خوفاً وطمعاً، رَغَبَاً ورَهَبَاً، ولا سيما أن الله عزّ وجل إذا رأى العبد يتساهل في طاعته، ويُعَلِّقُ آمالاً كبيرةً على رحمته، يضيّق عليه، يريه جانب القوّة، ويريه شدّةً، وضيقاً، يلوح له شبح مصيبةٍ، فيعود العبد عن رجائه الساذج، ويرجع إلى طاعته المُثلى، فإذا بالغ في الطاعة، وجاءته الوساوس، وحملته على اليأس، يريه الله بعض إكرامه، إذاً: الله سبحانه وتعالى إذا نما عندك الخوف على حساب الرجاء طمأنك، وإذا نما عندك الرجاء على حساب الخوف خوّفك، من أجل أن تكون حالتك السويّة أن تجمع بين الرجاء والخوف، لابدّ من أن ترجو الله عزّ وجل ـ نرجو رحمتك ونخشى عذابك ـ هذا الدعاء، هذا ما قاله سيدنا عمر: **<< لو أن الله أنزل أنه معذِّبٌ واحداً لخفت أن أكون أنا، ولو أنه أنزل أنه راحمٌ واحداً لرجوت أن أكون أنا >>.**

<< يا بني، خفِ الله عزّ وجل خوفاً لو أتيت يوم القيامة ببرّ الثقلين خفتَ أن يعذِّبك >>.

المغزى الثاني: إيّاكم والغرور:

ذلك فالإنسان إذا عمل الصالحات، واستقام على أمر الله، وأجرى الله على يده الخير، فهناك مزلقٌ خطير ربّما وقع فيه، وهذا المَزْلَق هو أن يَغْتَرّ بطاعته، وأن يستعلي بها، وأن يعلو بها على خلق الله عزّ وجل، عندئذٍ يقع في ذنبٍ أشَدّ من المعصية وهو العُجب، قال عليه الصلاة والسلام:

((لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب، العجبَ))

[الجامع الصغير عن أنس]

فربّ معصيةٍ أورثت ذلاً وانكساراً، خيرٌ من طاعةٍ أورثت عِزّاً واستكباراً، فإذا غلب عندك الرجاء على حساب الخوف خوّفك الله، وإذا غلب عندك الخوف على حساب الرجاء طمأنك الله، والله هو المُربي، هو ربُّ العالمين، كما أنه يربي جسدك بالطعام والشراب، يربي نفسك بتقليبك بين الخوف والرجاء، فكن حكيماً، لا تطمع على حساب الخوف، ولا تخف على حساب الطمع، كن بين الخوف والرجاء، وبين الرَغَبِ والرَهَبِ.

الحكمة السابعة:

قال ابنه له: **<< يا أبتِ، كيف أطيق هذا ؟ وإنما لي قلبٌ واحد >>**، لي قلبٌ واحد يتّسع لشيءٍ واحد، رجاءٍ أو خوفٍ، فكيف أجمع بين الخوف والرجاء ؟ فقال له:

<< يا بني، لو استُخْرِجَ قلب المؤمن لوُجِدَ فيه نورَان، نور الخوف ونور الرجاء، ولو وُزِنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرّة ـ الآن كلام دقيق جداً ـ فمن يؤمن بالله يصدِّق ما قال الله عزّ وجل، ومن يصدِّق ما قال الله عزّ وجل يفعل ما أمر الله عزّ وجل، ومن لم يفعل ما أمر الله به لم يصدِّق كلامه، ومن لم يصدِّق كلامه لم يؤمن به >>.

المغزى: الإيمان بالله يقتضي الإيمان بكلامه، والمبادرة إلى طاعته:

إنها مقدِّمةٌ تفضي إلى نتيجة إفضاءً حتمياً، آمنت بالله، فمن لوازم إيمانك بالله أن تؤمن بكلامه، وإذا آمنت بكلامه على أنه كلام الحق، فمن لوازم إيمانك بكلامه أن تبادر إلى طاعته، فلمجرّد أن تعصي الله عزّ وجل فهذا يشير على أنّك لم تؤمن بكلامه، وعدم إيمانك بكلامه هو عدم إيمانك به.

<< فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً، ومن يعمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً، ومن أطاع الله خافه، ومن خافه فقد أحبّه، ومن أحبّه فقد اتبع أمره، ومن اتّبع أمره استوجب جنّته ومرضاته، ومن لم يتّبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه، فنعوذ بالله من سخط الله >>.

هذه بعض الحِكَمْ المتناثرة التي نُسِبَت إلى سيدنا لقمان الحكيم.

الحكمة الثامنة:

من الحكم الأخرى التي نُسِبَت إليه:

<< يا بني، لا تركن إلى الدنيا، ولو أتيت فيها مالاً كثيراً وجاهاً عريضاً فإنها زائلة >>.

وكما قال سيدنا علي: **<< يا بني، ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنّة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية >>.**

قال: **<< يا بني، لا تركن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها >>.**

والدليل:

<< ألا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين ؟ ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين ؟ >>.

المغزى الأول: الدنيا زائلة فلا تشتغلوا بها:

هذا النبي العظيم سيد الخلق وحبيب الحق، ماذا أوتي من الدنيا ؟ لم يؤتَ منها شيئاً، كان إذا صلّى قيام الليل أبعدت السيّدة عائشة رجليها، لأن غرفته من الضيق حيث لا تتسع لصلاته ونوم زوجته، هذا بيت النبي، دخل عليه رجل أصابته رعدة، فقال له:

((هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[سنن بن ماجه عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ]

دخل عليه عمر فرآه مضطجعاً على حصير، وقد أثّر في خدِّه الشريف، فبكى عمر فقال النبي:

((يا عمر لمَ تبكي ؟))قال: رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملِك الفرس ينام على الحرير ؟!

قال:

((يا عمر، إنما هي نبوّةٌ وليست ملكاً))

[ابن ماجه عن عمر]

أنا لست بملك، هذه النبوة هكذا.

إذاً: النبي عليه الصلاة والسلام كان أسوةً حسنة.

قال لقمان الحكيم: **<< فما خلَق الله خلقاً هو أهون عليه منها، ألا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواب المُطيعين، ولم يجعل بلاءها عقوبةً للعاصين ؟ >>.**

قال سيدنا علي: **<< فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا >>.**

المغزى الثاني: الدنيا ليست مقياسا:

الذي أتمنّى أن يكون واضحاً عند كل إخوتنا هو: أن الدنيا ليست مقياساً أبداً، قد يؤتي الله عبداً الدنيا، وهذا فضلٌ كبير، ونعمةٌ كبيرة، ويجب أن يذوب شكراً، ولكن لا ينبغي أن يتّخذ الدنيا مقياساً لمحبّة الله عزّ وجل..

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ)

أهل الكفر والعصيان..

(فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام: الآية 44)

المغزى الثالث: إذا جاءتك الدنيا وكنت مطيعا فاشكر الله:

إذا جاءتك فاشكر الله عليها، فقد ترى إنساناً آتاه الله مالاً وفيراً وهو مقيمٌ على المعاصي، فبسذاجةٍ تقول: أخي أعطاه الله، بيته كالجنّة، إنه فوق الريح، رأى ليلة القدر، هذا كله كلام فارغ، فالغنى والفقر كما قال سيدنا علي: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >>.**

هناك الغنى والفقر، لكن إذا كنت مؤمناً، وآتاك الله الدنيا، وأنفقت من مالها الحلال، واللهِ هناك من يغبطك، سيدنا عبد الرحمن بن عوف سمع أن السيدة عائشة قالت: **<< أخشى أن يؤخِّره ماله عن دخول الجنّة، أو أنه يدخل الجنّة حبواً >>.** أي زحفاً لكثرة ماله، فبَلَغته هذه المقالة فتبسَّم، وقال: **<< والله لأدخلنّها خبباً - أيْ ركضاً - وما ذنبي إذا كنت أنفق مائة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء؟>>.**

المغزى الرابع: نِعْم المالُ الحلال للعبد الصالح:

حينما جاء عبد الرحمن بن عوف مهاجراً إلى المدينة لم يكن معه دينارٌ واحد، أحد أصحاب رسول الله كان قد آخاه، قال: **<< هذا مالي، خذ نصفه، ودونك بيتي، دونك بستاني، دونك مالي >>**، أجابه إجابةً لا أروع ولا أجمل منها، تقطر عفّةً، وإباءً، وعزّةً، قال: **<< يا أخي بارك الله لك في مالك، ولكن دلّني على السوق >>.**

هذا الموقف موقف نموذجي، والأنصار وقفوا أرقى موقف، قدّموا كل ما عندهم للمهاجرين، فأعطوهم نصف أملاكهم، والمهاجرون وقفوا أكمل موقف، تعفّفوا عن مالهم، وعملوا بالتجارة، قال: **<< يا أخي بارك الله لك في مالك، دُلّني على السوق >>.**

دعاء عظيمٌ:

بالمناسبة، الدعاء النبوي الشريف: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي]

أيْ: يا رب إنّي أحبُّ المال، فإذا آتيتني المال فاجعله وسيلةً للتقرّب إليك، واجعلني أنفق هذا المال في طاعتك، وأمسح به بكاء البائسين، وأرقى عندك إلى أعلى عليين، واجعله مسخّراً لخدمة خلقك، وعوناً للضعفاء والمساكين، وشفاءً للمرضى، واجعله مأوىً لمن ليس له مأوى.. وإن زويت عني المال.. فهذا الوقت الذي أبذله في كسبه، وفي حسابه، وفي استثماره، اجعله في طاعتك يا رب، هذا الدعاء رائع جداً:

((اللّهُمّ ارْزُقْنِي حُبّكَ، وَحُبّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللّهُمّ مَا رَزَقْتَنِي مِمّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللّهُمّ وَمَا زَوَيْتَ عَنّي مِمّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[سنن الترمذي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَزِيدَ الخَطْمِيّ الأنصَارِيّ]

قد يتزوّج الرجل امرأةً، ولم تكن في طموحه، وعُقِدَ العقد، وأنجب منها أولاداً، فزوى الله عنك ما تحب، هذا الفراغ الذي نشأ من أن هذا الشيء زوي عنك، اجعله في طاعتك يا رب، جاءتك امرأةٌ كما تُحِب اجعل هذا الزواج عوناً لي على طاعتك، واجعل هذه الزوجة معواناً لي على طاعتك، يا رب، اجعلها تذكرني إن نسيت، وتنصحني إن غَفَلت، اشتريت مركبةً سخّرها للحق، وكن خير من يستغلّ هذه المركبة في طاعة الله عزّ وجل، واشتريت بيتاً، واشتريت دُكّانا، وعملت في مصلحةٍ، واشتغلت في حرفةٍ، وعملت في الطب، أو في الهندسة، أو كنت محامياً، فاجعل مهنتك موظّفةً في طاعة ربّك.

والله أيها الإخوة الأكارم، الله عزّ وجل حينما خلقنا في الدنيا خلقنا لنعمل صالحاً، ولذلك أبواب العمل الصالح لا تعدُّ ولا تحصى، وأنت في بيتك ؛ الأبوّة المثاليّة عملٌ صالح، والزواج المِثالي عملٌ صالح، وأنت بين جيرانك فجيرانك مادّةٌ لعملٍ صالح، وأنت في دكّانك زبائنك مادةٌ لعملٍ صالح، وفي عيادتك مرضاك مادةٌ لعملٍ صالح، وفي مكتبك الموكّلون مادةٌ لعملٍ صالح، كيفما تحرّكت، وأنت في معملك عمالك مادةٌ لعملٍ صالح، فكيفما سرت بإمكانك أن تعمل صالحاً.

هذا العامِل الذي جعله الله تحت يديك، وجعلك تعطيه أجراً بإمكانك أن تسعده، وأن تكرمه، وأن تنصحه، وأن تأمره بالمعروف وأن تنهاه عن المنكر، ما دام الله عزّ وجل قد جعل هذا الإنسان تحت يدك، فاستغلّ هذه الناحية وخذ بيده إلى الله، فأصحاب المعامل وأصحاب المتاجر وأصحاب المزارع والمُعَلِّمون والمدرّسون والأطبّاء والصيادلة، كل حرفةٍ هناك من هم دونك، وقد أناطهم الله بك، بإمكانك أن تحسن إليهم، وأن تنصفهم، وأن تنصحهم، وأن تأخذ بيدهم، وأن تفتح قلوبهم بإحسانك قبل أن تفتح عقولهم بلسانك..

الحكمة التاسعة:

هذا الرجل الحكيم سيدنا لقمان سُئل مرّةً: ما الذي أجمعت عليه في حكمتك ؟ فقال: **<< لا أتكلّف ما قد كُفِيتُه، ولا أضيّع ما وليّته >>.**

المغزى: لا لتكلّف المضمون ولا لتضييع المأمور به:

إنه كلامٌ في منتهى الدقّة، فأنت مكلّفٌ بشيء ومضمونٌ لك شيء، فالذي كُلِّفت به يجب أن تسعى إليه، والذي ضُمِنَ لك يجب أن ترتاح منه، حال الناس اليوم عكس هذه الحقيقة، الذي ضُمِنَ لهم يتناحرون من أجله، ويتقاتلون، ويتنافسون، يبيعون دينهم، ويبيعون وكل شيءٍ من أجله، الذي ضُمِنَ لهم، والذي كُلِّفوا به يَدَعونه للأقدار، وللزمان، حتى يشاء الله، ويأذن، فالآن لا يوجد إذن من الله، فالله خلقه، ولم يأذن له بالهدى، ولكن بأي شيء أذِنَ لك ؟ هذا كلام ليس له معنى.

فلذلك: **<< لا أتكلّف ما قد كُفِيتُه، ولا أضيّع ما وليّته >>**، هذه حكمةٌ بالغة من حِكَمِ لقمان الحكيم.

الحكمة العاشرة:

ومن هذه الحِكَم: **<< يا بني، إن تكُ في شكٍ من الموت فارفع عن نفسك النوم >>.**

المغزى الأول: النوم موتةٌ صغرى:

الله جعل النوم يشبه الموت والدليل أن الله عزّ وجل يقول:

(اللّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

(سورة الزمر: من الآية 42)

حينما ينام الإنسان توقّف التكليف، وتوقّف الاختيار، والوعي، والعقل، وكل شيء، والله عزّ وجل استردّ هذه الأمانة، إذ أعطاك نفسك أمانةً في النهار، واستردّها في الليل.

(فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ)

(سورة الزمر: من الآية 42)

المغزى الثاني: النوم لا يُلغى، والموتُ لا يُدفع:

أنت في النوم كالميّت تماماً، فإذا كنت في شكٍ من الموت فارفع عن نفسك النوم، هل بالإمكان أن تُلغِيَ النوم من حياتك ؟ لا تقدر، ولن تستطيع..

<< وإن كنت في شكٍ من البعث فارفع عن نفسك الانتباه >>.

هل تستطيع إذا نمت ألا تستيقظ ؟ لا تقدر إلا إن تفتح عينك، ثلاثة أيام ولم تنم، تنام عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة، وتفتّح عينك، وتتمطّى، فاستيقظت، إذن تفضّل، فالله بعثك بعد الموت، هذا كلامٌ بليغٌ جداً: قال: **<< يا بني، إن تكن في شكٍ من الموت فارفع عن نفسك النوم، ولن تستطيع، وإن كنت في**

شكٍ من البعث فارفع عن نفسك الانتباه، ولن تستطيع، فإنك إن فكّرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك، وإنما النوم بمنزلة الموت، وإنما اليقظة بمنزلة البعثِ بعد الموت >>.

الحكمة الحادية عشرة:

<< يا بني لا تنشر بَزّكَ إلا عند باغيه >>.

البَز: الثيابُ، لا تنشرها إلا عند الشاري، أحياناً يحضر شخص، ويسأل سؤالاً للبائع، فالبائع بالحاسّة السادسة يشعر أنه لن يشتري، فلا يتكلّف أن ينزل له بضاعة، ويقول: عندما تريد الشراء فتعال.

يقول هذا الواعظ الحكيم سيدنا لقمان: **<< لا تنشر بزّك إلا عند باغيه >>.**

المغزى الأول: وضعُ الشيء في موضعه:

أنت تحمل الحكمة، فهذه الحكمة إذا أعطيتها غير أهلها فقد ظلمتها، وإن منعتها أهلها فقد ظلمتهم..

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى)

(سورة الأعلى 9)

((التكبر على المتكبر صدقة))

[كشف الخفاء]

المغزى الثاني: التكبُر مرفوض:

التكبُر مرفوض، لكن إذا وجدت إنساناً مستعلياً، مستكبراً، عنيداً، محارباً للحق، فالتكبُر على هذا المتكبّر صدقة، أحد أصحاب النبي عليه رضوان الله، وعلى النبي الصلاة والسلام، مشى قبيل المعركة بفرسه مشية خُيَلاء، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إنّ الله يكره هذه المشية إلا في هذا الموطن))

[ورد في الأثر]

المغزى الثالث: إنْ شكوت لمخلوق فاشكُ لمؤمن:

إنّ الإنسان المؤمن إذا ألمّت به مُلِمّة، أو نزلت به نازلة، فلا ينبغي أن يشكو ملمّته ومصيبته لغير الله، وإن شكاها، وإن كان لابدّ من أن يشكو فليشكُ للمؤمن، لأنه من شكا إلى كافر فكأنما اشتكى على الله، ومن شكا إلى مؤمن فكأنّما اشتكى إلى الله، فالمؤمن يدعوك إلى الصبر، ويهوّن عليك هذه المصيبة، ويذكّرك برحمة الله، ويذّكرك بالآخرة، يذّكرك بأن وراء هذه المصيبة تيسيراً كبيراً..

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

(سورة الشرح 5)

لا يشمت بك، الدعاء الشهير:

((اللهمّ إنّا نعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الخوف إلا منك، ومن الذل إلا لك، ونعوذ بك من عضال الداء، ومن شماتة الأعداء، ومن السلب بعد العطاء))

[ورد في الأثر]

الحكمة الثانية عشرة:

قال: **<< وكما ليس بين الكبش والذئب خُلّة، كذلك ليس بين البارّ والفاجر خُلّة >>.**

المغزى الأول: لا خير للمؤمن في الكافر:

إيّاك أن تظن أن هذا الفاجر الكافر الفاسق فيه خير لك، أو يحبُّك، أو يمكن أن يقدِّم لك شيئاً، يجب أن تقطع أملك من الناس، من الناس عامّة ومن أهل الدنيا والفسق والفجور والعصيان خاصّة، لأن هناك تضاداً قديماً بين أهل الحق وبين أهل الباطل، لا تُعَلِّق عليهم الآمال.

المغزى الثاني: الخير كله في الزهد فيما عند الناس:

الإمام الحسن البصري كان من الكبار التابعين، بلغ من المجد ما لم يبلغه أحد، سُئل مرّةً: **" يا إمام بمَ نلت هذا المقام ؟ "**، فقال: **" باستغنائي عن مال الناس، وحاجتهم إلى علمي ".**

أحياناً تجد بعض من ينتمون إلى هذا العلم الشريف، يقبلون على من يزهد في علمهم طمعاً بدنياهم، فهم يطمعون في دنياهم، وهؤلاء الأغنياء والأقوياء يزهدون في علمهم، وقديماً كان العكس، كان هؤلاء الأقوياء والأغنياء يقبلون على علمهم، وهؤلاء العُلماء يزهدون في مالهم، فقال: **" باستغنائي عن مال الناس، وحاجتهم إلى علمي "**، وهذا ما قاله الإمام الحسن البصري.

الحكمة الثالثة عشرة:

<< من يحبُّ المراء يُشتم >>.

المغزى الأول: لا مشاحنة في الإسلام:

أيْ الذي عنده رغبة في المشاحنة.. فالنبي عليه الصلاة والسلام له كلمة بليغة جداً قبل أن يموت، وقف خطيباً وقال:

((يا أيها الناس، إني قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه، ألا ومن كنت قد شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي فليستقد منه، لا يقولن رجل: إني أخشى الشحناء من قِبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي، ولا من شأني، ألا وإن أحبّكم إلى من أخذ حقا إن كان له، أو حللني فلقيت الله وأنا طيب النفس، ألا وإني لا أرى ذلك مغنيا عني حتى أقوم فيكم مرارا، ثم نزل فصلى الظهر، ثم عاد إلى المنبر، فعاد لمقالته في الشحناء أو غيرها))

[مجمع الزوائد]

ومن صفات الجهلاء، الشحناء، والمِراء، والمماحكة، والجدل، والكلام الطويل.

((إنّ اللّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

[من صحيح البخاري عن المغيرة بن شعبة]

<< من يحبُّ المراء يشتم، ومن يدخل مَدخل السوء يُتّهم >>.

المغزى الثاني: إيّاكم ومواطن التهمة:

وسيدنا رسول الله اللهمّ صلّ عليه كان معتكفاً في المسجد، فجاءته زوجته بطعام، فكره أن تعود وحدها إلى البيت فرجع معها، في الطريق فرأى صحابيين، فقال عليه الصلاة والسلام:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، قالا: سُبْحَانَ اللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ ! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إنّ الشّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدّمِ، وَإِنّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا))

[صحيح البخاري عَنْ عَلِيّ بْن حُسَيْن]

المغزى الثالث: البيان يطرد الشيطان:

عَوّد نفسك أن توضّح كل شيء، فلو كنت طاهراً لا يكفي، ولو كنت نظيفاً، ولو كنت حَسَن النيّة، فالناس لا يعرفونك، فإن عرفت نفسك فهذه معرفةٌ داخليّةٌ لا قيمة لها، اعمل عملاً له تفسيرٌ واحد، ابتعد عن الشبهات، ولا تقف مواقف التهمة، ثم تلوم الناس إذا اتهموك، ففرضاً لو كنت في محلٍ تجاري، وجاءت أختك إلى المحل، ورحّبت بها، يجب أن تعلم إخوانك أن هذه أختي، لأنهم يتساءلون: كيف

يرحِّب بها هذا الترحيب ؟ لم نعهده بهذه الأخلاق ؟ قل: هذه أختي، مثلاً، وهذا مثل لأن التعليم حرف، والتقليد ألف، والنبي علّمنا بهذه الطريقة، قال لهما:

((على رسلكما، هذه زوجتي))

في قبض الثمن، والدفع اكتب وصلاً إيصالاً، ووضِّح أن هذا المبلغ لفلان، وهذا لفلان، أنت واثق من نفسك، وبريء، ونيتك حسنة، ونظيف، فكل ذلك لا يكفي، فيجب أن تعلم الناس بذلك..

((رَحِمَ الله امرأ جبّ المغيبة عن نفسه))

الحكمة الرابعة عشرة:

<< ومن يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لم يملك لسانه يندم، يا بُنَيّ صاحب مئةً ولا تعاد واحداً>>.

المغزى الأول: نتائج العداوة وخيمة على صاحبها:

حينما يُعادي الإنسان تهزّ أعصابه، ويستهلك حياته استهلاكه رخيصاً، وهناك أشخاص يتحاكمون في المحاكم، تجد أن الفريقين استهلكا حياتهما النفسيَّة وأعصابهما سنواتٍ طويلة، حيث إن النصر لأحدهما لا قيمة له، مهما كان الحكم بعد هذه السنوات الثماني لأنك استهلكت نفسك، وأورثت قلبك الحقد، ودخلت في البُغض، والكيد.

لذلك: **<< يا بني، صاحب مئة، ولا تعادِ واحداً >>.**

أحد الأشخاص عرض على سيدنا أبي بكر قضيَّةً، فسيدنا أبو بكر أراد أن يأخذ رأي عمر فقال: " اذهبوا إلى عمر وخذوا رأيه " فسيدنا عمر رفض هذا الموضوع، ويبدو أنه واتخذ موقفاً في الرفض، فاغتاظ هؤلاء، وعادوا إلى الصديق، وقالوا: **" يا خليفة رسول الله، الخليفة أنتَ أم هو ؟ "** أرادوا أن يوغروا صدره عليه، قال: **" هو إذا شاء.. مثل بعضها نحن واحد لا تَفْرق بيننا.. "**

وهناك مواقف ذكيَّة جداً، أنت عندما تترفَّع عن الدنيا فالله عزّ وجل يؤتيك الحكمة، وكم من مصيبة مدمِّرةٍ أساسها كلمة ! وأساسها استفزاز واحد، تجد أسرة قد دُمِرَت من كلمة حمقاء قالتها الزوجة، والزوج في غفلةٍ عن الله عزّ وجل، فأخذته العزَّة فطلّقها، وكم من شراكةٍ فُصِمَت لكلمةٍ قالها أحد الشركاء فاستفزّ بها شريكه !

المغزى الثاني: الحِلم سيد الأخلاق:

الحكمة أن تكون حكيماً، والحكمة أن تكون حليماً، وواسع الأفق، وبعيد النظر، ورحب الصدر، كاد الحليم أن يكون نبياً، دائماً الإنسان في كل قضيّة وخاصة إذا كان في القضيّة استفزاز، وتحطيم لأعصابه، يقول هذه الكلمة وأنا ناصحٌ له: **"سوف أتّخذ قراراً بعد أسبوع "**، ففي اليوم الثاني يخف هذا الغضب، وفي الثالث يقول: والله فلان معه حق، وأنا أغضبته سابقاً، وفي اليوم الرابع يقول: والله الحق معه، وتجد نفسك بعد سبعة أيام أخذت موقفاً في منتهى الحكمة والإنصاف، ولذلك ليحذر كل إنسان أن يتّخذ قراراً في ساعة الغضب، لأن الإنسان إذا غضب فليس إنساناً، انتقل إلى صنف آخر من المخلوقات، وإذا أحب إنسان أن يراقب نفسه وهو غضبان ليقف أمام المرآة وهو غضبان، يكره نفسه كراهيّة لا حدود لها، ولذلك كاد الحليم أن يكون نبياً، والحلم سَيّدُ الأخلاق.

الحكمة الخامسة عشرة:

<< يا بني كن عبداً للأخيار، ولا تكن ولداً للأشرار، يا بني أدي الأمانة تسلم، كن أميناً فإن الله لا يحبُّ الخائنين>>.

هناك آية قرآنيّة تقول:

(وَأَنّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف 52)

المغزى الأول: إيّاكم والخيانة:

أي أن أية خيانةٍ على وجه الأرض لا يباركها الله عزّ وجل، ولو خُنْتَ كافراً، ولمجرّد الخيانة فهي عملٌ قبيح، وهناك شخص أعلم منك كن مخلصاً له، أنت مسلم، فهكذا المسلم..

(وَأَنّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

الإخلاص يرفع قيمة الإنسان، والخيانة تحطُّ من قدره.

<< يا بني، لا تُر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر >>.

ومن حكمه أيضاً ولا ننسى أن الدرس عن الحكمة.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

هذه كلّها من حكم سيدنا لقمان..

<< يا بني، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبقَ ما جمعوا، ولم يبقَ من جَمَعوا له >>.

ألم يقل الله عزّ وجل في حديث قدسي يوم القيامة لعبدين، قال للأول:

((عبدي آتيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟))

ليس في الآخرة كذب وتدجيل ـ قال:

((يا رب، لم أنفق منه شيئاً على أحدٍ مخافة الفقر على أولادي من بعدي..))

هذا لسان حاله.. قال:

((ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوّة المتين، إنّ الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم..))

وسأل آخر.. قال:

((أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال: يا رب، أنفقته على كل محتاجٍ ومسكين لثقتي بأنك خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، قال: يا عبدي، أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

قصص وعبرة:

العبرة: احفظ الله يحفظك:

والله أعرف رجلاً سمعت قصّته، وهي قصّةٌ واقعيّةٌ لا تكاد تصدّق لهولها، هذا إنسان جمع مالاً كثيراً، ومات وترك المال، وكل همّه في الحياة أن يكون أولاده في بحبوحةٍ من بعد وفاته، وهؤلاء الأولاد بقدرة قادر عقدوا صفقةً كبيرةً جداً مع تاجرٍ في اليمن، وكيف أن هذا التاجر استجرّ منهم بضاعةً بمئات الألوف ؛ بل بعشرات الملايين، وكيف أن هذا التاجر لم يدفع لهم شيئاً، وكل شيءٍ وقّعه لهم كان حبراً على ورق، وبعد زمنٍ قصير من الزمن بيع المعمل، وبيع المحل التجاري، والبيوت بيعت، وعاد أولاده فقراء.

وكم من إنسانٍ عاش في طاعة الله، واتكل على الله، وخلّف لأولاده إيماناً وسمعةً طيّبة فأغناهم الله من بعده !.. قال له: **"أنا الحافظ لأولادك من بعدك"..**

إنّ أكبر شيء تقدّمه لأولادك أن تجعلهم مؤمنين، لأنك إذا جعلتهم كذلك استحقوا الإكرام من الله عزّ وجل في حياتك وبعد وفاتك، وإن لم تهدهم إلى سبيل الله عزّ وجل استحقوا العقاب والدمار في حياتك وبعد وفاتك.

من أغرب القصص التي لا تكاد تصدّق، أن آخر سلاطين بني عثمان عمل ابنه حمالاً في بيروت، في هذه المدينة، إذاً: **أنا الحافظ لأولادك من بعدك..**

<< بني، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبقَ ما جمعوا ولم يبقَ من جُمِعوا له >>..
لذلك أندم الناس يوم القيامة غنيٌ دخل ورثته بماله الجنَّة، ودخل هو بماله النار، هو جمعه من حرام فاستحق النار، وهم ورثوه حلالاً، وأنفقوه في طاعة، الله فدخلوا به الجنَّة، وأندم الناس عالمٌ يوم القيامة دخل الناس بعلمه الجنَّة، ودخل هو بعلمه النار، فهو لم يطبِّق ما قاله، والذين استمعوا له طبَّقوا ما قاله.
<< وإنما أنت عبدٌ مستأجَر، قد أمرت بعملٍ، ووعدت عليه أجراً، فأوفِ عملك واستوفِ أجرك >>.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (08-13): تفسير الآيتان 17 - 18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-07-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ(19))

ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب:

أيها الإخوة، هناك قاعدةٌ أصولية، وهي أن: **" ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ".**

إن قلتُ لإنسان: كن طبيباً، وآمرك أن تكون طبيباً، فمن ضِمْن هذا الأمر أن تنال الثانوية بدرجاتٍ عالية، ومن ضمن هذا الأمر أن تنتسب إلى كلية الطب، لأنك لن تكون طبيباً إلا إذا دخلت كلية الطب، ولن تدخل كلية الطب ما لم تحمل الشهادة الثانوية، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهذه قاعدة أصولية.

1 – لا صلاة إلا بالإيمان والإحسان والاستقامة:

ربنا عزّ وجل حينما أمرنا أن نصلي لا يمكن أن تصلي إلا إذا كنت مستقيماً محسناً، ولا يمكن أن تستقيم، ولا يمكن أن تحسن إلا إذا عرفت الله، وآمنت باليوم الآخر، إذاً معرفة الله عزّ وجل، والإيمان باليوم الآخر، والاستقامة، والعمل الصالح من لوازم الصلاة، فإذا أمرك الله عزّ وجل بالصلاة فمن لوازم الصلاة أن تعرفه، وأن تعرف من تصلي له، وأن تأتمر بأمره وأن تنتهي عما عنه نهى، وأن تقدِّم شيئاً يسمح لك أن تُقْبِلَ عليه وهو العمل الصالح، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

2 – الأمر بالصلاة مقرون بإقامتها دائمًا:

مِن هنا جاء الأمر بالصلاة مقترناً في أكثر الآيات مع إقامة الصلاة، كإقامة البناء، فهناك مراحل كثيرة تسبق الصلاة منها ؛ ما هو من طرف الصلاة العمل الصالح، ومنها أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، ومنها ما هو بعيدٌ عن الصلاة أن تعرف الله عزّ وجل، لذلك أحب أن أؤكد لكم وهذا

كلامٌ دقيقٌ جداً: أن العلم والعمل وحده هو الطريق الوحيد الموصل إلى الله، إذا عرفت الله عرفت ما عنده من ثواب أو من عقاب، وعرفت أن الأمر كله بيده، وتوجهت إليه، وإذا عرفت أنه هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وإذا رأيت الله في كل شيء، وأنه ما من شيءٍ يقع إلا بأمر الله وبإذن الله، وما من عملٍ يُنَفَّذُ إلا بتوفيق الله، وإذا رأيت هذه الرؤية، فهي وتلك المعرفة وهذا العلم حملك على أن تطيع الله، وأن تفعل الصالحات تقرباً إليه، فالآن يمكنك أن تصلي.

3 – فصل الاستقامة عن الصلاة تضييع للدين:

ولذلك حينما فصل الناس الصلاة عن استقامتهم، وعن أعمالهم الصالحة، وحينما فصلوا العمل عن معرفة الله، ضاع الدين وضاع الناس في متاهات الصلوات الشكلية الجوفاء، ولم تقدم لهم شيئاً ذا بال، وقاموا إلى الصلاة وهم كُسالى، ورأوها عبئاً، وقالوا بلسان حالهم: أرحنا منها، ولم يقولوا كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

منزلة الصلاة في الإسلام:

1 – الصلاة عماد الدين:

الشيء العجيب أن في السنة المطهرة أحاديث كثيرةً جداً عن الصلاة، يكفي أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[الجامع الصغير عن عمر]

وقد يسأل سائل: هذه الصلاة التي يصليها عامة الناس، هل هي عماد الدين ؟ فهذه من أقامها فقد أقام الدين ؟ وهذه من هدمها فقد هدم الدين ؟!! بالتأكيد لا، لأن هذه الصلاة التي يرافقها الكذب، والغش، والمعاصي، والفواحش، هذه بالتأكيد ليست صلاةً أرادها الله عزّ وجل، لأن الصلاة التي أرادها الله عزّ وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر، والتي هي نورٌ في قلب المؤمن يريه الحق حقاً والباطل باطلاً، والصلاة التي أرادها الله عزّ وجل طَهور، فإذا اجتمع في قلب مصلٍ حقدٌ وحسدٌ وكبرٌ واستعلاءٌ، أن يتكلم المصلي كلاماً فاحشاً بذيئاً، وأن يأخذ المُصلي ما ليس له، فهذا شيء مستحيل.

2 – الصحابة أقاموا الصلاة ففتحوا البلاد:

قد يسأل سائل: ما السِرُّ بأن أصحاب النبي عليه رضوان الله كانوا قلةً قليلة، ومع ذلك فتحوا الآفاق، والبلاد شرقاً وغرباً، ونحن نَعُدُّ ألفاً وزيادة من الملايين، قبل سنوات ألف مليون، والآن سمعت أن المسلمين يبلغون ألفاً ومئتي مليون، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((خَيْرُ الصّحَابَةِ أرْبَعَة، وَخَيْرُ السّرَايَا أرْبَعُ مِائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوش أرْبَعَةُ آلافٍ، وَلا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلّةٍ))

[مسند أحمد عَن ابْن عَبّاس]

من حيث العدد لن يغلب في حديثٍ صحيح..

((وَلا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلّةٍ))

لأنهم أضاعوا الصلاة، والله عزّ وجل يقول:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم 59)

3 – ليس كلُّ مُصلٍّ مقيمًا للصلاة:

ومن باب التقريب، إنسان يحمل أعلى شهادة في الطب، بورد مثلاً، هذا ممتلئٌ علماً، وخبرةً، ويتقن اللغة الأجنبية كإتقانه العربية، ويفهم دقائق اختصاصه، وله تجارب غنية جداً، وذكاءٌ كبير، واطلاعٌ واسع، وشكله الخارجي أنه يرتدي ثوباً أبيض اللون، ويضع على عينيه نظّارتين، وعلى أذنه سَمّاعة، فإذا جاء إنسانٌ جاهل، وارتدى ثوباً أبيض اللون، ووضع على عينه نظارة، وفي أذنيه سماعة فهل صار طبيباً، وهل هذا هو الطب ؟ أن ترتدي هذا الثوب الأبيض، وأن تضع السماعة على أذنيك، وأن تضع ورقةً بيضاء على الطاولة ؟

هناك فرقٌ كبير بين المصلي حقيقةً، وبين الذي فكر في الكون حتى استقرت في نفسه حقيقة وجود الله، وحقيقة أسمائه الحسنى، وحقيقة كماله، وحقيقة وحدانيته، واستقر في نفسه أن الإنسان خُلِقَ ليسعد في الأبد، إذاً استقر في ذهنه أحقية اليوم الآخر، ثم بدأ يبحث عن أمر الله ؛ في مأكله، ومشربه، وزواجه، وعمله، وأخذه، وعطائه، وفي كل شؤون حياته، إلى أن طبق السنة النبوية تماماً وبدأ يجعل من طاقاته، من إمكاناته، من ذكائه، وخبراته، ووقته، وجهده، وماله، فكلها وظفها في طاعة الله، وتَقَرُّبَاً إلى الله عزّ وجل، عندئذٍ وقف ليصلي فرأى الطريق إلى الله سالكةً، واستراح في الصلاة، وشعر أنه قريبٌ من الله عزّ وجل، وأن هموماً قد انزاحت عن كاهله، فمن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيدة القربات، وغرة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات))

[ورد في الأثر]

4 – الصلاة فرض لا يسقط إلا بالموت:

ومن هنا قال العلماء: الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقطُ بحال، من أركان الإسلام أن تشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويكفي أن تشهد هذه الشهادة مرةً واحدة، من أركان الإسلام والحج على المستطيع، فقد تؤديه مرةً واحدة، وقد لا تؤديه أبداً وأنت مسلم، ومن أركان الإسلام الصيام، وقد يصاب الإنسان بمرضٍ يمنعه من الصيام، وقد يسافر فيؤجِّلَ الصيام إلى ما بعد السفر، والزكاة على المستطيع، إذاً: الحج قد يسقط، والصيام قد يسقط إلى حين، والزكاة قد تسقط، والشهادة تؤدَّى مرةً واحدة، أما الفرض العَيْنِيّ الذي يتكرر ولا يسقط بحالٍ هو الصلاة، لذلك لا يستطيع الإنسان أن لا يصلي ولو كان في ساحة الحرب، ولو هُدِّدَ بالقتل إن لم يصل، عليه أن يصلي صلاة الخائف، وصلاة الخائف تقصر نوعاً لا كَمّاً، لك أن تصلي بأية طريقةٍ تشاء، وأنت مستلقٍ على السرير، وأنت واقف، في أي وضعية، إذا هددت بالقتل إن صليت فهناك صلاة الخائف، ومعنى ذلك أن الدين كله قائمٌ على الصلاة، من ترك الصلاة جحوداً بحقها فقد كفر، فقد كفر، والذي أشعر به أن آيات الصلاة في أكثرها قالت:

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه 14)

أقم البناء ؛ شراء الأرض، وتخطيطها، وترحيل الأتربة، وهدم الأنقاض، وترحيلها، وحفر الأساسات، وبناءها، وبناء الطابق الأول، والثاني، والكسوة الداخلية والخارجية، تأمين الماء والكهرباء، هذا كله منطوٍ في كلمة إقامة البناء، فإقامة الصلاة تستلزم معرفة الله، لمن تُصلي ؟ تقول: الله أكبر، هل عرفته أكبر ؟ فهذا الذي يتذوّقه المؤمن من قوله تعالى:

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ)

ماذا قال الله عزّ وجل عن هؤلاء الذين يصلون ويراءون ؟ ما قال: فويلٌ للذين يقيمون الصلاة، بل قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7))

(سورة الماعون 4-7)

إذاً: نرجع إلى القاعدة الأصولية وهي أنه: **" ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب "**، فإذا أمرك الله عزّ وجل بنص القرآن الكريم أمراً قطعي الدلالة، أمرك أن تصلي، أو أمرك أن تقيم الصلاة، فابحث عن موجبات الصلاة، عما لا تتم الصلاة إلا به ؛ معرفةٌ بالله عزّ وجل واستقامة على أمره، وتقربٌ إليه، عندئذٍ ترى الطريق عند الله سالكاً.

كيف تتمّ معرفة الله عزوجل حتى تكون مقيما للصلاة ؟

قد يسأل سائل: كيف تتم معرفة الله ؟ الله عزّ وجل لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، إذاً السبيل الوحيد إلى معرفة الله أن تستعمل العقل الذي هو مناطُ التكليف، والله عزّ وجل الكون كله تجسيدٌ إن صح التعبير، أو مظهرٌ لوجوده، ومظهرٌ لوحدانيته، ولكماله، فأسماء الله كلها لها متعلّقات ؛ قدرته ظاهرةٌ في خلقه، ورحمته ظاهرةٌ في خلقه، ولطفه، ووحدانيته، وكماله كل ذلك ظاهرٌ في خلقه.

إذاً: كل أسمائه الحسنى، وكل صفاته الفضلى إنما هي مبثوثةٌ في خلقه وفي الكون، إذاً يكفي أن تنظر إلى الكون، إلى خلقك، إلى طعامك، وشرابك، وما تحتك، وما فوقك، وعن يمينك، وشمالك، يكفي أن تنظر، وأقرب شيءٍ إليك جسدك.

(قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)

(سورة عبس 17)

ما الذي جعله يكفر ؟

(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19))

(سورة عبس 18-19)

إنها نطفة لا ترى بالعين، ففي اللقاء الواحد يخرج من الرجل ثلاثمائة مليون حوين مَنوي، وواحدٌ من هذه الثلاثمائة مليون هو الذي يُلقِّحُ البويضة، ومن يُصَدِّق أن على هذا الحوين معلومات مبرمجة بأزمان معينة تزيد على خمسة آلاف مليون معلومة، والرقم دقيق جداً تأكدت منه إلى أقصى درجة، حيث إنّ خمسة آلاف مليون أمر مودعة في هذا الحوين الذي لا يرى بالعين، كيف لقّح هذا الحوين البويضة ؟ وكيف فتح له الباب، ثم أغلق ؟ وكيف مُنِعَ من الدخول آلاف مئات الألوف، بل عشرات الألوف، دخل هذا الحوين القوي إلى البويضة، وكيف تلقحت هذه الخلية الأنثوية الأولى ؟ وكيف انقسمت إلى عشرة آلاف جزيء، وهي في طريقها إلى الرحم ؟ وإذا قرأت علم الأجنة، أو قرأت المبادئ الأولى لعلم الأجنة وجدت العجب العجاب..

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ(23))

(سورة عبس 17-23)

ماذا ينتظر ؟

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول ؟

إلى متى ؟!!

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب يطيعُ

***

الذي أراه أنك إذا تأمّلت في خَلْقِكَ، وفي طعامك، وشرابك، وفي المخلوقات من حولك، وفي الجبال، والبحار، وفي الأطيار، والأسماك، فلابدّ من أن تعود من هذه الجولة وقد خشع قلبك، ورأيت نفسك صغيراً جداً أمام عظمة الله عزّ وجل، وعندئذٍ لا تملك إلا أن تبادر إلى طاعته، وإلى نفع عباده، وخدمة مخلوقاته، فإذا كنت عارفاً به، مستقيماً على أمره، محسناً إلى خلقه، استقبلك الله عزّ وجل في الصلاة، وأقبل عليك، وتجلّى على قلبك، وملأ قلبك نوراً، وملأ حياتك حبوراً، وجعلك من المقربين المنعمين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ألا ترى معي أن أحيانا، وفي ساعات صفائك، وعقب أعمالك الصالحة، والتضحيات، والبذل، والعطاء، ألم تقف مرةً بين يدي الله عزّ وجل فتنهمر دموعك، ويخشع قلبك، وتتمنى أن تدوم الصلاة ساعات طويلة ؟ إذا كنت صَلَّيْتَ هذه الصلاة فهذه هي الصلاة، التي أمرنا الله بها، والتي نرقى بها.

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه 14)

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق 19)

(لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: من الآية 43)

فإذا تلوت القرآن في الصلاة فربما شعرت كأنك تسمع القرآن أول مرة، وكأنه نزل من تَوِّهِ على النبي عليه الصلاة والسلام، هذه هي الصلاة، فالصلاة ميزان، من وّفّى استوفى، من وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمراتها، فخالقٌ عظيم، وربٌ كريم، إنه خالق السماوات والأرض يأمرك أن تقف بين يديه، هل وأنت ساهٍ ولاهٍ، وأن تنحني وتنحني، وأن تقعد وتسلم، وانتهى كل شيء، أهذا أمر الله عزّ وجل ؟ هذه الذات الكاملة، وهذا الرب الكريم، وهذا الإله العظيم هذا أمره ؟ أترضى لمخلوقٍ أن تؤدي أمره أداءً شكلياً ؟ أترضى من ابنك إذا أمرته أن يدرس أن يقعد وراء المنضدة، وأن يفتح كتاباً، ويقلبه

أمامك، وعينه نحوك، ولا يقرأ شيئاً ؟ أترضى منه هذا ؟ ألا تتهمه بالنفاق إذا فعل هذا ؟ فكيف ترضى أن تؤدي هذه العبادة العظيمة أداءً شكلياً، أداءً أجوف ؟ لكن أنّى للمنحرف أن يقف بين يدي الله عزّ وجل، وأنى للمذنب أن يقبل على الله ؟ وللمسيء إلى خلقه أن يتجلى الله على قلبه ؟ هذا القلب بيت الرب، والله عزّ وجل أغنى الأغنياء عن الشرك، إذا كان في القلب شرك فالله عزّ وجل يَدَعك وشأنك، فأن يستحق قلبك أن يتجلّى الله عليه في الصلاة، أن يستحق قلبك أن يمتلئ نوراً من الله عزّ وجل في الصلاة، لابدّ من أن يكون طاهراً، فالقلب بيت الرب، ومنظر الرب، فيا عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طَهَّرْتَ منظري ساعة ؟ لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[الجامع الصغير عن عمر]

الصلاة عماد الدين:

العماد في اللغة، الخيام كما تعرفونها لها عمودٌ كبير في وسطها، فالخيمة الدائرية لها عمودٌ كبير، ما قيمة هذه الخيمة بلا عمود ؟ إنها قماش ملقى على الأرض، فهل تصلح هذه الخيمة أن تُسْكَن ؟ وهل يُجْلَسُ فيها ؟ وهل تستعمل كخيمة بلا عمود ؟ فهذه الصلاة إذا كان الدين خيمةً فالصلاة عماد الدين أو عمودها، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، فأنت لا حظ مُخَيَّماً حينما يُزْمِعُ أصحابه الرحيل يبدءون بسحب الأعمدة، وحينما يسحب عمود الخيمة تتداعى على الأرض، وتصبح قماشاً بعضه فوق بعض وانتهى الأمر، تشبيهٌ نبويٌ رائعٌ جداً:

((الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[الجامع الصغير عن عمر]

((الصلاة طهور))

[ورد في الأثر]

إنّ المصلي طاهر النَفْس، لا يغشّ أحداً، لا يكذب، ولا يتلاعب، ولا يحتال، ولا يخدع، ولا يسئ في كلامه، إنه مصلٍ، طاهر، أي إنه إنسان متصل بالله، ومكارم الأخلاق كلها مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً من خلال الصلاة منحه خلقاً حسناً، فهذا كلام قطعي، كل أخلاقك، وكل كمالك، وحلمك، ورحمتك، وإنصافك، ولطفك إنما تشتقه من الصلاة، فبقدر اتصالك بالله عزّ وجل تأخذ من كماله.

إن كان لك اتصال بهذا المُجَمَّع الأساسي للكهرباء، فبقدر ما تأخذ من هذا المُجَمَّع تكون قوة التيار عندك، فإذا كان عندك آخذ ضعيف جداً بثمانين فولطاً، مائة وعشرة، مائتين وعشرون، كلما علا قطر الآخذ اشتدت قوة التيار، وهكذا.

فلذلك الوقفة الآن عند:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)

هل أنت في مستوى وقفتك في الصلاة ؟

قبل أن تقف مع الناس في المسجد، وتستمع إلى الإمام يتلو آيات القرآن الكريم، هل أنت في مثل هذه الوقفة ؟ هل أنت في مستوى هذه الوقفة ؟ لا يمكن أن أقول لك: إن لم تكن كذلك فلا تصلِّ، ولكن أقول لك: صلِّ الصلاة فرضاً، ولكن حاول أن ترفع مستوى صلاتك، ورفع مستوى الصلاة برفع مستوى العلم، وكلما ازددت علماً ازددت قُرباً، وكلما ازددت بذلاً ازددت قرباً.

احرصْ على يومك قبل أن يفوتك:

شيئان احرص عليهما كل يوم كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال]

((ولا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً))

علماً وقرباً، العلم معرفة، والقرب بذل، ولذلك إذا مضى هذا اليوم، ولم تزدد علماً، أو لم تزدد قرباً بعمل صالح فَابْكِ على هذا اليوم، بل إن اليوم يقول لك: **" يا ابن آدم، أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة ".**

بل إن أخطر ما تملكه هو الزمن، إنك زمن، أو إن رأس مالك هو الزمن، أو إن أخطر ما تملكه هو الزمن، فإما أن تنفقه إنفاقا استهلاكياً سخيفاً، وإما أن تنفقه إنفاقاً استثمارياً، فإذا حرصت على معرفة الله عزّ وجل، وعلى حضور مجالس العلم، وعلى فهْم كتاب الله، وعلى فهْمَ أمر الله ونهيه، وعلى فهم السُنَّة المطهرة، وعلى أن تقف على سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، إذا حرصت على طلب العلم، فطلب العلم يجعلك من طُلاب العلم، وطلاب العلم أغلب الظن إذا كانوا صادقين يطبقون علمهم، فإذا طلبت العلم، وتعلّمت العلم، وطبقت العلم، صار الطريق إلى الله سالكاً، فإذا اتصلت بالله عزّ وجل لك أن تقول مع من يقول: " يا رب، ماذا فَقَد من وجدك ؟ والله ما فَقَد شيئاً، وماذا وجد من فَقَدك ؟ والله ما وجد شيئاً.

ملخّص الملخص أن ترى الله في كل شيء، وأن تسعى إليه في كل شيء، وهؤلاء التائهون، الشاردون، البعيدون، هؤلاء ما أتعسهم، وما أشد خسارتهم حينما يأتيهم ملك الموت..

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور 45)

لا تأخذ من الدنيا شيئًا إلى قبرك:

هناك أخبار تأتي للإنسان كالصاعقة، فإذا اكتشفت فجأةً أن هذا البيت الوحيد الذي لا تملك غيره، قد بعته بعملةٍ مُزَيَّفَة، وأن هذه العملة المزيفة فضلاً عن أنها لا قيمة لها سوف تحاسب عليها حساباً كبيراً، أليس هذا الخبر صاعقاً، إذا اكتشفت فجأةً أن هذا البيت الذي اشتريته ليس للذي باعك إياه، وأن الذي يملكه شخص آخر، وأن هذا المبلغ الذي دفعته له ذهب هباء، أليس هذا الخبر صاعقاً ؟ فإذا كشف الإنسان في لحظة ما أن كل عمله في الدنيا لا قيمة له، وأن كل سعيه قد ذهب أدراج الرياح، وأن الله عزّ وجل جعل من عمله هباءً منثوراً، وأنه قادمٌ على حياةٍ أبدية لا يملك مالاً للتداول فيها.

إذا ذهبت إلى بلدٍ غربي فإنّ أول شيءٍ تفكر به أن تشتري عملة ذلك البلد، فإذا كنت مُزْمِعاً أن تسافر إلى الدار الآخرة ألا ينبغي أن تفكِّر ما العملة الرائجة هناك ؟ إنها العمل الصالح، لذلك: **<< يا قييس، إن لك قريناً يدفن معك وهو حي، وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك >>.**

يخرج الرجل من البيت، والبيت أملاك غير منقولة، ومحله، وله أهل، وأولاد، وأقرباء، وأصحاب، هؤلاء يمشون معه، ولكنهم جميعاً يقفون عند شفير القبر، أما الوحيد الذي سينزل في هذا القبر فهو الميت، يرفع غطاء النعش، ويؤذن المؤذن، ويحمل، ويوضع في هذه الحفرة، شيءٌ واحد يدخل معك في القبر، إنه عملك، لذلك قالوا:

والقبر صندوق العمل

***

صندوق عملك هو قبرك، لذلك قالوا:

الدنيا ساعـة فاجعلها طاعة

والنفس طماعة عودها القناعة

***

هذه المعاني المستنبطة من قوله تعالى:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

أما:

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ)

منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

1 – السعيدُ يُسعِد غيرَه:

فليس القصد أن تكون وحدك سعيداً، أنت إنسان في مجتمع، فإذا سَعِدَ المجتمع سعدت معه، وإذا شقي المجتمع شقيت معه، ولذلك فأنت مأمورٌ أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، وهذه عبادة عَدَّهَا بعضهم كالصلاة والصيام..

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

2 – إذا أردت أن تسعد فأسعِد الآخرين:

إذا وصلت فأوصل غيرك، وإذا عرفت فعَرِّف غيرك، إذا سعدت فأسعد غيرك، وإذا اتصلت فأعن غيرك على الاتصال، فإذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين، وحينما تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر تصبح امرؤاً صالحاً في مجتمعٍ صالح، فقد يحدث أن بعض إخواننا، هو وأخوه، وأخوه، وأخوه، كلهم ديّنون، ورعون، مستقيمون، فهؤلاء الإخوة، ما دامت البيوت كلها مطبقٌ فيها الإسلام، هؤلاء يشعرون بسعادة، وليس هناك مُنَغِّصَات، أما إذا وُجد أخ واحد مستقيم، وأربعة إخوة منحرفون فإنه يعاني الأمرَّيْن، فهناك تداخلات، وقرابة، وأولاد، وأولاد عم، وتطلعات، فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر عاد الخير عليك، فإذا كان بإمكانك أن تهدي أخاك من أمك وأبيك، وبإمكانك أن تأتي به إلى المسجد، وأن تحمله على طاعة الله عزّ وجل أصبحتما اثنين، فإذا جلبت الأخ الثالث أصبحتم ثلاثة، فإذا أمكنك أن تهدي إخوتك جميعاً أصبحتم كتلةً يُعْتَز بها، رأيت طاعة الله سهلةً، فلم يعد هناك موازانات، وتطلعات، وإفساد، انتهى الإفساد، وأصبحت البيوت كلها عامرةً بذكر الله، فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فقد سعدتَ قبل الذين أمرتهم بالمعروف، وسعدت قبل الذين نهيتم عن المنكر، فإذا أكثرت المؤمنين مِن حولك سعدتَ بهم، وسعدوا بك، هذه عبادةٌ، عبادةٌ بكل معنى هذه الكلمة.

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

إذا اهتدى مؤمن إلى الله يقول: ما لي وللناس، دعهم في ضلالهم يا أخي، لهم رب يحاسبهم، هذا مؤمنٌ في الدرجة الدُنيا من الإيمان، لأن قلبه لم يمتلئ حباً لهم، ولم يمتلئ غيرةً عليهم، وشفقةً عليهم، بل كان هذا القلب بعيداً عن أن يكون رحيماً، فلذلك المؤمن الصادق يتحرّق على هداية إخوته، وأقربائه، وجيرانه، وشركائه، وزملائه، ومن حوله، ومن دونه، ومن فوقه، لذلك دائماً ينطلق اللسان بذكر الله عزّ وجل، أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً..

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ)

3 – لا تأخذك في الله لومة لائم:

يجب أن لا تأخذك في الله لومة لائم، وألا تجامل، وألا تحابي، وألا تطلب السلامة على حساب هذا الأمر الإلهي..

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

فلان حَدَّثَكَ عن أنه سيفعل كذا وكذا، وهذا الفعل مُحَرَّم، لا تبقَ صامتاً، ذكره قل له: يا أخي هذا العمل حرام لا يجوز، قل له: من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى، أما أن تقول: ما لي وللناس.

4 – ترْكُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية منكر أكبر منه:

إذا نتج عن أمرك بالمعروف، أو نهيك عن المنكر فتنة أشدُ من فعل هذا المنكر، عندئذٍ قال العلماء: **" في مثل هذه الحالة لا ينبغي أن تفعل ذلك**، لأن سيدنا عمر يقول: **<< ليس بخيركم من عرف الخير، ولا من عرف الشر ؛ ولكن من عرف الشَرّيْن، وفرّق بينهما، واختار أهونهما >>.**

إذا أمرت بالمعروف، أو نهيت عن المنكر، ونتج عن هذا الأمر وذاك النهي فتنةٌ أشدُ من المنكر الذي يقترف، فالأوْلى أن تسكت، ولذلك فالحكمة تقتضي أن تفعل ما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وفي الوقت الذي ينبغي.

5 – وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمَن له ولاية على غيره:

لكن أغلب الظن أن الأب وأولاده، والزوج وزوجته، وصاحب المعمل وعمّاله، وصاحب المتجر وموظفيه، ومدير المؤسسة وموظفيه أيضاً، الله عزّ وجل جعل أشخاصاً تحت رعايتك، وإشرافك، فأنت قيمٌ عليهم، أمرهم بيدك، هؤلاء الذين أناط الله بك مصالحهم ومقدّراتهم، فهؤلاء ينبغي أن تأمرهم

بالمعروف، وأن تنهاهم عن المنكر، وأقرب مثل عندك محل تجاري عندك موظف، أخلاقه عالية ونشيط ومخلص لكنه لا يصلي، ألا ينبغي لك أن تأمره بصلاة ؟ وأن تشجعه عليها ؟ وتحضّه على معرفة الله ؟ لأن هذا سيحاسبك، يقول لك: خدمتك ثلاثين عاماً ما ذكرتني مرة بالصلاة، لم تأمرني أن أصلي، ولم تدفعني إلى معرفة الله عزّ وجل، واعتصرت مني قوّتي، وألقيتني في جهالةٍ وفي ضلالة، إذاً:

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

ولا سيما من كان في حوزتك، وتحت إشرافك، ورعايتك، هؤلاء أولى الناس أن تأمرهم بالمعروف وأن تنهاهم عن المنكر.

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

6 – ضابط المعروف والمنكر شرعي لا مجال للعقل فيه:

ما المعروف ؟ ما أمر الله به، وما المنكر ؟ ما نهى عنه، الحسن ما حَسَّنَهُ الشرع، والقبيح ما قَبَّحَهُ الشرع، وكل شيءٍ حسنه الشرع وأمر به فهو حسن، وهو المعروف، وكل شيءٍ نهى عنه الشرع فهو المنكر وهو القبيح، فلا ينبغي أن تكون لك قيَم أخرى، وأن تفعل أشياء تراها حسنة، وهي تخالف الشرع، والمؤمن الصادق قيمُهُ من قيَم كتابه، ومقاييس الفوز عنده هي مقاييس الفوز عند الله عزّ وجل..

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به))

[البغوي في شرح السنة عن ابن عمرو]

لا يوجد عنده مقاييس خاصة، فمثلاً: إنسان لا يصلي، فهو بعيد عن الدين، ومنكر للدين، تقول عنه: لبق، ولطيف، وأخلاقه عالية، وفهيم، وحذق، فأنت تطعن في الدين، إذا أثنيت عليه كل هذا الثناء وهو لا يصلي، وهو لا يهتم بالدين، فكأنك ألغيت الدين، ولم تعبأ به، إذاً: ينبغي لك تكون القيم التي تتعامل بها نابعةً من كتاب الله، لا أن تكون نابعة من مجتمعك، ولا من تقاليدك، ولا من عاداتك.

7 – من نتائج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معاداة الناس:

لكنك إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر فالطريق في ذلك ليس محفوفاً بالورود ؛ ولكنه محفوفٌ بالأشواك، لأن الذي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر يتصدى له أشخاصٌ شهوانيّون يتضررون من

هذه الدعوة، إذاً: لابدّ أن يناصبوها العِداء، وأن يقفوا عقباتٍ في طريق الدعوة إلى الله، لأنهم تضرروا ؛ في شهواتهم، و في مصالحهم، إذاً: لابدّ من أن تؤذى، إذاً: جاء الأمر الإلهي الثالث:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

8 – لذلك: وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ

أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، وأن تدعو الناس إلى الله، وأن تحضّهم على طاعة الله، ثم تعيش هكذا بلا مشكلة، ولا معاداة، ولا معارضة، ولا نقد، ولا حسد، هذا مستحيل، ذلك أنّ سيدنا موسى قال في المناجاة: **" يا رب، لا تُبق لي عدواً "**، قال الله عزّ وجل: **" هذه ليست لي "**، أليس هناك أعداء لله عزّ وجل يناصبونه العِداء، ويهاجمون الأديان كُلها، ويقللون من شأن القرآن ؟ هؤلاء هم أعداء الله عزّ وجل، إذاً: لابدّ للحق من أن يعاديه الباطل، ولابدّ لأهل الحق أن يقف أهل الباطل لهم عقباتٍ في طريقهم إلى الله عزّ وجل، لذلك:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

وأحيانا يتلقى الإنسان الضربات من أقرب الناس إليه، أحياناً زوجه تناصبه العداء إذا أراد أن يحملها على طاعة الله، وأحياناً أولاده، أو والده، أو شريكه، أو أقرباؤه وأسرته.

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الزخرف 22)

يقول لك: نحن تربينا هكذا، لا يوجد عندنا هذا التستر، ستفرق الأسرة !! وأقرب الناس إليك، من يقول لك: إن أخذ الفائدة حرام ؟ هل من المعقول أن يترك المال هكذا من دون فائدة ؟! أدخلك في متاهات الربا، ولذلك لابدّ من معارضة، ومن تجريح، وحَسَد، ووضع العصي بالعجلات.

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور

1 ـ مِن العزم عدمُ التردُّدِ:

أحياناً تتردد في أمور، مثلاً: نذهب إلى نزهة أو لا نذهب، نجد أماكن أو لا نجد، يا ترى النفقات كبيرة؟ هل الآن وقتها أو ليس وقتها ؟ قضية النزهة قضية تأخذ وتُعْطِي، لكن لا سمح الله ولا قَدَّرَ إذا أصاب الإنسان مرض ولابدّ من أن يجري عملية جراحية، وأن حياته متوقفة على إجراء هذه العملية،

فهل هنا موازنات وتردد ؟ إن إجراء هذه العملية من عزم الأمور، من الأمور المقطوع بها التي لابدّ من أن تفعل، فالإنسان أحياناً في قضايا له فيها خيار، لكن في قضايا كثيرة جداً ليس فيها له خيار، أن تقيم الصلاة، وأن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، وأن تصبر على ما أصابك، إن هذا لمن عزم الأمور، بمعنى أنه لابدّ من أن تصلي، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهذا الأمر ليس أمراً اختيارياً، ولا احتمالياً، فهو لا يحتمل التردد، ولا أن تقول: افعل أو لا تفعل، لا، إن ذلك من الأمور التي يجب أن تعزم عليها، من الأمور المقطوع بصحّتها، وبحتميتها، وبضرورتها، وبأنها طريقٌ إلى الله وحيدة، هذا معنى من عزم الأمور، عزمت عليه أن يفعل، أي شددت عليه أن يفعل.

أحياناً يكون دخلُ الإنسان محدوداً جداً، لكن يصاب ابنه بمرض ـ وقد يقتضي هذا المرض أن ينفق عليه عشرات الألوف، بل مئات الألوف، تراه بإرادته يبيع بيته من أجل معالجة ابنه، لأن معالجة الابن من عزم الأمور، وأحياناً ينهدم حائط بالبيت بفعل الأمطار، فيصبح البيت مكشوفاً، ويضطر صاحبه أن يقترض من أية جهةٍ ليشيد هذا الجدار، ليس هناك أمرٌ مخيرٌ فيه، بل من عزم الأمور.

2 ـ الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور:

أنا أضرب أمثلة، ما معنى من عزم الأمور ؟ أنت في حياتك أشياء كثيرة تتردد بها، تقدم أو تحجم، توازن أفعل أو لا أفعل، لكن هناك أشياء كثيرة أيضاً حينما تقع ترى نفسك مندفعاً إلى فعلها دون تردد، أو سؤال، أو تريُّث، أو استشارة أبداً، التهبت الزائدة عند ابنه، وصاح من شدة الألم، وقال له الطبيب: لابدّ من أن تجرى العملية اليوم، وانتهى الأمر، يقول لك: والله ليس معي مالٌ، فيستدين، يضع الذهب رهناً، فإجراء العملية لابنه مِن عزم الأمور، فلابدّ من أن يفعلها، فيجب أن تَعُدّ الصلاة ومقدمات الصلاة ؛ من عملٍ صالحٍ، من استقامةٍ على أمر الله، ومن معرفةٍ بالله من عزم الأمور، وأن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر من عزم الأمور، وأن تصبر على ما أصابك من عزم الأمور، فمستحيل أن تمضي حياة المؤمن من دون ابتلاء، قال تعالى:

(وَإِنْ كُنّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون 30)

إذاً: لابدّ من أن تبتلى، ومع الابتلاء لابدّ من أن تصبر، ولابدّ من أن تحتسب..

(إِنّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُور (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدّكَ لِلنّاس)

وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ

بعضهم قال: إذا دعوت إلى الله، إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، فلا ينبغي أن تستعلي على الناس، وأنت في هذه الطاعة، بل ينبغي لك أن تكون واحداً منهم، وأن تخفِض لهم جناحك، وأن تكون لهم لَيّنَاً، أرحم بهم من أنفسهم، وأن تكون لهم كواحدٍ منهم..

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

1 – معنى تصعير الخد:

تصعير الخد أن تميل خدك كبراً، واستعلاءً، وإعجاباً، واحتقاراً لمن دونك، كل هذه المعاني مستنبطة من:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

أن تميل، أمال، يُمِيلُ، أن تميل رأسك كبراً، وتيهاً، وعجباً، واحتقاراً للآخرين، فأحياناً يفتخر الإنسان بنسبه، أو بشهاداته، أو بماله، أو بقوته، أو بوسامته، أو بذكائه، أو أنه وسيم جميل الطلعة، أو أنه ابن فلان فيفتخر بأبيه، أو بقوته، أو بماله، وتفوُّقه في هذه النواحي يحمله على أن يتكبّر، مع أنّ الناس لا يحبون المتكبر، فإذا تكبرت عليهم انفضوا عنك، ونفروا منك، وانصرفوا إلى غيرك، فإذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، فإياك أن تُصَعِّرَ خدك للناس، وإياك أن تمشي في الأرض مرحاً، وأن تفرح بالدنيا.

2 – إذا جاءتك الدنيا فلا تتكبّر على عباد الله:

أحياناً تأتي الدنيا كما تشتهي، وفي حالات كثيرة تأتيك الدنيا كما تريد، ويزداد مالك، وتزداد قوتك، يزداد شأنك، ويتألّق نجمك، وتلمع في سماء الدنيا، ويقبل الناس عليك معظِّمين مُبَجِّلين، هذا امتحانٌ خطير، وهذا مزلقٌ خطير، فإما أن تنجح وإما أن ترسب، حتى إنهم قالوا: ما من فاتحٍ على وجه الأرض إلا إذا دخل البلد المفتوح، دخله متغطرساً، مختالاً، متكبراً، إلا النبي عليه الصلاة والسلام، حينما دخل مكة كادت دُؤابة عمامته تلامس عنق بعيره، تواضعاً لله عزّ وجل.

فهل لديك إمكانية وأنت في ساعات تألُّقك، وفي ساعة نجاحك، وارتفاع شأنك، أن تكون في أعلى درجات العبودية لله عزّ وجل ؟

3 – عليك تعظيمُ النعمة مهما دقتْ:

سيدنا عمر جاءه رسولٌ في أذربيجان، وأذربيجان الآن تابعة للاتحاد السوفياتي، وقد كانت ولايةً تابعةً لسيدنا عمر، والعاصمة كانت المدينة، وليست موسكو، بل المدينة، جاءه رسول من أذربيجان، فكره هذا الرسول أن يطرق بيته ليلاً فتوجه إلى المسجد، فسمع بكاءً ومناجاةً، يقول هذا الرجل الذي يناجي ربه: **<< رب، هل قبلت توبتي فأُهنِّئَ نفسي، أم رددتها فأعزّيها ؟، قال له: من أنت يا رجل ؟، قال له: أنا عمر، فهذا الذي كره الذي يطرق بيته ليلاً هو في المسجد يصلي، قال: يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل؟ قال: إنني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي، وانطلقا بعد الفجر إلى البيت، قال: يا أم كلثوم، ما عندكِ من طعام ؟، قالت له: والله ما عندنا إلا خبزٌ وملح، خبزٌ وملح فقط في بيت أمير المؤمنين، فقال: هاتِه، أكل خبزاً وملحاً، ودعا الدعاء التالي فقال: الحمد لله الذي أطعمنا، فأشبعنا، وأسقانا فأروانا >>.**

وأنت تأكل سلطة، ولبناً، وفاصولياء، وأرزا، وراءها تفاح، وحليب وجزر، وبعد ذلك والله الأكلات طيبات، قلت: الحمد لله، هذا الكلام فقط ؟! سيدنا عمر أكل خبزاً وملحاً، وقال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا، هكذا المؤمن، حتى مر بالأثر، إن شاء الله أذكرها لكم بالتفصيل، أن الإنسان إذا شرب كأس ماء، شربه على ثلاث دفعات، وفي كل دفعةٍ قال: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما انتهى من الدفعة الأولى قال: الحمد لله رب العالمين، والمرة الثانية والثالثة هكذا، قال: ما دام هذا الماء في جوفك لن تحدّثه نفسه بمعصية الله عزّ وجل، أديت حق النعمة، هذا كأس الماء.

قيل لملِكٍ عظيم: يا أمير المؤمنين، بكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا منع منك ؟ قال: بنصف ملكي ـ قرأت قصةً عن باخرةً غرقت في عرض المحيط، أحد قوارب النجاة، أكبر قارب نجاة كان فيه حوالي سبعون إنساناً، وفي هذا القارب مستودع للماء لا يكفي لإنسانين، فوزع الماء بملعقة الشاي، فكل واحد باليوم له ملعقة شاي من الماء، هل تصدقون أن ركاب هذا المركب قتل بعضهم بعضاً، ولم يصل إلى الشاطئ إلا اثنان، من أجل شربة ماء، من أجل أن يشرب ملعقتين من الماء بدلاً من ملعقة ـ قال له: يا أمير المؤمنين، بكم تشتري هذا الكأس إذا منع منك ؟ قال له: بنصف ملكي، قال: فإذا منع إخراجه، قال: بنصف ملكي الآخر، قال له: ملكك يساوي كأس ماء.

إذا شرب الإنسان الماء، وكانت الكليتان سليمتين، والحالب والمثانة، وكله يعمل بانتظام، أليست هذه نعمة كبرى ؟ لذلك:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

كن متواضعاً.

آيةً واحدة: إذاً إذا دعوت إلى الله، أو أمرت بالمعروف، أو نهيت عن المنكر، أو في أية حالةٍ من حالاتك..

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

إياك أن تستعلي عليهم، وإياك أن تخاطبهم من فوق، وأن تكون متعجرفاً، وأن تشعر أنك فوق الناس.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ)

وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا

إياك أن تستخفك الدنيا، أن تفرح بها، وبمالها، وزينتها، ومباهجها، فلا تنس أن البيت الذي جهدت في بنائه، وفي كسوته، وفي تزيينه، وفي تأثيثه لن يبقيك أحدٌ فيه ساعةً بعد الموت، ولن يسمح لك أن تدفن فيه، يقول لك: في المقبرة، اشتريته، وجهدت في بنائه، وتزيينه، وتأثيثه، وأقرب الناس إليك إكرامهم لك سرعة ترحيلك من هذا البيت، فعلامَ الفرح ؟

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

يجب أن تفرح لا بالدنيا، ولكن بطاعة الله، يجب أن تفرح إذا أجرى الله الخير على يديك، وإذا سمح الله لك أن ينطلق لسانك في تعريف الناس بالله عزّ وجل، وإذا جعلك الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وباباً له، بهذا فافرح..

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من الآية 58)

أما أن تفرح بالدنيا ! فليس لك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، والباقي ليس لك.

آخر آية:

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)

القصدُ في المشي تسطيرُ الأهداف:

معنى القصدُ في المشي:

مرة جاء أحد علماء مصر الكبار إلى مجلس الشيخ بدر الدين رحمه الله تعالى، طبعاً الذي جاء شيخ الأزهر، جلس جلسة تَنِمُّ عن اعتزازه بعلمه ومكانته، هكذا سمعت القصة، بدأ الشيخ يتحدَّث، كلما حَدَّثَ حديثاً وفَسَّرَهُ، وتعمَّق في شرحه، هذا الضيف بدأ يغَيّر من جلسته، إلى أن انتهى المجلس وهو جالسٌ على ركبتيه وهو لا يدري، إذاً: كلما عرفت هذا الذي يتكلم تتأدب معه، إذا دخلت على إنسان يحتل منصباً رفيعاً، لاحظ نفسك، تجلس جِلْسَةً فيها أدب، لا تعبث بما على المنضدة، ولا تقرأ جريدة أمامه، ولا تُمسك المسبحة، إذا كنت أمام شخص مهم، تجلس بأدب، واحترام، تنظر إليه، وتتطامن في جلستك، هذا مع إنسان، فكيف إذا عرفت الواحد الديان ؟ إذاً المتكبر المختال لا يعرف الله عزّ وجل، لو عرف الله لتأدب معه حتى في جلسته، ومشيته، ومَنْطِقِهِ، وكلامه، إذاً:

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)

المعنى الأول:

اقصد أي كن معتدلاً بين الكبر ومَيل الخد والتذلل، أيضاً هناك مشية لا يحبها الله عزّ وجل، أن تمشي خانعاً ذليلاً خافض الرأس، وأن تتمسح بالناس، وأن تذل نفسك لهم، هذا أيضاً مرفوض، المؤمن عزيز، لا ينبغي له أن يذل نفسه، **<<متى أمَتّ علينا ديننا >>** ؟ قالها سيدنا عمر لأحد الأشخاص، قال له: متى ؟ لله العزة، إذًا بين التذلل المَقيت والكبر المقيت، ودائماً الفضيلة وضعٌ وسطٌ بين نقيصَتَين، الكبر نقيصة، والخنوع نقيصة..

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)

كن معتدلاً في مشيك.

المعنى الثاني:

ورد في بعض التفاسير: أي واقصد في مشيك رضاء لله عزّ وجل، ففي مشيك إلى دكانك، وإلى عيادتك، وإلى معملك، وإلى أهل بيتك، وإلى زيد، وإلى عُبيد، كل حركةٍ من حركاتك، اقصد بها رضاء الله عزّ وجل، هذا ورد في بعض التفاسير.

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ)

فارتفاع الصوت ليس فضيلةً، فالعربة الفارغة لها ضجيج، فإن كانت مُحَمَّلَةً ليس لها ضجيج، والشيء الفارغ له صَدى، وكل الآلات الموسيقية مجوَّفة من الداخل فارغة، وما دامت فارغة لها ضجيج.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (09-13): تفسير الآيتان 20 - 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-07-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس التاسع من سورة لقمان ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

ربطُ الآية بما قبلها من الآيات:

نصبُ الآيات الكونية الدالة على الله:

أيها الإخوة ، قبل هذه الآيات وردت قصة لقمان عليه السلام ، وقبل قصة لقمان قال الله عز وجل بعد أن تحدث عن آياته في الكون:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(أَلَمْ تَرَوْا)

إذاً: هذه الآية مرتبطة بالآيات التي وردت قبل قصة لقمان ، وهؤلاء الظالمون الذين هم في ضلال مبين ألم يروا ، معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى نصب في الأرض وفي السماوات آيات واضحة صارخة مبينة دالة على وجوده ، وعلى وحدانيته وعلى كماله.

(أَلَمْ تَرَوْا)

الآن بعد أن كان الخطاب خطاب غائب:

(فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(أَلَمْ تَرَوْا)

دعوة قرآنية إلى التدبر والتأمل والرؤية:

أيها الظالمون ، والجاحدون ، والمنكرون ، والمعرضون ، والمنغمسون في شهواتكم ، ألم تروا.

يا ترى هل الكافر يرى الشمس ؟ يراها بعينه.

1 – الرؤية البصرية والرؤية القلبية:

ولكن الرؤيا هنا مقصود بها رؤية القلب ، لأن الرؤية نوعان: رؤية بصرية ، ورؤية قلبية. رؤية البصر تنصب مفعولاً به واحداً ، تقول رأيت الشمس فإن قلت ساطعة حال ، أما رؤية القلب تنصب مفعولين ، تقول: رأيت العلم نافعاً ، نافعاً مفعول به ثانٍ.

2 – الرؤية البصرية وأثرها في التأمل:

المقصود هنا الرؤية القلبية ، طبعاً الكافر والجاحد والمعرض والفاسق والفاجر كلهم يرى الشمس ، ويرى القمر ، و الجبال ، هذه النعم التي أنعم الله بها علينا يتمتع بها الكفار أيضاً ، يرونها بأعينهم ، ويسمعون أصواتها بآذانهم ، ويلمسونها بأيديهم ، يتذوقونها بألسنتهم ، فأهل الدنيا يتمتعون بكل النعم ، ولكنهم لا ينتقلون منها إلى المنعم ، ولا يرون صاحب النعمة ، ولا الذي أنعم عليهم ، جاءت هذه الآية لتحض المعرضين الجاهلين المنكرين على أن يروا بقلوبهم حقيقة هذه النعم ، منشأ هذه النعم ، صاحب هذه النعم.

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ

1 – معنى التسخير:

معنى سخر ، التسخير في أدق معانيه: أن يقهر الفاعل في أداء الفعل وفق مراد القاهر ، الشمس مقهورة على أن تشرق ، ولا تملك ألا تشرق ، لأنها مسيرة ومسخرة ، أما الإنسان فيؤمر ، ولا يأتمر ، يُنهى فلا ينتهي ، والإنسان مخير ومكلف ، أمره الله بأوامر ونهاه عن أمورٍ ، فإما أن يأتمر أو لا يأتمر، إن ائتمر قبض الثمن ، وإن لم يأتمر دفع الثمن ، فلذلك ما سوى الإنسان والجن الخلق كلهم مقهورون على تنفيذ ما أمروا به ، لذلك:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا)

(سورة الأحزاب72)

الكون كله بمجراته وكازاراته ، وكواكبه ونجومه ، ومذنباته وشموسه وأقماره ، والأرض كلها ، ما فيها ، وما عليها ، وما فوقها ، وما تحتها ، المواد الصلبة والغازية والمائعة ، والنباتات والحيوانات ، والجمادات كلها مسخرة ، وكل عنصر ، وكل حيوان ، وكل مخلوق مقهور على أن يفعل ما أمره به قاهره ، وهو الله عز وجل ، فالله عز وجل جعل هذا الكون مسخراً للإنسان.

2 – أمثلة لأنواع التسخير:

الحديد:

أما معنى التسخير مثلاً: فلو أن الله عز وجل جعل الحديد كتلاً صافية في الأرض ، فالحديد قد يوجد بكميات كبيرة جداً وبمساحات شاسعة جداً ، ولكن كونه موجودا على شكل حديد صافٍ لا يمكن أن يسخر لنا ، أما حينما وجد الحديد على شكل فلزات فهذا الشكل الذي جعله الله فيه هو مسخر لنا ، وبإمكان الإنسان أن يجمعه ، ويضعه في فرن عالٍ ، وأن يصهره ، وأن يقسمه إلى حديد صلب ، وإلى حديد مطاوع ، وإلى حديد فولاذي ، وإلى أنواع أخرى ، إذاً: طريقة خلق الحديد في الأرض طريقة جعلته فيها مسخر للإنسان.

المياه:

والمياه الجوفية جعلها الله على أبعاد تتناسب مع قدرات الإنسان ، هذا موضوع طويل.

البذر:

مثلاً البذر ، طريقة خلق البذرة من رشيم مؤلف من سويق وجذير ، ومحفظة للغذاء ، ومن قشرة إن جاءتها الرطوبة والضوء والحرارة تنبت ، طريقة خلق البذر طريقة تجعل من الإنسان قادراً على أن يستفيد منها.

البـقرة:

والبقرة مثلاً: جعل الله عز وجل ما تستهلكه من طعام أقلّ مما تنتجه ، لذلك سعى الإنسان إلى تربية الأبقار ، وجعلها مذللة ، لو أنها تجنح كالضبع أو كالذئب أو كالحيوان المفترس فكيف يرعاها ؟ وكيف يجعلها في حظيرة ؟ لذلك فالبقرة مسخرة ، والدواب ، والجمل ، والأغنام ، والنباتات.

الفاكهة:

الله عز وجل جعل هذه الثمار بقوام تناسب طبيعة الإنسان ، ولو أن التفاحة لها قوام صخري فكيف نأكلها ! وجعل هذا الغذاء مناسباً لطبيعة الإنسان ، وجعل طعمها محبباً ، ورائحتها محببة ، وشكلها محبباً ، وجعل خصائصها متناسبة مع حاجات الإنسان.

ولو أن البطيخ مثلاً جاء كالطماطم في قشرة رقيقة ليس مسخراً لنا ، لكن هذه القشرة السميكة تجد شاحنة تحمل خمسة أطنان من البطيخ ، والذي في الأسفل لا يتأثر ، والشكل الكروي شكل متين يقاوم الضغط ، والقشرة سميكة داخل البطيخ ، وقوامه هش يتناسب مع طبيعة الصيف ، ومع حاجة الإنسان.

ولو تأملت في كل فاكهة ، وفي كل محصول ، وكل شيء خلقه الله عز وجل تشعر أنه مسخر ، فالأشجار ، والأنهار ، البحار كلها مسخرة ، بل إن الإنسان الذي استخدم كل شيء في الطبيعة استخدامه لما في الطبيعة هو ترجمة لتسخير الكون للإنسان.

الهواء:

والهواء مسخر جعله يركب الطائرات على متن الهواء.

البحـر:

والبحر مسخر ، لولا أن في البحر قانون أرخميدس التي كشفها هذا العالم ، وهو أن الماء متماسك تماسكاً يرفض دخول الأجسام فيه ، فإذا دخلت دفعها نحو الأعلى بقوة تناسب وزن الماء المزاح ، هذا قانون أرخميدس ، ولولا هذا القانون لما سارت باخرة في البحار ، فالبحار مسخرة ، بقانون أرخميدس جعلت البحار همزة وصل ، وليست فاصلاً بين القارات ، بالعكس لو أردت أن تنشأ طرقاً بين القارات لكلفك هذا ألوف الملايين ، أما البحر فكله طريق ، والبحر يحمل حمولات كبيرة جداً ، والآن يقولون لك: ناقلات النفط تحمل مليون طن ، والآن تجد البواخر مدنًا بأكملها تحمل آلاف السيارات والقطارات

والمحاصيل ، إذاً: البحر مسخر ، والهواء مسخر ، وطبيعة الهواء تتناسب مع حاجة الإنسان ، والضغط الذي فوق الإنسان ضغط يتناسب مع حياته ، فلو رفع الضغط لانفجرت كل أوعيته.

المياه الجوفية:

لو فكرت في كل شيء لوجدت أن كل شيء مسخر للإنسان ، هذه المياه الجوفية لولا أنها تخرج على شكل ينابيع كيف نستفيد منها ، إذاً:

(أَلَمْ تَرَوْا)

أيها الجاحدون ، لأن الكلام عاد إلى:

(هَذَا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكُمْ)

علة خَلق السماوات والأرض:

1 – تسخير الكون للإنسان:

فهذه اللام في (لكم)لام التعليل ، علة خلق السماوات والأرض أنها مسخرة لكم إكراماً وتعريفاً ، والكون مسخر لهذا الإنسان تسخير تعريف وتسخير إكرام.

2 – المسخّر له دائماً أكرم من المسخّر:

وشيء آخر ، هذا التسخير من معانيه الأخرى أن المسخَّر له دائماً أكرم من المسخَّر ، إذاً: أنت المخلوق الأول ، وأنت المكرم ، لأن الكون كله مسخر لك ، لكن ألا تسأل هذا السؤال: إذا كان الكون مسخراً لك فأنت لست مطالباً بشيء ؟إذا أعطاك والدك كل ما تحتاج لتكون طبيباً ، منحك الأموال ، وسخر لك المدرسين ، ومنحك الميزات ، كل هذه الميزات تنالها ، ولا تشعر أنك مسؤول ، غير أنه مطلوب منك شيء ، هنا السؤال ، إذا كانت المجرات مسخرة لي ، والأفلاك ، وكل ما في الأرض وكل حيوان ، وكل طائر مسخرٌ لي ، إذا كان كل ما في البحار مسخراً لي ، وأنا لماذا خلقت ؟ هنا يأتي الجواب: عبدي ، خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما فرضته عليك.

الشيء الآخر ، أن الله عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ)

3 – ليس ذكاء الإنسان هو الذي سخّر الطبيعة:

هذا تسخير الله عز وجل ، وقد يتوهم أيام أهل الدنيا أن الإنسان بذكائه استطاع أن يسخر الطبيعة أو يستغل الطبيعة أو يقطف ثمارها ، هذا كلام الشرك ، لولا أن الله أعطاك عقلاً أو فكراً هل بإمكانك أن تستفيد من شيء ، انظر إلى مجتمع الحيوانات ، هل تجد القرود استغلت ما في الطبيعة ؟ نمط حياتها هوَ هو منذ أن وجدت وحتى الآن ، وكل مجتمع حيواني هل ارتقى ! أما الإنسان بما أودع الله فيه هذا الفكر الذي يعد أثمن ما في الوجود ، بل أثمن عطاء وهبه الله للإنسان ، هذا الفكر اكتشف الإنسان البترول ، واخترع المركبات ، وأوجد المواصلات ، وبنى البيوت ، ونسخ القماش ، وتفنن في زراعة المزروعات.

إذاً: كل ما ترونه من إنجاز ـ إن صح التعبير ـ حضاري هو من حصيلة هذا الفكر الذي أودعه الله فينا، إذاً: لولا أن الله أعطانا فكراً لما أمكننا أن نسخر الطبيعة لمصالحنا ، هذا التسخير بفضل الله عز وجل وبعلمه وبإذنه.

4 – ماذا تفعل لو أن المواد في الطبيعة لا تستجيب لعملك ؟

وشيء أخر ، لو أعطاك فكراً وطبيعة المواد في الطبيعة لا تستجيب لك ماذا تفعل ؟ الصخر لا يتفتت، واللهُ عزوجل خلق الصخر ، وخلق فيه خاصة التفتت ، بل علّمك أن تضع فيه ماء ، وأن تجمد الماء فيتصدع الصخر ، إذاً: علّمك كل شيء عن طريق الفكر ، وعن طريق خواص المواد ، ولو أن هناك فكراً متفوقاً جداً وطبيعة المواد لا تستجيب لك فالتسخير لا يقع ، ولو أن المواد تستجيب لك لكنك لم توهب هذا الفكر ، فالتسخير لن يقع.

إذاً: ما وقع التسخير إلا بفضل شيئين: بفضل طبيعة المواد ، وأفضلُ مثلٍ الحديد ، لو كان الحديد كتلاً من الحديد الخام الصلب الصافي يستحيل استخراج الحديد ، ولكن الله جعل الحديد فلزات مع التراب تجمعه كما تجمع التراب ، ثم تجعله في فرن تزيح الشوائب ، وتبقي الحديد مصهوراً ، عندئذ تصنعه على درجات.

إذاً: التسخير يقتضي وجود طبيعة خاصة لموادّ تقبل التسخير ، والتسخير يقتضي وجود جهاز في الإنسان يعرف كيف يسخر هذه المواد له.

5 – موقف الإنسان من تسخير التعريف وتسخير التكريم:

إذاً: التسخير هو تسخير تكريم وتسخير تعريف ، هذا الكون خلق على هذه الشاكلة من أجل أن تعرف الله من خلاله ، وأن تشكره من خلاله ، وأن تعرفه ، ولذلك جاء في الآيات الأخرى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء 147)

أنت أمام مهمتين كبيرتين جداً: أن تشكره ، وأن تؤمن به ، أو أن تؤمن به ، وأن تشكره ، فإن آمنت به ولم تشكره فهناك مجال للمعالجة ، وإن شكرته ولم تؤمن به فهذا شيء مستحيل ، مستحيل أن تشكره من دون أن تؤمن به ، وإن آمنت به ولم تشكره فما حققت عبوديتك لله عز وجل ، فلذلك يقول الله عز و جل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

أي إن آمنتم ولم تشكروا فسوف يعذب الإنسان ، إن شكر ولم يؤمن فهذا مستحيل عقلاً ، أن تتجه إلى شكر جهةٍ لا تؤمن بوجودها ، وهذا كلام غير منطقي.

إذاً: الكون مسخر تسخير تعريف ، ومسخر تسخير تكريم ، أنت من خلال تسخير التعريف عليك أن تؤمن ، ومن خلال تسخير التكريم عليك أن تشكر.

مثلاً: لو أن صديقاً لك يصنع أجهزة إلكترونية بالغة الدقة ، ولها فوائد جليلة ، فإذا قدم لك أحد هذه الأجهزة هدية ، وليكن هاتفاً مثلاً ، فأنت أمام هذا الهاتف تنتابك مشاعر متنوعة ، أبرزها ما أدقّ صنعه، ما أجلّ فائدته ، حلّ لي هذه المشكلة ، وهذه المشكلة ، الآن أستطيع أن أتصل بشكل آلي كلما ظهر أن الخط مشغول أعاد الاتصال ، أنت مشغول بقضية ثانية ، والله هذه ميزة كبيرة ، إذا اتصلت بهذا اشخص يظهر الرقم على الشاشة ، فإن كنت مخطئاً تعيد الرقم مرة ثانية ، إن جاءتني مكالمة أعرف من الذي اتصل بي ، فإذا رغبت ألا أجيبه لا أجيب ، وإذا أردت أن أتصل في مكالمة خارجية مثلاً يقول لي كم دقيقة ، إذا قدم لك جهازا من هذا النوع فيه ذاكرات كثيرة جداً ، ستون ذاكرة مثلاً ، فهو يجيب عنك في أثناء غيابك ، تلقنه جملة يجيب بها عنك ، يسجل كل مكالماتك في أثناء غيابك ، إذا كنت في بلد آخر ، واتصلت بهذا الجهاز يسمعك كل المكالمات التي جاءتك خلال أيام ، فأنت تتابع قيمة هذا الجهاز ودقته والفوائد الكبيرة التي استمتعت بها ، واستفدت منها ، ألا ينتابك شعور: ما أدقّ صنع هذا الجهاز! ما أعظم هذا المهندس الذي اخترعه ! وما أدقّ تفكيره ! ما أدقّ جزئياته ! تسبح بتعظيم مخترعه ، هذا شعور.

ثم إن هذا الجهاز غالٍ جداً ، قدم لك هدية مجانية ، تشعر بامتنان تجاهه ، هذا مثل مبسط ، ولله المثل الأعلى ، مثل مبسط لجهاز بالغ التعقيد ، عظيم الفائدة ، غالي الثمن ، قدم لك هدية ، فهذا الجهاز سخر لك تسخير تعريف بمستوى المهندس الذي اخترعه ، وتسخير تكريم لأجل أن تحبه ، فإن لم تعظم ، وإن لم تحب في وقت واحد فقد بعدت عن الهدف الذي خلقت له ، يجب أن تحب ، ويجب أن تعظم ، دقة الجهاز يجب أن تحملك على أن تعظم صانعه ، وقيمة الجهاز وكونه قد أهدي لك ، ويجب أن تحملك على أن تحبه وأن تشكره ، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

يجب أن تؤمنوا ، وقدم الشكر على الإيمان ، لأن الإيمان بلا شكر لا معنى له ، ولا قيمة له ، إن كان لا بدّ من إيمان وشكر فالشكر هو ثمرة الإيمان ، بل هو النتيجة التي ترجى من الإيمان ، فلذلك:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ما علاقة الإنسان بالمجرات ؟

فقد يقول قائل: ما لي بهذه المجرة التي تبعد عنّا ستة عشر ألفَ ألف مليون سنة ، وما علاقتي بها ، وكيف أنها مسخرة لي ، هذا كلام يقوله إنسان محدود التفكير ، يعني أنت ما علاقتك بالشمس ؟ علاقتك متينة جداً ، وربما كانت الشمس اتساق حركتها بسبب محلها من النجوم متوازنة معها في الحركة وفي التجاذب ، خالق الكون يقول لك:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

هذه (ما)تفيد استغراق كل شيء ما في السماوات وما في الأرض.

(مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ)

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

1 – معنى أَسْبَغَ:

ما معنى أسبغ علي النعمة ؟ يعني أتمها.

أحياناً تدعو إنساناً إلى بيتك ، تضعه أمام طعام لطيف منوع نفيس طيب متقن ، ومع الطعام كؤوس جميلة رائقة ، وصحون نظيفة ، وأدوات طعام جيدة ، ومقعد مريح ، والتهوية جيدة ، وباقة أزهار على المنضدة ، فإسباغ النعمة إتمامها ، وقد نعطره ، وقد تدعوه إلى أن يغسل يديه ، وقد تعطيه العطر

والمنديل لينشف يديه ، وقد تجعل له مع بعض الطعام شراباً يروق له ، وقد توصله إلى بيته بعد ذلك ، وقد تقدم له هدية ، فإسباغ النعمة إتمامها.

2 – صورٌ من إسباغ النِّعم:

فالله عز وجل ما خلق القمح فقط ، بل خلق القمح والشعير والمحاصيل كلها ، وخلق الورود ، والروائح العطرة ، والتوابل ، والمنكهات ، والمقبلات ، والعصافير ، وأسماك الزينة ، وأشياء تزيد على حاجاتك الأساسية ، وأشياء كي تسرّ بها ، والحدائق ذات البهجة ، والأصوات الشجية ، والروائح العطرية ، والمناظر الجميلة ، وغابات من أجل أن تمتع عينيك بها.

إذاً: إسباغ النعمة إتمامها ، فإعطاء التفصيلات ، والثانويات ، والمتممات ، والمحسنات الأحجار الكريمة ، كالماس ، فهل الماس يؤكل ؟! بل للمنظر فقط ، واللؤلؤ في البحار لماذا ؟ كي تستميل به قلب زوجتك ، خلق أشياء لا علاقة لها بحياتك اليومية ، لكن لها متعة فقط ، وهذا من باب إسباغ النعمة.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

معنى: ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

المعنى الأول:

لكن معنى باطنة ، الحقيقة النعم لما قال الله عز وجل:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم 34)

في الآية دقة ، كيف أقول لك: وإن تعدّ هذه الليرة ، كلمة تعد تعني ليرات ، وإن تعد هذه الليرة معنى ذلك أن النعمة الواحدة لو أمضيت كل حياتك في تعداد خيراتها وبركاتها تنقضي الحياة ، ولا تنقضي خيرات ، أو بركات نعمة واحدة ، كالعين ، والأذن ، واليد ، والمفاصل.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ)

السرُّ في مجيء لفظ النِّعم جمعًا:

هنا جاءت نعم جمعاً ، المأوى نعمة ، والزوجة نعمة ، والأولاد نعمة ، والطعام نعمة ، وهذا اللباس والصوف والقطن نعمة ، والهواء إذا تحرك نعمة ، والأمطار ، والنباتات ، وكل شيء حولك من نعم الله عز وجل.

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

بعض النعم الظاهرة والباطنة:

نعمة الديدان في الأرض:

ظاهرة واضحة ، وباطنة أنت لا ترى ما في الأرض ، الأرض فيها ديدان ، فلو أن النوع البشري أبيد عن آخره فسوف تبقى الحياة مستمرة ، لو كان خمسة آلاف مليون إنسان ثم ماتوا فالحياة مستمرة ، أمطار ، ونباتات ، وحيوانات ، ولكن من يصدق أن الديدان في التربة لو أبيدت لتوقفت الحياة على وجه الأرض ، فهل تعرف هذه النعمة ؟ نعمة الديدان في التربة ، قرأت عنها بحثاً لا يكاد يصدق ، فالتراب يتحول إلى سماد عن طريق الديدان ، وتخليل التربة ، وتعديل الحموضة ، عشرون فائدة تقوم بها الديدان وبكميات كبيرة.

إنّ الإنسان في أثناء إصلاح حقل نباتي يجد دودة فيظنها مؤذية ، ولولا هذه الدودة لما نبت النبات ، ولما دخل الهواء إلى التربة ، ولا انقلب التراب إلى سماد ، ولا اعتدلت حموضة التراب ، إنه شيء عجيب جداً ، فالفوائد التي تقوم بها الديدان في التربة الزراعية لا تعد ولا تحصى ، وهذه لا يعلمها كثير من الناس.

البكتيريا:

والبكتيريا لا تراها أنت ، فبعض الجراثيم ضار ، وبعضها نافع ، وهي كائنات حيوية ، وحينما ألقيت قنبلة على هيروشيما توقفت التربة عن إنبات النبات ، لأنها أصبحت معقمة من البكتيريا ، وقد رأيت لوحة تعليمية وهي مكعب من التراب مرسوم في هذا المكعب عدد الكائنات الحية التي تعمل مسخرة

لخدمة الإنسان ، فيها عشرون أو ثلاثون نوعاً من الكائنات ، كلها مسخرة لتهوية التربة ، ولجعلها صالحة لإنبات النبات.

العقل:

إذاً: هناك نعم ظاهرة ونعم باطنة ، فالعقل نعمة باطنة لا يرى بالعين ، ولكن ترى أثاره ، فالعقل وما فيه من محاكمة ، ومن تصور ، وتخيل ، وتدبر ، وحكم ، ونقض للحكم ، ونشاط العقل نشاط رائع جداً، فهذا لا يرى بالعين.

إذاً: النعم الظاهرة ما تبدو لعامة الناس ، والباطنة ما لا تبدو لعامة الناس.

نعمة العين:

العين فيها ماء ، وهذا الماء يجب أن يتجدد ، وإذا تجدد لا بدّ من صنبور يغذي العين بماء جديد ، ويبعد الماء الزائد ، ولو أن هذه الفتحة ضاقت ، أو سدت فيزداد ضغط العين ، وإذا زاد ضغط العين ضاقت الشرايين المروية للعين ، عندئذ تقع مشكلات كبيرة ، فيقال لك: أول شيء افحص ضغط عينك، وأنت تعلم أن هناك جهازاً بالغ التعقيد ، ماء العين يتجدد ، وهناك ماء يصب على هذا الماء ، وفتحة تصرف الزائد منه ، ومن تناسب ما يأتي وما يذهب يكون الضغط طبيعياً ، فإذا جاء الوارد أكبر من التصريف ارتفع الضغط ، وضاقت الشرايين ، ووقعنا في مشكلة العين ، فهذه نعمة لا تعرفها أنت.

نعمة ضغط القلب والشرايين:

ونعمة الضغط ، القلب يضغط على الشرايين ، فمن جعل هذه الشرايين مرنة ، حيث إذا جاءها نبض القلب لمرونتها نبضت ، تجاوبت مع القلب ، فأصبح كل شريان قلباً آخر ، بما أن الشريان مرن جاءته النبضة فتوسع لها ، ولما توسع ومادام مرناً أراد أن يعود إلى سابق حجمه فانضغط ، لما انضغط اندفع الدم ، وكل قطعة في الشريان قلب آخر ، والقلب ينبض نبضة ، والشرايين تتابع هذا النبض ، وأنت لما تضع جهاز النبض على يدك والعقرب يشير إلى 12/8 ، 16/10 ، هل تعلم كم دقة هذه الأجهزة والأوعية التي في الجسم ، الضغط مهم جداً ، إذا ارتفع الضغط كان له أخطار كبيرة ، فمن صمم هذا الضغط ! ومن جعل هذه الشرايين مرنة ! ومن جعل بعض النباتات ، أو بعض الأغذية تساعد على بقاء هذه الأوعية مرنة ، وهو الزيت البلدي ! ومن فوائده أنه يحافظ على مرونة الشرايين والأوردة ، وهذا معنى:

(أ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

عمليات العين المعقدّة:

من يدري أن الإنسان لما يشاهد شيئاً مخيفاً تجري عمليات معقدة جداً في جسمه لا يدريها ، فالعين تبصر ، والشبكية ينطبع عليها شكل الأفعى ، فتنقل هذا إلى الدماغ ، فيدرك أن هناك خطراً ، والدماغ ملك الجهاز العصبي.

الجهاز الهرموني:

أما الجهاز الهرموني فله ملكة أسمها الغدة النخامية ، وهي تأمر غدداً أخرى ، في مقدمتها الكظر ، أن أيها الكظر ، ضيق الأوعية الدموية حتى يتوافر الدم لطاقة جديدة للدفاع أو الهجوم ، فالخائف يصفر لونه ، وأمر آخر للقلب حتى يزيد ضرباته ، فيجري الدم بسرعة ، وأمر ثالث للرئتين ليزداد وجيبها ، وأمر رابع للكبد ليطرح سكراً إضافياً في الدم ، هذه نعمة باطنة لا تدريها أنت ، رأيت شيئاً خفت منه فاصفر لونك ، ودق قلبك ، ولهثت ، فلو فحصنا الدم وجدنا فيه سكر زيادة ، وأنت لا تدري أنه حصل ذلك بأقل من لمح البصر ، فهذه نعمة باطنة.

نعمة التقلّب في أثناء النوم:

وأنت نائم تتقلب ، ما معنى تتقلب ؟ اللحم الذي فوق العظم يضغط على اللحم الذي تحت العظم وأنت نائم ، فلك جهاز عظمي ، ولك عضلات ، وشحوم فوق الجهاز العظمي ، وعضلات تحت الجهاز العظمي ، وهذه حينما تنضغط تَنضغط معها لمعة الأوردة والشرايين.

الله عزوجل أودع في الجسم أماكن ضغط ، وإحساسا بالضغط ، فتضعف التروية فالرّجل تخدّر ، أي أنّ التروية قلّت ، فأنت نائم مستغرق في النوم تأتي هذه المراكز المضغوطة فتنبه الدماغ إلى أن هناك ضغطاً شديداً أضعف فتحة الشرايين ، فالدماغ يعطي أمراً بالتقلب ، فيتقلب النائم ستاً وثلاثين مرة ، وأنت لا تدري ، فهذه نعمة باطنة لا تعلمها أنت.

نعمة تجمُّع اللعاب في أثناء النوم:

وأنت نائم يتجمع اللعاب في فمك ، ويعلم الدماغ بذلك ، فيعطي أمراً للسان المزمار فيفتح ، ولسان المزمار من أعقد الأجهزة ، إذا أغلق فتحة المريء يفتح فتحة الرئتين ، فإذا أغلق فتحة الرئتين يفتح المريء ، بإحكام بالغ ، وأنت نائم.

طرفة العين:

طرفة العين ، كل دقيقة ست عشرة طرفة عين ، وأنت لا تدري ، الآن في بعض السيارات الحديثة إذا حصل مطر خفيف ففي كل عشرين أو ثلاثين ثانية تطلع المسّاحة مرة وترجع ، فهل معها مؤقت ؟ معها جهاز معقّد ، الحركة المستمرة سهلة ، أما كل ثلاثين ثانية تطلع مرة وترجع ، فهذه العين يأتي الجفن فيمسح القرنية ، أحياناً نمسح البلور بمادة مذيبة (سبيترو)، أو الخل ، فهذا الدمع فيه مادة مذيبة دائماً ، فالرؤيا شفافة تماماً بفضل الدمع ، وهذه المسحة ، وأنت لا تدري.

نعمة السمع:

وهناك مليون نعمة في جسمك لا تعلمها أنت ، وأنت تمشي في الطريق ، وراءك سيارة ، زمّرت لك تتجه إلى اليمين هذه نعمة ، إذ في الدماغ جهاز معقد جداً يتلقى الصوت من الأذنين ، والصوت يا ترى إلى أي الأذنين وصل أولاً ، طبعاً فرق 1/ 1650 جزءًا من الثانية ، هذا الجهاز يحسب الفرق ، فإذا وصل الصوت إلى الأذن اليمنى قبل اليسرى بواحد من ألف وستمائة وخمسين جزءا من الثانية فالسيارة تكون نحو اليمين ، فتعطي أمراً للإنسان أن اتجه نحو اليسار ، وأنت لا تدري.

ومرة كنت أقود مركبة في طريق سفر ، وأمامي قطيع من الغنم ، فأطلقت البوق ، فانزاح نحو الجهة المعاكسة ، قلت: الجماعة عندهم نفس الجهاز ، ليس فقط عندنا ، انزاحت كل هذه الأغنام إلى الجهة المعاكسة.

إذا: هذا الفكر ، لو أنك أعملته في خلق الله عز وجل لرأيت العجب العجاب:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

الحوين المنوي:

الحوين المنوي فيه خمسة آلاف مليون معلومة ومبرمجة ، سنة كذا يشتد صوته ، سنة كذا ينبت له شعر ، سنة كذا ينمو الصدر ، كل ذلك بالتسلسل ، وهي صفات دقيقة جداً مبرمجة ، هذا المعنى الأول لـ:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

المعنى الثاني:

المعنى الآخر: الإكرام الظاهر معروف ، لكن الإنسان أحياناً شارد لاهٍ منحرف ، مقصر ، تأتيه مصيبة، ظاهرها مزعج جداً ، إذ يحترق محل تجاري ، فتتلف البضاعة كلها ، ويتألم ألماً شديداً فينعصر قلب التاجر بهذه الخسارة ، وعلى إثر هذه المصيبة يبدأ الصلاة ، ويعود إلى الله عز وجل ، ويقلع عن ذنوبه ، فإحراق هذا المحل الذي كان بقضاء الله وقدره كان نعمة باطنة ، ولو سألت معظم المؤمنين لوجدت العجب العجاب.

أنا أكاد أجزم أن تسعين بالمئة ممن هم مستقيمون على أمر الله استقامتهم وعودتهم كانت بسبب معالجة إلهية حكيمة مصيبة.

ربنا عز وجل يبلو الإنسان في ماله ، أو جسمه ، أو في أولاده ، أو مع مَن هم فوقه ، أو مع مَن هم دونه ، أو يأخذ منه حريته لسبب أو لآخر ، فيخرج من السجن إنسان آخر تائب توبة نصوحاً ، هذه نعم باطنة أيضاً ، وهناك نعم لا تراها ، ونِعم في ظاهرها مؤلمة ، وفي ظاهرها مصائب ، وفقر ، لكن لو كان الإنسان منحرفاً ، وأمده الله بالنعم مع انحرافه إلى أن مات ، واستحق جهنم يوم القيامة يعتب على الله:

(وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة القصص 47)

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى:

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر 37)

ما هو النذير ؟ وهل النذير مِن النعم ؟

النذير هو المصائب ، فالمصيبة رسول ، هناك رسول حقيقي ، وقرآن ، وعلماء ، ودعاة ، وكون ، وعقل ، وفطرة ، وحوادث ، وإلهامات ، ومنامات ، ومصائب ، وكلها تهدف إلى إيقاظ الإنسان ، إلى دفعه إلى باب الله عز وجل.

وأنواع المصائب تجتمع على محور واحد من أجل أن يتضرع الإنسان ، هذا المعنى الثاني لـ:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ

1 – معنى العلم في هذه الآية:

العلم هنا في رأي بعض المفسرين الحجج العقلية والمنطق ، لا نص ، ولا كتاب ، ولا حديث ، ولا فطرة ، بل العقل والمنطق ، ولا هدى ، الهدى الإلهام ، والله عز وجل يلهم إنساناً أن يفعل شيئاً ، هذه هداية الله.

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه49-50)

2 – من أعظم المصائب المجادلة بغير علمٍ:

والهدى الإلهام ، فإما أن تملك شيئا مستفاداً من العقل ، وإما أن تملك شيئاً مستفاداً منه من الإلهام ، وإما أن يكون معك كتاب سماوي منزل من عند الله عز وجل ، فالإنسان ربما لا يفهم كلام الله ، ولا يتمتع بإلهام من الله عز وجل ، ولا يملك منطقاً راجحاً ، ومع ذلك يجادل.

قال الإمام الغزالي: **" ما جادلني جاهل إلا غلبني ، ولا ناقشت عالماً إلا غلبته ".**

هناك حجة عقلية ، فأنا أقول: عندك نقل ، وعندك عقل ، وواقع ، وفطرة ، فالواقع يؤكد الدين ، وكذلك الفطرة ، والعقل ، والنقل ، ومن أي شيء أردت ، العقل مؤيد ، وكذلك الفطرة ، والنقل ، والواقع مؤيد، فهذا الذي يجادل بغير علم أي حجة عقلية ، ولا هدى إلهام ، بعض المفسرين قال الهدى ما يقوله النبي عليه الصلاة والسلام ، فالكتاب من الله ، والسنة من رسول الله ، والمنطق من العقل ، فرجل ليس معه

عقل راجح ، ولا حجة يقينية ، ولا كتاب منير ، ولا سنة ثابتة ، وهو يناقش ، أو ليس معه إلهام ولا عقل ولا واقع.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

قول متكرر للمقلِدين: بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

1 – العادات المخالفة للدين مرفوضة:

فهذه هي العادات والتقاليد ، والعوام يقولون: هكذا تربينا ، وهكذا نشأنا ، وهكذا علّمنا أبي ، فإذا تربيت، ونشأت ، والبيئة والمحيط كان وفق الحق فأنعم وأكرم ، وأما إذا تربينا على الاختلاط ، ونشأنا عليه فهذا خلاف الدين ، وتربينا على الربا ، وعلى كسب مال حرام ، تقول: هكذا أبي علمنا ، وعلى المماطلة في الوعود ، تربينا على كذا وكذا ، هذا كلام مرفوض.

والعادات والتقاليد تأمر أن يقف العريس أمام المدعوات الكاسيات العاريات ، كلما قلت لهم هذا شرع ، وهذا أمر الله ، وهذا نهي الله ، يقال لك هكذا تربينا ، وهكذا العادات والتقاليد ، وهكذا آباؤنا وأجدادنا ، والمجتمع ، والواقع ، والعصر ، فهذه هي التقاليد وهي ليست شريطة، بل يجب أن تداس بالأقدام إذا خالفت أمر الواحد الديان ، وما قيمة التقاليد إذا كانت خلاف الشرع ؟

مرة كنت في قرية فقالوا: إنهم أحياناً يحتاجون إلى مال لشراء علف لأغنامهم ، فيتجهون إلى تجار يشترون صوف الأغنام ، فإن كان الكيلو بسبعين ليرة يأخذونه بعشر ليرات ، فهذا ربا ، ومن أشد أنواع الربا ، بالمئة خمسمئة للموسم ، استغلال حاجة الراعي إلى أقصى الحدود ، فهكذا نشأنا ، وهذه بلادنا ، وهكذا تربينا ، وتعلمنا ، فإن لم يكن هذا موافقاً للشرع فليس مقبولاً ، فعلى الإنسان أن يجري مراجعة حسب أسرته وعاداته وتقاليده ، وكل شيء موافق للشرع أهلاً وسهلاً به ، أما إذا كان مخالفاً فيجب أن ننبذه إذا كنت مؤمناً بالله عز وجل.

طبعاً بيع السلم مشروع بالمناسبة ، وهو أحد أبواب الفقه ، كأن تشتري البضاعة وتدفع الثمن معجلاً وتأخذ البضاعة مؤجلاً ، هذه مشروعة لكن لها شروط ، إذا خالفت شروطها انقلبت إلى بيع محرم ، جئت بهذا كمثل ، وهذه المنطقة هكذا يتعاملون ، ومنطقة ثانية يؤجر بيته بلا أجرة ، يأخذ خمسمئة ألف ليرة مالاً يجمده ، ويتاجر به إلى أن يخرج المستأجر ، فهذه علاقة غير مشروعة ، من أين جئت بها ؟ هذا المال الضخم الذي تستثمره لمصلحتك مقابل إيجار بيت ، أو أحياناً ينتفع بالرهن ، وهذا أيضاً خلاف المشروع.

مع بُعدِ الناس عن الله عز وجل ظهرت علاقات مالية غير صحيحة ، في البيع والشراء ، وعلاقات اجتماعية ، وعادات تقاليد ، فيجب أن نعيد الفحص لكل شيء ألفناه عن آبائنا وأجدادنا.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ

لعل آباؤهم كانوا ضالين ، لعلهم كانوا جاهلين ، ولعل الشيطان تمكن من آبائهم ، ودعاهم عن طريق آبائهم إلى عذاب السعير أيليق بنا ذلك.

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (10-13): تفسير الآيات 21 - 26
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-07-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس العاشر من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

نقاط تذكيرية للدرس السابق:

النقطة الأولى: الكون مسخّر للإنسان:

اتضح لكم في الدرس الماضي كيف أن الله سبحانه وتعالى سخر الكون كله لهذا الإنسان، والمسخَّر له دائماً أكرم على الله عزوجل من المسخَّر، إذاً: الإنسان هو المخلوق الأول.

النقطة الثانية: تسخير التعريف وتسخير التكريم:

أن هذا التسخير هو تسخير تعريف وتسخير تكريم، ورد فعل التعريف هو الإيمان، ورد فعل التكريم هو العرفان والشكران، لذلك قال الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء 147)

إذا عرفت، وشكرت حققت الهدف من وجودك، إذا عرفت، ولم تشكر كمعظم الناس، أو أن تشكر من دون أن تعرف هذا لا يكون.

النقطة الثالثة: كل شيء في الكون يرشد إلى الله:

إذاً: الكون مسخر من أجل هذا الإنسان تسخير تعريف وتسخير تكريم، عن هذا عبّر النبي صلى الله عليه وسلم، فكان إذا:

((رَأَى الْهِلَالَ قَالَ: هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ، وَرُشْدٍ هِلَالُ خَيْرٍ))

[سنن أبي داود عن قتادة]

ينفعنا في الدنيا، ويرشدنا إلى خالقنا، وهذا يجب أن ينطبق على كل شيء في الكون، فإذا أمسكت بكأس ماء، وشربته فهذا الماء خير لجسمك، ورشد إلى ربك، الطعام الشراب، ابنك، الشمس، القمر، الأسماك، الأطيار، النباتات، الأشجار، الخضراوات، أي شيء تراه عينك خير لك، أي مسخر لك تكريماً وتعريفاً، فينبغي أن تؤمن، وأن تشكر، فإذا آمنت، وشكرت توقفت عنك المعالجة.

عندما يقرر طبيب استئصال كلية لمريض، والدليل أنها متوقفة عن العمل، قبل أن يجري العملية لا بدّ من صورة جديدة، فإذا صورت الكلية مجدداً، واتضح أنها تعمل هل بقي للعملية مسوغ ؟

آية رائعة جداً:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

هذا العذاب، هذا الضيق، هذا الفقر، هذا الإلجاء، هذه المشكلات التي تضغط على الإنسان لماذا ؟

الجواب واضح:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

هناك ضعف في الإيمان، أو ضعف في الشكر، إذاً: هذا معنى قول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

النقطة الرابعة: علاقة الإنسان بالمجرات البعيدة:

قد يسأل سائل: ما علاقتنا بالمجرات البعيدة ؟ وكيف أنها سخرت لنا ؟

الإجابة عن هذا السؤال: إما أن يكون التسخير مباشراً أو غير مباشر.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

النقطة الخامسة: معنى النعم الظاهرة والنعم الباطنة:

المعنى الأول:

حدثتكم في الدرس الماضي كيف أن هذه النعم الظاهرة التي تعارف الناس على أنها نعم،كنعمة الصحة والفراغ، والمال والوجاهة، والمكانة والزواج الناجح والأولاد الأبرار، والمنزل الواسع، هذه كلها نعم، ألوان الأطعمة والأشربة هذه ظاهرة، أما الباطنة هناك من النعم الباطنة ما لا سبيل إلى حصره، بالمعنى الأول نعم، البكتيريا في الأرض، الخلايا التي في الدماغ، الأجهزة الدقيقة جداً في جسم الإنسان هذه نعم لا تعرفها أنت إنها نعم باطنة.

المعنى الثاني:

أن كل مصيبة يسوقها الله عز وجل للإنسان تكون هذه المصيبة سبباً في هدايته، إنها من النعم الباطنة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

[مسند الإمام أحمد]

النقطة السادسة: معنى: وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ

أما معنى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ)

فإنّ إسباغَ النعمة إتمامُها وتوسعتها.

أحياناً بعد أن تأكل يُقدّم لك الفواكه، وبعد الفواكه الحلويات، وبعد الحلويات القهوة أو الشاي، وبعدها تُعطّر، وبعدها تودّع إلى خارج البيت، وقد تعطى هدية، والعوام يقولون: المعروف بالتمام.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ)

أي أتمها وأعطاكم تفصيلاتها وجزئياتها ظاهرة وباطنة.

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّهِ)

النقطة السابعة: مع كلّ هذه النعم وكان الإنسان أكثرَ شيء جدَلاً:

كل هذه النعم، نعمة الوجود، نعمة الإمداد، نعمة الإرشاد، نعمة الأمن، نعمة الاستقرار، نعمة الأجهزة السليمة، نعمة الحياة الأسرية، نعمة أنك وجدت لتعرف الله عز وجل، نعمة أنك المخلوق الأول المكرم، كل هذه النعم ومع ذلك فأنت ـأيها الإنسان ـ تجادل.

مرة كنت أودّع صديقاً لي في المطار، رأيت طفلاً صغيراً يركض في أبهاء المطار، وسطه كرة، وضع له فوط كثيرة، والسبب معروف، قلت: هذا الطفل بهذا المنظر حينما يكبر، ويصبح شخصية مهمة، وينسى أن الله خلقه من لا شيء، أو خلقه من ماء مهين، ينسى أن الله عز وجل أنعم عليه بالإيجاد، أنعم عليه بالإمداد، كل هذه النعم ينساها، ويجادل، ويقول لك: هات دليل مادي على وجود الله! انظر كيف يكفر الإنسان.

قيل: يا إمام: متى كان الله ؟ فقال: ومتى لم يكن، متى غاب حتى يحتاج إلى دليل.

المؤمن يرى الله في كل شيء،

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

حينما يكبر الإنسان ينبغي أن لا ينسى طفولته، كيف كان ضعيفاً، كيف أودع الله في قلب أمه الرحمة، كيف سخر له أباً يعمل بجد، تعب ليقدم له حاجاته الأساسية، كيف عاش بين أسرة تحبه، كيف أسبغ عليه جمالاً ووداعة، ولطفاً وصفاءً وذاتية، الأمر الذي جعل أهله يقدمون له كل ما يحتاج عن طيب خاطر، أليست هذه نعم جليلة !

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ)

والآية دقيقة جداً، لم يقل: والناس، قال: ومن الناس، بعض المعرضين، بعض الكفار، بعض المنافقين، بعض المقصرين، بعض المشركين.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

النقطة الثامنة: المجادلة في الله بغير علمٍ مِن أعظم الذنوب:

لا يملك حجة عقلية دامغة، لأن العقل مقياس أودعه الله فينا، ومستحيل أن يأتيك العقل بحجة على عدم وجود الله، بالعكس الإيمان بالله بالفطرة وبالعقل وبالواقع وبالنقل، فهذا الذي يجادل بغير علم، أيْ لا يملك حجة منطقية صحيحة مقنعة على ما يذهب إليه، دعوته هواء، دعوته بلا أساس، دعوته بلا مقدمات صحيحة، إذا توصل إلى نتائج فالمقدمات غير صحيحة، والمقدمات لا تؤدي إلى هذه النتائج. ليس من الممكن أن يملك الإنسان عقلاً راجحاً وأن يهديه عقله إلى الضلال... هذا مستحيل، إلا أن يجعل من عقله أداة لشهواته، العقل المطلق لا يمكن إلا أن يوصلك إلى الله، أما العقل الذي يسخره الإنسان لمصالحه فإنه ينطق عن الهوى، والنبي عليه الصلاة والسلام بماذا وصفه الله ؟

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم 4)

أمّا في آخر الزمان فهناك أشخاص كثيرون، وما أكثرهم ينطقون عن الهوى، ويتحدثون بحديث يخدم مصالحهم، ويركز فيهم شهواتهم، إذاً: كلامهم أساسه الهوى، وليس أساسه الحق، لذلك قالوا: هناك منطق تبريري، وهناك منطق تقريري، إذا كنت حيادياً ومنطقياً يكون عقلك هادياً لك إلى الحق، أما إذا أردت أن تكون الشهوات هي الأصل، وأنت مصرّ عليها عندئذ تستخدم العقل الذي أودعه الله فيك تبريراً لشهواتك، ولكن هذه الحجج المزيفة لا تلبث أن تتهافت أمام النقل الصحيح وأمام المنطق القوي. فإذا أردت أن تجادل يجب أن تجادل عن علم، فلان طبيب متخصص، متبحر، متفوق، فإذا أراد أن

يكشف أن في القرآن خللاً، ولن يستطيع ذلك، ما من آية وردت في كتاب الله إلا والحقائق العلمية القطعية الدامغة تؤيد كلام الله عز وجل، القرآن كلام خالق الكون، والأفعال أفعاله، والكون خلقه، والفطرة طبيعة أودعها الله في الإنسان، إذاً: لا بدّ من أن تلتقي حقائق الكون مع حقائق القرآن مع حقائق الفطرة.

إذاً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

النقطة التاسعة: ما هو الهدى في هذه الآية ؟

القول الأول:

الهدى كما قال بعض العلماء: السنة، أي ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، ليس متبحراً في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله، ولا يملك الحجة الدامغة.

القول الثاني:

وبعضهم قال: الهدى الإلهام، لا إلهام له، ولا علم له، ولا يستند إلى كتاب من عند الله عز وجل، وكأن الله عز وجل بهذه الكلمات الثلاث أشار: إما إلى علم تجريبي مستنبط من الواقع، وإما إلى إلهام إشراقي، وإما إلى علم بكتاب الله عز وجل يقيني، فإن لم تملك علماً بكتاب الله، ولا إشراقاً نفسياً، ولا علماً منطقياً بحجة دامغة فلماذا تجادل ؟

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

النقطة العاشرة: اتباع التقاليد حجة الجاهلين والضعفاء:

انظر، الناس دائماً يألفون ما شبوا عليه، فكل إنسان شبّ على شيء شاب عليه، التكليف مُكلف، التكليف يحتاج إلى إرادة، أما إذا ضعفت الإرادة، والإنسان أراد أن ينساق مع بيئته مع مجتمعه، مع معطيات محيطه، أن ينساق مع ما ألِفه، ومع ما نشأ عليه هنا المشكلة، أن يعطل الإنسان عقله، وأن ينساق مع محيطه، لذلك يميل الناس.

الديانات الوضعية الأرضية التي تؤلّه أشخاصاً أو أصناماً لماذا هي منتشرة ؟ هذا سؤال كبير، ديانة السيخ مثلاً في الهند، والهندوس، ديانات كثيرة جداً تؤمن بصنم، تؤمن بإله من بني البشر، إما الشمس، أو القمر، أو البقر، وبالمناسبة أكبر قطيع بقر في العالم موجود في الهند، 360 مليون بقرة، لأنهم يعبدونها من دون الله، ولا يذبحونها، فهي تعيش في بحبوحة، وفي رعاية تامة لجهل أهلها.

إذاً: لماذا يؤثر الناس أن يتبعوا هذه الديانات ؟ لأنها بلا منهج، بلا أمر، بلا نهي، افعل ما تشاء وصدقنا، اعتقد بنا وافعل ما تشاء، فالقضية غير مُكلفة، أما المؤمن حينما يقرأ كلام الله عز وجل فالإله له أمر ونهي، الشهوات يجب أن تنضبط بالشرع، كسب المال يجب أن ينضبط، الحركة منضبطة بمنهج، لذلك الدين الحقيقي مكلف، لأن الجنة لها ثمن باهظ، من طلب الجنة بغير عمل فقد أذنب، طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب.

تجد الدعوات الأرضية انتشارها واسع جداً، السبب: أن هذه الدعوات لا تكلفك شيئاً، تعطيك الحرية أن تفعل ما تشاء، أن تنطلق في الحركة كما تشاء، افعل ما تشاء، وكن موالياً لنا، اعتقد بنا وانتهى الأمر، لكن منهج الله عز وجدل ليس كذلك، منهج الله عز وجل يأمرك وينهاك، فلذلك لا بدّ للأنبياء من أعداء.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الفرقان 31)

هؤلاء المتضررون من دعوات الأنبياء يعادون الأنبياء.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)

لا تشريع إلا ما شرع الله ورسوله

بأمر الله، ليس هناك زنى، ليس هناك خمر، ليس هناك عدوان على الأموال، ليس هناك ربا، ليس هناك تجاوز، ليس هناك أكل مال بغير حق، ألا إن سلعة الله غالية، الجنة ثمنها باهظ، وهو أن تنضبط، وسمي التكليف تكليفاً، لأنه ذا كلفة، وما من أمر إلهي إلا ويتعارض في ظاهره مع طبع الإنسان، الطبع يميل إلى النوم الأمر قم وصل الفجر، الطبع يميل إلى أكل المال التكليف أنفق المال، الطبع يميل إلى إطلاق البصر التكليف غض البصر، الطبع يميل إلى إخراج الغيظ الأمر كظم الغيظ، الطبع يميل إلى الزوجة، ويكره الأم، وقد تقدم بها السن، وأصبحت عبئاً، والتكليف أمر ببرّ الوالدين، الطبع يقول لك: تحدث عن فلان، ماذا فعل، فقصته رائعة جداً، تسلي الحاضرين، تحدث عنها، والتكليف ولا يغتب بعضكم بعضاً، الطبع والله فلان له شكل مضحك، قلّده، أضْحك الآخرين، و التكليف:

(وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ)

(لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ)

إذاً: حينما تطيع الله عز وجل تبذل كلفة، وهذه الكلفة هي ثمن الجنة، تصور أن أمر الله عز وجل يتمشى مع طبعك تماماً، لا تُعدُّ هذه الطاعة طاعة، لا قيمة لها إطلاقاً، تصور إنساناً في درجة عطش شديد، وقلنا له: إن الله يأمرك أن تشرب الماء البارد، يقول: الله يجزيك الخير، ماذا فعل هذا ؟ إنسان عطشان، وأبلغته أن أمر الله أن يشرب ماءً بارداً، فإذا جاء أمر الله عز وجل موافقاً للطبع لم يعد طاعة، ولا قيمة لهذا الأمر، لذلك أمر الله مكلف، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن عمل الجنة حزن بربوة، وإن عمل النار سهل بسهوة))

[مسند أحمد عن ابن عباس]

إن الإنسان يتعامل مع شهواته، مع بيئته، مع تقاليده، مع عاداته، مع ما نشأ عليه، مع راحة جسده، مع متطلبات نفسه، فتجد أن عمل النار سهل بسهوة، وليس غريباً أن تجد مشقة في طاعة الله، المشقة في طاعة الله هي ثمن الجنة، فلذلك:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

الاختلاط محبب للإنسان، طبعاً إذا كان بمنطق الشهوة، إذا كان الإنسان جالساً في مجلس فيه نساء يبدو منهن ما يجب أن يخفى، وهو يُمَتِّع نظره بهن، هذه الجلسة المختلطة أحب إلى نفسه من عدم الاختلاط، لكن الله عز وجل نظم لك العلاقات الاجتماعية، وجعل شهواتك التي أودعها فيك لها قنوات نظيفة، هذه الشهوة مسموح لك أن تستمتع بها مع زوجك فقط، وما سوى ذلك يجب أن تغض البصر، أما أهل الدنيا فكل ذلك عندهم مباح.

فلذلك حينما يستقيم الإنسان على أمر الله يشعر أنه عمِل عملاً عظيماً، يشعر أن الله يحبه، أن الله راض عنه، حينما يترك شهوات الدنيا يتجلى الله عليه بسعادة عليا، لذلك قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عيه بالسيوف ".**

كنت أقول لكم من قبل: حياة المؤمن نظيفة، ليس في حياته التواء، وخيانة، وموقف مبطن، وخداع، وعلاقات مشبوهة، وعمل في الظلام، وبيت آخر غير بيته الصحيح، وامرأة أخرى في حياته غير زوجته، حياة المؤمن حياة نظيفة واضحة، فلذلك أكبر غلط يقع فيه الإنسان أن يعدّ ما ألفناه في بيئتنا مشروعاً، يجب أن تزين ما ألفته في بيئتك بميزان الشرع، هكذا المؤمن، والله الناس كلهم هكذا، يقولون: هذا كلام مضحك، هكذا نشأنا، هكذا تربينا، هكذا أهلي، هكذا أبي علمنا، هكذا عشنا في بيت واحد، لا يوجد عندنا حاجب وبواب، نحن لا نحب التفرقة، هذا كله كلام غير مقبول، من أنت حتى تشرع ؟ خالق الكون شرع لك، لذلك لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، يقول لك: هذه مثل أختي، لا، ليست مثل أختك، هذه أجنبية عنك، أختك من أمك وأبيك.

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ)

[سورة المجادلة: 2]

لا أن لا يتجاوز الإنسان الحدود، وألا يتعدى، وألا يشرع، وألا يقنن من عنده، وألاّ يتفلسف على الشرع.

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللّهَ بِدِينِكُمْ)

(سورة الحجرات 16)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ)

الحقيقة أنّ المؤمن أيها الإخوة الأكارم كما وصفه الله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب 36)

من أُولى صفات المؤمن أنه إذا ثبت له أن هذا كلام الله، وأن هذا الكلام هكذا تفسيره عندئذ يُلغى اختياره، تختار أن تشتري هذا البيت أو هذا البيت، أن تخطب هذه الفتاة، أو هذه الفتاة، أن تسافر أو لا تسافر، أن تعمل أو لا تعمل، أما أن تختار أن تطيع أو لا تطيع فليس هذا من شأن المؤمن.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

إذا كنت مؤمناً حقاً فليس لك خيار أمام أمر الله عز وجل لك، إذا كنت مؤمناً حقاً أمام أمر الله، وما صح من حديث رسول الله، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ليس لك رأي، تقول: أنا رأيي كذا، معقول هذا الحكم، أم غير معقول ؟ الوقت صعب، نحن في آخر الزمان، العالم تبدل، العصر عصر علم، لم يعد هناك هذه التعقيدات، هذا كله كلام الجاهلية، إذا كان هذا أمر الله ثابتاً عندك يجب أن يُلغي اختيارك، هذا معنى الآية.

(قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

لا دعوة للشيطان إلا إلى النار:

الشيطان يدعوهم عن طريق التمسك بآبائهم وأجدادهم وتقاليدهم وعاداتهم إلى عذاب السعير، وأقرب مثل إلينا دمشق المسلمة المؤمنة، يقول لك: هذه الشام الشريفة، والدين في الشام، إذا كنتَ ترى العريس إذا لم يدخل بين النساء الكاسيات العاريات، ولم يجلس على كرسي أمام كل هؤلاء النساء شبه العاريات فعمله مستهجن في رأي الناس.

وقد تجد في بعض الحفلات يقولون: نريد أن نصور المدعوات، وهنّ في أبهى زينة، ونقتني الشريط ونعرضه، هذه امرأة فلان، أيُّ دين هذا ؟ أيُّ شرع هذا ؟ هكذا التقاليد الآن، إذا لم يكن في حفلة العرس

تصوير فليس لها بهجة، والتصوير يعني أن كل هؤلاء النسوة يعرضن أمام رجال أجانب، ويراها في أبهى زينتها.

فلذلك أيها الإخوة الأكارم... ما دمنا وصلنا إلى هذه الآية، هذه التقاليد البالية والعادات والأعراف، وأصول الاستقبال، دخل إلى البيت الزوج فقالت: ليس هنا، تفضل، أهلاً وسهلاً، تستقبل الزوجة صديق زوجها قبل أن يأتي، كل هذه الصفات، كل هذه المعطيات الغربية التي جاءتنا من الغرب، هذه لا أصل لها في الدين، فالمسلم الحقيقي الذي يطبق أمر الله ويجعل من بيته بيتاً مسلماً، قال تعالى:

(أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

دعوةٌ من القلب إلى تطبيق عمليّ لهذه الآية:

أرجو أن يكون هناك تطبيق عملي لهذه الآية، الذي أتمناه على كل أخ حاضر، وهو يعلم أن سماع الدرس سهل، أما البطولة فأن تأخذ هذا الكلام مأخذ الجدية، أن تتعامل مع هذا الكلام تعامل رجلٍ، لا حل وسط في هذا الأمر، إما أن تردّ عليه، وإما أن تتبناه، إن كان معك حجة فردّ عليه، وأنت بين أمرين، إما أن تكون مع شرع الله، أو مع التقاليد والعادات، وكم من شاب انتكس نكسة كبيرة، لأنه استجاب لأهله، وأذعن إلى عاداته وتقاليده.

إنّ أي مجتمع إذا بنِيَ على معصية، فهؤلاء المجتمعون على معصية لصالحهم ألا يسمحون لآخر يطيع الله بينهم، لأنه إذا أطاع الله بينهم كشفهم، وعرّاهم، لذلك ينقَضُّون عليه، والمجتمع الغارق في المعصية ينقض على كل إنسان يريد أن يقيم أمر الله عز وجل، يتهمونه بالتعصب، يتهمونه بالتزمُّت، يتهمونه بالمحدودية، يتهمونه بأنه لا يعيش روح هذا العصر، وليس واقعياً، هذا كلام أهل الدنيا.

فلذلك لا تذوق طعم القرب من الله عز وجل، لن تقطف ثمار الدين إن لم تستقم على أمر الله، إن لم تضع كل العادات والتقاليد، وهذا الذي جاءتنا من الغرب (الإتيكيت)وتعاملات، إن لم تضع كل هذا تحت قدمك فلن تكون مؤمناً، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس فيه، فإذا أردت التطبيق العملي لهذه الآية فراجع نفسك، هل في بيتك معاصٍ ومخالفات وتساهلات إيثاراً للعادات والتقاليد التي نشأت عليها على شرع الله وأمره ؟

صورٌ من واقع اتباع التقاليد على حساب الشرع:

1 – الاختلاط:

نحن نخجل أن نقول: إن زوجتي أجنبية على فلان، نستحي أن لا نجلس في جلسة مختلطة، كيف بالإمكان أن تصلي صلاة فيها إقبال على الله عز وجل، وقبل قليل كنت في معصية، مع أنه لا يحق لك أن تنظر إلى امرأة أجنبية لا تحل لك، فضلاً عن أن تلقي بعض الكلمات المضحكة، وأن تضحك الحضور نساء ورجالاً، والاختلاط هو أحد أنواع المعصية.

2 – عاداتٌ في البيع والشراء:

في البيع والشراء هناك كثير من عادات، يقول لك: بذمتي، بأمانتي، وكلها أيمان كاذبة، هكذا السوق كله، وإذا ما كذبنا لا نربح، من قال لك ذلك ؟ كل حرفة فيها معاصٍ كثيرة، هذه فيها غش، وهذه فيها كذب، وهذه فيها وعد كاذب، هذه فيها تدليس، هكذا أهل الحرفة يقولون، حتى في بعض المهن هناك فروق، وبعض المخالفات، تجده ماشياً حتى في بيع السّلم، بيع الوعد.

3 – مقالة إبليسية: هكذا الناس !!!

أنا أتمنى، أن نترك كلمة: (هكذا الناس)، نحن مع المجموع، هكذا نشأنا، هكذا أهل قريتنا، هكذا علّمني أهلي، أين تسير ؟ قف، وراجع كل علاقاتك، راجع كل العادات والتقاليد، راجع كل المعطيات في البيت وفق كلام الله عز وجل، هذا إذا كنت مؤمناً صادقاً، إذا أردت وجه الله عز وجل، إذا أردت أن تقطف ثمار إيمانك، إذا أردت أن يحبك الله ورسوله، فلا تقبل شيئاً إلا بدليل قطعي، ولا ترفض شيئاً إلا بدليل قطعي.

4 – من تقاليد الجنائز غير المشروعة:

النبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال ؟ قال:

((اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ))

[أبو داود عن عبد الله بن جعفر]

هذا أمر نبوي ؛ أن يقدم الطعام لأهل الميت، الآن بالعكس، أهل الميت فوق مصيبتهم الكبيرة التي قصمت ظهرهم عليهم أن يهيئوا طعاماً لكل من عزّاهم، هذا الطعام أنا أتمنى ألا تحضروه، لأنه خلاف الشرع، الشرع يقول:

((اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ))الأولى أن يقدم الطعام لأهل الميت، لأنه جاء ما يشغلهم، أما أن يكلف أهل الميت بإطعام الطعام، وتأمين الطعام الطيب والحلويات والفواكه والطاولات والكراسي فهذه مخالفة للسنة، هذه عادة من عاداتنا السائدة في مجتمعنا المخالفة للسنة.

5 – من تقاليد عيادة المرضى:

قد يزور الإنسان مريضاً، والنبي الكريم يقول:

((من عاد مريضاً فأكل عنده شيئاً فهذا حظه من عيادته))

[الجامع الصغير عن أبي أمامة بسند ضعيف]

هكذا التوجيه، لكن الناس يقولون: هل من المعقول ألاّ نضيفه قهوة ؟ هذه غير معقول، هذا جاء يعود هذا المريض، وفي التوجيه النبوي حِكَمٌ نبوية كبيرة جداً، لعل هذا العائد الذي يعود هذا المريض يخشى من العدوى، فإذا قُدِّم له شرابٌ قد يتحرج، فقد يكون معه التهاب كبد، أو مرض مُعْدٍ، أنا لا أريد أن أشرب شيئاً، لا يمكن، أنت ضيفنا ! أهلاً وسهلاً، يا أخي هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام، فقد يتحرج الزائر من أن يأكل شيئاً خوف العدوى، وقد يقدم فاكهة طيبة أمام المريض، وقد منع منها فيزداد ألمه، وقد يكلف أهل المريض في أن يقدموا الضيافة، وهم في شغل عن تضيف الضيوف، فالنبي الكريم وجهنا أنك إذا عدت مريضاً ينبغي ألا تأكل عنده شيئاً، فإذا أكلت شيئاً فهذا حظك من عيادته، ومن عاد مريضاً فكأنما خاض في الرحمة خوضاً.

6 – من التقاليد الخطيرة في السعي في التزويج:

الآن الكلام الشائع: امش في جنازة ولا تمشي في زوج، ماذا تريد بوجع الرأس، غداً يتعبونك، العريس والعروس أخي أنت كنت السبب تعال وحلّ مشكلتنا، اسمع ماذا قال النبي، قال عليه الصلاة والسلام:

((من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمة قالها، وبكل خطوة خطاها، عبادة سنة، قام ليلها وصام نهارها))

[ورد في الأثر]

هكذا توجيه النبي، نحن بحاجة ماسة إلى السنة النبوية، أن نعود إلى السنة، كيف عامل النبي أصحابه، لا تقل: أنا ما عرفوا قدري، من أنت ؟ النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((وأنا عليّ جمع الحطب، فقال أصحابه نكفيك، قال: لا، أعلم ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

الآن العادات والتقاليد احتلت الدرجة الأولى، هذا أول صف، هذا بطاقة بيضاء، لا الناس سواسية كأسنان المشط، فإذا أردت من هذا الكلام أن نعيد حساباتنا، حتى في احتفالاتنا، حتى في مناسبات الحزن، والفرح، الأعراس كلها، الأعراس فيها حفلات اختلاط، وفي الأعراس تصوير، وبالأعراس دخول العريس أمام المدعوات، هذا كله خلاف السنة، تجد شاباً تقياً، أحيانا الخطيب يُثني عليه في عقد القران، عائلة تقية مستقيمة ورعة، بعدها تجد ستة أو سبعة من المعاصي كبيرة ظهرت من هذه الأسرة.

شروط قبول العمل: الإخلاص والصواب:

نحن نريد أن نراجع حساباتنا في كل علاقاتنا، في كل دخولنا، في كل إنفاقنا، في كل نشاطاتنا وفق السنة، لذلك ربنا عز وجل قال، وَ والله إنها لآية تقصِم الظّهر، قال تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

[سورة الفرقان 23]

هناك أعمال كالجبال تصبح يوم القيامة هباءً منثوراً، سئل الفضيل بن عياض عن معنى هذه الآية فقال: **" كل عمل لا يكون صواباً ولا خالصاً لا يقبل، أما خالصاً فهو ما ابتغي به وجه الله، وأما صواباً فما وافق السنة ".**

الصواب أن يوافق السنة، إذاً يجب أن تعرف السنة، يجب أن تعرف سيرة النبي، القصة المشهورة كلكم تعرفونها: ببدر الرواحل قليلة والنبي عليه الصلاة والسلام أمر أن يتعاقب كل ثلاثة على راحلة، وقال أنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، فلما جاء دوره في المشي توسلا إليه أن يبقى راكباً، قال: ما أنتما بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر.

إذاً: هل عندك استعداد أن تسوي نفسك مع الناس في كل شيء، أن تكون واحداً منهم حتى في بيتك هكذا السنة؟

كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته لف ثوبه، قال:

((أكرموا النساء، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، يغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً، من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

هكذا السنة، السنة:

(وَعَاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء: 19)

والمعروف في هذه الآية لا أن تمتنع عن إيقاع الأذى فيهن، بل أن تحتمل الأذى منهن. : أردتُ من هذه الآية أن نجري حسابات دقيقة، ومراجعات عميقة لكل علاقاتنا، واحتفالاتنا، وأفراحنا، وأحزاننا، وكسب أموالنا وإنفاقها، وكل نشاطاتنا، يجب أن تقع وفق الكتاب والسنة.

الإسراف مثلاً، هل سمعت ما قلته اليوم في الخطبة:

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

(سورة الأنعام 141)

إذا أسرفت في كل شيء فالله لا يحبك، هذا مال، هناك من هو في أشد الحاجة إليه، إن أعطيت ما فاض عنك إلى فقير ارتقيت عند الله عز وجل، أنت كل واشرب، لكن من غير إسراف ولا مخيلة، أنفق، ولكن وفق الأصول.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)

(سورة الفرقان67)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22))

وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

هذه الآية دقيقة جداً.

1 – ما هي العروة الوثقى:

الإنسان أحياناً يتمسك بعروة، هذه العروة ليست وثقى تنخلع بيده، فق يتمسك الإنسان بشيء، فإذا بهذا الشيء ينفلت ويهوي، إذاً: هذه العروة غير وثقى، أحياناً تربط مقطورة بقاطرة، فهذه الحلقة الثخينة جداً في مؤخرة السيارة هي عروة، لكن بلغني أن هناك معامل في أوربا متخصصة في صناعة هذه العُرَى، لأنه يَجرّ بها مقطورة، وزنها عشرون طنًا، فإن لم تكن وثقى تدهورت المقطورة، إذاً: هناك معامل لا تصنع إلا هذه العروة، وهي متخصصة في صناعتها من أصلب المعادن، ومن أشد أنواع الخلائط متانة وقساوة.

فالعروة الوثقى، هي الشيء الذي تتمسك به، فإن لم يكن هذا الشيء متيناً انفلت بيدك وهويت معه، أما ما هو الشيء الذي إذا فعلته كأنك تمسكت بعروة وثقى تنجيك إلى يوم القيامة وإلى الأبد ؟ قال:

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

من التمسك بالعروة الوثقى: وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

أحياناً يطيع الإنسان الله عز وجل، لكن وجهته إلى الدنيا، الآية دقيقة جداً، العبرة أن تطيع الله، وأن تتجه إليه، هذا يسمونه أن تكون ربانياً، هناك شخص شهواني، وشخص رباني، معنى رباني أن تحسن العلاقة مع الله إلى أقصى درجة عن طريق الإقبال عليه، والعبادة في بعض تعريفها غاية الخضوع مع غاية الحب، مع غاية الرضا، مع غاية الاستسلام، طاعة وحب، ورضا واستسلام، وتفويض وتسليم، وإقبال وصبر وشكر..

إذاً:

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ)

معنى: وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ

يعني يقبل عليه بكل وجهته، بكل إمكاناته، بكل طاقاته، بكل أوقاته، بكل استعداداته.

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ)

إذا كانت الأم في حديقة، وابنها يلعب، تجد هذه الأم مع ابنها، تحدثها فنقول لك: والله ما انتبهت، تشعر أنها ليست معك، إذا كان لك أخت أو قريبة تشعر أنها ليست معك، هي متجهة إلى ابنها، هذه صورة من الصور الاتجاه، أحياناً تكون عين الإنسان على ساعة، على عداد يملأ البنزين، وهو غالٍ، ومعه مبلغ محدود، فإذا غفل يطالب بأكثر مما معه، فتجد عينه على العداد، لو أنك تكلمت تجده ليس معك، إسلام الوجه الاهتمام الشديد، الإقبال، الانصراف بالكلية، الاهتمام.

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ)

عرف الله فأقبل عليه، عرف أن الله كل شيء، وليس غيره كل شيء، فلان ليس على شيء، أيْ أنه ما عرف الله عز وجل، لأنك إذا عرفت الله عز وجل عرفت كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء.

إذا عرفت الله عز وجل، إذا عرفت أنه الحقيقة الوحيدة في الكون، الحقيقة الدين أن الله هو الحقيقة الكبرى، وكل شيء يقرب إليه فهو مشروع، وكل شيء يبعد عنه فهو غير مشروع، ملخص دينك: إلهي

أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، فأي شيء يقربني إليك فأنا متمسك به، وأي شيء يبعدني عنك فأنا مبتعد عنه، هذا هو المؤمن.

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ)

لا تسليم للوجه إلا بعد معرفة الله:

ولكنك لن تستطيع أن تسلم وجهك إلى الله عز وجل إلا إذا عرفته، أحياناً تدخل إلى جهة لك مصلحة مع المدير العام، تجد ثلاثة مع بعضهم، يا ترى مَن المدير العام ؟ تنتقي أطول واحد، أوجه واحد، تلتفت إليه باهتمام، تخاطبه، يقول لك: ليس لي علاقة، حدِّثْ فلانا، فتنصرف عنه فوراً وتلقائياً إلى صاحب القرار، فالمشكلة يجب أن تعرف الله، إذا عرفت أن الله بيده كل شيء أسلمت وجهك إلى الله، فإذا ظننت أن زيداً وعبيداً أو فلاناً يملكون أشياء كثيرة كيف تتجه إلى الله عز وجل، إذاً: لن تسلم وجهك إلى الله إلا إذا وحدته، واعلم أن الدين كله توحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، إذا عرفت أن الأمر كله بيد الله ارتحت وأرَحت، قال:

(وَهُوَ مُحْسِنٌ)

ما هو الإحسان ؟

العلماء حملوا هذه الكلمة الطاعة والإحسان، الأولى حالة قلبية نفسية، عرف الله فأقبل عليه، الحالة الثانية سلوكه أساسه الطاعة والإحسان، إذا عرفت فاتجهت وأطعت وأحسنت، هذا الإنسان:

(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

قَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

أي أمسكت بقارب النجاة، أمسكت بحبل الأمان، وصلت إلى مخرج الأمان، وصلت إلى المبتغى، وصلت إلى الطمأنينة، وصلت إلى السلام، والله يدعو إلى دار السلام، من منّا لا يتوق إلى السلام ؟! أن يعيش حياة معافى في جسمه، موفقاً في زواجه، مستمتعاً بأولاده الأبرار، له مكانته الاجتماعية، يحبه الله ورسوله، يرى إذا توفاه الله له عند شيء هكذا.

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ)

تعرفه فتقبل عليه، وتطيعه وتحسن إلى خلقه، قال:

(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُور

في الدنيا الباطل له جولات، إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البرّ والفاجر، والآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك عادل، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

الآية الكريمة:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك2)

لماذا قدم الله الموت على الحياة ؟ إنه سؤال دقيق، قدم الموت على الحياة لأن الحياة فيها خيارات كثيرة، لو أن إنساناً دخل العام الدراسي يستطيع أن يدرس أو لا يدرس، يداوم أو لا يداوم، أمامه خيارات كثيرة لكن إذا جاء الامتحان أمامه خياران فقط: إما أنه محضر أو غير محضر، إذا كان غير محضّر فهو مفضوح راسب، أو أنه محضّر فهو ناجح، فكلما ضاق الاختيار كان الأمر أخطر، فربنا عز وجل قدم الموت على الحياة لأن الموت فيه حالتان فقط: نجاة، أو خزي إلى الأبد.

في هذه الآية التالية يبين الله عز وجل رحمة النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ)

من رحمة الله بخلقه: وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ

كان عليه الصلاة والسلام يتألم أشد الألم حينما يرى الإنسان قد كفر، لأنه صلى الله عليه وسلم أرحم الخلق بالخلق، الله سبحانه وتعالى يسري عنه ويقول له: يا محمد:

(وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ)

هذا اختيارهم، أنا خيرتهم.

(إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور)

الله سبحانه وتعالى أرحم، لكن هكذا طبيعة الاختيار، هكذا طبيعة التكليف.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب 72)

قال عن هؤلاء الكفار، دققوا في هذه الآية:

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً)

إنما الدنيا متاع قليل زائل:

قد تجد له بناء فخماً جداً، بستاناً، مركبة فاخرة، رصيداً في المصرف كبيراً جداً، أموالاً تأتيه كالأنهار، إياك أن تقول هنيئاً له، إن قلتها مرة واحدة فأنت لا تعرف الله، كما قالوا:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(80))

(سورة القصص80)

ربنا عز وجل قال:

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ)

ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ

إذا كنت متيقنا أن إنساناً أركبوه أفخم مركبة وساقوه إلى الشنق، هل تقول له هنيئاً لك ؟ أو تقول في نفسك: هنيئاً له على هذه المركبة الفخمة ؟ إذا تيقنت أن هذا الإنسان الذي يركب المركبة الفخمة الوثيرة القوية الأنيقة الحديثة الصنع.. إذا تيقنت أنه يساق بهذه المركبة إلى الإعدام أتقول في نفسك: هنيئاً له على هذه المركبة الفخمة ؟! يا ليتني مكانه ؟! أعوذ بالله، معنى ذلك تعرف شيئاً، قال:

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً)

أنت ساكن في بيت صغير، وهو في بيت أربعمائة متر، خمسمائة متر، وله سيارتان أو ثلاث، ومزارع، ومقاصف، ومسابح، هل تقول له: هيئاً له، الله أعطاه ؟ لا، مادام بعيداً عن الدين متنكباً للحق فهو كما قال تعالى:

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ)

فالله عز وجل قال في آيات أخرى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198))

(سورة آل عمران 196-198)

إذا كان لك صديق، لك جار، لك رفيق في الدراسة تفوق في الدنيا، وارتفع وجاءه دخل وفير غيّر حياته كلها، وزها على الناس بما عنده، وأنت في وضع أقلّ بكثير، أنت عرفت الله، واستقمت على

أمره، وهو غارق في المعاصي، بمجرد أن تقول: هنيئاً له، لقد أعطاه الله وحرمني فأنت بالتأكيد لا تعرف الله، قال الله عز وجل:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب 71)

(تُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (24) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنّ اللّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25))

لماذا يُحمَد الله على كل شيء ؟ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مّنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنّ اللّهُ

كيف ذلك ؟ لماذا الحمد لله ؟ لأن هذا الدين الذي اعتنقته أنت وسرت فيه هو دين الإنسانية كلها، دين الفطرة، دين الحق، دين العلم، دين الواقع، دين الله، فحتى المعرضون والمنافقون والملحدون والكفار إذا سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن: الله، إذاً: أنت مع الحق، مع دين الفطرة، أنت مع الدين الذي يقره كل مخلوق، أنت لم تأت بدين خاص غير معترف به، غير معروف، أنت مع الدين الصحيح الذي لو سألت أعداءه: من خلق السماوات والأرض ليقولن: الله، لذلك قال الحمد لله أي احمد ربك يا محمد على أن هذا الدين دين الفطرة، دين الواقع، دين العلم، دين العقل.

(قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: مُلكا وترُفا ومصيرا:

لله، هذه اللام لام الملك، وإذا نسب الشيء ملكاً إلى الله عز وجل فهو يملكه، ويتصرف به، وإليه مصيره، وهذه الصفات الثلاث أعلى صفات الملك، قد تملك، ولا تنتفع من ملكك، إنسان مؤجر بيتاً، ومسجل له بالطابو له، لكن لا ينتفع به، وقد تنتفع بشيء، ولا تملكه، وقد تنتفع به وتملكه، ولكن مصيره ليس إليك، صدر قرار استملاك، ذهب منك، أما الملك التام فأنْ تملك الشيء، وأن تكون يدك مطلقة في التصرف فيه، وأن يكون مصيره إليك.

إذا نسب الشيء إلى الله ملكاً:

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

كل الكون يملكه الله ملكاً، تصرفاً، مصيراً.

(إِنّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيّ الْحَمِيدُ)

لكنه غني عنّا، ومع ذلك نحمده، أحياناً تجد شخصاً غنياً عنك، لكن لأنه غني عنك يحتقرك، لأنه غني عنك يحرمك، لأنه غني عنك يحاسبك حساباً عسيراً، لأنه غني عنك يتغطرس عليك، لأنه غني عنك تجده مستكبراً، لأنه غني عنك يستخف بك، لكن ربنا عز وجل:

(وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف 180)

غني عنك، ومع أن الله غني عنك فإنك تحمده على كمالاته، وهو غني حميد.

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

وكلمة:

(هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

تعني أنه وحده غني، ووحده حميد، وكل كمال في الأرض مشتق من كمال الله عز وجل.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نكمل قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (11-13): تفسير الآيات 27 - 30
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-07-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

وبينت لكم في الدرس الماضي أن هذه اللام لام الملك، أي أن السماوات والأرض كلها ملك لله عز وجل، وأن الله عز وجل يملك، ويتصرف، وإليه المصير، وهذا أوسع أنواع الملكية، ومع أنه مالك، ومع أنه قادر، ومع أنه لا يسأل عمّا يفعل، لكنه غني حميد، فهو غني مستغنٍ عن عباده، ومع ذلك يعاملهم معاملة يحمدونه عليها دائماً.

الآن هناك آية تلو هذه الآية، يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

عظمة كلام الله تعالى: وَلَوْ أَنّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ

كلكم يعلم أن محبرة واحدة تكفي الطالب سنة أو سنوات عديدة، يسود بها عشرات، بل مئات، بل عشرات مئات الصفحات، فربنا عز وجل أراد أن يبين لنا طرفاً من علمه، لو أن كل ما في الأرض من أشجار، والأرض فيها غابات كثيفة جداً، وفيها غابات خضراء، حتى الآن لم يستطع الإنسان أن يصل إليها، وأن هناك أشجاراً من حيث الأنواع، والأعداد ما لا تحصى، لو أن كل ما في الأرض من أشجار أصبحت أقلاماً، فبريت أغصانها أقلاماً، وأن البحر، البحر اسم جنس، ويعني البحار كلها، وتعلمون أن الأرض القارات الخمس لا تزيد على تسعة وعشرين بالمئة من مجموع مساحة الأرض، وتعلمون أن في البحار أعماقاً كبيرة، هناك في المحيط الهادي واد اسمه وادي مريانة يزيد عمقه على اثني عشر ألف متر، أربعة أخماس الكرة الأرضية، وهناك أعماق تتراوح بين خمسة آلاف وما يزيد على عشرة آلاف متر.

لو أن هذا البحر كله المحيطات والمحاطات، المتوسط محاط، بينما المحيط الهادي محيط، لو أن البحار كلها المحيطات والمحاطات مع سبعة أمثالها كانت مداداً أي حبراً، وكل ما في الأرض من شجر أقلام، وهذه الأقلام كتبت، والبحار كلها جفت، وجاء مثلها بحار، والمثل الثاني جف، وجاء المثل الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، يقول الله عز وجل:

(مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ)

مّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ

هذه حالُ الناس في بحر العلم والمعرفة بأسرار الإنسان والكون:

الكلمات التي تعبّر عن علمه، وأنت ترى أن الإنسان منذ آلاف السنين يدرس، ويبحث، وينقِّب، ويستنبط، ويكتشف، ويسجل، ويقول لك في النهاية: بعد آلاف السنين لم تبتلّ بعد أقدامنا ببحر المعرفة.

من أسرار أجهزة الإنسان:

قد يعقد مؤتمر لأطباء القلب، يقال لك: إن في هذا المؤتمر سبعة آلاف محاضرة، وكل عدد من المحاضرات في جانب من جوانب القلب، وما يزال ما نجهله عن القلب أكثر مما نعلمه عنه وهو القلب، طبيعة عضلاته، طبيعة دساماته، طبيعة كهربائه، طبيعة حركته، عجب عجاب، قل مثل هذا في المعدة، والجهاز الهضمي، قل مثل هذا في جهاز التصفية، قل مثل هذا في جهاز العضلات، الإنسان كائن عظيم، إنه أعظم ما في الكون.

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

الإمام الشافعي يقول: **" كلما ازددتُ علماً ازددتُ علماً بجهلي ".**

من أسرار الخلية:

تشعر أمام أنظمة بالغة الدقة، يقولون لك إن كل ما في الحياة أساسه الخلية، والخلية عبارة عن جدار وسائل ونواة، هذا الجدار ليس كتيماً، وليس مفتوحاً يقبل الرشح من ماء الخلية إلى ماء خلية مجاورة، وأن كل سرّ الخلية في هذه النواة، وأن في النواة نوية، وأن سرّ السرّ في النوية، وأن هناك شريط لا

يمكن لهذا المجهر الذي بين أيدينا أن يكتشفه إلا بمجاهر إلكترونية، هناك شريط عليه معلومات قد تزيد معلومات الشريط على خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة في أوقات محددة تشكل المخلوق إنساناً أو حيواناً أو نباتاً، الخلية أساس وحدة وظيفية للكائن الحي.

وقد يدرسون في أعوام كثيرة الخلية فقط، والآن اكتشف أنه ليس هناك زمر دموية فحسب، بل هناك زمر نسيجية، وتكاد الزمر النسيجية تزيد على ألفين وخمسمئة مليون زمرة، فلا يوجد في الأرض إلا زمرتان متشابهتان فقط.

كلما زادت البحوث والكشوف أطلعونا على شيء لا يصدق، كنا نعد النجوم عدداً.

النجوم:

هناك الآن مراصد ترصد هذه النجوم، هناك مراصد الآن ترصدها لا من أشعتها، بل من صوتها، وقد اكتشفت حديثاً ستة عشر مليون سنة ضوئية بين مجرة والأرض.

ماذا أقول قي الفلك أم في الذرة ؟ في المجرة أم في الذرة ؟ في النبات أم في الحيوان ؟

الطيور:

هذا الطائر الذي يطير بجناحين حتى في هذه اللحظة لا يستطيع علماء الطيور أن يعرفوا سرّ هجرتها، بماذا تهتدي ؟ أتهتدي بالضوء، حجبوا عنها الضوء فسارت وفق المسار الصحيح، أتهتدي بالتضاريس؟ حجبوا عنها التضاريس، أتهتدي بالتعلم ؟ عزلوها عن أهلها، كلما فرضوا فرضية جاءت الوقائع تناقض هذه الفرضية، آخر فرضية لهجرة الطيور أنها تتحرك بإيقاعات خفية من جهة مجهولة، إيقاعات خفية تتحرك من خلالها، هذا الطائر يقطع سبعة عشر ألف كيلو متر، ويصل إلى عشه، أية زاوية يأخذها هو في جنوب أفريقيا، وعشه في دمشق في حيّ الصالحية، في أحد أحيائها القديمة، في بيت عربي قديم، في طرف السقف، كيف ينطلق هذا الطير من جنوب إفريقيا متجهاً نحو الشمال، لو أنه حاد عُشر درجة لجاء في العراق، لو حاد عشرها نحو اليسار لجاء في مصر، لو حاد أقلّ من ذلك لجاء في مدينة تدمر، كيف يصل الطير إلى عشه الدقيق، وقبل أن يبدأ الطيران يجدد جناحيه تجديداً كاملاً، وقبل أن يبدأ الطيران يقبل على الطعام إقبالاً عجيباً، ويطير الطائر ستاً وثمانين ساعة من دون توقف، ولا يزال علم الطيور في بداياته.

قرأت مرة مقالة عن الطائرة، في مقدمة المقالة يقول الكاتب: إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر، زوده الله بعظام مفرغة مراعاة لخفة الوزن، والريشة فيها العجب العجاب، فيها

متانة وخفة وزن عجيبة، وفيها إمكان تبديلها باستمرار، وبين الجناحين توازن يأخذ بالألباب، ولهذا الطائر خواص، الهواء الذي يستنشقه الطائر في أثناء الطيران لا يصل إلى رئتيه فحسب، بل يتغلغل في كل أنحاء جسمه، وحتى أظلاف رجليه، لأن هذه القدرة العجيبة في الحركة تحتاج إلى تبريد، وتبريد المحركات علم قائم بذاته، صنع الله الذي أتقن كل شيء، هذا عن الطائر فماذا عن الأسماك ؟

الأسماك:

الأسماكُ زودها الله بخط في قسمها الأعلى تعرف في أي لحظة أين هي من سطح الماء، لها جهاز ضغط، وهو أنبوب مفرغ من الهواء، وزودها بجهاز توازن تعرف إلى أين جهتها نحو الأعلى أم نحو الأسفل، حفرة صغيرة في رأسها، وبعض حبات الرمل، وأعصاب حساسة، فإذا انتقلت حبات الرمل إلى جهة أخرى إذاً هي مقلوبة، تعرف وضعها من هذا الجهاز.

الشيء الذي يكشفه العلماء عن مخلوقات الله عز وجل فيه العجب العجاب، لذلك التفكر في الكون أقول لكم كلاماً دقيقاً: هو أقصر طريق إلى الله عز وجل، وأوسع باب، إذا أردت أن تدخل من أوسع الأبواب، وأن تسلك أسهل الطرق فتأمل مخلوقات الله عز وجل، ابدأ بجسمك.

العين:

هذه العين يخرج منها عصب فيه تسعمئة ألف ليف عصبي، وكل ليف له غلاف كي تكون الصورة نقية، وفي الشبكية مئة وثلاثون مليون عصية، وفي العين طبقات، وللعين ضغط، وللعين ماء، وللعين عدسة مرنة، لا يتسع المجال للتفصيلات، ولكن العين وحدها يمكن أن تصل من خلالها إلى الله، وأن تعرف علمه، وأن تعرف لطفه، وأن تعرف حكمته، وأن تعرف جماله، وأن تعرف قدرته، وأن تعرف ربوبيته.

فيا أيها الإخوة الأكارم، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

سَعَة علمِ الله تعالى:

أراد الله أن يقرب لنا علمه تقريباً عن طريق بعض الأمثال، إن الكلمات التي تعبر عن علم الله عز وجل تنفد بحار الأرض كلها مع سبعة أمثالها، ولا تنفد كلمات الله المعبرة عن علمه، لذلك هذا هو علم الله، وسوف تأتي بعد قليل الآيات التي توضح لماذا يجب أن نعلم أن الله يعلم ؟

على كل الإنسان أعطاه الله فكراً، وسخر له هذا الكون تسخير تعريف، وتسخير تكريم، فلا ينبغي أن يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد 12)

الخضار والفواكه:

الأنعام تأكل، ولا تفكر تأكل وكفى، والإنسان الذي يأكل، ولا يفكر سوف يدفع الثمن باهظاً.

مرة حدثني أخ مُزارع قال: ضمنت حقل بطيخ، قطفت منه كل يوم شاحنة على مدار تسعين يوماً، من صمم هذه الفاكهة حتى تنضج بالتدريج ؟ القمح ينضج دفعة واحدة، المحاصيل تنضج في وقت واحد، بينما الفواكه تنضج تباعاً، في الأولى رحمة وحكمة، وفي الثانية رحمة وحكمة.

وربنا عز وجل جعل لكل شيء علامة، العنب إذا اسود فاسوداده علامة نضجه، والتفاح إذا اصفر الاصفرار علامة نضجه، وكل فاكهة، وكل نبات، أو ثمرة جعل الله لها علامة تدل على نضجها، فما العلامة التي تركها الله عز وجل علامة على نضج البطيخ ؟ قال لي هذا المزارع: إن بُعَيد هذا الذَّنَب الذي تتعلق به البطيخة خيطًا على شكل حلزون، فإذا أمسكه صاحب حقل البطيخ، وضغطه فإذا انكسر فالبطيخة قد نضجت، وإذا بقي طرياً فالبطيخة لم تنضج بعد، هذا التصميم من صممه ! الكون كامل.

النبات:

إن في المناطق الجافة نباتات تختزن المياه، يمكن أن تختزن ما يعادل ثلاثة آلاف لتر من الماء، بمجرد أن تقطع بضع فروعها حتى يسيل هذا الماء الصافي العذب، نبات مهمته اختزان المياه، نبات مهمته أن يكون حداً فاصلاً بينك وبين جارك، اسمها في علم النبات نباتات حدودية، كلها شوك، خضراء اللون، ولها أزهار، ولكنها شائكة، نباتات صممت من أجل الظل، نباتات صممت من أجل الصناعة، أنواع منوعة من الأخشاب، نوع للنوافذ يتحمل الحر والبرد والمطر، وما إلى ذلك، ونوع للأثاث الداخلي، ونوع طري للمعالجة، نوع مرن ومتين يكون قاعدة للآلات.

حدثني بعض الإخوة الذين يعملون في النجارة أن هناك ما يزيد على مئة نوع من الخشب، ولكل نوع صفاته الخاصة وميزاته وخصائصه، هذا علم الله.

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

الشعر الذي في رأسنا، ثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرة وريد وشريان وصب وعضلة وغدة دهنية وغدد صبغية، وأنت لا تدري، العين، الأذن، اللسان، النطق، لسان المزمار، هذا الذي يعمل ليلاً ونهاراً من دون تعب ولا كلل، وأنت نائم يجتمع اللعاب في فمك يتنبه الدماغ، يعطي أمراً إلى لسان المزمار فيغلق طريق الهواء ويفتح طريق المعدة فيسقط اللعاب في المريء، ومنه إلى المعدة، وأنت نائم لا تدري، هذه الأجفان تتحرك حركة دورية عجيبة.

الذي أردته من هذه الأمثلة غير المنتظمة طبعاً، وهناك أمثلة من خلق الإنسان، من خلق الحيوان، من خلق النبات، من خلق المجرات، من خلق الذرة، كلما درست، وبحثت، ودققت، وحللت تجد العجب العجاب، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

حينما كنا من قبل نستخدم الحبر في الكتابة، القلم والمحبرة، من يشتري لترَ حبرٍ أنا أعتقد أنه يكفيه طوال حياته، هو وأولاده، أما هنا:

(وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ)

البحار كلها ضرب سبعة، والأشجار كلها أقلام، وكلها تكتب حتى جفت البحار، جاءت بحار مثلها، جفت ما نفدت كلمات الله، الكلمات الدالة على علمه، والكلمات الدالة على أمره، أوامره يومية، لأن هذا الحوين المنوي والبويضة التي عليها خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة تجد الطفل ينمو، في البداية له أنف غضروفي قاس، بعد قليل يصبح ليناً، في طحاله كمية حديد تكفيه عامين، تفصيلات دقيقة جداً في خلق الإنسان، في سن كذا ينمو صدر الفتاة، في سن كذا ينمو الشعر للفتى، في سن كذا يتغير صوت حباله الصوتية، معلومات مبرمجة كلها، إذاً: كلمات الله الدالة على علمه، كلمات الله الدالة على أمره:

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

1 – معنى العزيز:

في دروس سابقة تحدثنا عن معنى عزيز، الشيء العزيز الذي يندر وجوده، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، أما إذا وصف الله بأنه عزيز، الشيء الذي يندر وجوده حتى يصبح واحداً، واحد لا شريك له، وتشتد الحاجة إليه، إذا وصف الله بأنه عزيز أيّ يحتاجه كل شيء في كل شيء.

الابن يحتاج والده في أشياء كثيرة، ويحتاج من يعمل عنده في أشياء قليلة، ويحتاج صديقاً بعيداً في أشياء نادرة، ولكن الله عز وجل يحتاجه كل شيء في كل شيء.

وإذا قلنا عن شيء عزيز: يصعب الوصول إليه إذا وصف الله بأنه عزيز فالوصول إليه مستحيل، بمعنى أنك لن تحيط به، تصل إليه، ولا تحيط به، إذاً:

(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

2 – معنى الحكيم:

وحكمته تقتضي أن ما وقع لو وقع على خلاف ما وقع لكان الله ملوماً، أو لكان نقصاً في الحكمة، كل شيء وقع أراده الله وكل ما أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة، وحكمته متعلقة بالخير المطلق.

(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

واحد لا شريك له، يحتاجه كل شيء في كل شيء، يستحيل أن تحيط به، تصل إليه وصول معرفة، وصول طاعة، وصول إقبال، أما أن تحيط به فهذا مستحيل.

هذا مثلٌ للتقريب، أحياناً نقول: لا نهاية، هذه كلمة، لكن لو فكرت في اللانهاية فهو شيء يصعب العقل أن يتصوره، تصور مليونا، مليون مليون، تصور إنسانًا يقول: مئة سنة، والرقم أكبر، هذا محدود، تصور كيس طحين كل ذرة دقيق مليون سنة، كم مليون سنة هذا الكيس ؟ تصور محصول الدقيق في العالم، كل ذرة دقيق مليون سنة مرفوعة إلى قوة (ن)، هذا الرقم مضروب بنفسه مئة مرة، أو مرات غير متناهية، ومع ذلك ليس بإمكانه العقل أن يدرك اللانهاية، وأنت مخلوق لهذا الأبد الطويل، للانهاية، فإذا اشتغلت في بهذه الدنيا اشتغلت عن الآخرة فقد اشتغلت بالخسيس عن النفيس، وهذا هو اللهو في تعريفه الدقيق، اللهو أن تشتغل بالشيء الخسيس عن الشيء النفيس، أن تعمل لحياة فانية، وأن تدع حياة باقية، أن تعمل للدنيا، وأن تدع الآخرة، فلذلك من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً.

ما دام الله بهذا العلم، وتلك القدرة، وهذه الحكمة، قلنا: ما نفدت كلمات الله، الكلمات الدالة على علمه، والكلمات الدالة على أمره، أوامر الخلق:

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة النحل 40)

كلمات العلم وكلمات الأمر، وبعد هذا كله أتعجبون أن يعاد خلقكم مرة ثانية يوم القيامة، وبعد كل هذا أتشكِّكون في أن يقف الإنسان بين يدي الله عز وجل ليحاسب عن أعماله كلها، يقول الله عز وجل:

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

مّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ

1 - بيان قدرة الله عزوجل في الخَلق والبعث:

هذا يذكرنا بالحديث القدسي الذي تعرفونه جميعا:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

لأن عطائي كلام وأخذي كلام، كن فيكون.

إذا توجهت إلى طلب شيء قد تبذل الجهد المضني، وقد تصل إليه، لو أردت أن تتوجه إلى حلب، فإنك تركب السيارة المكيفة المريحة، وتمضي بك ساعات تلو ساعات حتى تصل، يقول بعض العلماء: بمجرد أن تتعلق إرادة الله بشيء يوجد فوراً، هذا معنى كن فيكون، زُل فَيَزول، فلذلك:

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

هذا مات في البحر، وهذا مات في الجو احترقت به الطائرة، وهذا مات على فراشه، وهذا دفن، وهذا لم يدفن، وهذا تفسخ... إلخ، كل هؤلاء الخلق إذا نفخ في الصور:

(فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

(سورة الزمر 68)

انتهى الأمر.

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

2 ـ أعدُّوا لكل حركة وسكنة جواباً يوم العرض على الله:

لأن الأمر كن فيكون، إذاً: الحركات والسكنات والنظرات كل شيء تفعله في الدنيا سوف يعرض عليك، وسوف يقال لك:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء14)

القضية كلها أن المؤمن يعيش، والكافر يعيش، لكن الفرق الجوهري بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن يعيش ولا يغيب عنه لحظة أنه سوف يُسأل، وسوف يحاسَب، لذلك أنا إذا تكلمت، وأنتم إذا استمعتم، فهذا الكلام الذي ألقيه عليكم، وهذا الإصغاء الذي يبدو منكم، وهذا التوجيه حجة لي أو عليّ، وحجةٌ لكم أو عليكم، أنا لي حساب، وأنتم لكم حساب، كيف يحاسَب من يدعو إلى الله عز وجل ؟ يقول له الله عز وجل: هل كنت في مستوى دعوتك ؟ أمرت الناس بكذا، هل سبقتهم أم توانيت عن ذلك ؟ وأنتم لكم حساب المستمِع، استمعتم إلى الحق فهل طبقتموه ؟

إذاً: لا الكلام وحده له قيمة، ولا الاستماع وحده له قيمة، الذي له قيمة أن أطبق أنا وأنتم، كلام يلقى على مسامعكم يُعد حجة عليّ إن لم أطبقه، ويعد حجة عليكم إن لم تستجيبوا له، ويعد حجة لي إن طبقته، وحجة لكم إن طبقتموه، فهنا المشكلة، فيجب أن تؤمن أنه لا بدّ من وقفة بين يدي الله عز وجل، لِمَاذا فعلت ؟ لماذا تركت ؟ لماذا قطعت ؟ ملاذا وصلت ؟ لماذا عاديت ؟ لماذا سالمت ؟ لماذا كنت ليناً في الموقف الذي ينبغي أن تكون شديداً ؟ ولماذا كنت قاسياً في الموقف الذي ينبغي أن تكون ليناً ؟ لِمَ لم تنصف ؟ لِمَ لم تعدل ؟ لِمَ لم تحسن ؟ لِمَ لم تنصح ؟ لِمَ لم تكن مستقيماً ؟ لِمَ لم تكن مخلصاً ؟ فلذلك:

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

حتى إن السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: يا رسول الله: أن يوم الحشر أيعرف أحدنا أحداً ؟ كل إنسان له حساب خاص، أنت تكلمت للناس عن الحق، تعال إلينا: لِمَ قلت كذا، ولم تفعله ؟ لِمَ زهدت الناس في الدنيا، وكنت متعلقاً بها ؟ لم أمرت الناس بكذا، ولم تأتمر به ؟ لماذا نهيت عن هذا، ولم تنته عمّا نهيت ؟ هذا حساب من يدعو إلى الله عز وجل.

من يستمع: ألم يبلغكم الموضوع الفلاني ؟ الحكم الفلاني ؟ الأمر الفلاني ؟ النهي الفلاني ؟ لِمَ لم تطبق؟ فليحذر كل منا أن يكون العلم حجة عليه، وليسْعَ ليكون العلم حجة له.

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

التهديد والوعيد في صيغة خبر: إنّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ:

فهو ـ سبحانه ـ سميع بصير، إذا تكلمت سمعك، وإذا تحركت أبصرك، تكلم بفصاحة ما بعدها فصاحة، وطلاقة ما بعدها طلاقة، واذكر الحجج والأدلة والبراهين، وتفلسف، وتمنطق، وشقق الكلام، وتفيْقَهْ على الناس، وأظهر أنك من أولياء الله الصالحين، كل هذا لا قيمة له، إن الله سميع لقولك، عليم لحالك، تحرك حركة ظاهرة، يعلم السرّ وأخفى، هو إذا علمت أن الله يعلم انتهى كل شيء، إذا علمت أن الله يكشفك تماماً.. يكشف كل بواطنك وحركاتك وسكناتك، تزهد من الخلق، وتتعلق بالحق، ومن علامة الإيمان أن تدع الخلق جانباً، وأن تتجه إلى الله واحداً.

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه: 45 - 46)

إذا وصلت إلى مرتبة ترى أن الله معك فقد انتهى كل شيء، استقمت على أمره، أخلصت له، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

تحرك، تكلم، تفلسف، بيّن، سوف تكشف على حقيقتك، وسوف تقف بين يدي الواحد الديان، لأنه سميع بصير، لذلك:

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

البطل يهيئ جواباً لكل موقف وقفه، إن كنت موظفاً فلك حساب خاص، لماذا عقدت الأمر على فلان ؟ لماذا بالغت في مشكلته ؟ لماذا جعلته ييئس من أن ينال الموافقة ؟ من أجل أن تبتز ماله، وأنا أرى كل شيء، وأعلم كل شيء، دخلك لا يكفي، أهذه حجة كافية أن تبتز أموال الناس ؟ إذا كنت طبيباً فلماذا بالغت في خطورة المرض من أجل أن يأتي إليك دائماً ؟ إذا كنت محامياً وتعلم علم اليقين أن هذه الدعوة خاسرة، فلماذا قبلتها ؟ وفي نيتك أن تخبره بعد سنوات عدة أن الدعوة لم تنجح، وأن القاضي لم ينصف، إن كنت طبيباً أو محامياً أو مدرساً تعلم أن هذا الطالب لا يمكن أن ينجح، فلماذا تبلغ أباه أن

النجاح قريب ؟ من أجل أن تستمر في التدريس، لا ينجو إنسان من حساب الله عز وجل، لماذا أعطيت فلاناً وحرمت فلاناً ؟ لماذا حابيت هذا الولد، وأعطيته فوق ما أعطيت إخوته ؟

كل حركة وسكنة، وكل موقف وراءه سؤال، فلذلك:

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ)

بعثكم كخلقكم، كن فيكون في الخلق والبعث، بعد البعث هناك الحساب:

(إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ

مرة ثانية، يَلفت اللهُ نظرَنا إلى بعض آياته، لتكون هذه الآيات دالة على عظمته، وعلى علمه، وعلى وعده، وعلى وعيده، يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)

1 – معنى: يولِج:

معنى يولج أي: يدخِل.

(وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

إنّ تداخل الظل مع النور لا يكون إلا في شكل الكرة، لو أن الأرض مكعبة الشكل فإن الظلام يظهر فجأة، والضياء يظهر فجأة، أما هذا التداخل اللطيف، التداخل المديد، التداخل الهادئ، قبل أن تغيب الشمس يضعف الضوء، يضعف نور الشمس، تصفر، وبإمكانك أن تنظر إليها من دون أن تنبهر، بعدئذ تغيب في الأفق، فيبقى الجو مضيئاً، بعد نصف ساعة يدب الظلام، بعد ساعة وربع تقريباً وهو موعد أذان العشاء يختفي النور، ويبقى الظلام، فإذا أذن الفجر ظهرت خيوط النور في الأفق الشرقي، تزداد هذه الخيوط إلى أن تضيء الأرض قبل أن تشرق الشمس، هذا معنى:

(أَلَمْ تَرَ)

2 – دعوة إلى النظر والتأمل:

هذا الكون بهذا النظام، بهذا الثبات، بهذا التداخل، شمس وأرض وقمر، كل يجري لأجل مسمى، ألا يكفي أن هذا تقويم، وهذه الحسابات حسبت منذ خمسين عاماً، التقويم الفلاني، عدّ خمسين عاماً يطلع الفجر الساعة الثالثة والدقيقة والواحدة، هذه الأرض الكبيرة بحركتها حول نفسها، وحركتها حول

الشمس لا تقدُّم ولا تأخُّر، ما هذا النظام الدقيق ؟ ثبات في مواعيد الشروق والغروب خلال سنوات طويلة جداً، خلال عشرات، بل مئات السنين، بل آلاف السنين، هذه آية كبيرة، أنت متيقن غدا أنّ الفجر يؤذن الساعة الثالثة ودقيقة، الشمس 4.43، الظهر 11.45، العصر 3.27، المغرب 6.47، هذا لأي سنة ؟ لكل سنة، كل يوم من السادس والعشرين من تموز من كل عام الشمس تغيب في الساعة 6.46، ثبات هذا النظام أليس آية من آيات الله الدالة على عظمته.

من مئة سنة، من مئتي سنة، من ألف سنة، وإلى ألف سنة قادمة، في اليوم السادس والعشرين من تموز تغيب الشمس الساعة 6.46، أتظنون أن كل سنة تُدرى حسابات ؟ لا، مرة واحدة فقط، يطبعوها كل سنة، إنه ثبات عجيب، إذاً:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)

يولج الليل في النهار بلطف، أحياناً يكون الإنسان نائماً فيتألق المصباح الشديد فجأة، فيحس بآلام في عينيه، بانبهار، وأحياناً يكون الضوء شديدا فتنقطع الكهرباء فجأة، فيقع في حيص بيص، لم يعد يرى بعينيه، لكن ربنا عز وجل بلطفه تغيب الشمس بلطف شديد، وتشرق بلطف شديد.

(أَلَمْ تَرَ)

أليست هذه آية دالة على عظمة الله عز وجل ؟

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

معجزة الشمس:

العلماء طمأنونا، الحمد لله، فقالوا: الشمس تبقى متألقة ومشرقة إلى خمسة آلاف مليون عام، اطمأنوا فالشمس لن تنطفئ، وقالوا: هي متألقة ومتأججة منذ خمسة آلاف مليون عام أيضاً، أي عشرة آلاف مليون عام، هذه الشعلة لم تنطفئ، ولم تَخْبُ، ولم تضعف، هل يوجد إنسان عنده جهاز وقود يشتعل من دون وقود باستمرار ؟ ما هذا الإعجاز في خلق الشمس ؟ ما هذه الدورة المستمرة في نشر الطاقة ؟! والحديث عن الشمس طويل.

أحد ألسنة اللهب في الشمس يزيد على نصف مليون كيلو متر، في سطحها ستة آلف درجة، لكن في وسطها عشرون مليون درجة، لو ألقيت الأرض في الشمس لتبخرت بسرعة كلها تصير بخاراً.

تتسع الشمس إلى مليون وثلاثمئة ألف أرض، وبين الشمس والأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، ومع ذلك يصاب الإنسان بضربة شمس، ويموت على بعد 165 مليون كيلو متر، وإذا جئت بعدسة محرقها يحرق الورق، كثير من الحالات حدث حريق من الشمس فقط، حريق غابات، حريق صهاريج بترول من أشعة الشمس فقط، نحن على بعد 165 مليون كيلو متر، وهي بهذه الحرارة، منذ متى ؟ منذ خمسة آلاف مليون عام، وتستمر حسب قول العلماء إلى خمسة آلاف مليون عام قادمة.

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

(سورة التكوير1)

مَن أمدّها بالطاقة ؟

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

لا بدّ من أجل تنتهي به حركة الأفلاك.

(وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

خبير بالعمل، هناك إنسان يرى العمل، وهناك إنسان خبير به، قد تقدم مقالة إلى إنسان فيعجب بها، لكنّ هذا الذي قرأها ليس خبيراً بها، قد يعجب بها، وفيها أخطاء كثيرة، أما إذا عرضتها على خبير فإنه يكشف لك آلاف الأخطاء، إذا عرضت آلة على إنسان غير خبير يقول لك: والله شيء جميل، ما شاء الله، رائع، أما إذا عرضتها على خبير ينظر إليها يقول: هنا في غلط، فالبطولة أن يكون عملك مُرْضياً عند الخبير لا عند الجاهل، فربنا عز وجل يقول:

(وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

يعرف العمل، يعرف حجمه، يعرف دوافعه، يعرف غاياته، يعرف ملابساته، يعرف تضحياته، والدوافع، والأهداف، كل شيء حول العمل يعرفه الله معرفة تامة.

(وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ

1 – وجود الله حقيقة ثابتة:

هذه الآية دقيقة، في هذا الكون حقيقة واحدة هي الله، كل شيء يوصلك إليها، ويزيدك معرفة بها فهو الحق، وكل شيء يزيدك بعداً عنها هو الباطل، فالحق مقرّب، والباطل مُبعِد، والأصل أن الحقيقة الأولى والأخيرة ولا حقيقة سواها أن الله موجود، وأنه واحد، وأنه كامل، وأنت مخلوق خلقك ليسعدك إلى الأبد، تسعد بمعرفته وبطاعته وبخدمة خَلقه، لذلك هذه حقائق مكثفة جداً.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

2 – معنى الحق والباطل:

الحق هو الشيء الثابت، ومعنى الباطل الشيء الزائل، نظرية تنتشر في العالم سبعين عاماً، تتبناها أمم وشعوب، وبعد ذلك تنهار.. وتتهاوى.. وتتساقط، وكأنها بناء هش، لأنها باطل، الباطل مصيره الزهوق.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء 81)

الحق ثابت، فمهما هبّت على الدين عواصف عاتية، فهو شامخ كالجبل، لأنه حق، وهو الشيء الثابت، كل النظم الوضعية لم تحقق أهدافها، بل ربما أدت بالإنسان إلى عكس الأهداف التي رسمت لها، لأنها باطل، أما نظام الله عز وجل.. كتاب الله عز وجل.. دين الله عز وجل فهو ثابت وشامخ، لأنه حق.

إذاً: معنى الحق: الشيء الثابت، ومعنى الباطل الشيء الزائل، هناك شيء يبنى ليهدم، لكن هناك شيء يبنى ليبقى، فأنت إذا كنت مع الحق كنت مع الله.

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس 62-63)

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

3 – الحق باق والباطل زاهق:

الله هو الحق، وكتابه حق، ودينه حق، وشرعه حق، وأمره حق، ونهيه حق، ووعده حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق، معنى حق أي ثابت، وسوف يقع، إذا اعتنقت فكرة باطلة مهما بالغت بها.. مهما قويتها.. مهما فلسفتها.. مهما نميتها.. مهما دعمتها.. مهما أغريت الناس بها فهي باطلة، لا بدّ من

أن تسقط، أما إذا اعتنقت الحق، فالحق وحده باقٍ، لذلك كن مع الحق، إذا كنت مع الحق فأنت الموفق.. وأنت الفالح.. وأنت الناجح.. وأنت الفائز.. وأنت السعيد.

القضية خطيرة جداً، لو فرضنا إنساناً بنى بناء حقاً وبناء باطلاً، البناء الحق أساسه ثابت.. مبني وفق أصول صحيحة.. مواده الأولية جيدة.. تسليحه جيد.. أرضه صلبة.. إقامته ناجحة.. خبراء كبار أنشئوه.. مواد أولية بذلت بسخاء، بناء آخر باطل أساسه ضعيف.. مواده الأولية مغشوشة.. الحديد أقل من نسبه الحقيقية، فأنت إذا أقمت في البناء الباطل لا بدّ من أن ينهار، أما إذا أقمت في البناء الحق هو ثابت ثبات الأيام.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)

4 – إذا لم تكن على حقّ فأنت يقينًا على باطل:

أي إذا لم تكن على الحق فاعلم علم اليقين أنك على الباطل، إن لم تطبق أمر الله في هذا الموضوع فأنت في الباطل، ليس هناك حقين بل حق واحد، وما سوى الحق باطل.

القضية خطيرة، إن لم تقف في هذا الموقف وفق ما أمر الله فأنت تقف موقفاً باطلاً، والباطل زائل أي أن ثماره كلها زائلة، تزول الثمار ويبقى الحساب، أما الحق فيبقى وتبقى آثاره بعد الموت، الباطل تزول ثماره إن كان له ثمار، وتبقى تبعاته، أما الحق فتثبت ثماره في الدنيا وفي الآخرة.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)

مِن معاني: أَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ

ومن معاني أن الله هو الحق: أنه لا بدّ من أن يظهر الحق، مهما امتدّ الباطل، ومهما اتسعت رقعته، ومهما اشتط، ومهما علا، ومهما تجبر فلا بدّ من أن يُظهر الله الحق، ولا بدّ من أن يؤيده، وهذه سنة ثابتة من سنن الله عز وجل، هو الحق، ولا بدّ من إظهار الحق، فاجهد أن تكون مع الحق، لأنك إن كنت مع الحق سعدت في الدنيا والآخرة.

(وَأَنَّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

معنى: الله أكبر:

المعنى الأول:

أنت تقول: الله أكبر، معنى الله أكبر، أنه إذا جاءك ضغط من إنسان تراه قوياً فالله أكبر، إذا جاءك إغراء من جهة معينة، قل: الله أكبر، أيْ أنّ ما وعدني الله به في الجنة أكبر من كل هذه اللذائذ، والإنسان بين ضغط وإغراء، وامتحان الله عز وجل، فإما أن يغريك، وإما أن يضغط عليك، فأنت بين جاذب وبين دافع، فإذا جَهدتَ ألا تستجيب لأي إغراء باطل، وألا تستجيب لأي ضغط باطل، وكنت مع الحق، يتجلى الله سبحانه وتعالى على قلبك، ويحميك، ويوفقك.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

المعنى الثاني:

لكن هناك معنى آخر، إذا قلت: الله أكبر، معنى الله أكبر أنه أكبر مما عرفت، فمهما عرفت عن جلال الله، وعن قدرته، وعن علمه فهو أكبر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (12-13): تفسير الآيات 30 - 32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-08-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثاني عشر من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

مقدمات مهمة بين يدي الآيات:

أيها الإخوة الأكارم، كمقدمة سريعة لهذه الآيات التي ربما ختمنا بها سورة لقمان في هذا الدرس أتمنى أن أضع بين أيديكم بعض الحقائق.

المقدِّمة الأولى: العلم دين:

أولاً: حينما يطلب الإنسان العلم يجب أن يعلم علم اليقين أن هذا العلم دين، وأن هذا العلم إذا ألقي على سمعه جعله مسؤولاً، وأن الدين الحق هو ما أوصلك إلى الله عز وجل، فلذلك سماع دروس العلم وحده لا يكفي.

المقدِّمة الثانية: طلبُ العلم عمود الدين:

هذا الدين يقوم على أعمدة كبيرة، أحد هذه الأعمدة طلب العلم، طلب العلم الشرعي، طلب تفسير كتاب الله، طلب حديث رسول الله، طلب سيرة رسول الله، طلب الأحكام الفقهية التي أنت بحاجة إليها، فكل هذا العقيدة والتفسير والسنة والسيرة هي من العلم، ولكنك إذا طلبت العلم، ولم تجعل سلوكك وحياتك وعلاقاتك ومهنتك وزواجك وفق ما أراد الله عز وجل فأنت خاسر، لأن هذا العلم يصبح حجة عليك، لا يكون هذا العلم حجة لك إلا إذا انقلب إلى سلوك.

المقدِّمة الثالثة: لا سعادة إلا بقطف ثمار الدين:

لذلك هذا الدين لا يُنبغُ فيه الإنسان.. لا يسعد فيه.. لا يقطف ثماره إلا من حاطه من كل جوانبه، وأحد جوانبه طلب العلم، فإذا طلبت العلم ينشأ سؤال كبير: أين أنا مما أسمع ؟ هل أنا في مستوى هذا

التفسير؟ هل أنا في مستوى سنة رسول الله ؟ هل كسبي للمال وإنفاقي له، بيتي، علاقاتي هل كل هذا وفق ما أمر الله ؟.

يا أيها الإخوة الأكارم، الأمر خطير، والأمر أخطر بكثير من أن تأتي إلى مسجد، وتَمضي فيه ساعة أو أكثر، الأمر أخطر من ذلك بكثير، إنك في حياة دنيا كلفك الله أن تزكي نفسك فهل زكيتها ؟ كلفك الله أن تتعرف إليه فهل عرفته ؟ كلفك أن تعرف رسوله فهل عرفته ؟ كلفك أن يأتي عملك وفقاً لسنة رسوله فهل فعلت ذلك ؟ كي تقول: ليس في الأرض من هو أسعد مني، كي تشعر إذا التزمت بأوامر الله عز وجل ونواهيه، وأنك من السعداء، ومن الموفقين، ومن المتفوقين، وأنك من الفائزين، وأنك من المفلحين لا بدّ من أجل هذا كله أن تمشي على خطين: خط العلم وخط العمل، وأن تكون متوازناً بينهما.

لأنك إذا عرفت كلام الله عز وجل، واستمتعت بالمعاني الدقيقة والإشارات اللطيفة واللمحات الغريبة، وعرفت مدلول الكلمات ومعاني التراكيب، ولم تكن في حياتك اليومية في هذا المستوى فقد ضيعت الكثير.

المقدِّمة الرابعة: لا بدّ من تعاهُد القلب في إخلاصه:

إنّ حياتك يجب أن تبنى على أعمدة، العمود الأول طلب العلم، طلب العلم بكتاب الله، طلب العلم بسنة رسول الله، العلم بكتاب الله في درس يوم الجمعة، بسنة رسوله القولية والفعلية يوم الأحد، يجب أن تعرف أحوال القلب، لأن الله عز وجل يقول:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء 88-89)

اسأل نفسك، يا ترى هل أنا مِن الإخلاص، والصدق ومن التوكل والخشوع والمحبة لله، ومن العمل الطيب، ومن طلب الأسباب كما يرضى الله.. هذه الأحوال القلبية التي أشار القرآن إليها يجب أن تكون متمثلة في قلب كل مسلم، إذاً: طلب العلم جانب من جوانب الإيمان.

المقدِّمة الخامسة: الخط المقابل للعلم هو خطّ العمل:

الآن أن تعمل بما علمت هو الجانب الآخر، هو الخط الآخر الذي ينبغي أن تسير فيه، يجب أن تسير في طريق العلم وفي طريق العمل، راجع نفسك عشرات المرات، أحد العارفين يقول: " المنافق يلزم حالة واحدة طوال أربعين عاماً، بينما المؤمن يتقلب في اليوم الواحد بين أربعين حالاً "، لشدة خوفه من الله، لشدة رجائه، لشدة طمعه، لشدة طلبه، لصدق يقينه، بين الخوف والرجاء، وبين الثقة وعدم الثقة،

والطمأنينة والقلق، هذه الأحوال المتعددة التي تطرأ على قلب المؤمن دليل صدقه، هي قضية مصيرية، إما سعادة إلى الأبد أو شقاء إلى الأبد.

المقدِّمة السادسة: موضعُ المعالجة الإلهية:

وإذا خلط الإنسان عملاً صالحاً وآخر سيئاً معناها لا بدّ من أن يعالجه الله في الدنيا، أو يعالجه عند سكرات الموت، أو يعالجه في القبر وفي البرزخ، فالبطولة أن يأتي ملك الموت، وأنت كما ولدتك أمك، لذلك الحديث القدسي المعروف عندكم:

((يا رب ارحمه، قال: كيف أرحمه بما أنا به أرحمه، وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن، وأن أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها، سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدّت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

لكي لا تقول: يا أخي، أنا ما استفدت، أنا أمضيت في هذا المسجد عشرين عاماً، خمسة عشر عاماً، عشرة أعوام، حتى تشعر أنك ترقى باستمرار، حتى تشعر أن يومك خير من أمسك، حتى تشعر أن رمضانك هذا خير من رمضان السابق، حتى تشعر أنك في ازدياد كامل يجب أن تجمع بين خط طلب العلم وخط العمل به، أما إذا اكتفيت بطلب العلم، طلب العلم من غير عمل يُبقي بينك وبين الله حجاباً، لأن أي معصية، وأي مخالفة، وأي تقصير يجعل بينك وبين الله حجاباً، وإذا وجد الحجاب أظلم القلب، وشعر الإنسان بالوحشة، وشعر بالضيق، وشعر بالضياع، وسئم الحياة حتى يسأم مباحاتها، حتى يسأم مباهجها.

أما إذا استنار القلب بنور الله، إذا أقبلت عليه، إذا أخلصت له، إذا كنت وفق السنة الشريفة، إذا جهدت في خدمة الخلق، إذا جهدت في طلب العلم، إذا أردت أن تكون مناراً للناس، إذا أردت أن تكون قدوة للناس عندئذ أنت أسعد الناس.

المقدِّمة السابعة: لئلا يصبح الدين ثقافة لا بد أن نعيش الإسلام بالعمل:

فالذي أتمناه أن هذه الدروس ليست محاضرات تلقى كما تلقى المحاضرات في الجامعات، أستاذ يلقي المحضرة، وانتهى الأمر، والمستمع استمع بهذه المحاضرة، وانتهى الأمر، القضية قضية مصير، قضية جنة لا ينفد نعيمها، أو جهنم لا ينفد عذابها، قضية أن تعيش في الحياة موفقاً، أو تعيش في عسر

شديد، أن تعيش ولك عمل طيب ترقى به، أو أن تعيش وأنت تدافع التدني، بين أن تتابع الترقي وبين أن تدافع التدني.

إنه من الجميل أن يكون الإنسان مذنباً تواباً، أن يراجع نفسه دائماً كلما زلت قدمه، كلما غفل قلبه، كلما قصر عمله، كلما شعر أن حجاباً بينه وبين الله، المؤمن حكيم نفسه، إذا صليت هل تعجبك صلاتك ؟ إذا أنفقت مالاً هل عاد هذا العمل عليك بالثواب ؟

من أجمل التفاسير التي اطلعت عليها في مفهوم الثواب أنك إذا عملت عملاً خالصاً لله عز وجل لك عليه ثواب، وكلمة الثواب من ثاب، وثاب معناه رجع، يعني رجع عليك إيناس من الله عز وجل، شعرت أن قلبك يمتلئ سعادة إثر هذا العمل الصالح، فعلامة إخلاصك في عملك الصالح أن القلب يهتز طرباً، أن القلب ينتشي سعادة من جراء هذا العمل.

فلئلا يقسو القلب، لئلا تجمد العينان، لئلا يصبح حضور درس العلم عادة من عوائدنا، لئلا ينقلب الدين إلى طقوس، لئلا تصبح مجالس العلم محاضرات تلقى كما تلقى المحاضرات في الجامعات، أنت لست مستمعاً، أنت ممن يسير في طريق الإيمان، لاحِظْ سنة النبي يجب أن تطبقها في البيت، لاحظ أوامر الله عز وجل، دائماً حاسب نفسك هل أنا في مستوى هذه الأوامر ؟ إنك إن فعلت هذا قطفت ثمار الدين وشعرت أن الدين هو الحياة، وأنه من لا دين له لا حياة له، وأن الله عز وجل حينما وصف أهل البعد بأنهم أموات غير أحياء فقد صدق الله العظيم، وحينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال 24)

يقول: صدق الله العظيم، وحينما تشعر أن خالق الكون يوقع حياتك على ما يرضيك، وأن هذا الأمر تم بفضل الله، وأن هذا الأمر تم بإكرام الله، وأن هذا الأمر تم بتوفيق الله، وأن هذا الأمر تم بلطف الله عز وجل، إذا كان بينك وبين الله مناجاة.. إذا كان بينك وبين الله دعاء.. إذا كان بينك وبين الله اتصال.. إذا انتشى هذا القلب بذكر الله عندئذ تصبح كوكباً درياً يشعُّ النور من حوله.

فلئلا ينقلب مجلس العلم عادة من عوائدنا، لئلا نكتفي بالسماع، لئلا نثني بألسنتنا على الدروس وعلى ملقيها، لئلا يصبح هذا مجاملات، أنا أتمنى أن يكون أحدكم أو كل من يحضر هذا المجلس أن يكون ممن يقطف ثمار هذا المجلس، يعني افتح مع الله صفحة جديدة، تب إليه من كل مخالفة، تفكر في خلق السماوات والأرض، أكثر من ذكر الله، حاول أن تجعل من صلاتك صلة بالله عز وجل، حاول أن يستنير قلبك بنور الله، إذا فعلت هذا قطفت ثمار هذا الدين العظيم وشعرت أنك من السعداء في الدنيا.

ولا تنس أن بعض العلماء فسر قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ))

[الترمذي]

أبو بكر في الجنة أنه يقصد النبي عليه الصلاة والسلام الآن في الجنة، في جنة القرب، فكلما استقمت على أمره، وكلما تتبعت سنة نبيه، وكلما قلدت النبي عليه الصلاة والسلام في بيتك، مع أهلك، في بيعك وشرائك، مع إخوانك جاءتك أنوار النبوة، وجاءك توفيق الله عز وجل، لذلك كم هي سعادة كبرى أن يكون الإنسان في مستوى هذا الكتاب، أن يجعل من بيته بيتاً مسلماً، أن يجعل من زواجه زواجاً إسلامياً، أن يجعل من مهنته دعوة إلى الله عز وجل، ليقول التجّار: انظروا إلى فلان المسلم إنه قدوة، ليجعل من حرفته، إن كان طبيباً، أو صيدلياً، أو محامياً، أو مدرساً، أو موظفاً، أو تاجراً، أو صانعاً، أو صاحب مصنع ليجعل من مهنه مناراً لهذا الدين، انظروا إلى هذا المصنع صاحبه مسلم، انظروا إلى تعامله مع الناس، انظروا إلى جودة بضاعته، انظروا إلى إكرامه لعماله.

ينبغي أن نعيش الإسلام، أخطر ما في الدين أن يبقى الدين في أطراف أدمغتنا معلومات، الإسلام سلوك، الإسلام حياة، الإسلام قلب مستنير، فلذلك إذا اختصرنا الدين إلى درس نحضره، وركعتين نؤديهما، ومبلغ تدفعه إلى الفقير، وأنت لك همومك، وأحزانك، وانشغالاتك، وأنت ممزق بين شهوات الدنيا، أنت ضائع بين الشرك الخفي والجلي، ليس هذا هو الإسلام.

هذا الدين عظيم، كيف أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في بضعة عشر عاماً رفرفت راياتهم في الشرق والغرب، كيف أنهم أحبوا النبي ؟ إذا حضرتم درس الأحد ترون بأم عينكم كيف كان أصحاب النبي مع النبي صلى الله عليه وسلم، كيف صدقوه، كيف أحبوه، كيف باعوا أنفسهم في سبيل الله، كيف كانوا كالبنيان المرصوص، كيف أحب بعضهم بعضاً حباً يفوق كل تصور، الله هو الله في كل مكان وزمان.

لا تربى وأنت الرب، والله هذه الكلمة لو عقلناها لأفلحنا، يا رب، لا تربى وأنت الرب، أي قلب هذا، خزائن كل شيء بيده، كل المخلوقات بيده، كل الظروف بيده، كل المعطيات بيده، كل القوى بيده، كل من فوقك بيده ومن دونك بيده، ومن حولك بيده، وما حولك بيده كل أعضائك وأجهزتك بيده، إذاً، يا رب، لا تربى وأنت الرب، لا يحزن قارئ القرآن، إذا قرأت القرآن لا تحزن أبداً، أين الحزن ؟ إن جاءت الدنيا على ما تريد فالحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن جاءت الدنيا على خلاف ما تريد الحمد لله على كل حال، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

[مسند الإمام أحمد 18175]

أنت غالٍ على الله، أنت مطلوب من قبل الله عز وجل، هو الذي يطلبك، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، فإذا وجد الإنسان في بيته مخالفة إخوان فلا ينم الليلة، بل يحاول أن يصلحها، إذا كان بزَيّ زوجته غير إسلامي يحاول أن يقنعها، إذا كان في بيته أجهزة لهو تحجبه عن الله عز وجل يحاول أن يمنعها، إذا كان في بيته حجاب بينه وبين الله يحاول أن يهتكه، إذا كان له صديق يبعده عن مجالس العلم يحاول أن يقطعه، إذا كان له قريب يغريه بالدنيا يحاول أن يقطعه حتى يستقيم على أمر الله، وحتى يقطف ثمار الدين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة 13)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[الترمذي]

أخطر ما يواجه المؤمن حينما يلتقي مع غير المؤمن، مع أرباب الدنيا، مع محبي الدنيا، مع الفساق، مع الفجار، هؤلاء يغرونه بالدنيا، ويبعدونه عن طريق الصواب، لذلك أنت حكيم نفسك، الشخص الذي إذا عاملته أو صاحبته... إذا التقيت به... إذا عاملته يرفعك إلى الله عليك بصحبته، والشخص الذي يبعدك عن الله.. يبعدك عن مجالس العلم.. يبعدك عن العمل للآخرة عليك أن تبتعد عنه، إما أن تجره إذا كان بإمكانك أن تجره إلى الدين فأنعِم وأكرِم بهذا العمل، أما إذا كان بإمكانه أن يجرك فلا كانت هذه الصحبة، ولا كانت هذه العلاقة، ولا كانت هذه المودة، لأن الله عز وجل يأمرنا أن نبتعد عن كل رجل من شأنه أن يبعدنا عن طريقه، دقق في قوله تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف28)

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان 15)

هذا الذي عاد إلى الله، عاد إليه تائباً، عاد إليه في الأمر والنهي، عاد إليه في كل شيء.

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

المقدِّمة الثامنة: إذا استعصت عليك نفسُك فذكِّرْها بالموت:

من أركان الطريق إلى الله عز وجل أن هذه النفس البشرية إذا استعصت عليك.. إذا أبت أن تطيع الله عز وجل.. إذا استهوتها الدنيا فعليك أن تذكرها بالموت، لأن الله عز وجل كان من الممكن أن يأتي بنا

إلى الدنيا دفعة واحدة، وأن نغادرها دفعة واحدة، عندئذ لا موت، ولا حزن، ولكن شاءت حكمة الله أن نأتي تباعاً، وأن نغادرها تباعاً ليتعظ بعضنا ببعض.

انظر إلى الذي يتوفاه الله عز وجل، كيف أن الذي جمعه في ستين عاماً يتركه في ثانية واحدة لمجرد أن هذا القلب توقف عن النبض، أحياناً يتوقف القلب فجأة، وأحياناً يتباطأ ثمانين ضربة في الدقيقة، إلى سبعين، إلى ستين، إلى خمسين، وقفت أمام ميت تباطأت ضربات قلبه حتى الصفر، حتى قال الطبيب: عظم الله أجركم، فإذا توقف القلب كل الذي حصلته في الدنيا تخسره في ثانية واحدة، وأنت مقدم على حياة أبدية، على حياة لا تنقضي، على جنة لا ينقضي نعيمها، أو على نار لا ينفد عذابها.

إذا استعصت على الإنسان نفسُه... إذا غلبته نفسه.. إذا رأى نفسه مقيمة على معصية فعليه أن يذكرها بالموت، لقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **<< كفى بالموت واعظاً يا عمر>>.**

وفي الأثر:

((إن في معالجة جسد خامد لعبرة))

إنّ تغسيل الميت، وتكفينَه، ودفنَه شيء يهز النفس، ويرجعها إلى ربها بالطاعة، وبالإنابة، وبالتوبة.

إذاً: كلما استعصت عليك نفسك، كلما غلبتك نفسك، كلما تاقت نفسك إلى الدنيا علاجها أن تفكر بالموت.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً

هذا من مضمون هذا الدرس.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

شيء آخر:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق37)

إلقاء السمع أحد أركان الإيمان، أن تحضر مجلس علم، أن تتعلم ما لم تعلم، أن تسأل به خبيراً، أن تفهم كتاب الله، إذاً: حضور مجالس العلم أحد دعائم طريق الإيمان، طلب العلم، وهذا الوقت الذي تحضر به درس العلم هو زكاة وقتك، فإذا أنفقت زكاة وقتك بارك الله لك في وقتك.

الله عز وجل من الممكن أن يهدر لك عشرات الساعات، بل مئات الساعات لأسباب سخيفة جداً، قد ينكسر شيء في آلة عندك، ويستهلك من وقتك عشرات الساعات، ارتفاع حرارة ابنك قد يستهلك من وقتك عشرين ساعة بين طبيب ومحلل ومراجعة، وتأمين دواء، إذاً: إذا ضننت على الله عز وجل بساعة تعرف فيها كلامه، إذا ضننت عليه الله عز وجل بوقت تتعلم فيه سنة رسوله، إذا ضننت على الله

بوقت تعرف فيه سيرة رسوله، إذا ضننت على بوقت تعرف فيه أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، إذا ضننت على الله بوقت تعرف فيه أحوال القلب المؤمن فربما أهدر الله لك عشرات، بل مئات الساعات بموضوعات سخيفة جداً لا تقدم ولا تؤخر، فإذا حضرت مجلس علم فإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، اقرأ قوله تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(4))

(سورة الليل1-4)

هذا الذي يركض ليحضر حفلة لا ترضي الله عز وجل، وهذا يقود مركبته ليوقع أذى بإنسان، وهذا يشتكي ليقيم دعوى على فلان، وهذا ليكسب مالاً حراماً، أما المؤمن فيسارع إلى بيت الله ليتعلم كتابه، ليتعلم أحكام دينه، ليتعلم سيرة رسوله.

إذاً: أحد أعمدة طريق الإيمان طلب العلم.

من أعمدة الإيمان:

ـ التفكر في خلق السماوات والأرض:

أحد الأعمدة الأخرى التفكر في خلق السماوات والأرض، كلما مرت بك آية، كلما مرت بك ظاهرة في صحتك، في جسدك وأعضائك، في طعامك وشرابك، في أهلك وأولادك، في من حولك ومن حولك، قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[مشكاة المصابيح عن أبي هريرة]

فإذا كان في جانب من جوانب حياتك تفكّر في خلق السماوات والأرض، وفي جانب آخر حضر مجالس العلم، وكلما استعصت عليك نفسك تفكرت في الموت فهناك جانب ثالث:

ـ إقامة الصلاة:

الجانب الثالث الصلاة، إذا أديت الصلوات الخمس أداء يرضي الله عز وجل، إذا أتقنت ركوعها وسجودها، إذا أردت أن تكون في الصلاة خاشعاً، وإليها مسرعاً فهذا عماد آخر من أعمدة طريق الإيمان، بقي عليك أن تتحرى أمر الله عز وجل، وأن تستقيم على أمره في كل صغيرة وكبيرة، لا شيء يملأ قلبك سعادة من أن تشعر أنك سائر على منهج الله، وأنك وفق الصراط المستقيم، وأنك وفق الأمر

والنهي.

التفكر في خلق السماوات والأرض، وحضور مجالس العلم والتفكر في الموت إذا استعصت عليك نفسك، والاستقامة على أمر الله لأنها أساس الإقبال على الله، والأعمال الصالحة التي هي زادك في الآخرة، وهي العملة المتداولة.

سؤال خطير: ماذا أعددتَ لنفسك ومجتمعك ؟

سؤال صغير: إذا أردت أن تذهب إلى العمرة، أول شيء يخطر على بالك الريال السعودي، كيف أشتريه ؟ ما سعره اليوم ؟ من أين أشتريه ؟ كم من الريالات يُسمَح أن آخذ معي ؟ هذا أكبر سؤال، وإذا أردت أن تذهب إلى بريطانيا الجنيه، إلى فرنسا الفرنك، إلى روسيا الروبن، إلى أمريكا الدولار، أما إذا أردت أن تذهب إلى الله ما الذي ينبغي أن يشغل فكرك ؟ العملة المتداولة هناك العمل الصالح، ماذا أعددت من عمل صالح ؟ ماذا فعلت ؟ جئت إلى الدنيا، وغادرتها ما الذي فعلته في الدنيا ؟ هل ربيت أولاداً صالحين ؟ هل كنتَ في حرفتك ناصحاً للمسلمين ؟ أم قدمت إلى هذا المجتمع المسلم خدمة ؟ هل كنت عضواً نافعاً ؟ هل كنت عضواً شريراً ؟ هل دعوت إلى الله ؟ هل علمت العلم والقرآن ؟ هل علمت تجويد القرآن ؟ هل علمت أحكامه ؟ هل علمت آياته الكونية ؟ هل طبقته ؟ يا بشر: لا صدقة ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً ؟هذا أكبر سؤال.

إذا جاء ملك الموت، والموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً، لحكمة أرادها الله يموت المرء شاباً، ويموت كهلاً، ويموت شيخاً فانياً، ويموت بمرض وبلا مرض، يموت إثر مرض عضال وإثر صحة جيدة، كل الأحوال تمر على الإنسان، إذاً: الموت شيء يجب أن نعد له عدته.

أردت من هذه المقدمة ألا تنقلب مجالس العلم إلى سماعٍ وهزّ بالرؤوس، وقول: الحمد لله على الإسلام، والسكنى بالشام، هذه الأقوال التي يقولها عامة الناس، الإسلام التزام وسلوك، الإسلام منظومة قيم يدخل في بيتك، يتعلق بعملك، يتعلق بكلامك، يتعلق بلهوك، الإسلام نظام كامل دقيق يدخل في كل جزئيات حياتك.

إنكم تُحَاسَبون على التطبيق:

فلذلك أيها الإخوة الأكارم، قلت لكم في درس سابق: إنكم تحاسبون لا على سماعكم، بل على التطبيق، وأنا أحاسب لا على إلقاء الدرس، بل على تطبيقه، فقد يسأل الله المستمع: هل استجبت لما قيل لك ؟ وقد يسأل الله المتكلم: هل كنت في مستوى كلامك ؟ فلا كلامي له قيمة عند الله عز وجل إن لم أطبقه، ولا

سماعكم له قيمة عند الله عز وجل إن لم تطبقوا ما تسمعون، وهذه الكلمة أردت منها وجه الله عز وجل، وأن يكون الانتماء لهذا المسجد انتماءً حقيقياً، وأن يكون هذا المجتمع مجتمعاً مسلماً، لا يكون هذا المجلس أفراداً يستمعون إلى محاضرة، بل يكونوا مؤمنين متوادين متناصحين، متآخيين متزاورين، متباذلين متكاتفين متعاونين، إذا رأى الناس مجتمعاً مسلماً هذا أفضل من مليون محاضرة.

عن مثل هؤلاء نبحث:

سمعت قصة والله هزّت كل مشاعري، رجل عنده بيت أراد أن يبيعه، رأى هذا البيت إنسان قال: يا سيدي، بكم تبيعني هذا البيت ؟ قال له: هذا البيت ثمنه ثلاثمئة ألف.. قصة قديمة.. وأنت أحببتك، سأبيعك إياه بمئتين وتسعين ألفًا فهل اشتريت ؟ قال: اشتريت، ولم يكن بينهما إلا هذا الإيجاب والقبول فقط، لحكمة أرادها الله عز وجل جاء إنسان آخر إلى صاحب البيت في اليوم التالي، فحينما رآه أعجبه جداً، وقال: أنا أشتري هذا البيت بثلاثمئة وخمس وعشرين ألف ليرة، فما كان من صاحب البيت إلا أن قال: لقد بعته، وانتهى الأمر، ولن أبيعه مرة ثانية، أصبح الآن ملكاً لفلان، فإذا أعجبك البيت فاذهب واشتره منه، ليس بينهما إلا المباركة، لا بينهما ورقة ولا عقد ولا عربون، ولا ما يسمى في العقود غرامة تُقولٍ أبداً.

الشاري علم أن شخصاً في اليوم التالي دفع 325 ألف، فتألم ألماً شديداً، وظن أن البائع نكص معه، الموعد بعد أسبوع، بعد أسبوع وجد الوضع طبيعياً، جاء إلى البائع، وقال له: البيت جاهز، وهذا المفتاح، وهذا عقد التنازل، وانتهى الأمر، هو شهق، ما هذه الأخلاق، إنسان قبل عشر سنوات يفوت عليه خمسًا وعشرين ألف ليرة لا لشيء إلا لأنه قد قال: لقد بعتك، والبيت مبارك لك.

قال لي هذا الرجل بعد أربع أسابيع: البيت تابع إلى جمعية تعاونية، فرضوا على صاحب البيت الأول المالك سبعًا وعشرين ألف ليرة، فما كان من شاري البيت إلا أن وضع هذا المبلغ في مغلف، وأرسله إلى صاحب البيت الأول، وقال: هذا عليّ، وليس عليك.

هكذا الإسلام، الأول بقي عند كلمته، والثاني عرف للأول كماله ومواقفه الطيبة، فنحن إذا طبقنا الدين شعرنا بسعادة لا توصف، والله الذي لا إله إلا هو الحقيقة إنّ الإنسان لا يسعد بالطعام والشراب، ولا بالبيت الفخم، يسعد بعلاقته الطيبة مع أخيه الإنسان، يسعد بمجتمع مسلم، يسعد بمجتمع فيه المحبة والألفة، والصراحة والنصح، والرحمة والمودة، بهذا يسعد.

هذا هو مجتمع المؤمنين: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

إذا كنا على مستوى مجتمع صغير، على مستوى رواد هذا المسجد لنكن إخوةً، الله عز وجل ماذا قال ؟ قال:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة التوبة 71)

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ)

(سورة التوبة 67)

إنّ دقة القرآن الكريم عجيبة، المؤمنون بعضهم أولياء بعض، المؤمن ولياً لأخيه المؤمن، ينصحه، ويرشده، ويحذره، ويحرص عليه، ويخاف على سمعته، ويرجو له الخير، ويخاف عليه من الشر، كيف أنك أيها الأب عندك ابن غالٍ عليك، كيف تحرص على صحته، وعلى تحصيله العلمي، وعلى دراسته، وعلى مستقبله، وعلى أخلاقه، وعلى دينه، تجد نفسك دائماً في رغبة جامحة للعناية به، والتعبير الشائع في المدارس أرسل وليّ أمرك، من هو ؟ الأب، الأخ الكبير، العم.

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(التوبة 71)

إذا لم تكن وليًا لكل مؤمن فلست كامل الإيمان.

من بنود الولاية للمؤمنين: المؤاخاة في الله:

أنا أحياناً أبدي هذه الملاحظة العابرة، أخ من إخواننا الكرام يتغيب عن دروس العلم، والله من يومين أخ لاحظت أنه لم يأت من أربعة أسابيع، والله قلقت عليه قلقاً كبيراً، يا ترى هو مريض أم أصابته مشكلة ؟ يا ترى إنسان ألقى عليه شبهة ؟ يا ترى زاغت عليه نفسه ؟ ثم علمت أنه مسافر، فقلت: ليت الذي يسافر يعلمني أنه مسافر لتريح أخاك راحة كبيرة، بدل أن يفكر أنك انقطعت، أو أنك وقعت في شبهة، أو أنك مريض، أو أنك تعاني من مشكلة، كل هذه الاحتمالات والوساوس، وهذه الخطرات تريحنا، لو قلت: إنك مسافر إلى المكان الفلاني انتهى الأمر، بارك الله لك في سفرك، ورافقتك السلامة، وندعو لك.

هذا مجتمع، وأنت تعيش في هذا المجتمع، تعيش مع إخوانك المؤمنين، أنت منتمٍ إلى مسجد وإلى جماعة مؤمنة، فيجب أن نتمثل هذه التوجيهات النبوية، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تآخيا اثنين اثنين))

[ورد في الأثر]

ألا تريد عملاً صالحاً ؟ أقلُّ عمل صالح في هذا المسجد أن تؤاخي أخاً تتفقده من حين لآخر، لعله مريض، لعله مصاب بمشكلة، لعله يعاني من أزمة، لعله يعاني من خلاف مع زوجته، فإذا تفقدت أخاك، وعرفت أحواله، غاب عن الدرس فسألت عنه، اختر أخاً وآخه في الله، وهو عملك الصالح، قد يكون هو أعلى منك، ليس هناك مانع، قد يكون أكبر منك سناً، لكن أنت اختر أخاً بحسب مهنتك، بحسب عملك، بحسب مجيئك إلى المسجد، هذا الأخ إذا تآخيت معه، وتفقدت أمره، وتفقد أمرك، وتفقدت غيابه، وتفقد غيابك، واسيته في مرضه، وواساك في مرضك، أعلمته عن كل أحوالك فساهمت معك في خدمته، هذا مجتمع مؤمن، هذا المجتمع الذي يرضي الله عز وجل.

القضية أعظم من أنه درس ألقي، ومستمع استمع، الأمر أعظم بكثير، أنت منتمٍ إلى جماعة مؤمنين، موقف أخلاقي، أو معاونة إلى أخيك أبلغ عنده مِن ألف محاضرة، ما قيمة الكلام ؟ أنت بحاجة إلى أخ إلى جانبك يرعاك، إذا كان الجار العادي له معاملة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أتدرون ما حق الجار: إذا استعانك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهدِ إليه منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها))

[الترغيب والترهيب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

وإذا كان الجار مسلماً فله حقان عليك، والجار المسلم القريب له ثلاثة حقوق، أما أخ الجامع فله أربعة حقوق، هذا الأخ مسلم، وجارك في المسجد، وقرابة الإيمان أعلى قرابة، وقرابة الأخوّة في الله أعلى قرابة، فلذلك الذي أتمناه عليكم أن تتآخيا اثنين اثنَين، اختر أخاً لك، جارك في البيت، زميلك في العمل مقارباً لك في السن، تفقده وليتفقدك، زره وليزرك، اسأل عنه وليسأل عنك، أبلغني عنه إذا كان بالإمكان أن أقدم خدمة له، هذا المجتمع أساسه متين، المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، أخوك تألم اعتذر منه، قدِّم له هدية تجلو بها قلبه.

أحياناً يقع سوء تفاهم بين أخوين في المسجد، قد تصبح هناك حساسية مفرطة أو شيء من الغيرة أحياناً أو الضعف، فأنت عليك أن تجعل منك ومن أخيك بنياناً مرصوصاً يشد بعضه بعضاً.

فهذه المقدمة لعلي أطلت فيها، أردت منها ألا يكون حضورنا لمجالس العلم حضوراً شكلياً، أريد أن يكون انتماؤكم لهذا المسجد انتماءً حقيقياً، انتماء لجماعة المؤمنين، قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات 10)

لا تكون مؤمناً إلا إذا كنت أخاً لأخيك المؤمن، إنما تفيد الحصر، لا تكن مؤمناً إلا إذا شعرت بالأخوة الصادقة مع أخيك المؤمن، وأي مؤمن، إياك أن تظن أن المؤمنين هم الذين يحضرون معك مجلس العلم، لا.. يجب أن يكون انتماؤك لأي مؤمن مادام هذا الرجل قد عرف الله، واستقام على أمره، وأحبه، وعمل لآخرته فهو مؤمن يجب أن تنتمي إليه، وأن تحبه، وأن تعينه، وأن تنصره.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ

آيات اليوم، الله سبحانه وتعالى يقول:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

1 – الحق والباطل:

الحق خلاف الباطل، الباطل الشيء الزائل، الحق الشيء الثابت، فأي جهة غير الله عز وجل هي جهة باطلة، والفكر الوضعي باطل يتهاوى بعد عام أو أكثر أو بعد سبعين عاماً، السلوك الباطل ينقُضُه الحق، أي شيء غير الله باطل، ألا كل شيء ما خلا الله باطل، فأنت إما أن تربط مصيرك مع شيء زائل سرعان ما يتهاوى.. سرعان ما يتداعى.. سرعان ما ينتهي.. سرعان ما تكشف حينما يزول.

2 – أنت إما مع الحق وإما مع الباطل:

وإما أن تكون مع الثابت مع الحق، إن كنت مع الحق فالله سبحانه وتعالى لا يحول ولا يزول، إن كنت مع الحق فأنت في صعود، وإن كنت مع الباطل فأنت في نزول، إن كنت مع الحق فأنت في ثبات، وإن كنت مع الباطل فأنت في زلزال، إن كنت مع الحق فأنت في تقدم، وإن كنت مع الباطل فأنت في تأخر.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

فالحق هو الشيء الثابت الأبدي السرمدي، المعنى الآخر الحق يقابل الباطل.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)

(سورة ص 27)

الباطل هو الزائل.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء 16)

إذاً: الحق دائماً على عكس الباطل الزائل، وعلى عكس اللعب العابث، فأنت إذا كنت مع الله فهو الثابت، وهو العظيم، وهو الكامل.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

3 – لا حق إلا ما حقّه الله:

لو أن الله سبحانه وتعالى قال: ذلك بأن الله حق، ما الفرق بين التعبيرين ؟ ذلك بأن الله حق، يعني أنه يمكن أن يكون هناك حق آخر غير الله عز وجل، الله حق وهناك حق آخر، أما ذلك بأن الله هو الحق أي لا حق سواه، إذا جاء الخبر معرفاً بـ (أل)فهو أحد أنواع القصر، فالحق هو الله، ولا حق سواه.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

الثابت، الأبدي، السرمدي.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27))

(سورة الرحمن 26-27)

أنت مع الدائم، مع الأبدي السرمدي، مع الذي لا يحول، ولا يزول، أما مع الأشخاص فقد تعلّق الآمال على إنسان فيُعزل من منصبه، أو علقت الأمل على فلان فمات، أو علقت الأمل على هذا القرار فألغي القرار، أو علقت الأمل على زيد فمات زيد، أو علقت الأمل على عبيد فتنكر لك عبيد بلا سبب، فكل ما سوى الله باطل، من أشخاص، وأفكار، وأيّ شيء ما سوى الله باطل، فالبطولة أن تكون مع الحق لا مع الباطل.

4 – الباطل قد يكون فكرا وعملا وسلوكا واعتقادا:

هناك فكر باطل، وعقيدة باطلة، ومذهب باطل، واتجاه باطل وتجمع باطل، وسلوك باطل، وعمل باطل، ومهنة باطلة، إياك أن تكون مع الباطل، كن مع الحق.

والحق من معانيه السمو، فإياك أن تسفل.

((إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها))

[الجامع الصغير عن سهل بن سعد]

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)

فماذا بعد الحق إلا الضلال، وأيّ فكر غير ديني باطل، أي سلوك غير ديني باطل، أي كتاب لا ينتقى من كتاب الله فهو باطل، أي مذهب، أي فكر، أي عقيدة، أي سلوك، أي تصرف، أي تجمع، أي شيء لا يستقي من الحقيقة الأولى وجوده وانتظامه هو باطل.

وَ أَنّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

1 – معنى العليّ الكبير:

العلي الذي تعالى عن النقص، والكبير الذي اتصف بكل صفات الكمال.

2 – من دلالاتِ وإشارات الآية:

في هذه الآية إشارة إلى ثلاثة أشياء أساسية، إلى أن الله واجب الوجود هو الحق، وإلى أن الله عز وجل منزه عن كل نقص، وإلى أن الله له أسماء عليا وصفات فضلى، إذاً: فهو موجود وجوداً واجباً، أي أنه واجب الوجود، ومنزّه عن كل نقض، ومتصف بكل كمال، هذا هو الله عز وجل، موجود، كامل، منزّه عن النقص، هل يمكن أن تتجه إلى غير الله عز وجل ؟ هل هناك جهة في الأرض تستحق أن تلتفت إليها ؟ هل يمكن أن تمضي عمرك الثمين لغير الله عز وجل ؟

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

3 – وجوب إخلاص الوجهة لله تعالى وحده:

واجب الوجود، تعالى عن كل نقص، اتصف بكل كمال، ذلكم الله رب العالمين، لمثل هذا فليعمل العاملون، إلى هذا الإله العظيم فلنتجه، إلى طاعته فلنبادر، معصيته فلنبتعد، عن ما سواه فلنجاف.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللّهِ)

أَلَمْ تَرَ أَنّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ

1 – معجزة جريان الفلك في البحر:

الفلك هي هذه السفن العملاقة التي تجري، ثم انظر إلى هذا الإنسان الجاهل إذْ يقول: هذه السفينة صنعتها اليابان تحل مليون طن، هذه السفينة ليس فيها رافعات، فيها ممرات تدخل فيها الشاحنات بعجلاتها، أنت معجب بهذه السفينة، ولست معجباً بهذا البحر الذي يحمل السفينة، من جعل ذرات الماء

متماسكة بحيث تدفع نحو الأعلى، حتى ينغمس كل جسم في الماء، ويدفعه إلى الأعلى بقوة تكافئ الماء المُزاح ينغمس وهذا قانون (أرخميدس)، انظر الآية الكريمة:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللّهِ)

2 – المؤمن يعظِّم صنعة الخالق:

بنعمة الله، فالإنسان من ضعف إيمانه يتجه إلى تعظيم مصنوعات الخلق، بينما المؤمن يتجه إلى تعظيم صنعة الخالق، إذاً:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللّهِ)

إذاً: قوة تماسك الماء، والقوة الدافعة التي أودعها الله في الماء تدفع بها الأجسام المنغمسة فيه. املأ وعاء من الماء، وضعه في حوض، تشعر أن وزنه انخفض إلى الربع، بقوة تدفع نحو الأعلى، هذا قانون قننه الله عز وجل رحمة بنا، لو أن كل شيء انغمس فيه وغاص إلى أعماقه لأصبح البحر حاجزاً منيعاً بين القارات.

3 – البحر طريق وهمزة وصلٍ بين القارات:

إنّ بفضل هذه الخاصة التي جعلها الله في الماء أصبح البحر أداة اتصال بين القارات، طريقاً معبداً، والطرق المعبدة في البر تكلف مئات الألوف وملايين والملايين، بينما البحر كله طريق، والحمولات كبيرة جداً.

الآن هناك مراكب ناقلات نفط، بواخر عملاقة تحمل مليون طن، فهل هناك مركبة تمشي على عجلات، إذا أردنا أن ننقل معملاً على طريق يجب أن نعدل كل الجسور، لأن وزن هذه المحطة ثلاثمئة طن، ولا يوجد جسر من طرطوس إلى دمشق يتحمل ثلاثمائة طن، إذاً: الطرق البرية متعبة جداً، ومكلفة جداً، الله جعل البحر همزة اتصال بين القارات، طريق معبد، لذلك تجد عشرات بل مئات بل ألوف الألوف من المراكب كلها تنقل السلع والمواد والخيرات والمحاصيل والأغذية والآلات بين القارات، هذا من فضل الله عز وجل، هذه آية أمام أعيننا.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ)

لِيُرِيَكُمْ مِن آيَاتِهِ:

الماءُ مِن آيات الله:

هذه (من)للتبعيض، هذه بعض آياته، الهواء من آياته، والماء من آياته، والملوحة من آياته، والقارات من آياته، وتوزع القارات من آياته، وتحرك الهواء من آياته، والمطر والسحاب والطقس والحرارة والبرودة من آياته، وأن الماء إذا تجمد يزداد حجمه من آياته، ولولا هذه الظاهرة ما عاش مخلوق على وجه الأرض.

الماء في الدرجة(+4) إذا جمدته يزداد حجمه، لولا هذه الظاهرة لانعدم المطر، وانعدم النبات، ومات الحيوان، وتبعه الإنسان، وانتهت الحياة من على سطح الأرض، فإذا تابع الماء انكماشه في التبريد، والماء درجته ثلاثون، وبتبرّده ينكمش إلى الدرجة (+4)، إذا تابعت تبريده يزداد حجمه، فإذا ازداد حجمه، وآلية ازدياده معقدة تعقيداً يصعب فهمه، هذه من آيات الله.

(لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ)

أية آيات الله ننكر ؟!.

(إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلّ صَبّارٍ شَكُورٍ)

إنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلّ صَبّارٍ شَكُورٍ

1 – معنى صَبّار:

الصبار على وزن فعّال، يعني كثير الصبر، والشكور على وزن فعول كثير الشكر.

2 – مِن لوازم الصَبّار:

يجب أن تكون كثير الصبر عن معصية الله، ويجب أن تكون كثير الصبر على طاعة الله، يجب أن تكون كثير الصبر على الأمر التكليفي، افعل ولا تفعل، ويجب أن تكون كثير الصبر على الأمر التكويني، لو أن الله جعل زيداً عقيماً هذا أمر تكويني، أما لو أنه جعله فقيراً، لو جعله مريضاً هذا أمر تكويني، هناك أمر تكليفي، وهناك أمر تكويني، ويجب أن تصبر على الأمرين معاً.

3 – معنى شكور ولوازمه:

وشكور لنعمة الإيجاد، وشكور لنعمة الإمداد، سخر لك الماء والهواء، والطعام والشراب، والزوجة والولد، والمأوى، والصوف والقطن، والمعادن وأشباه المعادن، والغازات والمائعات، لكل صبّار شكور على نعمة الإيجاد، وعلى نعمة الإمداد، وعلى نعمة الهدى والرشاد.

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

نموذج بشريّ متكرّر: وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

1 – من فطرةِ الإنسان: اللجوء إلى الله في الشّدة:

أحياناً يكون الإنسان ملحداً، يقول لك: هذا الدين أفيون الشعوب، هذه كلها أطروحات غيبية لا تُجدينا نفعاً في الواقع، نريد مقترَحًا علميًا حتى لا يتنطع أعداء الدين، مثل هذا الإنسان لو أصابه مرض عضال، لو أصابه ورم خبيث، لو تعطل دسام في قلبه، لو ضاق الشريان التاجي، يا الله، أين ما كنت تدعو إليه ؟ أين كفرك ؟ أين إلحادك ؟ أين استهزاؤك بالدين ؟ تقول: يا رب، ليس لي غيرك، هذه فطرة، أنت في فطرتك مؤمن بالله وتعلم أن الأمر بيد الله، وأنه الخالق، وأنه المربي، وأنه المسير.

2 – البطولة معرفة الله في الرخاء الشّدة:

البطولة أن تعرفه وأنت صحيح، وأن تعرفه وأنت غني، وأن تعرفه وأنت شاب،وأن تعرفه وأنت في بحبوحة، وأن تعرفه وأنت قوي هذه البطولة، أما إذا جاء المرض، إذا جاء الضيق، إذا فقدت حريتك، إذا ألمّ بك ما ألمّ تقول: يا رب، ليس لي غيرك، هذه نموذج بشري متكرر، اسمعوا إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ)

3 – هذه هي أحوال الناس في الشدة:

قد يكون الإنسان في الطائرة، والله حدثني أخ قال لي: كنت راكباً طائرة أوشكت على السقوط، دخلت في صاعقة في جو باريس، وتهشمت مقدمتها، وتعطلت فيها بعض الأجهزة، وانكسر البلور أمام قائد الطائرة، وأصبح سقوط الطائرة وشيكاً، فقال لي قولاً: الركاب بعضهم يلطم خده، وبعضهم يمزق ثوبه، وبعضهم يقول: يا أولادي، يا زوجتي، أراد الطيار أن يطمئن الركاب، أن يقوي من معنوياتهم فكلف

مضيفاً أن يبلّغهم، فذهب ليبلغهم فلا أحد استمع إليه، كلٌّ غارق في مأساته، إلى أن رأى واحداً توسم فيه خيراً، رآه بارد الأعصاب، وكزه، فإذا هو مغمى عليه، هذه مثل الباخرة، وقد تكون في سيارة أحياناً، في باخرة، في مرض عضال، هذا نموذج متكرر.

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

البحر هادئ، والنسيم عليل، سهرة على سطح الباخرة، وحفلة رقص في داخلها، والملهى الفلاني، هذه باخرة (تيتانيك)أول ما أقلعت من إنجلترا هي تعد في وقتها أعظم باخرة في العالم، كتب عن هذه الباخرة: أن القدر لا يستطيع إغراقها، صنعت من طبقتين، فأيما مكان ثقب تغلق الأبواب الداخلية، وتبقى تمخر عباب البحر، لم تصنع فيها قوارب النجاة، ركبها أثرياء أوربا، ثمن الحلي على صدور نسائها يبلغ مئات الملايين، وكل ركابها من الطبقة الثرية، وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أن هذه الباخرة لا يستطيع القدر إغراقها، وفي أول رحلة لها ارتطمت بجبل ثلجي شطرها شطرين، واستغاثت، فكل من حولها ظنوا أن استغاثاتها احتفالات على ظهرها، وقبل ستة أشهر أو أكثر عثروا على حطامها في قاع المحيط، وهم يبحثون الآن عن ثروات بداخلها.

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ)

4 – من أسوأ ما في نهاية النجاة: نسيانُ فضل الله:

والله ربان الباخرة كان ماهراً جداً، فقد أنقذنا من الموت، أبشع شيء في الإنسان أنه إذا وقع في مصيبة، أو في مشكلة كبيرة بعد أن يتفضل الله عليه بتخليصه وإنجائه يعزو هذا التخليص إلى غير الله عز وجل، يا أخي الطبيب ما شاء الله، كان هناك التهاب سحايا فلما قدر الله لابنك الشفاء على يد هذا الطبيب نسيت الله عز وجل، هذه الدعوى ما شاء الله المحامي من الدرجة الأولى له صلات مع القضاة، قوي، الله عز وجل قواك على خصمك، فتعزو الأمر إلى غير الله، هذا مرض أهل البُعد، هذه صورة نموذج بشري.

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)

فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ

أيْ معتدل، يعزو هذا تارة إلى الله عز وجل، وتارة إلى الربان الفلاني.

سمعت أن قائد الطيارة التي قادها إلى برّ الأمان نسي جميع الركاب أن الله لطف بهم، وعزوا هذا إلى أعصاب الطيار المتينة، فلو أن الله عز وجل أضعف مقاومته لانهار مع الركاب، وكانوا كلهم في نعي واحد، ويقول لك: مات جميع ركابها.

(فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى الْبَرّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلّا كُلُّ خَتّارٍ)

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاّ كُلّ خَتّارٍ كَفُورٍ

مَن هو الخَتّارُ ؟

الختّار هو الخوان.

(وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلّا كُلُّ خَتّارٍ كَفُورٍ)

في الدرس القادم إن شاء الله نكمل تفسير قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ (33) إِنّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (13-13): تفسير الآيتان 33 - 34
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-08-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثالث عشر والأخير من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34))

استنباط من الآية الأخيرة من سورة لقمان:

دعوة الناس جميعا إلى معرفة الله وطاعته:

أول استنباط من قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)

أي أن الله عز وجل دعا الناس جميعاً إلى معرفته وإلى طاعته، وأنه ليس بين الناس تفاوت، فكل الناس مطلوبون.

قد يتوهم متوهم أن الله خلق فلاناً مؤمناً، وخلق فلاناً كافراً، وأنه خص المؤمنين بفضله، وحرم الكافرين من عطائه، هذا كلام مرفوض، لأن الخلق كلهم عباده، والخلق كلهم خلقهم ليرحمهم.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود 119)

فلذلك من حين لآخر يخاطب الله الناس كافة، بل إن الأصح أن نقول: إن الله عز وجل يخاطب عامة الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروعه.

مثلاً: لا يعقل أن تقول لإنسان لم يؤمن بالله: غض بصرك عن محارم الله، تقول للإنسان غير المؤمن: آمن، انظر إلى السماء، انظر إلى الأرض، انظر إلى ملكوت الله عز وجل، انظر إلى طعامك، إلى شرابك، إلى خلقك، إلى نفسك، إلى ولدك، فعامة الناس يخاطبون بأصول الدين، وخاصتهم المؤمنون يخاطبون بفروعه، فهذه دعوة عامة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

اتَّقُوا رَبَّكُمْ

1 ـ معنى: اتَّقُوا:

اتقوا فعل أمر، ماضيه اتقى، واتقى فعل خماسي مَزيد على وزن افتعل، ومجرده وقى، والوقاية لا تكون إلا من شيء مخيف أو شيء خطير.

إذاً: إذا عاش الإنسان في الدنيا يجب أن يعلم أن هناك شيئاً سوف يقع فيه إن لم يعرف لماذا خلق ؟ إن لم يعرف لماذا جاء الله به إلى الدنيا ؟ فكلمة اتقوا يعني اتقوا عذابه بطاعته، اتقوا الشرك بالتوحيد، اتقوا عذاب النار بطاعته في الدنيا، اتقوا المصائب بالقيام بأمره والانتهاء عما عنه نهى، فلذلك اتقوا ربكم أي تعرفوا إليه، وأطيعوه لئلا تلقوا شرّ أعمالكم.

أحياناً لو قلت لإنسان: كن طبيباً، فهذا الأمر يقتضي أن يحمل شهادة ثانوية، وأن يدخل الجامعة، وأن يُقبل في كلية الطب، فكن طبيباً تعني أن ادرس الثانوية أولاً.

2 ـ كيف تتقي الله:

أحياناً يأتي الأمر، وينطوي فيه أمر، إذا قال الله عز وجل:

(اتَّقُوا اللَّهَ)

كيف تتقي عذابه ؟ بطاعته، كيف تطيعه ؟ إذا عرفته، إذاً: اعرفه وأطعه عندئذ تتوقى عذابه في الدنيا والآخرة.

طبيعة النفس البشرية تحب السلامة، تحب الكمال، تحب الاستمرار، تحب الصحة، تحب الغنى، تحب المكانة الاجتماعية، هذه أشياء محببة للنفس، وما منّ إنسان إلا ويكره المرض، ويكره الفقر، ويكره أن يهان، يكره أن يعذب، يكره أن يحرم، فالإنسان مفطور على حبّ الخير، ومفطور على كره الشر، فإذا كانت هذه فطرتك فلن تتحقق فطرتك إلا إذا أطعت ربك، ولن تطيعه إلا إذا عرفته، إذاً إذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

تعرفوا إليه، وأطيعوه، إذا أطعتموه، وطبقتم منهجه، ونفذتم تعليماته، وائتمرت بأمره، وانتهيتم بنهيه، صدقتم بشارته، وصدقتم إنذاره، وفعلتم حلاله، وتركتم حرامه، صدقتم وعده، وصدقتم وعيده، إذا فعلتم ذلك سعدتم في الدنيا والآخرة، إذا:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أصلان اعتقاديان متلازمان: الإيمان بالله واليوم الآخر:

الحقيقة في العقيدة شيئان متلازمان: الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، لو أن إنساناً آمن بالله الإيمان الكامل، ولم يؤمن باليوم الآخر فلن يستقيم على أمره، ما الذي يحملك على طاعة الله ؟ أشياء كثيرة، أولها: الإيمان بالله عز وجل، وإيمانك بأنه يراك، وإيمانك بأنه سيحاسبك، إذا آمنت به، ولم تؤمن بأنه يراك فلن تستقيم على أمره، إذا آمنت به، وآمنت بأنه يراك، لكن لن يحاسبك، فلن تستقيم على أمره، ثلاثة أشياء فاحفظوها: لن تستقيم على أمره إلا إذا آمنت بوجوده، وآمنت بأنه يراك، وآمنت بأنه سيحاسبك.

لذلك مع أن أركان الإيمان خمسة، لكن اثنين منها يركز القرآن عليها كثيراً: الإيمان بالله واليوم الآخر.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

الدنيا ليست مقياسا:

لأن هذه الدنيا دار عمل ودار ابتلاء، فكثيراً ما يستقيم الإنسان، ويعالج من قبل الله عز وجل على الرغم من بعض استقامته، وكثيراً ما يكون بعض الناس خارج المعالجة الإلهية، يمدهم الله بالصحة والمال، وهم غارقون في المعصية، فإذا نظرت إلى الدنيا وعددتها هي المقياس فهذا خطأ، قد تجد إنساناً مستقيماً، وفي حياته خشونة، قد تجد إنساناً مستقيماً، وفي حياته بعض المتاعب، لماذا ؟ لأن الله يحمي صفيّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام.

إذاً: ليس من باب القياس أن تظن أن هذا الغني الفاسق الفاجر على حق، لأنه معافى في صحته، وماله وفير، وأن هذا المؤمن المستقيم الذي يتولاه الله بالرعاية والعناية المكثفة، أن هذا الإنسان ليس على حق لأنه معذب.. لا، ليست الدنيا مقياساً، لكن الله عز وجل في الدنيا يكافئ المحسن، ويعاقب المسيء، لكن مكافأة المحسن مكافأة تشجيعية له ولغيره، ومعاقبة المسيء معاقبة ردعية له ولغيره، لكن ما كل محسن يثاب في الدنيا، وما كل مسيء يعاقب.

أناس كثيرون في أعلى أنواع القوة والصحة والبحبوحة يموتون، لكن أين الفصل ؟ في يوم الفصل، أين الحساب ؟ يوم الحساب، أين الجزاء ؟ يوم الجزاء، أين دفع الثمن الكامل ؟ يوم القيامة. فلذلك أنا أعرف أن المستقيم يكافئه الله في الدنيا قبل الآخرة، والمسيء يعاقبه في الدنيا قبل الآخرة، لا أن تكون قاعدة مطردة، قاعدة في الأعم الأغلب لحكمة أرادها الله عز وجل، قد يكون من الحكمة أن يسيء المسيء، ولا يعاقب لخير يعلمه الله فيه، فإذا ساق له بعض الإكرام لعله بالإكرام وحده يعود إلى الله عز وجل، فأنت لا تعلم كل الحقيقة، بل تعلم بعضها، اجعل اليوم الآخر هو المقياس، فإن لم تجد إنساناً قد عوقب في الدنيا فاعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يتفلت من العقاب يوم القيامة.

لكن أقول لكم: الدنيا دار عمل كلياً، ودار جزاء جزئياً، والآخرة دار جزاء كلياً، لهذا قال الله عز وجل:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران 185)

التوفية الكاملة.. الحساب الدقيق.. الحساب الكامل.. الفصل الكامل يوم القيامة، إذًا: يجب أن نؤمن أن الدنيا دار عمل وأن الآخرة دار جزاء، أن الدنيا دار تكليف، وأن الآخرة دار تشريف، أن الدنيا دار ابتلاء، وأن الآخرة دار عطاء، لذلك لن يستقيم إيمانكم إلا إذا جمعتم بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، إن لم تؤمن أن الله موجود وأنه مطلع عليك، سميع لقولك عليم بحالك، وأنه لا بدّ من أن يحاسبك:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر92-93)

إن لم تؤمن كذلك لن تستقيم على أمر الله، هذا الموضوع ينقلنا إلى موضوع نحن بحاجة إليه.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق 12)

خلق السماوات والأرض علّته أن تعلم:

(أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق 12)

اختار الله من بين أسمائه الحسنى كلها اسمين فقط: علمه وقدرته، علمه يطولك وقدرته تطولك، هو موجود، ويعلم، وسيحاسبك، انتهى الأمر، كن بطلاً، واعصِ أمره، اعص وانظر، لن تتفلت من عقابه، لا بدّ أن تدفع الثمن باهظاً، فلذلك إذا أحبّ الإنسان نفسه، إذا كان محباً لذاته فقط، إذا طلب السلامة، طلب الكمال، طلب وجوده، طلب سلامة وجوده، طلب كمال وجوده، طلب استمرار وجوده فعليه بطاعة الله عز وجل، لذلك أرجحكم عقلاً أشدكم لله خشية.

الذي أتمنى عليكم أن تجمعوا بين هذين الشرطين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً)

اتقوا، تعرفوا، وأطع تتق عذابه في الدنيا والآخرة.

(وَاخْشَوْا يَوْماً)

وَاخْشَوْا يَوْمًا

هناك يوم يقف الناس فيه بين يدي رب العالمين.

والله أيها الإخوة الأكارم لو دعي إنسان قبل سبعة أيام ليلقى شخصاً مهماً، تعال يوم السبت، الساعة العاشرة، للسؤال، والدعوة لطيفة، بورقة لطيفة، أنا أقسم، ولا أبالغ أنك لا تنام الليل خلال سبعة أيام، لأن إنساناً قوياً سوف يسألك، لماذا قلت كذا ؟ مع من التقيت ؟ ماذا أردت بهذه الكلمة ؟ إذا قال لك إنسان: تعالَ إليّ لأسألك، فإنك لا تنام الليل سبعة أيام، خالق الكون يعلم السرّ وأخفى.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر92-93)

افعلْ مَا تشاء وهيئ لله جوابا عن كلّ ذلك:

لذلك أيها الإخوة، هذه كلمة من القلب إلى قلب، افعل ما تشاء، ولكن إذا كنت بطلاً هيئ لربك إجابة عن كل فعل تفعله، لماذا فعلت كذا ؟ لماذا أعطيت ؟ لماذا منعت ؟ لماذا حرمت ؟ لماذا سخوت ؟ لماذا ابتسمت ؟ لماذا عبست ؟ لماذا حابيت فلاناً ؟ لماذا نفرت من فلان ؟ لماذا طلقت ؟ لماذا قلت هذا الكلام في البيع ؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر92-93)

المؤمن لا ينجو من عذاب الله عز وجل إلا إذا تمثل في كل موقف يقفه في الدنيا أن الله سيسأله، سيحاسبه، ليس هناك كذب.

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة يس65)

كتابك الذي فيه أعمالك كتاب مرقوم، صفحاته مرقمة، ليس بالإمكان أن تنزع منه صفحة، وصفحاته فيها الذنب مع الصورة، الصورة هي الدليل، والآن أرقى المخالفات، يقدم لك المسؤول عن هذه المخالفة صورة مركبتك وهي متلبسة بالمخالفة، هل تقول: لم أكن في هذا المكان ؟ أليست هذه مركبتك ؟ أليس هذا رقمها في مؤخرتها ؟

ذلك مرة ثانية: إذا آمنت بوجوده، وآمنت بأنه يعلم، وآمنت بأنه سوف يحاسبك لا بدّ من أن تستقيم على أمر الله، بل إن الأمر أقلّ من ذلك.

لا تعصي مخلوقا مثلك أقوى منك فكيف تعصي الخالق العظيم ؟!!!

شخص مثلك من بني الشر، إذا أيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، تخاف منه.

أبسط مثل بين أيديكم: أنت راكب مركبة، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، ودورية واقفة، ودراجات الشرطة جاهزة، إذا كنت بطلاً فخالف ؛ وأنت طبعاً إنسان عادي، تفضل خالف ! لا يمكن أن تخالف، لو تجاوزت هذه الإشارة تبعك أصحاب الدراجات النارية، وهناك من يضعك في موقف حرج، لا حظ نفسك مع إنسان عادي، مع شخص من بني البشر، من جلدتك، أقوى منك قليلاً، ويطّلع عليك، وبإمكانه أن يتابعك، لن تخالف، فكيف يعصي الإنسان ربه ؟ كيف يعصيه ؟ أي إنسان أصدر قراراً وهو يعني ما يقول ولم يعف عنك، ولم تتفلت من رقابته، تجد نفسك مطواعاً، تقدم له الطواعية، الطاعة طواعية، هذا شأن النفس البشرية، ربنا عز وجل أكثر الأحيان يقول:

(آمَنُوا بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة النساء 39)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ)

لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ

1 ـ لا نسب ولا خلة ولا علاقات يوم القيامة:

السيدة عائشة قالت: **يا رسول الله، أيعرف بعضنا بعضاً، يوم القيامة ؟** نحن عندنا علاقات، أم، وابن، وأب، وأخ، وابن عم، وشريك، وصهر بنت، وعلاقات نسب، وعلاقات مصاهرة، وعلاقات تجارية، وعلاقات جوار، علاقات كثيرة جداً، يا ترى لو أن إنساناً وقعت عينه على أمه يوم القيامة أيعرفها ؟ أيقول لها: يا أمي ؟ أتعرفه ؟ أتقول له: يا ولدي؟

سألت السيدة عائشة هذا السؤال، قالت: يا رسول: **أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟** قال:

((نعم يا أم المؤمنين، إلا في ثلاثة مواقف: عند الصراط، وإذا الصحف نشرت، وعند الميزان))

في هذه المواقف لو وقعت عين أحدنا على أمه لا يعرفها، ولو وقعت عين الأم على ولدها لا تعرفه لهول الموقف، ولا في الدنيا كذلك، إذا كانت الأزمة كبيرة جداً، أو إنسان في مشكلة فوق طاقته لا يرى

ابنه.

أنا أذكر أن في بعض الزلازل أقبلت أم على ابنها لتحمله، وتذهب خارج البيت، بعد أن أصبحت في العراء رأت وسادة على يدها، وليس ابنها، من شدة الخوف أقبلت على ابنها لتحمله فحملت الوسادة، لم تفرّق حينما اضطربت بين ابنها والوسادة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج1-2)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

تعرفوا إليه، وتعرفوا إلى أمره، وأطيعوه حتى تسعدوا في الدنيا والآخرة، وحتى ينجو الإنسان من عذاب الدنيا والآخرة.

(وَاخْشَوْا يَوْماً)

2 - لا ينفع الابنَ أبوه وأمه: لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ

السيدة عائشة لما سألت النبي عليه الصلاة والسلام: **يا رسول الله، أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة،** قال:

((نعم يا أم المؤمنين إلا في ثلاثة مواطن: عند الصراط، وعند الميزان، وإذا الصحف نشرت، وفي غير هذه المواطن قد تقع عين الأم على ولدها تقول له: يا ولدي جعلت لك بطني وعاءً، وصدري سقاءً، وحجري وطاءً، فهل من حسنة أنتفع بها ؟ يجيبها ابنها: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنما أشكو مما أنت تشكين))

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ)

والله الذي لا إله إلا هو لو أنك ابن رسول الله، ولم تكن مستقيماً على أمر الله لا تنفعك هذه الأبوة من الله شيئا، والدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[صحيح مسلم]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، لا يأتيني الناس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم))

[ورد في الأثر]

لماذا قدر الله عز وجل أن تكون امرأة لوط هي كافرة، وزوجها نبي ؟ ولماذا قدر الله عز وجل أن تكون امرأة فرعون صديقة، وزوجها قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)

هذه إشارة دقيقة جداً لنا إلى أن الإنسان مخير، وأن المرأة مستقلة في اختيارها عن زوجها، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن كل إنسان محاسب على فعله، فلذلك:

(لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ)

لو أنك منتسب إلى أب عظيم، إلى أب عالم، إلى أب عارف بالله، يقول: أنا جدي فلان، أنعم وأكرم من جدك، أما أنت فما عملك؟.

لا تقلْ أصلي وفصلي أبدا إنما أصلُ الفتى ما قدْ حصلْ

***

كُن اِبنَ مَن شِئتَ واِكتَسِب أدَباً يُغنيكَ مَحمُودُهُ عَن النَسَبِ

***

كأن الله عز وجل يريد أن يقول: إذا قصرت في عملك، وكنت ابن فلان، ابن العالم الفلاني، ابن العارف بالله الفلاني ماذا تنفعك هذه الأبوة، وماذا ينفعك هذا النسب، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أنا جد كل تقي))

[كشف الخفاء للإمام العجلوني قال لا يُعرف]

هذا أقرب مثل.

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

(سورة الأنعام 95)

قد تجد أباً صالحاً له ابن شقي، وقد تجد أباً شقياً له ابن صالح، كل إنسان محاسب على اختياره وعلى فعله.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام 164)

لذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ)

(لقمان 33)

لا يستطيع والد أن يغني ولده المقصر.

(وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا)

(لقمان 33)

3 – لا يغني الابن عن أبيه وأمه شيئا: وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا

أحياناً أب له اتجاه لا ديني، يخرج من صلبه ابن غارق في محبة الله، إذا كان الأب ينهى ابنه عن هذا الطريق، ومات الأب لا ينفعه ابنه الصالح، على خلاف ما يتوهم البعض، متى يكون ابنك الصالح صدقة جارية لك ؟ إذا وجهته أنت هذه الوجهة، إذا حرصت على هذه الوجهة، إذا نمّيت هذا الاتجاه عنده، إذا سررت بهذا الاتجاه، إذا رضيت عن هذا الاتجاه، أما إذا حاربته عندما كان صالحاً، وإذا حملته على معصية الله، وأنكرت عليه دينه، وإذا ضغطت عليه حتى ينحاز إلى مِلّتك وإلى اتجاهك، هذا العمل لو أن إنساناً فاجراً جاءه ابن ولي، هذا الابن لا ينفع والده يوم القيامة، أعماله ليست في صحيفته، لأن الأب ما أراد هذا، ما أراد له هذا الاتجاه، لأنه حاربه على اتجاهه، لأنه ضيّق عليه.

متى يكون الولد الصالح صدقة جارية ؟ إذا حرص الأب على تربية ابنه التربية الصالحة، وإذا سعى لذلك، وإذا شجعه وأكرمه ودعّمه، فإذا خلّف ولداً صالحاً ينفع الناس من بعده فهذه صدقة جارية تحسب للأب.

إذاً لا يستطيع ولد أن ينفع والده، ولا والد بإمكانه أن ينفع ولده، لكن إذا كان الأب سبباً في شقاء ابنه هكذا ورد في بعض الأحاديث أن الابن يتعلق بأبيه يوم القيامة ويقول يا ربي لا أُدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه هو السبب.

امرأة تساهلت مع ابنها حينما سرق بيضة، بل شجعته، ورأت في ذلك رجولة، فلما ألِف السرقة وقع في سرقة كبيرة رافقتها جريمة حُكم عليه بالإعدام، عرف أن أمه الجاهلة كانت هي السبب، فقبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام طلب ممن حوله أن يأتوا بأمه كي يراها، جاءوا له بأمه، فقال: يا أماه مدى لسانك كي أقبّله، فمدت لسانه، وعضها منه فقطعه، وقال: لو لم يكن هذا اللسان مشجعاً لي في الجرائم ما فقدت حياتي.

أحياناً يفرح الأب بابن له دخل كبير، لكن هذا الدخل غير مشروع، يفرح بمكسب من مكاسب ابنه، لكن هذا المكسب لا يرضي الله عز وجل، يفرح أن ابنه أتقن اللغة الأجنبية، لكن على حساب دينه، أرسله إلى بلاد يعد الزنى فيه شيئاً عادياً، عاد من بلاد الغرب، وقد خرج من دينه لكنه أتقن اللغة الأجنبية ؟ فإذا فرح الأب بابنه ربما وقف الابن يوم القيامة وقال: يا رب، لا أُدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه كان هو السبب.

الأبوة مسؤولية كبيرة:

فالأبوة مسؤولية كبيرة جداً، قبل أن تسمح لابنك، قبل أن تدفعه إلى هذا العمل، قبل أن تشجعه، قبل أن ترضى عنه انظر إلى طاعته لله عز وجل، لهذا قال الله عز وجل:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا)

(سورة طه 132)

هذا الذي يدفع بأبنائه إلى أعمال لا ترضي الله، يدفع بابنته إلى عمل بين الرجال من أجل أن تكسب راتباً، هذه الفتاة فيها الحياء والحشمة والوقار، فمع الرجال سلام وكلام ومزاح، وتعليقات وإحراجات، بعد أسبوعين أو ثلاثة أصبحت مسترجلة، أصبحت أخلاقها لا ترضي الله عز وجل، أصبحت لها جرأة لا تستساغ من فتاة مسلمة، إلى أن اندفعت إلى أن تبرز مفاتنها للرجال، وأن تتسلى في وظيفتها، وكان هو السبب من أجل دريهمات يحرص عليها، لذلك:

(وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً)

معنى: وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا

أيها الإخوة الأكارم، الحقيقة الآية فيها معنيان:

المعنى الأول:

أن الابن لا ينفع والده يوم القيامة، وأن الأب لا ينفع ابنه.

المعنى الثاني:

ولكن إذا كان الأب سبباً في إضلال ولده فسوف يحاسب حساباً عسيراً، وإذا كان الابن سبباً في إضلال أبيه، الابن عقله متفتح، عقليته علمانية، مالُ والده أساسه الربا، وقال: لا يا أبت، هذا شيء لا تعرفه أنت، هذه قضية سهلة جداً، فإذا وافق الأب ابنه على هذا المشروع الربوي فقد جرّ هذا الابن أباه إلى الضلال، لن ينفعك ابنك إذا حملك على معصية، ولن تنفع ابنك إذا حملته على معصية.

فإذا كان هناك انحرافات كل إنسان يحاسب على فعله، أما إذا كان أحدهما في فعلته سبباً لمعصية الآخر يحاسب عن فعله، وعن النتائج التي توصل لها ابنه.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

إنّ وَعْدَ اللهِ حقّ

معنى حق أنه واقع، أحياناً الامتحان في الخامس من حزيران، خلال خمسين سنة منذ أن أحدث الشهادة الثانوية الامتحان في وقته، ما مرّ معنا سنة ليس فيها امتحان، فالاستمرار يوحي إلى الطلاب أنه لا بدّ من الامتحان، هذا إنسان، فإذا لم يخلف الإنسان وعده يصبح كلامه حقاً، خالق الكون قال:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

القرآن يقول: هناك يوم قيامة، هناك يوم نشر، هناك حساب، هناك جنة ونار، هناك صعق، هناك وقوف بين يدي الله عز وجل، هناك صراط مستقيم، هناك حوض يرده المؤمنون على النبي عليه الصلاة والسلام، هذا كله من غير المستقبل، ونحن قارناه في كتاب الله، لكن يجب أن تؤمن أن زوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعده ووعيده.

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

لذلك أحد أصحاب رسول الله قال له النبي:

((كيف أصبحت يا زيد ؟))

قال: **أصبحت بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنة يتنعمون، وكأني بأهل النار يتصايحون**، قال:

((عبد نور الله قلبه، عرفت فالزم، إني لك ناصح أمين))

إذا كنت ميكانيكيا من الطراز الأول، وتعرف أن هذه المركبة بلا مكبح، وأن صاحبها انطلق بها في طريق هابطة هبوطا حادا، وأن في نهاية الطريق انعطافًا حادا، ماذا تقول ؟ تقول: وهو في أول الطريق، انتهى، مات، هلك، دُمّر، ولم يحدث شيء بعد، هذا علم القوانين، أنت ميكانيكي، سيارة وزنها طن ونصف، مندفعة بأقصى سرعة في طريق هابطة، وفي النهاية انعطاف خطير، وليس هناك مكبح، فقبل أن يقع تقول: وقع، قبل أن يتدهور تقول: تدهور، وأنت بشكل غير شعوري تستخدم الفعل الماضي، أحياناً يقول لك: ذهبنا إلى خطر.

مثلاً: إذا أشعل الواحد في بيته نارًا، وهناك أسطوانة غاز، يقول لك: انفجرت، وهي لم تنفجر بعد، لكن هذا حكم القوانين، فربنا عز وجل قال:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(البقرة 148)

أنت مخير، لكن:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

(البقرة 148)

تذهب إلى أمريكا، تذهب إلى اليابان، إلى إنجلترا، وتسكن في فندق خمس نجوم، تجلس في بيت فخم جداً، عندك سيارة فخمة:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللّهُ جَمِيعًا)

(سورة البقرة 148)

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

والموت حق، هل أحد ما مات ؟ كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال لا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال لا بدّ من نزول القبر.

كُلُ اِبنِ أُنثى وَإِن طالَت سَلامَتُهُ يَوماً عَلى آلَةٍ حَدباءَ مَحمولُ

***

انظر الإنسان، كل يوم ينظر إلى النعوات يقول: رحمة الله عليه، كأنه هو لن يموت، فلان يقول لك: هذا صيدلي، وهذا تاجر، وهذا كان يعمل بالدرك، الله يرحمه، وهذه شابة ماتت بحادث، كل يوم في بالشام عشرون نعيا تقريباً، سألت واحدا بمكتب الدفن فقال: يموت خمسون بالشام يومياً، النعوات تقريباً عشرون، فاعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، كلما قرأت نعيا فاعلم أن ملك الموت قد تخطاك إلى غيرك، وي يوم سيتخطى غيرنا إلينا.

سيقرأ الناس النعي، ستعيش أربعين، خمسين، ستين، سبعين، وتقرأ نعيا في الطريق كل يوم، وسيأتي يوم سيقرأ الناس نعيك، هذا حق.

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

ماذا أعددنا لهذه الساعة، يا بشر: لا صدقة ولا جهاد، فبمَ تلقى الله إذاً ؟ مجلس علم، على العين والرأس، لكن ماذا عملت بالذي تعلمت ؟ ليس القصد حضور المجلس، الحضور وسيلة، الغاية أن تعمل بما علمت، ومن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

الآن:

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا)

فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنيا

احذروا الدنيا فإنها ساعة غرور:

هناك مثل أرويه دائماً وهو مَثَلٌ مضحك: لي صديق، توفي قبل سنوات، قال لي: كنت صانعاً في سوق الحميدية، وكان لي هواية، هكذا كنت أفعل، يكنس المحل التجاري، ويجمع قمامته في علبة، يضع هذه القمامة في هذه العلبة، ويغلفها بورق فخم، ورق هدايا وشريط حرير، ويضعها على الرصيف، يمر أحد الأشخاص فينكب عليها، وقد امتلأ فرحاً، وأشرق وجهه، يحملها وينطلق، بعد مئة متر يفك الشريط، ثم يفك الورق، يتوقع أن يفاجأ بهدية، بساعة، فإذا بالعلبة قمامة، حينئذ يسب ويلعن، هذا مثل صارخ، والله الدنيا هكذا، الدنيا تغر وتضر وتمر، ما معنى:

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

(سورة لقمان الآية: 33)

يا عبادي، إياكم أن تروا الدنيا بحجم أكبر من حجمها، حجمها صغير:

((لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

أعطى أعداءه المال وهو لا يحبهم.

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص الآية: 76)

وأعطى أعداءه الملك وهو لا يحبهم، ولكن ماذا أعطى أحبابه ؟

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص 14)

فإذا أتاك الله حكمة وعلماً، ومعرفة ويقيناً، وطاعة واستقامة، فأنت المحبوب، وأنت المتفوق، وأنت الفائز، وأنت الفالح، وأنت الناجح، وأنت الذي تزهو على أقرانك يوم القيامة، إذاً:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

الإنسان في أول حياته يرى هذا الشيء كل ما في الحياة، إنسان يرى المال كل شيء، إنسان يرى المتعة كل شيء، إنسان يرى المكانة الاجتماعية كل شيء، إنسان يرى الدرجات العلمية العالية كل شيء، فإذا مضت أعوام تلو أعوام رأى المال شيئاً، ولكنه ليس بكل شيء، فإذا كان على شفير القبر لم

ير المال شيئاً، كان الإنسان يراه كل شيء، ثم رآه شيئاً، ثم رآه لا شيء، ما هو الشيء ؟ إنه معرفة الله عز وجل.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

(سورة الكهف 46)

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

لا تر الحياة بحجم أكبر من حجمها الحقيقي لها حجم:

((إذا أصبح أحدكم آمناً في سربه، معافىً في حسمه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا))

[الترمذي عن عبد الله بن محصن الخطمي]

2 ها الذي لك فتفنيه، والذي لك أن تبقيه:

ليس لك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، الصدقة باقية، واللباس مهتر، والطعام فانٍ، وما سوى الطعام واللباس والصدقة ليس لك، أرقام على ورق تحاسب عليها، من أين اكتسبتها ؟ وفيمَ أنفقتها ؟ أرقام حبر على ورق مع المحاسبة.

مثلاً: إذا دخلت الضابطة الجمركية على محل ليس فيه بضاعة أبداً، فتحوا الدرج فوجدوا فاتورة، هذه الفاتورة التي فيها بضاعة اشتراها، وباعها، وغير نظامية، تعامل كأنها بضاعة مصادرة، هي ورقة يدفع عليها مئة ألف، كذلك المال الزائد حبر على ورق، أنت لست مستفيدا منه، ليس لك إلا ما أكلت فأبليت، الذي أكلته رزقك فقط، والذي لبسته رزقك، والذي أنفقته رزقك، أما الباقي فحبر على ورق، ومحاسب عليه، مثل الجمارك، حبر على ورق، ومحاسب عليه، من أين اكتسبته ؟ وفيمَ أنفقته ؟ حديث رائع جداً، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟))

[سنن الدارمي 835]

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ

1 – مَن هو الغَرور ؟

الغرور هو الشيطان.

2 – كيف يغرك الغرور ؟

فكيف يغرك بالله عز وجل ؟ إذا قال لك: الله لا يدقق في المحاسبة، فهو يغرك، الله لن يحاسبنا، نحن مسلمون، والحمد لله.

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة البقرة111)

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)

(سورة البقرة 80)

سبعة أيام فقط، وبعدها نخرج، تلك أمانيهم، فهذا غرور، يقول لك: الله عز وجل لن يضع عقله بعقلك ويحاسبك، النبي الكريم يسجد يوم القيامة، ولا يرفع رأسه حتى يشفع لنا جميعاً، فكل فكرة تلقى في قلب الإنسان من هذا القبيل فهذا تغرير.

مثلاً: إذا جاء طالب إلى صديقه، وقال له: لا تدرس، هذا الأستاذ نجعل له هدية فيعطينا الأسئلة، فلم يدرس، يوم الفحص فوجئ أن الأستاذ نزيه جداً، والأسئلة صعبة، وهو لم يدرس.

لك دعوة عند قاضٍ، بدل أن توكل محامياً لامعاً، وتهتم بالمرافعة، قال لك: هذا القاضي يقبض قبل الدعوة بيوم، اجعل له هدية، ثم وجد أن القاضي نزيه، وصديقه كذاب، هذا معنى:

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

يعني أن الشيطان يخوفك.

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران175)

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ)

(سورة البقرة 268)

فالإنسان عليه أن لا يصغي إلى كلام الشيطان.

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)

مفاتيح الغيب:

1 – علمُ الساعةِ و إنزال الغيث:

يوم القيامة عنده وحده، لذلك الإنسان إذا قال: يومُ القيامة يوم كذا فهو جاهل، وهو مكذب بنص هذه الآية.

(وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)

2 – العلمُ بما في الأرحام:

لم يقل: يعلم من في الأرحام، بل قال:

(مَا فِي الأَرْحَامِ)

على الحوين المنوي شريط مورثات عددها خمسة آلاف مليون معلومة، فمن الذي يعلم مصير هذا الإنسان، يا ترى ذكي أم أقل ذكاء، بار لوالديه أم عاق لهما، يصبح مخترعاً عظيماً أو مصلحاً كبيراً، أم يصبح مجرماً أو شقياً ؟

(إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)

3 – وَمَا تَدْرِي نفٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أرضٍ تَمُوتُ:

قصة رمزية: يقال: إن سيدنا سليمان كان عنده ملك الموت، فإذا بملك الموت يحد بصره برجل، أحدّ بصره إلى درجة أن قال هذا الرجل: من هذا ؟ قال له: **هذا ملك الموت**، انخلع قلب هذا الرجل، وقال: أرجوك أن تأخذني إلى أطراف الدنيا ؛ لأن سليمان سخر له الريح، فأركبه بساط الريح، وأوصله إلى الهند، بعد أيام توفي هناك، التقى بملك الموت، فقال له: **لماذا تنظر إليه هكذا ؟ قال: عجبت من حاله معي، أمرت بقبض روحه في الهند فلماذا هو عندك ؟!!**

هذه قصة رمزية، لكن مغزاها أن الإنسان لا يدري أين يموت.

أعرف رجلا موظفا كبيرًا أرسل بمهمة إلى أمريكا، عقد قرانه دون أن يعقد القران الرسمي، وسافر إلى أمريكا، وفي المطار توفي، من يصدق أن يموت هناك ؟

(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)

رأى ملك الإمام مالك الموت، فقال له: **يا ملك الموت، كم بقي من عمري** ؟ فقال له هكذا، فلما أفاق الإمام مالك ازداد قلقاً، **يا ترى خمس سنوات، خمسة أشهر، خمسة أسابيع، خمسة أيام، خمس ساعات، خمس دقائق**، فذهب إلى الإمام ابن سيرين، فقال له: **يا إمام، هكذا رأيت ملك الموت، وأشار لي هكذا، ما تفسير هذه الرؤيا** ؟ قال له ابن سيرين: **يقول لك ملك الموت: هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله**، هذا هو التفسير، سؤالك يا إمام مالك من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله.

(إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)

أي يوم القيامة. إنسان ادّعى من حساب أرقام كمبيوتر أن يوم القيامة يوم كذا وكذا، كذب وانتحر.

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1 - 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-08-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة السجدة.

فضل سورة السجدة:

كان النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ سورة السجدة، وسورة الدهر في فجر الجمعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

(سورة السجدة)

أقوال المفسرين في الحروف المقطعة:

مرَّ بنا من قبل أن هذه الحروف التي بُدِئتْ بها بعض السور للمفسرين اتجاهاتٌ عديدة في تفسيرها، فمن هذه الاتجاهات:

القول الأول:

الله أعلم بمرادها.

القول الثاني:

ومن هذه الاتجاهات أنها أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القول الثالث:

ومن هذه الاتجاهات أنها أوائل أسماء الله عزَّ وجل.

القول الرابع:

ومن هذه الاتجاهات أن القرآن الكريم إنما أُنْزِلَ بلغة العرب، وهذه الحروف هي الأساس في هذه اللغة، والحروف بين أيدي هؤلاء العرب، فهناك إعجازٌ في نظم القرآن، من هذه الحروف نُظِّمَ القرآن، ومن هذه الحروف أُنزل هذا القرآن، والقرآن تحدَّى العربَ أن يأتوا بعشر سورٍ من مثله، وتحدَّاهم بسورة، وتحدَّاهم بأقل من ذلك، معنى ذلك أن المادة الأولية لهذا القرآن بين أيدي الأمَّة العربية، والقرآن تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

خَلق الله فيه إعجاز:

نوضح هذا بمثلٍ آخر:

الإنسان مؤلفٌ من ماء، ومن حديد، يصنع مسماراً واحدا، ومن فسفور، ومن كِلس، المواد التي يتألف منها جسم الإنسان أصبحت محددةً ومقننة، هل بإمكان الإنسان أن يصنع إنساناً من هذه المواد التي بين أيدي البشر ؟ الطعام الذي تأكله بعض الأنعام بين أيدينا هل بإمكاننا أن نصنع الحليب من هذا الطعام الذي تأكله بعض الأنعام ؟ المواد التي تأكُلها بعض الحيوانات الأهلية بين أيدينا، هل بإمكان الإنسان أن يصنع بيضةً واحدة ؟ هل بإمكان الإنسان أن يصنع لتر حليبٍ واحدا ؟ هل بإمكان الإنسان أن يصنع خليةً ؟ لا أقول: بشراً سوياً، خليةً، شرياناً، قطعةً من كبد، إذاً لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، الموادُ الأولية التي خلق الله منها الإنسان وخلق الحيوان وخلق النبات متوافرةٌ بين أيدي الناس، ومع ذلك كلُّ الخلق لو اجتمعوا لا يستطيعون أن يصنعوا ذبابةً واحدة، ولو اجتمعوا.

من هذا القبيل، وهذا كلام الله، خلقه فيه إعجاز، لا تزال الحياة سراً حتى الآن، فهذا الكبد الذي يقوم بخمسة آلاف وظيفة، إذا خرجت الروح من الإنسان لماذا يصبح قطعةً من اللحم الفاسد ؟ وكذا الشأن عند الحيوان، وهو ما يقال له عند اللحام: سودة، أريد نصف كيلو من السودة، كان قبل أن يذبح الحيوان كبداً، وكان يقوم بأدوار خطيرة جداً، ما هذا السر ؟ فأي شيءٍ فيه حياة لا يزال سراً..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

بذرة التين أدقُّ من رأس دبوس، هذه إذا زُرِعَت في ظروفٍ صحيحة تُنتج شجرة تينٍ كبيرة، هذه التفصيلات، هذه الخصائص، هذه الطعوم هل هي كامنة في هذه البذرة ؟ لهذه الشجرة آلاف الخصائص، آلاف الجُزئيات، كلها مبرمجةٌ في هذه البذرة، لا يزال سرُّ الحياة مجهولاً..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ)

(سورة الإسراء: آية " 85 ")

هذه القوة التي تجعل المواد الأولية كائناً حياً، الآن يدرّسون في الجامعات الخلية في عامٍ بأكمله، الخلية الحيوانية، كل أنواع المخلوقات الحيَّة لها طبيعةٌ في الخلق واحدة، وأنها تنطلق من خلية، والخلية عالمٌ قائمٌ بذاته ؛ لها غشاء، ولها سائل، ولها نواة، ولها نويّة، ولها مورثات تزيد على خمسة آلاف معلومة مبرمجة في أوقاتٍ محددة.

أردت أن أنقلكم من ألف لام ميم إلى طبيعة الخلق، المواد التي تأكلها البقرة بين أيدينا، فهل بإمكان البشر جميعاً أن يصنعوا كأس حليب ؟ المواد التي تأكلها الدجاجة بين أيدينا فهل بإمكان البشر جميعاً أن

يصنعوا بيضةً واحدة ؟ المواد التي يأكلها الإنسان بين أيدينا، فهل بإمكان أعظم الدول تقدماً أن يصنعوا خليةً واحدةً حية ؟ ليس في الإمكان، سرُّ الحياة بيد الله عزّ وجل، هناك إعجاز.

عجز البشر جميعا عن إتيان بآية من مثل القرآن:

والقرآن الكريم نزل بلغة العرب، بلسانٍ عربيٍ مبين، وأصل هذه اللغة من هذه الحروف، فهل بإمكان البشر لو اجتمعوا أن يأتوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن ؟ إذاً الوحي الذي جاء به النبي فيه دليلٌ على أنه وحي، حينما تحدى الله عزّ وجل العرب كافةً عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبعضهم قال: **" إذا تحدّاك إنسان، وأنت بالإمكان أن تَرُدّ عليه التحدي ماذا تفعل ؟ "** أغلب الظن أنك ترد عليه التحدي، فإذا كان الذي تحداك من طبقتك، وقد استعلى عليك، وتحداك، فهل تسكت ؟ إذا كان الذي تحداك من طبقتك، ولم يُعرف قبل هذا التحدي بهذا التفوُّق، هذا يدفعك أكثر إلى أن تقبل التحدي، إذا كان الذي تحدَّاك من طبقتك، ومن بلدتك، ومن مستواك، ولم يُعرف قبل هذا التحدي بالتفوق، وفي تحديه لك منعك من حظوظ نفسك، وقيَّدك بقيودٍ كثيرة، هل ترفض هذا التحدي ؟ لا شك أنك تندفع كثيراً إلى قبول هذا التحدي، والقرآن تحدَّى العرب جميعاً على لسان النبي عليه الصلاة والسلام أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أن يأتوا بعشر سورٍ من مثله، أن يأتوا بسورةٍ واحدة، أن يأتوا بآيات، ومع ذلك وقف العرب عاجزين عن أن يُعارضوا هذا القرآن، أو عن يأتوا بمثله، لذلك ربنا عزّ وجل لفت النظر إلى أن:

(الم)

(سورة السجدة)

حروفٌ بين أيديكم تنطقونها صباح مساء، إن كنتم تزعمون أن هذا القرآن ليس كلام الله فأتوا بمثله.

تنزيل الكتاب من رب العالمين:

الحقيقة في هذه السورة قضيةٌ دقيقة جداً، هذه القضية متعلقةٌ بالعقيدة وهي، يقول الله عزّ وجل:

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)↓(الم

أصل التركيب تنزيل الكتاب من رب العالمين، التنزيل مصدر بمعنى مُنَزّل، أيْ كتابٌ منزلٌ من رب العالمين، كلام البشرِ قاطبةً في كَفّة، وهذا الكلام في كفةٍ أخرى، هو كلام الخالق، وذاك كلام المخلوق، والفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق كالفرق بين الخالق والمخلوق.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ)

أي أن الكتابُ المنزّلُ على النبي عليه الصلاة والسلام المُعْجِزُ بنظمه، المتعبَّد بتلاوته، الذي نُقِل إلينا عن طريق التواتر هذا الكتاب من رب العالمين، لا من زيدٍ أو عبيد، قد تدخل إلى مكتبِه، وترى آلاف الكتب، هذا من مؤلفه ؟ الدكتور فلان، وهذا مؤلفه ؟ الفقيه الفلاني، البشر يصيبون، ويخطئون، يتفوقون في ناحية، ويتخلّفون في ناحية، يُبْدِعون في جهة، ويقصِّرون في جهةٍ أخرى، هذا شأن البشر، ولكنك إذا وقعت عينك على القرآن الكريم فهو كتابٌ من نوعٍ آخر، كتابٌ من خالق البشر، لذلك الله عزّ وجل يقول:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة السجدة)

مَن ربُّ العالَمين ؟

ومن ربُّ العالمين ؟ رَبُّ العالمين الخالق، المُسَيّر، الرب، أي الذي خلقكم، والذي يتعهدكم بحياتكم المادية والمعنوية، والنفسية والعقلية والروحية، هو الرب يُمِدُّ ويربي، فأقرب اسمٍ من أسماء الله تعالى للإنسان كلمة (رب)، اسم الرب، لأنه الذي يُربي، لأنه الذي يرحم، لأنه الذي يداوي، لأنه الذي يعطي، لأنه الذي يمنع في الوقت المناسب، لأنه الذي يرفع لحكمةٍ أرادها، والذي يخفض، والذي يبسط، والذي يقبض، والذي يُمد، والذي يُحيي، والذي يميت، والذي يُلقي الخوف أحياناً، أو يلقي الطمأنينة أحياناً أخرى، هو رب العالمين.

لاَ رَيْبَ فِيهِ

لكن في قوله تعالى:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

بين المبتدأ والخبر، أو بين طرَفَيّ الآية جاءت جملةٌ اعتراضية:

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

لا يوجد شك، ولا خللٌ، ولا شططٌ، ولا مبالغةٌ، ولا تقصيرٌ، ولا زيادة، ولا نقصانٌ.

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

كلما تقدّم العلم أيّد آيات القرآن:

أي أنك كلما قرأت هذا الكتاب، وهو القرآن ازددت يقيناً وثقة بمعلوماته وأخباره، في حين أنه ليس من كتابٍ على وجه الأرض، ولا يوجد كتاب كُتِب وأُلِف إلا مع مضي الزمن ظهر ما ينقض بعض فقراته، حتى الكتب الدينية التي هي في الأوْج، هناك مؤلف كتاب شهيرٍ جداً من كِبار العلماء، والمعلومات الطبية في وقتها كانت ضعيفة، فذكر في هذا الكتاب الشهير الذي يُشار إليه بالبنان، في هذا الكتاب أن الإنسان إذا أكل فإن بخار الطعام يتوَجّه نحو الدماغ فيُعيق التفكير، وكأن المعدة وعاءٌ مفتوح، وكأن هذا الطعام بخارهُ يتصاعد نحو الأعلى إلى أن يصل إلى الدماغ، طبعاً بعد تقدم الطب والتشريح، وعلم وظائف الأعضاء، الإنسان يضحك من هذه الفكرة، إذاً أي كتابٍ من صنع البشر، أي كتابٍ من تأليف البشر، بمجرّد أن يمضي عليه وقتٌ حتى يظهر الخلل فيه، لكن القرآن الكريم مَضى على نزوله ألفٌ وأربعمائة عام، وكلّما تقدّم العلم أشواطاً طويلة اتجه نحو تأييد آياته.

الظلام في الغلاف الخارجي بين سبق القرآن وإثبات العلم:

إن أحد العلماء العرب المتفوقين في علم الفضاء كان في قاعدة إطلاق الصواريخ في بلد غربي، طبعاً هذه القاعدة على اتصال مع روّاد الفضاء في مركبتهم، أحد روّاد الفضاء بعد أن تجاوزت مركبته الغلاف الجوي الأرضي، صاح بأعلى صوته عبر جهاز اللاسلكي: لقد أصبحنا عُمْياً لا نَرى، ما الذي حصل ؟ كان في جو الأرض، وكان في جو الهواء، والهواء يُحَقق ظاهرة في علم الفيزياء اسمها تناثر الضوء، فأشعة الشمس تنعكس على ذرات الهواء، وعلى ذرات الغبار فيتألّق الجو، ويصبح مضيئاً، فلما خرجت المركبة من غلاف الأرض الجوي إلى أعماق الفضاء فجأةً انتقل رواد الفضاء بمركبتهم إلى ظلامٍ دامس، والصور الملونة التي يلتقطها روّاد الفضاء من مركباتهم تؤكّد ذلك، لونٌ أسودٌ داكن، وفي هذا اللون الأسود تألّقٌ لبعض النجوم، ومنها الشمس، هذا ما يراه روّاد الفضاء في مركبتهم، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15))

(سورة الحجر)

هذه آية قرآنية أُنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم قبل ألف وأربعمائة عام، ولم يكن يخطر في بال أحد أن الإنسان سيستطيع أن يصعد إلى القمر، أو أن يتجاوز الغلاف الجوي.

(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا)

(سورة الحجر: آية " 15)

أي أنه لا يوجد كتاب يؤلفه إنسان إلا والزمن وحده يكشف بعض أغلاطه، والحقيقة حتى في العلوم البحتة، حتى في النظريّات الجغرافية يقول لك: نواة الأرض سائلٌ مُلتهب، بعدئذٍ يقال: لا، بل مواد جامدة، لكنّها حارّة، كل حينٍ من الدهر يظهر علينا العلماء بنظرياتٍ جديدة تنقض ما قالوه من قبل، إذاً الإنسان ليس عليماً، يتكامل في علمه، يكشف خطأه ويصوّبه، ثم يخطئ، ويكشف الخطأ ويصوب، هذا شأن البشر.

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ)

(سورة البقرة: آية " 255 ")

أما كتاب خالق البشر لو امتد بنا الزمان آلاف السنوات فلا يمكن أن يظهر اكتشافٌ علميٌ حقيقيٌ، أن تظهر حقيقةٌ علمية تناقض كلام الله، لأن الله هو خالق الكون، الكون خلقه والقرآن كلامه، ولا يُعقل أن يتناقض كلامه مع خلقه، إذاً كلمة:

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

تعني اليقين الحقيقي.

لابد من أن تعلم أن القرآن كلام الله حتى تستقيم:

والإنسان أيها الإخوة، إذا شعر أن هذا الكلام كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه فإنه يستقيم معه، لكن متى يستقيم على أمر الله ؟ قال بعض علماء التوحيد كلمةً رائعةً، قال: " **الإنسان لا يستقيم على أمر الله إلا إذا أيقن بوجوده، وأيقن بأنه يعلم، وأيقن بأنه سيُحاسب** " موجود، ويعلم، وسيحاسب، لو أيقنت بوجوده، لكن يقينك بعلمه ضعيفٌ فلن تستقيم، لو أيقنت بوجوده وأيقنت بعلمه، لكن يقينك باليوم الآخر ضعيف فلن تستقيم، لاحظ لا تستقيم على أمره إلا إذا أيقنت بوجوده، وبعلمه، وبحسابه.

فأريد أن أوضح لكم هذا المثل، لو فرضنا أن إنساناً ثرياً كبيراً من أثرياء العالم، وله وكيل أعمال يُعطيه راتباً يفوق حدّ الخيال، يعيش في بحبوحةٍ كبيرة، هذا الثري العظيم أرسل أمراً إلى وكيله: أن ادفع إلى فلان مليون ليرة، فهذا الوكيل، لو علم أن هذا الكتاب، أو أن هذا التوقيع، ليس توقيع هذا الثري، وأعطى هذا الوكيل هذا المبلغ لزيد، والثري لم يعترف على هذا الكتاب، وقال: لا.. هذا ليس توقيعي، أنت تسرّعت، وتورطت، وعليك أن تدفعه، ادفعه من جيبك، إذاً لو لم يكن هذا التوقيع توقيعه

لكان هذا المبلغ عليه، ولو أن التوقيع توقيعه، ولم ينفِّذ مضمون هذا الأمر لطرده من عمله، إذاً حينما يأتي هذا الوكيل كتابٌ من هذا الثري يأمره أن يدفع هذا المبلغ لزَيْد، أخطر شيءٍ في هذا الكتاب أن يتأكّد الوكيل من صحة التوقيع، فلو لم يتأكد، ودفع، ولم يكن التوقيع توقيعه لدفع هذا المبلغ من جيبه، ولو كان التوقيع توقيعَه، ولم يستجب له لطرده من عمله، إذاً أخطر شيءٍ عند الوكيل التحقُق من نسبة هذا الكلام إلى هذا الثري، هذا مثل للتقريب.

فأنت كمسلم أخطر شيء في حياتك أن تتأكّد أن هذا القرآن كلام الله، إن لم تكن متأكداً فلن تستقيم على أمر الله، لن تعبأ به، إن كان من عند الله، وعصيت أمر الله فقد أهلكت نفسك، وإن لم يكن من عند الله وقيّدت نفسك في الحياة بقيود لا معنى لها ضيّعت حياتك، إذاً قبل كل شيء يجب أن تؤمن بأن هذا القرآن كلامه.

أيها الإخوة الأكارم، في العالم الإسلامي لا يُطْرح إطلاقاً أن هذا القرآن ليس كلام الله، ولكن هناك تصديق عفوي، تصديق ساذج، تصديق وراثي، نحن نشأنا في بلاد إسلامية، وبيننا خطباء، ومدرسون يدرسون التربية الإسلامية، وهذا القرآن كلام ربنا، لكن حينما يأتيك إنسان ضال مُضل، حينما يأتيك إنسان يريد أن يُطْفئ نور الله، ويطرح عليك أن هذا القرآن ليس كلام الله، هل عندك حجةٌ قوية على ذلك ؟ أنا أرى أنه لا شيء في الحياة أخطر من أن تؤمن بكل جارحةً من جوارحك، وبكل خليةٍ من خلاياك أن هذا القرآن كلامُ الله، وأنّك سوف تحاسب في ضوء هذا القرآن، وأنه أمرٌ ونهيٌ، وأن في الأمر سعادةً، وفيما نهى الله عنه شقاء، من هنا جاء قوله تعالى:

(الم)

(سورة السجدة)

أي هو كتابٌ يعجَز البشر مجتمعين عن الإتيان بمثله، أو بسورة من مثله:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء)

فمن معاني:

(الم)

هذه الحروف بين أيديكم، هذا القرآن أُنزل بلسان العرب، وهذه الحروف تؤلِّف لسان العرب، ائتونا بمثل هذا القرآن، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الرب خالقكم، ومربّيكم، ومسيركم، خلق، وربّى، فأقرب معنى للتربية: أنت لو تعهّدت نبتةً، تعهُّدُ النبتة بأن تسقيها، وأن تعزق الأرض حولها، وأن تنزع الأعشاب الضارة من حولها، وأن تُعطيها السماد الكافي، والمقويات والهرمونات، وأن تقلِّمها، وأن تكافح أمراضها، هذه هي التربية، وتربية الطفل الصغير بأن تُعنى بصحته، وبطعامه، ونومه، وحاجاته، ونظافته، ثم أن تعنى بجسمه، ثم أن تعنى بعقله، ثم أن تُعنى بأخلاقه، ثم أن تعنى بدينه، هذه هي التربية، هذا شيءٌ قريبٌ منا.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

من لوازم ربوبية الله أنه جعل لنا منهجا في الحياة:

أي لأنه رب العالمين أنزل هذا الكتاب، ولأن الله عزّ وجل لا يُعقل أن يخلق الإنسان، ويدَعه بلا منهج، بلا إرشاد، بلا تعليم، بلا تنوير، بلا توضيح، بلا تبيين، هذا بيان إلهي، فالدولة إذا شقّت طريقاً، بعد أن تشق الطريق تضع لك الشاخصات، هنا مُنعطف خطر، انتبه، هنا تقاطع خطر، هنا جِسر، أمامك تحويل، فهل تقبل أنت من وزير المواصلات أن يشق الطريق، وفي الطريق آلاف المفاجآت من دون شاخصات ؟ إنسان يشقُّ الطريق، ويضع الشاخصات ؛ خالق الأكوان يخلق الإنسان، وينزل على نبيّه الكتاب، فيه فلسفة الحياة، فيه تفسيرٌ دقيقٌ من خالق الكون لحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان، ولِما قبل الحياة، وما بعد الحياة، فيه تربيةٌ لجسمه، ولنفسه، ولأخلاقه، ولدينه، ولعقله، فيه أمرٌ وفيه نهيٌ، فيه حلال، وفيه حرام، فيه وعد، وفيه وعيد، فيه بشارة، وفيه إنذار، فيه آيات كونية دالّة على عظمة الله عزّ وجل، ومع كل ذلك:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(سورة السجدة: آية 3)

الآن دعاة الإلحاد، أو المشككون في الدين، من أين يأتون بالشبهات على الدين ؟ يدعون أن هذا القرآن من عند محمد، وأنه كان ذكياً جداً، وكان عبقرياً، وقد جمع العرب حوله بهذا الكتاب، وهذه مرحلة انقضت وانتهت، فالحد الفاصل بين الإيمان والكُفر أن تعتقد أن هذا القرآن من عند الله، لا ريب فيه كلام خالق الكون، منهجٌ دقيق..

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا)

لا أن تعتقد أن هذا الكلام من عند محمد عليه الصلاة والسلام كما يدعي ذوو الشبهات.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الإذعان التام لا الفلكلور والشكليات:

فإذا كان لك رأي بموضوع غض البصر، وتقول: يا أخي، إنه صعب، لأننا في زمن صعب، ولك رأي آخر مغاير لكتاب الله في موضوع الربا، لك رأي في الاختلاط، لك رأي في حجاب المرأة، لك آراء مخالفة لكتاب الله، أي أنك ترتاب بهذا الكتاب، فلا تراه حكيماً، ولا تراه صحيحاً، ولا تراه يُغَطِّي حاجات البشر الآن، فالقضية ليس فيها حل وسط، كلام دقيق، وكلام مصيري، وكلام خطير، أي أنَّك يجب أن تأخذ موقفاً واضحاً صريحاً، أما الوضع العفوي أنه يا الله، هذا كلام الله، تقبله من أول وجه، ومن ثاني وجه، ومن ثالث وجه، ومن رابع وجه، ومن خامس وجه، وسادس وجه، وبيتك غير إسلامي، وعلاقاتك المالية غير إسلامية، وعلاقاتك الاجتماعية غير إسلامية، وكسب المال غير إسلامي، وإنفاق المال غير إسلامي.. قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلّ مَحَارِمَهُ))

(من سنن الترمذي عن صهيب)

رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه، هذا الموقف الفلكلوري، أنه كلام الله، وتقبّله، وتعلقه في غرفة النوم ببيت من قماشٍ مطرّز، وأنت تعصي كلام الله عزّ وجل، القضية أخطر من ذلك، بل أصبح القرآن عند بعض الناس كتاباً يُتلى على الأموات فقط، فإذا سمعوا القرآن تشاءموا، ظنوا أن هناك ميّتا، هذا القرآن كلام الحياة، كلامٌ يُحيي القلب، كلامٌ فيه منهجٌ للحياة، فلذلك بين الإيمان والكفر، أن تعتقد أن في القرآن ريباً، وفيه شك، وتناقض، وتضارب، هناك موضوعات لم يعالجها، في موضوعات أغفلها، بينما تجد موضوعات سكت عنها، موضوعاتٍ فَصّل فيها كثيراً وليته لم يُفَصِّل، إذا كنت تملك هذا التفكير في كلام خالق الكون فالشوط أمامك طويلٌ جداً.

إذا قال لك رجل: أنا طبيب.. تقول له: أهلاً وسهلاً، فقال لك: الضغط كلما ارتفع كلما كان أحسن.. فأين أنت من الطب ؟! أنت تحتاج لتعلّم كثير معنا، أيّ طبيب هذا ؟ فلان مُمَرِّض، قلها لطالب ابتدائي: كلما ارتفع الضغط كان أحسن ؟ إنه يرفضها، قال لك آخر: أنا مهندس، الإسمنت لا يحتاج لحديد، الإسمنت يتحمل قوى الشد.. فهذا مهنته أدنى من أن يكون عاملاً، لأن أبسط حقيقة بالبناء أن الإسمنت يتحمل قوى الضغط، ولا يتحمل قوى الشد، يحتاج إلى حديد يدعمه، فإذا قال لك: أنا دكتور في الهندسة، وأرى أنّ الإسمنت يكفي، ورأيه كرأي ذلك العاقل، فارفضه، ودعه وشأنه، أو يقال: ليس لنا شأنٌ في آيات القرآن، أو هناك تناقضات، أو الموضوعات التي عالجها القرآن لا تُغَطِّي حاجات البشر الآن، عندئذٍ نقول له بأدب: لا يزال الطريق أمامك طويلاً جداً، هذا دين وهو قضية مصير، هذا كلام خالق الكون، اقرأه، تدَبَّره، تفهَّمه، احضر مجالس العلم، اعلم أبعاده، اعلم حلاله وحرامه، واعلم وعده ووعيده..

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة السجدة: آية " 3 ")

من معاني الحق:

المعنى الأول: الشيء الثابت:

كلمة حق تهز أعماق الإنسان، الشيء الثابت.

الآن مثلاً: دمشق لها ملامح، فإن الذي عاش فيها قبل عشرين سنة يقول لك: لم يكن فيها كل هذا التوسع، لم تكن مثلاً بهذه الأناقة، بهذه النظافة، فيها حدائق، توسّعت توسُّعاً كبيراً جداً، كل إنسان عاش قبل عشرين سنة كان يرى هناك عربات في المَرْجة، كانت الطرق كلها ترابية، وكان منظف الطرقات يرش الماء بالقربة، وبعد هذا يكنس، كل وقت له ترتيبه، أما جبل قاسيون فإنه لا يتغَيَّر، هذا الجبل كما كان على عهد الرومان فهو نفس الجبل لم يتغير، على عهد الأمويين كذلك نفس الجبل، فهناك أشياء ثابتة، وأشياء متغيّرة، فالجبل ثابت، أما أنواع البيوت، نمط البيوت، الشوارع والحدائق تغيَّرت طبعاً، فالحق هو: الشيء الثابت، وهناك ثوابت على الدوام، فالقرآن:

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ)

أي كلام خالق الكون، مع مرور الزمن لا يمكن أن تأتي حقيقةٌ ثابتة تنقضه، ولا أن تأتي تجربةٌ تظهر نقصاً فيه، ولا أن تأتي فرضيةٌ تُضعف مضمونه، مستحيل لأنه هو الحق..

(يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

القرآن حق من رب العالمين:

لم يقل: من الله، بل قال: من ربك الذي يربّيك، المربي أرسل توجيهات، المربي أرسل هذا الخطاب، المربي أنزل هذا القرآن، انتبه يا إنسان، أنظر إلى الأب، قد ترى لسانه يُبْرى من كثرة التنبيهات ؛ يا ابني ادرس، يا ابني كن صادقاً، يا ابني اضبط أمورك، سجِّل مصروفك، مثلاً، وفِّر من المال، هذه النفقة لا جدوى منها، تجد أن الأب بشكل عفوي، بدافع محبته إلى ابنه، بدافع حرصه على مستقبله، بدافع تجربته الطويلة، بدافع معلوماته الغزيرة، دائماً يُلقي على ابنه المواعظ والتوجيهات، والحكم والحقائق، هذه الأبوة، وهذه التربية، فلأن الله رب العالمين، رب هذا الإنسان، لئلا يضيع، لئلا يتيه، لئلا يضل، لئلا يزل، لئلا يشقى، لئلا يهلك نفسه، تنزيلٌ من رب العالمين..

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ)

دائماً الحق هو الشيء الثابت، فأحياناً نحن ننشئ جناحاً في المعرض خمسة عشر يوماً، فقد يكون من كرتون، أو من قماش، السقف قماش، الجدران كرتون، هذا مكان مؤقّت، لكن دائرة ضخمة مثلاً، رئاسة الوزراء يكون بناءه من حجر، لأنه أُنشئ ليبقى، تجد أساسات، وجدر سميكة.. الخ، فالحق هو: الشيء الثابت، والباطل هو: الشيء المتغيّر، الأزياء كلها باطلة، لماذا ؟ لأنها في تبدُّل مستمر، أما الحق فثابت.

المعنى الثاني: الشيء السامي العظيم:

وهناك معنى آخر للحق ؛ الشيء الثابت والشيء السامي العظيم، الهادف..

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ)

أي مهما تبدّلت العصور، مهما تبدلت الأزمان، مهما تقدّم العلم، مهما تنوّعت الحياة، مهما ارتقى الإنسان، مهما فعل فإن هذا القرآن كلام خالق الكون، الحقائق فيه ثابتة، والأوامر ثابتة، والنواهي ثابتة، والطريق إلى الله ثابت، لا توجد مفاجآت.

إن الإنسان أحياناً يمشي مع الباطل، يقضي حياته في الباطل، يقضي شبابه، يزهق حياته، وبعد ذلك يكتشف بعد سبعين عاماً أن هذا المبدأ باطل، تخلّى عنه أصحابه، هذه مفاجأة كبيرة جداً، هذه مفاجأة ساحقة أن إنسانا نذر نفسه لهذا المبدأ، وضحّى بشبابه، وقدّم كل شيء، بعد هذا العُمر المديد إذا بالفكرة لا أصل لها، وهي من صنع الأهواء والمصالح والأنانيّات، وانتهى الأمر، و..

(قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

(سورة يوسف)

هذه مفاجأة خطيرة، أما إذا كنت دائماً مع الحق فليس هناك مفاجأة أبداً، مهما تقدمت بك السن، مهما قرأت، مهما اطلعت، لو سافرت، أينما شئت فلتسافر، القُرآن شامخٌ كالطود، بالعكس كلما رأيت انحراف البشر ازددت إيماناً بأحقيّة هذا القرآن..

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

(سورة الإسراء)

الآن المجتمع الغربي انتهى، ليس في المجتمعات الغربية أسرة بالمعنى الدقيق، هناك تفتت، تشرُّد، تبعثُر، تشرذم، شقاء، لدى الغرب تقدم من جهة وتخلف كبير من جهات أخرى، الإنسان انسحق لأنه ظن أن اللذّة هي كل شيء، غفل عن القيم، غفل عن سر وجوده، غفل عن هذا الانضباط الروحي الرائع، هذا كله غفل عنه الغربيّون، لذلك الدعوة إلى الله في بلاد الغرب، تجد الآن قبولاً مُنقطع النظير،

لشقاء الإنسان، لما يعانيه من قسوة المادة، فالأطفال أحياناً يُسرقون لتباع دماؤهم في السوق السوداء، في أرقى المجتمعات، فهذا الشيء مخيف جداً، أن الإنسان بلغ درجة صار عندها يسرق طفلاً، ويصفي دمه، ويبيعه في السوق السوداء !! هكذا يكون الإنسان إذا ترك الله عزّ وجل، يصبح وحشاً كاسراً، إذاً هذا المرض الشهير الذي قال عنه أحد المسؤولين الكبار في بلد متقدم قال: " إن القنبلة الذرية التي سوف تصيبنا هي مرض الإيدز ".

ما هو الفساد ؟

سنة ألفين وعشرة سيكون ضحايا الإيدز بمئات الملايين، هذا هو الزنا، أقول لكم، وأنا أعني ما أقول: ما من مشكلةٍ تعاني منها البشرية إلا بسبب الخروج عن هذا المنهج، ما هو تعريف الفساد ؟ هو حركة إنسان مخيَّر بلا منهج، فلسفة الفساد في الأرض إنسان مخير يتحرّك بغير منهج، لأن كُلّ شيءٍ مضبوطٌ بالحكمة والخير من عند الله، أما الإنسان فمخير، فإذا عرف الله عزّ وجل، وسار على هذا المنهج سعِد وأسعد، وأصبحت الأرض صالحة، وأما الفساد إخراج الشيء عن صلاحه.

متى يَفْسُد الملح ؟ يفسد إذا وضعته في الحلويات، فإنك أخرجته عن صلاحه، أفسدت المِلح وأفسدت الحلويات، إذا وضعت السكّر في الطعام، أفسدته وأفسدت الطعام، الشيء الذي تخرجه عن صلاحه هو الفساد، إذاً حركة الإنسان بلا منهج هي الفساد، فلذلك:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

إذا كنت مع القرآن فاطمئن، لن تفاجأ مهما امتد بك العمر، كلما نمت خبرتك وزاد اطلاعك، وزادت ثقافتك ازددت يقيناً بأن هذا القرآن الكريم حقٌ من عند الله عزّ وجل.

لي صديق أطلعني على كتاب عن العسل، مؤلف هذا الكتاب من بلدٍ عقيدته (لا إله)، ليس: (لا إله إلا الله)، بل لا إله، عشرة فصول، أو أحدَ عشر فصلاً عن فوائد العسل، الأمراض الجلدية، الأمراض الإنتانية، علاقته بجهاز التنفس، بجهاز القلب والدوران، علاقته بالإنتانات، علاقته بالهضم، علاقته.. شيء يحيّر العقول، كأن هذا الكتاب كله ترجمةٌ تفصيليةٌ لقوله تعالى:

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

(سورة النحل: آية 69)

والذي ألّف الكتاب لا يعرف الآية الكريمة إطلاقاً، وإذا عرفها فلن يؤمن بها في الأساس..

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة السجدة: آية 1)

إذاً ليس فيه ريب..

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

ما حار فيه البشر بيّنه ربُّ البشر:

1 - من أين يتشكل الجنين ؟

البشرية اضطربت، وتساءَلَتْ: يا ترى الجنين يتشكّل من الحوين المنوي، والرحم عبارة عن أرض للاستنبات ؟ هكذا اعتقد الناس عشرات السنين، أو لخمسين عاماً تقريباً، ثم اعتقدوا العكس أن الجنين ينشأ من البويضة، وما الحوين المنوي إلا مُنَبِّه، لكن الله عزّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

(من) للتبعيض، من حوين وبويضة، ثم تاه البشر، يا ترى الجنين من الرجل أم من الأنثى، أيْ كونه ذكراً أو أنثى ؟ القرآن أشار:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

الذي يُشَكِّل الذكر والأنثى النطفة لا البويضة، هذا كلام خالق الكون، آيةٌ قرآنيةٌ تاه فيها البشر:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(سورة الرحمن)

2 - أين هو البرزخ بين البحرين ؟

أين هذا البرزخ ؟ أين هو البرزخ بين البحر العربي والبحر الأحمر ؟ باب المندب فيه الماء متصل، أين هو البرزخ بين المتوسط والأسود في البوسفور ؟ أين هو البرزخ بين المتوسط وبين الأطلسي في جبل طارق ؟ والناس قالوا: لا يوجد شيء، لكن الله قال:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

إلى أن ركب الإنسان المركبة الفضائية، وصوّر البحار من الجو فظهرت في الصور خطوطٌ بين كل بحرين خط، لا تزال طبيعة هذا الحاجز مجهولة، لكن آثاره واضحة، أن كل بحر له مكوناته، وله ملوحته، وله حرارته، وله كثافته، الكثافة، والملوحة، والمكونات، والحرارة.. وأن مياه البحر الأحمر لا يمكن أن تختلط بمياه المحيط الهندي، وأن مياه المتوسط لا يمكن أن تختلط بمياه البحر الأسود، ومياه المتوسط لا يمكن أن تختلط بالمحيط الأطلسي، جاء الكشف من عند الأجانب من خلال مركبات

الفضاء، عندما رأوا أن هناك خطوطاً درسوا المياه، فرأوا هنا ملوحة بنسبة ما، وهنا ملوحة بنسبة أخرى، عند باب المندب، قبل عشرة أمتار من هذا الخط وجدوا الماء له ملوحة، وهنا بعد مسافة معينة له ملوحة مغايرة، وإذا الإنسان شاهد البحر الأحمر، أو وضع قدمه في مياهه يشعر أن هذا الماء خفيف أخف من مياه المتوسط، ولكن يوجد اتصال عند قناة السويس، وعند باب المندب.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20))

بقي هناك حجر محجور بين المياه العذبة والمياه المالحة، أسماك المياه العذبة لا تنتقل إلى المياه المالحة، وأسماك المياه المالحة لا تنتقل إلى المياه العذبة..

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً)

(سورة الفرقان)

هذا كلام خالق الكون، ولو كان عند الإنسان وقت، أو نفس علمي طويل لعلم الكثير، أيَّةُ إشارةٍ في القرآن تدعمها حقيقةٌ علميةٌ عمرها أعوامٌ طويلة.

3 ـ لماذا يطير الطائر ويهاجر ؟

ربنا عزّ وجل قال عن الطيور:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

(سورة الملك)

ربنا عزّ وجل عزا طيران الطائر انطلاقا وتسيراً في جو السماء إلى ذاته، وبحثٌ علميٌّ بقي مستمراً عشرين عاماً لماذا يطير الطير ؟ لماذا يُهاجر ؟

هناك مائة مليار طائر في العالم، لماذا تهاجر، ما السبب ؟ يا ترى خارجي أم داخلي ؟ خارجي.. صار الجو حاراً، فوضعوها في أجواء باردة، تحركت نحو الهجرة.. يا ترى طول النهار ؟ وضعوها في ضوءٍ قليل قصير تحركت نحو الهجرة، إذاً الدافع داخلي، ولكن هاجرت فما الذي يدلّها على الطريق ؟ تنطلق في رحلةٍ طولها سبعة عشر ألف كيلو متر من جنوب أمريكا إلى شمالها، سبعة عشرَ ألف كيلو متر، من جنوب أفريقيا إلى الشرق الأوسط، ولكن تعود إلى أعشاشها في الشتاء، لو أنها انحرفت درجة واحدة، كان عشها في دمشق فإذا هي في مصر، كان عشها في دمشق فإذا هي في العراق، درجة واحدة، من يهديها في ظلمات البر والبحر ؟ القرآن الكريم قال:

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)

(سورة الملك19)

كما أن هناك آية أخرى:

(مَا يُمْسِكُهُنّ إِلّا اللّهُ)

(سورة النحل: آية " 79 ")

عزا طيران الطائر إلى ذاته، البحث العلمي يقول: " هناك إيقاعاتٌ خفيةٌ تُلقى في قلب الطائر من جهةٍ مجهولة "، وبعد عشرين سنة وضّحوا الآية، هكذا القرآن، أنت مع كلام خالق البشر، فلا أعتقد أن هناك كتاباً آخر يجب أن يستحوذ عليك، أن تهتم به، أن تُعْنَى بدقائقه، أن تُعنى بآياته، أن تُعنى بأمره ونهيه، أن تُعنى بوعده ووعيده، ببشارته وإنذاره إلا القرآن..

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة السجدة)

القرآن نذير لمَن لا نذير له:

هؤلاء العرب الذين ما أتاهم من نذيرٍ من عهد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام إلى محمدٍ عليه الصلاة والسلام..

(مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

حُكم أهل الفترة:

وهذا ينقلنا إلى موضوع أهل الفَترة، أهل الفترة مطالبون بالإيمان بالله، أما إذا لم يصلهم التكليف فلا يحاسبون عليه، فهناك أناس يخلطون، الكون يدلُّ على الله عزّ وجل، والإنسان أعطاه الله عقلاً، هو أداة معرفة الله، فلا عُذر له إن لم يؤمن، لكنّ الإنسان إذا آمن بالله، ولم يَطّلع على الأمر بالزكاة، أو الأمر بغض البصر، أو الأمر بكذا، فهذه الأوامر التفصيلية هذه لا يحاسب عليها إلا من تبلغها، فلذلك أهل الفترة لا نقول: معفون إعفاءً تاماً من كل مسؤولية..

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا)

(سورة ق: آية " 6 ")

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

إذاً:

(الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3))

(سورة السجدة)

الذي أتمناه على كل أخٍ كريم أن يكون موقفه واضحاً تماماً من هذا الكتاب الكريم، هل تملك الأدلة القطعية على أن هذا القرآن كلام الله ؟ إن كنت كذلك فكيف تُغَطِّي نفسك أمام ربك إذا سألك: لماذا لم تنفِّذ هذا الأمر ؟ لماذا قصَّرت في هذا الأمر ؟

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

كيف نخالف القرآن مع أنك تعلم أنه قطعي من رب العالمين ؟

لماذا أنت أيها المؤمن تتساهل أحياناً في هذا الأمر ؟ إذا كان بلغ لديك حدَ اليقين أنه كلام الله فكيف تنسجم مع نفسك إذا خالفت أمره ؟ ألا تشعر باختلال التوازن ؟ أما إذا كان هناك شك عندك من أمره فإن هذا موضوع آخر، لذلك فإنّ هذا الموضوع يجب أن يكون محسوماً لدى كل إنسان.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه السورة الكريمة التي كان النبي عليه الصلاة والسلام يقرأها كل فجر جمعة، وأغلب الأئمة في العالم الإسلامي يقلِّدون النبي عليه الصلاة والسلام، ويقرؤونها في فجر الجمعة مع سورة الدهر، فمراكز الثقل في الآية هي كلمة:

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

أي هل هناك يقينٌ قطعيٌ، قطعيٌ، قطعي أن هذا القرآن كلامه ؟ إذا كان كذلك فكيف تخالفه ؟ وكيف تُغَطي نفسك أمام ربك حينما يسألك ؟ وكيف لا يختل توازنك إذا كنت موقناً أن هذا الكلام كلامه وأنت لا تطبّقه، ما موقفك ؟ هذه قضية مصيرية، كلمة لا ريب فيه:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

مخالفة القرآن ثمنها باهظ:

مثلاً: لو أن مهندساً رأى بناءً، وأدرك بعلمه أن هذا البناء خطر، ولابدّ من أن يقع، وأنه ألقى هذه الحقيقة على مسامع أصحاب البيت، وأبلغهم، وأخذ توقيعهم على ذلك، وأصحاب البيت لم يعبئوا بهذه النصيحة، وبقوا في البيت إلى أن وقع البيت فوق رؤوسهم، فهذا هو العلم، وذاك هو الجهل.

فالإنسان أحياناً يرتكب مخالفات في كتاب الله يدفع الثمن باهظاً، حتى في حياته الزوجية، لأنه لم يعبأ

بكلام الله عزّ وجل، الله عزّ وجل قال مثلاً آيات كثيرة جداً في العلاقات الزوجية، فإذا لم يعبأ بها يدفع الثمن باهظاً من سعادته الزوجية، هناك توجيهات كثيرة في كسب المال، إن لم تعبأ بها دفعت الثمن باهظاً من تجارتك، هناك توجيهات كثيرة في إنفاق المال إن لم تعبأ بها دفعت الثمن باهظاً، فإذا كان الإنسان مُحِباً لذاته، إذا كان مفرطاً في أنانيته، عليه أن يتفهم كلام الله، والمرء يجب أن يلاحظ نفسه.

مثلاً: آلة غالية جداً.. كأن يشتري أحياناً كمبيوترا، أو يشتري مركبة موديل جديد، يقول لك: هذه كلفتني كذا مليون، تجده حريصاً حرصاً بلا حدود على اقتناء الكُتَيّب الذي تصدره الجهة الصانعة، حريصا حرصا بلا حدود على ترجمته لفهمه، حريصا حرصاً بلا حدود على تنفيذ تعليماته، حرصك على سلامة هذه الآلة دفعك إلى كل هذا الحرص، وكل هذا الجهد، ترجمت، وقرأت، وفهمت، وسألت، ونفّذت، فحرصك على آلةٍ صغيرة أو على مركبةٍ أيعقل أن يكون أشد من حرصك على نفسك، وعلى مصيرك، أو على مستقبلك ؟! وعلى حياتك بعد موتك ؟ هكذا الدنيا ؟ الإنسان لو رأى بعينه شيئاً من الخلل في صحته لا ينام الليل، يسأل عن أمهر طبيب، يسأل عن الطبيب الأول، ويقول لنفسه: (هذه عين ليس معها لعب، فهي أداة البصر)، ولكن نفسك التي بين جنبيك ؟ هي التي سوف تعيش بها إلى الأبد..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

أرجو أن تدركوا معي أنّ هذا الكتاب ليس أمراً بسيطاً، بل هو قرآن من عند الله، بعضهم يتلوه، ويقول: تباركنا والحمد لله، شعرنا براحة، كلام الله، بل إن الموضوع أخطر من ذلك، أخطر بكثير، أخطر من أن تتلوه هكذا، الموضوع أن تقف عند أمره ونهيه، عند حلاله وحرامه، عند آياته الدالة على عظمة ربك، عند الآيات التي تَعِد أو توعد، هذا المطلوب، فالمطلوب أن نتلوه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، أن نتفهّمه، أن نتدبّره، يجب أن تكون في مستوى هذه الآية:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

كنت أقول لكم سابقاً: من السهل جداً أن تقول: ألف مليون ليرة، فالعبارة لا تكلفك شيئاً، ألف مليون ليرة، ثلاث كلمات، يمكن إذا كان الجهد يقاس بوحدات، وحدات لا تُذكر، فما هذا النفس الطويل.. ألف مليون ليرة.. شتّان بين أن تلفظها وبين أن تملكها، فرقٌ كبيرٌ جداً بين أن تقول ألف مليون ليرة، وبين أن تملك هذا المبلغ، وكذلك في القرآن شتّان بين أن تقرأ آية قراءةً صحيحةً مجوّدة، وبين أن تكون في مستواها، حينما تخالف كلام الله ما معنى ذلك ؟ أنك تشعر من أعماقك أن هذا الكتاب صعب تنفيذه، كأن الله كلّفك ما لا تطيق مع أن الله تعالى يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

أنت حينما تعتقد هذه العقيدة فإنك قد خالفت كلام الله، فاجهد أن تكون عقيدتك مطابقةً لكلام الله، فاجهد أن تستنبط سر الحياة، سر الكون، وسر الحياة، وسر وجودك من كلام الله، اجهد أن يكون عملك مطابقاً لتوجيهات الله، اجهد أن تكون أهدافك مطابقةً لما في القرآن، لا أن تكون أرضيةً، فالمفاجأة كبيرة جداً..

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور)

يُصْعَق.

مثلاً: شخص قلب كل أمواله إلى عملة أجنبية، بيته، معمله، أرضه، سيارته، بيته في المصيف، المبلغ صار مئتي مليون، وذهب إلى بلدٍ أجنبي ليعيش في بحبوحةٍ كبيرة، ليشتري البيوت والقصور، والسيارات، ويعيش بلا عمل، وبدخلٍ من ريع المبلغ في المصارف، ثم يفاجأ أن هذه العملة التي قبضها مزوّرة، فبلحظة واحدة يُصعق..

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا)

(سورة المعارج: آية " 42 ")

أحدهم وضع أمواله في شركة استثمارية في الخليج.. مبلغ ضخم جداً كل ما يملكه.. كان في دمشق يمضي شهراً كعطلة، فلما عاد إلى بلده في الخليج أنبأه شريكه أن هذه الشركة التي وَضَعْت فيها كل أموالك قد فلست، فوقع مغمياً عليه، هذه صعقة كبيرة جداً، نحن نقرأ القرآن، يجب أن يقرأ قراءةً جدية، الأمر، النهي في كل التوجيهات، في زواجك، ولا يمكن أن يشقى زوج إن طبق كلام الله عزّ وجل..

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء: آية " 19 ")

اقرأ التفاسير كُلّها، المعاشرة بالمعروف ليس أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، هكذا توجيه ربنا عزّ وجل، فيجب أن نقرأ القرآن بتدبر، بعناية، يجب أن توقع عملك وفق القرآن، إذا قال لك: غُض بصرك، غض بصرك وإلا صار البيت جحيماً، كلّ يوم بينك وبين زوجتك مشاجرتان أو ثلاثٌ، إذا قال لك الله عزّ وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

فصدق، لأنك تجمع، ثم تجمع، ثم تجمع، وفي ثانية واحدة يدمِّر مالك كله..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

إذا قال لك: زكّ، فزكّ، إذا قال لك: افعل، فافعل..

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات: آية " 12 ")

لو اغتبت يتمزّق المجتمع، تجد الأسر كلها ممزقة فما هو السبب ؟ من الغيبة، يستقبل استقبالاً مع ترحاب، يغادر منزلهم فيتكلمون عليه، يكون الواحد حاضراً فينقل الكلام إليه: هكذا تكلموا عليك بعد خروجك، فيرد عليه: هم تكلموا بهذا الكلام علي، أعوذ بالله، هم فعلوا معي هكذا ؟ تجد الحياة كلها ممزقة من الغيبة، فإذا أردت أن تسعد أنت، وأهلك وأولادك، ومجتمعك وجيرانك، وإخوانك فطبق كلام الله، كلمة:

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

نعم أعتقد أن كلام الله صحيح، وهو عين الصواب والحق. الدرس كله على كلمة لا ريب فيه، هذا كلام خالق البشر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (2-6): تفسير الآيتان 4 - 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-08-23

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة السجدة، في الدرس الماضي أيها الإخوة تمَّ شرح قوله تعالى:

(الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3))

(سورة السجدة)

هذا الكتاب ليس مفترى، بل هو من عند الله، من هو الله ؟

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

شرف الرسالة مِن شرف المرسِل:

شرفُ الرسالة من شرف المُرسل..، لذلك **" لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت ".**

فهذا الكتاب لا ريب فيه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتابٌ حكيم، كتابٌ حق، نور، هدى، بيان، لكن أخطر من هذا كلِّه، هو مِن عند مَن ؟ من عند خالق السماوات والأرض، كلما عظم المرسِل عظمت الرسالة، كلما شرف المرسِل شَرُفت الرسالة.

خطاب الله خالق السماوات والأرض، أراد الله عزَّ وجل أن تأخذ الكتاب بقوة، كي تعظمه، كي تبادر إلى تصديقه، كي تبادر إلى تطبيق أحكامه، كي تسعى إلى نيل ثماره، أن تعرف من الذي أرسله، الله عزَّ وجل قال:

(الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3))

(سورة السجدة)

من هو رب العالمين ؟

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة السجدة: آية " 3 ")

من هو ربك يا محمد ؟ ومن هو ربُّ العالمين ؟

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة السجدة: آية 4)

الكون المعجِز مِن خَلق الله رب العالمين:

حتى هذه اللحظة لا يعرف أحدٌ حدودَ الكون، لا يزال الكون مجهولاً، بعض العلماء قال: **" لم تبتل بعدُ أقدامُنا ببحر المعرفة "**، لا زلنا على شاطئ المعرفة، فإذا كنا على شاطئ معرفة الكون فكيف بخالق الكون ؟

مجرة حديثة اكتشفت بعيدة عنا بعشرين ألف مليون سنة ضوئية.. والضوء يقطع في الثانية الواحدة ما يزيد على ثلاثمائة ألف كيلو متر، كَم في الدقيقة ؟ وفي الساعة ؟ وفي اليوم ؟ وفي السنة ؟ فما عرفنا بعدُ حدود الكون، ولا زلنا أطفالاً نحبو، ولم تبتل بعد أقدامنا ببحر المعرفة "، كما قال الإمام الشافعي: **" كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي ".**

فهل تعرف أيها الأخ الكريم من الذي أنزل هذا الكتاب ؟ إنه ربُّ العالمين، ومن رب العالمين ؟ إنه خالق السماوات والأرض..

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

ففي المنطق هل يمكن لجهةٍ أن تعبدَها غير خالق الكون ؟

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 21 ")

المستحق للعبادة وحده هو خالق الكون وحده:

لعِظَم حقِه عليكم، ولأنه الخبير، ولأنه العليم، ولأنه الرحيم، ولأنه القدير، ولأنه اللطيف، ولأن إليه المصير، فالله عزّ وجل يريد أن يبين أن الله وحده يجب أن تعبده، لأنه هو الخالق، وهذا كتابه، خلق الكون، ونَوّره بهذا الكتاب، إنه نورٌ مبين، خلق الكون، وجعل هذا الكتاب حجةً علينا أو لنا، حجةً علينا إن قصّرنا في تطبيقه، وحجةً لنا إن طبّقناه..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

معنى: سِتَّةِ أَيَّامٍ

لا شك أن اليوم المذكور في هذه الآية ليس اليوم الذي نعرفه، لأن اليوم الذي نعرفه هو ناشئٌ من دورة الأرض حول نفسها، دورة الأرض حول نفسها تُشَكِّل يوماً طبعاً مع وجود الشمس، قبل أن تُخلَق السماوات والأرض لم يكن هناك يومٌ بالمعنى الذي نعرفه، إذاً: لا شك أن هذه الأيام الستة ليست كأيامنا التي نحن فيها، لا كما قال اليهود: خلق الله عزّ وجل الكون يوم الأحد والاثنين، والثلاثاء والأربعاء، والخميس والجمعة، واستراح يوم السبت، ليس من شأن خالق الكون أن يصيبه التعب، وأن يستريح، وليس من شأن هذا الخلق أن يكون بأيامٍ لم تُخلَق بعد، إلا أنّ بعض العلماء قالوا: " إنّ هذه السماوات والأرض خُلِقَت في حِقَبٍ ممتدة، حقبٍ طويلة "، فلو درست علم الجيولوجية لقالوا لك: إن الأرض مرت في نشأتها بمرحلةٍ غازيةٍ، مرحلة ملتهبة، مرحلة متجمدة، عصور مطيرة، عصور نوع من أنواع معيّنة، فلعل هذه الأيام الستة هي مراحل طويلة تم خلالها خلق السماوات والأرض، وكأن الله عزّ وجل هيّأ للإنسان هذه الأرض، وجعل تهيئتها من خلال مجموعةٍ من الأيام التي هي في المعنى الدقيق حِقَبٌ طويلةٌ، تم فيها خلق السماوات والأرض، وكل ما تقرؤونه في تاريخ الأرض، وعلوم الأرض، وعلوم الجُيولوجية إنما هو تفسيرٌ وتوضيحٌ وبيانٌ لمضمون هذه الآية الكريمة، وقد قال العلماء عن القرآن: **" إن فيه أصولاً للعلوم الكونية "**، أصولاً وليس فروعاً..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

مذاهب العلماء في الآيات المتعلقة بذات الله:

كلّكم يعلم أنّ في القرآن الكريم آياتٌ متعلقةٌ بذات الله، مثلاً:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

(سورة الفجر: آية " 22 ")

أين كان ؟ وأين وصل ؟ وهل ربنا يمشي ؟ وهل له مكان يحويه ؟ ليس بجسمٍ، ولا صورةٍ، ولا مُتَبَعِّضٍ، ولا متجزّئ، ولا متلونٍ، وكل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك.. **" علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لا يُسأل عنه بمتى ؟ لأنه خالق الزمان، ولا بأين هو، لأنه خالق المكان "**، كيف:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

كيف:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

كيف:

((إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا))

[مسلم وأحمد]

هذه الآيات المتعلِقة بذات الله عزّ وجل ذهب فيها العلماء أربعة مذاهب، مذهبان من مُعْتقد أهل السنة والجماعة، ومذهبان باطلان.

المذهب الأول: التفويض:

فالمذهب الأول هو التفويض، الآيات المتعلقة بذات الله نُفَوّض تفسيرها إلى الله، وهذا أسلم مذهب، لأن المحدود لا يمكن أن يحيط باللامحدود، ولأن الحادث لا يمكن أن يحيط بالقديم، ولأن المخلوق لا يمكن أن يحيط بالخالق، وأنت في أعلى درجات العلم، وأنت في تألّقك العلمي قل عن هذه الآيات: لا أدري، وأنت عند الناس عالم، وأنت حينئذٍ عند الناس في أعلى درجات العلم، لا يضُرُّك أن تقول: لا أعلم، في آياتٍ متعلقةٍ بذات الله عزّ وجل، لأن الله عزّ وجل لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به العقول، وكلُّ ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك، هذا مذهبٌ أول، مذهب التفويض، نفوض أمر الاستواء إلى الله عزّ وجل.

سُئل الإمام مالك عن الاستواء فقال: **" الاستواء معلوم ـ في هذه الآية ـ والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة "**، وهذا في كل الآيات المتعلقة بذات الله..

(إِنّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)

(سورة النساء)

كيف يسمع ؟ وكيف يبصر ؟ وكيف:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

وكيف:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

وكيف:

(فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: آية " 48 ")

هذه الآيات المتعلقة بذات الله، المذهب الأول أن نفوض.

المذهب الثاني: التأويل:

والمذهب الثاني أن ونُؤوّل، التأويل بما يليق بكمال الله، بما يليق بذات الله، بما يليق بمقام الألوهية والربوبية:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

أي جاء أمر الله عزّ وجل، هذه القرية الفاسقة، الفاجرة، المنحرفة، يأتيها أمر الله، أيْ أن يأتيها عقابه، يأتيها زلزال، يأتيها بركان، تأتيها مشكلات، تأتيها أوبئة، تأتيها أمراض، فإذا قلنا: جاء أمر ربّك، بمعنى جاء أمره، و جاء ربك، بمعنى جاء أمره، وإذا قلنا:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

اليد رمز القوة، قوة الله فوقهم، وإذا قلنا:

(إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(سورة الحج)

سميع: أي يعلم المَقولات كلها، وإذا قلنا: بصير: يعلم المتحرّكات، وإذا قلنا: عليم: يعلم ما في النفوس، وإذا قلنا:

(فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا)

أي بعنايتنا، المذهب الثاني مذهب التأويل بما يليق بكمال الله عزّ وجل.

المذهب الثالث والرابع: التعطيل والتجسيم:

وأما مذهب التعطيل ومذهب التجسيم فهما مذهبان باطلان، أن تُجَسِّم الذات الإلهية بأنه يأتي، وأن له يداً، وأن له عيناً، وأن له سمعاً، هذا مذهبٌ باطل، لأنه قام على التجسيم، فكل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك.

مرة أحد الخطباء نزل درجةً وقال: إن ربّكم ينزل إلى السماء الدنيا كما أنزل أنا، هذا تجسيم، هذا كفر، إذاً: مذهب التجسيم باطل، ومذهب التعطيل باطل، أن تعطل هذه الآيات، آيات من كتاب الله، فلذلك هناك آياتٌ تُدركها بلا تفسير، فلا تحتاج إلا إلى تفسير الزمخشري، ولا إلى تفسير الطبري، ولا إلى تفسير القرطبي، ولا إلى تفسير ابن كثير، ولا إلى مفسّر حديث، ولا إلى قديم.

مثلاً:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)

(سورة التحريم: آية " 8 ")

سبل فهم الآيات:

1 ـ فهم الآيات فهما عربيا سهلا:

هذه آيات محكمة واضحة، أساساً تقام عليك الحجة بهذه الآيات، لست محتاجاً إلى أحد، لست مضطراً إلى أن تكون تبعاً إلى أحد في فهم هذه الآيات، إن الله يحب الصادقين.

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة)

(إِنّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(سورة الأعراف)

(وَاللّهُ لَا يُحِبُّ الظّالِمِينَ)

(سورة آل عمران)

(فَإِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران)

(إِنّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

(سورة الأعراف)

فالآيات المحكمة واضحة، ومن فضل الله علينا أن كل الآيات التكليفية محكمة، كل الآيات التكليفية التي فيها افعل، ولا تفعل آيات محكمة، هذه آيات نفهمها بالبداهة، كل ذي فكرٍ سليم، كل ذي إدراكٍ صحيح، كل ذي فطرةٍ نقيّة يقرأ هذه الآية فيفهمها، هذه آياتٌ واضحةٌ بينةٌ لا خلاف فيها.

2 ـ تفسير الآيات بالنقل:

هناك آيات من نوع آخر، بالنقل نعرفها، فإذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثٌ صحيحٌ، يفسِّر آيةً كريمة فهذه الآية وإن بدت لنا غامضة لكن النقل الصحيح يُلقي عليها ضوءاً.. شيء جميل.

3 ـ تفسير الآيات بالعقل:

وهناك آياتٌ نفهمها بالعقل، فإذا قال الله عزّ وجل:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا)

(سورة الإسراء: آية " 23 ")

يا ترى منطوق الآية ألا تقول لهما: أف ؟ إذاً: ما الذي أراده الله من هذه الآية ؟ إذا كان قول أفٍ قد نهيت عنه لأن فيه إيذاءً للأم أو للأب، إذاً أي نوع من أنواع الإيذاء منهيٌ عنه بالعقل، هناك آياتٌ نفهمها بالنقل، وهناك آياتٌ نفهمها بالعقل.

4 ـ طريق تفويض تفسير الآيات:

وهناك آيات كهذه الآية لا نفهمها لا بالنقل ولا بالعقل، ولكن إما أن نفوض أمرها إلى الله عزّ وجل، وهي آياتٌ قليلةٌ جداً، لا تزيد على عدد أصابع اليد، فنفوّض تفسيرها إلى الله عزّ وجل، ونحن في أعلى درجات العلم، هذا حجمك وأنت عبد، ألم تسمع قوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

فإذا تَنَطَّعْتَ لفهم كل آيةٍ فكأنك تنقض قوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

ولو نظرت إلى السلف الصالح حينما كان أحدهم متواضعاً في نقل العلم، وفي تعليم العلم، لرأيت العجب العجاب..

تورع السلف الصالح عن الإجابة بغير علم:

جاء وفدٌ من المغرب إلى الإمام مالك إمام دار الهجرة، والمقولة التي تعرفونها جميعاً: **" لا يُفْتى ومالكٌ في المدينة "**، جاء هذا الوفد بثلاثين سؤالاً، طرحت عليه الأسئلة، أجاب عن سبعة عشر سؤالاً، وقال عن الباقي: لا أدري، قالوا: يا إمام، أنت إمام دار الهجرة، قصدناك من أطراف الدنيا، بقينا أربعة أشهر نسير إليك، ثم تقول: لا أدري، فقال بكل بساطة: قولوا لهم: الإمام مالك قال جواباً لها: لا يدري.. نصف العلم لا أدري، هذا التنطُّع لمعرفة كل شيء، كل شيء تعرفه، إذاً فأنت جاهل، الذي قال: إنه يعرف كل شيء فهو لا يعرف شيئاً.

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

والقصة التي تعرفونها.. كان شابٌ يدرّس في بعض مساجد بغداد، وقد فتح الله عليه، والتف الناس حوله، طبعاً هذا ملأ قلوب الأصوليين من الدعاة غيرةً وحسداً، فأراد بعض علماء بلده أن يُسَقِّهَهُ، وأن يُصَغِّرَهُ أمام تلاميذه، فحضر درسه، فلما انتهى الدرس قال: يا غُلام، هذا الذي قُلته ما سمعناه، قال: يا

سيدي، أو علمت العلم كله ؟ قال: لا، قال: إذاً هذا من الذي لا تعرفه.. هذا الذي قلته، وهو من الذي لا تعرفه أنت.

كلما رأى الإنسان عظمة الله عزّ وجل، وكلما كَبُرَ الله في نظره كلما صغر في عين نفسه، والكبر من علامات الجُهّال.

أروي هذه القصة مئات المرّات، لأنها تشفي غليلي، دخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيت أحد أصحابه الذين استشهدوا، رفع عنه الرداء، وقبّله، وبكى، فسمع النبي صوتاً من وراء الحجاب، فإذا امرأةٌ تقول: هنيئاً لك أبا السائب، لقد أكرمك الله، فالنبي عليه الصلاة والسلام غضب، فأجابها، طبعاً هو يجيبها، لماذا ؟ لأنه نبيٌ مُشَرّع، فلو سكت لكان كلامها صحيحاً، إنه مُشَرّع، ولا يصح أن يسكت على خطأ، لو أنك كنت في مجلس، وتكلمت امرأةٌ من وراء الستار كلاماً غير صحيح، وسكت، فلا شيء عليك، لست مكلّفاً، أنت لست مشرعاً، لكن النبي وحده لو سكت في هذا الموطن لعُدّ كلامها صحيحاً، قال: ومن أدراكِ أن الله أكرمه ؟! قولي: أرجو الله أن يكرمه.. كلمة (أرجو) فيها أدب مع الله، أما كلمة: (لقد أكرمك الله) فيها تألٍّ على الله، فيها تطاول على مقام العبودية، قولي: أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبيٌ مرسل، لا أدري ما يفعل بي.

إذا علمت المستقبل على وجه اليقين، فلست عبداً لله عزّ وجل، خرجت من مقام العبودية إلى مقام الألوهية، إذاً قولي: أرجو الله أن يكرمه، ونحن نقول: أرجو الله أن يكرمنا، أما على وجه اليقين، أنا من أهل الجنة، وفلان من أهل النار، فلان كافر، من أعطاك هذه الصلاحية كي تكون وصياً على الناس ؟ هذا ليس من شأن العبد، هذا من شأن الرّب، أنت كن في حدود الأدب، ورحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، إذاً:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

القول الأول في معنى ستة أيام: أيام من أيامنا:

بعضهم قال: ستة أيامٍ من أيامنا.. هذا القول ينقضه طبيعة اليوم، طبيعة اليوم ناشئةٌ عن دورة الأرض حول نفسها مع وجود الشمس، هذا تم بعد خلق السماوات والأرض، بعد المرحلة الغازية، والمرحلة الدخانية، والمرحلة الملتهبة، وانفصال الكواكب عن بعضها، وبرود الكواكب، إذاً أن نفهم أن خلق السماوات والأرض تم في أيامٍ ستة كأيامنا، هذا فهمٌ مرفوض.

القول الثاني في معنى ستة أيام: أيام من أيامنا:

أما أن نفهم أن خلق السماوات والأرض تم في مراحل فهذا مما تُؤكِّده العلوم، علوم الأرض، وعلوم الجيولوجية.. كيف ؟

المرحلة المطيرة، ثم مرحلة النباتات العملاقة، ومرحلة الحيوانات العملاقة، ومرحلة الالتهاب.. إلخ، هذا شيء يعرفه المختصون..

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

إذا أردنا أن نفوّض نقول: الله وحده يعلم تفسير هذه الآية، وإذا أردنا أن نُؤوِّل بما يليق بكمال الله عزّ وجل، وما يليق بمقام الإلهية والربوبية، نقول كما قال بعض المفسرين: خَلَق الكون، ثم بُثّ فيه الحياة، خلق الكون، ودبّر الكون، فهناك مرحلة الخلق ومرحلة التدبير، مرحلة الخلق ومرحلة بث الحياة، مرحلة الخلق ومرحلة التسيير..

ثُمّ اسِتَوَى عَلَى العَرْشِ

ورد في بعض التفاسير، أن الاستواء على العرش بعد أن خلق الله السماوات والأرض، وليس هذا ترتيباً زمنياً، لأنه يستحيل على الله عزّ وجل أن ينتقل وفق الزمن من مرحلة إلى مرحلة..

(إِنّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

مرحلة انتقال من مرحلة إلى أخرى هذا لا يليق بالله عزّ وجل، ولكن يوجد خلق، ويوجد تسيير، قال:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الّذِي أَعْطَى كُلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى (50))

(سورة طه)

يؤكِّد هذا المعنى أن أكثر الآيات التي وردت فيها كلمة:

(ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

(سورة السجدة)

جاء بعدها: يُدَبّر الأمر من السماء إلى الأرض، آيات التدبير تأتي بعد آيات الاستواء..

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا شَفِيعٍ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ

أي إذا توهّمتم أن زيداً أو عبيداً، أن فلاناً أو علاناً وليٌّ لكم من دون الله، وشفيعٌ لكم من دون الله، فهذا وهمٌ باطل، إذا اكتشفتموه بعد فوات الأوان تعضّون أصابعكم ندماً، أي أنك إذا توجّهت عنايتك إلى إنسان، وظننت أن بيده شيئاً يملكه، يعطيك أو يمنعك، يؤذيك أو ينفعك، إذا توهّمت هذا التوهُّم فهذا هو الضلال البعيد..

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

النبي عليه الصلاة والسلام قال حديثاً جامعاً مانعاً موجزاً مقتضباً، قال:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجوَن إلا ربه))

[مسند الفردوس]

أي أية جهةٍ في الأرض لا تستطيع أن تفعل شيئاً..

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُون (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الأنعام)

(مَا يَفْتَحِ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

لو ذهبت تدعو..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذّبِينَ)

(سورة الشعراء)

فأكبر باب من أبواب العذاب النفسي أن تدعو مع الله إلهاً آخر.

إياكم والشرك الخفي:

إيَّاك أن تظن أنك لا تقول: فلان إله، كما يقول البوذيون " بوذا إله، لا.. هذا انتهى، هذا الشرك الجَلِي انتهى وقته..

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي))

[ابن ماجه]

الخفي شيء، والجلي شيءٌ آخر، إذا ذهبت إلى بلاد شرقي آسيا لرأيت الآلهة المتعددة، ميكادو إله في اليابان، بوذا إله في الصين مثلاً، هذه آلهة، هذا شرك جلي، النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن فُتِحَت مكة، وبعد أن كُسِرت الأصنام، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الشيطان يَئس أن يعبد في أرضكم))

[الترمذي]

ليس في العالم الإسلامي مَن يقول: فلان إله، هذا انتهى وقته، لن يعود، لن ترجع عقارب الزمن إلى الوراء، ولكن الخطر كامنٌ في الشرك الخفي، إذا توجّهت إلى زيد، وظننت أن زيداً ينفعك أو يضرُّك، إذا ظننت أن غضبه كبير فأرضيته، وعصيت الله فهذا أكبر أنواع الشرك.

اعلم يا عبد الله أنه...

لمجرَّد أن تعصي خالق الكون، وترضي مخلوقاً فهذا هو الشرك، هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله عزّ وجل، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، لا رافع، ولا خافض، ولا قابض، ولا باسط، ولا معزّ، ولا مذلّ، ولا معطٍ، ولا مانع، ولا رازق إلا الله، وكلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تُقَرِّب أجلاً..

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

(سورة الأحزاب: آية " 39 ")

من صفات الدعاة: خشية الله وحده:

هؤلاء الدعاة إلى الله لهم آلاف الصِفات، أغفلها الله كلها، لماذا ذكر صفةً واحدة ؟ فإذا قلت: السيارة مثلاً، من صفاتها أن لها أبواباً، ومقاعد، ومصابيح إضاءة، وصحوناً لوضع المهملات مثلاً، إن في السيارة ألواناً زاهية، في السيارة ساعات، في السيارة توقيتاً، إن في السيارة محرّكاً، إذا ألغيت المحرك ألغيت كل السيارة.. إذاً أصبح اسمها وقّافة، لم يعد اسمها سيارة.. فربنا عزّ وجل إذا وصف من روائع وصفه أنه لا يصف الشيء بصفات إن توافرت اسمها أو لم تتوافر بقي الشيء، لا.. بل يصف الشيء

بصفةٍ إن فُقِدَت فُقِدَ الموصوف.. حتى إن علماء البلاغة سمَّوا هذا الترابط بين الموصوف والصفة ترابطاً وجودياً، أقول لكم: الطائرة تطير، هذه صفة أساسية في الطائرة، إذا قلت: فخمة، واليخت فخم، إن قلت: كبيرة، والأرض كبيرة، إن قلت: غالية، والمدرّعة غالية، أما إذا قلت: هذه الطائرة تطير، إذا أُلغي طيرانها أُلغيت الطائرة كلها، وانتهت.

فهؤلاء الدعاة إلى الله ذكر الله صفةً واحدةً لهم، إن توافرت نجحوا في دعوتهم، وإن لم تتوافر لا قيمة عندئذٍ لدعوتهم لا. لاستقامتهم، ولا لورعهم، ولا لصدقتهم، ولا لزكاتهم، ولا لحجّهم، ولا لأي شيء، يسقطون وتسقط دعوتهم، ما هذه الصفة ؟

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: آية " 39 ")

لأن هذا الداعي لو خشي غير الله لسكت عن الحق خشية الذي يخشاه، ولتكلم بالباطل إرضاءً لمن يخشاه، فإذا تكلم بالباطل، وسكت عن الحق فماذا بقي من دعوته ؟ انتهى هو ودعوته، فلذلك قال الله عزّ وجل:

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ)

أي إذا أرضيت هذه الجهة، وعصيت الله فهذه لا تنفعك، أندم الناس عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار، أندم الناس غنيٌّ دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار..

(لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

إن روح الميت ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحَرُم، فأنفقته في حلِّه، وفي غير حله، فالهناءة لكم، والتبعة علي.. شيءٌ خطير أن تنسى الواحد الديان، أن تعيش هملاً..

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

(سورة العلق)

أمر إلهي، لو تجاوزنا خصوصية السبب، وأن هذه السورة موجّهةٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام.. إذاً:

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

(سورة السجدة)

أمْرك بيد الله وحده:

إذا أدركت بذكاء وأنت موظف في وزارة.. أدركت أن في الوزارة رجلاً قوياً غير الوزير، بيده كل شيء، تجد نفسك بشكل غير شعوري تتجه إليه، تسترضيه، تقدِّم له آيات الولاء، تقدم له آيات الوفاء، تعبّر عن حبك له، حفاظاً على سلامتك، أو طمعاً فيما عنده، أي أن تشعر أن فلاناً بيده شيء، هذا في أحوال الدنيا، أما إذا أيقنت أن أمرك كلّه بيد الله، فماذا ينفعك زيد أو عبيد ؟

أنا لا أنسى هذا الموقف يوم جاء أحدَ ولاة يزيد بن معاوية على البصرة، جاءه توجيهٌ من يزيد بن معاوية، هذا التوجيه يبدو أن فيه مخالفةً لأمر الله عزّ وجل، وكان عنده الإمام الحسن البصري، فهذا الوالي خاف على دينه وخاف على مستقبله، وجاءه أمرٌ ممن يخافه، فماذا يفعل، أيرضيه أم يعصيه ؟ عنده الحسن البصري فقال: يا إمام، ماذا أفعل ؟ أوصني، انصحني، أنا في حيرةٍ من أمري، إن عصيته حصل كذا وكذا، وإن أرضيته أغضبت الله عزّ وجل ؟ أجاب هذا الإمام بما سيأتي بعد قليل.. والإمام الحسن البصري مرة سُئِلَ: " يا إمام، بمَ نلت هذا المقام ؟ قال: باستغنائي عن أموال الناس، وحاجتهم إلى علمي "، قيمة العالم في زهده بما عند الناس.. أجاب الإمام الحسن البصري: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيداً لا يمنعك من الله ".**

إني والله لأردد هذه العبارة مرات ومرات، ولو قلتها آلاف المرات لما شبعت من ترددها.

إذا عصيت خالق الكون، وأطعت زيداً أو عبيداً، فإن هذا الإنسان لا يمنعك من قضاء الله، نقطة دم لا يزيد حجمها على رأس دبوس، لو تجمدت في بعض أوعية الدماغ يصاب في مكان بشلل، وفي مكان بفقد ذاكرة، وفي مكان بفقد محاكمة.. وفي مكان بغيبوبة، وفي مكان بسُبات، فعلى ماذا تعتمد ؟ دماغك بيد الله عزّ وجل، قلبك بيد الله، الصمّام لو أنه ضعيف أو غير محكم، يقول لك: إنه يحتاج إلى عملية في أمريكا، وصمام جديد، وهكذا يكلفك سبعين أو ثمانين ألف ليرة، والإقامة تحتاج إلى كذا، فيحتاج إلى مليون ليرة لتغيير صمام القلب، قد ينجح، وقد لا ينجح..

أخ كريم من إخواننا الكرام رحمه الله، وآنسه، والله وضع صماماً لقلبه، فزرته فقال لي: والله الحمد لله، لكن طول الليل أسمع طرقاً.. لأن الخردقة لها صوت، صمام قلبك ليس له صوت، معه كاتم للصوت لكي ترتاح في أثناء النوم، فالله عزّ وجل أعطى لك قلباً، أعطى لك صمامات، وأوردةً وشرايين، وضغطاً مناسباً، وأمعاء، ومعدة، وكبداً، وكُليتين، وكظراً، وغدة نخامية، وغدة درقية، آلاف الأجهزة والأعضاء، ولو أن جهازاً صغيراً.. مثلاً غدة لو قصرت في عملها لعكرت عليك العيش، وأرقتك.. كان لي قريب في ريعان الشباب، وكان في الصف الرابع بكلية الطب، وكان مِلء السمع والبصر، أصابه فقر دمٍ عضال، صحته جيدة، وطعامه مُغَذٍّ، كيف يصاب بهذا المرض ؟ بعد التحليل والمراقبة

تبيَن أن الطحال الذي هو مقبرة كريات الدم الحمراء، ووظيفته الأساسية: أن يتلقّى كريات الدم الحمراء الميتة، ويحللها ليعاد تصنيعها من جديد، هذا الطحال صار يعمل بنشاطٍ أكبر من حد الاعتدال، فأصبح يأخذ الكرية الحمراء الحية، فيقتلها ليحللها، فصار هناك فقر دم، ومات بهذا المرض، فأنت حياتك في ساعة ما متوقّفة على الطحال، فإذا عمل بنشاط زائد ينهي الحياة، ومتوقفة على الكظر، وموقفة على الغدة النخامية، وهناك مركز توازن السوائل في الإنسان لو اختل لكان مكان الإنسان إلى جانب الصنبور والمرحاض، يشرب في النهار عشرين أو ثلاثين صفيحة ماء، نعم لو اختل مركز توازن السوائل لاختلّت حركته، وتوقف عمله وسعيه.

أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبرُ

***

أنت بيد الله عزّ وجل، دماغك بيد الله، هذه الخلايا لو أنها صارت تعمل بشكل نمو غير طبيعي لانتهت الحياة كلها، لم يعد لك أملاك، بل صارت لغيرك، إذا صار هناك نمو غير طبيعي بالخلايا، إذا تعطل الصمام، أمراض كثيرة جداً، فهذا الذي يعصي الله أمره عجيب..

الحقيقة أن الشيء الغريب أن تجد الإنسان في الستين أو في الخامسةِ والستين وهو مقيم على معصية، والحديث القدسي معروف عندكم:

((أحبُ ثلاثاً، وحبّي لثلاثٍ أشد، أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، أحبُ المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد ؛ وأبغض ثلاثاً، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد))

في الحديث القدسي:

((عبدي، كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك، فاستحيي مني، فأنا أستحيي منك))

اعتبرْ بما أصابك:

يقولون لك: فلان معه ضعف في البصر، إذاً فعليه بالنظارات ؟ نظارات وشيب، يقولون لك: صار هناك ضعف عام بالجسم، وصار هناك عسر هضم، أو صار هناك ضعف في الكليتين، هذه كلّها إشارات لطيفة جداً، أن يا عبدي، قَرُبَ الرحيل، فهل أنت مستعد ؟ لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل يسبق الموت الشيخوخة، ما الشيخوخة ؟ وهنٌ عام، شيبٌ في الشعر، ضعفٌ في البصر، ضعفٌ في السمع،

ضعفٌ في الأجهزة العامة، هذه كلها إشارات لطيفة: أن يا عبدي، هل أنت مشتاقٌ إليّ، قرب الرحيل، هل أنت مستعد ؟

إلى متى أنت باللذات مشـغولٌ وأنت عن كـل مـا قدمـت مسـؤولُ

***

تعصي الإله وأنت تُظْهِرُ حُبّهُ هذا لعمـري فـي الـمقـال بديعُ

لـو كان حبك صادقـاً لأطعته إن المـحـب لـمن يـحـب يطـيع

***

أيا غافلاً تبدي الإساءة والجـهلا متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام وأنت لا تراها كأن الـعين عـمـياء أو حــولا

لأنت كمزكومٍ حوى المسك جيبه و لكنه المحروم ما شــمه أصـلا

***

إذاً:

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ)

لا تعص الله برضا الناس:

انظر إذا تعلّقت بزوجةٍ، وعصيت خالق الكون، أُؤكِّد لكم، وأنا واثق من كلامي أن كل الشر يجب أن يأتي من هذه الزوجة التي أرضيتها، وعصيت الله عزّ وجل من أجلها، إذا أرضيت شريكك، وعصيت الله، لابدّ من أن يتخلى عنك، هذا تأديب الله لك، الجهة التي تُرَجّي منها الخير، وترضيها على حساب طاعتك لله هي التي سوف تزعجك، هي التي سوف تُقلقك، هي التي سوف تكيد لك.

إذا كان للشخص شريك جره إلى معصية الله، إنْ في الربا، و إنْ في الغش، و إنْ في كذا، وهو يسايره، فإنه يكون قد عصى خالق الكون، وأرضى شريكه، هذا الذي أرضيته، وعصيت الله فيه لا بدّ من أن يكيد لك، لا بدّ من أن يتخلّى عنك، لا بدّ من أن يقلب لك ظهر المِجَنّ، هذا الحديث لا تَنْسَوه:

((من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى))

[ورد في الأثر]

أيّ أمرٍ تُحاول أن تصل إليه بمعصية تأكّد، واعلم علم اليقين أن هناك بوناً شاسعاً بينك وبينه، فلذلك:

((لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق))

[الترمذي]

قوانين مستنبطة مِن التعامل اليومي:

فكرة أتمنى على نفسي أن أُحْسِن نقلها إليكم، ربنا عزّ وجل جعل في الدنيا قوانين مستنبطة من التعامل اليومي، قد يأتيك أمر الله، وبحسب قوانين البشر سوف يصيبك ضررٌ كبير إذا أطعت الله، هكذا يتراءى لك، وإذا عصيت الله تيسرت أمورك، وتحل مشكلاتك، و.. و..الخ، هنا يمتحن المؤمن، فإذا كنت مؤمناً صادقاً تقول: والله لا أعصي الله، ولو أطبقت السماء على الأرض، فأنا أقول لكم: والله أعتقد أن زوال الكون أهون على الله من أن يُخَيّب مؤمناً، أو من أن يضيّع مؤمناً..

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير]

أخ كريم من إخواننا يريد أن يشتري بيتاً، ومعه مبلغ لا يكفي لثمن هذا البيت، والبيت ثمنه مناسب جداً، فتوجّه ليأخذ مالاً بطريقةٍ غير مشروعة، هو لا يعلم أنها غير مشروعة، لكن لعدم علمه ظنها مشروعة، فأخبره أحد الأشخاص أن هذا العمل غير مشروع، ومخالف لقواعد الدين، يقول هذا الأخ الكريم: والله دَمَعَت عيني، وقلت: يا رب، لا أعصيك، وليس لي بعدُ رغبة في هذا البيت، خرج البيت من نفسه، لأن ثمنه كان معصيةً لله عزّ وجل، قال: فتوجّهت إلى دكاني، فإذا صديقٌ ينتظرني، هذا الصديق قال: أنا عندي مبلغ من المال أتمنّى أن تجعله وديعة لي عندك لسنتين، وأُناشدك الله أن تستعمله في هاتين السنتين، لمجرّد أن نوى هذا المؤمن أن يدع شيئاً لا يُرضي الله، واستغنى عن البيت جاءه من يسعفه، ويقدم له مالاً يستخدمه لحاجاته، فاقرأ قول الرسول صلى الله عليه وسلّم:

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

وأنا أقول لكم، والله وهذا إيماني: إن زوال الكون أهون على الله من أن تدع شيئاً لله وتبقى بلا شيء، وتبقى في مؤخرة الركب، وهل يضيعك الله عزّ وجل، وينساك لأنك أطعته ؟! هل هذه أخلاق الله عزّ وجل ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

هذا الإيمان، الإيمان أن تُطيع الله عزّ وجل، ولو كان في طاعته فيما يبدو لك خسارةً، هذا هو المؤمن. والله لا أعصي الله ولو أُلقيت في الطريق، ولو أكلت خبزاً يابساً لا أعصي الله، إذا علم الله منك هذا العزم الأكيد عندئذٍ يؤتيك الدنيا والآخرة.. **" من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا ".**

" عبدي، خلقت لك السماوات والأرض، ولم أعي بخلقهن، أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلّ حين، لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي، إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".

فسعادة الإنسان أن يعرف الله، وأن يعرف منهجه.

وجوب قصد الأشياء من طرقها المشروعة:

مثلاً: باب عظيم، بين أن تحاول فتحه عن طريق الهدم، والمطارق، والمتفجرات،، وبين أن يكون معك مفتاح صغير وزنه عشرة غرامات تفتحه، وتدخل، إذا عرفت الله وعرفت منهجه، هكذا الحياة، الرزق معروف طريقه، الأمانة والاستقامة، الزوجة الصالحة.. كن صالحاً يأتك الله بصالحة، السعادة الزوجية لها أسباب، إذا بُني الزواج على طاعة الله تولّى الله التوفيق بين الزوجين، إذا بُني على معصية الله تولّى الشيطان التفريق بينهما.. الرزق له باب، الزواج الناجح له باب، الرفعة في المجتمع لها باب، الصحة لها باب، أول بدعةٍ ابتدعها المسلمون بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام هي الشِبَع..

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة السجدة)

تدبير الله شؤون الكون:

الله عزّ وجل هو الخالق، وهو المربّي، وهو المسيّر، من معاني الخلق أن الله عزّ وجل يظهر إلى الوجود ما كان غير موجود، من معاني الربوبية أنه يتولّى الجسم فيربيه، والعقل فيربيه، والنفس فيربيها، والتربية إمداد ومعالجة، من معاني التسيير أن كل حركةٍ وسكنةٍ في الكون إنما هي بيد الله عزّ وجل، فالتدبير: الرعاية، العناية، العلم، الإمداد، الإعطاء، المنع، الرفع، الخفض، علماء التوحيد قالوا: "الرافع الخافض، المُعز المُذل، الضار النافع "، وقالوا: إن هذه الأسماء المزدوجة لا يجوز أن تذكر واحداً منها دون الآخر، أي أن تقول: الله ضار، لا،

(ولله الأسماء الحسنى)

قل: ضارٌ نافع، لأنه يضر لينفع، ويذل ليعز، ويأخذ ليعطي، ويمنع ليُعطي، ويقبض ليبسط، كل الأسماء المزدوجة يجب أن تذكرها مثنى مثنى، إشارةً إلى أن الأولى في خدمة الثانية.

لا تغتر بالحياة الدنيا:

لا أنسى هذه الخطبة الموجزة التي خطبها النبي عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الدنيا دار التواء، لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح))

[الجامع الصغير]

الدنيا دار تكليف، وأما التشريف فهناك في الآخرة، الدنيا دار عمل، والجزاء هناك في الآخرة.. **" إيّاك عبد الله والتنعُّم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ".**

إن هذا الذي يقصد النعيم لذاته ما عرف الحياة، وما عرف أنها مرحلة، وما عرف أنها ممر، وما عرف أنها دار عمل بل ظنّها دار جزاء، ظنّها دار استقرار..

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

(سورة يونس)

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء))

لأنها مؤقتة..

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

(سورة إبراهيم)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي: رواه سهل بن سعد)

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ـ الرخاء مؤقت ـ ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

إذا أحب الله عبده ابتلاه:

إذا أيقنت أن الله يحبك.. **" إذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن شكر اقتناه ".**

صحابيةٌ جليلة جاءت إلى النبي عليه الصلاة والسلام تريد التفريق بينها وبين زوجها، لأن زوجها ما أصابته مصيبةٌ منذ تزوجها، معنى هذا أن الله عزّ وجل لا يحبه، أي لا يعالجه الله عزّ وجل، وإذا كان الشخص مريضا بمرضٍ خبيث تقول له: ليس فيك شيءٌ، كل ما تشاء، ميؤوس منه، إما إذا وجد إنسان مرضه قابل للشفاء تجد أن هناك تشدداً بالغاً، فإذا عالجك الله عزّ وجل ساق لك من الهموم والشدائد، وعرفت أن هذه الشدة لهذا المرض، وهذه المصيبة لهذا الذنب، وهذه الإهانة لهذا الكبر، وهذا الفقر لهذا الإسراف، وهذا التطاول عليك لهذا التطاول على غيرك، فكشفت أن لكل سيئةٍ عقاباً.

رجل مؤمن له شيخ أنبأه أن لكل سيئةٍ عقاباً، فوقع يوماً في معصية، وزلّت قدمه، ولم يصبه شيء على خلاف العادة، فناجى ربه وقال: " يا رب، لقد عصيتك، ولم تعاقبني، فوقع في قلبه، أن عبدي، قد عاقبتك، ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟

فإذا أحب الله عبده عجّل له بالعقوبة، وإذا تابع الله عزّ وجل نِعَمَهُ عليك، وأنت في معصيته فاعلم أن هذا ليس إكراماً، إنما هو استدراج، إذا رأيت الله يتابع نِعَمَهُ عليك، وأنت تعصيه فاحذره، أما إذا رأيت الله عزّ وجل كلما زَلّت قدمك جاء العلاج، وجاء التأديب..

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176))

(سورة البقرة)

إذا جاءتك على كل زلة قدمٍ مصيبة فاعلم أنك في العناية المشددة، وإذا زلّت قدمك ولم تر شيئاً فاعلم أنك في دائرة الإهمال، فلذلك مما يطمئنك، مما يجبر خاطرك أن الله سبحانه وتعالى لا ينساك من علاجه، معنى هذا أنت في العناية المشددة، أنت في دائرة المعالجة.

اليوم التقيت مع أخ كريم قلت له: ما اسمك ؟ قال: اسمي مُراد، قلت: يا الله ؛ أنت مُرادٌ أكثر مما أنت مُريد، أنت مرادٌ أيها الإنسان من قِبل الخالق أضعاف ما أنت مُريد، فجعلت له من اسمه فألَ خير، وأشعرته بذلك.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: آية " 27 ")

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

فرح الله بتوبة العبد:

خلقك ليرحمك..

((لله أشدُ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الواجد))

[ورد في الأثر]

" إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض: أن هَنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ".

هذا الأعرابي الذي ضل الطريق، وغابت عنه ناقته، وعليها طعامه وشرابه، فأيقن بالهلاك، وجلس يبكي، ثم يبكي حتى أدركه النوم، فأفاق فرأى الناقة، فمن شدة فرحه اختل توازنه.. وقال: يا رب أنا ربك، وأنت عبدي، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته))

[مسلم]

أنت تعرف لو أنك تبت إلى الله فإن الله يفرح بتوبتك، فماذا تنتظر ؟ ما الذي يمنعك ؟

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية " 53 ")

هذه أرجى آيةٍ في القرآن الكريم، لم يخاطب الله العُصاة الذين أسرفوا في المعصية، يطمئنهم أن يعودوا إلى الله فيقبلهم..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

ما دام القلب ينبض فإن باب التوبة مفتوح، كل شيء يصحّح، سيدنا زيد الخير لما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((يا زيد، ما وصف لي أحدٌ فرأيته إلا رأيته دون ما وصف إلا أنت يا زيد))

أُعْجِبَ به النبي، هذا زيد الخير لقي النبي لساعةٍ واحدة، فأعطاه متكأً قال: والله لا أتكئ في حضرتك يا رسول الله، ما هذا الأدب ؟ أسلم قبل ربع ساعة، النبي عليه الصلاة والسلام أثنى عليه، وقال: يا رسول الله، أعطني ثلاثمائة فارس حتى أنال من بلاد الروم، قال النبي الكريم: لله دَرُّك يا زيد، أي رجلٍ أنت ؟ غادر زيدٌ النبي عليه الصلاة والسلام إلى ديار قومه، وفي الطريق أدركته المنية.

القضية قضية إخلاص، كل هذه النيات كُتِبَت له، فالله رب النيات، فإذا أخلصت لله عزّ وجل، ولو امتد بك العمر مقصراً اجتباك.

اعتبروا أيها الشباب:

هذه القصة أذكرها، ولا أنساها حتى الموت ؛ أحد علماء دمشق حدثني إياها، واطلعت عليها بأصولها، وثبتت لي صحتها، رجل في الخامسة والخمسين من عمره من صعيد مصر، تمنّى أن يكون عالماً،

وهو لا يقرأ، ولا يكتب، ركب دابّته، وساقها إلى القاهرة، وفي أحد أزقّة القاهرة سأل أحد الباعة: أين الأزعر ؟ قال له: أي أزعرٍ هذا ؟ قل: الأزهر يا رجل، وليس الأزعر، لا يعرف الأزعر من الأزهر، هذا الرجل مشتاق لمعرفة الله، تعلّم القراءة والكتابة في الخامسة والخمسين، وحفظ القرآن في الخامسة والخمسين، وعاش حتى السادسة والتسعين، وما مات إلا وهو شيخ الأزهر، اسمه زكريا الأنصاري، بدأ طلب العلم في الخامسة والخمسين، لا يقرأ، ولا يكتب، إذا كنت طالبا لله فالله موجود..

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

من لم تكن له بدايةٌ محرقة لم تكن له نهايةٌ مشرقة.

الدنيا ليست ذات بالٍ ولا شأن، نأكل ونشرب وننام، حياة تتكرر، حياة بهيمية لا معنى لها، مملة، الشاب لماذا هو يسعد ؟ لأنه متأمّل ببيت، يرسم في خياله مساحة البيت، هنا غرفة ضيوف، هنا كذا، وبعد هذا يحصل على بيت مساحته سبعون متراً، يسكن فيه، ويعلل نفسه بسراب الأماني، يتصور الزوجة، ولها مواصفات معينة فيفاجأ بها، وسطاً، زوجته تحددت، وبيته تحدد، أولاده تحددوا، كل الأحلام تلاشت، أما إذا عرف الله عزّ وجل، فرجاؤه ومبتغاه في مرضاة الله، وفي كلها سعادته.

المؤمن سعيد لأنه دخل في وعد الله له:

أنا كنت أضرب لإخواننا مثلاً دقيقاً، نفترض أن موظفاً معاشه ألف وخمسمئة ليرة، عنده ثمانية أولاد، والديون تركبه، له عم يملك خمسمئة مليون، ومات فجأةً بحادث سيارة، وعمه ليس له أولاد، فكل هذه الأموال آلات إليه، لكن لم يتمكن من أن يقبض أول ليرة إلا بعد سنتين، إجراءات الروتين والمالية والورثة، ولكن عاش في هاتين السنتين أسعد الناس ؟ هو لم يقبض شيئاً، ولم يأكل لقمة زائدة، ولكنه دخل في الوعد، هذا المثل توضيح لمثل أكبر، المؤمن حياته قد تكون خشنة، قد يكون معذّباً في حياته، قد يكون دخله أقل من مصروفه، قد يكون في بيته مشكلات، قد تكون صحته وسطاً، يعاني من آلام، قد يعاني متاعب في عمله، كل هذا ممكن، لكن هذا دخل في وعد الله..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

سر سعادة المؤمن أن الله وعده بالجنة،

((فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري]

إذاً:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة السجدة)

هذه الآية إن شاء الله نعود إليها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 5 - 7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-08-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثالث من سورة السجدة، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

(سورة السجدة)

معنى تدبير الله لشؤون الخلق:

التدبير بمعنى أن يُهيّئ تصرُّفاً إثر تصرف، عملاً إثر عمل، فعلاً إثر فعل، تدبّر الشيء أي تتبع الشيء إلى نهايته، وهيَّأ له في كل موطنٍ تصرُّفاً، وفي كل مرحلةٍ سلوكاً، وفي كل درجةٍ علاجاً، فالتدبير تقريباً يُشابه التربية، فالله المربي أي المدبر..

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

(سورة السجدة: آية " 5 ")

الأمر: أمر العباد، أمر المؤمنين، وأمر العباد كافةً، وأمر المخلوقات، أمر الأحياء، أمر الجمادات، التدبير بمعناه الواسع التربية، هذا التدبير من السماء إلى الأرض..

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)

(سورة السجدة: آية " 5 ")

لا مدبّر إلا الله:

أي أن الله عزّ وجل في السماء إلهٌ، وفي الأرض إلهٌ، والسماء رمز العلو، والأرض موطن الإنسان، فأمر الإنسان إلى الله عزّ وجل، فهذه الفكرة التي أتحدث عنها كثيراً لماذا أُكررُها ؟ لأنها أصل الدين، فما دام الإنسان يرى أن في الأرض مدبراً غير الله، مربياً غير الله، فاعلاً غير الله، رافعاً غير الله، خافضاً غير الله، مُعزاً غير الله، مُذلاً غير الله، مُعطياً غير الله، مانعاً غير الله، إذا رأيت أن في الحياة من سوى الله ينفعك أو يضرُّك فهذا هو الشرك، ولن تكون مؤمناً كما أراد الله عزّ وجل إلا إذا اعتقدت أنه لا إله إلا الله، ولا إله إلا الله كلمة التوحيد، ولا إله إلا الله لا تكون كلمةً تقولها في ساعةٍ، وينتهي

الأمر، إن قول لا إله إلا الله بمعناه الدقيق مُحَصِّلَةُ إيمانك كله، فتفكرك من عشر سنين، وحضورك مجالس العلم من عشر سنين، ومحاكمتك، وتدبُّر آيات القرآن الكريم، وتأمُّلك في خلق السماوات والأرض، ونظرك إلى الحوادث، وما تنطوي تحتها من حكمةٍ بالغة ومن موعظةٍ كبيرة، إن النظر إلى الحوادث والتفكر في خلق السماوات والأرض، وتدبر آيات القرآن الكريم، والتأمل الذاتي والتلقِّي عن الآخرين، إن كل هذا النشاط على تنوّعه، وعلى امتداده، إن هذا النشاط في محصلة المحصلة ينقلك إلى الإيمان بأنه لا إله إلا الله، فإذا اعتقدت أنه لا إله إلا الله سِرْتَ في طريقٍ ذات اتجاهٍ واحد، سِرْتَ في ممرٍ إجباري، لأن الإنسان المؤمن لا رأي له مع قضاء الله له.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

أنت متى تختار ؟ إذا كان عندك خيارات كثيرة، أما إذا رأيت أن الأمر كلّه بيد الله، وأن الله وحده هو الحقيقة العُظْمى فدع الأمور إلى الله، الإنسان ماذا يحب ؟ دقق.. بمن يتعلّق قلبك ؟ الإنسان فُطِرَ على حب العظيم، وحب المحسن، وحب الجميل، متى يتحرّك القلب ؟ القلب ينبض بمشاعر الحب متى ؟ إذا لاقى عظيماً، أو لاقى جميلاً، أو لاقى محسناً، لا عظيم إلا الله، ولا محسناً إلا الله، والله سبحانه وتعالى أصل جمال الكون، فإذا عَكَفْتَ على معرفة الله، واقتربت منه زَهِدْتَ فيما سواه، وما تعلق الإنسان بما سوى الله عزّ وجل إلا دليل ضعف إيمانه بالله، لو قوي إيمانك بالله وَحَّدت الوجهة إلى الله، إذاً ربنا عزّ وجل يقول لك:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

أي أمر العباد، الإنسان في ساعة الغفلة، يقول لك: زيد وعبيد، والجهة الفلانية، والقوة الفُلانية، والمعسكر الفلاني، وانهيار القوى الفُلانية حاصلٌ، والأمر صار بيد جهة واحدة، هذا الخوض في هذه المتاهة، متاهة الشرك، متاهة البشر هذا يُبْعِدُك عن رب البشر، أما إذا رأيت الله عزّ وجل هو الإله الواحد، يده تعمل في الخفاء، ما من فعلٍ إلا وفيه حكمة بالغة، كل شيءٍ وقع أراده الله، وكلُّ شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة البالغة، وحكمته متعلِّقةٌ بالخير المطلق، فعندئذٍ ترتاح نفسك.

فلسفة العوام:

الحقيقة أيها الإخوة، الإنسان في الأصل فيلسوف، حتى العوام لهم فلسفة، فالتق مع رجل عامي يعطك فلسفته بالحياة، يقول لك: " غُب على قدر ما تقدر "، هذه فلسفة، يأتي إنسان آخر يقول لك: " لا تؤذِ فلن تؤذى "، هذه فلسفة، لن تجد إنساناً إلا وله فلسفة معينة، لا يوجد إنسان ينطلق في حركته اليومية إلا وفق تصور، فمن هو البطل ؟ هو الذي يكون تصوُّره صحيحاً، قلت لكم كثيراً: ما هو الجهل ؟ قد يظن

الإنسان الجهل عدم المعرفة.. لا.. يا ليت ذلك، يا ليت الجهل ألا تعرف، لا إن الجهل أن تملك معلومات كلها مغلوطة، تصورات خاطئة، علاقات غير صحيحة، مقدمات لا تُفْضي للنتائج، فالإنسان الجاهل قد يكون متعلماً، قد يكون يحمل أعلى شهادة، لكنه يكون ممتلئاً علاقات غير صحيحة، مفاهيم مغلوطة، تصورات كلها خاطئة.

الشيء الذي أعيده كثيراً: لاحظ نفسك ؛ بجوارحك وأعضائك تهتم بها اهتماماً بالغاً، لو أصاب العين ـ لا سمح الله ـ غلطا بسيطا، ضعفا في الرؤية، تشوشا في الرؤية، ذبابة طارت أمام عينيك، هذا أحد أمراض العين، لو شعرت بأن خللاً في العين تبادر إلى الطبيب، تدفع أي مبلغ، تنتظر أي زمن في قاعة الانتظار، لماذا ؟ كذلك يجب أن يهُمُّك أمر دينك، هذا كلام خطير لابدَّ من الوقوف عنده.

((ابن عمر دينك، دينك))

[الجامع الصغير]

احرص على دينك، الزم دينك، تقصَّ أمر دينك،

((دينك، دينك، إنه لحمك ودمك))

دقق، اسأل، لا تمر مر الكرام، ما من مشكلةٍ تقع في المجتمع، ما من طلاقٍ، ما من تفليسٍ، ما من مأساةٍ إلا وراءها معصية.

الفساد حركة على غير منهج الله:

ما هو الفساد ؟ هو الحركة من غير منهج الله.. انظر إلى الكون، كلُّه يعمل وفق نظامٍ دقيق، انظر إلى الكائنات غير المختارة تعمل بانتظام، انظر إلى النحل، إلى النمل، إلى أية مجموعة من المخلوقات، إن لم تكن مختارة تعمل بأمر الله وَفْقَ أكمل صورة، لأن الله عزَّ وجل كماله مطلق، والأمر كله بيده، لكن الإنسان حينما يتحرّك بدافعٍ من شهواته من دون هدىً من الله عزَّ وجل يقع الفساد، وإفساد الشيء إخراجه عن صلاحه، الماء صالح للشرب، يكون إفساد الماء إذا لوّثته، إذا أخرجته عن صلاحه، إفساد الشاب إذا أخرجته عن دينه، إفساد الفتاة إذا أخرجتها عن عفّتها، إفساد المواد إذا أخرجتها عن مقوّماتها، فالإنسان حينما يتحرّك بدافعٍ من شهوته، بلا منهج لا بدَّ من أن يكون فاسداً مفسداً.

فالأمر ليس سماع مجلس علم، سماع تفسير آية، الأمر يتعلق بمصير كلٍ منا، لاحظ ما من مشكلةٍ تعاني منها إلا بسبب خطأ في السلوك الناتج عن خطأ في التصوّر، خطأ في العلم، خطأ في السلوك، مشكلة، لما قال ربنا عزَّ وجل:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5))

(سورة العلق)

فهذه الآية إذا تغاضينا مبدئياً عن خصوصية السبب الذي نزلت من أجله، وهي خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، إذا أخذنا عموم اللفظ الله عزّ وجل يقول لك: اقرأ، والقراءة رمز التعلم، أي تعلم لأنك إنسان، أودع الله في الإنسان قوةً إدراكية، أودع الله في الإنسان فكراً، أودع الله في الإنسان عقلاً، أودع الله في الإنسان معرفةً، قال له: اقرأ، فإذا لم تقرأ ما الذي يحصل ؟ لا أريد أن أقرأ، أي إذا الإنسان قال: لا أريد هذا الدين، إذا أدار ظهره للقرآن، إذا نسي المبتدى والمنتهى، إذا قال: هذا الدين باطل، ما في مانع، بادئ ذي بدء أن تقول هذا الكلام.

ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟؟؟

لكن انظر ماذا ينتظرك ؟ ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((بادروا بالأعمال الصالحة، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

[الترمذي]

تصور إنساناً ما، يا ترى هل سيبقى كل يوم يستيقظ كاليوم السابق، وإلى ما شاء الله ؟ لا يمكن، سنة سنتين، خمساً، عشراً، وفي أحد الأيام يستيقظ على خلل في جسمه، هذا الخلل قد يكون بداية النهاية، إذاً هناك نهاية، هل هناك إنسان امتد به العمر إلى ما شاء الله ؟ قد يُعَمِّر، ولكن لا بدّ من الموت، إذاً قال النبي منبهاً:

((بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

والله الذي لا إله هو، هذا الحديث أرويه كثيراً، لكن لا أشبع منه، لماذا ؟ لأنه خطير جداً، إذا ترك الإنسان الدين، ترك معرفة الله، ترك طاعة الله، ترك السير على منهج الله، أدار ظهره للقرآن، التفت إلى مصالحه الشخصية، إلى تجارته، إلى وظيفته، إلى دراساته، إلى حظوظ نفسه، إلى نزهاته وقال: هذا الأمر لا يعنيني الآن.. ما الذي ينتظره ؟ قال:

((بَادِرُوا بالأعْمَالِ سَبْعًا.. هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أوْ هَرَمًا مُفْنِدًا ؟ أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ ؟ فالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

(من سنن الترمذي: عن أبي هريرة)

قد تأتي الدنيا، ومن يصدق أن الغنى قد يكون عقاباً ؟ من يصدِّق ؟

" عبدي، خلقت لك السموات والأرض، ولم أعيى بخلقهن، أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟ لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطنّ عليك الدنيا ".

الدنيا، النجاح في التجارة، كسب الأموال الطائلة، تغيير نمط الحياة، الانغماس في الملذّات، في الترف، في النعيم، هذا الذي يظنه الناس نعمةً هو من الله ابتلاء.

((إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثمّ لا يكون إلا ما أريد))

فالنبي الكريم قال:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ ؟ فَالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

فإذا كان دخلُ الإنسان محدوداً، وكان مستقيماً، وبعد حين جاءه دخلٌ وفير، فأمر امرأته أن تَسْفُر، وسمح لنفسه أن يدخل أماكن موبوءة، وأن يخالط أشخاصاً سيّئين، وأن يعطي نفسه حظوظها، وأن يدع بعض الفروض، أترى هذا الغنى نعمةً أم نقمة ؟ والله إنها نقمة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ ؟ فَالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

(من سنن الترمذي:عن أبي هريرة)

انظر إلى الكون وتحركْ نحو الحقيقة:

الإنسان له فلسفة، أو له تصوّر، فالبطولة أن تبحث عن فلسفةٍ صحيحة تنطبق مع هذا الكتاب، ما حقيقة الكون ؟ الكون مسخّر لك، ما هذا الكلام ؟ نعم، الكون بمجرّاته، بمذنباته، بكازاراته، بكواكبه، بالمجموعة الشمسية، بدرب التبّانة، هذه النجوم العملاقة، فإذا كان أكبر نجم ملتهب يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، فإنك تحتاج لتصل إليه بمركبةٍ أرضيةٍ إلى خمسين مليون عام، هذا كلام الذي عنده آلة حاسبة أن يجرّب، أنا أقول لك: هذا الكلام صحيح: أربع سنوات ضوئية.. أي ما يقطعه الضوء في أربع سنوات تحتاج أنت لتصل إليه بمركبتك الأرضية إلى خمسين مليون عام.. ونجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، وهناك مجرة مليون عام، كما أن هناك مجرة ستة عشر ألف مليون، هذا الكون كله مسخرٌ لك، ما هذا الكلام ؟ كلام خالق الكون.

(وَسَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ً)

(سورة الجاثية: آية " 13 ")

لماذا سخّره ؟ لشيئين تعريفاً وتكريماً، ماذا ينبغي أن تعمل ؟ أن تؤمن، وماذا ينبغي أن تعمل ؟ أن تشكر، لذلك ما دُمت في طريق الإيمان والشُكر فأنت في بحبوحة، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

ما دمت في طريق الإيمان والشكر فأنت في بحبوحة، فإذا اختل الإيمان أو ضعف الشُكر جاء العلاج، يا الله هذه آية واضحة جداً، لاحظ نفسك حينما يضعف إيمانك تنصرف عن الله عزّ وجل، والإيمان ليس اعترافاً فقط، قد يظن بعضهم أن الإيمان تصديق، الإيمان تصديق وإقبال، لو كان تصديقا فقط، ماذا فعلت أنت ؟ فأنا في رابعة النهار، والشمس ساطعة أقول: أنا فكّرت، تأمّلت، درست، قررت، وقلت: إن الشمس ساطعة، نقول له: خير إن شاء الله، لكن المهم ماذا فعلت ؟ وإذا قلت: إن الشمس ساطعة، ماذا قدمت ؟ ماذا أضفت ؟ الإيمان بالشيء لا قيمة له إلا إذا تحرّكت نحوه.. انظر:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: آية " 110 ")

هذه المشكلة، المشكلة هناك أناسٌ كثيرون يُقِرّون بوجود الله وباليوم الآخر، وما داموا لا يتحركون باتجاه طريق الحق فهم ليسوا جديرين أن يسمّوا مؤمنين: **" يا عبدي ماذا فعلت من أجلي ؟ هل واليت فيّ ولياً ؟ هل عاديت في عدواً ؟ ".**

فموضوع الإيمان موضوع بعيد جداً لمن عاش في ظل أقوال يرددها، وأماني يعلل نفسه بها. ما قولك بأن أطغى طغاة الأرض.. فرعون قد قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

ولا يوجد إنسان الآن يقول: أنا ربكم الأعلى، كما قال فرعون، لكن فرعون قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

وفرعون قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

لا يوجد إله غيري، هكذا قال فرعون، فرعون الذي ذبّح أبناء بني إسرائيل، واستحيا نساءهم، حينما أدركه الغرق قال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

متى ينبغي أن تؤمن ؟

فإذا آمنت فهل أنت فرح بذلك ؟ الإيمان حاصل، المشكلة هي مشكلة وقت فقط، المشكلة ألا تؤمن أو أن تؤمن، يا ليت، المشكلة متى يجب أن تؤمن، أجل متى يجب أن تؤمن ؟ الإيمان سيحصل.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

المشكلة متى ينبغي أن أؤمن ؟ إذا قلت: أنا أؤمن، وفرعون آمن عند الغرق، وما من مخلوقٍ اقترب منه الموت إلا وهو يؤمن، فالأغرب من ذلك أنني اطلعت على كتاب، والذي ألّفه بذل جهداً كبيراً في تأليفه، في جميع أنحاء العالم هناك حالات وفاة مؤقتة، القلب يتوقف سبع دقائق، يوجد حالات سبع دقائق، أربع دقائق، ثم صحا من غيبوبة، هذا الإنسان الذي واجه الموت، ثمّ نال منه، انتابته مشاعر، هذه المشاعر سجّلها، جاء مؤلِّف، واستقصى كل هذه المشاعر المكتوبة في المستشفيات، وجَمَّعها في كتاب، لو قرأت هذا الكتاب لصدقت أن هذا القرآن حق، أي أن أي إنسان من أية ملةٍ، من أي مذهب، من أي دين، حتى المُلْحِد حينما يواجه الموت يؤمن كما آمن فرعون، ويستعرض كل سنواته السابقة، ويفحص عمله الصالح والطالح، المشكلة أن الإيمان سيحْصل، لكن الذي يعنينا أن نؤمن في الوقت المناسب، أن نؤمن ونحن أصحّاء، نرجو الغنى، ونخشى الفقر، أن نؤمن، ونحن أقوياء، ونحن شباب، ونحن في معية الصبي، ونحن في طور الرجولة، كي نستثمر الإيمان.

مِن لوازم الإيمان:

الذي يقول لك: الإيمان تصديق فقط، يجب أن تقف عنده وقفة متأنية، الإيمان تصديق وعمل، والكفر تكذيب وإعراض، من لوازم الإيمان الإقبال على الله عزّ وجل، والاتجاه نحوه، ومن لوازم الإيمان أن تتحرّك نحو الله.

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الذاريات)

من لوازم الإيمان أن يكون لك عمل يؤّكد إيمانك.

لماذا جعل الله عزّ وجل طبيعة الإنسان تختلف عن التكليف ؟

هنا يعترضنا سؤال: لماذا جعل الله عزّ وجل طبيعة الإنسان تختلف عن التكليف ؟ هذا الجسم يحتاج إلى النوم والأمر الإلهي أن تصلي الصبح حاضراً، الأمر بصلاة الفجر يتناقض مع طبيعة الجسم، الجسم يميل إلى الراحة، الأمر بغض البصر يتناقض مع طبيعة النفس، النفس تميل إلى النظر، الأمر بإنفاق المال يتناقض مع طبيعة النفس، النفس تميل إلى الأخذ، إذاً: لماذا كان الأمر والنهي مخالفاً لطبيعة النفس ؟

الجواب: كي ترقى، فالله عزّ وجل جعل في الإنسان نوازع غريزية، وجعل فيه عقلاً، هذا العقل يدله على الخير والحق، وهذه الغريزة تدله على الشهوة، فهو بين نداء العقل، ونداء الغريزة، بين القيم والحاجات، بين ما يبقى وما يفنى، بين أن يرضي الله وأن يرضي نفسه، فهذا الصراع إذا انتصرت على نفسك ارتقيت إلى ربك.

إذاً: الإيمان ليس أن تؤمن بالله فقط، وأن تتحرك وفق شهواتك، يجب أن تؤمن، وأن توقع حركتك اليومية وفق منهج ربك.

الخطأ في التصور يتبعه خطا في السلوك:

فلذلك يا أيها الإخوة، الأمر ـ أنا أقول ـ خطير، وأعني ما أقول، لأن أي خطأ في تصورك يتبعه خطأٌ في سلوكك، وأي خطأٍ في سلوكك يتبعه مشكلةٌ فشقاء، فلما ربنا قال:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5))

(سورة العلق)

قال:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

إذًا: الإنسان إذا لم يقرأ، ولم يعلم، ويتفكر، ويتأمّل، ويطلب العلم، وإن لم يتدبّر، ويفكر في الكون، وإن لم يدبر القرآن، وينظر في الحوادث، فسيبقي جاهلاً، يبقي على هامش الحياة، وماذا سيحصل له من بعد؟ سيطغى.

(أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

أي إذا جاء المال سيطغى بالمال، إذا جاءته القوة سيطغى بها، إذا جاءته الوسامة سيطغى بها، إذا جاءته الحظوظ النفسية سيطغى بها.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

فلذلك نعيد عليكم الآية التي وصلنا إليها.

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

(سورة السجدة: آية " 5 ")

عودة إلى تدبير الله في الكون:

أي أن الله سبحانه وتعالى هو الرب، هو المدبّر، فهناك من يقول: لا تدبّر، فالله المدبر، إذاً فاستقم على منهجه، الله عزّ وجل لا يغيب عنه شيء، لا يغفل عن شيء، ولا ينسى شيئا، بيده الأمر، بيده كلُّ شيء، فربنا عزّ وجل يقول:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)

(سورة السجدة: آية " 5 ")

تربية الله لعباده كاملة:

أي أمر العباد، أمر المخلوقات، رزقهم، إيمانهم، طِباعهم، أمراضهم، نفوسُهم، تربية كاملة، أنا أقول: تربية جسمية وعقلية ونفسية واجتماعية.

التربية الجسمية:

يربّيك جسمياً ؛ الخلايا تنمو، والشرايين تتسع، والكُتلة تزداد وزناً وحجماً، والغذاء متوافر، والغدد، والأجهزة، والأعضاء، كلُّها تعمل بانتظام بيد الله عزّ وجل، لو اختل النمو لكان المرض الخبيث، ما المرض الخبيث ؟ اختلالٌ في نموّ الخلايا، فالله يدبر لك جسمك، وينمي لك عقلك، يريك من آياته، تقرأ آية من القرآن تتعامل مع الناس، ثم ترى في تعاملك مع الناس ما يؤكِّد هذه الآية، لا إله إلا الله، يقول لك:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

يريك في المجتمع كيف أن المرابي محقه الله عزّ وجل، يقول لك:

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

كيف أن المتصدِّق يزداد ماله، هذا التطابق بين كتاب الله وما يجري في الأرض، هذا التطابق هو دليل أن هذا الكلام كلام الله، فيدبر لك عقلك، كما دبر لك جسمك، ونَزّل الأمطار، وأرسل الرياح، والرياح ساقت السحب، التي انقلبت إلى أمطار، انقلبت الأمطار إلى ينابيع، سُقي الزرع، ونما إلى أن صارت محاصيل من خضار، وفواكه، وصارت أزهارا، كلّ هذا الشيء من أجلك، يدبر لك جسمك، البقرة من أجلك، والدجاجة من أجلك، والخروف من أجلك، وهذه الأنعام التي خلقها الله لكم.

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

(سورة النحل: آية " 5 ")

خلقها خصيصى لكم، هذا تدبير الجسم.

التربية العقلية:

يدبّر العقل ؛ يريك من آياته، ينمو عقلك بآيات بينة، ورغم ذلك تظن أن السبب هو خالق النتيجة، لكن لا يلبث سبحانه أن يخرق لك هذه العادة، ويظهر خرقاً للعادات، من أجل أن تعلم أن الله هو الخالق، وليست الأسباب.

التربية النفسية:

إذاً نما عقلك، وأصاب النفس الكبر، فأرسل لها من يهينها فتابت إلى الله، ربي لك نفسك، فربنا عزّ وجل يربي لك جسمك، يربي عقلك، يربي نفسك، أنت منعزل عن الناس، الناس أحياناً يتكلمون بحقك، لكنك تعود إلى صف المجتمع بعلاقةٍ طيبةٍ طاهرة، بفضل تربية الله سبحانه لك.

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)

رد فعل العباد تجاه نِعم الله:

أمر الأمطار، أمر النبات أمر الأرزاق، أمر تأديب العباد، أمر معالجتهم فرادى ومجتمعين، الأمر مطلق، والمطلق على إطلاقه، من السماء إلى الأرض، الآن الله أرسل مصيبة، أو أرسل أمطارا غزيرة أتت بخير وفير، الآن رد الفعل، هل هناك من شكر ؟ هل هناك من طغى وبغى ؟ هل هناك من كفر ؟ هل هناك من استخدم المال في معصية الله ؟ هل هناك من استخدم المال في طاعة الله ؟ ردود الفعل، الله عزّ وجل دبر الأمر من السماء إلى الأرض، ماذا ردُّ فعل العباد ؟ هل هم شاكرون ؟ هل هم صابرون ؟ هل هم حامدون ؟ هل هم ناقمون ؟ هل هم طائعون ؟ هل هم عصاة ؟

(ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة السجدة)

ما يفعله الله في يوم لا يفعله العباد في ألف سنة:

فلو فرضنا سكان الصين الذين يعدّون ملياراً ومئتي ألف، لو كانوا جميعاً موظفين، وأنت محاسب، لا يوجد غيرك، فكم تستغرق لإعطائهم رواتبهم ؟ لو أن كل واحد يحتاج خمس دقائق تقول له: الاسم الكريم، وتفتح الدفتر تبحث عن اسمه، تسلمه الراتب، وتقول له: وقِع، يحتاج خمس دقائق، فمليار ومئتا ألف كيف يتم دفع رواتبهم ؟ ولو فرضنا إنساناً على سبيل المثال والتقريب تمكّن أن يقَبّض كل هؤلاء المليار والمئتي ألف، فهذا شيء عظيم جداً، فربنا عزّ وجل من باب التقريب قد لا تكون (ألف) بمعناها الكَمّ، بل بمعناها التكثيري، ربنا عزّ وجل ما يفعله من تدبير شأن العباد في يومٍ واحد لا يستطيع البشر مجتمعين أن يفعلوه في ألف عام، وهذا تقريب، ولله المثل الأعلى، تقريب لما يفعله الله من تدبير أمر السماوات والأرض.

فإذا كنت مديراً عاماً وجاء لك هاتف، وعليك أن ترد على المكالمة، وعندك مراجع فتقول له: لحظة لكي أتكلم، رفعت السماعة، فبدأ يتكلم فجاء لك هاتف ثان.. لحظة، أنت كبشر لا يوجد عندك إمكان أن تعالج قضيتين في آنٍ واحد، لا تقدر، في الوقت الواحد تنصرف إلى شيء واحد فقط، لكن لو فرضنا عندك ألف موظف، وأنت مدير معمل، هل بإمكانك بوقت واحد أن تتفحص أحوالهم، أوضاعهم المعيشية، أوضاعهم في بيوتهم، ما يعانونه من ضائقة، أن تعالج المريض، وأن توقِف المتجاوز عند حدِّه، وأن تأمر هذا، وأن تنهى هذا ؟ هذا شيء فوق طاقة البشر، إلا بالتسلسل، وإلا بالأمر العام، وبالأمر الكتابي، ويساعدك معاون، ومعاون المعاون، ونائب، ومدير شؤون قانونية، وشؤون ذاتية، وشؤون علاقات عامة، حتى تتمكّن من أن تتحرك حركة إيجابية، وفي الساعة التالية تقول: رأسي صار مثل الطبل.

فربنا عزّ وجل يقرّب لك المعنى، أنه ما يفعله الله في يومٍ واحد لا يستطيع البشر مجتمعين أن يفعلوه في ألف عام، أي أن خمسة آلاف مليون إنسان في ألف عام لا يستطيعون أن يدبروا ما يفعله الله في يومٍ واحد، لذلك هذه الآية تبيّن عظمة الله عزّ وجل وكيف أن أمره كن فيكون، زُل فيزول.

من معاني التدبير: مراقبة الله لجميع البشر في وقت واحد:

إن الإنسان يلاحظ نفسه، فهو أحياناً يخطر في باله خاطر يستوجب المحاسبة عليه، وهذه تحدث مع المؤمنين، فقد يفكِّر في شيء غير صحيح، أو لا يليق بالمؤمن، يكون ماشياً في الطريق، وهو لا يدري فصُدم بعامود، لأنه كان منتبهاً لجهةٍ ثانية، تأتي الضربة على جبينه لتوقظه أنّك في خواطر لا ترضي الله، ماذا يفكر الإنسان ؟ أتظن أنك لوحدك في الكون، ولا أحد غيرك ؟ لا، فإنّ الله معك، كل واحد منا

يشعر أن الله يراقبه، مطّلعٌ على خواطره، على نواياه، أحياناً الإنسان ينوي نية طيبة فيجد العمل الطيب مقابلها.

مثلاً: زار أحد الناس مزرعة، فاستغرب إذ رأى نهرا، وعلى كل ضفةٍ منه أرض، وكل أرض لها صاحب، وكِلا الأرضين زُرعتا قمحاً، القمح الأول نامٍ نماءً شديداً جداً، والقمح الثاني ضعيف، رجل له معرفة بالله، سأل صاحب هذه الأرض: ما قِصتك ؟! قال: والله أنا لي أخ فقير نويت أن أعطيه نصف المحصول، فقط خاطر داخلي، فإذا بهذا الزرع ينمو، الأرض الثانية رأى فيها العامل، قال: والله إن صاحب الأرض بخيلٌ جداً، وفي نيتي أن آخذ من الغَلة شيئاً لي من دون أن يدري، فإذا شعر الإنسان أن الله عزّ وجل على يحاسبه الخاطر فعندئذٍ يستقيم، فالله رقيب على كل إنسان، وكل مخلوق، لهذا ورد في بعض الآثار:

" لا تقتل البهائم إلا بغفلة ".

إذاً:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية " 4 ")

ربنا يا ترى مع زيد وعبيد وفلان ؟ مع أهل الشام وأهل مصر، وأهل الحجاز وأهل العراق، وأهل إفريقيا، هذه كلها شعوب، الله مع الشعوب، مع الأمم، مع البشر، مع المؤمنين، مع الدعاة، مع روّاد المساجد، مع روّاد المقاهي، مع المنحرفين، مع العصاة، مع الأتقياء، مع الأنقياء، مع كل مخلوق، حتى مع البهائم، مع المخلوقات كلها، طبعاً معهم بعلمه ومراقبته، هذا التدبير، أنت لا تقدر إذا كنت مدير مدرسة، وعندك ستة وثلاثون مدرساً تجد نفسك مضطرباً مشتتا، فتقول: يا أخي، لا أقدر أن أتحمل، صعب أن أدير مدرسة كاملة، وتعلن أنك تحتاج إلى معاونين، وتحتاج إلى موجّهين، وإلى هاتفٍ، وتحتاج إلى أجهزة، وتحتاج إلى من يوصل أمرك إلى الطُلاّب، وأحياناً تجد الطلاب غير منضبطين.

أما خالق الكون فمع كل مخلوق، مطلع يحاسبه على خواطره، وعلى أعماله، يثيبه على طاعته، يسوق له الشدائد على معاصيه، وهكذا، فمعنى تدبير الأمر: أي أن الله مع كل مخلوق.

أنا أقول لإخواني المؤمنين: حينما تبدأ تشعر أن الله فعل كذا من أجل كذا، وأصابني بما أصابني من أجل كذا، وأكرمني من أجل كذا، حينما تسمع نداء الحق يُلقى في أذنك فهذا العقاب من أجل هذه الكلمة التي قُلتها.

فلو أن أحداً عنده في البراد ما لذّ وطاب، وقال له آخر: أريد منك حاجةً مما في هذا البراد، فقال له: لا شيء عندي يا أخي، ثم ترك البيت شهراً، ورجع، فإذا بماس كهربائي فانقطعت الكهرباء، وأصبحت

كل هذه المؤونة فاسدة، فيجب أن تُعلن أن هناك سراً إلهياً، أنت منعت هذا الإنسان شيئاً مما عندك وقلت له: هذا ليس عندي، فَحُرِمْتَ ما في هذه الثلاجة كلها، هذا تدبير إلهي.

امرأة من أحياء دمشق القديمة كان عندها شجرة ليمون تحمل أربعمئة ليمونة في السنة، ما من إنسان يطرق الباب إلا وتعطي له ليمونة من أهل الحي، توفيت هذه المرأة، وبقي في البيت صبية، وهي زوجة ابنها، فأول ما طرق الباب قالت: لا يوجد عندها ليمون، وفي السنة الثانية يبست الشجرة.

التدبير أن تعطي الله فيعطيك، وإن تمنع الله يمنع عنك، فليست القضية معك فقط، بل مع كل مخلوق.

النقطة اليوم: أن هناك شمولا، كل إنسان وحده يفهم أن الله معه ويحاسبه، لكن يجب أن تتصور أن الله مع المخلوقات كلها، مع ألف ومئتي مليون مسلم، مع خمسة آلاف مليون إنسان، فإذا كان الطيور في العالم وعددها فرضاً مئة مليار طائر، إذا كان هناك خمسة آلاف مليون كل إنسان له عشرون طائرا، كم سمكة موجودة ؟ مليون نوع من السمك في البحر، واللهُ مع كل سمكة، والمعتدية يحاسبها، وكذلك كم طائرا ؟ كم حيوانا ؟ كم نملة ؟ وكلها في رقابة الله وعلمه.

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة النمل)

وجدوا في قمة جبل نبع ماء في الهند، هذا شيء غريب جداً، هذه الظاهرة لا يمكن أن تُفَسَّر إلا بوجود جبل أعلى، ومستودع هذا النبع في الجبل الأعلى، إن هذا الجبل العالي جداً وجد في قمته العالية نبع ماء، إذاً: هناك تمديدات إلى جبلٍ بعيدٍ أعلى، ولكن لمن ؟ قال: لبعض الوعول التي تعيش في قِمَمِ الجبال..

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

يدبر أمر نملة سوداء، تحت صخرةٍ صمّاء، في ليلةٍ ظلماء، ويدبر رزق العباد، رزق الطيور، رزق ما تحت الأرض، تجد دودة تحت الأرض لها رزقها عند الله عزّ وجل، فهذه الآية هي فعل الله كله، وهو رب العالمين يدبر الأمر ؛ أمر العباد، أمر المؤمنين، أمر الكُفّار، أمر الحيوانات رزقاً وغير رزق، الإنسان رزقاً، وعقلاً وجسماً، وروحاً ونفساً، واجتماعاً، أي تدبير عام..

(ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة السجدة)

موقف العباد من ابتلاءات الله:

إن ربنا يتصرّف، ويتلقّى نتائج تصرُّفه، بعثنا ببلاغ، درسناه دراسة كبيرة على مستوى القطر، الآن تلقينا تقارير عن مستوى تَقَيُّد الموظفين بهذا البلاغ تقريباً، دبرنا أمراً، وتلقينا النتيجة، فالله عزّ وجل

يتصرّف، ويبعث للإنسان مصاباً، فماذا يقول ؟ ماذا قال عبدي ؟ يا رب، حمدك عبدك فلان، اكتبوا له الأجر، ماذا قال عبدي ؟ يقول: يا رب، ماذا فعلت لك حتى تفعل بي هذا ؟ إذاً هذا جاهل، وإنسان آخر يقول: يا رب، لك الحمد، إذاً هذا عالم، فالله عزّ وجل يتصرف، ويتلقى نتائج مواقف العباد..

(ثُمّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (6))

هذا هو الله، فإذا أنت أمضيت حياتك، أفنيت شبابك، أبليت عُمُرك في معرفة الله، ليس هذا كثيراً، بل هو قليل، هو أهل التقوى وأهل المغفرة، لكن يا خسارة إنسان أفنى شبابه من أجل إنسان آخر، أفنى عمره لمخلوقٍ مثله، يأتي يوم القيامة، وقد شعر بالخسارة الكبرى.. ذلك الذي:

(ثُمّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (6) الّذِي أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7))

(سورة السجدة)

انظر إلى مخلوقات الله: الّذِي أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

هل ترى في خلق الرحمن من تفاوت ؟ كيف التفاوت ؟ في الخلق إحكام ما بعده إحكام، دقق في الجَمل، دقق في الحيتان، في الفيل، في النملة، في البعوضة لها ثلاثة قلوب ؛ قلبٌ مركزي، ولكلّ جناحٍ قلب، أجنحتها تَرِف رَفاً دقيقاً جداً في الثانية، أعداد كبيرة جداً، لها محاجم، لها مخالب، لها جهاز رادار، جهاز تحليل دم، جهاز تمييع دم، جهاز تخدير، وطنين، هذه هي البعوضة..

قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

(ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (6) الّذِي أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

(سورة السجدة)

الصوص ينشأ في منقاره رأس مدبب جداً كالمَخْرَز من أجل أن يكسر قشر البيضة عندما يحين موعد خروجه منها.

بالمناسبة الشكل البيضوي هو أقسى، وأمتن شكل هندسي، الشكل المنحني، فإن القوة موزعة على كل السطح بالتساوي، لكن الشكل البيضوي ضعيفٌ جداً من الداخل، متماسكٌ جداً من الخارج، لذلك الشكل البيضوي مهما تلقى ضربات من الخارج فإنه يتحمل، بينما من الداخل لا يتحمل، الصوص من الداخل، يكفي أن يدفع قشر البيضة بهذا الرأس المدبب الصغير الذي نما على منقاره حتى يخرج إلى الهواء ؟

فإذا خرج إلى الهواء تلاشى هذا الرأس المدبب، إن الله أعطاه مفتاحاً لهذه العلبة، مفتاحاً مؤقتاً، يفتح القشرة نحو الأعلى، فتنكسر البيضة، ويخرج منها، بعد أن يخرج منها فإن هذا النتوء يذوب شيئاً فشيئاً ليعود منقاراً عادياً، يد من هذه ؟ هذا القلب لدى الجنين، الجنين لا يقوم بعملية تنفس، ولا استنشاق، ولا رئتان تعملان، ولا دورة صغرى، ربنا فتح لدى الجنين ثقباً بين البطينين، فحينما يولد الطفل.. هكذا قال لنا طبيب.. تأتي جلطة تُغْلِق هذا الثقب، فيتحول الدم من أذين إلى أُذين سابقاً، ويتحول من أُذين إلى رئة إلى بطين، من قلب الدورة ؟ من سد هذا الثقب في الوقت المناسب ؟

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

يا ترى الله مع الجنين ؟ مع الطفل المولود ؟ مع الأم ؟ مع الأب، أحياناً يكون هناك انحراف مع الأم والأب، يقول لهم طبيب: والله المولود مُشوَه، فيذهبون ويتوبون، ويدفعون صدقات، يصلون ويتوبون، فالله عالج الأب والأم، وبعد هذا جاء المولود سليماً، ربنا له أساليب عجيبة جداً مع كل مخلوق.

الملخّص المفيد: معرفة الله نصف الطريق على الحق:

فملخّص الدرس حينما تصل إلى أن تدرك على الله أنه فعل كذا من أجل كذا، وكذا من أجل كذا، وأنه: **" ما من عثرةٍ ولا اختلاج عرقٍ ولا خدش عودٍ إلا بما قدّمت أيديكم وما يعفو الله منه أكثر ".** إذا وصلت في معرفتك بالله إلى هذا المستوى فقد قطعت نصف الطريق، جميل جداً أن تتأمل حياتك، لماذا أعطاني ؟ شخص عليه زكاة مال قدرها ثلاثة عشر ألف وثمانمائة وخمسون، اختلف مع زوجته، عندنا طقم الأرائك بحاجة إلى إصلاح، ضغطت عليه وصرفته عن دفع الزكاة، مركبته أصابها حادث، فالذي دفعه إجمالاً بالقلم والورقة ثلاثة عشر ألف وثمانمائة وخمسين، فالله يدبر الأمر، إنه تأديب عندما جعل الله الرقمين يتطابقان تماماً، ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن منع الزكاة سبب تلف هذا المال، فالنتيجة التي أتمناها عليكم جميعاً وعلى نفسي معكم أنه كلما أصاب الإنسان شيء يتأمل لماذا أصابني هذا الشيء ؟ يتهم نفسه فلعل الله يهديه إلى سر ما أصابه.

تطبيق عملي لهذه الآية:

أيها الإخوة الأكارم... كتطبيقٍ عمليّ لهذه الآية، الحقيقة ليس القصد من هذه الآية أن نمضي ساعةٍ في آيةٍ واحدة، القصد أن يَبْقى الإنسان يقظاً في تأمله لما يجري معه، ليعلم علم اليقين أن هناك إلهاً حكيماً ؛ هو الذي أعطاه، وهو الذي منعه، الذي يسّره له، والذي عسّره عليه، حينما يصاب بانشراح أو بانقباض، حينما يوفّق في زواج أو لا يوفّق، حينما تنشأ مشكلة في البيت، دقق هناك معصية اقترفها،

هناك مخالفة، ابحث عن مخالفةٍ مع الله، ابحث عن معصية، هناك ارتباك في العمل ابحث عن سبب، كلما وجدت شيئاً لا يروق لك.. الحديث القدسي معروف عندكم:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إِلّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

الإنسان يستسلم إلى الله، لكن لا يكون ساذجاً، لا يمر مر الكرام على الحوادث، بل يتساءل، لماذا أعطاني ؟ لماذا منعني ؟ لماذا عسّر عليّ هذا العمل ؟ لماذا ابتلاني ؟ دائماً اتهم نفسك، ودائماً قل وراء ما يجري سبب وجيه، لأن الله حكيم، والله عزّ وجل عادل وحكيم، ورحيم وعليم، وخبير، فالإنسان المؤمن العاقل لا يقول: ظروف الحياة هكذا، لا تقل: الدهر يومان، يومٌ لك ويومٌ عليك، لا تقل: القدر سَخِر مني، لا تقل: هكذا حظي، لا تقل: حظ، لأنه لا حظ، بل هناك توفيق وتعسير..

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

الإنسان يلاحظ، ربنا عزّ وجل قال:

(الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79))

ما قال: والذي يمرضني، بل قال:

(وَإِذَا مَرِضْتُ)

المرض في أصله خروجٌ عن منهج الله عزّ وجل، هذا هو أصل المرض، طبعاً هناك حالات أخرى نادرة، لكن في الأصل الإنسان مُجَهّز تجهيزاً كاملاً، فإذا تحرك على خلاف منهج الله أصابه خلل في جسمه.

فيا أيها الإخوة الأكارم... كلمة يدبّر الأمر والله لا أشبع منها، لأنها واسعة كثيراً، يدبر أمرَ من ؟ أمرَ كل شيء، لهذا قالوا في تعريف اسم العزيز: هو الذي يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء.

يدبّر أمر كل شيء في كل شيء، أمر كل شيء، أنت وزوجتك وأولادك، أحياناً يكون لدى الزوج تقصير مع الله، الابن ترتفع حرارته، يأتي الطبيب فيلهمه الله أن يُكَبّر الأمر على الأم والأب، تجد الأم

والأب يغليان غليان الحرقة على ابنهما، إلى أن يتوبا إلى الله عزّ وجل، فلعَلّ مرض الابن كان تأديباً للأب والأم.

أحياناً الإنسان يأتيه الدخل الكبير تكريماً، وأحياناً امتحاناً، وأحياناً استدراجاً، وأحياناً يمنع عنه المال تأديب، وأحياناً امتحاناً، وأحياناً ابتلاءً، هذا الفكر اجعله يعمل، اجعل هذا الفكر يعمل في فهم ما يجري، لأنه **" من لم تُحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر ".**

أنا أقول لكم: الإنسان الذي يسوق الله له من الشدائد من أجل أن يردعه عن بعض المُخالفات، ومن أجل أن يضطّره إلى باب الله عزّ وجل، هذا الإنسان إذا لم يفهم على الله مراده فهو المصيبة، ليست مصيبته في هذه المصيبة، بل هو نفسه المصيبة، فلذلك هذه الآية هي محور درسنا:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

هو المدبر، هو المربي، هو المسير، هو الخالق يعرف ما في نفسك.. " عَلِمَ ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.. وليس في الإمكان أبدع مما كان، وليس في إمكاني أبدع مما أعطاني"، وسخّر الله لك كل شيء من أجل أن تعرفه، لذلك يدبّر الأمر، ويتلقى ردود فعلك، بعث لك الإكرام، فقلت: أنا يا أخي أمضيت عمري في هذه المصلحة، أصبح عندي خبرة، والآن آخذ قرشين نظيفين منها، هذا شرك، التوفيق من الله، لكنه ترجمه إلى شرك، إنسان آخر حرمه الله المال، لأنه يعلم صلاح أمر دينه بهذا الحرمان، الله عزّ وجل يدبر، ويتلقى ردود الفعل..

(ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6))

الغيب ما غاب عنك، وما شَهِدْتَه..

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

(سورة السجدة)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 8 - 14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-09-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من سورة السجدة، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7))

(سورة السجدة)

الصنعة تدلُّ على الصانع:

مِن الثابت أيها الإخوة أن الصنعة تدلُّ على الصانع، وأن النظام يدل على المنظِّم، وأن الكون يدل على المكوِّن، وأن الخلق يدل على الخالق، فإذا أردت أن تعرف الله عزَّ وجل فدونك الكون، فانظر إلى الكون..

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

(سورة السجدة: آية " 7 ")

أي أن يخلق الكون صدفةً فهذا من سابع المستحيلات، وهذا تنفيه كل الأدلّة العقلية، إذاً: هذا الكون له مكوِّن، فإذا تأمّل الإنسان تأملاً دقيقاً، وقال: هذا الكون خلقه إلهٌ عظيم، لماذا خلقه ؟ وماذا يريد مني ؟ وماذا بعد الموت ؟ وإذا كان الإنسان يملك فكرةً صحيحةً عن حقيقة الكون، وعن حقيقة الحياة، وعن حقيقة الإنسان، إذا عرف إجابات هذه الأسئلة الثلاثة عندئذٍ يكون قد بدأ السير على طريق الإيمان.

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

فالآية الكريمة في سورة الملك:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: آية " 3 ")

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

ففي الخلق إحكام دقيق، وأيُّ شيءٍ خلقه الله كاملٌ في الخلق، كاملٌ في الصفات، قال ربنا عزَّ وجل:

(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة السجدة: آية " 7 ")

أي أن مخلوقاته جميعاً ؛ النباتات، الحيوانات، الإنسان، الجمادات، كل شيءٍ أودع الله فيه الخواص التي يؤدِّي بها مهمته أداءً كاملاً، الإنسان أحياناً بحاجة إلى معدن يتمدد عندما يبرُد، وهذه الخاصة في الرصاص على عكس القانون العام، إذاً خلق الله الرصاص، فهذا المعدن يحتاجه الإنسان وهو في أمَسّ الحاجة إليه، ومن خصائصه التمدد عند التَبَرُّد، والإنسان بحاجة إلى معدن خفيف، إلى معدن متين، إلى معدن قاسٍ، فكل أنواع المعادن أعطاها الله خصائص، لو درس الإنسان خصائص المعادن لشعر أن الله سبحانه وتعالى إنما خلقها على هذه الصفة تكريماً وتسخيراً له.

(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

مِن تفصيلات هذه الآية:

والحقيقة أن تفصيل هذه الآية يحتاج إلى وقتٍ طويل:

1 – العين:

فالعين مثلاً تندرج تحت قوله تعالى:

(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

فالعين لها جسم بلوري، وهذا الجسم البلوري من شأنه أنه مرن، ومعنى أنه مرن أي إذا جاء الخيال بعد الشبكية أو قبل الشبكية، ضغطت عليه عضلاتٌ هُدْبية حتى تجعل الخيال على الشبكية، هذه العملية عملية المطابقة من أعقد العمليات في العين، من يجريها ؟ الله سبحانه وتعالى تصوَّر عدسة ضع أمامها شمعة، وأمسك لوحةً من الورق المقوّى، وحرِّك هذه اللوحة إلى أن يرتسم عليها ظِلُّ، أو شكل الشمعة، هذه المسافة بين العدسة والورق المقوّى هي المحرق، مسافة المحرق، لو أن هذه الشمعة حركتها قليلاً لتلاشى خيالها على الورق المقوى، إذاً ماذا نفعل حتى نعيد هذا الخيال ؟ لا بدّ من تحريك الورق المقوى أو تحريك الشمعة، وهذا في العين يستحيل أن تحرك الشبكية أماماً أو خلفاً، ما الذي يجب أن يكون ؟ هذا الشيء المعجز أن الجسم البلوري (العدسة) في العين مرنة، يزداد احتدابها أو يقلّ حتى ينطبع على الشبكية خيال الأجسام المرئية، هذه العملية لو كلفنا إنساناً يحمل دكتوراه في الضوء لما استطاع أن يقوم بها لشدة تعقيدها، ولكن كل إنسان قد يتابع كرةً تطير بين أيدي اللاعبين، هذه الكرة تقع دائماً على شبكية العين، هذه العين وحدها ما أُلِّف عنها من كتب يفوق حدّ الخيال، بدءاً من قرنيتها الشفافة إلى قُزحيتها ذات الفعل المنعكس، فهذه القزحية تتسع إذا قل الضوء، وتضيق فتحتها إذا كثر الضوء، اتساع الحدقة وضيق الحدقة عملٌ لا إرادي، حتى إن من علامات الحياة إذا شكّ الطبيب في

موت إنسان يسلط على عينه ضوءاً شديداً، فإذا ضاقت الحدقة فهناك حياةٌ في الإنسان، لوجود ردود فعل، وإذا لم تضق الحدقة فهذه علامةٌ من علامات الموت، إذاً القرنية الشفافة التي تتغذى بالحلول، إلى القُزحية ذات الفعل المنعكس، إلى الجسم البلوري المرن الذي يزداد احتدابه، ويقل احتدابه من دون أن تدري، من أجل أن ينطبع الخيال على الشبكية، إلى السائل الزجاجي ذي قرينة الانكسار الخاصة، إلى الشبكية ذات العشر طبقات، وفيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، إلى عصبٍ بصري يخرج منه تسعمئة ألف عصب، لكل عصب غِمْدٌ يُغَلِّفه، هذه العين التي خلقها الله و:

(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

2 – الأذن واللسان:

فكِّر في الأذن، فكِّر في اللسان، كُلُّ حرفٍ قد تسهم فيه سبع عشرة عضلة، هذه الحروف التي ننطق بها يسهم في تكوينها عضلاتٌ كثيرة، فحينما تلقي كلمة، أو تلقي الخطبة كل حرفٍ يحتاج إلى عددٍ كبير من العضلات انبساطاً وانقباضاً، في تشكيله:

(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

3 – العظام:

هذه العظام التي خلقت فيها خلايا تنمو، فإذا بلغت النمو المطلوب توقفت عن النمو وهجعت، فإذا كُسِر العظم بعد ثلاثين عاماً مثلاً تستيقظ هذه الخلايا، وتُعيد بناء العظام من جديد:

(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

أنت أمامك جسمك، فإذا أردت ألا تبتعد، وأردت أن تكون واقعياً، إذا أردت أن ترى آيات الله عزّ وجل بين يديك ماثلةً صارخةً واضحةً ففكِّر في جسمك، فكر في رأسك، هذه الحواس، هذه العضلات، هذه الأعصاب، هذه الأوعية، هذه الشرايين، هذه الأعضاء، هذه الأنسجة، يوجد نسيج لحمي معين، ونسيج عضلي، ونسيج عصبي، كلُّه يتلقى الغذاء من القلب، هذه عناوين موضوعات.

فحركة اليد، ما طبيعة الحركة ؟ كيف تتقلّصا لعضلة ؟ كيف تأتمر ؟ من يأمرها ؟ من ينفِّذ هذا الأمر ؟ كيف يتلقّى الإنسان أو الدماغ المعلومات من المحيط عن طريق الحواس ؟ فكل شيء له نظام خاص به. كيف يتوازن الإنسان على قدمين لطيفتين ؟ لمَ لا يقع ؟ لمَ إذا مات وقع ؟..

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

(سورة السجدة)

الله عزّ وجل خلق سيدنا آدم من طين..

(ثُمّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

(سورة السجدة)

أقوال العلماء في معنى: السُلاَلَة

ماذا تعني كلمة (سُلالة).

المعنى الأول:

بعضهم قال السلالة تعني الخلاصة.

المعنى الثاني:

وبعضهم قال السلالة: الخواص، أي جعل نسل الإنسان من ماءٍ، هذا الماء الذي يفرزه الإنسان، يتمُّ تصنيعه في ثمانية عشر يوماً، وتُعَطّل فاعليّته إلى أن ينطلق من مكانه، إذا انطلق من مكانه تحرّك عن طريق ذيلٍ وعنقٍ ورأسٍ مدبب، وفي مقدمة الرأس مادةٌ نبيلةٌ شفّافةٌ تخترق جدار البويضة، فهذا الماء المهين الذي يُصَنّع في ثمانية عشر يوماً، والذي لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل تعطل فاعليته إلى حين انطلاقه من عقاله، هذا الحيوان إذا مضى عليه ساعة أو ساعتان يموت، فمن جعله ينطلق من عقاله ؟ ومن أعطاه الفاعلية حينما ينطلق ؟ لو أنه وهو مخزنٌ في الخصيتين أعطي الفاعلية لمات في مستودعاته، إذاً حينما ينطلق تُعطى فاعليته، فإذا عاش ساعتين أو أكثر فقَد فاعليته ومات، إذا وصل إلى البويضة حوينٌ قويٌ، ولقّح البويضة تشكّل الإنسان من هذه البويضة الملقحة، إذاً ربنا عزّ وجل يقول:

(ثُمّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

(سورة السجدة)

خلاصة من ماءٍ مهين..

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

(سورة الإنسان)

نطفة أمشاج، أي أن هذه النطفة عليها معلومات، خمسة آلاف مليون معلومة، وهذه البويضة عليها معلومات خمسة آلاف مليون معلومة، وقد جعل الله البويضة كبيرةً لتكون هدفاً للحوين، ولحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، جعل البويضات التي يُطلقها مبيض المرأة محدودةً، أي أن هذه البويضات تنتهي في سن اليأس، لو أن البويضات شأنها كشأن الحوينات تنطلق إلى آخر العمر لكان وقع الحمل في سن الثمانين، وفي السبعين، وفي التسعين، وفي الخامسة والتسعين، لكن حكمة الله عزّ وجل جعلت عدد البيوض في

المرأة محدوداً، فإذا انتهى عدد البيوض التي أودعها الله في مبيض المرأة جاء سن اليأس، وتوقّف الحمل، بينما الحوين الذي يُفْرِزه الرجل يستمر في الخروج حتى نهاية الحياة، هذه حكمةٌ بالغة من حكم الله سبحانه وتعالى، إذاً بَدْءُ خلق الإنسان من طين، وأما نسل بني آدم:

(مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

معنى: مَاءٍ مَهِينٍ:

ومعنى ماءٍ مهين كما قال بعض المفسرين: هو الماء الضعيف، معنى ضعيف، أيْ أنّ أيَّ عَرَضٍ يصيبه يجعل هذا الحوين ميتاً، فهو يحتاج إلى وسط معين، يحتاج إلى سيولة معيّنة، إلى غذاء معين، فحينما يخرج هذا الماء من مكانه، وينتقل عبر القنوات يصل إلى نقطة، أو إلى مكان، أو إلى منعطف هو منعطف البروستاتة، هذه الغدة التي تفرز مادة مطهرة، ومادة معطِّرة، ومادة مغذية تسبح فيها الحوينات، هذا صنع من ؟ البروستاتة تُغلق مجرى البول حينما يخرج ماء الحياة، وتغلق مجرى ماء الحياة حينما يخرج البول، إذا خرج البول ليسير في الطريق الذي خُصِص له تفرز البروستاتة مادة قلوية تتعادل مع المادة الحامضية، فإذا خرج ماء الحياة.. الطريق فيه بول.. تفرز البروستاتة مادة مطهرة، وبعدها مادة معطِّرة، وبعدها مادة مغذية، وهذه الغدة تعمل ثمانين عاما أو أكثر من دون كللٍ أو ملل، فإذا كان هناك إفراطٌ أو تفريطٌ تتضخم وتلتهب، هذا صنع من ؟

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

لو أردت أن تقف عند خصائص الإنسان لوجدت العجب العجاب.

(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8))

(سورة السجدة)

ماءٌ ضعيف، أو ماءٌ مُمْتَهن فالإنسان يستحيي من هذا الماء إذا ظهر على ثوبه، وكلُّنا من هذا الماء، لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل أن الإنسان يخرج من عورةٍ، ويدخل في عورةٍ، ثم يخرج من عورة، ويشكّل من ماءٍ مهين، فعلامَ الكبر ؟ لذلك جاء في بعض الأحاديث الشريفة:

((ويلٌ لعبدٍ سها، ولها، ونسي المبتدا والمنتهى، ويلٌ لعبدٍ طغى، وبغى، ونسي الخلاّق الأعلى))

الرب الكريم.

(ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)

(سورة السجدة: آية " 9 ")

تسوية الله للإنسان:

التسوية دقيقة جداً، التسوية أوضحتها بمثل: أن الإنسان لو أراد أن يضع مركبته في مرآب (كراج) بالتعبير الشائع.. يجب أن يكون حجمه مسوًى مع حجم المركبة، أكبر بقليل، أعلى بقليل، أطول بقليل، فلو لم تكن هناك تناسبات بين حجم هذه الغرفة وحجم المركبة لما كان هذا المكان صالحاً لمبيت هذه السيارة، إذاً ليس مسوًى، التسوية هي التناسب، فالإنسان جعل الله له يدين، اليد من حيث طولها، ومن حيث مفاصلها، ومن حيث رسغها، ومن حيث الأصابع، وطول الأصابع، ومن حيث الكف، باطن الكف وظاهر الكف، هذه التجاعيد، وهذه الأطوال المختلفة، وهذه السُلاميات، وهذا المكان الذي لا شعر فيه، وهذه الخطوط على رؤوس الأنامل، هذه كلها تسوية، وهذه المفاصل ذات الاتجاه الداخلي.

والرجل لها تركيبٌ آخر، عظام الفخذ، وعُنق الفخذ، وعلاقتها بالحوض، والركبة، وطبيعة الركبة، ومِشط الرجل، هذه التسوية، أي نظامٌ بديع يتوافق مع أحدث أو مع أدق النظريات الميكانيكية:

(ثُمّ سَوّاهُ)

بعد أن صار هذا الجنين كائناً بشرياً له رأسٌ، وله عينان، وله سمع، وله فم، وله لسان، وجهاز هضم، وجهاز دوران، وجهاز أعصاب، وجهاز إفراز، وجهاز تعرُّق، وعضلات وعظام:

(ثُمّ سَوّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)

ثُمّ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ

إذا دبّت فيه الحياة، وتحرّك، ونبض قلبه:

(وَجَعَلَ لَكُمُ السّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

(سورة السجدة)

الحكمة مِن خلق الحواس في الإنسان:

طبعاً السمع والأبصار والأفئدة كما قال بعض المفسرين: إنما هي حواس أودعها الله في الإنسان ليتعرّف بها إلى خالق الأكوان، فبالعين ترى الكون، وبالأذن تستمع إلى الحق، وبالفؤاد الذي إذا جاء مع السمع والبصر يعدُّ الفِكر الذي أودعه الله في الإنسان، فهذه العين وهذه الأذن، وهذا الفكر مناط التكليف:

(وَجَعَلَ لَكُمُ السّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

بالعين ترى آيات الله الدّالة على عظمته، وبالأذن تستمع إلى كلام الله عزّ وجل، وإلى سنّة نبيه، بالعين والفكر تعقل، وبالأذن تسمع، وأنت أمام آياتٍ تحتاج إلى تفكّر، وبين نقلٍ يحتاج إلى تدَبُّر، النقل عن طريق الأذن يحتاج إلى تدبر، والكون عن طريق العين يحتاج إلى تفكّر، فمن خلال الكون تتعرف إلى الله عزّ وجل، ومن خلال الأذن تتعرف إلى أمره ونهيه فتعبده، إذاً مجيء السمع والبصر والفؤاد هذه ثلاثة ؛ حاستان وجهازٌ مُعَقّدٌ جداً، وهو الفكر، هذه الحواس مناط التكليف، بالعين والفكر تتأمل في آيات الله التي بثّها في الكون فتعقل، وبالأذن تتدبّر أوامره ونواهيه فتعبده، فلا بدّ من اجتماع الفكر والعين والسمع:

(قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

لكن تأمّلْ: قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ

أي لو نظرت قليلاً، لو استمعت قليلاً، هذا الأعرابي الذي سأل النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله عِظْني، ولا تطل، فتلا عليه قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

قال: كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

القضية أبسط مما تتصورون، القضية آيةٌ واحدٌ تكفي، حديثٌ واحدٌ يكفي، في القرآن والسنة آياتٌ لا تزيد على أصابع اليد تكفيك طوال الحياة، وأحاديث أيضاً لا تزيد على أصابع اليد تكفيك طوال الحياة.

(قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

أي إذا سمعت قليلاً يكفيك، إذا تأمّلت قليلاً يكفيك، إذا تفكّرت قليلاً يكفيك.

(وَجَعَلَ لَكُمُ السّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

إذاً هذا الكون سخّره الله لك تسخير تعريف، وتسخير تكريم ؛ فماذا ينبغي أن تفعل ؟ ينبغي أن تؤمن، وينبغي أن تشكر، ولن تشكر قبل أن تؤمن، إذا آمنت شكرت، فإذا آمنت، وشكرت فقد حققت المُراد الإلهي، لأن الله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: آية " 147 ")

أي إذا آمنت، وشكرت فقد حققت المُراد، فإن لم تشكر فمعناها لم تؤمن، لا تشكر إلا إذا آمنت، إذا آمنت فعلاً شكرت ومن لوازم الإيمان الشكر، والآن مقولة الكفار:

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة السجدة: آية " 10 ")

مقولة باطلة في إنكار البعث: أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ

أي إذا متنا، ودُفِنا تحت الأرض، وأصبحنا تراباً، واختلط جسمنا البالي بتراب الأرض:

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ)

معنى ضللنا أي دُفِنا، غُيّبنا في باطنها، وكذلك معنى ضللنا، أي اختلط تراب جسمنا بتراب الأرض، وكلا المعنيين صحيح:

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

(سورة السجدة: آية " 10 ")

أيْ أيعقل بعد أن تفنى أجسامنا، وتصبح تراباً مختلطاً بتراب الأرض أنخلق ثانيةً من جديد لنحاسب ؟

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

(سورة السجدة)

أيْ أن يخلق الإنسان مرةً ثانية ليحاسب على أعماله كلها ؛ خيرها وشرها، جَيّدها وسيئها، صالحها وطالحها، هذا شيءٌ يكفرون به، مع أن الله سبحانه وتعالى من أسمائه الحق، ومن الأدلة على اليوم الآخر أن الإنسان في الحياة قد يكونُ قوياً، وقد يطغى في قوته، وقد يكون ضعيفاً فيظلم في ضعفه، وقد يكون غنياً، وقد يكون فقيراً، وقد يكون صحيحاً، وقد يكون مريضاً، ويأتي الموت عند هذه الأوضاع غير المتكافئة، ألا ينبغي أن تكون هناك حياةٌ أخرى تسوّى فيها الحسابات، يؤخذ من القوي للضعيف، ألا ينبغي أن يقيم الله عزّ وجل حياةً أبديةً يجازي فيها المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته ؟ لذلك كما يقولون: **" وزعت الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء ".**

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

الكفر نوعان: جليّ وخفيّ:

لذلك فالكفر أيها الإخوة نوعان، كفر جلي وكفر خفي:

الكفر الخفي:

فإن لم تجد في عمل الإنسان اليومي ما يؤكِّد إيمانه باليوم الآخر فهو كافرٌ باليوم الآخر كُفراً خفياً، أضرب على هذا مثلاً: لو أنّك زرت طبيباً، وعالجك علاجاً جيداً، وكتب لك وصفة، قد تصافح الطبيب،

وقد تشكره على عنايته بك، ولكن لمجرّد أنك لا تشتري هذا الدواء فلست إذاً واثقاً من علم هذا الطبيب، فعدم شراء الدواء تكذيبٌ لعلمه، ولو أثنيت على علمه، فالتكذيب نوعان تكذيبٌ جلي، وتكذيبٌ خفي مبطن، فإذا قلت: أنا مؤمن بالجنة والنار، أنا مؤمنٌ باليوم الآخر، ولم تعمل لليوم الآخر، ولم نجد في حركتك اليومية ما يدل على خوفك من النار، ولا طمعك في الجنة، فنقول: إنك تكذِّب باليوم الآخر تكذيباً عملياً، لا تكذيباً قولياً، فلذلك:

(بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

لمجرد أن تعمل للدنيا وحدها، لمجرد أن تأكل مالاً حراماً ليس لك، لمجرّد أن تتحرك بلا ضابط وبلا منهج وبلا قيم، لمجرّد أنك لا تأتمر بما أمر الله، ولا تنتهي عما نهى الله، لمجرد أنك تعصي الله، ولا تنوي أن تتوب من هذه المعصية، لمجرد أنك مقيمٌ على معصية الله فهذا يؤكِّد عدم إيمانك باليوم الآخر، ولو آمنت باليوم الآخر حق الإيمان لاختلفت كل علاقاتك اليومية، لاختلفت كل حياتك، لظهر هذا واضحاً في سلوكك، لذلك الذي يؤمن بالآخرة يقول لك: هذه حرام لا أفعلها، والله إني أخاف الله رب العالمين، هذه معاذ الله أن أفعلها، هذه لا تجوز، إذاً بحياتك ورع، وبحياتك خوف، هذه لا أفعلها، وهذه لا أقبلها، وهذه لا تُرضي الله، وهذه أعاقب عليها يا أخي، أما الذي يفعل ما يشتهي، ويتحرّك كما يحلو له من دون قيدٍ ولا شرطٍ، ولا منهجٍ ولا ضابطٍ، هذا يجب أن يؤكِّدَ لنفسه أنه ليس مؤمناً باليوم الآخر:

(بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

حتى لا يغش الإنسان نفسه، هناك نوع من الناس يشكلون نموذجاً مشاعاً الآن:

وهذا النموذج إنسان مسلم بالانتماء، يحب أن يسمع كلام الحق، يحب أن يحضر مجالس علم، عنده عواطف إسلامية، إذا سمع نشيداً يتأثر، لكن تجد أفكاره في واد وأعماله في واد، هذا النموذج لا يُجدي، ولا تقوم عليه أمةٌ قوية، لا يقوم المجتمع الإسلامي الصحيح إلا على أفراد متمسكين بمبادئ الإسلام، لذلك:

(بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

الكفر الجلي:

وإما أن يكون الكفر جلياً، فيقول الإنسان: أنا لست قانعاً باليوم الآخر، وهذا كفرٌ به جلي، وإما أن تعلن بلسانك أنك مؤمنٌ باليوم الآخر، وليس في العمل ما يؤكِّد ذلك، وهذا كفرٌ خفي، فالتكذيب جليٌ وخفي:

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

(سورة السجدة)

كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلابدّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر

***

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ

فإذا حملت إلى القبور جنازةً فاعلم بأنك بعدها محمول

***

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ)

(سورة السجدة: آية " 11 ")

ما منا واحدٌ أيها الإخوة إلا وهو يصدِّق بأن الموت حق، لكن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن يستعدُّ لهذا اليوم، بينما غير المؤمن يفاجئه ذلك اليوم، يأتيه على غير موعد، ويأتيه على غير استعداد، لذلك يُصْعَقُ الكافر حينما يأتيه ملك الموت، عندئذٍ يقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

عندئذٍ يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

عندئذٍ يندم بعد فوات الأوان:

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

(سورة السجدة)

ترجعون لتحاسبوا على أعمالكم كُلِّها، خيرها وشرها، جليلها وحقيرها، صالحها وطالحها، هذا معنى قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

العمل مهما بدا لك صغيراً فستحاسب عليه.

مشاهد من يوم القيامة: صورة من ذل المجرمين:

الآن ربنا عزّ وجل ينقُلنا إلى مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة:

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)

(سورة السجدة: آية " 12 ")

لو شاهدت يا محمد هؤلاء المكذِّبين، هؤلاء المُعاندين، هؤلاء المستكبرين، هؤلاء المكذبين، لو شاهدتهم يوم القيامة، وهم ناكسو رؤوسهم ؛ خجلاً، وخزياً، وشعوراً بالعار..

إن العار ليلزمُ المرءَ يوم القيامة حتى يقول: **يا ربِ لئن تُرسل بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب ".**

فهذا الذي يقول لك: أنا لا أصدق، أيعقل أن يكون الإنسان تراباً، ثم يُخلق من جديد ؟!! يا أخي من الذي مات ورجع وقال: هناك دار آخرة ؟ هذه كلمات الجُهّال، كلمات العوام، كلمات المُعاندين، كلمات الماديّين، هذه الكلمات التي يتبجحون بها في حياتهم، وفي أوج قوتهم، وصحتهم، وجبروتهم، لو رأيت هؤلاء وهم ناكسو رؤوسهم عند ربهم.

في الدنيا تقريباً هناك بعض العصابات، هذه العصابات، وهي قبل أن يلقى القبض عليها تجد أن لها مظاهر القوة، ورئيس العصابة يهدِّد أتباعه، فإذا أُلقي القبض عليهم جميعاً، وأودعوا في السجن، وجاء من يصوّرهم لتحقيقٍ صحفي تراهم ناكسي رؤوسهم وأبصارهم في الأرض لشعور الخزي والعار، وهذه صورة نراها كل يوم، أحياناً حينما يُصَور مجرم في الجريدة ترى رأسه منخفضاً، وبصره ناكساً، لماذا ؟ لأنه تلبّس بالخزي والعار، فالمعنى هكذا: ولو ترى يا محمد إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم..

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)

البطولة أن تعرف الحق قبل فوات الأوان:

عرفنا الحقيقة، قلت لكم سابقاً: قضية الإيمان ليست قضية أن تؤمن أو ألا تؤمن، هذه قضيةٌ مرفوضة، قضية متى تؤمن ؟ لأنّك لابدّ من أن تؤمن، لابدّ من أن تؤمن ولكن بعد فوات الأوان، فالبطل هو الذي يؤمن قبل فوات الأوان، قضية الإيمان لا تُطْرَح على الشكل التالي: نؤمن أو لا نؤمن، لا. بل متى نؤمن؟ لأنه لابدّ من أن تؤمن، لأن فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

حينما أدركه الغرقُ آمن، وكلُّ إنسانٍ مكابرٍ، معاندٍ، مكذّبٍ لابدّ من أن يؤمن عندما يلقى الله عزّ وجل..

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)

(سورة السجدة)

إذاً يجب أنة نؤمن في الوقت المناسب، ونحن أصحاء، ونحن أشِحَّاء، ونحن في قوتنا، ونحن في صحتنا، هذا الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك))

والحديث الذي تعرفونه:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ ؟ فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

الإيمان عملية واعية:

بالمناسبة، الإيمان ليس شيئاً يأتيك عفوَ الخاطر، أي ينمو هكذا، وأنت لا تدري، لا.. الإيمان عملية واعية، عملية تفكّر وبحث، عملية استماع وتَبَنٍّ، عملية عقل، فالإنسان إن لم يكن عنده وقتٌ ليؤمن لا يؤمن، أي إن هذا الذي تستغرقه أعماله، هذا الذي ليس عنده وقتٌ ليحضر مجلس علم، ولا ليقرأ القرآن، ولا ليُصغي إلى موعظة، ولا إلى نصيحة، هذا متى يؤمن ؟ لابدَّ أن تخصصُ وقتاً من زُبْدَة وقتك كي تؤمن، وحضورك مجالس العلم هو مساهمةٌ في بناءِ إيمانك، استماعك إلى الحق مساهمةٌ في بناء إيمانك، تلاوتك القُرآن، وتدبُّرك له مساهمةٌ في بناء إيمانك..

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)

بعد فوات الأوان:

بعد فوات الأوان !! لذلك الإنسان حينما يأتيه ملك الموت لا يندم إلا على شيءٍ واحد، ما سمعت في حياتي أن إنساناً أدركه الموت فقال: رب أرجعوني كي أُنهي هذه الصفقة، رب أرجعوني كي أنهي هذا البناء، لم ينته البناء، يا رب بقيت له المرحلة الأخيرة، لا، هذا لا يُقال، إن الذي يُقال: رب أرجعوني لكي أعمل صالحاً، إذاً أنت في الدنيا خُلقت من أجل العمل الصالح، بل ما الذي تندم عليه حينما يأتي ملك الموت ؟ هو أهَمُّ ما في الدنيا، الذي تندم عليه حينما يأتيك ملك الموت هو أهم شيءٍ في الدنيا، فاقرأ كل الآيات تنبئك:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

إذاً العمل الصالح المبني على إيمانٍ يقيني هو سرُّ وجودك في الأرض، هذا يؤكِّده قوله تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

الآن هناك آيةٌ من أدَقِّ الآيات:

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)

قال الله تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة)

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا

مفهوم مغلوط للآية:

طبعاً ظاهر هذه الآية أنّ الإنسان إذا قرأها من دون تبَصُّر، ولم يسأل أهل الذكر عنها فقد يتوهَّم أن الله عزّ وجل كان من الممكن أن يهدي الناس جميعاً، ولكنه لم يشأ ذلك..

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

أي كان من الممكن أن يهدي الله الناس جميعاً، ولكن لم يشأ ذلك..

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة)

المعنى الصحيح للآية: اختيار العبد:

لكن لهذه الآية معنىً أدق من ذلك، ومعنىً أبعد من ذلك، هو: أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان مختاراً، وأعطاه حرية الاختيار، أو ما يسمى حرية الكسب، أعطاه حرية الاختيار ليثمِّن عمله، أي أن عمله الصالح لا قيمة له إطلاقاً إن لم يكن مختاراً، لو أن الله سبحانه وتعالى أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، حينما يُجْبِر الله عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولما ارتقى الإنسان عند الله عزّ وجل، لا قيمة للعمل الصالح إلا إذا فعلته مختاراً، إذاً حرية الاختيار من أجل تثمين العمل، لو أن الله سبحانه وتعالى أجبرك على الإيمان، أو أودع فيك فقط نداء العقل، ولم يضع فيك نداء الغريزة، أي ليس لديك

إلا الخير، وليس لديك إلا الطريق السالك إليه وحده، لو أن الله أجبر الناس على طاعته لما ارتقوا في الجنة، ولما استحقوا الجنة.

حينما أقدم للطالب ورقة الإجابة، وقد كتبتْ عليها الإجابة من قِبلي، وأقول لهذا الطالب: اكتب اسمك ورقمك، وهذه مئة من مئة، ما قيمة هذا النجاح ؟ أُلغي النجاح، وسقطت قيمة النجاح، وليس هذا النجاح مقبولاً، ولا مرغوباً، ولا مطلوباً، لا عند الطلاب، ولا عند الأساتذة، ولا عند الناس جميعاً.

نفي مفهوم الجبرية:

إذاً لمجرد أن يجبر الله الناس على الهدى سقطت قيمة الهدى، وانتهى الهدى، وضاعت ثمرته، فقد يسأل سائل لماذا لم يجبرنا الله على طاعته وانتهى الأمر ؟ هكذا تقول الآية:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى)

(سورة الأنعام: آية " 35 ")

لو كنت مجبركم على شيء لأجبرتكم على الهدى، ولو شئنا أن نجبركم، وأن نلغي اختياركم، وأن نلغي تكليفكم، وأن نلغي حرية كسبكم، لو أردنا ذلك لأجبرناكم على الهدى فقط:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة: آية " 13 ")

ولكن هذه الأعمال التي تفعلونها ليست من إجبار الله، أي أن هذا الذي يقول: أنا شربت الخمر، لأن الله قَدَّر عليَّ ذلك مخطئ في مقالته، سيدنا عمر حينما بلغه خبر أحد الأشخاص الذين ضبطوا متلبّسين بشرب الخمر، وجاءوا به إلى سيدنا عمر، وسأله عمر " لماذا شربت الخمر ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قدَّر عليَّ ذلك، فقال رضي الله عنه: أقيموا عليه الحدَّ مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله، قال له: يا هذا ويحك إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار "، أي أنت مخير، فهذا الذي يعصي الله، ويقول: الله قَدَّر عليَّ ذلك، والله أجبرني على معصيته، كلمات العامة يرددونها.. " طاسات معدودة في أماكن محدودة "، هذه كلماتٌ شيطانية لا أصل لها..

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

هذا كذب، وهذا خَرص، وهذا إفك، وهذا افتراء، أيعقل أن الله سبحانه وتعالى الذي خلقنا للهدى، وخلقنا للرحمة أن يجبرنا على معصيته ؟ لذلك هذا الذي يقول: لو نظرت إلى العُصاة بعين الشريعة لعنّفتهم، ولو نظرت إليهم بعين الحقيقة لعذرتهم، هذا كلام لا يقف على قدمين، كلامٌ باطل..

ولو شئنا أن نأخُذ منكم اختياركم، لو شئنا أن نلغي تكليفكم، لو شئنا أن نجبركم لأجبرناكم على الهُدى، أما أن نجبركم على معصيةٍ فهذا مستحيل، لو أن الله أجبرنا على شيء لأجبرنا على الهُدى فقط، لكن حتى لو أجبرنا على الهدى لا قيمة لهذا الهدى، ولا نرقى بهذا الهدى، ولا نسعد بهذا الهدى، ولن يكون هذا الهدى القسري ثمناً لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، لكن الهدى الاختياري أن تأتيه طائعاً، أن تأتيه مختاراً، أن تُقبِل عليه وبإمكانك ألا تقبل، أن تحسن وبإمكانك ألا تحسن، أن تستقيم وبإمكانك ألا تستقيم، أن تجلس في مجلس علم، وبإمكانك أن تجلس في دار لهوٍ، أن تَغُضّ بصرك عن محارم الله، وبإمكانك أن تطلق البصر، أن تخاف من أن تأكل مالاً حراماً، وبإمكانك أن تأكُله، هذا الذي يرفعك عند الله، وهذا الذي يقربك منه، أن تأتيه مختاراً، إنكم تدّعون أنني أجبرتكم على هذه المعاصي، لو أنني أجبركم على شيء لأجبرتكم على الهدى..

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

ولكن هذه الأعمال التي تفعلونها هي من كسبكم واختياركم، وسوف تحاسبون عليها..

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

أيها الإخوة الأكارم، في القرآن آياتٌ محكمات، وهي كثيرةٌ جداً، بل هي أكثر ما في القرآن، وفي القرآن بعض الآيات المتشابهات التي إذا قرأتها من دون علمٍ، ومن دون نورٍ، ومن دون خبرةٍ، أو تدَبُّرٍ، أو سؤالٍ، أو استنارةٍ قد تقع في سوء ظنٍ بالله عزّ وجل، وحسن الظن بالله ثمن الجنة.

آية في سورة آل عمران:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران: آية " 154 ")

أي قد تظنُ بالله ظناً غير صحيح، حسن الظن بالله ثمن الجنة، أي أن تعتقد أن الله أجبر الكفار على معصيته ولا خيار لهم في ذلك، ولا حيلة لهم أبداً، وأنهم استحقوا جهنم إلى الأبد، وهم مجبرون ؟ هذا سوءُ ظنٍ بالله عزّ وجل، فقيمة عملك أنك مخير، وما دمت مخيراً فلعملك قيمة، لعملك ثمن به ترقى، أي لا ترقى إلا إذا كنت مختاراً، فأيُّها العباد، إذا ظننتم أنني أجبركم على المعاصي فهذا سوء ظنٍ بالله عزّ وجل، هذا ظن الجاهلية، هذا الذي يظن أن الله سبحانه وتعالى أجبر عباده على معصيته، ثم أدخلهم النار إلى الأبد، لأنه أجبرهم على معصيته، هذا هو الظن غير الحق..

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران: آية " 154 ")

هذا الظنُ يُهلكهم، ويُردِيهم..

(قُلْ إِنّ اللّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

(سَيَقُولُ الّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام)

كلُّ الآيات التي تتحدَّث عن اليوم الآخر فيها إشارةٌ إلى ندم العصاة، ندمهم، وخزيهم، وعارهم، لو أنهم أجبروا على المعصية لما ندموا، ندمهم علامة اختيارهم.

مجرّد الأمر والنهي دالّ على أنّ الإنسان مخير:

شيءٌ آخر: قال بعض العلماء: " مجرّد الأمر والنهي معنى ذلك أنّ الإنسان مخير "، أي إذا رسمنا طريقاً لهذا الإنسان، عرضه ستون سنتيمترا، على عرض كتفيه، وقلنا له: خذ اليمين، أيُّ يمينٍ هذا ؟ جدارا الطريق يلامسان كتفيه، وقلنا له: خُذ اليمين، أو خذ اليسار، هذا أمرٌ لا معنى له، ما دام الله يأمر وينهى الإنسانَ إذاً عنده حرية الحركة، ما دام الله قد أمرك فأنت مخيَّر، وما دام قد نهاك فأنت مخير، وما دمت تندم يوم القيامة فأنت مخير..

(قَالُوا رَبّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا)

(سورة المؤمنون: آية " 106 ")

أي غلبت علينا شهواتنا..

(إِنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إِمّا شَاكِراً وَإِمّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

الجهة بيدكم الإنسان فاستبقوا الخيرات.. فلا يخافَنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجوَنّ إلا ربه.

إذاً هذه الآية من الآيات التي إذا قرأتها من دون علمٍ أو تدبرٍ، أو من دون أن تسأل أهل الذكر كما قال الله عزّ وجل:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنبياء)

ربما وقعت في سوء ظنٍ بالله، قد تقرؤها هكذا على ظاهرها:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقّ الْقَوْلُ مِنّي لَأَمْلَأَنّ جَهَنّمَ مِنَ الْجِنّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ)

هكذا على ظاهرها من دون تدبُّر، من دون تحقق، من دون فهم تقع في سوء ظنٍ في الله، أي نحن بنينا سجناً، ويجب أن نملأه، أقمنا حاجزاً على الطريق، وأخذنا الناس، مطيعهم وعاصيهم لملء السجن.. يا أخي، بنيناه وكلفنا كثيرا، هذا كلامٌ لا يقف على قدمين، لا يستقيم هذا الكلام، فإذا ادعيتم أيها العباد أنني أجبرتكم على معصية فهذا سوء ظنٍ منكم، ولو شئت أن أجبركم لأجبرتكم على الهدى، ولكن حتى لو أجبرتكم على الهدى فإن هذا الهدى القسري لا قيمة له إطلاقاً، ولا يرقى بكم، ولا يسعدكم، ولن تكونوا أهلاً به لدخول الجنة، أما الجنة ثمنها أن تأتي الله طائعاً، أن تطيعه، وبإمكانك أن تعصيه، أن تحسن، وبإمكانك أن تُسيء، أن تستقيم، وبإمكانك أن تنحرف، أن تؤمن، وبإمكانك أن تكفر، أن تعمل الصالحات، وبإمكانك أن تعمل السيّئات، ما دام بإمكانك أن تُسيء، فإن إحسانك له قيمة، ولكن لماذا جعل الله النبي ضعيفاً ؟ في أول الأمر بإمكانك أن تكذّبه، وأن تنام مطمئن البال، بإمكانك أن تسخر منه، وتنام مطمئن البال، لذلك هذا الذي يؤمن به.. الإيمان به شيءٌ عظيمٌ جداً.. أما القوي فإنك تطيعه، ولا أجر لك، لأنك تخاف بطشه، تطيعه لا عن حبٍ، بل عن خوف، فلذلك ما جعل الله الأنبياء في أول عهدهم بالنبوة إلا ضعافاً ليكون الإيمان بهم ثميناً، أنت تؤمن، ولو لم تؤمن لكان أقرب إلى مصالحك، إذاً جعل الله الإيمان له ثمن، هذه الآية أتمنى أن تُفهم على هذا النحو الذي يليق بحضرة الله عزّ وجل، يليق بأسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى..

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

الأعمال السيئة باختيار العبد وهو محاسَب عليها:

ولكن أعمالكم السيّئة لم أجبركم عليها، بل فعلتموها بمحض اختياركم، ومن كسبكم، وسوف تحاسبون عليها..

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي)

أنّ من أعطيته اختياراً، وأساء الاختيار سيدفع الثمن باهظاً، كل شيء له ثمن، مجيئكم لهذا المجلس، واجتماعكم له ثمن، تطبيقكم له ثمن..

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)

(سورة السجدة)

هؤلاء الذين قالوا:

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

(سورة السجدة: آية " 10 ")

مصيبة الناس في نسيان اليوم الآخر:

فلاحظ الناس الآن، عامة الناس يحسبون حساباً لكل شيء، إلا اليوم الآخر، فيخططون لكل شيء، إلا ساعة وقوفهم بين يدي ربهم، يأخذون الأموال بلا تحفُّظ، يُعدُّون أخذ المال الحرام شطارةً، وذكاءً، وحنكةً، وحيويةً، يقول لك: هذا شاطر، هؤلاء الذين نسوا لقاء يومهم هذا هم الأغبياء، هم الأشقياء الذين سوف يدفعون ثمن إغفالهم، أو غفلتهم ثمناً باهظاً..

(فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

حقائق ثلاث لا بد منها: الإيمان بالله، والإيمان بعلمه، والإيمان بحتمية الحساب:

لذلك أيها الإخوة الأكارم... أقول لكم: لن يستقيم الإنسان على أمر الله إلا إذا آمن بوجوده، وآمن بأنه يعلم، ولا تَخْفى عليه خافية، وآمن بحتمية الحساب، آمنت بوجود الله، وبأنه يعلم، وبأنه سيحاسب، إذا تحقّقت من هذه الحقائق الثلاث فمن النتائج الطبيعية والحتمية أن تستقيم على أمر الله، إذاً حاول أن تؤمن بوجوده إيماناً حقيقياً لا إيماناً ساذجاً، أو إيمان تَبَرُّكٍ، بل ليكن إيماناً حقيقياً، إيمانك بوجود الله ظاهرٌ في سلوكك ؟ تقول: هذه لا أفعلها، إني أخاف الله رب العالمين ؟ هل تقف عند حدود الله ؟ هذا المبلغ لا آخُذُه، هذا اللقاء لن يكون، هذا العمل لا أفعله، يجب أن يظهر إيمانك في سلوكك، هذا الذي عناه الله عزّ وجل..

(فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

أي أن أعمالكم التي فعلتموها اختياراً هي سبب شقائكم في النار، هكذا يقول الله عزّ وجل:

(فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)

لذلك فالعقل السديد أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليك..

سمكات ثلاث: قصة وعبرة:

هذه قصة أرويها كثيراً، وهي رمزية: صيادان مرّا بغدير سمك فيه سمكاتٌ ثلاث، كيسةٌ، وأكيس منها، وعاجزة، الكيسة العاقلة، وأكيس منها، أي أرجح عقلاً، والعاجزة، أي الغبية، فرأى الصيادان ما في الغدير من السمك، فتواعدا أن يرجعا، ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك، فسمعت السمكات قولهما، أما أكيسهن فإنها ارتابت، وتخوفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، وهذه كلمةٌ دقيقة: المؤمن العاقل يحتاط لليوم الآخر قبل مجيئه، يحتاط للموت قبل نزوله، يحتاط للشيخوخة قبل أن

يصل إليها، يستقيم في شبابه.. " حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر "، " من عاش تقياً عاش قوياً "، " من تعلّم القرآن منّعه الله بعقله حتى يموت "، المؤمن لا يخرف أبداً، ولا يشيخ، يشيخ جسمه، وتبقى نفسه شابةً بمعرفة الله عزّ وجل.. أما أكيسهن فإنها ارتابت، وتخوّفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ولم تَعْرُج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت، هذا العاقل، العاقل يعيش المستقبل دائماً، والأقل عقلاً يعيش الحاضر، والغبي يعيش الماضي يقول لك: كنت وكنت، الأقلّ ذكاء يعيش حاضره، يفاجأ يوماً بحادث فيأخذ تدابيره، لكن قد ينجح، أو قد لا ينجح، أما العاقل هو الذي يعيش مستقبله، وهو في شبابه يعيش ساعة الموت، كيف سأُحاسب ؟ فالمشكلة أن الإنسان حينما يأتيه الموت يفقد كل شيء، ويدفع ثمن كل شيء، ويحاسب عن كل شيء..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

فهذه السمكة العاقلة جداً قبل أن يعود الصيادان أصبحت خارج الغدير، وارتاحت أعصابها، وأما الكيّسة فمكثت في مكانها حتى عاد الصيادان، هذه تعيش وقتها، فوجئت، رجع الصيادان ومعهما الشبكة، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها، فإذا بالمكان قد سُد، الصيادان سدّوه فقالت: فَرَّطْتُ، وهذه عاقبة التفريط.. هذا جزاء عملي.. غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، فتظاهرت أنها ميتة، ثم إنها تماوتت، فطفت على وجه الماء، فأخذها أحد الصيادين.. أمسكها بيده.. ووضعها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر فنجت، لكن هذه غامرت وقامرت، كان من الممكن ألا تنجو، فلو وضعها في مكانٍ بعيد لماتت، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدت، إذاً العاجز دائماً يعيش ماضيه أولاً، ويستهلك وقته استهلاكاً رخيصاً، فيأتيه الموت فجأةً، وهو ليس مستعداً له.

فلذلك نقلنا ربنا عزّ وجل نقلة، نقلنا إلى مشهد من مشاهد يوم القيمة، قال لك:

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14))

(سورة السجدة)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 15- 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-09-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة السجدة، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

(سورة السجدة)

طريق الإيمان بالله هو الإيمان بآياته:

الحقيقة أن طريق الإيمان بالله هو الإيمان بآياته، لأن الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، ولكن تعرفه من خلال خلقه، فالإيمان بآياته طريقٌ إلى الإيمان به، وكيف تؤمن بآياته ؟

أنواع السجود: سجود الاضطرار وسجود العبادة:

1 - سجود الاضطرار:

إذا ذُكِّر الإنسان بآيات الله خرّ ساجداً، والسجود له معنيان: سجود اضطرار، وسجود عبادة، أي مخلوقٍ على وجه الأرض شاء أم أبى ساجدٌ لله سجودَ اضطرار، أنت مفتقرٌ إلى الهواء، مضطرٌ إليه، مفتقرٌ إلى الماء، مضطرٌ إليه، ولو أن الله سبحانه وتعالى منع عنك الهواء لانتهت حياتك، ولو منع الماء الذي يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء لهلك كل شيء، مادام كل شيء يحتاجه في كل شيء، إذاً الخلق كلُّهم ساجدون لله عزّ وجل سجود اضطرارٍ وافتقارٍ وحاجة، هذا السجود لا تعنيه الآية، أيُّ مخلوقٍ حتى الكفار، حتى الذين أنكروا وجود الله عزّ وجل مفتقرون إليه في قيامهم، في قعودهم، في نومهم، في صحوهم، في عملهم، في حركتهم، في هضمهم، في حركة قلوبهم، في مرونة شرايينهم، في ميوعة دمائهم، لو أن هرموناً قَلّت نسبته في الدم، هرمون التميُّع، لأصبح الدم في الأوعية كالوحل، وانتهت حياة الإنسان، لو أن هرمون التجلط قَلّت نسبَتُه لخسر الإنسان دمه كله مِن جُرحٍ طفيف، إذاً أنت مفتقرٌ إلى حالةٍ معتدلة بين الميوعة والتجلُّط، أنت مفتقرٌ إلى مرونة الشرايين، أنت مفتقرٌ إلى حركة القلب، أنت مفتقرٌ إلى حركة العضلات، إلى ناقلية الأعصاب، مفتقرٌ إلى كأس ماء، إلى نسمة هواء، إلى طعامٍ، إلى شرابٍ، إلى زوجةٍ، إلى عملٍ، إلى مأوى، إلى ثياب، الحاجات التي أنت في أمَسّ الحاجة إليها لا

تُعدُّ ولا تُحصى، وكلُّها بيد الله عزّ وجل، بدءاً من خلاياك، إلى أجهزتك، إلى أعضائك، فكل الخلق ساجدون لله سجود افتقار، سجود اضطرار، سجود حاجة.

2 ـ سجود العبادة:

ولكن السجود الراقي السجود الذي تُؤجَرُ عليه، السجود الذي يَرقى بك، السجود الذي يجعلك في الآخرة من المقرّبين، هو سجود العبادة أن تأتيّه طوعاً لا كرهاً، أن تأتيّه مختاراً لا مجبراً، أن تأتيّه بمحض إرادتك، أن تأتيّه مُحباً لا خائفاً، فلذلك المؤمنون الذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خروا سجدا.

سمعوا عن آيات الله: عن آية الشمس، آيةٌ دالةٌ على عظمته، كيف أن الشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، وأن الأرض إذا أُلقيت فيها تبخّرت في ثانيةٍ واحدة، وأن حرارة الشمس على سطحها ستة آلاف درجة، و أما في باطنها فعشرون مليون درجة، وأنّ الشمس منذ خمسة آلاف مليون عام هي متألقةٌ تَنشر الحرارة، والدفء، والضوء، هذا الإمداد المستمر، بيد من ؟ والقمر كذلك، والمجرّات كذلك، فكلّما تُلِيَت عليه آيةٌ من آيات الله خرّ ساجداً لله لا سجود اضطرار، ولكن سجود عبوديةٍ لله، سجود إقرارٍ بفضل الله، سجود تعظيمٍ لخلق الله، هذا السجود هو الذي كُلّفنا به، سجود العبودية، لا سجود الاضطرار، فهؤلاء هم المؤمنون:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا)

(سورة السجدة: آية " 15 ")

مَن ذُكِّر بآيات الله فآمن فهو المؤمن الحقيقي:

قد تدرسُ دراسةً عالية، قد تنالُ درجةً جامعية، قد تنال درجة الدكتوراه في العلوم الطبيعية، وكلّما قرأت شيئاً من آيات الله الدالّة على عظمته لم تسجد، ولكن رأيت أن هذه الظواهر ظواهر طبيعيةٌ تحكمها قوانين، فأنت مع أنك قرأت هذه الآيات، وتبحّرت فيها، وغُصْت في أعماقها، لكن لم تعبر بها إلى الله عزّ وجل، لم توظِّفها في معرفة الله، فهذه المطالعة، وهذه الدراسة لا قيمة لها، فالكون جسرٌ يجب أن تعبر عليه إلى معرفة الله، فإذا بقيت على الجسر ما استفدت من هذا العلم شيئاً، لذلك:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً)

(سورة السجدة: آية " 15 ")

أي أنّه كلّما ذُكِّر المؤمن بآيةٍ من آيات الله اذكر وتفكّر، وآيات الله بثّها الله في كل مكان، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

في الجسد آيات، في الطعام آيات، في الشراب آيات، في البحار آيات، في السماء آيات، في الأسماك آيات، في الأطيار آيات، وأقرب آيةٍ إليك جسدُك، أقرب آيةٍ إليك نفسك التي بين جنبيك، أقرب آيةٍ إليك أعضاؤك، حواسك، أجهزتك، أنسجتك، طباعك، نظام حياتك، زواجك، إنجابك، هذه كلها تحت سمعك وبصرك، فلذلك علامة المؤمن الصادق أنه إذا اطلع على آيةٍ من آيات الله الدالة على عظمته، إذا قرأ عن آيةٍ من آيات الله، إذا سمع آيةً من آيات الله خرّ لله ساجداً سجود عبادة لا سجود اضطرار، لذلك تُعدُّ آيات الله التي بثّها في الكون أقرب طريقٍ وأوسع باب، ومن خلال هذه الآيات يمكن أن تصل إلى معرفة الله لقول الله عزّ وجل:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(191))

(سورة آل عمران)

التطبيق العملي لهذه الآية:

هؤلاء المؤمنون أيها الإخوة، وأنا أتمنى على كل أخٍ كريم، وهذا من التطبيق العملي لهذه الآية، أتمنى على كل أخٍ كريم أن يكون له مع الله جلسة، هذا الذي فعله النبي في غار حراء، هذه جلسات التأمُّل في آيات الكون جلساتٌ لا بدّ منها، يمكن أن تفعلها كل يوم لوقتٍ قصير، يمكن أن تفكِّر في أيّ شيءٍ حولك، لأن الله يأمرك، وهذا أمر إلهي.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

(سورة الطارق)

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: آية " 101 ")

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

(سورة الغاشية)

التأمل في خلق السماوات والأرض عبادة:

هناك دعوةٌ واضحةٌ، جليةٌ متكررةٌ، مركّزٌ عليها في القرآن الكريم إلى التأمل في الكون، فلابدّ من أن يكون التفكّر عبادة، بل إن بعض العلماء يجعلها أول عبادة، بل قبل عبادة الصلاة، لأن تفكر ساعةٍ يعدِل عبادة سبعين عاماً.

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر: آية " 67 ")

إذاً:

(إِنّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا)

فلو قرأت كتاباً في الطب، أو قرأت كتاباً في العلوم الطبيعية، كتاباً في التشريح، كتاباً في الفيزياء، كتاباً في الكيمياء، كتاباً في الفلك، ولم تر يد الله عزّ وجل ولا حكمته، ولم تر علمه، ولم تر قدرته، بل رأيت ظواهر طبيعيةً تحكُمها قوانين هي علاقاتٌ ثابتة بين متحولات، إذا نظرت إلى الأمور هكذا، فهذه نظرةٌ لا تعنيها هذه الآية، يجب أن ترى يد الله، يجب أن ترى من خلال الكون قدرة الله، علم الله، رحمة الله، لطف الله، خبرة الله هذه:

(إِنّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجّداً)

ألا يمكن أنك إذا علمت سراً من أسرار الخلق أن يخشع قلبك ؟ أي يقشَعَر جلدك ؟ أن تلين أعضاؤك خشوعاً لله عزّ وجل ؟ هذا الإدراك الجلي لآيات الله الدالة على عظمته يُجَسِّدها خضوع الإنسان لله، واتجاهه نحو السجود.

(وَسَبّحُوا بِحَمْدِ رَبّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

(سورة السجدة)

أما معنى:

(وَسَبّحُوا بِحَمْدِ رَبّهِمْ)

معنى التسبيح بحمد الله:

1 – المعنى السلبي للتسبيح:

التسبيح بحمد الله.. تسبيح من فعل سبَّح، والتسبيح بالتعريف الدقيق هو تنزيه الله عزّ وجل عن كل ما لا يليق به، هذا معنى سلبي.

2 – المعنى الإيجابي للتسبيح:

المعنى الإيجابي: هو تمجيد الله، فالتسبيح تنزيهٌ وتمجيد، أن تنفي عنه كل صفات النقص، وأن تثبت له كل صفات الكمال، أن تقول: سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، وأن تقول: ما أرحم الله عزّ وجل، ما أحكمه، ما أقواه، ما أغناه، أن تجول في أسمائه الحسنى، وصفاته الفُضلى تسبيح، وأن تنزّهه عن كل ما لا يليق به، هؤلاء المؤمنون الصادقون إذا عاينوا آيةً سجدوا لله وسبحوه.

من آيات الله الكونية:

1 ـ خاشية الماء:

فمن منا يصدِّق أن الحياة على الأرض متوقفةٌ على خاصةٍ في الماء ؟ هذه الخاصة لو أنها أُلغيت لأُلغيت معها الحياة، الماء شأنه شأن كل العناصر، إذا سخّنته تمدد، فإذا برّدته تقلّص، شأنه شأن كل العناصر، الحرارة من شأنها أن توسِّع الفراغات البينية بين الذرات، إذاً إذا سخّنت جسماً زاد حجمه، هذا معنى قول العلماء: المعادن تتمدد بالحرارة، فإذا رفعت الحرارة لأنَ المعدن، فإذا زدت الحرارة صار المعدن سائلاً، فإذا زدت الحرارة صار المعدن غازاً ـ وهذا إلى حدٍ ما شيء نظري ـ صار المعدن غازاً، فإذا برّدت الغاز صار سائلاً، فإذا بردت السائل صار صلباً، يوجد هواء سائل، ويوجد غاز صُلب، هذا متعلقٌ بالحرارة، لكن هذا الماء شأنه شأن كل المعادن والعناصر إذا سخّنته تمدد، فإذا برّدته تقلّص، إذا برّدته من درجة عشر إلى درجة ثمانٍ، سبع، ست، خمس، أربع تنعكس الآية، بعد درجة (+) أربع يزداد حجمه، وهذا تعرفونه في الثلاجات، إذا ملأت قارورة ماء، وأحكمت إغلاقها، ووضعتها في غرفة التبريد فإنها تنفجر، تتكسر، لأن الماء إذا برد دون (+) أربع يزداد حجمه، لولا هذه الظاهرة لما قامت حياةٌ على وجه الأرض، كلما تجمد الماء في المحيطات حسب القاعدة السابقة قلّ حجمه، وازدادت كثافته، وغاص في أعماق البحار، جاءت طبقةٌ ثانية تجمدت، وغاصت، إلى أن تُصبح البحار كلُها متجمِّدة، فإذا تجمّدت انعدم التبخُّر، وانعدمت الأمطار، وماتت النباتات، ومات الحيوان، وانتهت حياة الإنسان، فهل تصدقون أن حياة الإنسان على وجه الأرض، وحياة كُلّ كائنٍ حي أساسها هذه الظاهرة ؟

2 ـ العين البشرية:

هل تصدقون أن في ماء العين مادةً مضادةً للتجُمد، إذْ لو أن إنساناً سكن في أقاصي الشمال، وكانت الحرارة دون السبعين تحت الصفر، بإمكانه أن يُغَطِّي كل شيءٍ في جسمه خوف البرد إلا عينيه من أجل أن يرى طريقه، فلو أن هذه الحرارة المنخفضة لامست غشاء العين لتجمد ماء العين فوراً، لذلك أودع الله في ماء العين مادةً مضادةً للتجمد، هذه الآيات، آياتٌ في العين.

3 ـ جسم الإنسان:

آياتٌ في الأذن، آياتٌ في القلب، ثمانية آلاف لترٍ تُضَخ في اليوم الواحد، عضلةٌ تعمل تقلُّصاً وانبساطاً ثمانين عاماً أو مئة عامٍ دون كللٍ أو مللٍ، كيف تستريح هذه العضلة ؟ من دون صوتٍ، من دون ألمٍ، من دون إزعاجٍ، هذا خلق الله.

فجسم الإنسان أيها الإخوة، والله الذي لا إله إلا هو، في جسم الإنسان من الآيات الصارخة الدالة على علم الله، وعلى قدرته، وعلى حكمته، وعلى رحمته، وعلى قدرته الشيء الكثير، لذلك ما لهذا الإنسان غافلٌ عن معرفة الله ؟ غارقٌ في ملذاته ؟ قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

((16) قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20))

(سورة عبس)

4 ـ معجزة تقلّص الرحم:

الولادة شيءٌ مُعْجِز، الرحم يتقلّص تقلصاتٍ لطيفة في أثناء الطلق ليدفع الجنين إلى خارج الرحم، فإذا ما خرج الجنين تقلّص الرحم تقلُّصاً فجائياً حاداً بحيث تغلق كل الأوعية التي تمزّقت، وانفتحت، فلو كان التقلُّص الآخر رخواً لماتت الأم من النزيف، من أعطى هذا الرحم هذه القدرة على التقلُّص المتزامن التدريجي والتقلُّص القاسي المفاجئ ؟

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

(سورة عبس)

5 ـ توازن الهواء والأوكسجين:

أيها الإخوة الأكارم، هكذا كيفما تحركت، الهواء الذي تستنشقه كيف يتحقق توازنه ؟ آيةٌ عظمى من آيات الله، كيف أن النبات يأخذ غاز الفحم، ويطرح الأكسجين ؟ وكيف أن الإنسان يأخذ الأكسجين، ويطرح غاز الفحم ؟ هذا التوازن في نِسَب الغازات في الهواء توازنٌ معجز، هذا الماء من آيات الله الدالة على عظمته، هذه المعادن، هذه أشباه المعادن، هذه المواد العضوية، هذه الكائنات الحية.

6 ـ السمك والطيور:

مليون نوع من السمك في البحر، مئة مليار طائر في سماء الأرض، والبشر جميعاً خمسة مليارات، وكل طائرٍ له من الأجهزة ما لا ترقى إليه أعظم طائرةٍ موجودةٍ الآن.

7 ـ معمل الورقة الخضراء:

الورقة الخضراء ؛ إن أعظم معملٍ صنعه الإنسان، والله قرأت هذه الكلمة في مجلةٍ علميةٍ ليس هدفها أن تُعَرّف بالله إطلاقاً.. تقول هذه المجلة: إن أعظم معملٍ صنعه الإنسان يبدو تافهاً أمام الورقة، تأخذ المعادن، وتأخذ الماء من باطن التربة، ويصعد الماءُ نحو الأعلى على عكس نظام الجاذبية، الورقة فيها من اليخضور، ومن الحديد، ومن الآزوت، ومن الفوتون ـ الطاقة الشمسية ـ ما يصنع مع المعادن والماء سائلاً هو السائل الذي يعودُ من الورقة ليصنع الجَذر والساق والأوراق، والثمار، والأزهار، شيءٌ معجز، سائلٌ واحد يصنع أشياء كثيرة من طبيعةٍ واحدة.

8 ـ نمو الشجرة:

هذا النُسغ الصاعد، لو أن الشجرة نمت عرضاً لضاقت لمعة هذه الأوعية، لذلك هي مدعَّمةٌ بألياف حلزونية، والنُسغ النازل من حينٍ إلى آخر فيه مصافٍ، فيه حلقات تصفية، شيءٌ يأخذ بالألباب..

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 28 ")

لذلك:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

(سورة السجدة)

معنى:

(لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

معنى: لاَ يَسْتَكْبِرُونَ

أي إذا رأى أمراً إلهياً يقول: أنا قانع بأني غير قانع بوجود يوم آخر، الأمر لا يتناسب مع الزمان، ماذا أفعل بكذا ؟ هذا الموقف المتردد، هذا الموقف المُستعلي، هذا الموقف الفاحص، لا يطبّق الأمر إلا إذا انجلت له حكمته، كأنه يناقش خالقه نِداً لند، هذا هو الاستكبار..

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ

1 ـ معنى المضاجع:

المضاجع: الأسرة الوثيرة، الفُرُش الأنيقة، المُلاءات النظيفة، الجو الهادئ، التبريد، غرفة النوم تدعو الأجساد إلى الراحة، تدعوها إلى الاسترخاء، إلى الاستلقاء، إلى أن تغوص في فراشٍ وثير، لكن هؤلاء المؤمنين الصادقين..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة: آية " 16 ")

2 ـ معنى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ:

يستيقظون لصلاة الفجر، يستيقظون لذكر الله، يستيقظون لصلاة التهجُّد، يتلون كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار، يمرّغون جباههم في أعتاب الله، يناجون الله عزّ وجل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ، أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟))

(مسند أحمد)

رب العالمين في جلاله وعليائه يسألك: ألك عندي حاجةٌ يا عبدي ؟ أتريد مني شيئاً ؟ أتحب أن أغفر لك ذنوبك ؟ أتحب أن أتوب عليك ؟ أتحب أن أعطيك سُؤلك..

إلى متى أنت باللذّات مشغولُ وأنت عن كل ما قدمت مسؤولُ

* * *

((إذَا مَضَى ثُلُثُ اللّيْلِ، أوْ نِصْفُ اللّيْلِ نَزَلَ إلى السّمَاءِ الدُّنْيَا جَلّ وَعَزّ فقَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فأُجِيبَهُ ؟))

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

يصلون صلاة العشاء، وصلاة الوتر، وقد يُصلُّون قبل النوم ركعتين، وقد يصلون بعد الاستيقاظ قبل الفجر ثماني ركعات قيام الليل، يصلون آناء الليل وأطراف النهار، يتوجهون إلى الله بالدعاء، يناجونه يبتهلون إليه، هذه العلاقة الطيبة مع الله عزّ وجل هي سرُّ الدين، أساس الدين هذه الصلة، أساس الدين هذه المُناجاة، أساس الدين هذا الدعاء، الدعاءُ مخُّ العبادة، هل الإنسان يرضى أن يستمتع بنومٍ عميقٍ لذيذٍ لذيذ، وأن ينسى ساعات السحر ؟

فقم نحونا في الليل لا تخش وحشتنا فالأنس في طيب ذكرنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغلٌ وأخلص لنا تلقى المسرة والهنا
وسلم إلينا الأمر في كلّ ما يكون فما القرب و الإبعاد إلا بأمرنا
فيا خجلي منه إذا هو قال لي أيا عبدنا ما قرأت كتابنا
أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا
أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً و تنظر ما به جاء وعدنا

***

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

في القرآن آية إذا قرأها المؤمن قراءةً صحيحة يجب أن يقشعر جلده:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد: آية " 16 ")

إلى متى يا أخانا أنت شارد ؟ إلى متى أنت في غفلة ؟ إلى متى أنت في جفوة ؟ إلى متى أنت في فتور؟ ألا تشتاق إلى الله عزّ وجل الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، أنزل على نبيّه هذا الكتاب منهجاً لك، دستوراً لك، خلقك لجنةٍ عرضها السماوات والأرض ؟ هذا معنى:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

للآية معنى خاص ومعنى عام:

أي لا يرتاح للنعيم، فهو نعيم مؤقّت، هذه الآية لها معنى خاص، ولها معنى عام.

1 – المعنى الخاص:

خاصها: المقصود به الفراش، النوم لذيذ، والنوم شهوةٌ تعارض أداء العبادات، لذلك فالمؤمن دائماً يتجافى جنبه عن المضاجع، يدعو الله خوفاً وطمعاً.

2 – المعنى العام:

المعنى الأوسع: أي لا يركن للدنيا، يرى أن الدنيا مؤقتة، دار مرور، وليست دار استقرار.

الدنيا حلوة بطاعة الله:

ما لي وللدنيا إنني فيها كعابر سبيل، كن في الدنيا كأنّك مسافر، خُذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً.. فمن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه، وهو لا يشعر، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به، هذه الحياة الدنيا حلوةٌ جداً إذا أمضيتها في طاعة الله، أمضيتها في طلب العلم، أمضيتها في التقرُّب إلى الله، أمضيتها في الاستقامة على أمر الله، أمضيتها في خدمة الخلق، فهذه الحياة الدنيا من دون ذكر لله تافهةٌ لا قيمة له، حتى إن بعضهم قال: " مساكين أهل الدنيا، جاءوا إلى الدنيا، وخرجوا منها، ولم يذوقوا أطيب ما فيها، إنه ذكر الله وما والاه "، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إيّاكَ وَالتّنَعُّمَ، فَإنّ عِبَادَ اللّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

(مسند أحمد عن معاذ بن جبل)

قد يتنعّم الإنسان، أما أن يجعل النعيم قصده الأساسي، وشغله الشاغل، ومَحَطُّ رحاله، ومنتهى آماله، ولا يفعل شيئاً مما يرضي الله عزّ وجل فهؤلاء وصفهم الله بأنهم غافلون ؛ والغافلون كالأنعام، بل هم أضل.

(إنّ الّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

(سورة يونس)

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ اثّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

خالق الكون يقول لك: متاعٌ قليل:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

لا يستوي الفاسق والمؤمن:

شابٌ نشأ في طاعة الله، يغضُّ بصره عن محارم الله، يتحرّى الحلال، يرجو رحمة ربه، يرجو خدمة الخلق، أيُعامل هذا من قبل الله، كما يعامل شابٌ فاسق، فاجر، منحرف ؟!.. هكذا.. أيليق بالله عزّ وجل أن يسوي بين هذا وذاك ؟! أهذا من كمال الله عزّ وجل ؟:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

يا أيها الإخوة الأكارم... هؤلاء المؤمنون الصادقون..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة)

دُعِيَ النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يافعاً إلى حفلة عُرس فنام في الطريق، ولما بُعث نبيا مرسلاً قال لخديجة:

((يا خديجة لقد انقضى عهد النوم))

ـ انتهى ـ أليس لك رسالة في الحياة ؟ هذا الشاعر الذي هجا رجلاً في عهد عمر، واسمه الحُطيئة قال له:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

هذا البيت من الشعر سبَّبَ لمن نظمه دخول السجن، لأنه يعدُ أهجى بيتٍ قالته العرب، ماذا قال له ؟

دع المكـارم لا تـرحل لبغيـتـهـا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

إذا رضي الإنسان بطعامٍ نفيس، وبيتٍ مريح، وزوجةٍ وأولاد، ونُزهات، وانتهى الأمر فهذا عبد الدنيا، أليس لك مطلبٌ آخر ؟ أليس عندك طلبٌ لمعرفة الله ؟ عن طريق معرفة كتابه ؟ وفي طاعته ؟ وفي التقرُّب منه ؟ وفي مناجاته ؟ هكذا..

فيا أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

معناها الخاص أن السرير يدعوه إلى الراحة، والله يدعوه إلى مناجاته، السرير يدعوه إلى النوم، وآذان الفجر يدعوه إلى الصلاة، الصلاة خيرٌ من النوم، السرير يدعوه إلى الاسترخاء، والعمل الصالح يدعوه إلى أن يقوم..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة: آية " 16 ")

والمعنى الأوسع: أن المؤمن الذي عَرَفَ مهمته في الحياة، وعرف حقيقة الحياة، وعرف جوهر الحياة، وعرف سرّ الحياة، تعلّق قلبه بالآخرة، تعلّق قلبه بما يرضي ربه، لذلك هو يبحث عن طاعة، يبحث عن عملٍ صالح، يبحث عن خدمة الخلق، يبحث عن دعوةٍ إلى الله، يبحث عن رجلٍ يهديه إلى الله عزّ وجل..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً)

وهذا هو الموقف الأمثل..

(خَوْفاً وَطَمَعاً)

الخوف والرجاء عند المؤمن كجناحي الطائر:

إذا اشتد الخوف عمّ اليأس، وإذا اشتد الرجاء عمّ التساهل، فربنا حكيم، وهو المربّي، فإذا رآك ازداد أملك ورجاؤك، وفترت عبادتك، وقلّت طاعتك يُخيفك، فإذا اشتد خوفك، وانتقلت من خوفٍ إلى يأسٍ يُطمْئنك، فالمؤمن العاقل يراوح بين الخوف والرجاء، ليس مع الخوف القاتل، ولا مع الرجاء الساذج..

(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً)

رغباً ورهباً، الخوف إذا اشتد كالملح في الطعام إذا زاد عن حدِّه انقلب إلى ضده، والرجاء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، الرجاء ينقلك إلى التساهُل، إلى الفتور، إلى ضعف الهمة، إلى أداء صلواتٍ شكلية، إلى الالتفات إلى الدنيا، والخوف يُقَنِّطُك من الله عزّ وجل، يجب أن تكون بين الخوف والرجاء،

فإذا شعرت أنك واثقٌ إلى درجة أنّك تساهلت في عباداتك فَخَفْهُ، فإن الله سبحانه وتعالى قد يسوق لك ما يجعلك في خوفٍ شديد..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة السجدة)

العطاء صفة أساسية في المؤمن:

كما قلت في درسٍ سابق: إستراتيجية المؤمن هي صفةٌ أساسيةٌ، أو سمةٌ أساسية في طبيعته: العطاء ؛ يعطي من علمه، يعطي من خبرته، يعطي من ماله، يعطي من جاهه، يعطي من قوّته، يعطي من ذكائه، يعطي من كلّ ما يملك، أساس حياته العطاء، إذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا، أو من أهل الآخرة فاعلم ما الذي يفرحك ؟ إذا كان يفرحك العطاء فأنت من أهل الآخرة، فإذا كان يفرحك الأخذ فأنت من أهل الدنيا، قال تعالى عن هؤلاء:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17))

(سورة السجدة)

دائرة المسموعات أوسع من المرئيات: فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ

لم يقل الله عزّ وجل: فلو تعلمُ، بل قال سبحانه:

(فَلاَ تَعْلَمُ)

أي فيها مالا عينٌ رأت، أنت لك دائرة مرئيات محدودة ؛ تعرف بلدك، وكذا المدن الأخرى في قطرك، تعرف لبنان فرضاً، تعرف الأردن، تعرف مصر، هذه دائرة مرئيّاتك، لكن دائرة مسموعاتك واسعة جداً، في الأخبار تسمع البلد الفلاني، والعاصمة الفلانية، والبحر الفلاني، والجبل الفلاني، والقُطب الشمالي والجنوبي، وإفريقيا واستراليا، وآسيا وإفريقيا، أي أن المسموعات أوسع، أما الخواطر أوسع وأوسع، أي شيٍ خطر في بالك فهو خاطر، قد يخطُر في بالك إنسان طوله من هنا وحتى القمر فهذا خاطر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: قَالَ اللّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[متفق عليه]

هذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض التي لا تعلم نفسٌ ما أخفي لها في هذه الجنة من قرة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون، هل هذه الجنة يُستغنى عنها ؟ ونلهث وراء سنواتٍ معدودة مشحونةٍ بالهموم والأحزان ؟ لهذا يقول الله عزّ وجل:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

خالق الكون يقول:

(لَا يَسْتَوُونَ)

أين الثرى من الثريّا ؟ أيْ أنّ رجلاً مؤمناً يعرف الله، يعرف أمره ونهيه، يعرف الحلال والحرام، يعرف ما ينبغي، وما لا ينبغي، يعرف ما يجوز، وما لا يجوز، يعرف ما يُرضيه، وما يُغضبه، وهو على المنهج سائر، وعلى الصراط المستقيم، يرجو رحمة ربه، ويخشى عذابه، يأمر بفعل الصالحات، ويخشى فعل السيئات، أيكون هذا المؤمن كالفاسق الشارد التائه، الذي يعبث، يأكل ما يشاء، يلتقي مع من يشاء، يقبض المال الذي يشاء، يكذب ما يشاء، أيكون هذا كهذا ؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

ليس هناك نسبةٌ تجمع بينهم، فاطمئن إذا كنت مؤمناً صادقاً وفق المقاييس التي أرادها الله عزّ وجل فأنت ملكٌ من ملوك الدنيا، لأن هذه الدنيا دار ابتلاء، دار التواء لا دار استواء، منزل ترحٍ لا منزل فرح..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

كيف لا يستوون ؟

(أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

وجهُ عدمِ استواء المؤمن مع الفاسق:

ليست جَنّة، بل جنات تأوي إليها النفس، ليس فيها تقدمٌ في السن، ولا أمراض تصيب القلب، ولا فقر، ولا ولد مشاكس، ولا زوجة لئيمة، ولا مشكلة في الدخل، ولا تجارة كاسدة، كل هذه الهموم الأرضية لا وجود لها في الآخرة..

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

(سورة ق)

الآخرة أساسها أنّك في دار تكريم، وأرقى أنواع التكريم أن تنال كل شيء بمجرّد الطلب، ما إن يخطُر في بالك شيء إلا تراه أمامك، أما الدنيا فلا تأخذ منها شيئاً إلا بأسبابه، الدنيا دار سبب، دار نَصَبٍ، دار تعب، دار هم، دار حُزْن، أغلب الظن أن الإنسان يمضي شبابه في حياةٍ خشنةٍ جداً، فإذا ما وصل إلى الخمسين، واستقرت حياته، وكثر دخله، وامتلك زمام الأمور بدأت مشكلات صحّته، الحياة كلها نَغَص وشاءها الله أن تكون كذلك حتى لا نركن إليها، الله يغار أن تركن إلى الدنيا، لذلك ما إن يراك ركنت إليها إلا وتأتيك المتاعب من أيّ جهةٍ ركنت إليها، قد تظن أن المال يحلُّ كل شيء.. يحل أية مشكلة.. فتفاجأ أحياناً أن من المشكلات ما لا يحله المال أبداً، هذا من أجل أن تعتمد على الله لا على مالك، من اعتمد على ماله ضل، من اعتمد على قوته زل، أما إذا اعتمدت على الله عزّ وجل لا ضَلّلت ولا زللت..

(أَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

(ادْخُلُوا الْجَنّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

العمل الصالح مفتاح الجنة:

لا أقول: العمل الصالح ثمن الجنة، ولكنه مفتاح الجنة، لأن الجنة محضُ فضلٍ، لكن مفتاحها العمل الصالح، وقد قال الإمام جعفر رضي الله عنه: **" ادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم ".** إنّ الطالب إذا وعده أبوه إذا نجح نجاحاً متفوقاً أن يشتري له درّاجة، فالطالب يكون جاهلاً إذا توجّه من المدرسة، ومعه الجلاء ناجحاً إلى بائع الدراجات وقال له: أعطني هذه الدراجة، وهذا جلائي، فالبائع يطرده، ويقول له: ائتي بثمنها، أما إذا ذهب إلى أبيه، وأطلعه على الجلاء اشترى له أبوه هذه الدرّاجة، فالنجاح ليس ثمن الدراجة، ولكنه مفتاحٌ لشراء الدراجة، مثلاً، فإذا ظننت أن العمل الصالح هو ثمن الجنة، فهذا شيء غير صحيح، لكنه مفتاح الجنة، لأن الجنة بفضل الله عزّ وجل، ومفتاحها العمل الصالح..

(أَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمّا الّذِينَ فَسَقُوا)

الفسق حرية في التصرف الحرام:

كان حُرّاً في الدنيا يلتقي مع من يشاء، يسهر مع من يشاء، مرة في النادي، مرة في الفُندق، مرة مع أهل الاختلاط، هذا المال حلال، حرام، لا يهمه، بل يقول لك: لا تدقق. فهذا حال الفاسق المنحرف الفاجر..

(وَأَمّا الّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النّارُ كُلّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النّارِ الّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذّبُونَ)

(سورة السجدة)

أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية من أدقّ آيات هذه السورة:

(وَلَنُذِيقَنّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

وَلَنُذِيقَنّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ

معنى الأدنى والعذاب الأكبر:

العذاب الأكبر هو عذاب جَهَنّم، أكبر لأنه إلى الأبد، وأكبر لأنه لا يحتمل فما أصبرهم على النار، وأكبر لأنه لا أمل في نهايته، إذاً ربنا سبحانه وتعالى من رحمته بهذا الإنسان لئلا يصل إلى العذاب الأكبر يُذيقه العذاب الأدنى في الدنيا، فكل مصيبةٍ في الأرض من دون استثناء هي عذابٌ أدنى، ولعل هذا العذاب الأدنى يمنع من العذاب الأكبر، فإذا فهمنا المصائب بهذه الطريقة عرفنا أن أكبر مصيبة أن تأتي المصيبة، ولا نتّعظ بها.. من لم تُحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر، أكبر مصيبة أن تأتي المصيبة، وأن نفهمها فهماً أرضياً ساذجاً، وأن نقول: هذا حظي، هكذا الدهر، هكذا حدث لي، هذا فهمٌ غير إسلامي..

(وَلَنُذِيقَنّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى)

الإنسان بين الاستدراج والمعالجة:

يجب أن تعلموا علم اليقين باستثناء بعض الأشخاص الذين علم الله أنه لا جدوى من دعوتهم إليه..

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّا مَنْ قَدْ آمَنَ)

(سورة هود: آية " 36 ")

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: آية " 44 ")

إذا رأيت إنساناً غارقاً في النعيم، قوياً إلى أبعد الحدود، غنياً إلى أقصى الدرجات، يتنعَّمُ بكل شيء، وهو مقيمٌ على معصية الله فاعلم أن هذا استدراج، بل إن أغلب الظن أنه خارج العناية المشددة، خارج المُعالجة، إن صحَّ التعبير: مقطوعٌ منه الأمل، أما الذي يُعالج، ويُضيَّق عليه ففيه خير.

أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي، وتضيَّقي، وتكدَّري، وتمرري على أوليائي حتى يحبوا لقائي.

إذا رأيت الله عزّ وجل يُتابعك على كل غلطة، على كل معصية، على كل جُنحة، على كل مخالفة، بل على كل خاطر، على كل نيةٍ سيئة يأتيك العقاب عاجلاً، ويُلقى في قلبك أن هذه المصيبة: يا عبدي من أجل هذا، إذا كنت كذلك فاعلم أن الله يحبُّك، فاعلم أنك ضمن المعالجة الإلهية، فاعلم أنه مطموعٌ فيك، فاعلم أنك مرادٌ من قِبل الله عزّ وجل، وإذا أحب الله عبداً عجَّل له بالعقوبة، وإذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه، وإذا أحب الله عبداً عاتبه في منامِه.

فأنت بين شخصين: بين شخصٍ مطموعٍ فيه، مرادٍ من قِبل الله عزّ وجل، يُتابع، يُحاسب، يُؤدَّب، تُسَاق له الشدائد، يصاب بضيقٍ نفسي، يفقد بعض ماله، هناك من يتسلط عليه، كلما غفلت عن الله عزّ وجل جاءتك الدوافع إليه، تماماً كطفلٍ ترك يدَ أمه، ففاجأه كلبٌ عقور، فلما أقبل عليه عاد الطفل إلى أمه، وهذه مصائب الدنيا كُلُّها بالأعمّ الأغلب، لذلك:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ)

آية دقيقة جداً:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

مصائب المؤمن محض فضل من الله:

لو كان عقرب على كتف إنسان، وتلقَّى هذا الإنسان ضربةً من خلفه، لتمنى أن يمزق الذي ضربه إرباً إرباً، فالتفت سريعاً، فإذا عقربٌ كبيرة أصبحت على الأرض بفضل هذه الضربة، ألا ينقلب حقده وضغينته وألمه شكراً وامتناناً ؟ هكذا يجب أن تعلم أن يدَ الله كريمة، يد الله عليمة، يد الله خبيرة، يدُ الله محسنة، وأن كل شيءٍ ساقه الله إليك محضُ فضلٍ، فاعلم علم اليقين، اعلم علم اليقين، اعلم علم اليقين أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن كل شيءٍ أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وأن حكمته متعلقةٌ بالخير المُطلق والدليل:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران: آية " 26 ")

لم يقل: بيدك الخير والشر، بل الخير فقط، فالإعزاز خير، والإذلال خير، والعطاء خير، والمنع خير، والإعلاء خير، والخفض خير، كُلُّه خير، خيرٌ واضح وخيرٌ مبطن..

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان: آية " 20 ")

فانتبهوا أيها الإخوة... كل أنواع العذابات في الدنيا هي عذابٌ أدنى، جاء ليقيَكُم العذاب الأكبر، فالسعيد من اتعظ بالعذاب الأدنى، ونجا من العذاب الأكبر، والشقي تأتيه المصيبة فلا يفهمها، يفهمها حظاً أسود، وقدراً يَسْخَر منه، ودهراً قلب له ظهر المِجَن، يفهمها بتفسيراتٍ أرضيةٍ ساذجةٍ سخيفةٍ، ويكون قد فَوَّتَ عليه فرصة التوبة، والعودة إلى الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 23 - 30
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-09-20

بسم الله الرحمن الرحيم

التكذيب سُنّة جارية في الكفار مع أنبيائهم:

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السادس والأخير من سورة السجدة، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة السجدة)

هذه الآية أيُّها الإخوة فيها تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، أيْ أنْ يا محمد إن كنت قد كُذِّبت، وإن كنت قد جَهدت في نشر هذه الدعوة فشأنك شأن الأنبياء السابقين.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ)

(سورة السجدة: آية " 23 ")

المرية هي الشك.

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ)

(سورة السجدة: آية " 23 ")

فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ:

هذه الهاء على من تعود ؟ أغلب العلماء على أنها تعود على لقاء ما جاء في الكتاب من وعدٍ ووعيد، أي يا محمد إيَّاك أن تقنط، إيَّاك أن تيأس، شأنك شأن الأنبياء السابقين دعوا إلى الله فكُذِّبوا، وفي النهاية جاء نصر الله، كانوا هم الأعْلَون:

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(سورة المجادلة)

وهذه الآية المؤمنون في كل زمانٍ ومكان أحوج ما يكونون إليها، فلو رأيت أنَّك في السلم الأخير، وأن أهل الفسق والفجور في الدرجات العليا من السلم الاجتماعي، يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن العاقبة للمتقين، يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن العِزّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

شأنك شأن أي نبيٍ سابق دعا إلى الله، كذّبه قومه، استهزءوا به، كفروا به، ائتمروا على قتله، كادوا له، ودارت الأيام وكانت النهاية له، والعاقبة لدينه، والغلبة لأتباعه.

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ)

أي لا بدّ من أن تلقى وعدَ الله بالنصر، إيّاك أن تشُكَّ أيها النبي، فالإنسان في ساعات الشدة، في ساعات الضغط، في ساعات جولة الباطل، قد يضعف، وقد ينكمش:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

الضعف قد يكون نفسياً، حينما ترى أنك ضعيف، وأن أهل الباطل أقوياء، حينما ترى أنك فقير، وأن أهل الباطل أغنياء، حين ترى أنك لا حول لك ولا قوة، وأن أهل الباطل بيدهم الحول والقوة فيما يبدو، لا تنكمش، لا تتطامن، لا تشعر أنك رخيصٌ على الله عزّ وجل.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة الأنفال)

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة)

المؤمن تجري عليه سنة الله في الأنبياء بالابتلاء والنصر:

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق قد اكفهر حاله، ربنا عزّ وجل في ساعات الشدة، في ساعات التكذيب، في ساعات الاستهزاء، في ساعات الإحباط، وبعد أن ماتت زوجته خديجة، فقد السند الداخلي، ومات عمُّه أبو طالب ففقد السند الخارجي، واشتد إيذاء قريش حتى سُمِّي العام العاشر للبعثة عام الحزن، مَسَحَ الله عنه هذا الحزن في الإسراء والمعراج، عرف مقامه، عرف أنّه سيد الأنبياء، فقياساً على هذه القصة، قياساً على هذا القانون، وهذه السنة إذا عورضت، إذا كُذِّبت، إذا ضاقت بك الدنيا، إذا اشتد الخصوم، إذا سفّهوا دعوتك، لا تيأس، لا تقنط، لا تضعف، لا تذِل، لا تستخذي، لا تخنع:

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة ال عمران 139)

هذه آيات كما قال عنها المفسرون فيها تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، أي إنك لست وحدك أيها النبي، هذا شأن كل نبي، كلهم كذّبوا، كلهم أوذوا، كلهم اتهموا بالسحر، اتهموا بأنهم مجانين، وقالوا: ساحرٌ مجنون، فمن أنت إذا ناقشت إنساناً، إذا دعوت إلى الله، فجاء من سفّهك، وقال: لك مطامح، أنت لك مآرب، أنت لك مرتزق ـ فلا مانع ـ اتهم النبي الكريم بأنه ساحر، بأنه كاهن، بأنه شاعر، بأنه مجنون، فالمؤمن له ميزة، معنويّاته مرتفعة، قد يكون متعباً، قد يكون مُعَارَضاً، قد يكون مكذباً، لكن معنوياته مرتفعة، هذا معنى:

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران146)

الخط البياني لدعوة النبي في الطائف:

أذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام إن كان لدعوته خطٌ بياني، هذا الخط هَبَطَ إلى أدنى درجة بعد أن عاد من الطائف، ففقد زوجته، فقد عمه، كذّبته قبيلته، ذهب إلى الطائف مع سيدنا زيد مشياً على قدمين، في الطائف استهزءوا به، وكذبوه، واتهموه بالسحر وبالكذب، وقال له أحدهم: لو أنك رسولٌ كما تدعي لمزّقت أثواب الكعبة، وحين عاد إلى مكة كان دمه مهدوراً، ولولا أنه دخل مكة في حماية المُطْعِم بن عدي لقُتِل النبي عليه الصلاة والسلام، في هذه اللحظة الحرجة، في هذه النهاية الصُغرى للخط البياني، في هذا الهبوط الشديد قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله ناصر نبيه))

[السيرة النبوية]

هذه ثقته، فأنت كونك مؤمنًا لو أن الناس كلهم فسقوا، لو أنهم فجروا، لو أنهم فهموا الدين فهماً بسيطاً جداً وساذجاً، فهموا الدين صلاة وصياماً فقط، يأكلون المال الحرام، يختلطون مع النساء المُحَرّمات، يفعلون ما يشتهون ولا يبالون، فإذا كانوا كذلك أنت لا تيأس، ولا تقنط، ولا تستخذي، ولا تشعر أنك هينٌ على الله عزّ وجل، الله عزّ وجل لحكمةٍ أرادها فهناك أوقات يجول الحق جولته، وهناك أوقات يجول الباطل جولته، الباطل فيه جولة، وللحق جولات كثيرة.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

معنى المرية:

في مِريةٍ: أي في شكٍ..

بعضهم قال: في لقاء الله عزّ وجل.

بعضهم قال: من لقاء ما وَعَدَ الله في كتابه.

بعضهم قال: من لقاء النبي عليه الصلاة والسلام لموسى عليه السلام في رحلة الإسراء والمعراج.

(وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة السجدة)

الآن:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة: آية " 24 ")

الإمامة مطلب كبير في الإسلام:

أي أن أعلى مرتبة ينالها الإنسان في الحياة الدنيا أن يسمح الله له أن يكون إماماً للناس، وإنّ الذي يعينك إماماً هو الله عزّ وجل، بدليل قوله تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

(سورة النور: آية " 36 ")

من شروط الإمامة:

لن يسمح الله لك أن تنطق بلسان الحق، ولا أن تدعو إلى الله إلا بشروط، من هذه الشروط:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة: آية " 124 "

1 ـ تطبيق الداعي ما يقوله للناس:

أي لن تستطيع أن تقول كلمة حقٍ، ولا أن تُحْدِثَ أثراً في نفسٍ إلا إذا كنت مطبقاً لما تقول، الآية الكريمة:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الشورى)

الآية الثانية:

(إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الزخرف)

تهدي إلى صراط مستقيم، وأنت في الوقت نفسه على صراطٍ مستقيم، فما رأى أصحاب النبي شيئاً قاله النبي، ولم يفعله، وما رأوا شيأً نهى عنه وفعله، ما الذي رفع النبي إلى أعلى عليين ؟ ليس في حياته ازدواجٌ أبداً، ليس في حياته مسافة بين القول والعمل، ما في قلبه على لسانه، وما في لسانه في قلبه.

((تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

فلذلك أن تكون للناس إماماً هذه مرتبةٌ عاليةٌ جداً، هذه صنعة الأنبياء، لقول الله عزّ وجل:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(سورة طه)

ولكن دون هذه المرتبة تتحَطَّمُ أعناق الطامحين.

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة: آية " 124 ")

متى جعلتُك إماماً ؟ بعد أن نفّذت الأمر والنهي، وقول الجنيد رحمه الله تعالى حينما سُئِلَ من ولي الله ؟ قيل له: **" أهذا الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال: لا.. قالوا: أهذا الذي يطير في الهواء ؟ قال: لا، ثم قال: الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام "**، والآية الدقيقة جداً:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

أيّ شيءٍ آخر لا يدلُّ على أن الله يحبك، لو كنت متمتعاً بصحةٍ جيدة كالحصان قوة، لو ملكت أكبر رصيد في العالم، لو كنت أقوى إنسان في العلم، الله عزّ وجل أعطى القوة لمن لا يحب ولمن يحب، وأعطى المال لمن لا يحب ولمن يحب، ما دام قد أعطى القوة لمن لا يحب، ولمن يحب وأعطى المال لمن يحب ولمن لا يحب، إذاً لا يمكن أن تكون القوة ولا المال، ولا الجمال ولا الذكاء مقياساً لرضاء الله عنك، المقياس الدقيق الذي ورد في كتاب الله:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

إذاً لن يَسْمَحَ الله لك أن تكون إماماً إلا إذا كنت عند الأمر والنهي:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

2 - الصبر:

المقياس الثاني ورد في هذه الآية:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة)

بعد أن تصْبر ؛ يا رب أصبر على ماذا ؟ تصبر عن الشهوات التي نهى الله عنها، وتصبر على الطاعات التي أمر الله بها، وتصبر على فعل الله التكويني، فلو جعلك عقيماً فهذا قضاء الله وقدره، ومرحباً بقضاء الله وقدره، جعل لك دخلاً محدوداً، جعلك بشكلٍ أو بآخر، جعلك تولد من أبٍ معيّن وأمٍ معينة، هذا قضاء الله، فيجب أن تصبر عن الشهوات، وعلى الطاعات، وعلى قضاء الله وقدره، لذلك أن ترضى عن الله علامة إيمانك، أن ترضى عن الله عزّ وجل علامة معرفتك بالله عزّ وجل، لذلك لما كان الإمام الشافعي حول الكعبة وسمع أحد الطائفين يقول: يا رب، هل أنت راضٍ عني، فقال له: وهل أنت راضٍ عنه حتى يرضى عنك ؟ فقال: من أنت يرحمك الله ؟ قال: أنا محمد بن إدريس الشافعي، قال: كيف أرضى عنه، وأنا أتمنى رضاه ؟ قال: إذا كان سرورك بالنِقمة كسرورك بالنِعمة فقد رضيت عن الله.

إذاً المقياس الثاني:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

أول مقياس:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

3 - عدم طلب الأجر من الناس في الدعوة:

المقياس الثالث:

(يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

(سورة يس)

لا أجراً مادياً، ولا معنوياً، ولا تحقيقاً لمصالح، الإنسان الذي يتنزّه عن أن يكون الدين وسيلةً إلى الدنيا، هذا مهتدٍ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: آية " 18 ")

من علامة أهل الحق أنهم يشهدون للناس أن الله قائمٌ بالقسط..

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: آية " 39 ")

هذه كُلُّها علامات أهل الصدق، هذه كلها علامات أهل الحق، هذه كلُّها دلالاتٌ وضعها الله بين أيدينا في كتابه لنعرف الحق من الباطل، والمحق من المُبْطل، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب، والمخلص من الخائن وهكذا..

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة)

أن تهدي الناس هذا الهُدى ليس على مزاجك، وليس وفق رغبتك، ولا حسب رأيك، يجب أن تَهْدي الناس بأمر الله عزّ وجل وفق الأمر والنهي، لذلك أحد كبار العلماء قال: إن عمل الإنسان لا يُقْبَلُ إلا بشرطين ؛ إلا إذا كان خالصاً وكان صواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، فلو كان خالصاً ولم يكن موافقاً للسنة لا يقبل، ولو كان موافقاً للسنة، ولم يكن خالصاً لا يُقبل، إذاً لا بدَّ من أن يجتمع شرطان كلٌّ منها شرطٌ لازمٌ عندئذٍ يتأكد القبول، إذاً:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً)

أئمةً جمع إمام، والإمام يجب أن يكون أمام أتباعه، كلمة إمام وأمام من أصل واحد، الإمام يجب أن يكون في الأمام، أي أمامهم في تطبيق الأمر، وأمامهم في ترك النهي، وأمامهم في التقيُّد بالحدود، وأمامهم في فعل الخيرات، وأمامهم في الأمر بالمعروف، يجب أن يكون الإمام أمام أتباعه، وهذا معنى الإمام، وجمع إمام أئمة.

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)

كما قال سيدنا الصديق: إنما أنا مُتَّبع، لا يوجد إنسان بعد النبي عليه الصلاة والسلام بإمكانه أن يقول: اتبعوني.. من أنت ؟ أمَّا أن يقول: اتبعوا رسول الله، وأنا أنقل لكم ما قاله النبي فهذا هو الصواب، كما يقول أيضاً، أنا أنقل لكم ما جاء في الكتاب والسنة، أنا أشِفُّ لكم عن حقيقة النبي، فلذلك هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)

إنما أنا متبع، ولست بمبتدع، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، ولِّيت عليكم، ولست بخيركم.. هذه خطبةٌ ألقاها سيدنا الصديق حينما تولى الخلافة، وهي في الحق منهج، لكل داعيةٍ إلى الله عزّ وجل، وقلت لكم قبل قليل:

(لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: آية " 24 ")

أي صبروا عن الشهوات المُحَرَّمة، وصبروا على الطاعات التي كُلِّفَ بها الناس، وصبروا على فعل الله التكويني، فالله عزّ وجل وزّع الحظوظ، وزّع الذكاء بين الناس متفاوتاً، وزّع المال بتفاوتٍ كبير،

وزّع القوة بتفاوتٍ أكبر، هناك أقوياء وهناك ضعفاء، هناك أغنياء وهناك فقراء، هناك أصِحّاء، وهناك مرضى، هناك أذكياء وهناك أغبياء، هناك من منحهم الله جمال الصورة، وهناك من سلبهم الله هذا الجمال، فيهم دميم، وفيهم جميل، وذكي وغبي، وقوي وضعيف، صحيح ومريض، غني وفقير، عالم وجاهل، فهذه الحظوظ، وزعها الله سبحانه وتعالى في الدنيا.. دققوا.. توزيع ابتلاء، أي أن كل واحد منا له مادّة امتحانٍ مع الله، إن كان فقيراً مادة امتحانه مع الله الفقر، هل يرضى، هل يصبر هل يتجمل، هل يتعفف، والغني مادة امتحانه مع الله الغِنى ؛ هل يستخدم هذا المال في سبيل الله، في سبيل إعانة الضعفاء والبائسين، والقول الذي قلته لكم سابقاً: يقف عبدان يوم القيامة فيقول الله لأحدهما: عبدي، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه، يقول العبد: يا رب، لم أنفق منه شيئاً على أحدٍ مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله عزّ وجل: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، والعبد الآخر يقول: يا رب لقد أنفقته على كل محتاجٍ ومسكين لثقتي بأنّك خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله عزّ وجل أنا الحافظ لأولادك من بعدك، إذاً:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

صبروا على الطاعات، وعن الشهوات، وعلى أمر الله التكويني، رأوا أن حظوظهم من الله، من قِبَلِ خالقٍ حكيمٍ عادلٍ رحيم، فرضوا بها، لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((توقّع المصيبة مصيبةً أكبر منها))

أنت من خوف الفقر في فقر، من خوف المرض في مرض، أما نعمة الأمن فهي للمؤمن وحده، لقول الله عزّ وجل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

فكلمة صبروا، معناها الأول واضح على الطاعات، ومعناها الثاني عن الشهوات، والثالث على نصيبك من الله عزّ وجل، جاءك أولاد غير مريحين، أنت اعتنيت، وبذلت جهداً، وربّيت، ولكن ليسوا في المستوى المطلوب، هذا قضاء الله وقدره، لك زوجةٌ ليست مريحة لك، تتعبك أحياناً، هذه مادة امتحانك مع الله، اجعل حظوظك التي نلتها من الله، أو التي لم تنلها مادة امتحانك، إن أعطاك الله مالاً فمادة امتحانك مع الله المال، وإن حرمك المال حرمانك المال مادة امتحانك مع الله..

المؤمن كما قال الإمام عليٌ كرّم الله وجهه: **" الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".**

الحقيقة أن هؤلاء الأئمة ـ جمع إمام ـ ما كان لهم أن يهدوا الناس إلا بأمر الله عزّ وجل، بأمره التكويني، وبأمره التشريعي، أي سمح الله له أن يكون إماماً.

شيءٌ آخر، هدى الناس وَفْقَ الكتاب والسنة، أمر الله أن يكون إماماً حينما هدى الناس وفق الكتاب والسنة.

(لَمّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة)

4 ـ اليقين:

الحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام سلك مع أصحابه منهجاً تربوياً رائعاً، في مرحلةٍ مكيةٍ عرّفهم بالله عزّ وجل، ورسّخ عقيدتهم بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، وفي مرحلةٍ مدنية جاء التشريع، فنحن إذا عكسنا الآية أو بدأنا بالثانية لا نحقِقُ الهدف، لا بدّ من أن نعرف الله عزّ وجل، لا بدّ من أن نعرف الله حتى نطبّق أمره، لا بدّ من أن نعرف المُشَرّع حتى نطبق شَرْعه، لا بدّ من أن نعرف الآمر حتى نُطبّقُ أمره، إذاً:

(وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة)

أي أيقنوا بحقائق أساسية، أيقنوا بوجود الله، وأيقنوا بوحدانيّته، وأيقنوا بكماله، أيقنوا أن الله موجود، قديمٌ لا أوّل له، وأبديٌ سرمديٌ لا آخر له، هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، آمنوا بوحدانيته، واحدٌ في خلقه، واحدٌ في ربوبيته، واحدٌ في تسييره، واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أسمائه، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في صفاته، وآمنوا بكماله ولله الأسماءُ الحسنى فادعوه بها، هذا اليقين ؛ موجود وواحد وكامل. أما أنت أيها الأخ الكريم فلن تستقيم على أمر الله.. أقول لك هذا الكلام الدقيق.. لن تستقيم على أمر الله إلا إذا أيقنت بأنه موجود، وبأنه يعلم، وبأنّه سيُحاسب، وبأن هناك حياةً أبديةً سرمدية، إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها، والدليل قول الله عزّ وجل:

(اللّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

أي إذا علمت بأن الله يعلم، وأنه يقدر عليك لابدّ من أن تستقيم على أمره، بل إن الإنسان العادي إذا أيّقن أنّ إنساناً مثلّه لكنّه أقوى منه يطوله علمه، وتطوله قدرته يأتمر بأمره ـ إليك نظام السير فرضاً ـ فلو كنت في مكان، وخالفت الإشارة لضبطت متلبساً بالمخالفة، ولو ضبطت متلبساً بالمخالفة لا بدّ من أن تنال العقاب، لا يمكن إذاً أن تخالف أبداً، إذاً الحقائق الأساسية ؛ الله موجود، الله كامل، الله واحد، الأسماء التي إذا أيقنت بها استقمت على أمره، وهي أن الله عزّ وجل يعلم ويقدر، يعلم ما تفعل، ويقدر

على أن يحاسبك، موجودٌ، ويعلم ما تفعل، وسيحاسبك على ما تفعل وسوف تدومُ الحياة الآخرة إلى الأبد..

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة)

فالذي يطمح أن يسمح له الله أن يكون ناطقاً بلسان الله عزّ وجل، والذي يطمح أن يكون داعيةً إلى الله عزّ وجل، الذي يطمح أن يكون من السابقين، النبي الكريم يقول:

((علو الهمة من الإيمان))

[ورد في الأثر]

الذي يطمح أن يُجْري الله على يده الهُدى، الذي يطمح أن ينطق الله لسانه بالحق، الذي يطمح أن يكون أماماً لا خلفاً، إماماً لا مؤْتَمّاً، هذا هو الطريق، طاعة الله أولاً والصبر على أمره التكويني وأمره التشريعي، الأمر التكويني واحد عطاءً أو منعاً، والأمر التشريعي اثنان أمراً أو نهياً، فإذا أيقنت بوجوده، أيقنت بكماله، أيقنت بوحدانيته ونفّذت أمره وصبرت على قضائه، استحققت أن تكون إماماً، أو داعيةً، أو مرشداً، أو موجّهاً، أما أن يسمح الله لك أن تنطق بالحق دون أن تكون في مستواه فهذا بعيدٌ عنك بُعْدَ الأرض عن السماء.

الفصل في خلافات الناس يوم القيامة:

الآن.. هؤلاء الذين يدعون إلى الله لو اختلفوا، لو وقعوا في خلافٍ فيما بينهم.. أنت على حق، لا، بل أنا على حق، لا أنت مبطل، لا أنا محق، أنت انحرفت، لا أنا لم أنحرف.. هذه الخلافات التي قد تَنشِب بين أئمة الدين، أو بين المسلمين وغير المسلمين، أو بين أهل الأديان، وبين أهل الكفر والطغيان ـ أوسع خلافاً ـ ممكن أن نُقَسِّم أهل الأرض إلى من يؤمن بخالقٍ ومن لا يؤمن بخالق، الذين آمنوا بالله اختلفوا فيما بينهم:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة البقرة)

فقد يختلف..

(هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة السجدة: آية " 25 ")

هو قراره النهائي، يعني وهو يعلم، يعلم من هو على حق، يعلم من هو على باطل، يعلم الكاذب، يعلم الصادق، يعلم الدجّال، يعلم المخلص، يعلم المُسْتَبْصِر، يعلم الأعمى، يعلم الوصولي، يعلم المرتزق

بالدين، يعلم المُبالغ، وكل الحركات والسكنات في علمه، إذاً الله عزّ وجل هو الوحيدُ الذي لا أحد غيره، الذي يحكم يوم القيامةِ على كل إنسان، يقول له: أنت كنت على باطل.

لذلك القرآن الكريم يقدر أنه ليس في الآخرة مُناقشات، ولا تَبَجُّح، ولا مُرافعات، ولا ادعاءات..

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس: آية " 65 ")

ففي الدنيا مناظرة جرت بين عالم مسلم وعالم آخر من دين آخر، والمناقشة كان لها صدى كبير، بعد حين الطرف الآخر وقع متلبساً في جريمة زنا، فقال له: علامة صدقي أن هذا الكتاب شفا نفسي.. بعد أن وقع في هذه الجريمة أين الشفاء الذي يدّعيه ؟! فالله عزّ وجل لا بدّ من أن يكشف الإنسان.

أقول لكم هذه الفكرة الخطيرة: بإمكانك أن تخدع الناس إلى أمدٍ قصير، وبإمكانك أن تخدع بعض الناس إلى أمدٍ طويل، أما أن يسمح الله لك أن تخدع الناس دائماً، أو أن تخدع بعض الأشخاص دائماً هذا مستحيل، لا بدّ من أن يُكشَفَ الإنسان على حقيقته، والله سبحانه وتعالى يتولّى كشف الإنسان على حقيقته، والدليل:

(مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: آية " 179 ")

يخلق ظروفاً صعبة، فهذا الذي يدّعي أنه مؤمن ينكشف، هذا الذي يدّعي أنه وَرِع ينكشف، هذا الذي يدّعي أن محبٌ لله عزّ وجل ينكشف، عن طريق الإغراءات والضغوط، الضغط يكشف والإغراء يكشف.

مثل بسيط: كما تعلمون أن الإسمنت يتحمل قِوى الضغط بشكل كبير، أي أن السنتيمتر المكعب إذا وضع وفق مواصفات دقيقة فإنه يتحمل خمسمئة كيلو، أي إذا صُب الإسمنت بنسبة رطوبة محدودة جداً خمسة وخمسين بالمئة، ومن وزنه ماء بشكل جاف يتحمل هذا السنتيمتر المكعب خمسمائة كيلو، لكن الإسمنت، ويا للأسف لا يتحمل قِوى الشد، لذلك يُسلّح بالحديد، ففي معامل الإسمنت قد يأتي مثلاً إسمنت، ولكن كيف يُفْحَص ؟ تصب منه مكعبات، ويعلّق من أعلى ومن أسفل بكفة ميزان، توضع في هذه الكفة أثقال، فعلى أي رقم ينكسر أو ينقطع فهذه مقاومته.

فإذا أردنا أن نعمِّم هذه الطريقة على المؤمنين، فإن كل مؤمن على وزن ما ينقطع، كل مؤمن على ضغط مُعَيَّن من الشهوات أو ضغوط أخرى أو إغراء تجده ترك الاستقامة، الله عزّ وجل في معركة الأحزاب قال:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

وفي المعركة نفسها رجالٌ قالوا:

(وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلّا غُرُوراً)

(سورة الأحزاب)

الإنسان في الأعماق إذا اشتد عليه الضغط كشف عن حقيقة نفسه، قال أحد الأشخاص المحسوبين على أهب الإيمان: " أيعدنا صاحبكم.. لم يقل رسول الله، فليس محمد صلى الله عليه وسلم عند هذا القائل رسولاً، انتهى كرسول في نظره.. وقال: " أيعدنا صاحبكم أن تُفتح علينا بلاد قيصر وكِسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ "، وأُناسٌ قالوا: " وصدق الله ورسوله ".

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

إذاً الإنسان يُمتَحَن، والآية الكريمة:

(أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

هل في الأرض جامعة تقبل من طلابها أن يقدِّموا تصريحاً بعلامةٍ يقترحونها هم ؟! وألا يجري أي امتحان ؟ فكل طالب إذاً يقدِّم كتاباً أنه يستحق بالرياضيات ثمانية وتسعين، ويُمنح هذه الدرجة، هل يحدث هذا في جامعة في الأرض ؟

(أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أيُسْمَحُ لك أن تدَّعي أنك مؤمنٌ، والله لا يمتحنك، قل ما شئت، لكن الله سبحانه وتعالى متكفلٌ أن يضعك في ظرفٍ عصيب، وظرفٍ دقيق تنكشف على حقيقتك، تنكشف تماماً كما أنت، لذلك فالإنسان يجهد في تحسين باطنه لئلا يكشفه الله عزّ وجل.. ومن أسرّ سريرةً ألبسه الله رداءها.

إذاً:

(إِنّ رَبّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

(سورة السجدة)

معنى آخر للفصل يوم القيامة:

هناك معنىً نضيفه إلى ذلك هو: أن الفصل في كل موضوع للقضاء، ما الفرق بين المُفتي والقاضي ؟ إذا جئت المُفتي تسأله سؤالاً يقول لك: يا بني هذا حرام، هل للمُفتي سلطة أن يحملك أن تَدَع هذا الشيء؟ لا.. أما القاضي إذا احتكمت إليه فلديه سلطة تنفيذية، قال علماء التفسير: **" من لوازم هذه الآية**

أن الله يفصل بينهم يوم القيامة، أي يقول: أنتم على حق، ودونكم الجنة، فادخلوها، وأنتم على الباطل، وعليكم بدخول النار ".

فربنا عزّ وجل لا يكتفي بالفصل، من لوازم الفصل الجنة أو النار، أي عندنا مؤيّد قانوني، وعندنا تنفيذ، قال:

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ)

(سورة السجدة)

قد يزور الإنسان مِصْر، ويرى الأهرامات، ويرى قبور الفراعنة، وفي ساعة غفلة قد يغيب عنه أن هذه الآثار من الأدلّة الصارخَة على أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم، وأنهم مضوا إلى أعمالهم يلقون جزاءها..

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

إن الله عزّ وجل لحكمةٍ أرادها ترك بعض الآثار، ترك في الأرض الآثار، والآثار لتتعظ بها، وأن تشعر أن الله سبحانه وتعالى عاقب هؤلاء الأقوام الذين كفروا، وضلوا، وانحرفوا عقاباً شديداً، لذلك:

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ)

أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ

أي أما رأوا بأم أعينهم، وهم في طريقهم إلى الشام منازل عاد وثمود ؟ وكذلك الأنباط في الأردن، ماثلة إلى الآن، أصحاب الحجر، ترى البيوت، القصور كلها منحوتة في الجبال..

(وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً)

(سورة الأعراف: آية " 74 ")

إلى الآن موجودة، إذا زار الإنسان القطر الأردني الشقيق بإمكانه أن يصل إلى هذه الآثار، فهذه تدمر أيضاً، وهذه مصر فيها الأهرامات، وهؤلاء الفراعنة، وهؤلاء الرومان، وهؤلاء الإسبارطيون.

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ)

(سورة السجدة)

هنا أفلا يسمعون، أن هذه أخبار..

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ)

(سورة السجدة)

مع كل هذا أفلاَ تَسْمَعُونَ

هذاَ الدين عقل ونقل، الله عزّ وجل سخَّر الكون تسخير تعريفٍ وتكريم، ومنحك نعمة العقل، أعطاك عيناً، وقال: انظر، فأنت مكلفٌ أن تنظر بعينك، وأن تحكم بعقلك، وقد تلا عليك أخبار السابقين، وقال لك: تأمّل، فحينما تأتيك الأخبار يسألك الله عزّ وجل: أفلا تسمع ؟ وإذا دعاك إلى النظر يقول لك: أفلا تنظر ؟ بين أفلا تسمع وأفلا تنظر مسافةٌ كبيرة، فأنت يمكنك أن تتلقى العلم عن طريق السماع، ويمكن أن تتلقى العلم عن طريق النظر، فأنت بالكون تنظُر في آياته، أو تتفكّر في آياته فتعرف الله، وأنت من خلال الأحداث السابقة تستمِعُ إليها، وتتأمّل بها فتعرف الله، ومن خلال القرآن الكريم تتدبّر آيات القرآن فتعرف الله، فلديك ثلاثة مصادر: الكون مصدر، الكون للتفكر، والأحداث للنظر، والقرآن للتدبُّر، وأيُّ بابٍ يوصلك إلى الله.. والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا)

(سورة السجدة: آية " 26 ")

أي إذا شئت أن تعرف الله من خلال أفعاله، ومن خلال أخبار السابقين.. أي قومٍ انحرفوا أهلكهم الله عزّ وجل، وأي قومٍ استقاموا أعزّهم الله عزّ وجل..

في الأندلس عبرة لمن يعتبر:

لا تبعد كثيراً، المسلمون حينما فتحوا الأندلس، حينما كانوا مطبّقين لأمر الله عزّ وجل جعلهم أقوياء، وجعل خصومهم ضعفاء، وحكموا الأندلس قروناً طويلةً، وازدهر فيها حُكْمُهُم، وحينما مالوا إلى الترف، ومالوا إلى شرب الخمور، واقتناء القيان، وإلى الموشّحات، وما إلى ذلك ألقى الله في قلوبهم الخوف، فتمزقوا شراذم، وقوي عليهم أعداءهم حتى أخرجوهم، وآخر ملك خرج قالت له أمُّه عائشة:

ابك مثل النساءِ مُلكاً مضاعا لم تحافظ عليه مثلَ الرجـالِ

***

القضية واضحة جداً، فالتاريخ في الحقيقة مدرسة، المسلمون حينما طبّقوا منهج الله عزّ وجل رفرفت راياتهم في الآفاق، فلما تخاذلوا، وتهاونوا في شأن دينهم اقتحمهم أعداؤهم، لذلك إذا رأيت شيئاً لا يُرضيك فقل هذه المقولة: **" هان الله عليهم فهانوا على الله "**. وأنت على مستوى فَرْدي، إذا كان أمر الله ليس له أي قيمة عندك، هان الله عليك، لذلك تَحَمّل المتاعب، وتَحَمّل الضغط، وتَحَمّل القهر لأن الله هان الله عليك فَهِنْتَ على الله، ولو أعْزَزت دين ربك لأعزّك الله، لو نصرت دين الله لنصرك الله عزّ وجل..

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: آية " 7 ")

لاحظ الآيات:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 152 ")

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ)

((اِحْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ))

[الترمذي عن ابن عباس]

فالأمور واضحة جداً.

كن مع الله ترَ الله معك

***

(وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة: آية " 12 ")

إذاً إما أن تتجه إلى التاريخ فتعرف الله عزّ وجل..

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ)

(سورة السجدة)

مِن مسالك الاعتبار: يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ

أغادير مدينة في المغرب كانت من أفسق المدن في المغرب، يرتادُها السياح من شتّى إيقاع العالم، وفيها نواد عُراة، وفيها نوادٍ ليلية، وفيها موبقات لا يعلمها إلا الله، في ثلاث ثوانٍ أصابها زلزال فأصبحت قاعاً صفصفاً، وكان أكبر فندق فيها، وتُرتكب فيه كل المعاصي، وكان هذا الفندق مكوناً من ثلاثين طابقاً غاص في الأرض كُلِّه، ولم يبق منه إلا لوحته التي على الطابق الثلاثين فوق الأرض، فإذا سار الإنسان في أغادير يرى اسم الفندق على ارتفاع متر واحد، هذه اللوحة كانت في الطابق الثلاثين، بقيت مثل الشاهد على القبور، فعل الله واضح..

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف: آية " 59 ")

إذا كانت قرية لم يُهلكها الله عزّ وجل، وهي مقيمةٌ على الفجور والآثام فلابدّ أن هناك شيئاً ينتظرها، لأن ربنا عزّ وجل يقول:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

فإذا أردت أن تعرف الله من خلال أفعاله فاقرأ التاريخ، وأعمل نظرك فيه.

فرعون قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

ما مصيره ؟ أدركه الغرق، وقال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

أبو جهل وأبو لهب ماذا كان مصيرهما ؟ يا أمية بن خلف، يا شيبة بن ربيعة، يا فلان، ناداهم النبي واحداً واحداً بأسمائهم، قال: **أوجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقا، لقد كذّبتموني، وصدقني الناس، وأخرجتموني، وآواني الناس، وخذلتموني، ونصرني الناس، قالوا: أتخاطبُ قوماً جيفوا !! قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم "..**

فهذا الطريق الثاني طريق الكون:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ)

(سورة السجدة: آية " 27 ")

أي اليابسة، القاحلة التي لا نبات فيها..

(فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ)

الأرض الجرز تخرج الزرع:

تُعَدُّ ظاهرة النبات من أكبر الآيات الدالّة على الله عزّ وجل، إذا تركت التاريخ فعليك بالكون، عليك بظاهرة النبات، وظاهرة الحيوان، وظاهرة الماء، وظاهرة الهواء، والجبال، والليل والنهار، لاحظوا الآية التي تقول:

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ(27))

(سورة السجدة)

السمع والبصر طريقان إلى الله:

إذاً البصر طريقٌ إلى الله، والسمع طريق إلى الله، إما أن تسمع القرآن وإما أن ترى الأكوان، القرآن كونٌ ناطق، والكون قرآن صامت، وإما أن تقرأ سيرة النبي، والنبي قرآنٌ يمشي، فهناك إذاً قرآن صامت، وهو الكون، وكونٌ ناطق، وهو القرآن، وقرآن يمشي، وهو النبي عليه الصلاة والسلام، الآية الأخيرة:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة السجدة: آية " 28 ")

سؤال الاستهزاء لا جواب له:

متى ؟ الجواب يوم كذا، فجاء الجواب، قالوا: لأن السؤال سؤال استهزاء، متى يا أخانا؟ والإنسان أحياناً يستهزئ، يسأل متى ؟ أي يستهزئ، فالمُستهزئ لا يُجاب متى..

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أي يوم يحكم الله بيننا ؟:

(قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

(سورة السجدة)

أيْ لو جاء الفتح، وحُكم على الكفار بالهلاك، عندئذٍ لا ينفع الندم..

(قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

أيْ أنّ الإنسان وصل إلى الطريق المسدود..

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)

(سورة السجدة: آية " 30 ")

دعهم وشأنهم، التفت إلى المؤمنين..

(وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ)

(سورة السجدة)

انتظروا وعد الله ووعيده:

ينتظرون بك الهلاك، ينتظرون لك الهزيمة، ينتظرون لك السوء..

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

(سورة آل عمران: آية " 120 ")

أنت انتظر لهم تنفيذ وعد الله عزّ وجل، وهم ينتظرون لك السوء، على كلٍ أعرض عنهم، والإنسان عليه أن يلتفت إلى أهل الإيمان، إلى من فيه خير، إلى من يُرْجى منه الخير، أما المُعانِد المُكابِر، المُتناقِض المُستهزِئ، الفاسق الفاجر، فدعك منه والتفت إلى الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (01-18): تفسير الآيات 1 - 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-09-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية سورة الأحزاب اجتماعيا:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الأحزاب، ولهذه السورةِ أهميَّةٌ خاصَّة في التنظيم الاجتماعي، يقول الله سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

(سورة الأحزاب)

خصوصية نداء الله للنبي بلفظ الرسالة والنبوة دون سائر الأنبياء:

الشيء الذي يَلْفِتُ النظر هو أن الله سبحانه وتعالى خاطب معظم الأنبياء بأسمائهم، فقال:

(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

(سورة البقرة: من الآية 35)

وقال:

(يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)

(سورة آل عمران: من الآية 55)

وقال:

(يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ)

(سورة هود: من آية 46)

وقال:

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)

(سورة مريم: من الآية 7)

فمعظم الأنبياء خوطِبوا بأسمائهم، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام تكريماً له، وبياناً لعظيم شأنه عند الله، النبي وحده لم يُخاطَب باسم ذاته ؛ بل خوطِبَ بوصفه الذي بيَّنه القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

ففي الخطاب ليس هناك إلا خطابٌ بألقاب النبي، وبالتعبير الدقيق بأسماء صفاته، الإنسان له اسم ذات، وله اسم صفة، فقد يكون اسم الإنسان سعيداً، وقد تكون صفته طبيباً، مثلاً، فإذا قلنا: يا سعيدُ، خاطبناه باسم ذاته، أما إذا قلنا: يا أيها الطبيب، خاطبناه باسم صفته، فالنبي عليه الصلاة والسلام ـ وهذا شيء دقيق ـ في القرآن الكريم كلِّه لم يُخَاطَب إلا بأسماء صفاته، ومن أبرز أسماء صفاته أنه نبيّ، وأنه رسول.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ)

(سورة التحريم: من الآية 1)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

ورود اسم النبي في معرض الإخبار عنه:

وقد يقول قائل: لقد ورد اسم النبي، اسم ذاته في بعض آيات القرآن الكريم، والحقيقة أن الكلام خبر أو إنشاء، فالخطاب هو إنشاء ؛ الأمر، النهي، التمني، التَرَجّي، الاستفهام، الحَضْ، كل هذه الصيغ يجمعها محورٌ واحد وهو الإنشاء، والخبر هو الحديث عن شيءٍ مضى، فالكلام في علم البلاغة يُقسَّم إلى قسمين، خبر وإنشاء، فالنبي عليه الصلاة والسلام ورد اسم ذاته في معرض الخبر، ولم يرد في معرض الإنشاء أي الخطاب، فقال الله عزّ وجل:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)

(سورة الفتح: من الآية 29)

أي أن ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يعرّفنا أن هذا الرجل الذي أمامكم، الذي ترونه رأي العين، الذي نشأ بين ظَهْرَانِيكُم، هذا الرجل الذي اسمه محمَّد هو رسول الله، لا تخاطبوه باسمه، ولكن قولوا له: يا رسول الله، يا نبيَّ الله، إذاً: قد ورد اسم النبي لا في معرض الخطاب، أي معرض الإنشاء ؛ ولكن في معرض الإخبار، والإخبار هدفه أن يعرّفنا ربُّنا سبحانه وتعالى أن هذا الرجل الذي تعرفون نسبه، وأمانته، وصدقه، وعفافه، والذي نشأ بين ظهرانيكم أنه رسول..

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

(سورة الفتح: من الآية 29)

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ(144))

(سورة آل عمران)

لم يَرِد اسم رسول الله اسم ذاته (محمد) إلاّ في هاتين الآيتين حصراً، وفيهما أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذا الرجل ـ كما قلت قبل قليل ـ الذي تعرفون صدقه، وأمانته، وعفافه، ونسبه، إنما هو رسول الله، تأدّبوا معه، اعرفوا قدره، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته..

(وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ)

(سورة الحجرات: من الآية 2)

هكذا، وفيما سوى هذين الموضوعين، حتى في الإخبار، ورد اسم النبي باسم صفاته.

مثلاً:

(إِنّ اللّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلّونَ عَلَى النّبيّ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا صَلّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(56))

(سورة الأحزاب)

(وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة المؤمنين: من الآية 62)

لفظ النبوة والرسالة إشعار بالتعظيم وعلوّ الشأن:

آياتٌ كثيرة تزيد على عشر آيات ورد فيها ذكر النبي عليه الصلاة والسلام بأسماء صفاته لا بأسماء ذاته، هذا الموضوع كلّه مُفَادُهُ أن النبي عليه الصلاة والسلام له شأنه الخاص عند الله، وكفاه فخراً أن الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض أقسم بعمره الثمين، فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72))

(سورة الحجر)

وقد زكّى الله عقله فقال:

(مَا ضَلّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(2))

(سورة النجم)

وزكّى لسانه فقال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3))

(سورة النجم)

وزكّى شرعه فقال:

(إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

زكّى بصره فقال:

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(17))

(سورة النجم)

وزكّاه كلّه فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة النجم)

وأقسم بعمره الثمين فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72))

(سورة الحجر)

قيمة البحث في خصوصية خطاب الله للنبي بلفظ الرسالة والنبوة:

1 ـ فقدان المثل الأعلى في المجتمع المعاصر:

وبعدُ ؛ فقد يسأل سائل: ما قيمة هذا البحث ؟ كلّكم يرى أن المجتمعات الإسلاميَّة مجتمعاتٌ فيها بعض الضَياع، لماذا ؟

يعزو بعض العلماء إلى أن ضياع المجتمع بسبب أن المثل الأعلى فيها قد فُقِد، وإنّ ألفَ خطبةٍ، وألف مقالةٍ، وألف كتابٍ لا يحدث في النفس ما يحدثه المثل الأعلى في نفوس الناس، لأن الأنبياء فعلوا شيئاً لا يصدّق، لأنهم صادقون مع ذواتهم صدقاً لا حدود له، لأن حياتهم ليس فيها ازدواجٌ أبداً، ليس عندهم ظاهرٌ وباطن، ليس عندهم موقفٌ معلن وموقفٌ حقيقي، ليس عندهم شيءٍ للاستهلاك، ليس عندهم حقيقة تخالف غير الحقيقة، إنهم كانوا صادقين، اعتقدوا ما قالوا، وقالوا ما اعتقدوا، فعلوا ما علموا، وعلموا ما فعلوا، فلذلك إذا أردت أن يفتح الله عليك في تعريف الناس بالله عزّ وجل فكن قدوةً ومثلاً أعلى، لأن القدوة والمثل الأعلى من حيث التأثير تفوق في تأثيرها وقوة فاعليّتها أضعافاً مضاعفةً من الكلمات البَرّاقة والخُطَب الرنانة..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ (1))

2 ـ بيان عظمة شأن النبي:

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبيّن لنا عِظَمَ شأن النبي، والذي يَلفت النظر أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يقول في آياتٍ أخرى:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(69))

(سورة المؤمنون)

أي أما عرفت قيمة النبي ؟ أما عرفت خُلُقَ النبي ؟ أما عرفت سنَّة النبي، أما عرفت أخلاق النبي ؟ إن عرفت أخلاق النبي كان لك نِبْرَاسَاً، وكان لك مشعلاً وضّاءً، وكان لك قدوةً، وكان لك أسوةً، وكان لك مثلاً.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: من الآية 31)

هذا معنى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ (1))

إعرابُ: يا أيها:

وإعراب يا أيُّها: يا أداة نداء، وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نَصب، والهاء زائدة، والنبي بدل من أيُّها، هذه صياغة مألوفة في اللغة العربيَّة..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ (1))

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(27))

(سورة الفجر)

(اتَّقِ اللّهَ (1))

المفهوم الصحيح لهذا الأمر الإلهي للنبي: اتَّقِ اللّهَ

المعنى الأول:

أولاً: قد يَفْهَمُ إنسانٌ هذه الآية فهماً غير صحيح، فما كل من يقول لآخر: اتق الله، يُفْهَم من هذا الكلام أن المخاطب لا يتقي الله، هناك قاعدةٌ أصوليَّة تقول: إنك إذا أمرت من هو مقيمٌ على هذا الأمر فليس معنى أمرك أنه لا يأتمر بهذا الأمر ؛ ولكن معنى أمرك أن تابع هذا الأمر.

فإذا قلت لابنك: اجتهد، وهو مجتهد، معنى اجتهد حصراً، أي استمرّ على اجتهادك، إذا جاء الأمرُ لمن يطبّق الأمرَ فالمعنى الاستمرار والدوام، فإذا قال الله عزّ وجل للنبي عليه الصلاة والسلام:

(اتَّقِ اللّهَ (1))

معنى ذلك: يا أيها النبي تابع طريق التقوى، استمر على تقواك، كن متقياً دائماً، هذا معنى.

المعنى الثاني:

أن الله سبحانه وتعالى قد يَتَلَطّفُ بالمؤمنين، فيأمرهم من خلال النبي عليه الصلاة والسلام.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

مع أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لم يطلِّق.

(إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

فإما أن يكون الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام على صيغة الاستمرار والمتابعة ؛ وإما أن يكون أمراً للمؤمنين من خلال أمر النبي عليه الصلاة والسلام، هذا معنى أن يخاطب الله نبيّه فيقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

معنى التقوى لغة واصطلاحا:

1 – المعنى اللغوي:

ولكن ماذا تعني كلمة اتق الله ؟ اتق فعل أمر، الماضي وقى، يَقي، ق، إذاً: وقى مضارعه يقي، وأمره ق، حرف القاف فقط فعل أمر، لكن اتق ماضيه اتّق، ومضارعه يتّقي، والأمر اتّق، فاتقى على وزن افتعل، وافتعل فيها معنى المبالغة.

2 – المعنى الاصطلاحي:

أي بالغ في وقاية نفسك من غضب الله، بالغ في وقاية نفسك من سخط الله، بالغ في وقاية نفسك من عقاب الله، اتق الله، اتق غضبه بإرضائه، اتق عقابه بطاعته، اتق سخطه باتباع رضوانه، وكيف يُتَبَع رضوان الله ؟ في طاعته، فكلمة اتّق الله تعني أطع الله، بشكل مختصر.

مستويات التقوى:

ولكن هذه الطاعة لها مستويات:

المستوى الأول:

من مستويات هذه التقوى أن تطلع على أمرٍ من أوامر الله..

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(30))

(سورة النور)

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)

(سورة البقرة: من الآية 83)

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(34))

(سورة فصلت)

إذاً: طاعة الله بامتثال أمره، واجتناب نهيه، والوقوف عند حدوده، والحكمة ؛ أن تفعل الشيء المناسب، في الوقت المناسب، في القدر المناسب، في المكان المناسب، مع الشخص المناسب، فأن تأتمر بأمره، وأن تنتهي عن نهيه، وأن تقف عند حدوده، وأن تكون حكيماً في فعلك الذي يوافق الشرع، فهذا معنى:

(اتّق اللّهَ (1))

المستوى الثاني:

ولكن هناك مستوى آخر للتقوى، فأنت إذا وقفت أمام مجموعة قارورات فيها مواد كيماويّة، كُتِبَ على لاصقة كل قارورة اسم المادّة التي تحتويها القارورة، فأنت عرفت أن هذا صوديوم، وهذا في الماء يغلي، وأن هذا زئبق، وهو معدن غالٍ جداً، وأن هذا المعدن سام، وأن هذا المعدن رخيص، أنت عرفت خواصّ المواد من خلال اللاصقات، هذه درجة، لكن لو جئنا بإنسان خبير أعطيناه هذه القوارير بما فيها من مواد فمن دون لاصقات يعرفها، ويقول: هذا زئبق، وهذا صوديوم، وهذا كلور، يشمُّ رائحته، فلذلك إما أن تعرف الشيء بالتعريف به ؛ وإما أن تعرف الشيء بنور الله عزّ وجل.

فالتقوى درجات أوّلها أن تقرأ أمر الله، وتقول: هذا حلال وهذا حرام، هذه درجة، وأرقى من هذه الدرجة أن تتصل بالله عزّ وجل، فيقذف الله في قلبك نوراً ـ كما قال الإمام الغزالي: **بهذا النور ترى الحقّ حقّاً والباطل باطلاً، ترى الخير خيراً والشر شراً، ترى الصحيح صحيحاً والخطأ خطأً**، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد: من الآية 28)

فإذاً:

(اتّق اللّهَ)

من بعض معانيها أطع الله، هذا أمر فامتثِله، وهذا نهي فابتعد عنه، وهذا حدٌ من حدود الله فلا تقربه، هذا معنى:

(اتّق اللهَ)

المعنى العام للتقوى: اتق الله وأطعه في كل شيء:

وهناك معنىً آخر: أي انظر بنور الله، لو فرضنا خطبت فتاتين، الأولى من أعلى مستوى من المستويات التي تطمح إليها، ولكن في دينها رقّة، دينها رقيق، والثانية مستواها أقلّ، ولكن في دينها قوّة، فإذا نظرت إلى الفتاتين بنور الله تختار صاحبة الدين..

((من تزوّج المرأة لجمالها أذلّه الله، من تزوّجها لمالها أفقره الله، من تزوّجها لنسبها زاده الله دناءةً فعليك بذات الدين تربت يداك))

[ورد في الأثر]

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فإذا أردت الزواج، ونظرت بنور الله عزّ وجل تختار الدَيّنة، ذات الدين على ذات الجمال، وإذا عُرِضَت عليك شراكة، أرباحٌ طائلة، وأعمالٌ كثيرة، وسوقٌ رائجة، ومركزٌ تجاريٌ رفيع، لكن هذه البضاعة محرّمة بل فيها شبهة، وإنّ بعض دخلها حرامٌ، وهناك عمل آخر أقلّ مردوداً، أقلّ شأناً، أقلّ فائدة لكنّه حلالٌ مئة في المئة، فإذا نظرت إلى هذين العملين بنور الله تختار الأقلّ دخلاً، والأقلّ شأناً، لأنه أكثر صلاحاً وانطباقاً للشرع، فاتق الله.

إذا دخلت إلى بيتين، بيتٍ فخمٍ جداً، وبيتٍ متواضعٍ جداً، وعلِمت أن صاحب البيت الأول قد جمع هذا المال من طرقٍ لا ترضي الله عزّ وجل، فنظرتك إليه نظرة المرتاب، إنسان توفي، وترك أولاداً خمسة، أحد أكبر الأخوة اغتصب مال الأبِ كلّه، واشترى هذا البيت وأثّثه، وزيّنه، ثم دخلت إلى بيت رجلٍ آخر متواضعٍ جداً، وعرفت أن صاحبه مستقيم، وأن هذا البيت اشتراه بمالٍ حلال، فإذا نظرت بنور الله تقدِّر الثاني، وإذا نظرت بعين الدنيا تقدِّر الأول.

فمعنى:

(اتّق اللهَ)

أي دائماً انظر بنور الله في ؛ كسب المال، في إنفاق المال، في اختيار الزوجة، في اختيار العمل، في اختيار الأصدقاء، قد يكون لك صديق ذو شأن، وله مكانة، ويده تطول، وتعلِّق آمالاً كبيرةً على صداقته، وتعلِّق آمالاً في الانتفاع منه ؛ ولك صديقٌ آخر أكثر علماً وتقىً، وصلاحاً، فإذا نظرت بعين

المصلحة إلى هذين الصديقين تختار الأول لغناه، ولعِظَم شأنه ولقوّته، وإذا نظرت بنور الله تختار الثاني، لأنك تستفيد من علمه، ومن أخلاقه، ومن تقواه، فدائماً ربُّنا سبحانه وتعالى جعل الحياة الدنيا على شكلٍ عجيب، الشيء الذي يَبْرُقُ أمام الناس قد لا يرضي الله، والشيء الذي ليس له بريق قد يكون الخير كلُّه كامناً فيه، فإذا قرأت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

المعنى الأول: أي أطع الله، أطعه ؛ هذا أمر طبّقه، هذا نهي اجتنبه، هذا حَد لا تقربه، هذا معنى.

المعنى الثاني:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

أي انظر بنور الله، قيّم الأشخاص، قيّم الدخول، قيّم الأعمال، لو فرضنا أن عملاً يُدِرّ على صاحبه مئات مئات الألوف، والبضاعة محرّمة، فإذا نظرت إلى هذا العمل بعين المصلحة ربّما أقبلت على هذا العمل، أما إذا نظرت إلى هذا العمل بنور الله أحجمت عنه.

إذاً المعنى في هذه الآية:

(اتَّقِ اللَّهَ (1))

المعنى الأول: أطع الله، هذا أمرٌ، وهذا نهيٌ، وهذا حدٌ.

والمعنى الثاني:

(اتَّقِ اللَّهَ (1))

أيْ انظر بنور الله، أي في اختيار شريكة حياتك، في اختيار عملك، في اختيار جيرانك، فقد تشتري بيتاً بثمن رخيص، وبمواصفات جيّدة، ولكن له جيران بعيدون عن الله عزّ وجل، بل إن في أخلاقهم خللاً، فأنت لك بنات ولك أولاد، وربّما سرت العدوى إلى بيتك، إذاً: اتق الله، ولو أنه بيتٌ كبير، وله مناظر مشرفة ؛ لكن الجوار لا يرضي الله عزّ وجل، ابحث عن جيران أفاضل أكارم يتّقون الله عزّ وجل، فالمؤمن مأمور أن يتّقي الله، أن يطيعه أولاً، وأن ينظر بنوره ثانياً في كل مناحي حياته.

دخلت إلى البيت مثلاً، فرأيت شيئاً لا يروق لك من زوجتك، فاتق الله، فهذه الزوجة يمكن أن تصلحها؛ بحلمٍ، برقّةٍ، بكلمةٍ، بموعظةٍ، بإعراضٍ، بتأديبٍ، أما إذا أخذتك الحَمِيَّة، وطلّقتها بالثلاث، ونقعت غُلَّتَكَ بهذا الطلاق، بعدئذٍ تعالَ إلى العلماء تسألهم واحداً وَاحداً عن طريقةٍ تفدي بها يمين الطلاق، فأنت يا أخي اتق الله في الأول.

دائماً هناك سؤال كبير: أين عقلك ؟ أوضح مثل: لو أنه مكان معك جهاز إليكتروني تكشف به العملة المزيّفة، وقبضت مبلغاً من المال كبيراً ثمن بيتك، ولا تملك إلا هذا البيت، والآن صار عُمْلَة، فإذا بهذه العملة كلُّها مزيّفة، والجهاز في جيبك، وأنت لم تستخدم هذا الجهاز حين القبض، فماذا يقال لك ؟ يقال

لك: أين عقلك ؟ معك جهازٌ يكشف زيف العملة من جَيّدها، لِمَ لمْ تستخدم الجهاز ؟ والإنسان أكرمه الله عزّ وجل بهذا العقل..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

بالمناسبة، سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام قال الله عنه:

(إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ(82))

(سورة الشعراء)

هذه كلماتٌ دقيقةٌ جداً، أيْ أن الله سبحانه وتعالى وحده يخلُق ويهدي، ويرزق ويشفي، ويُحيي ويميت، ويغفر، الله سبحانه وتعالى وحده متفرّدٌ بالخَلْق، وبالهداية، وبالرزق، وبالشفاء، وبالإحياء، وبالإماتة، وبالمغفرة يوم القيامة، فما دام الله مُتَفَرّداً في كل هذا فهل هناك أشياء أخطر من هذه الأشياء في حياتك؟ أن تُخْلَق، وأن تُهدى، وأن تُرزَق، وأن تُشْفَى، وأن يحيا الإنسان، وأن يموت، وأن تُغْفَر له ذنوبه، ما دام الله متفرّداً بهذه الأفعال الخطيرة في حياتك فمن باب أولى أن تفرده بالطاعة، والعبادة، والحب، والإخلاص، وما إلى ذلك..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ(1))

التقوى والطاعة أمران متلازمان:

هذان أمران متكاملان، أي أطع الله، ولا تطع الكافرين والمنافقين.

سبب نزول الآية:

جاء في أسباب النزول أن كفّار قريش عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلّم أن يكفّ عن آلهتهم، وأن يعتقد أنهم يعبدونها من دون الله لتقرّبهم إلى الله، وهم في المُقابل يكفّون عن محاربة دعوته، وعن إيذائه، وعن أي شيءٍ آخر، أي أنها مصالح متبادلة، افعل كذا نفعل كذا، تسامح معنا في هذه الموضوعات نَدعْك وشأنك في هذه الدعوة، فهؤلاء الكفّار هذا عرضهم، والمنافقون أيّدوهم، فقال الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(1))

النقطة الدقيقة هي: أن الله سبحانه وتعالى وحده ينبغي أن تطيعه، وأن ما سواه، أعرض عنه:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

الإنسان بين منهج الخالق وتعليمات المخلوق:

أنت أمام منهجين ؛ منهج الخالق وتعليمات المَخلوق، منهج الله ومنهج البشر، توصيةٌ من الله أن تفعل كذا، وتوصيةٌ من زيدٍ أو عُبيد أن تفعل كذا، فما في تناسب، ليس هناك تناسب بين خالقٍ ومخلوق، بين قديمٍ ومُحْدَث، بين قويٍ وضعيف، بين غنيٍ وفقير، بين عالمٍ وجاهل، بين مُحِبٍ ومبغض، فالشيء العجيب أن يدع الإنسان هدى ربّه، وأن يتّبع هوى نفسه، أو أن يتّبع توجيهات مجتمعه.

إسقاطات على الحياة اليومية:

المثال الأول:

بعض الأمثلة التي تنبع من حياتنا: الله عزّ وجل يأمرك أن تغضّ البصر، ويأمرك ألا تكون في مكانٍ فيه اختلاط، وفيه نساءٌ كاسياتٌ عاريات، وبعض الأشخاص يستحيون من الناس في أعراسهم، ويجلسون أمام النساء الكاسيات العاريات وهم مسلمون، ماذا فعل ؟ إنه رأى أن طاعة الناس أولى من طاعة الله.

بالمناسبة، هذه الكلمات التي يرددها المسلمون: الله أكبر مثلاً، لا إله إلا الله، سبحان الله، الحمد لله، فهذه الكلمات لو وقفنا عند معانيها الدقيقة لأخذنا العَجَب العجاب، فالله أكبر، فأي إنسانٍ يطيع مخلوقاً، ويعصي خالقاً فهذا لم يقل: الله أكبر حقيقة، ولا مرّة، ولو قالها ألف مرة، فهي مجرد مقولة لسان.

المثال الثاني:

حينما تطيع زوجتك وتعصي ربّك، ماذا رأيت ؟ رأيت أن طاعة الزوجة خيرٌ من طاعة الله، وأن غضب الزوجة شرٌ من غضب الله، هكذا، لمجرّد أن تطيع مخلوقاً وتعصي خالقاً معنى هذا أنك أشركت، لذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

أيْ أطع الله أولاً، والمعنى الأرقى: انظر بنور الله.

(وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ (1))

إيّاكم وطاعة الغافلين !!!

إيَّاك أن تطيع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، إنسان أعمى يُطاع ؟ إنسان جاهل يُطاع ؟ لا والله، إنسان له مصلحة ماديَّة يُطاع ؟ لا والله، إنسان مُبغض يطاع ؟ لا والله، فالكافر والمنافق أولاً في جهل، وفي مصالح، وفي بُغض، وفي حِقد، وفي حسد، ودائماً المقصِّر يحبُّ أن يقصِّر الناس جميعاً.

الآن اسأل طالباً أهمل وظيفته يقل لك: لم نكتب الوظيفة يا أستاذ، أنت واحد، فلِمَ تقول: لم نكتب، بصيغة الجمع، إنه يستأنس كلّما كثُرَ المقصِّرون، دائماً العاصي يحب أن يعصي الناس كلهم، اسأل شخصاً مقيماً على معصية تجد أنه ينصحك فيها: أخي ما فيها شيء، لا تتزمَّت، لأنه خرق حجب الاستقامة من هذه الناحية، دائماً العاصي ينصحك بالمعصية، المقصِّر ينصحك بالتقصير، الذي يطلق بصره في الحرام ينصحك بأن هذا الشيء فوق طاقة البشر يا أخي، أين أذهب بعيوني ؟ فالمؤمن الصادق لا يمكن أن يستنصح كافراً، ولا منافقاً، ولا مقصِّراً، ولا متلبساً بمعصية، لأن الجواب معروف، فهو سوف ينصحك بما هو فيه، فأنت أمام توجيهين، أمام منهجين، أمام قانونين، أمام دستورين، أمام توصيتين، توصية الخالق وتوصية المخلوق، والخالق أولى.

هل من الممكن إذا كنت جندياً بثكنة عسكرية، وجاء لك أمر من عريف، وأمر مناقض ممن هو أعلى رتبة، هل من المعقول أن تنصاع لأمر العريف، وتُغضِب الأعلى رتبة ؟ يقول لك: عماد أو عميد، هل هذا كهذا ؟ أيعصى الله عزّ وجل، ويطاع مخلوق ؟! هذا ما قاله الله عزّ وجال في الحديث القدسي:

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويُعبَد غيري، وأرزق ويشكر غيري))

[الجامع الصغير عن أبي الدرداء]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(1))

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

العلم والحكمة صفتان لذات الله وتشريعاته وأفعاله:

أي أنه **" عليماً "** في تشريعاته، **" حكيماً "** في أفعاله، العليم يُطاع، والحكيم يُطاع، والقدير يُطاع، والغني يُطاع، والمُحِب يُطاع، والعادل يُطاع، واللطيف يُطاع.

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا (1))

فيما أمر.

(حَكِيمًا (1))

فيما فعل، الله عزّ وجل له أمر تكليفي، وأمر تكويني، يأمرك بغض البصر هذا أمر تكليفي، ينهاك عن الكذب أمر تكليفي، والأمر التكويني كأن يسوق لإنسان مصيبة، هذا أمر تكويني، جعله عقيماً، جعله ذا عيالٍ كثير، جعل نسله من البنات فقط مثلاً، فهذا أمر تكويني.

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا (1))

في أمره التكليفي، وكان حكيماً في أمره التكويني، فأنت إذاً أطع الله، لأنه العليم فيما أمر، الحكيم فيما فعل، فعله حكمة، أي أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وأفعاله متعلِّقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق، فهل من الممكن أن يتوازى أمر البشر مع أمر خالق البشر ؟

(يَا أَيُّهَا النّبِيُّ اتّقِ اللّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبّكَ(2))

وجوب الانقياد إلى الوحي وتعليماته:

أنت آلة معقّدة، ولها تعليماتٌ من الصانع، فهناك آلة كمبيوتر مثلاً، جهاز معيَّن معه تعليمات، فهل من المعقول هذا الجهاز المعقّد الغالي، وثمنه ثلاثون مليونا، كمبيوتر، فهل تذهب إلى جارك الخضري، وتأخذ منه تعليمات التشغيل ؟ لو أعطاك تعليمات ستكون مضحكة، فكل إنسان له قدر عند الله، ولكن هذا ليس اختصاصه، فهل من الممكن أن تتلقّى تعليمات تشغيل كمبيوتر من إنسان جاهل ؟ من إنسان لا يفقه ما هذا الجهاز ؟ وأنت أغلى على الله من هذا الجهاز، أنت أعقد مخلوق في الكون، هل من الممكن أن تتلقّى التعليمات من جهات جاهلة ؟ من جهات مغرضة ؟ من جهات لها مصلحة.

(وَاتّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ (2))

الوحي كمالٌ مطلق لا نقص فيه:

لأن الوحي:

(مَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

الوحي ما فيه خطأ أبداً، الوحي فيه حقٌ مُطْلَق، فيه كمالٌ مطلق، فيه عدلٌ مطلق، كما قال بعض العلماء: **" الشريعة عدلٌ كلها، مصلحة كلها ـ لصالح البشر، أي أن مصلحتك الحقيقيّة في الشرع، في الزواج، في الطلاق، في العمل ـ الشريعة رحمة كلها، الشريعة عدلٌ كلها، مصالح كلها، وكل أمرٍ خرج من العدل إلى نقيضه، ومن المصلحة إلى ضدِّها، ومن الرحمة إلى خلافها، فليس من الشريعة ولو أُدْخِل عليها بألف بابٍ وباب ".**

يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا الشرع رحمةٌ كله، مصلحةٌ لك، ولأسرتك، ولأولادك، ولمجتمعك، ولبلدك، ولأمّتك كلِّها، ورحمةٌ كلُّه، عدل ورحمة ومصلحة، وكل أمرٍ خرج من الرحمة إلى خلافها، من العدل إلى نقيضه، من المصلحة إلى ضدِّها، فليس من الشريعة، ولو أُدخِل عليها بألف تأويلٍ وتأويل، مهما حاولت أن تقول: هذا من الشرع فهو ليس من الشرع ما دام خلاف المصلحة، خلاف مصلحتك، خلاف المنطق، خلاف الواقع، خلاف الفطرة، خلاف العقل، خلاف النقل، ليس هذا من الشريعة، ولو أُدْخِلَ عليها بألف تأويلٍ وتأويل.

إذاً:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(2))

هذا ما تفعله قوانين البشر !!!

سمعت في بعض البلدان أنهم أرادوا أن يضعوا تشريعاً وضعيّاً للعلاقات الشخصيّة، فألزموا كل متزوّج إذا أراد أن يطلِّق امرأته أن يعطيها نصف ما يملك حصراً، فإنسان عنده معمل، إنسان عنده أرض، عنده بناء، إذا أراد أن يطلِّق زوجته فعليه أن يعطيها نصف ما يملك، هذا قانونٌ وضعيٌ وضِعَ في بعض البلدان الإسلاميّة، تقليداً للمناهج الوضعية المطبّقة في بلادٍ لا تؤمن بالله عزّ وجل، ما الذي حصل؟

الذي حصل أن سوق الزواج بار، فمن خلال مئة شاب لا يقدم على الزواج شابٌ واحد، لأنه خلاف الشرع، فسمعت أن آباء الفتيات كانوا يعرضون على أولياء الشباب سندات قانونيّة بمبالغ طائلة، أنه لو طلّقها يستحقُ هذا السَنَد، ليتلافى الزوج كتابة نصف ماله لزوجته، فبسبب تعديل طفيف بقانون الأحوال الشخصيّة خلاف الشريعة بارت سوق الزواج وانتهت.

فعندما يشرّع ربنا عزّ وجل وهو حكيم خبير، يجعل للمرأة مهراً عند الطلاق تستحقُه، أما أن تستحقّ نصف ما يملك زوجها هكذا، صار هناك طلاق كيدي، فبارت سوق الزواج، فيجب أن تعتقد أن أي انحرافٍ عن منهج الله عزّ وجل له مضاعفات خطيرة على أي مستوى تشاء..

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(2))

معنى الخبير:

كلمة خبير أبلغ من عليم، العليم يرى أما الخبير يعرف الدوافع، أنت قد تعلم أن هذا الإنسان أعطى فلاناً هذا المبلغ، هذا علم، أما الخبير فأن تعرف النيات التي وراء هذا الإعطاء، تعرف المقاصد البعيدة، تعرف طبيعة هذا الإنسان، جِبِلَّتَهُ، تعرف الصراع الذي جرى في نفسه، تعرف لماذا أحجم ؟ لماذا أعطى ؟ فربنا عزّ وجل يقول:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(2))

لديه خبرة، فأنت مكشوف، كل نوازعك، كل صراعاتك، كل مطامحك، كل أهدافك، كله مكشوفٌ عنده.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3))

من إشارات الآية ومفهوماتها:

وجود المعارضين لمتّبعي الوحي وأمثلة ذلك من واقع الناس:

هنا إشارة، أي أنك إذا اتبعت ما يوحى إليك هناك من يعارضك، هناك من يكيد لك، هناك من يحاول أن يطفئ نور الله عزّ وجل، هناك من يفعل شيئاً لا يرضيك، لأن معركة الحق مع الباطل معركةٌ أزليّةٌ أبديّة، ما دام هناك حق هناك باطل، وما دام هناك حق وباطل فهناك صراعٌ بينهما، فإذا اتبعت منهج الله عزّ وجل ربّما عاداك أقرب الناس إليك، يمكن أن تكون زوجتك، يجرحك من كلامها: تقول ما كنت هكذا، أنت تغيّرت، ما هذا دينك السميك ؟ يمكن أن يكون أولادك، ألا يتحمّلوا، وكذلك جيرانك، شركاؤك، وأقرب الناس إليك، فعندما يفهم الإنسان الإسلام فهماً اجتماعياً، عواطف دينيّة فقط، فالقضيّة سهلة ومحتملة ؛ أما حينما يطبّق الإسلام تطبيقاً حقيقياً ينشأ من هذا التطبيق المتضرّرون، المعارضون، فينشأ حوله مشكلة، فإذا أراد الإنسان طاعة الله عزّ وجل فلا يتوقّع أن الطريق ورود ؛ بل يتوقعّ أن الطريق فيه متاعب وأشواك.

إذا كنت في شركة، وأردت أن تطبّق أمر الله عزّ وجل، الشركاء لا يرضون عن ذلك، هنالك أرباح طائلة سيجنيها الشركاء من بعض الأساليب غير المشروعة في كسب المال، فإذا قلت: أنا لا أوافق على هذا الشيء، فبالطبع تنتهي الشركة، و يتفاصل الشركاء، فدائماً وطِّن نفسك أن طاعة الله لها ثمن، ولا

يمكن أن تجمع بين الدنيا والآخرة ببساطة.. لأن من أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته، ومن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه.. هذا ليس تشاؤماً، ولكن من طبيعة الأمور أنك إذا أردت أن تقيم منهج الله عزَّ وجل فهناك معارضون، هناك متضرّرون، هناك من يُسَفِّه هذا الاتجاه، هناك من يقف في طريقك، هناك من يكيدُ لك، جاء في الآية الكريمة:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلًا (3))

من نتائج وجود المعارضين: التوكُّل على الله وحده:

أي أن أقوى جهة في الكون توكّل عليها، الله معك، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ (3))

لذلك ورد في بعض الأحاديث أنه:

((إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك))

[ورد في الأثر]

ألا تحبُّون جميعاً أن تكونوا أقوى الناس، وأكرم الناس، وأغنى الناس ؟ عليكم بطاعة الله عزَّ وجل.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلًا (3))

والله لو توكّلتم على الله حقَّ التوكُّل، والله الذي لا إله إلا هو لزوال الكون عندئذٍ أهون على الله من أن يتخلّى عنكم.

((ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيّته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيّته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطّعت أسباب السماء بين يديه))

وفي الحديث:

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[سنن الترمذي عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ]

و يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ في الحديث القدسي:

((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلامِ اللّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفَضْلِ اللّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[سنن الترمذي: عَنْ " أَبِي سَعِيدٍ "]

" أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، لي عليك فريضة، ولك عليَ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً ".

إذاً:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلًا (3) مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنّ أُمّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللّهُ يَقُولُ الْحَقّ وَهُوَ يَهْدِي السّبِيلَ(4))

هذه الآيات إن شاء الله نشرحها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (02-18): تفسير الآيتان 4 - 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-10-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الأحزاب، في الدرس الماضي الآية الكريمة التي في سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا(3))

(سورة الأحزاب)

المناسبة بين الآية الأولى وما يليها من الآيات:

وجوب التقوى والطاعة المقرونة بالإخلاص:

قبل أن ننتقل أيها الأخوة إلى متابعة الآيات التي تتلو هذه الآية، لابدّ من وقفةٍ متأنيةٍ حول العلاقة بين قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(1))

وقوله تعالى:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا(3))

أولاً: حينما قال الله عزّ وجل بعد أن أمر النبي، بل أمر المؤمنين من خلال النبي عليه الصلاة والسلام، بعد أن أمر الله المؤمنين من خلال النبي أن يتقوا الله، وألا يطيعوا الكافرين والمنافقين قال:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1))

أي عليماً بما تنطوي عليه قلوبكم حينما تطيعون، لماذا تطيعون ؟ ما النوايا التي وراء الطاعة ؟ قال عليه الصلاة والسلام في حديث متواتر، ويعد هذا الحديث أصلاً من أصول الدين:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[من سنن أبي داود عن عمر بن الخطّاب]

فالطاعة أيها الأخوة قيمتها بما تنطوي عليه من إخلاص.

(وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ)

(سورة البينة: من الآية 5)

من الظاهر العبادة، ومن الباطن الإخلاص، فالمؤمن لو أنه اتقى الله عزّ وجل فيا ترى ماذا ينطوي في نفسه ؟ ماذا يخبّئ في نفسه ؟ ما الهَدف الذي يبتغيه ؛ السمعة، أم طاعة الله عزّ وجل ؟ ما نوع إخلاصه؟ ما درجة إخلاصه ؟ فحينما أمرك الله عزّ وجل أن تتقي الله بمعنى أن تطيعه، أعلمك أنه يعلم نواياك، أكانت هذه الطاعة مُراءاةً للناس، استدراراً لعطفهم، انتزاعاً لإعجابهم، تحقيقاً لمصالحك فيهم ؟ أم كانت عبادةً خالصةً لوجه الله عزّ وجل ؟

فكلمة:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1))

أي أنه يعلم النيات، يعلم السِر، يعلم الإخلاص، يعلم ماذا تريد.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(1))

تذكير وربط السابق باللاحق:

وقد ورد في الدرس الماضي أنه عليمٌ في تشريعاته، حكيمٌ في أفعاله، أي أن تشريعه وفق علمه، وعلمه أساس تشريعه، فعليمٌ بالإنسان أنه هو خالق الإنسان، فالأحكام التشريعيَّة تتوافق مع طبيعة الإنسان توافقاً تامًا..

(لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة من الآية 286)

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(2))

فمعنى خبير أي فهمه أدق الأشياء، فهمه أعمق الأشياء، فهمٌ شمولي، وفهمٌ دقيق، وفهمٌ عميق، الفهم الدقيق، والعميق، والشمولي هو معنى قول الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2))

الآمرُ ضامنٌ

أما النقطة الدقيقة:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ(3))

موطن الشاهد أن الآمر ضامن، ما يقوله بعض الناس: إذا فعلت كذا وفق أمر الله أخسر مالي كلّه، إذا فعلت كذا وفق ما يأمر الله عزّ وجل يُسْرَق مالي من البيت، إذا فعلت كذا أضيع، إذا وقفت موقفاً حازماً

في هذا الموضوع أخسر عملي، هذا كلامٌ فيه جهلٌ كبير، لأن الذي أمرك أن تطيعه هو الذي يضمن لك الثواب، هو الذي يضمن لك الحِرص، أعبّر عن هذا المعنى الدقيق بكلمتين هما: الآمر ضامن. قد يأمرك إنسان أن تتجرّع هذا الدواء، وقد يكون هذا الأمر غير صحيح، وقد ينشأ مرضٌ خطير من هذا الدواء، فإذا عاتبته أو سألته يقول لك: ماذا أفعل، هذا علمي، لكن الله عزّ وجل وهو خالق الكون إذا أمر بأمرٍ فهو ضامن سلامة العافية.

الآن مثلاً هناك أناسٌ كثيرون يقترفون المعاصي من أجل رواج تجارتهم، يقول لك: هكذا ليكن هذا الشيء، عندئذٍ يرضي الناس، يرضي الناس أن تكون في المحل امرأة تبيع الرجال، يرضي الناس أن تفعل كذا، حينما تسعى لمصلحتك من خلال معصية الله عزّ وجل فهذا عين الجهل بالله، لأنه:

((من حاول أمرا بمعصية الله كان أبعد له مما رجا، وأقرب مما يتقى))

[من كشف الخفاء عن أنس]

اعملْ صالحًا بإخلاص ولا تخش في الله لومة لائم:

وإذا توهّمت لحظة واحدة أن طاعة الله تضرُّك، وأن معصيته تنفعك فهذا هو عين الجهل، لذلك فالمعنى الذي تنطوي عليه الآيتان معاً:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ(3))

أي افعل ما يرضي الله، ولا تأخذك في الله لومة لائم، افعل ما يرضي الله، ولا تخش أحداً إلا الله، افعل ما يرضي الله، واعلم علم اليقين أن الذي أمرك سيحفظك، افعل ما يرضي الله، اختر الزوج المؤمن لابنتك، ولا تظن أن الغني هو الذي يسعدها، بل المؤمن هو الذي يسعدها..

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا(3))

وهمٌ مرفوضٌ: الطاعة تجلب الضر:

الآن أضع يدي على منطقة حسّاسة في الإنسان، ربنا عزّ وجل لحكمةٍ يريدها قد يتراءى لك أن طاعة الله عزّ وجل سوف تحول بينك وبين خيراتٍ كثيرة، فعدم الاختلاط يجعلك إنساناً منطويا على نفسك، عدم المصافحة يجعل لك شخصيّة محرجاً بها أمام الموظّفات مثلاً، عدم تعاملك بهذه الطريقة في البيع والشراء تفوّت عليك ربحاً كثيراً، هكذا شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يجعل منطق الأحداث يوحي إليك أن طاعة الله قد تضرُك، وأن معصيته قد تنفعك، والحقيقة هي العكس، لكن من هو المؤمن ؟ هو الذي

يقول: والله لا أعصي الله ولو أكلت التراب، والمنافق على أتفه سبب يتّخذه ذريعةً لمعصية الله عزّ وجل.

إذاً: الآمر ضامن، فالذي أمرك أن تحجّب ابنتك هو الذي يضمن لها زواجاً موفّقاً، أما أنه لابدّ من أن تسفر، لابدّ من أن يراها الناس، لابدّ من أن تكون معهم في حفلاتهم، لابدّ من أن تُظهر مفاتنها كي يعرفها الآخرون، هذا الكلام هو الجهل بعينه، الآمر ضامن ؛ في البيع، في الشراء، في التجارة، في الزراعة، في الصناعة، في العلاقات الاجتماعيّة، في كل حركاتك وسكناتك أمر الله هو الذي معه حفظ الله، ومعصية الله عزّ وجل هي التي معها الخِذْلان، والتعسير، ومشكلات الحياة.

الآن هناك آيةٌ دقيقة:

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (4))

مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ

لماذا القلبان ؟

لماذا القَلبان ؟ لو أنك بقلبٍ واحدٍ آمنت، وبالقلب الثاني آمنت، إذاً الثاني تكرار للأول، أما إذا آمنت بقلب، ولم تؤمن بقلب، إذا عصيت بقلب، وأطعت بقلب فهذا شيء متضاد، وطبيعة الحياة ترفضه، قال ربنا عزّ وجل:

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (4))

للإنسان قلبٌ واحد لا يتسع لشيئين متضادين:

أي له قلبٌ واحد، يتّسع لشيءٍ واحد، لكن أدقّ من ذلك أن قلب الإنسان لا يتّسع لشيئين متضادين، أي أن من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، فإذا ادّعى إنسان أن في قلبه شيئين معا فهذه دعوى، لأن الإنسان إذا أحبّ شيئاً كره ضدّه، فإذا أحبّ الغناء ينبغي أن يبتعد عن كلام الله، فإذا أحبّ كلام الله ينبغي أن يبتعد عن الغناء، إذا أحبّ أهل الدنيا ينبغي أن يجلس مع أهل الآخرة جلوساً شكلياً، فإذا أحبّ أهل الآخرة ينبغي أن يكره أهل الدنيا، إذا أحب المساجد لا ينبغي أن يحب أماكن اللهو، فإذا أحب أماكن اللهو وكان في المساجد، كان فيها كالعصفور في القفص، أي أن قلباً واحداً لا يتسع لشيئين متناقضين، فلذلك الحق واحد، والباطل يتعدد..

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتّبِعُوهُ وَلا تَتّبِعُوا السّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 153)

الحق واحد، والنور مُفرد.

(يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: من الآية 257)

فلذلك القلب الإنساني قلبٌ موحّد لا يتّسع لشيئين متضادين، طبعاً هذه هي الحقيقة، فإذا أحببت الله ورسوله يستحيل أن تحب أهل الفسق والفجور، فإذا رئي أنك تحب هؤلاء وهؤلاء معنى ذلك أن محبّتك لبعضهم أمر حقيقي، ومحبتك للآخرين دعوى.

أحياناً يقال لك عن شخص: هو ذكي، إن جلس مع أهل الدنيا أحبّهم وأحبوه، وانسجم معهم انسجاماً كبيراً، وسهر معهم عشرات الساعات، فإذا جلس مع أهل الحق أظهر التواضع والمحبّة والاهتمام، نقول:

لك قلبٌ واحد إذا امتلأ حباً لأهل الدنيا، وأهلها من ذوي أهل القوة والحول والطول، لا يمكن أن يكون فيه مكانٌ لمحبّة أهل الحق، فإذا امتلأ بحب أهل الحق ليس في قلبك مكانٌ لمحبة أهل الدنيا، فإذا رئي أنك تحب الاثنين معاً، فاعتقد اعتقاداً جازماً أنك تحب أحد الطرفين حباً حقيقياً، وأن حبّك للطرف الآخر مجرد دعوى

في العصر الحديث يستعملون عبارة **" شخصيّة مرنة "**، يقول لك باللغة الدارجة: **" معهم معَهم، عليهم عَليهم "**، فهو إذاً ذو وجهين، وإذا أرضى الناس جميعاً فهو منافق، لكن ربنا عزّ وجل يقرّب هذه الحقيقة..

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (4))

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة: من الآية 13)

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

(سورة المائدة: من الآية 51)

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

(سورة التوبة: من الآية 24)

قد يكون للشيء الواحد فروع:

إذاً: هذه قاعدة يجب أن تأخذ بها، لك قلبٌ واحد يتّسع لشيءٍ واحد، وقد يكون للشيء الواحد فروع، فإذا أحببت الله أحببت رسوله، لأن حبّ رسول الله فرع من حب الله عزّ وجل، وإذا أحببت الله أحببت

المؤمنين، ومحبّة المؤمنين فرعٌ من حب الله عزّ وجل، وإذا أحببت الله أحببت الناس جميعاً، وإذا أحببت الله أحببت الخَلق جميعاً، فالحب الذي يتفرّع عنه مجموعة من أنواع الحب هذا يسمى حبٌ واحد، أنا قلت قبل قليل: لا يمكن أن يجتمع في قلبك متناقضان، والشيئان المتناقضان الذي أحدهما ينفي الآخر، كالظلال والنور، فإذا كان هذا المكان مظلم إذاً نفينا عنه النور، وإذا قلنا: إنه منير نفينا عنه الظلام، فالظلام والنور شيئان متناقضان، القلب البشري لا يتسع لشيئين متناقضين في وقتٍ واحد..

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنّ أُمّهَاتِكُمْ(4))

الزوجة ليست أمًّا:

أي أن هذه المرأة إما أنها أم، وإما أنها زوجة، فإن كانت زوجةً فلها حقوق، وعليها واجبات، وإن كانت أماً فلها مكان آخر، ولها محبةٌ من نوع آخر، ولها معاملة أُخرى، أما هذا الذي يُقسم على امرأته أنها كأمِّه، هذا لعبٌ بدين الله عزّ وجل، هذه ليست أمّك إنها زوجتك، ولها عندك حقوق وعليها واجبات، وهذه أمُّك ليست زوجتك.

من أحكام الظِّهار:

فإذا أقسم أحد الناس على زوجته أنها عليه كظهر أمِّه، هذا يحتاج إلى عقابٍ أليم، يحتاج إلى أن يصوم ستين يوماً متتالية، كفارة ليمين الظهار، فمن أين جئنا بهذا ؟ فهذه أم وهذه زوجة، فإذا خلطّت بين الشيئين، وجعلت زوجتك التي هي محبوسةٌ لك، التي حينما عقدت عليها العقد حبستها لك، إذا عاملتها كأم، وابتعدت عنها فقد ظلمتها، هذه ليست أمًّا، إنما هي زوجة.

إذاً:

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنّ أُمّهَاتِكُمْ(4))

والآن:

(وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ (4))

الولد المتبنّى ليس ابناً:

هذا الطفل المتَبَنّى ليس ابنك، لأنه إذا كبر ما الذي يحصل ؟ قد يشتهي ابنتك، وقد يشتهي أمّه، وهو دعيٌّ، وهي ليست أمه، إنما هي امرأةٌ أجنبيّةٌ عنه، فإذا قلت: هذا مثل ابني، وفلانة مثل أختي، وهذه مثل أمي فهذا لعبٌ بدين الله عزّ وجل، الأم أم، والزوجة زوجة، والابن ابن، والدَعِيّ دعي، فحينما

يبتعد الإنسان عن ربّه، وحينما يجهل حقيقةَ دينه يخلق المُسَمّيَات، وتختلط الأوهام بالحقائق، وتقع الفوضى، والله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (4))

بطلان نظرية: في الإمكان التوجه إلى شيئين في آن واحدٍ:

حتّى قديماً في الستينات كان هناك نظريّة تقول: إن الإنسان يتمكّن أن يتوجّه إلى شيئين في آن واحد، ثم ثبت بطلان هذه النظرية هذه النظرية، لكن الذي يتراءى لبعض الناس أنه بإمكانه أن ينتبه إلى أشياء عديدة في وقت واحد، هذا عنده ما يسمى بقدرةٍ فائقة في سرعة التحوّل من شيء إلى شيء، أما في وقت واحد أن تنتبه إلى شيئين فهذا مستحيل، أن تستغرق في شيئين مستحيل، في وقتٍ واحد لا يمكن أن تنصرف إلا إلى شيءٍ واحد، وهذا مصداق قوله تعالى:

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (4))

على كلٍّ الذي يحصل أن هناك أشخاصاً كثيرين يقول لك: هذا بيع، وهو في الحقيقة ربا، فالربا ربا، والبيع بيع، هذا مثلاً يانصيب خيري، اليانصيب حرام، أما الخيري فهذه كلمة أُلصِقَت به إلصاقاً، لا تزول حرمته أن تقول: خيري، يبقى كسبا غير مشروع، وطريقة في التعامل غير صحيحة، هذه مثل أخته ـ زوجةُ صديقه ـ لا، هذه ليست أختك، هذه زوجة صديقك، وهي امرأةٌ أجنبيّة، فلو دخلت بيت صديقك، ولم يكن صديقك، وقبلت أن تدخل فقد وقعت في حرمةٍ كبيرة، فالأمور واضحة جداً في الدين؛ الحرام حرام، والحلال حلال، والواجب واجب، والسُنّة سنة، والفرض فرض، والمكروه مكروه، والمباح مباح.

أما حينما يُلْعَبُ بدين الله عزّ وجل فلابدّ من أن ينزلق المرء منزلقاً وخيماً في الضلال، فلا تنكح هذه المرأة بعد أن طُلِّقَت طلاقاً بائناً (بينونةً كبرى) إلا بعد أن تنكِحَ زوجاً آخر، فإذا افتعلنا زواجاً مؤقّتاً لساعةٍ أو ساعتين، أو لليلةٍ أو ليلتين، وقلنا: ها قد نكحت زوجاً آخر فلتعُدْ إلى زوجها الأول، هذا لعبٌ بدين الله، الزواج الثاني مفتعل، غير صحيح، زواج صوري، زواج شكلي،سمّاه النبي التَيْسَ المُستعار، فالزواج زواج، والزنا زنا، والأخت أخت، والأجنبيّة أجنبيّة، والزوجة زوجة، والأم أم، والابن ابن، والمُدّعى مُدّعى، فمن علامات فقه الرجل أن تكون الأمور واضحةً وضوحاً جلياً في حياتنا، لها حدود، ولها قيود، ولها تعريفات، واصطلاحات، أما هذا التداخل، وهذا الاختلاط، وهذه المُسمّيات التي تُعطى أصناف أخرى فهي ضلالات شيطانية بعيدة عن دين الله تعالى.

تغيير الاسم لا يُغيّر من حقيقة المسمى:

مثلاً: تغيير اسم الباطل باسمٍ آخر هل يعطيه حقيقة الحق ؟ فأنت لك عند فلان مئة ألف دَيناً، جاءك وقال: أتأخذها نقداً على أن تخصم لي ستة بالمئة، قلت لك: هذا لا يجوز، هذا ربا معكوس، فقال لك: يا أخي سجّلها سمحًا، فهل إذا كتبت (سمحًا) انتفت صفة الحُرمَةِ ؟ لا، الاسم لا يغيّر شيئاً، فاكتب على هذه الطاولة إنها كرسي، هل تصبح كرسيا ؟ لا، ستبقى طاولة، اللوحة لا قيمة لها، الاسم لا قيمة له، الإعلان لا قيمة له، لذلك كيف نلعب بدين الله عزّ وجل ؟ حينما نعطي أسماء لغير مسمّياتها، أخي هذا سماح، وهذا بيع، فإذا بعت هذه الحاجة نقداً بثمانين ليرة، وبعتها ديناً بمئة ليرة، واشتريتها منه نقداً بثمانين ليرة، تقول: هذا بيع وشراء، صفقة وصفقة، لا، فالشرع يقول: لا، هذا ربا، فحقيقة ما تفعله أنك تقرضه بالربا، ولو جعلت هذا الربا على شكل صفقة أولى وصفقة ثانية، فالأولى تبيعه ديناً بمئة ليرة، والصفقة الثانية تشتريها منه نقداً بثمانين ليرة، والفرق هو الفائدة، ولئلا نقع في أخطاء كبيرة في دين ربنا عزّ وجل قال:

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنّ أُمّهَاتِكُمْ(4))

الويل لمَن ظلم زوجته !!!

جاءت امرأةٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، هي المرأة التي سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، التقت بسيدنا عمر رضي الله عنه، وكان يركب دابّةً، نزل عن دابته، ووقف متأدِّباً ليستمع إليها، فلمّا سُئل عن هذا الموقف الغريب ؟ قال: **<< كيف لا أستمع إليها وقد استمع إليها ربُّنا من فوق سبع سماوات؟>>.**

هذه المرأة جاءت النبي عليه الصلاة والسلام تقول له: **" يا رسول الله إن فلاناً - أي زوجها - تزوجني وأنا شابّة ذات أهلٍ ومال، فلمّا كبرت سني، ونثرت له بطني، وتفرّق أهلي، وذهب مالي قال: أنتِ عليّ كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ".**

وفي هذا القول إشارة بليغة إلى أن مهمة المرأة تنحصر في تربية أولادها، أعظِمْ بها من مهمّة، إنها مهمّة لو أُدِّيَت على الوجه الحقيقي لرأيت مجتمعاً متكاملاً، لرأيت مجتمعاً كلّه بطولات، لكن تقصير الأمّهات في تربية أولادهن سبّب هذه الأزمات، إن تركتهم إليه ضاعوا، أنا التي أربيهم، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، هو الذي يطعمنا ويسقينا، فعلى الرجل كسب الرزق، وعلى المرأة تربية الأولاد، هذه مهمّة المرأة ومهمّة الرجل.

النبي عليه الصلاة والسلام دمعت عينه حينما سمع شكواها، ولا تنسوا أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا))

(من مسند أحمد عن أنس بن مالك)

إذا كان الإنسان يستضعف زوجته، إذ ليس لها أهل، وليس لها أحد، فيجور عليها، يقسو عليها، يحرمها حاجتها الأساسيَّة، يحرمها ما لها، ويكلِّفها ما لا تطيق، ويقول: لا أحد وراءها يدفع عنها، عندئذٍ فالله سبحانه وتعالى يُلقِّنه درساً لا ينساه، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أظنُّ إلا أنكِ بنتّ منه))

ثمّ نزلت آيات الظهار في سورة (قد سمع)، وبيَّن الله عزّ وجل أن الذي يلعب بهذا العَقد المقدّس، الذي يعدُّ أقدس عقد في الحياة ـ عقد الزوجيَّة ـ يلعب به ليحرم زوجته حقَّها الطبيعي، وقد حُبِسَت من أجله فعليه كفّارة الظهار، وهي: تحرير رقبة، أو صيام ستين يوماً، أو إطعام ستين مسكيناً، ليكون لهذا العقد حرمته وقدسيَّته في الحياة.

بين النبي عليه الصلاة والسلام وزيد بن حارثة:

شيءٌ آخر: هو أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قُدِّم له غلام من قِبَل زوجته خديجة بنت خويلد، هذا الغلام هو سيدنا زيد بن حارثة، وكان من أقرب الناس إلى النبي، عاش في كَنَفِ النبي سنواتٍ طويلة قبل البعثة، والنبي عليه الصلاة والسلام بادله وداً بود، وحباً بحب، إلى أن وصل إليه أهله، هذا الغلام كان قد أُخِذ في غزوةٍ في الجاهليّة، وبيع في سوقٍ، واشتراه خال السيدة خديجة، ثم أعطاه لخديجة، وخديجة رضي الله عنها أعطته بدورها للنبي عليه الصلاة والسلام.

النبي عامله معاملةً تفوق معاملة الأب الرحيم، والأخ الشفيق، فتعلّق سيدنا زيد بالنبي تعلُّقاً كبيراً، وأحبَّه حبّاً جمّاً، فلمّا جاء أبوه وعمُّه بعد أن عثرا عليه في مكّة، ليقدِّما المال لسيدنا محمد، المال الوفير: اطلب ما شئت فداء هذا العبد، قال: **" لا، بل خيّراه، فإذا اختاركما فلست أريد شيئاً، هذا ابنكم ".**

وقف النبي موقفاً رائعاً، أي إن اختاركما فهو لكما، ولا أريد شيئاً.

لكن سيدنا زيداً رأى من خُلق النبي الكريم، ومن عطفه الجزيل، ومن أخلاقه الرضية، ومن إشراقات النبوّة فيه ما جعله يؤثر النبي على أبيه وأمِّه وعمُّه.

فقالا: يا زيد أتؤثر محمّداً على أبيك وأمِّك ؟ فقال: لقد رأيت منه ما أنساني أبي وأمي، عندئذٍ قال النبي عليه الصلاة والسلام: **هذا زيد بن محمّد يرثني وأرثه**، هكذا قال النبي، وكانت هذه الواقعة قبل أن

يبعث عليه الصلاة والسلام، وكان اسمه قبل نزول هذه الآيات زيد بن محمد، عليه الصلاة والسلام، فالذي يعيش مع النبي هل يذكر أحداً من أهله ؟ إنه ينسى كل شيء.

إبطال عادةِ التبنِّي:

والله سبحانه وتعالى أراد أن يُبطل عادة التبني التي فيها اختلاطٌ للأنساب، فأمر زيداً أن يطلِّق زوجته، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوّج زينب زوجة زيد، زوجة متبنّاه، وهنا خشي النبي كلام الناس، فأبطل الله هذه العادة، وعاتبه الله عزّ وجل وقال:

(وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)

(سورة الأحزاب: من الآية 37)

أي أنه فعل شيئاً فوق طاقته إحقاقاً للحق، وإظهاراً إلى أن التبني عادةٌ مرذولة، تجعل في الحياة الاجتماعيّة اختلاطاً وانحرافاً وتدهوراً، وأما ما يرويه بعضهم وهي رواياتٌ ساقطة لا تقف على قدمين: من أن النبي عليه الصلاة والسلام رأى زينب، وهي تمشط شعرها بعد أن اغتسلت، فوقعت في قلبه، فتمنّى الزواج منها، فجاء الله عزّ وجل كما يقولون، وأمر زيداً بتطليقها، وأمر النبي بالزواج منها، هذه رواياتٌ مكذوبةٌ ساقطةٌ لا تليق بالنبي عليه الصلاة والسلام، وليس لها أساس من الصحّة، إنها من الدَسّ على الإسلام، فالنبي فوق هذا، بل بالعكس فلو أراد الزواج من زينب لتزوجّها قبل أن يخطبها زيد، لكن النبي بهذا الأمر الإلهي أبطل عادة التبني، لذلك:

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ(4))

هذا دَعِي وليس ابناً لك، وهذه زوجة، وليست أماً لك..

(ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ (4))

أي أنتم إذا قلتم: هذا ابني، فهل صار ابنك ؟ لا، هو أجنبي، يشتهي ابنتك، يشتهي زوجتك، وإن قلت: هذه مثل أختي، فهل أصبحت أختك ؟ لا، هذا قول بالفم لا يقدِّم، ولا يؤخِّر، ولا يغيّر من حقيقة الأشياء في قليل أو كثير، هناك حقائق لا تُغَيَّر بالكلمات، فإذا أمسكت حديداً، وقلت: هذا ذهب، فهل صار ذهباً ؟ بقي حديداً، وإذا أمسكت الذهب، وقلت: هذا حديد، فهل صار حديداً ؟

كنت أضرب هذا المثل في كثير من المناسبات: لو كان معك كيلو معدن، وهو في الحقيقة ذهب خالص، واتهمك الناس جميعاً أن هذا المعدن هو حديد لا قيمة له، اتهامهم جميعاً لك هل يغيّر من قيمة هذا المعدن ؟ لا، بل يبقى الذهبُ ذهباً، ولو كان معك معدن خسيس، واستطعت أن تقنع الناس جميعاً أنه ذهب، فاقتنعوا وصدّقوا، هل يصبح هذا المعدن الخسيس ذهباً ؟ لا، بل يبقى معدناً خسيساً، وليس له

ثمن.

فأردت من هذه الأمثلة أن أبيّن لكم أن الأسماء لا تغير من حقائق الأشياء، تسمي النفاق لباقة فيظل كما هو نفاقا، تسمي الانحراف (سبور) يظل انحرافاً، الآن هناك كلمات متداولة، إذا لم يكن في المرأة دين يقولون لك: (هذه سبور)، هذه فتاة (سبور)، هذه الكلمة هل تغيّر من أنها فاسقة، فاجرة، منحرفة ؟لا تغيرها، فالفسق فسق، والفجور فجور، والزنا زنا، والاختلاط اختلاط.

فالذي أريده منكم أن نقف عنده قليلاً هو: أنك إذا سميت الرذيلة فضيلة تبقى رذيلة، وإذا سميت الاختلاط انفتاحاً، عقليّة مرنة، يبقى الاختلاط اختلاطا، ويقع تداخل أنساب، وتطلّع إلى نساء الآخرين، وعدوان على الأعراض، هذه حقيقته، تسميه اختلاطاً، والإنسان عندها عقله مفتوح، وعنده مرونة وذكي، هذه كلها كلمات فارغة، تسمي المنافق لبقاً هو منافق مهما خلعت عليه من صفات، تسمي الكافر متحرّراً، وهو كافر وليس متحرّراً، هذه الأسماء الحديثة: الفسق تحرُّر، والنفاق لباقة، والاختلاط انفتاح، وهذه مرونة، هذه كلها كلمات فارغة، الفسق فسق، والفجور فجور، والانحراف انحراف، يقول لك: هذه صداقات بريئة، أي صداقة هذه ؟ هل هناك صداقةٌ بريئةٌ بين رجل وامرأة أجنبيّة عنه، كيف تقول: هذه صداقة ؟ ما من رجلٍ خلا بامرأةٍ إلا اشتهاها، وهناك أخطاء يقع فيها الجُهّال تعود عليهم وبالاً كبيراً في حياتهم الدنيا.

أردت من هذا الكلام أن نتوسّع لمعالجة الموضوع، وإيّاك أن تسمي المعصية اسماً آخر، إنها معصية، الربا ربا، والبيع بيع، هناك من يُخَلِّط..

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

(سورة البقرة: من الآية 275)

ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُم

دائماً المجتمعات المنحرفة والفاسقة التي لها خلفيّة دينيّة، يتّجه أصحابها إلى إضفاء أسماء برّاقة لطيفة على معاصٍ كبيرة، وهذه الأسماء لا تغيّر، ولا تبدّل، تبقى المعصية معصية، والاسم لا قيمة له، تماماً كما لو جئت بلاصقة على كيلو حديد، وكتبت: **" ذهب خالص "**، هل تستطيع أن تبيع هذا الكيلو بثلاثمئة ألف ؟ كيلو حديد، واكتب عليه بلاصقة فخمة جداً: ذهب خالص عيار أربعة وعشرين، وانزل على سوق الصاغة، هل تستطيع أن تبيعه بثلاثمئة ألف ؟ إنه يساوى ثلاثا وعشرين ليرة، هذا ثمنه، وإذا جئت بكيلو ذهب خالص، وكتبت عليه: **" حديد "**، فهل قلّت قيمته ؟ لا، فقيمته هيَ هي، هذا معنى قوله تعالى:

(ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ (4))

هذا كلامكم، هذه دعواكم، هذا باطلكم، هذه الأسماء أنتم سمَّيتموها، هذه أختي، ابنة أختي، يتوفَّى رجل فيخلِّف أرملة، يزورها الصديق ويقول: مثل أختي والله، لا ليست مثل أختك، هذا كذب ولعبٌ بدين الله، هذا يا أخي مثل البيع، وهو رباً، لا ليس مثل البيع، بل هو ربا، وليس بيعاً، وهذه امرأةٌ أجنبيَّةٌ مشتهاة، وليست أختك، وهذه زوجتك، وليست أمّك، وهذا دعيُّك، وليس ابنك، وهذا حلالٌ، وليس حراماً، وهذا حرام، وليس حلالاً، هكذا، فدائماً إذاً هناك تقصير، وهناك فسق وفجور، الأمور تختلف، نضع لاصقة هذه على هذه، وهذه على هذه، صار هناك اختلاط بالأوراق، لكن الله سبحانه وتعالى يقول الحق:

(ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللّهُ يَقُولُ الْحَقّ وَهُوَ يَهْدِي السّبِيلَ (4))

على الله بيانُ سبيل الحق:

أي أن السبيل إليه، فإذا أطعته وصلت إليه، إذا وقفت عند حدوده وصلت إليه، إذا أقمت أمره وصلت إليه، إذا اجتنبت نهيه وصلت إليه، فإذا غيَّرت وبدَّلت، سميت المعصية تحرُّرا، والنفاق لباقة، والتفلُّت تحديثا، يقول لك: تحديث، الدين لا يُحدَّث، الدين من عند الله عزّ وجل، ليس الدين تُراثاً حتَّى يُحْدَّث، ليس الدين قديماً يُحْدَّث، الدين دين، أي أن الحق حق مهما مرّ الزمن، ومهما تقلَّبت السنون والأحقاب، لا يتبدّل ولا يتغيّر.

آيةٌ دقيقةٌ جداً أرجو أن نستوعبها جميعاً:

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنّ أُمّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللّهُ يَقُولُ الْحَقّ وَهُوَ يَهْدِي السّبِيلَ(4))

أنت كُن مع الحق، كن مع المسمَّى الصحيح مع الاسم الصحيح، لا تبدِّل ولا تغيّر، أمرك بغض البصر ـ انتهى ـ فتقول: أخي هناك نظر بلا شهوة، هذا ما فيه سوء نية، هذا كلام فارغ من أين جئت به ؟ من قال لك ذلك ؟ كيف نظر بلا شهوة ؟ ما ورد نظر بلا شهوة، قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنِّي لا أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

[من سنن الترمذي عن أميمة بنت رقيقة]

هكذا قال النبي، ليس عندنا حالات أخرى.

احفظ حدود الله يحفظك:

قلت في درسٍ ماضٍ: احفظ الله يحفظك، إذا حفظت أمر الله عزّ وجل بأن نفّذته، وحفظت نهيه بأن اجتنبته، وحفظت حدوده بأن وقفت عندها، الآن حَفِظَ الله لك دُنياك ودينك، حفظ دنياك بمعنى أنه يحفظ لك بدنك، وأهلك، وأولادك، ومالك، وحفظ دينك من الشبهات المُضلّة، والشهوات المهلكة، لا شبهات مضلّة ولا شهوات مهلكة، إذا حفظت دينك، لذلك كلمة الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ حينما سُئل: من وليُّ الله ؟ فقال: **" لعلّكم تظنونه هو الذي يطير في الهواء، لا، ولا الذي يمشي على وجه الماء، الولي كل الولي هو الذي تجده عند الحلال والحرام ".**

لذلك:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

أي أن كل الظواهر الزائغة فارغة، فلو تكلّمت كلاماً طيّباً، لو كان لك تطلّعات، ولو دمعت عينُك..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

أي أن مكانتك عند الله عزّ وجل تحدِّدها طاعتك له، هذا هو المقياس الدقيق.

أحبابٌ اختاروا المحبّة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحبِّ شرعاً

***

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ(5))

حُكمُ التبني وتفصيلاته:

ثمة إخوةٌ كثيرون أحياناً يسألونني عن تبني طفلة صغيرة، هل هذا ممكن ؟ نعم ممكن، لكن يجب أن تحذر أن هذه الطفلة إذا بلغت سنّ الاشتهاء يجب أن تفرزها عن أولادك، وتُهيّئ لها مكاناً آخر، بطريقة أخرى، ما دام أنها بلغت السن الخطر فهذه ليست ابنتك، وهذا ابنك ليس أخاً لها، إنما هو أجنبيٌّ عنها، فهذا الذي يُقال: نحن لا نسيّب، ومع العمل الإنساني، ولكن لسنا مع اختلاط الأنساب، ولسنا مع اللعب بدين الله عزّ وجل..

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(5))

ليس في الخطإ إثم، ولكن على ما عزم القلب وتعمد:

المشكلة أن على الإنسان ألا يعقد العزم على معصية الله عزّ وجل، ما دام الخطأ مغفورا، ويمكن له أن يتراجع عن خطئه..

((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[من مسند ابن ماجة عن أنس]

و..

((إنّ اللّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أمّتِي الْخَطأ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))

[من سنن ابن ماجة عن أبي ذر الفقاري]

أما المشكلة فأن ينبعث في القلب باعثٌ إلى المعصية، كأن يريد الإنسان أن يعصي الله عزّ وجل، أن يعرف الحق ويخالفه، أن يعرف الباطل ويمشي فيه، هنا المشكلة، فإذا ارتكب الإنسان ذنباً عن جهل فتوبته تكون سريعة جداً، يشعر أن الله بكلمةٍ واحدة، بإنابةٍ سريعة، يقبله، ويعفو عنه، ما دام قلبه لم يتعمّد المعصية، أما إذا صمّم أن يعصي، وقصد أن يعصي، عندئذٍ يكون الحجاب بينه وبين ربه سميكاً، وليس من السهل تخَطِّي هذا الحجاب، إذاً:

(وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(5))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (03-18): تفسير الآيات 6 - 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-10-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثالث من سورة الأحزاب، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنّ أُمّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللّهُ يَقُولُ الْحَقّ وَهُوَ يَهْدِي السّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(5))

(سورة الأحزاب)

قصة سالم مولى حذيفة:

أيها الأخوة الأكارم، دين الإسلام كما يقال: دين الفطرة، فقد ورد في السيرة المُطَهّرة أن سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة رضي الله عنها، قالت: **" يا رسول الله إن كنا ندعو سالماً ابناً ـ سالم مولى أبي حذيفة ـ إن كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل علي، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً ـ هو ليس ابناً لكنه متبنى ـ فإذا دخل علي نظرت في وجه أبي حذيفة فأرى في نفسه شيئاً من دخوله عليّ.**

الإسلام دين الفطرة:

هذا الشاهد يؤكِّد أن الدين الحنيف هو دين الفطرة، فالتطابق تامٌ وشاملٌ بين أحكام الدين وطبيعة النفس البشرية، لذلك يمكن أن نوَجِّهَ الأنظار إلى قوله تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللّهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: من الآية 30)

أي أن أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه تتطابق مع النفس السليمة الطيبة النقية تطابقاً تاماً، فالشيء الذي يُنْكِرُهُ قلبك إذا كنت صافي الفطرة، سليم السريرة، نقياً من كل زَيْغ، الشيء الذي ينكره قلبك تراه في الدين محرماً، والشيء الذي ترتاح إليه تراه في الدين حلالاً، وحينما سُئِلَ عليه الصلاة والسلام عن البر قال عليه الصلاة والسلام:

((الْبِرُّ مَا اطْمَأَنّتْ إِلَيْهِ النّفْسُ))

[مسند أحمد عَنْ وَابِصَةَ الأَسَدِيِّ]

العقل السليم مقياس:

الله عزّ وجل أعطاك مقياس العقل، وأعطاك مع مقياس العقل، ومقياس الفطرة، مقياس العقل من أجل أن تعرف الله عزّ وجل، لأن مبادئ العقل متوافقةٌ مع مبادئ الكون، فإذا أعملته في الكون هداك إلى الله، العقل أداة معرفة الله، والعقل مناط التكليف، والفطرة مقياسٌ نفسي، ما من إنسان يسأل عالماً عن قضيةٍ أقلقته، مجرد سؤاله عن هذه القضية معنى ذلك أن نفسه لم ترتح إليها، لماذا سأل ؟ ما سأل إلا حينما شعر باضطراب، ما سأل إلا حينما شعر بالقلق، ما سأل إلا حينما أنكرت نفسه هذا التصرُّف، إذاً حينما قال عليه الصلاة والسلام لِوَابِصَة:

((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ وَقَالَ: اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ، ثَلاثًا، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

[سنن الدارمي عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الأَسَدِيِّ]

هذا حديثٌ صحيح، لكن لئلا نستخدم هذا المقياس بتوسُّع، العلماء حينما شرحوا هذا الحديث وقالوا: الإنسان سليم الفطرة، نقي القلب، نقي اليدين، هذا يمكن أن يكون قلبه من دون زيغ، أو خللٍ، أو اضطراب مقياساً يتوافق مع الشرع.

الشرع مقياس على كل شيء:

ولكن دائماً وأبداً المقياس الإلهي هو شرعه الحنيف، اعرض ميزان عقلك على أحكام الشرع، فإن توافقا فاحمد الله عزّ وجل على أن كان ميزان عقلك سليماً، اعرض ميزان فطرتك على أحكام الشرع، فإن توافقتا فاحمد الله عزّ وجل على أن ميزان فطرتك سليم، فالعقل ميزان والفطرة ميزان، ولكن العقل قد يضل، والفطرة قد تشوّه.

لا يصح أن يكون العقل ميزاناً، والفطرة ميزاناً إلا إذا تبرّأ العقل من الحظوظ والمنافع، لأن أهل الدنيا يستخدمون عقولهم لتبرير شهواتهم، يستخدمون عقولهم يفلسفون انحرافاتهم، يفلسفون طغيانهم، يفلسفون أكلهم لأموال الناس بالباطل، يفسلفون اعتداءهم على أعراض الناس، فعقل الشهواني في خدمة شهوته، لكن عقل الحر شهوته منضبطة بمقاييس عقله، فلئلا يضل العقل، لئلا يزل العقل، لئلا ينحرف العقل، كان الشرع ميزاناً على الميزان العقلي، فالعقل ميزان ؛ لكن هذا الميزان قد يعتريه خطأ، وقد يفقد حساسيته بفعل المصالح والشهوات، والضغوط، والأهواء، يأتي ميزان الشريعة ليضبط ميزان العقل.

القضية تماماً كما لو أعطينا طالباً في الصف الثانوي مسألة في الرياضيات، وقلنا له: حُلَّ هذه المسألة وَفْقَ عقلك، وهذا هو الجواب، فإذا انتهى حلك بهذا الجواب فاعلم أن حلك صحيح، وإن لم ينته حلك بهذا الجواب فاعلم أن حلك باطل، فمهما فكرت، إذا هداك تفكيرك إلى ما يوافق كلام الله عزّ وجل فهذا التفكير سليم، وجيّد، وسديد، وهنيئاً لك عليه، أما إذا فكر..

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18))

(سورة المدثر)

فكر، وتأمل، اطلع، درس.

(فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20)ثُمَّ نَظَرَ(21)ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(22)ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(23)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(24)إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ(25)سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(26)وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(27)لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ(28))

(سورة المدثر)

لذلك: مقياس فلاحك عند الله، مقياس رُقِيِّكَ عند الله شيءٌ واحد هو: اتباعك لأمر الله، واجتنابك لنهيه، ووقوفك عند حدوده، والدليل:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

مقياس الرِفْعَة عند الله هو مدى التزامك بما أمر الله عزّ وجل، فما دام عقلك يهديك إلى طاعة الله فأنعم بهذا العقل، فإذا انحرف بك إلى معصيته، إذاً: هذا العقل ليس سليماً، عقل مريض، وفي أعلى التفسيرات نقول: هو عقلٌ مسخرٌ للشهوة، أحياناً تجد إنساناً مصراً على الشهوات، إذا حدثته أعطاك أجوبةً مُضحكة، يسخّر ذكاءه لتبرير شهواته، هذا المنطق سمّاه المناطقة المنطق التبريري، منطقٌ ساقط لا قيمة له إطلاقاً، فهذه الفطرة السليمة.

عودٌ إلى مسألة التبني:

هذه سهلة بنت سُهَيْل امرأة أبي حذيفة رضي الله عنها، قالت:

يا رسول الله، **إن كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل علي، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك.**

أشعر أنه ينزعج، لأن هذا ليس ابناً، هذا أجنبي، فالاختلاط التي تسببه الصداقات أحياناً، والجوار، والزمالة في العمل، والسهرات المختلطة هذه كلها فيها تجاوز لحدود الله، وينتج عنها أخطارٌ وبيلة،

كثيراً ما ذهب أناسٌ في نزهةٍ مختلطة، وعادوا منها بجحيمٍ عائلي، بل إن بعضهم فَكَّرَ في تطليق زوجته إثرَ هذه النزهة المختلطة.

حينما آثر زيدٌ ـ سيدنا زيد بن حارثة ـ حينما آثر النبي عليه الصلاة والسلام على أبيه وأمه، قال النبي عليه الصلاة والسلام: **هذا زيد بن محمد، أرثه ويرثني**، فلما نزل قوله تعالى:

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ (5))

عاد يسميه باسمه الحقيقي، ونسبه إلى أبيه زيد بن حارثة.

لا إثم على الخطأ:

شيءٌ آخر، قال الله عزّ وجل:

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ(5))

قال عليه الصلاة والسلام:

((إنّ اللّهَ وَضَعَ عَنْ أُمّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))

[سنن ابن ماجه عَنْ أبي ذَرّ الغِفَاريّ]

والدين أساسه أحكام واضحة، لكن حينما يعقد القلب على أن يخالف الله عزّ وجل، على أن يعصيه، هنا الإثم، أما الإنسان فقد يخطئ، قد يسبقه لسانه، قد يتوهّم شيئاً، ما دامت نيته سليمة وسريرته طاهرة فلا إثم عليه، لأن الله سبحانه وتعالى رفع عن أمة النبي عليه الصلاة والسلام الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، وليست عنكم ببعيدٍ قصة الأعرابي الذي ضل الطريق وفقد راحلته، فلما أيقن بالهلاك، وعادت إليه راحلته، فقال من شدة الفرح:

((اللهم أنا ربك، وأنت عبدي))

[مسلم عن أنس بن مالك]

قالها من شدة الفرح، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته))

[متفق عليه]

حُكم خطاب الرجل ابن غيره بلفظ البنوّة:

لكن أحياناً المدرس في المدرسة يخاطب طالبه ويقول له: يا بني، هذا الخطاب ليس حكماً شرعياً، ليس هناك حرجٌ من أن تخاطب طالبا لك، من أن تخاطب ابن أخيك، من أن تخاطب ابن زميلك، ابن جارك،

تقول له: يا بني لا تفعل كذا، هذا خطاب تَحَبُّب، وليس حكماً شرعياً ينتج عنه اختلاط أنسابٍ، واختلاطٌ في العلاقات، لأن النبي عليه الصلاة والسلام خاطب بعض أبناء أصحابه وقال:

((أُبَيْنَى لا تَرْمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ))

[مسند أحمد عَن ابْن عَبَّاس]

رأى شاباً يرمي الجمرة قبل طلوع الشمس، فقال:

((يا بني لا ترمِ الجمرة قبل أن تطلع الشمس))

فأجاز العلماء أن تخاطب صغيراً أو شاباً، بأن تقول له: يا بني، وليس هذا من التَبَنِّي في شيء.

الآن يقول الله عزّ وجل:

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(6))

من معاني قوله: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ:

1 ـ النبي أرحم الخَلق بالخلق:

العلماء أجمعوا على أن النبي عليه الصلاة والسلام أرحم بالخلق من أنفسهم، وأحرص على مصالحهم من أنفسهم، وأقرب إليهم من أنفسهم.

أحياناً يكون للإنسان إيمان، لكن إيمانه لم يَكْمُل، له مع إيمانه مصالحه، أما النبي عليه الصلاة والسلام فكله رحمةٌ، وكله عطفٌ، وكله شفقةٌ على المؤمنين، فأمره لا يمكن أن يفسر تفسيراً في غير صالح المؤمنين.

2 ـ ليس في أوامر النبي مصلحة شخصية:

فلو قلت لإنسان: فلان اتبع كلامه كلمةً كلمة، قد يكون له مصلحة، قد يأمرك بأمرٍ ليس في صالحك، ولكن في صالحه، فالذي يأمرك بأمرٍ ليس في صالحك، هذا لا يتبع، هذا له مصلحة، له حظوظ، يريد شيئاً من حظوظ الدنيا المادية والمعنوية، فإذا أمرك بأمرٍ فهذا الأمر مشوب بمصلحته الفردية، مشوب بحظوظه النفسية، لكن النبي عليه الصلاة والسلام بَرَّأَهُ الله عزّ وجل من كل حظٍ نفسي، ومن كل مأربٍ شخصي، فإذا أمر المؤمنين فإنما يأمرهم لصالحهم المَحْض، من هنا أمرنا الله عزّ وجل أن نتبع ما أمر به النبي، وأن ننتهي عما عنه نهى وزجر.

فأنت دائماً تطيع من يحبك، تطيع من يحرص عليك، تطيع من لا تأخذه في الله لومة لائم، تطيع من إذا أمر تخلّى عن ذاته، وتخلى عن حظوظه، وتخلى على شهواته، وتخلى عن مصالحه، مثل هذا الإنسان أمره مُطاع، فهل في البشر كلهم رجلٌ تنزّهَت نفسه عن الأغراض الدنيوية، وعن الحظوظ القريبة، وعن المصالح المادية كرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((والله ما آمن والله ما آمن والله ما آمن))

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين))

[مسلم عن أنس]

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به))

[البغوي في شرح السنة عن عبد الله بن عمرو]

الحقيقة أن الإسلام له مظاهر مادية كلكم يعرفها، الصلاة، والصوم والحج، والزكاة، لكن هذه المشاعر النفسية التي غفل عنها المسلمون اليوم هي أساسٌ في الإيمان، فهل تؤثر النبي عليه الصلاة والسلام على كل مصالحك ؟ سيدنا عمر كلكم يعلم ذلك، قال:

((والله يا رسول أصبحت أحبك أكثر من أهلي، وولدي، والناس، أجمعين، إلا نفسي التي بين جنبي، قال: يا عمر، لمّا يكمل إيمانك، إلى أن جاءه مرةً ثانية فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من أهلي وولدي ومالي، والناس أجمعين، حتى نفسي التي بين جنبي، قال: الآن يا عمر))

[البخاري عن عبد الله بن هشام]

((لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين))

وفي رواية:

((ومن نفسه))

قال عمر:

((يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي، فقال: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال: الآن يا عمر))

[البخاري عن عبد الله بن هشام]

3 ـ ليس في دعوة النبي حظوظ ولا نصيب لذاته:

إذا أردت أن ترى شخصاً شَفّافاً، ليس لذاته نصيبٌ في أقواله وأفعاله، وليس لحظوظه مكانٌ في دعوته، فهو النبي عليه الصلاة والسلام، لا يمكن أن يأمرك بأمرٍ ليس في صالحك، أو أن ينهاك عن شيءٍ هو في صالحك، لا يمكن وإلا لما كان في هذا المقام الرفيع، وإلا لما كان رسول الله صلى الله

عليه وسلم، إذا كان لك حظوظ، ومصالح، ومآرب، ونفس تحب الاستعلاء، لن تكون في الحياة كلها باباً لله عزّ وجل، لن يسمح الله لك أن تكون باباً له، لن يسمح الله لك أن تكون هادياً إليه إلا أن تتخلى عن حظوظك، وعن مصالحك، وعن نزواتك، وعن رغباتك، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (6))

معنى ولاية النبي للمؤمنين:

بعض التفاسير قالت: أي في كل شيءٍ من أمور الدين والدنيا، فقد يقول بعضهم:

في أمور الدين أمر صحيح، أما في أمور الدنيا فلماذا لا نفعل كذا وكذا، لمَ حظر النبي علينا ذلك ؟

بهذه الطريقة نصبح فقراء، بالعكس في طاعة الله عزّ وجل وطاعة النبي تكون غنياً.

من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى.

فقال بعض العلماء: **" النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أي في كل شيء من أمور الدين والدنيا، فيجب عليهم أن يكون النبي أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمنا، وحقه آثر لديهم من حقوقنا، وشفقته عليهم أجدى لهم من شفقتهم على أنفسهم، وأن يبذلوا أنفسهم دونه، ويجعلوها فداءه ووقاءً له إذا لقحت الحرب، وألا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ما تصرفهم عنه، وبل يتبعون كل ما دعاهم إليه النبي عليه الصلاة والسلام، فإن كل ما دعا إليه هو إرشادٌ لهم إلى نيل النجاة، والظفر بسعادة الدارين في الدنيا والآخرة ".**

فلذلك كل هذه الصفات أهّلت النبي عليه الصلاة والسلام ليكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

والحقيقة أن الإنسان كلما اقترب من الله عزّ وجل تخلّق بأخلاقه، وكلما اقترب من الله عزّ وجل اصطبغ بصبغة الله عزّ وجل، ماذا يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي ؟ يقول:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[صحيح مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

الله عزّ وجل يدعونا إليه، لأن دعوتنا إليه لا تزيد في مُلكِهِ، فإذا آمنا لا يزداد ملكه، وإذا كفرنا لا ينقص ملكه، دعوةٌ خالصةٌ لسعادتنا.

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا(77))

(سورة الفرقان)

لولا أنه خلقكم كي تعرفوه، لولا أنه خلقكم كي يسعدكم، ما يعبأ بكم آمنتم أو كفرتم.

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (6))

تحريم الزواج بنساء النبي بعد موته:

الآن دخلنا في حكم شرعي، تكريماً للنبي عليه الصلاة والسلام وتقديساً له، حرم ربنا عزّ وجل على المؤمنين من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجوا نساءه، من جهةٍ تكريماً للنبي عليه الصلاة والسلام، ومن جهةٍ ثانية أن هذه المرأة التي كانت مع النبي عليه الصلاة والسلام رأت من كماله، ومن حلمه، ومن شفقته، ومن عطفه، ومن تواضعه، ومن علمه، ومن أنواره القُدسية الشيء الذي لا يوصف، فكيف تعيش هذه المرأة مع إنسان آخر ؟ مع رجلٍ دون النبي بآلاف الدرجات، فهذه المرأة التي عاشت مع النبي لا تستطيع أن تعيش مع إنسان آخر، فمن جهةٍ هذا التحريم هو تكريمٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، فقد رفع مرتبة نساء النبي إلى مرتبة أُمَّهَاتِ المؤمنين.

إنّ الإنسان أحياناً إذا كان يُقَدِّسُ امرأةً فهو ينعتها بأنها كأمه، أحياناً يكون مثلاً شاب عند رجل راقٍ، أخلاقه عالية، دَيِّن، يشعر أن امرأة هذا الرجل كأمه، يرفعها إلى مرتبة الأم، والحقيقة أن في الحياة بنتًا، وأختًا، وزوجة، وأمًّا، أعلى مرتبة على مستوى النساء مرتبة الأم، فلبها كبير، وعطفها كثير، وشفقتها لا نهاية لها، هذه أبرز صفات الأم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (6))

وجوب الاستسلام التام لأحكام النبي عليه الصلاة والسلام:

وربنا عزّ وجل حينما قال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب من الآية 36)

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(65))

(سورة النساء)

بلغ حب أصحاب رسول الله، وبلغت ثقتهم بالنبي، وبلغ استسلامهم لأحكامه، وبلغت طاعتهم له درجةً أنه لو حَكَّموهُ في خلافٍ وفي شجارٍ بينهم، فالذي حكم عليه موقفه من النبي كالذي حكم له، الآن هذا لا يصح، لو أن القاضي نزيهٌ جداً، لو أصدر حكماً يُجَرِّمُ فلاناً، ويُبَرِّئ فلاناً، فالذي وقع الحكم عليه يتبَرَّم، ويقول: هذا قاض إما جاهل، وإما ظالم، وإما مُنحاز، وإما قبض من خصمي مبلغاً كبيراً، فيكيل له التهم جُزافاً، لكن حالة المؤمنين الصادقين مع رسول الله عليه وسلم الاستسلام التام، لماذا: لأنه معصوم.

يا رسول الله، إنك بشر تغضب وترضى، فإذا غضبت أنكتب عنك ؟ إذا كنت في حالة غضب شديد أنكتب عنك الأحاديث ؟

كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ وَقَالَ:

((اكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلا حَقٌّ))

[سنن الدارمي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

ذات مرةٍ أعرابيٌ قال له: اعدل يا محمد، فقال عليه الصلاة والسلام وكان حليماً: **ويحك يا أخا العرب من يعدل إن لم أعدل ؟**

بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْدِلْ، قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَيْلَكَ ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتُ، وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ))

[صحيح مسلم عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

قصة وعبرة:

والقصة التي تعرفونها جميعاً حينما جاءه سعد بن عبادة وقال: يا رسول الله، إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم ـ أي أنهم متأثرون منك ـ من أجل هذا الفيء الذي قسمته بين أحياء العرب، ولم تجعل للأنصار منه نصيباً، النبي عليه الصلاة والسلام حكيم، فقال عليه الصلاة والسلام: **يا سعد، أين أنت من قومك ؟** قال سعد بن عبادة: **ما أنا إلا من قومي**، أي أنا أيضاً في نفسي شيء، بعض كتاب السيرة قالوا: إن الأنصار حينما وجدوا على النبي في أنفسهم لا حباً بالمال والغنائم، ولكن عطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد ذاته شرفٌ عظيم، لقد فاتهم هذا الشرف فتألموا، فتهامسوا فيما بينهم، هذا التهامس أصبح شعوراً عاماً، أدركه زعيمهم سعد بن عبادة، فجاء النبي فقال له: **يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم**، هذه القصة فيها من كمال النبي، ومن تواضعه، ومن رحمته، ومن وفائه، ومن حكمته ما لا يوصف.

مرة ذكرت في خطبةٍ هذه القصة وقلت: أعان الله كُتّابَ السيرة، فهذه القصة أين يضعونها ؟ إن وضعوها مع حلمه فالأولى أن تكون مع رحمته، أو مع عفوه، أو مع وفائه، أو مع حكمته وحسن سياسته، قال:

اجمع لي قومك، جمع قومه، فقال عليه الصلاة والسلام:

يا معشر الأنصار، مقالةٌ بلغتني عنكم ـ شيءٌ تحدثتم فيما بينكم ـ واجدةٌ وجدتموها علي في أنفسكم، يا معشر الأنصار...

النبي عليه الصلاة والسلام حينما نشأت هذه المشكلة بعد فتح مكة، وبعد معركة هوازن، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام في أعلى درجات قوته، دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، أي أن كلمته مسموعة، وسمع أن هناك من ينتقده، أو من يتحدث على أن هذا الفيء وزّع بشكل أو بآخر، ولم نأخذ حقنا من هذا الفيء، لو أن إنساناً قوياً سمع بهذه المقالة لألغى حياتهم بكلمةٍ واحدة، النبي عليه الصلاة والسلام بماذا بدأ ؟ بدأ بأن ذكّرَهُم بفضلهم عليه، قال: **يا معشر الأنصار، أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصدِّقتم به**، أتيتنا مكذباً فصدقناك ـ ذكرهم بفضلهم، ذكرهم بما يجيش في نفوسهم ـ أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ـ أنتم صادقون في هذا الكلام، وإذا تحدثتم بهذا الكلام أنتم مصدقون ـ أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصدِّقتم به، أتيتنا مكذباً فصدقناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك، **يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي** ـ لم يقل لهم: فهديتكم، تواضع ـ ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي، لو قال: فهديتكم كلام هذا فيه ادعاء ـ قال: **يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فأهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ ـ هذه ألا توفي معكم ؟ ـ اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار**، قال: فبكوا حتى أخضلوا لحاهم ـ نزل الدمع إلى لحاهم ـ وقالوا: **رضينا برسول الله قسماً وحظاً.**

ونصُّ الحديث كما في المسند:

((لَمّا أعْطى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا أعْطى مِنْ تِلْكَ الْعَطايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذا الْحَيُّ مِنَ الأنْصَارِ فِي أنْفُسِهِمْ، حَتّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، حَتّى قالَ قائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إنّ هَذا الْحَيّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذا الْفَيْءِ الّذِي أصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأعْطَيْتَ عَطايَا عِظامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذا الْحَيّ مِنَ الأنْصَارِ شَيْءٌ، قالَ: فَأيْنَ أنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، مَا أنَا إلا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أنَا ؟ قالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ

الْحَظِيرَةِ، قالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قالَ: فَجَاءَ رجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ دَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدّهُمْ، فَلَمّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ، قالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَحَمِدَ اللّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمّ قالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، مَا قالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ؟ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلالا فَهَدَاكُمُ اللّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلّفَ اللّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، قالُوا: بَلِ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قالَ: أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ؟ قالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللّهِ، وَلِلّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قال: أَمَا وَاللّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذّبًا فَصَدّقْنَاكَ، وَمَخْذُولا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدّنْيَا تَأَلّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ، أَفَلا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللّهُمّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، قالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَتَفَرّقْنَا))

[مسند أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ]

هذه القصة خلاصتها تواضع، وعفو، ووفاء، ما نسي الذين نصروه في ساعة العسرة، وهو الآن في أعلى درجات القوة، إنسان بهذا الكمال لا يمكن أن يصدر منه أمر أو نهي لمصلحته أبداً، بل لصالح المؤمنين، لهذا قال الله عزّ وجل:

(النّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (6))

فأنت إذا كنت في الدنيا قد وثقت أن الأب لا يمكن أن يتخلى عنك، وكل تفكيره لمصلحتك، تتقبل أمره ونهيه بطيب نفس، والحقيقة أن الإنسان لا يستسلم لإنسان، ولن تجد إنساناً يُسَلِّم قياده لإنسان بلا سبب، بلا دراسة، بلا امتحان ؟ مستحيل، نعم لن تجد إنساناً يقدِّم لإنسان كل شيء إلا أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام، فلذلك:

(النّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمّهَاتُهُمْ (6))

لكن لا يصح أن يقال: النبي أبو المؤمنين.

معنى: وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ

المعنى الأول:

هنا نقطة، إذا كانت أزواجه أمهات المؤمنين، لأن النبي عليه الصلاة والسلام حُرْمَةً له وتكريماً، وتقديساً وتعظيماً من قِبل الله عزّ وجل، جعل نساءه من بعده بمنزلة أمهات المؤمنين، فلا يجوز لمؤمنٍ بعد النبي عليه الصلاة والسلام أن ينكح أزواجه من بعده، هم بمرتبة الأمهات.

المعنى الثاني:

أن هذه المرأة التي عاشت مع النبي، ورأت من كماله الشيء الكثير، مع من تعيش ؟ إنها تعيش مع سيد الخلق.

السيدة عائشة جاءها طبق طعام من ضرتها صفية، أصابتها الغيرة، فأمسكت بالطبق وكسرته، هذه الأيام يقول الزوج الظلوم لزوجته: والله أكسر رأسك إذا كسرته، أحياناً كلمات يقولها الأزواج قاسية جداً في منتهى القسوة،أ ما النبي فما زاد على أن لمّ أشتات الطبق وقال:

((غضبت أمكم، غضبت أمكم))

[أحمد]

كان حليماً عليه الصلاة والسلام، حلمه، ورأفته، ورحمته، وتواضعه، وصبره، وإيناسه لزوجاته كان شيئاً لا يوصف، أيعقل أن تعيش هذه المرأة التي رأت من كمال النبي ما رأت أيعقل، ثم تعيش مع رجل آخر ؟ هذا مستحيل.

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (6))

لكن إذا قلنا: النبي أبو المؤمنين أصبحت بنات المؤمنين بنات له، هذا الشيء لا يصح أن يكون، لأنه هو سيتزوج، فإذا صح أن نقول: إن نساء النبي أمهات المؤمنين فلا يصح أن نقول: النبي أبٌ للمؤمنين، والدليل هناك آية كريمة تقول:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)

(سورة الأحزاب: من الآية 40)

والحقيقة أن هنا نقطة دقيقة، أن المرأة أعلى مرتبة تتمنى أن تصلها هي أن تكون أماً، أما بين الأبوة والرسالة مسافةٌ شاسعة، تكريم النبي لا أن يكون أباً للمؤمنين، بل أن يكون رسول الله، ولكن رسول الله وخاتم النبيين.

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(6))

وَأُولُوا الأَرْحَامِ أَوْلَى بِبَعْضٍ

1 ـ التوارث بسبب الموالاة والمؤاخاة في أول الإسلام:

الآن هذه الآية فيها حكم شرعي دقيق جداً، أصحاب النبي الذين اتبعوه في ساعة العُسْرَةَ، والذين هاجروا معه من مكة إلى المدينة، تركوا بلادهم، تركوا ديارهم، تركوا أموالهم، تركوا عشيرتهم، تركوا أهلهم، تركوا أقاربهم، تركوا كل شيء وجاءوا المدينة فقراء ؛ بلا مأوى، بلا أرض، بلا جذور، النبي عليه الصلاة والسلام آخى بينهم، فجعل مؤاخاة الولاء بمستوى مؤاخاة النَسَب، فكان أصحاب رسول الله المهاجرون والأنصار يرثُ بعضهم بعضاً، وبعضهم أولى ببعض.

2 ـ إبطال ونسخ التوارث بسبب الموالاة والمؤاخاة:

أما حينما استقرّ الدين، واستقر الإسلام، وأصبح لأصحاب النبي موردُ رزقٍ، واستقرت الحياة استقراراً عائلياً أُسَرياً طبيعياً، عاد الحكم إلى أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض كما قال الله عزّ وجل:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ (6))

صار التوارث أساسه نظام القرابة، في أول عهد الصحابة بالهجرة كان نظام المؤاخاة هو أساس التوارث، ولدينا سبب، هو سبب مرحلي، فهؤلاء الأصحاب تركوا كل شيء ؛ تركوا ديارهم، بلادهم، أموالهم، أزواجهم، أولادهم، تركوا موطن رزقهم، وجاءوا إلى المدينة فقراء، فالأنصار آخى بينهم النبي مع المهاجرين، وصار التوارث فيما بينهم، الآن بعد مضي عشرات السنين، صار هناك استقرار، وفتحت الأبواب لكسب الأرزاق، وتوافرت أعمال، واستقرت حياة أساسها الأسرة، إذاً عاد الأصل إلى أصله، عاد التوارث بين الناس على أساس القرابة، قال:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ(6))

فباعتبار أن الكل صاروا مؤمنين، ومرّ وقت في الأسرة مشتتة، كانت بعضها في مكة كافرة، بعضها في المدينة، في مكة قسم منها كافر، وفي المدينة بعضهم مؤمن، الأب بعض أولاده في مكة، وبعضهم الآخَر في المدينة، فهناك تشتت، فصار الوضع المرحلي أن يكون التوارث على أساس المؤاخاة والولاء، فلما فُتِحَت مكة، وجمعت شمل الأسر، وأصبحت الأسرة بكاملها مؤمنة، لم يعد هناك كفر

ونفاق، الكل مؤمن، فلم تعد حاجة لتكون علاقات الوراثة علاقة ولاء، يجب أن تعود العلاقات علاقات قرابة، لأن المجتمع كله مؤمن.

لو فرضنا الآن أن واحداً ترك دينه، حرم من الإرث لاختلاف الدين، أما لو كانت الأسرة كلها مجتمعة على أب واحد، وأم واحدة، ودين واحد فليس من داعٍ لأن تكون هناك تفرقة في الميراث، وعاد نظام القرابة معمولاً به، هذا معنى قوله تعالى:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(6))

3 – بقاء جواز الإحسان بالوصية إلى مَن له ولاء:

أما إذا أراد الإنسان أن يحسن إلى من له ولاء، إلى من له علاقة، هذا لا يمنع، أحكام الإرث شيء، والوصية والإحسان شيء آخر، فأنت يدك طليقةٌ في الوصية، وفي الإحسان إلى كل الناس، لكن علاقات الإرث تعود إلى علاقات القرابة بعد أن جُمِعَ شمل الأسر، وبعد أن دخل الناس جميعاً في دين الله أفواجاً، وبعد أن انتظمهم الشرع الحنيف.

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا(7))

أخذُ اللهِ العهدَ على النبيين بتبليغ رسالاته:

هؤلاء النبيون أُخِذَ عليهم العهد أن يَبَلِّغوا رسالات الله، أخذ عليهم العهد أن يؤدّوا أمانات الله، أخذ عليهم لعهد أن ينصحوا أمتهم، أخذ عليهم العهد أن يوافق بعضهم بعضاً، أي لا نفرق بين أحدٍ من رسله..

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ (7))

قال بعض المفسرين: كلمة:

(وَمِنْكَ)

تعني تقديم النبي على سائر الأنبياء، ودليل أنه النبي الأول، والمخلوق المفضَل..

(وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا(7))

أوتُوا الْعَزمِ من الأنبياء:

الترتيب زمني، نوح، إبراهيم، موسى، وعيسى، الترتيب زمني من جهة، وهؤلاء الأنبياء هم أولو العزم من الرسل، فهؤلاء الرسل العظام منهم مجموعةٌ بذلت وتحملت ما لا سبيل إلى تَحَمُّلِهِ، فربنا عزّ وجل بدأ بالنبي عليه الصلاة والسلام، ثم ثنىّ بالأنبياء أولي العزم، كسيدنا نوحٍ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى بن مريم.

(وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (7))

وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا

أي ميثاقاً شديداً، وكل إنسان يتعلّم العلم الشريف الله عزّ وجل أخذ عليه الميثاق ليبينه للناس، فما قيمة أن تحضر مجلس علم ؟ القضية فيها مسؤولية، تعلمت هذه الآية، تعلمت هذا الحديث، ماذا فعلت بهذا العلم؟

((لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيمَ أفناه ؟ وعن علمه فيم فعل فيه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟))

[رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ]

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (8))

سؤال الله الصادقين يوم القيامة:

(الصادقين) الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، سوف يُسألون: ماذا قلتم للناس ؟ هل بلّغتموهم الحق ؟ ماذا فعلتم ؟ كيف وقفتم من المؤمنين ؟ كيف وقفتم من أعداء الله؟

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ (8))

وليسأل أيضاً الذين دعوهم إلى الله عزّ وجل، فالذي تكلم يُسأل، والذي تُحُدِّثَ إليه يُسأل، فالمتكلم يسأل: ماذا قلت ؟ قلت: كذا وكذا، هل فعلت ما قلت ؟ نعم، هناك مجموعة أسئلة يَسألها الله عزّ وجل لمن تصدّى للدعوة إلى الله، والمستمعون أيضاً يسألوا: ماذا سمعتم ؟ أكان الحق واضحاً ؟ ماذا فعلتم فيما علمتم ؟ فالذي تكلم له سؤال، والمستمع له سؤال، وكلنا مسؤولون، ولا ينجو من عذاب الله عزّ وجل إلا من كان في مستوى هذا السؤال.

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا(8))

إن شاء الله في درسٍ قادم سوف نبدأ بقصة غزوة الأحزاب، والحقيقة أن هذه الغزوة فيها من الدلائل والعِبَر الشيء الكثير، وفيها مواقف وأحداث كثيرة جداً.

تمهيد لدرس غزوة الأحزاب:

1 – الجانب النظري والعملي في الإسلام:

الحقيقة أن الإسلام له جانب نظري وجانب عملي، الجانب النظري هذه المبادئ، وهذه الأوامر، وهذه النواهي، وهذه الأحكام الشرعية، والأحكام التكليفية، والآيات الكونية، هذا الجانب النظري، القرآن والسنة جانباه النظريّان، ولكن الأحداث التي وقعت في عهد النبي تعد من الجانب العملي.

2 – أهمية القصة وتأثيراتها:

والحقيقة لماذا تعد القصة مؤثرةً ؟ لأنها حقيقةٌ مع البرهان عليها، ما قيمة المنطلقات النظرية إذا بقيت حبراً على ورق ؟ ما قيمة المبادئ السامية إن لم ترها مطبقةً في الحياة ؟ لذلك ربنا عزّ وجل دائماً يدعم الشيء النظري بالشيء العملي، يدعم القول بالفعل، فغزوة الأحزاب فيها من الدلائل الشيء الكثير، فاحتمال النصر كان في هذه الغزوة صفراً بالضبط..

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا(11))

يجب أن تؤمن أن كونك مؤمنا لا يمكن إلا أن تبتلى، ولا يمكن إلا أن تُهَزّ.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

بعض المؤمنين قالوا:

(مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12))

تقديم موجز لقصة الأحزاب:

تبين لنا أن كل هذه الدعوة خلط في خلط، هذه مقالة المنافقين، طبعاً حينما رأوا الأحزاب قد تحزبوا من كل جانب، ما اجتمع في الجزيرة العربية جيشٌ يَعُدُّ عشرة آلاف مقاتل إلا في غزوة الأحزاب، قريش ومَن ظاهرهم من بني قريظة، وبنو قريظة نقضت العهد، انكشفت ظهور المسلمين، وتألّبت عليهم

القبائل كلها، وأصبح الإسلام مشكلة وقت، وما جرت معركةٌ في الجزيرة العربية هدفها استئصال المسلمين إلا هذه المعركة، استئصال كامل، أن يستأصلوهم من شأفتهم كما يقال، ومع ذلك أظهر الله قدرته، وكيف أنهم هُزموا على أتفه سبب، وكيف أن الله كفى المؤمنين القتال، ورجع الكفار حيارى، ندامى، خزايا، لأنهم أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم.

إن شاء الله الدرس القادم بأكمله حول غزوة الخندق، ويجب أن نقف عند كل حدثٍ من أحداثها ونستنبط الموعظة، والقرآن كما أقول لكم دائماً: ليس كتاب تاريخ إنه كتاب واقع، فهذه الغزوة فيها دلائل وعِبَر تفيدنا جميعاً في حركاتنا اليومية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (04-18): تفسير الآيات 9 - 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-10-18

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدَي غزوة الأحزاب:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من سورة الأحزاب، وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية التاسعة، وهي التي تبدأ بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(9))

(سورة الأحزاب)

وتستمرُّ الآيات من الآية التاسعة وحتّى الآية السابعة والعشرين، تتحدَّث عن غزوة الخندق، وقد رأيت أن أشرح لكم قبل أن نفسِّر الآيات غزوة الخندق، فإذا تُلِيَت الآيات نكون كأننا ألقينا ضوءاً على تلك الآيات التي تتحدَّث عن غزوة الخندق.

أيها الأخوة الأكارم، النبي عليه الصلاة والسلام مُشَرِّعٌ في أقواله، ومشرِّعٌ في أفعاله، فإذا كانت أقواله شرحاً لكتاب الله عزّ وجل، فإن أفعاله شرحاً مُفَصَّلاً ووافياً لأقواله، وسِيَرُ الصحابة أيضاً فيها الفوائد، والفكر، والعِبَر الكثيرة.

مع غزوة الأحزاب:

فقبل كل شيء هذه الموقعة أو الغزوة هي الغزوة الثالثة، غزوة بدر، وغزوة أُحُد، وغزوة الخندق.

حيثيات ما بعد غزوة أُحُد:

1 - تحريض اليهود لمشركي مكة على قتال النبي وأصحابه:

بعد غزوة أحد وإجلاء بني النضير ثارت ثائرة اليهود، فتحرَّك زعماء اليهود واتجهوا إلى مكّة المكرَّمة، والتقوا بزعماء قريش، وقالوا لهم: **" إنّا سنكون معكم إلى أن نستأصل النبي وأصحابه ".**

أيها الأخوة الأكارم، من أخطر الغزوات التي مرَّت على المسلمين غزوة الخندق، لا لشيء إلا لأنها

غزوة استئصال، ليست غزوة نصرٍ أو هزيمة ؛ بل هي غزوة وجودٍ أو عدم وجود، تتميَّز غزوة الخندق بأنها غزوةٌ مصيريَّة، أي أنّ مصير الإسلام، ووجود المسلمين، وبقاء هذه الرسالة كان مخطّطاً له أن ينتهي في هذه الغزوة، فقال زعماء اليهود لزعماء قريش: **" سنكون معكم حتّى نستأصِلَ محمّداً وأصحابه".**

قال أبو سفيان: **" مرحباً وأهلاً، وأحبُّ الناس إلينا من أعاننا على أعدائنا، ولكن لا نأمنكم إلا إذا سجدتم لآلهتنا، حتّى نطمئنّ لكم ".**

ففعلوا، وضحوا بعقيدتهم، وضحوا بمبادئهم، وضحوا بمقدّساتهم، وسجدوا للأصنام، كل هذا من أجل أن يستأصلوا النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه، وأن يطفئوا نور الله عزّ وجل، عندئذٍ قالت قريشٌ لأولئك اليهود: **" يا معشر اليهود، إنكم أهل كتاب، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمّد، أفديننا خيرٌ يا معشر اليهود ـ الوثنيّة والشرك والأصنام ـ أم دين محمّد ؟ أنحن أهدى سبيلاً أم محمد؟".**

فقالوا: **" بل دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه، وأنتم أهدى سبيلاً، لأنكم تعظِّمون هذا البيت، وتقومون على سقايته، وتنحرون البُدن، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم، فأنتم أولى بالحقّ منه"**، فأنزل الله فيهم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً(51)أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللّهُ وَمَنْ يَلْعَنْ اللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا(52))

(سورة النساء)

هذه بدايات غزوة الخندق، بل إن آيةً أخرى تعنيهم، قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية: من الآية 23)

حينما سجدوا لأصنام قريش، وهم أهل كتاب، اتخذوا أهواءهم في استئصال الرسالة الإسلاميَّة آلهةً لهم..

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ(23))

لذلك كان من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام الشريفة أنه كان يقول:

((اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[تفسير ابن كثير]

بعض زعماء اليهود ماذا قال لقومه ؟ قال: **" يا قوم، قد رأيتم ما رأيتم، فأطيعوني، وتعالوا نتبع محمّداً، والله إنكم لتعلمون إنه لنبي، قد بُشِّرنا به وبأمره، بشّرنا به فلان وفلان ـ وسمّى اسمين من أعلم علماء اليهود ـ وهما أعلم يهودٍ، جاءانا يَتَوَكّفان قدومه، وأمرونا باتباعه، جاءانا من بيت المقدس، وأمرانا أن نُقْرِئَهُ السلام، ثم ماتا على دينهما، ودفنّاهما بحرّتنا هذه ".**

أي أن من أعلم علماء اليهود جاءا إلى معشر اليهود في المدينة، وبشّرا بقدوم النبي، وقد أمراهم باتباعه صلى الله عليه وسلّم، لذلك قال تعالى:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 146)

ومع ذلك سجدوا لأصنام قريش.

بدايات معركة الأحزاب وحيثيات أحداثها الأولى:

1 – مشاورة النبي أصحابَه في أمر عدوّهم:

أيها الأخوة، الآن بدايات هذه المعركة أن قبيلة خُزاعة أرسلت موكباً قطع الطريق بين مكّة والمدينة في أربع ليالٍ، ويُحْمَل الخبر إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أجمعوا عليه، دعا الناس، وأخبرهم خبر عدوّهم، وشاورهم في أمرهم، لذلك ربنا سبحانه وتعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلّم أن يشاور أصحابه، فقال:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)

(سورة آل عمران: من الآية 159)

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلّم المعصوم، الذي هو خير خلق الله كلهم، الذي هو المخلوق الأول، الذي هو سيّد الأنبياء والمرسلين، الذي هو حبيب الله، الذي هو خاتم رسل الله، هذا النبي المعصوم الذي يوحى إليه أُمِرَ أن يستشير أصحابه، فما بال شخصٍ ليس نبيّاً لا يستشيرُ أصحابه، مشاورة الأصحاب من سُنّة النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي عليه الصلاة والسلام بعد أن عَلِمَ أن قريشاً وغطفان وخزاعة قد ائتمرت جميعاً على حرب النبي عليه الصلاة والسلام، واستئصاله وإطفاء دعوته، وأعدوا لهذا عُدّته، وقطعوا الطريق بين مكّة والمدينة تمهيداً لهذه الغزوة، جمع أصحابه، وأطلعهم على ما وصل إليه، وأخبرهم بكل شيء، بل إنّ عمّه العبّاس رضي الله عنه أسلم قبل بدر، وبقي في مكّة عيناً للنبي عليه الصلاة والسلام، فكان عمُّه العبّاس يرسل له الأخبار تباعاً، وأي أخبار ؟ الأخبار الخطيرة، فهو كان مع زعماء قريش، وقد وصل إلى النبي تفاصيل هذه الغزوة، واتفاق قريشٍ مع اليهود، واتفاق

قريشٍ مع غطفان وخزاعة، فالنبي عليه الصلاة والسلام على بيّنةٍ من أمره، وها هو ذا يشاور أصحابه في أمر هذه الغزوة الكبيرة الخطيرة المصيريّة.

2 – اقتراح سلمان الفارسي حفْرَ خندق:

قال سلمان الفارسي: **" يا رسول الله إنّا كنّا بأرض فارس إذا تخوّفنا من الخيل، وإذا حوصرنا خندقنا عليها"**، أي حفرنا خندقاً، حمانا هذا الخندق من خيل العدو.

النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام أُعْجِبوا بهذه الفكرة، ولاسيما أن قوّة قريشٍ تكمن في الفرسان، وهم يمتطون خيولهم، أي أن القوة الضاربة في قريش الفُرسان، عندهم خيولٌ كثيرة، وعندهم فرسانٌ كُثُر، فما دامت قوتهم الكبيرة تكمن في الخيل، وعليها الفرسان، فالخندق سلاحٌ فَعّالٌ يقف في وجه هذه الغزوة الشرسة.

3 – إشراف النبي عليه الصلاة والسلام على مكان حفر الخندق:

النبي عليه الصلاة والسلام ذهب بنفسه إلى موقع الخندق، واستشرف معالم الخندق، وحدّد مكانه، وأمر أصحابه أن يحفروا هذا الخندق الذي يزيد طوله على ستّة كيلو مترات، ويزيد عمقه على ثلاثة أمتار، ويزيد عرضه على سبعة أمتار، وقد اختار النبي عليه الصلاة والسلام هذا الخندق بين حَرّتين وجَبَلَيْن، بمعنى أنه المنفذ الإجباري إلى المدينة، وكان بنو قُرَيْظَة ظَهْرَ المسلمين في المدينة، وبين النبي عليه الصلاة والسلام وبين بني قريظة معاهدةٌ وعهدٌ بألاّ يوقع طرفٌ بالآخر أذىً، بقيت الجبال والحرّات حواجز منيعة، والمنفذ الوحيد إلى المدينة هذه الفُرْجَة التي تزيد على ستة كيلو مترات.

إنّ مَن ذهب منكم إلى المدينة المنوّرة، وزار قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وذهب إلى منطقة غزوة الخندق حيث جبل سِلْعْ، وحيث مساجد الصحابة الكرام، في هذا الموقع حُفِرَ الخندق.

4 – حفْرُ النبي للخندق مع أصحابه وحمْلُه للتراب:

وقد عَمِلَ صلى الله عليه وسلّم في حفر الخندق مع المسلمين بنفسه، كان كأحد المسلمين يحفر، وينقل التراب، وكان كواحدٍ منهم، وحمل التراب على ظهره الشريف، وهذا من دلائل نبوّته عليه الصلاة والسلام، هذا من تواضعه، هذا من قدوته، هذا من أنه هو المثل الأعلى.

5 – تخفيف النبي على أصحابه وطأة المشقة والجوع بترديد الشعر:

لكن في أثناء حفر الخندق كان العمل شاقاً ومرهقاً، ولاسيما وفي المدينة موجة جوع، عامٌ فيه قَحْطٌ، وفيه مجاعةٌ، وفيه موجة بردٍ شديدة، جوعٌ وبردٌ وخوف، والخندق في ظاهر المدينة، فقال كُتّاب السيرة: **"لقد حصل للصحابة رضوان الله عليهم تعبٌ وجوعٌ وبرد، لأنه كان في زمن عسرةٍ وعام مجاعة، ولما رأى صلى الله عليه وسلّم ما بأصحابه من النصبِ والجوع**، قال متمثِّلاً بقول عبد الله بن رواحة ـ أحد أصحابه وكان شاعراً ـ كان عليه الصلاة والسلام في أثناء الحفر يقول:

((اللهم لا عيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ فَأَصْلِحِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ))

[من صحيح البخاري عن أنس بن مالك]

اللهمّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة فارحم الأنصار والمهاجـرة

اللهمّ لا خيرَ إلا خيرُ الآخـرة فبارك في الأنصار والمهاجرة

اللهمّ إن الأجر أجر الآخـرة فارحم الأنصار والمهـاجرة

اللهمّ لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة فانصر الأنصار والمهـاجرة

***

فهذا الشعر الذي يبُثُّ الحماس في نفوس أصحابه، ويخفِّف عنهم متاعب الجوع والخوف والبرد والجهد الشاق، فأجابوه رضي الله عنهم:

((نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمّدَا عَلَى الْجِهَادِ مَا حَيِينَا أَبَدَا))

[من صحيح البخاري: عن أنس بن مالك]

وقال صلّى الله عليه وسلّم وهو ينقل التراب، وقد وارى التراب جلد بطنه الشريف، متمثلاً قولَ ابن رواحة:

((وَ اللّهِ لَوْلا اللّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدّقْنَا وَلا صَلّيْنَـا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَـــا وَثَبّتِ الأَقْدَامَ إنْ لاقَيْنَـا

إنّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَـا

***

وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ:

أَبَيْنَا أَبَيْنَا))

[من صحيح البخاري عن أنس بن مالك]

وأعاد أبينا ثلاث مرّات:

إذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَـــاأَبَيْنَا أَبَيْنَا

هكذا قال الله عزّ وجل:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

6 – النظام الكامل لأصحاب النبي واستئذانهم في مغادرة مكان العمل للحاجة:

في أثناء الحفر كان المسلم إذا نابته نائبةٌ، وبدت له حاجةٌ لابدّ منها كان يذكرها لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، ويستأذنه في اللحاق بها، فإذا قضى حاجته، رجع إلى ما كان عليه من عمله رغبةً في الخير والثواب، هذا من أخلاق أصحاب رسول الله، لذلك نزل في حقّهم:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(62))

(سورة النور)

لكن بعض المنافقين كانوا يتسلّلون لِواذا، أي أنهم يخرجون من ساحة المعركة، ومن ساحة الحفر، ومن ساحة الخندق إلى بيوتهم يستريحون، ويبتعدون عن صخب المعركة وعن هول المشقّة.

7 – عدم جواز تروي المسلم وأخذ حاجاته الأساسية مزحًا:

أحد أصحاب النبي وهو زيد بن ثابت كان غلاماً، وكان ممن ينقل التراب، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((أما إنه نِعمَ الغلام غلبته عيناه في الخندق فنام))

فأخذ عمّارة بن حزمٍ سلاحه وهو نائم، فلمّا قام فزع على سلاحه، فقال له صلّى الله عليه وسلّم:

((يا غلام قد نمت حتى ذهب سلاحك))

ثم قال:

((من له علمٌ بسلاح هذا الغلام ؟))

فقال عمّارة: **" أنا يا رسول الله، وهو عندي "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((ردّه عليه))

ونهى النبي صلى الله عليه وسلّم أن يُرَوّع المسلم، وأن يؤخّذ متاعه لَعِبَاً.

هذا حكمٌ شرعي، أن تأخذ حاجةً أساسيّةً، أن تأخذ جواز سفر إنسان مازحاً كي يفزع، وكي يبحث عنه، أن تأخذ أداة من أدواته الأساسيّة، هذا ليس من الكمال في شيء.

8 – الكُلُّ يعمل:

وقد رُوي أن أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما كانا ينقلان التراب بثيابهما، أروع ما في المعركة أن الكلّ يعملون، وعلى رأسهم النبي عليه الصلاة والسلام، هو واحدٌ منهم، هو ينقل التراب على ظهره الشريف، ويرتجز بهذه الأبيات، ويبثُّ الحماس في أصحابه، وكانا: **" أبو بكرٍ وعمر صاحباه "** ينقلان التراب بثيابهما لقلّة الأوعية.

9 – قوة النبي الجسمية:

الآن هناك شيء لا يكاد يصدّق وهو أن أصحاب رسول الله في أثناء حفر الخندق يقول أحدهم وهو عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان، والنعمان بن مقرّن المزني وستّةٍ من الأنصار في أربعين ذراعاً ـ كل عشرة أصحاب كرام خَطّ لهم النبي أن يحفروا أربعين ذراعاً ـ فحفرنا المكان الذي خُصِّصَ لنا، وقد ظهر لنا من بين الخندق صخرةٌ بيضاء كَسَرَت حديدتنا ـ أي في أثناء الضرب كُسِرَت المعاول ـ وشقّت علينا، فقلنا: يا سلمان: ارقَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأخبره خبر هذه الصخرة ـ أي إذا تركناها ينبغي أن ينحرف الخندق، فهل يوافق النبي ـ وهو قائد الجيش ـ على أن ينحرف الخندق ؟ ـ إن تركناها انحرف الخندق، وصلابة هذه الصخرة أكبر من معاولنا، فقال: **يا رسول الله، بأبينا أنت وأمّنا خرجت صخرةٌ بيضاء من الخندق فكسرت حديدتنا، وشقّت علينا حتى ما نستطيع لها محاولةً، فمرنا فيها بأمرك، فإنّا لا نحب أن نجاوز خَطّك** ـ الخط الذي رسمته لنا ـ فهبط النبي عليه الصلاة والسلام مع سلمان في الخندق، ورقينا نحن التسعة على شقّة الخندق لننظر ماذا سيفعل، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلّم المِعْوَل، وقال:

((بسم الله، بسم الله))

وضرب ضربةً فكسرت ثلث الصخرة، وبَرِقَتْ برقةٌ فخرج نورٌ من قِبَل اليمن كالمصباح في جوف الليل المظلم، فكبّر النبي صلى الله عليه وسلّم وقال:

((أعطيتُ مفاتيح اليمن))

[مسند أحمد عن البراء بن عازب]

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

تراءى للنبي عليه الصلاة والسلام أن اليمن سوف تُفْتَح عليه، ثمّ ضرب الثانية فقطع ثُلُثَا الصخرة، فخرج نورٌ من قِبَل الروم، فكبّر النبي صلى الله عليه وسلّم وقال:

((أعطيتُ مفاتيح الشام والمغرب، والله إني لأبصر قصورَهم الحمر))

[ورد في الأثر]

ثمّ ضرب الثالثة فقطع بقيّة الصخرة، وبرقت برقةٌ فكبّر وقال:

((أعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب في مكاني هذا، إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن))

[مسند أحمد عن البراء بن عازب]

وجعل صلى الله عليه وسلّم يصف لسلمان الفارسي أماكن فارس، ويقول سلمان: **صدقت يا رسول الله هذه صفتها، أشهد أنّك رسول الله "**، وهذه من معجزاته صلى الله عليه وسلّم، ثمّ قال النبي صلى الله عليه وسلّم:

((هذه فتوحٌ يفتحها الله بعدي يا سلمان))

تصوّروا النبي عليه الصلاة والسلام محاصر، محاصر من قِبَل عشرة آلاف مقاتل، لم يأتوا لهزيمته، بل أتوا لاستئصاله، ومع ذلك ثقته بأنه نبي لا يهزُها شيء، وثقته بأن الله ناصره لا يهزُها شيء، وثقته بأن المسلمين سوف ينتصرون من بعده لا يهزُها شيئاً، وهو في وضعٍ حَرِج.

موقف المنافقين قبيل غزوة الأحزاب:

عندئذٍ قال المنافقون: **" ألا تعجبون من محمّد يُمَنِّيكم، ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تُفْتَح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الخوف، لا تستطيعون أن تبرزوا، هيهات هَيهات، مِن أين لمحمّدٍ مُلك فارس والروم، وهم أعزّ، وأمنع من ذلك ؟ كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز قيصر وكسرى، وأحدنا الآن لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط "**، هكذا قال المنافقون.

المنافقون شكّكوا في وعد النبي، شكّكوا في الغيب الذي أطلعه الله عليه، شكّكوا في نبوّته، قالوا: **" أيعدنا صاحبكم أن تُفْتَح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ؟"**، ما هذا الكلام ؟

يروي التاريخ أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول حينما فُتِحَت هذه الأمصار في زمن عمر وعثمان وما بعدهما: **" افتحوا ما بدا لكم، فو الذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينةٍ، ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطي محمّدٌ صلى الله عليه وسلّم مفاتيحها قبل ذلك ".**

تبشير النبي أصحابَه بالنصر، ووعدُه إياهم بكنوز قيصر وكسرى:

النبي عليه الصلاة والسلام كان يبشِّر المسلمين ويثبّتهم ويقول:

((أبشروا بعون الله ونصره، إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخُذَ المفتاح، وليهلكنّ قيصر وكسرى، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقون كنوزهما في سبيل الله))

[السيرة النبوية، وبعضه في الصحيحين عن أبي هريرة]

وكان يقول هذا الكلام وهو محاصر، وهو في نهاية الصورة من خطِّه البياني، أي أنه في أشدِّ حالات الضعف، في أشد حالات قوّة الأعداء، في أشد أنواع المكر، في أشد أنواع الضغينة والحقد على المسلمين.

من معجزات النبي وفضائله قبيل الغزوة:

1 – معجزة طعام جابر بن عبد الله:

مما ورد في السيرة الشريفة حول هذه المعركة، أن جابر بن عبد الله ألمّ به جوعٌ شديد، فاستأذن النبي عليه الصلاة والسلام أن يذهب إلى بيته، وقال بعض أصحابه: **" لبثنا ثلاثة أيّامٍ لا نذوق زاداً "**، واستأذن جابرٌ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ـ كما قلت قبل قليل ـ في الانصراف إلى بيته فأذن له، قال جابر: فجئت لامرأتي، وقلت لها: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم جائعاً جوعاً شديداً، أفعندكِ شيء ؟ قالت: عندي صاعٌ من شعير وعَنَاق ـ والعناق شاةٌ صغيرة ـ فذبحت العناق، وطحنت الشعير، وجعلت اللحم في بُرْمَة ـ أي في قدر ـ فلمّا أمسينا جئت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فساررته ـ أي بيني وبينه ـ وقلت له: **يا رسول الله، طُعَيمٌ لي ـ أي أكل قليل لي ـ فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان فكُلا**، فشبّك عليه الصلاة والسلام أصابعه في أصابعي، وقال: **كم هو الطعام ؟**، فذكرت له ـ أي صاعا من الشعير، وشاة صغيرة، يكفي أربعة أشخاص أو خمسة ـ قال: **كثيرٌ طيّب، وصاح عليه الصلاة والسلام بكل أصحابه**، وقال:

((يا أصحاب الخندق، إنّ جابراً قد صنع لكم طعاماً، فحي هلا بكم))

تفضّلوا وسار النبي صلى الله عليه وسلّم يقدم الناس.

قال جابر: فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله ـ طعام لخمسة أشخاص، والنبي دعا أهل الخندق، وهذه أيضاً من معجزاته صلى الله عليه وسلّم ـ وإنها والله لفضيحة ـ هكذا يقول جابر ـ قال جابر: **"فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، وإنها والله لفضيحة، إنّا لله، وإنّا إليه راجعون ".**

أقبل الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وأمرهم أن يدخلوا عشرةً عشرة، وأكلوا جميعاً من هذا الطعام الذي صنعه جابر، وهذه أيضاً من معجزات النبي صلى الله عليه وسلّم..

2 – سلمان منّا أهل البيت:

تنافس المهاجرون والأنصار في أثناء حفر الخندق في سلمان الفارسي، سبب التنافس أنه رضي الله عنه كان رجلاً قوياً يعمل عمل عشرة رجالٍ في الخندق، فكان يحفر في كُلّ يومٍ خمسة أذرعٍ في عمق سبعة أذرع، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقال الأنصار: سلمان منّا، وقال عليه الصلاة والسلام:

((لا منكم، ولا منكم، سلمان منّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

وهذا أصل هذه الكلمة التي قالها النبي عليه الصلاة والسلام، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أنا جَدُّ كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

[كشف الخفاء]

حينما يطيع الإنسان الله عزّ وجل، وحينما يصطلح معه، صار من أقرب الناس إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لهذا يقول عليه الصلاة والسلام:

((أشراف أمّتي حملة القرآن وأصحاب الليل))

[الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس]

الذين حفظوا كتاب الله، وعقلوه، وفهموه، وتلوه على الناس، وأصحاب الليل هم الذين يقومون صلاة الليل، هؤلاء أشراف أمّتي.

استراتيجية النبي عليه الصلاة والسلام قبيل الغزوة:

1 – اختيار مكان المعسكر:

لما فرغ النبي عليه الصلاة والسلام من حفر الخندق، أقبلت قريشٌ ومن معها، فنزلت قريشٌ بمجمع الأسيال، ونزلت غطفانُ ومن معها إلى جانب أُحد، وعَسْكَرَ النبي صلى الله عليه وسلّم بالمسلمين في سفح جبل سَلْع، فجعل بذلك ظهر عسكره إلى سلع، والخندق بينه وبين الأحزاب، وجعل النساء

والذراري في الآطام، واستعرض النبي صلى الله عليه وسلّم الغِلْمَان، وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون في الخندق، أصحاب النبي هم وأولادهم يعملون جميعاً في الخندق.

2 – استعراض الجيش صغارا وكبارا واختيار المقاتلين منهم:

فلمّا قرب اللقاء مع العدو استعرض النبي الغلمان، وحان الأمر، فأمر من لم يبلغ أن يعود إلى بيته، وأمر من تجاوز الخمسة عشرَ عاماً أن يبقى معه في المعركة، يروي كُتّاب السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام أجاز عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأبا سعيد الخِدْرِيّ، والبراء بن عازب.

3 – اختيار أصحاب الألوية:

وأعطى النبي لواء المهاجرين لزيد بن حارثة، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة.

4 – إقامة الحراسة على الأطفال والنساء:

وبعث مسلمة بن أسلم في مئتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير تخوفاً على الذراري من غدر بني قريظة، لأن النساء والذراري في المدينة، وموقع الخندق خارج المدينة.

تفاجؤ المشركين بوجود الخندق:

ولمّا نظر المشركون إلى الخندق قالوا: **" والله إنّ هذه لمكيدة، وما كانت العرب تكيدها"**، تفاجئوا. وصار المشركون يتناوبون، فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد في أصحابه يوماً، وعمرو بن العاص يوماً، وغبيرة بن أبي وهب يوماً، وعكرمة بن أبي جهل يوماً، وضرار يوماً، فلا يزالون يجولون ويتحرّكون وهم حائرون في هذا الموقف الجديد، فوجئوا بالخندق، كان حاجزاً بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام، وكان التراب الذي حُفِر قد وضع في الطرف الذي إلى جانب النبي، فصار ساتراً ترابياً، وعقبةً كأَدَاء، وحفرةً عميقة، والمدخل إجباري.

بدايات المعركة:

1 – محاولات فاشلة من المشركين لاختراق الخندق:

أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرسٍ له ليوثِبَهُ الخندق، فوقع في الخندق حيث دُقّت عنقه، وتحطّم مع فرسه، وقيل: رمي بالحجارة، وضربه عليٌّ رضي الله عنه بالسيف فقطعه نصفين، وكَبُرَ ذلك على المشركين، فأرسلوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام: إنّا نعطيك الديّة على أن تدفعه إلينا لندفنه، فردّ عليهم رسول الله بأنه خبيث الديّة، فلعنه الله ولعن ديّته، ولا نمنعكم أن تدفنوه، ولا أرَبَ لنا في ديّته ـخذوه ـ.

2 – نقض بني قريظة عهدهم مع النبي:

الحقيقة أن الأمر وصل إلى منطقةٍ حرجة وهي: أن هذا المانع الترابي، وذاك الخندق الذي حال بين المشركين وبين المسلمين، صار عقبةً كأدْاء، أما ظهر المسلمين فهو مفتوح، وظهر المسلمين يحتلّه بنو قريظة، ولابدّ لبني قريظة من أن ينقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتّى يسهُل على المشركين أن يأتوا من ظهر النبي وأصحابه، ما الذي حصل ؟

توجّه زعيم بني النضير من اليهود إلى زعيم بني قريظة بالذات، وحاول معه كثيراً أن ينقض عهده مع محمدٍ صلى الله عليه وسلّم، وقال: جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أُحُد، قد عاهدوني، وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

فقال له كعب زعيم بني قريظة: جئتني والله بذلّ الدهر، وكل ما يُخشى، فإني لم أر من محمدٍ إلا صدقاً ووفاءً ـ هذا زعيم بني قريظة ـ ولا زال حُيي زعيم بني النضير يحاور زعيم بني قريظة إلى أن أقنعه بنقض عهده مع محمّد، وعاهده أن قريشاً إذا ذهبت، ولم تقتل محمداً فهو معه في كل ما يصيبه من ضَرّاء، عندئذٍ أزمع زعيم بني قريظة أن ينقض عهده مع النبي صلى الله عليه وسلّم، ومزّق العهد الذي بينهم، وكان في حِلٍّ من هذا العهد.

3 – تحقُّقُ النبي مِن خبر نقض العهد:

الخبر سرى إلى المسلمين، لكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يتأكّد منه، ماذا فعل ؟ سيدنا عمر أخبر النبي بهذا الخبر المزعج وهو في أحرج الأوقات، وقال: **" يا رسول الله بلغني أن بني قريظة قد**

نقضت عهدها معك، وحاربت مع أعدائك؟". فاشتدّ الأمر على النبي صلى الله عليه وسلّم، وشقّ عليه ذلك، وأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وأرسل معهما عبد الله بن رواحة، وقال لهم:

((انطلقوا حتّى تنظروا أحقٌ ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟))

انظر إلى التحقق دائماً، خبر وصل، إشاعة، قد يكون إشاعة، فكّلف النبي هذين الصحابيين الجليلين أن يذهبا إلى بني قريظة، ويتحقّقا بنفسيهما من هذا الخبر الخطير، وكان عليه الصلاة والسلام قائداً حكيماً فقال:

((فإن كان حقاً فألحنوا إلي لحناً أعرفه دون القوم))

فإذا كانوا فعلاً نقضوا العهد، لا تقولوا لي هكذا أمام المسلمين ـ ألحنوا لي لحناً، أي كلام لا يفهمه إلا أنا وأنتم لئلا تضعف معنويات المسلمين، هذا هو الهدف.

فخرج القوم حتى أتوا بني قريظة فوجدوهم قد نقضوا العهد، ونالوا من النبي صلى الله عليه وسلّم، وتبرّؤوا من عقده وعهده، وقالوا: **" لا عهد، ولا عقد بيننا وبين محمد، وقالوا أيضاً: مَن رسول الله؟من هو هذا؟.**

فشاتمهم سعد بن عبادة، وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدّة، فقال سعد بن معاذ: **" دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ".**

ثمّ أقبل سعد بن عبادة وسعد بن معاذ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فَكَنُّوا له عن نقضهم العهد، وقالوا: **" عَضْلٌ والقارّة "**، أي هما قبيلتان نقضتا العهد فيما مضى، فَكَنَّيا عن نقض العهد باسمي هاتين القبيلتين، أي غدروا كغدر عَضْلٍ والقارة بأصحاب الرَجيع.

فقال عليه الصلاة والسلام:

((الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين نصرٌ من الله وفتحٌ قريب))

ثمّ تقنّع بثوبه، واضّطجَعَ، ومكث طويلاً، فهذا الخبر كان أشد خبر في أثناء المعركة، فاشتدّ على الناس البلاء والخوف حين رأوه قد اضّطجع، ثم رفع رأسه فقال:

((أبشروا بفتح الله ونصره))

[السيرة النبوية]

هؤلاء هن نساء الصحابة:

وعن عبد الله بن الزبير قال: **" كنت يوم الأحزاب أنا وعمر بن أبي سلمة مع النساء، وكان حسّان قد أصابته وعكة فأقعدته، واتفق أن يهودياً جعل يطوف بذلك الحصن، فجاءت صفيّة إلى طرف الحصن،**

وألقت عليه عموداً فقتلته به "، وكان هذا اليهودي كأنه قد أُرْسِلَ من قِبَلِ قومه ليتجسّس، فلمّا قُتِل عرفوا ـ يعني اليهود ـ أن المدينة مُحَصّنة وأنها في مَنَعَةٍ من أن ينالها اليهود.

غزوة الأحزاب من خلال وصف القرآن لها:

أيها الأخوة... الآن جاء العدو إلى المدينة، وقال الله عزّ وجل:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا(10))

انظر الظن، أين الله ؟ أحياناً الإنسان يقول: أين الله ؟ في ساعة الشدّة..

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا(11))

وظهر المنافقون، حتّى قالوا: **" كان محمدٌ يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.**

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا(13))

أيها الأخوة... عَظُمَ البلاء على المسلمين، فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى عُيَيْنة بن حصن الفزاري، وإلى الحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان.

وجهًا لوجهٍ: عليّ بن أبي طالب وعمرو بن وُدّ:

1 – تردّدُ النبي في قبول مبارزة علي لعمرو بن ود:

طائفةٌ من المشركين أقبلوا، وأكرهوا خيلهم على اقتحام الخندق من مضيقٍ به، فيهم عكرمة بن أبي جهل، وهُبَيْرَةَ بن أبي وهب، وضرّار بن الخطّاب، وعمرو بن عبد ود بن أبي قيس، ونوفل بن عبد الله، فقال عمرو بن عبد ود: **" من يبارز؟"**، وكان من أشجع الفرسان، فقال عليٌّ رضي الله عنه: **" أنا له يا نبيّ الله"**، فقال عليه الصلاة والسلام: اجلس إنه عمرو بن عبد ود، أي أن هذا من أشجع الفرسان، وقد خاف النبي عليه، فقال عليٌّ رضي الله عنه: **" وإن كان عمراً، أنا له".**

2 – إذنُ النبي لعلي في المبارزة:

عندئذٍ أذِنَ له النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن تأكّد من عزيمته في مواجهة هذا الخصم المعروف ببأسه، وأعطاه سيفه ذا الفَقَار، وألبسه درعه الحديد، وعمّمه بعمامته وقال:

((اللهمّ أعنه عليه، إلهي أخذت عبيدة مني يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وهذا أخي وابن عمي فلا تذرني فرداً، وأنت خير الوارثين))

[السيرة النبوية]

3 – حوار رهيب بين علي وعمرو بن ود:

فلمّا وصل عليٌ إليه، وكان مُلثّماً، قال عمرو: **" من أنت ؟ "** لأن علياً كان مقنّعاً بالحديد والعمامة، قال: **" أنا عليٌ بن أبي طالب "**، فقال عمرو: **" غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أشدُ منك "**، أي أنت صغير، فقال عليٌّ: **" يا عمرو، إنّك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجلٌ من قريش إلى واحدةٍ من ثلاث إلا قبلتها "**، فقال عمرو: **" أجل"** قال: **" وأنا أدعوك أن تشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتسلم لربِّ العالمين"**، فقال: **" يا ابن أخي أخِّر عني هذه "**، قال: **" وأخرى ترجع إلى بلادك، فإن يكُ محمد صلى الله عليه وسلّم صادقاً كنت أسعد الناس به، وأن يكُ كاذباً كان الذي تريد "**، قال عمرو: **هذا ما لا تتحدّث به النساء أبداً، كيف وقد قدرت على استيفاءِ ما نذرت ؟ ما هي الثالثة؟ "** فقال علي: **"البراز"..** أي المقاتلة.. فقال عمرو ضاحكاً: **" إن هذه لخصلة ما كنت أظن أن أحداً من العرب يروّعني بها، لمَ يا ابن أخي، ما أحبّ أن أقتلك ؟ فإن أباك كان لي صديقاً، وكنت لي نديماً، فإني أكره أن أسيل دمك "**، فقال عليٌّ: **" ولكني والله أحبُ أن أقتلك، وما أكره أن أهريق دمك"**.

4 – وقوع المنازلة وقتل علي لعمرو:

فغضب عمرو، وأخذته الحَمِيَّة، واستعدّ للنزال، وتنازلا ـ من دون أن أذكر التفصيلات ـ إلى أن ضربه عليٌّ رضي الله عنه ضربةً قاضية أوقعته غريق دمائه.

دعاء النبي على قريش:

شيءٌ آخر هو، أن قريشاً بعد أن قُتِل استعادت هؤلاء الذين اجتازوا الخندق، وبدأت تُرسل الطلائع ليلاً، وتغير على المسلمين بالنَبْل، فأقام المسلمون في شدّةٍ من الخوف، ودعا النبي صلى الله عليه وسلّم على الأحزاب:

((أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ، ثُمّ قَالَ: اللّهُمّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ))

[من صحيح البخاري عن عبد الله بن أوفى]

ثم دعا النبي صلى الله عليه وسلّم، وقال:

((يا صريخ المكروبين، يا مجيب المضطرين، اكشف غمي وهمي وكربي، فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي))

[تفسير القرطبي]

وبعد فإني أعتقد أنه لا توجد معركة زلزلت أصحاب النبي كهذه المعركة، وقال المسلمون لرسول الله:

((يَا رَسُولَ اللّهِ، هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؟ قَالَ: نَعَمِ، اللّهُمّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا))

[من مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري]

هذا الدعاء قاله وقتها النبي عليه الصلاة والسلام.

مكث المسلمين في الخندق شهرا:

وأقام المسلمون في الخندق قريباً من شهر، ومن قبل شهر حفرٍ، وشهر لقاء مناوشات، وبرد، وجوع، وتعب، وخوف، وكان صلى الله عليه وسلّم يختلف إلى ثُلْمَةٍ في الخندق، فإذا أخذه البرد عاد إلى قُبّته فأُدْفِئ ثم يخرج ليطمئنّ إلى الثلمة، ثم قال": **ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة**، فسمع صوته سعد بن أبي وقّاص، وقال سعد: **" يا رسول الله، أتيتك أحرسك**، فقال النبي: **عليك هذه الثلمة فاحرسها**، ونام النبي صلى الله عليه وسلّم، ثم قام يصلي، وكان إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة، هذه سنّته، إذا أمرٌ صعب، كربٌ شديد، افزع إلى الصلاة ؛ صلّ، وابتهل، وتوسّل.

ثمّ خرج النبي عليه الصلاة والسلام من قبّته فقال: **هذه خيل المشركين تطوف بالخندق**، ثم نادى صلى الله عليه وسلّم: **" يا عبّاد بن بشر "** فقال: **" لبيك "**، قال: **" هل معك أحد ؟ "**، قال: نعم، أنا في نفرٍ

حول قبّتك يا رسول الله، فبعث صلى الله عليه وسلّم عبّاد يطيف بالخندق، وأعلمه بأن خيل المشركين تطيف به، ثم قال:

((اللهمّ ادفع عنا شرّهم، وانصرنا عليهم، واغلبهم لا يغلبهم غيرك))

وإذا أبو سفيان في خيلٍ يطوفون في الخندق، فرماهم المسلمون حتّى رجعوا.

نزول جبريل على النبي بالبشرى:

ونزل جبريل الأمين على النبي عليه الصلاة والتسليم، فبشّر النبي عليه الصلاة والسلام أن الله سيرسل عليهم ريحاً وجنوداً، وأعلم النبي أصحابه بذلك، وهذه طبعاً نبوءةٌ لها أهميّتها في مثل هذه الظروف، وصار يرفع النبي يديه قائلاً:

((شكراً لك يا رب، شكراً لك على فَرَجِكَ ونصرك))

وعُرِفَ لأول مرّة بعد شهرين في وجهه السرور.

وللمعركة تتمّةٌ نتابعها في درسٍ قادم، وبعدها نقرأ الآيات، فإذا قرأت الآيات عرفنا كل آيةٍ كيف أبعادها، وما مدلولها، وما مضمونها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (05-18): تفسير الآيات 9 - 24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-10-25

بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة مهمة:

1 – مرور المؤمن بظروف قاسية في حياته:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة الأحزاب، في الدرس الماضي بَيَّنْتُ بفضل الله عزّ وجل الأحداث التي عاشها المسلمون في غزوة الخندق، وأردت من الدرس الماضي أن يكون أرضية لهذا الدرس الذي تتعلق آياته بغزوة الخندق، وقبل أن أبدأ بسرد الآيات المتعلِّقة بهذه الغزوة، أحب أن أضع بين أيديكم الحقيقة التالية، وهي:

أن المؤمن يمر في حياته الدنيا بظروفٍ معينة، من هذه الظروف ما هي لصالحه، ومن هذه الظروف ما يبدو لأول وهلة أنها لغير صالحه، والحقيقة أن الله يبني إيمان عبده لبنةً لبنة، الله سبحانه وتعالى من خلال الظروف، من خلال المِحَن، من خلال الشدائد، من خلال العطاء، من خلال المنع، من خلال الطمأنينة، من خلال الخوف، هذه الظروف التي تحيط بالإنسان، والتي تنعكس على نفسه ؛ تارةً خوفاً، وتارةً قلقاً، وتارةً طمأنينةً، وتارةً انقباضاً، وتارةً انشراحاً، هذه الظروف المادية التي تنعكس على نفس المؤمن إنما هي مسخرةٌ لبناء إيمانه الصحيح.

1 – أمثلة من واقع الصحابة:

غزوة بدر:

لنأتِ بأمثلة، قال ربنا عزّ وجل:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 123 ")

أي ضعاف، فئةٌ قليلةٌ، مستضعفةٌ، مطاردةٌ ؛ وقريش بخيلها، ورَجِلِهَا، وقوتها، وعتادها، وشأنها، وجبروتها، تريد أن تقهر هذه الفئة المقهورة، فإذا بالأحداث تأتي على عكس ما هو متوقع.

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلّةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 123 ")

هذا الحدث يبني إيمان المؤمنين، فإذا كنت مع الله فلا تخش أحداً، إذا كنت مع الله فالله معك، إذا كنت مع الله تنقلب موازين القوى كلها.

غزوة حنين:

ويوم حنينٍ اجتمع المسلمون بأكبر قوةٍ ضاربةٍ في الجزيرة، عشرة آلاف مقاتل فتحوا مكة، ودانت لهم الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وقالوا في أنفسهم: **" لن نغلب اليوم من قلة ".**

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

حينما كنتم ضعافاً، وكنتم مفتقرين إلى الله عزّ وجل، أيدكم الله بنصره، وأعزكم، وأعلى شأنكم، وحينما اعتمدتم على قوّتكم الذاتية، وعلى كثرتكم العددية، وعلى أن الناس كلهم دانوا لكم، ألقى الله في قلوب أصحاب رسول الله الخوف فولوا مدبرين.

إذاً: موقعة حنين بنتْ في إيمانهم لبنة، وموقعة بدر بنت في إيمانهم لبنة، ومعركة أُحُد أيضاً حينما خالفوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام، كيف أن الكفار تعقّبوهم وأوقعوا فيهم ما يؤلمهم، ومعركة الخندق وضعتهم في امتحانٍ شديد.

فيجب أن تؤمن، وأن توقن أنه لن تنال من الله ما تريد إلا إذا دفعت الثمن، فكلما ادّعى الإنسان أنه في مستوى، وهو دون هذا المستوى، ربنا عزّ وجل يتولى من خلال أفعاله والظروف المحيطة بالإنسان أن يُحَجِّمَهُ، وأن يعيده إلى حجمه الحقيقي، قد ينمو إيمانه من جانب، ولا ينمو من جانبٍ آخر، فلذلك: لابدّ للمؤمن من أن تكون حياته ملوّنَةً ؛ فيها عطاء، فيها منع، فيها صحة، فيها مرض، فيها طمأنينة، فيها خوف.

ما الموقف الكامل في الخوف ؟ ما الموقف الكامل مع الطمأنينة ؟ ما الموقف الكامل مع الصحة ؟ مع القوة ؟ مع المرض ؟ هذه الامتحانات، وهذا البلاء، وهذه الشدائد، وتلك الظروف المعينة، يسوقها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين لينضج إيمانهم، وليبنى إيمانهم بناءً صحيحاً، من خلال هذه المقدمة يجب أن نفهم غزوة الخندق:

غزوة الخندق من خلال القرآن:

يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ(9))

(سورة الأحزاب)

1 – جنود الشرك:

جنود ؛ قريش، وغطفان، وكل القبائل العربية اجتمعت على استئصال النبي وأصحابه، اجتمعوا من كل حَدَبٍ وصوب معهم العدة، الخيول، الأسلحة، الرماح، الحقد الدفين.

(إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا (9))

2 – جنود الله: الريح والملائكة:

إنها ريح قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نارهم، وإصابتهم بالبرد الشديد، وحاروا في أمرهم، وقذف الله في قلوبهم الرُعب، وفرق بينهم، وشتت شملهم.

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا (9))

الملائكة، أي حاربناهم بالرياح العاتية، وبالملائكة الذين قاتلوهم من دون أن تروهم.

(وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9))

اطّلاع الله على الأحوال كلها:

أي أن الله عزّ وجل بصير، يعرف ما أنت عليه، من إيمان، من توكّل، من إخلاص، من طهارة، حالك مكشوفٌ عند الله عزّ وجل، وفي ضوء حالك يسوق الله لك ما يناسبك، فإذا كنت صافي السريرة، طاهر الطويّة، مخلص النية، إذا ابتغيت بعملك وجه الله عزّ وجل والله يعلم ذلك، فاطمئن بأن الأمر كله بيد الله..

((ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

أقول لكم أيها الأخوة... إن هذه المعارك التي خاضها النبي وأصحابه ؛ معركة بدر، معركة أحد، معركة الخندق، حُنَيْن، هذه المعارك يمكن أن يعيشها الإنسان بشكل مُصَغَّر، فأحياناً يعتدُّ بعلمه فيرتكب حماقةً لا توصف، أين علمك ؟ أي عقلك ؟ يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها، فيؤتى من مأمنه، إذاً هذه الوقائع وهذه الغزوات يمكن أن نمر بها على شكل فردي، أو على شكل مخفف، أو على شكل صغير، فليست العبرة من هذه الدروس أن نقف على تلك الأحداث التاريخية، لقد مضت، وانقضت، ومات أهلها؛ بعضهم استشهد، وبعضهم مات حتف أنفه، وبعضهم، وبعضهم، ومضى عليهم ألفٌ وخمسمائة عام، أما الدروس والعِبَر التي يمكن أن نستنبطها من هذه الغزوة نستفيد بها كل يوم.

فأحياناً الله عزّ وجل يلوح لك بشبح مصيبة، فأنت إذا كان إيمانك قوياً تعلم علم اليقين أنها بيد الله، وأن الله قادرٌ على أن يوقعها بك، وقادرٌ على أن يصرفها عنك، ولأتفه الأسباب، فالله عزّ وجل حينما ينصر المؤمن قد ينصره بسبب صغيرٍ جداً، فخيوط العنكبوت التي نسجت على مدخل غار ثور، هي التي نصرت هذه الدعوة الإسلامية، لسببٍ صغيرٍ جداً، أحياناً يلقي الله في قلب خصمك الخوف منك، شيء لا تراه أنت بعينك، أحياناً خصمك لا يراك، هو ينتظرك ولكن لا يراك، وأحياناً ينتظرك ويراك وفجأةً يلقي الله في قلبه العطف عليك، وأحياناً يلهمك ما يُبْطل تدبيره، الأمر كله بيد الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك، وإذا كنت مع الله لا أحد يستطيع أن يقترب منك، إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ (9))

يا ترى أليس في حياة أحدنا يومٌ عظيمٌ من أيام الله ساق الله له نية الخير، أو صرف عنه شراً ؟ فلا أعتقد أن هناك مؤمن تخلو حياته من أدلةٍ قاطعةٍ على أن الله هو المتصرّف، وأنه سميعٌ، بصيرٌ، مجيبٌ، عليمٌ، قديرٌ، غَنِيٌّ، يصرف هذا الشيء لمن يشاء، وعمن يشاء، بقدر، وبتقدير، وبحكمة..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(9))

يرى ويبصر، لذلك قال بعضهم: الحمد لله على وجود الله، أي أنك مع الله فالقضية سهلة معك، لا يريد يمينا، يعرفك، لا يريد وصلاً، ولا يريد دليلاً، ولا يريد إثباتاً، كل هذه الأدلة التي يبحث عنها الناس ليثبتوا حقيقةً أمام القضاة، الإنسان مع الله معفىً منها، لأن الله مطلعٌ على حقيقتك.

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))

[صحيح البخاري عن عمر]

(وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ (10))

صورة مِن صور الخوف يوم الخندق:

1 – الحصار البري الكامل:

هؤلاء اليهود من خلف ظهورهم.

(وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ (10))

من الوديان المقابلة للمدينة، من فوقكم اليهود، ومن أسفل منكم قريش ومن لف لفّها، وربنا عزّ وجل صوّر الخوف الشديد الذي أصاب المؤمنين والقلق البالغ بصورتين..

(وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ (10))

2 – زيغ الأبصار:

الإنسان دائماً ينظر إلى شيءٍ ما ويركز عليه بصره، فإذا وقع في اضطرابٍ وحيرةٍ، وخوفٍ، وقلقٍ دارت عيناه، لو وقف رأسه تتحرك عيناه يمنةً ويسرةً، باضطرابٍ شديد، حركة العين المضطربة يمنةً ويسرةً هو زيغ البصر، وزيغ البصر كنايةٌ عن قلق الضمير، فهؤلاء أصحاب رسول الله وعدوا بأن تفتح عليهم بلاد قيصر وكسرى، وعدوا بأن يكونوا خلفاء الله في الأرض، معهم رسول الله، يوحى إليه، القرآن يتنزل عليه، هم على حق.

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِين)

فجأةً رأوا أن الأعداء من كل جانب، وأن بقاء الإسلام قضية ساعات، وينتهي الإسلام، وتنتهي هذه الدعوة، وينتهي هذا الدين، ويقتل النبي وأصحابه، وتعود الجاهلية كما كانت، ويشرب الخمر، ويُلْعَبُ بالميسر، ويتعامل بالربا، وتعود القَيْنَات والمزامير، إنها مشكلة خطيرة جداً، أين وعود النبي ؟ أين إشراقاته ؟ أين وعد الله له ؟ أين تطمين الله له ؟

(وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ (10))

3 – بلوغ القلوب الحناجر:

أي أن بينهم وبين اليأس قيد أنملة، لكن الأصعب من هذا كله قد تزيغ العين، وقد يبلغ القلب الحنجرة.

4 – سوء الظن بالله عزّ وجل:

أما أن يظن الإنسان بربه ظن سوء ؟!

والله الذي لا إله إلا هو إن أكبر مصيبةٍ يصاب بها المؤمن أن يسئ الظن بربه.

إسقاط على الواقع:

أحياناً يرى أن أهل الكفر والضلال مسيطرون، وأن مشيئتهم هي النافذة، وأن أهل الإيمان مستضعفون، لهذا فالنبي عليه الصلاة والسلام كلماتٌ دقيقة لا أنساها، حينما خاطب عدي بن حاتم قال له: **"لعله يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم "** ـ المؤمنون فقراء، أحياناً الإنسان يرى المؤمنين جماعة دراويش (لا شأن لهم)، فقراء، يعيشون على هامش الحياة، بأعمال متواضعة جداً، دخلهم قليل، أهؤلاء الذين يحبهم الله عزّ وجل ؟! وأهل الكفر والضلال في مراكز رفيعة، وغنى، وقصور وبيوت، وأموال طائلة، فأحياناً الإنسان يذهب إلى أوروبا، إذا كان ضعيف الإيمان يتزلزل إيمانه، أمم تعيش برفاه كبير، بنِعَم لا تعد ولا تحصى، فكلابهم يأكلون من اللحم أضعاف ما يأكل شعبٌ بأكمله من اللحم، فيتساءل: أين الله ؟! هؤلاء يفسقون، ويفجرون، ويشربون الخمر، ويزنون، نساؤهم كاسياتٌ عاريات، يتعاملون بالربا، وهم أقوياء، أغنياء، متجبّرون، لو قرأ الإنسان القرآن لعرف الحقيقة، قال:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

بطولتك أن تثق بالله عزّ وجل، وأن العاقبة لك، والله الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يضيع مؤمناً، أنت تتعامل مع خالق الكون، مع القوي، مع العزيز، مع الذي بيده كل شيء، مع الذي بيده كل خصومك، أرواحهم بيده، خواطرهم بيده، قلوبهم بيده، قوتهم بيده، فلذلك إذا ادعيت أنك مؤمن فالإيمان غير كافٍ، فربنا عزّ وجل يضعك في ظرفٍ صعب ابتلاءً لدعواك واختباراً..

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ (11))

قال:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا(10))

ألم يقل محمدٌ: تفتح لكم قصور قيصر وكسرى، ونحن لا نقدر أن نقضي حاجة، أين رسالاته ؟ الله تخلى عن المؤمنين، نصر الكفار، قوّاهم، هم متجبرون وأيّدهم بقوته، وجعلهم الأعلون، فأين إذاً وعود الله عزّ وجل ؟

إذا التقى الإنسان بأخ كريم يأتي للمساجد، يحضر دروس علم، يقول لك: أنا إذا استقمت أرتاح، وتكثر زبائني، وأحس براحة، فيستقيم، فيجد أموراً صعبة يواجهها، صعبة جداً، فبماذا تكلم الأستاذ ؟ تقول له: أنت أتيت لمصلحة، ما دامت جئت لمصلحةٍ فلن تجد حاجتك، يجب أن تحب الله من دون شائبة، فكل إنسان يتوهم أنه إذا استقام سيعيش في بحبوحة كبيرة، يريد أن يترفّه، والناس يعظمونه، قد يكون هذا وقد يحصل، وفي أغلب الظن يحصل، أما إذا أردت من الاستقامة الدنيا فهذه استقامةٌ تجارية، من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا كافأناه، فالصحابة الكرام..

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10))

من صور سوء الظن: لا تقتلوا عمي العباس:

والعياذ بالله، سيدنا العباس عم رسول الله، أسلم قبل معركة بدر، وبقي في مكة عيناً للنبي، وكان يقدِّم له المعلومات أولاً بأول، معلومات من أعلى مستوى، فحينما تأتمر قريش على النبي، حينما تزمع أن تغزوه، حينما تدَبِّرُ له خطة، هذه المعلومات تصل إلى النبي فوراً، فيأخذ احتياطاته، فكان للنبي قيادة ذات مستوى رفيع جداً، جاءت معركة أحد، وخاف أن يقتله أصحابه، يقتلوا عمه، فقال عليه الصلاة والسلام: **"من رأى عمي العباس فلا يقتله "** ـ لكن صحابياً قال في نفسه: **" نحن نقتل آباءنا وينهانا عن قتل عمه ؟! نقتل آباءنا وإخواننا وينهانا عن قتل عمه**، النبي لا يستطيع أن يقول: عمي مسلم، إذا قال له: مسلم، انكشف، انتهى، انتهت مهمته بمكة، ولو أعلن سيدنا العباس عن إسلامه لانتهت مهمته، ولو لم يوجه أصحابه بعدم قتله لقتلوه، بالمعركة، وإذا لم يخرج معهم للمدينة ينكشف أيضاً أمره، فيجب أن يصحبهم للمعركة فالنبي قال: **" من رأى منكم عمي العباس فلا يقتله "**، لأنه لو قال: عمي لقد أسلم، لشاع الخبر، وانتهت مهمته في مكة، ولو لم يوجِّه أصحابه بهذا التوجيه فهناك مشكلة ثانية، قد يقتل في معركة أحد.

فقال هذا الصحابي بعد أن كشفت له الحقيقة ؟ بعد أن ظن بالنبي ظن السوء، إنه ينهانا عن قتل عمه، ونحن نقتل آباءنا ؟! فصارت هذه قضية عصبية، بعد أن كشفت له الحقيقة، هذا الصحابي ظل يصلي ويصوم، ويفعل الصدقات، ويعتق، لعل الله يغفر له هذا الظن السوء بالنبي عليه الصلاة والسلام، فكيف لو ظن الإنسان بربه ظن السوء ؟ فقد تجد أحياناً من يقول: الله يريد أن يعذبنا، لا يحبنا، يقول لك:

المسلمون متخلفون، فقراء، مُقَدَّرَاتُهُم بيد عدوهم، هكذا يرغي ويزبد، كأن الله ليس له علاقة بالموضوع. أما هنا:

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10))

لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن حسن الظن بالله من حسن العبادة))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

لا بد من حسن الظن بالله:

البطولة أن تحسن الظن بالله، وأنت في مشكلة، فقد يقول لك الشيطان: أين الله ؟ انظر ماذا فعل بك ؟ أنت الصائم، المصلي، الطائع، من روّاد المساجد، تغض بصرك، دخلك حلال، انظر ماذا فعل بك، انظر إلى جارك ؛ يزداد قوة، ومنعة، واستعلاء، وغنى رغم أنه غارق في المعاصي، أهكذا الله يعامل عباده ؟ هذا كلام الشيطان، هنا جاء دور الشيطان.

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10))

أما المؤمن فلا يبالي، مهما علا أهل الكفر.

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران)

فأصعب مصيبة:

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10))

لهذا سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: **<< الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني >>**، فكل شيء في غير دين المرء ممكن محتمل، أما أن تسئ الظن بالله الذي خلقك، والذي أكرمك، والذي منحك نعمة الوجود، والذي منحك نعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، تسيء الظن به فلا ! قال تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11))

غزوة الخندق ابتلاء وزلزال:

ذكر لي مهندس أنه: إذا كانت شرفةٌ فيها شقوق، ما العمل ؟ هناك نظام التحميل، يضعون عليها عشرة براميل ممتلئة بالماء، فإذا انهارت هذا هو المطلوب، لأنها سيئة، وإذا صمدت، معناها جيدة جداً، فهذه الشقوق ليست لها قيمة، هذا اسمه نظام التحميل.

وهذا النظام معمول به عند ربنا عزّ وجل إذ يحمِّل المؤمن أحياناً مشكلة، إذا انتهى إيمانه يكون عرفه بنفسه، وعرف الناس به، معناها أن دعواه كبيرة جداً، وهو ليس بهذا المستوى، يدعي بأنه مؤمن إيماناً قوياً، وإيمانه ضعيف، فمن أجل هذا الضغط القليل ترك الصلاة، فأكثر شيء يصيب الإنسان الضغط والإغراء، وسيلتا الامتحان إما إغراء مالي أو شهواني، أو ضغط مادي أو معنوي، بالضغط والإغراء تظهر حقيقة الإنسان.

لقد عرضوا على رسول الله في مكة أجمل فتاة يزوجونها له، عرضوا عليه أموالاً طائلة، عرضوا عليه زعامة قريش، فما زاد على أن قال:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

وهكذا المؤمن، فالدنيا كلها بالنسبة للمؤمن تحت قدميه، الدنيا كلها مسخرةٌ للحق، هو عبدٌ لله وهي مسخرةٌ لها، وليس هو عبداً له، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ، وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ))

[سنن ابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11))

مرة قلت لكم: لكي يمتحنوا قوة تماسك الإسمنت يصبُّون مكعبات من أنواع مختلفة، يضعون هذا المكعب بين فكّين، فك لاقط، وفك حامل، يضعون بالفك التحتاني وزناً على ألف غرام يكسر، لأن طاقته ألف غرام، وهذا النوع على ألفين غرام، هذا على ثلاثة آلاف غرام، فكلما كان تماسك الإسمنت أقوى، كانت قوة تحمله أقوى.

والمؤمن كذلك، فهناك مؤمن من جراء كلمتين يهدَّد بهما يترك الصلاة، فمعنى هذا أنه ليس مؤمنا، بينما تجد مؤمنا لا يعصي الله ولو قُطِّعَ إرباً إرباً، أحدٌ أحد، فردٌ صمد، كسيدنا بلال.

لما وقف أبو سفيان زعيم قريش الكبير على باب عمر، وقف ساعاتٍ طويلة فلم يؤذن له، أما بلال وصُهيب فيدخلان بلا استئذان، فلما دخل عليه عاتبه، قال له: **زعيم قريش يقف في بابك ساعاتٍ طويلة، من دون أن تأذن له، وصهيبٌ وبلال يدخلان بلا استئذان ؟** قال: **أنت مثلهما ؟ أين كنت عندما كان بلال يقول: أحدٌ أحد، فردٌ صمد، أين كنت أنت ؟** قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا(12))

هذا هو موقف المنافقين في كل عصر ومصر:

المنافقون ومن كان في قلبه مرضٌ من المؤمنين، مؤمن لكن قلبه يتملكه خوف، مؤمن لكن إيمانه ضعيف، مؤمن فيه زَيْغ..

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا(12))

ظهر واتضح أن كلامه لا معنى له، فارغ، كلها وعود، ليس لها أساس، لا رسالة، ولا نبوة، الشيء انتهى، هذه تخمينات المنافقين ومرضى القلوب..

(وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا(13))

مِن أقوال ومواقف المنافقين: يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا

معنى الرجوع:

قال بعض المفسرين يعني: ارجعوا عن هذا الدين وعودوا إلى وثنيتكم، هذا الدين لم يأتنا بخير، وقال بعضهم: ارجعوا إلى المدينة، لأنهم في الخندق، بيوتهم في المدينة وهم في الخندق.

(وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ (13))

أي أن هذا المقام غير جيّد، هذا مقام الهلاك، هذا مقام القتل، هذا مقام التدمير، لا مقام لكم فارجعوا، إما فارجعوا عن دينكم، وعودوا إلى جاهليتكم، أو ارجعوا إلى بيوتكم، فهي أحصن لكم من هذا المكان، أنتم هنا مقتولون لا محالة، قومٌ أشداء، عشرة آلاف مقاتل، والصحابة كان عددهم ألفًا فقط، وهم الذين حفروا الخندق بما فيهم الصغار، والكفار عشرة آلاف، فارجعوا..

(وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ (13))

استئذان فريق من المنافقين النبي لمغادرة مكان المعركة:

أحيانا يقول أحدهم: يا رسول الله بيتي خطر، عليه مدخل، أعداء كُثُر، أخاف على زوجتي، وعلى أولادي، فهل تسمح لي أن أذهب ؟ فيجيبه الرسول بما معناه: اذهب،، والثاني يريد أن يذهب كذلك إلى بيته، فيستأذن للهرب من أرض المعركة.

(وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ (13))

معنى: إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ

أي فيها مركز ضعف، عليها مدخل، واليهود أشدّاء أقوياء، والآن اليهود متفرّدون بالمدينة، ونحن في الخندق، ائذن لنا يا رسول الله.

(يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ (13))

الله مطّلع، قال سبحانه:

(وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ (13))

أي أنهم كذابون..

(وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13))

من صفات المنافقين:

1 – الفرار في وقت الشدة:

شاهد أنّ الموت قريب جداً فيريد أن يهرب، يقول لي يا أخي: ألف كلمة: جبان ولا الله يرحمه، يريد أن يهرب، لا يريد هذه المعركة.

(وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا (14))

2 – المسارعة إلى الكفر وقت الخوف من القتل:

لو كانوا في بيوتهم، ودخل عليهم العدو، وأمرهم أن يدعوا هذا الدين، وأن يعودوا كفاراً بعد إذ آمنوا، لكفروا..

(وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ (14))

أي أن يكفروا... وأن يعودوا إلى جاهليتهم ووثنيتهم..

عتاب الله على المنافقين نكثهم العهود:

(وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا(15))

أحياناً يحج الإنسان، في المسعى، في الطواف، في عرفات يقول: يا رب، أعاهدك على الطاعة، وهذا شيء جميل، ولكنه عندما يرجع من الحج، وعرضت له معصية أو مخالفة، فإذا اقترفها أو يتناسى أنه

عاهد الله على الطاعة، ولا يوجد حاج أو معتمر إلا ويعاهد ربه على قائمةٍ طويلةٍ مما كان يعمل قبل أن يتوب، يا رب، لا أعود إلى هذه المخالفة، ولا إلى هذه، ولا إلى هذه، ولا إلى هذه، فإذا إلى بلده، فبعد شهر أو شهرين، تجده قد عاد إلى ما كان عليه، فالله عزّ وجل يقول: ألم تعاهدني على كذا وكذا ؟ فالله يعاتبهم..

(وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللّهِ مَسْئُولًا(15))

وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً

أنت انتبه، فمن تعاهد ؟ أنت تعاهد خالق الكون، تعاهد الإله، تعاهد رب العالمين، تعاهد من بيده كل أمرك، من بيده مصيرك، تعاهد مَنْ ؟ فإذا اتفق الإنسان مع شخص عادي، يمكنه أن يقول لنفسه: لا تعبأ به، وشق العقد، لكن كلما كان الطرف الثاني عظيما فإلغاء العقد لم يعد قضية سهلة، فعليه ضغط أدبي، وضغط معنوي، فإذا كنت قد عاهدت خالق الكون على التوبة، على الطاعة، على أن تفعل هذه الطاعة، على أن تدع هذه المعصية، هذا عهد الله كان مسؤولا، الآن ربنا عزّ وجل، يأتي على قدر عقولهم، قال:

(قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ (16))

لا ينفع الفرار من القتل لأن الموت مصير كل مخلوق:

لو فرضنا فررتم، والصحابة قتلوا عن آخرهم، وهؤلاء الذين فروا إلى بيوتهم نجوا من الموت، لكن وبعد ذلك ؟ ثم ماذا ؟ لا بدّ من أن يموتوا، لابدّ من أن يقتلوا بعد حين، إذاً: لو نجوت من الموت مؤقتاً فإنك لا تنجو منه أبداً، لابدّ من الموت، كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت..

الليل مهما طال فلا بـدّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر

***

و:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامت ه يوماً على آلةٍ حدباء محمول

فإذا حملت إلـى القبور جنازةً فـاعلم بأنك بعدها محمول

***

(قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا(16))

متاع الدنيا ساعات معدودة:

كلها سنوات قليلة.

راكب أحد الناس سيارته ـ والقصة من سنتين ـ في شارع من شوارع دمشق جاءته أزمة قلبية، أخذوه إلى المستشفى، وهو في العناية المشدد طلب آلة تسجيل، وسجّل شريطاً بكلام نفسه، فذكر فيه: أن المحل الفلاني ليس لي، فهو لإخوتي قد أخذته منهم غصباً، صرّح تصريحات دقيقة جداً، المحل أعطوه لإخوتي، شعر أنه المواجهة قريبة، بعد يومين رجع معافى صحيحاً، الأزمة خَفّت، وشعر بصحة، طلب الشريط المسجل عليه اعترافاته، أخذه وكسره، ألغاه، ورجع إلى القديم، عاش بعد ذلك ثمانية أشهر، ثم مات، فهذا أرسل الله له إنذاراً ليصحو من غفلته، فلما شعر بالصحة رجع إلى ما كان عليه، ثم مات، وسوف يواجه عمله عند الله عزّ وجل..

(قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا(16))

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

(قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(17))

لا عاصم ولا ولي ولا نصير إلا الله:

الأمر كله بيد الله، فإذا هرب الإنسان من معركة، قد يجد موتاً في بيته، وقد يموت بحادث، أحدهم له مكان على الخط الأول في مواجهة العدو، بذل وسائط مخيفة، إلى أن انتقل إلى الأعماق، مات هناك في الأعماق في اليوم التالي..

من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوّعت الأسباب والموت واحد

****

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ (18))

ظاهرة سيئة: المثبّطون في كل زمان ومكان:

هؤلاء المثبطون، وهم في كل عصر موجودون، إذا رأوا إنساناً ينفق ماله، يقولون له: لماذا تريد وجع الرأس ؟ خبئ قرشك لنفسك، لا تصغر عقلك، وإن حضر مجلس علم، يقولون له: هذا كله تعرفه، وإن عمل أعمالا صالحة قيل له: لا تصغر عقلك، الناس لا يرحمونك، تجده إن تعلم يُلام، وإن أنفق ماله يلام، وإذا استقام يقولون له: لا تشدد كثيراً، الله لن يحاسبك، ضعها برقبتي، هؤلاء هم المعوقين..

(قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ الْمُعَوّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمّ إِلَيْنَا (18))

ماذا تريدون من هذه المعركة، فالمدينة فيها أماكن رطبة، فيها بساتين، وظلال، فيها ينابيع، وفيها رُطَب، فيها فواكه ومجالس أُنس، اجلس اجْلس..

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

(قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ الْمُعَوّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلّا قَلِيلًا (18)أَشِحّةً عَلَيْكُمْ(19))

لا خيرَ في المثبّطين والمعوّقين:

أي ليس منهم خيرٌ إطلاقاً، لا يقدمون خيراً لا معنوياً، ولا مادياً، ولا أدبياً، ولا نصيحة، ولا خبرة أبداً..

(فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ (19))

مِن دأبِ المثبّطين والمعوّقين:

1 – الطعن في الأنبياء والمستقيمين:

يطعنون في رسول الله والمؤمنين، وهذا حال كل إنسان بعيد عن الله عزّ وجل يسئ الظن بالآخرين، هذا له هدف، هذا له نيّة، هذا يريد أن يكثر جماعته، هذا يريد مالاً، دائماً يسئ الظن بالصادقين، المنحرف والمقصر يسئ الظن بالمخلصين، ويتهمهم بشتّى الاتهامات..

(فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(19))

ما دام لم يؤمن إذاً عمله سيّئ، والذي آمَن عمله طيّب..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

هو نفسه..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

إذا لم يؤمن الإنسان يتهم الآخرين المؤمنين، وينتقص من عملهم، ويقلل من شأنهم، ويحاول أن يفسّر عملهم تفسيراً أرضياً وصولياً.

2 – الخوف الدائم:

من شدة الخوف الذي أصاب المسلمين، أو أصاب بعض المنافقين قال:

(يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا (20))

الأحزاب ذهبوا، والرياح اقتلعت قدورهم، وخيامهم، وأطفأت نيرانهم، وولوا على أدبارهم، ولا يزال الخوف مسيطراً عليهم..

(يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ(20))

3 – البعد عن أماكن القتال:

أي لو عاد الأحزاب مرةً ثانية، يتمنى هذا المنافق أن يكون بيته في أقاصي الدنيا، في البادية..

(يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20))

الآن الله عزّ وجل يوجّه المؤمنين:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (21))

الرسول هو القدوة الكاملة للمسلمين:

هو القدوة ؛ في صبره، في شجاعته، في حِلْمِهِ، في جهاده، في لُطْفِهِ، في رحمته، في تحمُّل الشدائد، في معاناة الخطوب..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

فإذا كان إنسان يشغل وظيفة معيّنة، والتقى مع تاجر، أو التقى مع إنسان له عمل غير عمله، فلا يقتدي به، لكن دائماً التاجر يقتدي بتاجر أكبر منه، كيف عقد الصفقة ؟ كيف ربح ؟ والموظف يقتدي بموظف أرقى منه، فالإنسان إذا أراد الله واليوم الآخر، بشكل أو بآخر يصبح النبي قدوةً له، أما إذا أراد الدنيا، قدوته زيدٌ وعُبَيْد، لن يكون النبي قدوةً لك إلا إذا أردت الله واليوم الآخر، إذا كان في قلبك إرادة مصممة على طلب مرضاة الله عزّ وجل، بشكل طبيعي وعفوي يصبح النبي قدوةً لك ؛ هكذا صلّى النبي، هكذا ذكر النبي، هكذا دعا النبي، هكذا صبر، هكذا تحمّل، هكذا عامل زوجته، هكذا عامل إخوانه، ما دام قصدك الله عزّ جل، ما دام قصدك أن ترضي الله عزّ وجل، وأن تبلغ الآخرة بسلام، عندئذ يصبح النبي عليه الصلاة والسلام قدوةً لك..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

مِن علامة كون النبي قدوة للمسلم رجاؤه اللهَ:

علامة كون النبي قدوةٌ لك أن ترجو الله، وترجو ما عنده، واليوم الآخر، وتذكر الله كثيراً.

موقف المؤمنين الصادقين من العدو:

أما المؤمنون فكان لهم موقف آخر:

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ(22))

وماذا قال الله سبحانه ؟ قال:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

(وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)

(سورة البقرة: من الآية 214)

فالمؤمن يعلم أن أمامه امتحاناً..

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا(22))

1 – الأحداث الطاحنة تزيد في الإيمان:

فالأحداث الطاحنة تزيد المؤمن إيماناً، يتألّقُ بها، يظهر صابراً، يظهر واثقاً بفضل الله عزّ وجل، يظهر موقِنَاً بعدالة الله عزّ وجل، يظهر واثقاً من رحمة الله عزّ وجل..

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23))

هذا المؤمن، في الرخاء مؤمن، في الشدة مؤمن، في الغِنى مؤمن، في الفقر مؤمن، في الصحة مؤمن، في المرض مؤمن، في إقبال الدنيا مؤمن، في إدبارها مؤمن، في انقباض قلبه مؤمن، في انشراحه مؤمن، لا يتغيّر، عاهد خالق الكون، فانتهى الأمر، والله هذه الآية يطرب الإنسان لتلاوتها أو سماعها:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23))

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

مع سيدنا خبيب:

سيدنا خُبَيْب وضعوه ليصلبوه، وتقدم منه أبو سفيان، إنسان بعد حين سيقتل، وله زوجة وأولاد، أرسله النبي لمهمة، فألقي عليه القبض، واشترته أسرةٌ لتقتله ـ بنو الحارث ـ صلبوه، وتقدم منه أبو سفيان، سأله سؤالاً، قال له: **" يا خبيب، أتحب أن يكون محمدٌ مكانك، وأنت معافىً في أهلك ـ جالس في بيتك، وأمامك زوجتك وأولادك، والمؤونة كاملة، وكل أحوالك مقبلة بالخير ـ أتحب أن يكون محمدٌ مكانك، وأنت معافىً في أهلك ؟ "**، يقول كُتّاب السيرة: هذا الصحابي الجليل انتفض كالعصفور وقال: **" والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة "**، هذا إيمان..

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ (23))

2 - مع الصحابي سعد:

سيدنا سعد، تفقّده النبي فلم يجده، بحثوا عنه وجدوه بين القتلى، ولم يمت بعد، قال له: **" يا ربيعة إن رسول الله أرسله إليك "**، قال: أقرئهُ مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه: لا عُذر لكم إذا خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عينٌ تطرف، كان على وشك الموت، وكانت هذه كلماته، وفيها ما يعكس حقيقة إيمانه.

3 - مع جعفر بن أبي طالب:

سيدنا جعفر، قطعت يده اليمنى أمسك الراية باليسرى، قطعت اليسرى أمسكها بعضديه..

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(24))

كل شيء له ثمن، كل موقف له ثمن، هذا الموقف له ثمن، التخاذل له ثمن، الصبر له ثمن، الثقة بالله لها ثمن، الشك بعطاء الله له ثمن.

(لِيَجْزِيَ اللّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ (24))

فإذا تابوا رحمهم..

(أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (06-18): تفسير الآيات 21 - 27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-11-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السادس من سورة الأحزاب، وصلنا في الدرس الماضي في سورة الأحزاب إلى قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

(سورة الأحزاب)

أهمية القدوة في الحياة:

1 - في الحياة شخصية مأمولة، وشخصية مكروهة، وشخصية موجودة:

هذه الآية مررنا عليها سريعاً في الدرس الماضي، لأنها جاءت في آخر الدرس، ولكن لهذه الآية أهميَّةٌ كبيرةٌ جداً في حياة كل إنسان شخصيَّةٌ يتمنَّى أن يكونها، وشخصيَّةٌ يكره أن يكونها، وشخصيَّةٌ يكونها، أنت لك شخصيَّة، ودائماً هناك نموذج تكرهه، كما أن هناك نموذجاً تعظِّمه، فقل لي من تعظِّم أقل لك من أنت، أهل الدنيا يعظِّمون أرباب الدنيا، أهل القوة يعظِّمون الأقوياء، أهل الأذواق يعظِّمون أصحاب الأذواق، فكل إنسان يعظِّم، ويكبر، ويجل، ويحترم من كان متفوّقاً في حَقْلِهِ، فربنا عزّ وجل يقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (21))

2 - من لوازم القدوة: السير بسيرته:

فمتى يكون النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لك ؟ متى يكون قدوةً لك ؟ متى يكون مثلاً أعلى لك ؟ متى يبقى في ذهنك، في شعورك، في ضميرك ؟ كلّما أقدمت على عمل تتصوَّره، هكذا كان يفعل في البيت ؟ هكذا كان يفعل في بيعه وشرائه ؟ هكذا يعامل أصحابه ؟ متى يكون النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لك ؟ قد تستمع إلى سيرة النبي ولا تفعل فيك شيئاً، ربَّما تتحدّث ساعاتٍ طويلة عن فلان الذي هو ملء سمعك وبصرك، ربَّما تتحدّث أيّاماً وأسابيع عن هذا الإنسان اللامع القوي الغني.

ما الشخصيَّة التي تتمنى أن تكونها ـ هنا ـ وأنت في عفويتك من دون قصد، وأنت تحدِّث نفسك ؟ الإنسان يحدِّث الآخرين بوقتٍ قليل، ويحدِّث نفسه بوقتٍ طويل، إذا سافر الإنسان، ما دام ساكتاً فهو يحدِّث نفسه، مثلاً قلت في سرك: يا ولد ذهابك غير ضروري، هذا حديث داخلي.

الصراع الداخلي وعلاقته بالقدوة:

أحياناً يقع المرء في صراع.

قال لي أحد الأشخاص: لقد كان والدي من كبار التجّار، من تجار الصوف، وأنا غير متعلِّم، وبعيد عن أصول البيع والشراء، فكانوا يقولون لي: إن هؤلاء البدو لا عليك أن تأخذ من أموالهم، هكذا كلام جهل، فذهبت إلى البادية لأشتري صوفاً، وصرت أزوِّر الوزن، فهذا البدوي سمع مني، وأنا أقول: ثلاثة وعشرين كيلو وثمانمئة غرام، هذا شيء جديد، فالغرامات جديدة عليه، فكان مرتاحاً لهذه الأوزان، أما أنا فكنت أحسم عشرة كيلو، فلمَّا تم اشترى هذه الصفقة، شعر البدوي أنه قد غُبن، فقال لي باللغة البدويَّة: إن شاء الله تلقاها في صحّتك.

ثم قال متابعاً: بدأت في صراع من وقت ما غادرت مكان الشراء إلى قريتي (الضمير)، وأنا داخل في صراع، يا ترى أعود إليه لأرجع له الفرق، أعترف له بذنبي، قال: ما زلت في صراعٍ مع نفسي، وفي حديثٍ مع نفسي طويل إلى أن اتَّخذت قراراً، قلت: ضع في الخرج، ثم قال لي: رأيت نفسي بعد حين وسط بركةٍ من الدماء، وقد تدهورت بنا السيارة، وتناثر الصوف، وتناثرت البضاعة، فعلمت أنني عندما اتخذت قراراً فُعِلَ بي ما فُعِل..

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ(79))

(سورة الزخرف)

إذاً: للإنسان حديث نفسي، فأنت تمضي ساعات طويلة، وأنت لا تشعر تحدِّث نفسك، أفعل أو لا أفعل، يجوز أو لا يجوز، ممكن أو غير ممكن، يا ترى هل يرضى الله عني، النبي سيشفع لنا، تأتي أحياناً حجج واهية، فأنت في حديث مع نفسك، ومع الحديث دائماً يلوح في ذهنك شخص مهم تعظِّمه، تُبَجِّله، تحترمه، تتمنّى أن تكون مثله.

لذلك قالوا: في حياة كل منا شخصيَّة نتمنى أن نكونها، وشخصيَّةٌ نكره أن نكونها، وشخصيَّةٌ نكونها، فأنت لك واقع، وفي تصوراتك شخصيَّة دائماً تنظر إليها بإكبار، دائماً أنت متشوّقٌ إلى أن تكون في مستواها، دائماً تتقرَّب منها، دائماً تُقَلِّدها، دائماً تترسَّم خُطاها، دائماً تقفو أثرها، هذه الشخصيَّة التي تتمنى أن تكونها، قل لي من هي أقل لك من أنت، إذا كنت مؤمناً صادقاً الشخصيَّة التي تتمنى أن تكونها، أو أن تكون على طريقها، أو على أثرها، أو أن تترسَّم هُداها هي رسول الله، ما دام هناك

أشخاص كثر من أهل الدنيا، من أهل القوّة، من أهل الأذواق والمواجيد، والمتع الرخيصة، والحفلات، والسهرات، والندوات، والزيارات، وما دام هناك شخص ليس على الحق تراه قدوةً لك ومثلاً أعلى لك، فبينك وبين الإيمان شطرٌ طويل، وما دام الشخص الذي تتمنى أن تكونه ليس رسول الله، بل زيدٌ أو عُبيد، فبينك وبين الإيمان مراحل فسيحة.

فيا أيها الأخوة الأكارم...

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به))

[فيض القدير]

((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))

[من مسند أحمد عن أنس بن مالك]

فربنا عزّ وجل يقرّر حقيقةً كبيرة..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ (21))

أيها المؤمنون..

(فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (21))

وظائف النبي:

النبي عليه الصلاة والسلام له وظيفتان خطيرتان:

الوظيفة الأولى: التبليغ:

الوظيفة الأولى وظيفة التبليغ، وإذا وقفت أمام روضته الشريفة تقول: يا سيدي يا رسول الله، أشهد أنك بلّغت الرسالة، وأدّيت الأمانة، ونصحت الأمّة، وكشفت الغُمّة، وجاهدت في الله حقّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد.أنت اعترفت بمهمّة التبليغ.

الوظيفة الثانية: القدوة الشاملة:

بقيت مهمّة القدوة، مهمة الأسوة التي نصّ القرآن عليها، هل أنت تتأسّى برسول الله في بيعك وشرائك؟ في معاملتك لأهلك وأولادك ؟ في علاقتك بإخوانك ؟ هل تميّز نفسك عليهم ؟ إذاً فأنت بعيدٌ عن الاقتداء برسول الله، النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان مع أصحابه ليعالج شاةً قال:

((وعليّ جمع الحطب))

قالوا: نكفيك ذلك يا رسول الله، قال:

((أعلم ذلك ولكن الله يكره أن يرى عبده متميّزاً على أقرانه))

إذاً: القضيَّة خطيرة ؛ في بيتك، مع زوجتك، مع أولادك، مع جيرانك، في بيعك، في شرائك، لمن يسألك حاجةً، لمن يستغيث بك، لمن تكون فوقه، لمن تكون دونه، يجب دائماً أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لك إذا كنت مؤمناً صادقاً ؛ فإن كان غير النبي عليه الصلاة والسلام من أهل الدنيا، من أهل العلم، من أهل القوّة، من أهل المَنَعَة، من أهل المغامرات، من أهل السياحات، إذا كان هناك رجل دائماً تفكِّر فيه، دائماً تترسَّم خطاه، تقفو أثره، تقلِّده وأنت لا تدري غير النبي، ففي الإيمان ضعفٌ شديد، وبينك وبين كمال الإيمان مراحل فسيحة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ (21))

لِمَن القدوة الحسنة ؟

1 – لمن كان يرجو الله واليوم الآخر:

لكن لمن ؟ لمن النبي أسوة ؟ لمن هو قدوة ؟ لمن هو مثلٌ أعلى ؟ قال:

(لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ (21))

لو انك أزمعت السفر إلى بلدٍ معيَّن، وتعلم علم اليقين أن زيداً من الناس خبيرٌ بهذه البلدة، يعرف كل مداخلها ومخارجها، يعرف كل دقائقها، يعرف أهلها، يعرف مطاعمها، يعرف فنادقها، تذهب إليه ما دمت ترجو أن تزور هذه البلدة، وأن تقيم فيها، تذهب إليه وتسأله: ماذا أفعل ؟

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ(21))

فإذا كان النبيُّ قدوةً لك، ومثلاً أعلى تحتذي نهجه، وأسوةً لك، فأنت ممن ترجو الله واليوم الآخر. وقد يقول قائل: أنا أرجو الله واليوم الآخر، ومع ذلك ليس النبي أسوةً لي في كل شؤوني، أحياناً يوضَع الإنسان في ظرف فيسأل رجلاً من أهل القانون، ماذا أفعل ؟ بينما النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموقف سلك هذا الطريق، فإذا رفضت سنَّة النبي، ورجوت أن تأخذ حقَّك الذي ضمنه لك القانون، ولو كان الشرع ينهى عنه، فليس النبيُّ أسوةً لك، فلذلك جاء التعقيب الآخر:

(وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21))

2 – وذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا

لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41))

(سورة الأحزاب)

فالأمر لا ينصبُّ على ذكر الله ؛ بل على ذكر الله الكثير، فمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً، من لوازم هذا الرجاء الصادق، وهذا الذكر الكثير أن يكون النبي ملء سمعه وبصره ؛ بأقواله، وأفعاله، وسنّته، ورضاه وغضبه، بسلمه وحربه، بعطائه ومنعه، بمودّته وجفوته، بعبادته، بصلاته، بصيامه، بحجّه..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (21))

وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين..

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود: من الآية 112)

ما مقياس الشخصية العظيمة في نظرك ؟!

هذه كلها أدلّة، إذاً: من الممكن أن يكون لدينا الآن مقياس ؛ ما هي الشخصيَّة الكبيرة في نظرك ؟ العظيمة في نظرك ؟ التي تأتيك الخواطر تلو الخواطر كي تقلِّدها، وكي تقفو أثرها، وكي تسير على منهجها ؟

إنّ هذه الشخصيّة إن كانت رسول الله فبَخ بَخ، فذلك محض الإيمان.

إن كنت تهتدي بهدي النبي في معاملة الزوجة فأنت مؤمنٌ وربِّ الكعبة.

إن كنت تهتدي بهدي النبي في البيع والشراء فأنت مؤمنٌ ورب الكعبة.

إن كنت تهتدي بهدي النبي في من أساء إليك فأنت مؤمنٌ ورب الكعبة.

ما الذي يرفع من مكانتك ؟ أن يكون النبي أسوةً لك وقدوة، وحينما طبّق النبي ما قاله بلسانه فقد أقام الحجّة على الخلق، لو أن الدعوة إلى الله عملية كلام لكانت القضيَّة سهلة جداً بالنسبة للكثيرين، ولكن لن يسمح الله لك أن تؤثِّر في الآخرين، ولن يجري الله الخير على يديك إلا إذا حقّقت مهمّتين عظيمتين، مهمّة التبليغ ومهمة القدوة، لذلك قالوا: **" ترك دانقٍ ـ قطعة نقد بسيطة ـ من حرام خيرٌ من ثمانين حجّةٍ بعد الإسلام".**

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لأن أمشي مع أخ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافه في مسجدي هذا))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

متى يكون رسول الله قدوةً ؟

فدائماً هذه الآية قائمة في النفس، متى يكون رسول الله قدوةً لي، ومثلاً أعلى عندي، وأسوةً حسنة ؟ إذا كنت أرجو الله واليوم الآخر، متى تتجه إلى فلان لتسأله عن هذه البلدة، عن فنادقها، عن مطاعمها، عن أجور السفر، عن الإقامة، وتقول له: كيف أسكن ؟ كيف أعيش ؟ كيف آكل ؟ كيف أشتري ؟ إلى أي مكان أذهب ؟ بماذا تنصحني ؟ متى يكون هذا ؟ متى تتجه إلى زيد من الناس لتسأله إيضاحاتٍ كثيرة عن هذه البلدة ؟ إن كنت ترجو أن تزور هذه البلدة، هذا كلام واضح كالشمس، ومتى يكون النبي قدوةً لك وأسوة ؟ إذا كنت ترجو الله واليوم الآخر وذكرت الله كثيراً، فهذا ميزان دقيق جداً يوضَع بين أيديكم، قل لي من تعظِّم أقل لك من أنت، قل لي ما الشخصيَّة التي تحترمها احتراماً كبيراً أقل لك من أنت، لأن الإنسان يعظِّم من كان مِن جِنْسِهِ وعلى شاكلته مسلكاً ونهجاً.

1 – الرسول أسوة في الصبر:

طبعاً النبي الكريم صبر، فهو أسوةٌ لهم في الصبر، تحمّل الشدائد، قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أوذِيتُ فِي اللّه، وَمَا يُؤْذَى أحَدٌ، ولَقَدْ أخِفْتُ فِي اللّه، وَمَا يُخَافُ أحَدٌ، وَلَقَدْ أتَتْ عَلِيّ ثَالِثَةٌ وَمَالِي وَلِبِلاَل طَعَامٌ يَأكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إلاّ مَا وَارَى إبْطُ بِلاَل))

[مسند ابن ماجة]

وجاهد في الله حقّ الجهاد، وأُوذي وما أُوذي أحدٌ مثله وصبر، وقد عُرِضَت عليه الدنيا بكل أنواعها، يزوّجوه أجمل النساء، يجعلوه زعيماً لهم، يعطونه كل الأموال، قال:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتّى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

2 – الرسول أسوة في الحلم:

فأيها المؤمنون لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة ؛ في صبره، في حلمه.. جرَّه أعرابي من ياقة ثوبه، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام.. قال له أحدهم:

((يَا مُحَمَّدُ، اعْدِلْ، قالَ: وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ أكُنْ أعْدِلُ ؟ لَقَدْ خِبْتَ، وَخَسِرْتَ إنْ لَمْ أكُنْ أعْدِلُ))

[صحيح مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

اقرأ السيرة، هذه السيرة ليست للاطلاع وللاستمتاع، بل للتطبيق، يجب أن يكون النبي في سيرته أسوةً حسنة.

3 – الرسول أسوة في الزوج الصالح والأب الناجح:

السيدة عائشة كسرت طبق طعامٍ وقد أصابتها الغيرة، فالنبي عليه الصلاة والسلام بحلمه الشديد قال:

((غَضِبَتْ أمُّكم غَضِبَتْ أمُّكم))

وانتهى الأمر، الآن هي غاضبة، وسكت اللهمَّ صلِّ عليه.

كان زوجاً ناجحاً، كان أباً ناجحاً، كان صديقاً ناجحاً، كان نبياً عظيماً، كان رحيماً، رؤوفاً..

4 – الرسول أسوة في الرحمة والتواضع:

دخل أحد أصحابه فلم يجد له مكاناً في مجلس، فخلع النبي رداءه وقذفه له، وقال: اجلس عليه، فبكى هذا الصحابيّ الجليل، وقال: **" فداك أبي وأمي ما كنت لأجلس على ردائك، أكرمك الله كما أكرمتني"..**

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللّهَ كَثِيرًا(21))

اسأل نفسك سؤالاً محرجاً: ماذا تريد ؟ ماذا ترجو ؟ ترجو الدنيا أم الآخرة ؟..

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كُلا نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ (22))

المؤمن مصدِّق لوعد الله ووعيده مستسلم لقضاء الله وقدره:

المؤمن ـ ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه ـ يعلم علم اليقين أنه مبتلى، وأن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، منزل ابتلاء وامتحان وشدّة.. أوحى ربك إلى الدنيا أن تمرري، وتكدّري، وتشدّدي على

أوليائي حتى يحبوا لقائي.. الله يمتحنك بشبح مصيبة، بشبح مرض فماذا ستفعل؟ هل تقول: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل ؟

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(157))

(سورة البقرة)

الله يمتحنك بالرخاء، يمتحنك بالشدّة، يمتحنك بالصحة وبالمرض، بالقوة وبالضعف، بإقبال الدنيا وإدبارها، يمتحنك بزوجة أحياناً جيّدة جداً أو سيئة جداً.

أحد الناس عنده زوجة سيئة قيل له: طلقها، فقال: والله لا أطلقها فأغشّ بها المسلمين، حتى لا يُغَشوا فيها، أنا تحملتها، يمتحنك بولد بار، فهل تفسده ؟ يمتحنك بولد فاسد، فهل تصبر عليه ؟ يمتحنك بجار سوء، فهل تحسن إليه كما فعل النبي، النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لنا..

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ(22))

فماذا قال الله ؟ قال:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)

(سورة البقرة: من الآية 214)

إنّ الإنسان يُمْتَحَن في كل الأحوال، فإذا جاء امتحان الله يستقبله بالرضى، يستقبله بالثبات، يستقبله بالشكر..

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا(22))

المؤمن شامخ كالجبل، الأحداث الصغيرة لا تُزَعْزِعُهُ..

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23))

أي هُم هم.. هم كما هم.. أنت عاهدت خالق الكون وانتهى الأمر، عاهدته على الطاعة، لا تبدّل إطلاقاً، فمهما تلوّنت الحياة فأنت على ما أنت عليه، الثبات نبات..

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(24))

حَدثان عظيمان يحددان معالم النهاية لغزوة الأحزاب:

الآن قبل أن نتابع الآيات نحن في غزوة الخندق، وفي غزوة الخندق حدثان كبيران ما اتسع الوقت في الدرس قبل الماضي لرواية هذين الحدثين.

سيدنا نعيم بن مسعود، والحدث الثاني سيدنا حذيفة بن اليمان، من خلال هاتين القصّتين القصيرتين تتوضّح معالم نهاية غزوة الخندق.

الحدث الأول: مع نعيم بن مسعود:

إعمالُ العقل:

فنعيم بن مسعود كان من غطفان، وقد جاء ليحارب النبي، لكنّه أعمل عقله، إنما الدين هو العقل، ومن لا عقل له لا دين له.

((أول ما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب))

[تخريج أحاديث الإحياء]

فمن الممكن أن ترقى إلى أعلى عليين حينما تستخدم عقلك النَيّر، ويمكن أن يهوي الإنسان إلى أسفل سافلين حينما يعطِّل عقله، فسيدنا نُعَيْم انظروا بماذا حدّث نفسه ـ قلنا: إن هناك حديثًا نفسيًا.

قال: يا نعيم ـ هو يخاطب نفسه ـ ما الذي جاء بك من تلك الأماكن البعيدة في نَجْد لحرب هذا الرجل ؟ لماذا أنت هنا ؟ لماذا جئت لتحارب هذا الرجل ؟ إنك لا تحاربه انتصاراً لحقٍّ مسلوب، أو حميةً لعِرضٍ مغصوب ؛ وإنما جئت تحاربه لغير سببٍ معروف، لماذا أنت يا نعيم هنا ؟ لماذا أنت حول المدينة ؟ لماذا جئت لتحارب النبي ؟ ـ حدّث نفسه، استخدم عقله ـ ثم أعاد على نفسه الحديث فقال: إنك يا نعيم ما جئت لتحاربه انتصاراً لحقٍ مسلوب، أو حميةٍ لعرضٍ مغصوب ؛ وإنما جئت تحاربه لغير سببٍ معروف، أيليق يا نعيم برجلٍ له عقلٌ مثل عقلك أن يقاتل فيقتل، أو يقتل بغير سبب ؟ هكذا بلا سبب ؟ أن أموت أو أن أُميت بلا سبب، هذه مناقشة عقليّة، ويحك يا نعيم، ما الذي يجعلك تشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح، الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى؟.

التروّي قبل التهجُم والتقييم:

فعلى الإنسان قبل أن يهاجم شخصاً له دعوةٌ إلى الله، له عملٌ طيّب، له إخوان يستقيمون على أمر الله، قبل أن تهاجمه فكِّر ماذا تفعل ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ لوجه من تهاجم فلاناً ؟ لوجه الشيطان، ماذا أفادك أن تهاجمه، وأن تحطِّمه في نظر تلامذته ؟ فالإنسان أحياناً يتحرّك بدافع شيطاني، وهو لا يدري، سيدنا نُعَيْم وقف مع نفسه، وقال: إلى أين أنت ذاهب ؟

أعاد وقال: ويحك يا نعيم، ما الذي يجعلك تشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح، الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ؟ ما الذي يحملك على أن تغمس رمحك في دماء أصحابه الذين اتبعوا ما جاءهم به من الهدى والحق ؟

ولم يحسم هذا الحوار العنيف بين نُعَيْمٍ ونفسه إلا أنه اتخذ قراراً حازماً، وقام لتنفيذه، تسلّل نعيم بن مسعود من معسكر قومه تحت جُنْح الظلام، ومضى يحثُّ الخُطى إلى النبي صلى الله عليه وسلّم، فلمّا رآه النبي عليه الصلاة والسلام ـ طبعاً هناك حواجز، وهناك حراسة، وهناك من سأله، وهناك من استوثق من نِيّته الطيّبة، وهناك من ساقه إلى النبي، فالمسلمون ليسوا هكذا ببساطة، المؤمن كيسٌ فطنٌ حَذِر، ولكن هذه التفصيلات لا تعنينا الآن، فلمّا رآه النبي عليه الصلاة والسلام ماثلاً بين يديه قال:

" نعيم بن مسعود ؟ " قال: نعم يا رسول الله، قال: **" ما الذي جاء بك إلينا في هذه الساعة ؟ "** قال: **جئت لأشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله، وأنّ ما جئت به حق"**، استخدم عقله، فكّر، ارتفع بهذا التفكير إلى أعلى عليين، ثمّ أردف يقول: **" لقد أسلمت يا رسول الله، وإنّ قومي لم يعلموا بإسلامي ـ أسلمت بيني وبينك ـ فمرني بما شئت ".**

أثر إسلام نعيم بن مسعود في قلب موازين معركة الخندق:

وعندما أسلم سيدنا نُعَيْم أجرى الله على يديه خيراً كثيراً للمسلمين يومئذٍ، وأنا أعتقد طيلة تاريخ الدعوة الإسلاميّة ما مرّ النبي وأصحابه في مأزقٍ حرجٍ، وضعفٍ شديد، وكاد اليأسُ أن يتسرّب إلى قلوب أصحابه مثل ما جرى لهم يوم الخندق، لكنّه مع المنافقين تسرّب اليأس إلى قلوبهم، وتمكّن من قلوبهم، حتّى إنهم قالوا:

(مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12))

أيعدنا صاحبكم أن تُفْتَح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، أي أن الإسلام بقي له ساعات، وينتهي.

أقول لكم مرّةً ثانية: ليست معركة الخندق معركة انتصارٍ أو هزيمة ؛ إنما هي معركة بقاءٍ أو فناء، للمسلمين والإسلام على حدٍ سواء، في هذه اللحظة الحرجة أجرى الله سبحانه وتعالى على يدي هذا الصحابي الجليل خيراً لا يعلمه إلا الله، فقال عليه الصلاة والسلام:

((يا نعيم، إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فاذهب إلى قومك، وخذِّل عنّا ما استطعت، فإن الحرب خُدعة))

فقال: **" نعم يا رسول الله، وسوف ترى ما يسرُّك إن شاء الله ".**

ذكاء نعيم بن مسعود في تشتيت وتضعيف الأعداء:

قال كتاب السيرة: فمضى نعيم بن مسعود من ثَوه إلى بني قريظة، هؤلاء الذين خانوا عهد النبي، وهؤلاء الذين أرادوا أن يجعلوا من ديارهم منفذاً إلى ظهر النبي وأصحابه، وهؤلاء الذين اتفقوا مع الأحزاب على أن يستأصلوا النبي، ذهب إليهم، وكان نعيم لهم من قبل صاحباً ونديماً، قال لهم: يا بني قريظة، لقد عرفتم ودي لكم، وصدقي في نصحكم، قالوا: نعم فما أنت عندنا بمتَّهم، قال: إنّ قريشاً وغطفان لهم في هذه الحرب شأن غير شأنكم ـ أي أنتم شيء وهم شيء آخر ـ قالوا: وكيف ؟ قال: أنتم هذا البلد بلدكم وفيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وليس بوسعكم أن تهجروه إلى غيره، أما قريش وغطفان فبلدهم وأموالهم وأبناؤهم ونساؤهم في غير هذا البلد ـ أنتم لكم وضعٌ خاص ـ وقد جاءوا لحرب محمّد، ودعوكم لنقض عهده، ومناصرتهم عليه فأجبتموهم، فإن أصابوا نجاحاً في قتاله اغتنموه، وإن أخفقوا في قهره عادوا إلى بلادهم آمنين، وتركوكم له، قالوا: فماذا ترى ؟.

قال: الرأي عندي ألا تقاتلوا معهم حتّى تأخذوا طائفةً من أشرافهم، وتجعلوهم رهائن عندكم، وبذلك تحملوهم على قتال محمدٍ معكم، إلى أن تنتصروا عليه، أو يفنى آخر رجلٍ منكم ومنهم، قالوا: والله أصبت، أشرت ونصحت.

ثم خرج من عندهم، وأتى أبا سفيان بن حرب قائد قريش، وقال له ولمن معه: يا معشر قريش، لقد عرفتم ودي لكم وعداوتي لمحمّد، ولقد بلغني أمرٌ فرأيت حقاً عليّ أن أفضي به إليكم نصحاً لكم على أن تكتموه، ولا تُذيعوه عني، قالوا: لك علينا ذلك. قال: إن بني قريظة قد ندموا على مخاصمتهم لمحمّد، فأرسلوا إليه يقولون: إنّا قد ندمنا على ما فعلنا، وعزمنا على أن نعود إلى معاهدتك ومسالمتك، فهل يرضيك يا محمّد أن نأخذ لك من قريشٍ وغطفان رجالاً كثيراً من أشرافهم ونسلِّمهم إليك لتضرب أعناقهم، ثم ننضم إليك في محاربتهم حتى تقضي عليهم ؟ فأرسل إليهم يقول: نعم. فإن بعثت اليهود تطلب منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم أحداً.

فقال أبو سفيان: نِعْمَ الحليف أنت ـ جزيت خيرا، لم يخطر على بالنا هذا الشيء ـ وجزيت خيراً ـ كما قلت قبل قليل.

ثم خرج نعيم من عند أبي سفيان، ومضى حتّى أتى قومه غطفان، فحدّثهم بمثل ما حدّث به أبا سفيان، وحذّرهم مما حذّرهم منه.

أراد أبا سفيان أن يختبر بني قريظة ـ الآن الاختبار ـ فأرسل إليهم ابنه فقال لهم: إن أبي يقرئكم السلام ويقول لكم: إنه قد طال حصارنا لمحمّد وأصحابه حتّى مللنا، وإننا قد عزمنا على أن نقاتل محمّداً، ونفرغ منه، وقد بعثني أبي إليكم ليدعوكم إلى منازلته غداً، فقالوا: إن اليوم يوم سبت، ونحن لا نعمل فيه شيئاً، ثم إننا لا نقاتل معكم حتى تعطونا سبعين من أشرافكم، وأشراف غطفان ليكونوا رهائن عندنا، فإننا نخشى إن اشتدّ عليكم القتال أن تسرعوا إلى بلادكم، وتتركونا لمحمّدٍ وحدنا، وأنتم تعلمون أنه لا طاقة لنا به.

فلمّا عاد أبو سفيان إلى قومه، وأخبرهم بما سمع من بني قريظة، قالوا بلسانٍ واحد: خسئ أبناء القردة والخنازير، والله لو طلبوا منّا شاةً رهينةً ما دفعناها إليهم.

الخاتمة السعيدة لغزوة الأحزاب: وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ

سيدنا نعيم شقّ صفوفهم، نجح نعيم بن مسعود في تمزيق صفوف الأحزاب، وتفريق كلمتهم، والقصّة كما تعلمونها، أرسل الله عليهم ريحاً شديدةً اقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وأطفأت نارهم، وعم ظلامٌ شديد، وبردٌ شديد، وخذلتهم بنو قريظة، وتخوّف كل فريقٍ من الآخر..

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ (25))

لهذا يقولون: **" الحمد لله وحده، نصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده ".**

آخر نقطة في القصّة: لما كان يوم فتح مكّة وقف أبو سفيان بن حرب يستعرض جيش المسلمين، فرأى رجلاً يحمل راية غطفان، فقال لمن معه: من هذا ؟ قالوا: هذا نعيم بن مسعود، فقال: بئس ما صنع بنا يوم الخندق، عرف تماماً ماذا فعل بهم، والله لقد كان من أشدِّ الناس عداوةً لمحمد، وها هو الآن يحمل راية قومه بين يديه، ويمضي ليحاربه تحت لوائه !!

المؤمن كيسٌ فطنٌ حَذِر، والحرب خدعة، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى هذا النصر المؤزّر على يدِ رجل.

مرّة سيدنا سعد استنجد بسيدنا عمر بمأزق مع الفرس، فأمدّه برجلٍ واحد، واحد فقط هو القعقاع بن عمرو، كان القعقاع وحده بمثابة جيش، فالرجال معادن فأحياناً واحدٌ كألف وألفٌ كأْف.

الحدث الثاني: مع حذيفة بن اليمان:

في يومٍ شديد البرد:

النقطة الثانية هي القصّة الأخيرة: سيدنا حذيفة بن اليمان قال: كنّا في تلك الليلة ـ وهي من أشد الليالي قبل أن يرتحل المشركون ـ كنا في تلك الليلة صافين قعوداً، وأبو سفيان ومن معه من مشركي مكّة فوقنا، وبنو قريظة من اليهود أسفل منا نخافهم على نسائنا وذرارينا، وما أتت علينا ليلةٌ قَطُّ أشدُّ ظلمةً، ولا أقوى ريحاً منها، فأصوات ريحها مثل الصواعق، وشدّة ظلامها تجعل أحدنا ما يرى أصبعه، فأخذ المنافقون يستأذنون النبي عليه الصلاة والسلام، ويقولون: إنّ بيوتنا مكشوفة للعدو، عند ذلك قام النبي عليه الصلاة والسلام وجعل يمرُّ بنا واحداً وَاحداً، حتّى أتى إلي، وما عليَّ شيءٌ يقيني من البرد إلا مِرْطٌ ما يجاوز ركبتي ـ أصحاب رسول الله كانوا فقراء، برد وخوف، وجوع ـ فاقترب النبي عليه الصلاة والسلام مني، وأنا جاثٍ على الأرض، وقال: **" من هذا ؟ "** من أنت ؟ قلت: **" حذيفة "**، قال: **" حذيفة ؟ تقاصرت إلى الأرض كراهيّة أن أقوم من شدّة الجوع والبرد**، قلت: **" نعم يا رسول الله "**، قال: **إنه كائنٌ في القوم خبرٌ فتسلّل إلى عسكرهم، وائتني بخبرهم "**، أي أنه بمهمة فدائي، فتسلل إلى عسكر المشركين، وائتني بخبرهم، فهناك أخبار غير موثوقة.

في ظرف عصيب وخوف شديد:

قال: **" فخرجت، وأنا من أشدِّ الناس فزعاً، وأكثرهم برداً**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته))

فو الله ما تمّت دعوة النبي عليه الصلاة والسلام حتّى انتزع الله من جوفي كل ما أودعه فيه من خوف ـ كل هذا الخوف الذي كان في قلبي انتُزع ـ وأزال عن جسدي كل ما أصابني من برد تبدد الخوف، وتلاشى البرد ـ فلمّا وليت ناداني عليه الصلاة والسلام، وقال: **" يا حذيفة لا تحدِّثنّ في القوم شيئاً حتى تأتيني "** ـ أنت غير مكلّف بشيء إطلاقاً إلا أن تأتيني بالخبر ولا كلمة ـ قلت: **" نعم ".**

يتسلّل حذيفة إلى صوف المشركين:

ومضيت أتسلّل في جنح الظلام حتى دخلت في جند المشركين، وصرت كأني واحدٌ منهم، وما هو إلا قليلٌ حتى قام أبو سفيان فيهم خطيباً، وقال: يا معشر قريش، إني قائلٌ لكم قولاً أخشى أن يبلغ محمّداً، فلينظر كل رجلٍ منكم من جليسه ـ تفقّدوا جيرانكم ـ فما كان مني إلا أن أخذت بيد الرجل الذي كان عن جانبي، وقلت له: من أنت ؟ فقال: فلان بن فلان ـ لأنه لو سكت لكان الآخر سبقه، وصارت مشكلة، فالمؤمن ذكي، كيّس، الله يلهمه الصواب ـ قلت له: من أنت ؟ قال: أنا فلان بن فلان، وفي روايات أخرى أنه قال: أنا معاوية بن أبي سفيان، وتوجد رواية ثالثة أنه سأل عن شماله فقال: من أنت ؟ فقال له: أنا عمرو بن العاص، فقال له: طيّب، وهنا قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار قرار، لقد هلكت رواحلنا، وتخلّت عنا بنو قريظة، ولقينا من شدّة الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل.

طاعة وحكمة وحنكة وشكر لله:

ثم قام إلى جمله ففكّ عقاله، وجلس عليه، ثمّ ضربه فوثب قائماً، ولولا أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمرني ألا أُحدث شيئاً حتّى آتيه لقتلته بسهم، عند ذلك رجعت إلى النبي عليه الصلاة والسلام فوجدته قائماً يصلي، فلمّا رآني أدناني إلى رجليه وطرح عليّ طرف المرط، فأخبرته الخبر فسُرّ به سروراً شديداً، وحمد الله وأثنى عليه.

إذا أكرم الله الإنسان بشيء فعليه فوراً أن يشكر الله عزّ وجل، حتّى إن النبي عليه الصلاة والسلام كان يسجد سجود الشُكر، الآية الكريمة:

(لِيَجْزِيَ اللّهُ الصّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24) وَرَدّ اللّهُ الّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا(25))

اجعل لربّك كـل عزّك يستقر ويثبت فـإذا اعتززت بمن يموت فإن عزّك ميّت

***

سبحانك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعزُّ من عاديت..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

حديث القرآن عن بني قريظة:

أما الحديث عن بني قريظة فله قصّةٌ طويلة، لخّصها القرآن في آيةٍ واحدة قال:

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ (26))

معنى ظاهروهم أي أعانوهم..

(مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (26))

أي اليهود، أنزلهم..

(مِنْ صَيَاصِيهِمْ (26))

أي من حصونهم..

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا(27))

لكل قصة مغزى:

1 – دعوة إلى إدراك مغزى القصة:

الحقيقة أنه مَن قرأ قصّةً، ولم يفهم معناها، أو لم يقف على مغزاها فهناك احتمال، إما أنه لم يقرأها، أو أن الذي يقرؤه ليس قصّةً، أما كل قصّةٍ لها مغزىً عميق.

2 – مغزى قصة الأحزاب: نصرة الله المسلمين في الضعف والشدة:

ومغزى هذه القصّة أن الله سبحانه وتعالى وأنت في أشدِّ حالات الضعف، وأنت على وشك الدمار والهلاك، يمكن أن يأخذ بيدك وينجيك من كل همٍ وبلاء، وأكبر دليلٍ على ذلك أنه ما من مصيبةٍ على وجه الأرض أعظم من أن تُلقى في ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، والأمل في النجاة صفر.

3 – قانون النجاة: وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ

سيدنا يونس:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

انتهت القصّة، أما التعقيب فصار قانوناً..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

لذلك يا رب، لا كربَ وأنت الرب، لا يحزن قارئ القرآن، إذا فهمت هذه القصّة ـ قصّة غزوة الخندق ـ وكيف أن حياة المسلمين وإسلامهم ودعوتهم كانت على وشك أن تزول، وأن الله سبحانه وتعالى على يدي رجلٍ واحد وهو نعيم بن مسعود، وعن طريق رياحٍ عاتية شديدةٍ، وعن طريق ملائكةٍ أنقذ الله رسوله ودعوته، وتحقّقت نبوءة النبي عليه الصلاة والسلام حينما فُتِحَت على المسلمين بلاد قيصر وكسرى، وخسئ المنافقون وأُصيبوا بالخزي والعار، دائماً كن في خندق الحق، لأن الله هو الحق، ولأن الله قويٌ عزيز، فإذا كنت في صفِّ أعداء الحق فأنت منهزمٌ لا محالة..

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

4 – الباطل إلى زوال:

ولو عمّر الباطل سبعين سنة، ففي النهاية لابدّ من أن يتهاوى كما يتهاوى بيت العنكبوت، وإذا كنت مع الله فلا تخش أحدا، كن مع الله تر الله معك، إذا كنت مع الله كان الله معك، يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ وأكبر مغزى أن المسلمين في بدر حينما كانوا قلّةً ضعافاً نصرهم الله عزّ وجل، فقال:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلّةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 123 ")

أما في حنين كانوا أقوى قوّةٍ في الجزيرة، وقالوا في أنفسهم: لن نُغْلَب اليوم من قلّة..

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التوى:

إذاً من الممكن أن نجمع العلم كله في التوحيد، وقال علماء العقيدة: نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، أعلى درجة في العلم أن ترى أنه لا إله إلا الله، قال: فاعلم أنه لا إله الله، أي لا رافع، ولا خافض، ولا معز، ولا مذل، ولا معطٍ، ولا مانع، ولا ناصر، ولا مُخْذِل إلا الله، أطعه، وتوكّل عليه ولك الدنيا والآخرة، فإذا استغنيت عنه كانت الأرض هوياً تحت قدميك، آخر حديث قدسي:

((ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيّته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطّعت أسباب السماء بين يديه))

كن مع الله تَرَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

***

أطع أمرنا نـرفع لأجلك حجبنا فإنّا منحنا بالرضا مَن أحبّنـا

و لُذْ بحمانا واحتمِ بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خلـقنا

وعن ذكرنا لا يشغلنّك شاغلٌ وأخلص لنا تلقَ المسرّة و الهنا

وسلِّم إلينا الأمر في كلّ ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنـا

***

و سر نحونا في الليـل لا تـخشَ وحشتـنا

فمـا الأنـــس إلا في طيـب ذكـرنا

وجدناك مضطراً يا فتى فقلنا لك:ادعُنا نجبكا

فهل أنت حقاً دعوتنا ؟

دعوناك للإحسان أعرضت نائياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا ؟

***

إن الإنسان عندما يعتمد على الله عزّ وجل، ويحسن العلاقة به ويطيعه، يعيش في حياةٍ لا ترقى إليها حياة الملوك، قال أحد العارفين: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف ".**

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (07-18): تفسير الآيات 28 - 32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-11-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم... مع الدرس السابع من سورة الأحزاب، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29))

(سورة الأحزاب)

خصوصية خطاب الله نبيّه بلفظ الرسالة والنبوة:

1 – تكريم وتفضيل الله نبيّه على سائر الأنبياء:

أولاً: الله سبحانه وتعالى ما خاطب النبي في القرآن الكريم إلا بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

و:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

توقيراً له، وتكريماً، وتفضيلاً له على سائر الأنبياء، خاطب الأنبياء بأسمائهم، قال:

(يَا يَحْيَى)

وقال:

(يَا عِيسَى)

وقال:

(يَا نُوحُ)

ولم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام خطاباً إلا بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

و:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

2 – مقام النبوة يقتضي دوام الصلة بالله:

المعنى الثاني: أن النبوة مقامٌ يقتضي دوام الصلة بالله.

حينما رأى الصدِّيق رضي الله عنه سيدنا حنظلة يبكي في طرقات المدينة، وقال له: **" يا حنظلة مالك تبكي ؟ "** فقال حنظلة: **" نافق حنظلة "**، قال: **"ولِمَ يا أخي ؟ "**، قال: **" نكون مع رسول الله، ونحن والجنة كهاتين "** ـ أيْ إذا جلسنا في مجلسه نسعد، إذا جلسنا في مجلسه نرى الجنة من خلال حديثه، إذا جلسنا في مجلسه ينشرح صدرنا، إذا جلسنا في مجلسه تزول عنا الكروب والأحزان ـ فإذا عافسنا الأهل ـ ذهبنا إلى البيت، إلى السوق، إلى العمل ـ ننسى ـ هذه الحالة الطيبة، الرائعة، المسعدة، هذا التجلي إن صح التعبير، هذا الحال، هذا الصفاء الذي نحن فيه عند رسول الله، فإذا ذهبنا إلى بيوتنا، ومارسنا أعمالنا، ودخلنا في الأسواق، وقيل وقال، وكيت وكيتَ، وهذا الحال فيذهب عنا، إذاً أنا منافق ـ هذا قول سيدنا حنظلة.

سيدنا الصديق لكماله الشديد، ولذوقه الرفيع، ما أراد أن يجعل سيدنا حنظلة وحيداً في هذه الحالة مستوحشاً، قال: **" يا أخي أنا كذلك ـ أنا مثلك ـ انطلق بنا إلى رسول الله "**.

وعند النبي عليه الصلاة والسلام حدَّثاه عن حال حنظلة فقال عليه الصلاة والسلام ـ هنا الشاهد ـ:

((نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم، الملائكة ولزارتكم في بيوتكم))

[مسلم عن حنظلة]

((إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا))

[موطأ مالك]

((لَوْ تَدُومُونَ عَلَى الْحَالِ الَّذِي تَقُومُونَ بِهَا مِنْ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي مَجَالِسِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَعَلَى فُرُشِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَسَاعَةً وسَاعَةً))

[سنن الترمذي عَنْ حَنْظَلَةَ الأَسَيِّدِيِّ]

استنباطات من حديث حنظلة:

يُستنبط من هذا الحديث استنباطان:

الاستنباط الأول:

أن في مجلس العلم صفاءً وتجليًا وراحة نفسية، وهذه يتميز بها مجلس العلم عن المجالس الأخرى.

الاستنباط الثاني:

أن الإنسان لو دامت حالته لكان نبياً، مَن هو النبي ؟ هو الذي على دوام صلة بالله عزّ وجل.

تحذير من فهمٍ مغلوط للحديث:

لكن أيها الأخوة الأكارم، إياكم أن تفهموا من هذا الحديث أن كلمة:

((وَسَاعَةً وسَاعَةً))

أي ساعة طاعة وساعة معصية، لا والله، إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، ولكن ساعة وساعة، ساعةُ إقبال، وساعة فتور، لا أقول: إعراض أيضاً، ساعةُ إقبال وتأجُج، وساعة فتور وهموم، فالإنسان بين ساعةٍ وساعة، أحياناً في صلاته يشعر بحاله طيبة، أحياناً في أثناء الذكر، أحياناً في أثناء تلاوة القرآن، أحياناً في أعقاب العمل الصالح يشعر قبلك الحال الطيبة، وأحياناً يفقد هذا الحال، وما دام مستقيماً فهذه حكمةٌ أرادها الله.

إذاً: النبوّة مقام يقتضي دوام الصلة بالله في النوم وفي اليقظة ؟

من اشتقاقات ومعاني كلمة نبي:

شيءٌ آخر، كلمة النبي مأخوذة من نَبَأ بمعنى ظهر، أي له مكان علي، له مكان شامخ، ومأخوذة أيضاً من كلمة أنْبَأ بمعنى أخبر.

بين النقل والعقل:

1 - دور العقل:

وبعد، فالله عزّ وجل خلق الكون وأودع فينا العقل، وهناك توافقٌ بين العقل وبين الكون، فمن أعمل عقله في الكون حكم حكماً قطعياً بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً، ومربياً حكيماً، ومسيراً قديراً، وإذا أحكم عقله في القرآن رأى من إعجازه الشيء الكثير، فحكم أيضاً بأن هذا القرآن كلام الله عزّ وجل، وإذا عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن هذا القرآن كلام الله، فالذي جاء به قولاً واحدا هو رسول الله، إذاً: كلام النبي عليه الصلاة والسلام تبيانٌ وتفصيلٌ لهذا الكتاب، انتهى دور العقل.

2 - دور النقل:

الآن جاء دون النقل، النبي أخبرنا عن سر الوجود، عن فلسفة الحياة، عن طبيعة الحياة، ماذا بعد الموت ؟ عن الحساب، عن مصير الإنسان، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نارٍ لا ينفد عذابها، حدّثنا عن الصراط المستقيم، وعن حوضه الشريف، وعن العرش، وعن الكرسي، وعن الصحفِ إذا نُشِرَت، وحدثنا عن أصل الإنسان، وعن سر وجوده، وعن طبيعة الخلق، وعن أجدى شيءٍ يفعله في الدنيا، وأعطانا الأوامر والنواهي، أي أخبرنا عن الله، أنْبَأ بمعنى أخبر، من جهة له مقامٌ رفيع، لأن له مهمتين، مهمةً تبليغية، ومهمةٍ أخرى قدوة، أن يكون قدوةً لنا، هذا المقام الرفيع من لوازمه أنه أنبأنا عن الله عزّ وجل، أخبرنا عنه، رسول الله..

(إِنَّمَا إِلَـهُكُمْ اللّهُ الَّذِي لا إِلَـهَ إِلا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا(98))

(سورة طه)

(اللّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ)

(سورة الطلاق: من الآية 12)

بين النبوة والتنبُؤ:

إذاً النبوة من نَبَأ بمعنى ارتفع وظهر، ومن أنْبَأ بمعنى أخبر، لكن التنبُؤ شيء آخر، هذا الموضوع دقيق جداً أتمنى أن أضعه بين أيديكم.

1 – التنبُؤ خاضع لقانون:

متى يتنبّأ الإنسان ؟ إذا عرف القانون، فأنت كمهندس، إذا رأيت جسراً حديدياً نسي المهندس المنفّذ أن يترك بين أجزائه فواصل تمدد، وأنت تعلم علم اليقين أن المعادن، ولا سيما الحديد تتمدد بالحرارة، وأنت في شهر الشتاء القارص، وهذا الجسر مُحكم ورائع، ويؤدي وظيفة كبيرة، تتنبأ وأنت عبد بأن هذا الجسر سوف يلتوي في الصيف، من أنبأك هذا ؟ القانون، تمدُد الأجسام بالحرارة، ما دام المهندس قد نسي فواصل التمدد فهذا الجسر لا بدّ من أن يلتوي، أنت لو قرأت القرآن، ودرست الآيات التي تأخذ معنى القانون، إذا قرأت القرآن، واستنبطت منه الآيات التي تأخذ معنى القانون، وقد عبر الله عنها **" بكلمات الله ":**

(لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)

فإذا أحصيت هذه الآيات مثلاً:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

2 – تطبيق الهدى الإلهي نفيٌ للشقاء الدنيوي والأخروي:

من المستحيل لإنسان يطبق الهدى الإلهي في زواجه، في بيعه، في شرائه، في معاملته، في علاقته مع نفسه، في حواسه، في صحته، في طعامه، في شرابه، في كل شيء، وأن يصاب بضلالٍ في عقله، أو شقاءٍ في نفسه.

إذاً: إذا انطلقت من حبك الشديد لنفسك، من حبك الذي لا يتناهي لذاتك عليك بطاعة ربك، عليك بتطبيق منهج ربك، ولا أريد أن يكون الإنسان ضحية التجريب، لأن هذا الشرع شرع الله عزّ وجل، وهذا القانون قانون الله عزّ وجل، فكل مَن خالفه شقيتْ نفسه، وضل عقله.

فأي إنسان اعتنق عقيدة خلاف ما في القرآن، اعتنق عقيدةً وضعيةً من وضع البشر، فقد ضلّ ضلالاً مبيناً، فما هو الضلال ؟ إنه شيء مخالف للواقع، يفاجأ بعد حين أن هذا البناء الشامخ الذي بناه قد تقوّض وانهار، هذا هو الضلال..

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ)

(سورة طه)

إذا اعتقدت اعتقاداً موافقاً للقرآن فلن تضل، ولن تفاجأ، ولن يأتي يوم يكون الخبر عليك كالصاعقة، وأن هذا الذي اعتنقته أصبح خرافةً، هذا في الإسلام لن يقع أبداً، قد يقع هذا في المذاهب الوضعية، تعتنق مبدأ وتدافع عنه، وتتحمّس له، وتبذل من أجله الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، ثم في نهاية المطاف تكتشف أن هذا المبدأ باطل، وأنه كلامٌ فارغٌ لا معنى له، وأن كل المبادئ التي صدّقها الإنسان مبادئ لا أصل لها في الواقع.

3 – اعتناق المبادئ الوضعية سبب للشقاء الدنيوي والأخروي:

إذاً: هذا الذي يحدث لأهل الدنيا حينما يعتنقون مبادئ وضعية، يصابون بخيبة أمل كبيرة جداً، هذا لن يحدث في الدين أبداً، لأنك مع توجيه خالق الكون، مع الثوابت ؛ خالق الكون، كتابه، رسوله كلها ثوابت، لن يكون في حياتك مفاجأةٌ صاعقة من نوع أن تفاجأ بأن المبادئ التي اعتنقتها مبادئ خُلْبيّة لا أصل لها، لا تستند إلى واقع، لا معنى لها، لم تؤت أكلها إطلاقاً، لم تحقق هدفاً إطلاقاً.

4 – معرفة القوانين الإلهية سبيل إلى التنبؤ بمصير الإنسان:

قانون الاستقامة والتنبؤ بالحياة الطيبة:

إذاً: أنت إذا عرفت القوانين تنبأت، أنت لست نبياً، لكن لو رأيت شاباً مستقيماً، وهو في مقتبل العمر، لا يملك شيئاً، ولا أحد يعرفه، نكرة من نكرات المجتمع، إن رأيته محباً لله ورسوله، مستقيماً على أمره، يحرص على دينه، ورعاً تقياً نقياً، قل له: لك مستقبلٌ زاهر، وتأكد أن هذا الكلام لابدّ من أن يحصل، لأن الله عزّ وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

قانون الربا والتنبؤ بدمار المال:

وإذا رأيت المرابي تنبّأ له بتدمير المال وأنت مطمئن..

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 276)

قانون عدم العفة والتنبؤ بالزواج الفاشل:

إن رأيت شاباً له خبراتٌ قبل الزواج، ذوّاقٌ قبل الزواج، فتنبأ له بزواجٌ شقي، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن اللّه لا يحب الذواقين ولا الذواقات))

[عن فيض القدير شرح الجامع الصغير]

قانون العفة والتنبؤ بالزواج الناجح:

إن رأيت شاباً عفيفاً قبل الزواج فتنبأ له أنه سيسعد في زواجه، لأن زواجه مكافأةٌ من الله عزّ وجل على عفته قبل الزواج، إنها قوانين.

أتمنى على كل أخٍ كريم أن يقرأ القرآن الكريم، وأن يستنبط القوانين.

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(33))

(سورة يونس)

قانون الفسق والتنبؤ بالعذاب:

ما دام الإنسان مقيماً على معصية، ما دام مقيماً على مخالفة، لن يؤمن، لن يُقبل، حجابٌ كثيفٌ بينه وبين الله عزّ وجل، فإذا قرأت القرآن، وعرفت القوانين، أمكنك أن تتنبأ بما سيكون لا من علم الغيب ؛ ولكن من علمٍ بالقوانين تماما كالذي يتنبأ بأن هذا الجسر لابدّ من أن يلتوي في فصل الصيف، لأن المهندس نسي الفواصل، فواصل التمدد بين أجزائه، تنبؤ بالقوانين، فإذا قرأت القرآن.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

قانون الخيانة والتنبؤ بالفضيحة:

لو قرأتم قوله تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(52))

(سورة يوسف)

أيْ أنّ أية خيانةٍ على وجه الأرض لا بدّ من أن تفتضح، مهما كنت ذكياً، مهما أحكمت الأمور، ما دامت خيانة فلابدّ من أن تفتضح، هذا قانون القرآن الكريم.

من القوانين القرآنية: ثلاثة من كن فيه كن عليه:

ثلاثةٌ من كن فيه كن عليه:

1 – البغي:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

(سورة يونس: من الآية 23)

2 – النكث:

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

3 – الخداع:

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ)

(سورة البقرة: من آية 9)

إذا أنت قرأت حديث النبي المستند إلى فهمه الدقيق لكتاب الله، هذه كلها قوانين، بإمكانك أن تتنبأ، وأنا أقول لك: هذا الشيء طيب جداً..

قوانين تحكم علاقات الناس:

1 ـ بشر الزاني بالفقر ولو بعد حين:

2 ـ بشِّر القاتل بالقتل:

تجد أن اكتشاف الجريمة ـ أنا هذا ما أراه ليس صادراً عن ذكاء رجال الأمن الجنائي، ولكن بتقدير قادرٍ ـ بتقدير حكيمٍ، لسببٍ تافهٍ جداً كُشِفَ الأمر، وظهرت الجريمة، وعوقب المجرم وأعدم، بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين، المرابي بشِّره بمحق المال، والمتصدق بشره بنماء المال، كلها قوانين.

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 276)

واللهِ شيء رائع جداً أن تتعرف إلى القوانين التي تحكم علاقات الناس فيما بينهم، شيء رائع جداً، أن تعرف:

3 ـ الطيبون للطيبات:

إذا كنت طيباً صادقاً مخلصاً منيباً، الله سبحانه وتعالى يسوقك شئت أم أبيت لامرأةٍ صالحةٍ، تسرُّك إذا نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إذا أمرتها ؛ وإذا لم تكن طيباً جاءتك مَن هي على شاكلتك، قال الله له:

((عبدي قد عاقبتك، ولم تدر))

فما من شيءٍ أروع للإنسان من أن يطلّع على قوانين حتمية لابدَّ من أن تقع.

إذاً النبي سُمِّيَ نبياً لأنه ظهر مقامه عالياً، من نبأ الشيء أي ظهر، وسُمّي نبياً لأنه أنبأنا بالحق، أخبرنا عن الله عزّ وجل، أخبر عقولنا ما تعجز عن فهمه بذاتها، وإذا قرأت كلام الله وكلام رسوله تجده كله قوانين.

4 ـ قانون القرض والأداء:

من ذلك مثلاً:

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاس يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدّى اللّهُ عَنْهُ ـ فمثلاً أنت استقرضت قرضاً، وفي نيتك الأكيدة أن ترد هذا القرض، الله عزّ وجل ييسر لك الأمور وترد هذا الدين ـ وَمَنْ أَخَذَ أموال الناس يُرِيدُ إِتْلافَهَا ـ أيْ أنْ يأكلها بالباطل ـ أَتْلَفَهُ اللّهُ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أتلفه الله في جسمه ونفسه وماله، تجده أصيب بمرض عضال، دفع كل شيءٍ، وباع بيته، لأنه حينما أكل أموال الناس أراد أن يأكلها بالباطل منذ أن أخذها، هكذا.

5 ـ قانون طلب الدنيا وطلب الآخرة:

وكذلك:

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد عن أنس]

هذه قوانين، ليتك إذا قرأت القرآن، أو قرأت سنة النبي العدنان تكتشف هذه القوانين، وأتمنى عليك أن تكتبها، هذه قوانين قطعية الحدوث، فإذا عرف الإنسان أن هذا التيار تيار صاعق، استخدم آلة مغلّفة بعازل، لأن جهله بهذا الموضوع قد يودي بحياته، وكذلك إذا عرف أن هذا الغاز يسبب انفجاراً، فإذا شَمَّ هذه الرائحة يبادر إلى منع التسرب، ولو أنه ضغط على زر الكهرباء لانفجر البيت، فإذا عرفت طبيعة الغاز فلن تفعل ذلك.

كل مصيبة بسبب مخالفة منهج الله:

أكاد أن أقول لكم: ما من مصيبةٍ في الأرض إلا بسبب مخالفةٍ لمنهج الله، وما من مخالفةٍ بمنهج الله إلا بسبب جهلٍ به، إذاً: أعدى أعداء الإنسان هو الجهل، فإذا أردت أن تتعلم فعليك بالمساجد، عليك ببيوت

الله عزّ وجل، فيها تتعرف إلى كلام الله، إلى سنة النبي، إلى مواقف النبي، إلى سِيَرِ الصحابة، إلى الأحكام الفقهية.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ (28))

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ:

1 ـ نكتة ولطيفة تربوية:

كلمة: (قل) فيها معنى شعوري، ذوقي، فإذا كنت منزعجاً من إنسان فلا تواجهه، ولكن قل لشخص أن يقول له: أنا غضبان عليه، كلمة:

(قُلْ لِأَزْوَاجِكَ (28))

2 ـ حياة النبي عليه الصلاة والسلام الزوجية مفحمة بالتقشف والزهد:

يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام عاش حياةً أساسها الكفاف والتقَشُّف، ذلك لأن النبي عليه الصلاة والسلام لو عاش حياةً فيها البذخ، أو فيها أطايب الأشياء لظن الناس بالدعوة سوءاً، فأراد الله أن ينزّه هذه الدعوة، مع أن الإسلام الذي جاء به النبي لا يحرم أن تأكل، وأن تشرب، وأن ترتدي ثياباً جديدةً، هذا ليس محرّماً، أما النبي فأخذ نفسه بالعزائم، أخذ نفسه بالتقشف وبالكفاف، فلما فتح الله عليه البلاد والغنائم طلبت زوجاته الطاهرات منه أن يرفع مستوى المعيشة، وأن يزيد في النفقة، فاغْتَمَّ عليه الصلاة والسلام، وهذا الغم الذي أصابه لأنه أراد أن يبقى على الخطة التي رسمها لدعوته، أن يكون متقشفاً، أن يكون زاهداً، ألا يتزوّد من الدنيا شيئاً، فحينما أصابه ما أصابه نزل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ (28))

3 – النبي بشرٌ انتصر على بشريته:

قل لهن، قل لهن، وكأن الله يعاتبهن على إيذائهن لرسول الله، وهذه المطالبة للنبي عليه الصلاة والسلام نوعٌ من الأذى، ففي الحقيقة لدينا نقطة مهمة جداً، النبي عليه الصلاة والسلام بشر ؛ لكنه انتصر على بشريته، لو أنه ليس من بني البشر، أو ليس يشعر بمشاعر البشر، ما كانت له هذه البطولة العظيمة، ولأنه بشر، يشعر بما نشعر، ويحس بما نحس، ويتمنّى بما نتمنى، ويتألّم لما نتألم، هو منا، من بني

البشر، لكن حبه لله عزّ وجل غلب عليه فانتصر على بشريته، وجعل الدنيا تحت قدميه، وأراد أن يكون مثلاً أعلى وقدوةً لأصحابه. ألم يقل عليه الصلاة والسلام:

((لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللّه، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، ولَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللّه، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيّ ثَالِثَةٌ وَمَالِي وَلِبِلاَل طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إلاَ مَا وَارَى إبْطُ بِلاَل))

[مسند ابن ماجة عن أنس]

معنى ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يكون متقشفاً، أراد أن يكون بعيداً عن مباهج الدنيا، لئلا يدخل على نفوس أصحابه أنّ هذه الدعوة فيها مغانم كثيرة، وفيها مكتسبات، ولو بالغ الإنسان الداعية في رفاهيّته لظن الناس به الظنون.

أيها الأخوة الأكارم، النبي عليه الصلاة والسلام انتصر على بشريته تماماً، أما نساؤه الطيّبات الطاهرات فكانت تتمنى إحداهن أن تعيش حياةً بمستوى أنها زوجة رسول الله، فطالبته بأن يرفع النفقة، وهذا الصحابي الجليل الذي طالبته زوجته أن يعطيها كيت وكيت، قال: **" اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّتْ إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلكِ ".**

هذه مشكلة الإنسان إذا كان في مستوى، ولم تكن زوجته كذلك ينشأ خلافٍ بينهما فهي تريد الدنيا، تريد الظاهر، وهو يريد طاعة الله عزّ وجل ورضوانه، إذاً هذه مشكلة حُلّتْ بهذه الطريقة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ (28))

إذاً معنى كلمة:

(قُلْ لِأَزْوَاجِكَ)

تحمل لهن عتاباً، لم يقل: يا نساء النبي، هنا قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا (28))

الإنسان مجبول على حب الدنيا والميل إليها:

والحقيقة هذه الآية دقيقة جداً، ما منا واحد إلا ويريد شيئاً، وهذه الإرادات المتنوّعة على كثرتها، وعلى تباينها، وعلى تنوّعها، يمكن أن توضع في حقلين كبيرين، إما أن تريد الله ورسوله والدار الآخرة، وإما أن تريد الدنيا وزينتها، الآن اجلس إلى إنسان يريد الدنيا وزينتها، كأنه ليس معك، فأنت تحدثه عن الله عزّ وجل، عن كتابه، فيجيبك: كم الساعة الآن معك، هل تعرف أن الشيء الفلاني ارتفع ثمنه، هل تدري بذلك ؟ تجد أنك في واد وهو في وادٍ، هو في الأسعار، والتجارات، والأرباح، والصفقات، والبيوت، وأنت في معرفة الله والدعوة إليه، فلو أنك التقيت مع من يحب الدنيا وزينتها تجد الطريق إلى

قلبه مسدوداً، حبك الشيء يُعمي ويصم، قلبه مصفّح بحب الدنيا، ومهما أثرته، مهما تحدثت عن الله، مهما ذكرت له قصةً يذوب لها قلب الرجل المؤمن، لكن هذا لا يتأثر بل، يؤلمه غلاء الأسعار ويفرحه رخصها، يؤلمه أن يخسر ويفرحه أن يربح، أما أن يفرح بمعرفة الله ورضوانه وطاعته فهذا بعيدٌ عنه، فلذلك على الرغم من أن الإنسان له إرادات كثيرة جداً، كل هذه الإرادات يمكن أن تصب في حقلين اثنين..

(إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا (28))

لا حرج في طلب أساسيات الدنيا:

طبعاً إذا طلب الإنسان الحياة الدنيا بأساسياتها، هذا مقبول منه، طلب الزواج، هذا شيء أودعه الله بالإنسان، فطري، أساسي، طلب مأوى يسكن فيه، طلب مورد رزق، طلب ذرية صالحة، هذه كلها طلبات معقولة لا تنتمي إلى حب الدنيا.

إياكم وكبرياءَ قارون:

أما الذي يطلب الشيء الفخم الغالي ليزهوَ به على الناس، وأن يتيه على الناس بما عنده، كما فعل قارون:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

(سورة القصص: من الآية 79)

هذا الذي يريد الدنيا ليباهي بها الناس، ليكسر قلوب الفقراء، ليدخلوا عليه فيريهم ما عنده، ليحدثهم عن رحلاته، وعن مصروفه الكبير، وعن متعه، وعن سهراته، وعن نزواته، وعن حجمه المالي، وعن أرباحه، وعن كذا، وعن نوع ألبسته، وعن نوع مركبته، وعن نوع أثاثه، هذا الذي يريد الحياة الدنيا وزينتها، هذا قلبه مصفّح..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ)

(سورة البقرة: من الآية 88)

لا نتأثر بكلامك، قال تعالى:

(بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 88)

كفرهم بالله عزّ وجل أبعدهم عنه، وجعل قلوبهم مغلفةً.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا (28))

إن الإنسان يريد الزينة، يريد شيئاً يتباهى فيه، يريد منزلاً واسعاً، صالونات، إذا جاء ضيوف يفتح لهم الصالونات، وغرف الضيوف، وغرف الطعام، وهذا شيء يلفت النظر، يزهو كالطاووس أمام ضيوفه..

(إِنْ كُنْتُنّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنّ وَأُسَرِّحْكُنّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28))

تعالين أمتعكن زينة الحياة الدنيا..

(وَأُسَرِّحْكُنّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28))

معنى: أُسَرِّحْكُنَ سَرَاحًا جَميلاً

المعنى الأول:

فبعض العلماء قال: أطلقكن.

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: أنتنّ لستنّ في مستوى هذه الدعوة، أنتنّ على الهامش، فإذا كان الإنسان مطلبه دنيوي صار على هامش الحياة، أما إذا كان مطلبه أخروياً فقد صار في صميم الحياة.

(وَإِنْ كُنْتُنّ تُرِدْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ (29))

المؤمن يريد الله ورسوله:

هذا الذي يقوله المؤمنون الصادقون: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، أي أنك إذا أردت الله عزّ وجل يهون في سبيل هذا الهدف الكبير كل شيء، تتحمّل كل المتاعب، تتحمل الصبر، تصبر عن الشهوات، تصبر على الطاعات، ترضى بالأمر التكويني، ترضى بقضاء الله وقدره، ترضى بنصيبك من الدنيا، إذا كنت تريد الدار الآخرة، فإذاً اهتمامكم نُقل للدار الآخرة، ليس للدنيا..

(وَإِنْ كُنْتُنّ تُرِدْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الْآخِرَةَ فَإِنّ اللّهَ أَعَدّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنّ أَجْرًا عَظِيمًا (29))

القدوة:

1 ـ كل إنسان له مكانة اجتماعية:

الآن دخلنا في موضوع صغير، موضوع القدوة، كل إنسان له مكانة اجتماعية حتى الأب، الأب في بيته قدوة، حتى المعلم، حتى المدير العام للمؤسسة، حتى مدير المعمل، حتى مدير المستشفى، كل إنسان رفعه الله فوق الناس، هذا احتل مرتبة، هذا الإنسان له حساب خاص، أوضح مثل على ذلك، سيدنا عمر حينما جمع أهله وخاصّته، وقال عمر رضي الله عنه: **<< إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله، لا أوتين بواحدٍ وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >>.**

2 ـ أجر الإساءة والإحسان في القدوة مضاعف:

القدوة أيها الأخوة إذا أحسن له أجران، أجره هو لأنه أحسن، وأجر من اقتدى به لأنه قدوة، وإذا أساء يعاقب مرتين، مرةً لأنه أساء، ومرةً لأن الآخرين اقتدوا به في الإساءة، فلان فعل هكذا، وفلان قال هكذا، فلان إذاً أفهم منك، هو سمح بهذا الشيء، وأنت لا تسمح فيه، وهو أفهم منك، وسمح فيه، فكل إنسان له مكانة ؛ مكانة علمية، مكانةٌ وجاهةٍ، فهو من وجهاء المجتمع، مكانة إدارية وأحسن له أجران، وإن أساء عليه وزران، هذا حساب عَلِيّةِ القوم..

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ (30))

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ

في قراءة مُبَيَّنَةٍ، وفي قراءة مُبَيِّنَةٍ، إذا قلنا: مبينةٍ، أي ظاهرٌ قبحها، من يقول: إن الزنا شيء لطيف، وطيب ؟ أعوذ بالله، بل هو شيء ظاهر القبح، وخيانة، وسفاح، وولد غير شرعي، وخوف جريمة، وعقاب، وفضيحة، وفحشاء، الإنسان يُسيئه أن يفشو عنه، السرقة، الغش، الكذب، التدليس..

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ (30))

معنى الفاحشة في حق النبي:

بعض علماء التفسير قالوا: الفاحشة هنا بحق نساء النبي ليست كمعناها بحق الناس، الفاحشة هنا معناها إذا أزعجنَ النبي، وطالبنَهُ فوق ما يملك، وحملنه على أن يغير خطّته في الحياة، وضغطنا عليه، هذه في حق نساء النبي تُعَدُّ فاحشةً، لأن إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام إيذاءٌ لله عزّ وجل..

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ (30))

أي بَيِّنٌ قبحها، بينٌ ضلالها وانحرافها..

(يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ (30))

إنه أمرٌ عظيم وتحذير جليل لزوجة النبي، لأنه: يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ

ذات مرةٍ قال شخصٌ لسيدنا عمر، وقد جيء به شاربا للخمر، وعليه أن يقام الحد، فقال: **<< والله يا أمير المؤمنين إن الله قدّرَ عليّ ذلك ـ هذا ليس ذنبي، كل هذا شُغل سيدك ـ "، فقال سيدنا عمر: " أقيموا عليه الحد مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله، قال له: ويحك إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >>.**

أنت مخير، من قال لك: إنك مجبر على شرب الخمر، من قال لك ذلك ؟ أنت مخير فيما كلفت، ولما قال سيدنا عمر لأهله: **<< من وقع فيما وقع الناس فيه ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >>**، فصارت القرابة من عمر مصيبة، أي أن من المصائب أن تكون قريباً من سيدنا عمر، ابن عمه، ابن خالته، مشكلة، وفي زمان ما تكون القرابة ميزة كبيرة جداً، وتكون في زمان ما مصيبة، فكانت القرابة من عمر مصيبة، لأنه عقاب مضاعف، كل إنسان له مكانة له عقاب مضاعف.

احذرْ أيها القدوة أن تخالف بفعلك ما تقوله بلسانك:

لو فرضنا أن أستاذاً دَخَّنَ أمام طلابه، أستاذ ملء السمع والبصر، هو مثقف، وشخصيته قوية، ومعلومات جيدة، وضابط عمله، فصار ما يفعله شيئاً مبرراً عند الطلاب، مستساغاً، فربما عاقبه الله مرةً على أنه آذى نفسه بهذا الدُخان، ومرة على أنه كان قدوةً سيئةً للطلاب.

إذا كذبت الأم على زوجها أمام أولادها عوقبت مرتين، أمام بناتها، قالت له: لم أخرج من البيت، وهنّ رأينها خرجت ورجعت، وهذه أمهنّ وغالية عليهنّ، فمعناها الكذب وارد، ومقبول، أمهنّ تكذب، وهنّ يكذبن.

إذاً: أيتها الأم سوف تحاسبين عند الله مرتين، مرةً لأنك كذبتِ، ومرةً لأنكِ كنتِ قدوةً سيئةً لبناتكِ. كل إنسان ذو مكانة، وكل إنسان له سلطان، ولو علن شخص واحدٍ، فله حسابٌ خاص، هذا حساب القدوة، عقابٌ مضاعف وأجرٌ مضاعف، أول أجر لك بطاعتك، والثاني لمن اقتدى بك، ويا أيها المسيء أول وزر عليك لإساءتك، والثاني لمن اقتدى بك.

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ (30))

وإذا قلنا: مُبَيِّنَةٍ أي بَيَّنَ الله قبحها في القرآن، إما أنها مُبَيِّنَة في كتاب الله وسنة رسوله، أو أنها مُبَيِّنَة في ذاتها.

(يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30))

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً

يسيراً، ولو كنتنّ نساء النبي.

ولو كنتَ حِبّ رسول الله !!!

سيدنا رسول الله جاءه أحب الناس إليه سيدنا أسامة، كان حِبٌ رسول الله، فيبدو أن امرأةً سرقت، وسوف يقام عليها الحد، فجاؤوا يستشفعون بأسامة عند رسول الله، فلما كلمه أسامة تغيّر لون وجه رسول الله، وامتقع لونه، ونبض عرقٌ في جبهته، وقال:

((يا أسامة أتشفع في حدٍ من حدود الله ؟! والله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها.. إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا كانوا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد..))

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]

هكذا الدين، الدين ليس فيه حل وسط، سيدنا عمر مات ابنه في رجمٍ، وقال قبل أن يموت: أبلغ رسول الله أنّ أبي أقام علي الحَد، بعد الموت أبلغْ رسول الله أن أبي أقام علي الحد.

(مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ (30))

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10))

(سورة التحريم)

والله الذي لا إله إلا هو كما قال النبي الكريم:

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

يوم القيامة يرى النبي بعض أمته تجر إلى النار يقول:

((أصْحَابي، أصْحَابي، فَقِيلَ: إنّكَ لا تَدْري مَا أحْدَثُوا بَعْدَكَ، قالَ: فَأقُولُ: بُعْدًا، بُعْدًا، أوْ قالَ: سُحْقًا، سُحْقًا لِمَنْ بَدّلَ بَعْدِي))

[مسند أحمد عَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ]

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنّ لِلّهِ وَرَسُولِهِ(31))

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنّ للهِ وَرَسُولِه

1 – معنى القنوت:

هنا كلمة:

(يقنت)

تعني الطاعة المستمرة.

2 ـ العبرة بدوام الطاعة:

كل إنسان له فورة، أما البطولة ليست بالفورة، بالاستمرار، وبالثبات، الثبات نبات، والقنوت داوم على الطاعة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أحَبّ الأعْمَال إلى اللّهِ أدْوَمُهَا وَإنْ قلّ))

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]

(وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنّ لِلّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أجْرَهَا مَرّتَيْنِ (31))

إنها بشرى عظيمة لنساء النبي: نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ

المرة الأولى: يضاعف لها العذاب ضعفين، والثانية: نؤتها أجرها مرتين.

((أَحَبّ الأَعْمَال إِلَى اللّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلّ))

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]

اثبت على درس، اثبت على صدقة، اثبت على صلوات الضُحى، كل شيء فعلته تطوعاً اثبت عليه، حتى تشعر بالثمار، فبرميل ماء فرضاً ملأناه بلترات، ونسيناه شهراً، فلترات الماء جفّت، إذا لا يوجد استمرار، ولا يوجد ملء، إذاً أنت نفسك وعاء، إن لم تستمر في الأخذ لا تمتلئ، داومت على درس اثبت عليه، وداوم على طول، فهذا الوقت لله عزّ وجل، وحضور هذا الدرس زكاة وقتك.

(وَمَنْ يَقْنُتْ (31))

القنوت الاستمرار في الطاعة..

(مِنْكُنّ لِلّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31))

وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا

في الدنيا والآخرة، أيْ هو شيء مرتب، زرقاً كريماً من عند الخالق.

فاتتني كلمة، لما قال ربنا عزّ وجل:

(وَإِنْ كُنْتُنّ تُرِدْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الْآخِرَةَ فَإِنّ اللّهَ أَعَدّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنّ أَجْرًا عَظِيمًا (29))

إنه أجر عظيم من الله الكريم العظيم:

مثال مِن واقع الناس:

إذا قال لك طفلٌ صغير: أنا معي مبلغ كبير، ماذا تظن أن يكون مقدار المبلغ ؟ خمس ليرات أو عشر ليرات أما إذا كنت، تعرف شخصاً معه ألف مليون وقال لك: أنا سأعطيك مبلغاً كبيراً، فهل تظن أنّه يعطيك خمس ليرات ؟ فكلمة كبير تتعلق بالقائل، انتبهوا لهذه النقطة، كلمة كبير وعظيم متعلقة بالقائل، فإذا كان أعظم العظماء يقول لك:

(فَإِنّ اللّهَ أَعَدّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنّ أَجْرًا عَظِيمًا (29))

ماذا تعني كلمة (عظيم) من العظيم ؟ أنا مهيئ لك هدية ثمينة، هذه على مقدار القائل، على مستوى القائل، إذا كان إنسان ضعيفاً مادياً فهذه قضية مئة ليرة، هذه ثمينة، فإذا كان الإنسان مليئا جداً، كلمة هدية ثمينة تعني شيئاً غالياً جداً، فالعظيم إذا قال عن شيءٍ: عظيم، فهو عظيم.

بقيت آيةٌ أخيرة:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا(32))

1 ـ جنس المرأة محبّب للرجال:

جنس المرأة، محببةٌ للرجال، مهما علا مقامها، فهذه التي علا مقامها ينبغي أن تزيد في ورعها، وفي حجابها، وفي تحصُّنها، لئلا تسمع كلاماً لا يليقُ بها.

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ (32))

2ـ معنى الخضوع بالقول:

خضوع القول ؛ لين القول، تكسُّر القول، المرأة إذا تكلّمت إما أن تتكلم قولا معروفاً، وإما أن تليّن كلامها، وأن تكسِّرَهُ حتى يطمع فيها الآخرون، وما من مشكلةٍ أصابت امرأةً عفيفةً طاهرة إلا بسبب أنها خضعت في القول، خضوع المرأة في القول مجلبةٌ لطمع الرجال بها، هذه قاعدة.

قصة موسى مع المرأتين في مدين:

1ـ عفة المرأتين ظاهرة في الكلام:

لذلك فإن الله علمنا في القرآن الكريم في مكان آخر، لمّا جاءت ابنة سيدنا شعيب سيدنا إلى موسى، قالت له كلاماً لا يحتاج إلى سؤال، ولا إلى جواب، قالت له:

(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص: الآية 25)

لو أنها قالت: إن أبي يدعوك، يقول لها: ما المناسبة، لماذا ؟ فاستدعى الموقف سؤالاً وجواباً، فإجابتها إجابةٌ قاطعة:

(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص: الآية 25)

2- عفة موسى ظاهرة في جوابه المرأتين:

وهو حينما سأل الأختين عن شأنهما، أيضاً طرح سؤالاً ليس في اللغة كلها سؤالٌ أبلغ منه ولا أشد اختصاراً، قال:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

(سورة القصص: الآية 23)

ما القصة ؟ وليس من أنثُنّ ؟ لماذا أنتن هنا ؟ ماذا تفعلن هنا ؟ ما شأنكن ؟ قال:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

(سورة القصص: الآية 23)

كلمتان اثنتان.

فخٌ مِن فخاخ إبليس فاحذروه !!!

والمؤمن إذا خاطب امرأة لا تحل له، ليس له الحق أبداً يلين القول لها، إذا ألان القول لها، وألانت له القول، دخل الشيطان، لأن إبليس طلاّعٌ رَصّاد، عنده حاسة سادسة، عنده شم دقيق جداً، حينما يشعر أن هذه المرأة خضعت بالقول، وأن هذا الرجل بادلها قولاً ليّناً بقولٍ لين، دخل بينهن، قال:

((إن إبليس طلاّعٌ رصاد، وما هو من فخوخه ـ له فخاخ كثيرة ـ بأوثق لصيده في الرجال الأتقياء من النساء))

[الجامع الصغير عن معاذ]

إبليس له كثيرٌ من الشِباك، عنده فخوخ كثيرة، عنده فخ شديد الانضباط، لا يمكن أن يخيب، هو المرأة، لذلك سماها النبي عليه الصلاة والسلام:

((حبائل الشيطان))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

أي شباك الشيطان.

((اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن إبليس طلاع رصاد، وما هو بشيء من فخوخه بأوثق لصيده في الأتقياء من النساء))

[الجامع الصغير عن معاذ]

((فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))

[مسلم عن أبي سعيد الخدري]

لا بد من هامش أمان بين الإنسان والمعصية:

وما من شيءٍ أغلب على الإنسان من ميوله كالميل إلى النساء، لذلك يقول أحد الأنبياء:

" ليس الشريف الذي لا يرتكب المعصية، ولكن الشريف الذي يهرب من أسباب المعصية ".

أي من طريق موبوء بالنساء، من مجلات لا ترضي الله، من أشخاص بعيدين عن الله عزّ وجل، من حديث عن النساء، لذلك قال العلماء: من كان حديثه عن النساء تُجْرَحُ عدالته ولا تقبل شهادته، من تنزّه في الطرقات، لماذا ؟ لينظر إلى النساء، من كان حديثه عن النساء، من صحب الأراذل، من أكل في الطريق، من مشى حافياً، من بال في الطريق، من أطلق لفرسه العنان ـ أسرع في القيادة ـ من قاد برذوناً، من علا صياحه في البيت، من طفف بتمرة، من أكل لقمةً من حرام، لكن الأكثر قبحاً: من صحب الأراذل، ومن تنزه في الطرقات، ومن كان حديثه عن النساء، لهذا لم يأت في القرآن الكريم كله نهيٌ عن الزنا، ما هذا الكلام ؟ جاء النهي عن أسباب الزنا، قال:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: من الآية 32)

لم يقل: ولا تزنوا، بل قال:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: من الآية 32)

لأن المُمَهدات توصلك إلى نهاية الطريق، فلذلك:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ (32))

يا أيها لنسوة لا تخضعن بالقول:

بعض النساء الجاهلات تقول للبائع: راعنا، نحن جيرانك، قلبك قاس علينا..

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32))

الإيمان يقتضي أن تكون جاداً مع المرأة إلى أقصى درجة، وإلا دخل الشيطان، الكلمة اللطيفة من طرف لطرف، يتبعها كلمة أخرى، وأساساً أكبر الفواحش نظرةٌ، فابتسامةٌ، فكلامٌ، فموعدٌ، فلقاء.

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32))

كم سعر هذا الشيء ؟ كذا، إما أن تشتريه، وإما أن تذهبي، أما هذه المساومة، ولين الكلام والضحك، هذا كله والعياذ مما يجلب الزنا.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

هذه الآية إن شاء الله والتي تليها في الدرس القادم.

سورة الأحزاب من حيث الأحكام كسورة النور:

بالمناسبة سورة الأحزاب كسورة النور، من أهم السور المتعلِّقة بالبيوت، وبحفظ الفروج، وبغض الأبصار، وبالحُرُمَات، فنحن في أمَسّ الحاجة، ولا سيما في هذا الزمان المتفلت إلى مثل هذه السور، وإن شاء الله في دروس قادمة نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (08-18): تفسير الآية 33 ، وقرن في بيوتكن
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-11-15

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير وتقرير لحُكم القدوة الخاص:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثامن من سورة الأحزاب، الآيات التي فُسِّرَت في الدرس الماضي محورها أن كل إنسانٍ جعله الله في مكانٍ عليّ ؛ إن في أسرته، أو في عمله، أو في دعوته، له أجرٌ مضاعف إذا أحسن، وله عقابٌ مضاعف إذا أساء، ويمكن أن نقول: إن القدوة له عند الله حسابٌ خاص، فإذا أحسن فله أجره، وأجر من اقتدى به، وإذا أساء فعليه وزره، ووزر من تبعه إلى يوم القيامة، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))

[مسلم عن جابر]

وسيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه، كان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصّته، وقال: **<< إني قد أمرت الناس بكذا ونهيتهم عن كذا، والناس طير إن رأوكم وقعتم وقعوا ـ الناس يقلِّدونكم، أنتم المقرّبون إليّ، أنتم أهلي وخاصّتي، أنتم الحاشية، أنتم عَلِيّة القوم ـ والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله لا أوتين بواحدٍ وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >>.**

قال كُتّاب السيرة: فصارت القرابة من عمر مصيبة، أي مصيبةٌ كبيرة أن تلوذ بعمر، لأنك إذا أسأت فلك العقاب مضاعف، هذا محور الدرس الماضي..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ (30))

(سورة الأحزاب)

أي إذا طلبتُنّ منه طلباتٍ دنيويّة، سمّاها الله عزّ وجل فاحشة لعِظَم مقام النبي..

(مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ (30))

هذا عقاب القدوة..

(وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا(31))

ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا(32))

هذه الآيات التي فُسِّرَت في الدرس الماضي.

أما آيات اليوم تبدأ بقوله تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

وقفات متأنية هادفة عند الآية:

والحقيقة أنه لابدّ من وقفةٍ متأنية عند هذه الآية، لأنها أصلٌ في وظيفة المرأة، قبل أن نبدأ بشرح هذه الآية..

1 – دور المرأة بين تيه الفلسفة الوضعية ونور الإسلام:

أيها الأخوة الأكارم، للمرأة دورٌ خطيرٌ في الحياة، ولدور المرأة فلسفةٌ خاصّةٌ في أي فكرٍ، أو أيّ نظامٍ، أو أيّ اتجاه، ولكن المسلم يستقي عقيدته من كتاب الله، ويستقي منهجه من كتاب الله، فأيّ مبدأ، أيّ مذهب وضعي، أيّ فكرٍ وضعي، أيّ نظامٍ وضعي، له أن يُفَلْسِفَ دور المرأة ما يشاء، ولكن البطولة، أو لكن المُعَوّل عليه هو النظام الإلهي، نظام خالق الكون، أنت بإمكانك أن تكتُب مبادئ، وتقول: المرأة يجب أن تعمل كذا وكذا وكَذا، هذا كلامك، وهو شيء جميل.

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

(سورة التوبة: من الآية 30)

هذه كلمة تقولها بفمك، لكن يا ترى هل هي مطابقةٌ للواقع ؟ هل هي مؤديّةٌ إلى نتائج عمليّة إيجابيّة، أم هي مدمّرة ؟ أيّ إنسان بإمكانه أن يقبع في غرفةٍ، وأن يكتب مبادئ، ويقول لك: أنا أرى أن تكون المرأة في الموقع الفلاني، أو الموقع الفلاني، وأن تفعل كذا، وأن تخرج كذا، وأن تعمل كذا، هذا شيءٌ يمكن أن يقوله كل إنسان، ولكن هذا الكلام يبقى كلام بشر، إن أصاب في جهةٍ يسيرة أخطأ في جهاتٍ كثيرة، وإن دغدغ عواطف فئةٍ من الناس فقد فجّر مشاعر فئاتٍ كثيرة، ولكن المعوّل عليه في موضوعٍ خطير كموضوع المرأة هو خالق الكون الذي خلقها، خالق الكون الذي أنزل هذا القرآن الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو المعوّل عليه، لذلك من خلال هذه الآية سوف يتّضح حُكم الإسلام في المرأة، الذي يُسْتَقَى من كتاب الله، ويُستقى من تفسير كتاب الله، أي من سنّة رسول الله، لأن السنّة في حقيقتها تبيينٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما أُنزل إلينا.

2 – الفلاح في تطبيق تعليمات الخالق:

إذا اشتريتَ آلةً غالية الثمن، عظيمة الفائدة، معقّدة التركيب، ووقعت في إشكالٍ في استعمالها، لا ترجع إلى جارك الخَبّاز، مع أن الخبّاز يقوم بدور خطير في المجتمع، يقدِّم لنا الخُبز لكن لا شأن له بهذه الآلة، لا ترجع إلى صديقك المعلِّم، مع أن المعلِّم يقوم بأمر خطير في حياتنا، ولكن تقول له: أنت لا تعرف، لا شأن لك بهذا، هذه الآلة المعقّدة التي تعلِّق على عملها فوائد جَمّة، والتي دفعت ثمنها مبلغاً طائلاً، لا ترجع في أمر تشغيلها، وأمر إصلاحها، وأمر ملابسات عملها إلا إلى صانعها، هكذا تفعل أنت، بل إن الآلة المعقّدة التي تحرص على أداء وظيفتها، لو جاءك إنسان يحمل دكتوراه بالفلسفة ـ جارك مثلاً ـ لا تلقي له بالاً على عِظَمِ اختصاصه، تقول له ببساطة: هذا ليس من اختصاصك، أنت لا تعرف، هذه آلة ثمنها ثلاثون مليونا، لها شركة صانعة، ولها مهندسون، ولها نشرات، ولا أستطيع أن أمُدّ يدي إلى أجزائها إلا بمعرفة الخبراء.

3 – المرأة نصف المجتمع البشري:

فلذلك هذه المرأة التي لها دورٌ خطيرٌ خطير في المجتمع البشري، أولاً: من حيث الحجم نصف البشر من النساء، نصف المجتمع، وثانياً: ليس نصفاً فقط عدديًّا، بل نصفاً مكمِّلاً للنصف الأول، لا تقوم حياة النصف الأول إلا بالتعاون مع النصف الثاني، وطبيعة المرأة محبّبةٌ للرجال هكذا قال الله عزّ وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ)

(سورة آل عمران: من الآية 14)

ويقول علماء النفس: إن أقوى دافعٍ في الجنس البشري، وإن أعمق دافعٍ في الجنس البشري هو الدافع الجنسي، إذا عددناه بعد دافع الطعام والشراب، إذاً صِنْفٌ من البشر يشغل نصف العدد، وله دورٌ خطير ينبغي أن نتعرّف إلى حقيقته، وإلى وظيفته، وإلى مهمّته، لا من زيدٍ أو عُبَيْد، لا من فلان أو عِلان بل ؛ من خالق الأكوان.

مرّةً ثانية: المعوّل عليه ليس أن تقرأ كتاباً عن المرأة للعالم الفلاني، والفيلسوف الفلاني، والمفكّر الفلاني، وليس أن تقرأ مبادئ وضعها بنو البشر تدغدغ بها عواطف بعض البشر، لا، لكن العبرة أن تعرف موقف الإسلام، وهو دين الله عزّ وجل، المستقى من كتاب الله من المرأة، هذه مقدّمة.

لكن قبل كل شيء، ما دامت الشهوة التي أودعها الله في الرجال متعلِّقةً بالنساء، فيمكن أن أطرح عليكم المثل التالي، والمثل يوضِّح، والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ضرب أمثلةً كثيرة:

4 – شهوة المرأة كالوقود السائل:

هذا السائل الذي يتفجّر في السيارة ـ الوقود **" البنزين "** ـ هذا سائل أودع فيه قوّةٌ انفجاريّة، هل يمكن أن تضع الماء مكانه فتسير المركبة ؟ لا، فأنت تريد سائلاً فيه قوة انفجار، إذا أعطيته النار انفجر، واشتعل، وشكّل ضغطاً، إذاً: هذا السائل الذي أُودعَتْ فيه قوّة الاحتراق الشديد، وبالتالي قوة الانفجار، هذا السائل ـ دقِق معي ـ إذا وضِعَ في مستودعاته المحكمة، وسال في الأنابيب المُحكمة، ووصل إلى مكان الاحتراق الذي أُعِدَّ له، وجاءته الشرارة في المكان المناسب وفي الوقت المناسب اشتعل، وما دام مكان الاشتعال محصوراً، وشكّل قوّةً دافعة، وهذه القوة رُتِّبَت على شكل متسلسل، بحيث ينشأ عن اندفاع المكابس التي صُمِّمَت على شكل متسلسل قوة دوران مستمرّة، أنت تركب هذه المركبة، وإلى جانبك زوجتك، وفي المقعد الخلفي أولادك، وفي الصندوق حاجاتك وطعامك وشرابك، وتركب هذه المركبة بقوة الانفجار وقوة الاحتراق، فإذا هي تنقلك إلى أمكنةٍ جميلة تمضي بها أجمل الأوقات، فقوة الانفجار نافعةٌ أم مدمِّرة ؟ إنها قوة نافعة.

وحينما صمَّم الله ـ إن صحَّ التعبير ـ وحينما خلق الله، وحينما فطر الله حبَّ النساء في الرجال، وجعل طبيعة المرأة ؛ بقوامها، وشكلها، وطبيعتها، وأنوثتها محبَّبةً للرجال، كان أصل التصميم أن تكون هذه الشهوة قوّةً دافعةً إلى الله، لذلك بالشهوات نرقى إلى الله، نرقى إلى الله صابرين تارةً، ونرقى إلى الله شاكرين تارةً أخرى، بالشهوات التي أودعها الله فينا نرقى إلى ربِّ الأرض والسماوات.

5 – المرأة صمِّمت لتكون أمًّا:

حينما صُمِّمَت المرأة صُمِّمَت لتكون أمّاً تربي أولادها، وليس في حياة الأولاد شيءٌ يفوق عظمة الأم، في حياتهم طبعاً، قلب الأم لا يوصف، هي إنسانٌ تعيش لغيرها، إنها الأم، تعيش لأولادها ؛ تشقى ليسعدوا، تجوع ليشبعوا، تخاف ليطمئنوا، تموت ليحيوا، هي الأم، حينما صُمِّمت المرأة صُمِّمت لتكون

أماً، أو لتكون زوجةً تملأ قلب زوجها سعادةً، تملأ البيت جمالاً، ورقّةً، وتألّقاً بخدمتها لزوجها ولأولادها.

6 – ماذا لو سار الوقودُ السائل في غير مساره الصحيح ؟

ولكن هذا الوقود السائل لو صببناه على المركبة في غير المكان الصحيح، وجئنا بعود ثقاب وأشعلناه ماذا يحدث ؟ تحترق المركبة، وتقتل من فيها، إذاً هي قوةٌ محرّكةٌ نافعةٌ إذا وضِعَت في مكانها الصحيح، وسارت في مسارها الصحيح، وانفجرت في مكانها الصحيح، وبالمقابل فهي قوّةٌ مدمِّرةٌ إذا وضِعَت خارج مكانها الصحيح، وتحرّكت في غير الطريق الصحيح، وانفجرت في غير المكان الصحيح، هذا ملخّص الدرس..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ

1 – المرأة نقطة ضعف الرجل:

إذا خرجت المرأة سافرةً، فاتنةً، تعرض ما أودع الله فيها من مفاتن لترضي زوجها أصلاً، وتكون مسعدةً له، إذا أظهرت هذه المفاتن للناس جميعاً، اشتعلت الفتن واستعرت، وضاع المجتمع، وانحرف الشباب، وتحسّر الرجال، ودُمِّرَ المجتمع، فلذلك موضوع المرأة موضوعٌ خطيرٌ خطير، إذاً المأخذ الأشد على دين الإنسان، أو المأخذ الأكبر أهميّةً على دين الإنسان موضوع المرأة، يكفي أن يطلق الإنسان بصره فيما حرّم الله عليه، أين صلاته ؟ صار الطريق إلى الله غير سالك، يكفي أن يستمتع بامرأةٍ لا تَحِلُّ له ؛ إن بالنظر، أو بالكلام، أو بما شاكل ذلك، صار الطريق إلى الله غير سالك.

2 – المرأة إما قوة نافعة أو قوة مدمرة:

فلذلك أيها الأخوة... يجب أن نعلِّق أهميّةً كبيرةً جِداً جداً جِداً على موضوع المرأة، وعلى دورها في الحياة، وعلى وظيفتها الخطيرة التي خُلِقَت لها، فكما أن الوقود السائل وهو غالي الثمن الآن، ولاسيما هذه الأيّام، وقودٌ نافعٌ يعطيك حركة نافعة، ففي الوقت نفسه هو مادّةٌ خطرة، لو وُضعَت في مكان غير

محكم وجاءتها شرارة ربّما أحرقت بناءً، وربّما أطاحت بآلاف الأرواح، والمرأة كذلك إما أنها قوةٌ نافعةٌ للمجتمع ؛ وإما أنها قوةٌ مدمِّرة.

موقف الإسلام من المرأة:

المرأة مساوية للرجل تكليفًا وتشريفًا:

الآن إلى الآيات، وقبل أن نصل إلى الآيات، فما موقف الإسلام من المرأة ؟ إن المرأة مساويةٌ للرجل تماماً من حيث التكليف، ومن حيث التشريف، هي مكلّفَةٌ كالرجل، ومشرّفةٌ عند الله كالرجل، ولا أدلّ على ذلك من أن الله أمرها بالصلاة كما أمر الرجال، وأمرها بالصوم، وأمرها بالزكاة، وأمرها بالحَجّ، وأمرها بالإنفاق، وأمرها بطلب العلم، وكلّفها بكل ما كلّف الرجل..

الأدلة على مساواة المرأة للرجل في التشريف والتكريم:

الآية الأولى:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

(سورة آل عمران: من الآية 195)

الآية الثانية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

المرأة الصالحة أفضل من ألف رجل عاص:

المرأة مساويةٌ تماماً للرجل من حيث التكليف، ولكن إذا وضعت امرأةٌ مؤمنةٌ مطيعةٌ لله ورسوله وزوجها، في كفّة، ووضِعَ مئة ألف رجلٍ عاصٍ لله عزّ وجل في كفّة، هذه المرأة هي عند الله وعند الناس أرجح من كل هؤلاء الرجال.

والله إنّ كل امرأة صالحة وهبت حياتها لزوجها وأولادها، وكانت قدوةً لبناتها، وكانت رحمةً مهداةً لأسرتها، تفضل عند الله مائة ألف ألف رجلٍ تائهِ شاردٍ ضالٍ مُضِل.

إذاً ففي التكليف المرأة مساويةٌ للرجل تماماً.

والمرأة مساويةٌ للرجل تماماً في التشريف..

(إِنّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقَاتِ وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدّقِينَ وَالْمُتَصَدّقَاتِ وَالصّائِمِينَ وَالصّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذّاكِرِينَ اللّهَ كَثِيرًا وَالذّاكِرَاتِ أَعَدّ اللّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ((35)

لا أعتقد أن يكون أي شك في أن المرأة مكرّمةٌ تماماً كالرجل، ومشرّفةٌ تماماً كالرجل، ومساويةٌ له في التكاليف كلِّها.

هكذا كانت المرأة في العصور الوسطى:

طبعاً عدا بعض التكاليف من حيث الحيض والنِفاس، لها تكاليف خاصّة، أما المرأة في العصور الوسطى كانت تُباع مع أثاث المنزل، يرثها الابن البكر مع إرث أبيه، نعم كانت تورث، والحديث عن تَخَلّف المرأة في العصور الوسطى لدى غير المسلمين حديثٌ يطول، ولا نحبُّ أن نعكِّر صفاءنا بهذه الأحاديث، على كلٍ كانت المرأة في العصور الوسطى تُعامل كالبهائم، وتُباع وتُشترى، وتنتقل بالإرث من إنسان إلى إنسان، بينما الإسلام كرّمها، ورفع شأنها، وأعطاها حقّها، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟!

وَلَيْسَ الذّكَرُ كَالأُنْثَى

قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 36)

هذا شيءٌ ثانٍ، فمثلاً للتوضيح: آلة تراكس ـ مجرفة ـ بقوة مئتي حصان، تقوم بعمل جبّار، وسيارة سياحيّة لطيفة هذه لها وظيفة، وهذا التراكس له وظيفة، إذا أردت أن تذهب إلى نزهة بالتراكس فأنت إنسان أحمق، وإذا أردت أن تهدم بناء بسيارة سياحيّة فأنت أيضاً أحمق، هذه لها قيمتها، وهذا له قيمته، هذه لها دورها، وهذا له دوره، هذه لها إمكاناتها، وهذا له إمكاناته، فكل شيء له مكانة، الآلتان جيّدتان

جداً نافعتان جداً، لكن لكل آلةٍ وظيفة، إذا قلت: هذه كهذه في كل شيء، هذا منتهى الحمق والغباء، فللرجل دورٌ لا تستطيع المرأة أن تقوم به، وللمرأة دورٌ لا يستطيع الرجل أن يقوم به، من هنا قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 36)

الفروق الدقيقة بين الرجل والمرأة:

حينما كنّا في الجامعة، كان عندنا كتاب ألّفه رجل فرنسي، وهو عالِم كبير، وهذا الكتاب لدقّته ولشهرته أصبح يُدَرّس في معظم جامعات العالَم، فيه فصلٌ خطير لا أزال أذكره، الفروق الدقيقة جداً بين الذكور والإناث، إذا قرأت هذا الفصل الطويل يقشعرُّ جلدك، تشعر أن الخالق حينما خَلَقَ الأنثى صمّمها تصميماً خاصاً لتكون زوجةً ؛ مشاعرها، طريقة تفكيرها، طريقة انفعالها، طريقة تعاملها مع الآخرين، قدراتها الخاصّة، ذاكرتها، متفوّقة في الذاكرة، في حفظها، وهي دون الرجل في المحاكمة العقليّة، رقّة مشاعرها مع قوة أعصابها، فلا مجال في هذا الدرس في الإفاضة في الفروق الدقيقة التي أثبتها العلماء ـ علماء النفس ـ في الفرق بين الذكر والأنثى، لكن هذه الفروق إذا قرأتها كلّها، وفهمتها كلّها، وحفظتها كلّها، وضغطتها بكلمةٍ واحدة، هي قول الله عزّ وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 36)

الرجل له دور والمرأة لها دور ـ هذه ليست طرفة ولكن حقيقة ـ سمعت أن في مصر قبل عشرةِ أعوام أو أكثر أثير هذا الموضوع على المستوى العام، فعُقِدت ندوات، وكُتِبَت مقالات، وأُلِّفَت نشرات، وأُلقيت محاضرات، إلى أن استقرّ الأمر بندوةٍ كبيرةٍ جداً عُقِدت في مدرّجٍ كبير، وحضر هذه الندوة مُفَكِّرون، ومصلحون، وعلماء، وعلماء دين، وتحاوروا، وتناقشوا في شأن المرأة ومساواتها بالرجل، وكان بين الحضور رجل ذكي جاء ببضعة فئران، ووضعها في كيس، وأطلقها في أثناء المحاضرة، وظهر الفرق الدقيق بين الرجال والنساء..

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 36)

بلا كلام، فهذه أبلغ من كل المحاضرات.

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

دور المرأة من خلال السُّنّة النبوية المطهرة:

عندنا شيءٌ آخر، هو أنك إذا قرأت القرآن، وقرأت السنة النبويَّة المطهَّرة، تشعر أن المرأة لها دور خطير، وهي أن تكون زوجةً بادئ ذي بَدْء، لذلك:

الحديث الأول:

((إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[من مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

الحديث الثاني:

((لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا))

[من مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام..

الحديث الثالث:

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

أي أنها لازمت بيتها، واعتنت بأولادها وبزوجها، رعايةً، وتوجيهاً، وتربيةً، وأداء مهمَّات،

((فهي معي في الجنّة))

ومن أدق الأحاديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

الحديث الرابع:

((أول من يمسك بحِلَق الجنّة أنا ـ أي أول إنسان يمسك حلقة باب الجنّة ليدخل هو رسول الله صلى الله عليه وسلّم ـ أول من يمسك بحلق الجنّة أنا فإذا امرأةٌ تنازعني تريد أن تدخل الجنّة قبلي ـ غير معقول، من هذه المرأة ـ قلت: يا جبريل من هذه المرأة ؟ قال: يا رسول الله هي امرأةٌ مات زوجها وترك لها أولاداً فأبت أن تتزوج من أجلهم))

((أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أنه تأتي امرأة تبادرني، فأقول لها: ما لك ؟ ومن أنت ؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي))

[مجمع الزوائد: عن أبي هريرة]

امرأةٌ في ريعان الشباب، توفي زوجها، وترك لها خمسة أولاد، وقعت في صراع ؛ إما أن تتزوج، وهذا من حقِها لتنال حظّ نفسها من الحياة، وإما أن تقف نفسها على تربية هؤلاء الأولاد الخمسة، فإذا آثرت تربية أولادها الخمسة، تدخل الجنّة قبل رسول الله..

((أول من يمسك بحلق الجنّة أنا، فإذا امرأةٌ تنازعني تريد أن تدخل الجنّة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل ؟ قال: هي امرأةٌ مات زوجها، وترك لها أولاداً، فأبت الزواج من أجلهم))

الحديث الخامس:

وحينما جاءت امرأة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قالت: يا رسول الله ذهب الرجال بكل شيء، الجهاد لهم، والاستشهاد لهم، والجنّة لهم، ماذا بقي لنا نحن ؟ أجاب النبي إجابةً شافية، وإليكم الحديث الشريف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ يعدل الجهاد في سبيل الله ـ))

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

إذا خرج الرجل من البيت ليعمل، إذا كان مطمئنّ البال ؛ بيته فيه زوجة عاقلة، حانية، دقيقة، نظيفة، تُتْقِنُ عملها، تربي أولادها، هو مطمئن في عمله، وأنا أؤكِّد لكم أن إنتاج هذا الرجل سيتضاعف ؛ إن في المعمل، أو في التجارة، أو في الزراعة، أو في القيادة، أو في أي مكان، إذا خرجت من البيت، وبالك مطمئنٌ من جهة زوجتك ؛ عفيفةٌ، حصينةٌ، فقيهةٌ، تعلِّم أولادك، تربيهم، ترعى شؤون بيتها، يضاعف إنتاجك في العمل، وإذا خرجت إلى العمل تشوّشت على أولادك، وضاع أولادك، وكانت عنصر فسادٍ في العمل أحياناً وفي أغلب الأحيان، فلذلك:

((اعلمي أيها المرأة، وأعلمي مَن دونك من النساء أن حسن تبعُّل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

ولكن لو عرف النساء دورهنّ الخطير، وأجرهنّ الكبير لما رأيت امرأةً تعصي زوجها، ولما رأيت امرأةً تحاول أن تُنافس الرجل.

الأمومة هو الدافع الأول في المرأة:

حينما كنا في الجامعة، قال لنا أستاذٌ جليل في علم النَفْس: المرأة حينما نافست الرجل في العمل خسرت شيئين، ماذا خسرت ؟ شيئين، خسرت السباق، وخسرت أنوثتها.

أردت من هذا الكلام أن أصل إلى أن المرأة إذا عزفت عن الزواج، وكلّما جاء خاطبٌ رفضته، وأرادت أن تعمل كالرجال، حتى في أقدس الأعمال، حتى في أشرف الأعمال، حتى في الدعوة إلى الله، إذا تُركت، وعزفت عما خُلِقَت له، وأرادت أن تنافس الرجال حتى في أشرف الأعمال، فقد سلكت طريق الرهبانيّة، ولا رهبانيّة في الإسلام.

أما إذا جمعت بين العملين الشريفين فلا مانع، لأن دافع الأمومة يُعدُّ أقوى دافعٍ في الجنس البشري، معنى أقوى دافع أي أن الإنسان أحياناً يجعلونه بحاجة إلى ثلاثة دوافع في وقتٍ واحد، يجوع ثلاثة أيام، يُحْرَم من حاجاته الأساسيّة كلِّها دفعةً واحدة، ثم يوضع أمام حاجاته كلِّها، فإلى أي شيءٍ يتّجه أولاً ؟ الشيء الأول الذي يتجه إليه هو الحاجة الأولى لدى الإنسان، علماء النفس يرون أن حاجة الأمومة هي الحاجة الأولى في الجنس البشري.

فلو امرأةٌ قرأت الفلسفة، وتعلّمت، وارتقت في مناصب رفيعة، وفاتها قطار الزواج، رُبّما بعد حينٍ من الزمن إذا رأت امرأةً تحمل وليدها ذابت نفسها ذوبانا لتكون

مكانها، ولا تحمل كل الشهادات التي تحملها، ليس معنى هذا أن تبتعد المرأة عن العلم، لا، فليس هذا قصدي، ولكن دافع الأمومة هو الأقوى ما من فتاةٍ على وجه الأرض إذا كانت عاقلةً، وقد تلقّت التوجيه الصحيح، إلا وتتمنّى أن تكون في المكان الصحيح ؛ أماً لأولاد، أو زوجةً لرجل أخلاقي يملأ حياتها شُغْلاً، أما التي تعزف عن الزواج، وكلّما جاءها خاطبٌ تردُّه لتنافس الرجال حتى في أقدس الأعمال، فقد خالفت منهج الله، وخالفت سُنّة رسوله، واتجهت نحو الرهبانيّة، وأقول لكم: ولا رهبانيّة في الإسلام.

حوار هادئ حول قوله تعالى: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ

أما معنى قوله تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

1 ـ وهمٌ مدفوع وشبهة مرفوعة:

قد يقول قائل: يا أخي هذه الآية ليست للنساء عامة، بل هذه لنساء النبي، والله معك حق، والدليل:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

2 – مِن بابِ أولى:

فقد يأتي من يقول: يا أخي هذه الآية موجّهة إلى نساء النبي فقط، نقول لك: هناك قاعدة أصوليّة، هذه القاعدة الأصوليّة عَبَّر عنها العلماء بكلمة من باب أولى، أي إذا نهانا الله عن أن نقول: أفٍ لأمهاتنا ولآبائنا فضربهما من باب أولى، إذا كانت كلمة أف قد نهانا الله عن قولها، والله عن الضرب ما نهانا بل نهانا فقط عن كلمة أف، هذا حمق، هذا إنسان يجب أن يوضَع في مشفى المجانين، إذا كانت كلمة أف قد نُهينا عنها فالضرب من باب أولى، وإذا قيل لامرأةٍ في أعلى مستوى من الإيمان، وأعلى مستوى من العفاف والتقى والورع:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

فلأن يكون هذا الأمر موجّهاً إلى عامّة النساء من باب أولى، إذا قلت للطالب المتفوّق: يا طالب ادرس، فلأن يكون هذا الأمر موجّهاً للطلاب الكُسالى من باب أولى، فمن يقول: إن هذا الأمر قد وُجِّهَ إلى نساء النبي فقط، نقول: إذا وجّه الأمر إلى نساء النبي وهنّ في أكمل حال، وهن نساء النبي، وهن العفيفات المُحصنات الطاهرات التائبات العابدات السائحات، فمن باب أولى أن يوجّه الأمر بالتبعيّة إلى نساء المؤمنين.

3 – معنى الآية:

المعنى الأول:

ومعنى:

(وَقَرْنَ (33))

قرنَ فعل أمر، ماضيه وَقَرَ، مضارعة يَقِرُ، وقر يقر بمعنى ثَقُلَ واستقرّ..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

4 – الأصل بقاءُ المرأة في بيتها:

فالأصل في المرأة أن تكون في بيتها، هذا هو الأصل، ولا تعني الآية أنها ممنوعةٌ من الخروج، لكن تخرج للضرورة..

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23))

(سورة القصص)

هذه الضرورة، والضرورة تقدَّر بقدرها، أيضاً قاعدة أصوليَّة، الأصل في المرأة أن تكون في بيتها، الأصل، أي هي مستقرَّةٌ..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

مستقرَّةٌ في البيت، بيتها مملكتها، بيتها قَلعتها، بيتها غرفة العمليات بالنسبة إليها، بيتها عرشها..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

الأصل أن تكون في البيت، هذا معنى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

كأن هناك إيماءة لطيفة إلى أن الأصل أن تكوني في البيت.

الأصل وجود كل إنسان في مكانه المناسب اجتماعيا وعلميا:

مثلاً: موظَّف تأتيه الساعة التاسعة والربع، والله غير موجود، خير إن شاء الله، تجئ في اليوم الثاني في العاشرة إلا ربعاً، والله ما جاء، وفي اليوم الثالث تجئ إليه الساعة الحادية عشرة، والله لم يأت بعد، وفي اليوم الرابع يوم يجئ إليه الساعة الثانية عشرة، الآن ذهب، تجئ إليه الساعة الثامنة، والله لم يأت بعد، هذا ليس موظَّفاً، يمكن أن يغيب في الأسبوع يوماً، ساعة، لأمر ضروري، أمّا ألا تجده إطلاقاً في الدوام فهذا ليس موظفاً،ـ لأن الأصل في الموظَّف أنه وراء طاولته بالأساس، هذا الأصل، والأصل في الطبيب أنه في عيادته، قال لك: من الخامسة إلى السابعة، أول مرَّة لم تجده، والثانية كذلك، هذا غير معقول، الأصل في الطبيب أنه في عيادته، والأصل في المحامي أنه في مكتبه، والأصل في التاجر في متجره، والأصل في العامل في معمله، والأصل في الفلاح في حقله، والأصل في المرأة في بيتها، هذا الأصل، هذا مكانها الطبيعي، هذا حقل عملها، هذه مملكتها، بهذا يظهر عزُّها، وتظهر أنوثتها، وتظهر براعتها، ويظهر دورها الخطير، لذلك النبي الكريم قال: تتمة الحديث:

((من صفات المرأة الصالحة أنك إذا نظرت ـ قد سمعت منكم إليها، وقد سمعت سرته، الحقيقة لا توجد كلمة إليها، فالرواية ليست فيها إليها، فهناك رواية ـ سرّتك))

معنى هذا إذا نظرت إليها وإلى غرفة النوم، وإلى غرفة المطبخ، وإلى لباس أطفالها، قد تُسَرُّ منها لا إذا نظرت إليها فقط ؛ بل إلى كل شيءٍ في البيت، فعندما اغفل النبي الكريم في رواية ثانية كلمة إليها، فقد وسّع معنى النظر، إذا نظرت إلى البيت، إلى ترتيبه، إلى نظافته، إلى ثياب أولادها، إلى هيئة أولادها وإلى نظافتهم ـ وإذا نظرت سرّتك ـ هذا الأصل، فلذلك قال ربنا عزّ وجل:

(لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

بيت الزوج للمرأة بنص القرآن: لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ

هناك استنباطٌ رائع من هذه الآية، أن البيت الذي دفع الزوج ثمنه عداً ونقداً، وسُجِّل في السجلات الرسميَّة باسمه، هو في القرآن لها، غريب، دافع الثمن الزوج، وفي السجلات العقاريَّة للزوج، ولو استصدرت بياناً عقارياً لكن باسم الزوج، وهذا البيت في القرآن للزوجة، بمعنى أن البيت يثبّتُ ذاتها، ويُؤكِّد شخصيّتها..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

وهناك معنى آخر يستنبط: أنها مستقلّةٌ به، ولو لم تكن مستقلّة به لما نُسِبَ إليها فقط..

المعنى الثالث:

أنّ أيّ زوجٍ أخرج زوجته من بيتها أو من بيته على حدِّ زعمه، أصغر مشكلةٍ، والزوجة عند أهلها تتفاقم، وتتفاقم حتى تنتهي بالطلاق، قد تنتهي بالطلاق، وأكبر مشكلةٍ إذا بقيت الزوجة في بيت زوجها، تتلاشى وتتلاشى حتى تنتهي بالوفاق، فلذلك هذا قانون..

(لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

يا معشر الأزواج إياكم أن تُخرجوا زوجاتكم من البيوت !!!

هذه نصيحتي لكل الأزواج والزوجات: إيَّاك أيها الزوج أن تخرجها من بيتك ؛ مهما كنت غضوباً، ومهما بلغ بك الغضب، وإياكِ أيتها الزوجة أن تذهبي إلى بيت أهلك لتغيظي زوجكِ، فإن أصغر مشكلةٍ وأنتِ عند أهلكِ تتنامى، وتتعاظم حتى تنتهي إلى الطلاق، وإن بقيت في بيت الزوجية فإن أكبر مشكلةٍ تتصاغر، وتتلاشى حتى تنتهي إلى الوفاق، وهذا توجيهٌ إلهي.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلًا (122))

(سورة النساء)

النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءته السيدة صفيَّة رضي الله عنها وأرضاها، أتته بالطعام إلى المسجد، علّمنا ما ينبغي أن نفعله مع النساء، فخرج معها إلى البيت، والقصّة كانت موضوع درس الأحد السابق، فلمّا مرّ أنصاريان ورأيا النبي عليه الصلاة والسلام مع إحدى زوجاته، استحيا وأسرعا، فقال عليه الصلاة والسلام:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قالا: سُبْحَانَ اللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ ! قالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، فَخَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا، أَوْ قالَ: شَرًّا))

[سنن أبي داود عن صفية]

إذاً: الأصل في المرأة أنها في البيت، فهذا الطيار إذا قال لك: أنا مللت من هذا المكان يا أخي، هذا المكان ضيّق، وأنا ضاقت نفسي، أريد أن أجلس مع الركّاب، أريد أن أتحادث معهم، أنت عندك ثلاثمائة راكب أمانة في رقبتك، وهذا مكانك الطبيعي، مكانك الطبيعي وراء مقود الطائرة حيث الأجهزة والعدّادات، فما هذا الذي تقوله: أن تأتي إلينا ؟ هذه التي تقول: البيت تضيق به، البيت تضيق نفسها به، فهذا هو المكان الطبيعي للمرأة.

لا بد للمرأة من إشعاع ومصدر علمي:

لكن إما أن تكون المرأةُ جاهلة فترى القعود في بيتٍ شيء يجنّن، أو أنها لابدّ من أن تكون عالمة، تقرأ القرآن، تقرأ السنّة، تقرأ السيرة، وتعلِّم أولادها، وتكون مصدر إشعاع لأولادها، أما الجهل مع الانحباس فهو شيءٌ لا يحتمل، إذاً لابدّ من أن تعلِّمها أمر دينها، لابدّ من تُحَفِّظها القرآن، ولابد من أن تعلِّمها سنّة النبي العدنان، لابدّ من أن تطلعها على تاريخ الصحابيّات الجليلات، لابدّ من أن تعلِّمها أصول التربية والتعليم، لابدّ من أن تُلِمّ بمبادئ أساسيّة في الحياة.

حينما يكون للإنسان مصدر علمي، أو منهل علمي، أو مورد علمي، واستمتاع علمي، تعيش المرأة عندئذٍ حياة أُخرى، تصبح زوجةً ورفيقة، فالزوج عندما يجد زوجته حافظة للقرآن الكريم، تفهم آيات الأحكام، تفهم الأحاديث، يتناقش معها، انتقلت في نظرهِ من زوجة لها وظيفة معيَّنة إلى صديقة أيضاً، وإلى زميلة، وإلى رفيقة، وإلى ما شاكل ذلك.

صورٌ من عظماء النساء عبر التاريخ الإسلامي:

أيها الأخوة الأكارم، التاريخ الإسلامي طافحٌ بالقصص التي تتحدَّث عن نساء بلغن مستوى رفيعاً جداً من العظمة.

الصورة الأولى:

امرأةٌ أنصاريَّة توفي في معركة أُحُد أبوها وأخوها وزوجها وابنها ـ لا أعتقد بالمليون حالة تجد حالة مشابهة ـ أبوها وأخوها وزوجها وابنها، وقد نُمِيَ إليها أن النبي عليه الصلاة والسلام قد قُتِل، فخرجت من بيتها تسأل عن رسول الله، علمت أن أباها قد قُتل، وأن ابنها قد قتل، وأن أخاها قد قُتِلْ، وأن زوجها قد قُتِل، وتقول هذه المرأة المُلْتَاعة: ما فعل رسول الله ؟ ولم تطمئن حتَّى رأته بعينها، فلمَّا رأته بعينها، قالت: يا رسول الله كل مصيبةٍ بعدك جلل ـ أي حقيرة ـ ما دمت سليماً، وما دمت معافىً، فأية مصيبةٍ هي حقيرةٌ أمام مصيبتك، هذه امرأة !! نعم هذه امرأة، حقاً. ارتقى بها الإسلام والإيمان.

الصورة الثانية:

نساءٌ صحابيات قبل أن يخرج أزواجهنّ إلى العمل يقلن له: يا فلان، اتق الله فينا، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام.

الصورة الثالثة:

لما خطب القاضي شريح امرأة من أسرةٍ صالحة، ودخل عليها ليلة الزفاف وجد كمالاً وصلاحاً، فقام وصلّى ركعتين شكراً لله على نعمة الزوجة الصالحة، فلمَّا سلّمت من صلاتي ـ هكذا يقول ـ وجدت زوجتي تصلي بصلاتي، وتسلِّم بسلامي، وتشكر شكري، فلمَّا دنوت منها قالت لي: على رسلك ـ انتظر وطوّل بالك ـ على رسلك يا أبا أميَّة، ثمَّ قامت فخطبت، وقالت:

أما بعدُ ؛ يا أبا أميَّة، إنني امرأةٌ غريبة لا أعرف ما تحبُّ وما تكره، فقل لي ما تحبُّ حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أميَّة، لقد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجةً على كتاب الله وسنَّة رسوله، فاتق الله فيَّ، وامتثل قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

(سورة البقرة: من الآية 229)

ثمَّ قعدت، قال: فألجأتني إلى أن أخطب، وليس الآن وقت خطبة، فوقفت وقلت:

أما بعدُ ؛ فقد قلت كلاماً إن تصدقي فيه، وتثبتي عليه يكن لكِ ذخراً وأجراً، وإن تدعيه يكن حجَّةً عليكِ، أُحبُّ كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما وجدتِ من حسنةٍ فانشريها، وما وجدتِ من سيئةٍ فاستريها.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان يثني على المرأة المؤمنة يصفها بأنَّها ستِّيرة، والمرأة الفاسقة الفاجرة التي لا يحبُّها رسول الله هي التي تذكر مساوئ زوجها، قال عليه الصلاة والسلام:

((إني أكره المرأة ـ يكرهها النبي ـ تخرج من بيتها تشتكي على زوجها))

[ورد في الأثر]

تقول المرأة اليوم: زوجي جُن وكسّر، هكذا تتكلّم عليه في بيت أهلها: هذا جن، وفعل كذا، هذه امرأةٌ لا يحبُّها رسول الله، التي تشتكي على زوجها، أو التي تنشر مساوئ زوجها ـ قالت:

كيف نزور أهلي وأهلك ؟ قال شُريح: نزورهم غبّاً مع انقطاعٍ بين الحين والحين، لئلا يملّونا ـ وفي الحديث الشريف:

((زر غِبّاً تزدد حبّاً))

[الطبراني عن عبد الله بن عمرو]

قالت: فمن من الجيران تحبُّ أن أسمح لهنَّ بدخول بيتك، ومن تكره ؟ قال: بنو فلان قومٌ صالحون، وبنو فلان قومٌ غير ذلك، قال: ومضى عليَّ عامٌ جئت إلى البيت فإذا أم زوجتي عندنا ـ حماته غابته سنة ـ فلمَّا دخلت رحَّبتُ بها أجمل ترحيب، قالت لي: كيف وجدت زوجتك يا أبا أميَّة ؟ قلت: والله هي خير زوجة، قالت: يا أبا أميَّة ما أوتي الرجال شراً من المرأة المدلّلة فوق الحدود، فأدِّب ما شئت أن تؤدِّب وهذِّب ما شئت أن تهذِّب، ثم التفتت إلى ابنتها تأمرها بحسن السمع والطاعة.

المرأة المؤمنة بطلة، كما قلت قبل قليل: والله لو وُضِعَت امرأةٌ مؤمنةٌ في كفَّة، ووضِعَ في الكفَّة الثانية مائة ألف رجل، ترجح عليهم جميعاً، لأن المرأة مساويةٌ للرجل في التكليف وفي التشريف تماماً..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

الأصل أن تقبع في بيتها، وإذا خرجت فللضرورة، والضرورة تقدَّر بقدرها، والنبي عليه الصلاة والسلام رأى نساءً يَزُرْنَ المقابر، فأن تزور المرأة المقابر عمل يُرضى في الدين للموعظة والعبرة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فَارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ))

[من سنن ابن ماجة عن علي]

ما دام هناك فتنة، وثيابها غير فضفاضة، وكلامها بصوت عالٍ، ما دام هناك فتنة،

((فَارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ))

صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في دارها:

أيها الأخوة الأكارم، الأصل كما قال النبي الكريم:

((صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في دارها))

[أبو داود عن ابن مسعود]

ما الفرق بين الدار والبيت ؟ الدار لها فناء، أما البيت فهي غرفة مسقوفة، فإذا صلّت في فناء الدار، أو صلّت في غرفة مسقوفة فأيهما أفضل بالنسبة لها ؟ قال:

((صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في دارها، وصلاة المرأة في قعر بيتها خيرٌ من صلاتها في بيتها))

((صَلاةُ الْمَرْأةِ فِي بَيْتِهَا أفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي بَيْتِهَا))

[سنن أبي داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ]

هناك غرفة على الطريق وغرفة داخليّة، فإذا صلّت في غرفةٍ داخلّية فهذا خير، ولما سُئلت السيدة فاطمة رضي الله عنها: ما خير ما تفعله المرأة ؟ قالت: ألاّ تَرى وألاّ تُرى، يعني ألا ترى الرجال ولا يراها الرجال.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(30)وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ)

(سورة النور)

هذه توجيهات الخالق، المُعَوّل عليه أن تعرف ماذا يريد الله عزّ وجل ؛ من زواجك، ومن بيتك، ومن أسرتك.في الدرس القادم إن شاء الله تعالى إن أحيانا إلى ذلك الوقت..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

هذا درس اليوم..

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (09-18): تفسير الآية 33 ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-11-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من سورة الأحزاب، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَقَرْنَ (33))

(سورة الأحزاب)

طبعاً:

(وَقَرْنَ)

معطوفة على قوله تعالى:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

مستويات الرجل والمرأة:

1 – مساواة المرأة مع الرجل في التكليف والتشريف:

في الدرس الماضي بَيَّنْتُ لكم بشكلٍ مُفَصَّل أن المرأة مساويةٌ للرجل في شيئين ؛ في التكليف وفي التشريف.

2 – للمرأة خصائص وللرجل خصائص:

وفي الوقت نفسه، المرأة لها خصائص، والرجل له خصائص، هذا مستنبط من قوله تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من آية " 36 ")

3 – للمرأة وظيفة وللرجل وظيفة:

للمرأة وظيفة، وللرجل وظيفة، فكان محور الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الذكر والأنثى، وضع للذكر والأنثى منهجاً.

4 – من لوازم المرأة القرار في البيت:

من لوازم منهج الأنثى أن يَقْرَرْنَ في بيوتهن.

معنى وأحكام: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ

معنى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

1 – معنى قرْن لغةً:

فعل أمر مضارع يَقِرُّ، ماضيه وَقَرَ بمعنى ثقل واستقر.

2 – معنى قرْن شرعا:

الأصل في مكان استقرار المرأة بيتها،

((وأيُّما امرأةٍ قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

3 – من نتائج قرار المرأة في البيت:

والمرأة التي تهز سرير ابنها بيمناها تهزُّ العالم بيسراها، لأنه كلما كانت اللبنة الأولى، وهي الأسرة ؛ صحيةً، متوازنةً، منتظمةً، مستقيمةً كان الإنتاج خارج البيت مُضاعفاً، فنجاح الرجل في عمله، أساسه نجاحه في بيته، إنتاج الرجل أساسه راحة قلبه من طرف بيته.

لذلك حينما أمر الله سبحانه وتعالى الإناث، أو نساء النبي خاصة، والنساء عامة أن يقررن في بيوتهن، فلأن البيت هو مكان تربية الأولاد، هو مكان العناية باللبنة الأولى ألا وهي الأسرة، وهذا تم شرحه في الدرس الماضي.

وليس معنى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

4 – جواز خروج المرأة من البيت للحاجة والضرورة:

ألاّ تخرج المرأة إطلاقاً من البيت، أي من رحم أمها إلى الدنيا، ومن بيت أبيها إلى دار زوجها.

أمّا مَن قال: **" تخرج من دار زوجها إلى القبر "**، فهذه مقولةٌ فيها مُبالغة، ليس معنى قوله تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

أنّ المرأة ممنوعةٌ أن تخرج من البيت إطلاقاً، هناك ضروراتٌ أباحها الشرع، وهناك خروج من البيت أجازه الشرع، والضرورة تقدّر بقدرها، ولا أدلّ على ذلك من قول ابنتي سيدنا شعيب:

(قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23))

(سورة القصص)

أي أن هناك ضرورة، على كلٍ هذا تم شرحه في الدرس الماضي:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

البيت هو المكان الطبيعي الفطري للمرأة:

كما أن مكان العمل هو مكان العامل، وكما أن الدائرة هي المكان الطبيعي للموظف، وكما أن العيادة هي المكان الطبيعي للطبيب، وكما أن المكتب هو المكان الطبيعي للمحامي، وكما أن المَتْجَر هو المكان الطبيعي للتاجر، وكما أن الحقل هو المكان الطبيعي للمُزارع، كذلك البيت، الخلية الأولى، اللبنة الأولى هو المكان الطبيعي للمرأة، وحينما يُرْزَقُ الرجلُ امرأة صالحةً تحفظه إذا غاب عنها، تطيعه إذا أمرها، تسره إذا نظر إليها فقد حاز الخير الكثير، هذا تم في الدرس الماضي.

لكن حينما تخرج المرأة من بيتها لتزور أباها أو لتزور أمها، أو حينما تخرج من بيتها لضرورة ؛ كأن يكون قد توفي زوجها وأولادها صغار، فخرجت من بيتها لتشتري بعض حاجاتها، وليس لها أخٌ يقضي لها هذه الحاجة، ولا ابنٌ في سنٍ مؤَهّله أن يقضي لها هذه الحاجة، حينما تخرج المرأة لواجبٍ، أو لمباح، أو لمندوبٍ شرعي، فهي عندئذٍ تخرج من بيتها لسببٍ أقرّه الشرع، وسمح به.

والآن إذا خرجت:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (33))

من ضوابط خروج المرأة: وَلاَ تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيّةِ الأُولَى

الأصل أن تستقري في البيت، أيتها المرأة المسلمة، الأصل بيتكِ، بيت زوجكِ، بيت أولادكِ، الأصل أن تربي أولادكِ تربيةً صالحة ينتفعون بها وينفعون الناس مِن بعدُ، هذا هو الأصل، فإذا خرجتِ من البيت لضرورةٍ أو لسببٍ أقر به الشرع فإيَّاك أن تتبرجي، هذا محور الدرس اليوم.

1 – معنى التبرج لغةً:

ما معنى بَرَجَ في اللغة ؟ معنى بَرَجَ في المُعْجَم ظهر وارتفع، والبُرْج أعلى مكان في البناء، البرج أعلى مكان وأظهر مكان في البناء، والبروج، بروج السماء التي تحدث عنها القرآن فقال تعالى:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(1))

(سورة البروج)

هي بُرج الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، والأرض في دورتها حول الشمس تمرُّ باثني عشر بُرْجًا، في كل فصلٍ تمر بثلاثة بروج، فحينما قال الله عزّ وجل:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(1))

أي هذه المجموعات الظاهرة المتألِّقة، البَيّنَة، التي يراها سُكّان الأرض وهم في دورتهم حول الشمس.

إذاً: بَرَجَ بمعنى ظهر وارتفع، والبُرْج أعلى مكانٍ في البناء، والبروج مجموعاتٌ من النجوم عظيمة تُرى في كل فصلٍ في أثناء دورة الأرض حول الشمس، هذه بَرَجَ، هذه صيغة فَعَلَ، فهي بمعنى ارتفع وظهر، أما تَبَرّجَ، فعلى وزن تَفَعّلَ، وزن تَفَعّلَ يفيد التكرار مثل، تَجَرّعَ الكأس جُرْعَةً بعد جرعة، تجرع الكأس أي شرب الكأس على جُرُعَات.

2 – معنى التبرج شرعًا:

فمعنى قوله تعالى:

(وَلَا تَبَرّجْنَ (33))

بالمعنى الدقيق: ولا تُظْهِرْنُ مفاتنكن، أي أن الله سبحانه وتعالى أكرم المرأة فأسبغ عليها شيئاً من الجمال، بعض الجمال، أو أكثر الجمال، هذا الجمال حينما أسبغه الله عليها جعله سبباً لسعادة زوجها بها، جعل هذا الجمال ليسْكُنُ زوجها إليها، فإذا استخدم هذا الجمال لغير ما خلق له، لغير زوجها، للأجانب، لمن في الطريق فقد أضلت المسعى، فالله سبحانه وتعالى أراد أن تكون هذه المرأة شيئاً

مصوناً، بعيداً عن وحول الطريق، بعيداً عمّا تقع عليه العيون، فحينما سمح لها أن تخرج لعلةٍ شرعيةٍ، لسببٍ شرعي، لعذرٍ شرعي، لضرورةٍ شرعيةٍ، حينما سمح لها أن تخرج، أمرها أو نهاها عن أن تتبرج، والتبرج إظهار ما يجب إخفاؤه عن الأجانب، إظهار ما يجب إخفاؤه في الطريق.

يجب إخفاؤه في الطريق ؛ ولكن يجب التبرُّج في البيت، وإذا خرجت

(وَلاَ تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيّةِ الأُولَى)

عثرت على نصٍ رائعٍ للسيدة عائشة رضي الله عنها، قيل لها: **" يا أم المؤمنين، ما تقولين في الخِضَاب وفي الصباغ، وفي التمائم، وفي القرطين، وفي الخلخال، وفي خاتم الذهب، وفي رقاق الثياب ؟ ".**

مرة ثانية.. يا أم المؤمنين، ما تقولين في الخضاب وفي الصباغ، وفي التمائم، وفي القرطين، وفي الخلخال، وخاتم الذهب، ورقاق الثياب ؟ فقالت: **<< يا معشر النساء قِصّتُكُنّ قصة امرأةٍ واحدةٍ، أحل الله لَكُنّ الزينة غير متبرجاتٍ لمن لا يحلُ لَكُن >>.**

وجوب التبرُّج في البيت:

إذاً: يجب على المرأة أن تتزين لزوجها، ويجب عليها في الوقت نفسه أن تُخفي هذه الزينة عن غير زوجها، فإذا فهمت المرأة المسلمة أن النهي عن التبرج يعني نهياً عن التبرج مطلقاً فهذا فهمٌ أعرج، إنها أمرت أن تتزين لزوجها لتحفظه من أن يَخْطِفَ بصره، أمرها الشرع أن تتزين لزوجها لتكون سكناً له كما أراد الله عزّ وجل، أمرها الشرع أن تتزين لزوجها لتُعينيه على طاعة الله عزّ وجل، أمرها الشرع أن تتزين لزوجها لئلا تحدثه نفسه الضعيفة أن ينظر إلى غيرها.

لكن إذا خرجت المرأة من البيت لعلةٍ شرعيةٍ، لضرورةٍ شرعية، لعذرٍ شرعي:

(وَلاَ تَبَرّجْنَ)

أي أيتها النساء المؤمنات لا تظهرن ما منح الله لَكُنّ من جمالٍ لغير أزواجكُن.

من معاني التبرج:

نعود إلى الآية، بعضهم قال: لا تُظهرن ما يُسْتَدْعَى به شهوة الرجل، أيْ أنّ أيّ شيءٍ أظهرنه استدعى به شهوة الرجل فهذا محرّم، هذا مقياس دقيق، دعونا من التفاصيل، ودعونا من الخِلافيات، أي شيءٍ يلفت نظر الرجال ممنوعٌ أن تظهره المرأة.

(وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من الآية 31)

ظهر عن غير قصدٍ منها، كأن تكون طويلة القامة، ماذا تفعل بطولها ؟ كأن تكون ممتلئة الجسم، كأن ترتدي ثوباً أسود اللون، هذا اللون أي لونٍ إذا اختارته بعنايةٍ قد يكون لوناً دقيقاً، ماذا تفعل بطولها أو بامتلاء جسمها، أو بلون معطفها ؟ هذا الذي ليس بإمكانها ألاّ تظهره..

(وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

ولم يقل الله عزّ وجل: إلا ما أظهرن منها، إلا ما ظَهَرَ عن غير قصدٍ، وعن غير إرادةٍ، وعن غير مشيئةٍ، إذاً: أي شيءٍ يلفت النظر إليها ممنوعٌ أن تظهره، وقد يكون أجمل ما في المرأة وجهها، إذاً:

(وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من الآية 31)

بإمكانها أن تظهره أو ألا تظهره، بإمكانها أن ترخي عليه حجاباً، بإمكانها أن تضرب بخمارها من رأسها على صدرها مروراً بوجهها، بإمكانها كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: **<<كن محرماتٍ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الركبان إذا مرّوا بنا أو حاذونا أسدلت إحدانا جلبابها على وجها >>**، بهذه العبارة.

على كلٍ سأريكم من خلال ما ورد في التفاسير كيف كانت المرأة في الجاهلية تتبرج.

صورة التبرُّج في الجاهلية:

1 – الفروع:

قال الإمام مجاهد: **" كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال "**، أن تمشي بين الرجال نوعٌ من أنواع التبرُّج، ألم يقل الله عزّ وجل في قصة سيدنا شعيب:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23))

(سورة القصص)

أي أنّ مزاحمة الرجال، وأن تسير المرأة بين الرجال هذا من التبرُّج، هذا ما قاله الإمام مجاهد.

2 – الصورة الثانية:

وقال قتادة: **" كانت لهُنّ مِشْيَة تكسرٍ وتَغَنُّج "**، لذلك:

(وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنّ)

(سورة النور: من الآية 31)

هناك جمال الحركة، وهناك جمال الصوت، وهناك جمال اللون، وهناك جمال القَوام.

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32))

المرأة منهيةٌ عن أن تتكسَّرَ في صوتها كي تلف النظر إليها، ومنهيةٌ عن أن تتحرك حركةً تلفت النظر..

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)

(سورة النور: من الآية 31)

ومنهيةٌ عن أن تخضه بالقول..

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32))

فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ

ومنهيةٌ أيضاً أن تظهر من أعضائها، ومن خطوط جسمها، ومن ملامحها، ومن شكلها، ومن لونها، ما يلفت النظر إليها، كلام واضح كالشمس، من قوامها، ومن خطوط جسمها، ومن حجم أعضائها، ومن لَوْنِهَا، ومن شكلها، ومن ملامح وجهها، ما يلفت النظر إليها، فالتبرج إظهار ما يجب إخفاؤه، إظهار كل زينةٍ طبيعيةٍ منحها الله للمرأة أو غير طبيعية.

وقال ابن حيان: **" كانت تُلقي الخمار على رأسها ولا تشده، فتظهر قلائدها وقرطها، ويظهر قرطُها وعنقها، هذا التبرج الذي كان في الجاهلية الأولى ".**

وقال ابن كثير: **" ربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها، وأقرطة أذنيها ".**

الجاهلية الأولى والجاهلية الثانية:

هذا الوصف الذي ورد في كتب التفاسير عن تبرج الجاهلية الأولى، وسبحان الله ! لحكمةٍ أرادها الله عزّ وصف هذه الجاهلية بأنها جاهليةٌ أولى، ومن وصف الجاهلية بأنها أولى يستنبط أن هناك جاهليةٍ ثانية، ربما كانت أشد من الأولى، نساءٌ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((كاسيات عاريات))

إما لأن الثوب شفاف يشفُ عما تحته، أو لأنه ضيق يصف حجم أعضائها، فهن كاسيات لكنهن عاريات، مائلاتٌ مميلات، فالعنوهن لأنهن ملعونات..

((سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ كَأَشْبَاهِ الرِّجَالِ، يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ، الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ، لَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لَخَدَمْنَ نِسَاؤُكُمْ نِسَاءَهُمْ، كَمَا يَخْدِمْنَكُمْ نِسَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ))

[مسند أحمد عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو]

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إياكم وخضراء الدمن ! قيل: يا نبي الله، وما خضراء الدمن ؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء))

(مسند الشهاب عن أبي سعيد)

إذاً:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ (33))

لا تظهرن الفتنة أو الجمال الذي أودعه الله فيكُنّ، هذا الجمال يجب أن يظهر للزوج، وأن يختفي عمن سواه، أما إذا فسقت المرأة، وفجرت قُلبَت الآية، فكل جمالها في الطريق، وكل جمالها للأجانب، وكل أنوثتها ولطفها، ورقّتها لغير زوجها، وكل ما يستوحشُ منه لزوجها، هذا من الخروج عن منهج الله عزّ وجل.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (33))

بعضهم قال: إن للحشمة جمالاً، وإن للتبدُّل ولكشف الأعضاء جمالاً، لكن الإنسان كلما ارتقى يعجب بجمال الحشمة لا بجمال التبدُّل، كلما ارتقى ذوق الإنسان يعجبه في المرأة حياؤها وحشمتها، هكذا ورد في القرآن الكريم حينما قال الله عزّ وجل:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23)فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(24)فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص)

ما الذي لفت نظرها في سيدنا موسى ؟ قوته، وأمانته، عفته، فما نظر إليها، بل أطرق في الأرض، فلما أراد أن يذهب إلى بيت أبيها قال: سيري خلفي، ودليني على الطريق، وما الذي أعجبه فيها ؟ حياؤها، ومن علامات قيام الساعة أنهُ ينزع الحياء من

وجوه النساء ـ وقحةٌ تُحِدُّ النظر إليك ـ وتُرفعُ النخوة من رؤوس الرجال، وتُنزع الرحمة من قلوب الأمراء ـ لا حياء في وجوه النساء، ولا نخوة في رؤوس الرجال، ولا رحمة في قلوب الأمراء.

إياكم والدياثة !!!

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الديوث لا يدخل الجنة، قيل: من هو الديوث يا رسول الله ؟ قال: الذي يرضى الفاحشة في أهله، ولا يغار على عرضه))

((ثَلاثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْعَاقُّ، وَالدَّيُّوثُ الَّذِي يُقِرُّ فِي أَهْلِهِ الْخَبَثَ))

(مسند أحمد عَنْ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عُمَرَ)

فالذي لا يغار على عرضه أو يرضى الفاحشة في أهله فهو ديوث، الإنسان له فطرة، حدثني أحدهم مرّة أنه قرأ في مجلةٍ عن امرأةٍ تعمل في التمثيل، ليست مسلمة، سئلت عن شعورها وهي تبدي للناس محاسنها ؟ قالت: **"إنه شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الناس، إن الحب يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرفٍ مغلقة ".**

هذا التخطيط الإلهي، وهذه هي الفطرة، فلذلك عندك النقل، وعندك العقل، وعندك الفطرة، فإذا خالفت النقل، أو خالفت العقل، أو خالفت الفطرة، فقد ضل الإنسان سواء السبيل، فالعقل يأمره بذلك، والفطرة تأمره بذلك، والنقل يأمره بذلك، والذوق الرفيع يأمره بذلك.

ما هي الجاهلية التي وصفت في القرآن الكريم ؟

وبعد فلدينا سؤالٌ دقيق: ما هي الجاهلية التي وصفت في القرآن الكريم ؟

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (33))

النوع الأول: الجهل بحقائق الدين:

الجاهلية استخدمت في القرآن الكريم بتعريفين، مرةً:

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(138))

(سورة الأعراف)

لا تعرفون حقيقة الألوهية ؟ لا تعرفون من ربكم ؟ ولا من إلهكم، ولا من خالقكم، لا تعرفون حقائق التوحيد، لا تعرفون عظمة الله عزّ وجل.

إذاً: الجاهلية هنا بمعنى الجهل بحقائق الإيمان.

النوع الثاني: الانحراف عن منهج الله:

ومرة ثانية جاء الوصف على لسان سيدنا يوسف حينما قال:

(وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ(33))

(سورة الأعراف)

فالجاهلية في القرآن ؛ إما جهلٌ بحقائق الدين، أو انحرافٌ عن منهج الدين، فالإنسان إذا كان مسلماً وخالف منهج الله عزّ وجل فهو جاهلي، والإنسان إذا كان أخلاقياً، وما عرف منهج الله عزّ وجل فهو جاهلي، يدلنا على ذلك مقالة النبي عليه الصلاة والسلام لأحد أصحابه في ساعة ضعفٍ، وقد تشادّ مع صحابي آخر، وكان أسود اللون، فقال هذا الصحابي لذاك العبد الأسود: **" يا ابن السوداء "**، فما كان من نبيّنا عليه الصلاة والسلام إلا أن قال له:

((إنك امرؤٌ فيك جاهلية))

[متفق عليه عن المَعْرُور بْن سُوَيْدٍ]

أراد هذا الصحابي أن يكفر عن ذنبه، فوضع خدّه على الأرض، ولم يرض إلا أن يطأ خده هذا الذي عيره بسواد لونه.

ففي صحيح مسلم عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلامِهِ مِثْلُهَا، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَيَّرَهُ بِأُمِّهِ، قَالَ: فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ وَخَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ عَلَيْهِ))

[متفق عليه عن المَعْرُور بْن سُوَيْدٍ]

إذاً: الجاهلية أن تجهل، والجاهلية أن تنحرف، إذاً ليست الجاهلية فترةً زمنيةً، ولكنها حالةٌ اجتماعية.

الجاهلية الأولى أحياناً أهون من الجاهلية المعاصرة:

1 – مع امرئ القيس:

قد نكون نحن الآن في جاهليةٍ جهلاء، لأن عنترة العبسي عاش في الجاهلية وقال:

وَأَغَضُّ طرفي ما بَدَت لي جارَتي حَتّى يُواري جارَتي مَأواها

***

فهذا الشاعر الجاهلي الذي عاش في عصر الجاهلية غض بصره عن جارته، فإذا كان إطلاق البصر، والتلصُّص على عورات المسلمين من سمات هذا العصر، فنحن في جاهليةٍ جَهْلاء.

2 –أم سلمة وقصتها مع الرجل المشرك:

إنّ أم سلمة فيما أذكر أرادت أن تلحق بزوجها في المدينة، فركبت ناقتها، بعد أن بقيت عاماً أو أكثر أثر مشادّةٍ بين أهل زوجها وأهلها حول ابنها سلمة، وحينما رَقّ قومها وقوم زوجها لها، وسمحوا لها أن تنطلق إلى زوجها في المدينة، ركبت ناقتها، شاهدها أحد المشركين، وكَبُرَ عليه أن تسافر وحدها إلى المدينة، فرافقها، ولها وصفٌ دقيْق لا يُصَدّق، كلما أرادت أن تستريح أناخ جملها، وابتعد عنها كثيراً، وتركها تستريح، فإذا حان وقت المسير عاد إليها، وغض بصره، وأركبها الجمل، وقاده اثني عشر يوماً إلى المدينة دون أن يراها، هذا في الجاهلية وقد كان مشركاً.

الجاهلية حالة مَرَضية وليست فترةً زمنية:

فلذلك الجاهلية ليست فترةً زمنية ؛ بل هي حالةٌ مرضية، قد تكون في أي عصر، فحينما ينطلق الناس نحو شهواتهم، وحينما تخرج النساء كاسيات عاريات مائلاتٌ مميلات، فنحن في جاهلية، وحينما يختلط الرجال بالنساء، وينشأ عن هذا الاختلاط الفتن، وخراب البيوت، ومشكلات الأُسَر، هذا أيضاً من الجاهلية، فلذلك الموضوع خطيرٌ جداً، فأنت كمسلم هناك منهج رسمه الله لك، فإما أن تعرفه فأنت إذاً مؤمن ومسلم ؛ وإما أن تجهله فأنت جاهلي، الآن عرفته، إما أن تسير عليه فأنت مسلم ومؤمن ؛ وإما أن تخالفه فأنت جاهلي، كما قال عليه الصلاة والسلام: لأحد أصحابه:

((إنك امرؤٌ فيك جاهلية))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة]

ولك أن تقول لكل إنسان يجهل حقائق التوحيد، يجهل حقائق القرآن، يفتخر بجهله: إنك امرؤٌ فيك جاهلية، وكل إنسانٍ يعرف بعض الحقائق ويحيدُ عنها، **" إنك امرؤٌ فيك جاهلية "**، هذا هو الجهل، إذا: إما أنّ الجاهلية من جهل الحقائق، وإما أن الجاهلية من عدم تطبيق الحقائق، إذاً:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ وَلَا تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيّةِ الْأُولَى (33))

ليست هذه الآية خاصة بنساء النبي فانتبهوا !!!

هذا نهي، ومرة ثانية أقول لكم: إنّ مَن يتوهم أن هذه الآية تختص بها نساء النبي، فقد وقع في وهمٍ كبير، لأن الله عزّ وجل إذا أمر نساء النبي وهن المُحْصَنَات، العفيفات، الطاهرات، التقيّات، القانتات، إذا أمرهن ألا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، فلأن يكون الأمر موجهاً إلى عامة النساء المؤمنات من باب أولى.

يا أيتها المسلمة إيّاك أن تؤذي الشباب !!!

والمرأة المؤمنة لا تقول مثلاً: أنا حينما أسير في الطريق لا يجرؤ أحدٌ أن يخاطبني بكلمة، نقول لها: أيتها الأخت الكريمة إذا كان في مظهركِ ما يلفت النظر إليكِ فقد آذيتِ المسلمين، وأنتِ لا تدرين، إذا كان في مظهرك ما يؤذي الشباب، أو يؤذي العُزاب، أو يؤذي المتزوجين فقد ساهمتِ في خراب البيوت، وأنت لا تدرين، وأنتِ في أعلى درجات الإباء والعِزّة، إن مظهركِ هذا يؤذي المسلمين، يؤذي الشباب، يؤذي المحرومين، يؤذي من ليس له زوجة، فما هذا القول بأنكِ شريفة !! وبأنكِ عزيزة، وبأنكِ صارمة، وبأنكِ شديدة، إن هذا المظهر الذي يلفت النظر إليكِ فيه أذىً وأي أذىً، إنكِ إن نظر إليكِ شابٌ وتحَسَّر، أو نظر إليكِ متزوجٌ وتألّم فقد ساهمتِ في خراب بيته وأنت لا تدرين، فالمرأة المؤمنة لا تؤذي الناس بشكلها، ولا بقوامها، ولا بزينتها.

ومرةً ثانية: الزينة الطبيعية التي أودعها الله في المرأة، والزينة المجلوبة التي تصنعها بأيديها، سواء بسواء، فلا هذه ولا تلك، لذلك العورة قد تظهر لا بلونها ؛ ولكن بحجمها من خلال ضيق الثياب، وقد تظهر بلونها من خلال رقّةِ الثياب، فالثياب الرقيقة والضيقة هذه لا يمكن أن تكون مباحةً في الإسلام، فكل ما يبدي مفاتن المرأة منهيةٌ أن تظهره.

(وَلَا تَبَرَّجْنَ (33))

لا تظهرن، البارجة غير القارب، البُرج أعلى ما في البناء، البروج نجومٌ عظيمة.

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ (33))

أي تبرج المرأة الجاهلة التي لا تعرف قيمتها، لا تعرف وظيفتها في المجتمع، لا تعرف دورها الخطير، لا تعرف لمن هذا الجمال، لا تحمل المرأة لوحةً حمراء، لوحتها سوداء، هي لزوجها فقط لا لعامة الناس، هذه التي تعطي مِن أنوثتها، ومن حركاتها، ومن صوتها، ومن جمالها، لكل مَن ينظر إليها، هذه ليست امرأةٌ خاصةٌ لزوجها ؛ بل هي عامة، إذاً:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ (33))

مِن طرق عدم التبرج: إقامة الصلاة على وجهها:

لعل الله سبحانه وتعالى حينما بدأ بأن يقررن في بيوتهن، وألاّ يتبرّجن، أراد أن يبين لهن الطريق، إنكن إن أقمتن الصلاة، فبالصلاة وبالقرب من الله عزّ وجل، وبشعور المرأة بأنها قريبةٌ من الله عزّ وجل، بأن الله يحبها، وبأن الله يرضى عنها، حينما لا تؤذي عباد الله المؤمنين، لعلها بهذا القُرب تستعين على أن تنفذ أمر الله عزّ وجل.

الإنسان دائماً عنده في حياته عوض، مثلاً: يقولون: إن عملية البيع لا تتم إلا بحالة نفسية، عملية الشراء وعملية البيع لا تتمان إلا بحالة نفسية، فأنت كمشترٍ لا يمكن أن تشتري هذا الكتاب إلا إذا رأيته أثمن من مالك، من ثمنه، قال لك ثمنُه: عشرون ليرة، ما لم تر أن قيمة الكتاب أثمن من عشرين لا ينعقد البيع، والبائع لا يمكن أن يبيع الكتاب إلا إذا شعر أن ثمنه أغلى منه.

فهذه المرأة التي تقبل أن تتحجب، وأن تطبق شرع الله عزّ وجل، وأن تستقر في البيت، وأن تبتعد عن كل زينةٍ تلفت النظر، ما الذي يعينها على ذلك ؟ أن تتصل بالله عزّ وجل، إذا ذاقت حلاوة القُرب، إذا ذاقت معنى أن يرضى خالق الكون عنها، إذا ذاقت أن الله يحبها، ويحب أمثالها، وأن الله راضٍ عنها، إذا ذاقت هذه المرأة طعم القُرْب طبقت أمر الله بقَضِّهِ وقضيضه، من ألِفِهِ إلى يائِهِ.

إذاً:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ وَلَا تَبَرّجْنَ (33))

الآية دقيقة جداً، أي تبرجن في بيوتكن، فإذا خرجتن من بيوتكن لعذرٍ شرعي فلا تبرجن في الطريق، لأن هذا الجمال لأزواجكن لا لعامة الناس..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ وَلَا تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصّلَاةَ وَآتِينَ الزّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ (33))

معنى إتيان الزكاة :

قال بعض العلماء: وآتين الزكاة هنا بمعنى تصدّقن الصدقة النافلة، فالمرأة لا تخلو أن يكون لها مال، فلابدّ من أن تتصدق من مالها على الفقراء والمساكين، على امرأةٍ ضعيفة، على امرأةٍ أرملةٍ، على امرأةٍ مسكينةٍ، على طفلٍ يتيم، هذا معنى الزكاة، باعتبار المرأة إذا ملكت النصاب عليها الزكاة قولاً واحداً، تجب عليها الزكاة، لكن يغلب على المرأة أن تكون نفقتها على زوجها، فإذا أُمِرَت بالزكاة فأغلب الظن أن هذه الآية موجهة إلى الصدقة النافلة..

(وَأَقِمْنَ الصّلَاةَ وَآتِينَ الزّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ (33))

وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَه

هذا من عطف العام على الخاص، أي أن المرأة المسلمة لا تخرج عن منهج الله أبداً، لا تحيد عن شرع الله أبداً ؛ لا في حركتها، ولا في صوتها، ولا في مظهرها، ولا في ثيابها، ولا في طاعة زوجها، ولا في رعاية أولادها.

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ أي يعدل الجهاد في سبيل الله))

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

(وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (33))

في كل شيء، حتى في علاقتها بزوجها، حتى في تربيتها لأولادها، حتى في علاقتها بأهلها.

(وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (33))

حتى في خروجها، حتى في ثيابها، حتى في حِجابها، حتى في ترك العطر في الطريق، حتى في عدم الخروج من البيت من دون إذن الزوج، على المرأة المسلمة أن تتقصّى أوامر الله عزّ وجل، وأوامر النبي عليه الصلاة والسلام فيما يَخُصُّها، وهذه الآية:

(وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (33))

هذه من عطف العام على الخاص.

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً

1 – ما هو البيت في هذه الآية ؟

نجد في هذه الآية معنى دقيقاً جداً وجليلاً، هو أنّ كلمة (البيت) جاءت في الآية معرفة، إذا قلت: البيت أي الكعبة، البيت الحرام، في الأرض بيتٌ واحد، هو البيت الحرام، هذه (ألْ) هي (ألْ) العهدية، تكون أنت في دائرة فيها مئتا موظف، وفيها مدير، فكلّما قلت: المدير مثلاً حضر أو غاب، والمدير أصدر قرارا، كلمة المدير بهذه الدائرة تعني مدير هذه الدائرة، هذه (أل) للعهد، ولأن بيت الله الحرام بيتٌ واحدٌ في الأرض، لذلك ورد ذكره معرفٌ بـ (أل) العهدية.

2 – من هم أهل البيت في هذه الآية ؟

أما هنا فشيءٌ جديد، أهل بيت النبي نساؤه، هم أهل البيت، إذاً: بيت النبي شيءٌ مقدس جداً، وجاءت الكلمة أيضاً لمنزلته، لأن الناس لو رأوا النبي في أعلى درجة، ولم يروا نساءه في المستوى اللائق بهن تتزلزل نفوسهم، يختل توازنهم، فليس من المعقول أن تفصل إنساناً عن بيته، هذه زوجته لِمَ لا تكون على وضعٍ مقبول، هؤلاء أولاده، هؤلاء بناته، فإذا دعا الإنسان إلى الله عزّ وجل فلينتبه إلى البيت، لأن خللاً في البيت يضعف الدعوة إلى الله عزّ وجل، فإذاً ربنا عزّ وجل في عليائه، خالق السماوات والأرض قال:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ (33))

3 – التبرّج والانحراف رجس:

التفلّت من أوامر الشرع، إظهار الزينة، أن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، هذا رجس أي نَجَس.

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ (32))

هذا نَجَس رجس.

إظهار الزينة لغير الزوج هذا رجس، فربنا عزّ وجل كي ينفرنا من هذا الانحراف سماه نَجَساً، فأن تَظهر المرأة فاتنةً، أو أن تعرض مفاتنها على الناس، أو أن تتساهل في حجابها، أو ألا تكون دقيقةً في إخفاء زينتها، إن هذا العمل سماه الله في القرآن الكريم: رجساً.

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ (33))

أي أنّ الله عزّ وجل تولّى في عليائه تطهير أهل بيت النبي وتأديبهن، وفي معنى آخر: أن هذا البيت بيت النبي مقدس جداً، لو لم يكن في مستوى الرسالة لاضطرب الناس، لشك الناس في هذه الدعوة، فالمرأة التي تلوذ بالنبي إذا انحرفت سببت للأتباع اضطراباً، وزلزلةً، وقلقاً، وشكاً، وطعناً، فلذلك أهل بيت النبي يجب أن يكونوا في المستوى اللائق بالنبي، لذا تولى الله بنفسه تأديبهن.

4 – استنباط لطيف يهم الداعية على الله:

وقياساً على هذا إنك إن أردت أن تدعو إلى الله عزّ وجل فالناس يرقبون بيتك، يتبعون أهل بيتك، يتبعون بناتك، يتبعون أولادك، هل هذا الذي تدعونا إليه مطبقٌ في بيتك ؟ أم أن الدعوة ارتزاق ؟ هل

هذا الذي تدعونا إليه مطبَقٌ في حياتك الخاصة ؟ لأن الناس لو رأوا خلافاً ومسافةً بين ما هو كائن وما يجب أن يكون تزلزلوا، واضطربوا.

إذاً:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

قصة وعبرة:

كتبت امرأةٌ قصةً قصيرةً تقول فيها: مرضت مرضاً شديداً بعد خلع ضرسٍ، قاسيت منه آلاماً مبرحة حرمتني طعم النوم والأكل شهراً كاملاً، إذ لم يكن يكفّ وقعُ الألم لحظةً ليلاً أو نهاراً، وزاد الورم حتى كاد خدّي ينفجر، وامتد إلى عنقي ورأسي، وأغلق جَفْنَيْ عينَيّ، فحار في أمري الجرّاحون والأطباء، وعجز الطب وعز الدواء، وقُطع الأمل بتاتاً من الشفاء، وإذا بيد الله الكريمة تمتد وتمسح المرض والورم، وتمحو على مهلٍ الجرح وتصرف الورم، فوقف الأطباء مدهوشين من هذه المعجزة، وقالوا خاشعين: حقاً إن الله القدير الرحيم يحيي العظام وهي رميم، فعاينت تفاهة الخَلق، وعجْزَ من ادعى العلم، وأدركت أن الخالق سبحانه أبر وأرحم بعبده من كل إنسان.

قالت: وفي أثناء مرضي عادتني سيدةٌ فاضلة، وقالت لي مجاملة: إنكِ لا تستحقين كل هذا العذاب، أنت السيدة المؤمنة المُصَلِّيَة الحاجة لبيت الله الحرام، فماذا اقترفتِ من آثام حتى تُعاقبي بهذه الآلام ؟!

قالت: فصرخت قائلةً: لا تقولي ذلك، فإن الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، إنني آثمة أستحق كل هذا العذاب، هذا الفم الذي أدّبه الله بالمرض والألم كان يُصْبَغ، وكان لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، وهذا الوجه الوارم كان يتجمّلُ بالمساحيق، وهذا الجسم الطريح كان يتبرّج بالثوب الأنيق، وهذه الهامة المتألمة المتأججة بنار الحمى كانت لا تحجب بالنقاب كما أمر الله، وهي الآن تحجب قهراً باللفائف الطبية، لم اختمر بخمار الاحتشام فخمرَني الله بخمار الآلام، جَمَّلْتُ فمي ووجهي بالأصباغ والأدهان، فصفعهما الله صفعة العذاب والهوان.

هي أديبة أيضاً كما يبدو.

قالت: إنكِ لم تفعلي إلا ما يفعله غيركِ ؛ بل وأقل مما يفعله غيركِ، فكل النساء يتبرجن، ويتجملن أكثر منكِ، وهاهُن يرتعن في بحبوحة الصحة، ويرفُلْنَ في حُلَلِ السعادة!

فقلت: هذا من فضل ربي عليّ، وحبه لي، ورحمته بي، فإذا أحب الله عبداً ابتلاه، وطهّره بعذابه وربّاه، ثم إذا أراد ساق له العافية ونَجّاه، ففاز بجزاء الصبر، وحظي بفضيلة الشكر، وسعد بالتوبة والطهر، فشكراً لله على هذا الدرس النافع، وهذا الألم الشافي الناجع، وهذا العقاب المؤدِّب الرادع،

وهذا المرض المُهَذِّب اللاذع، إن الله سبحانه وتعالى يأمرني بعمله، بفعله بهذا المرض، بعد أن أمرني بكتابه، إن لم أستجب لكتابه استجبتُ لفعله، فكيف لا أشكره على هذه العناية ؟ وكيف لا أطيع من يرعاني هذه الرعاية ؟ وهكذا شُفيت من مرضي ضعيفة الجسم قوية الإرادة، ضعيفة الهوى قوية الصبر، وفهمت

ما قاله الله لي بهذا المرض، وما سكبه بقلبي بلا ألفاظ، وما صوره لعيني فرآه عقلي جلياً وضاحاً.

فهمت كيف يجب أن يُحاط رأسي ووجهي بالخمار، كما مثله الله لي، وأن يدعو فمي ولساني بالشكر خوفاً وطمعاً، فكنت بعد مرضي غير ما كنت قبله، وكانت أعظم نعمةٍ علي أن جعلتني أقهر هوى نفسي وصبرت يومي، وأصبحت أغنى وأقنى من أمسي.

هذا درس، فهذا الوجه، هذا الجمال الذي منحه الله للمرأة، إن لم يحجب بالنقاب ربما حُجِبَ باللفائف الطبية.

والله سمعتُ عن امرأةٍ متبذلة تعادي كل امرأةٍ تضع الحجاب، تعاديها وتكيدُ لها، وتوقع بها الأذى، أصاب رأسها مرضٌ عُضال، فاضطرت لحلق شعرها كله، وأشار عليها الطبيب أن تضع الحجاب ليتسرّع شفاء المرض، فتوسلت إليه أن تضع الباروكة قال: لا، لا، الحجاب ضروري، فالباروكة تؤذي الجلد، فرأتها امرأةٌ وقد تنقّبت بالحجاب، لم تصدق، ولكنه ليس حجاب الإيمان، ولكن حجاب المرض.

إذا آذت المرأة عباد الله بشكلها، وزينتها، وحركتها، وصوتها، إن كانت مؤمنةً، وإن كان فيها بقيةٌ من يقينٍ وعقيدة، ربما ساق الله لها من الآلام ما يردعها، وهذه قصةٌ واقعية، هذه المرأة التي أصابها مرضٌ شديد، وحينما تابت إلى الله عزّ وجل عاد إليها شفاؤها وثقتها بالله عزّ وجل.

في الدرس القادم أرجو الله سبحانه وتعالى أن نفسر قوله تعالى:

(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنّ مِنْ آيَاتِ اللّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنّ اللّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34) إِنّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ(35))

إلى آخر الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (10-18): تفسير الآيتان 34-35
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-11-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس العاشر من سورة الأحزاب، شُرِحَ بفضل الله تعالى في الدرس الماضي قوله تعالى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

(سورة الأحزاب)

هذه الآية مررنا عليها سريعاً، ونظراً لما تنطوي عليه من معانٍ دقيقة تتعلّق بالدعوة إلى الله، رأيت أن أقف عندها وقفةً متأنية..

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْزَ أَهْلَ البَيْتِ

1 – ما هو البيت عند إطلاقه وعند تقييده:

أي بيتٍ هذا ؟ البيت إذا أُطلِق وعُرِّف انصرف إلى بيت الله الحرام، لأن لله في أرضه بيتاً واحداً، وهو أول بيت.

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

فإما أن نضيف هذا البيت إلى الله عزّ وجل فنقول: بيت الله، وإما أن نصفه فنقول: البيت الحرام، أما إذا تركنا الإضافة والوصف، وقلنا: البيت، فلعظم شأنه، ولتفرُّده في الأرض، إذا قلنا: البيت فالمقصود بيت الله الحرام، أي أن الشيء العظيم، والشيء الشهير، والمتفرّد يكفي أن نعرّفه بـ (أل) حتى تكون هذه (أل) العهد، البيت المعهود.

فمثلاً في دائرة معيَّنة لها مدير، فيكفي أن تقول: جاء المدير، ذهب المدير، غضب المدير، رضي المدير، أصدر المدير هذا الأمر، لا تحتاج أن تقول اسمه الكامل، أو أن تقول: مدير عام المؤسَّسة، يكفي أن تقول: المدير، فلأن هذه المؤسَّسة، أو هذه الدائرة لها مدير واحد، وهو متفرّد، ومشهور، ومعروف عند كل الموظّفين، فإذا قلت: المدير، فهذه (أل) العهد، أي المعهود.

فكلمة بيت الله الحرام، إذا قلت: بيت الله الحرام، فأنت بهذا أضفته، أما إذا قلت: البيت الحرام، فأنت بهذا وصفته، أما إذا قلت: البيت، فالمقصود به بيت الله الحرام، لعِظَم شأنه، ولرفعه مكانته، ولتفرُّده، وخطورته، وعميم نفعه، يكفي أن تُعَرِّفَهُ بـ (أل) فينصرف إلى بيت الله الحرام.

2 – عظمة بيت النبي عند الله وفي أعين الناس:

ولكن ربنا سبحانه وتعالى فعل الشيء نفسه مع بيت النبي، فكما أن النبي ؛ نبيُّ هذه الأمّة، ورسولها، الذي يوحى إليه، وهو المعصوم، هذا النبيُّ العظيم الذي جعله الله رحمةً مهداةً، ونعمةً مسجاةً، فكما أنه عظيم فبالتبعيّة أهل بيته محطُّ الأنظار، وحديث الألسُن.

3 – ماذا لو كان بيت النبي على غير منهج الله:

فلو أن هناك مسافةً بينه وبين أهل بيته كبيرةً جداً لارتبك الناس، ولشكّوا في عظمة هذا الدين، فهذا الحق الذي جاء به النبي يجب أن يكون متمثِّلاً في بيته، فإن لم يكن كذلك فسينشأ سؤالان خطيران: أهذه الدعوة واقعيّة ؟ إن لم تُطبّق في بيت النبي فليست واقعيّة، وإن كان بالإمكان أن تُطبّق ولم تُطبّق، فهناك مأخذٌ كبير على النبي عليه الصلاة والسلام، فمن لوازم الدعوة أن تكون مطبّقَة، وأن تكون قابلةً للتطبيق ومطبّقةً في وقتٍ واحد.

فلذلك قد يرتبكُ الناس لو رأوا بيت النبي على خلاف دعوته، أو على خلاف ما جاء به، ولهذا كما قال بعض المفسِّرين: تولّى الله في عليائه وبنفسه تطهير أهل بيت النبي، وهذه هي المقدِّمة.

4 – إسقاط على واقع الدعاة:

إن الإنسان يدعو الله عزّ وجل، ولا تجد في بيته آثاراً لهذه الدعوة، فمن يصدِّقه ؟ أن لا يُصدّق، فإن لم يكن أهله وبناته على المستوى الذي يدعو إليه، وإن لم يأتمر هو وأهله بما يدعو، وإن لم ينتهِ هو وأهله بما ينهى، فكيف يصدِّق الناس دعوته ؟ فليس المهم أن تدعو إلى الله عزّ وجل ؛ ولكن المهم أن يرى الناس من خلال حياتك الخاصّة، ومن خلال عملك، وبيتك، وتحاورك، ونشاطك أثراً لهذه الدعوة.

إذاً: لخطورة بيت النبي عليه الصلاة والسلام في الدعوة، إن لم يكن بيت النبي بما فيه من نساءٍ وبناتٍ وأقارب، في المستوى الذي يليق بالنبي، فإن أناساً كثيرين يشكِّكون في دعوة النبي، إذاً حينما تطالب امرأة النبي عليه الصلاة والسلام، أو إحدى أمّهات المؤمنين بنصيبٍ أوفر من الدنيا يزيد عن حدِّ

التقشُّف، فإن الله سبحانه وتعالى يسمي هذا فاحشة، لأنها بحق النبي فاحشة، لعِظَم مكانه عند الله عزّ وجل، ولعِظَم شأنه، ولذلك قال الله عزّ وجل:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ (30))

أي إذا طالبتنّ النبي بأكثر مما يطيق، وإذا أردتُن أن تخرجن النبي عن حدِّ التقشُّف والاعتدال، فربّما كان هذا في حقِّكنّ فاحشة، فالذنوب تعظُم كلّما علا مقام الإنسان، ولذلك قال الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ (33))

هذه الآية لها معنى.

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ (33))

(إنما) أداة قصر، أي إننا قصرنا إرادة الله على تطهير أهل بيت النبي..

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ (33))

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

1 – مشيئة الله وإرادته متعلِّقة بالخير المطلق:

دائماً مشيئة الله وإرادته متعلِّقةٌ بالخير المطلق.

مثلاً:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ)

(سورة يونس: من الآية 107)

ما قال: وإن يمسسك بنفعٍ، أو بخيرٍ، بل قال:

(وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ)

(سورة يونس: من الآية 107)

فالخير مراد ؛ لكن الضُر يلجأ إليه عند الضرورة لحلّ مشكلة، ففي الأصل هذه المركبة صُنِعَت من أجل أن تسير، إذ صُمِّمَت لتسير، وفيها مكابح، والمكابح ضمانٌ لسلامتها، فالأصل في السيارة المحرّك لا المكبح، ولكن المكبح في بعض الحالات لابدّ منه، وربّما كان في بعض الحالات هو السبيل الوحيدة لوقاية هذه المركبة من التدهور.

2 – الأصل في خَلق الإنسان الإسعاد والعلاج طارئ:

كذلك الإنسان خُلِقَ ليسعده الله عزّ وجل، وليرحمه، وليرزقه، وليتمتّع بصحّته، ولكن أحياناً يأتي المرض كعلاجٍ لابدّ منه، ويأتي الفقر أو الخوف كعلاجٍ لابدّ منه، فالأصل أنك خُلِقت للسعادة، ولكن العلاجات الإلهيّة تكون ضروريّةً حينما تجنح بك القدم، وتزلُّ بك وتتجه في طريقٍ خطيرة، إذاً:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ (33))

فإرادة الله ـ كما قلنا من قبل ـ كل شيءٍ وقع أراده الله، لأنه لا يقع شيءٌ في الكون إلا بإرادة الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله متعلِّقَةٌ بالحكمة البالغة، وحكمته متعلِّقةٌ بالخير المُطْلَق، فهذه المقولة تريحُ الإنسان، وتثلج صدره.

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ (33))

أي أن إرادة الله عزّ وجل مقصورةٌ على أن يذهب عنكم الرجس، ويطهركم تطهيراً، وإذا كانت هذه مشيئة الله، فأغلب الظن، وهذا هو الحق، أنها متّجهةٌ إلى خلقه جميعاً ليذهب عنهم الرجس، ويطهرهم تطهيراً.

لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

1 – ما هو الرجس ؟

ما هو الرجْس ؟ هو الشيء النَجِس، أو النَجَس، وكلمة نَجَسْ أبلغ من النَجِس، لأن النَجَس عين النجاسة، أما النَجِس فشيءٌ أصابته النجاسة، فالشيء الذي تصيبه النجاسة يمكن أن يطهر ؛ لكن عين النجاسة لا يمكن أن تطهر، فالانحراف، حبُّ الدنيا، والمنافسة عليها، وهذه الأعمال التي قد يفعلُها من هم حول النبي، لعِظَم مكان النبي، ولقدسيّة دعوته، ولأنه قِبلة الأنظار، والمثل الأعلى، والقدوة الكاملة، والأسوة التي يُتَأسّى بها، لذلك كان أهل بيته محطّ نظر الله عزّ وجل..

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

فائدة جليلة مستنبطة من الآية:

قال بعض العلماء: إن إرادة الله في هذه الآية مقصورةٌ على إذهاب الرجْس، وإذهاب الرجس مقصورٌ على أهل البيت، أهل البيت، يا أهل بيت النبي، فماذا يستنبط من هذه الآية ؟ وماذا يستفاد ؟ يُستفاد من

هذه الآية أنك إذا دعوت إلى الله، فالناس لا يلقون بالاً إلى ما تقول ؛ بل ينظرون إلى عملك، وإلى علاقاتك، وانضباطك، وطاعتك، وجهدك، وورعك، فإذاً أخطر من الدعوة أن تكون في مستوى الدعوة، وأن تكون قدوةً لمن تدعو، ومثلاً أعلى لمن تدعو، ومناراً لهم، وهذا مما يُستفاد من هذه الآية، دائماً وأبداً نحن نتمنّى أن نفهم الآية أولاً، وأن نطبّقها على حياتنا ثانياً..

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

إذاً: كل مؤمن بالتبعيّة إذا أراد الله أن يطهّره، وأن يُذهِب عنه الرجس، ويسوق له بعض الشدائد أحياناً، أو يوقعه في ظروفٍ صعبة وينظر ماذا يفعل، ويوجّهه الوجهة الصحيحة، فهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي))

[عن زيادة الجامع الصغير عن ابن مسعود]

2 – مَن هم أهلُ النبي ؟

وشيءٌ آخر، قبل أن ننتهي من هذه الآية، من هم أهل بيت النبي ؟ يا تُرى زوجاته الطاهرات ؟ لو كان أهل بيت النبي زوجاته الطاهرات حصراً لجاءت الآية: إنما يريد الله ليذهب عنكنّ الرجس أهل البيت، لكن الله عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ (33))

من استبدال ضمير كنّ بكم فَهم العلماء أن أهل البيت هم أقرباء النبي ذكوراً وإناثاً، وكل من يلوذ به من النساء أو الرجال، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، من قوله تعالى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

والآية التي تليها هي قوله تعالى:

(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34))

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ

1 – معنى: اذْكُرْنَ

اذكرن بمعنى احفظن، وبمعنى اشكرن الله عزّ وجل على أنكن في بيت النبوّة، فهذه نعمةٌ عظمى أن أتيح للإنسان أن يجلس في مجالس العلم.

استنباطات لطيفة:

الاستنباط الأول:

فإذا أردنا أن نستنبط من هذه الآية ما يخصُّنا نحن، فمن نِعَم الله الكبرى أن سمح الله لنا أن نُصْغِيَ إلى الحق، فمن نعمة الله علينا أن أنزل علينا هذا القرآن، وأن هدانا إلى سواء السبيل، وأن بيَّن لنا في كتابه أنّ الله كل شيء، فإذا سمح الله لأحدكم أن يكون له مجلس علمٍ، ومورد حقٍ، ومَنْهَلُ علمٍ لينهل منه فهذه نعمةٌ عُظمى، لأن الإنسان من دون علم يهبط إلى مستوى البهيمة، وما من مشكلةٍ تقع على وجه الأرض إلا بسبب معصيةٍ لله عزّ وجل، وما من معصيةٍ لله عزّ وجل إلا بسبب جهلٍ بمنهجه.

أخطر شيءٍ في حياة الإنسان أن يتعرّف إلى منهج الله، كما أن منهج شيءٍ في هذه الآلة المعقّدة، غالية الثمن، بالغة الفائدة، معقّدة التركيب، إن أثمن شيءٍ في هذه الآلة أن تتعرّف إلى طريقة عملها وصيانتها، وكذلك الإنسان، فما دام هو كائنا فيه فكر، وفيه عقل، ونفس، وروح، وجسد، وحاجات لجسده، وحاجات لنفسه، ولعقله، وله محيط، وبيئة، وأسرة، وحركة كسب رزق، وحركة ترفيهيّة، إنه كائن معقّد جداً، فهذا الكائن المعقّد من دون منهج مشكلته كبيرة، وسوف يُخْطِئ، وسوف ينحرف، ويهلك نفسه، إذاً أخطر شيءٍ في حياة الإنسان أن يتعرّف إلى منهج الله، فإذا أُتيح لإنسانٍ ما أن يكون له منهلٌ علمي، ومجلس علمٍ يستفيد منه فليلزمه..

(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ (34))

الاستنباط الثاني:

ومعنىً آخر هو، أن الشاب إذا نشأ في بيت علمٍ، وكان من أبٍ صالحٍ وأمٍ صالحةٍ، أو كان لأبٍ عالِمٍ، فهذه نعمةٌ كبرى، وإذا لم يستفد منها فسوف يعضُّ على أصابعه ندماً في وقتٍ ما، لأنه شيء قريب منك ولم تستفد منه، وأقرب شيءٍ إليك وأنت بعيدٌ عنه، هذا الذي دعا بعضهم إلى أن يقول: أزهد الناس بالعالِم أهله وجيرانه، فالشيء بين أيديهم ؛ الحق والصدق، والإيمان، والعلم، ومع ذلك ينصرف الابن أحياناً إلى شيءٍ آخر معرضاً عن بيت العلم.

إذاً:

(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34))

والآن ننتقل إلى الآية الأخرى، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(35))

إنّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتَ...

1 – التفصيل بالتذكير والتأنيث وعدم استعمال صيغة التغليب:

وأول ملاحظة: لو أن الله سبحانه وتعالى لو قال: **" إن المسلمين، والمؤمنين، والقانتين، والصادقين، والصابرين، والخاشعين، والمتصدِّقين، والصائمين، والحافظين فروجهم، والذاكرين الله كثيراً أعدّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً ".**

لو أنه ألغى الأسماء المؤنّثة فما الذي يحصل ؟ المعنى يبقى شاملاً الذكور والإناث على التَّغْلِيب.

مثلاً: لو دخل إلى صفٍ تسعةٌ وثلاثون طالبةً وطالبٌ واحد، في اللغة تقول: دخل الطُلاّب، ففي اللغة أو في صيغة الله الصحيحة تقول: دخل الطلاب، لأن ألفاظ التذكير تشمل ألفاظ التأنيث على سبيل التغليب، وهذه قاعدة معروفة في اللغة.

إذاً: لو أن الله عزّ وجل اكتفى بقوله: إن المسلمين والمؤمنين.. إلخ، لكان المعنى إن المسلمين والمسلمات، ولكن لماذا ذكر المسلمين والمسلمات ؟

1 – الحكمة من التفصيل بالتذكير والتأنيث:

هذا الذي قلته لكم في درسٍ سابق: أراد الله عزّ وجل بهذه الآية أن يؤكِّد على أن المرأة كالرجل تماماً في التكليف وفي التشريف، مكلّفةٌ بالإسلام، وبالإيمان، وبالقنوت، وبالصبر، والخشوع، والصدقة، والصوم، وحفظ الفَرْج، وذكر الله، كالرجل تماماً، وهذا يؤكِّده آياتٌ أخرى، يقول الله عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

ولو أن الله عزّ وجل قال: من عمل صالحاً وهو مؤمن، فهو بهذا يعني من ذكرٍ أو أنثى، فماذا جاء بـ (مِن) البيانيّة، من ذكرٍ أو أنثى ليؤكِّد لنا أن الذكر كالأنثى، أو أن الأنثى كالذكر، مكلّفةٌ ومشرّفة، بل إن

الأنثى المؤمنة لها مكانةٌ عند الله تزيد على ألف رجل، أو عن مئة ألف رجلٍ عاصٍ ـ كما قال سيدنا عمر لسيدنا سعد ـ قال له: **<< يا سعد، لا يغرّنك أنك خال رسول الله ".**

النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يلقى سعداً يقول له مداعباً:

((هذا خالي، فَلْيُرِنِي امرُؤٌ خالَه))

[الحاكم في المستدرك عن جابر]

وفي بعض المعارك وقف سيدنا سعد موقفاً مشرّفاً وفيه بذلٌ وتضحية، فقال عليه الصلاة والسلام لسعدٍ كلمةً ما قالها لغيره، قال:

((يا سعد ارم فداك أبي وأمي))

[ابن ماجه، أحمد عن علي]

فلما رآه سيدنا عمر بعد وفاة رسول الله قال له: **<< يا سعد، لا يغرّنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلّهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له >>.**

فالذكر والأنثى، والنساء والرجال، والشباب والشابّات، والفتيان والفتيات، والبنات والصِبيان، عند الله سواسية، ليس بينهم قرابةٌ إلا طاعتهم لله، فالمرأة المطيعة قريبةٌ من الله عزّ وجل، بينما الرجل العاصي بعيدٌ عنه.

إذاً: ما ذكر الله عزّ وجل كلمة:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ (35))

إلى آخر الآية، إلا ليؤكِّد قيمة المرأة، ومساواتها بالرجل، وأنها مكلّفةٌ ومشرّفة، كما قلنا في درسٍ سابق.

تنبيه مهم: وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى

1 – خصائص المرأة ليست كخصائص الرجل:

لكن الآية الكريمة الأخرى حيث يقول الله عزّ وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى (36))

(سورة آل عمران)

تعني أن للمرأة خصائص ؛ في عقلها، وفي نفسها، وفيها بُنْيَتِهَا الاجتماعيّة، وفي قِوامها، وفي بنيتها العضوية والفسيولوجيّة تميّزها عن الرجل، وأن للرجل عقليّةً، ونفسيّةً، وبنيةً اجتماعيّةً، وخصائص فسيولوجيّة تميّزه عن المرأة، هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى (36))

(سورة آل عمران)

2 – انتشار الفساد بسبب تغيير وظيفة المرأة:

وما في الأرض من فسادٍ اجتماعي إلا بسبب أن نضع الرجل مكان المرأة، وأن نضع المرأة مكان الرجل، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لَعَنَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَلَعَنَ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ))

[من سنن ابن ماجة عن ابن عبّاس]

الآن إلى معاني هذه الصفات التي يوصف بها المؤمن..

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ (35))

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ

1 – معنى الإسلام:

الإسلام أيها الأخوة انصياعٌ لأمر الله، فالمسلم هو الذي يأتمر بما أمر الله، وينتهي عما عنه نهى، ولا يسمّى المسلمُ مسلماً إلا إذا أطاع الله.

2 – مَن هو المسلم ؟

فالمسلم بالتعريف الدقيق هو: الذي خضع لله في كل شؤون حياته، ما دام منهج الله منهجاً كاملاً، فالخضوع لهذا المنهج في الأمر والنهي هو ما يعنيه الإسلام في هذه الآية.

2 – ما هو الإيمان ؟

أما الإيمان:

(قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 14)

ومعنى هذا أن الإيمان درجة أعلى من الإسلام، لمجرّد أن تخضع لله عزّ وجل، بصرف النظر عن أسباب خضوعك، وعن درجة خضوعك، وعن دوافع خضوعك، وعن أهدافك من خضوعك فأنت

مسلم، لكن الإيمان شيءٌ آخر، الإيمان تصديقٌ وإقبال، لأن الكفر تكذيبٌ وإعراض، ففي الإيمان يوجد شيءٌ فكري وشيءٌ نفسي، أما الإسلام فمادي، فهذه العين يجب أن تغضّ عن محارم الله لأنها مسلمة، وهذه اليد، وهذا اللسان، وهذه الأذن، فحينما تنساق الجوارح إلى طاعة الله هذا هو الإسلام، ولكن حينما يصدِّق العقل والقلب بما جاء عن الله عزّ وجل، وحينما يقبل الإنسان على الله عزّ وجل، فهذا هو الإيمان، الإيمان درجة أعلى فيها جانب فكري وجانب نفسي، الجانب الفكري التصديق، والجانب النفسي الإقبال، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس الإيمان بالتمني ـ أيْ التشهّي ـ ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وأقرّ به اللسان، وصدّقه العمل))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال كبير]

معظم الناس يدعون: جعلنا الله مؤمنين، ويتمنى أن يرزقه الله الجنّة، وأن يجعله عند حسن ظنِّه، فدائماً يدعو الله، وهذا شيءٌ جميل، ولكن لا ترى في عمله ما يتناسب مع هذا الدعاء، هذا التمني ـ ولا بالتحلي ـ فإذا كتب أحدهم:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

في محلِّه التجاري فهل صار مؤمناً ؟ وإذا كتب:

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

ويا رضاء الله ورضاء الوالدين، على مركبته، فهل صار مؤمناً ؟ هذا التحلي، فقد تلبس لباساً إسلامياً، وتمسك مسبحة، وتتعطّر، وتذهب إلى المسجد، وأن تضع في بيتك آيات قرآنيَّة، آية الكرسي، وبعض الآيات، وأن تحتفل بعيد مولد رسول الله احتفالاً جيّداً جداً، وأن تحضر فرقة منشدين، وتأتي بعالِم جليل ليلقي لك كلمة، وتوزّع الحلويات والملبّس، ولكن ليس هذا الإيمان، هذا تحلٍ، فهناك تمنٍ وهناك تحلٍ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وأقرّ به اللسان، وصدّقه العمل))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال كبير]

قال عليه الصلاة والسلام:

((ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمّدٍ رَسُولا))

[من صحيح مسلم عن عبد المطلب]

الإيمان له طعم، فالمؤمن يجد حلاوة الإيمان في قلبه، هذا حديث دقيق:

((ليس الإيمان بالتمني ـ أيْ التشهّي ـ ولا بالتحلي ـ أيْ التزين بالقول، ولا بالصفة ـ ولكن ما وقر في القلب، وأقرّ به اللسان، وصدّقه العمل))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال كبير]

أي أن يأتي عملك مطابقاً لما تصدِّق، فمع الإيمان إقبال على الله، وذوق وحلاوة.

3 – كل مؤمن مسلمٌ، وليس كل مسلمٍ مؤمنًا:

فكل مؤمنٍ مسلم، وليس كل مسلمٍ بمؤمن، والإسلام انصياع، والإيمان تصديق وإقبال، لكن أكثر الناس أو بعض الناس له فورة، يفور فورة ويهمد، هذه الفورة التي تهمد وتنطفئ ليست بالمطلوب، فربنا عزّ وجل قال:

(وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ (35))

وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ

1 – معنى القنوت:

أ ـ الطاعة:

معنى القانت هو الذي داوم على طاعة الله..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا(23))

(سورة الأحزاب)

البطولة ليست هذه الفورة، أن تُقبلْ على الدروس كلِّها، وأن تبالغ في طاعة الله، وبعد شهرٍ أو شهرين تنطفئ هذه الشعلة وتذوي هذه الفتيلة وتعود إلى ما كنت عليه، فكل مؤمنٍ مسلم، وما كل مسلمٍ بمؤمن، ولكن القانت هو الذي داوم على طاعة الله عزّ وجل، فلذلك قال الله عزّ وجل:

(وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ (35))

والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَحَبّ الأَعْمَال إِلَى اللّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلّ))

[من صحيح البخاري عن السيدة عائشة]

أنت تعامل خالق الكون، تعامل الله عزّ وجل، عاهدته، وانتهى الأمر، عاهدته على غضّ البصر، وعلى الصدق إلى الأبد، أي حتى الموت، وعلى الأمانة، والإخلاص فهكذا المؤمن، فالقنوت هو الدوام على طاعة الله.

ب ـ الانقطاع للعبادة:

بعضهم قال: الانقطاع للعبادة.

لكن المعنى الدقيق المناسب لهذه الآية: الاستمرار، ولذلك يقولون: البطولة لا أن تنتصر ؛ ولكن البطولة أن تحافظ على هذا النصر، فقد تنتصر، ولكن بعد النصر تأتي هزيمة، ويمكن أن تصل إلى قمة جبل، لكن البطولة أن تبقى في القمّة لا أن تنزل إلى الوادي مرّةً ثانية، وهناك كثير من الأشخاص يصعدون ثمّ يهبطون، ويرتفعون ثمّ يسقطون، ويقبلون ثمّ يدبرون، ويتألّقون ثمّ تذوي هذه الشعلة ـ تنطفئ ـ فالبطولة الاستمرار.

الحقيقة أن المؤمن لا يتأثّر بالأحداث، فسواءٌ عليه أأقبلتْ، أم أدبرتْ، أهو صحيح الجسم أم مريضه، أوُفِّقَ في زواجه أم لم يوَفّق، أدخله كبير أم قليل، لقد عاهد الله على الطاعة وكفى، وهذا معنى القانت..

(وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ (35))

وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ

صدق الأقوال وصدق الأفعال:

وهنا الصدق له معنى دقيق، فهناك صدق الأقوال، وهذا المتبادر عند الناس، ففلان إذا تحدّث لا يكذب، ولكن الصدق هنا صدق الأفعال، إذا قال: أنا مؤمن، فتأتي أفعاله مصدِّقةً دعواه، وإذا قال: أنا مسلم، فتأتي أفعاله مصدِّقةً لإسلامه، أو قال: أنا أحبُّ الله عزّ وجل، فتأتي أفعاله مصدِّقةً لادعائه حبَّ الله عزّ وجل، أو قال: أنا ورع، فتأتي أفعاله مصدِّقةً لورعه، فإذا انفصلت الأعمال عن الأقوال وقعنا في كذب الأفعال..

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ (35))

وَالصّابرينَ وَالصّابرَاتِ

1 – الإيمان كله صبرٌ:

الصبر على التكاليف المتناقضة مع طباع النفوس:

الحقيقة أن الصبر، ولا أبالغ إذا قلت: الإيمان كلّه صبر، لماذا ؟ لأنك في الأصل أنت مكلّف، والله عزّ وجل فطرك فطرةً معيّنة، وجَبَلَكَ جبلّةً خاصّة، وجعل التكليف يتناقض مع الجبلّة، لا مع الفطرة، فمثلاً: هذا الجسد يحبُّ أن يبقى نائماً في الفراش، فيأتي التكليف بأن تستيقظ لصلاة الفجر، فالاستيقاظ مناقضٌ لحبِّ الراحة والاسترخاء..

(زُيّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء)

(سورة آل عمران الآية: 14)

أُودِعَ في قلب الإنسان حُبُّ المرأة، فيأتي التكليف بغضّ البصر، وأُودِعَ في الإنسان حبِّ المال فيأتي التكليف بإنفاق المال، وأودع في الإنسان الهَلَعَ يأتي التكليف بالصبر، أودع في الإنسان حبُّ الحديث المُمْتِع، جاء التكليف الكَفِّ عن الغيبة والنميمة، فلو تتبّعت أوامر الله كلّها لوجدت أنها مكلفة مجهدة، تحتاج إلى إرادة، وتصميم، وعزيمة، فيكفي أن يسهو الإنسان، وأن ينساق مع شهوته حتى يصبح من أهل النار، وهكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثلاثًا، ألا إنّ عَمَلَ النّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[من مسند أحمد: عن ابن عبّاس]

أي أن تنساق مع حظوظ نفسك، وأن تتحدّث كما تريد ؛ من دون رقابة، وانضباط، وأن تأكل ما تشتهي، وتنظر حيثما تشاء، فإطلاق البصر، وإطلاق الأذن لسماع ما تحب، واللسان، واليد، والرجل، والتعليق، والكلام، وممارسة الشهوات ـ

((إنّ عَمَلَ النّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ـ سهوةٌ واحدة، أو غفلة واحدة، ينساق الإنسان وراء شهواته ـ إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ))

فطريق الجنّة محفوف بالمكاره..

((حُفّتِ الْجَنّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفّتِ النّارُ بِالشّهَوَاتِ))

[من صحيح مسلم: عن أنس بن مالك]

قد يكون المسجد غير مدفأ، تجلس على ركبتيك، ولكن في الملاهي مقاعد وثيرة جداً، وضيافة، وأشياء، وإمتاع للعين، وللأذن ـ

((حُفّتِ الْجَنّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفّتِ النّارُ بِالشّهَوَاتِ))

لذلك الصبر هو الإيمان، وأنت في الأصل أُودِعَت فيك شهوات وجبلّة خاصّة، وجاء التكليف على عكسها..

(وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ وَنَهَى النّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنّ الْجَنّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

(وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ (35))

الصبر واجب على الفقير والغني معًا:

ولذلك من السذاجة أن نظن أن الفقير عليه أن يصبر، لا والله، لأن الغني عليه أن يصبر أكثر، لماذا ؟ لأن الفرص المتاحة للفقير أقل بكثير من الفرص المتاحة للغني، فإذا ذهب غنيٌ إلى بلدٍ غربي، بإمكانه أن يفعل كل شيء بماله الكثير، فإذا ضبط نفسه من الفندق إلى المكتب إلى المطار إلى دمشق، ولم يذهب إلى هنا وهناك، فليس الصبر خاصاً بالفقراء؛ بل الصبر خاصٌ أيضاً بالأغنياء،و ليس الفقر خاصاً بالضعفاء ؛ بل هو يشمل الأقوياء، وليس خاصاً بالمرضى ؛ بل هو يشمل الأصحاء، والصبر هو أن تضع نفسك في الطريق الصحيح وأنت في صحّتك، وقوّتك، وغناك، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ (35))

الصبر على الأمر التكليفي والأمر التكويني:

وبالمناسبة هناك صبرٌ على أمر الله التكليفي، وهناك صبرٌ على أمره التكويني:

1 – الصبر على الأمر التكليفي:

الأمر التكليفي افعل ولا تفعل، أمر ونهي، إذاً هناك صبرٌ عن الشهوات، وصبرٌ على الطاعات.

2 – الصبر على الأمر التكويني:

أما الأمر التكويني فهناك صبرٌ على قضاء الله وقدره، وقد شاءت حكمة الله أن تكون كذا، كأن يكون لك دخلٌ محدود، أو دخلٌ غير محدود، وأن تُرْزَقَ بناتٍ فقط، أو ذكوراً فقط، أو ذكراً وبنات، أو أن تكون عقيماً، هكذا شاءت حكمة الله عزّ وجل.

عليك أن تصبر على أمر الله التكليفي، بأن تصبر على الطاعات، وأن تصبر عن الشهوات، وعليك أن تصبر على أمر الله التكويني، أي على قضاء الله وقدره..

(وَالصّابرينَ وَالصّابرَاتِ (35))

وَالخَاشِعينَ وَالخَاشِعَاتِ:

1 – الخشوع في الصلاة مِن أسباب الفلاح:

الخشوع كما قال الله عزّ وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2))

(سورة المؤمنون)

حالة استعظامٍ لله عزّ وجل تملأ القلب، إذاً كلّما ارتقى إيمانك زاد خشوعك، حتى إن بعضهم قال: ليس الخشوع من فضائل الصلاة بل من فرائضها، لقوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2))

(سورة المؤمنون)

2 – معرفة الله سبب للخشوع في الصلاة:

كلّما عرفت الله أكثر خشع له قلبك، وكلّما قلّت معرفة الله عزّ وجل قلّ خشوعك، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام وقد رأى رجلاً يصلي، يقوم بحركات كثيرة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

فالخشوع أن يمتلئ قلبك تعظيماً لله، ولن يمتلئ قلبك تعظيماً لله إلا إذا فكّرت في آيات الله، ودقّقت في دلائل عظمته تعالى.

(وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ (35))

والمُتَصَدِّقِينَ والمُتَصَدِّقَاتِ

1 – الصدقة دليل الإيمان:

الحقيقة أنّ الإنسان ما لم يبذل من ماله يبقى الإسلام عنده كلاماً فارغاً، هذا ما جاء في الآية الكريمة:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133))

(سورة آل عمران)

الصفة الأولى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)

(سورة آل عمران: من الآية134)

2 – الصدقة دليل حب العبد لله تعالى:

حينما تنفق المال تؤكِّد أنك تحبُّ الله عزّ وجل أكثر من هذا المال، فإذا كان حبُّك للمال أكثر من الله عزّ وجل فإنك لا تنفق، فإنفاق المال دليل حبّك لله عزّ وجل، فالإيمان له مظاهر جلية ـ فمن لم يكن له ورعٌ يصدُّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله.

لو فرضنا أنك في غرفةٍ وحدك، وهناك نافذة للجيران، بدت منها امرأة، وأنت وحدك، ولا أحد يراقبك غضضت بصرك عنها، فهذا يدل على خشيتك لله عزّ وجل، إذ توجد أعمال تؤكِّد ذلك ؛ منها غضُّ البصر، ومنها ضبط اللسان، والجوارح، والتصدُّق، فتأكّد أنك إذا تصدّقت بصدقةٍ، وأخفيتها عن الناس، فهذا دليل صدقك وإخلاصك التأمين، فلذلك ورد من صفات المؤمنين:

(وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ (35))

3 – الصدقة أنواع كثيرة:

وهناك إنسان تصدّق بماله، وإنسان تصدّق بعلمه، وثالث بخبرته، ورابع بجاهه، وخامس بمكانته، وسادس بوقته، وآخر تصدّق بعرضه.

فهذا أبو ضمضم، وهو أحد أصحاب رسول الله، ما معه شيء، دعا الله عزّ وجل وقال:

((اللهمّ إني تصدّقت بعرضي على المسلمين، فمن تحدّث عني بما أكره فقد سامحته))

[سنن أبي داود عن قتادة]

أحياناً تسامح الناس، فأنت تصدّقت بسمعتك التي هي أغلى شيءٍ عندك، وعلى كلٍ فالصدقة ليست مقصورة على إنفاق المال، وما من صدقةٍ أعظم عند الله عزّ وجل من كلمة الحق، وأفضل صدقةٍ أن يتعلّم المرء علماً ثمّ يعلِّمه أخاه المسلم، فذه أفضل صدقة..

(وَالصّائِمِينَ وَالصّائِمَاتِ (35))

وَالصّائِمِينَ وَالصّائِمَاتِ

1 – معنى الصيام في هذه الآية:

المعنى العام:

هنا الصيام كما قال بعض العلماء: لا علاقة له بالصيام الذي فُرِضَ علينا في رمضان، فصيام رمضان صيام شهر، أما هنا فجاءت بشكل مستمر، أي من صفات المسلم أنه صائم، معنى صائم أي ممتنع عن كل ما لا يرضي الله.

المعنى السياقي:

إضافةً إلى معنى الصيام الذي جاء في القرآن، فما دام الصيام هنا صفةً مستمرّةً في الإنسان، إذاً هو الانقطاع عن كل ما لا يرضي الله عزّ وجل..

(وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ (35))

وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ

أيضاً حفظ الفرج من دلائل الإيمان، لأن غير المؤمن ينطلق على سجيّته من دون ضابط، أساساً لا يُحْفَظُ الفرجُ إلا بغضّ البصر، لقوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور الآية: 30)

فلمّا جاء غض البصر قبل حفظ الفرج، فُهِمَ من هذا الترتيب أن طريق حفظ الفرج غَضُّ البصر، وأن طريق انحراف الإنسان إطلاق البصر..

(وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ (35))

والمرأة إذا صلّت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت نفسها، وأطاعت زوجها دخلت جنّة ربّها..

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ (35))

وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43))

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35))

العبرة العامة من الآية:

أيها الأخوة الأكارم... من دلائل هذه الآيات أن نتمثّلها، أي أن تكون مسلماً، ومؤمناً، وقانتاً، وصادقاً، وصابراً، وخاشعاً، ومتصدّقاً، وصائماً، وحافظاً لفرجك، وذاكراً لربّك حتّى تستحق أن يُعدّ الله لك مغفرةً في الدنيا وأجراً عظيماً في الآخرة.

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نبدأ بقوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

تمهيد للدرس اللاحق:

هذه الآية أيها الأخوة لها أسباب نزول، والعلماء يقولون: إن خصوص السبب لا يتنافى مع عموم اللّفظ، فمن إعجاز القرآن أن تأتي بعض الآيات، ولها أسبابٌ وقعت في عهد النبي، أما تأتي صيغتها بطريقةٍ تُعَدُّ قانوناً يمضي به الإنسان إلى يوم القيامة، ففي الدرس القادم إن شاء الله نفسّر هذه الآية والتي تليها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (11-18): تفسير الآيات 36 - 38 ، قصة زينب بنت جحش ـ تعدد الزوجات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-12-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الحادي عشر من سورة الأحزاب.

صيغة (وما كان لمؤمنٍ) ليست لنفي الحَدَث بل لنفي الشأن وهو أبلغ من نفي الحدث:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

(سورة الأحزاب)

هذه الآية أيها الأخوة لها أسباب نزول، وإذا كان للآية أسباب نزول فلا يمنع أن نفهمها فهماً من عموم لفظها، وعلماء التفسير يفرّقون بين خصوص السبب وعموم اللفظ، فإذا كان لهذه الآية أسبابٌ نزلت من أجلها، فهذا لا يمنع أن نفهمها فهماً متعلِّقاً بعموم اللفظ، فهذه الآية ماذا تعني ؟ يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ (36))

(سورة الأحزاب)

صيغة (وما كان لمؤمنٍ) هذه ليست لنفي الحَدَث ؛ بل لنفي الشأن، ونفي الشأن كما تعلمون أبلغ بكثير من نفي الحدث، وأوضِّح لكم ذلك، إذا قلنا: فلان لم يسرق هذه الليرة، نفينا عنه السرقة، ليس معنى هذا أنه ليس من عادته أن يسرق، هذه لم يسرقها، قد يكون أكبر سارق، أما هذه الليرة ففلانٌ لم يسرقها، نفيت عنه سرقة هذه الليرة فقط، أما إذا قلت: ما كان لفلان أن يسرق، أي هذا مستحيلٌ في حقه، وهذا بعيدٌ عن مقامه، وهذا ليس من شأنه، فهو لا يفكر في هذا، ولا يرضى هذا، ولا يريد هذا، ولا يُعْقَلُ أن يفعل هذا، فأشد أنواع النفي ؛ نفي الحدث، ونفي الرغبة، ونفي الإرادة، ونفي القبول، ونفي الشأن، وكل هذه منفيةٌ بهذه الصيغة.

ذكر (ولا مؤمنة) ليؤكد الله لنا أن المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف:

قالوا:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ (36))

(سورة الأحزاب)

هذه صيغة نفي الشأن لا نفي الحدث، أي أنه ما دام المؤمن مؤمناً، فما دام قد عرف الله عزّ وجل ما كان له أن يفعل هذا، لأن معرفة الله تتناقض مع هذا الفعل، وكيف أن الضوء والظلام لا يجتمعان، ما كان للظلام أن يكون مع الضوء، وما كان للضوء أن يكون مع الظلام، لأنهما متناقضان، فحيثما وجدتم في القرآن الكريم صيغة (ما كان)، فهذه ليست لنفي الحدث ؛ إنها لنفي الشأن، وأبلغ أنواع النفي هو نفي الشأن، أي أن المؤمن لا يعقل أن يفعل هذا، ولا يريد أن يفعل هذا، وليس من شأنه، ولا يتمنّى، ولا يتصوّر، ولا يُقْبَلُ منه أن يفعل هذا، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ (36))

(سورة الأحزاب)

ما هذا الشيء الذي نفاه الله عن المؤمنين أصلاً، قال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ (36))

(سورة الأحزاب)

(ولا مؤمنةٍ) وهذا تابعٌ للدرس الماضي، فلو أن الله عزّ وجل قال: وما كان لمؤمنٍ أي ولا مؤمنةٍ، لكنه ذكر مؤمنةً ليؤكد لنا أن المرأة مساويةٌ للرجل تماماً في التكليف والتشريف.

قضاء الله في القرآن وقضاء النبي في السنّة:

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا (36))

(سورة الأحزاب)

الله كيف يقضي ؟ في القرآن، والنبي كيف يقضي ؟ في السنة، إذا قال الله عزّ وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ(30))

(سورة النور)

هذا أمر الله عزّ وجل، قضى الله من خلال منهجه أن تغض بصرك، فإذا أنت لم تعبأ بهذا الأمر فلست مؤمناً، وما دمت مؤمناً فهذا أمر الله، وينبغي أن تتقيد به.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب)

وأنت تختار بين هذا البيت أو هذا البيت، وبين هذه الحرفة أو هذه وبين هذا البلد في سفرك أو هذا، وهذه الزوجة أو تلك، أما أن تختار بين أن تطبق أو أن لا تطبق أمر الله عزّ وجل، فهذا مستحيل بحق المؤمن.

أن تختار أن تنفذ أمر الله أو أن لا تنفذ هذا ليس من صفات المؤمن:

أنت قبل الإيمان مخيَّر ؛ تؤمن أو لا تؤمن، أما إذا آمنت فلست مخيراً في أن تنفذ أو أن لا تنفذ، فإنسان مخير إما أن يقبل التطوع في الجيش أو أن لا يقبل، فإذا قبل، فالطاعة ملزمة للجيش، فلا يستطيع أن يقول: هذه لم تعجبني، إذ لا يوجد لم تعجبني بالجيش، ما دمت اخترت هذا السلك، فالطاعة فيه لا بدَّ منها.

مثل للتقريب: أنت ما دمت اخترت أن تكون مؤمناً فلا بدَّ من أن تطيع الله عزَّ وجل، فلو أن طالباً اختار أن يدخل مدرسة، واختار أن يكون مثقفاً فهناك دوام، ووظائف، وتدقيق، ومتابعة، ومراقبة، فكلمة بذيئة يُعاقب عليها، وتأخُر يعاقب عليه، فلو أن طفلاً آخر، أو لو أن شاباً آخر لا علاقة له بالتعليم إطلاقاً، فهو حر طليق، فاختال على هذا الطالب: أنا لا يوجد من يحاسبني، فأنا حر طليق، وخارج المدرسة كلياً، أنت مؤمن واخترت أن تكون هكذا وما دمت اخترت ذلك فالإيمان له التزامات، فأنت مخير أن تكون مؤمناً أو أن لا تكون، ولو لم تكن مؤمناً لخاطبك الله بعموم الدين، بكليات الدين قال تعالى:

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ(21))

(سورة البقرة)

أما إذا آمنت بالله عزَّ وجل خالقاً، وآمنت به رباً، ومسيّراً، وواحداً، وكاملاً، وحكيماً، وعليماً، وخبيراً، وقديراً، فلا يمكن أن تختار أن تنفِّذ أو أن لا تنفذ فهذا أمر الله، تختار لوناً من ألوان الطعام، وتختار لوناً لملابسك ترتديه، وبيتاً تسكنه، وزوجة تقترن بها، وحرفة تحترفها، أما أن تختار أن تنفذ أمر الله أو أن لا تنفذ، فهذا ليس من صفات المؤمن أبداً.

الإنسان بعد أن عرف الله عزّ وجل يأتيه أمره وهو الكمال المطلق والعدل المطلق:

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا (36))

(سورة الأحزاب)

طبعاً في حياة النبي عليه الصلاة والسلام أمره الذي يتلوه علينا من الوحي أمر الله، وأمره الذي يتلوه علينا من دون الوحي أمره هو، ونحن مكلّفون أن نطيع الله، وأن نطيع الرسول، أما إذا انتقل النبي عليه الصلاة والسلام، فصارت هذه الآية أمر الله هو هذا القرآن، وأمر النبي هو سنة النبي عليه الصلاة والسلام، إذاً:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب)

أنتم تلاحظون أن الإنسان كلما ارتقى علمه تضيق عليه الممرات، فالطبيب مثلاً عنده طريقة للتعقيم لا بدّ منها، والعلم كلما ارتقى لا بدّ من أن يعقِم هذه الأداة، وهذا المشرط، حتى أن العمليات الجراحية الكبيرة الآن تقريباً تجرى في العالم كله بطريقة واحدة، وهذا أكمل شيء، فالإنسان بعد أن عرف الله عزّ وجل يأتيه أمره وهو الكمال المطلق، والعدل المطلق، كما قال بعض العلماء:

الشريعة عدلٌ كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، فإذا خرج التأويل ـ تأويل الشريعة ـ من العدل إلى الجور، أو من المصلحة إلى خلافها، أو من الرحمة إلى القسوة، فهذا ليس من الشريعة، ولو أدخلت عليها ألف تأويل وتأويل.

علامة معرفة الله عزّ وجل طاعتك له:

شرع الله، كماله مطلق، وعدله مطلق، ليس هذا كلام البشر، بل كلام خالق البشر، كلام الصانع، الخالق، المدبّر، المربي، الخبير، العليم، الغني، القدير.

إذاً حينما تتردد في تنفيذ أمر الله عزّ وجل فأنت لا تعرف الله أبداً، أما حينما تعرف الله معرفةً بالقدر الذي يكفي لطاعته فإنك تبادر مباشرةً إلى تنفيذ أمر الله عزّ وجل، إذاً ضع في ذهنك أنك مخير في أن تسلك طريق الإيمان أو أن لا تسلك، وإذا سلكت طريق الإيمان ولست مخيراً أن تنفذ أو أن لا تنفذ، فمن لوازم الإيمان الطاعة، بل إن علامة معرفة الله عزّ وجل طاعتك له، إذاً:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

(سورة الأحزاب)

هناك ضلال بعيد، وهناك ضلال مبين، أي أن شيئاً واضحاً بيّناً كالشمس حِدتَ عنه، فهذا ضلال مبين، وعلى كلٍ فهذه الآية نزلت لأسباب، وهي:

أن النبي عليه الصلاة والسلام أمره الله عزّ وجل أن يزوّج ابنة عمته ـ زينب بنت جحش ـ إلى متَبَنّاه زيد بن حارثة، ولا بدّ لنا من أن نفهم من هو سيدنا زيد ؟ ومن هي زينب ؟ ولمَ كان الزواج بينهما ؟ ثم لماذا أمر الله عزّ وجل زيداً أن يطلِّق امرأته ؟ ولماذا أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زينب ؟ هذه الآية نزلت في هاتين القصتين، فمن أجل أن نفهمها فهماً عميقاً، وأن نلقي ضوءاً كاشفاً على خباياها، فلا بدّ من معرفة من هو زيد ؟ ومن خلال قصة زيد نتعرف الشيء الكثير عن عظمة هذا الدين.

قصة زيد بن حارثة رضي الله عنه:

زيد بن حارثة يصفه الواصفون بأنه كان قصير القامة، شديد السمرة، في أنفه فَطَسٌ، أما نبؤه وخبره ومكانته فعظيمةٌ جداً، والعجب لهذه المفارقة بين شكله وبين مكانته عند الله، بل إنه الصحابي الوحيد الذي ورد اسمه في القرآن، لقد كان غلاماً للسيدة خديجة بنت خويلد زوج النبي عليه الصلاة والسلام، فلما تزوج النبي بخديجة رضي الله عنها، قدمت له هذا الغلام هديةً منها إليه، فماذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام ؟ أعتقه فوراً وضمه إليه.

هذا الغلام حينما ضمه النبي إلى بيته، لم يكن النبي قد بُعِثَ بَعْد، ولا يزال النبي في مكة فتىً من فتيانها، وكلكم يعلم أن فقد الابن شيءٌ عظيم، لذلك فُجِعَت أمه وأبوه بفقده، لأنه اختطف إثر غزوةٍ وبيع في سوق العبيد، وهكذا كان العرب في الجاهلية، والحق يقال: إن تاريخ العرب يجب أن يبدأ مع ظهور الإسلام، ففي الجاهلية كان الغزو، والسلب، والنهب، والحمية الجاهلية، والعصبية، ووأد البنات، والحروب التي تقوم لأتفه الأسباب، يقتل فيها عشرات بل مئات الألوف لأسبابٍ طفيفةٍ وسخيفةٍ وحقيرةٍ، لذلك سمّاها الله الجاهلية قال:

(وَلا تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيّةِ(33))

(سورة الأحزاب)

الجاهلية في أدق معناها جهلٌ في حقيقة التوحيد، وجهلٌ في تنفيذ أمر الله عزّ وجل، وجهلٌ في الاعتقاد، وجهلٌ في السلوك.

في موسمٍ من مواسم الحج قصد البيت الحرام نفرٌ من قوم زيد، وأهله، وفيما كانوا يطوفون بالبيت العتيق إذا هم بزيدٍ وجهاً لوجه، فعرفوه وعرفهم، وسألوه وسألهم، ولما قضوا مناسكهم وعادوا إلى ديارهم أخبروا آباه بما رأوا وحدّثوه بما سمعوا، فماذا قال زيد لأقربائه حينما لقيهم وجهاً لوجه ؟ قال: أخبروا أبي أني مع أكرم والد.

عظمة الإسلام تجعل المسلمين لا فرق عندهم بين إنسانٍ وإنسان:

سوف ترون بعد قليل كيف أن عظمة الإسلام تجعل المسلمين لا فرق عندهم بين إنسانٍ وإنسان:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ(13))

(سورة الحجرات)

هذا الغلام العبد الأسير الذي اشتري من سوق العبيد، وقدم لخديجة بنت خويلد، وقدمته للنبي عليه الصلاة والسلام، عامله النبي عليه الصلاة والسلام كأحد أولاده تماماً ؛ بل إنه عامله معاملةً تفوق معاملة الأم والأب لابنهما، قال: أخبروا أبي أني مع أكرم والد.

ما أسرع أن عاد حارثة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، أعَدَّ راحلته، وحمل من المال ما يفدي به فلذة كبده وقرة عينه، وصحب معه أخاه كعباً، وانطلقا معاً يَغِزّانِ الطريق نحو مكة، فلما بلغاها دخلا على محمد عليه الصلاة والسلام، وقالا له: يا ابن عبد المطلب أنتم جيران الله تفكون العاني، وتطعمون الجائع، وتغيثون الملهوف، وقد جئناك في ابننا الذي عندك، وحملنا إليك من المال ما نفدي به ـ اطلب ما شئت ـ فامنن علينا وفاده لنا بما تشاء، فقال عليه الصلاة والسلام:

((من ابنكما الذي تعنيان ؟))

قالا: غلامك زيد بن حارثة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((وهل لكما فيما هو خيرٌ من الفداء أي أفضل ؟))

قالا: وما هو ؟ قال:

((أدعوه لكم فخيروه بيني وبينكم، فإن اختاركم فهو لكم بغير مال ـ هو ابنكم ـ وإن اختارني فما أنا والله بالذي يرغب عمن يختاره))

الآن دققوا، ما هي المعاملة التي تلقاها سيدنا زيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إنه حينما جاء أبوه وعمُه ليأخذاه ويفكا أسره آثر أن يبقى مع النبي ؟ هذا الشيء الذي أتمنّى أن نعرفه ؛ أن عند المؤمن من الرحمة، والعدل، والعطف، واللطف، والحرص، والثقة، ما يغني عن الأب، فقالا: والله لقد أنصفت، وبالغت في الإنصاف، فدعا محمدٌ زيداً وقال: من هذان، النبي الكريم قال:

((المؤمن كيس فطن حذر وقّاف لا يعجل))

[كشف الخفاء]

سأل محمد زيداً وقال: من هذان ؟ قال: هذا أبي حارثة، وهذا عمي كعب ـ إذاً هذا التحقق ـ فقال: قد خَيَّرْتُكَ إن شئت مضيت معهما وإن شئت أقمت معي، فقال سيدنا زيد من غير إبطاء ولا تردد: بل أقيم معك، وما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت الأب والعم، فقال أبوه: ويحك يا زيد أتختار العبودية على أبيك وأمك ؟ فقال: إني رأيت من هذا الرجل شيئاً وما أنا بالذي يفارقه أبداً.

إكراماً لزيد الذي فقد نسبه إلى النبي بهذه الآية عوّضَهُ عن ذلك بأن ذكر اسمه في القرآن:

النبوة كمال مُطْلَق، فالحقيقة النبوة شيء يصعب تصوره، إنسان جاء أبوه وعمه ليفكاه من الأسر، فيؤثر على أمه وأبيه وعمه النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يكن نبياً بعد، ولو أن هذه القصة وقعت بعد

الرسالة يقول: هذا نبي عظيم، وسوف يكون له شأنٌ كبير، وسوف أنتفع منه نفعاً كبيراً، لا فهذا كان قبل الرسالة، قبل البعثة، كان النبي أحد فتيان قريش.

فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام من زيدٍ ما رأى، أخذه بيده وأخرجه إلى البيت الحرام، ووقف به بالحجر على ملأٍ من قريش، وقال:

((يا معشر قريش اشهدوا إن هذا ابني يرثني وأرث))

ابن بكل معنى هذه الكلمة ؛ بل إن من لوازم الابن أن يرث أباه وأن يرثه أبوه، فقال:

((اشهدوا إن هذا ابني يرثني وأرثه))

فطابت نفس أبيه وعمه وارتاحوا وخلفاه عند محمدٍ ابن عبد الله، وعادا إلى قومهما مطمئنِّي النفس مرتاحي البال، ومنذ ذلك اليوم أصبح زيد بن حارثة يدعى في قريش زيد بن محمد، وبقي اسمه هكذا أمداً طويلاً، وظل يدعى كذلك حتى بعث النبي صلوات الله عليه، وأبطل الإسلام التبني حيث قال تعالى:

(ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ(5))

(سورة الأحزاب)

فلما جاء الأمر أن يدعى المتبنى إلى أبيه فالنبي عليه الصلاة والسلام أصبح يناديه زيد بن حارثة، وقال بعض المفسرين: إكراماً لزيد الذي فقد نسبه إلى النبي بهذه الآية ذكره الله في القرآن، عوَّضَهُ عن ذلك بأن ذكر اسمه في القرآن، وهو الوحيد من أصحاب النبي الذي ذكر اسمه في كتاب الله، والذي نقرأه إلى يوم القيامة.

قصة زواج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة:

الآن زينب هذه من شريفات قريش، بنت عم النبي عليه الصلاة والسلام، حينما بَلَغَ زيدٌ سن الزواج ـ دققوا ـ أية اعتبارات طبقيةٍ في هذه القصة ؟ زيد عبد تبنَّاه النبي، نسبه إليه، قال: يرثني وأرثه. فلما شَبَّ عن الطوق وصار في سن الرجال، زوجه النبي عليه الصلاة والسلام من أشرف فتيات قريش، زينب بنت جحش ابنة عمته صلى الله عليه وسلم، لكن زينب ـ وهذا الشيء واقع ـ زينب التي كانت تعتز بنسبها، وتعتز بجمالها، وبعقلها، وبمكانتها، آلمها أن تكون زوجاً لزيد، فكرهت وكره أخوها أن تُزَفَّ هذه الشريفة ـ وهذه بالطبع من مخلفات الجاهلية ـ إلى مولىً من الموالي، وفزعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ألا يلحق بهما العار، فما كانت بنات الأشراف ليتزوجن من موالٍ وإن أعتقوا، وقالت زينب فيما قالت: لا أتزوجه أبداً وأنا سيدة أبناء عبد شمس، والنبي عليه الصلاة والسلام حدَّثها عن زيد، وعن إسلامه، وعن مكانته، وعن علوّ مقامه عند الله عزّ وجل، وعندئذٍ بقيت مترددةٍ إلى أن نزل قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب)

وعندئذٍ قبلت زينب الزواج من هذا المولى، من زيد بن حارثة.

الحكمة من زواج النبي عليه الصلاة والسلام من زينب إلغاء عادة التبنِّي:

لكن كما تروي السيرة الحياة لم تكن لتستقر بينهما، فيبدو أنها ترى نفسها أكبر، وأشرف، وأعرق، وتتوهم أن هناك شخصاً عظيماً يجب أن يكون زوجاً لها، وعلى كلٍ هذا شأن النساء جميعاً، قاسى زيدٌ من صَدِّهَا، وقاسى من ترفُّعِهَا، وقاسى من اعتزازها بنسبها، فشكا ذلك إلى النبي، وربنا عزّ وجل ذكر هذا وقال:

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ (37))

(سورة الأحزاب)

اصبر، وأنا أقول لكل إنسان يشكو زوجته أن يصبر، لماذا ؟ لأنها أم أولاده، والإنسان حينما يتزوج يجب أن يضع حظوظ نفسه تحت قدمه مراعاةً لمصالح الأولاد، فلذلك ما كل بيتٍ يقوم على الحب كما قال سيدنا عمر، قد تقتضي المصلحة أن تبقى هذه معك ترعى أولادها، وقد تقتضي المصلحة أن تكون هذه على وفاقٍ معها، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ (37))

(سورة الأحزاب)

لكن ما الذي حدث ؟ الذي حدث أن الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زينب، في الحقيقة هذا الشيء أنا لا أبالغ إذا قلت: فوق طاقة البشر، هو زوّجها من زيد، وزيد متبنًّاه، وهو في الجاهلية في أعراف العرب ابنٌ له، ومن العار الشديد أن يتزوّج الإنسان زوجة ابنه، هو ابنه، لكن الله سبحانه وتعالى أراد بهذا الأمر العظيم أن يلغي عادة التبنِّي، وأن يلغي ما تعارف العرب عليه من أن المتبنَّى كالابن، لا.

كبر على النبي أمام الناس وأمام من يدعوهم إلى الله أن يتزوج زوجة متبنّاه:

قال تعالى:

(مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللائِي وَلَدْنَهُمْ(2))

(سورة المجادلة)

هذا الابن، هذه ليست أمه وهو ليس ابنها، لأن علاقة الدم بين الأم وابنها علاقةٌ ثابتة في العلم، أما هذا فمتبنًى، فمثلاً قد يشتهيها، وقد تقع مفاسد كبيرة، وقد تختلط الأنساب، إذا سمحنا أن نعامل المتبنى كما يعامل الابن، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يربي المجتمع الذي عاش فيه النبي عليه الصلاة والسلام، فجعل النبي عليه الصلاة والسلام كما يقال كبش الفداء، أمر زيداً أن يطلِّق زينب، وأمر النبي أن يتزوجها، لذلك جاءت الآية:

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ (37))

(سورة الأحزاب)

فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام كبر عليه أمام الناس، وأمام من يدعوهم إلى الله، وأمام هذا المجتمع أن يتزوج زوجة متبنّاه.

(وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ (37))

(سورة الأحزاب)

قصة زواج النبي الكريم من زينب بنت جحش رضي الله عنها:

النبي عليه الصلاة والسلام تحمّل من هذه الدعوة الشيء الكثير، وواجه من جرائها العَنَت قال:

((لَقَدْ أوذِيتُ فِي اللّه وَمَا يُؤْذَى أحَدٌ، ولَقَدْ أخِفْتُ فِي اللّه وَمَا يُخَافُ أحَدٌ، وَلَقَدْ أتَتْ عَلِيّ ثَالِثَةٌ وَمَالِي وَلِبِلاَل طَعَامٌ يَأكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إلاَ مَا وَارَى إبْطُ بِلاَل))

[مسند ابن ماجةعن أنس بن مالك]

زينب هذه حينما زُفّت إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فيما تروي الكتب، وحينما بشرت بهذا الزواج تركت عملها، واتجهت إلى مُصَلاّها وصلت ركعتين شكراً لله عزّ وجل، أي قرت عينها، وارتاحت نفسها، ورأت أنها في مقامٍ عظيم شرّفَهَا الله به، ولكن هذه المرأة يجب أن نتحدث عنها ملياً لأنها في المستوى التي تطمح إليه، قالوا: بشرتها امرأةٌ اسمها سلمى، وقيل: بشرها زيد زوجها، فهذا أمر الله عزّ وجل.

لكن من هي زينب ؟ النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن بشرها بأمر الله عزّ وجل أوْلَمَ، وكانت وليمة العرس كما تروي كتب السير حافلةً، ذبح النبي الشياه، وأمر صلى الله عليه وسلم خادمه أنس بن مالك أن يدعو الناس إلى الوليمة، فترادفوا أفواجاً، يأكل فوجٌ إثر فوج، إلى أن قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا أنس هل دعوت الناس جميعاً ؟))

فقال أنس: **يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه**، أي أنها كانت وليمةً حافلةً وهذه من السنة النبوية المطهرة، أن تولِم عند الزواج.

وأقام المدعوون عند النبي، وأطالوا في مقامهم، حتى نزلت آياتٌ سوف نأخذها بعد أسبوعين، تؤَدِّب أصحاب رسول الله في أن لا يبقوا عند النبي وقتاً يزيد عن الوقت المألوف، فهو يستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق.

مكانة السيدة زينت عند رسول الله وحديث عائشة عنها:

على كل كانت تقول زينب: أنا أكرمكن ولياً، وأكرمكن سفيراً، من وليها الذي زوجها ؟ هو الله عزّ وجل، كل زوجات النبي تزوجن عن طريق أهلهن، إلا زينب فقد أمر الله بتزويجها من النبي عليه الصلاة والسلام.

والسيدة عائشة أدركتها الغيرة، فكانت تقول: **كانت زينت أحب نسائه إليه فيما أحسبُ بعدي.** وهذا من شأن النساء، وكانت تقول: لم تكن واحدةٌ من نساء النبي صلى الله عليه وسلم تناصيني غير زينب، أي زينب كنت أغار منها، وكانت ترتفع إلى درجةٍ أتمنى أن أكون في هذه الدرجة.

وحينما يسمع النبي عليه الصلاة والسلام من السيدة عائشة بعض التعليقات الناتجة عن غيرتها، كان يقول متلطفاً:

((إنها بنت أبي بكر))

أي إن أباها أحب الناس إليه، فأحياناً الإنسان يراعي زوجته بقدر أبيها، إنها بنت أبي بكر، فكان يقول كلما سمع منها قولاً فيه تعبير عن غيرتها يقول:

((إنها بنت أبى بكر))

لكن الشيء الذي يجذب النظر أن الإنسان إذا عرف مقامه عند الله، وعرف شأنه فلا ينبغي له أن يعتدي على الآخرين، وقفت زينبُ موقفاً شجاعاً وشريفاً من السيدة عائشة في حديث الإفك، فرفضت أن تتهم السيدة عائشة بشيء مع أنها ضرّتُها، بل إن أخت السيدة زينب كانت تروّج حديث مسطح لصالح أختها زينب، وأختها وقفت موقفاً مشرفاً.

وقالت عائشة مرةً: **لم أر قط خيراً في الدين من زينب**، إنها أتقانا لله، وأصدقنا حديثاً، وأوصل رحماً، وأعظم صدقةً، وما سمعت منها شيئاً أكرهه. فهذا موقف مشرف للإنسان، فإذا وقعت فتنة، أو ترويج باطل، يقف الإنسان الموقف الحازم، ويمسك لسانه عن الخوض في هذه الأكاذيب التي تروج في المدينة.

وصف لبعض خصال السيدة زينب رضي الله عنها:

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إن زينب أوّاهة))

أي كثيرة التأوُّه ـ فلما سئل: يا رسول الله وما أُواهة ؟ قال:

((الأوّاه هو الخاشع المتضرع))

ثم تلا عليه الصلاة والسلام قول الله عزّ وجل:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ(75))

(سورة هود)

أي شهد النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الزوجة بأنها منيبةٌ أوّاهة، فمن خصالها العظيمة أنها كانت كريمةً خيرة، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدّق به على المساكين، والمرأة التي تتقن حياكة القماش، أو حياكة الصوف، أو الخياطة، تعمل، وتَجِد، وتكد، ثم تنفق من هذا المال على الفقراء والمساكين، وكان هذا من شأن زينب.

وبعد أن توفي النبي عليه الصلاة والسلام قالت السيدة عائشة: كانت زينب مُعْجِبَةً للنبي عليه الصلاة والسلام، وكان يستكثر منها، وكانت صالحةً قوّامةً، تعمل بيديها وتتصدق على المساكين، وقالت أيضاً: ذهبت زينب حميدةً متعبّدة مفزع اليتامى والأرامل، وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا))

[الجامع الصغير والدرر المنتثرة عن عائشة]

قالت: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، نَمُدُّ أيدينا على الجدار، ونتطاول، ونرى من التي تموت أول واحدة، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذٍ أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((أطولكن يداً))

أي أكثركن صدقةً على الفقراء والمساكين، وفلان يده طويلة في الخير.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل عطاءها عشرة آلاف فقالت: اللهم لا يدركني هذا المال في قابل فإنه فتنة، أنفقته كله على الفقراء والمساكين، ووقف عمر ببابها مرةً وقال: **بلغني ما فرّقت،** فأرسل إليها ألفاً آخر، والألف الآخر وزّعته أيضاً على الفقراء والمساكين.

هذه زوجة النبي عليه الصلاة والسلام، كانت كريمةً، شريفةً، خَيِّرَةً، عابدةً، أوّاهةً، وهذه العادة، عادة التبني التي كانت سائدةً في الحياة الجاهلية، أبطلها الله عزّ وجل عن طريق هذه الحادثة، حيث تزوج

زيد بن حارثة زينب وهي ابنة عمة النبي، وبعد حينٍ أمر الله عزّ وجل النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج من زينب، وهذا الزواج أبطل إلى الأبد عادة التبَنِّي التي كانت سائدة.

جوهر الدين طاعة الله عزّ وجل:

الآن إلى الآيات، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

(سورة الأحزاب)

في النهاية الدين كله في طاعة الله ورسوله، وما سوى الطاعة فشيءٌ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، أي أن ثقافتك الإسلامية، ومعلوماتك الدينية، وعواطفك الإسلامية، والمظاهر الدينية في بيتك، هذه كلها لا تقدم ولا تؤخر، جوهر الدين طاعة الله عزّ وجل، وهذا مستفاد من قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ (36))

(سورة الأحزاب)

ليس من شأن المؤمن إذا وجد أمر الله عزّ وجل، أو أمر النبي أن يقف متردداً أفعل أو لا أفعل، وإذا كان هناك تردد فهناك ضعفٌ في الإيمان، علامة الإيمان الذي يُنَجِّي صاحبه من عذاب الدنيا والآخرة، أن يكون في الحجم الذي يحمله على طاعة الله، فإن لم يحملك إيمانك على طاعة الله فهذا الإيمان لا يكفي، ولذلك: جدد إيمانك، وأعد حساباتك، واجلس وفكِّر في هذا الكون، واقرأ القرآن وتدبَّره، إلى أن ينمو الإيمان إلى درجة يكفي لحملك على طاعة الله.

الآية بخصوص لفظها ولكن يجب ألا نغفل عن عموم معناها وكلماتها:

أنت منهي عن الربا، وتقول توجد ضرورة في هذا الزمان والأمر الآن غير معقول، وأين نذهب بما لنا ؟ فالآن الآية واسعة جداً، وإن كان نزلت في حادثة زينب رضي الله عنها، حين أمرها الله عزّ وجل، أو حين أمر النبي أن يتزوجها، هذه الآية بخصوص لفظها لا نغفل عن عموم معناها وكلماتها، فالعبارة لها عموم، ومن عموم العبارة أن المؤمن إذا وجد أمر الله عزّ وجل، أو أمر النبي عليه الصلاة والسلام، فلا خيار له في التطبيق أو عدم التطبيق، وليس هذا من شأن المؤمن.

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

(سورة الأحزاب)

الضلال مبين، والطريق واضح، فمثلاً لو وجد طريق عريض جداً وعليه لوحة على عرضه تماماً، مرتفعة، فوسفورية، كل حرف طوله ثلاثة أمتار، أن الجهة الفلانية من اليمين، فتابع الطريق مستقيماً، هذا ضلال مبين، لوحة كبيرة متألِقة، مُشِعَّة، فوسفوريَّة، توضح كل شيء ومع ذلك ضللت الطريق، فهذا ضلال مبين، فاحكم على كل إنسان يعصي الله عزّ وجل ويحيد عن طريق الحق أنه ضالٌ ضلالاً مبيناً، قال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه.

من الجهل أن تقول عن المتبنى هذا ابني فهذا تضليل وتزوير ولعبٌ بدين الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَإِذْ تَقُولُ (37))

(سورة الأحزاب)

يا محمد، أعلى درجات النزاهة:

(لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ (37))

(سورة الأحزاب)

وهو زيد:

(وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ (37))

(سورة الأحزاب)

أنعم الله عليه بالهدى، وأنعمت عليه بالعتق والتبني:

(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ (37))

(سورة الأحزاب)

يا محمد:

(مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ (37))

(سورة الأحزاب)

هذا الحق أحق أن يُتَّبَعَ، وهذه العادة يجب أن تُلغى، وهذا السلوك المنحرف يجب يبطُل، وهذا المتبنى غير الابن، وهذه ليست أمه وهو ليس ابنها، وهذه ليست أخته، فإذا جاء الإنسان بولد صغير وتبنَّاه في البيت، وشَبَّ هذا الصغير، من الجهل والخطأ أن تقول: هذا ابني، وهذا أخته فلانة، وأمه فلانة، فهذا تضليل، وتزوير، ولعبٌ بدين الله عزّ وجل، فالابن ابن، والمتبنى متبنى، ولا يمكن أن يتساوى الشيئان.

يجب أن يطبّق الشرع تماماً وإن كان مخالفاً للأعراف والتقاليد:

قال تعالى:

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ (37))

(سورة الأحزاب)

أي أن الأعراف والتقاليد لها تأثير، وهو يدعو إلى الله، وهو مثل أعلى في الكمال، ماذا يقول الناس عن النبي حينما يتزوّج زينب زوجة متبناه، ماذا يقول ؟ خشي على سلامة الدعوة، وخشي على لغط الناس، وان يتكلموا في حقه ما ليس بواقع، فقال الله عزّ وجل مسلياً النبي عليه والسلام:

(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (37))

(سورة الأحزاب)

لماذا كل هذه القصة ؟ وهذه الأزمة ؟ والطلاق والزواج ؟ قال:

(لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37))

(سورة الأحزاب)

أي يجب أن يطبّق الشرع تماماً، المتبنى شيء والابن شيء آخر.

ربنا عزّ وجل جعل النبي يدفع الثمن ليبطل هذه العادة المتفشية في الجاهلية وهي التبني:

قال تعالى:

(لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37))

(سورة الأحزاب)

هذا الذي يجب أن يتم، فالآن استنباطاً من هذه القصة، ليس للإنسان الحق في أن يقول: فلانة مثل أختي، وهذه مثل أمي، أم رفيقه مثل أمه، وهذه مثل أختي، وهذه تخاوينا بالله، وهذه مثل ابنتي، وهذه مثل أختي، وهذه مثل أمي، هذا كله كلام فيه ضلال، وربنا عزّ وجل جعل النبي عليه الصلاة والسلام وهو أعزُّ الخلق عليه، جعله يدفع الثمن، ويقف هذا الموقف الحرج، ليبطل هذه العادة المتفشية في المجتمع الجاهلي، فنحن إذا عدنا إلى مثل هذه العادات فقد عدنا إلى جاهليةٍ أخرى، فالمحارم محارم، والأجنبيات أجنبيات، الأجنبية تشتهى، ولو بصداقة، أو جوار، أو قرابة بعيدة، أو علاقات حميمة، الأجنبية تُشْتَهَى، فلو أن بنتاً صغيرةً تبنيتها ونشأت في حجرك، وأنت أبوها بالتبني، وهذا أخوها

بالتبني، هذا ليس أباً وهذا ليس أخاً، وربما وقعت الفواحش في البيت الواحد من عادة التبني فلذلك سيدنا عمر كما يقال: كان وقافاً عند حدود الله.

إذاً ربنا عزّ وجل لحكمةٍ أرادها علل السبب، لماذا كانت هذه القصة ؟

(لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ (37))

(سورة الأحزاب)

زينب زوجة متبنًى النبي، جاء الأمر أن تطلق، وجاء الأمر أن يتزوجها النبي، وهو في حكم ابنه في العادات والتقاليد، لكن الشرع شيء والعادات والتقاليد شيء آخر.

المؤمن ليس عبداً للعادات والتقاليد التي تعارف الناس عليها وليست في الشرع:

قد تأتي العادات موافقةً للشرع، فمرحباً بها، فلا يوجد مانع، فمن العادة أن نزور بعضنا، بعض الزيارات، وبعض المساعدات أي عادةٍ اجتماعيةٍ يقرها الشرع أكرم بها من عادة، أما حينما تنفصل العادات عن الشرع فيجب أن نركلها بأقدامنا وأن نتبع الشرع، لذلك المؤمن ليس عبداً للعادات والتقاليد التي تعارف الناس عليها وليست في الشرع فهذا مرفوض، وهذا الاختلاط في الأسر، نحن بيت واحد وهكذا ربينا، وهكذا نشأنا، وهكذا أبونا علمنا، ونحن أسرة واحدة، هناك أصهار متعددون، وزوجات متعددات، ويبدين محاسنهن أمام الأجانب بحكم العادات والتقاليد، وهذا كله ليس من الدين في شيء، وما هذه القصة التي جعلها الله قرآناً إلا من أجل ألا نقع في هذه المتاهات مرةً ثانية، وقد نعود إليها بسبب ضعف الإيمان، وضعف اليقين، وضعف معرفة أمر الله عزّ وجل، قال تعالى:

(مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا(38))

(سورة الأحزاب)

حينما أمر الله النبي أن يتزوّج زينب ما كان عليه من حرج، ولذلك فالحق لا يستحيا منه، والحلال والمباح لا يستحيا منهما، فهناك أحياناً إنسان يكون عنده زوجة لا تنجب، فتجعله يختار اختياراً صعباً ؛ إما أن يطلِّقها، وإما أن يصبر عليها، الله سمح له بزوجة ثانية وهذا ليس خلافاً للشرع، لتبقى عنده وليحسن إليها، ولينجب من الثانية أولاداً، فالحلال لا يستحيا منه، والحق لا يخاف منه، والحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرّمه الله، وحينما تختلف العادات والتقاليد مع الشرع، يجب أن نركل العادات والتقاليد بأقدامنا وأن نتبع الشرع، أما الذين يتبعون العادات والتقاليد على حساب الشرع، فهؤلاء ما عرفوا الله، وفي إيمانهم ضعف، وقد ضلوا ضلالاً مبيناً.

تعليق ختامي لهذه الآيات:

كتعليقٍ ختامي لهذه الآيات:

1 ـ أنت مخيّر في أن تؤمن أو لا تؤمن لكنك إذا آمنت بالله فلست مخيراً أن تنفذ أو لا:

أولاً: أنت مخيَّر في أن تؤمن أو أن لا تؤمن، ولكل شيءٍ ثمن، لكنك إذا آمنت بالله عزّ وجل لست مخيراً أن تنفذ أو أن لا تنفذ، لأن الله عزّ وجل يقول بعموم اللفظ:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب)

معصية الله عزّ وجل، دليل عدم الإيمان به:

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

(سورة الأحزاب)

2 ـ المتبنى شيء والابن شيء آخر، والشرع شيء والعادات والتقاليد شيء آخر:

الشيء الآخر: كما قال عليه الصلاة والسلام:

((اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن إبليس طلاع رصاد وما هو بشيء من فخوخه ـ فخوخ جمع فخ ـ بأوثق لصيده في الأتقياء من النساء.))

[كنز العمال عن معاذ]

أي أن النساء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((النساء حبائل الشيطان.))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

كل كلامٌ يلقى: أن هذه مثل أختي، وهذه مثل ابنتي، وتخاوينا في الله ـ كما قلت قبل قليل ـ هذه لا يؤثر، وهذه تؤثِّر، وهذه لا تصير، وهذه تصير، هذا كله كلام خلاف الشرع، فالأجنبية أجنبية، والمحارم محارم، والتي أباح الله لك أن تراها أبيح لك أن تراها، والتي أمرك أن تغُضّ البصر عنها يجب أن تغض البصر عنها، لأن الحق أحق أن يُتَّبع.

فلذلك هذه قصة ولكن تعاد ألف مرة، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان هو بطل هذه العادة، وقد جعله الله عزّ وجل قدوةً لنا، زواجه من زينب زوج متبنّاه، إبطالٌ نهائي لهذه العادة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (12-18): تفسير الآيات 39
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-12-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة الأحزاب.

الدعاة ليس من شأنهم أن يضيفوا عليهم أن يبلِّغوا:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39))

(سورة الأحزاب)

بادئ ذي بدء من قوله تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ (39))

(سورة الأحزاب)

أي أن هؤلاء الدعاة ليس من شأنهم أن يضيفوا، عليهم أن يبلِّغوا، كما قال سيدنا الصديق رضي الله عنه: **" إنما أنا متّبع ولست بمبتدع ".**

الرسالات، رسالات الله عزّ وجل، توضّحت، وتحدّدت، حينما قال الله عزّ وجل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

عدد القضايا التي عالجها القرآن والسُنّة والتي نهى عنها القرآن والسُنّة عددٌ تام:

في هذه الآية:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

قال العلماء: **التمام شيء، والكمال شيءٌ آخر، التمام عددي، والكمال نوعي**، أي أن عدد القضايا التي عالجها القرآن وعالجتها السُنّة عددٌ تام، ما غادر القرآن ولا السُنّة قضيّةً تتعلّق بعلاقة الإنسان مع ربّه وبسعادته في دنياه وأخراه إلا وجاء بها القرآن، أي أنه ليس في القرآن نقص، وإن الله أمر بأشياء، ونهى عن أشياء، أمر بأشياء أي أن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة متوقِفةٌ على الأشياء التي أُمِرَ الإنسان بها، وشقائه في الدنيا والآخرة متعلِّقٌ بالذي نُهيَ عنه، وهناك حكمةٌ مطلقةٌ من أمر الله، وحكمةٌ مطلقةٌ من نهي الله، وهناك حكمةٌ مطلقةٌ مما سَكَتَ عنه الله ؛ حكمةٌ في الذي أمر، وحكمةٌ في الذي

نهى، وحكمةٌ في الذي سكت، أمركم بأشياء، ونهاكم عن أشياء، وسكت عن أشياء، هذا معنى قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

أي أن عدد القضايا التي عالجها القرآن والسُنَّة عددٌ تام، وعدد القضايا التي نهى عنها القرآن والسُنَّة عددٌ تام.

كل الذين يأتون بعد رسول الله تنحصر مهمّتهم في التبليغ لا في الإضافة ولا في الابتداع:

الآن معالجة القرآن والسنة لموضوع في حياتنا معالجةٌ كاملة، فأحياناً بعض الكتب تُفَصِّل في موضوع وتختصر في موضوع، وتوفِّي هذا الموضوع حقَّه ولا توفي هذا الموضوع حقَّه:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

إذاً كل الذين جاءوا بعد النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيعون أن يضيفوا شيئاً ولا كلمة ـ إنما أنا متَّبع ولست بمبتدع ـ وأيَّةُ إضافةٍ أُضيفَت على الدين فهي باطلة، وأي حَذْفٍ حُذِفَ من الدين فهو باطل، وأي تأويلٍ على غير ما أراد الله عزّ وجل فهو باطل، والدين متى يشوّه ؟ إذا أضيفت إليه إضافات، أو حُذِفت منه أشياء، أو أوّل على نحوٍ لا يرضي الله عزّ وجل، هذا الكلام مما يفهم من قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

إذا واجهك إنسان برأيٍ، أو بحكمٍ، أو بطريقةٍ، أو بقاعدةٍ، أو بمبدأٍ ليس مغطىً في كلام الله عزّ وجل ولا في سُنَّة النبي، لا ينبغي لك أن تقبله، وما حجّتك ؟ لأن الإسلام كامل، قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

إذاً كل الذين يأتون بعد رسول الله إلى يوم القيامة تنحصر مهمّتهم في التبليغ، لا في الإضافة، ولا في الزيادة، ولا في الابتداع.

دعوة الإنسان عليها أن تكون مُنَزَّهَةً عن كل غرضٍ دنيوي:

لذلك كل إنسان أضاف في الدين ما ليس منه فهو مبتدع، والمبتدع ينبغي أن يُحَذَّرَ منه، والمبتدع هو الذي يضيف على الدين شيئاً ليس منه، هذا يفهم من قوله تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ (39))

(سورة الأحزاب)

أنت مبلِّغ، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام إذا وقفت أمام قبره الشريف ماذا تقول ؟ تقول: **" السلام عليكَ يا سيدي يا رسول الله، أشهد أنك أدّيْتَ الأمانة، وبلّغت الرسالة، ونصحت الأمّة، وكشفت الغُمّة، وجاهدت في الله حقّ الجهاد "**، قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ (39))

(سورة الأحزاب)

هؤلاء الذين يبلِّغون رسالات الله، وصفهم الله في آياتٍ كثيرة، قال:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

يجب أن تكون الدعوة مُنَزَّهَةً عن كل غرضٍ دنيوي.

أولي العلم يشهدون عدالة الله عزّ وجل وكمال رسوله ودعوته وكلامه:

إذا كانت الدعوة متلبّسَةً بغرضٍ دنيوي، فالدعوة عندئذٍ يُشَكُّ في صحّتها، سيدنا إبراهيم:

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا(124))

(سورة البقرة)

متى جعله للناس إماماً ؟ بعد أن أتمّ كلمات الله، فطاعة الله هي كل شيءٍ، قبل أن تدعو إليه يجب أن تكون مُنَزَّهَاً عن أية مصلحةٍ دنيويَّةٍ، وعندما قال ربنا عزّ وجل في آياتٍ أخرى:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ(18))

(سورة آل عمران)

أي أن أولي العلم يشهدون عدالة الله عزّ وجل، وهذه علامةٌ من علاماتهم:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي(108))

(سورة يوسف)

يجب أن تشهد للناس بعدالة السماء، وبكمال الله، وبكمال رسوله، ودعوته، وكلامه:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ(18))

(سورة آل عمران)

الله عزّ وجل في كل أمرٍ أمرنا به جاء التعليل بعده:

قال:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ(108))

(سورة يوسف)

دعوة على بصيرة، الأوامر معلّلة، والنواهي معلّلة، ولو حُذِف التعليل من أوامر الله ونواهيه لانقلب الدين إلى طقوس وحركات لا معنى لها، ولكن الله عزّ وجل في كل أمرٍ أمرنا به جاء التعليل بعده:

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ(45))

(سورة العنكبوت)

وقال:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(183))

(سورة البقرة)

وقال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ(103))

(سورة التوبة)

إذاً هذه:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي(108))

(سورة يوسف)

الاستقامة ركنٌ أساسيٌ في الدعوة إلى الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

ومعنى قول الله عزّ وجل:

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا(124))

(سورة البقرة)

إذاً هناك إشاراتٌ في القرآن الكريم، الاستقامة ركنٌ أساسيٌ في الدعوة إلى الله عزّ وجل لقوله تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ(112))

(سورة هود)

إنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، أن تقول: يا أخي هذا نبي وأنا لست نبياً، من قال لك ذلك ؟ إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، ولكن هذه الآية فيها دقّةٌ بالغة، وهو أن الله عزّ وجل حينما وصف هؤلاء الذين يبلِّغون رسالات الله، بماذا وصفهم هنا في هذه الآية ؟ بأنهم يخشونه. والحقيقة متى يخشى الإنسان الله ؟ إذا رأى أن الأمر كلّه له، فإذا رأى أن الأمر لله ولغيره، خشي الله وخشي غيره، فصار في شرك.

حينما تخشى غير الله فهناك نقصٌ في التوحيد:

حينما تخشى غير الله فاعلم علم اليقين أن هذا نقصٌ في توحيدك، الحقيقة يمكن أن تتعلّم أمر الله، وأن تذكر دقائقه وجزئيّاته، ولكن تعلّم أن أمر الله شيء والتوحيد شيءٌ آخر، فالتوحيد أن تعرفه، وأمر الله يجب أن تعرفه أيضاً، لكن قد تكون معرفتك بأمر الله أكبر من معرفتك بالله عزّ وجل، ولذلك مع أنك تحمل العلم الشريف وتخشى غير الله، وترضي غيره على حساب دينك، إذاً حينما تخشى غير الله فهناك نقصٌ في التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، بل إن نهاية العلم التوحيد، ودائماً وأبداً أذكر لكم هذا المثال أنت إذا أيقنت أن هذا الطلب لا يوافق عليه إلا فلان من بين آلاف الموظّفين، وهو المدير العام، وليس لك مصلحةٌ أن تقف على باب إنسانٍ آخر، ولا أن ترجوه، إذا أيقنت أنه لا يعطيك الموافقة إلا المدير العام مثلاً، إذاً أنت تقطع كل علاقاتك بكل الموظّفين وتتجه إلى من بيده الأمر، هذا مثل، وأنت إذا أيقنت أن أمرك كلّه بيد الله لا بيد زيدٍ أو عُبيد قطعت آمالك، وتعلّقاتك، وطموحاتك، ورجاءك، ورغبتك مما سوى الله، وتوجّهت إلى الله وحده.

إذاً الخوف من غير الله عزّ وجل، أو عدم الإخلاص لله عزّ وجل هذه كلها أعراض مرضٍ واحد، وهذا المرض هو الشرك أو نقصٌ في التوحيد، إذاً كلّما رأيت إنساناً يرضي إنساناً ويعصي خالقاً، يرضي مخلوقاً ويعصي خالقاً، يطيع زيداً على حساب دينه، أو على حساب أمر ربّه، فاعلم أن هذه الطاعة جاءت بدافع الخوف منه، ولماذا خاف منه ؟ لأنه رأى أن له قوةً يبطش أو يعطي بها، إذاً دخل الشرك في الموضوع، فلذلك ليس من السهولة أن تكون موحِّداً، وليس من السهولة أن لا ترى إلا الله، وليس من السهولة أن ترى يد الله فوق أيديهم.

حينما تقف أمام أمر الله عزّ وجل فإيمانك بعظمة الله يقتضي أن تسلِّم أمرك له:

قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ(123))

(سورة هود)

هذا هو الدين، ألا ترى مع الله أحداً، وأن ترى أن المعطي والمانع، والمعز والمذل، والباسط والقابض هو الله وحده، لذلك جاءت هذه الآية:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ (39))

(سورة الأحزاب)

معنى يبلِّغون أي مهمّتهم التبليغ، وليس التشريع، وليست الإضافة، ليس لهم إلا أن يبلِّغوا، حتى أن بعضهم قال: **"نصائح ثلاث تُكْتَب على ظفر ؛ اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع "**

اتبع، أنت مع تعليمات خالق الكون، وكما قلت في الدرس الماضي عن قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ(36))

(سورة الأحزاب)

أنت مهما أُوتيت من عقلٍ راجح، ومهما أُوتيت من ذكاءٍ لمّاح، لا يستطيع عقلك أن يفوق في فهمه، أو يفوق في إدراكه، أو أن يفوق فيما يُشَرِّع تشريع الله عزّ وجل، أنت مخلوق والله هو الخالق، وأنت محدود والله هو اللامحدود، وأنت حديث والله هو القديم، وأنت جاهل والله هو العليم، فلذلك حينما تقف أمام أمر الله عزّ وجل، فإيمانك بعظمة الله يقتضي أن تسلِّم له.

الداعية إلى الله حينما يخشى غير الله انتهت دعوته وسقطت:

قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ (39))

(سورة الأحزاب)

وكلمة رسالات جاءت جمعاً، أي هناك عقائد، وعبادات، ومعاملات، وآداب، وسنن، وأخبار ؛ أخبار السابقين، وأخبار اللاحقين، وإيمان بالله، وبالرسل، وإيمان بالملائكة، وبالقدر خيره وشرّه، وبالصلاة، وأحكام الصلوات، والصيام، والحج، والزكاة، وأحكام البيوع، والطلاق، والزواج، وآداب الإسلام، إذاً رسالات:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ (39))

(سورة الأحزاب)

لمجرّد أن تخشى غير الله أُلغيت مهمّتك، وسقطت دعوتك، وأصبحت على هامش الحياة، لأنه بمجرّد أن تخشى غير الله فسوف ترضي غير الله، بأن تقول كلاماً يرضي غير الله ولا يرضي الله، أو أن تسكت عن شيء يرضي هذا السكوت غير الله ولا يرضي الله، فإذا سكتّ عن الحق إرضاءً لغير الله، وإذا نطقت بالباطل إرضاءً لغير الله، فماذا بقي من إبلاغ رسالات الله ؟ انتهت، فهذه صفةٌ مانعةٌ جامعةٌ

إذا أُلغيت ألغي الموضوع وانتهى الأمر، فلذلك حينما يخشى الداعية إلى الله غير الله انتهت دعوته، وسقطت، وانتهى كل شيء.

لا ينضبط الإنسان إلا بثلاث حقائق: إذا أيقن أن الله موجود وأنه يعلم وأنه سيحاسِب:

قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39))

(سورة الأحزاب)

كفى بالله حسيباً، هو سيحاسِب، وهو يعلم حقيقة الأمر، ويعلم باطنه، ويعلم السر والجَهَر، ويعلم النيات، والأهداف، والطموحات، والملابسات، هذا كلُّه يعلمه وسوف يحاسب عليه.

لذلك قال بعضهم: الحمد لله على وجود الله، على أن الله موجود، وعلى أن الله يعلم، وعلى أنه سيحاسِب، والحقيقة لا ينضبط الإنسان إلا بثلاث معلومات أو ثلاثة حقائق: إذا أيقن أن الله موجود، وأن الله يعلم، وأن الله سيحاسِب، هذه جاءت في قوله تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى(39)وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(40)ثُمّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى (41))

(سورة النجم)

ليس لك إلا ما سعيت، وهذا السعي في علم الله، وسوف تجزاه الجزاء الأوفى، ففي سورة النجم يقول الله عزّ وجل:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى(31))

(سورة النجم)

من لوازم إيمانك بالله أنك تغار على الخلق وتحبُّهم وتهديهم إلى سواء السبيل:

علّة وجودك في الدنيا أنك مُبْتَلَى، وأنّك ممتَحَن، وسوف تُجزى بكل عملٍ فعلته ولذلك ورد في بعض الأحاديث أن الله عزّ وجل يقول:

((وعزّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُّ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها، سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله أو ولده حتّى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدّدت عليه سكرات الموت حتّى يلقاني كيوم ولدته أمُّه.))

[ورد في الأثر]

قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39))

(سورة الأحزاب)

توجد نقطة دقيقة، هي أن المؤمن كأنه وعاء، إذا امتلأ فاض على من حوله، فحينما لا تهتم بأمر الناس، ولا يعنيك أمر دينهم، ولا أمر توبتهم، ولا أمر هدايتهم، تقول: ما لي وللناس ؟ معنى ذلك أن الإناء لا يزال فارغاً، أما إذا امتلأ لا بدّ من أن يفيض على الآخرين، فمؤمن يرى من حوله في ضلال، أوَ لَا يعنيه أمرهم ؟! ويرى زوجته، وأولاده، وإخوانه، وجيرانه، وشريكه في العمل في درب غلط، في طريق الهاوية ويسكت !! فمن لوازم إيمانك بالله أنك تغار على الخلق وتحبُّهم، أنك تحاول أن تهديهم إلى سواء السبيل.

الإنسان إذا جلس في مسجد علم وأراد أن يستفيد هو وحده شيئاً، أو جلس في مجلس علم وتعلّم تفسير آيةٍ، أو تفسير حديثٍ، أو أخذ شيئاً من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، إذا أراد أن ينقل هذا الشيء للآخرين فقد فعل شيئاً عظيماً، لأنه ما من صدقةٍ أعظم من كلمة الحق، ولأنه من أحياها فكأنه أحيا الناس جميعاً، فأنت حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وما أحدث رجلٌ أخاً في الله إلا أحدث الله له درجةً في الجنّة.

النبي عليه الصلاة والسلام لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يخشى إلا الله:

قال تعالى:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً(120))

(سورة النحل)

أنت كم إنساناً دللتهم على الله ؟ وكم إنساناً أخذت بيدهم إلى الله ؟ وأقنعتهم بأحقيّة هذا القرآن ؟ وكم إنساناً أقنعته بالاستقامة على أمر الله ؟ كم إنسان استطعت أن تجعله يسلك سبيل المؤمنين ؟ هذا حجمك عند الله.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (39))

(سورة الأحزاب)

هذا أخ كريم يأتي وحده إلى المسجد، وبعد حين تجد أنه جاء مع إخوته، وشركائه، وأصهاره، وأولاد عمِّه، فصارت مجموعةً كبيرة، هذا هو الخير، الخير أن تحبَّ الخير للآخرين.

هذه الآية من عظمة القرآن، والآن فسّرناها منفصلة عن السياق:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (39))

(سورة الأحزاب)

أما في السياق، أي أن هذا النبي عليه الصلاة والسلام لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يخشى إلا الله:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

التبني عادة جاهليّة تؤدي إلى اختلاط الأنساب وإلى الفساد الاجتماعي:

المنافقون حينما تزوّج النبي عليه الصلاة والسلام بزوجة متبنّاه زينب بنت عمّته، ماذا قالوا ؟ يا للعار أيتزوّج محمدٌ زوجة ابنه زيد ؟ أشاعوا هذا، وأرجفوا به في المدينة، وقالوا متشفين، فجاء الجواب:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ (40))

(سورة الأحزاب)

زيد ليس ابنه، زيد متبنًى، و ليس هناك دمٌ مشتركٌ بينه وبين إخوته، وليس هو جزءً من أبيه، أو من أمِّه، ولذلك فهذا المتبنًى وجوده في الأسرة خطر، كانت عادةً جاهليّةً فهذا ابني، هذا مثل ابني، هذه مثل أختي، هذا كلام يؤدي إلى اختلاط الأنساب، وإلى الفوضى، وإلى الخيانات، وإلى الفساد الاجتماعي، ولذلك كل من يقول: هذا ابني، وهو ليس ابنه، أو هذه مثل أختي، أو هذه مثل أمي، فهذا كلامٌ لا أساس له من الصحّة، فلذلك:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ (40))

(سورة الأحزاب)

سيدنا محمدٍ له أولاد، ولكن ما قال الله: أبا أحدٍ من صغاركم، قال:

(أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ (40))

(سورة الأحزاب)

زيد رجل، ومحمدٌ ليس أباه، ومحمدٌ نبيٌ عظيم أكرمه وأعتقه وربّاه ولكنه ليس أباه.

محمدٌ أبٌ للصحابة بالمعنى الاجتماعي أي له عطفه ورعايته ورحمته فهذه أبوّةٌ معنويّة

عندما قال ربنا عزّ وجل:

(ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ(5))

(سورة الأحزاب)

كان يسمّى من باب الوفاء زيد بن محمّد، فسمي زيد بن حارثة:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ (40))

(سورة الأحزاب)

إذا قلنا: محمدٌ أبٌ للصحابة، لا بالمعنى النسبي، ولا بالمعنى البيولوجي - إن صحَّ التعبير - ولكن بالمعنى الاجتماعي، أي له عطفه، ورعايته، ورحمته، وإشرافه، فهذه أبوّةٌ معنويّة، أما كأبوة نسب فلا:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ (40))

(سورة الأحزاب)

زيد ليس ابنه، ولا غير زيد، وليست المؤمنات بناته، لو أنَّهنَّ بناته لَحَرُمَ عليه الزواج منهن، فلا الرجال أولاده ولا النساء بناته، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين، فالنبي عليه الصلاة والسلام جاء بهذا القرآن العظيم، وبهذه الرسالة، هو رسول الله وخاتم النبيين، وليس أبا أحدٍ من رجالكم، ولا من بناتكم.

خاتم النبيين أي آخر النبيين ولا نبيّ بعده وكل من يدّعي أن بعد النبيّ نبيّاً فهو ضالٌ يقيناً:

نساء النبي أمّهات المؤمنين، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى حرّم على نسائه من بعده أن يتزوجهنَّ أحد، حفاظاً على مكانة النبي، وشيء آخر أن هذه التي عاشت مع رسول الله لا يمكن أن يطيب لها العيش مع من دونه، ولذلك حكم الله عزّ وجل بأنه جعل نساء النبي أمّهات المؤمنين، بمعنى أنه لا يجوز لمؤمنٍ أن ينكح زوجةً من أزواج النبي من بعده أبداً.

إذاً الحكم الشرعي: أن النبي عليه الصلاة والسلام ليس أباً لواحدٍ من المؤمنين، وإذا قلنا: إنه كالأب فهذا من باب العطف، والرعاية، والإكرام، والرحمة، والشفقة، والاهتمام، أما أن يكون أباً بالمعنى النسبي فهذا ليس صحيحاً، وليس أباً للمؤمنات، والدليل أنه تزوّج من النساء الكثيرات، ولو كان أباً للمؤمنين لما حُقّ له الزواج من بناته، لكن نساءه أمّهات المؤمنين، وهذا من باب التقديس، والتعظيم، والصَوْن، والحفاظ على مكانته صلّى الله عليه وسلّم، ورعايةً لمصالح المؤمنات أمّهات المؤمنين من بعده، قال تعالى:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ (40))

(سورة الأحزاب)

أما خاتم النبيين، أي أن هذه الآية أجمع العلماء من دون استثناء، وهذا الإجماع الذي يأتي بعد القرآن والسنّة، هو المصدر الثالث، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنّ أُمّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ))

[ابن ماجه عن أنس]

وقد أجمع العلماء قاطبةً أن معنى هذه الآية أنه خاتم النبيين، أي آخر النبيين ولا نبيَّ بعده، وكل فرقةٍ ضالةٍ تدّعي أن بعد النبيّ نبيّاً فهي فرقةٌ ضالةٌ يقيناً، يعلِّلون أن الخاتم من الختم، لا، خاتم يعني آخر النبيين قولاً واحداً بإجماع العلماء.

الله عزّ وجل يخاطب الناس بكليّات الدين وأصوله ويخاطب المؤمنين بفروعه:

قال تعالى:

(وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40))

(سورة الأحزاب)

والآن توجّه الخطاب إلى المؤمنين فقال الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

وتعلمون من قبلُ أن الله عزّ وجل يخاطب الناس بكليّات الدين، وأصوله، ويخاطب المؤمنين بفروعه، والآن الخطاب للمؤمنين، يا من آمنت بالله، المشكلة أنه إذا آمنت بالله ماذا فعلت ؟ نقطة دقيقة جداً، فإذا قلت: أنا تفكّرت وفكّرت، وتأمّلت، وتحقّقت، ودرست، وسهرت الليالي ثمّ وجدت أن هذه الشمس ساطعة، نقول له: ماذا أضفت ؟ وماذا فعلت ؟ فالشمس ساطعة اعترفت بها أم لم تعترف ؟ فإن قلت ساطعة هي ساطعة، وإن قلت ليست ساطعة فهي ساطعة، لكن الإيمان فوائده كبيرة ومما يأتي بعد الإيمان من التحرُّك نحو الله عزّ وجل.

هذا يؤكِّد أن أحد الأعراب جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال: يا نبي الله جئتك لكي تعلِّمني من غرائب العلم، قال: **" وماذا صنعت في أصل العلم ؟ "** قال: وما أصل العلم ؟ قال:**" هل عرفت الرب؟"** قال: ما شاء الله، قال: **"فماذا صنعت في حقِّه ؟ ".**

هذا السؤال، فأنت تقول: أنا مؤمن بالله، أنا عرفت الله، أنا مؤمن والحمد لله.

ولكن ماذا صنعت في حقّ الله ؟ ما الموقف الذي يؤكِّد إيمانك ؟ هل أعطيت لله ؟ وهل منعت لله ؟ وهل وصلت لله ؟ وهل قطعت في الله ؟ وهل واليت في الله ؟ وهل عاديت في الله ؟ وهل أنفقت في سبيل الله؟ وماذا فعلت ؟ ماذا فعلت استناداً لإيمانك بالله ؟

قال له: **" فماذا صنعت في حقِّه ؟ "** قال له: ما شاء الله، قال له: **" هل عرفت الموت ؟ "** قال له: ما شاء الله، قال له: **" فماذا أعددت له ؟ "**

سؤال آخر خطير، هل منّا واحدٌ إلا وهو موقنٌ أنه سيموت ؟ فالسؤال الآن: ماذا أعدّ للموت ؟ ماذا أعدّ لأنكر ونكير ـ كما يقولون ـ ؟ ماذا أعدّ ليوم الحساب ؟

قال له: يا بشر لا صدقة ولا صيام ولا صلاة فبما تلقى الله إذاً ؟

أحد أوامر الله عز وجل أن تذكره ذكراً كثيراً:

هناك سؤال دقيق هو: ما الشيء الذي أعددته كي تلقى الله به ؟ الإنسان أحياناً يزمع أن يزور شخصاً ؛ أنجب مولوداً، أو عقد قِراناً، يقول لك: سأذهب بنفسي ؟ لا يتحمّل حاله، هل أعددت هديّةً تقدِّمها بين يدي هذه الزيارة، فأنت تلقى الواحد الديّان، فقد عشت سنواتٍ طويلة ؛ وأكلت، وشربت، وتنعّمت، وتزوّجت، وأنجبت، وزوّجت، وارتقيت، واغتنيت، وفعلت، وتركت، ولكن بعد هذه الرحلة الطويلة حينما تأتي الله عزّ وجل يوم القيامة، ماذا أعددت لهذا اللقاء ؟ وماذا هَيَّأت ؟

هل هيأت برّ الوالدين ؟ وهل هيَّأت نُصْحَاً للمسلمين ؟ تفقُّهاً في كلام الله، ودعوةً إلى الله، ورعيت الأرامل، والأيتام، وعاونت الناس، فماذا أعددت ؟ هذا السؤال يا إخوان كبير جداً، هناك حركة يوميّة تستهلكنا أحياناً، استيقظنا، فذهبنا إلى أعمالنا، وكسبنا المال، جئنا إلى البيت، وتناولنا طعام الغداء، ثم نمنا، ثم سهرنا، وتسامرنا، وطربنا، ثم نمنا، حياةٌ تمضي إلى أن يأتي الخبر السيئ أن فلان انتقل إلى رحمة الله تعالى هذا شيء طبيعي، فماذا أعددت لله عزّ وجل ؟ وماذا أعددت للقائه ؟ فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (41))

(سورة الأحزاب)

الآن جاء الأمر، هذه أحد الأوامر:

(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

ليس فحوى الأمر أن تذكر الله بل فحوى الأمر أن تذكر الله ذكراً كثيراً:

توجد نقطة في الآية، هو أن الله عزّ وجل حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

فحوى الأمر ما هو ؟ هل فحوى الأمر أن تذكر الله ؟ لا، بل فحوى الأمر أن تذكر الله ذكراً كثيراً، أي إذا كان هناك قصور كلوي وقال لك الطبيب: اشرب كثيراً من الماء، وأنت تشرب ماء، فشرب الماء حاصل، ولكن حينما ألحّ عليك الطبيب وقال لك: اشرب كثيرا من الماء، الأمر ينصب لا على شرب الماء بل على كثرة شرب الماء، وهذه الفكرة دقيقة، ليس فحوى الأمر أن تشرب الماء، لا، هناك قصور كلوي، لا بدّ من أن تشرب الماء الكثير، لا بدّ من أن تشرب كثيراً، ضع خط أحمر تحت كثير، وربنا عزّ وجل لا يقول: اذكروا الله، ولكن يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

وقد قيل:

((برئ من الكِبر من حمل حاجته بيده، وبرئ من الشُح من أدّى زكاة ماله.))

[رواه القضاعي والديلمي عن جابر مرفوعاً وهو عند ابن لال عن أبي أمامة وقال ابن الغرس ضعيف]

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

اعلم علم اليقين أن كل شيءٍ تقوله محاسبٌ عليه:

قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى. قال: ذكر الله وما والاه.))

[سنن الترمذي عن أبي الدرداء]

خير أعمالكم اسم تفضيل والحقيقة في التفسير الدقيق، ذكر الله كلمةٌ واسعةٌ جداً، أي أنك إذا تفكّرت في خلق السماوات والأرض فقد ذكرت الله، وإذا تلوت آيات القرآن الكريم فقد ذكرت الله، وإذا تلوت الحديث الشريف، ودرست أبواب العلم الشريف، وقرأت عن سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسيرة أصحابه الأطهار، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وإذا جلست مع أخيك تُذكِّره بالله فقد ذكرت الله، فهذه واسعةٌ جداً.

لك أن تذكره بالاسم المفرد كأن تقول: الله، الله، الله، وكلّما انقطع نفسك قلت: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلبي، ولك أن تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فهذا ذكر، وأن تدعو الله بما شئت من الأدعية، وتقرأ كلامه، وتفكِّر في الكون، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتطلب العلم، وتفهم تفسير القرآن، فهذا مجلس ذكر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي بتسع خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

فاعلم علم اليقين أن كل شيءٍ تقوله محاسبٌ عليه.

اختار الله بكرةً وأصيلاً لأنهما طرفان للنهار مرتبطان بالنوم فاذكر الله فيهما:

قال تعالى:

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(18))

(سورة ق)

وكل حركة تتحرّكها مصوّرة ومسجّلة، فإذا قاد أحدهم في طريق مراقب بالرادار تجده منضبطاً، يقلل السرعة إلى الثمانين لكي لا يلقطوا لنا صورة، وأنت مع إنسان إذا سجّل عليك شيئاً تخاف منه، وهو إنسان عادي وإذا سجّل عليك كلمةً قلتها، أو موقفاً فعلته، أو صوّره لك، وطالبك بالمسؤوليّة فأنت تخاف منه، فكيف مع الواحد الديّان ؟ قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

كثيراً، الصلاة ذكر، والدعاء ذكر، والاستغفار، وتلاوة القرآن ذكر، فنوّع، أكثر ونوّع، وكل شيء له طعم ؛ فالتفكّر له طعم، والقرآن له طعم، والحديث له طعم، والاستغفار، والابتهال، والتهجُّد، والدعاء، وتعلُّم العلم، والفقه، والسيرة، والآداب الإسلاميّة، فهذا كلُّه ذكر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42))

(سورة الأحزاب)

لماذا اختار الله بكرةً وأصيلاً ؟

(وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42))

(سورة الأحزاب)

البكرة والأصيل طرفان للنهار مرتبطان بالنوم، أي لا تكن غافلاً، أي اذكر الله عزّ وجل صباحاً ومساءً، طرفي النهار.

التسبيح هو التنزيه والتمجيد أي نَزّهُهُ عما لا يليق به ومَجِّد أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى:

قال تعالى:

(وَسَبِّحُوهُ (42))

(سورة الأحزاب)

التسبيح بمعنى التنزيه، سبحان الله، التسبيح هو التنزيه والتمجيد، أي نَزّهُهُ عما لا يليق به، ومَجِّد أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى:

(بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42))

(سورة الأحزاب)

أي كل يوم، ولذلك فالصلوات خمس:

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ قَالُوا لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ قَالَ فَذَلِكَ مَثَلُ الصّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللّهُ بِهِنّ الْخَطَايَا.))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

قال تعالى:

(هُوَ الّذِي يُصَلّي عَلَيْكُمْ (43))

(سورة الأحزاب)

أنت إذا صلّيت ـ للصلاة تعريف ـ أنت إذا صليت اتصلت بالله عزّ وجل لتقتبس من نوره، ولتقتبس من رحمته، ومن كتابه، فإذا وقفت في الصلاة وقرأت القرآن بعد الفاتحة فهذا أمر الله وإذا ركعت خضعت، وإذا سجدت استعنت، وإذا كبّرتَ كبّرت، وإذا حَمِدّتَ حَمَدّتَ، فهذه صلاة العبد.

المُصلي لا يغدر ولا يكذب ولا يستعلي ولا يظلم لأنه اصطبغ بصبغة الله عزّ وجل:

لكن صلاة الله عزّ وجل:

(هُوَ الّذِي يُصَلّي عَلَيْكُمْ (43))

(سورة الأحزاب)

ولنفهم ماذا تعني الصلاة، قال:

(هُوَ الّذِي يُصَلّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ (43))

(سورة الأحزاب)

أي أنه يُلْقِي في قلبكم نوراً ترون به الحقّ حقّاً والباطل باطلاً، ويلقي في قلوبكم سكينةً ترتاحون بها، وفي قلوبكم مكارم الأخلاق، وعندك بالصلاة ثلاثة أشياء، الصلاة طهور، والصلاة نور، والصلاة

مكارم أخلاق، فالمُصلي لا يغدر، ولا يكذب، ولا يستعلي، ولا يظلم لأنه اصطبغ بصبغة الله عزّ وجل، قال تعالى:

(صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللّهِ صِبْغَةً(138))

(سورة البقرة)

المصلي يمتلك رؤية صحيحة وقلباً طاهراً وكاملاً:

المصلي اتصل بالله، والله نور، فألقي في قلبه النور:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ(28))

(سورة الحديد)

وقال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

إذاً المؤمن مستنير بنور الله:

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللّهِ))

[سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

الصلاة نور ومعه اصطباغ بصبغة الله عزّ وجل، والمؤمن منير رحيم، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، وكلّما اقتربت من الله عز وجل اصطبغت بالرحمة، والعدل، والإنصاف، واللطف، والشفقة، والتواضع، وكلُّ مكارم الأخلاق من اتصالك بالله عزّ وجل، فالمصلي يمتلك رؤية صحيحة، وقلباً طاهراً وكاملاً.

مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحبّ الله عبداً منحه خُلُقاً حسناً:

التخلية قبل التحلية، تُخَلّى من كل العيوب، ومن كل أدران النفس، ثم يُحلّى القلب بمكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أحبَّ الله عبداً منحه خُلُقاً حسناً، إذاً:

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ (43))

(سورة الأحزاب)

أي يتجلّى عليكم بالسكينة، فالمؤمن سعيد بقربه من الله، ومهما ابتغيت السعادة من غير قرب الله عزّ وجل شقيت وأشْقَيْتَ، لا سعادة إلا بالاتصال بالله:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً(97))

(سورة النحل)

إذاً:

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ (43))

(سورة الأحزاب)

الآية مفسَّرة، كيف يصلي عليكم وملائكته ؟ قال:

(لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (43))

(سورة الأحزاب)

تصير مستنيراً، صاحب رؤية صحيحة، وبصر حديد، فترى حقائق الأمور، ودقائقها، ومؤدّاها، ونتائجها، وسِرّها.

صورة من القرآن الكريم عما أعده الله للمؤمنين في الدنيا والآخرة:

قال تعالى:

(وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43))

(سورة الأحزاب)

أنت تتصل بالله، فربنا عزّ وجل يتجلّى عليكَ بالسكينة فترتاح، ويطهّر قلبك فيصير نظيفاً من كل درن، ويحلّيك بالكمال، وفوق هذا وذاك تملك هذا النور الساطع قال تعالى:

(وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43))

(سورة الأحزاب)

هذا في الدنيا، أما في الآخرة:

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ (44))

(سورة الأحزاب)

فلا مشكلة، ولا قلق، ولا خوف أبداً:

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ (44))

(سورة الأحزاب)

خالق الكون يمنحهم السلام:

(وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44))

(سورة الأحزاب)

يا الله !

أعد الله للمؤمنين في الدنيا كمالاً وسعادة وعند الهول الأعظم سلام وبعده إكرام إلى الأبد:

في الدنيا طهارة قلب، وكمال، وسعادة، واستنارة، وعند الهول الأعظم سلام، وبعد هذا الهول الأعظم إكرام إلى الأبد، فهذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا(44))

(سورة الأحزاب)

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا (45))

(سورة الأحزاب)

على أمّتك:

(وَمُبَشِّرًا (45))

(سورة الأحزاب)

لمن أطاعك:

(وَنَذِيرًا (45))

(سورة الأحزاب)

لمن عصاك، فهو شاهد، ومبشِّر، ونذير:

(وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ (46))

(سورة الأحزاب)

إلى معرفة الله، وإلى طاعته، وإلى التقرُّبِ إليه.

للمؤمن مهمّتان ؛ مهمّة التبليغ والتزكية:

قال تعالى:

(وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46))

(سورة الأحزاب)

أي بدعوته تتعرّف إلى الله، وبصحبته يمتلئُ قلبك من نور الله، إذاً له مهمّتان: مهمّة التبليغ والتزكية:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ(103))

(سورة التوبة)

وقال:

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة الأحزاب)

المؤمن إذا بشّره النبي عليه الصلاة والسلام، أو إذا بشّره القرآن بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، هذه البشارة تعني أنها تمتص كل متاعبه.

القرآن يبشّر المؤمن بالجنة إذا ثبت على ما هو عليه:

كما قلت لكم من قبل: لو وُعِدَ الإنسان بمبلغ كبير سيقبضه بعد عام، في هذا العام هو من أسعد الناس، مع أنه ما قبض من المبلغ شيئاً، ولكنه دخل بالوعد القطعي، كل قضاياه تحل، يقول لك: غداً أفعل كذا، أفعل كذا، فالمؤمن حينما يوقن أنه من المبشّرين بالجنّة ـ طبعاً القرآن بشّره إذا ثبت على ما هو عليه ـ لا يغيّر الله ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم:

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة الأحزاب)

فضل كبير، الكبير يقول لك: فضل كبير، فدائماً لو طفل عمره ثلاث سنوات قال لك: أنا معي مبلغ كبير، فكلمة كبير من طفل تعني حجماً صغيراً، أما إذا قال لك إنسان يملك أموالاً طائلة: أنا معي مبلغٌ كبير، أو سأعطيك شيئاً كبيراً، فلذلك هذا وصفٌ دقيق:

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48))

(سورة الأحزاب)

أي:

(قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(91))

(سورة الأنعام)

أنت تطلب من الله الكرامة والله يطلب منك الاستقامة:

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله فالقضيّة واضحة كالشمس، ما منّا واحدٌ إلا ويتمنّى أن يكون أغنى الناس، وأقوى الناس، وأكرم الناس، فعليه بطاعة الله، فأنت تطلب من الله الكرامة وهو يطلب منك الاستقامة، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

فاز فوزاً عظيماً بنصّ القرآن الكريم، وكفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله، وأكبر نصر لك أنك في طاعته، وأكبر هزيمة له أنه في معصيته، لأنه:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

وتأتي الآيات بعدها في الدرس القادم، آياتٌ فيها أحكام متعلِّقة بالنساء، نشرحها إن شاء الله تعالى في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (13-18): تفسير الآيات 49 - 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-12-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة الأحزاب.

هذه الآية من الآيات التي تنظِم علاقة الرجل بالمرأة:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49))

(سورة الأحزاب)

الحقيقة هذا حكمٌ من أحكام الطلاق، وكلنا يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الذَكَرَ والأنثى، وخلق كلاً منهما مُكَمِّلاً لصاحبه، بل إن الزواج آيةٌ دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل حيث قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم: من آية " 21 ")

يبدو أن الدافع الذي أودعه الله في الإنسان إلى شِقِهِ الآخر دافعٌ قوي، وما لم تَنْظِم هذا الدافع قيودٌ، وحدودٌ، وقواعد، ومبادئ، فإن فساداً عريضاً يصيب المجتمع البشري، لذلك نجد الآيات التي شَرَّعَت وبيَّنت وقنَّنت موضوع الزواج والطلاق حجمها كبير، فلذلك هذه آيةٌ من الآيات التي تنظِم علاقة الرجل بالمرأة.

عقد الزواج لا يعقد إلا بشروط ولا ينفصل إلا بشروط:

لكن قبل أن نمضي في الحديث عن هذا الموضوع، لا بدَّ من إشارةٍ سريعة إلى ما يسمى بالطلاق السُنِّي، وإلى ما يسمى بالطلاق البِدْعِيّ، فأقدس عقدٍ بين شخصين على وجه الأرض هو عقد الزواج:

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا(21))

(سورة النساء)

الميثاق الغليظ هو عقد الزواج، فهذا العقد المقدَّس الذي تبنى عليه العلاقات المشروعة بين الزوجين، هذا العقد المقدس الذي يبنى عليه المجتمع كله، المجتمع في حقيقته مجموعة بيوت، فإذا صلح البيت

صلح المجتمع، هذا العقد لا يعقد إلا بشروط، ولا ينفصل إلا بشروط، لا يعقد إلا بإيجاب، وقبولٍ، ووليٍ، ومهرٍ، وشاهدي عدلٍ، ولا يفصم إلا بعِدَّة.

أن تطلق المرأة اليوم وتقترن بآخر غداً، هذا استخفافٌ بهذا العقد، فكما أن هذا العقد لا يعقد إلا بولي وإيجاب وقبول ومهر وشاهدي عدل ؛ لا ينفصل إلا بعدة تمضي، إما حداداً على الزوج إن كان قد مات، وإما تبرئة للرحم إن كان الفراق على إثر طلاق.

ما الذي يحصل ؟ الذي يحصل هو أن العلاقة الزوجية إذا بلغت درجةً أصبح فيها فسادٌ على الطرفين لا بدَّ من الانفصال، كيف تنفصل ؟ تنفصل بالتشريع العظيم الذي جاءنا به القرآن الكريم، فالرجل إذا رأى من امرأته ما يكره، إن رأى منها شيئاً لا يُحْتَمَل، يطلقها طلقةً واحدة، وتبقى في البيت، وتبقى معه تأكل وتشرب، ولها الحق في أن تتزيَّن، فالمقياس الذي يقاس به هذا الأمر الذي من أجله طلّقها يظهر من تتابع الأيام، فلو أن هذا الأمر تافِه بعد يومين أو أكثر ينسى ويتمنى أن يعود إليها، وقد تتمنى أن تعود إليه، تظهر له ما يُرَغِّبُهُ فيها، ويظهر لها ما يرغبها فيه، فبمجرد أن يقول لها: راجعتكِ وهذا في مذهب، أو بمجرد أن يضع يده عليها وهذا في مذهب آخر، فقد راجعها من دون مهرٍ ولا عقدٍ ولا خيارٍ منها، فإذا طلق الإنسان زوجته طلاقاً سُنِّيّاً كان له طريقٌ إلى إرجاعها، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

ومن يتق الله في تطليق امرأته، يجعل الله له مخرجاً إلى رَدِّهَا.

الطلاق السني:

إذاً إذا طلقها ينبغي أن تبقى في بيته:

(لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق: من آية " 1 ")

هذه المشكلة التي من أجلها جاء الطلاق، حسب حجمها، قد تتلاشى بعد أسبوع، بعد يومين، بعد يومٍ واحد، بعد أسبوعين، بعد ثلاثة أسابيع، تبقى مطلقةً وهي في بيت زوجها ثلاثة قروء، أي ثلاثة أطهار، وفي رأي آخر ثلاثة حيضات، فمن خلال ثلاثة أشهر إذا بقي مصراً على طلاقها، معنى ذلك أن الأمر خطير، أما إذا ندم على فعلته، ورأى أن الأمر لا يحتاج إلى هذا، وحنَّ إليها وحنَّت إليه، وشعر بحاجته إليها، بإمكانه أن يراجعها، وهذا الطلاق يسمى الطلاق الرجعي، فإذا قال لها: راجعتكِ، حَلّت له، وانتهى الأمر، وحسبت عليه طلقة.

لا زلنا في الطلاق السني، فإذا فعلت شيئاً آخر بعد حين يوجب الطلاق وطلقها، أيضاً تبقى في بيته، ولها أن تأكل معه وتشرب، ولها أن تتزيّن، وتعاد الكرة مرةً ثانية، فإن كان في الأمر شيءٌ كبيرٌ خطير يبقى مصراً، وإن كان الأمر تافهاً يزول هذا الأمر بعد أيامٍ عدة، وبإمكانه أن يراجعها، وتعود إليه بلا مهرٍ، ولا عقدٍ، ولقد حسبت عليه طلقةً ثانية، الطلاق مرّتان.

أما المرة الثالثة بانت عنه بينونةً كبرى، وملكت نفسها، ولا يمكن أن تعود إليه إلا أن تنكح زوجاً غيره، والحكمة من ذلك أنها إذا نكحت زوجاً غيره، وطلقها، تتيقن أنها هي السبب، فإذا أحبّها يتيقن زوجها أنه هو السبب، ولا يحلُّ له أن يستعيدها إلا إذا تزوجها رجل آخر زواجاً عادياً على نية التأبيد، ثم طلقها طلاقاً عادياً من دون إكراهٍ، أو من دون افتعالٍ أو تصنع.

أما إذا طلقها طلقةً واحدة، ومضت القروء الثلاثة ولم يراجعها تحول الطلاق إلى طلاق بائن بينونة صغرى، وملكت نفسها، لكن بإمكانه أن يعيدها إليه بمهرٍ وعقدٍ جديد، لكن لها الخيار ؛ إما أن ترجع أو أن لا ترجع.

الله سبحانه خاطب عامة الناس بأصول الشريعة وخاطب المؤمنين خاصة بفروع الشريعة:

أيها الأخوة، هذا هو الطلاق السُنِّي، هذا هو الطلاق الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام تبييناً وتفصيلاً لآيات الطلاق التي وردت في القرآن، هذا الطلاق قَلَّمَا ينتهي إلى الفراق، هذا هو الطلاق السني، أما كلما اختلف مع شخصٍ وتشاجر معه، حلف يمين الطلاق ثلاثاً وطلق امرأته، هذا طلاقٌ بدعي، وكذلك إذا طلقها وهي في حيضٍ هذا طلاقٌ بدعي أيضاً، وكذلك إذا طلقها في طهرٍ مسّها فيه هذا طلاقٌ بدعي أيضاً، وكذلك إذا طلقها ولم تكن هي طرفاً في الموضوع والمشكلة هذا طلاقٌ بدعي، وهناك أنواعٌ كثيرةٌ جداً من الطلاق البدعي الذي هو مخالفٌ لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم علماً أن الطلاق البدعي يقع لكن مع الكراهية، الآن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (49))

كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى خاطب عامة الناس بأصول الشريعة، أصول الدين، وخاطب المؤمنين خاصةً بفروع الشريعة، أي يا أيها الإنسان الذي عرفت الله عزَ وجل، وآمنت بوجوده وبكماله وبوحدانيته، وهذا كتابه، وهذا شرعه، عليك أن تفعل كذا وكذا، وأن تَدَعَ كذا وكذا.

النكاح هو العقد والدخول أما في هذه الآية النكاح يعني العقد فقط:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ (49))

النكاح هنا يطلق في القرآن على عقد النكاح في هذه الآية، وعلى العقد والدخول في معظم الآيات الأخرى، فكلمة نكاح أي العقد والدخول، أما في هذه الآية النكاح يعني العقد فقط قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ (49))

وقال:

(وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 237 ")

وإن لم تفرضوا لهن فريضة:

(لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ)

(سورة البقرة: من آية " 236 ")

هنا التمتع أن تعطيها شيئاً يجبر خاطرها، أن تعطيها نفقةً تقوم بأودها، أن تعطيها شيئاً فتكتفي به من دون أن تسأل الناس من بعدك.

العدة في أصلها تبرئة للرحم وتأكدٌ من أن هذا الرحم خلوٌ من أي حملٍ من زوجٍ آخر:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ (49))

أما من قبل أن تمسوهن.

(فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا (49))

العدة في أصلها تبرئةٌ للرحم، وتأكدٌ من أن هذا الرحم خلوٌ من أي حملٍ من زوجٍ آخر، النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث المروية عنه يقول:

((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقي ماؤه زرع غيره.))

[كنز العمال]

فمن إرشادات النبي اللطيفة:

((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقي ماؤه زرع غيره.))

لذلك لا بدَّ من عدةٍ تعتدها المرأة ليكون رحمها بريئاً ونظيفاً من حملٍ من زوجٍ قبله.

إذا عُقِدَ عَقْدُ النكاح ولم يسم المهر فعلى الزوج المُطلِّق أن يمتع الزوجة متاعاً حسناً:

إذا عُقِدَ عَقْدُ النكاح، وسُمِّيَ المهر، ولم يدخل بها، فلا معنى للعِدَّة، أما إذا عُقِدَ عَقْدُ النكاح ولم يسم المهر، فعلى الزوج المُطلِّق أن يمتعها متاعاً حسناً.

(فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49))

السراح الجميل، أكثر أنواع الطلاق الآن يعقبها فضائح، وكلام قاسٍ، واتهامات رخيصة، بعد أن يكونا على وفاق، وبعد أن تكون كل أسرةٍ تثني على الأسرة الأخرى، فجأةً يتقاذف هؤلاء وهؤلاء التُهَم ويسيئون إلى بعضهم بعضاً، ليس هذا هو السراح الجميل كفاك إذا صاحبت رجلاً فترةً وقال كل منهما للآخر: جزاك الله عني كل خير، فهل يعقل أن يطلق الرجل امرأته وتقول له: جزاك الله عني كل خير، هكذا يجب أن يكون إذا طلقها بالعدل وكان محسناً، كفاك إحساناً إذا صاحبت إنساناً لفترةٍ ما ثم فارقته أن يقول كل منهما للآخر: جزاك الله عني كل خير.

لذلك أعرف رجالاً طلقوا زوجاتهم، وكان هؤلاء الرجال يدفعون إلى زوجاتهم نفقةً مستمرةً، فهذه امرأة لها حقٌ عند الزوج، وبالطبع هذا من باب الإحسان، أما على الأقل أن يمتِّعها متاعاً حسناً، أن يعطيها المهر الذي فرضه لها، أما أن يضيّقَ عليها حتى تسامحه بكل شيء فهذا إضرار بالزوجة، والله سبحانه وتعالى دائماً ينتقم من هؤلاء الذين يظلمون زوجاتهم المُطلَّقات.

الذي يضيّق على زوجته كي تدع له كل شيء فهذا إضرار لأن المهر حق:

رجل حدثني عن شخص تزوج امرأةً، تزوجها وهي من أسرةٍ صالحةٍ دَيِّنَةٍ، لكنه أراد أن تكون من الزوجات اللاتي لا يرفضن طلباً، اختلاط، وسهرات وكذا، فلما رفضت هذه الزوجة أن تستجيب لرغبات زوجها، ورآها ليست في المستوى الذي يريده، ولها متأخر كبير جداً، بدأ يضَيّق عليها، ويقسو عليها في الكلام والحرمان، ويأتي متأخراً، وكل هذا بتوجيهٍ من أمه، إلى أن طلبت منه الطلاق من دون أن تطلب شيئاً وهذا هو المطلوب.

فصار كلما جلس في مجلسٍ يتنَدَّر: قد تخلصنا من مهر فلانة، لقد تلافينا الخسارة، ومرةً كان يركب مركبته، وقد ركبت زوجته الجديدة عن يمينه، وأمه خلفه، وأبوه في المقعد الذي خلف مقعد زوجته، وكان يمشي بين المركبات بسرعةٍ فائقة، ويقول له أبوه: يا بني خفف السرعة، فقال له: أنا أنجو من الحادث كما نجوت من مهر زوجتي، وقُبَيْلَ دمشق بقليل وقع الحادث، فَقُصَّ قَصّاً هو وأمه.

الله عزّ وجل كبير، هذا الذي يضيّق على زوجته كي تدع له كل شيء، هذا إضرار، فالمهر حق، إن لم تعجبك إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان، أما أن تضيّق، وأن تشتم، وأن تضرب، وأن تأتي بعد

منتصف الليل، وأن تمنع الطعام والشراب من أجل أن تدع لك كل شيء، وأن تطلقها بلا متأخر، هذا ظلم، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً.))

[مسند أحمد عن أنس بن مالك]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49))

السراح الجميل ؛ أن تُلين الكلام، وأن تعطيها حقها، وأن تطلب منها المعذرة إذا لم يكن هناك نصيب، وكثير من الأشخاص المؤمنين يجيبك: لا يوجد نصيب، إذا سألته لماذا طلقتها ؟ يقول لك: لا يوجد نصيب، وهذا يكفي، من دون أن تتحدث عن أخطاء، وعن ثغرات، وعن عيوب وغيرها.

نساء النبي اخترن الله ورسوله والدارالآخرة فجاء التشريع الإلهي مكافأةً لهن على موقفهن:

حديث الناس حين انفصام عقد الزواج حديثٌ لا يرضي الله عزّ وجل، كشفٌ للأستار، وفضحٌ للخبايا، وافتراء، وظلم، واتهامات كاذبة، هذا كله لا يرضي الله عزّ وجل.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ (50))

هذه الآية متعلقة عند رأي بعض العلماء بالآيات السابقة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49))

نساء النبي عليهم رضوان الله، حينما خَيَّرَهُنَّ النبي عليه الصلاة والسلام بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة، اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، مكافأةً لهن على موقفهن الذي آثرن فيه الله والدار الآخرة، جاء التشريع الإلهي:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ (50))

أي أن هذه الأزواج اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة هن لك وأنت لهن.

من تزوج امرأةً على صداق وفي نيته ألا يؤديه لها لقي الله زانياً والله رب النوايا:

قال تعالى:

(اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ (50))

أي أن هذا المهر حقٌ للزوجة، من تزوج امرأةً على صداقٍ وفي نيته ألا يؤديه لها لقي الله زانياً، ومن أخذ مالاً من رجلٍ وفي نيّته ألا يؤديه لقي الله سارقاً، والله رب النوايا.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ(50))

الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال: من آية " 72 ")

الهجرة دليل الإيمان، أنت مؤمن، ما الدليل ؟ صيامك هو الدليل، صيامك أي الله ورسوله أحب إليه من طعامك وشرابك، زكاتك هي الدليل، أي الله ورسوله أحب إليك من مالك، أن تنفق المال.

الإيمان قناعة يظهرها ويؤكدها موقف:

تغض بصرك ما الدليل ؟ غض بصرك عن محارم الله دليل أن الله عزّ وجل أحب إليك من شهوتك، إذاً دائماً الإيمان بلا موقف، بلا بذل، بلا عطاء، بلا انضباط، بلا تقيُّد، بلا جهاد النفس والهوى، لا قيمة له، الإيمان قناعة، ماذا يظهرها ؟ ماذا يؤكِّدها ؟ يظهرها ويؤكدها موقف، فلذلك:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال: من آية " 72 ")

هذا الذي جاء النبي قال له: جئتك لتعلمني من غرائب العلم، فقال: **" ماذا صنعت في أصل العلم "**، قال؟ وما أصل العلم ؟ قال: **" هل عرفت الرب ؟ "**، قال: ما شاء الله، قال: **" فماذا صنعت في حقه ؟".**

هذا السؤال المهم: أنت إذا آمنت بالله ماذا فعلت ؟ ماذا أعطيت ؟ ماذا منعت ؟ كيف وقفت ؟ ما الشيء الذي فعلته بدافعٍ من إيمانك ؟ فلذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ(50))

أي إن لم تهاجر فلا يمكن أن تستحق أن تكون زوجة النبي عليه الصلاة والسلام.

النبي الكريم ما تزوج امرأةً واحدةً وهبت نفسها له وإنما كان يستنكحها بعض أصحابه:

قال تعالى:

(وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً (50))

أي أحللنا لك أية امرأةٍ مؤمنةٍ وهبت نفسها لك.

(وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50))

النبي عليه الصلاة والسلام له أحكامٌ اختصَّ بها، فأية امرأةٍ لشدة حبها للنبي عليه الصلاة والسلام إذا وهبت نفسها للنبي، النبي عليه الصلاة والسلام له الحق أن يتزوجها، لكن هذا الحكم خاصٌ بالنبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي هو سيد الخلق وحبيب الحق، فإذا أرادت امرأةٌ أن تكون للنبي عليه الصلاة والسلام بلا مهر ـ وهذا شرط استثنائي ـ فالنبي عليه الصلاة والسلام له أن ينكحها خالصةً له من دون المؤمنين، ومع ذلك في أغلب الأقوال أن النبي عليه الصلاة والسلام ما تزوج امرأةً واحدةً وهبت نفسها له، كانت إذا وهبت نفسها كان يستنكحها بعض أصحابه.

(قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50))

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ: آية تشهد بكمال النبي الكريم:

الآن هذه آية من الآيات الدقيقة جداً التي تشهد بكمال النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ (51))

معنى تُرجي أي تؤخر، أو لا تقبل، تؤخر أو لا تقبل، أنت إذا عرض أحد عليك عرضاً إما أن تقول موافق، أو غير موافق، أو أخِّر هذا الموضوع لوقت آخر.

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ (51))

هؤلاء النساء ـ نساء النبي عليهم رضوان الله ـ للنبي الحق أن يستبقي بعضهن وأن يدع بعضهن، كان هذا حينما خيرهُنَّ الله عزّ وجل، للنبي عليه الصلاة والسلام أن يزور فلانة ويدع فلانة، ولكنه لم يفعل، عدل بينهن، النبي له حكم خاص، قد تكون المصلحة الراجحة أن يكون عند فلانة لا عند فلانة، فهذه الآية عامة، النبي عليه الصلاة والسلام لحكمةٍ بالغةٍ، لكماله الشديد، لعطفه، لرحمته، لعدله، ألم يقل له بعض الأعراب: اعدل يا محمد، فقال عليه الصلاة والسلام:

((ويحك من يعدل إن لم أعدل ؟))

قال تعالى:

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ (51))

أي أنت لك أن تؤخِّر من تشاء، ولك أن ترفض من تشاء منهن.

النبي عليه الصلاة والسلام بلغ من الكمال والرحمة والعدل ما يؤهله لأن يفعل ما يشاء:

قال تعالى:

(وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ (51))

والتي رفضتها ثم أردتها هذا لك:

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51))

متى يُطَلَّقُ الإنسان ؟ أنت متى تقول لفلان: افعل ما تشاء ؟ هذه افعل ما تشاء تؤوي، ترفض، تُرجي، تغيّر، تعدِّل، هذا دليل كماله صلى الله عليه وسلم، فهو بلغ من الكمال والرحمة والعدل الدرجة التي أهَّلَتْهُ لأن يفعل ما يشاء، ومع ذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان يعدل بين زوجاته، وكان يعدل بينهن، وكان عند مرضه صلى الله عليه وسلم يستأذن بقية نسائه في أن يبقى عند عائشة، إذاً متى أطلق الله عزّ وجل لنبيّه حرية الحركة ؟ بعد أن بلغ مستوى من الكمال.

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ (51))

التي عزلتها، وأخرتها، ولم تقبل بها، ثم ابتغيتها هذا لك، التي أرجأتها وأخرتها، أو اعتذرت عن قبول هبتها لنفسها، هذا لك، التي آويتها وقبلتها وضممتها إلى زوجاتك ؛ هذه لك، أي لك أن تضم من تشاء، لك أن ترفض من تشاء، لك أن تؤَخِّر من تشاء، لك إذا رغبت في امرأةٍ لمصلحةٍ راجحةٍ بعد أن رفضتها أن تقبلها وأن تؤويها إليك، هذا الذي قاله الله عزّ وجل شهادةٌ من الله عزّ وجل للنبي عليه الصلاة والسلام، لأنه بلغ الدرجة العالية من الكمال.

كل زواج للنبي عليه الصلاة والسلام فيه من الكمال والحكمة ما لا سبيل إلى وصفه:

أنت أيضاً حينما تشعر أن زيداً من الناس في أعلى درجات النزاهة، وفي أعلى درجات الحكمة، وفي أعلى درجات العلم، وفي أعلى درجات العدل، تقول له: افعل ما تشاء، فهذا التخيير، وهذا الإطلاق أساسه ما تمتَّع به النبي عليه الصلاة والسلام من قلب رحيم، ومن حرصٍ بالغٍ على هداية الناس، ومن حرصٍ أبلغ على خاطر نسائه المؤمنات، فكان يطيّب خاطرهن، ولو دققت في زواجه من زوجاته واحدةً واحدة، لوجدت أن كل زواجٍ فيه من الكمال والحكمة ما لا سبيل إلى وصفه، إذاً:

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ(51))

أنت حينما تكون رحيماً معهن، تكون كاملاً، تكون منصفاً، تكون عادلاً تقر أعينهن، وهو في هذا المستوى صلى الله عليه وسلم.

(وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51))

الله عزّ وجل يعلم، لك أن تفعل شيئاً، قد يفسر هذا الشيء تفسيراً سيئاً، وقد يفسر تفسيراً صالحاً، فأكثر أعداء الإسلام يتهمون النبي عليه الصلاة والسلام بأنّه مِزواج، ولو درست سيرة النبي عليه الصلاة والسلام لتبيّن لك العكس.

على الزوج أن يكون وفياً لزوجته إلى أبعد الحدود:

بقي مع السيدة خديجة أم المؤمنين خمسة وعشرين عاماً وكانت تكبره بخمسة عشر عاماً، وكان وفياً لها إلى أبعد الحدود، وما نسي ذكرها أبداً، حتى إن السيدة عائشة إذا قالت له: ألم يبدلك الله خيراً منها ؟ كان يقول: **" لا والله، لا والله، لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها، لقد صدقتني حين كذبني الناس، لقد كانت معي حين تخلى عني الناس، لقد واستني بمالها "**. فقد كان وفياً لها دائماً، وكان في ريعان الشباب، تزوجها في الخامسة والعشرين، وكانت هي في الأربعين، وبقي معها خمسة وعشرين عاماً حتى أصبحت في سن الخامسة والستين.

المؤمن العادي لو تزوج امرأةً في سنه يندب حظه طوال حياته، ويقول: **" أخذناها كبيرة "**. فهل هذا يعني أنه عليه الصلاة والسلام كان مزواجاً ؟ وأكثر نسائه من الأرامل ولسن في المستوى المطلوب، دون المستوى المطلوب بكثير، وبالطبع كان يتألّف القبائل بالزواج منهن، هذه السياسة الحكيمة والتشريع العالي، فمن الذي يعلم الدافع النبيل ؟ فهذا الذي قاله الله عزّ وجل:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51))

أي أنه يحْلُمُ على هؤلاء المتهمين، على هؤلاء المرجفين:

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ (52))

حينما شرع الله عزّ وجل للمؤمنين أن كل رجلٍ يحق له أربع نساءٍ حصراً، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان وقتها على تسعة نسوة، فتكريماً لهن، وتَطييباً لخاطرهن، سمح الله عزّ وجل بشكل استثنائي للنبي، وهذا من الأحكام الخاصة، أن تبقى عنده هذه النسوة جميعاً، لكن من دون أن يزيد عليهن ومن دون أن يبدل إحداهن بأخرى.

النظر إلى الخطيبة تشريعٌ أساسي والذي يرفض النظر إليها فقد خالف السنة والشريعة:

قال تعالى:

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ (52))

كلمة ولو أعجبك حسنهن هذه إشارة في هذه الآية إلى أن الخاطب له أن يرى مخطوبته، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما.))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة عن المغيرة بن شعبة]

لعلك ترى منها ما يعجبك فتزداد المحبة وتقبل على هذا الزواج، فالنظر إلى المخطوبة تشريعٌ أساس، وهذا الذي يرفض النظر إلى مخطوبته هو خاطئ، فقد خالف السنة والشريعة، لعل هذا النموذج لا يحبه ولا يعجبه، فإذا عاش مكرهاً معها لم تكن حياته كما ينبغي، فلذلك:

(وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ (52))

إشارةٌ إلى أن للرجل أن ينظر إلى مخطوبته، إلى وجهها وكفيها على أقوال العلماء.

هذه إشارةٌ دقيقة، امرأة خطبها النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت امرأةٌ مصبية أي ذات صبية، لها أولاد، فقالت: **يا رسول الله لأنت أحب إلي من سمعي، ومن بصري، ومن نفسي، ولكن حق الزوج عظيم، فأخشى أن أضيّع حق الزوج ".**

أي أن لا أقوم بواجبك، فقد اعتذرت للنبي عليه الصلاة والسلام لما تعلم من عِظَمِ حق الزوج، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قبلها على أولادها الكُثُر.

بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بتعدد الزوجات:

بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بهذا الموضوع

يقول العلماء: على الرجل أن يعدل بين نسائه، لكل واحدةٍ منهن يوماً وليلة، هذا قول عامّة العلماء، وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك في الليل دون النهار، ولا يسقط حق الزوجة مرضها ولا حيضها، فمن حقها أن تكون هذه الليلة لها بصرف النظر عن مرضها أو عن حيضها، كما أنه عليه أن يعدل بينهن في مرضه كما يفعل في صحته، أي وهو صحيح وهو مريض، وهي صحيحة وهي مريضة، إلا أن يعجز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض، أين أصابه المرض الشديد ؟ عند فلانة يقيم عندها مستأذناً من ضرتها.

شيءٌ آخر، وأن لا يجمع بينهن في منزلٍ واحدٍ إلا برضاهن، قد يكون وجود الضرائر في بيت واحد سبباً لمشكلات كبيرة جداً، بل إن مالكاً حَدَّثَ عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان، ماتتا في الطاعون، فأسهم بينهما أيهما تُدَلّى في قبرها قبل الثانية، إلى هذه الدرجة، بالقرعة، حتى لا يقال: فلانة أكرم عليه من فلانة، فقد كان الصحابة الكرام يتقصّون العدالة حتى في أدق الدقائق، والنبي عليه الصلاة والسلام كما علمنا وقال:

((اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك.))

[سنن أبي داودعن عائشة]

أي أنك إذا تزوجت ـ إذا قدر الله عليك ـ ولك أكثر من زوجة، عليك أن تبتغي العدالة شبه التامة، أما قلبك فهذا بيد الله عزّ وجل هو مقلب القلوب، فكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك.))

وقد ورد في السنة، أن النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة قال:

((من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل.))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة عن أبي هريرة]

أي أن هذا صار ظلماً، حتى أن امرأةً جاءت إلى سيدنا عمر رضي الله عنه، وقالت له: **" يا أمير المؤمنين إن زوجي صوامٌ قوام "**، ويبدو أنه كان مشغولاً بموضوع، قال لها: **" بارك الله لكِ بزوجكِ"**، وكان عنده أحد أصحابه قال: **" يا أمير المؤمنين إنها تشكو زوجها "**، فانتبه عمر إلى أن هذه شكوى، فقال: **" احكم بينهما "**، فحكم لها أن يكون عندها يوماً كل أربعة أيام، كما لو أنه متزوج أربع نسوة، لها حق في يوم وليلة، أعجبه هذا الحكم، فما كان منه رضي الله عنه إلا أن ولاّه قضاء البصرة، الحكم دقيق، لو أن له أربع نساء كان لها الحق في يوم وليلة من هذه الأيام كلها.

يروى أن لقمان الحكيم قال لابنه مرةً: **اذبح شاةً وائتني بأطيب بضعتين فيها**، فأتاه باللسان والقلب، ثم أمره بذبح شاةٍ أخرى، وقال له: **" أعطني أخبث شيئين فيها "**، فألقى إليه اللسان والقلب، أي أن اللسان والقلب أطهر ما في الإنسان إذا كان تقياً، واللسان والقلب أخبث ما في الإنسان إذا كان خبيثاً.

ولما دخل على سيدنا عمر بن عبد العزيز وفد الحجازيين وتقدمهم صبيٌ صغير، قال: **اجلس أيها الغلام، وليقم من هو أكبر منك سناً**، فقال: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا وهب الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس.

ملخص لما جاء في درس اليوم:

هذه بعض الأحكام التي جاءت في موضوع التعدد، على كلِ محور هذا الدرس دقيق جداً:

1 ـ الله تعالى أعطى النبي حرية التصرف مع زوجاته وهذه شهادة للنبي الكريم:

أن النبي عليه الصلاة والسلام ما أعطاه الله حرية الحركة في أن يؤوي، وفي أن يرجي، وفي أن يقبل، وفي أن يرفض، وفي أن يقبل بعد أن رفض، وفي أن يأخذ ما يريد، إلا بعد أن بلغ من الحكمة، والعلم، والحلم، والرحمة، والعطف، والإنصاف الشيء المطلق فلذلك:

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ (51))

هذه شهادةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام.

2 ـ على المؤمنين أن يتقيّدوا بما جاء في القرآن الكريم:

الشيء الآخر: أما المؤمنون فعليهم أن يتقيّدوا بما جاء في القرآن الكريم، فلو أن أحداً تزوّج بامرأةٍ ثانية عليه أن يعدل بين الاثنتين لئلا يكون ظالماً.

3 ـ الطلاق البدعي والطلاق السني شيئان مهمان جداً في حياة المؤمن:

الشيء الثالث: أن الطلاق البدعي والطلاق السني شيئان مهمان جداً في حياة المؤمن، فإذا طلق امرأته طلاقاً سنياً جعل الله له طريقاً إلى إعادتها، وإذا طلّقها طلاقاً بدعياً بأن حلف يميناً بالطلاق ثلاثاً ـ دفعةً واحدة ـ أو طلقها في حيض، أو طلقها في طهرٍ مَسَّهَا فيه، أو طلقها لمشكلةٍ لا علاقة لها بها، أو طلقها قبل أن يُراجعها، هذه أنواع الطلاق كلها وهذه الأنواع سمّاها العلماء بدعية، لأنها مبتدعة، وليست كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام، الآيات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ (49))

أشار الله عزّ وجل إلى أن الزواج عقدٌ ودخول، وقد وصِفَ النكاح بأنه عقدٌ هنا من دون دخول.

4 ـ مثال عن التفاهم بين الزوجين:

قال تعالى:

(فَمَتِّعُوهُنّ وَسَرِّحُوهُنّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49))

هذه المرأة التي تزوجها القاضي شُرَيْح، قالت له: أما بعد فيا أبا أمية إنني امرأةٌ غريبة، لا أعرف ما تحب ولا ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أمية لقد كان من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجةً على كتاب الله وسنة رسوله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فاتق الله في وامتثل قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

(سورة البقرة: من آية " 229 ")

هذا بين الشريكين أو بين الزوجين، إذا طغى أحدهما على الآخر، الله عزّ وجل توعَّدَهُ بالعقاب الأليم، لأن الكفر يدوم ولكن الظلم لا يدوم، قالت له: **" ويا أبا أمية لقد كان من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجةً على كتاب الله وسنة رسوله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فاتق الله فيّ وامتثل قوله تعالى:**

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

(سورة البقرة: من آية " 229 ")

ثم قعدت"، قال: **" فألجأتني إلى أن أخطب "**، فقال: **" أما بعد فقد قلت كلاماً إن تصدقي فيه وتثبتي عليه يكن لك ذخراً وأجراً، وإن تدعيه يكن حجةً عليك، أحب كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما وجدتِ من حسنةٍ فانشريها، وما وجدتِ من سيئةٍ فاستريها "**، قالت: **" كيف نزور أهلي وأهلك ؟ "** قال: **"نزور غباً مع انقطاع بين الحين والحين لئلا يملونا "**، قالت: **" فمن من النساء تحب أن أسمح لهُنّ بدخول بيتك ومن تكره ؟ "**، قال: **" بنو فلان قومٌ صالحون، وبنو فلان قوم غير ذلك ".**

قال: ومضى علي عامٌ عدت فيه إلى البيت فإذا أم زوجتي عندنا، رَحَّبْتُ بها، وكانت قد علمت من ابنتها أنها في أهنأ حال، ثم قالت لي: يا أبا أمية كيف وجدت زوجتك ؟ قلت: والله هي خير زوجة، قالت: والله يا أبا أمية ما أوتي الرجال شراً من المرأة المدللة فوق الحدود، فأدِّب ما شئت أن تؤدِّب، وهذِّب ما شئت أن تهذب، ثم التفتت إلى ابنتها تأمرها بحسن السمع والطاعة.

5 ـ قواعد اختيار الزوجات وقبول الأزواج كما وردت في السنة النبوية:

البيت إذا بني على طاعة الله تولى الله التوفيق بين الزوجين، وإذا بني على المعصية تولى الشيطان التفريق بينهما، والزواج شيء أساسٍ بحياة الإنسان، أخطر حدث بحياة الإنسان هو الزواج، فلذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةٍ، فعليك بذات الدين تربت يداك.))

[عند أبي نعيم عن أنس]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((إياكم وخضراء الدمن ! قيل يا نبي الله وما خضراء الدمن ؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء.))

[كنز العمال عن أبي سعيد]

هذه قواعد اختيار الزوجات، وقبول الأزواج، والنواحي المادية كما تعلمون:

((من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا.))

[كنز العمال عن أبي سعيد]

وكان عليه الصلاة والسلام: ما شكا إليه أحدٌ ضيق ذات يده إلا قال له: اذهب فتزوج.

كلكم يعلم أنه:

((من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمةٍ قالها وبكل خطوةٍ خطاها عبادة سنةٍ قام ليلها وصام نهارها.))

[ورد في الأثر]

حينما تقيم أمر الله في بيتك يتولى الله التوفيق بينك وبين زوجتك، فإذا كان هناك معصية ومخالفة، نشب الخلاف والبغضاء والشحناء وما إلى ذلك، وأصبح هذا مُهَدَّمَاً، فهذه إشارة إلى حكمة النبي عليه الصلاة والسلام.

6 ـ تكريم نساء النبي عليه الصلاة والسلام لأنهن آثرن الله ورسوله والدار الآخرة:

قال تعالى:

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرّ أَعْيُنُهُنّ وَلَا يَحْزَنّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنّ كُلُّهُنّ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51))

هذا تهديد، فأنت قد تقول: لا أحب فلانة، أو قد ترفض، أو قد تُطَلِّق، أو قد تدعي ادعاءات كاذبة، لكن الله وحده يعلم ماذا ينطوي وراء هذا القرار الذي اتخذته، وإكراماً لنساء النبي عليه الصلاة والسلام بأنهن أثرن الله ورسوله والدار الآخرة:

(لَا يَحِلّ لَكَ النّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدّلَ بِهِنّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنّ إِلّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ رَقِيبًا (52))

آياتٌ دقيقةٌ في آداب الاستئذان:

الآيات التالية آياتٌ دقيقةٌ تتحدث في آداب الاستئذان:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا (53))

وقال:

(إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54))

وفي درسٍ آخر نتابع تفسير هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (14-18): تفسير الآيات 53 - 58
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-12-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة الأحزاب.

الإسلام عقائد وعبادات ومعاملات وآداب:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53))

(سورة الأحزاب)

أيها الأخوة الأكارم، قبل أن نبدأ تفسير هذه الآيات، هذه الآيات متعلِّقةٌ بما يسمَّى بالآداب، لا تنسوا أن في الإسلام عقيدةً، وأن في الإسلام عبادةً، وأن في الإسلام معاملةً، وأن في الإسلام أدباً، الإسلام عقائد، وعبادات، ومعاملات، وآداب.

اصطباغ نفسك بالكمال الربّاني بقدر اتصالك بالله عزّ وجل:

العقيدة تستقى من كتاب الله ؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله تعالى.

العبادات ؛ الصوم، والصلاة، والحجُّ، والزكاة.

المعاملات ؛ أحكام الزواج، أحكام الطلاق، أحكام البيوع، أحكام الرهينة، أحكام العارية، أحكام القَرْض، أحكام الآجار.

والآداب ؛ آداب المتعلِّم، آداب المعلِّم، آداب الطريق، آداب الطعام، الآداب هي في جوهرها كمالات، الإنسان إذا كان متأدِّباً بآداب الإسلام يأخذ الموقف الكامل ؛ في طعامه، في شرابه، في نزهته، في جلوسه مع أهله، في علاقاته بجيرانه، فلذلك أفرد العلماء بحوثاً طويلةً ودقيقةً وممتعةً ومأخوذةً من كتاب الله ومن سُنَّة رسوله حول الآداب، وأفضل من عالج الآداب الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في

إحياء علوم الدين، وفي درسٍ سابقٍ بيّنتُ آداب السفر، السفر له آداب، الوليمة لها آداب، طلب العلم له آداب، كل نشاطٍ نفعله هناك منطلق نظري أي عقيدة، وهناك أمر ونهي، وهناك أدب.

الشيء الآخر هو أن الإنسان لا يسعد في الجنّة إلا بعمله الطيّب، لا يستطيع أن يقبل على الله عزّ وجل، لا يستطيع أن يلتجئ إليه، لا يسعد بقربه إلا إذا كان كاملاً، لأن الله طيبٌ ولا يقبل إلا طيّباً، وجُملة الآداب هي في الحقيقة مواقف كاملة للإنسان.

السؤال الدقيق الآن: لماذا نرى فلاناً كاملاً في تصرُّفاته وفلاناً ناقصاً ؟ فلان عنده حياء، وعنده أدب، وعنده ملاحظة ؛ وفلان عنده وقاحة، وعنده تجاوز، وعنده فظاظة، فهذه الآداب ما مصدرها ؟ قد نتحدّث عنها، نقول: آداب السفر كذا وكذا، آداب مجالس العلم، آداب الدخول للمسجد، آداب الطريق، آداب الزيارة، آداب عيادة المريض، هناك أبحاثٌ طويلةٌ وكثيرةٌ جداً أفردها العلماء في الآداب، يا ترى إذا تعلّمنا هذه الآداب هل يكفي ؟

إذا تعلّمت أن أدب العيادة كذا، وكذا، وكذا، أغلب الظن أنه لا يكفي، لأن الإنسان في سلوكه هناك ضبط ظاهري وهناك وازع داخلي، ما دامت نفسه بعيدة عن الله عزّ وجل فلا بدّ من أن يكون فظّاً، وغليظاً، ووقحاً، ويأخذ ما ليس له، ويؤثر مصلحته على مشاعر الآخرين، هذه كلّها من بديهيات الإعراض، فلذلك سوء الأدب في أصله إعراضٌ عن الله عزّ وجل، لأن كل الكمالات مخزونةٌ عند الله، بقدر اتصالك بالله بقدر اصطباغك بالكمال الرباني، بقدر اتصالك بالله هو القدر نفسه تصطبغ به بالكمال الذي يسعدك في القرب من الله عزّ وجل.

الأدب الرفيع صفة من صفات المؤمن:

أردت قبل أن أبدأ الحديث عن آداب الوليمة أن أبيّن حقيقة الأدب، الأدب اتصال بالله، الأدب حياء، الأدب مشاعر مرهفة، الأدب ملاحظة دقيقة جداً، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما شعر أن أحد أصحابه قد انتقض وضوءه، وإنه إذا أذّن العصر فسيخرج وحده ليتوضّأ، هذه المراعاة الدقيقة جداً لمشاعر أصحابه دعت النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول لأصحابه:

((كل من أكل لحم جزورٍ فليتوضّأ))

فقالوا: كلّنا أكلنا لحم جزور، قال:

((إذاً كلّكم توضّؤوا))

أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يستر حال هذا الذي انتقض وضوءه، إذاً هذا أدب جم.

النبي عليه الصلاة والسلام سحر أصحابه بأدبه، كان يقول له أحدهم: ما هذا الأدب يا رسول الله، فيقول:

((أدّبَنِي رَبّي فَأحْسَنَ تَأدِيبي.))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة]

لذلك يكون المؤمن على مستوى رفيع من الأدب ؛ مع أهله، مع أولاده، مع إخوانه، مع أصدقائه، مع جيرانه، في خلوته، في جلوته، في عمله، في نزهته، كلامه دقيق.

كان عليه الصلاة والسلام أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، كان عليه الصلاة والسلام لا يواجه أحداً بما يكرهه، كان يستحيي كثيراً، كان عليه الصلاة والسلام لا يُحَمِّر الوجوه، لا يخجل أحداً، حتى لو أراد أن ينبّه أصحابه إلى بعض ما بدر منهم، كان يجمع أصحابه ويقول بشكلٍ عام:

((ما بال قومٍ يفعلون كذا وكذا))

دون أن يسميهم.

إذاً قبل الحديث عن أدب الوليمة لا بدّ من أن نعلم أنه بقدر اتصالك بالله عزّ وجل تصطبغ نفسك بالكمال الربّاني، وبقدر اصطباغك بكمال الله عزّ وجل تكون أديباً مع الناس، والأدب الرفيع صفةٌ من صفات المؤمن، المؤمن ذو أدب، شخصيّته فذّة، فيها جانب عقلاني، عالِم ـ ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ـ وفيها جانب أخلاقي، وفيها جانب انضباطي.

النبي عليه الصلاة والسلام أدّبه الله عزّ وجل:

النبي عليه الصلاة والسلام أدّبه الله عزّ وجل، والمؤمن في بداية طريق الإيمان قد تصدر منه مواقف قاسية، تعليقات لاذعة، انتقادات ساخرة، استعلاء أحياناً، أحياناً ينتقد ما هو فيه، أحياناً يقلِّل حجم أعمال الناس، هذه كلها مواقف فيها رعونة، فيها تجاوز، فيها تقليل من فضل الناس، النبي عليه الصلاة والسلام كان مُنْصِفَاً، بحسبه قوله تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

(إنّ) تفيد التوكيد، و(اللام) تفيد التوكيد، وكلمة (عظيم) تفيد المبالغة، وكلمة (على) تفيد التمكّن:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

وقال:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

أي مع أنه نبي، مع أنه رسول، مع أنه يوحى إليه، مع أنه معصوم، ومع أنه في أعلى مرتبة من بني البشر، ومع كل هذه المراتب:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

يا أيها الأب لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّ الناس من حولك من باب أولى، ما معك ولا مَيّزة.

الآداب ربع الدين والذي لا يتأدّب بآداب الإسلام ليس من المسلمين:

كل مَيّزات النبي:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

إذاً أنت كمؤمن من دون أي ميّزة ؛ لا يوجد معك وحي، ولا عصمة، ولا قرآن، ولا تأييد إلهي، ولا معجزة، لا يوجد معك أي شيء، فإذا أردت أن تكون غليظاً، قاسياً، حاداً في تعليقاتك انفضّ الناس من حولك، لهذا:

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

يجب أن تعلموا أن قسم الآداب يحتلُّ رُبْعَ الدين ـ إن صحَّ التقسيم الكيفي لا الكمي ـ الدين عقائد، والدين عبادات، والدين معاملات، والدين آداب، آداب الطريق ؛ غض البصر، إلقاء السلام، ردُّ السلام، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، آداب عيادة المريض ؛ أن تزوره، أن لا تأكل عنده شيئاً، أن تنفِّس له في الأجل، أن تعطيه الأمل، أن لا تبقى عنه طويلاً بقدر فواق ناقة، آداب طلب العلم، آداب دخول المسجد، آداب الكسب، الكسب له آداب، الكسب الحلال له آداب، فالآداب ربع الدين، ومن نافلة القول أن الذي لا يتأدّب بآداب الإسلام ليس من المسلمين.

من صفات أهل الدنيا تصغير ما عندهم:

ما الذي يميّزك عن عامة الناس ؟ المؤمن له آداب صارخة، وواضحة، وجليّة، حتى في لهوه ليس عنده مُزاح رخيص، ولا تعليقات لاذعة، ولا إحراج، ولا تتبُّع العورات، هذا من أخلاق المعرضين عن الله عزّ وجل.

تصغير ما عند الناس في أعينهم، ما هذا البيت ؟ كيف تسكن فيه ؟ هذه صفات أهل الدنيا، قد يصغِّر في عينك بيتك، يصغِّر في عينك حاجاتك، أنت موظّف فكم يبلغ معاشك ؟ ومن أدراك أن هذا الموظّف ذا الدخل المحدود قد يكون عند الله أرقى من مليون إنسان دخله غير محدود، من قال لك ذلك ؟

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّهِ لأَبَرّهُ))

[سنن الترمذي: عن أنس بن مالك]

من صفات أهل الدنيا تصغير ما عندهم، كيف تقبل هذا اللون من العيش ؟ كيف تقبل بهذا الدخل ؟ وإن كانت زوجة، كيف تقبلين به ؟ ماذا قدّم لكِ على العيد ؟ منتهى الوقاحة، منتهى الفظاظة، منتهى الغلظة، منتهى سوء الأدب، منتهى سوء التقدير، فلذلك الشيء الصارخ في المؤمن أدبه العالي، احترامه للناس، لا يفرّق بين أبيض وأسود، عربيّ وأعجميّ، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((سلمان منّا آل البيت))

[الحاكم في المستدرك، والطبراني في المعجم الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

هكذا كان يقول، كان يقول لأحد أصحابه الفقراء:

((أهلاً بمن خبّرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي ؟ قال: نعم خاملٌ في الأرض علمٌ في السماء.))

المؤمن لا يحتقر أحداً، ليس في كلامه فُحْشٌ، ولا بذاءةٌ، ولا تجسُّسٌ، ولا تحسُّسٌ، ولا شماتةٌ، ولا تعييرٌ، من عنده هذه المواقف ؟؟!

آداب الوليمة:

درسنا اليوم متعلِّق بآداب الوليمة

قال الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (53))

مرّةً ثانية وثالثة الله عزّ وجل يخاطب عامّة الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروع الدين، هذا عَرَفَ الله، وهذا ينبغي أن يؤدّب، وأن يوجّه، وأن يُعَلّم، لذلك الإنسان إذا كان تحت يده أولاده مثلاً، طلابه في المدرسة، عمّاله في المعمل، موظّفيه في المؤسّسة، إذا كنت مديراً عاماً، إذا كنت صاحب متجر، صاحب مؤسّسة، معلِّم مدرسة، مدير مستشفى، أي إذا كنت في منصب قيادي، هؤلاء الذين هم دونك يجب أن تؤدِّبهم بآداب الإسلام، يجب أن تعلِّمهم الموقف الكامل، لأنك إذا علّمتهم وأدّبتهم كانوا في صحيفتك.

النبي عليه الصلاة والسلام ما من أحد من أصحابه إذا أخطأ إلا وجّهه، كان يصلي مع أصحابه مرة، فدخل أحدهم إلى المسجد وأراد أن يلحق الركعة مع النبي عليه الصلاة والسلام، ركض في المسجد، فأحدث جلبةً وضجيجاً، فلمّا انتهى من صلاته قال له عليه الصلاة والسلام:

((زادك الله حرصاً ولا تعد))

[البخاري عن أبي بكرة]

ما سكت النبي بل يجب أن يوجّهه، أن يرشده، ولكن لئلا يقسو عليه أثنى على حرصه، وعلى اهتمامه بالصلاة، وعلى إقباله عليها، زادك الله حرصاً ولا تعد ثانيةً لهذا، فأولادك، طلابك، موظّفوك، من هم دونك، إذا وقفوا موقفاً غير لائق لا ينبغي أن تسكت، يجب أن توجّههم ؛ لكن بحكمةٍ بالغة، بأسلوبٍ طيّب، بملاحظةٍ ذكيّة، بتقديم الثناء عليهم قبل انتقادهم، هذا كله من سنّة النبي عليه الصلاة والسلام.

بيوت النبي لها شأنٌ كبيرٌ عند الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ (53))

بيوت النبي لها مكانةٌ خاصّةٌ عند الله عزّ وجل، لأن هذا البيت يتنزّل فيه قرآن، لأن هذا البيت بيت صاحب الدعوة، بيت النبي عليه الصلاة والسلام، هذا البيت قِبْلَة الأنظار، هذا البيت مكان راحة النبي، هذا البيت مكان زوجاته الطاهرات، فلذلك كما أن بيت الله الحرام له شأنٌ في القرآن، وإذا قال الله: البيت، المقصود به البيت الحرام، وكذلك قال الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

أهل بيت النبي لهم مكانةٌ عند الله عزّ وجل، وهناك علاقةٌ بين نجاح دعوة النبي وبين سموّ أهل بيته، لذلك تولّى الله بنفسه تطهير أهل بيت النبي، والآن بيوت النبي لها شأنٌ كبيرٌ عند الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ (53))

أي لا تدخلوا بيوت النبي من غير إذنٍ، يقول بعض المفسّرين: كان العرب في الجاهليّة يدخلون بيوت بعضهم بعضاً من دون استئذان، هكذا، وهذه الملاحظة قد تلاحظونها في كل مجتمع متفلِّت، فلا يهم، نساؤه كاسيات، متحجّبات، غير متحجّبات، يدخل مباشرةً لا يستأذن، طبعاً الآن توجد أبواب، وتوجد أجراس ومدقات، لكن ومع ذلك يدخل من دون أن ينتظر، أين أدخل ؟ أين أجلس ؟ يدخل مباشرةً، فالدخول إلى البيت من دون استئذان هذا من أخلاق الجاهليّة.

الدخول بلا استئذان عادة متأصِّلة جاهليّة أراد الله أن ينزعها من قلوب المؤمنين:

هذا البيت فيه زوجته، وبناته، وأولاده، يا ترى هل هم بوضع لائق أم غير لائق ؟ هذه الزوجة متكشِّفة، متحجِّبة، يمكن أن يراها الأجنبي بمظهرها، أو لا يمكن ؟ فهذا حينما ترتفع القيود، وترتفع الموانع، وليس هناك ضوابط، عندئذٍ الإنسان يدخل مباشرةً من دون استئذان، فهذه من صفات الجاهليين، عادة متأصِّلة في الجاهليّة، أراد الله عزّ وجل أن ينزعها من قلوب المؤمنين، الدخول بلا استئذان عادة متأصِّلة جاهليّة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ (53))

الحكم الأول: أنه لا يجوز الدخول مطلقاً بلا إذن.

طبعاً الشيء الثاني: لا يجوز أن تدخل بنيّة، أن تنتظر في البيت حتّى يحين وقت الغداء فتأكل مع النبي، لعل هناك ظرفاً صعباً، لعل عنده طعام غير كافٍ، لعل هناك حاجة، لعل هناك وعداً مع أهله، فلذلك حتّى لو أُذِنْ قبل الطعام لا ينبغي أن ننتظر إلى أن يحين وقت الطعام، هذا أدب آخر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ (53))

الحقيقة كلمة يؤذَن تتعدّى بـ في، أما هنا تعدّت بـ إلى، وكيف أن هذا الفعل تعدّى بـ إلى ؟ لأنه ضمِّن معنى الدعوة، أي لا تدخلوا إلى بيت النبي إلا أن تدعون إلى طعام، حتّى إذا دُعيتم إلى الطعام لا ينبغي أن تدخلوا إلى بيت النبي في وقتٍ مبكِّرٍ جداً، هذا الوقت قد يستهلكه في شأنٍ من شؤونه الخاصّة، فمثلاً دعوت إنساناً إلى طعام الغداء، جاءك الساعة العاشرة فرضاً، أنت خلال الساعتين عندك تهيئة حاجات المنزل، في عندك لقاءات، عندك موعد، عندك عمل علمي، فالدعوة الساعة الثانية، فجاءك الساعة العاشرة، أو الساعة الحادية عشرَ، فحتّى لو دعيت إلى الطعام لا ينبغي أن تأتي قبل الموعد المحدّد لأن هذا يستهلك وقت النبي، ويستهلك مهمّةً كان قد أعدّ نفسه لها، فالآية دقيقة جداً.

ثلاثة أحكام فقهيّة مستنبطة من هذه الآية:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ (53))

الدخول يحتاج إلى إذن، الآن لو معك إذن بالدخول وليس معك دعوةٌ إلى طعام، لا ينبغي أن تنتظر عند النبي حتّى يحين وقت الطعام، الآن إذا دُعيت إلى الطعام لا ينبغي أن تأتي قبل الوقت المحدّد، أو قبل الوقت المعروف، المتعارف عليه، لا ندخل من دون إذن، ولا نأكل من دون دعوة، وإذا دعينا إلى الطعام لا نأتي قبل الأوان، ثلاثة أحكام فقهيّة مستنبطة من هذه الآية:

(وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا (53))

لئلا تُجْرَحَ مشاعر المؤمنين، إذا دُعيتم فادخلوا، ما دام دعاكم ادخلوا حبّاً وكرامةً:

(فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا (53))

أحياناً يكون الطعام أُعِدَ للضيوف ولأهل البيت، والمكان ضيّق، والنبي عليه الصلاة والسلام عنده مسؤوليّات، وعنده حاجات، ويريد أن يلتقي أهله، والطعام ينتظر من يأكله، هؤلاء الذين أكلوا جلسوا، وجلسوا، واستمعوا، وأنسوا بالنبي، ونسوا أن عنده مسؤوليات.

فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ: آية فيها أربعة أحكام شرعيّة:

قال تعالى:

(فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ (53))

أحياناً يكون النبي عليه الصلاة والسلام عنده خطبة، عنده لقاء مع أصحابه، هذا يحبُّ أن ينفرد بالنبي وحده ويجلس لساعاتٍ طويلة، هذا لا يستطيعه النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

(فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ (53))

هذه معطوفة على:

(إِنَّ ذَلِكُمْ(53))

و:

(غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ (53))

أي الدخول بلا استئذان، وتناول الطعام بلا دعوة، والمجيء إلى الدعوة قبل وقتٍ كبير، والمكوث بعد الطعام إلى ساعةٍ متأخِّرة، أربع أحكام شرعيّة.

عِظَم خُلُق النبي فهو لا يجرح أصحابه ولو مكثوا ساعاتٍ طويلة:

قال تعالى:

(إِنَّ ذَلِكُمْ (53))

هذه المواقف كلها:

(كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (53))

هذه الآية تشير إلى عِظَم خُلُق النبي، أي أن النبي ليس عنده إمكان إطلاقاً أن يجرح أحد أصحابه، ولو بقي ساعاتٍ طويلة، مستحيل:

(إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (53))

تروي الكتب أن السيدة زينب التي تزوّجها عليه الصلاة والسلام، والبيت ضيّق، والأمكنة محدودة، وقد جلست إلى الحائط، وجلس أناسٌ لوقتٍ طويل ولم يخرجوا، النبي تضايق، دخل وخرج، دخل وخرج وهم جالسون، عندئذٍ نزلت هذه الآية لتؤدِّب أصحاب النبي عليهم رضوان الله، وقال بعض المفسرين: إن هذه الآية ليست لأصحابه الكُمّل بل هذه للثقلاء، بكل مجتمع يوجد إنسان ثقيل، والثقيل إذا عَلِمَ أنه ثقيل فليس بثقيل، لا يلاحظ، لا ينتبه، لا يدقِق، قال:

(إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (53))

مخاطبة النساء من وراء حجاب أطهر للنفس وأسلم للصدر وأدعى للمودّة وأقرب إلى الله:

الآن:

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا (53))

المتاع هو الشيء الذي يُنْتَفَعُ به، أي إذا سألتموهنّ حاجةً، أو إذا سألتموهنّ حُكْمَاً فقهياً، كمن أحبَّ أن يسأل السيدة عائشة، أو إحدى زوجات النبي عن حكمٍ معيَّن، قال:

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (53))

الحجاب هو السِتْر:

(ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ (53))

العلماء قالوا: أن تدخلوا بإذن، وأن تأكلوا بدعوى، وأن لا تأتوا قبل الدعوى بوقتٍ طويل، وأن لا تمكثوا بعد الدعوى إلى ساعةٍ متأخِّرة، وأن تخاطبوا نساء النبي من وراء حجاب، هذه خمسة أحكام قال:

(ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ (53))

الإنسان إذا خاطب امرأةً من وراء حجاب لا يرى شكلها، يبقى قلبه طاهراً، نظيفاً، عفيفاً، سليماً، معافىً، أما لو نظر إلى شكلها لجاءته الخواطر التي لا تُرْضي الله عزّ وجل، ولو أن المرأة رأت رجلاً، وسمعت صوته، وملأت عينيها منه، لجاءتها بعض الخواطر، هذه الخواطر لا ترضي الله عزّ وجل، فأن تخاطبوهنّ من وراء حجاب:

(أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ (53))

أطهر للنفس، أسلم للصدر، أدعى للمودّة، أقرب إلى الله عزّ وجل.

النهي عن إيذاء النبي لا في حياته ولا بعد موته:

قال تعالى:

(ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا (53))

أي ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله في حياته، ولا بعد مماته، لا في حياته ولا بعد مماته، ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله في حياته بأن تدخلوا عليه بلا استئذان، وبأن تأكلوا من غير دعوى، وبأن تأتوا قبل وقت الدعوى فتستهلكوا وقته، وبأن تمكثوا بعد الطعام إلى ساعةٍ متأخِّرة، وبأن تحدِّثوا نساءه مشافهةً من دون حجاب، هذا كلُّه إيذاءٌ للنبي:

(وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ (53))

أن تنكحوا أزواجه من بعده إيذاء له بعد موته، إذاً أنتم منهيّون عن أن تؤذوه في حياته ومن بعد مماته أبداً:

(إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53))

هذه النقطة الدقيقة أن الإنسان كلّما علا مقامه عند الله دافع الله عنه، كلّما علا مقامه عند الله صارت حياته عند الله غالية.

على الإنسان العاقل أن لا يتورّط ويؤذي من يحبُّهم الله عزّ وجل وإلا عاجله الله بالعقاب:

قال عليه الصلاة والسلام:

((من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب.))

[البخاري عن أبي هريرة]

لذلك على الإنسان العاقل أن لا يتورّط ويؤذي من يحبُّهم الله عزّ وجل، وأن لا يتورّط ويتحدّث على من يحبُّهم الله عزّ وجل، لا يتورّط ويتحدّث بالأذى، وبالقسوة، وبالتُّهَم على من يحبُّهم الله عزّ وجل لأنه:

((من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب.))

[البخاري عن أبي هريرة]

لأن هذا الولي بشكلٍ أو بآخر بابٌ لله عزّ وجل، فهو مثل يقتدي الناس به، فإذا أردت أن تحطِّم هذا المثل، إذا أردت أن تصغِّره في عين الناس لحسدٍ أو لحقدٍ أو ما شابه ذلك فقد آذنك الله بالحرب، وعندئذٍ يقصم الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان، ولو كان هناك مُتَّسع من الوقت لذكرت لكم قصصاً كثيرة عن

أناسٍ تطاولوا وقسوا وتهجّموا ؛ لكن الله عاجلهم بالعقاب، لذلك قالوا: **" لحم العلماء مسموم "** بمعنى أنه من أكل من لحومهم من دون تبصُّر، من دون تروّ، من دون تحقُّق، من دون تدقيق، هكذا من دون فهم فقد آذى الله عزّ وجل:

(إِنّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النّبِيّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ (53))

وقال:

(وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللّهِ عَظِيمًا(53))

من وقف موقفاً معلناً من النبي فيه عداء أو موقفاً مُبَطّناً كلاهما عند الله سواء:

الآن:

(إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ (54))

أي أن الإنسان إذا وقف موقفاً معلناً من النبي عليه الصلاة والسلام فيه عداء، أو موقفاً مُبَطّناً، كلاهما عند الله سواء، أي إن أسررت أو وقفت موقفاً احتيالياً، هذا كلُّه عند الله مكشوف:

(إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنّ اللّهَ كَانَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54))

هذا من نوع التهديد، أي أن عملكم عند الله مكشوف، نواياكم مفضوحة، مواقفكم متبدِّية، طموحاتكم تحت النَقْدِ الشديد، أي أن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد.

لكن نساء النبي عليهم رضوان الله لهنّ أن يظهرنّ أمام آبائهن كما هي حال سائر المؤمنات:

(لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنّ فِي آبَائِهِنّ وَلَا أَبْنَائِهِنّ وَلَا إِخْوَانِهِنّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنّ وَلَا نِسَائِهِنّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنّ وَاتّقِينَ اللّهَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55))

أم المؤمنين إذا توفي النبي عليه الصلاة والسلام، فهي أمُّ المؤمنين حقيقةً، بمعنى أنه لا يجوز لواحدٍ أن يقترن بزوجة النبي عليه الصلاة والسلام، لكنّ التي تزوّجها وطلّقها ـ وهي واحدة ـ العلماء على خلافٍ في هذا الموضوع، لكن إذا مات النبي عن زوجة فهذه أمُّ المؤمنين حكماً، ولا يجوز لأحدٍ أن يتزوّجها من بعد النبي، لكن هذه الزوجة لها أن تظهر.

أغفل الله تعالى في هذه الآية العمّ والخال لأسبابٍ كثيرة منها أن العم والخال بمنزلة الأب:

حينما قال الله عزّ وجل:

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (53))

هذه الزوجة الطاهرة، زوجة النبي عليه الصلاة والسلام، لا جناح عليها إن بدت أمام أبيها، أو أمام ابنها، أو أمام أخيها، أو أمام ابن أخيها، أو أمام ابن أختها، أو أمام امرأةٍ مسلمةٍ، أو ما ملكت أيمانها ـ طبعاً من الجواري لا من العبيد ـ وقد أغفل الله عزّ وجل في هذه الآية العمّ والخال لأسبابٍ كثيرة منها أن العم والخال بمنزلة الأب:

(قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(133))

(سورة البقرة)

سيدنا إسماعيل أحد هذه الأسماء عماً لسيدنا يعقوب وليس أباً، فالله سبحانه وتعالى سمّاه أباً، إذاً العم بمنزلة الأب، العم والخال بمنزلة الأب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((العم والد))

[كنز العمال عن عبد الله بن الوراق مرسلاً]

((إنما الخال والد.))

[كنز العمال عن وهب]

لذلك للمرأة الحق أن تظهر أمام زوجها ـ طبعاً من باب أولى ـ وأمام أبيها، وأمام ابنها، وأمام أخيها، وابن أخيها، وابن أختها، وعمِّها، وخالها، وأمام النساء المؤمنات لأنهنّ لا يصفنها للأجانب، منضبطات، وأمام ما ملكت أيمانهنّ من الجواري لا من العبيد، قال تعالى:

(وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55))

أي أن مواقف العباد بعين الله عزّ وجل تحت الفَحْص الشديد وتحت الأضواء الكاشفة.

تجلي الله عز وجل على سيدنا محمد بالأنوار والرحمات:

الآن يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56))

هذه الآية لها معانٍ كثيرة ودقيقة جداً، وقد لا يعرف الناس أبعادها الحقيقيّة، هذا الإنسان العظيم، النبي عليه الصلاة والسلام، هو المخلوق الأول، هو سيّد الخلق وحبيب الحق، هو سيّد ولد آدم، صاحب الخُلُق العظيم، صاحب المقام المحمود، واللواء المعقود، الله عزّ وجل يصلي عليه، ففي أدقّ معاني هذه الآية أنه يتجلّى عليه ؛ يتجلّى عليه بالأنوار، يتجلّى عليه بالرَحَمَات، يتجلّى عليه بما هو مسعد. الآن أي مؤمن إذا اتصل بالنبي عليه الصلاة والسلام، سواءً كان اتصالاً مباشراً في حياته، لقاءً حقيقياً، أو بعد مماته بذكره والصلاة عليه ومعرفة شمائله، هذا الاتصال الجسمي، أو الفكري، أو النفسي، الجسمي لقاء، الفكري اطلاع على شمائله صلى الله عليه وسلّم، أحياناً تقرأ عن النبي عليه الصلاة

والسلام شيئاً فتبكي، لماذا بكيت ؟ لأنه قد حصل لك تعظيم لهذا النبي، حصل لك توقير لهذا السيّد العظيم.

الاتصال الحقيقي أو اللقاء الحقيقي الذي تمّ بين أصحابه وبينه في حياته، أو الاتصال الفكري أي إذا اطلعت على شمائله، على سيرته، على سنّته، على مواقفه، على شجاعته، على عفوه، على لطفه، على كرمه، على إنصافه، على حبّه للناس، على حبّه للخلق، تتأثّر، أو حصل لك أن رأيته في المنام هذا اتصال نفسي، هناك اتصال فكري قرأت سيرته، وهناك اتصال نفسي رأيته في المنام، وهناك اتصال حقيقي كنت أحد أصحابه.

من أراد نصيباً من التجلي الذي أسبغه الله على سيدنا محمد فعليه الاتصال بنفس النبي:

قيل: إنّ هذا التجلي الذي أسبغه الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام تجلِّي أنوار، تجلي مُسْعِد، تجلي رَحَمَات، تجلي طمأنينة، هذا التجلي تأخذ منه شيئاً، أي أن الله عزّ وجل يتجلّى على النبي عليه الصلاة والسلام، وأنتم أيها المؤمنون إذا أردتم نصيباً من هذا فاتصلوا به، لذلك جاء قوله تعالى:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة: من آية " 103 ")

يا رسول الله إني إن رأيتك اطمأنّت نفسي، أحد أصحابه وهو سيدنا ربيعة كان يخدمه، فإذا انتهى وقت الخدمة، وسمح له النبي أن يذهب إلى البيت، يبقى على باب بيت النبي إلى أذان الفجر، ما الذي جذبه إلى النبي ؟ هذه الأنوار، ما الذي جذبه إلى النبي ؟ هذه الرَحَمَات، ما الذي جذبه إلى النبي ؟ هذه التجليّات.

عندما جيء للنبي عليه الصلاة والسلام برجل يريد قتله، فما إن دخل عليه، ابتسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

((يا هذا لو أردت ذلك لما سُلِّطت عليّ))

فقال الرجل: **" والله يا محمّد دخلت عليك وما رجلٌ على وجه الأرض أبغض إليّ منك، وأنا الآن ليس على وجه الأرض رجلٌ أحبُّ إليّ منك "**، ما الذي حصل ؟ الذي حصل أنه صار له اتصال.

لو وجد جهاز مركز كهربائي عالي التوتُّر، أي إنسان وضع سلكاً يأخذ من هذا التوتُّر الشيء الكثير، هذا موضوع نفسي، هذا الموضوع متعلِّق بالصلة النفسيّة برسول الله صلى الله عليه وسلّم، فهناك سر من الصعب علينا فهمه إلا بهذا التفسير، هؤلاء الذين عاشوا معه اندفاعهم إلى التضحية شيء لا يُصدّق، لا يتصوّره عقل، أن سيدنا جعفر تُقْطع يده اليمنى فيحمل الراية باليسرى، تقطع اليسرى

فيحملها بعَضُدَيْه إلى أن يموت في سبيل الله!! فقد رأينا من أصحاب النبي بطولات يصعب على التاريخ أن يصفها، ما هو السر ؟ السر أنهم اتصلوا بنفس النبي عليه الصلاة والسلام.

سرّ سعادة المؤمن أنه موصول برسول الله وأن له نصيب من أنوار الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56))

هذا التجلي تجلي الرحمة، تجلي الأنوار، تجلي السعادة، تجد أن المؤمن سعيد جداً، سر سعادته أنه موصول برسول الله، سر سعادته أن له نصيب من أنوار الله عزّ وجل، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام مما يؤكِّد ذلك أن أحد أصحابه واسمه حنظلة ـ والقصّة معروفة عندكم ـ مرّ به سيدنا الصديق وقال له: **" ما لك يا حنظلة تبكي؟ "**، قال: **"نافق حنظلة"**، قال: **" ولمَ يا أخي ؟ "**، قال: **" نكون مع رسول الله ونحن والجنّة كهاتين، فإذا عافسنا الأهل ننسى"**، فقال سيدنا الصديق: **" أنا كذلك يا أخي انطلق بنا إلى رسول الله"**، النبي الكريم يقول:

((إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا))

[الجامع لأحكام القرآن عن ابن عطاء]

قال عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ تَدُومُونَ عَلَى الْحَالِ الَّذِي تَقُومُونَ بِهَا مِنْ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي مَجَالِسِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَعَلَى فُرُشِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً وَسَاعَةً وَسَاعَةً))

[سنن الترمذي عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَيِّدِيِّ]

هل فهمت الآن لماذا تشعر براحة في المسجد ؟؟! يقول لك: ارتحت، كأني شحنت، إذا غاب الإنسان درساً يشعر بالوحشة.

المؤمن في قلبه نور والكافر أعمى يتخبط خبط عشواء:

الله عزّ وجل كل من يزور بيته يتجلّى على قلبه:

((إنّ بيوت الله في الأرض المساجد و إنّ حقاً على الله أن يكرم الزائر))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود]

عند دخولك إلى بيت الله أنت الآن ستتلقّى من الله الإكرام، ما الإكرام ؟ فهنا لا يوجد سكرة، ولكن تشعر براحة لو وزّعت على أهل بلدٍ لكفتهم، تحس بطمأنينة، تحس بأنك تملك قراراً صحيحاً، تملك رؤية صحيحة، دائماً عندك ثلاثة أشياء في تجليات الله عزّ وجل، هناك جانب من التجلي نور ترى به

الخير خيراً والشر شراً، الصلاة نور، المصلي يملك نظراً ثاقباً، رؤية صحيحة، يعرف حقائق الأمور، أحد ثمار الصلاة النور، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث:

((الصلاة نور))

[رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري]

والآية تقول:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد: من آية " 28 ")

هناك نور، أنت مستنير، والكافر أعمى، الكافر يتحامق، الكافر يفعل الشيء المُنْكَر، ينقل الشيء غير المنطقي، غير الواقعي، غير المألوف، لأنه أعمى يتخبط خبط عشواء قال تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

المؤمن بصلاته على النبي الكريم يشتق من أنواره المحمدية وينطق بتوفيق الله:

المؤمن في قلبه نور، هذا النور جاءه من اتصاله بالله عزّ وجل، هذا النور جاءه من اتصاله برسول الله، هذا النور جاءه من صلاته، هذا النور جاءه من دخول بيوت الله عزّ وجل، في بيت الله، وفي الصلاة، وفي الاتصال برسول الله تأتيك هذه الأنوار.

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ))

[سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

وينطق بتوفيق الله، قال تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

(سورة محمد)

وقال:

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46))

(سورة الحج)

إذاً هذه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ (56))

أي كي تشتقوا من أنواره النبويّة المحمّدية:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة النور: من آية " 35 ")

هذه واحدة، الشيء الثاني: هناك تجلٍ أخلاقي.

تنمو في شخصية المؤمن من خلال الصلاة ثلاثة جوانب:

1 ـ الجانب الأول جانب نوراني:

أنت باتصالك بالله عزّ وجل عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام تتحلّى بمكارم الأخلاق، فالرحمة عندك ليست عملاً ذكياً مُتَكَلَّفاً، قد تجد إنساناً ذكياً جداً يعمل عملاً فيه رحمة ولكن قلبه قاسٍ، لكنه ذكي أراد انتزاع إعجاب الآخرين، أما إذا اتصلت بالله اتصالاً حقيقياً يمتلئ قلبك بالرحمة، والقلب الرحيم أقرب قلبٍ إلى الله عزّ وجل.

2 ـ الجانب الثاني جانب أخلاقي:

الآن توجد عندنا غير الأنوار اتصال وكمال، فالمؤمن كامل، منضبط، ليس انضباطه لرادعٍ خارجي بل بوازعٍ داخلي، هذا الفرق الدقيق، لو أقمنا أجهزة مراقبة دقيقة جداً ضبطت الأمور، هذا كلّه ردع خارجي، أوروبا قائمة على رادع خارجي، لكن المؤمنين انضباطهم داخلي بوازع داخلي بسبب اتصالهم بالله عزّ وجل، هذا الاتصال بالله عن طريق رسول الله، وعن طريق مجالس العلم، هذا الاتصال ينمِّي عندهم مكارم الأخلاق، المؤمن أخلاقي، منصف، يقول الحق ولو على نفسه، متواضع دائماً، كريم، لطيف، خجول، حَيِي، شجاع في مواقف، قوي لا يهاب أحداً، هذه كلها مكارم أخلاقيّة جاءته من اتصاله بالله عن طريق رسول الله، ومن حضور مجالس العلم.

الجانب الأول جانب نوراني، والجانب الثاني جانب أخلاقي.

3 ـ الجانب الثالث جانب جمالي:

المؤمن سعيد، سعيد بكل ما في الكلمة من معنى، تعيش مع مؤمن حياته خشنة أموره كلها وسط ودون الوسط، تأنس بالجلوس معه، ترتاح له، وقد تدخل إلى بيت فيه من التحف ما لا يوصف، تجد فيه انقباض، فما هو السر ؟ السر أن هذا المؤمن باتصاله بالله عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام، أو بحضوره مجالس العلم، يشتقُ من أنوار الله جانباً جمالياً، فتجد عنده سعادة، هذا الذي أتمنّى أن يكون واضحاً عندكم، فهناك جانب علمي نوراني، وجانب أخلاقي، وجانب جمالي، فشخصية المؤمن، وهذه الجوانب الثلاثة نمت من خلال الصلاة، لذلك:

((الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين))

[رواه الطبراني عن معاذ]

((لا خير في دينٍ لا صلاة فيه.))

[تخريج أحاديث الإحياء]

الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيدة القربات، وغرّة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى ربِّ الأرض والسماوات، هذه:

(إِنّ اللّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النّبِيّ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56))

هو قدوتكم، إن كنتم في حياته فاتصلوا به، وإن كنتم بعد مماته فاقرءوا سيرته، اقرءوا شمائله، وإن زاد حبُّكم له كثيراً ترونه في منامكم:

((مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإِنّ الشّيْطَانَ لا يَتَمَثّلُ بِي.))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

اسألوا الذي رأى النبيَّ في المنام يبقى أشهراً وهو مغموسٌ في سعادة لا توصف فكيف الذين عاشوا معه في حياته؟؟!

كل إنسانٍ بإيذائه رسول الله كأنّما يؤذي الله عزّ وجل فهو ملعون في الدنيا والآخرة:

قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النّبِيّ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56))

الله لا يؤذى، خالق الكون، لكن هذا من عِظَم مقام النبي على الله عزّ وجل، أي يا عبادي الذي يؤذي النبي فكأنّما آذاني:

(إِنّ الّذِينَ يُؤْذُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّهُ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ (57))

ملعون لا بالمعنى المألوف العامي: بمعنى ذكي، فلان ملعون أي ذكي، لا، هنا ملعون أي بعيدٌ عن الله عزّ وجل، مطرودٌ من رحمة الله، تجد قلبه قاسياً، وجهه متجهّماً، نفسه متصحّرة، ليس عنده حياة أبداً، ليس عنده حياة أخلاقيّة، ولا حياة روحيّة، ولا إحساس بالجمال، ولا إحساس بالرحمة، أي أن قلبه قُدّ من صخر، فلان ملعون: أي بعيد عن الله، فكل إنسانٍ يؤذي رسول الله، وبإيذائه رسول الله فكأنّما يؤذي الله عزّ وجل، قال:

(إِنّ الّذِينَ يُؤْذُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّهُ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ (57))

في الدنيا ملعون، وفي الآخرة ملعون.

العذاب أصناف ؛ عذاب عظيم، وعذاب أليم، وعذاب مهين:

قال تعالى:

(وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57))

العذاب أصناف ؛ عذاب عظيم، وعذاب أليم، وعذاب مهين، العذاب العظيم جهنَّم، أما العذاب الأليم فهو آلام لا تحتمل في الدنيا، الإنسان في بيته قاعد، أغلق عليه غرفته وآلام أحشائه لا تحتمل، وهناك عذاب مهين أمام الناس، على مرأى من جمع غفير من الناس يُهان، يُطلق عليه السباب، الشتائم، يُضرَب، يُذَل، فكل إنسان آذى الله ورسوله:

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57))

في الدنيا والآخرة، عذاب مهين، لذلك بقدر ما تحبُّ الله ورسوله بقدر ما يحبُّك الناس، توقِّر الله ورسوله يوقِّرك الناس، تهاب الله ورسوله يهابك الناس، تشتغل بالله ورسوله يشتغل بك الناس، يرفع الله لك ذكرك، فهي علاقة رياضيَّة ثابتة.

((فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

سعادة الدنيا والآخرة تكون بحبُّ الله ورسوله لا بإيذائهما:

هل أنت شغلك الشاغل أن تُعَرِّف الناس بالله ؟

ربنا عزَّ وجل يكافئك بأن يرفع لك ذكرك، يرفع لك شأنك، يلقي حبَّك في قلوب الناس ؛ وبالعكس، الذي يؤذي الله ورسوله، هذا ملعون في الدنيا والآخرة، وله في الآخرة عذاب مهين:

(وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57))

في الدنيا والآخرة، فإذا أردت رفعة الدنيا والآخرة، وسعادة الدنيا والآخرة، ورفعة الشأن في الدنيا والآخرة، فكن ممن يحبُّ الله ورسوله ؛ لا ممن يؤذي الله ورسوله، أحياناً بتعليقات ساخرة إنسان يسخر من الدين كله، إذا قال لك: الدين ضعف الإنسان أمام قِوى مجهولة، فأنت بهذا قد سخرت من الدين كله، جعلت الدين شعوراً مرضياً للإنسان، أحياناً يقول: القرآن ليس لهذا الزمان، أنت بهذا آذيت الله ورسوله، إنسان يستفيد الناس منه طعنت بنواياه الطيّبة بقولك: له مصلحة، فالذي كان مستفيداً ابتعد، ماذا فعلت ؟ أنت قطعت ما أمر الله به أن يوصل وأفسدت العلاقة في الأرض:

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا (58))

مؤمن برئ، شيء لم يفعله، كلمةٌ ما قالها، موقفٌ ما وقفه، هناك أشخاص جلُّ همِّهم أن يشوّهوا سمعة المؤمنين، هؤلاء:

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58))

احتمل مسؤوليّة كبيرة جداً، واقترف إفكاً، وافتراءً، وكذباً، وإثماً واضحاً لا بدَّ من تحمُّل مسؤوليته.

كل إنسان يؤذي مؤمناً بتشويه سمعته تَحَمّل تَبِعَة ذنب خطير وهو البهتان:

أيها الأخوة، إذا أردت أن تعيش سليماً اضبط لسانك، أحياناً تعليقات، أحياناً نقد لاذع، أحياناً تطاول، أحياناً نقل قصّة لست متأكِّداً منها، جاءك فاسقٌ بنبأٍ، لم تتثبّت بقول هذا الفاسق، نقلت رواية شوّهت بها سمعة إنسان، ما باليت، أفسدت علاقةً بين اثنين، شوّهت سمعة مؤمنةٍ:

((قذف محصنةٍ يهدم عمل مئة سنة.))

[ورد في الأثر]

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا (58))

ليس له ذنب، أحياناً امرأة مؤمنة طاهرة تتهمها من دون دليل، من دون برهان، من دون يقين، رجل مؤمن صادق، له عمل طيب، تقول عنه: له نوايا خبيثة، له مقاصد، أنا أعرفه، من أجل ماذا تقول هذا الكلام ؟ هذا يحدث دائماً، أحياناً يكون طالب معجب بأستاذه، الأب بسذاجة يقول: هذا لا يفهم شيئاً، فهذا أستاذ ابنك، الابن جلس معه ست ساعات، والابن معجب بأستاذه، أنت لكي تُظْهِر أمام أسرتك أنك أفهم منه: لا يفهم شيئاً، أنت بهذا ماذا فعلت ؟ أنت ضعضعت الثقة، قطّعت العلاقة، هذا موقف غير حكيم، فكل إنسان يؤذي مؤمناً بتشويه سمعته، بحديث غير صحيح عنه، فهذا:

(وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا)

تَحَمّل تَبِعَة ذنب خطير وهو البهتان:

(وَإِثْمًا مُبِينًا (58))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (15-18): تفسير الآيات 59 - 63
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-01-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة الأحزاب.

الآية التالية هي أول آيةٍ نزلت في الحجاب:

وصلنا في الدرس الماضي في سورة الأحزاب إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(59))

(سورة الأحزاب)

أيها الأخوة الأكارم، هذه أول آيةٍ نزلت في الحجاب، الحجاب نزل على ثلاث مراحل ؛ المرحلة الأولى أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بستر العورات، والمرحلة الثانية أمر الله سبحانه وتعلى المؤمنات بالحجاب ـ وفي سورة النور جاءت الآيات تبيّن كمال الحجاب ـ نحن الآن في سورة الأحزاب، فالله سبحانه وتعالى يخاطب النبي، وحينما يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ (59))

لأنهن القدوة، وما لم تكن للمؤمنين قدوة فلن يفلحوا، أزواج النبي عليه الصلاة والسلام، وبنات النبي عليه الصلاة والسلام يجب أن يكن قدوةً لنساء المؤمنين، والنبي كما تعلمون له مهمتان ؛ مهمة التبليغ، ومهمة القدوة، فالتبليغ وحده لا يكفي إن لم تكن القدوة الحسنة، والسيرة الصالحة، والمثل الأعلى، والأسوة التي يتأسّى بها المؤمنون.

الدعوة إلى الله تقوم على القدوة والبيان:

قد يقول قائل: إن هذه الآيات نزلت في نساء النبي وبنات النبي فما بال بقية النساء ؟ فإذا كانت نساء النبي وهن المطهرات عن السفاح، والمحرّمات على المؤمنين بالنكاح، وهن اللاتي وصفن بالقرآن الكريم بأنهن أمهات المؤمنين، إذا أمرن بالحجاب فنساء المؤمنين من باب أولى، وهذه قاعدة أصولية، ولكن الله سبحانه وتعالى دفعاً لهذا القيل والقال، ودفعاً لهذا الالتباس نصّ في هذه الآية على أن الأمر بالحجاب عامٌ مطلق، فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ (59))

بقوله تعالى:

(وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ (59))

أية شبهةٍ متعلقةٍ بأن هذه الآية نزلت في نساء النبي تُرَدُّ بهذا النص الدقيق، على كلٍ لو أن الآيات نزلت في حق نساء النبي وفي حق بنات النبي فقط، فلأن يَشْمَلْنَ عامة المؤمنات من باب أولى، هذه قاعدة، وقاعدة أخرى: أنه دائماً خصوص السبب لا يلغي عموم اللفظ.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ (59))

سيدنا عمر كما تعلمون كان إذا أمر الناس بأمرٍ جمع أهله وخاصته وقال: **" إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا، وأيم الله لأوتين بواحدٍ وقع فيما نهيت الناس عنه، إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني ".**

هذا أثر القدوة، وقد بينت لكم من قبل أن الله سبحانه وتعالى تولى بنفسه تطهير أهل بيت النبي، لِعِظَمِ خطورة أهل بيت النبي في حقل الدعوة، فالدعوة إلى الله تقوم على القدوة وعلى البيان، البيان تولاه النبي ؛ لكن القدوة يجب أن تكون في شخصه، وفي أهل بيته، وفي نسائه، وفي بناته.

الإدناء هو التقريب وفي هذه الآية مُضَمَّنٌ لمعنى الإرخاء والإسدال بـ (على):

الحقيقة موضوع الدين لا يتعلق برأي زيدٍ أو عُبيد، الإنسان أحياناً يتمنى أن يكون الحكم هكذا، أو يتمنى أن يكون الحكم هكذا، الحقيقة نحن مع الدين ليس لنا رأيٌ شخصيٌ أبداً، وما قيمة الرأي الشخصي في منهج الله عزّ وجل ؟! ما قيمة الرأي الشخصي في منهج الله ؟! فنحن نتقصى الحكم الشرعي في هذا الموضوع، وما أجمع عليه العلماء الأجلاء، وما ورد في كتب التفسير، وما جاء به الصحابة الكرام، على كلٍ نبدأ بتفسير هذه الآية كلمةً كلمة، قال الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ (59))

الإدناء هو التقريب، فلان دنا من فلان، أي اقترب منه، أدناه قَرَّبَهُ، دنا لازم، أما أدنى مُتَعَدٍّ، فالإدناء إذاً هو التقريب، لكن أدنيت هذا الشيء إلى هذا الشيء، فالإدناء يتعلّق بكلمة (إلى)، أما إذا تعلق بكلمة (على) فهو في معنى الإرخاء والإسدال، الفكرة دقيقة إذا قصدنا الإدناء أي التقريب فالإدناء يتعلق بـ (إلى)، أدنيت هذا الكتاب إلى هذه الطاولة، أما إذا عَدَّيْتُ الإدناء بـ (على) فضُمِّنَ معنى الإرخاء والإسدال، لأن أرخيته على، وأسدلت على، فلذلك ما دام فعل الإدناء هنا متعدياً بـ (على) فهو يفيد الإرخاء ويفيد الإسدال، هذا أول استنباطٍ لغوي من هذه الآية، فالإدناء هو التقريب، والإدناء هنا في هذه الآية مُضَمَّنٌ لمعنى الإرخاء والإسدال بـ (على) لأنه تعدى بـ (على).

ويقال: إذا زَلّ الثوب عن وجه المرأة، إذا زل أي انزلق الثوب عن وجه المرأة يقال لها: أدنِ ثوبكِ على وجهكِ، ما دام أدنِ ثوبك على وجهكِ أي أرخِ ثوبكِ على وجهكِ، هذا كله مستفاد من كلمة على، لأن أدنى إلى وأسدل على، أي أرخيه وأسدليه.

المقصود بالجلباب أي رداءٌ فَضْفَاضٌ واسعٌ يستر بدن المرأة كله:

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ (59))

الإدناء هنا بمعنى الإرخاء والإسدال، لماذا ؟ لأن نساء الجاهلية كُنّ يضعن على رؤوسِهِنّ الخُمُر، ويسدلنها ـ أي يرخينها ـ إلى وراء ظهورهن، الأمر بالعكس، جاء الأمر أن يدنين عليهن من جلابيبهن، المعنى الثاني:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (59))

معنى الجلباب، الجلابيب جمع جلباب، والجلباب هو الثوب الذي تستتر به المرأة، أو تستر به المرأة بدنها كله من فوق ثيابها التي تستر عورتها، فهناك ثوبٌ يستر أعضاء المرأة، وهناك ثوبٌ يستر زينة المرأة، وأما الجلباب فهو الذي يستر بدن المرأة كله، الجلباب فيما أجمع عليه العلماء: الثوب الذي تضعه المرأة فوق ثيابها، إذا كانت ثيابها تستر أعضاءها وأماكن الزينة فيها، فإن الجلباب رداءٌ فَضْفَاضٌ واسعٌ يستر بدن المرأة كله، من فرقها إلى قدمها، هذا معنى قوله عزّ وجل:

(يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (59))

الإمام الطبري في تفسيره، روى عن ابن سيرين أنه قال:**سألت عبيدة السلماني عن هذه الآية، فرفع ملحفةً كانت عليه فتقنع بها، وغطى بها رأسه كله حتى بلغ الحاجبين، وغطى وجهه وأخرج عينه اليسرى من شِقّ وجهه الأيسر. وروى مثل ذلك ابن عباسٍ رضي الله عنه.**

هذا تفسير العلماء لهذه الآية، مرةً ثانية أقول لكم: لا قيمة للرأي الشخصي في هذا الموضوع، هذا دين، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[مسلم عن ابن سيرين]

من أوجه التفسير لهذه الآية أن المرأة إذا بالغت في التحجُّب والتَصَوُّن قطعت كل طمع فيها:

أخرج عبد الرزاق وجماعةٍ عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية:

(يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (59))

خرج نساءٌ من الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان، من أكسيةٍ سودٍ يلبسنها، أي فهم الناس في عهد النبي هذه الآية ستر الوجه والرأس معاً، أما قول الله عزّ وجل

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

من أوجه التفاسير لهذه الآية ما نقله ابن حبان أن الله عزّ وجل حينما قال:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ (59))

أن يعرفن بالعفة والتَصَوُّن، فلا يتعرض لهن الفُسّاقُ ولا الفُجّار وهذه قاعدة وهي: أن المرأة إذا بالغت في التحجُّب والتَصَوُّن قطعت كل طمعٍ فيها، فإذا قال الله عزّ وجل:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ (59))

أي أن يعرفن بالعفة والتصون، ما دامت هذه المرأة لا يرى منها شيء، إذاً ؛ إنها تعلن للناس أنها عفيفةٌ، أنها حصانٌ، أنها مُعْرِضَةٌ عن كل رغبةٍ فيها إلا الذي أباحه الله لها.

هذه الآية من آيات الأحكام وهذه الآيات دقيقة جداً:

طبعاً هذه الآية من آيات الأحكام، وآيات الأحكام دقيقةٌ جداً، وتُدَرّس هذه الآيات في كتبٍ مستقلة، ومن أرقى كتب آيات الأحكام جاءت هذه الحقائق في كتاب: تفسير آيات الأحكام.

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

متى تؤذى المرأة ؟ الجواب: إذا ظهرت مفاتنها، متى تؤذى المرأة ؟ إذا أبدت ما يجب أن تخفيه، حينما تبدي المرأة ما يجب أن تخفيه إنها تعلن بشكلٍ أو بآخر أنها ترغب في الرجال، أما إذا سَتَرَت ما أمر الله به أن يُستر، فهي تعلن أيضاً أنها عفيفةٌ حَصَان، فلذلك قول الله عزّ وجل:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

يعرفن أنَّهُنَّ عفيفاتٌ طاهرات، وأنهن لا يبغين إلا ما أمر الله عزّ وجل:

(فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

الآن هناك آراءٌ لبعض العلماء في هذه الآية ؛ ابن عباسٍ رضي الله عنهما يقول: **أمر الله نساء المؤمنين أن يُغطِّيَن رؤوسهن ووجوهَهنّ**، بالنص الدقيق، أما معنى قول الله عزّ وجل:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ (59))

أي هذا هو الحد الأدنى، أي إذا تحجبت المرأة فهذا هو الحد الأدنى في إيمانها وليس الحد الأقصى، الحد الأقصى عِلمها، الحد الأقصى أعمالها الطيّبة، الحد الأقصى خدمتها لزوجها، الحد الأقصى

رعايتها لأولادها، أما ألا تؤذي عباد الله في الطريق فهذا هو الحد الأدنى، أي هذا أقل شيء يُعْرَفْنَ به صالحاتٍ عفيفاتٍ طاهرات، مع أن الصلاح والعفاف والطهر أكبر من الحجاب ؛ نفسٌ طيبةٌ، نفسٌ مطواعةٌ، نفسٌ متواضعة، نفسٌ منصفةٌ، تخدم زوجها ابتغاء مرضاة الله، هناك صفاتٌ تعلو بالمرأة عن الحجاب، ولكن الحجاب هو الحد الأدنى، هذه هويتها، ما دامت قد أخفت زينتها عن الأجانب فهي تعلن أنها مسلمة، أنها عبدةٌ من عباد الله، أنها تأتمر بما أمر الله وتنتهي عما نهى الله.

إذا ترك الحجاب إنكاراً لفرضيته فهذا كفرٌ وإذا ترك تقليداً للأجانب فهذا فسقٌ وفجور:

الحقيقة قد يكون إيمان الرجل في قلبه، لكن المرأة إيمانها ظاهر وباطن معاً، إيمانها في حجابها، فإذا بَرَزَتْ للرجال من دون حرج، واختلطت مع الرجال فكأنها تتخلى عن هويتها، وكأنها تتخلى عن شخصيتها المسلمة، وكأنها تُعْلِن أنها لا تأتمر بأمر الله.

القرآن الكريم أمر بستر العورات، ثم أمر بالحجاب، ثم أمر بغض البصر، وعدم إبداء الزينة إلا لرجالٍ جاء ذكرهن في سورة النور، الأمر بستر العورات أولاً، ثم الأمر بحجاب النساء المؤمنات ثانياً، ثم الأمر بغض البصر وعدم إبداء الزينة للأجانب ثالثاً، فكأن هذه الآية جاءت في الوسط، وكأن الله سبحانه وتعالى دَرَّجَ أحكام الحجاب بحسب الظروف وبحسب تطور الدعوة الإسلامية.

الملاحظة الدقيقة أن المرأة التي تترك الحجاب إنكاراً له، إنكاراً لفرضيَّتِهِ فقد كفرت، وإذا تركته تقليداً للأجانب فقد فسقت وعصت، لكن المرأة المؤمنة تعتقد بوجوبه وتلتزمه، إذا ترك الحجاب إنكاراً لفرضيته فهذا كفرٌ، وإذا ترك الحجاب تقليداً للأجانب فهذا فسقٌ وفجور، أما حينما تطبق المرأة أمر الله عزّ وجل وتحتجب فهذا هو الحد الأدنى في إيمانها، فلذلك هناك حالة من الحالات وأنا أقول عنها ـ هي حالة مرضية أحياناً ـ هي: أن المرأة إذا تخلت عن حجابها أرادت التعويض، أي بالغت بأشياء كثيرة، هذه المبالغة لإحساسها بالخلل، ولإحساسها بالنقص في شخصيتها، فإذا بالغت في أشياء شكلية من أمور الدين وهي قد خرجت سافرة، فهذه المبالغة نوعٌ من أنواع التعويض الذي يرمم الخلل الذي أحدثه ترك الحجاب في شخصيتها.

الحقيقة كما قلت لكم سابقاً: إن المؤمنين يخاطبون دائماً بفروع الدين ؛ بينما الكفار وعامة الناس يخاطبون بأصول الدين، أنت أيها الإنسان، وأنتِ أيتها الإنسانة، ما دمتِ قد آمنتِ بالله خالقاً، ومربياً، ومسيراً، وما دمتِ قد أعلنتِ عن عبوديتكِ لله عزّ وجل، فالحد الأدنى من عبوديتكِ لله عزّ وجل أن تأتمري بأمر الله عز وجل، فلا تؤذين ولا تؤذِين، فحينما تبرز المرأة مفاتنها للناس في الطريق، ماذا

فعلت ؟ آذت عباد الله بكل أصنافهم، وحينما تؤذيهم يؤذونها، فهناك أذى متبادل، إنها تؤذي عباد الله بمفاتنها، ويؤذونها بتعليقاتهم، وبتصرُّفاتهم، وبالتحرشات التي يفعلونها معها.

السياسة الشرعية و التكليف الشرعي:

إذاً:

(فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

لا تؤذي ولا تؤْذَى، لكن المرأة التي ليست مؤمنةً لو عاشت في مجتمع مؤمن إنها تؤمر بالحجاب، لا لأنها مكلفةٌ به ؛ بل لأن السياسة الشرعية تقتضي ذلك، ففي المجتمع المسلم لا نسمح لامرأةٍ كافرةٍ أن تبرز مفاتنها للناس، فنؤذي شباب المسلمين، إذاً حينما تؤمر المرأة المؤمنة بالحجاب هذا أمر تكليف، وحينما تؤمر الكافرة بالحجاب فهذا أمر من نوع السياسة الشرعية، أي أن أولي الأمر المؤمنين يرون أنه صوناً للمجتمع المسلم لا ينبغي لامرأةٍ كافرة أن تبرز مفاتنها للناس، وأي مجتمعٍ يطبق الإسلام تطبيقاً دقيقاً يفرض على كل الأجنبيّات، وعلى كل النساء غير المسلمات اللاتي في البلد، أن يأخذن بالحجاب من باب السياسة الشرعية لا من باب التكليف الشرعي.

فهناك تكليف، إذاً هناك أمر تكليفي، وهناك أمر سياسي، صوناً للمجتمع المسلم لا نسمح لامرأةٍ كافرةٍ في المجتمع المسلم أن تبرز، وأن تفتن، وأن تصرف الناس عما خلقوا له من معرفة الله عزّ وجل وطاعته.

شيءٌ آخر، لو أمرنا فتاةً في سن العاشرة بالحجاب في سنٍ مبكرةٍ، فهذا ليس أمراً تكليفياً بل اسمه أمرٌ تأديبي، كيف أن الطفل الصغير يؤمر بالصيام ؟ هل يعقل أن يدع الصيام إلى أن يبلغ، فإذا بلغ أمر به؟! قد لا يطيقه، لا بدّ من أن يؤمر به تأديباً، حتى إذا بلغ سن التكليف رأى نفسه مُرتاحاً في الصيام، كذلك الفتاة الصغيرة يجب أن تؤمر بالحجاب لا على أنها مكلفةٌ به ؛ بل على أن هذا أمرٌ تأديبيٌ يجب أن تألفَهُ الفتاة الصغيرة، حتى إذا أصبحت مشتهاةً كان الحجاب بالنسبة إليها شيئاً عادياً، هذا توجيهٌ للآباء، أي أن الطفلة الصغيرة إذا تعلمت قواعد الأدب، وإذا تعلّمت أصول التعامل، وإذا تعلمت أن تستر ما ينبغي أن يستر، حينما تكبر وهي في سنٍ صغيرة فهذا من باب التأدب من آداب الإسلام.

أقوال العلماء في الحجاب:

أكثر العلماء في هذه الآية يتحدثون عن ما فهموه منها، فابن الجوزي يقول: يغطون رؤوسهن ووجوهَهُنّ.

أبو حيان يقول: أمر الحجاب شاملٌ لجميع النساء، ولجميع بدن المرأة، وينبغي أن يُغَطّي الحجاب وجهها.

أبو السعود يقول: يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعيةٍ من الدواعي. أي إذا خرجن في الطريق لأمرٍ مشروع.

والسُدِّي يقول: تغطي المرأة إحدى عينيها.

هذه بعض أقوال العلماء في شأن هذه الآية، لكن اتفق العلماء على أن للحجاب الشرعي ستة شروط:

1 ـ الشرط الأول أن يكون الحجاب ساتراً لجميع بدن المرأة:

الشرط الأول: أن يكون الحجاب ساتراً لجميع بدن المرأة، أي أن تستر عضواً وأن تبرز عضواً أن تقول: هذا عورة، وهذا ليس بعورة، إتباعاً للهوى، أو إرضاءً للمجتمع، أو إرضاءً للزوج تستر شيئاً وتخفي شيئاً، تبرز شيئاً، هذا شيء ليس من صفات المرأة المسلمة، الحجاب يجب أن يكون ساتراً لجميع بدن المرأة.

2 ـ الشرط الثاني أن يكون الحجاب كثيفاً غير رقيق:

الشيء الآخر: أن يكون الحجاب كثيفاً غير رقيق، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما وصف النساء الكاسيات العاريات، فكيف نفهم هذا الحديث ؟ كيف أنها كاسيةٌ عارية ؟ أي هو عليها ثوب ولكنه يشفُ عما تحته، الثياب الرقيقة ليست من الحجاب في شيء، فأحياناً تغطي المرأة وجهها بحجابٍ رقيقٍ جداً، هذا الحجاب الرقيق يخفي العيوب ويبرز المفاتن، فالشيء الشفّاف الرقيق جداً هذا ليس حجاباً قولاً واحداً، أول شرط أن يكون ساتراً لجميع بدن المرأة، والشرط الثاني أن يكون الحجاب كثيفاً غير رقيق.

3 ـ الشرط الثالث ألا يكون الحجاب زينة في نفسه:

الشرط الثالث: ألا يكون الحجاب زينةً في نفسه، أي أن المِعْطف الملوّن، المزركش، المطرّز، ألوان فاقعة، ألوان وهّاجة، ألوان برّاقة، هذا إذا كان الثوب الخارجي زينةً في نفسه فهذا مما نهى عنه العلماء، لأنه ماذا يحدث ؟ يلتفت الناس إلى ثوبها أولاً ثم إليها ثانياً، كأنها تلفت النظر إليها، فهناك نساءٌ يضعن على رؤوسهن شيء مطرّز، وشيء محبوك، وفيه ألوان، فالألوان والتطريز الذي على الحجاب هذا يُلفت النظر إلى الحجاب أولاً، فإذا نظر الرجل إلى الحجاب تابع النظر إلى صاحبة الحجاب،

فالثوب يجب أن يستر كل بدن المرأة أولاً، وأن يكون كثيفاً غير رقيقٍ ثانياً، وألا يكون زينةً في نفسه، والدليل قول الله عزّ وجل:

(وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من آية " 31 ")

الزينة التي يمكن للمرأة أن تظهرها أو أن لا تظهرها يجب أن لا تظهرها، إذا كان شيء ضمن إمكان المرأة، أما الشيء الذي يبدو من دون إرادتها كأن تكون طويلة مثلاً فطولها ليس في إمكانها إخفاؤه، لذلك قال الله عزّ وجل:

(إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من آية " 31 ")

أما الشيء الذي يمكن أن تخفيه المرأة يجب أن يُخْفَى، لو أن الله عزّ وجل قال: إلا ما أظهرن منها، صار أظهرن شيئاً وأخفين شيئاً، أما:

(إلا مَا ظَهَرَ)

(سورة النور: من آية " 31 ")

ظهر تعني قوامها، تعني طولها، تعني امتلاؤها، أما الوجه بإمكانها أن تظهره وبإمكانها أن تخفيه، إذاً الآية الكريمة:

(إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من آية " 31 ")

ولم يقل الله عزّ وجل: إلا ما أظهرن منها:

(إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من آية " 31 ")

الشرط الأول: أن يكون ساتراً لجميع بدن المرأة، والشرط الثاني أن يكون كثيفاً غير رقيق، فالثياب الرقيقة تشفُّ عما تحتها، وهذه ليست حجاباً ؛ بل هي فتنةٌ كما يقال.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما حدثنا عن آخر الزمان، عن نساءٍ كاسياتٍ عاريات، مائلاتٍ مميلات، على رؤوسهن كأسنمة البخت، فالعنوهن لأنهن ملعونات.

4 ـ الشرط الرابع أن يكون الحجاب فضفاضاً غير ضيّق:

الصفة الأولى في هذه المرأة أن ثيابها رقيقة، وألا يكون الثوب كما قلت: زينةً في نفسه، أن يكون فضفاضاً غير ضيّق، لأن الثوب يشف عن العورة بحالتين ؛ إذا كان رقيقاً يشف عن لون العورة، وإذا كان ضيقاً يشف عن حجمها، فأي ثوبٍ يشف عن حجم العضو أو عن لونه فهذا ليس حجاباً وليس ثوباً

شرعياً، ولا ينبغي للمرأة أن ترتديه في الطريق، فالثياب الضيقة في حد ذاتها ثياب محرمة، لأنها تصف خطوط جسم المرأة، أما الثياب الفضفاضة لماذا أمر الشارع بها ؟ لأنها تخفي ملامح الجسم، وتخفي خطوطه الخارجية، فأن يكون الحجاب غير رقيق، ألا يكون زينةً في نفسه، أن يكون فضفاضاً ليس ضيقاً.

5 ـ الشرط الخامس ألا يكون الثوب مُعَطّراً:

الشرط الخامس: ألا يكون الثوب مُعَطّراً لقول النبي عليه الصلاة السلام:

((أيما امرأة استعطرت، فمرت على قوم ليجدوا من ريحها فهي زانية))

[سنن النسائي عن أبي موسى الأشعري]

كل أنواع العطور النسائية التي تستعمل في الطريق، هذه تصف النساء بأنهن زانيات، لأنها بهذا العِطر تريد لفت النظر إليها، تريد أن ينقاد إليها الشباب، والرجال، وهذا درجة في المعصية كبيرة جداً.

6 ـ الشرط السادس ألا يكون الثوب فيه تشبُّهٌ بالرجال:

الشرط السادس: ألا يكون الثوب ثوباً فيه تشبُّه بالرجال، ثوب المرأة إذا كان مشبهاً لثوب الرجل فأيضاً محرّم، فإذا ارتدى الرجال السروال لا ينبغي للنساء أن يفعلن ذلك لأنه تشبهٌ بالرجال.

الحجاب الذي فرضه الله على المرأة ليس حرماناً لكنه تكريمٌ وتشريف:

إذاً لا ثوباً ضيقاً، ولا ثوباً رقيقاً، ولا ثوباً مُنْحَسِرَاً، وليس زينةً في نفسه، وليس معطراً، ولا يشبه ثوب الرجال، ستة شروطٍ لثياب المرأة المسلمة، فثياب المرأة المسلمة متعلقة في دينها، لأنها قد جعلها الله سكناً لزوجها، فحينما تبرز مفاتنها لغير زوجها فقد تجاوزت حدود الله عزّ وجل، وقد خرجت عن طاعته، وأفسدت وفسدت، وآذت وأوذيت.

يجب أن تعلم المرأة علم اليقين أن الحجاب الذي فرضه الله عليها ليس تضييقاً ولا حرماناً ؛ ولكنه تكريمٌ وتشريف، هناك نقطة مهمة جداً ربنا عزّ وجل قال:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(24))

(سورة سبأ)

في هذه الآية دقةٌ في النظم بالغة، هو أن الهدى جاء قبله على ـ على هدى ـ وأن الضلال جاء قبله ـ في ـ فما حكمة أن يأتي الهدى مسبوقاً بـ (على) في أكثر آيات القرآن:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من آية " 5 ")

هؤلاء في ضلالٍ مبين، ما حكمة أن يأتي الهدى مسبوقاً بـ (على)، وأن يأتي الضلال مسبوقاً بـ (في) ؟

الحقيقة توجد حكمة بالغة هي:

أن الهدى يرفعك لأن على تفيد الاستعلاء، الهدى يرفعك المعنى الأول، وأنت أعظم من الهدى، المهتدي أعظم من الهدى، الهدى يرفعك يرفع شأنك، يرفع مقامك عند الناس وعند الله، يجعل خطّك البياني صاعداً صعوداً مستمراً، هذا الهدى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123)وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

النفس المؤمنة طليقة بينما النفس الكافرة مقيدة وأسيرة:

الهدى يرفعك، وأنت فوق الهدى، بمعنى أن الإنسان إذا اهتدى إلى الله فهو مُكَرَّمٌ عند الله تكريماً عظيماً، لقولهم فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر.

أي أنك إذا عرفت الله واهتديت إليه، الهدى رفعك إلى مقامٍ عَلِيّ:

(وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا(57))

(سورة مريم)

الهدى حررك من العبودية لغير الله عزّ وجل، الهدى أشعرك بالطمأنينة، الهدى أشعرك بالتوازن، الهدى أشعرك بالثقة بالله عزّ وجل، الهدى نفى عنك القلق، نفى عنك الخوف، نفى عنك الحزن، نفى عنك الضياع، نفى عنك اختلال التوازن، وهذه كلها أمراض، إذاً جاء الهدى مسبوقاً بـ (على).

أما في، هذا الإنسان إذا عصى الله عزّ وجل يبدو للناس أنه حرٌ طليق، ولكنه دخل في دوامة العقاب، فيرتكب خطأً فيصبح أسير خطئه:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41))

(سورة المدثر)

النفس المؤمنة طليقة ؛ بينما النفس الكافرة مقيدة، حبيسة، أسيرة، أسيرة ذنبها، وانحرافها، وخطئها، إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ (59))

معنى يدنين عليهن، أي يرخين عليهن:

(مِنْ جَلَابِيبِهِنّ (59))

هذا الثوب الواسع الفضفاض الذي يستر المرأة كلها.

بعض المعاني المستفادة من آية الحجاب الأولى:

قال تعالى:

(ذَلِكَ أَدْنَى (59))

هذا هو الحد الأدنى في المرأة المسلمة، هذه هويتها الظاهرة، لكن هويتها الباطنة ؛ علمها، وفقهها، وإخلاصها لزوجها، وحَدَبُهَا على أطفالها، ذلك أدنى أن يعرفن بالصلاح، وبالعِفّة، وبالطهر:

(فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

من قبل الفُسّاق، وكأن الله عزّ وجل أشار بهذه الآية إلى أن أية امرأةٍ تبرز مفاتنها للناس كأنها تنتظر أن يوقع الأذى بها، كأنها تدعو الناس إلى أن يؤذوها، تدعو الشباب إلى أن يسمعوها الكلمات المقذعة، تدعو الرجال إلى أن يرمقوها بنظرةٍ شهوانية، يحرجونها، ما دامت قد سَفَرَت وأظهرت ما يجب أن تخفيه فكأنما تدعو الناس إلى إيذائها.

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا (59))

لما سلف:

(رَحِيمًا (59))

بكم في شأن هذه الآية، هذه بعض المعاني المستفادة من آية الحجاب الأولى.

أعيد عليكم مرةً ثانية من باب التوضيح والترسيخ شروط الحجاب: ألا ينحسر الثوب عن بعض أعضاء المرأة، وأن يكون كثيفاً، وأن يكون فضفاضاً، وألا يكون زينةً في نفسه، وألا يكون معطراً، وألا يكون مشبهاً بثياب الرجال، ستة شروطٍ يجب أن تأخذ بها المرأة المسلمة.

كلما كانت المرأة مرموقة في عين زوجها كلما كانت أرضى لله عز وجل:

أما إذا لبست ما يروق لها لزوجها فهذا شيءٌ لا علاقة له بالحجاب ؛ بالعكس إنما قد أمرت به في بيتها، لأن المرأة كلما كانت في عين زوجها مرموقةً أكثر، كانت أرضى لله عزّ وجل، لأنها تسهم في إحصانه، وفي أن يكون أغَضّ للبصر، طبعاً المؤمن لا بدّ من أن يغض بصره، لكن إذا كانت له زوجةٌ على ما يريد فإن هذا أغض لبصره، إذاً تُسْهم في طاعة زوجها لله عزّ وجل، فأن ترتدي ما تشتهي في البيت هذا بحث آخر، هذا ليس خاضعاً للدرس، الدرس متعلق إذا خرجت المرأة من بيتها لشأن شرعي

لا ينبغي أن تظهر بثيابٍ تؤذي بها المسلمين، فالآية تتحدث عن خروج المرأة من بيتها، إذا خرجت من بيتها فعليها أن تأتمر بأمر الله عزّ وجل المتعلق بثيابها.

(وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59))

الشيء الدقيق في الدرس أن الإنسان يجب أن يأمر بناته الصغيرات اللواتي لم يبلغن بعد بالحجاب المُخَفّف، لأن هذا الأمر أمر تأديبي وليس أمراً تشريعاً، كما لو أن الأب أمر أولاده الصغار بالصيام، هذا أمر تأديبي ليتأدّبوا بآداب الإسلام وليس أمراً تكليفياً، والمرأة غير المسلمة لا يحق لها في المجتمع المسلم أن ترتدي ما تشاء، فتفسد شباب المسلمين، لذلك يأمرها أولو الأمر بالحجاب، لا على أنها مكلفةٌ به ؛ بل على أنه أمرٌ من أمر السياسية الشرعية التي أعطيت لأولي الأمر كي يصونوا بها مصالح المسلمين ويأخذوا بأيدي المسلمين إلى طريق سعادتهم.

المنافقون دائماً يريدون السوء بالمؤمنين:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا(60))

الحقيقة أن المنافقين دائماً يريدون السوء بالمؤمنين، فقد سألني أخ مرة سؤالاً: أيعقل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة النور: من آية "19")

لم يفعل شيئاً، لم يتكلم ولا كلمة، فكيف لهم عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة ؟

(لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

(سورة النور: من آية "19")

ماذا فعل ؟ ما ارتكب معصيةً، لكنه يحب أن تشيع الفاحشة ؟

الجواب هو: إن الذي يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا هو حتماً في موقع المنافقين، وحتماً ليس مؤمناً، وحتماً في موقع الكفار، فلو أنه مؤمنٌ لما تمنى ذلك، والنفاق الأكبر كما تعلمون أساسه أنه كافر لكن مصالحه متعلقةٌ بالمؤمنين، لذلك سايرهم في بعض أمورهم، وهذا ما يفهم من حديث رسول الله:

((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب.))

[رياض الصالحين: " متفق عليه " عن عبد الله بن مسعود]

أي هو في الأصل ليس مؤمناً، هو في الأصل كافر، وفي الأصل منافق، لكن تعلقت مصالحه بالمسلمين، فسايرهم وداراهم، هذا الذي يصف الإنسان بأنه منافق.

لا يستقيم إيمانِ عبدٍ حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه:

إذاً:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (60))

أي من يتتبع عورة أخيه المسلم فضحه الله في عقر داره، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن:

((قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة.))

[رواه الطبراني عن حذيفة]

لا يستقيم إيمانِ عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، أن يطلق لسانه فيما نهى الله عنه، أن يخوض في أعراض المسلمين من دون تحقق، من دون تثبُّت، من دون يقين، من دون دليل، أن يروّج بعض الآراء، أن يروّج بعض القصص، أن يشهّر ببعض المؤمنين من أجل أن يلفت النظر إليه، أو أن يمتع الحاضرين بقصةٍ يعرفها قال: هذا عند الله أمر عظيم.

من صفات المؤمن أنه لا ينقل حديثاً إلا بعد التثبُّت والتأكد:

قال تعالى:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (60))

المرجفون الذين يشيعون الأخبار السيئة، فأنت كمؤمن ليس لك أن تشيع الأخبار السيئة، الخبر السيئ اجعله في نطاقٍ ضيق، نشر الخبر السيئ يضعف العزيمة، يوهن القوى، يسيء الظن بالمؤمنين، وقد يكون هذا الخبر السيئ عارياً عن الصحة، قد يكون إشاعةً، وقد يكون افتراءً، وقد يكون كذباً، فمن صفات المؤمن أنه لا ينقل حديثاً إلا بعد التثبُّت، لقول الله عزّ وجل:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(6))

(سورة الحجرات)

طبعاً هذه الآية تهديد:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا(61))

أي أينما وجدوا:

(أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62)

الفتنة كما قلت لكم أشد من القتل، فأن تلقي فتنة، أن تلقي شبهة، أن تشوّه سمعة إنسان، أن تشوه سمعة امرأة مؤمنة، أن تغري زوجها بتطليقها، أن تضعف الثقة بين الإنسان وأخيه، أن تفسد الناس على علمائهم، أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل، هذا كله من صفات المنافقين والكفار، فالمؤمن لا ينبغي له أن يفعل هذا أبداً.

من عَدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت:

قال تعالى:

(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63))

الحقيقة من عَدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت.

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63))

هناك ساعتان ؛ الساعة الأولى ساعة نهاية الإنسان، والإنسان أحياناً ينتهي أجله على أتفه سبب، وفي أسرع وقت، بينما هو قائم فارق الحياة، بينما هو نائم فارق الحياة، بينما هو يبني فارق الحياة، بينما هو مسافر فارق الحياة، فساعة كل إنسان لا يعلمها إلا الله سبحانه، والمؤمن العاقل يحتاط لهذا الأمر قبل وقوعه ويستعد لها، فإذا جاءت كان مستعداً لها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (16-18): تفسير الآيات 60 - 68
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-01-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة الأحزاب.

الآية التالية فيها وعيد شديد للمنافقين وللمرجفين وللذين في قلوبهم مرض:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62))

(سورة الأحزاب)

الحقيقة أن في هذه الآية وعيداً شديداً للمنافقين، وللمرجفين، وللذين في قلوبهم مرض، وإذا كانت هذه الآيات مسوقةً إلى المنافقين في عهد النبي، وإلى المرجفين في عهد النبي، وإلى الذين في قلوبهم مرضٌ في عهد النبي، فإنّها في الحقيقة ولعموم اللفظ مسوقةٌ إلى كل إنسانٍ متلبّسٍ بهذه الصفات مجتمعةً أو ببعضها، إنسان مقيم على معصية لئن لم ينتهِ لنغرينّك به، إنسان يروّج الأخبار السيئة لإضعاف عزيمة المؤمنين لئن لم ينتهِ فهناك عقابٌ أليم، إنسان يفسد في الأرض لئن لم ينتهِ فهناك عذابٌ أليم.

الموفّق من يفهم كلام الله بطريقةٍ يُحِسُّ أنها موجّهةٌ إليه أولاً:

الحقيقة، القرآن الكريم له منطوق وله مفهوم، له خاص وله عام، فمن سعادة المَرْء أن يفهم بعض الآيات لا على أنها خاصّةٌ لمن كان مع النبي عليه الصلاة والسلام وانتهى الأمر، وكأنّها قصّةٌ تاريخيّةٌ وقعت ومضت وأصبحت ذكراً، لا، الموفّق من يفهم كلام الله بشكلٍ موسّع، أي بطريقةٍ يُحِسُّ أنها موجّهةٌ إليه أولاً:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (60))

قال بعض المفسّرين: الذوات واحدة والصفات مختلفة، فإنسان واحد منافق، وفي قلبه مرض، ويروّج الأخبار السيئة، وقال بعضهم: هؤلاء أصنافٌ ثلاثة، سواءٌ أكانت الذوات متّحدة أم متباينة، فالذي يعنينا أن في هذه الآية نفاقاً، وفي هذه الآية قلبٌ مريض، وفي هذه الآية إنسان يروّج الأخبار السيئة في المجتمع الإسلامي، فالمنافق هو الذي يُظْهِرُ ما لا يبطن، يدّعي أنه صالح وهو طالح، يدّعي أنه مؤمن

وهو كافر، يدّعي أنه ورع وهو مُتساهل، يُظهر أمام الناس عبادةً، وضمر فيما بينه وبين نفسه معصيةً.

هذا الموقف الازدواجي ؛ شيء معلن وشيء مبطّن ! شيء ظاهر وشيء باطن ! شيء يقال وشيء لا يقال، مع المؤمنين تراه مؤمناً، مع الكفّار تراه كافراً ! هذه الشخصية الازدواجيَّة التي في بنيتها رياء، الرياء في العمل والنفاق في القول، هذه الشخصيَّة ربّما أسدل الله سبحانه وتعالى ستره عليها. فالإنسان إذا ستره الله عزّ وجل ينبغي أن يعدّ هذا الستر الذي أسبغه الله عليه فرصةً للتوبة، فعندما يستر ربنا عزّ وجل عبداً، كأن الله عزّ وجل يعطيه فرصة، أن يا عبدي إلى متى أنت في اللذات مشغولُ ؟ إلى متى أنت كذلك ؟ أما تستحي مني ؟ سلامة الإنسان ـ مع النفاق ـ هي فرصةٌ من الله عزّ وجل لهذا الإنسان لعلّه يعود، لعلّه يتوب، لعلّه يرجع، لعلّه يتألّم، لعلّه يحاسب نفسه حساباً عسيراً.

كلّما ازددت معرفة بالله عز وجل تستحي من النفاق:

في كل عصر، في كل زمان، في كل وضع، ما دام الإنسان ينطوي على شخصيَّة ازدواجيَّة، على شخصيَّة فيها بعض النفاق، أو فيها كل النفاق، لئن لم ينتهِ لا بدَّ من أن يفضحه الله عزّ وجل، إن لم يستخدم ستر الله عليه كفرصةٍ للتوبة، لا بدَّ من أن ينكشف هذا الستر، كلامٌ دقيق، الذي يبطن الشر للمؤمنين ويظهر التعاطف معهم، الذي إذا خلا فيما بينه وبين ربّه انتهك حرمات الله، فإذا كان مع الناس أظهر الورع والتُقى، هذا الإنسان ساذج، هذا الإنسان يظنُّ أن هذا الشيء ينطلي على الناس وينطلي على الله عزّ وجل مع أن الله عزّ وجل يقول:

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: من آية " 142 ")

وقال:

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(9))

(سورة البقرة)

كلّما ازدادت المعرفة بالله تستحي أن يكون لك موقفان، تستحي من النفاق، من إظهار شيء وإبطان شيء، من إعلان شيء وإضمار شيء، من أن تكون مع المؤمنين تصلي وتصوم وتذكر الله وتقول: لا حول ولا قوّة إلا بالله، الله ينصر الإسلام يا أخي، وإذا كنت مع الكفّار لك كلامٌ آخر، لك تعليقاتٌ ساخرة على المؤمنين، هذا الموقف الازدواجي، هذه الشخصيَّة المزدوجة، هذان الوجهان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً))

ما دام الله قد أسبل عليك ستره وحفظك من أن تفتضح فبادر إلى التوبة وإلى طاعة الله:

النقطة الدقيقة في هذا الدرس هي، أن الإنسان عندما يكون مقيماً على معصيةٍ، أو على مخالفةٍ، أو على انحرافٍ، ويسبل الله عليه ستره، يجب أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الستر الذي أسبغه الله عليه فرصةٌ من الرحمن الرحيم كي يعود إلى رشده، فإذا أصر عندئذٍ ينكشف هذا السترْ، ويُفْضَح هذا الإنسان على رؤوس الخَلق، ويُكْشَفُ أمره، والله سبحانه وتعالى هو الذي يتولّى ذلك، قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

تُضَيّعُ الناس، توهم الناس أنّك صالح وأنت غير ذلك، والأمر يمشي هكذا، يمضي إلى ما لا نهاية، دون أن يُكشَف الأمر، دون أن يُفْتَضَحَ الإنسان، فكل إنسان ـ وهذا كلام أسوقه من قلبٍ إلى قلب ـ كل إنسان متلبّس بمخالفة، بمعصية، بتقصير، يفعله فيما بينه وبين نفسه، والله سبحانه وتعالى أسبغ عليه ستره ليبادرْ إلى التوبة، وليكن هذا الستر فرصةً من الله عزّ وجل كي يصحو هذا المنافق.

أشعر من هذه الآية، لئن لم ينتهِ المنافقون فسوف تأتي الفضيحة، سوف يأتي العذاب الأليم، سوف يأتي كشف الغطاء، سوف يأتي إظهار الحقائق، سوف يأتي الامتحان العظيم، لئن لم ينتهِ، فالإنسان يجب أن يبادر إلى التوبة:

(وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربّكم)

(سورة آل عمران)

ما دام الله قد أسبل عليك ستره، ما دام الله قد حفظك من أن تفتضح، بادر إلى التوبة وإلى طاعة الله.

أنواع النفاق والفرق بينهما:

النفاق نوعان: هناك نفاق أكبر وهناك نفاق أصغر، النفاق الأكبر هو أن يبطن الإنسان الكفر البواح وأن يظهر الإيمان تحقيقاً لمصالحه، هذا النفاق الأكبر في الدَرْكِ الأسفل من النار، لا في النار بل في الدرك الأسفل، لكن النفاق الذي يبتلى به بعض الناس هو نفاقٌ أصغر، حينما تغلبهم شهواتهم، حينما تقعُد بهم هممهم، حينما يقصِّروا، فكأنّهم يستحيون من المؤمنين بتقصيرهم، أو باتباعهم بعض شهواتهم فيظهرون عكس ما هم فيه، هذا نفاقٌ أصغر ـ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يصرفه عن كل مؤمن ـ النفاق الأكبر كفر، في الدرك الأسفل من النار، لكن النفاق الأصغر هو أن يُقصِّر الإنسان، أن تغلبه شهوته، أن يقع في بعض الصغائر يستحيي بها، يظهر خلافها، يعطي الله عز وجل صاحب هذا النفاق فرصة لكي يتوب.

يروى أن سيدنا عمر جيء برجل سارق، فأقسم هذا الرجل أن هذه أول مرّة يا أمير المؤمنين، وسيدنا عمر يعرف الله عزّ وجل، فقال له: **كذبت إنّ الله لا يفضح من أول مرّة**، فإذا بها المرّة الثامنة، إن الله لا يفضح من أول مرة، فالله عزّ وجل رحمةً بهذا الإنسان إذا زلّت قدمه يستره، يخفي عيبه عن الناس، يظهر الجميل ويستر القبيح، فالإنسان لا يستغل ستر الله عزّ وجل لمتابعة معاصيه، عندئذٍ ينكشف هذا الستر، إذاً المقصّر المغلوب أحياناً، أو من كان مقيماً على مخالفة، أو له معصية، ليبادر إلى التوبة، لأن التوبة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد.))

[الجامع الصغير: عن أبي هريرة]

الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

(سورة التحريم: من آية 8)

هذا أمر إلهي، والمؤمن مذنب توّاب، وواهن راقع، وإذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه وجوارحه، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه.

أمراض الجسد تنتهي عند الموت لكن أمراض القلب تبدأ بعد الموت وإلى الأبد:

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: من آية 53)

هذا نوع:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

بالله عليكم أيحتمل واحدٌ منكم أن يكون في بعض أعضائه، أو بعض حواسِّه خلل ويسكت عنه ؟ مستحيل، إذا ضعفت الرؤية هل تبقى في البيت أم تبادر إلى الطبيب ؟ إذا شعرت بشيء غير اعتيادي في جسمك، أتبقى ساكتاً أم تبادر إلى تجلية الحقيقة ؟ هل هناك مرض خطير ؟ هل هناك عرضٌ زائل ؟ تسأل الطبيب، فلماذا تقلق كل هذا القلق إذا أصاب الجسم بعض الأمراض ولا تقلق قلقاً مثله إذا أصاب القلب مرضٌ خطير ؟ ربنا عزّ وجل في صريح القرآن الكريم، وفي هذه الآية بالذّات، وفي سورة البقرة أيضاً قال:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا)

(سورة البقرة: من آية " 10 ")

وهنا:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

إذاً أخطر شيء في الحياة أن يكون الجسم قوياً والقلب مريضاً، الجسم قوي لكنّ القلب مريض، أمراض الجسد أيها الأخوة مهما تفاقمت تنتهي عند الموت، لكن أمراض القلوب تبدأ بعد الموت وإلى الأبد، فأيهما أخطر ؟؟!

القرب من الله تعالى يُسَبّب الكمال والبعد عنه يسبّب النقص:

قال تعالى:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

الغل مرض، الحسد مرض، الاستعلاء على الخلق مرض، الكِبْر مرض، الرغبة أن تبني مجدك على أنقاض الآخرين هذا مرض خطير، هل تقول شيئاً لصالحك ولا تعبأ بالحق ؟ هذا مرض خطير، هل تقول على الله ما لا تعلم لمصلحةٍ تُريدها ؟ هذا مرض أخطر، هناك إثمٌ، وبغيٌ، وفحشاء، ومُنكر، وعدوان، وشرك، ونفاق، وفِسق، وفجور، وكفر، وهناك أخطر من هذه الأمراض كلِّها أن تقول على الله ما لا تعلم، نفسٌ تحبُّ ذاتها، تكره الناس هذا مرض خطير، نفسٌ تحبُّ أن تحيا وحدها ويموت الناس هذا مرض أخطر:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

(سورة البقرة: من آية " 10 ")

الحقيقة التي لا شكّ فيها أن أساس كل هذه الأمراض هو الإعراض عن الله عزّ وجل، بل إنّ كل ما يعانيه الإنسان من أمراضٍ نفسيّة إنها في الحقيقة أعراضٌ لمرضٍ واحد وهو البعد عن الله، إذا ابتعدت عن الله صار القلب قاسياً كالصخر، إذا اقتربت من الله صار القلب رقيقاً رحيماً، إذا ابتعدت عن الله صرت ظالماً، إذا اقتربت من الله صرت مُنصفاً عادلاً، إذا ابتعدت عن الله صار الإنسان غليظ القلب، إذا اقترب من الله صار رقيق المشاعر، أبداً ؛ مع البعد مرض ومع القرب كمال، إذا ابتعدت عن الله عزّ وجل جاءت الأمراض النفسيّة، إذا اقتربت من الله عزّ وجل تحلّت نفسك بالكمالات الإلهيّة، بصبغة الله عزّ وجل، إذاً يمكن أن تقول: إنّ القرب يُسَبّب الكمال، وإن البعد يسبّب النقص، إذاً أي مرضٍ نفسيّ يعانيه الإنسان هو في الحقيقة بعدٌ عن الله عزّ وجل.

المرض النفسي تبدأ آثاره الخطيرة بعد الموت أما المؤمن فيشعر بمرضه النفسي وهو حي:

إن هناك أناس دقيقو الملاحظة في أجسامهم، يقول لك: هذا الطعام لا يناسبني، أرتاح لهذا الطعام، هذا البرد الذي أصابني أتعبني، يتابع حرارته، برودته، طعامه، شرابه، نومه، يقول لك: هواء الغرفة فاسد فقد شعرت بضيق، عنده حساسية، والله شيءٌ جميل، لكن الأجمل من هذا أن يكون لك حساسية أخلاقيَّة، هذه الكلمة مثلاً جرحت بها فلاناً لا بدَّ من أن يسامحني، هذا الشعور أنني نِلت شيئاً ثميناً والناس من حولي جياع فشعرت بهذا التفوُّق هذا مرض، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم به.))

[الجامع الصغير: عن أنس]

لك أخ بالعمر نفسه نال شيئاً فتألّمت ! ليته لم ينجح، ليته لم يتزوّج هذه الفتاة، هذا مرض خطير، أن تتمنّى زوال النِعَم عن الآخرين، فيا ترى هل هناك متابعة ؟ هل تتابع نفسك ؟ هل تلاحظ الأمراض النفسيَّة التي هي بسبب البُعد عن الله عزّ وجل ؟ هل تفرح إذا أصاب المؤمن خير أم تتألّم ؟ هل تحبُّ أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، أم تحبُّ أن تشيع السمعة الطيّبة في الذين آمنوا ؟

هذا المرض النفسي مرضٌ خطير، ومشكلته أنه تبدأ آثاره الخطيرة بعد الموت، أما المؤمن يشعر بمرضه النفسي وهو حي، كما يقول الناس: **" حكيم نفسه "**، يشعر أن قلبه لا يعجبه، الشعور أنك أنت في منجاة من هذا المُصاب العام ولا يعنيك أمر المسلمين، هذا شعور مرضي، أنت ببحبوحة والناس في ضائقة وتقول: الحمد لله أنا غيرهم، هذا شعور مرضي، من لم يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم، تجد إنساناً بحاجة ماسّة لمساعدة ومعك ما تساعده به وتمتنع، هذا شعور مرضي، هذه أنانيَّة إن صحّ التعبير، هذه أثرَة.

إذا انقلب الإنسان إلى الله عزّ وجل وكان قلبه سليماً فهو في الجنّة إلى أبد الآبدين:

كما أننا نعاين أمراضنا، ونخاف منها، ونقلق لها، ونبادر إلى معالجتها، ونختار أحسن الأطبّاء، وندفع أبهظ التكاليف، وتحاليل وتصوير، يقول لك: أخي أريد أن أطمئن، إيكو، وأشعة، وتصوير، وتصوير طبقي، هذه بثلاثة آلاف، هذه بخمسة آلاف، اختبار، وهذا الاختبار يكلف خمسة أو ستة آلاف، تصوير طبقي بالآلاف، بعض أنواع الأشعّة غالية جداً، يقول لك: هذا الدواء، ثمن الحبّة الواحدة تكلفني ثلاثة آلاف ليرة ـ شيء جميل ـ أستمع لهذا من بعض المرضى، لماذا يعنيه أمر قلبه ؟ يعنيه أمر كليتيه ؟ يعنيه أمر أعصابه ؟ هناك متابعةٌ ودقّةٌ وفحصٍ، وهناك حرصٌ وقلقٌ وخوفٌ من أي عرضٍ غير طبيعي في الجسد.

والله الذي لا إله إلا هو لو علم الإنسان خطورة أمراض النفس، لكان اهتمامه بنفسه، وبسلامتها، وبطهارتها، وبسموّها، أضعافَ أضعاف اهتمامه بأمراض جسده، والدليل: عندما كان سيدنا عمر رضي الله عنه تصيبه مصيبة يقول: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني ".** الدين سليم، لأن الإنسان لا بدَّ من أن ينقلب إلى الله عزّ وجل إن عاجلاً أو آجلاً، فإذا انقلب إلى الله عزّ وجل وكان قلبه سليماً فهو في الجنَّة إلى أبد الآبدين، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

إذاً:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

أتمنَّى على كل أخٍ كريم أن يتبصَّر، أن يتأمَّل أمراضه النفسيَّة، فلو شعر بشيء من الكِبْر على إثر تفوّقه في علم، أو في شهادة، أو له شكلٌ وسيم تاه به على الناس، شعر أنه فوق الناس هذا مرض، تمنَّى أن يكون وحده في بحبوحة ولا يعنيه أمر الناس هذا مرض ثانٍ، هل شعر بحقدٍ في قلبه، بضغينة، بحسد ؟ هل تمنَّى للناس زوال النعم عنهم ؟ فالإنسان إذا شعر أن هناك شعوراً غير صحيح، شعوراً مرضياً، ليبادر إلى معالجته وإلا فهناك تهديدٌ من الله عزّ وجل:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

ما دمنا أحياء كل شيءٍ يُصَحّح وكل ذنب يُتاب منه وكل معصية تُبدّل حسنة:

بالمناسبة من رَوْعَةِ الحياة الدنيا أن كل شيءٍ فيها يُصَحَّح، كل شيء في الدنيا يصحَّح، أما إذا مات الإنسان وخُتِمَ عمله عندئذٍ لا ينفعه شيء، ما دمت في بحبوحة الحياة، ما دام القلب ينبض، ما دام في العمر فُسْحَة فإصلاح كل شيءٍ ممكن، هناك ذمم، هناك حقوق، هناك ديون سابقة، هناك إنسان تحدَّثت عنه في مجلس، يمكن أن تذهب إليه وتطلب السماح منه، وتعقد مجلس مرَّة ثانية وتصحِّح الخطأ، هذا كله ممكن، لكن إذا جاء الموت وخُتم العمل عندئذٍ ليس هناك من إصلاحٍ أبداً، فهذه النعمة أننا نحن أحياء، وما دمنا أحياء فكل شيءٍ يُصَحَّح، كل ذنب مهما كان عظيماً يُتاب منه، كل معصية تُبدَّل حسنة، قال عليه الصلاة والسلام:

((أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.))

[رياض الصالحين: رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ عن أبي ذر]

الصنف الأول منافقون، والصنف الثاني:

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

والصنف الثالث:

(وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (60))

معنى أرْجَفَ، الرجفان هو الاضطراب، فأي خبرٍ تلقيه على الناس يصدمهم، يجعلهم يضطربون، يجعلهم يقلقون، يجعلهم يخافون، يجعلهم يتألّمون، ييأسون، يقنطون، تنهار معنوياتهم، هذا الخبر سوف تحاسب عليه، الذي يفعل هذا اسمه في القرآن الكريم مُرْجِفٌ في المدينة، فلو قلت لإنسان: إيّاك أن تحضر هذا المجلس، أو إيّاك أن تحضر أي مجلس علم، يقول لك: إذا فعلت هذا فلهذا العمل ما وراءه، أنا أحذِّرك فقط، هذا إرجاف، كلامٌ لا طائل منه، يمنعك عن شيءٍ مشروع، عن بيت الله عزّ وجل، عن كلام رب العالمين، عن حقٍ صُرَاح.

معنى الإرجاف:

قال تعالى:

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

(سورة آل عمران)

أية كلمةٍ تقولها تقصد منها أن يضطرب الناس لها، وأن تضعف معنوياتُهم، وأن يقلقوا، وأن ينصرفوا عما هم فيه من عملٍ صالح، كما لو رأيت إنساناً ينفق من ماله في سبيل الله فخوّفته، وضَعّفْتَ معنوياته، وأوهمته فهذا إرجاف، نقلت الأخبار السيئة، أشعتها في المدينة ليضعف إيمان الناس فيهم، هذا إرجاف، فلذلك الله عزّ وجل قال:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا(60))

أي قد يأتي العذاب على يد النبي عليه الصلاة والسلام، لأن النبي عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة صارت معه ـ فضلاً عن رسالة السماء ـ قوّة الأرض، أصبح الرئيس الأعلى للمسلمين.

تحذير من القيام بعمل مناقض لعمل الداعية:

قال تعالى:

(لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60))

هذه الآية كناية عن أن النبي عليه الصلاة والسلام ـ هؤلاء الذين يرجفون في المدينة وعلى رأسهم اليهود، الذين يتّبعون الأخبار السيئة، يضعفون معنويات المسلمين ـ سوف يجلوهم عن بلادهم، هذا معنى:

(ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61))

دائماً يوجد بالحياة الدنيا أشخاص همُّهم الأول هداية الناس، وفي رأس هذه القوائم الأنبياء، ثم الصحابة الكرام، والتابعين، والعلماء العاملين، هؤلاء هدفهم الأول نشر الحق، إيّاك أيها الإنسان، ثمّ إيّاك، ثمّ إيّاك أن تقوم بعملٍ آخر مناقضٍ لعمل الدعوة إلى الله عز وجل، إيّاك إذا قرّب إنسانٌ الناس إلى الله أن تُبعدهم عنه، إيّاك إذا زهّد إنسانٌ الناس في الدنيا أن تحبّبهم بها، إياك إذا خوّف إنسانٌ الناس من المعصية أن تسهّلها لهم، فإياك أن تقوم بعمل مناقض لعمل الداعية، الداعية يُعَرّف بالله عزّ وجل وأنت تصرف الناس عنه، الداعية يحبّب بالطاعة وأنت تزيّن المعصية، الداعية يطمئن وأنت تخوّف ؟! الداعية يشجّع وأنت تثبّط، هذا يشجّع وأنت تثبّط ؟! هو يدعو إلى الله وأنت تدعو إلى غير الله ؟! هو يدعو إلى طاعة الله وأنت تدعو إلى معصية الله ؟! هو يدعو إلى ترك الدنيا وأنت تدعو إلى حبِّ الدنيا؟! إياك أن تكون في خندقٍ آخر معادٍ لخندق الهُدى لأن الله عزّ وجل سوف ينتقم منك، الله عزّ وجل يُكَرّم من يحبّب عباده إليه ويقصم من يبغِّض عباده إليه، لذلك ورد في الأثر:

((يا رب أي عبادك أحبُّ إليك حتّى أحبّه بحبّك ؟ قال: يا داود أحبُّ عبادي إليّ تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبّني وأحبّ من أحبّني وحبّبني إلى خلقي.))

[ورد في الأثر]

هذه النصيحة أسديها لكم من أعماق قلبي: إيّاك أن تقف موقفاً معاكساً لدعوةٍ إلى الله عزّ وجل، إيّاك أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل، إياك أن تصرف الناس عن شيءٍ أراد الله أن يلتفتوا إليه.

المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة زمرة واحدة لكن صفاتهم مختلفة:

قال تعالى:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا(60))

بعض المفسّرين قال: هؤلاء زمرةٌ واحدة وصفاتهم مختلفة، أي أن الذوات متحدة والصفات متباينة، وبعضهم قال: الذات متباينة، أي أن أول قسم المنافقون صنف:

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

صنف:

(وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (60))

هذا صنفٌ ثالث.

الاتصال مع الله في الدنيا يغني عن آلاف الحظوظ:

على كلٍ لا يعنينا إن كانوا متّحدي الذوات أو مختلفي الذوات، الذي يعنينا أن هذه الصفات خطيرة، فإذا تَلَبَّسَ الإنسان بأحد هذه الصفات فهناك وعيدٌ من الله عزّ وجل يمحقه، ويهلكه، ويحجزه عن عمله، قال:

(مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا (61))

لا توجد في القرآن كلمةٌ يخاف منها المؤمن كهذه الكلمة **" ملعون"** أي بعيد عن الله عزّ وجل، كل، واشرب، وانغمس في الملذّات لكنّك بعيدٌ عني، أما المؤمن يقول:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صحّ منك الوصل فالكل هيّنٌ وكل الذي فوق الترابِ ترابُ

* * *

لكن الكافر طعامٌ، وشرابٌ، ولذّةٌ، وبيتٌ، ومكانةٌ، ووجاهةٌ، وانغماسٌ في الملذّات ولا يبالي بعد هذا ما يكون:

(مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا (61))

حتّى يوم القيامة، أكبر عقاب يُعاقب به الإنسان:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ(15))

(سورة المطففين)

أنت في الدنيا إذا كنت في اتصال مع الله فهذا الاتصال يغني عن آلاف الحظوظ، فاتك حظ المال لكن الاتصال بالله ما فاتك، فأنت بيدك كل شيء، وما فاتك شيء، فاتك حظُّ الجاه، فبقيت مغموراً في المجتمع، ما دمت مع الله عزّ وجل ما فاتك شيء، فاتك حظُّ الزوجة المُسْعِدَة، لك زوجة غير مسعدة، ما فاتك شيء، ما دمت مع الله عزّ وجل ما فاتك شيء، فاتك حظُّ الأولاد، ليس عندك أولاد، ما دمت مع الله عزّ وجل ما فاتك شيء، لهذا ما ندم سيدنا الصديق على شيءٍ فاته من الدنيا قط.

من حصّل الصلة بالله عزّ وجل وكان عند الله مرضياً ما فاته شيء:

لو تعلمون علم اليقين الذي حصّل الصلة بالله عزّ وجل، وكان عند الله مرضياً، ما فاته شيء:

((إن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء.))

[مختصر تفسير ابن كثير]

الإنسان لا يندب حظّه، لا يندب حظّه إلا الجاهل، هذا يندب حظّه من المال، هذا يندم حظّه من الصحّة، هذا يندب حظّه من الزوجة، هذا من الأولاد، هذا من العمل، لو عرفت الله عزّ وجل حقّ المعرفة، واتصلت به، وسعدت بقربه، لاعتقدت أن كل ما فوق الترابِ ترابُ:

(مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا (61))

قيل: **" كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله "**، إذا كنت في طاعة الله فأنت المنتصر، وأنت المتفوّق، وأنت الفائز، وأنت الناجح، وأنت الفالح، وأنت الذي تُغْبَطُ في يومٍ ما، البطولة من يضحك آخر الأمر لا أول الأمر، هناك أشخاصٌ كثيرون يضحكون في مقتبل حياتهم، تأتيهم الدنيا، يرقصون لها، يختل بها توازنهم، لكنهم بعد أمدٍ قليل يأتي المرض العُضال، ويلقى في الفراش سنوات، ويواجه مصير الموت، وما بعد الموت أشدُّ من الموت.

القصّة معروفة أن أحد العلماء الكبار ـ وأظُنه عبد الله بن المبارك ـ كان يمشي في موكبٍ عظيم بين إخوانه، وكان وسيم الطلعة، بهيّ المنظر، مُتَلألئ الأنوار، وكان أنيقاً في ثيابه، وحوله إخوانه، فرآه يهوديٌ يعمل أحَطّ الأعمال، وقد بلغ من الدنيا أدنى مرتبتها، فقال هذا اليهودي: **" يقول نبيُكم الدنيا جَنّةُ الكافر وسجن المؤمن "**، فأي سجنٍ أنت فيه ؟ وأية جنّةٍ أنا فيها ؟ فقال: **يا هذا لو قست ما أنا فيه لما وعدني الله به من الجنّة فأنا في سجن، ولو قست ما أنت فيه وما ينتظر الكافر من عقابٍ أليم فأنت في جنّة "**. يقال إنه أسلم وصار من إخوانه.

الشهرة ليس لها قيمة أبداً والعبرة أن يكون الإنسان على الحق:

الحقيقة أن الله عزّ وجل وعد المؤمن بجنّةٍ فيها:

((مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فلان يا أخي أنا وهو في مقعد واحد، والآن يحكي بمائة مليون، يحكي بألف مليون، أنت مؤمن أم أنك غير مؤمن ؟

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

ألا تكفيك هذه ؟ ما قيمة المال مع المعصية ؟ سوف يزول، أنا وهو على مقعد واحد وهو الآن له مكانة كبيرة وأنا لا أحد يعرفني، لا قيمة لهذه الشهرة، الشهرة ليست قيمة أبداً، هل هناك أشهر من إبليس ؟ بكل اللغات موجود، بكل الأمم والشعوب، فالشهرة ليس لها قيمة أبداً، فالعبرة أن يكون الإنسان على الحق:

(مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62))

معنى الآية التالية أن العنصر المؤذي يجب أن يُنْتَزَع ويزول وأن لا يبقى مع المؤمنين:

مثل بسيط جداً: إذا الإنسان كان عنده صندوق من التفّاح، فيه تفّاحة معاينة، الشيء البسيط جداً أن ينزع هذه التفّاحة ويلقيها حفاظاً على ما في هذا الصندوق من تفّاح، فهذا العنصر المؤذي يُنْتَزَع، هذا يجب أن يزول، أو يجب أن لا يبقى مع المؤمنين، هذا معنى قوله تعالى:

(أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61))

قال:

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62))

صف فيه ثلاثون طالباً، من أسر راقية، طلاب مهذّبون، مؤدّبون، مجتهدون، وطالب واحد دلّ هذا على القِمار، ودلّ هذا على اللواط، ماذا يُفْعَلُ بهذا الطالب ؟ يُفْصَل فوراً، لأنه إذا بقي بين الطلاب أفسدهم جميعاً، فالصف ممتاز من حيث الأخلاق والاجتهاد، لكن فيه طالب واحد يسرق، علّم فلان السرقة، ويلعب بالقمار علّم فلان القمار، فالمدير الرحيم الحكيم حينما جاءته هذه الأخبار أن هذا الطالب علّم فلان القمار، وعلم فلان السرقة، وفلان جعله يتغيب عن المدرسة، يرى أن الحكمة تقتضي أن يفصله، وأن يبتره، هذا الإنسان المفسد الذي يقطع الناس عن الله عزّ وجل، يغريهم بالدنيا، ينغمسوا في الملذّات المحرّمة، يفسد النساء، يُغري النساء بالزنا، هذا الإنسان قال الله عنه:

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62) يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ (63))

أي عن يوم القيامة.

هناك ساعة عامّة هي يوم القيامة وساعة خاصّة بالإنسان لابدّ منها إن عاجلاً أو آجلاً:

سيدنا جبريل جاء النبي عليه الصلاة والسلام وسأله: متى الساعة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.))

[مسلم عن عمر]

فمتى الساعة ؟ هذا شيءٌ ادّخره الله لنفسه، لا يعلمه أحدٌ إطلاقاً:

(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63))

قد تأتي، وقد لا تأتي إلا بغتةً، ولكن الإنسان العاقل يعلم أن هناك ساعة عامّة هي يوم القيامة، وأن هناك ساعة خاصّة به، فالموفّق، والعاقل، والراجح هو الذي يتعامل مع الساعة الخاصّة التي لا بدّ منها إن عاجلاً أو آجلاً، فنسمع في هذه الأيام أن إنسان عمره بالأربعينات أصيب بأزمة قلبيّة وانتهى، أربعون، اثنان وأربعون، ثمانية وثلاثون، قرأت قبل أيام نعوة ما رأيت فيها إلا والد الفقيد، إخوة الفقيد، معنى هذا أنه غير متزوّج، سمعت أنه في الثامنة والثلاثين من عمره، هذه هي الساعة الخطيرة، ساعة اللقاء، مع ازدياد الهموم، ومع التكالب على الدنيا، ومع الانغماس في الشهوات، ومع التنافس على حُطام الدنيا، ومع التوتر النفسي الشديد، ومع ضغط الهم، هذا كله يتلف الإنسان، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر.

العاقل من هيأ نفسه لساعته الخاصّة وهي ساعة الفراق:

الإنسان العاقل هو الذي يهيئ نفسه لساعته الخاصّة ساعة الفراق، ساعة اللقاء، ولو تتبّع الإنسان أحوال الناس يرى العجب العجاب، هذا الإنسان أعدّ العُدّة لكل شيء، حسب لكل شيءٍ حساباً إلا شيئاً واحداً هو الموت، هذا ما لم يكن في حُسبانه، وما دخل في برامجه، ولا أعدّ له، ولا فكّر في حياته لحظةً كيف سيواجه الله عزّ وجل بهذه المعصية، وبهذا الظلم، وبهذا المال الذي أكله غصباً ؟ هذا أمرٌ عجيب، يخطِّط لثلاثين سنة.

قال أحدهم مرة: لقد تعبت، فقد بقي ستة أشهر وهو محتار أيمدد الشوفاج تمديداً داخلياً أم ظاهرياً، خائف أن يمدده تمديداً داخلياً وبعد عشرين سنة تتسرّب المياه فيضطر لكسر البلاط، يفكِّر لعشرين، وثلاثين، وأربعين سنة، بعد هذا استقرّ رأيه أن يركبه داخلياً لأنه أكمل، فإذا صار في المستقبل تسرُّب نركبه خارجياً ولا نكسر البلاط، وهذا الرجل مات بعد ستة أشهر، فهذا الذي يعدُّ لكل شيءٍ عدةً، يحسب لكل شيءٍ حساباً إلا الموت، هذه النهاية الكبرى، المغادرة هذه تأتيه فجأةً، تأتيه كالصاعقة لا يحتمل وقعها، الذين يعملون في اختصاصات قريبة من اختصاصات القلب يشاهدون من المرضى العجب العجاب، انهيار سريع، تجد إنساناً كان متماسكاً، له مكانته، له جبروته حينما تأتيه أزمة يصبح كالأطفال، السبب أن هذه الساعة ما أعدّ لها أبداً:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10))

(سورة المدثر)

الموت حق، لا بدّ من أن نموت جميعاً ؛ لكن البطل هو الذي يعمل في حياته كلِّها لهذه الساعة، كما قال مالك بن دينار: **" لمثل هذه الساعة كان دأبُ أبي يحيى "**، والمفروض نحن جميعاً، اجتهادنا، وطاعتنا لله، وصلواتنا، وعبادتنا، وتفكُّرنا، وتلاوتنا، وجهاد نفوسنا وهوانا، وخدمة الناس، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا العمل الصالح الدؤوب، كل هذا الجهد من أجل ساعة اللقاء، من أجل أن تكون في هذه الساعة من أسعد الناس، من أجل أن يكون الموت تحفة المؤمن، من أجل أن يكون الموت عُرْسَهُ، هذا هو العقل.

وصف لما ينتظر الكافرين من عذاب جهنم:

العقل أن تعدّ العُدّة لهذه الساعة:

(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64))

لعنهم في الدنيا، أبعدهم عنه، وأعدّ لهم في الآخرة سعيراً:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65))

لا يجدون ولياً يتولّى أمرهم، ولا نصيراً ينتصر لهم:

(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ (66))

تُقَلَّب الوجوه في النار من وجه إلى وجه، والوجه أكرم ما في الإنسان.

من يطيع إنساناً كائناً من كان في معصية الرحمن فهو أحمق وغبي:

قال تعالى:

(يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (66))

كلمة يا ليت، ولاتَ ساعة مَنْدَم:

(وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا(68))

إنسان يطيع إنساناً كائناً من كان في معصية الرحمن، فهو أحمق وغبي، لأنه في هذا الموقف لا ينفعه شيئاً، دقِّقوا:

(وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا (67))

سادتنا من تولّى أمرهم، أما كبراءنا هم الوجهاء:

(فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67))

ضللنا السبيل إليك يا رب، فرعون وكما قال الله عزّ وجل عنه:

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى(79))

(سورة طه)

الذين حملوا غيرهم على معصية الله لهم ضعف العذاب لأنهم ضلوا وأضلوا:

عندما يطيع الإنسان إنساناً، كما لو أطاع الرجل زوجته في معصية الله تنطبق عليه هذه الآية، لو كنت موظّفاً في متجر وقال لك صاحب المتجر: افعل كذا، وهي معصية ففعلتها تنطبق عليك هذه الآية:

(وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا(68))

لأنّهم ضلوا وأضلوا، فسدوا وأفسدوا، عصوا وحملوا غيرهم على المعصية:

(وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68))

لذلك يختم الله عزّ وجل هذه السورة بهذا المقطع الأخير:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

هذا نأخذه إن شاء الله تعالى في درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (17-18): تفسير الآيات 69 - 71
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-01-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السابع عشر من سورة الأحزاب.

الإيذاء الحقيقي الذي يمكن أن يبلغ الأنبياء هو أن تعمل عملاً يعيق رسالتهم:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

(سورة الأحزاب)

أسلوبٌ حكيم أن يَذكِّر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالأخطاء الفادحة التي وقع بها قوم موسى حينما آذوه، ومعنى آذوه أي كذّبوه، وسَفّهوا دعوته، ولم يلتفتوا إلى أمر الله عزّ وجل، فأية معارضةٍ، أو تكذيبٍ، أو استخفافٍ، أو استهزاءٍ، أو إعراضٍ، أو تفنيدٍ، أو تجريحٍ بدعوة النبي عليه الصلاة والسلام فهذا إيذاءٌ له وأي إيذاء، والإيذاء الحقيقي الذي يمكن أن يبلغ الأنبياء هو أن تعمل عملاً يعيق رسالتهم، عامّة الناس إيذاؤهم أن تأخذ من مالهم، إيذاؤهم أن تشتمهم، إيذاؤهم أن تنتقص منهم لذاتهم، ولكن الأنبياء منزّهون عن هذا الألم، الأنبياء إيذاؤهم الشديد أن تفعل شيئاً يُبعد الناس عنهم، فالتكذيب، والسخرية، والاستهزاء، والتفنيد، والإعراض، وعدم الاكتراث هذا هو أشدُّ أنواع الإيذاء، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

إذاً الإيذاء بالقول، هذا دليل قطعي وواضح على أن إيذاء الأنبياء كان بالقول:

(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلا أَذًى)

(سورة آل عمران: من آية " 111 ")

الكافر يطلق لسانه بكل ما يُزعج المؤمن، أحياناً يكذِّبه، أحياناً يدَّعي أن له أغراضاً، أحياناً يدَّعي أنه لضعفه اتجه هذا الاتجاه، على كلِ أية كلمةٍ ينطق بها إنسان مُعْرِض بهدف قطع الناس عن الله عزّ وجل، أو دفع الناس إلى إيذاء النبي، أو إبعادهم عن هذه الرسالة السامية، أي أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، كيف أن الدعاة إلى الله عزّ وجل يقرّبون الناس من الله، أعوان الشيطان يبعدون الناس عن الله.

الإنسان طاقة إما أن توظف هذه الطاقة في خدمة الحق وإما أن توظف في خدمة الباطل:

الناس رجلان، رجل يقرّب، ورجل يُبْعِد، رجل يحبّب، ورجل يبغِّض، رجل يدعو إلى ورجل يدعو عن، رجل يدفع ورجل يصرف، فهنيئاً لمن كان دوره في الحياة الدَفْعَ، والتقريب، والتحبيب، والتوضيح، والتبيين، والإحسان ؛ والويل لمن كان دوره في الحياة قطع ما أمر الله به أن يوصل، تكذيب ما ينبغي أن يُصدّق، تسفيه ما ينبغي أن يُبَجّل، دفع الناس إلى الدنيا وإلى المعاصي، وصرفهم عن الله عزّ وجل، وعن آياته، وعن بيوته.

الإنسان لا بدّ من أن يكون فاعلاً، الإنسان طاقة، الإنسان باللغة المعاصرة ديناميكي، أي أنه طاقة تتحرّك، هذه الطاقة ؛ طاقة فكريّة، طاقة عضليّة، طاقة نفسيّة، طاقة جسميّة، هذه الطاقة إما أن توظّف في خدمة الحق، وإما أن توظّف في خدمة الباطل، إما أن يكون فكرك، ووقتك، ومالك، وعضلاتك، وخبرتك، وعلمك في سبيل تقريب الناس من الله عزّ وجل، في سبيل إسعادهم، في سبيل تنوير الطريق أمامهم، في سبيل تحبيب الناس بربّهم، وإما أن يكون فكرك، ووقتك، وجهدك، وعضلاتك، وعلمك، وخبرتك في سبيل إبعاد الناس عن ربّهم، وصرفهم عن طاعته، وتحبيب الدنيا لهم، فالمشكِّك، المنتقد، الساخر، المُسْتَخِف بدعوة الله عزّ وجل الويل له لأن العاقبة للمتقين، الأمور تدور وتدور وفي النهاية العاقبة للمتقين. هؤلاء الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام ما مصيرهم ؟ قُتِلوا في بعض المعارك، وليس قتلهم هو العقاب، ولكن مكانتهم في الوحل، كانوا مع الشيطان، هؤلاء الذين آمنوا به وعزّروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنْزِلَ معه أين هم ؟ في حمى الرحمن، يكفيهم أن الله عزّ وجل قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الفتح: من آية " 18 ")

يكفي أن خالق السماوات والأرض رضي عنهم، فهذه الآية فيها تربية نفسية حكيمة، أي: يا أيها المؤمنون لا تكونوا كأصحاب موسى سخروا، وكذبوا، وفندوا، وانتقدوا، وأعرضوا، فبرأه الله مما قالوا.

إذا اتهمت نبياً أو عالماً أو داعية يجب أن تعلم أن اتهامك وحده لا يكفي فهناك حقائق

أنت بإمكانك أن تقول عن الذهب أنه حديد، هذا يمكن أن تقوله، ولكن إذا قلت هذا الكلام أيصبح الذهب حديداً ؟ هنا المشكلة، بإمكانك أن تقول عن رجل عالم إنه جاهل، ولكن هذا القول هل يجعله جاهلاً ؟ تبقى أنت الجاهل، يمكن أن تتهم الأمين بالخيانة، ولكن هذا الاتهام هل يجعله خائناً ؟ يمكن أن تتهم حتى

الأنبياء، بعض علماء النفس الذين يعدون من أركان الكفر في الدنيا ـ فرويد ـ وهو الذي فَسَّرَ كل شيءٍ بالجنس، فسر كل سلوك الإنسان بالجنس، حتى الأنبياء لم ينجوا من لسانه اتهمهم بالجنسية المثلية، فهل هم كذلك ؟ لا هذا كلام، إنها كلمة تخرج من أفواههم:

(كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ)

(سورة الكهف: من آية " 5 ")

إذا اتهمت نبياً، أو إذا اتهمت عالماً، أو إذا اتهمت داعيةً، يجب أن تعلم علم اليقين أن اتهامك وحده لا يكفي فهناك حقائق، كنت أقول دائماً هذه الأمثلة، أنت معك كيلو من المعدن، بذكاءٍ شديد، وقوة حجةٍ بارعة أقنعت الناس بأنه ذهب وصدق الناس دعواك، وهو في الحقيقة ليس ذهباً إنه معدنٌ رخيص، من هو الخاسر ؟ الخاسر أنت، وإذا كان معك ذهبٌ، واتهمك الناس بأن هذا المعدن رخيص، من الرابح ؟ الرابح أنت، فخيرك منك، وشرك منك، لا شأن للناس بك، لذلك ورد في الحديث القدسي:

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك، قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي))

[من الدر المنثور: عن " ابن عباس "]

الناس رجلان برٌ كريم وخَبٌ لئيم فالمؤمن متصل بالله والكافر منقطع عنه:

إذاً الناس رجلان ؛ مُقَرّب إلى الله ومُبَعِّد عن الله، مُحَبّب ومُبَغِّض، مبيّن ومضلل، محسن ومسيء، منضبط ومتفلت، على اختلاف أجناس الناس، وعلى اختلاف أعراقهم، وأنسابهم، واتجاهاتهم، ومللهم، ونحلهم، وتفكيرهم، وطبقاتهم، وانتماءاتهم، بالنهاية الناس رجلان برٌ كريم وخَبٌ لئيم، فالمؤمن يُقَرّب، المؤمن يُحَبّب، المؤمن يُبَيّن، المؤمن ينضبط، المؤمن محسن، المؤمن مصلح ؛ الكافر مُبَعِّد، مُبَغِّض، مُضَلِّل، مُتَفَلِّت، مسيء، مفسد، هذا هو التقسيم الحقيقي لبني البشر، متصل بالله ومنقطع عنه.

المؤمن جهده الأكبر وهدفه الأقصى أن يقرب الناس من الله، أولاً بدعوته، ثانياً بقيَمِهِ، ثالثاً بقدوته، بسلوكه، بأعماله، بأفعاله، بأقواله، بحرفته، بصنعته، كل شيءٍ في المؤمن يدعو إلى الحق، وكل شيءٍ في الكافر يدعو إلى الباطل، فهنيئاً لمن كان معيناً على الخير، هنيئاً لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، هنيئاً لمن أطلق لسانه في الحق، والويل لمن أطلق لسانه في الباطل، هنيئاً لمن قرّب الناس من الله، والويل لمن أبعدهم عنه، هنيئاً لمن حبب الناس بالله، والويل لمن بَعّد الله إليهم، عن طريق قسوتهم، وعن طريق جفوتهم.

يا أيها الذين آمنوا، أسلوب تربوي رائع، أن إياكم أن تكونوا كأصحاب موسى، إياكم أن تكونوا في تعاملكم مع نبيكم، كما تعامل أصحاب موسى مع نبيهم، طبعاً القصة لها معنى، عندما تكلم بعض من عاصر النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا: **كيف يتزوج زوجة متبناه ؟** فالله عزّ وجل يرد عليهم، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

النبي له مقام رفيع جداً، أما أن يمر النبي في الطريق فيرى باباً مفتوحاً، فينظر إلى امرأةٍ يبدو له منه جمالها، فيقول: **سبحان الله متأوّهاً**، وتسمع زينب كلامه فتخبر زيداً، الأنبياء فوق هذا المستوى، فوق هذا بكثير، هذا اتهامٌ باطل، هذا جهلٌ بمقام الأنبياء، المؤمن الورع يبدو أرقى من هذا المستوى.

النبي علمنا أن نتّقي الشبهات وأن نتقي مواطن التهم:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[الجامع الصغير: عن " ابن عمر "]

إذا كنت عند الله وجيهاً فلا عليك، قل مع من قال: وكل الذي فوق التراب تراب، لكن النبي علمنا أن نتّقي الشبهات، أن نتقي مواطن التهم، كما فعل حينما رأى صحابيين أنصاريين يمشيان في الليل وقد رأيا النبي مع زوجته، فقال عليه الصلاة والسلام:

((على رسلكما))

فاستحيا وأسرعا، فقال:

((على رسلكما ـ أي انتظرا ـ هذه زوجتي فلانة))

فقالوا: أبِكَ نشك يا رسول الله ؟ قال:

((لئلا يدخل الشيطان بينكما))

أنت كمؤمن مكلف أن تتقي الشبهات، مكلف أن تبتعد عن مواطن التهم، وبعدئذٍ لا عليك لأن الله هو الحق، وهو الذي سيظهر الحق.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا (69))

بل إن من أسماء الله الحسنى الحق، ومن معنى هذا الاسم أنه سيظهر الحق، فأي متهمٍ بريء سوف يبرّئه الله عزّ وجل، وأية تهمةٍ كاذبةٍ سوف يكشفها الله عزّ وجل، وأي تطاولٍ ظالم سوف يضع الله صاحبه عند حَدِّهِ، هو الحق لأنه الحق:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا (69))

الدنيا فيها ابتلاء ولكن الأمور لا تستقر إلا على رفعة المؤمن ونصرته وتوفيقه:

الشيء الثاني:

(وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

كان عند الله ذو شرفٍ وشأنٍ عظيم، الشيء الأساس أن هناك آية لا تزيد عن كلمتين، لو عقلهما الإنسان عقلاً صحيحاً، لتغيرت حياته من أساسها، الآية:

(والعاقبة للمتقين(128))

(سورة القصص)

النهاية مع المؤمن، الدنيا فيها ابتلاء، وفيها امتحان، يصعد هذا ويهبط هذا، يغتني هذا ويفتقر هذا، يعز هذا ويذل هذا، هذا في الدنيا، ولكن الأمور لا تستقر إلا على رفعة المؤمن، ونصرة المؤمن، وتوفيق المؤمن، هكذا قال الله عزّ وجل:

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ(3))

(سورة القمر)

اتهام الناس لا يقدم ولا يؤخر لأن الحقيقة هي الشيء الثابت:

آت بكرة وليكن في داخلها قطعة رصاص ودحرجها، مهما تدحرجت لا تستقر إلا على وضعٍ واحد، أن تكون هذه القطعة الثقيلة على الأرض:

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ(3))

(سورة القمر)

لك أن تقول ما تشاء، ولك أن تدّعي ما تشاء، ولك أن تبالغ، ولك أن تطعن، ولك أن تفنِّد، ولك أن تنتقد، ولك أن تتهم، افعل ما تشاء، لكن كل الكلام الذي تقوله لا يقدِّم ولا يؤخِّر، حقيقةٌ ثابتة، فمثل بسيط جداً: مركبة، سمِّها ما شئت ! هي مركبة، لها معمل صنعها، ولها شكلها، ولها أناقتها، ولها إمكاناتها، ولها ميزاتها، إذا اتهمتها بأنها مركبة قديمة تبقى جديدة، قل عنها قديمة هي جديدة، قل عنها بطيئة هي سريعة، قل عنها رخيصة هي غالية، قل عنها ما شئت، كلامك لا يقدم ولا يؤخر ولا يغير شيئاً من الواقع.

قل عن هذه الورقة كتاب تبقى ورقة، فالكتاب كتاب، قل عن الكتاب ورقة يبقى الكتاب كتاباً.

أردت من هذه الأمثلة أن أبين لكم أن اتهام الناس لا يقدم ولا يؤخر، ولا يرفع ولا يخفض، ولا يجعل الغث ثميناً ولا الثمين غثاً، ولا الصالح طالحاً ولا الطالح صالحاً، ولا المحسن مسيئاً ولا المسيء محسناً، ولا المؤمن كافراً ولا الكافر مؤمناً، كلامٌ يلقى على عواهنه، لكن الحقيقة هي الشيء الثابت، الحق الشيء الثابت.

المنافقون أغبياء لأن أمرهم بيد الله ومن ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا:

لو أن إنساناً عاصر النبي عليه الصلاة والسلام، واستطاع بذكاءٍ حاد، وحجةٍ قوية، وطلاقة لسان أي ينتزع من فم النبي عليه الصلاة والسلام، وهو سيد الخلق وحبيب الحق، أن ينتزع منه حكماً في خصومةٍ لصالحه، وهو ليس مُحِقّاً، قلت: على الرغم من أن هذا الرجل الذكي، قوي الحجة، طليق اللسان، الذي استطاع أن ينتزع حكماً من فم النبي عليه الصلاة والسلام لصالحه في خصومةٍ، على الرغم من كل ذلك لا ينجو من عذاب الله ! الدليل هو قول النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار))

[مجمع الزوائد: عن " ابن عمر "]

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق، وهو المعصوم، لا ينفعك أن يحكم لك إن لم تكن مصيباً، إن لم تكن مع الحق، فهل ينفعك إنسانٌ دون النبي ؟! إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيع أن ينفعك في ظلامة، هل ينفعك من دونه ؟! من باب أولى لا ينفعك، علاقتك مع الله. لذلك ؛ المنافقون أغبياء، لأن أمرهم بيد الله، هم نسوا ربهم واتجهوا إلى غيره، فأحبط أعمالهم، العصاة أغبياء، من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا.

البطولة أن تثبت حجتك يوم القيامة وأن تنجو من هول ذلك اليوم:

سيدنا سعد بن أبي وقاص ـ هو صحابي جليل ـ هو الصحابي الوحيد بين أصحاب رسول الله الذي كان إذا قدم على النبي عليه الصلاة والسلام، النبي يحيّه أجمل تحية ويداعبه، يقول:

((هذا خالي فليرني امرؤ خاله))

[كنز العمال: " عن جابر "]

في السيرة النبوية الشريفة، النبي عليه الصلاة والسلام ما فدى إنساناً بأمه وأبيه إلا سيدنا سعد بن أبي وقاص، في أُحُدٍ قال:

((سعد ارم فداك أبي وأمي))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة: عن " علي "]

قال له عملاق الإسلام سيدنا عمر كلمةً رائعة:

" يا سعد لا يَغُرّنَكَ أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له."

أبلغ من هذا، فقد قال النبي الكريم لابنته الحبيبة إلى قلبه:

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن " أبي هريرة "]

أي أن علاقتك مع الله في كسب المال، في نصح المسلمين، أقول هذه الكلمة دائماً: البطل هو الذي يهيّئُ جواباً لله عزّ وجل يوم القيامة، لمَ طلقت هذه المرأة ؟ هل معك الجواب ؟ لمَ كتبت لك بيتها ثم طلقتها ؟ لمَ غششت هذا الذي اشترى منك هذه البضاعة ؟ لمَ أخفيت عنه العيب ؟ هل معك جواب ؟ لمَ أعطيت فلاناً ؟ لمَ منعت فلاناً ؟ البطولة أن تثبت حجتك يوم القيامة، البطولة أن تنجو من هول يوم القيامة، هذه البطولة، فهذه الدنيا دار ابتلاء، دار امتحان، دار عمل، ولكن الآخرة دار جزاء.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

الدين كلمتان ؛ معرفة الله والطاعة له:

أيها الأخوة الأكارم، الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ (70))

هذه الآية فيها كل الدين، إذا آمنت بالله أطعته، إن آمنت به ولم تطعه فكأنك ما آمنت به، أما أن تطيعه من دون أن تؤمن به فهذا مستحيل، أن تؤمن به ثم تعصيه فهذا إدعاء، وهذا كلامٌ فارغ، وهذا في الحقيقة ليس إيماناً، فلو قال لك أحدهم ـ لا سمحَ الله ـ على كتفك عقربٌ، لو قلت له: شكراً، أنا شاكر لهذه الملاحظة القيّمة، وسوف أكافئك عليها إن شاء الله في المستقبل، لو قلت هذا الكلام بهذا الهدوء معناها أنك لم تفهم هذا الكلام الذي قاله لك، لو قلت له: شكراً على هذه الملاحظة التي ينبغي أن أقدّرها حق قدرها، إذا قلت هذا الكلام بهذا الهدوء، لم تفهم ماذا قال لك، لو أنك عرفت ما هي العقرب، وأن لدغتها مميتة، لقفزت من على الأرض حينما سمعت كلمة عقرب، لأنك آمنت بأن الحياة صارت خطرة، فما دمت لم تأبه معنى ذلك أنك ما عرفت معنى الكلمة، أو ما عرفت العقرب ما هي، أو لم

تسمع منه بدقة، فمن لوازم الإيمان الطاعة، الإيمان من دون طاعةٍ لا جدوى منه، والأصح أنه ليس إيماناً، أما الطاعة من دون إيمان هذا شيء مستحيل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ (70))

إن كنت آمنت بالله فاتق الله، التوحيد هو نهاية العلم أن تؤمن بالله، ونهاية العمل أن تطيع الله عزّ وجل، وما الدين كله إلا كلمتان ؛ معرفة الله وطاعة له، الطاعة لا تكون قبل المعرفة، والمعرفة الحقيقية لا تثمر إلا طاعة.

كل اعتقادٍ صحيح يؤدِّي إلى قول سديد:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70))

من بعض معاني هذه الآية أن الإنسان إذا اعتقد اعتقاداً صحيحاً قال قولاً سديداً، فإذا نصح أحد شاباً مُقْدِماً على الزواج، أن يذيب أوقية من الملح في ماء وأن يصب هذا الماء أمام بيت المتزوج، من أجل أن يكون الوفاق بينهما، هذا الكلام غير سديد، لماذا ؟ لأن الاعتقاد غير صحيح، الاعتقاد غير الصحيح يثمر كلاماً غير سديد، وإذا قال أحدهم للآخر: إن لم تغش الناس لن تستطيع أن تكسب قوت يومك، هكذا الدنيا، هذا كلامٌ غير سديد، لأنه بني على اعتقادٍ غير صحيح، فإذا أمرنا أن نقول قولاً سديداً، فالقصد أن نعتقد اعتقاداً صحيحاً، لأن كل اعتقادٍ صحيح يؤدِّي إلى قول سديد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70))

أي أن أخطر شيءٍ في حياة الإنسان عقيدته، إن صحَّت صَحَّ عمله، وإن زاغت زاغ عمله، إن صحت صح سلوكه، وإن فسدت فسد عمله، فإذا طُلِب منك أن تقول قولاً سديداً، أي أنك مطالبٌ ضمناً أن تعتقد اعتقاداً صحيحاً حتى تقول قولاً سديداً، أيّة نصيحةٌ تسديها للناس إذا كان أساسها المعصية فهذا قولٌ غير سديد، كأن تقول: لن ترتقي في عملك إلا إذا كذبت هذا كلام غير سديد، أيها المحامي لن تربح أرباحاً طائلةً إلا إذا بنيت عملك على الكذب ! هذا كلام غير سديد، أيها التاجر لا بدَّ من التدليس في البضاعة حتى تباع سريعاً ! هذا كلام غير سديد، معنى غير سديد أي غير صحيح، أو غير صادق، أو غير صائب، أي لا يطابق الواقع، غير صادق ولا يطابق الواقع، أي فيه خطأ، فيه خلل، فأي كلامٍ غير سديد أساسه اعتقاد غير سديد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70))

أي اعتقدوا اعتقاداً صحيحاً، هذه واحدة.

القول السديد هو في الحقيقة عملٌ سديد فمن لوازم القول السديد العمل الصحيح:

المعنى الثاني: أنك إذا قلت قولاً سديداً، أي إن لم تكذب، ما كذبت أبداً، ولا اغتبت، ولا كان كلامك فاحشاً، ولا بذيئاً، ولا فيه سبابٌ، ولا فسوق، ولا عصيانٌ، ولا فيه تحقيرٌ، قال عليه الصلاة والسلام:

((المُسلِمُ أخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ))

[رواه مسلم عن " أبي هريرة "]

إذا قلت قولاً سديداً بشكلٍ طبيعي صار عملك صحيحاً، فمن لوازم القول السديد العمل الصحيح. صار عندنا أشياء ثلاثة: عقيدة صحيحة تفرز قولاً سديداً، والقول السديد يفرز عملاً صالحاً، إذا إنسان ضبط لسانه يصبح عمله جيداً، لو فرضنا عمل بالتجارة، وقال له شخص ما: هذه البضاعة من أين مَنْشَؤها ؟ ما دام عاهد نفسه أن لا يكذب، تكلم كلاماً صحيحاً، وباعها بسعرٍ معقول، وأظهر عيبها، فهذا القول السديد صار عملاً سديداً، لأن الأقوال أعمال، لم يكذب، ولم يدلس، ولا أخفى، في موطن الكلام تكلم، في موطن السكوت سكت، هو في جلسة وجاءت قصة زيد، سكت، يعرف عنه قصصاً ممتعةً جداً، لو تكلم بها لوقع في الغيبة، لكنه سكت، أو تكلم فنصح، إذاً هذا القول السديد هو في الحقيقة عملٌ سديد، من هو التاجر ؟ هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا))

[الجامع الصغير: عن " معاذ "]

صار الكلام عملاً.

((إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا ـ الوعد أيضاً كلام ـ وإذا اشتروا لم يذموا، ـ أيضاً كلام ـ وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا))

[الجامع الصغير: عن " معاذ "]

التاجر الصدوق قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام:

((التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء))

[الجامع الصغير: عن " أبي سعيد "]

الإيمان من لوازمه العمل أما العمل من دون إيمان لا يكون:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (71))

اعتقادٌ صحيح يؤدِّي إلى قولٍ سديد، والقول السديد من لوازمه عملٌ رشيد، اعتقادٌ صحيح، قولٌ سديد، عملٌ رشيد، والإيمان من لوازمه العمل، أما العمل من دون إيمان لا يكون، الإيمان بلا عمل جنون، والعمل من دون إيمان لا يكون.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70))

آمنت بالله، ماذا تنتظر ؟ لمَ لا تطيعه ؟ أنت ثقافتك عالية، أيقنت أن هذه الرائحة رائحة غاز الاحتراق في البيت ؟ نعم، وأيقنت أن هذا الغاز قابل للانفجار ؟ نعم، وأيقنت أنه في كل لحظة يمكن أن ينفجر البيت ؟ نعم، فلماذا أنت واقف ؟ لمَ لا تذهب وتغلق هذا الصنبور ؟ لمَ ؟ لأن هذا الشيء لا يعقل، إذا آمنت بأن هذا الغاز منفجر، وربما أحرق البيت كله، والرائحة ثابتة، وأنت متحرّك، لماذا أنت واقف ؟ فعلاً هذا سؤال كبير جداً، هل تعرف أن غض البصر أمر إلهي ؟ نعم، كيف تطلق بصرك ؟ فإذا قلت أنا: هل هذا الكلام كلام الله ؟ كلام الله، عندك شك ؟ لا، أعندك شكٌ أن هذا الكلام ليس كلام الله ؟ لا والحمد لله، لكنه يأمرك أن تفعل هكذا، أعندك شك أن هذا القرآن ليس كلام الله ؟ لا وأعوذ بالله، هو يأمرك ألا تأكل أموال الناس بالباطل.

هناك سؤال خطير جداً، سؤال محرج: ما دمت قد آمنت بالله لماذا أنت واقف ؟ أين حركتك ؟ أين مبادرتك إلى طاعة الله ؟ أين هروبك من المعصية ؟ أين المَنْهَل الذي تشرب منه ؟ آمنت أن العلم هو كل شيء ؟ آمنت أن العلم هو الطريق الوحيدة إلى الله عزّ وجل ؟ آمنت أن رتبة العلم أعلى الرتب ؟ نعم، آمنت أن أعلى كتابٍ في الكون هو كتاب الله عز وجل ؟ نعم، فلماذا لا تسعى إلى فهمه ؟ لماذا ؟ ما الذي يمنعك عن أن تفهم كلام الله ؟ موعد ؟ ما هذا الموعد ؟ لقاء، ضيف، استقبال شخص ؟ ألا ترى أن أي نشاطٍ تفعله وقت مجلس العلم نشاطٌ تافه، تافه جداً، استقبلت إنساناً، يقول لك: والله في مطر الحمد لله، الأسعار عندكم ؟ الأمطار ؟ هذا الكلام ؟ أحياناً تمضي وقتاً بموضوعٍ سخيفٍ جداً، وتضيّع عليك شيئاً ثميناً جداً وهو معرفة كلام الله عزّ وجل، منهجك في الحياة.

مفهوم اللهو كما فسره العلماء:

ما هو اللهو كما فسره العلماء ؟ أن تشتغل بالخسيس عن النفيس، إنسان غاص في البحر، وتعرض لأخطار أسماك القرش، وأخطار الاختناق، وأخطار تعطل غاز الأوكسجين، وأخطار الجزر المرجانية، وأخطار بعض الأفاعي في البحار، وغير ذلك من الأخطار، ووصل إلى قاع البحر، فرأى اللؤلؤ ورأى الصدف، ترك اللؤلؤ وحمل الصدف وصعد به إلى وجه الماء ! نقول: هذا يلهو، لأنه ترك النفيس واشتغل بالخسيس، وشأن الناس الآن أكثرهم هكذا، يدعون مجالس العلم، يدعون فهم كلام الله، يدعون

فهم سنة رسول الله، يدعون عبادة الله، يدعون الأعمال الصالحة التي ترفعهم عند الله، وهم غارقون إلى قمة رأسهم في الأشياء الخسيسة، التي عند الموت لا تقدم ولا تؤخر، ولا تعطيهم شيئاً:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ السَّاخِرِينَ(56))

(سورة الزمر)

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (71))

العلم بالله هو الطريق الوحيدة إلى الله فهو طريق سعادة الدنيا والآخرة:

ملخص الملخص: أنك مخلوقٌ للجنة، ففيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، خُلِقتَ لها، والجنة كما قال الله عزّ وجل:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

تحتاج إلى عمل صالح، والعمل الصالح لا يمكن أن يكون من دون علم ـ أنا أسلسل الأمور ـ أنت مخلوقٌ للجنة، والجنة ثمنها العمل الصالح، والعمل الصالح من غير علمٍ لا يكون، ألا ترى معي أن العلم بالله هو الطريق الوحيدة إلى الله، طريق سعادة الدنيا والآخرة، هذا الذي قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: **" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ".**

أحياناً شركة تطور صناعتها، وتنفق على التطوير مئات الألوف، بل ألوف الملايين، من أجل تطوير صناعة، فإذا نجحت بيع إنتاجها في العالم كله، ووقف الناس بانتظار أن يتاح لهم شراء هذه البضاعة، وتصبح شركةً تبيع في كل أقطار العالم بفضل التطوير العلمي لإنتاجها، وأما الصناعة التي بعيدة عن التفكير العلمي في التطوير تبقى كاسدة، فكلام الإمام الشافعي صحيح: **" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم"**، حتى بمجال كسب المال الذي يفكر بطريقةٍ علمية يحقق أهدافه كلها، والذي يفكر بطريقةٍ أساسها الجَهل، قد يفاجأ، قد يحبط عمله، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم.

أنا ألح على هذه الفكرة لأن هذا يقيني ؛ أنك لن تصل إلى الله إلا بالعلم، فهذا الذي يجعل خرق العادات هو الوسيلة الوحيدة بتعريف الناس بالله، هذا إنسان ضال مضل، ماذا يجدي الناس أن تقوم بأعمال أمامهم غير اعتيادية ؟ ماذا يجديهم أو ينفعهم أن تخرق العادات ؟ لهم أمراض، لهم أسئلة كثيرة جداً، لهم مشكلات، لهم شُبُهَات، يجب أن تجيب أسئلتهم، وأن تحل مشكلاتهم، وأن توضح الشبهات حتى

ترقى بهم إلى الله عزّ وجل، فلذلك لابدّ من العلم، والعلم له مكان، فلا يوجد إنسان أخذ دكتوراه في الطب وهو في بيته، مستحيل، إنسان يصل لأهدافه وهو جالسٌ في بيته، هذا من رابع المستحيلات، فالله سبحانه وتعالى أراد أن تكون صلاة الجمعة فريضةً، لماذا ؟ من أجل العلم.

كلما زادت الشبهات والشهوات أصبحت بحاجةٍ إلى علمٍ صحيح وقدرةٍ على ردِّ كل الشبهات:

في هذا الدين العظيم فريضةٌ نص عليها القرآن الكريم:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة: من آية " 9 ")

ماذا في صلاة الجمعة ؟ ماذا تزيد صلاة الجمعة على صلاة الظهر في المسجد ؟ الخُطبة، معناها أراد الله عزّ وجل أن تطلب العلم، يوجد في الخطبة آية، حديث، حكم فقهي، تذكرة بالآخرة، قصة عن أصحاب رسول الله، وهكذا كلما زادت الشبهات والشهوات أصبحت بحاجةٍ ماسةٍ إلى علمٍ صحيح، وإلى عقيدةٍ راسخة، وإلى فهمٍ دقيق، وإلى إدراكٍ عميق، وإلى قدرةٍ على رد كل الشبهات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ (71))

كل بني آدم خَطّاء، ولكن العبد ـ كما قلت لكم دائماً ـ عندما يكون الإنسان مؤمناً بالله عزّ وجل، مؤمناً بضعفه، يعرف حجمه، يذعن لله عزّ وجل في كل ما أمر، هذا الإنسان قد تزل قدمه أحياناً، قد يقع في خطأٍ غير مقصود، ما دام قد آمن بالله، واعترف بعبوديته له، وما دام في الحياة، فطريق التوبة وطريق غفران الذنوب طريقٌ واضح، فلذلك هذا طمأنينة، النبي عليه الصلاة والسلام هو المعصوم، ولكن المؤمن لو أنه أخطأ، لو أنه قَصَّرَ، لو أنه أساء عن غير قصدٍ منه، فإن باب التوبة مفتوح، باب الإصلاح مفتوح.

من كانت مقاييسه منطبقةً مع كلام الله عزّ وجل فسوف يفوز فوزاً عظيماً:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

أيها الأخوة الأكارم، بربّكم: من تراه أنت في أعماقِك من دون رقابة ؟ من تراه فاز فوزاً عظيماً ؟ قل لي من هو الفائز عندك أقل لك من أنت ؟ إنسان اشترى أرضاً، باعها بخمسين ضعفاً، هل تقول هنيئاً له؟ إنسان اشترى بيتاً، ارتفع سعره ثلاثين ضعفاً، خمسين ضعفاً ؟ إنسان حقق بتجارته أرباحاً مذهلة ؟

إنسان اقترن بامرأةٍ تروق له ؟ إنسان اقتنى أجمل التحف ؟ من هو الفائز ؟ قل لي من هو الفائز في نظرك أقل لك من أنت، أما إذا كانت مقاييسك منطبقةً مع كلام الله عزّ وجل:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

قد تكون أنت وصديق لك في مقعد دراسة واحد، أن تكونا صغيرين على مقعدٍ واحد، وأنت عرفت الله، وأطعته، وأنت في طريق مرضاته ؛ لكن دخلك قليلٌ قليل، وحياتك خشنة، وبيتك صغير، وهذا الصديق الذي كان إلى جانبك على مقعدٍ واحد صار يتكلم بألوف الملايين، وله من البيوت أجملها، ومن المركبات أكثرها حداثةً وأغلاها ثمناً، وله من المزارع أجملُها، إذا قلت مرةً: هنيئاً له، لقد أعطاه الله وحرمني، فأنت لا تعرف الله أبداً، وأنت لست في مستوى هذه الآية.

إن لم تكن رؤيتك للفوز العظيم كما يقول الله عزّ وجل فلست مؤمناً:

خالق الكون يقول لك:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

أنت ماذا ترى الفوز ؟ في كسب الدرهم والدينار ؟ في اقتناء البيوت الفخمة ؟ في ركوب السيارات الفارهة ؟ في إنفاق الأموال الطائلة ؟ في المظاهر الفخمة ؟ في تجارةٍ عريضة ؟ في منصبٍ حساس ؟ في مركزٍ رفيع ؟ ماذا ترى أنت الفوز العظيم ؟ إن لم تكن رؤيتك للفوز العظيم كما يقول الله عزّ وجل فلست مؤمناً، هذا الذي له دخلٌ قليل، وبيتٌ صغيرٌ، وحياةٌ خشنةٌ، لكنه مطيعٌ لله عزّ وجل، يعرف لماذا خلق وإلى أين المصير ؟ هذا الذي يرى صديقه الذي كان إلى جانبه على مقعد واحد، قد صار يتحدث بالملايين، بمئات الملايين، وله من الدنيا العريضة ما شاء، إن قال هذا الأول هنيئاً للثاني فهو لا يعرف الله، يجب أن يقول: هنيئاً لي لمعرفة الله، وأرجو الله له الهدى، هكذا يقول، هنيئاً لك بمعرفة الله، هنيئاً لك بطاعته، هنيئاً لك بمرضاته، هنيئاً لك بإنفاق زكاة مالك، هنيئاً لك بخدمة الناس، هنيئاً لك بفهم كلام الله، هنيئاً لك بذكر الله.

الفرق بين كلام أهل الدنيا وكلام أهل العلم:

قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)

(سورة القصص: من آية " 79 ")

أحياناً الشخص يتأوّه من الآخرين تأوُّهاً تحس أنه انزعج بشدة، مثلاً أحدهم يملك بيتاً مساحته أربعمائة متر، وهو عنده غرفة ونصف، سيارته ثمنها اثنا عشر مليوناً، خير إن شاء الله:

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79))

(سورة القصص: من آية " 79 ")

هذا كلام أهل الدنيا:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص: من آية " 80 ")

هذا الجواب، فلذلك:

(ْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

والحمد لله رب العالمين، كنت أظن أن هذا الدرس هو الأخير من سورة الأحزاب، لكن من فضل الله عزّ وجل شُرِحَت هذه الآيات بالتفصيل.

الآيات التالية هي آيات التكليف والأمانة:

بقي علينا قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73))

هذه الآيات مهمة جداً، وهي آيات التكليف والأمانة، وأرجو الله سبحانه وتعالى في الدرس القادم أن يوفِّقنا إلى شرحها شرحاً دقيقاً لأنها أصل التكليف، أنت إنسان مكلّف، أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المكرّم، أنت الذي سخر له ما في السماوات والأرض، يجب أن تعرف ذاتك، يجب أن تعرف من أنت ؟ لأنه من عرف نفسه عرف ربه، يجب أن تعرف المهمة التي من أجلها خُلِقت، يجب أن تعرف الرسالة التي حملت، يجب أن تعرف الدار التي أنت عليها مُقبل، يجب أن تعرف الحساب الذي أنت سوف تحاسب به، فهذه أسئلة خطيرة جداً، فأنت الإنسان الأول والمكرم الذي خلق الكون من أجلك، قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

في الدرس القادم إن شاء الله نشرح هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-18): تفسير الآيتان 72 - 73
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-01-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثامن عشر والأخير من دروس التفسير لسورة الأحزاب.

الآيات التالية تحدد هوية الإنسان و مهمته ومرتبته بين المخلوقات:

وصلنا إلى آخر مقطعٍ من مقاطع هذه السورة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73))

(سورة الأحزاب)

أيها الأخوة الأكارم، هذه الآيات من أدق آيات هذه السورة، بل إن هذه الآيات تحدد هوية هذا الإنسان، وتحدد مهمته، وتحدد مرتبته من بين المخلوقات، بادئ ذي بدء، الإنسان كائن موجود أودع الله فيه قوةً تعرُّفِيَّة، قوة إدراكية، الإنسان يفهم، الإنسان يعقل، الإنسان يُدرك، هذا العقل الذي أودعه الله في الإنسان له مهماتٌ محدودة ؛ فبإمكانه إذا نظر في الكون أن يحكم بوجود خالقٍ لهذا الكون، وهذا الخالق هو ربٌ، وهو إلهٌ، وهو غنيٌ، وهو قويٌ، إلى آخر أسماء الله الحسنى، العقل يحكم من خلال الكون بوجود الله عزّ وجل، هذه من مهمة العقل.

والعقل كما يقول العلماء مناط التكليف، لولا العقل لما كُلِّفَ الإنسان، والعقل بإمكانه إذا قرأ هذا الكتاب أن يكتشف إعجازه، وإذا اكتشف إعجازه يحكم أن هذا الكتاب كلام الله عزّ وجل، وهذا أيضاً من مهمات العقل، والعقل يستنبط أن هذا الذي جاء بهذا الكتاب وهو المعجز لا بدّ من أن يكون رسول الله.

مهمة العقل أن يصل إلى الله إيماناً وأن يصل إلى الإيمان بكلامه وبرسوله:

إذاً عقلك يمكن له أن يصل إلى الله إيماناً، وأن يصل إلى الإيمان بكلامه وبرسوله، هذه مهمة العقل ؛ لكن العقل لا يستطيع أن يكشف ماذا كان في الأحقاب السحيقة من التاريخ، كيف نشأ الإنسان ؟ كيف خُلِق ؟ يا ترى خلقت المخلوقات دفعةً واحدة ؟ كيف خلق الكون ؟ هذا الماضي السحيق ربنا عزّ وجل حسمه بآية قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا(51))

(سورة الكهف)

هذه الآية:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)

مرةً شرحتها بمثل: لو فرضنا أب تزوج بالخمسينات، وبالستينات جاءه مولود فرضاً، هذا المولود كبر حتى صار شاباً، والأب كان مستأجراً محلاً تجارياً بالثلاثينات، وكان الأب جالساً مع أصحابه يقول: هذا المحل أخذته من فلان الفلاني، بأجرة قدرها كذا، والملابسات كذا، والقصة كذا، فوقف هذا الابن وقال: لا ليس كذلك أخذته من فلان لا من فلان، وبهذا المبلغ لا بذاك المبلغ، بماذا يجيبه الأب ؟ أين كنت يوم استأجرت المحل التجاري ؟ أين كنت وقتها ؟ لم تكن شيئاً مذكوراً، فالإنسان حينما يتنطّع إلى تفسير بداية البشرية، فيقول: الإنسان الحجري وما إلى ذلك، فحينما يلغي البداية التي شرحها الله في القرآن الكريم، نقول لهذا الإنسان: كيف عرفت بداية الخلق ؟ إن عقلك لا يكفي.

الإيمان نوعان إيمان تحقيقي وإيمان تصديقي:

العقل البشري مهمته أو قدرته استدلالية، ومعنى استدلالية أي ينظر إلى الشيء، فيحكم من خلال هذا الشيء على صانعه، فالعقل يرى الكون فيرى المكون، يرى النظام فيرى المنظم، يرى الأثر فيرى المؤثِّر، يرى الخَلق فيرى الخالق، أما أن ينتقل العقل إلى مئات ألوف ملايين السنين، إلى ملايين ملايين السنين، قبل أن نخلق جميعاً ويقول لك: كان كذا وكذا، وجرى كذا وكذا، وحصل كذا وكذا، الإجابة الحاسمة من قبل الخالق جلّ وعلا أن:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)

لذلك نحن في بداية الخليقة لا نعرف إلا ما ذكره الله لنا، نقطة دقيقة جداً، الإيمان نوعان ؛ إيمان تحقيقي وإيمان تصديقي، الشيء الذي أُنيط بعقلك أن يعقله هذا أنت مكلفٌ به، والشيء الذي أخبرت عنه ليس لك إلا أن تصدِّق الخبر الصادق، لذلك بداية الحياة ربنا عزّ وجل في هذه الآية أشار إليها.

نحن إذاً بادئ ذي بدء أمام خطين كبيرين من خطوط العقيدة، خط التحقيق وخط التصديق، الأمور المتعلقة بإيمانك بوجود الله تحقيقاً، إيمانك بأسمائه الحسنى تحقيقاً، إيمانك برسالة النبي عليه الصلاة والسلام تحقيقاً، إيمانك أن معه معجزة تحقيقاً، إيمانك بأن هذا الكلام كلام الله تحقيقاً، أما إيمانك ببداية الخلق تصديقاً، لأن هذا الشيء يعجز عنه عقلك أن يصل إليه، وكل شيءٍ عجز عقلك عن الوصول إليه لا بدّ من التصديق فيه، فنحن فيما كان في الماضي السحيق لا نعرف، وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به، ونحن فيما سيكون في المستقبل البعيد لا نعرف، وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به.

الإنسان بين تحقيقٍ فيما وُكِّلَ إلى العقل وبين تصديقٍ فيما عجز عنه العقل:

الإيمان بعالم الأزل وعالم الأبد، ما بعد الموت، البرزخ، الصراط، الصور، الصحف نُشِرَت، الجنة، النار، هذا كله إيمان تصديقي، والإيمان بالبدايات الأولى للعالم هذا إيمان تصديقي، لكن الإيمان بوجود الله وبأسمائه الحسنى إيمان تحقيقي، هذا من مهمة العقل، وقد أُنيط هذا بالعقل، والعقل بإمكانه أن يصل إلى هذا، الإيمان برسالة النبي إيمان تحقيقي، الإيمان بأحقية هذا القرآن إيمان تحقيقي، أما الإيمان بما كان في الماضي السحيق، أو في المستقبل البعيد، أو الإيمان بذات الله عزّ وجل، بصفات ذاته، هذا الشيء لا نملك إلا أن نصغي إلى القرآن الكريم، فأنت بين تحقيقٍ فيما وُكِّلَ إلى عقلك، وبين تصديقٍ فيما عجز عنه عقلك.

لكن الله سبحانه وتعالى رحمةً بنا أخبرنا عن الشيء الذي عجز عقلنا عن إدراكه ونحن في أمس الحاجة إليه، إخبار الصادق، فإن حَكَّمْتَ عقلك فيما أخبرك الله به فإيمانك بالله ضعيف، الذي أخبرك الله به، هو الذي يحكم عقلك، وليس عقلك الذي يحكم ما أخبرك الله به.

لذلك أية نظريةٍ تقرءونها عن أصل العالم، الإنسان أصله قرد كما يقول دارون، الإنسان نشأ نشأةً بدائيةً متوحشة، هذه النظريات لا تزيد عن تخمينات، ولا تزيد عن إلقاء الكلام على عواهنه، وكلما تقدَّم العلم كشف خطأ ما فسَّره العلماء المنحرفون.

على كلٍ ربنا عزّ وجل في هذه الآيات ـ وهي من أدق آيات القرآن ـ يحدد هوية الإنسان، قال الله عزّ وجل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا (72))

أولاً يُستنبط في الأعم الأغلب وفي بعض أقوال المفسرين، يستنبط أن السماوات والأرض والجبال نفوسٌ عرضت عليها الأمانة، يؤكِّد هذا التفسير أن الله سبحانه وتعالى يقول في آيةٍ أخرى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

لو قلت: إن هذا الشيء الذي خلقه الله عزّ وجل خَلْقاً رائعاً، إذا نظرت إليه سَبَّحْتَ بحمده، نقول لك: لا، لست أنت المُسَبِّح بل هو المُسَبِّح، هو المسبح بطريقةٍ لا تعرفها أنت.

الأمانة لها تفسيراتٌ كثيرة:

حينما يقول الله عزّ وجل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

هذه ما من شيءٍ لاستغراق أفراد النوع، ما من شيءٍ في الكون إلا وهو يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، يفهم أن السماوات والأرض والجبال نفوس، وهذه النفوس مخلوقات عرضت عليها الأمانة.

الآن ما الأمانة ؟ هذه الأمانة لها تفسيراتٌ كثيرة، أوجه هذه التفسيرات: أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم، خلقهم ليسعدهم، والإنسان يسعد بعطاء خالق الكون، لكن عطاء خالق الكون متفاوت، فلو أن الإنسان تأهّلَ لأخذ أكبر كميةٍ من هذا العطاء ينال عطاءً لا نهائياً، فإذا لم يتأهّل، فمثلاً يوجد متعة بالعلم ـ وهذا شيء بسيط بين أيديكم ـ لا يستطيع الإنسان أن يذوقها إلا إذا تعلم، أما ككائن بإمكانه أن يذوق الطعام ويستمتع به، شأنه شأن أي مخلوق حتى الحيوان، أن تأكل وأن تستمتع هذا قاسمٌ مشتركٌ بين كل المخلوقات، لكن أن تنعُم بنعمة العِلم هذا شيءٌ لا يمكن أن تُعْطَاه، لا بدّ من أن تأخذه أنت، لا بدّ من أن تتعلم حتى تذوق طعم العلم، أنا أضرب الأمثلة لأن الموضوع دقيق جداً، فالله عزّ وجل خلق الخلق، وخلقهم ليسعدهم، ولكنهم إذا أهّلوا أنفسهم يسعدوا سعادةً لا نهائية، فصار هناك عرضٌ على المخلوقات أن يسعدوا سعادةً بلا حدود.

حمل الأمانة عرض له مكاسب كبيرة جداً وفي المقابل فيه مخاطر كبيرة:

قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا (72))

لكن هذا العرض عرض له مكاسب كبيرة جداً، وفي المقابل فيه مخاطر كبيرة، مكاسب ومخاطر، فكيف نحن عندما نعطي الطيار راتباً ضخماً جداً مائة ضعف عن راتب سائق السيارة العادية، مائتي ضعف، هذا الراتب الضخم، لأنه لو صار خطأ بالجو، لا يوجد حل وسط، سيفقد حياته وحياة الركاب، أما سائق السيارة في الأرض، لو صار هناك خطأ يجعلها على يمين الطريق، ويذهب إلى صاحبها، ويقول له: تعال وأصلح مركبتك، فكلما عظمت المسؤولية، كلما علا قدر الإنسان عظمت مسؤوليته، فربنا عزّ وجل عرض على المخلوقات عرضاً خاصاً، أي أن يسعدوا سعادة لا نهائية، سعادةً بلا حدود، سعادةً يصعب على العقل تصورها، فهذه المخلوقات السماوات، الأرض، الجبال، المجرّات:

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا (72))

أبين، وأشفقن، أشفقن منها أي خِفنَ منها.

(وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (72))

ما هي الأمانة ؟ هذا المخلوق جُعِلَت نفسه أمانةً بين يديه، فإذا استطاع أن يعَرّفها بربها، وأن يحملها على طاعته، وأن يجعلها تتقرب إليه تعالى، سعد هذا المخلوق وإلى الأبد، وإذا نسي هذا المخلوق ربه،

وانغمس في شهواته، ونسي الأمانة التي حُمِّلَهَا، ونسي التكليف الذي كلف به شقي إلى الأبد، هذه هي الأمانة، الأمانة أن تكون نفسك بيدك، موضوعةً أمانة عندك.

الأمانة أن تكون نفسك بين يديك أنت مكلفٌ أن تطهرها و تسمو بها:

يقول الله عزّ وجل في بعض الآيات:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

بإمكانك أن تزكي نفسك، بإمكانك أن تحملها على طاعة الله، بإمكانك أن تجعلها مستقيمةً، بإمكانك أن تطهرها، بإمكانك أن تزكِّيها، بإمكانك أن تسمو بها، وحينما تلتفت إلى الدنيا، وتنغمس في حمأتها، وتلهث وراء شهواتها، تدنِّسها، وإذا دنستها استحققت العذاب الأبدي، هذه هي الأمانة، الأمانة أن تكون نفسك بين يديك، أنت مكلفٌ أن تطهرها وأن تسمو بها.

بالطبع هذا الموضوع طويل وله فروع كثيرة جداً، ربنا عزّ وجل حينما حَمَّلَ الإنسان الأمانة أعطاه المقومات، أعطاه الوسائل، إليكم هذه الوسائل، الإنسان قَبلَ أن يحمل الأمانة، الأمانة أن يعرف ربه وأن يزكي عمله، الأمانة ألا يكون جهولاً لربه، وألا يكون ظلوماً لعمله، أما إذا كان ظلوماً جهولاً فقد ضيَّع الأمانة واستحق المهانة، وشقي في الدنيا والآخرة، فالدين كلمتان: ألا تكون ظلوماً جهولاً، وأن تكون عالماً في عقلك، صالحاً في عملك.

الإنسان في الدنيا له مهمتان أن يعلم وأن يعمل بما علم:

أنت في الدنيا لك مهمتان، أن تعلم، وأنت تعمل بما علمت، أن تتعرف إلى الله وأن تحسن إلى الخلق، أن تعرف الله عزّ وجل وأن تزكي نفسك، حتى تتأهل لتكون إلى الأبد في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، الأمانة إذاً نفسك التي جُعِلَت أمانةً عندك، إن زكَّيْتَها، إن عرفتها بربها، وطهرتها، وزكيتها، وسموت بها، سعدت في الدنيا والآخرة، وإن تركتها جاهلةً، ودنستها بالشهوة، شقيت في الدنيا وفي الآخرة، هذا ملخص الملخص، كيف تسمو بها ؟ كيف تطهرها ؟ كيف تسعد بها ؟ كيف تزكيها ؟ جاء الجواب:

أولاً: الله سبحانه وتعالى أعطى هذا الإنسان كوناً هو في الحقيقة مظهرٌ لأسماء الله الحسنى، يستحيل على الإنسان في الدنيا أن يرى الله، لأن مادِّيَّتَهُ لا تحتمل:

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)

(سورة الأعراف: من آية " 143 ")

أي أن الإنسان في الدنيا لا يستطيع أن يرى الله عزّ وجل، كيف السبيل إلى معرفته ؟ السبيل أن يرى خلقَه، فخلقه يُجَسِّدُ أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى، خلقه مظهرٌ لكماله، فإذا نظرت إلى خلقه عرفته، لذلك الله عزّ وجل سَخَّرَ لكم ما في السماوات والأرض جميعاً منه، الكون كله مسخرٌ من أجل أن تتعرف إليه، الكون كله بالنصّ القطعي، الدلالة:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا)

(سورة البقرة: من آية " 29 ")

مقومات حمل الأمانة:

1 - الكون أول مقومٍ من مقومات حمل الأمانة:

قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

الكون أول مقومٍ من مقومات حمل الأمانة، تريد أن تعرف الله عزّ وجل ؟ انظر إلى جسمك، انظر إلى أعضائك، إلى أجهزتك، إلى حواسك، إلى طبيعة نفسك، إلى فطرتك، إلى نظام التوالد، إلى نظام الزوجية، تريد أن تعرف الله عزّ وجل ؟ انظر إلى طعامك، تريد أن تعرف الله عزّ وجل ؟ انظر إلى الماء الذي أنزله من السماء فاهتزت به الأرض وأنبتت من كل زوجٍ بهيج، تريد أن تعرف الله عزّ وجل؟ فكر في الهواء الذي تستنشقه، فكر في الجبال، في الأنهار، في البحيرات، في البحار، في السهول، أنواع الطيور، أنواع الأسماك، أنواع المخلوقات، في الخضراوات، في الحقول، كل ما في الكون:

وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحد

* * *

هذا أول مقوم.

الآن الإنسان إذا استفاد من الكون استفادة مادية، وما استفاد منه في معرفة الله، فقد عَطَّلَ السبب الأول لخلق الكون، الدليل الآية الكريمة:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: من آية " 3 ")

في آية ثانية:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)

(سورة الطلاق: من آية " 12 ")

لماذا ؟

العلة الأولى لخلق الكون معرفة الله عز وجل:

قال:

(لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: من آية " 12 ")

خلق الكون لتعلم:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق: من آية " 12 ")

العلة الأولى لخلق الكون هو أن تعرف الله عزّ وجل، فإذا لم تهتم بهذه الناحية، واهتممت كيف تستفيد من هذه الأرض ؟ وكيف تستخرج الثروات ؟ وكيف تربح ؟ وكيف تسعد في الدنيا ؟ فقد عَطَّلْتَ الهدف الأكبر والأول من خلق الكون، إذاً الكون هو المقوم الأول.

2 ـ العقل ثاني مقومٍ من مقومات حمل الأمانة:

ثانياً: العقل هو المقوم الثاني، الله عزّ وجل أودع في الإنسان عقلاً، يتوافق العقل في مبادئه مع مبادئ الكون، يوجد بالكون نظام السببية، والعقل لا يفهم الشيء إلا عن طريق السبب، و نظام الغائيَّة، الكون فيه نظام أن كل شيء له غاية والعقل لا يفهم الشيء إلا بغايةٍ، غايةٍ كافيةٍ لوجوده، الكون ليس فيه تناقضٌ والعقل يرفض التناقض، فالعقل أداة معرفة الله عزّ وجل، وهو مناط التكليف، فأنت إذا فكّرت في الكون عن طريق العقل الذي يتوافق مع بنية الكون تتعرف إلى الله عزّ وجل، فالعقل مقوم من مقوّمات حمل الأمانة، والكون مقوم آخر من مقومات حمل الأمانة.

3 ـ الشهوة هي المقوم الثالث من مقومات حمل الأمانة:

الإنسان لولا هذه الشهوات التي أودعها الله فيه كيف يرقى إلى الله ؟ كيف تحس أن الله يحبك إن لم يودع فيك شهوةً ؟ وإن لم تعاكس هذه الشهوة ؟ أودع فيك حب النساء، فكيف ترقى إلى الله عزّ وجل إن سرت مع هذه الشهوة ؟ إذا غضضت بصرك عن محارم الله، إذا ترفّعت عن مالٍ حرام، إذا أنفقت المال المحبب في سبيل الله، ترقى، لولا الشهوات لما ارتقى الإنسان إلى رب الأرض والسماوات.

عن طريق الشهوة يرقى مرتين، يرقى مرةً صابراً، ويرقى مرةً شاكراً، فإذا أخذ ما أبيح له يشكر فيرقى، وإذا ترك ما نهي عنه يصبر فيرقى.

إذاً الكون مقوم، والعقل مقوم، والشهوة مقوم، أودع الله فيك الشهوات، هذه الشهوات يجب أن تعلم علم اليقين أن الله ما أودعها فيك إلا لترقى بها إلى الله عزّ وجل.

4 ـ الفطرة هي المقوم الرابع من مقومات حمل الأمانة:

شيء رابع: خلق الكون، وأودع فيك العقل، وأودع فيك الشهوات، وفطرك فطرةً عاليةً نقيةً بيضاء ليلها كنهارها، إذا انحرفت عن طريق الحق تشعر بانقباض، كل الآلام التي يتحدث عنها علماء النفس ؛ تارةً وخز الضمير، تارةً الانقباض، تارةً الكآبة، ما هي إلا الفطرة التي خلقها الله عزّ وجل، فإذا حِدْتَ عن منهج الله عزّ وجل عذبتك فطرتك وأنت لا تدري.

إذاً هناك كون، هناك عقل، هناك شهوة، هناك فطرة، هذه الذي تحدث الله عنها عزَ وجل فقال:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

(سورة الروم: من آية "30 ")

الفطرة، دعك من كل علمٍ، إن أخذت ما ليس لك تشعر بضيق، إن أسأت إلى والدتك تشعر بضيق، إن ظلمت إنساناً تشعر بضيق، إن أسأت إلى حيوان تشعر بضيق، ما هو الضيق ؟ هي آلام الفطرة النقية:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم: من آية " 30 ")

5 ـ القوة هي المقوم الخامس من مقومات حمل الأمانة:

أعطاك الله كوناً، وأعطاك عقلاً، وأعطاك شهوةً، وأعطاك فطرةً، وأعطاك قوةً فيما يبدو، بإمكانك أن تقوم، وأن تسير، وأن تتحرك، وأن تقول، وأن تفعل شيئاً، أعطاك قوة، وشهوة، وفطرة، وعقلاً، وكوناً.

6 ـ حرية الاختيار هي المقوم السادس من مقومات حمل الأمانة:

لكن لو لم تكن مخيراً وكنت مقهوراً مجبراً ؛ لا قيمة لعملك، لا يمكن أن يكون لعملك قيمة إلا إذا كنت مخيراً، لذلك أعطاك حرية الاختيار، حرية الاختيار تُثَمِّنُ عملك، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أن الله أجبر عباده على المعصية لبطل العقاب، ولو أنه تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، فأنت مخير أيضاً.

أدلة من القرآن الكريم على أن الإنسان مخير:

قال تعالى:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3))

(سورة الإنسان)

وقال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة)

قال أيضاً:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: من آية " 29 ")

لو لم تكن مخيراً فلا جنة ولا نار، ولا حساب ولا عقاب ولا عذاب، ولا ثواب ولا جزاء، ولا سيئة ولا حسنة، كل شيء يتعطل، فأنت مخير، ومُشتهٍ، وذو فطرةً عالية، وذو عقلٍ، وكونٌ سخره الله لك، لكن لعل العقل يضل، ولعل الفطرة تُطْمَس بالضبط، جعل الله لك شرعاً.

7 ـ الشرع هو المقوم السابع من مقومات حمل الأمانة:

جعل هذا الشرع ميزاناً على ميزان العقل والفطرة، فعندك كتاب، فهذا الكتاب عرفك بذاتك، وعرفك بربك، وأطلعك على بداية الخلق، وهذه الآية من هذه الآيات، أطلعك على ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وعرفك بذات الله عزّ وجل، هذه كلها من مقوّمات التكليف.

حينما ينسى الإنسان ربه والمهمة الخطيرة التي أنيطت به فقد كان ظلوماً جهولاً:

أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المكرم، حينما ينسى الإنسان ربه، وحينما ينسى المهمة الخطيرة التي أُنيطت به، وحينما تستهلكه الحياة، وحينما ينغمس في الشهوات الدنيئة إلى قمة رأسه، وحينما يأكل ويشرب وينام ويستمتع كما تفعل البهائم تماماً، فقد كان ظلوماً جهولاً، الآية الكريمة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ (72))

عرض مُغْرٍ:

(عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (72))

يا ترى هل كان الإنسان بحملها ظلوماً جهولاً ؟ أم كان محسناً وعالماً وصالحاً، أن تعرف الله وأن يصلح عملك، فعكس المعرفة الجهل، وعكس الإحسان الظلم، فهو إن لم يأخذ بما عاهد الله عليه، إن لم يأخذ هذه الأمانة فيطهّرها، ويزكيها، ويسمو بها، فقد كان ظلوماً جهولاً، فلو فرضنا أن أباً حوله خمسة أولاد قال لهم: يا أولادي أتحبون أن تعملوا في محلي أو في دكاني ولكم كل شهر مبلغ تعيشون به، أم تحبون أن تتابعوا دراستكم العُليا إلى أعلى شهادة، وعندئذٍ أمنحكم كل شيء، أمنحكم مبلغاً بلا حدود ؟ فهؤلاء الأبناء مالوا إلى الراحة، قالوا: لا، نحن نعمل في الدكان ونستريح، أحد هؤلاء الأولاد قال: لا، أنا لها، أنا أقبل هذا العرض وسأحصل على أعلى شهادة في العالم، الأولاد اشتروا بيوتاً وتزوجوا وعاشوا حياةً معتدلة، لهم دخلهم من هذا الدكان، لكن هذا الذي قَبِلَ أن يكون في أعلى درجة علمية في العالم، وتبرع أبوه له بمبلغٍ لا حدود له من أجل أن يعود ويحمل أعلى الشهادات، هذا الشاب إن ذهب إلى هناك وغرق في الملذّات والنوادي والملاهي، وصاحب فتاةً، ونسي هذه المهمة الكبيرة التي أنيطت به، سيعود بعد حين بلا شهادة، وبلا مكانة، وبلا بيت، وبلا دخل، هؤلاء الذين خافوا من هذه المهمة أفضل منه، أما إذا عاد بهذه الشهادة العليا ورُفِعَ مقامه في البلد وفي المجتمع سبق هؤلاء، فيا ترى حينما قبل هذا العرض المغري أكان ظلوماً جهولاً ؟ لا، كان طموحاً، أما إذا خان الأمانة ودَنَّسَ نفسه كان ظلوماً جهولاً، فلا يوجد حل وسط، كما يقول سيدنا علي: **" رُكِبَ الإنسان من عقلٍ وشهوة، رُكِّبَ الحيوان من شهوةٍ بلا عقل ـ الحيوان متعته مادية ولا حساب عليه ـ ورُكِّبَ المَلَك من عقلٍ بلا شهوة ـ متعته روحية ولا حساب عليه ـ ورُكِّبَ الإنسان من كليهما من شهوةٍ وعقلٍ، فإن غلب عقله شهوته كان فوق الملائكة وإن غلبت شهوته عقله كان دون الحيوان ".**

أنت مخلوق أول يمكن أن تكون أعلى مخلوقات الكون:

لا يوجد حل وسط، والدليل:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ(7))

(سورة البينة)

أي خير ما برأ الله:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

شر ما برأ الله، أنت مخلوق أول، يمكن أن تكون أعلى مخلوقات الكون، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا(70))

(سورة الإسراء)

حينما قبل الإنسان حمل الأمانة أمامه خياران إما أن يكون أعلى كل المخلوقات أو أسفلها:

إذا دَنَّسَ الإنسان نفسه كان في أسفل سافلين.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(4))

(سورة التين)

فإذا لم يعرف ربه:

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(5))

(سورة التين)

انتبه أنت المخلوق الأول، هذا درس خطير جداً، يجب أن تعرف من أنت ؟ أنت إنسان، لأنك إنسان معناها قبلت حمل الأمانة، وحينما قبلت حمل الأمانة أمامك خياران لا ثالث لهما، إما أن تكون أعلى كل المخلوقات ؛ وإما أن يكون هذا الإنسان أسفل كل المخلوقات، النبي الكريم وصف رجلاً زنى بجارته، قال: خان صاحبه، جار أوصى جاره بأهله، فلما سافر الجار، جاره خانه، فجاء كلبٌ وأكله، فقد قيل: خان صاحبه، والكلب قتله، والكلب خيرٌ منه.

الكلب خير منه، الإنسان عندما يخون تدنس نفسه، تنحط أخلاقه، يبني مجده على أنقاض الناس، الكلب خيرٌ منه، لأن الكلب غير مكلف، الإنسان مكلف، فالموضوع يجب أن نعرف من نحن ؟

أنا مرةً طرحت سؤالاً: واحد سافر لبلد، لا أعتقد في سؤال أخطر من أن يقول لنفسه: لماذا أنا هنا ؟ سافر لهذه البلدة، وصل بالطائرة، ركب سيارة إلى الفندق، وصل مُتْعَباً، نام تلك الليلة، واستيقظ في صبيحة اليوم الأول، إلى أين سيتحرك ؟ سيتحرك بحسب مهمته، جاء تاجراً على المعامل، طالباً على الجامعات، سائحاً على المقاصف والمتاحف والآثار، الحركة لها علاقة بمعرفة المهمة.

أنا أقول: أخطر سؤال تطرحه على نفسك ويجب أن تعرفه بشكلٍ يقيني لماذا أنت في الدنيا ؟ لئلا تتجه إلى طريقٍ مسدود، لو لم نجب عن هذا السؤال الدقيق لسرنا في طريق مسدودة، إلى أين أنت ماشٍ ؟ يجمع من الأموال الطائلة، حتى إذا أصبح في مرتبةٍ عَلِيَّةٍ ومكانةٍ مرموقةٍ، وحتى إذا سكن هذا البيت الفخم، وهذه المركبة الفخمة، وهذه المكانة العلية يأتيه ملك الموت: تفضل، الآن ؟ نعم الآن، الطريق مسدود، جاءه في أزهى لحظات حياته، أما عندما يعرف الإنسان في وقت مبكر لماذا هو في الدنيا ؟ يجهد ليل نهار في العمل لما بعد الموت، فإذا جاء ملك الموت، قال: أهلاً وسهلاً، أنا على شوق، أنا أنتظرك.

المشكلة هنا، كلنا سيموت هذه حقيقة، لكن المؤمن يُعِدُّ لهذه الساعة ؛ أما غير المؤمن يفاجأُ بها، أعد لكل شيءٍ إلا هذه الساعة، إلا الموت أخرجه من حسابه، أما المؤمن أهمل كل شيء وأعد لهذه الساعة عدتها. ففرقٌ كبيرٌ جداً بين رجل جاءه ملك الموت، وكان طول حياته يستعد لهذه الساعة، وكما قال الإمام مالك بن دينار وكنيته أبو يحيى، وقد خاطب نفسه قائلاً: **" لهذه الساعة كان دأبك أبا يحيى ".**

سيدنا سعد بن أبي وقاص لما جاءه ملك الموت بكى ابنه: **" لِمَ تبكي يا بني ؟ إن الله لا يعذبني أبداً، إنني من أهل الجنة ".**

الإنسان إن لم يُعَرّفُ نفسه بربها وإن لم يسمُ بها كان ظلوماً جهولاً:

الشيء العجيب إذا قرأت تاريخ الصحابة الكرام ـ والله شيء لا يصدق ـ تشعر أن هؤلاء الصحابة في أعلى درجات سعادتهم ساعة الموت، الموت عرس المؤمن ! لقاؤك في الجنة عرس، فبين أن تسعى لمعرفة الله، وتطبيق أمره، والدعوة إليه، وخدمة الخلق، جهدك الجهيد، دأبُك العنيد، أن تطيع الله عزّ وجل، فلذلك:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72))

إن لم يطبق، إن لم يُعَرّفُ نفسه بربها، وإن لم يحملها على طاعته، وإن لم يطهرها من دَنَس الشهوة، وإن لم يسمُ بها كان ظلوماً جهولاً، كان ظلوماً لأنه كان جهولاً، جهل فظلم، جَهِلَ فَظَلَمَ فَظُلِم.

ماذا سيكون بعد الموت ؟ قال:

((فو الذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.))

[أخرجه البيهقي من رواية الحسن]

قال تعالى:

(لِيُعَذِّبَ اللّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73))

في العالم يوجد تقسيمات كثيرة، الحقيقة الصريحة، الناس جميعاً مهما اختلفت بيئاتُهُم، مهما اختلف أجناسهم، مهما اختلفت عقليّتُهُم، مهما اختلفت أعراقهم، مُعطياتهم، مراتبهم، مستوياتهم، أحوالهم، مهما اختلفت مشاربهم، الناس رجلان ؛ مؤمنٌ وكافر، عالم منضبط محسن سعيد، وجاهل متفلِّت مسيء شقي، الأساس العلم، عالم، فلما عرف ربه، وعرف نفسه، وعرف منهج ربه، أطاع ربه، عالمٌ مطيعٌ منضبطٌ محسنٌ، سعيدٌ في الدنيا والآخرة، جاهلٌ متفلتٌ عاصٍ مسيء للخلق، قيٌ في الدنيا والآخرة، هذا هو التقسيم الحقيقي الذي لابدّ منه.

الذين أشركوا بالله عزّ وجل تمزقوا وتبعثروا وتشرذموا وخافوا فتشعّبت نفوسهم:

لذلك:

(لِيُعَذِّبَ اللّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ (73))

المنافقون والمنافقات أذكياء، عاشوا بمجتمع إسلامي أو مجتمع ديني، فمن أجل مصالحهم نافقوا، لكنهم في الحقيقة كفار ؛ بل في الدرك الأسفل من النار:

(وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ (73))

ما رأوا ربهم هو كل شيء، رأوا آلهةً كثيرة في الدنيا، خافوا من زيد ومن عبيد ومن فلان وعلان، تشعّبت نفوسهم، قال عليه الصلاة والسلام:

((اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها))

[أخرجه ابن عدي، والديلمي عن أنس]

وقال:

((من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله سائر همومه.))

[كنز العمال: عن: ابن مسعود]

حينما أشركوا بالله عزّ وجل، تمزقوا، وتبعثروا، وتشرذموا، وخافوا، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ.))

[سنن الترمذي: عَنْ " أَنَس بْن مَالِكٍ]

هذه الآية تعريفٌ لهوية الإنسان فأنت المخلوق الأول والكون كله مسخرٌ لك بنص القرآن الكريم:

أيها الأخوة الأكارم، شيء مألوف جداً إنسانٌ يُستَهْلك، تستهلكه الدنيا، مِنْ عَملٍ لعمل، من لقاء للقاء، من اجتماعٍ لاجتماع، من مشروع لمشروع، يأكل، ويشرب، ويعمل، ويكسب، ويتعب نفسه، ويأتيه الموت ونسي لماذا هو في الدنيا ! نسي مهمته كلها ! فلذلك هذه الآية تعريفٌ لهوية الإنسان، أنت المخلوق الأول ؛ أنت المخلوق المكرّم، اسمع: الكون كله مسخرٌ لك، بنص القرآن الكريم.

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

ما دام الكون قد سُخِّرَ لك، والمُسَخَّرُ له دائماً أكرم من المُسَخَّرَ، أنت مُسَخَّرَ لك الكون، أنت المكرم، أعطاك الله عقلاً أداة المعرفة، ومناط التكليف، ومناط المسؤولية، بإمكانك أن تؤمن بالله، وبكتابه، وبرسوله، هذا هو العقل، يأتي النقل ليعرّفك ما عجز عقلك عن إدراكه، هذا هو التصديق، النقل هو أداة معرفة ما في الماضي السحيق، في المستقبل البعيد، في ذات الله عزّ وجل، وهذه الآية تبيّن لنا ماذا كان في بدء الخليقة ؟

تم عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، أبين أن يحملنها، أشفقن منها، حملها الإنسان، إن قام بهذه الأمانة على خير ما يرام، لم يكن ظلوماً جهولاً، بل كان عالماً صالحاً، آمنوا وعملوا الصالحات ؛ عكسها جهلوا وأساءوا، ظلوماً جهولاً، وإن نسي الأمانة، ولم يطبّق أمر الله عزّ وجل، وأهمل نفسه، أبقاها جاهلة، أبقاها مدنسة، أبقاها غارقة في الشهوات:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72))

النهاية معروفة:

(لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73))

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الروم 030 - الدرس (14-01): تفسير الآيات 1 – 9..... 1

سورة الروم 030 - الدرس (14-02): تفسير الآيات 10 – 16..... 21

سورة الروم 030 - الدرس (14-03): تفسير الآيات 17 – 9..... 39

سورة الروم 030 - الدرس (14-04): تفسير الآية 20..... 54

سورة الروم 030 - الدرس (14-05): تفسير الآية 21..... 67

سورة الروم 030 - الدرس (14-06): تفسير الآيات 22 – 24..... 80

سورة الروم 030 - الدرس (14-07): تفسير الآيات 25 – 29..... 96

سورة الروم 030 - الدرس (14-08): تفسير الآيات 30 – 32..... 113

سورة الروم 030 - الدرس (14-09): تفسير الآيات 33 – 38..... 128

سورة الروم 030 - الدرس (14-10): تفسير الآية 39..... 143

سورة الروم 030 - الدرس (14-11): تفسير الآيات 40 – 41..... 154

سورة الروم 030 - الدرس (14-12): تفسير الآيات 42 – 45..... 168

سورة الروم 030 - الدرس (14-13): تفسير الآيات 44 – 47..... 184

سورة الروم 030 - الدرس (14-14): تفسير الآيات 46 –60..... 204

سورة لقمان 031 - الدرس (13-01): تفسير الآيات 1 - 3..... 221

سورة لقمان 031 - الدرس (13-02): تفسير الآيات 4 - 9..... 237

سورة لقمان 031 - الدرس (13-03): تفسير الآيات 8 - 11..... 259
سورة لقمان 031 - الدرس (13-04): تفسير الآية 12..... 280
سورة لقمان 031 - الدرس (13-05): تفسير الآيات 13 - 15..... 299
سورة لقمان 031 - الدرس (13-06): تفسير الآيات 16 - 20..... 319
سورة لقمان 031 - الدرس (13-07): تفسير الآيات 7 - 13..... 338
سورة لقمان 031 - الدرس (13-08): تفسير الآيات 17 - 18..... 358
سورة لقمان 031 - الدرس (13-09): تفسير الآيات 20 -21..... 377
سورة لقمان 031 - الدرس (13-10): تفسير الآيات 21 - 26..... 394
سورة لقمان 031 - الدرس (13-11): تفسير الآيات 27 - 30..... 413
سورة لقمان 031 - الدرس (13-12): تفسير الآيات 30 - 32..... 429
سورة لقمان 031 - الدرس (13-13): تفسير الآيات 33 - 34..... 449
سورة السجدة 032 - الدرس (6-1): تفسير الآيات 1 - 3..... 466
سورة السجدة 032 - الدرس (6-2): تفسير الآيات 4 - 5..... 485
سورة السجدة 032 - الدرس (6-3): تفسير الآيات 5 - 7..... 507
سورة السجدة 032 - الدرس (6-4): تفسير الآيات8 - 14..... 524
سورة السجدة 032 - الدرس (6-5): تفسير الآيات 15 - 21..... 543
سورة السجدة 032 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 23 - 30..... 561
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-01): تفسير الآيات 1 - 3..... 579

سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-02): تفسير الآيات 4 - 5..... 596
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-03): تفسير الآيات 6 - 8..... 610
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-04): تفسير الآيات 9 - 13..... 627
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-05): تفسير الآيات 9 - 24..... 644
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-06): تفسير الآيات 21 - 27..... 662
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-07): تفسير الآيات 28 - 32..... 679
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-08): تفسير الآية 33..... 701
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-09): تفسير الآية 33..... 719
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-10): تفسير الآيات 34 -35..... 736
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-11): تفسير الآيات 36 - 38..... 754
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-12): تفسير الآية 39..... 770
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-13): تفسير الآيات 49 - 52..... 790
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-14): تفسير الآيات 53 - 58..... 806
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-15): تفسير الآيات59 -63..... 825
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-16): تفسير الآيات 60 - 68..... 839
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-17): تفسير الآيات 69 - 71..... 854
سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-18): تفسير الآيات 72 - 73..... 868
الفهرس..... 882

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

التفسير الكامل

تفسير من سورة سبأ إلى الصافات

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (01-10): تفسير الآيات 01 -10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-01-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الأول من سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

1 - الناس يستوون في الإقرار بالنعم:

أيها الإخوة الأكارم... ليست القضيَّة في هذه الآية قضية إثبات النِعَم أو نفيها، لكن القضيَّة لمن تُنسَب هذه النِعَم ؟ لو أن أحداً أخذ بيدك إلى وليمةٍ عالية المستوى، وتذوقت أطيب الطعام، تسأله: من صاحب الدعوة ؟ الأكل نفيس، الإكرام بالغ، تريد أن تعرف من صاحب الدعوة لتشكره، النعم التي أكرم الله بها الإنسان ؛ المسلم وغير المسلم، الكافر، والجاحد، نعمة الوجود، نعمة الزوجة، نعمة الحواس، نعمة الكون، نعمة دقائق ما في الكون، هذه نِعَمٌ يَنْعُمُ بها كل الناس، لا شكَّ فيها، ولا خلاف عليها، ولا تردد في تصديقها، بأن هذه نعم أو ليست بنعم، أو هذه نعم عظيمة أو ليست عظيمة، لا، فقد أجمع بنو البشر على أنهم متمتِّعون، متنعمون بنعمٍ لا تُعدُّ ولا تحصى، بل إنَّ أهل الكفر أكثر من أهل الإيمان استمتاعاً بهذه النِعَم، كل شيء درسوه، ودقَّقوا فيه، واستفادوا منه، وحَسَّنوه، حتَّى أصبحت الدنيا عند هؤلاء في أعلى درجاتها، وفي أجمل مظاهرها، وفي أعلى زينتها، بل إن الله سبحانه وتعالى أثبت لأهل الكفر أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

ويستوي في التنعُّم بهذه النعم كل إنسان ؛ عالماً كان أو جاهلاً، غنياً أو فقيراً، بدليل أن الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، فأنت قد تشتري جهازا بالغ التعقيد، وتستفيد منه بالغ الفائدة، وتنعم به، ولا تفقه شيئاً عن طريقة تشغيله، أو عن آليَّة عمله، أو عن مبدأ عمله، وقد يشتري إنسان يجهل كل شيء أغلى سيَارة، ويركبها وينتفع بها، ولا يدري كيف صُنِعَت، ولا كيف صُمِّمت، ولا كيف رُكِّبَت، ولا على أي مبدأٍ عَمِلت، لذلك قالوا: الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، قد تشتري جهاز تكييف، وتنتفع بتعديل الجو من دون أن تفقه مبدأ عمله.

إذاً الناس جميعاً ؛ في كل زمان وفي كل مكان، من كان منهم عالماً أو جاهلاً، ذكياً أو غبياً، قوياً أو ضعيفاً، متعلِّماً أو جاهلاً، يستوون جميعاً في هذه النِعَم، والدليل إذا حدث خللٌ في العين فإن أيّ إنسان يبادر إلى الطبيب، وهو يقلق قلقاً لا حدود له، معنى هذا أن العين نعمةٌ كبيرة، إذا حدث تشويش في السمع تبادر إلى الطبيب، إذا حدث مولود مشوّه لا تنام الليل، إذاً ما دامت الأمور منتظمة فأنت في نعمٍ لا تُعدُ ولا تُحصى.

المشكلة ليست أن نقنعك بأن هذه نِعَم، إنها نعمٌ تعرفها بالفطرة، المشكلة ليست أن نقدِّر لك مستوى هذه النِعَم، إنك تعلم علم اليقين أنه لا شيء يعوّض النعم التي أودعها الله فينا.

فهذا الذي أسنانه الأصليّة في فمه كالذي يضع أسناناً اصطناعيّة ؟ فرقٌ كبير بينهما، هذا الذي يضع على رأسه شعراً مستعاراً كالذي برأسه شعرٌ كثيف ؟ هذا الذي يستخدم جهازاً للتنقّل كالذي يستخدم رجلين ؟ فالشيء الذي أودعه الله فينا لا يقدِّر بثمن، والدليل أن كل واحدٍ مستعدٌ بكل تأكيد من دون تردُّد أو تحفّظ أو دراسة أن يدفع كل ماله من أجل استمرار حياته، أن يدفع كل ماله من أجل استرداد بصره، أو إصلاح كليته، أن يدفع كل ماله من أجل صمّامٍ بقلبه.

إذاً: موضوع النعمة لا يختلف فيها اثنان، ليست محل خلاف، فقد كنت مرّةً أنظر إلى أناسٍ مدعوين من شتّى الملل، والنحل، والاتجاهات، والمذاهب، والمشارب، وكنت أعجب أن كلهم يستمتعون بهذا الطعام، مع أن لهم منطلقات متباينة، وأفكاراً مختلفة، ومشارب متعدِّدة، وانتماءات متباعدة، ومع ذلك هذه النِعَم يقذفون بها، أثنوا على هذا الطعام.

قد تستمتع بمنظر جميل، وبهواءٍ طلقٍ مُنعش، قد تستمتع بكأس ماءٍ عذبٍ زلال أنت وغيرك، ولا خلاف عليه أبداً، نحن جميعاً بحاجة إلى الأمطار، وها نحن نشكر الله عزّ وجل على هذه الأمطار الغزيرة، الناس كلّهم مرتاحون بهذه الأمطار.

قرأت البارحة خبراً: أن ما نزل من الأمطار في محافظة ريف دمشق ستة أمثال ما نزل في العام الماضي لهذا التاريخ، إذاً: أتمنى عليكم بادئ ذي بدء أن نفهم دقة هذه الآية، وهي في الحقيقة في أول الفاتحة.

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الفاتحة)

2 ـ اختلاف الناس في نسبة هذه النعم:

النعم ثابتة، متّفق عليها، لا خلاف عليها، لا شكّ فيها، لا تردُّد في قبولها، لكن لمن هذه النعم ؟ هنا الافتراق، فالمؤمن يرى المنعم وهو الله سبحانه وتعالى، وغير المؤمن إما أن يرى جهده، أو ذكاءه، أو سعيه، أو فلان أنعم عليه، من شأن الكفر أن تعزو النعمة إلى غير المنعم، لهذا ورد في الحديث القدسي:

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري))

[الجامع الصغير عن أبي الدرداء بسند ضعيف]

((خيري إلى العباد نازل، وشرُّهم إليّ صاعد، أتحبّب إليهم بنعمي، وأنا الغنيُّ عنهم، ويتبغّضون إليّ بالمعاصي، وهم أفقر شيءٍ إليّ))

[ورد في الأثر]

إذاً: حينما تقرأ قوله تعالى في أول سورة سبأ:

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

فيجب أن تعلم علم اليقين أنه لا خلاف على النعم، ولا خلاف على ما نحن فيه من نعمٍ لا تعدُّ ولا تحصى، لكن القضيَّة لمن تعزو هذه النعم ؟ إن عزيتها إلى صاحبها فأنت على حق، وأنت المؤمن وربِّ الكعبة، وإن عزوتها إلى غير صاحبها فهذا هو الكفر، والجحود، والجهل، جهل مع كفر مع جحود

((أخلق ويُعْبَد غيري، وأرزق ويُشْكَر سواي))

خيار الإيمان خيار وقتٍ:

قلت لكم مرّةً في دروسٍ سابقة: قضية الإيمان ليس أن تؤمن أو أن لا تؤمن، لا، قضية الإيمان متى تؤمن ؟ لأنه لابدّ من أن تؤمن عند الموت، لأن أكبر كفّار الأرض الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى)

(سورة النازعات)

حينما جاءه الموت قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

متى يجب أن تؤمن ؟ إما أن تؤمن في الوقت المناسب ؛ أو في الوقت غير المناسب، إما أن تؤمن قبل فوات الأوان ؛ أو بعد فوات الأوان، هذه هي القضيَّة، والآن هذه النعم، من يجب أن تعزا له، فأنت في صحّةٍ جيّدة أتعزوها إلى بنيتك القويّة التي ورثتها عن والديك ؟ هذا الكلام كُفر، أتعزوها إلى عنايتك البالغة في طعامك وشرابك ؟ هذا الكلام كفر، أتعزوها إلى التدريبات الرياضيَّة القاسية التي تجريها كل

يوم ؟ هذا الكلام كفر، لا يمنع أن تعتني بصحّتك، ولا يمنع أن تجعل لكل شيءٍ حظّه من عنايتك ؛ ولكن المشكلة أن تظنّ أن هذه القوّة، وهذا النشاط، وهذا التفكير السديد هو من عندك، ماذا قال قارون ؟ قال:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

النبي عليه الصلاة والسلام حينما عاتب الأنصار الذين وجدوا عليه في أنفسهم قال:

((أَلَمْ آتِكُمْ ضُلّالًا ـ ما قال: فهديتكم ـ قال: فَهَدَاكُمْ اللّهُ))

[أحمد عن أبي سعيد الخدري]

لأن صاحب النعمة هو الله.

3 ـ شكرُ الناس على معروفهم لا ينافي عزو النعم إلى الله:

إذاً: الكلمة الأولى والأخيرة في هذه الآية: أن النعم كلّها ؛ جليلها وحقيرها، كبيرها وصغيرها، عاجلها وآجلها، ما كان منها مادياً، وما كان منها معنوياً، إنّ كل هذه النعم نعزوها إلى الله وحده، وإذا شكرت إنساناً لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ لَا يَشْكُرُ النّاسَ لَا يَشْكُرُ اللّهَ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

فللأسباب التالية: لأن هذا الإنسان مخيَّر، وهو باختياره أراد أن ينفعك، من الذي سمح له ؟ من الذي خلقه ؟ من الذي ألهمه ؟ من الذي سمح له ؟ من الذي وجّهَهُ نحوك ؟ هو الله عزّ وجل، إذاً إذا أسدى إليكَ إنسان معروفاً فالشكر بالدرجة الأولى لله عزّ وجل، ثم ـ لا تقل و لأنها شرك، أما ثم إيمان ـ ثمّ لهذا الإنسان الذي سيقت إليكَ النعمة عن طريقه، لذلك الشكر لله أولاً، وعندما نزلت للسيدة عائشة آيات براءتها، توجّهت إلى الصلاة، ولمّا دُعيت إلى أن تشكر النبي عليه الصلاة والسلام قالت: " والله لا أشكر إلا الله "، فالنبي لم يتأثّر قال:

((عرفت الحقّ لأهله))

[ورد في الأثر]

فلذلك:

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

إذاً: أنت لأنك موجود، وصاحب هذه النعمة هو الله، هذه نعمة الوجود، جاءتك عن طريق والديك، إذاً:

(وَاعْبُدُوا اللّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة النساء: من الآية 36)

نعمة الإمداد ؛ هذا الهواء من الله، نعمة الماء، نعمة الطعام والشراب، نعمة العقل، نعمة الحركة، نعمة السمع، نعمة البصر، نعمة البيان، نعمة الأعضاء، لك بيت، لك مأوى، لك أهل، لك أولاد، نعمة الأم والأب، ترتيب ربنا عزّ وجل يأخذ بالألباب، هذا الطفل الصغير جعله محبّباً عند والديه، يعملان من أجله ليلاً ونهاراً:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: من الآية 39)

أي لولا أني أودعت في قلب أمِّك وأبيك هذا العطف والحنان لما عشت، فإذا رأيت الناس يحبونك فاعلم أن الله أودع فيهم هذا الحب، ولو نزع الله هذا الحب لتخلوا عنك، ولتخلّى عنك أقرب الناس إليك، فلذلك:

يُنادى له في الكون أنّا نحبُّك فيسمع من في الكون أمر محبّنا

***

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

نعمك، كل نعمك ؛ الظاهرة والباطنة، العاجلة والآجلة، الكبيرة والصغيرة، الماديّة والمعنويّة، نعمة الإيمان، هذا كلّه يجب أن يُعزا لله عزّ وجل..

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

إذاً: أول فكرة (الحمد لله)، القضيّة في هذه الآية لمن نعزو النعمة ؟ الله عزّ وجل يقول:

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

للمنعم، للخالق، للمربي، للمسيّر، للعظيم، للملك، القدوس، السلام، المؤمن، الغني، القدير، اللطيف، الرحيم، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الرافع الخافض..

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

يجب أن تعرف أن هذه النعمة من الله عزّ وجل، لذلك المؤمن في أثناء حديثه يقول: أنجزت هذا العمل، والفضل لله عزّ وجل الله فهو مكّنني، ليس هذا الكلام يقوله تقليداً، ولكن هذا شعوره، إذا أكل طعاماً طيباً يقول: الحمد لله الذي أطعمني فأشبعني، وأسقاني فأرواني، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، أية حركةٍ، وأية سكنةٍ، وأي شيءٍ تَنَعَّمَ به، كانت تعظُم عنده النعمة مهما دقّت.

4 ـ كيف أنت لو فقدتَ النِّعمَ ؟

طلب هارون الرشيد كأس ماء، وكان في مجلسه أحد العلماء فقال له: مهلاً، يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس لو منِعَ عنك ؟ وكان مُلكُ هارون الرشيد واسعاً لا تغيب عنه الشمس، نظر مرة إلى

سحابة في السماء فقال: اذهبي أينما شئتِ يأتني خراجك، بلاده مترامية الأطراف، يا أمير المؤمنين هذا الكأس من الماء بكم تشتريه إذا مُنِعَ عنك ؟ قال: بنصف ملكي، قال: فإذا منع إخراجه ؟ قال: بنصف ملكي الآخر.

ما الإنسان لو توقّفت كليتاه ؟ الإنسان إذا أفرغ مثانته هل يفكّر أنه في نعمةٍ لا تقدّر بثمن ؟ لو تعطّلت كليتاه، أو لو انخفض عمل الكليتين، لو بقي بعض حمض البولة في الدم، ماذا يفعل ؟ لو عجز عن الحركة، وضعف التروية ماذا يفعل ؟ لو ضاقت شرايينه قليلاً، كيف نوسّعها ؟ كم من المال نحتاج كي نوسّع هذه الشرايين ؟ لذلك المؤمن يعزو النعمة إلى الله عزّ وجل.

في صحّته، الحمد لله الذي جعلني سليماً معافىً، تحرّك، الحمد لله الذي أعطاني هذه القوّة، أخدم نفسي بنفسي، مهما كنت لامعاً، ذكياً، حصيفاً، غنياً، مقتدراً، لو تعطّلت هذه الحركة، أول يوم الشراشف البيضاء، العناية البالغة، الخدمة بعد أسبوع ينزل مستواها، بعد شهر تنزل، بعد سنوات يتمنى موتك أقربُ الناس إليك، أحبُّهم إليك، أكثرهم إخلاصاً يتمنّى موتك.

إذاً: إذا خدمت نفسك بنفسك، فهذه نعمةٌ لا تقدّر بثمن، إذا تحرّكت على قدميك من دون أن يحملك أحدٌ فهذه نعمةٌ لا تقدّر بثمن، فإذا تحرّكت هل ترى أن هذه النعمة من الله، فجلطة دماغيّة تسبب شللاً، يجب الذهاب إلى فرنسا، شلل نصفي، نقطة دم تجمّدت في الدماغ، لم يبق هناك حركة، والدعاء النبويُّ الشريف:

((اللّهُمّ مَتِّعْنا بأسْماعنا وأبْصَارنا وَقُوّتِنا ما أحْيَيْتَنا))

[الترمذي عن ابن عمر]

وعقولنا، فإذا كان عقلك أصابه مسّ أو خلل، أقرب الناس إليك يقابل أكبر إنسان من أجل أن يُسمَح له بالإقامة في مستشفى الأمراض العقليّة، تحتاج إلى واسطة، لا يحتملك أحد في البيت، بيتك، أنت اشتريته، وأنت رتبته، وأنت زيّنته.

لي صديقٌ له صديقٌ له منصبٌ رفيعٌ جداً في بعض الوزارات، يحمل شهادة من دولة متقدّمة، دكتوراه، ويحتل منصباً رفيعاً، فقَدَ بصره، في الأسبوع الأول مجاملات، وفي الثاني مجاملات، البريد إلى البيت، بعد شهر أعفي من منصبه، زاره صديقي، فقال له: **" والله يا فلان أتمنّى أن أجلس على الرصيف وأتسوّل، وأن يردّ الله لي بصري "..**

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

عقلك في رأسك، ترى بعينيك، تسمع بأذنيك، تنطق بلسانك، تتحرّك برجليك، الكلية تعمل، المعدة تعمل، الرئتان، صمّامات القلب سليمة، الضغط جيّد، هذه نعمة الصحّة لا يعرف قيمتها إلا من فَقَدها، فلهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيت الخلاء كان يقول:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته ـ أي الطعام ـ وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

الحمد لله، فالمؤمن الصادق بصحّته، الحمد لله الذي عافاني، الحمد لله الذي أعطاني، الحمد لله الذي زوّجني، الحمد لله الذي آواني، الذي وفّقني، الذي أرشدني، الذي هداني، الذي أكرمني، لا ترى إلا الله، لا ترى منعماً إلا الله، لذلك قلبك ممتلئٌ بالحبِّ لله..

هم الأحبّة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهمُ معدلٌ و إن عدلوا

والله وإن فتّتوا في حبّهم كبدي باقٍ على حبّهم راضٍ بما فعلوا

***

1 ـ قلّة من الناس مَن يعرف حقيقة النعم:

هذا حال المؤمن، حال حمد، حال امتنان من الله عزّ وجل، أول هذه النعم نعمة الوجود، وثاني هذه النعم نعمة الإمداد، خلق الهواء، وخلق الرئتين، خلق التفّاحة، وخلق جهاز الهضم، فتعطُّل البنكرياس في إفراز الأنسولين سبّب متاعب كبيرة جداً، يحتاج إلى أنسولين يومياً بشكل حقن، ويحتاج إلى دواء معيَّن، ومراقبة التحليل باستمرار، إذا ارتفعت نسبة السكر أكثر من ثلاثمئة فهناك خطر على حياته، خطر فقدِ بصره، هذه نعمة أن النِسَب في الدم صحيحة، كذلك هذه نعمة لا نعرفها.

ماذا لو انحرفت الشمس عن مسارها ؟

قلت لكم مرّةً: هذه الأرض تدور حول الشمس، لأن دورانها ثابت نحن قد لا نحفل بهذه النعمة، أما لو خرجت عن مسارها، وتاهت في الفضاء الخارجي، لدخلت في الظلام التّام، ومع الظلام التام الصفر المُطلق، ومعنى الصفر المطلق، أي مائتي وسبعين درجة تحت الصفر، انتهت الحياة من على سطح الأرض.

كيف نستعيدها إلى دورانها حول الشمس ؟ نحتاج إلى مليون مَليون حبل فولاذي، قطر الحبل خمسة أمتار، في حين أن الفولاذ يتحمّل قِوى الشد في كل ميليمتر مئتي كيلو، الحبل خمسة أمتار يتحمّل مليوني طن، نحن بحاجة إلى مليون مَليون حبل، يتحمل قوة شد مقدارها مليونين، إذاً: مليون مَليون ضرب مليونين، هذه قوّة جذب الشمس للأرض، وهذه القوة تجعل الأرض في مسارها حول الشمس تنحرف ثلاث مليمترات كل ثانية، فتبقى الأرض مع الشمس، هذه نعمة نحن لا نعرفها، نحن في غفلةٍ عنها، نحن نفرح بالأمطار..

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر: من آية 41)

معنى تزول أي تنحرف، أي إذا خرجت هذه الأرض عن مسارها ماذا نفعل ؟ ليجتمع بعض أهل الأرض، وليتخذوا قراراً بإعادتها إلى مسارها، مثلهم كمثل نملة رأت قاطرة خرجت عن سكّتها ماذا تفعل ؟ ماذا عندها من القدرة كي تعيد هذه القاطرة إلى السكّة ؟ لا شيء، فهذه النعم..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

يجب أن ترى هذه الأمطار بتقدير عزيزٍ حكيم، بتقدير رحمنٍ رحيم، ستة أمثال ما هطل في العام الماضي، المياه الجوفيّة أصبحت مقفرة، معظم الينابيع غارت في العام الماضي، معظم الأنهار جَفّت، المخزون المائي انخفض أمتارا كثيرة، وأصبحت الأراضي عطشى، ولا أمل، حتى جاء إمداد الله عزّ وجل، فالمؤمن لا يقول لك: منخفض جوي متمركز فوق قبرص باتجاه القطب، لا، الحمد لله رب العالمين على نعمة الأمطار، على نعمة الصحّة، على نعمة الأهل، على نعمة المأوى، المؤمن حالته دائماً حمد.

إذاً الآية الأولى: القضيّة ليست إثبات نعمة أو عدم إثباتها، النعمة ثابتة عند أهل الأرض كُلِّهم، ولكن القضيّة لمن تعزو هذه النعمة ؟

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

يجب أن تعزوها إلى الله، وفي أية لحظةٍ تعزو بها هذه النعم إلى غير الله فقد وقعت في الكفر والشرك معاً، في الكفر لأنك جحدتها، وفي الشرك لأنك اتخذت من دون الله نِدًا، وهذا الشيء الذي اتخذته من دون الله لا وجود له ولا أصل له..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

الذي اسم موصول، في محل جر صفة لله..

(الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

1 - الكون بيد الله:

أضرب مثلاً: لو فرضنا مديرية ذات شأن، والناس تتعلّق كل مصالحهم بها، وقد تسلّمها رجل صالح، حازم، تقي، مستقيم، عادل، رحيم، تشعر براحة لا حدود لها، الأمور بيد فلان، فلان رائع، صاحب

مروءة، ورع، يخاف الله عزّ وجل، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحب أن يعطي كل ذي حقٍّ حقّه، لا تنفع معه الشفاعة، ولا أي شيء آخر، ألا تشعر بالراحة إذا علمت أن هذه المدرسة مديرها فلان، وابنك فيها ؟ إذا علمت أن هذه المستشفى مديرها فلان، وفلان تقي، ونقي، وورع، وصالح، ومستقيم، والأمور منضبطة، وحازم.

ولكن..

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى)

(سورة النحل: من الآية 60)

(الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

مرّة قال لي صديق ـ أعجبتني هذه الكلمة ـ قال لي: الحمد لله على وجود الله، والله شيء جميل، لأن الله يعلم، لا تحتاج لوصل معه، لا تحتاج ليمين، لا تحتاج لإيضاح، لا تحتاج لبيان، لا تخاف أن العمل لم ينجز بعد، فعلاقتك ليست مع شخص، قال لي موظّف: أداوم ست ساعات، ثماني ساعات دواماً متقناً دؤوباً، مرّة رآني المدير خارج دائرة الطاولة وبّخني، فتركت الدوام المتقن، صعب أن تربط نفسك مع إنسان، الإنسان لا يعلم، لأنه بشر، أما الله عزّ وجل فيعلم كم دفعت ؟ ولمن دفعت، وحجم المبلغ، والتضحية، وكون المبلغ من مال حلال، كله يعرفه، فقال لي: الحمد لله على وجود الله، نعم والله، حتّى في خصومتك مع الناس الله هو الحق، فإذا كنت مع الله لا تخف، واطمئن، هو الحق، وهو الذي يحقُّ الحق، وهو الذي يظهر الحق، وهو الذي يدافع عن الذين آمنوا، وهو الذي يدحض الباطل، الله هو الحق، هو الرحيم، هو العادل، الحمد لله على وجود الله.

فهذه السماوات والأرض أي الكون، الحمد لله الذي له، لو أنها لغيره ؟ والله هذه مشكلة، وما لك طريق له، قرّب أناساً دون أناس، الله عزّ وجل عنده ميزان:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

كلّنا لآدم، وآدم من تراب، الناس كلّهم سواسية كأسنان المشط، الخلق كلّهم عيال الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله، لا أبيض ولا أسود، لا كبير ولا صغير، لا ذكي ولا غبي، لا متعلم ولا جاهل، كلّنا عند الله سواسية نتفاضل بالتقوى..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

إذا كان هذا الكون تابعاً لغير الله عزّ وجل، فلان له جماعته مثلاً، قرّب أناساً، وأبعد أناساً، له مقاييس أخرى لكانت الطامة الكبرى، لكن ربنا عزّ وجل كلّنا عباده، أنت اعمل عملاً صالحاً فقط، وعلى الله

الباقي، يسمع دعاءك، يسمع ابتهالك، يسمع رجاءك، يرى عملك، يرى إخلاصك، يرى حبّك، يرى طاعتك له، يرى إحسانك للخلق، يرى إتقان عملك، أحياناً إنسان يكلِّفك بعمل تتقنه ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل، فهو يرى، أما صاحب العمل فتقول له، هنا في قطعة وضعناها زيادة تقوية، هنا عملنا لك هذا زيادة، لأن فيه فائدة كبرى، هنا عملنا لك الخشب الفلاني، لأن الشخص العادي لا يعرف قيمتها فيجب أن تبيّن له، أما ربنا فيعرف كل شيء، إذا أتقنت عملك يعرف كل شيء، يعرف نصحك للمسلمين، يعرف إخلاصك لهم، يعرف حبّك لهم، كلّه يعرفه..

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

2 ـ الكون ملكٌ لله خَلقاً وتصرّفاً ومصيراً:

قال بعض المفسّرين: هذا الكون ـ فكلمة الكون أو العالَم ـ التعبير القرآني لها السماوات والأرض، حيثما وردت كلمة السماوات والأرض في القرآن تعني في المصطلح الحديث العالَم، أو الكون:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

أما كلمة (له) فله خلقاً وتصرّفاً ومصيراً.

للتوضيح: أحياناً تملك بيتاً، ولست منتفعاً به، تملكه، ولكن لا تستطيع الانتفاع به، والتصرف فيه، فأنت مستأجر البيت، وأحياناً تنتفع بالبيت، ولا تملكه، لأنك مهدّد بأي قرار يخرجك منه، تملك ولا تنتفع، أو تنتفع ولا تملك، تملك، وليس لك حقُّ التصرُّف، أو تتصرّف، وليس لك الملك، أحياناً تملك وتتصرّف، وقرار تنظيم يلغي لك البيت كله، ليس لك المصير، المصير بيد آخرين، جئت بهذا المثال للتوضيح، فأكمل أنواع المُلكيّة ؛ الخلق، والتصرُّف، والمصير..

(بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَانِ الرّحِيمِ(1)الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرّحْمَانِ الرّحِيمِ(3)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(4))

(سورة الفاتحة)

وفي قراءة: مَالِك يوم الدين.

والحقيقة أنّ المالك هو الذي يملك، ولا يحكم، والمَلِك هو الذي يحكم ولا يملك، والمَلك والمالك يملك ويحكم، فلذلك:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي لَهُ)

3 ـ معرفة أن الكون ملكٌ لله يبعث بالراحة:

إذا كانت علاقتك بمديرية علاقة متينة، ويمكن أن يوقع بك موظّفوها إيذاء كبيراً، ثمّ بلغك أن هذه الدائرة تسلّمها فلان، وفلان في أعلى درجات النزاهة، والورع، والاستقامة، والرحمة، ترتاح راحة لا حدود لها، هذا المثل المُقَرّب للفكرة، فهذا الكون بيد الله عزّ وجل، هو الذي خلقه، وهو الذي يتصرّف فيه وإليه مصيره، الخلق، والتصرُّف، والمصير، ثلاث صفات مجتمعه تمثِّل أعلى درجات المُلْكِيَّة..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

لكن يجوز أن ترى في الدنيا قوياً وضعيفاً، فقيراً وغنياً، حاكماً ومحكوماً، ظالماً ومظلوماً، مقتدراً وضعيفاً، ذكياً وغبياً، وسيماً وقبيحاً، صحيحاً ومريضاً، قد تجد في الدنيا أن هذه الحظوظ موزّعة توزيعاً متفاوتاً جداً، لكن في الآخرة تُسَوّى كل الحسابات، ويجزى كل إنسانٍ بعمله، فالله عزّ وجل كما أن:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ)

القوة البلاغية في القرآن الكريم:

هذه الآية فيها احتباك، ظاهرة بلاغيَّة رائعة، هناك غي أول قسم شيء محذوف، وفي آخر قسم شيء محذوف، لكن إذا اجتمع القِسمان يكون المعنى كما يلي: الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض في الدنيا، والحمد لله في الآخرة الذي له ما في السماوات وما في الأرض في الآخرة، ففي الدنيا الأمور كلُّها إليه، وفي الآخرة الأمور كلُّها إليه، وله الحمد في الأولى والآخرة، لكن الحمد في الأولى لا يعرفه إلا المؤمن، لأن المؤمن مُتَفَتِّح البصيرة، إيمانه دلّه على عظمة الله، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى صفاته الفضلى، المؤمن يرى في الدنيا أن يدَ الله فوق أيدي الناس، أنه هو المتصرّف، هو المنعم، هو المانع، هو المُعطي، هو النافع، هو الضار، هو الخافض، هو الرافع، هو المعز، هو المُذل، هو القابض، هو الباسط، هذا يراه في الدنيا.

لا تنقِم على عصا الضاربِ:

لكن غير المؤمن يرى الشركاء، يرى زيداً وعُبيداً، هذه كلها عصي بيد الله عزّ وجل، المؤمن لا يرى العصا، ولكن يرى من بيده العصا، أما الكافر فيرى العصا.

تصوّر طالبا ضربه معلِمه، فصبَّ كل نقمته على هذه العصا التي آلمته، أليس هو بهذا الغضب والحِنق ضيّق الفكر ؟ كل نقمته صبّها على العصا هو، مع أنها عصا لا تقدِّم ولا تؤخِّر، ولا تنفع ولا تضر، لكنها آلمت هذا الطفل، لأن الأستاذ سخَّرها لإيلام هذا الطفل، الطفل الأذكى لا يتألّم من العصا، بل يتألّم من الأستاذ الذي ضربه بها، والأذكى من الاثنين يرى الأستاذ رجلاً رحيماً، ورجلاً عالِماً، لا مصلحة له في إيقاع الأذى به، لابدَّ أنه ارتكب شيئاً يستحقُّ هذا العقاب، إما عقاباً، أو تأديباً، أو وقاية، أو ردعاً، إذاً ينقم على نفسه.

أول طفل صبَّ غضبه على هذه العصا، أحياناً الطفل الصغير إذا وقع على الأرض وتألّم، تأتي الأم وتضرب الأرض فتشفيه من غيظه، وتنزل إلى مستواه، فعندما يتألّم إنسان من إنسان معنى هذا أنه مشرك، لا يوجد إلا الله عزّ وجل، هو سمح له أن يفعل كذا، هو أطلقه، أطلق لسانه أن يقول عنك كذا وكذا، أطلق يده أن يفعل بك كذا وكذا، فحينما تَصُبُّ نقمتك على إنسان فأنت لا تعرف الله، وحينما ترى أن هذا الإنسان بيد الله عزّ وجل، هذا مستوى أرقى، أما أرقى من هذا وذاك أن الله عزّ وجل..

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

أي أنا الذنب مني..

((مَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

انتهى الأمر، لهذا قال عليه الصلاة والسلام في أحد أحاديثه الجامعة المانعة:

((لا يخافنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجونّ إلا ربّه))

[ورد في الأثر]

مشكلتك مع نفسك

((مَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

فلذلك المؤمن يقول:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

4 ـ الحمد لله على كل شيء:

ما في السماوات وما في الأرض في الدنيا له، ويُحْمَد على كل تصرُّفاته، والآخرة له ويُحمد فيها على كل أفعاله بها، والدليل: قضيّتك مع الله منذ أن خُلِقت وحتّى دخول الجنّة، ملخّصة بكلمة واحدة، وهي قوله تعالى:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

والله أحياناً أرى بعض الإخوة الأكارم، ويكون مصاباً بمشكلة، والله أقول له: هذه الكلمات من أعماق قلبي، أقول له: والله لو كُشِفَ الغطاء عن حكمة هذه المصيبة، وعما فيها من الرحمة، والعدل، واللطف، والإحسان، والعلم، والخبرة، إن لم تذب كالشمعة يوم القيامة حبّاً لله، وخجلاً منه، وامتناناً على هذه النعمة فهذا الدين باطل، لأنه إله، ولا إله غيره، هو الوحيد في الكون، بيده كل شيء، اللهُ ما عنده غلط، أنت تغلط، أما الله عزّ وجل فمطلق..

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[الجامع الصغير عن ابن عساكر عن البراء]

هذا الإيمان، لذلك لكل شيءٍ حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتّى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، تجد المؤمن من داخله مثل البحر، كل شيء إلى خير..

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

[مسند أحمد عن صهيب]

يرى يد الله فوق كل يد، يرى نعمته الظاهرة في العطاء، والباطنة في السَلْب، وأكاد أقول: إن تسعين بالمئة من المؤمنين عرفوا الله، وتابوا إليه، واستقاموا على أمره، وسعدوا بقربه، بسبب مصيبةٍ أنزلها بهم، فألجأتهم إلى بابه، وله الحمد في الأولى والآخرة، فكم من رجلٍ شاردٍ تائهٍ عاد إلى الله عزّ وجل إثر شبح مصيبة، عاد إليه إثر مرضٍ شديد، عاد إليه إثر افتقارٍ مدقع، عاد إليه إثر فقد حريّةٍ، آلمه فقط، وله الحمد في الأولى والآخرة، حتى إنه قيل: الحمد لله الذي لا يُحْمَد على مكروه سواه.

المؤمن لا مشكلة عنده، لا عقدة نفسيّة يعاني منها، لا حقد في قلبه، يرى أن كل البشر عصياً بيد الله، الذي أحسن إليه منهم، الله ألهمه وسمح له، وجمعه معهم، والذي أساء إليه منهم، الله سخّره تأديباً له، حتّى إن الإمام الشعراني رحمه الله تعالى قال: " أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي "، هذه التي عندك في البيت، إما أن تُلْهَم أن تكون مطواعة، وإما أن تُلهم عكس ذلك، فإذا آلمتك يوماً، وأرضتك يوماً، فأنت المُتَقَلِّب وليست هي، هي ملهمة، دعوها فإنها مأمورة.

القضيّة قضية أن تعرف المنعم، إذا عرفته، وعرفت المسيّر، وعرفت الرب، وعرفت الإله، واستسلمت إليه، دخلت فيما يسمى بالسعادة النفسيّة، دخلت فيما يسمى بالوحدة، لا بالتبعثر، دخلت فيما يسمى بالانسجام، لا في التناقض.

الحياة فيها متناقضات، فيها تبعثُر، فيها تشتُت، لكن المؤمن مجموع، اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلها، من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً..

من أحبّنا أحببناه ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له، من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين، عبدي كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، أعرف ماذا تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك.. أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

أفعاله كلُها حكيمة، كل شيءٍ أراده الله وَقَعَ، كل ما أراده الله وقع، كل ما وقع أراده الله، إرادته متعلِقةٌ بالحكمة المطلقة، حكمته متعلِقةٌ بالخير المطلق..

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِير)

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِير

المؤمن دائم الحمد، لعلمه أن الله حكيمٌ خبير:

أيها الإخوة الأكارم... صفة الحمد في المؤمن صفةٌ ثابتة، بل إنها من سماته العميقة، فمعنى مؤمن أي أنه إنسان حامد لله، أروع كلمةٍ أسمعها من أخ كريم: كيف الحال ؟ الحمد لله، أنا أعلم أنه قد يكون في ضيق مادي، قد يكون فيه مرض، قد يكون له مشكلة في البيت، لكن كلمة الحمد لله يقصد منها أن الله هو المتصرّف، وهو الحكيم، وهو الخبير، وهو العادل، وهو الرحمن الرحيم، خلقنا ليسعدنا في الآخرة، والدنيا مدرسة، فنحن في مدرسة، ونحن في طور المعالجة، ونحن في العناية المشدّدة، فإذا قال لك أخ مبتلى: الحمد لله، إنه عرف الله عزّ وجل، عرف أن الإنسان خُلِقَ للآخرة، خُلِق لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، عرف أن هذه الدنيا دار عمل، وليست دار نعيمٍ مقيم، عرف أن هذه الدنيا دار ابتلاء، وليست دار جزاء، عرف أن هذه الدنيا دار تكليف لا دار تشريف، عرف أن هذه الدنيا لا قيمة للحظوظ فيها، القيمة لطاعة الله عزّ وجل، لقوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

شعوره أنه على الخط الصحيح، شعوره أن الله راضٍ عنه، شعوره أنه في الاتجاه الصحيح، شعوره أنه في الطريق إلى هدفٍ كبير، هذا شعور مسعد، لذلك:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[سنن الترمذي عن أنس بن مالك]

قد تجد إنساناً عظيم الهيئة ـ والقصّة المعروفة لديكم ـ دخل رجل على أحد العلماء، وكان في رجله ألمٌ شديد، فمدّها، وقد اعتذر من تلامذته، دخل عليه رجل طويل القامة، عريض المنكبين، ذا هيئةٍ حسنة، يرتدي عِمامة على رأسه، وجُبّة على ظهره، فهذا الرجل العالِم ظنّه رجلاً عظيماً، فرفع رجليه، واستحيا منه، جلس عنده، فالموضوع كان عن صلاة الفجر، تحدّث عن الفجر الصادق والكاذب، وأحكام الصلاة، والسُنّة القبليّة، وما إلى ذلك، فهذا الرجل الذي دخل المجلس نظر مليّاً، ثمّ سأل، قال: " يا سيدي، كيف نصلي الفجر إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ "، قال له: " عندئذٍ أمدُّ رجلي ".

نعمة العقل نعمة كبيرة، المؤمن قد يكون في ضيق مادي، قد يكون عنده مشكلة في البيت، ولد عاق مثلاً، أو عنده زوجة متعبة، في عمله متاعب مثلاً، تجارة بائرة، عنده مشكلات كثيرة، لكن يرى أن الله سبحانه وتعالى خلقه لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، ما دُمْتَ على الطريق الصحيح فلا تخف، ما دمت في رضوان الله فلا تخف، فالعاقبة لك..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

الأيام تدور، ولا تستقر إلا على إكرام المؤمن، فتأتي ساعة للمؤمن عند فِراق الدنيا لو جُمِعَت لذّات الحياة كلّها، لو جُمعَت نعم الحياة كلّها لا تعدل هذه الساعة، حينما يشعر أنه نجا من عذاب الآخرة، وأنه استحقّ الجنّة وما فيها من نعمٍ عظيمة، لذلك: **" يا بني، ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنّة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية ".**

إن المؤمن إذا قلت له: كيف حالك ؟ يقول لك: الحمد لله، والله حدّثني طبيب، قال لي: جاءنا رجل تبدو عليه ملامح الإيمان، مصاب بمرض خبيث في أمعائه، قال لي: والله يا أستاذ كلّما دخلنا عليه رأينا وجهه يطفح بالبِشْر، والثقة بالله، والصبر، وكلّما دخل عليه زائر يقول له: اشهدْ أنني راضٍ عن الله، يا رب لك الحمد، قال لي: ما صرخ، ولا رفع صوته، ولا تأفّف منه أحد، بل أقسم لي إن أمعاءه فُتِحت خارج مكانها الطبيعي، أي هناك كيس فيه غائط دائماً، أقسم لي وقال: والله رائحة الغرفة تفوح بالعطر، وإذا قرع الجرس يتهافت عليه الممرّضون ليخدموه، والأطبّاء يكثرون زيارته، انجذبوا لهذه الغرفة، شيءٌ عجيب، إنسان مصاب بسرطان بالأمعاء، وآلام السرطان بالأمعاء لا تُحْتَمَل أبداً، طبيب صديق

لي في المستشفى نفسه، قال لي: شيء عجيب، لا صياح، لا ألم، هدوء، وبشر، نور بوجهه، رضى بقضاء الله وقدره، قال لي: ما هي إلا أيّام حتّى توفّاه الله عزّ وجل على أحسن حال.

قال لي: من غرائب الصُدَف، ومن حكم الله عزّ وجل أنه جاء الغرفة مريضٌ آخر بالمرض نفسه، قال لي: ما ترك نبيّاً إلا وسبّه، رائحة الغائط تملأ الغرفة، لا أحد يُلبّيه، أمام الممرضين والممرضات رأوا المرض واحد، الآلام واحدة، الخطر واحد، الموت قريب، رأوا من هو المؤمن، ومن هو الكافر، المؤمن راض بقضاء الله، فحينما يأتيك شيءٌ لا يعجبك وتقول: الحمد لله، مئة على مئة نجحت، لأن سيدنا علي يقول: **<< الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين >>.**

فالإيمان شيء عظيم، شيء لا يقدّر بثمن، أنت مؤمن، أي أنك ترى أن الفعل فعل الله عزّ وجل، وأن الله رحيم، يده رحيمة، يده قويّة، عادلة، لطيفة، هذا الإيمان.

هذا الدرس للتطبيق، يجب أن يكون حالك حال الحمد دائماً، فإن لم تكن كذلك فبينك وبين الإيمان مراحل فسيحة، جدِّد إيمانك، ما دام هناك نقمة، وألم، وعتاب على الله عزّ وجل، لماذا لم يعطني وأعطى فلاناً ؟ ما دمت بهذا الحال فبينك وبين الإيمان المُنجي مراحل طويلة، أما الحد الأدنى لإيمانك فأن تحمد الله على كل شيء، على كل حال، النبي الكريم كان إذا جاءت الأمور كما يشتهي قال:

((الحَمْدُ لِلّهِ الّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصّالِحاتُ))

[ابن ماجه عن عائشة]

وإذا جاءت الأمور على غير ما يريد كان يقول:

((الحَمْدُ لِلّهِ على كلّ حال))

[الجامع الصغير عن عائشة]

المؤمن كلمة الحمد لا تفارق فمه، بل إنها أول آية بالفاتحة، الفاتحة تقرأها في كل ركعة، أكثر من خمسين مرّة، بين الصبح والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وإذا كان هناك نوافل، في كل ركعةٍ تقول: الحمد لله رب العالمين، فلذلك الحمد سمة أساسيّة من سمات المؤمن، على السراء والضراء، والمنشط والمكرم، والزواج وعدم الزواج، والغنى والفقر، والإنجاب والعقم، وصلاح الأولاد وفسادهم، وزوجة جيّدة ووسط وسيئة، والدخل كبير وقليل، والتجارة رابحة وخاسرة، على كل حال، في المنشط والمكره، هذا المؤمن..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدّلُوا تَبْدِيلا)

(سورة الأحزاب)

فهذه الآية دقيقة جداً، وبعد ذلك ما دام الله بيده ما في السماوات وما في الأرض، الأمور كلها بيده، الناس كلهم بيده، من حولك كلهم بيده، من فوقك كلهم بيده، من دونك كلهم بيده، من هم أقرب الناس إليك كلهم بيده، هكذا، والله يعلم كل شيء، أجمل آية ما قاله سيدنا هود في قوله تعالى:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِي(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

كل ما في الأرض من دواب الله آخذٌ بناصيتها:

(إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

فهذه الآية قصيرة لكن مفعولها كبير، قصيرة، وهي أحد أركان الإيمان، قصيرة إلا أن تمثّلها سمةٌ ثابتة من سمات المؤمن، فلا تجد مؤمنًا ناقما، ولا مؤمنا حاقدا، ولا مؤمنًا ساخطا على الله، ولا مؤمنا شاكًا في رحمة الله، مؤمنًا شاكًا في عدالة الله، فهو سبحانه عادل، ورحيم، ولطيف، وحكيم، وعليم، والأمر كله بيده، وما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود من الآية 123)

البطل الذكي مَن يحسّن علاقته مع الله قبل الموت:

وأمرك كله مع واحد، أحسن علاقتك بالله وانتهى الأمر ـ عبدي رجعوا وتركوك ـ أول ليلة في القبر، هذه صعبة، من بيت فخمٍ، رجعوا وتركوك، لا بلاط، ولا دهان، لا تبريد، ولا تدفئة ـ رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك ـ الخروج من البيت ليس سهلاً، إلا إذا كان للجنة، إذا كان للجنّة فلا شيء إطلاقاً ـ رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ معك إلا أنا ـ أتعلمون من البطل ؟ هو الذي يحسن علاقته بالله قبل أن يموت، لأنه عند الموت مع الله إلى الأبد، موظّف في مديرية، وآخر معه أمامه ـ مثلاً ـ وبينهما علاقات طيّبة إلى أقصى درجة، وصار وزيره، يدخل بلا إذن، ويكون من ذوي الشأن عنده، ما دامت العلاقات طيّبة قبل أن يغدو وزيراً.

خاتمة:

وأنت في الدنيا إذا كانت معك علاقة مع الله عزّ وجل، جاء ملك الموت فأنت مع الله إلى الأبد، وانحسر عنك كل شيء، فأنت في سعادة، اقرءوا سير الصحابة فإنكم تجدون هذا القاسم المشترك، إنّ أصحاب

رسول الله أسعد لحظات حياتهم حينما يلقون ربّهم، فبين أن يكون الموت عُرْسَ المؤمن ؛ وبين أن يكون الموت نهاية كل شيء، وبداية جحيم لا يحتمل، لذلك الكافر..

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر)

المؤمن.

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ)

(سورة يس)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِي(19)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِي(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

هنيئاً لكم، هذه البطولة:

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (02-10): تفسيرالآيات 2 - 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-02-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الثاني من سورة سبأ، في الدرس الماضي أيها الإخوة فُسِّرَت الآية الكريمة:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

تذكيرٌ بتفسير الآية السابقة:

1 ـ المستحقّ للحمد هو الله وحده:

بيِّنت في الدرس الماضي أن القضية ليست إثبات النعمة، لأن النعمة ثابتة، وما من مخلوقٍ على وجه الأرض إلا ويقرُّ بها، ولكن القضية قضية المُنْعِم، من المنعم ؟ المنعم هو الله، فكلّ النعم ؛ صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، قريبها وبعيدها، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليّها، كل هذه النعم ما كان منها في الدنيا، وما كان منها في الآخرة، كل هذه النعم من حضرة الله وحده، فأي اتجاهٍ إلى غير الله كي تشكره على شيءٍ توهمت أنه منه فهذا شرك.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

فالذي يستحق الحمد وحده هو الله لأنه هو الخالق.

2 ـ الحمد لله على ملكه السموات والأرض:

والقضية الثانية في تلك الآية: هي أن الله سبحانه وتعالى يحمد على أن له ما في السماوات وما في الأرض، وكما علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نتلو بعد صلاة الفجر: " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد "، يحمد لأن له الملك، يحمد لأنه مالك الملك، يحمد لأن الأمور كلها بيده، يحمد لأن له الخلق والأمر، يحمد لأنه خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، يحمد لأنه لا يغيب عنه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

وذكرنا في الدرس الماضي أيضاً كيف أن المُلْكِيَّة لله عزّ وجل تعني الخلق والتصرف والمصير.

3 ـ الحمد لله على ملكه أمور الدنيا والآخرة:

وبينت أيضاً أن الحمد لله الذي له ما في السماوات والأرض في الدنيا، وأن الحمد لله الذي له كل شيءٍ في الآخرة، فهو مالك يوم الدين، مالك الدنيا والدين، مالك الدنيا والآخرة، مالك دار الفناء ودار البقاء، مالك دار العمل ودار الجزاء، سبحان الله ! كيف ينصرف الإنسان إلى غير الله ؟ فالله مالك الدنيا ومالك الآخرة، مالك كل شيء، وهو يحمد على ملكه..

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

4 ـ مكافأة الله المحسنَ في الدنيا تشجيع لغيره، وعقابه المسيء ردعًا لغيره:

وبيّنت أيضاً أن الله سبحانه وتعالى إذا كافأ المحسن في الدنيا، فهي مكافأةٌ تشجعيةٌ لبقية المحسنين، وإذا عاقب المسيء في الدنيا فهو عقابٌ ردعيٌ لبقية المسيئين، أما الحساب الكامل، أما وفاء الحساب التام فهو يوم القيامة.

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران من الآية 185)

الحساب الكامل، الرصيد، الحساب الحقيقي يوم القيامة، لماذا ؟ لأنك إن رأيت محسناً قد كافأه الله، فربما رأيت محسناً أخَّرَ الله له المكافأة إلى وقتٍ آخر، فلئلا تتخذ من الدنيا دار جزاء، لأن الله عزّ وجل جعلها دار عمل ودار ابتلاء، فقد تجد مسيئاً في أعلى درجات الشأن والغنى والقوة، فلا ينبغي إذا رأيت مسيئاً يزداد علواً في الأرض، ومحسناً مغموراً، لا ينبغي أن تحملك هذه الموازنة على أن تشكّ في وعد الله ووعيده، فحقيقة الدنيا هي دار ابتلاء، وحقيقة الآخرة هي دار جزاء، وإذا كافأ الله المحسن في الدنيا فهي مكافأةٌ تشجيعيةٌ لبقية المحسنين، وإذا عاقب المسيء في الدنيا فهو عقابٌ ردعيٌ لبقية المسيئين، لكن الجزاء الأوفى، والجزاء الحقيقي، هو في الآخرة، لذلك ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر.

5 ـ الدنيا هينة لا قيمة لها:

لهوان الدنيا على الله، ولضعف شأنها عنده ما أرادها أن تكون مكافأةً للمؤمن، ولا أن تكون عقاباً للكافر، ربما كانت الدنيا جنة الكافر، وسجن المؤمن.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

والنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى شاةً ميتةً ماذا قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه ؟ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِسَخْلَةٍ جَرْبَاءَ قَدْ أَخْرَجَهَا أَهْلُهَا فَقَالَ:

((أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى أَهْلِهَا ؟ قالُوا: نَعَمْ، قالَ: لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

[أحمد]

في بعض الروايات ـ أتشترونها بدرهم ؟ قالوا: لا، ولا بلا مقابل نشتريها، قال: للدنيا أهون عند الله من هذه الشاة على أهلها.

لذلك الله سبحانه وتعالى أعطى المال لمن لا يحبه، أعطاه لقارون، قارون:

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص من الآية 76)

فإذا بلغك أن فلاناً معه أموال كثيرة، موزعة في أرجاء العالم، بيته فخم، مركبته فخمة، المال عنده كالتراب، إياك أن يتوارد إليك أن فلاناً له شأنه عند الله، إياك أن تظن أن الله كافأه، أو أن الله أعطاه.

الآن أقول لكم هذا الكلام الدقيق: ربنا عزّ وجل يقول:

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ)

(سورة الفجر من الآية 15)

بمقياس العبد ؛ أعطاه المال، والصحة، والشأن، والمكانة، والجمال، والكمال، إلخ..

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

هذا قول الله أم مقولته ؟ مقولته.

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ)

هو:

(رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

ربنا عزّ وجل قال:

(كَلاَّ)

(سورة الفجر من الآية 17)

هذه أداة ردعٍ ونفيٍ، كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إن عطائي ابتلاء وحرماني دواء، هل يمكن أن تسمِّي المال نعمةً مطلقا ؟ لا، يصبح نعمةً إذا أنفقته في سبيل الله، المال في الأصل ابتلاء، فإذا أحسنت إنفاقه في سبيل الله انقلب من ابتلاءٍ إلى نعمة، هل تعد الزوجة نعمةً ؟ لا، إنما هي ابتلاء، فإذا

دللتها على الله، وحملتها على طاعة الله، انقلبت من ابتلاءٍ إلى نعمة، هل تعد المكانة العلية نعمةً ؟ لا، إنها ابتلاء، فإذا سخّرت هذا الشأن العالي لخدمة أهل الحق، انقلب الجاه الذي كان ابتلاء إلى نعمة.

6 ـ يجب تسخير النعم للآخرة:

يجب أن تعلم علم اليقين أيها الأخ الكريم أنه ما من شيءٍ أعطاك الله إياه لا يسمّى نعمةً أبداً، يسمى ابتلاءً، فلابد أن يكون مسخّراً للآخرة، لقوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الآخِرَةَ)

(سورة القصص من الآية 77)

هذه آيةٌ واضحةٌ وضوح الشمس، يجب أن تسخر صحتك لطاعة الله عزّ وجل، قوتك لخدمة الضعيف، ذكاءك لمعرفة الله، علمك بنشر الهدى، وقتك الفارغ لخدمة الخلق، أيُّ شيءٍ آتاك الله إيّاه ينبغي أن تسخره للدار الآخرة، والدليل قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا)

(سورة القصص من الآية 77)

فقد يقول قائل: يا أخي لا بدّ من أن نأكل، ونشرب، ونتنزه، ونأخذ بعض حظوظنا، وقد يقول قائل: لا تنسَ نصيبك من الدنيا، نقول لطالبٍ ذهب إلى بلدٍ غربي ليدرس، وليعود بالدكتوراه، نقول له حين الوداع: يا فلان، إياك أن تنسى المهمة التي ذهبت من أجلها، إياك أن تلهو مع من يلهو، إياك أن تنغمس في الملذّات، إياك أن تنسى أنك طالب علم، إياك أن تنسى أن الناس ينتظرون عودتك، هذا معنى:

(وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا)

أنت في الدنيا لك مهمةٌ كبيرة، إياك أن تنسى هذه المهمة، لذلك:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الآخِرَةَ)

(فَأَمّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعّمَهُ فَيَقُولُ)

هو.. هذه مقولته:

(رَبّي أَكْرَمَنِ)

(وَأَمّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ)

هو:

(رَبّي أَهَانَنِ (16) كَلاّ)

(سورة الفجر)

ليس هذا صحيحاً، ولا ذاك صحيحاً، ليس عطائي تكريماً، وليس منعي حرماناً، لا، إنما عطائي ابتلاء وحرماني دواء، كلا أداة ردع ونفي، فلذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

7 ـ علّة خلق السموات والأرض معرفة أمره وتطبيقه:

مرةً ثانية أسماء الله الحسنى كثيرة، لكن كأن هذه الأسماء تتمحور حول وحدات، الله عزّ وجل موجود، والله واحد، والله كامل، لكن أنا متى أستقيم على أمره ؟ أنت متى تنفِّذ تعليمات من هو فوقك، متى ؟ إنه سؤال دقيق وسؤال محرج: متى تنفذ التعليمات التي جاءتك ممن هو فوقك ؟ في حالتين، لا بدّ من أن تجتمعا:

الحالة الأولى: إذا علمت أنك إذا خالفت هذه التعليمات فإن الذي أصدرها يعلم ذلك.

الحالة الثانية: وإذا علمت أنك إذ خالفتها فإن الذي فوقك يطولك وسوف يعاقبك.

دقق في علاقاتك مع الناس ؛ لن تأتمر بأمر، ولن تنتهي عن نهي، ولن تنفذ توجيهاً، إلا إذا أيقنت أن الذي فوقك يعلم إذا خالفت هذا الأمر، وإذا خالفت هذا الأمر فلابدّ من أن يوقع بك عذاباً، أو إيلاماً، أو عقوبةً ثابتة، من هنا يقول الله عزّ وجل: ما دمت تحمد الله على أن له ما في السماوات والأرض فلابدّ من أن تطيعه، ما معنى هذا الحمد ؟ ما معنى هذا الحمد أن تحمده على أنه خلق السماوات والأرض ؟ لابدّ من تحركٍ نحوه، والدليل:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا)

(سورة الكهف من الآية 110)

إنسان يتعرف إلى الله، ويقف في مكانه مكتوف اليدين ؟ لا يتحرك نحوه ؟ لا يبحث عن أمره ؟ لا يتقرب إليه ؟ هذا ادِّعاء..

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

***

فمستحيل أن تتعرف إلى الله حق التعرف وأن تعصيه.

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا

1 ـ علمُ الله شامل لكل خارج من الأرض داخل فيها:

أيها الإخوة الأكارم... إذا كان هناك انحراف، أو خروج عن أمر الله، يجب أن تعلم علم اليقين أنك لا تعرفه، وأنك ما قدرته حق قدره، من أجل أن تطيعه يجب أن تعلم أن الله يعلم..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)

(سورة الطلاق من الآية 12)

الآن جاءت لام التعليل.. خلق سبع سماواتٍ، وخلق الأرض، وما فيها من سبع طبقاتٍ:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

من أجل أن تعلم ؟ لأنك إذا علمت استقمت على أمر الله عزّ وجل.

مثل بسيط جداً: طفلٌ صغير، ولا أبالغ، قد لا تزيد سنه على سنتين، إذا أراد أن يفعل شيئاً يغضب الأب، أول شيء ينظر إليه أيراقبه ؟ فإن كان يراه امتنع، وإن كان غافلاً عنه فعل، هذا الطفل الصغير بفطرته لا يُقْدِمُ على مخالفتك إلا إذا علم أنك غافلٌ عنه، فإذا علم أنك تراه يمتنع، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ)

كل ما يدفن في الأرض يعلمه، كل بذورٍ تدفن في الأرض، وتزرع يعلمها، كل المياه التي تُسقي الأرض يعلمها، أيُّ شيءٍ يلج في الأرض، أي شيءٍ من مياه، إلى أموات، إلى بذور..

(وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)

من براكين، من ثروات، من إنبات، أي شيءٍ يدخل يعلمه، وأي شيءٍ يخرج يعلمه، وهذا هو الإشراف الإلهي، وهذا معنى: لا إله إلا الله، لا معبود بحقٍ إلا الله، لأنه يعلم، إن كنت لا تدري، كيف نتهم إنسانا سيّئ الإدارة يقول لك: والله لا أعلم، نقول له:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة أو كنت تدري فالمصيبة أعظم

***

إذا كنت لا تعلم فهذه مصيبة، وإن كنت تعلم، وبقيت مكتوف اليدين فهذه مصيبةٌ أكبر.

إذاً ربنا عزّ وجل هو الإله، هو رب يعلم كل شيء، قال:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا)

2 ـ علمُ الله شامل لكل ما ينزل من السماء وما يعرج فيها:

الملائكة إذا نزلت بأمر الله، إذا عرجت بأعمال العباد، الأمطار إذا نزلت، نزلت في هذا المكان كذا ميليمتر، في هذا المكان أقلّ من معدلات السنة الماضية، يا رب ما الحكمة في ذلك ؟ يعلم ذلك، يعلم أنه أغرق هذه المنطقة وجعل هذه المنطقة تَئِنُّ من الجفاف، يعلم..

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)

3 ـ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ

لماذا رحيمٌ غفور ؟ هو رحيمٌ لا شك في ذلك، لكنه غفور، فلو أن إنساناً انحرف عن جادة الصواب، لابدّ من أن يغفر الله له، وكيف يغفر الله له ؟ يسوق له بعض الشدائد، يحرمه بعض النعم، حتى يلجأ إلى الله، وحتى يتوب، وحتى يتضرّع، عندئذٍ يغفر له.

تقريباً ولله المثل الأعلى: أحياناً هناك طبيب، والطبيب يعلم دخائل الجسم، وما يصلح له، وما لا يصلح له، وهناك أب في قلبه رحمةٌ لابنه، أما إذا كان الأب طبيباً، أو الطبيب أباً، أي إذا اجتمعت الرحمة والعلم في شخصٍ واحد، الأب الجاهل يطعم ابنه أطيب الطعام ولو دمر أمعاءه، هناك أكلاتٌ مَن عنده التهابٌ في الأمعاء، أو مغصٌ مزمن، أو ما إلى ذلك تؤذي الطفل إيذاءً شديداً، لذلك ورد في الحديث الشريف:

((إن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

[ورد في الأثر]

((إن الله تعالى يحمي عبده المؤمن كما يحمي الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة))

(الجامع الصغير عن حذيفة)

إذاً:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)

رحيمٌ وغفور، طبيبٌ وأب، أبٌ في قلبه رحمةٌ تجاه ابنه، وطبيبٌ عنده علمٍ كافٍ يجعله يمنع ويسمح، ويقنن ويُكثر.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ

بالمناسبة قلت لكم سابقاً، وأعيد هذا مراراً وتكراراً: لن تستقيم على أمر الله إلا إذا علمت أن الله يعلم، ويقدر، وسيحاسب.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ)

ساعة الحساب.

(قُلْ بَلَى وَرَبِّي)

قُلْ بَلَى وَرَبِّي

1 ـ تنزيلُ خبر الله منزلة الشيء الواقع المرئيّ:

قال بعض العلماء: حينما قال الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

(سورة الفيل)

قد يقول قائل ببساطة: والله أنا ما رأيت ذلك، القرآن يخاطب المؤمنين، يخاطب الناس جميعاً.

(أَلَمْ تَرَ)

أيها الإنسان.

(كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

لو قال: ألم تسمع، ممكن، سمعت بهذا، سمعت بهذا في التاريخ أو في القرآن، أما هو فيقول:

(أَلَمْ تَرَ)

فإذا قال العبد: لم أر، لم أكن وقتها، أليس هذا العبد محقاً في قوله ؟ قال العلماء: خبر الله عزّ وجل، الخبر الذي يأتيك من عند الله لشدة يقينه، وتوكيده كأنك تراه، خالق الكون يقول: فعلت بأصحاب الفيل كذا وكذا، فكأنك ترى ما يفعل بهم رأي العين، هذا كلام خالق الكون، وحينما يقول الله عزّ وجل:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

(سورة المائدة من الآية 116)

لكن يا ربِّ هذا الشيء لم يقع بعد، هذا الشيء يوم القيامة، ولم يأتِ بعد هذا اليوم، فكيف يقول الله عزّ وجل:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

أيضاً قال بعض العلماء: إذا استعمل الله الفعل الماضي للإخبار عن المستقبل فهذا يعني تحقق الوقوع، أي كأنه وقع، فأنت لا سمح الله ولا قدّر لو رأيت إنساناً ينطلق بمركبته في أقصى سرعة في طريقٍ هابطة، وأنت تعلم علم اليقين هذه المركبة ليس فيها مكبح، ألا تقول وأنت لا تدري: تدهوروا ـ تقول تدهوروا بالفعل الماضي قبل أن يتدهوروا، لماذا ؟ لليقين انتهوا، كثيراً ما يقول الطبيب: انتهى، قلبه لا يزال ينبض، ساعة وهو لم ينته بعد، إذا كنت متيقناً مما سيكون وأنت لا تشعر تستخدم الفعل الماضي. الراكب مركبة وهو في أقصى سرعة، وشعر أن المكبح قد انقطع، ماذا يقول ؟ هل يقول: بعد قليل سوف نقع، يقول لك: وقعنا، وهو لا يدري يستخدم الفعل الماضي، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

أي يا أيها الإنسان هذا الخبر يجب أن توقن به وكأنك تراه بعينك.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام سأل أحد أصحابه قال:

((كأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها، وكأني بأهل النار في النار يعذبون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أصبت فالزم، مؤمن نور الله قلبه))

(مجمع الزوائد)

المعلم صاحب الخبرة العالية إذا رأى طالباً يتلهّى في الدرس، كلما كلفه بوظيفة جاء مقصراً فيها، المعلم الذي عَلّم أربعين سنة يقول: كأنني أراه يبكي بعد حين، فهذا الطالب يسرح ويمرح ويمزح، فإذا جاء الامتحان ورسب، وتلقّى النتيجة صار يبكي، هذا البكاء رآه المعلم الخبير قبل حين، يؤيّد هذا قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ(10))

(سورة غافر)

أي أنتم الآن تمقتون أنفسكم، وتضجون، وتلومون أنفسكم، لكن الله عزّ وجل حينما كان يدعوكم إلى الإيمان فتكفرون، مقتُه لكم وقتها أشد من مقتكم لأنفسكم، هذا كله يأتي من الخبرة، فلذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ)

2 ـ البطولة إدراك الشيء قبل الوصول إليه:

إن كنت مؤمناً صادقاً رأيت مصيرهم وهم في أوْج نشاطهم، رأيت مصيرهم وهم في أعلى درجات قوّتهم، رأيت مصيرهم وهم في أعلى درجات غناهم، رأيت مصيرهم المحتوم، المشؤوم الأسود وهم

في أعلى درجات تألقهم، البطولة أن ترى الشيء قبل أن تصل إليه، أن تصل إلى الشيء بعقلك قبل أن تصل إليه بقدميك، هذه البطولة.

من هو الإنسان ؟ أتاه الله قوة تصور، الذي يصل إلى ما سيكون قبل أن يكون هذا التوفيق، وهذا الذكاء، والدول المتقدمة تعيش عام ألفين، يهيئون المشكلات التي سوف تظهر بعد عشرين عاماً، ويخططون لحلها.

فلذلك أيها الإخوة الأكارم.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ)

عَالِمِ الْغَيْبِ

1 ـ يوم القيامة يومٌ عسير:

عالم الغيب ؛ هو الذي يعلم حصولها، ووقوعها، وشدتها، وهولها، لذلك عَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ـ كما خلقهم الله عزّ وجل بغير ختانٍ ـ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟!!! فَقَالَ: الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ))

[متفق عليه]

لشدة الهول الأمر أفظع من أن يعنيهم ذلك، وحينما سألت السيدة عائشة رسول الله صلى الهُ عليه وسلم قالت: يا رسول:

((أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ قال: نعم يا أم المؤمنين، إلا في ثلاث مواطن: عند الصراط، وعند الحشر، وإذا الصحف نشرت، وفيما سوى ذلك..... ليتني أستطيع أن أفعل ذلك، إنني أشكو مما أنت منه تشكين))

[ورد في الأثر]

هذا يومٌ عصيب..

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10))

(سورة المدثر)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

2 - هيّئ جوابًا لله عن كل سؤال:

مرة استنصحني رجلٌ له عمل بإمكانه ببساطة أن يوقع الأذى بالناس، وهو مرهوب الجانب، قلت له: يا فلان، افعل ما تشاء، فاستغرب هذا الكلام مني، ولكنك إذا كنت بطلاً فهيئ لله عزّ وجل عن كل فعلٍ تفعله مع الناس جواباً مقنعاً، لماذا فعلت مع فلان كذا ؟ مع نفسك، مع أولادك، مع زوجتك، مع زبائنك، مع شركائك، مع زبائنك، مع جيرانك، مع الحيوانات.

فهذا العصفور الذي يقتله الصيّاد للتسلية، يقتله لغير مأكلةٍ، ليس جائعاً، ليس على وشك الموت جوعاً، لا، يذهب إلى البادية ليصطاد عشرات المئات من القطا، ثم يتلفها في الطريق، لأنه لا يستطيع أن يحتفظ بها أياماً ثلاثة، لكنه مارس هواية الصيد، وقد حدثني أحدهم قال: والله ذهبنا بسيّارتين أو ثلاثة وصدنا من القطا ما يزيد على ألفي طائر، وكله تلف معنا في الطريق، ورميناه في الطريق، وهذا العصفور يوم القيامة يأتي وله دويٌ كدوي النحل، يقول يا رب سله لم قتلني ؟.

هناك من الصيد ما هو محرّم بإجماع العلماء، أقول: بإجماع العلماء، أي أنك إذا اصطدت طائراً لغير مأكلةٍ، للتسلية، لممارسة هواية الصيد فقط، لكن الله شرع الصيد إذا كنت مسافراً، وأنت الإنسان المكرم، وأنت الإنسان الذي كرّمك الله عزّ وجل، إذا كنت على وشك الموت جوعاً لك أن تصطاد، وأن تأكل ؛ أما أن تجعل من الصيد هوايةً وتسليةً، تتلف هذه الأرواح، تعذب هذا الحيوان بلا جدوى، والحيوان مال تتلفه أنت بهذه الطريقة.

فلذلك أيها الإخوة... في عملك، في حرفتك، في مهنتك، في بيتك، لماذا طلّقت زوجتك ؟ هل عندك جوابٌ لله عزّ وجل ؟ لماذا قلت لأمك: كذا وكذا ؟ لماذا نصحت هذا الإنسان أن يأتيك بعد أسبوع، وأنت تعلم علم اليقين أنه شفي تماماً من مرضه ؟ لماذا تأمره أن يأتيك بعد أسبوع للمراجعة ؟ لماذا ؟ الله وحده يعلم.

أيها المحامي لماذا تقول لهذا الموكل: قضيتك رابحة مائة في المائة، وأنت تعلم علم اليقين أنها لن تربح، ففي محكمة النقض ما يخالف هذا الذي تقوله ؟

أيها الإخوة الأكارم... هذا هو الدين، قلت مرةً لأحد الأشخاص: القضية في الدين ليست في سعة الثقافة، ولا في طول الباع ؛ القضية بالورع، قلت له هذا الأعرابي البدوي الذي رآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأراد أن يمتحنه، هذا البدوي محدود الثقافة، الذي لم يطلع لا على كتاب، ولا على شريط، ولا على مجلد، ولا عنده دائرة معارف في البيت، ولا عنده مجلات حديثة، هذا البدوي قال له عمر: **<< بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت ـ أو أكلها الذئب، قال:**

ليست لي، قال: خذ ثمنها، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟ >>.

هذا البدوي، الأعرابي، هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين، أنت في خلوتك، وممكن أن تقع بمخالفة لا يراها أحد في الأرض، وأنت بينك وبين الله تقول: إني أخاف الله رب العالمين، فأنت مؤمنٌ ورب الكعبة، ورب الكعبة أنت مؤمن..

" من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله ".

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلط))

[ورد في الأثر]

يجب أيها الإخوة قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تقول كلمةً، قبل أن تقف هذا الموقف، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تصل، قبل أن تقطع، قبل أن تذهب إلى هذا المكان، قبل أن تسهر هذه السهرة، قبل أن تشترك في هذه النزهة، قبل أن تعقد هذا الاجتماع، قبل أن تزمجر على فلان، قبل أن تلين لفلان، يجب أن تهيئ لله جواباً على سؤاله، يا عبدي لمَ فعلت هذا ؟ ورد في بعض الأثر أن الله سبحانه وتعالى يقول لإنسان يوم القيامة: **" عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ ".**

سؤال كبير جداً، أعطيتك مالاً والناس يموتون جوعاً، ومعظم الناس لا يجدُ ما يأكله، معظم الناس ليس عنده غرفةٌ يتزوّجُ بها، وعندك بيت بمصيف ثمنه ثلاثون مليوناً من أجل أن تقضي فيه أسبوعين في الصيف، وقد لا يتاح لك أن تزوره مرةً واحدة، قال له: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ ـ لا يوجد في الآخرة كذب ـ قال: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، قال: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، يقول لعبدٍ آخر: أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا رب لقد أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الرحمين، يقول: **يا عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك ".**

إذا لم تراقب الله عزّ وجل، وتحادثه، وتسأله، وترجوه، وتستغفره، فلست مؤمناً، فقل:

(قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)

لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

نواة التمر من أحد أطرافها لها رأس مؤنّف لا يرى بالعين، أما إذا وضعته على لسانك تشعر كأنه دبوس، هذا اسمه نقير، ونواة التمرة في الشق الذي على أحد طرفيها خيطٌ رقيق، هذا ماذا يسمى ؟

فتيل، ولنواة التمرة غشاءٌ رقيقٌ رقيق، هذا يسمى قطمير، فأنتم، لا تظلمون نقيراً، ولا تظلمون فتيلاً، ولا تظلمون من قطمير، لا غشاء النواة، ولا الخيط بين الفَلقتين، ولا في نتوء هذه النواة، لا ظلم اليوم، قال:

(عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

رجل كان ببلد غربي، يقود مركبة في الساعة الثانية ليلاً، بعد أسبوع جاءه إعلام بمخالفة ارتكبها، على عادته في بلده ذهب إلى هناك وقال: أنا لم أخالف، هذا كلامٌ فيه افتراء، فسكتوا، ودخلوا، وخرجوا، وقد أطلعوه على صورة سيارته وهي تخالف، فسكت، ما قول هذا الإنسان لو رأى يوم القيامة شريطاً فيه كل حركاته وسكناته، كل حركةٍ وسكنةٍ..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ)

(سورة الإسراء من الآية 14)

سمعت في بعض دوائر الشرطة أن الإنسان إذا ضبط بمخالفة يصور، فلئلا يقول: كنت، ولم أكن، ولئلا يتعبهم في الاعتراف، قبل كل شيء يطلعونه على الشريط المُسَجَّل، بعدئذٍ يسألونه..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14))

(سورة الإسراء)

فأنا ذكرت هذا لقول الله عزّ وجل:

(لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

فدبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء يعرفها..

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليــل البهيم الأليَل

ويرى نياط عروقها..

النملة لها جهاز هضمي فيه عصارات، ولها معدة، ولها جهاز ضخ، وجهاز إفراز من يرى هذا كله ؟

ثم يقول الله عزّ وجل:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

الذين آمنوا وعملوا الصالحات، عقيدة المؤمن صحيحة، وسلوكه صحيح، أفكاره صحيحة، وعمله طيّب.

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ)

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ

فهذا الذي يكيد للحق، يريد أن يسقِه أهل الحق، يريد أن يطفئ نور الله، يريد أن يظهر الدين على أنه لا يصلح لهذا الزمان، يريد أن يظهر المؤمنين على أنهم أناسٌ ضيقو الأفق، هذا الذي يسعى لإظهار الباطل متألقاً، وإظهار الحق متخلفاً، هذا الذي لا يعنى بكتاب الله، يراه لا يصلح لهذا الزمان..

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ)

هناك رجل مفترٍ ملحد ألف كتاباً سمّاه نقد الفكر الديني، فجاء لهذه الآية:

(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا)

فتوهّمَ خطأً أن هذه الآية هي القرآن الكريم، فقال: أيعقل أن يكون كتابٌ لا يزيد على ستمائة صفحة فيه كل شيء، انظروا إلى هذا الكلام غير المعقول، هذه الآية ليست من القرآن، هذه لكتاب الأعمال، لأعمال الإنسان، فأحياناً الإنسان يفتري، يجَرّح، يطعن، يحاول كشف التناقض، يريد أن يظهر للناس أن هذا القرآن لا يصلح لهذا الزمان، حتى إنه يقول: النظام الديني لا يصلح للبشر، إنه مبنيٌ على التضييق على الإنسان.

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ(5)وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(6)وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(7)أَافْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(8))

وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نقف عند هذه الآيات الكريمة وقفةً متأنية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (03-10): تفسير الآيات 6 - 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-02-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الثالث من سورة سبأ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(6)وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(7)أَافْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ

1 ـ من صفات أولي العلم إقرارُهم بأن القرآن حق:

أيها الإخوة... في هذه الآية إشارةٌ دقيقة إلى أن صفات الذين أوتوا العلم، أنهم يرون أن هذا القرآن الذي أنزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلّم هو الحق.

2 ـ حقيقة الرؤية:

كلمة الحق لابدَّ من وقفةٍ عندها، وكلمة الذين أوتوا العلم لابدَّ من وقفةٍ عندها، وكلمة يرى.. الحقيقة أن الرؤية كما تعلمون نوعان رؤيةٌ بصريَّة، ورؤيةٌ قلبيَّة، رؤية البصر أن ينطبع في شبكيَّة الإنسان خيالٌ، تقول: هذا جبل، وهذه شجرة، وهذا ماء، وهذا زيد، وذاك عمرو، رؤية البصر يستوي فيها كلُّ البشر، بل وأضيف إلى ذلك أن غير البشر يستوون في رؤية البصر، البهائم إذا رأت حفرةً ابتعدت عنها، وإذا رأت ثمرةً أكلتها، فرؤية البصر لا قيمة لها إطلاقاً، لأنها قدرٌ مشتركٌ بين البشر وغير البشر ؛ لكن الذي يتميَّز به الإنسان هو رؤية القلب، رؤية القلب أشار إليها القرآن الكريم فقال:

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور)

(سورة الحج)

رؤية القلب حينما تستقيم على أمر الله، أو حينما تتعرَّف إلى الله وتستقيم على أمره، يقذف الله في قلبك نوراً ترى به الخير خيراً، والشرَّ شراً.

3 ـ المُقدِم على معصية الله أعمى البصيرة:

هذا الذي أقدم على سرقة الأموال هو أعمى، لو رأى مصيره لما أقدم على هذه السرقة، وهذا الذي أقدم على الزنا هو أعمى، لو رأى مصير الزنى، وبشاعة هذا العمل، والخيانة التي لا تحتمل، والعقاب الأرضي السريع، وغضب الله عزّ وجل عليه لما فعله، إذاً يجب أن نعلم علم اليقين أنه ما من إنسانٍ على وجه الأرض يُقْدِمُ على اتباع شهوةٍ محرّمةٍ إلا وهو أعمى، لا نقول: أعمى العينين ؛ بل نقول: أعمى القلب، والدليل أن الله سبحانه وتعالى وصف المعرضين بأنهم في عمى، قال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125) قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة طه)

أي كذلك كنت أعمى في الدنيا.

إذاً ما البطولة ؟ أن تتفتّح بصيرتنا، وأن تصحّ رؤيتنا، وأن نرى الحقّ حقاً والباطل باطلاً، أن نرى ما وراء الأشياء، وأن نرى مؤدّى الأشياء، أن نرى عاقبة الأشياء.

4 ـ الندم على شيء ناتج عن عدم رؤية الحقيقة:

من العاقل ؟ العاقل هو الذي يصلُ إلى نتائج الأشياء قبل أن يصلَ إليها، والعقل ما مؤدّاه ؟ أو ما ثماره الطيّبة ؟ أنك لا تندم على شيءٍ فعلته أبداً، ما دام هناك ندمٌ على شيءٍ فعلته، أو على شيءٍ لم تفعله، فأنت لا ترى الحقيقة، أنت ترى صور الأشياء، ولا ترى حقائقها، ترى مظاهر الأشياء، ولا ترى مؤدّاها، ترى مقدّماتها، ولا ترى نتائجها، ترى الدنيا، ولا ترى الآخرة، ترى مقتبل العمر، ولا ترى خريف العمر.

أرأيتم إلى مقياسٍ دقيقٍ، وهو أنك إذا ندمت على شيءٍ فعلته، أو على شيءٍ لم تفعله، فاعلم علم اليقين أن رؤيتك غير صحيحة، رؤيتك ضبابيّة، في رؤيتك خلل، بصيرتك ليست نافذة، والدليل أن الله سبحانه وتعالى يصف أهل الكفر حينما يواجهون حقيقة الموت..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

سيدنا علي كرّم الله وجهه قال: **<< والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً >>.**

ويقول الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه: **<< الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين >>.**

المعوّل عليه هذه الرؤية، الذي يأكل مالاً حراماً ماذا يرى ؟ هو أعمى، لا يرى أن الله سيتلفه مع هذا المال، لو رأى رأي العين أن الله سيتلفه مع هذا المال لما أكل هذا المال الحرام، والذين يعتدون على أعراض الناس، لو رأوا نتائج أعمالهم لما فعلوا ذلك، والذين يغشُّون الناس في عمى، فأيّ خروجٍ عن منهج الله دليل العمى، لأنه لا يمكن أن تعتدي إلا وأن تُحاسب، لا يمكن أن تأخذ ما ليس لك إلا وأن تُحاسَب.

فالبطولة أن ترى، أن ترى الواحد الديّان المطّلع على قلوب العباد، البطولة أن ترى أن كل هذه المخلوقات حسيبها الله عزّ وجل، البطولة أن ترى أن كل الربح في طاعة الله، وأن كل الخسارة في معصية الله، هذه الرؤية، ماذا ترى ؟ اجلس مع عامة الناس، إذا كان محتالاً ظن أن هذا ذكاءً، وإذا اغتصب شيئاً ليس له يعدُّ هذا كياسة وذكاءً، وإذا استطاع أن يوهم الناس، وأن يأكل أموالهم بالباطل عدّ هذا تفوُّقاً وفلاحاً، إذاً هو أعمى، ما دام يرى هذه الرؤى الضبابيّة المهزوزة هو أعمى.

5 ـ مطابقة الرؤية للشرع من تمام البصيرة:

متى يكون الإنسان بصيراً ؟ إذا جاءت رؤيته مطابقةً للشرع، فلماذا يكذب الإنسان ؟ لأنه يرى في الكذب نجاةً، لو رأى أن الكذب سوف يجعله في الحضيض لما كذب، ولماذا ينافق الإنسان ؟ لأنه يرى في النفاق فوزاً، أما لو رأى أن المنافق صغيرٌ عند الله، صغيرٌ عند الناس لمَا نافق، إذاً: يجب أن نعلم علم اليقين أن كل انحرافاتنا أساسها ضعفٌ في رؤيتنا، وأن ضعف الرؤية أساسه بعدٌ عن الله عزّ وجل، لأن:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة النور: من الآية 35)

من معاني هذه الآية: إنك إذا أقبلت عليه نوّرَ قلبك، فتجد أن المؤمن يرى ما لا يراه الآخرون، لذلك انضباطه أساسه رؤية.

مثل تقريبي: الطبيب الذي يرى بأمّ عينيه في المخبر فعل الجراثيم، والأمراض الوبيلة التي تسببها الجراثيم، والإنتانات المعويّة، والتقرُّحات الجلديّة، والمتاعب التي لا حدود لها بسبب تلوُّث الأطعمة بالجراثيم، الطبيب إذا رأى أحداً يأكل فاكهةً ليست نظيفةً، له رؤية لا تراها أنت، هو يرى مؤدّى هذا الطعام، وما يسببه من آلام، ومن أمراض، ومن متاعب، فالعلم نورٌ، أنت إذا تعلّمت العلم فمما يلازم هذا العلم النور، أنت إذا استمعت إلى كلمةٍ تُلقى على مسامعك فيها أغلاطٌ كثيرةٌ جداً، قد لا تكشف الأغلاط، لأن العلم بقواعد اللغة محدود عندك، أما لو تمرّست في قواعد اللغة لكشفت كل الأغلاط، إذاً العلم نور، إذا طلبت العلم، وإذا تعلّمت العلم، كان هذا العلم بشكلٍ أو بآخر نوراً يقذفه الله في قلبك.

ما من صفة في الإنسان إلا وفي الحيوان مثلها أو أكثر:

أيها الإخوة الاكارم... يجب أن نعلم علم اليقين أنه لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، ما من صفةٍ ماديةٍ أودعها الله في الإنسان، إلا وجعل من مخلوقات الله غير الإنسانيّة ما يتفوّق بها عليه، فإن قلت لي: إن الإنسان ينظر بعينيه أقل لك: الصقر يستطيع أن يرى على بعد عشرات الكيلو مترات، وهو في أعالي الجو فريسته وهي على الأرض، الصقر مزوّد بقدرة إراءة تزيد ثمانية أمثالٍ على ما يراه الإنسان، وهناك حيواناتٌ أودع الله فيها قوة شمٍ تزيد مليون ضعف على قوة شم الإنسان، وهناك حيواناتٌ أودع الله فيها قوة سمعٍ تزيد عشرات المرات عن قوة سمع الإنسان.

ما من صفةٍ ماديّةٍ يتصف بها الإنسان إلا وفي بقية المخلوقات ما يتفوّق بها عليه ؛ إلا أن الإنسان ميّزه بالعلم، ميّزه بالعقل، ميزه بالقوة الإدراكيّة، لذلك قالوا: رتبة العلم أعلى الرُتَب، إن الله عالمٌ يحب كل عالِم، ما أودع الله في الإنسان هذا العقل إلا كي يُعْمِلَهُ في الكون، إلا كي يرى به الحق حقاً والباطل باطلاً، إلا من أجل أن يجعله دليلاً على معرفة الله عزّ وجل، فالعقل كما عرّفه بعض العلماء: أداة المعرفة، ومناط التكليف والمسؤوليّة، لذلك:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من الآية 18)

لا تسمّى من أولي العلم إلا إذا رأيت عدالة الله عزّ وجل، لا تسمى من أولي العلم إلا إذا رأيت هذا القرآن هو الحق..

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

6 ـ الشكوك والأوهام منافية للرؤية الصحيحة:

ما دام هناك شكوكٌ في جدوى تطبيق القرآن في هذا الزمان، ما دام هناك شكوك في أن القرآن لم يعالج كل القضايا التي نعاني منها اليوم، فأنت لست من أولي العلم، لأن أولي العلم يرون أن الذي أُنزل إليكَ من ربّك هو الحق.

مرّةً ثانية: الحق، حَقّ الشيء أي ثبت واستقر، الحق الشيء الثابت، والشيء الهادف، عرفنا الحق من الباطل، الباطل هو الشيء الزائل، فالحق هو الشيء الثابت، الباطل هو الشيء العابث، فالحق هو الشيء الهادف، إذاً: كل شيءٍ وجِدَ ليبقى، ويبقى ليؤدّي هدفاً كبيراً هو حق، إذاً هذا القرآن حق، بمعنى أنه مطابقٌ للواقع، فأية نظريّةٍ، وأية فكرةٍ، وأي مذهبٍ، وأي مبدأٍ يُذاع بين الناس لا يطابق الواقع هو باطل، لكن القرآن الكريم مطابقٌ للواقع، وإذا شئت تعريفاً دقيقاً للحق هو: ما كان مقطوعاً به.

كلكم يعلم أنك إذا ظننت في شيءٍ، أو إذا كان الشيء غير ثابت، قد يكون وهماً، وقد يكون شكاً، وقد يكون ظناً، وقد يكون غلبة ظنٍ، لكن الشيء المقطوع به هو الذي ينطبق على الواقع مائة في المائة. فالحقيقة هي الشيء المقطوع بها، المطابقة للواقع، التي عليها دليل..

((إنّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ))

[صحيح مسلم عن محمّد بن سيرين]

((يا ابن عمر، دِينك دينك، إنما هو لحمك ودمك))

[كنز العمال عن ابن عمر]

7 ـ العمل الصالح هدف صاحب الرؤية الصحيحة:

فالقضيَّة قضية مصير، فإذا كان في ذهنك أوهام، وخرافات، وأضاليل، وتُرُّهات، ونظريات ليست حقيقيَّة، فالقضيَّة خطيرة جداً، لو اعتقدت شيئاً غير صحيح، وانطلقت به في الدنيا، ثمَّ جاء ملك الموت، فاكتشفت أنه باطل، هذه مشكلة كبيرة، لو ظننت أن المال هو كل شيء، فأمضيت كل شبابك في كسب المال، إلى أن اكتشفت في خريف العمر أن المال ليس كل شيء، هو شيء، ولكنَّه ليس كل شيء، ثمَّ اكتشفت عند نزول القبر أن المال ليس شيئاً إطلاقاً، الشيء الوحيد هو العمل الصالح.

لو ذهب رجل إلى مكان الماس رخيص جداً فيه، فإذا عاد من هذا المكان ولم يشتر، ماذا يقول ؟ ليتني اشتريت، أما إذا كان في بلده خبز، وهناك في خبز فلا يقول: يا ليتني اشتريت خبزاً من هناك، أنت تندم حينما تغادر بلداً ما على أثمن ما فيه، لا على أتفه ما فيه، فهذا الذي يغادر الدنيا على ماذا يندم ؟ يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون)

لا يندم على شيءٍ من الدنيا ؛ بل يندم على العمل الصالح، لذلك هذا الذي يرى أن العمل الصالح هو كل شيءٍ في الدنيا، هو الذي يتمتَّع برؤيةٍ صحيحة، لأنه مخلوق في الدنيا من أجل أن يعمل عملاً صالحاً يلقى الله به، ويسعد به إلى أبد الآبدين.

فملخَّص الدين كلِّه: أنك تعرفه، فتتقرَّب إليه، فتسعد بقربه إلى الأبد، هذه هي القضيَّة، المعرفة أولاً، والعمل ثانياً، والسعادة ثالثاً، المعرفة أساس السعادة.

أقول لكم بكل اطمئنان وبكل ثقة: إن الطريقَ الوحيدة إلى الله عزَّ وجل هي العلم، أية حركةٍ قبل أن تتعلَّم حركةٌ لا معنى لها، حركةٌ طائشة، حركةٌ ليست هادفة، حركةٌ ليست مُنضبطة، أية حركةٍ قبل أن تتعلَّم، لأنك إذا تعلَّمت، وعرفت، جاء عملك وفق معرفتك، جاء عملك له هدفٌ كبير، إذاً العلم طريق، والعمل وسيلة، والهدف هي السعادة..

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

8 ـ السعادة هدفُ صاحب الرؤية الصحيحة:

يجب أن تؤمن أن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة، وكل ما ترى عينك من المصائب ليست مقصودةً لذاتها، المصائب كلُّها مقصودةٌ لغيرها، قد تنشئ ثانويَّة أو جامعة، ثانويَّة تجهزها بالمخابر، تجهّزها بمكتبة رائعة جداً، بالصفوف الواسعة المضيئة، بالتدفئة المركزيَّة، بالمقاعد الصِحيَّة، كل ما فيه راحة هذا الطالب، في موقعٍ بعيدٍ عن الضوضاء، المواصلات، المكتبة، المخابر، الملاعب، قاعات الرياضة المُغلقة، وقد يضطر مدير هذه الثانويَّة أن يعاقب طالباً مقصِّراً، فيقول هذا الطالب: إنما أُنشِئت هذه المدرسة كي يضربونا، لا، الضرب في هذه الثانويَّة ليس مقصوداً لذاته، المقصود أن تكون عالِماً، أن تربَّى تربيةً صالحةً، أن تكون مستنيراً، أن تكون مثقَّفاً، هذا هو المقصود، فإذا كان في هذه الثانويَّة بعض أنواع العقاب، فهذا العقاب ليس مقصوداً لذاته، بل هو مقصودٌ لغيره، هذه الرؤية الصحيحة.

فالمؤمن ماذا يرى ؟ يرى أن الإنسان خُلِقَ ليسعد، لكن لماذا المصائب والأحزان ؟ لماذا الفقر والشدة ؟ لماذا هذا العذاب، قال: هذا العذاب ليس مقصوداً لذاته ؛ بل هو مقصودٌ لغيره، هو عملية معالجةٍ وإصلاح، هذه الرؤية الصحيحة، أما الذي يقول لك: إن الله عزّ وجل خلقنا من أجل أن يعذِّبنا، جلّت مشيئته، هذا لا يرى إنه أعمى، لا يرى الحقيقة، فلذلك اجلس مع إنسان دقائق، تكتشف أنه لا يعرف الحقيقة، تكتشف أنه في ضلال مبين، هذا الذي يرى الدنيا كل شيء لا يرى شيئاً، ربنا عزّ وجل قال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

حتى الدنيا ما عرفوا أجمل ما فيها، لهذا قال بعض العارفين:

" مساكين أهل الدنيا، جاءوا إليها، وخرجوا منها، ولم يذوقوا أطيب ما فيها ".

إنَّ أطيب شيءٍ فيها هذا الاتصال بالله عزّ وجل، هذا الاتصال بالله يسبغ على حياتك كلها سعادة، لأنك تؤمن بالقيم والأخلاق، ففي حياتك قيَم، هذا تفعله وهذا لا تفعله، تنصح المسلمين في عملك، لا تكذبهم، لا تغشُّهم، ولا تدلِّس عليهم، تراهم إخوةً لك، تقدِّم لهم أثمن شيءٍ بسعرٍ معتدل، أنت في عملك سعيد لأنه يرضي الله عزّ وجل، في بيته سعيد، في علاقاته كلِّها سعيدٌ جداً، لماذا ؟ لأنك تعمل عملاً ترضى الله به عنك.

الذي أتمنَّاه على كل أخٍ كريم، أن أيَّ شيٍ آخر غير العلم هو قاسمٌ مشتركٌ بيننا وبين بقيَّة المخلوقات،

ولا فضل لنا به عليهم، لكن الذي تفوّق به الإنسان هو القوّة الإدراكيّة، هذه القوة الإدراكيّة قد يستخدمها الإنسان لمصالحه الدنيويّة، فيكتشف عند الموت أن هذا العقل العظيم الذي وهبه الله إيّاه إنما سخّره لكسب المال فقط، وللإيقاع بين الناس، ولو سخّره لمعرفة الواحد الديّان لكان عقله سبباً في سعادته، إذاً:

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

ماذا يرون ؟ أن..

(الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ)

مضي السنين، وتتالي الشهور لا يغيّر الحقّ شيئاً، انظر الآن ما سوى الحق ـ الباطل ـ أحياناً ينهز، أحياناً يتداعى كبيت العنكبوت، أحياناً يعتنق الإنسان نظريّة أو مذهباً طوال حياته، يكتشف بعد حين أنها ليست صحيحة، أنها باطلة، تهاوت كما يتهاوى بيت العنكبوت، لكنك إذا كنت مع الحق، فالحق شامخٌ كالجبال، لا يتأثّر لا بالأعاصير، ولا بالعواصف، ولا بالفقر الشديد، ولا بالقهر، هو فوق القهر والفقر والضيق وكيد الأعداء، لأنه حق، ثابت، الشيء الثابت، الهادف، و المطابق للواقع، الشيء الذي تؤكِّده الفطرة، ويرضى به العقل، ويؤكِّده النقل.

فأنا أقول لكم: الحق ما أيّده النقل، هذا النقل القرآن، نقلٌ عن الله عزّ وجل، القرآن والسُنَّة توضيحٌ وتبيينٌ للنقل، والحق ما أقرّ به العقل، وهو مقياسٌ أودعه الله فينا، والحق ما ارتاحت إليه الفطرة، والحق ما أيّده الواقع، فأنت مع الحق أي مع العقل، ومع النقل، ومع الفطرة، ومع الواقع.

أيليق بالإنسان أن تتقاذفه أهواءٌ، أن تتقاذفه نظرياتٌ باطلة، أن تتقاذفه ظنونٌ واهمة، أيليق بالإنسان أن يضحي بشبابه من أجل فكرةٍ مغلوطة، أو من أجل مبدأٍ هَدَّام، أو من أجل نظريةٍ خاسرةٍ وخائبة ؟ فهذا الذي قاله النبي الكريم:

((يا ابن عمر، دِينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

كلُّ حركة أساسها تصوُّر:

أيها الإخوة الأكارم... أية حركةٍ تتحرّكها أساسها فكرة، أساسها تصوُّر، وعقيدة، إذا اعتقدت أن الله لن يحاسب الناس حساباً دقيقاً، فتقول: يا أخي الله غفور رحيم، ترى نفسك تتساهل في غشّ الناس، وفي الكذب عليهم، والاحتيال عليهم، من أين جاء الاحتيال والكذب والغش ؟ من عقيدةٍ فاسدةٍ مؤدّاها أن الله لن يحاسب الناس على أعمالهم، حينما تعتقد خطأً أن النبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لكل أمّته شفاعةً تامّةً، مهما فعلوا من معاصي سوف يأخذ بهم إلى الجنّة، الشفاعة حق ؛ ولكنّها ليست بهذا المفهوم

الساذج، إذا اعتقدت خطأً هذا الاعتقاد رأيت نفسك منساقاً إلى بعض المعاصي والتُرُّهات، إذا اعتقدت أن هذا النبي العظيم ـ سيدنا يوسف ـ همَّ بها، هو نبيٌّ عظيم وهمَّ بها، إذا فسَّرت الآية الكريمة:

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا)

(سورة يوسف من الآية 24)

تفسيراً باطلاً مغايراً للواقع، مغايراً لأصول اللغة، مغايراً لأعلام المفسِّرين، إذا فسَّرت هذه الآية على أنه همَّ بها، أي أنه أقدم على هذا الفعل الشنيع، لكن في الأخير تذكَّر، هذا الاعتقاد الفاسد قد يدفعك إلى بعض الانحرافات الأخلاقيَّة، تقول: أنا لست نبياً، لكنك إذا اعتقدت أنه همَّ بدفعها وهمَّت بإغرائه، أو..

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ)

ـ وقف ـ

(وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

إذا فهمت الآية فهماً صحيحاً، فهماً حقيقياً، لا تسمح لنفسك أن تفعل شيئاً لا يرضي الله عزَّ وجل، إذاً يجب أن تعلم أن أيَّة عقيدةٍ زائغةٍ، أو تصورٍ واهمٍ، له مضاعفاتٌ خطيرة، فقد يخطئ الطيار في إلقاء القنبلة وهو في الجو بميليمترات، فإذا هي في الأرض بكيلو مترات، الخطأ دائماً يتفاقم، فحينما تعتقد خطأً عقيدةً زائغةً، هذه العقيدة الزائغة قد تنقلب إلى معاصٍ كثيرة، أو إلى انحرافاتٍ خطيرة.

فلذلك البطولة أن ترى رؤيةً صحيحة، البطولة أن يقذف الله في قلبك نوراً، وهذا النور الذي يقذفه الله في القلب لن تناله إلا بطاعة الله والإقبال عليه، البطولة أن ترى الخير خيراً والشرَّ شراً، البطولة أن تفعل فعلاً لا تندم عليه أبداً، حينما تندم، معنى ذلك أن فعلك ليس صحيحاً، إذا ندمت على فعلٍ فعلته أو على فعلٍ تركته، معنى ذلك أن هناك خللاً في الرؤية واضحاً.

إذاً:

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

الشهادات العلمية لا تنفع مع المعصية:

لكن لو نال إنسان أعلى الشهادات وهو غارقٌ في المعاصي والآثام، أليس عالماً ؟ الجواب: لا بكل تأكيد، لأن بعض الأئمَّة الكرام كالإمام الغزالي، يرى أن العلم الذي ورد في القرآن الكريم، وفي السُنَّة المطهَّرة هو العلم بالله.

فأن تتقن صنعةً، أو تنال شهادةً، لا يعني أنك عالمٌ بالله عزَّ وجل، هذا موضوع جزئي أتقنته، لكن المهم أن تتعرَّف إلى الله عزَّ وجل، وأن تجعل من عملك مطابقاً لما خُلِقْتَ له، إذاً: يمكن أن نقول: فلان ليس ذكياً، ولو كان يحمل أعلى الشهادات، من هو العاقل ؟ هو الذي عرف الله عزَّ وجل، واستقام على

أمره.

إذاً: حينما تنظر إلى الدنيا نظرة جزئيَّةً، وترى المال كل شيء، واللذّة كل شيء، والتفوُّق الاجتماعي كل شيء، وحينما تغيب عن آخرةٍ أبديَّةٍ لا تنتهي، وحينما تحصر كل طاقاتك في كسب المال فأنت لست عالِماً، لأنك أغفلت الحياة الأبديَّة، وحينما تتعامل مع كل القوى في الأرض، وتنسى الجبَّار الأعلى، وتنسى الواحد القهّار الذي بيده كل شيء فأنت لست عالِماً.

أنا لا أريد أن أقول: إن هذا ليس علماً، ولكن لا تغترّ بشهادةٍ نلتها، ولا بعلومٍ حصّلتها وأنت مقيمٌ على معصية الله، يجب أن تعلم علم اليقين أنك إذا عصيت الله فأنت لا تعرفه، وبالتالي فأنت لست عالِماً، لا يمكن أن تسمّى عالِماً إلا إذا عرفت الله عزّ وجل، وعرفت منهجه، واستقمت على أمره، أما إذا جعلت كل جهدك في الدنيا، وغبت عن آخرةٍ سرمديَّةٍ، هذا دليل الجهل.

إذاً: وقفتنا في هذه الآية: أن البطولة أن ترى، أن يتفتّح قلبك، أن تتفتّح بصيرتك، أن ترى أن الفلاح كل الفلاح في طاعة الله، وأن الخسارة كل الخسارة في معصية الله، هذا مقياس لنا، فهل ترى أن فلاناً أو زيداً حصّل مالاً وفيراً بطرقٍ غير مشروعةٍ، هل تقول: هنيئاً له يا أخي الله أعطاه ؟ إذا قلت هذا الكلام فاحكم على نفسك بالجهل قطعاً، هل إذا قيل لك: فلان يسهر في المكان الفلاني، وله مغامرات كذا وكذا، وله ليالٍ حمراء، وليالٍ خضراء، هل تتمنّى أن تكون مكانه ؟ إذا كنت كذلك فاحكم على نفسك بالجهل تماماً، لأنك لا تعرف الله، ولا تعرف أن هذا الإنسان المنحرف الضال سيدفع ثمن انحرافه باهظاً، هذه رؤية.

ما من إنسان يقدِم على معصيةٍ إلا ويرى أنها مَغْنَمٌ، لكن الذي يرى رؤيةً صحيحة يرى ما في المعصية من خزيٍ أمام الله عزّ وجل، ومن خزيٍ يوم القيامة، ومن إتلافٍ لماله، ومن إتلافٍ لصحّته، ومن إتلافٍ لمكانته، وأنه يرى الشرّ كلّه في معصية الله، فهذا مقياسنا.

حينما ترى أن في الطاعة مغرماً فأنت لا تعرف شيئاً، وحينما ترى أن في المعصية مغنماً فأنت لا تعرف شيئاً، هذا مقياس الرؤية.

فقيمة النصوص إذا رافقتها رؤية، مثلاً ربنا عزّ وجل قال:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

إذا رأيت الفوز في طاعة الله إذاً لك رؤيةٌ تطابق هذه الآية، فإن رأيت الفوز في كسب المال، إن رأيت الفوز في أن تركب سيارةً فارهةً جداً، إن رأيت الفوز أن تمتلك بيتاً فخماً، إن رأيت الفوز أن تمتلك حديقةً غَنّاء، إن رأيت الفوز في غير طاعة الله، فاحكم على نفسك أن رؤيتك ليست صحيحة، ويجب أن تعلم علم اليقين أن الذي يحرّك الإنسان هو رؤيته..

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

9 - القرآن حقٌّ:

هذا القرآن..

(هُوَ الْحَقّ)

هو الدستور، لا أعتقد إنساناً يشتري آلة غالية جداً، كمبيوتر مثلاً، عظيمة النفع، تدرُّ عليه أرباحاً طائلةً، ويذهب إلى جاره الأمي ليسأله عن طريقة استعمال هذا الكمبيوتر، مستحيل، هذا الجهاز المعقّد لا تسأل عن تشغيله إلا الشركة الصانعة، الخبراء الذين صمّموه، وحينما تستشير جاهلاً في قضيّة زواجك، وحينما تستشير بعيداً عن الله عزّ وجل في اختيار صنعتك وحرفتك، أنت بهذا أغفلت الخالق، أغفلت تعليمات الصانع، فلذلك الله عزّ وجل قال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيّ)

(سورة لقمان: من الآية 15)

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف

إيّاك أن تستشير فاسقاً أو معرضاً، إياك أن تستشير غافلاً، إياك أن تستشير أهل الدنيا، إنهم ليسوا خبراء في نفسك، إنهم ينطلقون من الهوى، لكنّك إذا استشرت كتاب الله عزّ وجل في كل حركةٍ وسكنة، فأنت مع تعليمات الصانع، فببساطة أنت كائن معقّد جداً، له خالق، وخالقك له هذه التعليمات، فإما أن تستعملها فتحفظ حياتك من كل عطبٍ، وإما أن تدعها فتعرّض نفسك لكل المهالك، قال:

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

هذا القرآن إذا اتبعته يهديك، الآن تقول: هذا الطريق إذا سلكته يهديك إلى حلب، أما هذا الطريق إلى درعا، هذا الطريق إلى بيروت، معنى يهديك أي يوصلك، هذا القرآن حبل الله المتين، إن تمسكت به وصلت إلى الواحد الديّان، هنا قال الله عزّ وجل:

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

1 - العزيز:

فمن هو العزيز ؟ الذي لا يُغْلَب، هو القهّار الذي لا يُنال جانبه، أي الذي يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، هو العزيز الذي لا يُغلب، لا يُنال جانبه، فما قولك إذا اتبعت هذا القرآن وصلت إلى خالق الأكوان، وصلت إلى الواحد القهّار، وصلت إلى الجبّار الأعلى، وصلت إلى العلي المُتَعَال، وصلت إلى من بيده كل شيء..

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

2 - الحميد:

لكن مع أن الله عزيزٌ لا يُغْلَب، ولا يُنال جانبه، يحتاجه كل شيء في كل شيء، ومع ذلك فهو لا يفعل إلا الكمال، الحميد، أي أن كل أفعاله يُحْمَد عليها، فأحياناً من أجمل ما في كتاب الله هذه الأسماء الحسنى التي تأتي مثنى مثنى، أحياناً الإنسان يكون قوياً، فإذا كان قوياً لا يبالي بخصومه، يفعل ما لمصلحته، يفعل كل شيءٍ لصالحه، ولا يبالي بسمعته، لا يبالي بأن يرحم الناس، لأنه قوي، قال: هذا عزيزٌ بشكل أو بآخر، ولكنه ليس حميداً، وقد ترى إنساناً حميداً، وديعاً، لطيفاً لكنّه ضعيف، ما الذي يشدُّك إليه ؟ أن تكون هذه الجهة قويةً وفي الوقت نفسه كاملةً.

القوة من دون كمال مخيفة، والكمال من دون قوة موضع عطف وشفقة، أحياناً إنسان طيّب، فيقولون عنه: طيب، درويش، لكنه ضعيف لا يستطيع أن يفعل شيئاً، هذا الإنسان الضعيف الطيب الساذج أنت تعطف عليه ؛ لكن لا تعظِّمه، وهذا القوي الجبّار المنحرف، الذي يوقع الأذى بالناس تخافه ولا تحبُّه، لكن أن تكون هذه الجهّة قويّةً إلى درجة أنه لا يُنال جانبها، وكاملةً إلى درجة أن كل أفعالها تُحْمَد عليها، هو الله عزّ وجل، إذا تلوت القرآن وطبّقته أوصلك إلى العزيز الحميد.

الآن أهل الكفر استهزاءً..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

إنكار البعث:

الإنسان بعد أن يموت تصبح عظامه تراباً، يصبح لحمه تراباً، لو فتحت القبر لا ترى فيه شيئاً إلا بعض العظام، هؤلاء الكفّار أنكروا البعث ـ بعث الأجساد من قبورها ـ أنكروا اليوم الآخر، فاستهزءوا..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)

المقصود بهذا الرجل هو النبي عليه الصلاة والسلام..

(يُنَبِّئُكُمْ)

أي يخبركم عن يوم القيامة، وعن البعث والنشور، وعن الحساب والعذاب، وعن الجنّة والنار، كل هذا بعد الموت، بعد أن يصبح الإنسان رميماً ؟

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(78)قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة يس)

(إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(7)أَافْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ

انظر إلى هذه الآية فما أعظمها..

(الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ)

النفسي..

(وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

في عذابٍ نفسي، لأن طبيعة الحياة الدنيا صُمِّمَت لتكون مرحلة إعدادٍ للآخرة، فمن جعلها كل شيء كان فيها معذّباً.

1 ـ الدنيا مرحلة إعدادٍ:

أيها الإخوة الأكارم... هذه الدنيا التي نحن فيها مصمَّمة تصميم أن تكون مرحلة إعدادٍ لحياةٍ أبديَّة، أما الذي جعلها نهاية الآمال ومحطّ الرحال، وجعلها كل شيء، وأرادها أن تكون مكان استمتاع، وسعادةٍ ماديَّةٍ فقد وقع في ضلالٍ كبير.

مثلاً: قاعة الدرس مصمَّمة من حيث مقاعدها الخشبيَّة، والجو غير الدافئ جداً، مصمَّمة لتكون مكاناً للدراسة والانتباه، فمن أراد أن يستلقي، فلا يوجد مكان ليستلقي فيه، من أراد أن يرتاح، أن يأكل، أن يشرب، أن يستمع إلى شيءٍ يُشَنِّفُ آذانه، هذه القاعة ليس فيها ما يشنِّف الآذان، وليس فيها مقاعد وثيرة، هي مهيأة للانتباه للمعلِّم، فالحياة الدنيا، الله عزّ وجل قال:

((إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرري، وتكدري، وتضيقي، وتشددي على أوليائي كي يحبوا لقائي))

[الجامع الصغير عن قتادة بن النعمان]

أولاً: الحياة قصيرة، لاحظوا أن الإنسان كي يستطيع أن يستقر في منزل يملكه، ويكون عنده دخل ثابت، وعنده في البيت زوجة، يحتاج إلى أربعين سنة، وفي سن الخامسة والأربعين بدأت الأمراض، في الستين العظام نخرت، كل الحياة متاعب، وخلقت للتعرف إلى الله بها، فلمَ تجعلها دار استقرار ؟ هي ممر وليست مقراً، إذا جعلتها مقرّا أتعبتك كثيراً..

((أوحى ربُّك إلى الدنيا أنه من خدمكِ فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه))

((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر همومه))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة عن ابن مسعود]

بشكل أو بآخر **" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لا يفرح لرخاء، ولا يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى ".**

تجد الدنيا مشحونة بالمتاعب، إما بخلاف زوجي مستحكم، أو دخل قليل، وأولاد كُثر، أولاد نجباء والزوجة سيئة جداً، أو الأولاد صالحون والزوجة سيئة، أو بالعكس، أو أمراض، صمِّمت الحياة الدنيا لتكون دار ممر وليست مقرّاً، لذلك الآية الكريمة:

(بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

الذين جعلوا كل همهم في الدنيا، جعلوها نهاية الآمال، محطّ الرحال، جعلوا حياتهم كلها دُنيا، قال:

(فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

2 - فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ

في العذاب، الآية الكريمة:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

(وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

هو في متاهة، يتخبّط خبط عشواء، لذلك من عرف حقيقة الدنيا نقل كل اهتمامه للآخرة، هذا الذي وعده الله وعداً حسناً فهو لاقيه، هذا الوعد الإلهي الحَسَن يمتص كل متاعب الدنيا، يمتص زواجاً غير ناجح، يمتص دخلاً قليلاً، يمتص بعض العلل في الجسم، كل متاعب الحياة الدنيا يمتصُّها هذا الوَعْدُ الحسن، أما إذا الإنسان الذي ليس له آخرة، فحياته كلها معذّبة، لذلك من صفات أهل الدنيا أنهم معذّبون، إذا قال لك أحدهم: أنا أشقى الناس، صدِّقه، لأن الله يقول:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

(سورة طه: من الآية 124)

لن ترى في الأرض كلِّها، رجلاً سعيداً وهو بعيد عن الله عزّ وجل، هذا مستحيل..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

لذلك:

(بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(8)أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

أي ألا يرون أنهم في قبضتنا ؟ إلى أين تهرب ؟

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمْ)

مدينة وادعة، حالمة، أبنية فخمة، شوارع عريضة، إضاءة، حدائق غنّاء، ملاهٍ، كل شيء في أوجه، وبطرفة عين أصبحت تحت الأرض دمرها زلزال، فالعبارة الدقيقة: أنت في قبضة الله، بأي ثانية يجعل حياة الإنسان جحيماً، فهذا الذي في قبضة الله ؛ قلبه بيد الله، ورئتاه بيد الله، وكليتاه بيد الله، وشرايينه، وأعصابه، وعضلاته، ودماغه، وأجهزته، وغدده، وزوجته، وأولاده، وعمله، ودخله، وكل من حوله كلُّهم بيد الله، وأي تغيير طفيف في عمل الأجهزة جعل حياة الإنسان جحيماً، ما دمت في قبضة الله كيف تعصيه ؟ والله سؤال خطير، ما دمت في قبضة الله دائماً، كيف تجترئ على معصيته، قال:

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمْ)

تارةً صواعق، تارةً براكين، تارةً زلازل، تارةً فيضانات، تارةً صقيع، خرب المحصول كله بثوانٍ..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19))

(سورة القلم)

الأمطار إذا اشتدَّت جرفت كل شيء، والرياح إذا اشتدَّت قلعت كل شيء، فأنت في قبضة الله ؛ من باب الماء، ومن باب الهواء، والأمطار، والثلوج، مستشفى واحد في دمشق استقبلت مائة وستة وخمسين إنساناً أصيبوا بكسور في أيّام الثلج، الماء صار كلّه كالبلور، نحن في قبضة الله عزّ وجل، كل شيء تعطّل بالثلوج..

(أَفَلَمْ يَرَوْا)

إننا في قبضة الله، مدن بأكملها غمرتها البراكين في العصور السابقة، كُشِفَت فجأةً، في إيطاليا، مدينة في أوج نشاطها، ثمانية أمتار غبار بركاني أحرقها وأماتها، الآن يكشفون الآثار، نحن في قبضة الله دائماً.

فيا أيها الإخوة... كيف نعصي الله ونحن في قبضته ؟ على ماذا نستند ؟ ما الذي نؤمِّل ؟ على من نعتمد؟

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

خاتمة:

فهذا الدرس فيه ثلاث مراكز ثِقَل:

أول مركز: يجب أن تتمتَّع برؤيةٍ صحيحة، هذه الرؤية الصحيحة هي نورٌ يقذفه الله في قلبك، إذا عرفته، واستقمت على أمره رأيت الحقّ حقاً والباطل باطلاً، ومن تمتَّع برؤيةٍ صحيحة لا يندم على شيءٍ فعله، ولا على شيءٍ تركه، وهذه بطولة، ألاّ تقول: يا ليتني قدّمت لحياتي..

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون)

يا ليتني فعلت كذا وكذا، ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، هذه البطولة.

الشيء الثاني: إذا كنت مع الحق ما عندك مفاجأة أبداً، إذا كنت مع الباطل فعندك كثير من المفاجآت، هذا الباطل سوف ينهار، أما إذا كنت مع خالق الكون، مع منهج الله عزّ وجل، سنة، وسنتين، وخمس، وعشر، وسبعين سنة، والحق حق والباطل باطل، لا تجد نفسك تقول: والله ما كنت أعرف، لا أنت كنت

تعرف.

النقطة الثالثة: أنك إذا طبّقت هذا القرآن وصلت إلى الواحد الديّان، هو العزيز، هو القهّار، هو الذي أمره نافذٌ، مشيئته واقعة، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، أنت مع القوة الوحيدة في الكون.

والفكرة الرابعة: إذا جعلت الدنيا كل همِّك، كنت فيها ضالاً معذّباً أبداً، هي ممر وليست مقراً.

وآخر فكرة: أنت في قبضة الله فكيف تعصيه ؟

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (04-10): تفسير الآيات 10 - 14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-02-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الرابع من سورة سبأ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قصّة سيدنا داود عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام، يقول الله عزّ وجل في الآية العاشرة من سورة سبأ:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا

1 - من معاني الفضل:

من معاني الفضل أنه الزيادة عن المألوف، لقوله تعالى:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 1)

الإنسان قد يزيده الله قوةً، قد يزيده علماً، قد يزيده ذكاءً، قد يزيده شأناً، قد يزيده وسامةً، قد يزيده حكمةً، قد يزيده قُرباً، فما أوتيت زيادةً على عموم الناس فهذا هو الفضل..

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113))

(سورة النساء)

فكل مؤمن حينما سمح الله له أن يتعلّم، وأن يكون مهتدياً، حينما يَسَّرَ الله له طريق الهداية وطريق العلم، آتاه الله منه فضلاً كبيراً، عامّة الناس الذين تراهم أمامك في الطريق ؛ يأكلون، ويشربون، ويتمتّعون، ولا يفقهون شيئاً، لكن الذي آتاه الله بعض العلم، بعض الحكمة، الذي آتاه الله قوةً في نفسه، الذي مكّنه الله من طاعته، الذي أعانه على عبادته، هذا آتاه فضلاً عظيماً.

إذاً: معنى الفضل ما زاد عن مجموع الناس، عن السواد الأعظم.

سيدنا عمر مرّةً سمع رجلاً يدعو ربّه فيقول: **" اللهمّ اجعلني من القليل "**، قال عمر: **" ما هذا الدعاء؟ "**، قال: أقصد قوله تعالى:

(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(13))

(سورة سبأ)

فقال عمر يخاطب نفسه: **<< كل الناس أعلم منك يا عمر >>**، اللهمّ اجعلني من القليل الشاكر، لا من الكثير الساهي واللاهي.

إذاً: كلمة فضل تعني إذا خصّك الله بمعرفته فهو فضلٌ عظيم، إذا خصّك الله بالحكمة فهو فضلٌ عظيم، هذا المعنى الذي يمكن أن نستنبطه، والذي يمكن أن يُطبّق على المؤمنين، وإذا تلوت قوله تعالى:

(وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113))

(سورة النساء)

يجب أن تشكر هذا الفضل، لكن اعلم علم اليقين أن أعظم الفضل ما تعلّق بالآخرة، قد يؤتيك الله قوّةً في الدنيا، قد يؤتيك مالاً، قد يؤتيك جاهاً، لكن الشيء الذي ينتهي عند الموت، هذا لا يوازى بما يبدأ بعد الموت، فالعلم والحكمة، والطاعة والعبادة، والعمل الصالح، والقرب من الله عزّ وجل، هذه كلها تقطفها في الدنيا وبعد الموت.

إذاً معنى كلمة:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)

أي خصصناه بأشياء مَيَّزْنَاه بها على بقيّة الناس.

2 ـ الفضل الذي آتاه الله لداود:

الإمام القرطبي في تفسيره يقول: الفضل هو النبوّة، والفضل هو الكتاب، آتاه الله الزبور، والفضل هو القوة، آتاه الله قوة..

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ(17))

(سورة ص)

والعلم من فضل الله عزّ وجل، وتسخير الجبال والطير من فضل الله عزّ وجل، وتوبة الله عليه من فضل الله عزّ وجل.

المرء أحياناً يخالف أوامر إنسان ما قوي، يسترضيه فلا يرضى، يستغفره فلا يغفر، يرجوه فلا يُرجى، إذا خالفت أمره يسحقك أحياناً، لكن الله سبحانه وتعالى إذا تُبت إليه تاب عليك، فمن فضل الله على الإنسان أنه يتوب عليه، والإنسان يخطئ، ويستغفر، ويتوب الله عليه.

ومن فضل الله على داود أنه ألهمه الحكم بالعدل، لأن حجراً ضجّ بالشكوى إلى الله عزّ وجل ـ فيما ترويه الكتب ـ قال: يا رب عبدتك خمسين عاماً، ثمّ تضعني في أسّ كنيف، فقال: تأدّب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم، مكانك في أسّ الكنيف أشرف لك ألف مرّة من أن تكون في مجلس قاضٍ

ظالم، فالإنسان إذا ألهمه الله العدل في ميراثه، في أولاده، في إخوانه، في موظّفيه، في طُلاّبه، فهذا فضل من الله عزّ وجل، لأن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة.

إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)

بعضهم قال: الفضل هي النبوّة، وقال آخرون: هي الكتاب ـ الزبور ـ ورآها جماعة القوّة..

(وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)

(سورة البقرة: من الآية 247)

قال بعض المفسرين: تسخير الجبال والطير له، وبعضهم قال: أنه تاب عليه، والتوبة فضلٌ عظيم، قالوا: بل مكّنه من أن يحكم بالعدل، لأنه القاضي العادل الله عزّ وجل يسدِّد خُطاه، يلهمه الصواب، ينير له الطريق، فالعدل فضلٌ عظيم.

ومن فضل الله على سيدنا داود أنه ألان له الحديد، ومن فضل الله على سيدنا داود أنه جعل صوته حسناً ووجهه حسناً، فالصوت الحسن من نِعَم الله الكبرى.

النبي عليه الصلاة والسلام استمع مرّةً إلى أبي موسى الأشعري يقرأ القرآن، فتأثر النبي تأثُّراً شديداً وقال:

((يَا أَبَا مُوسَى، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ))

[البخاري عن أبي موسى]

والمزمار في أصل اللغة الصوت الحسن، فمن وهبه الله صوتاً حسناً فعليه أن يُسَخِّرَهُ لتلاوة القرآن لا للغناء، لذلك المغنون الذين آتاهم الله الأصوات العذبة، كان من الممكن أن يرقوا بأصواتهم تلك إلى أعلى درجات الجنّة إذا سخّروها في تلاوة القرآن، أما حينما سخّروها في إثارة الغرائز هبطوا بها إلى قيعان النيران، فكلمة:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)

التطبيق العملي لهذه الآية:

الفضل هذه الأشياء، أما التطبيق العملي لهذه الآية فيما يخصُّ المؤمنين: إذا ميّزك الله عن عامة الناس بمعرفته فهذا فضلٌ عظيم، لا ترى نفسك محروماً في الدنيا، إذا خصّك الله بلسانٍ طليقٍ في الدعوة إليه هذا فضلٌ عظيم، إذا خصّك الله عزّ وجل بقلبٍ شاكر، ولسانٍ ذاكر، وجسدٍ على البلاء صابر فهذا فضلٌ عظيم، إذا ألهمك شكره، وألهمك الصبر عند المصائب، ألهمك الشكر عند الرخاء، إذا جمعك مع أهل

الحق، إذا جعلك بين المؤمنين، إذا هيَّأ لك أسرةً طيّبةً، ذريَّةً صالحةً، زوجةً صالحةً، أولاداً أبراراً، هذا كلُّه فضل من الله عزّ وجل، إذا جعل لك مأوىً تأوي إليه، هذا أيضاً من فضل الله عزّ وجل..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)

من هذا الفضل..

(يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ)

يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ

معنى أوّبي معه، من معاني هذه الآية أي سبّحي، والحقيقة الثابتة في كتاب الله أن ما من مخلوقٍ في الكون وعلى وجه الإطلاق إلا يسبّح بحمد الله، قال تعالى:

(وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من الآية 44)

لا تفقهونه أنتم، فسيدنا داود أوتي القدرة على سماع تسبيح الجبال، إنه يسمعها، وتسبّح معه، فهذه الشفافيّة التي يبلغها الأنبياء شيءٌ فوق الوصف، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث))

[الجامع الصغير عن جابر بن سمرة]

وقف على جذع نخلة كان يخطب عليها، فلمّا صنع له أصحابه منبراً، وقف على المنبر، ووضع يده على جذع النخلة، لأنها حنّت إليه، هذا الشعور صعب أن يدركه إنسان، ولمّا وصف له الصديق حالة سيدنا حنظلة، قال:

((يا أبا بكر، نحن معاشر الأنبياء تنـام أعيننا، ولا تنام قلوبنا، أما أنتم، يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم))

[مسلم عن حنظلة]

معنى هذا أن الإنسان إذا أقبل على الله عزّ وجل، واتصل بالله شفّت نفسه، فرأى ما لا يراه الآخرون، وسمع ما لم يسمعه الآخرون، هذا الاندماج بينه وبين بقيّة المخلوقات يُنشئ في نفسه مشاعر طيّبة، فحينما يبادر إلى سقي النبات يشعر بعطفٍ على النبات يشعر بحرقةٍ إذا عطش النبات، حينما يبادر إلى إطعام الطير يشعر بنشوةٍ لا توصف، هذه الرقّة في المشاعر، هذه الشفافيّة التي يتميّز بها المؤمن، إنها نموذجٌ مبسّطٌ جداً لما ينطوي عليه قلب الأنبياء من مشاعر إنسانيّة، بل مشاعر تجاه المخلوقات جميعاً.

إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ)

أي أننا مكنّاه من سماع تسبيح الجبال، أو أن الجبال كانت تسبّح معه لما آتاه الله من صوتٍ شجيّ إذا تلا الكتاب الذي أُنْزِلَ عليه.

والنبي عليه الصلاة والسلام دخل مرّةً إلى أحد بساتين الأنصار فرأى جملاً، فلمّا رآه الجمل حنّ إليه، ووضع النبي صلى الله عليه وسلّم يده على رأسه ومسح ذفريه، فعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ:

((أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسَرّ إِلَيّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ النّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمّا رَأَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَنّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللّهِ، فَقَالَ: أَفَلَا تَتّقِي اللّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الّتِي مَلّكَكَ اللّهُ إيّاهَا، فَإِنّهُ شَكَا إِلَيّ أَنّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[أبو داود وأحمد]

سمع النبيُّ شكوى البعير، وسلّم عليه الحجر، وسمع تسليمه عليه، وحنّت إليه النخلة، هذه شفافيّة لا يمكلها إلا الأنبياء، لكن المؤمن يشعر بمشاعر عجيبة تجاه كل المخلوقات، فلا يمكن لمؤمن أن يعذِّب حيواناً، لأن هذا الشيء فوق طاقته، بل إنه بالعكس يبادر إلى معونته، وإطعامه، ومعالجته أحياناً، لأن في قلبه رحمة، هذه من آثار الاتصال بالله عزّ وجل، ليس هذا تصنُّعاً، ولكنّها سجيّةٌ وطبيعةٌ جاءته من اتصاله بالله عزّ وجل..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطّيْرَ)

وَالطّيْرَ

والطير أيضاً مكّنه من سماع تسبيحها، أو سبّحت معه..

(وَأَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ)

وَأَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ

1 ـ قدرة الله في تغيير خصائص الأشياء:

جعل الله الحديد الذي له فوائد عظيمة على شكل فلزات، وهذا من نعم الله الكُبرى على كل الناس، ليسهل استخراجه من الأرض، ومع ذلك جعل هذا الحديد ينصهر بدرجات مرتفعه، فإذا أردت أن

تستعمله صهرته ثمّ شكّلته، هذا من فضل الله على كل الناس. لكن من هذه الآية يتضح أن سيدنا داود عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام خصّه الله بشيءٍ يتميّز به على الناس، فالحديد بين يديه كالعجين أو كالشمع، يشكّله كما يشاء، ثمّ يصبح الحديدُ حديداً كما تعرفونه، هذه من قدرة الله الخارقة، لأن الله عزّ وجل إذا تحدّثت عن أعمال الناس، فأعمال الناس تحكمهم قوانين الناس، كل شيء له سبب، وله خصائص، وله درجة ينصهر بها، وله درجة ينكسر بها، وله درجة مقاومة، الله عزّ وجل جعل لكل شيء خصائص، فإذا أردت أن تتحدّث عن خصائص المخلوقات فهذه أشياء غير مألوفة عادةً، لكنّك إذا أردت أن تتحدّث عن قدرة الله عزّ وجل كل شيءٍ مألوف، وكل شيءٍ معقول، وكل شيءٍ مقبول.

فهناك من يخلط بين قدرة الناس وخصائص الأشياء و قدرة الله عزّ وجل، إذا كان الحديث عن خصائص الأشياء وعن قدرة الإنسان المحدودة، فهذه الأشياء التي سوف نراها بعد قليل قد تكون غير مألوفة، والعادة لا تقبلها، لم نألف هذا، أما إذا حدّثتني عن قدرة الله الطليقة فهذه القدرة لا يعجزها شيء، ولا يستحيل عليها شيء، ولا يصعب عليها شيء، فكل ما أخبرنا الله به عن قدرته فهو معقولٌ ومقبول، لأنه خبر الله عزّ وجل..

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الحشر)

2 ـ الحديد في يد داود كالعجين:

فربنا عزّ وجل خصّ هذا النبي الكريم بمعجزة أن الحديد يلين بين يديه، لا يحتاج إلى أن يحمي الحديد حتّى يصبح كالعجين، ثم يطرّقه بالمطارق، الحديد فيما توحي به هذه الآية، لينٌ بين يديه كالشمع أو العجين، يشكّله، ثم يغدو حديداً كما تعرفونه..

(وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ(10)أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

1 ـ مِن صنعة داود عملُ الدروع:

هذه الآية يجب أن نقف عندها وقفة متأنية، الله سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى قال:

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ)

(سورة الأنبياء: من الآية 80)

فهذه حرفةٌ له عليه الصلاة والسلام، كرّمه الله عزّ وجل بأن جعل الحديد ليّناً بين يديه، الناس من قبل كانوا يصنعون دروعاً من صفائح الحديد، وكانت هذه الصفائح ترهقهم وتعذِّبهم، وتثقل عليهم، فربنا سبحانه وتعالى ألهمه أن يصنع دروعاً لا من الصفائح، بل من السلاسل، من الحلقات، فهذه الدروع بهذه الطريقة يخفُّ وزنها، وتصبح موافقةً لجسم الإنسان، لها كُم، وصدر، وظهر، فالدرع المصنوع من سلاسل متداخلة أخفُّ على الجسم من درع الصفائح، وأيسر منه استعمالاً، فربنا سبحانه وتعالى علّمه هذه الصنعة، وكان يبيع الدرع بمبلغٍ مجزٍ، فعاش في بحبوحة، وأنفق من هذا الدخل، وكانت له حرفة مع أنه نبي.

2 ـ على أهل الفضل تعلُّم الصنائع:

أعجبني في هذه الآية ما ورد في كتاب القرطبي، قيل: " في هذه الآية دليلٌ على تعلُّم أهل الفضل الصنائع "، فأهل الفضل وهل أعلى من الأنبياء ؟ هم قمّة البشر ومع ذلك:

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ)

(سورة الأنبياء: من الآية 80)

لهذا النبي العظيم صنعة وحرفة، وهي صناعة الدروع، ألم يكن نبينا عليه الصلاة والسلام راعي غنم؟ ألم يكن نبيُّنا عليه الصلاة والسلام شريكاً مضارباً مع السيدة خديجة، وهي أول شراكة مضاربة في الإسلام ؟ ألم يكن للنبي عليه الصلاة والسلام شريك في مكّة يبيعان السلع ويقتسمان الربح ؟ إذاً ورد في تفسير القرطبي: أن في هذه الآية دليلٌ على تعلُّم أهل الفضل الصنائع، وأن اتخاذ الحرفة لا ينقص من مناصبهم العليّة.

مقام النبوّة لا يجرحه أن يكون صاحب حرفة ؟ سيدنا الصديق كان بزازاً ـ بائع قِماش ـ سيدنا أبو عبيدة كان قصّاباً، وأنعم به من قصّاب، أصحاب النبي كانوا يعملون، قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف: " دونك نصف مالي إني من أكثر أهل المدينة مالاً ـ دونك نصف مالي أي خذ نصف مالي، قال له عبد الرحمن: " بارك الله لك في مالك، ولكن دُلّني على السوق "، باع واشترى، واتّجر وربح، وتزوّج.

إذاً: لا ينقص التَحَرُّفُ أهلَ الفضل من مناصبهم، بل يزيد في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم ـ الإنسان حينما يعمل إذاً هو مضطر أن يعمل حتّى يأكل، العمل يجعله متواضعاً، يجعله بحجمه الحقيقي، لا يتكبّر على خلق الله ـ إذ يزيد التحرُّفُ أو اتخاذ الحرفة في فضلهم وفضائلهم، فيحصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم.

بمَ نلت هذا المقام يا إمام ؟ قال: **" باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي ".**

والكسب الحلال يبعد عن الامتنان، فالإنسان إذا أعطى قد يمنّ، أما إذا كسبت مالك بتعبك وعرق جبينك وكدّك، فهذا الكسب بهذه الطريقة لا يجعل لأحدٍ عليك منّة، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))

[من صحيح البخاري عن المِقْدام]

3 ـ كل حرفة مسخّرة لحرفة أخرى:

الآن ننتقل إلى شيء آخر، هو أن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان قدرة، خصّه بشيء، وجعله في حاجةٍ إلى مليون شيء، من أجل أن تقوم الحياة بين البشر، أنت بحاجة إلى طبيب، وإلى مدرّس لابنك، وإلى من يصنع لك الثياب، وإلى من يزرع لك القمح، وإلى من يقدّم لك الخدمات، وأنت لك حرفةٌ واحدة تخدم بها الناس، والناس جميعاً من خلال حرفهم ومهنهم يخدمونك، إذاً: شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يكون لكل إنسان منّا حرفة يتقنها، ويقدّم ثمار عمله للناس، ويستخدم خبرات الناس في قضاء حاجاته، فالدنيا أخذٌ وعطاء، هذه واحدة.

4 ـ الانتفاعُ بفوائد خيرات الأرض تكون بالوسيط:

النقطة الثانية: هو أن الله سبحانه وتعالى أودع في الأرض خيرات كثيرة، ولكن شاءت حكمة الله أن تكون الفائدة من هذه الخيرات لا بشكلٍ مباشر ؛ بل بوسيطٍ من عمل الإنسان، وعلمه، وجهده، فالحديد مثلاً لا تراه في الطرقات على الشكل الذي ترغب، الله جعل الحديد فلزات، نحتاج إلى استخراج هذه الفلزات، وإلى أفران لصهر الحديد، وإلى تشكيل الحديد، وإلى صب الحديد، لابدّ كي تستفيد من خيرات الأرض من علمٍ وعمل، أنت بالعلم والعمل ترقى إلى أعلى عليين إذا استقمت على أمر الله، وبالعلم والعمل تهبط إلى أسفل سافلين إذا انحرفت عن أمر الله.

إذاً أولاً: الله امتحنك بأن خصّك بشيء، وجعل كل الخلق يقدّمون لك أشياءهم.

والشيء الثاني: الله عزّ وجل فضلاً على ذلك جعل العلم والعمل طريقاً إما إلى الرقي إلى أعلى درجات الجنان، أو أن تهبط بغشّك للناس وكذبك عليهم إلى دركات النار، إذاً العلم والعمل وسيلة أو طريقة من طرق ابتلاء الإنسان.

إذاً: لما قال الله عزّ وجل:

(وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)

أي علّمناه صناعة الدروع، وخصصناه بإلانة الحديد، ومن شرف هذا النبيّ العظيم أنه يأكل من عمل يده، ومنْ أحلّ الدخول أن تأكل من جهدك وعرق جبينك..

(أنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ)

السابغات هي الدروع، قال:

(وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ)

5 - وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ

المعنى الأول:

السرد الحلقات، ما معنى قدِّر ؟ أي إن جعلت هذا الدرع سميكة وثقيلة أرهقت المُقاتل، وإن جعلتها خفيفة لم تمنعه من السهام، يجب أن تجمع هذه الدرع بين الخفّة وبين المناعة، يجب أن تمنع من ارتداها من سهام العدو، ويجب أن تكون على ظهره خفيفة طيّعَة ليّنة، هذا هو التقدير، أي اجمع بين كل الحاجات، بين أن تكون خفيفة لا ترهقه، وبين أن تكون منيعة لا تسمح للسهام أن تنفذ إليه، هذا معنى:

(وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ)

المعنى الثاني:

هناك معنى آخر، هذه الحلقات التي تصنع منها الدروع، إن كانت واسعة دخل منها السهم، وإن كانت ضيّقة عرقلت حركته، فيجب أن يكون قطر هذه الحلقة مناسباً، لا يسمح للسهم أن تخرق جسم المقاتل، ولا أن تكون ثخينة وقاسية بحيث تعيق حركته، هذه المعاني وردت في التفاسير حول:

(وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ)

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ(10)أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا)

وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

اعملوا عملاً صالحاً، ليكن عملك صالحاً:

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

1 ـ أهمية الإخلاص في العمل:

هنا نقف قليلاً، إذا أخلصت في عملك يجب أن تعلم دائماً أن الله يراك، وسيكافئك على عملك، أحياناً الذي تتعامل معه لا يكشف خطأك، تصنع غرفة نوم مثلاً، الخشب الداخلي المستور قد تضعه من نوع رديء، ولا يدري صاحب هذه الغرفة عن هذا شيئاً، قد تقلِّل المواد الأوليّة، فلا تصمد هذه الغرفة للاستعمال، أما إذا كنت صالحاً، وأتقنت عملك فصاحب هذه الغرفة لا يعلم، ولكن الله يعلم.

عندما جاء لسيدنا عمر رسول القادسيّة قال له: **<< يا أمير المؤمنين، مات خلقٌ كثير، قال: من هم ؟، قال: أنت لا تعرفهم، فبكى سيدنا عمر وقال: وما ضرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم >>.**

مثلاً: إذا كنت باراً بأمّك وأبيك فالله بصير، وسيلهم أولادك أن يقدِّموا لك كل هذه الخدمات، إن كنت صادقاً في معاملاتك الله بصير، إن كنت نصوحاً في بيعك الله بصير، إذا كنت متقناً لعملك الله بصير، الأشياء التي تخفى عن البشر على الله لا تخفى، فاعمل صالحاً ؛ في بيتك، إن مع أهلك، مع أولادك، في حرفتك، في صنعتك، في تجارتك، في زراعتك، هناك أدوية تنمي الثمار تنمية سريعة جداً، لكنها ضارةً للإنسان..

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

هناك صناعات غذائيّة، هناك مواد كيماويّة تجعلها رائجة أكثر، لكنّها تؤذي الأجسام، فالمؤمن يجب أن يبحث عن مرضاة الله عزّ وجل..

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

2 ـ وجوب مراقبة الله تعالى في جميع مجالات الإنسان:

أي أعرف ما تعملون، أقدِّر عملكم، فإذا وضعت سعراً معتدلاً لهذه السلعة حتّى يتيسّر على المسلمين شراؤها، الله عزّ وجل يعلم ذلك، وسوف يكافئك، وسوف يقيك من أمراضٍ وبيلة، وسوف يوفِّر عليك مشاق كثيرة، أما إذا استغللت حاجة الناس لهذه الصنعة، ورفعت الأسعار أضعافاً مضاعفة، لتحقِّق ربحاً وفيراً على حساب حرمان بعض الناس، الله أيضاً بصير، فالمؤمن دائماً يراقب الله عزّ وجل، ما الذي يرضي الله ؟ أكثر شيء في عمله أي في اختصاصه، ففي طبّه، بإمكانك أن تقول لهذا المريض: ائتني بعد أسبوع، وبعد أسبوع، وبعد أسبوع، وقد شفي من أول لقاء، بإمكانك أن تكلِّف هذا المريض أن يجري تحاليل كثيرة ليس بحاجة إليها، باتفاقٍ بينك وبين صاحب مخبر، بإمكان هذا المحامي أن يوهم الموكِّل أن قضيّته عويصةٌ جداً، وتحتاج إلى نفقات كبيرة، والقضيّة سهلة جداً تنتهي بمذكِّرة واحدة، من يعلم ذلك ؟ الله يعلم..

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

إذا كنت صادقاً مع الناس، مخلصاً لهم، ناصحاً لهم، فالله يعلم، وسوف يكافئك في الدنيا قبل الآخرة، سوف يحفظك، ويحفظ مالك، وأهلك وأولادك، سوف يرفع شأنك وذكرك..

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

اعمل صالحاً، كن صادقاً مع الناس، كن مخلصاً لهم، كن نصوحاً لهم، لا تغشّهم، لا تدلِّس عليهم، لا توهمهم، لا تخوّفهم، لا تحملهم على شراء حاجةٍ ليسوا هم بحاجةٍ إليها وتقول: هذه سوف تفتقد من السوق، اشترِ سريعاً، لا تكذب عليهم، كن صادقاً يأتِك رزقٌ حلالٌ وفير، وأنت صادقٌ مع الله عزّ وجل..

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

الزوجة إذا نصحت زوجها، وأخلصت له، ورعت بيته، وحفظت ماله..

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

إذا ربّت أولادها، وتعبت في تربيتهم، الله بصير يراها، قد يمتِّعها بصحّتها حتّى تموت، وقد تسطرح عليها الأوجاع والأوبئة، كل شيءٍ بحسابٍ دقيق، فأي إنسان ينصح عباد الله، يرحمهم ـ إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي ـ هذا الذي يرحم عباد الله يرحمه الله، ويحفظه.

الآية دقيقة:

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(11)وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ)

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ

إذاً سيدنا داود آتاه الله فضلاً ؛ النبوّة، والزبور، والقوّة، والعلم، وتسخير الجبال، والتوبة، والحكم بالعدل، وإلانة الحديد، وحسن الصوت، وجعل له صنعةً يعيش بها، والصنعة، الحرفة، والعمل يرفع شأن الإنسان، ولا يجرح من قدره ولو كان عالِماً أو داعيةً، إنه يجعله متواضعاً، ويجعله في استغناءٍ عن منّة الخلق، النبي الكريم يقول:

((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))

[من صحيح البخاري عن المِقْدام]

الآن سيدنا سليمان:

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)

تسخير الريح لسليمان عليه السلام:

الله سخَّر له الرياح، ما يحتاج إلى مسيرة شهر يقطعه في غدوةٍ، أي في وقتٍ مبكِّر، أقل من يوم، وما يحتاج إلى مسيرة شهرٍ يقطعه في روحةٍ، أي أقل من يوم، ولكن مساء، الغدو الذهاب إلى العمل صباحاً، والرواح العودة مساء، الإنسان ينطلق إلى عمله بساعة أو ساعتين مسافة الطريق، ويعود من عمله إلى بيته في ساعةٍ أو أكثر، فما يحتاج إلى أن يسيره في شهرٍ بأكمله يقطعه في ساعة..

(غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)

نحن لسنا مكلّفين أن نبحث بالتفصيلات، هذا خبر من الله عزّ وجل، وما سكت الله عنه يجب أن نسكت عنه، يا ترى كيف ؟ ويا ترى كان في بساط ؟ يا ترى البساط له غرف ؟ له مقاعد ؟ هذه تفصيلات، وردت في كتب بني إسرائيل، لكننا نربأ بأنفسنا أن نأخذ من الإسرائيليات، الله عزّ وجل قال:

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)

انتهى الأمر، أعطاه الله، خصَّه بميزة أن سخَّر له الريح ينتقل بها من أطراف البلاد إلى أطرافها الأخرى.

(وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ)

وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ

القطر هو النُحاس، أيضاً جُعِل النحاس لهذا النبي الكريم سائلاً، يصبُّه في قوالب، ويستخدمه كيف يشاء.

مرَّةً ثانية وثالثة، هذه المعجزات التي خصَّها الله الأنبياء، إذا أردت أن تحكمها بقانون البشر، وبخصائص الأشياء، قد لا تقبلها، أما إذا أردت أن تفهمها من خلال قدرة الله عزّ وجل فالقضيَّة سهلةٌ جداً، معقولةٌ ومقبولة، لذلك فرّق بين ما هو مستحيلٌ عادةً و ما هو مستحيلٌ عقلاً، هذه الآيات والمعجزات ليست مستحيلةً عقلاً ؛ لكنها بعيدةٌ عادةً.

مرّة قرأت في الفيزياء في عنصرين متجاورين، العناصر في الأرض مرتّبة حسب عدد الإلكترونات التي تدور حول المدارات الخارجيَّة، فأول عنصر حوله إلكترون واحد يدور العنصر الثاني إلكترونات، وهكذا، بين عنصرين متجاورين الفرق بينهما إلكترون واحد، العنصر الأول غاز، والثاني صُلب، إذا أضفنا إلكترونا أو كُهروبا واحدا على المدار الخارجي ينقلب هذا العنصر من غاز إلى صلب، أو من صلب إلى غاز، فعلى قدرة الله عزّ وجل كل شيءٍ مقبول ومعقول..

(وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ)

وَمِنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ

لئلا يتوهَّم الإنسان أن الجن يعملون بقدراتهم الذاتيَّة..

(وَمِنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ)

أي أن ربنا سبحانه وتعالى سخَّر لهذا النبيِّ الكريم بعضاً من الجن يقدِّمون له أجلَّ الأعمال، لكن بإذن ربِّه..

(وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ)

وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ

هذا الجنِّي إذا لم يفعل ما أُمِرَ به، أو ما أمره به سليمان..

(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ)

هؤلاء الجن ماذا يعملون ؟ قال:

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ)

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ

المحاريب جمع محراب، وهو مكان الصلاة، أو المكان المُرْتَفِع، وقد نجمع بين المعنيين، ربنا عزَّ وجل قال:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

(سورة النور: من الآية 36)

أن تُبْنَى عاليةً، لذلك المئذنة يجب أن تكون شامخة يراها جميع الناس، فالعلماء استنبطوا من هذه الآية أن الأولى أن يكون الجامع عظيم الهيئة، لماذا ؟ هذا بيت الله.

فهنا المحاريب جمع محراب، المكان المرتفع الذي يُصلَّى فيه، لذلك الآن لا يُقْبَل أن يكون المسجد قبواً، يجب أن يكون على أرضٍ حُرَّة، ومرتفعا، ولا شيء فوقه، لكن الآن تساهلوا، في بعض الأبنية جُعِل أحد الطوابق مسجداً، والطوابق الأخرى للسكن، أما الأصل والأكمل أن يُبْنَى على أرضٍ حُرَّة، وألا يكون فوقه أي بناء.

هؤلاء الجن..

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ)

وَتَمَاثِيلَ

ومعنى التمثال هنا: الشيء الذي يُشكّل على مَثَل شيءٍ آخر، أي التزيينات في هذه المحاريب، أقواس مثلاً، لكن ليس المقصود التصوير ولا التماثيل التي تألفونها في حياتكم..

(وَجِفَانٍ)

وَجِفَانٍ

الجفان جمع جَفْنَة، وهي الوعاء الكبير الكَبير الذي يُطْبَخ فيه الطعام، لذلك قالوا: الجَفْنَة ما تطعم آلاف الأشخاص، والقَصْعَة ما تكفي عشر أشخاص، والصَحْفَة خمس أشخاص، والمِيكَلَة شخصان أو ثلاثة، والصَحيفة صحن مفرد، ما يكفي شخصاً واحداً، أما أكبر وعاء للطعام فهي الجِفان..

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ)

كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ

الجواب كالأحواض العظيمة، هناك أحواض عظيمة لتخزين المياه، هذه القدور هي أوعية للطعام تتسع لكمياتٍ كبيرة، ولإطعام آلافٍ مؤلّفة من الناس..

(كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ)

لعِظَم القِدْرِ لا يتحرّك مكانه ثابت، حتى إنّ بعضهم كانوا يصعدون إليه بالسُلّم، قِدْر لطبخ الطعام..

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ)

اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ

الآن عندنا عدة نقاط:

1 - الشكر عملٌ:

عملك يجب أن يكون لا خوفاً ولا طمعاً ؛ ولكن شكراً.

الشيء الآخر: قال بعض العلماء: حينما تصلي وحينما تصوم فصلاتك نوعٌ من الشكر، وقد دعا أحد الأنبياء ربّه فقال: يا رب كيف أشكرك، وشكرك لا يكون إلا بنعمةٍ منك ؟ فقال: الآن عرفتني "، أي حتى الشكر هو نعمةٌ من الله، أن تكون شاكراً..

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ)

أولاً الشكر عمل، وليس قولاً، هذا أول استنباط.

2 - يجب أن يكون العمل شكرا:

الشيء الثاني: العمل ينبغي أن يكون لا خوفاً ولا طمعاً ؛ ولكن شكراً، من عرف نعم الله عزّ وجل كان عمله شكراً لله عزّ وجل.

إذاً:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

الشكر ليس قولاً، إنه عمل.

ثانياً: العمل يجب أن لا ينطلق من خوفٍ ولا من طمعٍ ؛ بل من شكرٍ للمولى عزّ وجل.

3 - يجب أن تستخدم النعم في طاعة الله:

وأدقُّ تعاريف الشكر: أن تستخدم النعم التي أنعم الله بها عليك فيما خُلِقْتَ له، وفيما أمرك به، أن تستخدم نعمة الصحّة في طاعة الله، نعمة العين لرؤية آلاء الله، نعمة السمع لسماع الحق، نعمة اللسان لذكر الله عز ّوجل، نعمة الذكاء لفهم كتاب الله، نعمة الذكاء لإقناع الناس بالحق، إذا استخدمت النعم التي أنعم الله بها عليك فيما يرضي الله، وفيما خُلِقْتَ من أجله فهذا أعلى درجات الشكر، أن تستخدم نعم الله فيما يرضي الله.

أما حينما تستخدم نعم الله عزّ وجل فيما يغضبه، وفي معاصيه، فهذا أحد أنواع الكفر، لذلك نعمة المال، ونعمة الصحّة، ونعمة السمع، ونعمة البصر، ونعمة النُطق، ونعمة القوّة، ونعمة الوسامة، ونعمة الغنى، ونعمة الحكمة، كل هذه النعم يجب أن تسخِّرها فيما يرضي الله عزّ وجل حتّى تكون شاكراً له..

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ)

اللهمّ اجعلنا من هؤلاء القلّة، كما سمع عمر هذا الدعاء من رجل فقال له: " ما هذا الدعاء ؟ " قال: " أقصد هذه الآية "، فأراد عمر أن يضع نفسه أمام حجمها، فقال: **" يا ابن الخطّاب كل الناس أعلم منك "**، قال:

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ

سيدنا سليمان..

(مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ)

المنسأة هي العصا، ودابة الأرض هي الأرَضَة أي السوس.

الجن لا يعلمون الغيب:

الحقيقة هنا وقفة دقيقة جداً هي: أن الجن لا يعلمون الغيب، لقد أمرهم هذا النبي العظيم بأعمال شاقة ومرهقة، وقضى الله عليه الموت وهو متكئٌ على عصاه، هم يعملون هذه الأعمال الشاقة، ولو علموا أنه مات لوقفوا عن أعمالهم، هذا دليل قوي قطعي على أن الجن لا تعلم الغيب، بإمكانك أن تردُّ آلاف القصص بهذه الآية، أكثر الناس يتوهَّمون أن الجن يعلمون الغيب، ودائماً على شكل قراءة فنجان، على شكل أقوال الكُهَّان، على شكل السحرة، دائماً الساحر والكاهن ينبئك عن الغيب، فيقول لك: أمامك مشكلة، أمامك قضيَّة، هذا كله غلط..

(فَلَمَّا خَرَّ)

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ

أي وقع من على عصاه بعد أن أكلتها الأرَضَة..

(تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

إذاً الجنُّ:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: من الآية 27)

فكل القصص التي تقول: رأينا الجن أقزاماً صغيرة تتحرَّك، هذا كله لا أساس له من الصحَّة.

والشيء الثاني: أن الجن لا تعلم الغيب، كائنات خلقها الله عزَّ وجل، لا نعلم عنها إلا ما أخبرنا الله به من خلال سورة الجن، الذي ورد في القرآن هو الصحيح، وهو الحق، لكنهم لا يعلمون الغيب، ولا يملكون لنا ضراً ولا نفعا..

خاتمة:

(وَإِمّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(200)إِنّ الّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ(201))

(سورة الأعراف)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(1)مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(2))

(سورة الفلق)

انتهى الأمر، علاقة الإنسان مع الجن أنه إذا استعاذ بالله وقاه الله شرّهم..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: من الآية 23)

فالآيات واضحة جداً.

إذاً:

(فَلَمّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)

النبي يموت، قضى عليه الموت، وهو متكئٌ على عصاه، ما دلّهم على موته إلا بعد حين، أيضاً تفصيلات، كم سنة يا ترى ؟ عشر سنوات ؟ أكثر وأقل ؟ نحن ما كلّفنا الله عزّ وجل أن نبحث بالتفاصيل، ما دلّهم على موته..

(إِلّا دَابّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ)

فلمّا أكلت دابة الأرض منسأته، وكُسِرَت هذه العصا، وخرّ سليمان عليه السلام على الأرض بعد أن مات من قبل، الآن:

(تَبَيّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ(14))

وفي الدرس القادم عندنا قصّة سبأ، وفي هذه القصّة مواعظ كثيرة، وحقائق جُلّى، نرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنا إن شاء تعالى إلى شرحها وتفصيلها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (05-10): تفسير الآيات 15 - 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-02-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الخامس من سورة سبأ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى في الآية الخامسة عشرة:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(15)فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ(16)ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ(17))

القصة القرآنية للمغزى والعبر لا للأحداث والأشخاص:

أيها الإخوة الأكارم... يجب أن نعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى إذا أورد في قرآنه الكريم قصةً، فأصحاب القصة ماتوا، ورحلوا، وخُتِمَ عملهم، ولا يعنيهم من قصتهم شيء، ولكن هذه القِصَص تعنينا نحن بالذات، هذه القصص تعني قارئ القرآن الحي، لأن الميت خُتِمَ عمله، وانقضى أجله، وتحول إلى مكانةٍ عند الله عزّ وجل، إما في جنةٍ يدوم نعيمها أو في نارٍ لا ينفد عذابها، وربنا سبحانه وتعالى ذكر هذا المعنى فقال:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ)

(سورة البقرة: من الآية 141)

مضوا، وماتوا..

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(141))

(سورة البقرة: من الآية 141)

فهذه المقدمة أردت من خلالها أن قارئ القرآن إذا قرأ قصةً في القرآن لا ينبغي أن يتوهم أنه يقرأ تاريخاً، ولا سجلاً لأعمال السابقين، ليس هذا من شأن القُرآن، وليس هذا من أهداف القرآن العظيمة، إنه كتاب هدايةٍ ورشاد، كتاب إنقاذٍ لهذا الإنسان، ماذا يعنيني أن قوم سبأ كانوا في بحبوحةٍ، ثم جاءهم سيل عرم، إلا أن أستنبط من هذه القصة حقيقةً أكتشف بها سر وجودي.

إذاً قبل أن نمضي في شرح هذه القصة، الذي أتمناه على كل قارئ قرآن، على كل من يحضُر مجالس العلم، إذا قرأ قصةً عن قومٍ من الأقوام السالفة فلا ينبغي أن يتوهم أنه يقرأ التاريخ، لا..

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ)

فالإنسان الموفّق في حياته لا يعنيه شيءٌ وقع فيما مضى، ولا يعنيه أن يبحث في مستقبلٍ بعيد سيصل إليه، ولا يعنيه أن تُفَتَّتَ جهوده في معارف جانبية، الإنسان الموفق، العاقل، الكَيّس، الفَطِن، المفلح، هو الذي يضع هدفاً عظيماً أمام عينيه، ويسعى للوصول إليه، دون أن يلتفت لا إلى معركةٍ وراء ظهره، ولا إلى خصومةٍ جانبية، ولا إلى غيبٍ غُيّبَ عنه، فإنّ هذا يستهلكه، وهذا يستهلك طاقاته، وهذا يبعثر جهوده، فنحن إذا قرأنا قصة سبأ لا يعنينا قوم سبأ، ولا كيف كانوا في بحبوحة، ولكن يعنينا أن نستنبط، وسوف أؤكد لكم أن قوم سبأ تجدونهم دائماً بين أظهركم، فيما حولنا.

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)

(سورة النحل: من الآية 112)

في حياتنا أقوام فسقوا، وفجروا، وانحرفوا، وسقطوا في المعاصي والموبقات، دَمَّرَهُم الله وشتتهم، وأهلكهم، وأفقرهم، وأخافهم، ليست القصةٍ أن نقرأ تاريخاً، القصة أن نستنبط حقائق تلقي ضوءاً على حياتنا، وتكون لنا عبرة وموعظة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ)

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ

في قراءة مساكِنِهم.

1 ـ معنى آية ومدلولها:

معنى آية أي علامة، دليل، ما الدليل ؟ من الذي أنزل الأمطار ؟ الله رب العالمين، من الذي جعل الجفاف فيما مضى مخيفاً ؟ الله رب العالمين، من الذي أغدق علينا نعمة الأمطار ؟ الله رب العالمين، من الذي أنبت الزرع ؟ الله رب العالمين، من الذي أدَرّ الضرع ؟ الله رب العالمين.

2 ـ المؤمن يرى المنعِم، والكافر يرى النعمة:

إذاً: حينما ترى بلاداً رخِيَّةً، سخيةً، فيها نباتٌ، فيها أشجار مثمرة، فيها محاصيل، فيها خيرات كثيرة، يجب أن تعلم أن هذا من عند الله عزّ وجل، أيضاً حينما تؤوّل المظاهر الطبيعية تأويلاً مادياً أرضياً فأنت لا تعرف الله، الفرق كبير بين أهل الشرك والكفر وأهل الإيمان، أهل الكفر والشرك لا يرون إلا النعمة، بينما المؤمنون يرون المنعم.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

فأهل الدنيا يعلمون دقائق الأمور، يعلمون من أين تؤكل الكَتِف ؟ يعلمون مباهج الدنيا ومسرتها، يعلمون دقائق الجمال فيها، يعلمون كيف يسعدون بها، هؤلاء يعلمونها، ولكن غاب عنهم المنعم، وكفروا بالمنعم، آمنوا بالنعمة وكفروا بالمنعم ؛ لكن المؤمنين يرون المنعم من خلال النِعَم، فهؤلاء قوم سبأ حباهم الله بأراضٍ خصبة، فيها جنانٌ وأشجار، وفيها ثمراتٌ، وينابيع، وفيها أنهار، في آية أخرى ربنا عزّ وجل خاطب قوم سبأ من خلال نبيهم فقال:

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود: من الآية 84)

3 ـ وفرة النعم استقرار للعباد، ودفع للأحقاد:

فالعلماء فسروا كلمة: الخير بوفرة المواد ورخص الأسعار، المواد متوافرة والأسعار معتدلة، وسيدنا عمر كان إذا قدم عليه الوالي أول سؤالٍ يطرحه عليه: " كيف الأسعار عندكم ؟ "، فكلما انخفضت الأسعار عاش الناس في بحبوحة، واتسعت رقعة المستهلكين، وعَمَّ الرخاء، وأصبح المال متداولاً بين كل الناس، أما إذا ارتفعت الأسعار ضاقت دائرة المستهلكين، وأصبح المال دولةً بين الأغنياء منكم، وصار المجتمع طبقتين، طبقةٌ مسرفةٌ غارقةٌ في الترف والنعيم، وطبقةٌ فقيرةٌ لا تلوي على شيء، عندئذٍ تنشأ المشكلات، وتنشأ الأحقاد، وحينما قال الله عزّ وجل:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

(سورة التوبة: من الآية 103)

قال العلماء: تطهر الغني من مرض الشُح، وتطهر الفقير من مرض الحقد، تطهر المال من تعلق حق الآخرين به.

إذاً:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ)

أي علامةٌ دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل، على كرم الله عزّ وجل، على الخيرات التي أغدقها الله عليهم، والإنسان في أية لحظةٍ إذا آتاه الله مالاً، أو حباه بصحة، أو أنعم عليه بأهلٍ، أو مأوى، في أية لحظةٍ يرد هذا إلى ذكائه، وإلى خبرته، وإلى دأبه، فهو مشركٌ جاهل، لذلك:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ)

4 ـ الله هو المعطي وهو المانع:

أي دليل على عظمة الله عزّ وجل، وحينما دمّرهم الله بالسيل كان ذلك أيضاً آية على أن ربك بالمرصاد، ربنا يُعطي ويمنع، يبسط ويقبض، يضر وينفع، يعز ويذل.

إذاً هذه آية، حباهم بالخيرات آية، سلبهم إيّاها آية، وكل إنسان في بحبوحة وفي نعمة ليعلم أن الله عزّ وجل كما تجلّت قدرته في إغنائه تتجلى أحياناً قدرته في إفقاره، كما يعطي يأخذ، وكما يرفع يخفض، وكما يُعِز يذل، وكما يضحك يبكي، يبكيه وهو الرجل، فأنت في قبضة الله عزّ وجل، في أية لحظةٍ الله سبحانه وتعالى يمكن أن يجعل من حياتك جحيماً، فآية، الآية حينما يعطي، الآية حينما يأخذ، الآية حينما يُعِز، والآية حينما يذل، الآية حينما يبسط، والآية حينما يقبض، ما هذه الآية ؟ قال:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ)

جَنَّتَانِ

الجنة المقصود بها بساتين مليئة بالأشجار المثمرة، بالمياه العذبة، بالأزهار الفوّاحة، كلكم يعلم جمال الطبيعة حينما تكون متألقةً، أرضًا خصبةً، ماء عذبا، جنات وعيونا، زروعا ومقاما كريما، هذه كلّها مما تسعد الإنسان، عزّ وجل قال:

(حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ)

(سورة النمل: من الآية 60)

فأحياناً الحدائق والبساتين، والأرض الخضراء المتألِقة، هذه تبعث البهجة في النفس، لذلك هناك أناسٌ يحبون النباتات، النبات مخلوق جميل صافٍ يبعث في النفس الراحة، قال:

(جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ)

يبدو أن الأنهار تخترق هذه الجبال، عن يمينٍ جناتٍ وارفة، الظلال، يانعة الثمار، شامخة الفروع، بينها الأنهار تجري، وعن شمالٍ أيضاً جناتٍ مثلها.

(كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ)

كُلُوا مِنْ رزْق رَبّكُمْ

الرزقُ رزقُ اللهِ:

الرزق أضيف إلى الله عزّ وجل، هذا رزق الله عزّ وجل.

مرةً ثانية: حينما يوضع الطعام على المائدة، قد يقول صاحب البيت: هذا الطعام اشتريته من محل كذا، وهذا الطعام اخترته من مكان كذا، حينما يرى أن هذا الطعام جلبه بماله الذي حصّله بتعبه وجده فقد وقع في الشرك، الطعام الذي يوضع على المائدة هو رزق الله عزّ وجل.

(كُلُوا مِنْ رزْق رَبّكُمْ)

لذلك الإنسان دائماً يتأدّب مع الله، إذا أكل يسمّي، لماذا يسمي الله ؟ إشعاراً بأن هذا الطعام هو مِن نعم الله عزّ وجل، وتذكيراً بتطبيق السنة في تناول الطعام والشراب.

(كُلُوا مِنْ رزْق رَبّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ)

وَاشْكُرُوا لَهُ

كما قلت في دروسٍ سابقة: الله عزّ وجل سخر للإنسان الكون تسخير تعريف وتسخير تكريم، ردُّ الفعل على تسخير التكريم هو أن تشكره شكراً حقيقياً، وكيف تشكره ؟

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

(سورة سبأ: من الآية 13)

كيف تشكر الله عزوجل ؟

إذا استخدمت عينك في النظر في آلاء الله فقد شكرت الله على نعمة هذه العين، أدق معاني الشكر أن تستخدم ما أعطاك الله إياه فيما أوجبه عليك، العين تنظر بها إلى آيات الله الدالة على عظمته، والأذن تستمع بها إلى الحق يُتلى عليك، واللسان تذكر الله به، واليد تُغْدِقُ بها على الآخرين مما أفاء الله عليك، والقدم تتقدم بها إلى بيوت الله عزّ وجل، إذا استخدمت أعضاءك، وجوارحك، وحواسّك، ووقتك، وفراغك، وصحتك، وقوتك، ومالك، وجاهك، وخبرتك في الحق، وفيما يرضي الله عزّ وجل فقد شكرت المُنعم، هذا معنى..

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

يجب أن تستخدم نعم الله عزّ وجل فيما أوجب الله عليك.

(كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ

1 - بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ

معنى بلدةٌ طيبةٌ أي طيبةٌ تربتها، طيبةٌ زروعها، طيبٌ ماؤها، طيبٌ هواؤها، بلد طيب، ويقابل البلدة الطيبة بلدةٌ ملوثة، هواؤها ملوث، مياهها ملوثة، العلاقات الاجتماعية ملوثة، أخلاق أهلها ملوثة، تكاد تكون مشكلة التلوث، أكبر مشكلةٍ تعاني منها المجتمعات المعاصرة، بلد ملوث، نسب التلوث عالية جداً، صارت نسب وبائية، الضجيج تلوث، لا تعرف قيمة السكينة والراحة إلا إذا غادرت المدينة، تشعر بمعنى السكينة، معنى الهدوء، معنى راحة الأعصاب، تلوث من حيث الضجيج، تلوث في الهواء، ترى سحابة قاتمة فوق المُدن الكبرى، هذه السحابة كلها غاز فحم، أمراض كثيرة تسببها هذه الأجواء الملوثة، المياه ملوثة، قد نسقي خضراواتنا بمياهٍ ملوثة، قد تتسرب بعض المواد السامة إلى أوراق النبات، ونطعمها للحيوانات، ونأكل لحومها.

إذاً: الله عزّ وجل عاقب أهل الدنيا في آخر عصورهم بالتلوث، تلوثهم الأخلاقي سبَّبَ تلوث بيئتهم، وهناك بلدةٌ طيبةٌ، بلد طيب، ترابها طيب، مياهها عذبة، هواؤها نقي، ثمارها طيبة يانعة، الآن تجد فاكهة ذات مظهر فيزيائي عالٍ جداً، حجم كبير، لون متألق، ولكن لا طعم لها، أما الفاكهة التي صممها الله عزّ وجل، والتي تنبت بإذن ربها لها طعمٌ طيبٌ أخّاذ، بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور.

2 - وَرَبٌّ غَفُورٌ

إن الإنسان إذا وقع في خطأٍ غير مقصود فإن الله غفورٌ رحيم، إذا وقع في مشكلةٍ، واستغفر الله عزّ وجل يجد الله تواباً رحيماً، فالله عزّ وجل جعل المغفرة صمام أمان، لو فرضنا الله عزّ وجل لم يكن غفوراً، لا يغفر، إذا وقع الإنسان في ذنب انتهى، مع الإنسان لا يرحم، فقد تخالف مادةً في قانون فلا يرحمك أحد، يقول لك: فلان انتهى بسبب غلطة، تكلّم كلمة فانتهى بها، خالف بعض القواعد فانتهى بها، لكن ربنا عزّ جل واسع المغفرة، لو وقعت في خطأٍ فباب التوبة مفتوح، وباب المغفرة مفتوح.

إذاً:

(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

وهذا من نعم الله عزّ وجل.

3 - اللهُ يَسترضى:

بالمناسبة ربنا عزّ وجل يُسْتَرْضَى، أحياناً لا تستطيع أن تسترضي إنساناً، ترى أن الطريق مغلق، والباب موصد، قلبٌ قاسٍ كالحجر الأصم، لكن الله جل في علاه يُسترضى، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، ربنا حل وعلا يسترضى بالصدقة، وباكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطّاها، فالإنسان إذا وقع في مشكلة، لاحت له شبح مصيبة، خاف من مرضٍ عُضال، شعر أن علاقاته سيئة مع مَن هم فوقه، وأن هذا بقضاء الله وقدره، قد يسترضي الله عزّ وجل بعملٍ صالح..

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)

معنى: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

من بعض تفسيرات هذه الآية:

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

هو يظن أن الله لا ينصره، وأن الله لن يوفقه، ولن يعطيه شيئاً، ولن يكرمه، ولن يزوجه، ولن يؤمّن له عملاً يقتات منه، وأن الدنيا كلها ضده، وأن الأمور تجري بعكس مراده، من كان يظن هذا الظن قال:

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

يعمل عملاً صالحاً:

(ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ)

كل منكر، ثم لينظر..

(هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

(سورة الحج: من الآية 1ه)

كيف أن الأمور تتبدل، الأمور تتيسر، العقبات تزول، الأهداف تتحقق، الله عزّ وجل يوفق، يكافئ، يُلْهم، إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

الله يُسترضى لكن الإنسان لا يسترضى، يسترضى بالصدقة، بادروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطّاها، يسترضى بالعمل الصالح، يُسترضى بالحسنات، يسترضى بخدمة الخلق يسترضى بإنفاق الأموال.

الآن دخلنا في عقدة القصة، العقدة:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

هذه مقدمة القصة، أما العقدة:

(فَأَعْرَضُوا)

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ

1 ـ فَأَعْرَضُوا

أعرضوا عن الله، جعلوا كتاب الله وراء ظهورهم، لم يعبؤوا بأمر الله، لم يعبؤوا بوعده، قال:

(فَأَعْرَضُوا)

أعرضوا عن ذكر الله، أعرضوا عن الحق، أعرضوا عن أوامر الله و نواهيه، ما بالوا بها، المؤمن إذا وقع في مخالفةٍ يرى أن جبلاً جاثماً على صدره ؛ لكن الفاسق والمنافق إذا وقع في مخالفةٍ كأنها ذبابةٌ أبعدها عن وجهه.

ويا أيها الإخوة الأكارم... إن كل المشكلات التي نعاني منها هي في حقيقتها أعراضٌ لمرض واحد، هي أعراض الإعراض، الإنسان مقبل أو مدبر، متصل، معرض، محسن مسيء، مؤمن كافر، اختر لنفسك أحدهما، فهؤلاء أعرضوا ؛ تركوا دينهم، وتركوا طاعة ربهم، وتركوا أوامر نبيهم، وتركوا شكر مولاهم، وانغمسوا في حمأة الدنيا، وانغمسوا في حظوظهم الخسيسة، وشهواتهم المنحطة، ومالوا إلى الدنيا، ولم يذكروا ربهم عزّ وجل فأعرضوا.

2 ـ كل بلدة أعرضت يكون مصيرها مصير سبأ:

فلذلك أية بلدةٍ حتى في هذا العصر، إذا كانت في بحبوحة ؛ دخل كبير، تجارة حرة، أموال طائلة، بيوت فخمة، مركبات فارهة، مُتَنَزّهات جميلة جداً، طعام طيّب، طمأنينة، راحة، هذه البلدة إذا أعرضت عن الله عزّ وجل، وانغمست في الشهوات والمعاصي، قد يأتيها البلاء من حيث لا تدري، قد يأتيها البلاء دُفعةً واحدة، فجأة، قال:

(فَأَعْرَضُوا)

والله عزّ وجل كل قومٍ يأتيهم ببلاءٍ من نوعٍ خاص، تارةً يقول لك: زلزال، تارةً، فيضان، تارةً غزو مفاجئ، وهذه كلها علاجات إلهية، أما قوم سبأ كان علاجهم عند الله عزّ وجل سَدٌّ عظيم، هذا السد جدارٌ

عظيم بين جبلين يحجز الماء، ويستخدمون هذا الماء طوال العام، هذا السد أصابه عطبٌ، فغمرهم وغمر بيوتهم ومساكنهم، وجرف مزروعاتهم وجعلهم مِزَقاً لا يلوون على شيءٍ.

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)

3 ـ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ

أيها الإخوة دققوا:

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)

لكن، إذا أرسل على قومٍ زلزالٌ، فكأن منطوق الخبر: أعرضوا، فأرسلنا عليهم زلزالاً، أعرضوا فأرسلنا عليهم فيضاناً، أعرضوا ففجرنا عليهم بركاناً، أعرضوا فبلوناهم ببأس بعضهم بعضاً، ألم يقل الله عزّ وجل:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

هذه الصواعق أو الصواريخ..

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الزلازل والانفجارات..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

هذا الغزو، فإما من تحت أرجلنا، وإما من فوقنا، وإما من جيراننا.

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)

السيل العَرِم، السيل الخطير، تقول: صبيٌ عارم أي طائش شرس.

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)

فشتتهم، ودمر بيوتهم، مزارعهم، أشجارهم، مزروعاتهم، جعلهم يهيمون على وجوههم في الآفاق، أين جنّاتهم ؟ أين بيوتهم ؟ أين استقرارهم ؟ أين حظوظهم ؟ أين ثرواتهم الطائلة ؟ أين محاصيلهم الغالية ؟ أين هذا كله ؟.

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)

ولكن دعنا من قوم سبأ ولنلتفت لأنفسنا، إذا أعرض الإنسان يسوق الله له بعض المصائب، أعرض فأرسل الله عليه مرضاً، أو حادثاً، أو فقراً، أو فقد حريةٍ، أو إهانةً، أو بلاءً، أو مرضاً.

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ)

4 - وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ

قال: بجنتيهم جنتين.. الجنتان التاليتان ليستا جنتين ؛ ولكنهما سميتا جنتين للمشاكلة.. أي:

(جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ)

طعم مُر، أحياناً بعض الخيار تجده مر الطعم، بعض الفواكه مُرّة، فما قولك إذا كانت كل هذه الثمرات مرة ؟.

(ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ)

هذه التفاحة حينما تأكلها، هل انتبهت إلى الله عزّ وجل كيف وفّقَ بين أن قوامها يناسب أسنانك، وبين أن شكلها يُمتع عينيك، وبين أن رائحتها تمتع جهاز الشم عندك، وبين أن طعمها عذبٌ حلو المذاق، وبين أن فيها مواد مفيدة لك، كل هذا مجموعٌ في آنٍ واحد، المواد مفيدة، الطعم طيّب، الرائحة عَطِرَة، الشكل جذّاب، القوام ليّن، الله عزّ وجل قادر أن يجعل الطعام المفيد بطعمٍ مُر، أو الطعم الحلو بمادةٍ مؤذية، أو الطعم الحلو والمادة نافعة لكن القوام صخري، يصعب أن تأكله، فكيف وفق الله عزّ وجل بين القوام والطعم والرائحة والمواد النافعة، واللون والشكل والحجم كله مناسب ؟

انظر إلى الفاكهة، حجمها، وطريقة تغليفها، الدُرَاق له طريقة، التفاح له طريقة، البطيخ لها طريقة، كل فاكهة لها طريقةٌ في التغليف، ولها طريقةٌ في قطفها، ولها حجمٌ مناسب، ولها شكلٌ مناسب، ولها طعمٌ مناسب، ولها لونٌ مناسب، ولها قوام مناسب، وفيها مكونات غذائية مناسبة لهذا الإنسان، فربنا عزّ وجل أيضاً من آياته الدالة على عظمته جعل طعم الفاكهة..

(ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ)

طعم مر، تمجُه الأفواه..

(وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)

5 - وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ

فنبات السدر له بعض الثمار قليلةٌ جداً، وكلكم يعلم أنه إذا قل الثمر ارتفع الثمن، الكيلو بسبعين، معناها أن الإنتاج قليل، فإذا قل الثمن، ما معنى قولنا الله هو المُسَعِّر ؟ أي إذا جعل هذه الخيرات كثيرة رخص سعرها، فإذا قلت ارتفع ثمنها، فالسدر قليل، والأثل نبات لا جدوى منه، نبات رعوي، والسدر بعضه بري وبعضه غير بري، فغير البري مفيد، لكن نباته قليل، قال:

(وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)

الآن دققوا في هذه التعقيب، قال:

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا)

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا

هذا جزاء كفرهم، فالفسق له جزاء، الكفر له جزاء، الشرك له جزاء، النفاق له جزاء، الانحراف عن طريق الحق له جزاء، عدم الائتمار بأمر الله له جزاء، عدم الانتهاء عما عنه نهى وأمر له جزاء، الاختلاط له جزاء، تحديق النظر في النساء له جزاء، الغش في البيع له جزاء، المماطلة في تسليم البضاعة، وقد قبضت الثمن كاملاً له جزاء، التدليس له جزاء، التعدِّي على حقوق الآخرين له جزاء، الإيهام له جزاء، الغَبن له جزاء.

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ

1 ـ كيف يعامِل الله الكافر والمؤمن ؟

ألم تهزكم هذه الآية ؟ أي يا عبادي هل رأيتموني دمَّرت إلا كافراً ؟ إنسان مستقيم، طاهر، ماله حلال، محب لله عزّ وجل، يخدم الناس ليقربهم إلى الله، كيف أعامله ؟ يجب أن يؤمن أن الله عزّ وجل حينما قال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

هل تظن أن الله سيعامل المؤمن، المستقيم، الطاهر، الورع، النقي، التقي، الذي يخاف الله، كل حياته نظيفة، كل علاقاته نظيفة، كل نشاطه هادف، كل أعماله طيبة، كل إنفاقه بالحق، كل كسب ماله بالحق، هذا يعامل كما يعامل فاسقٌ، فاجر، ماله حرام، إنفاقه حرام، منحرف العقيدة، أهكذا تظن الله عزّ وجل ؟ هذا سوء ظنٍ بالله عزّ وجل، لذلك أكبر ذنبٍ تفعله أن تقول على الله ما لا تعلم، أو أن تسئ الظن بالله.

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

الحقيقة لكي نتوازن، الدنيا وحدها لا تكفي، الله عزّ وجل أبى أن يجعلها ثواباً للطائعين وعقاباً للمنحرفين، لكن العبرة الأمور بخواتيمها، الأمور متعلِّقة فيما بعد الموت، الأمور متعلقة بالخلود في جنةٍ أو في نارٍ أبديتين، لذلك:

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

معناها الشكور له معاملة خاصة، الشكور له عند الله مكانةٌ علية، الشكور محفوظ، الشكور مكرَّم، الشكور منصور، الشكور مقرَّب، الشكور موفَّق، الشكور معتنى به..

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

2 ـ كن شكوراً ولا تكن كفوراً:

إذاً: كن شكوراً ولا تكن كفوراً، إن كنت شكوراً يجزك الله ولا تجازى، المؤمن يجزيه الله عزّ وجل ولا يجازى، هؤلاء القوم، قال:

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً)

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً

1 ـ حظوظ الدنيا حيادية بحسب الاستعمال:

هذه الآية دقيقة جداً، فبلادهم الشاسعة من نعم الله عليهم التي ما عرفوا قيمتها، ودائماً وأبداً اسمعوا هذه المقولة: إذا جاءك المال، والصحة، وإذا جاءك الولد، أنعمةٌ ما جاءك أو نقمة ؟ الحقيقة لا نعمة ولا نقمة، ولكن ابتلاء، إذا أنفقته فيما يرضي الله أصبح نعمةً، أما إذا أنفقته فيما يغضب الله أصبح نقمة، فالمال نقمة إذا أنفقته على الملاهي، أنفقته سرفاً وترفاً وكبرياءً وغطرسةً، أما إذا أنفقه للفقراء والمساكين والمحتاجين، وفي سبيل الحق، ولإعلاء كلمة الحق، انقلب المال إلى نعمة عظيمة.

فالصحة، إذا استخدمت هذه الصحة في المخالفات والمعاصي، أصبحت هذه الصحة نقمةً عليك، والمرض عندئذٍ أفضل منها، أما إذا أنفقتها في طاعة الله، وفي طلب العلم، وفي خدمة الخلق، وفي معرفة الله، هذه الصحة نعمة، فأنا لا أقول أبداً لشيءٍ من حظوظ الدنيا: نعمةٌ ولا نقمة، أقول: هو ابتلاء، يصبح نعمةً إذا أنفقته في طاعة الله، ويصبح نقمةً إذا أنفقته في معصية الله.

كل شيء حيادي، هذه المركبة حيادية، نعمة ؟ والله إذا تنقّلت بها من بيتك إلى المسجد، واستخدمتها في طاعة الله، وحللت بعض مشكلات الناس، ولبّيْتَ بها حاجة المستغيث في الليل، وأدخلت على قلب أهلك السرور أحياناً بها، فهذه نعمة، فإذا استخدمتها لأمورٍ أخرى يستحيا من ذكرها هذه نقمة.

أحياناً الله عزّ وجل يهب الإنسان شكلاً جميلاً، فإذا كلما نظر في المرآة قال: الحمد لله، يا رب كما حَسَّنْتَ خَلقي فحسن خُلقي، وغض بصره عن محارم الله، وعزل أذنه عما يغضب الله عزّ وجل، فهذا الشكل الجميل من نعم الله ؛ لكن إذا أغوى به النساء، وجال في أسواقٍ تكثر فيها النساء، ووزع البسمات هنا وهناك، هذا الشكل الجميل صار نقمة، أي شيءٍ موقوفٌ على طبيعة استهلاكه، إما أن يغدو نعمةً، وإما أن يغدو نقمةً، فربنا عزّ وجل قال:

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً)

2 ـ اتصال البنيان نعمة:

بعض البلدان الراقية بمقياس العصر، راقية ليس عند الله، راقية بمقياس العصر، بمقياس الحضارة، اتصل بنيانها، كل بضعة أمتار فيلا، وفيها ماء وكهرباء، وحدائق ومحلات تجارية، وخدمات عامة، لا تحس بوحشة أبداً، أينما تحركت بالهواتف والكهرباء والمطاعم والخدمات الراقية، فالعمران حينما يتصل يَعُمّ الأمن، قطع طريق في الليل موحش لا توجد نجدة، لا توجد خدمات، لا يوجد مراكز راحة، شيء متعب، فربنا عزّ وجل أشار إلى نعمةٍ نَعِمَ بها هؤلاء قوم سبأ، قال:

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً)

لا تغيب عن العين علامات هذه القرى.

مثلاً: من باب التقريب من مدينة مضايا إلى بقين، من بقين لحاليا، من حاليا للجرجانية، من الجرجانية للزبداني، وكله بنيان متصل، وفي البلدان المجاورة البنيان مُتّصل، لا توجد وحشة دائماً، الماء، والكهرباء، والخطوط، والهواتف، والطرق المعبدة، والمحلات التجارية، والبريد والبرق، كل شيء موجود، هذا معنى الآية الكريمة:

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ)

3 - وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ

المسافر لا يحتاج إلى زاد، إذا تناول طعاما الصباح في بيته، تناول طعام الظهيرة في القرية التي تليها، وطعام العشاء في قرية ثانية، ونام في قرية ثالثة، أينما تحرك القرى كلها عامرة، والطعام متوافر، والطرق ظلها ظليل، هذه:

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ)

هذه من دلائل عظمة الله عزّ وجل، أكرمهم، وأمدهم بهذه الأمطار والبساتين، والقرى الظاهرة، قال:

(وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ)

4 - سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ

نعمة الأمن، أحياناً الإنسان يخاف أن يسافر في الليل، يخاف أن يترك مركبته في مكان فارغ حتى لا تسرق.

(وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا)

هنا..

(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا

الحقيقة هل من المعقول أن يقولوا هذا الكلام ؟! أيعقل أن يكون قومٌ في بحبوحةٍ، وفي غنى، وفي عمار متصل، وفي خدمات، وفي أمطار غزيرة، وفي بساتين، وأن يقولوا بألسنتهم:

(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

1 - لسان حالهم: رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا

قال: لا، فهذا لسان حالهم، وليس هذا لسان قالِهم، حينما عصوا ربهم فكأنهم ينتظرون من الله أن يشتتوا، وأن يمزّقوا، وأن يدَمَّروا، إذاً الآن استبدلوا، إذا كنت في بحبوحة ؛ بيت، ودخل، ومكانة، وأردت أن تنظر إلى غير ما أحل لك، أردت أن تعتدي على أعراض الآخرين، أردت أن تأكل أموالهم بالباطل، أردت أن تفعل شيئا لا يرضي الله فكأنك تقول: يا رب دمرني، أنا أستحق الدمار، يا رب أتلف

مالي، يا رب أذهب صحتي، يا رب شتت شملي، فالعاصي كأنه يقول هذا، أروع ما في التفسير، أنهم حينما قالوا:

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

قال: ليس هذا قول لسانهم ؛ ولكن هذا لسان حالهم، أي أن كل إنسان يعصي الله كأنه يخاطب الله ويقول: يا رب دمرني، يا رب أزهق مالي، يا رب شتت شملي، يا رب لا توفقني، يا رب أرسل لي المصائب.

(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)

2 - وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ

العاصي ظالم لنفسه:

الإنسان إذا عصى الله عزّ وجل يظلم نفسه، فما من ظلمٍ أشد من ظلم النفس.

(وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)

ربنا عزّ وجل لخّص ما فعله بهم، قال:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

قصة سبأ صارت قصة لها عبرة: فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ

صاروا قصة، أحياناً يقول: فلان أكل من مال حرام، وآخر حلف يمين غموس، خرج من عند القاضي، بعد مترين وقع مشلولاً، بعد يومين مات، كان فلان ملء السمع والبصر، له قيمة، وكان فلان مرهوب الجانب، فإذا هو بعد يومين أصبح قصة، صار حديثاً، لذلك بعض الأدعية التي قرأتها:

" يا رب لا تجعلني عبرةً لأحدٍ من خلقك ".

ألا أكون قصة يتعظ الناس بها، يقولون: فلان أكل مالاً حراماً فدمره الله، فلان اعتدى على أعراض الناس ففضح في عقر داره، جاءت الشرطة إلى بيته، وزوجته داعرة، أخطر شيء في الإنسان أن يصير هو نفسه قصة، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

الأقوام السابقة أصبحت أحاديث، وآثارها تخبرك عنها، آثار تدمر، آثار الأنباط، هنا التدمريون، وهناك قوم عاد، وثمود، وقوم تُبّع.

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

لذلك الدعاء.

" يا رب لا تجعلني عبرةً لأحدٍ من خلقك ".

صار حديثاً، الآن كل إنسان إذا زلت قدمه، أو فضحت ابنته بعدما أهمل تربيتها، فهربت مع شخص فرضاً، وهذا الشخص فاسق فاجر، دلّها على عمل ساقط، صارت قصته تروى في المجالس عند الأقرباء.

فالإنسان يأخذ حيطته، ويضبط أموره، ويستعين بربه، ويطبق شرع الله عزّ وجل، حتى لا يكون عبرة وموعظة، ولكن قصته عطرة، تتعطر بها المجالس، فلان ما شاء الله، استقام على أمر الله فأكرمه الله ووفقه الله، ورزقه زوجةً صالحةً وأولاداً أبراراً، فالإنسان يجهد أن يكون حديثه عطراً بين الناس بطاعته لله، أما إذا عصى الله عزّ وجل يصبح حديثه قصةً يُتَّعَظُ بها في المجالس.

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)

وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

دمروا، وشتتوا، وتفرّقوا، وتشعّبوا، وتشرذموا.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

إذاً حينما قالوا:

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

ليس هذا قول ألسنتهم، هذا لسان حالهم، أي معاصيهم، كأنهم بمعاصيهم يقولون: ربنا مَزّقنا، ربنا شرّدنا، ربنا أذهب مالنا، وكل إنسان يعصي الله وهو في بحبوحة، كأنه يقول: يا رب دمرني، يا رب أزهق روحي، يا رب افعل بي كذا وكذا، هذا لسان الحال.

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

1 - إبليس عدو المؤمنين اللدود:

عدوك اللدود وهو إبليس، أنت إما أن تخيّب ظنه وإما أن تصدق ظنه، فإذا أطعت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، وأنفقت مالك في سبيله فقد خيّبت ظن إبليس، والمؤمن دائماً يخيّب ظن إبليس، أما

حينما ينساق الإنسان مع شهواته، وحينما يغويه الشيطان، وحينما يستسلم له، وحينما يأكل أموال الناس بالباطل، وحينما يعتدي على أعراض الآخرين، وحينما يستعلي، لقد صدق عليه إبليس ظنه.

2 ـ احذرْ أن يصدق عليك إبليس ظنه

فاحذر أيها الأخ الكريم أن يصدق عليك إبليس ظنه، خيّب ظن إبليس بطاعة الله عزّ وجل، اجعله يخسأ، اجعله يخزى، إذا استفزك إنسان، إما أن تغضب وتثور، وإما أن تكون حليماً، إذا غضبت صدقت ظن إبليس، فإذا كنت حليماً خيبت ظنه، دعيت إلى عملٍ طيب، إما أن تصدق ظن إبليس فتبخل، وإما أن تخيب ظنه فتعطي، أنت دائماً بين المَوقفين، قوم سبأ:

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ)

ظن بهم المعصية فعصوا ربهم، ظن بهم الفجور ففجروا، ظن بهم الكفر فكفروا، ظن بهم الكبر فاستكبروا..

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ)

مرةً ثانية: هؤلاء الذين تحدَّث الله عنهم، ماتوا منذ آلاف السنين، ماتوا وأصبحوا أحاديث، وانطفأ ذكرهم، وانقضى أجلهم، وخُتِمَ عملهم، وهم يلقون مصيرهم، نحن دائماً المعنيون في كل هذه القصص، يجب أن نستنبط منها، حقائق، أنك إذا عصيت الله عزّ وجل كأنك تطالبه أن يدمرك.

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

3 ـ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

هؤلاء المؤمنون خيَّبوا ظن إبليس، يا الله.

(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ

الشيطان دعاك وأنت استجبت:

الإنسان إذا عصى الله ولعن إبليس فقد أخطأ، يجب أن يلعن نفسه، إبليس ليس له علاقة.

كنت أضرب مثلاً، وذكرته كثيراً: إنسان يرتدي ثياباً جميلة جداً بيضاء في الصيف، متعطر متأنِّق، فرأى حفرةً كلها مياهٌ آسنة سوداء، فنزل فيها، وجاء للمخفر يدّعي على رجل، قال له: فلان هو السبب، فجاء المحقق قال له: هو دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال: لا والله ما دفعني، قال: أمسكك ورماك فيها ؟ قال: لا والله، قال: شهر عليك السلاح، وقال لك: انزل فيها ؟ قال: لا والله، ولكنه قال لي: انزل فنزلت، أليس هذا مجنوناً ؟ هكذا يفعل إبليس، لا يملك إلا أن يوسوس فقط، فمن استجاب له فقد ضل سواء السبيل.

(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

أبداً..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ)

إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ

ابتلاء.

(وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

كل شيء مُسَجَّل، كل شيء مكتوب، كل شيء محاسب عنه..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع تفسير هذه السورة الكريمة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (06-10): تفسير الآيتان 22 - 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-03-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس السادس من سورة سبأ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى في الآية الثانية والعشرين:

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ(22)وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(23))

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

1 - التوحيد: القضية الكبرى في الوجود:

يا أيها الإخوة الأكارم، القضيَّة الكبرى قضيَّة التوحيد، والمصيبة الكبرى مصيبة الشِرك، لذلك آيات القرآن الكريم تتحدَّث عن الشرك، لأن الدين كلّه توحيد، إذا عرفت أن أمرك كلّه بيد الله، وأن كل الخير في طاعة الله، وأن كل الإخفاق والخسارة في معصيته، لابدَّ من أن تطيعه، فلذلك كتاب الله عزّ وجل دائماً يُلِحُّ على قضية التوحيد.

2 - التوحيد: القضية الكبرى في الوجود:

في هذه الآية يبين الله عزّ وجل لنا أن هؤلاء الذين زعمتموهم آلهةً من دون الله.

أولاً: كلمة زعمتم، الزعم في اللغة للادعاء، للافتراء، للدعوة الباطلة قال الشاعر:

زعم الفرذدق أن سيقتل مَرْبَعَاً أبشـــر بطول سلامةٍ يا مربعُ

***

إذا كذب إنسان، أو افترى، أو توهّم، أو اختلق، يقال: زَعَمَ.

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ)

الشرك الخفي:

هؤلاء الأصنام التي ظننتموها آلهةً من دون الله، ولا أكتمكم أن هناك شركا جليا وقعت فيه العرب قبل الإسلام، عبدوا اللات والعُزّى، والإنسان عندما يعبد شخصاً، ويعتقد أن كل الخير عنده، هذا أيضاً شرك، فالعلماء ـ علماء التوحيد ـ فرّقوا بين الشرك الجلي والشرك الخفي، الشرك الجلي انتهى، ففي أرض الإسلام لن يُعْبَدَ إلا الله، وهكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أخاف على أمّتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً، ولا حجراً ـ قضية أن تعبد صنما أو حجراً هذا انتهى، وضع انتهى، لكن بقي الشرك الخفي ـ ولكن شهوةٌ خفيّةٌ وأعمالٌ لغير الله))

((إنّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوّفُ عَلَى أمّتِي الإِشْرَاكُ باللّهِ، أمَا إنِّي لَسْتُ أقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قمَرًا وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أعْمَالا لِغَيْرِ اللّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيّةً))

[من سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس]

أي إما أن تعبد نفسك بمعنى أن تؤثر شهوتك على طاعة ربّك.

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية: من الآية 23)

إما أن تعبد هواك، إما أن تعبد شهوتك وتؤثرها على طاعة الله، وإما أن تعبد غيرك، أنت لا تقول: هو إله، لكن تعامله كما يُعامَل الإله، إذا أمرك بمعصيةٍ تعصي الله من أجله، إذا حملك على انحرافٍ تنحرف إكراماً له، إذا طالبك بباطلٍ تعطيه هذا الباطل إرضاءً له، هذا إذاً إلهٌ تعبده، أنت لم تقل: هو إله، ولكن حينما تنصاع لأمره من دون تفكير، وحينما تعتقد أن الخير كلّه بيده، وأن الشر كلّه بيده فهذا شرك، وهذا شركٌ خفي.

وأقرب الناس إلى الرجل زوجته، إذا أرضاها، وعصى الله عزّ وجل فقد أشرك، إذا ابتغى رضاها على حساب رضاء الله عزّ وجل فقد أشرك، له شريك في التجارة قوي، الشريك تمادى، أكل مالاً حراماً، تعامل تعاملاً ربوياً، فأنت خفت على شراكتك معه فسكت، أنت ماذا فعلت ؟ عبدته من دون الله، رأيت رضاه أثمن عندك من رضاء الله، خفت من سخطه، ولم تخف من سخط الله عزّ وجل، فالإنسان قد يعبُد زوجته وهو لا يدري، وقد يطيع شريكه، ويعصي ربّه وهو لا يدري، فهذا شرك، وقد يؤثر شهوته على طاعة ربه وهو لا يدري، وهذا شرك، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((أخوف ما أخاف على أمّتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول: إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوةٌ خفيّةٌ وأعمالٌ لغير الله))

[الجامع الصغير عن شداد بن أوس، وفي سنده ضعف]

((إنّ أخْوَفَ مَا أتَخَوّفُ عَلَى أمّتِي الإشْرَاكُ باللّهِ، أمَا إنّي لَسْتُ أقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أعْمَالا لِغَيْرِ اللّهِ وَشَهْوَةً خَفِيّةً))

[من سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس]

فالمراءاة شرك، المُداهنة شرك، مؤاثرة الهوى على طاعة الله شرك، ففي النهاية أنت تقول: الله أكبر، إذا أطعت مخلوقاً، وعصيت الخالق تأكّد أنك لم تقل هذه الكلمة ولا مرّة، ولو قلتها بلسانك ألف مرّة، لأنك في رؤيتك النفسيّة، وفي قناعتك، وفي تصورك رأيت أن رضاء فلان أكبر عندك من رضاء الله، ورأيت أن سَخَطَ فلان أعظم عندك من سخط الله، هذا هو الشرك، الشرك يتوافق مع المعصية، والطاعة تتوافق مع التوحيد، لذلك شعار المؤمن: **" لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق "..**

(الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78)وَالّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالّذِي يُمِيتُنِي ثُمّ يُحْيِينِ(81))

(سورة الشعراء)

وأتمنّى عليكم وأنتم في رمضان إذا قرأتم القرآن أن تستنبطوا، أو أن تستخلصوا من كتابه الكريم آيات التوحيد، اجمعوها في وريقات، آيات التوحيد تبثُّ في القلب الطمأنينة..

آيات قرآنية في التوحيد:

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إلَهٌ وَفِي الأرْضِ إلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

آيات التوحيد كثيرةً جداً..

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِي(55)إنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: من الآية 2)

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

ادعوهم، إن زعمت صنماً، أو حجراً، أو شمساً، أو قمراً، أو زعمت شخصاً، أو أهلاً، أو بيتاً، أو زوجةً، ادعوا..

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ)

لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ

الآن دقِّق في تفاصيل هذه الآية:

(لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

ما هي مثقال الذرّة ؟ لا شكّ أن أحدكم إذا أراد أن ينظِّف بيته في أيّام الشتاء، وأشعّة الشمس تخترق النوافذ، لا شكّ أنك ترى في هواء الغرفة ذرّةً عالقةً في الهواء، لأنها عالقة في الهواء لا وزن لها، هذه الذرّة العالقة في الهواء التي لا تُرى إلا في أشعّة الشمس، قال: هؤلاء..

(الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)

هذه المُلْكِيَّة، لو ادعيت أنه شريك، قال:

(وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ)

وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ

الشركاء لا يملكون شيئا:

لا يملك، الدرجة الثانية بعد المُلك الشريك، تقول: هذا المحل لي، معنى ذلك أنك مالكه، تقول: فروغ أم ملك أم إيجار ؟ يقول لك: لا والله إنه فروغ، أول شيء قال لك: هو لي، شراء أم فروغ ؟ يقول لك: لا، إنه فروغ، معنى هذا أن الرقبة ليست لك، ولكن لك حق المنفعة، وحدك أو معك شريك ؟ معي شريك، نزل درجة ثانية، معنى هذا الشرك درجة من الملكيّة، ولكنها درجة ثانية، قال له:

(وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ)

أي أن هذه الذرّة لا ملكاً ولا شراكةً، دقّة بالغة جداً، أي أيها الإنسان قبل أن تتجه إلى زيد أو إلى عُبيد، قبل أن تعلِّق الأمل على فلان، قبل أن تلقي بثقلك على زيد، قبل أن تقول: فلان بيده الأمر، قبل أن تقول: فلان ينفعني، ويرفعني، قبل أن تقول: فلان يؤذيني، قبل أن ترى رزقك معلّقاً برضا فلان، قبل أن تسير في هذا الطريق اقرأ كلام الله عزّ وجل، هؤلاء..

(الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ)

لا في السماوات ولا في الأرض، لا بجزء، ولا بذرّة، ليسوا مالكين، وليسوا شركاء.

الملكيّة نوعان: ملكية رقبة، وملكية منفعة، وقد تملك الرقبة والمنفعة، وبيّنت هذا في دروسٍ سابقة، قد تملك بيتاً، ولا تنتفع به، هذه ملكيّة محدودة، وقد تنتفع به ولا تملكه، هذه ملكيّة محدودة، وقد تملكه وتنتفع به، ولكن لا تملك مصيره، يكفي أن يصدر قرار تنظيم، أو قرار استملاك، انتهى، إذاً: الملكيّة الراقية أن تملك الرقبة، وأن تملك الانتفاع، وأن تملك المصير.

ربنا عزّ وجل إذا قال: هو مالك المُلك، فهو مالك الملك خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً، هذه ملكيّة الله عزّ وجل، فهؤلاء الشركاء لا يملكون شيئاً، وليسوا شركاء في شيء..

(وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ)

لا ملكيّة، ولا شراكة، ولا معاونة، فإذا كان الرجل بمحل تجاري، مثلاً ـ من باب تقريب الحقائق ـ ليس مالكَ الرقبة، وليس مالك المنفعة، وليس شريكاً، ولا موظّفاً، لكن له صداقة لصاحب المحل، لو قلت له: إذا تكلّمت لنا معه هل يساعدنا ؟ قال لك: نعم، قال:

(وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ)

وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ

1 ـ المشركُ أشدُّ الناس حمقًا:

وهؤلاء الشركاء لا يشفعون، ليسوا مالكين، وليسوا شركاء، وليسوا معاونين، ولا يشفعون، وما زلت أيها الإنسان متعلِّقاً بهم ؟! وما زلت واضعاً آمالك عليهم ؟! وما زلت تبتغي رضاهم ؟! وما زلت تعصي الله من أجلهم، وأنت في قبضة الله عزّ وجل، وفي أية لحظةٍ أنت في قبضته ؟!! سبحان الله رب العالمين ! ما رأيت أحمق من المشرك.

أنت لو رأيت إنساناً بحاجة إلى توقيع من دائرة، وفي هذه الدائرة أربع طوابق، وفيها مئتا موظّف، ولهذه الدائرة مدير عام واحد، وبيده وحده حقُّ التوقيع، أليس من السُخْفِ، والغباء، وضيق الأفق، وضعف التفكير، والبلادة، أن تتجه إلى مستخدمٍ في هذه الدائرة، وتقبّل يده لعلّه يوقِع لك هذه المعاملة، يقول لك: ليس بيدي يا أخي، لو اتجهت إلى عشرات الموظّفين كلّهم لا يستطيعون، إلا المدير العام، أليس من الجهل والغباء أن تبذل ماء وجهك، وأن تظهر مشاعرك الرقيقة، وأن تبذلها رخيصةً لشخصٍ لا حول له ولا طول أبداً ؟ لا يقدر.

2 ـ ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد:

لذلك العاقل، والذكي، والفالح، والناجح، والرابح، والفائز، والموفّق، هو الذي يتجه لمن بيده الأمر، يتجه لخالق الكون، يتجه لربِّ العالمين، يتجه للإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، يتّجه لرافع السماء بغير عمد، يتجه لمن يعلم السرّ وأخفى، يتّجه لواجد الوجود، يتجه للذات الكاملة، يتجه للقديم الذي لا أول لقدمه، والذي لا نهاية لنهايته، يتجه لله الواحد القهّار، هذا هو الدين كلّه، الدين كلّه أن تتجه إليه، الدين كلّه أن تعقد الآمال عليه، الدين كلّه أن تتذلّل بين يديه، الدين كلّه أن تحرص على رضاه، الدين كلّه أن تطبّق أمره، هذا هو التوحيد، لذلك ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد.

3 ـ ملخّص الدين: اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

الإنسان أحياناً يحب التفصيل، وأحياناً يحب التلخيص، أحياناً يحب الكلمات الكثيرة التي تعمِّق المعنى، وأحياناً يحب الكلمات الموجزة، لو أردت الدين كلّه في كلمات..

(اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنين: من الآية 23)

لا يوجد غيره..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

أيها الإخوة الأكارم... أسماء الله الحسنى كثيرة، لكن كلها ملخّصة في ثلاث كلمات، الله موجود، هل أنت أيها المؤمن تحس بوجوده ؟ تحس أن الله موجود ؟ لا تكفي موجود إنه ؛ مطلع، سميع، بصير، يعلم السرّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين، أقرب إليك من حبل الوريد، يحول بينك وبين قلبك، الخواطر يعلمها، مشاعرك، طموحاتك، خواطرك، صراعاتك، تمنيّاتك، أحلامك، خططك، تدبيرك كلّه يعلمه، أنت عنده مكشوف.

أتحسُ بوجوده ؟ ذلك هو الإيمان، أتحسُ أنه معك ؟ ذلك هو الإيمان ؟ أتحس أنه يراقبك ؟ ذلك هو الإيمان، أتحس أنه عادل لا يظلم الناس شيئاً ؟ ذلك هو الإيمان، أتحس أنه رحيم ؟ ذلك هو الإيمان، يجب أن تؤمن بوجوده، ويجب أن تؤمن بكماله، يا ترى هل هناك إلهٌ ثانٍ ؟ ويجب أن تؤمن بوحدانيّته، بوجوده وبكماله وبوحدانيّته، إن آمنت بوجوده وبكماله ووحدانيّته لابدّ من أن تستقيم على أمره وإلا ففي العقل خلل، إن آمنت بوجوده ووحدانيّته وبكماله فلابدّ من أن تستقيم على أمره، والدليل:

4 ـ هذا مع مخلوق ضعيف فكيف بالخالق العظيم:

إنك إن آمنت أن فلاناً قد أصدر هذا الأمر، وأنه إذا ضبطك مخالفاً له لن يرحمك، وهو قادرٌ على إيقاع أكبر الأذى فيك، ليس مع خالق، ولكن مع إنسان، إنك ستنفِّذ أمره بحذافيره إذا آمنت أن هذا الآمر قوي، ويفعل ما يقول، ولن يسامحك، وإذا آمنت أن إنساناً ما يطولك علمه، وتطولك قدرته، انتهى الأمر. ومثل بسيط جداً: أنت مواطن عادي راكب مركبة، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، والسيارة جاهزة فيها ضابط شرطة، ودراجة نارية، هل تمشي على الضوء الأحمر ؟ هذا مستحيل، أنت مع إنسان قادر على إيقاع الأذى بك، وهو يراك، يراك، وهو قادر، فلا تعصيه، فكيف إذا آمنت أن ربَّ السماوات والأرض يعلم السر وأخفى ؟! القادر، إنه مليون قادر، فكل شيء في جسمك بيده، أنا أقول هذا الكلام لأنني أستمع إلى حالات مؤلمة جداً، فهناك من يضحك، مسرور..

(وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا(9))

(سورة الانشقاق)

يمزح، لو رأى تحليلاً فيه شيء غير طبيعي لانقلب ضحكه بكاء، ولخيَّم على البيت جو الحزن، فقضية الصحّة، قلبك بيده، سمعك بيده، إذا ضعف بصر الإنسان أو شعر بغشاوة صار إنساناً آخر، تهمّه عيونه فقط، سمعك بيده، بصرك بيده، لسانك بيده، عقلك بيده، عضلاتك بيده.

أنا أعرف رجلاً حصّل دكتوراه من فرنسا، وتسلّم منصباً رفيعاً جداً بوزارة جيّدة، فقَد بصره، زاره صديقي، فقال له: **"والله يا فلان، أتمنّى أن أجلس على الرصيف أتكفف الناس، وأن لا أملك من الدنيا شيئاً، وأن يردّ الله لي بصري ".**

بصرك بيده، سمعك بيده، دماغك بيده، أعصابك بيده، والإنسان ما دام يتحرّك فهو محبوب، أما إذا استلقى على السرير، وشل، والله الذي لا إله إلا هو أقرب الناس إليه، أحبُّهم إليه يتمنّى موته.

5 ـ اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلّها:

كيف تعصي الله وأنت في قبضته ؟ كيف تعصي الله وحواسُّك، وأعضاؤك، وعضلاتك، وسمعك، وبصرك، وأهلك، ومن حولك، ومن دونك، ومن فوقك كلهم بيد الله، هذا هو التوحيد، هذا هو الدين، الدين توحيد، الدين أن لا ترى مع الله أحداً، أن لا ترى رازقاً، ولا معيناً، ولا رافعاً، ولا خافضاً، ولا باسطاً، ولا قابضاً، ولا معزاً، ولا مذلاً، ولا رزّاقاً إلا الله عزّ وجل، علاقتك مع واحد، والعلاقة مع الواحد مريحة.

تصوّر موظّفاً في شركة فيها ثمانية شركاء، الثمانية مخوّلون أن يعطوه أوامر، هذا قال له: تعال عندي الساعة السابعة إلى البيت، الثاني أعطاه أمراً مُعاكساً، هذا صعب جداً، أما إذا كانت علاقتك مع جهة واحدة فالأمر سهل، لذلك إذا أشرك الإنسان بالله عزّ وجل يتمزّق، إن أرضى زيداً يغضب عبيدا، وإن زار فلاناً يعاتبه فلان، وإن ابتسم بوجه فلان يُتَّهَم، وإن عبس في وجه فلان يُحَاسَب، القضيَّة صعبة لذلك:

((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر همومه))

[زيادة الجامع الصغير عن ابن مسعود]

" اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلّها ".

(قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(91))

(سورة الأنعام)

عليك أن ترضي الله عزّ وجل وحده، ولا تعبأ بمن سواه..

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غِضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمينَ خرابُ
إذا صحّ منك الوصل فالكل هيّنٌ ... وكل الذي فوق الترابِ ترابُ

***

أنت لطيف ولبق، لكن إذا رأيت الله عزّ وجل قد رضي عنك، وقد أحبّك لا تعبأ برضاء الخلق. مرّة جاءت رسالة لسيدنا عمر من أحد الولاة، قال له: " إنّ أناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم، لست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسّهم بالعذاب، فإن أذنت لي فعلتُ "، أي اسمح لي أن أعذّبهم، سبحان الله! أجابه إجابة تُكْتَب بماء الذهب، قال له: **" يا سبحان الله أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البيّنة، فإن قامت فخذهم بالبيّنة، إن لم تقم فادعهم إلى الإقرار، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم، إن لم يقروا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم، وايم الله لأن ألقى الله بخيانتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم ".**

هناك قصّة قرأتها، لا أنساها، وهي: كان الإمام الحسن البصري جالسا عند والي البصرة، جاء البريد يحمل توجيهاً من الخليفة يزيد بن معاوية، يبدو أن هذا التوجيه لا يوافق كلام الله عزّ وجل، فيه تجاوز، فوقع هذا الوالي في حيرةٍ كبيرة، أيستجيب لهذا الأمر ويعصي الله، أم أن يطيع الله عزّ وجل، ولا يستجيب لهذا الأمر ؟ وقع في صراع، فسأل الإمام الحسن البصري، فأجابه إجابة تُكْتَب بماء الذهب، قال له: **" اعلم أن يزيداً لا يمنعك من الله، ولكن الله يمنعك من يزيد ".**

أي إذا الله عزّ وجل أراد شيئاً لا يزيد ولا مليون يزيد يقفون أمام إرادته تعالى، أما إذا أراد يزيد شيئاً فربنا عزّ وجل بمليون باب يمنعه منك، مليون يزيد لا يغيّرون شيئاً من قضاء الله وقدره، النتيجة أنه قال له: **" اعلم أن يزيداً لا يمنعك من الله، ولكن الله يمنعك من يزيد ".**

على كلٍ هذا هو الدين، هذا هو التوحيد، وآية التوحيد اليوم:

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ(22)وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا)

الشفاعة لها شرطان:

الشفاعة لها شرطان: أن يأذن الله للشافع، وأن يرضى عن المشفوع له، شرطان يجب أن يتحقّقا، أن يأذن الله للشافع أن يشفع، وأن يرضى عن المشفوع له، فإذا كان الشافع غير مأذونٍ له لا تنفع الشفاعة عنده، وإذا كان الشافع مأذوناً له، كرسول الله، لكن المشفوع له ليس مرضياً عند الله عزّ وجل لا تنفع الشفاعة، هذا ملخّص الشفاعة بنصّ القرآن الكريم، لا تتحققّ الشفاعة إلا بشرطين ؛ أن يأذن الله للشافع، ولا يأذن إلا لأنبيائه ورسله، لا لهؤلاء الأصنام، وكل إنسان يقدم على معصية يقول له أبوه أو أخوه، أو فلان أو علان: ضعها في رقبتي، لا تخف، قل له: من أنت ؟ هل أذِنَ الله لك أن تشفع لي ؟ هل مأذون لك أن تشفع لي ؟

(وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)

نريد الشرط الثاني، الآية:

(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى)

(سورة الأنبياء: من الآية 28)

شرطان: لابدّ من أن يكون الشافع مأذوناً له، ولابدّ من أن يكون المشفوع له مرضياً عنه، لذلك انتهت الشفاعة، الشفاعة أصبحت علاقتك مع الله.

(وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ)

حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

معنى فُزِّعَ عنهم، الفزع هو الخوف، أما فُزِّعَ عنه أي أُزيل عنه الخوف..

(قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

خيار الإيمان خيار وقت فقط:

لابدَّ من أن تعرف الحقيقة، قلت هذا مراراً، قضية الإيمان قضية متى تؤمن فقط، وليست قضية تؤمن أو لا تؤمن، لأنك ليس لك خيار، لابدَّ من أن تؤمن، إما أن تؤمن قبل فوات الأوان، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، إما أن تؤمن وتستفيد من إيمانك، وإما أن تؤمن وتتحسَّر على إيمانك، إما أن تعرف الجواب قبل الامتحان وتنجح، بعد الامتحان تزداد حسرة، والله الجواب كان سهلاً، لا حول الله ما قرأته، كل طالب راسب حينما يخرج من قاعة الامتحان ينطلق إلى الكتاب يتفحَّصه، سهل، ولكن ما قرأته، بعد أن انقضى الامتحان، ألم يعرف الجواب ؟ عرفه، ولكن متى ؟ بعد الامتحان، هل هناك علامات على الجواب الذي عرفته بعد الامتحان ؟ صفر، فلذلك مشكلة الإيمان يجب أن تؤمن في الوقت المناسب ؛ وأنت شاب عزب، وأنت صحيح، وأنت متزوج.

أريد أن أذكر لكم شيئاً: الشيطان أحياناً له حِيَل، من أبرز هذه الحيل ومن أقواها أنه دائماً يجعلك تعلِّق استقامتك على حدث في حياتك ؛ حتى تتزوَّج، حتى تشتري بيتاً، في الصيف، في الموسم، في الشتاء، حتى تسافر، حتى تأتي من السفر، دائماً الشيطان يضع لك عقبة وحيدة، أما المؤمن ففي أية لحظةٍ أشرق في قلبه الإيمان يقول: يا رب تبت إليك، واصطلحت معك، وانتهى الأمر، في أثناء الدراسة تُب، وفي رمضان تُب، وبعد رمضان تُب، هذه عقباتٍ الشيطان أمامك، الشيطان مهمَّته أن يضع العقبات، وقد هلك المسوِّفون.

من يومين حدَّثني أخ، قريبه شاب عمره في الثانية والثلاثين تزوَّج، هيَّأ البيت، فرش البيت، زيَّن البيت، اليوم السبت والعرس يوم الاثنين، صعد إلى السطح ليجري بعض التصليحات، تأخَّر، تفقَّدوه فوجدوه ميّتاً على السطح بأزمة قلبيَّة، لو أن هذا قال: أنا سأتوب بعد الزواج لخسر، هناك حالات، جاء معه شهادة عُليا، وفي الطريق توفي، ربنا عزَّ وجل جعل الموت يصيب الأشخاص في كل الأعمار، والموعظة لنا، إذاً:

(وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ)

حتَّى فرعون ماذا قال عندما جاءه الموت ؟ قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: من الآية 90)

(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

الرزق والموت بيد الله:

القضيَّة الثانية، الخلق والرزق، والموت والفقر، فأخطر قضيَّتين في حياة الإنسان نهاية عمره ورزقه، فإذا ثبت أن الله هو الخالق، وأنه المُحْي وأنه المميت، انتهى الخوف، وانتهى النِفاق، وانتهى القلق، والآن إذا ثبت أن الله هو الرزّاق، انتهى كل شيء، لأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تُقرّب أجلاً.

فكل إنسان حفاظاً على رزقه يعصي ربَّه، احكم عليه بالجهل، الله عزّ وجل قادر أن يرزقك رزقاً حلالاً طيّباً كثيراً مباركاً، وأنت في طاعته، لذلك الطريق إلى الله هو العلم، والعلم وحده، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، ما في خطأ إلا وراءه جهل..

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد لما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[كنز العمال عن أنس]

حينما تتصوّر أنك إذا عصيته تربح، وأنك إذا أطعته تخسر، فإنني أحكم على أنك لست مؤمناً، فإيمانك صفر، فليمتحن الواحد نفسه، إذا توهَّم أن هذا القرض الربوي يحقِّق له بيتاً، وهو في أمسّ الحاجة إليه، ولا طريق لهذا البيت إلا بهذا القرض الربوي، فأنت صفر لا تعرف شيئاً، ربنا عزّ وجل يهيّئ لك في أشدِّ أزمات البيوت بيتاً من طريقٍ مشروع، قل لي: كيف أقل لك: والله لا أدري، أنا مثلك لا أدري، فالذي عند الله ليس عند العبد، لكن لا تقل: إن لم أفعل هذا أبقى بلا بيت، لا، إن لم أقم بهذا العمل المخالف للشرع أمُتْ من الجوع، لا، هذا هو الجهل، الآمر ضامن، من هو الآمر ؟ هو خالق الكون، الأمور كلُّها بيده، إذا توهَّمت أن هذه المصلحة لابدَّ منها، فإن لم أكن فيها مِتُّ من الجوع، هذا كلام الشيطان..

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ)

(سورة البقرة: من آية 268)

كلّما جاءك خاطر أنك تفتقر، تصبح بلا مال، هذا خاطر شيطاني، إذاً الآمر ضامن، الذي أمرك بطاعته يضمن لك رزقاً حلالاً، الذي أمرك بطاعته يضمن لك رزقاً طيّباً مباركاً

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

نحن قبل عام أقول لكم بكل صراحة: كان كأس الماء مهدّداً بالخطر، كأس الماء، وليس سقي المزروعات، ماء الشرب كان في خطر، لو لا أن الله سبحانه وتعالى امتنّ علينا بهذه الأمطار التي غذّت الينابيع والأنهار أين حالنا الآن ؟

الإحصائيات الدقيقة دمشق في العشر سنوات الأخيرة معدل الأمطار مائة وستون ميليمتراً، مائة وعشرون، في سنة ثمانون فقط، في هذا العام إلى الآن ثلاثمائة وخمسة عشر، ثلاثمائة وعشرون في دمشق، في سرغايا ألف ميليمتر، بأكثر المناطق المطيرة ألف وأكثر من ألف، ففي معظم المحافظات معدّلات الأمطار تجاوزت حتى الآن المعدّلات الثانويّة وزادت عنها، الله هو الرزاق.

سمعت مرّة صاحب معمل يخاطب شخصاً قال له: والله هذه السنة بعنا بيعاً كثيراً جداً ـ يبيع أقمشة ـ قال له: ما السبب ؟ قال له: والله كان الموسم طيّباً في الجزيرة، انتبهت أن بائع القماش إذا كان الموسم جيّداً راجت بضاعته، معنى هذا أن الرزق في السماء، وما توعدون.

مرّة سألت صاحب مطعم: كيف الأحوال ؟ قال لي: والله الغلّة نازلة بالمائة ثلاثون، ما السبب ؟ قال لي: لا توجد أمطار، معنى هذا أن الأمطار تنمي الغلال، الغلال تعمل سيولة، تحرّك كل شيء، فربنا عزّ وجل يسأل:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لا أحد إلا الله عزّ وجل..

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24)قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(25)قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

خاتمة:

الحقيقة في هذه الآيات درس بليغ المناقشة، بهذه الآيات أدب جَم، إن شاء الله في درسٍ قادم نقف عند هذه الآيات وقفةً متأنيّة:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24)قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(25)قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (07-10): محاورة بين الداعي والكافر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-03-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السابع من سورة سبأ، وبدءاً من الآية الرابعة والعشرين، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة سبأ:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

1 - الرزق والأجل بيد الله وحده:

أخطر شيء في حياة الإنسان وجوده ورزقه، وأخشى ما يخشاه انقضاء أجله وانقطاع رزقه، لذلك لو علم الناس علم اليقين أن آجالهم بيد الله، وأن إنساناً واحداً على وجه الأرض لا يستطيع أن يحدِّدها، وأن أرزاقهم بيد الله، وأن جهةً على وجه الأرض مهما عظمت لا تستطيع أن تمنع، ولا أن ترسل، فإذا أيقنت يقيناً قطعياً أن حياتك بيد الله، وأن الذي منحك الحياة هو وحده يُنْهي هذه الحياة، وأن الذي خلقك هو الذي تكفّل برزقك، لو أيقن الإنسان بهاتين الحقيقتين لكانت حاله ذات شأنٍ آخر بعيدٍ كل البعد عن شأنه الحالي.

إن الله سبحانه وتعالى قد منع العباد من أن يتدخلوا في آجال الناس وفي أرزاقهم، لذلك قيل: كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرّب أجلاً، لا إذا قلتها، ولا إذا سمعتها، اسمعها، فهذا الذي يخشى أن يسمع الحق، يتوهم توهُمات باطلة، هذا لا يعرف الله عزّ وجل..

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي(80))

(سورة الشعراء)

لو دققت في أسباب أكثر المعاصي لوجدتها من أجل المال، لو أيقنت يقيناً قطعياً أن الله عزّ وجل بيده الرزق وحده ؛ يكثِّره أو يقلله، يضيقه أو يوسعه، يسهله أو يعسره، وأنك لن تنال ما عند الله عزّ وجل إلا بطاعته، وأنك إذا توهَّمت أنك بمعصية الله عزّ وجل يزداد رزقك ما الذي يحصل ؟ قد يأتيك رزقٌ وفير بادئ ذي بدْء، ثم يُمْحَق، ثم يتلف، ثم يُهلك، فهذا الذي نعنيه بقوله تعالى أن الرزق بيد الله، والله سبحانه وتعالى جعل الرزق متغيراً.

2 ـ حركة الرزق متحركة غير ثابتة:

في الحياة ثوابت ومتغيرات، حركة الأفلاك ثابتة، الليل والنهار ثابت، دورة الشمس والقمر ثابتة، هذه ثوابت، نظام جسم الإنسان ثابت، نظام التوالد ثابت، خصائص الأشياء ثابتة، خصائص البذور ثابتة ؛ ولكن هناك أشياء متغيرة، فالرزق متغيّر، وربنا عزّ وجل جعله متغيراً لحكمةٍ بالغة، ليربطك به، ما دمت تحرص على الرزق حرصاً بالغاً، والرزق بيده، فإذا أردت بحبوحة الرزق فالجأ إليه، طبّق أمره، تُب إليه، من منا يصدِّق قبل هذا العام أن تأتي أمطار بهذه الغزارة، أنا سمعت بأذني من خبراء في البيئة قالوا: نحن في طريق الجفاف، معظم الينابيع جَفّت، معظم الأنهار جفت، وكلما تقدّمت السنوات دخلنا في منطقة الجفاف، فمعدل دمشق كان مئتين وثمانية عشر ميليمترا، في السنوات الخمس أو الست الأخيرة وصل إلى مئةٍ وستين، وإلى ثمانين ميليمترا، من منا يصدق أن تأتي هذه الأمطار بهذه الغزارة، في أكثر المناطق رجحت النسب عن ألف ملم، في أغلب المناطق، وفي أغلب المناطق رجحت النسب عن المعدلات السنوية في السنوات المطيرة، الله هو الرزاق.

3 ـ لماذا التملق والنفاق إذا كنت تعلم أن الرزق بيد الله:

هذه النقطة الدقيقة أجلك ورزقك بيد الله وحده، إذاً: لا تنافق، الناس ينافقون إما حفاظاً على حياتهم أو حفاظاً على أرزاقهم، الناس يتكلّمون الباطل إما حفاظاً على حياتهم أو على أرزاقهم، أناسٌ كثيرون يتملقون، أناسٌ كثيرون يعصون الله عزّ وجل، يفعلون الكبائر حفاظاً على حياتهم، أو حفاظاً على أرزاقهم، وتنقضي حياتهم، وتُقْطَعُ أرزاقهم، ويكسبون الإثم فقط، فإذا رأيت أن الله بيده كل شيء، وأن كل من تراه من بني البشر هم بيد الله عزّ وجل، هذا هو الدين، الدين أن تتعامل مع جهةٍ واحدة، مع الله، الدين أن تُخلص له، وأن ترجو ما عنده، الدين أن تخافه، وأن تعقد الآمال عليه، الدين أن تستقيم على أمره، ولا تعبأ ببني البشر، ربنا عزّ وجل يقول: يا محمد سَلْهُم:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أنا رأيت بأُمّ عيني في بلاد إفريقيا في بعض المناطق أصابتها سبع سنوات عِجاف، النبات كله يَبِس نهائياً، والماشية كلها ماتت، وأهل البلاد هجروها إلى بلادٍ أخرى، لو أن الله عزّ وجل حبس أمطار السماء سنواتٍ متتابعة إلى أن جفت الينابيع، وجفت الأنهار، ومات النبات، وتبعه الحيوان، وأصبحت بلاداً مقفرةً لا تصلح للحياة، هل في الأرض كلها جهةٌ مهما قويت، مهما علا شأنها، بإمكانها أن تجتمع، وأن تتخذ قراراً بإنزال المطر ؟.

فهذا الذي قال مرةً: نحن استغنينا عن رحمة السماء هو قمة في الجهل، نحن بحاجة إلى رحمة الله عزّ وجل، والإنسان كما تعلمون بيد من ؟ فنقطة دم بالدماغ تتجمد، إما شلل، أو جنون، أو اختلال توازن، أو صمم، أو عمى، نقطة دم لا يزيد حجمها على رأس دبوس، لو تجمدت في بعض شرايين الدماغ، أي مكانٍ في الدماغ لو أصابه خلل لانعكس آفةً خطيرةً، فأنت بيد الله ؛ وجوداً، وسلامةً، وكمالاً، واستمراراً ومن حولك، ومن دونك، ومن فوقك..

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

جاء الجواب:

(قُلْ اللَّهُ)

قل الله وحده، ولا إله إلا الله ولا أحد سواه.

وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

1 ـ مِن أدبِ الحوار:

الآن نحن في آيةٍ تعلِّمنا أدب الحوار، فإذا أردت أن تناقش الآخرين، أن تحاورهم، إذا كنت ممن يريد أن يستعلي عليهم، فأنت لست ممن يحبه الله ورسوله، أما إذا أردت أن تنقُلَهُم إلى الحق، وأن تهديهم سواء السبيل، فهذا هو الأسلوب، دققوا في أن الله سبحانه وتعالى يأمر النبي أن يقول للخصوم، للكفار، للمشركين، للفجار، لآكلي المال الحرام، لشاربي الخمر، لعبدة الأصنام، لمن يعبدون الأصنام جهاراً، قل لهم يا محمد:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الحق واحد لا يتعدد، فإذا قلت أنا هذه المقولة، وأنت قلت هذه المقولة، أنا أقول: الله هو الرزّاق، وتقول أنت: جهةٌ أخرى، اللات والعزى مثلاً، فما دام الحق لا يتعدد فأحدنا على صواب والآخر على خطأ، لم يقل: مَنْ، هذا التلطف، إذا أردت أن تحاور الناس، يكفي أن تقول لهم: أنتم مخطئون، أنتم لا تعرفون، أنتم جهلاء، أنتم ذوو عقول سخيفة، عندئذٍ تردُّ دعوتك، ويسد الطريق أمامك، لابدَّ من تلطف، لابدَّ من تواضع، لابدَّ من توازن.

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ)

أي أحدنا على حق والآخر على باطل، أحدنا وفق الطريق المستقيم، والثاني وفق الطريق المِعْوَج.

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

إذاً إذا حاورت الناس، إذا دعوت إلى الله، إذا أردت أن تُقنع الناس بحقيقةٍ دينيةٍ، إذا أردت أن تبيّن منهج الله عزّ وجل فلا تأتِ بأسلوب العلو من علٍ، لا تأتِ وكأنك وصي عليه، لا تأتِ وكأنك أنت الوحيد في العالم، تعال إليه من طريقٍ متواضع، تعال إليه من طريق متوازن.

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

أقول لك: الغرفة منيرة، وأنت تقول: الغرفة مظلمة، فالظلام والضوء شيئان متناقضان، ومعنى متناقضين أن أحدهما ينقض وجود الآخر، إذاً لابدّ من أن تكون الغرفة منيرةً أو مظلمةً، لابدّ من أن يكون أحد القائلين على حق والثاني على باطل، هذا كلام منطقي، فإذا أردت أن تقنع الناس تعال إليهم من عقولهم، من مصالحهم، من صحّتهم النفسية، تعال إليهم من باب التواضع ؛ ولا تأتهم من باب الغطرسة، والعنجهية، والاستعلاء، والوصاية، عندئذٍ لا يستمعون إليك، هذا تعليم الله لنا، وإنا، يخاطب كفار قريش، يخاطب عُبّادَ الأصنام، يخاطب شاربي الخمر، يخاطب آكلي الربا:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

فكل إنسان يبدأ حواره مع الآخر بكلمات: أنت غلطان، أنت لا تفهم شيئاً، أنت على باطل، هذا كلامٌ يسد عليك الطريق إلى قلب هذا الإنسان، هذا كلامٌ هو في الحقيقة عقباتٌ كأداء في طريق الهداية، هذا تعليم الله لنا.

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

2 ـ لفظ الهدى في القرآن مسبوق بـ (على) والضلال بـ (في):

الآن في الآية نقطة ثانية، وهذه النقطة مهمة جداً، هو أن الهدى في أكثر آيات القرآن الكريم سُبِقَ بـ على، وأن الضلال سبق بـ في، من معاني على العلو، من معاني في الدخول في الشيء، أدخلت هذه الورقة في الدرج، أدخلت هذه الحاجة في المكتبة، ففي تعني دخول شيءٍ في شيء، أما على تعني وجود شيءٍ فوق شيء.

معنى: وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

المعنى الأول:

المعنى الأول: أن الهدى شيءٌ عظيم، شيءٌ مرتفع، شيءٌ واضح، شيءٌ عالٍ، شيءٌ يراه الناس جميعاً، لا يختلف عليه، قاسمٌ مشترك.

المعنى الثاني:

والمعنى الآخر: أن الهدى يرفعك، كلما كنت على حق كنت أعلى في نظر الناس، كلما تألّقت في سماء المجتمع كنت على حق، كلما أعجب الناس بك جعلوك قدوةً، فالهدى يرفع، أما إذا كنت ضالاً ـ لا سمح الله ـ فالضلال يجعلك في مكانٍ سحيق، وفي حفرةٍ سحيقة، وفي هاويةٍ مالها من قرار، ويجعلك مقيداً، كأن (في) تعني القيد، والعلو يعني الإطلاق، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال الله في وصفه:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

أي أخلاقك طوع بنانك، الإنسان أحياناً يقف موقفاً أخلاقياً بعد جهدٍ جهيد، بعد صراعٍ مع نفسه مرير، بعد أخذ ورد، بعد قيلٍ وقال، بعد إقبالٍ وإحجام، وفي النهاية يستنفذ كل جهوده، وينتصر على نفسه، ويحلُم، ولا ينفجِر، فهذا الإنسان ذو خلقٍ ؛ ولكن ليس على خلقٍ عظيم، فهو انتصر على نفسه بصعوبة، أي أنه كاد ينهزم، كاد ينفجر، كاد يغضب، كاد يكون قاسياً، كاد ينتقم، لكنه رجّح جانب الكمال، وانتصر، فهو ليس على خلقٍ، هو ذو خلقٍ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام لأنه متمكنٌ من أخلاقه، متمكنٌ تماماً، لأن أخلاقه طوع بنانه، لأنه في أعماق الفضيلة لا على حواقِها..

(وَمِنْ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ)

(سورة الحج: من الآية 11)

علوّ الهدى وسفول الضلال:

فإذا مشى الإنسان على حرف، بين أن يبقى على هذا السطح، وبين أن يسقط، إذا سار على حرف النهر، بين أن تزل قدمه فيسقط، وبين أن يبقى على اليابسة، احتمال الوقوع كبير جداً، لكن إذا كان في الأعماق، في أعماق البر، احتمال أن تزل قدمه، وأن يسقط في الماء احتمال مستحيل، فالإنسان كلما ارتقى إيمانه يدخل في أعماق الكمال، أما الذي إيمانه ضعيف فهو على حرف، لكن أهل الدنيا الذين يتخلّقون بأخلاقٍ رَضِيَّةٍ، لانتزاع إعجاب الآخرين، وانتزاع ثنائهم، وترويج بضائعهم، هؤلاء سريعاً ما ينكشفون، لو جاءهم مؤثِّرٌ يصدم مصالحهم، أو يجرح مشاعرهم ينقلبون إلى وحوشٍ كاسرة، كل لباقته ونعومته وذوقه الرفيع تركه جانباً، وتكشّف عن وحشٍ كاسر.

فلذلك إذا ارتقى إيمانك تدخل في الأعماق، فالهدى يرفعك، يعلي شأنك، يجعلك ظاهراً، بارزاً، متألِّقاً ؛ وأما الضلال يجعلك في الظلام، يجعلك في الأقبية، فالمعاصي كلها في الأقبية، أما الطاعات ففي أماكن فسيحة ومكشوفة، والباب مفتوح دائماً، تحت ضوء الشمس، أهل الإيمان يعملون تحت ضوء الشمس في وضح النار، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

(على) فيها وضوح، أنت في مكان عالٍ انظر إلى الجبل، الجبل واضح، إذا أتيت الشام من طريق درعا ترى الجبل، من طريق بيروت ترى الجبل، من طريق حلب ترى الجبل، من طريق التل ومنين ترى الجبل، شيءٌ عالٍ، والهدى كذلك منارة مرتفعة تُرى من كل مكان ؛ أما إذا ضللت فالضلال يحتاج إلى أماكن إضاءتها خافتة أليس كذلك ؟ وتحت الأرض وفي السر، المعاصي ترتكب سراً، والزنا يرتكب سراً، بينما الزواج تطلق أبواق السيارات حتى تملأ الدنيا ضجيجاً، لأنه زواج.

أذكر هذه القصة، لي صديقٌ طرق بابه الساعة الرابعة بعد الفجر، فتح الباب فلم يجد أحداً، نظر نحو الأرض فإذا محفظة صغيرة مفتوحة فيها طفل ولِدَ حديثاً، ولد منذ ساعة تقريباً، وطبعاً هذا لقيط، ابن زنا في أغلب الظن، فأخذه إلى مستشفى، واعتنى به إلخ... أنا استوقفني هذا المشهد فقلت: لو أن هذا الولد جاء من طريقٍ مشروع، قبل أن يأتي بأشهر أُعِدَّت له الوسائد، والسرير، واللباس الأنيق، والزوج مستبشر، والزوجة فرحة، والأهل ينتظرون هذا المولود، جاء هذا المولود وزفت البُشرى إلى الأهل، يأتي المهنِّئون ومعهم الهدايا، وتوزع الحلوى، إذا جاء المولود بالطريق الذي رسمه الله عزّ وجل، رسم طريق الزواج شيء ؛ وإذا جاء المولود بطريقٍ غير مشروعةٍ فشيءٌ آخر.

الهدى واضح لا تنعقد صلاة الجمعة في الفقه إلا إذا كان المسجد مفتوحاً لكل الناس، خطيب متفوّق، وخطبة رائعة، وحق، وعمق، وتحليل، وأحاديث وآيات، لو قفل الباب الصلاة كلها باطلة، فهذا دين الله عزّ وجل، وهذا شرع الله، كلمة لا حياء في الدين تخطر في بالي أحياناً، يمكن أن نوجهها توجيهاً آخر، ليس في الدين كله شيءٌ تستحي به، لو فرضنا عابد للبقر من الهند ذهب إلى مجتمع راقٍ، وهو يعتقد أن روث البقر إذا وضعه على جبينه يتبارك به، لو تكلّم بهذه الفكرة أمام أناس مثقفين ألا يستحي بها ؟ ألا يصغُر أمام الناس ؟ فالذين يعبدون البقر والشمس، ويعبدون الشيطان، ويعبدون بوذا يستحيون أمام المثقفين.

حدثني صديق كان باليابان، دخلوا إلى معبد بوذي فإذا أمام هذا الصنم الكبير بوذا فواكه مما لذ وطاب، سأل لمن هذه الفواكه ؟ قالوا: هي لهذا الإله يأكلها في الليل، فنظر إليهم نظرةً فاحصةً فتبسّموا، وقالوا: نحن نأكلها، يعتقدون أن تكريم الإله بوضع الفواكه الطازجة الجيدة، فإذا تكلّمت بكلام أمام إنسان مثقف يضحك على هذا الدين، ليس في الدين الإسلامي كله شيءٌ تستحي منه، لأنه دين الله عزّ وجل.

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس: من الآية 101)

كلمة لعلى هدى أنت على منارة رفيعة، هذا حق وهذا باطل، هذا فيه تحريمٌ في القرآن لا أفعله، إذا قدم لك كأس خمر لا تقل: جهازي الهضمي مضطرب، لا يصلح له هذا الشراب، لماذا تقول ذلك ؟ قل: هذا

شرابٌ عندي محرم في ديني، لا يوجد مسلم يذهب إلى بلاد الغرب، ويعتذر عن الشرب، لأن الإسلام حرَّم عليه الشرب إلا، ويكبر في نظر الآخرين، ويثقون به، وقد يعطونه تسهيلاتٌ كبيرة جداً، لأنه قال: هذا شيء محرَّم في ديني، فأنت على حق..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

أنت مع الله..

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63)لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)

(سورة يونس)

وأنت مع الله تخاف من مخلوق ؟! وأنت مع الله تستحي أن تصلي ؟ وأنت مع الله تستحي أن تكون صائماً ؟

مرة من المرات حدثني رجل قال لي: كنا في جلسة، وفيها رجل ذو شأن، وهذا الشخص الكبير سأل: احضروا لنا ضيافة، فجاءوا بالضيافة، وكان هناك شخص صائم، فاستحى وأفطر، لئلا يقال عنه: صائم، رجل آخر قال: إني صائم ـ جيّد ـ في النهاية الذي أفطر إرضاء لهذا الكبير ركله بقدمه، والذي قال: إني صائم ارتفع في نظره..

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى)

فالهدى عالٍ يرفع شأنك، يُعْلِي قدرك، ألم يقل الله عزّ وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

لا أحد على وجه الأرض ـ وأنا أعني ما أقول ـ عظمه الناس كما عَظموا رسول الله، بعد ألفٍ وخمسمئة عام اذهب إلى حرمه الشريف، وانظر إلى مئات الألوف يمشون أمامه، أمام قبره وهم يبكون، لا رأوه، ولا سمعوا منه، ولا أخذوا منه شيئاً، قبل ألفٍ وخمسمائة عام، هذا معنى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

وأيُّ مؤمنٍ إذا سار على منهج الله تماماً، وأحب الله، وأخلص له، لابدَّ من أن يرفع الله له ذكره، وأن يعلي قدره، وأن يجعله كالنجم المتألق في السماء، هذا معنى: لعلى هدى، أنت على هدى.

المعنى الثالث:

هناك معنى آخر، القرآن إعجازه في إيجازه، الإنسان إذا كان على صخرة مشرفة، صعد إلى جبل قاسيون، وألقى نظرة على دمشق يقول لك: هذا حي المزة، أتراه ؟ هذا الميدان، هذه برزة، هذا الطريق

الفلاني، لأن مقامه مرتفع مشرف، فالإنسان إذا اهتدى يملك رؤية ثاقبة، وبعيدة، وخارقة، الأشياء يراها بوضوح، كيف ؟

أنت أحياناً ترى صديقاً لك يأكل مالاً حراماً، وهو يظن أنه ذكيٌ بهذا العمل، أنت تراه أحمق، تراه ضعيف التفكير، محدود الأفق، تراه جاهلاً في الدين، لأنك تعلم علم اليقين أن هذا المال حرام لا يصمد عنده، لابدَ من أن يتلفه، لأنه جاهل، أنت مشرف، أنت تراه، وهو لا يراه، هو في قبر شهوته، هو غارق في دناءاته، في مصالحه الذاتية، غارق في آفاقه المحدودة، فالهدى يرفعُ من مقامك، وأنت لك نظرةٌ شمولية.

مثلاً: سجادة أمامك، إنسان من أهل الدنيا لا يرى إلا دائرةٍ من هذه السجادة، أما المؤمن فيلقي على هذه السجادة نظرة كُلِّيَة، يرى ألوانها، يرى أشكالها، يرى دقة النقش، يرى أبعادها، طولها عرضها، فالمهتدي له نظرةٌ شمولية، يرى أن المستقيم لابدَّ من أن يكرمه الله عزّ وجل، وأن المنحرف لابدَّ من أن يقصمه الله عزّ وجل، ولكن المنحرف واقع في قوقعة الانحراف، في ضلالٍ مبين، والهدى في إشراف وفي علو، وفي وضوح، وفي تألق.

المعنى الرابع:

الهدى فيه تقييد، والباطل فيه إطلاق:

وهناك معنى آخر، الهدى هو التزام، الحقيقة الدين الإسلامي فيه أوامر وفيه نواهٍ، لن تكون مهتدياً إلا إذا ائتمرت بما أمر الله، وانتهيت عما عنه نهى، لا يوجد غير ذلك، فهناك قيود، لست مطلقاً، أنت مقيد بالشرع، الإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، أنت مقيد، مقيدٌ بالأمر والنهي، كالطبيب، أيّ خلل بالمعالجة فلهذا الخلل مضاعفات خطيرة، ترى أن الطبيب مقيد ؛ بالدواء، بكمية الدواء، بالتحاليل، بكل شيء مقيد، لأن الخطأ قد ينتهي إلى وفاة، فالهدى كله قيود، فالمؤمن لا يطلق بصره في الحرام ؟ لا يأكل مالاً حراماً ؟ لو أخطأ معك بائع بمبلغ من المال، بإمكانك أن تسكت عنه ؟ لا تقدر، تعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى يعاقبك عقاباً أليماً سريعاً مضاعفاً، فالهدى إذاً قيود، ومع ذلك يرفعك، رغم القيود يرفعك.

لكن الباطل فيما يبدو حرية كما يقول الناس ؛ لك أن تنظر، ولك أن تأكل كما تشاء، وأن تمتِّع بصرك بمن تشاء، وأن تلتقي مع من تشاء، وأن تذهب إلى حيث تشاء، فيما يبدو لك الباطل كله حرية، حرية مطلقة، لا يوجد قيود، لا يوجد مبادئ، لا يوجد عنده دين، لا يوجد عنده حرام وحلال، لا يوجد عنده سنة وواجب ومندوب، وسنة مؤكدة، وسنة غير مؤكدة، وكراهة تحريمية، وكراهة تنزيهية، لا يوجد

عنده شيء، يفعل ما يبدو له، يفعل ما يراه مريحاً له، يتكلم بالباطل، يغتاب، يمتِّع نظره بالنساء، يأكل مالاً حراماً، يستعلي على الناس ويتهكَّم، ينام دون أن يصلي، يستيقظ متأخراً، الباطل فيما يبدو فيه حرية، لا يوجد انضباط.

مع أن الباطل كله حريات، كله إباحة، كله استرخاء، كله أن تفعل ما تشتهي، ومع ذلك تقع في فخٍ كبير، فإذا أنت بين عشيةٍ أو ضحاها فقدت حريتك، ودخلت في متاهات الخوف، ومتاهات الملاحقة، فالباطل مع الحرية المطلقة التي فيه ينتهي بك إلى أن تسلب حريتك، لو فرضنا الإنسان ارتكب الفحشاء، أو أكل مالاً حراماً، وكشف أمره وضع في السجن، كان حراً فقد حريته.

فكلمة (في) على الرغم مما يبدو لك أنك حرٌ إذا كنت على باطل، أنك مطلق تفعل ما تشاء، كل شيء مباح لك، هذه الحُرية مزيفة لابدَّ من أن تقودك إلى غياهب السجن أحياناً، فهذه أوروبا ـ لا تبتعدوا ـ أليسوا أحرارا في اقتناص اللذات ؟ هل في أوروبا أو أمريكا شيء اسمه حرام ؟ تبادل الزوجات، زنا المحارم، الانحراف الشاذ، ألم يوصلهم هذا إلى مرض الإيدز، الذي هو طاعونا القرن العشرين، البعبع الكبير الذي يُقضُّ مضاجعهم، حريتهم إلى أين أوردتهم ؟ إلى الخوف، إلى الهلع، إلى الذُعر.

ذهب أحدهم إلى بلدة أجنبية، نزل في فندق، ويبدو أنه انحرف في هذه الليلة مع امرأة، استيقظ فلم يجدها، لكنها كتبت له على المرآة: مرحباً بك في نادي الإيدز، أصبحتَ عضواً في هذا النادي، فانتحر، هذه الحرية التي مارسها جعلته ينتحر، أو في ضلالٍ، دخل في الضيق النفسي، فإذا كنت على هدى الهدى يرفعك، إذا كنت على هدى فالهدى واضح، إذا كنت على هدى فالهدى مُشْرِف، إذا كنت عل هدى فرؤية المهتدي واسعة جداً ؛ أما إذا كنت في ضلال ـ لا سمح الله ـ فالضلال من شأنه أن في ظاهره أنك حر، المؤمن يخاف أن يصافح، ويقول لك: قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنِّي لا أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

[من سنن النسائي عن أميمة بنت رقيقة]

يخاف أن يملأ بصره من الحرام، يقول لك: لا يجوز أن أنظر، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

يغُضُّ بصره، ويتحرج من درهم حرام، يقول لك: هذا لا يجوز، هذا مال حرام، هذا لا أفعله، هذا المال لا يجوز أن أقبضه، على الرغم من القيود الشديدة التي هو مقيدٌ بها، قيود الشرع، يرتفع، ويرزقه الله ويعطيه الله، ويرفع شأنه، لأنه لعلى هدى ؛ أما أهل الضلال، فما من إنسان أكل مالاً حراماً وكشف أمره إلا أودع السجن، ما من إنسان خانَ صديقه إلا فُضح أمره، فكل حريةٍ تتوهمها حرية هي منزلق خطير إلى جهنم، وإلى الخزي في الحياة الدنيا.

إذا قرأت في القرآن الكريم مع الهدى كلمة (على)، ومع الضلال كلمة (في) فيجب أن تتذوق أن الهدى واضح، وأن الهدى عالٍ، وأن الهدى مُشْرِف، وأن الهدى مع أنه قيودٌ ترفعك إلى أعلى، وأن الضلال مع أنه في الظاهر فيه حرية، فيه تساهل، لا يوجد فيه قيود، لكن هذا الضلال يورد الإنسان إلى القيود الشديدة، والآية الكريمة:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

طلقاء:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

عملِها، رهينة إثمها، رهينة معصيتها، رهينة جريمتها، رهينة انحرافها..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

هؤلاء طُلَقَاء، لذلك القبر يَتَّسِع للمؤمن حتى يصبح مد بصره، وحتى يصبح روضةً من رياض الجنة، والقبر نفسه يضيق على صاحبه حتى تختلف فيه أضلاعه، حتى يُكَسِّر أضلاع صاحبه، الضلال كله قيود، فأحياناً الإنسان يرتكب جريمة بوسوسة الشيطان، طُرِقَ بابه فقط، فألقى نفسه من الطابق السادس، طُرِقَ بابه فقط، خاف هذا الضلال..

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الضلال كله حريات، وفي نهاية المطاف إلى جهنم وبئس المصير، القبر يختلف عليه حتى تختلط أضلاعه، أما الهدى فرَحب، وسَعَة، وعلو، وإشراق.

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24)قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ

يا الله، أيكون عمل النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله عزّ وجل، وفي توحيده، وفي بيان أوامره، وفي دعوة الناس إلى الأخلاق الحميدة، أيكون عمل النبي جريمة، أي: يا أيها الكفار، إذا كنتم تتوهمون أن في هذه الدعوة جريمةً في حق المجتمع فنحن وحدنا مسؤولون عنها، وإذا توهّمتم أن ردّكم للحق هو عملٌ طيب فأنتم وحدكم تحاسبون عنه، أيضاً تلطفٌ كبيرٌ كبير في محاورة الخصم..

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24)قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

إذا كنت على الحق فلا تبال بأحدٍ:

إذا توهّمتم، هذا يعني أن أيها المؤمن إذا كنت على حق فلا تبال بأحدٍ.

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

إذا كنت على حق فلا تعبأ بالناس.

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ(116))

(سورة الأنعام)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(36))

(سورة يونس)

(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ

وعند ربّك تجتمع الخصومُ:

الخلافات المذهبية، والخلافات بين الناس، وبين معتقداتهم ومشاربهم، خلافاتهم في دينهم وفي دنياهم، هذه الخلافات المستعصية لابدّ من أن تحل عند الواحد الديّان، لابدّ من أن الله يفصل بين الناس يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فهنيئاً لمن كان على الحق، والويل لمن كان على الباطل، لو أن أهل الدنيا كلهم معك، ولم تكن على الحق لم تستفد شيئاً، لو أن الدنيا كلها معك، ولم تكن على حقٍ على ما يرضي الله فما حصّلت شيئاً، ولا كسبت شيئاً، وما حققت ربحاً على الإطلاق، فلهذا:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

يوم القيامة، يوم الدينونة، يوم الجزاء، اليوم الحق، يوم الحساب، يوم يدفع الإنسان ثمن اختياره في الدنيا.

(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

معنى يفتحُ: أي يحكمُ، الله وحده يحكم..

(بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(26) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ)

قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ

لا ينفع الشركاء أصحابَها:

مَنْ هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله عزّ وجل ؟ هذا الصنم ؟ ودٌ قبيلة عربية صنعت صنماً من التمر، فلما جاعت أكلته، فقالوا: أكلت ودٌ ربّها، وهذا الصنم الآخر الذي جاءه ثعلبٌ، وبال على رأسه، فرآه من يعبده فقال:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه لقد ضل من بالت عليه الثعالب

***

أيعقل أن يكون هذا الصنم رباً ؟! من هؤلاء الذين ألحقتم بهم شركاء ؟ من هؤلاء ؟ أحجار ؟ أشخاص؟ شخصٌ من بني البشر لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضراً، تعبده من دون الله ؟ من هذا الذي جعلته إلهاً، وتعبده من دون الله ؟

(قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ)

القصة المعروفة: لما طلب هارون الرشيد أحد الخلفاء العباسيين كأساً من الماء، سأله نديمه: يا أمير المؤمنين، بكم تشتري هذا الكأس لو مُنع عنك ؟ سؤال دقيق، وسؤال واضح، قال: بنصف ملكي، قال: يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس لو منع إخراجه ؟ قال: بنصف ملكي الآخر، فقال: يا أيها الأمير، إن كل هذا الملك يعدل كأس ماءٍ تشربه وتخرجه، فلما كان رسول الله يقضي حاجة كان يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني))

[الجامع الصغير عن أبي ذر]

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير]

نحن فقراء لله عزّ وجل.

في اليابان كان عندهم رجل اسمه الميكادو، وقد عبدوه من دون الله، فله طبيب، لشدة ما رأى من خلل صحته وضعف قلبه أسلم هذا الطبيب، لماذا أسلم ؟ كيف يكون هذا إلهاً ؟ وفي قلبه آفات، وفي رئتيه أمراض، وفي أعصابه تلف، وعاش عمراً مديداً، شيء مضحك.

(قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا)

كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

أداة نفي وردع..

(كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء هو الله، الله عزيزٌ لأن كل شيءٍ يحتاجه في كل شيء، ولأنه واحدٌ لا شريك له، ولأنه يستحيلٌ أن تحيط به، يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، ومتفردٌ في ذاته، وفي أسمائه وفي أفعاله وصفاته، ويستحيل أن تحيط به.

(كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الذي يضع كل شيءٍ في موضعه.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

دعوة النبي دعوةٌ عامة، دعوةٌ لكل الأمم ولكل الشعوب، كلُّ نبي أرسله الله لقومٍ محدودين، إلا النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا)

لمن أطاعك..

(وَنَذِيرًا)

لمن عصاك..

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

قد يسخرون، قد يعدُّون الدين شيئاً لا يصلح لهذه الأيام، قد يرون الدين حالات من ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة المخيفة، هكذا يقول بعض الكفار.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

يوم القيامة حينما يطلعهم الله على أعمالهم ماذا يقولون ؟ يقولون:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23))

قال:

(انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام)

هم يكذبون الآن، الذي يقول لك: هذا الدين لا يصلح لهذا الزمان يكذب، لأن جِبِلَّتَهُ تتوافق مع هذا الدين، الإنسان مصمم تصميماً دقيقاً كي يعرف الله عزّ وجل، فإذا عرفه ارتاحت نفسه، فإذا بقي تائهاً بقي مضطرباً، الإنسان جِبِلَّتَهُ أن يطيع الله عزّ وجل، فإذا أطاع الله ارتاحت نفسه، فإذا عصاه وقع في شكٍ واضطرابٍ شديد.

(قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(27) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

هذا سؤال استهزاء: متى يا سيدنا ؟

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(29)قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ)

والله يا أيها الإخوة... ورد في بعض الأحاديث أنه حينما يأتي ملك الموت، لو أن إنساناً بيده الدنيا كلها لتخلى عنها مقابل أن يعيش ساعةً واحدة زائدة على أجله ليصلي بها ركعتين، تقول له: لا فوت، لو أن الدنيا كلها، أضخم الشركات بالعالم، شركات عندها وفرة بأربعة مليارات دولار، شركة لا تجد كيف تستثمرها، شركات ذات إنتاج عالٍ، لو أن كل شركات العالم لك، وكل الأسواق في العالم لك، وكل المزارع لك، وجاء ملك الموت لتمنيت أن تخسرها كلها مقابل أن تعيش ساعةً زيادة على أجلك، لكن..

(قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ(30)وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)

هذا حوار طويل بين أهل النار وهم في النار، كيف أن كلاً منهم يقذف التهمة إلى الطرف الآخر، والطرف الآخر يردُّها له، أما بالنهاية جميعاً يعذّبون بالنار على قدمٍ وساق، حوارٌ طويل بين فئات أهل الكفر وهم في جهنم، كيف يتهم كلٌ منهم الآخر بأنه سبب هذا البلاء الكبير، ولكن إن شاء الله في درسٍ قادم نعود إلى هذه الآيات ونتابعها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (08-10): تفسير الآيات 31 - 39
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-03-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن من سورة سبأ، ومع الآية الواحدة والثلاثين، والتي تبدأ بقوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(31)قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ)

حوارٌ في النار بين أهل النار:

حوارٌ طويلٌ ومؤثِّرٌ يجري بين أهل الكفر يوم القيامة وهم في النار، هذا الحوار ساقه الله لنا ونحن في الدنيا، لماذا ؟ من أجل أن نأخذ الحذر، إذا كنت منحرفاً أيها الإنسان، إذا لم تؤمن بالحق الذي جاء من عند الله عزّ وجل، فسيكون وضعك يوم القيامة مثل هؤلاء..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

1 - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

من هم الذين كفروا ؟ الذين أعرضوا عن الله عزّ وجل، الإيمان في أدقّ تعاريفه تصديقٌ وإقبال على الله عزّ وجل، والكفر تكذيبٌ وإعراض.

التكذيب العملي أبلغُ من التكذيب القولي:

أيضاً هناك شيئان أساسيّان في الكفر، أن الكافر يكذّب بما جاء من عند الله، فإما أن يكذِّب قولاً، وإما أن يكذِّب عملاً، وأنا أقول لكم: التكذيب العملي أبلغ من التكذيب القولي، التكذيب القولي أن تقول: أنا لست مؤمناً بهذا الكتاب، ولا بهذه الرسالة، لو قلت هذا الكلام لجاءك من يقنعك، من يقدِّم لك الدليل، البيان، الحجّة، البرهان، أما إذا قلت: أنا مؤمن، ولكن في المجال العملي ليس في أعمالك ما يؤكِّد هذا الإيمان، فهذا التكذيب العملي أخطر لأنه أخفى من التكذيب القولي، فالإنسان يكون صريحاً، إذا آمن

فليُعلن، وإذا كفر فليُعلن، لأنه إذا أعلن قد يأتي أناسٌ يقنعونه، يبيّنون له، يوضِّحون، أما إذا أخذ موقفاً منحرفاً، وأعلن أنه مؤمن، هذا المنافق الذي قال عنه الله عزّ وجل:

(فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ)

(سورة النساء: من الآية 145)

فالكفر في أساسه تكذيبٌ وإعراض، كيف أن الإيمان تصديقٌ وإقبال، الكفر تكذيب وإعراض، هؤلاء الكفّار:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)

2 ـ لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ

لا تتوّهم الدين تقييدًا للحريات:

الحقيقة هو أن الكافر لأنه مقيمٌ على شهواتٍ كثيرة، وعلى انحرافاتٍ خطيرة، فإذا لم يؤمن لا لأنه لم يقتنع، لا، لم يؤمن لأنه لو آمن لضاقت عليه شهواته، ولحوسب، ولطولِب، فالكافر لا يؤمن لأن الإيمان في نظره سَيُقَيِّده، ولو علم الكافر أن الإيمان ليس حدّاً لحريّته، ولكنّه ضمانٌ لسلامته، وفرقٌ كبير بين أن تتوهَّم الإيمان تضييق لحريّاتك، وبين أن ترى الإيمان ضمانٌ لسلامتك، فكلمة خطر الموت على التوتر العالي، هذه اللوحة وضِعَت من أجل تحذير الناس ؛ لا من أجل تضييق حريّتهم، كلمة: انتبه حقل ألغام، هذه الكلمة لم توضع من أجل الحدِّ من حريّة المواطنين ؛ ولكنّها وضِعَت من أجل ضمان سلامتهم، فإذا كان في الشرع أمرٌ ونهيٌ، حلالٌ وحرامٌ، فالحرام من أجل ضمان سلامة الإنسان.

يجب أن تعلم أيها الأخ الكريم أن الشيء الذي تتوقّف عليه سعادتك ـ دقِّق ـ الشيء الذي تتوقّف عليه سعادتك فَرَضَهُ عليك، حياتك تتوقّف على التنفُّس فالتنفس فرض، تتوقّف على الماء فالماء فرض، تتوقّف على الطعام تناول الطعام فرض، الشيء الذي تتوقّف عليه سلامتك وسعادتك جعله الله فرضاً، أمرك أن تؤمن، أمرك أن تصلي، أمرك أن تستقيم، أمرك أن تنضبط، والشيء الذي يُسَبِّب هلاكك جعله مُحَرَّماً.

عندنا في الشرع فرائض ومحرّمات، الأشياء التي تُتَمِّم الفرائض جعلها الله سُنَنَاً ومندوباتٍ ومستحبّات، والأشياء التي يمكن أن تؤدي إلى الهلاك، الوسائط التي يمكن أن تودي إلى الهلاك جعلها الله مكروهات، مكروهات تحريم ومكروهات تنزيه، والأشياء التي لا علاقة لها لا بسعادتك ولا بهلاكك جعلها مباحات، فالمباح شيء، والمندوب شيء، والمكروه شيء، والحرام شيء، والفرض شيء،

فالكافر ما كفر لأن الدين ليس منطقياً، ما كفر لأن الدين ليس واقعياً، كفر لأنه توهَّم أن الدين يَحُدُّ من شهواته، فحينما بعث الله الأنبياء من الذين عارضوهم ؟ عليّة القوم، أرباب الأموال، أرباب الجاه، من لهم مصالح في الكفر، لذلك هؤلاء الكفّار قالوا:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)

هنا تعليق: هو أنك إذا رأيت ذهباً وقلت: أنا لست مؤمناً بأن هذا ذهبٌ، هل يصبح هذا الذهب حديداً ؟ لا، يبقى ذهباً، فأنت إذا آمنت بالشيء لا ترفع من قيمته، وإذا كفرت به لا تقلِّل من قيمته، الشيء هوَ هو، فهذا الكافر المسكين حينما لم يؤمن ماذا فعل ؟ ظلم نفسه فقط، ما ظلم أحداً غير نفسه..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)

ماذا في القرآن ؟

ماذا في القرآن ؟ سعادتك في القرآن..

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من الآية 9)

هذا القرآن منهجٌ لك..

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

حينما لم تؤمن بالقرآن ماذا فعلت ؟ القرآن قرآن، هو حقٌّ، وصدقٌ، وخيرةٌ مطلقٌ، ونفعه عميمٌ، هو حبل الله المتين، هو صراطه المستقيم، هو حبل النجاة، هو الطريق إلى الفلاح، هو الغنى الذي لا فقر بعده، هو الغنى الذي لا غنىً دونه، هو الذي يأخذ بيدك إلى الجنّة، فإذا قلت: أنا لا أؤمن به.

مرّة ثانية يمكن أن تقول: أنا مؤمنٌ بهذا القرآن، ولا يُرى في سلوكك ما يشير إلى ذلك، تتعامل بعلاقاتٍ ربويّة، مع أن القرآن يقول:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: من الآية 279)

يمكن أن تقول: أنا مؤمنٌ بهذا القرآن، ولا تعبأ بقوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

يمكن أن تقول: أنا مؤمن بهذا القرآن، وتمتنع عن دفع زكاة مالك، فهذا الذي يدّعي أنه مؤمن بهذا القرآن، ولا ترى في حياته ما يشير إلى صدق إيمانه بهذا القرآن، هذا اسمه في الحقيقة مكذِّبٌ، ولكن تكذيبه ليس قولياً، بل تكذيبٌ عملي.

التكذيب العملي للقرآن يودي بصاحبه للهلاك في الدنيا:

ومرّةً ثانية أقول لكم: إنّ أخطر أنواع التكذيب هو التكذيب العملي، فأخطر أنواع الأمراض هي الأمراض التي ليس لها أعراض، فجأةً مصابٌ بمرضٍ خطير، أنت ما شعرت به، أما المرض الذي له عرض مبكِّر، فالقضيّة سهلة جداً، حينما ترتفع الحرارة تذهب إلى الطبيب، فهذا الذي يقول: أنا لست قانعاً بالقرآن، هذا أفضل ألف مرّة من الذي يسكت، ولا تجد في حياته ما يُشْعِرُ بأنه مؤمنٌ بهذا القرآن، عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 221)

حينما تبحث عن زوجةٍ على جانبٍ كبير من الجمال مع رقّةٍ في الدين، ولا تبالي بهذه الآية، سوف تكون حياتك معها جحيماً، أنت لم تبالِ بهذه الآية، حينما يأتيك رجل شابٌ ترضى عن دينه وعن خُلُقِهِ لكنّك لا ترضى عن رقّة أحواله، ولا عن ضعفه، فترفض تزويجه أنت ماذا فعلت ؟ أنت ضربت بعرض الطريق بقوله تعالى:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 221)

فنحن لا نريد إنساناً يضع القرآن في صدره، ولا في مقدّمة سيارته، ولا في محلِّه التجاري، ولا في مكان بارز من بيته، ولا تجد في حياته ؛ لا في كسبه للمال، ولا في إنفاق المال، ولا في علاقاته الاجتماعيّة ما يُنْبِئ بأنه مؤمنٌ بهذا الكتاب، المؤمن إيمانه صارخ، ظاهر، بارز، بَيّن لأنه مؤمن، هذه حرام لا أفعلها، كان سيدنا عمر وقّافاً عند كلام الله، ما دام الله قد أمر بهذا فليفعل، نهى عن كذا فليمتنع، إذاً حينما يقول الكفّار:

(لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)

القرآن في السماء ؛ رفعةً، وسمواً، وتألّقاً، وحجّةً، وبرهاناً، ماذا ينفع قولهم ؟

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)

3 - وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

أغلب المفسِّرين على أن الذي بين يديه هو التوراة والإنجيل، أي أن هذا الكافر ليس كافراً بالإسلام وحده ؛ بل كافر برسالات السماء كلِّها، كافراً بأن هذا الخالق العظيم لا يعقل أن يرسل لعباده كتاباً ولا رسولاً، كافراً بأسماء الله الحسنى..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)

أحياناً إنسان منحرف سارق مجرم، يتبجّح، يتطاول، يقول: أنا أفعل، أنت لو تراه حينما يلقى القبض عليه وهو ذليل، وهو خانع، وهو يتوسّل، وهو يبكي، وهو يرتمي على الأرض ليقبّل النِعال، لو تراه في مصيره بعد أن يلقى القبض عليه، وكذا حال الكافر، هذا الموقف العنيد، موقف الإباء، موقف الاستعلاء، العنجهيّة، الغطرسة..

(لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)

الله عزّ وجل سيريك نهايته يوم القيامة، قال:

(وَلَوْ تَرَى)

4 - وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

ولو ترى يا محمّد هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم حينما كفروا بالقرآن، لو ترى يا محمّد هؤلاء الكفّار وهم يتعذّبون في النار، وهم يتصايحون، وهم يصرخون، وهم يُعذّبون، فالبطولة أن ترى مصير الإنسان، تماماً كهذا المجرم الذي يقول: أنا أفعل كذا، أنا أتحدّى فلاناً، هذا الكلام لا قيمة له، انظر إليه وهو في قبضة العدالة، انظر إليه وهو وراء القُضْبَان، انظر إليه إذا واجهه الصحفيون كيف ألقى نظره إلى الأرض، انظر إليه وقد وقع على قدم المحقِق يقبّلها ويسترحمُه، لا تنظر إلى عنجهيّته، ولا إلى غطرسته قبل أن يُلقى القبض عليه، أضرب لكم بعض الأمثلة، قال:

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

ألقي القبض عليهم..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

أي أُلْقِيَ القبض عليه، وأُحْضِرَ لينال جزاء عمله..

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ)

5 - يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ

الآن سينشأ حوار حقيقي بين هؤلاء الكفّار، بين الذين كفروا والذين اتبعوا هؤلاء الكفّار، هناك أقوياء وهناك ضعفاء، أقوياء متبوعون وضعفاء تابعون، أقوياء يتصدّرون المجالس وضعفاء يقلِّدونهم، أقوياء يصدرون التعليمات وضعفاء يتلقّونها، في الحياة قوي وضعيف، غني وفقير، الفقير يقلِّد الغني، والضعيف يقلِّد القوي، فالآن الحوار بين المتبوعين والتابعين، بين الأقوياء والضعفاء، بين المُقَلِّدين والمُقَلَّدين، بين الذين يتزعّمون الكفر وبين الذين يكفرون..

(يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا)

6 - يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا

حوارٌ في النار بين التابع والمتبوع:

كانوا تابعين، كانوا خاضعين..

(يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)

7 - لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ

أي أنتم السبب، أنتم الذين أوصلتمونا لهذا المكان، أنتم سبب شقائنا، أنتم سبب تعاستنا، أنتم السبب في هذا العذاب المهين..

(لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)

الآن اسأل طالباً رسب، قلّما تجد طالباً راسباً يقول لك: والله أنا قصّرت، يقول لك: أستاذنا لا يفهم، أستاذنا ما علّمنا، الأسئلة غير منطقيّة، لا ينسب التقصير له أبداً، قال:

(لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(31)قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا)

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ

الآن الرد..

(أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ)

الإنسان مختارٌ في اتباع الفساد:

أنتم مثلنا مجرمون، فهذه الآية تنفي أن يضلّ إنسانٌ إنساناً، لأن الإضلال موجود، لماذا استجاب فلان، ولم يستجب فلان ؟

طالب فاسد، لماذا أفسد زميله فلاناً، ولم يستطع أن يفسد زميله الثاني ؟ معنى ذلك أن الذي أفسده عنده رغبةٌ في الفساد، الذي أفسده كان مخيَّراً، ولم يكن مجبراً، هذا الذي يُفْسِد ليس معه سلطة، الآية واضحة، إنه ليس لك سلطانٌ إلا على الذين اتبعوك..

(إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ(42))

(سورة الحجر)

فالذي يفسد ما معه سلطان، والذي أفْسِد كان مخيَّراً، وكان بإمكانه أن يرفض، فالإنسان كلّما وقع في خطأ، في معصية، يكيل السُباب للشيطان، هذا كلام فارغ، وكلام لا معنى له، عليه أن يُكِيلَ السُباب لنفسه..

(قَالَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ)

أنتم كنتم مخيَّرين وكنتم راغبين في الفساد، واتبعتمونا لأنكم اتبعتم هوىً في نفسكم، ونحن لا علاقة لنا بإفسادكم، ولا بإضلالكم، ولا بهذا المصير الأسود الذي وصلتم إليه، الحقيقة من المؤلم جداً أن تسترشد بإنسان، وتدفع الثمن باهظاً، ثمّ يتخلّى عنك، لو أرشدك صديقك على عمل مخالف للقوانين، ووقعت في قبضة القانون، وقلت: فلان دلّني على ذلك، يسخرون منك، يقال لك: أين عقلك ؟ يقول عامة الناس: أخي افعلها وضعها في رقبتي، هذا كلام ليس له معنى أبداً، كل إنسان محاسب بعمله..

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: من الآية 164)

(وَقَالَ الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللّيْلِ وَالنّهَارِ)

وَقَالَ الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللّيْلِ وَالنّهَارِ

ألم تكونوا تلتقون بنا في الليل، تقنعوننا بالكفر، وبأن هذا الدين خرافة، وبأن هذا الدين غيبيّات، وبأن هذا الدين حالات ضعف تعتري الإنسان أمام قِوى الطبيعة المجهولة لذلك يتديّن ؟ ألم تقولوا لنا سابقاً: إن الأشخاص المخفقين في حياتهم يتديّنون ؟ هذه الفكرة الآن مطروحة، فأي إنسان بعيد عن الدين إذا رأى إنساناً صاحب دين يقول: أنت متديّن لأن الطرق قد سُدّت في وجهك، أنت متديّن لأنك ضعيف، هذا كلامهم وسوف يكتشفون خطأهم، والحقيقة المؤمن يؤمن بالله عزّ وجل وهو في أعلى درجات

القوّة، وهو في أعلى درجات التألّق، وهو في شبابه، الدنيا كلُّها بين يديه، ومع ذلك آثر الله والدار الآخرة، هذا الإيمان.

ولا يمنع إنسان إذا أصابته مصيبة فاتجه إلى الله، هذه حكمةٌ أرادها الله عزّ وجل، لكن الأصل أنت مؤمن، لأنك آمنت بالله، لا لأنك ضعيف فآمنت ؟ هذا كلام مخطئ، لأنك لا لأنك مخفق في حياتك آمنت، أو لأنك فقير آمنت ؟ لا، أنت آمنت لأن الله موجود، ولأنه واحد، ولأنه كامل، ولأن له منهجاً صحيحاً، هو سبب السعادة في الدنيا والآخرة، إذاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا)

يبدو أن الحوار عقيم، كل فريقٍ يرمي بكرة الاتهام إلى الفريق الآخر، والفريق الآخر يردُّ هذه الكرة مرّةً ثانية، عملية حوار عقيم، أي أن المستكبرين يتبرّؤون من أسباب إفساد الناس، والمستضعفون يُنيحون باللائمة على هؤلاء المستكبرين، ثم الذي حصل أن كلا الفريقين المستكبرين والمستضعفين، المتبوعين والتابعين، الأقوياء والضعفاء، المفسدين والفاسدين، أن كلا الفريقين أسَرّ الندامة، أي عرف أنه دفع ثمناً باهظاً لكفره، وقع في شرّ عمله.

ليس للعاقل أن يوصل نفسه إلى هذا الطريق المسدود:

يا أيها الإخوة الأكارم... الإنسان العاقل لا يوصل نفسه لهذا المكان، ولا لهذا الموقف الصعب.

أضرب مثلاً: لو أن إنسانا تورّط وقتل إنسانا، وحُوكِم محاكمةً عادلةً، وصدر أمر بإعدامه، والقرار صُدِّق، وسيق إلى الإعدام، وهو على حبل المشنقة بدأ يتوسّل، يقال له: ابكِ إذا شئت، فلا بكاؤك، ولا توسُّلك، ولا ترجّيك، ولا ضحكك، افعل ما شئت، تكلّم ما شئت، لابدّ من أن تلقى جزاء عملك.

فالإنسان لا يصل مع الله إلى طريق مسدود، لا يصل مع الله إلى موقف ليس له حل، لا يصل مع الله إلى موقف لا تنفعه حجّةٌ، ولا برهان، ولا شفاعة، ولا مال، ولا أهل، ولا أولاد، هذا الطريق خطير جداً، فما دام القلب ينبض معنى هذا أن هناك أملا، معنى هذا أنك في بحبوحة، معنى هذا أن باب التوبة مفتوح، فالله عزّ وجل كأنه يسرّب مشاهد من يوم القيامة، انتبهوا، هكذا المصير، قال تعالى:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

لا تغتر بالمترفين:

فإن رأيت إنساناً كافراً في حياة مترفة، في بيته، في مركبته، في حياته الخاصّة، لا تغترّ بهذه الحياة، لا تتمنّى أن تكون مكانه، لا تراه ذكياً، إن رأيته ذكياً فأنت لا تعرف شيئاً، فقارون خرج على قومه في زينته..

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ)

(سورة القصص: من الآية 81)

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79))

(سورة القصص)

والآن إذا مرّ الإنسان على بيت فخم، فيلا فخمة بمصيف، إذا قال: ليت لي مثل ما أوتي صاحبها، لا يعرف شيئاً، إن رأى مركبة فخمة فقال: ليتني أملك مثلها لا يفقه شيئاً..

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص: من الآية 80)

فربنا عزّ وجل يسرّب لنا مشاهد من يوم القيامة، مشاهد صارخة، مشاهد مؤثِّرة، أن هذا الكافر الذي تراه في الدنيا متغطرساً، مستعلياً، مستكبراً، يأبى أن يصلي، الآن تجد المشيعون لأكثر الجنائز يقفون خارج المسجد يدخِّنون، هو أكبر من أن يصلي، أكبر من أن يدخل بيت الله عزّ وجل، هذا الموقف الذي فيه عجرفة، واستكبار، وإباء، يقول لك: أنا علماني، أنا أؤمن بالعِلم، هل الدين ليس فيه علم ؟ العلم كله جاء من الدين، هذا الموقف الذي فيه استكبار، أنت انظر كيف أن الله سرّب لك مشهداً، هذا الكافر المستعلي المستكبر هذا مصيره ؛ ذليل، خانع، واقع في شر أعماله، يدفع الثمن باهظاً..

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ)

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ

ولات حين ندم:

هذا المصير المحتوم، فالذي أتمنّاه على كل أخ وهبه الله عقلاً راجحاً أن لا يصل مع الله إلى هذا الطريق المسدود، إلى هذا الموقف العصيب الذي لا مندوحة عن تلقي العذاب فيه، كهذا الذي حُكِمَ عليه بالإعدام، يبكي سيعدم، يضحك سيعدم، يستعلي سيعدم، يتذلّل سيعدم، انتهى الأمر، كان عليه أن يفكِّر

قبل أن يقبل على هذه الجريمة، وهذا الإنسان بعد أن وصل إلى ما وصل إليه كان عليه أن يقف، ويفكِّر قبل أن يعصي، قبل أن يكفر، قبل أن يقول: أنا وأنا..

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ)

والحقيقة كأنَّهم خافوا الشماتة، فأصعب شيء على الإنسان أن يشمت الناس به، أصعب شيء أن تغدو أنت قصَّةً للناس، أصعب شيء أن يعتبر الناس بحياتك، بقصَّتك، هؤلاء المجرمون يبدو أنهم كرهوا أن يُشْمَتَ بهم، قال:

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا)

وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا

1 ـ ذلّ ما بعده ذلّ:

أغلال، فالإنسان طليق ما دام غير مذنب، في الدنيا جالس في بيته، يحب الذهاب إلى مكان جميل، يحب الذهاب إلى السوق، يجب السفر يغادر القطر، الأمور كلها مفتوحة أمامه، أما إذا ضُبِطَ بجريمةٍ أُلقي القبض عليه، ووضِعَت يداه في القيود، وسيق إلى السجن، وضِعَ في زنزانة، لماذا فقد حريَّته ؟ لأنه خالف القوانين والأنظمة..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

طُلَقَاء، القبر يمتدُّ حتَّى يكون مَدَّ البصر، يتسع حتَّى يكون مدَّ البصر، القبر روضة من رياض الجنَّة، وقبر الكافر يضيق عليه حتَّى تختلف أضلاعه، الآية الكريمة:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

(سورة غافر: من الآية 46)

آل فرعون، منذ ستة آلاف عام، كل عام ثلاثمائة وخمسة وستين يوم

(غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

مرَّتين في اليوم، ستة آلاف وخمسمئة عام، ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، ضرب اثنين، والخير إلى الأمام..

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

2 ـ راجع نفسك قبل أن تندم:

فلذلك إذا عطّل الإنسان عقله يكون شقياً شقاء كبيراً، قبل أن تتكلّم هذه الكلمة راجع نفسك، قبل أن تأخذ هذا المال راجع نفسك.

حدّثني أخ في بلاد الحجاز عن بدوي له أرض في أطراف جدّة، امتدّت جدة في العمران إلى أن أصبحت هذه الأرض ضمن حدود جدة الحديثة، فتوجّه صاحب هذه الأرض إلى أول مكتب عقاري ليبيعها، شعر أصحاب هذا المكتب أنه لا يعرف قيمتها تماماً، فأقنعوه بثمنٍ بخس، أعطوه مبلغاً يساوي عُشْرَ ثمنها الحقيقي، وأشادوا بناءً من ثلاثةٍ وعشرين طابقاً، هم شركاءٌ ثلاثة، أول شريك وقع من على هذا البناء فدقّت عُنُقُه ـ هذه القصّة واقعيّة ـ الشريك الثاني مات بحادث سيارة، الشريك الثالث فكّر، الآن سلك الطريق الصحيح، عزا موت شريكه الأول وشريكه الثاني إلى أن الله أتلفهما لأنهما أكلا مالاً حراماً، فبحث عن صاحب الأرض، وبقي يبحث عنه ستة أشهر، إلى أن عَثَرَ عليه، وأعطاه فرق ثمن الأرض، أي أخذناه منك بخمسمائة ألف ريال، الآن ثمنها خمسة ملايين، فخذ الثلث، فقال له هذا البدوي: أنت لحقت حالك.

فكِّر قبل أن تقدم على أكل مال الناس بالباطل، قبل أن تقدم على أن تنتهك عِرض فلانة، قبل أن تقدم على تطليق زوجتك المخلصة لنزوةٍ طائشة، قبل أن تأخذ هذا المحل التجاري كلّه لك، وتلقي بالشريك خارج المحل، لأنه ليس له اسم بعقد الإيجار، قبل أن تغتصب هذا البيت، قبل أن تغتصب هذه الأرض، قبل أن تأكل المال الحرام فكِّر في هذه الساعة التي تقف فيها بين يدي الله عزّ وجل ليسألك.

لذلك المؤمن دائماً يبحث عن جوابٍ لله عزّ وجل، يعنيه أن يجيب الله عزّ وجل عن سؤالٍ دقيق: لماذا أخذت هذا المال ؟ لماذا طلّقت هذه الزوجة ؟ لماذا اغتصبت هذا المحل التجاري ؟ لماذا أخرجت شريكك خارج الشركة ؟ استضعفته ؟ لماذا أكلت مال اليتيم ؟ هذا كلّه سوف نحاسب عليه، فالعاقل هو الذي يفكِّر تفكيراً صحيحاً..

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لا ظلم، اسأل أي إنسان جاءته مشكلة في قرارة نفسه يعترف بذنبه.

أنا أعرف قصّة جرت في أحد أسواق دمشق، يظهر أنهم تراشقوا الرصاص، فرصاصة طائشة أصابت صاحب محل تجاري في عموده الفقري فأصابته بالشلل فوراً، قال لي أحدهم: هذا ما ذنبه ؟

جاء إلى محلِّه التجاري ليبحث عن رزق أولاده، ما له ذنب أبداً، قال لي: أين عدالة الله عزّ وجل ؟ قلت: هذه قصّةٌ علمت أنا وأنت بعض فصولها، أما فصولها الأخرى فنحن لا نعرفها، والله الذي لا إله إلا هو مضى على هذه القصّة عشرون يوماً، لي طالبٌ حدّثني عن قصّةٍ، وهو لا يدري ما الموضوع، قال لي: لنا جارٌ يا أستاذ أكل مال الأيتام ظلماً، ومال أولاد أخيه الأيتام، وكان عليهم وَصِيًّا، امتنع عن إعطائهم عشرين ألف ليرة ـ والقصّة قديمة حدثت في الستينات ـ شكوه لبعض علماء دمشق الأجلاء، فاستدعى العم، وحضّه على دفع المال لأولاد أخيه، هذا العم امتنع وأبى، فقال هذا العالِم لأولاد الأخ: أشكوه إلى الله، هذه القصّة كانت في الساعة الثامنة مثلاً من مساء السبت، في الساعة العاشرة في اليوم التالي جاءته الرصاصة في عموده الفقري، وأصابته بالشلل.

الإنسان أحياناً يرى حادثة ظاهرها فيه ظلم ؛ لكن وراءها عدالة مطلقة، والحقيقة كل إنسان آخذ حقّه، والإنسان يعرف.

سأضطر أن أذكر قصّة ثالثة، ولكنها، رمزيّة وليست واقعيّة، أنتم تعرفونها مني سابقاً: شوحة سألت سيدنا سليمان: ربنا عجولٌ أم مهول ؟ فقال لها: إنه مهول كما أعلم، فاطمأنّت لهذا التوجيه، فجاءت لأناسٍ يأكلون لحماً فسرقت هذا اللحم، وطارت به، علق بهذا اللحم قطعة فحم مشتعلة، أحرقت عشّها، وبيضها وكل شيء، رجعت إليه، وقالت له: ألم تقل: إن ربّك مهول، ها هو ذا عجول، فقال: يا رب بماذا أجيبها ؟ فقال الله عزّ وجل: قل لها: هذا حساب قديم.

أحياناً الإنسان يدفع ثمن أشياء قديمة من عشرات السنين، من أربعين سنة ضرب والده، في المكان نفسه جاء ابنه ليضربه اليوم، هناك قصص كثيرة جداً، فالإنسان قبل أن يُقْدِم على معصية، قبل أن يقدم على كسب مال حرام، قبل أن يأخذ ما ليس له، قبل أن يغتاب، قبل أن يتّهم، قبل أن يوزّع التهم على الناس، قبل أن ينهَش في أعراض الآخرين، قبل أن يغوص في المعاصي، ليفكِّر هناك إلهٌ عادل بالمرصاد..

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

يرى كل شيء، ويعلم كل شيء، وسيحاسبك عن كل شيء..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أي يا عبادي هل رأيتموني أجازي إلا الكفور ؟

(وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ(17))

(سورة سبأ)

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ

مرَّةً ثانية: المترفون دائماً هم كفارٌ، المُتْرَف الذي ينفق أموالاً طائلةً بغير حساب، وبلا تعقُّل، وبلا حكمة، على شهواته وعلى معاصيه، فهذا الذي ينفق أموالاً طائلةً على المعاصي والآثام، ويحرم منها الفقراء والمحتاجين، هذا قول واحد كافر، لأن كلمة ترف لم ترد في القرآن إلا في ثمانية مواضع حصراً، وفي هذه المواضع الثمانية اقترن الترف بالكفر..

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا)

المترفون يكفرون، والكفّار مترفون، وهناك علاقةٌ ترابطيّةٌ بين الكفّار والمترفين.

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ

توهّم الكفّار أن الله عزّ وجل لأنه أعطاهم أموالاً طائلةً إذاً هو يحبُّهم، إذاً: لن يعذِّبهم، أي استنباط مضحك، إذا ذهب إلى أوروبا، أو أمريكا، أو اليابان، وغاص في الزنا إلى قمّة رأسه، يقول لك في النهاية: إذا الله أحب عبده أراه مُلْكَه، من قال لك هذا الكلام ؟ كلامٌ مضحك، كلام الشياطين، كلامٌ مضلِّل، يجب أن تعلم علم اليقين أن الدنيا لا يمكن أن تكون مقياساً، لا إذا أعطاك الله إيّاها مقياس، ولا إذا منعها عنك مقياس، عرَضٌ حاضر يأكل منه البرُّ والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل، أعطاها لأعدائه، لم يرض أن تكون عطاءً لأوليائه..

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

أعطى الملك لمن لا يحب أعطاه لفرعون، أعطى المال لمن لا يحب أعطاه لقارون، وأما الأنبياء والمرسلون أعطاهم الله العلم والحكمة، فإذا أوتيت نصيباً من العلم والحكمة فأنت قد نِلْتَ عطاء الأحباب..

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

الجواب من قِبَل الله عزّ وجل:

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

أكثر الناس لا يعلمون أن الدنيا ليست عطاءً، لا حرمانها إهانةً ولا عطاؤها إكراماً، والدليل في سورة الفجر:

(فَأَمّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعّمَهُ فَيَقُولُ)

هو..

(رَبّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ)

هو..

(رَبّي أَهَانَنِ(16))

الله قال: كَلا، ردعٌ ونفيٌ، أي يا عبادي ليس عطائي إكراماً، ولا منعي إهانةً، إن عطائي ابتلاء وحرماني دواء، هكذا ينبغي أن نفهم، ما عندك بيت، معنى هذا أن الله لا يحبّكَ، لا، هذا كلام مضحك، ربّما كان الله لا يحبّ الذين يملكون آلاف البيوت، في حكمة..

((إنّ من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه، وإنّ من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه))

هناك حكمةٌ إذا كُشِفَت رضيت بالواقع، لو كُشِف الغطاء لاخترتم الواقع..

(قُلْ إِنّ رَبّي يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

أي يعطي بحكمةٍ..

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

إن هذه الدنيا ليست عطاءً، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، أحياناً الإنسان يسترسل بالمعاصي فربنا يؤدِّبه تأديباً شديداً، يحرمه من كل الدنيا، فيتوب إلى الله، هذا الحرمان عطاء، أعطاه الآخرة، أعطاه الجنّة، ضَيّق عليك في الدنيا، حرمك إيّاها، فتبت إلى الله عزّ وجل، وأقبلت عليه، فاستحققت دخول الجنّة، حرمك الدنيا وأعطاك الجنّة وربّما أعطاك الدنيا كما تشتهي، فأطغاك المال، وجعلك من أهل النار لا سمح الله ولا قدّر إذاً هذا ليس عطاءً، الأمور بخواتيمها، الأمور بنهاياتها، الأمور عند الموت، الأمور بعد الموت، هذا ما قاله سيدنا علي كرّم الله وجهه، قال: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >>**، قبل العرض على الله ليس الغنى غنىً، وليس الفقرُ فقراً..

(قُلْ إِنّ رَبّي يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالّتِي تُقَرّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى)

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى

فأموالكم العريضة، بيوتكم الفخمة، تجارتكم الواسعة، مكاتبكم الوثيرة، فروع شركتكم في عدّة بُلدان، مكانتكم العليّة في المجتمع لن تغني عنك من الله شيئاً، يقول لك: فلان حجمه المالي كذا، لا أموالك ولا أولادك، العشر النجباء أصحاب المناصب الرفيعة.. تقرّبك عند الله زلفى..

(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

إذا كنت مؤمنا، وكنت غنياً لا مانع، وأنفقت هذا المال في طاعة الله أنْعِم وأكْرِم، إذا كنت مؤمناً، وعندك أولاد صالحون، وقلت: الأكبر حافظ قرآن، والثاني الحمد لله وَرِع، ابني الثالث يحمل شهادة شرعيّة عُليا، له دعوة إلى الله، شيء جميل والله، إذا افتخرت بأولاد صالحين، خيّرين، نُجباء، مستقيمين، لك الحق أن تفتخر..

(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)

فالإنسان إذا كان بين يديه مال وأنفقه في سبيل الله فهذا يرقى عند الله، عنده ولد صالح نفع الناس من بعده هذا يرقى عند الله..

(وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ

إن الذي يسعى لإحباط الحق، لإطفاء نور الله عزّ وجل، لوضع العصي في عجلات الإيمان، للتشكيك بما ينفع الناس ويصلحهم، هؤلاء الذين يفعلون هذا أيضاً سوف يعذّبون عذاباً أليماً في الآخرة..

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

فأية نفقةٍ تنفقونها في الدنيا الله سبحانه وتعالى سيخلفها، ويعوّضها أضعافاً مضاعفة.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع تفسير سورة سبأ بدءاً من قوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (09-10): تفسير الآيات 40 - 48
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-03-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس التاسع من سورة سبأ، ومع الآية الأربعين التي تبدأ بقوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(40)قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ

1 - إياكِ أعني واسمعي يا جارة:

أيها الإخوة الأكارم... هذه الآية فيها توجيهٌ تربوي، ويعبر عن هذه القاعدة التربوية بكلمة: إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتّخِذُونِي وَأُمّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ(116)مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللّهَ رَبّي وَرَبّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117))

(سورة المائدة)

يا ترى من المقصود، سيدنا عيسى ؟ إطلاقاً، المقصود هؤلاء الذين قالوا: هو إله، هو ابن الله، فهذا أسلوبٌ لطيفٌ من أساليب التقريع، إذا أردت أن تُقَرّعَ إنساناً، أو توبّخَهُ، أن تضعه أمام خطئه الشنيع، أن تظهر فِعْلَتَهُ السيِّئة، فاتركه واسأل آخر، وليسمع من الآخرين حجم فعلته، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا)

2 - وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

هؤلاء الوثنيون، هؤلاء الذين عبدوا الأوثان، وقالوا: هذه الأوثان نحن صنعناها على شكل ملائكة كي نتقرب بها إلى الله عزّ وجل، هذه دعوة باطلة، نحن نحتنا هذه الأصنام كي تذكِّرنا بملائكةٍ مقربةٍ طاهرةٍ نعبدها كي نتقرب إلى الله زلفى، فربنا عزّ وجل جمعهم يوم القيامة..

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)

3 ـ ثُمّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ

أي أنتم أمرتم هؤلاء أن يعبدوكم من دون الله ؟ أهؤلاء الوثنيون عبدوكم، وهل أنتم راضون على أن يعبدوكم من دون الله ؟ أسلوبٌ حكيم فيه تقريعٌ للكفار، وتبكيتٌ لهم، وإظهارٌ لوثنيتهم وشركهم.

(قالُوا سُبْحَانَكَ)

يا رب أنت منزهٌ عن الشريك، أنت منزهٌ عن الوَلَدِ، ونحن ليس في إمكاننا أن ندعي أو أن نأمر أحداً أن يعبدنا من دون الله، سبحانك يا رب.

(قالُوا سُبْحَانَكَ)

قالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ

1 ـ معنى التسبيح:

ومعنى سبحانك أي أنت منزهٌ عن ذلك، وقد يضاف إلى التنزيه معنى التمجيد، إذا قلت:

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الحديد: من الآية 1)

أي نزهه عن كل نقصٍ ووصفه بكل كمالٍ، هو تنزيه يقتضي التمجيد، ولكن التمجيد من باب التأكيد، فالتسبيح بمعنى التنزيه والتمجيد، أي أنت يا ربِّ منزهٌ عن كل نقص، وأنت أهل لكل كمال، فسبحان الله، والحمد الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، سبحانك: أي ما أعظم شأنك، ما أبعدك عن هذه الأقاويل، ما أبعدك عن هذه الوثنيّات.

(قالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ)

أي أنت الذي تتولى أمورنا، أمرنا بيدك وحدك.

(قالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ)

2 ـ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ

لماذا ؟ لأن الكفار يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 257)

فالمؤمن وليُّه الله، يهتدي بهدى الله، ويسترشد بإرشاده، ويقتدي بنبيه، ويطبّق أمره، ويقيم منهجه.

(أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

3 ـ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ

الجن، أكثر الجن هدفهم الإضلال، فأي إنسانٍ يتعاون مع الجن ليُضِلَّ الناس عن سبيل الله عزّ وجل فقد كفر، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من سحر فقد أشرك))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

وحينما يتعاون الإنس مع الجن يزداد رَهَقاً وشقاءً..

(فَزَادُوهُمْ رَهَقًا(6))

(سورة الجن)

كما قال الله عزّ وجل..

(سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

يقول الله عزّ وجل:

(فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

سؤال: في الدنيا هل يملك بعضنا لبعضٍ نفعاً أو ضراً ؟ كيف يقول الله عزّ وجل: فاليوم ؟

1 ـ في الدنيا في الظاهر هناك أشخاص ينفعون ويضرون:

جواب هذا السؤال: الناس في الدنيا في عمى، ماذا يرون، يرون أشخاصاً أقوياء، بيدهم أمور البشر، الناس وهم في عمى، وهم في غفلة، وهم في بعدٍ عن حقيقة الإيمان، يرون بعضهم بعضاً ؛ فلان بإمكانه أن يفعل كذا وكذا، وفلان بإمكانه أن يوقع ضراً بفلان، وفلان بإمكانه أن يعطي فلاناً، حينما ترى الأشخاص مصدر العطاء والمنع، والنفع والضر، فهذا أكبر أنواع الشرك، فلذلك نحن في الدنيا قد نرى أشخاصاً أقوياء، وبسببٍ من غفلتنا، ومن ضعف يقيننا، ومن ضعف إيماننا، قد نعزو لهم المنع

والعطاء أو النفع والضر، ولكن في الحقيقة لو تأمّلت مَلياً، ولو تحققت جدياً، ولو كشف الله لك الغطاء، ولو استنرت بنور الله لما رأيت إلا الله في الدنيا، ولكن في الآخرة هذا يبدو للناس جميعاً.

ففي الدنيا للمؤمن يبدو أن الله بيده كل شيء، وأنه لا أحد معه، لكن أهل الدنيا يرون العكس، يرون أن أمورهم بيد بعضهم بعضاً، وأن أي إنسانٍ قوي بيده النفع والضر، والخير والشر، والعطاء والمَنع، هذه رؤية أهل الكفر، هذه رؤية أهل البُعد، هذه رؤية أهل الغفلة، هذه رؤية أهل الضلال، لكن المؤمن في الدنيا لا يرى إلا الله، ولا يرى مانع، ولا معطي، ولا قابض، ولا باسط، ولا معز، ولا مذل إلا الله، لكن يوم القيامة هذه رؤيةٌ عامّة، كل الخلائق يرى أن أحداً ليس بإمكانه أن يعطي أحداً، ولا أن يمنع أحداً، ولا أن ينفع أحداً، ولا أن يضر أحداً.

2 - كل شيء يشير إلى الله:

إذاً: في الدنيا هناك رؤيةٌ صحيحة يملكها المؤمنون، ورؤيةٌ مغلوطةٌ ضبابيةٌ معتمة يقع بها الضالون، وفي الآخرة هذه رؤيةٌ عامة، يؤكد هذا آيةٌ أخرى، يقول الله عزّ وجل في كتابه الكريم متحدثاً عن يوم القيامة:

(أَلا إِلَى اللّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ(53))

(سورة الشورى)

وقد يسأل سائل: ما دامت قد صارت إلى الله فبيد من كانت قبل ذلك ؟ الجواب: أن أهل الغفلة والإعراض والكفر والضلال يرون الأمور بيد زيد أو عُبيد في الدنيا، فإذا انتقلوا إلى الدار الآخرة، دار اليقين ودار الحق، يرون الأمور على حقيقتها، يرون أن الأمور كلها بيد الله، إذاً: هذا لا من حيث الفعل من حيث الرؤية، الأمور كلها بيد الله في الدنيا والآخرة، والأمور كلها تصير إلى الله في الدنيا وفي الآخرة، ولكن أهل البُعد والضلال والعمى يرون الأمر معكوساً في الدنيا، لهذا ورد أن الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، وورد في القرآن الكريم قوله تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس)

3 ـ خيار الإيمان خيار وقتٍ:

يا أيها الإخوة الأكارم... أقول لكم: الإيمان لابدّ من أن يحصل، لأكفر كفار الأرض، للملحدين، للعتاة، للمجرمين، للمنغمسين في شهواتهم، للمنغمسين في أعمالٍ قذرةٍ، للمعرضين، لابدّ من أن يقع الإيمان، ولكن يقع بعد فوات الأوان، يقع ولا يستفيدون منه إطلاقاً، فالدعوة لا إلى أن تؤمن، لابدّ من أن تؤمن، الدعوة إلى أن تؤمن في الوقت المناسب، إلى أن تؤمن وأنت حي، إلى أن تؤمن وأنت شاب، إلى أنت تؤمن وأنت صحيح، إلى أن تؤمن وأنت قوي، إلى أن تؤمن وأنت غني، إلى أن تؤمن وأنت فارغ من الأشغال، ذو صحةٍ، وفراغٍ، وشبابٍ، ومالٍ، وقوةٍ، الآن آمن.

إنك إن آمنت الآن قطفت ثمار الإيمان في الدنيا والآخرة، إنك إن آمنت شَكَّلْتَ حياتك وفق قواعد الإيمان، اخترت زوجتك بمقياس أهل الإيمان، اخترت حرفتك بمقياس أهل الإيمان، ربَّيْتَ أولادك وفق المنهج الإلهي ؛ أما إذا تأخرت في الإيمان حتى شاب المشيب، وحتى انحنى الظهر، وحتى ضعف البصر، عندئذٍ أنت آمنت، ولكن بين أناسٍ ليسوا مؤمنين، بين أقرب الناس إليك، أنت في وادٍ وهي في واد، أنت في وادٍ وأولادك في واد، الإيمان جيّد، والأجود منه أن تؤمن في الوقت المناسب، وأن تؤمن مبكراً من أجل أن تشكِّل حياتك تشكيلاً إسلامياً..

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(40)قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ(41)فَالْيَوْمَ)

يقول الله عزّ وجل:

(لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ

1 ـ أشدّ أنواع الظلم ظلمُ النفس:

ظلموا مَنْ ؟ ظلموا أنفسهم، فأشد أنواع الظلم أن تظلم نفسك، هذه نفسك التي بين جنبيك رأسُ مالك، هي ذاتك، هي المُخاطبة، هي المُعاتبة، هي التي تؤمن، هي التي تكفر، هي الخالدة تذوق الموت ولا تموت، هي التي تعذّب إلى أبد الآبدين، هي التي تنعم إلى أبد الآبدين، هي العاقلة، هي المدركة، إذا خسرتها خسرت كل شيء، قد تخسر كل شيءٍ وتربحها، فأنت الرابح الأكبر، وقد تربح كل شيءٍ وتخسرها، أنت الخاسر الأول، هذا الذي حَصّلَ أموالاً طائلة وخسر نفسه، أبقاها جاهلة، أبقاها عاصية،

أبقاها غارقة في المعاصي والآثام، أبقاها مشركة، أبقاها كافرة، أبقاها فاسقة، إذا جاءه الموت ماذا تنفعه أمواله الطائلة، ومكانته العَلِيَّة، وأملاكه التي لا تنتهي ؟ فقد تربح كل شيءٍ ـ دققوا هذه الكلمة ـ وتخسر نفسك التي بين جنبيك، أنت أكبر الخاسرين، بل أنت أخسر الخاسرين، وقد تخسر كل شيء وتربح نفسك.

سحرة فرعون ماذا خسروا ؟ خسروا كل شيء، خسروا حياتهم:

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72))

(سورة طه)

كل رأس مالهم، لكنهم ربحوا أنفسهم الخالدة بعد الموت.

(وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

2 ـ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ

يجب إقامة القرآن في النفس والبيت والعمل:

فهل عندك شكٌ أن هذا الكلام كلام الله ؟ وفي القرآن آيات خطيرة جداً، تعامل معها تعاملاً جَدِّياً، أحياناً الإنسان، ويا للأسف يتعامل مع البشر تعاملاً جدياً، ولا يتعامل مع خالقه إلا تعاملاً ضبابياً أسطورياً، كأن تتلو القرآن دون أن تطبقه، ما قيمة هذه التلاوة ؟ ألم تسمع بقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

هذا الكتاب يجب أن تقيمه في بيتك، في دكانك، في مكتبك، في عيادتك، في أي مكان يجب أن يُقام، إذاً أشد أنواع الخسارة أن تخسر نفسك، في آيات أخرى جاءت بشكل واضح:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 21)

3 ـ النهاية إلى الموت:

يوم القيامة، لا تبتعدوا كثيراً، أحياناً يكون مع الإنسان أموال طائلة، فيصاب بمرض عضال، يتحسَّر على هذا المال لماذا جمعه ؟ أصبح المال تافهاً لا قيمة له، فكيف إذا أدرك الإنسان في بعض الساعات أن المصير الأبدي هو جهنم، فكل ما حصّله في الدنيا خسارةٌ في خسارة، لهذا قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

((كفى بالموت واعظا يا عمر))

[كنز العمال عن محمد بن المتوكل]

سيدنا رسول الله فيما يروى عنه:

((تركت فيكم واعظين: ناطقاً وصامتاً))

[ورد في الأثر]

الناطق هو القرآن، والصامت هو الموت، لهذا ورد أن في معالجة جسدٍ خاوٍ لموعظة، ماذا يقول الناطق ؟ يقول:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205))

(سورة الشعراء)

إلهٌ يقول هذا الكلام:

(مَتَّعْنَاهُمْ)

أموال طائلة لا تأكلها النيران، بيوت، حدائق، مركبات، مقاصف، رحلات..

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

(سورة الشعراء)

هناك شخص من أهل الفن اعتنى بصحته عنايةً تفوق حد الخيال، الرياضة، والطعام النفيس، والمقنن المدروس من قبل خبراء في التغذية، والعشاء فواكه، والحركة الرياضية، وعاش عمراً طويلاً، ولكنه في النهاية مات..

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

أنتم تستمعون في الأخبار أحياناً أن المليونير الفلاني، ملك الحديد، ملك الذهب بالعالم، مات وهو على باخرة في رحلة بحرية، أصبح كالجيفة، طبعاً الموت حق، ولكن لما يجعل الإنسان كل رأس ماله في الدنيا، ويأتي الموت فقد وقع في أخطر مغامرة، أما إذا كان مهيئاً للآخرة شيئًا يأتي الموت، وينقله من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما ينتقل الجنين من ضيق الرَحِمِ إلى سعة الدنيا، إذاً:

(وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

أنا أناشدكم الله عزّ وجل، لو أن أحداً دُعِيَ إلى مئة وليمة، وكل وليمةٍ طعامها أطيب من أختها، وأكل ما لذ وطاب من المُقَبّلاتِ إلى اللحوم إلى الفواكه إلى الحلويّات، وبعد هذه الولائم المائة أصابه ألمٌ في أضراسه، ولم يهتد إلى طبيبٍ في الليل، وأمضى أربع ساعاتٍ يقول لك: لا يعلمها إلا الله كيف مضت، يقول لك: الدقيقة سنة، وهو في هذه الآلام الشديدة لا يذكر الأكلة الفلانية أنها كانت طيبة، هل يذكر ذلك؟ إطلاقاً، لو أراد أن يستحضر طعوم هذه الأكلات التي أكلها في مائة دعوة دعي لها، ليلةٌ واحدة من آلام الأسنان تنسيه كل هذه الولائم.

4 ـ الغنى والفقر بعد العرض على الله:

فلذلك ورد أن الإنسان إذا مات ورأى مكانه في النار يقول: لم أر خيراً قط في حياتي، ينسى كل المُتَع، وكل اللذات، وكل الشهوات، وحينما يَطّلِعُ المؤمن على مقامه في الجنة، يقول: لم أر شراً قط، لهذا قال سيدنا علي: **" يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية ".**

إذا أكرمك الله عزّ وجل بالإيمان والاستقامة والعمل الصالح فأنت الغني، لهذا قال سيدنا علي: << الغنى والفقر بعد العرض على الله >>، عندما يأتي الموت، ثلاثون، أربعون، خمسون سنة أمضيتها في معرفة الله، وفي ضبط جوارحك، وفي التهجُّد، وفي تلاوة القرآن، وفي فهم كلام الله، وفي خدمة الخَلق، وفي الإحسان إليهم، وفي الدلالة على الله عزّ وجل، يأتيك ملك الموت تشعر أنه أقرب الناس إليك، يأتي بأحب الناس إليك.

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(73))

(سورة الزمر)

ربنا عزّ وجل يُقْرِئك السلام، ويقول لك:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

(سورة آل عمران)

أما الذي غاص في الدنيا إلى قمة رأسه، ثم جاء يوم القيامة، يقال له كما ورد في القرآن:

(لا مَرْحَبًا بِكُمْ)

(سورة ص: من الآية 60)

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ

1 - بدعة التقاليد السيئة:

التعلق بالتقاليد، أين العقل ؟ والآن يقول لك: هكذا ربينا، ربينا على الاختلاط، ربينا على سماع الغناء، ربينا عل غيبة الناس، هذا شيء متأصل فيّ، هكذا ربيت أنت ربيت تربية خاطئة، يقول لك: هذه بيئة، ما هذه البيئة ؟ هل البيئة إلهٌ تعبدها من دون الله ؟ تقاليد، شيء ورثناه، البيئة، والتقاليد، والعادات، والمظاهر الاجتماعية، هذه إذا تعارضت مع الشرع يجب أن تكون تحت قدمِك، الشاب يجلس مع زوجته أمام مئة امرأة كاسية عارية وهو مسلم، وزوجته مسلمة، وهم محافظون، وهم محافظون، فما تعني كلمة محافظين ؟ عنده خلفية دينية، ما هذه الخلفية الدينية ؟ ديّن أو غير دَيّن، لا توجد خلفية دينية، ديّن معناه مستقيم، عاص معناه غير ديّن، فلذلك هذه التقاليد والعادات، وما نشأنا عليه، وما كان يفعل الآباء، هذه إذا تعارضت مع الشرع، ينبغي أن ينبذها الإنسان.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ)

2 - وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ

نص قرآني واضح الدلالة، قطعي الدلالة، كلام خالق الكون، يأمر وينهى، تقول له: قال الله عزّ وجل، يقول لك: لكن فلان لم يقل هكذا، هل يقال فلان مع الله عزّ وجل ؟ إذا قلت لك: قال الله عزّ وجل تقول لي: فلان، فمن فلان أمام الله عزّ وجل ؟!

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

3 - الكفر بالقرآن لا يلغي قوانينه:

قلت لكم سابقاً: إذا قلت للقرآن: هذا كلام مفترى، يبقى القرآن قرآناً، وهو كلام الله عزّ وجل، وأنت وحدك الخاسر.

مرة ضربت مثلاً: أنت تركب طيارة، ويجب أن تسقط من الطيارة، وعندك مظلة مصممة وفق قوانين السقوط، فإذا احتقرت هذه القوانين، ولم تعبأ بها، وسخرت منها، وضحكت منها، قلت: هذه القوانين خرافات، لكن القوانين مطبقة عليك، احتقارك لهذه القوانين، وسخريتك منها، واستهزاؤك بها لا يعطلها،

ولا يلغيها، هي تعمل، أترى قانون السقوط بالمظلة مدروسة دراسة جيدة، هي من قماش كتيم، ومساحة القماش تكفي لهبوط إنسان وزنه سبعون كيلوًا ببطء، فالمظلة مدروسة دراسة وفق أدق قوانين السقوط، فإذا احتقرت قانون السقوط، وسخرت منه، ورفضته، وكفرت به ليس معناه أنك ألغيته، معناه ألغيت وجودك، فلو هبطت من هذه الطائرة من دون مظلة لدقت عنقك، أليس كذلك ؟

النقطة التي أحب أن أقولها لكم هي: إذا لم تصدق شيئاً، أو كفرت به، أو سخرت منه، ليس معناها أنك ألغيته، قائم، قائم، هو مطبقٌ عليك، فأنت الخاسر الوحيد، وأوضح مثل الذي يكفر بقوانين السقوط، والذي يسخر منها، والذي يستهزئ بها، والذي يحتقرها، فإذا سقط، نزل من الطائرة من دون مظلة احتقاراً لهذا القانون وهذه المعطيات، إنه بهذا الكفر والسخرية لا يلغي القانون ؛ بل إن القانون منفذٌ ونافذٌ، وسوف يدق عنقه.

عندما تسخر من قضية شرعية، هكذا الدين قال ؟ نعم هكذا قال الدين، معقول من دون فائدة ؟ إذا سخرت من قوانين ربنا الاقتصادية، وسخرت من أساليب القرآن في التعامل مع الناس، سخرت من القوانين الاجتماعية ولم تعبأ بها، وقلت: هذه لا تصلح لهذه الأيام، لكنها هي مطبّقة لم تلغها.

أنا أسوق لكم هذه القصة لأنها شاهد واضح، مرة رجل شكا لي قضيةً، وانهمرت دموعه فجأةً، قلت: لِمَ تبكي يا أخي؟ قال: زوجتي تخونني، قلت: أعوذ بالله، قال: والله من سنتين، وأنا لا أدري الآن كشفتها، قلت: مع مَنْ ؟ قال: مع الجار ـ شيء جميل ـ فكيف عرفته ؟ قال: والله حينما زارنا قلت لها: يا أم فلان تعالي اجلسي معنا هو كأخيكِ، قوانين الدين لم يصدقها، عدم الاختلاط، طبقت عليه ودفع هو الثمن، هذا مثل صارخ إذا لم تطبق أمر الله:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ)

(سورة النور: من الآية 31)

هذا قانون، فإذا لم تأبه له لأنه غير معقول، وتقول: ربينا سويا، نشأنا معاً، فالثمن باهظ، فكل إنسان يطبق شرع الله عزّ وجل في حصنٍ حصين، دخل في حصن، لأن هذه تعليمات الصانع، الذي صمم الذكر والأنثى أمر بذلك..

((لا يَخْلُوَنّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنّ الشّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا))

[من مسند أحمد عن عمر بن الخطّاب]

4 ـ الإنسان آلة معقدة يجب اتباع تعليمات خالقه:

الذي صمم الإنسان وأودع فيه هذه الشهوات هذا قانونه، وهذه تعليمات الصانع.

إذا كان لك آلة غالية، كمبيوتر مثلاً، لماذا أول شيءٍ تفعله أن تأخذ كتاب الشركة وتترجمه ؟ هل تسأل جارك الخبّاز عن طريقة استعماله ؟ هل تسأل جارك القصّاب ؟ هل تسأل صديقك المعلم ؟ لا، كل هؤلاء لا يعرفون ؛ جهة واحدةٌ تعرف أسرار هذا الكمبيوتر هي الجهة الصانعة، لذلك أول شيءٍ تبحث عن التعليمات، تعليمات التشغيل والصيانة، والتحذيرات والتنبيهات، وأنت آلة، بل أعقد آلة، أليس لك تعليمات من الصانع، إنه القرآن الكريم، فالقضية أن تحب نفسك ليس غير، أن تحب ذاتك، أنت غالٍ، أنت المخلوق الأول، أنت مُعَد لحياة أبدية، هذه الحياة دنيا، سمّاها الله دنيا، فإذا اعتنيت بنفسك، وبحثت عن تعليمات الصانع وقدستها، وأكبرتها وبجّلتها، ونفذتها بحذافيرها فأنت الرابح الأول.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

(وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ)

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ

فلا توجد تجارب سابقة فالرسول معه دليل، ومعه إعجاز، ومعه وحي، والنبي معروف بينهم، يعرفون نسبه، وأمانته، وصدقه، وعدالته، وعفافه، والقرآن فيه إعجاز تحدّاهم الله عزّ وجل.

(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ

وهذا أيضاً أسلوب تربوي آخر، أن فلاناً أوتي أكثر مما أوتيت، فلما كذّب دمره الله عزّ وجل فانتبه أنت.

(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ

إذا أتيح للإنسان أن يرى الأهرامات، إنها عمل إلى الآن مُعجز، في أرضٍ صحراويةٍ كلها رمل، الهرم فيه أحجار بحجوم تفوق حَدّ الخيال، وبعدد فلكي، وبعض الأهرامات فيه نافذة مدت بزاوية لا تتفق مع

أشعة الشمس إلا يوماً في العام هو يوم تاريخ ميلاد صاحب هذا الهرم، أتستطيع أن تعمل نافذة ضيقة وعميقة، بزاوية لا تدخل الشمس عبرها إلا في يومٍ واحد ؟ شيء معجز، من زار قبور الفراعنة، مدافنهم، يرى الشيء الذي لا يصدق، ومع ذلك كذبوا فأهلكناهم، من أنت ؟ إلى الآن سر التحنيط غير معروف، أنت أمام فرعون موسى، قبل ستة آلاف عام كأنه هو، وهذا مما يؤكد قول الله عزّ وجل:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس: من الآية 92)

وقبل سنوات أعتقد أخذوه إلى فرنسا ليرمموا بعض التعفنات، واستقبلوه بالمطار استقبال الأباطرة.

(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ)

أنتم ماذا عندكم ؟ ليس عندكم شيء، أحجار الأهرام قيل أنها جلبت من أسوان، فكيف حُمل حجر طوله ثمانية أمتار، ووزنه سبعون أو ثمانون طناً، كيف حُمِلَ من أسوان عبر النيل ؟ معنى ذلك أنه حمل بمراكب ضخمة، لكن من شاطئ النيل إلى موقع الهرم عشرة كيلو مترات تقريباً.

والأنباط بالأردن، مدينة بأكملها محفورة بالصخر، الحمامات، والقصور، والبيوت، وقاعات المحاكمات، كلها اذهب وانظر، هذه الآثار سمح الله أن تبقى لا من أجل أن نرتزق منها، من أجل أن نعتبر بها.

التدمريون، آثار تدمر شاهدة، أقوامٌ عريقون في الحضارة عصوا ربهم فدمَّرهم الله عزّ وجل.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ

1 - قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ

ففي الحقيقة قبل يومين ضربت لهذه الآية مثلاً: طُرِقَ بابك، جاءك ساعي البريد برسالة، بالله عليكم قبل أن تفتحها، وقبل أن تقرأها، وقبل أن ترى فحواها، وقبل أن تطلع عليها، أمسكتها وألقيتها في سلة المُهملات، يقال: أين عقلك ؟ اقرأها اقرأ ما فيها، قبل أن تهملها اقرأها، فإذا وجدت فيها سُخفاً أهملها، أما قبل أن تقرأها تهملها!!

سؤال: هذا القرآن الذي بين أيدينا كلام خالقنا، لكن قبل أن تدخل في متاهات الخلافيّات مع الناس، قبل أن تدخل في الخلافيات والمماحكات، قبل كل شيء يجب أن تعكف عليه حتى تفهمه، دعوة الله للناس، رسالة السماء لأهل الأرض:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ)

ربنا يعظنا، خالقنا..

(أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

2 - أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى

إذا شئت قمت وحدك، وإذا شئت قمت مع أخيك..

(مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا)

التفكر في دعوة النبي عليه الصلاة والسلام:

في دعوة النبي، انظر لماذا جاء النبي ؟ جاء بنظام كامل، انظر نظام الزواج كامل ؟ نظام البيوع كامل؟ نظام القيم كامل ؟ الخُلُق شيء مريح للناس ؟ قطع يد السارق شيء كامل ؟ فكِّر في هذا القرآن، فكر في هذه السُنَّة..

(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

3 - مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ

ليس مجنوناً، ولكنه رسول رب العالمين، نبي هذه الأمة، معه نورٌ من السماء، معه صراطٌ مستقيم، معه حبل الله المتين.

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

نذير ينذركم إن لم تؤمنوا بعذابٍ شديد، هذا هو النذير..

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

1 ـ علامة إخلاص الداعي أنه لا يبتغي أجرا من دعوته:

وهذه علامة الصادقين المُخلصين، لا يبتغي منك أجراً ؛ لا مادياً ولا معنوياً، ولا مديحاً ولا ثناء، ولا تقريظاً، ولا إطلاقاً، يبتغي عند الله الأجر، يبتغي عند الله الرزق..

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا(9))

(سورة الإنسان)

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ)

2 ـ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ

فلا يوجد إنسان ليس له أجر، هات لي إنساناً واحداً يعمل بلا أجر، الطبيب له أجر، والمحامي له أجر، والمهندس له أجر، لا يوجد إنسان بلا أجر، إلا إذا دخلت بيت الله عزّ وجل، لا أجر إطلاقاً، لا يوجد قسائم، ولا يوجد قطع تذاكر، ولا يوجد شيء أبداً، أبواب بيوت الله مفتحةٌ للمصلين، تعال اسمع كلام ربك، تعال افهم سنة نبيك، تعال تعلم سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام، تعال تفقه في دينك، تعال اعرف لماذا أنت في الدنيا ؟ لماذا أنت مخلوق ؟ إلى أين المصير ؟ ماذا بعد الموت ؟ ماذا قبل الموت ؟ ماذا ينبغي ؟ ماذا لا ينبغي ؟ ما يجوز ؟ ما لا يجوز ؟ ما الحق ؟ ما الباطل ؟ ما الخير ؟ ما الشر ؟ تعال.

إلى متى أنت باللذات مشغول ؟ وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعال يا عبدي، تعال كي أحط عنك هموماً أثقلت صدرك، الإنسان مع المعاصي نومه شقاء، هموم وكوابيس في الليل، وقلق وحيرة، وضجر وخوف ؛ فإذا اصطلحت مع الله عزّ وجل، إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنـا

ولذ بحمانا واحتمِ بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنـا

وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغلٌ واخلص لنا تلق المسرة والهنا

***

إذا ذاق أحدنا طعم القرب، طعم التوبة، طعم الإنابة إلى الله عزّ وجل، طعم الصُلح مع الله، طعم الاستقامة، طعم الالتجاء إلى الله، طعم الاستعاذة بالله معناه أنه ذق طعم السعادة المطلقة، طعم أن تشعر أن خالق الكون معك، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(47)قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ

رسالات، دعوات، الأنواء الفلكية كأنها تنطق بعظمة الله، الله عزّ وجل ترك الناس حتى وقعوا في اليأس، جفاف، أمطار شحيحة، نسب أمطار قليلة، الينابيع جفّت، الأنهار جفت، الأشجار يبست، صار كأس الماء ثمين جداً، مزارع أصبحت تالفة، جاء العلماء فلسفوها: تَصَحُّر، انتقال خطوط المطر، حركات معقدة للأرض نقلتها من برج إلى برج، هذا الذي عند الناس اليأس والقنوط.

والله قبل سنة التقيت مع أخ، هو قريب، عضو بلجنة أحواض دمشق، والله لشدة ما أشاع من اليأس لم أكد أقف على قدمي، نحن انتهينا نهائياً، نحن في طريق الجفاف، في طريق التصحُّر، أنظر إلى الأنواء الإلهية فاجأت الناس.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: من الآية 21)

آخر رقم رأيته البارحة ثلاثمائة وستة عشر مليمترا في دمشق، مقابل مائة وستين في السنوات المطيرة، مقابل خمسة وستين في السنوات غير المطيرة، ثلاثمائة وستة عشر، هذا عطاؤنا، الله عزّ وجل وجوده صارخ، يريك من آياته، في الفضاء الخارجي، يقول لك: هذا تشالنجر، هذا المتحدي، كل ما فيه دقيق جداً، سبعين ثانية أصبح تشالنجر كتلة من اللهب مع سبع رواد فضاء، هذا التحدي، من تتحدون ؟ الإيمان جميل جداً، تحس براحة، خالق الكون يعلم كل شيء، بيده كل شيء، ربنا عزّ وجل رحيمٌ بنا.

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ)

أحياناً تجد مرابياً يكبر يَكبر يكبر، ويتحدى الإسلام، لا تحريم بلا تحليل، تجده ينتهي نهاية مفجعة، الله يدمره يقصمه قصماً، الله يريك كيف يحطِّم المتجبرين، كيف يحطم المنحرفين، كيف يُقْلِق العصاة، وكيف يقوي المؤمنين، ويدعمهم، ويعلي شأنهم، هذه الآية تكفينا:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

الأمور تدور تَدور لا تستقر إلا على إكرام المؤمن وعلى إعزازه.

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

1 ـ احذروا غضب الله وانتقامَه:

امرأة قالت لضرتها كيداً: هذا ولد على يدي، وولد في بطني، وولد ماشٍ على الأرض، الثلاثة ماتوا، والله عزّ وجل أكرم ضرتها بخمسة أولاد صبيان، هذا يقذف بالحق، أحياناً الإنسان يلعب بالميراث، يأخذ ميراث إخوته، أكبر إخوته، وهو قوي، والأم معه، وإخوته ضعاف صغار، تدور الأيام فيعمل عندهم موظفاً، يفتقر، ويغنى هؤلاء الضعاف، ويجعله الله عندهم موظفاً، فعل الله صارخ واضح كالشمس في أفعاله، وفي كلامه، وفي خلقه.

مثلاً الإيدز، أليس هذا يقذف بالحق ؟ هذا المجتمع الغربي كفر بالله عزّ وجل، وآمن بالعقل، العقل هو كل شيء، آمن بالعلم، هذه الثروات استنبطها، صَنَّعَ تكنولوجيا، تقدُّم، آلات، إلكترونيات، رحلات فضاء، اتصالات، كلكم يرى بعينه، العالم أصبح قرية، فما يحدث في طرف من أطراف الدنيا يراه الناس جميعاً بقضه وقضيضه مباشرةً مترجماً مع صور، أقمار صناعية، وفاكس وتلكس، وطيران وصواريخ، نسوا الله عزّ وجل، فجاء ربهم بهذا المرض الذي أقلقهم، الآن أحدث إحصائية عشرون مليون حاملٍ لهذا المرض بأوروبا وأمريكا، شيء مدمر، لو تقرأ المقالات المنشورة هناك شيء لا يصدق، هذا أليس يقذف بالحق ؟ هذا جزاء انحرافهم، يقصمهم قصماً، وهم في زهرة الشباب، طبعاً في الأوج، أرقى مغنٍ أصيب بالمرض، مرض مع فضيحة، ليس زنا فقط انحراف جنسي.

فالله عزّ وجل أفعاله مدهشة، دعك من كتاب الله مبدئياً وانظر إلى أفعاله في العالم كله، تجد كل عبرة وكل موعظة تأخذ بالألباب، درسنا كان عن سبأ، ألم أقل لكم هناك أقوام كأقوام سبأ.

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)

(سورة النحل: من الآية 112)

ألم تسمعوا بأممٍ حولنا أذاقها الله لباس الجوع والخوف بمعاصيها وفسقها وفجورها، يقذف بالحق، فالله عزّ وجل دائماً يرينا آياته بأفعاله وبقرآنه وبخلقه.

(قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ(49)قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

إن شاء الله هذه الآيات نأخذها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (10-10): تفسير الآيات 49 - 54
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-04-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس العاشر والأخير من سورة سبأ، وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية التاسعة والأربعين من سورة سبأ، وسوف نمهّد لها بالآيات التي قبلها، الله سبحانه وتعالى يقول:

تمهيد:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ)

1 - الطعن في القرآن والأنبياء سنة المعاندين:

بماذا طعنوا ؟ طعنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ليس نبياً، وليس رسولاً، إن هو إلا رجلٌ له مصالح شخصية.

(يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ)

إذاً هؤلاء طعنوا بنبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَقَالُوا مَا هَذَا)

القرآن..

(إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى)

أي من عنده، هذا من صنعه، من إنشائه، من صياغته، وليس وحياً من الله عزّ وجل، إذاً: هنا تَمَّ الطعن بالنبي عليه الصلاة والسلام، وتم الطعن بالقرآن الكريم.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ)

هذا الحق، هذا الدين، هذا الإسلام..

(إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

إذاً كفروا بالدين، وكفروا بالنبي عليه الصلاة والسلام، وكفروا بالقرآن، مع أن الله سبحانه وتعالى زَوَّدَ الإنسان بعقلٍ يستطيع به أن يؤمن بالله من خلال الكون، وأن يؤمن بالقرآن من خلال الإعجاز، وأن يؤمن بالنبي من خلال القرآن، زوّدك الله عزّ وجل بآلةٍ هي في تعريف العلماء أداة معرفة الله أو مناط التكليف، بعقلك تعرف الله، وتعرف رسوله، وتعرف كتابه، وبعقلك تؤاخذ، لأنك إذا لم تعرف، أو

توهَّمت شيئاً غير صحيح، يقال لك: أين عقلك ؟ لمَ لم تستخدم عقلك ؟ إذاً هذه الآية مهَّدت بها للآيات التي هي موضوع هذا الدرس:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ)

والآيات أيها الإخوة هي العلامات الدالة على وجود الله، والدالة على عظمته، والدالة على وحدانيته، والدالة على كماله، موجودٌ، وواحد، وكامل، موجودٌ وعظيمٌ وواحد وكامل.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا)

2 ـ آيات كونية وشرعية تدل على الله:

قد تتلى عليك آيةٌ من آيات الكون، هذه آية كونية، وقد تُتلى عليك آيةٌ تكوينية، فلان فعل كذا وكذا، فأصابه كذا وكذا، هذه آية ليست كونية ولكنها تكوينية، وقد تُتلى عليك آيةٌ قرآنية، أنت بين آيةٍ تكوينيةٍ وهي أفعال الله عزّ وجل، وبين آية قرآنية وهي كلامه، وبين آيةٍ كونية وهي خَلْقُهُ.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا)

طعنوا بنبوتك، وطعنوا بهذا القرآن الذي بين يديك، وطعنوا بأصل الدين، وأحقية الدين، وبالإسلام كلِّه.

(قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

3 ـ تهمة قديمة متجدِّدة: الدين سحرٌ:

الدين سحر، والناس حتى هذه الساعة إذا تدين الرجل، واستقام على أمر الله، وأحق الحق وأبطل الباطل، وقال: هذا حرامٌ وهذا حلال، وهذا يجوز وهذا لا يجوز، وهذا مقبول وهذا غير مقبول، إذا دخل في عالم القيَم، دخل في عالم المنهج الإلهي، أراد أن يطبّق المنهج، يقال له: من سَحَرَكَ ؟ أريد أن أطبق منهج ربي، يقال له: لِمَ هذا التزمُّت ؟ ليس هذا تزمتاً.

(وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ)

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ

أي أنتم أيها العرب هل جاءكم رسولٌ منكم قبل هذا الرسول حتى تتمسكوا به، وتقولوا في ضوء رسولنا: إن هذه الدعوة باطلة، ما جاءكم رسولٌ منكم عربيٌ قبل هذا الرسول، وما جاءكم كتابٌ قبل هذا القرآن، والخطاب الآن للعرب، لأنه لو كان هذا الخطاب لعامّة الناس بما فيهم أهل الكتاب، وبالطبع

أهل الكتاب جاءهم رسولٌ وهو سيدنا موسى وسيدنا عيسى، وجاءهم كتاب وهو التوراة والإنجيل، هنا الخطاب خاصٌ للعرب.

(وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ(44)وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ

1 ـ إهلاك الله للأمم السابقة المكذّبة:

هذه الآية لها طعم خاص، أي أن هذا المُعْرِض، هذا المكذِّب، هذا الكافر، هذا الجاحد، لو كان قوياً، الله عزّ وجل أهلك من هو أقوى منه، لو كان غنياً أهلك من هو أغنى منه، لو كان ذكياً أهلك من كان أذكى منه، لو كان معتداً بمنجزاتٍ كبرى، أهلك من أشاد الآثار التي هي باقيةٌ حتى الآن، فأصحاب الأهرامات في مصر، وأصحاب آثار تدمر والأنباط والغساسنة، وقوم عاد وقوم ثمود، هؤلاء تركوا آثار تكاد تكون معجزةً، ومع ذلك أهلكهم الله عزّ وجل، فالإنسان حينما يحمله غناه على أن يُنْكِر، حينما تحمله قوته على أن يجحد، حينما يحمله مركزه القوي على أن يكذِّب، نقول له: لقد أهلك الله من هو أقوى منك، ومن هو أغنى منك، ومن هو أذكى منك.

(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ)

2 ـ قريشٌ لم تبلغ ما بلغته الأمم السابقة في الحضارة:

أي ما بلغ قومك يا محمد مِعشار ما آتينا هؤلاء الأقوام السابقة.

(فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

لكن نحن لسنا في حاجة إلى التاريخ البعيد، ألم نرَ أن الله سبحانه وتعالى أهلك أقواماً نعاصرهم ونجاورهم، كيف جعل الله بلادهم جحيماً لا يطاق ؟ وكانوا من القوة والمَنَعَةِ والغنى، وكل وسائل الحياة الطيبة، لذلك إذا سمح الله لأناسٌ أن يحيوا حياةٍ طيبة فهذا من نعمة الله عزّ وجل، وإن أراد بهم سوءاً فلا مَرَدّ له، لقول لله عزّ وجل:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: من الآية 11)

إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لُبَّهُ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

3 ـ ادرسْ قبل أن تكذِّب:

الآن يقول الله عزّ وجل لهؤلاء الذين ركبوا رأسهم، وأنكروا نبوة نبيهم، وكذبوا رسالة ربهم، وأنكروا الدين في الأصل كله، هناك دعوةٌ هادئةٍ إلى التفكر، أي قبل أن تكذِّب أيها الإنسان، قبل أن تجحد، قبل أن تستهزئ، قبل أن تقول: هذا لا يقبله عقلي، قبل أن تستنكر، تعال اجلس، وفكر، وتأمل، وابحث، ودقق، وبعد كل هذه الدراسة، وكل هذا التأمُّل، وكل هذا البحث والدرس أنكرت، نقول لك: معك الحق، ولكن تنكر قبل أن تدرس، تُنكر قبل أن تبحث، تنكر قبل أن تتأمّل، تنكر قبل أن تُحاول معرفة الحقيقة، هذا الموقف موقف غبي جداً.

اقرأ الرسالة، وبعدئذٍ ألقها في سلة المهملات، أما أن تأخذ رسالةً مختومةً لا تعرف من أرسلها، ولا تعرف فحواها، تمسكها وتلقي بها في سلة المهملات، هذا موقف غبي جداً، وهذا الذي يعرض عن فهم كتاب الله ويحاول أن يقول: هذا كلامٌ لا يصلح لهذا الزمان قبل أن يقرأه، وقبل أن يفهمه، هذا موقفه غبيٌ جداً.

فيا أيها الإخوة الأكارم... قبل أن تصدر حكماً ادرس الأمر مَلِيّاً، قبل أن تحكم ؛ دقق، حقق، ابحث، وازن، تفهَّم، هذا موقف علمي، لذلك:

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا(36))

(سورة الإسراء)

شاهدت، كيف تسأل عن مشاهداتك ؟ هذه المشاهدات ألم تستنبط منها حقيقةً ؟

سمعت، هذا الذي سمعته ألم يكن لك إنذاراً وتوعيةً ولفتاً للنظر ؟

هذا الذي فكرت به، لمَ لم تهتدي به إلى الله عزّ وجل ؟ لذلك جاء الآن التوجيه توجيهٌ هادئٌ إلى هذا الإنسان: أن يا إنسان قبل أن تعارض، قبل أن تنكر، قبل أن تكذب..

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ)

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ

1 ـ مخاطبة العقل والقلب معا:

لذلك الداعية الصحيح هو الذي يخاطب العقول، ويخاطب القلوب معاً، فالإنسان له عقل، والإنسان بالفطرة حريصٌ على سلامته، وحريصٌ على سعادته، يحب وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحب

كمال وجوده، ويحب استمرار وجوده، فإذا أردت أن تدعوه إلى الله عزّ وجل فاستعن بحاجاته الأساسية، استعن بما أودع الله فيه من رغباتٍ ثابتة، استعن بفطرته، استعن بطبيعته الإنسانية.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ)

أيها الإخوة الأكارم... أنا أربأ بكل أخٍ كريم أن تستهلكه الدنيا ؛ من بيته إلى عمله، إلى لقاء فاحتفال، فدعوة، فغداء، فنوم، فاستيقاظ، هذا مستَهْلَك، قد يقول: لا أدري لماذا أنا في الدنيا، فإذا جاءه الموت بغتةً شعر بخسارةٍ فادحة، لابدّ من جلسة تأملٍ من حينٍ إلى آخر، والأفضل كل يوم، لابدّ من وقفةٍ مع نفسك، لابدّ من وقفة تأمل مع ذاتك، أين كنت ؟ وإلى أين المصير ؟ أين أنا من كتاب الله ؟ أية آيةٍ تنطبق علي؟

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(27))

(سورة الفجر)

أم:

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(1)وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(2))

(سورة القيامة)

أم تنطبق عليّ آية:

(إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

(سورة يوسف: من الآية 53)

أم تنطبق علي النفس الظالمة، أو الشحيحة، أو المُخادعة، أو الآثمة، أو المنحرفة، أو المتكبّرة، أو المستعلية، أنا أي إنسان في القرآن ؟ هذه وقفة التأمّل.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

2 ـ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى

فلان قام بأداء هذا العمل، عمل خطير له نفعٌ عظيم، قد تعلق عليه آمالاً جسيمة، لذلك تنهض له، مرة لاحظت إنساناً في أثناء المناقشة وقف، لشدة حماسه لهذا الموضوع تكلم واقفاً، أي أن تقوم لله هذا أمر خطير جداً، هذا أمر مصيري، هذا الأمر يتعلق بسعادتكم الأبدية، إذا كانت الدنيا كلها زائلة، فأمر الدنيا كلّه أمرٌ حقير إذا قيس بأمر الآخرة، فالإنسان من أجل قضيةٍ دنيوية، من أجل بيتٍ يخشى عليه ألا يسجل باسمه، ينهض من الساعة السابعة، وينطلق من زيد إلى عُبيد، يتوسط، يستدعي، يسأل، يبحث من أجل أن يسجل (يطوّب) هذا البيت، يقول لك: البيت أمر جلل، هو العمر كله، لو فرضنا اشترى بعقد، وجاءه خبر مزعج: أن صاحب هذا البناء لن يفرغ له هذا البيت، يبقى قاعداً ؟ أم يستيقظ مبكراً جداً، ويرتدي ثيابه، ويتجه إلى أين ؟ لا يعلم، ولكن إلى المسعى، إلى السعي في تثبيت حقه في هذا

البيت.

بعثة، شهادة مرزعة، تجارة، لو فرضنا وكيل شركة والشركة أعطت الوكالة لغيرك، هل تبقى قاعداً ؟ أم تنهض وتحاجج هذه الشركة، وتشتكوها، وتبحث وتسأل، كيف السبيل ؟ تراسل، تأتي بموظف يتقن اللغة الأجنبية، انظر إلى هذه الوقفة، أنت تقف أحياناً، إذا كان الأمر يهمك تقف.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

3 ـ الموت أخطرُ حدثٍ مستقبلي:

هذا أخطر أمر أن تعرف الله عزّ وجل، أن تعرف أي شيءٍ أنت قادمٌ عليه، ماذا بعد الموت ؟ أليس في حياتنا موت، موتٌ يومي ؟ ألم تشاهد جنازة ؟ هل وقفت وسألت: هذا الذي داخل النعش رجل مثلي، له بيت، له أولاد، له زوجة ؟ له طموحات في الدنيا ؟ كان مشغولاً بهذه القضية وهذه القضية، أين هو الآن ؟ أين مصيره ؟ تحت الأرض، بيته ماذا فَعَلَ به ؟ ماذا نفعه بيته ؟ أي أنه دعوة للتفكر.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ)

رجل امتلك بيتاً في بعض المدن في الشمال، حينما كان ثمن البيت الفخم جداً في أرقى أحياء دمشق، مثلاً مليون، كان ثمنه ثلاثين مليونا، فهو شيء لا يوصف، فلما توفي وكان في الثانية والأربعين من عمره، لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل كان طويل القامة، وكان القبر أقصر من طول قامته، فلما وضِعَ في أرض القبر، وجاء رأسه منحنياً، دفعه الحفّار بصدره حتى يستقر في أرض القبر.

قلت: سبحان الله ! بيتٌ يعدُّ من أرقى البيوت في هذه المدينة، الرخام وحده كلّف كذا مليون، طوابق حدائق، أنا رأيت هذا البيت بأم عيني، وصاحبه حين دفن دفع في صدره لطول قامته.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

فكر، فكر، هذا الدماغ الذي هو أثمن شيءٍ في الكون، أعطاك الله إياه لا من أجل جمع الدرهم والدينار؛ من أجل أن يكون هذا العقل، أو هذا الفكر أداة معرفة الله عزّ وجل.

إلى متى أنت باللذات مشــغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ)

القضية خطيرة جداً..

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ(60)وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ(61)فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا(62))

(سورة النجم)

(أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

4 ـ ليس في الرسول مسّ من الجن:

هذا الرسول هو أعقل العقلاء، هو سيّد البُلَغَاء، هو أعظم المعلمين، هو رسول رب العالمين.

(مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

رسول، مؤيد بالوحي، مؤيد بالمعجزات، عصمه الله عن أي خطأٍ في قوله، وفي فعله، مشرّع، مُبَلِّغ، أرحم الخلق بالخَلق.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة)

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

اجلس منفرداً، أو مع أخيك ولا أكثر، مثنى وفرادى، وتفكر أو حاور أخاك، وتفكر، فكر في فحوى هذه الرسالة، في مضمون هذا الكتاب الكريم، في أمر الله عزّ وجل، في نهي الله عزّ وجل، في حلاله، في حرامه، فيما انطوى عليه من حكم، من أخبار، من وعد، من وعيد.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

5 ـ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ

بربك لو أقدمت على شراء بيت، وقال لك إنسان: سوف تعلم، فقط، ولم يزد على هاتين الكلمتين كلمة، ألا تدخل في الوسواس، لماذا قال لي هذا ؟ لعل هذا البيت فيه مشكلة ؟ لعله مرهون ؟ لعل في أساسه ضعفاً ؟ لعل له قضية ؟ لو أقدمت على خطبة امرأةٍ، وقال لك شخصٌ: سوف تدري، ألا تسأل نفسك: لماذا قال هذه الكلمة ؟

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ)

ما هو النذيرُ ؟

هذا النبي الكريم نذير أنذرنا، والنذير هو النبي، والقرآن نذير، والأربعون سنة نذير، والستون نذير، والشيب نذير، والمصيبة نذير، وموت الأقارب نذير، إنذار من الله عزّ وجل، وأبلغ من ذلك لما يضعف

بصر الإنسان، ويشيب شعره، وينحنى ظهره، تضعف ذاكرته، تضعف قواه، هذه إشارات لطيفةٌ من الله عزّ وجل، إشارات لطيفة جداً: أن يا عبدي قد اقترب اللقاء، فهل أنت مستعدٌ له ؟ اقترب اللقاء.

سؤال لعله محرج، كل منا يسأل هذا السؤال: هل بقي بقدر ما مضى ؟ كيف مضى الذي مضى ؟ إذا كان الذي مَضى مضى كلمح البصر، إذاً: الذي بقي سوف يمضي كلمح البصر، وبعدئذٍ أواجه الدار الآخرة، أواجه الحق، أواجه المسؤولية، أواجه تبعة العمل.

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

6 ـ النبي نذيرٌ بين عذاب الله:

نذير ينذرك عذاباً شديداً، فإذا اتبعت أمره وائتمرت بأمره، وانتهيت عما عنه نهى، وطبّقت سُنَّتَهُ نجوت من هذا العذاب، لا أعتقد واحداً من الحاضرين الكرام مثلاً يشعر بخطر الغاز، إلا فيغلق قاطع الكهرباء مثلاً، ويفتح النوافذ على الفور.

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

فالحريق له مشكلة، المرض له مشكلة، الإنسان حريص على صحته، حريص عل سلامة بيته، حريص على أولاده، يبادر إلى تطعيم أولاده ضد الأمراض السارية لماذا ؟ الأمراض تعذب الإنسان، فكيف بالعذاب الأكبر ؟ لا تنسوا هذه الكلمة كما قال الإمام الغزالي: " لو أن طبيباً حذرك من أكلةٍ تحبها حباً شديداً توعدك على تناولها: أفظع الأمراض ـ أغلب الظن كل الناس يستجيبون لكلام الطبيب ـ عندئذٍ خاطب الإمام الغزالي نفسه قال: **" يا نفس، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟! ـ معقول أن تصدقي الطبيب، ولا تصدقي رب العالمين ؟ ـ إذاً ما أكفرك، وإذا كان المرض أشد عندك من النار فما أجهلكِ".**

إن الذي يعصي الله عزّ وجل لابدّ من أن يكون أحد رجلين، إما أنه جاهل، وإما انه كافر، إن كان المرض أشد عندكِ من النار فما أجهلكِ، وإن كان الطبيب أصدق عندكِ من الله فما أكفركِ.

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

من علامات إخلاص الداعي عدمُ رجائه الأجر من الناس:

هذه علامة إن شاء الله صادقة لكل دعوة مخلصة، منزهة عن كل مقصد دنيوي، منزهة عن كل مطمح مادي، لا علاقة بالدعوة إلى الله بالدنيا كلها، أما إذا تداخلت الدنيا مع الدعوة إلى الله عندئذٍ تدخل الشكوك، وتدخل الظنون، لماذا شاء الله عزّ وجل أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام فقيراً مثلاً ؟ لو كان غنياً جداً، ومنعماً جداً، لداخل الناس شكٌ في دعوته، لعله فعل هذا من أجل الدنيا، لعله فعل هذا من أجل حطامها، لعله فعل هذا من أجل مالها، لكن جاء الحياة فأعطى ولم يأخذ، لم يأخذ شيئاً، غادر الدنيا كما جاءها، وهذا وسام شرف له، أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ قال بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره.

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ

من آيات الله في الناس معاقبة المسيء وتوفيق المحسن:

يقذف بالحق، في الدرس الماضي بيّنت أن دائماً وأبداً ترى وجود الله واضحاً، يعبر عنه العوام بكلمة: الله كبير، أحياناً الله عزّ وجل ينتقم من الظالم انتقاماً مروّعا، وأحياناً يوفق الضعيف المستقيم توفيقاً رائعاً، أحياناً يهب لمن يشاء الذكور بعد عُقْمٍ يائس، دائماً وأبداً ترى آيات الله بإكرام المستقيم، وبمعاقبة المنحرف، قال بعض العارفين: **" عرفت الله من نقض العزائم ".**

قد تضع خطةً محكمةً دقيقةً دقيقةً دَقيقة، وقد حبكتها من كل الجوانب، وغطّيتها من كل الوجوه، وأغلقت كل الثغرات، وبعدئذٍ تفاجأ بخطرٍ لم يكن في الحسبان، إذاً: هذا هو الله، ليس مع الله ذكيٌ أبداً، يا رب لا ينفع ذا الجَد منك الجد، صاحب الذكاء والحيلة، وصاحب التخطيط، وصاحب المكر والخداع، هذا عند الله عزّ وجل لا شيء.

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

ظلت نظريةٌ تقول: إن المجموعة الشمسية من أصلٍ واحد، ومع شدة الدوران والتبرُّد أصبحت هذه الكواكب، بعد أن صعد روّاد الفضاء إلى القمر، وجلبوا عيناتٍ من تربة القمر، وجدوا أن بين تربة القمر وتربة الأرض بوناً شاسعاً، هذه النظرية إذاً نقضت.

(قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ

فالباطل لا يصنع شيئاً، ولا يعيد شيئاً، الله سبحانه وتعالى هو الحق، وكلامه حق، ودعوته حق، ووعده حق، ووعيده حق، وهذا مما يلقّن به الميت، أشهد أن النار حق، وأن الجنة حق، وأن القرآن حق، وأن النبي حق، معنى حق أي مستقر وثابت، شيءٌ لا يتغير، الحق هو الشيء الثابت، الشيء الذي لا يتغيَّرُ أبداً.

(قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ

1 ـ الهدى من فضل الله تعالى:

إن الإنسان إذا عرف الله عزّ وجل فهذا من فضل الله، إذا عرف الله، واهتدى بهدي الله، وطبق سُنَّة رسول الله، واستقام على أمر الله، وأجرى الله على يده الخير هذا كله من فضل الله، وإن فعل شيئاً آخر فهذا من تقصيره، وهذا من ضعفه.

2 ـ الضلال يُعزا إلى الإنسان كسبًا:

أنا أقول هذه الكلمة: إن رأيت كمالاً من إنسان فهذا من فضل الله عليه، وإذا رأيت نقصاً فهذا من عدم عصمته أولاً ومن عدم اتباعه للنبي ثانياً، وهذا الحق، وليس هذا من باب الأدب، هذا هو الحق، الفضل يعزا إلى الله، والشر يعزا إلى الإنسان.

إشارة لطيفة:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ)

(سورة الشعراء)

لم يقل: وإذا أمرضني فهو يشفيني:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80))

لأن أصل المرض، في أصله الحقيقي خروجٌ عن منهج الله عزّ وجل.

(قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ

1 ـ كيف هي حال الضالين يوم القيامة ؟

أي يا محمد لو ترى هؤلاء الخصوم، والعارضين، والملحدين، والمكذبين، والمرجفين، ولو ترى هؤلاء الذين كذبوا رسالتك، وكذبوا نبوّتك، وكذبوا كلام الله عزّ وجل، وكذبوا هذا الدين، لو تراهم حينما يدعون للحساب، لو تراهم حينما يأتيهم الموت، لو تراهم حينما تنكشف لهم الحقائق، لو تراهم حينما يُكشف عنهم الغطاء.

شخص أعرفه جيداً أمضى حياةً غارقاً في الملذّات المحرمة، وكان تاجراً ماهراً في تجارته، وذا دخلٍ كبير، ولكن نفسه تميل مع هواها، تبحث عن اللذّة أينما كانت، أصابه مرضٌ عُضال، فحينما علم بهذا المرض صارت تأتيه نوبةٌ هستيرية كل حين، يقول: لا أريد أن أموت، فلما جاءه ملك الموت، كل جيرانه في البناء سمعوا صيحةً لم يسمعوها من قبل، ولو ترى هذا المتكبر، المعاند، العاصي، الفاسق، الفاجر، الذي يتباهى بالمعصية، لو رأيته وقد جاءه ملك الموت، لو رأيته وقد عُرِضَ للحساب.

(وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)

يتناوله ملك الموت وهو بعمله، أحياناً بسريره، أحياناً بمركبته، أحياناً بين أهله نفخاً، أحياناً قبل عُرسه، أحياناً بعد عرسه، قبل أن يسافر، بعد أن يسافر، في مقتبل العمر، في شيخوخته، الإنسان موته قريب، سكتة دماغية، نقطة دم، شريان في الدماغ وانفجر، نزيف في الدماغ، وانتهى.

(وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ)

لا يستطيع أن ينجو من هذا الموت.

(وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)

2 - وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ

قصص الموت عند أهل الدنيا عجيبة، وهو في ريعان الشباب يأتيه الموت من حيث لا يحتسب، وهو في أجمل أيام حياته، وهو في نزهته، وهو في سفرٍ ممتع، وهو بين أهله، وهو في دكانه، وهو في متجره، وهو في مكتبه، وهو نائم.

(فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ(51)وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

كان عليه أن يؤمن وهو في الدنيا، الآن شطت به الدار وبعد المزار، كان عليه أن يؤمن في الدنيا ؛ كان عليه أن يؤمن حينما كان شاباً، حينما كان قوياً، حينما كان غنياً، حينما كان معتداً بقوته وذكائه وماله، الدنيا وقت الإيمان، الآن أصبح من أهل الآخرة، أنّى له الحوار والتناوش والحساب والسؤال والعتاب، هذا انتهى وقته، من مكانٍ بعيد، الإنسان يؤخذ من مكانٍ قريب، وحينما يدخل الدار الآخرة تصبح الدنيا عنه بعيدةً.

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

يلقي الكلام على عواهنه، يتكلّم بلا حساب، يتكلم بلا دقّة، بلا دليل، يكذِّب من دون دليل، يقبل هذه القصة من دون دليل.

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ)

بهذا القرآن.

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

من دون علمٍ ولا هدى ولا كتابٍ منير، العلم هو اليقين الاستدلالي، والهدى اليقين الإشراقي، والكتاب اليقين الإخباري، لا يوجد معه خبر صادق، ولا معه حجة قوية، ولا معه إشراق في قلبه، ومع ذلك يكذب، ويناقش، ويكابر.

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ)

1 - يشيب المرء على ما شبّ عليه:

الحقيقة يشيب المرء على ما شَبَّ عليه، ويموت المرء على ما شاب عليه، ويحشر المرء على ما مات عليه، الإنسان حينما ينشأ على معصية الله يتكون عنده شهوات آثمة، ميول منحطة، هذه إذا استمر عليها وبقي معها، رافقته إلى وقت الهرم.

مرةً ثانية: يشيب المرء على ما شَبَّ عليه، ويموت المرء على ما شاب عليه، ويحشر المرء على ما مات عليه.

2 - الإنسان بين خمسة أيام:

والإنسان بين خمسة أيام ؛ يومٌ مفقود، ويومٌ مشهود، ويومٌ مورود، ويومٌ موعود، ويومٌ ممدود، أما اليوم المفقود فهو الوقت الماضي، والزمن الماضي الحديث عنه لا يقدِّم ولا يؤخر، مضيَعَةٌ للوقت، بذلٌ للجهد بلا طائل، واليوم المشهود هو أخطر أيام الحياة، ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة، هذا ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً))

[روي في الأثر]

اليوم الموعود الموت، اليوم الموعود الوقوف بين يدي الله عزّ وجل للحساب، اليوم الممدود إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفدُ عذابها، وقال بعضهم: " ما مضى فات، والمؤمّلُ غيب، ولك الساعة التي أنت فيها ". أنت تملك هذه الساعة، ما مضى مَضى، والمؤمل قد لا تصل إليه:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

***

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ

هذه الشهوات ؛ الطعام والشراب والنساء، والشأن الاجتماعي، هذه كلها شهوات تنتهي عند الموت ويلقى الإنسان عمله، حتى من أمضى حياته في طلب العلم رؤي بعد الموت قيل له: يا سيدي ما فعل الله بك ؟ قال: **" طاحت تلك العبارات، وذهبت تلك الإشارات، ولم يبق إلا ركيعاتٍ ركعناها في جوف**

الليل".

إن الأعمال الخالصة لله عزّ وجل هي التي تبقى.

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ)

أي أن الحقائق ليست عندهم واضحة كانوا في شكٍ منها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (01-10): تفسير الآيات 1 - 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-04-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الأول من سورة فاطر، ومع الآية الأولى، وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ

1 ـ كل سعادة الإنسان في التفات نفسه إلى الله عز وجل:

أيها الإخوة الأكارم، كل سعادة الإنسان في التفات نفسه إلى الله عز وجل، وللنفس قوانين، من أبرز قوانينها، أنها تلتفت إلى المحسن ؛ يا داود ذكّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب مَن أحسن إليها، والآية الأولى تذكّر الإنسان بأن كل النعم التي يَنعم بها، إنما هي من الله عز وجل.

2 ـ العبرة في معرفة المنعِم لا في معرفة النعمة:

سأضع بين أيديكم صورة، لو كنتَ في مجلسٍ فيه أربعون شخصاً، وأحدهم قد أسدى إليك معروفاً جليلاً، لا تدري، ولا تشعر إلا وأنت ملتفت إليه، قد تنسى الباقين، قد لا تعبأ بكلامهم، لا تلتفت إلى صورهم، كلّك منصرف إلى هذا المحسن، هذه طبيعة النفس، يا داود، ذكّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب مَن أحسن إليها، الشرك خطره أنه يوهمك أن هذه النعم مِن زيد أو عبيد، ومِن فلان أو علان، وهي في حقيقتها من الله وحده، فإذا تحققت أن كل النعم بدأت من نعمة الإيجاد، إلى نعمة الإمداد، إلى نعمة الصحة، إلى نعمة الفراغ، إلى نعمة الطمأنينة، إلى نعمة سلامة الأعضاء، إلى نعمة الأهل، إلى نعمة الأولاد، إلى نعمة المأوى، إلى نعمة العقل إلى نعمة الهدى، إلى نعمة التوفيق للهدى، إلى نعمة التطبيق، إذا أيقنت أن كل هذه النعم هي من الله بشكل طبيعي وعفوي ووَفق قوانين النفس تلتف إلى الله عز وجل، فالنعم كما قلت من قبل: ليس هناك مشكلة في وجودها أو عدم وجودها، النعم موجودة، لا يختلف على وجودها اثنان، ولكن المشكلة، أن المؤمن يعزوها إلى الله عز وجل

وحده، وهذا هو الحق، بينما غير المؤمن تتوزع نفسه بين شركاء كثيرين، لذلك جاءت الآية الأولى: (الحمد)، هذا الموقف الذي تمليه عليك فطرتك، الامتنان الشكر، الحمد، معرفة الجميل، هذا الموقف الأخلاقي الفطري، يجب أن يكون لله عز وجل، لأنه صاحب النعم.

(الحمد لله)، هذه المشكلة، لا نختلف على وجود النعم، مَن منا لا يعلم نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة العقل، لو اختلّ هذا العقل فما مصيرنا ؟ نعمة عمل الأعضاء، نعمة أن القناة الدمعية للعين سالكة، لو أنها أغلقت، لاضطررت أن تمسح خدك باليوم آلاف المرات، لو أن البصر ضعف، لو أن السمع ضعف، ماذا يحصل ؟ لو انثقبت الأمعاء لو تعطل الكبد، لو تعطلت الكليتان، لو مرضت الزوجة، لو جاء ولد غير سليم، ما منا أحد يختلف على النعم، ولكن أهل الإيمان يعرفون المنعم من خلال النعم، وأهل الشرك والكفر لا يرون هذه النعم إلا من شركاء لله عز وجل، فلذلك جاءت هذه الآية لتؤكد لهذا الإنسان أن كل ما يتمتع به من نعم إنما هي من الله عز وجل.

إذاً: ينبغي للقلب أن يلتفت إلى الله، لأن الله سبحانه وتعالى هكذا جبل النفس الإنسانية، الحمد لله، ووصف الله ذاته:

(الْحَمْدُ لِلّهِ فَاطِرِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

3 ـ فَاطِرِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

يعني خالقها، وموجِدُها، ومبتدئها، خالقها من عدم، وقد يضيف بعض العلماء على معنى الفاطر أن الله سبحانه وتعالى، خلق الأشياء وخلق خصائصها.

كلُ مخلوق له خصائصه:

مَن أعطى الحديد قساوة ومتانة ؟ من أعطى النبات نمواً، من أعطى هذه الفاكهة غذاءً تتغذى به، هذا شيء خطيرٌ جداً، فضلاً عن وجود الأشياء، خصائص الأشياء، مَن أعطى للمعادن خصائصها، من أعطى لأشباه المعادن خصائصها، مَن أعطى لهذه العناصر التي تزيد على المائة، خصائصها، من جعل لكل عنصر درجة انصهار، ودرجة تجمد، لو أن هذه العناصر اتفقت في درجة انصهار واحدة، وفي درجة تجمد واحدة، لرأيت الكون كله صلباً، أو سائلاً أو غازاً، فمادام الكون فيه أشياء صلبة، وأشياء سائلة، وأشياء غازية فهذا من تقدير عزيز عليم حكيم خبير، فلذلك:

(الْحَمْدُ لِلّهِ فَاطِرِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

يعني مبدعها، وخالقها، وخالقها على خصائص معينة، خلق الكون بما فيه من عناصر، وخلق لكل عنصر خصائصه، الطلاب يدرسون في التعليم الثانوي في علم الفيزياء الخصائص الفيزيائية لكل معدن، والخصائص الكيميائية، هذه الخصائص مَن صممها، من صمم أن الرصاص يتمدد إذا برد، كيف نوفق بين المعدن القاسي والحجر القاسي ؟ كيف نثبت المعدن في الحجر، لولا الرصاص الذي ينصهر بدرجة مائة، فإذا صببته في حفرة، ووضعت في هذه الحفرة قطعة معدن، هذا الرصاص إذا برد يتمدد، فإذا تمدد أصبح هذا المعدن والحجر قطعة واحدة، مَن أعطى الرصاص خصائصه، من أعطى الذهب خصائصه، من أعطى الفضة خصائصها، من أعطى كل إنسانٍ طباعاً.

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

(سورة المعارج: 19 - 21)

(وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا)

(سورة النساء: 28)

(خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

(سورة الأنبياء: 37)

من جعل هذا الحيوان أليفاً ؟ لماذا تقفز من عقرب صغير ؟ ولا ترتعد فرائصك من جمل كبير، مَن ذلّل الجمل، من ذلّل الأنعام، من ذلّل القطة في البيت، فأرة أصغر منها تملأ البيت رعباً، وقطة أكبر منها تملأ البيت أنساً، من أعطى كل حيوان طباعه ؟ لو ركّبَ طباع السباع في الغنم كيف نأكلها ؟ كيف نرعاها ؟ كيف نتعامل معها ؟ لا تنسوا كلمة:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس: 72)

الطائر مذلل، الطيور محببة، القوارض ليست محببة، مع أن للقوارض شكلاً انسيابياً، لكنها مُنفّرة، من أودع في هذه الحُب، أو الأنس، وأودع في الأخرى النفور ؟

يضيفُ بعض علماء التوحيد، إلى كلمة (فاطر)، أنه خلق الأشياء، وأعطاها خصائصها المادية والمعنوية، ومن هنا قول الله عز وجل:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم: 30)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وجعل بين السماوات والأرض، جعل رُسُلاً ينقلون أوامر السماء إلى الأرض، ويرفعون أعمال العباد إلى السماء، إنهم الملائكة:

(جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا)

جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ

بين السماء والأرض، وهذه الآية أول آية وصف فيها الله عز وجل شكل الملائكة، قال:

(أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)

أما كلمة:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

تفسير: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

التفسير الأول:

فسرها المفسرون بأن الله سبحانه وتعالى يزيد عددهم إذا شاء.

التفسير الثاني:

أو يزيد أجنحتها إذا شاء، وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآية مطلقة، جعل الناس في طول متوسط:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

قد يزيد الإنسان طولاً، وقد يزيده ذكاءً، وقد يزيده نضارةً، وقد يزيده ذاكرةً، وقد يزيده حكمةً، وقد يزيده قوةً، وقد يزيده شجاعةً:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

وهذا شيء واقع، تحس أن هناك أناساً متفوقين في ذاكرتهم، متفوقين في قدراتهم، هناك قدرات زائدة على الحد المتوسط يتمتع بها بعض الناس، من منح هؤلاء الناس من الفئة العبقرية هذه الزيادة ؟

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

قدرات الإنسان غير محدودة:

يجب أن تعلموا أيها الإخوة أن قدرات الإنسان لا كما يظن بعض العلماء محدودة، ومدموغة بحد لا تتجاوزه، بل إن قدرات الإنسان غير محدودة، فكلما ازددت إيماناً تألق ذهنك، وانطلق لسانك، وقويت عزيمتك، الذي يظن أن طاقات الإنسان وقدراته الخاصة محدودة منذ الولادة وحتى الموت هذا إنسان جبري، لكن الله سبحانه وتعالى:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

قد يجعل من الضعف قوةً، ومن ضعف التفكير ذكاءً، ومن ضعف الذاكرة حفظاً، والإنسان له أن يطلب.

ذكرت لكم مرةً قصةً تركت في نفسي أثراً كبيراً، وتعطي هذه القصة للإخوة المستمعين شحنة من الحماس ليس لها مثيل، ذكرت لكم أن رجلاً من صعيد مصر يبلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً، تاقت نفسه وهو في هذه السن المتقدمة إلى أن يكون عالماً، وهو لا يقرأ ولا يكتب، فركب دابته، وساقها إلى مصر، إلى القاهرة، وسأل بعض الباعة: أين الأزعر ؟ الأزعر، لا يعرف اسمه، فقال له صاحب الدكان: يا أخي اسمه الأزهر، اسمه الأزهر الشريف، اذهب من هذا الطريق، فهذا الرجل تعلم القراءة والكتابة، ثم تعلم تلاوة القرآن، ثم حفظ القرآن، ثم تدرج في سنوات الأزهر الأولى، فالثانية، فالثالثة، ويذكر تاريخ الأزهر أن هذا الرجل عاش ستة وتسعين عاماً، وما مات إلا وهو شيخ الأزهر، وكان من علمائِهِ الأجلاء، وترك آثاراً كبرى:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

تشكو من ضعف الذاكرة ؟ الله قادر على أن يزيد ذاكرتك دقةً ومتانةً، تشكو من ضعف النطق ؟

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي(27)يَفْقَهُوا قَوْلِي(28))

(سورة طه: 27)

تشكو من ضعف العزيمة ؟

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة: 5)

إذا آمنت أن قدراتك محدودة فهذا هو اليأس القاتل، وهذا هو الباطل، فالله عز وجل موجود، فإذا منحك شيئاً زادك على أقرانك، زادك مكانةً، زادك تألقاً، زادك حكمةً، زادك جرأةً، زادك شجاعةً زادك علماً.

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه: 114)

ليسَ عندنا في الإسلام حكم ثابت:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

يخلق من الضعف قوة، يخلق من التفرق جمعاً، من العداوة حباً، فهذه الآية في السياق لها معنى، وإذا نُزِعت من السياق فهي قانون من قوانين الله عز وجل:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

قد يعينك على حفظ القرآن، وأنت في سن متأخرة، قد يعينك على غض البصر، قد يعينك على أن تقف موقفاً شجاعاً، بعد أن ألفت مواقف النفاق، قد يعينك على أن تنطق بالحق:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم]

إذاً:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

أنت تعتقد أن العلاقة مع أهلك لن يُرأب صدعها، لا، بل يصلحها، ويزيد هذه العلاقة حباً ومتانةً، ووداً وإخلاصاً، إذا استقمت على أمر الله، تعتقد أنت أن هذا المحل طاقته محدودة، لا يكفي دخله لأسرتين:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

قد يجعل الناس تهفو إلى هذا المحل.

هذه الآية تبثُّ التفاؤل، تبثُّ الثقة بالله عز وجل، فأيّ شيء خلقه ففي قدرته أن يزيده، يزداد علمك، والله قادر على أن يزيدك مالاً، إذا كنت ترى أن دخلك محدود، ولا أمل لك في الزواج فهذا يأس:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

هو الخلاق العليم، هو الرزاق الكريم، هو الفعال لما يريد، هو الغفور الودود، ذو العرش المجيد، هو كل شيء.

أرادت هذه السورة، بل أراد الله عز وجل من خلال هذه الآيات أن يلفتك إليه، أنْ يا عبدي أنا المحسن، أنا صاحب كل النعم، التفت إلينا، دع السِوى (غير الله) والتشاؤم والقنوط.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

قدرته تتعلق بكل ممكن، تتعلق بكل شيء، فهو قادر على أن ينهي هذا الورم الخبيث بلا دواء، وهناك آلاف الحالات، واسألوا الأطباء، ورم خبيث، قادر على أن يشفيك منه تماماً، لأن الله على كل شيء قدير، قدرته تتعلق بكل شيء، ما من شيء يمكن أن تقول فيه: هذا لا يكون، بل يكون، قدرته تتعلق بكل شيء، مهما بدا لك عظيماً:

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

هذا معنى قوله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80)وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

(سورة الشعراء: 78 - 82)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

آثار رحمة الله:

أيها الإخوة الأكارم، رحمة الله عز وجل من أسرار الله، شيء عجيب، كيف نعرفها ؟ و الله من المستحيل أن نعرفها، لكن يمكن أن نرى آثارها.

أعددت لكم كلمة حول هذه الرحمة، لأنها شيء عظيم يكثر ذكره في القرآن الكريم.

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف: 56)

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران: 159)

فما هي الرحمة ؟

أهي الرحمة ؟ أهي التجلي ؟ أهي السكينة ؟ أهي السعادة ؟ أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية أن يقطع كل شُبهة قوةٍ في السماوات والأرض، وأراد أن يلفتك إلى قوة الله وحده، مهما كان في الأرض من قوى كلها قوى خُلُبيّة، لا تقدم ولا تؤخر، أراد الله بهذه الآية أن يقطعك عن كل شبهة في السماوات والأرض، وأن يلفتك إلى قوة الله وحده:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا

1 ـ لا فاتح للرحمة ولا ممسك لها إلا الله:

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبعدك عن شبهة أية رحمة مما سواه، وأن يصلك برحمته وحده تعالى، أراد الله عز وجل بهذه الآية أن يوصد أمامك كل بابٍ أرضي، وأن يفتح لك باب السماء، فدعك من السِّوى، دعك مما سوى الله، دعك من الأغيار، دعك من الشركاء، دعك ممن حولك.

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

رحمة الله تجدها في ذاتك، في نفسك، في تكوينك، في طباعك، في عقلك، في قدراتك، في تكريم الله لك، فيما سخر الله لك مما في السماوات والأرض، في الذي فوقك، في الذي تحتك، فيمن عن يمينك، فيمن عن شمالك، فيما أنعم الله عليك، مما تعلم، ومما لا تعلم، رحمة الله في كل شيء، في كيانك، في أسرتك، في أهلك، في عملك، في عقلك، في عضلاتك، في جوارحك، رحمة الله واسعة.

2 ـ رحمة الله بادية في المنع والعطاء:

هذه الرحمة تتمثل في المنع أحياناً، رحمة الله عز وجل تكون أظهر ما تكون في المنع، فربما كان المنع عين العطاء، وربما كان العطاء عين المنع، وإذا فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، ربما أوحشك من خلقه ليؤنسك بذاته، لذلك:

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: 216)

رحمة الله عز وجل تجدها في كل شيء، فلو أعطاك الله كل شيء، وحجب عنك رحمته لم يعطك شيئاً، ولو حرمك الله من كل شيء، وتجلّى عليك برحمته لم تفقد شيئاً، لها سر، نحن نعرفها بآثارها، أما طبيعتها فغير معروفة، قد يعطيك الله كل شيء، من صحة، إلى مال، إلى قوة، إلى جاه، ويحجب عنك رحمته، فإذا أنت من أشقى الناس، وقد يحجب عنك المال، لك دخل قليل، ويحجب عنك الصحة أحياناً، ويحجب عنك رغد العيش أحياناً، فإذا أنت في جنة عرضها السماوات والأرض، ما سر هذه الرحمة ؟

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

3 ـ مَن فَقَدَ رحمة الله لم يجد شيئا، ومَن وجد رحمة الله لم يفقد شيئا:

أي للنعم، إذا أعطاك الله إياها، وأمسك رحمته عنك انقلبت إلى نقم.

والمحن، إذا فتح الله لك باب الرحمة معها انقلبت إلى نعم، هناك أسرار ؛ قد ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله، فإذا هو فراش وثير، وينام على الحرير، وقد أُمسكت عنه رحمة الله، فإذا فراشُه شوك القتاد.

في أحد الفنادق كتبت لوحة فوق السرير، إذا أرقت، وتقلبت على السرير، وتأخر عنك النوم، فلا تشتكِ من السرير، بل اشتكِ من ذنوبك، لأن الذنوب تقلق، وتؤرق، فقد تنام على الحرير ظاهراً، وقد أُمسِكتْ عنك رحمة الله فعلاً، فإذا هو الشوك، فإذا هو الفراش الخشن، وقد تنام على الشوك وعلى الأحجار،

وفي خيمة متواضعة، فإذا هي مهاد مريح، فالشيء الذي يغيّر هو رحمة الله عز وجل، تعالج أعسر الأمور مع رحمة الله، فإذا الأمور كلها سهلة هينة، وتعالج أيسر الأمور، وقد تخلت عنك رحمة الله، فإذا هي مشقة وعسر، لذلك فالنبي الكريم كان يقول:

((اللهم إني أعوذ بك مما أهتم له، ومما لا أهتم له))

[ورد في الأثر]

شيء سخيف جداً يقلب حياتك جحيماً، وقد تمر بأعظم الأهوال ورحمة الله معك، فإذا هي سهلة، هذه الآية دقيقة جداً:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

تخوض أشد المخاوف والأخطار مع رحمة الله، فإذا أنت في أمن وسلام، وتعبر دون رحمة الله المناهج والمسالك فإذا هي الهوالك، في الطريق الواضح المضاء، في رابعة النهار، ولك مركبة من أحدث المركبات تقع مشكلة تقضي على معظم ركابها، وقد تمر بأهوال شديدة، وبطرق وعرة، ومع ذلك سلامة وراحة، فالأصل أن تنال رحمة الله عز وجل:

(إِنّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف: 56)

4 - إِنّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ

لا ضيق مع رحمة الله، إنما الضيق في إمساكها، كل أنواع الضيق مع رحمة الله تغدو يسراً وسعادة، ولا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، واسأل إنساناً فقد حريته عشرة أعوام، إذا كان مع الله عز وجل، وفي رحمة الله عز وجل، يقول لك: قطعة من الجنة، وهو لا يكذب، ولا يبالغ، وإنسان يتقلّب في أفخر البيوت، إذا كان الله ليس راضياً عنه فهو من أشقى الأشقياء، لا يتسع عليك مكان مع إمساك الرحمة، ولو تقلبت في أعطاف النعيم، ومرافع الرخاء، وأنت في أعطاف النعيم ومرافع الرخاء إذا غابت عنك رحمة الله عز وجل، فإذا المكان جحيم لا يطاق، وإذا النعيم شقاء، وإذا النعم نِقَم، لو دخلت إلى قلب تجلّى اللهُ عليه بالرحمة لرأيت ينابيع السعادة، والرضا، والطمأنينة تتفجر من خلاله، وإذا دخلت إلى قلب حجبت عنه رحمة الله لرأيت القلق، التعب والنصب، والكد، والمعاناة، إذا فُتحت أبواب رحمة الله، وغلقت جميع الأبواب، وأوصدت جميع النوافذ، وسَدت جميع المسالك، فهي الفرج والفسحة، واليسر، والرخاء، وإذا أغلق باب الرحمة، وفتحت جميع الأبواب، وجميع النوافذ، وجميع المسالك، فإذا هي الضيق والكرب، والشدة، والقلق، والمعاناة، حتى الآن لم نستطع تعريف رحمة الله، وإنما أتحدث عن آثارها فقط.

إذا رحمك الله عز وجل يسعدك بأية زوجة، وبأي دخل، وبأي صحة، وبأي قوام، وبأي مهنة، وإذا غابت عنك رحمة الله تضيق عليك الأرض بما رحبت، لو اقترنت بأجمل فتاة على وجه الأرض قد تغدو مصدر شقاء، لو كان لك أكبر دخل فهو مصدر شقاء، إذاً هناك سر، هذا ما قاله أحد العارفين بالله، لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف، تفتح لك أبواب الرحمة، ويضيق الرزق، ويضيق السكن، ويضيق العيش، وتخشوشن الحياة، فإذا أنت في رخاء وراحة، وطمأنينة، وسعادة.

يضيق الرزق، تخشن الحياة، يشوك المضجع، فإذا أنت في رخاء، وراحة وطمأنينة، وسعادة، وقد يمسك الله رحمته، ويفتح لك أبواب الرزق كلها، ويقبل عليك كل شيء فلا جدوى، بل ضنكٌ، وحرجٌ، وشقاوةٌ، وبلاءٌ.

المال والولد، والصحة القوة، والجاه والسلطان، هذه حظوظ الدنيا.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف: 46)

المال والولد، والصحة والقوة، والجاه والسلطان، تصبح مصادر قلقٍ، وتعبٍ، ونصبٍ، ونكدٍ، وجهدٍ، إذا أُمسِكت عنها رحمة الله. أمّا إذا فتح الله أبواب رحمته، كانت هذه مصدر سكن، وراحة، وسعادة وطمأنينة، يبسط الله الرزق مع رحمته، فإذا الرزق متاع طيب، رغد في الدنيا، وزاد في الآخرة، ويمسك الله رحمته مع وفرة الرزق، فإذا الرزق نفسه مسارُ قلقٍ، وخوفٍ، وحسدٍ، وبغضٍ، وقد تحس بالحرمان ببخلٍ أو مرضٍ، وقد تتلف نفسك بإفراط، واستهتار.

5 - الرزق بين مصاحبة الرحمة ومفارقتها له:

الآن تطالعنا حالة جديدة، الرزق نفسه إذا رافقته رحمة الله أصبح رغداً في الدنيا، وزاداً في الآخرة، وأصبح مصدر سعادة وسرور، والرزق نفسه إذا غابت عنه رحمة الله عز وجل أصبح هذا الرزق مصدر حسدٍ، وبغضاء، وعداوة، وربما حرم الإنسان رزقه ببخله أو بمرضه، و ربما انقلب عليه، بإفراطه، واستهتاره.

يمنح الله الذرية مع رحمته، فإذا هذه الذرية زينة الحياة الدنيا ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر بالخلف الصالح، ويمسك رحمته فإذا هذه الذرية بلاءٌ، ونكدٌ، وعَنَتٌ، وشقاءٌ، وسهرٌ بالليل وتعب بالنهار تقول أحدهم: البلاء من الأولاد، وقد يكون الولد رحمة من الله عز وجل، كلمة رحمة عجيبة، تقريباً أردت أن أعرفها تعريفاً مبسطاً.

يعني جهاز كهربائي، بلا كهرباء عبء، مع الكهرباء أصبح مكيفاً، أصبح ثلاجة، أصبح غسالة، أصبح مسجلة، أصبح يقدم لك خدمة كبيرة، إذا ألغيت هذه الطاقة، أصبح قطعةً من حديد، وعبئاً عليك، رحمة

الله عز وجل تسري في الولد فإذا هي سعادة، تمنع رحمة الله عن الولد، فإذا هو مصدر بلاء، وشقاء، وفي آخر الزمان يكون الولد غيظاً، والمطر قيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيظ الكرام غيظاً، ورحمة الله إذا دخلت في بيت صار هذا البيت جنةً، على صغره، وعلى خشونته، وعلى بساطته، وإذا غابت رحمة الله عن بيت كبير كَبير مجهز بأوفر الأثاث، وبكلّ جهاز، أصبح البيت قطعة من جحيم، والزوجة والزوج، إذا تجلى الله على الزوجين برحمته عاشا رغداً بجنة، وإذا تخلت عنهما رحمة الله عز وجل عاشا في نكدٍ وخصومة.

6 ـ رحمة الله سرّ من أسراره:

ما هي رحمة الله ؟ إنها سر من أسراره، يعني إذا وجدت لا تحتاج معها إلى شيء، وإذا فقدت فأنت في حاجة إلى كل شيء، الصحة، والقوة مع رحمة الله نعمة وحياة طيبة، والتلذذ بالحياة، والصحة، والقوة نفسها إذا حجبت عنها رحمة الله عز وجل أصبحت بلاء يسلطه الله، فينفق صاحب الصحة والقوة صحته وقوته فيما يحطم جسمه، ويفسد روحه، ويدخر السوء ليوم الحساب، فهذه القوة، وهذه الصحة إذا شاعت فيها رحمة الله عز وجل، فإذا هي سعادة ورخاء، وصلاح في الدنيا والآخرة، وإذا غابت عنها رحمة الله أصبحت هذه الصحة، وتلك القوة مصدر شقاء وتعاسة، وعذاب في الآخرة.

إن الله يعطي القوة مع رحمته، فإذا هذه القوة أداة إصلاح، ومصدر أمن، ووسيلة لادخار العمل الصالح في الآخرة، ويمسك الله رحمته مع هذه القوة والجاه، فإذا هذا الجاه يصبح أداة للطغيان، والعدوان والاستكبار، ولعذاب النار يوم القيامة أشد.

لعل في هذه الأمثلة ما يكفي، رحمة الله شيء عجيب، إذا سرت في أي شيء جعلته جنة، وإذا غابت عن أي شيء مهما كان عظيماً جعلته جحيماً، لذلك لما قال ربنا عز وجل:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف: 32)

النبي عليه الصلاة والسلام ماذا آتاه الله ؟ آتاه رحمة من عنده، أبيت عند ربي يطعمني، ويسقيني، لي ساعة مع ربي لا يسعني فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب.

فلو شاهدت عيناك من حسننا ... الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا
ولو سمعت أذناك حسن خطابنا ... خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا
ولو ذقت من طعم المحبة ذرة ... عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولو نسمَتْ من قربنا لك نسمة ... لمِتّ غريباً واشتياقاً لقربنا

***

هذه رحمة الله، الشيء الذي لا يصدق أنها قريبة من كل محسن، وفي متناول أيديكم جميعاً، يكفيكم توبة نصوح، وعمل صالح لوجه الله، فإذا أنت تتعرض لهذه الرحمة، يكفيك أن تخلص لله عز وجل، أن تعقد صلحاً معه، أن تتوب توبةً نصوحاً، أن تلتفت إليه، أن تؤدي صلواتك بخشوع، يكفيك ذلك، فإذا قلبك غني، وإذا قلبك مطمئن، وإذا أنت تستمتع بأكلة خشنة، أضعاف ما يستمتع به أصحاب الأموال الطائلة في أفخر الولائم، تستمتع بهذا البيت وأولادك وأهلك أضعاف ما يستمتع به أولو الحول والطول، الذين اختاروا أجمل الزوجات، وعندهم أنجب الأولاد.

هذه رحمة الله يجب أن نبحث عنها، واقرأ قول الله تعالى فإنك واجدها:

(كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17)وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الذاريات: 17 - 18)

أيها الإخوة الأكارم:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ)

من الممكن أن نضع إنساناً بصحراء، والله عز وجل يتجلى عليه برحمته، فهو من أسعد الناس، وأن نضع إنساناً في أفخر بيت، ونطعمه أطيب الطعام، ومع ذلك يقول لك: كاد قلبي يُعصر، ضاقت نفسي، هذا معنى قول الله عز وجل.

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ)

(سورة التوبة 118)

هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد، وقاطعهم النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه الكرام:

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

وقد تقف أمام الموت فتقول: مرحباً بلقاء الله عز وجل، واكربتاه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه.

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام افتقد أحد أصحابه بعد معركة أحد، فسأل عنه، فكلف رجلاً أن يبحث عنه، ذهب إلى ساحة المعركة، فإذا هذا الصحابي الجليل على وشك الموت، في النزع الأخير، فقال له الرجل الذي جاء يبحث عنه: أميت أنت أم حي ؟ قال: بل أنا مع الأموات، أمَا واسمع أيها الأخ ما قال هذا الصحابي وهو في النزع الأخير، قال: أبلغ رسول الله مني السلام، وأبلغ أصحابه مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه: لا عذر لكم عند الله، إذا خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عين تطرف.

أنا أتصور أن هذا الصحابي كان في قمة سعادته، وهو في النزع الأخير، واسأل أطباء القلب عن حالات الوفاة التي يشاهدونها كل يوم، لطم للوجوه، وصراخ بالويل، و بكاء وسلوك أطفال، من شدة

الخوف من الموت، ما هذه الرحمة ؟ تواجه بها الموت، فإذا هو كأطيب ما يكون، وتواجه من دون هذه الرحمة لذّات الحياة فإذا هي شقاء في شقاء:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ)

يكفي أن يكون الإنسان في غضب الله، خذ المال، وخذ الجاه، وخذ الصحة، واركب المركبات، و طِرْ في السماوات، و غُص في أعماق البحار، وتنقل من بيت إلى بيت، ومن منتجع إلى منتجع، ومن بلد إلى بلد، ومع كل ذلك فهو في شقاء.

أيها الإخوة الأكارم: البطولة أن تستحق رحمة الله، إذا جاءتك رحمة الله جاءك كل شيء، وما فقدت شيئاً، وما فاتك شيء، ولا تندم على شيء، وإذا غابت عنك رحمة الله ما نلت شيئاً، ولا حصّلتَ شيئاً، وفاتك كل شيء:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(إِنّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف: 56)

7 ـ الاستقامة ثمن الرحمة:

يا أيها الإخوة الأكارم: كل هذا الوصف والثمن بسيط، وَاللّهِ الّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ، ثمن هذه الرحمة في أيديكم جميعاً، يكفي أن تستقيم على أمر الله، غض بصرك عن محارم الله، اضبط لسانك، اضبط أذنك، أنفق من مالك، صلّ والناس نيام، اقرأ القرآن، وانتهى الأمر، تشعر بهذه الرحمة، إن لم تقل: أنا أسعد الناس فهذا الدين باطل، يجب أن تقول في أي ظرف، في أي بيئة، في أي مكان، في أي زمان، قبل الزواج، وبعد الزواج، قبل الغنى، وبعد الغنى، سواء كنت في بحبوحة، أو في ضيق، أو في صحة، أو في مرض، يجب أنا تقول: أن أسعد الناس، لأني عرفت الله عز وجل، ولأنك إذا عرفت الله تجلى الله على قلبك، ما معنى ؟ إن بيوتي في الأرض المساجد، وزوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، ماذا في المسجد ؟ هل فيه كؤوس شاي ؟ أو أطباق حلويات، ما فيها شيء من المتع إطلاقاً، بل لا تجد كرسياً في المسجد، تجلس على الأرض، ومع ذلك يتجلى الله على قلب المصلين، وعلى قلب رواد المساجد برحمة، يقول لك أحدهم عند خروجه: صار معي زاد، يخرج من بيت الله وهو منتشٍ، يبقى يومين، أو ثلاثة، أو أربعة، وهو محتفظ بهذه السعادة، الثلاثاء والأربعاء تتناقص، ثم يأتي يوم الجمعة فيشحن مرة ثانية، وهكذا.

فلذلك:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

كلمة أخيرة حول هذه الآيات مادام الله عز وجل أراد أن يلفتنا إلى ذاته العلية، وأراد أن يبلّغنا أنّ كل هذه النعم التي أنتم فيها إنما هي من عندِ الله سبحانه، وأنكم إذا التفتم إليّ تسعدون، وأن الرحمة كلها بيدي، و أن هذه الرحمة كالكهرباء تسري في كل شيء، فإذا هو يتحرك، وإذا حجبت عن أي شيء، فإذا هو جماد ميت، هذه الرحمة إذا سعينا إليها بإخلاصنا، وتوبتنا، وطاعتنا، وأعمالنا الصالحة، هذه الرحمة كفيلة أن تقلب الحياة إلى نعيم، حتى في أقسى الظروف، وهناك من يقول لك وهو صادق: إنه مرّ بأقسى الظروف، وأصعبها، وأخشنها، ومع ذلك كان سعيداً، وحينما جاءه الرخاء، وحجبت عنه رحمة الله صار شقياً، إذاً رحمة الله تسعد كل مخلوق، وهي التي وعدنا الله بها:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف: 32)

8 ـ الراحمون يرحمهم الرحمن:

الراحمون يرحمهم الله، ما معنى هذا الحديث ؟ يعني إذا خدمت الناس، وأخلصت لهم ونصحتهم وقدمت لهم شيئاً من ذاتك، من علمك، من مالك، من جهدك، رحمك الله عز وجل، أسعدك، يعني إذا أردت أن تسعد فأسعدِ الآخرين، هذا معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى))

[البخاري عن جابر]

إذا كنت سمحاً بالبيع والشراء تحس بتجلٍّ، تحس بمكانتك، إذا كنت متشدداً وقاسياً تكون بعيداً عن رحمة الله عز وجل، وفي كل شيء إذا كنت محسناً تحس بسعادة، الأمر بسيط جداً، هذه السعادة يصعب وصفها، أما إذا كنت أخلاقياً، كنت محسناً، كنت متساهلاً، أميل للين، تشعر أن الله عوضك عما فقدته سعادة في قلبك، هذه الرحمة، فلذلك هذه الرحمة يجب أن تكون شيئاً واضحاً في حياتنا، إذا جاءت فأنت بخير وإن غابت عنك لم تحصّل شيئاً.

رحمة الله بين أيديكم:

1 ـ الرحمة بالتوبة:

مرة ثانية من شدة حرصي على هذه الفكرة، رحمة الله بين أيديكم وفي متناولكم، ويكفي أن تتوب إلى الله توبةً نصوحاً، يكفي أن تعقد مع الله صلحاً، يكفي أن تتجه إليه، يكفي أن تخلص له، يكفي أن تنفق

في سبيله أي شيء، حتى تشعر برحمته، وقد ملأت قلبك، وسَرَتْ في جوانحك، وشَعَّتْ في نفسك، فإذا أنت إنسان متميّز، لست كبقية الآخرين، لست كهؤلاء الناس، الذين تفسدهم النعمة، و تسحقهم المصيبة، هؤلاء الذين يتضعضعون أمام الأغنياء، هؤلاء المنافقون، هؤلاء المنهزمون، هؤلاء الخانعون، هذه الصفات الخسيسة الدنيئة أنت بعيد عنها، لأن الله قد رحمك، الراحمون يرحمهم الله.

2 ـ الرحمة برحمة الخَلق:

آخر حديث: حديث قدسي:

((إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي))

أيّ إنسان مهما كان، تقول لي: فلان ليس مسلماً، أتقول: أي إنسان مهما كان اتجاهه إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي، حتى الحيوانات، حتى النبات، ارحمْه اسقِه ماءً، قلّمه في وقت التقليم، ارحم النبات، وارحم الحيوان، وارحم الإنسان تأتِكَ رحمة الله، وإذا جاءتك رحمة الله سعدت سعادة لا تقوى متاعب الدنيا كلها على تقويضها، وإذا حرمك الله هذه السعادة فلا تستطيع نعم الدنيا كلها أن تسعدك، الشقاء والسعادة بيدك، إذا اقتربت من الله جاءتك رحمته فأنت أسعد الناس، وإذا ابتعدت عنه بالمعاصي غابت عنك رحمته فأنت أشقى الناس.

خاتمة:

1 ـ الابتعاد عن رحمة الله يعني اللعنَ:

هذا ملخص مُلخص الملخص، إذا أقبلت على الله بطاعته جاءتك رحمته فسعدت بها في الدنيا والآخرة، وإذا ابتعدت عنه بمعصية غابت عنك رحمة الله، وهذا معنى اللعن.

(أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللّاعِنُونَ(159))

(سورة البقرة: 159)

ما معنى إبليس اللعين ؟ إبليس ملعون أي بعيد عن رحمة الله، بعيد عن نور الله، عن تجلّي الله، عن سكينة الله، عن رحمة الله فالأمر بيدنا، والإنسان مخير، إذا عصيت الله جاء الحجاب بينك وبين رحمة الله، وإن أطعته كشف الحجاب، هذا ملخص مُلخص الملخص، ملخص الدروس كلها.

2 ـ لا أحد يستطيع أن يمنه نعمة الله عن أحدٍ:

آخر شيء:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

لا تستطيع قوى الأرض مجتمعةً أن تمنعك رحمة الله عز وجل، وإذا كانت بيدك قوى الأرض كلها، وغابت عنك رحمة الله فأنت أشقى الناس:

(وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (02-10): تفسير الآيات 2 - 5 ، الرحمة سر من أسرار الله العظيمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-04-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من سورة فاطر، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية الثالثة من سورة فاطر، وكنا قد أنهينا الآية الثانية التي تبدأ بقوله تعالى:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

رحمة الله:

1 - رحمة الله سرٌ من أسراره:

وقد بينت في الدرس الماضي أن رحمة الله عز وجل سرٌ عظيم قد تأتي مع الحرمان فيغدو عطاءً، وقد تُفقد مع العطاء فيغدو حرماناً قد تأتي مع المرض فيكون راحةً، وقد تُفقد مع الصحة فيكون شقاءً، فالله سبحانه وتعالى جعل رحمته سراً من أسراره، فإذا تجلّى على عبد بالرحمة أسعده، في أي ظرف، في أي وضع، في أي مكان، في أي زمان، في أي مستوى، وإذا حجب رحمته عن عبده أشقاه، ولو كان في أعلى درجات الغنى، وأعلى درجات القوة، وأعلى درجات المجد والصحة.

2 - رحمة الله وعلاقتها بالعلم والعُمر:

أيها الإخوة الأكارم، العلم الغزير، والعمر الطويل، والمقام الطيب، هذه لها علاقة نفيسة برحمة الله عز وجل، فقد يكون علماً غزيراً لا ينتفع منه، وقد يكون عمراً طويلاً لا يستفاد منه، وقد يكون المقام مقاماً طيباً ومع ذلك يغدو شقاءً على صاحبه، لكن رحمة الله عز وجل إذا توافرت في عبدٍ علمه القليل يثمر وينفع، وعمره القصير أحياناً يغنيه الله بالأعمال الصالحة، ودخله القليل يبارك الله له فيه، فإذا بارك الله لك بدخلك القليل كان أنفع لك من دخل كثير، محجوب عن رحمة الله، وإذا كان لك عمر أغناه الله بالعمل الصالح كان خيراً لك من عمر مديد مفعم بالمخالفات و التقصيرات، وإذا منحك الله علماً استعملته.

قيل لأحدهم: ما هذا المقام الذي حصلته ؟ قال: بالعلم، فقال له: واللهِ هناك أناس تعلموا أكثر منك، فما السر ؟ قال: ذلك علم حُمل، وهذا علم استعمل، والفرق كبير بين العلم الذي يحمل، والعلم الذي يستعمل.

3 ـ مِن رحمة الله عز وجل الشعورُ برحمة الله:

أيها الإخوة الأكارم، مِن رحمة الله عز وجل أن تحس برحمة الله، فإن لم تشعر بها كنت محجوباً عنها، مِن رحمة الله عز وجل أن تنتظرها، فإن لم تنتظرها كنت محجوباً عنها، من رحمة الله عز وجل أن تثق برحمة الله فإن لم تثق بها، كنت محجوباً عنها، من رحمة الله أن تنتظرها، من رحمة الله أن تحسها، من رحمة الله أن ترجوها، من رحمة الله أن تجدها، من رحمة الله أن تثق بها، فإن لم تجدها، ولم تشعر بها، ولم تنتظرها، ولم تضع ثقتك فيها، كنت محجوباً عن رحمة الله، لهذا قال الله عز وجل:

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

(سورة يوسف: 87)

4 ـ رحمة الله لا تعز على أيّ طالبٍ لها:

يا إخوة الإيمان، رحمة الله لا تعز على أيّ طالبٍ لها، أيُّ طالبٍ لرحمة الله يجدها، في أي مكانٍ، وفي أي زمان، أين وجدها إبراهيم عليه السلام ؟ وجدها في النار.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء: 69)

جاءته رحمة الله وهو في النار، فأصبحت النار برداً وسلاماً.

أين وجدها يوسف عليه الصلاة والسلام ؟ وجدها في الجب، حيث الموت، جوعاً، وخوفاً، ولكن رحمة الله عز وجل أنزلها عليه وهو في الجب:

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ)

(سورة يوسف: 19)

رحمة الله عز وجل وجدها يوسف عليه السلام وهو في السجن، والسجن وما أدراكم ما السجن، مكان ضيق، وظلام دامس، ورطوبة بالغة، وقسوة غير معقولة، ومع ذلك، إذا جاءت رحمة الله عز وجل أصبح هذا المكان الضيق جنةً، والذين عرفوا الله عز وجل، وعرفوا رحمته، صادقون فيما يقولون، هذا النبي العظيم وجد رحمة الله عز وجل وهو في السجن.

سيدنا يونس أين وجدها ؟ وجدها وهو في بطن الحوت، ما من مصيبة على وجه الأرض أشد من أن تكون في ظلمات ثلاث، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل، ومع ذلك، طلبها يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء: 87)

فجاءت رحمة الله عز وجل وأنقذته.

وجدها موسى عليه السلام وهو في اليم، في صندوق خشبي، طفل صغير رضيع عاجز عن أن يتنفس، أُلقي في صندوق، وأُلقي الصندوق في اليم، لكن رحمة الله جاءته فسيّر الله هذا الصندوق إلى شاطئ قصر فرعون، وألهم امرأة فرعون أن تكون في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، على شاطئ نهر النيل، ووقعت منها التفاتة، فإذا صندوق يتحرك، أخذته وفتحته، فإذا هو غلام، قالت:

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة القصص: 9)

جاءت رحمة الله وهو في قصر فرعون، قُتل أبناء بني إسرائيل جميعاً، من أجل ألا يأتي غلام منهم يقضي على ملكه، والذي سيقضي على ملكه رباه في قصره، هذه رحمة الله عز وجل.

أصحاب الكهف جاءتهم رحمة الله وهم في الكهف.

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا)

(سورة الكهف: 16)

أيها الإخوة الأكارم، لعلكم تقولون: لقد أطال في تفسير هذه الآية، إنها رحمة الله، إذا سعينا إليها أسعدتنا، إذا سعينا إليها أنقذتنا، إذا سعينا إليها ألقت في قلوبنا نوراً، وحضوراً، وثقةً بالله عز وجل.

رحمة الله وجدها النبي عليه الصلاة والسلام وهو في الغار، وقد تعقبه الكفار، وقال أبو بكر رَضِيَ اللّه عَنْه:

((لَوْ أَنّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللّهُ ثَالِثُهُمَا))

[متفق عليه]

إلى أن قال أبو بكر رَضِيَ اللّه عَنْه يا رسول الله لقد رأونا، وقعت العين على العين، قال: يا أبا بكر، ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف: 198)

رحمة الله إذا جاءتك فأنت أسعد الناس، وإذا حُجبت عنك، فلو كنت أقوى الناس، لو كنت أغنى الناس، لو كنت أصح الناس، فهي شقاء في شقاء.

5 ـ لا ممسك لرحمة الله إذا فتحها:

أيها الإخوة الأكارم، متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها، أقول لكم هذا الكلام، وهذا الكلام زبدة هذا الدرس: رحمة الله يجدها كل طالبٍ لها، يائس مما سواها، إن طلبتها صادقاً، ويئست مما سواها نلتها مهما كنت، كن أي إنسان في أي مكان، وفي أي زمان، لذلك من الدعاء الشريف، يا الله برحمتك نستغيث، المشكلة أن الإنسان حينما يتكئ على ما سوى الله، حينما يتكئ على صحة، وعلى مال، أو على جاه، أو على قوة، أو على زوجة، أو على ولد، أو على جارٍ، أو على معينٍ، أو على قريبٍ، أو على نصيرٍ، حينما يتكئ على ما سوى الله فلن يجد رحمة الله، أما إذا اتجه إلى الله عز وجل، مخلصاً، وقطع أمله مما سواه فإنها بين يديه، هذه رحمة الله، يصعب أن نشرحها، لكن تحدثنا عن آثارها.

لذلك فالاستنباطُ من هذه الآية الكريمة ملموسٌ:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

6 ـ من لوازم الشعور برحمة عدمُ الخوف من الناس:

إذاً: الاستنباط البسيط أنه ينبغي ألاّ تخاف أحداً، وألا ترجو أحداً، لأن أحداً لا يستطيع أن يمنحك إياها إذا حجبك الله عنها، وإن أحداً لا يستطيع أن يحجبها عنك إذا أرسلها الله إليك، الاستنباط الواضح القطعي ما دامت رحمة الله هكذا إنْ فتحَها فلا ممسك، وإنْ أمسكَها فلا مرسل، إن كانت كذلك إذاً فمن الغباء، وضيق الأفق، والحمق، أن ترجو أحداً، أو أن تخاف أحداً من الشرك، وضعف الإيمان، أن ترجو مخلوقاً، وأن تخاف من مخلوق، قلت أحداً، أعني به الإنسان، الآن قلت: مخلوقاً، أن ترجو مخلوقاً، أو أن تخاف من مخلوق، بل من الشرك أن ترجو شيئاً، أو أن تخاف من شيء، بل من الشرك أن تخاف فَوْت الوسيلة، فإذا تجلّى الله عليك برحمته كان هو الوسيلة، وأن ترجُوه مع الوسيلة، فإذا حجب الله عنك رحمته لا قيمة للوسيلة، هناك أسباب، إن جاءت رحمة الله لا معنى للأسباب، وإن حجبت رحمة الله فلا معنى للأسباب.

إذاً: ملخص هذه الآية حديث شريفٌ بليغٌ موجزٌ جامعٌ مانعٌ، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

[كنز العمال عن علي موقوفا]

لا ترجُ أحداً، ولا تخف أحداً، لا ترجُ مخلوقاً، ولا تخف من مخلوق، لا ترجُ شيئاً، ولا تخف من شيء، لا ترجُ وسيلةً إذا حجبت عنك رحمة الله، ولا تخف فوَتْ وسيلةٍ إذا جاءتك رحمة الله.

(إِنّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف: 56)

وهي مبذولة لكل عباده المؤمنين، لا فرق بين أبيضهم وأسودهم، ولا بين غنيهم وفقيرهم، كلكم لآدم وآدم من تراب.

7 ـ الاستقامة سبب لرحمة الله:

أيها الإخوة الأكارم، قد تأتيك رحمة الله عز وجل، ولا شيء يتغيّر مِن حولك، ولكن شعورك برحمة الله هو من رحمة الله، لكن شعورك بالطمأنينة هو من رحمة الله، فإذا وجدت الله وجدت كل شيء، وإن فاتتك رحمة الله فاتك كل شيء، ورحمة الله تحتاج إلى معرفة أولاً، وإلى استقامة ثانياً، وإلى عمل صالح ثالثاً، فإذا توافرت لك المعرفة عن طريق التفكّر، وعن طريق حضور مجالس العلم، وإذا توافرت لك الاستقامة عن طريق معرفة منهج الله عز وجل، والالتزام به، وإذا أكرمك الله بعمل صالح خالص لوجهه، فقد أصبت رحمة الله، ولا تنس قوله تعالى:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف: 32)

لأن الذي يجمعونه مهما كبر حجمه، يتركونه في الدنيا، ويدخلون في قبورهم حفاة عراة، لا شيء ينفعهم إلا العمل الصالح، والدنيا ساعة فاجعلها طاعة، والنفس طماعة عوّدها القناعة.

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

و إذا العناية لاحظتك جفونها نـم فالمـخاوف كلـهن آمـان

***

إذا كنـت في كل حال مـعي فعن حمل زاد أنا في غـنى

فأنتـم هو الحـق لا غيركـم فيـا ليت شـعري أنا من أنا

***

هذه رحمة الله، الشيء اللطيف أنها مبذولة، وأنها لكل الخلق.

أبلغ كلمة قالها سيدنا عمر رَضِي اللّه عَن عمر لسيدنا سعد بن أبي وقاص، وسيدنا سعد بن أبي وقاص خال رسول الله، وكان يحتل مكانة عليّة جداً عند النبي عليه الصلاة والسلام، فهو الوحيد الذي كان إذا دخل عليه داعبه، وقال:

((هَذَا خَالِي، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ))

[الترمذي عن جابر]

هو الوحيد الذي فداه النبي بأبيه وأمه، قال:

((يَا سَعْدُ، ارْمِ فِدَاكَ أبي وَأمّي))

[متفق عليه عن علي]

هذا الصحابي الجليل الذي قال مرة: << ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس، ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول، حتى أنصرف منها، ولا سمعت حديثاً من رسول الله صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلا علمتُ أنه حق من الله سبحانه وتعالى >>، هذا الصحابي الجليل قال له عمر بن الخطاب: **<< يا سعد، لا يغرّنك أنه قد قيل لك: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له >>.**

أنت بطاعة الله وحدها تصل إلى رحمة الله، وبمعصية الله وحدها تحجب عن رحمة الله.

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات: 13)

لا فضلَ لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، مَن يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه، أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً، هذا هو الدين.

وقف بلال وصهيب، ووقف أبو سفيان زعيم قريش، سيد قريش، في باب عمر بن الخطاب ساعات طويلة فلم يؤذن له، وصهيب وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان، فلما دخل أبو سفيان آلمه هذا الموقف، قال: زعيمُ قريشٍ يقف في بابك ساعات طوالاً، وصهيب وبلال العبدان الأسودان يدخلان، ويخرجان بلا استئذان، فقال عمر كلمة واحدة، قال: << أأنت مثلهما >> ؟ ليسوا سواء، من آمن من قبل الفتح وأنفق، الذي آمن برسول الله في زمن الضعف، وأنفق ماله لا يستوي هذا مع من أسلم عندما قوي الإسلام، وعظمت شوكته.

سيدنا بلال وضع سيدنا الصديق يده تحت إبطه، وقال: << هذا أخي حقاً >>، وكان أصحاب رسول الله إذا ذكروا سيدنا الصديق قالوا: **<< هو سيدنا، وأعتق سيدنا >>**، ما لك ميزة عند الله إلا بالعمل الصالح.

لا تقل أصْلي وفصلي أبــداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

كن ابن ما شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب

***

هذه رحمة الله عز وجل، رحمة الله لمن عرف الله، واستقام على أمره، وعمل صالحاً، هذا يرفعه الله مكاناً عالياً، هذا يرفع الله له ذكره.

الآية التي بعدها:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

1 ـ النفس مفطورة على حب مَن أحسن إليها:

يبدو أن الإنسان مفطور على حب المحسن، يا داود، ذكّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفس جُبلت على حب من أحسن إليها، وبُغْض من أساء إليها، فإذا ذكّرت نفسك بنعم الله عز وجل لعل هذا القلب يحب الله عز وجل، فإذا أحببت الله وجدت كل شيء، الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

2 ـ نعمة الإيجاد والرشاد والإمداد:

اذكروا نعمة الوجود، من الذي منحكم نعمة الوجود ؟ الله سبحانه وتعالى، وهناك مخلوقات قميئة تزدريها أنت، ولكن وجودك شيء، ووجودها شيء آخر:

(اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

نعمة الوجود، ونعمة التكريم.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

(سورة الإسراء: 70)

سخر لك ما في السماوات والأرض، نعمة الوجود مضافٌ إليها نعمة التكريم، مضاف إليها نعمة العقل، مضاف إليها نعمة الاختيار، مضاف إليها نعمة الأمانة، مضاف إليها نعمة الشهوات التي أودعها الله فيك، لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، مضاف إليها نعمة الفطرة السليمة، مضافة إليها نعمة الرسالة، نعمة الكتاب، نعمة العبادات:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

فممكن أن نلخص هذه النعم كلها بنعم ثلاث، نعمة الإيجاد، ونعمة الإرشاد، ونعمة الإمداد، أمدك بكل شيء وأيُّ شيء أنت محتاج إليه، خلقه الله لك في الأرض، وهو نعمة لك.

مثلاً، وإن كان هذا المثل بعيد عن سياق الدرس: هؤلاء الحجاج حينما يطوفون بالبيت الحرام، الحرّ هناك شديد، قد تصل حرارة المسجد الحرام إلى 59 درجة فوق الصفر، نوع من الرخام وجد في بقعة نائية من العالم، لو أن الشمس بقيت مسلطةً عليه عشر ساعات لا تزيد حرارته على عشر درجات، وُضع في أرض الحرم، وفي مقام النبي عليه الصلاة والسلام، أليس هذا من نعمة الله ؟ مَن صمم هذا الرخام ليرفض امتصاص الحرارة ؟ الله سبحانه وتعالى، ما من شيءٍ نحتاج نحن إلا وقد وفره الله لنا، هذا الحديث يطول، لو وقفت في أحد أسواق المدينة، فرأيت أنواع السلع، وأنواع النباتات، وأنواع الخضراوات، وأنواع الأدوية، وأنواع الأدوات، وأنواع الآلات، وأنواع المعادن، وأنواع أشباه المعادن، شيء لا ينتهي، هذه نعمة الله نعمة الله في الإيجاد، ونعمة الله في الإمداد، ونعمة الله في الهدى والرشاد، هذا من نعمة الله، هذا الدرس من نعمة الله عز وجل، أن ينزل الله على نبيه كتاباً فيه منهج، فيه ذكر مَن قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم فيه أمرٌ ونهيُ، فيه حلال وحرام، فيه وعد ووعيد، فيه إنذار وبشارة فيه خبر الأقوام السابقين، فيه ما قبل أن نأتي إلى الدنيا، فيه ما بعد الموت، كتاب بين أيدينا، فيه تِبيان لكل شيء، هذا من نعمة الله عز وجل، نعمة الإيجاد، أنت موجود على سطح الأرض، لك اسم، لك حيز، وتأكل وتشرب، وتسكن بيتاً، ولك زوجة، وأولاد، ولك أجهزة وأعضاء، وغدد صم، وغدد غير صم، وقلب، ودسامات وأوردة، وشرايين، وأعصاب، وعضلات، و130 مليون مخروط بالشبكية، و300 ألف شعرة، لكل شعر وريد، وشريان، وعصب وغدة دهنيه، وغدة صبغية، وعضلة، وخلايا، وأجهزة، شيء لا ينتهي، نعمة الإيجاد.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان: 1)

من أنت قبل خمسين عاماً، لمن كانت سنه قبل الخمسين طبعاً، لا شيء، ما لك اسم.

مرة رأيتُ طفلاً في مكان في بهو عام، يبدو أن أهله كانوا مسافرين، وُضع له من الفوط حول وسطه ما جعله كالكرة، قلت: هذا الإنسان، بعد أن يكبر ينسى الله عز وجل، يقول: أنا، فمن أنت ؟ كنت طفلاً صغيراً بحاجة إلى كل شيء، فلما كبرت سنك، وقوي عودك نسيت الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

اذكروا نعمة أنه أوجدكم، وكرمكم، ومنحكم العقل، وسخر لكم الكون، وفطركم فطرة عالية، أودع فيكم الشهوات، أعطاكم هذا المنهج، رزقكم الطيبات، ستركم، أكرمكم.

الشيء الدقيق في هذه الآية:

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ)

3 ـ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللّهِ يَرْزُقُكُمْ

يعني هل هناك خالق آخر ؟ خالق هذه النباتات، تأكل وتشرب، مرة تقول: أريد كأساً من الشاي، مرة كأسَ ليمونٍ، مرة تقول: أريد أن آكل هذا الطعام، هذه الأكلة، هذه الفاكهة، تنام على فراش وثير، تستنشق هواء عليلاً، هذه كلها نِعم:

هل هناك خالق آخر غير الله خلق هذه النعم ؟

هل من خالق غير الله ؟

هل تعتقد أن خالقاً غير الله خلق هذه الأشياء ؟

وهل تعتقد أن رازقاً غير الله عز وجل يرزق ؟

فإذا كان الخالق هو الله، والرازق هو الله، فكيف تنصرف عن الله عز وجل ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ مَن تصاحب ؟ إلى من تتجه ؟ ممن تخاف ؟ إذا كان الله وحده هو الرزاق، ووحده هو الخلاّق فمِن حكمة الله عز وجل، ومن نعمة الله عز وجل أن الله سبحانه وتعالى قطع أفعال الناس عن رزق العباد، الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فإذا ظن إنسان أنه يرزق الآخرين فهذا خطأ واستعلاء، فالله سبحانه وتعالى وحده يرزقهم رزقاً وفيراً من دونه.

إذاً: هذه الآية:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

مركز ثقل الآية:

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

4 ـ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

أيْ كيف تصرفون ؟ إلى أي مكان تتجه ؟ إلى أي عظيمٍ تتجه ؟ إلى أي جهة تنصرف ؟ بمن تؤمن ؟ من ترجو ؟ من تخاف ؟ هو الخالق، وهو الرازق، وأنت متجه إلى غيره.

وَاللّهِ إنه موقف عجيب، إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغّضون إلي بالمعاصي، وهم أفقر شيءٍ إلي، مَنْ أقبل علي منهم تلقيته مِن بعيد، مَن أعرض عني منهم ناديته مِن قريب أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ابتليهم بالمصائب، لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشر أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

هذا العجب العجاب، إلى مَن تنصرف ؟ تعلق الآمال على زيد، أو على عبيد، إن الله يمنعك من يزيد، ولكنّ يزيدَ لا يمنعك من الله، ترجو غير الله، تخاف من غير الله، تتأمل عطاءً مِن غير الله، تُرضى الناس وتسخط الله عز وجل، أتخشون الناس، وَاللَّهِ أحق أن تخشوه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

5 - يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

العلماء قالوا: السماء هو المطر، كم هي الفرحة عارمة حينما نرى هذه الأنهار، وقد طفحت، وارتفع منسوبها إلى خمسة أضعافِ العامِ الماضي، من خمسة أمتار مكعبة في الثانية الواحدة إلى أكثر من 25 متراً مكعباً في الثانية الواحدة، غزارة بعض الأنهار، هذه الفرحة بهذه المياه الغزيرة، أين كانت لولا أن الله تفضل علينا بهذا المطر ؟ فالعلماء قالوا:

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ)

أي بالمطر.

(وَالْأَرْضِ)

بالنبات، السماء تمطر، والأرض تنبت، وأنت بين السماء والأرض، بين أن يتفضل الله علينا بمطر غزير، وبين أن ينمو النبات من دون آفات، من دون صقيع، صقيع واحد يقضي على مئات الملايين من الدنمات المزروعة في ساعة واحدة، فنعمة المطر لا تكفي، لا بد من نعمة الإنبات، ونعمة سلامة الإنبات، ونعمة غزارة الإنبات، لا بد من المطر، ولابد من الإنبات، ولابد من سلامة الإنبات.

قلت مرة لأحد الإخوة وعنده مزرعة نحل، أو خلايا نحل سألني: أفي النحل زكاة ؟ قلت: نعم، هكذا نص العلماء، زكاة النحل كزكاة الزرع، إن كان له أعشاش طبيعية فالعشر، وإن كان له خلايا صناعية فنصف العشر، قلت له: وإلا إنْ لم تدفع زكاة النحل فالقراد جاهز، القراد آفة تصيب النحل، آفة عظيمة، أصابت خلايا النحل قبل عامين، فطاشت عقول أصحاب المناحل، آفة اسمه قراض النحل، فإما أن تدفع وإما أن القراض جاهز، إما أن تزكي زكاة هذا النبات، وإما فالصقيع جاهز، تارة دودة، تارة فأر حقل، تارة حشرة، تارة ذبابة، ذبابة بيضاء أحرقت الحرث والنسل في الساحل، حتى الآن ليس هناك دواء لها، كل النباتات تتجعد، وتموت بفعل الذبابة البيضاء، فما تلف مال في بر أو بحر إلا بحبس الزكاة، في الداخل وفي الخارج، وفي أي مكان، إذا حبست الزكاة تلف الزرع، فلذلك هذه قوانين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

من السماء بالمطر، ومن الأرض بالزرع والضرع.

أحياناً تقل أمطار البادية، فنضطر إلى استيراد علف بما يزيد على عشرات مئات الملايين من الليرات، إذا قلّ المطر في البادية قلّ العشب الطبيعي الذي يغني عن ألوف الملايين:

(مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

أنى تصرفون، أنى تتجهون، مَن تخافون، مَن ترجون ؟

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

1 ـ معركة الحق والباطل أزلية:

معركة الحق والباطل قديمة، فكلما تمرّس الإنسان في الحياة لا يستغرب ما يلاقيه من متاعب، هذه المتاعب من سنة الله في خلقه دائماً وأبدا الحق والباطل يتصارعان، دائماً وأبدا قوى الخير وقوى الشر تتعاكسان، دائماً الحق له أعداء، فهذا الشي واقع دائماً.

2 ـ تسلية النبي عليه الصلاة والسلام:

الله سبحانه وتعالى يسلّي النبي عليه الصلاة والسلام و يواسيه، قال يا محمد:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

لست أول مَن كُذب، ولن تكون آخر مَن كُذب، وقد ناجى موسى ربه فقال: يا رب، لا تبق لي عدواً، قال: يا موسى، هذه ليست لي، الحق دائماً هناك مَن يعارضه، هناك مَن يطعن فيه، هناك من يسخر منه، هناك من يكذبه، هناك من يكيد له، هناك من يريد أن يطفئه:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

3 ـ لا قرار إلا للحق:

لكن الأمر كله لله، الله عز وجل يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف: 128)

الأمور تدور وتدور، والقوى تصطرع، ولا يستقر إلا الحق:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران: 146)

الأمور تدور، والقوى تتصارع، وهناك مَن يعلو، وهناك من يخبو، وفي النهاية لا يستقر إلا الحق على قدميه.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء: 81)

ورأيتم بأم أعينكم كيف أن قوى الباطل قد تهافتت، وتساقطت لأسباب صغيرة جداً، ما كان يُظَن أن تتهاوى لهذه الأسباب، ولكن شاءت مشيئة الله ذلك، وإلى الله ترجع الأمور، ولو أنهم كذّبوك فالله معك، قال له: يا عدي بن حاتم، لعله إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين، أنك ما ترى من حاجتهم، كانوا فقراء، كان أصحاب النبي فقراء جداً، فعدي بن حاتم كان ملكاً من ملوك الجزيرة، فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام، كان يظن أن رسول الله ملك، فلما دخل عليه، ما عرفه، لأنه كان بين أصحابه، فقال النبي له من الرجل ؟ قال: أنا عدي بن حاتم، فرحب به النبي عليه الصلاة والسلام، وانطلق به إلى البيت تكريماً له، قال: وفي الطريق استوقفته امرأة تكلمه طويلاً في حاجتها، فوقف يستمع لها، قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، إنه نبي، فدخلت بيته، فدفع إليّ وسادة من أدم محشوة ليفاً وقال: اجلس عليها، قلت: بل أنت، قال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس هو على الأرض، ليس في بيته إلا وسادة من أدم محشوة ليفاً، هذه واحدة، قال: يا عدي بن حاتم، لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، وايم الله، ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي بن حاتم إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله، ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها هذا لا تخاف، لاستتباب الأمن في المسلمين، ولعله إنها يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، وايم الله، ليوشكن أن ترى القصور البابلية مفتحة للمسلمين، ولقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى هذا كله بأم عينيه وهذه الثانية، وإلى الله ترجع الأمور، الأمر بيد الله، والله عز وجل يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف: 128)

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة غافر: 51)

(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأعراف: 128)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

1 ـ وعدُ الله واقع لا محالة:

وعد الله حق واقع لا محالة، ولا بد من أن يقع، وأن تزول السماوات والأرض أهون على الله من ألا يقع وعده، ووعيده لذلك فالمؤمن قيل له: كيف أصبحت يا فلان ؟ قال: أصبحت بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنة يتنعمون، وبأهل النار يتصايحون.

أحيانا الإنسان يرى شيئاً له نتيجة حتمية، يتنبأ بهذه النتيجة قبل أن تقع، ليقينه بأنها لابد من أن تقع.

2 ـ الموتُ واقع لا مفر منه:

إذا كان شخص ـ لا سمح الله ـ راكباً مركبة، وتعطل معه المكبح فجأة، والطريق منحدر، والسرعة شديدة، وهناك منعطف حاد في نهاية هذا المنحدر، ولن تقف معه المركبة، أول صيحة يصيحها يقول لك: هلكنا، يستخدم الفعل الماضي، كأنه يتحقق الوقوع، يستخدم الفعل الماضي لتحقق الوقوع:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

الإنسان مهما عاش:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنـازة فأعلم بأنك بعدها محمولُ

***

ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خَلق جديد، وعلى عملك شهيد، تزوّد مني فإني لا أعود.

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ))

[البخاري عن حذيفة]

ما دمتَ قد استيقظت، فقد سمح الله لك بيوم جديد:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

هذا الموت لا بد منه، مع وقف التنفيذ، والإنسان يمر في الطرقات، وفي كل يوم يقرأ عشرات النعي، ثم يمضي لسبيله، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وفي يوم من الأيام سيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا:

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

لا بد من مغادرة الدنيا، لا بد من مغادرة بلا عودة، ولما يموت الإنسان مساء لا يقول أحد: لماذا لم يأتِ فلان، وقد تأخر، يقولون: لا يرجع، ما أحد يقول: تأخر، أما قبل أن يموت مثلاً الساعة العاشرة يقولون: ليس بالعادة أن يتأخر، يخبّر أو يتصل، ما دام حياً، أما إذا خرج من البيت أفقياً فلا يقول أحد مساء: أين فلان ؟ لن يعود، فإنه انتهى:

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

وعدنا بالموت، لكن بين أن يكون الموت عرس المؤمن، وقمة سعادته وساعة لقائِهِ مع ربه، وبين أن يكون الموت أسوأ أوقات حياته، فالموت يتحدد بطريقة الحياة التي تحياها، فإذا أمضيت العمر في طاعة الله عز وجل، كان الموت عرس المؤمن، وكان القبر روضة من رياض الجنة، وكان البرزخ جنة، وإذا أمضى الإنسان حياته في معصية الله كان الموت أكبر مصيبة، وما بعد الموت أخطر من الموت نفسه.

(فَلَا تَغُرّنّكُمْ الْحَيَاةُ الدّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ)

فَلَا تَغُرّنّكُمْ الْحَيَاةُ الدّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ

الحقيقةُ أنّ الدنيا تغر وتضر وتمر، والناس دائماً يرونها بحجم كبير جداً، أكبر من حجمها الحقيقي. دخل الصحابة على سيدنا أبي عبيدة الجراح فرأوه يسكن غرفة، وهو قائد جيش المسلمين، يسكن غرفة فيها قدر ماء مغطى برغيف خبزٍ، وسيفه معلق على الجدار، ويجلس على جلد غزال، فقيل له: ما هذا ؟ قال: هو للدنيا، وعلى الدنيا كثير، ألا يبلّغُنا المقيل ؟ يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَغُرّنّكُمْ الْحَيَاةُ الدّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ)

أيها الإخوة، هذه الآية تحتاج إلى تفصيل طويل، على كلٍ نقف عند كلمةٍ واحدة منها:

(فَلَا تَغُرّنّكُمْ الْحَيَاةُ الدّنْيَا)

1 ـ الدنيا حظوظ، والغرور أن تراها بغير حجمها الحقيقي:

الدنيا فيها حظوظ، المال حظ، بمعنى نصيب، وفيها القوة، وفيها الجمال، وفيها الذكاء، وفيها البيت، وفيها الزوجة، وفيها الأهل، هذه الدنيا لها حجم عند الله، فما الغرور ؟ أن تراها بحجم كبير جداً، أكبر

من حجمها، إن عرفت حجمها، إن رأيتها زائلة، وماضية، وإن رأيتها ممراً وليست مقراً، وإن رأيتها دار عمل، وليست دار جزاء، إن رأيتها سرادقاً إلى الجنة، إن رأيت الدنيا مزرعة الآخرة، فهذه رؤية صحيحة، وهذا حجمها الحقيقي لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

فهي لها حجم، مالُها قد ينفع المؤمن في بلوغ الجنة، والعلم فيها ينفع المؤمن، وهي مزرعة الآخرة، ليس بخيركم مَن ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يأخذ منهما معاً، فإنّ الأولى مطية للثانية، أما أن نلتفت إلى الدنيا وحدها، وأن ننسى الآخرة، وأن نجعلها كبيرة جداً، تطغى على كل أهدافنا، وننسى ربنا من أجلها عندئذ وقعنا في الاغترار، والاغترار أن ترى الدنيا بحجم أكبر من حجمها الحقيقي، أو ألاّ تعرف حقيقتها، ولا سرّ وجودك فيها، ولا طبيعتَها المتقلبة، أما الغَرور هو الشيطان.

على كل لنا مع هذه الآية وقفة متأنية إن شاء الله تعالى في الدرس القادم، إلا أن الشيء الذي لابد من ذكره أن ربنا عز وجل يحذرنا من أن نرى الدنيا بحجم أكبر من حجمها، ويحذرنا أن نقع في المعاصي، وأن نطمع في مغفرته، وهذا فعل الشيطان، الغرور، يدفعك إلى المعصية، ويقول لك: سيغفر لك، أما إذا جاء يوم القيامة فتفاجئك، ويلاُته، والشيطان يتبرّأ مما فعلت.

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: 22)

يدعونا الله عز وجل في هذه الآية إلى أن نرى الدنيا على حقيقتها، أن نراها مزرعة الآخرة، أن نراها ممراً، وليست مقراً، أن نراها دار عمل، وليست دار جزاء، أن نراها مطية للآخرة، أن نرى أن أثمن شيءٍ فيها معرفة الله، والاستقامة على أمره والتقرب إليه، هذا أثمن ما في الدنيا، وما سوى الدنيا باطل في باطل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (03-10): تفسير الآيات 3 - 8 ، الموضوع - وعد الله حق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-05-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

1 - الإنسان خُلق للابتلاء بشتى أنواعه:

إنّ هذه الآية تبين أشياء كثيرة، تبين أول ما تبين أن الإنسان خلق في الدنيا للابتلاء، الدنيا أساسها الابتلاء، والابتلاء هو الامتحان، فمن ظنها للجزاء فقد وقع في وَهْم كبير.

أنت في الدنيا تمتحن بالفقر، وتمتحن بالغنى، تمتحن بالصحة، وتمتحن بالقوة، تمتحن بالتعظيم والتبجيل، وتمتحن بالتكذيب، فكل حالة لها موقف كامل، فإذا كُذبت فماذا تفعل ؟ هل تتخلى عن دعوتك، أم تتابع الطريق، وتستوحي همة عالية من قوله تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل: 79)

ألا تستوحي المثابرة على متابعة الدعوة ومواصلتها من قوله تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران: 146)

قلت لكم مرة: إن بعض المواد تفحص مقاومتها للشد عن طريق جهاز، فنقول: هذه المادة تضعف على وزن كذا، وهذه على وزن كذا، وهذا الإنسان لو جاءه التكذيب، لو جاءته المعارضة، لو جاءه من يكيد له، هل يتخلى عن دعوته ؟ فالله سبحانه وتعالى يعلمنا من خلال تأديبه لرسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقلت لكم من قبل إن الله ربّى محمداً صلى الله عليه وسلم، وهذا يؤكده قوله صلى الله عليه وسلم:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

ثم ربّى الأمة العربية بمحمد صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وجعل من هذه الأمة شهداء على جميع خلقه ؟؟.

(لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

(سورة الحج: 78)

2 ـ تسلية الله للنبي عليه الصلاة والسلام:

إن الله عز وجل يسلّي النبي عليه الصلاة والسلام، أو يخفف عنه، أو يواسيه، يقول: يا محمد:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

لست أول َمن كُذب، ولن تكون آخر مَن كُذب، هذه سنة الله في خلقه، من القديم وإلى يوم القيامة، هناك صراع بين الحق والباطل أهل الحق متمسكون بالحق، مدافعون عنه، وأهل الباطل يكيدون لأهل الحق، والمعركة سجال بينهم إلى يوم القيامة، ولأن الدنيا دار امتحان، فلو أصاب المؤمنين بعض المكروه، فهذا يرفعهم عند الله درجات عليّة، ولو حقق الكفار بعض النصر فهذا من باب الإمهال والاستدراج، كما يقول الله عز وجل:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران: 178)

الإمهال غايته الاستدراج للكافرين، فما دامت الدنيا دار تكليف، وليست دار تشريف، ما دامت الدنيا دار امتحان، مادامت الدنيا دار ابتلاء، مادامت الدنيا قصيرة ومحدودة، ولابد من أن تنتهي، فماذا يبقى؟ العمل، فكأن الله سبحانه وتعالى وقد ربّى النبي عليه الصلاة والسلام فخفّف عنه بعض آلامه، وواساه، وسلاه بهذه الآية:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

وأنت أيها المؤمن إذا قرأت سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا قرأت سيرة أصحابه الكرام، ووجدت أن مِن أصحاب النبي مَن لاقى المتاعب، مَن تحمل الشدائد، مَن تجشم المشاق، مَن خسر الدنيا كلها، لأنه آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام، هؤلاء الذين هاجروا تركوا ديارهم، وأموالهم وأولادهم، وجاءوا إلى المدينة فقراء، ليس لهم عمل، وليس لهم دار، هكذا الدنيا.

أنا أحب أن أطمئِن كل أخ مؤمن على أنه إذا استقام على أمر الله، فالله جلا وعلا يتولى شؤونه ويحفظه، ويرعاه، ويؤيده، وينصره، لكن لا تنسوا أن هذا التطمين لا يعني أنك لن تمتحن، ولن تجرب، أو أنّك لن توضع على المحك.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت: 2)

أنت صالحٌ جداً، وأنت غني في فترةٍ ما، فما هي حالتك إذا جاءك الفقر، وأنت صالحٌ جداً، وأنت صحيح، فما حالك إذا جاءك شبح مرض، هل تنسى ربك ؟ ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهرهُ الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

هذا شأن المؤمن، وهو موقف للنبي، والنبي يعلّمنا.

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب: 23)

أنت عاهدت خالق الكون، عاهدته على الطاعة، يجب أن تطيعه في السراء، في الضراء، في إقبال الدنيا، في إدبارها، في الصحة في المرض، قبل الزواج، بعد الزواج، قبل العمل، بعد العمل، في شبابك، في كهولتك، في شيخوختك، وأنت مقيم، وأنت مسافر، إن الدنيا أقبلت، أو إن الدنيا أدبرت، رفعك الله، أو خفضك الله، هكذا:

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب: 23)

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

3 ـ علاقة هذه الآية بقوله: وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

لكن ما علاقة هذه الآية بقوله تعالى:

(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

هناك علاقة دقيقة جداً، يعني أنت أيها الإنسان حينما تقوّي هذه الفئة على هذه، أو هذه على هذه، فالأمر بيد الله في النهاية، أنت إذاً في امتحان، فالله عز وجل يمتحن المؤمنين حينما يُضعفهم، ويمتحنهم حينما يُقويهم، يمتحنهم حينما يُعطيهم، ويمتحنهم حينما يحرمهم، يمتحنهم حينما يرفعهم، فإلى الله ترجع الأمور، الأمر كله لله.

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال: 17)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود: 56)

لو رأيت زيداً قوياً وعبيداً ضعيفاً، هؤلاء رفعهم الله، وهؤلاء خفضهم الله، يجب أن تعلم أن رفعة هؤلاء ليست في قواهم الذاتية، وأن خفض هؤلاء ليس في تقصير منهم، ولكن شاءت مشيئة الله أن يرفع هؤلاء ليبتليهم، وأن يخفض هؤلاء ليبتليهم، أن يعطي هؤلاء ليمتحنهم، وأن يمنع هؤلاء ليختبرهم.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون: 30)

حقيقة الدنيا أنها دار ابتلاء، لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى.

4 ـ البطولة كمال الموقف عند المصائب:

أقول لكم الآن: ليست البطولة ألا تصاب بمكروه، ليست هذه بطولة، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام سمّى هذا الذي دائماً يأتي واقفاً على قدميه، ولا يلحقه أذىً، سماه عفريتاً نفريتاً، ليست البطولة ألا تصاب بمكروه، ولكن البطولة إذا جاءك المكروه أن تكون كاملاً في توحيدك، كاملاً في طاعتك، كاملاً في صبرك، كاملاً في تأديبك، فالبطولة لا أن تنجو من الابتلاء، ولكن البطولة أن تنجح في الابتلاء.

ليست البطولة ألا تقدم الامتحان، ولكن البطولة أن تدخل الامتحان، وأن تنجح في الامتحان، فإذا جاءت مشكلة، جاءت مصيبة، لاح شبح قضية متعبة، يكرهها الإنسان، ووراءها من الله عز وجل محض فضلٍ، ومحض رحمةٍ، ومحض عدلٍ، عدل ورحمة وفضل، إن رأيتها كذلك فقد نجحت، وإن شكرت الله عليها فقد تفوقت، إذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن شكر اقتناه، مَن هذا الذي يشكر الله على مصيبة ألمت به ؟ إنه الذي يعرف أن الله عز وجل ساق له هذه المصيبة، رحمةً به، وحرصاً عليه، وتقريباً له، ودفعاً إلى بابه، وترقية لجنابه، هكذا.

ليست البطولة أن تنجوَ من الامتحان، ولكن البطولة أن تنجح في الامتحان، ليست البطولة ألا يصيبك مكروه، ولكن البطولة أن تكون كاملاً في تلقي هذا المكروه أن تصبر.

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف: 35)

لماذا أصبر ؟ لو أن الأمر واضح كالشمس، جلي كرابعة النهار لماذا أصبر ؟ فحينما يأمر الطبيب أن تأخذ دواءً مراً، وتعلم أنت علم اليقين، أن هذا الدواء لصالحك، لماذا الصبر ؟ ولكن حينما لا تعرف

الحكمة، حينما يسوق الله لإنسان مؤمن شيئاً، دون أن يكشف هذا المؤمن حكمة ذلك، فهنا عليك بالصبر، أليست لك أسوة بالنبي عليه الصلاة والسلام، حينما قال وأنا نبيٌ مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم، لعل الله يمتحنني بالحرمان، أو يمتحنني بالعطاء، لعل الامتحان في العطاء، أو في الحرمان، في الضيق أو في الرخاء.

إذاً: حينما تنجح في مواجهة امتحان الله عز وجل، حينما تنجح في قبول المصيبة، وفي تفسيرها التفسير الصحيح، وفي رؤيتك أن هذه المصيبة، محض فضل، ومحض عدل، ومحض رحمة، عندئذ نجحت بالامتحان، ولا تنسَ هذه المقولة أيها الأخ الكريم: " مَن لم تُحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر "، الإنسان الذي لا يتعظ بالمصيبة فهو المصيبة عينها، وهو مصيبة تتحرك، لأنه متلبد الحس، لأنه بعيد عن الفهم عن الله عز وجل.

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى: 30)

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

(سورة التغابن: 11)

يهديه إلى حكمتها، وإلى سببها.

5 - بعد كل مصيبةٍ اتّهم نفسَك:

لكنّي أنصح إخوتنا الكرام، أنك إذا جاءتك مصيبة لا سمح الله فاتهم نفسك قدر ما تشاء، و لكن إياك أن تتخذ من هذه القاعدة وسيلة للطعن في المؤمنين، أقول هذا بشكل واضح جداً: إذا جاءك شيء تكرهه فلا عليك أن تتهم نفسك، أن تبحث عن السبب، أن تبحث عن العلة، وأن تقول إنّ الله عز وجل أفعاله كلها حكيمة، يا رب أنت غني عن تعذيبي، لكنك حينما عذبتني لحكمة تريدها، ما هذه الحكمة يا رب ؟ الله غني عن تعذيبنا، لكن هناك حكمة لابد من معرفتها، لك أن تفعل هذا مع نفسك قدر ما تشاء، لكن إياك، ثم إياك، ثم إياك أن تتخذ من هذه الحقيقة الثابتة في القرآن والسنة، أن تتخذها سبباً في الطعن في أخيك المؤمن، فلان أصابته مصيبة لابد أنه مذنب، هذا من سوء الأدب، ومن سوء التصرف، ومن السلوك الذي لا يُرضي الله عز وجل:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

6 - وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

يعني يرفع هذا، ويخفض هذا، هو الرافع وهو الخافض يعز هذا ويذل هذا، هو المعز، وهو المذل:

(وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

مقاليد الأمور بيده، القوة كلها بيده، خيوط القوى كلها بيده، فإذا رفع فَلِيمتحنَ، وإذا خفض فَلِيمتحن، هذه علاقة جزاء، والآية:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

حينما سمح الله لهم أن يكذبوك ابتلاهم بالتكذيب، ابتلاهم بأنهم كَذبوا، وابتلاك بأنك قد كُذبت، ماذا يصنع المُكَذّب ؟ أيتخلى عن دعوته ؟ حينما يسلط الله إنساناً على إنسان ابتلى المتسلط، وابتلى المسلط عليه.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ

1 ـ وعدُ الله واقع لا محالة:

كلمة حق: أمرٌ استقر، وثبت، فوعدُ الله عز وجل حق لا ريب فيه، واقع لا محالة، واقع لدرجة أن الله عز وجل يعبر عما يعد بالزمن الماضي.

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

(سورة المائدة: 116)

هذا أمر لم يحدث بعد، ولكن لِتحقق الوقوع، جاء بصيغة الماضي:

(إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ)

النار حق، والجنة حق، والصراط حق والميزان حق، ونشر الصحف حق، وعذاب القبر حق، والبرزخ حق، والجنة حق:

(إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ)

إنّ أيّ وعد وعدَ الله به إنساناً يجب أن تؤمن أنه كأنه وقع، لشدة مصداقية وعد الله عز وجل، مصداقية وعد الله عز وجل تؤكد لك أن هذا الشيء قبل أن يقع كأنه وقع، وفي القرآن آية تشير إلى ذلك:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: 1)

معناها لم يأتِ بعد، فلا تستعجل قدوم الامتحان، والامتحان لم يأتِ بعد، فكيف يقول الله عز وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ)

ما دام أنه أمرٌ قد وعد به فهو واقع لا محالة، وكأنه قد أتى:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

لا بد من مغادرة الدنيا.

2 ـ علاقة القسم الأول من الآية بالقسم الثاني:

ما علاقة القسم الأول من هذه الآية بما بعده ؟

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

هذه الحياة الدنيا لا بد من أن نغادرها، لا بد من أن نتركها، لا بد من أن ننصرف عنها، فإذاً: هذا الذي اغتر بها، ورآها كل شيء، وعلق عليها الآمال، وباع من أجلها دينه وعرضه، وباع آخرته، وارتكب المعاصي والموبقات، وأكل المال الحرام، واعتدى على الناس، وبنى مجده على أنقاضهم، وبنى عزه على ذلهم، وبنى غناه على فقرهم، وبنى حياته على موتهم، من أجل دنيا محدودة، قال عليه الصلاة والسلام يعاتب الأنصار كما في حديث أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ:

((قَالَ لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ، وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقْنَا))

[أخرجه أحمد في مسنده]

فالدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

3 ـ الموت حقٌّ آتٍ لا محالة:

كأن الله عز وجل يشير في هذه الكلمة إلى أنه لا بد من أن تغادرها، فعش ما شئت فإنك ميت، أحبب ما شئت فإنك مفارقه، اعمل ما شئت فإنك مجزيّ به.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آله حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة فأعلم بأنك بعدها محمولُ

***

كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر

و العمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

***

أنا أسال الطلاب أحياناً، طلاب المدارس أو الجامعات، شهر أيلول أول العام الدراسي أقول لكم: موعد الامتحان بعيد، فيأتي أيلول، ويأتي تشرين الأول والثاني، وكانون الأول والثاني، ما بين غمضة عين وانتباهتها جاء حزيران، بقيت خمسة أيام، بل بقي يوم، اليوم الأول والثاني، لا بد من أن يستيقظ الطالب في أحد الأيام، على أن هذا اليوم هو يوم الامتحان، وأنت تنظره قبل تسعة أشهر، تقول: إنه بعيد، هذا البعيد جاء، دخلنا في الصيف، نحن في أول الصيف، ما هو إلا زمن يسير، حتى يأتي الشتاء، ثم يأتي الصيف، ثم يأتي الشتاء، ولا بد من مواجهة الموت في النهاية، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا.

كنت البارحة مع رجل أعرفه جيداً، وتسلم مناصب رفيعة، ذهب ليوصِلَ ابنته إلى المدرسة، في طريق العودة، قال: أشكو من صدري، فمال جسمه، ومال عنقه، وسلم روحه، المغادرة تمت في ثانية، كل هذه الدنيا التي حصّلها، خسرها في ثانية واحدة، ماذا في القبر ؟ القبر صندوق العمل.

البطولة أيها الإخوة أن تعمل عملاً يصحبك إلى القبر المقياس الدقيق، أن أيّ عمل تنتهي نتائجه عند القبر فلا قيمة له، هو مِن الدنيا، أي شيء لا يصحبك بعد الموت هو من الدنيا، وأي شيء يصحبك بعد الموت فهو من الآخرة، قد تفعل شيئاً في الدنيا للآخرة، فالذي يبقى عند القبر من الدنيا، الذي يبقى في البيت من الدنيا، أما الذي يدخل معك القبر فهو من الآخرة، يا قييس، إن لك قريناً تدفن معه وهو حي، ويدفن معك وأنت ميت، إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك.

أنا أقول: بُطولة، لأن الإنسان يتخيلها بجمع المال، يتخيلها بالقوة يتخيلها بالسيطرة، يتخيلها بالبيت الفخم، يتخيلها بالزوجة التي تروق له يتخيلها بأولاد نجباء، يتخيلها بالرحلات، يتخيلها بالحفلات، يتخيلها بإنفاق المال، يتخيلها بكسب المال الوفير، يتخيلها بالعزة والسلطان، هكذا يتوهم الإنسان دنياهُ، ولكن الدنيا زائلة، أقول: البطولة:

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله بطل

***

أقول لك: يا أخي، هذا بطل في الجري، هذا بطل في اللعبة الفلانية، هذا بطل في رفع الأثقال، إذا قلت: البطولة من هذا النوع فليست من ميزة للإنسان إلاّ وفي غير الإنسان ما يسبقه بها، هذا الذي يفتخر بحاسة شمه هناك حيوان أترفع عن ذكر اسمه تفوق حاسة شمه الإنسان بمليون مرة، الذي يفتخر بحدة بصره، النسر يرى ثمانية أضعاف ما يراه الإنسان، فما من صفة يمكن أن تعد بطولة في الإنسان إلا وفي الحيوان ما يسبقه بها، إذاً: بطولة الإنسان بمعرفة الله، خلقتُ كلّ ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عمّا افترضته عليك.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

هذا الذي قال: وكأني بأهل الجنة يتنعمون، وكأني بأهل النار يتصايحون، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((عرفت فالزم))

[ورد في الأثر]

4 ـ العاقل اللبيب يرى الشيء بتجربته قبل وقوعه:

مَثَلاً: ترى طالباً يمضي وقته بلا دراسة، مع أصدقاء السوء في سهرات لا طائل منها، في القيل والقال، في لعب النرد، أنت كإنسان عاقل حكيم عندك خبرة في الحياة، فإنك ترى مستقبله تعيساً، الآن يرتدي ثياباً أنيقة، لكنّك تعلم أنه إذا لم يبنِ مستقبله بنفسه، إن لم يهتم بتحصيل شيءٍ يعينه على مواجهة الحياة، فربما رأيته في مستقبل حياته في عمل لا يُرضي، وفي فقر مدقع، وفي زاوية مهملة في الحياة، فصاحب الخبرة والتجربة، يرى الشيء قبل أن يكون، يرى ما ينبغي أن يكون قبل أن يكون، هذه يسميها الناس الرؤية المستقبلية، ترى المرابي مصيره الدمار، يرابي وتنمو أمواله، ويزداد إنفاقه، وتعلو مكانته، ويغير بيته، ويغير مركبته، وينتقل من بلد إلى بلد، وهو يقول: أنتم الأغبياء، أنا الذي جمعت هذا المال من طريق حرام، لكني تفوقت عليكم، ما هو إلا وقت يسير حتى تأتي ضربة الله القاصمة فتذهب به، وبماله.

إن المؤمن يرى النتيجة، يرى وعدَ الله حقاً، لأن وعد الله حق لا مرية فيه، إذا وُعد المرابي بتدمير ماله فوعد الله حق، وإذا وُعد الشاب المؤمن الصالح المستقيم بحياة طيبة فوعد الله حق، وإذا وُعدت المرأة المؤمنة بزوج صالح فوعد الله حق، وإذا وعد الرجل الفاسق الفاجر بزواج تعيس فوعد الله حق، يعني أيّ وعد وعده الله عز وجل فهو حق، ولا بد من أن يقع، زوال الكون أهون على الله من ألا يقع، فلا بد من أن يقع، ولذلك البطل هو الذي يصدق كلام الله عز وجل.

أذكرَ قصة رجل قرأ حديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((بَشّرْ الزاني بالفقر ولو بعد حين))

[ورد في الأثر]

وجاءه خاطب لابنته، وكان في مستوى من الغنى يفوق حد التصور، فرفض أن يزوجه ابنته، قال له لماذا ؟ قال له: أنت في النهاية فقير، يعلم أنه منحرف الأخلاق، قال: كيف ذلك ؟ قال: فأنا أصدق النبي عليه الصلاة والسلام، فبدأ يسخر، ويضحك من هذا الوعد، ولم تمضِ أعوام عدة، حتى هبط دخله، وذهب ماله، ولم يمت إلا ماداً يده للناس، بَشّرْ الزاني بالفقر ولو بعد حين، بشر القاتل بالقتل، والمرابي بدمار ماله، مَن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله، البطولة أن تقرأ هذه الوعود الإلهية في القرآن، أو الوعود النبوية في السنة.

مثلاً: الأمانةُ غنىً، فوعدَ النبيُ الأمينَ بالغنى، وإذا وعد المنافق بالصغار، وعد الصادق بالعز، وعد المصلي ببركة الوقت، ابحث عن وعود الله عز وجل، بالقرآن والسنة، وكن كسيدنا سعد بن أبي

وقاص، حينما قال: **<< وما سمعت حديثاً من رسول الله صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا علمت أنه حق من الله تعالى >>.**

5 ـ العاقل يكشف في القرآن والسنة قوانين معاملة الله للعباد:

مثلاً: زواج توافرت له كل أسباب النجاح، شاب وسيم، صاحب معمل بيته فخم، دخله كبير، صحته جيدة، تزوج فتاة في مستواه، هذا الزواج بمقاييس الأرض توافرت له كل أسباب النجاح، إن لم يبن على طاعة الله، تولّى الشيطان التفريق بين الزوجين، على الرغم من كل وسائل النجاح لهذا الزواج، لكنّه كثيراً ما ينتهي بالطلاق، وبالخصومة وبالشقاق، وبالملاعنة، وبالضرب، وبالشتم، لأن الشيطان يتولّى التفريق بين الزوجين، إذا بني زواج على طاعة الله عز وجل، وقد يكون هذا الزوج مفتقراً، إلى كل أسباب نجاح الزواج، فلا بيت ولا دخل، ولا عمل، ومع ذلك إذا جاءت رحمة الله، وشملت هذين الزوجين بالعناية، نما هذا الزواج، وازداد الوئام بين الزوجين وانبسطت لهما أسباب السعادة، وهناك قوانين يجب أن تضع يدك عليها، هي بطولة أيضاً، أن تكشف القوانين التي يعامل الله بها عباده، فإنسان ترفّع عن المال الحرام يجب أن توقن يقيناً قطعياً أن الله سبحانه وتعالى لابد من أن يكرمه بمال حلال قريباً أو بعيداً، وكلما سمعت قصة تؤكد هذه الحقيقة فلتقلْ: يا رب لك الحمد، هذه عدالتك، اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك.

إذاً: إن وعد الله حق، وعد الله حق في مغادرة الدنيا، لابد من أن نغادرها، قال:

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

6 ـ اعرف الحقيقة وأنت شابٌ:

لا ينبغي أن تروها بحجم أكبر من حجمها، أن تظن المال كل شيء، لا، بل هو شيء، في وقت من الأوقات تراه شيئاً، وعند مغادرة الدنيا تراه لا شيء.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر: 24 - 26)

رجل كان عنده ملاهٍ، ودور قمار، مطاعم فخمة، وهو على فراش الموت، بلغت ثروته قريباً من ألف مليون، حينما أيقن بمغادرة الدنيا، وأيقن بأن مصيره ليس كما ينبغي، طلب أحد أهل العلم، وقال له: ماذا أفعل ؟ سامحه الله، قال له: والله لو أنفقت هذا المال كله لا تنجو من عذاب الله، كله محصّل بطريق غير مشروع، من قمار، من ملاهٍ، من حفلات لا ترضي الله عز وجل، استيقظ بعد فوات الأوان:

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

حينما كان شاباً يطرب لهذا المبلغ الضخم، يُسكره هذا الربح الوفير، فلما شارف على دخول القبر، الآن عرف الحقيقة، فلذلك اعرف الحقيقة قبل فوات الأوان، قبل أن تقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

اعرف الحقيقة وأنت شاب، من أجل أن تشكل حياتك وفق الأسس الصحيحة، اعرف الله وأنت شاب، لكي تختار حرفة شريفة، ولكي تختار زوجة صالحة، ولكي تربي أولادك تربية صالحة:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

أن تغتر بالدنيا، أيْ أنْ تراها بحجم أكبر من حجمها.

مثلاً: رأى شخصٌ عُلبةً في الطريق، علبة أنيقة جداً، وقد لفت بورق فخم، وعليها شريط حريري، تُرى ساعة، ترى سوار، ترى لؤلؤ، ذهب به الخيال إلى أن في هذه العلبة شيئاً ثميناً، فلما فتح هذه العلبة وجد فيها كُناسة محل تجاري، فقال: وا أسفاه، أدرك الحقيقة المرة، وكذلك الدنيا، نُعلق عليها الآمال، وقد يأتي ملك الموت قبل أن نَسكن هذا البيت، وقبل أن نتزوج، وقبل أن نسافر، وقبل أن نقطف ثمار أتعابنا، إنسان فتح دار سينما، وجمع أموالاً طائلة، كان ابن أخته أحد طلابي، قال لي: حضرت نزع خالي، صار يبكي ويقول: أنا حصلت الملايين لأنفقها في خريف عمري، وأستمتع بها، هذا المرض قد عاجلني، ولم يسمح لي أن أستمتع بهذا المال الذي حصلتُهُ في هذه الدار، وصار يبكي، فلذلك:

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

إذا كسبت المال من حلال فلا شيء عليك، وأنفقته في حلال فلا شيء عليك، أنا أقول: هذا الذي يضحي بآخرته من أجل دنياه، هذا الذي يضحي بالحياة الأبدية من أجل سنوات معدودة، هذا الذي يبيع دينه، بعرض من الدنيا قليل، فهو في خسارٍ وبوارٍ.

خطر في بالي من أيام إذا كان الواحد ـ وهذا مثلٌ افتراضيٌ ـ معه خمسة ملايين دولار، وشعر ببرد شديد، فأشعل بها ناراً، وتدفأ بها، أيكون رابحاً بهذا العمل ؟ خمسة ملايين تساوي 250 مليون ليرة، تأخذ أفخر بيت، أفخر مركبة، أفخر مزرعة، أفخر عمل، تدفأت بها خمس دقائق، هذا مَثَلُ الذي اشترى بآيات الله ثمنا قليلاً.

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

(سورة التوبة: 9)

باع دينه وآخرته بعرض من الدنيا قليل، باع هذه الحياة الأبدية بسنوات معدودة، مشحونة بالتعاسة والشقاء:

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

أما القسم الثاني:

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ

1 ـ الغرور هو الشيطان:

العلماء قالوا: هو الشيطان، لأنه يعدكم بالفقر، يوقع بينكم العداوة والبغضاء، يعدكم ويمنيكم.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة النساء: 120)

الشيطان يوسوس، المَلك يُلهم، فإذا استمعت إلى وسوسة الشيطان فقد خسرت كل شيء، لأن مهمته أن يضلك عن سبيل الله، قال تعالى:

(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)

(سورة الكهف: 50)

هذا الذي رفض أن يسجد لأبيكم تكريماً له ولكم أتتّخذونه ولياً لكم، بَلْ تتخذونه هادياً لكم إلى جهنم:

(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)

آية دقيقة جداً، إذاً الغَرور هو الشيطان.

2 ـ كيف نغتر بالله عز وجل ؟

يطالعنا سؤال الآن، يمكن أن نغتر بالدنيا، فنراها بحجم أكبر من حجمها الحقيقي، فكيف نغتر بالله عز وجل ؟ هل يعقل أن الله أقلّ مما تظن ؟ مستحيل، لكن الدنيا ممكن، الدنيا هي أقلّ مما تظن، لكن كيف تغتر بالله عز وجل ؟ العلماء قالوا: تغتر بالله إذا طمعت في رحمته، ولم تستجب لأمره، إذا طلبت الجنة بلا عمل، إذا أقمت على معصية، ورجوت الله أن يعفو عنك، إذا أكلت المال الحرام، وقلت: أنا تبت إلى الله يا رب، فَرُدّ المال إلى أصحابه، أن تغتر بالله أن تطمع بعفوه من دون أن تتوب، أن تطمع بجنته من دون أن تستعد لها، أن تطمع بعطائه من دون أن تدفع ثمنه، هذا هو اغترارك بالله عز وجل.

هل من الممكن أن تدخل إلى بائع سجاد، وتطلب منه أفخر سجاده عنده، وثمنها أربعون أو خمسون ألف، هل تدفع له عشر ليرات ثمناً لها ؟! ماذا يفعل بك بعد أن أتعبته ساعة أو ساعتين ؟

فهذا الذي يطلب الجنة بركعتين، وليرتين وهو مقيم على معاصي الله عز وجل هذا مغتر بالله عز وجل، هذا هو الاغترار بالله عز وجل ؛ أن تظن أن هذا القاضي العادل يرتشي، أن تظن أن هذا الأستاذ العظيم يعطيك الأسئلة مقابل مبلغ من المال، هذا اغترار به، لن يفعل هذا أبداً.

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة النحل: 60)

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

3 ـ الشيطان أول عدوٍ للإنسان:

الله عز وجل ينبئنا، ويؤكد لنا، ويبين لنا أن الشيطان لنا عدو، عدو لدود، يعني يتمنى دمارنا، يتمنى ضلالنا، يتمنى شقاءنا، يتمنى انحرافنا، يتمنى أن نقع في المعاصي، يتمنى أن تكون الخلافات في البيت، كلكم يعلم أن الإنسان إذا دخل بيته ولم يسلم، قال الشيطان لإخوانه: أصبتم المبيت، نحن اليوم نائمون هنا، وإذا جلس إلى الطعام، ولم يسمّ الله قال: أصبتم العشاء، فإذا دخل ولم يسلم، وجلس إلى الطعام، ولم يسمّ الله يقول الشيطان لإخوانه: أصبتم المبيت والعشاء، تجد بعض البيوت فيها شياطين، خصومات، مشاحنات، صياح، كيد، كلمات قاسية، في هذا البيت شيطان يعمل، لذلك الغيبة تَفصم العرى تفتت الصلات، وهي من الشيطان، والنميمة من الشيطان، والاستعلاء من الشيطان، والسخرية من الشيطان، والبذاءة من الشيطان، والمزاح الرخيص من الشيطان:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

4 ـ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ

هذا الذي يستجيب لوساوس الشيطان كأنه يستجيب إلى عذاب النار، يستجيب إلى دماره، وفي الدنيا الذي يرتاد دور القمار، ويبيع بيته، ومركبته، ومحله التجاري، ويغدو فقيراً خلال أيام، فحينما توجه لهذه الدار فقد توجه إلى الدمار، وحينما توجه إلى هذه الدار توجه إلى الفقر، حينما توجه إلى هذه الدار توجه إلى الإفلاس، فالذي يستجيب لدعوة الشيطان ولوسوسته هذا حاله ومآله.

الإنسان أحياناً يشعر أن في نفسه صراعاً، قد يسمع أو قد يشعر أن هناك مَن يقول له: افعل، خذها، لا أحد يراك، وهناك مَن يقول له: لا تفعل إياك أن تعصي الله، الإلهام الطيب من المَلَك، والوسوسة من الشيطان، والإنسان بين إلهام ملك وسوسة شيطان، فإياك أن تستجيب للشيطان، بل استجب للملك.

(الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ

1 ـ الله العظيم يقول عن عذابه: إنه شديد:

عذابٌ شديد، من يقول: شديد ؟ هو الله سبحانه وتعالى، العظيم يقول: عذابُ شديد، فإذا قال لك طفل: سأضربك ضرباً شديداً، طفل عمره سَنَتَان، كم تكون ضربته، بحسب قوته، فكلمة شديد تنسب إلى القائل دائماً، إذا قال لك: أنا معي مال كثير، وكان شاباً ليس له دخل، كثير معه مائة ليرة، بحسب قلة دخله، أما إذا قال لك الغني: أنا معي مال كثير فالكلام ينسب لقائله دائماً، فإذا قال الله عز وجل:

(الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

فقوله الصدق والحق، والعذاب حقاً شديد.

2 ـ العذاب الشديد أنواع كثيرة في الدنيا:

حدثني أخ طبيب يعالج مريضاً مصاباً بمرضين ؛ مرض في معدته، ومرض في قلبه، كل أدوية القلب تؤذي المعدة، وكل أدوية المعدة تؤذي القلب، وقف الأطباء حيارى، عذاب شديد.

أحياناً تواجهني مصيبة واحدة، فالإنسان يكرس كل طاقاته لمواجهتها، يقول لك: حاصرتها، وربنا عز وجل حينما يقرر أن يصيب الإنسان بعذاب شديد يبتليه بالفقر، وبالمرض، ليس معه ثمن الدواء، وقد يبتليه بالشقاق الزوجي مع مرضه وفقره، هو وزوجته في خصام شديد، وقد يبتليه بمشكلة خارج بيته، وقد يبتليه بعدة مصائب في آن واحد، فالإنسان أحياناً ربما استطاع أن يواجه مصيبة واحدة، أو مصيبتين، ولكن إذا أراد الله عز وجل أن يصيبه بعذاب شديد، تأتيه الشدائد من كل جانب، وتستحكم حلقاتها.

(الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

3 ـ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ

المغفرة شفاء، والأجر الكبير هو العطاء، شفاء وعطاء، تخلية وتحلية، تطهير وإكرام، عفوٌ وبلوغُ المرام:

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

والكبير يقول لك الأجر كبير، الآن إذا قال لك فلان: سيهديك هدية من فلان ؟ فلان صديقك، من أصحاب الدخل المحدود، فهي هديته رمزية، إذا كان الصديق إنساناً كريماً وغنياً، وسيهديك هدية، تقيسها بغناه وكرمه، فإذا قال الله عز وجل:

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

خالق الكون الكبير المتعالي يقول لك: الأجر كبير، لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

أما الشيء الذي يعد مصيبة المصائب فهو قوله تعالى:

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا

1 ـ مصيبة المصائب:

يعني أن يفعل الإنسان المعصية، ثم يتساءل: أهذه معصية ؟ هذا شيء مؤلم جداً، لكن الفرق كبير بين من يعصي الله، ويعلم أنه يعصيه، وبين من يعصي الله، ويعلم أنه على صواب، وأن هذا هو عين الذكاء، وأن هذا هو عين الفلاح، وأن هذا هو عين التفوق، يعصي الإله، ويرى نفسه مصيباً في هذه المعصية، هذه مصيبة المصائب، أن تفعل السيئات، وأنت تعتقد أنك تفعل الصالحات، أن تأكل المال الحرام، وتعد هذا ذكاء ومهارة منك، أن توقع بين الناس، وتعد هذا حيلة محكمة بيدك، أن تبني مجدك على أنقاض الناس، وتعد نفسك أذكاهم جميعاً، أن تستغل الناس لمآربك الشخصية، وتعد هذا تفوقاً منك، أن ترى الشر خيراً، وأن ترى الخير شراً، أن ترى الحق باطلاً، وأن ترى الباطل حقاً، أن ترى الإساءة إحساناً، وأن ترى الإحسان إساءة، أن ترى الضعف صفة أخلاقية، وأن ترى الأخلاق ضعفاً في الإنسان، أن ترى أن المعتدي هو الذكي، وهو الذي يستحق الاحترام، إنها مصيبة ؛ أن تفعل السيئات وأنت لا تدري، تقول: ماذا فعلت ؟ لذلك:

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)

2 - الإيجاز القرآني: كمن كان عمله صالحاً:

كمن كان عمله صالحاً.

في القرآن إيجاز:

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)

كمن كان عمله صالحاً، وابتغى به وجه الله عز وجل، هل يستويان:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة: 18)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: 21)

مستحيل.

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم: 35 - 36)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: 61)

مستحيل.

إذاً:

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

4 - فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري:

الإضلال هنا إذا عُزي إلى الله عز وجل كما تعلمون سابقاً هو إضلال جزائي، مبنيٌّ على ضلال اختياري، كما لو أن رئاسة جامعة رأت طالباً لم يدفع القسط، ولم يداوم، ولم يشترِ الكتب، ولم يتعرف إلى أيّ مدرس، كل هذه الأفعال الإرادية تعني أنه لا يريد أن يلتحق بهذه الجامعة، فصدر قرار بفصله وترقين قيده، فهذا القرار الذي صدر بفصله وترقين قيده، هو قرار جزائي، أساسه موقف اختياري من الطالب، هذا واضح تماماً، قرار رئاسة الجامعة هو قرار جزائي، جزاء عدم التحاقه بالجامعة، وعدم

قراءته للكتب، وعدم تقديمه للامتحان جزاء تقصيره الاختياري، فكلما عُزي الإضلال إلى الله عز وجل فهو إضلال جزائي مبني على ضلال اختياري:

(فَإِنّ اللّهَ يُضِلّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (04-10): تفسير الآيتان 9 - 10، الموضوع -الآيات الكونية هي الطريق الوحيد لمعرفة الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-05-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الرابع من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ)

مقدمة لقوله تعالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ

1 ـ ظاهرة الرياح والسحاب والمطر:

أيها الإخوة الأكارم، ظاهرة السحاب، وظاهرة المطر، وظاهرة الرياح، وظاهرة إحياء الأرض بعد موتها، وظاهرة النبات، هذه كلها أشياء مشاهدة مِن قبل جميع الناس، ولكن الإيمان لا في مشاهدتها، فكل الناس يرونها، وكل الناس يلاحظونها، وكل الناس يؤمنون أن حياتهم متوقفة عليها، ولكن المؤمن يرى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً، فكأن العقل البشري يصل إلى أن هذا النظام المُعجِز لا بد له من خالق، لا بد له من مصمم، لا بد من عقل أول، لا بد من خالق عظيم، لا بد من رب كريم، لا بد من مُسيّر حكيم، يأتي الجواب في القرآن لهذا الإنسان، الله الذي فعل هذا، كذا وكذا.

يا أيها الإنسان هذا الذي تراه، هذا الذي تعاينه، هذا الذي تتوقف حياتك عليه الله هو الذي يفعله، هذا معنى قول الله عز وجل في هذه الآية، وفي كل الآيات المشابهة.

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: 2)

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

(سورة النحل: 65)

2 ـ هذه الأفعال من الله تعالى:

كلمة (الله)، الذي فعل كذا وكذا، فهذه الظاهرة التي تراها رأي العين، هذه الآية التي يعرفها جميع الناس هي مِن فعل الله سبحانه، فالمؤمن يرى أن يد الله هي التي تحركها، المؤمن يرى أن الله هو الذي يفعل، أن الله هو الذي تفضل، أن الله هو الذي سير، أن الله هو الذي قدر، فهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَاللّهُ الّذِي أَرْسَلَ)

الله صاحب الأسماء الحسنى، أسماء الله الحسنى جمعت كلها في كلمة (الله)، وهي علَم على الذات الكاملة، فهذه الأسماء كلها تتلخص في وجود الله، وفي قدرته، وفي وحدانيته، وفي كماله، هناك أسماء قدرة، وأسماء كمال، في وجوده، وفي قدرته، وفي كماله، وفي وحدانيته، فكل هذه الصفات مجموعة في كلمة (الله) عز وجل، أو في اسم الله الأعظم (الله)، صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى.

هل عرفت مَن الذي سير الرياح ؟ هل عرفت أيها الإنسان من الذي ينزل الأمطار ؟ هل عرفت أيها الإنسان من جعل هذه الأرض تهتز وتربو وتخضر وتزهر ؟ إنه الله.

(وَاللّهُ الّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

3 ـ الآيات الكونية من أجل معرفة الله:

يا أيها الإخوة الأكارم، حينما يسوق لنا ربنا جل وعلا في كتابه العزيز بعض الآيات الكونية فما معنى ذلك ؟ ما المراد من ذلك ؟ المراد أن يا عبدي إذا أردت أن تعرفني فهذا هو الطريق، إذا أردت أن تعرف عظمتي، إذا أردت أن تعرف قدرتي، إذا أردت أن تعرف تربيتي، إذا أردت أن تعرف علمي، إذا أردت أن تعرف حكمتي، فأنت لا تراني، ولن تراني، لأن الله جل وعلا، لا تدركه الأبصار، ولكن إذا نظرت إلى الكون فإنه أثر من آثاره، تتجلى فيه حكمته ورحمته، وقدرته، وعلمه، وخبرته، ولطفه، وقوته، وغناه، كل أسماء الله الحسنى تتوضّع في الكون، بل إن بعضهم يقول: ما الكون إلا مظهر من مظاهر الكمال الإلهي، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، وبالتعبير المعاصر الكون تجسيد لأسماء الله الحسنى، أسماء الله الحسنى لن تراها رأي العين، ولكن ترى آثارها، فإذا أردنا أن نؤمن بالله حق الإيمان، إذا أردنا أن نتوصل إلى معرفة الله حق المعرفة، المعرفة التي لا نعصيه بها، المعرفة التي تحملنا على طاعته، هذا هو الطريق، لذلك في آيات أخرى يقول الله عز وجل:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية: 6)

4 ـ الكون بوضعه الراهن معجزة:

لو أنّنا رسمنا ترياقاً وحيداً للطب، فأي طريق آخر لن يوصل المرءَ ليكون طبيباً، فلو قرأ طالب المجلات الطبية كلها فلن يكون طبيباً، فشاءت حكمة الله أن يجعل من خلقه دليلاً عليه، شاءت حكمة الله أن يجعل الكون مظهراً لأسمائه، فإذا أردت أن تعرفه فكما جاء في الأثر: **" حسبكم الكون معجزة ".**

من دون خرق عادات، بوضعه الراهن، بوضعه الاعتيادي هو المعجزة.

هذه الأرض التي نحن عليها، شاءت حكمة الله أن تكون كرة، وللشكل الكروي ميزات كثيرة، الخطوط على هذا الشكل لا تنتهي، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

(سورة الرعد: 3)

5 ـ كروية الأرض وأثر ذلك على المخلوقات:

الخط على جسم الكرة مستمر، تذهب من حيث أتيت، تدور، فشاءت حكمة الله أن تكون أرضنا كرة، وشاءت حكمة الله أن تكون بهذا الحجم فلو كانت أكبر من هذا الحجم، لأصبح وزن الإنسان عليها ثقيلاً جداً، ولو كانت أصغر من هذا الحجم لاستحالت الحركة عليها، إذاً: شاءت حكمة الله أن تكون أرضنا كرة، ذات شكل كروي لميزات كثيرة قدرها الله عز وجل، التكوير يحتاج إلى شكل كروي.

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ)

(سورة الزمر: 5)

فلو كان شكل الأرض مكعباً يأتي النهار فجأة، والليل يأتي فجأة، لكن هذا اللغز:

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ)

لاحظ بعد صلاة الفجر كيف يتداخل النهار مع الليل، ولاحظ بعد أذانِ المغرب كيف يتداخل الليل مع النهار، لولا الشكل الكروي لما كان ذلك.

إذاً: شاءت حكمة الله أن تكون أرضنا كرة، وأن يكون حجمها مناسباً وشاءت حكمة الله أن تكون الأرض فيها قسم يابس، أرض صلبة، وفيها قسم سائل، إذاً: هناك بحار، وهناك يابسة، والأرض مكونة من خمس قارات، ومن بحار، لكن هناك حكمة رابعة هي أن نسبة البحار إلى نسبة اليابسة نسبة محكمة، لو كانت المسطحات المائية أقل مما هي عليه لأصبحت الأرض قاحلة جرداء، هذه المسطحات المائية الواسعة التي تزيد على أربعة أخماس الأرض، هي التي تسبب الحياة على الخمس الأخير، إذاً: كرة بحجم معين، وبقوام معين، وبتوزيع بين الماء وبين اليابسة بشكل معين.

ويستحوذُ على العقل شيءٌ خامس، تداخُل اليابسة مع المحيطات أيضاً فيها حكمة بالغة، فكل المنخفضات متمركزة فوق قبرص، وهذه الجزيرة تؤدي أهدافاً كبيرة جداً في طبيعة الطقس، والمناخ، والأمطار والرياح، أمّا هذه الجزر، فجزر في شمال إنكلترا، وجزر في بعض المحيطات، جزر شرقي إفريقية، جزر في المتوسط، هذه لها وظيفة كبيرة، إذاً: فضلاً عن وجود اليابسة والماء، وعن نسبة الماء إلى اليابسة، تَوزُعُ اليابسة مع الماء، تَوَزُعاً حكيماً، كيف تعرف الله عز وجل ؟ من خلال التدقيق في آياته.

6 ـ الغلاف الغازي:

شيء آخر، وهو أن اللهَ عز وجل جعل للأرض غلافاً غازياً ـ هواء ـ هذا الهواء له ميزات كثيرة، أولاً الهواء وسيط، وسيط لنقل الحرارة، ووسيط لنقل البرودة، وسيط لنقل الصوت، ومع ذلك لا يشكل الهواء حاجزاً يمنع الرؤية، الهواء لطيف، وقد يتجلى اسم اللطيف في الهواء، فهو شيءٌ موجود بيننا، وبين كل شخصين، لولا الهواء لما نُقل صوتي إليكم.

إنّ رواد الفضاء وهم على سطح القمر كانوا بحاجة إلى جهاز لاسلكي ليستمع بعضهم إلى بعض، وهم إلى جنب بعضهم، فلا تجدُ هواءً، عندهم إذاً لا يسمعون صوتاً، ومن نعمة الله عز وجل علينا أن زود هذه الأرض بغلاف هوائي، هذا الغلاف الهوائي لو كان ثابتاً والأرض تدور لدمر كل ما على سطح الأرض، لأن سرعة الأرض حول نفسها تزيد على 1560كم في الساعة، ونحن نعرف أنّ أشد أنواع الأعاصير تدميراً للمدن بأكملها سرعتها 800 كم في الساعة، طبعاً سرعة 800 كم للرياح تدمر كل شيء بإذن ربها، لكن هناك غلاف هوائي محيط بالأرض، لكنه متحرك معها، هذا من نعمة الله عز وجل.

7 ـ دوران الأرض:

الأرض تدور ولو أنها كانت لا تدور لانعدمت الحياة مِن عليها، بكل بساطة، لأن الأرض كرة، سطح من سطوحها يقابل الشمس، والشمس مسلطة عليها آلاف السنين، بل آلاف ملايين السنين، لا بد من أن ترتفع حرارتها إلى درجة مستحيلة، العلماء قدروها بـ 350 فوق الصفر، ولابد من أن تنخفض الحرارة في الطرف المقابل 270 تحت الصفر، الصفر المطلق، وعندها تنتهي الحياة، إذاً: شاءت حكمة الله أن تكون أرضنا كرة، وأن تكون بحجم معين، وأن تكون بقوام معين، وأن يوزع فيها الماء واليابسة توزيعاً حكيماً، وأن تتداخلاً اليابسة مع الماء تداخل حكيماً، وأن تغلف بغلاف غازي، هو

الهواء وكل صفات اللطف في الهواء، وفوق كل ذلك شاءت حكمة الله عز وجل أن تدور الأرض.

يا أيها الإخوة الأكارم: هذه أشياء بديهية، من مستوى طلاب الثانوي، الأرض تدور، لو أنها دارت على محورٍ، موازٍ مستوي دورانِها حول الشمس، الشمس هكذا، وهي تدور حول الشمس، هذا مستوى دورانها حول الشمس، لو أن الأرض تدور هكذا، حول محور يوازي مستوى دورانها حول الشمس، ما الذي يحصل ؟ كأنها واقفة، هذه الدورة هكذا تجعل نصف سطحها مقابلاً للشمس، والنصف الآخر باردا عديم الدفء والضوء، إذاً: لا وجود لإله حكيم، لدارت هكذا على نحو يخالف ما هي عليه، ممكن أن تدور هكذا، لو أنها هكذا دارت والمحور عمودي على مستوي الدوران دارت هكذا، الشمس جاءت موازية لكل سطح الأرض لانعدمت الفصول، ولما كانت الفصول الأربعة، لا صيفٌ، ولا شتاء، ولا ربيع، ولا خريف، لو كان المحور أفقياً لا نستفيد شيئاً، ولانتهت الحياة، لو كان المحور عمودياً تماماً لانعدمت الفصول وانعدم النبات، فمَن الذي صمّم أن يكون محور الأرض مائلاً هكذا، والشمس من هنا، الكرة مائلة وتدور هكذا، إذاً: أشعة الشمس تأتي إلى هنا عمودية، فيكون الصيف، وتأتي إلى هنا مائلة فيكون الشتاء، فإذا دارت الأرض دورة حول الشمس انعكست الآية فصارت أشعة الشمس عمودية هنا فيكون صيف، ومائلة هنا فيكون الشتاء، هذا تصميم مَنْ هذا ؟

لي صديق ركب طائرة من شمال أمريكة إلى البرازيل رأى العجب العجاب، في شمال أمريكة، أو في أمريكة الشمالية حيث الصيف الحار، والناس على شواطئ البحار، ويرتدون الثياب الخفيفة، فلما طارت به الطائرة إلى جنوب الكرة الأرضية رأى العواصف والأعاصير والثلوج، في يوم واحد، شمال الأرض صيف، وجنوبها شتاء، وبالعكس، فهذا تصميم مَن ؟ خلق مَن ؟ ترتيب مَن ؟ تنظيم مَن ؟ الله سبحانه وتعالى، فإذا أردت أن تعرفه فهذا هو الكون يدلك عليه.

8 ـ الليل والنهار:

أمّا الليل والنهار فإنّ الله عز وجل قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الروم: 22)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

(سورة فصلت: 37)

الليل يأتي بعد النهار، لأن الأرض تدور هكذا، والشمس من هنا فيكون النهار، فلو أن الأرض دارت دورة كل مائة ساعة مثلاً لصار النهار خمسين ساعة، وأنت لك طاقة محددة، في أثناء النهار تنام، وتستيقظ، ثم تنام أيضاً، والنهار قائم، ثم يأتي الليل خمسين ساعة فتنام، وتستيقظ، وتنام، والليل قائم، من

جعل سرعة دورة الأرض حول نفسها، سرعة متناسبة مع طاقة الإنسان، الإنسان يعمل ثماني ساعات يأكل ويرتاح ساعتين أو ثلاثاً، يأتي الليل يسكن فيه، ينام ثماني ساعات، يصلي الفجر، يستيقظ فتشرق الشمس، هذا التناسب بين قدرة الإنسان وطاقته ودورة الأرض حول نفسها.

هناك كواكب سيارة تدور دورة كل خمسين عاماً، تدور دورة في ساعتين، والتنوع شديد جداً في الكواكب التابعة للمجوعة الشمسية، والأرض تدور حول نفسها دورة كل 24 ساعة، مَن صمم ذلك ؟ الله رب العالمين.

وهناك شيء آخر: طبعاً كل هذا مقدمة لهذه الآية:

(وَاللّهُ الّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ)

9 ـ كيف تتحرك الرياح ؟

الرياح كيف تتحرك ؟ ما دامت الأرض تدور بمحور مائل إذاً هناك منطقة حارة، ومنطقة باردة، المناطق الحارة في الأرض، مناطق شمالية باردة، وخط الاستواء حار، والجنوبية باردة، وهناك صحارى في أعماق القارات، وهناك سواحل بحار، وهناك بحار، ما الذي يحصل ؟ إنّ الهواء كغيره من الأجسام يتمدد بالحرارة، وينكمش بالبرودة، فالهواء في المنطقة الباردة ينكمش، يزداد ضغطه، يقول لك: ضغط مرتفع، وفي الأماكن الحارة، يتمدد، ويتخلخل، ويقلّ ضغطه، ما دام هناك منطقة في الأرض بارد فالهواء فيها كثيف، مضغوط، ثقيل.

أنا مرة في موسم الحج حينما أقلعت الطائرة بنا من جُدة شعرت أن إقلاعها في زاوية صغيرة جداً، في دمشق أقلعت على نحوٍ ما، في جدة على نحوٍ آخر، سألت أحد الطيارين فقال لي: إن الهواء ساخن هناك مخلخل، لا يحمل الطائرة، تحتاج الطائرة إلى مسافة طويلة جداً كي تقلع، لكي تصعد في الهواء، أما في دمشق فالحرارة أدنى من جدة، فالهواء إذا كان ساخناً يتمدد فيتخلخل فيقلّ ضغطه، فيقال: ضغط منخفض، كما يقال: مُنخفض جوي، وإذا برد الهواء، ويتكاثف يزداد ضغطه، ويثقل وزنه، فحينما تكون بالأرض منطقة باردة، هواؤها ثقيل، مضغوط، ومنطقة حارة هواؤها خفيف وممدد ينشأ اختلاف في الضغط، ودائماً الشيء المضغوط يهرب إلى المنطقة ذات الضغط الأقلّ، من هنا تنشأ الرياح، فهناك رياح تأتي من القطب الشمالي إلى خط الاستواء، ورياح تأتي من المناطق الحارة الساحلية إلى المناطق الباردة الداخلية، هذا هو سر تشكل الرياح على سطح الأرض، فمن صمم هذا ؟ من جعل الهواء يتمدد ؟ من جعل البرودة تجعل الهواء ينكمش ؟ الله جل وعلا.

إذاً: هل تعرف أيها الإنسان من صمم شكل الأرض ؟ ومن صمم حجمها ؟ ومن صمم سطحها ؟ ومن وزع الماء فيها ؟ ومن وزع القارات ؟ و من وزع الجزر ؟ ومن جعلها متداخلة ؟ ومن صمم الهواء فوقها ؟ ومن صمم دورانها على محور مائل ؟ ومن صمم الليل والنهار ؟ وصمم الصيف والشتاء والربيع والخريف ؟ من صمم كل هذا ؟ مَن جعلها بسرعة مناسبة لطاقة الإنسان ؟ الله رب العالمين، فلذلك:

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا)

وكذلك هناك شيء آخر، هذا الماء في الدرجة الاعتيادية يكون سائلاً، إذا بردته في الثلاجة يصبح ثلجاً، من صمم العناصر، لها درجة تَجَمُّد، وكذلك درجة انصهارٍ، ودرجة تبخرٍ، كل ما على الأرض بدرجة تكون صلبة، وبدرجة تكون سائلة، وبدرجة تكون غازية، يمكن أن يصهر الحجر البازلتي، يمكن أن يُجَمّد الهواء، وفي الأصل الهواء غازي، وكذلك عندك هواء سائل، مع التبريد والضغط، وعندك هواء جامد، هذه قاعدة عامة، ومن تصميم ربنا عز وجل أن الماء حينما يسخن يتبخر، إن أشعة الشمس مسلطة على مساحات واسعة جداً على سطح الأرض، إذاً: يحدث ما يسمى بالتبخر.

التبخُّر:

ما هو التبخر ؟ التبخر يعني علاقة حكيمة صممها الله عز وجل بين الماء والهواء، فالماء إذا تبخر تداخل في الهواء، يقولون: هواء مشبع ببخار الماء، وأنت ائتِ بإبريق شاي في الشتاء، وضعه على المدفأة، ثم أوقد هذه المدفأة، بعد ساعتين أو ثلاثاً يفرغ ماؤه، أين أصبح ماءه ؟ في جو الغرفة، لو عندك جهاز رطوبة لرأين أن الرطوبة ترتفع عندك من 35 إلى 40، وفي الساحل الرطوبة 90 درجة، في الداخل 30، في الغابات 60 أو 65، من صمم أن الماء إذا تبخر حمله الهواء، إنه لقانون رائع جداً، أن هذا الهواء عند كل درجة من درجات الحرارة يحمل كمية ماء معينة، فمثلاً هواء في درجة فرضاً 50، يستوعب 20 غراماً بخار ماءٍ، لو هبطت درجته إلى 30 يتخلى عن قسم من الماء، وهذا هو سر تشكل الأمطار، المنطقة الحارة يكون الهواء مشبعاً ببخار الماء، فالله عز وجل يسوقه عن طريق الرياح الشديدة، ويدفعه إلى منطقة باردة، وفي هذه المنطقة الباردة يتخلى الهواء عن ذرات الماء التي احتجزها، ومن جعل بخار الماء يختلط مع الهواء، ويبدو شفافاً، وفي حالات يبدو سحباً، السحب حالة وسط بين الهواء المشبع ببخار الماء وبين الأمطار، قطرات المياه، إذاً: الله عز وجل هو:

(الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا)

بعض العلماء قال: الرياح الساخنة كثيرة بخار الماء، والرياح الباردة تعيد بخار الماء إلى ماء، الأمطار تتشكل من رياح ساخنة تبخر الماء في البحار، ومن رياح باردة تكثفه في طبقات الجو فيغدو أمطاراً.

إذاً:

(وَاللّهُ الّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ)

فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ

1 ـ فكِّر فيمن أحيا الأرض بعد موتها:

انظر إلى شجرة في الشتاء، لأنها حطب، انظر إلى أرض قاحلة في الشتاء فهي أرض ميتة ليس فيها شيء، انظر إليها في الربيع، اهتزت وربت، تصبح الأرض قطعة من الجنة، المروج كلها خضراء، من أين جاءت هذه الأزهار بنفسجية اللون، صفراء اللون، حمراء اللون موزعة، ذات ألوان وأشكال وروائح، أين كان كل هذا ؟ انظر إلى الأرض في الشتاء، لا شيء فيها، موت مطبق، الأشجار خشب يابس، فإذا هي في الربيع ترتدي حلية قشيبة، الأزهار، البراعم، الأوراق الثمار، من فعل هذا ؟ فقال:

(وَاللّهُ الّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ)

بفضل الله عز وجل في هذا العام الأمطار وفيرة، إذا خرجت إلى أي منطقة تجد الأزهار ارتفاعها متر أينما ذهبتَ، الأزهار البرية التي تنبت من تلقاء ذاتها بحسب ما يظنه الناس ارتفاعها متر، أين كان كل هذا ؟ انظر إلى أرض في الشتاء تراها ميتة، فإذا جاءت الأمطار اهتزت وربت، وانبتت من كل زوج بهيج، هذا خلق الله قال:

(فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

هذه الظاهرة بربكم ألا ترونها كل عام ؟ إن الذي مضى عليه 30 سنة احذفْ منها 5 سنوات إذ لم يكن مدركاً، 25 مرة رأى الأرض يابسة ميتة، فالأشجار خشب ميت، جاء الربيع ازدهرت الأشجار، والأرض اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، هذه الظاهرة يراها أحدنا 40 عاماً أو 30 عاماً، ألا يُفكّرُ في الذي خلقها من هو ؟ يدُ من ؟ صنع من ؟ خلق من ؟ الله جل في علاه.

إذاً:

(فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

النبات معجزة من معجزات الخالق:

أيضاً النبات، مَن الذي يدرك أن هذا الماء وظيفته أن يحل معادن التربة، التربة فيها معادن، فيها كلسيوم، فيها مغنزيوم، فيها فوسفات فيها آزوت، فيها قصدير، في كل الأسمدة معادن، أشباه معادن يأتي الماء فيحل هذه المعادن، تأتي هذه الشعريات المتوضعة على أدق الجذور، هذا الجذر الضعيف في رأسه قلنسوة تفرز مادة تذيب الصخر، وفي بعض الجبال ترى الجذور بين الصخور، قد تعجب، يا رب هذا الجذر الضعيف الرقيق، والنبات اللين الغض، كيف يدخل بين الصخر، لأن الله عز وجل زوده برأس ليس رأسَ الماس، ولكن هو رأسٌ هلامي فيه مادة تذيب الصخر، وقد يمتد جذر الشجرة إلى 30 متراً تحت الأرض، بحثاً عن الماء، الجذر يمشي، وعلى رأس هذا الجذر أشعار ماصة، هنا العظمة، شجرة فستق، شجرة لوز، إجاص، تَمْر، مشمش، تفاح، عنب، تسقى بماء واحد.

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

(سورة الرعد: 4)

كل فاكهة لها طعم، ولها قوام، ولها قشرة معينة، ولها شكل معين، ولها صفات معينة، وتسقى بماء واحد، العظمة أن هذا الجذر الذي لا يعقل، يختار من التربة ما يناسب نوع الثمرة التي سوف يحملها شجره، التفاح فيه حديد، واليخنة فيها فسفور، وفيها مواد معينة، وأكثر النباتات فيها معادن، معادن مُنحلة، حسناً فمن الذي أنبأ هذا الجذر أن يأخذ البوتاس، خذ الكلسيوم، خذ المنغنيز، خذ الفوسفات، خذ الآزوت، من قال له ذلك ؟ أيعقل أن يكون هذا الجذر عاقلاً، أم أن الله عز وجل هو الذي سير ذلك، كل شجرة تأخذ حاجتها من التربة، من المعادن المنحلة في الماء، هذا السائل الذي حلت فيه بعض المعادن يصعد بأوعية، الأوعية مدعمّة بألياف حلزونية لئلا يكون نمو الشجرة عرضاً، دافعاً لها لتضيق لمعتها، وفي النسغ الصاعد أنابيب مدعمة بألياف حلزونية لئلا تضيق لمعتها عند نمو النبات، تصميم مَن هذا ؟ يصعد هذا السائل إلى الورقة.

وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ، قرأتُ كتاباً في النبات فأدهشتني مقدمة كتبت في رأس هذا الموضوع، قال فيها: إن أعظم معمل صنعه الإنسان اليوم لا يرقى إلى مستوى الورقة، ما هذه الورقة ؟ هي معمل قائم بذاته، تأخذ الطاقة من الشمس، الفوتونات وفيها اليخضور، وفيها شلات الحديد، وتأخذ هذا السائل وتصنع منه نسغاً نازلاً، هذا النسغ سائل وحده يصنع الأوراق الجديدة، والأغصان الجديدة، والبراعم الجديدة، والثمار الجديدة، قل:

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة البقرة: 111)

(هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة السجدة: 25)

تارة يصبح ثمرةً، وتارة يصبح غصناً، وتارة يصبح برعماً أو جذراً، أو قشرةً، أو لحاءً، ما هذا الإعجاز في الخلق.

أيها الإخوة الأكارم، أقرب شيء لنا جسمنا والنبات، أنا أقول لكم: وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ فينا آيات لو أمضيت كل حياتك، ووقفت عند دقائق جسمك لا تنتهي الآيات، وبإمكانك أن تعرف الله من خلال خلقك، وبإمكانك أن تعرف الله من ظاهرة النبات وحدها.

هذه الآية دقيقة جداً، ربنا عز وجل حينما يذكر في القرآن بعض الآيات الكونية إنما يذكرها لتكون منطلقاً لنا في تفكيرنا، وهي عناوين موضوعات، وما عليك إلا تأخذها، وأن تتابع التفكير فيها.

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

إثبات البعث: كَذَلِكَ النُّشُورُ

يا ترى ما هدف هذه الآية ؟ لماذا ؟ قال:

(كَذَلِكَ النُّشُورُ)

أنتم تستعظمون أن يعاد الخلق مرة ثانية، أن تخلق هذه الأجساد البالية في القبور، أن يعاد خلقها مرة ثانية، ألا ترى ظاهرة النبات ؟ ألا ترى ظاهرة الأمطار، والرياح ؟ فالذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن ينبت هذه الأجسام من جديد.

إذاً: ربنا عز وجل ساق لنا هذه الآية الكونية لتكون دليلاً ثانياً على إعادة الخلق، قال:

(كَذَلِكَ النُّشُورُ)

ألا ترى هذه الآيات جلية واضحة بأم عينيك، الذي خلق هذا كله، قادر على أن يعيد الخلق مرة ثانية:

(كَذَلِكَ النُّشُورُ)

وبعد فما الذي يمنع الإنسان من أن يؤمن ؟

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ

هنا نقطة دقيقة جداً، وهذه النقطة تبين علاقة الآيتين بعضهما ببعض، الإنسان أحياناً يحصّل مركزاً معيناً، أو دخلاً معيناً، أو تجارة معينة، أو شأناً معيناً، أو مكانة معينة، ربما خاف على هذه المكانة، هذا المركز ؛ فهو يرفض الحق حفاظاً على مركزه، هناك عوامل كثيرة يرفضها، وهناك أشخاص كثيرون يرفضون الدين، لا كراهية في الدين، لا لأنهم لم يقتنعوا به، هم مقتنعون به، ولكن يتوهمون لضعف

إيمانهم أنهم إذا تدينوا، أو إذا آمنوا، أو إذا صلوا، أو إذا تابوا، أو إذا انضبطوا يخسرون مكانتهم أو مناصبهم، أو دنياهم العريضة، أو دخلهم الكبير، أو مكانتهم في الأرض، فهذا الوهم الخطير، ربنا عز وجل بدده في هذه الآية، قال:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ)

1 ـ الحاجات الأساسية للإنسان:

والإنسان أيها الإخوة كما تعلمون، له حاجات أساسية.

أول حاجة من حاجاته: وجوده، لذلك هو يبحث عن طعام، والنفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت، الإنسان قبل كل شيء، فم مفتوح يأكل، فهذه هي الحاجة الأولى.

الحاجة الثانية: الإنسان بحاجة إلى أن يبقى نوعه، من أجل بقاء جسمه يحتاج إلى الطعام والشراب، ومن أجل بقاء نوعه يحتاج إلى الزواج، فشهوة البطن، أو الحاجة إلى الطعام، هي رقم واحد، وثانياً الزواج، حسناً لقد أكل وتزوج، ثم عنده حاجة السعادة، كإنسان مهم له شأن، تصور أحياناً الشريك، يكون أحد الشركاء أقوى من الثاني، فالقوي يذل الضعيف، وأحياناً الإنسان يحس أن كرامته قد جرحت فينسحب من كل هذه الشركة، لا يتحمل.

أريد أن أقول: إن الإنسان عنده حاجة للطعام والشراب، وعنده حاجة للزواج، وعنده حاجة إلى العزة، وإلى أن يشعر بعزته، أن يشعر بكرامته، أن يشعر بقيمته، أن يشعر بشأنه، أن ينتزع إعجاب الناس، هذه حاجة إما أن توظف بالحق أو في الباطل، إما أن تحقق هذه الحاجة عن طريق الالتزام بالحق وخدمة الخلق، وإما أن تحقق هذه الحاجة عن طريق إيذاء الخلق، هم يخافونك، فيعظمونك، أو تحسن إليهم فيحبونك، فكل شهوة أودعها الله في الإنسان، وكل حاجة أودعها فيه، يمكن أن توظف في الحق أو في الباطل، في الخير أو في الشر، فالإنسان يحب أن يكون ذا شأن، وذا مكانة، وله قيمة، والناس يحبونه، أنت بحاجة ماسّة أن يحبك الناس، وإلى أن تحب الناس، فإذا توهمت أيها الإنسان أنك إذا آمنت بالله، وأعلنت توبتك له، واصطلحت معه، واستقمت على أمره وعملت الصالحات، إذا توهمت أن في هذا ضياعاً لمكانتك أو تشتيتاً لشأنك، أو ذهاباً لوقارك، فهذا هو عين الجهل، لماذا ؟ قال تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ)

هذا الكلام أقوله لكم بصراحة: الذي يحب الشأن والمكانة، الرفعة، الاحترام، وأن ينتزع إعجاب الناس، أن يعظمه الناس، أن يبجلوه، أن يحترموه، أن ينادوه بأعظم ألقابه:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ)

أنت بحاجة إلى هذه المشاعر، مشاعر التبجيل والتوقير والتعظيم فهي مفطورة في الإنسان.

(كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا

1 ـ العزة لا تُنال إلا من الله:

لا يمكن لما سوى الله أن يمنحك هذه العزة، أية جهةٍ سوى الله، أي إنسان، أي عظيمٍ، أي غنيٍ، أي قويٍ، أية جهة على وجه الأرض، لا يمكن أن تمنحك هذه العزة إلا الله، هنا المشكلة، عن ابن عباس رَضِي اللّه عَنْه عن النبي صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قال:

((ألا ! رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا ! رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

[أخرجه الرافعي]

وكفار قريش لماذا كفروا بمحمد صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ ؟ وَاللّهِ الّذِي لا إلَهَ إلا هُوَ عرفوه رسولاً كما يعرفون أبناءهم هكذا قال الله عز وجل:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة: 146)

لماذا كفروا به إذاً ؟ حفاظاً على مكانتهم، حفاظاً على زعامتهم، حفاظاً على تجارتهم، حفاظاً على انصراف الناس لهم، ما الذي حصل فيما بعد، هل بقيت لهم هذه المكانة ؟ هل بقيت لهم هذه العزة ؟ ألم يُصرعوا في معارك بدر وأحد والخندق، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام لهم: يا فلان، يا شيبة بن ربيعه، يا أمية بن خلف، خاطبهم بأسمائهم واحداً واحِداً، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا، إني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، قالوا أتخاطب قوماً جيفوا، قال: ما أنتم بأسمع لي منهم، ولكنهم لا يجيبونني.

التاريخ بين أيدينا، ما الذي حصل ؟ هؤلاء الذين قاوموا الدعوة، وكفروا بها، وكذبوا بها، وسفهوا النبي الكريم وأصحابه حفاظاً على مكانتهم، حفاظاً على وجاهتهم حفاظاً على تجارتهم، ما الذي حصل ؟ خسروا بلدهم وشأنهم، ألم يقف أبو سفيان في باب عمر بن الخطاب ساعات طويلة فلم يؤذن له ؟ وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان، فلما دخل عليه، قال: زعيم قريش يقف في بابك ساعات طويلة، ولا تأذن لي وهذان يدخلان متى يشاءان، قال له: أنت مثلهما ؟! من أنت أمامهما ؟

2 ـ طاعة الله سبيل العزة:

وأقول لكم الآن: إذا توهم الإنسان أنه بمعصية الله قد يرتفع، وإذا توهم الإنسان أنه بترك الدين يملك عزة وكرامة فهذا هو عين الجهل هذا كلام واضح كالشمس:

(كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

شأنك بين الناس، مكانتك، رفعتك، كرامتك، لا تكون إلا بطاعة الله، فإذا أردتها بمعصية الله، فلن تصل إليها. اسمعوا قول النبي الذي لا ينطق عن الهوى.

عن عائشة رَضِيَ اللّه عَنْها، عن النبي صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قال:

((من التمس رضا الله عنه بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان]

وَاللّهِ الّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ لقد سمعت مئات القصص تؤكد هذه الحقيقة، نعم مئات القصص، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ)

يا أخي أنا بودي أن أكون محترماً، معك حق، هذه حاجة طبيعية عندك، أنا أحب كرامتي، كرامتي فوق كل شيء، هذا حسن وجميل، وهذا طلب مشروع، أنا أحب أن أحفظ ماء وجهي، هذا كذلك كلام طيب، أنا أحب أن أكون كبيراً في بيتي، لي مكانة عند أولادي، جيد، أنا أحب أن أكون لي مكانة في عملي، جيد، ولكن لتعلمْ أن هذه المكانة، وهذه الرفعة، وهذا التوقير، وهذا التبجيل، وهذا الاحترام لا يكون إلا بطاعة الله، سبحان من جعل العبيد ملوك بطاعته، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته.

أتحب أن يحبك الناس ؟ أحِبَّ الله، واستقم على أمره، فالله عز وجل يجعل قلوب المؤمنين تهفو إليك، فإذا أردت العزة بمعصية الله نفر الناس منك واحتقروك، وتحدثوا عنك بالأقاويل، واخترعوا عنك الأكاذيب، وأصبحت سمعتك في الوحل:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

3 ـ لا يملك العزة مخلوقٌ:

لم يقلْ: فلله العزة، هناك كلمة أساسية، وهي جميعا، العزة كلها من الله، وما من مخلوق في الأرض يملك هذه العزة، لا تجد جهة إذا مشيت معها تعطيك عزة، الأمور بخواتيمها، الأمور بما تستقر عليه،

طبعاً الله عز وجل جعل امتحانات كثيرة، جهات أرضية كثيرة تمنحك العزة الظاهرة، ولكن بعد حين يَتَخَلَّوْن عنك، فإذا جاء مرض عضال، فإذا جاءت مصيبة كبيرة، أين أنت ؟ فلذلك الإنسان الذي معه الحق، موقفه قوي جداً، موقعه قوي، أما مع الباطل فهو عرضة لانهيار سريع:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

معنى: فللّه:

بقي معنى فلله.

المعنى الأول:

أول معنى: أنك إذا آمنت بالله، خالقاً، ومربياً، ومسيراً، وأن الأمر كله بيده، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وأنه إليه يرجع الأمر كله، وأنه بيده الخلق والأمر، وأنه خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، إذا آمنت بهذا تشعر نفسك عزيزاً ولو انقطعت علاقتك مع الناس، كل أمرك بيد الله، صحتك بيده، دخلك بيده، أهلك بيده، أولادك بيده، الجيران بيده، إخوانك بيده، من هم دونك بيده، من هو فوقك بيده، أعداؤك بيده، انتهى الأمر، وإذا آمنت ووحدت فطبيعة الإيمان فيها عزة، انظر حال المنافق لماذا هو في الوحل، لأنه يرى أن فلاناً بيده مصيره، فيرضيه، ثم يرضي خصمه، وفي ظرف آخر يعلم الأول: لِمَ كنت عنده البارحة، فيقول: أنا مضطر أن أذهب إليه فقد ضعف مركزه، لأنه يرى مصيره مع كل هؤلاء، يراهم يرزقونه، يرفعونه ويخفضونه، ينفعونه ويضرونه، حينما تفكر هذا التفكير فأنت ذليل، فأنت في الوحل، وقد بذلت ماء وجهك، ولا يمكن لإنسان مؤمن أن ينافق، لماذا ينافق ؟ علاقته مع الله، مصيره بيد الله، الله عز وجل هو الرزاق، وهو المحيي، وهو المميت، وانتهى الأمر، إذاً: طبيعة الإيمان بخالق عظيم، ورب حكيم، ومسيّر كبير، وطبيعة الإيمان بلا إله إلا الله، تمنحك عزةً، والمؤمن عزيز، لا يضطر أن يتملق، ولا يمدح مدحاً كاذباً، ولا ينافق، ولا يداهن، ولا يذلّ، ولا يخنع، الخنوع والتذلل والضعف والنفاق والتملق هي صفات المشركين، صفات المنافقين، لذلك:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

المعنى الثاني:

هناك شيء ثانٍ: الآن أنت حينما تستقيم على أمره تكون عزيزاً، ودخلك كله حلال، معك أدلة، أما إذا كان الدخل حراماً فأنت تفقد شيئاً من عزتك، يعني أول ملاحظة، أول تفتيش، تجد أن قلبك ارتاع، ما دام في الدخل حرام، ما دام لديك كذب، ما دام عندك تدليس، وتزوير، ونفاق، وسعر خُلُبي، وسعر حقيقي، وهناك محضر ضبط شكلي مادام هناك لعب، وخوف، وتذلل، فإذا كشف الإنسان خطأ الآخرين يصيرون عبيداً له، أرجوك يا سيدي، من أين جاء ضَعفُك ؟ من أين جاء تذللك ؟ من انحرافك، فمن هو

العزيز ؟ هو الموحد، من هو العزيز ؟ المستقيم، لمجرد أن تستقيم فأنت عزيز، لمجرد أن تكون موحداً فأنت عزيزٌ، فالتوحيد يكسب العزة، والاستقامة تكسب العزة.

المعنى الثالث:

وكذلك شيء آخر ؟ العمل الصالح، يكسب العزة، لمّا الإنسان يخدم الناس بحسب أمر الله عز وجل، يخدمهم، يعاونهم، يبذل ما عنده من أجلهم، والمؤمن له طبيعة، يسمونها بالتعبير الحديث استراتيجية، أساس حياته العطاء، وليس الأخذ، بينما الكافر أساسه الأخذ، امتصاص دماء الناس، أخذ أموالهم، بالحق أو بالباطل، استهلاك جهودهم، يريد مَن يخدمه دائماً، أهل الدنيا يستهلكون جهود الناس، يستهلكون أموالهم، يعيشون على أنقاضهم، المؤمن عكس ذلك، أساس حياته العطاء، يا من جئت الحياة فأعطيت، ولم تأخذ، والمؤمن إذا صح التعبير مركبة حياته على العطاء، وما دامت حياته مركّبة على العطاء فهو محبوب بين الناس، موقر مبجل، محترم، يا داود ذكّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، فإذا آمنت بالله، ووحدته فأنت عزيز، وأنت إذا آمنت بالله ووحدته، واستقمت على أمره فأنت عزيز.

المؤمن المستقيم لا يؤتى من جهة المال والنساء:

إذا كان الشخص غير مستقيم، وسافر إلى بلد أجنبي، ثم زلّت قدمه فصوروه، وأخذوا عليه وثيقة، أمسكوا به من خوانقه، أكثر الأشخاص يؤتون من زاوية النساء، ومن المال الحرام، المؤمن مستقيم، محصن من جهة النساء بطاعة الله، وغض البصر، وعدم الخلوة، ومحصن من جهة المال بكسبه الحلال، مركزه قوي، لا يضطر لأن يتذلل، وكثير من أساليب القذرة جداً بدول أجنبية تفخخ الناس، فإذا ذهب شخص مخلص لوطنه، ويريد أن يخدمه يضعونه في مآزق، يصورونه، ويعرضون عليه الصور، والنسخة الثانية عندهم فتجده انتهى واستسلم، ولا يقدر أن يفعل شيئاً، من أين جاء تذلّله وخنوعه ؟ من هذه الصور التي أخذوها عليه، أما المؤمن فلا يسمح لأحد أن يدفعه إلى معصية، استقامته في كسب المال، وفي شرف علاقاته بالنساء سبب عزته، وليس عنده مشكلة، لا يشرب الخمر مثلاً، والذي يشرب حينما يثمل يتكلم بأشكالٍ وألوانٍ مذهلة، وبكلام غير معقول، يكشف أسراراً، ويحكي سقطات، ويحكي مخازي، ومغامرات قذرة، في ساعة السكر يحكيها كلها، فأين مكانته صارت ؟ لقد ضاعت عزته، ومن أين تأتي العزة ؟ تأتي من معرفتك بالله، من التوحيد، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله الغني، وتأتي العزة من طاعة الله عز وجل، ليس عندك مآخذ، ما لأحد عليك من مأخذ، لست أسيراً لواحد له عليك مأخذ، دخلك حلال، عملك شريف تعمل في رابعة النهار، تعمل تحت ضوء الشمس

والقمر، ما عندك شيء مخفي، ليلك كنهارك، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ يَقُولُ:

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا، قَالَ: قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلا هَالِكٌ))

[أخرجه ابن ماجه]

انتبه ثم لاحظ ؛ يأتي الذل من الشرك، ويأتي الذل من النفاق، ويأتي الذل من الكذب، ومن التدليس، ويأتي الذل من المعصية، من كسب المال الحرام.

ذات مرة سمعت قصة، أن رجلاً زار صديقه، ويبدو أن لصديقه أخت، وحدثت مشكلة، وموقف حرج، يقول: إني بقيت سنتين أو ثلاثاً، كلما استعرضت هذا الموقف شعرت أنني صغير، وأحياناً الإنسان يحتقر نفسه، احتقاره لنفسه أشد من تعذيب الناس له، هناك مواقف مخزية، مواقف قذرة، مواقف دنيئة، فالمؤمن لأنه مستقيم مواقفه كلها مشرفة، ليس عنده مركز ضعف في حياته، ما من أحد يهدده لأنه مستقيم، أما لو كانت له انحرافات، له مداخلات، له أساليب ملتوية مع الناس، دائماً هو عرضة للتهديد، وعرضة لانكشاف أمره، أين عزته وكرامته ؟ ذهبت، فلذلك عين الكرامة الاستقامة، لماذا قال الله عز وجل:

(فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

إذا آمنت بالله كنت عزيزاً، وإذا استقمت على أمره كنت عزيزاً، وإذا عملت الصالحات أحبك الناس فعظموك، فكنت عزيزاً، وإذا اتصلت بالله، فذقت حلاوة القرب، استغنيت عن مديح الناس لك، فكنت عزيزاً، إذا كان عند الإنسان خواء روحي، عنده جفاف روحي، أحب أنه يسعد بالناس، والاستئناس بالناس من علامات الإفلاس، لمّا يصير للإنسان صلة بالله عز وجل يستغني بها عن الناس، يستغني بها عن سقطاتهم، عن اللقاء بهم لقاء ساذجاً، وسخيفاً، لقاءاته كلها تكون مثمرة.

أنا أعطي تحليلاً دقيقاً، حينما تؤمن فأنت عزيز، وَحِّدْت، لا تخاف في الله لومة لائم، لا تنافق، لا تكذب، لا تدلس، لا تتملق، لا تخنع، لا تخضع لما استقمت فما عليك مأخذ، رافع الرأس دائماً، يمكن أن تحمل حاجتك بيدك، فما تأتي العزة بمركبة، ولكن تأتي العزة من شرف، من استقامة، قد تكون فقيراً وتحمل الحاجة بيدك، وأنت رافعٌ رأسك، وقد تكون في أعلى درجات الغنى، لكن الدخل مشبوه، فأنت ذليل.

إذاً: الإيمان بالله، الاستقامة على أمره، والعمل الصالح والاتصال بالله عز وجل، تُكسب الإنسان عزة:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ)

هذا كلام رب العالمين، بشكل واضح جلي بسيط، يا عبادي، أحبوا العزة والكرامة والشأن والمكانة، وقد يُردّ الإنسان إلى أرذل العمر.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا)

(سورة النحل: 70)

إياكم والعزة الموهومة:

أحياناً يبني عزة موهومة في شبابه على الباطل، فربنا يُدَّفِعُه الثمن باهظاً، قد يُذله أقرب الناس إليه، قد تذله زوجته، لو فرضنا واحداً أصيب بفالج، ففي أول أسبوع العناية فائقة، الأسبوع الثاني العناية أقل درجة، بعد شهر، بعد شهرين، بعد سنة تتدنى العناية، بقي ثماني سنوات طريح الفراش، ينظفونه، ثم صاروا يسمعونه كلمات قاسية، الله يخلصنا منك، يسمعونه هذه الكلمات، الله يخفف عنه، أقرب الناس له، تزوجت زوجته بعد وفاته، ثم أخذ منها البيت، فلما يبني الإنسان عزته على الباطل، يدفع الثمن باهظاً، أما الإنسان الذي بنى شبابه في طاعة الله، فيكون خريف عمره متألقاً دائماً، يزداد عزة وشأناً وكرامة.

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ

العمل الصالح يرفه الإنسان:

الكلم الطيب، الكلام الذي فيه دعوة إلى الله، دعوة إلى العمل الصالح، دعوة للاستقامة، وتعريف بالله،هذا الكلام الذي تقطف ثماره طيبة لكن هناك كلام خبيث، هناك كلام طيب، فكل كلمة طيبة أودت إلى عمل صالح، أو إلى معرفة بالله، أو إلى طاعة، أو إلى إصلاح ذات بين أو إلى نشر الخير، هذا كلام طيب، فالكلام الطيب يصعد إلى الله، لكن الذي يرفعك إلى الله هو عملك الصالح، تكلم ما شئت، تعلموا ما شئتم، فوالله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم، الكلم الطيب يصعد إليه، لكن الذي يرفعك إلى الله هو عملك الصالح.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: 132)

تكلم ما شئت، تفلسف ما شئت، مهما كان الكلام طيباً ومنمقاً وعظيماً، لا قيمة له إلا إذا طبق في الحياة اليومية، ومهما كان السامع أديباً ومصغياً، ولا همسة، لا قيمة لاستماعه ما لم يكن التطبيق واضحاً، لا قيمة لكلامي إن لم أطبقه فيما بيني وبين الله، ولا قيمة لاستماعكم إن لم يترجم إلى عمل، هذا كلام مختصر مفيد، وفروا أوقاتكم، لا المتكلم يفلح عند الله إن لم يطبق، ولا المستمع يفلح إن لم يطبق، يبقى الحديث كلاماً:

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)

شيء جميل كلامك طيب، لكن أين التطبيق ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(2)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف: 2 - 3)

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ)

وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ

وبعد فالمشكلة، أنه بخطط، يدبر، يمكر لإطفاء الحق، يبذل الأموال الطائلة، والجهود، ثم يخفق، ويعذب.

أحياناً الإنسان يعمل عملاً ما ليحقق مصلحة، فتفوته المصلحة ويعاقب، شخص جاهل، بلغه أنه إذا قلع أسنانه كلها يعفى من الخدمة الإلزامية، ذهب لأول طبيب والثاني والثالث والرابع فما أحد رضي، إلا واحداً رضي، فخلع له كل أسنانه، فلما فحصوه اعتبروه متحايلاً للتهرب من الخدمة، فجعلوا له خدمة مضاعفة، فقَد أسنانه كلها، وألزموه بخدمة مضاعفة، فهذا مثل حاد.

(وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

- على مكرهم -

(وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ)

لا يفلح ويدفع الثمن، يعني يعذب عذاباً شديداً، ولا يحقق هدفه هكذا.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: 36)

فالكافر يخسر كل شيء، والمؤمن يربح كل شيء، أبقوها ببالكم: مَن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، لا دنيا ولا آخره، واحد أسس دار سينما، وكل تخطيطه أنه يشتغل بشبابه فترة فيحصل على ثروة طائلة، يتمتع فيها طوال حياته، يقوم بسياحة حول العالم، يسكن ببيت فخم، ومركبة فارهة، فأصابه

مرض عضال، سرطان بالدم، في ريعان حياته بعد ما حصّل ثروة دخل عليه رجل، كان تلميذي سابقاً، وصاحب السينما خاله، قال لي: كان يبكي بكاء مراً، لأن تخطيطه لم يتحقق، كسب المعاصي والآثام ويعذب الآن عذاباً شديداً، والأموال لغيره فالمشكلة إذا ترك المرء طاعة الله عز وجل، فحياته سلسلة إخفاقات، سلسلة نكبات، سلسلة مصائب، سلسلة فشل:

(وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

في الدنيا والآخرة، وفي النهاية:

(وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (05-10): تفسير الآيات 11 - 12
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-05-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة فاطر، وقد وصلنا إلى الآية الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ

1 - في القرآن الكريم إشارات إلى آيات كونية:

في القرآن الكريم من حين إلى آخر إشارات إلى آيات كونية، ولأن الله عز وجل جعل الآيات الكونية دالة عليه، وطريقاً إليه وسبباً لمعرفته، حيث قال تعالى:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية: 6)

إذاً: كأن الله عز وجل يدعونا إلى أن نعرفه، بهذه الطريقة، من هذا الأسلوب، بهذا السبب:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

أحياناً قد يزداد الإنسان علماً بأمر الله، ولا يزداد علماً بالله، فضعفه في تنفيذ مضمون هذه الآيات، لأنه إذا ازداد علمه بأمره، ولم يزدد علمه به، فبذلك ينشأ التناقض، فهو يعلم، ولا يطبق، يقتنع، ولا يسلك، من ازداد علماً، ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً، إذاً: لا بد من أن نتحرك على خطين، على خط معرفته، وعلى خط معرفة أمره، وإذا ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم آيات كونية، فهذه عنوانات لموضوعات التفكر، وقد أمضينا في الدرس الماضي جزءاً كبيراً منه في الحديث عن آية السحاب والأمطار والرياح، وما إلى ذلك.

واليوم ربنا عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ)

2 - وَاللّهُ خَلَقَكُمْ

أنت أيها الإنسان العاقل لو رأيت قطعة من خشب، ورأيت علبة من خشب، فقطعة الخشب وعلبة الخشب كلاهما من خشب، لكن العلبة لا بد من يد صانع صنعها، تحكم بعقلك أنه لا بد لهذه القطعة من الأثاث المصنوعة من الخشب من صانعٍ صنعتها، ومن مصمم صممها، ومن مكوّن كوّنها، أسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ـ كما قال هذا الإعرابي ببساطة، البعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، أ سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟ الله عز وجل يقول:

(وَاللّهُ خَلَقَكُمْ)

مِن عجائب خَلق الله في الإنسان:

نقطة ماء تصبح طفلاً بعد أشهر تسعة، وشيء حسن، فمِمّ هذا الطفل كائن ؟ له جلد، فيه دماغ، وبدماغه 140 مليار خلية، و14 مليار خلية قشرية، أعصاب، هيكل عظمي، عظام متحركة، عظام ثابتة، مفاصل متحركة، مفاصل ثابتة، عضلات مخططة، عضلات ملساء، جهاز هضم، الفم واللسان، والبلعوم، والمريء، والمعدة، والأمعاء الدقيقة والغليظة، والامتصاص، والكبد، والبنكرياس، والرئتان، والقلب، و الدسامات، والأوردة، والشرايين، والغدد الصماء، والغدد ذات الإفراز الداخلي والخارجي، في هذا الطفل الصغير الكبد تقوم بـ5000 وظيفة، والقلب يضخ في اليوم الواحد ما يساوي 8 أمتار مكعبة من الدم، فلو قرأت أي كتاب بين يديك، كتابا بسيطا جداً في التشريح لرأيت العجب العجاب، هذا الطفل مَن خلقه.

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور: 35)

هو كائن، لكنّه أعقد كائن في الكون.

ماذا أقول لكم ؟ لو أن الإنسان عُلّق من رجليه، وأسقيناه كأس ماء لصعد الماء نحو الأعلى على خلاف قانون الجاذبية، لأن المريء مجهز بعضلات دائرية تتقلص تباعاً، وتدفع الطعام نحو الأعلى، الأشياء التي يمكن أن تقال عن جسم الإنسان شيء يفوق حد الخيال:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور: 35)

مَن الذي صمم أن الشعر والأظافر ليست فيها أعصاب حس مثلاً ؟ لو أن الله عز وجل أودع في الشعر والأظافر أعصاب حس لاحتجنا إلى عملية في مستشفى كي نحلق رؤوسنا بتخدير عام، من جعل في العظام أعصاب حس ؟

الإنسان حينما ـ لا سمح الله ـ تكسر رجله لشدة الألم المتولد من أعصاب الحس يبقيها كما هي، وإبقاء رجله المكسورة كما هي أربعة أخماس علاجها، من جعل في الأنف هذا الشعر ؟ ولم يجعل في الفم ذلك الشعر، لو أن الشعر في الفم أيضاً كيف نأكل ؟ من جعل هذا المفصل في ساعده، لولا هذا المفصل لاضطر الإنسان أن يأكل كالقطة، ينبطح على الأرض، ويأكل الطعام بلسانه فقط، فمن حَمّمَ هذا المفصل.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين: 4)

(فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

(سورة الانفطار: 8)

حسنٌ وطيّب، هذا الخلق ألا ينبغي أن يلفت نظرنا. فالله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ)

هذا الخلق العجيب، هل رأيت أن هناك تعديلاً طرأ على خلق الإنسان ؟ هل سمعت أن إنساناً له موديل مثلاً ؟ فمنذ أن خُلق الإنسان خلق خلقاً كاملاً، معنى ذلك أن خبرة الله قديمة، أما الإنسان فخبرته تنمو، كل سنة يُعدّل، ويتلافى نقصاً، يقوّي مكاناً ضعيفاً، أو يحل مشكلة في الآلة، كلما تقدم الزمن نمت خبرة الإنسان، أما ربنا عز وجل فخبرته قديمة، منذ أن كان الله عز وجل، كان الله ولم يكن معه شيء.

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

(سورة النساء: 17)

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا)

(سورة النساء: 35)

خبرته قديمة.

أنا قصدي أن الله عز وجل يبيّن لنا أن هذا الماء المهين 300 مليون حوين في اللقاء الزوجي، والحوين في رأسه مادة نبيلة مغلفة بغشاء رقيق، فإذا اصطدمت بالبويضة، تمزق الغشاء فخرج هذا السائل النبيل، أذاب جدار البويضة، ودخل هذا الحوين، وتم اللقاح.

والله أيها الإخوة الأكارم، والله لقد خلق الإنسان في الرحم شيئًا لا يُصَدّق، أو قُل: لا يستوعبه العقل، أما الولادة فشأنها عجيب.

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

(سورة عبس: 20)

شيء لا يصدق، الأعصاب، العضلات، الأجهزة، الغدد.

الإنسان ينام، حينما ينام ماذا يحصل ؟ يحصل أن جسمه مؤلف من هيكل عظمي، وفوق العظام عضلات، وتحت العظام عضلات، فالعضلات التي فوق العظام وزنها يضغط على العضلات التي تحت الهيكل العظمي، حينما تضغط هذه العضلات تضيق لمعة الأوعية الدموية، تضعف التروية، فيتقلب الإنسان، من الذي يعطي تنبيهاً للدماغ ؟ وأنّ هذه المنطقة قد ضغطت، وضاقت لمعة الأوعية الدموية فيها فيتقلب الإنسان على شق آخر، وهو نائم، ربنا عز وجل قال:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف: 18)

من الذي جعل هذا الإنسان يتقلب في الليل ؟ ما بين 35 مرة إلى 39 مرة وهو لا يدري، لكن ليس على جنب واحد، وإلا لوقع من على السرير:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف: 18)

مرة هكذا، ومرة هكذا، هذا صنع مَن ؟ وأنت نائم، يزداد إفراز اللعاب في فمك، فيأتي تنبيه إلى الدماغ، زاد اللعاب، فيعطي أمراً للسان المزمار بأن يفتح، يغلق على القصبات الهوائية، ويفتح المريء فيسيل اللعاب إلى مكانه الطبيعي، وأنت نائم.

من أعطى أمراً لهذه الحدقة تتسع إذا اشتد الظلام ؟ ومن أعطى أمراً وأنت لا تدري كي تضيق إذا اشتد النور، راقب عينك بمرآة تتسع الحدقة إذا ضعف النور، وتضيق إذا أشتد النور، صنع من ؟

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ)

هو الخالق.

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: 21)

العين، والأنف، والأذن، واللسان، وجهاز الهضم، وجهاز الدوران، وجهاز التصفية، شيء عجيب جداً، هذه حقائق بسيطة جداً، يدرسها طلاب التعليم الثانوي، وفي الجامعة حقائق أعقد، والآن هناك بحوث ومعلومات أدق بكثير عن خلق الإنسان:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور: 35)

الإنسان بين يديه وسيلة إيضاح وأداة لمعرفة الله، لا تنقضي طوال حياته، لو أمضى كل حياته في التفكر في خلقه لما انتهى من عجائب هذا الجسم العجيب.

إذاً: الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ)

هذا القوام، من الذي قال للعظام: توقفي عن النمو ؟ من قال ؟ أجيبوني، لا أحد يعرف، هذا العظم ينمو وينمو وينمو.

ذات مرة سئلت: من الذي يجعل هذا العظم يقف عند هذا الحد ؟ فقلت: الله، فالله قابض وباسط، فقال لي السائل: هذه إجابة مضحكة، ثم قال: كأن هناك خطاً في الفراغ تتحرك العظام نحوه، فإذا وصلت لهذا الخط توقف نموها، حسناً فمن الذي رسم هذا الخط يا أستاذ ؟ هو القابض ؟ لو أن الإنسان يزداد طوله إلى ما شاء الله، هذا مرض خطير اسمه العملقة، الأسنان تقف عند حد، والعظام عند حد، والشعر عند حد، هذا من فعل القابض حسناً فأنت تذهب لتنام، من الذي صمم جسمك أن حركة الرئتين تعملان آلياً ؟ لو أن الله عز وجل أوكل إليك التنفس، هل بإمكانك أن تنام، إذا نام الإنسان مات، ولحكمة أرادها الله عز وجل كل 200 ألف شخص إلى 500 ألف تجد إنساناً يصاب بمرضٍ مركزِ تنبيه الرئتين، يصاب هذا المركز بتلف، هذا الإنسان لا يستطيع أن ينام أبداً، فإذا نام مات، بعد لأيٍ وجهد طويلين وصل العلماء إلى دواء، يأخذه هذا المريض كل ساعة الدواء ليستطيع أن ينام، وأعرف شخصاً بدمشق أصيب بهذا المرض، فهذا الدواء يجب أن يأخذه الساعة التاسعة، والساعة العاشرة، و11 و 12، و1، و2، وإلا فإنه يموت، فأنت تغطّ في نومك، وأمور قلبك، أمور رئتيك، أمور لسان المزمار، أمور التقلب كلها تعمل بانتظام.

ابحث عن الحركات المعقدة، التي تجري وأنت نائم، الهضم، لو أوكل الهضم إليك، تعشيت ونمت، البنكرياس ما أفرغناها، لا حول ولا قوة إلا بالله، تأخرنا ساعة عن تفريغ البنكرياس، وساعة عن الصفراء، وساعة عن الأمعاء الدقيقة، لوقفت كلها، وما اشتغلت، والأمعاء الغليظة، أنا نائم، بتلاقي اللعاب والمري والمعدة الحركات والمواد الهاضمة، وحمض كلور الماء، والبنكرياس من جهة، والصفراء من جهة، والإفرازات الداخلية، وحركة الأمعاء اللولبية، إلى أن يصبح هذا الطعام دماً، وأنت نائم .

حركة القلب، لو أن الإنسان أوكل إليه حركة قلبه، لتعطلت أعماله كلها، لو أوكل إليه تصفية دمه، لتعطلت أعماله كلها، لو أوكل إليه التنفس فقط لأعجزه الحال، فهذا الرجل المريض اشترى أربع منبهات، آوى إلى فراشه الساعة العاشرة إذاً: الساعة الحادية عشرة يأخذ حبة، يرجع لينام، والساعة

الثانية عشرة يأخذ حبة، يرجع ينام، الساعة الواحدة يأخذ حبة، يرجع ينام، والساعة الثانية ليلاً يأخذ حبة:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور: 35)

لهذا الرجل المريض ابن في أمريكة رجع في العطلة، جاء من سفر بعيد، من فرحه به سهروا سهراً طويلاً، ثم ناموا، وضربت المنبهات فلم يستيقظ، فوجدوه صباحاً ميتاً، فأنت كم جهازا عندك في جسمك؟ جهاز حركة الرئتين الآلية، ضربات القلب الآلية، الهضم الآلي، التصفية الآلية، البلعوم الآلي، التقلب الآلي، هذا كله وأنت نائم، الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

معنى: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ

خالق هذا الكون هو الذي خلقكم من تراب.

المعنى الأول:

أن الله جل وعلا خلق آدم من تراب، فهذا نسبة إلى الأصل، ما دمنا من آدم جميعاً، وآدم من تراب، إذاً نحن من تراب، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

حينما يأتيك صبي لتوه، وزنه 3 كيلو، بعد 20 سنة صار وزنه 70 كيلوا، أو 80، أو 60، اطرح 3 من 70 67 كيلو من أين جاءت ؟ من الطعام والشراب، من تناول الأطعمة والأشربة، طيبٌ، هذه الأطعمة من أين جاءت ؟ خطر في بالي وأنا في طريقي إليكم، أن 1000 بذرة خيار وزنها 16 غراماً، هذه 1000 بذرة تعطي في شروط عالية جداً 16 طناً، فإذا كان الغرام أعطى ألفاً، والألف أعطت ألفاً، يعني مليوناً، ألفَ ألف مليون ضعف، طيب من أين جاء هذا الوزن، 16 غراماً وزن البذور، تعطي 16 طناً، أليس من التراب ؟ من التربة، الآن أُدخل إلى حقل زراعي تجد مجموعاً خضرياً كبيراً جداً، له وزن، فمن أين جاء هذا الوزن ؟ من التراب.

المعنى الثاني: أن هذا الوزن الذي حصلته فارق الوزن بين وزن الولادة والوزن الحالي، هو من الطعام والشراب، والطعام والشراب من التراب، فإذا قال الله عز وجل:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

شيء رائع، فأنت من هذا التراب.

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)

(سورة طه: 55)

فعلام الكِبَر ؟ إذا كنا من تراب ومصيرنا إلى التراب، والتراب يداس بالأقدام.

خفف الوطأة ما أظـن أديـم الأرض إلا من هذه الأجساد

سر إن استطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العبـاد

***

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

النطفة، الحوين 300 مليون حوين تخرج من الرجل في اللقاء الزوجي، تختار البويضة واحداً منها، الحوين يتحرك حركةً عن طريق ذيل، كيف أن السمكة تتحرك بالطريقة هذه، يتحرك هذا الحوين، يتحرك في الساعة عشرة سنتمترات تقريباً، وهذا الحوين له رأس، وله عنق، وله ذيل، وكما قلت قبل قليل: في رأسه مادة نبيلة، مغلفة بغشاء، إن اصطدمت بالبويضة تَمزّق الغشاء، وأذابت هذه المادة النبيلة جدار البويضة، ودخلت إليها، هذا شأن الحوين، هذا الكلام الذي أقوله لكم هو معلومات بسيطة جداً، وهذا الحوين عليه خمسة آلاف مليون معلومة، فأنت شعرك له لون، العينان لهما لون، واسعتان، صغيرتان، أنف أقنى، أنف طويل، خد أسيل، شعر جعد، كل الصفات الدقيقة، حتى أدق الصفات مصممة بهذا البرنامج، برنامج زمني، هذا الحوين عليه خمسة آلاف مليون معلومة والبويضة عليها خمسة آلاف مليون معلومة.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

(سورة الإنسان: 2)

أنا أذكر لقطات غير منظمة أيضاً عن خلق الإنسان، كيف تنقسم هذه الخلية الملقحة، البويضة الملقحة، تنقسم إلى عشرة آلاف جزء من دون أن يزداد حجمها، لأنها تسير في نفق، لو ازداد حجمها لوقفت، وكيف تصل إلى الرحم ؟ وكيف تنغرز بالرحم ؟ وكيف تتجه الأوعية الدموية لتغذية هذه البويضة الملقحة ؟ ثم كيف تتماوج ؟ تصبح دماغاً، وتصبح أحشاء، وأعضاء، بشكل عجيبٍ عجيب، وفي الشهر التاسع هذا الطفل يولد من بطن أمه كائناً سوياً له قوامٌ وعضلات وعظام وأجهزة وحواس وغدد، وما إلى ذلك.

أيها الإخوة الأكارم، أنت لا تذكر كيف ولدت، ولكن ابنك يعلمك بأنّه هكذا كان أصلك، هكذا ولدت بهذه الطريقة، فربنا عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا)

ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا

1 ـ خصائص الذكر والأنثى بين الاتفاق والاختلاف:

مَنْ جعل ذكراً وأنثى، من أعطى الذكر خصائصه العقلية، وخصائصه الجسمية، البيولوجيا، وخصائصه النفسية، وخصائصه الاجتماعية، ومن أعطى الأنثى خصائصها الجسمية، وخصائصها النفسية، والعقلية والاجتماعية، من جعل بين الذكر والأنثى قاسماً مشتركاً، لتكون الأنثى سكناً للرجل، ومن جعل فارقاً دقيقاً بين الأنثى والذكر.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(1)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(2)وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

(سورة الليل: 1 ـ 3)

من جهة هما متشابهان من نفس واحدة، ومن جهة وليس الذكر كالأنثى، الأنثى مجهزة بكل الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية والاجتماعية لتكون أماً، زيد في عاطفتها، وزيد في حساسيتها، وزيد في انفعالاتها، واتجهت لأن تكون سكناً للرجل، والرجل زيد في قوته العضلية، وزيد في قوة محاكمته، وزيد في جلده ليكون كاسباً للرزق.

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ:(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)))

[ابن ماجه]

ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا ـ أنا أُرَبّي، وهو لا يربي، وإن ضممتهم إلي جاعوا ـ أنا لا أكسب الرزق، هو يكسب الرزق.

2 ـ الذكر والأنثى كلٌّ له ميدانه:

الله عز وجل جعل للرجل خصائص، والمرأة لها خصائص، وهما متساويان تماماً في التكليف والتشريف، والثواب والعقاب، ومختلفان في البنية، لذلك أية عملية هدفها أن تحل المرأة محل الرجل، أو أن يحل الرجل محل المرأة فهي إفساد للحياة، إفساد كبير، كلاهما مساوٍ للآخر من حيث إنهما مكلفان بأركان الإيمان وأركان الإسلام، ومستحقان للثواب والعقاب، ولكن المرأة صممت، وجهزت

بوسائل وخصائص تعينها على أداء مهمتها في الحياة، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البيهقي عن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت: قال عليه الصلاة والسلام:

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل الجهاد في سبيل الله، فأدبرت المرأة، وهي تهلل وتكبر استبشارا))

[البيهقي]

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا)

3 ـ نظام الزوجية في الكون:

نظام الزوجية في الكون نظام رائع، نظام بديع، نظام معجز، كيف أن الزوج والزوجة ينجبان هذه المخلوقات، ينجبان الأطفال، كيف أن النبات أساسه الزوجية، كيف أن الحيوان أساسه التزاوج، ويكاد يكون التكاثر الزوجي هو النمط الأعم الغالب في الحياة، من صمم ذلك ؟ الله سبحانه وتعالى:

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ)

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ

عملية الحمل عملية معقد جداً، فحمل الأنثى ووضعها بعلم الله عز وجل.

أريد أن أوضح لكم ناحية، حينما أنظر إلى أخ يحرك هذا الكأس، أقول: أنا أعلم ما تفعل، لأنني أشاهد ما يفعل، أما حينما أحركه بيدي، فهذا أبلغ من العلم، إذا كنتَ تراقب حركة، وقلتَ: أنا أعلم ماذا حصل، هذا شيء طبعاً بديهي، أما حينما تحرك هذا الشيء بيدك فهذا أبلغ من العلم.

مَن الذي كوّن هذا الجنين في بطن أمه ؟ الله سبحانه وتعالى، يد مَن ؟ هذا الرحم الذي حجمه تقريباً 7.5 سنتيمترات مكعبة، ثم يصبح الرحم بحجم كبير جداً حينما يمتلئ بالجنين في تسعة أشهر، ثم هذا الرحم يتقلص تقلصات لطيفة متزامنة متدرجة، الطبيب يعرف أن بعد ساعتين تلد، أو بعد خمس ساعات، من التوقيت ومن الزمن بين التقلصين، فكل ساعة تقلص، كل خمسين دقيقة تقلص، كل أربعين، كل ثلاثين، كلما اقترب زمن التقلصين اقتربت الولادة، من جعل هذا الرحم يتقلص هذا التقلص اللطيف، إلى أن يدفع الطفل إلى خارج الرحم، فإذا دفعه تقلص تقلصاً عنيفاً، وشديداً، ليسد هذه الأوردة والشرايين التي تمزقت من الولادة، فإذا رأى الطبيب أو القابلة أنّ هذا الرحم صخري التكوين فالولادة سليمة، فإذا كان رخواً فالحالة في خطر، فمعنى ذلك أن هناك نزيفاً، من جعل هذا الرحم يتقلص ؟ أهو يعقل ؟ ثم يتقلص تقلصاً عنيفاً العلماء، ولو انعكست الآية لماتت الأم نزيفاً، والولد خنقاً، لو انعكست

الآية، لو تقلص الرحم تقلصاً عنيفاً، والجنين في داخله لمات الجنين، فإذا تقلص تقلصاً رخواً بعد الولادة لماتت الأم نزيفاً، فربنا عز وجل يقول:

(ثُمّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلّا بِعِلْمِهِ)

الله عز وجل يعلم، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

شُبهة لا قدَم لها ولا ساق:

هناك شيء آخر، قد يقول قائل، الله عز وجل يقول:

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)

(سورة لقمان: 34

هو سبحانه لم يقل: ويعلم من في الأرحام، فإذا توصل العلماء إلى تصوير الجنين، أو تحليل دمه، أو أخذ سائل الأمنيوسي، فعرفوا أن الجنين ذكر أو أنثى، وقد يخطئون حتى الآن، ليس معنى هذا أن الآية انتقضت، الله عز وجل يقول:

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)

وهذه " ما " تشمل كل صفات الجنين، من يعلم أن هذا الطفل سيكون عالماً جليلاً، أو مجرماً خطيراً، من يعلم أن هذا الطفل سيكون ألمعياً أو غبياً، من يعلم أن هذا الطفل سيكون معمراً، أو قصير العمر، هذا كله يعلمه الله عز وجل.

(وَمَا يُعَمّرُ مِنْ مُعَمّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلّا فِي كِتَابٍ)

وَمَا يُعَمّرُ مِنْ مُعَمّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلّا فِي كِتَابٍ

1 ـ الموت أخطرَ حدثٍ عند الإنسان:

ما دام حدثُ الموت أخطرَ حدثٍ عند الإنسان، فهو من فعل الله سبحانه وتعالى.

في قوله تعالى:

(الّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك: 2)

فتقديم كلمة الموت على كلمة الحياة هذا تقديم اهتمام، تقديم خطورة، بما أن الموت أخطر حدث في حياة الإنسان، إذاً هو من فعل الله عز وجل، ولا يستطيع بنو البشر مجتمعين أو متفرقين أن ينهوا حياة إنسان، هكذا عقيدتنا، قد يبدو لك في الظاهر أن فلاناً قتل فلاناً، المقتول يموت في أجله، إنهاء الحياة لا يمكن أن يكون في يد البشر، لكنّهُ بيد خالق البشر، وإذا تم على يد البشر فبإذن خالق البشر، هذا كلام قطعي، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، إنهاء الحياة لا يكون إلا بيد الله عز وجل، فأن تقول: فلان طال عمره، وفلان قصر عمره، وفلان مات بحادث، وفلان لو لم يفعل كذا لما مات، لو أن الطبيب أسعفه لما مات، لو أن التخدير كان جيداً لما مات، كل إنسان محاسب عن تقصيره، أما أن تقول: فلانٌ أماتهُ ـ أي قتله ـ قبل أجله، هذا شيء مستحيل.

إذاً:

(وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ)

2 ـ قيمة العمر في العمل الصالح لا في مدته:

وهناك تعليق لطيف على موضوع العمر، كلكم يعلم أن هناك عمرا زمنيا، فلان يعيش 80 سمة، 70، 60، 45، 38، 110، 130، 90، 115 هذه أعمار الإنسان، هذا العمر قيمته لا بمدته، بل قيمته بما ينطوي عليه من عمل صالح، فلذلك إذا سألت الله عز وجل أن يطيل عمرك، ليس معنى ذلك أن يزداد العمر أمداً، ولكن أن يزداد غنىً بالأعمال الصالحة، فالنبي عليه الصلاة والسلام عاش 63 عاماً، وكم من أمته من عاش فوق هذه السن، لكنه ترك أثراً في الحياة، لا يمحى إلى يوم القيامة، ترك أثراً في مشارق الأرض وفي مغاربها، كان رحمة مهداة، ونعمة مرجاة، العلماء العاملون تركوا آثاراً كبيرة جداً، فلا تقس عمرك بمدته، قِسْهُ بما ينطوي عليه من عمل صالح، تماماً كما لو فتحت محلك التجاري أربع عشرة ساعة، و بعت بألف ليرة، وإنسان فتح محله ساعة واحدة و باع بمليون ليرة، هل يفتخر الذي فتح المحل أربع عشرة ساعة ؟ أنا أداوم حتى الساعة العاشرة ليلاً، أما أنت فدوامك ساعة واحدة، مسكين على هذا الحظ، دوامه قليل، لكن بهذه الساعة باع بمليون ليرة، فحظه وافر، وهذا الذي فتح محله أربع عشرة ساعة باع بألف ليرة، قيمة العمل التجاري لا في أمد التجارة، بل في أرباحها، و كذلك قيمة العمر لا في أمده، بل في أعماله الصالحة، لهذا قالوا: إن الغنى غنى العمل الصالح، وإن الفقر هو فقر العمل الصالح، وسيدنا موسى حينما سقى لهاتين المرأتين قال:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(سورة القصص: 24)

3 ـ لا قيمة للدنيا، فسارعوا إلى الصالحات:

أنا فقير لعمل صالح، والذي يؤكد ذلك أن الإنسان حينما يغادر الدنيا، أو حينما يشعر بأن المغادرة اقتربت، حينما يشعر أن أجله قريبٌ لا يندم إلا على ساعة مضت لم يذكر الله فيها، أو لم يعمل فيها عملاً صالحاً، و قد ورد في الأثر أن الإنسان لو كانت الدنيا كلها بيديه، الأراضي في العالم كلها لك، وكل المحلات التجارية لك، وكل الشركات المتعددة الجنسيات لك، وكل أموال الأرض لك، وجاء ملك الموت تتمنى أن تعطي كل هذا لمن يسمح لك أن يزيد العمر ساعة واحدة تؤدي فيها ركعتين لله عز وجل، هذه حالة الإنسان حينما يغادر الدنيا، نحن والحمد لله في بحبوحة ونحن أحياء، القلب ينبض، يمكن أن تتوب، يمكن أن تصحح الماضي، يمكن أن تعاهد الله عز وجل، يمكن أن تدع هذا العمل السيئ، يمكن أن تتخلى عن هذا المبلغ الحرام، يمكن أن تصطلح مع زيد، يمكن أن تستسمح من عُبيد، فما دام القلب ينبض فأنت في بحبوحة، فلذلك:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران 133)

الآية الدقيقة:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا)

(سورة البقرة: 148)

4 ـ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا

لك أن تتجه إلى الحق أو إلى الباطل، إلى إرواء الشهوات أو إلى القربات، إلى أكل أموال الناس بالباطل، أو إلى إعطاء الناس الضعفاء مالاً حلالاً، لك أن تؤذي، لك أن تنفع، لك أن تستقيم، لك أن تنحرف، لك أن تعطي، لك أن تمنع، لك أن تؤمن، لك أن تكفر:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: 148)

لك أن تنصح، لك أن تغش، لك أن تخلص، لك أن تخون أنت مخير، فأنت في خيار، لكن الله يراقب.

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر: 14)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: 148)

هنا يطالعنا سؤال: أيها الإنسان إياك أن تظن أن هذا الأجل إلى مالا نهاية، وأن هذا الاختيار مُنِحْتَهُ إلى ما لا نهاية، لا، الاختيار محدود، ينتهي عند الموت:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: 148)

ولِّ وجهتك كيف ما تشاء، افعل ما تشاء، اعملوا ما شئتم، هذا أمر تهديد، افعل ما تشاء، كله عليك مسجّل، كله محسوب عليك:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

ما دمت مخيَّراً، وما دمت ممنوحاً هذه الحرية، وما دام بإمكانك أن تؤمن، وأن تستقيم، وأن تتوب، وأن ترجع، وأن تصطلح مع الله، وأن تؤدي الحقوق، وأن تصلح ذات بينك:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

إياك أن تظن أيها الإنسان أن هذا الاختيار مُنحتهُ إلى الأبد، لا، هذا الاختيار منح لك بشكل مؤقت، مُنح لك في الدنيا، فإذا جاء الموت أُلغِيَ الاختيار.

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة: 7)

وأصبحت في قبضة الله عز وجل، تماماً كما لو أن الطالب في قاعة الامتحان يجيب عن الأسئلة، فبإمكانه أن يكتب، وأن يصحح، وأن يضيف، وأن يحذف، وأن يحل هذه المسألة، فإذا قرع الجرس، وسحبت الورقة من بين يديه، وانتهى، وصححت، ونالت علامة ثابتة، فإما أن ينجح، وإما أن يرسب:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

لكن هذه الوجهة أنت مخيّر فيها، ولكن هذا الاختيار ليس أبدياً، منح لك لوقت محدد، لهذا جاء قوله تعالى:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

لأنه:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ)

(سورة النساء: 78)

الآية دقيقة جداً، الآن أنت مخير، واختيارك ينتهي عند الموت، وإذا جاء الموت طالك أينما كنت، في فراشك، في الطائرة، في بلد أجنبي، قبل الزواج، بعد الزواج، بعد نيل الدكتوراه، قبل مزاولة العمل، قبل العرس بيوم:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ)

إذاً:

(وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ)

5 ـ من دلالات قوله: وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ

قال بعض المفسرين: أن يعمر المعمر، أو ينقص من عمره، حينما يسمح للإنسان أن يعيش يوماً إضافياً هذه نقطة دقيقة، كل إنسان مؤمن حينما يستيقظ يجب أن يعلم أن الله جل في علاه سمح له أن يعيش يوماً جديداً، لهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ))

[البخاري عن حذيفة]

النوم موت، لذلك ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة، والإنسان العاقل يسأل نفسه قبل أن يأوي إلى فراشه: كيف مضى هذا اليوم ؟ ماذا فعلت فيه عملاً ينفعني بعد الموت ؟ ماذا عملت فيه عملاً يرضي الله عز ؟ هل عدتُ مريضاً ؟ هل نصحت إنساناً ؟ هل أمرت بمعروف ؟ هل نهيت عن منكر ؟ هل أصلحت ذات بين؟ هل وجهتُ أولادي ؟ هل رعيت زوجتي ؟ هل حققت هذه المصلحة ؟ ربنا عز وجل قال:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة النساء: 114)

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا

كلام الناس في ندواتهم، في مجالسهم، في نزهاتهم، في رحلاتهم، في متاجرهم، في مكاتبهم، الموضوع الفلاني، والفلاني، هذا كلام لا طائل منه، ولكن ربنا عز وجل قال:

(إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ)

أي بعمل صالح، صلاح الدنيا:

(أَوْ مَعْرُوفٍ)

صلاح الآخرة:

(أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

أصلح فساداً، فصلاح الدنيا بالخير، أو صلاح الآخرة، بعمل صالح، إذا تكلمت كلاماً أدى إلى زواج شاب، أو إلى إيواء رجل، أو إلى خدمة إنسان، أو إلى تأسيس مسجد أو ميتم أو عمل طيب، أو حدثت الناس عن الله عز وجل حتى عرفوه، وحتى استقاموا على أمره، وحتى أحبوه، وحتى أقبلوا عليه، أو أصلحت خللاً أو مفسدةً، أو خصومةً، أو خلافاً، أو مشكلة:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

(وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

يعني كن فيكون، زُلْ فيزول، الله عز وجل أمرُه بين الكاف والنون.

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ

1 ـ ملوحة البحر:

لو درستَ ملوحة البحر لرأيت العجب العجاب، تطالعك أرقام كبيرة، فمثلاً: لو أخذنا ميلاً مكعباً من مياه البحر، كيلو متر ونصف بكيلو متر ونصف، بكيلو متر ونصف تقريباً، هذا الميل المكعب من مياه البحر فيه ألوف الأطنان من الملح، ولا تزال نظرية ملوحة البحر موضع بحث، كيف كان هذا البحر ملحاً أجاجاً، ولو كان هذا البحر عذباً فراتاً لفسدت هذه المياه، ولأفسدت، حكمة ما بعدها حكمة، أن هذه المياه مالحة، وكيف أن هذه المياه المالحة تصبح بعد حين عن طريق التبخر والسحب والأمطار مياهاً عذبةً تشرب، ألم تسمعوا أن أناساً كثيرين ماتوا وهم على ظهر البحر ؟ ماتوا عطشاً، أنا قرأت قصة عن باخرة عظيمة غرقت في المحيط الأطلسي نجا قارب نجاة واحد عليه 60 راكباً، ومعهم ماء قليل، قائد هذا المركب أمر أن كل إنسان يشرب باليوم ملعقة ماء فقط، بحسب تقديره، فما وصل من هذا القارب إلى الشاطئ إلا راكبان فقط، لأنهم قتلوا بعضهم من أجل ملعقة ماء، رموا ببعضهم في البحر، من أجل ملعقة ماء، وهم على سطح البحر، فما قيمة حياتنا لولا هذا الماء العذب الفرات ؟ هذه آية:

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)

الآن يقول لك: تحلية المياه، يكلف متر الماء الواحد حسبما سمعت خمسة عشرَ ريالاً تقريباً، أجرة تحلية اللتر من المياه تقريباً، مبلغ ضخم فالتحلية، أغلى من البنزين، نحن عندنا التحلية مجاناً تتم عندنا من نبع الفيجة نأخذها خالصة، وقد سمعت خبراً من أيام أن الماء الفائض عن نبع الفيجة، وقدره 35 متراً مكعباً في الثانية يلقى في نهر بردى:

(عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ)

2 ـ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ

لذلك الإنسان إذا شرب كأس ماء عليه أن يشكر الواحد الديان.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة الملك: 30)

الله جل جلاله في علاه جعل في بعض البلاد الآبار كلها مالحة، إلى جانب البحر، تأخذ من ملوحته، فهذا شيء لا يحتمل:

(هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)

هناك بحيرات مياهها عذبة.

(وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا)

3 - وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا

من عجائب الأسماك:

هذه الأسماك من آيات الله الدالة على عظمته، هناك ما يزيد على مليون نوع من الأسماك في البحار، تنوع الأسماك في البحار شيء عجيب، منها أسماك متوحشة، أسماك كبيرة، هذه الحيتان 130 طناً، وذات مرةٍ حوتٌ جَرّ سفينة بخارية، أعملت كل محركاتها 48 ساعة بعكس اتجاه الحوت، وقد جرها الحوت، وزنه 130 طناً، منها 50 طناً من لحم، و 50 طناً دهنا، رضعته الواحدة 300 كيلو من الحليب من أمه، في اليوم يرضع ثلاث مرات طناً من حليب، وجبته المعتدلة أربعة أطنان حتى يشعر بالشبع، هذا بالنسبة للحوت، وهناك أسماك صغيرة جداً، فسفورية، سوداء، شفافة، لها ذيل لها أرجل، التنوع بعالم الأسماك شيء يُحيّر العقول، إنّ الله سبحانه أعطى هذا السمك جهاز ضغط، هناك خط على السمك بالقسم العلوي، هذا الخط أنبوب مفرغ من الهواء، فكلما أوغلت السمكة في أعماق البحر ازداد الضغط، فعرفت موقعها من البحر، الله عز وجل زود السمكة بطريقة تعرف أين هي من سطح الماء، وزودها بجهاز آخر هو محفظة بأسفلها حبات رمل، وعند حبات الرمل أعصابٌ حساسة، فإذا كان ظهرها نحو سطح البحر تعرف ذلك، فإذا عكست الآية تشعر أنها الآن مقلوبة، معها جهاز آخر يعرّفُها أين الأعلى وأين الأسفل، الجهاز الأول يعيّن بُعدها عن سطح البحر، والجهاز الثاني كيف وضعها، وهي في الماء، نحو الأسفل أو نحو الأعلى، والجهاز الثالث إن أرادت أن تطفو على سطح الماء تطلق الهواء من معدتها، السمكة قادرة على أن تصنع الهواء من الطعام، وتملأ به أكياسها الهوائية فتطفو، فإذا أرادت أن تغوص أطلقت هذا الهواء فغاصت، شيء عجيب جداً، وهذا السمك له زعانف للتوجيه،

وزعانف للتوازن، وزعانف للحركة، وزعانف عرضية، وزعانف طويلة، وزعانف متأرجحة في الخلف، شيء رائع جداً.

في البحار أنواع من الأسماك عجيبة، هناك أسماك طبيبة، يقف أمامها السمك في طابور، إنها تعيش على الإنتانات في جسم السمك، وقد أتفق كل أنواع السمك على أن هذه السمكة لا تؤكل، معها حصانة، لأنها تقوم بمعالجة القروح التي في حراشف الأسماك، هذه كلها بحوث علمية، فالعلماء راقبوها، ثم ذكروها في مؤلفاتهم، وصوروها، وعالم الأسماك لا ينقضي حديثه، ربنا عز وجل قال:

(وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا)

4 ـ كلٌ بحر له أسماكه بحسب خصائصه:

بالمناسبة الأسماك التي تعيش في المياه العذبة لا يمكن أن تعيش في المياه المالحة، والأسماك التي تعيش في المياه المالحة لا تعيش في المياه العذبة، والدليل:

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)

(سورة الفرقان: 53)

البرزخ بين البحرين:

البرزخ بين كل بحرين حاجز لم تعرف طبيعته، لكن هذا الحاجز موجود فرضاً، لأن مياه كل محيط لا تختلط بالبحر الآخر، فمثلاً البحر الأحمر له كثافة، و له ملوحة، وله مكونات خاصة به، والبحر العربي له كثافة، وملوحة، و مكونات خاصة به، و قد رؤي هذا في الأقمار الصناعية، مياه البحر الأحمر لا تختلط بمياه البحر العربي، أو الهندي، والعكس صحيح، هذا البرزخ، هذه الآية بقي علماء التفسير قروناً في حيرة منها، كيف جعل الله بين البحرين برزخاً، هذا البرزخ مجهولة طبيعته، لكنه مفترض وجوده، لأن مياه كل بحر لا تختلط بمياه البحر الآخر، لا من حيث الملوحة، ولا الكثافة، ولا المكونات، هذا شيء واضح، و ثابت، الآن إذا ذهب شخص إلى البحر الأحمر يشعر أن الماء خفيف، أما في المتوسط فالماء ثقيل، والفرق واضح جداً بين البحرين، ومع ذلك فالبحران متصلان عند قناة السويس متصلان، وهذا البحر لا يختلط بهذا البحر، و هذا من بعض بحوث علماء البحار عن طريق مركبات الفضاء، الله عز وجل قال:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن: 19 - 21)

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)

(سورة الفرقان: 53)

الحجر المحجور هو أن أسماك المياه العذبة لا تنتقل للمياه المالحة، و أسماك المياه المالحة لا تنتقل للمياه العذبة، فلو صب نهر عظيم في عرض المحيط، كالأمازون، فإنه يستمر سيره في البحر مسافة 80 كيلو مترا، ومع ذلك أسماكه تعيش فيه، ولا تنتقل إلى المياه المالحة:

(وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

بقيت كلمات قليلة:

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

5 - كلٌ بحر له أسماكه بحسب خصائصه:

هذا اللؤلؤ المحار حيوان له هاتان الصفيحتان العظميتان، وهو في الداخل حيوان هلامي كيف يدافع عن نفسه ؟ إذا دخل إلى المحار جسم غريب دافع عن نفسه بإفراز مادة كلسية فسفورية، هذه المادة يفرزها بشكل كروي كي يقضي على هذا الجسم الغريب الذي دخل إلى مملكته، هذه المادة الكلسية الفسفورية الذي يفرزها المحار على المادة الغريبة هي اللؤلؤة، وقد أخذ العلماء المحار يفتحونه، ويضعون فيه حبة رمل، و يضعون هذه المحارات في صناديق مفتوحة في عرض البحر، وينقلونها من فصل إلى فصل، من مكان إلى مكان، هذه حبة الرمل يفرز حولها المحار مادة كلسية فسفورية يجعلها لؤلؤة، لكن هذه اللؤلؤة التي وضعتها أنت في المحار حبة رمل بمستواها الفني أقل بكثير من اللؤلؤ الطبيعي، هذا اسمه لؤلؤ مزروع، اللؤلؤ الطبيعي، فلا تجد وسط هذه اللؤلؤة أي شيء، صفاء ما بعده صفاء، فربنا عز وجل صمم هذا اللؤلؤ ليكون حلياً للنساء، وليست قضية عشوائية، أن هذه الحبات مناسبة للمرأة، فحينما خلقها الله عز وجل خلقت كما قال الله عز وجل:

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

مصممة خصيصاً لتكون حلية للمرأة:

(وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ)

6 - وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ فِيهِ

من أعطى هذا الماء قوة تماسك ؟ قوة التماسك في الماء تمنع دخول الأجسام فيه، هذا ما سمي في علم الفيزياء دافعة أرخميدس.

أمسك أنت وعاء ماء، ثم ضعه في مستودع ماء، فقد نصف وزنه، أو فقد أربعة أخماس وزنه، معنى ذلك أن الماء يدفعه نحو الأعلى، لولا هذه الخاصة لما استخدم البحر ليكون أداة اتصال بين القارات، تعبيد طريق يكلف ألوف الملايين، أما البحر فهو طرق معبد، الباخرة حمولتها مليون طن، وأعظم البواخر تحمل مليون طن، وتسير في عرض البحر، و كأنه طريق ممهل.

ربنا عز وجل حينما صمم الماء بهذا الدافع القوي نحو الأعلى، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة:

(وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

الاستيراد والتصدير، ونقل البضائع، وأنت تحتاج إلى فواكه، إلى شاي، إلى سكر، إلى حاجات تنقلها لك السفن من كل أرجاء الأرض.

(لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (06-10): تفسير الآية 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-05-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس السادس من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية الثانية عشرة، وهي قوله تعالى:

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)

(سورة فاطر)

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

لعلّ في الدرس الماضي تبين لنا أن الله جل وعلا يريد أن يعرفنا بذاته، من خلال آياته، والآيات هي العلامات الدالة على وجوده، وعلى كماله وعلى وحدانيته، وعلى قدرته، فهو موجود، وقدير، وكامل، وواحد، أبرز الصفات والأسماء التي يمكن أن تجمع من خلالها كل أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى.

من هذه الآيات إيلاج الليل والنهار:

1 - معنى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

أولج بمعنى أدخل، يتجلى اسم اللطيف في هذه الآية.

نحن في حياتنا اليومية نضع يدنا على زر فيتألق المصباح فجأة، نضعها ثانية فينطفئ فجأة، أما هذا التدريج اللطيف، تغيب الشمس، ولا تزال الدنيا مضيئة، كيف يدخل الظلام شيئاً فشيئاً، شيئاً فشيئاً، إلى أن يأتي وقت العشاء، فإذا الظلام قد عم الأرض، الله جل وعلا أولج الليل في النهار بلطف ما بعده لطف، لو أن الله جل وعلا يفعل كما نفعل نحن في حياتنا اليومية، وغابت الشمس فجأة، وغاب معها الضوء، لا شك أن الهواء الذي يغلف الأرض يقوم بعملية اسمها تناثر الضوء، هناك أشعة شمس، وهناك ظلام دامس، وهناك منطقة فيها ضياء، وليس فيها أشعة، الهواء الذي يغلف الأرض يقوم بمهمة تناثر الضوء، إذاً: الغلاف الهوائي نعمة من نعم الله عز وجل، هو الذي يجعل هذا الضياء يبدو بشكل تدريجي، وفي الصباح يولج النهار في الليل، ظلام دامس، يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وبعدئذٍ يزداد الضياء شيئاً فشيئاً، إلى أن تشرق الشمس، ويعم الضياء الأرض.

هذه الآية الدالة على عظمة الله عز وجل، ولولا أن شكل الأرض كرة لمَا تداخل الليل والنهار، ولولا أن سرعة الأرض سرعة بقدر لما تداخل الليل والنهار بهذا البطء وبهذا اللطف، ولولا أن الأرض يغلفها غلاف غازي لما تناثر الضوء، والإنسان إذا دخل إلى الظلمة فجأة لا يرى شيئاً، بعد حين تتسع حدقته شيئاً فشيئاً، حتى تتبدى له بعض ملامح الأشياء، لو دخل الإنسان إلى سوق الحميدية أو سوق مدحت باشا الآن، فجأة وهو يقود مركبة بعد أن يدخل هذا السوق لا يرى شيئاً إطلاقاً، لأنه انتقل من الشمس المتألقة إلى منطقة أقل إضاءة، وإذا انتقل الإنسان من مكان مظلم إلى مكان مضيء، فتضيق حدقة العين شيئاً فشيئاً، حتى تأخذ الضوء الكافي، وأنت لا تدري، لكن الله جل في علاه جعل تداخل الليل والنهار تداخلاً لطيفاً، وتداخلاً مريحاً، وتداخلاً يوحي بعظمة الله عز وجل، هذا معنى قوله تعالى:

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

أي أن الله عز وجل الذي أمرك أن تعبده، هو الله جل في علاه الذي أمرك أن تطيعه، والذي بيده مقاليد السماوات والأرض هو الذي يفعل هذا، هل أحدٌ من الناس مهما علا شأنه يستطيع أن يحرك الأرض ؟ أن يزيد حركتها ؟ أن يزيد من سرعة دورانها ؟ هذا من فعل الله جل وعلا.

أحياناً هناك دليل فطري على أن هذا الكلام كلام الله، دليل فطري يعبر عنه بالمثل التالي:

لو سمعت إنسانين يتحدثان من وراء حجاب أو في غرفة أخرى، بينهما باب ينتقل الصوت عبره، قال لك: البارحة عيّنا مديراً عاماً للبريد، من المتكلم ؟ وزير المواصلات، أنت لا تعرف من المتكلم ! لكن فحوى الكلام ينبئك بالمتكلم، حسناً فحينما يقول تعالى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

(سورة فاطر)

من يستطيع أن يقول هذا الكلام إلا خالق البشر ؟

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(12)يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

(سورة فاطر)

2 ـ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

الشمس تتسع لمليون وثلاثمائة ألف أرض، وإذا دخلتها أرض تبخرت في ثوانٍ معدودة، لأن درجة حرارة السطح ستة آلاف درجة، أما في أعماقها، وفي نواتها فتصل إلى عشرين مليون درجة، ستة

آلاف على السطح، وعشرون مليون درجة في مركز الشمس، فلو ألقيت فيها الأرض لتبخرت في ثانية واحدة

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

ويقدر العلماء أن عمر الشمس لا يقل عن خمسة آلاف مليون عام، ويقدر العلماء ثانية أن الشمس لن تنطفئ قبل خمسة آلاف مليون عام، ما هذه الطاقة ؟ أين الإمداد ؟ من يمدها بهذه الحرارة ؟ الله جل في علاه:

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

3 - وَالْقَمَرَ

القمر: للتقويم، نعرف من خلاله عدد السنين والحساب، للتقويم، فكل إنسان ينظر للقمر ويقول: خمس عشرة ليلة، ثلاث عشرة ليلة، عشر ليال، الشهر الأول والثاني والثالث، له مهمة، وله دلالة، وله حكمة من خلقه، لذلك فالنبي الكريم صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلالَ قَالَ:

((هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[سنن أبي داود]

فنحن نستفيد منه، ويدلنا على الله عز وجل.

وظيفة الآيات الكونية:

بالمناسبة أي شيء خلقه الله عز وجل من دون استثناء، له وظيفتان خطيرتان، الوظيفة الأولى أن يدلك على الله، والوظيفة الثانية أن تنتفع منه، أهل الكفر والإعراض استفادوا من الوظيفة الثانية، سخروا كل ما في الأرض لمصالحهم، استنبطوا ثرواتها، ركبوا الهواء، غاصوا في البحار، الهدف الثاني تحقق، لكن أهل الإيمان استفادوا من الهدف الأول.

يجب أن نعلم أن كل شيء خلقه الله عز وجل خلقه من خلال هدفين.

الأول: أن يدلك على الله.

والثاني: أن تنتفع منه، لذلك يمكن أن نقول: إن الله جل في علاه سخر للإنسان السماوات والأرض، تسخير تعريف، وتسخير تكريم، فالتعريف يقتضي الإيمان، والتكريم يقتضي الشكر، فإذا عرفت الله آمنت به، وشكرته، فقد حققت المراد من خلقه، عندئذٍ تتوقف كل أنواع المعالجات، والمضايقات، لهذا قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: 147)

هذا كلام دقيق جداً، الكون سُخِّر للإنسان بنص القرآن:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية)

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

(سورة البقرة)

خلق خصيصى لكم، صمم من أجلكم، خلق موافقاً لحاجاتكم.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

فالكون مسخر لهدفين، يستنبطان من قول النبي الكريم:

((هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

لهدف كبير، وهو أن تعرف الله عز وجل، ولهدف آخر، وهو أن تنتفع به في الدنيا، وهناك هدف علمي، وهدف مادي، هدف إيماني، وهدف نفعي، هدف أخروي، وهدف دنيوي، إذاً: الكون مسخر للإنسان، تسخير تعريف، وتسخير تكريم، التعريف يقتضي من الإنسان أن يؤمن، والتكريم يقتضي من الإنسان أن يشكر، فإذا آمن بالله وشكره، فقد حقق المراد من خلقه في الدنيا، وإذا حقق المراد فقد حقق عبوديته.

وإليك مثلاً من باب التقريب، ولله المثل الأعلى، وفي القرآن ضرب أمثلة كثيرة: أب كل طموحه أن يكون ابنه طبيباً، إذا رأى الأب ابنه عاكفاً على دراسته، وقد حصل علامات عالية، وكانت أخلاقه رضية، وسمته حسناً، وعلاقاته طيبة، فأي أب يمد يده على ابن مثل هذا ؟ لا يوجد مبرر ! هذا معنى قول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء: 147)

تتوقف كل أنواع المعالجات، لأن الهدف تحقق، أيضاً الإمام الشافعي رضي الله عنه استنبط من قوله تعالى في الآية السابقة أن الله لا يعذب أحبابه، فأنت عرفت الله وأحببته، أنت في مجال التكريم، قال تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة)

لو أن الله أقرهم على أنهم أحبابه لما عذبهم، إذاً: إن الله لا يعذب أحبابه، هذا معنى دقيق جداً.

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء)

المصائب تختلف باختلاف الناس:

لكن بالمناسبة، ما كل مصيبة تصيب الإنسان هي تعذيب، بعض المصائب هي تكريم، هي امتحان، رفع درجات، إذا قلنا: إن المصائب مضايقات وشدائد يسوقها الله للإنسان كي يدفعه إلى باب العبودية، فهذا من قبيل أن الحديث عن العصاة، أما المؤمنون فلهم معاملة خاصة:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة)

أي يريد الله عز وجل أن يعرف المؤمن بإيمانه، فأنت يا عبدي مؤمن والدليل: سقت لك هذه الشدة، فلا غيرت، ولا بدلت، ولا تركت الصلاة، ولا ظننت بالله ظن السوء، أنت على ما أنت عليه.

فحينما يصاب المؤمن بخوف، أو بنقص من الأموال، والأنفس، والثمرات، هذه مصائب ترقية، ومصائب الكشف، ومصائب الدفع، لكن مصائب أهل الدنيا العصاة، فهي مصائب القصم، والردع، وقد بينت هذا في دروس سابقة، أجل هنالك مصيبة قصم، قال تعالى:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

حينما يبتعد الإنسان بعداً شديداً عن الدين، ويستحيل عليه العودة يُقصم، أمَّا حينما يقع في مخالفة شديدة، وفي معصية بليغة، تصيبه مصيبة الردع، فلعل الله جل وعلا يردعه بهذه المصيبة، أما أهل الإيمان فمصائبهم مصائب دفع وتسريع، ومصائب رفع، ومصائب كشف.

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة فاطر)

3 ـ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى

قالوا: إذا تحركت نقطة رسمت خطاً، الخط إذا تحرك رسم سطحاً، السطح إذا تحرك رسم حجماً، الحجم إذا تحرك شكل زمناً، وفي أحدث نظرية وهي النسبية: قراراً أن الزمن هو البعد الرابع للأشياء، فهذه الشمس تتحرك، والقمر يتحرك، والأرض تتحرك، ونحن نتحرك، هناك نهاية لهذه الحركات، هذا معنى: مالك يوم الدين.

(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة فاطر)

الشمس والقمر، والأفلاك، ونحن نتحرك لأجلٍ مسمى، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، نقرأ النعي، ونحضر التعازي، ونلقي الكلمات، لكن لا بد من يوم تُقرأ نعوتنا، ويحضر الناس تعزيتنا، ويلقون كلمة في مناسبة موتنا،

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

***

هذا هو الزمن، الزمن هو حركة محدودة، تنتهي بنقطة الصفر، يقول لك: عدّ تنازلي، تسع، ثمان، سبع، ست، خمس، أربع، ثلاث، اثنان، واحد، صفر. انتهى، تفضل تشرّف معنا، هكذا الدنيا..

الدنيا ساعة اجعلها طاعة

والنفس طماعة عودها القناعة

***

سبحان الله ! الزمن يمضي سريعاً، كل واحد منا له عمر، كيف مضت هذه السنوات الثلاثون ؟ يقول لك: والله كلمح البصر، كيف مضت الأربعون عاماً ؟ الخمسون عاماً ؟ العشرون عاماً ؟ وعلى هذا فقس، والإنسان يسأل نفسه سؤالاً محرجاً: هل بقي بقدر ما مضى ؟ أغلب الظن لمن تجاوز الأربعين لا، لأن معترك المنايا بين الستين والسبعين، فمن بلغ الأربعين أغلب الظن أن الذي بقي أقلّ مما مضى، هذا معنى:

(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

مرة ثانية: ليست مشكلة الإيمان أن تؤمن أو لا تؤمن، لا بد من أن تؤمن، ولكن بعد فوات الأوان، فالبطولة أن تؤمن قبل فوات الأوان، البطولة أن تؤمن وأنت شاب، وأنت في ريعان الشباب، فَلَكَ قدرة أن تشكل حياتك وفق قواعد الإيمان، أن تختار عملك الذي يرضي الله عز وجل، فأنت تتعلم كي تستفيد من علمك في الحياة الدنيا، لا أن تتعلم بعد فوات الأوان، بعد أن مضت السنون، وبعد أن دفعت الثمن بالغاً، يا ليتني فعلت كذا، يا ليتني لزمت مجالس العلم، يا ليتني أديت الصلوات كلها، يا ليتني فعلت كذا وكذا، كلمة ليت هذه تجرح الفؤاد.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)

(سورة المؤمنون)

اقرؤوا الآيات التي تتحدث عن ندم الإنسان حينما يلقى الله عز وجل، فليست القضية أن تؤمن أو أن لا تؤمن، فلا بد من أن تؤمن، فرعون آمن، ولكن حين لا ينفع الإيمان، وبعد فوات الأوان:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90)آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

البطولة أن تؤمن في وقت ينفعك فيه الإيمان.

الشيء الثاني: ما من واحد على وجه الأرض ينكر حادث الموت، ولكن البطولة أن تستعد له، الموت خارج حساب الناس، يحسب لكل شيء حساباً، كنت في مكان أنتظر، وسمعت ما يلي بأذني: قال رجل لصاحبه: بعد عشرين عاماً إذا حدث أي خلل في الأنابيب، فلن أكسر البلاط، ولكن أجري تمديداً خارجياً بدلاً من التمديد الداخلي، هذا شيء جيد، بعد عشرين عاماً، فكأنه ضمن أن يعيش عشرين عاماً أخرى، يحسب الإنسان حساباً لكل شيء، إلا مغادرة الدنيا، يصعق حينما يأتي ملك الموت، فالمؤمن يستعد لها قبل أن تأتي، يستعد لها بالإيمان، يستعد لها بالاستقامة، يستعد لها بالعمل الصالح، يستعد لها بطلب العلم، يستعد لها بإنفاق الأموال، يستعد لها ببذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، حتى يشعر أنه في رضوان الله.

أيها الإخوة الأكارم، كلمة أقولها لكم: والله الذي لا إله إلا هو، ما من شعور يسعد الإنسان في الدنيا أعظم من أن تشعر بأن الله راضٍ عنك:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
و ليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خراب
وليت شرابي من ودادك سائغٌ ... و شربي من ماء الفرات سراب
إذا صح منك الوصل فالكل هينٌ ... وكل الذي فوق التراب تراب

***

المؤمن رباني، معنى رباني: أي أن علاقته مع الله حسنة، علاقة ود، علاقة حب، علاقة شوق، علاقة طاعة، علاقة عبودية، علاقة خضوع، علاقة انسياق لأمره، وقّاف عند كلام الله.

إذاً: كلٌ يجري لأجلٍ مسمى، هذا الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً، هذا الذي جعل البحرين، هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، هذا الذي خلق السمك لتأكل منه لحماً طرياً، هذا الذي خلق اللؤلؤ والمرجان، ليكون زينة لزوجتك، هذا الذي أولج الليل في النهار بلطف شديد، وأولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر، كلٌ يجري لأجلٍ مسمى، هل عرفته ؟ جاء الجواب:

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ)

(سورة فاطر)

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ

1 ـ الله خالق الكون بكلّ ما فيه:

من هو الله ؟ الذي فعل كل هذا، الذي خلق الكون، الذي خلق السماوات، خلق المجرات، خلق الكازارات، خلق المذنبات، بين مجرتين ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، كلام ثابت.

والله مرة في سهرة من السهرات أجريت حسابات لأعرف ماذا يعني أقرب نجم ملتهب من الأرض، أحياناً الأرقام لا تعني شيئاً، يقول لك: عشرة قوة عشرين، هذه الأرقام لا تعني شيئاً، فأردت أن أوضح لإخواني أن هذا القرب نجم بعده عنا أربع سنوات ضوئية، شيء جميل، الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر، وعلى الآلة الحاسبة، ثلاثمائة ألف ضرب ستين دقيقة ضرب ستين للساعة ضرب أربع وعشرون في اليوم ضرب ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً في السنة ضرب أربع سنوات ضوئية فالناتج رقم فلكي، كبير جداً، سنركب مركبة سرعتها مائة في الساعة، نقسمها على مائة، نتج كم يقطع في الساعة، حسناً كم ساعة إلى أن نصل ؟ تقسيم أربع وعشرين عدد الأيام، تقسيم ثلاثمائة وخمسة وستين عدد السنين، نتج معنا أن هذا النجم أقرب نجم إلى الأرض من أجل أن نصل إليه نحتاج إلى ثلاثة وأربعين مليون سنة، يجب أن تركب مركبة، وأن تقودها ولن تستطيع الوصول، ثلاثة وأربعون مليون سنة كي تصل إلى أقرب نجم ملتهب، أربع سنوات ضوئية، فكم تحتاج كي تصل إلى نجم القطب ؟ أربعة آلاف عام، أقرب نجم مسيرة أربع سنوات، القطب أربعة آلاف قفزة واحدة، المرأة المسلسلة مليون سنة ضوئية، أحدث مجرة ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية:

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ)

(سورة فاطر)

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

لو تعلمون.

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ)

2 ـ الله الخالق هو المستحق للعبادة:

هذا الذي تعصيه هذه هي أفعاله، ألا يستحق هذا الإله العظيم أن تطيعه ؟ أن تعبده أن تعظم أمره ؟ أن تدعو إليه ؟

الصراحة أن الإنسان حينما يضع كل إمكاناته في خدمة إنسان من جنسه فقد بخس نفسه، حينما يحب الإنسان غير الله فقد احتقر ذاته، أنا لا أعتقد أن هناك في الأرض رجلين أحبا بعضهما بعضاً كما أحب الصديقُ النبيَّ عليه الصلاة والسلام، فداه بروحه، فداك أبي وأمي يا رسول الله، أعطاه كل ماله، ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن مسعود يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً...))

[صحيح مسلم]

معنى هذا أن الإنسان لا يجوز أن يحب غير الله، ولا أن يعطي شبابه لغير الله، ولا أن يعطي حياته لغير الله، ولا أن يعطي قلبه لغير الله، ولا أن يعطي ولاءه لغير الله، هذا الذي يوالي إنساناً، الإنسان فانٍ، في أحسن الدرجات ماذا يفعل معك هذا الإنسان لو جاءك شيء لا يقوى أن يرده عنك ؟ إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله، يعني أن الإنسان حينما يتجه لغير الله، وحينما يوالي غير الله، وحينما ينفق شبابه لغير الله، وحينما يفني عمره لغير الله، وحينما يعطي ماله لغير الله، وحينما يوالي غير الله، فقد احتقر نفسه، لذلك من عرف نفسه، عرف ربه، ويمكن أن تقول: من عرف ربه عرف نفسه..

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ)

3 ـ لَهُ الْمُلْكُ

مطلق الملك، اليوم قلت على المنبر: في الأنف عشرون مليون خلية عصبية للشم، عشرون مليون متمركزة في القرن العلوي من الأنف، بمساحة مائتين وخمسين مليمترا مربعا، هذه الخلايا الشمية كل خلية لها سبعة أهداب، على كل هدب يوجد مادة دهنية، فيها مادة مذيبة، مادة دهنية مع مادة مذيبة، فإذا لامستها رائحة تفاعلت معها تفاعلاً كيماوياً، هذا التفاعل شكل شكلاً، فقال العلماء: رائحة الأزهار كشكل المفتاح، رائحة بعض المواد الكيماوية كحوض السباحة، هذا الشكل يرسل إشارة للدماغ، وفي الدماغ عشرة آلاف رائحة، مركز الشم في الدماغ يميز بين عشرة آلاف رائحة، ويتم التمييز بالآلية التالية: هذه الرائحة تعرض على كل الروائح، في الذاكرة الشمية تمر عشرة آلاف ذاكرة، فإذا وافقت إحداها تقول: هذه ياسمين مثلاً، هذه فل، هذه مثلاً رائحة زنبق، هكذا التعريف، وفي الطعام كمون، شيء معجز، وهذه الأهداب تستطيع أن تستشعر روائح ذات تركيز يكاد يكون صفراً، فقالوا: نصف بالمليون من الميليغرام بالسنتمتر المكعب خلايا الشم تلتقطه، الميليغرام يساوي واحد بالمليون من الغرام، أي جزء من مليون المليون، من ألف بليون جزء سم مكعب خلايا الشم تتذوقه، أنت أحياناً لا تنتبه، أنت تحتاط بالبصر، ركبت مركبة، وجدت الجهاز فيه خلل، العدادات، هذه بالبصر، أحياناً تسمع

صوتاً، الصوت أوسع، أحياناً تشم رائحة، فأنت مرة تتقي الخطر بالرؤية، ومرة بالصوت، ومرة بالرائحة، تشعر بالخطر، أحياناً تسمع صوت وحركة فتقف ! أحياناً تشم رائحة كريهة فإذا بها فأرة ميتة، ليس لها أي صوت ولا صورة، وهي تحت السرير، ما الذي يشعرك أن هناك كائن متفسخ ؟ الرائحة، فربنا جل وعلا كامل.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

في أحسن تقويم.

(فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

(سورة الانفطار)

هي الرائحة، ما دامت حاسة الشم تميز بين عشرة آلاف رائحة، والروائح الأساسية سبعٌ، مثل حروف اللغة، يمكنك أن تؤلف مليون كتاب من ثمانية وعشرين حرفاً، فالروائح الأساسية سبعة، وهناك من الروائح ما لا يعد ولا يحصى:

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ)

حاسة الشم، حاسة البصر، السمع، أنت فلان على الهاتف، لقد عرفتك، معنى هذا أن لديك ذاكرة سمعية للأصوات، الدماغ، مركز التوازن، مركز البلع، البلعوم، هذا شرطي المرور الذي يعمل ثمانين عاماً بلا كلل ولا ملل، يفتح تارة طريق القصبة الهوائية، وتارة طريق المريء إنه المزمار..

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ)

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ

1 ـ الأصنام بأنواعها لا تضر ولا تنفع:

هذه الأصنام، وهي كل يدعون من دون الله، إما الأصنام التي كانت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، أو أيّ إنسان، فعندما يضع الشخص كل ثقته بإنسان، ويظنه قادرا على أن يفعل كل شيء، فهذا نوع من الشرك:

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)

2 - القطمير:

القطمير غشاء رقيق يغلف النواة، نواة التمر، فيها القطمير والنقير والثالثة الفتيل، طبعاً هذا المثل من بيئة العرب، التمر شيء شائع عندهم، فالنواة لها نقير، أحد طرفيها له رأس مؤنث، ولها فتيل بين فلقتيها، ولها قطمير غشاء رقيق يغلفها، فهؤلاء الشركاء ما يملكون من قطمير.

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ)

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ

هذا الصنم أو الحجر ليس لديه قدرة سمعية، لا يسمع، أما الإنسان فله قدرة على التعرف، له سمع، له بصر، له إدراك وعقل، وأشياء كثيرة، هؤلاء الأصنام إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو كانوا من بني البشر، أصناماً ولو سمعوا ما استجابوا لكم، فلو أن إنساناً أصيب بمرض عضال، وله صديق، قوي في الحياة، ويده طولى، قال له: أرجوك، يقول له: ليس بيدي، وأحياناً الإنسان يتوهم أن المال يحل كل شيء، فمن توهم أن المال يحل كل شيء، هذا يؤدّب بطريقة أو بمشكلة لا يحلها المال أبداً.

المال لا يحل كل المشاكل والمصائب:

أنا مرة كنت عند طبيب، فجاءه هاتف: أيها الطبيب، أعطنا إشارة لأيّ مكان في العالم نأخذه، أيّ مبلغ ندفعه، قال له: والله ليس هناك أمل، الورم من الدرجة الخامسة، وهو مستعصٍ على الشفاء، شعرت أنا من خلال الهاتف أن ذوي المريض مستعدون أن ينفقوا عليه أكبر مبلغ، فهناك حالات لا يكون للمال قيمة فيها، لا يحل مشكلة أبداً، فكل من يعتقد أن المال يحل مشكلة يؤدب بمشكلة لا يحلها المال أبداً.

دققوا في هذه الناحية أيها الإخوة، أحياناً الإنسان إن اغتنى يقول لك: الدراهم مراهم، كل إنسان دعه يفعل ما يشاء بالمال، هذا الإنسان يؤدب بطريقة معينة، له تأديب خاص، الله يسوق له مشكلة لا قيمة للمال في حلها أبداً، إلا أن يقول: يا الله، فالإنسان المؤمن يقول: يا الله، دائماً، إن كان غنياً أو كان فقيراً، لذلك فالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام كان يستعيذ بالله مما يهتم له، ومما لا يهتم له، وأحياناً شيء بسيط جداً يعكر صفاءك، شيء بسيط جداً يعكر مشروعك، عقبة تافهة جداً تحول بينك وبين هدفك، فالإنسان يجب أن يستعيذ بالله، لا من شيء عظيم فقط، بل من شيء حقير أيضاً، إني أعوذ بك مما أهتم له، ومما لا أهتم له، والدعاء الشهير: اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً.

إذا عسَّر الله عز وجل الأمر فتجده كله معقدًا، وإذا سهّله فشيء لا يصدق، لهذا الكلمة الشهيرة: إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ تنبع المشكلات من بيته، من زوجته، من أولاده، من عمله، من شريكه، من سيارته، من تجارته، أينما تحرك تواجهه مشكلات، فالإنسان يجب أن يشعر أن الله راضٍ عنه أو غير راضٍ، من معاملة الله له.

أحياناً يكون هناك خلل فتبرز هناك مشكلة، الإنسان يفهم على الله عز وجل، وإذا بدأ يفهم على الله عز وجل، واستقام انحلت عقدته، هذه من أجل ذلك، هذه يا عبدي من أجل ذلك، من هذا الموقف، من هذه النظرة، من هذه الكلمة، من هذا الدفع، من هذا المنع.

حكى لنا أخ من إخواننا عنده محل تجاري، مبيعه بالجملة، دخل إليه أحدهم، وقال له: نريد قطعة أو اثنتين بالمفرق، اعتبرها إهانة له، قال له: أنا أبيع بالجملة، ولا أبيع بالمفرق، يقسم لي بالله أنه خلال ستةٍ وعشرين يوماً ما دخل إلى محله إنسان، قال لي: لقد جفّت دمائي في العروق، هذا تأديب إلهي، أنت تكبرت عن بيع قطعتين، فربنا عز وجل له ترتيب، فإذا دخل الإنسان في المعالجة فليفرح، إذا شعر أن الله يحاسبه، يتتبعه، يسوق له مشكلة لكل قضية، معنى هذا أنه ضمن العناية المشددة، معنى هذا أنه مطلوب، أما إن كان المريض لا أمل منه فيقول الطبيب لذويه: أطعموه ما يشاء، مهما طلب أطعموه، يكون مرضه خطيراً ومستفحل، فالطبيب لا يعطيه حمية شديدة، ولا يضغط على المريض، وينبهه من خطورة الملح، إلا إن كان هناك أمل في الشفاء، طالما هناك أمل فهناك ضغط، إن لم يكن الأمل فلن يكون الضغط، فإذا شعر الإنسان أن الله عز وجل يحاسبه حساباً دقيقاً، أي يعاتبه أحياناً، يحجبه أحياناً، يسوق له بعض الشدة أحياناً، فمعنى ذلك أنّه ضمن العناية المشددة، فليفرح، ومعنى ذلك أنه مطلوب، معنى ذلك أنه ليس ميؤوساً منه، هناك أمل، داخل بالزمرة التي يمكن أن تنجو، ليس من الناجين، بل يمكن أن تنجو..

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ)

1 ـ يجب أن تدعو السميع المُجيبَ:

إذاً: يجب أن نعبد مَن إذا دعوناه سمعنا، قد تدعوه ليلاً، ونهاراً، صبحاً ومساءً، في سفر، في حضر، على سرير، في مستشفى، في بيتك، في مركبتك، في مكان موحش، في مكان آهل، الإله يجب عليك أن تدعوه في أي وقت وهو يسمع، أما إن كان لك صديق وأعطاك أرقام هواتفٍ لديه، وقال لك: في أي لحظة تخبرني. فأنت قد تكون في مكان لا هاتف فيه، وقد يكون لدينا هاتف ولكن هاتفه معطل، دعه يأتي الآن ليخلصك من الأزمة التي وقعت بها، تحدث كثيراً، يكون واثقاً لأن معه ثمانية أرقام هواتف،

كلهم شخصيات مهمة، ربنا كيف يؤدب هذا الإنسان ؟ بأن يعطل له هاتفه، أز يعطل هواتف الآخرين، تجده أسقط في يده، عاملوه معاملة في منتهى القسوة، ولو اتصل الشخص المطلوب لرفعوه لأعلى عليين، ولكن ربنا عز وجل يؤدب من اعتمد على غيره بهذه الطريقة، فلذلك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أوحى الله إلى داود: يا داود، ما من عبد يعتصم بي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السماوات بمن فيها، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء من بين يديه، وأسخت الهواء من تحت قدميه))

[الدر المنثور في التفسير بالمأمور للإمام السيوطي]

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ)

يجب أن تعبد من يسمعك، وأبلغ من ذلك يجب أن تعبد من إذا دعوته في سرك استجاب لك، أحياناً الإنسان في موقف صعب يقول: يا رب، وهو مع أناس منكرين معرضين، لكني أقول لكم: والله من الممكن أن تدعو الله وأنت ساكت، في سرك، يا رب، ليس لي إلا أنت، وأنت ساكت، وهذا الفم مطبق، وتشعر أنه سمعك واستجاب لك، والدليل:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

(سورة مريم)

أي خفي عمَّن حوله، فما قولك بإله عظيم، وأنت ساكت تقول له: يا رب ليس لي إلا أنت ؟ يا رب أنقذني، يا رب يسر لي هذا الأمر، يا رب لين قلوب الآخرين، يا رب هيئ لي أسباب الفرج، وأنت ساكت، وهذا الفم مطبق، واللسان صامت، والله يسمعك ويستجيب لك.

2 ـ العبد لا تجده في الخدمة دائما:

بينما الآخرون تدعوهم وترجوهم، وتتوسل إليهم، يعتذرون بلباقة، يقول لك أحدهم: ما عندي نقد، وآخر يقول: القضية ليست بيدي أتمنى أن أخدمك، على عيني ورأسي، ولكنني لا أستطيع، تشعر أنه انسحب من خدمتك بانتظام، فحينما تعلق الآمال على غير الله يأتيك الرد القاسي، يأتيك التخلي، يأتيك بأن يسلموك، وسبحان الله كل من اعتمد على غير الله، وبالغ في الاتكال عليهم فلابد من أن يؤدب، بمشكلة يظهر له تخليهم عنه، رحمة به، وتقريباً إليه، فهؤلاء يا عبدي لا ينفعونك، لذلك ففي أول ليلة يوضع فيها الميت في القبر يقول الله عز وجل: عبدي رجعوا وتركوك، رجعوا ليأكلوا على روحك وتركوك، وفي التراب دفنوك.

مرة فتحوا قبراً فوجدوا مياه الصرف الصحي محولة عليه، سألوا ابن المتوفى فقال لهم: ضعوه فماذا سنفعل ؟ فانتقل من منزل أربعمائة متر، فيه أثاث بمئات الملايين، إلى قبر في باب الصغير مفتوحةً عليه مياه الصرف الصحي، وفي التراب دفنوك ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت.

فالبطولة أن تعرفه وأنت حي، أن تعرفه وأنت شاب، أن تعرف حقوقه عليك، وحقك إني لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ)

وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ

كلُّ مَن تعتمد عليه من دون الله يتبرأ منك يوم القيامة:

يوم القيامة يقول لك ذاك الذي عبدته من دون الله: أنت اعتمدت علي من دون الله، أنت أحمق -لا سمح الله - أي أن هذا الذي اعتمدت عليه يتخلى عنك، ويتهمك..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم)

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

فمن الذي يجب أن تستمع إليه ؟ هو الخبير، من الذي خبرته قديمة ؟ هو الله عز وجل، هو الخبير، أحياناً أنا أترنم بكلمة تعليمات الصانع.

1 - يجب اتباع تعليمات الصانع:

نحن عرفنا أنه إن كان عندك آلة معقدة غالية، تخاف أن تصاب بالخلل، أو بالعطب، لأن منها الأرباح الجيدة، هناك بعض أصحاب المعامل إن تعطلت عندهم آلة يصلحها الساعة الثانية ليلاً، يقول لك:

وردية الليل مدفوع ثمنها، فعندما تكون الآلة غالية يكون كتاب الصيانة الخاص بها ترتيبه بعدها، وهذه هي تعليمات الصانع، فإن كنت أنت غالٍ على نفسك فأغلى شيء عليك يجب أن يكون القرآن الكريم، لأن هذا القرآن تعليمات الصانع، فمن أحب ذاته، من كان مفرطاً في الأنانية، عليه أن يتبع تعليمات الصانع، أي علامة حرصك على سلامتك، وعلى سعادتك اتباع تعليمات الصانع، فأحياناً لا تروق لي كلمة إلا أن أقول: تعليمات الصانع، لماذا تغض بصرك عن محارم الله ؟ لأن هذه تعليمات الصانع، لماذا لا تصافح النساء ؟ إنها تعليمات الصانع، لماذا لا تفعل كذا ؟ هكذا وجهني ربي عز وجل، فالإنسان السعيد يسير على منهج:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

أحياناً خبرات البشر يثبت أنها سيئة جداً، أو أنها مشحونة بالخلل، ماذا يقول لك الإنسان ؟ هكذا توقعت، ولكني أخطأت يا أخي، أما ربنا عز وجل فلا يمكن أن يقع خلل في كلامه، معنى قوله تعالى:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)

(سورة البقرة)

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت)

لذلك فهل عرفتم مقام الربوبية ؟

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(11) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ)

(سورة فاطر)

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)

(سورة فاطر)

هل عرفتم من هو الله ؟

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ)

حسناً ومن أنتم ؟ قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)

(سورة فاطر)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ

أنت مفتقر إلى كل خلية أن تعمل بانتظام، وإلا لو حصل نمو عشوائي لانقلبت حياة الإنسان جحيماً، لو توقفت كلية عن العمل انقلبت حياة الإنسان جحيماً، لو حصل خلل في الدسام، أو في الشرايين، أو في الأوردة، أو في القلب، أو في الأجواف، أو في الأعصاب، أو في البنكرياس، البنكرياس أصابه مرض السكر، بالصفراء أصبح هناك مرارة وفيها حصيات، فأنت مفتقر إلى الله عز وجل، في أية لحظة ينقطع عنك إمداد الله عز وجل فهناك مشكلة كبيرة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)

إذاً يجب أن تتحقق من ربوبية ربك، ومن افتقارك إليه، من عبوديتك..

فأنتم هم الحق لا غيركم فيا ليت شعري أنا من أنا

يجب أن تعرف من أنت ؟ أنت لا شيء، أنت شيء بقدرة الله، شيء بتوفيق الله، شيء بلطف الله، شيء بإمداد الله، فإذا تخلى الله عنك فأنت لا شيء.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

1 ـ الله هو الغني، والعبد مفتقر إلى الله الغني:

أنت الفقير وهو الغني، أنت الضعيف وهو القوي، أنت الطارئ والحادث، وهو الباقي على الدوام، أنت الجاهل وهو العالم، حالة المؤمن هكذا.

مرة سمعت مثلاً أعجبني: أنت سمكة مملوءة ذهباً، فإذا قلت: أنا ذهب، لا، الذهب ليس منك، الذهب وضع فيك، إذا عرفت من أنت فأنت ذهب، فإذا قلت: أنا ذهب، فأنت لست بذهب.

أحياناً يضربون الأمثلة مثل المزاب، وهو ممر للماء من أسطحة المنازل، فإذا قال المزاب: انظروا إلى عطائي، أنت لا عطاء لك، أنت ممر للعطاء، فالإنسان إذا عرف قدره عرف ربه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)

لذلك فالنبي الكريم كان يدعو قبل أن يفعل شيئاً:

اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين.

أنت طبيب، أو محامٍ، أو مهندس، أو تاجر، لا يوجد ذكي مع الله إطلاقاً، أحياناً يريك التاجر أن هذه الصفقة هي صفقة العمر، وبسببها يفلِس الإنسان، إذ تكون خسارتها فادحة، لأنه ما اعتمد على الله تعالى، وأحياناً الطبيب إن اعتمد على علمه، أو ولم يعتمد على ربه يكون تشخيصه خاطئاً، يسوق الله له كل من سيموت، تجد على يده حالات موت كثيرة جداً، فإذا اتكل على الله عز وجل ساق له من أراد أن يشفيهم، فيقال: والله استفدنا، فالقضية قضية أن تعرف من أنت، أنت لا شيء، لذلك إذا سجد الإنسان يجب أن يتذلل، اللهم إني لا أعرف شيئاً، أنا لا أعلم وأنت تعلم.

(وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النور)

ففي كل مهنة دلائل على عظمة الله عز وجل، التاجر يقول: يا رب تجبر عني، البضاعة جميلة ! لا بالجميل الذي يباع وتنفق سوقه، فقد لا تباع هذه البضاعة، وتتراكم في المستودع حتى تصبح هماً على قلب صاحبها، لذلك ربنا لما تكلم عن التجارة قال:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا)

(سورة التوبة: 24)

2 - الافتقار إلى الله يجلب التوفيق:

الكساد شيء صعب جداً، بضاعة في المستودع لا تباع ولا تشترى، رأسمال مجمد، فالإنسان إن كان تاجراً أو طبيباً أو محامياً، أو كان مهندساً فبلطف الله، فكلما افتقر إلى الله وفقه الله، وكلما اعتز بفهمه وخبراته وقدراته تخلى الله عنه، هي عملية واضحة جداً، إن اتكلت على الله كفاك، وإن اتكلت على نفسك أوكلك الله لها، هذه هي القصة كلها، في حقل التجارة والصناعة، والزراعة، أحياناً يأتي صقيع فيحرق الموسم الزراعي، فكل ذكائك وكل خبرتك، لا تفيد شيئاً مع الصقيع..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة القلم)

في الطب، في الهندسة، في التدريس، في المحاماة، في أي مصلحة، في أي مهنة، قل قبل أن تفعل شيئاً: اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين، حتى في الزواج، أريدها كذا وكذا، الحسب والنسب، ثم يقع على رأسه شك في النهاية، بعد كل هذه الشروط الصعبة تجدها من أسوأ الزوجات، وتجد حياته جحيما، فدائماً الأمور بحاجة إلى توفيق، بالتوفيق والتوكل والسعي يتم النجاح والفلاح..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللّهِ وَاللّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(15)إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

فلا يتدلل أحدنا، ولا تتشوّف نفسه، فهي أمارة بالسوء.

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة الحجرات: 17)

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ

إن الإنسان هذا المخلوق الأول المكرم إن استقام وُفِّق، أما إن لم يستقم فلا قيمة له عند الله، إذا هان أمر الله عليك هنت على الله، كما ترون، إذا هان أمر الله على الناس هانوا على الله، فتصير أمورهم بأيدي أعدائهم.

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(16)وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

الإنسان يجب أن يتواضع لله، يجب أن يتذلل، يجب أن يعد أن وجوده نعمة عظمى من الله عز وجل، نعمة الوجود ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، هذه النعم عظمى، ويجب أن تعلم أنك إذا أطعت الله عز وجل فإنك تنفع نفسك:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

(سورة الروم)

الخير كله عائد إليك، كما لو أن إنساناً اشترى صندوقاً، ووضع فيه المال، ومعه مفتاحه، يقول: دفعت اليوم كذا، وأدخلت للصندوق كذا، والصندوق مفتاحه معك، وهذا المال لك، فالأمور كلها تعود إليك.

(وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ(17)وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (07-10): تفسير الآيات 16 - 24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-05-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس السابع من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية الخامسة عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(15)إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(16)وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

(سورة فاطر)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

1 ـ الافتقار إلى الله من مقامات العبودية:

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى بعد أن بيّن أنه هو الذي خلقنا من تراب، ثم من نطفة، ثم جعلنا أزواجاً، وهو الذي جعل البحرين هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وهو الذي أولج الليل في النهار، وأولج النهار في الليل، الذي فعل هذا كله هو الله جل في علاه، أما أنتم أيها العباد فأنتم فقراء، والافتقار إلى الله مقام عليٌّ جداً، هو مقام العبودية، حينما تتأكد من أنك لا شيء، وأن الله كل شيء، حينما ترى ضعفك، وجهلك، وافتقارك إلى الله عز وجل فقد تحققت من مقام العبودية.

إن الإنسان ـ كما قلت لكم في الدرس السابق ـ كلما ازداد افتقاراً إلى الله أمده الله، إن افتقر في العلم أمده الله بالعلم، إن افتقر في القوة أمده الله بالقوة، وما يقع الإنسان في مشكلة في الأعم الأغلب إلا لأنه اتكل على نفسه، لأنه من اتكل على الله كفاه الله كل مؤونة، ومن اتكل على نفسه أوكله الله إليها، وربما كانت هذه الحقيقة حقيقة أساسية جداً في الدين، لأن الإنسان بين أن يعتد بنفسه، وبين أن يفتقر إلى الله عز وجل، وقد مر بكم في التاريخ الإسلامي أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله، حينما افتقروا إلى الله في بدر نصرهم، نصراً عزيزاً مؤزراً، وحينما قالوا في أنفسهم: لم نغلب من قلة، خذلهم الله عز وجل:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا)

(سورة التوبة)

وهذه القصة بشقيها، حينما افتقروا في بدر نصرهم الله نصراً عزيزاً مؤزراً، وحينما اعتدوا بقوتهم في حنين تخلى الله عنهم، وأوكلهم إلى أنفسهم، وولوا مدبرين، هاتان الحادثتان الأولى والثانية درس لنا على مدار الدوران.

أيها المؤمن إن افتقرت إلى الله فقد أويت إلى الحصن الحصين، إن افتقرت إلى الله أمدك الله بالعلم، أمدك بالقوة، أمدك بالحكمة، أمدك بالصبر، أمدك بالتماسك، أمدك بالجلد، وإن قلت: أنا لي خبرة كما قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص)

فكان الله عليه حاسماً..

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص)

لذلك حينما قالوا: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، ونهاية العلم التوحيد، ألاّ ترى مع الله أحداً، أن تعرف من أنت، أنت لا شيء، لكنك بالله كل شيء، أنت لا تعلم، لكنك إذا افتقرت إلى العليم صرت أعلم العلماء، أنت ضعيف، وبالله قوي، أنت فقير، وبالله غني، فهذا الموضوع تم شرح بعضه في الدرس الماضي، وتم شرحه تفصيلاً في درس جامع العثمان في مقام الافتقار إلى الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)

2 ـ الاستغناء والتوكل على النفس مآله الفشل والإخفاق:

كل إنسان له مهنة، له حرفة، له اختصاص، عنده ملكات، عنده قدرات، فحينما يتوجه إلى ذاته، ويعتمد عليها، ويتكل عليها، يتخلى الله عنه، ويكله إلى نفسه، ويقع في شر عمله، ويعرف حقيقته الضعيفة، وحينما يعتمد على ربه، ويتوكل عليه، يمده بقوة منه، وبعلم، وبحكمة، وبثبات، وبجلد، وبتماسك، فإذا أردت كل شيء فافتقر إلى الله في كل شيء، وإذا أردت الإخفاق، إذا أردت أن تفاجأ في وقت عصيب جداً أنك ضعيف، بعد أن ظننت أنك قوي فاعتمد على نفسك.

3 ـ الإنسانُ بَيْنَ اتخاذ الأسباب وتأليهها:

مرة ثانية: خط دقيق جداً بين الشرك والمعصية، ألاّ تأخذ بالأسباب فهذه معصية، وأن تأخذ بها وتعتمد عليها فهذا شرك، لكن الإيمان أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد على رب الأرباب، لأنه أنْ تبقى في منطقة ضيقة جداً، وفي خط رفيع فهذه بطولة، أما أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد عليها هذا منزلق خطير، يقع

به معظم الناس، يقول لك من خلال كلامه: أنا متمكن، أعددت لكل شيء عدته، أنا أملك خبرة طويلة في هذا المجال، هذه كلها كلمات خلاصتها: الاعتداد بالنفس.

وقد يفاجأ الخبير بموقف خطير، وحينما يطمئن الإنسان من جهة يأتيه الله من جهة طمأنينته، هذا تحدثت عنه في الدرس الماضي بفضل الله عز وجل، لكن أريد أن أؤكد أن كل إنسان إن افتقر إلى الله في حرفته أمده الله، كذلك في زواجه إذا استعان بالله ألهمه الله البحث عن زوجة صالحة، وإن كانت عنده زوجة ليست كما يريد أصلحها الله له، العبرة أن تكون مع الله، أن تكون شديد الصلة بالله، أن تكون حسن الصلة بالله، العبرة أن تكون ربانياً، حتى تشعر أن الله عز وجل يمدك بكل شيء، الله عز وجل مع المؤمن المفتقر، ويتخلى عن المعتد بنفسه، والمستغني عن الله، كلكم يعلم قوله تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى(6)أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

حينما يرى الإنسان نفسه قوياً ربما طغى، حينما يرى نفسه غنياً ربما طغى، الطغيان يتأتى من الاعتداد بالنفس، وليس من السهل أن تفتقر إلى الله، هذا يحتاج إلى جهد كبير، مرتبة الافتقار مرتبة علية جداً، هي مرتبة العبودية، مرتبة أن تعرف من أنت، أنت لا شيء، لكنك بالله كل شيء، أنت ضعيف، لكنك بالله قوي، أنت فقير لكنك بالله غني، الإنسان أخرق، لكنه بالله حكيم، إذا أردت الحكمة، وسداد الرأي، صواب القول، وثبات الجنان، والتوازن، إذا أردت العلم، والقوة، والصبر فافتقر إلى الله.

الآن

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

4 ـ الله وحده هو الغني الحميد:

هو وحده الغني، هو تفيد القصر، هو وحده الغني، أنتم لستم أغنياء، لكن الله عز وجل، غني حميد، مع أنه غني لا يعامل عباده إلا معاملة يحمدونه عليها، هذا معنى غني حميد، الإنسان إذا اغتنى، ترفع، وتعالى، وتكبر، يتذلل إذا كان بحاجة إلى الخلق، فإذا استغنى عنهم يستعلي عليهم، هذا شأن الإنسان، لكن شأن الواحد الديان، أن الله عز وجل مع أنه غني يريد من عباده أن يقبلوا عليه، يطلبهم، مع أنه غني عنهم.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((... يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ

فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ...))

[صحيح مسلم]

أتمنى على كل أخ كريم لو أنه كان طبيباً مثلاً، قبل أن يضع يده على هذا المريض يقول له: يا رب، إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين، فإنه يرى كيف أن الله يلهمه التشخيص الصحيح، وكيف أن الله عز وجل يجري الخير على يديه، ولو أن القاضي قبل أن يدقق في قضية استعان بالله، لو أن المدرس قبل أن يلقي درساً استعان بالله، لو أن التاجر قبل أن يعقد صفقة استعان بالله، لو أن المهندس قبل أن يرسم مخططاً استعان بالله، لو أن أي إنسان واجهته مشكلة واستعان بالله، لرأى أن الله عز وجل يمده بالحل المناسب، وبالرأي الصائب، وبالموقف الحكيم، وما الحمق والخطأ إلا حالة بعد عن الله عز وجل، فالإنسان كلما استعان بالله عز وجل أعانه، وإذا استنصره نصره، الحديث القدسي عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((... يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ...))

[صحيح مسلم]

لكن الإنسان حتى لا يتوهم، بل ليعلم أنه مطلوب، والكون كله مسخر للإنسان، أجل هو مطلوب، كأن الله يريد منه أن يؤمن لئلا يظن أنه بحجم أكبر من حجمه لئلا يظن بأن الله عز وجل بحاجة إليه، قال:

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

(سورة فاطر)

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الحجرات)

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ

1 - إيّاك أن تمنّ على الله في شيء، فإن الله لا ينتفع بشيء منك:

أي يجب أن تشعر أنك مطلوب من قبل الله عز وجل، وأن الله يحب أن تهتدي، وأن الله حريص على سعادتك، وأن الله خلقك ليسعدك، لكن في الوقت نفسه يجب ألا تشعر أنك إذا اهتديت نفعت الله عزوجل.

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

هذا الشعور أحياناً ينتاب من أجرى الله على أيديهم الخير، يظنون أنهم أشخاص مهمون، وأنهم أحد أركان الدعوة إلى الله، الله عز وجل يستغني عن أي إنسان، إياك أن تمّن بعملك على الله عز وجل، إياك أن ترى عملك، فربما كان عملك الصالح حجاباً بينك وبين الله، ربما كان عملك الصالح إذا أجرى الله على يديك الخير، وشعرت أنك إنسان مهم جداً هذه بداية الانزلاق، هذه بداية بأنك تستغني عن الله عز وجل، فاحذر، فكلما ازددت معرفة بالله ازددت معرفة بضعفك، وفقرك، وحاجتك إليه، وكلما شعرت بهذا الافتقار فأنت في المكان الصحيح، أنت في مقام العبودية، ومقام العبودية هو المقام الأمثل للمؤمن:

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

يجب ألاّ يشعر أي إنسان أنه مهم جداً، وأن الحياة متوقفة عليه، العوام تقول: النبي مات والأمة من بعده دبّرها الله، فهذا الشعور بالافتقار شعور صحيح، أما الشعور بالأهمية والخطورة شعور مَرَضي، فينبغي أن تبقى مفتقراً إلى الله عز وجل.

2 ـ أكثر الناس افتقارا إلى الله أكثرُهم عبودية له:

بالمناسبة قلت لكم في درس سابق: ما من مخلوق على وجه الأرض أكثر افتقاراً إلى الله، وتواضعاً لله، وانصياعاً لأمر الله، واتكالاً على الله من رسول الله، وبالمقابل ما من مخلوق أعزه الله، ورفع ذكره، ورفع شأنه، كرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه عملية فيها مفارقة عجيبة: كلما ازددت تواضعاً ازددت عند الله رفعة، كلما ازددت افتقاراً ازددت غنىً، كلما ازددت ضعفاً أمام الله عز وجل ازددت قوة عند الناس، لكن أهل الدنيا إذا استعلوا على من دونهم، وتذللوا لمن فوقهم، قد يستعلون ويتغطرسون على من دونهم، لكنك لو تراهم أمام من هم أعلى منهم، رأيتهم أذل من الشاة، لكن المؤمن يمرغ رأسه على أعتاب الله عز وجل، يتذلل إلى الله، يفتقر إليه، فالله يرفع شأنه بين الناس، ويعلي قدره، ويرفع ذكره، مفارقة دقيقة، العلاقة ليست طردية بل عكسية، كلما ازددت افتقاراً زادك الله علواً، كلما ازددت تواضعاً زادك الله عزاً، كلما تخليت عن صفات الربوبية، وتحققت بصفات العبودية، رفع الله لك ذكرك، وأوطأ عقبك، وكلما قلت أنا وأنا هويت.

3 ـ أربع كلمات مهلكات:

كلكم يعلم أن هناك أربع كلمات مهلكات: أنا ولي وعندي ونحن:

(نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل)

فأهلكهم الله عز وجل:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة ص)

إبليس، فأهلكه الله عز وجل:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف)

لي: أهلكه الله عز وجل:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

(سورة القصص)

أهلكه الله عز وجل، أربع كلمات مهلكات: أنا ونحن ولي وعندي، فلا تقل: لي، الملك لله، قل: هي لله في يدي، وقد سئل إعرابي يقود قطيعاً من الإبل: لمن هذه الإبل ؟ فقال: " هي لله في يدي "، وهذا البيت لله في يدك، يمكن أن تضطر إلى بيعه، وأنت في أتم درجات عقلك، لو أن خللاً أصاب عضواً خطيراً في جسمك، وثمن إصلاح هذا الخلل يقابل ثمن هذا البيت، تبيعه وأنت راضٍ، قل: هذه المركبة لله في يدي، وهذه الدكان لله في يدي، وهذه الحواس الخمس التي أكرمني الله بها، قل: اللهم مالك الملك، من يضمن أن يستمر بصره حتى نهاية حياته ؟ من يملك السمع والبصر والفؤاد ؟ من يملك هذا اللسان؟ من يملك هذه الأعضاء ؟ الله في علاه.

فقل:

(اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران)

إذا عرفت أن كل ما عندك من المالك تواضعت له، فأي جهاز في جسم الإنسان لو أصابه خلل لأصبحت حياته شقاءً، هذا الجهاز بيد من ؟ بيد الواحد الديان، لذلك النبي الكريم كان يقول:

((اللّهُمّ مَتِّعْنا بأسْماعنا وأبْصَارنا وَقُوّتِنا ما أحْيَيْتَنا، واجْعَلْهُ الوَارِثَ منّا))

[الترمذي عن ابن عمر]

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(16)وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

وبعد هذا كله فهذه آية جديدة فيها حقيقة خطيرة، قال تعالى:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

1 ـ معنى الوزر:

هذا مبدأ خطير جداً في الدين، وزْر بمعنى حِمْل، الوازرة الحاملة.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

2 ـ لا تحمل نفسُ وزرَ أخرى:

إنّ أيّة نفس لا تحمل حمل غيرها، كل نفس تحمل حملها، أي أن كل إنسان محاسب على أعماله، ولن يحاسب الإنسان على أعمال غيره، ولا يتحمل تبعة غيره.

هذا المبدأ مبدأ أساسي يورث حالتين: يورث قلقاً وطمأنينة في الوقت نفسه، فالمنحرفون الذين يتكلون على أن فلاناً أغراهم بهذه المعصية، وأنهم لا ذنب لهم، فيأتي هذا الكلام ليقلقهم، لن يحاسب عنك أحد، لن تستطيع أن تعزو ذنبك إلى أحد، لن تستطيع أن تحمِّل الآخرين أخطاءك، أخطاؤك لا يحملها أحدٌ عنك.

3 ـ الإنسان مختارٌ، وهو ابنُ ذاتِه:

لا تقل: أنا ربيت في بيئة سيئة، الإنسان ابن بيئته، وابن محيطه، وابن أسرته، وابن وراثته، ولكنه في الأصح وفي الأعم الأغلب هو ابن ذاته، وابن اختياره، فإياك أن تعزو ذنبك إلى الآخرين.

سيدنا عمر حينما جاءه رجل، وقد ألقي القبض عليه بتهمة شرب الخمر، فقال له: **<< والله يا أمير المؤمنين، إن الله قدر علي ذلك، فقال رضي الله عنه: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال له: ويحك يا هذا، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >>.**

أنت لست مضطراً أنت مخير.

4 ـ علاقتك مع الله:

أيها الإخوة الأكارم، لا تستطيع أن تفلت من عقاب الله، أنت في قبضة الله، فإياك أن تعزو ذنبك إلى الآخرين، فلان دلني على الشر، أنا ليس لي ذنب، لا بل أنت مخير، ولك عقل، ألم تسمعوا أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أرسل سرية، وأمّر عليها أنصارياً، فعَنْ عَلِيّ رَضِي اللّه عَنْه قَالَ:

((بَعَثَ النّبيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ سَرِيّةً، وَأَمّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلا مِنَ الأَنْصَار، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النّبيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا: بَلَى قَالَ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا، وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمّ دَخَلْتُمْ فِيهَا، فَجَمَعُوا حَطَبًا، فَأَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ـ بعضهم أجرى المحاكمة التالية ـ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنّمَا تَبِعْنَا النّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِرَارًا مِنَ النّار، أَفَنَدْخُلُهَا ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنّمَا الطّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[صحيح البخاري]

لا تقبل شيئاً من دون دليل من كتاب أو سنة، ولا ترفض شيئاً من دون دليل، ألم تسمعوا إلى هذا الإنسان الذي حدث عنه النبي صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فعَنْ أُمّ سَلَمَةَ رَضِي اللّه عَنْهَا أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((... وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ...))

[صحيح البخاري]

طليق اللسان، قوي البيان، ناصع الحجة، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام في خصومة مع إنسان، وأدلى بدلوه وبيّن، وفصّل، لو أن النبي قال له: معك الحق، من يقول له: معك الحق ؟ سيد الأنبياء، المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى، لو أن النبي قال لإنسان: معك الحق، وليس معه الحق فربما كان في الأمر خطأ، بل قال:

((فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النّار، فَلا يَأْخُذْهَا))

[صحيح البخاري]

فعلاقتك مع من إذاً ؟ مع الله وحده، مع الله وحده، لن تنجو من عذابه ولو أقر لك النبي بأنك على حق، إن لم تكن على حق، الحديث من البخاري..

عَنْ أُمّ سَلَمَةَ رَضِي اللّه عَنْهَا أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((إِنّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيّ، وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النّار، فَلا يَأْخُذْهَا))

]

[صحيح البخاري]

إذاً: لا تستطيع أن تحمِّل أحداً وزرك، لا تستطيع أن تنجو من ذنب فعلته باختيارك.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

أي: لا تحمل نفسٌ حمل نفسٍ أخرى، لن تحاسب نفس عن نفس، لن يعاقب إنسان مكان إنسان، هذه حقيقة، حقيقة أساسية جداً.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

5 ـ توجيهٌ لطيف لآيةٍ قرآنية:

لا تحمل نفس حمل نفس أخرى، كل إنسان محاسب بعمله، أما حينما يتوهم بعضهم أن الله عز وجل حينما قال:

(وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ)

هؤلاء الضالون المضلون، وهذا إذا كان الإنسان فاسداً مفسداً، ضالاً مضلاً، فعَنْ جَرِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((... وَمَنْ سَنّ سُنّةً سَيّئَةً كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِ شَيْءٌ))

[سنن الترمذي]

الإنسان يحمل تبعة ذنب إنسان آخر إذا دله عليه، من دون أن ينجو الإنسان الآخر من تبعة ذنبه، صار هناك حسابيان، مرتكب الذنب لا بد من أن يحاسب لأنه مخير، أين عقله ؟ لكن الذي أفسده ودله عليه يحاسب مرتين، فكل إنسان يدل على شر يحاسب عليه كل من اقترف هذا الشر، من دون أن ينجو أصحاب الأعمال الشريرة من تبعة أعمالهم.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

حينما يوهم الإنسان نفسه أن المسؤول عن عمله فلان، هكذا ربانا والدنا، أنت أين عقلك ؟ الأب محاسب عن ابنه قبل أن يبلغ، فإذا بلغ يحاسب كل إنسان على عمله، فالذي يعزو أخطاءه لأبيه، أو لمعلمه، أو لمدرسته، أو لجماعته، أو لبيئته، أو لوراثته، هذا الإنسان يتنصل من ذنب لاصق به.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

6 ـ لا تَعْزُ أخطاءك إلى القدَر:

إياك أن تعزو ذنباً أو تقصيراً، أو انحرافا، أو معصية إلى جهة ما، الناس أَلِفوا أن يعزو أخطاءهم إلى القضاء والقدر، ما رأيت واحداً في حياتي يعمل عملاً صالحاً يقول لك: يا أخي إن الله قدر علي هذا

العمل الصالح، لا، فالعمل الصالح ينسبه لنفسه، يقول: أما فعلت، أما إذا وقع في معصية فإنه يقول: الله مقدرٌ علي ذلك، هذا هو عين الخطأ، لماذا في الأعمال الطيبة تعزوها إلى نفسك ؟ ولماذا حينما تزل قدمك، وينحرف سلوكك، تعزو هذا إلى القدر ؟

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

هذا أشد أنواع الكذب، أن تعزو أخطاءك إلى الله، أن تقول: الله مقدرٌ عليَ هذه المعصية، ليس لي ذنب، يا رب إن سيئاتي من قضائك، لا ذنب لي، هذا هو عين الجهل، وهذا الكلام لا ينجي صاحبه يوم القيامة، العبرة أن يكون الكلام مقبولاً أو مسموعاً، هذا الكلام غير مسموع..

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة)

أنت مسؤول.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

أنت مسؤول في حدود ما كلفت، أنت مخير في ما كلفت به، كلفت بأركان الإسلام، مخير، كلفت بأركان الإيمان، مخير، كلفت بغض البصر، مخير، كلفت بكسب المال الحلال، مخير، كلفت بأداء الصلوات، مخير، أنت مخير في حدود ما كلفت به، أما الشيء الذي لا خيار لك به فلست محاسباً عليه، لست محاسباً لماذا كنت ابن فلان، هذا شيء أنت بـه مسيَّر، هو لمصلحتك، ولكن لا يحاسب الإنسان على شيء لا خيار له به، فأنت مخير في كل ما كلفت، ومسير لتحقيق ما اخترت، ثم بدفع ثمن ما اخترت.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى

1 ـ لا تنفع قرابة ولا نسبٌ يوم القيامة:

ألم تقرؤوا قول الله عز وجل:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد)

من أبو لهب ؟ عم النبي الكريم، ألم تقرؤوا حديث رسول الله:

((سلمان منا آل البيت))

((أنا جد كل تقي، ولو كان عبداً حبشياً))

[ورد في الأثر]

(إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقاكُمْ)

(سورة الحجرات)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((... النّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ))

[مسند الإمام أحمد]

هذه عظمة الإسلام.

<< يا سعد، لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية >>.

ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعة خالق الناس، الذي يرفعك طاعة الله عز وجل:

(إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقاكُمْ)

(سورة الحجرات)

(وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا ذَكَرَتِ النَّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا يُبْكِيكِ ؟ قَالَتْ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا عِنْدَ الْمِيزَانِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ:(هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)، حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ، أَفِي يَمِينِهِ، أَمْ فِي شِمَالِهِ، أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ، إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ))

[سنن أبي داود]

لو رأى الرجلُ أمَّه يوم القيامة هل يتعرف عليها ؟ أمه ! أقرب الناس إليه، رأى زوجته، رأى أخته، رأى أخاه، رأى جاره، رأى شريكه:

((فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ:(هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)، حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ، أَفِي يَمِينِهِ، أَمْ فِي شِمَالِهِ، أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ، إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ))

في هذه المواطن الثلاثة نظراً لشدة الهول فالإنسان لا يذكر إلا نفسه، ولو أن الإنسان وقعت عينه على عين أمه لتجاهلها لشدة الهول، وقد تلتقي الأم بابنها، تقول له: يا بني، جعلت لك صدري سقاءً، وحجري

غطاءً، وبطني وعاءً، فهل من حسنة يعود علي خيرها اليوم ؟ هل تعطيني شيئاً من حسناتك ؟ يقول هذا الابن لأمه: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنني أشكو مما أنت منه تشكين.

(وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام بيّن أن الذي يغتاب الآخرين يوم القيامة يقف هذا الإنسان مع الذي اغتابه، يقول هذا الذي اغتيب: يا رب، اطلب لي مظلمتي من فلان، لقد اغتابني، فلا بد من أن يعطيه من حسناته، فإذا فنيت حسناته طرح عليه من سيئاته، فهذا الذي يهرف بما لا يعرف، ويطعن، ويتكلم على الناس بغير بينة، وبغير علم، وينهش أعراض الآخرين، هذا سوف يقف موقفاً صعباً يوم القيامة، سوف يضطر إلى أن يتخلى عن كل حسناته، وسوف يأخذ كل سيئات هؤلاء الذين اغتابهم، فقبل أن ينطق اللسان، يجب أن تكون وقافاً عند الكتاب والسنة..

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)

(سورة الحجرات)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات)

(وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ)

نفس مثقلة.

(إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

2 ـ لن يُحاسَب أحدٌ عن أحدٍ:

الآن هناك معنى دقيق جداً وحقيقة مهمة، قبل أن نبدأ بها لا بد من تعليق آخر متعلق بالآية السابقة: إذا توهم الإنسان أن أحداً من الناس سيحاسب عنه، وأن تبعة أعماله ربما تحملها زيد أو عبيد، إذا قرأ هذه الآية فإن طمأنينته الموهومة سوف تتبدد، وإذا كان الإنسان مستقيماً، وحوله بيئة سيئة جداً، وكان يخشى متوهمًا أن يصيبه الله بعذاب، لا لشيء إلا لأنه مع هؤلاء، فليطمئن إذا قرأ هذه الآية:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

لن يحاسب ابن عن أبيه، ولن يحاسب أب عن ابنه إذا نصحه، وقدم له كل ما ينبغي، لن تحاسب زوجة عن زوجها، إذا أدت ما عليها، ولن يحاسب زوج عن زوجته، إذا نصحها فلم ترعو، لن يحاسب إنسان عن إنسان.

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

(سورة الانفطار)

هذه الآية تبعث القلق فيمن توهّم أن أحداً سيحاسب عنه، وتبعث في النفس الطمأنينة، فيمن خاف أن يؤخذ المطيع بذنب العاصي.

3 ـ لكنّ البلاء قد يعمّ:

هناك توضيح دقيق جداً كما يقال: البلاء يعم، والبلاء يعم إذا كفّ الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحريق متى ينتشر ؟ إذا رأى أحد أن الحريق في آخر الشارع، وأنه بعيد عن بيته، إذاً فهو لا علاقة له به، فرجع للبيت ونام، إن لم يسهم هذا الجار في إطفاء الحريق، ربما وصل الحريق إلى بيته، فإذا ظهرت فتنة في المجتمع الإسلامي، ولم ينطلق المسلمون إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذه الفتنة توسعت، وتوسعت حتى دخلت بيوت المسلمين، وما من بلاء انتشر إلا بسبب ترك الفريضة السادسة.

قال العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما الفريضة السادسة، لقوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران)

فحينما نكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ربما تحملنا تبعة غيرنا، لأننا عصاة في هذه الحالة، وإذا قال الإنسان: لا شأن لي في هذه الحالة، أنا عليّ من نفسي، حينما يمكنك أن تنصح أخاك المؤمن ولا تنصحه يعم البلاء، ويصل إليك، هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

أما دقة الآية:

(إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ)

إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ

1 ـ مَن يتّعظُ الذكرى والنذُر ؟

قبل ذلك، من هذا الذي يرعوي ؟ من هذا الذي يتعظ ؟ من هذا الذي يستفيد ؟ من هذا الذي يستجيب ؟ الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا)

أداة قصر، أي إنذارك يا محمد لا يجدي مع كل الناس، وهذا الكلام موجه لنا أيضاً، لو أنك التقيت بإنسان لا يعرف الله أبداً،ل ما خطر في باله مرة أن يتعرف إلى الله، ما معنى قولك له: إن الله حرم هذا الشيء، وحلله ؟ إن الله يغضب. يقول لك: ما شأني بهذا الكلام؟ لن تستطيع أن تنصح إنساناً إلا إذا كان على معرفة بالله عز وجل.

مثلاً لو جاء طبيبٌ جراح كبير زائراً إلى بلدنا، من الذي يهتم بهذه الزيارة ؟ الأطباء، ولو جاء عالم جليل، من يهتم به ويعرف قدره ؟ من كان على شاكلته، فالإنسان كيف يستجيب ؟ إن لم يفكر في ملكوت السماوات والأرض، ويتعرف إلى الله، ويتصل به فلن تجدي معه النصيحة.

(إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)

2 ـ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

الله جل في علاه لا يرى، ولكن آثاره بادية للأنظار، كما قال هذا الأعرابي ببساطة: **" البعرة يدل على البعير، والماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟ ".**

أنت أمام كون معجز، أمام آيات لا تنقضي.

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

لو نظرت إلى جسمك لانتهت حياتك قبل أن تنقضي آيات جسمك، لو نظرت إلى طعامك، لو نظرت إلى ما فوقك، إلى ما تحتك، إلى السماء والأطيار، والنجوم والكواكب، إلى البحار والأسماك، إلى الأنهار، إلى الجبال، إلى النباتات، إلى الحيوانات، إلى الألوان، إلى المشمومات، إلى المبصرات، لرأيت العجب العجاب.

(إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)

مثلاً: إنسان ما عرف في حياته شيئاً عن النظام العسكري، قل له: هذا أمر من عميد، يقول لك: ما معنى عميد ؟ لكن الذي ينخرط في السلك العسكري يعرف ما معنى عميد، ومعنى لواء، هذه الرتب يعرف حجمها بالضبط، وماذا تفعل، فلن تستفيد، ولن تتعظ، ولن تخشى، ولن تستجيب إلا إذا كنت على معرفة بعظمة الله، معرفة ما عنده من إكرام، وما عنده من عقاب، وما عنده من جنة أو نار..

(إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ)

3 - وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ

قد يبدو أنه:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

أنت في الدنيا من أجل أن تزكي نفسك، أنت أمام أحد خيارين، إما أن تزكي نفسك فتسعد إلى الأبد، وإما أن تدسّيها فتشقى إلى الأبد

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

إذا غمستها في الآثام والمعاصي فقد أفسدتها، وقد أضللتها، وقد أشقيتها، وقد أبعدتها عن منبع السعادة، وقد أهلكتها.

لكن بين قوسين ما قال الله عز وجل: قد أفلح من تعلم كيف يزكيها ؟! بل قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

أن تتعلم كيف تزكي النفس، دون أن تزكي نفسك فهذا شيء لا قيمة له إطلاقاً، والإنسان إذا تفكر في ملكوت الله، وصلى الصلوات الخمس، وغض بصره عن محارم الله، وتقصى أن يكون دخله حلالاً، أنفق المال في وجوهه، طهّر نفسه من المعاصي والآثام، ومن الشك والشرك.

(وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ)

(سورة فاطر)

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

(سورة الروم)

القضية لك، لك وحدك، فإذا كنت محباً لذاتك، محباً لوجودك، محباً لاستمرار وجودك، محباً لكمال وجودك، محباً لسلامة وجودك، فزكِّ نفسك، لأنه..

(وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((... يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا...))

[صحيح مسلم]

(وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ)

4 - وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

المصير إلى الله، سوف نحاسب على أعمالنا، وعلى مواقفنا، وعلى عطائنا، وعلى منعنا، وعلى غضبنا، وعلى لهونا، وعلى حزننا، وعلى كل شيء نفعله، فلتحذر الحذر كله.

الآن تطالعنا آيات دقيقة جداً، يقول الله عز وجل:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ

الكافر أعمى:

ما من تشبيه أروع من هذا التشبيه، المؤمن بصير، والكافر أعمى، انظر إلى الأعمى، بإمكان طفل صغير أن يهزأ به، ويسخر منه، لو أن طفلاً قال لأعمى: على يمينك حفرة، والحفرة نحو اليسار، فاتجه الأعمى نحو اليسار وقع فيها، فالأعمى أي إنسان يتلاعب به، فلذلك الكافر أعمى، أيُّ مجلة، أي مقالة، أي نظرية، أي محاضرة تجدها قلبت عقله، لأنه ليس عنده أساس، كقشة في مهب الريح، لأنه أعمى، كما قلت قبل قليل: الأعمى لا يرى شيئاً، أما البصير فهو يرى كل شيء، لأنه يستمد قدرته من الله.

ربنا عز وجل شبه المؤمن بالبصير، فهو على بينة من ربه..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة)

أنت في النور، أنت بصير، أنت متمتع بعينين حادتين، أما الكافر فأعمى..

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد)

الأعمى قد يقع في حفرة، قد يصطدم بأكمة، قد تزل قدمه بشيء زلق، قد تلدغه حشرة، قد يقع في شر عمله، لأنه لا يرى شيئاً، فربنا عز وجل يقول:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

المؤمن بصير، والكافر أعمى..

(وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ)

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ

الظلمات هي الباطل..

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)

(سورة النور: 40)

1 ـ النور واحد، والظلمات متعدِّدة:

والنور هو الحق، والنور مفرد، والباطل جمع، هناك أباطيل، هناك أكاذيب، هناك عشرات المذاهب الوضعية الضالة المضلة، الباطل متعدد، كما أنه بين نقطتين لا يمر إلا خط مستقيم واحد، لكن بين هاتين النقطتين يمر آلاف، بل مئات ألوف الخطوط المنحنية والمنكسرة، لكن لا يمرّ إلا خط مستقيم واحد..

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام)

الحق واحد، الحق لا يتعدد، الباطل يتعدد ويختلف، إذاً:

(وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ)

الحق نور، والباطل ظلمات، والباطل كلام لا معنى له، دغدغة للشهوات، رغبة في فعل الموبقات، هذه الرغبة الجامحة تفلسف بنظريات، تقولب بمقولات، لأنه باطل..

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)

(سورة النور: 40)

فالأعمى والبصير، الكافر والمؤمن، الظلمات والنور، الحق والباطل، ربنا شبه الحق بالنور، فهو واضح، عنَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً... قَالَ:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلا هَالِكٌ...))

[مسند الإمام أحمد]

والباطل..

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا)

(سورة النور: 40)

وكلكم يعلم كيف أن بعض النظريات الوضعية عاثت في الأرض فساداً، وانحرفت بالإنسانية إلى مصير سيئ، ثم تهاوت كبيت العنكبوت، بشكل لا يصدق، هذا هو الباطل..

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)

(سورة النور: 40)

قال:

(وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ)

وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ

المؤمن في سكينة وظل ظليل:

المؤمن في سكينة، وكأنه في ظلٍ ظليل، والكافر في نار متأججة، وكأنه بركان، قلق، لأنه خرج عن فطرته، لأنه خرج عن طبيعته، عن جبلته، لماذا المؤمن مرتاح ؟ لأن حركته اليومية توافقت مع فطرته، واطمأنت نفسه..

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

ولما اتصل بصلاته لم يبقَ هلوعاً، ولا جزوعاً، ولا منوعاً، فالظل تعبير عن جزاء العمل الطيب، اتصال بالله، وسكينة وطمأنينة، وتجلٍّ، وراحة، والبعد عن الله قلق، واضطراب، وحسد، وحقد، وطمع، واستعلاء، وكبر، ثم يأتي الموت، ويفاجئ الإنسان.

إذاً: من أروع تشابيه القرآن أن المؤمن بصير، والكافر أعمى، والحق نور، والباطل ظلمات، وجزاء العمل أن المؤمن في ظلٍ ظليل، والكافر في نار مستعرة، أما كملخص فالمؤمن حي، والكافر ميت..

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ)

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ

المؤمن حيّ:

المؤمن حي، عرف الله، وعرف سر وجوده، وعرف أين المصير، وعرف حقيقة الدنيا، وعرف حقيقة الآخرة، وعرف مهمته في الدنيا، حي، وعمل الأعمال الصالحة، التي تنفعه في الدنيا والآخرة، بالضبط مثل المؤمن بين الكفار كالحي بين الأموات، ربنا عز وجل قال:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان)

مثله كمثل الكلب..

(إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف)

غارق في حب الدنيا إلى قمة رأسه، إذاً أربعة تشبيهات رائعة، المؤمن بصير، الكافر أعمى، ألا ترى معي أيها الأخ الكريم أنك حينما تلتقي مع إنسان بعيد عن الله ويرى أن البطولة في كسب المال الحرام، ويرى أن البطولة في اقتناص اللذات المحرمة، ويرى أن البطولة في غش الناس، والتلاعب عليهم، ألا ترى أنه أعمى ؟ وأن الله سوف يحاسبه حساباً عسيراً ؟ وسوف يدمره قبل أن يدمر ماله ؟ أنت تراه أعمى.

أنا أقول لكم هذا الكلام: المؤمن الصادق يشعر أن الذين كفروا بالله، وابتعدوا عنه، ولم يعبؤوا بشرعه، يراهم عميانا، يراهم يتحركون في طريق هلاكهم، يراهم كالأعمى يخبط يميناً ويساراً من دون علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، المؤمن بصير، الكافر أعمى، الحق نور، الباطل ظلمات، حالة المؤمن النفسية في ظلٍ ظليل..

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[مسند الإمام أحمد]

إن الله يعطي الصحة، والذكاء والمال، والجمال، للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، فأنت بصير، في مكان منير، وفي ظلٍ ظليل، إذاً أنت حي، والكافر أعمى، وفوق أنه أعمى في ظلمات بعضها فوق بعض، وفي نار مستعرة، إذاً: هو ميت القلب، المؤمن حي، والكافر ميت، المؤمن في ظلٍ ظليل، والكافر في نار مستعرة، على فوهة بركان، المؤمن في أنوار الحق، والكافر في ظلمات الباطل، المؤمن بصير والكافر أعمى، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(19)وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(20)وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(21)وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

هذا ميت، أنى له أن يسمع ؟

إنّ اللّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال)

دعوة الدين إلى الحياة، الإنسان ميت ما لم يؤمن، كيف تقول: ميت ؟ وهو في أشد حالات نشاطه، وتقول عنه: ميت، ومن كلام سيدنا علي: **<< يا بني، العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والمال يزكو على الإنفاق، يا كميل مات خزان المال وهم أحياء - وهم في أوج حياتهم أموات - والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، الناس ثلاثة، عالم، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق،لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم >>.**

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور)

لا يُعامَل المسيء كما يعامَل المحسن:

بالمناسبة حينما يأتي القرآن بموازنة، هناك موازنات رائعة جداً:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية)

إذا توهمت ثانية واحدة أن الله يمكن أن يعامل المسيء كما يعامل المحسن، أن يعامل العاصي، كما يعامل التائب، أن يعامل المستقيم كما يعامل المنحرف، فأنت لا تعرف شيئاً..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

إياك أن تظن أن العاصي يمكن أن يستوي مع الطائع، وأن المحسن يستوي مع المسيء، وأن المؤمن يستوي مع الكافر، لا ! أين الثرى من الثريا ؟

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

أنا أطمئن المؤمنين فأنت إذا عرفت الله، واستقمت على أمره فلا بد من أن يكرمك الله عز وجل، بطريقة أو بأخرى، لا بد من أن تشعر أن عملك محفوظ عند الله، ولن يَتِركم أعمالكم.

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)

(سورة فاطر)

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ

1 ـ إنْ نافية بمعنى ما:

(إنْ) هذه حرف نفي، يعني: ما من أمة إلا وجد فيها نذير ينذرها.

2 ـ ما هو النذير ؟

والنذير كما تعلمون أشياء كثيرة:

قال بعض المفسرين: حين يعاتب الله الإنسان الضال يوم القيامة يقول الله عز وجل:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر)

من هو النذير ؟ حينما قال الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)

العلماء قالوا: النذير هو القرآن ؛ النذير والبيان التوضيحي، فيه كل شيء، تعليمات الصانع، تحذيرات، صور مستقبلية، مشاهد لم تقع بعد، إخبار عما مضى، إخبار عما سيكون، فيه كل شيء، فيه أمر، فيه نهي، فيه وعد، فيه وعيد، فيه حلال، فيه حرام، فيه تاريخ الأقوام السابقة، فيه ما سيكون في المستقبل، البعيد والقريب، فيه نبأ ما قبلكم، خبر ما بعدكم، حكم ما بينكم، هذا كلام الله، هو النذير، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام هو النذير، والشيب هو النذير، وموت الأقارب هو النذير، والمصائب هي النذير، المصيبة نذير.

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)

للمؤمنين.

(وَنَذِيرًا)

للمعرضين.

(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ(24)وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(25)ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

(سورة فاطر)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (08-10): تفسير الآيات 27-34
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-06-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى نهاية الآية السادسة والعشرين، واليوم نبدأ بالآية التالية، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(27)وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

(سورة فاطر)

قبل أن نمضي في شرح هذه الآية نقف وقفة متأنية أو قصيرة عند سر ترتيب آيات الله عز وجل.

لمَ لمْ يكن القرآن مرتبًا ترتيباً موضوعياً ؟

تلاحظون أن الله عز وجل في السورة الواحدة ينوع بين آيات كونية إلى أحكام فقهية إلى أخبارٍ عمن قبلنا إلى وعد إلى وعيد، قد يسأل سائل: لمَ لم يكن القرآن مرتب ترتيباً موضوعياً ؟ لم لا تكون آيات الكون في فصل، والأحكام الفقهية في فصل، والتاريخ في فصل ؟ هذا السؤال جوابه فيما يلي: إن هذا القرآن كتاب هداية، ومادام كتاب هداية فينبغي أن يتماشى مع طبيعة النفس، فإذا جلست إلى طعام ينبغي أن تأكل طعاماً دسماً وفواكه ومقبلات وشراباً وحلويات، أيعقل أن تأكل لأسبوع بشكل مستمر طعاماً من نوع واحد مقبلات أو فواكه ؟

فربنا عز وجل جمع في السورة الواحدة موضوعات شتى كل هذه الموضوعات في مجملها تشكل وحدة إرشادية، فتارة تحتاج إلى آية كونية ترقى بها إلى الله، وتارة تحتاج إلى حكم فقهي تطبقه لتصلح دنياك، وتارة بحاجة إلى خبر عن الأقوام السابقة لتتعظ، فتنوع الموضوعات في السورة الواحدة من لدن حكيم خبير، وترتيب القرآن كما تعلمون ترتيب توقيفي جاء به الوحي السماوي، فحينما ننتقل من حديث عن الدنيا والآخرة إلى حديث عن الكون إلى حديث عن الأمم السابقة إلى وعد إلى وعيد إلى مشهد من مشاهد الآخرة، هذا الترتيب يجب أن نأخذه بعين الاعتبار، ويجب أن نعتقد جميعاً أن هذا الترتيب ترتيب خالق الكون، ترتيب منزل هذا القرآن.

الآن ننتقل إلى صفحة من صفحات الكون، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَمْ تَرَ)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

1 ـ أَلَمْ تَرَ

هذه الرؤيا رؤية القلب أو العلم، يعني ألم تعلم ؟ كلكم يعلم أن فعل رأى على نوعين، رأى بصرية ورأى قلبية، قد تقول: رأيت الشمس ساطعة، هذه رأى البصرية، وقد تقول: رأيت العلم نافعاً هذه رأى القلبية، فهذه رأى هنا تشير إلى رؤية القلب أو إلى العلم، ألم تر أيها الإنسان ظاهرة إنزال المطر، أليست ظاهرة بين يديك ؟ ألا تراها في كل فصل ؟ الذي عاش أربعين عاماً مضى عليه أربعون شتاءً، ألم ير خلال عمره هطول الأمطار ؟ كيف أن هذه المساحات الواسعة ـ البحار ـ من المسطحات المائية تتعرض لأشعة الشمس فتتبخر، فينشئ الله بها سحاباً، وتأتي الرياح فتسوق هذا السحاب إلى أرض عطشى تنعقد مطراً، تنبت زرعاً، تأكل منه أنعامنا ونأكل منه نحن..

هذه الآية في متناول الناس جميعاً، فإذا قال الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ)

أي أن هذه الآية بين يدي الإنسان.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

2 ـ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً

للحديث عن هطول الأمطار، وعن تشكل السحاب، وعن علاقة الهواء بالماء، وعن علاقة الهواء ببخار الماء، وكيف أن الهواء يتحمل بخار الماء وفي كل درجة من درجات حرارة الهواء يتحمل بها كمية من الماء، فإذا انخفضت هذه الدرجة تخلى عن بعض الماء الذي حمله، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)

(سورة النبأ)

طبيعة المطر، وإنشاء السحاب، وانعقاد حبات المطر، وهطول الأمطار هذا موضوع دقيق جداً يحتاج إلى دراسات طويلة، لكنه آية من آيات الله الدالة على عظمته، وهي بين أيدي الناس، الأرض عطشى، الأشجار يابسة، تأتي الأمطار فتجعل الأرض جنة، وتجعل الأشجار منتعشة مروية تحمل الثمار وما يلذ للإنسان.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

لكن محور هذه الآية يتحدث عن ظاهرة الألوان، الآية كلها عن ظاهرة اللون، كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون ونوره، فالشمس جعلها الله جلّ وعلا مصدر الضياء.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

(سورة يونس)

فاللون هو شيء دقيق جداً، حينما يسلط الضوء على شيء ما فهذا الشيء يمتص كل الألوان، عدا لونٍ واحدٍ، اللون الذي لا يمتصه هذا الشيء هو لونه، طبقة الهواء تمتص ستة ألوان عدا اللون الأزرق، إذاً: لون السماء أزرق، الماء كذلك، فموضوع اللون متعلق بالضوء، فإذا لم يكن هناك ضوء فلا لون، والضوء كما تعلمون مؤلف من سبعة ألوان، فإذا اجتمعت هذه الألوان ظهر اللون الأبيض، وإذا أردت أن تعرف حقيقة هذه الظاهرة ضع مرآة في قعر إناء تحت أشعة الشمس لترى أن هذا الضوء الأبيض قد تحلل على الحائط إلى سبعة ألوان، فالضوء الأبيض مؤلف من سبعة ألوان، وما قوس القزح إلا تحليل لضوء الشمس، فهذه الألوان السبعة المجتمعة بلون واحد هو الأبيض، إذا سلطت أشعة الشمس على شيء فهذا الشيء يمتص الألوان الستة عدا اللون الذي يبدو لأعيننا أنه لون هذا الشيء، فظاهرة اللون يتحدث الله عنها في هذه الآية:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا)

3 ـ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

اختلاف الثمرات شكلا وطعمًا ولونًا صغرا وكبرًا هذا من نعم الله:

انظر إلى لون التفاحة الأصفر، ثم إلى لون التفاحة الأصفر المشرب بالحمرة، أو إلى لون تفاحة أحمر، أو إلى لون تفاحة أحمر داكن، كل فاكهة لها لون يأخذ بالألباب، بل إن المهندسين ليهتدون بألوان الفواكه وألوان الفراشات وألوان النباتات في تصميم ألوانهم.

إذاً: ربنا سبحانه وتعالى يلفت النظر إلى قيمة اللون في حياة الإنسان، إن بعض الحيوانات لا ترى إلا الأبيض والأسود، وفرق كبير بين أن ترى صورة ملونة بمنظر طبيعي وبين أن ترى صورة بالأبيض والأسود، فاللون من نعم الله العظمى على الإنسان، يبعث البهجة في النفس، وأحد أسباب متعة العين الألوان التي صممها الله عز وجل في هذا الكون، واللون كما قلت قبل قليل: لا يظهر إلا بالضوء، والله سبحانه وتعالى نور السماوات والأرض، فإذا نظرت إلى الفاكهة ربما كان اللون له دلالة على نضجها، فربنا عز وجل يقول:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل)

فالإنسان الذي يعمل في الزراعة يهتدي إلى نضج الفواكه والثمار والخضراوات باللون، ادخل إلى حقل الطماطم ـ البندورة ـ ماذا ترى ؟ هذه العناقيد كلها خضراء، أما الحمراء فتقطفها، كلما وجدت ثمرة حمراء اللون تقطفها هي الناضجة، فاللون علامة النضج، وهذا من فضل الله على الإنسان، فكل شيء أعطاه علامة دالة على مضمونه، فاللون من جهة متعة بالغة للإنسان ومن جهة ثانية مؤشر على حالة معينة للفاكهة، فالفاكهة الخضراء لا تؤكل.

(انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ)

(سورة الأنعام: 99)

ينعه أي نضجه، كيف نعرف نضجه ؟ من لونه، فالإنسان إذا أمسك فاكهة ليأكلها فإنه ينظر إلى دقة هذا اللون.

الآن: الكرز له لون رائع المشمش له لون ناضر جذاب، ومثله التفاح العنب..إلخ، أحياناً اللون يثير الشهية، كما يثير المتعة، متعة العين، واللون الذي تصطبغ به الفاكهة يثير شهية الإنسان، واللون مؤشر على نضج الفاكهة، فهذه الآية الكونية التي أشار الله إليها في هذه الآية يجب أن نهتم بها.

الإنسان لا ينبغي أن يأكل كما تأكل بقية المخلوقات، بل يجب أن يأكل كما يأكل الإنسان العاقل، أن يجعل من طعامه دليلاً على الله عز وجل، وهكذا قال الله عز وجل:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

انظر إليه، انظر إلى لون الفاكهة، أضف إلى اللون حجم الفاكهة، أضف إلى حجمها رائحتها، أضف إلى رائحتها شكلها، قوامها ما فيها من مواد غذائية، اجمع بين المواد الغذائية مع النضج مع القوام مع الحجم مع الشكل مع اللون مع الرائحة مع طريقة التناول، مع امتداد فترة القطاف، لو أن الفواكه تنضج في يوم واحد لأتلفناها، لكن الفواكه التي نأكلها تنضج تباعاً، وهذا من نعم الله العظمى، بينما المحاصيل تنضج في يوم واحد، أكمل شيء في المحاصيل أن تنتج في يوم واحد، وأكمل شيء في الفاكهة أن تنضج تباعاً، بل إنها مجموع الفواكه التي نستفيد منها في فصل واحد تنتج أيضاً تباعاً بحسب أنواعها.

فمن كان لديه بستان فيه من كل الثمرات فهو يقطف نوعاً نَوعاً بالتدريج، وهذا من فضل الله، هذه اسمها برمجة، الفواكه مبرمجة، والنوع الواحد مبرمج، وهذا من فضل الله عز وجل.

حدثني أحدهم أنه ضمن حقلاً للبطيخ خلال ثلاثة أشهر كان يقطف منه ما يملأ سيارة شحن كل يوم ! إذاً هذا الحقل يعطيك هذه الفاكهة الصيفية على مدار تسعين يوماً، هذه برمجة، لو أن هذا البطيخ نضج كله في يوم واحد، ماذا نستفيد منه ؟

إذا نظر الإنسان إلى الفاكهة، وتأمل في ألوانها علم أن اللون له وظيفة، تارة يثير الشهية، وتارة يدل على النضج، وتارة يمتع العين، بل إن هناك من يضع صورة للفواكه في غرفة الطعام على أنها قطعة فنية، منظر الفاكهة بألوانها اليانعة، بعد أن تصبح يانعة هذا لون يثير الحاسة الجمالية في الإنسان، فربنا عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا)

التركيز في الآية لا على فائدة الفاكهة، ولا على طعمها، ولا على ما فيها من مواد غذائية، ولا على تناسبها مع طبيعة الإنسان، التركيز هنا على اللون، ظاهرة اللون.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا)

مع أنها تسقى بماء واحد، هذه البذرة فيها قوام النبات وفيها عمر النبات، وفيها عطاء النبات، وفيها نوع الفاكهة، وطعمها ولونها، وقوام الفاكهة كلها معلومات موضوعة في نويّتها، وهذه المعلومات كما قلت قبل حين تزيد على خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة !

هذه البذرة تزرعها في التراب، فإذا هي شجرة زيتون أو شجرة تفاح لها طباع، ولها عمر معين، ولها إنتاج معين، حتى إن الفاكهة الواحدة منها أنواع منوعة أي بالمئات، وأية فاكهة تخطر في بالكم ففي العالم أنواع منها بالمئات !

هناك نوع كبير الحجم، نوع صغير الحجم، نوع يظهر متأخراً، نوع باكوري، نوع حامض الطعم، أنواع منوعة لا يعلمها إلا الله، يكفي أن من العنب في بعض حقول التجارب عندنا ما يزيد على ثلاثمائة نوع، والتفاح كذلك، وكل أنواع الفواكه والثمار أنواع منوعة، هذه للنقل، وهذه للمائدة وهذه للصناعة، وهذه للعصير، وهذه نسيجها متماسك، وهذه ماؤها كثير، وهذه كروية الشكل، وهذه صلبة النسيج، أنواع منوعة، فإذاً نوع الفاكهة ونوع الطعام هذا دليل على عظمة الله عز وجل، والإنسان العاقل ينبغي أن يجعل من طعامه دليلاً على عظمة الله عز وجل.

إذاً:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ)

الجبال:

ومثل الفواكه ؛ أيضاً هذه الجبال، فإنك تذهب إلى مكان فترى جبلاً أحمر اللون، وفي مكان آخر ترى جبلاً أبيض، وفي بلاد الحجاز الجبال سوداء اللون بلون الفحم، وبعض الأماكن جبالها حمر، وبعضها جبال كلسية بيضاء اللون، فهذه ظاهرة اللون كما أنها في الفواكه هي في التضاريس، وكل تربة لها

لونها الخاص، كل منطقة لها طبيعتها الخاصة، فإذا ذهبت إلى منطقة حوران فالتربة لها لون، إذا ذهبت لمنطقة أخرى فالتربة لها لون آخر، وإذا ذهبت إلى جبال معينة فهذه الجبال فلها لون تتميز به، قال تعالى:

(وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا)

وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا

- جُدَدٌ

الجدد هي الطرق، الطرق في الجبال، تراها تارة بيضاء، وتارة حمراء، وتارة سوداء، حسب لون صخور تلك الجبال.

(وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا)

حتى لو أن هذه الطرق حمراء اللون، إلا أنها متفاوتة في هذا اللون، فاللون الواحد قد يكون متفاوتاً.

(وَغَرَابِيبُ سُودٌ)

وَغَرَابِيبُ سُودٌ

دعك من الجبال، ودعك من الفواكه والثمار، وانظر إلى لون الإنسان، فهذا أبيض ناصع، وهذا حنطي اللون، وهذا أسمر داكن، وهذا أسود غربيب، فما هذا اللون الذي منحه الله لبني البشر ؟

1 - لون الإنسان:

قرأت مقالة عن اللون، فيها أن أشد الناس تلوناً فيه مادة لا يزيد وزنها على واحد بالألف من الميليغرام! موزعة في جلد الإنسان، يصبح لونه بهذا الشكل أو بشكل آخر، فلو جئت بآلة تصوير، وصورت عشرة أشخاص لرأيتهم بلون واحد في الصورة، أما لو نظرت إليهم بعينيك لرأيت كل إنسان منهم ينفرد بلون لا يزاحمه في أحد، وهذا اللون من فضل الله على الإنسان، الإنسان من تكريم الله له أنه جعله فرداً متميزاً، ومن علامة فرديته أنه يتميز بلون خاص، وملامح خاصة، ونبرة خاصة، ورائحة جلد خاصة، هذه الفردية في الإنسان تكريم من الله عز وجل.

إذاً..

(وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)

2 ـ معنى: غَرَابِيبُ سُودٌ

غرابيب سود أي أسود داكن شديد السواد، أو لون أحمر مختلف في درجاته، أو لون أبيض مختلف في نصاعته.

(وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ)

وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ

ـ ظاهرة اللون في المخلوقات:

أيضاً هذه الدواب انظر إلى ألوان البقر، بقرة صفراء فاقع لونها، بقرة سوداء بقرة بيضاء، بقرة بيضاء وسوداء، هذا من حيث البقر، والجمال كذلك، هناك جمل أسود، وجمل أشهب، وجمل أبيض، وجمل أشقر، وكذلك الغنم والماعز، فحتى الدواب بشكل عام، والأنعام بشكل خاص لها ألوان متفاوتة، فكأن هذه الآية أرادت أن تلفت نظر الإنسان إلى ظاهرة اللون، وكيف أن الإنسان مكرم بأنه أعطي عينين يرى بهما الألوان، فلو أن هذه الألوان الصارخة الجميلة التي بثها الله في الكون موجودة، ولكن عيني الإنسان لا تريان إلا الأبيض والأسود فما قيمة ذلك ؟ لو أنك صورت منظراً جميلاً فيه من الأزهار من كل الأنواع، والفيلم أبيض وأسود، كل هذه الألوان تنطمس، ولا قيمة لها، وشتان بين صورة ملونة وصورة بيضاء وسوداء، فرق كبير بينهما، فلذلك:

(وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ)

ظاهرة اللون في البشر، وفي الحيوانات، والنباتات، وفي الجماد، فربنا عز وجل ذكر ظاهرة اللون في كل الأنواع، في نوع الجمادات، ولا سيما الجبال، وفي نوع النباتات، ولا سيما الثمار، وفي نوع المخلوقات، ولا سيما الحيوانات، وفي الأخص الأنعام، وفي نوع الإنسان، فظاهرة اللون ظاهرة تلفت النظر، وهي موضوع للتفكر في خلق السماوات والأرض.

أب وأم يأتيان بأولاد مختلفي الألوان، من ولد ناصع في بياضه، إلى ولد داكن لونه، والأم والأب من نوع واحد ! وهذا أيضاً من دلائل الله عز وجل على عظمة خلقه.

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

1 ـ العلماء وحدهم الذين يخشون اللهَ:

أيها الإخوة الأكارم، في هذه الآية تعقيب دقيق جداً، هذا التعقيب يقول:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ)

ومعروف لديكم أن كلمة (الله) لفظ الجلالة مفعول به مقدم، و(العلماء) فاعل مؤخر، أي: إنما العلماء يخشون الله، ولو قلنا: العلماء يخشون الله، فلا يمنع من أن يخشى الله غير العلماء، لكن حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ)

2 ـ العلمُ طريق الخشية:

وهذا كلام خالق الكون، يجب أن نعلم علم اليقين أن العلماء وحدهم يخشون الله، وهذا يعطينا معلومات دقيقة في أن طريق الخشية هي العلم، ليس هناك من طريق إلى الله عز وجل إلا العلم، لأن الخشية في هذه الآية محصورة ومقصورة على العلم، فإذا أردت الله عز وجل فعليك بالعلم.

أولاً: العلماء وحدهم يخشون الله.

وثانياً: من لم يخش الله عز وجل فليس عالماً، ولو قال لك: أنا أحمل أعلى شهادة في العالم، ولو أظهر لك شهاداته كلها، مادام يعصي الله، ولا يخشى الله عز وجل فليس بعالم، بإمكانك أن تدمغه بالجهل.

3 ـ العاصي مدموغ بالجهل:

إنّ أيّ إنسان يعصي الله، ومعنى يعصي الله أنه لا يخشاه، فهذا الإنسان مدموغ بالجهل بنص هذه الآية، فإذا كنت مصدقاً لكلام الله عز وجل، وكان هذا الكلام كلام الله ملء سمعك وبصرك وملء جوانحك، وأنت معتقد أن كل ما فيه حق، وأن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إذا كنت معتقداً أن هذا كلام الله، كلام خالق الكون، وهو يقول:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ)

استنبطت الحقائق التالية: أولاً طريق الخشية هي العلم، ولا شيء غير العلم.

ثانياً: من لم يخشَ الله فليس بعالم، ولو حفظ آلاف الكتب، لذلك كفى بك علماً أن تخشى الله، كل من خشي الله فهذا وسام شرف أنه عالم، كل من خشي الله، يؤكد لك من خلال هذه الآية أنه يعرف الله، لو أنه لا يعرفه لم يخشه، وكل من يعص الله عز وجل فثمة عار في جبينه ! إنه جاهل، فلك أن تؤكد أن الذي يعصي الله جاهل، ولك أن تؤكد أن الذي يطيعه عالم بالله بحالٍ أو بآخر.

و(إنما) تفيد القصر، أي العلماء وحدهم، ولا أحد غيرهم يخشى الله، فالعلم هو طريق الخشية.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ)

4 ـ مفهوم الخشية:

الخشية أيها الإخوة، قد يفهمها بعضهم خوف العقاب، هذا معنى ضيق، المعنى الضيق للخشية أن تخشى عقابه، لكن المعنى الواسع للخشية من دون أن تخشى عقابه حينما تتصور عظمته ينكسر قلبك خضوعاً له، انكسار القلب وخضوعه لعظمة الله عز وجل هي الخشية.

وقال بعض العلماء: هذه الخشية إما أن تحصل بطريق التصور، وإما أن تحصل بطريق التجلي، إما أنك من خلال التفكير في الكون تتصور عظمة الله عز وجل فيخشع قلبك، وإما أن يتجلى الله عليك فتخشاه، على كلٍّ الأول كسبي، والثاني وهبي، خشية الله من خلال بالتفكر في الكون كسبية، وبإمكان أي إنسان أن يحصل عليها، إذا فكر في آيات الكون الدالة على عظمته يمتلئ قلبه استعظاماً لله عز وجل، فإذا تصور عظمة الله عز وجل خضع قلبه لله، أما إذا تجلى الله عليه بأنواره خشع قلبه.

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر: 21)

5 ـ علاقتها بالعلم علاقة طردية:

شيء آخر الخشية علاقتها بالعلم علاقة طردية، كلما نما العلم نمت معها الخشية، فإذا أردت مؤشراً للعلم فعليك بالخشية، الذي يخشى الله هو الذي يعرفه، والذي لا يخشى الله لا يعرفه، تكاد تكون الخشية متوازية في حركتها مع الخط العلمي، فإذا أردت مزيداً من الخشية فعليك بمزيد من العلم، وإذا بدا منك مزيد من الخشية فهذه علامة أنك على علم جيد بالله عز وجل، وهناك علم حجمه لا يكفي لخشية الله عز وجل، إذاً: هذا العلم ليس منجياً، العلم المنجي هو الذي في مجموعه يحملك على خشية الله عز وجل، والنبي أعلمنا بالله، فإذاً هو أشدنا لله خشية، وهكذا قال عليه الصلاة والسلام، وفي الحديث:

((أنا أخشاكم لله))

أخرجه البخاري من حديث أنس:

((والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له))

وللشيخين من حديث عائشة:

((والله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية))

والعبرة هي الخشية، العلم ثمرته الخشية، فمن تعلم ولم يخشَ فلم يتعلم، كطالب يدرس حتى يكون له دخل معقول، فلو تعلم ولم يُوظف مثلاً ما قيمة هذه الشهادة ؟ في نظام الحياة العلم الديني مؤداه الخشية، فمن لم يخشَ فما قيمة هذا العلم ؟

الخشوع في الصلاة ليس من فضائلها، بل من فرائضها، والفلاح في القرآن جاء مرة:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

(سورة الأعلى)

وجاء مرة:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

فلذلك الخشية والخشوع من ثمرات العلم، فإذا أردت أن تخشى الله عز وجل فعليك بالعلم، والعلم بلا خشية كالشجر بلا ثمر.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(27)وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ)

ظاهرة اللون في الجماد تظهر في الجبال، أما في النبات ففي الثمار، وعند الحيوانات في الأنعام، وفي البشر، ظاهرة اللون ظاهرة معقدة جداً، علاقتها بالنور وبإسقاط النور على الأشياء، وبامتصاص الشمس للألوان، وعدم امتصاصه لبعض الألوان، واللون له عدة وظائف مرة يثير المتعة في الجبال، وفي مظاهر الطبيعة، ومرة يثير الشهية في الفواكه والثمار، ومرة يدل على حقيقة متعلقة بالنبات، تحت قوله تعالى:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل)

هذه معرفة الله من خلال الكون، الكتاب المفتوح، وهناك معرفة بالله من خلال قرآنه، يقول الله عز وجل بعد هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ)

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ

معنى: يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ

يتلونه حق تلاوته، ومعنى يتلون كتاب الله يتلونه بتدبر، ومع التدبر إدراك، ومع الإدراك خشوع، ومع الخشوع عمل، وبعد العمل سعادة، تّدبر، إدراك، خشوع، تطبيق، سعادة، كل هذه المعاني منطوية في قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ)

مادام المرء قد تلا كتاب الله فقد شعر بحاجة إلى أن يتصل به، وأقاموا الصلاة، تلوا كتاب الله ؛ يتلون كتاب الله حق تلاوته، ينطقونه حق النطق، يفهمونه حق الفهم، يطبقونه حق التطبيق، كل هذه المعاني معنى التلاوة: القراءة، ومعنى الفهم، ومعنى التطبيق كلها تحت قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

يعني الدين في مجمله: معرفة واتصال، وإحسان، معرفة بالله واتصال به، وإحسان إلى خلقه.

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً)

وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

- الإنفاق مطلق:

هؤلاء تعرفوا إلى الله إما من خلال الكون، أو من خلال كلامه، أو منهما معاً، وأقاموا الصلاة، فاتصلوا بالله عز وجل، وأنفقوا مما رزقناهم، وهذه آية مطلقة، إذا آتاك الله علماً، أو جاهاً، أو قوة، أو خبرة، أي شيء آتاك الله إياه يجب أن تنفق منه.

(وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)

يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ

ـ التجارة مع الله رابحة بكل المقاييس:

في الحقيقة: التجارة أن تنفق شيئاً، وتأخذ أكثر منه، التجارة مهما تنوعت فهناك رأس مال، وهناك مبيع، والفرق بينهما هو الربح، فأنت في الدنيا تتاجر مع الله، والله جل في علاه يحب أن تتاجر معه، وأن تربح عليه، لكنك في تعاملك مع الله لا تربح الربح القانوني الذي يربحه التجار، بل تربح مع الله أضعافاً مضاعفة، حينما ترى مقامك في الجنة ترى أن هذا المبيع لا يتوازن أبداً مع ثمن الشراء، الذي بذلته في الدنيا لا يتناسب أبداً مع العطاء في الآخرة، إنه ألوف ملايين الأضعاف، لذلك المؤمن من علامات خجله أنه يعرق حينما يرى مقامه عند الله عز وجل، ماذا فعل ؟

بالتجارة تشتري بمائة وتبيع بمائة وخمسين مثلاً، أو مائتين، وهو ربح فاحش، أو بثلاثمائة بالألف، لكنك مع الله عز وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

الربح أضعاف مضاعفة، لذلك قال الله عز وجل:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

(سورة البقرة)

معنى التجارة وارد في آيات أخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(11)يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة الصف)

اسأل تاجراً اشترى شيئاً ما بمائة، وباعه بعشرة آلاف ! تجده يكاد يقفز عن الأرض قفزاً، هذه بيعة دونها أية بيعة، إذا اشترى شيئاً بثمن بخس، وباعه بأضعاف مضاعفة فهو ربح مسعد، التجار يعرفون طعم الربح، لكنك إذا تاجرت مع الله عز وجل فالأرباح مضمونة، وأضعافها كثيرة، ولا يعلمها إلا الله، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)

التجار حينما تزدحم عليهم الزبائن، وحينما تروج بضاعتهم، وحينما يبيعون بأرقام خيالية ينسون صلاتهم وعبادتهم، ويظنون أنهم سعداء بهذه الأرباح، بينما الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة من مسجد إلى مسجد، ومن درس علم إلى درس علم، ومن طاعة إلى طاعة، ومن بذل إلى بذل، فهؤلاء يبدو لأهل الدنيا أنهم خاسرون، ولكن ما قولكم لو عكست الآية ؟ هؤلاء الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية هؤلاء وحدهم يرجون تجارة لن تبور ! وهم فقط الرابحون.

هذه هي التجارة الرابحة التي صفقتها مع الله، أحياناً الإنسان بعمله يكون له هداية ودعوة إلى الله، أنا إذا رأيت أخاً كريماً له حرفة وله دعوة، أقول له: والله إن سعيك لهداية فلان أربح تجارة تفعلها في حياتك، وإن كل أعمالك التجارية مهما كبر حجم أرباحك لا تساوي هداية إنسان، لذلك عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ:

((لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيٌّ ؟ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَأَمَرَ فَدُعِيَ لَهُ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ ! مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّه لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ فَقَالَ: نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ: عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[صحيح البخاري]

فالإنسان السعيد الذي يتاجر مع الله، إذا تاجرت مع الله الربح مضمون، والربح نسبه عالية جداً، نسبه فلكية، وخيالية وقد لا يصدق حجم الربح مع الله عز وجل، لكنك إذا تاجرت في الدنيا الربح له سقف، يوجد من ينافسك في البيع، وقدرتك على الاستمتاع بهذه الأموال محدودة، فإذا جاء الموت فليس لك شيء، القدرة على الاستمتاع بالمال محدودة، مهما كنت غنياً ليس بإمكانك أن تأكل فوق ما يملأ معدتك، وليس بإمكانك أن تنام إلا على سرير واحد، وألا تلبس إلا ثياباً معدودة، وألا تكون إلا في مكان واحد، في وقت واحد، فالقدرة على الاستمتاع بالمال محدودة، والأرباح محدودة، والسقف موجود، وحينما يموت الإنسان يَدَع كل شيء حصله في حياته يوماً بيوم يفقده في ثانية واحدة، بينما إذا تاجرت مع الله عز وجل كانت الأرباح مضمونة لا سقف لها، وبإمكانك أن تسعد بها إلى أبد الآبدين ! فلذلك أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً. هؤلاء:

(يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ(29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ

1 - أجر الله وافٍ مع الزيادة:

إنّ تعبك في الدنيا، أداؤك الصلوات في أوقاتها، ذهابك إلى مجالس العلم، غض بصرك، ورعك عن مال حرام، قولك دائماً: إني أخاف الله رب العالمين، ضبط شهواتك، ضبط جوارحك ولسانك، إنفاق مالك، وإنفاق وقتك، تحمل المشاق، الصبر على الطاعات، الصبر عن الشهوات، والصبر على الملمات، هذا كله سوف تجده في صحائفك يوم القيامة، ولن يضيع عليك شيء منه عند الله عز وجل، ولن يَتِرَكَ عملهم.

(لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)

من فضله فوق الأجور التي يستحقها، هذا الشيء ثمنه ألف مثلاً، فيعطيك مليوناً ! أخذت الثمن وزيادة.

(لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)

2 - إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ

غفر لهم أخطاءهم وذنوبهم، وشكرهم على أعمالهم الصالحة، غفور شكور: أخطاؤك غفرها لك، وحسناتك ضاعفها لك، وشكرك عليها.

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ

1 - وحيُ الله حقّ:

هذا القرآن الذي أوحاه الله جل في علاه إلى النبي عليه الصلاة والسلام هو الحق، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتبدل ولا يتغير ولا يعدل ولا يلغى، والباطل الشيء الزائل، فأنت إذا كنت مع الحق فأنت في طمأنينة ويسر وبحبوحة، أما إذا كنت مع الباطل فأنت مغامر ومقامر، تغامر بسعادتك الأبدية، وتقامر بها، لأن الباطل كان زهوقاً، فإذا زهق الباطل زهق الإنسان معه، فكن مع الحق، وإلا فهناك مغامرة ومقامرة.

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

2 - إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ

من اتبع كلام الخبير فهو في سعادة وطمأنينة:

خبير هو الذي خلقهم، يعرف طبيعة النفس، وما يصلحها، ويسعدها، ويطمئنها، ويعرف ما يشقيها، وما يبعدها، فإذا اتبعت كلام الخبير فأنت في سعادة، وأنت في حياتك الدنيا في كل قضية تبحث عن الخبير، إذا أردت أن تشتري مركبة تبحث عن خبير يفحصها لك، وإذا أردت أن تشتري بيتاً يجب أن تبحث عن خبير، يقدر لك ثمن هذا البيت، وإذا أردت أن تشتري آلة يجب أن تبحث عن خبير، فأنت بحاجة ماسة إلى الخبير، فإذا أردت أمر آخرتك، وكنت حريصاً على سلامتك وسعادتك ونجاتك وعلى دخولك الجنة فعليك بكلام الخبير، لأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

3 - اجتماع صفة الخبرة والبصر في الله تعالى:

خبير بهم، وبصير بأحوالهم، هناك خبير غير بصير، وبصير غير خبير، لكن اجتماع الخبرة مع البصر في الله عز وجل شيء عظيم، خبير وبصير، فكم من خبير ليس بصيراً، فيتلاحى الرجلان: أنت لم تقل لي، لماذا لم تقل لي ؟ أنك لست بصيراً ؟ وكم من بصير ليس بخبير، شاهدت لكن لا أعرف أن هذا الشيء خطير، هناك من يرى، وليس عنده خبرة، وهناك من عنده خبرة، وعلمه محدود لا يرى، طبيب في بيته وأخوه في منزل آخر قد ارتفع ضغطه مثلاً، فالطبيب خبير، لكن ليس بصيراً، يقول الطبيب: لماذا لم تخبرني يا أخي ؟ مادام ضغطك بهذا المستوى أخبرني، فقد تجد الخبير ليس بصيراً، وقد تجد البصير ليس خبيراً، لكن الله جل في علاه خبير وبصير.

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ(29)لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ(30)وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ)

الحق هو الشيء الثابت الهادف الذي لا يتبدل ولا يتغير.

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)

4 ـ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

من الكتب السماوية لأن المصدر واحد، بيد يدي النبي التوراة والإنجيل، جاءت قبله والقرآن يصدقها لأن الحق لا يتغير ولا يتعدد.

(بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ(31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(32)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(33)وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ

هذا الكتاب ؛ القرآن أورثه الله جل في علاه لعباده، اصطفاه لهم وأورثهم إياه، هذا الكتاب منحة السماء إلينا منهج فيه كل شيء، فيه خبر من قبلنا، ونبأ من بعدنا، وفيه حكم الله في كل شيء، هذا حلال، هذا حرام، هذا مقبول وهذا مرفوض، هذا يرضي الله، وهذا لا يرضي الله، فيه وعد ووعيد، وأمر ونهي، وحلال وحرام، وفيه مشاهد مستقبلية ومشاهد مضت.

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)

1 ـ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ

لم يعبأ به وجعله وراءه ظهرياً، لم يهتم به قرأه تبركاً، لكن حياته في واد، وأحكام القرآن في واد، هذا الذي لم يفقه مراد الله من هذا الكتاب، لم يفهم حكمه، ولم يأخذ بأوامره، ولم ينته عما عنه نهى، قرأه قراءة جوفاء، ولم يقف عند حقائقه الدقيقة فكأنه ظلم نفسه بذلك، هناك من أعطاك تعليمات خطيرة جداً في شأن موضوع خطير، وأنت لم تستخدمها فلماذا ؟ لأنك لم تعبأ بها، عدم اهتمامك بها جعلك تهملها، فهذا الذي ظلم نفسه.

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)

فمن عبادنا ليس من الذين اصطفينا من عبادنا.

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)

أحياناً يقول طبيب للمريض: مرضك ليس خطيراً، إذا اتبعت هذه التعليمات تشفى، أما إذا أهملتها يتفاقم، وعندئذٍ يصبح خطيراً، فهذا المريض إذا لم يعبأ بهذه التعليمات، ولم يهتم بها، بل سخر منها،

يكون ظلم من ؟ ظلم نفسه، ولم يظلم أحداً آخر، الطبيب قال لك: هذه الأكلات تؤذيك، وهذه الحركات تؤذيك، وهذه الشدائد النفسية تؤذيك، ابتعد عن هذه وهذه وتلك، إذا أردت أن تشفى من مرضك فعليك بهذه التعليمات، فإن أخذت بها فقد نجوت، وإن أهملتها فقد ظلمت نفسك، فهذا الذي ظلم نفسه بعدم تطبيق كلام الله عز وجل.

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)

2 - وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ

المقتصد بعضهم قال: هو الذي يجمع الحسنات والسيئات، هذا تفسير، التفسير الآخر: أنه يقف في الحدود الدنيا، أحل الحلال وحرم الحرام، لكنه ليس سباقاً إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

3 - وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ

فهناك السابقون وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وهناك هالك وناج ومتفوقٌ، المتفوق جعل كل حياته، وكل جهده، وكل وقته، وكل ماله، وكل شبابه، وكل عمره لله عز وجل، هذا باع نفسه لله، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة)

باع حياته كلها.

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

وقته لله، عضلاته لله، خبراته لله، عقله لله، قلمه لله، لسانه لله، زواجه لله، حرفته لله، كل سكناته وحركاته في سبيل الله، هذا هو السابق.

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(10)أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

(سورة الواقعة)

كم عندكم الزكاة يا سيدي ؟ قال له: عندنا أم عندكم ؟ قال: ما عندنا وما عندكم ؟ قال: عندكم واحد في الأربعين، أما عندنا فالعبد وماله لسيده، فأنت مخير بين أن تكون من المقتصدين، وبين أن تكون من السابقين، لكن إياك أن تكون من الظالمين.

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(10)أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

موازنة بين الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات:

فحينما تصلي الصلوات المفروضة، وحينما تحرص على صلواتك، وحينما تصلي صلوات النفل، وتنفق زكاة مالك، وفوق الزكاة صدقة، وحينما تتعلم ما كان فرض عينٍ، وما كان فرض كفاية، وحينما تعمل آناء الليل وأطراف النهار بما يرضي الله عز وجل، فأنت من السابقين، وأنا أعجب ممَن يطمح لنيل الدنيا ولا يطمح لغطاءات الآخرة، ممن يزهد في الآخرة، أو يرضى فيها بأدنى المراتب، ولا يرضى في الدنيا إلا بأعلى المراتب، من هو الزاهد ؟ هو الذي زهد في الدنيا ويؤثر الآخرة.

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)

هذا أدى الصلوات الخمس، وغض بصره عن الحرام، وتحرّى الحلال في دخله، ثم أعطى نفسه المباحات، لا أقول: المحرمات، بل المباحات، فهذا الذي فعل من الدين الحدود الدنيا لم يفعل إلا الفرائض والأوامر، وترك المنهيات وأطلق نفسه للمباحات، هذا مقتصد، وأما الذي وقع في الحرام، وترك الأمر والنهي فهذا ظالم، أما الذي فعل الأوامر وترك النواهي، وفعل النوافل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ...))

[صحيح البخاري]

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)

الله أعطى التعليمات والمنهج الذي عليه يقوم فلاح العبد وسعادته، هدانا وانتهى الأمر، هدانا لهذا الكتاب، هذه التعليمات والتوجيهات، وافعل ولا تفعل، والحرام والحلال والمباح، والخير والشر، والسعادة والشقاء، وطريق الإيمان والتفكر كله في هذا الكتاب، هذه هداية الله عز وجل.

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)

بإهماله، وهذا الكتاب بين يدينا، إن أحببت أن تقرأه، وتطبقه هنيئاً لك، وإن أحببت أن تهمله ليس لديك وقت، فقط وقتك لقراءة الجرائد كل يوم وتسمع أخباراً فقط وأحاديث فارغة، لا يهمك إن ظلمت نفسك بعدم اتباع الكتاب، أقول: أن يطّلع الإنسان على ما يجري من أحداث يومية فلا يأمن بأس عليه، لكن على ألا ينسى كلام الله عز وجل، إذا ترك القرآن نهائياً فقد ظلم نفسه، يجب أن تفقه ما حولك، هذا

شيء واجب، لكن أن يشغلك عن ذكر الله، أن يشغلك عن كلام الله عز وجل وتلاوة القرآن، هذا ظلم كبير للنفس.

(وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)

يؤدي مما عليه الحدود الدنيا فقط، الخطبة فقط يحضرها، أما الدروس فلا يحضرها، هذه فرض، وهذا مقتصد، أما السابق بالخيرات فيريد مزيداً من العلم، يريد أن يتعلم كلام الله، والحديث الشريف والسيرة المطهرة، أمر الله عز وجل به ونهى عنه، يريد أن يصبح داعية ويهدي الناس، فهو طموح.

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

هذا التفوق والفوز والنجاح والفلاح، هذه السعادة وهذا الذكاء، فاختار أن يكون سابقاً بالخيرات، فالإنسان لا يكون في الدنيا سباقاً وفي الآخرة زاهداً ليعكس الآية، ليكن في الدنيا قنوعاً وفي الآخرة سباقاً، وليكن طموحاً إلى مراتب عليا عند الله عز وجل.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(54)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ

كلمة (هو) تفيد القصر، هذا وحده هو الفضل، لا زهرة الحياة الدنيا، فالإنسان أحياناً يرى بيتاً فخماً يسيل لعابه، ويظن هذا البيت فضلاً كبيراً منحه الله لصاحبه، يرى سيارة فارهة يظنها فضلاً كبيراً، يرى منصباً رفيعاً يظنه فضلاً كبيراً، يرى فلاناً اقترن بزوجة من مستوى رفيع يظن ذلك فضلاً كبيراً، يرى فلاناً عنده بساتين ومزارع وأموال منقولة وغير منقولة، يظن ذلك فضلاً كبيراً، لكن الله عز وجل يخبرنا أن الفضل الكبير أن تكون سابقاً في الخيرات، أن يكون باعك بالخيرات كبير، الغنى غنى العمل الصالح.

ما هو الفضل الكبير ؟ ثمنه هذا السبق في الخيرات، ثمرته:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

أوصاف الجنة ليس لنا أن نزيد فيها، الله أعلم ما نوع الذهب، وما نوع اللؤلؤ، وما نوع الحرير الذي يلبسه أهل الجنة، لكن الأصل في أن الأوصاف الغيبية أن نكتفي بنصها دون أن نزيد عليها، لأن أية زيادة على الإخباريات زيادة ظنية ليست راجحة، بل مرجوحة.

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

1 ـ الحياة كلها أحزان:

الدنيا كلها أحزان، لا أعتقد أن هناك إنسانا إلا والحزن معه دائماً، يكون المرء طفلاً صغيراً فيدخل المدرسة، أمامه عقوبة إذا لم يكتب الوظيفة، أو لأنه تأخر، من مرحلة لأخرى، كل مرحلة فيها متاعب، كان طفلاً بالابتدائي، ثم بالإعدادي، وبالثانوي، ثم دخل الجامعة، ومن بعد تزوج وجاءه أولاد، كبر سناً فواجهته متاعب صحيَّة، الحياة كلها أحزان، من عرفها لم يفرح برخاء، ولم يحزن لشقاء، أجمل كلمة:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

إذاً: الدنيا كلها حزن وقلق ومتاعب وهموم، هكذا شاء الله أن تكون، ركبها على ذلك كي نتوق إلى الله عز وجل.

عن قتادة بن النعمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أنزل الله جبريل في أحسن ما كان يأتيني في صورة فقال: إن الله تعالى يقرئك السلام يا محمد، ويقول لك: إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرري، وتكدري، وتضيقي، وتشددي على أوليائي كي يحبوا لقائي...))

[البيهقي في شعب الإيمان تصحيح السيوطي: ضعيف]

لكن ليس في الآخرة قلق، أما في الدنيا إذا كبر الرجل يحزن، فإن شاب شعره اعتراه همٌ، فإن ضعف بصره يتألم، وإن ضعف جسمه يتألم، الزمن ليس في صالح الإنسان في الدنيا، الزمن يسير نحو الأضعف والنهاية، إذاً: الحياة مركبة على الحزن، لكن الآخرة ليس فيها حزن.

الإنسان انتقل من دار إلى دار فقال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

معنى ذلك أن الدار الأولى كلها حزن، كأن الدنيا مركبة على الحزن أساسها الهموم، واكبر حزن فيها تركها ومفارقتها، وإذا تعلق الإنسان بالدنيا تعلقاً شديداً، ولم يعمل للآخرة تقطع قلبه حسراتٍ على فراقها حينما يشعر بدنو أجله يعتريه حزن لا يوصف، هذه الدنيا دار عمل، وليست دار أمل، ممر وليست مقراً، دار تكليف لا دار تشريف، فأساسها أن من عرفها، وعرف حقيقتها جعلها دار ممر فحسب، ومن لم يعرفها جعلها دار مقر، فإذا نزعت منه ذابت نفسه حسراتٍ، فالانتقال من دار لدار لابدّ أن يكون على بصيرة.

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَذْهَبَ عَنّا الْحَزَنَ)

الحزن إذا وصف للدار الأولى (الدنيا)، فمن أجل ألا تكون دار حزن فلنجعلها دار عمل، لنجعل التعلق في الآخرة، لنجعل محط الرحال في الآخرة، لنجعل الدنيا كلها مسخرة للآخرة، إذا جعلت الدنيا مزرعة الآخرة ومطية الآخرة، وجعلت كل ما فيها في خدمة الآخرة فقد فزت واللهِ، ماذا قال الله عز وجل ؟

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: 77)

كل شيء آتاك الله في الدنيا من صحة وشباب، ومال وجاه وعلم، وخبرة ووقت، وعضلات اجعلها في سبيل الله، عندئذٍ لا تكون الدنيا دار حزن على بل العكس.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (09-10): تفسيرالآيات 34 - 40
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-06-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى أول الآية الرابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

(سورة فاطر)

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ

1 ـ من نِعم الله الشدائد الحاملة على طاعته:

هؤلاء الذين قالوا: هم أهل الجنة، حينما دخلوا الجنة قالوا: الحمد لله، يعني أن كل شيء ساقه الله لهم في الدنيا إذا أوصلهم إلى الجنة فملخص العلاقة بينهم وبين الله في الدنيا والآخرة أن الحمد لله، وأهل الجنة يمتلئ قلبهم امتناناً وشكراً لله عز وجل، فإذا ساق الله للإنسان في الدنيا بعض الشدائد ليعينه على نفسه، ليحمله على طاعته فهذه نعمة باطنة.

توضيحاً لهذا المعنى: لو أن مؤسسة أرادت أن تعين موظفاً فيمكن أن تجعل من شروط التعيين أنه لابد من ستة أشهر كمدة تدريبية اختبارية، ثم إن هذا الموظف التحق بعمله وتصرف، فمديره كلما رآه أخطأ سجلها عليه، فأخطاؤه تراكمت، فلما انتهت ستة الأشهر قال له: ليس لنا بك حاجة وصرفه.

هذا موقف فيه عدل كامل، امتحنه المدير، ورسب في الامتحان فصرفه، هناك موقف فيه رحمة، فحينما يخطئ هذا الموظف يأتيه التوجيه: افعل كذا، ولا تفعل كذا، يضغط عليه تارةً، يعنفه تارةً، يشدد عليه تارةً، إلى أن يستقيم عمله في هذه الشركة، فإذا مضت ستة أشهر صار مَرْضياً عند أصحابها، واستمر في العمل، فالموقف الثاني إذاً موقف رحمة.

ربنا سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى كان من الممكن بعد أن أعطانا عقلاً، وخلق كوناً، وفطرنا فطرةً، وأنزل كتاباً، وتركنا وشأننا فقد نغفل، وقد يجمح عقلنا، وقد تنطمس فطرتنا، وقد ننسى الآيات الدالة على عظمته، فإذا جاء ملك الموت كنا ـ صفر اليدين ـ واستحققنا دخول النار، لكن موقف الله جل وعلا هو التضييق، والتشديد، والتربية، والمعالجة، فإذا انتهت كل المعالجات وكل الشدائد، وكل المضايقات،

وكل الأهوال، إلى أن عرفنا الله، واستقمنا على أمره، وزكت نفوسنا وأصبحت أهلاً لدخول الجنة، عندئذٍ تنقلب كل هذه الشدائد إلى نعم باطنة.

الإنسان حينما يعالج، وحينما تنجح المعالجة، حينما يصاب بمرض، ويأتيه الطبيب، ويعطيه تعليمات قاسية، ويشدد عليه إلى أن يشفى من مرضه تماماً يمتلئ قلبه امتناناً لله عز وجل، إذاً: حال أهل الجنة كذلك المريض، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون في طريقهم.

النبي عليه الصلاة والسلام كان يسأل الله الجنة، وما قرّب إليها من قول أو عمل، ويعوذ به من النار وما قرب إليها من قول أو عمل.

إن أهل الجنة حينما يرون الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وحينما يرتاحون من عناء الدنيا، من القلق، من الخوف، من توقع المصائب من الكِبَر، من المرض، حينما يصلون إلى الجنة يقولون: الحمد لله، لكن هذه الكلمة لسان حالهم، نحن نستمع في الدنيا إلى آلاف الأشخاص، وهم يقولون: الحمد لله، قد تصبح هذه الكلمة جوفاء لا معنى لها، تقول له: كيف الصحة، يقول: الحمد لله، يقولها وهو ساهٍ لاهٍ، ولكن هذه الكلمة حينما يقولها أهل الجنة يقولونها بكل وجودهم، قال تعالى:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

2 ـ الدنيا أحزان بعضها فوق بعض:

وكأن الله جل في علاه لخص الدنيا كلها بأنها حزن في حزن، وما من مرحلة من مراحل الحياة إلا وفيها أحزان لا تنقضي، إن كان في التعليم، في الزواج، في تزويج البنات، في معاملة الأصهار، في العمل التجاري، والحياة هكذا جعلت، وهكذا صممت، فقد أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي وتمرري، وتكدري، وتضيقي على أولياء حتى يحبوا لقائي.

هذه الدنيا تلخص بالحزن، والآخرة تلخص بالسرور، فشتان بين من يؤثرها على الآخرة فيخيب ظنه، وشتان بين من يؤثر عليها الآخرة فيسعد في الدنيا والآخرة، تسعد بها متى ؟ إذا عرفتها، إذا عرفتها أنها مبنية على النقص، إذا عرفتها أنها مبنية على الحزن، إذا عرفت أنها مبنية على الابتلاء، إذا عرفتها أنها دار مرور، وليست دار مقر، إذا عرفتها أنها دار تكليف، وليست دار تشريف، إذا عرفتها أنها دار عمل وليست دار جزاء.

لذلك أجمل كلمة تقال في شرح هذه الآية خطبة النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الدنيا دار التواء ـ وسل أيّ إنسان شئت: هل تخلو حياة الإنسان من بعض المتاعب، من بعض النقص، من بعض الهم، من بعض الحزن ـ إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء))

[ورد في الأثر]

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(34))

3 ـ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ

غفور لما وقعنا فيه من ذنوب، وشكور لما فعلناه من صالحات، اثنان يغطيان كل أحوالك إذا زلت قدمك، فهو غفور، وإذا عملت صالحاً فهو شكور، إذا أخطأت فهو غفور، وإذا أحسنت فهو شكور، إذا منعت فهو غفور، وإذا أعطيت فهو شكور، إذا خرجت عن المنهج فهو غفور، وإذا التزمت المنهج فهو شكور، غفور شكور اسمان من أسماء الله الحسنى يغطيان كل أحوالك.

(إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(34))

ربنا ماذا ؟

(الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ)

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ

1 ـ الرعاية والحفظ والتأييد من فضل على المؤمن:

لولا أنه هدانا، لولا أنه ذكرنا، لولا أنه ربانا، لولا أنه جمعنا مع أهل الحق، لولا أنه ضيق علينا حينما غفلنا، لولا أنه عاقبنا حينما انحرفنا، لولا أنه سما بنفوسنا، لولا أنه أنار لنا الطريق، لولا أنه تولانا، كلكم يدعو في صلاة الفجر: اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت.

أيها الإخوة الأكارم، حينما يشعر المؤمن أن الله يتولاه بالرعاية، والحفظ، والتأييد، والمعالجة، فليطمئن قلبه، ولتطب نفسه، لأنه مطموع فيه، ومطلوب إليه أن يقبل على الله عز وجل، أما حينما يعصي الإنسان الله عز وجل، والله عز وجل لا يعاقبه فهو في حالة صعبة جداً، في حالة ميؤوس منها، لذلك إذا شعرت أن الله يتابعك وأن الله يدقق عليه، وأنك حينما زلت قدمك جاء العلاج، وحينما غفلت جاء

التذكير، وحينما قصرت جاءت بعض المصائب فهذه بادرةٌ طيبة جداً، لأنك مؤهل لأن تكون مؤمناً خالصاً.

(الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ)

2 ـ الدنيا دارٌ دنية، والآخرة دار المقامة الأبدية:

لقد سمح لنا أن ندخل هذه الدار، دار المقامة، الله عز وجل سمى الدنيا الحياة الدنيا، وقد نغفل أحياناً عن معاني الكلمات، حياة دنيا، والآخرة حياة عليا، دنيا في كل شيء، دنيا في مدتها، والإنسان حتى يستقر يحتاج إلى أربعين سنة، وهذا في أحسن الظروف حتى يتزوج، ويكون له بيت معقول، ودخل معقول، وسيلة نقل، مركز مرموق، ومعترك المنايا بين الستين والسبعين، معنى هذا أنه بقي له نصف المدة، نصف المدة إعداد، ونصف المدة قطف ثمار، ولا تخلو حياة الإنسان في النصف الثاني أو في الثلث الأخير من منغصات.

الله سماها حياة دنيا، حياة دنيا في مدتها، دنيا في متاعبها، لذلك قال سيدنا علي: **<< يا دنيا، طلقتك بالثلاث، غري غيري، يا دنيا، شأنك قليل، وأمدك قصير >>.**

(الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ)

الإنسان العاقل أيها الإخوة هو الذي ينقل اهتمامه وكل أهدافه إلى الدار الآخرة، لأنها دار المقامة، والدار الآخرة مهيأة لإسعادك، أما هذه الدنيا فمهيأة كي تعرف الله فيها، مهيأة للعمل صالح، مهيأة للاختبار، مهيأة للابتلاء، تبتلى بالفقر، تبتلي بالغنى، بالصحة، بالسقم، كل شيء في الدنيا فيه ابتلاء.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

إذاً: الدنيا كلها دار حزن، والآخرة كلها دار نعيم.

(إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(34)الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ)

3 ـ الجنة محض فضلٍ، والنار محض عدلٍ:

لذلك قال علماء التوحيد وعلماء العقيدة: الجنة محض فضل، بينما النار محض عدل، إذا دخل الإنسان النار فبعدل الله، وإذا دخل الجنة فبفضل الله، وعمله مفتاح للجنة، وليس ثمن الجنة، وشتان بين المفتاح و الثمن، كبيت يساوي ثلاثون مليونًا مفتاحه يساوي خمسا وعشرين ليرة، فإذا كان معك مفتاح البيت شيء، وإذا كنت قد دفعت الثمن فشيء آخر، فالجنة بفضل الله، والعمل الصالح مفتاح للجنة.

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ)

لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ

فلان أجرى فحصًا، وقال له الطبيب: قلبك متعب، الشرايين متعبة، وكذلك الكليتان متعبتان، الأعصاب متعبة، فيها توتر عصبي، دائماً الإنسان متعب، كلما التقى بطبيب يقول له: هذا الجهاز، هذا النسيج، هذا العضو يشكو من قصور، من تعب، حتى لو أن الإنسان كان في أعلى درجات الصحة فهناك أمراض الشيخوخة سببها تقدم السن فقط، يصبح لديه تصلبٌ في الشرايين.

إذاً، في الآخرة لا نصب، وليس من الممكن أن يكون هناك نصب إطلاقاً.

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ)

1 ـ معنى المسّ:

إذا وضع الإنسان يده في النار شيء، وإذا مس بإصبعه مكواةً شيءٌ آخر، هذا مس بأقل زمن ممكن، وأقل مساحة ممكنة، والإنسان أحياناً يحب أن يجرّب المكواة، يا ترى التيار يعمل فيها ؟ يضع إصبعه بعد أن يبله بلعابه بأقل مدة ممكنة، وأقل مساحة ممكنة، هذا المس، حتى على مستوى المس لا يوجد نصب، لم يقل لا يصيبنا فيها نصب، بل قال:

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(35))

2 ـ ولا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ

واللغوب هو الإعياء، والإعياء أعلى درجات التعب، أحياناً يضع الإنسان على يده ثقلاً، ويرفعه زمناً، وبعد حين يشعر بتعب، ولكن بعد حين أطول يشعر بالإعياء، ولا يستطيع أن يتابع، وإنسان يركض، بعد حين يشعر بالتعب، لكن بعد حين أكثر يقف، ويقول: لا أستطيع، كلمة (لا أستطيع) يعني أصابه الإعياء، ربنا عز وجل نفى الإعياء، وهو شدة التعب، ونفى النصب، فأيّ نوع من أنواع التعب ليس وارداً في الجنة، وكلمة (نصب) جاءت نكرة.

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ)

يعني أدنى حالات النصب غير موجودة، أدنى حالات التعب غير موجودة، وأشد حالات التعب غير موجودة.

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(35))

هذه هي الجنة، أيستغنى عنها ؟ أنسعى إلى الدنيا، ونغفل عن الجنة ؟ أنسعى إلى دنيا قصيرة مشحونة بالمتاعب والهموم، ولا تستقيم على حال فيها ؟ وهي دار التواء لا تصفو لإنسان، ونترك الجنة التي أعدها الله للمؤمنين، وطريق الجنة ميسور، وطريق النار موجود مبذول.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا)

هذه صورة مشرقة من مشاهد أهل الجنة، أناس متنعمون في جنة وارفة الظلال، تجري من تحتها النهار، الأشجار قطوفها دانية، العسل مصفى، اللبن لم يتغير طعمه، في تجلٍ من الله عز وجل، مع كل هذا النعيم رضوان من الله عز وجل أكبر من كل نعيم، هذه حال أهل الجنة، وقد ورد في بعض الأثر أن المؤمن حينما يطلع على مقامه في الجنة يصيح صيحةً يقول: لم أرَ شراً قط.

كل المتاعب التي ساقها الله له في الدنيا ينساها، الطالب أحياناً حينما ينجح بتفوق ينسى كل المتاعب، عام دراسي أمضاه في غرفة قمئة، وقد قطع علاقته بالناس، وبذل جهداً جهيداً، حينما يقرأ اسمه في الجريدة، وقد تفوق في المجموع ينسى كل التعب، وحينما يرى الكافر مكانه في النار يقول: لم أر خيراً قط، كل العز المادي الذي ناله في الدنيا ينساه، وكل الطيبات التي استمتع بها ينساها، وكل اللذات، وكل الموبقات التي غرق بها ينساها، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(35))

وَالَّذِينَ كَفَرُوا

الآن إليك مشهداً آخر من مشاهد أهل النار، الصورة المقابلة، وربنا عز وجل يريدنا أن نتجه إليه رغباً ورهباً، أحوال أهل الجنة ترغبنا في الجنة، وأحوال أهل النار تخوفنا منها، والإنسان أحياناً ينطلق إلى الله عز وجل حينما يجتمع في قلبه رجاء وخوف، الرجاء وحده يدعو إلى التقصير، والخوف وحده يدعو إلى اليأس، فلابد من أن يمتلئ قلب المؤمن بالخوف تارةً، وبالرجاء تارةً أخرى، وقد يدل على ذلك الحديث الذي ورد في الأحاديث القدسية:

((قال، يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحبّ عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[ورد في الأثر]

فالآلاء من أجْل التعظيم، والنعماء من أجل الحب، والبلاء من أجل الخوف، فلابد من أن يكون في قلب المؤمن قدر أدنى من التعظيم ومن الخوف، ومن الحب، فربنا عز وجل ذكر صورتين: الصورة الأولى مشرقة تصف أهل الجنة، قال تعالى:

(ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(32)جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(33)وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَذْهَبَ عَنّا الْحَزَنَ إِنّ رَبّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

(سورة فاطر)

أما أهل النار فجاء وصفهم في الصورة الثانية، فنعوذ بالله من أهل النار، قال تعالى:

(وَالّذِينَ كَفَرُوا)

1 ـ معنى الكفر ودلالتُه:

معنى الذين كفروا أي كذبوا بالحق، ومعنى كفروا أي أعرضوا عن الله، الكفر له صفة عقلية وصفة نفسية، بعقله كذب الحق، يكفي أن يقول هذا القرآن لا يصلح لهذا الزمان هذه كلمة الكفر، أحد ممن كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم سمعه ابن زوجته يقول: والله لو أن محمداً صادق فيما يقول لكنا شراً من الحمر. ربنا عز وجل قال:

(وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

(سورة التوبة)

هذه كلمة الكفر، فإذا كذبت النبي عليه الصلاة والسلام، إذا كذبت هذا القرآن فهذا كفر.

الحقيقة هناك موقف دقيق جداً، آية قرآنية تضمّنت حكماً قرآنياً، فلو أنك قرأت قوله تعالى مثلاً:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية 30)

هذا كلام الله، فلابدّ أن تأخذ، وتعمل به، فحينما لا تغض البصر ما موقفك ؟ هل أنت على صواب ؟ إن كنت على صواب كأنك تقول: القرآن ليس واقعياً، وإذا كنت تعصي الله عز وجل فكيف تستقيم نفسك ؟ كيف تتوازن مع ربك إذا كان هذا أمره، وأنت تخالف أمره ؟ فالإنسان ينبغي أن يأخذ موقفاً واضحاً إذا ثبت له أن هذا كلام الله، وأن هذا حكم الله، وأن هذا أمر الله، وأن هذا نهي الله عز وجل فكيف تسعه الدنيا إذا عصى أمر الله عز وجل ؟

(وَالّذِينَ كَفَرُوا)

1 ـ الكفر لكليّ والكفر الجزئيّ:

كذبوا وأعرضوا، كذبوا بالحق، كذبوا بالدين، كذبوا بالقرآن، كذبوا بنبوة النبي، وهناك تكذيب كلي وتكذيب جزئي، فحينما لا تعتقد أن الربا محرم، وتقول: هذا ليس ربا، بل هذا معونة مثلاً، حينما لا

تعتقد أن الربا محرم فهذا كفر جزئي لبعض أحكام القرآن، وكذلك حينما لا تعتقد أن هذه الفريضة واجبة وقد قال الله عز وجل:

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)

(سورة آل عمران: من الآية 97)

فهذا كفر جزئي بهذا الفرض، فالكفر كلي أو جزئي، فحينما تكذب هذا الدين كله، أو حينما تكذب القرآن كله فهذا كفر كلي، وحينما لا تعتقد أن بعض أحكامه القرآن صحيحة، أو معقولة، أو مناسبة، فهذا كفر جزئي.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا)

لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا

حالة صعبة جداً، لا هم موتى ولا هم أحياء، قال تعالى:

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

(سورة طه)

(لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(36))

الموت مريح، والحياة الناعمة مريحة، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياةً ناعمةً، يحيا حياةً متعبةً يذوق فيها ألوان الحريق:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(36))

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا)

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا

كلهم يصيح، هذا يقذف بالتهمة إلى فلان ؛ لولا أنت لما كنت في هذا المكان، وهذا يتأوه، وهذا يتألم، وهم يصرخون، إنها صورة معبرة، يَصْطَرِخُونَ، أما المؤمنون فعلى سرر متقابلين، مدعوون إلى حفلة راقية، ويجلسون على أرائك مريحة، ويتبادلون أطراف الحديث بصوت معتدل، وبعبارات لطيفة، وأهل النار يتصايحون.

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

راقب عملك، فإن العمل السيئ سببُ دخول النار:

إذاً: بشكل ملخص ومكثف: سبب دخولهم النار عملهم السيئ، ونحن نستفيد من هذه الآية في الدنيا، عملك ما نوعه ؟ هل عندك إساءة بعملك ؟ هل عندك خروج عن منهج الله عز وجل ؟ هل كنت سبباً لإيذاء الخلق ؟ هل تبني غناك على فقر الناس ؟ هل تبني عزك على إذلالهم ؟ هل تبني مجدك على أنقاضهم ؟ هل تبني أمنك على خوفهم ؟ هل تبني حياتك على موتهم ؟ هل لك عمل طيب ؟ هل أساس حركتك في الحياة أخذ أم عطاء ؟

أهل الدنيا تركيبة حياتهم قائمة على الأخذ، يأخذون كل شيء، يأخذون أموال الناس، يأخذون خدمات الناس، يأخذون جهود الناس، يأخذون العز من إذلال الناس، هؤلاء أهل الدنيا، بينما أهل الآخرة يعطون الناس، يعطون من العلم، من المال، من الخدمات ما يسعدهم في دنياهم وأخراهم.

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)

يا أيها الإخوان، كل إنسان له عمل طبعاً، له حركة في الحياة، له حرفة، فهل فيها غش وفيها كذب، وتدليس، وابتزاز لأموال الآخرين ؟ وهل فيها سيطرة، فيها احتكار، وتحكم، واستغلال ؟ لك وظيفة، فهذه الوظيفة هل تستخدمها في ابتزاز أموال الناس أم في خدمة الناس ؟ كل إنسان له حرفة، هل تنصح المسلمين أم تغشهم ؟ هل تصدقهم أم تكذبهم ؟ هل تنفعهم أم تضرهم ؟ هل تأخذ أموالهم حلالاً أم تبتز أموالهم ؟ عملك شيء أساسي، وكل إنسان له عمل، فليفحص عمله، وليختبر تصرفاته.

علاقتك في البيت، هل أنت محسن أم مسيء ؟ علاقتك مع جيرانك، علاقتك مع من فوقك، مع من دونك، مع من حولك.

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)

إذاً: لم يكونوا يعملون الصالحات، كانوا يعملون السيئات، إذاً: علامة المؤمن أنه يعمل الصالحات في كل مناحي حياته.

يأتي الجواب، جواب رب العزة:

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)

أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ

1 ـ أما نظرت حولك في سنوات عمرك كلها !؟

عشت ستين سنة، ستين صيفاً، ستين خريفاً، ستين ربيعاً، ستين شتاءً، أنجبت الأولاد، وهذا درس بليغ لك، هكذا كنت من ماء مهين، من حوين، وهذا الطفل الذي أمامك من خلق الله عز وجل، هذا درس يعرّفك حقيقتك، فطعامك آية، أولادك آية، شرابك آية، ماء المطر آية، السحاب آية، التضاريس التي حولك آية، الأطيار آية، الأسماك آية، الأنعام آية النباتات آية، الفواكه آية، الخضراوات آية.

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ)

بث في الأرض آيات للموقنين، الكون كله ينطق بعظمة الله، ينطق بتوحيد الله، ينطق بوجود الله، ينطق بكمال الله، في كل شيء له آية تدل على أنه واحد، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، تجسيد لصفاته الفضلى سخر لك الكون، أعطاك العقل، أعطاك الفطرة، أعطاك الكتاب، أعطاك الأنبياء والمرسلين، عن كل هذا غفلت، إنها قاصمة الظهر.

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)

2 ـ لقد كان العمر كافيًا للتذكُّر والتفكّر:

يعني عمّرناكم عمراً كافياً كي تتذكّر، القرآن الكريم نذير، اقرأ القرآن فهي تعليمات الصانع، توجيهات الصانع، افعل ولا تفعل، إنه منهج قويم، وصراط مستقيم، وحبل الله المتين، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، يهدي للتي هي أقوم، يهدي إلى صراط مستقيم، نور مبين، هكذا القرآن بين أيدينا، نقرؤه آناء الليل وأطراف النهار، أقرأ ما فيه، تدبر ما فيه، مسكين هذا الذي يقرؤه ولا يتدبر ما فيه.

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ

أحياناً ترى طالباً طول العام الدراسي نائماً يلهو ويلعب، يدخل إلى قاعة الامتحان يصفِن واجماً، يُقرع الجرس، وحين سحب الورقة من بين يديه يقول: دقيقة أستاذ، طول العام الدراسي نائم وثلاث ساعات

يصفن ساهياً، وعند انتهاء وقت الامتحان يطلب دقيقتين أو ثلاثاً، وحين تشد الورقة منه تتمزق، هذا كلام فارغ، إذاً: هذا قائم على استهتار وعبث..

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

ما هو النذير ؟

1 - القرآن:

أيها الإخوة الأكارم... أولاً القرآن هو النذير، اقرأه بشكل جدي، اقرأه مع تدبر، اقرأه على أنه تعليمات خالق الكون، اقرأه على أنه كتاب خطير جداً، فيه تحديد لمسارات الحياة، فالقرآن نذير.

2 - النبيُّ:

والنبي عليه الصلاة والسلام بأحاديثه النبوية الشريفة هو النذير.

ذكرت في الخطبة اليوم حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي، أحمد]

الإنسان يعيش يا ترى إلى ما شاء الله ؟ نستيقظ، ونعمل، وننام، ثم هناك مفاجأة، بعد سنة أو أقل أو أكثر، بل هناك مفاجآت، وسوف ينتهي الأجل، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((... بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا...))

فقر ينسينا كل شيء، أو غنىً مطغياً، كما حصل لثعلبة الذي عاهد الله، قال تعالى:

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة التوبة)

فالغنى مطغٍ، والفقر منسٍ، والمرض مفسد، والهرم مفند، وعند سن الشيخوخة يرد الإنسان إلى أرذل العمر، فيضعف تفكيره، ويغيب عن وعيه.

حدثني صديق له أم توضع في مكان جلوسها وتربط، قلت له: لماذا ؟ قال: لكيلا تأكل من نجسها، ضعف تفكيرها، وانتهى أمرها إلى أرذل العمر.

((بَادِرُوا بالأعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أوْ هَرَمًا مُفْنِدًا ؟ أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ ؟ فالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

فالنبي نذير بلغنا، فعَنْ أبي أُمَامَةَ قَالَ:

((اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمًا فَقِيلَ: لَهُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، مَا أضْحَكَكَ ؟ قَالَ: قَوْمٌ يُسَاقُونَ إلى الْجَنّةِ مُقَرّنِينَ فِي السّلاسِلِ))

[أحمد]

أقرأ الأحاديث كما ينبغي أن تقرأ كلام الله قراءةً جادة فيها تدبر، تعقل، فيها فهم، فيها دقة، فيها عمق، كذلك ينبغي أن تقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو النذير أيضاً، كتاب الله هو النذير، والنبي هو النذير.

(وَجَاءَكُمْ النّذِيرُ)

2 - سن الأربعين:

كذلك قالوا: النذير سن الأربعين، قال تعالى:

(حَتّى إذَا بَلَغَ أَشُدّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

(سورة الأحقاف)

في الشباب طيش، وجهل، واندفاع، ومراهقة، أما إذا بلغ الأربعين توازن، فكل تقصير ربما يعزى إلى المراهقة، إلى السن الصغيرة، أو إلى الطيش، أو إلى الاندفاع، أما إذا بلغ أربعين عاماً فقال تعالى:

(حَتّى إذَا بَلَغَ أَشُدّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

(سورة الأحقاف)

الأربعون أيضاً نذير، يعد عذرا، قد أعذر من أنذر، وسن الأربعين نوع من النذير في كتاب الله، وهناك عمر أشد، أشد حساباً، وهو الستون.

2 - سن الستّين:

ومن بلغ الستين أيعصي الله عز وجل في الستين ؟ أو يجلس في المقاهي ويلعب النرد ؟ وفي الستين يملأ عينيه من الحرام ؟ وفي الستين أيغتاب الناس ؟ هو على وشك أن يغادر الدنيا وهو متلبس بمعصية الله عز وجل، لذلك قال الله عز وجل في بعض الأحاديث القدسية:

((أبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد))

[ورد في الأثر]

في الستين وهو سهرة مختلطة، في الستين وتستمتع بامرأة لا تحل لك أعوذ بالله.

(وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

فصار القرآن هو النذير، والنبي هو النذير، وسن الأربعين هو النذير، وسن الستين هو النذير.

3 ـ المرض:

وقالوا: الحمّى هي النذير، المرض هو لفت نظر، الله عز وجل من رحمته التامة أنه يرسل المرض أحياناً فيوهم صاحبه بأنه دنا أجله لعله يتوب.

حدثني شخص عن رجل كان يقود سيارته في أحد شوارع دمشق، وهو يقود سيارته وزوجته إلى جانبه، فجاءته أزمة قلبية، ومن غرائب الصدف أن أحد أصدقائه كان إلى جانب السيارة، فنزل ووضعه في المقعد الخلفي، وقاد السيارة إلى أحد المستشفيات، بعد أن صحا قليلاً قال: ائتوني بآلة تسجيل، وقال بالحرف الواحد: المحل الفلاني ليس لي، بل لإخوتي فلان وفلان، وقد أخذته منهم اغتصاباً، والأرض الفلانية لفلان، وبدأ يعترف بالأموال التي ليست له، وكان قد اغتصبها، لكن بعد أسبوع شعر أن هذه الأزمة انحسرت كلياً فقال: أين الشريط ؟ أعطوه إياه فكسره، وعاد إلى سيرته الأولى، وبعد ثمانية أشهر جاءته أزمة أخرى فأودت به.

إذاً: حكمة الله جل في علاه شاءت أن أرسل له الأولى !! الأولى نذير، فإذا كان الإنسان تاركًا الصلاة، آكلا المال الحرام، مغتصبا أموال الآخرين فهو في ظلمات، فيأتي المرض نذيراً، أن انتبه يا عبدي، المغادرة أصبحت وشيكة، يجب أن نعلم علم اليقين أن بعض الأمراض تعد نذيراً من الله عز وجل. فصار القرآن نذيراً، والنبي نذيراً، والأربعون نذيراً، والستون نذيراً.

4 ـ الشيب:

والشيب نذير، فما حكمة الله في شيب الشعر ؟ طريقة لطيفة جداً، إشعار لطيف جداً من قِبل المولى جل وعلا أن يا عبدي قد اقترب اللقاء، فهل أنت مستعد ؟ أحياناً في بعض القرى الكهرباء ليست مستمرة في الليل، فالساعة الثانية عشرة ينقطع تيار الكهرباء، فقبل عشر دقائق تطفأ ثانية واحدة، يعني استعدوا، هيئوا أغراضكم، توجهوا إلى السرر، فهذا الإطفاء المؤقت لثوان معدودة قبل الإطفاء النهائي نذير، إنذار مبكر، فربنا عز وجل لرحمته بعباده جعل كل هذه الإنذارات، فالشيب إنذار، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((أن عبدي، كبرت سنك، وضعف بصرك، وانحنى ظهرك، وشاب شعرك، فاستحي مني فأنا أستحي منك))

هذا يضع نظاراته، هذا ظهره منحنٍ، هذا سمعه ضعيف يحتاج إلى مقوٍ للسمع، هذا معه ديسك في فقراته، هذه كلها نذرٌ من الله عز وجل أنّ اللقاء اقترب يا عبدي، فإذا أعطى الله الإنسان صحةً تامة فما شكا شيئاً طوال حياته، ثم جاء الموت فمات فجأةً فليس هذا في صالحه.

أيها الإخوة، ليس هذا في صالحه أبداً، لعل المرض يحمله على التوبة، لعل هذه المشكلة تدفعه إلى الطاعة، لعل هذا يمنعه عن فعل الإساءات، لعل هذا يحجزه عن اقتراف الموبقات.

5 ـ موت الأقارب:

وقال بعض العلماء: وموت الأقارب هو النذير.

الله عز وجل كان بإمكانه أن نأتي إلى الدنيا دفعةً واحدة، وأن نغادرها دفعة واحدة، ولكن شاءت حكمة الله أن نأتيها تباعاً، وأن نغادرها تباعاً، ففلان توفاه الله كان بيننا، الأقرباء البارحة كنا معاً، منذ أسبوع كنا معاً في نزهة ثم جاء أجله:

ما بين غمضة عين وانتباهتها يبدل الله من حال إلى حال

***

يكون الإنسان ملء السمع والبصر، معروف، وله مكانته، فجأةً صار خبراً على الجدران، الله تعالى قال:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

كان إنساناً مخيفاً له تصرفاته، وله هيبته، والناس يرهبون جانبه، ويحسبون له حساباً.

أحد السلاطين أمر شيخ النجارين أن يأتيه بمائة كيس نشارة، وإن لم يأته بها فلابد من أن ينهي حياته، فهذا أيقن أنه ميت، فكتب وصيته، طرق بابه صباحاً، وقيل له: مات السلطان.

أحياناً الإنسان فجأةً يصبح خبراً، يكون شخصاً مليئاً قوياً، غنياً، شديداً، عتيداً، فالمصائب هي النذير، وموت الأقارب هو النذير.

إذاً: النذير هو القرآن، والنبي، والأربعين، والستون، والشيب، المصائب، حتى الحمى، والأمراض، وموت الأقارب، هذه كلها نذر. (والنذر جمع نذير).

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37)إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38))

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

1 ـ علاقتك مع الله:

لتعلم أن علاقتك مع الله، والمشكلة أنك مكشوف عنده، كل ما في خاطرك، كل ما يدور في خلدك، كل الصراعات في نفسك، كل طموحاتك، كل نواياك مكشوفة عند الله عز وجل، فالإنسان ينبغي أن يستحي من الله.

قال سبحانه في الحديث القدسي: " طهرت منظر الخلق سنين، أفلا طهرت منظري ساعة ؟ " ما منظر الله عز وجل ؟ القلب، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

2 ـ هنيئاً لمن كان قلبه سليماً:

هنيئاً لمن كان قلبه سليماً، ليس فيه غش، ولا حسد، ولا حقد، ولا انحراف، ولا كبر، ولا استعلاء، قلب سليم، النبي عليه الصلاة والسلام قال: يدخل عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فجاء أحد الصحابة، ثم إن صحابياً جليلاً أراد أن يقتدي به، فافتعل مشكلة مع أهله، وقال: أريد أن يبيت عندك ثلاثة أيام، فرحب به، هذا رآه يصلي الصلوات المفروضة فقط، ما رأى في عبادته شيئاً يزيد على الحد الأدنى، فقال له: أنا والله أردت أن أقيم معك في البيت لأرى عباداتك فما رأيتها تزيد على عباداتي، فملخص القصة أنه قال له: فو الله ما يكون في قلبي غل على أحد، فكانت سلامة قلبه سبباً لدخول الجنة، كما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

هذا هو القلب السليم.

كان لرجل خصوم، ينهشون عرضه، ويتحدثون عنه، فقال له أحدهم: **" إني أشفق عليك مما يقوله الناس عنك، فقال هذا العالم: أو سمعتني أقول عنهم شيئاً ؟ قال: لا فقال: عليهم فأشفق ".**

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

سبب دخول الجنة هو هذا القلب السليم.

(فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37)إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38))

3 - إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

شعور الإنسان بأن الله يعلم فهذا شيءٌ مريح، وقد يكون تعاملك مع إنسان أمراً صعباً، قد تكون بريئاً، ويتهمك بشيء، أنت بريء منه، تحلف له الأيمان، تقدم له الأدلة، فيقول: انتهى الأمر، واعتقد هذا الاعتقاد، لكنك مع الله الأمر سهل جداً، يعلم السر وأخفى، لا تحتاج لا إلى حلف يمين، ولا إلى إبراز وثيقة، ولا إلى إشارة، ولا إلى عبارة، يعلم ما أنت عليه، وإذا علمت أن الله يعلم حلت كل المشكلات، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ

ثم يقول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ)

وهذه الآية دقيقة جداً.

مرة قرأت كتاب قصص العرب، هو كتاب ممتع، فيه حديث عن قصص وقعت في العصور الإسلامية المختلفة، وبعد أن انتهيت منه شعرت أن الأقوياء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والعلماء ماتوا، والجهال ماتوا، والأغنياء ماتوا، والفقراء ماتوا، والأذكياء ماتوا، والحمقى ماتوا، وأن هذه الحياة لا تدوم لأحد، وأنه بعد حين سنصبح خبراً من الأخبار، كلمة:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ)

سوق الحميدية مثلاً، الآن فيه طقمٌ من أصحاب المحلات، قبل خمسين سنة كان هناك طقم آخر، وقبل مائة سنة كان هناك طقم ثالث، وبعد خمسين قادمة سيكون طقمٌ رابع، هذه البيوت، هذا البيت فلان عمّره، وزينه، أسسه، ثم مات، البيت كبير، له أبناء عدة، باعوه، واشتراه رجل آخر بدل وغيّر، أقام حائطاً، نزع حائطاً، أنشأ شرفة، أيضاً كبرت سنة، ومات، وبيع البيت بعد وفاته، واشتراه جاء رجل ثالث، هذه البيوت يأتيها الناس تباعاً، المحلات يأتيها الناس تباعاً، المزارع يأتيها الناس تباعاً، هذه البلاد كان فيها الرومان، كان فيها الآشوريون، الكلدانيون، الكنعانيون، أقوام سحيقة سكنت هذه البلاد، وعاشت فيها، واستعلت، ثم جاءها أقوام، وأقوام، وأقوام.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ)

على مستوى بلاد، على مستوى بيوت، على مستوى محلات، على مستوى مزارع، على مستوى بساتين، بعد هذا الأقوياء يتناوبون، فلان قوي انهار فجأةً ظهر مكانه رجل آخر، هكذا، حتى الأعمال فلان يشغل هذا المنصب، أحياناً تقرأ ببعض الكتب أن هذا المنصب تولاه أحد عشر مديراً على الترتيب التالي، أكثرهم في عداد الموتى، آخر مدير حي، وهكذا، فالمناصب، والمزارع، والبيوت، والمحلات، والبلاد، والعباد كلهم في تبدل، مادام في الحياة تبدل، أي كلنا إلى زوال، هذا المسجد، وهؤلاء جميعاً، وأنا معكم بعد مائة عام في الأعم الأغلب لن يبقى أحد منا حياً، والله أعلم، يلينا طقم ثانٍ، وقبل مائة عام ما كان أحد منا مولوداً، هذه المائة من باب الاحتياط فأخذنا أعلى رقم، قبل مائة عام لم يكن أحد منا موجوداً، وبعد مائة عام لا أحد منا في عداد الأحياء، وهكذا.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)

فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ

في القرآن دقائق ورقائق، قال:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة)

المهتدي فوق الهدى، الهدى يرفعه، الهدى يعزه، الهدى يعلي قدره، الهدى يجعله علماً، الهدى يجعله نجماً متألقاً، أولئك على هدى من ربهم، أما من كفر فعليه كفره، صخرة تسحقه، الكفر فوقه، أما المؤمن فهو فوق الهدى، والهدى يرفعه، لكن الكافر فالكفر يسحقه.

(فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا)

وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا

1 ـ المقت:

المعنى: المقت أشد أنواع الكراهية، إذا اجتمع مؤمن في مجلس مع رجل كذاب، وكلما تنفس نفساً يكذب معه كذبة، هل لك أن تسهر معه سهرة، أو أن تخرج معه نزهة، أعوذ بالله، هو رجل قذر، أو بذيء اللسان، أو هو رجل مزاحه رخيص، المؤمن رقيّ النفسي يجعله إيمانه يترفع عن هذه المستويات، هذا هو المقت، انظر، فالمستقيم يكره المنحرف، والأمين يكره الخائن، والصادق يكره الكاذب، والنظيف يكره القذر، هذا هو المقت.

ربنا عز وجل كامل كمالاً مطلقاً، فإذا رأى عبداً يكذب، عبداً منحط الأخلاق، عبداً خائناً، لئيماً،، غداراً مثلاً، منتقماً، حريصاً، بخيلاً، جشعاً، فالله عز وجل يمقته، والمقت أشد أنواع الكراهية، قد يقول لك قائل: ولو أن الله مقته فماذا حدث ؟ جاء الجواب:

(وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إلا خَسَارًا(39))

وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إلا خَسَارًا

إذا مقت الله عز وجل الإنسان خسر وخاب، وأصبح في أشد البوار والخسارة، ويمكن أن يكون المؤمن يمقته كافر، قال تعالى:

(قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

(سورة آل عمران)

ممكن أن يكره رجل كافر مؤمناً، يكرهك منحرفٌ، وأنت مستقيم، قطعت عليه بعض النفع، فكرهك، وكاد لك، هذا لا قيمة له، أما إذا مقتك الله عز وجل فهذه كل الخسارة، وأنت لست على شيء عندئذٍ، كل الخير في رضوان الله عز وجل.

أقول لكم هذا الكلام: أعلى شيء يناله إنسان في الدنيا أن يرضى الله عنه، وأسوأ شيء يصيب الإنسان أن يسخط الله عليه، لأن الله عز وجل هو كل شيء، فإذا رضي عنك رضي عنك الناس جميعاً، إذا أحبك الله ألقى حبك في قلوب الخلق، وإذا مقتك الله عز وجل ألقى مقتك في قلوب الخلق، فلا أحد يحبك، وينصرف الناس عنك، فلذلك:

(وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إلا خَسَارًا(39))

مقت وخسارة.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ

1 - لا ينبغي للإنسان أن يبيع نفسه لغير الله:

هذا الذي تعتمد عليه، تتكل عليه، تعطيه شبابك، تعطيه عقلك، تعطيه ذكاءك، تعطيه قلمك، هذا الذي علقت عليه الآمال، هذا الذي عبدته من دون الله ماذا فعل ؟ مخلوق ضعيف مثلك، مفتقر إلى مولاه مثلك، فالإنسان لا يليق به أن يبيع نفسه لغير الله، تبيع حياتك، تبيع جهدك، تبيع عرقك، تبيع تعبك، يتبع

شبابك، لغير الله عز وجل فهذا أخسر الخاسرين، من وهب شبابه لغير الله، من وهب لسانه لزيد أو عبيد، تفكر في محاسن زيد أو عبيد، وتثني عليه، وتتحمس لإنسانٍ مثلك ضعيف لا ينفعك، ولا يضرك، فهذا اللسان ينبغي أن يكون لله، أن ينطق بذكر الله، هذه الخبرات، هذه الإمكانات، هذه الطاقات، هذا العمر، هذا الشباب، هذا المال، هذا الجهد، هذه الخبرة، ينبغي أن تكون كلها لله، لذلك فالله عز وجل يقول:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ)

2 ـ لم يخلق الشركاءُ شيئا:

هل هناك قارّة هم صنعوها، أهم خلقوا البحر مثلاً ؟ هل هناك شيء في الأرض بر أو بحر، جبال أو وديان أو أشجار، أو فواكه، أو أطيار أو أسماك، هم صنعوها أو خلقوها ؟ هل لهم شيء ؟ هل لهم حصة ؟ هل يستطيع أحد أن يدعي أنه خلق شيئاً في الأرض.

ربنا عز وجل يرينا ضعف الإنسان، فمثلاً تنحبس الأمطار، فهل في الأرض كلها جهة تستطيع أن تجتمع، وتقرر إنزال الأمطار، تفضلوا واجتمعوا، وإذا صدر معكم قرار والمادة الأولى فيه: يجب أن تهطل المطار يوم كذا، فهل هناك جهة في الأرض تستطيع أن تفعل هذا ؟ أحياناً يأتي مرض فيروسي يحار منه العلماء، الله عز وجل يؤدب الناس بأمراض بسبب انحرافهم، فيقف العلم عاجزاً، ومرض الإيدز مثلاً هو عقاب من الله عز وجل لانحراف العصر، شبح مخيف، العلماء والجامعات، والمخابر، يقفون عاجزين أمام هذا المرض، وكم من أمراض تحدّت كلّ العلماء إزاءها عاجزين.

أحياناً زلزال يجعل الأرض عاليها سافلها، تجد بناء من ثلاثين طابقاً أصبح ركاماً، مدينة على الساحل الأطلسي فيها فسق وفجور إلى ما لا نهاية يأتيها السياح من كل أطراف الدنيا ليستمتعوا بالمعاصي، ففي ثلاث ثوان أصبحت تحت الأرض، وهناك فندق شهير وكبير جداً يزيد على ثلاثين طابقاً غاص كله تحت الأرض، وبقي الطابق الأخير عليه، وبقيت لوحته كالشاهدة على قبر، أي هنا دفن هذا الفندق، الله عز وجل بيده كل شيء.

(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ)

هل تجد مجرةً صنعوها، يقولون غزونا الفضاء، كلمة فيها سوء أدب، فيها تعالٍ قطعوا ثانيةً ضوئية واحدة، كلمة غزوا القمر أي قطعوا ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر بمركبة بقيت يومين أو ثلاثة أيام

بسرعة أربعين ألف كيلو في الساعة، والقمر يعد لصيق الأرض، كيف يقطعون مثلاً ثماني دقائق ضوئية إلى الشمس، أو ثلاثة عشر ساعة قطر المجموعة الشمسية، أو مئة وخمسين ألف سنة ضوئية، قطر المجرة، أو أربع سنوات ضوئية أقرب نجم ملتهب إلينا، أو مليون سنة ضوئية المرأة المسلسلة، أو ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، بُعْدُ بعض المجرات، قطعوا ثانية ضوئية واحدة، أنسب ثانيةً ضوئية واحدة إلى ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية فماذا تجد ؟ غزونا الفضاء كلام فيه سوء أدب.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلا غُرُورًا)

هذه الآية تشير إلى أنه لا إله إلا الله، وأن كل الشركاء عباد فقراء عاجزون.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (10-10): تفسير الآية 41 ، إلى الأخير
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-07-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس العاشر والأخير من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى في الآية الأربعين:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

(سورة فاطر)

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ

1 - الكون معجزة:

الحقيقة أن هذه الآية من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فالسماوات والأرض تعبير قرآني عن الكون، والكون كل ما سوى الله، الله واجب الوجود، وما سواه ممكن الوجود، فالكون يعبر عنه القرآن الكريم بكلمة السماوات والأرض.

2 - كل مجرات الكون متحرّكة خاضعة لنظام الجاذبية:

في أحدث البحوث العلمية المتعلقة بالفلك عدد المجرات يقترب من مليون مليون مجرة، وعدد نجوم المجرة المتوسط يقترب من مليون مَليون، وكل نجم في هذه المجرات يتحرك، ولولا تحرك النجوم لأصبح الكون كتلةً واحدة، لأن كل نجم حينما يتحرك ينشأ عن تحركه قوة نابذة، هذه القوة النابذة تكافئ القوة الجاذبة، لأن كل كتلة في الكون تنجذب إلى أختها، وهذا نظام الجاذبية، فالترابط بين النجوم أساسه الجاذبية، فلولا حركة الكون لأصبح الكون كله كتلةً واحدة، ولانضم بعضه إلى بعض، فهذه الحركة الدائبة كل نجم يتحرك في مسار مغلق، المسار غير مفتوح، الخطوط غير المغلقة خطوط مفتوحة، لأن الله جل جلاله يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

يعني أنّ أيّ كوكب في السماء يتحرك في خط مغلق، فيرجع إلى ما بدأ به.

الكون يقترب من مليُون مليون مجرة، وهذا أحدث رقم، وكلما تقدم العلم اكتشف عدداً أكبر من الذي اكتشف من قبل، وفي كل مجرة ما يزيد على مليُون مليون كوكب ونجم، وكل هذه الأجرام تتحرك في مسارات مغلقة لينشأ من تحركها قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة، هذه النجوم تتحرك في مسارات مغلقة، وفي سرعات دقيقة، لو اختلفت سرعاتها لانجذبت إلى الأرض.

أرجو أن تتحملونا قليلاً، الموضوع علمي محض، المسار إهليلجي على شكل بيضوي، الأرض تدور حول الشمس في مسار بيضوي، والمسار البيضوي له قطر أصغر وقطر أكبر، فإذا وصلت الأرض إلى جهة القطب الأصغر فلابد من أن تنجذب إلى الشمس، فماذا يحصل ؟ تزداد سرعتها، من يزيد سرعتها ؟ الله جل جلاله، تزداد سرعتها فتزداد قوة النبذ حتى تتكافأ مع قوة الجذب القوية، إذاً لو اختلفت السرعة لانجذبت الأرض إلى الشمس، فمن الذي يمسك هذه الأرض ؟ ولنأخذ الأرض مثلاً ولنبتعد عن بقية النجوم، أرضنا تسير حول الشمس دورةً في كل عام، وحينما قال الله جل جلاله:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

معنى: أَنْ تَزُولَا

أي أن الأرض في كل شهر تقابل برجاً من بروج السماء، وبروج السماء التي تسير في مجالها الأرض اثنا عشر برجاً، ففي دورة الأرض حول الشمس تسير في مسار مغلق، السؤال: إن الله خالق الكون يمسك السماوات والأرض أن تزولا.

المعنى الأول:

المعنى الأول: الزوال معناه الانحراف، ووقت الظهيرة يكون مع زوال الشمس عن كبد السماء، إذا كانت الشمس في كبد السماء فالصلاة مكروهة كراهةً تحريمية، الصلوات مكروهة في ثلاثة أوقات، عند طلوع الشمس حتى ترتفع، وعند توسطها في كبد السماء حتى تزول، وعند اصفرارها حتى تغيب، في أوقات ثلاثةٍ الصلوات مكروهة كراهة تحريمية.

إذاً معنى الزوال، زوال الشمس عن كبد السماء يعني انحراف الشمس:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

المعنى الثاني:

لو أن الأرض انحرفت عن خط سيرها أية قوة في الأرض تستطيع أن تعيدها إلى مسارها ؟ لو أن قطاراً خرج عن سكته أية نملة بإمكانها أن تعيده إلى مساره ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

ما الذي يربط الأرض بالشمس ؟ هنا السؤال، الذي يربط الأرض بالشمس قوة الجاذبية التي أشار إليها القرآن في سورة الرعد، قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من الآية 2)

(ترونها) قيدٌ لـ (عمد)، فالأعمدة التي رفعت بها السماوات لا نراها، لكنها موجودة.

بعض العلماء الأجانب قال: لو أن الشمس كفّت عن جذب الأرض، أو توقفت عن جذب الأرض فلابد لهذه الأرض من أن تزول عن سيرها، أي أن تبتعد عن مسارها، وأن تستمر في متاهات الفضاء الخارجي، ما الذي يعيدها إلى حظيرة الشمس ؟ قال: تعيدها قوةٌ، و هذه القوة تتمثل في مليون مليون حبل فولاذي، من الفولاذ المضفور، والفولاذ المضفور أمتن العناصر في الكون، أي أمتن شيء في تحمل قوى الشد هو الفولاذ المضفور، فالأرض تحتاج إلى مليون مًليون كبل أو حبل من الفولاذ المضفور، والفولاذ المضفور يجب أن نزرعه على الأرض بينه وبين الشمس، فيجب أن يكون هناك حبل بين الأرض والشمس طوله مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، مليون مًليون حبل مزروع على وجه الأرض المقابل للشمس، ما الذي يحصل ؟ نحن أمام غابة من الحبال الفولاذية، بين كل حبلين مسافة حبل واحد، الزراعة مستحيلة، البناء مستحيل، حتى هذه الغابة تحجب عنا أشعة الشمس، وكل حبل يقاوم ملايين الأطنان.

ربنا عز وجل قال:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أنْ تَزُولا)

أيّ نجم لو خرج عن خط سيره لجذب إلى نجم آخر، وهكذا، إذاً لاجتمع الكون كله في كتلة واحدة فمن الذي يمسك السماوات والأرض أن تنحرف عن خط سيرها ؟

عندنا نقطة دقيقة: الكون أوجده الله من عدم، هذه حقيقة، لا شيء قبله ولا شيء بعده، فالكون ممكنٌ، وأوجده الله من عدم، وعندنا خلق آخر، إيجاده من عدم، الخلق الآخر أن يستمر موجوداً، أن يخلق من عدم خلقاً، ثم لابد من أن يخلق خلقاً آخر يريد الله أن يستمر وجوده، فالله سبحانه وتعالى خلق الكون من لا شيء، ثم أراد استمرار الكون، فالاستمرار شيء آخر، قد تنطلق من مركبتك شيء، ولكن أن تبقى بها إلى ما شاء الله فهذا أمر آخر، قد تحركها شيء، ولكن أن تبقى تحركها شيء آخر.

الآية إذاً:

(إنّ اللّهَ)

فهل تعرفون من هو الله ؟ هو خالق السماوات والأرض، هو رب العالمين، هو القوي، هو القدير، فهو يخلق خلقاً من عدم، وهو يخلق خلقاً آخر ليستمر موجوداً.

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

أي نجم في حركته حول نجم آخر يسير على مسار مغلق من الذي يبقيه على هذا المسار المغلق ؟ هو الله سبحانه وتعالى، لأن الأرض لو خرجت عن مسارها ما الذي يحصل ؟ ابتعدت عن الشمس، ودخلت في الظلام الكوني، وأصبحت حرارتها بتقدير بعض العلماء مائتين وسبعين درجة تحت الصفر، وهذا ما يسميه علماء الفيزياء بالصفر المطلق، وفي رأي علماء الفيزياء أن الصفر المطلق تتوقف فيه حركة الذرات، ومتى توقفت حركة الذرات تلاشت المادة، إذاً: إذا زالت الأرض عن مسارها زالت، وفنيت، فكم معنى عندنا لكلمة (زالت) ؟ معنيان المعنى الأول زال أي انحرف، والمعنى الثاني زال أي تلاشى وفني.

الله جل في علاه هو وحده هو الذي يحفظ الأرض وأي كوكب آخر على خط سيره، أو أي نجم آخر على مساره المغلق فلو لم يكن هناك خالق خلق من عدم ثم أراد أن يستمر هذا الخلق والخلق مستمر إلى ما يشاء الله، قال تعالى:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة يس)

إذاً: شاءت مشيئة الله أن يخلق هذا الكون، وأن يستمر هذا الكون إلى أن يشاء الله زواله، مادامت الأرض تسير حول الشمس، وما دمتم ترون شمساً كل يوم فالأرض مع الشمس، ولو أنها انحرفت عن خط سيرها لغابت عنا الشمس، ولدخلنا في ظلام دامس، وحينما تستيقظ صباحاً كل يوم على قرص الشمس في الأفق تذكر هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

لأنها لو خرجت لاحتجنا نظرياً طبعاً إلى مليون مَليون حبل فولاذي، وكل كبل يتحمل قوى شد مليوني طن، هي قوة جذب الشمس للأرض، وكل هذه القوة من أجل أن تجعل الأرض تتحرك بخط منحنٍ، وكل ثانية تنحرف ثلاثة مليمترات، ويتشكل مسار الأرض المغلق حول الشمس، أما لو أن الشمس كفّتْ عن جذب الأرض لسارت في مسار مستقيم بعيداً عن خط سيرها السابق، ولدخلت في ظلام دامس، ولأصبحت حرارتها مئتين وسبعين درجة تحت الصفر، ولتوقفت حركة الذرات، ولزالت بمعنى فنيت بعد أن زالت بمعنى انحرفت، فهناك معنيان للآية:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

أي أن يمسك كل نجم عن أن ينحرف عن خط سيره، ولو انحرف عن خط سيره لعمت الفوضى في عالم المجرات والكواكب، ولاجتمع الكون كله في كتلة واحدة، ولانتهت الحياة.

أما إذا انحرف كل كوكب عن خط سيره، وسار في ظلمات الفضاء، وأصبحت حرارته صفراً مطلقاً، مائتين وسبعين تحت الصفر لتوقفت حركة الذرات الداخلية، ولتلاشى الكون، فلذلك هذه الآية كلما تقدم العلم كشف جوانب من عظمة خلق الله عز وجل.

إذاً: أن تستيقظ كل يوم، وأن ترى الشمس مشرقة، وأن ترى الضحى مشرقاً، ثم تغيب الشمس، ثم تشرق، معنى ذلك أن الأرض لازالت على خط سيرها.

كلكم منذ أن نشأنا على التقويم الذي يقول لنا: شروق الشمس يوم ثلاثةٍ وعشرين من أيلول الساعة السادسة وثلاث وعشرين ثانية، كل سنة منذ خمسين سنة ما تغير، من مئة سنة، منذ أن خلقت الأرض، وإلى أن تتوقف عن حركتها تسير الأرض بهذا الخط المستمر، إذاً: التقويم له معنى كبير، فأنت تتنبأ بشروق الشمس قبل مئة عام بعد مائة عام يوم ثلاثة وعشرين من أيلول الشمس تشرق الساعة السادسة وثلاث وعشرين ثانية، ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك:

(إنّ اللهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ أنْ تَزُولا)

خلق الكون من عدم وأراد أن يخلق خلقاً بعد الوجود، إذاً فهناك خلق من عدم، وخلق بعد الوجود، هذا معنى قوله تعالى:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ أنْ تَزُولا)

هل عرفتم من الله ؟ هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، هو الذي خلق من لا شيء، واستمر الخلق بمشيئته هو.

الآية الكريمة:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ أنْ تَزُولا)

المعنى الأول: الزوال، الانحراف، والمعنى الثاني الفناء، إذا انحرفت الأرض عن خط سيرها زالت: فنيت، لأن في متاهات الفضاء الخارجي درجة الصفر المطلق تنهي حركة الذرات، وإذا انتهت حركة الذرات تلاشت المادة، لأن كل مادة قوامها حركة الذرات حول النواة، لها مجموعة مسارات، مجموعة كهارب إلكترونات تتحرك بسرعات هائلة حول النويّات، فإذا توقفت حركة الذرات تلاشى الكون، قال تعالى:

(وَلَئِنْ زَالَتَا)

وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ

أي إذا انحرفت الأرض أو أي كوكب آخر عن خط سيره المغلق حول الشمس، أو حول أي كوكب آخر.

(إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

ليس في الكون جهة يمكنها أن تمسك السماء والأرض:

هذه (إنْ) نافية، يعني ما أمسكهن أحد من بعد الله عز وجل، أهل الأرض جميعاً لو أن الأرض انحرفت، أو لو أن الشمس لم تعد تشرق، فلو اجتمعوا بمؤتمرات وقرروا، واتخذوا توصيات، هل بإمكان أهل الأرض كلهم أن يعيدوا الأرض إلى مسارها، أو أن يحرفوها عن خط سيرها ؟ إذاً من هو الله ؟ الذي بيده هذه الأرض، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسّماوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ)

(سورة الزمر)

لذلك:

(إِنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

(سورة فاطر)

فهذه الآية إذا قرأها عالم فلكٍ ذابت نفسه خشوعاً لله عز وجل، لأن هذه الآية تتفق مع أحدث الحقائق العلمية المتعلقة بالفلك، وعظمة القرآن في كلمة (تزول)، كلمة واحدة بمعنيين، الانحراف، أولاً يجعلها تخرج من مسارها، ثم يجعلها تفنى إذا انحرفت عن خط سيرها.

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

ليس في الكون كله جهة مهما عظمت ومهما قويت بإمكانها أن تعيد الأرض إلى خط سيرها إذا انحرفت، أو أن تخلقها ثانيةً إذا زالت وفنيت.

المعنى الأول: أن تعيدها إلى خط سيرها حول الشمس إذا انحرفت، أو أن تخلقها ثانيةً إذا زالت أو فنيت.

(إِنّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(41))

إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا

مع أن الله بيده أمر الأرض، ومن قدرته أن يجعلها تزول، لكن الله يرى عباده غارقين في المعاصي، الفساد في البر، والبحر، وفي الجو، الآن الطائرات تعرض أفلاماً في أثناء الطيران، وربما كانت هذه الأفلام ماجنة، الفساد ظهر في الأرض، وفي البحر، وفي الجو المعاصي، الموبقات، أكل المال الحرام، الربا، الزنا، اللواط الخمر، المخدرات، الميسر، القمار، الفتن، الأرض تعج بالفتن، وهو يحلم عليهم، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة يونس)

لولا حلمُ الله ومغفرتُه:

الآن قد يسأل سائل: ما دام أنّ الله عز وجل بيده هذه الأرض، وفي أية لحظة قادر على أن يجعلها تزول، حينما تنحرف عن خط سيرها، أو حينما تتلاشى ذراتها، فلماذا ربنا جل جلاله يرى عباده غارقين في المعاصي والآثام، يناصبونه العداء، يكفرون به، يجحدون نعمه، يعادون أولياءه، وكيف لا يدمرهم ؟ جاء الجواب:

(إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(41))

الإنسان لا يتحمل، الإنسان أحياناً يتمنى أن يسحق أعداءه سحقاً عن آخرهم، والحروب الحديثة حروب إبادة لا هوادة فيها ولا رحمة، والنبي عليه الصلاة والسلام في الطائف جاءه جبريل، وقال: يا محمد، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، فلو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، قال: لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده.

النبي كان حليماً، وربنا عز وجل حليم، وإن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً، فإذا رأيت هذه المفارقة فالأمور كلها بيد الله، والسماوات كلها بيد الله، وأرضنا بيد الله، وحركتها بيد الله، وسرعتها بيد الله.

لو أن الأرض أيها الإخوة لم تزدد سرعتها حينما تقترب من القطب الأصغر لانجذبت نحو الشمس ولاحترقت، والأرض إذا دخلت في الشمس تبخرت في ثانية واحدة، لأن الشمس حرارتها في السطح ستة آلاف درجة، أما في الأعماق فعشرون مليون درجة، نحن عندنا الحديد ينصهر بالألف وخمسمائة، الحجر البازلتي الأسود الذي لا يمكن أن ينصهر، ينصهر في ثلاث آلاف درجة، ويصبح سائلاً،

الأرض بأكملها إذا دخلت في الشمس ستة آلاف درجة، وفي أعماقها بعشرين مليون درجة، تتبخر كلها في ثانية واحدة، فلو أن سرعتها لم تزدد عند القطر الأدنى لانجذبت نحو الشمس، واحترقت، وتلاشت. تقول: هذه الطائرة سقطت، ومات جميع ركابها، لو أن الأرض سقطت في الشمس لمات جميع سكان الأرض دفعةً واحدة:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

آية دقيقة جداً ما دمت ترى شروق الشمس كل يوم فالأرض على خط سيرها، ومادامت لم تنحرف عن خط سيرها فأنت في نعمة وفي بحبوحة، الذي يبقيها على حالها ربنا عز وجل، هو الذي يبقيها على خط سيرها والذي يبقيها موجودةً، قائمةً، لأن الله عز وجل يخلق ويأمر ببقاء الخلق، والخلق مستمر إلى أن يشاء الله وهناك شيء آخر، قال تعالى:

(إِذَا الشّمْسُ كُوّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2)وَإِذَا الْجِبَالُ سُيّرَتْ(3)وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(4)وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(5)وَإِذَا الْبِحَارُ سُجّرَتْ(6)وَإِذَا النُّفُوسُ زُوّجَتْ)

(سورة التكوير)

الكون له نهاية، وله بداية، أما الآن فالكون مستمر والعلماء قالوا الشمس يرجح أنها متقدة منذ خمسة آلاف مليون عام، والمرجح بحسب نظرياتهم أنها تبقى متقدة إلى ما بعد خمسة آلاف مليون عام قادمة، هذا معنى القرآن:

(إِنّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(41))

حليم يصبر على عباده، ومن أسماء الله الصبور، حليم يتجاوز عن ذنوب عباده، حليم يعطي لعباده فرصةً لعلهم يتوبوا، فلذلك ربنا عز وجل يقول:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه)

ربنا عز وجل أعطى لكل إنسان أجلاً، وأعطى كل أمة أجلاً، وأعطى الكون كله أجلاً، فكل واحد كفرد له أجل، فإذا انتهى أجله لا يستقدم ساعة ولا يستأخر، كل واحد منا عنده لحظة النهاية، وفي علم الله هذا الإنسان مقرر له أن يعيش ثلاثة وستين عاماً وثمانية أشهر، وثلاثة أسابيع، وخمسة أيام، وثماني ساعات، وأربع دقائق، وثلاث ثوان، فكل إنسان له أجل، وكل أمة لها أجل، والأمم تتعاور، بالتعبير الفصيح: تأتي أمة، وتذهب أمة، كل قرن فيه أمم يتألق نجمها، وأمم تذهب، وتصبح خبراً، كل أمة لها أجل، والبشرية كلها لها أجل، وهو قيام الساعة.

(إِنّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(41))

حليم يعطي عباده فرصة، أحياناً مدير يضيق ذرعاً بطالب فيفصله، وهناك مدير أشد حلماً، يعطيه فرصة لعله يرجع، لعله يغير من خطته، لعله يجتهد، لعله يلتزم، لعله يتوب، فكلما ازداد الكمال أعطى الكامل فرصة لمن حوله فلعلهم يرشدون.

(إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا)

يعطي الفرصة:

(غَفُورًا)

لو أنهم عادوا تائبين لغفر لهم.

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ

هؤلاء العرب كفار مكة عاشوا مع اليهود، واليهود أهل كتاب، وقد علمت العرب أن اليهود كذّبوا رسلهم، وقتلوهم، ووقفوا موقفاً لا يليق بهم، فكان العرب يقولون: لو جاءنا رسول لصدقناه، ولآمنا به، ولنصرناه، ولا نكون كاليهود في تكذيبهم رسلهم، وفي قتلهم أنبياءهم.

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)

أي بالغوا في حلف الأيمان.

(لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ)

ويقصدون إحدى الأمم أهل الكتاب الذين جاءت رسلهم بالبينات فكذبوهم وقتلوهم.

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا(42))

فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا

وهو النبي عليه الصلاة والسلام، بدل أن يؤمنوا به، وأن يصدقوه وأن يوقرون، وأن ينصروه، وأن يتبعوه، وأن يفرحوا به، قال تعالى:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا(42))

النذير هو الرسول عليه الصلاة والسلام:

وهذه المفارقة سمة من سمات الكافر، يقول لك: إذا الله أعطاني سأفعل كذا وكذا، فالله يعطيه ولا يفعل، إذا الله هداني لأفعلن، إذا: الله أكرمني لأفعلن، يسّوف، وكما تعلمون هلك المسّوفون.

اسْتِكْبَارًا

1 ـ كفرُ الاستكبار:

لماذا لم يؤمنوا ؟ هنا السؤال، جاءهم نذير معه القرآن الكريم، معه دليل على أنه رسول، معه معجزة، لماذا لم يؤمنوا ؟ فقال الله عز وجل:

(اسْتِكْبَارًا)

2 ـ الكِبْر ينافي العبودية لله:

الإنسان بين حالين، بين أن يكون عبداً لله وأن يستكبر، فإذا استكبر فهذا تغلق دونه أبواب السماء، إذا استكبر لم يلج في الإيمان، إلا إذا ولج الجمل في سم الخياط، هل يعقل أن يدخل الجمل في سم الخياط ـ ثقب الإبرة ـ هل هذا تعجيز ؟ لا، إنه متكبر كالجمل حجماً، ولن يستطيع أن تفتح له أبواب السماء إلا إذا عاد إلى حجمه الحقيقي، وإلا إذا عاد عبداً لله عز وجل، الذي زادهم نفوراً هو استكبارهم، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، والإنسان يكون في أكمل أحواله حينما يكون عبداً لله، حينما يعرف أنه فقير، حينما يعرف فقره إلى الله عز وجل وحاجته إلى الله عز وجل، وأنه جاهل، والله هو الذي يعلم، وأنه فقير، والله هو الغني، وأنه ضعيف، والله هو القوي، إذا عرفت حدك جاءتك الخيرات، وجاءتك الإمدادات، وجاءك الدعم الإلهي، وجاءك التوفيق، وجاءك النصر، وجاءك التيسير، أما إذا استكبرت فعندئذٍ تغلق أبواب السماء في وجه الإنسان، قال تعالى:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ)

قد يسأل سائل: لماذا يعفو الله عن ذنوب كثيرة ؟ أما الكبر فلا يقبله، ولو كان طفيفاً ؟ عبدي إذا بلغت ذنوبك عنان السماء غفرت لك ولا أبالي، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

لماذا يغفر الله كل الذنوب مهما كثرت، ولا يقبل ذرة كبر ؟ قيل: لأن الكبر يتناقض مع عبودية الإنسان، إذا كان هناك طبخة يمكن أن يقل فيها مقدارٌ اللحم، أو يزداد، بعض مكونات هذا الطعام ممكن أن تزداد أو تقل، يتفاوت الطعم، لكن هذا الطعام لا يقبل نقطة واحدة من البترول، وهناك أشياء تقبل الزيادة والنقصان، ويتفاوت الطعم، أما أن توضع مع الطعام مادة بترولية فيفسد الطعام كليّة، ويلقى في

سلة المهملات الإنسان قد يخطئ، ولكن مادام معترفاً بذنبه، مادام مستغفراً، مادام خاضعاً لله، مادام تائباً، ما دام نادماً، ما دام مبتهلاً، ما دام يرجو الله عز وجل، فالله عز وجل يقبله، ويعفو عنه، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال)

أما المتكبر فقد تستنكف نفسه أن يستغفر الله عز وجل، تستنكف نفسه أن يسجد لله عز وجل، تستنكف نفسه أن يخضع للحق، تستنكف نفسه أن يأتمر بأمر الله، عندئذ يرفض، الذي حمل بني إسرائيل على تكذيب أنبيائهم، ورد دعواتهم استكباراً في الأرض، ومع استكبارهم مَكْر السَّيِّئ.

(اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئ)

اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئ

المتكبّر ماكر وصاحب خديعةٍ:

المكر خطة يتبعها الماكر ليصرف خصمه عن قصده، الله عز وجل قال:

(وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

الله عز وجل مكره كله خير، لماذا ؟ لأنه قد يصرف عبده عن طريق الشر، فإذا صرف الله عبده عن طريق الشر بخطة حكيمة، فالله قد مكر به لكن مكر الله عز وجل يعود بالخير على عباده، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

لكن الإنسان الكافر البعيد عن الله عز وجل يمكر ليصرف الآخرين عن طريق الخير، لذلك قال تعالى:

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة آل عمران)

هؤلاء:

(اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئ)

اسمعوا لهذه الفقرة من الآية:

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِه)

هذا كلام لو صدقناه، لو أدركنا أنه قطعي الثبوت والدلالة.

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِه)

يتوقف الماكر فوراً عن مكره، لماذا ؟ الآن هناك بعض الأمم تمكر ببعض الأمم الأخرى، الأمم الماكرة تأتيها أمراض وانحرافات وتمزقات داخلية أكثر من الأمم التي مكرت بها:

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِه)

المكر يدور ويدور، فقد يسأل سائل: حينما يمكر إنسان بإنسان هذا الذي مكر به، ألا يناله السوء ؟ نقول: نعم، ولكن هذا السوء ينتهي بالموت، أما الذي مكر فيعذب بمكره إلى أبد الآبدين، المكر السيئ. كأن ترى دولاً ضعيفة ودولاً سيئة، شعوباً ضعيفة جداً يمكر بها بخيراتها، بثرواتها، بمقدراتها، يبقيها الآخرون جاهلة، يبقيها الآخرون ضعيفة، هؤلاء تضرروا، نقول: هؤلاء الماكرون الذين مكروا مكر السوء سيعذبون بمكرهم إلى أبد الآبدين، وهؤلاء الذين مُكر بهم، وتحملوا بعض المتاعب من مكر الآخرين بهم هؤلاء حينما تنتهي حياتهم، تنتهي آثار المكر الذي لحق بهم، وتبقى حياتهم الأبدية في منجاة مما مكر بهم، لكن الشيء الدقيق:

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِه)

كلام خالق الكون، أي عملية مكر أو خداع، يخادعون الله، وما:

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

(سورة البقرة)

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِه)

لذلك قيل: فاعل الخير خير من الخير، لأن الخير مهما كان عظيماً ينتهي مع نهاية العالم، لكن الذي فعل الخير يسعد بفعله إلى أبد الآبدين، إذاً: فاعل الخير خير من الخير نفسه، وفاعل الشر شر من الشر، فالذي أمر بإلقاء قنبلة على هيروشيما في نهاية الحرب العالمية الثانية مضى على إلقائها أعتقد أكثر من خمسين عاماً، الذين ماتوا وقتها لو أن هذه القنبلة لم تلقَ عليهم فلابد من أن يموتوا، الآن انتهت

أعمارهم، إذاً: أثر هذه القنبلة يكون قد انتهى، أما الذي أمر بإلقائها ليدمر ثلاثمائة ألف إنسان في ثانية واحدة، هذا يشقى بقراره إلى أبد الآبدين، إذاً: فاعل الشر شر من الشر، وفاعل الخير خير من الخير، الإنسان يسعد إلى الأبد بأعماله الصالحة قد ويشقى إلى الأبد بأعماله السيئة.

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِه)

وأعتقد أنكم سألتم، أو اطّلعتم، أو إذا تتبعتم لوجدتم أن حياتنا طافحة بقصص تؤكد هذه الآية، لذلك ورد في بعض الأدعية: اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم، الكافر يفكر، ويخطط، ويشتغل، وبسبب تخطيطه وتدبيره ومكره يدمر، اجعل تدميرهم في تدبيرهم، واجعل الدائرة تدور عليهم.

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

أنا أشعر لو أن الإنسان أيقن بهذه الآية لما استطاع أن يمكر بإنسان، لأن آثار المكر سوف تعود عليه شاء أم أبى، وأنا موقن أنه لو تتبعنا كل ماكر لرأيناه يدمر نفسه بهذا المكر، لكن لو رأيته إلى حين متفوقاً مستعلياً، يتيه بمكره لقد فعلت كذا، وفعلت كذا، هذا إلى حين، فإذا شد الحبل أصبح في قبضة الله عز وجل، ودفع ثمن مكره غالياً.

يجب أن تؤمن أيها الأخ الكريم أن زوال الكون أهون عند الله من أن يضيع مؤمناً، ومن أن يقوي ماكراً، الماكر مدمر، لذلك الآية الدقيقة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَحْوِيلاً(43))

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَحْوِيلاً

هذه الثوابت، المؤمن يوجد في حياته ثوابت يعني سنة الله في خلقه أن كل ماكر يحيق مكره به، وأن كل مخادع يخدع نفسه، وأن كل ناكث ينكث على نفسه، وأن كل منافق يدفع ثمن نفاقه هو، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

(سورة الجاثية)

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

(سورة الروم)

إذا أيقنا بذلك توقف الإنسان فوراً عن كل مكر، وعن كل سيئة وعن كل تدبير، وعن كل مخادعة، وعن كل نقض لعهد الله عز وجل، العلماء قالوا في قوله تعالى:

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)

1 - لا تُبدّل سننُ الله:

أي أن هذا القانون لا يبدل، من شأن الناس أن يبدلوا القوانين يعدلوها، يعطلوها، أحياناً يعطل هذا القانون، ويوقف التنفيذ به إلى إشعار آخر، تعدل بعض مواده، أحياناً لا يعمل إلى حين استبداله، فإما أن يعطل، وإما أن يعدل، وإما أن يبدل، وإما أن يفسر تفسيراً ما، لكن الأمر يختلف مع قوانين الله عز وجل، فقوانين الله عز وجل أو سنن الله عز وجل لن تجد لها تبديلاً.

أنت مؤمن، وتعاملك مع خالق، مع إله، مع رب، هذا الرب الخالق الرب الإله قوانينه ثابتة مستمرة، لا تتبدل بتبدل الأيام، أو الشهور، أو الأمكنة، أو الأزمنة، أينما ذهبت في أي عصر، وفي أي مصر، في أي إقليم، قديماً حديثاً، في القرى، في الأرياف، في دول متقدمة، مع العلم، مع الجهل، قوانين الله عز وجل نافذة لا يوقف العمل بها إطلاقاً، فالماكر يحيق مكره به.

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً(43))

المذنب يعاقب، ولن يعاقب المحسن مكان المذنب، فهذا القانون لا يعطل، ولا يتحول إلى جهة بريئة، القوانين الصارمة التي قننها الله عز وجل لا يعطلها، ولا يحولها إلى جهات بريئة لا تستحقها، فهناك عدالة مطلقة في السماء، سبحان الله ! هذه لن للمستقبل أيضاً، لن تفيد تأبيد النفي، لكنك أيها الإنسان لن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد أيها الإنسان لسنة الله تحويلا، فالإنسان العاقل إذا قرأ القرآن، وقرأ مثل هذه الآية يطمئن.

أمثلة لقوانين الله وسننه:

مثلاً: هناك بعض الآيات تأخذ طابع القانون.

المثال الأول:

قال تعالى:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس)

هذا قانون أول.

المثال الثاني:

وقال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

هذا قانون ثانٍ.

المثال الثالث:

قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

هذا قانون ثالث.

المثال الرابع:

قال تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

وهذا قانون رابع، لا بد للخائن من أن يفتضح، إن الله لا يهدي كيد الخائنين:

المثال الخامس:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

(سورة الحج)

فإذا قرأ الإنسان القرآن، وتتبع القوانين التي وردت فيه، هذه القوانين هي سنن الله عز وجل لن تبدل، ولن تحول، فالسعيد من صدقها، وعمل بها فنجا، والشقي من لم يصدقها، وكذبها، ولم يعمل بها فهلك.

الملخص: هذه تعليمات الصانع، هذه قوانين الله عز وجل، هذه سننه، هذه الثوابت، كيف أن عندنا قاعدة مثلاً: المعادن تتمدد بالحرارة، هذا قانون فيزيائي، فأي مهندس لم يضع فواصل تمدد في أي بناء، البناء ينهار، هذا قانون ثابت، فإما أن تصدقه، وتأخذ به، ويسلم بناؤك، وإما أن تكذبه، ولا تأخذ به، فينهار بناؤك، وعلى هذه الشاكلة قوانين ربنا كلها ثابتة، لذلك البشر نوعان: موصول بالله محسن منضبط بأمر الله ونهيه، ناجٍ، سعيد ؛ والآخر منقطع، متفلت من قوانين الله، مسيء، شقي في الدنيا والآخرة، وليس هناك شخص ثالث.

يجب أن نأخذ هذه الآية مأخذاً كافياً:

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً(43))

لو ذهبت إلى بلاد الغرب، إلى بلاد الشرق بعد مائة عام، بعد ألف عام، في أي حال ؛ لذلك كنت أضرب مثلاً بسيطاً، رجل كذب قانون السقوط، وقال: هذا قانون غير صحيح، هذا قانون وضعه دجال، فأنا سأهبط من الطائرة بلا مظلة، لأن ذاك القانون ليس له أصل، طبعاً المظلة مبنية على قانون السقوط على حجز كمية هواء كبيرة جداً تتناسب مع وزن الإنسان، فينزل بتباطؤ، فإذا رجل كذب هذا القانون فألقى بنفسه من الطائرة من دون مظلة، إذا كذب بهذا القانون فهل يتوقف مفعول هذا القانون ؟ لا، بل تدق رقبته، إن تكذيب القانون لا يعطل مفعوله، وكل إنسان كذب بأوامر الله عز و جل، كأن قال لك:

غضّ البصر كلام لا يتناسب مع العصر، إذا قبلت منه، وخالفت هذا القانون وجدت الشقاء الزوجي في بيتك، يمحق الله الربا قانون، لابد من محق المال، والله يربي الصدقات، ولابد من أن ينمو المال الذي فيه صدقات.

أتمنى على إخواننا الكرام أن يقرؤوا القرآن، وينتبهوا للقوانين، قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من الآية 9)

هذا قانون، قال تعالى:

(فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

كلما وجدت آية تأخذ طابع القانون، طابع السنة الثابتة، طابع المبدأ، طابع القانون الثابت، التقطتها واكتبها، وانتبه فإنه كلام خالق الكون، كلام من بيده كل شيء، والعالم بكل شيء، والقادر على إنفاذ كل حكم.

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

هذه الأمم، إذا زار إنسان مصر، ورأى الأهرامات، ودخل إليها، ودخل إلى مقابر الفراعنة يعلم من هم الفراعنة، أهرامات جلبت أحجارها من أسوان، ونقلت من شاطئ نهر النيل إلى مسافة تزيد على ستة عشر كيلو متراً، وكل حجر حجمه نصف هذا المسجد، كيف حمل ؟ وكيف رفع ؟ وكيف أصبح هذا الهرم ؟ وكيف أن الشمس تدخله في يوم واحد ؟ إذا أحضرت كل مهندسي العالم، هل يمكن أن تصنع نافذة لبناء بحسب حركة الشمس أن تدخل الشمس إلى هذا البناء في يوم واحد، هناك أشياء في الحضارات السابقة تكاد تكون معجزة، ومع ذلك أهلكهم الله عز وجل، ودمرهم، وجعلهم أحاديث، طبعاً كل أمة لم تؤمن بالله عز وجل مهما كانت قوية تدمر، أو ما رأيتم كيف أن أمماً كبرى وعظمى دمرت

في سنتين، وانتهت، يقول لك: كانت تسمى من قبل كذا، فالله عز وجل يدمر أمماً، وشعوباً، وأقوى الكيانات.

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا(44))

علمه يطولك، وقدرته تطولك، والإنسان إذا أيقن أن علم الله يطوله، و أن قدرته تطوله فلابد من أن يستقيم، قال تعالى:

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة النحل، من الآية 61)

أنت لديك فسحة في العمر إلى أجل معلوم، ولك أن تؤمن، ولك ألا تؤمن، ولك أن تكفر، لك أن تشرك، ولك أن تجحد، لك أن تلحد، لك أن تستقيم، لك أن تحسن، لك أن تصلي، لك ألا تصلي، أنت مخير، لك عند الله هذا الأجل، لكن حينما ينتهي الأجل يبدأ الجزاء، قال تعالى:

(وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)

أنت الآن في دار عمل، و سوف يأتي الجزاء، فهذه دار تكليف، وهناك دار تشريف، لذلك:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة)

انتهى الخيار، وبدأ الجزاء، و نرجو الله سبحانه و تعالى أن نعرف حقيقة هذه الدنيا، وأن نعرف سر وجودنا فيها، و أن نعمل صالحاً يرضي الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-12، الأحاديث المتعلقة بفضل سورة يس على الأحياء قبل الأموات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-07-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة يس.

(يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

الأحاديث المتعلقة بسورة يس:

أيها الأخوة الكرام: قبل أن نشرع في تفسير هذه السورة الكريمة، أورد لكم طائفة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلقة بهذه السورة:

((اقْرَءُوا يس عَلَى مَوْتَاكُمْ))

[سنن أبي داود عن معقل بن يسار]

ومعنى موتاكم أي الذين شارفوا على الموت:

((حَدَّثَنِي الْمَشْيَخَةُ أَنَّهُمْ حَضَرُوا غُضَيْفَ بْنَ الْحَارِثِ الثُّمَالِيَّ حِينَ اشْتَدَّ سَوْقُهُ فَقَالَ: هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَقْرَأُ يس ؟ قَالَ: فَقَرَأَهَا صَالِحُ بْنُ شُرَيْحٍ السَّكُونِيُّ، فَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ مِنْهَا قُبِضَ، قَالَ: فَكَانَ الْمَشْيَخَةُ يَقُولُونَ إِذَا قُرِئَتْ عِنْدَ الْمَيِّتِ خُفِّفَ عَنْهُ بِهَا))

[أحمد عن أم الدرداء]

هذا حديث آخر.

الأحاديث المتعلقة بفضل سورة يس على الأحياء قبل الأموات:

أما الأحاديث المتعلقة بالأحياء قبل الأموات:

((مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ غُفِرَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ))

[الدارمي عن أبي هريرة]

((إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَإِنَّ قَلْبَ الْقُرْآنِ يس مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ عَشْرَ مَرَّاتٍ))

[أخرجه الدارمي عن أنس]

هذا حديث آخر:

((إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها ويغفر لمستمعها وهي سورة يس))

[ورد في الأثر]

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((مَنْ قرَأَ يس حِينَ يُصْبحُ أعْطِيَ يُسْرَ يَوْمِهِ حَتّى يُمْسِيَ وَمَنْ قرَأهَا فِي صَدْر لَيْلِهِ أعْطِيَ يُسْرَ لَيْلَتِهِ حَتّى يُصْبحَ))

[الدارمي عن ابن عباس]

إن قرأتها صباحاً فطول النهار أنت في يسر، وإن قرأتها ليلاً فطول الليل أنت في يسر، إذاً لابد من أن نحفظها، لابد من أن نقرأها صباحاً أو مساءً أو مرة في اليوم، وفي حديث آخر هذا الحديث مقطوع بمعنى أن صحابياً ذكره: **" بلغني أنه من قرأ سورة يس ليلاً لم يزل في فرح حتى يصبح، ومن قرأها حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسي".**

هذه بعض الأحاديث الشريفة التي وردت في حق هذه السورة الكريمة.

تفسير كلمة يس:

(يس (1))

النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام علي كرم الله وجهه يقول:

((إن الله تعالى أسماني في القرآن الكريم ـ أي سماني ـ محمداً و أحمداً وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله))

[ورد في الأثر]

1 ـ يس اسم للنبي عليه الصلاة و السلام:

النبي عليه الصلاة والسلام يذكر أن يس اسماً له، وقد جاء في بعض التفاسير أن الله عز وجل خاطبه بهذا الاسم.

2 ـ أو تدل على عصمة النبي عليه الصلاة والسلام عن كل خطأ:

وقد فسره بعض المفسرين إما سليماً من العيوب، أي أن النبي معصوم عن كل خطأ، فهو سليم في قلبه، سليم في قوله، سليم في أفعاله.

3 - أو هي نوع من أنواع الإعجاز:

بالإضافة إلى قول بعض المفسرين أن هذه الحروف التي تفتتح بها بعض السور هي من نوع الإعجاز، أي من مثل هذه الحروف نظم القرآن.

4 - أو الله أعلم بمراده:

بعضهم قال: الله أعلم بمراده.

5 - أو يس اسم من أسماء الله تعالى:

قال بعضهم: يس اسم من أسماء الله عز وجل. وأغلب المفسرين على أن يس هي اسم للنبي عليه الصلاة والسلام، وقد وجه هذا التوجيه إما سليماً من العيوب، ويدل على ذلك:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ (3))

فالكاف للخطاب:

(يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

قسم الله عز وجل بالقرآن الكريم:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

ربنا سبحانه وتعالى يقسم بالقرآن الكريم، هذا القرآن بهذا القسم وصف بأنه حكيم.

حكيم كلمة لها عدة معان منها:

1 - محكم في نظمه و معانيه:

معنى حكيم أي محكم في نظمه، محكم في معانيه، محكم في بنائه، محكم في مضمونه، محكم في شكله، محكم في فحواه، محكم لأنه من عند الحكيم:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ (1))

(سورة هود: الآية1)

أي يوجد ترابط، يوجد نظم معجز، يوجد معاني متسلسلة، يوجد دقة متناهية، يوجد حكمة بالغة. هذا المعنى الأول:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

أنه محكم في نظمه، محكم في معانيه، ليس في نظمه خلل، وليس في معانيه خطأ، ليس في نظمه ضعف، أو ركاكة، أو تناقض، أو تنافر، وليس في معانيه خطأ أو انحراف.

2 ـ كتاب ينطق بالحكمة:

المعنى الثاني للحكيم: أي ذو حكمة أي كتاب ينطق بالحكمة، وما الحكمة ؟ يعني من باب التمثيل والتقريب: لو أن إنساناً عنده آلة يعاني من بعض المشكلات، ثم قرأ بعد حين تعليمات صانع الآلة، فقال: ليتني قرأت هذا الكتاب، لو أنني قرأت هذا الكتاب لعرفت كيف استعمله، لتلافيت كل متاعبي فيها.

إذاً الحكمة هي حقيقة، لو أخذت بها، لسعدت في الدنيا والآخرة، الإنسان أحياناً يكتشف الحقائق من خلال التجارب، وقد يدفع الثمن باهظاً، فمعظم الناس يقعون في شر أعمالهم، ولكن بعد فوات الأوان وقبيل الوفاة في خريف العمر، يقول آه ! ليتني عرفت الحقيقة في مقتبل حياتي.

العاقل من يستقي الحقائق من الخبير ليسعد في الدنيا و الآخرة:

الإنسان الكامل إما أن يستقي الحقائق من خبير فيهتدي بها ويتلافى الشقاء في الدنيا والآخرة، وإما أن يكتشفها بنفسه، اكتشاف الحقائق من خلال التجارب العملية فيها مغامرة وفيها مخاطرة، مثلاً لو أن قنبلة على الأرض !! سألت نفسك هل هذه قنبلة أم لا ؟ قلت سأختبرها بنفسي، لو أنك اقتربت منها لتختبرها فانفجرت لم تبق في الحياة، وقتها تستفيد من هذه الخبرة، ولكن بعد أنْ دفعت الثمن باهظاً جداً لمعرفتها، أما لو جئت بخبير والخبير يعرفها ما إذا كانت موقوتة أو غير موقوتة، نزع فتيلها إن كانت قنبلة حقيقية أو خلبية فحينما تأخذ كلام الخبير تنجو، أما حينما تكتشف الحقيقة بنفسك ربما كان الثمن باهظاً جداً، فلذلك نجد في القرآن الكريم تعليمات الصانع:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

أي والقرآن المفعم بالحكم، وبالحقائق، لو أن الإنسان أخذ بها لسعد في الدنيا والآخرة، الإنسان في مقتبل حياته قد يظن المال كل شيء، وفي كهولته يظن المال شيئاً من الأشياء، لكن قبيل الموت يرى أن المال ليس بشيء، ويرى أن طاعة الله هي كل شيء.

من عرف الحقائق آثر طاعة الله على كل شيء:

لو عرف أن طاعة الله هي كل شيء في مقتبل حياته لسعد في الدنيا والآخرة، المشكلة مشكلة وقت، يا أخوان عند الموت لابد من كشف الحقائق:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق: الآية22)

المشكلة أن تعرف الحقائق في الوقت المناسب، أن تعرفها في مقتبل الحياة، قبل أن تتزوج، قبل أن تختار مهنتك، وقبل أن تختار طريقك، لأنك إذا عرفت الحقائق، آثرت طاعة الله على كل شيء.

لا يمكن للإنسان أن يسعد في حياته إلا بالاتصال بالله عز وجل:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

المعنى الأول: إنه محكم في نظمه، محكم في معانيه.

المعنى الثاني: القرآن الحكيم أي ذو حِكَم، مثلاً الله عز وجل قال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (124))

(سورة طه: الآية 124)

هذه حقيقة: إذا ظننت لدقيقة واحدة أنه يمكن أن تسعد وأنت مُعْرِض عن الله عز وجل، فهذا وهم كبير وهذا خطأ فادح، أما إذا أيقنت وأنت في مقتبل الحياة أنه لا سعادة إلا بالاتصال بالله عز وجل، وأنه لا سعادة إلا بالإقبال عليه، ولا سعادة إلا بطاعته، هذه حقيقة أساسية فإما أن تكتشف هذه الحقيقة في خريف العمر بعد فوات الأوان، وإما أن تقرأ قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (124))

(سورة طه: الآية 124)

لكل إنسان عند الله عز وجل معاملة خاصة تتعلق بإيمانه واستقامته:

إذاً معنى:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

أي أنه ذو حكم أو ذو حقائق، مثلاً قد تتوهم أن الحياة بالذكاء، والشطارة، وكثرة الأموال، واغتنام الفرص، واقتناص المناسبات، ويفوتك أن التوفيق بالحياة أساسه الاستقامة، يقول الله عز وجل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ (21))

(سورة الجاثية: الآية21)

هذه الآية إذا قرأتها في مقتبل حياتك وأيقنت بمضمونها، وعلمت أن الله لن يعامل المؤمن المستقيم كالمسيء الغافل الكافر، وأن لكل إنسان معاملة خاصة تتعلق بإيمانه واستقامته.

في القرآن الكريم حقائق تتعلق بسعادة الإنسان و صحته و كل ما يهمه:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

أي ذو حكم، فيه حقائق تتعلق بسعادتك، تتعلق بصحتك:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا (31))

(سورة الأعراف: الآية 31)

في كل شيء، هذه حقيقة تتعلق بصحتك.

(لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قَوْمٍ (11))

(سورة الحجرات: الآية 11)

السخرية أحيانا تسبب كل المتاعب طبعاً ليس المجال هنا متسعاً لذكر الحكم التي في القرآن، القرآن طافح بالحكم، إذا قرأت القرآن، وكشفت الحكم، أو القواعد، أو الثوابت، أو القوانين، أو السنن، هذه من عند خالق الكون فإذا عرفتها في الوقت المناسب، وأخذت بها، سعدت بالدنيا والآخرة، وإن توهمت شيئاً خلافها كشفت بعد فوات الأوان أنك في خطأ كبير ووهم كبير، هذا المعنى الثاني والقرآن الحكيم أنه ذو حكم.

3 ـ ذو حكمة في مخاطبة الإنسان:

والمعنى الثالث:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

أي ذو حكمة في مخاطبة الإنسان، يخاطب عقله تارة، ويخاطب قلبه تارة، ويخاطب عقله وقلبه معاً تارة أخرى، يذكر له أخبار الأقوام السابقة ؛ كي تستخلص العبر والحقائق، يذكر ما كان قبل الحياة، وما سيكون بعد الممات، يذكر الدار الآخرة بمشاهد رائعة، مشاهد محببة عن أهل الجنة، ومشاهد مخيفة عن أهل النار، يذكر الآيات الكونية، فهو محكم في نظمه وفي معانيه، ذو حكم تنفعك في حياتك وفي

سعادتك، وهو ذو حكمة في التنويع في مخاطبة الإنسان وفي الترفق به، في الإيجاز تارة في الإطناب تارة أخرى، في التفاصيل عن أخبار الأمم السابقة، فيما سيكون، هذا كله متعلق بالحكمة.

القرآن الحكيم يدل الإنسان على أن النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله:

ربنا عز وجل يقسم بهذا القرآن الحكيم المحكم، و ذو الحكم، و ذو الحكمة، يقسم بأنك يا محمد

(لمن المرسلين)

و قد نستنبط بأن الدليل القاطع على أن النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله هو ذلك الكتاب الذي جاء به، حينما يمسك سيدنا موسى العصا فتنقلب ثعباناً مبيناً، أليس هذا دليلاً قاطعاً على أن هذا الإنسان هو رسول الله ؟ لأنه جاء بشيء يعجز عنه البشر، كذلك نبينا عليه الصلاة والسلام جاء بهذا القرآن، فالقرآن الكريم والقرآن الحكيم والقرآن المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي إعجازه مستمر إلى يوم القيامة لقوله تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ (53))

(سورة فصلت: الآية 53)

هذا القرآن الحكيم يدل على أنك من المرسلين، فالنبي رسول، هنا ليس المقام مقام تمييز رسول عن رسول، المقام أن هذا الإنسان الذي تعرفون نسبه، وتعرفون أمانته، وتعرفون صدقه، وتعرفون عفافه، وتعرفون ماضيه، وتعرفون نقاءه ونظافته، هو رسول الله، القرآن الذي بين يديه يؤكد أنه رسول رب العالمين.

مهمة النبي الكبرى إقناع الناس بأفعاله و كلامه:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3))

معنى ذلك أن الرسل كثيرون، وأن الله عز وجل اقتضت رحمته ألا يدع العباد معطلين عن الأمر والنهي، ألا يدع العباد معطلين عن توجيهات الخالق جلّ وعلا، فربنا عز وجل خالق رحيم، هو نور السماوات والأرض، هو خلقها ونورها بكتبه التي أنزلها على أنبيائه المرسلين:

(يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3))

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله، جاء بالحق من عند الله، عرّفنا بحقيقة الكون، وحقيقة الدنيا، وحقيقة الإنسان، وما مهمة الإنسان في الدنيا ؟ أين كان ؟ وإلى أين المصير ؟ لكن لا يكفي أن

تكون مهمة النبي عليه الصلاة والسلام فقط مهمة إبلاغية، ليست فقط مهمة علمية، ليست فقط مهمة كلامية، مهمته الكبرى: أنه قدوة، يقنعك بلسانه وبأفعاله.

انعدام قيمة الدعوة إلى الله إن لم يرافقها تطبيق عملي:

لذلك:

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

وهذه حقيقة مهمة جداً، أي ما قيمة الدعوة إلى الله إن لم تكن على أساس من التطبيق ؟

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا (33))

(سورة فصلت: الآية 33)

إذاً: مهمة النبي عليه الصلاة والسلام كقدوة حسنة وأسوة حسنة ومثل أعلى، لا تقل عن مهمته كمبلغ وكرسول.

المؤمن الحقيقي من استقام على أمر الله و التزم بما أمره:

لذلك جاء في هذه الآية هذا الجمع بينهما:

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

ويكفينا قول الله عز وجل:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ (112))

(سورة هود: الآية 112)

وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، يعني هذا الذي يقوله عامة الناس: يا أخي أنا لست نبياً، من قال إنك نبي، إنك مؤمن، وأنت كمؤمن مأمور بالاستقامة على أمر الله عز وجل،

(فاستقم كما أمرت ومن تاب معك)

من حيث الأعمال الصالحة افعل منها ما تطيق، ابذل بقدر استطاعتك، لكن من حيث الاستقامة والالتزام ؛ لابد من أن تلتزم أمر الله عز وجل، حتى تستحق أن تكون مؤمناً مخاطباً كما خوطب النبي عليه الصلاة والسلام:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ (112))

(سورة هود: الآية 112)

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

النبي عليه الصلاة والسلام المَثَل الأعلى للإنسان:

يا أيها الأخوة الأكارم: القرآن الكريم يأمرنا أن نأخذ ما آتانا النبي:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (7))

(سورة الحشر: الآية 7)

القرآن الكريم يجعل النبي عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (21))

(سورة الأحزاب: الآية 21)

إذاً أنت مأمور أن تأخذ بأقواله، وأن تتبعه بأفعاله، إذاً لابد أن تعرف هذا النبي العظيم:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69))

(سورة المؤمنون: الآية 69)

لابد من أن تعرفه، من خلال أقواله، ومن خلال أفعاله، كي تأخذ أقواله كأمر ونهي، وتأخذ أفعاله كقدوة ومثل أعلى في حياتك، وكل إنسان له في حياته مثل أعلى، والمؤمن مثل الأعلى النبي عليه الصلاة والسلام.

على الإنسان أن يتعرف على أفعال النبي الكريم حتى يقتدي به:

الإنسان عادةً في ذهنه إنسان يعظمه، فإن كان من أهل الدنيا قلده في انغماسه في الدنيا، وإذا كان هذا المثل الأعلى في النبي عليه الصلاة والسلام، قلّده في أفعاله، وفي أقواله، النبي عليه الصلاة والسلام كيف يدخل على أهله ؟ كيف كان متواضعاً ؟ كيف كان حليماً ؟ كيف كان عذب الروح ؟ كيف يتصابى للصبيان ؟ كيف إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً ؟ كيف كان يفعل مع أهله ؟ مع أصحابه ؟ كيف كانت مواعيده ؟ كيف كان كلامه ؟ كيف كان حياؤه ؟ كيف كانت شجاعته ؟ يجب أن تقرأ أقوال النبي حتى تأخذ بها كأمر ونهي وكمصدر تشريعي، ويجب أن تأخذ بأفعال النبي حتى تقتدي به.

نزول القرآن الكريم من عند خالق الكون:

إذاً:

(يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

هذا القرآن من عند مَنْ ؟

(تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5))

من عند خالق الكون، العزيز.

العزيز كلمة لها عدة معان منها:

1 ـ الذي لا يُنال جانبه:

معنى العزيز الذي لا يُنال جانبه.

2 ـ الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء:

العزيز في اللغة: هو الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء، ويصعب الوصول إليه.

3 ـ الفرد الذي لا ثاني له:

العزيز هو الفرد الذي لا ثاني له، العزيز الرحيم ليس إلا الله عزيزاً، وليس إلا الله رحيماً، وهذا الكتاب من عنده.

فالعزيز تشير إلى صفة العظمة، والرحمة تشير إلى صفة الكمال، فإذا أردت أن تلخص أسماء الله الحسنى كلها في ثلاث كلمات: الله موجود ؛ إذا أيقنت بوجوده ؛ تقول ما صفاته ؟ تقول: عزيز، رحيم، قوي أي لا شريك له، كامل لا ند له، موجود وواحد وكامل.

الله عز و جل رحيم لا يدع عباده من دون إنذار و توجيه:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6))

في بعض التفاسير توجيه لطيف جداً لهذه الآية: لتنذر قوماً إنذاراً كما أنذر آباؤهم، هذه الـ (ما) موصولة، وليست نافية، لتنذرهم كما أنذر آباؤهم، لأن الله سبحانه وتعالى رحيم، لا يدع عباده من دون إنذار، فعباده يتلقون توجيهاتهم من الله والإنذارات بشكل مستمر:

(لِتُنْذِرَ قَوْمًا (6))

أي أهل مكة:

(مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ (6))

لتنذرهم إنذارا كالذي أنذر به آباؤهم:

(فَهُمْ غَافِلُونَ (6))

غافلون عن الله عز وجل، غافلون عما ينتظرهم من عذاب أليم، غافلون عما أعدّ لهم من نعيم مقيم، غافلون عن هذا التشريع العظيم.

من يكذب برسالات الله عز وجل يشقى في الدنيا والآخرة:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

أيها الأخوة: أتمنى على الله جلّ وعلا أن نفهم هذه الآية فهماً دقيقاً:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ (7))

أي قول هذا ؟! ربنا سبحانه وتعالى له سنن في الحياة، وله قوانين، هذه نواميس الكون، هذه سنن الخلق، مثلاً: لو أن مادة تقول: إذا انقطع الطالب عن المدرسة أسبوعين يفصل، فإذا سأل مدير المدرسة أحد الموجهين: ائتني بدوام هذا الطالب، فجاءه بغياب سبعة عشر يوماً، يقول له لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد انطبقت عليه المادة الثانية من النظام الداخلي بوجوب فصله.

معنى

(حق القول على أكثرهم)

أي هذه السنن التي سنّها الله عز وجل، هذه القواعد التي قَعَّدَها الله عز وجل، هذه القوانين التي قننها الله عز وجل، هذه المبادئ التي وضعها الله عز وجل، تقتضي أنه من يكذب برسالات الله عز وجل، يشقى في الدنيا والآخرة.

الهلاك عاقبة من اتبع أهواءه و نزواته:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ (7))

حقت هذه القاعدة عليهم، انطبقت عليهم، هذا المعنى الذي يُفْهم من هذه الآية، لا كما يقول بعضهم: إن هذا الإنسان خلق كافراً، وقد حق القول عليهم أن يكونوا كفاراً، ما معنى إذاً إنزال هذا الكتاب ؟ إذا كان هذا الكافر ما كفر إلا لأن الله قدر عليه الكفر وانتهى الأمر، ما معنى إبلاغه

(لقد حق القول على أكثرهم)

أي القواعد التي قعدت، القوانين التي قننت، النواميس التي سنت، الثوابت التي ثبتت، هذه انطبقت عليهم، ما هذه الثوابت ؟ ما هذه القوانين ؟ أن كل من يكذب برسالات الله عز وجل ولا يعبأ بها، وينطلق في الحياة وفق شهواته، وأهوائه، ونزواته سيشقى في الدنيا والآخرة، سيهلك في الدنيا والآخرة.

من انحرف عن منهج الله عز وجل وجب له العقاب:

إذاً:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ (7))

حق القول بأنه:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (124))

حق القول:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33))

(سورة يونس: الآية 33)

لو أنك استنبطت القواعد التي قعدها الله في القرآن الكريم، لرأيتها تنطبق على هؤلاء، لو أن إنساناً ارتكب جريمة بقصد وتصميم وإصرار وسابق تصور، وجاء القاضي ليحاكمه، فقال له المادة العاشرة من قانون العقوبات تنطبق عليك إذاً لابد من حكم الإعدام.

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

لقد حق القول على أنهم إذا اتبعوا الشهوات لا يؤمنون، إذا انحرفوا عن منهج الله لا يؤمنون، إذا اتبعوا الشهوات ينحازون إلى شهواتهم، ويعرضون عن الحق، إذا اتبعوا الشهوات واستمرؤوها يرون الحق ثقيلاً عليهم إذاً يكفرون به، إذا جعلوا من شهواتهم دليلاً أنهم على حق كانوا في خطأ كبير.

من صدق برسالات الله سعد في الدنيا و الآخرة و من كذب بها دفع الثمن باهظاً:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

فإذا غاب طالب، ولم يحضر الامتحان، نقول له: لقد انطبقت عليك مواد النظام الداخلي وقد اقتضت ترقيم قيدك هذا العام، هكذا المعنى !!

فإما أن تصدق برسالات الله عز وجل فتسعد في الدنيا والآخرة، أمّا إذا كذبتها فتدفع الثمن باهظًا:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

كيف يؤمنون ولم يفكروا في هذا الكون ؟ كيف يؤمنون ولم يبحثوا عن منهج الله عز وجل ؟ كيف يؤمنون ولم يطبقوا منهج الله عز وجل ؟ كيف يؤمنون و قد جعلوا من شهواتهم آلهة لهم ؟ كيف يؤمنون وقد جعلوا مصالحهم هي التي توجههم إلى مستقبلهم ؟

من رفض الحق قبل الباطل و من رفض العقل سَيّرته الشهوة:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

كأن الله جل جلاله يبين لنا: أنك إما أن تستجيب لرسالات الله عز وجل:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5))

وإما أن يحق القول على الإنسان الذي رفض رسالات الله، ورفض منهج الله عز وجل، وسار في الدنيا وفق أهوائه، لقد حقّ القول عليه أنه لا يؤمن، الله عز وجل الآن يبين لنا: أن هذا الكافر حينما أعرض عن ذكر الله، وحينما رفض رسالات الله، وحينما رفض منهج الله، وحينما انطلق في حياته وفق شهواته، وفق نزواته، وفق مصالحه، حينما فعل هذا، ما الذي حصل له ؟ استحكمت فيه شهواته، الإنسان إما أن يقوده الحق، وإما أن تقوده شهواته، قلب الإنسان إما أن يمتلئ حباً لله، وإما أن يمتلئ حباً للدنيا، إما أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لشهوة أو لنزوة أو لإنسان لئيم، لا يوجد حالة وسط، فحينما رفض الإنسان الحق، قبل الباطل، حينما رفض الإنسان العقل ؛ سيّرته الشهوة.

تصوير حال الكافر الذي اتخذ من شهوته قدوة له:

الله عز وجل يصور لنا حال هذا الكافر الذي أعرض عن الله عز وجل، وجعل إلهه هواه والشهوة قدوة له:

(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8))

الأغلال وضعت في أيديهم، وسحبت أيديهم إلى أعناقهم، وحينما سحبت إلى أعناقهم، رفعت رؤوسهم، وغضوا أبصارهم، إنسان لا يستطيع أن يرى أمامه، مقيد على أن يفعل شيئاً، يعني الشهوات كالأغلال، يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، الشهوة غل (قيد):

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

فالشهوات أغلال، فالغارقون في الزنى، الغارقون في شرب الخمر، الغارقون في المخدرات، الغارقون في حب المال، الغارقون في حب النساء، هذه الشهوات جعلت منهم عبيداً مقيدين، عبيداً لشهواتهم، إنا جعلنا في أعناقهم لكن جعلنا هذه على رأي علماء التفسير تحصيل حاصل، يعني طبيعة الإنسان إن لم يستنر بنور الله، سوف تقوده شهوته، إن لم يمتلئ قلبه حبًا لله، سوف يمتلئ شهوة خبيثة، هذا قانون الله عز وجل، هذا من: لقد حق القول على أكثرهم.

من استحكمت به شهوته و جعل إلهه هواه خسر الدنيا و الآخرة:

الآن الوعاء لابد من أن يكون ممتلئاً، فإذا فرغته من الهواء، عندئذ عنده قابلية سحب أي شيء، فنفسك كالوعاء المفرغ من الهواء، إما أن يمتلئ حقاً، وإما أن يمتلئ باطلاً، إما أن يمتلئ قيماً، وإما أن يمتلئ شهوات، فلذلك حينما رفض الإنسان الحق، ورفض منهج الله، ورفض ما عند الله من نعيم مقيم، هذه النفس الفعالة امتلأت شهوات مستعرة، حاله وقد استحكمت به شهوته، حاله وقد جعل إلهه هواه ؛ كإنسان قيدت يداه، وربطت إلى عنقه، فهو لا يستطيع أن ينظر أمامه، ولا أن يفعل شيئاً، لا يرى ولا يفعل، الإنسان إدراك وحركة، تعطل إدراكه فالشهوة حجاب، تعطلت حركته فالشهوة قيد:

(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8))

مقمح: أي رفع رأسه وأغمض عينيه ورفع رأسه بسبب تقييد يديه إلى عنقه:

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ (29))

(سورة الإسراء: الآية 29)

وصف دقيق تشبيه تمثيلي لحال الكافر الذي رفض الحق واتبع الباطل، رفض العقل واتبع الشهوة، رفض حب الله عز وجل وأحبّ الدنيا، رفض أن يكون العقل رائده فجعل الشهوة قائداً له.

الشقي من ضيع دنياه و آخرته:

(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(9))

سد أمامهم يحول بينهم وبين سعادة الدنيا، وسد خلفهم يحول بينهم وبين سعادة الآخرة، بالإضافة إلى أنهم مقيدون لا يستطيعون حراكاً، و رؤية شهوتهم أعمت أبصارهم، وقيدت أفعالهم بالإضافة إلى ذلك، جعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً، أراد الدنيا فشقي بها، وفاتته الآخرة، ضيع الدنيا والآخرة، سُدًّا أمامهم، عاشوا في الدنيا أشقياء:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

وحينما رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق، رأوا مصيرهم المحتوم في جهنم و بئس المصير، إذاً جعلنا من بين أيديهم سداً، هذه حقيقة واضحة، اسأل أهل الدنيا، اسأل ملوك المال، اسأل عظماء الدنيا ممن جاءتهم الدنيا من كل جانب، هل أنتم سعداء ؟ أنا أقول لكم وأنا متأكد من كلامي أنهم من أشقى الناس لأن الله عز وجل يقول:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

(سورة الروم: الآية 7)

ما عرفوا حقيقة الدنيا وإنما عرفوا ظاهرها، ظنوا أن المال فيها هو كل شيء، أو أن المتعة هي كل شيء، أو أن العلو في الأرض هو كل شيء، أو أن تألق الإنسان في سماء الشهرة هو كل شيء.

من أعرض عن الله عز وجل شقي في الدنيا قبل الآخرة:

لماذا ينتحر من بلغ أوج النجاح في حياته ؟ لماذا ينتحرون ؟ سمعت بالأخبار، ملكة حاولت الانتحار ست مرات لماذا ؟ الإنسان إذا أعرض عن الله عز وجل، يصبح شقياً في الدنيا:

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9))

وصف دقيق، صورتان صارختان معبرتان لمن امتلأ قلبه بالشهوات، يداه مقيدتان تمنعانه من الحركة، مقيدتان إلى عنقه، ورأسه مرفوع يمنعه من أن ينظر، لا يدرك ولا يفعل، ذلك شأن الشهوة، أعمت بصره، وقد قال عليه الصلاة والسلام:حبك الشيء يعمي ويصم، شهوته أعمت بصره، وقيدت حركته، شقي في الدنيا، وشقي في الآخرة، سدّ بينه وبين سعادة الدنيا، وسدّ بينه وبين سعادة الآخرة، هذا الذي يرفض رسالات الله:

(يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

من آثر الدنيا على الآخرة سَوَاء محياه و مماته:

حينما انطبقت عليهم قوانين الله عز وجل، حينما رفضوا دعوة الله عز وجل ولم يستجيبوا لها، رفضوا منهجه، آثروا الشهوة، آثروا الدنيا:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

عندئذ ترى حالهم كحال الذي:

(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(9))

عندئذ ماتت قلوبهم:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ (21))

(سورة النحل: الآية 21)

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10))

(سورة فاطر: الآية 22)

عدم إيمان الإنسان الذي أغلق عقله و أدار ظهره للحق:

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10))

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكنك تنفخ في رمـــاد

*** * ***

هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10))

أنت يا محمد تنذر مَنْ ؟ إنما تنذر من اتبع الذكر.

من جعل القرآن أمامه قاده إلى الجنة:

هذا الذي قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه، اتعظ بآياته، اعتبر بأخباره، هذا الذي قرأه ليلاً ونهاراً، هذا الذي قرأه قراءة كما أراد الله عز وجل، قرأه على النحو الذي أراده الله:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ (121))

(سورة البقرة: الآية 121)

هذا الذي فهمه، هذا الذي فهم معانيه، هذا الذي طبقه، قرأ وفهم وتدبر وطبق، هذا معنى من اتبع الذكر، هذا الذي جعل القرآن إماماً له، مَنْ جعله أمامه، قاده إلى الجنة. ومن جعله خلفه، ساقه إلى النار.

(اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان: الآية 30)

من اتبع القرآن الكريم سعد في حياته و بعد مماته:

يكفي أن تقول لإنسان قال الله عز وجل، يقول: يا أخي هذه الآيات ليس وقتها، هذا الكلام جعله وراء ظهره، يكفي أن يقول الله عز وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ (221))

(سورة البقرة: الآية 221)

شخص خطب فتاة، الأب سأله عندك بيت ؟ قال عندي، قال أريد الطابو، أحضر ورقة الطابو، أريني البيت، رأى البيت، عندك سيارة أين الميكانيكا و أين السيارة ؟ رآها، عملك ؟ قال عندي معمل، أين المعمل الرخصة فرآه مناسباً جداً، بيت وسيارة ومعمل فوافق، فمرةً دخل لعنده شخص قال: هذا صهري، نظر هذا الشخص وقال: هذا إنسان من غير دينك: قال تعال هنا، ما سألتني عن ديني سألتني عن عملي وعن سيارتي فقط !! فالإنسان حينما لا يعبأ بكلام الله عز وجل، يدفع الثمن باهظاً والله يقول:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ (221))

(سورة البقرة: الآية 221)

فالذي لا يتبع القرآن الكريم:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (9))

(سورة الإسراء: الآية 9)

هكذا قال الله عز وجل.

علامة المؤمن أن يتبع ما في القرآن الكريم:

فالذي أريده أن أقول لكم:

(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ (11))

المؤمن دائماً وقّاف عند أمر الله عز وجل، في هذا الموقف ما أمر الله عز وجل؟ ما نهيه ؟ ماذا يريد ؟ ما الحكم الشرعي ؟ إنما تنذر من اتبع الذكر، قبل أن تسافر، قبل أن تتاجر، قبل أن تتعين في هذه الوظيفة، هذه الوظيفة هل ترضي الله عز وجل ؟ هل فيها نفع للمسلمين أم فيها إيذاء لهم ؟ قبل أن تتاجر هل هذه التجارة مشروعة أم غير مشروعة ؟ وقبل أن تمارس هذه التجارة المشروعة هل في هذه الممارسة انحراف عن الحق أم اتباع له ؟ إنما تنذر من اتبع الذكر، أي علامة المؤمن أنه يتبع ما في القرآن الكريم، هذا الإنسان إذا أنذرته، ارتعدت فرائصه، هذا الإنسان إذا أنذرته بادر إلى التوبة، هذا الإنسان إذا أنذرته استجاب لك:

(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ (11))

أي في هذه الآية شيء متعلق بالإيمان.

الإنسان إذا فكر بالكون عرف الله عز وجل و عرف عظمته و قدرته:

الله عز وجل غاب عن أبصارنا، وغاب عن حواسنا، ولكن هذا الكون يدل عليه، إذا فكر في الكون عرف الله عز وجل، وخشيه في الغيب دون أن يراه، فالإنسان إذا فكر بالكون عرف الله عز وجل، فإذا عرف عظمته، وعرف جلاله، وعرف قدرته، وعرف رحمته، وعرف حكمته، وعرف أنه هو الفعال، وأنه الواحد المتعال، وأن الكون كله بيده، خشيه، وهذا كلامه فاتبعه، فهذا الإنسان الذي عرف الله متفكراً، واتبعه مستقيماً، هذا الإنسان إذا أنذرته، رأيته يعطيك أذناً صاغية، هذا الإنسان إذا ذكرته بالله عز وجل ذكر، إذا خوفته خاف، إذا بشرته استبشر، إذا حذرته يحذر، إذا أنذرته يتبع ويقف عند حده، قال:

(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ (11))

من فكّر في ملكوت الله عز وجل آمن به و اتبعه:

أي الله عز وجل قال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص: الآية 61)

كأن الله عز وجل يبلغنا بشكل غير مباشر، يعني يا عبادي: فكروا بالكون، وآمنوا بي حتى تخشوني، واقرؤوا القرآن واتبعوا ما فيه، حتى إذا ذكرتكم ذكرتم، وإذا خوفتكم خفتم، وإذا بشرتكم استبشرتم، وإذا حذرتكم وقفتم عند حدّكم:

(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11))

الإنسان إن استجاب لهذا القرآن أو لم يستجب لابد أن يموت و يدفع الثمن باهظاً:

مرة ثانية هذه السورة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَإِنَّ قَلْبَ الْقُرْآنِ يس...))

[الدارمي عن أنس]

يا أخوتي كثيراً ما أتمنى على الله عز وجل أن يعطوا هذه السورة حقها:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى (12))

أي الإنسان إن استجاب لهذا القرآن أو لم يستجب لابد أن يموت، لأن كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر:

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبـور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمـول

* * *

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى (12))

أنت أيها الإنسان، إما أن تستجيب أو لا تستجيب، إمّا أن تتبع هذا الهدى أو أن تتبع الشهوة، إمّا أن تستجيب لله عز وجل، أو أن تستجيب للطواغيت من الإنس والجن، على كلٍ: لابد من الموت وبعد الموت تدفع الثمن باهظاً.

من عرف الله عز وجل وأناب إليه أحياه الله بعد الموت:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى (12))

بعضهم فسر هذه الآية، أن الإنسان إذا كان ميت قلبه، ميتة نفسه، وعرف الله عز وجل وأناب إليه، يحييه الله بعد الموت:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ (122))

(سورة الأنعام: الآية 122)

هذا هو المعنى الآخر:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا (12))

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1))

(سورة النساء: الآية 1)

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14))

(سورة الفجر: الآية 14)

كل أقوال الإنسان و أفعاله مسجلة عليه ليحاسب يوم القيامة حساباً عادلاً:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14))

(سورة الإسراء: الآية 14)

كل أقوالك مسجلة، كل أفعالك مسجلة، كل نواياك مكشوفة عند الله عز وجل، كل أسرارك معلنة، كل طويتك منشورة، كل أفعالك ممهورة، هذا هو المرقوم، كتاب مرقوم: يعني مرقم، لا تند عنه صفحة، وكتاب مرقوم من رقم، يعني كل مخالفة مع صورتها، كأن الإنسان يوم القيامة تعرض عليه أعماله وكأنه شريط سينمائي: فعلت كذا، وقفت هذا الموقف، ذهبت إلى هذا المكان، كذبت هذه الكذبة، احتلت هذا الاحتيال، أخذت مالاً حراماً، اعتديت على أعراض الناس، كله مسجل:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14))

(سورة الإسراء: الآية 14)

أحياناً المذنب يُصَور وهو لا يدري، فإذا دخل للتحقيق، عرضوا عليه فيلماً عن كل حركاته المشبوهة، فماذا يفعل ؟ يسكت، كذلك الإنسان يوم القيامة، فأنت إما أن تؤمن وإما ألا تؤمن، إما أن تتبع الهدى وإما أن تتبع الضلال، إما أن تكون الشهوة رائدك وإما أن يكون الحق رائدك.

من سنّ سُنّة حسنة كان له أجرها و أجر من عمل بها إلى يوم القيامة:

على كلٍ:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا (12))

ما قدموا من أعمال قبل أن يموتوا، ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت لآخرتك ؟ ما العمل الذي ادخرته للقاء الله عز وجل ؟ إذا قال لك الله يا عبدي، ماذا فعلت لي في الدنيا ؟ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ أعطيتك جاهاً فماذا فعلت به ؟ أعطيتك علماً هل أنفقته ؟ كيف أفنيت شبابك ؟ كيف أمضيت عمرك ؟ ماذا عملت بما علمت ؟ كيف اكتسبت مالك وكيف أنفقته ؟ هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَا وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[الدارمي عن معاذ بن جبل]

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ (12))

وآثارهم يعني هذه الفتاة التي أغواها فلان من الناس كان يمكن أن تكون زوجة صالحة ؟ وأن تكون ربة منزل مثالية ؟ وأن تكون في كبرها جدة أغواها زيد من الناس فجعلها ساقطة، فأنجبت ذرية ساقطة؟ وقد تنجب إلى يوم القيامة مئات الألوف من الساقطات، كل هذا السقوط في رقبة من أغواها أول مرة.

((مَنْ سَنّ سُنّةً حَسَنَةً فعُمِلَ بهَا كَانَ لَهُ أجْرُهَا وَمِثْلُ أجْر مَنْ عَمِلَ بهَا لا يَنْقُصُ مِنْ أجُورهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنّ سُنّةً سَيّئَةً فعُمِلَ بهَا كَانَ عَلَيْهِ وزْرُهَا ووَزْرُ مَنْ عَمِلَ بهَا مِنْ بَعْدِهِ لا يَنْقُصُ مِنْ أوْزَارهِمْ شَيْئًا))

[ابن ماجه عن المنذر بن جرير]

أي عمل يفعله الإنسان سيحاسب على آثاره الإيجابية أو السلبية:

شيء مخيف أي عمل فاسد، كل من فعله، كل من اقتدى به، كل من قلده، إلى يوم القيامة **!!**هذا من آثار العمل. يعني أضرب لكم مثلاً: رجل كان مسافراً من مكان إلى مكان، في الطريق اضطر إلى إصلاح مركبته، صاحب هذا الكراج ما أتقن هذا العمل، في الطريق انقطعت مركبته، وكان الجو حاراً، أصابته ضربة شمس فمات، يحاسب هذا الإنسان على إهماله بحسب الآية، يحاسب على أن إهماله سبب موت هذا الإنسان، ضع هذه الحقيقة في ذهنك، أي عمل تفعله ستحاسب لا عنه بالذات، لا عن حجمه، بل على آثاره ؛ الخطيرة الخيرة أو الشريرة الإيجابية أو السلبية، يعني أحياناً إنسان دون أن ينتبه يفعل شيئاً يقلده الآخرون، فإذا قلدوه وكان مبطلاً في هذا العمل، فكل من قلده في صحيفته، هذا من آثار الأعمال.

كل إنسان ميت لا محالة و سيحاسب على أعماله و نتائجها:

(إنّا نَحْنُ نُحْيي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قدّمُوا وَآثَارَهُمْ (12))

أخطر ما في هذه الآية، أنك تحاسب لا على المعصية فقط، على المعصية وآثارها، على الانحراف وآثاره، الآية واضحة جداً فقبل أن تسن سنة سيئة، وقبل أن تنحرف انحرافاً بسيطاً، أنت أب أو معلم أو صاحب متجر أو صاحب معمل أو موظف كبير، يكفي أن الإنسان إذا قصر في أداء طاعة الله عز وجل على مرأى من أولاده يتبعونه، فمن آثار تقصيره انعكاس هذا التقصير على أولاده، يكفي أن تسلك سلوكاً منحرفاً في تجارتك وأنت يشار إليك بالبنان في هذا السوق، فإذا اتبعك التجار في هذا الغش، أو في هذا الاحتيال، أو في هذه الطريقة في كسب المال، فإنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم، يعني أنت إن استجبت لله عز وجل فلك، وإن لم تستجب فعليك، لابد من الموت ولابد من بعد الموت من حساب دقيق، ولابد أن تحاسب لا عن أعمالك فقط، بل عن نتائجها، لا عن انحرافاتك فقط بل عن أبعادها ومضاعفاتها.

من أفسد عقيدة الناس و أخلاقهم تحمل وزر من اتبعه إلى يوم القيامة:

(مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (32))

(سورة المائدة: الآية 32)

هذا الضال قد يضل أقواماً، إذا أنت أفسدت العقيدة، إنسان يعمل في التعليم، علم ثلاثين سنة، عنده كل سنة خمس شعب، خمس ضرب مئتين و خمسين طالباً بثلاثين سنة أفسد حوالي عشرين ألف إنسان، أفسد عقيدتهم، إذا ألقى الشبهات، أنت أفسدت عقيدة واحد فقط، هذا الواحد صار مدرساً، دخل على الطلاب وأدخل هذه الشبهات في أذهانهم، فكل هؤلاء الطلاب في صحيفة المفسد الأول، إن كان إفساد عقائد، إن كان إفساد أخلاق، إن كان إفساد فتيات، إن كان إفساد شباب، يكفي شاب إنسان يفسده في بعض المخدرات، هذا الشاب ومن أفسد ومن اتبعه وأسرته كله في صحيفة الأول.

على الإنسان أن يعدّ للمليون قبل الإقدام على أي عمل لأنه سيحاسب عليه:

الآية خطيرة جدا أيها الأخوة:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ (12))

قد يكون العمل صغيراً في مظهره، لكن كبير في آثاره، ومعظم النار من مستصغر الشرر، قد تكون أنت أردت أن تستمتع ببعض الشهوات قليلاً على مرأى من أولادك، أنت الأب أفسدتهم وأنت لا تدري، فقبل أن تقصر في أمر إلهي، قبل أن تقترف مخالفة للقرآن الكريم نصّ عليها القرآن الكريم، عد للمليون، لأن آثار العمل محاسب عليها:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12))

الأحاديث المتعلقة بهذه السورة الكريمة:

أيها الأخوة الأكارم: في نهاية هذا الدرس ألقي عليكم بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بهذه السورة الكريمة:

قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ غُفِرَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ))

[الدارمي عن أبي هريرة]

((إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها ويغفر لمستمعها وهي سورة يس))

((مَنْ قرَأَ يس حِينَ يُصْبحُ أعْطِيَ يُسْرَ يَوْمِهِ حَتّى يُمْسِيَ وَمَنْ قرَأَهَا فِي صَدْر لَيْلِهِ أعْطِيَ يُسْرَ لَيْلَتِهِ حَتّى يُصْبحَ))

[الدارمي عن ابن عباس]

((من قرأها نهاراً كفي همه ومن قرأها ليلاً غفر ذنبه))

[ورد في الأثر]

((حَدّثَنِي الْمَشْيَخَةُ أنّهُمْ حَضَرُوا غُضَيْفَ بْنَ الْحَارِثِ التُّمَالِيّ حِينَ اشْتَدّ سَوْقُهُ فقَالَ: هَلْ مِنْكُمْ أحَدٌ يَقْرَأُ يس ؟ قالَ: فقرَأَهَا صَالِحُ بْنُ شُرَيْحِ السّكُونِيُّ، فلَمّا بَلَغَ أرْبَعِينَ مِنْهَا قُبِضَ، قالَ: فكَانَ الْمَشْيَخَةُ يَقُولُونَ إذَا قُرِئَتْ عِنْدَ الْمَيّتِ خُفِّفَ عَنْهُ بِهَا))

[رواه أحمد عن المشيخة]

((اقْرَءُوا يس عَلَى مَوْتَاكُمْ))

[سنن أبي داود عن معقل بن يسار]

هذه بعض الأحاديث التي وردت.

إذاً لابد أن تحفظ وتقرأ في كل يوم صباحاً أو مساء أو صباحاً و مساءً، والذي يلفت النظر أن فيها من كل موضوع، فيها آيات كونية، وفيها ذكر لما بعد الموت، وفيها بيان لرسالة النبي عليه الصلاة والسلام، وفيها بشارة، وفيها إنذار، النبي عليه الصلاة والسلام قال: هي قلب القرآن.

وأرجو الله تعالى في دروس قادمة أن يعيننا في فهمها وما تنطوي عليه من حكم ومن دلالات والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (2-7): تفسير االآيات 13-32، من وجد توجيهاً بشرياً يتناقض مع توجيه إلهي فلا يعبأ بكلام البشر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-07-17

بسم الله الرحمن الرحيم

من لم يتبّع رسالة الرسل تعمى بصيرته ويحجب عن سعادة الدنيا والآخرة:

أيها الأخوة الأكارم: مع الدرس الثاني من سورة يس، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13))

أيها الأخوة: في القرآن الكريم ترابط تسلسل، كل آية تفضي إلى أختها، آيات السورة الواحدة يأخذ بعضها برقاب بعض، ومن قدر الله له أن يفهم السورة الواحدة كوحدة مترابطة متسلسلة، فهذا من نعم الله عليه، في الدرس الماضي بينت لكم أن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء وأرسل المرسلين ومعهم الحق ومعهم الكتاب، لينذروا قوماً كالذي أنذر آباءهم من قبل.

وبيّنت لكم أيضاً أن الذي يرفض رسالة الرسل يُقَيِّدُ بقيدٍ، فإمّا أن تؤمن بالحق، أو أن تتبع الهوى، ليس هناك حالة بين حالتين، إما أن تكون مع الحق أو مع الباطل، مع العقل أو مع الشهوة، مع الآخرة أو مع الدنيا، فإن لم تكن مع الآخرة فأنت مع الدنيا، إن لم تكن مع الحق فأنت مع الباطل، إن لم تكن مع العقل فإنك مع الشهوة.

فالإنسان حينما يرفض رسالة الرسل، تستحكم الشهوة في نفسه، ومن تستحكم الشهوة في نفسه، يصبح مغلول اليدين، أعمى البصيرة، سَدٌّ أمامه وسَدٌّ من خلفه، محجوب عن سعادة الدنيا، ومحجوب عن سعادة الآخرة، لا يرى الحقائق، مغلولة يداه، هذا وضع مَنْ يرفض رسالة الرسل، أما الآيات الآن تتكلم عمن يتّبع هذه الرسالة:

(إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(11))

وإن لم يتبّع الإنسان هذه الرسالة، تعمى بصيرته، وتقيد يداه، ويصبح محجوباً عن سعادة الدنيا وعن سعادة الآخرة.

الإنسان إما أن يفهم بالأفكار أو أن يفهم بالحوادث:

بعد أن بيّن الله لنا نتائج مَنْ يَقْبَل رسالات الله ومن يرفضها، ضرب لنا أمثلة واقعية، ربنا عز وجل يقول: يا محمد:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ (13))

من هم ؟ كفار قريش الذين بُعِثَ النبي إليهم.

(وَاضْرِبْ لَهُمْ (13))

فالإنسان أحياناً إما أن يفهم بالأفكار، وإما أن يفهم بالحوادث، مثلاً هناك من يقرأ مقالات عديدة عن مضار التدخين وهو يدخن إلى أن يرى قريباً له أصيب بسرطان في رئتيه، أو بجلطة في دمه، أو بأزمة صحية ضارية، عندئذ يرعوي، فالإنسان كلما كان أكثر عقلا، وأكثر ذكاءً، يتعظ بالفكر فقط، قد تقرأ مقالة عن مضار شيء، هذه المقالة تكفي أن تتعظ بها، وأن تدع هذا الشيء، لكن هناك أناس أقل مستوى من هؤلاء لا يتعظون إلا بالوقائع، إلى أن يمر بتجربة مريرة، إلى أن يمر بخبرة مؤلمة، إلى أن يدفع الثمن باهظاً، عندئذ يقول: إن الله حق، وإن الربا محرم وإن الله يدمر المرابي، الإنسان العاقل يخاف بفكره، وكلما نقص عقله خاف بعينيه، أقل درجات الإنسان عقلاً: مَنْ يخاف بعينيه وأعظمها رفعة من يخاف بفكره.

العاقل من وقف عند الآيات الكريمة دون محاولة البحث عن شيء أغفله الله:

ربنا عز وجل بيّن هذه الرسالات وبَيَّنَ بشكل نظري مصيرَ مَنْ يرفضها، مِنْ غِلٍ في يديه، وعمىً في بصيرته، وحَجْبٍ عن سعادة الدنيا وعن سعادة الآخرة، ومن لم يفهم بشكل نظري... من لا يفهم إلا بالتطبيق العملي!! إليكم هذه القصة: ربنا عز وجل قال:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ (13))

الآن هناك سؤال ؟ أية قرية هذه ؟ من هم أصحاب القرية ؟ من هم القوم الذين كانوا أصحاب هذه القرية ؟ لِمَ لَمْ يذكر ربنا جلّ جلاله اسم هذه القرية ؟ لِمَ لَمْ يذكر موقعها ؟ لِمَ لَمْ يذكر أصحابها ؟ هنا السؤال.

قال بعضهم: إذا أبهم القرآن شيئاً فلا تبحث عن تعريفه، إذا أغفل الله اسم القرية إياك أن تبحث عن اسمها، لأن لله حكمة بالغة في إغفال اسم أهل القرية، لأنه لو ذكر اسم القرية، وموقعها، وزمانها، ومكانها، واسم أصحابها، وأعطاك التفاصيل، ما الذي يحدث؟ تظن أن هذه قصة وقعت مرة واحدة، أما حينما يغفل الله اسم القرية، واسم أصحابها، واسم الزمان، والمكان، والتفاصيل، أراد أن يجعلها نموذجاً

متكرراً، إذا أنت بحثت عن اسم القرية، واسم أصحابها، وعن زمانها، وعن مكانها، كأنك تفسد على الله حكمته، قف عند الآيات الكريمة ولا تحاول أن تبحث عن شيء أغفله الله، لماذا ؟ لأنك يمكن أن تأخذ الموعظة البالغة من الآيات من دون أن تعرف اسم القرية، هذا هو الموضوع. أنا مرة عبّرت عنه بمَثَلٍ: أستاذ في الجامعة في كلية التجارة، أراد أن يبين لطلابه عوامل نجاح التجارة، فقال: لي صديق اشترى محلاً في موقع مزدحم، أول بند الازدحام، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ابتغوا الرزق عند تزاحم الأقدام))

وتعامل بالبضاعة الأساسية في حياة الإنسان، وانتقاها من أجود الأنواع، وكان سعره معتدلاً، وعاملَ الزبائن معاملة لطيفة، فربح أرباحاً جيدة، واشترى بيتاً وتزوج وعاش حياة جيدة، أي أراد أستاذ الجامعة أن يبيّن لطلابه عوامل نجاح التجارة، الموقع، نوع البضاعة، مستوى البضاعة، السعر، المعاملة الطيبة، وأنه ما باع دَيْنَاً. فقال له طالب: هذا القريب يا أستاذ ما اسمه ؟ وهذا القريب ما لونه ؟ أبيض أم أسمر ؟ طويل أم قصير ؟ هذه التفاصيل لا علاقة لها بمغزى القصة، الأستاذ أراد من هذه القصة أن يعطي الطلاب عوامل نجاح التجارة، فجاء الطالب ووجه الأستاذ أو سأل الأستاذ عن اسم هذا التاجر، وعن عِرْقِهِ، وعن لونه وعن صفاته، وعن بيته. وكل هذه التفاصيل لا علاقة لها إطلاقا بمغزى هذه القصة.

الأدب مع الله عز وجل:

ترى البعض قد أجهد في البحث، أية قرية هذه ؟ قالوا: أنطاكية، من هم أصحاب القرية ؟ قوم فلان، من هم المرسلون ؟ قال فلان أو فلان، دخلت في متاهة طويلة لانهاية لها وأنت في غنى عنها، لأن الله أغفلها، وكان من الممكن أن يذكرها، وقد قال في آيات أخرى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل: الآية 1)

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

إذاً: هناك آيات أخرى ذكر الاسم، إذاً فالأدب مع الله عز وجل أنه إذا أغفل تفاصيل، جزئيات، أسماء أماكن، أزمنة، فيجب أن تتجه لا إلى هذه التفاصيل، بل إلى المغزى الكامن من وراء هذه القصة. في هذه القصة مغزى عظيم، ودلالات كبيرة جداً يمكن أن تضع يدك عليها من دون أن تفهم التفاصيل التي لو ذكرت لانقلبت القصة من قانون إلى حدث تاريخي وقع ولن يقع مرة ثانية، الله عز وجل لا يريد أن يقول لكم هذه قصة تاريخية وقعت ولن تقع... لو قلت لكم: إن فلاناً ابن فلان أمه فلانة، بيته في

المكان الفلاني، طوله كذا، لونه كذا، فعل كذا وكذا، فلقي النتائج التالية هذه التفاصيل، لو بالغت في ذكرها، لغفلنا عن الحكمة، أما أي طالب يدرس ينجح، قانون !

من أعرض عن رسالات الأنبياء فله جهنم و بئس المصير:

لذلك ربنا عز وجل إذا ذكر لنا أحداثاً، وقصصاً، وأشخاصاً، وأقواماً، القصد المغزى، الحقيقة القصد أن تنقلب هذه القصة إلى نموذج متكرر، إلى سنة من سنن الله عز وجل، إلى قاعدة، إذاً إذا أغفل الله شيئاً لا تبحث عنه، إذا سكت الله عن شيء فاسكت عنه، وابحث عن المغزى الذي أراده الله عز وجل، هذا الذي يدعوني أن أُعْرِضَ قصداً عما ورد في كل التفاسير، عن من هم أصحاب هذه القرية هل هي أنطاكية ما هو الدليل ؟ بعض روايات بني إسرائيل وما الدليل ؟ هناك دليل ضعيف ودليل قوي، من هم المرسلون ؟ ما أسماؤهم ؟ من أرسلهم ؟ هم رسل من عند عيسى بن مريم يا ترى ؟ كل هذه متاهات نحن في غنى عنها.

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13))

هنا لنعد قليلاً:

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(3))

يا محمد:

(عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(4)تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(5)لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(6))

حينما أعرضوا عن هذه الرسالات انطبقت عليهم القوانين:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(7)إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ(8)وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(9))

هذا كلام نظري وأما التطبيق العملي:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا (14))

سبب تكذيب الكفار للأنبياء:

هنا سؤال: لماذا يكذب الكفار عادة الأنبياء ؟ الأنبياء جاؤوا بمنهج، والمنهج: افعل ولا تفعل، المنهج فيه أمر ونهي، وغالباً النواهي تحد من شهوات الكفار، لذلك فالإنسان إذا أقام على شهواته واتبع أهواء نفسه، أغلب الظن أنه يرفض الهدى والدليل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ (50))

(سورة القصص)

المرابي الذي يصر على أكل الربا، لن يقنع معك أن الربا حرام ! يحاور، ويناقش، ويماري، ويخادع، والذي يقيم على معصية من نوع آخر لن يقنع معك.

لذلك لماذا رفض الكفار دعوة الأنبياء ؟ لأنهم مقيمون على المعاصي، متبعون للشهوات. ومنهج الأنبياء يحد من شهواتهم ويوقفهم عند حدهم، وكيف يتوازنون مع أنفسهم؟ لو جاء النبي بمنهج والكافر رأى في هذا المنهج ما يحد من شهواته، فإذا أقرّ به وقع في مشكلة مع نفسه، ماذا ينبغي أن يقول لك ؟ أيها النبي إنك كاذب.

إذاً: الكافر حتى ينسجم مع نفسه يكذب دعوة الأنبياء...! فمنهج الأنبياء يحد من شهواته، ولأنه مُصِر على شهواته يرى من السهولة بمكان أن يكذب الأنبياء.

التعزيز أسلوب من أساليب الله عز وجل ليعود الإنسان إلى الطريق الصحيح:

هؤلاء أصحاب القرية شأنهم شأن كل الكفار الذين تشبثوا في الدنيا، واستحكمت فيهم الشهوات، وأصروا عليها، فأعمت أبصارهم، فكذبوا الأنبياء، واتهموهم بالكذب،

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ (14))

انظر التعزيز هو من أسلوب ربنا عز وجل، فيجعل صديق لك يذكرك بالحق، هذا أول تنبيه، ما استجبت، يرسل لك مشكلة، المشكلة تعزيز، تقرأ القرآن، يقول لك ربنا في القرآن:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

هذا كلام رب العالمين، تعرض عن ذكر الله، تلقى الحياة الصعبة، تلقى المعيشة الضنك، فالمعيشة الضنك تعزيز للآية الكريمة، تغض بصرك عن محارم الله تشعر بسعادة في بيتك، هذه السعادة تعزيز للآية الكريمة، تكسب مالاً حراماً فيتلف الله مالك كله، إتلاف المال تعزيز لقول الله عز وجل، إذاً دائماً أنت مع القرآن والأحداث كلها تعززه، معنى تعززه أي تؤكده:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

تستمع إلى قرية دمرها الله بزلزال أو بحرب أهلية، تجد أن فيها الزنى، واللِواط، والخمر، والمخدرات، والدعارة، كأن الأحداث تعزز القرآن الكريم، فربنا عز وجل يستخدم دائما أسلوب التعزيز، لكن ربنا رحيم، يبدأ معك بالموعظة النظرية، يلهم أحداً أن يعظك، تستمع إلى خطبة، تجلس في مجلس علم، كلام نظري طيب لطيف، إن لم تستجب !! يبدأ التعزيز، هناك مشكلة، إن لم تستجب

يرفع مستوى المشكلة، هذا هو العذاب الصعد، من هو السعيد إذاً ؟ من استجاب لله عز وجل استجابة طوعيه من دون تعزيز، التعزيز الطبيب، أحياناً يعطيك عيار خمسين، لم ينجح، يعطيك عيار مئة ما أثّر خمسمئة، ألف، كلما رأى الطبيب أن هذا الدواء لا أثر له في الشفاء يرفع مستوى الفعالية، هذا هو التعزيز، فربنا عز وجل قال:

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ (14))

فكلما ساق الله عز وجل لك دعوة أو أسلوباً ولم تستفد منه، رفع الله عز وجل المستوى.

المؤمن سريع الفهم و الإنسان كلما ارتقى يفهم على الله بأدنى إشارة:

لذلك الإنسان كلما ارتقى يفهم على الله بأدنى إشارة، وإذا كان حسه تلبد، لم يعد يفهم إلا بمرض خبيث، ما عاد يفهم إلا بمرض عضال، ما عاد يفهم إلا بإهانة شديدة، ما عاد يفهم إلا بإفلاس كامل، المؤمن سريع الفهم، يرى أن الأمور تغيرت، من الذي غيرها؟ الله عز وجل

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: 11)

أنا أكاد أقول: كلما رأيت أخاً كريماً بدأ يفهم على الله، يعرف هذه من أجل هذه، أقول له: والله فرحت لك، وهنيئاً لك فهمك على الله، لقد قطعت أربعة أخماس الهدى، حينما تفهم كل شيء يسوقه الله لك، حينما تُفسّر الأشياء تفسيراً إلهياً لا دنيوياً، هذا من نعم الله عليك.

إذاً دائماً الله يعزز، أول شيء يدعوك دعوة لطيفة من خلال صديق، من خلال أخ، من خلال أستاذ، من خلال مدرس، من خلال خطيب مسجد، من خلال مقالة تقرأها، يدعوك إليه دعوة لطيفة، فإن لم تستجب هناك تعزيز، هناك تضييق، شبح مصيبة، فإن لم تستجب مصيبة حقيقية، فإن لم تستجب مصيبة أعلى، لن يدعك الله وشأنك لأنه يحبك، ولأنه يريدك، ولأنه يطلبك، ولأنه خلقك ليسعدك، فأنت مطلوب.

بعض الأقوال المأثورة: **" يا داود لو يعلم المعرضون حبي لهم، وانتظاري إليهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إلي، يا داود هذه إرادتي في المعرضين فكيف إرادتي في المقبلين ؟ "**. مع المعرض هكذا.

مَنْ لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر:

إذاً:

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ (14))

أردت أن أنطلق من كلمة عززنا إلى أسلوب التعزيز الذي يستخدمه الله عز وجل مع عباده، فأنت كثيراً ما يأتيك دعوة لطيفة: أحياناً ترى مناماً، إذا كنت موفقاً جداً، وحساساً جداً، وعلى مستوى عال من الإدراك، يكفيك منام تحذيري، أحياناً كلمة، أحياناً انقباض، هذا الطريق فيه انقباض لا يحبه الله، هذه النزهة لا ترضي الله، هذه السهرة لا ترضي الله، هذه الشركة لا ترضي الله، هذه الصفقة لا ترضي الله، هذا الدخول لهذا البيت لا يرضي الله، اللقاء مع فلان لا يرضي الله، الانقباض إشارة من الله عز وجل، فإذا الإنسان فهم على الله عز وجل، هذه نعمة كبيرة، أحياناً رؤيا، أحياناً انقباض، أحياناً كلام واضح، صديقك ينصحك يا أخي أنت أخ مؤمن، وهذا الذي أنت فيه لا يرضي الله، احذر...مادام أنت على مستوى أن تستجيب لنصيحة، لدعوة، أو لآية كريمة، أو لحديث شريف، أو لمنام حقيقي تراه، فأنت تفهم على الله تماماً، هذه نعمة، أما الذي لا يفهم إلا بالمشكلة الكبيرة، والضيق الشديد، والتضييق، فهذا حسه متلبد.

أيها الأخوة اسمعوا هذه الكلمة: مَنْ لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر، هذا الذي تأتيه المصيبة من الرحمن الرحيم، لتلفت نظره، لتدفعه، لتقربه، لتجعله يتوب، لتحمله على طاعة الله، لتجعله يزداد من الله قرباً وحباً، فلا يستفيد منها هو المصيبة، نفسه هي المصيبة.

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ (14))

جميعاً.

النبي الكريم سيد البشر تجري عليه كل خصائص البشر:

(إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (15))

أي إذا كان النبي بشراً، يأكل كالبشر، ويجوع، ويشبع، ويعطش، ويرتوي، ويتعب، ويعرق، ويحس بالحر، ويحس بالبرد، ويأوي إلى الظل، ويتزوج، إذا كان الرسول تجري عليه كل خصائص البشر، هذا مما ينقص قدره !!؟ بالعكس هذا الذي يعلي قدره، لأن الذي لا يخاف لا يسمى شجاعاً، لو وضعنا في ساحة معركة قطعة خشب، تبقى واقفة لا تخاف، ليس فيها إدراك، قطعة خشب هل لها فضل ؟ أما الإنسان لأنه يخاف ويبقى ثابتاً ويقبل على العدو فيسمى شجاعاً، لولا أنك تخاف لما كنت شجاعاً، ولولا أنك تجوع لما صرت صائماً وصابراً.

فالنبي الكريم لو لم يكن من البشر، ولو لم تجري عليه كل خصائص البشر لما كان بهذه العظمة، لأن لو أن الله عز وجل أرسل مَلَكاً مكانه، وقال المَلَكُ يا أيها الناس: غضوا أبصاركم وأنا أغض بصري،

الجواب أنت مَلَك ولست بشراً، أنت لا تحس بما نحس، أنت لا تشتهي ما نشتهي، أنت غير واقعي، لا يستطيع نبي أن يقنع الناس بأحقية الحق إلا إذا كان من بني البشر.

للنبي الكريم مهمتان:

لذلك النبي له مهمتان: المهمة الأولى مهمة إبلاغية وهذه مهمة إذا قيست بالمهمة الأخرى فهي ضئيلة، والمهمة الكبرى مهمة القدوة والأسوة. أي أنت أيها الإنسان مهما كان الكلام دقيقاً، ومنمقاً، وواقعياً، ومعه أدلة وبراهين، و معه تحليل، إن لم تجده مطبقاً بالحياة فلا قيمة له، يقول لك كلام بكلام، حكي !! لكن إذا رأيت إنساناً يضحي فعلاً، إن رأيت إنساناً وقافاً عند كلام الله، ينفذ وعده، وقد كلفه ذلك ثمناً باهظاً، إن رأيت منصفاً، إن رأيت من يقول الحق ولو كان مراً، عندئذ تخشع، لا يستطيع أحد أن يلفتك إليه إلا بأعماله لا بأقواله، لذلك الأنبياء كانوا قدوة، معهم منهج، وقد طبقوا هذا المنهج، لولا أنهم طبقوا هذا المنهج، لا قيمة لهذا المنهج، المناهج لا قيمة لها من دون تطبيق.

فمهمة النبي أنه قدوة وأسوة ومثل أعلى أبلغ بكثير من مهمته كمبلغ، والدليل بعد الأنبياء والرسل آلاف آلاف الدعاة، والمتكلمون، والخطباء، والعلماء، والكتاب، والمؤلفون، لماذا لم يؤثروا في الناس ؟ لأنهم في واد وكتاباتهم في واد، الإنسان إذا لم يطبق المنهج لا قيمة لمنهجه إطلاقاً، مثلاً دخل النبي على زوجته السيدة عائشة جاءها طبق من عند أختها صفية ـ طبق طعام ـ أصابت الغيرة السيدة عائشة، فألقت الطبق على الأرض فجاء مهشماً، أليس هذا فيه استفزاز للنبي عليه الصلاة والسلام ؟ أليس بإمكانه أن يفعل كذا وكذا !؟ خرج من البيت وقال: غضبت أمكم غضبت أمكم. هذا الموقف الكامل. الله جعله أسوة لنا.

الزوجة إذا أصابتها الغيرة، قل:غضبت أمكم غضبت أمكم، انظر الموقف اللطيف الكامل، دخل المعركة وجرحت وجنته، وكسرت ثنيته، تجري عليه كل خصائص البشر، تزوج زوجات عديدات لسن في المستوى المطلوب، كبيرات في السن ولهن أولاد، و ثيبات لأسباب ترضي الله عز وجل، ألا يشتهي الأبكار ؟ يشتهيها لأنه من بني البشر، فكل عظمته، وكل فضله، وكل كماله، لأنه بشر، ولأنه تجري عليه خصائص البشر. وأنت إن لم تجع فلست صابراً، وإن لم تخف فلست شجاعاً، وإن لم تحب المال فلست سخياً، لماذا فلان سخي ؟ يعاكس ما جبل عليه:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية: 14)

هذه الشهوات نرقى بها إلى رب الأرض والسماوات.

لولا أن الرسول بشر لما أقنعنا بهذه الرسالة:

إذاً كل من يقول: هو بشر، نعم وأكرم به من بشر، ولأنه بشر كان سيد البشر، ولأنه بشر كان سيد الخلق، ولأنه بشر كان حبيب الحق، ولن يكون عظيماً إن لم يكن بشراً:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف الآية: 110)

أي تجري علي كل خصائص البشر:

((كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَتِيمَةَ فَقَالَ آنْتِ هِيَهْ لَقَدْ كَبِرْتِ لا كَبِرَ سِنُّكِ..... فَقُلْتُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[مسلم عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه]

هو محمد بشر وليس كالبشر فهو ياقوتة والناس كالحجر

***

الياقوت حجر ولكنه ليس حجراً عادياً، يقال: قطعة صغيرة من الألماس ثمنها مئة ألف، خمسمئة ألف، خمسة ملايين ثمن قطعة صغيرة جداً، وتجد بالمقابل حجاراً في بعض السهول عدد الحصى، محمد بشر وليس كالبشر، أي أنت تجوع تصبر، تحس بالحر إذا كنت بالحج هناك حر شديد فلأنك بشر والحر شديد وأنت صابر، تلبي دعوة الله عز وجل، لبيت نداء الله عز وجل هذا الذي يرقى بك، إنك تحس بالحر، تحس بالجوع، في رمضان في الصيف تحس بالعطش، إذا استفزك إنسان ولأنك تغضب وكظمت غيظك لذلك ترقى.

(قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (15))

نعم بشر، لولا أن الرسول بشر لما أقنعنا بهذه الرسالة لأن النبي قدوة لنا:

(وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ (15))

حتى يتوازن الكفار لأنهم مقيمون على شهواتهم، لأنهم مصرون عليها، كذبوا الرسل وقالوا:

(وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15))

من نعم الله علينا أن الله يعلم:

أيها الأخوة الأكارم: من نعم الله علينا أن الله يعلم، قد تكون بريئاً وتتهم، قل: الله يعلم، قد تكون صادقاً وتتهم بالكذب قل: الله يعلم، قد تكون ناوياً للخير ويأتيك من يشكك في نواياك قل: الله يعلم، قد يُطْعَنُ فيك وأنت عفيف لكنك إذا عرفت نفسك ما ضرتك مقالة الناس بك، أنت احرص على أن تَجِبَّ عن نفسك الغيبة، لكن إذا كنت حريصاً والناس اتهموك والله يعلم إنك بريء فلا ضير عليك.

مع الله عز وجل لا تحتاج إلى يمين تحلف له، يعرف، ولا حتى لإيصال... معي إيصال يا ربي..أي إيصال هذا !! يعرف أنك أنفقت هذا في سبيله، يعرف كل إنفاقك، كل نواياك، مواقفك، كل ورعك، كل مطالبك، فلذلك الحمد لله على وجود الله، الحمد لله على أن الله يعلم، كم من متهم وهو بريء !؟ كم من مكذب وهو صادق !؟ كم من مطعون فيه وهو نقي !؟ كم من متهم بما هو شائن وهو عفيف !؟ لذلك كلام لطيف:

(رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(16))

أنتم تقولون: إنَّا كاذبون، لكن الله يعلم وكفانا راحة وطمأنينة أن الله يعلم.

كل إنسان له اختيار فليس عليك إلا أن تنصح و تبين و على الله الباقي:

(قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(16)وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(17))

أنت مخيّر، الإنسان مخير، كثير من الأخوان يسألني ماذا أفعل ؟ لا أستطيع إلا أن أنصحه، لأنه مخيّر. أحياناً قد يكون لك ابن، أو قريب، أو شريك منحرف، ماذا تفعل ؟ انصحه إذا النبي وعظمته الله عز وجل قال:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة: الآية 272)

أي لست مسؤولاً عنهم، والآية الثانية

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (56))

(سورة القصص: الآية56)

لا تستطيع، الإنسان لأنه مخير، فكل إنسان له اختيار، ليس لك إلا أن تنصح، إلا أن تبين، إلا أن توضح، إلا أن تأتي بالبراهين بالأدلة، وعلى الله الباقي، أنت عليك النصح.

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

(سورة طه: الآية132)

بيّن لفلان أنه على خطأ، وبيّن له الدليل، بيّن حكم الله عز وجل، أما إنسان يقدر أن يلقي الهدى بقلب إنسان فهذا شيء فوق طاقة البشر، وحتى ليس في إمكان الأنبياء، كل إنسان أعطاه الله اختياراً، فالنبي يبين، يؤدي، اللهم نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة لكن:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سورة فصلت: الآية 46)

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

(سورة الروم: الآية 44)

فالقضية متعلقة بك، و الآية لطيفة جداً.

من فقد الحجة لجأ إلى الخزعبلات والأباطيل والترهات والأوهام:

(قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(16)وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(17)قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ (18))

إنَّا تشاءمنا منكم، التشاؤم كلام فارغ، كلام فارغ مضحك، هناك أناس يتشاءمون من يوم الأربعاء، أو من رقم 13، أو دخل شخص على المحل ففشلت البيعة، قدمه شؤم، كله كلام فارغ،

(قَالُوا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ)

تشاءمنا منكم، فقدوا الحجة، الإنسان يلجأ للخزعبلات وللأباطيل وللترهات والأوهام متى ؟ إذا فقد الحجة:

(تَطَيَّرْنَا بِكُمْ)

تشاءمنا منكم:

(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(18))

الإنسان قوي بالمنطق و الحجة:

بالمناسبة إذا كان هناك حوار بين شخصين، من هو الضعيف في النقاش ؟ هو الذي يسب، حينما يلجأ الإنسان للسباب فهو ضعيف في النقاش، يقول: كذاب، كلمة كذاب دليل ضعف النقاش، والأشد ضعفاً أن تضربه، تفقد الحجة الكلية عندها تهجم، لو معك حجة !...جاء ببيان ائته ببيان آخر، جاء برأي بيّن له حقيقة الرأي، الإنسان قوي بالمنطق، قوي بالحجة، قوي بالعلم، إذا ضعفت حجته وعلمه ضعف، يلجأ للسباب، فالسباب سلاح الضعيف، والضرب سلاح الأضعف، درجتين: أولا الخرافات،

(تَطَيَّرْنَا بِكُمْ)

تشاءمنا منكم، مثلاً إنسان لا يصلي تدعوه للصلاة، عندما يصلي يقول: والله بعدما صليت الأمور ساءت، الغلة قلت، الناس يتجادلون في المحل، لا أريد هذا الدين كله، الإنسان عندما يريد الحق يريده بشكل مضحك، بشكل خرافي، ثم يلجأ للسباب دجال كذاب....، إذا اكتشف أن هناك إصرار وكان هو قوياً يلجأ للضرب:

(قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(18))

العلماء قالوا:" العذاب الأليم هو التعذيب قبل القتل "، سلخ الجلد مثلا، بقر البطن، قلع العينين:

(لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(18))

من أصابه خير فمن حسن استقامته و من أصابه شرّ فمن تقصيره:

يا أيها الأخوة الأكارم: سورة يس هي قلب القرآن:

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19))

والله على هذه الكلمة تكتب مجلدات، خيرك منك وشرك منك، كل شيء خارجي بريء، إذا أصابك الخير فمن حسن استقامتك، ومن نواياك الطيبة، من إخلاصك، من حبك لله، من التزامك لأمر الله، وإن أصابك الشر فمن تقصير، و من ذنب.

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى: الآية30)

الإنسان لا يتشاءم، التشاؤم لا معنى له، خيرك منك وشرك منك، النبي الكريم بحديث موجز قال: " لا يخافن العبد إلا ذنبه "، لا تخف أحداً، لأن أي أحد بيد الله، لا تخف من الشريرين، الأشرار بيد الله، الأشخاص المخيفون بيد الله، الحيوانات المفترسة بيد الله، حتى الأخطار في الطرقات بيد الله، أخي هذا السائق نام فاصطدم بنا !، أرواحنا بيد الله، لا بيد السائق.

التشاؤم لا معنى له لأن خير الإنسان منه وشره منه:

لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، انظر دقة الفكرة كل شيء مخيف بيد الله:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولذ بحمانا واحتمِ بجنابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

هناك أشخاص شريرون مخيفون، أقوياء جبابرة، بطاشون لا يخافون الله، لا يرحمون، أي ليس في قلبهم رحمة إطلاقاً.

من علامات الساعة: أن ينزع الحياء من وجوه النساء، وتذهب النخوة من رؤوس الرجال، وتنزع الرحمة من قلوب الأمراء، لا يوجد رحمة، ولا حياء، ولا نخوة، نساء كاسيات عاريات وأزواجهن يفتخرون بهن، فلذلك:

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19))

خيرك منك وشرك منك، الشر من الذنب، "لا يخافن العبد إلا ذنبه"، صار هناك تقصير دائماً خذ النصيحة، كلما أصابك شيء لا ترضى عنه فاتهم نفسك، اسمعوا الحديث القدسي:

((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَسَلُونِي الْهُدَى أَهْدِكُمْ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ ذَلِك فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلَ كُلُّ إنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إلا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إلَيْهِ ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ عَطَائِي كَلَامٌ وَعَذَابِي كَلَامٌ إنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))

[مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه]

كما أن الله عز وجل يعطي فيدهش كذلك يأخذ فيدهش، حدثني أخ كريم: شخص معه مئات الملايين، الآن لا يوجد معه ثمن رغيف خبز، يتكفف الناس، لأنه إذا أعطى أدهش وإذا سلب أدهش، في الحالتين

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19))

الله تعالى غني عن تعذيب العباد فمن وجد شيئاً لم يعجبه فليبحث عن المعصية التي ارتكبها:

القاعدة:**" الخير بيدي والشر بيدي، ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه "**

فكل إنسان أصابه شيء لم يعجبه، الله غني عن تعذيبه، غني عن ظلمه، يدقق هل في دخله مال حرام ؟ هل بعلاقاته علاقات غير شرعية ؟ ندواته، بسهراته، بنزهاته، ببيعه، بشرائه يوجد غش، يوجد كذب، يوجد احتيال ؟ مثلاً هذا دفّعنا خمسمئة ألف، الله لا يوفقهم، لماذا ؟ انظر أنت ماذا فعلت ؟ لأن ذلك مثل الذباب يأتي مكان القذر، فدائما أنت ابحث عن المعصية !.. بالأمن الجنائي عندهم قاعدة كلما رأوا جريمة يقولون: ابحث عن المرأة، أنا أعطيتهم قاعدة أخرى دينية: ابحث عن المعصية لم يعجبك إنسان،

أهانك، مال ذهب منك بشيء مزعج، ابحث عن المعصية، ابحث عن كلمة قلتها متجبراً، لعل الله أدبك بها.

أخ كريم حكى لي: شخص دخل إلى معمله يريد قطعة أو قطعتين من إنتاجه، هو يبيع مئتا دزينة، وجدها إهانة له، قال له بانزعاج: أنا لا أبيع مفرقاً، قال: أمرك، يقول هذا الأخ: ثلاثة و عشرون يوماً لم يدخل إنسان لمعمله ليشتري، الله أدبه، ترفع عن بيعة شخص فقير فأدبه الله، فإذا رأيت شيئاً لم يعجبك ابحث عن المعصية، اتهم نفسك، الله غني عن تعذيبنا، وغني عن إيلامنا، وغني عن مضايقتنا، لكن الله عز وجل يحب أن نكون كُمَّل، فإذا كان هناك خطأ لسان حال المؤمن يقول: اللهم عالجني قبل أن أموت، لا تمتني قبل أن ترضى عني.

المؤمن الصادق يتمنى أن يعالجه الله ويهذبه ويكمله في الدنيا:

المؤمن الصادق يتمنى أن يعالجه الله ويهذبه ويكمله في الدنيا، حتى إذا جاء ملك الموت استحق الجنة فوراً:

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19))

هذه الآية يجب أن يُكتب عنها مجلدات: خيرك منك وشرك منكم، لا تتشاءم، ولا تقل فلان: هذا البيت شؤم، إذا أنت طبعاً اخترته في حي ساقط طبعاً شؤم، صار هذا ذنبك، هذه الزوجة شؤم، النبي قال: شؤم في الزوجة إذا اخترتها لجمالها، ولم تعبأ بأخلاقها ودينها هذا ذنب من ذنوبك تحَمِّل إذاً !... إياكم وخضراء الدمن... بيت في حي ساقط، في حي فيه أجانب، معاصيهم كثيرة جداً، سهراتهم حمراء، انحرافاتهم مكشوفة، طبعا إذا كان عندك أولاد، عندك فتيات، ابحث عن حيّ محافظ، الشؤم في البيت، وفي المرأة، وفي الفرس، هذا شؤم أساسه معصية، أما:

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19))

أي خيرك منك وشرك منك،

(أَئِن ذُكِّرتُم)

أي يا أهل هذه القرية، يا أصحاب القرية، تتوعدوننا أن ترجموننا، وأن يمسنا منكم عذاب أليم لأننا ذكرناكم،

(أَئِن ذُكِّرتُم)

كل هذا الوعيد والتهديد لأننا ذكرناكم، هذا جزاء الإحسان، وهذا الذي يقع، كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟ الفسق والفجور مقبول، أما التدين غير مقبول، المعاصي كلها

مقبولة، يقول: سبور أما الطاعات مرفوضة، يقول: أصلي ؟ كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟ كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ كيف بكم إذا خوّن الأمين وأؤتمن الخائن، وكُذب الصادق وصدق الكاذب ؟ طبعا هذا من مفارقات الحياة، "إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها".

الله عز وجل أكرمنا بهذه الدعوة حيث كنا في ضلال فاهتدينا و في شقاء فسعدنا:

سورة يس كما تكلمنا في الدرس الماضي، من السنة أن تقرأها كل يوم، فإذا إنسان كان يمشي في الطريق، عوضاً أن ينظر في المحلات، يقرأ سورة يس، راكب بالسيارة إلى بيته فليقرأ ست صفحات، عوّد نفسك أن تقرأها باليوم مرة أو مرتين والأكمل مرتين، إن قرأتها صباحاً فأنت في سرور حتى المساء، وإن قرأتها ليلاً فأنت في سرور حتى الصباح، لأن هناك آيات دقيقة:

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ (19))

كل هذا التهديد والوعيد لأننا ذكرناكم:

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19))

هذا إسراف، إسراف العدوان، إنسان نصحك، قدم لك النصيحة، أراد لك الهداية، أراد لك الرشاد...هناك صنف آخر، هؤلاء أصحاب القرية رفضوا دعوة الأنبياء.

الصنف الآخر:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى (20))

استفاد من هذه الدعوة، جزاه الله خيراً، الله عز وجل أكرمنا بهذه الدعوة، كنا في ضلال فاهتدينا، كنا في شقاء فسعدنا، كنا في حيرة فوجدنا أنفسنا، عرفنا قيمتنا، عرفنا مهمتنا، عرفنا أننا مكلفون، عرفنا ربنا، عرفنا ماذا ينتظرنا من نعيم مقيم، ماذا ينتظرنا من عذاب أليم لو حدنا عن طريق الحق:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20))

هنا يوجد حركة للإنسان، آمن فتحرك، لم يبق قاعداً، تجد شخصاً قانعاً بالحق وقاعداً ببيته، لا منه خير ولا شر...! تحرك حركة، تكلم كلمة، انصح أخوك، انصح ابن أخوك، اعمل درساً صغيراً لأولادك، لك جيران، ولك شركاء، ولك أقرباء، لك أخوات بنات، اعمل كلمتين ثلاثة، زرهم بالأسبوع مرة، فسر آية سمعتها من خطيب مسجد، لا يوجد شيء غير تجارته، بيعه وشراؤه، ليس لك حركة ! ليس منك شيء أبداً.

المؤمن يبتغي عند الله الأجر و الثواب:

انظر:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى (20))

هذه الحركة دليل الإيمان والهدى، أنت إذا مؤمن يجب أن يكون لك نشاط، لك دعوة إلى الله عز وجل ! تسمع دروساً من عشرين سنة، من خمس عشرة سنة، من عشر سنوات من خمس سنوات من سنتين، ألم يحن الأوان أن تلقي وتعطي ؟ أخْذْ أخْذْ إلى متى تأخذ ؟ يجب أن يظهر لك تأثير في أولادك، في أسرتك، في زوجتك، في جيرانك، في أخواتك البنات، في أخواتك الذكور، فيمن يلوذ بك، في عمالك، في موظفيك، انصح، وَجِّهْ، بَيِّنْ تفسير آية، تفسير حديث، انظر إلى هذا الرجل سمع الحق فانطلق إلى أصحاب هذه القرية:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20))

من هم ؟ الصادقون:

(اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

كل إنسان له هدف، إن كان مادياً يريد أجراً، وإن رأيته منزهاً عن الأجر معنى هذا أنه يبتغي ما عند الله من أجر، أما إنسان يتحرك بلا ثمن فلا تصدق ! حتى المؤمن، لكن المؤمنين يبتغون عند الله الأجر، يتعب معك، يجلس معك، يبذل الوقت، يبذل ماله، أحياناً يبذل خبرته، يبذل الجهد الكبير، يبتغي عند الله الأجر، يبتغي عند الله الثواب، يبتغي أن يرضى الله عنه، أن يكون عند الله مقرباً.

ترفع أهل الحق عن كل أجر:

فكل إنسان يترفع عن الماديات:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

هي علامة، هذه علامة في القرآن الكريم، قطعية الدلالة على أن أهل الحق يترفعون عن كل أجر، لا معنوي، ولامادي، ولا قريب، ولا بعيد، ولا كبير، ولا صغير، لا يبتغي إلا رضاء الله عز وجل، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي:

(قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

من وجد توجيهاً بشرياً يتناقض مع توجيه إلهي فلا يعبأ بكلام البشر:

السيدة بلقيس عرفت ذلك:

(وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ(35))

(سورة النمل: الآية 35)

فإذا قبلوها ورحبوا بها فهم كاذبون، وإن رفضوها فهم مرسلون، ثم يقول هذا الرجل بأسلوب ذكي جداً، بأسلوب تربوي، أحياناً أنت تريد أن تنصح إنساناً: استقم، آمن بالله عز وجل، هذه التجارة كلها حرام، اتركها!! هناك طريق لطيف يقول: يا أخي أنا فكرت بمستقبلي، وجدت مستقبلي مع الله، وجدت عند الموت لا ينفعني إلا عملي الصالح، بدل أن توجه الكلام للطرف الآخر، اذكر للطرف الآخر ما فعلته بنفسك أنت، هذا أسلوب لطيف ليس فيه إحراج، يقول هذا الرجل:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(22)أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ(23))

أي إذا الله عز وجل أراد لإنسان شيئاً مزعجاً، أو مرضاً عضالاً، أو مشكلة في كرامته، إهانة، حجز حرية، إفقار، من يستطيع أن ينقذك ؟ أقرب الناس إليك يزورك، يقول: والله قلبنا عندك، أكثر شيء يحضر باقة ورد، و الآخر يتلوى من الألم و هو خائف و مصاب بآلام نفسية، العواد يقدمون له كلاماً لطيفاً وهدية متواضعة وانتهى الأمر:

(إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِي(23))

كما قلت لكم سابقاً: الحسن البصري كان عند والي البصرة، جاءته رسالة من يزيد، يبدو أن فيها توجيهاً لا يرضي الله عز وجل، فسأل الحسن البصري ماذا أفعل ؟ فقال له كلمة ـ هذه الكلمة تكتب بماء الذهب ـ قال **" إن الله يمنعك من يزيد لكن يزيد لا يمنعك من الله "**، طبقها بكل حياتك، قال إنسان قوي لك: افعل كذا و كذا، قُل أنت: إذا نفذت أمره والله أراد أن يعاقبني لا يمكن لهذا الشخص أن يوقف العقوبة، لكن إذا نفذت أمر الله عز وجل وغضب الله يحميني منه، هذا مبدأ.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

يا أخوان: كلما وجدت توجيهاً بشرياً يتناقض مع توجيه إلهي لا تعبأ بكلام البشر، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، قل: إن الله يمنعني من فلان لكن فلاناً لا يمنعني من الله، أكثر المعاصي تكون من ضغط من إنسان قوي، يكون جاهلاً، قل: إن الله يمنعني من فلان لكن فلاناً لا يمنعني من الله.

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(22)أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ(23)إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24))

هذا الرجل آمن بهؤلاء الرسل، وانطلق إلى أصحاب هذه القرية يدعوهم إلى الإيمان، وقال هذا الكلام، لكنهم قتلوه.

المؤمن لا يقبل أي ضغط لأنه يرى أن الله هو كل شيء:

اسمعوا:

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ(25)قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ (26))

بدل أن يدعو عليهم:

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ(27))

فالإنسان حينما يطّلع على مقامه في الجنة يقول: لم أر شراً قط في حياتي. مركز الثقل بالآية هو:

(إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِي(23))

أقل مثل: هو وزوجته لو أنها ضغطت عليه ليعصي الله، ليؤمن لها حاجة بدخل غير مشروع، لو أن الله أراد أن يعالجه، هل تمنعه الزوجة ؟ أما لو غضبت، الله يرضيها، هذه قاعدة أساسية في حياتنا، كلما جاءك ضغط لتعصي الله قل: إن الله يمنعني من فلان لكن فلاناً لا يمنعني من الله، فهذا المؤمن لا تأخذه في الله لومة لائم، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، السيد الصديق قال:**" أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيت.... "**

فالمؤمن لا يقبل أي ضغط، يرى أن الله هو كل شيء، وأن الخير كله بيده، وأنه يصرف عنه كل شرّ، فأنت اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها.

نسيان المؤمن المتاعب التي عانى منها في الدنيا عندما يرى ما أعدّ الله له:

الشيء المهم أن المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ويرى ما أعدّ الله له من نعيم مقيم قيل يعرق.. عرق الخجل، كل المتاعب ينساها حتى لو أنه قتل، هنا قتلوه، ولكن عندما أراه الله عز وجل مقامه في الجنة:

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ(27))

لو علموا هذا ما قتلوني، لاستجابوا إلي... هؤلاء القوم الذين كفروا.

من مات عاصياً أو كافراً تتولد عنده حسرة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم:

(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ(28))

هم أهون على الله من أن يعذبهم بجنود من السماء عذبهم بصيحة واحدة:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29))

أي أن الله عز وجل قوله: كن فيكون، زل فيزول، لا يوجد حاجة لجند من السماء:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً (29))

تجد شخصاً ملء السمع والبصر، قلب ومات بلا سبب، يقول: سكتة دماغية، خير إن شاء الله، سكتة قلبية خير إن شاء الله، موت مفاجئ، هي صيحة واحدة:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29)يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ (30))

حينما يموت الإنسان عاصياً، أو كافراً، أو رافضاً دعوة الرسل، يتولد عنده حسرة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم... قيل: الكافر إذا رأى مكانه في النار يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا لهولها:

(يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(30)أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ(31))

ما بعد الموت أشد من الموت:

أين عاد وثمود ؟ أين الفراعنة ؟ أين الرومان ؟ الذي عتوا، وبغوا، واستطالوا، واستعلوا، وكفروا، أين هم الآن ؟ أحاديث، الله قال:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (19))

(سورة سبأ)

(وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ(32))

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

فهذا مثل حقيقي، هؤلاء الذين رفضوا دعوة الرسل:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29))

أهلكوا، وما بعد الموت أشد من الموت، والذي آمن وقتل، أكرمه الله بالجنة، فلما رأى مقامه في الجنة:

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ(27))

أول السورة دعوة نظرية، وهذا مثل عملي:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13))

الذين استجابوا ما مصيرهم ؟ والذين لم يستجيبوا ما مصيرهم ؟ قُتِلوا فدخلوا الجنة، وكَذّبوا فجاءتهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 20-35 ، إن لم يتبع الإنسان رسالة الأنبياء تعمى بصيرته و يدخل النار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-07-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الثالث من سورة يس.

القصص في القرآن الكريم مقصودة لاستنباط قواعد للوصول إلى الله عز وجل:

في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ (33))

لكنا شرحنا الآيات الأخيرة شرحاً سريعاً، فوجدت من المناسب أن نأتي عليها مرة ثانية فلعل الله سبحانه وتعالى ينفعنا ببعض المعاني الدقيقة التي يمكن أن نستنبط منها قواعد في حياتنا.

مرة ثانية وثالثة القصص التي وردت في القرآن الكريم ليست مقصودة لذاتها، إنما هي مقصودة لاستنباط قواعد تلقي لك ضوءاً في الطريق إلى الله عز وجل، فمر بنا في الدرس الماضي أصحاب القرية إذ أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19))

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19))

هؤلاء الذين كذبوا رسالة الرسل.

قيمة العلم والعمل القيم الوحيدة للترجيح بين العباد:

النموذج الآخر نموذج المؤمنين، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ (20))

أقصى المدينة أي من أطراف المدينة، ماذا نستفيد من هذه الكلمة ؟ العادة أن الأغنياء يسكنون في أوجه الأحياء، والفقراء يضطرون إلى أن يسكنوا في أطراف المدينة، هذا الذي سكن في طرف المدينة، رفعه الله عز وجل إلى مرتبة الصديقية، انظروا أيها الأخوة كيف أن الله سبحانه وتعالى لم يعتمد من كل القيم التي تعارف الناس على أنها قيم للترجيح بين العباد، إلا قيمة واحدة، هي قيمة العلم والعمل، وما سوى ذلك من الفقر والغنى، الذكاء وعدم الذكاء، الوسامة والدمامة، الصحة والمرض النسب والحسب، وأن يكون الإنسان مغموراً، هذه كلها لا شأن لها عند الله، فهذا الرجل الذي ارتفع إلى مرتبة الصديقية في بعض الأحاديث الشريفة، أين كان يسكن ؟ في أقصى المدينة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام دققوا في هذا الكلام قال:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

الرزق المطغي قد يكون طريق الإنسان إلى النار:

هناك رزق لا يكفي، وهناك رزق يكفي، وهناك رزق يطغي، فالمطغي بلاء كبير، لأن هذا الرزق المطغي ربما كان الطريق إلى النار، والنبي عليه الصلاة والسلام استعاذ من الرزق المطغي قال:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

عدّ النبي عليه الصلاة والسلام الرزق المطغي بلاء كبيراً، أما أن يكون الرزق لا يكفي، فهذا حالة قد تكون مزعجة، ولكن هناك من يصبر، وهناك حكم لا تنتهي أن يكون رزق الإنسان لا يكفي، قد يدفعه الله إلى بابه، قد يلين نفسه، قد يجعله متواضعاً، قد يطهره من ذنوب كثيرة.

لأن النبي كما تعلمون عليه الصلاة والسلام لما قال: يا رب ارحمه... دخل على أحد أصحابه فقال: ادع الله أن يرحمني، فوقع في قلب النبي يا عبدي كيف أرحمه مما أنا به ارحمه.

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء، شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

أي هناك رزق لا يكفي، لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، لو كشف لك الله عن السر الدفين وراء هذا الرزق الذي لا يكفي، لذابت نفسك كالشمعة حباً لله عز وجل، وهناك رزق يكفي، وهناك رزق يطغي،

فإذا سألت أحد الأخوة الأكارم عن حاله وعن معاشه، عن عمله، عن رزقه، وقال لي: والله يا أستاذ لا يوجد شيء زيادة، الحمد لله مستورين، أقول له: لقد أصابتك دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً.

راحة البال نعمة لا تقدر بثمن:

الإنسان إذا كان الله عز وجل أنعم عليه براحة البال، قال تعالى:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5))

(سورة محمد: الآية 5)

أنعم عليه بجسم لا يشكو مرضا عضالاً، أنعم عليه برزق يكفيه، فهو ملك من ملوك الدنيا، مرة قلت لكم: ملك سأل وزيره، من الملك ؟ قال: أنت، قال: لا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، عاش مستور الحال. هذه راحة البال لذلك:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ (20))

من أطراف المدينة، لعله من الطبقة الفقيرة، لعله من الطبقة المستضعفة، لعله ممن لا شأن له، لعله من الضعاف الذين ليسوا من أهل الحل والعقد، لعله من هؤلاء، ومع ذلك رفعه الله عز وجل إلى مرتبة الصديقية.

من خرج من بيته يبتغي وجه الله هذا السعي يرضي الله عز وجل:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ (20))

كلمة رجل أيها الأخوة في القرآن الكريم لا تعني دائماً أنه ذكر، لا، تعني شيئاً أعظم من ذلك تعني أنه بطل، يعني اكتملت فيه صفات الرجولة، من صدق، من أمانة، من نجدة، من مروءة، من سخاء، من وفاء، من حمية، من شهامة.

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى (20))

السعي لربك، تخرج من بيتك إلى أين ؟ إلى شراء، إلى بيع، إلى عقد صفقة، إلى سهرة، إلى نزهة، هذا الذي يخرج من بيته لا يبتغي إلا وجه الله، لا يبتغي إلا طلب العلم، لا يبتغي إلا نشر العلم، لا يبتغي إلا خدمة الناس، لا يبتغي إلا عملاً صالحاً يرضي الله عز وجل:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات: الآية 61)

لمثل هذا:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

شتان بين إنسان عرف الله و إنسان ابتعد عن الله عز وجل:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا (58))

(سورة يونس: الآية 58)

حينما تخرج من بيتك إلى المسجد، حينما تخرج من بيتك لتدعو إلى الله عز وجل، حينما تخرج من بيتك لتعمل عملاً صالحاً، لتتعاون مع إخوتك على البر والتقوى، هذا السعي الذي يرضي الله عز وجل، ألم يقل الله عز وجل:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))

(سورة الليل: الآيات 1-4)

شتان بين إنسان وإنسان، ألق نظرة على الناس في شارع مزدحم، كل إنسان في مخيلته هدف، وما أسمى هدف المؤمن:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ (114))

(سورة النساء: الآية 114)

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى (20))

إذاً السعي، والحركة، والنشاط، وزيارة الناس، وخدمتهم، وإغاثة ملهوفهم، ومعاونة ضعيفهم، وإعطاء فقيرهم، وعيادة مريضهم.

من لم يتفقد شؤون المسلمين ليس منهم:

سيدنا الصديق ـ رضي الله عنه ـ كان في أعلى مرتبة في العالم الإسلامي، كان خليفة المسلمين، وقبل أن يكون خليفة للمسلمين، كان من عادته أن يقدم خدمات لجيرانه، كان يحلب لهن الشياه، فلما أصبح خليفة للمسلمين، دخل إلى بيت جيرانه حُزْنٌ لأن هذه الخدمات لن تستمر أصبح خليفة المسلمين، وفي صبيحة توليه الخلافة، طُرِقَ باب أحد الجيران، فتحت بنت صغيرة الباب، سألتها أمها من الطارق يا بنيتي ؟ قالت يا أماه جاء حالب الشاة، جاء حالب الشاة المعهود ليحلب لنا الشياه، هكذا كان سيدنا الصديق، المؤمن حركته نشيطة جداً، هذا الذي يجلس في بيته يستريح يسترخي لا يعنيه أحد، هذا ليس

مؤمناً، من لم يتفقد شؤون المسلمين فليس منهم، المؤمن حركي، عملي، نشيط يزور، يتفقد، يعود مريضاً، يدعو إلى الله، ينصح، يقول، يتعلم، يطلب العلم،

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى)

هي صفات المؤمنين.

لا ينفع الإنسان عند الموت إلا العمل الصالح:

الدنيا ساعة اجعلها طاعة والنفس طماعة عودها القناعة، كل شيء يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، لا يبقى لك إلا عملك الصالح، كل شيء يفنى، انظر إلى الدنيا، لو أن الدنيا كلها بيديك وجاء الموت لا تنفعك شيئاً، لا ينفعك إلا عملك الصالح يؤكده قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا (100))

(سورة المؤمنون: الآية 100)

فمادام هذا كلام الإنسان إذا جاءه الموت، لِمَ لا نتعظ نحن بهذا الكلام:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20))

تروي بعض الأحاديث: أن هذا مؤمن يس، كان صِدِّيقاً، و عندنا مؤمن آخر مؤمن فرعون، مؤمن فرعون كان صديقاً، ومؤمن يس كان صديقاً، وأنعم بهذا المقام:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا (21))

ما هذا المقياس ؟ هل هذا مقياس دقيق ؟ الإنسان يكذب لمصلحة دنيوية، يدجل، يُزَوِّر الحقائق، يبالغ، يعظم، يفخم، يتملق، ينافق إذا كان في مصلحة، أما إذا انتفت المصلحة الدنيوية كلية، فالكذب لا معنى له.

إنسان أحياناً من أجل أن يبيع هذه السلعة أحياناً يمدحها، من أجل أن يأتيه خير من هذا الإنسان يثني عليه، يثني عليه كاذباً، فالكذب مرتبط بمصلحة دائماً...

علة الكذب المصالح المرسلة المادية:

قصة تروى (هي قصة عادية لكن لها مغزى كبيراً): إنسان كان يعمل عتالاً وله دابة، فلما ماتت هذه الدابة أصبح بلا دخل، جاءته فكرة شيطانية دفنها وأقام عليها قبة، وسماها باسم ولي من أولياء الله، وتوافد الناس عليه وقدموا له الهدايا والخراف وعاش في بحبوحة كبيرة وهو يثني على هذا الولي

المدفون، لماذا يكذب ؟ لمصلحة راجحة عنده، هذا مقياس دقيق حينما تنتفي المصلحة ليس هناك كذب إطلاقاً:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20))

إنسان ما طلب منك شيئاً مادياً، ولا معنوياً، ولا مديحاً، ولا ثناء، ولا أي شيء إطلاقاً، حينما تنتفي المصلحة ينتفي الكذب معها، لأن علة الكذب المصالح المرسلة المادية هذه علة الكذب، لو ألغيت المصالح ألغيت الكذب إطلاقاً.

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

الآن هناك نقطة دقيقة جداً، أحياناً الإنسان يتلقى العلم من مسجد سنوات طويلة، لكنه إذا أراد أن يدعو إلى الله عز وجل يقول لفلان: احضر معنا، لكنك أنت في هذه السنوات العشر ما تعلمت شيئاً تقوله له، لا يكفي أن تدعو الناس إلى المسجد، لابد من أن تنطق بالحق، أنت أيضاً لابد أن تبين الحق لذلك قال:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

ثم نطق بالحق:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

من هي الجهة التي يمكن أن تعبدها وحدها ؟ إنها الله الخالق المربي المسير الرحيم الغني القدير العليم السميع البصير الرؤوف الرحيم.

ليس في الكون جهة تستحق أن تعطيها شبابك وجهدك وإخلاصك إلا الله:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

أي هل هناك جهة تستحق العبادة غير الله عز وجل ؟ هل هناك جهة تستحق أن تعطيها شبابك ؟ والله حينما أرى إنساناً يقدم شبابه لجهة غير الله عز وجل، والله أرى عقله صغيراً، أقول: مسكين فلان ما عرف قيمة نفسه، ليس في الكون جهة تستحق أن تعطيها شبابك وجهدك وإخلاصك وحياتك وعمرك إلا الله، هو أهل التقوى وأهل المغفرة، إما أن تقدم شبابك وعمرك وطاقاتك أو ذكاءك أو علمك لإنسان ؟ ماذا يقدم لك هذا الإنسان ؟

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22))

ألم يقل الله عز وجل لهذا الميت الذي يبيت في القبر أول ليلة: (عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت). من لك غير الله ؟

حينما يموت الإنسان هو في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفذ عذابها:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8))

(سورة المدثر: الآية 8)

حينما يموت الإنسان ويتوزع أولاده أو أخوته: شخص عند حفار القبور ليشتري له قبراً، شخص لطبع النعوة، و شخص للكراسي، وشخص للتعزية، في هذه الساعة العصيبة حينما يسجى الإنسان على فراشه، ويجلل بالأقمشة، ويقرأ له القرآن، في هذه الساعة العصيبة من له غير الله ؟ من له ؟ ماذا ينفعه؟ ماله، هل ينفعه ماله ؟ أولاده ؟ زوجته ؟ أقاربه ؟ أنسباؤه ؟ جماعته ؟ عزوته ؟ مكانته منصبه ؟.

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22))

هو للأبد: إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفذ عذابها.

لا أحد في الكون مؤهل أن تطيعه في معصية الله عز وجل:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

هل ترى أنّ إنساناً في الكون مؤهل أن تطيعه في معصية الله عز وجل !

(أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (23))

أي إنسان أُعطيه كل حبي، أعطيه كل ولائي، أعطيه كل شبابي، أعطيه طاقاتي، قلمي إن كنت أديباً، لساني إن كنت خطيباً، ألا يستحي الإنسان أن يقدم طاقاته وقدراته الخاصة لغير الله عز وجل ؟ أحد الأدباء، نقده بعض النقاد، لأنه باع قلمه لجهة ما، فغضب غضباً شديداً، قال: أنا لم أبع هذه القلم، ولكني أجرته ! الإنسان!! أيبيع قلمه ؟ أيبيع لسانه ؟ أيبيع علمه ؟ أيبيع مكانته لمخلوق ضعيف مثله ؟

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

((عبدي خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تلعب، وخلقتك من أجلي فلا تتعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))

[ورد في الأثر]

خلقك الله عز وجل له، من أجل أن تعرفه، من أجل أن تعبده، من أجل أن تطيعه، من أجل أن يجعلك من سعداء الدنيا والآخرة.

لا يوجد في الكون جهة تستطيع أن تحمي الإنسان من عذاب الله عز وجل:

كلام دقيق:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

إذاً لم يكتف مؤمن يس بأن دعا قومه إلى سماع كلام المرسلين، بل دعاهم أيضاً إلى الهدى مباشرة، قد يقول لك إنسان: بقيت في الدرس عشر سنوات، حدثني من عندك، ماذا سمعت من كلام الله ؟ من تفسير كلام الله ؟ من تفسير حديث رسول الله ؟ من قصص أصحاب رسول الله ؟ حدثني، الإنسان إذا لم يكن طليق اللسان في الحق، مشكلته مشكلة، لكن ماذا استفدت من هذه الدروس كلها ؟ مؤمن يس قال:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (23))

هنا:

(إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ (23))

أي أن الله عز وجل إذا أراد بإنسان شيئاً، إذا أراد به سوءاً، إذا أراد به مكروهاً، إذا أراد به مرضاً، إذا أراد به فقراً، إذا أراد به ذلاً، إذا عذبه، هل في الكون كله جهة تستطيع أن تمنع عنه العذاب ؟ أن تحميه من عذاب الله عز وجل !!

(أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24))

أفضل نعمة على وجه الأرض أن تعرف الله عز وجل:

أيها الأخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو، ما من نعمة على وجه الأرض، ما من نعمة في الدنيا أثمن من أن تعرف الله، من أن تعرف من أنت ؟ لماذا أنت في الدنيا ؟ أين كنت وأين المصير ؟ ما مهمتك الحقيقية ؟ هذه الآلهة لابد من أن يهدمها بالدعوة إلى الله عز وجل، يجب أن تحطم الأصنام التي تعبد من دون الله، شهوة النساء، صنم شهوة المال، صنم شهوة العز والسلطان، صنم هذه الآلهة التي يعبدها الناس من دون الله يجب أن تحطمها لهم، لأنك إذا أقررتهم على ما هم فيه من شهوات وانحرافات، كانت حجاباً بينهم وبين الله عز وجل، مؤمن يس دعا إلى عبادة الله عز وجل:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22))

بشكل استفهام استنكاري، ثم تعجب قال:

(أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (23))

هذه الآلهة ماذا تنفع أو تضر، إن الحكم إلا لله، الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، له الخلق والأمر، لكل شيء حقيقة، وما بلغ الإنسان حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، يعني الدين كله ملخص في كلمة التوحيد.

في دعوة الرسل دليلان على أنهم مهتدون:

((يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[الترمذي و أحمد عن ابن عباس]

أي أن الناس جميعاً لا يقدمون ولا يؤخرون، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً، علاقتك بالله وحده، هذا هو التوحيد، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها مطمئن علاقتك مع جهة واحدة، مع الله. إنه سميع بصير عليم عادل محب غني قدير يجيب الدعاء، الحقيقة في دعوة الرسل دليلان على أنهم مهتدون: أول دليل شكلي وثاني دليل عملي أو مضموني.

1 – دليل شكلي:

الشكلي: أنهم لا يسألون الناس أجراً:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

هذا دليل ولكن شكلي.

2 ـ دليل مضموني:

أما إذا سمعت دعوتهم، سمعت منطق التوحيد، سمعت التعريف بالله عز وجل، سمعت منهج الله عز وجل، هذا دليل آخر أقوى من الأول، فأنت إذا أردت أن تبين للناس الحقيقة يجب أن تنوع لهم الأدلة، دليل نقلي، دليل عقلي، دليل واقعي، دليل الفطرة، دليل شكلي خارجي، دليل داخلي وهكذا:

(إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23))

من تخلى الله عنه لن يستطيع أحد أن يحميه:

قلت في الدرس الماضي: دائماً وأبداً إذا جاءك ضغط، أو توجيه، أو أمر من قوي، أو مِنْ مَنْ تحرص على رضائه، أو ممن تخاف على حزنه، إذا جاءك هذا الأمر، دائماً وأبداً قل هذه المقولة: إن فلاناً لا يمنعني من الله ولكن الله يمنعني من فلان، إذا أراد الله أن يحميك منه يحميك وإذا تخلى الله عنك لا يستطيع أحد أن يحميك من الله عز وجل:

(إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24))

من قادته ظروفه السيئة إلى أن يعصي الله عندئذ عليه أن يجهر بمعتقده:

الآن مؤمن يس جهر بالحقيقة وجهر بانتمائه، قال:

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25))

أنا مؤمن، افعلوا ما تريدون، قال فرعون:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ(71))

(سورة طه: الآية 71)

الآيات كثيرة وردت ماذا قالوا ؟ قالوا:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا (73))

(سورة طه: الآية 72)

أحياناً تجامل، تداور، تحاور، تعتذر، أما حينما يضيق عليك إلى درجة لابد من أن تعصي الله، تقول: لا أعصي الله، أنا مؤمن، أنا لا أفعل هذا، افعلوا ما تشاؤون، أي إذا قادتك الظروف الصعبة إلى درجة لا خيار لك إلا أن تعصي الله، عندئذ اجهر بمعتقدك ولا تخشى في الله لومة لائم:

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25))

فرز الناس يوم القيامة إلى مؤمن ومجرم، مسلم وكافر:

يبدو أنهم قتلوه:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

هنا ليس من يقطع طرقاً بطلاً، إنما من يتق الله البطل، اسمعوا هذا الكلام أيها الأخوة، الدنيا يعيش فيها البر والفاجر، والمؤمن والكافر، والمستقيم والمنحرف، والكاذب والصادق، والأمين والخائن،كل الناس

يعيشون، ويأكلون، ويشربون، ويلبسون، ويتمتعون، ويتنزهون، الأوراق الآن مختلطة، لكن حينما يأتي ملك الموت تنكشف الأوراق:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59))

صار هناك فرز، الآن الناس كلها مع بعضها، هذا مؤمن، الله يعرفه وأقرب الناس إليه، لكن مظهره إنسان عادي، لكن يوم القيامة يفرز الناس إلى مؤمن ومجرم، مسلم وكافر.

بطولة الإنسان أن يعدّ لساعة النزول في القبر:

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ (26))

لو يعلم الإنسان ما هو عليه بعد الموت كما قال عليه الصلاة والسلام ما أكل طعاماً عن شهوة ولا دخل بيتاً يستظل فيه ولا ذهب إلى الصعدات يبكي على نفسه، البطولة أن تعد العدة لهذه الساعة، لساعة الفراق، لساعة النزول في القبر، لساعة أن كل الدنيا لا تنفعك عند هذه الساعة، الأهل، الأموال، المكانة، السمعة، الجاه، السلطان هذا كله لا ينفعك:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

النبي عليه الصلاة والسلام قال في بعض الأحاديث:

((رحم الله مؤمن يس نصح أمته في حياته وبعد مماته))

[ورد في الأثر]

أي حينما نقل لنا ربنا عز وجل قوله بعد الموت، فكأنما نصح الأمة في حياته وبعد مماته:

(قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27))

من ذاق مشاعر الإيمان يتمنى أن يكون كل عمره في سبيل الله:

أحياناً الإنسان المؤمن يتلقى من الله تجليات، يشعر بالطمأنينة، يوفقه الله في عمله، لكنه ملتزم، مطبق، مستقيم، قد يقول له رجل فاسق فاجر: أنت شاب أول حياتك لِمَ هذا التزمت ؟ لِمَ هذا التضييق على نفسك ؟ لأنه لم يذق مشاعر هذا المؤمن، المؤمن حينما يذوق مشاعر الإيمان يتمنى أن يكون كل عمره في سبيل الله:

(قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27))

أي إذا الله عز وجل أكرم أكرم، إذا أكرم إنساناً شيء لا يوصف قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169))

(سورة آل عمران: الآية 169)

نظام الحياة شيء ونظام ما بعد الموت شيء آخر، هذا الذي رأيته مقتولاً هو عند الله في سعادة لا توصف، خالق الكون يقول لنا:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169))

(سورة آل عمران: الآية 169)

الهلاك عاقبة قوم يس:

واستحق قومه الهلاك لكنهم لا شأن لهم عند الله عز وجل، قال الله عز وجل:

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28))

أي لا يستحقون الجند من السماء:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29))

ما الإنسان ؟ الإنسان كن فيكون زل فيزول، الإنسان يكون بأعلى درجات مكانته الاجتماعية بساعة واحدة يفقد عقله ؛ أقرب الناس إليه يصرفه إلى مستشفى المجانين، أنت لك مكانة في مجتمعك لأنه يوجد عقل في رأسك، فإذا أخذ الله هذا العقل، أصبحت في المستشفى، لك مكانك مادامت أعضاؤك تعمل بانتظام، فإذا تعطلت هذه الأعضاء استثقل الناس حياتك، ولو كنت أعظم الناس ؛ أقرب الناس إليك يتمنى لك الموت، يقول اللهم خفف عنه، فالإنسان على أي شيء يتكبر ؟ مليون مليون باب بجسمك فقط تنقلب حياتك فيه إلى جحيم !!! كل إنسان، هاتان الكليتان إذا توقفتا أصبحت حياة الإنسان جحيماً، الكبد إذا تشمع عاش أياماً معدودة، القلب، الأوعية، الشرايين، الأعصاب، الدماغ، العضلات.

على الإنسان أن يُكثر من ذكر الموت لأنه مفرق الأحباب و مشتت الجماعات:

قال تعالى:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً (29))

الإنسان أحياناً يكون ملء السمع والبصر، فإذا هو خلال ثانية واحدة خبر أو نعوة على الجدران، أنا أقول لكم كل جمعة: واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا،

أما دخلت بيتاً فخماً، صاحبه أصبح تحت الثرى، انظر إلى الرخام، وإلى التزيينات، وإلى الغرف الواسعة، والثريات، والأثاث الفخم، أين صاحب البيت ؟ تحت التراب، نصف متر بمترين، هذه هي الحياة.

لذلك: عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارق واعمل ما شئت فإنك مجزي به، أكثروا ذكر هاذم اللذات مفرق الأحباب مشتت الجماعات، قال تعالى:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ (30))

من آمن بعد فوات الأوان فلن ينفعه إيمانه شيئاً:

والله أيها الأخوة، قلت لكم سابقاً مشكلة الإنسان ليست في أن يؤمن أو لا يؤمن، لابد من أن يؤمن، ولكن المشكلة القضية متى يؤمن ؟ إما أن تؤمن وأنت شاب فتنتفع من إيمانك، أو أن تؤمن بعد فوات الأوان لينطبق على الإنسان قول الله عز وجل:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق: الآية 22)

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87))

(سورة الواقعة: الآيات 83-87)

تفضلوا ارجعوها، يبذلون المئات، الملايين:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ (11))

(سورة الرعد: الآية 11)

فالكلام يجب أن نعمل لهذه الساعة، لساعة اللقاء مع الله عز وجل، يجب أن نعمل لساعة لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الاستهزاء أشد أنواع الكفر:

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30))

الله عز وجل خلق الإنسان، سخر له الكون تسخير تعريف وتكريم، أعطاه العقل: قوة إدراكية ليكون هذا العقل أداة التعريف ومناط التكليف، أعطاه حرية الاختيار، فَطَرَهُ فِطْرَةً سليمة، أودع فيه الشهوات، أعطاه قوة فيما يبدو، أعطاه الحواس، أعطاه التشريع، أعطاه من يدعوه إليه ومع ذلك كفر وعصى واستكبر وأدبر:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25))

(سورة المدثر: الآيات 19-25)

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30))

والاستهزاء أشد أنواع الكفر، الإنسان قد يقول هذه الفكرة غير قانع بها، هذا كفر، أما الاستهزاء أشد أنواع الكفر، حينما لا تؤمن وتسخر من هذه الأفكار فهذا كفر شديد.

الحياة مرة واحدة إما أن تسعد بعدها إلى الأبد وإما أن تشقى إلى الأبد:

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (31))

من الأمم، اذهب إلى مصر وانظر إلى آثار الفراعنة، أين هم الفراعنة ؟ انظر إلى آثار التدمريين، انظر إلى الحميريين، انظر إلى الأنباط، انظر إلى عاد وثمود هذه الأقوام التي أشادت حضارات عريقة أين هي الآن ؟ تحت أطباق الثرى وقد خُتِمَ عملها:

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (31))

من الأمم:

(أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31))

أي ما عندنا إلا فرصة واحدة للحياة، لا يوجد دورة ثانية إذا غلطنا، بعد الموت لا يوجد دورة ثانية، الحياة مرة واحدة، إما أن تسعد بعدها إلى الأبد وإما أن تشقى إلى الأبد، إما أن تستغل الحياة بمعرفة الله عز وجل وبمعرفة حقيقة الإنسان وسرّ وجوده، وإما أن ينغمس في الشهوات حتى يأتيه ملك الموت وهو غافل.

من أيقن أن الله موجود و سيحاسب لابدّ من أن يستقيم على أمره:

الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا:

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32))

كل هؤلاء الأمم والشعوب، كلها سيقت إلى الله عز وجل، المرجع والمآل إليه:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية: الآيات 25-26)

إذا أيقنت أيها الأخ الكريم: أن الله موجود، وأنه يعلم، وأنه سيحاسب، لابد من أن تستقيم على أمره، موجود ويعلم وسيحاسب قضية مصيرية، ليست قضية درس تباركنا فيه، والله درس لطيف، القضية أعظم من ذلك، أخطر من ذلك، قضية مصير أبدي وليس مصير دنيوي سنة سنتين ويمضوا، الإنسان أيام يقول: يمضوا، كم سنة ويمضوا، الإنسان أحياناً يفقد حريته عشر سنوات ومضوا، العشر سنوات ليست قضية عشر سنوات خمسين سنة قضية أبد، إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفد عذابها.

لن يعرف الإنسان ربه إلا من خلال خلقه سبحانه:

الآن ربنا عز وجل بعدما بيّن مغبة الكفر برسالات الأنبياء والمرسلين، وأعطانا أمثلة واقعية عن أمة كفرت بدعوة أنبيائها، وكيف أن الله أهلكها الآن، بيّن الطريق إليه، كيف تعرفه ؟ كيف تعرف الله عز وجل ؟ تعرفه من خلال خلقه قال:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ (33))

التراب ميت، التراب لا حياة فيه، لكن ربنا عز وجل أودع في التراب ملايين الكائنات، البكتيريا الأحياء الدقيقة، لا نعرف قيمة الحياة في التراب إلا إذا ألقيت قنبلة ذرية على أرض فعقمتها !! الآن في بعض البلاد، في اليابان، أرض معقمة لا تنبت شيئاً لأن القنبلة الذرية أتلفت فيها عناصر الحياة، فالأرض ميتة من أحياها ؟ من جعل فيها هذه الكائنات التي لا تعد ولا تحصى ؟

النفس الميتة يحييها الله عز وجل إذا اتجهت إليه كما يحيي الأرض الميتة:

والله مرة قرأت مقالة عن ديدان الأرض والله شيء لا يصدق ؟ قال: يمكن أن يموت بني البشر جميعاً وتبقى الحياة مستمرة، أما إذا أبيدت ديدان الأرض لا يبقى على وجه الأرض حياة لأن هذه الديدان تحول التراب إلى سماد، لها دور خطير جداً في التربة، نحن لا نعلم ذلك:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا (33))

انظر إلى الأرض في الشتاء، وانظر إليها في الربيع، كيف أنبتت العشب الأخضر، والأزهار، والثمار، والمحاصيل، والخضار، والفواكه، هذا الحجم الخضري أين كان ؟ من بذرة صغيرة أصبحت شجيرة كبيرة، قال:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا (33))

يوجد بالآية إشارة لطيفة، أي كما أن الأرض الميتة يحييها الله عز وجل بمعجزة منه، كذلك القلب الميت، النفس الميتة إذا اتجهت إلى الله عز وجل يحييها، لذلك قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال: الآية 24)

وصف الكفار بأنهم أموات غير أحياء.

القمح آية من آيات الله الدالة على عظمته:

وأخرجنا منها حباً، هذا القمح، أنت حاول اليوم أن تستعرض ما تأكله من أغذية يدخل القمح في صنعها، شيء عجيب، أكثر الأغذية يدخل فيها القمح، الحلويات، المعجنات، الخبز، البرغل، أكثر الأغذية القمح عنصر أساسي فيها، من جعل هذا القمح ينضج في وقت واحد ؟ انظر إلى الفواكه تنضج بالتدريج، وهذا من نعمة الله عز وجل، حقول البطيخ تنضج خلال ثلاثة أشهر، يعني أنت تأكل البطيخ قرابة ثلاثة أشهر، كل يوم تنضج بعض الثمار، في برمجة من الله عز وجل، هذا النبات مبرمج أن يعطي ما عنده خلال أشهر ثلاثة، لكن القمح ولحكمة بالغة أرادها الله عز وجل ينضج في يوم واحد، يحصد في وقت واحد !! من جعل هذه القمحة تنبت سنابل كثيرة في كل سنبلة مئة حبة ؟ أنا والله بأم عيني رأيت قمحة أنبتت خمساً وثلاثين سنبلة من قمحة واحدة، أخذت سنبلة بيدي وفرطت حباتها فإذا هي خمسون حبة، فهذه الحبة أنبتت ألفاً وسبعمائة وخمسين حبة، هذا عطاؤنا، قبل سنوات بلغت محاصيل القمح من سبعين ضعفاً إلى ثمانين ضعفاً.

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا (33))

القمح هو المادة الغذائية الأولى في العالم:

القمح هو المادة الغذائية الأولى في العالم، أي كان هناك حرب نفط وحرب قمح وحرب ماء، المادة الأساسية في العالم القمح، هذه من آيات الله عز وجل، ثلاثة آلاف و خمسمئة نوع من القمح في العالم، ولأنه غذاء أساسي ينبت في جميع الأماكن، في الأماكن الحارة، والأماكن الرطبة، والأماكن الدافئة، والمنخفضات، والأغوار، والمرتفعات، والجبال، في أي مكان ينبت، وعلى مدى العام ينبت وله أنواع لا يعلمها إلا الله، النوع القاسي والنوع الفلاني والنوع الفلاني هذا من آيات الله، ومن له خبرة في هذا المحصول يعرف آية الله عز وجل، من صمم السنبلة لها ساق هذا الساق غذاء أول للحيوان، كما أن القمح متناسب تناسباً رائعاً مع طبيعة الإنسان وأجهزته وحاجاته، كذلك ساق القمحة متناسب تناسباً كبيراً مع حاجة الحيوان، طبعاً هذه موضوعات للتفكر: موضوع المحاصيل، اسأل نفسك هذا السؤال القمح العدس الشعير الحمص هذه المحاصيل ذات الطاقات العالية في التغذية من صممها ؟ من جعلها

بهذه الأنواع المنوعة ؟ من جعلها بهذه الصفات ؟ من جعلها بهذه الطباع ؟ من جعلها بهذا الإنتاج؟ بهذه الغزارة ؟ قال تعالى:

(فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33))

على الإنسان أن يفكر في طعامه ليصل إلى الخالق سبحانه:

يقول أحدنا: شدة القرب حجاب، يقول: أين الخبز ؟ هاتوا خبزاً، يمسك الرغيف ويأكله حسب العادة ؟ فكر !!هذا رغيف خبز، أصله دقيق، أصل الدقيق قمح، أصل القمح مزروع، من أنبت القمحة ؟ من صممها بهذه الطريقة ؟ الله عز وجل قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24))

(سورة عبس: الآية 24)

أمر إلهي، فكّر في طعامك، قبل أن تقول هاتوا الخبز، أين الخبز ؟ وسخن الخبز، انظر في هذا الخبز ! من صممه ؟ من خلقه ؟ إن أكلت بسكويت، إن أكلت معكرونة، إن أكلت برغل كله قمح، إن أكلت معجنات، إن أكلت حلويات كله قمح.

الفواكه و الثمار و الطعام مادة أساسية للتفكر في خلق الله عز وجل:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ (34))

في بساتين تجد التفاح، والكرز، والأجاص، والكمثرى، والدراق، والأعناب، والنخيل، يقول: جنة، هذا البستان من صممه ؟

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ (4))

(سورة الرعد: الآية 4)

ممكن تصف لي طعم الأجاص من دون كلمة أجاص ؟ ممكن أن نذوق التفاح والأجاص والدراق والتوت والمشمش ثم نقول لك: اكتب لنا طعوم هذه الفواكه من دون أن تذكر أسماءها، لا تقدر !! هذا تفاح سكري، هذا كولدن، هذا ستارغن، هذا تفاح شتوي، كم نوع تفاح يوجد ؟ كم نوع عنب ؟ كم نوع كمثرى ؟ هذا أبو سطل، وهذا كوشي، اسأل إخواننا المزارعين، والدراق هذا مخملي، وهذا يقشر، وهذا دراق من نوع ثانٍ، أنواع منوعة، ومشمش وزري وبلدي وإلى آخره، انظر الأنواع شيء للعصير، وشيء للصناعة، وشيء للمائدة، وشيء للنقل، وشيء للاستهلاك، أنواع منوعة الطعام والفواكه والثمار مادة للتفكر أساسية جداً، الفكر يجب أن ينطلق، لا تأكل كما يأكل عامة الناس، كُلْ كما يأكل المؤمنون، قل: بسم الله الرحمن الرحيم.

نضج الفواكه تباعاً لحكمة أرادها الله عز وجل:

من صنع هذه الفاكهة ؟ من برّمج الفواكه ؟ لو أن الفواكه كلها تنضج في يوم واحد ! تصبح للتلف كلها، أولاً الكرز ينتهي بعده المشمش بعد المشمش التفاح ثم الدراق، الأمور مبرمجة الكرز على أسبوعين، ثلاثة، شهر، تأكله يعطي الشجر، من برّمج النبات الواحد؟ من برمج النباتات مع بعضها ؟ الله عز وجل، من جعل أنواع منوعة، كم نوع يوجد للكرز ؟ شيء غامق، شيء فاتح، وشيء له حز كبير، صغير، حامض، حلو، كبير، صغير، قاسٍ، أنواع منوعة تصميم مَنْ ؟ كله إكرام لك من أجلك:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ (70))

(سورة الإسراء: الآية 70)

الأنهار و الينابيع آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34))

هذه الينابيع يقال: هذه السنة خمس وثلاثون متراً مكعباً في الثانية نبع الفيجة، ماء عذب فرات زلال، من خَزَّنَهُ ؟ الله جل وعلا، هذه الأنهار، هذه الينابيع، الثمار، الفواكه، المحاصيل:

(وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35))

شكر الله عز وجل على نعمه:

وما عملته أيديهم لها معانٍ كثيرة:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ (35))

أحياناً تأكل صناعة غذائية راقية أساسها تفاح، أساسها مشمش، أساسها قمح، أي إما للصناعة، قد تأكل شيئاً مصنعاً لا تنسى أن أساسه قمح، والله أكلنا بسكويت لذيذ جداً، أساسه قمح من صنع الله عز وجل، الإنسان عمل مداخلات طفيفة، أما الأصل القمح، الأصل مثلاً فواكه:

(أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36))

هذه آية دقيقة تتحدث عن نظام الزوجية في الكون إن شاء الله تعالى نشرحها في درس قادم بالتفصيل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 33-50 ، كل شيء في الكون آية من آيات الله الدالة على عظمته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-07-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم: مع الدرس الرابع من سورة يس.

الطريق إلى الله يبدأ بمعرفته:

وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية الثالثة والثلاثين في قوله تعالى:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33))

بعد أن بيّنَ الله جل جلاله مغبة الصد عن سبيل الله، ورَفْضَ رسالات الأنبياء، وضرب لنا مثلاً حياً عن أقوام كذبوا رسلهم، وأهلكهم الله عز وجل، وأوقعهم في شر أعمالهم، وكيف أن الذي عرف الله عز وجل لقي الله وهو عنه راض فدخل جنة الخلد.

بعد أن بيّنَا الأمور النظرية والأمثلة التطبيقية، بيّنَ الله جل وعلا الطريق إليه، الطريق إليه يبدأ بمعرفته، ومعرفة الله عز وجل هي أصل الدين، أصل الدين معرفة الله عز وجل، هذه أصول، وفروع الدين كثيرة، إذا خضنا في فروع الدين ولم نملك هذا الأصل القويم فإننا في متاهات كثيرة، ماذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة ؟ لماذا الآيات المكية كلها تتحدث عن الله وعن آياته الكونية ؟

مراحل الدعوة إلى الله:

إذاً مرت الدعوة إلى الله بمرحلتين: مرحلة مكية، ومرحلة مدنية، في المرحلة المكية تم التعريف بالله من خلال آياته، وإذا قرأت الآيات المكية لوجدت العجب العجاب، كلها إشارات إلى آيات الله في الأرض:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1))

(سورة الشمس:الآية1)

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4))

(سورة الليل:الآية1)

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1))

(سورة الانفطار: الآية1)

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1))

(سورة التكوير: الآية1)

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47))

(سورة الذاريات: الآية47)

قيمة الأمر من قيمة الآمر:

لو تتبعت الآيات الكونية لوجدتها كلها حول محور واحد: الإيمان بالله من خلال آياته والإيمان باليوم الآخر، إذا صحّ إيمانك بالله صحّ إيمانك بكل شيء، عندئذ يأتي دور الفروع: دور التشريع، أحكام الزواج، أحكام الطلاق، أحكام البيوع، كل هذه الأوامر والنواهي لها معنى عندئذ إنها طريقٌ إلى الله، إنها تنفيذٌ لأمر الله، إنها طاعةٌ لله.

الأمر والنهي لا معنى له قبل معرفة الآمر والناهي، لذلك ما من دعوة تنجح إلا إذا بدأت بتعريف الناس بالله، وما من دعوة بدأت بالعكس، بدأت بتعريف الناس بشرع الله دون أن يُعَرِّفُوهم بأمر الله عز وجل، هذه الدعوة لا تنجح، لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر، فإذا لم تعرف للآمر قدراً، هل تعرف للأمر قدراً ؟ ربنا عز وجل قال:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (91))

(سورة الأنعام: الآية91)

من أراد أن يتعلم أو يعلّم عليه أن يعرف الناس بالآمر أولاً:

لذلك دائماً إذا أردت أن تعلم أو أردت أن تتعلم، ابدأ بالآمر قبل الأمر، ابدأ به، من هو الآمر ؟ هذا الذي أمرني أن أفعل كذا وكذا، من هو الله عز وجل ؟ قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (54))

(سورة الأعراف:الآية54)

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ (2))

(سورة الرعد:الآية2)

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ (96))

(سورة الأنعام:الآية96)

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9))

(سورة المزمل:الآية9)

حينما يُسَلِّم المريضُ نفسه لطبيب، نقول: هذا الطبيب دَرَسَ في بلد أجنبي، معه بورد، متفوق باختصاصه، شهادته امتياز، أجرى عشرة آلاف عملية كلها نجحت، يطمئن المريض، حتى المريض يسلم نفسه لطبيب، يجب أن نُعَرِّفَهُ بهذا الطبيب.

آيات الله عز وجل كلها تعرفنا بذاته العلية:

لكي يستسلم الإنسان لله عز وجل في تنفيذ أمره وفي الانتهاء عما عنه نهى، يجب أن يعرفه، هنا النقطة، الذي فعله النبي عليه الصلاة والسلام: أنه أمضى ثلاث عشرة سنة في مكة يُعَرِّف أصحابه بالله وباليوم الآخر من خلال الآيات الكونية، فلما جاء للمدينة بدأ الشرع ينزل تباعاً: آيات الدَيْن، آيات الطلاق، آيات البيوع، هذا كله جاء في مرحلة مدنية، فالله عز وجل حينما أراد أن يعرفنا بذاته، بدأ بهذه الآيات قال تعالى:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ (33))

انظر بشكل بسيط إلى الأرض في الشتاء، تراب، انظر إلى الأشجار في الشتاء، خشب يابس، أرض ترابية قاحلة وخشب مغروس فيها، انظر إليها في الربيع: الحشيش الأخضر، الأزهار الورود، الرياحين، الأشجار اكتست حلة قشيبة، أين كان هذا الجمال كله في الشتاء ؟ أين كان مخبئاً ؟

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ (33))

النبات من آيات الله الدالة على عظمته:

أي انظر إلى الأرض بأشجارها وترابها في الشتاء، وانظر إليها بالربيع.

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا (33))

اذهب إلى سهول حوران في الربيع تراها بساطاً أخضر كلها، حبوب أُنْبِتَتْ، الحبة: عبارة عن رشيم هذا الرشيم له سويق وله جذير وهو كائن حي وله محفظة غذائية وله قشرة، فإذا جاءته الرطوبة، نما جذيره ونما سويقه على حساب المحفظة الغذائية إلى أن تتمكن جذوره أن تمتص الغذاء من التربة، عندها تصبح نبتة، هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33))

تناسق غذاء الإنسان مع حاجاته تناسقاً عجيباً:

تحدثت في الدرس الماضي: أن القمح هو الغذاء الأول، الغذاء الرئيسي في حياة الإنسان، وهو متناسق تناسقاً عجيباً مع حاجات الإنسان، الأمر الذي يدعو إلى أن تقول يقيناً: إن الذي خلق هذه الحبة حبة القمح والذي خلق الإنسان هو إله واحد ؛ للتناسق الدقيق بين بنية هذه القمحة وبين مكوناتها الأساسية وبين بنية الجسم وحاجاته الطبيعية: فيه نشاء، فيه حديد، فيه منغنيز، فيه فوسفور، فيه كذا ستة معادن في القشرة كذا فيتامين، مواد سكرية، مواد نشائية، كلها في هذه القمحة، والقمح خبز وأنواع منوعة، يمكن إذا نظرت إلى محل يبيع المواد الغذائية لرأيت معظم مكونات هذه البضاعة من القمح، الحلويات وأنواع المعجنات وأنواع الخبز كل هذه المواد الغذائية أساسها القمح:

(وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33))

فعندما الإنسان يشتري ربطة خبز، ويقول بسم الله الرحمن الرحيم، هل تعرف ماذا تعني كلمة: بسم الله الرحمن الرحيم ؟ يعني أيها الإنسان هل فكرت في هذا الخبز ؟ هل نفذت أمر الله في تناول الطعام ؟ هذه البسملة كي تَذْكُرَ أمر الله في تناول الطعام، والبسملة كي تذكر نعم الله عز وجل، بسم الله الرحمن الرحيم أأكل، يعني هذه أأكل بعد بسم الله الرحمن الرحيم، أي وفق أمره ومستنيراً بنوره، فإذا شربت فقل بسم الله الرحمن الرحيم، أي هذا الماء من نعمة الله علينا أن جعله عذباً فراتاً، وسوف أشربه وفق سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نضج المحاصيل في وقت واحد لتسهيل الأمر على الإنسان:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ (34))

الأرض غير القمح وغير محاصيل القمح والشعير والعدس والحمص إلى آخره...الأصناف يعلمها الأخوة الذين يعملون بالزراعة، المحاصيل لحكمة أرادها الله تنبت في وقت واحد، تنضج في وقت واحد تسهيلاً على الإنسان، وفوق هذا وذاك يصيبها السوس بعد حين، لولا هذا السوس الذي يصيب هذه الحبوب والمحاصيل لاحتكر الإنسان قوت أخيه الإنسان، ولأمكن للإنسان أن يجمع القمح كله ولأن يبيعه بمئة ضعف عن رأسماله، لكن هذا السوس الذي يصيبه هو الذي يفقده ثمنه بعد حين إذاً لابد من أن يبيعه هذا من حكمة الله عز وجل حكمة بالغة.

النخل من آيات الله الدالة على عظمته من فوائده:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ (34))

الحقيقة العلماء قالوا ": إن أطول الأشجار عمراً هي النخيل "، بعض أشجار النخيل عمرها أكثر من ستة آلاف عام، أطول الأشجار عمراً من دون استثناء هو النخيل، وهناك صفات أخرى للنخيل، أنه إذا قطع رأسها لا تنمو كالإنسان، وأن ثمار النخيل عقدت عليه مؤتمرات: أنا قرأت عن مؤتمر في العالم عقد لدراسة بنية ثمرة النخيل، حتى أنهم قالوا عن ثمرة النخيل إنها صيدلية، إذ أنَّه ستة وأربعون مادة داخلة في تركيب التمر.

1 ـ التمر مادة مسكنة لأعصاب الإنسان:

التمر مادة مسكنة إذا إنسان أعصابه مشدودة ينصح بأكل التمر.

2 ـ التمر مادة مهدئة:

إذا طفل شرس الطباع تُنصح أمه بإطعامه التمر، فيه مادة مهدئة. ولما ربنا عز وجل قال:

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي (26))

(سورة مريم:الآية25)

3 ـ احتوائه على مادة تقبض الأوعية:

التمر فيه مادة تقبض الأوعية، فالمرأة التي ستولد أخطر شيء في الولادة النزيف، لأن مئات الألوف من الأوعية التي في الرحم سوف تتمزق، فإذا كان هناك مادة تقبض هذه الأوعية فالولادة سليمة، فلذلك التمر يفيد المرأة التي على وشك الولادة لأن المادة في التمر تقبض الأوعية فتسهم في انقطاع النزيف.

4 ـ في التمر مادة ملينة:

في التمر مادة ملينة، لأن الأمعاء في المرأة إذا كانت ممتلئة بالفضلات تعسر الولادة، مما يسهل الولادة أن تفرغ أمعاءها، في التمر مادة مسهلة ملينة، وفي التمر مادة قابضة، وفي التمر مادة مضادة للنزيف، وفي التمر مادة تسرع في تقلص العضلات، يعني كل المواد التي في التمر لها علاقة مَسِيسة بالولادة، هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25))

5 ـ التمر لا يتلوث:

وفوق هذا وذاك، التمر لا يتلوث، لأن شدة تركيز المادة السكرية فيه تمتص ماءه أية جرثومة تقع عليه، التمر معقم دائماً ويخزن التمر يعني كما قرأت عنه صيدلية في حبة، حتى أن أخوة كثر حدثوني عن النتائج الطيبة التي عاينوها في أجسامهم بعد تناول التمر.

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ (34))

والتمر أنواع منوعة، سمعت عن تمر ثمن الكيلو مئة ريال يعني ألف ليرة سوري للكيلو الواحد، يعني أفخر أنواع الحلويات لا يرقى إلى مستواه أنواع منوعة.

العنب من آيات الله الدالة على عظمته:

(مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ (34))

العنب يعدّ المادة الغذائية الأولى في الفواكه، أي فيه سكريات وفيه فيتامينات وفيه مواد مرممة لدرجة أنه يعد الفاكهة الأولى، أيضاً أنواع منوعة، العنب يمكن أن يخزن زبيباً قوت أساسي، نعم.

الينابيع وطبقات الأرض آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34))

كل كلمة في هذه الآية موضوع للتفكر، موضوع تفجر الينابيع موضوع طويل أساسه تصميم طبقات الأرض، طبقة نفوذة، طبقة كتيمة، طبقة نفوذة، طبقة كتيمة، حوض مثلاً فتحت هذا الحوض صخور معدنية تذاب قليلاً قليلاً في الماء، الماء الذي يخرج منها ماء معدني يرمم الجسم البشري، حديث طويلٌ طويل حول:

(وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34))

الماء آية من آيات الله الدالة على عظمته:

الماء أساسه مالح، والبحر لولا أنه مالح لما تمت حياة على سطح الأرض، ثم يبخر، يقطر هذا الماء عن طريق السطوح المائية الواسعة، وعن طريق أشعة الشمس، وعن طريق سطوح التبخر، وعن

طريق تحمل الهواء بخار الماء، وعن طريق سوق الرياح لهذه السحب، وعن طريق انعقاد السحاب على شكل حبات مطر،...وبحث طويل طويل كيف يتخلى الهواء عن بخار الماء إذا برد، وكيف يستوعب هذا البخار إذا سخن، وكيف قال الله عز وجل:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14))

(سورة النبأ:الآية14)

كيف أن الضغط الجوي يسهم في تحويل بخار الماء إلى قطرات ماء، وكيف أن هذه القطرات لا تنعقد إلا على ذرات من الغبار في السماء، بحث طويل.

الثمار آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ (35))

يعني هذه الثمار، قف أمام بائع فاكهة: كل هذه الثمار مصممة لك، لإكرامك، في لونها، في حجمها، في قوامها، في رائحتها، في شكلها، في طعمها، الطعم والرائحة والحجم والقوام والشكل واللون هذه كلها تسهم في إكرام الإنسان، الفواكه لها منظر جميل بحد ذاتها قبل أن تأكلها، الفاكهة من حيث الجمال قطعة فنية، تصميم مبدع، تصميم إله عظيم، فهذه الفاكهة.

فوائد النبات لا تعدّ و لا تحصى:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ (35))

هذه إشارة دقيقة في القرآن على أن النبات له فوائد لا تعد ولا تحصى تزيد على أنه نبات تأكله. الآن الأساس من الخشب، أكثر الأدوية النافعة المفيدة من النبات أدوية نباتية، الأصبغة من النبات، الأدوية من النبات، الخشب من النبات، الفلين أصله نبات، المطاط أصله نبات، السواك أصله نبات، الخلة أصلها نبات، أدوات التنظيف القش هذا أصله نبات، القش الخشن والقش الناعم كله نبات، أشجار الزينة نبات، أشجار الحدود نبات، يوجد نبات أوعية، نبات سبحات، أي لو أن الإنسان حصر ذهنه في الفوائد العظمى التي يجنيها الإنسان من النبات لما انتهى إلى إحصائها، قال:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ (35))

النبات خلقه الله عز وجل لإمتاع العين و إكرام الإنسان:

الخشب من النبات، انظر إلى البيت: النوافذ وغرفة الضيوف وغرفة النوم، الطاولات والكراسي كلها أساسها من النبات، قد تستخدم القماش من النبات: الكتان والقطن من النبات، فالنبات تارة كساء، تارة دواء، تارة صباغ، تارة شيء يمتع البصر، كم نوع من نباتات الزينة ؟ يعني كتب مؤلفة، كتاب ضخم، كتاب نبات الصالونات هذه النباتات التي تعيش في غرف الضيوف في الشتاء بحث قائم بذاته، الورود باب آخر، الأبصال باب آخر، الأزهار باب آخر، العدد يأخذ بالألباب.

ادخل عند أخ بائع زهور: كم نوع عنده ؟ هذه مستحية، خير إن شاء الله، هذه الشاب الظريف، اسمع الأسماء، شيء يضحك، أسماء وأنواع، وهذه ساعة، وهذه قنديل، وهذه ياسمينة عراتلية، شيء عجيب، هل هذه خلقت للطعام ؟ لا والله، للزينة، لإمتاع العين ولإكرام الإنسان.

النبات من تصميم الخالق سبحانه:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ (35))

النبات أحياناً أساس الصناعات الغذائية، الشاي نبات، البن نبات، أنواع منوعة من الزهورات، هذه للسعلة وهذه لترطيب الجوف وهذه مسكن وهذه مقشع....، تجد كتباً ضخمة جداً في التداوي بالأعشاب الآن، يوجد موسوعات ومعاجم عن الأعشاب يعني ألفي صفحة: كل نبات صورته ومقوماته فوائده استعمالاته تصميم من هذا ؟

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35))

لن تعذبوا إذا شكرتم وآمنتم:

يا أخوان، إذا آمنت بالله وشكرته حققت المراد من وجودك لقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (147))

(سورة النساء:الآية147)

يعني إذا شكرتم وآمنتم فلن تعذبوا، يعني إن آمنتم وشكرتم حققتم المراد الإلهي من خلقكم لذلك:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35))

النبي عليه الصلاة والسلام كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت، مهما دقت النعمة تعظم عند الله عز وجل، فالمؤمن إذا شرب كأس ماء أو إذا أكل تفاحة، إذا تناول طعاماً، إذا أكل رغيف خبز، إذا شرب كأس حليب، دائماً فكره يفكر في هذه النعم من خلقها ؟

الانتقال من النعمة إلى المنعم:

أيها الأخوة: يجب أن نعلم، الآن سأذكر لكم شيئاً تحدثت به سابقاً، كل شيء خلقه الله عز وجل له هدفان أساسيان: الهدف الأكبر أن تعرف الله من خلاله، والهدف الأصغر أن تستفيد منه، فإذا استفدت منه ولم تتعرف إلى الله من خلاله ضيعت أثمن ما فيه، يعني إنسان أكل العسل وما عرف الله من خلال النحل والعسل، خسر خسراناً مبيناً ولو أنه أكل آلاف الكيلو غرامات من العسل في حياته كلها، وإنسان ما أتاح له دخله أن يأكل لعقة عسل، لكنه قرأ كتابا عن العسل ففاضت عيناه بالدموع خشية لله عز وجل، هذا الإنسان الذي لم يذق العسل في حياته حقق المراد من خلق النحل وخلق العسل، لهذا قال عليه الصلاة والسلام حينما رأى هلالاً قال هلال خير ورشد.

دائماً أيها الأخوة إذا فكرك أعملته في نعم الله عز وجل معنى ذلك أنك حققت المراد الإلهي من خلقه، الانتفاع بالشيء فرع من فروع وجوده.

دعوة الله عز وجل الإنسان إلى التفكر:

عند الأجانب وعند أهل الدنيا الانتفاع بالشيء هو أصل الوجود، عند المؤمنين الانتفاع بالشيء فرع من فروع وجوده، لكن الاهتداء به إلى الله أصل وجوده، لذلك:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات:الآية21)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24))

(سورة عبس:الآية24)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5))

(سورة الطارق:الآية5)

دعوة إلهية إلى التفكر:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35))

نظام الزوجية في الإنسان والذرات والمجرات والنبات والجماد يؤكد وحدة الخالق

الآن ربنا عز وجل أشار بهذه الآية القادمة:

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ (36))

يوجد في الكون ظاهرتان اثنتان: الأولى ظاهرة التنوع والثانية ظاهرة التوحد، الآن للنظر: كل إخواننا الحاضرين كل واحد له وجه غير وجه الآخر، لو دققت في ألوان الوجوه لرأيت أن كل واحد له لون لا يشركه فيه آخر، أبداً كل إنسان له لون خاص بقزحية عينه، له رائحة خاصة، إذاً الله عز وجل خلق خمسة آلاف مليون إنسان، كل إنسان له رائحة تختلف عن الآخر، والدليل تتبع المجرمين عن طريق الكلاب البوليسية، إذا أعطيت الكلب البوليسي شيئاً من حاجات الملاحق فشمها، تتبع رائحته من بين آلاف الأشخاص، فالآن العلم يؤكد أن لكل إنسان رائحة لا تتشابه مع رائحة إنسان آخر، ولكل إنسان لون لقزحية العين لا تشترك مع قزحية عين آخر أبداً، ولكل إنسان تركيب لدمه لا يشترك مع تركيب دم آخر، ولكل إنسان بنية نسيجية، عندنا زمر دموية معروفة، عندنا الآن بنية نسيجية، أحدث بحث عن البنى النسيجية أن عدد البنى النسيجية الآن 2.5 مليار وحدة يعني تقريباً في الأرض في واحد آخر يشبهك بتركيبك النسيجي، وهذا ما يدعو الذين يزرعون الكلية في اختيار إنسان معين مقترب إلى حد ما من نسيج الآخذ.

كل شيء في الكون أساس توالده النظام الزوجي:

إذاً هناك بنىً نسيجية تتميز بها، هناك بلازما للدم تتميز بها، هناك رائحة خاصة تتميز بها، هناك شكل خاص للقزحية تتميز بها، هناك بصمة تتميز بها، هناك نبرة صوت تتميز بها، نبرة الصوت، وقزحية العين، وتركيب الدم، ورائحة الجلد، وبصمة اليد، هذه كلها أشياء منوعة.

أما إذا تناولت دواء صنع في كندا فرضنا تناوله إنسان يعيش في أستراليا، هذا الدواء مسكن يسكن ألمه، ما معنى ذلك ؟ أن الخمسة آلاف مليون إنسان مصممة وفق بنى واحدة، إذاً من أسماء الله الواحد، تحس أن في الكون وحْدَة، من أسمائه الواسع، تحس أن في الكون سعة، في تنويع شديد، وفي وحدة.

ونظام الزوجية: مما يؤكد وحدة الخالق، كل شيء في الكون أساس توالده النظام الزوجي.

التلقيح في النبات:

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ (36))

عملية تأبير النخل عملية مزاوجة، والآن في مخابر أرقى شركات البذور يتم التلقيح باليد، يلقحوا النبات باليد، ويغلقوا الزهرة بملقط لئلا يدخل غبار طلع آخر يفسد هذه المزاوجة، إذاً التقليح في النبات في نبات مؤنث، في نبات مذكر، فالتلقيح يتم تارة عن طريق النحل، وتارة عن طريق الرياح، وتارة

عن طريق الإنسان نفسه، أشجار التين تلقح عن طريق الإنسان، والنخل يلقح نفسه، تأبير النخل يتم عن طريق الإنسان، وفي نباتات تلقح عن طريق الرياح:

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (22))

(سورة الحجر:الآية22)

وفي نباتات تلقح عن طريق النحل، والنحل ربما كانت وظيفته الأولى تلقيح النباتات.

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36))

قانون الله عز وجل يشمل كل شيء:

الآن نظام الذرة أصغر وحدة وظيفية في الكون هي الذرة، أصغر وحدة وظيفية وليست وحدة بنيوية، فيها إلكترون سالب وموجب وفي مدارات، نظام الزوجية في الذرات، نظام الزوجية في المجرات، في كواكب مزدوجة تترافق مع بعضها، فنظام الزوجية في الإنسان وفي النبات وفي الجماد، إذاً في وحدة، إذاً في مصمم واحد، في خالق واحد يتضح قانونه في كل خلقه.

الليل آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ (37))

هذا الليل الله جعله سكناً، الإنسان ينام في النهار ساعات طويلة ويبقى مشدود الأعصاب، ساعة في أول الليل لا تعدلها ثلاث ساعات في آخر الليل، من جعل الليل سكناً؟ والذي صمم حجم الأرض لو أن حجمها أكبر لكان انجذابها للشمس مختلفاً، وإذا كان انجذابها مختلفاً تبدل الليل والنهار، فالليل والنهار متعلق بحجم الأرض ومتعلق بسرعة دورتها حول نفسها، لو أن الأرض تدور حول نفسها كل ساعة لكان نصف ساعة ليل ونصف ساعة نهار، يعني على طول في ليل و نهار، ظهر وصبح. لو كان الليل ثلاثين ساعة تنام ثمان ساعات تكتفي من النوم ولازال الليل قائماً، في أربع ساعات أخرى. صار الليل يساوي النهار تقريباً، ففي تناسب. من صمم هذا التناسب ؟ من نسق بين الليل والنهار وبين حاجة الإنسان؟ الله سبحانه وتعالى، وآية لهم الليل، الليل موضوع للتفكر.

الشمس من آيات الله الدالة على عظمته:

(اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ (37))

النبي الكريم كان يقول:

((سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل ؟))

[ورد في الأثر]

تجد الشمس مشرقة، الجبال متألقة، السهول نضرة، يأتي الليل: فإذا هو ظلام دامس موحش، أين كان ذلك الأنس مع الضوء ؟ وأين ذهب ذلك الأنس مع ذهاب الضوء ؟

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ (37))

انسلاخ لطيف، أحياناً الإنسان يتألق المصباح فجأة فتنبهر عيناك أو ينطفئ فجأة فلا يرى شيئاً، لكن هذا التدرج في ذهاب الشمس شيء عجيب، فأثناء غيابها تجد الضوء يضعف قليلا قليلاً، فإذا جاء وقت العشاء وغاب الشفق الأحمر، رأيت الظلام الدامس، هذا معنى قوله تعالى:

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي (38))

التناسق بين الليل و النهار و بين حاجة الإنسان:

الأرض تدور حول نفسها دورة وحول الشمس دورة وحول نفسها كل أربع وعشرين ساعة، يعني سرعتها عند خط الاستواء ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، أسرع طيارة يركبها الإنسان تجارية ألف كيلو متر، الطائرات العسكرية تصل ألف وستمئة، الطائرة العسكرية ممكن تنطلق من كراتشي إلى أمريكا والشمس هِي هِيَ تنطلق مع الغياب وتصل بعد سبع عشرة ساعة طيران مع الغياب ما معنى ذلك ؟ هذا يعني أنها سارت بسرعة الأرض، فالشمس بقيت في مكانها، فالأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، لكن حول الشمس تدور بسرعة ثلاثين كيلو متراً في الثانية، نحن بدأنا الدرس ثمانية وربع الآن التاسعة إلا عشر دقائق، أي مضى على بدء الدرس خمس وثلاثون دقيقة، كم ثانية ؟ ضرب ستين بخمس و ثلاثين، ضرب ثلاثين كيلو متراً، نحن الآن قطعنا مسافة تقدر بمئات ألوف الكيلو مترات، هذه أشياء بديهية جداً، الأرض تدور حول الشمس بسرعة تزيد على ثلاثين كيلو متراً في الثانية، أما الآن بالآية الكريمة:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي (38))

الشمس تدور حول نفسها كل خمسة وعشرين يوماً دورة، وتجري بسرعة مئتي كيلو متر في الثانية الواحدة، أي المجموعة الشمسية كلها تجري، هذه حقيقة ثابتة، نحن في مجرة درب التبان قطرها ثلاث عشرة ساعة.

درب التبان المجرة التي نحن فيها المجموعة الشمسية كلها نقطة في طرفها:

بالمناسبة بين الأرض والقمر ثانية ضوئية واحدة أي ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر، عندما أرسلوا مركبة للقمر وهي أول مركبة حيث كلفت أربع وعشرين ألف مليون دولار، وبقيت في الطريق إليه ثلاثة أيام، وسرعتها أربعون ألف كيلو متر بالساعة، بعد ثلاثة أيام وصلت للقمر، أي قطعوا ثانية ضوئية واحدة، بعد الشمس ثماني دقائق، الآن: المجموعة الشمسية قطرها ثلاث عشرة ساعة ضوئية، أي الضوء يقطع قطرها في ثلاث عشرة ساعة، أما درب التبان المجرة التي نحن فيها المجموعة الشمسية كلها نقطة في طرفها بكل نجومها وكواكبها، نقطة في طرف درب التبان، درب التبان طوله مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، الرقم دقيق ! الآن أقرب بعد نجم ملتهب إلى الأرض في المجموعة الشمسية أربع سنوات ضوئية، هذا النجم لو أردنا أن نصل إليه بمركبة أرضية نحتاج إلى خمسين مليون عام، أربع سنوات 60 ضرب 60 ضرب ثلاثمئة وستين إلى آخره، تجد رقماً قسمه على أربع و عشرين ثم على مئة بالساعة تمشي المركبة، يظهر رقم قريب من خمسين مليون عام، إلى أن تصل لأقرب نجم ملتهب للأرض، نجم القطب أربعة آلاف سنة، إذاً المرأة المسلسلة مليون سنة ضوئية، أحدث نجم 16 ألف مليون سنة، فربنا عز وجل قال:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38))

تمشي الشمس لمستقر لها، الشمس آية من آيات الله تتسع لمليون و ثلاثمئة ألف أرض، ستة آلاف حرارة سطحها، بأعماقها عشرين مليون درجة لو ألقيت فيها الأرض لتبخرت في ثانية واحدة، ومع ذلك تجري، يقدر العلماء أنه مضى على تألقها خمسة آلاف مليون عام.

القمر آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (39))

أول القمر هلال (قيل كهلال الشك) هلال رفيع يزداد حجماً إلى أن يصبح بدراً أي كتقويم في السماء.

(وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (39))

في آية أخرى:

(لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5))

(سورة يونس:الآية5)

يعني القمر يدور حول الأرض، والأرض تدور، لو جاءت سرعة القمر في دورته حول الأرض مع سرعة الأرض في دورتها حول نفسها لأصبح القمر في مكان واحد ثابت، لكن حكمة الله عز وجل أنه هناك تفاضلاً بين سرعة دورة الأرض حول نفسها وسرعة دورة القمر حول الأرض، من هذا التفاضل تجد القمر يشرق ويرتفع ويغيب، لولا التفاضل لبقي القمر مع الأرض في مكان واحد ثابت، هذا التفاضل هو روعة الخلق، تفاضل سرعة القمر في دورته حول الأرض، وسرعة الأرض في دورتها حول نفسها سَبَّبَ شروق القمر، لأن القمر لو تحرك مع الأرض هكذا لما كان شروق وغروب ولبقي القمر مثلاً فوق أمريكا دائماً.

الهلال قبل أن ينمحق يبدو فيه لون أقل تألقاً من لونه عندما يولد:

(وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ (39))

عزق النخيل، عنقود النخيل إذا نزعت عنه التمر يبقى خيطاً أصفر اللون، فربنا عز وجل شبه القمر بالعرجون، أما كلمة

(القديم)

ما معناها ؟ العلماء قالوا: " الهلال عندما يولد يبدو متألق اللون، أما حينما يقترب من نهايته يبدو شاحب اللون "، فجاءت كلمة القديم إشارة إلى أن الهلال قبل أن ينمحق يبدو في لون أقل تألقاً من لونه عندما يولد.

الكون آية من آيات الله الدالة على عظمته:

هذا معنى قوله تعالى:

(كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ (40))

نحن نسمع كل يوم عن اصطدام قطارين، طائرتين، أو بين باخرتين عملاقتين اصطدمتا تلوث البحر بالبترول، طائرتان اصطدمتا، قطاران تداخلا ببعضهما بعضاً، في كوارث كثيرة ولكن لم نسمع أبداً أن خطأ حدث في الجو:

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40))

واستنبط علماء التفسير أن هذه الآية:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40))

أن كل تفيد الشمولية المطلقة، يعني كل شيء خلقه الله في فلك يسبح، ابتداء من الذرة وانتهاء بالمجرة:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40) وَآيَةٌ لَهُمْ (41))

آية ثالثة:

(وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41))

قانون دفع الماء للأشياء نحو الأعلى آية من آيات الله الدالة على عظمته:

نظام الماء: المادة الصلبة يثبت شكلها وحجمها، والمادة السائلة يثبت حجمها لا شكلها، والمادة الغازية حجمها غير ثابت وشكلها غير ثابت، فتعريف السائل حجمه ثابت لكن شكله متغير بحسب الإناء، هذا الماء أودع الله فيه قوة تماسك، هذه القوة هي التي تجعله يحمل السفينة، يعني السفينة مبنية على دافعة أرخميدس (هذا العالم الذي وضع يده في وعاء الماء وهو في الحمام فشعر بقوة تدفعها نحو الأعلى فخرج عاريا وقال وجدتها وجدتها) وجد قانون الإنسان يحمل وعاء يملأه ماء و يغمسه في البحرة ذهب نصف وزنه، ذهب ثلاثة أرباع وزنه أين ذلك الوزن ؟ هناك في الماء قوة تدفعه نحو الأعلى، هذا قانون أرخميدس له قانون دقيق بقدر الماء المزاح، فالناقلات الضخمة مكونة على أساس أنها تزيح ماء أكبر من وزنها، أما لو فرضنا ألقينا قضيب حديد يسقط إلى أعماق البحر لأنه يزيح ماء أقل من وزنه لا يطفو الحديد على سطح الماء إلا إذا أزاح ماء أكثر من وزنه، لذلك تبنى السفن على أساس مجسمات كبيرة جداً وسطها فارغ كي تزيح ماء كثيراً وتتسع لبضاعة كبيرة جداً.

الآن الناقلات أكثر من مليون طن صار الآن في ناقلات تحمل ألفَ ألف طن كلها مبنية على قاعدة أرخميدس قانون دفع الماء للأشياء نحو الأعلى هذه آية.

إكرام الإنسان بتسخير البر و البحر له:

(وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41))

أي الفلك إن كان بخارياً، وإن كان رياحياً، وإن كان على الشراع، وإن كان على الذرة الأساس واحد، لولا أن الله خلق في الماء قوة تدفع نحو الأعلى لما كانت هذه السفن، انتهى الأمر، كله طبعاً في هذه الآية إشارة إلى سفينة نوح التي حملت ذرية البشرية:

(وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (4))

في البحر هناك سفن، وفي البر هناك جمال و خيول و بغال و حمير، ويخلق ما لا تعلمون، هذه السيارات والقطارات والطائرات والصواريخ ويخلق ما لا تعلمون:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

(سورة النحل: الآية8)

دخلت فيها كل المركبات.

الله عز وجل قادر على كل شيء:

(وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ (43))

لا يتذوق هذه الآية إلا من ركب البحر، أضخم سفينة عملاقة هي سفينة صنعت بعام 1912 اسمها التيتانيك، مشهورة كثيراً، سفينة قيل في كتيب أصدرته الجهة الصانعة أن هذه السفينة لا يستطيع القدر إغراقها، فهي من أضخم السفن التي بنيت في وقتها، وقامت بأول رحلة من بريطانيا إلى أمريكا، ركب في هذه السفينة علية القوم في أوربا، أغنياء أوربا حملوا من الذهب من الحلي من الألماس من الأحجار الكريمة ما يقدر ثمنه بألوف الملايين، طبعاً السفينة مدينة عائمة ففيها: الحمامات، المسابح، المطاعم، الأثاث، الثريات، أي أفخر ما في أوربا وضع في هذه السفينة باعتبار أنها لا تغرق، صنعت من جدارين اثنين وبين الجدارين حواجز عرضية، فلو أنها أغرقت من مكان أغلقت الحواجز فمنعت دخول الماء، فهذه السفينة من عجائب صنعها أنها لم يصنع لها قوارب نجاة لأنها لا تغرق، وفي أول رحلة لها غرقت في عرض المحيط الأطلسي حيث اصطدمت بجبل جليدي شطرها إلى شطرين، وأرسلت استغاثات ولكن كل السفن التي حولها ظنت أنها تحتفل بأول رحلة، وقرأت عنها مقالة قبل حين قبل سنة أخرجوها عثروا عليها قبل عام لأنهم يطمعون بما فيها من ثروات وذهب وألماس عثروا عليها بقاع المحيط الأطلسي قال:

(وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43))

من جاء أجله لا يستأخر ساعة و لا يستقدم ساعة:

مَنْ قرأ منكم غرق الباخرة المصرية بين جدة وبين مصر، أنا قرأت تفاصيل عنها، شيء عجيب، تحس بقدرة الله عز وجل، ليس إلا الله، إنسان بقي على خشبة ثلاثة أيام وفي بطنه تحويشة العمر كما يقولون ونجا، وأشخاص كانوا في أفخر درجات هذه السفينة في غرف فخمة ماتوا غرقاً أي الرقم وصل إلى ثمانمئة إنسان غرقوا في هذه السفينة وغرقت في ثواني أقل من عشر دقائق كانت في قعر

البحر الأحمر، أقل من عشر دقائق يعني خطأ بعض التفسيرات حصل فاتجه باتجاه الجزر المرجانية فانشطرت شطرين فغرقت فوراً، فهي إن نشأ نغرقهم، شخص راكب طائرة فهو برحمة الله وبلطفه وأي خلل تسمع خبر سقوط الطائرة وموت جميع ركابها، في الأخبار حوادث طيران كثيرة ومات جميع ركابها، بالطيران إن نشأ نسقطهم، وفي البحر إن نشأ نغرقهم، وفي البر إن نشأ نصدمهم، فلا صريخ لهم، إنسان راكب سيارته بفضل الله عز وجل وبتوفيقه ورحمته، أي هناك الكثير من الحوادث، انفجار عجلة يموت كل ركاب السيارة، عجلة واحدة، إذا انفجرت العجلة الأمامية بسرعة فوق الـ120 تساوي حادث مميت لكل ركاب السيارة، أحياناً جمل يقع من عليه يدق عنقه، لو ركب جمل لو ركب حصان في حالات وفاة، بالسيارة وفاة، بالطيران وفاة، بالبواخر:

(وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (44))

أي أنت سُمِحَ لك تعيش كذا سنة، لماذا لم يصبني أي حادث ؟ لأنك مسموح تعيش لسن معين، لماذا لم يحدث هذا الحادث ؟ لأن الله عز وجل كتب لك عمر معين:

إن الطبيب له علم يدل بـــه إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلتـــه حـــار الطبيب وخانته العقاقير

* * *

من انتهى أجله يأتيه الموت لأتفه سبب:

عندما ينتهي الأجل تجد لأتفه سبب جاء الموت، الآن ربنا عز وجل سيشير بعد قليل إلى أقاويل الكفار قال:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(46))

أي لم يعد هناك تأثير، يا أخي الله عز وجل خالق الكون يقول لك، صح يوجد موت، يقول الموت حق، طب في شرع، يقول صح، إذاً لماذا لا تستقيم ؟ حتى الله يهديني، كلام فارغ، ليس لك أي حجة، الله عز وجل موجود، وهذا الكون يدل عليه، وهذا الكتاب كلامه وإعجازه يدل عليه، وهذا النبي نبيه وهذا الكتاب يدل عليه، في عندك إله له كلام وله نبي وله سنة إذاً لماذا لم تستقم ؟

المؤمن بنى حياته على العطاء والكافر بنى حياته على الأخذ:

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46))

إذاً لماذا لا تعاون الناس ؟ ادفع يا أخي أنت رجل غني:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ (47))

هذا منطق الكفار يا أخي، لا يكفي العباد إلا الله عز وجل، إذاً عاونه، له رب لا ينساه، هذا كلام ظاهره فيه تلبيسة، لكن باطنه فيه بخل..، لا يكفي العباد إلا رب العباد، إذاً الله عز وجل أمرك أن تعمل الصالحات.

امتحان الغني بالإنفاق و امتحان الفقير بالصبر:

(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47))

الإنسان الله جعله غنياً ليتصدق، وجعله قوياً ليعاون الضعيف، وجعله عالماً ليعلّم، إذا الله أعطاك شيئاً ! الله عز وجل وصف المؤمنين أنهم:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

(سورة البقرة:الآية3)

فيقول الإنسان أنا ليس لي علاقة، الإنسان له رب لا ينساه، الله عز وجل لا ينساه عن طريقك أفقره وأمرك أن تعطيه، من أجل أن تمتحن أنت ويمتحن هو، هو بالصبر وتمتحن أنت بالإنفاق، فهذا منطق أهل الدنيا.

على الإنسان أن يتوب إلى ربه قبل أن يأتيه الموت فجأة و هو لا يعلم:

ثم يقولون استهزاءً:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48))

أحياناً الإنسان يستهزئ متى يا سيدنا ؟ هذا ليس سؤالاً هذا استهزاء:

(مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48))

قال تعالى:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49))

هو له قضية بقصر العدل ضد خصمه أثناءها مات أحد الخصمين، أثناء الحساب مات أحد المتحاسبين، أثناء مشادة ما مات أحد الطرفين وهم يخصمون:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

لا يتمكن من أن يكتب وصية ويتصل بأهله وهذا موت الفجاءة نعوذ بالله منه، لا وصية، ولا توبة، ولا إشارة، ولا عبارة، ولا تنبيه، ولا تبيين إطلاقاً:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 45-65 ، السعيد من اتعظ بآيات الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-08-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الخامس من سورة يس.

على الإنسان أن يتقي عذاب الدنيا بطاعة الله عز وجل:

وصلنا في الدرس الماضي من حيث التفصيلات لقوله تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45))

الحقيقة ربنا جلّ جلاله ذكر لنا بعض الشُبُهات التي يتعلق بها المعرضون، فحينما يُدْعَوْن إلى طاعة الله. كلمة

(اتقوا)

التقوى من الوقاية، والوقاية لا تكون إلا من الخطر، فالإنسان كيف يتقي عذاب الدنيا ؟ الدنيا فيها مذلات وفيها متاعب وفيها آلام لا يعلمها إلا الله، قد يسأل سائل لماذا جعل الله عز وجل طبيعة الحياة الدنيا قائمة على الهموم والأحزان والمشكلات والأمراض وضيق ذات اليد ؟ إن هذه المضايقات كلها من أجل أن يعود الإنسان إلى الله عز وجل، فحينما يُقال لهذا الكافر

(وإذا قيل لهم اتقوا)

أي اتق عذاب الدنيا بطاعة الله:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء:الآية213)

اتق عذاب النفس بالتوحيد، اتق الكفر بالإيمان، اتق العقاب بالطاعة، الإنسان إذا دعي إلى طاعة الله من أجل أن يقيه الله عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

من كان معذباً في الدنيا و لم يكن يعرف الله عز وجل دخل في عذاب آخر في الآخرة:

(اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ (45))

هناك تفسيرات كثيرة لما بين أيديكم وما خلفكم، لكن من أدق هذه التفسيرات وأقربها إلى المنطق:

(اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ (45))

في الدنيا:

(وَمَا خَلْفَكُمْ (45))

في الآخرة، الإنسان إذا كان معذباً في الدنيا، ولم يكن يعرف الله عز وجل، فإذا جاء الموت هل انتهى عذابه ؟ لا والله دخل في عذاب آخر.

على الإنسان أن يتقي عذابات الدنيا المادية و المعنوية:

هناك عذابان: عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة، وهناك جنتان: جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، فهذه دعوة:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ (45))

أي اتق أنْ تكون ذليلاً، اتق أن تكون متألماً، اتق أن تكون قلقاً، اتق أن تكون هائماً على وجهك معذباً مشتتاً، اتق كل عذابات الدنيا المادية والمعنوية:

(وَمَا خَلْفَكُمْ (45))

ما ينتظر الإنسان بعد الموت من آلام، من شقاء، من ندم شديد، من حريق في جهنم.

(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45))

لأن رحمة الله خير مما يجمعون.

من اتق المحارم كان أعبد الناس:

الإنسان أحياناً يكون في كسب الرزق يبحث عن رزقه، أحياناً يتجاوز كسب الرزق إلى الجمع، يدخل إلى عالم الجمع، فالله يقول:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32))

(سورة الزخرف:الآية32)

لأن كل الذي تجمعه في الدنيا لن تأخذه معك إلى الآخرة، سوف تدعه في الدنيا شئت أم أبيت، فربنا عز وجل قال:

(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45))

أي أنا أرحمكم في الدنيا بحياة هانئة مستقرة هادئة مطمئنة فيها رضا وفيها سرور، وأرحمكم في الآخرة بجنة عرضها السماوات والأرض، وثمن هاتين الرحمتين مجتمعتين أن تتقوا مابين أيديكم و ما خلفكم، أن تطيعوني، لذا اتق المحارم تكون أعبد الناس:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (13))

(سورة الحجرات:الآية13)

أدق مقياس لنجاح الإنسان هو طاعته لله عز وجل، قال هؤلاء (أهل الدنيا) حينما أعرضوا عن الله عز وجل وامتلأت أنفسهم بالشهوات الخبيثة، أصبحت الشهوات حجاب بينهم وبين الله، لأن حبك الشيء يعمي ويصم وحب الدنيا رأس كل خطيئة، إذاً هم هنا كما قال الله عز وجل:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

(سورة البقرة: الآية18)

كل إنسان محاط بآيات الله و هو في غفلة عنها لأن الشهوة حجاب بينه وبين الله:

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46))

والله أيها الأخوة إن الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل، إن الآيات الكونية أو الآيات التي تتحدث عن أفعال الله عز وجل لا تعدّ ولا تحصى، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، حياتك كيف بدأت ؟ وكيف تنمو ؟ وما الأحداث الكبرى التي جاءت ؟ ولماذا جاءت ؟ وما الحكمة من مجيئها ؟ هذه آيات دالة على وجود الله وعلى وحدانيته وعلى كماله، أحياناً بعض الشدائد التي يسوقها الله عز وجل للإنسان يلقي في روعه أن هذه الشدة من أجل كذا، هذه آية، ما حولك من آيات دالة على وجوده وعلى كماله وعلى وحدانيته هذه أيضاً آيات، فالآيات هي العلامات الدالة على وجوده، والدالة على كماله، والدالة على وحدانيته، وما أكثر الآيات في نفسك، آيات في الآفاق، آيات في الكون، آيات في طعامك، آيات في شرابك، آيات في أفعال الله، آيات فيما يعامل الله به عباده، أنت محاط بالآيات بل أنت غارق بها، لكن هذا البث المستمر محتاج إلى جهاز استقبال فإذا لم يستقبل الإنسان هذه الآيات أنى له أن يؤمن بها، قد يكون في وسط الآيات، وقد يكون غارقاً بالآيات، وقد تكون الآيات من حوله بشكل عجيب، ومع ذلك هو في عمى أو في غفلة لأن الشهوة حجاب بينه وبين الله، وهذا مصداق قوله عز وجل في أول السورة:

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9))

هنا جعلها تحصيل حاصل.

من يعرض عن ذكر الله يعمى عن سعادة الدنيا و الآخرة:

حينما أعرض الإنسان عن الله عز وجل أصبحت الشهوات كالأغلال قيدته وعطلت حركته وأعمت بصيرته إذا هو في عمى عن سعادة الدنيا وفي عمى عن سعادة الآخرة، إذاً:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45))

الإنسان إما أن يرحم في الدنيا والآخرة وإما أن يعذب في الدنيا وفي الآخرة:

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4))

آيات الله يسوقها للإنسان لحكمة أرادها هو:

أنا لا أريد أن أفصل فيه لكن كلكم يعلم أن ما يجري حولنا من أحداث إن هي إلا آيات صارخات:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112))

(سورة النحل:الآية112)

ما يجري من زلازل، من أمطار غزيرة أحياناً، من مجاعات، كل هذه الآيات إنما يسوقها الله عز وجل لحكمة بالغة، وفوق هذا وذاك يلقي ربنا في روع المؤمن أن هذه الظاهرة من أجل كذا لقوله تعالى:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ (11))

(سورة التغابن:الآية11)

لسر المصيبة.

امتحان الله عز وجل الغني بالغنى و الفقير بالفقر:

الآن الشبهة الثانية:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(47))

الله عز وجل أغنى الغني وأمره أن يعطي الفقير، وأفقر الفقير لحكمة أرادها وأمره أن يتجمل وأن يتعفف، فحكمة الله عز وجل لا يلغيها التكليف، أو التكليف لا يلغي حكمة الله عز وجل، لا حكمة الله تلغي التكليف، ولا التكليف يلغي حكمة الله، إذاً حينما يُؤمر الغني أن يعطي الفقير فلحكمة بالغة أرادها الله عز وجل، الغني امتحن بالغنى والفقير امتحن بالفقر، والأغنياء أوصيائي والفقراء عيالي ومن منع مالي عيالي أذقته عذابي ولا أبالي:

(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47))

استهزاء الكفار بالموت و هو أسرع مما يتيح للإنسان أن يوصي:

الآن هناك استهزاء بليغ، أي:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ (48))

متى: حرف استفهام أو اسم استفهام لكن الاستفهام هنا خرج عن قصده الأصلي إلى استفهام إنكاري يشبه الاستهزاء، أي متى... متى يوم القيامة ؟ متى الوقوف بين يدي الله عز وجل ؟ متى الجنة ؟ متى النار ؟ هذا ليس استفهاماً عادياً بل استفهام إنكار واستفهام استهزاء:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49))

أي الله عز وجل قادر أن يجعل الموت أعجل من أن توصي، أسهل شيء يفعله الإنسان أن يقول كلمة: البيت لفلان، التوصية سهلة جداً ومهمة جداً وضرورية جداً، ومع ذلك قد يأتي الموت بأسرع مما يتيح للإنسان أن يوصي قال:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً (49))

صرخة واحدة تزهق أرواحهم.

العاقل من يعدّ عدته قبل أن يدركه الموت:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

دقق بالرجوع إلى البيت، الإنسان يخرج من البيت ويرجع، يسافر ويرجع، يسافر للدراسة أربع سنوات ويرجع، يسافر يقيم ببلد عشر سنوات ويرجع، يغترب ويرجع، موضوع الرجوع للبيت أمل كل إنسان، لكن الميت إذا خرج من بيته لن يرجع، لا يعود إلى بيته، أثاث بيته، مقتنيات بيته، ما أودعه في هذا البيت من قطع نفيسة جداً، مقتنياته الخاصة، ممتلكاته، مكتبه، مزرعته، قصره:

(وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

معنى ذلك أن الإنسان عليه أن يعدّ العدة لهذه الساعة والتي يغادر دون أن يرجع، يغادر بلا عودة، خروج بلا عودة.

لا ينفع الإنسان يوم القيامة إلا القلب السليم:

كنت أقول للأخوة الأكارم: الإنسان يدخل إلى المسجد ليصلي أو ليحضر مجلس علم، لكن لابد له من أن يدخل مرة ليصلى عليه، والبطولة أن تعد لهذه الصلاة، الإنسان يخرج من بيته قائماً ولابد من أن يخرج مستلقياً مرة واحدة عند الموت، كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال لابد من نزول القبر.

أيها الأخوة الأكارم: هذه الآية ! الإنسان عندما يفكر بهذه الواقعة التي لابد من أن تقع، ابتعدت أو اقتربت، طالت أو قصرت، يكون بأعلى درجات الذكاء وأعلى درجات العقل، لأن هذه الساعة لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((دَخَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مُصَلاهُ فَرَأَى نَاسًا كَأَنّهُمْ يَكْتَشِرُونَ قَالَ: مَا إِنّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللّذّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمّا أَرَى فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللّذّاتِ الْمَوْتِ فَإِنّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى الْقَبْرِ يَوْمٌ إِلا تَكَلّمَ فِيهِ فَيَقُولُ أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ وَأَنَا بَيْتُ الْوَحْدَةِ وَأَنَا بَيْتُ التُّرَابِ وَأَنَا بَيْتُ الدُّودِ))

[الترمذي و أحمد و الدارمي عن أبي سعيد]

عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارق

* * *

و من عدّ غده من أجله فقد أساء صحبة الموت.

من أخذ إلى الله عز وجل انتهى اختياره وختم عمله:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلّا صَيْحَةً وَاحِدَةً (49))

سبحان الله قد يموت الإنسان بعد مرض طويل، وقد يبقى عشر سنوات في الفراش ويحار فيه الأطباء ويتمنى أقرب الأقرباء له أن يموت ويخفف الله عنه وهذا القلب ينبض، وقد يقف القلب لأتفه سبب، قد يموت الإنسان وكأنه خطف، وقد يموت بعد معاناة طويلة، فيا ترى من أدراني أن نهاية أجلي سوف تكون بعد معاناة طويلة أو انتقال مفاجئ ؟ موت الفجأة أو الفجاءة فالإنسان مادام ممكن أن يموت بعد معاناة طويلة وممكن أن يموت فجأة، إذاً موت الفجأة للإنسان إذا ما كان مستعداً، ما كان تائباً، ما كان ضابطاً أموره، مؤدي الحقوق، مؤدي الواجبات، موت الفجأة مصيبة كبيرة، لأنه مغادرة بلا استعداد.

فربنا عز وجل يشير إلى ذلك فيقول:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ (49))

تأخذهم إلى الله وإذا أخذ الإنسان إلى الله عز وجل انتهى اختياره وختم عمله وتعطل كل شيء.

جدال الكفار في شأن البعث و الرسالة:

(وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(49))

بعض العلماء قال **" يخصمون في شأن البعث والرسالة "**، يا ترى في موت ؟ ما في موت ؟ في جنة؟ ما في جنة ؟ ما هو دليلك ؟ قال لك هذا القرآن ليس لهذا الزمان!!! إنسان يتناقش مع إنسان بأحقية الموت ثم جاءه ملك الموت ليخطفه فمجيء ملك الموت ونقله إلى الآخرة أبلغ جواب على مناقشته، مرة خبير أجنبي يتناقش مع بعض المرافقين، فالخبير الأجنبي لا يؤمن بوجود الله إطلاقاً، يتناقش مع بعض المرافقين، فجاء ذكر لفظ الجلالة بأن الأمر بيد الله، فامتعض امتعاضاً شديداً جداً وقال إن هذا كله خرافة، وبقدرة قادر دخل طرف ثوبه بعجلة مع شريط فارتطم في السقف ونزل ميتاً.

أي الموت أسرع من ذلك وهو يناقش بوجود الله عز وجل فحدث له حادث جعله من أهل الآخرة مباشرة، قصص كثيرة جداً أثناء المناقشة جاءت الصيحة فأخذته

(وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)

وهم يخصمون: آية لها عدة معان منها:

1 – يختصمون في شأن البعث و الآخرة و الموت:

المعنى الأول: يختصمون في شأن البعث وشأن الآخرة وشأن الموت وشأن ما بعد الموت.

2 - هم في تجارتهم و خصوماتهم يأتي ملك الموت فيخطف هذا الإنسان:

وفي معنى آخر: هم في تجارتهم، وفي خصوماتهم، وفي قضاياهم، وفي منازعاتهم، وفي قيلهم وقالهم، وفي تحزباتهم، في هذه المعمعمة، يأتي ملك الموت فيخطف هذا الإنسان وقد يخطفه وهو في قضية مرفوعة إلى القضاء يظهر قرار صغير: تشطب الدعوى لموت المدعي، اثنتا عشرة سنة دعوى كلفت مئات مِئات الألوف، ومحامين، وقضايا، ومذكرات، وانتقلت من محكمة لمحكمة، آخر شيء تشطب الدعوى لوفاة المدعي:

(وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(49))

فالموت هو نهاية كل حي.

مادامت مغادرة الإنسان سريعة عليه أن يستعدّ لهذا اليوم:

قال:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

أعرف رجلاً وهو في محله التجاري، انحنى رأسه وفارق الحياة، قال الأطباء: إنها سكتة دماغية، وهو غائص في أمور التجارة إلى أقصى حد، بايع وشاري شفهي دون عقود، بقي أهله سنوات وسنوات بعد وفاته وهم يخلصون هذه العلاقات المالية، ما تمكن أن يقول مَنْ شريكه ؟ ولا تمكن أن يقول أنّ شريكه له هذه النسبة ؟ ولا تمكن أن يقول هذا البيت لمَنْ ؟ دافع دفعات وقابض قبضات وعامل شركات كله شفهي، بقي أهله سنوات طويلة وهم يحلون هذه المشكلات، أي:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

مادامت المغادرة سريعة وقد تكون فجائية فلابد من الاستعداد لهذا اليوم، عين العقل أن تستعد لهذا اليوم، والإنسان لا يقول أنا صغير، أنا شاب، أحداث الموت تؤكد أن الموت لا يفرق بين شاب وشيخ، هناك رجل أعرفه عمره حوالي 32 سنة، شاب في ريعان الشباب له زوجة صار معها تشمع في الكبد، وصار معها استسقاء، فالأطباء يخففون عنه أن موتها قريب، وأنّ أجلها انتهى وانتهت حياتها، موضوع ساعات، موضوع أيام، وكان موظفاً أنا كنت حاضراً مرة فدخل الآذن وقال: مات، فقلنا: ماتت ؟ فقال: لا مات زوجها، نحن فكرنا الزوجة توفت لكن المفاجأة أن الزوج توفي، كان عمره 32 سنة هو ينتظر وفاتها فإذا هو يسبقها.

العاقل من يحتاط للموت قبل مجيئه:

إذاً أحداث الموت سريعة جداً تأتي بسبب أحياناً وأحياناً بلا سبب، مرة رجل ورث مبلغاً فلكياً، حوالي ألف مليون، أحد الورثة نصيبه من هذا الإرث تسعين مليون، فسعى ليلاً نهاراً ليحصّل هذا المبلغ وبقي ستة أشهر يسعى سعياً حثيثاً لتجميع هذا المال ولأخذه، دخل إلى الحمام وهو يغسل يديه وقع ومات ولم يقبض درهما من هذا المال، الموت سريع جداً.

لذلك الإنسان العاقل يحتاط للموت قبل مجيئه، السمكة العاقلة لما سمعت الصياد يقول إنه سيعود ليصطاد هذه السمكات قال: السمكات ثلاث كيسة و أكيس منها وعاجزة أما الأكيس فإنها ارتابت وتخوفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، خذوا هذه القاعدة، والأقل عقلاً حين وقوعها، والغبي الجاهل لا يحتاط لا قبل وقوعها ولا أثناء وقوعها و لا بعد وقوعها، هذا العاجز، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))

[ابن ماجه عن عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

الحقيقة الأماني لا أعتقد واحداً إلا ويتمنى أن يكون من أهل الجنة، لكن ربنا عز وجل لا يتعامل مع عباده بالأماني إطلاقاً لقول الله عز وجل:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ (123))

(سورة النساء: الآية123)

ربط الرجاء بالسعي والعمل وأي رجاء بلا عمل تمنيات باطلة:

لذلك: الله يغفر لنا، الله عز وجل كريم إن شاء الله يغفر لنا ويسامحنا، والله يدخلنا الجنة، هذا كلام إذا ما في معه عمل، قد يقول قائل ما الدليل على ذلك ؟ اسمعوا الدليل: ربنا عز وجل لخص القرآن كله في آية واحدة:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (6))

(سورة فصلت:6)

انتبهوا الآن:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

(سورة الكهف:الآية110)

الله عز وجل بهذه الآية ربط الرجاء بالسعي والعمل، وأي رجاء بلا عمل تمنيات باطلة لا شأن لها عند الله إطلاقاً قال:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

(سورة الكهف:الآية110)

أي لا يشرك بالعبادة أي ليطع الله وحده، والطاعة لله وحده تجعل الطريق إلى الله سالكا هي الاستقامة.

الاستقامة و العمل الصالح أساس الإيمان:

أما الذي يدفعك إلى طريق الإيمان:

(فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف:الآية110)

فالاستقامة تمهيد للطريق والعمل الصالح حركة إلى هذا الطريق، فأي رجاء من دون عمل فهو رجاء الكسالى ورجاء المتمنين، والتمنيات كلها لا شأن لها عند الله إطلاقاً:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51))

الأجداث جمع جدث وهو القبر، معنى ينسلون فلان له نسل أي شيء خرج منه، كيف أن هذا الطفل يخرج من بطن أمه فهو من نسلها، وكأن القبر رحم يخرج منه الميت كما يخرج الجنين من بطن أمه.

للصور نفختان: نفخة لا تبقي حياً ونفخة لا تبقي ميتاً:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ (51))

هناك نفختان للصور: نفخة لا تبقي حياً ونفخة لا تبقي ميتاً، جميع الأحياء يموتون في النفخة الأولى، وبعد حين تنفخ النفخة الثانية فيبعث الله كل الأموات:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ (51))

طبعاً هذه النفخة الثانية:

(فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51))

حشر الناس يوم القيامة للحساب:

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة:30-36)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا (52))

فيقول الملائكة:

(هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52))

النقطة الدقيقة أيها الأخوة أن الناس تسمع في الدنيا أنه يوجد آخرة، ويوجد جنة، و نار، و حساب، و عذاب، و صراط مستقيم فوق جهنم، و نفخة بالصور أولى، و نفخة ثانية، و حوض، و صحف نشرت هذا كله يسمعه، الويل لمن لا يصدقه.

الويل لمن لا يأخذ أحداث يوم القيامة مأخذ الجد:

تستمع في القرآن إلى الجنة والنار والناس في جهنم يتصايحون وهم يصرخون فيها وأهل الجنة ونعيمها على سرر متقابلين هذه المشاهد والصور في الجنة والنار وهذا الوعد الذي وعد الله به عباده المؤمنين والوعيد للكافرين هذه كلها أخبار لم تقع بعد، مادام الله هو المخبر، خالق الكون هو المخبر، فالويل لمن لم يصدقها، الويل لمن لا يعبأ بها، الويل لمن لا يأخذها مأخذ الجد:

(قالُوا يَا وَيْلَنَا (52))

عذاب النفس يوم القيامة أصعب من عذاب الحريق لأنها ضيعت فرصتها الأبدية

شخص وهو بالعام الدراسي يفكر أن الأمور من دون امتحان، كله دعاية لا يوجد امتحان، و لا يوجد شيء، لكن عندما يقرع جرس الامتحان، ويدخل مع الطلاب، وتوزع أوراق الأسئلة، ولا يفهم شيئاً يكتبه، هل يوجد كفالة عليه أو بعثة أو مشكلات ؟ عندئذ يحق الحق:

(قالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53))

الله يحمينا من الخزي والعار يوم القيامة، كل الخلق بين يدي الحق وأعمال الخلق كلها مسجلة تعرض عليهم بأدق تفاصيلها، أي الإنسان عندما يعاين عمله السيئ يذوب، لذلك ورد في بعض الأحاديث: أن العار يلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب، أي عذاب الحريق لا يحتمل، والعذاب الذي لا يقل عنه عذاب النفس، حينما تشعر أنها ضيعت الآخرة كلها، ضيعت فرصتها الأبدية الوحيدة خسرت نفسها.

فرق كبير بين من يذهب إلى الله وفداً و بين من يأتيه مهاناً:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53))

راقب أحياناً بعض صور المجرمين ملامح صور المجرم حينما يصور وهو في قفص الاتهام، أولاً وجههم كالح، ثانياً بصره كسير، عينه للأرض لا يستطيع أن ينظر في المصور، هذه لحظة الندم ومشاعر الندم مشاعر مؤلمة جداً، أحياناً الإنسان ببعض حالات الندم ينتحر لا يحتمل شعور الندم:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53))

والله عز وجل قال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ((61)

(سورة القصص:الآية61)

هناك مسافة كبيرة جداً بين إنسان يطرق بابه، يلقى القبض عليه، تكبل يديه مهاناً معذباً، وبين إنسان يطرق بابه فتأتيه بطاقة دعوة بيضاء مذهبة، وفيها عبارات الشكر والامتنان لو أنه حضر الدعوة، فيذهب في الوقت المناسب فيجد الاستقبال الحار، والمكان المريح، والطعام الطيب، والمؤانسة، والابتسامة، والتكريم، والهدايا، شتان بين من يذهب إلى الله وفداً وبين من يساق مجرماً، فرق كبير.

إذا لم يكن الإيمان باليوم الآخر أحد ركائز الإنسان فمشكلته كبيرة جداً:

لذلك أحد العلماء سئل كيف القدوم على الله ؟ قال: أما المؤمن فكالغائب يرد إلى أهله، وأما الكافر فالعبد الآبق ردّ إلى مولاه.

تلاحظون ملاحظة أن ربنا عز وجل في أكثر الآيات يقول: آمن بالله واليوم الآخر.

أي إذا لم يكن الإيمان باليوم الآخر أحد ركائز تصوراتك، أحد ركائز عقيدتك، أحد ركائز حركتك في الحياة، فالمشكلة كبيرة جداً، قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تأخذ، قبل أن تعطي، قبل أن توافق، قبل أن تغضب، قبل أن تضرب، قبل أن تُطلِّق، قبل أن تتزوج، قبل أن تشارك، قبل أي حركة، تصور أنك واقف بين يدي الله عز وجل، وهو يسألك لماذا فعلت هذا يا عبدي ؟ الشهوات انتهت، الميزات المتع انتهت، المباهج انتهت، بقيت المسؤولية.

كل إنسان محاسب يوم القيامة على عمله:

لذلك الميت حينما يُشَيَّع في الجنازة، يشيع إلى قبره، ورد في بعض الأحاديث: **" أن روحه ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي جمعت المال مما حلّ وحرم فأنفقته في حله وفي غير حله فالهناء لكم والتبعة علي ".**

الكافر الذي أعطاه الله مالا فأنفقه على ملذاته وعلى شهواته يسأله الله يوم القيامة يقول له عبدي أعطيتك مالاً فماذا فعلت فيه ؟ سؤال كبير !!

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[الدارمي عن معاذ بن جبل]

والله أيها الأخوة: لو واحد منا سيسأل من قبل إنسان مهم لا ينام الليل، لو قيل له تعال إلينا بعد يومين فقط، لا ينام الليل لأنه سيسأل ماذا قال ؟ ماذا تكلم ؟ ماذا فعل ؟ لا ينام، يقول: ما غفلت، إذاً رب العالمين رافع السماوات بغير عمد سوف تقف بين يديه وسوف يسألك عن كل أعمالك ولا تستطيع أن تكذب أبداً.. الآن بعد قليل تأتي الآية يوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم... كيف بك أيها الإنسان إذا عرضت عليك أعمالك كلها عمل عَمل، لماذا فعلت كذا ؟

حشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة:

فيا أيها الأخوة نصيحة لوجه الله عز وجل أنصح بها نفسي قبلكم، قبل أن تفعل شيئاً تصور أنك واقف بين يدي الله عز وجل، ويقول لك: يا عبدي لماذا فعلت كذا ؟ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ لا يوجد كذب، قال: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، قال: ألم تعلم أني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، يقول لعبد آخر قد أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي أنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، يقول: أنا الحافظ لأولادك من بعد.

يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة: فريق جمع المال من حرام أنفقه في حرام فيقال خذوه إلى النار، حسابه سريع جداً، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حرام، حرام حَرام إلى النار، حلال حرام إلى النار، حرام حلال إلى النار، بقي الصنف الرابع وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حلال قال هذا قفوه فاسألوه هل تاه بماله على عباد الله؟ هل قال أصحابه يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا؟ هل شغله ماله عن فرض صلاة ؟ عن مجلس علم ؟ عن عمل صالح ؟ عن واجب ديني ؟ فالنبي كان بليغاً قال: فما زال يسأل ويسأل انتظر، انتظر، قائمة أسئلة فتركه يسأل وذهب، فما زال يسأل ويسأل.

كل عمل يعمله ابن آدم محفوظ عند الله عز وجل:

إذاً:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(54))

أي دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء هذا المستوى تسأل عنه..، قشة نزعتها من المسجد وضعتها في جيبك ما قيمة هذا العمل ؟ قال الله:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة: الآيات7-8)

نملة أثناء الوضوء حاولت ألا تغرق بالماء، نملة أنقذتها من الغرق، هذا العمل محفوظ عند الله عز وجل، فما قولك بما هو فوق ذلك ؟ دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، امرأة تدخل النار من أجل هرة، وامرأة أخرى يغفر لها من أجل كلب سقته كاد يموت عطشاً:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

هذا هو القرآن الكريم.

لا يرقى الإنسان إلى الخالق سبحانه إلا إذا طبق كل آية سمعها:

أحد الأعراب سأل النبي الكريم وقال: " عظني وأوجز ـ أو لا تطل ـ فتلا عليه الآية الكريمة:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

فقال هذا الأعرابي: قد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: **فَقُهَ الرجل ".**

أيها الأخوان تعليق على هذه الآية كل واحد منا يعرف من القرآن أو الحديث أضعاف أضعَاف أضعاف ما هو مطبّق له، فالمشكلة ليست في زيادة العلم، المشكلة في تطبيق ما تعلم، ماذا عملت بما علمت ؟ هنا المشكلة، نتعلم كل درس أحلى من الثاني، أخي والله الدروس حلوة، ليس هنا القصيد المشكلة ماذا عملت فيما علمت ؟ إذا الإنسان وطّن نفسه كما فعل الصحابة ألا ينتقل من آية إلى أخرى حتى يطبقها يرقى إلى الله سريعاً، رقي بدرجات سريعة جداً لا تنتقل من شيء حتى تطبقه:

(فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54))

فالفوز كل الفوز، والنجاح كل النجاح، والفلاح كل الفلاح، والعقل كل العقل، والذكاء كل الذكاء، أن تكون من أصحاب الجنة.

وصف أصحاب الجنة:

اسمعوا الآن وصف أصحاب الجنة:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55))

قال العلماء **" مشغول بإكرام الله له، مشغول بضيافة الله له، مشغول في هذا النعيم المقيم، مشغول في النظر إلى وجه الله الكريم "**، ورد في بعض الأحاديث:

((أن المؤمن ينظر إلى وجه الله يوم القيامة لأن النبي يقول إنكم سوف ترون ربكم يوم القيامة فيغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة، في بالجنة حور عين))

[ورد في الأثر]

ألم يقل أحد الصحابة لزوجته عندما طلبت منه شيئاً، قال: اعلمي يا أمة أنه في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك.

أعلى شعور للإنسان يوم القيامة النظر إلى وجه الله الكريم:

يوجد في الجنة حور عين، و أنهار من عسل مصفى، و ثمار قطوفها دانية، الفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة، و أنهار من لبن لذة للشاربين، و لبن لا يتغير طعمه، وجنات تجري من تحتها الأنهار:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة الحاقة: الآيات19-24)

وأبلغ من كل ذلك أن تنظر إلى الله عز وجل، ومع هذه النظرة إحساس بأن الله راض عنك، وهذا أعلى شعور وأشد المشاعر إسعاداً للإنسان.

لجنة أساسها الطلب و الدنيا أساسها العمل:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55))

أي على الأرائك في إكرام ما بعده إكرام:

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ (56))

زوجته التي في مستواه فإن كانت في الدنيا زوجته في مستواه كانت زوجته يوم القيامة، وإلا فله زوجة تكون رفيقته في الجنة:

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57))

بالمناسبة نظام الجنة نظام يختلف اختلافاً كلياً عن نظام الدنيا، فنظام الدنيا بالسعي، ونظام الجنة بالطلب، أنت في الدنيا لا يمكن أن تصل إلى شيء إلا ببذل جهد واضح، هذا السعي، إن الله كتب عليكم السعي في الدنيا، فتحتاج إلى مهنة، إلى عمل، إلى كسب مال، إلى شراء بيت، إلى تجهيز البيت، إلى زواج، إلى مهر، إلى شراء بيت في مصيف، يحتاج إلى مال، إلى جهد إضافي، فكل شيء تناله في

الدنيا نظير تعب وجهد حقيقي، لكن في الجنة يكفي أن يخطر في بالك شيء ليتحقق فوراً، الجنة أساسها الطلب، الدنيا أساسها العمل.

إكرام الله عز وجل للإنسان في الآخرة يفوق كل إكرام:

قال:

(لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57))

أي ما يدعون أي ما يطلبون، أي طلب يطلبه المؤمن يتحقق فوراً، إذاً هو مشغول بإكرام الله له، ومشغول بنعيمه مع زوجته، ومشغول بما يقدم له من طعام نفيس وفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفوق كل هذا تأتي قمة السعادة:

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58))

أي إكرام الله له يفوق كل إكرام، أحياناً تدخل بيت فيه طعام طيب لكن صاحب الدعوة مقطب تقطيباً، صاحب الدعوة يذهب لذة الطعام، لكن إذا دخلت إلى بيت وجلست على أريكة وثيرة وقدم إليك الشراب البارد، جاء الطعام النفيس، جاءت الفواكه ودائماً صاحب البيت يقول: أهلاً وسهلاً، شرفتنا، نورتنا، إيناس صاحب البيت لا يقل إسعاداً لك عن الضيافة التي يقدمها لك، فربنا عز وجل في هذه الآيات الثلاث:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55))

مشغول في نعيمه المقيم:

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ(58))

أعظم شيء يذوقه الإنسان يوم القيامة أن يكون محجوباً عن ربه:

لكن أعظم شيء يذوقه يوم القيامة أن يكون عن ربه محجوباً:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين:الآية15)

حيث أنّ الحجاب من أشد أنواع العذاب:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59))

فرق كبير بين إنسان في ضيافة الرحمن و إنسان مُبعد عن الله:

إنسان في ضيافة الرحمن، خالق الكون يسلم عليه:

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58))

أنت إذا شخص سلم عليك ذو شأن تصبح أسبوعاً و أنت فرح ؛ صافحني وتصورت معه ؛ انظر الصورة ذو شأن، فإذا سلّم عليك النبي بالمنام تبقى أشهر وأنت في نشوة هذا المنام، هذه الرؤية الصادقة، فكيف وخالق الكون يقول لك:

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58))

خالق الكون يسلم عليك، أما المجرم:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59))

أبعدوا عنهم المجرمين، لا يوجد خير أبداً، أي كل حركاته بالمال، لا يتحرك حركة إلا بأجر باهظ، تحس أنه يذبحك بهذا الأجر، هكذا أهل الدنيا شيء لله لا يوجد، يغادر الدنيا ولم يترك عملاً صالحاً واحداً، حتى لو خدم له عمولة، حتى خدماته بغير اختصاصه يريد عليها أجرة، هذا الذي يتحرك بالأجر الباهظ وكل شيء حاسبه...، الله عز وجل ألم يقل كذلك ؟

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (245))

(سورة البقرة: الآية245)

أي عمل صالح للإنسان هو قرض لله عز وجل:

يا أخوان أي عمل صالح هو قرض لله عز وجل، خدمت إنساناً، علمت إنساناً عاونت إنساناً، نصحت إنساناً، دللت إنساناً، أي بذلت من وقتك، من جهدك، من طاقاتك، من فكرك، من عضلاتك، من مالك، هذا كله قرض حسن لله عز وجل. أنت إذا بذلت خدمة، بذلت لإنسان شيئاً أعطاك ثمنها سعراً باهظاً، لو فرضنا معك حاجة ثمنها عشر ليرات بعتها بمئة ليرة بألف، لكن لو أنك أقرضتها لله عز وجل لجاءتك السعادة الأبدية مقابلها، فلذلك أخسر إنسان هو الذي يتقاضى عن أعماله الصالحة أجراً.

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59))

هذا هو الشقاء، بيته اشتراه بعشرين ألف صار ثمنه 25 مليون، بيته بالجنة، لا ليس بيته بالجنة، سوف يغادر الدنيا إلى دار الحساب، والحساب دقيق، فالبطولة أن تبني قصراً في الجنة، البطولة أن تحتل عند الله مقعد صدق، البطولة أن تكون من أصحاب الجنة، أن تكون في شغل متفكه، أنت وزوجتك في ظلال

على الأرائك، أما إذا الإنسان حصل على الدنيا ولم يعبأ إن كان من حلال أو حرام، ولم يعبأ إن كان مستقيماً أم منحرفاً، ثم جاء ملك الموت فهو في خسارة كبيرة.

نصيحة خالق الكون للإنسان ألا يتحرك بوسوسة من الشيطان:

الآن العتاب الإلهي:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (60))

الشيطان ماذا يعمل ؟ قال: إنما يأمر بالفحشاء، الشيطان يخوفك، يقول لك على الله ما لا تعلم، يخوفك من العمل الصالح، من طاعة الله عز وجل:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60))

خالق الكون نصحك في القرآن كله ألا تتحرك بوسوسة من الشيطان، أن راقب الناس فتجد خصوماتهم داخل فيها الشيطان، فمعظم حالات الطلاق أساسها الشيطان، تجد الشيطان يحمس الزوج ويكرهه بزوجته، ويحمس الزوجة ويكرهها، يزيد الشيطان البيت جحيماً، لو في البيت صلاةً لما صار هذا الشيء، لو فيه قرآن ما صار هذا الشيء، لو فيه طاعة لله ما صار هذا الشيء، لأن الرحمن يكون قد دخله.

الناس نوعان شيطاني و رحماني:

الناس نوعان: شيطاني و رحماني، الشيطاني: يتحرك بدافع الشيطان، اضربه مثلاً، كُلْ ماله، دائماً في دوافع عدوانية، المؤمن يقول لك: سامحه، عاونه، اعف عنه، فهنيئاً لمن يتحرك بإلهام الملك، والويل لمن يتحرك بوسوسة الشيطان:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(61))

هناك أدلة كثيرة، فمثلاً عندما ترى إنساناً تدمر نتيجة كسب المال الحرام، أو العدوان، أو الانحراف الأخلاقي، دُمِّرَ وفضح، أفلس مثلاً، أو حكم عليه بالسجن، أو أعدم، قل هذا من عمل الشيطان. فمسافة كبيرة جداً بين إنسان رحماني يهتدي بهدي الله عز وجل وبين إنسان الشيطان يؤزه أزاً.

من تمسك بكتاب الله و سنة نبيه فلن يضل أبداً:

(وَأَنِ اعْبُدُونِي (61))

يا رب كيف نعبدك ؟

(هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61))

هذا منهج القرآن فيه كل شيء، والسُنّة فيها كل شيء، عندك الكتاب والسنة، ما إن نتمسك بهما فلن نضل أبداً، معك منهج من خالق الكون، معك تعليمات الصانع، معك دستور، مع قانون، معك مفتاح السعادة، معك مفتاح السلامة، معك نور مبين مع حبل متين، معك حصن حصين هو كتاب الله، انظر هذه الآية:

(وَأَنِ اعْبُدُونِي (61))

كيف يا رب ؟

(هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62))

السعيد من يقرأ القرآن الكريم و يتعظ بآياته:

ألم تر أمماً دمرها الله عز وجل، شعوباً فسقت فأهلكها الله عز وجل، أمما ذات حضارة عريقة انتهت وطويت صفحاتها، أين هم ؟ هم أسرى أعمالهم، الله عز وجل قال:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا (46))

(سورة غافر:الآية46)

مثلاً: الفراعنة مضى على دمارهم 6000 عام وكل عام فيه 365 يوم وباليوم مرتين، والخير لأمام:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

(وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62))

الآن العالم الشرقي والعالم الغربي يعاني من أمراض الانحرافات الأخلاقية، الآن هناك مليون إصابة إيدز بالغرب، بينما من يحمل المرض يقدر عددهم بعشرين مليون حامل لمرض الإيدز، والتقدير لعام ألفين أن يكون عدد الإصابات 15 مليون إصابة غير الحاملين لهذا المرض، فهو مرض مخيف أساسه الانحراف:

(وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا (62))

أمماً، شعوباً، قروناً:

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64))

هذا هو الجزاء.

فرق كبير بين من صدق الله عز وجل و بين من كذب بالقرآن الكريم:

أيها الأخوة الكرام: هذا كلام خالق الكون، هذا الكلام لم يحصل بعد، ربنا عز وجل رحمة بنا ذكره لنا قبل أن يقع كي نتلافى هذه الأخطار الوبيلة، لذلك السعيد يقرأ القرآن ويتعظ بآياته، فلعل الله عز وجل ينجيه من مغبة تقصيره أو انحرافه، فشتان بين من صدق الله عز وجل واتقى النار وبين من كذب بهذا القرآن فجاء بهذا الموقف العصيب الحرج، وقيل له:

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64))

السعيد من جعل عمله وفق الشرع والشقي من حاد وانحرف ودفع الثمن باهظاً:

الإنسان أحياناً يكون طليق اللسان، ذكي جداً، يتمكن من أن يقنع الناس بموقفه المنحرف، فهذه الطلاقة وهذا الذكاء وهذا اللسان وقوة الحجة لا تنفعه يوم القيامة إطلاقاً، مصدر قوة الكافر أحياناً طلاقة لسانه، فلسفته، تعمقه، يقنع أنه على حق، فربنا عز وجل في هذا الموقف العصيب:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65))

تعرض أعمال الإنسان عليه عملا عملاً، لسانه معقود:

(نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65))

فلذلك يا أخوان قبل أن تفعل شيئاً تصور أنك واقف بين يدي الله عز وجل، وهذا اليوم لابد من أن يأتي مهما طال الأمد، لابد من أن نقف جميعا لنسأل عن كل أعمالنا، فالسعيد من جعل عمله وفق الشرع، والشقي من حاد وانحرف ودفع الثمن باهظاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 66-77 ، السمع و البصر و الفؤاد من آيات الله الدالة على عظمته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-08-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم: مع الدرس السادس من سورة يس.

الله عز وجل خلق للإنسان هذه العين ليرى بها آياته الدالة على عظمته:

مع الآية السادسة والستين وهي قوله تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66))

هذه الآية أيها الأخوة معناها الظاهري واضح، لو أن الله سبحانه وتعالى طمس على أعين الناس أي ألغى بصرهم، ألغى أعينهم، ألغى هذه القدرة على الرؤية لتاهوا وضلوا ولاستبقوا وتزاحموا.

هذا معناها الظاهر، لكن ما معناها الدقيق العميق ؟ ما معناها السياقي ؟ أي أيها الإنسان إذا توهمت أن الله خلق مؤمناً وخلق كافراً وأنه أراد من الكافر أن يكفر وأنه خلقه كافراً ولا جريرة له بذلك، إذا توهمت أن الله أجبر الإنسان على الكفر، إذا توهمت ذلك فلماذا أعطاه عيناً يرى بها الآيات ؟ لماذا أعطاه سمعاً يسمع به الحق ؟ لماذا أعطاه عقلاً يكشف به الحقائق ؟ أليست هذه العين المبصرة دليلاً على أن الله خلق العين لترى بها آياته الدالة على عظمته ؟ أليست هذه العين نافذة تطل بها على العالم الخارجي ؟

لو شاء الله عز وجل للإنسان الضلال لطمس على عينه:

لو أن الله عز وجل ما أراد لك الهدى ! لو أنه أجبرك على الضلال، لو أنه أراد لك الضلال، فلماذا هذه الحواس الخمس، لماذا ؟

هذا الكون الذي يطفح بالآيات الدالة على عظمة الله عز وجل:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ (66))

لو نشاء لهم الضلالة، لو نشاء لهم العمى، لطمسنا على أعينهم، هذه العين التي زودنا الله بها، والله أيها الأخوة لو أمضينا كل حياتنا في كشف دقائقها ما استطعنا.

الطبقة القرنية الشفافة التي تتغذى عن طريق الحلول وحدها، كل غذاء الجسم البشري ينتقل عن طريق الأوعية الشعرية إلا قرنية العين فالخلية الأولى تأخذ حظها وحظ جارتها من أجل أن تكون الرؤية واضحة جلية نقية، من جعل هذه القرنية شفافة شفافية مطلقة ؟ ومن جعل تحتها القزحية تأتمر بأمر لا علم لك به ؟ تضيق وتكبر بحسب قوة الضوء، أنت بآلة التصوير تتحكم بفتحة الآلة، فإذا أخطأت بفتحتها احترقت الصورة، والآلات الحديثة جداً تزيد الضوء عن طريق توسيع الفتحة وتقلل منه عن طريق تضييقها بشكل أوتوماتيكي.

هذه العين بقرنيتها وقزحيتها وجسمها البلوري، هذه العدسة المرنة التي يزداد احدداب بحسب بعد المنظور، من قاس المسافة ومن أبلغ هذا الجسم البلوري ومن ضغط هذه العضلات الهدبية ؟ من أمرها أن تضغط بالميكرونات حتى يقع الخيال على الشبكية ؟

العين وحدها كافية كي يذوب الإنسان تعظيماً لله عز وجل:

هذه العين التي يحار بها العلماء ولا تزال بعض أسرارها مجهولة ترى الألوان كلها بأدق الألوان، ثمانمئة ألف درجة من اللون الواحد تفرق العين بينها.

لو درّجنا اللون الواحد ثمانمئة ألف درجة فإن العين السليمة بإمكانها أن تميز بين درجتين تارة بالألوان وتارة بالبعد الثالث وتارة بالأحجام، إنك ترى الشيء بحجمه الحقيقي، لو أتيت بآلة تصوير وصورت منظراً طبيعياً وسحبت الصورة لوجدتها لا تزيد على 10×8 سم، لكن هذه العين ترى الجبل جبلاً بحجمه الحقيقي، فالأشياء تراها بأحجامها وألوانها الدقيقة وبأبعادها الثلاثة، وتراها من دون تحنيط، بالعين نرى المنظر مباشرة وبأدق تفاصيله، بينما لا نستطيع رؤية المنظر عن طريق آلة التصوير إلا بعد خطوات متعددة.

هذه العين وضعها الله في محجر وقاية لها، جعل لها هذا الجفن لتنظيفها، جعل هذا الدمع القلوي الذي يذيب المواد الصلبة، هذه الأشفار وهذه الأحداب، جعل هذا الجفن، جعل هذه العضلات العلوية والسفلية والأنسية والوحشية، جعل هذا العصب البصري، تسعمئة ألف عصب تمر في حبل لا يزيد عن مليمتر، تسعمئة ألف عصب وهذه الشبكية بطبقاتها العشر وهذه الشبكية بـ130 مليون ليف عصبي ومخروط من أجل التقاط أدق تفاصيل الصورة وأدق الألوان يد من فعلت هذا ؟ من شق هذه العين ؟ من شق هذا السمع ؟

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35))

(سورة الطور: الآية35)

والله يا أخوان: العين وحدها كافية كي يذوب الإنسان تعظيماً لله عز وجل.

من أساء الظن بالله عز وجل لم يعرف الله تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ (66))

الإنسان يرى الضوء، يرى الشمس، يرى السماء، يرى النجوم، يرى الأزهار، يرى الأطيار، يرى الأسماك، يستمتع بالألوان، ما قيمة جمال ابنك الذي بين يديك لولا هذه العين ؟ كل ما في الكون من جمال تنعدم قيمته لولا هذه العين، لقد شقّ الله هذه العين من أجل أن ترى الآيات، من أجل تسبيح الله عز وجل، من أجل أن تنقل لك هذه العين صور المحيط الخارجي فيخشع قلبك وتستقيم سيرتك، لو لم نشأ لهم الهداية، لو لم نشأ لهم السعادة، لو لم نشأ لهم القرب، لو لم نعدهم لحياة أبدية فيها سعادة لا تنقضي:

(لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ (66))

أي لما الأب، ولله المثل الأعلى، يقدم لابنه أعلى مصروف للدراسة وأرقى جامعة وأعلى قسط وغرفة خاصة، يعفيه من كل الخدمات، يقدم له كل المراجع، يهيئ له كل المدرسين المتفوقين، يبذل نفقات باهظة، ما مراد الأب من كل هذا ؟ أن يبقيه جاهلاً ؟ هل يقول ابن لأبيه أنت تريدني أن أرسب ؟ كل هذه الخدمات، كل هذه العنايات، كل هذا الإنفاق، كل هذا الترتيب، كل هذا التدبير، وأنا أريدك أن ترسب ؟ هذا افتراء على الله عز وجل، فهذا الذي يظن أن الله عز وجل خلق الكافر كافراً وأراده أن يكون كافراً وسوف يعذبه إلى الأبد لا لأنه كفر ولكن لأن مشيئة الله هكذا، هذا الذي يسيء الظن بالله عز وجل لا يعرف الله عز وجل.

من أراد أن يعبد الله فعليه بقراءة القرآن و من أراد أن يعرفه فعليه بالكون:

لذلك لو أردنا لهم الضلالة، لو أردنا أن نشقيهم، لو أجبرناهم على الانحراف، لو أجبرناهم على الكفر، لما خلقنا لهم كل هذا الكون ولا كل هذه الحواس ولا كل هذا الإدراك:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ (66))

الله عز وجل أعطانا سمعاً، أعطانا دلائل، إذا أردت أن تعرف الله فذلك الكون. ورد في الأثر:

((حسبكم الكون معجزة))

[ورد في الأثر]

وإذا أردت أن تعبد فذاك القرآن منهج قويم، صراط مستقيم، حبل الله المتين، نور من السماء للأرض، هذا القرآن. إذا أردت أن تعرفه فذلك الكون، وإن أردت أن تعبده فهذا هو المنهج، وإن أردت أن تتقرب إليه أعطاك حركة، قوة، أعطاك طاقة عضلية، وطاقة فكرية، وطاقة نفسية، أعطاك ملكات، مهارات،

لذلك لو أننا أجبرناهم على الضلال، لو أردنا منهم أن يكونوا كذلك، ولو نشاء كما يدعون لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط، تنازعوا، تدافعوا، ضلوا، فسدوا:

(فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ (67))

الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم:

لو أن الله جعل الإنسان كتلة من لحم وعظم، لا أرجل ولا أيدي، لا يوجد عضلات، لا يوجد جهاز عظمي مثل المتحول الزحاري، مثل الرخويات، لو أن الإنسان كان من النوع الرخوي، عضلة ملقاة على الأرض. من أعطاك الجهاز العظمي ؟ من ربط الجهاز العظمي بهذه العضلات بالمئات، العضلات بعضها مخطط، بعضها أملس، بعضها إرادي، بعضها لا إرادي، شيء يحير العقول، وبعض العضلات وأنت في أتم الراحة هي في أشد الانقباض، ولولا هذه العضلة لكانت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، بهذه العضلة تحفظ لك كرامتك، بهذه العضلة التي في أشد حالات انقباضها أنت مرتاح، لولا هذه العضلة لاحتاج الإنسان إلى فوط يحفظ بها ما يخرج منه من نجاسات، لولا هذه العضلة لذهب ماء الوجه، لولا هذه العضلة لأصبح الإنسان مهاناً، هذه العضلة التي هي في أشد حالات الانقباض تضمن لك كرامتك ورفعتك وشأنك ونظافتك ومهارتك، عضلات قابضة، عضلات باسطة، عضلات مخططة، عضلات ملساء، عضلة إرادية، عضلة لاإرادية وأنت لا تدري.

إكرام الله عز وجل الإنسان بأن خلقه بأحسن صورة:

لو أن الله عز وجل جعل عضلة القلب بيدك ليس بإمكانك أن تنام، إذا نام الإنسان توقف قلبه، لو جعل حركة الرئتين منوطة بك، خيار صعب، النوم معناه الموت واليقظة من أجل تحريك الرئتين معناها الجهد الذي لا يحتمل:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67))

أعطاك جهازاً عظمياً متيناً، العظم ميناء الأسنان لا أدري بالضبط يأتي قبل الألماس أم بعده من حيث القساوة، عظم عنق الفخذ، الفخذ له عظم والعظم ينتهي بمشاشة، فقط من أجل جمال القوام، لو أن عظم الفخذ ينتهي بالحرقف بلا عنق لصار منظر الإنسان دميماً، جعله بحيث يكون العظم له عنق وبعده المشاشة. عظم الفخذ هذا يتحمل ضغط 250 كغ لكل رجل، صاروا 500 كغ، أي نصف طن يتحمل جسمك ضغطاً:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67))

أنت جعلك تتحرك، جعلك تمشي، أعطاك أرجلاً، أعطاك قدماً، الكعب في القدم هذا النتوء الصغير، هذا يتفق مع أدق نظريات الميكانيكا، النتوء، الأصابع في القدم، الأخمص في القدم، عضلات القدم، الركبة، هناك مستشفيات بالعالم متخصصة بمفصل الركبة، لأنه ليس مفصلاً، عظمتان متقاربتان وأربطة في غاية الإحكام وعظمة صغيرة يسميها العوام (صابونة الرجل) عظمتان متقاربتان وأربطة بمنتهى الإحكام هذه الركبة، خلق الإنسان في أحسن تقويم.

لو أراد الله عز وجل للإنسان الضلال لما أتقن صنعه:

لو نشاء له الضلال، لو نشاء أن نشقيه لما أتقنا صنعه، لما أتقنا عضلاته وعظامه، لما أتقنا أجهزته. جهاز القلب والدوران، تجد الإنسان يقول: دفعت ثمن صمام 130 ألف ليرة، صمام صغير، ينام له صوت، لا ينام الليل، الصمام الصناعي له صوت، لا بتعرف قيمة الصمام الطبيعي حتى تركب صماماً صناعياً، طبعاً سوف يفتح القلب والعملية خطيرة جداً والصمام ثمنه 130 ألف وله صوت بالليل، أثناء النهار باعتبار في ضجيج لا تشعر بصوته لكن بالليل عند السكون تشعر بصوته.

إذاً القلب والرئتين الأوعية والأعصاب، الأوردة والشرايين، المعدة والأمعاء، الكبد والطحال، البنكرياس، والكليتين، جهاز تنقية، جهاز هضم، جهاز دوران، جهاز عضلي، جهاز عظمي، جهاز عصبي، أعصاب حس، أعصاب حركة.

الدقة و الإبداع في خلق الإنسان من أجل أن يعرف الله عز وجل:

اليوم في الخطبة ذكرت قشرة الدماغ وزنها مئة غ سمكها 2 ملم فيها ألياف عصبية طولها ألف كم، فيها أربع عشرة مليار خلية هي القشرة. هذه القشرة فيها كل شيء مركز السمع، مركز البصر، مركز الحركة، مركز الإحساس، مركز التوازن، فيها مركز الإدراك، مركز المحاكمة، مركز التذكر، مركز التدبير، شيء لا ينتهي، فيها من خمسين إلى مئة مركز لم تعرف بعد وظائفها الدقيقة، أما الدماغ 140 مليار خلية لم تعرف وظيفتها بعد.

أيها الأخوة: الدماغ عاجز عن إدراك ذاته لماذا هذه الدقة وهذا الإبداع وهذه العناية ؟ من أجل أن لا تعرف الله ؟ من أجل أن تخلق للتعذيب ؟ من أجل أن تشقى ؟ لا والله كل هذا من أجل أن تعرف الله عز وجل.

تكريم الله الإنسان بأن جعله فرداً لا مثيل له:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ (67))

كتلة لحم ملقاة في طرف الغرفة، في حيوانات هكذا وحيدة خلية، فيروسات، في هلاميات، في رخويات، في حيوان ليس له حواس، أنت أعقد حاسة من حواسك، حاسة السمع، الله عز وجل أعطاك نبرة تختص بها، أبداً.

الإنسان له هويات وليس هوية واحدة. كان يظن من قبل أن له هوية واحدة وهي بصمته، لا، الآن قزحية العين هوية، أحدث بحث أفاد لي أحد الإخوان أنه لا يوجد إنسان بالخمسة آلاف مليون إنسان يشبهه آخر في قزحية العين، فالآن في أجهزة، تضع عينك على الجهاز فيعرف هويتك، لا يوجد تزوير هنا إطلاقاً، العين هوية، رائحة الجلد هوية، بلازما الدم هوية، وحدة النسيج في جسمك هوية، نبرة الصوت هوية، بصمة اليد هوية، من أسماء الله أنه فرد وقد منحك هذا الاسم، كرّمك فجعلك فرداً لا مثيل لك.

إذاً كل هذه الدقة هي من أجل أن يشقيك في الدنيا والآخرة ؟ أهكذا تظن به ؟

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ (67))

العقل الذي وهبنا الله إياه لا نعرف قيمته إلا حينما نراه في بعض الناس ضعيفاً:

أنا أعرف أشخاصاً كثيرين تقدمت بهم السن ضعفت ذاكرتهم، رجل رحمه الله من إخواننا الكرام في آخر حياته خرج من معمله وبحث عن بيته ساعة ونصف نسي بيته والذي سكن فيه خمس و ثلاثين سنة، عاد إلى بيت ابنه قال له: يا بني أين بيتي ؟

أعرف رجلاً آخر كان صيدلياً جاء ابنه من أمريكا قال له: من أنت ؟ قال: أنا ابنك ماهر. قال: ما أعرفك.

أعرف رجلاً قد بلغ أعلى الدرجات في حياته الدنيا، مرة اضطرت أن تخبر زوجته قسم الشرطة أن فلاناً خرج ولم يعد، بحثوا عنه وجدوه بالقنوات وهو بيته بالمهاجرين، خرج لم يعد يعرف كيف يرجع.

أنت أحياناً، تضع شمعة بالسقيفة على الرف، بعد ستة أشهر تنطفئ الكهرباء تقول: يا بني اطلع على السقيفة، في شمعة على الرف بالسقيفة. معناها كل شيء تفعله أخذ محلاً بالذاكرة، الذي عنده قطع تبديل أو الصيدلي، يُسْأل: هل عندك الدواء الفلاني....يجيب مثلاً لدي قطعة واحدة، أحضرها يا بني فهي بالرف الثالث على اليمين وراء العلبة هذه، معناها بذاكرتك مسجلة.

ما هي الذاكرة ؟ مشكلتك كبيرة إن ضعفت، ضعف بسيط ويبدأ الإنسان ينسى. أحياناً يضيع مفاتيحه يبحث عنهم ساعة وتكون بجيبه و ينسى.

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67))

فهذا الإدراك، وهذا العقل الذي جعله الله مناط التكليف، أداة التعريف، هذا لا تعرف قيمته إلا حينما تراه في بعض الناس ضعيفاً.

أرذل العمر ليس لمن أمضى حياته في طاعة الله:

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ (68))

الإنسان يولد لا يعلم شيئاً تنمو ملكاته شيئاً فشيئاً، تنمو قدراته شيئاً فشيئاً، تنمو مفاهيمه، تنمو مدركاته إلى أن يكتمل في الأربعين، وبعدئذ يميل خطه البياني في النزول إلى أن يرد إلى أرذل العمر، لكن أيها الأخوة أرذل العمر ليس للمؤمنين أطمئنكم، أرذل العمر، ضعف الملكات، ضعف الذاكرة، الحشرية، إعادة القصة مئات المرات، الظل الثقيل، التدخل فيما لا يعنيه، أرذل العمر هذا ليس لمن أمضى حياته في طاعة الله، أرذل العمر ليس لمن كانت له بداية محرقة، من كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة. يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر.

من يحفظ الله في صغره يحفظه الله في كبره:

والله أعرف أناساً صالحين والله في التسعين، في السادسة والتسعين، مئة و ست سنوات بأعلى درجات يقظتهم وإدراكهم. أعرف رجلاً والله كنت أزوره كل عيد، والد صديق من أصدقائي، يحدثني عن بعض قصصه وتمنيت أن يعيد القصة، لم يعد قصة مرتين أبداً، قال: عملنا فحصاً يا أستاذ فلان، الحمد لله كله تام، عمره 96 سنة، عمل فحصاً كاملاً لدمه وبوله....كامل مكمل، قال لكن والله بحياتي ما أكلت قرشاً حراماً ولا أعرف الحرام، لم يأكل قرشاً حراماً ولا يعرف الحرام من النوع الثاني بحياته، يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر.

أي إذا حدثناكم عن أرذل العمر هذا لمن أمضى شبابه في معصية الله، لمن لم يطلب العلم في شبابه، لمن شاب على ما شب عليه، لمن أَلِفَ المعاصي، لكن المؤمن: أنا أرجح، طبعاً لا أتأله على الله لكن أرجح، أن المؤمن له خريف مشرق، له شيخوخة منيرة، له مكانة مرموقة، هذا لأن الله عز وجل قال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (21))

(سورة الجاثية: الآية21)

أي أنتم هل تعتقدون بذلك ؟

وهب الله عز وجل الإنسان سمعاً و بصراً و فؤاداً من أجل أن يطيعه و يعبده:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ (21))

(سورة الجاثية: الآية21)

في الحياة:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

(سورة الجاثية: الآية21)

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68))

إذاً أعطاك السمع والبصر، أعطاك الحركة، يُفهم من هذه الآيات أن الإنسان عنده قوتان كبيرتان: قوى إدراك متمثلة بالحواس والعقل، وقوى حركة. فأنت في الدنيا بحاجة إلى علم وعمل، أنت بحاجة إلى علم وإلى عمل والدين كله علم وعمل، وفحوى دعوة الأنبياء جميعاً:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء: الآية25)

يجب أن تؤمن أنه لا إله إلا الله، ويجب أن تعبده.

تكريم الله الإنسان بمنحه السمع و البصر و الفؤاد:

نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى، فأنت بين شيئين علم وعمل، إيمان واستقامة، إدراك وحركة، فمن أجل الإدراك أعطاك الله السمع والبصر والفؤاد - الفؤاد إذا جاء مع السمع والبصر فهو: العقل:

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36))

(سورة الإسراء: الآية36)

فقواك الإدراكية متمثلة بالسمع والبصر، الأحاسيس كلها، الإدراك أي هو العقل. والقوى الحركية، أعطاك جسماً يتحرك، عضلات توازن، مثلاً لو أن الإنسان لا يوجد عنده قنوات نصف دائرية فوق الأذن حتى يقف على قدمين، لابد له من قاعدة استناد كبيرة جداً، كما ترى بعض التماثيل في بعض المحلات التجارية للملبوسات الجاهزة لها قاعدة استناد 70 سم من أجل أن يقف الإنسان، كانت قنوات التوازن في الأذن (في ثلاث قنوات فيهم سائل وفيهم أهداب)، وهو يحتاج إلى أرجل كل رجل قاعدتها 20-30 سم، إذا الإنسان استخدم حذاء ودخل في أرض فيها طين، تعلق بكل حذاء أكثر من 5كغ طين ويصبح المشي فيه مشقة كبيرة جدا، فلو كان الشخص رجله وزنها 5 كغ ؛ شيء لا يحتمل، إذاً الله عز

وجل لطيف جعل لك قدمين لطيفتين، والدليل هل نستطيع أن نوقف ميت على الواقف، مادام تعطلت قنواته الدائرية فهو لا يستطيع الوقوف. الميت دائماً ملقى على الأرض، أما الوقوف فيحتاج إلى توازن، إذا هذا من تكريم الله للإنسان.

الله عز وجل أعطى الإنسان قوى إدراكية و حركية و مهارات من أجل أن يؤمن به:

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68))

إذاً هذه الآيات الثلاثة: الله أعطاك قوى إدراكية حواس وعقل، أعطاك قوى حركية تتحرك، أعطاك مهارات، أعطاك خبرات، أعطاك قدرات، أعطاك مفاهيم، أعطاك حرفة تزاولها ترتزق منها، هذا كله أعطاك الله إياه من أجل أن تؤمن به وأن تعمل صالحاً يسعدك في الآخرة، من أجل أن تؤمن به وقوى إدراكية، والعمل الصالح بدون جهاز حركي تتحرك تأتي إلى الدرس، تذهب لبيتك، تشتغل، تحضر معك طعاماً لأهلك، تقوم بعمل نافع.

كلمة الشعر هنا ليست مقصودة لذاتها:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (69))

يا أخوان بالمناسبة كلمة الشعر هنا ليست مقصودة لذاتها، دائماً الإنسان له نوازع شهوانية ونوازع رحمانية، النوازع الرحمانية متمثلة بالحق، بالقرآن، بالسنة، والنوازع الشهوانية متمثلة بالشعر، كلام مزين مزخرف، ممتع لكن ليس فيه حقائق، فيه أباطيل، فيه دجل، فيه تزوير، مثلاً هناك شاعر يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبـي و أسمعت كلماتي من به صمـم
أنام ملء جفون عن شواردهـا و يسـهر الخلق جراها ويختصم
الخيل والليل والبيداء تعرفنـي والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

القصيدة طويلة جداً كلها فخر. هذا الشاعر كان مرة بين البصرة وحلب في رحلة فخرج عليه عدو فولى هارباً، قال له غلامه: ألم تقل: أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ؟ ألم تقل الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟ قال: قتلتني قتلك الله فعاد فقاتل حتى قتل، كلام فارغ، فالشعر ليس المقصود بذاته، الشعر أي كلام فارغ، أي كلام مزخرف، مزين، مشقق، مدعم بالشواهد والطرائف والنكت، لكن ليس فيه حقائق، فكلام الناس، محاضراتهم، ندواتهم، أحاديثهم، مناقشاتهم،

مجلاتهم، كتبهم، كلها تتحدث عن شهواتهم، وعن أباطيلهم، وعن نزواتهم، وعن فراغهم، وعن انحرافهم، فهذا كله جمع في كلمة الشعر. قال تعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224))

(سورة الشعراء: الآية224)

أعذب الشعر أكذبه:

مرة شاعر هجّاء لم يبق أحد إلا وهجاه حتى أمه هجاها، ما بقي إلا أن يهجو نفسه قال:

لي وجه قبح الله خلقـه فقبح من وجه وقبح حامله

* * *

هذا هجاء، بالجاهلية شخص مرة مدّ رجله وقال: من كان أشرف مني فليضربها، بقيت حرب بين القبائل عشر سنوات، أحرقت الأخضر واليابس، هكذا كنا في الجاهلية، جاهلية عصبيات، انحيازات، فخر، باطل، إنسان تافه ينفخ نفسه. توفيت أم المعتصم مرة، بعض الشعراء قال فيها:

ولو أن النساء كمن فقـدن لفضلت النساء على الرجـال

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلـق

* * *

مبالغة كبيرة:

إن في بردي جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهـدم

* * *

قال أحد الشعراء: أعذب الشعر أكذبه.

الحي هو الذي يستنبط من حقائق الكون حقائق يؤمن بها:

لذلك هنا قال:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70))

الحقيقة: من هو الحي ؟ الحي هو الذي يفكر ويعقل ويدرك، الحي هو الذي يستفيد من تجارب الآخرين، الحي هو الذي يستنبط من حقائق الكون حقائق يؤمن بها.

(وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70))

أما إذا لم تؤمن فقوانين الله عز وجل تنطبق عليك.

النبوة لا يليق بها الشعر فالشعر فيه كذب و نفاق و مبالغة:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ (69))

ما يعني وما ينبغي له ؟

أي مرة دخل سيدنا عمر رضي الله عنه على سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام فرآه نائماً على حصير، أثر فيه الحصير على خده الشريف. قال: رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟ قال: يا عمر إنما هي نبوة وليست ملكاً، هي قضية متعلقة بهذه النبوة، هكذا قدوة النبوة، تواضع النبوة، تقشف النبوة، حب للآخرين، فالنبوة لا يليق بها الشعر فالشعر فيه كذب، فيه نفاق، فيه مبالغة، فيه هجاء، فيه غزل مكشوف، فيه غزل غير عفيف، فهذا الذي يتغزل يصف أعضاء المرأة، هذا الذي يثير الشهوات في الناس، هذا الذي يتحدث عن عواطفهم الخسيسة، عن حبهم، عن مشكلاتهم دون أن يرقى بها، هذا شاعر لكن لا يعبر عن الحقيقة.

لذلك قال:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(70))

الحي من استجاب لله عز وجل و من لم يستجب أقيمت عليه الحجة و دفع ثمن عمله:

إذا أنت ذكّرت الإنسان واستجاب فهو حي، الطبيب يضع أحياناً يده على المريض فإن لم يجد نبضاً، عمل تخطيطاً (الحركة المنكسرة معناها حركة) أما التخطيط خط مستقيم والنبض صفر والتنفس صفر والقزحية لم تتأثر بالضوء الشديد عندها يقول: عظّم الله أجركم، فمن هو الحي إذاً ؟ هو الذي إذا دعي يستجيب، إذا استمع يستجيب:

(لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70))

أما الذي لا يستجيب أقيمت عليه الحجة، وحق عليه القول، ودفع ثمن عمله.

تذليل الأنعام للإنسان بقدرة الله عز وجل:

يقولون شدة القرب حجاب:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا (71))

أنت ألست تلبس كنزة صوف ؟ ألا يوجد في بيتك سجادة صوف ؟ ألا يوجد عندك جلد تضعه بالشتاء بغرفة الجلوس ؟ ألم تشرب كأساً من الحليب ؟ ألم تأكل قطعة جبنة؟ قشطة ؟ زبدة ؟ ألم تشرب لبناً ؟ ألم تلبس حذاء ؟ يقول لك هذا ثمنه ألف ومئتين اشتريته من مضايا مثلاً، فهذا الحذاء مم صنع ؟ من الجلد، وهذه الكنزة الموهير الغالية من أين أحضرتها ؟قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71))

الأنعام، الخروف: صوفه يقدم لك شيئاً عظيماً، وجلده يقدم لك خدمات جلى، والحليب، إنّ كل حياتنا مبنية على الألبان ؛ الجبن والحليب واللبن والسمن والزبدة فهو غذاء أساسي جداً. هذا كله من الأنعام، اللحم مادة أساسية في الحياة، من صمم هذه الغنمة ؟ لو أن الله عز وجل أودع طباع الضبع في الغنمة يقول لك فلان مثل الغنمة، ماذا يعني مثل الغنمة ؟ أي القيادة سهلة، تسحبها بقليل من الحشيش على الذبح لا تتكلم ولا كلمة، الله ذللها، من جعلها لك مذللة ؟ الله جل جلاله.

موضوع الغنم بالذات من آيات الله الكبرى الدالة على عظمته:

لذلك:

(أَوَلَمْ يَرَوْا (71))

هي آية بين أيديهم، لو لم تكن الغنم مذللة، من يقدر أن يجمع مئة غنمة مع بعضهم؟ تجد متكاتفين متداخلين مع بعضهم، لو كانوا مثل الكلاب مبعثرين فرعي الغنم صار عملية شاقة، لو أن الله جعل بطباع الغنمة التبعثر، أيستطيع أحد أن يجمع مئتي كلب مع بعضهم ويقودهم معاً ؟ تجد كل واحد بجهة، أما الغنم يمكن جمعه كله بقطيع واحد، تجد بحركة، بصفرة، يتجه نحو اليمين أو نحو الشمال، طَبْعٌ لطيف، طواعية، انسياق للراعي.

موضوع الغنم بالذات، من آيات الله الكبرى، ويمكن أن تُرى بالعين. يجب على الإنسان أن لا يكون غافلاً إذا أكل، وإن شرب كأس حليب، إن أكل قطعة جبنة، يجب أن لا ينسى الإنسان أن كل هذا من صنع ربنا، يقول لك هذا من عند فلان، صناعته نظيفة تماماً، قبل فلان الله عز وجل هو الذي صمم لنا هذه الغنمة وصمم حليبها وجلدها وصمم لحمها وصمم صوفها:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72))

الإنسان مصمم على الإيمان فإن لم يؤمن وأشرك وقع بمصيبة كبيرة:

أحياناً الإنسان، يركب هذه الدابة تحمله إلى بلد لا يبلغه إلا بشق الأنفس، أحد إخواننا كان في بلد غربي، قرأ بحثاً علمياً عن أن استعمال الفرس يقي الإنسان من أمراض القلب والكبد والكليتين، أمّا المركبة التي صممها الإنسان قد تسبب أمراض القلب والكبد والكليتين، حيث أن الإنسان مصمم على بذل الجهد، فإذا كف عن بذل الجهد تفاقمت مشكلاته، ضعف قلبه، ضعف كبده، ضعفت كليتا ه، الطبيب يقول لك امش، طبيب الكليتين يقول لك امش، طبيب القلب يقول لك اعمل رياضة، تمشى صباحاً، الإنسان مصمم على بذل الجهد فإذا كف عن بذل الجهد، كل حركاته أصبحت بالمصعد والسيارة من الباب للباب، مكتبه مريح، حتى حركات السيارة كلها أوتوماتيكية، كبس أزرار، الغسيل كبسة زر، لم يعد هناك شيئاً صعباً، فالإنسان وقع بمصيبة جسمه، لأن الإنسان مصمم على بذل الجهد، فإن لم يبذل الجهد تعب قلبه وضعف، ومصمم على الإيمان فإذا لم يؤمن وأشرك يخاف. فنحن بين مشكلتين: بين كسل عضلي وبين شدة نفسية. وهذه وراء أكثر أمراض الإنسان المستعصية. أمراضه أكثرها المستعصية هي نتيجة للشدة النفسية مضافاً إليها الكسل العضلي، وأجدادنا حياتهم كان فيها بذل جهد وكان هناك راحة نفسية، الراحة النفسية مع بذل الجهد تساهم في وقاية الإنسان، والشدة النفسية مع الكسل العضلي يبقى الإنسان في مرض مستمر.

كل شيء في الكون مصمم للإنسان تصميماً كاملاً:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73))

منافع ومشارب أي أنواع الأشربة الحليب واللبن وما إلى ذلك:

(أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73))

حتى ما يخرج من بطنها يقول لك ثمن طن من السماد يتراوح بين ثمانية آلاف ليرة و عشرة آلاف، أرقى أنواع السماد، لم يبق فيها شيء، حتى الأمعاء تصدّر بأسعار باهظة، لا يوجد شيء بالغنم إلا يستفاد منه، سبحان الله هذه هدية الله لنا، مصممة تصميماً كاملاً.

كل إنسان سره كعلانيته عند الله عز وجل:

ومع كل ذلك:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74))

اتخذ إلهاً من دون الله، اتخذ شخصاً، اتخذ صنماً. قال:

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75))

كان العرب في الجاهلية إن صنعوا صنماً يحرسوه، يعتنوا فيه، إذا شخص ناله بأذى يضربوه. فهذا الصنم من الحجر يحتاج إلى من يحرسه وإلى من يرعاه وإلى من يدافع عنه، فإذا كنت أنت ترعاه، فكيف تعبده من دون الله ما هذا المنطق ؟ واتخذوا من دون الله آلهة:

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76))

الإنسان مكشوف يا أخوان، مكشوف عند الله عز وجل، أي سريرته كعلانيته، سره كظاهره، ما يخفيه كما لو أنه أعلنه، فالمؤمن حينما يرى رقابة الله عليه يستقيم على أمر الله، ويشعر حينما ينحرف قليلاً سوف يأتيه العذاب من قِبل الله عز وجل.

خلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ (77))

ذا قال أنا ما كنت وقتها، لم أكن في وعيي ! تقول: انظر إلى ابنك ألم تعلم أن هذا الابن جاء من نطفة من ماء مهين، ألم تعلم أن هذا الماء المهين يزيد على ثلاثمئة مليون حوين وأن الإنسان مخلوق من حوين واحد، حوين واحد مخلوق منه،

(أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة)

والحوين الواحد له رأس مدبب، له عنق وله شريط لتحريكه وهذا الرأس المدبب له مادة نبيلة شفافة مغطاة بغشاء إذا اصطدمت بالبويضة تمزق الغشاء وجاءت هذه المادة النبيلة فأذابت جدار البويضة حتى يدخل إليها، وأن هذا الحوين يحتوي على خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة بأوقات متفاوتة:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ (77))

فإذا كبر ودرس فلسفة أو درس طب صار يتفلسف على الناس، أخي أنا لا أرى إلا الأشياء المادية، هي ما وراء الطبيعة، هي (ميتافيزيقا)، نحن يجب أن نكون واقعيين، لا نريد غيبيات، لا نريد خيالاً، لا نريد أن نتعلق بما بعد الموت، نريد الحياة فقط، الآن تحكي هذا الكلام.

على الإنسان ألا يكثر من الجدال:

مرة كنت بالمطار، رأيت طفلاً يظهر أهله من كثرة ما وضعوا له فوطاً خوفاً من البلل صار كرة بوسطه، قلت: هذا لو كبر وصار بمنصب رفيع ونسي كيف كان صغيراً بهذا الوضع المضحك:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77))

الإنسان تجده كان يحتاج لمن ينظفه، من يرعاه، من يطعمه، كان ضعيفاً، كان يتكلم الحرف، كلام مضحك، لو كبر وسمع كلامه، فبعد أن كبر وصار شخصية فذة، يريد أن يناقش الإله: أثبت وجودك، وأنا لا أؤمن إلا بالواقع، هؤلاء الماديين، الجدليين:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(78))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 77-83 ، إبداع الله عز وجل في كل شيء خلقه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-08-21

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جل جلاله حضّ الإنسان على التفكر في خلقه:

أيها الأخوة الأكارم: مع الدرس السابع والأخير من سورة يس ومع الآية السابعة والسبعين. يقول الله جل جلاله في أواخر سورة يس:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77))

هذه الصيغة في علم البلاغة هي استفهام إنكاري، والإنسان إذا عُرِّفَ بـ (ال) فهذا تعريف الجنس أي: أيّ إنسان، ومعنى ذلك أن أي إنسان مزود بقوى إدراكية تعينه على معرفة خالقه ومربيه من خلال الآيات التي بثها في الكون

(أولم ير الإنسان)

وكلمة يرى هذه تعني العلم، رأيت العلم نافعاً، رأيت الفقر موجعاً، هذه الرؤية تعني العلم فكأن الله جل جلاله يحض الإنسان على أن يرى، يرى ماذا ؟ يرى عظمة الله من خلال خلقه، ويرى ضعفه،

(أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة)

كلكم يعلم أن النطاف (جمع نطفة) تزيد في اللقاء الزوجي عن ثلاثمئة مليون حوين في سم3 للسائل المنوي، وأنّ كل نطفة أو كل حوين إنْ هو إلا خلية لها رأس ولها عنق ولها ذيل وأما هذه النطفة أو هذا الحوين أو هذه الخلية عليها مورثات فيها معلومات تزيد عن خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، تسهم هذه المعلومات في تشكيل الإنسان بأدق تفاصيله مع برنامج زمني دقيق دقيق، فعلى كلٍ إن شاء الإنسان أن يغوص في التفاصيل التي عرفها العلماء أو أن يبقى في الكليات، في كلا الطريقين هناك طريق موصل إلى الله عز وجل.

إعجاز خلق الله جل جلاله في خلق الإنسان من نطفة:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ (77))

أي ماء مهين، ومعنى مهين أي يستحي به الإنسان و ثلاثمئة مليون حوين في سم3 للسائل المنوي، ويُخْلَق الإنسان من حوين واحد، وهذا الحوين يدخل إلى البويضة وكما ذكرت في الدرس الماضي في رأسه مادة نبيلة مغلفة بغشاء رقيق إذا اصطدم هذا الحوين بجدار البويضة تمزق الغشاء وساهم هذا السائل النبيل في إذابة جدار البويضة ؛ فإذا دخل الحوين إلى البويضة وتم التلقيح بدأ الانقسام، ولا تزال البويضة في الأنبوب الواصل بين المبيض والرحم، تنقسم الخلية الملقحة إلى عشرة آلاف جزيء من دون أن يزداد حجمها لأنه لو ازداد حجمها لتعثرت في طريقها إلى الرحم.

يد من صممت ؟ ويد من نفذت ؟ وهذه البويضة أحياناً الله عز وجل قال:

(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا (50))

(سورة الشورى: الآية50)

أي هذا الحوين لا يستطيع الدخول إلى البويضة إذا كان الرجل عقيماً، من يستطيع أن يتدخل في مثل هذه الحالات. قد يكون العقيم ملكاً ولا يستطيع أن ينجب، وينفق الأموال الخيالية الفلكية ليكون منجباً فلا يستطيع.

خلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا (50))

(سورة الشورى: الآيات49-50)

فهذا هو خلق الله عز وجل أما كلمة يرى، فالإنسان إن لم يقرأ هو يرى بعينيه، إن لم ير خلقه ير خلق ابنه ويرى خلق من حوله، فهذه آية ليرى من آيات الله الدالة على عظمته وفي آيات أخرى يقول الله عز وجل:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8))

(سورة الطارق: الآيات 5-8)

أي إذا قرأ أحدكم علم الجنين أو علم الأجنة لا يملك إلا أن يقشعر جلده، وأن تنهمر دموعه لعظم الآيات التي يراها في خلق الإنسان، بالغة العظمة، بالغة الدقة، بالغة التعقيد لدرجة أنه لابد من يد حكيمة هي أحكم ما تكون، قديرة هي أقدر ما تكون، عليمة هي أعلم ما تكون، تُسَيِّرُ هذا الجنين في بطن أمه ليكتمل خلقه في تسعة أشهر وعشرة أيام، على كل لا مجال للتفاصيل الدقيقة لكن من أراد أن يزداد علماً في هذا الموضوع فليرجع إلى الكتب التي تتحدث عن علم الأجنة.

الإنسان المتكبر إنسان جاهل ومنقطع عن الله عز وجل:

الإنسان مادام نطفة خرج من عورة ودخل إلى عورة ثم خرج من عورة، والماء المهين والحوين الصغير لا يرى بالعين المجردة يرى بالمجهر، والبويضة في المرأة هي أكبر خلية بالنوع البشري ومع ذلك صغيرة جداً، فهذا الخلق يجب أن يورث الإنسان الشعور بالعبودية لله عز وجل، فالإنسان كلما ازداد علماً كلما ازداد طاعة لله عز وجل وإكباراً لخالقه.

المتكبر جاهل: هذا الإنسان هذه بدايته، حينما أصبح شاباً أو أصبح كهلاً ونال بعض الشهادات بدأ يناقش ويجادل ويخاصم ويدعي الفهم ويدعي العلم ويطرح نظريات ويقول مقولات ولا يؤمن إلا بما يرى، ويتهم كل ما لم يره بأنه غيبيات، فهذا الإنسان وهذه بدايته وهذا أصله وهذا ضعفه.

الذي لا نبصره ليس أقل عظمة من الذي نبصره:

كيف أصبح الإنسان يافعاً أو راشداً أو كهلاً يخاصم ربه ويقول: أنا لا أؤمن إلا بما أرى، أنا واقعي، هذا الدين شيء خيالي، شيء مغيّب، خصيم مبين، ربنا عز وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة: الآيات38-39)

الآن هناك كتب فيها صور بالمجهر الإلكتروني عن خلق الإنسان، عن الكريات الحمراء، عن شبكية العين، عن الأذن، عن الحواس، المنظر لا يصدق لعظمته هذا كله لم نكن نبصره من قبل، فربنا عز وجل حينما قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة: الآيات38-39)

معناه الذي لا نبصره ليس أقل عظمة من الذي نبصره، هذه العين لها عتبة، لكن هناك أشياء لا تراها العين الآن تراها المجاهر الإلكترونية التي تكبر الشيء 40-50 ألف مرة وبعض الصور أربعمئة ألف مرة تكبرها، أي ترى الثقب في الجلد أو مسام الجلد وكأنه كهوف، ترى الشعر وكأنه غابات، ترى الكريات الحمراء وكأنها أقراص، ترى شبكية العين وكأنها نبات كثيف جداً ينمو إلى جانب بعضه بعضاً، فالشيء الذي نراه في هذه الصور لا يصدق فهذا معنى قوله:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة: الآيات38-39)

خلق الله عز وجل الحواس لتتناسب مع حاجة الإنسان:

الله عز وجل قال:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49))

(سورة القمر: الآية49)

الحواس لها قدر تتناسب مع حاجاتك، أما لو اشتدت الرؤية لرأيت كأس الماء الصافي يغلي بالكائنات الحية، إذا الإنسان وجد قشة تعاف نفسه عن شرب كأس الماء، فلو زاد الله عز وجل القدرة الإبصارية في الإنسان فرأى الكائنات الحية، مشكلة.

أي كما يقولون: أشد الناس تعقيماً في الصاد الموصد عليه بالميليمتر كذا جرثوم وكذا كائن حي بعد التعقيم، فالعالم الذي لا نشاهده ليس أقل عظمة من العالم الذي نشاهده، وعلى كل لا يلقى من المعلومات في المساجد إلا النذر اليسير، الأشياء الواضحة الجلية، أما دقة المعلومات، إذا رجعتم إلى الأصول ترون العجب العجاب.

على كل بالشكل الظاهر: نقطة ماء أصبحت إنساناً سوياً له دماغ وله أعصاب، أعصاب حس، أعصاب حركة وله قلب وأربعة تجاويف ودسامات وشرايين وأوردة وله جهاز تنقية وله جهاز هضم وله جهاز عظمي وله جهاز عضلي وله غدد صماء ولا تزال هذه الغدد أسرارا يجهلها الإنسان.

إبداع الله عز وجل ظهر بالإنسان ومع ذلك فهو يدّعي ما ليس له:

مركز توازن السوائل لو اختل لاحتجت إلى أن تقبع بجانب صنبور الماء طوال الليل والنهار لاحتجت إلى إفراغ هذا السائل أي تعطلت حياتك، مركز التوازن الحراري أحياناً يختل، 40 درجة تصبح حرارته مستمرة إلى أن يموت، في أجهزة بالإنسان، مراكز ضبط تحار بها العقول، مركز ضبط بلازما الدم، إذا كلور الصوديوم ازداد في الدم فوق ثمانية بالألف لمات الإنسان، إذا قلّ عن سبعة بالألف مات الإنسان، جهاز الكليتين هو الذي يضبط هذه النسب، لو تعطل جهاز ضبط النسب لمات الإنسان، بالكبد في هرمون التجلط وهرمون التميع، من إفراز هذين الهرمونين بشكل متوازن نرى الدم بهذه الميوعة الصحية، فلو أن هرمون التجلط زادت نسبته لأصبح الدم وحلاً في الأوعية ولمات الإنسان، ولو زاد هرمون التميع لسال دم الإنسان من جرح بسيط وانتهت حياته، الصفائح الدموية، الكريات البيضاء، عوالم الجسم عوالم لا تنتهي.

فهذا المخلوق المعتنى به، إبداع الله عز وجل ظهر بالإنسان وهذا الإنسان يخاصم ربه، يدعي ما ليس له، يدعي أنه فعال، يدعي في أوروبا أنه إله هذا العصر.

(فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77))

الإنسان الكافر يتوهم أن الله لا يحيي الإنسان بعد موته:

رجل جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وفي يده عظمة بالية، فربنا عز وجل أنزل في هذه الحادثة قرآناً قال:

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ (78))

لو أنه تذكر خلقه لما ضرب هذا المثل، متى ضرب هذا المثل ؟ عندما نسي خلقه، والناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، فالإنسان قبل أن يأتي ملك الموت وقبل أن يندم ولات ساعة مندم ليذكر قبل أن لا ينفعه التذكر.

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78))

من ؟ هذا الإنسان الكافر توهم أن هذه العظمة، أن هذه القطعة من العظم البالية التي تتفتت باليد، من يحييها ؟ فجاء الجواب: من قبل الله عز وجل:

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (79))

أنشأ الشيء، صنعه لأول مرة ابتداء وإبداعاً.

خلق الإنسان خلق تام لم يطرأ عليه أي تعديل:

الإنسان حينما خلق، خلقه الله عز وجل، هل طرأ عليه تعديل ؟ منذ أن خلق كان خلقه كمالاً مطلقاً، الإنسان حينما يصنع الآلات يضيف ويحذف ويقوي هذه الناحية ويتدارك هذه الناحية في العام القادم، ويختصر هذه الناحية، ويضع خبرته لهذه الناحية، ولا أدل على ذلك من أن كل آلة صنعها الإنسان يجري عليها تطويراً وتعديلاً إلى ما شاء الله.

الإنسان مادام تتنامى خبرته ويتنامى علمه وخبرته يُعدّل مصنوعاته، لكن الله عز وجل علمه قديم وخبرته قديمة، فخلق الإنسان خلق تام لم يطرأ عليه أي تعديل:

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (79))

خلق الله للإنسان معجز و بأحسن تقويم:

لا أدري ماذا أقول ؟ الإنسان إذا تحرك لولا جهاز التوازن لوقع على الأرض، من صمم هذا الجهاز، ثلاث قنوات نصف دائرية فيها سائل، فيها أشعار، فإذا مال الإنسان يميناً أو شمالاً فإن السائل ارتفع

عند الميل ولامس الأشعار، الإنسان شعر أن توازنه قد اختل يعطي أمراً للعضلات بالتقلص أو الانبساط حتى يستعيد توازنه، من صمم هذا الجهاز ؟ الله جل جلاله، الأصوات حينما يسمعها الإنسان يعرف جهتها، وإذا عرف جهتها تكيف معها، وهذا من دقة خلق الإنسان.

من آيات الله الدالة على عظمته:

1 - الأذن:

العين لها بحث طويل. الأذن لها بحث طويل. كيف يفرّق الإنسان بين الصوت والنغم، هذه الذاكرة السمعية من صممها، كيف الآن تعرف فلان على الهاتف ؟ يقول لك: عرفتني ؟ تجيبه: نعم فلان،1000-2000 صوت بذاكرتك السمعية كلما سمعت صوتاً تذكرته وقلت هذا فلان.

2 - الشم:

في الذاكرة الشمية، آلاف الروائح والطعوم تعرفها، تقول: هذا الطعام فيه المادة الفلانية.

3 - الذاكرة:

هناك ذاكرة الأرقام وذاكرة الأسماء، الذاكرة وحدها علم قائم بذاته.

4 - القشرة الدماغية:

القشرة الدماغية سمكها 2 ملم، أربع عشرة مليار خلية فيها ألياف عصبية طولها ألف كم، فيها من خمسين إلى مئة مركز تقوم بأدق الأعمال، أعمال التفكر والتدبر والمحاكمة والاستقراء والاستنتاج والتصور والتخيل والتذكر، أعلى ما في الإنسان هذه القشرة الدماغية فيها تلافيف متعرجة المساحة قليلة والسطوح كثيرة، هذا الإنسان من صممه ؟ من صمم هذا الدماغ ؟.

5 - الدماغ:

الإنسان لو شاهد شيئاً مخيفاً، هذه الصورة تنتقل إلى الشبكية وهو الإحساس، حتى هذه الساعة كيف تصبح هذه الأحاسيس مدركات، صورة انطبعت على الشبكية، خط أسود طويل، أفعى مثلاً، الإنسان

لماذا ينفعل ؟ لماذا يصيح ؟ لماذا يخاف ؟ كيف تحول هذا الإحساس إلى إدراك في الدماغ ؟ وإذا تمّ هذا الإدراك ما الذي حصل ؟ لماذا اصفر لونه ؟ ولماذا خفق قلبه ؟ ولماذا تسارعت أنفاسه ؟ ولماذا أفرز كبده المواد السكرية الاستثنائية ؟ من أعطاه هذا الأمر؟ إنسان رأى أفعى في بستان لماذا ينفعل ؟ لأنه انتقل من إحساس إلى إدراك. أدرك أنها أفعى، ما الذي حدث ؟ أي الدماغ عن طريق مركز اتصال فيه نظام الأعصاب ونظام الهرمونات.

6 ـ الغدة النخامية:

الغدد لها نظام ولها جنود ولها تسلسل ولها ملكة إنها الغدة النخامية. والأعصاب لها نظام ولها مراكز ولها تسلسل ولها ملك إنه الدماغ. إذاً الغدة النخامية ملكة الجهاز الهرموني والدماغ ملك الجهاز العصبي، لهذا الملك أدرك الخطر أرسل إلى الغدة النخامية أمراً عاماً أن هناك خطر، عليك أن تتصرفي أيتها الملكة. الغدة النخامية أرسلت أمراً هرمونياً ـ أمراً كيماوياً ـ إلى الكظر، الكظر أعطى أربعة أوامر، أمر إلى الأوعية بالتضييق، تجد الخائف اصفر لونه لأن الخائف ليس بحاجة إلى تورد الوجنتين بل بحاجة إلى سلامته، لذلك هذا الدم الذي يسهم في توريد الجلد يوفر للعضلات، من أعطى هذا الأمر فوراً لكل الأوعية بالتضييق، ضاقت الأوعية، من أعطى الأمر للقلب ؟ القلب له مركز كهربائي ذاتي يضخ ثمانين ضخة بالدقيقة أما أن ترتفع هذه الضربات إلى مئة و ثمانين ضربة فهذا يحتاج إلى أمر خارج القلب، من الدماغ، الدماغ مركز الإدراك، فالإنسان إذا خاف أسرع قلبه من أجل ماذا ؟ من أجل أن يسرع الدم في الأوعية ليصل إلى العضلات، وازداد وجيب رئتيه، لو فحصنا دمه لوجدنا فيه كمية كبيرة من السكر، هذا النظام من صممه؟

نظام الوقاية: من جعل بالعظام أعصاب حس، فإذا أصيبت العظام بكسر، الألم الشديد يسهم في أربعة أخماس العلاج ؟ الله جل جلاله.

7 ـ الطحال:

من جعل الطحال معملاً لكريات الدم الحمراء ؟ الإنسان وهو في بطن أمه قبل أن يتشكل عظمه تشكل نهائي يحتاج إلى دم، من يصنع هذا الدم ؟ معمل دم مؤقت هو الطحال فإذا نما عظم الجنين، وفي عظم الجنين نقي العظام وفي نقي العظام معامل كريات الدم الحمراء، فإذا نمت العظام توقف الطحال عن صنع الكريات الحمراء وبدأ نقي العظام بتصنيع الكريات، انقلب الطحال إلى معمل احتياط وإلى مقبرة لكريات الدم الحمراء ومعنى مقبرة، تحللها إلى عواملها الأولى وترسل تارة إلى الكبد لتكون الصفراء

وتارة إلى نقي العظام، الحديد يذهب إلى هناك ليعاد تصنيعه ويبقى الطحال مخزناً للدم يصرف في حالات النزيف وارتفاع الحرارة وما شاكل ذلك، هذا الطحال عالم قائم بذاته، يمكن أن يكتب عنه أطروحة دكتوراه، الطحال لوحده !.

8 ـ البنكرياس:

البنكرياس: الذي معه مرض سكر يعاني كثيراً، البنكرياس يفرز مادة الأنسولين يجعل السكر يحترق في الجسم بدرجة 37 درجة مع أن السكر يحتاج لمئة درجة ليحترق فيها، أما بالجسم فالسكر يحترق احتراقاً تاماً في درجة 37 درجة، هذا الإنسان صنع من ؟

(أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة)

أي معقول نطفة، حوين لا يرى بالعين يرى بالمجهر فيه هذه البرمجة فيه هذه الأجهزة الدقيقة.

9ـ العصب البصري:

العصب البصري تسعمئة ألف ليف عصبي، لكل عصب غمد من أجل نقاء الصورة.

ماذا أقول لكم عن الجمجمة، الدماغ، المفاصل، العظام، المعامل، الأجهزة، الحواس الخمس، كل حاسة العلم حتى الآن ما وصل لشيء فيها، وصل إلى لمسات.

كيف تفرق الأذن بين الضجيج وبين النغم ؟

لكن مثلاً الإنسان لو سمع شيئاً يسحق تحت باب يكاد يخرج من جلده هذا اسمه الضجيج، فإذا سمع صوت شلال يطرب له، هذا اسمه نغم. كيف تفرق الأذن بين الضجيج وبين النغم ؟ لا أحد يدري.

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ (78))

لو أنه ذكر خلقه لما ضرب هذا المثل، ولآمن بالله عز وجل. إذاً ماذا نستنبط نحن ؟ يجب أن نذكر كيف خلقنا ؟ نذكر أجهزتنا، نذكر آيات الله الدالة على عظمته في خلقنا ربنا عز وجل يقول:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ (53))

(سورة فصلت: الآية53)

وفي آية ثانية:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذرايات)

10- الرئتين:

أقرب شيء إليك جسمك، فالإنسان كلما تحرك، السعال مثلاً ما هو السعال ؟ الآن العقبة الكبرى التي تقف أمام الأطباء في زرع الرئتين هي أن الرئة المزروعة صاحبها لا يسعل، ما معنى السعال ؟ معناه أن هناك أهداب في الرغامى (في القصبة الهوائية) تتحرك نحو الأعلى تدفع كل شيء نحو الأعلى، فإذا دخل شيء للرئة غريب عن طبيعتها، الإنسان يسعل لكي يخرج هذا القشع، فإذا زرعت رئة، توصيل أعصاب السعال فوق طاقة العلماء، فالإنسان إذا لم يسعل يموت، تصبح رئتيه كلها إنتانات إذا دخلت قطرة ماء، قطرة ماء، الإنسان يسعل حتى يخرج كل شيء إلى خارج الرئة، وماء قليل في الرئة قد يميت الإنسان، من جعل الأهداب المتحركة نحو الأعلى ؟ الله عز وجل. بالمناسبة الدخان النيكوتين بالدخان يشل هذه الأهداب، كل إنسان يدخن، أهداب الرئة تصاب بالشلل، لها أثر سلبي على حركته.

11- لسان المزمار:

هذا لسان المزمار، شرطي مرور يشتغل ثمانين سنة بلا كلل وبلا ملل وأنت نائم يزداد اللعاب بفمك، الدماغ يأخذ إشارة، الدماغ يعطي أمراً وأنت نائم بتصغير الفتحة، يفتح المري وتغلق القصبة الهوائية ويمر اللعاب في المعدة، صُنْعُ مَنْ هذا ؟ الله جل جلاله.

12- الجهاز العظمي:

وأنت نائم يزداد الضغط على جسمك، الجهاز العظمي وما فوقه من عضلات له وزن ضاغط على ما تحته، هذه العضلات إذا ضغطت ضاقت لمعة الأوعية الدموية، قلت رجلي اخضرت، ماذا يعني الاخضرار والتنميل ؟ يعني التروية ضعفت، صار هذه اللمعة انضغطت فقلّت حركة الدم في الأوعية، فشعر الإنسان بهذا التنميل، أي وأنت نائم في مراكز ضغط تشعر بالضغط تعلم الدماغ، الدماغ يعطي أمراً للعضلات وأنت نائم بالتقليب، الله قال:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ (18))

(سورة الكهف: الآية18)

وهذه من آيات الله، لولا تقلب الإنسان في النوم لتسلّخ جلده، لذلك الذي معه سبات دائم أول علاج له التقليب، وإلا هذه الأوعية التي ضاقت لمعتها يقل الدم فيها فتصاب النسج اللحمية بالموات وتموت هذه النسج، الإنسان كلما فكر بجسمه يشعر بضعفه وافتقاره إلى الله عز وجل، وعظم فضل الله عليه، فيأخذ حجمه الطبيعي.

خالق الكون لا حدود لعلمه:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79))

ألا تشعر أن خالق الكون علمه مطلق ؟

(بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79))

البعوضة أصغر كائن من آيات الله الدالة على عظمته:

هل الإنسان فقط دقيق ؟ أي مخلوق، البعوضة لها ثلاثة قلوب، البعوضة لها جهاز رادار، لها جهاز تخدير و جهاز تمييع، والبعوضة ترف أجنحتها أربعة آلاف رفة إلى مستوى الطنين وأرجلها لها مخالب ولها محاجم، أي خلقها تام كامل، البعوضة لها جهاز تخدير حينما تمتص دم الإنسان، لا يشعر إلا بعد أن تطير والبعوضة معها جهاز تحليل، أخوان ينامان على فراش واحد هناك دم تحبه ودم لا تحبه وتتجه في الليل إلى جبين أحدهما بجهاز الرادار وتحلل الدم وتميعه وتخدر الملدوغ ثم تطير:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (26))

(سورة البقرة: الآية26)

لا ترى في خلق الله من تفاوت في خلق الذبابة:

الحشرات، الذبابة ! يقولون: لا يوجد طائرة ترقى إلى مستواها في المناورة في الهواء، يمكن للذبابة أن تحط على السقف، سقوط نحو الأعلى، تناور بزوايا حادة، تكون ماشية بأعلى سرعة فوراً تأخذ زاوية حادة بجهة معاكسة، لو درسنا حركة الذبابة بالفضاء شيء لا يصدق !

صنعة الله المتقنة في خلق العنكبوت:

العنكبوت يخرج منها سائل خيط، هذا الخيط لو سحب الفولاذ بقطر هذا الخيط لكان أضعف من خيط العنكبوت والفولاذ أمتن معدن يتحمل قوى الشد، بيت العنكبوت آية من آيات الله، عندها سائل لزج خيط لزج وخيط متين، فبيتها مصنوع من خيوط متينة مثل الأساسات وخيوط لزجة من أجل صيد الحشرات، والقرآن يذكر أن التي تنسج البيت هي أنثى:

(اتَّخَذَتْ بَيْتًا (41))

(سورة العنكبوت: الآية41)

والعلم الحديث أثبت ذلك أن العنكبوتة النساجة هي الأنثى وليس الذكر. ليس الإنسان فقط كامل الخلق ما من مخلوق إلا وكامل.

الحوت خلق الله التام:

الحيتان في البحار، الحوت وزنه 150 طن فيه زيت 90 برميلاً، يقول لك: زيت كبد الحوت 90 برميل، اللحم 50 طناً، الدهن 50 طناً، وجبة طعامه 4 طن وسط، إذا أراد أن يعمل ريجيم أي 4 طن، رضعته الواحدة 300 كغ، ثلاث رضعات 1000 كغ باليوم يرضع الحوت، البعوضة بهذا الصغر والحوت بهذا الكبر كله خلق تام، هذا يعني قول الله عز وجل:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ (3))

(سورة الملك: الآية3)

الله عز وجل إتقانه متقن بينما عجز الإنسان في إتقان صناعته:

لا تفاوت في إتقان الصنعة، البعوضة متقنة، والذبابة متقنة، والحوت متقن، والحصان متقن، والصقر عنده قوة إبصار ثمانية أمثال الإنسان، هذا الصقر، وبعض الكلاب عندها قوة شم تزيد عن حاسة الإنسان بمليون ضعف، يكفي أن تعطي هذا الكلب شيئاً من أدوات القاتل حتى يصل إليه من الرائحة فقط، لا يزال العلم في بداياته، أجمل كلمة قرأتها لعالم قال: **" لم تبتل بعد أقدامنا ببحر المعرفة "**، لازلنا في البدايات.

عالم الحيوان، عالم الأسماك، عالم الأطيار، قرأت في مجلة عن الطيران مقدمة قال: إن أرقى طائرة صنعت حتى الآن لا ترقى إلى مستوى الطائر، حتى في الأسماك الغواصات كلها تحاول تقليد السمك.

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79))

ليس فقط في الإنسان، الإنسان يتقن شيئاً و يهمل أشياء كثيرة هي من عادته، يقول لك: هذه اعتنيت فيها، يتقن شيئاً ويهمل أشياء، لكن ربنا عز وجل إتقانه مطلق.

الإعجاز في خلق النبات:

(وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

قرأت أنه في الحياة العربية في الجاهلية كان هناك نباتان خضراوان رطبان إذا احتكا ببعضهما أورث ناراً، فهذه الآية تُفسر بادئ ذي بدء على أبسط تفسير، أن الله عز وجل جعل في الجزيرة نباتين

خضراوين رطبين إذا احتكا ببعضهما أشعلا النار فكان العرب يستخدمون هذين النباتين في إشعال النار، لكن هذا المعنى يتناسب مع الذين عاصروا هذا النبات، لكن كلما تقدم العلم ألقى ضوءاً كاشفاً على بعض الآيات:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا (80))

صنعة الله المتقنة في النبات:

يوجد عملية تتم بالنبات الأخضر هي من أعجب العجائب، هذا النبات الأخضر فيه مادة اسمها اليخضور هي سرّ لونه الأخضر، إذا جاءها ضوء ولاسيما أشعة الشمس تحولت هذا المادة إلى مفاعل حراري من أضخم المفاعلات ومعنى مفاعل حراري أي يشطر الماء شطرين.

ما الماء ؟ الماء مادة مشتعلة جداً هي الأوكسجين، ومادة معينة على الاشتعال وهي الهيدروجين، أي الماء نار، مادة مشتعلة ومادة معينة على الاشتعال، فشطر الماء يحتاج إلى طاقة بخارية تعادل تسخين الماء 2500 درجة، هذه الطاقة البخارية بإمكانها أن تشطر جزيء ماء.

اليخضور حينما تصيبه أشعة الشمس يصبح مفاعلاً حرارياً يشطر الماء الذي في الورقة إلى أوكسجين وإلى هيدروجين، النبات يمتص من الهواء غاز الفحم ثاني أكسيد الكربون يمتصه، يتفاعل غاز الفحم مع الهيدروجين ومع 18 معدن المذابة في الماء الذي يمتصه النبات من التربة فيشكل ما يسمى النسغ النازل (الكامل) (النسغ الصاعد ماء ومعادن) يقول لك هذه التربة بحاجة إلى حديد، منغنيز، فوسفات هي كلها أسمدة، المعادن أسمدة، فالنبات يمتص الماء مع المعادن، اليخضور يشطر ماء الورقة إلى هيدروجين و أوكسجين، الهيدروجين يتفاعل مع غاز الفحم الممتص من الهواء ومع المعادن ويشكل النسغ النازل (الكامل) وهذا يشكل كل أغذية الإنسان بدءاً من القمح والشعير والحمص والحبوب إلى الخضراوات إلى الفواكه إلى الأزهار، هذا هو النبات ! فالنبات يطرح الأوكسجين، الجلوس تحت النبات منعش، أعظم النباتات طرحاً للأوكسجين هو الصنوبر، إذا الإنسان معه ضيق صدر وجلس بغابة صنوبر يحس براحة كبيرة كما لو وضعت على فمه كمامة أوكسجين، فالنبات يطلق الأوكسجين ويمتص غاز الفحم بعكس الإنسان، الإنسان يستنشق الأوكسجين و يطرح غاز الفحم من أجل التوازن.

الورقة في النبات هي أعظم معمل صنعه الله عز وجل:

هذا النبات يقوم بعملية، والله أنا هكذا أعتقد، أن أعظم معمل صنعه الإنسان، وهكذا قرأت، لا يرقى إلى مستوى الورقة الخضراء.....اليخضور ما هذا السر الذي أصابه! بالضوء صار مفاعلاً حرارياً

شطر الماء في الورقة إلى أوكسجين وإلى هيدروجين خرج الأوكسجين وحقق التوازن في الجو، نحن نأخذ الأوكسجين ونطرح غاز الفحم، النبات عكسنا يأخذ غاز الفحم ويطرح الأوكسجين. صار في توازن وغاز الفحم مع الهيدروجين مع الـ 18 معدن المذابة في الماء تسهم في صناعة كل الغذاء للبشر: الخضراوات بأنواعها، الفواكه بأنواعها، حتى هذا النسغ النازل يصنع الجذر ويصنع الساق والأوراق والأزهار والثمار، فأنا لا أعرف أنه يوجد سائل يصنعه الإنسان ثم يحقنه يصير حديداً مرة، ومرة خشباً، ومرة إسفنجاً، ومرة بلاستيكاً، من غير المعقول سائل واحد تحقِنُهُ يصبح كل مرة مادة مستقلة عن الأخرى، هذا النسغ النازل يسهم في صناعة الجذور، والجذع، والأغصان، والأوراق، والأزهار، والثمار في كل نبات، فربنا عز وجل في هذه الآية أشار إلى اليخضور.

أحدث نظرية للبترول:

قال تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

بعضهم قال إن هذه الطاقة التي أودعها الله في الأرض، النفط أساسه غابات عملاقة تشكلت في العصور المطيرة، أحدث نظرية للبترول غابات عملاقة تشكلت في عصور مطيرة ودفنت تحت الأرض وحللت فكانت البترول، النبات أساسه اليخضور أي كلمة الشجر الأخضر لولا هذه الورقة الخضراء لما كان هذا النبات، تجد نبتة صغيرة زرعتها أنت، أحياناً بذرة خيار بعد أربعين يوماً تجدها طولها أصبح مترين ونصف وثخن جذعها حوالي 3 سم ومجموع خضري كبير جداً، من أين جاء كل هذا ؟ من الأوراق، الأوراق معمل يصنع الجذع ويصنع الساق ويصنع الأوراق ويصنع الثمار، فربنا عز وجل أشار بهذه الآية إلى هذه المادة العجيبة التي لولاها لما كان النبات على وجه الأرض إطلاقاً.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

القرآن الكريم حمال أوجه محتملة، نفهم الآية على أساس أن هذه الآية إشارة إلى هذا البترول الذي صنع عن طريق الأوراق الخضراء، وقد قيل إن كل شيء يحترق هو تخزين للطاقة الشمسية في الأساس، فاليخضور لولا هذه الطاقة الشمسية لما شطر الماء فكأن هذا الخشب فيه جزء من الطاقة الشمسية:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

الشجر نفسه كان أخضر، كان أساسه الماء ثم أصبح يابساً فجعلته وقوداً، أو أن هذا الشجر أصبح بترولاً خاماً.

(فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

أو أن هذا الشجر لولا هذا اليخضور لما كان، أو أن هذين النباتين الخضراوين الرطبين إذا احتكا ببعضهما أورثا ناراً، هذا المعنى الأول الذي كتبه المفسرون.

قدرة الله عز وجل في إعادة الخلق مرة ثانية:

(أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ (81))

يوم القيامة، أي البدء أهون أم الإعادة ؟ الإعادة أهون فالإنسان حينما ينكر البعث ينكر يوم القيامة، على أي شيء يعتمد ؟ الذي خلق هذا الكون بسماواته وأرضه يا ترى أليس قادراً على أن يعيد خلقه مرة ثانية ؟ ربنا قال:

(بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81))

خلاق صيغة مبالغة أي كثير الخلق عدداً وكثير الخلق نوعاً و كثيره كمّاً.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82))

الإنسان حياته مبنية على أن الإنسان فقير وضعيف يقوى بأشياء خارجة عنه، الإنسان يتصل الآن ببلد بعيد بالهاتف فهو ضعيف صوته لا يصل إلى هذا البلد لكن يكمن ضعفه بشيء خارج عنه هكذا طبيعة الإنسان.

الإنسان أحياناً يكسر شيئاً في آلة، يقطع شيئاً بسكين لأنه ضعيف يكمن ضعفه بشيء خارج عنه، لكن الإله العظيم شأنه غير هذا الشأن يكفي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون وانتهى الأمر.

إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة وحكمته متعلقة بالخير المطلق:

لذلك إذا أراد الله شيئاً وقع، كل ما أراده الله وقع وكل ما وقع أراده الله، عكس بعضهم أو يكملوا بعضهم، كل شيء أراده الله وقع وكل شيء وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة وحكمته متعلقة بالخير المطلق لذلك ورد بالحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر الغفاري]

((يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَسَلُونِي الْهُدَى أَهْدِكُمْ وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إلا مَنْ أَغْنَيْتُ، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ عَطَائِي كَلامٌ وَعَذَابِي كَلامٌ إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))

[مسلم عن أبي ذر الغفاري]

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83))

أوجه التفاسير لكلمة ملكوت:

الملك التام خلقاً وتصرفاً ومصيراً:

أوجه التفاسير لكلمة ملكوت هي الملك التام أوضح لكم ذلك: أنت في الدنيا قد تملك بيتاً ولا تنتفع به، باسمك البيت معك ورقة طابو لكن مؤجره وأجرته رمزية والمستأجر يحميه القانون يحميه هو وأهله من بعده، فهذا ملك ناقص لأنك لا تنتفع منه، وقد تنتفع ببيت ولا تملكه، في قلق مستمر إذا تعدل قانون الإيجار تصبح بالطريق، وقد تملك رقبة البيت وتنتفع به لكن معرض لقانون الاستملاك، يظهر أمامك شارع يستملكونه منك، ما هو الملك التام ؟ هو أن تملك الشيء رقبة ومنفعة ومصيراً، فإذا قلنا الله عز وجل ملك أو بيده ملكوت كل شيء أي ملك الله عز وجل للكون ملك تام خلقاً وتصرفاً ومصيراً:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ (26))

(سورة آل عمران: الآية26)

الإنسان ليس له شيء، عينه فجأة يتعطل مركز الرؤية بالدماغ لم يعد باستطاعته أن يرى، من منا يملك عينه ؟ سمعه ؟ من يملك عقله ؟ يكون بأعلى درجة من الوقار والهيبة يختل شيئاً بعقله يصير محله بمستشفى الأمراض العقلية أهله خافوا منه ابتعدوا عنه.

الإنسان لا يملك شيئاً كل شيء بيد الخالق سبحانه:

الإنسان لا يملك شيئاً، من يملك قلبه ؟ من يملك انتظام نمو الخلايا ؟ يكون شخص بأعلى درجات الصحة، فجأة اختل نمو الخلايا بجسمه يقول لك: والله لم يطول، من يملك كبده ألا يتوقف عن العمل ؟ من يملك كليتين لا يتوقفوا عن العمل ؟ من منا يملك طحاله ؟ لا يوجد عضو من أعضاء الإنسان إلا يسبب وفاته لو تعطل، فالإنسان لا يملك شيئاً:

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (83))

قال بعض المفسرين:" الملك ملك الأجسام والملكوت ملك الأرواح لكن أوجه التفاسير أن الملكوت هو الملك التام " أي أعلى درجات الملك هي ملك الله لخلقه خلقاً وتصرفاً ومصيراً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (01-14): تفسيرالآيات 01 - 05
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-08-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الصافات:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا(1)فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا(2)فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا(3)إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ(4)رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا

أيها الإخوة، هذه العبارة أو هذه الصيغة:

(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا)

1 ـ الحكمةُ من قسم الله بالآيات الكونية:

هذا قسم، وقد بيّنت لكم من قبل أن الله عزّ وجل إذا أقسم بذاته فمن أجل أن يجذب نظرنا إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، أما إذا أقسم بآياته فليلفت نظرنا إلى هذه الآيات.

وشيءٌ آخر، ربنا جل جلاله مرةً يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75))

(سورة الواقعة)

ومرةً يقسم فيقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(1))

(سورة الشمس)

فإن لم يقسم فبالنسبة إلى ذاته، وإن أقسم فبالنسبة إلينا، وإذا أقسم بمخلوقاته فهذا يعني جلب نظرنا إلى هذه الآية، فنحن أمام ثلاث آيات:

(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا(1)فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا(2)فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)

2 ـ الصافات هم الملائكة:

فبعض التفاسير تبيّن أن الصافات هي الملائكة تصفُّ أجنحتها امتثالاً لأمر ربها، وهي تزجُر الكفار والعصاة عن معاصي الله عزّ وجل.

(فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)

3 ـ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا

هي التي وكّلها الله جلّ جلاله بالوحي تُلقيه على الأنبياء، وهذا وجهٌ من وجوه هذه الآيات، فالملائكة صافةٌ أجنحتها انتظاراً لما يأمرها الله به من مهام أوكلها إليها، أو تزجر الشياطين أو الكفار عن المعاصي، أو تتلو الذكر على الأنبياء والمرسلين.

وقد يقول قائل: نحن لم نشاهد الملائكة، والجواب: أن إخبار الله جل جلاله يرقى إلى مستوى الرؤية، لأنه إخبار خالق الكون، والدليل قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

مَنْ مِنَ الناس ممن أنزل عليهم القرآن، أو ممن عاصروا نزوله، أو ممن جاءوا بعده رأوا أصحاب الفيل ؟ ولكن إخبار الله يرقى إلى مستوى الرؤية.

إذاً: يمكن أن نفهم من هذه الآيات أن الملائكة التي خلقها الله عزّ وجل للتسبيح، والحمد، والعبادة قد أوكل إليها مهامّ عظيمة، فهي تارةً تنتظر أمر الله لتنفِّذَهُ، وتارةً تزجر الشياطين أو العصاة عن المعاصي، وتارةً تتلو على الأنبياء الذكر الحكيم، وقد أخبرنا الله عن هذه المخلوقات، وإخبار الله كما قلت قبل قليل يرقى إلى مستوى الرؤية.

ولكن القرآن أيها الإخوة حَمَّال أوجه، ولا يستطيع أحدٌ أن يحصر آيةً بمعنى محدود، لأن كلام الله لا نهاية لمعانيه.

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

(سورة الكهف)

والقرآن كما وصفه الإمام عليٌّ كرم الله وجهه: حمال أوجه، فبعضهم قال: الصافّات كل شيءٍ يصطف، الطير صافّات، كما وصفها الله عزّ وجل، وكل شيءٍ يزجر، وكل شيءٍ يتلو الذكر الحكيم.

4 ـ الصافات هي السحب:

وبعضهم قال: الصافّات هذه السحب لتي اصطفّت إلى جانب بعضها بعضاً، والزاجرات تلك الرياح التي تسوق السحب إلى مواقع القطر، والتاليات ذكرا هذه الآية ؛ آية السحاب، وآية الرياح، تتلو علينا شيئاً عن عظمة الله عزّ وجل، كأنها تتلو علينا بلسان الحال لا بلسان المقال.

5 ـ الصافات هم المجاهدون في ساحة المعركة:

وبعضهم قال: المجاهدون إذا اصطفُّوا صفاً واحداً ليقتحموا العدو، وليزجروه، وهم يذكرون الله حتى في أثناء لقائهم مع العدو، فهذا أيضاً يُقْبَل.

6 ـ الصافات هم الدعاة إلى الله:

وبعضهم قال: الدعاة إلى الله الذين يصطفُّون لعبادة الله، ويزجرون العصاة عن المعاصي، ويتلون على الناس ذكراً.

وعلى كلٍ، فهناك الصافات، والزاجرات، والتاليات، وإن شئت أن تقول: هي الملائكة، فهناك أكثر من قولٍ في هذا الموضوع، وإن شئت أن تقول: هي السحب قد اصطفت، والرياح قد زجرت، ولسان حال السحب والرياح تتلو علينا شيئاً عن عظمة الله عزّ وجل، فهذا صحيح، وإذا قلت: هي الطير، وإذا قلت: هم المجاهدون، وإذا قلت: هم الدعاة، وعلى كلٍ القرآن مطلقهُ على إطلاقه، وفيه إيحاء، فقد يوحي المعنى غير التفصيلي بمعانٍ كثيرة يستنبطها كل فريقٍ بحسب اهتمامه.

جواب القسم: إِنَّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ

والذي يعنينا من هذه الآيات، على أي شيء هذا القسم ؟ فما موضوع القسم ؟ وما المُقْسَمُ عليه ؟ قال:

(إِنَّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

1 ـ التوحيد أمانُ العبيد:

وكأن هذه الآيات تشير إلى التوحيد، وكلكم يعلم أنه ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، فإذا وحدت الله أيها الأخ الكريم فقد بلغت منتهى العلم، ونجوت من عذاب النفس، لقول الله عزّ وجل:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَـهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذّبِينَ)

(سورة الشعراء)

فالذي يحملك على المعصية هو الشرك، ويدعوك إلى الخوف وإلى التبعثُر والتشتت، والذي يجمع كل طاقاتك في بؤرةٍ واحدة هو التوحيد، ويطمئنك، ويرفع معنوياتك، ويجعلك تعيش عزيز النفس، فلا تخاف أحداً ؛ بل تخاف الله جلّ جلال، ويكاد أن يكون علم التوحيد أجَلّ علوم الدين، إنك إذا عرفت أن أمرك كله بيد الله، ارتاحت نفسك مما سواه، واتجهت إلى الله، إذا عرفت أن أحداً لا يستطيع أن يفعل معك شيئاً ؛ لا عطاءً ولا منعاً، ولا إكراماً ولا إهانةً، ولا إحساناً ولا إساءةً..

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: من الآية 2)

إذا أدركت حقائق التوحيد دخلت في عالم الطمأنينة، وعالم الحرية، والعِزّة، والثقة، والإشراق، فلذلك كيفما أردت فسِّر هذه الآيات، إنها آياتٌ دالةٌ على عظمة الله، والإيمان بالملائكة إيمان إخباري هكذا أخبرنا الله، عن ظاهرة الأمطار والسحب التي هي مصدر الرزق..

(وَفِي السّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

(سورة الذاريات)

هذه آية.. والذين..

(يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ)

(سورة المائدة: من الآية 54)

آية، والذين يعلمون العلم، آية.. وعلى كلٍ فهذا كله يؤكد:

(إِنّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

(وَقَالَ اللّهُ لا تَتّخِذُوا إِلَـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل: من الآية 51)

فالله جل جلاله ما دعاك إلى عبادته إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله راجعٌ إليه.

الخالق والرب والإله:

بالمناسبة هذه المصطلحات: الخالق الذي خلق، والرب الذي ربّى، والتربية في أدق معانيها إمداد ؛ أي إمدادٌ بما تحتاج، كإمدادٌ النفس بما تحتاج من تربية، تربية نفسية، وعقلية، وشعورية، ومادية من الله رب العالمين، فالله خالق إذ هو خلق، والله ربٌ يربي هذه النفوس.

كنت أمشي في الطريق فسمعت رجلاً يصيح بأعلى صوته إثر مشكلةٍ أو مشادةٍ حول يتيمٍ، فقال كلمة هزت مشاعري، قال: **" وجدت إنسانا ليس له أب أليس له رب ؟ "**، ومنذ أن سمعت هذه الكلمة وحتى

الآن أشعر أن الله هو الرب، وأنه ليس عند الأب من الرحمة والعلم والحرص شيء يذكر أمام رحمة الله عزّ وجل، فلو وجدت الطفل يتيماً فله ربٌ يربّيه، ويدله على الخير، ويحفظه ويأخذ بيده.

وأنت أيها الأخ الكريم إذا رأيت إنساناً ضعيفاً فلا تستهن بضعفه، فله رب يأخذ بحقه، وإن رأيت إنساناً مقطوعاً، كما لو تزوّجت امرأةً ليس لها أهلٌ كُثُر، وليسوا أقوياء، لا تقل: هذه مقطوعة، فلها رب، والرب ينتقم، فالله رب العالمين.

أما الإله ـ ارتقينا ـ الخالق خلق، والرب أمد، وربى كل أنواع التربية، من تربيةٍ جسميةٍ، إلى تربيةٍ عقليةٍ، إلى تربيةٍ نفسيةٍ، إلى تربيةٍ شعوريةٍ، لكن الإله هو الذي تعود الأمور كلها إليه، الأمر راجعٌ إليه، وهو بيده، وبيده ملكوت كل شيء.

أيها الإخوة، أنا أقول لكم هذا المثل المتكرر على هذا المعنى: إذا دخلت إلى دائرةٍ حكومية، وأنت في أمسّ الحاجة إلى أخذ موافقةٍ على السفر، فإذا قيل لك: هذه الطوابق الثلاثة على ما فيها من موظفين، ورؤساء دوائر، وكتبة، وحُجّاب، ورؤساء أقسام، ومعاون مدير عام، لا يستطيع أحدٌ أن يكتب لك مع الموافقة إلا إنسان واحداً، إنه المدير العام، فبربك هل تتجه إلى أحدٍ غيره ؟ هذا شأنك مع بني البشر، وهذا شأنك من أجل موافقة سفر، فكيف لو علمت أن كل أعضائك بيد الله، وأن كل أجهزتك الدقيقة بيد الله، وأن عمل كل الأعضاء الخطيرة بيد الله، فمن يستطيع أن يُحْكِمَ دَسّام القلب ؟ من يستطيع أن يبقي هذه الأوعية مرنة ؟ ومن يحفظ لك أجهزة التصفية ؟ من يضمن للإنسان ألا تنمو الخلايا نمواً عشوائياً، فإذا هو مرض خبيث ؟ من يضمن لك ألا يفقد بصره ؟ قل اللهم مالك الملك، الله هو الذي يملك كل هذه الأعضاء والحواس.

الله وحده المستحق للعبادة:

إذاً: الإله هو الذي بيده كل شيء، وما دام كل شيءٍ بيده فينبغي أن تتجه إليه وحده بالعبادة، انظر لهذه العلاقة، ما دام الأمر كله راجعاً إليه، إذاً: هو المعبود، فمن المعبود منطقاً وعقلاً ؟ الذي ترجع الأمور إليه.

في هذا المثل البسيط البسِيط: من أجل موافقة تدع كل الناس، وكل الطوابق، وكل رؤساء الأقسام، حتى معاون المدير، وتدع كل الحُجّاب، وتتجه إلى إنسانٍ واحد بإمكانه أن يكتب لك مع الموافقة، أو مع عدم الموافقة، فكيف إذا علمت أن الأمر كله بيد الله ؟ هذا هو التوحيد.

أيها الإخوة الأكارم، ولولا التوحيد لعاش الناس في شقاءٍ كبير، قلت لكم منذ حين: إن مرض القلق هو الذي يأكل أكباد الناس، القلق هو الخوف من المجهول، فالخوف من المرض مرض، والخوف من الفقر

فقر، وتوقُّع المصيبة مصيبة، وربنا عزّ وجل يقول لك: انظر إلى هذه السماوات وما فيها من آيات، وهذا السحاب من يسوقه ؟ إلى بلدٍ ميت فيحي به الأرض بعد موتها أإلهٌ مع الله ؟ ليس في الكون إلا إلهٌ واحد، وإن الذي يدير هذه الكواكب والمجرّات، والذي يسوق لك السحب الماطرة والمُمطرة هو الذي يرزقك..

(إِنّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

نحن عندنا قاعدة: هل هناك إلهٌ آخر ادعى أنه خلق الكون ؟ ما دام لم يدّع أحدٌ خَلْقَ الكون، والله عزّ وجل يقول:

(وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللّهُ)

(سورة آل عمران: من الآية 62)

إذاً:

(إِنّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

فهنا موطن الشاهد، وهنا بيت القصيد، محور الدَرس، إلهك واحد، لكن متى يعصي الإنسان ؟ ولماذا تعصي الخالق، وترضي زيداً ؟

معصية العبدِ ربّه من ضعف توحيده:

أقسم لك ولا أبالغ إنك لا تعصي الإله لإرضاء زيد ـ وقد تكون كلمتي قاسية ـ إلا لأنك ترى زيداً أقوى من الله، كيف تعصي خالق الكون، وتطيع زيداً أو عبيداً ؟ إذاً: هناك ضعفٌ في الإيمان، ضعفٌ كبير في الإيمان، حينما تُرضي إنساناً، وتعصي خالقاً، وهذا الإنسان ماذا يملك ؟! لماذا تقول في الصلاة: الله أكبر ؟ معنى الله أكبر أي أكبر من كل شيء، رأيت الله أكبر كل شيءٍ، ولذلك تستهين أنت بكل شيء، فماذا فعل سحرة فرعون ؟

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنّهُ لَكَبِيرُكُمْ الّذِي عَلّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنّكُمْ فِي جُذُوعِ النّخْلِ وَلَتَعْلَمُنّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

(سورة طه)

استمع إلى قول السحرة، وقد عرفوا الله.

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيّنَاتِ وَالّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنّا آمَنّا بِرَبّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

متى يَغُش الإنسان ؟ لضعفٍ في توحيده، ولأنه ما تحقق من اسم الرازق، يرى أنه إذا غش يضاعف أرباحه، ونسي أن الله هو الرزّاق، ولا رازق سواه، ومتى يُنافق الإنسان ؟ لضعفٍ في توحيده أيضاً، فإذا علم أن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرّب أجلاً فإنه لن ينافق.

فمن أين تأتيك العِزّة ؟ من التوحيد، ومن أين تأتيك الجُرأة ؟ من التوحيد، ومنه يأتيك الحرصُ على طاعة الله ؟ ومن أين يأتي النفاق ؟ من ضعف التوحيد، ومن أين تأتي المعاصي ؟ من ضعف التوحيد، ولذلك: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد نهاية العلم.

(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا(1)فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا(2)فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)

المُقْسَمُ عليه:

(إِنَّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

هل تحققت من هذا ؟ لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَاعْلَمْ)

(سورة محمد: من الآية 19)

أمر في القرآن، وكل أمرٍ يقتضي الوجوب..

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)

(سورة محمد: من الآية 19)

إدراك التوحيد كفكرة أمر سهل، ولكن حينما تأتي مشكلة من زيد، يجب أن تراها من الله عزّ وجل، أما حينما تمتلئ حقداً على زيد، وضغينةً على عُبيد، وتقول: فلان قطع رزقي، وفلان أصابني بالأذى، والله لأفعلن به كذا وكذا، تنسى خالقك، ومربيك، ومسيرك، فهذا هو ضعف التوحيد.

التوحيد لا يأتي بجلسةٍ واحدة، ولا بكتابٍ تقرأه، ولا بخطبةٍ تسمعها، إنه لا يأتي إلا بمتابعة البحث، مع الإصرار على معرفة الله، لأنه ليس هناك في الكون إلا الله، وأي شيءٍ قرّبك منه فهو حق، وأي شيءٍ أبعدك عنه فهو باطل، أي شيءٍ قرّبك من الله الذي لا إله غيره فهو عملٌ صالح، وأي شيءٍ قطعك عنه فهو عملٌ سيئ، وهذه كُلِّيَات الدين.

وهناك سؤال قبل أن تتحرك، وقبل أن تخطو خطوةً، وأن تقول كلمةً، وأن تُمضي هذه السهرة، السؤال هو: هل هذا النشاط يقربني أم يبعدني ؟ إذا كان يقرّبك فافعله، وإن كان يبعدك فدعه، لأن كل السعادة عند الله عزّ وجل، وكل الأمن والطمأنينة عند الله، وكل الفوز والفلاح، والنجاح والخسارة، والخيبة والخزي والعار إذا كنت بعيداً عن الله.

أيها الإخوة الأكارم، هذه حقيقة أتمنى عليكم أن تستوعبوها، إذا اعتقدت لحظةً واحدة أنه بإمكانك أن تسعد بعيداً عن الله فهذا هو الجهل الأكبر، إنك لا تسعد إلا به، ولا تسعد إلا بطاعته، وبتطبيق منهجه والإقبال عليه، والعياذِ به، وتلوذ بحماه، فلا ملجأ منه إلا إليه.

(إِنَّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

الشمس تنطق بهذا، والقمر والنجوم ينطقن بهذا.

العناية الربانية بالأنبياء:

حينما أوحى الله جل جلاله لأم موسى قال لها:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص: من الآية 7)

أمر..

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص: من الآية 7)

مَنْ مِنَ الأمّهات تستطيع أن تضع مولودها الذي هو فلذة كبدها في صندوقٍ، وتلقيه في بحر، أو في نهر كنهر النيل، إن لم تكن واثقةً أن هذا الصندوق لا يتحرّك قيد أنملة إلا بأمر الله، وأن الله هو المسير؟ وهذا المثل دقيق جداً، فأنا لا أضع فلذة كبدي في صندوق، وألقي هذا الصندوق في اليم، إن لم أكن واثقة أن الله بيده الماء، وبيده الصندوق، وشاطئ قصر فرعون، وقلب امرأةِ فرعون، وحركة امرأة فرعون إلى شاطئ النهر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، وأن هذا الصندوق يتحرّك بأمر الله، فتارةً تقذفه موجةٌ نحو اليمين، وتارةً نحو الشمال، وتارةً تعتري طريقه شجرة، إلى أن يسوقه الله إلى شاطئ قصر فرعون، ويوحي إلى امرأة فرعون أن تنزل إلى شاطئ النهر لترى الصندوق، تفتحه، فيقع حبُّ هذا الطفل في قلبها..

(لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُون)

(سورة القصص)

وقد رأى فرعون في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه، فقال القضية سهلة جداً: أنا سأقتل أطفال بني إسرائيل جميعاً، ما لكم من إلهٍ غيري، هكذا يقول، والطفل الذي سيقضي على ملكه ربّاه في قصره، انظر:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

أيها الإخوة الأكارم... والله قصص القرآن فيها من البيان، والعمق، والدلالات، والاستنباطات ما يحار فيها الإنسان، فالذي سيقضي على ملكه رباه في قصره وهو لا يدري.

وسيدنا يوسف ألقوه في الجب، وما علموا أن الله معه، وسوف يخرج من هذا الجب، ويدخل قصر العزيز، وسيكون في وقتٍ لاحق عزيز مصر، وسيأتيه أخوته خاضعين، قالوا:

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

فما مؤدى هذه القصص ؟ مؤدّاها أن تثق بالله، أن تكون معه، ومع أمره، ونهيه، ومنهجه، وقرآنه، ولا تخشى أحداً، ولا تخاف في الله لومة لائم ـ " إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " ـ أي إنسان تطيعه وتعصي الله، لو أراد الله أن يؤدِّبك أو أن يعالجك، لا يستطيع هذا لذي عصيت الله من أجله أن يخلِّصك، لكنك إذا لُذْتَ بالله وأرضيته، وأغضبت مخلوقاً، فإن الله يمنعك منه، ويحول بينك وبينه.

وقفت عند كلمة:

(إِنَّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

لأن الدين كله توحيد، وعندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ)

(سورة هود: من الآية 50)

ماذا قال ؟ لخص الله عزّ وجل دعوة الرُسل كلها بكلمة، قال:

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود: من الآية 50)

اعْبُدُوا، أي أطيعوه، لماذا ؟ لأنه:

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود: من الآية 50)

فهذا الربط ما دام الأمر كله بيد الله، إذاً هو وحده يستحق أن تعبده، لأنه المعبود الحقيقي ؟ الذي بيده الخَلق والأمر، في أذهانكم مثل الموافقة، من هذا الذي ينبغي أن تدخل غرفته، وأن تقف بأدبٍ أمامه، وأن تعرض له قضيتك ؟ هو الذي بيده حق التوقيع على الموافقة، أما هل يعقل أن تقف أمام حاجب، وتنحني له نصفين، وتقبّل الأعتاب، وتقول له: يا سيدي، أرجوك أن توافق لي، يبتسم، ويقول لك: الأمر ليس بيدي، وإذا أوهمك أن الأمر بيده، وانطلى هذا عليك، فهذا غباءٌ شديد، إذا أوهمك إنسان بسيط أن

الأمر بيده، فهذا الإنسان الذي قبل بهذا مغفل، وإذا أوهمك إنسان أن بيده الأمر، وأنت قبلت هذا الشيء، فأنت مغفل، إذا قال: أنا سأفعل معك كذا، قل له: إن شاء الله، إن سمح الله لك أن تفعل، هذا التوحيد..

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِي(55)إنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

آياتُ التوحيد تطمئِن المسلمَ:

يا أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو، إن آيات التوحيد تقع في النفس موقعاً مريحاً، إن أردت آيةً ترتاح لها، وتنام ملء عينيك ؛ ولا تخشى أحداً، ولا تخشى تهديداً، ولا وعيداً، ولا توعُّداً، وإذا أردت أن تنام مرتاح البال فوحِّد، وحِّد يا موحِّد، أو قل: لا إله إلا الله، قل: لا حول ولا قوة إلا بالله، الله بما تعملون بصير.

هناك صناعات غذائية فيها مواد كيماوية تجعلها رائجة أكثر، لكنها تؤذي الأجسام، فالمؤمن يجب أن يبحث عن مرضاة الله عزّ وجل، يمكن أن تضيف مواد ضارة ومؤذية إلى بعض الصناعات الغذائية، ولكن الله تعالى بصير بما تعملون..

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا إنّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(11))

(سورة سبأ)

أي أعرفُ ما تعملون، أُقدِّرُ عملكم، فإذا وضعت سعراً معتدلاً لهذه السلعة حتى يتيسَّر على المسلمين شراؤها، والله عزّ وجل يعلم ذلك.. قل: حسبي الله ونعم الوكيل، وقل:

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إلَهٌ وَفِي الأرْضِ إلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من الآية 4)

(مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود: من الآية 56)

(بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلّ شَيْءٍ)

(سورة المؤمنون: من الآية 88)

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: من الآية 41)

ألا تجعلك كل هذه الآيات تطمئن إلى أن الأمر كله بيد الله ؟ تنام عندئذٍ قرير العين، تنام مرتاح البال، تُحِسُّ بعزتك، وتحس أن الله الذي أمرك أن تعبده ما سلمك إلى أحدٍ أبداً، ويقول لك: عبدي، كل أمرك راجعٌ إلي، فاعبدني وحدي، الذي أمرك أن تعبده ما سلّمك إلى أحد، أما هذا الذي يمتلئ قلبه خوفاً، يقول لك: يا أخي، أنا أمري بيد فلان، وإذا غضب فلان علي أوقع بي الأذى والضُر، ونقلني إلى مكان بعيد، ومنعني من الدراسة، وفعل بي كذا وكذا !! هذا هو الشرك بعينه، يقول الناس تارةً: إذا لم نغش لا نربح، ولا نعيش، وعندنا أولاد !! أين الله ؟ هذا هو الشرك، لا تعيش إلا إذا غششت الناس، يقول لك: إن وضعت هذا المال في البيت دخل علي السارقون وقتلوني، ما الحل إذاً ؟ أن تثمِّرَهُ عن طريق الربا !! فهل هذا هو الحل، أم إذا أطعت الله عزّ وجل، وبحثت عن سبيلٍ صحيح لتثمير المال، عندئذٍ تأتيك الأخطار، إذا عصيته فأنت في أمنٍ وبحوحبة، أهذا منطق ؟! الله عزّ وجل آمر، وهو آمر خالق، والآمر الخالق ضامن، قد يكون الآمر من بني البشر غير ضامن، كأن يقول لك الطبيب: خذ الدواء الفلاني، هو غير متأكدٍ منه، أو غير منتبهٍ لبعض الزوايا الأخرى في جسمك، فيحدث ضرٌ، هو أمرك، وهو ضرك، قد يقع ذلك، لأنه بشر، وكل بني آدم خطاء، آمر يأمرك بشيء، ولا يضمن لك النتائج، هذا مستحيل، ولكن الله أمر ضامن، فما أمرك أن تستقيم على أمره إلا ليكرمك، وما أمرك أن تخاف منه إلا ليطمئنك، إن خفت من الله خافك كل شيء، وإن لم تخف من الله أخافك الله من كل شيء، وفرقٌ كبير بين أن تخاف كل شيء ؛ وبين أن يخافك كل شيء، فرقٌ كبير بين أن تهاب كل شيء ؛ وبين أن يهابك كل شيء، ذلك هو المؤمن، انظر إلى قوله تعالى:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 5)

هكذا الآية:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

أما..

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)

(سورة الروم: من الآية 44)

وكأن الكفر يسحقه سحقاً، لكنك إذا اهتديت فالهدى يرفعك إلى أعلى عليين، يرفعك نفسياً، ويرفعك مادياً، وعقلياً.

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

من هو الإله الواحد ؟ قال: هو نفسه:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هناك وحدة في الكون، الإله الذي تعبده هو:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الرب خالق الكون بما فيه:

هو الذي يحرّك المجرات، فما هذه المجرات ؟ بُعد إحدى المجرات ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، علماً بأن الضوء يقطع ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، فكم يقطع في الدقيقة، والساعة، واليوم، والسنة؟ أربع سنوات بُعد أقرب نجم ملتهب ؟ أربعة آلاف سنة بُعد نجم القطب ؟ مليون سنة بُعد المرأة المسلسلة ؟ وهناك مجرة تبعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، الله هو الذي يحرك هذه المجرات، لكن نحن كيف عرفنا بُعدها ؟ وصلنا ضوءها.

أيها الإخوة، لقد كانت في موقعها قبل ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، والآن وصلنا ضوءها، فأين هي الآن ؟ لا يعلم إلا الواحد الديان ؟ الذي يسيّر المجرّات هو الذي يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، الذي يسيّر هذه المجرات هو الذي يحرك هذه الذرات، فما هي الذرات ؟ ألوفُ ألوف الملايين من الذرات على رأس دبوس، وكل ذرة لها نواة، وكهروب، ومدار أول، ومدار ثان، ومدار ثالث، فإن دخلت في الصغر فشيء يحار له العقل، وإن اتجهت إلى أشياءٍ كبيرة فشيء تعجب له العقل، لذلك:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)

السماوات والأرض هذا اصطلاح قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله، والله الخالق، وما سوى الله هو الكون، أي السماوات والأرض.

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

حدثني شخص قال لي: هناك جبل شاهق جداً في بلاد المشرق، وعلى رأس هذا الجبل نبع ماء، تعيش بعض الحيوانات على قمم الجبال، ومن أجل أن تعيش لابدّ لها من ماء، والإخوة الكرام الذين درسوا الفيزياء والكيمياء، ودرسوا نظام الأواني المستطرقة، يعلمون أنه لا يمكن لهذا النبع أن يفسّر إلا بمستودعٍ في جبلٍ آخر أعلى منه، ومعنى ذلك أن هذا النبع موصول بتمديدات إلى جبل آخر أعلى منه يحوي مستودع هذا النبع، فمن أجل بعض الوعول التي تعيش في قمم هذه الجبال سيّر الله نبعاً من الماء

تتصل تمديداته بقمم الجبال البعيدة الأخرى، فبلد كإندونيسيا تحوي أربعة آلاف جزيرة، ولكل جزيرةٍ نبع ماءٍ يتناسب مع مساحتها ومع سكانها، وعلماً أن كل الأمطار التي تهطل على هذه الجزيرة لا تكفي لغزارة هذا النبع، إذاً لابدَّ من تمديداتٍ تحت سطح البحر إلى جبالٍ شامخة في القارة الأسيوية، وهذه التمديدات من أجراها ؟ الله عزّ وجل هو:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وهذا النبات الأخضر، وهذه الكتلة الخضراء في الأرض، إنها تعيش على ثاني أوكسيد الكربون، وتعيش على غاز الفحم الذي تطرحه الكائنات البشرية والحيوانات، غاز الفحم مادة سامة جداً، إذا غطى الإنسان رأسه بغطاء يضيق نفَسُه بعد دقيقة، فما الذي حصل ؟ حصل أن الأوكسجين قلّ، وازداد غاز الفحم، وغاز الفحم غاز سام، ويعدمون الإنسان في بعض البلاد بالغاز إعداماً بطيئاً، إذا أشعل أحدهم منقلاً كما كان في السابق، أو دخل إلى حمام محكم الإغلاق، وفيه موقد غاز أو موقد على الوقود السائل، وكان احتراقه غير تام، أعطى غاز الفحم، فيموت المستحم، وهو لا يدري، فمن جعل هذه الكتلة الخضراء تأخذ غاز الفحم وتطرح الأوكسجين ؟

إذا تجوّل الإنسان داخل غابة صنوبرية، يحس بانتعاش عجيب، لأن غابة الصنوبر أعلى أنواع الأشجار التي تطرح الأوكسجين، إذا مشيت في غابة الصنوبر فكأنك تضع واضع كمّامة أوكسجين على أنفك، الله جعل الأشجار أشجاراً تزيينية جميلة جداً، وجعلها نافعة جداً، ولذلك ينصح المصابون بالربو بأن يقيموا في جبال مكسوّة بالصنوبر، فمن جعل هذا النبات يأخذ غاز الفحم، ويعطيك الأوكسجين من أجل هذا التوازن ؟

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فمن أودع هذه الينابيع ؟ فلو أنك محتاج إلى مستودع للماء يكفيك طوال العام لاحتجت إلى مستودع يعادل مساحة بيتك، إذ يحتاج من مساحة بيته ثلاثمائة متر إلى مستودع ثلاثمائة متر، قال الله تعالى:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر)

فمن الذي خَزّنَ المياه ؟ ومن أجرى الأنهار ؟ ومن فجر الينابيع ؟ ومن صفى هذا الماء، يقول لك: تحلية كل لتر تكلف ستة ريالاً، ستة بثلاثة عشر ليرة، أي حوالي مائة ليرة سورية، تحلية كل لتر تكلف مائة ليرة سورية، كم تكلف تحلية ماء الفيجة ؟ إنه تحلية ربنا، وهي تكلف مياه معدنية كذلك، حيث إن مياه التحلية مياه مقطرة لا تصلح للشرب، ولابدَّ من أن تخلط بمياه الآبار كي نأخذ بعضاً من المعادن المنحلّة فيها.

قيل: إن الإنسان بحاجة إلى عنصر اليود بمقدار خمسة، وقبلها ستة أصفار بعد ذلك فاصلة (0 ،000005) أي خمسة بالمليون، وإذ نقص هذا اليود عن هذه النسبة الضئيلة جداً أصيب الإنسان بأمراض أخطرها أمراض الغدة الدرقية، حيث يضعف استقلاب الإنسان، فمن الذي أودع بالماء هذه المعادن ؟ هو الله جل جلاله، رب العالمين.

وهذا الطفل الصغير يولد وليس في حليب الأم حديد، فيودع الله في طحاله كمية حديد تكفيه عامين إلى أن يأكل أنواع الطعام، من فعل هذه ؟ إنه ربنا. وهذا القلب من فتح بين الأذينين ثقباً كشفه عالم ـ اسمه بوتال ـ فسمي باسمه، ثقب بوتال، فالطفل وهو في بطن أمه ليس هناك تنفُّس، هناك رئتان، وأنف، وخيشوم، وقصبة هوائية، وبلعوم ولكن لا يوجد هواء، إذاً لا يتجدد الدم من حيث الأوكسجين وهو في الرحم، والله فتح ثقباً بين الأذينين حتى ينتقل الدم من أذين إلى أذين، وبعد الولادة ـ كما قال لنا أستاذ طبيب حينما كنا في التعليم الثانوي ـ قال: تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب، فيد من تصل إلى وسط القلب ؟ الآن عملية القلب المفتوح تكلف مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف، وقد قال لي طبيب كريم جرّاح قلب من أخوتنا: ينشرون القفص الصدري، ويحضرون كلابات، ويفتحون الصدر، ويحقنون القلب بمادة باردة لكي يهدأ ويسكن، ثم يصلون الشرايين بقلب صناعي، ويفتحون فتحة بالقلب، أربعة ساعات بهذا القلب، لكي يغلق هذا الثقب ـ ثقب بوتال ـ مئات ألوف الأطفال الذي يأتون، تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب، يد من هذه ؟

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

شاهدت مرة إنساناً الساعة الثانية عشر حول مستشفى وهو شديد الاضطراب، فأركبته السيارة، وسألته: خير ؟ قال: والله ابني مصاب بداء الزرقة، أي أن الثقب لم يسد ـ وربنا يترك من كل مائة ألف طفل طفلاً واحداً كشاهد لكي يعرف الناس قيمة هذا الثقب، فأين هذا من هذا الذي يحتاج لعملية ؟ لي صديق عنده بنت ثقبها لم يسد، تحتاج نصف ساعة لصعود ثمانين درجة، تتعب رأساً، ويزرق لونها، لأن القلب عندما يضخ الدم بدل أن يذهب إلى الرئتين يختصر المسافة، ويأتي للأذين الثاني، فسبب كل نشاطك وكل حيويتك وتورد وجهك أن الثقب مسدود، من الذي سده لك ؟ فيد من ؟

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ

ألم تلاحظ أن الشمس تشرق مرة من هذه الجهة، ومرة من هذه الجهة ؟ يلاحظ من كان بيته مرتفعاً ومطلاً على الأفق أن شروق الشمس في الصيف غيره في الشتاء، هناك كل يوم شروق، هناك رب

المشرق والمغرب كجهة، ورب المشرقين والمغربين كنهايات عظمى ودنيا، وهناك رب المشارق، لأن في كل يوم هناك شروق.

أتمنى على الله أن أنقل ما في نفسي حول هذه الكلمة:

(إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

1 ـ المطيع لغير الله جعل الإله إلهين اثنين:

الذي يطيع إنساناً، ويعصي الله جعل الإله إلهين، الإله وهذا الشخص الذي يطيعه، فالمشكلة هي توحيد الألوهية، فأنت حينما تخشى جهةً غير الله فقد أشركت، وهنا الكلمة:

(إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

إله واحد هو الآمر والناهي، وهو رب السماوات والأرض، وليس إله الأرض فقط، فإلهك الذي أمرك أن تعبده بيده السماوات والأرض كلها..

(وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)

فلذلك هذا التفكر في الكون، وهذا التأمُّل، يجب أن يقودك إلى التوحيد، والتوحيد يقودك إلى الطاعة، والطاعة تقودك إلى الراحة، والكون ينقلك إلى إن إلهكم لواحد، وإذا كان إلهاً واحداً لا يوجد غيره عليك أن تطيعه، فإذا أطعته ارتاحت نفسك، وسعدت في الدنيا والآخرة، كلام بسيط مختصر، فكِّر، وحِّد، أطع، تسعد، لكن هذا الإله الذي قال لك: أطعني، بيده الكون كله، فأنت تلوذ بعظيم، وأحياناً يربط الإنسان مصيره مع إنسان يبدو قوياً، ولكن لسبب أو لآخر يخسر قوته فجأةً، يضيع معه من ربط نفسه به، أليس من الخطأ والغباء أن تربط مصيرك بمخلوق كائناً من كان، مهما كان قوياً، ومهما كان قريباً، هو مخلوق..

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26))

(سورة الرحمن)

أما الشيء اللائق بك، باللغة الدارجة ـ حوينتك ـ (خسارتك) أن تربط نفسك بجهة غير الله عزّ وجل، ومرة ثانية (حوينتك) أن تضيع شبابك لغير الله عزّ وجل، تفني شبابك، وعمرك، وتستهلك ذهنك لغير الله عزّ وجل، ويستهلك هذه الطاقات، وهذا الذهن، وهذه الأعضاء، هذه الأجهزة، تستهلكها في معصية الله، لأن كل هؤلاء لا ينفعونك، وعندنا ينام الإنسان أول ليلة بقبره يقول الله:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

أنت شاب، وأنا أرى أمامي شباباً كُثُراً، وكل مستقبلك بيد الله، زواجك، وعملك، وجسمك، فهل يعرف أحد ماذا يوجد في جسمه ؟ قد يأتي مرض عُضال لإنسان في سن مبكرة، فإذا كنت مع الله فالله جل وعلا يطمئنك..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت)

كلمات مطمئنات، والله عند المؤمن أمن، وطمأنينة، وثقة، وشعور بالتفوق، ولو وزع على أهل بلدٍ لكفاهم، فخالق الكون يطمئنك، ومن عادة الناس إذا كانت لأحدهم صداقة مع شخص، لو كان شرطياً في مخفر، تجده يمشي بالعرض، يقول لك: فلان صاحبي، وأنت تمشي مع خالق الكون، مع الذي بيده ملكوت كل شيء، مع الذي بيده أمر عدوك، وأمر خَصْمك، مهما كان خصمك شديداً وقوياً، وهو بيد الله عزّ وجل.

(إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)

(سورة يس)

ألا تطمع أن تكون مع هذا الخالق العظيم ؟!

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

ولكن بشرط فقط..

(لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة: من الآية 12)

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

2 ـ كن مع الله ولا تُبال بأحَدٍ:

أيها الإخوة، إذا لم يكن الله مع إنسان تخلى عنه أقرب الناس له، الذي أفنى حياته من أجل زوجته تسيء إليه، وتهينه في آخر حياته، وإذا كان الله معك يجعل عدوك في خدمتك، العدو اللدود، أنا لا أريد أخاً قانعا بالدين، أريد أخاً يعيش الدين، أريد أخاً يقول لي: كلام الله حق، والله حينما اصطلحت مع الله، وحينما تبت إليه، وحينما راجعت حساباتي كلها، وحينما عاهدت الله على طاعته انقلبت حياتي رأساً على عقب، شعرت بطعم الإيمان، ودُقت حلاوته، وحلاوة القُرب، وشعرت بمعنى التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، فلا تخف في الله لومة لائم، قل: الحمد لله وكفى.

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت: من الآية 53)

اقرأ القرآن، احفظ هذه الآيات التوحيدية عن غيب، لأنها مطمئنة، ولا سيما ونحن نعيش أيها الإخوة في عصر مخيف، كيفما تحركت تحس بقوى مخيفة تتربّص بنا الدوائر، كأن العالم كله يحارب الإسلام، فأنت حينما تطمئن إلى أن الله بيده الأمر كله تشعر براحة كبيرة.

فهذا الإعصار الذي حدث في بلاد آمنة، مطمئنة، غنية، قوية، تتحكم بالعالم كله، هل نجت من عذاب الله ؟ سرعة الرياح ثلاثمائة كيلو متر، فأصابت ما أصابت، وقد بلغت الخسائر ثلاثين مليار دولار، قدر نفقات حرب الخليج، أصابت البلاد، ودمّرت الأبنية، والطائرات، واليخوت، والقوارب، والسيّارات، والأشجار، مليون مشرّد في الطريق، من يمنعنا من الله ؟

مهما كنا أقوياء، مهما كنا أغنياء، مهما كنا متمكنين في الأرض، فهذه آية من آيات الله العظمى، آية من آيات الله، يهلكنا الله بالرياح، ويهلكنا بالأمطار، بالأمراض، مرض الإيدز، هذا المرض يبلغ عدد المصابين به إلى سنة ألفين أرقاماً فلكية، إنه شيء مخيف، فأنتم تلاحظون بأعينكم أن آيات الله تترى، متتابعة، ولا ينجينا من عذاب الله إلا أن نكون على منهجه، إلا أن نطيعه..

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب نا فإنا منحنا في الرضى من أحبنا

ولذ بحمانا واحتمِ بجنابنا

***

فالذي عمر بناء هو يسكن مطمئناً، زلزال شدته خمسة رختر يجعل البناء بالأرض عاليه سافله، أين أصبح البلاط، والرخام، والسيراميك، والألمنيوم، والشرفات ؟ أين ذهب ؟ هناك الكثير من الزلازل، فمرة زلازل، ومرة فيضانات، ومرة حروب أهلية، وأمراض وبيلة، وأمطار حامضية، نرى بأعيننا، والأخبار تترى، ولا ينجينا إلا طاعة الله عزّ وجل، والإله عظيم وعادل، لا يأخذ إنساناً بجريرة آخر..

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: من آية 164)

وعندما تستقيم لك معاملة خاصة، ولو كنت واحد..

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(35)فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة الذاريات)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(يَوْمَ لا يُخْزِي اللّهُ النّبِيّ وَالّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

(سورة التحريم: من الآية 8)

(فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا)

(سورة الأعراف: من الآية 72)

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر)

أنت استقم وانظر، فالله ينجيك من كل هم، وغم، وضائقة، وعدو، لكن الحقيقة أننا ابتعدنا عن الله، واعتمدنا على غيره، فأذاقنا الله ضعف الحياة وضعف الممات، إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني، لكن ربنا عزّ وجل يطمئننا، قال:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

لعل الله جل جلاله يجعل هذه الضائقة التي تعُم المسلمين لخيرهم، ولمصلحتهم، ولمستقبلهم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (02-14): تفسير الآيات 6 - 10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثاني من سورة الصافات، ومع الآية السادسة، والتي هي قوله تعالى:

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ

1 ـ الصيغ القرآنية في التحدّث عن أفعال الله وصفاته:

(إنَّا) تشير إلى أن أفعال الله جلّ جلاله يدخل فيها كل أسمائه الحسنى، وقد جرى عادة البيان الإلهي على أنه إذا تحدّث الله عن ذاته قال:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا)

(سورة طه: من الآية 14)

وإذا تحدّث عن أفعاله قال:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى)

(سورة يس: من الآية 12)

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر)

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

2 ـ أفعال الله وصفاته كلّها حسنى:

أي إن أفعال الله فيها كل أسمائه الحُسنى ؛ فيها اسم القدير، واسم الجليل، واسم الغني، واسم العليم، واسم العَدل، وكل أسمائه داخلةٌ في أفعاله، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا أصابه ما يكرهه كان يدعو ويقول:

((لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ))

[صحيح البخاري عن ابن عبّاس]

وفي هذا الدعاء إشارة إلى أن الفعل فعل الله، ولا إله إلا الله، ولا رافع ولا خافض، ولا قابض ولا باسط إلا الله، وأن أسماء الله جلّ جلاله حسنى، إذاً: أفعاله حسنى، فما دام الفعّال هو الله، والله ذو الأسماء الحسنى، إذاً أفعاله تعود بالخير العميم على كل خلقه..

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا)

3 ـ كلُّ ما علاكَ فهو سماءٌ:

كل ما علاك كما تعلمون فهو سماء، لكن ما علاك من طبقة الهواء هذه سماء دنيا، والهواء يسمح بانتقال الشعاع، وبانتشار الضوء، ولذلك لو خرج الإنسان عن طبقة الهواء إلى الفضاء الكوني فهو لا يرى في الكون إلا ظلاماً، ومن خلال هذا الظلام تبدو بعض النجوم، فلا يرى ضياءً، بل يرى منابع ضوئيَّة فقط وظلاماً دامساً، لعدم وجود الهواء الذي ينثر الضوء، فالضياء الذي تراه في النهار هذا بسبب الهواء، الله جلّ جلاله زيّن السماء الدنيا..

(بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(6)وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(7)لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(8)دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(9)إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(7)لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

هذه الآيات أيها الإخوة إذا قرأناها، وقلنا: كيف يهوي هذا الشهاب الذي نراه في السماء ؟ وهذا الشهاب بنصّ هذه الآية قذفٌ من الله عزّ وجل لشيطانٍ أراد أن يسمّع للملأ الأعلى، قبل الحديث عن هذه الظاهرة ـ ظاهرة الشهاب الثاقب، أو ظاهرة رجم الشياطين ـ قبل الحديث عن هذا أريد أن أضع بين أيديكم موضوعاً دقيقاً جداً.

1 ـ في القرآن الكريم دعوةٌ إلى التفكُّر:

هذا الموضوع هو أن في القرآن الكريم دعوةً إلى التفكُّر، وفي القرآن الكريم إخبار من الله عزّ وجل، بحثت عن مثلٍ يوضّحُ هذه الحقيقة وأنا في طريقي إلى المسجد، إنسان فتح محلاً تجارياً، هو في أمسّ الحاجة إلى ميزان، لكن ماذا سيبيع في هذا المحل ؟ سيبيع المواد الغذائيَّة، أي من زنة كيلو إلى خمسة إلى عشرة كيلو، هو بحاجة ماسّة إلى ميزان دقيق جداً حسّاس جداً، ولكنه لا يحتاج إلى استعمالات تفوق عشرين كيلوا، إذاً: يحتاج إلى ميزان حسّاس ضمن هذا الاستعمال.

لكنه لو أراد أن يعرف وزن مركبته، هذه بالأطنان، عنده برّاد ضخم كم وزنه يا ترى ؟ هذا الميزان الحسّاس الذي بين يديه لا يُمَكِّنَهُ من وزن هذه الأوزان الكبيرة، يمكن أن نقرأ كتيّبَ التعليمات للشركة الصانعة فتقول: وزن هذه المركبة ألف ومائتا كيلو، وهذا ممكن.

وقد أردت من هذا المثل أن أوضِّح لكم أن الله حينما أودع العقل في الإنسان إنَّما أودعه لمهمَّةٍ محدودة، وهي الاستدلال، فبالعقل ترى شيئاً مادياً تستنبط منه أشياء كثيرة، من الماديّات إلى المُغَيَّبات، ترى آثار عجلة سيارة فتقول: هذه سيَّارة صغيرة، لأن المسافة بين العجلتين قليلة، وعرض العجلة قليل، ويمكن أن تكتشف حجم المركبة ونوع المركبة من آثار عجلاتها، فهذا شأن الفِكر، وشأن الاستنباط، تريه شيئاً مادياً فيكتشف ما وراء المادّة، تريه عملاً مُتقناً فيكتشف أن المصمِّم والصانع مُتقَن، وينتظر عملاً منظّماً فيكتشف أن وراء هذا النظام مُنَظِّم، وعملاً محكماً فيكشف العقل أن وراء هذا الإحكام عقلاً راجحاً مُحْكِماً، هذه مهمَّة العقل.

ولكن إذا كلّفنا العقل أن يبحث عن أشياء غائبةً عنه، لا يعرف، لا يعرف إلا أن يُخْبَر، ميزان هذا المحل التجاري يسمح بوزن من كيلو إلى عشرين كيلوًا، لكنه لا يسمح بوزن مركبة، إلا أن الشركة الصانعة أخبرتني أن وزن المركبة ألف ومائتا كيلو، ولا يعقل أن تكذب.

2 ـ عالَم الجنّ غيب يثبت بالدليل الشرعي:

إذاً: أنا أمام القرآن الكريم بين موضوعاتٍ تحقيقيَّة، وموضوعاتٍ تصديقيَّة، أي بين موضوعاتٍ خاضعةٍ للبحث والدرس، والنظر والتأمُّل، وبين موضوعاتٍ خاضعةٍ للتصديق فقط، فنحن الآن أمام آيات لا يمكن أن نُحَكِّم عقولنا بها، أو أن نكتشفها بأنفُسنا، فلو صعدنا إلى الفضاء الخارجي بمركبةٍ، أين هي الشياطين ؟ لا نرى شيئاً، لأن الله عزّ وجل يقول:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: من الآية 27)

لو خرجنا إلى الفضاء الخارجي لنبحث عن الشياطين فنحن لا نجدهم، ما اسم هذا الموضوع ؟ موضوع إخباري، خالق الكون أخبرنا عنه، فأنت إذا آمنت به ؛ آمنت بوجوده، وآمنت بوحدانيَّته، وآمنت بكماله، وآمنت بأن كلامه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكلّما نما إيمانك بالله عزّ وجل نما مع إيمانك بالله تصديقك له فيما أخبرك عنه، والله عزّ وجل يخبرك عما يعجز عقلك عن إدراكه، والشيء الذي يعجز عقلك عن إدراكه يخبرك به، فالحاجةُ في المحل التجاري التي يعجز ميزانك عن وزنها، ترى الصانع قد كتب لك وزنها كذا، فهذه اللوحة التي أُلصِقَت على هذا البرّاد الضخم كُتِبَ عليها أن وزنه ألفا كيلو، وهذه المركبة التي يعجز ميزانك عن وزنها قالت لك الشركة

الصانعة: وزنها ألف ومائتا كيلو، أنت قد تكون أمام شيء بإمكانك أن تزنه بنفسك، وأن تتحقّق منه، أحياناً يحضر الإنسان اثنين كيلو من الفاكهة، فيشعر أنه من غير المعقول أن يكون وزنها كذلك، وعنده في البيت ميزان يزينهم، ميزان البيت للتأكّد لعل في خطأ، لكن ميزان البيت مصمّم لوزن حاجات لا تزيد على عشرين كيلوا، ولكن هناك أشياء ضخمة لا يوجد عندك ميزان تزنها به، فالصانع أخبرك أن وزنها كذا.

نحن الآن أمام آيات ليست خاضعة لميزاننا، فميزاننا يحتاج إلى أشياء محسوسة، الجن نحن لا نراهم بنصّ القرآن الكريم، نحن نرى أن شهاباً يسقُط، فالشُهُب نراها بأعيننا ؛ ولكن خالق الكون أخبرنا أن هذه الشُهُب الثاقبة إنما هي رجومٌ للشياطين.

3 ـ الحكمة من إيراد موضوع إرسال الشهب على الجن:

وقد يسأل سائل: لماذا ساق الله لنا هذا الموضوع ؟ لأن العرب كانوا يزعمون أن بين الله وبين الجِنَّةِ نسباً، وأن الشياطين يعلمون الغيب، ولأنهم يعلمون الغيب كان بعض العرب يعبُد الشيطان من دون الله، ولماذا يعلمون الغيب ؟ لأنهم يتصلون بالملأِ الأعلى، إذاً حينما ساق الله عزّ وجل هذه الآيات لينفي أسطورةً شاعت في الجاهليّة وهي: أن بين الله وبين الجِنَّة نسباً، وأن الشياطين يعلمون الغيب لاتصالهم بالملأِ الأعلى، إذاً: لابدّ من أن يُعْبَدوا من دون الله.

ولذلك ربما عزّ وجل يحدثنا في هذه الآيات الإخباريّة عن الجن ـ من الآن فصاعد يجب إذا قرأت القرآن أن تعرف أن هذه الآية إخباريّة خاضعةٌ للتصديق فقط، وأن هذه الآية تحقيقيّة خاضعةٌ لوزنها بميزان العقل ـ الأشياء التي توزن بميزان العقل، ويجب أن تكون ضمن طاقة العقل، يجب أن تكون ماديّة محسوسة، أنا أنظر إلى آلةٍ أتأمّل، أدقِق، أحقِق، أستنبط أن صانعها على أعلى درجة من الإتقان، أو أن هناك بعض الإهمال، أو أن هناك نقصاً في علمه، أو على التجريب كانت سريعة العَطَب، إذاً لم تكن متقنةً، كل هذا أكشفه بعقلي، ولكن هناك أشياء ليس عندي جهاز يكشف الخَلَل، إذاً استسلم فيها لمقولة الصانع.

إذاً: نحن أمام آيات تتحدّث عن الجن، وعن اختراقهم للسماء.

4 ـ الجن لا يعلمون الغيب:

أولاً: القرآن الكريم يبيّن بشكلٍ واضحٍ قطعي الدلالة أنه لا يعلم الغيب إلا الله، الله وحده يعلم الغيب، لذلك أنت يجب أن تدقق الآن أية قراءةٍ، أية مقولةٍ، مثلاً ظهرت بالصين، بجنوب شرق آسيا قبل أسابيع

جماعة تدَّعي أن يوم القيامة يوم كذا، وقد مضى هذا اليوم ولم يحدث، أربعة عشرَ مليوناً ـ العدد كبير جداً ـ يعتقد أن فلاناً أو علاناً يعلم متى يوم القيامة، وجاء هذا اليوم ولم يحدث شيء، فأنت يجب أن تعلم علم اليقين أنه لا يعلم الغيب إلا الله، النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق لا يعلم الغيب، والآية:

(قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام: من الآية 50)

أما إذا أخبرنا عن أشراط الساعة، وعن آخر الزمان، فهذا ليس علماً بذاته، إنما هو إخبار من الله عزّ وجل..

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

فأنا كأي مسلم بعقيدة، ولا أقبل أن يدعي إنسان كائناً من كان أنه يعلم الغيب، وأرفض هذا، وأسخر منه معتمداً على نصٍ قطعي الدلالة في كتاب خالق الكون إذ يقول:

(قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللّهُ)

(سورة النمل: من الآية 65)

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا)

(سورة الجن)

هكذا المسلم معه نور من الله عزّ وجل، ومعه مبادئ ثابتة، وأدلّة قاطعة، ولا يستسلم لخرافةٍ، ولا لمقالةٍ قرأها، ولا (لشطحةٍ) سمِعها، ولا لفريةٍ وصَلَت إليه، المسلم معه مقاييس، وهذا الموضوع مرفوضٌ شكلاً ومضموناً، لأنه لا يعلم الغيب.

في السماء الملائكة، والملائكة مخلوقاتٌ مكلّفةٌ بمهمّات، ولعلّ بعض المهمات إهلاك القُرى، فالزلازل، والأمطار، ونقل أعمال العباد إلى الله عزّ وجل، تنزُّل الملائكة بأوامر الله عزّ وجل، والملائكة مخلوقات مقرَّبة إلى الله عزّ وجل، دائماً تسبّحه وتمجّده، وقد كلّفها الله بمهمّات، ولعلّ الشياطين كانوا يسترقون السمع.

فلو انعقد مجلس وزراء، واتخذ قراراً بتقديم الساعة، ولم يعلن القرار بعد، سمع الآذن وهو يقدِّم القهوة عن تقديم الساعة، فجلس في قريته أو بين عشيرته، وقال: أنا أعلم ما سيكون ـ هو أخفى أنه سمع هذا القرار ـ بعد أسبوع سوف تُقَدَّم الساعة، فهذا الآذن استرق السمع، وبدأ يتاجر بهذا الفكرة، ويتصدَّر بها المجالس، ويقول: سيكون كذا وكذا، وسيفعلون كذا وكذا، والله عزّ وجل قال:

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ)

5 - وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ

والشيطان المارد هو الشيطان العاتي، المتمرّد على طاعة الله عزّ وجل، ومعنى المارد القوي، والمتمرّد، والعاتي، والعاصي..

(يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى)

6 - يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى

أي لا يسّمعون فيسمعون، هم يحاولون أن يسمعوا ؛ ولكن لا يسمعون..

(وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(8)دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)

وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ

أي مستمر، والآن أي تعاون بين الإنس والجن تعاونٌ غير مشروع هدفه إضلال البشر، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَتَى حَائِضًا أو امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

((من أتى ساحراً فلم يصدِّقه لم تُقْبَل له صلاة أربعين صباحاً ولا دعاء أربعين ليلة))

[ورد في الأثر]

إذاً نحن حيال الغيب نلتزم بما قاله الله عزّ وجل، أما ما نراه في بعض المجلات ؛ حظّك هذا الأسبوع، وفلان برجه كذا، وسيأتيه عدوٌ يأخذ منه شيئاً، فهذا كلّه كلام باطل، وكلام الشياطين، والأفّاكين، إنه كلامٌ مرفوضٌ نصّاً وروحاً، جملةً وتفصيلاً، وقلباً وقالباً، قبل أن نمضي في الحديث عن هذه الآية:

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ

أولاً: جعل الله سبحانه وتعالى الجمال في الكون مقصوداً لذاته، فكل شيء خلقه الله فيه كمال في أداء الوظيفة، وفيه جمالٌ في تكوينه، فيمكنك أن تركب مركبة عبارة عن عمود حديدي عليه محرّك ولها مقعد، فالمركبات لها جمال، إن هدف المركبة الأول نقلك من مكان إلى مكان، إذاً: فيها محرّك وعجلات، لكن لها هدف آخر ؛ هو أن يروق لك منظرها، ففيها نوافذ، وأبواب، وهي مطليّة بطلاء متألِّق، وفيها مقاعد وثيرة، وفيها ألوان منسجمة، وفيها جمال في خطوطها وفي انسيابها، إذاً حينما

صُنِعَت هذه المركبة مثلاً لتنقلك من مكانٍ إلى مكان، فهناك هدفٌ آخر رافقها، وهو أن تكون زينةً لك، إن هذا الشيء ملاحظ في الكون.

فالفواكه مثلاً هدفها الأول أن نتغذّى بها، لكن التفّاحة لها منظرٌ جميل، ولها لونٌ جميل، ولها رائحةٌ طيّبة عطرة، فربنا عزّ وجل يجمع في خلق الشيء بيّن فائدته، وأداءه لوظيفته أداءً تاماً كاملاً، وبين تحقيق المتعة للإنسان، إذاً ربنا عزّ وجل، بل إن من الأدلّة على وجود الله وعلى أسمائه الحسنى أنه جعل الجمال مقصوداً في خلقه تعالى.

وبعض الأطيار الجميلة مثلاً، ترى فيها الألوان مدرّجة بشكل معجز، بل إن المهندسين يستوحون تصاميمهم من الألوان التي في الطيور، والألوان التي في الفراشات، وألوان الأزهار، إذاً الكون لا يؤدي وظيفةً فقط ؛ بل يؤدي وظيفةً وفيه جمالٌ يعدُ صميمياً من مبادئ الكون.

شيءٌ آخر، ربنا عزّ وجل قال:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من الآية 8)

فالفرس لها قِوام رشيق، ولها لون مُمْتِع، ولها طباع، ويركبها الإنسان لينتقل عليها، وهو يفتخر بركوبها، لأنها تحقِق له متعةً، لذلك كمال الخلق أن يحقِق نفعاً ومتعةً في وقتٍ واحد، أن يجمع الشيء بين جمال التكوين وأداء الوظيفة أداءً تاماً.

إذاً: ربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

وظيفة النجوم:

فالكواكب كما قال بعض العلماء: لها وظائف ثلاث.

1 ـ الاهتداء بها في ظلمات البرّ والبحر:

أولاً: نهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، مثلاً نجم القطب ثابت، وهناك نجوم ثابتة ونجوم متحرّكة، فالنجوم الثابتة نهتدي بها، والمتحرّكة نعرف من خلالها مُضيِّ الوقت، طبعاً نحن في المدينة لا نتعامل مع السماء بشكلٍ واضح، لوجود الأضواء، والكهرباء، والشوارع المضاءة، أما إذا سكن الإنسان في الريف، أو قام برحلة، واستلقى على ظهره، ونظر إلى السماء في ليلةٍ ظلماء لرأى العجب العُجاب، وأنا كنت أرى مجموعةً من النجوم تشرق عند المغيب، وتغيب عند الشروق، فإن استقيظت في الليل أعرف

من الساعة في أي وقتٍ أنا في الليل، إن رأيتها في منتصف قبّة السماء فنحن في الساعة الثانية عشرَة تقريباً، تماماً كالشمس تشرق وتغرب، فالنجوم الثابتة نهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، والمتحرّكة نعلم بها الوقت، وكأنها مؤقِت، أو كأنها ساعة موضوعة في السماء، فالنجوم من وظائفها أن نهتدي بها في طُرُقاتنا، وفي مسالكنا، ونهتدي بها في معرفة أوقاتنا.

2 ـ زينة للسماء الدنيا:

النجوم لها وظيفةٌ ثانية، فقد جعلها الله زينةً للسماء الدنيا، لكن هناك سؤال: كم كلفت هذه النجوم التي جعلها الله زينة ؟

مرّة قلت لكم: تمر الأرض في دورتها حول الشمس باثني عشرَ برجاً، من هذه الأبراج برج العقرب، برج العقرب مجموعة نجوم نراها في نيسان، في فصل معيَّن، الأرض في دورتها حول الشمس تمر باثنتي عشرة مجموعة من النجوم، وكل مجموعة سميت برجاً ـ والله جلّ جلاله يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

من هذه الأبراج برج العقرب، هناك في برج العقرب نَجْمٌ متألِق اللون أحمر، يبدو صغيراً جداً، ولكنه يتّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، طبعاً المسافة بينهما مائة وستة وخمسون مليون كيلو متر، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرّة، الله عزّ وجل جعل هذه النجوم في السماء الدنيا زينة، فكم كلّفت هذه الزينة ؟ وكم أن الإنسان مكرّمٌ عند الله عزّ وجل حتّى يجعل له هذه الكواكب الضخمة العملاقة، وهذه المجرّات البعيدة يجعلها له زينةً فقط ؟ أنت قد تزيّن البيت بحبلين من الكهرباء يكلِّفونك ألف ليرة، هل يمكن أن يكون ثمن بيت مليونين، وأن تكلف الزينة مئتي مليون ؟ فهذا غير معقول، ومعنى هذا أن الإنسان غالٍ كثيراً على الله عزّ وجل..

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ)

(سورة الملك: من الآية 5)

الزينة والجمال في الكون:

إذاً: نحن وقفنا عند الزينة، الإنسان يستنبط أشياء كثيرة، طعامك فيه زينة، الإنسان يضع في بعض الأحيان على المائدة فواكه، قبل أن تأكلها تراها جميلة جداً، وهناك كثير من المحلات يضعون ألواحاً زيتيّة فيها صور فواكه، ومعنى هذا أن الفاكهة التي تأكلها لها منظرٌ جميلٌ جداً، أحياناً الأشجار المثمرة جميلة جداً، في قِوامها، وفي مجموعها الخضري، وفي شكلها الكروي، أو شكلها المنبسط، أو

البيضوي، الأوراق جميلة جداً، كل شيء في الكون يؤدِّي وظيفةً تلمح فيه جمالاً أساسياً، وهذا الجمال الذي نلمحه في الكون دليل وجود خالقٌ عظيم، وإن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، ولكن هناك جمال الأفعال، وهناك جمال الأقوال، يقولون: جمال الرجل فصاحته، الفصاحة جمال في الإنسان، فأنت تشعر أن الفصاحة شيءٌ عظيم.

وقد دخل وفد على عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، فتقدّم هذا الوفد غلامٌ صغير، فتألّم الخليفة وانزعج وقال: **" اجلس أيها الغلام، من أنت ؟ ليقم من هو أكبر منك سنّاً "، قال الغلام بأدبٍ جم: " أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا وهب الله العبد لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً فقد استحقّ الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمّة من هو أحقُّ منك بهذا المجلس "**، ما هذا الجمال ؟ أعجب بفصاحته.

ومرّ سيدنا عمر على أطفالٍ يلعبون، فتفرّقوا إلا واحداً، جذب نظره، فلما وصل إليه قال له: **" يا غلام، لمَ لم تكن مع مَن هرب ؟ "**، قال له: **" أيها الأمير، لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك ".** (الطريق واسع، تفضّل مر) الفصاحة جمال.

دخل وفد على عبد الملك بن مروان وفيهم غلام، عندما نظر إليه الخليفة تألّم، فوبّخ الحاجب وقال له: " ما شاء أحدٌ أن يدخل عليّ إلا دخل، حتّى الصبيان ؟ " ما هذه (البهدلة) ؟ فقال له هذا الغلام: " أيها الأمير إنّ دخولي عليك لم ينقص قدرك ولكنّه شرّفني ـ أنت كما أنت بقيت ملك ـ أصابتنا سنةٌ أذابت الشحم، وسنةٌ أكلت اللحم، وسنةٌ دقّت العظم " ـ الشحم يذوب، واللحم يتآكل، والعظم يُدَّق فينكسر ـ وبيدكم فضول مال، فإن كانت لله فعلامَ تحبسونها عن عباده ـ نحن عباد الله ـ وإن كانت لكم فتصدّقوا بها علينا، وإن كانت لنا أعطونا إيّاها "، أي احسبها مثل ما تحب فأُعْجِب به الخليفة، وهذا من جمال الفصاحة، والنبي الكريم قال:

((إنّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا))

[من صحيح البخاري عن ابن عمر]

وهناك جمال القِوام، وجمال اللون، وجمال التصرُّف، والجمال أحياناً بالأخلاق، ولو كان الشخص قميء المنظر، فالأحنف بن قيس كان قصير القامة، أسمر اللون، ناتئ الوجنتين، غائر العينين، أحنف الرجل، مائل الذقن، ليس شئٌ من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيّد قومه، إن غضب غَضب لغضبته مئة ألف سيف، لا يسألونه فيمَ غضب، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

مرّة أحرجه معاوية بن أبي سفيان بموقف، عندما أخذ البيعة لابنه يزيد، أثنى كل الحاضرين على

يزيد، وأشاد بتقواه وصلاحه، وبقي الأحنف ساكتاً، قال له: يا أحنف تكلّم، فقال: **" أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت "**، فكان تلميحاً أبلغ من تصريح.

فالذي أريد أن أقف عنده، قول ربنا عزّ وجل قال:

(بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

أي أن عنصر الجمال واضحٌ جداً في الكون، لو لم يكن هناك تفاعلات ذاتيّة لصار الجمال غير مقصود، فنحن لدينا أسماك زينة ليس لها هدف، فهي صغيرة، لا تؤكل أساساً، وزنها أقل من غرام، فسفوريّة أو شفّافة، وهذه لمن خُلِقَت ؟ خُلِقَت للإنسان ليستمتع بها، وكذا أنواع الورود، والأبصال، والنباتات الخضراء، فهي بالآلاف، من يعملون بحقل الزراعة وحقل نباتات الزينة يرون العجب العجاب، هناك كتب، ومجلّدات تقدِّم لكم صوراً لهذه النباتات بالألوف، بمئات الألوف، أنواع منوّعة، وكل نبات له طبع، وله زهر معيَّن، وله نظام معيَّن، وله سُقيا معيَّنة، إذاً: إنك ترى في الكون أداءً لوظائف ثابتة وجمالاً في التكوين.

انظر إلى الهيكل العظمي لإنسان تجده مخيفاً، حتى إذا أرادوا أن يحدِّروا إنساناً من التوتُّر العالي يضعون جمجمة وعظمتين، وازن بين جمجمة ووجه مكسو بالعضلات المستقيمة، وبالجلد المشدود، ولون أزهر، فرق كبير جداً بين هيكل عظمي وبين الإنسان في أحسن تقويم، بين عضلاته وبين جلده، إذاً في الإنسان جمال التكوين، بيت من دون طينة فرضاً، من دون دهان قد تكون غرفة واسعة، وأبوابه محكمة، كله جيّد لكنه مزعج، منظره مزعج جداً، فالله أودع بالإنسان حب الجمال، وربنا عزّ وجل خلق الكون على نحوٍ يؤدي الوظيفة أداءً كاملاً، ويؤدي متعةً جماليَّةً، وهذا مما يدلُّ على اسم الجميل..

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(6)وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ)

فالذي أخبرنا الله به عن عالَم الجن، وعن عالَم الملائكة، وعن رَجم الشياطين، وعن استماع الشياطين، هذا لا نملك إلا تصديقه، لأنه موضوعٌ إخباري، غير خاضع للتحقُّق، لكن خاضعٌ للتصديق، فكل إنسان أراد أن يناقشك بآيات متعلِّقة بالغيبيّات فقل له: هذا موضوع إخباري لا تجوز المناقشة فيه، لأن الميزان لا نملكه، ميزاننا يقودنا إلى الله ؛ وجوداً، وكمالاً، ووحدانيَّةً، وإلى معرفة كتاب الله، وإلى معرفة رسول الله، ولكن ميزاننا لا يستطيع أن يقدِّم لنا حقيقة هذه الإخباريّات، لأنه أضعف من ذلك، وهذا ليس نقصاً فيه ؛ بل لأنه مصمَّم لموضوعاتٍ محدودة لا لموضوعاتٍ مُطْلَقَة.

لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى

إذاً: هؤلاء الذين يعبدون الشياطين، أو الجن، أو يتعاونون معهم لإضلال البشر، ويزعمون أن الشياطين يعلمون الغيب، نقول لهم: هذا كذبٌ محض، فالشياطين لا يعلمون الغيب، والدليل أن الله عزّ وجل يقول:

(لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى)

1 ـ وقفة مع كلمة ملأ:

ففي الحديث القدسي:

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ))

[مسلم عن أبي هريرة]

ما معنى الملأ ؟ الملأ في المعجم أشراف القوم، أي أنهم يملئون العين مهابة، هناك شخص تمتلئ عينك بجمال طلعته، وكمال قوامه، وفصاحته، وجماله وأناقته، فالملأ هم أشراف القوم الذين يملئون العين لا بقوامهم فقط بل بأفعالهم، بأخلاقهم، بعلمهم، قد يسمع الإنسان محاضرة من إنسان، وزنه الجسمي قليل، ولكنه يقول لك: بقيت شهراً متأثراً بهذه المحاضرة، فالإنسان قيمته بعمله وبأخلاقه، فكلمة ملأ أي يملأ العين، والسمع، والذهن..

(لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى)

2 ـ مَن هم الملأ الأعلى ؟

مَن هم الملأ الأعلى ؟ الملائكة، فهم موكّلون بأعمال كالزلازل، والأعاصير، ولعل الأعاصير التي حصلت أعمالٌ أوكلها الله للملائكة، فنحن نقول: هؤلاء أقوياء، وهؤلاء أغنياء، وهؤلاء بيدهم مقاليد الأمور ولكن الله عزّ وجل على كل شيء قدير، هواءٌ سرعته ثلاثمائة كيلو متر في الساعة، جعل بلاداً بأكملها قاعاً صفصفاً، الأبنية دُمِّرَت، الأشجار قُلِعَت، المركبات حُطِمَت، واليخوت في البحر تلاطمت، الطائرات حُطِمَت، إنها رياحٌ عاتية سرعتها ثلاثمائة كيلو متر في الساعة، واسمها الأعاصير، أحرقت الأخضر واليابس، فلعلّ الزلازل والأعاصير، وما شاكل ذلك، هذه مهمّاتٌ أوكلها الله للملائكة، فهؤلاء الجن، الشياطين الذين تمرّدوا على أمر الله عزّ وجل وعصوه، هؤلاء ما كان لهم أن يستمعوا لهذه الأخبار الغيبيّة، لهذا قال الله عزّ وجل:

(وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(7)لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى)

وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(7)لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى

فإذا حاولوا الاستماع ليأخذوا هذه المعلومات، ويتاجروا بها في الأرض أصابهم شهاب ثاقب، فلو فرضنا فرضاً أن مجلساً ينعقد لتداول أمورا اعتياديَّة، يمكن لمستخدم أن يسمع بعض الكلمات في أثناء دخوله أو خروجه، مثلما قلنا قبل قليل، ثم يتصدَّر بعض المجالس في قريته، ويقول لك: سيصير كذا، وسيصير كذا، وأنا معي معلومات دقيقة، وأخذوا رأيي بالموضوع، هو دخل يقدِّم القهوة فقط، ولم يأخذوا رأيه، لكن لو فرضنا أن هناك أمراً خطيراً جداً فهو يُمْنَع من الدخول، فحينما جاءت بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(8)وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعْ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(9))

(سورة الجن)

لم يبقَ هناك أي مجال، كان الجن يتاجرون بهذه المعلومات التي يسترقون السمع من الملائكة، فلمَّا جاءت رسالة النبي، مُنِعَ الشياطين من أن يستمعوا ضماناً لنقائها، فإذا حاولوا جاءهم شهابٌ ثاقب، وهذا الموضوع ليس خاضعاً للمناقشة، ولا للتحقُّق، لأنه موضوعٌ إخباري، وقال علماء الأصول: إن أي موضوعٍ إخباري لا يجوز أن نزيد عليه إطلاقاً، لأن أية زيادةٍ فيه زيادة ظنية لا تقوم على برهانٍ ولا على دليل..

وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(8)دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ

(وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(8)دُحُورًا)

مدفوعين..

(وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)

أي مستمر، قال:

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ

أي أنه إذا تمكّن هذا الشيطان أو ذاك الجني من أن يستمع إلى بعض مهمّات الملائكة، وأن يأخذها ليتاجر بها، تبعه شهابٌ فأحرقه..

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

الآن:

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ

انظر إلى هذه المجرّات، وإلى هذه الكواكب، وهذه المذنّبات، وهذه المجموعات الكبيرة من النجوم..

(أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا)

تجد باخرة تحمل مليون طن، ناقلة نفط حمولتها مليون طن أصابتها عاصفةٌ بحريّة فشقّتها شقين، أين هذا الجسم العظيم الحديد المتين ؟ الله عزّ وجل هو أشدُّ خلقاً، فأي شيءٍ رأيته قوياً فالله عزّ وجل أشدُّ قوة منه.

ملخص الدرس:

1 ـ المبصرات، والمسموعات، والمشمومات، والملموسات وسبيل معرفتها:

أيها الإخوة... ملخّص الدرس على الشكل التالي: الإنسان أحياناً يرى شيئاً مادياً فسبيل معرفته الحواس، لهذا المصباح متألِّق، أرى بعيني أنه متألِّق هذا يقين حسي، أستمع إلى الآذان، فهذا الصوت انتقل إليّ عن طريق الأذن، فهذا يقين حسي، وأحياناً ألمس شيئاً صُلباً هذا يقين حسي، أشم رائحةً عطرة فهذا يقين حسي، فالمبصرات، والمسموعات، والمشمومات، والملموسات هذه كلُّها أشياء ماديّة، والحواس الخمس تكفي لمعرفتها، فالشيء الذي ظهرت عينه سبيل الوصول إليه الحواس، ويشترك الإنسان وغير الإنسان في معرفة الأشياء الماديّة.

فالدابّة ترى حفرةً فتحيد عنها، ضع يدك أمام نملة تقف وتغيّر الطريق، فالحيوانات عندها حواس ؛ أي عندها بصر، وسمع، وشم.. إلخ.

دقِّقوا الآن، لكن الشيء إذا غابت عينه وبقيت آثاره، فسبيل معرفة هذا الشيء العقل ـ الآن دخلنا في موضوع جديد ـ أنا أرى أن هذه المروحة تدور، وأن هذا المصباح متألِّق، أنا أحكم بعقلي حُكماً قطعياً أن الكهرباء موجودة في المسجد، فمن هذا الصوت الذي يُضَخِّم، ومن هذه المروحة التي تدور، ومن هذا المصباح المتألِّق، أما عين الكهرباء فقد غابت عني لا أراها بالعين، إذا نظرت إلى أحد الأسلاك الكهربائية هل فيه كهرباء أو لا، هل تعرفه بالعين ؟ لا تعرفه، لكن تعرفه من المصباح، أو من الصوت، أو من الحركة، أو من التبريد، فإذا غابت عين الشيء وبقيت آثاره فالآن هذا دور العقل، يستنبط من آثار الشيء صفات عين الشيء، هذا اليقين الاستدلالي.

فاليقين الأول يقين حسي، والثاني استدلالي، أما إذا غابت عين الشيء وآثاره فلا سبيل لمعرفته إلا الإخبار، لأن العقل معطّل، فأنت تجلس في غرفة الجلوس وتقول: هذه ثريّا، وهذه مروحة، وهذا طقم استيل، وهذا مطرح، وهنا اللون مناسب للطقم، يمكن أن تتفكّر وتتأمّل، لكن هناك غرفة داخليّة هل تعرف ما فيها من أثاث ؟ لا تعرف إلا أن تسأل صاحب البيت، فالشيء الذي غابت آثاره وغابت عينه لا سبيل لمعرفته إلا الإخبار.

2 ـ التصديق بخبر الله:

أردت من هذا الدرس أنه كلّما مرّ معكم مقطع إخباري، إذا وجد من هو ضعيف الإيمان يقول: هذا غير معقول، هذا موضوع لا شأن للعقل به، هذا موضوع إخباري، موضوع تصديقي لا تحقيقي، فهذا الموضوع لو كان حسياً لعرفته الحواس، ولو غابت عين الشيء وبقيت آثاره الفكر يعرفه، وما دامت قد غابت عينه وآثاره فلا سبيل لمعرفته إلا بالتصديق.

لا تتعب نفسك، إن رأيت آيات متعلِّقة بالجن، والملائكة، ويوم القيامة وبالحوض، والصراط، بالصراط فوق جهنّم، والصور، والبرزخ، والقبر، فهذه أشياء كلها إخباريّة، أنت عليك أن تؤمن بالله أولاً من خلال الكون، وأن تؤمن بهذا القرآن أيضاً من خلال إعجازه، وتؤمن بنبوّة النبي من خلال قرآنه، وبعدئذٍ تتلقّى من الله الأخبار.

أخبرك عن قوم عادٍ وثمود، وأخبرك عن بدء الخلق من آدم وحوّاء، وعن نهاية الأرض، إذا نفخ في الصور، هذا كلّه أخبار، لكن قيمة الأخبار من قيمة المُخْبِر، من هو المخبر ؟ هو الله عزّ وجل، فبقدر إيمانك بالله عزّ وجل تصدِّق أخباره، وبقدر ضعف إيمانك بالله عزّ وجل تُشكِّك في أخباره، وبقدر ضعف إيمانك تقول: غير معقول ومعقول، هذا بقدر ضعف الإيمان ؛ أما كلّما قوي الإيمان بالله قوي معه تصديق أخبار الله عزّ وجل.

فلذلك قال بعض العلماء: حينما قال الله عزّ وجل:

(لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

طبعاً الجواب: لا، والله أنا ما رأيت، لمَ قال الله:

(أَلَمْ تَرَ)

قال: لأن إخبار الله عزّ وجل يرقى إلى مستوى الرؤية لصدقه، إذاً: هذا المقطع وهو قوله تعالى:

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

بزينةٍ هي الكواكب، هذه إعرابها بدل..

(بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(6)وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(7)لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى)

لا يسَّمعون بمعنى أنهم يحاولون السمع ولكن لا يسمعون، هو يسَّمَّع، ولكن لا يسمع..

(وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(8)دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(9)إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(10)فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)

هذه آيةٌ نبدأ بها إن شاء الله تعالى الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (03-14): تفسير الآيات 11 - 25
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثالث من سورة الصّافات، ومع الآية الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ

هذه الآية دليل على إمكان البعث:

هذه الآية فيها دليلٌ عقليٌ على إمكان البعث، فإذا وجدوا أنه يصعُب أن يعادوا خلقاً آخر، فربنا عزّ وجل وجّه نظرهم إلى خلق السماوات والأرض ؛ فهذه المخلوقات والمجرّات والكواكب والكازارات، المذنّبات والشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار، هذه المخلوقات التي خلقها قادرٌ على أن يعيد خلق الإنسان مرةً ثانية..

(أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)

أي طينٍ ليّن.

مركز الاهتمام في الآية التالية:

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ

1 ـ كلما نما علم الإنسان نما خوفه وقلقه:

أيها الإخوة... الإنسان أحياناً يستمع إلى خبر، إن استمع إلى خبر، وكان هذا الخبر خطيراً يعجب، ويتأمل، ويقلق ؛ وأما الجاهل إذا استمع إلى خبرٍ خطير فإنه يسخر، فالفرق بين العالم والجاهل فرقٌ كبير، فكلما نما إدراك الإنسان نما خوفه، وكلما قلّ إدراكه قلّ خوفه، فإذا كان مؤشّر الخوف يتحرك فمؤشر الإدراك يتحرك، وتحرك الإدراك موافقٌ لتحرك الخوف، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

من الذي لا يبالي بالجراثيم ؟ الجاهل، أما الإنسان المثقف فيبالي، ويغسل الخضراوات مرة أو مرتين، أما الطبيب الذي يرى تحت المجهر مئات ألوف الكائنات الحية الدقيقة التي تؤذي الإنسان، فإنه يبالغ بغسل الخضار والفواكه.

النقطة الدقيقة: أنه كلما نما علم الإنسان نما خوفه وقلقه، وإذا خاف الإنسان ربه في الدنيا أمّنه يوم القيامة، ولا يجتمع أمنان وخوفان، إن خفته في الدنيا أمّنك يوم القيامة، وإن أمنته بسذاجةٍ في الدنيا أخافك يوم القيامة.

2 - إن وسّعت الصراط عليك في الدنيا ضاق عليك يوم القيامةٌ:

إن وسّعت الصراط عليك في الدنيا ضاق عليك يوم القيامة، إذا كل قضية قلت: لا تؤثر، والله غفور رحيم، ولا تدقق، والقضية فيها مرونة، وهذه قضية خلافية، وهناك مذهب يغطيها، وقرأت في مجلة عن وجود فتوى لها !!! إذا وسّعتَ الصراط في الدنيا ضاق عليك يوم القيامة، وإذا ضيقته في الدنيا، وقلت: هذا حرام، وهذه شبهة، وهذه لا أفعلها، وهذه لا أفعلها تأثّماً، وهذه لا أفعلها ترفُّعاً، وهذه أخرج من الخلاف ولا أفعلها، فكلما ضيّقت عليك الصراط في الدنيا اتسع عليك يوم القيامة، القضيةُ دقيقةٌ جداً، البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت.

فأنا أنصح الأخ الكريم أن لا يتسع، وأن لا يوسع صراطه، وأن لا يتعلق بفتوى ضعيفة، وبرأي ضعيف، وألا يتعلق بفتوى من إنسان غير ملتزم، ولا ورع، فإذا خرجت من الخلاف، وبقيت في الذي سمح الله لك به، إذا تركت ما لا بأس به حذراً مما به بأس، فأنت من الورعين.

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[ورد في الأثر]

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

3 - السخرية دليل الجهل:

السخرية دليل الجهل، فطفل صغير دون سن الوعي، طفل عمره سنتان، أو عمره سنة واحدة، لو رأى ثعباناً أرقم ثخيناً وطويلاً لا يخافه إطلاقاً ؛ بل يضع يده عليه، يلمسه برفقٍ، لكن رجلاً واعياً راشداً كبيراً إن رأى ثعباناً يقفز قفزةً، ويصيح صيحةً يكاد يخرج من جلده خوفاً، فهذا الكبير خاف، وهذا

الصغير لم يخف ؟! نقول: الصغير لا إدراك عنده، لأن الخوف يتناسب مع الإدراك، وكلما نما عقلك نما خوفك.

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

***

إذا قرأ الإنسان القرآن فلا ينبغي أن يقرأه تبركاً، فهذا كلام رب العالمين، وموقفك يجب أن يكون واضحاً، فهل أنت مصدِّقٌ هذا الكلام ؟ أم أنت في مخالفة، وهل أنت مصدق أن الله عزّ وجل سيحاسبك حساباً دقيقاً ؟ كيف تنام الليل ؟ وسيدنا عمر يقول: **<< عجبت لثلاث: لمؤملٍ والموت يطلبه، وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٍ ملء فيه، ولا يدري أساخطٌ عنه الله أو راضٍ >>.**

ومن غرائب المصادفات أني التقيت مع شخص ـ قبل أسبوعين أو ثلاثة ـ في حفل عقد قران، وكان من ألمع شخصيَّات الحفل، حركة، ونشاطا، وابتسامة، وحيوية، وأناقة، وبعد يومين كان من أصحاب القبور، قلت في نفسي: لو علم هذا الإنسان أنه قد بقي له يومان في حياته ماذا يفعل ؟ فقضية الموت قضيةٌ خطيرة.

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

لا يسخر إلا الغبي، ولا يسخر إلا محدود التفكير، والأعمى، والأحمق، والغافل، وغرق بشهواته إلى درجة العمى، لذلك قال النبي الكريم:

((حبك الشيء يعمي ويصم))

[الجامع الصغير]

((حب الدنيا رأس كل خطيئة))

[الجامع الصغير عن الحسن مرسلا]

" ما أحب عبدٌ الدنيا إلا التاط منها بثلاثٍ: بشغلٍ عناه، وفقرٍ لا يبلغ غناه، وأمل لا يدرك منتهاه "، أمل هوائي، وشعور بالفقر مستمر، وشغل يسحقه..

لقد استوقفتني هذه الآية:

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

خبر واحد يجعل العالِمَ ترتعد فرائصه منه، وخبر واحد يدل على جهل الجاهل، يتلقّاه بالسخرية، والسذاجة، وعدم المبالاة، والنبي الكريم يقول:

((لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت ما أكلتم طعاما على شهوة أبدا، ولا شربتم شرابا على شهوة أبدا، ولا دخلتم بيتا تستظلون به، ولمررتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم، وتبكون على أنفسكم))

(الجامع الصغير عن أبي الدرداء)

مثل من واقع الحياة: لو أن إنساناً توعدك وهو يفعل ما يقول، بعد أسبوع أو بعد شهر، لا تنام الليل، إذا كان قوياً، وإذا قال فعل، وتوعدك بمشكلةٍ يحدثها لك، فالقرآن الكريم كلام رب العالمين، تقرأه صباح مساء، وينبئك أنه لابد من وقفةٍ بين يدي الله عزّ وجل، لابدّ من سؤالٍ دقيق..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

إياكم والظلم:

لي صديق حدثني عن قصةٍ أرويها لكم لشدة وضوحها: له قريبةٌ يحبها حباً جماً، توفيت، فرآها في المنام مراتٍ عديدة بحالةٍ تعيسة، وبقي يراها بهذه الحالة ثماني سنوات، إلى أن رآها مرةً بحالةٍ طيبة، قال: يا فلانة ما فعل الله بك ؟ قالت: كأس الحليب، فلما سأل، وبحث عن كأس الحليب، كان لهذه المرأة أولادٌ من زوجها ليسوا منها، وكان لها أولادٌ منها، فكانت إذا أرادت أن تطعمهم سقتهم حليباً، لأولاد زوجها نصفه ماء ونصفه حليب، وأما أولادها فحليبٌ كامل الدسم، هذا موقف فيه ظلم..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

فالذي عنده أيتام، الذي عنده صانع يأكل حقه، الذي عنده زوجة لا يعرف حقوقها، هؤلاء الذين أكلوا أموال الناس بالباطل، هؤلاء الذين اعتدوا على حُرُمات الله، هؤلاء الذين بنوا مجدهم على أنقاض الناس، وبنوا غناهم على فقر الناس، وأمنهم على خوف الناس، سيحاسبون حساباً عسيراً.

لذلك أيها الإخوة الأكارم، من حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً، كان حسابه يوم القيامة عسيراً، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، هذا:

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

خبر واحد.

(وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ

1 ـ الكفر مانع من التذكّر:

لأنه:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 88)

الكفر غلّفَ قلوبهم..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

إذا عزي الإضلال إلى الله عزّ وجل، فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري..

(وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)

2 ـ المؤمن إذا ذُكِّرَ يَذْكُر:

أقول لكم هذه الكلمة: المؤمن إذا ذُكِّرَ يَذْكُر.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)

(سورة الأنفال: من الآية 2)

فالمؤمن سريع الاستجابة، عنده حساسة إيجابية، يصغي للحق، ويقبل النصيحة، إذا ذُكِّرَ يَذْكُر، فهو قريب المأخذ، ولكن الكافر كلما غرق في المعاصي اشتد الحجاب بينه وبين الله عزّ وجل، إلى أن يعلم الله عزّ وجل أنه لن يستجيب، وعندئذٍ يعطيه الدنيا كما يريد.

يا أيها الإخوة الأكارم... إن جاءتك الدنيا كما تريد، ولست مستقيماً فهذه علامةٌ خطيرةٌ جداً، لأن الله عزّ وجل يقول:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 44)

لم يفتح باباً واحداً بل فتح أبواباً، ولم يفتح باب شيءٍ، أو أبواب شيءٍ، بل أبواب كل شيءٍ..

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام: من الآية 44)

فكل واحد منا يعرف كيف يعامله الله عزّ وجل، فإذا عامله بالشدة، أي تابعه، وعاقبه على انحرافٍ، أو تقصيرٍ، أو ذنبٍ، أو معصيةٍ، أو مخالفةٍ، فهذه علامةٌ طيبةٌ، ومعنى ذلك أنه ضمن العناية المشددة، وأنه في رعاية الله، وأنه مطلوب، وأن الله يحبُّه، لأن الله إذا أحب عبداً عَجَّلَ له العقوبة، أما إذا أبغض عبداً تركه هملاً، ثم تأتيه عقوبةٌ واحدة تقصمه وتنهيه، فالكافر دائماً خطه البياني يصعد صعوداً حاداً، وكلما علا خطه البياني السقوط مريع، بينما المؤمن يصعد صعوداً بطيئاً معتدلاً ثابتاً مستمراً إلى أبد الآبدين، وما الموت إلا نقطةٌ على هذا الخط، لا تفرح بالدنيا إذا أقبلت عليك، ولست مستقيماً على أمر الله فهو استدراج، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غِنًى مُطْغِياً، أو فقْراً مُنْسِياً، أو مَرَضاً مُفْسِداً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

الشاهد:

((إلا غِنًى مُطْغِياً))

فمن المصائب الكبيرة أن يأتيك المال الوفير وأنت على جهل، فيكون هذا المال سبب انحرافك، وسبب طغيانك، وسبب معصيتك، إذاً: قليلٌ تؤدِّي شكره خيرٌ من كثيرٍ لا تؤدي شكره، وقليلٌ يكفيك خيرٌ من كثير يُطغيك.

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[سنن الترمذي عن سَلَمَةَ بْن عُبَيْدِ اللهِ بْن مِحْصَنٍ الخَطْمِيّ عَنْ أبيهِ]

هذا معنى قوله تعالى:

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(12)وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)

قرأت في الأثر أن الإنسان إذا جاءه ملك الموت، وكان يملك الدنيا بما فيها، يتمنى أن يعطي الدنيا كلها نظير أن يؤخَّرَ في أجله ساعة، لعله في هذه الساعة يُصلي ركعتين، ولعله في هذه الساعة يستغفر الله، ويؤدِّي حقوق الخلق، لذلك ما دام القلب يخفق، وما دام النَفَسُ يخرج ويدخل، فإننا في بحبوحة، وفي فُسحة، فهذا الوقت ينبغي أن نستغله، وهذا الوقت يمرُّ علينا ونحن محاسبون عليه، وما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم، أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة، فلابد أن يشعر كل واحدٌ منكم أنه حينما يفتح عينيه صباحاً، أتمنى أن يتصور أن الله جلَّ وعلا سمح له أن يعيش يوماً جديداً، فالنبي كان يدعو ويقول:

((إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وَإِنْ أَرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصّالِحينَ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

(وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)

وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ

الكافر يسخر من آيات الله الدالة على عظمته:

أي أن آيات الله الدالة على عظمته يسخرون منها، بعوضة، فالله عزّ وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة)

هذه البعوضة يمكن أن تتعرف إلى الله من خلالها، إنك تحتقرها، وتقتلها فوراً، وكأنك لم تفعل شيئاً، هذه البعوضة فيها من آيات الله الدالة على عظمته الشيء الكثير، فلها ثلاثة قلوب، ولديها جهاز رادار، وجهاز تحليل دم، وجهاز تمييع دم، وجهاز تخدير، وأجنحة البعوضة في الثانية الواحدة ترفُ أربعة آلاف رفة، ولأرجلها محاجم ومخالب، وربنا عزّ وجل يقول:

(إِنّ اللّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

فالبعوضة آية، والخروف آية، وكأس الحليب آية، والرياح آية، والأمطار آية..

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

(وَإِذَا رَأَوْا آيَةً)

أنواع الآيات:

1 ـ الآيات الكونية:

أية أي علامة، ذكرت اليوم في الخطبة: أن الآيات أنواع ثلاث، فهناك آياتٌ كونية، وآياتٌ تكوينية، وآياتٌ قرآنية، وكلها دالةٌ على عظمة الله، فالآية الكونية ؛ الشمس والقمر، والليل والنهار والنجوم، والطعام والشراب، والخضراوات والفواكه، والنبات والأشجار، والأطيار والأسماك، وكل شيء حولك.

2 ـ الآيات التكوينية:

أما الآيات التكوينية فهي أفعال الله..

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

فربنا له آياتٌ كونية، وله آيات تكوينية أي أفعاله ؛ الزلازل، والبراكين، والرياح العاتية، والأعاصير التي كلّفت ثلاثين مليار من عملتهم ـ ثلاثين مليارًا، وهو مبلغٌ كبير جداً ـ فالأعاصير، والزلازل،

والبراكين، والفيضانات، والسيول، والحروب، والأوبئة، والأمراض والإيدز، هذه كلها آيات تكوينية، الشمس والقمر والنجوم والرياح والليل والنهار آيات كونية.

3 ـ الآيات القرآنية:

وهذا القرآن الكريم آيات قرآنية، ثلاث آياتٌ في حياة المؤمن، آيةٌ كونية، وآيةٌ تكوينية، وآية قرآنية، الكون قرآن صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي.

(وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ(14)وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

تهمة قديمة متجددة: وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

التعبيرات الحديثة ؛ هذه غيبيّات، هذا يتعلق بما وراء الطبيعة، وهذه لا تعنينا، فهي أمور خاصة، وليست عامة، وهذه قضايا ليس لها علاقة بالعلم، ونحن أهل علم، وكأن العالم يجب أن يكون لا دينياً، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

معنى سحر أي له تأثير، ولكن هذا سحر وليس حقيقة.

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(16)أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ(17)قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ)

البعث: أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(16)أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ

وأنتم مرغمون، ومقهورون، وخاضعون، فالمشكلة أن إيمانك بالله عزّ وجل لا يصح إلا إذا آمنت مع الإيمان بالله باليوم الآخر، لأن الإيمان بالله من دون يوم آخر، تظن أن الدنيا هي كل شيء، مع أنها شيء، والآخرة هي كل شيء ؛ حيث هناك يوم الفصل، وهناك يوم الدين، والبَعث، والجزاء، ويوم الدينونة، والواقعة، والحاقة، والقارعة، هذه كلها أسماء يوم القيامة.

فالقارعة تقرع النفس، والحاقة تحق، والواقعة تقع، والفصل يُفْصَلُ بين الخلائق، ويوم الجزاء، ويوم الدينونة، فالمشكلة أن الإنسان إذا آمن بالله ولم يؤمن باليوم الآخرة لا يستقيم على أمر الله، إنك لن تستقيم إلا إذا آمنت بالله خالقاً ومربياً ومسيراً، وآمنت باليوم الآخر، وآمنت بأنه سيحاسبك، إذا أيقنت أنه خلقك، ويعلم، وسيحاسب، استقمت، وأي إنسان، من دون استثناء إذا أيقن أن الله موجود، ويعلم، وسيحاسب، استقام.

وأبلغ من ذلك: إذا اعتقدت أن إنساناً من جنسك، ومن طبيعتك، يملك عليك سلطةً، ويعلم ما تفعل، وسيحاسب، تستقيم على أوامره، إنك تستقيم على أوامر إنسان من جنسك، ومن طبيعتك، ومن ضعفك، ومن افتقارك، وإذا أيقنت أنه يعلم وسيحاسب، ويفعل ما يقول، أي أنه قوي، والقوي الذي يعلم، والذي يحاسب لابدّ من أن تستقيم على أمره، فكيف برب السماوات والأرض ؟ فكيف بالذي لا يغفل ولا ينام، ويعلم سر السماوات والأرض، هذا من عند من ؟

(قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(6))

(سورة الفرقان)

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(12)وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ(13)وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)

مَن سخر من الدين في الدنيا سخر منه في الآخرة:

وعلى كلٍ عندما يتورط الإنسان، ويسخر من آية كونية، أو من آية تكوينية، أو من آية قرآنية، أو يسخر من عقيدة جاء بها القرآن، أو يسخر من إنسان مستقيم على أمر الله، ومن إنسان خائف من يوم القيامة، حينما يسخر هذا الإنسان، ليعلم علم اليقين أنه سيقف في يومٍ ما ليُسْخَرَ منه..

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110))

(سورة المؤمنون)

وربنا عز وجل يقول في آية أخرى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

هل لكم أن تعلموا من هو البطل ؟ هو الذي يضحك أخيراً لا أولاً، فالذي يضحك أولاً قد يبكي بعد ذلك، لكن البطولة أن تضحك آخر الناس، أما إذا ضحكت في الدنيا، وبكى الإنسان يوم القيامة فهو من الخاسرين.

قال تعالى:

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ)

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ

أي أن الله عزّ وجل قدرته ليس لها حدود، زجرة واحدة، صيحة واحدة، وكلكم يعلم من خلال ما نسمع من أخبار، زلزال دام أربع ثوانٍ، أو خمس ثوانٍ، إذا كانت درجته خمساً بمقياس الزلازل، أصبح كل شيءٍ قاعاً صفصفاً، ربنا عزّ وجل هزّة واحدة ينهي كل شيء..

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

ماذا تعني كلمة واحدة ؟ فعندما تكون قويا جداً تقول: فلان يحتاج ضربة واحدة، كلمة واحدة تعني أنك قويٌ جداً، وأنه ضعيفٌ جداً، إذا كان الإنسان يصارع وحشا كاسرا أو سبعا فهذا شيء صعب، يقول لك: جلت معه جولات، أما حشرة صغيرة تمشي على الأرض فبإمكانك أن تدوسها، إذا كان مسموحا لك أن تقتلها ـ إنما هي ضَغْطَةٌ واحدة وانتهى الأمر، فربنا عزّ وجل يبين عظمة قدرته وضعف الإنسان، فقال:

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ)

عندئذٍ يقولون:

(يَا وَيْلَنَا)

يَا وَيْلَنَا

1 ـ ولات ساعة مندم:

فالبطل الذي لا يفاجأ بالمستقبل، والغبي دائماً يفاجأ بالمستقبل، فالأغبياء، والأشقياء، والضعفاء، والمغموسون في الدنيا، وفي حب الدنيا، والغافلون، والفاجرون، هؤلاء يعطون أنفسهم كل شهواتها، فإذا جاء العقاب، أو جاء الموت، أو جاء يوم الدين صعقوا ؛ أما الأذكياء، والعقلاء، والموفقون، والمستقيمون، فهؤلاء من الذكاء والكياسة والعقل حيث أدركوا ما في المستقبل، فتكيفوا معه من الحاضر، وهذه هي القصة كلها.

وكما قلت لكم من قبل إن قضية الإيمان ليس أن تؤمن أو لا تؤمن، لابد من أن تؤمن، القضية: متى تؤمن ؟ إما أن تؤمن في الوقت المناسب ؛ وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، هذه هي القضية كلها، فالإنسان العاقل إذا أيقن بالموت، وأيقن مع الموت حساباً دقيقاً، وأن الإنسان..

((لا تَزُولُ قدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟))

[من سنن الدارمي عن مُعَاذِ بْن جَبَلٍ]

2 ـ الموت هو القضية الكبرى:

إذا أيقنا بالموت، وأيقنا بالسؤال بعد الموت، عندئذٍ لابد من أن نستقيم على أمر الله، لكن الإنسان إذا لم يوقن يفاجأ، وقد قرأت مرة كلمة: العاقل هو الذي لا يندم.

متى لا يندم الإنسان ؟ إذا أعد لكل شيء عدته، فهل هناك شيءٌ أكثر واقعيةً من الموت ؟ تعالوا نتكيّف مع الموت، لابد من أن يأتي عاجلاً أو آجلاً، ولابد من أن يقرأ الناس في أحد الأيام نعينا على الجدران، وأن نخرج من بيوتنا بشكلٍ أفقي، وأن نخرج دون أن نعود، فهل هناك أحد يشك في الموت ؟ ولو بعد مائة عام، ولو بعد خمسين عاماً، لكن إذا أيقنت أن هذا كلام رب العالمين، وأن الله سبحانه وتعالى سيسألك عند الموت، وفي القبر، وفي البرزخ، وبعد الموت، ويوم يقوم الأشهاد عن كل شيءٍ فعلته، أليس من العقل التكيُّف مع هذا الحدث الضخم، الذي هو أخطر حدثٍ في حياتنا ؟ ربما كان الموت أخطر من الحياة، لقول الله عزّ وجل:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك: من الآية 2)

قدّمَ الموت على الحياة لأنه أخطر من الحياة، ففي الحياة عندك خياراتٌ كثيرة حينما تولد، ولكن إذا جاء الموت..

((فو الذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[تخريج أحاديث الإحياء]

الإنسان أول العام الدراسي تجد عنده أملا، وتفاؤلا، يقرأ، ويتحقق، ويتأكّد، ويتابع جهوده في مادة معيّنة، لكن إذا جاء الامتحان، وكتب فعنده أحد احتمالين: ناجح أو راسب، فإذا وقف على لائحة الإعلانات يضطرب قلبه اضطراباً شديداً، إما أن يرى اسمه، وإما أنه يبقى للعام القادم، فهذه هي القضية، فربنا قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)

(سورة الملك: من الآية 2)

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ(19)وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ

الإنسان أحياناً باللغة الدارجة: "يولول "، فمتى يولول ؟ حينما يفاجأ بخبر لا يحتمل، فالمؤمن يستعد لهذا اليوم، لهذا ورد في بعض الأحاديث أن الله عزّ وجل يخاطب الإنسان الذي وضع في قبره أول ليلة، يقول الله عزّ وجل:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

ليس لك غيري الآن ؟ فإذا لم يكن لنا غيره فيجب أن نحسن العلاقة به منذ الآن.

(وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)

من أسماء الله الحسنى الحق، وهذا الاسم يتحقق يوم الدين، يوم يرى كل إنسان عمله، ويجازى عليه جزاءاً وفاقاً، لا ظلم اليوم..

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

إياكم أن تخسروا الآخرة:

الإنسان أحياناً إذا خسر في الدنيا خسارةً فادحة، أو ضاع منه بيتٌ ثمين، أو خسر محلاً تجارياً رائجاً، أو خسر شركةً أرباحها ضخمة، أو ضيّع أرضاً أصبحت بمئات الملايين، ألا يتألم ألماً يكاد يقول: إني قلبي ينعصر من شدة الألم، هذه دنيا، فكيف إذا خسرت الآخرة كلها دفعةً واحدة ؟ لذلك المشرك والكافر ماذا خسر ؟ خسر نفسه، فقد تخسر بعض المال، وقد تخسر كل المال، وقد تفقد ابناً، أما الكافر خسر نفسه.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

فهذه الكلمة: "حط في الخرج "، و "متى يفرجها الله "، ولا تدقق، فالآن القضية لها معنى آخر، فقد تجد أن الواحد منهم واجم، خائف، قلق..

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

كانوا يقولون: وهذه غيبيات، وهذه ما وراء الطبيعة ـ ميتافيزيك ـ هذه فلسفة، فالآن كل هذه الكلمات التي كانوا يلقونها جزافاً، هم الآن محاسبون عليها.

(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ)

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ

أيها الإخوة... يقول الله عز وجل:

(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ)

معنى: أزواجهم:

وأزواجهم من كان على شاكلتهم، أي أن شاربي الخمر مجموعة، والمرابين مجموعة، والزناة مجموعة، والمفسدين للعقائد مجموعة، والمرجفين في المدينة مجموعة، والكذّابين مدينة، والمُغتابين مجموعة، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم..

(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ(22)مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)

مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23)وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ

1 ـ هذا مصير من لم يهتد في الدنيا:

الإنسان في الدنيا حينما كان يرفض الهدى في الآخرة سيهتدي ـ ولكن لا إلى الجنة ؛ ولكن إلى الجحيم، في تهكّم، الذي يرفض الهدى في الدنيا، سوف يهتدي يوم القيامة لا إلى الجنة ونعيمها ؛ بل إلى الجحيم وعذابه.

(فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)

2 ـ موقف السؤال:

لذلك ورد أن الأغنياء يحشرون أربع فرق يوم القيامة ؛ فريقٌ جمع المال من حلال أنفقه في حرام، يقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حرام أنفقه في حلال، يقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام يقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حلالٍ وأنفقه في حلال، هذا يقال: قفوه فاسألوه.. هل تاه بماله على عباد الله، وهل ضيَّعَ فرض صلاة، وهل قال جيرانه: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقَصَّرَ في حقنا.

كلمة ومدلولها:

كلمة مسؤول، سبحان الله ! الإنسان يترنم بها، يقول: أنا مسؤول كبير، مع أن هذه الكلمة تخوف.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

هذه الكلمة ليست مدعاة للفخر، بل مدعاة للخوف، أنت مسؤول، نعم أنا مسؤول كبير، فما معنى مسؤول كبير ؟ سوف تُسأل، فكلمة مسؤول لا تعني الفخر، ولا تعني الشعور بأنك فوق الناس، لا، بل تعني أنك سوف تحاسب، سيدنا عمر قال: **<< لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً >>**، فهذا الشعور الدقيق، **<< لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً >>**، وكل إنسان أعطاه الله ميزة ؛ الأب مسؤول لأنه قدوة، والأم مسؤولة، والمعلم مسؤول، ومدير الثانوية مسؤول، ومدير المستشفى مسؤول، فكل إنسان له مكانة، وله منصب قيادي فهو مسؤول.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(24)مَا لَكُمْ لَا يَتَنَاصَرُونَ)

مَا لَكُمْ لَا يَتَنَاصَرُونَ

لا تناصُرَ يوم القيامة:

الناس في الدنيا تجمُّعات، وهذه التجمُّعات أساسها مصالح، فأنت مع من يلودُ بك في المصلحة على حقٍ أو على باطل، وترون بأعينكم كيف أن بعض الدول تجتمع على باطل لقهر شعبٍ أعزل أحياناً، تجتمع

كلها على باطل من أجل مصالحها، وهناك تناصر في الدنيا، فالإنسان في الدنيا يتعامل مع الآخرين على أساس المصلحة، فإذا وقع خطر ينصره، أما في الآخرة فلا تناصر.

(مَا لَكُمْ لَا يَتَنَاصَرُونَ(25)بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ)

التناصر من لوازم الدنيا، وقد يكون الإنسان على باطل، لكن مصلحته مع فلان، فهو يتفق معه، فإذا داهمهم خطر وقفوا جميعاً ضده بحق أو بباطل، هذا التناصر يوم القيامة مرفوض..

(مَا لَكُمْ لَا يَتَنَاصَرُونَ(25)بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(26)وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(27)قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ(28)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(29)وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ(30)فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ(31)فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ(32)فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(33)إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ(34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ(35)وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ(36)بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)

هذا الحوار الدقيق والعميق، والذي سيكون يوم القيامة بين أهل النار، نرجئ شرحه إن شاء الله تعالى إلى درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (04-14): تفسير الآيات 27 - 34
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من سورة الصافات، ومع الآية السابعة والعشرين.

مقدمة:

اللهُ جلّ جلاله في هذه الآية وفي الآيات التي تليها ينقل مشهداً من مشاهد الدار الآخرة، وما يجري بين أهل النار من خصومات.

(إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ(64))

(سورة ص)

1 ـ مشاهد يوم القيامة للتخويف والوعظ:

الحقيقة قد يسأل سائل: لماذا يذكر الله لنا هذه المشاهد قبل أن تقع ؟

أولاً: هو يعلم ما سيكون، ولكن هذه المشاهد التي يصوّرها القرآن الكريم لنا من أجل أن نتعظ في الوقت المناسب، أما إذا رأيناها رأي العين، وشاهدناها في وقتها فلا قيمة لها، فالعبرة كلُّها أن تتعظ في الوقت المناسب.

2 ـ قضية الإيمان خيار وقتٍ:

كنت أقول لكم دائماً: إنّ قضية الإيمان ليست على الشكل التالي: تؤمن أو لا تؤمن، قضية الإيمان فقط: " أن تؤمن "، لأنه لابدّ من أن تؤمن، أجل لابد، أكفر الكفّار، أعتى العتاة، أفجر الفجّار، أشد الناس بعداً وانحرافاً وكفراً وتيهاً وإنكاراً وجحوداً لابدّ حينما يأتيهم الموت من أن يؤمنوا، ألم يقل فرعون:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: من الآية 90)

هل في الأرض أشدُّ كفراً منه ؟ قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: من الآية 38)

ومع ذلك حينما جاءه الموت قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: من الآية 90)

إذاً: القضيَّة كلُّها قضية متى تؤمن ؟ إما أن تؤمن في الوقت المناسب ؛ وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، لذلك ساق الله جلَّ جلاله لنا هذا المشهد، وهذا الحوار، وتلك الخصومة التي تجري في النار، وبين أصحاب النار، وكيف أنهم يتلاومون، وكيف أن كلاً منهم يتهم الآخر، أنت الذي أضللتني، وكيف أهل الجنَّة في الجنَّة يتنعَّمون، وكيف أن أهل الجنَّة قد يخطر لهم خاطر بأن يروا رجلاً من أصحاب النار، فيطلعون فيها، فإذا هو في أعماق النار.

أيها الإخوة الأكارم... الآيات اليوم:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(27)قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ(28)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(29)وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ(30)فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ(31)فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ(32)فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(33)إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ(34)إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ(35))

3 ـ إنّه ليس شيءٌ شرًا من الشر إلا العقاب، وليس شيءٌ خيرًا من الخير إلا الثواب:

أيها الإخوة... الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه له نصٌّ يفيدنا جداً في هذا المقطع القرآني، هذا النص يتحدَّث عن علاقة الدنيا بالآخرة، هم في الآخرة، وفي سَقَر يتحاورون، ويتناقشون، ويتلاومون، ولكن سيدنا علياً كرَّم الله وجهه يقول: << إنَّه ليس شيءٌ شرٌ من الشر >>.

تصوَّر أنواع الشر، تصور القتل، الزنا، الفُحش، الخيانة، تصوَّر كل أنواع الشر، أن تقتل الناس بالمئات، هؤلاء الذين ألقَوا على بعض مدن اليابان قنبلةً أماتت ثلاثمائة ألف إنسان في ثانية واحدة، تصوَّر هذا الشر، ما هو أشرُّ من الشر، الإمام عليٌّ رضي الله عنه يقول: **<< إنه ليس شيءٌ شرٌ من الشر إلا العقاب ـ عقاب أهل الشر شرٌ من الشر ـ وليس شيءٌ خيرٌ من الخير إلا الثواب >>.**

تصوَّر كل أنواع الخير ؛ إطعام الطعام، إفشاء السلام، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، إكرام الضيف، رحمة اليتيم، رحمة الأرملة، تصوَّر الدعوة إلى الله، هداية الخلق، كل هذه الأعمال الطيّبة خيرٌ منها ما أعَدَّ الله للمؤمنين من نعيمٍ مقيمٍ في الجنَّة، كلامٌ دقيق وسيأتي أدق منه: **<< إنه ليس شيءٌ شرٌ من الشر إلا العقاب، وليس شيءٌ خيرٌ من الخير إلا الثواب >>.**

4 ـ كل شيءٍ في الدنيا سماعه أعظم من عِيانه:

قال العلماء: **" كل شيءٍ في الدنيا سماعه أعظم من عِيانه "**، أيّ شيءٍ يلتمع في ذهنك فتملّكه وعِشْهُ حتى تراه باهت اللون، قبل الزواج يظن الإنسان أن الزواج هو نعيم الدنيا، فبعد الزواج بسنتين أو أكثر يرى أنه شيءٌ عادي، بل أقل من عادي، أين هذا البريق ؟ أين هذه الأحلام ؟ أين تلك الأماني ؟ البيت الذي يروق لك بعد أن تسكنه يصبح شيئاً عادياً، العمل الذي تطمح إليه، المركبة التي تقتنيها، أي شيءٍ في الدنيا سماعه أعظم من عِيانه، الحديث عنه أمتع من تملّكه، الحديث عن مباهج الدنيا أمتع منها، الحديث عن الملذّات أمتع من الملذّات، الحديث عن بعض الطموحات أمتع من هذه الطموحات ولو وصلت إليها، هذه سُنّة الله في خلقه، الدنيا هكذا تقبل عليها متشرفاً، ثم تفاجأ بمنغصاتها، لذلك ربنا جلّ جلاله يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

الغَرور هو الشيطان، والغُرور أن ترى الشيء بحجمٍ أكبر من حجمه، فالإنسان في أول حياته قد يظن المال كل شيء، كلّما تقدّمت به السن يراه شيئاً، ولكن ليس كل شيء، فإذا شارف الموت يراه ليس بشيء، فالبطولة أن ترى الشيء على حقيقته في الوقت المناسب، فربنا جلّ جلاله يحذّرنا من أن نرى الدنيا بحجمٍ كبير، كل شيءٍ في الدنيا سماعه أعظم من عِيانه، لكن مهما وُصِفَت لكم الآخرة، فمعاينتها أعظم بكثير من السماع عنها.

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام بهذه المناسبة عندما رأى سيدنا زيد الخير أو زيد الخيل، كان من أجمل الرجال في عهد النبي، أي أنه مَضْرِبُ المثل في جماله، وفي مروءته، وفي شهامته، عندما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من أنت ؟ قال: أنا زيد الخيل، قال عليه الصلاة والسلام: بل أنت زيد الخير، قال له: لله درّك يا زيد ما وُصِفَ لي أحدٌ فرأيته إلا رأيته دون ما وصِفْ إلا أنت يا زيد))

[ورد في الأثر]

دائماً في الدنيا الإنسان يفَاجأ، يوصَفُ لك مكانٌ جميل، تذهب إليه، فإذا هو أقلّ مما وصِف، يوصف لك بيتٌ جميل، تدخل إليه، فإذا هو أقل مما وصف، كل شيءٍ في الدنيا سماعه خيرٌ من عيانه، أما الآخرة فبالعكس، كل شيءٍ في الآخرة عيانه أعظم من سماعه، لهذا قال الله عزّ وجل:

(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)

(سورة السجدة: من الآية 17)

ماذا قال ؟ فلا لو تعلمُ، لو قال: لو تعلمُ لأمكن أن تعلم، بل قال: فلا تعلم، أي: يستحيل على الإنسان أن يعلم ماذا أعدّ الله له من نعيمٍ مقيم، فلذلك المؤمن حينما يقبض الله روحه، ويرى من حوله يبكون، ويتألّمون، ويندبون حظّهم، ويضربون وجوههم، ويمزّقون ثيابهم، يقول النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموضوع:

((إنّ الْمَيّتَ يُعَذّبُ ببُكَاءِ أهْلِهِ عَلَيْهِ))

[من صحيح مسلم عن عبد الله]

العلماء حاروا في هذا الحديث، ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: من الآية 164)

فما ذنب هذا الرجل يُعَذّب لأن أهله يبكون عليه ؟ قال بعض شرّاح الحديث: إن المؤمن إذا رأى مقامه في الجنّة، ورأى أهله يبكون يتألّم لهم، هو في نعيمٍ مقيم، هو في جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، هو في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، لا خوفٌ عليه ولا هو يحزن.

5 ـ مَن أحَبّ لقاء الله أحَبّ اللهُ لقاءَه:

لذلك الإنسان من ضعف عقله أن يتعلّق بالدنيا، ومن رجاحة عقله أن يتعلّق بالآخرة وأرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً، وإنّ أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزوُّد لسكنى، القبور والتأهُّب ليوم النشور.

صحابيٌ جليل تفقّده النبي عَقِبَ معركة أُحُد فلم يجده، قال: أين هو ؟ هذا الصحابي هو سعد بن الربيع، كلّف النبي أصحابه أن يتفقّدوه في ساحة المعركة، ذهبوا إليه فإذا هو بين الموتى، لم يمت بعد، قال له من كلّفه النبي بذلك: " يا سعد أبين الأحياء أنت أم بين الأموات ؟ " أي ما وضعك ؟ قال: " أنا بين الأموات "، أي في النزع الأخير، سيدنا سعد بن الربيع قال لهذا الصحابي الرسول: " أبلغ عني رسول الله أن جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته ـ أي الله يجزيك الخير على هذه الهداية ـ وابلغ أصحابه أنه لا عذر لكم إذا خُلِصَ إلى نبيّكم وفيكم عينٌ تطرف ".

كان في قمّة سعادته، وعلامة الإيمان أن المؤمن يشتاق إلى الله عزّ وجل، يحبُّ لقاء الله، كلّما استقمت على أمره، وصلُحَ عملك تمنيت لقاء الله عزّ وجل، هذه قاعدة، ولكن الله جلّ جلاله يصف اليهود فيقول:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الّذِينَ هَادُوا إنْ زَعَمْتُمْ أَنّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلّهِ مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنّوْا الْمَوْتَ إنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(6)وَلا يَتَمَنّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ(7))

(سورة الجمعة)

إذاً: نحن إزاء قانون، هذا مقياس لنا جميعاً، تمنّي الموت أن تشتاق إلى الله، فالنبي عليه الصلاة والسلام عُرِضَت عليه الدنيا فقال:

((بل الرفيق الأعلى))

[البخاري]

لقد اختار لقاء الله عزّ وجل، لذلك سيدنا الصديق بكى حينما قال النبي الكريم في خطبةٍ من خطبه:

((إن رجلاً خيّره الله بين ما عنده وبين الدنيا فاختار ما عند الله))

أجل فبكى الصديق بكاءً شديداً، وقال: " بل نفديك بأرواحنا يا رسول الله "، عَلِمَ أن المعني هو رسول الله.

وحينما نزلت الآية الكريمة:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3))

(سورة النصر)

قال الصحابي الجليل عبد الله بن عباس: **<< هذا نعي النبي >>.**

أخطر حدثٍ في حياتك حدث مفارقة الدنيا، وأعقل إنسان هو الذي يعدُّ لهذا الحدث الذي لابدَّ منه، لابدَّ من ساعةٍ يُوضَع الإنسان في القبر، لابدَّ من ساعةٍ يترك الدنيا كلها ؛ بيته، أهله، أولاده، بلدته، مكانته، أمواله، متنزّهه، مقصفه، أجل، إنه يدع كل شيء، لذلك أعقل إنسان هو الذي يترك الدنيا قبل أن تتركه، هو الذي يتعلّق بالآخرة قبل أن تجذبه، هو الذي يقدِّم ماله أمامه حتّى يسرَّه اللحاق به.

6 ـ فليكفكم من العيان السماعُ، ومن الغيب الخبرُ:

هناك شيء آخر، إذاً: كل شيءٍ في الآخرة عيانه أعظم من سماعه، فليكفكم من العيان السماع، ومن الغيب الخبر ".

الآن قال العلماء: **" واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة، خيرٌ مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا ".**

إذا كانت دنياك متواضعة ومحدودة، وكانت أخراك غنيَّة مترعة، فهذا هو التوفيق، أما إذا زاد نصيبك من الدنيا، وقلَّ في الآخرة فهذا هو المصاب الكبير، " واعلموا أن ما نقص من الدنيا، وزاد في الآخرة خيرٌ مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوصٍ رابح، وكم من مزيدٍ خاسر، واعلموا أن الذي أُمِرْتم به أوسع من الذي نُهيتم عنه "، قال تعالى:

(وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

(سورة البقرة: من الآية 35)

نسبة المحرّمات إلى ما هو حلال نسبةٌ ضئيلةٌ جداً جِداً جداً، الخمر محرّمة، عد كم شراباً مباحاً ؟ كم شراب لك أن تشربه هنيئاً مريئاً طيّباً مباركاً ؟ مئات ؛ بل ألوف، لحم الخنزير محرّم، كم من الأطعمة مباحةٌ لك ؟ أنواع منوّعة لا يعلم عددها إلا الله عزّ وجل، إذاً:

" واعلموا أن الذي أمِرْتم به أوسع من الذي نُهيتم عنه، وما أحِلّ لكم أوسع مما حُرّمَ عليكم، فذروا ما قلّ لما كثُر، وذروا ما ضاق لما اتسع، قد تُكُفِّل لكم بالرزق وأمِرْتم بالعمل ".

7 ـ لا تشتغلْ بما لم تُكلّف به:

أوضح مثل لهذا الموضوع: في مدينة دمشق مدرسة، هي التجهيز الأولى قديماً، هذه المدرسة كانت الثانويّة الأولى في القطر، في عام (1937 ـ 1938) كانت الثانويّة الوحيدة في القطر، وكان فيها نظام المبيت الليلي، فكان فيها مطابخ، وفيها مهاجع، وفيها قاعات للمطالعة، فهذا الطالب مكلّف بالدوام، مكلّف بحضور الدروس، مكلّف بالمطالعة والمذاكرة والدراسة، وهناك عاملون في المطبخ، وفي إعداد الطعام، وفي تهيئة الطعام، وفي طبخ الطعام، وهناك من يجلب الأرزاق، وهناك من يهيّئ الأطباق، ولكن الطالب مضمون له الطعام في الوقت المحدّد، يُقْرَع الجرس، فيتوجّه إلى المطعم، فإذا كل شيءٍ على الطاولة ؛ الطعام، والشراب، والفاكهة، والحلويات، مطلوبٌ منه أن يدرس، ولا شيء غير الدراسة، وقد تكفّلت له المدرسة بثلاث وجباتٍ أساسية متوازنة وكاملة، ما قولك بطالبٍ ترك قاعة المطالعة، وترك مذاكرة الدروس، وترك حضور المحاضرات، وتوجّه إلى المطبخ يسألهم: هل أتيتم بالبصل ؟ ماذا فعلتم بالأكلة الفلانيّة ؟ هل تمّ نضجها ؟ هذا ليس شغلك، كُلِّفت بالدراسة، وتكفلنا لك بالطعام، فلماذا تركت الدراسة، وحشرت أنفك في الطعام ؟

هذه قضيّةٌ مهمّةٌ جداً، الإنسان الضال المضل الغافل التائه يشغل نفسه بما تكفّل الله له به، ويُعْرِضُ عما كُلِّف به.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى(39))

(سورة النجم)

ليس لك إلا ما سعيت، الآية دقيقة جداً ففيها قصر، لو أن الله عزّ وجل قال: للإنسان ما سعى، وله ما لم يسعَ لتغير المعنى كليّةً.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى(39))

ليس لك في الآخرة إلا عملك الصالح، إلا استقامتك، إلا بذلك، إلا عطاؤك، إلا صدقتك، إلا زكاتك، إلا غضُّ بصرك، إلا ضبط لسانك، إلا خدمتك للخلق، إلا إطعام الطعام، إلا بذل السلام، إلا رعاية اليتيم،

ليس لك إلا هذا، ولكن الرزق في الدنيا تكفّله الله لك، فهذا الذي يُعْرِض عن الدين من أجل رزقه، يفعل كما يفعل هذا الطالب الذي ترك قاعة المطالعة، ترك حضور الدروس، وتوجّه إلى المطبخ ليسأل: ماذا فعلتم بهذه الأكلة ؟ وماذا فعلتم بهذا الطعام ؟

لذلك يقول الإمام علي: **<< واعلموا أنه قد تُكُفِّل لكم بالرزق، وأُمِرْتم بالعمل، فلا يكن المضمون لكم أولى بكم من المفروض عليكم، فبادروا بالعمل، وخافوا بغتة الأجل >>.**

8 ـ بادِروا بالعمل، وخافوا بغتة الأجل:

ما من إنسان يموت أحدٌ من أقربائه إلا ويسأل سؤالاً فيه فضول: كيف مات ؟ هل كان مريضاً ؟ يُفاجأ الإنسان أحياناً أن الشخص لا يشكو شيئاً، في ذهنه آمالُ عشرين سنة قادمة، يأتيه الموت فجأةً بغتةً، فهذا الموت السريع، المغادرة السريعة وما أكثرها، ولا سيما في هذه الأيام، ألفنا بفطرتنا أن الإنسان يمرض سنتين، ثلاثاً، عشر سنوات يبقى طريح الفراش، ثم يأتيه الموت على انتظار، أما أن يتناول الإنسان طعام الفطور في بيته بين أولاده، وفي الظهيرة تراه مُسَجًّى على فراش الموت، أو ينام فلا يستيقظ، أو يستيقظ فلا ينام، يذهب فلا يعود، أو يعود فلا يذهب، فهذا شيء عجيب، يقول سيدنا علي: " بادروا بالعمل، وخافوا بغتة الأجل "، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا ربّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة، ألا يا ربّ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة))

[ورد في الأثر]

ربنا عزّ وجل ماذا قال ؟ قال:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة: من الآية 16)

الآية فيها صورة جميلة، أي أن المؤمن لا يركن للدنيا، فالمضجع مكان للراحة، لا يستريح إلا إذا أحسّ أن الله راضٍ عنه، لا يستريح إلا إذا رأى عمله موافقاً للشرع، لا يستريح إلا إذا صلّى فرضي عن صلاته، لا يستريح إلا إذا ذكر فرضي عن ذكره، لا يستريح إلا إذا أكرمه الله بالعِلم، لا يستريح إلا إذا أكرمه الله بالاستقامة، لا يستريح إلا إذا أجرى الله الخير على يديه، عندئذٍ يطمئن؛ أما إذا جاءته الدنيا فما قيمة الدنيا ؟ لابدّ من أن تزول.

سمعت عن رجلٍ قبل أكثر من خمسة عشرَ عاماً، كان يملك قصراً في مدينة من مدن الشمال يزيد ثمنه على خمسةٍ وثلاثين مليوناً، قبل خمسة عشرَ عاماً ـ الآن يمكن أن يكون ثمنه خمسمائة مليون، قصر كبير ـ مات في مقتبل العمر، مات في سنٍ لا تزيد على اثنتين وأربعين سنة، وشاءت حكمة الله عزّ

وجل ـ كان طويل القامة ـ أن يكون القبر الذي دُفِنَ فيه أقصر من قامته، فاضطرّ حفّار القبر أن يضعه على الأرض، وأن يدفعه بصدره، فانثنى رأسه ليسعه القبر، هذا البيت العظيم الذي فيه رخام بما يزيد على خمسة ملايين تركه، وغادر الدنيا فجأةً، وهناك قصص كثيرةٌ جداً نسمعها، إنسان أعدّ كل شيء، رتّب كل شيء، دقّق في كل شيء، ثمّ قال له مَلَك الموت: تفضّل، الآن ؟ لأنه:

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

(سورة الأعراف)

أجملُ كلمة: **" بادروا بالعمل، وخافوا بغتة الأجل "..**

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(54)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ(55)أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

(سورة الزمر)

9 ـ ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟:

أيها الإخوة الأكارم... نحن الآن أحياء نُرزَق، قلبنا ينبض، نفَسُنا يدخل ويخرج، نحن الآن في بحبوحة؛ باب التوبة مفتوح، باب العمل مفتوح، باب الإنابة مفتوح، باب الذكر مفتوح، باب فهم كلام الله مفتوح، أبواب الجنّة كلّها مفتّحة، لذلك:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا))

[من سنن الترمذي عن أبي ذر]

ماذا ينتظر أحدكم ؟ الحديث دقيق جداً، يا ترى أنا كل يوم استيقظ كاليوم السابق من دون شيء يعكر صفوة العيش ؟ أليس هناك مفاجآت ؟ ولكن هؤلاء الذين غادروا الدنيا كيف غادروها ؟ بخبر مفاجئ ؛ إما في كليته، وإما في قلبه، وإما في دماغه، وإما في شرايينه، لابدّ من مفاجأة، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى))

[من سنن عن أبي ذر]

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ

أيها الإخوة الأكارم، قدّمت لكم هذا النص من كلام الإمام علي كرّم الله وجهه تقديماً لهذا الحوار:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

أهل النار وهم يحترقون، والنار تلفح وجوهَهُم، وألسنتها تحرق جلودهم.

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(27)قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ)

قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

أي كنتم توسوسون لنا، تدفعوننا إلى المنكر، إلى المعاصي..

(قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

1 ـ الذي أُضِل كانت عنده رغبة في الضلال:

هذا كلام مخيف، مفاده أن لا أحدَ يستطيع أن يضلّ أحد، الذي في وهمنا أن فلاناً قد أضلّه شخص آخر، الذي أُضِل كانت عنده رغبةٌ في الضلال، فلو لا هذه الرغبة لما سمح لأحدٍ أن يضلِّه، فهذا الكلام مفاده أن أحداً في الدنيا لا يستطيع أن يضلّ أحداً..

(إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ)

تأتوننا من جهة اليمين لتوسوسوا لنا..

(قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

2 ـ الإنسان ابن نفسه:

لو كنتم مؤمنين لما استجبتم لنا، لو كنتم مؤمنين لما أصغيتم لنا، لو كنتم مؤمنين لما سرتم معنا، لو كنتم مؤمنين لما وافقتمونا، لو كنتم مؤمنين لاستعصيتم علينا، معنى ذلك المؤمن وقّافٌ عند كلام الله، ما يقال عن البيئة، والمحيط، والوراثة، وجو البيت، والمنزل، والعائلة والأسرة، والثقافة، والفساد العام، هذا كله كلام فارغ.

مرّةً قال لنا أستاذ في الجامعة ـ وهو أستاذ في علم النفس ـ: صحيحٌ أن الإنسان ابن بيئته، وصحيحٌ أن الإنسان ابن وراثته، وصحيحٌ أن الإنسان ابن أبويه، وصحيحٌ أن الإنسان ابن ثقافته ؛ ولكن الأصحّ من ذلك كلِّه أن الإنسان ابن نفسه.

الإنسان له اختيار، وهذا يؤكِّده أن بيئةً سيئةً جداً يخرج منها شابٌ مؤمن، نقول: يا الله !! عجباً، صاحب البيت يدير أكبر ملهى فيه كل المعاصي، وهذه الفتاة التي جاءت من صلبه، لماذا اختارت طريق الهدى ؟ لماذا أبت أن تأكل من طعام أبيها ؟ لماذا تحجَّبت ؟ لماذا صلّت قيام الليل ؟ لماذا حفظت القرآن وأبوها يدير ملهى ؟ لماذا ؟ لماذا امرأة فرعون كانت مؤمنة ؟ لأن لها اختياراً، الإنسان مخيَّر، فهل هناك جو أصعب من فرعون ؟ فرعون وقصر فرعون وحاشية فرعون ؟ وامرأة فرعون..

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلا لِلّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ)

(سورة التحريم: من الآية 10)

فهل هناك بيئة أعظم من بيئة نبي ؟ وهل هناك بيت أطهر من بيت نبي ؟ مهما كان الأب عالِماً، وكان ورعاً وتقياً ونقياً، ومتبحِّراً في العلم، ويتحلّى بأخلاق عالية، ولديه حلم جم، يا ترى فهل ستكون أخلاقه وعلمه أعظم من أخلاق نبي ؟ ومع ذلك:

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلا لِلّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ(10)وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا لِلّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنّةِ وَنَجّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ(11))

(سورة التحريم)

أرأيتم إلى أن البيت لا قيمة له، والوراثة لا قيمة لها، طبعاً لها تأثير، ولكن غير كلي ـ لكي يكون كلامي علمياً ـ هناك أثر للبيئة والثقافة والوراثة والأسرة، ولكن هذا الأثر لا يلغي اختيار الإنسان، لو أن الإنسان أراد ـ وقد قرأت مرّةً كلمةً لا تزال ترنُّ في أذني: إنّ القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيّام، إذا كان صادراً حقّاً عن إرادةٍ وإيمان ـ فإذا اتخذت قراراً بالصلح مع الله، أهل الأرض كلّهم لا يستطيعون أن يثنوك عن هذا القرار.

والله سمعت قصّة من أحد علماء دمشق، ثمّ تثبّتت منها، خلاصتها أن: أحد شيوخ الأزهر الكبار، وأحد العلماء الأجلاّء الورعين في الزمن الماضي طبعاً، كان أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، وهو من صعيد مصر، يبدو أنه رأى طالب علمٍ فتمنّى من كل قلبه أن يكون عالِماً، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، واسمه زكريّا الأنصاري، ركب دابّته وتوجّه إلى مصر ـ هذه القصّة قديمة جداً، وأذكر أنها حدثت في الأربعينات ـ فسأل أحد الباعة في مشارف القاهرة: أين الأزعر ؟ قال له: ما الأزعر يا أخي ؟ قال له: محل العلم، قال له: اسمه الأزهر، أي أزعر ؟ إنه الأزهر، دلّه على هذا المكان الطيّب، فهذا الرجل وهو في الخامسة والخمسين ـ صدِّقوا هذا الكلام ـ أحد إخواننا في الخامسة والخمسين حفظ القرآن

الكريم ـ هذا الإنسان تعلّم القراءة والكتابة في الخامسة والخمسين، وقرأ القرآن وحفظه، وطلب العلم، وما مات في السادسة والتسعين إلا وهو يشغل منصب شيخ الأزهر.

إذا طلب الإنسان شيئاً فإنه يفعل المستحيل لتحقيق طلبه، فلا بيئة، ولا ظروف، ولا معطيات ـ هذه كلمة حديثة ـ معطيات، وظروف، وبيئة، وعقبات، ووراثة، ومحيط، هذا كله كلام فارغ، إذا أردت الله عزّ وجل يسّر الله لك كل شيء، وإذا لم تكن صادقاً في الطلب فلن تصل، لهذا فالله عزّ وجل لا يتعامل مع التمنيّات أبداً، فهل يا ترى في القطر العربي السوري، هل هناك طالب من طلاب الشهادة الثانويّة لا يتمنّى أن يكون الأول على القطر ؟ التمني سهل، الفقير يتمنى الغنى، والجاهل يتمنى العلم، ولكن بدون حركة، وبدون عمل، أو سعي وبدون شوق لن يبلغ الغاية، لذلك فالله جلّ جلاله لا يتعامل مع التمنيات..

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء: من الآية 123)

أما قول الله تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء: من الآية 19)

فلم يقل: وسعى لها ؛ بل قال:

(وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

لأن لها سعياً خاصّاً، ولأن لها شروطاً صعبة، ولأن أمام طالبها عقباتٍ كثيرة، صدقه يؤكِّده صبره، واحتماله، وإصراره، وطلبه، وإلحاحه..

أخلق بذي الصبر أي يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلج

***

إذاً:

(قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ)

أنتم ورّطتمونا، أفسدتمونا، أفسدتم عقائدنا، أوهمتمونا، أنتم الذين أضللتمونا، هذه تهم يوم القيامة ـ في الآخرة ـ فأجاب هؤلاء الذين اتُهموا قالوا رداً عليهم:

(بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

انتهى الأمر، كنتم تتمنون الضلالة، كنتم تسعون إليها..

(بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

أما الآية الثانية، كل آية عبارة عن قانون، أول آية: لا يستطيع أحدٌ على وجه الأرض أن يضلّ أحداً.

الآية الثانية:

(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ)

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ

الحقيقة الثانية أن أحداً على وجه الأرض لا يملك على أحدٍ أي سلطان، فكل قولٍ منكر يقوله الإنسان، أو حينما يرتكب المعصية فإنه يسبُّ الشيطان، فهذا كلام فارغ إذ يحمل الشيطان كلامه أو أفعاله..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

1 ـ الإنسان مختار:

فهل من الممكن لإنسان أن يتوجّه إلى مخفر للشرطة، وهو يرتدي أجمل الثياب البيضاء في الصيف، فإذا هي ملطّخةٌ بالوحل، والماء الآسن الأسود، ثم يدّعي على فلان ؟ قال المسؤول: على فلان، لماذا ؟ قال: لأنه هو السبب في هذا، قال له المحقِق: يا ترى دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال له: لا والله ما دفعني، قال: شهر عليك سلاحاً وأجبرك أن تنزل فيها ؟ قال: لا والله، قال: فكيف تدّعي عليه ذلك ؟ قال: هو الذي قال لي: انزل فنزلت، فهذا الإنسان ألا يستحقُّ أن يُوضَع في مستشفى الأمراض العقليّة ؟ فهل كان للآخر عليه سلطان ؟ لا لم يكن له سلطان عليه، قال الشيطان:

(إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

انظر إلى الآية ما أدقّ معناها.

(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ)

فلا يوجد لأحد سلطان عليه.

إذاً الحقيقة الثانية: أن لا أحد يستطيع أن يضلّ أحداً، لأنه ليس له عليه سلطان، لا سلطان لأحدٍ عليك، فأي شيءٍ تفعله محاسبٌ عنه.

إنّ الذي جاء سيدنا عمر، وقد ضُبط متلبّساً بشرب الخمر، قال له: **<< يا أمير المؤمنين إن الله قدّر عليّ ذلك >>**، فقال سيدنا عمر رضي الله عنه: << أقيموا عليه الحدّ مرّتين ـ مرّةً لأنه شرب الخمر، ومرّةً لأنه افترى على الله ـ قال له: **" ويحك يا هذا: إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >>.**

أنت مخيَّر ولست بمسيَّر بهذا الموضوع، أنت مخيَّر فيما كُلِفت، إذاً:

(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ)

أنتم أردتم الضلال، أنتم اخترتم الغواية، أنتم أردتم الشهوة، أنتم انحرفتم، لذلك:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

أيّ إضلالٍ يُعزى في القرآن إلى الله عزّ وجل فيما يبدو، فالمفسِّرون أجمعوا على أن هذا الإضلال هو الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري، إذا قلت: الله أضلّهم، بمعنى أنهم اختاروا الضلالة، فساروا في طريقها بموافقة من الله عزّ وجل، فالإضلال إذا عزي إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري، استنباطاً من قول الله عزّ وجل:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ

الآن:

(فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا)

حقّ علينا وعيده..

(إِنَّا لَذَائِقُونَ)

رجلٌ سأل النبي الكريم أن يعظه وقال: " عظني ولا تطل "، (أي لا تطول عليّ)، فالنبي اختصرها له وقال:

((قل آمنت بالله ثم استقم))

فقال له: " أريد أخفّ من ذلك "، هذه ثقيلة عليّ، فقال عليه الصلاة والسلام، انظر إلى الجواب:

((إذاً فاستعدّ للبلاء))

إذا كانت ثقيلة عليك فلتتحمّل، وكل إنسان وجد في الاستقامة شيئاً صعباً، فالأصعب من الاستقامة تحمُّل البلاء، تحمُّل التأديب الإلهي، تحمُّل المعالجة، تحمُّل المصائب، فإن لم تستقم على أمر الله فاستعدّ للبلاء.

أحياناً على المستوى الصحي، يأتي طبيب فيلقى محاضرة عن آثار التدخين، وعلاقة الدخان بالجلطة، وعلاقة الدخّان بضيق الشريان التاجي، وعلاقة الدخان بتكوين المادة التي تسبّب تجمُّد الدم، وعلاقة الدخّان بسرطان الرئة، وعلاقة الدخان بسرطان البلعوم، وعلاقة الدخان بضيق الأوردة والشرايين،

وهذا الإنسان لا يبالي، آثر لذّة الدخّان على أخطاره، فحينما تأتي المصائب، حينما يصاب بآفات في أجهزته الدمويّة والتنفسيّة، وحينما يدفع الثمن باهظاً، عندئذٍ يندم ولات ساعة مندمٍ، أي لا ينفع الندم، وليست الساعة ساعة ندم، ماذا يجدي ؟ قال له: أريد أخفّ من ذلك، فقال: " إذاً فاستعدّ للبلاء ".

فهنا:

(فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ(31)فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)

فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ

فنحن لم نكن مهتدين فأضللناكم، لا، بل نحن كنّا غاوين مثلكم، نحن لم نكن مهتدين، نحن قلنا لكم ما كنّا نتوهّمه من باطل، فإذا هو باطل، كنّا نحن قوماً طاغين، ومنحرفين..

(فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)

قال:

(فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ

فأجمل صورة نصوّر بها حالة أولئك مثلها: عندما يشكّل شخص عصابة ويعطيها وعوداً كاذبة، أنهم غداً تصبحون من الأغنياء الكبار، ونسافر خارج القُطر، ونشتري ونسرح ونمرح.. إلخ، فإذا ألقي عليهم القبض جميعاً، ودخلوا إلى السجن، فإذا نظر بعضهم إلى بعضٍ بدا، وكأنه يريد أن يفتك به: أنت كنت السبب، يرد عليه: أنت لماذا وافقت معي ؟

هذه حكاية القصّة كلها بشكل ملخّص، لو أن زعيم عصابة أقنع أفراد عصابته بارتكاب جريمة، ومنّاهم بالأموال الطائلة والسفر، والانغماس في الملذّات المحرّمة، ثم ألقي القبض عليهم، وأودعوا في السجن، وذاقوا ألوان العذاب، فإذا قال أحدٌ من هؤلاء (الذين غُرّرَ بهم) على حدِّ قول الصحافة، إذا قال أحدهم: أنت الذي كنت السبب، يقول لك: فلماذا وافقتني على ما طلبت منك ؟ هذا الذي يحدث يوم القيامة..

(فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ(32)فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(33)إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى، لماذا وصلوا إلى ما هم فيه من عذاب ؟ قال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا)

في الدنيا..

(إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

إذا عَزَيْتَ الأمر كله لله عزّ وجل، وأن الله هو المسيّر وبيده كل شيء، فهذا الكلام يزعج محبي الدنيا، لا يقبله أحدهم، بل يريد شركاء لله، ويقول لك: الأمر يتعلق بزيد وعُبَيد، وفلان وعلاّن، أنه يريد أن يبقى في الأرض مشدوداً إليها، وألا يصعد أو يرقى إلى السماء، ويصرّ على ألا يكون لله دخلٌ في الحوادث اليوميّة، فكل هذا الشقاء سببه الشِرك.

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ(35)وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ(36)بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)

الدرس القادم إن شاء الله نذكر أثر الإيمان بلا إله إلا الله على استقامة الإنسان ؟ أي أن الشرك هو سبب كل انحراف، وكل شقاء ؟ كل هذا الشقاء الذي يعانونه في الآخرة بسبب أنهم رفضوا أن يوحِّدوا، بقوا في الشرك، والشرك كان سبباً فيما هم فيه من عذابٍ مقيم، قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف: من آية 106)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (05-14): تفسيرالآيات 35 - 49
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة الصافات، ومع الآية الخامسة والثلاثين.

أيها الإخوة الأكارم، لا زلنا في مشاهد من يوم القيامة، وأبيّن لكم أننا الآن في دار عملٍ ولا جزاء، وسوف نَقْدُمُ على دار جزاءٍ ولا عمل، الآن الإنسان يعمل ما يشاء، أودع الله فينا الشهوات، أعطانا حريَّة الاختيار، من اختيارنا أن نستقيم أو ألا نستقيم، من اختيارنا أن نحسن أو أن نسيء، من اختيارنا أن نأخذ ما لنا وما ليس لنا، ولكن حينما يأتي يوم القيامة ليس هناك إلا الجزاء، فربنا جلّ جلاله يقدِّم لنا مشاهد من يوم القيامة، مشاهد تصوِّر أهل الجنَّة وهم في الجنَّة يتنعَّمون، ومشاهد من واقع أهل النار، تصوِّر أهل النار وهم يتصايحون.

فربنا جلّ جلاله حينما قال:

تذكير بما سبق:

(فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

1 ـ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ

أي الفريقين: الضالين والمضلّين كلاهما معاً في النار يُعذّبون، والآيات التي فُسِّرَتْ في الدرس الماضي هي قوله تعالى:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(27)قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ(28)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(29)وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ(30)فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ(31)فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ(32)فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

2 ـ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ(28)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

فحوى هذه الآيات السابقة أن أحداً لا يستطيع أن يُضِلّ أحداً، الذي يبدو أنه ضل، أو الذي يبدو أنه أُضِل، هو في الحقيقة عنده رغبةٌ في الضلال، وإلا لما استطاع الكبير أن يضلّ الصغير، ولما استطاع القويُّ أن يُضِلّ الضعيف، لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لأحدٍ سلطاناً على أحد، ولا أحد يضلّ أحداً،

وإن أحداً لا يتحمّل تبعة ضلال أحد، بل كل إنسانٍ بما كسب رهين، هذه فحوى الآيات السابقة.

حينما قالوا:

(قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ(28)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

لو آمنتم لما استجبتم لنا..

(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ(30)فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ)

3 ـ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ

هم جميعاً في العذاب..

(فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)

نحن كنّا ضالين مثلكم، كنا ضالين فأضللناكم..

(فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

والآية التالية الآن تلخص مصير مجرم سواء أكان مُضِلاً، أو مضَلاً:

(إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ

فأي مجرمٍ على وجه الأرض عاش، ويعيش، وسيعيش هكذا نفعل به، فربنا عزّ وجل جعل هذا المشهد قانوناً مُطّرداً، أيّ إنسانٍ أجرم، انحرف، طغى، بغى، غوى، أخذ ما ليس له، أضلّ الناس فيما يبدو..

(إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

فأي نفسٍ تسلك سلوك هؤلاء، تدفع الثمن باهظاً يوم القيامة، هؤلاء المجرمون لماذا أجرموا ؟ هؤلاء الضالّون لماذا ضلوا ؟ هؤلاء الفاسقون لماذا فسقوا ؟ هؤلاء المنحرفون لماذا انحرفوا ؟ هؤلاء التائهون لماذا تاهوا ؟ هؤلاء المُنغمسون في الشهوات لماذا انغمسوا ؟ هؤلاء المُعْتَدون لماذا اعتدوا ؟ هؤلاء الكفّار لماذا كفروا ؟ الله جلّ جلاله أجاب إجابةً موجزةً جامعةً مانعةً، قال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

لأن الإنسان حينما يوحِّد تنتهي كلُّ مشكلاته، حينما يوحِّد لا حُجَّة له، إذا كذب من أجل الرزق، نقول له: إن الله هو الرزّاق، إذا فسق خوفاً من زيدٍ أو عُبيد، نقول له: الأمر ليس لزيدٍ أو عُبيد، ليس لك من

الأمر شيء ولا لهم، الأمر كلّه لله، لو حلّلت كل المعاصي التي يقترفُها الإنسان، لوجدت أن الشرك وراء كل هذه المعاصي، حينما تعتقد أن زيداً يرزُقُك، وأن عُبيداً يرفعك، وأن فلاناً يقرّبك، وأن علاناً يُبعدك، حينما تعتقد الفعل بيد البشر، تطيع زيداً، وترضي عبيداً، وتنساق مع فلان، وتتبع علاناً، إذاً أنت ضائعٌ بين هؤلاء البشر، وهؤلاء جميعاً لا حول لهم ولا طوْل.

إذاً: ما الذي جعل هؤلاء المجرمين يجرمون ؟ ما الذي جعل هؤلاء الفاسقين يفسقون ؟ ما الذي جعل هؤلاء المنافقين يُنافقون ؟ قال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

1 ـ علاقتك بالله وحده:

وأتمنّى على الله جلّ جلاله أن نكون جميعاً موحِّدين، لأن التوحيد نهاية العِلم، إنّك إن وحّدت لا تخاف إلا الله، ولا ترجو إلا الله، ولا تعلِّق آمالاً إلا على الله، ولا تخشى إلا الله، ولا تطيع إلا الله، هذا هو التوحيد.

أيها الإخوة الأكارم، لو أنّك أمضيت الحياة كلّها، ووصلت في النهاية إلى التوحيد، فقد نلت خير الدنيا والآخرة، لو أنك أمضيت الحياة كلها، وانتهت بك إلى التوحيد، فقد نجوت من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، لأنك بالتوحيد تكون علاقاتك كلها مع جهةٍ واحدة، وهي الله، كل علاقاتك مع الله، كل اهتماماتك لله، كل أعمالك لله، كل طاقاتك لله، كل حركاتك وسكناتك لله، كل مالك لله، كل جهدك لله، وحّدت الوجهة، أما إذا ما كان الإنسان موحِّداً بل كان مشركاً فهو موزّع، ومبعثر، ومُشَتَّت.

فكلمة: (لا إله إلا الله)، أي أن الإله هو من ترجع إليه الأمور، وهو المسيّر، والأمر ليس بيد زيد، وليس هو المرجع، وليس زيد هو الذي يوافق أو لا يوافق، وليس هو الذي يعطي أو لا يُعطي..

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

أي لا مسيّر، لا مُعطي لا مانع، لا رافع ولا خافض، لا مُعِز ولا مذل، لا محيي ولا مميت، لا رازق، لا قابض ولا باسط إلا الله، انتهى الأمر، كل هذا تلخّصه ـ كلمة التوحيد ـ وليس أن تقول: لا إله إلا الله، فحسب فالقضيّة عندئذٍ سهلة جداً، ولكن لابدّ من العمل بها حقاً وصدقاً.

2 ـ لا إله إلا الله قول وتطبيق:

لكنني سأقول لكم بعض التفاصيل: فأنت حينما يأتيك إنسان، ويضغط عليك لتقترف معصية ويهدِّدك، وكان هذا الإنسان قوياً، وكما يظن الناس أو كما يبدو لهم أنه يفعل ما يقول، إذا جاءك هذا الضغط من

أجل أن تعصي الله، هنا يُكْتَشَفُ توحيدك، فأنت في الرخاء والسلام تقول: لا إله إلا الله، القضيَّة سهلة جداً، لا تكلِّفك إلا أن تقول أربع كلمات: لا إله إلا الله، فكلمة لا إله إلا الله باللسان سهلة جداً، لكن من أجل أن تتحقَّق بها، من أجل أن تعيشها، من أجل أن تدخل في كُل كيانك، من أجل أن تتغلغل في وجودك، من أجل أن تتخذ كل موقفٍ في ضوئها، من أجل أن تعطي، أو أن تمنع من خلالها، هذا شيءٌ يحتاج إلى جهد، لذلك كلّما نما إيمانك بالله خالقاً، إيمانك بالله مربياً، إيمانك بالله إلهاً مسيّراً، كلّما نما إيمانك بالله بأسمائه الله الحُسنى، بصفاته الفُضلى، عندئذٍ هذا النماء في الإيمان يُفضي إلى التوحيد.

أيها الإخوة الأكارم، نهاية العلم التوحيد، ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، الموحِّد لا يعصي الله، الموحِّد لا يخاف إلا الله، الموحِّد لا يرجو غير الله، الموحِّد يضع كل آماله في الله، الموحِّد لا ينساق إلى أي إنسان، لا تأخذه في الله لومة لائم، لذلك الله عزّ وجل قال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: من الآية 39)

فلاحظ عندما أمر الله عزّ وجل أم موسى أن تلقي ابنها في اليم، قال:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ(7))

(سورة القصص)

فكيف كان إيمان هذه الأم بالله عزّ وجل ؟ كان إيمانها بالله مسيّراً، إيمانها بأن لا إله إلا الله، وأن هذا الصندوق يتحرّك في اليَم بأمر الله، وبقدرة الله، وبعلم الله، وبرحمة الله، وبلطف الله، فأنت إذا آمنت أن كل شيءٍ في الكون يتحرّك كالصندوق الذي كان فيه موسى ـ كالتابوت ـ انتهى الأمر، أجهزتك بيد الله، خصومك بيد الله، أعداؤك بيد الله، أهلك بيد الله، مَن هُم فوقك بيد الله، من هُم دونك بيد الله، الأقوياء بيد الله، الضُعَفَاء بيد الله، الأصِحَّاء بيد الله، كل شيءٍ بيد الله، هذا الإيمان، إذا أيقنت أنه لا إله إلا الله أصبحت كل علاقاتك بالله، وحدّدت الوجهة إلى الله وحده، وقطعت الآمال مما سوى الله.

3 ـ ارتكاب المعاصي سببُه ضعف التوحيد:

فسبب الإجرام، سبب الفسق، سبب النفاق، سبب التقصير، سبب المعاصي، إنما هي الشهوات، فحينما يرتكب الإنسان معصية فلماذا يرتكبها ؟ لأنه يعتقد أن فيها نفعاً له، لكن لو اعتقد أنه سيحاسب عليها، وأن هذه المعصية فوّتت عليه خيراً كثيراً، لا يفعلها، لصدّق الله عزّ وجل، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى خاطب نفسه ذات مَرَّةً، فقال لها: **" يا نفس لو أن طبيباً نصحكِ بترك أكلةٍ تحبّينها، لا شكّ أنكِ**

تستجيبين له ". ثمّ يقول لنفسه: **" يا نفس إذا كان الطبيب أصدق عندكِ من الله فما أكفركِ، وإن كان المرض أشدّ عندك من النار فما أجهلكِ ".**

فيا أيها الإخوة، يجب أن تعقد اعتقاداً جازماً أن الذي يعصي الله لابدّ من أن يكون كافراً أو جاهلاً، الله عزّ وجل يحذّرك من نار جهنّم، فإذا حذّرك الطبيب تستجيب له، أكلةٌ تحبُها حبّاً جمّاً، تأكلها كل أسبوعٍ مرّتين أو ثلاثة، قال لك الطبيب: هذه الأكلة تسبّب لك مرضاً خطيراً، إنّك تصدّق الطبيب، وتكفُّ عن تناول هذه الأكلة، فإذا صدّقت الطبيب، ولم تصدّق الله عزّ وجل ـ أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أم يكون المرض أشدّ عندكِ من النار ؟ إذاً ما أجهلكِ ـ النار أشد من المرض، مناقشة دقيقة جداً: **" يا نفس لو أن طبيباً منعكِ من أكلةٍ تحبينها، أغلب الظن أنكِ تستجيبين له " يقول لنفسه: "** يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أو يكون المرض أشدّ عندك من النار؟ إذاً ما أجهلكِ ". فالذي يعصي الله عزّ وجل بين جاهلٍ وكافر.

4 ـ القرآن أعظمُ كتاب في تسيير حياة المؤمن:

لابدّ للإنسان من أن يؤمن، تقول: أنا مؤمن، الإيمان لا يتأتّى هكذا، ما سمعنا في حياتنا أن إنساناً نال دكتوراه وهو نائم، أو نال هذه الشهادة العالية من دون جهد، من دون بذل الوقت الكافي، ومن دون تفرُّغ، لابدّ من وقتٍ، لابدّ من جهدٍ، لابدّ من أن تأتي جهةٌ تُعَلِّمك هذا، فلابدّ للمؤمن من مجلس علم، لابدّ من أن يستمع، لابدّ من أن يتعلّم، وأعظم كتابٍ في حياة المؤمن كتاب الله عزّ وجل، وهو أخطر كتاب.

تصوّر إنساناً عنده امتحان مصيري، يتوقّف على نجاحه في الامتحان مستقبلُه كلُّه، وعنده مكتبة ملء أربعة جدران من الأرض إلى السقف كلُّها كُتب، وبعد يومين سيؤدّي امتحاناً في كتابٍ واحد من هذه الكتب، أليس من العقل والحكمة أن يقرأ الكتاب المقرّر ؟ وفي الحياة الدنيا الآن من الكتب، والمجلاّت، والدوريّات، والمطبوعات، ما لو أردت أن تقرأ ما يُطْبَع في يومٍ واحد لاحتجت إلى مائة عام، أجل، ما يُطْبَع في اليوم الواحد، كتبٌ لا تنتهي، لكن الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو كلام الله عزّ وجل، الكتاب المقرّر كلُّه حق، كلُّه صدق، وهو من عند خالق الكون، إنه القرآن، لذلك هذا هو الكتاب المقرّر.

ومعرفة الكتاب المقرّر ـ القرآن ـ فرض عين، إنك في حركتك اليوميّة تتحرّك إما على هدىً وإما في عمىً، فالذي قرأ القرآن الكريم، وفهم الأمر والنهي، والحلال والحرام، والوعد والوعيد، هذا يتحرّك

على هدىً من ربّه، أما الذي هجر القرآن الكريم وجعله وراء ظهره، هذا يتحرّك خبطَ عشواء، لابدّ من أن يُخطئ.

إذاً ربنا عزّ وجل لخّص هذا الحوار وهذا النقاش في كلمة واحدة، فقال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

يقول لك أحدهم: يا أخي فلان بيده كل الأمور، ودائماً تجد الإنسان الفاسق يرغّب في إنكار التوحيد، ويعزو الأمور إلى أشخاص من بني البشر، فيقول لك: فلان يده طائلة، فلان مركزه قوي، فلان يفعل ما يريد، فلان بإمكانه أن يفعل معي كذا وكذا. دائماً يفسِّر الأحداث تفسيراً أرضياً، فأي إنسان يهدِّده يخاف منه، أي إنسان يلوّح له ببعض المكاسب يتّبعه، فالمشرك هراءٌ فؤاده، وأيّ كلمة تخيفه، وأيّ كلمة تَسْتَخِفُّهُ، لكن المؤمن يدرك أن الأمر كلّه بيد الله عزّ وجل.

أطول قصّة في القرآن الكريم قصّة يوسف عليه السلام، ربنا عزّ وجل في ثنيات هذه القصّة قال:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

5 ـ الشرك نقضٌ وهدمٌ لكلمة التوحيد:

الناس أحياناً يقولون لك: الجهة الفلانيّة العالم كلّه بيدها ـ هذا النظام الجديد ـ هذا هو الشرك، الأمر بيد الله وحده.

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا)

لا أمرهم، بل أمرنا..

(لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس: من الآية 24)

فهذه القلاع التي يظنُّها الإنسان لا تنهدم انهارت كبيت العنكبوت بقدرة الله عزّ وجل، ما كان أحدٌ يظنُّ أن هذه القِلاع في الشَرق يمكن أن تنهار في وقتٍ قصير، هذا يؤكِّد قدرة الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل بيده الخلق..

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

فربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا)

أي أن هؤلاء المجرمين استحقوا العذاب الأليم، استحقوا النار المُحْرِقَة، استحقوا الخلود في النار..

(إِذَا قِيلَ لَهُمْ)

في الدنيا..

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

تقول له: يا أخي الأمر بيد الله، وهو يريده بيد زيد أو عُبيد، هو يريد آلهةً في الأرض يتعامل معهم، دائماً الأصنام وآلهة الأرض التي تُعْبد من دون الله عزّ وجل، هذه لا تُطالب الإنسان بنظام أخلاقي، بل أدَ ولاءك وافعل ما تريد، بينما دين الله عزّ وجل يطالبك بانضباطٍ، والتزامٍ، وسلوك معين ـ " يا رسول الله مثِّلْ بهم " قال:

((لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبيّاً))

دين الله عزّ وجل يطالبك بالسلوك السّويّ، بانضباط، بأن تقف عند الحلال والحرام، لكن أي انتماءٍ لأي دينٍ أرضي لا يطالبك بهذا السلوك.

إذاً:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

هذا هو الكبر أساساً..

((الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقّ، وَغَمْطُ النّاس))

[صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن مَسْعُود]

البطر هو الردّ، لسان حاله يقول لك: أنا لا أقبل بهذه الفكرة.

مثلاً: لو أن الناس تعارفوا على أن هذه الحرفة تدرُّ أرباحاً طائلة، لكن فيها مخالفة للدين، هو يرى أن المال أغلى من كل شيء، يرى أن كسب المال الوفير أهمُّ من كل شيء، يرى أن هذه الأرباح طائلة ومن أجلها يُضَحِّي بكل شيء، هذا هو الشرك، ولو رأى أن الله عزّ وجل هو الرزّاق ذو القوّة المتين، وأن هذا المال الوفير الذي يأتي سريعاً والله قادرٌ على أن يتلفَهُ، وأن يذهب به، إذاً يقف الحقيقة:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

إذا كان إيمانُ الإنسان ضعيفًا، هذا الإيمان الضعيف لابدّ من أن يظهر، ولابدّ من أن يوضَع في ظروف، ويظهر ضعف إيمانه، لابدّ من أن يوضع في صراعات، ويظهر ضعف إيمانه، أي أن كل شيء كامن في النفس لابدّ من أن يظهر إلى حيّز السلوك..

(وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ)

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ

النبي ليس بشاعر:

الشاعر شيء، والنبي شيءٌ آخر، الشاعر إنسان عنده قدرة بيانيّة، قدرة لغويّة، فكما يقولون: الشعر فنٌ جميل قِوامه الألفاظ، فهذا الشاعر فنّان، لكنّ مادة فنِّه الألفاظ، الرسّام مادة فنِّه الألوان، أجل إنّ الشاعر مادة فنِّه الألفاظ، وهو إنسان يقدِّم لك صوراً مضحكة أحياناً، ووصفاً دقيقاً، ومشاهد مؤثِّرة، غزلاً رقيقاً، هِجاء لاذعاً مثلاً، مديحاً كاذباً، فهذا الشعر لا يرقى إلى مستوى النبوّة..

(وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ)

هذا ليس بشاعر، هذا نبيٌ مرسَل، ألم يقل سيدنا عمر لسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام، عندما رآه واضعاً رأسه على حصير، وقد اضطجع على حصير أثّر في خدِّه الشريف: **<< رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟! >>** قال:

((يا عمر، إنّما هي نبوّةٌ وليست ملكاً))

[ورد في الأثر]

هذه نبوّة، النبوّة قدوة، النبوة سلوك، النبوة قيَم، النبوّة أخلاق، النبوّة تقشُّف، هذه النبوّة، فهو ليس شاعراً وليس مجنوناً، بل، (بل) حرف إضراب..

(بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)

بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ

1 ـ رسالة الإسلام تصديق للرسل السابقين:

أي أن رسالته تؤيّد الرسالات السابقة، لأن الوحي الذي أُنزل على النبي محمد، والوحي الذي أُنزلَ على الأنبياء من قبل، كل هذا الوحي يصدر من مشكاةٍ واحدة، من أصلٍ واحد..

(وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)

فالقرآن الكريم يؤكِّد ما جاء به المرسلون السابقون.

(إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(38)وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(38)وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

الدنيا دار عملٍ، والآخرة دار جزاء:

نحن الآن في دار عمل، ولا جزاء، الأوراق مختلطة، كل الناس يأكل، ويشرب، ويتحرّك، ويسكن، ويتزوّج، ويفعل ما يشاء، الأوراق مختلطة، لكن يوم القيامة كل عملٍ يلقى صاحبه جزاءه.

(إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(38)وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

أي أن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، نجاتك على حسب استقامتك، قال:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

1 ـ بين المخلِص والمخلَص:

مما جاء في بعض الآيات أن المخلِص شيء، والمخلَص شيءٌ آخر، المخلِص من فعل أخلَص وهذا اسم فاعل، أَخْلَصَ يُخْلِصُ مُخْلِصاً، أما مخلَص: أخلص يخلِصُ مخلِصاً ومخلَصاً ومخلَص، فهو اسم مفعول، ولكل من الكلمتين دلالتها.

2 ـ معنى الإخلاص:

حينما أخلصَ المؤمن لله عزّ وجل كافأه الله بأن نَقّاه من كل شائبة، جعله صافياً، جعله كاملاً، فإذا أخلصت أُخْلِصت، إن كنت مخلصاً أكرمك الله عزّ وجل فجعلك مخلَصاً.

أنت في طهر، في عفاف، في حلم، في صبر، في رحمة، في إنصاف، نقيٌّ من كل شائبة، سليمٌ من كل عيب، بعيدٌ عن كل دَرَن، بعيدٌ عن التعصُّب، عن الانحياز، عن الأنانيَّة، عن حبِّ الذات، عن الطُغيان، عن الغَطْرَسَة، عن الكِبْر، هذه الصفات الذميمة ينجّيك الله جلّ جلاله منها ويجعلك نقيّاً طاهراً.

3 ـ الجنةُ للمخلِص المخلَص:

بالمناسبة، الإنسان لا يُسْمح له بدخول الجنان إلا إذا كان مخلِصاً ومخلَصاً، إن أخلصت يجعلك الله مُخْلَصاً، كما ورد في الحديث القدسي:

((وعزّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها سُقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدّدت عليه سكرات الموت، حتّى يلقاني كيوم ولدته أمُه))

[ورد في الأثر]

أيها الإخوة الأكارم، أعقلنا، وأكثرنا فلاحاً، ونجاحاً، وتفوُّقاً، وذكاءً هو الذي يأتيه الموت وهو نقيٌ لا شائبة فيه، إذا جاءه الموت، وكان طاهراً من كل دَنَس، سليماً من كل عيب، بعيداً عن كل انحراف، كان متواضعاً، كان منصفاً، كان رحيماً، عندئذٍ يستحقُ الجنان، لأن الله طيبٌ ولا يقبل إلا طيباً، فإذا كانت التنقية والمعالجة في الدنيا، فهذه من نِعَم الله الكُبرى علينا، أما إذا بقي شيء، فلابدَّ من المعالجة في البرزخ، وإذا بقي شيء فلابدَّ من المعالجة في النار..

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يُخْرَجُ مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ الْإِيمَانِ))

فلو أنَّ الإنسان أنشأ مستشفى ليخفِّف الآلام عن الناس، أنشأ مسجداً، أنشأ معهد، أنشأ مدرسة، أنشأ معهداً شرعياً مثلاً، عمل عملاً صالحاً، ساهم بتزويج الشباب مثلاً، عمل مشروعاً خيرياً، فقد كانوا قديماً شأنهم العمل الطيّب وإليك مثالاً واقعياً..

إن منطقة (العصرونية) في دمشق كانت وقفاً، فلو أن طفلاً صغيراً ذهب ليشتري حاجة في إناء، فكسر معه هذا الإناء، وكان أبوه ظالِماً، أو كان معلّمه، أو سيده ظالماً، يأتي لهذا المكان، ويأخذ إناءً جديداً مكانه، فكم من مشكلة موجعة ألغاها الواقفُ في حياة الناس ؟

هذا الموضوع دقيق جداً، فاجهد لأن يكون لك عمل يستمر بعد الموت، والله الذي لا إله إلا هو فكأنَّك لم تمت، لكن البطولة أن تكون الدنيا وحدها هي المنقيّة لك..

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

أعتقد أنه لا أحدَ من إخوتنا الكرام إلا ويعرف هذا المعنى، الإنسان أحياناً ينظر لامرأةٍ لا تحلُّ له، المؤمن يتعفّف عن هذا، فيشعر بشموخ الإيمان وعزة المؤمن.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6))

(سورة المؤمنون)

4 ـ المخلص طاهر نقي:

هذا التعفُّف يكسبه شعوراً بالطُهر والرُقي، والمؤمن يتعفَّف عن مال الناس، لا يأخذ ما ليس له، بينما أهل الدنيا يأخذون ما لهم وما ليس لهم، المؤمن يتعفَّف عن قول الفُحْش، فسلوك المؤمن، بمشاعره الداخليّة، بسلوكه الظاهر، بلسانه، بكلامه، بعمله، بأحواله، بأقواله في استقامةٍ ونقاء، إنه دائماً في طُهر، في عفاف، في رقي، في سمو، هذا الذي عناه الله عزّ وجل بقوله:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

أي أن الله نجّاهم من الكِبر، والكبر أم الرذائل، نجّاهم من الانحراف، نجّاهم من فُحش القول، نجّاهم من أن يأخذوا ما ليس لهم، نجّاهم من أن يستمتعوا بما ليس لهم، هذه كلُّها مواقف مشرّفه للإنسان..

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

5 ـ الإخلاص يحتاج إلى جهدٍ:

لكن قالوا: العمل الصالح ليس شيئاً سهلاً، فالإنسان الذي يكون مستقيماً، محسناً، مُنصفاً، وقّافاً عند كلام الله، وتحقيق هذه الصفات ليست قضيّة سهلة، بل تحتاج إلى جهد، وإلى يقظة، تحتاج إلى اطلاع على ما في كتاب الله، تحتاج إلى نفس مطواعة، يجب أن تكون النفس طوع إرادتك، لا أن تكون أنت طوع نفسك، قال العلماء: إذا كان العمل الصالح يحتاج إلى جهدٍ كبير، فإن الإخلاص في العمل الصالح يحتاج إلى جهدٍ أكبر، إذاً اعتِقد معي هذا، العمل الصالح أي أن تكون وفق المنهج، وهذا شيءٌ عظيم، وأعظم منه أن تكون في هذا مخلصاً، فالصلاح شيء والإخلاص شيءٌ آخر.

6 ـ شرط العمل المقبول الإخلاص وموافقة الشرع:

قال الفضيل بن عياض: " العمل لا يُقْبَل إلا إذا كان خالصاً وصواباً "، أن يكون عملك وفق الشرع في كل شيء ؛ في بيتك، في أحوالك، في بيعك، في شرائك، في تجارتك، في وظيفتك، في مهنتك، في حرفتك، في لهوك، في نزهتك، في أفراحك، في أحزانك، في كل هذه المناسبات أن تكون وفق المنهج، وهذا شيء ليس سهلاً، لكن أصعب منه أن تكون في تطبيق المنهج مخلصاً، لذلك العمل لا يُقْبَل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السُنّة، إن كان صواباً ولم تكن فيه مخلصاً ما استفدت شيئاً، وإن كنت مخلصاً فيه ولم يكن وفق السُنّة ما استفدت شيئاً.

لا تنسَ هذه الكلمة: العمل لا يُقْبَل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، أي فيه إخلاص، وصواباً ما وافق السُنَّة، فأنت بحاجة إلى علم من أجل أن توقع عملك وفق السُنَّة، هل هذه الصفقة مشبوهة ؟ هل فيها علاقة محرَّمة ؟ هل فيها سلوك لا يرضي الله عزّ وجل ؟

إذاً:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(40)أُوْلَئِكَ)

أي في الجنَّة..

(لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ)

لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ

رزق الجنة مضمون لا ينقطع:

لهم رزق ثابت، أحياناً الإنسان يكون له رزق متبدِّلٌ مضطرب، غير مستمر، فهناك في الجنَّة أمنٌ لا حدود له، ما من إنسانٍ له في الدنيا رزق إلا ويخاف عليه، يقول لك: لا نعرف ماذا سيحدث معنا غداً ؟ دائماً هو قلقٌ بأعماقه، لعلَّ هذه الحرفة تتوقف، لعلَّ هذه البضاعة يُمْنَع استيرادها، لعلّه يصير كساد عالمي، لعلَّ الأسعار ترتفع كثيراً فيقل البيع كثيراً، تقل معه الأرباح، لا يوجد إنسان في الدنيا له رزق إلا وهو قلقٌ عليه، إلا في الجنَّة..

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ)

رزق ثابت ؛ لا يتبدَّل، ولا يتغيَّر، ولا يقلّ، ولا يضطرب، ولا يشوبه قلق إطلاقاً، ثم قال تعالى:

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ

1 ـ الفواكه أعلى أنواع الإكرام:

يعني في الجنَّة يوجد رزق مادي أيضاً، فواكه، والفواكه أعلى أنواع الإكرام، الإنسان أحياناً يقتات ليقف على قدميه، أحياناً يقتات ليقيم صلبه، وأحياناً يتناول الفواكه ليتفكَّه بطعمها اللذيذ، ليتنعَّم بألوانها

الزاهية، ليشمّ رائحتها العطرة، ليسعد بتناولها، لذلك فإنّ الفواكه تعبّر عن أعلى درجات الإكرام.
قال تعالى:

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

أحياناً يُقَدّم للإنسان أشهى طبق، وأشهى فاكهة ؛ ثم يقال له: تفضّل، ولكن لا يشعر بإكرامٍ، أما إذا المضيف في كل دقيقة يقول: يا أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً نوّر البيت، أكرمتمونا بهذه الزيارة، فهناك إكرام معنوي وإكرام مادي، الإكرام المادي هذه الفواكه التي يأكلها أهل الجنّة، وليس من علاقةٍ بينها وبين فواكه الدنيا إلا الاسم، لأن في الجنّة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

2 ـ دائرة المرئيات والمسموعات:

وبالمناسبة إذ نسوقُ هذا الحديث القدسي: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ اللّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

ففي حياة كل واحد منّا دائرة المرئيات، أنت حججت ؟ نعم، إذاً أنت عرفت مكّة والمدينة، ذهبت إلى لبنان ؟ نعم، فأنت مشاهداتك قد تكون لبنان، والحجاز، وفرنسا فرضاً وفقط.

أما مسموعاتك فأوسع بكثير، فيجوز أن تكون حافظاً اسم مئتي دولة، خمسمئة مدينة، والكلمات ككلمة قمر، وشمس، ومجرّات وما في محيطها من علم الفلك، وهذا يعني أن دائرة المسموعات أوسع بكثيرٍ جداً من دائرة المرئيات.

لكن قد يخطر على بالك إنسان طوله ألف متر، هذا خاطر لا ينضبط عندك واقعاً ومشاهدة، فالله عزّ وجل يقول

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

إذاً: ليس بين فواكه الدنيا وفواكه الآخرة إلا الاسم فقط..

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ(42)فِي جَنّاتِ النّعِيمِ)

فالدنيا للعمل، والآخرة للسرور، نحن في دار عمل، والجنّة للنعيم..

(جَنّاتِ النّعِيمِ)

3 - إيّاكم والتنعّم في الدنيا:

لذلك فالنبي الكريم قال:

((إيّاك عبد الله والتنعُّم))

[من الجامع الصغير عن معاذ]

الله عزّ وجل يمكن أن يسعد إنساناً في الدنيا، أما إذا جعل الإنسان همَّه النعيم، والسرور، والطعام، والنزهات، والبيوت الفاخرة، إذا جعل همَّه النعيم فقد ضلّ سواء السبيل، كالمدرسة أهم شيء فيها الدراسة، إذا جعل الطالب همه أن يكون مقعده مريحاً، وأحضر مقعداً متحرّكاً وله حركة يصير معها سريراً، فعليه أن يعلم أنّ هذه قاعة درس وليست قاعة للنوم، وأراد أن يكون مع مقعد الدراسة (سندويش) مسخّن، وشاي، وقهوة، وراديو صغير، ومجلات، وجرائد، فهل يعقل أن يكون في قاعة خصصت للدرس، للمحاضرة، وفيها أستاذ، شهادة، تخرُّج فهل يعقل أن يكون فيها كل هذه الأشياء أمام الطالب ؟ مقعد مريح غلبه النوم فنام، والأستاذ يتكلّم، هذا غير معقول، هذا الذي يبحث عن النعيم في الدنيا كهذا الطالب، وهو في قاعة الدرس أراد أن يجعل من مقعده مقعداً وثيراً متحرّكاً، وأراد أن يأكل، ويشرب، ويتسلّى، وأن يقرأ المجلات، وأن يستمع إلى الأخبار، وأن يمزح مع صديقه، فهل هذا الكلام معقول ؟ لذلك الحديث:

((إياك والتنعم ؛ فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين))

[من الجامع الصغير عن معاذ]

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا)

[سورة الأحقاف: من الآية 20]

أنت لك عند الله جنة عرضها السماوات والأرض، أنت هنا في دار إعداد لهذه الجنّة، لذلك فالإنسان يوم القيامة، أو حينما يأتيه ملك الموت يقول:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25))

(سورة الفجر)

قال تعالى:

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(43)عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

فأمتع لحظات الإنسان إذا كان آكلاً، ومرتاحاً، ليس لديه هموم، وأولاده بصحّة جيّدة، زوجته على ما يرام، دخله جيّد، بيته فخم، يعاشر أصدقاءً من مستواه ـ كل واحد له مستوى ـ يتسامرون، يتذاكرون، يتنادمون، يتحادثون، يتحاورون، فأجمل لحظات الحياة للمقياس المادي طبعاً أن تكون مرتاحاً، وآكلاً، وجالساً في مكان جميل يطل على مناظر جميلة، مع صديق حميم يعني على شاكلتك، إذا كنت أنت ذكي

فهو ذكي مثلك، إذا كنت مثقفاً فهو مثقف مثلك، إذا كنت غني هو غني مثلك، إذا كان الإنسان له صديق على شاكلته، وكان مرتاحاً من كل أمور الدنيا، وهم يتذاكرون ويتحاورون، فربنا عزّ وجل قال:

(عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ

الجماعة قاعدون، مرتاحون أدّوا ما عليهم في الدنيا، فيقال لهم:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة)

تعبتم في الدنيا كثيراً، وجاهدتم، واستقمتم، وصليتم في الليل، وقمتم من الليل، وقرأتم القرآن وحفظتموه، أمسكتم ألسنتكم، ضبطتم سمعكم وبصركم، واستقمتم، وجاهدتم، وبذلتم، وتعبتم، وصبرتم، فنريد الآن أن نجعلكم مسرورين، أنتم الآن في دار النعيم، فلذلك ترى المؤمنين يقعدون مع بعضهم بالتقابل، أحياناً يدعونك لعقد قران فيجلس الناس بعضهم وراء بعض، أما إذا كان الحفل فخماً جداً تكون الكراسي كلها متقابلة ومريحة، الكراسي مريحة جداً، المقاعد وثيرة ومتقابلة، من غير ازدحام..

(عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ(44)يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ

أي من أشهى أنواع الشراب، كلمة (من معين)، أي شراب مستمر، أحياناً الإنسان قد ينزل في فندق فيجد فيه برّاداً، فيشرب كأساً من عصير ثمنه مئة ليرة، يقول لك: ثمنها باهظ، فعند الدفع يغص مثلاً، أما في الجنة..

(بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

كأس من معين مستمرّة، مهما طلبت بلا مقابل ودونما ثمن أو تعويض..

(بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

حينما وصف الله خمرة الآخرة بأن فيها لذّة، يستنبط أن خمر الدنيا ليس فيها لذّة، طعمها غير لذيذ، لكن يشربها الناس ليغيبوا فيها عن وعيهم، إذاً ربنا عزّ وجل قال:

(بَيْضَاءَ)

أشدّ بياضاً من الثلج..

(لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ(46)لَا فِيهَا غَوْلٌ)

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ

خمرُ الآخرة لا تغتال العقول أبداً، فلا سُكر لمن شربها ولا هو يغيب عن وعيه، ولا يتكلّم كلاماً بذيئاً من جراء شربها، ولا يتقيّأ، أو يفلت بوله، فلا شيء من هذا أبداً..

(لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ)

كذلك العطاء مستمر ليس فيه انقطاع، وليس فيه نضوب..

(بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ(46)لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(47)وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ)

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ

من أوصاف الحور العين:

1 ـ واسعات العيون:

الله عزّ وجل وصف نساء الجنّة بأنهن عين، يعني عينها واسعةٌ جداً، والعين الواسعة أحد أبرز مظاهر جمال الوجه..

(قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)

2 ـ قاصرة النظر على أزواجهن:

أي أن هذه الحوريّة لا تنظُر إلى غير من خُصِّصت له إطلاقاً، تقصر طرفها عليه، وأجمل ما في المرأة ألا تكون متطلعةً لغير زوجها، أما إذا تطلّعت لغير زوجها فدائماً النساء الغافلات عن الله عزّ وجل يقرّعن أزواجهن، انظر إلى فلان، فهو أحسن منك، قدّمَ، عملَ، تركَ، فعل، بيته كذا، دخله كذا، شكله كذا، دائماً هي تنظر إلى غير زوجها، وتقيم موازنة بينه وبين زوجها، وتقرعُ سمعه بهذا النقد والتعليق، حتى إنها تحتقره وتهينه، أما حوريّة الجنّة فلا شيء عندها من هذا.

(وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(48)كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ)

3 ـ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ

أي لجمال بشرتها نضارة، وكأن لون بشرتها بيض النعام، بياضٌ في صفاءٍ مع صُفْرَةٍ، مكنون: أي شيء ثمين، والثمين مخبَّأ دائماً، ليس شيء عُرضة لكل الناس..

(كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ(49)فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ

أهل الجنة يتفكّهون بالحديث في الجنة:

الآن بدأ بين أهل الجنة حوار لطيف، فالجماعة يتنادمون في الجنَّة، مسرورون، أدخلهم الله جنة عرضها السماوات والأرض، أكرمهم الله عزّ وجل بالنظر إلى وجهه الكريم، فأحياناً الإنسان في الدنيا تكون أموره منتظمة، ليس عنده أية مشكلة، يقوم بنزهة في مكان جميل جداً ـ نحن نأتي بتقريب فقط ـ يقول لك: والله ثلاثة أيّام نسيت خلالها تعب سنة، لماذا ؟ لأن المناظر جميلة، والأكل طيّب، وزوجته وأولاده، ليس لهم مشكلة، أموره كلها منتظمة، فلذلك ربنا عزّ وجل يصف أهل الجنَّة، وهم في الجنَّة يتنعَّمون.

قال سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام: يا فلان كيف أصبحت ؟ "، قال: " أصبحت بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنَّة يتنعمون وكأني بأهل النار يتصايحون "، قال له: **" عبدٌ نوّر الله قلبه عرفت فالزم".**

إذا كنت عاقلاً فلا تنظر إلى دنيا الناس، بل انظر إلى مصائرهم ؛ فمنهم آكلو الربا، الزناة، شاربو الخمر، تاركو الصلاة، المنحرفون، هؤلاء وهم في الدنيا بأجمل مظهر، بثيابهم الأنيقة، بسيَّاراتهم الفارهة، ببيوتهم الجميلة، هؤلاء يجب أن ترى مصيرهم وهم في النار يتعذّبون ؛ وأما هؤلاء المؤمنون، الطاهرون المستقيمون، المخلصون، الذي يجاهدون أنفسهم وأهواءهم في سبيل الله، هؤلاء المؤمنون يجب أن تتعرف إلى مصيرهم وأنت في الدنيا، فستراهم في الجنَّة يتنعَّمون، قال:

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(50)قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ

يوم كنَّا في الدنيا كان لي صاحب، أو كان لي جار، أو زميل في العمل، أو جاري في المهنة، أو ابن عمي، أو ابن خالتي، يعني: أحدهم كان لي قريناً..

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)

الآن أهل الكفر والإعراض يقولون لك: كفاك (جدبة)، أخبروني أن أحداً مات، ورجع، وقال لك: هناك آخرة ؟ ليس في الوجود غير الدنيا هذه، وهذه كلمات يقولها أهل الإعراض، والضلال ؛ ومن هؤلاء ذاك القرين كما ذكرت الآية السابقة، ثم قال من نجا:

(قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ(54)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ(55)قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِي(56)وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

هذا الحوار نفسِّره في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (06-14): تفسير االآيات 35 - 74
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-10-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس السادس من سورة الصّافّات، ومع الآية الخمسين:

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

ولكن أريد أن أعود مرة ثانية إلى الآية التي كانت محور الحديث في الدرس السابق، لأني شعرت أن فيها معاني عظيمةً لم نأتِ عليها كلها، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

مَن رأى أنّ الأمر بيد غير الله فقد استكبر عن كلمة التوحيد:

الإله هو المعبود، من الذي ينبغي أن تعبده ؟ من بيده كل شيء، حينما قال الله عزّ وجل:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود: من الآية 123)

إذاً: لا يُعْبَد إلا من كان الأمر كله بيده.

إذا اعتقدت الفتاة أنها إن لم تسفر، وإن لم تبدِ محاسنها فلن تتزوج، هذا الاعتقاد مخالفٌ للحق، لأن الأمر كله بيد الله، وأن التزويج بيد الله، وأن الحياة الزوجية السعيدة بيد الله، فكلما اعتقد الإنسان أنه إذا فعل شيئاً مخالفاً لشرع الله يسعد به، ويربح به، ويغتني به، ويرتقي به، فهو استكبر عن (لا إله إلا الله)

إذا اعتقد التاجر أنه إذا روّج بضاعته عن طريق إعلانٍ لا يرضي الله عزّ وجل ـ لا تروج البضاعة إلا بهذه الطريقة ـ فيستخدم أسلوباً مخالفاً للشرع، إنه استكبر عن (لا إله إلا الله).

فحينما تتوهم إنك إذا فعلت هذا مخالفاً لأمر الله تسعد، أو تغتني، أو تزداد قوتك، أو يزداد مالك، أو تزداد مكانتك، فهو استكبارٌ عن قول: لا إله إلا الله، لأن كلمة: (لا إله) أي: لا معبود، مَن الذي يعبد ؟ ومن الذي بيده كل شيء، فأمر صحتك بيده، أمر زواجك بيده، أمر رزقك بيده، أمر طمأنينتك بيده، أمر تخويفك بيده، فالإنسان كلما أعتقد أنه إذا فعل كذا أو كذا مخالفاً بهذا أمر الله عزّ وجل يسعد، ويزداد قوةً وغنى فقد استكبر عن أنه (لا إله إلا الله)

الآية عميقة جداً، ولها مدلولات كثيرة جداً، إن اعتقدت أن القوة وحدها تستطيع أن تتفوق بها على عدوك، القوة فقط، ازدد قوةً تنتصر على عدوك، فإنك عندئذٍ استكبرت عن قول (لا إله إلا الله)، لأن أمر النصر والهزيمة بيده، قد ينصر الضُعفاء، ويذل الأقوياء، إذا تناولت دواءً فيه ما حرَّم الله عزّ وجل، واعتقدت أن فيه الشفاء فقد استكبرت عن أنه (لا إله إلا الله)

وانك إن اعتقدت شيئاً خلاف ما ورد في القرآن والسُنة فقد استكبرت عن أنه (إله إلا الله)،إن طرقت أبواب الأسباب، ورأيتَها وحدها تحقق لك النتائج فقد استكبرت عن قول: (لا إله إلا الله)، لأن كلمة معبود أي بيده كل شيء، والدليل:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود: من الآية 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله راجعٌ إليه، إذاً: في التجارة، في الصناعة، في الزراعة، إذا غششنا نربح خلافا للسُنّة، هذا يعني أنه استكبر عن (لا إله إلا الله)، فالله عزّ وجل يقول للإنسان: اعبدني، ولا تخشَ شيئاً، الأمر كله بيدي، ما عليك إلا أن تعبدني، الأمر كله، صغيره وكبيره، جليله وحقيره، ما هو مباشر، وما هو غير مباشر، كل القوى بيد الله عزّ وجل، فلذلك عندما ينحو الإنسان منحى المخالفة، أو التقصير، أو المعصية، ويبتغي الخير بها فقد استنكف عن قول: (لا إله إلا الله)، (لأن لا إله إلا الله) تعني أن الأمر كله بيد الله، وعليك أن تطيعه.

لو أن هناك معبوداً غير الله لاختلف الأمر، ولكن الله عزّ وجل يقول لك: لا إله غيري، لا معبود يستحق العبادة إلا أنا، عليك أن تعبدني، أن تطيعني، وإيّاك أن تطيع سواي، لذلك فالقرآن الكريم كله لُخِّصَ في قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110))

(سورة الكهف)

إن اعتقدت أن هذا الدواء يطيل العمر خلافا لقوله تعالى الذي جعل لكل مخلوقٍ أجلاً لا يستقدم ولا يستأخر، فأنت استكبرت عن قول (لا إله إلا الله)

إذا اعتقدت أن زيداً ينفعك، وعليك أن تطيعه في معصية، استكبرت عن قول (لا إله إلا الله).

إذا اعتقدت أنك إن لم ترضِ زوجة فلان القوي، ولم تصافحها فإنه يغضب منك زوجها، وسوف يقصيك عن عمله، فأنت عصيت الله من أجل أن تبقى في عملك، واستكبرت عن قول (لا إله إلا الله)

إذا اعتقد كما يعتقد الباعة أنه بالغش، والتدليس، والكذب تروج بضاعتك، وتبيعها وتربح، فقد استنكفت عن قول (لا إله إلا الله)، والاستكبار أي الرفض.

إذا فسرت الأحداث الكبرى تفسير أرضياً، ولم تقبل تفسير الله لها، فقد استكبرت عن قول (لا إله إلا الله)، فهذه الكلمة التي ضغط بها الدين كله..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

الله هو الإله ولا إله غيره، سيدنا موسى قال له الله سبحانه:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ)

أنا الله الذي تبحث عني..

(لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي)

(سورة طه: من الآية 14)

لا يوجد إله ثانٍ، وأن ما يبدو لك أن فلاناً وفلاناً وفُلاناً، وأنّ فلاناً قوي، وفلاناً غني، وفلاناً يحرّك الأمور، وفلاناً يجمِّدها، هذا كله نظر قاصر، الأمر كله لله.

أردت من هذه العودة السريعة إلى الآية أن يتضح إلى كل أخ كريم على مستوى التصور، على مستوى الاعتقاد، على مستوى السلوك، على مستوى الدقائق، على مستوى التفاصيل، على مستوى الجُزيئات، على مستوى الأسباب، إذا اعتقدت أنك إذا خالفت منهج الله عزّ وجل ؛ تربح، وتغتني، وتقوى، فقد خرجت عن مفهوم هذه الكلمة، كلمة الإسلام الأولى (لا إله إلا الله).

رزقُ أهل الجنة معلوم لا ينازعهم فيه أحدٌ:

في الدرس الماضي تحدثنا عن أن أهل الجنة، وهم في الجنة يتنعمون، وقد وصف الله لنا طرفاً من نعيمهم:

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ)

أي لهم رزق ثابت، لا يعتريه النُقصان، لا يخشى صاحبه أن يفقده، مهيَّأ له تهيئة تامة، ليس هناك من ينازعه عليه، ليس هناك قلق من أن يفقده صاحبه.

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ(41)فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

1 ـ الفواكه والإكرام:

والفاكهة كما تحدّثنا قضية تكريم أكثر منها غذاء، الإنسان يقتات بالطعام والشراب ويكرَّم بالفاكهة.

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ(42)فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(43)عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

2 ـ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ

الإنسان يكون مرتاحاً، وقد تناول الطعام الشهي، وشرب الشراب اللذيذ، وجلس يسمرُ مع إخوانه الذين هم في مستواه.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)

3 ـ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ

المعين الذي لا ينقطع..

(بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

أي أن هذه الكأس فيها كل اللذات، وقد انتفت عنها كل المكاره..

(لَا فِيهَا غَوْلٌ)

خمر الجنة لا تغتال العقل، ولا تُقطع عنهم:

خمر الدنيا تغتال العقل، يثمل بها الإنسان، ويسكر، ويغيب عقله عنه، وفي الجنة لا شيء من هذا كله..

(وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ)

وكؤوس الشراب هذه لا تقطع عنهم، بل مستمرة، وليس لها تأثيرٌ سلبي، وهم في نشوة سرورهم، ونعيمهم، وإقبال بعضهم على بعض يذكرون ماضيهم..

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(50)قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

حوار أهل الجنة في الجنة:

1 ـ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ

الإنسان لا يخلو في عمله، من بين أقربائه، من بين جيرانه، مِمَن يقاربه في السن، من أبناء لداته كما يقولون، أنه على غير شاكلته، لا يعتقد بما تعتقد، بل يعتقد أن الدنيا هي كل شيء، يعتقد أن الدنيا كلها مال، أن الدنيا كلها ملذات، فهذا الذي تعيش معه أحياناً بحكم جوارك، بحكم عملك، سواء أكان جاراً، زميلاً، قريباً، قد يكون ابناً، وقد يكون أباً، قد يكون أخاً، قد تكون زوجة، وأيّ واحدٍ من هؤلاء هو لك قرين.

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(50)قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

2 - يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ

كان لي صاحب، هذا القرين يقول مستهزئاً، مستخفاً، متعجباً، ساخراً:

(يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ)

باللغة الدارجة: (أأنت قابضها ؟)، وأن هناك بعد الموت جنة، وهناك حساب، كل هذا عقلك فيه صغير، ليس هناك إلا الدنيا، الغني هو السعيد، والفقير هو الشقي، القوي هو السعيد، والضعيف هو الشقي، فهو لا يرى إلا الدنيا، الدنيا مبلغ علمه، ومنتهى أمله، يرى أن الغني هو الذي يسعد فيها، وأن القوي هو الذي يسعد فيها، وأن الفقير إنسان شقي، شقي وانتهت الحياة بالموت، وانتهى كل شيء، مع أن الله عزّ وجل يقول:

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

بلا حساب، أي أنّ هذا عاش فقيراً محروماً، وهذا عاش غنياً مُتْرَفاً، ويأتي الموت، وينهي حياة الفريقين بلا حساب ؟! الغني لا يُسأل عن ماله من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه ؟ والفقير لا يعطى نظير فقره في الدنيا وصبره على فقره، ما يغطي له ذلك في الآخرة ؟!

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى(31))

(سورة النجم)

هناك عدلٌ، وتسوية حساباتٍ، وهناك يوم الدين، الذي هو يوم الجزاء، فلذلك الكافر لا يرى إلا الدنيا، يرى أنها كل شيء، ومن أجل أهدافه الخسيسة يسلك أقذر الطرق، هدفٌ خسيس هو المال أو القوة، فمن أجل هدفه الخسيس يسلك أقذر طريق ؛ بالكذب، والتدجيل، والخداع، والنفاق، والتزوير، والضغط أحياناً، ليس عنده شيءٌ محرّم، هدفه الكبير أن يبلغ الدنيا.

هذا القرين كلما سمع أقوال الصالحين، أقوال المؤمنين، كلما سمع أقوال القرآن الكريم تتلى عليه، سخر منها، واستخف بها وقال:

(يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ)

يا أخي هذه غيبيات، هذه كلها ما وراء الطبيعة، هذا الذي أخّرنا عن ركب الحضارة، مثل هذه العقائد أخّرتنا، انظر إلى الأمم الأخرى فقد بلغوا القمر، اخترعوا، تغلبوا، حاربوا، فتحوا، انظر إلى حياتهم،

إلى رفاه عيشهم، فالكافر دائماً لا يرى إلا الدنيا، فإذا رأى الأغنياء سال لُعابه، إذا رأى الأقوياء ساخت الأرض من تحت قدميه، يقول هذا:

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)

3 ـ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ

فهل أنت تظن أنّ هناك حساباً ؟ بعد أن يكون الإنسان قد مات، ولحمه تفسخ، والعظم أصبح كالرميم، وانتهى كل شيء، أيُّ حسابٍ هذا ؟ فهذا غرق في الباخرة، وهذا مات في الطائرة، يقول لك: مات جميع ركابها، فأين هم الآن ؟ لم يعد لهم أثر، فاعتقاد الكافر أن الموت نهاية كل شيء.

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)

والكافر يقول: هل الله سيحاسبنا ؟ أين كنا نحن ؟ كيف يجمعنا ؟ كيف يعيد خلقنا ؟ يبدو أن في الجنة قوانين أخرى، أنت الآن في الدنيا لك ابن في حلب مثلاً، اشتقت له، فليس من طريقة إلا أن تركب بالسيارة وتذهب إليه، تركب وتسير في الطريق إليه مدة خمس ساعات، تقرع عليه الباب، يقال لك: واللهِ الآن خرج، عنده درس بالجامعة، تنتظره ساعتين ليرجع مثلاً، لكن في الجنة هناك قوانين أخرى، فبمجرد أن يخطر في بالك شيء تراه أمامك، هذا منتهى الإكرام.

فهذا الأخ الكريم المؤمن في الجنة، يحدث إخوانه الذين معه، يحدثهم عن قرين كان في الدنيا وكان كافراً، كان مكذباً بالآخرة، مكذباً بالدين، يرى أن المال كُل شيء، ويرى أن القوة كلُ شيء، فقال هذا الصديق لإخوانه في الجنة:

(قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ)

4 ـ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ

هل تحبون أن تروه ؟ قال تعالى:

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

5 ـ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ:

سواء الجحيم يعني في وسطها.

الإنسانُ بين رحمة الله في الدنيا وعدلِه يوم القيامة:

النقطة الدقيقة: أنك في الدنيا قد تحققت من اسم الله القوي، الأرض وزنها كم طنا ؟ فمن يحركها ؟ الله عزّ وجل قوي، وهذا تراه في الدنيا، الله عزّ وجل غني، وهذا تراه في الدنيا، إذا أعطى أدهش. سمعت من هذه السنة أنّ الأرض عندنا قد غلّت من القمح ثلاثة ملايين طن، واستهلاكنا مليون واحد، أعلى إنتاج للقطن في العالم كان عندنا، إذا أعطى أدهش، الفواكه كثيرة جداً، والله عزّ وجل تراه غنياً في الدنيا.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: من الآية 21)

معدل الأمطار في الشام منذ ثلاثين سنة، أو أربعين سنة، أو خمسين سنة، مئة وثمانون ميليمتراً، أما في هذه السنة فثلاثمائة وأربعون، الآبار تفجّرت، والأنهار سالت، فالله عزّ وجل ترى قدرته في الدنيا، ترى غناه في الدنيا، ترى جماله من خلال خلقه، انظر إلى بعض الورود يتجلّى الله فيها باسم الجميل، انظر إلى العواصف والبحار إذا هاجت باسم الجبّار، ترى جبروته، ترى جماله، ترى لطفه أحياناً، أحد الركاب سقط من طائرة على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم، الطائرة انفجرت واحترقت، عند مكان الانشطار سقط أحد الرُكاب، فنزل على منطقةٍ في جبال الألب تغطيها غابات الصنوبر، كما تغطيها خمسة أمتار من الثلج، فخمسة أمتار من الثلج مع مرونة الأغصان، نزل واقفاً على قدميه، سقط من ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم، ونزل واقفاً عل قدميه..

وإذا العناية لاحظتك جفونها نَمْ فالمخاوف كلهن أمـان

***

أنت ترى في الدنيا لطفه، ترى قدرته، ترى غناه، ترى جماله، ترى رحمته.

في الهند جبال في قمتها نبع، بعض الوعول تعيش في قمم الجبال، فمن أجل أن يَتَيَسَّر لها ماؤها فجّر الله لها نبعاً في قمة جبل، وإخواننا الفيزيائيون يعرفون أن النبع الذي يتفجّر في قمة جبل لابدّ له من خزانٍ في جبلٍ أعلى منه، قد يكون على بعد مئات الكيلو مترات مجرى هذا النبع من خزان في جبل آخر بعيد، رحمته ظاهرة، فالأدلة على رحمته، وعلى لطفه، وعلى حنانه، وعلى قوته، وعلى غناه، وعلى جماله شيء لا يحصى.

لكن عدالته، لا تبدو بشكلٍ واضحٍ كالشمس كما تبدو يوم القيامة، في الدنيا قد تجد كافراً قويًا، هو كافر لكنه غني، يسخر من كل الأديان، ويزداد غنىً، هذا ممكن، مثل هذه الظواهر تحيّرك، ولكنك إذا أردت أن ترى عدالة الله جلّ جلاله، وأن ترى اسم الحق متحققاً، فلن ترى هذا الاسم جلياً واضحاً كما تراه يوم

القيامة.

فكل هؤلاء الذين كذّبوا الرسل، وانحرفوا، وطغوا، وبغوا، وأجرموا، واختالوا، وتعجرفوا، وتغطرسوا، واستخفوا بالأديان، وسخروا منها وكذبوها، وسخروا بالأنبياء، وادّعوا الألوهية هم لأنفسهم، لن ترى ذلهم وهوانهم واضحاً وضوح الشمس إلا يوم القيامة، بإمكانك أن تنظر إليهم في أية لحظة.

أنت مع من عشت في الماضي ؟ لك صديق بالمقعد مثلاً كان فاسقاً، كان فاجراً، كان زانياً، كان يشرب الخمر، كان يسخر منك، ومن دينك، ومن عقيدتك، ومن سخافاتك على حد زعمه، بإمكانك أن تراه يوم القيامة أين هو ؟ استنباطاً من هذه الآية:

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(53)قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ(54)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

آكلو الربا، شاربو الخمر، الزناة، الذين يكسبون أرزاقهم من إفساد أخلاق الشباب، يبحثون عن بضاعةٍ رائجة ولو كانت أفلاماً رخيصة، يبحثون عن ربحٍ وفير، ولو كان مقهى تقدّم فيه المشروبات المحرمة، يبحثون عن المال بأية وسيلة، ولا يعبئون بالدين، ولا بحرمة الدين، ولا بنهي الله عزّ وجل، يقول لك: حلال على الشاطر، مثل هؤلاء الناس إذا تفقّدهم المؤمنون رأوهم في سواء الجحيم، ربنا عزّ وجل رحمةً بنا ينقل لنا مشهداً حيّاً من مشاهد يوم القيامة، يبدو أنه بإمكانك أن تراه، وبإمكانك أن تخاطبه في الوقت الذي أنت في الجنة، وهو في وسط جهنّم.

الآن يتبجّح أهل الغرب أنهم اخترعوا (تليفوناً تلفزيونياً)، ترى الذي تخاطبه على الشاشة، تراه وتحدّثه، فهذا يوم القيامة في الجنة مُتاح لأي مؤمن، أي إنسانٍ عشت معه في الدنيا وبدافع الفضول إنْ أردت أن تعرف مصيره في الآخرة، فبإمكانك إذا خطر في بالك أن تراه أين هو، قال:

(قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ)

6 ـ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ

والله كنت ستهلكني، ألقيت لي الشبهات، سخرت من أفكاري، سخرت من عقيدتي، قلت لي: هذه أفكار كلها غيبيّات، هذه أفكار تجاوزها الزمن، نحن في عصر العلم، نحن في عصر المادّة، كان يقول: الشيء الذي لا نراه لا نؤمن به مثلاً، فهذه إذاً أقوالك، ونظرياتك، وفلسفتك، وزخرفة كلامك، وحيلك..

(إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ(56)وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي)

7 - وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ

لولا أني اعتصمت بالله عزّ وجل، لولا أنني أطعته، لولا أنني اخترت رضاه لأرديتني، ولأهلكتني، ولكنت الآن معك.

أيها الإخوة الأكارم، إن مما يضاعف سعادة المؤمن في الجنة أن يرى مصير من لم يؤمن، إن مما يضاعف سعادة المؤمن في الدنيا أن يرى مصير الكافرين.

أضرب مثلاً من الدنيا للتقريب: لو أن شريكين اقترح أحدهما أن يتّجر ببضاعةٍ ممنوعة قانوناً، فالشريك الأول رفض، وقال: أنا لا أوافق، قال الآخر: توافق أو لا توافق فالربح كثير، وأنا ماضٍ، فقال الآخر: أنا لا أوافق، فإذا كنت مصراً فافصم هذه الشركة، فَصَمَا الشركة وتَخَالَصا، والذي اقترح التجارة الممنوعة قانونا اشترى وباع، ثم ألقي القبض عليه، وأودع في السجن، فذهب شريكه الأول ليزوره في السجن، أليست سعادة الأول بقراره الحكيم تتضاعف حينما يرى شريكه في السجن يعَذّب، وقد صودرت أمواله كلها، ودفع الثمن باهظاً، إذا رآه وهو في مكانه الذي يستحقه تضاعفت سعادته، لا شماتةً، لا والله ولكن شكراً لله عزّ وجل على قراره الحكيم، وعلى حزمه المتين، وعلى موقفه الصُلب، لولا أنني وقفت هذا الموقف الصُلب، وهذا القرار الحكيم لكنت معك الآن، لو بقينا شركاء لكنت معك الآن.

إذاً: الإنسان في الدنيا يحتاج إلى موقف صلب، يحتاج إلى عقيدة متينة، يحتاج إلى يقين ساطع، يحتاج إلى إرادة قوية، يحتاج إلى أن يؤمن أنه لا إله إلا الله، وأن يلزم أمر الله عزّ وجل.

(قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ(56)وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(57)أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(58)إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

8 - أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(58)إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ

الآن يسخر من قرينه الذي كان يسخرُ من مقولاته، كان يقول قرينه: ليس هناك إلا الموت، وما بعد الموت لا شيء، ولا عذاب، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار، كلها أقوال خرافية، أنا لا أؤمن بها، قال له صاحبه: فما قولك الآن ؟

(أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(58)إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

عندئذٍ يقال:

(إِنَّ هَذَا)

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

وأنت في الجنة، وأنت تتقلّبُ في نعيمها، وأنت مع الحور العين، وأنت في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وأنت مع إخوانك المؤمنين على سررٍ متقابلين، وأنت في هذا النعيم المقيم، وأنت في جنّة رب العالمين..

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة)

هذا الملك العظيم.

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا(20)عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا(21))

(سورة الإنسان)

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

الفوز الحقيقي يوم القيامة:

هذا هو الفوز، هذا هو الربح، هذه هي السعادة، هذا هو النجاح، هذا هو الفلاح، هذا هو التفوّق، هنيئاً لهذا، فالناس اتفقوا على أن يهنئوا بعضهم بعضاً في الدنيا، يُهنأ الإنسان ببيت، بزوجة، بشهادة، بمنصب، بمركبة، بشركة، بتجارة، لكن الله عزّ وجل قال: إن هذا.. وليس ذاك..

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هناك من يقول لك: عندي أنجح شركة، أنا معي وكالة حصرية، أنا أربح آلافاً مؤلّفة كل يوم، كل إنسان فَرِح بما هو فيه ؛ هذا فرح بشكله، هذا فرح بماله، هذا بمنصبه، هذا بذكائه، هذا باختصاصه، هذا بحِيَلِهُ، هذا بتجارته، هذا بزراعته، هذا بمزرعته، هذا بمتجره، هذا بمعمله، هذا بمنصبه، هذا بأولاده، الله عزّ وجل يقول:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أنت فرحٌ بزوجة جميلة جداً، أو بمال، والله تعالى يقول عن نعم أهل الجنة:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أنت فرح بهذا المعمل، لديه حماية جمركية..

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم)

أنت فرح بهذا المحضر الذي ربحت فيه ثلاثمائة بالمائة..

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أنت فرح بهذه الشهادة العليا، لا يوجد غيرك بالكمبيوتر..

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

فكلما فرح الإنسان في دنياه بشيء من زخارفها ليذكر قول الله عزّ وجل:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

مر معنا بالدرس الماضي أن أقلّ جزاءٍ على العمل الصالح عشرة أمثال، وأعلى جزاء على العمل السيئ، مثل واحد، أقله عشرة أمثال، وأكثره:

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ)

(سورة البقرة: من الآية 261)

سبعمئة، إلى سبعة آلاف..

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم)

(سورة الزمر: من الآية 10)

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

واستمعوا يا أيها الإخوة إلى قوله تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

نشاطك، وقتك، عضلاتك، ذكاؤك، طاقتك، فكرك، اهتمامك، وقتك لمثل هذا..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

شدّةُ قدميك، شدة يديك، سهر الليل، عمل النهار، كَدُّك، عرق جبينك، تفكيرك، اهتمامك لمثل هذا، هذا الذي يستحق أن تعمل له، هذا الذي يستحق أن تمضي وقتك من أجله، هذا الذي يستحق أن تعادي الناس من أجله، تعاديهم على الدنيا ؟! عرضٌ زائل، تخاصمهم على لقيمات، على دريهمات، تقاتل من أجل بيت، من أجل دكان، من أجل شركة، تحتدم الخصومة فتصاب بأزمة قلبية، من أجل دكان، من أجل دنيا، يقول لك: ثماني عشرة سنة في القضاء في قضيةٍ هزيلة، دفعت مئات الألوف للمحامين من أجل دكان، قال الله تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

تبذل قصارى جهدك، يقول لك: سهرت للساعة الثانية صباحاً كل يوم، أمضيت ثلاثاً وعشرين سنة دراسة من أجل كلمة بورد من أمريكا، فقط ؟

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

تجد أشخاصاً سواء في التجارة، أو الصناعة، أو الزراعة، أو الحقل العلمي، أو الحقل التجاري، أو الحقل القيادي، يعملون، يجتهدون، يسهرون، يفكرون، يختصمون، يقاتلون، من أجل الدنيا الفانية، ربنا قال:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

يا خسارتك يا عبدي، طاقاتك الفكرية، عضلاتك، وقتك الثمين، صحتك، أجهزتك، ذكاؤك، تفكيرك، طلاقة لسانك، طليق اللسان من أجل زيد أو عبيد ؟! بلاغتك وشعرك كله من أجل فلان !! ليس من أجل الله عزّ وجل، وأنت وجودك من الله عزّ وجل، وأنت مصيرك إلى الله.. **" خلقت كل ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضه عليك"..**

إن الإنسان لم يخلق ليعبد إنساناً مثله، خلق ليعبد الله، لم يخلق لعمارة الدنيا فقط، خلق لجنةٍ عرضها السماوات الأرض.

قد تجد شخصاً يعتني بتأثيث بيت، وكأنه سيعيش مئة ألف عام، ليلاً ونهاراً، يحاسب على أدق العيوب، يُقيم أعظم الخصومات، إلى أن يجهز هذا البيت، يقولون لك: بعد خمسة أيام مضت توفي، الإنسان كم يكون خاسراً لو ضيّع دنياه، ولم يجعلها مطية للآخرة، فسبحان الله ! فأنا أتمثّل بهاتين الآيتين:

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(60)لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

هذا هو الفوز، الفوز أن تكون مؤمناً، الفوز أن تكون مستقيماً على أمر الله، الفوز أن تعمل عملاً يرضي الله، الفوز أن يرضى الله عنك، الفوز أن تستحق الجنة، هذا هو الفوز، والعمل من أجل هذا، لذلك طلب العلم، قراءة القرآن، تدبُّر القرآن، فهم القرآن، العمل بالقرآن، فهم السنة، العمل بها، الأعمال الصالحة، رعاية الأيتام، رعاية الأرامل، إطعام الفقراء، الدعوة إلى الله، نشر العلم، تعلُّم العلم، القُرُبَات، الصَدَقَات، هذا العمل فقط هو الذي يبقى وما سوى ذلك يفنى.

النبي عليه الصلاة والسلام مرة وزع شاةً، يبدو أن السيدة عائشة اشتهت أن تأكل منها، فوزّع، ووزع حتى لم يتبق منها إلا قليل، فقالت: **" يا رسول الله لم يبق إلا كتفها** ـ لم يبق شيء منها فدعْ هذه لنا نأكلها ـ فقال عليه الصلاة والسلام:

((بل بقيت كلها إلا كتفها))

الذي وزعناه بقي، وسنسعد به، أما الذي سنأكله هو الذي سيذهب، " بل بقيت كلها إلا كتفها ".

أنا أتمنى على الله وعليكم، أتمنى عليكم أن تعيش هاتين الآيتين في نفوسكم طوال الأسبوع:

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(60)لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

هذا هو الفوز، الفوز أن تتعرف إلى الله وأنت صحيحٌ شحيح، وأنت في مقتبل العمر، وأنت قوي، وأنت غني، وأن تبذل صحتك، ووقتك، ومالك، وجهدك، وفكرك، وذكاءك في سبيل الله..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61)أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا)

الجانب الآخر من يوم القيامة:

هذا المقام الكريم، في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، حورٌ عين، ولدان مخلّدون، فواكه وهم مكرمون، أطلب تُعْط، أي خاطرٍ يخطر على بالك تجده أمامك، قال:

(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(62)إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ(63)إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(64)طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ(65)فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(66)ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ(67)ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)

مفارقة كبيرة، صورتان متناقضتان، قمة النعيم، وقمة التكريم، وقمة الأمن، وقمة الرضا، وقمة السرور، وقمة السعادة، إن كانت إلا بالله أو كانت بما خلق الله لك في الجنة:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(162))

(سورة الرحمن)

1 ـ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ

أكل ذاك النعيم أو هذه الشجرة التي تنبُت في أصل الجحيم، طلعها أي ثمارها، كأنها رؤوس الشياطين، أبشع منظر، وأخوف منظر، وأشد المناظر إفزاعاً رأس الشيطان، يتوهّمه الرسّامون صورة مخيفة جداً، فأَكْلُ هذه الشجرة كأنه رؤوس الشياطين، وكأن هذه الشجرة هي الدنيا التي تعلّق بها أهلها، وأكلوا من مالها الحرام، واستمتعوا بشهواتها المُحَرَّمة، فتمثّلت لهم في جهنم شجرة عليهم أن يأكلوها، يأكلوا من ثمرها، يعني أن أعمالهم السيئة، انحرافاتهم، زناهم، أكلهم الربا، انحرافاتهم الأخلاقية، ظلمهم للآخرين، أعمالهم السيئة المتعلقة بالعدوان والإثم معاً تمثّلت في أنها:

(شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(64)طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ)

2 ـ طعام أهل جهنم: شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(64)طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ

مفزعة، مرارة على شَوْك، على منظر قبيح، فجمع في هذه الشجرة كل السيّئات، اللون كريه، الطعم كريه، شوك، وطعمٌ كالصبر.

(طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ(65)فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ)

3 ـ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ

يجب أن تأكل، لا تستطيع أن تقول: لا أقدر، أنا متغدٍ قبل قليل، والله فاسمحوا لنا، ليس لك أن تعتذر..

(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

يجب أن تأكل، وتثقل في الأكل أيضاً، وهذا إجباري..

(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

4 ـ شراب أهل جهنم: ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ

يريد أن يشرب، قال:

(ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ)

الشراب مثل النار يغلي، الشجرة طلعها كأنه رؤوس الشياطين، مرارة، على شوك، على كراهة ريح، على كراهة طعم، طعمها نَتِن، طعمها مر، وريحها نتن، وفي الحياة روائح كريهة جداً، الجيفة إذا مر أحد أمامها يغلق أنفه نهائياً، ويغلق نافذة السيارة رأساً، يقول لك: شيء لا يطاق، فهذا الطعام ذو طعم مر لا يحتمل، على رائحة نتنة، على شكل قبيح، على شوك..

(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ)

هذه الدنيا التي أكلوها حراماً، هذا المال الذي أكلوه حراماً، هذه الشهوات التي استمتعوا بها حراماً، هذا العدوان الذي اعتدوه في الدنيا..

(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(66)ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ)

هذا الطعام، يقول لك: نريد شيئاً لكي نبلع اللقمة به، نريد كأساً من الشاي مع الأكل، والله لم يبلع معنا الطعام بدون الشاي، فهذا إذاً هو الطعام، وهذا الشراب الذي معه هو حميم، ماءٌ يغلي..

(وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ(15))

(سورة محمد)

هذا كلام خالق الكون، فلا مجال للواحد منا أن يأخذ القضية كوصف أدبي، لا، فهذا كلام خالق الكون..

(ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ)

وأحياناً السجناء يؤخذون فيعذبون، بعد انتهاء التعذيب إلى أين نرجع ؟ إلى الزنزانة..

(ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ

أين سيستقر ؟ في الجحيم، يريد أن يأكل بشكل قسري، وأن يملأ بطنه منها، والشراب ماء يغلي، ليس ماء فقط، لكنه صديد، قيح، فما في الدنيا من سوائل مكروهة كالمياه السوداء، فعليه أن يشرب منها، ويقال له: تفضل اشرب، فالمياه الفاسدة، الملوثة، مياه المجاري، الصديد، القيح، النَتَن، وهو يغلي، رائحة، على كراهة، على اشمئزاز، على حرارة لابدّ أن يشرب منها..

(ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)

أيها الإخوة الأكارم، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى خاطب نفسه فقال لها كلاماً بمنتهى الدقة، أتمنى أن تدققوا فيه قال لها: " يا نفس، لو أن طبيباً منعك من أكلةٍ تحبينها، أغلب الظن أنك تمتنعين عنها ـ إذا كان واحد يحب أكلة وهو متعلق بها تعلقاً شديد، وقال له الطبيب: هذه الأكلة تسبب لك أزمة قلبية، وقد تودي بحياتك، فهل يأكلها ؟ مهما يكن هذا الطعام محبباً، مهما يكن هذا الشراب لذيذاً ـ لو أن طبيباً منعك من أكلةٍ تحبينها فأغلب الظن أنك تمتنعين، يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ ـ فهل تصدقين طبيباً، ولا تصدقين الله ؟ هذا كلام الله عزّ وجل، هذا مصير آكلي الربا، هذا مصير الزناة، هذا مصير العصاة، هذا مصير المنافقين، هذا مصير الفُجّار، هذا مصير الذين لا يصلون، هذا مصير الذين لا يتصدقون، هذا كلام الله عزّ وجل ـ قال لها: **" يا نفس أيكون الطبيب عندك أصدق من الله ؟ إذاً ما أكفركِ "**.

يقول بعضهم: نحن صدقنا الله عزّ وجل ؛ لكن صحتنا أغلى من مصيرنا بالآخرة، أيكون المرض أشد عندكِ من النار ؟ إذاً ما أجهلكِ، معنى ذلك أنّ الإنسان حينما يعصي ربه لا يمكن أن تفسر معصيته لله إلا بكفرٍ أو جهلٍ، وإذا قلت: والله أنا مصدق أن جهنم مخيفة، ولكنك وجدت أن المرض أشد عليك من جهنم فما أجهل هذا الإنسان.

وإذا صدقت الطبيب فيما يحذرك منه، مثلاً: شخص يملك بيتاً في الدور الرابع، كساه في خمس سنوات، بعد ما انتهى تجهيزه قال له الطبيب: بعه فوراً، فهذا لا يناسبك، فهذا التعب، وهذا الديكور، وهذا الجبصين، في اليوم الثاني يعرضه للبيع، معنى ذلك أنه صدّق الطبيب، صدقه تماماً، أفلا تستحي من الله أن تصدق الطبيب دون أن تصدق الله عزّ وجل ؟ فلذلك هذا كلام خالق الكون.

يا إخوان، قبل أن تقترف مخالفة، قبل أن تقترف معصية، قبل أن تقصِّر بواجب، قبل أن تدع ما أمر الله به، فكر ملياً هذا كلام خالق الكون، أهذا النعيم المقيم، أهذه الجنة بحورها العين، بولدانها المخلّدين، بطعامها، بشرابها، بكل ما فيها من نعيمٍ مقيم، بالتكريم، بالسعادة، بالسرور..

(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(62)إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ(63)إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(64)طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ(65)فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(66)ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ(67)ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ(68)إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ)

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ

لا حُجّة بالتقاليد وعادات الآباء:

هنا محط الشاهد، يقول بعض الناس: هكذا ربينا، فانظر كيف ربيت ؟ لعلك تربيت على خلاف الشرع، هكذا نشأنا، هكذا عادتنا، هكذا تقاليدنا، هكذا يريد أبي، من أبوك ؟ هل أبوك مشرع ؟ أبوك على العين والرأس، ولكن ليس مشرعاً، الله عزّ وجل قال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء: من الآية 23)

الأب يُحْسَن إليه، أما إذا أجبرك على معصية فلا طاعة عندئذٍ، لا طاعة لمخلوق.

أمّ سيدنا سعد قالت له: " إن لم تكفر بمحمد فسأموت جوعاً "، قال لها: " يا أمي، لو أن لكِ مائة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي "، فأكلت بعد ذلك، لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، فقبل أن تقول: أبي، هكذا ربينا، وهكذا نشأنا، هكذا علمونا، ونحن لا نستطيع أن نخالف، قال تعالى:

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ(69)فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)

فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ

مثلما قال الشاعر الجاهلي يلتزم سيرة الآباء ولو كانوا أهل ضلال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

***

لا يكن أحدكم إمَّعة، أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطِّن نفسك على أن تحسن إن أحسنوا، وعلى أن تحسن إن أساءوا.

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ(69)فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)

هكذا أبي ربَّانا، فأنت لماذا إذاً تريد أن تسكن بيت غير بيتاً والدك؟ يقول لك: يا أخي، الحياة تغيَّرت، وفي الدنيا تجدُّد، تريد فرشاً جديداً، تريد ترتيباً جديداً ؟ أنت في الدنيا لا ترضى بما فعله أبوك، تريد أن تقيم دنيا على نمطٍ خاص، على طريقةٍ أنت تحبها، فلماذا في مجال الإيمان اعترضت وقلت: أبي هكذا يريد، بينما في شهوات الدنيا أنت غيرت وبدلت ؟ كلام الإنسان إذاً ليس له حجة، ولا نهجه مثالاً يُحتذى..

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ(69)فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ(70)وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ(71)وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ

الله تعالى أنذر الناسَ بجميع أنواع النذر:

القرآن نذير، والنبي نذير، والأمراض نذير، والمصائب نذير، وموت الأقارب نذير، وسن الأربعين نذير، والشيب نذير، والله عزّ وجل ينذر وينذر إلى أن يأتي الوقت المعلوم..

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ

هؤلاء الذين أنذرناهم انظر إلى عاقبتهم، انظر إلى مصيرهم.

أيها الإخوة الأكارم، هذا قرآنٌ كريم، وهذا كلام رب العالمين، وهذا وصفٌ صادق لما سنكون عليه، فإما إلى جنةٍ يدوم نعيمها، وإما إلى نارٍ لا ينفد عذابها، فالإنسان عليه بطاعة الله، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

مرة قلت لكم قصة: كان الحسن البصري من كبار التابعين، عند أحد ولاة يزيد بن معاوية ـ على ما أعتقد ـ فجاء أمر من يزيد إلى هذا الوالي، يبدو أن هذا الأمر لا يرضي الله عزّ وجل، وقع الوالي في موقفٍ حرج، إن نفّذ هذا الأمر أغضب الله، وإن لم ينفذ هذا الأمر أغضب يزيد، شيء صعب، وكان

بجانبه الحسن البصري قال له: ما قولك يا إمام ؟ قال له كلمة هذه يجب أن نحفظها: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

إذا آثرت جانب الله، فالله يحميك من كل الناس، أما إذا آثرت جانب الناس، فهؤلاء الذين آثرتهم وعصيت ربك لا يحمونك من أحد، فعلاقتك مع الله، حتى لو أن الإنسان جاء النبي عليه الصلاة والسلام، وهو سيد الخلق وحبيب الحق المعصوم جاء في خصومة، فعرض وجهة نظره بلسانٍ طليق، وحجةٍ قوية، وبيانٍ ساطع، فالنبي حكم له وهو ليس محقاً، لا تنجو من عذاب الله، حتى لو أن النبي حكم لك، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[البخاري]

وفي رواية:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضًا أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ أَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، وَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَدَعْهَا))

[البخاري]

أنا أنبهك يا أيها الأخ الكريم: لا تعتمد إلا على الله، ولا تثق إلا بالله، ولا تُرضي مخلوقاً بمعصية الله، مهما كبُر هذا المخلوق، مهما أعطاك من المغريات، مهما طمأنك، لأن هذا الإنسان الذي أطعته، وعصيت الله عزّ وجل لا يمنعك من الله، ولكنك إذا آثرت جانب الله فهو يمنعك من هذا الإنسان، ولذلك: راجع عاداتك وتقاليدك كلها راجعها، أتقول لي: أبي، وهكذا نشأنا، وهكذا ربينا، انظر إلى الشرع، وإذا لم أظهرْ أمام النساء في العرس تغضب أمي، أما أنت فقل لها كما قال سعد بن أبي وقاص: **<< لو أن لكِ مائة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي >>.**

هذا موقف الصحابي، لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، ربنا عزّ وجل بيّن أن أحد أسباب هلاكهم الطاعة العمياء، التقليد الأعمى، كلمة تقاليد، عادات، أعراف، يا أخي هكذا ربينا، لا نقدر، وأنا استحي، أتخشون الناس والله أحق أن تخشوه.

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

هؤلاء لهم حديث آخر في الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(75)وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (07-14): تفسيرالآيات 75 - 82
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-10-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الصافات، ومع الآية الخامسة والسبعين:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ

1 ـ من شأن الإنسان الضعيف أن ينادي ربّه القويّ:

الإنسان لابدّ من أن يُنادي، لابدّ من أن يدعو، لابدّ من أن يطلب، لابدّ من أن يرجو، لابدّ من أن يتوسّل، لأن الإنسان خُلِقَ ضعيفاً ؛ يصيبه ضعفٌ في جسمه، ضعفٌ في دخله، ضعفٌ في قوّته، الإنسان في الأصل ضعيف، ومن شأن الضعيف أن يدعو، من شأن الضعيف أن يستجير، أن يستغيث، أن يطلب، أن ينادي، فهذا من شأن الإنسان، من طبيعة الإنسان، ما منّا واحدٌ إلا ويدعو.

من هو المؤمن ؟ هو الذي يدعو الله عزّ وجل، من هو غير المؤمن؟ هو الذي يلتفت إلى غير الله، هو الذي يتضعضع لغير الله، هو الذي يرجو غير الله، هو الذي يُهْرِقُ ماء وجهه لغير الله، هو الذي يتمسكنُ لعبدٍ مثله لا يقوى على شيء.

الفيصل بين المؤمن وغير المؤمن أن غير المؤمن يدعو غير الله، وأن المؤمن يدعو الله عزّ وجل، ثقة المؤمن كلها في الله عزّ وجل، ثقة أهل الدنيا ببعضهم بعضاً، لذلك المؤمن موحِّد، والكافر مشرك، المؤمن يدعو من هو أهلٌ للدعاء، الكافر يدعو من هو ضعيفٌ لا يستجب له، لا يسمعه، وإن سمعه لا يستجيب له، لذلك دقِق في كلمة:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

ليس في الكون واحد من دون استثناء إلا وألمّت به ملمّة، مصيبة، شبح مصيبة، خوف، قلق، مرض، ضيق ذات يد، ضعف، مستضعف لا يقوى على شيء، الأبواب كلُّها مغلّقةٌ أمامه، يشكو من بيته، من أهله، من زوجته، من جسمه، من دخله، ممن هم فوقه، شأن الإنسان هو الضعف، وشأن الضعيف هو الطلب، والدعاء، والرجاء، والتوسُّل، لكن المؤمن يرجو الله وحده، يثق بالله وحده، يؤمن أن الله على كل شيءٍ قدير، وأنه يسمعه.

وأنا في طريقي إلى المسجد خطر في بالي السؤال التالي: من هو أكمل المجيبين ؟ ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

2 ـ الله أكملُ وأكرمُ مجيبٍ:

من هو أكمل مجيب ؟ هو الله جلّ جلاله، فلماذا ؟ لأنه يسمع دعاءك ولو دعوت بنفسك، سيدنا زكريّا.

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

(سورة مريم)

بإمكانك أن تضمّ شفتيك، وأن تجعلهما لا تنبُسان ببنت شفة، وبإمكانك أن تدعو في سرّك، تقول: يا رب أعني، يا رب أنقذني، يا رب لا تكلني إلى أحدٍ سواك، يا رب ليس لي أحدٌ سواك، يا رب أنا ضعيفٌ فقوني، يا رب أنا فقيرٌ فأغنني، يا رب أنا جاهلٌ فعلمني، بإمكانك أن تدعو وأنت ساكت.

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ)

فأكمل مجيب هو الذي يسمع، لكن من كان دون الله عزّ وجل فكيف يجيبك إن لم يكن إلى جانبك ؟ إن أعطاك رقم هاتفه، وضاع منك الرقم، فماذا تفعل ؟ إن كنت في مكانٍ، وليس معك رقم هاتفه، فماذا تفعل ؟ إن أعطاك رقم هاتفه، وكان هذا الرقم معك، واتصلت به فإذا هو خارج البيت، ليس موجوداً، أو كان جهازه معطّلاً، إذاً هذا ليس مجيباً، أما الإنسان أينما ذهب، أينما حل، أينما ارتحل، أينما توجّه، في بلده، في موطنه، في حلِّه، في ترحاله، في سفره، وحده، مع الناس، في مدينة، في الصحراء، فالله قريب مجيب..

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ)

لكن سيدنا يونس أين نادى الله عزّ وجل ؟ ناداه في بطن الحوت، في ظلماتٍ ثلاث ؛ في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل، البحر فيه مكان دامس الظلام، ينعدم الضوء كلياً بعد مئتي متر تقريباً، فالحوت إذا غاص في أعماق البحر، ففي بطن الحوت ظلمة، وفي البحر ظلمة، والوقت ليل، فظلمة الليل، على ظلمة البحر، على ظلمة بطن الحوت..

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

سيدنا يونس نادى الله عزّ وجل وهو في بطن الحوت..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

فيا أخي المؤمن، هل تجد مجيباً كالله عزّ وجل ؟ يسمعك أينما كنت، أينما حللت، أينما ارتحلت، في يُسرك، في عُسرك، في غناك، في فقرك، في صحّتك، في مرضك، الإنسان يحتاج إلى اتصال، إلى هاتف، إلى برقيّة، إلى مخابرة، إلى صياح، إلى كتابة، إلى ترجمة أحياناً، أما الله عزّ وجل وأنت ساكت يعلم السرّ وأخفى، يعلم سرّك ويعلم ما خفي عنك، ما معنى..

(فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

نسمعك، ومع السماع إجابة محققة..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44)قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(45)قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه)

أنا معكما، و..

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61))

(سورة الشعراء)

إنهم لحقوا بنا، البحر أمامنا، وفرعون من ورائنا، فرعون، وما أدراك ما فرعون بقوّته، وجيشه، وبطشه، وحقده، وجبروته..

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

سيدنا إبراهيم جاءه جبريل قبل أن يُوضَع في النار، سأله جبريل: ألك حاجة ؟ قال: " منك ؟ قال: **" لا ليس مني، ولكن من الله "** قال: **"علمه بحالي يغني عن سؤالي ".**

فهذه القصص ليست للاطلاع، هذه القصص القرآنيّة للاعتبار، فسيدنا إبراهيم قبل أن يُلْقَى في النار، وسيدنا يونس وهو في بطن الحوت، وسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام وهو في الغار..

((مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

[من صحيح البخاري عن أبي بكر]

فأنت مؤمن، أما عندك ورطة إطلاقاً ؟ أما عندك مشكلة ؟ أليس لديك ضائقة ؟ أما يلوح لك شبح مصيبة ؟ لا يمكن إلا يكون لديك شيء من ذلك.

3 ـ الله يسوقنا إليه بالمصائب والابتلاء:

بالمناسبة ؛ المتفوّقون، المؤمنون الصادقون يزداد نشاطهم في الرخاء، وفي الطمأنينة، وفي الصحّة، وفي الغنى، لكن ضعاف الإيمان فالرخاء لا يناسبُهم، الرخاء يعني: الكسل، يعني النوم، يعني التواني، يعني صلاة فيها تكاسل، يعني غفلة عن الله عزّ وجل، لذلك حكمة الله جلّ جلاله ـ وهذا من فضله علينا

ـ أنه يسوقنا إلى بابه بالمشكلات، ولولا المصائب لما اندفع إلى باب الله عزّ وجل، لما اندفع إلى الله، وإلى رسوله، وإلى بيته، وإلى مجالس العلم، فهذه نعمة، لو تركنا الله عزّ وجل هملاً، وبقي الناس في غفلةٍ إلى أن جاء وقتهم المعلوم، فاستحقوا النار.

الله جلّ جلاله مُرَبٍّ، هو ربُّ العالمين، معنى ربُّ العالمين، أي أنه يربي هذه النفس، ينقلها من حالٍ إلى حال، من طوْرٍ إلى طور، من منزلةٍ إلى منزلة، من مرتبة الإسلام، إلى مرتبة الإيمان، إلى مرتبة الإحسان، إلى مرتبة الشهود، إلى مرتبة الفناء، إلى وإلى، ينقلك، يُقَلِّبَك.

أكثر شيء أنت أيها المؤمن تتعامل مع الله من خلال الدعاء.

هل أقول لكم كلمة أوضح من ذلك ؟ إن الدعاء هدفٌ لذاته، وما يسوق الله للإنسان من مشكلات إلا كي ندعوه، إلا كي نتضرّع إليه، إلا كي نُقبل عليه، إلا كي نتوسّل إليه..

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

أول شيء يجعل الطلب من الله طلباً ذكيّاً، أن الله معك أينما ذهبت، أينما كنت، مهما كنت في حرج، مهما كنت في ورطة، مهما كنت في ضيق، مهما كنت في قبضة عدوّك فالله معك..

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

4 ـ الله يسمع:

الله يسمع، يسمعك في أشدِّ الحالات، يسمعك وأنت ساكت، فإذا خطر في بالك، أو إذا توجّهت إلى الله في قلبك، وقلت: يا رب، أنقذني ليس لي سواك، أنا عبدٌ ضعيف، فإذا قلت: يا رب أنا عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي في يدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أعوذ بك من أن تحلّ بي غضبك، أو تنزل بي سَخَطك، أعوذ بك من فجأة نقمتك، وتحوّل عافيتك، وجميع غضبك، لك العتبى حتّى ترضى.

هذا شيء جميل جداً..

اللهمّ أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوءُ لك بذنبي، أبوءُ لك بنعمتك علي، أبوءُ لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

أليست لك مناجاة مع الله ؟ أليست لك ساعة صفاء ؟ ساعة إقبال وساعة دعاء ؟

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ)

كأن الله جلّ جلاله ـ إن كنت مصيباً في هذا الكلام ـ كأن الله يسوق بعض المُشكلات ليسمع صوت عبده اللّهْفَان، إنه يحبُّك، وأنت مطلوبٌ عنده، ولا تأتيه طوعاً، وإذاً فلتأتيه بهذه الطريقة.

قلت لكم قبل قليل: المتفوّقون المؤمنون الصادقون، وهم في جو الراحة النفسيّة، والأمن، والدعة، فهذا يزيدهم شوقاً إلى الله عزّ وجل، واجتهاداً في طريق الله عزّ وجل ؛ لكن الضِعاف إذا اطمأنوا، أو اغتنوا، أو أمورهم كانت ميسَّرة تماماً هذا من شأنه أن يقعدهم، أن يبطئ بهم السير إلى الله عزّ وجل، لذلك فالله هو الحكيم يسوق لنا من الشدائد ما يدفعنا إلى بابه، ما يجعلنا نلوذُ به، نقبل عليه، نتوسّل إليه، نعتمد عليه، نستغفره.

الشيء الثاني: أحياناً إنسان يسمعك، لأنه معك، وواقف بجانبك، تقول: أرجوك يا فلان ؟ يقول لك: والله ما بيدي شيء، الأمر ليس بيدي، أتمنى والله، إذا ألمّ وجعٌ بأحشاء الإنسان الداخليّة، فمهما كان إنسان آخر يحبه وقريب منه يقول: العين بصيرة، واليد قصيرة، الأمر بيد الله عزّ وجل، انتقلنا من صفة السمع، وهو في أرقى حالاته، أرقى حالات السمع أن يسمعك وأنت ساكت، يكفي أن تتوجّه إليه بقلبك، يا رب ليس لي إلا أنت، يسمعك.

5 ـ الله يسوقنا إليه بالمصائب والابتلاء:

ولكن الله عزّ وجل ليس فقط يسمعك، يسمعك وهو قادرٌ على كل شيء، قادر أن يوقف نمو الورم الخبيث بلا دواء، والله الذي لا إله إلا هو أشخاصٌ كثيرون أعرفهم، أُخِذَت خزعاتٌ من رئاتهم، أُخِذَت إلى بلدٍ غربي لتحليلها، فإذا مرضٌ خبيث من الدرجة الخامسة، ولا سبيل إلى بقائه حياً أبداً، لأن زرع الرئة ليس ممكناً حتى الآن، هذا الإنسان التجأ إلى الله، واعتمد عليه، وتوسّل إليه، والله الآن هو حيٌّ يُرْزَق لا يشكو شيئاً، وقد مضى على هذه الحادثة أكثر من عشر سنين.

الشيء اللطيف أن الله ليس فقط سمعك، بل إنه على كل شيء قدير، يفتح المجاري، يحرّك الأعصاب، يحرّك العضلات، يذوّب الجَلطة، يجعل الدَسّام محكماً، هذا الذي حار به الأطباء، هذا الذي يقول عنه الأطبّاء: الشفاء الذاتي، أي شفاءٍ ذاتي ؟ إنه شفاء رب العالمين.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي(80))

(سورة الشعراء)

ألا تحبُّ أن يكون الله معك ؟ كن مع الله، ألا تحبُّ أن يكون الله جليسك ؟ ـ " أتحب أن أكون جليسك يا موسى ؟ " قال: " كيف ذلك يا رب ؟ " قال: **" أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني "** ـ فربنا عزّ وجل ليس سميعاً فقط، بل إنه سميع وقادر، وأعتى أعدائك في قبضته، أقوى جهة في الأرض في قبضته، أعداءك، أصدقاؤك، أقرباؤك، أهل بيتك، أولادك، من فوقك، من

تحتك، من يلوذ بك، من لا يلوذ بك، المخلوقات، الحيوانات، الفيروسات، الإنسان حسب قواعد العدوى يجب ألا يكون أحدٌ صحيحاً، فمن الذي يحميك من هذه الفيروسات ؟ وهذه الأمراض الخبيثة ؟ وهذه الأمراض المُعدية ؟ وهذه الأمراض السارية ؟ من يحميك ؟ الله عزّ وجل سميع، وهو على كل شيءٍ قدير، لا يعجزه شيءٌ في السماوات ولا في الأرض.

قلت لكم في الدرس الماضي على ما أعتقد: طائرةٌ على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدمٍ، فوق جبال الألب، احترقت، وانفجرت، وانشطرت شطرين، أحد الركاب سقط منها في مكان الانشطار، وظلّ يهوي ثلاثاً وأربعين ألف قدمٍ، إلى أن سقط على غابةٍ مكسوّةٍ بالثلج بسماكة خمسة أمتار، هذه الأمتار الخمسة مع مرونة الأغصان ـ أغصان السرو والصنوبر ـ امتصّت كل هذه الصدمة والاندفاع، فنزل واقفاً.

وإذا العناية لاحظتك جفونها نـم فـالمخاوف كلهنّ أمان

***

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

6 ـ الله يحبّ ويرحم:

أحياناً شخص استمع إليك، أجل استمع إليك، وهو قادرٌ على أن ينقذك من ورطتك، لكنّه لا يحبُّك، لا يرحمك، ربنا عزّ وجل يستمع إليك، وهو قادرٌ على أي شيءٍ تطلبه منه، والله عزّ وجل لحكمةٍ يريدها يخلق من الضعف قوّةً، من الفقر غنىً، تجده فقيراً، عجيب أمره، فما هي إلا سنة أو سنتان حتّى أصبح غنياً، ضعيف أصبح قوياً، عليل أصبح صحيحاً.

ربنا عزّ وجل رحمنٌ رحيم..

لو يعلم المُعْرِضُ مدى حبي له وشوقي إليه وانتظاري ترك معاصيه، لتقطّعت أوصاله من حبي، هذا شوقي لغير المؤمن فكيف شوقي للمؤمن ؟!

أنت مطلوب، أنا اخترت ثلاث صفات، أنه سميع، وأنه قدير، وأنه محب، هذا معنى:

(فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

لماذا هو نِعْمَ المُجيبين ؟ لأنه سميع وقدير ومحب، احذف واحدة فلن يكون نعم المجيبين، احذف السمع، لك شخصٌ يحبُّك حباً جماً، ويحرص على كل مصالحك، لكنه بعيد عنك، أحياناً يكون الابن بأمريكا والأب في الشام، والابن بار يقدِّم روحه لوالده، ولكنه ليس هنا، والده أصابه مرض، والابن ليس هنا،

فلن يفيد شيئاً بعده، ولكن لو كان معك وغير قدير، فلا يفعل شيئاً، معك وقدير، ولا يحبّك، لو أن صفة تخلّفت ما صار ؛ فلنعم المجيبون، أما ربنا عزّ وجل أثنى على نفسه فقال: نعم المجيبون نحن.

فكم هو أحمقُ هذا الذي يتوجّه لغير الله ؟ كم هو أحمقُ هذا الذي يعلِّق آمالاً على غير الله عزّ وجل ؟ كم هو أحمقُ هذا الذي يبذل ماء وجهه لغير الله عزّ وجل ؟ كم هو أحمقُ هذا الذي يتضعضع لغنيّ يريد ماله ؟ كم هو أحمق ؟ اسأل الله من فضله..

ملك الملوك إذا وهب لا تسألنّ عن السبب

الله يعطي من يشاء فقس على حدِّ الأدب

***

7 ـ إذا كان الله أكرمَ مجيبٍ فاسأله الجنة:

اسأل الله من فضله، اطلب من الله كل شيء، إن سألت الله عزّ وجل فاسأله الجنّة وما قرّب إليها من قولٍ وعمل، استعذ به من النار، وما قرّب إليها من قولٍ وعمل، اسأله خير الدنيا والآخرة، اسأله ما سأله النبي عليه الصلاة والسلام، واستعذ به مما استعاذ به النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللّهُمّ إنّي أسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ ؛ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ، وَمَا لَمْ أعْلَمْ، وَأعُوذُ بِكَ مِنَ الشّرّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ، وَمَا لَمْ أعْلَمِ))

[من سنن ابن ماجة عن السيدة عائشة]

كن طمّاعاً، هنا الطمع، فالطمع مع الله عزّ وجل، كن طموحاً لا ترضى بالقليل.

سألت امرأةٌ أميراً عطاءً فأعطاها عطاءً كثيراً، فقال له وزيره: " يا سيدي، كان من الممكن أن ترضى بالقليل، كان يرضيها القليل، ولقد أعطيتها كثيراً، وهي لا تعرفك بهذا الكرم "، فأجاب الأمير: " إن كانت ترضى بالقليل فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي "، وربنا عزّ وجل، وَلِلّهِ المَثَلُ الأعْلَى يعاملنا على أننا إذا رضينا بالقليل لا يرضى إلا بالكثير، الدليل:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ اثّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ)

(سورة التوبة: من الآية 38)

إذا قال ملكٌ لرجلٍ: اطلب مني، فقال له: قلم رصاص يا سيدي، يقول له: قلم رصاص فقط ؟ اطلب سيارة، اطلب بيتاً، اطلب منصباً رفيعاً، ملك يطلب منك أن تسأله فأكثر المسألة، فكيف إذا دعاك الله عزّ وجل لتسأله، قال تعالى:

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(60)لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

اطلب الجنّة، اطلب سعادة الأبد، الآن نجد أشخاصاً يكتفي أحدهم أن يشتري بيتاً يؤويه، هذا كل مناه، فقط ؟ هذا البيت لا تدوم فيه، وهو يكتفي أن يتزوّج هذه المرأة، انتهت كل طلباته من الله عزّ وجل، ما أضعف هذا الإنسان، ما أضعف بصيرته، ما أقلّ طموحه، إن كنت لا تعرف الله فاعرفه بأنه أكرم الكُرَمَاء.

إذاً أول نقطة: نعم المجيبون ؛ لأنه يسمعك أينما كنت، يسمعك بلا كلام، يسمعك وأنت ساكت، والدليل سيدنا زكريّا:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(3))

(سورة مريم)

والنبي الكريم سمع أناساً يدعون الله بصوتٍ مرتفع فقال:

((إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ))

[متفق عليه عن أبي موسى الأشعري]

النقطة الثانية: لا يعجزه شيءٌ في السماوات ولا في الأرض، هناك أشخاص لضعف إيمانهم يقولون لك: ليس هناك أمل في أن أتزوّج، فلماذا ليس هناك أمل لتتزوّج ؟ يقول لك: ما معي ثمن بيت، فما هذا الكلام ؟ أنت أكرم من الله عزّ وجل ؟ عندما يريد الله فإنه يخلق لك شيئاً على غير قوانين الحياة، الله عزّ وجل جعل للحياة قواعد، ويخرقها دائماً إكراماً للمؤمن..

((أبى الله إلا أن يجعل رزق عبده المؤمن من حيث لا يحتسب))

[ورد في الأثر]

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

8 ـ عطاء الله خير ومنعه خير:

ومعنى مخرجاً أي: أن الأمر كان مغلقاً، نزلت فلمّا استحكمت حلقاتها، أحياناً يكون هذا الطريق مغلقاً، فباب الوظيفة مغلق، لا تعيين لموظفين جدد، عمل حر غير متوافر، لا في شركة ولا في غيرها، وباب السفر موصد، ومثل ذلك الزواج، ولا أمل في شراء بيت، هذه استحكمت حلقاتها، يبدو أنك تطرق أبواب الأرض فتجد أنها كلها مغلقة، أما إذا طرقت باب السماء فُتِحَت لك كل الأبواب.

نزلت فلمّا استحكمت حلقاتها فُرجَت وكنت أظنُّها أنها لا تفرجُ

***

هذا معنى قول الشاعر:

كن عن همومِك معرضاً وكل الأمور إلى القضا

وأبشر بخيرٍ عاجلٍ تنس به ما قد مضى

فلربّ أمرٍ مسخطٍ لك في عواقبه رضى

ولربّما ضاق المضيق ولربّما اتسع الفضا

الله يفعل ما يشاء فلا تكوننّ معترضا

الله عوّدك الجميل فقس على ما قد مضى

***

أنت مؤمن لك اتصالٌ بالله، مؤمن لك ثقةٌ بالله، مؤمن لك يقينٌ بحكمة الله عزّ وجل، مؤمن لك يقين أنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء ؛ لكن بيده الخير، كلُّه خير، عطاؤه عطاء، ومنعه عطاء، وإذا كشف لك حكمته في المنع عاد المنع عين العطاء.

9 ـ المؤمن راضٍ عن عطاء الله ومنعه:

حقاً أقول: إذا كشف لك حكمته في المنع عاد المنعُ عين العطاء، والمؤمن يتلو قوله تعالى فيقشعرُّ جلده:

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

المؤمن مستسلم. إذاً:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

إذاً: إذا سألت فاسأل الله، إذا استعنت فاستعن بالله..

((اعْلَمْ أَنّ الأُمّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ))

[من سنن الترمذي عن ابن عبّاس]

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: من الآية 2)

((لِكُلّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتّى يَعْلَمَ أَنّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند أحمد عن أبي الدرداء]

هذا هو الإيمان، الإيمان طمأنينة، الإيمان تسليم، الإيمان رضى بقضاء الله وقدره، المؤمن دائماً يقول: يا رب أنا راضٍ بقضائك.

حدّثني أخ طبيب في مستشفى، قال لي: والله جاءنا مريض معه ورمٌ خبيثٌ في أمعائه، وقال لي: إن هذا المرض من أشدِّ الأمراض إيلاماً، بل إنّ معظم المصابين بهذا المرض مهما كانوا متجلِّدين يصيحون صياحاً عجيباً من شدّة الآلام، قال: جاءنا مريضٌ مؤمن معه ورمٌ خبيثٌ في أمعائه، وقال لي: والله ما دخل عليه إنسانٌ إلا وقال له: اشهد أنني راضٍ عن الله، يا رب، لك الحمد، بقي أيّاماً عدّة في المستشفى وبعدها توفي، هكذا ليكن الإيمان بقضاء الله، فلعله فاز برضى الله إذ كان راضياً بقضائه.

ركنتم إلى الدنيا، إلى المال، إلى الطعام، إلى النوم، تركتم الصلاة، تركتم التفكّر، التذكّر، تلاوة القرآن، العمل الصالح، الله عزّ وجل يقول:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

آية ثانية:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77))

(سورة النساء)

آية ثالثة:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60))

(سورة القصص)

(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

قد يبتلى الإنسان بكرب عظيم، كرب لا يُحتمل، أمراض وبيلة، ذُل، إهانة، تقييد حريّة، مسجون لمدة ثلاثين سنة ـ شيء صعب ـ في غرفةٍ صغيرة، وأحياناً يكون الكرب العظيم فقدَ الحريّة، يكون الكرب العظيم مرضاً كبيراً، مرضاً خطيراً، أحياناً يكون الكرب العظيم ذُلاً، أو فقراً مدقعًا تشتهي أن تأكل التراب، أحياناً عضو من أعضاء الإنسان يتعطّل، واحد أصيب مستقيمه بشلل، إذاً: القذر لا يخرُج، عرض على إنسان عشرة آلاف ليرة كل شهر لينزل بإصبعه هذا القَذَر فرفض، فنعمة كبرى أن الإنسان يَخْرُج غائطه من دون مساعد، هذه نعمة لا يعرفها إلا مَن فقدها.

لو أن القناة الدمعيّة سُدّت لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، دائماً الدمع نازل، والدمع قلوي، والجلد حسّاس، دائماً في وجنتيه خط ملتهب، والقناة الدمعيّة دقيقةٌ جداً، هل فقد البصر قليل ؟ أو فقد السمع قليل؟ أو الشلل قليل ؟ الإنسان ثقيل، كل مكانتك، وكل كرامتك، وكل محبة الناس لأنك تتحرّك بنفسك، لو فُقدَت هذه الحركة، والله لتمنّى أقرب الناس إليك أن تموت، الله يخفِّف عنه، لا نستطيع أن نتحمّله، أقرب الناس إليك، ابنك الذي من صلبك يتمنى لك الموت، طبعاً فأنت محبوب لأن الله أعطاك قوّة، ظلّك

خفيف لأنك خفيف، أما إذا أُصيب الإنسان بالشلل، وأصبح طريح الفراش، عندئذٍ يتمنّى أهله ـ وأقسم بالله ـ يفرحون بوفاته، ولو لبسوا السواد، ولو أطالوا لحاهم، هذه مظاهر، لكنه إذا فقد الإنسان سمعه، أو بصره، أو قوّته، أو عقله، إذا فقد عقله يخاف الناس منه، يحتاج إلى واسطة ليدخل مشفى المجانين، هذا كرب عظيم..

(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

أيها الإخوة الأكارم، لا تسلك سبيلاً يكون الكرب العظيم عندئذٍ أمراً محتوماً، ولابدَّ منه فاحذر، لا تمش مع الله بطريق مسدود.

1 ـ الكرب العظيم:

الكرب العظيم يراه الناس رأي العين ؛ فيضانات، أعاصير، الإعصار الذي ضرب أمريكا ترك خسائر تبلغ ثلاثين مليار دولار، أي بقدر نفقات حرب الخليج بالضبط، فيضانات، ألف وخمسمائة إصابة في الباكستان، فيضانات، صقيع أحياناً، وأحياناً حرائق، وأحياناً نزوح، حروب أهليّة، أمراض، الإيدز هذا كرب عظيم، يقدّرون بعد عدة سنوات أن يموت بالإيدز عشرون مليون إنسان، انتشار الأمراض كرب عظيم، والوباء كرب عظيم، فيضان كذلك، ومثلها أعاصير، وكما قال الله عزّ وجل:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

هناك مدينة في إيطاليا اسمها ـ فيزوف ـ تقع بسفح جبل فيزوف في إيطاليا، ثار بركانٌ الساعة الثانية ظهراً، هذا البركان قذف حُمَماً من اللهب مع رماد بركاني، رفع الحرارة إلى ثمانمائة درجة، ومعه غاز خانق، فهذا الرماد تراكم فوق هذه المدينة ودمّرها عن آخرها، بعد مئات الأعوام في أثناء التنقيب وجدوا أجساد الموتى جلوساً، وهم يأكلون الطعام، هذا الرماد أصبح كالصخر، والأشياء التي كانت وقتها فراغات، حقنوها بالجبصين السائل، فإذا مشاهد لا تصدّق، امرأةٌ تنحني على طفلها، أناسٌ يجمعون الحلي من الخزائن، مدينة جاءها الكرب العظيم بعد الظُهر، كل إنسان مات في حالة خوف قاتل، حتّى بعض الكلاب في حالة دُعر، حتى المساجين في السجون، نقّبوا في هذه المدينة كل شيء،

كل شيء فيه فراغ حقنوه جبصيناً سائلاً، فلمّا تجّد هذا الجبصين ظهر الشكل ؛ طعامهم، شرابهم، حمّاماتهم، قصورهم، بيوتهم، هذا كرب عظيم.

كذلك هناك زلازل تضرب المدينة بأكملها، أو قنابل نوويّة كما جاء لمدينة هيروشيما، ثلاثمئة ألف قتيل في ثماني ثوان أصبحوا قتلى.

2 ـ لا ينجو الإنسان من الكرب العظيم إلا إذا كان مع الله:

إذاً: هناك كرب عظيم، فالإنسان لا ينجو من الكرب العظيم إلا إذا كان مع الله..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء: من الآية 88)

اسمعوا الآية:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

قال تعالى:

(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

من هم أهله ؟ الذين آمنوا به، كلمة أهل في هذه الآية تعني المؤمنين..

(وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ)

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ

لأن كل من ركب في السفينة التي صنعها سيدنا نوح نجا، ومن لم يركبها هلك، قال:

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ(42)قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ(43))

(سورة هود)

قيل: جاءت امرأةٌ لسيدنا نوح ـ هكذا تروي القصص ـ وقالت له: يا نوح، متى الطوفان ؟ قال: " لم يأتِ بعد "، قالت: إذا جاء الطوفان فلا تنسني ـ هذه القصّة قد تكون رمزيّة ـ سيدنا نوح وهو في السفينة، والطوفان في أوجّه تذكّر المرأة، فلمّا انتهى الطوفان جاءته، وقالت له: يا نوح، متى الطوفان ؟، أي أنها نجت من الطوفان رغم أنه أغرق كل شيء، وأن الله عزّ وجل لا ينسى أهل الإيمان، وينجي كل مؤمن، قال تعالى:

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ

السمعة الحسنة والذكر الجميل بعد الموت:

معنى هذه الآية أي تركنا له اسماً طيّباً، وسمعةً حسنةً، وذكراً عطراً في الشعوب التي جاءت بعده، هذا شيء مهم جداً، فالإنسان يموت فإما أن يقال في كل مجلس: لعنة الله عليه، أو أن يُذْكَر بالحسنى، فجزء من إكرام الله للإنسان أن المؤمن يثني عليه الناس، له سمعةٌ طيّبة، له ذكرٌ حَسَن، تتعطّر المجالس بذكره، أما أهل الكفر والنفاق أينما حلوا يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، هنا:

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(78)سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)

في الدنيا والآخرة..

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

1 ـ كن مع الله تلق التوفيق والنصر:

يا إخوان، العاقبة للمتقين، أنت ماشٍ مع رب العالمين، ماشٍ مع خالق الكون، إذا كنت معه فالعاقبة لك، ينصرك، ويؤيّدك، ويوفّقك، ويسدّد خطاك، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(123))

(سورة التوبة)

قالوا: هذه معيَّةٌ خاصَّة، فهو معهم بالنصر، والتأييد، والتوفيق.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من الآية 4)

فهذه معيَّة عامَّة، فالله حتى مع الكافر في المعية العامة، لكن المعية الخاصة لأهل فقط.

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(153))

(سورة البقرة)

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(123))

(سورة التوبة)

هذه معيَّة النصر والتأييد، معيَّة التوفيق، معيَّة الرضى، معيَّة العناية.

2 ـ القصة قانون عامّ:

أروع ما في هذه الآية أن الله عزّ وجل بعد أن قال:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(75)وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(76)وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ(77)وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(78)سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)

فهذه قصّة وقعت مرّةً واحدة، ولكن الله أراد أن يجعلها قانوناً دائماً، من أجل أن تكون لك مصدر عبرة أيها المؤمن، الله عزّ وجل قال:

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

لأنه كان مُحسناً هكذا عاملناه، كن أنت محسناً، وتعامل كهذه المعاملة، طبعاً على نطاق آخر، فإذا جاء كرب عظيم، إذا جاء بلاء، إذا كنت في ضيقٍ مادي، إذا نزل شبح مصيبة، شبح مرض خطير، خلاف زوجي، ضيق ذات اليد، حلت مشكلات، لك عدوٌ قوي، وأنت مستضعف، يتملّكك، هذا كرب عظيم، اقرأ هذه القصّة، هذه ليست للفهم فقط، ولكن للتطبيق، والدليل:

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

أروع ما في القصّة أن الله بهذا التعقيب جعلها قانوناً، معنى هذا أنت أيها المؤمن، أنتَ أنت، أجل أنت المعني بهذه القصّة، أنت المُطالب بها، إذا جاءك كربٌ عظيم توجّه إلى الله عزّ وجل، واعتمد عليه، وتوكّل عليه، ولذْ بحماه، وقل: يا ربِّ ليس لي إلا أنت، من أجل أن ترى كيف أن الله جل جلاله يزيح عنك هذا الكرب العظيم.

هذه قصّةٌ من أجل أن نعيشها، من أجل أن نمارسها، من أجل أن تكون لنا نبراساً في حياتنا، كلّما ألمّ بك شيء لُذ بالله عزّ وجل، لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمرٌ بادر إلى الصلاة، ليس لنا إلا الله عزّ وجل، نحن عبيد، نحن ضِعاف، نحن مستضعفون، لكن الله هو القوي، لذلك: يا رب، كيف نضلُّ في هداك ؟ وكيف نذل في عزّك ؟ وكيف نفتقر في غناك ؟ وكيف نضامُ في سلطانك ؟ يا رب حاش أن نضلّ في هداك، وحاش أن نفتقر في غناك، وحاش أن نذلّ في عزّك، وحاش أن نضام في سلطانك.

هذا هو الإيمان يا إخوان، الإيمان أن تكون مع الله، أن تكون معه في طاعتك، وفي التجائك، وفي توكّلك، وفي ثقتك به، هذا هو الإيمان، هذه القصّة يجب أن تكون شعاراً لكل مؤمن:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

يا عبادي لن تجدوا مثلي مجيباً لكم، اسألوا، جرّبوا، فغير الله إن سمع لا يقدر، وإن قدر لا يسمع، وإن سمع وقدر لا يحبّك، ولا يريد أن يخدمك، إن سمعك فقد لا يملك القوّة، يقول لك: والله ليس بيدي شيء يا أخي، والله أتمنّى، والله قلبي معك، والله تقطّع قلبي من أجلك، لكن العين بصيرة واليد قصيرة، إن سمعك لا يقدر، وإذا كان يقدر يقول لك: لماذا لم تقل لي ؟ خبّرناك فلم نجدك، هذه مشكلة ثانية، وإن سمع، وكان يقدر، لكنّه عدوّك، ولا يحبّك، أما ربنا عزّ وجل فيسمعك، وقدير على كل شيء، ويحبّك، هذا معنى:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(75)وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

ومن الكرب العظيم الموت، وهناك فرق بين إنسان يموت والله راضٍ عنه، والموت عُرْسُهُ، و..

((للصّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقى رَبَّهُ))

[من صحيح البخاري عن أبي هريرة]

وبين إنسان يكون أكبر كرب عظيم عنده الموت، إذ موته نهاية كل المتع، بداية كل التبعات..

" يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرُم، فأنفقته في حلِّه وفي غير حلِّه، فالهناء لكم، والتبعة علي ".

طبعاً..

(وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ(77)وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

فهل هناك أجمل من أن يكون لك ذكر حسن بعد الموت ؟ كلما ذُكِرْتَ يقولون: الله يرحمه، الله يعلي مقامه، ترك أثراً طيباً، ترك علماً نافعاً، ترك طلاّباً جيّدين، هذا ذكر حسن، هذا أعظم عطاء، فهل هناك إنسان أعزّه الله كالنبي الكريم ؟ لا أعتقد أن هناك إنساناً في العالم كله منزلة النبي، اذهب إلى المسجد النبوي الشريف، وأنت تجد شيئاً لا يصدّق، مئات الألوف كلُّهم يبكون، وما التقوا معه، ما هذا الذكر ؟ ألم يقل الله عزّ وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

وأنت مؤمن الله يرفع شأنك، ويجعل لك ذكراً طيّباً..

(سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(79)إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

هكذا المحسن، كن محسناً، من الإحسان أن تستقيم على أمر الله، من الإحسان أن تلتزم السنّة، من الإحسان أن تنفق من علمك، من مالك، من جاهك، من كل شيء، من الإحسان أن تأتي حركتك في كل شيء وفق المنهج، وفق السُنَّة، هذا الإحسان، قال عليه الصلاة والسلام:

((فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ...))

وهو يقوم بذبحه، فهل هناك إحسان ؟ قال:

((فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[من صحيح مسلم عن شداد بن أوس]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا أضجع شاة، وهو يحد شفرته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((أتريد أن تميتها موتتين ؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها ؟))

[رواه الطبراني في الكبير والأوسط والحاكم]

هناك إحسان بالذبح إذاً، وإحسانٌ حتى بقتل العقرب، لا تعذِّبها، ضربة واحدة، إحسان في التربية، إحسان في البيع والشراء، إحسان في الكلام، والله عزّ وجل أمرنا بالإحسان، إذا كنت محسناً فلا تخف، لأن الله عزّ وجل معك، وسينجيك من الكرب العظيم.

هذه قصّة على إيجازها قصّة موجزة جداً.. اسمها حدث واحد..

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (08-14): تفسير الآيات 83 - 98
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-10-16

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الصافات، ومع الآية الثالثة والثمانين.

بعد أن ذَكَرَت هذه الآيات التي مضت في درسٍ سابق قصة سيدنا نوحٍ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وكيف أنه نادى ربه، وكيف أن الإنسان من شأنه أن ينادي، وعليه أن ينادي خالقه وربه، وكيف أن الله جلّ جلاله نجّاه وأهله من الكرب العظيم، والكرب العظيم كما وصفه رب العالمين، هو كربٌ عظيم حقاً.

وبعد قصة سيدنا نوح ننتقل إلى قصة سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، يقول الله جلّ جلاله:

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

1 - معنى: شِيعَتِهِ:

أي أن من شيعة نوحٍ إبراهيم، أي سار على منهجه، وسار على خطّته، وفعل فعله، وآمن إيمانه، ودعا دعوته، فلانٌ من شيعة فلان، أي على منهجه، وعلى شاكلته، وعلى مبدئه، وعلى استقامته، وعلى إخلاصه.

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ)

2 - مَن تتبع ؟

وبالمناسبة أنت من شيعة من ؟ على منوال مَنْ ؟ وعلى شاكلة من ؟ وعلى منهج من ؟ وعلى خطة من؟ من تتبع ؟ من تحب ؟ من تقتدي ؟ أثر من تقتفي ؟ هذا سؤال كبير، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

اسأل نفسك: أنا مع من ؟ مع أهل الدنيا، أو مع أهل الإيمان، مع أهل الفسق والفجور، أم مع أهل الاستقامة والتوحيد، مع المحسنين، مع المسيئين، مع المخلصين، مع المنافقين، مع الماديين، ومع الروحانيين، مع أهل القيَم، مع أهل الحاجات، أنت مع مَنْ ؟ هذا سؤال خطير، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَإِنّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

3 ـ الحق واحدٌ لا يتعدد:

أهل الحق متّفقون، الحق واحدٌ لا يتعدد، كما أن من نقطتين لا يمر إلا مستقيمٌ واحد، كذلك: أي حقٍ ينطبق على أي حق، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ)

(سورة الأنعام: من الآية 153)

الحق واحد..

(وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 153)

الباطل يتعدد، الانحراف يتعدد، الفسق والفجور يتلوّن ألواناً متفاوتة، ولكن الحق واحد، والله إن المؤمن لو التقى مع مؤمن من أقصى الدنيا لشعر كأنه أخوه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ))

[مسلم]

أبعد الناس عنك مكاناً إذا كان مؤمناً هو أقربهم إليك نفساً، ترتاح معه، تطمئن إليه، فنحن يجب أن نكون مع أهل الحق، مع المؤمنين، يجب أن نتبع سبيل المؤمنين، فإذا اتبعنا سبيل غير المؤمنين فلسنا مؤمنين.

(وَالّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال: من الآية 72)

فربنا جل جلاله يقول:

(وَإِنّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

هل تحس بهذا الانتماء، أتحس أنك مع المؤمنين، وأنك من جماعة المؤمنين، مع الموحِّدين، مع الصادقين، مع أهل الخير، مع أهل القرآن، مع من أنت ؟ رب لا تذرني فرداً وألحقني بالصالحين، لذلك النبي الكريم يقول:

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[من مسند أحمد عن النعمان بن البشير]

الجماعة رحمة، إذا شعرت إنك مع المؤمنين فهذه رحمة الله عزّ وجل، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((يَدُ اللّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ))

[من سنن الترمذي عن ابن عباس]

((فَإِنّ يَدَ اللّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ))

[من سنن النسائي عن عَرْفَجَة بْن شُرَيْح الأَشْجَعِيّ]

فالأنبياء لا نفرق بين أحد من رسله، دعوة الحق واحدة، سيدنا جعفر حينما خاطب النجاشي، وحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **" إن هذا الذي تقوله، والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة ".**

سيدنا عيسى يقول: **" أنا الطريق والحق والحياة، فكل غصنٍ لا يثبت في يقطع ويلقى في النار ".**

لو قرأت الإنجيل الذي نزل على السيد المسيح لرأيته مطابقاً للقرآن، الحق لا يتعدد، ولا يتغير، ولا يتبدل، فأحيانا تلتقي بأخ، تعجب من توافق أفكارك مع أفكاره، تعجب من تشابه التصرُّفات، لا تعجب ولِمَ ؟ لأن الأصل واحد، والمَنبع واحد، والمَنهل واحد، والروح واحدة، والحق واحد، فإذا كنا مع الحق، كنا أقوياء، قال تعالى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرّقُوا)

(سورة آل عمران: من الآية 103)

إذاً: معنى: من شيعته أي على شاكلته، وعلى منهجه، وعلى طريقه، وعلى خطته.

(وَإِنّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(83)إِذْ جَاءَ رَبّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

إِذْ جَاءَ رَبّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

1 - جَاءَ رَبّهُ

هنا: (جَاءَ رَبّهُ) تستحق منا وقفة متأنية، فأنت في النهار تتحرك، تبيع وتشتري، تصل فلاناً، تقطع فلاناً، تتكلم، لك حركة في النهار، إذا جئت لتصلي كأنك جئت إلى ربك، ما الذي بين يديك ؛ هل بين يديك عملٌ صالح أم عملٌ سيئ ؟ صدقٌ أم كذب ؟ إحسانٌ أم إساءة؟ حبٌ للخير أم بغضٌ للخير ؟

الإنسان حينما يقف ليصلي يتصور عمله أمامه ؛ ألك دعوةٌ إلى الله ؟ ألك عملٌ صالح ؟ ألك تضحيةٌ ؟

ألك فداءٌ ؟ ألك خدمةٌ للآخرين ؟ أرعيت يتيماً ؟ أرعيت أرملةً ؟ هل أعنت مسكيناً ؟ وهل أنفقت على فقير؟ وخدمت جاراً ؟

" يا بشر، لا صدقة ولا جهاد، فبمَ تلق الله إذاً ".

كل واحدٍ منا إذا قام ليصلي يرى عمله أمامه ؛ فإن كان صالحاً أقبل على الله، وإن كان سيئاً حُجِبَ عن الله، وأكبر عقابٍ يعاقب به الإنسان أن يحجب عن ربه..

(كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ(15))

(سورة المطففين)

أكبر عقابٍ يعاقب به الإنسان أن يحجب عن ربه، فلذلك كلمة: (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ) عليك أن تتدبَّرها، وأنت في الدنيا كلما قمت لتصلي ترى عملك أمامك ؛ هل أنت أبٌ صالح ؟ هل أنت زوجٌ مثالي ؟ هل أنت أخٌ صادق ؟ هل أنت جارٌ كريم ؟ هل أنت ابن بار ؟ هل أنتِ أيتها الأخت زوجةٌ صالحة ؟ عملكِ أمامك، وعملكَ أمامك، (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ)، بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره، بإمكانك أن تخدع الناس كلهم لبعض الوقت، وبإمكانك أن تخدع واحداً لوقتٍ طويل، أما أن تخدع الناس جميعاً لوقتٍ طويل فهذا مستحيل، لابدَّ من أن تتكشف، لابدَّ من أن تظهر على حقيقتك، (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ).

بماذا تجيء ربّك ؟

أنت إذا ذهبت لأداء فريضة الحج، جئت ربك، فبماذا جئته ؟ باستقامةٍ ؟ بإخلاصٍ ؟ بوفاءٍ؟ بصدقٍ ؟ بخدمة للخلق ؟ بماذا جئته ؟ في أثناء الطواف تلتقي مع الله عزّ وجل، في أثناء السعي، تلتقي مع الله عز وجل فبماذا جئته ؟ كلما قمت لتصلي كأنك تأتي ربك.

(إِذْ جَاءَ رَبَّهُ)

فإذا وقفت للصلاة، وكانت عقيدتك صحيحة، وكان عملك طيباً، وكانت نواياك طيبة ؛ ليس في قلبك غلٌ، ولا حقدٌ، ولا حسدٌ، ولا ضغينةٌ، ولا إيذاءٌ، ولا تفريقٌ بين متحابَّين.

(إِذْ جَاءَ رَبَّهُ)

2 ـ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

هل تعلمون أيها الإخوة ؛ ما أثمن شيءٍ تملكه في الدنيا ؟ كل شيءٍ تملكه في الدنيا سوف تتركه إلا شيئاً واحداً، هو قلبك، اسمعوا الآية الكريمة:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88))

(سورة الشعراء)

لو تركت كذا مليون، أربعة آلاف مليون ـ هناك شاب ببلد عربي عمره حوالي أربع وثلاثين سنة، يملك أربعة آلاف مليون دولار ـ سوف يتركها كلها، مهما كانت أموالك طائلة فلابدّ من تركها، مهما كان البيت فخماً فلابدّ من تركه، مهما تكن الزوجة رائعة فلابد من مفارقتها، مهما يكن شأنك عظيماً فلابد من النزول عن هذا الشأن عند الموت، تأتي الله عزّ وجل، فبماذا تأتيه ؟ قال:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

3 ـ ما هو القلب السليم ؟

(بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

أجمل ما في تفسير هذه الكلمة عند بعض المفسرين: أن القلب السليم أي جاء ربه بعقيدةٍ صحيحة، لا فيه شبهات، ولا بدع، ولا خرافات، ولا أوهام، اعتنق الحق، صدّق بالحق، وجاء ربه بقلبٍ سليم، أي كان مستقيماً على أمر الله عزّ وجل، وجاء ربه بقلبٍ سليم كان عمله طيّباً، فشعر قلبه بالراحة لعمله.

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(27)ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً(28))

(سورة الفجر)

(إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

لا غش فيه، ولا حسد، ولا حقد، ولا شيء من هذا القبيل، إذاً: أثمن شيءٍ تملكه هو القلب الثمين، لأنه زادك لرب العالمين، ولا تنسوا هذه الآية:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

فهذا النبي الكريم أبو الأنبياء، وصفه الله عز وجل بأن له قلباً سليماً.

إذاً:

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(83)إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

لابد من الاعتناء بالقلب:

يا رب تعرّفْتُ إليك في الدنيا، استقمت على أمرك، خدمت عبادك، دعوت إليك، أصلحت من سريرتي، نقّيت قلبي من كل مرضٍ، من كل كبرٍ، من كل درنٍ، لذلك سيدنا عمر يقول: << تعاهد قلبك >>، انتبه لقلبك كما تنتبه لعينك، ما منا واحدٌ لا سمح الله ولا قدر، إذا كان هناك خلل في رؤيته إلا يبادر إلى طبيب العيون، وينتظر في عيادته الساعات تلو الساعات، بل ينتظر الأيام والأسابيع ليسأله ما القصة،

لماذا أرى شيئاً أسود يتحرّك أمامي، ما تفسير هذا ؟ وإذا سئل: لماذا هذا الاهتمام ؟ يقول لك: العين يا أخي غالية، ليس من سبيل للتهاون حيالها.

العين تنتهي في الدنيا، لكن القلب هو زادك إلى الله عز وجل، في قلبك شك ؟ في بقلبك رَيْب ؟ هل هناك شبهات ؟ هل هناك أسئلة ؟ لكن سلامة القلب من كل عقيدةٍ زائغة، من كل شبهة، من كل بدعةٍ، من كل انحرافٍ، من كل تقصيرٍ، من كل إساءةٍ، من كل مرضٍ نفسي ؛ من حقدٍ، من حسدٍ، من ضغينةٍ، من كبرٍ، من عُجبٍ، فهذه كلمة جامعة مانعة، قلب سليم.

لك قلبان، لك قلب جسدٍ وقلب نفسٍ، هذا الجسد فيه القلب، إن صلُح صلح الجسد كله، أما الإنسان فمهما كان جسمه قوياً، إذا ضعف قلبه فهذه مشكلة، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((أَلا وَإِنّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[من صحيح البخاري عن النعمان بن البشير]

قاس عليها العلماء فقالوا: وللنفس قلب، قلبٌ ذاكر وقلبٌ غافل، وقلب محب وقلبٌ مبغض، قلبٌ سامٍ وقلبٌ دنيء، قلبٌ ممتلئٌ علماً وقلب ممتلئٌ جهلاً، والحديث القدسي معروف عندكم:

((ابن آدم طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة))

[ورد في الأثر]

والقلب كما قال العلماء: منظر الرب، منظر الخلق بيتك، مدخل بيتك، جدران بيتك، سقف البيت، يا ترى هل فيه ثريّات ؟ أمطلي طلاء جيداً ؟ هل الأثاث فخم، وهل الأثاث مريح ؟ منظر الخلق ثيابك، هندامك، أناقتك، نظافتك، منظر الخلق مركبتك، منظر الخلق مكتبك، دُكانك، مكان عملك، هذا كله منظر الخلق، لكن المعوّل عليه منظر الرب، طهرت منظر الخلق سنين، أفلا طهرت منظري ساعة ؟

فكلمة القلب السليم هذه نهاية النهاية، هذه محطُّ الآمال، هذه منتهى كل أمل، أن تمتلك قلباً سليماً، وصفٌ جامعٌ مانع، مختصرٌ مفيد، أي سليم، سلم من كل عيب ؛ هناك عيب فكري، عيب اعتقادي، عيب سلوكي، عيب نفسي، إلا ؛ إذ جاء ربه بقلبٍ سليم.

والمؤمن ليس سلبياً ؛ لا يهرب من مجتمعه، لا ينزوي، لا يبتعد، بل يتحرك، ويدعو إلى الله عزّ وجل..

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ(85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُرِيدُونَ)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ(85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ

أتعبدون شيئاً اشتريتموه أنتم، أنتم اختلقتموه، أنتم منحتموه هذه القدسية، هو ليس شيئاً، من الذي ينبغي أن يُعْبَد ؟ من بيده كل شيء، من الذي ينبغي أن يعبد ؟ من يسمعك إذا دعوته، من يستجيب لك إذا سألته، من يراك إذا تحرّكت، من يعلم خواطرك إذا خطرتْ لك، من يراك في تقلبك..

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213)وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(216)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(217)الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218))

(سورة الشعراء)

اعبد الذي يراك حينما تقوم، وتقلبك في الساجدين:

كل إنسان له حياة خاصة ؛ لكن إذا جاءه ضيف ارتدى أجمل ثيابه، يتكلم معه الكلمات اللطيفة، يرحِّب به، ولكن الذي يراك حينما تقوم، مَنْ ؟ هو الله جل جلاله، الذي يراك حينما تقوم، وتقلبك في الساجدين، إذاً: المعبود هو الذي بيده كل شيء..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

ينبغي أن تعبد من يُرْجَعُ الأمر كله إليه، ينبغي أن تعبد من مصير الخلائق كله إليه، هذا الذي يعبد، أتعبد إنساناً مثلك ؟ فقيراً مثلك، ضعيفاً مثلك، الإنسان ضعيف.

تصور إنشاء بناء قضينا ثلاث سنوات حتى أخذنا رخصته، وإلى أن انصبت الأساسات سنة، إلى أن صعدنا إلى الطابق الأول، والطابق الثاني، والطابق الثالث، الأعمدة والدعائم، ثم التقاطيع، ثم السقوف، ست سنوات أو سبع سنوات حتى انتهى البناء.

دخلنا في كسوة البناء ؛ الطينة، والصحية، والخشب، والبلاط، والطِلاء، والبياض، والكهرباء، والأبواب، والستائر، ثم أردنا أن نفرش هذه البيوت بالأثاث ؛ الثريات والمصابيح، والطنافس، والمقاعد، وغرف الطعام، والمطبخ، والأدوات الكهربائية، استغرق إنجازه سنوات طويلة.

أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا

وبناءٌ بأكمله كهذا بثوانٍ معدودات يصبح ركاماً، إسمنتاً مطحوناً، بأساساته، وبفرُشه، وبأشخاصه، وبالزوجات مع الأولاد مع الأثاث مع الأدوات، ذلكم الله رب العالمين، قال: لو أن زلزال القاهرة استمر

عشر ثوانٍ بالضبط لتهدمت نصف أبنيتها، ولمات أكثر من خمسة ملايين إنسان، لكن الله تلطّف. تركب طائرة أحياناً فتحس بقلق، فتسأل نفسك: لماذا أنا ركبت الطائرة ؟ تركب باخرة فتحس بقلق، لكنك لا تطمئن إلا إذا وقفت على الأرض، والذين يركبون الطائرات لا تطمئن مشاعرهم إلا إذا شعروا أن عجلات الطائرة قد دَرَجَت على المطار، فنقول: الحمد لله على السلامة، مشينا على الأرض، هذه الأرض التي هي مصدر أمنٍ وطمأنينة، تصبح في ثوانٍ مصدر قلق، فيمكن المصاب الذي أصاب إخواننا في مصر أن يصيبنا، والذعر النفسي أشد من أي شيء آخر، الذعر النفسي قاتل، فربنا عزّ وجل بيده كل شيء.

ذات مرة سأل سيدنا عمر، عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال له: " صف لي مصر "، قال: **" يا أمير المؤمنين، مصر طولها شهر ـ أي طولها مسيرة شهر ـ وعرضها عشر ـ أي عشرة أيام ـ يخطها نهرٌ ميمون الغدوات، مبارك الروحات، إذا هي عنبرةٌ سوداء ـ تربتها داكنة، يأتي النيل فيفيض عليها ـ ثم هي درةٌ بيضاء، ثم هي زبرجدةٌ خضراء، فتبارك الله الفعال لما يشاء ".**

الله عزّ وجل قال:

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل: من الآية 61)

الأصل في الأرض أنها مستقرة، الأرض تسير حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متر بالثانية الواحدة، الواحد منا يحضر الدرس ساعة، الساعة ستون دقيقة، الدقيقة ستون ثانية، ستون ضرب ستين ثلاثة آلاف وستمائة، ضرب ثلاثين، اضرب ثلاثة بستة وثلاثين وضع ثلاثة أصفار، هذا ما قطعته الأرض في درس واحد، أي أن ستة وثلاثين بثلاثة تقريباً مائة وثمانية، مائة وثمانية وثلاثة أصفار، مائة ألف وثمانية آلاف كيلو متر، وأنتم في هذا المجلس، وأنتم في هذا الدرس، نقطع جميعاً ـ هذه حقيقة بديهية ـ نقطع جميعاً في الفضاء الخارجي مائة ألف وثمانية آلاف كيلو متر ونحن في أدق استقرار، ولا حركة في الجدران، فالجدران كلها قائمة، بناء من ثلاثمائة سنة ولا حركة، أو خلل، أو ركنا، أو أزعجنا رغم هذه السرعة في مسار الأرض.

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

ومع ذلك إذا شاء الله عزّ وجل أن يهزها هزّها.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج)

يمكن أن تقرأ عشرات المقالات عن الزلزال، وعن أسباب الزلزال، وعن الحركات الباطنية في الأرض، وعن الالتواءات في الطبقة التحتية، وعن الضغط الشديد حينما تتقارب القارّات، وحينما يبلغ هذا الضغط أوجه يحدث الزلزال ؛ فإما انكسار، وإما زلزال هكذا، وتبدأ التعليلات من العلماء، وإما هكذا، وإما هكذا، وإما هكذا، هذا الزلزال، لكن الله عزّ وجل يقول:

(إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا(1)وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا(2)وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا(3)يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(4)بِأَنّ رَبّكَ أَوْحَى لَهَا(5))

(سورة الزلزلة)

هذا هو تفسير القرآن:

(بِأَنّ رَبّكَ أَوْحَى لَهَا(5))

ربك أوحى لها، أي أمَرها، إذا وجّه الوحي إلى الجماد فهو أمْر، وإذا وجّه الوحي إلى الحيوان فهو غريزة، والدليل:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

(سورة النحل: من الآية 68)

وإذا وجه الأمر إلى الإنسان فهو الإلهام:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص: من الآية 7)

وإذا وجه الوحي إلى الأنبياء فهو وحي الرسالات، إذاً هناك وحي أمرٍ، ووحي غريزةٍ، ووحي إلهامٍ، ووحي رسالة، معنى قول الله عزّ وجل:

(إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا(1)وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا(2)وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا(3)يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(4)بِأَنّ رَبّكَ أَوْحَى لَهَا(5))

(سورة الزلزلة)

هذا هو التفسير:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

هذه آياتٌ كثيرة، استمع إلى قول الله عزّ وجل:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

ثورات البراكين لا يعلمها إلا الواحد الديّان، رماد بركاني حرارته ثمانمائة درجة، يتراكم أمتاراً فوق كل شيء، كل شيء يموت فوراً، هذه من فوقكم.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُم)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الزلازل..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الحروب الأهلية..

(وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الآن هناك بلاد فيها حروب أهلية، يكادون يموتون جوعا، انظر إلى الآية الكريمة:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

استمعت إلى خبر، سألوا عالماً كبيراً من علماء الزلازل في أمريكا: هل بإمكان العلم الحديث أن يتنبأ متى يقع الزلزال ؟ فأجاب: لا.

اسمعوا الآية الكريمة:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(54)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ(56))

(سورة الزمر)

الله غفور رحيم، لكن إن لم تعد في الوقت المناسب فقد يأت العذاب بغتةً، تصور بناء فيه مصرف بأول طابق وفيه مكتبة، وبيوت، البيت مدهن، وله جبصين، وأقواس، وقطع الأثاث موزعة فيه توزيعاً أنيقاً، وغرفة الطعام، وغرفة الضيوف، والمطبخ، والبرادات، والمكيفات، والثريات، خلال تسع وخمسين ثانية صار البناء كله طحيناً من الإسمنت، ويخرجون منه الأشخاص قتلى أو جرحى أو ما شاكل ذلك.

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ(55))

هذا الذي حصل يسمّى تلويح العصا، أي انتبهوا يا عبادي، لو استمر عشر ثوانٍ لهدمت نصف أبنية القاهرة، فالإنسان عليه أن يستقيم على أمر الله، عليه أن يتقي الله عزّ وجل.

(إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(84)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ(85)أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)

أي أن هذه التي تعبدونها من دون الله أصنام، أحجار، أنتم نحتموها، لا تسمع، ولا تبصر، ولا تجيب، ولا تتكلم، ضعيفة.

(فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ

أي ما قولكم ؟ كيف تواجهون الله عزّ وجل يوم القيامة ؟ كيف تقفون بين يديه وقد عبدتم أحجاراً من خَلْقِهِ، كيف تقف بين يدي الله عزّ وجل يوم القيامة وقد اتخذت آلهةً من دونه، ألا تخجل، ألا تستحي، فالصنمُ شيءٌ لا يقدم ولا يؤخّر.

(فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

فقوم سيدنا إبراهيم ـ فيما تروي الكتب ـ لهم عيد، ويرجح أنه عيد النيروز، وهم من عادتهم أنهم يخرجون في هذا العيد إلى البساتين والحقول، فدعوه إلى أن يخرج معهم ليرى مباهج احتفالات دينهم، فجاء الجواب:

(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ

نظر إلى السماء وما فيها من آيات، وتعجب، كيف أن هؤلاء يعبدون أصناماً، وقد نسوا رب العالمين، نسوا الذي خلقهم من ماءٍ مهين، نسوا الذي أمدّهم بالأولاد والبنين، نسوا الذي يسير الكواكب والمجرات، نسوا الذي ينبت النبات، نسوا الذي ينزل الأمطار، نسوا الذي يهبهم كل شيء، فقال:

(فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(87)فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)

نظر نظرةً أي في حيرة شديدة، هو أين هو ؟ هو في وادي العبودية لله عزّ وجل خالق الكون، وهم في وادي الوثنية والشرك والانحراف، هو في أعلى درجات السمو، وهم في أدنى دركات الانحطاط.

(فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(87)فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)

أي أنا ليس بي قوةٌ أن أذهب معكم إلى أعيادكم، كما جاء في بعض التفاسير، وبعضهم قال: ما دمت سأموت فأنا سقيم، عن كلٍ اعتذر على أن يذهب معهم.

(فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ)

فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِم فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ

انطلقوا إلى الحقول والبساتين وتركوه..

(فَرَاغَ)

معنى راغ أي ذهب خفيةً.

سيدنا إبراهيم..

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ(26))

(الذاريات)

من آداب الضيافة في القرآن الكريم:

أي أن المُضيف لا ينبغي أن يذهب لإحضار الطعام بجلبةٍ وضجيج، كما يقول المضيق: أتحب أن نغديك ؟ الضيف لا والله متغدٍ، نعمل لك أكل يا أخي ؟ فهذا لا يليق مع الضيف بل من آداب الضيافة أن تنسلّ لتصنع الطعام، لا أن تحدث ضَجيجاً أو حركة لإحضار الطعام، راغ أي انسلّ أو ذهب سريعاً..

(فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ)

يبدو أن من عادة هؤلاء أنهم يضعون أطيب الطعام في معابدهم.

حدثني أخ زار اليابان، هناك ديانة بوذية، وفي كل معبد صنم كبير جداً يزيد طوله على ثلاثين متراً، بوذا متربّع وجالس، يضعون أمامه أطيب أنواع الفواكه ليأكل في غيبتهم، والحقيقة أن الكُهّان يأكلون هذه الفواكه، لأنه حجر، هذا تقليد، فمن عادة قوم إبراهيم عليه السلام أنهم يضعون أطيب الطعام وألذ الفواكه والثمار عند أصنامهم، ويذهبون إلى أعيادهم، ويعودون ليأكلوها، وقد تباركت بأصنامهم، جاءتها البركة، وهذه كلها خرافات.

أحد الأشخاص قرأ عن بعض الديانات: أن الله عزّ وجل حينما خلق الأجناس البشرية، فالعرق الأسود كما يزعمون خلقهم، ونسيهم في المقلاة، والجنس الأبيض سلقهم سلقاً، والآخرون حمّرهم تحميراً، ففي الديانات الأرضية وثنية وخرافات لا يعلمها إلا الله، ولكن الأديان السماوية من عند خالق الكون.

(فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ)

طبعاً وجد الطعام بالمعابد، قال للأصنام: تفضلوا كلوا، قال هذا سخرية واستهزاء.

(فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

آلهة لا تنفع ولا تضر:

طبعاً هذا صنم، فقال له: تفضل كُلْ، كل من أجل خاطرنا، ألست جائعاً ؟ هؤلاء يعبدون من دون الله حجر، ألا تأكلون، فلم يجد أي جواب أو أية حركة لهذه الأصنام، فقال:

(مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ)

ولا حركة، ولا حرفا، عندئذٍ..

(فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

أمسك فأساً وضربهم حتى قطّع رؤوسهم، ضرباً باليمين بعضهم قال: باليمين التي أقسمها:

(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ(57))

(سورة الأنبياء)

وبعضهم قال: بيده اليمين، لأنها أقوى، وبعضهم قال: باليمين بالعدل، هذا صنم لا يقدِّم ولا يؤخِّر، لأن الله عزّ وجل قال:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(44)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45))

(سورة الحاقة)

أي بالعدل.

(فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(91)مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ(92)فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ

طبعاً هذه القصة جاءت هنا موجزة وقد وردت في أمكنةٍ أخرى مفصّلة، فلما سألوه: من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال: بل فعله كبيرهم، أي وضع الفأس في عنق أكبر صنمٍ وقال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، أيعقل أن نسألهم ؟ لكن هل معقول أن تعبدوهم ؟! أيعقل أن يعبد هؤلاء من دون الله عزّ وجل، طبعاً هنا جاءت الآية مختصرة.

(فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

فلما عادوا من نزهاتهم ومن أعيادهم، إلى معابدهم ليأكلوا الطعام الطيب والفواكه الطيبة اللذيذة التي باركتها أصنامهم، رأوا أصنامهم قُطِّعَت رؤوسهما، قالوا: من فعل هذا بآلهتنا ؟

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ

(فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ)

معنى يزفون أي يسرعون، قال:

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)

أي هل يمكن ذلك ؟! هناك قبيلة بالجاهلية اسمها ودّ صنعت صنماً من تمر فلما جاعت أكلته، فقال أحد الشعراء: أكلت ودٌ ربها، ما معنى جاهلية أي جهل، سُخف، الإنسان لا يليق به أن يعبد غير الله.

(فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ(94)قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(95)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(95)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

أي خلقكم وخلق هذه الأحجار التي نحتموها، أنتم مخلوقون، وهي مخلوقة مثلكم، وهو الخالق. سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام واجه أمةً بأكملها، واجهها في مقدّساتها، في أوثانها، في أصنامها، في معتقداتها، لم يكتف بمهاجمتها بلسانه، بل حطم أصنامها، ومن أجل أن تعلموا من هو الله رب العالمين الذي نعبده ؟

الله ينجي دائما أنبياءه:

الله جل جلاله كان من الممكن أن ينجي رسوله بطريقةٍ أو بأخرى، قد يختفي، قد لا يستطيعون القبض عليه، قد يُضْرِمون النار فينزل الله الأمطار فتطفئها، ولكن أراد الله عزّ وجل أن يري الناس من آياته فمكنهم من أن يقبضوا عليه أجل، مكنهم، من أن يقبضوا عليه، ومكنهم من أن يتخذوا قراراً بإحراقه، ومكنهم من أن يجمعوا الحطب، ويضرموا النيران، ومكنهم من أن يلقوه في ذلك الجحيم، وقد جاءه جبريل قال: " ألك حاجة ؟ "، قال: " منك ؟ "، قال: لا، بل من الله قال: " علمه بحالي يغني عن سؤالي"، بكلمةٍ واحدةٍ قالها الله عزّ وجل، قال:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا)

(سورة الأنبياء: من الآية 69)

لو قال كوني برداً لمات من البرد.

(وَسَلَامًا)

(سورة الأنبياء: من الآية 69)

لو قال الله عزّ وجل: يا نار كوني برداً وسلاما لتعطلت النار، أية نار، وكلُّ نارٍ إلى يوم القيامة، ولكن عَلَى إِبْرَاهِيمَ فقط.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

(سورة الأنبياء: من الآية 69)

كلام دقيق، لو لم يقل الله: على إبراهيم لغدت النار لا تحرق، انتهت.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

هذا الإله ألا يُعبد ؟ لما سيدنا موسى كان باتجاه البحر، وخلفه فرعون، وما أدراكم ما فرعون ؛ فرعون ببطشه، وحقده، وجبروته، وجنوده، وأسلحته، يتّبع سيدنا موسى والذين آمنوا معه، فلما وصلوا إلى البحر، والتفتوا نحو أخراهم فإذا فرعون من ورائهم..

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61))

(سورة الشعراء)

أي نحن قد انتهينا، فهذا البحر أمامنا، وهذا فرعون وراءنا، فأنت تعبد من ؟ تعبد الله، قال:

(قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

انتهى الأمر..

(إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

سيدنا موسى ضرب البحر بعصاه، فإذ هو طريقٌ، كل فرقٍ كالطود العظيم، دخل موسى وجماعته في هذه الطرق اليابسة، تبعهم فرعون، فلما خرج موسى مع أصحابه عاد البحر كما كان، وغرق فرعون وجنوده، وعندئذٍ قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

قال:

(أَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

الإيمان خيارُ وقتٍ فقط:

دققوا في هذه الكلمة: قضية الإيمان ليست أن تؤمن أو لا تؤمن، الأمر ليس كذلك أبداً، بل قضية الإيمان متى تؤمن ؟ لأنه لابدّ من أن تؤمن، فلابدّ من أن تؤمن بل في حالتين ؛ إما قبل فوات الأوان، وإما بعد فوات الأوان، فقط هذه هي القضية، لابدّ من أن تؤمن، فهذا الذي يقول للنار:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

طبعاً هذه معجزة، لكن والله يا إخوان لكلِ أخٍ كريم مؤمن كرامة، أحياناً الأمور تجري على خلاف منطق الأحداث، على خلاف قوانين الله عزّ وجل، تجري الأمور هكذا من أجله، إكراماً له:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ)

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ

يجب أن تعلم أن العاقبة للمتقين، أبداً، الأمور تدور وتدور، والأمور لا تستقر إلا على إكرام المؤمنين، أجل، على إكرامهم، وعلى نصرهم، وعلى تأييدهم بأن الله معهم.

(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ(98)وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

فما شأني وهؤلاء القوم ؟! أي عافهم، وخرجوا من نفسه، قال بعضهم مستوحياً هذه الآية: إذا الإنسان عاش بين أعداء، بين كفار عتاة، مصرّين على كفرهم، فاتركهم، ودعهم.

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي)

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ

بعضهم قال: حينما واجه النار ظن أنه ميّتٌ لا محالة.

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

إلى الجنة، وبعضهم قال: بعد أن نجاه الله من النار، ترك قومه وذهب إلى العزلة وإلى الخلوة، وقال:

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

إلى طريق النجاة.

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ)

رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ

هنا السؤال: لِمَ دعا إبراهيم ربه ليهبه ولداً ؟ الجواب أن سيدنا إبراهيم تمنّى أن يخلفه ولدٌ يدعو إلى الله من بعده، وهذه أمنيةٌ كل مؤمن أن يكون من نسله ولدٌ صالح يعلم الناس من بعده، لذلك سيدنا زكريا نادى ربه نداءً خفياً، طلب سيدنا زكريا من ربه أن يكون له ذرية صالحة، فهذا طلب مشروع، وأسعد الناس من وهبه الله ذريةً صالحة، تنفع الناس من بعده.

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي هريرة]

فالولد الصالح من أكبر النِعَم على الإنسان، وأن يخلفك ولدٌ صالح يكون استمراراً لك بعد موتك.

(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ(98)وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

إذا أحب الواحد أن يختلي مع الله عزّ وجل بغرفته، أحب أن يختلي مع الله في مكان بعيد عن ضوضاء المدينة، إذا ذهب لأداء فريضة الحج: " إني ذاهبٌ إلى ربي "، فإذا ذهبت إلى مكان لتناجي ربك، فهذا مما ينطبق على كل مؤمن.

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِي(99)رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ(100)فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

خاتمة:

والقصة لها تتمةٌ في الأسبوع القادم إن شاء الله تعالى عن ذرية إبراهيم، سيدنا إسماعيل، سيدنا إسحاق، وكيف جاءه هذا الغلام ؟ وسوف ترون في الأسبوع القادم أعلى درجات العبودية لله عزّ وجل، لكن الله عزّ وجل لا يضيّع المؤمن، يمتحنك ولكن لا يضيعك، يمتحنك، ولكن يدعمك، يمتحنك ولكن يقويك، فهنيئاً لمن كان مع الله، هنيئاً لمن أخلص لله، هنيئاً لمن اتّبع رضوان الله، هنيئا لمن جعل همه مرضاة الله عزّ وجل، هنيئاً لمن جعل كل قدراته في خدمة الحق، هذا هو السعيد، فهذه القصة كما أوجزتها الآيات التالية:

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(83)إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(84)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ(85)أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ(86)فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(87)فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ(88)فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ(89)فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ(90)فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(91)مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ(92)فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ(93)فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ(94)قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(96)قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ(97)فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ(98)وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

وإن شاء الله تعالى في الأسبوع القادم نتابع هذه القصة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (09-14): تفسير الآيات 99 - 113
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-10-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من سورة الصّافّات، ومع الآية التاسعة والتسعين.

المقصود من قصص القرآن العبرُ:

لا زلنا في قصّة سيدنا إبراهيم، في الدرس السابق تحدّثنا عن قصّةٍ جرت له مع قومه حينما ألقوه في النار، وقال الله عزّ وجل:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

(سورة الأنبياء)

ومرّةً ثانية وثالثة: أتمنّى أن أوضّح لكم هذه الفكرة، إنّ أية قصّةٍ في القرآن الكريم ليست مقصودةً لذاتها ؛ بل مطلوبةٌ للعبرة التي يمكن أن تُستنبط منها، لأن هذه العبرة يمكن أن تُطبّق في حياتنا..

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

معية الله للمؤمن في الشدة:

بشكلٍ أو بآخر يمكن أن يواجه المؤمن صعوبةً، مشكلةً، خطراً، شبح مصيبةٍ، أن يواجه مؤامرةً مثلاً، كيْداً، فالله جلّ جلاله يُبطل الكيد، ويزيل الخطر، ويصرف المرض، هذه كرامة المؤمن على الله عزّ وجل، لكن خرق العادات إذا جرى مع الأنبياء فهو معجزة، وإذا جرى مع المؤمنين فهو كرامة، وهذا الذي عبّر عنه الله جلّ جلاله في بعض الآيات الكريمة إذ يقول:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم: من الآية 5)

يوم دعوتَهُ وقد أُحْكِمَت حلقاتُ المصيبة، فاستجاب لك، وفرّج عنك.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

كلمة " مخرج " تعني أن الأمور مغلقة، الحلقة محكمة، الأبواب مُغْلَقة، السُبل مسدودة، الطرق موصدة، كلمة: **" يجعل له مخرجاً "**، أي بعد إذ لم يكن هناك مخرج، الحلقات محكمة، الطرق كلّها مسدودة، فلذلك هذه القصَة ليست مقصودة لذاتها ؛ بل يجب أن نستنبط منها أن الله سبحانه وتعالى ينجي

المؤمنين.

فيما يشبهها قصة سيدنا يونس عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام حينما كان في بطن الحوت، في ظلماتٍ ثلاث..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

الآن ربنا عزّ وجل أراد من هذه القصّة أن يجعلها قانوناً، قال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

إذاً: أنا حينما أقول لكم:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

(سورة الأنبياء)

وكذلك كلّما ضاقت بك الأمور، كلّما استحكمت حلقات المصائب، كلّما رأيت الطُرق مسدودةً، كلّما رأيت المعابر موصَدةً، كلّما رأيت أن الأمر ضاق، لعلّ الله جلّ جلاله يخرق لك العادات، وينجيك من عدوّك، ومما يحاك لك، وأنت لا تدري.

إذاً: كن مع الله تَرَ الله معك، أخلِصْ له تشعر أنه معك ؛ معك بالتأييد، ومعك بالنصر، ومعك بالتوفيق، ومعك بالحفظ.

الآن: درسٌ آخر يُستنبط من دروس هذه القصّة..

(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ)

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ

دائماً العاقبة للمتقين، ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

لكن هذه كيف تقع معنا ؟ كيف يقول أحدنا: إني ذاهبٌ إلى ربي ؟ أيْ إذا توَجّه أحدنا إلى بيتٍ من بيوت الله ليصلي، توجّه ليحضر مجلس علم، توجَه إلى الفلاة ليناجي ربّه، توجّه إلى غرفةٍ قَصيّةٍ في البيت ليصلي قيام الليل، إن توجّه إلى غرفةٍ قصيّةٍ في البيت ذهب إلى ربّه، وإن توجّه إلى فلاةٍ ليناجي ربّه وليذكره ذهب إلى ربه، وإذا توجّه إلى بيتٍ من بيوت الله لا يقصد منفعةً، ولا دنيا، ولا حلّ مشكلةٍ ؛ إنما يقصد مرضاة الله عزّ وجل فكأنه ذاهبٌ إلى الله عزّ وجل..

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوّارها هم عمّارها، فطوبى لعبدٍ تطهّر في بيته ثمّ زارني، وحُقّ على المزور أن يُكرم الزائر))

[ورد في الأثر]

إذا توجّه الإنسان إلى أحد بيوت الله لا يرجو دنيا ؛ بل لا يخرج إلا ابتغاء مرضاة الله، فالله جلّ جلاله سيرحمه، سيتجلّى عليه، سينوّر قلبه، سيوفّقه في أعماله الدنيويّة، سيمنحه الرضى، يمنحه القُرب. فأنا تذوّقت هذه الكلمة:

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

من ذهب إلى البلاد المقدّسة لأداء فريضة الحج لا يبتغي تجارةً ؛ لا يذهب إلا ابتغاء وجه الله عزّ وجل، فكأنه ذاهبٌ إلى الله عزّ وجل، وكذلك إذا توجّهتَ إلى أخٍ كريم لتذكُر معه الله عزّ وجل، لتتذاكر وإيّاه آيات القرآن الكريم، لكن الإنسان يتحرّك ؛ إلى عمله، إلى قضاء حاجاته، إلى تحقيق مصالحه، إلى شراء بيت، إلى عقد صفقة، إلى بيع صفقة، إلى نُزهةٍ، هذه حركة يبتغي بها الدنيا، أفلا ينبغي أن يكون للمؤمن حركةٌ إلى الله ؟ سعيٌ إلى الله ؟ توجُّهٌ إلى الله ؟

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

قال بعض العلماء: الحجُّ رحلةٌ إلى الله، ومثله إن توجّهتَ إلى الفلاة لتبتعد عن الناس، وتقطع علائق البشر وتناجي الله عزّ وجل..

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

إن توجّهت إلى غرفةٍ قصيّةٍ تذكر الله فيها، بعيداً عن ضوضاء الأولاد.

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

إن وقفت في الصلاة تناجي ربك بخشوع..

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي)

سيدنا إبراهيم قال:

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي)

العلماء قالوا: إنه إن أيقن بالموت فذهابه إلى الله عزّ وجل يعني أنه ملاقٍ اللهَ عزّ وجل، وسيهديني إلى الجنّة، وإن خاف قومه، وتوجّه بعيداً عنهم:

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي)

لينجيني من مكرهم، وبأسهم، وكيدهم.

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

وبعدُ، هذه دعوة الأنبياء..

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصّالِحِينَ)

رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصّالِحِينَ

لابد أن تترك ولدا صالحا ينوب عنك بعد موتك:

فالذي رزقه الله مولوداً ذكراً كان أو أنثى، فهذا أعظم رزقٍ يُرْزَقه المؤمن ؛ أن يكون له ولدٌ صالح، ولدٌ يُعَلِّم الناس من بعده، ولدٌ ينفع الناس من بعده، أجل هذا أعظم كسب المؤمن في الحياة، لذلك الدعوة إلى الله إذا تولاّها أناسٌ كابراً عن كابر، وخلفاً عن سَلَف لتبقي مستمرّة، فيجب أن تهيئ من يدعو إلى الله من بعدك، يجب أن تهيئ من ينوب عنك في غيبتك، هذا معنى:

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصّالِحِينَ)

إنه لم يُرْزَق غلاماً من قبل، فقال: يا رب هب لي من الصالحين، هب لي غلاماً صالحاً ينفع الناس من بعدي، وكل أبٍ منكم إن رأى ولده صالحاً، منيباً، طائعاً، مقبلاً على العلم، هذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها، ربّما الذي كان عنده مثل هذا الولد لا يعرف هذه النعمة ؛ لكن نعمة الولد الصالح لا يعرفها إلا من فقدها..

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصّالِحِينَ)

أيْ ولدٌ يا رب يصلح لرحمتك، يصلح لرحمتك، ويُصْلِحُ الله به الناس..

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ

(فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

1 ـ الحلم سيّدُ الأخلاق:

الحِلم كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الحلم سيّدُ الأخلاق))

((كاد الحليم أن يكون نبياً))

[من الجامع الصغير عن أنس]

والحِلم لا يتأتّى إلا عن الإيمان، فالمؤمن حليم، لماذا ؟ لأنه يتخلّق بأخلاق الله عزّ وجل، ولأنه يرى أن الأمر كلّه بيد الله، وأن أيّ شيءٍ وقع أراده الله، الذي وقع أراده الله، والذي لم يقع لم يرد الله وقوعه..

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند أحمد عن أبي الدرداء]

2 - الحلم يتأتّى بالإيمان:

هذا هو الإيمان، فمن أين يأتي الحلم ؟ من الإيمان، هذا الكون تعمل به يدٌ واحدة هي يد الله، كل شيءٍ تراه عينك إنما هو صوَر، لكن الله عزّ وجل هو الحقيقة الأولى والأخيرة في الكون، الله هو الرافع، هو الخافض، هو المعزُّ، هو المذلُّ، هو الرزّاقُ، هو الباسط، هو القابض، هو المحيي، هو المميت، هو الموفِّق، كل شيءٍ بيد الله عزّ وجل، فلذلك الحليم يرى أن يد الله تعمل في الخفاء، الحليم يحترم مشيئة الله عزّ وجل، يحترم إرادة الله عزّ وجل، لماذا هو حليم ؟ لأنه يعلم علم اليقين أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن كلّ ما أراده الله وقع، وأن إرادةَ الله عزّ وجل تنطلق من حكمته المُطلقة، وأن حكمته المطلقة تتوافق مع الخير المطلق، لذلك هو حليم..

(فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

فالذي عنده ابن فليعتنِ به كثيراً، يعتني بتعليمه دينَه، يعتني بتربيته التربية الصالحة، يعتني بأخلاقه، يراقبه، يبذل وقتاً لتعريفه بالله عزّ وجل، لأن هذا الابن إذا نشأ صالحاً هو أثمن ثروةٍ يملكها الإنسان في الدنيا والآخرة..

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَه))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

أحدنا إذا رأى الرجلُ ابنه يصلي طواعيةً، مبادرةً منه، إذا رأى ابنه اصطلح مع الله، يمتلئ قلبه سعادةً، تقرُّ عينه به، فكيف إذا كان النبيُّ الكريم سيدنا إبراهيم قد رزقه الله نبيّاً مثله ؟ نبيّاً حليماً، لعله ليس من علاقة أسمى، ولا من درجة من المودّة والقُرب تفوق هذه العلاقة، أوّلاً ابن، وثانياً كماله كمال أنبياء..

(فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

الآن:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ)

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ

أي أنّه أصبح شاباً يسعى معه في الدعوة إلى الله، يسعى معه في إرشاد الخلق إلى الله عزّ وجل، أو يسعى معه في حركته اليوميّة، أي أنّه أصبح راشداً..

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى)

الحقيقة أننا الآن دخلنا في موضوع العبوديّة لله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل حينما أمرنا، وحينما نهانا أعطانا الحِكَم، وبيّن لنا العِلَل، قال مثلاً:

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: من الآية45)

1 ـ بيان العلل من الأمر والنهي:

كأن الله عزّ وجل يقول: يا عبادي صلوا، لأن الصلاة تنهاكم عن الفحشاء والمنكر، هذا أمر، وهو أمر مُعَلّل، تُقبل على تطبيقه طواعيّةً لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(183))

(سورة البقرة)

أمرك أن تصوم، وبيّن لك أن الصيام ينقلك إلى مرتبة التقوى، أمرك أن تزكّي فقال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة: من الآية 103)

تطهرهم وتزكيهم، الناس يأتيهم أمر الله المنطقي، المعقول، المبيّن، المفصّل، المعلّل، ومع ذلك يتوانون في تطبيقه، فكيف إذا جاءك أمرٌ لا يبدو لك منطقياً ؟ لا يبدو لك مُعَلّلاً ؟

1 ـ طاعة الله في الأمر والنهي من تمام العبودية:

بشكل مقرّب: مناسك الحج، الإنسان أحياناً يقول: لِمَ أنا أطوف حول البيت ؟ ولمَ أرشق إبليس بالحجارة؟ ولمَ أسعى بين الصفا والمروة ؟ ولمَ أهرول ؟ فهذا الإنسان الذي لا يحتمل أمراً لا يرى تعليله، ولا منطقيّته، ولا تفسيره، هذا الإنسان بعيدٌ عن مقام العبوديّة لله عزّ وجل، أليس أي أمرٍ لله عزّ وجل علّته الكبرى أنه أمر الله عزّ وجل ؟

هذا الذي لا يطبّق أمر الله إلا إذا رآه منطقياً، لا يطبّق أمر الله إلا إذا رأى نفعه ملموساً بيده، لا يطبق أمر الله إلا إذا راق له، هذا ليس عبداً لله، هذا عبدٌ لنفسه، لمصلحته، فقد تجد في أوامر الدين أمراً لا تراه بعقلك القاصر معلّلاً، هذا امتحان، مثل هذا الأمر يمتحن عبوديّتك لله عزّ وجل، فمثلاً:

لو أمر الأب ابنه أن ينظِّف أسنانه قبل أن ينام، طبعاً الأب يقول له: يا بني، إن أسنانك ثروةٌ ثمينة، فإن اعتنيت بنظافتها تمتّعت بها طوال حياتك وإلا ؟ لا تكن مثلي ـ وضعت بدلة مثلاً ـ فكلّما أهملتَ تنظيف أسنانك خلعتَ أسنانك واحدة واحدة، فحينما يأمر الأب ابنه بتنظيف أسنانه يعطيه التعليل، يعطيه

التفسير، يبيّن، يا بُنَي كن صادقاً حتى تنتزع إعجاب الناس واحترامهم، يا بني اجتهد لأن رتبة العلم أعلى الرُتَب، كل هذه الأوامر يُلقيها الأب على ابنه معلّلةً.

لو أن هذا الابن جاء ليأكل مع والديه فقال له: يا بني لا تأكل معنا اجلس هناك، هذا أمر غير منطقي، فما السبب ؟ أنا جائع، والطعام موجود، وليس معكما أحد، لماذا لا آكل ؟ هذا الأمر غير المنطقي، وغير الواقعي، غير المعلّل هذا الأمر يمتحن طواعية الابن لأبيه، هناك ابن يقول: لماذا لا آكل معكم ؟ فأنا لا أجد مانعاً، أقنعني، هناك ابن مستواه أرقى بكثير يقول له: سمعاً وطاعةً يا والدي، ولو لم يفهم، أيهما أرقى في الطاعة ؟ الذي امتثل أمر والديه دون أن يفهم حكمتهما.

يا أيها الإخوة الأكارم، هذا موضوعٌ دقيق، فالله عزّ وجل أمرنا بأوامر منطقيّة، ومعقولة، وواضحة، وبيّنة، نتائجها ملموسة، معلّلة في القرآن، ومعظم الناس يتوانون عن الأخذ بها، لكن أحبابه الذين ذابوا في حبّه، وأقبلوا عليه، واستسلموا لمشيئته، وسبحوا في أسمائه الحُسنى، وفنيت ذواتهم في القرب منه، هؤلاء مستعدون أن يضحوا بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، امتثالاً لأمر الله عزّ وجل، لذلك هذا نموذج من الحب، نموذج من القرب، نموذج من العبوديّة لله عزّ وجل.

قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

فعلى أي مقياس لا يُقْبَل هذا الأمر، ابنه، فلذة كبده، ابنه الوحيد الذي بشّره الله به، ابنٌ كامل، نبيٌّ كريم، لماذا أذبحه ؟ الآن إذا أحد الآباء قال لابنه: والله أنا سأذبحك يا ابني، يقول لك: أبي جُنّ، فبأيّ مستوى إذا كان إبراهيم وابنه ؟

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

رؤيا الأنبياء أمر، وبعض العلماء قال: إنه لم يقل: إني رأيت في المنام أني أذبحك، بل قال:

(إِنِّي أَرَى)

أني رأيت الرؤيا مرّةً ومرّتين وثلاث مرّات..

(إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى)

استمعوا إلى كلام الابن.

(قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ)

قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ

1 ـ الطاعة المطلقة من إسماعيل لأبيه عليهما السلام:

هذا أب، وهذا ابن، وهذا هو الإيمان، وإذا قال الله، هذه حرام، فيجب ألاّ تقول: لماذا ؟ أمّا ضعيفُ الإيمان فيقول لك: لماذا حرام ؟ إنها غير منطقيّة، هذا قرض استثماري، وليس قرضاً استهلاكياً، يتفلسف على الله أيضاً، فالله حرّم الربا، ويقول لك: هذا قرض استثماري، وليس قرضاً استهلاكياً، لماذا لا يكون هناك اختلاط ؟ هذه مثل أختي ؟ كلّما جاء أمر يقيّد حركته يتفلسف، يريد بزعمهِ أن يكون الأمر منطقياً، هذا الذي لا يطبّق إلا ما يروق له، وما يحلو له، ليس عبداً لله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل أطلعنا في هذه السورة على نموذج من العبوديّة لله عزّ وجل، لا أعتقد أن هناك أمراً أبعد عن المنطق، أبعد عن الرحمة، أبعد عن القبول كهذا الأمر:

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ)

نحن لننظر إلى حالنا، أمرك الله أن تصلي، أمرك أن تغضّ بصرك، يقول لك مُماحَلَة: **" إن الله جميل يحب الجمال، أنا لن آكلها "**، غُضّ البصر، وكفى، واللهُ قال:

(ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)

(سورة الأحزاب: من الآية 53)

أطهر، ومع ذلك يُجادل الإنسان من ذوي الأهواء، فالله عزّ وجل أطلعنا في هذه القصّة على مستوى رفيع رفيع من العبوديّة لله عزّ وجل، لذلك حَسْبُ أيّ أمرٍ لله عزّ وجل أنه أمر الله، علّة أيّ أمرٍ لله عزّ وجل أنه أمر الله عزّ وجل، يكفينا هذا.

المؤمن الصادق عنده شيءٌ واحد، هو التحقُّق من أن هذا أمر الله، وهذا أمر النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا حكم الله، وهذا يرضي الله، وانتهى الأمر، فإذا تحقّقَ أن هذا أمر الله بادرَ إلى تطبيقه.

لكن بعض العلماء قالوا: أنت أيها المؤمن، إذا بادرت إلى تطبيق أمر الله عزّ وجل عبوديّةً له، وانصياعاً له، ولو لم تقف على حكمته، لو لم تقف على عِلّته، لو لم يتبيّن لك وجه منطقيّته، إذا بادرت إلى تطبيق أمر الله عزّ وجل الله جلّ جلاله يتكرّم عليك بكشف حكمته جزاء عبوديّتك له، أي نفّذ ثمّ انتظر أن يكشف الله لك الحكمة، نفّذ ثم انتظر ظهور الحكمة وجلاءَها.

الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به:

بالمناسبة، هناك نقطة مهمّة جداً في هذا الموضوع، الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، كيف ؟ فمن الممكن لإنسانٍ لا يقرأ ولا يكتب، ليس متعلِّماً إطلاقاً، ولا يفقه ما هي الآلة، من الممكن أن يشتري مكيفاً، وكلّما شعر بالحر يكبس زراً فيأتيه الهواء الطيّب، ولكن هذا جاهل بمبدأ المكيفات، وتحريك الغازات، والدفع، وما إلى ذلك، ومن الممكن لإنسان أن يركب أفخم سيّارة، وأحدث موديل، وهو لا يعرف ما تحت غطاء المحرّك، أنت من الممكن تنتفع بالشيء من دون أن تعلمه، فما علاقة هذا الكلام بدرسنا ؟

إذا نفّذت أمر الله دون أن تسأل عن حكمته، ولو لم تعرف حكمته، بل لأنه قال لك الله عزّ وجل: غُضّ بصرك، قلت: أنا سأغض بصري، كل ثمار غضّ البصر تقطفها دون أن تعلم حكمته، كل السعادة التي وعد الله بها من يغضُّ بصره تجنيها دون أن تعلم حكمة غض البصر، أمرك أن تصلي، أمرك أن تصوم، أمرك ألاّ تأكل الربا، لو امتنعت قصداً عن فهم حكمة تحريم الربا، ولم تأكل الربا شعرت براحةٍ ما بعدها راحة.

لذلك إن فهمت الحكمة فلا بأس، وهي أفضل، إن فهمت حكمة الأمر فهذا شيء جيّد، لأنك إن فهمت الحكمة بإمكانك أن تعلِّم هذا الأمر للناس، كنت عابداً فأصبحت عالِماً، إذا بادر الإنسان إلى تطبيق أوامر الله عزّ وجل من دون أن يعلم حكمتها، وقَطَفَ ثمارها، وسعد بها فهو عابد، أما إذا تعلّم حكمتها، وعلّمها للناس أصبح عالِماً، لكن الحد الأدنى أنك إذا عرَفت الأمر الإلهي، ولم تتعرّف إلى حكمته، وطبّقت هذا الأمر، تقطف كل ثماره اليانعة.

بالمناسبة: اليوم ذكرت في الخطبة: أنك من الممكن أن تقرأ عن العفو، وأن تتحدّث عن العفو، ومن الممكن أن تحدِّثنا عن رسول الله كيف عفا عن كفّار مكّة، كيف عفا عن عكرمة، ومن الممكن تبكيّنا، وممكن أن تقرأ ما في سير الصالحين من مواقف العفو، وممكن أن تحلِّل العفو، وممكن أن تؤثِّر، لكن إنْ لم يكن لك عدوٌ نال منك أشدّ النيل، ثم وقع في قبضتك، وأنت قادرٌ على التنكيل به، وعفوتَ عنه، إن لم تمارس العفو فلست عَفُوّاً، الحديث عن العفو شيء، وأن تكون عَفُوّاً شيءٌ آخر، الحديث عن التواضع شيء، وأن تكون متواضعاً شيءٌ آخر، الحديث عن الكَرم شيء، وأن تكون كريماً شيئاً آخر.

فيا أيها الإخوة الأكارم، حينما تبادر إلى أمر الله عن علمٍ أو عن غير علمٍ تقطف كل ثماره، لكنك إن بادرت إليه عن علمٍ استطعت أن تعلِّمه للآخرين، وأن تنتقل من مرتبة العبّاد إلى مرتبة العلماء.

إذاً:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا)

فإذا كان هناك أمر إلهي لم تفهمه، هل سيكون مثل هذا الأمر أشدّ من هذا الموقف ؟ لا، العجيب ما إن تجلس في مجلس فالأسئلةُ عن الفوائد كثيرة، وعن التحويل، وعلى البنوك، فأنت تقول: هكذا أمر الله، فيرد عليك: هذا ليس صحيحاً، تجد نَفَساً طويلاً ومناقشات، ويريد أن يقولب الدين كما يريد..

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً(52))

(سورة المدثر)

يريد ديناً تفصيلاً مناسباً لحجه، يتناسب مع حركته، مع شهواته، مع رغباته، مع عاداته، مع تقاليده، تجد المناقشة طويلة، حتى إنه يقول لك: إن هذه الأمور ما فيها حرج، ولماذا أنت تعقِّدها ؟ ما هو دليلك عليها ؟ لكن أين الإيمان من هذا ؟ الإيمان ما إن يثبت لك أن هذا أمر الله إلا وتبادر إلى تطبيقه، إذا أردت قدوة فسيدنا إبراهيم قدوة صارفة، قال له:

(إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ)

2 ـ الاستسلام لله عزّ وجل ذروة الإيمان:

سيدنا إبراهيم استسلم لأمر الله، والاستسلام حالةٌ مريحة جداً، رب العالمين أرحم الراحمين، عليمٌ، حكيمٌ، لطيفٌ، قديرٌ، عدلٌ، مُعطٍ، مانع، مُغنٍ، رافع، خافض، رزّاق، وهّاب، هذا أمره، فالاستسلام لله عزّ وجل ذروة الإيمان، كما قال الشاعر:

هم الأحبّة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهمُ معدلٌ وإن عدلوا
والله وإن فتّتوا في حبّهم كبدي باقٍ على حبّهم راضٍ بما فعلوا

***

هذه علامة الإيمان، أحد الصحابة فقد بصره، قيل له ـ وكان مستجاب الدعوة ـ: ادعُ الله أن يردّ لك بصرك، قال: " والله أخجل، هو اختار لي هذا، وأنا أرفضه ؟! "، فقد بلغ حبُّهم لله عزّ وجل درجة أنهم راضون بمشيئة الله مهما تكن مؤلمةً.

كلّنا إذا قرأنا هذه القصّة سنقول: ما الذي حصل بعد هذا ؟ فقد فداه الله بذِبحٍ عظيم، هذا خطأٌ كبير في تصوّرنا للحدث، سيدنا إبراهيم حينما تلقّى الأمر بذبح ابنه ما خطر في باله أن هذا الأمر لا يُنَفَّذ..

(فَلَمَّا أَسْلَمَا)

فَلَمّا أَسْلَمَا

أيْ أنّه استسلم لتنفيذ أمر الله. أنت أحياناً يمتحنك الله بمشكلة، فهو خيار صعب جداً.

1 - الله يمتحن عباده:

أنا أعرف رجلاً رعى امرأةً ليس لها أحد يحنو عليها، بل هي كما يقال في عُرفنا: مقطوعة، تسكن في غرفة في مسجد، وكان الرجل يسكن إلى جوار المسجد، رعاها أكثر من عشرين عاماً، ثمّ انتقل إلى حيّ بعيدٍ بعيد، وقد عاهد الله على أن يتابع رعايته لها، فصار يخرج من بيته في حيّه الجديد مشياً على قدميه إلى مكان إقامتها ليرعاها، بذل أهله كل ما في وسعهم ليصرفوه عن هذا العمل، بيتك صار بعيداً، كبرت سنك، كفاك ما قدمت، واللهُ لا يكلفك فوق طاقتك، أبداً سأثابر، فلمّا رأوا منه إصراراً لا حدود له، ووفاءً بالعهد لا حدود له، امرأة على حافة قبرها، فقالوا له: أمرُنا لله عزّ وجل، فائت بها إلى البيت رحمةً بك، فجاؤوا بها إلى البيت، ما هي إلا أيّام حتّى توفّاها الله عزّ وجل، أما هو فقد وطّنَ نفسه على أن يخدمها إلى ما شاء الله.

في بعض التجارب يضعك الله عزّ وجل أمام اختيار صعب جداً، فحينما تؤثر مرضاة الله عزّ وجل يكون الحل سهلاً جداً، والله عزّ وجل أظهر صدقك، أظهر وَرَعَك، أظهر خوفك، ثمّ صَرَفَ عنك هذه المتاعب كلّها، من هذا القبيل هناك تجارب كثيرة، الإنسان يؤثر طاعة الله، فإذا هذه الطاعة التي تبدو لك متعبةً جداً يقلبها إلى مهمة مريحة، وأنت لا تدري.

أخ كريم ذكر لنا قصّته، فقد اضطر من أجل أن يشتري بيتاً إلى معاملة غير شرعيّة، فلمّا عرف أنها غير شرعيّة قال: يا رب، لا أريد البيت، ولا أعصيك أبداً، فلمّا وصل إلى محلّه التجاري، فإذا إنسان ينتظره، ويقول له: أنا معي هذا المبلغ سأضعه عندك أمانة لسنتين، وأناشدك الله أن تستعمله، فحينما وُضِعْت أمام ظرف صعب ؛ إما أن يضيع منك هذا البيت، وإما أن تعصي الله، لا، فلن أعصي الله وليضيع هذا البيت، فإنّ الله عزّ وجل وضعك في اختيارٍ صعب ثمّ هيّأ لك البديل.

الآمر ضامن، فإذا كانت هذه حراما فحرام، وهي دونما جدال، لكن أبقى بلا بيت ؟ الذي أمرك بترك هذا الطريق خالق الكون، فهو قادر أن يمنحك أعظم بيت، فلذلك الآمر ضامن، اذكر هذا الكلام دائماً، الذي أمرك والذي نهاك خالق الكون بيده كل شيء، فإذا رأى منك ورعاً، وصِدقاً، واستقامةً، وخوفاً، رفعك لورعك ولاستقامتك ولخوفك، ومنحك ما أنت بحاجةٍ إليه من طريقٍ مشروع، هذا معنى القول الشهير: " اصبر على الحرام يأتِك الحلال "، هذا معنى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ اكفنا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك))

[ورد في الأثر]

لقد أردتُ من هذه القصّة أن أبيّن لكم أن المؤمن كثيراً ما يضعه الله أمام اختيارٍ صعب جداً، فإذا آثر طاعة الله عزّ وجل هيّأ له ما يُخفِّف من متاعبه، أو ما يلغيها كلياً، وكل قصّةٍ ترد في القرآن الكريم يمكن أن تحدث مع المؤمن بشكلٍ مخفّف..

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ(102) فَلَمَّا أَسْلَمَا)

الأب استسلم ـ الذابح ـ والله أنا لا أبالغ ؛ لو أنني خيِّرتُ هذا الأب الكريم أن يذبح ابنه أو أن يُذْبَح، لآثر أن يُذْبح، ولا يعرف هذا إلا الأب، ابن كالوردة بلغ معه السعي، ملء السمع والبصر، حليمٌ، نبيٌ كريم، في أعلى درجات الأدب، في أعلى درجات الكمال: أذبحه ؟

(فَلَمَّا أَسْلَمَا)

رحمة إبراهيم بابنه إسماعيل: وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ

هو استسلم لأمر الله، وابنه إسماعيل استسلم لأمر الله، لكن شفقة الأب منعته أن ينظر إليه، وهو يُذْبَح، فجعل وجهه للأرض..

(وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)

أي أنه جعل جبينه للأرض لئلا تقع العين في العين، لذلك الله عزّ وجل حينما أخبرنا عن غرق ابن سيدنا نوح، قال:

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ(43))

(سورة هود)

فرحمة بالأب جاءت موجةٌ عاتية حجبت الابن عن أبيه، وقد استنبط العلماء أنه لا يجوز أن يُقْتَل الابن أمام أبيه، رحمةً بالأب، وقد ورد في بعض الأحاديث القدسيّة أنه **" إذا ماتت الأم يقول الله جلّ جلاله: عبدي، ماتت التي كنّا نكرمك لأجلها، فاعمل صالحاً نكرمك لأجلك "**، فجزءٌ من إكرام الله لك أيها الابن من أجل الأم.

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)

في التاريخ قصصٌ كثيرة، مؤمنون وُضِعوا في خيارٍ صعبٍ جداً ؛ إما أن يرضوا الله عزّ وجل أوْلاً، أي إن لم يرضوا الله عزّ وجل عاشوا، وإن أرادوا رضوانه ضحوا بحياتهم من أجل رضوان الله عزّ وجل، آثروا رضوانه، فالله جلّ جلاله هيّأ لهم أسباب الوقاية ونجّاهم من عدوّهم..

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ(103)وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(104)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)

وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(104)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا

كنتَ صادقاً، وفّيت ما عليك، لذلك قال الله عزّ وجل في آيةٍ أخرى:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(37))

(سورة النجم)

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: من الآية 24)

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة: من الآية 124)

(وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(104)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(105)إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ

هذا البلاء بلاء مُبين، لكن جاء الفَرَجَ، ظهر كماله، ظهرت عبوديّته، ظهرت طاعته، ضحّى بحياة ابنه، ضحّى بفلذة كبده، لكن الله جلّ جلاله ما فجعه بكل ذلك..

(وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(104)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(105))

أحياناً تجد أن هذا الطريق مسدود، وذاك الطريق مسدود، والآخر مسدود، والكل مسدود، ولم يبقَ إلا طريق واحد مفتوح، ولكن فيه معصية، لحكمةٍ يريدها الله عزّ وجل يُغلق عليك كل الطرق المشروعة، ويُبقي لك طريقاً واحداً غير مشروع، هذا بلاء، هذا ابتلاء مبين، فضعاف الإيمان يقولون: أخي ماذا أفعل، والله إني مضطر، وأنا عندي أولاد !! فيقع بالحرام، ويأتي مؤمن آخرُ إيمانه قوي يقول: والله لا أعصي الله، ولو نمت في العراء، ولو أكلت شوكاً فلا أعصي الله، وليكن ما يكون، هذا اختيارك، هذا ورَعُك، هذا حبُّك، هذه طاعتك، هذه عبوديّتك، كَسِب، نجح، وفاز، ونال رضوان الله عزّ وجل، وأتته الدنيا وهي راغمة، لكن بعد ماذا ؟ بعد أن وضِعَ في اختبارٍ صعب.

أيها الإخوة الأكارم، أقول لكم هذا الكلام: والله يقيني أن المؤمن لابدّ من أن يُمْتَحن أبداً، لابدّ من أن يُوضَع في اختيارٍ صعب ليظهر إيمانه، لتظهر طاعته، ليظهر حبُّه، ليظهر ورَعه، ليظهر خوفه، فإذا نجح أتته الدنيا وهي راغمة.

قصّة إبراهيم عليه السلام يمكن أن تقع بشكلٍ أو بآخر مع كل مؤمن، ظرف صعب، دخل كبير لكن فيه شبهة، وأنت في أمسّ الحاجة إلى المال، دخلك هنا قليل جداً لا يكفي، هنا دخل كبير لكنّه مشبوه، إذا قلت: والله يا أخي مضطر، والله شيء مغرٍ يا أخي، أنت بهذا سقطت، أما إذا قلت: والله لا أعصي الله،

وليكن ما تكون، نجحت، فإذا رفضت هذا الدخل الكبير المشبوه، ما قولك أن يأتيك الله بدخلٍ كبيرٍ غير مشبوه ؟ هذا والله يقع دائماً، كلّما آثرت رضوان الله على الدنيا كسبت رضوان الله، وجاءتك الدنيا، كلّما آثرت رضوان الله على الدنيا فزت برضوان الله، وأتتك الدنيا وهي راغمة، لذلك:

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللّهِ بِسَخَطِ النّاس كَفَاهُ اللّهُ مُؤْنَةَ النّاس، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النّاس بِسَخَطِ اللّهِ وَكَلَهُ اللّهُ إِلَى النّاس))

[الترمذي]

هذه قصّة يعيشها كل مؤمن، تقع مع كل مؤمن، من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى..

(قَدْ صَدّقْتَ الرُّؤْيَا)

أي كنت صادقاً يا إبراهيم في تنفيذ أمر الله، لقد وفّيت يا إبراهيم ما عليك، لقد امتُحِنْت فنجحت، ابْتُليت فصبرت، ظهر ورعك، ظهر حبُّك، ظهرت عبوديّتك لله عزّ وجل، أظهرت أن حبَّ الله أحبُّ إليك من فلذة كبدك..

(إِنّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

الجزاء بعد الامتحان: إِنّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

يُمْتَحنون، فينجحون، فيفوزون برضوان الله، ثم تأتيهم الدنيا وهي راغمة، أخذوا الحُسْنَيَين، أهل الدنيا يُمتحنون، فيسخطون الله من أجل الدنيا، ثم تذهب الدنيا من بين أيديهم.

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: من الآية 36)

(وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(107)وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

السمعة الطيّبة، والذكر الحَسَن، والسيرة العطرة..

(سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(109)كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

هذا جزاءُ الإحسان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ فكل واحد منّا أيها الإخوة بعمله، بزواجه، بسفره تأتيه امتحانات صعبة جداً، من هذه الامتحانات أن طاعة الله عزّ وجل مُكْلِفَة، وأن معصيته سهلة ومربحة، هكذا الامتحان، فإذا قلت: والله لا أعصي الله، وليكن ما يكون، فزت برضوان الله، وتأتيك الدنيا وهي راغمة..

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(110)إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(111)وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ)

إسماعيل وإسحاق نبيّان من ذريّة سيدنا إبراهيم..

(وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)

وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ

الناس بين محسنٍ وظالم:

من ذريّة هذين النبيّين الكريمين مُحسن وظالم، ونحن من ذريّة نبيّنا عليه الصلاة والسلام، بعضنا محسن، وبعضنا ظالم، فالذي استجاب لله ورسوله فهو محسن، والذي لم يستجب فقد ظلم نفسه، ولم يظلم أحداً سواه.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نأتي على قصّة سيدنا موسى والأنبياء من بعده.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (10-14): تفسير الآيات 114 - 122
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-10-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة الصافات، ومع الآية الرابعة عشرَ بعد المائة:

(مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ

1 ـ المنُّ هو العطاء:

المنُّ هو العطاء.

2 ـ كلُّ آية مَنٍّ خوطب بها النبي للمؤمن منها نصيب:

كل آيةٍ يخاطب الله بها النبي عليه الصلاة والسلام ـ دقِّقوا ـ كل آيةٍ يخاطب الله بها النبي عليه الصلاة والسلام للمؤمن منها نصيب، فإذا مَنَّ الله على موسى وهارون، بماذا منَّ الله عليك ؟ من أجل أن ينشأ الحب، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ...))

[الترمذي عن ابن عباس]

أول نعمةٍ أنعمها الله علينا جميعاً هي نعمة الوجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

نِعَم الله على العبد لا تعدّ ولا تُحصى:

لك اسم، معك هويَّة، فلان الفلاني ابن فلان، أودع الله فيك عقلاً، وأعضاء، وأجهزة دقيقة جدا، ونعمة الإمداد، أمدَّك بالهواء، والماء، والطعام والشراب، أمدَّك بزوجة، بمأوى، بأولاد، بخبرات، بحرفة، بمهارات، برزق، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد ؛ دلَّك عليه، عرَّفك به، جمعك مع أهل الحق، أسمعك الحق وهذه بشارةٌ لك، والدليل:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 23)

ما دام قد أسمعك فأنت أهلٌ لهذا السماع، وهذه بشارة من الله عزّ وجل، فعندما يقرأ الإنسان:

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

الله عزّ وجل تفضّل عليهما، منحهما، أعطاهما، أكرمهما، رفع شأنهما، نصرهما على عدوّهما، نجّاهما من فرعون، قياساً على هذه الآية أنت عدِّد النِعَم التي أنعمها الله عليك ؛ جعلك من أبوين مسلمين، في بلدٍ يغلب عليها الصلاح، تُقام فيها شعائر الله عزّ وجل، جعلك محبوباً عند أقرانك، جعل لك أباً وأماً يعطفان عليك، تربّيت في حجرهما، نشأت، ترعرعت، وكلّما تذكّر الإنسان فضل الله عليه ذاب حبّاً لله عزّ وجل، وكلّما رأى مصيبةً حلّت بإنسان فيما بينه وبين نفسه ليذكر نعمة الصحة ؛ أن الله أنعم عليه، أكرمه، إن رأيت إنساناً يفقد أحد أعضائه، لقد مَنّ الله عليك.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد)

ماذا تنتظر ؟ ما الذي يحول بينك وبين أن تصل إلى الله ؟ ما الذي يمنعك عن طاعة الله، الذي خلقك من لا شيء ؟ ولذلك:

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

وأنت أيها المؤمن إذا قرأت هذه الآية اسأل نفسك، عدد النعم التي مَنّ الله بها عليك، عدد نعمة الوجود، عدد نعمة الإمداد، عدد نعمة الإرشاد، عدد النعم التي أكرمك الله بها من أجل أن تحبّه، الإنسان لا يكون منصفاً لو أنه تذكر ما ينقصه، في حياة كل إنسان شيء متوافر لديه، وشيء لم يحصل عليه، فالمؤمن ينشغل بما لديه، لا بالذي لم يحصل عليه، يا ثعلبة، كما قال النبي:

((يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه))

[تخريج أحاديث الإحياء]

قليلٌ يكفيك خيرٌ من كثيرٍ يطغيك، خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً، ولتعلم علم اليقين أن أعظم كرامةٍ لك عند الله أنه عرّفك بذاتك..

إنه وهمٌ كبير أن يظن الإنسان أن كلمة الرزق تنصرف إلى المال، لا، فالعلم رزق، ومعرفة الله وطاعته رزق، والسلامة والصحة رزق، والعقل في الإنسان رزق، ومأوىً تأوي إليه رزق، والزوجة المؤمنة والأولاد الأبرار رزق، لو وسّعت كلمة الرزق لرأيت نفسك مغموراً بنعم الله عزّ وجل، النبي عليه الصلاة والسلام كانت تعظم عنده النعمة مهما دَقّت.

فإذا أكلت طبقاً من الطعام، تذكرة المرضى الذين يعيشون على السيروم فقط، إذا تحركت في البيت تذكّرة المُقعدين، إذا انطلق لسانك تذكّرة أناساً بعيدين عن الله عزّ وجل لا ينطلق لسانهم إلا بالباطل، إلا

بالفِتَن، إلا بالانحرافات، إلا بالمعاصي، فحينما تنشغل بالنعمة عن المنعم فهذه هي الغفلة، ولكن المؤمن ينشغل بالمنعم، ينتقل من النعمة إلى المنعم.

لذلك الشكر درجات، حده الأدنى أن تعرف أن هذه النعمة من الله، إذا عرفت أن هذه النعمة من الله فهذا شكر، وإذا امتلأ قلبك امتناناً لله وحمداً له فهذا شكر، وإذا انطلقت إلى عملٍ صالحٍ، تحاول أن تعبر عن شكرك لله عزّ وجل، فهذا شكر، فالمعرفة شكر، والامتنان شكر، والعمل الصالح شكر..

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران: من الآية 164)

لا تعرف قيمة الهدى أيها الأخ الكريم إلا حينما تجلس إلى إنسان جاهل يهرف بما لا يعرف، يتكلم في كلاماً كله جهل، كله فسق، كله فجور، كله ضيق الأفق، حينما ترى انحرافاً في السلوك وعدواناً، حينما ترى بغياً وضلالاً، حينما ترى ضلالاً، ترى تقصيراً، حينما ترى الاختلاط، وشرب الخمور، وانتهاك الحُرُمات، والتحدّي الذي يتحدونه، إذا رأيت مثل هؤلاء الأشخاص تعرف نعمة الهدى والانضباط، نعمة الطهارة والعِفّة، نعمة النظافة الأخلاقية، نعمة الأسرة والاستقامة.

إذاً:

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ(114)وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

كربٌ عظيم، العظيم يصف الكرب بأنه عظيم، العظيم، خالق الكون وصفه بأنه عظيم.

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ(114)وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

1 ـ لا قِبَل للإنسان بكربِ الله العظيم:

ونعوذ بالله من الكرب العظيم، أحياناً ربنا عزّ وجل لو ساق لإنسان مشكلة واحدة يستنفر فيواجه هذه المشكلة، ولكن إذا شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يبتلي إنساناً بكربٍ عظيم، يأتيه من كل جانب، تارةً من صحته، وتارةً من زوجته، ومن أولاده، ومن عمله، ومما يحيط به، ومن سوداويته، ومن تشاؤمه، ومن انهياره الداخلي، لذلك كلما ابتعد الإنسان عن طريق الحق احتاج إلى كربٍ ليعيده إليه، كلما كان انحرافه عظيماً كان كربه عظيماً.

2 ـ المؤمن يفهم على الله قبل نزول الكرب:

فالمؤمن يفهم على الله، سريع الرجوع إلى الله، كثير التوبة، أوّابٌ، لوّامٌ، المؤمن أثنى الله عليه، وصف نفسه بأنها لوّامة..

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(2))

(سورة القيامة)

دائماً يحاسب نفسه حساباً عسيراً، لمَ قلت هذه الكلمة ؟ لمَ نظرت هذه النظرة ؟ لمَ ابتسمت هذه الابتسامة ؟ لمَ أدرت حديثاً ودياً مع امرأةً لا تحلُّ لي ؟ لماذا سكت ؟ لماذا لم أدافع عن أخي المؤمن ؟ لماذا جلست في مجلسٍ يُغتاب فيه، وبقيت جالساً فيه ؟ لماذا لم أقل كلمة الحق، آثرت سلامتي على كلمة الحق ؟ فالمؤمن كثير اللّوم لنفسه، وكل من كان حسابه في الدنيا حساباً عسيراً، كل من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً، كان حسابه يوم القيامة حساباً يسيراً، كل من وسع صراطه في الدنيا ضاق صراطه في الآخرة، وكل من ضيق صراطه في الدنيا اتّسع صراطه في الآخرة، فإذا قلت في كل قضية: هذه فيها فتوى، وهذه بلوى عامة، وهذه الله لا يؤاخذنا بعملنا، وهذه ماذا سنفعل، نحن عبيد إحسان، ولسنا عبيد امتحان، وقعت في مشكلة يعطيها فتوى، هذا الذي يحاسب نفسه حساباً يسيراً، عندئذٍ يأتي حسابه يوم القيامة عسيراً.

فهذا الكرب العظيم أيها الإخوة، الكرب العظيم يكافئ الانحراف العظيم، أحياناً طالب يفهم من نظرة، تجده انضبط، لأنه حساس، فيه حياة، قلبه حي، يستحي، يخجل، أستاذه غالٍ عليه، علاقته بأستاذه وثيقة جداً، فلو أن المدرس أعرض عنه قليلاً لهلك هماً وحزناً.

قلت لكم سابقاً: مؤمن استمع من شيخه إلى أن لكل سيئةٍ عقاباً، زلّت قدمه في مشكلة، فيه تقصير، انتظر المصيبة، مر يوم، ويومان، وأسبوع وأسبوعان، فلم يحدث معه شيء، في المناجاة قال: يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه: أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟

المؤمن أيها الإخوة، يكفيه أن يشعر أن علاقته بالله ليست كما يرام، أن اتصاله بالله فاتر، إقباله على الله ضعيف، يكفي أن يشعر بهذا الشعور حتى يحاسب نفسه، ويراجع حساباته، ويسأل نفسه: ماذا فعلت؟ ما الذي اقترفت ؟ من أي جهةٍ قصّرت ؟ هذا هو المؤمن.

3 ـ شدّة الكرب بسبب شدة الانحراف:

كلما ازداد الانحراف كان الكرب أكثر شدةً، لذلك هناك أناسٌ لا يعودون إلى الله عزّ وجل إلا بمصيبةٍ تقصم الظهر، فكأن الله ينتظر منا أن لا ننحرف انحرافاً لا يرجعنا إلا الله إلا كربٌ عظيم، مثلاً

أمراض، فإذا شعر الإنسان أنه قد أصابته، لا تقوى رجلاه على حمله، خلافات زوجية، شَرخ في داخل الأسرة، مصائب ضمن الأسرة، في الجسم، في علاقات العمل، أحياناً الإنسان يتورّط ورطة كبيرة جداً فلا ينام الليل، يقول لك: شهر لم أنم الليل، هو في كرب عظيم، ولكن هذا الكرب العظيم يتناسب مع انحرافٍ عظيم، كلما كان الانحراف عظيماً كان الكرب عظيماً، فلا تسلكنّ مع الله طريقاً تحتاج معه إلى كرب عظيم.

في الجسم مرض، ولكنه بسيط، في بواكير المرض يعالج بحبوب، بحمية، لكن لو أهمل نصائح الأطباء، وركب رأسه، وأكل ما يشاء، وتحرك حركة عشوائية كما يحلو له، ولم يعبأ بنصائح الأطباء، وألقى بها عرض الطريق، عندئذٍ يقول له الطبيب: لابدّ من عملٍ جراحي.

لا تتعدّ حدود الله، ولا تأكل مالاً حراماً، ولا تشتط، ولا تعتدِ، ولا تتجاوز حدوده لدرجة أنه لابُدّ من كربٍ عظيم، فإياك أن تصل مع الله إلى طريقٍ مسدود.

أضرب هذا المثل، إنسان ارتكب جريمة، وحوكِم، وحكم عليه بالإعدام، وصُدّق الحكم، وسيق إلى المشنقة، في هذه اللحظة وصل مع القضاء إلى طريق مسدود، لابد من أن يعدم، إن بكى أو توسّل، إن استرسل أو تذلل، وصل مع القضاء إلى طريقٍ مسدود، ولابدّ من نفاذ الحكم.

الذي أتمناه على كل أخ ألا يتورط، ألا يهمل نفسه إلى أن يصل مع الله إلى طريقٍ مسدود، لابدّ من كرب عظيم، وربنا عزّ وجل إذا أراد أن يعالج يعرف كيف يعالج، من المنطقة الحسّاسة، من المنطقة التي تؤلم، من الشيء الذي يخيف، فأنواع المصائب لا تعد ولا تحصى، أحياناً مصائب وهمية، يتوهّم الإنسان مرضاً خبيثاً أصابه، يعيش أشهراً مُنسحِقاً، ثم يتبين أن الورم غير خبيث، لكن الله قادر أن يوهمك، وقادر أن لا يوهمك، وقادر أن يفعل ما يشاء، فأنت كن معه على حَذَر، إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره، الله عزّ وجل يمد للكافرين مداً، فإذا كان الإنسان منساقا مع رغباته من دون رادع، عندئذٍ يحتاج إلى كربٍ عظيم، فسيدنا موسى وهارون:

(وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

4 ـ الكرب العظيم أصاب فرعون:

الكرب العظيم أصاب فرعون، لأنه عتا وطغى، ونسي الجبار الأعلى، قال: أنا ربكم الأعلى، رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه، فذبح كل أطفال بني إسرائيل، عتا، وطغى، وبغى، ونسي الجبار الأعلى، نسي المبتدى والمنتهى، عندئذٍ جاءه الكرب العظيم..

(وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ)

وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ

1 ـ نصرُ الله للمؤمنين يشمل جميع المجالات:

النصر جميل جداً، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، أن ينصرك الله نصراً عزيزاً، نصراً مؤزراً، أن ينصرك على عدوك ؛ أو يتخلى عنك، فيقهرك عدوك، ربنا عزّ وجل مَنّ على موسى وهارون وعلى قومهما.

(وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ)

طبعاً هنا في المعركة، ونصر آخر على خصم لك في العمل، نِد خبيث يزيد قهرك، إن لم تكن مع الله قهرك وحَطَّمَكَ، فإذا كنت مع الله يسوقُ الله الحوادث لمصلحتك، تجده نصرك، لمع نجمك، ارتفع اسمك، علا مقامك، ورفعنا لك ذكرك، ونصر بالدراسة، ونصر بأسرتك، تكون لك الكلمة العليا، لست مقهوراً في البيت، نصر في الدعوة إلى الله عزّ وجل، فإذا كنت ترجو بدعوتك إلى الله رضاء الله عزّ وجل، تجد الله عزّ وجل جعل القلوب تهفو إليك من دون حيلةٍ منك، ولكن بتقدير الله عزّ وجل، علم صدق نيتك فساق الناس إليك.

(وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ(116) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ

1 ـ لابد للإنسان من منهج يسير عليه:

إذا عندك آلة معقدة، بالغة التعقيد، غالية الثمن، عظيمة النَفع، أمتع شيء مع الآلة كتيّب فيه تعليمات الصانع باللغة العربية، حركةً حركة، الآلة غالية عليك، وإنتاجها كبير جداً، وهناك أجهزة دقيقة، يقولون لك: هذا كمبيوتر لتحليل الدم، كل كبسة زر يظهر سبعة وعشرون تحليلاً فوراً على الشاشة، ثم هي مطبوعة، إذا كل كبسة زر ألف ليرة، عندك مائة زبون مائة ألف ليرة في اليوم، أمتع شيء مع الآلة هذا الكتيب الدقيق، هذا الكتاب المستبين، فأنت كآلة معقدة، كتابك هو القرآن الكريم، هذا حرام، هذا حلال، هذا مباح، هذا يغضب الله، هذا لا يرضي الله، هذا مأمور به، هذا منهي عنه، فأروع ما في الحياة أن يكون لك منهج تسير عليه، دستور تعمل به، قانون تنصاع له، توجيه خالق الكون تستجيب له، هذا شيء جميل جداً.

(وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

فأنا لا أعتقد أن ثمة سعادة أعظم من أن تعيش في الحياة ومعك كتاب الله، ومعك الأمر والنهي، معك الحلال والحرام، معك الخير والشر، معك فلسفة وجودك، فلسفة حياتك، فلسفة ما قبل الموت، فلسفة ما بعد الموت، لماذا أنت في الدنيا ؟ ما حكمة الزواج ؟ ما حكمة تربية الأولاد ؟ هذا الكتاب المستبين، فهذا الكتاب كتابنا المقرر، كتاب خالق الكون، فيه نبأ من قبلنا، خبر من بعدنا، فيه الأمر، فيه النهي، فيه الوعد، فيه الوعيد، فيه طريق الخير، فيه طريق الشر، فيه مواعظ، فيه أخبار السابقين، فيه ما بعد الموت.

(وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ(117)وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

2 ـ السعادة الدنيوية والأخروية كلها في اتباع كتاب الله:

النبي عليه الصلاة والسلام من أدعيته الشريفة كان يقول:

((اللهم ألزمنا سبيل الاستقامة لا نحيد عنها أبداً))

[ورد في الأثر]

شيء جميل جداً أن تعرف المنهج وتسير عليه، أن تعرف الحق وتتبعه، أن تعرف الخير وتكون من أهله، وأن تعرف الشر، وتبتعد عن أهله، قال: " كيف أصبحت يا زيد ؟ "، قال: " أصبحت أحب الخير وأهله، وإن قدرت عليه بادرت إليه، وإن فاتني حزنت عليه ؟ "، قال: **" يا زيد، عرفت فالزم، إني لك ناصحٌ أمين ".**

الدعوة إلى الله بالخلق الحسن والعمل الصالح:

لأن الحياة ماضية، أعظم سعادة أن تستيقظ على طاعة الله، أن تتحرك وفق منهج الله، التاجر سعادته كبير جداً لأنه يقول: هذه لا تجوز، لا أبيع ديني، لا أحلف كذباً، لا أبيع بسعرين، لا أرتكب ما حرَّم الله، لا أتجاوز حدِّي، لا أغش المسلمين، لا أخفي عيباً، انصياعه لأمر الله عزّ وجل صار داعية، وهو لا يدري.

من منا يصدق أن أكبر دولةٍ إسلاميةٍ في العالم هي إندونيسيا، تعدادها مائة وخمسون مليونًا، الأمة العربية كلها من الخليج للمحيط مائة مليون، إندونيسيا مائة وخمسون مليونا، كلها أسلمت عن طريق التجار المسلمين، كانوا دعاةً إلى الله بمعاملتهم، بإنصافهم.

والله لا أبالغ، إن التاجر يقدر من خلال استقامته، وصدقه، وسعره المعتدل، ونصيحته أن يرغِّب الناس في الدين، بأي مصلحة بإمكانك أن تكون أكبر داعيةٍ إلى الله عزّ وجل وأنت ساكت، وهذا اللسان لا ينطق، ولكن العمل ينطق، إذاً:

(وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ)

3 ـ السكينة وتيسير الأمور بابٌ من أبواب نصر الله:

أيضاً حينما تنتصر على عدوك، حينما يمكِّن الله لك في الأرض، حينما يرفع شأنك، حينما يعلي قدرك، حينما يمدك بمددٍ من عنده تشعر بالسعادة، أنت تحب الله عزّ وجل، وتخلص له، وتنصاع لأمره، وتحب أحبابه، وتأتي بيته لتنتظر إكرامه، ويشعرك أنه يحبك، وأحياناً الله عزّ وجل يشعرك أنه يحبك من خلال أشياء كثيرة، أحدها تيسير أمورك..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل)

أحياناً التيسير مُشعِر على أن الله يحبك، أحياناً هذه الطمأنينة التي تعيشها، هذا التوازن، هذه الثقة بالله عزّ وجل، هذا القلب المُتماسك، هذه الأعصاب القوية، هذا من علامات رضا الله عنك.

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الفتح: من الآية 26)

هذه سكينة من الله، أحياناً إذا أحبك الله ألقى حبك في قلوب الناس، كلهم يحبونك.

ينادى له في الكون: أنّا نحبه فيسمع من في الكون أمر محبنا

***

إذا أحبك الله ألقى حبك في قلوب الخلق.

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

(سورة طه: من الآية 39)

4 ـ محبة الناس للعبد من نصر الله له:

شيء رائع جداً أن يحبك الناس، أن تكون محمود السيرة، أن يلهج الناس بالثناء عليك، أن يعاملوك معاملةً طيبة كلها المحبة، والتقدير، والإكرام، والتبجيل، هذا من حب الله لك.

أحياناً، وهذا من أرقى أنواع الحب أن يعرفك بذاته، تشعر حينما تعرف الله عزّ وجل أنك إنسان آخر، لا كبراً ولا استعلاء، ولكنه شعور بالتميُّز، هذا غارقٌ في حب الدنيا، وهذا مقبورٌ في شهوته، وهذا

محاصرٌ في تجارته، وهذا تستحوذ عليه مشكلاته فإذا هي تستهلكه لا يستهلكها، المؤمن عظيم عند الله عزّ وجل، فحياته مقدسة، عمره ثمين، كيف لا وقد أقسم الله جل جلاله بعمر النبي، فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72))

(سورة الحجر)

الله عز وجل أقسم بعمر النبي، وقياساً على هذا أنت أيضاً عمرك ثمين، لا تنتهي حياتك هكذا ببساطة، تنتهي حياتك وأنت معزز، وأنت مكرّم، لك دعوة إلى الله عز وجل، النبي متى توفّاه الله ؟ حينما نظر إلى أصحابه قبل أن يموت، فابتسم حتى رئيت نواجذه، قال:

((حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[تخريج أحاديث الإحياء]

الدعوة إلى الله مطلبُ كل مسلم:

أصحاب الرسالات لا يميتهم الله عز وجل إلا بعد أن يحقق لهم أمانيهم في الحياة، فإذا كان مطلبُ الإنسان كبيرا وهدفه نبيلا فالله عز وجل يجعل حياته مقدّسة، يجعل عمره ثميناً، هو ينشغل بنشر الحق، بنشر الفضيلة، ويرى ثمرة عمله قبل أن يموت، فالنبي الكريم ما رئيت نواجذه من قبل من شدة فرحه قال:

((حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[تخريج أحاديث الإحياء]

وأنت أيها الأخ أحياناً تمضي عشر سنوات بمسجد، كل يوم تحضر مجلس علم، جلسة في الصباح وأخرى في المساء، وكل هذا يتراكم، هذه كلها لوائح شرف بحقك، بين طرفة عين وأخرى تجد نفسك مؤمناً داعياً إلى الله، الله أجرى على يدك الخير، أطلق لسانك، جعلك منار هدى، جعلك باباً للخير، جعل الخير يجري على يديك، فالإنسان إذا أتى بيت الله عز وجل لا ينسى الحديث القدسي:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

فربنا عزّ وجل قال:

(وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

كتاب واضح..

(وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

لابد بعد معرفة الحق من العمل به:

إذاً: يا رب هاتان نعمتان ؛ أن تعرف الحق، وأن تتبع الحق، أن تعرف الهدى، وأن تتبع الهدى، أن تعرف الحلال، وأن تعمل به، أن تعرف الحرام، وأن تبتعد عنه، الروعة لا في معرفة الحق، بل في تطبيق الحق، لذلك بونٌ شاسعٌ بين أن تعرف وبين أن تعمل، وبين الحق والباطل أربع أصابع ؛ الباطل أن تقول: سمعت، والحق أن تقول: رأيت.

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ

الثناءُ العطر بعد الموت:

مثلاً: هؤلاء الطغاة، هؤلاء الجبابرة في الأرض، إلى آلاف السنين كلما ذُكروا يُلعَنون، فالحرب العالمية حرب ذهب ضحيتها خمسون مليون إنسان، الذي ألقى على بعض المدن قنابل ذرية، الطغاة مثل تيمورلنك هؤلاء الذين هم جبابرة في الأرض، هؤلاء كلما ذُكروا يُلعَنون، بينما الأنبياء كلما ذكروا يصلى عليهم، لا أعرف كم مرة يذكر النبي في العالم الإسلامي في اليوم، ومع كل مرةٍ صلى الله عليه وسلم، تحس أن هذا الإنسان قدّم كل شيء، أعطى كل شيء، ولم يأخذ شيئاً، أعطانا الهُدى، أعطانا المنهج، أعطانا السبيل الصحيح، أعطانا الدستور، كان أرحم بنا من أنفسنا، جمعنا، إذاً:

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)

الثناء العطر..

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)

في الأجيال اللاحقة، يضرب يوسف العظمة مثلاً، ويثني عليه، كان وزير دفاع، وجاءت فرنسا إلى هذا البلد، والجيش السوري لا يكافئ أبداً الجيش الفرنسي، ولكن أبى عليه شرفه العسكري أن يستسلم، فذهب إلى ميسلون وقاتل، أعداؤه احترموه، كلما ذكر الآن يُذكر بالتعظيم والتبجيل، فانظر إلى الذكر الحسن، هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى كي لا يرى في جلسة الأغراب أشعر هذا بعمل رفع الله له

ذكره، ومؤمن دعا إلى الله عز وجل ؛ ترك آثارا طيبة، ترك هدى، بنى نفوساً بناء صحيحاً، عرفها بربها، حملها على طاعة الله عزّ وجل، هذا عمل عظيم.

لذلك صنعة الأنبياء أن يستخدمك الله في هداية الخلق، وأنت بعملك، باستقامتك، بسمتك الحسن، بحيائك، بتواضعك، بعفتك، بانضباط لسانك، تكون قدوة للآخرين، في عملك، في بيتك، مع جيرانك، مع إخوانك في الجامع، فلذلك:

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)

الذكر الحسن، الثناء الطيّب، الحمد.

قال لي أخ تاجر: كنت على وشك الإفلاس، أحد أصحاب الديون جاءني إلى موقع العمل، طالبني بشدة، فدعوته إلى طعام الغداء في البيت، بيتي صغير مساحته خمسة وثلاثون متراً، فلما رأى بيتاً بهذا الضيق قال: إنسان يسكن بهذا المكان مستحيل أن يأكل مال الناس، مزق السندات، وقال له: تعال وخذ بضاعة، وبعها ثم ائتني بالثمن، وأي إنسان لم يبعك أخبرني أنا أقنعه، والقصة من ثلاثين سنة، كلما ذكرها يذكره بالخير، قال لي: أنهضني من كبوتي، وأعانني على دنياي.

قلت في نفسي: شخص من ثلاثين سنة كلما ذكره يذكره بالخير، هذا الإيمان، إذا كان له عمل طيّب، لو توفاه الله، يلهج الناس بهذا العمل طول الحياة وطول الزمن، هذا معنى:

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ(119)سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

قانونٌ عامّ: جزاء المحسنين:

روعة الآية، هذه ليست قصة، هذا قانون، هذا ليس لسيدنا موسى وهارون، لا لك أنت، يا من تجلس في هذا المجلس، يا من تجلس في هذا المسجد، ويا من تقرأ هذه الكلمات أو تسمعها، قال تعالى:

(إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

إن أحسنت هكذا نجزيك، ننجّيك من الكرب العظيم، ننصرك على عدوك، نؤتيك الحق، نعينك على تطبيقه، نلقي عليك ثناء حسناً وذكرا طيباً، قال:

(إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

خلاصة الدرس:

أيها الإخوة الأكارم... أتمنّى مرةً ثانية على الله عز وجل أن تضعوا أيديكم على دقة هذه الآية:

(إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

هذه الميّزات، يكون كرب عظيم الله ينجيك منه، كرب عظيم لا يبقي ولا يذر، يحرق الأخضر واليابس، تنجو منه أنت بأعجوبة ؟! أن تتعرف إلى الحق، وأن يعينك على تطبيقه، أن تعرف المنهج وأن تطبقه، وأن ينصرك في كل الميادين على أعدائك، دائماً أنت متفوق عليهم، ولك العز والشأن، أن يكون لك الذكر الحسن والطيب في الناس، يلهج الناس بالدعاء لك، والثناء عليك.

أن تنجو من الكرب العظيم، وأن تنتصر على أعدائك، نصراً عزيزاً مؤزّراً، وأن يؤتيك الله الحق، وأن يعينك على تطبيقه، وأن يبقي لك ذكراً حسناً، هذا في متناول يدك، والثمن شيء واحد وهو: الإحسان.

(إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

الإحسان على إطلاقه، المستقيم محسن، أن تؤدي ما عليك محسن، أن تتقن عملك محسن، أن تكون صادقاً محسن، الإحسان بأوسع معانيه، فالنصر على العدو، والنجاة من كل كرب، ومعرفة الحق، والعمل به، والذِكر الحسن، هذه هي الأهداف الكبرى، هذه في متناول يديك، ثمنها بسيط تملكه: كن محسناً ؛ مع صديقك، مع عدوّك، مع كل مخلوق، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[مسلم]

هذا إحسان، والإساءة ما يفعله بعض الناس، يذبحون الدجاج ويضعونها في الماء المغلي، وهي لا تزال تتحرّك، هذه إساءة بالغة لمخلوق أكرمك الله به، تعذبه ؟! النبي الكريم رأى رجلاً يذبح شاةً أمام أختها فغضب، قال عليه الصلاة والسلام:

((أتريد أن تميتها مرتين ؟ هلاَّ حجبتها عن أختها ؟!))

[ورد في الأثر]

إذاً: النصر على العدو، وهو شيءٌ ثمينٌ جداً لا يعرفه إلا من فقده، القهر، الهزيمة، عدوّ يستعلي عليك، يشمت بشيء لا يحتمل، أن تنتصر على عدوك، وأن ينجيك الله من كل كربٍ عظيم احتماله فوق طاقة البشر، وأن يؤتيك الحق، وأن يعينك على تطبيقه، وأن يدع لك ذكراً حسناً في الناس، كل هذه المكاسب العظيمة بين يديك، ثمنها الإحسان، فأجمل ما في هذه القصة قول الله عزّ وجل:

(إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

كن محسناً في عملك، وفي بيتك، ومع كل مخلوق.

(إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

فإذا كنت مؤمناً محسناً فكل هذه الخيرات بين يديك، كل هذه العطاءات في متناول، يدك.

وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قصة سيدنا إلياس.

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

إلى آخر الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (11-14): تفسير الآيات 123 - 132
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-11-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة الصّافّات، ومع الآية الثانية والعشرين بعد المائة من السورة نفسها.

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ

1 ـ إلياس رسول نبيّ:

قال العلماء: إلياس إنه إليا، أرسله الله إلى قومٍ في بلادنا ـ في سوريا ـ وكانوا يعبدون صنماً اسمه بَعْل، وبعلبك فيها هذا الصنم، هؤلاء عبدوا من دون الله صنماً لا يسمع، ولا ينطق، ولا يتحرّك، ولا ينفع، ولا يضُر.

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

و من هنا للتبعيض، فإرسال المرسلين يدلُّ على رحمة الله عزّ وجل.

2 ـ مع مقومات التكليف إنزال الكتب وإرسال الرسل:

أتمنّى أن أوضّح لكم هذه الحقيقة قبل أن نتابع الحديث عن هذا النبي الكريم: الله عزّ وجل حينما خلق الإنسان أعطاه عقلاً يهديه إلى الله عزّ وجل، وفطره فطرةً تكشف له خطأه، وسخّر له كوناً معجزاً يدلُّه عليه، أعطاه حريّةً كي يتحرّك ليكون عمله ثميناً، أودع فيه شهوات ليرقى بها إلى ربِّ الأرض والسماوات، هذه المقوّمات، بعقله، وبفطرته، وبالكون، وبالشهوة، وبالحريّة، وبالقدرة التي تبدو أنه يمتلكها بإمكانه أن يصل إلى الله جلّ جلاله، وفوق هذا وذاك أنزل الكُتُبَ، وبعث الأنبياء، الكتب والأنبياء رحمةٌ من الله عزّ وجل..

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران: من الآية 164)

أضرب مثلاً أقرب الفكرة وأبسطها: أب وضع ابنه في أرقى مدرسة، ودفع له أعلى قسط، وأعطاه كل الحاجات، وأمدّه بكلّ النفقات، وهيّأ له جواً دراسياً كاملاً، وفوق وهذا وذاك كلّف أستاذاً ليعطيه درساً خصوصياً، هذا معنى الآية ؛ العقل يكفي، الفطرة تكفي، الكون يكفي، أفعال الله التي نراه رأي العين تكفي، كلُّ شيء يكفي، وفوق كل هذا وذاك أرسل الله الأنبياء، وأنزل الكُتب، ليكون الكتاب ميزاناً على ميزاني العقل والفطرة.

وشيءٌ آخر، كل الأنبياء الذين قصّ الله علينا قصصهم ليسوا جميع الأنبياء، هم بعض الأنبياء..

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

(سورة غافر: من الآية 78)

فما من بلدٍ، ما من قومٍ، ما من أهل قريةٍ، ما من قارةٍ، ما من عصرٍ، ما من مصرٍ إلا وله نبيٌّ مُرْسَل، فهؤلاء الذين عاشوا في سوريّا، وأنشؤوا هذه الآثار في بعلبك، وعبدوا صنماً من دون الله اسمه بَعْل، هؤلاء مَنّ الله عليهم إذ بعث فيهم نبياً اسمه إلياس، باللغة العِبرانيّة إليا..

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

3 - مع كلّ نبيّ منهج ومعجزة:

لكن دائماً النبي حينما يُرْسَل يأتي بمنهج، هذا المنهج من شأنه أن يَحُدّ من شهوات الإنسان، هؤلاء الذين عبدوا شهواتهم من دون الله، هؤلاء الذين حقّقوا مكاسب من تفلّتهم من منهج الله، هم أعداءٌ طبيعيون لهؤلاء الأنبياء، فأول كلمةٍ يتكلّمون بها حينما يدعون إلى الله ورسوله يقولون: هذا ليس رسولاً، إنه كذّاب، فكيف يواجه النبيُّ دعوى قومه بكذبه ؟ لابدّ من معجزة.

لكن هناك شيءٌ دقيقٌ جداً في المعجزة، أن الله جلّ جلاله جعل هذه المعجزات الحسيّة لمن عطّل فكره، فالذي يؤمن بالمعجزة الحسيّة هو إنسان أدنى مرتبةً ممن يؤمن بالكون كمعجزة ثابتة ودائمة، فلذلك المعجزات الحسيّة تأتي حينما يُعَطِّل الإنسان عقله ولا يفكِّر، أما إذا فكّر فيكون الكون أقوى معجزة، وأكبر دليل.

فنحن أيها الإخوة محاطون بملايين ملايين المعجزات، لكن الكون بعظمته هو المعجزة، يؤيّد هذا ماورد في الأثر::

((حسبكم الكون معجزة))

[ورد في الأثر]

الإنسانُ نفسُه معجزة !!!

الطفل كيف يولد ؟ هذا الماء المَهين، ثلاثمائة مليون حوين في اللقاء الزوجي، الحوين الواحد ؛ غشاء، هيولى، نويّة عليها مورّثات، هذه المورّثات فيها ـ دقِقوا في الرقم ـ خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، هذه المورّثات حتّى الآن اكتُشِفَ من هذه المورّثات ثمانمائة مورّث، ما من صفةٍ في جسم الإنسان إلا وقد خَطّطَ لها مورّث، بالوقت المناسب، فخلق الإنسان معجزة، عينه معجزة.

البارحة رأيت شيئاً يوضع عليه الثياب له اسم خاص ـ المانيكان ـ له قاعدة استناد كبيرة جداً، الإنسان كيف يستقر ؟ كيف يقف على قدمين صغيرتين دقيقتين ؟ لابدَّ من توازن، لابدَّ من جهاز بالغ التعقيد في الأذن، ثلاث قنوات فيها أهداب، وفيها أشعار، وفيها سائل، فإذا مال قليلاً ارتفع السائل، بحسب استواء السائل، وعدم تأثّره بالميلان، ونبّه بعض الأشعار، فشعر الإنسان بالميل نحو جهةٍ، فيصحّح استقامته، جهاز معقّد جداً، فأنت محاط بآلاف آلاف الأجهزة، والمجال لا يتسع..

أنت الآن تتكلّم، كل حرفٍ من حروف الكلمة يسهم في تشكيله، أو النطق به سبع عشرَة عضلة، فالكلمة خمسة حروف، وكل حرف تساهم فيه سبع عشرة عضلة، في إلقاء خطبة كم من الجهد، وكم من التعقيد؟

الأعصاب، لا شك أن الإنسان إذا فكّر في جسمه يُدْهَش، وفي جسم الإنسان آياتٌ بيّنات دالّةٌ على عظمة الله عزّ وجل. إذاً:

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(123)إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ)

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ

1 ـ معنى: تتقون:

تتقون فعل مضارع ماضيه اتّقى، واتقى فعل مزيد مجرّده وقى، فالإنسان كيف يقي نفسه المخاطر ؟ الحياة كلّها مخاطر، وأكبر خطرٍ فيها انتهاء الحياة، الإنسان حينما يغفل عن الموت يتحرّك بلا وعي، لكن حينما يقع في قبضة الله عزّ وجل في ساعةٍ عصيبة..

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9))

(سورة المدثر)

هذه الساعة، الأذكياء والعقلاء يعملون لهذه الساعة، يجعلون من هذه الساعة عُرْساً وفرحةً، وبداية لحياةٍ سعيدة، والأغبياء يعتنون بدنياهم، ويهملون آخرتهم..

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8))

كانت الخسارة كبيرة جداً، فلذلك:

(أَلَا تَتَّقُونَ)

2 ـ اتقوا غضب الله وسخطه:

ألا تتقون الشقاء بطاعة الله ؟ ألا تتقون المصائب بالاستقامة على أمر الله ؟ ألا تتقون الدمار ؟ ألا تتقوا المرض ؟ ألا تتقون الفقر، هناك علاجاتٌ في الدنيا وعلاجاتٌ في الآخرة، بشكلٍ أو بآخر عذابات الدنيا أهون بكثير من عذاب يوم القيامة، لذلك قال الله عزّ وجل:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(21))

(سورة السجدة)

كلُّ العذابات في الدنيا عذاباتٌ دُنيا، عذاباتٌ صغرى، لكن العذاب الأكبر حينما يشعر الإنسان أنه خَسِرَ نفسه، الإنسان يخسر ماله، يخسر أولاده أحياناً، يخسر زوجته، يخسر مكانته، تخدش كرامته، يخسر حقوقه المدنيّة أحياناً ؛ لكن هناك أمل أن يقف مرّةً ثانية، لكن الخسارة الحقيقيّة حينما يخسر الإنسان نفسه يوم القيامة، هذه أشدُّ أنواع الخسارة، وقالوا: أشدُّ خسارةٍ هي الخسارة التي ليس بعدها ربحٌ ولا فوز، خسارة مطلقة، خسارة حتميّة، خسارة نهائيّة..

(أَلَا تَتَّقُونَ)

ألا نرى أن الله جلّ جلاله يعالج الناس معالجات ؟ أحياناً يبثُّ الرعب في قلوب الناس، ثلاثة هزّات في يوم واحد، من دون تهديم، ولكن ماذا فعلت في النفوس ؟ فعلت فعلاً مخيفاً، دفع الناس إلى أن يتجهوا نحو الطُرُقات والشوارع، الله عزّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ)

(سورة الحج)

ما مِن شيء أغلى على الأم من ابنها إطلاقاً، ومع ذلك لشدّة هول هذه الزلزلة تذهل المرضعة عما أرضعت، تُلقي ابنها، وقد سمعت قصصاً كثيرة عن الفزع والرُعب الذي أصاب من ابتلاهم الله بالزلازل، خوفٌ ما بعده خوف، تنطلق المرأة خارج المنزل من دون ثياب، بثياب النوم، وهي لا تدري من شدّة الفزع..

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج)

3 ـ النجاة من المصائب من فضل الله على المؤمنين:

الله يحمينا، فهل هناك شيءٌ أثبت من الأرض، الإنسان يخاف من الجو، يخاف من البحر، يخاف من المرض، يخاف من فقر، يخاف من سجن، يخاف من المسؤوليّة، من ورطة، أما أنه جالس في بيت مستقر، بيت من إسمنت مسلّح، ومرتاح، ومرتب ومزين ومؤثث، في تسع وخمسين ثانية يصبح هذا البيت أنقاضاً من الإسمنت المطحون ؟! فذلكم الله رب العالمين.

لا ضمانة إلا ضمانة واحدة: أن يشاء الله لك السلامة، ولن يشاء الله لك السلامة إلا إذا كنت على منهجه، لقوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

هذا كلام واضح كالشمس، دقِق في هذه الآيات، ما من مصيبةٌ أعظم من أن يجد الإنسان نفسه فجأةً في بطن حوت، ظلمة بطن الحوت، مع ظلمة الليل، مع ظلمة البحر..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

سمعت في الأخبار أن رجلاً بقي تحت الأنقاض ثلاثاً وثمانين ساعة ونجّاه الله عزّ وجل، ثلاثاً وثمانين ساعة بقي تحت الأنقاض، وإلى جانبه امرأته وقد ماتت، وأمه وقد ماتت.

إذاً: الله عزّ وجل الله قادر أن ينجي الإنسان، لذلك النجاة في نصّ القرآن الكريم من فضل الله على المؤمن..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(61))

(سورة الزمر)

الحياة كلّها أخطار، أخطار اجتماعيّة، أخطار اقتصاديّة، أخطار صحيّة، أمراض معدية وسارية، أوبئة، تضخُّم نقدي، كساد تجارة، إفلاس، أما أرض مستقرّة تهتزّ من تحت أقدامنا، فإذا كل شيءٍ كالأنقاض ؟! هذا شيءٌ مخيف، كيف نتقي الزلازل ؟ كيف نتقي الصواعق ؟ كيف نتقي الفيضانات ؟ كيف نتقي الحروب الأهليّة ؟ كيف نتقي الأمراض المُخيفة المُرعبة ؟

قد يكون الإنسان في أعلى درجة من الصحة فيصيبه مرضٌ مخيف، ماذا يفعل ؟ وقد يكون ملكاً، إنه في قبضة الله عزّ وجل، فالإنسان معرّض إلى معالجات، لا ينجيه من عذاب الله إلا أن يكون على أمر الله، لا ينجيه من عذاب الله إلا أن يكون مستقيماً على أمر الله، لذلك قال تعالى:

(وَإِنّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(123)إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ)

أنا أقول لكم كلاماً واضحاً كالشمس: والله ما منّا واحد، وأهل هذه البلدة، وأهل كل البلاد، وكل من يدبُّ على وجه الأرض يحب وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحب كمال وجوده، ويحب استمرار وجوده، يحب ذاته، يحب أن يكون صحيحاً، غنياً، سعيداً، يحب الرفاه، يحب أن يعمر طويلاً، هكذا الإنسان، هذه الأشياء التي فُطِرْتَ عليها لا تكون إلا بطاعة الله.

هناك قصّة أذكرها كثيراً: عالِم من علماء دمشق الذين اختاروا تربية الأجيال، عاش ستاً وتسعين سنة، وكان منتصب القامة، حادّ البصر، مُرهف السمع، أسنانه في فمه، وقد أمدّ الله بعمر زوجته فعاشت معه، ولم يفتقدها ولا ساعة، وكان إذا قيل له: يا سيدي، ما هذه الصحّة التي أكرمك الله بها ؟ يقول: **" يا بني، حفظناها في الصِغَر فحفظها الله علينا في الكِبَر، من عاش تقياً عاش قوياً ".**

أنتم أيها الشباب، أيها الكهول اتقوا الله، قبل أن تتحرّك ما الذي يرضي الله عزّ وجل ؟ ما أمر الله عزّ وجل ؟ الذي يسعدني أن أكون في طاعة الله، فإذا حفظت الله يحفظك الله عزّ وجل..

((يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللّهَ يَحْفَظْكَ))

[سنن الترمذي عَن ابْن عَبّاس]

لذلك كلمة..

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

(سورة الأنفال)

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ(36))

(سورة التوبة)

هذه كلمات يذوب القلب لتفسيرها، أي إن الله معك بالحفظ، والتأييد، والنصر، والتوفيق، ولا طعم أطيب من التوفيق، التوفيق في عملك، لا طعم أطيب من الحفظ..

(فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من الآية 48)

ألا تحب أن تقطف كل هذه الثمار ؟ كل إنسان يتمنى أن يوفّقه الله عزّ وجل، الخسارة صعبة جداً، مؤلمة جداً، مدمّرة، الإحباط، أن تسعى سعياً حثيثاً، ثمّ تبوءُ بالإخفاق، أن تسير في طريقٍ مسدود، في منعطفٍ مدمّر، في منزلق، لكن المؤمن في عين الله عزّ وجل، لذلك المؤمنون الله عزّ وجل قال على لسانهم:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا)

(سورة التوبة: من الآية 51)

هل من سعادةٍ أعظم من أن تشعر بالطمأنينة ؟ إن الله يعطي الذكاء والجمال والمال والقوّة للكثيرين من عباده، ولكنّه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين..

(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ)

التقوى أي أن تطيع الله عزّ وجل، أن تتقي غضبه بطاعته، أن تتقي الشِرك بالتوحيد، أن تتقي الكفر بالإيمان، أن تتقي المرض بطاعة الله، أن تتقي قلّة الرزق بالاستقامة على أمر الله.

هل هناك من أسباب تنمي الأرزاق ؟

هل هناك من أسباب تنمي الأرزاق ؟ نعم، في القرآن الكريم:

الاستقامة:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

الإيمان والتقوى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من الآية 96)

فالاستقامة تنمي الأرزاق.

الصدقة:

والصدقة تنمّي الأرزاق..

((استنزلوا الرزق بالصدقة))

[الجامع الصغير، وفي سنده ضعف]

الأمانة:

والأمانة تنمّي الأرزاق، الأمانة غنىً، أثمن شيءٍ تملكه أن يثق الناس بك، الأمانة غنى.

الإتقان:

والإتقان، إتقان صنعتك تنمي الرزق، فحينما يتقن الإنسان عمله، وإذا فترت الأسواق وبارت فالمتقنون لا يتعطّلون، عليهم طلب شديد، أما الدرجة الثانية والثالثة والرابعة فيصبحون بلا عمل، فالإتقان أحد أسباب تنمية الأرزاق.

بر الوالدين:

برُّ الوالدين أحد أسباب الرزق.

برُّ الوالدين، الإتقان، الأمانة، الاستقامة، الصدقة، هذه كلُّها تنمي الأرزاق، وقوانين.

القرآن قوانين ثابتة:

فأنت حينما تتعامل مع الدين لا على أنه تبريكات، وتهويمات، وطقوس، وكهنوت، لا، إذا تعاملت مع الدين على أنه قوانين، على أنه مقدِّمات ونتائج، على أنه قواعد ثابتة، على أنه سُنَن محكمة، فالقضيَّة سهلة جداً، التعامل مع القانون مريح جداً، هذه المقدِّمة تؤدي إلى هذه النتيجة.

والله أنا أتمنى على كل أخ منكم إذا قرأ القرآن أن يكشف القوانين.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

كلام خالق الكون، من يمنعه من تحقيق وعده ؟ خالق الكون وعدك، قال لك: اعمل عملاً صالحاً، استقم، تعرَّف عليَّ أولاً، استقم على منهجي، واعمل أعمالاً صالحة، وأنا سأحييك حياةً طيِّبة بأي ظرف، بأي مجتمع، ظروف معقَّدة، غير معقَّدة، قبل الحرب، بعد الحرب، أزمان اقتصاديَّة خانقة، فالوعد فوق كل هذه الظروف، لك عنده حياةٌ طيِّبة..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

(سورة طه: من الآية 124)

جرِّب، لا أحد يسعد على وجه الأرض وهو معرضٌ عن ذكر الله، هذا شيء مستحيل..

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة)

اقرأ القرآن على أنه قوانين، وسُنن، وقواعد، المقدِّمات تؤدي إلى هذه النتائج، وكل إنسان يحب ذاته، وربما تنجح بعملك، تنجح بزواجك، تنجح بصحّتك، تنجح في علاقاتك الاجتماعيّة، تنجح في معرفة الله عزّ وجل، ممكن تشعر أنك تتحرّك وفق المراد الإلهي.

(أَلَا تَتَّقُونَ)

قيل: **" قِوام المرء عقله "**، فكلّما نما العقل، الإنسان عقلٌ يدرك وقلبٌ يحب، وأرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً.

(أَتَدْعُونَ بَعْلًا)

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ

1 - أَتَدْعُونَ بَعْلًا

بعلاً أي صنما ؛ لا يتكلّم، ولا يسمع، ولا يُبصر، ولا يتحرّك، ولا يقوى على شيء، فهذه الأصنام الآن ليست موجودة، لكن أنت عندما تعتمد على إنسان تراه قوياً فهذا نوع من الشرك..

2 - وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ

(أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3))

(سورة الأعلى)

الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم.

هل هناك خالقٌ غير الله ؟ فلماذا قال: أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ؟

أيها الإخوة، ليس هناك إلا خالقٌ واحد، لكن أحياناً يسمّى الشيء بحسب مفهوم الناس، الله عزّ وجل قال:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

(سورة النساء: من الآية 5)

فالله عزّ وجل عزا الرزق إلى الإنسان، مع أن الله جلّ جلاله هو الرزّاق ذو القوّة المتين، ولا رازق سواه، فكيف يقول:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

أحياناً الله عزّ وجل بحسب مفهوم الناس، بحسب تصوُّراتهم أن فلان ينفق على فلان، فلان يطعم فلاناً، والناس أحياناً يقولون: هذا صمَّم هذه الآلة، هذا صمَّم هذا البناء، هندسته، تصميمه على الورق، فهذا يسمَّى تجوّزاً خالق، يقول لك: الخَلق والإبداع.

بالمناسبة الله عزّ وجل لكرامة الإنسان عليه ـ دقِّقوا ـ لكرامة الإنسان عليه أعطاه من أسمائه الشيء الكثير، فالإنسان فرد لا ثاني له، حسب البحوث الحديثة الإنسان له قُزحيَّةٌ لا يشترك بها إنسان آخر في العالَم، إذا في خمسة مليارات إنسان في العالَم، كل قزحيَّةٍ لها شكلٌ متميّز، هذا يؤكِّد فرديَّته، الإنسان له رائحة خاصَّة لا يشركه فيها إنسان في العالَم، الإنسان له تركيب دم خاص، الإنسان له بصمة خاصَّة، الإنسان له نبرة صوت خاصَّة، هذا من فرديَّته ومن تكريم الله له.

والله عزّ وجل أعطى الإنسان حريَّة الاختيار، الله عزّ وجل مُريد، وجعل عبده تكريماً له مريداً، أنت مُنِحْت حريَّة الاختيار، شاءت مشيئة الله أن تكون ذا مشيئة، هذا تكريم ثانٍ، أنت فردٌ لا ثاني لك، ومريدٌ، ولست مقهوراً.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: من الآية 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: من الآية 148)

وشاءت حكمة الله أن يصمِّم الكون تصميماً يتيح لك فيه أن تُبْدِع، أبدعوا بالنباتات الهجين، أبدعوا بتهجين الحيوانات، أبدعوا أشياء كثيرة، هذا بإذن الله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل تكريماً للإنسان صمَّم الكون تصميماً يتيح للإنسان أن يبدع.

ومن باب التكريم أيضاً أنه سمح لك أن تشرّع، الله عزّ وجل كان كلامه في بعضه احتمالياً، ظني الدلالة، فالعلماء اجتهدوا واستنبطوا من هذه الأحكام الظنيَّة أحكاماً فقهيَّة، فصار الإنسان مشرّعاً، لأن الأحكام الإلهيَّة بعضها ظني، لذلك قَبِلَ الله أن يتعبَّدنا باجتهاد العلماء، الإنسان فرد لا ثاني له، والإنسان مريد، والإنسان مشرّع، والإنسان مبدع.

والإنسان بهذه الآية الكريمة يرزق، يعطي الله الرزق للأب الأب فينفق على أولاده، فيما يبدو لهذه العين الأب رازق، يكسب المال وينفقه على ؛ أولاده، وزوجته، وأخواته العوانس.. وإلخ، فالإنسان فرد، ومريد، ومشرّع، ومبدع، ورازق، هذه صفات الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

هذا التكريم. إذاً:

(أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)

مثلاً: هل طرأ على الإنسان تعديل منذ أن خُلِق ؟ فهذا يعني أن خبرة الله عزّ وجل خبرة قديمة، الإنسان خبرته متجدِّدة، خبرته حديثة، تتكامل، تتنامى، والدليل: ضع أمامك سيَّارة مصنوعة سنة ألف وتسعمائة، كانوا يشعلون المصابيح بالزيت، ويشغِّلونها من أمام بالمنويل، والدواليب مصبوبة صباً من دون نفخ، وكانت التنقيلة واحدة فقط، ومكشوفة، ضع أمامها سيارة من الماركات الحديثة جداً، فما هذا ؟ الفرق من الأرض إلى السماء، ماذا نفهم من ذلك ؟ نفهم أن خبرة الإنسان حديثة، وتتنامى، الإنسان شيء، والخالق شيء، أما الإنسان فما فيه نقطة ضعف الله تلافاها بالخلق التالي.

الإنسان يحمل ابنه من يده، فمدروس دراسة دقيقة، الأربطة في الكتف مصمَّمة لتحمل الجسم بأكمله، وأحياناً يشدّ بعنف، هذه الشدّة تضاعف المقاومة، المعنى، أن الأربطة تتحمّل هذا الجسم، فالإنسان مصمَّم تصميماً رائعاً، هل طرأ شيء عليه ؟

لي مأخذ على ما يقال: أن في الإنسان زائدة دوديَّة، الأصح أن نسميها ذائدة، أي مدافعة، الذائدة الدوديَّة، لأنه حاشا في خلق الله عزّ وجل أن يكون في جسم الإنسان عضوٌ زائد، كمال مطلق، مبرمج.

(أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ(125)اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

فهو الرب، المُمِد بكل شيء..

(فَكَذَّبُوهُ)

فَكَذَّبُوهُ

لماذا كذّب الناسُ الأنبياءَ ؟

لماذا كذّبوه ؟ لأن منهج الرسل منهجٌ يقيّد الإنسان في حركته، الإنسان بلا منهج رباني كالدابَّة، أما المؤمن فمُقيَّد، القرآن يقيّده، والقيَم تقيّده، وإيمانه يقيّده، وخوفه من الله يقيّده، وتصوُّر الآخرة يقيّده، فالإنسان كلّما ارتقى تقيَّد، هذا الذي يقول ما يشاء، ويفعل ما يشاء، ويأكل ما يشاء، ويذهب إلى حيث يشاء، وينام مع من يشاء، هذا إنسان متفلت، أما الإنسان المؤمن فمقيَّد، قيَّده الشرع عن كثيرٍ من هوى نفسه..

(فَكَذَّبُوهُ)

لأن منهج الأنبياء تعارض مع شهوات الكفّار، لذلك الإنسان قد يستغرب الإقبال الشديد على المذاهب الوضعيّة، لماذا ؟ لأنه ليس هناك منهج يحدُّ من حركتهم، افعل ما تشاء، وكل ما تشاء، وخذ من الأموال ما تشاء، ومتّع شهواتك بمن تشاء، وتكلّم ما تشاء ؛ أعلن ولاءك لهذه الجهّة فأنت منها، القضيّة سهلة جداً، أما النبي عليه الصلاة والسلام فيقول:

((والله لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبيّاً))

[ورد في الأثر]

والله عزّ وجل قال:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(44)لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45)ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(46)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

(سورة الحاقة)

موالاة الله عزّ وجل تحتاج إلى انضباط، أما موالاة غير الله عزّ وجل فتحتاج إلى صُراخ.

(فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ

1 ـ قضية الإيمان قضية وقت فقط:

المشكلة أقولها لكم كثيراً: المشكلة ليست أن تؤمن أو أن لا تؤمن، لابدَّ من أن تؤمن، ولكن المشكلة أن تؤمن بعد فوات الأوان، فأنت دائماً مُحْضَر، بأي لحظة في قبضة الله عزّ وجل، كلّما توفي أحد، فأتمنّى على الإنسان أن يسأل: كيف توفّى ؟ الذين جلسوا معه قبل يوم من وفاته كانوا يسمعونه وهو يخطط لعشرين سنة قادمة، سيفتح محلاً، يؤسّس شركة، يسافر لأوروبا، يعمل، يتزوّج، كيف اختُطِف ؟ كيف صار في قبضة الله فجأةً ؟ مهما كان الإنسان عظيما، بمرض صغير في جسمه يجعله يستسلم، ويجعله يبكي.

2 ـ كل إنسانٍ في قبضة الله:

إذاً: نحن جميعاً في قبضة الله عزّ وجل، نحن نشبه كائنًا حيًّا مربوطا بحبل متين، الحبل مرخًى، هذا الكائن عندما وجد أن الحبل مرخى ظنّ أنه لا يوجد حبل، ظنّ نفسه حراً، فتحرّك حركات عشوائيّة،

تطاول، وتجاوز الحدود، لكن الحبل مرخى، وفي أي ثانية يُشَدُّ الحبل فهو في قبضة الله عزّ وجل، ما دام المصير في قبضة الله، كيف نعصيه ؟ كيف ننسى ؟ كيف نتجاوز الحدود ؟

(فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

فالإنسان ضمن بلده أين سيهرب ؟ يريد السفر، فليمر من المطار يحتاج إلى ترخيص، يحتاج إلى تأشيرة، يحتاج إلى جواز سفر، وعن طريق البر كذلك يوجد مركز هجرة وجوازات، أين سيذهب ؟ وإن ذهب من طريق غير نظامي يلتقطونه، أين جواز سفرك ؟ لا يستطيع، هكذا الأنظمة والقوانين في الدولة، وبين الدول اتفاقيات وأنظمة متعارف عليها، وإذا خالف القوانين كان مسؤولاً، فكيف مع خالق الكون ؟ بأي لحظة أنت في قبضته.

أنت تعال باختيارك، تعال وأنت محب، لا تأتِ وأنت ملقى القبض عليك، يا إمام كيف القدوم على الله ؟ قال: " أما العبد المؤمن فكالغائب رُدَّ إلى أهله، وأما العبد الفاجر فكالعبد الآبق رُدَّ إلى مولاه "، فهذه الحركة العشوائيَّة، وتجاوز الحدود، وإيذاء الناس، والعدوان على الناس، وانتهاك أعراض الناس، واغتصاب أموال الناس، لكن الحبل موجود، ولكنه مرخى، فإذا شُدَّ الحبل وقع الإنسان في قبضة الله عزّ وجل.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: من الآية 40)

هذا تهديد، اعمل وأكثر، افعل ما شئت..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

هذه قصَّة رمزيَّة: رجل في بعض البلاد كان ثرياً جداً، وقد جاءه الموت فخاف أولاده عليه من وحشة القبر، ومن سؤال منكر ونكير ـ كما يقال ـ رأوا إنساناً فقيراً، وأغروه بمالٍ كثير على أن ينام معه أول ليلة فقط، رجل فقير، وقل له: خذ عشرة آلاف جنية مثلاً، مبلغ ضخم، والله لا يتردد، ليلة واحدة فقط وقت السؤال، فهذا وضعوه معه، جاء الملكان، وجدوا أن هناك اثنين في القبر، شيء غير مألوف أن يجدوا اثنين، ارتعب، حرّك رجله، فقالا: هذا حي وليس بميت، إذاً نبدأ به، قم، ماذا تلبس ؟ لبس كيسا من الخيش مربوطاً بحبل، من أين جئت بهذا الحبل ؟ من البستان، كيف دخلت إلى البستان ؟ هل أخذت إذنًا من صاحبه ؟ ونزلوا فيه بالضرب، بسبب حبل، وكيف دخلت إلى البستان، ولم تستأذن صاحب

البستان ؟ كيف أخذتها من دون إذنه ؟ خرج من القبر في اليوم التالي، وقال لهم: الله يعين أباكم. فلذلك الإنسان:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

دائماً بطولتك في تهيئة جواب لله عزّ وجل، افعل ما تشاء، قد تكون رب أسرة ؛ اظلم زوجتك، اظلم أولادك، قد تكون في عملك ذا شأن، وعندك موظّفون ضعاف، تستطيع أن تستغلّهم، تستطيع أن تقهرهم، تستطيع إعطاءهم نصف حقّهم، لا يستطيعون الكلام خوفاً منك، فالله عزّ وجل يراقبك، افعل ما تشاء..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

فلذلك: **" حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطّى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا "**

قال تعالى:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

هؤلاء ليسوا محضرين، ولكنّهم مدعوون، إذا دُعيت إلى حفل، أولاً الهديّة تصلك إلى البيت، بعدها بطاقة أنيقة، فيها تخطيط من الداخل، تدخل إلى الحفل فيه الشراب، والمقبّلات، والطعام النفيس، والترحيب، والبشاشة، والمقاعد والوثيرة، هذه الدعوة، الكفّار ألقي القبض عليهم، وسيقوا ليلقوا مصيرهم ؛ والمؤمنون يُدعون إلى الله وفدا، المؤمنون وفد، الوفد معزّز، مبجّل، مكرّم، محترم، مرفّه، قال:

(فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(127)إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

هذا مخلّص بعد أن أخلص، أخلص فصار مخلّص، فأقبل على الله بإخلاصه الشديد، فنقّاه الله من كل درن، من كل شائبة، من كل شرك، من كل شُبُهة، من كل انحراف، من كل ضغينة، من كل حَسَد، أخلص فأصبح مخلصاً..

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(128)وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

والله شيء جميل جداً أن يموت الإنسان، ويمضى على وفاته سنة، وسنتان، وخمس، وعشر، ومائة، وألف، وذكره عطر، العالم الإسلامي فيه ألف ومئتا مليون، سيدنا عمر، سيدنا الصديق، سيدنا عثمان، سيدنا علي، الصحابة الكرام، سيدنا سعد، سيدنا سعيد، ابن الزبير، أبو عبيدة بن الجرّاح، سيدنا صلاح الدين، عمر بن عبد العزيز، أقول: سيدنا، لا أجرؤ أن أقول: فلان، هذا الذكر الحسن، فشيء رائع جداً أن يموت الإنسان والناس يلهجون بالثناء عليه دوماً، هذا عطاء عظيم.

إذاً: الكافر يلقى القبض عليه، ويُساق ليلقى مصيره المحتوم، والإنسان في الدنيا إذا ارتكب جرماً يستحق أن يُعْتَقل، كيف يؤخَذ ؟ يؤخذ مع اللكم، والضرب، والسُباب، والشتائم، والرَكل، أما إذا دعي فإنه يُعزّز، ويُكرّم، فشتّان بين من يُحضر ومن يُكرّم، لذلك يقول الله عزّ وجل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

إذا أُلقي القبض عليه، وسيق ليُعَذّب، وليلقى جزاء عمله، ينسى كل متع الحياة، والإنسان غير المؤمن مهما انغمس في النعيم، مهما تناول من الطعام، مهما فعل من المَلذّات، حينما يأتيه ملك الموت ينسى كل شيء، يصيح صيحةً لو سمعها أهل الأرض لصُعِقوا، يقول: " لمْ أرَ خيراً قط **"، والمؤمن حينما يرى مقامه في الجنّة ينسى كل متاعب الدنيا فيقول: " لمْ أرَ شرّاً قط ".**

يقول الإمام علي كرّم الله وجهه**: " يا بني من خيرٌ بعده النار بخير، وما شرّ بعده الجنّة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية "**

سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبةٌ قال: **<< الحمد لله ثلاثاً ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ أَلْهمْتُ الصبر عليها >>.**

أيّة مصيبةٍ ليست في الدين مصيبةٌ تهون، لكن مصيبة الدين أن يعصي الإنسان الله عزّ وجل، أن يرتكب الكبائر، أن يستحقّ غضب الله عزّ وجل. إذاً:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

هؤلاء يذهبون إلى الآخرة وكأنّهم وفود..

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

الذكر الحسن، الذكر الحسن عمر آخر للإنسان، الإنسان أحياناً يكون له والد حسن السيرة، أينما تحرّك: الله يرحم الوالد..

(سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ)

سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ

هذا السلام من أسماء الله السلام، أي سلامٌ، وراحةٌ، وسعادةٌ، وطمأنينةٌ، الآخرة فيها سلام، الله سمّاها دار السلام، والله الدنيا دار القلق، الإنسان دائماً يخاف، يخاف إذا امتدّ به العمر، يا ترى ماء زرقاء ؟ هناك أمراض كثيرة، أمراض الشيخوخة معروفة، دائماً في قلق ؛ قلق على بصره، قلق على سمعه، على قلبه، على شرايينه، على الدسّام، على الضغط، على الكلى، يا ترى البول خف ماذا أفعل ؟ هل هناك مشكلة ؟ هل هناك بحصة ؟ دائماً هناك مشاكل في الحياة، وقلق، يا ترى هل ستظل التجارة رائجة؟ أم في كساد، سمحوا، أم منعوا ؟ ربنا عزّ وجل في الآخرة ؛ لا خوف، ولا هم، ولا حزن، ولا قلق، ولا ضيق، ولا شيخوخة، ولا متاعب، ولا مرض، لهذا يقول الله عزّ وجل:

(سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ)

سلام، هذه دار السلام، اللهمّ أدخلنا دار السلام بسلام.

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

هذا هو الثمن، الثمن الإحسان، الإحسان في العمل، الإحسان في الاستقامة، الإحسان في أداء ما عليك، الإحسان مطلق، حتّى لو قتلت حيواناً، الإحسان ضربة واحدة، حتّى لو ذبحت حيواناً..

((وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[أخرجه مسلم]

كن محسناً، دائماً المؤمن محسن، والكافر مسيء، المؤمن منضبط، والكافر متفلِت، المؤمن موصول، والكافر مقطوع، موصول منضبط محسن، مقطوع متفلِت مسيء..

(إِنَّا كَذَلِكَ)

يا الله !! هذه الكلمة الله قلبها إلى قانون، ألم أقل لكم سابقاً: القصص في القرآن الكريم ليست مقصودةً لذاتها، مقصودةً للقوانين التي تحكمها، ليست مقصودةً لذاتها، بل مقصودةٌ للقوانين التي تستنبط منها..

(إِنَّا كَذَلِكَ)

الكلام لنا الآن، نحن نعيش في عام ألف وتسعمائة واثنين وتسعين بعد نزول هذه الآيات بألفٍ وأربعمائة سنة.

الكلام لنا الآن..

(إِنَّا كَذَلِكَ)

السلام في جنَّةٍ عرضها السماوات والأرض..

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(131)إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

أي أنه آمن بالله عزّ وجل فأحسن، كفر فأساء، آمن فأحسن، كفر فأساء، خاف فاتقى، عطّل فكره فتفلّت.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله ننتقل إلى قصّة سيدنا لوط، وقصّة سيدنا يونس، وبعدها تأتي الآيات لتُجْمِل المعاني التي وردت في ثنيّات هذه القصص.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (12-14): تفسير الآيات 133 - 148
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-11-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة الصّافّات، ومع الآية الثانية والثلاثين بعد المئة.

(وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ

إرسالُ الرسلِ من رحمة الله بعباده:

من للتبعيض، والرسل كثيرون، منهم من قَصَّ الله علينا، ومنهم من لم يقصص، وإن دل إرسال الرُسل على شيء فإنما يدل على رحمة الله جلّ جلاله، على وعلى حرصه على هداية خلقه، وعلى أن الخلق كلّهم مطلوبون للهداية، العقيدة الصحيحة أن الله عزّ وجل يريد كل خلقه، كل الخلق خُلقوا للهداية، خلقوا للسعادة، قال تعالى:

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)

قال تعالى:

(وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

الخلق جميعاً مطلوبون، مدعوون لمعرفة الله، مطالبون بما فرض الله عز وجل، لذلك كان إرسال الرُسُل.

(وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(133)إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)

إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ

قد تلاحظون أن عرض هذه القصة في هذه السورة جاء بشكلٍ مختصرٍ جداً، وربما لو كان هناك دراسات قرآنية في هذا الموضوع، أي أن ندرس القصص التي تكررت، في كل مرةٍ ذكرت فيها، كانت

المعالجة من زاويةٍ معينة، فربنا جل جلاله في هذه القصة عرضها عرضاً سريعاً، في آيات كثيرة عرضها عرضاً مُفَصّلاً.

على كلٍ:

(وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(133)إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)

1 ـ الهلاك والنجاة لهما قانون وسببٌ:

إذاً الهلاك والنجاة لهما قانون، المؤمن يعتقد هذا، أما غير المؤمن فيريد أن تكون عشوائية، يريد أن يبين لك القضية ليست بالعمل ولا بالاستقامة، ولكن الحظ والنصيب، فكل من يطرح لك هذا الطرح ؛ قضية حظ، قضية نصيب، قضية بلاء عام، البلاء يعم، الرحمة خاصة، هذا الطرح غير قرآني، أما ربنا عز وجل فبيّن أن الهلاك بسبب، وأن النجاة بسبب.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف: من الآية 59)

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

(سورة الإسراء: من الآية 16)

بالخير والصلاح والهدى.

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا(16))

(سورة الإسراء: الآية 16)

تتبع آيات الإهلاك في القرآن الكريم تجدها كلها تربط الهلاك بالمعصية، الهلاك بالظُلم، الهلاك بالتكذيب، الهلاك بالانحراف، الهلاك بالعدوان، الهلاك بالبغي والطغيان، ما من هلاكٍ إلا وله سبب، وما من نجاةٍ إلا ولها سبب، وإذا ظهر السبب بَطَلَ العجب، فنحن نريد أن نقرأ القرآن قراءةً واعية، نريد أن نستنبط منه القوانين.

أقول لكم دائماً: إن القصص في القرآن الكريم ليست مقصودةً لذاتها، المقصود أن نستنبط منها سنناً وقوانين وقواعد كُلِّيَّة، تفيدنا في حياتنا اليومية.

فهنا:

(وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

2 ـ الخلق كلهم مدعوون للهدى:

والرسالة تدل على رحمة الله، تدل على لطف الله عزّ وجل قبل أن يأتي بالعذاب، تدل على أن الخلق كلهم مدعوون للهدى، وأنه ما خلق مخلوقاً إلا ليسعده، فإذا شقي المخلوق فباختياره.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(133)إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)

دائماً يجب أن تؤمن أن النجاة هي ثمن الهُدى، الهدى والاستقامة من ثمارها اليانعة في الدنيا النجاة..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

في أكثر آيات الهلاك يأتي التعقيب:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

هذا قانون، فأنت لو وُجِدتَ في زمنٍ صعب، في زمن الفِتَن، في زمن الكوارث، في زمن الجوائح، في زمن المُعالجات الإلهية، بإمكانك أن تنجو من عذاب الله إذا اتَّبعت منهج الله عز وجل، فأريد أن أبيّن لكم، أن كل إنسان داخله القلق والخوف من مصيبة وجائحةٍ عامة، من شبح مصيبةٍ مخيفة، بإمكانه أن يَعُدّ أن طاعة الله عز وجل سبيلٌ للنجاة..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

3 ـ أهل الإنسان هم الذين اتبعوه:

والحقيقة أن أهلك هم الذين اتبعوك، الأهل فيما يبدو للناس الأقارب، لكن قال: يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فمن أهلك أنت ؟ أهلك المؤمنون، فمن اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من أهله، لهذا ورد في السنة:

((أنا جد كل تقي))

[كشف الخفاء]

ورد أيضاً:

((سلمان منا آل البيت))

[ورد في الأثر]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

عم النبي في القرآن الكريم:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2))

(سورة المسد)

((سلمان منا آل البيت))

كلكم يذكر قصة سيدنا عمر عندما وقف أبو سفيان ببابه، طبعاً أبو سفيان أسلم، نقول عنه: رضي الله عنه، وقد حارب النبيَّ عشرين عاماً، وقف ببابه ساعاتٍ طويلة فلم يُؤذَن له، وبلال وصهيب يدخلان بلا استئذان، فلما دخل على عمر عاتبه، وقال: يا أمير المؤمنين، زعيم قريش يقف ببابك ساعاتٍ طويلة، وصهيبٌ وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان ؟ "، قال: **<< يا أبا سفيان، أنت مثلهما ؟ >>.**

4 - الناس فريقان:

إذاً: لا انتماءات في الإسلام، لا يوجد إلا انتماء واحد: الخلق كلهم عباد الله، الله ربهم، وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، ليس بين الله وبين عباده قرابة، إلا طاعتهم له.

هذه المعاني مريحة جداً، هذه المعاني تحفز الهمم، هذه المعاني تلغي كل فارق، كل منبت، فلا طبقية، ولا عِرقية، ولا أي شيء آخر، فالانتماءات البشرية، انتماءاتٌ كلها جاهلية.

((فالنّاسُ رَجُلان: بَرٌّ تَقِيٌّ كَريمٌ عَلَى اللّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللّهِ))

[من سنن الترمذي عن ابن عمر]

تقسيم النبي الكريم، الناس رجلان مؤمنٌ وكافر، عالم وجاهل، محسنٌ ومسيء، مقبلٌ ومُعرض، منضبطٌ ومتفلت، ملتزم وغير ملتزم، مخلصٌ وخائن.

هناك زمرتان ؛ المؤمنون صفاتهم كلها كاملة، والكفار والمنافقون صفاتهم كلها خسيسة، أي انتماءٍ آخر لا قيمة له، ولا شأن له عند الله عز وجل.

((رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه، لو أقسم على الله لأبره))

[الترمذي]

روي أن امرأةً كانت تقُم مسجد رسول الله، تنظفه، وقد توفيت فلما سأل عنها النبي قالوا: توفيت يا رسول الله قال: هلا أعلمتموني ؟ فسكتوا، فأصحابه رأوا من هوانها على الناس أنها أقلُّ من أن يخبر النبي بموتها، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام، وذهب إلى قبرها، وصلى عند قبرها واستغفر لها..

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:

((أَنّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، أَوْ شَابًّا، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَسَأَلَ عَنْهَا، أَوْ عَنْهُ، فَقَالُوا: مَاتَ، قَالَ: أَفَلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي ؟ قَالَ: فَكَأَنّهُمْ صَغّرُوا أَمْرَهَا، أَوْ أَمْرَهُ، فَقَالَ: دُلّونِي

عَلَى قبْرِهِ، فدَلُوهُ، فصَلّى عَلَيْهَا، ثُمّ قالَ: إنّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أهْلِهَا، وَإنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ يُنَوّرُهَا لَهُمْ بصَلاتِي عَلَيْهِمْ))

[صحيح مسلم]

هذا هو الدين، الخلق كلهم عيال الله، يتفاضلون بالطاعة فقط..

(إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

فأنت إما أنك مؤمن، وإما أنك عنصري، تعتز بأسرتك، تعتز بانتماءاتك، تعتز بجماعتك، تعتز بلونك، تعتز بمالك، عنصري أما إذا اعتززت بالله عز وجل وبطاعتك له فأنت مؤمن، لذلك ضعْ تحت قدمك كل الانتماءات التي اخترعها البشر وهي انتماءاتٌ جاهلية.

سيدنا أبو بكر اشترى بلالاً من سيده، قال سيده أمية بن خلف: **"والله لو دفعت به درهماً لبعتكه "**، يريد أن يحقِّرَهُ، قال له الصديق: << والله لو طلبت به مائة ألفٍ لأعطيتكها >>، يريد أن يُعِزَّهُ، فلما اشتراه من سيده وضع يده تحت إبطه، فهذه لها معنى كبير جداً، سيدنا الصديق سيد قريش وبلال عبد، أبى الصدّيق إلا أن يضع يده تحت إبطه ليرفع من مكانته، وقال: **<< هذا أخي حقاً >>.**

حتى عندما تولى سيدنا الصديق الخلافة قال له: **<< يا بلال أذِّن >>**، قال: " والله ما كنت لأؤذّن لأحدٍ بعد رسول الله "، مستحيل، قال: " من يؤذن لنا ؟ "، فقال له: **" يا خليفة رسول الله، إن كنت أعتقتني لك فلك ما تريد، وإن كنت أعتقتني لله فدعني وما أريد "، قال: " والله أعتقتك لله ".**

فالإسلام لا ينمو إلا في مجتمع مسلم، نحن نريد أن نعيش هذه القيَم، أن نُلغي كل التفاوت، كل الانتماءات غير الدينية، فلان من أسرة فلانية، فلان له شأن، له مكانة..

(إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

والله مرة قال لي أحد الإخوان الكرام حج بيت الله الحرام، ولما عاد قال لي: أنا بهذا الحج ليس في الدنيا من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني، هذا هو المقياس، كلنا لآدم، وآدم من تراب، الناس كلهم سواسية كأسنان المشط، يتفاضلون بطاعتهم لله عز وجل، فلذلك هذه المعاني تُلغي الكبر، تلغي الاعتزاز بالنسب، من أنت ؟

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

***

((رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه، لو أقسم على الله لأبره))

[تخريج أحاديث الإحياء]

إذاً: هذا هو التقسيم الصحيح ؛ مؤمن وغير مؤمن، المؤمن يعتز بالله، منضبطٌ بمنهج الله، أساس عمله العطاء والإحسان، أساس منطلقه خدمة الخلق، إرضاء للحق، غير المؤمن عقيدته غير صحيحة، زائغة، متعلقٌ بأوهام، متفلتٌ من منهج الله عز وجل، أساس حياته الأخذ لا العطاء، يريد من الناس أن يقدموا له كل شيء ؛ أما المؤمن فيريد أن يقدِّم للناس كل شيء، والفرق كبير.

(إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)

5 ـ اطمئنّوا فإن النجاة تشمل المؤمنين:

اطمئنوا، فهذه الآية مطمئنة، أنت بيدك النجاة، نجاتك من كل شيءٍ مخيف بيدك..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولــذ بحمانا واحـتمِ بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

في الحياة مخاطر لا يحصيها إلا الله، مخاطر، منزلقات، ورطات، أمراض، خصومات في قهر بشري، هذه كلها بيد الله عز وجل، اسمع الآية:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

انظر إلى شمول الآية، من فوقك أي صواعق، وصواريخ أيضاً، قصف..

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

ألغام، زلزال، براكين..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

كله بيد الله عز وجل، سبيل النجاة الاستقامة على أمر الله.

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

فلذلك النجاة مطمح لكل إنسان، أن ينجو من بلاءٍ عام، أن ينجو من كارثةٍ محققة، أن ينجو من جوعٍ مُميت، أن ينجو من قهرٍ لا يحتمل، أن ينجو من مرضٍ عُضال، بطاعتك لله عز وجل، يجب أن تعامل مع الله بصدقٍ وإخلاص.

(إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(134)إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)

إلّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ

1 ـ ليس مِن صالح المرأة تشجيع الانحراف:

امرأته، ليس من صالح امرأته أن تُشَجّعَ على الشذوذ الذي تلبّس به قومه، كل أنثى ليس من صالحها أن ترحِّب بهذا الانحراف الأخلاقي، ولكن لأنها أحبت قومها، ودافعت عنهم، وانضمت إليهم، استحقت العذاب معهم، لهذا ورد في السنة:

((كل نفس تحشر على هواها، فمن هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

[ورد في الأثر]

لذلك العلامة الطيبة أن يكون قلبك متعلقاً بالمؤمنين، أن تكون في سبيل المؤمنين، ربنا عز وجل قال:

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

(سورة النساء: من الآية 115)

طوبى لمن وسعته السُنَّة، ولم تستهوه البدعة، والبدع كثيرة جداً، هذه البدع كلها تُهْلِك الإنسان.

(إلّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)

2 ـ مِن مظاهِر حكمة الله تعالى:

ربنا عزّ وجل في القرآن الكريم جعل نبياً عظيماً زوجته كافرة، وجعل كافراً كبيراً زوجته مؤمنة..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10))

(سورة التحريم)

معنى ذلك أن الإنسان محاسب وحده، الإنسان مخيَّر، فهذه امرأة لوط لم تؤمن فاستحقت الهلاك، ولم ينفعها أن زوجها نبيٌ مُرسل، وهذه امرأة فرعون استحقت النجاة، ولم يمنع من نجاتها أن زوجها طاغيةٌ جبَّار..

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11))

(سورة التحريم)

هاتان الآيتان فيهما مفارقتان عجيبتان، الهدف منهما أن يبين الله لنا أن المرأة كائنٌ مستقلٌ في اختياره عن زوجها، فتكريمٌ لها جعلها الله كائناً مستقلاً في اختياره عن الآخرين، وهذا من أبرز ما يظهر كيانها في الدين، إن آمنت نجت، ولو كان زوجها فرعون، وإن كفرت هلكت، ولو كان زوجها لوطًا النبي.

3 ـ المرأة مكلفة، ومشرفة:

أتمنى أن أوضِّح لكم هذه الحقيقة: المرأة والرجل متساويان تساوياً مُطلقاً في التكليف وفي التشريف، فهي مكلفةٌ، ومشرفةٌ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

(سورة النحل: من الآية 97)

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 195)

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب: من الآية 35)

فهذه الآيات تبين أن شأن المرأة كشأن الرجل تماماً، لكن المرأة لها صفاتٌ جسميةٌ وعقليةٌ ونفسيةٌ هي فيها كمالٌ لمهمتها التي خُلقت من أجلها، وللرجل صفاتٌ جسميةٌ وعقليةٌ ونفسيةٌ واجتماعية هي في حقه كمالٌ لما خلق له، صفات المرأة كاملة فيما يتعلق بمهمتها في الحياة، وصفات الرجل كاملةٌ فيما يتعلق بمهمته في الحياة، لذلك قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 36)

إنهما يتكاملان، إذا افترقا في الصفات فهو افتراق تكامل لا افتراق تضاد.

(إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ)

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ

وهذه نتيجة كل منحرفٍ عن طريق الحق، آخرته الهلاك والدمار، كنت أقول دائماً: إن قضية الإيمان ليست أن تؤمن أو لا تؤمن، أنت لست مخيراً بهذا، لست مخيراً بأن تؤمن أو لا تؤمن، هذا اختيارٌ باطل، أنت مخير متى تؤمن، لأنه لابد من أن تؤمن، ولكن بعد فوات الأوان.

(ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ)

أعظمُ حدثٍ عند الإنسان حدثُ النهاية:

والإنسان توفيقه وعقله في أن يتوقّع الشيء قبل أن يصل إليه، فدائما الإنسان ضعيف التفكير يعيش لحظته، الأضعف يعيش ماضيه، الأعقل يعيش مستقبله، دائماً.

هناك قصة معروفة أرويها لكم كثيراً عن سمكات ثلاث، حينما مر صيّادان تواعدا أن يرجعا ليصطادا ما في هذا الغدير من السمك، قال: في الغدير ثلاث سمكات ؛ كيسةٌ ـ عاقلة ـ وأكيس منها ـ أعقل منها ـ وعاجزة ـ أي بليدة ـ أما أكيسهُن فإنها ارتابت، وتخوّفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ـ اسألني: مَن هو العاقل ؟ هو الذي يحتاط للأمور قبل وقوعها، فأخطر حدث في حياتك ؟ انتهاء الحياة ؛ هناك دراسة، وزواج، وتجارة، وتفليس شركة، وتأسيس شركة، وحَل شركة، وتطليق امرأة، وبيع بيت، وشراء بيت، وشراء مركبة، وبيع مركبة، وسفر، ووظيفة، هناك أحداث كثيرة في حياتك، ولكن أخطر حدث فيها نهاية الحياة، لذلك قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)

(سورة الملك: من الآية 2)

علماء التفسير قالوا: قدّم الله الموت على الحياة، لأن حدث الموت أخطر من حدث الحياة، أنت حينما ولدت هناك خياراتٌ كثيرة، أما حينما يموت الإنسان فإما أن يموت مؤمناً فيستحق جنةً عرضها السماوات والأرض، وإما أن يموت كافراً فيستحق ناراً لا يموت فيها ولا يحيا، أبلغ وصف: لا يموت فيها ولا يحيا، فالخيار إذاً أن تهيئ نفسك لحدثٍ لابد من أن يأتي، وأخطر حدثٍ هو الموت، وأعقل إنسان هو الذي يعمل لهذه الساعة.

أحياناً تجد النعي كُتب، والأهل ذهبوا إلى المقبرة ليشتروا قبراً، وقسم ذهب ليجري معاملات الدفن، وقسم ذهب ليهيئ ما يحتاجه الأهل في هذه المناسبة الحزينة، لكن هل فكر أحدٌ بهذا الميت ماذا يعاني الآن ؟ كيف سيحاسب ؟ كيف سيكون قبره ؟ هل هو روضة من رياض الجنة، أم حفرة من حفر النيران؟ فهذه مشكلة كبيرة جداً.

فهذه السمكة قالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ثم إنها لم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء، من النهر إلى الغدير فنجت.

الأقل عقلاً مكثت في مكانها حتى عادا الصيّادان، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سُد ـ طبعاً الصيادان سدوا الفتحة ـ قالت: فرّطت، وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقلَ لا يقنط من منافع الرأي، ثم أنها تماوتت، فطفت على وجه الماء، أخذها الصياد، وضعها على الأرض بين النهر والغدير فنجت ـ ولكن بعد أن تحطمت أعصابها، وغامرت، وقامرت، وكان يمكن أن لا تنجو.

وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدت.

فالناس ثلاثة، كيّس جداً، وهو الذي يعمل لما بعد الموت، أقلّ عقلاً هو الذي يؤخر التوبة، أما عند المُلِمّة فيتحرك، هذا يتحرك عند المُلمات، عند المصيبة، يتوب، من جامع لجامع، يا رب تبت إليك، تأخرت، أما العاجز فلا قبل المصيبة ولا بعد المصيبة، لذلك من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر، أي أن أكبر مصيبة ألا تتأثر بالمصيبة، معنى ذلك أن الحس ميت، وفيه تلبد، وبُعد، وعمى، وصمم.

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ(18))

(سورة البقرة)

أقول لكم: إذا كان أحدنا ضيّق الله عليه، شدد عليه، ثم سأل نفسه: لماذا أنا كذلك ؟ الله عز وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

معنى هذا أن العذاب هادف، فما الخلل في حياتي ؟ ما التقصير ؟ ما الانحراف ؟ هذا التفكير سليم ؟ إذا جاءت مصيبة، وسألت نفسك: لماذا؟ فالله عز وجل أرحم الراحمين، هذا السؤال جيد، وهذا السؤال تفكير سليم، وإذا اتعظت بشدة ساقها الله إليك، انقلبت هذه الشدة نعمة، لذلك قال بعض العلماء في قوله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان: من الآية 20)

قالوا: **" المصائب هي النعم الباطنة ".**

(وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ(137)وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

الحكمة من بقاء آثار الأقوام السابقة:

الله عز وجل سمح لأقوامٍ أن يشيدوا أبنيةً شاهقة، وشاءت حكمة الله أن تبقى هذه الأبنية، أو أن تبقى أطلالها أو آثارها، ولكن مشيئة الله شاءت ذلك لنتّعظ، فإذا بالناس يتجهون اتجاهاً آخر ؛ يعدونها آثاراً سياحية، يعتنون بها، يجلبون بها العُملة الصعبة، يقيمون حولها المنتزّهات والمقاصف، يتباهون بها والأمر على عكس ذلك، أراد الله عز وجل من هذه الآثار الباقية أن يعظنا أن هؤلاء القوم كانوا أقوياء،

وكانوا أشدّاء، وكانوا متفوقين، ومع ذلك حينما انحرفوا دمّرهم الله عز وجل، أفلا تعقلون ؟! فإذا مررت بآثارٍ لأقوامٍ سَبَقَتْ ينبغي أن تتعظ.

(ثُمّ دَمّرْنَا الْآخَرِينَ(136)وَإِنّكُمْ لَتَمُرّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ(137)وَبِاللّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

وانتقل القرآن إلى قصةٍ ثانية، هي قصة سيدنا يونس:

(وَإِنّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

وَإِنّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ

العوام يقولون: يونِس، هناك ثلاث كلمات بالضم لا بالكسر، يونُس، ويوسُف، وتونُس، أما العوام يقولون: يونِس، ويوسِف، أما هي تنطق: يونُس، ويوسُف.

(وَإِنّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

القصد من القصة المغزى لا التفاصيل:

قصة سيدنا يونس هذا النبي الكريم دقيقة جداً، فيها تفصيلات، وكتب التفاسير مشحونةٌ بالتفاصيل حول هذه القصة، ولكن بادئ ذي بَدء أقول لكم: التفاصيل والجُزئيات في القصة إما أن تكون في خدمة الهدف العام، وإما أن تكون عبئاً عليها، فهذه القصة وردت بهذه التفاصيل أو هذه الكُلِيات، ونحن لا ندخل غُصنا في تفاصيل هذه القصة، ونقرؤها في كتب بني إسرائيل، ونأخذ الأسماء وبعض التفاصيل، ليس هذا هو قصد الله عز وجل، قصد الله عز وجل أن نأخذ المَغزى، القصة لها مغزى، ولها تفاصيل، فمن قرأ التفاصيل وغاب عنه المغزى كأنه ما قرأ القصة.

ومن قرأ القصة، وعرف المغزى، وغابت عنه التفاصيل فهو الذي قرأها، وهو الذي استفاد منها.

نحن إذا قرأنا قصةً يجب أن نبحث عن مغزاها، لأن مغزاها هو محورها، مغزاها هو هدف الذي رواها لنا، الله عز وجل لماذا ذَكَرَ في قرآنه الكريم هذه القصص ؟ الهدف هو المغزى.

نحن لا تعنينا التفاصيل كيف ركب في السفينة، وكيف وقع في البحر، وقع باختياره، ألقى بنفسه، ألقاه رُكّاب السفينة، تفاصيل دقيقة جداً وردت في كتب التفسير، لا يعنينا إلا شيء واحد، هو: أن هذا النبي العظيم أرسله الله إلى قوم نَيْنَوَى في الموصل، هكذا أجمعت كُتب التفسير، دعا قومه ليلاً ونهاراً، سراً إعلاناً، لم يستجيبوا له، فضاق بهم ذرعاً، كأنه شعر أن الله عز وجل لن يقدِّر علي يديه هداهم، فتركهم مغاضباً، هذا التَرْكُ يحتاج إلى معالجةٍ من الله عز وجل:

(وَإِنّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(139)إِذْ أَبَقَ)

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

1 - لا ينبغي للداعية أن يسأم من قومه إذا لم يستجيبوا له:

أبق أي أبى الانصياع لمهمته، مهمته أن يبقى معهم، هذا تعليم لنا، فالإنسان إذا دعا إلى الله وما رأى استجابة، لا ينبغي أن يسأم، لا ينبغي أن يمل، لا ينبغي أن يتضَجَّر، لا ينبغي أن يقول: هؤلاء ليس فيهم خير سأتركهم، ما لي ولهم، لا شأن لهم عندي، هذا موقف لا يليقُ بالدعاة إلى الله عزّ وجل، الدعاة إلى الله يحتاجون إلى نفَسٍ طويل، وإلى صبرٍ شديد، فسيدنا يونس:

(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

2 - إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ:

الفُلك هي السفينة، المشحون المليئة بالركاب، فقد ضاقت نفسه وسئم دعوة قومه، فالحقيقة من ذاق عرف، ما من شيءٍ أصعب في حياة الإنسان من أن تدعو إنساناً، وهو معرض عنك، تدعوه، وهو مكذبٌ لك، تدعوه وهو منتقدٌ لك، تدعوه، وهو يدير لك ظهره، تدعوه، وهو يسخر منك، شيء صعب، فأصعب عمل أن تُعَلِّم أناسا لا يحبون العلم، أصعب عمل أن تدعو أُناساً أنت في وادٍ، وهم في وادٍ آخر، أصعبٍ شيء في الحياة أن تقبل على شخصٍ لا يقبل عليك، أن تهتم بإنسان لا يهتم بك، أن تكلِّم إنساناً لا يُصغي لك، هذا شيء صعب جداً، وشيء مؤلم جداً، وشيء يدعو للسأم والضَجَر، ومع ذلك النبي عليه أن يتحمل، لأن الأجر كبير جداً، الأجر عظيم، هو يقرض الله قرضاً حسناً، فسيدنا يونس مر بتجربة أنه ضجر من قومه، وسئم صدّهم، وتكذيبهم، وسخريتهم، وعدم استجابتهم، فتركهم، وتوجّه إلى مكان آخر.

(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

فهو لم يؤمر أن يتركهم، هو تركهم، لم يؤمر أن يتركهم، النبي أُمر بالهجرة أمراً، كل حركات النبي علي الصلاة والسلام كانت بأمرٍ من الله عز وجل، هو غادر قومه دون أن يأخذ إذناً من الله عز وجل، دون أن يأمره الله بمغادرتهم.

(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

الفُلك مليء بالركاب.

(فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ)

فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ

هناك روايات كثيرة جداً: أنه هبت عواصف عاتية كادت أن تغرق هذا المركب، فاستهموا فيمن يلقي بنفسه تخفيفاً، وهذه الرواية ردّها بعض المفسرين، أو أنه قال: أنا السبب، أو أنا المذنب، فأريد أن أترككم حتى ينجو القارب، هناك رواياتٌ كثيرة، الذي يعنينا أنه شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يقع هذا النبي الكريم في البحر، ألقى بنفسه، ألقوه، اقترعوا على من يكون فداءً لهذه السفينة، هو ظن أنه هو المذنب، رواياتٌ كثيرة، لكن الشيء الثابت أنه ساهم بقرعةٍ، فوقعت عليه، فألقى نفسه في اليَم، فكان من المدحضين، أي حجته داحضة، كان مغلوباً على أمره..

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ

1 ـ من عظُمت عنده مشكلتُه فليذكر مصيبة سيدنا يونس:

هذه القصة أرويها لكم كثيراً: إذا ضاقت على الإنسان الدنيا، بمشكلة بعمله، بصحته، ببيته، بأسرته، أعتقد ما من مشكلة أصعب من أن يجد نفسه في بطن الحوت، مهما ضخّم مشكلته، لا يجد عملاً ودخلاً، الزواج ميئوس منه، زوجته سيئة جداً، إن طلقها عنده منها أولاد، يخاف ضياعها، ولا يتحمل معاشرتها إن أبقاها، وهو يظن أن هذه أكبر مشكلة في العالم.

لكن سيدنا يونس رأى نفسه فجأةً في بطن الحوت، في ظلمة بطن الحوت، الحوت معروف، الحوت تقريباً يزن حوالي مائة وخمسين طناً، الحوت الأزرق، فيه خمسون طنًا من الشحم، وخمسون طنًا من اللحم، وتسعون برميلا زيتًا، أرقامه مذهلة، ومرة جرّ حوت سفينةً ثمانية وأربعين ساعةً، وهي تُعمل محركاتها بعكس اتجاهه، ولم تفلح في الخلاص منه، سفينة ضخمة، ثمة غرفة، فجأةً رأى نفسه في بطن الحوت.

كلما ضاقت بالإنسان الأمور ليذكر هذه القصة، مهما بلغت المصيبة ليست أشد من أن تكون في بطن الحوت، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل، وإذا أراد الإنسان أن يعرف ما معنى البحر في الليل، ليركب من طرطوس لجزيرة أرواد في الليل فقط، البحر في الليل موحش جداً، ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، ولكن دائماً يجب أن تشعر أن الله عز وجل لما يعالج إنساناً فمثله ـ ولله المثل الأعلى ـ مثل الأب يمسك ابنه من يده، ويقربه من الساقية، يخاف الابن، لكن

رحمة الأب، وحرص الأب على سلامة ابنه، هي أشد بكثير من الخطر الذي يراه ماثلاً أمامه، ربنا يعالجنا جميعاً، ولكن لا يتخلى عنا، يعالجنا بالمرض، ثم يشفينا، يعالجنا بالفقر، ثم يغنينا، بالخوف، ثم يطمئننا، فإذا وقع الإنسان بحرج، بمشكلة فله في هذا النبي الكريم أسوةٌ حسنة..

(فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ(141)فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

2 - معنى: وَهُوَ مُلِيمٌ

أي أنه أتى بعملٍ يلام عليه، لأنه غادر قومه قبل أن يأذن الله له، ضجر منهم.

أحياناً الواحد يتكلّم مع شخص كلمتين فينفر منه، ويبتعد عنه، عيشة الفهيم مع البهيم داء دفين، لا يتحمل.

على كلٍ، لا ينبغي أن نشغل بتفاصيل وقوعه في البحر، شاءت مشيئة الله أن يقع في البحر، قرعة، بغير قرعة، ألقوه، ألقى نفسه، مهما شئتم هذه التفاصيل لا تعنينا، يعنينا أن الله أراد له أن يقع في البحر، وإذا شاء الله شيئاً فلابُدّ من أن يقع، كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع.

إذا كانت وجبة الحوت المعتدلة أربعة أطنان، فماذا يفعل سيدنا يونس معه، فهو كالسمسمة بين أسنانك، لقمة، بل أقلّ من لقمة، إذا رضعته الواحدة ثلاثمائة كيلو، يحتاج ثلاثة رضعات في اليوم، أنثى الحوت ترضع وليدها ما يقرب من طن حليب يومياً، فلذلك الله قال:

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

أي أتى بعملٍ يُلام عليه، الله عزّ وجل وصف النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

(فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)

(سورة الذاريات: من الآية 54)

لست ملوماً عندنا يا محمد، ولست ملوماً عند الخَلق، ولا عند نفسك.

الواحد منا طوال حياته يلوم نفسه: لماذا قلت ذلك ؟، لماذا فعلت كذا، لمَ لمْ أعطه ؟ لمَ ضيّقت عليه ؟ لمَ تأخّرت ؟ كل حياته لوم، والله أثنى على النفس اللوامة، أثنى عليها فقال:

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(1)وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(2))

(سورة القيامة)

ولكن النبي عليه الصلاة والسلام في كل حياته ما أتى بعملٍ يُلام عليه، الأنبياء مراتب..

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

أهميةُ المعالجة الربانية:

لكن هناك نقطة دقيقة جداً، فالمؤمن لا تضره معصية، بمعنى أنه إذا خالف الأولى وعاتبه الله، عاد إلى الله مباشرةً، فهو كثير التوبة، كثير الأوبة، أوّاب، توّاب، وقّاف عند كتاب الله، كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون، فالنبي وحده معصوم، أما أمته فخطاءة ؛ لو أن الإنسان غلط بكلمة، بتصرف، بنظرة، فباب التوبة مفتوح، والإنسان المؤمن كثير الأوبة، كثير التوبة، كثير الرجوع، والله عزّ وجل لا يتخلى عن المؤمن، وإذا عالجك الله عزّ وجل فهذا من علو مقامك عند الله، لأن من الناس من هو خارج الاهتمام الإلهي..

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(36))

(سورة هود)

حدثني أخ له قريبان، أصيب قريب بمرض عُضال، جئ بطبيبٍ صديق العائلة، فهذا الطبيب كلما سأله أهل المريض ماذا يأكل ؟ يأكل ما يشاء، هل نعطيه هذا الدواء ؟ أعطوه أي دواء يحبه، تساهل عجيب، يبدو أن الطبيب كان يائساً من شفائه، خرج هذا المريض عن دائرة الشفاء، فلذلك كل شيء مباحٌ لهذا المريض.

هذا الأخ الكريم، الطبيب نفسه، مع مريضٍ آخر من الأسرة، أصيب بمرض في أمعائه، فرآه متشدداً غاية التشدد، أعطاه قائمة بالممنوعات، والمسموحات بمقادير محددة، والأدوية بمواقيت، زارهم مرة ثانية، خالفوا التعليمات قليلاً، أقام الدنيا ولم يقعدها ـ الطبيب نفسه ـ لماذا كل هذا التساهل مع الأول، وكل هذا التشدد مع الثاني ؟ الثاني ضمن دائرة الشفاء والعناية المشددة.

فأحدنا أيها الإخوة، إن رأى أن الله جل جلاله يعالجه، ويتابعه، ويحاسبه حساباً دقيقاً ليفرح، هذا دليل أن الله عزّ وجل يريد أن يتوب عليه، يريد أن يطهّره، هذا الصحابي الذي سأل النبي أن يدعو له، قال: " اللهم ارحمه "، **فقال الله عز وجل: " كيف أرحمه مما أنا به أرحمه، وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه ".**

إذا رأينا ربنا جلّ جلاله يتابعنا، ويضيّق علينا، ويحاسبنا على كل نظرةٍ، وعلى كل خطرةٍ، وعلى كل زلةٍ، فهذا من نعم الله علينا، معنى ذلك أننا مطلوبون، وأننا ضمن العناية الإلهية، أما إذا أعطانا الدنيا، ولم يعالجنا، فهذه إشارةٌ لا تُرضي إطلاقاً، إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره.

سيدنا يونس نبيٌ كريم، نبيٌ عظيم، الله عزّ وجل يحبه، لكن ترك الأولى، فجاء العلاج، ثم اجتباه..

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ)

فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

نادى في الظلمات.

(أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87))

(سورة الأنبياء)

قالوا: الثناء على الله دعاء، والدليل هذه الآية:

(أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87))

اعترف بذنبه، والمعترف بالذنب كمن لا ذنب له، والثناء على الله دعاء، أحياناً يكون شخص، لك عنده حاجة، إذا قلت له: أنت إنسان كريم، أنت عظيم، أنت رحيم، هذه الأوصاف دعوةٌ مُبَطَّنَةٌ بالعطاء.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ)

أنا وقعت بأمرك يا رب، ارفض الجزئيات والتفاصيل، شاءت حكمة الله أن يقع في البحر، وأن يلتقمه الحوت، وفي الظلمات تذكر الله عزّ وجل.

بالمناسبة: المؤمن إذا وقع يذكر الله عز وجل، أما غير المؤمن فلا يتذكر شيئاً، يتذكر زيداً وعُبيداً، ويهتف طالباً النجدة منهم، لا تذكر إلا الله، لأن الله عزّ وجل معك، يسمعك، ويستجيب لك، قال:

(فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ(143)لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

وانتهى..

(فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ)

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ

الله عز وجل استجاب له، وكشف عنه الغم، والحوت ألقاه في البر، نحن لا نعلم الكيفيّة..

(وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ)

أصابته التهابات في الجلد، وجروح، الله عزّ وجل أنبت عليه شجرة كانت شفاءً له.

الشاهد هنا:

وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا

(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)فَآمَنُوا)

كلُّهم..

(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ

استنباطٌ مهمّ:

في الآية استنباط دقيق جداً، إذا آمن الإنسان، واستقام، واصطلح مع الله عزّ وجل، فله بشارة بهذه الآية، أنه يمتِّعه إلى حين، إلى حين انقضاء أجله، أي أن الله عز وجل يعالجك لفترة، ويمتحنك لفترة، ثم يعطيك لفترة.

2 ـ أطوار المعالجة:

حياة الإنسان فيها أطوار ثلاثة، قبل أن يؤمن معالجات، فإذا آمن ابتلاءات، فإذا استقر إيمانه إكرام، فترة المعالجة، الفترة الثانية ابتلاء، الثالثة إكرام..

(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

فلذلك إذا مر الإنسان بالطور الأول لينتظر الثاني، وإن مر بالطور الثاني فلينتظر الطور الثالث.

ففي حياتك فترة إكرام، تستقر حياتك النفسية، تشعر بالسعادة، بالهدوء، بالراحة، هذه فترة الإكرام، قبلها الامتحان، قبلها المعالجة، فإذا استجاب الإنسان إلى الله سريعاً تقصر المعالجة، وإذا امتحنه مرةً، وثانية، وثالثة، وكان في كل مرةٍ صادقاً..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ)

(سورة الأحزاب: من الآية 23)

تقصر أيضاً مدة الامتحان، وتطول فترة الإكرام، فالله عز وجل قال:

(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

أي أبى البقاء عند قومه، ضجر منهم، ولم يؤمر بتركهم، خالف الأولى، فعالجه الله عز وجل، ثم نجّاه إلى البر، ثم عالج جسمه، ثم عاد كما كان..

(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)فَآمَنُوا)

به جميعاً، واستجابوا له..

(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

أسعد إنسان هو الذي إذا دعا إلى الله استجاب الناس له، وآمنوا بدعوته، فكان سبباً لهدايتهم، وهذا من إكرام الله له، فأعظم عمل هو من صنعة الأنبياء أن تكون سبباً في هداية الخلق، أن تكون سبباً في دلالة الخلق إلى الحق جل جلاله.

وفي درسٍ قادم إن شاء الله ننتقل إلى بقية الآيات في سورة الصافات.

المغزى من قصة يونس عليه السلام:

وقبل أن ننهي الدرس، هذه القصة قصة يونس:

أول مغزى: أن كل الناس مدعون إلى الهدى، وأن الله خلقهم جميعاً ليرحمهم وليسعدهم، هذه أول نقطة.

الثاني: أن الإنسان إذا دعا إلى الله عليه أن يصبر، وعليه أن يستمر، وأن يثبت، لأنه إذا تخلّى عن دعوته أدّبه الله عزّ وجل.

الثالث: الإنسان يمر بمرحلة معالجة، ومرحلة ابتلاء، ومرحلة إكرام.

الرابع: أن الإنسان إذا أصابته مصيبة ليذكر مصيبة هذا النبي العظيم، وقد وجد نفسه فجأة في بطن الحوت، وكيف أن الله لا يتخلّى عن المؤمنين إطلاقاً.

وتصوّر هذا المثل: أب حمل ابنه من يده وقرّبه من الماء، فبكى، ثم أعاده، عملية إيقاظ، عملية تنبيه، عملية حَفْز، فربنا عزّ وجل يعالجنا جميعاً، والمؤمن كما قلت: لا تضره معصية، لأنه إذا عصى أو خالف أو قصّر يذكر رحمة الله عز وجل، فيتوب إليه، الكافر معصيته ثابتة، أما المؤمن فكثير التوبة، يتوب منها فوراً، وإذا آمنت، واصطلحت مع الله، واستقمت على أمره، يُمَتِّعَكَ في الدنيا متاعاً إلى حين.

هناك آية أخرى تؤكِّد ذلك:

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(36))

(سورة البقرة)

فهذه الدنيا على قصرها إذا اصطلحت مع الله، جعلها الله لك متعةً، وأسعدك فيها، لأنك امتحنت فصبرت، عولجت فاستجبت، امتحنت فنجحت، بقي الإكرام، لهذا قال تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

حتى المؤمن لما يصطلح مع الله، ويمتحنه الله، وينجح يرفع الله شأنه، صار له شأن ؛ بين أهله، بين عشيرته، بين جيرانه، بين زملائه، له قيمة.

كل الذي أتمناه على الإخوة الأكارم أن تكون هذه القصص نبراساً لهم، أن تكون مناراتٍ لهم في طريق الحياة، فالمصيبة الذي ساقها يذهبها، والذي قدّرها يُقَدِّرَ محوها، والذي أرسلها يصرفها عنك، فالأمل كان بالمائة صفرا أن ينجو من بطن الحوت ؛ ولكنه نادى في الظلمات:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

(سورة الأنبياء)

وأروع ما في القصة:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

فالكلام لنا كلنا، كلنا معنيٌ بهذه الآية:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

فأنت اعتصم بالله، واستعن به، ولا تعص أمره، ولا تترك الأولى.

أنا أعرف أشخاصاً عديدين كانت لهم دعوةٌ إلى الله، زهدوا بها، وآثروا الدنيا عليها، فدمّرهم الله عزّ وجل، والله أعرفهم بالأسماء، له دعوة، له مريدون، له إخوان، جاءته فرصة بارقة، فترك الدعوة، وآثر الدنيا عليها، فذهبت دنياه عن آخرها، التي آثرها على الدعوة إلى الله عزّ وجل، أيضاً هذه ملاحظة.

يكون الإنسان مقيماً ببلد، له مجلس علم، له إخوان، له ترتيب، وهو سبب لهداية سبعة أو ثمانية، يأتيه عرض خارجي يترك رأساً، فهؤلاء إخوانك، وأنت تعلمهم، تهذِّبهم، توجههم، أنت سبب هدايتهم، تركتهم ومشيت.

هذه القصة تعني كل واحد منا، إذا أقامك الله في دعوةٍ إليه فلا تؤثر عليها الدنيا، إذا أقامك الله في دعوةٍ، ولو كان خمسة أشخاص فلا تؤثر عليها راتباً ضخماً، ولا منصباً رفيعاً، آثر مرضاة الله عزّ وجل فتأتيك الدنيا وهي راغمة، ولا تنسَ الحديث القدسي:

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[كنز العمال عن جابر]

أحياناً يستنبط من الإنسان تصرُّفات ربنا عز وجل ؛ أن الله عزّ وجل لا يريد ذلك، أقامك بدعوة، أطلق لسانك، دعا الناس إليك، استفادوا منك، هكذا يأتيك راتب مغرٍ خارج القطر، فتترك الدعوة كلها

وتمشي، عندئذٍ يؤدّبك تأديباً شديداً، وقد يذهب الله دنياك التي آثرتها على آخرتك، فإذا أقام الله الإنسان كلفه بأمر فليكن خادماً للخلق، إذا أقامك بالدعوة إليه، فهذا أرفع منصب تناله في الدنيا والآخرة.

هذه القصة أمامنا، سيدنا يونس ضجر منهم، ترك الأولى فالتقمه الحوت، لا يهمني كيف التقمه، يهمني أنه التقمه، شاءت مشيئة الله أن يلتقمه فلما نادى في الظلمات، واستغفر، وأناب واعترف بذنبه..

(إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87))

الله عزّ وجل على الرغم من أن المصيبة كبيرة جداً أنجاه منها، الحوت نفسه نبذه في العراء، والله عالجه بهذه الشجرة التي ذكرها الله عزّ وجل، وبعد ذلك عاد إلى قومه داعيةً، ودعا مائة ألفٍ أو يزيدون، وآمنوا به جميعاً..

(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

إذا استجبت في طور المعالجة، توقفت المعالجة، وإذا نجحت في طور الامتحان توقف الامتحان، بقي الطور الثالث وهو الإكرام.

(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

هذه آياتٌ كريمة خالدة، فهذا ما يفعله الله بعباده في كل عصر وفي كل مصر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (13-14): تفسير الآيات 149 - 163
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-11-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثالث عشر من سورة الصّافّات، ومع الآية الثامنة والأربعين بعد المائة، يقول الله جلّ جلاله:

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(149)أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ(150)أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَاصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154)أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(155))

مقدمة:

1 ـ العقل قوام الإنسان:

بعد أن بيّن الله جلّ جلاله في الآيات السابقة قِصَصَ عددٍ من الأنبياء والمُرسلين، وكيف وقفوا موقف الدعاة إلى الله عزّ وجل، وكيف تلقّوا من أقوامهم التكذيب والسخرية، وكيف أن الله جلّ جلاله نصرهم على أعدائهم، وكان الفوز في النهاية لهم، ينهي ربنا هذه السورة بهذه المناقشة المنطقيّة.

وقبل أن نمضي في تفسير هذه الآيات بفضل الله جلّ جلاله، لابدّ من كلمةٍ حول قِوام الإنسان، وهو عقله، ومن لا عقل له لا دين له، ومن لا دين له لا عقل له، و..

((إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما، ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد، وما قسم الله لخلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين))

[من كنز العمّال عن طاووس مرسلا]

وما خلق الله خلقاً أحبّ إليه من العقل، لأن العقل كما قال الإمام عليّ رضي الله عنه: **<< العقل أصل الدين >>**، لأنك إذا عقلت استسلمت، وإن استسلمت سعدت، دائماً أحبُّ أن أُلخِّص الدين بكلماتٍ ثلاث: إدراكٌ، سلوكٌ، سعادة، لن تستطيع أن تستسلم، لن تنصاع لأمر الله عزّ وجل، لن تستسلم له، لن تطيعه، لن تحبّه إلا إذا عرفته، وطريق المعرفة العلم، لذلك:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك]

2 - العلم طريق إلى الله:

الله جلّ جلاله هو المقصد النهائي، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، وما دام الله جلّ جلاله هو المَقْصِدُ والمَطْلَب، إذاً أخطر شيءٍ في هذا الموضوع الطريق إليه، ما دام هو المقصد، هو المطلَب، هو الهدف، هو المراد، إذاً أخطر شيءٍ بعد هذا المَطْلَب الطريق إليه، الطريق إليه هو العلم، قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)

(سورة محمد: من الآية 19)

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: من الآية 11)

والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّك.

في الكون حقيقةٌ، هي كل شيءٍ في الكون، هذه الحقيقة هي الله عزّ وجل، فأخطر شيءٍ بعد هذه الحقيقة الطريق إليه، الطريق إليه هو العلم، فحجمك عند الله بحجم عملك.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف: من الآية 19)

وحجم عملك بحجم علمك.

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: من الآية 11)

تتعلّم، تعمل، تسعد، إذاً: فيما يبدو أن أول خطوةٍ في طريق الإيمان خطوة العلم بالله عزّ وجل، بعد العلم بالله تأتي الطاعة، تأتي الاستقامة، يأتي العمل الصالح، بعد الطاعة والاستقامة والعمل الصالح تأتي السعادة في الدنيا والآخرة، وأداة العلم العقل، العقل أداة معرفة الله ومناط التكليف، وإذا أخذ الله ما أوهب أسقط ما أوجب، والنبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة جداً حدّثنا عن قيمة العقل، وقد لا تصدِّقون أن في القرآن الكريم ما يقرُب من ألف آية تتحدّث عن العقل، وعن الفكر، وعن المحاكمة، لذلك ربنا عزّ وجل حينما قال:

(فَاسْتَفْتِهِمْ)

فَاسْتَفْتِهِمْ

1 - لابد من المحاكمة العقلية:

أي أين عقلك ؟ أين محاكمتك ؟ أين هذه الجوهرة الثمينة التي وهبك الله إيّاها ؟ لماذا تعطِّلها ؟ لماذا تحقرها حينما تعملها في أهدافٍ سخيفة ؟

الإنسان أيها الإخوة حتى لا تستهلكه الحياة، حتى لا يكون من عمل إلى عمل، من لقاء إلى لقاء، من صفقة إلى صفقة، من طور إلى طور، ثم يُفاجأ أن ملك الموت يطرق عليه الباب، ويقول له: تفضّل معنا، لئلا يكون الموت حدثاً صاعقاً، يجب أن يكون للإنسان مع نفسه جلسات تأمّل، فلو فرضنا أن الإنسان كان في غيبوبة، كان مخدّراً، كان في حالة إغماء، فاستيقظ ورأى نفسه في قطار، والقطار متحرّك، أليس هناك سؤالٌ خطيرٌ جداً: لماذا أنا في هذا القطار ؟ وإلى أين يسير القطار؟ وأين محطّته الأخيرة ؟ ومن أيّة محطّةٍ انطلق ؟ ما هذا القطار ؟ قطار من؟ ومن أنا ؟

و حينما خُلِقَ الإنسان في هذه الدنيا، وحينما أدرك، وجد نفسه كائناً متحرّكاً، في مدينة، له أب، له أم، ألا ينبغي أن يسأل: مَن خلقني ؟ ولماذا خلقني الذي خلقني ؟ ولماذا جعلني في الدنيا ؟ وماذا بعد الدنيا ؟ هذا الذي يعطِّل فكره تستهلكه الحياة، وينتهي أجله عندئذٍ يَقْدمُ على الآخرة صفر اليدين، عندئذٍ ينطبق عليه قوله تعالى:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(26))

(سورة الفجر)

فلا يوجد إنسان بحكم أنه نشأ في بلاد إسلاميّة، واستمع إلى خطبٍ كثيرة، وإلى دروس، وقرأ، والتقى، وجلس، وسافر، هناك في مخيلته مجموعة تصوُّرات عن الدين، بعد أن أدرك هذا الإنسان سنّ الرُشد، بعد أن أكرمه الله بالمعرفة ينبغي أن يراجع كل هذه التصوُّرات، بعضها صحيح، وبعضها غير صحيح.

الشيء الذي يَلفت النظر أن هناك أناساً على درجة عالية من الثقافة، أو على درجة عالية من الذكاء، ومع ذلك يعتقدون اعتقاداتٍ فاسدة، عندهم تصوُّرات غير صحيحة.

هذا كلام الله بين أيدينا، هذا هو المقياس، هذا هو الحق المبين، هذا هو الصراط المستقيم، هذا هو حبلُ الله المتين، هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلذلك ينبغي أن نتمسّك به، وأن نجعله مقياساً لكلّ ما نعتقد، أن نجعله مقياساً لكل ما نتصوُّر، تصوُّراتنا، اعتقاداتنا، فلسفتنا، قيمنا، يجب أن نَزنها بهذا الكتاب، فهناك في الجاهليّة من يعتقد أن الله سبحانه وتعالى اصطفى البنات على البنين، هناك من يعتقد أن الله ولدَ البنات..

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ)

(سورة النحل)

هو يكره البنات، ويقول: الملائكة بنات الله، عزا إلى الله شيئاً يكرهه هو، هذه..

(قِسْمَةٌ ضِيزَى(22))

(سورة النجم)

ربنا عزّ وجل في هذه الآية يدعونا إلى التفكّر، يدعونا إلى المُحاكمة، الإنسان من حينٍ لآخر ينبغي أن يجلس مع نفسه ليتأمّل، هذا الكون معجز، هذا الكون لابدّ له من خالق، لابدّ له من مربٍ، لابدّ له من مسيّر، لابدّ من هدفٍ كبير خُلقت من أجله، لابدّ من مهمّةٍ خطيرة أرسلك الله إليها، لابدّ من أن تنتهي الحياة، لابدّ من أن تعرف من الذي خلقك، من الذي أوجدك، فكأن هذه الآيات تدعونا إلى التفكّر..

(فَاسْتَفْتِهِمْ)

اسألهم، الله عزّ وجل زوّد الإنسان بقوّةٍ إدراكيّة، زوّده بعقل، هذا العقل في أدقّ تفاسيره أنه لا يفهم شيئاً حوله إلا بسبب، ولا يفهم شيئاً حوله إلا بغاية، وهناك أمثلة كثيرة، أيعقل أن يخرج إنسان من بيته لنزهة طويلة، وقد قَطَعَ الكهرباء عن البيت، يعود إلى البيت فيرى مصباحاً متألِّقاً، ويبقى ساكتاً ؟ لا يضطرب ؟ لأن عقله يقول له: لا يمكن أن يتألّق المصباح إلا بفاعل، وبسبب، إذاً: هناك من دخل البيت، هذا هو العقل، فأنت لا تقبل أن يتألّق المصباح في غيبتك، أتقبل أن كوناً عظيماً بسماواته، بأرضه، بما في الأرض من نباتات، بما فيها من حيوانات، بما فيها من مخلوقات لا تُرى ـ كالجراثيم والفيروسات ـ بما في تحت الأرض، بما في فوق الأرض، كل هذا من غير شيءٍ ؟

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ(35))

(سورة الطور)

2 ـ لا تكن آلةً متحركة:

أخطر شيء في الحياة أن يصبح الإنسان آلة متحرّكة، والمدنيّة الغربيّة من مشكلاتها الخطيرة أنها تجعل الإنسان آلة، ولا سيما حينما تُبْنى المصانع على خطوط عمل، كل عامل له حركة بسيطة يقوم بها، فالإنسان حينما يُخْتَصَر عمله إلى حركةٍ بسيطة يصبح كالآلة، ويُعْطّل فكره، فالإنسان لابدّ له من ساعات تأمّل..

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس: من الآية 101)

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ: من الآية 46)

إذاً: لابدّ من جلسة تفكّر، لابدّ من جلسة تأمُّل، لابدّ من سؤال، لابدّ من جواب، لابدّ من محاكمة، لابدّ من حوار، وحينما يعتقد الإنسان اعتقاداً صحيحاً يتحرّك حركة صحيحة، وحينما يعتقد اعتقاداً صحيحاً يوقع سلوكه وَفْقَ اعتقاده، وهنا تكمن ميزة الإنسان.

إذا قرأ الإنسان هذه الآية يشعر أن الله يدعونا إلى أن نحاكم، إلى أن نفكِّر، يدعونا إلى استعمال العقل.

(أَفَلا تَعْقِلُونَ(138))

(سورة الصافات)

(أَفَلا يَنْظُرُونَ)

(سورة الغاشية: من الآية 17)

(أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ(50))

(سورة الأنعام)

(قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ(3))

(سورة الأعراف)

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(6))

(سورة الزمر)

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154))

(سورة الصافات)

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

الآيات التي تتحدَّث عن العلم والعقل والتفكّر والمحاكمة تقترب من ألف آية في القرآن الكريم، وكما قلت قبل قليل: قوام المرء عقله، وسيدنا عمر بن عبد العزيز كان إذا دخل مجلس الخلافة يتلو قوله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207))

(سورة الشعراء)

الإمام الغزالي ناقش نفسه ذات مرّة، قال: **" يا نفس، لو أن طبيباً منعكِ عن أكلةٍ تحبينها، لا شكّ أنك تمتنعين، يقول لنفسه: يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟! ".**

الله عزّ وجل منعك عن أكلات، منعك عن شهوات معيَّنة، منعك عن معاصٍ كثيرة، ألا تستحي من الله تتبع نصيحة الطبيب بحذافيرها، ولا تتَّبع توجيه الله عزّ وجل في قرآنه ؟

قال: **" يا نفس لو أن طبيباً منعكِ عن أكلةٍ تحبينها، لا شكّ أنكِ تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟! إذاً ما أكفركِ، أيكون المرض أشدّ عندكِ من النار ؟ إذاً ما أجهلكِ ".**

هذه المناقشة التي أجراها الإمام الغزالي تُبَيّن أن الإنسان إن لم يطع الله عزّ وجل فهو مدموغٌ إما بالكفر، أو بالجهل، إما جاهل أو كافر، وإذا كان الطبيب أصدق عندك من الله فهذا هو الكفر بعينه، وإذا كانت جهنّم أهون عندك من المرض فهذا هو الجهل بعينه.

إذاً يدعونا ربنا إلى إجراء محاكمةٍ عقليّة، الصحابة الكرام حينما آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام أجروا محاكمةً عقليّة، سيدنا خالد عندما أسلم ـ أسلم متأخّراً ـ النبي عليه الصلاة والسلام قال له كلمةٍ دقيقةً جداً، ولها مدلول خطير، قال: " يا خالد عجبت لك، أرى لك فكراً "، أي لماذا تأخّرت حتّى الآن ؟ مثلك ينبغي أن يكون سَبّاقاً إلى الإيمان، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام رَبَطَ الإيمان بالعقل، ولذلك ورد عنه صلّى الله عليه وسلّم:

((أن أرجحكم عقلاً أشدُكم لله حبّاً))

[ورد في الأثر]

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)

أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ

هكذا على مزاجهم، هكذا وفق أخيلتهم، وفق أوهامهم، البنات لله عزّ وجل وهم يكرهونها، والذكور لهم وهم يحبُونهم..

(أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(149)أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ

1 ـ ما أشهدَ اللهُ على خَلقه أحدا:

هل كانوا معي حينما خلقت السماوات والأرض ؟ الله جلّ جلاله يقول:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الكهف: من الآية 51)

ما كانوا معي.

وضّحت هذه الآية سابقاً بمثل: إنسان في السبعين من عمره يجلس مع أصدقائه، كان قد استلم محلاً، استلم محل بسوق الحميديّة سنة الأربعين، سنة الخمسين تزوّج، جاءه ولد، قال لأصحابه: أنا استلمت المحل بثلاثين ألفا منذ أربعين سنة، فقال الابن، وهو يجلس معه: لا، هذا غلط يا أبي، فنظر إليه الأب

وقال: أنت هل كنت في ذلك الوقت ؟ أنت لم تكن، انتهى الأمر، هل كنت معي وقتها ؟ لم تكن مولوداً ؟ الله عزّ وجل قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الكهف: من الآية 51)

أوهامهم، تصوُّراتهم عند بدء الخليقة، عن آدم، عن الملائكة، عن الجن، ما كانوا وقتها ـ و

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ)

2 ـ الغيبيات أساسها النصُّ:

أنا أخبرتكم، هذه الموضوعات المتعلِّقة بالماضي السحيق، أو الموضوعات المتعلِّقة بالمستقبل البعيد، أو الموضوعات المتعلِّقة بما غاب عنّا كعالَم الجِنّ والملائكة، أو الموضوعات المتعلِّقة بذات الله عزّ وجل، هذه موضوعات ما كان للإنسان أن يُحَكِّمَ بها عقله، أنت لم تكن في وقتها، إما أنك لم تكن، أو إنّك لا تملك المؤهِّلات كي تحكم بهذا الموضوع، هذه موضوعات إخباريَّة، موضوعات سمعيَّة، فأن تقول: الملائكة إناث، والله عزّ وجل ولَدَ الملائكة، فمن أمُّهم ؟ قال سيدنا الصديق: " من أمُّهم ؟ " هذا كلام سيدنا الصديق وقد ورد في بعض التفاسير، فهذه كلُّها أوهام، وأباطيل.

هذا كلام دقيق جداً، الإنسان بعقله الذي أكرمه به الله عزّ وجل، وأودع فيه هذا الجهاز العظيم، بهذا العقل يصل إلى الله وجوداً، ووحدانيَّةً، وكمالاً، وبهذا العقل يصل إلى الإيمان بالقرآن الكريم، كلام الله عزّ وجل، وبهذا العقل يصل إلى الإيمان بمن جاء بهذا القرآن ـ بالنبيّ عليه الصلاة والسلام ـ والقرآن أخبرنا عن أشياء كثيرة لا يستطيع العقل أن يدركها ؛ أخبرنا عن الماضي، أخبرنا عن المستقبل، أخبرنا عن ذاته، أخبرنا عما غاب عنّا، فذات الله، وما غاب عنا، وما سبقنا، وما سيأتي، فهذه موضوعات لا يمكن أن تخضع للعقل، لأن العقل لا يملك وسائل التحقُّق منها، إلا أن الله جلّ جلاله أخبرنا بكلامه المُنَزَّل على النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا الأمر كذا، وهذا الأمر كذا، فربنا يقول:

(أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)

أكانوا مع الله حينما خلق الملائكة ؟

(أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ)

أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

من كذبهم، وافترائهم..

(أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(151)وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ(2)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(3)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4))

(سورة الإخلاص)

الله عزّ وجل واجب الوجود، وهناك أشياء مستحيلة الوجود، وأشياء ممكنة الوجود، وما سوى الله ممكن الوجود، الله جلّ جلاله واجب الوجود، نقيض أسمائه وصفاته مستحيلة الوجود..

(أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

سؤال: كيف يتوازن الإنسان ؟ كيف يستطيع أن ينام ؟ يستطيع أن يطمئن ؟ كيف يُحس بالراحة والطمأنينة وهو مقيم على معصية ؟ أو هو لا يدري من هو ؟ لا يدري كيف خُلِق، ولماذا خُلِق ؟ وإلى أين المصير ؟ هذه أسئلة خطيرة جداً، إن لم تجب عنها كيف ترتاح ؟ كيف تطمئن ؟ كيف تتوازن ؟

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

فأنت ماذا فعلت بعقلك ؟ أفمن المعقول لإنسان يكون معه جهاز من أدق الأجهزة لكشف العملة المزيَّفة، ويقبض عملة مزيَّفة بمئات الألوف أو بالملايين، والجهاز في جيبه ولا يستخدمه ؟ وحينما يكتشف في ساعةٍ حرجة أن كل هذا النقد الذي بين يديه نقدٌ مزيَّف ولا قيمة له، عندئذٍ يُصْعَق، ماذا يقال له ؟ يقال له: معك جهاز، فلمَ لمْ تستخدمه ؟ أين جهازك ؟ أين الجهاز الذي أودع معك من أجل كشف النقد المُزَيَّف ؟

دعوة الإسلام متوافقة مع العقل السليم والفطرة السليمة:

والإنسان عنده موازين عدة ؛ ميزان الفطرة، وميزان العقل، وميزان النقل، وميزان الواقع فهو لا يقبل فكرةً قبولاً ساذجاً، دون أن يمحصها، دون أن يزنها بميزان الشرع، دون أن يزنها بميزان المَنطق، بميزان الواقع، بميزان الفطرة، وكل فكرة فاسدة، أو اعتقاد فاسد، أو وهم فاسد يرده، ولا يرضى به.

يقول أحد العلماء: **" الشريعة عدلٌ كلُّها، مصلحة كلُّها، رحمة كلُّها، فأية قضيّةٍ خرجت من العدل إلى الجَوْر، من المصلحة إلى المفسدة، من الرحمة إلى ضدِّها، هذه القضيّة ليست من الشريعة، ولو أدخِلَت عليها بألف تأويلٍ وتأويل ".**

أحدهم مرّةً قال: " ما قال النبي شيئاً وقال العقل: لا، وما نهى عن شيءٍ والعقل قال: نعم "، أبداً، فدعوة النبي متوافقةٌ توافقاً تاماً مع العقل، ودعوة النبي متوافقةٌ توافقاً تاماً مع الفطرة، ودعوة النبي عليه الصلاة والسلام متوافقةٌ توافقاً تاماً مع الواقع، ودعوة النبي نابعةٌ من خطاب الله لهذا الإنسان، والله شيء واضح كالشمس.

الله عزّ وجل خاطب الإنسان من خلال النبي بالقرآن، وكلّف النبي أن يوضِّح القرآن بالسُنَّة، أودع فينا عقلاً، وجبلنا جبلّة هي الفطرة، والواقع أمامنا، فليس من العجيب إن رأيت الواقع يؤيد الفطرة، يؤيّد العقل، يؤيّد النقل، ومع ذلك تتردّد، ومع ذلك تُحْجِم، ومع ذلك تسوّف، ومع ذلك تتكاسل، هذا شيء مستحيل..

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

أين عقلكم ؟ أين فطرتكم ؟ أين الدراسات الواقعيّة.

دعوة الإسلام متوافقة مع الواقع الموضوعي:

النبي عليه الصلاة والسلام دعانا إلى صيام الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من كل شهر، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى علاقة دورة القمر بفورة الدم في الجسد، هناك علاقة، وهذه الأيام البيضاء الثلاثة النبي ندب إلى صيامها، ولا سيما للشباب، قرأت مرّة مقالة: أن عالِماً اجتماعياً طلب من مخافر الشرطة في بلدٍ غربي التقارير اليوميّة، فجاء بهذه التقارير، وقلبها إلى التاريخ الهجري، ورأى نسبة الحوادث ـ حوادث العنف ـ في اليوم الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، فوجدها تزداد ستين بالمائة على بقيّة الأيّام، فالنبي عليه الصلاة والسلام أشار من خلال أحاديثه إلى علاقة فورة الدم بدورة القمر..

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

أخٌ كريم قبل أيّام زارني، وقد استمع إلى محاضرةٍ من أستاذٍ في كليّة الطب، يقول هذا المحاضر: إن أخطر سرطانٍ في الإنسان سرطان الرئة، وسببه التدخين ـ طبعاً السبب الأول ـ وسرطان الثدي، ومن أسبابه تأخُر زواج البنت ـ طبعاً لطبيعة الحياة المعقّدة، والمطالب الكبيرة، والأزمات الخانقة هذه تساهم في تأخير الزواج، لكن الذي لفت نظري في كلام الأخ الكريم، أن أخطر سرطانٍ بعد سرطان الرئة والثدي هو سرطان المستقيم، هذا تُرَجِّح أسبابه في الدرجة الأولى إلى نَخْل الدقيق، وإلى الطعام النقي، فعندما خلق ربنا عزّ وجل حبة القمح، وخلق لها قشرتها، وأودع في القشرة الفيتامينات، والمعادن، ست فيتامينات، وسبعة معادن كلّها في قشور القمح، ماذا نفعل نحن ؟ كما قال الله عزّ وجل في آيةٍ أخرى:

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)

(سورة النساء: من الآية 119)

ننزع قشور القمح ونرميها للدواب، ونأكل النشاء الصرْف، الخبز أبيض، لكن قوامه نشاءٌ فقط، أما الفيتامينات، المواد التي تعين على حركة الأمعاء في القشور، والمعادن في القشور، فكلّما تقدّم العلم كشف أن العقل الأول الذي صمّم الكون صمّمه في أبدع صورة، ونحن نشوّه حياتنا بتغيير خلق الله عزّ وجل.

مرّة ثانية: قِوام الرجل عقله، عندما خلق الله العقل قال له:

((أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك، بك آخذ وبك أعطي))

[من أحاديث الإحياء عن السيدة عائشة]

أي أن الذي استعملك يستحقُّ عطائي، والذي عطّلك يستحق عقوبتي، بك أعطي، وبك آخذ، هناك عقل، وميزان الشرع أمامك ؛ قرآنٌ كريم وسُنّةٌ نبويّةٌ مطهّرة، وهناك ميزان الواقع.

النبي الكريم أمرنا حينما نذبح ذبيحةً أن نذبحها من أوداجها دون أن نقطع الرقبة، بعد مضي ألفٍ وخمسمائة عامٍ على هذا التوجيه النبوي، جاء علماء الطب، وبيّنوا حكمة هذا الأمر، قالوا: القلب له نبض، وهذا النبض يتلقى الأمر فيه من مراكز كهربائيّة في القلب نفسه، لكن مراكز القلب التي تنبّه القلب تنبّهه تنبيهاً ثابتاً، ثمانين ضربة في الدقيقة، الإنسان أحياناً يواجه صعوبات، يواجه جهدا، يواجه أزمات، يأتيه أمرٌ من الدماغ فيرفع ضربات القلب، فضربات القلب، القلب نفسه يعطيها الأمر الراتب أي الثابت، بينما الضربات الاستثنائيّة تحتاج إلى أمر من الدماغ، فإذا قُطِعَ رأس الذبيحة بقي القلب ينبض ثمانين نبضة في الدقيقة، لا يكفي هذا النبض المُعتدل لإخراج الدم كلِّه من الذبيحة، أما حينما نذبح أوداجها فقط، ويبقى اتصالٌ عصبيٌ بين الدماغ وبين القلب في الذبيحة، الدماغ يعطي أمرًا برفع الضربات إلى مائة وثمانين ضربة، لذلك كل ما في الدابّة من دم يخرج إلى خارجها، هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام.

صديقٌ لي في بلد أجنبي قال لي مرّةً، أسعار اللحوم المذبوحة وفق الشريعة الإسلاميّة أغلى بكثير، لأن هذا الدم له وزن، فإذا خرج هذا الدم من الذبيحة أصبح لون اللحم ورديّاً، أما إذا بقي فيها أصبح لون الذبيحة أزرق تَمُجُّهُ النفس وتعافه، وأمراض الدابّة كلُّها في دمها.

هذا النبي في هذه التوجيهات العظيمة في ميزان الواقع، كلّما تقدّم العلم اكتشف أن أكمل شيءٍ هو تطبيق الشريعة، طبعاً الإنسان يتلقّى الأمر الإلهي على أساس أن هذا أمر الله عزّ وجل، ويطبّقه إيماناً

بالله عزّ وجل، ويكتشف العلم أن هذه الأوامر ليس في الإمكان أبدع منها، هي أكمل شيءٍ، طبعاً قِسْ على هذا كل شيء.

في أنظمة الزواج والطلاق، مثلاً الله عزّ وجل قال:

(لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

هذا توجيه، إذا خرجت المرأة من بيتها إلى بيت أهلها فإن أصغر قضيَّةٍ بين الزوجين تغدو أكبر قضيَّة، وقد تنتهي بالطلاق، وإذا بقيت في بيت زوجها، أكبر قضيَّةٍ مع مضي الأيام تغدو أصغر قضيَّة، هذا توجيه، فإذا كان الإنسان من السعداء الذين يقرؤون كلام الله عزّ وجل، ويطبّقونه في حياتهم، يهتدون بهديه، في شؤون العلاقات الاجتماعيَّة، في شؤون الزواج، في شؤون البيع والشراء، في شؤون علاقة الإنسان بربّه، بمن حوله فإنه لا يقع في مثل هذا.

(أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(151)وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَاصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(153)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154)أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(155)أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ(156))

أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ

هل معكم حجّةٌ قاطعة ؟ معكم برهانٌ ساطع ؟ معكم دليل ؟ كأن الله عزّ وجل يدعونا، معك الدليل ؟ أين عقلك ؟ أين حجّتك ؟ أين برهانك ؟

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة المؤمنون: من الآية 117)

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا)

أي أنهم قالوا: إنّ الملائكة بنات الله، وأن الجن لهم قرابةٌ بالله عزّ وجل، قرابة نسب..

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا)

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ

أي تخرُّصات، وإفكا، ووَهْما، وكلامًا من نوع الزور غير حقيقي..

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

كلّ ما في الكون خاضع لمشيئة الله:

كن فيكون، زُل فيزول، الجن مُحضر، تحت الضرب دائماً، كل من في الكون هو خاضعٌ لمشيئة الله عزّ وجل، فالإنسان أحياناً في عمله إذ كان مُسَيْطِراً، كل من في دائرة عمله ينفِّذ أمره، ولكن طبيعة النَسَب، طبيعة القرابة تجعل الإنسان يقصر قليلاً، أحياناً الابن لا يستجيب لوالده، أو يتماطل في تنفيذ الأمر، أما هؤلاء فليسوا أولاد الله عزّ وجل، هؤلاء مُحْضَرون، هم عبيدٌ لله عزّ وجل، ومعنى عبيد لله أنهم في قبضته..

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

أي أن هؤلاء الذين تزعمون أنهم بنات الله، أو أن بينهم وبين الله نسباً، هؤلاء ليسوا أولاده، هم محضرون، هم تحت مشيئته وإرادته..

(سُبْحَانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ)

سُبْحَانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ

سبحان الله: أي تنزّهت أسماء الله عزّ وجل، تنزّهت صفات الله عزّ وجل، تنزّهت ذات الله عزّ وجل عن أن يكون كذلك..

هؤلاء الجن الذين عرفوا الله عزّ وجل، واستجابوا له، هؤلاء مستثنون مما يقوله فيهم البشر..

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ

(إِلَّا عِبَادَ اللّهِ الْمُخْلَصِينَ(160)فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(161)مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(162)إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)

هذه آية دقيقة جداً، أي أن البشر جميعاً، والجن جميعاً، وما يُعبد من دون الله من آلهة مزعومة، من أصنام، من أشخاص..

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(161)مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ)

أي كلُكم مع من تعبدونه من دون الله لا تستطيعون أن تغيّروا خطّ إنسانٍ، ولا سيره، ولا أن تضلّونه إطلاقاً، الإنسان مخيَّر، لا يستجيب لكم إلا من هو راغبٌ فيكم، فالإنسان بكل ما أوتي من قوّة، بكل ما أوتي من حيلة، لا يستطيع أن يسيّر إنساناً تسييراً غير صحيح، إلا أن يشاء الإنسان ذلك.

الإنسان مخير:

فملخّص هذه الآية: أن لا أحد في كون الله يستطيع أن يضلّ أحداً، الذي فيما يبدو لنا أنه قد أضلّ زيداً أو عُبيداً، المضل والضال كلاهما توافقا على الضلالة، لولا أن الذي ضل كان عنده استعدادٌ للضلال ورغبةٌ فيه لما استطاع المضلُ أن يفعل فيه ذلك، لولا أن الضال كان عنده رغبةٌ في الضلال وقبول له ما استطاع المضلُ أن يضلّه.

إذاً: في الحقيقة ليس هناك مُضِل، وليس هناك مُضَل، كل الناس مخيَّرون، فالذي يقع في الضلال وقع فيه باختياره، والذي أضلّه فيما يبدو كان سبباً ظاهراً، والحقيقة أنه استجاب لاختياره.

إذاً:

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(161)مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(162)إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)

إلا من اختار الضلالة، واستحقّها، وكان مصيره إلى الجحيم في علم الله عزّ وجل، هذا الذي يستجيب لكم..

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)

كأن الملائكة استعاذوا بالله عزّ وجل، ونزّهوا ذات الله عزّ وجل عن أن يكون الذنب، فقالوا:

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ(164)وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ(165)وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

هؤلاء الذين عرفنا من سلوكهم أنهم يجهدون في إضلال البشر، هؤلاء الجن مهما اجتمعوا فهم والإنس، وما يعبدونهم من دون الله كل هؤلاء مجتمعين لا يستطيعون إضلال إنسانٍ واحد، إلا أن يشاء الإنسان الضلال، فإذا شاء الضلال يبدو للإنسان الساذج أنهم أضلّوه، لا، لم يضلوه، هو ضالٌ، فتوافقت رغبته مع مسعاهم إذاً ضل.

قال:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

من الجن الذين آمنوا، واتبعوا الحق، وهم يسبّحون..

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(161)مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(162)إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ

أما الملائكة قالوا:

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)

مقامنا مقام العبوديّة لله عزّ وجل، لسنا بنات الله، مقامنا مقام العبوديّة لله عزّ وجل..

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)

رحم الله عبداً عرف حدَّه فوقف عنده، أنت إنسان مقامك معلوم، المَلَك له مقام معلوم، الجن له مقام معلوم..

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ(164)وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ(165)وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

عبادة الملائكة ومقامهم:

أي أن مقامنا التسبيح، والدعاء، والذِكْرُ، والصلاة، مقام الملائكة، رُكِّب المَلَك من عقلٍ بلا شهوة، وركِّب الحيوان من شهوةٍ بلا عقل، ورُكِّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان..

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ(164)وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ(165)وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

أي نصطفُّ للصلاة.

(وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

في أكثر التفاسير التسبيح هنا هي الصلاة.

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع الآيات، والتي ربَّما كانت هي الدرس الأخير من سورة الصَّافَّات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (14-14): تفسير الآيات 171 - 182
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-11-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر والأخير من سورة الصّافّات، ومع الآية الواحدة والسبعين بعد المائة.

ربنا جل جلاله يقول:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171)إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ(172)وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(173)فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(174)وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ

1 - مِن سنن الله الجارية: نصرة الأنبياء:

من عادة البيان الإلهي أنه في ختام السوَر يقرر الله جل جلاله سُنَنَاً وقوانين، فربنا عزّ وجل يقول: يا محمد إن نصرناك على أعدائك فهذه سُنة الله في خلقه، هذه سنة الله القديمة، أن تنصر على أعدائك، أن تعلو كلمة الله، أن ينتصر دين الله، أن تكون العاقبة للمؤمنين، ليس هذا شيئاً جديداً، إنما هو قانونٌ قديم، منذ أن خلق الله الكون هذه كلمته، وهذه سُنَنُهُ، وهذه طريقة تعامله مع عباده، فلابد من أن تنتصر، أنت مع الحق والحق هو الغالب، الباطل له جولة ؛ ولكن الحق هو المنتصر في النهاية، منها تطمين، ومنها تأكيد.

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

2 - لابد من كشفِ قوانين الدين:

أيها الإخوة، إن (كلمة) في القرآن الكريم تعني القانون، والمؤمن من توفيقه ومن سعادته أن يكشف القوانين التي قنّنها الله عزّ وجل، وأن يكتشف السُنن التي سنّها الله عزّ وجل، فالدين ليس أوهاماً، ولا غيبياتٍ، ولا أساطير، ولا طقوسا، الدين كله عقل، كله قواعد ثابتة، فالذي يفهم الدين فهماً عميقاً وفهماً دقيقاً يكتشف هذه القوانين، أما الذي يُغَلِّبُ المفاهيم الضبابيّة، يغلِّب الغيبات غير الواضحة، يغلِّب أن الإنسان يوفق لا ندري لماذا ؟ يعاقب لا ندري لماذا ؟ وبعضهم يقول كلمة حقٍ لكن يريد بها باطلاً، يقول: " أقام العباد فيما أراد، وله المُراد فيما يريد "، يقصد بها أن تفسير الأمور صعب، وهناك كلمات

تُنْبِئ أن هناك حظوظا عمياء، وقِسَما عشوائية، ولكنك إذا فهمت الدين فهما عميقاً وجدت في هذا الدين قوانين، ومُقدمات ونتائج، وأسبابا ومُسَبَّبات، وعلاقات ثابتة بين المتغيّرات، فهذا كله يستنبط من قول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

أي منذ أن خَلَقنا العالم، منذ أن خلقنا الكون هذه كلمتُنا، وهذه سُنتنا في خلقنا..

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

أي يا محمد، إن نصرت على أعدائك، وإن كان الفوز لك، وإن كان الفوز لدينك، وإن استخلفك الله في الأرض، وإن مَكَّنَ لك هذا الدين، وإن رفع لك ذكرك، وإن أصبح الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فليس هذا شيئاً جديداً، وليس هذا شيئاً مستحدثاً، إنها سُنة الله في الخلق.

3 ـ مَن كان مع الحق كان المنتصرَ:

وهذا أيضاً يفيدنا الآن، فهذا قانون الله عزّ وجل، دائماً إذا كنت مع الحق فأنت المنتصر، إذا كنت مع الله فالله معك، إذا كنت مع شرع الله، فشرع الله يحميك من الهلاك، إذا آثرت رضوان الله عزّ وجل وفقك الله لما يحب ويرضى، فيجب أن نفهم أن في هذا القرآن قوانين حتمية الحدوث، حتمية النتائج، فإذا قدّمت المقدمة قطفت الثمن، وأيّ إنسانٍ يأخذ بهذه القوانين يحصِّل هذه النتائج، هذا الذي يستفاد من قوله تعالى:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ)

ليس شيئاً جديداً، شيءٌ قديم، هذه سُنة الله في خلقه..

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ)

وهذا كما يعَبَّر عنه بالتركيب التالي، هذه السُنة ؛ كانت، ولا زالت، وستبقى، هذه سُنة الله في خلقه، ولو تتبَّعت التاريخ البشري لرأيت أن الأنبياء والمرسلين هم المَنصورين، ولرأيت الحق هو المنتصر، ولرأيت العاقبة للمتقين، ورأيت الخزي والعار على الكافرين.

4 ـ إما الخضوع لله طواعية أو الخضوع لسننه الكونية قهرًا:

الله عزّ وجل يمتحن، قد يرخي الحبل، قد يسمح للكافر أن يصول ويجول، ولكن إلى حين، ثم هو في قبضة الله عزّ وجل، كما قال الله عزّ جل حينما تحدث عن فرعون وعن سيدنا موسى، قال:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

(سورة القصص)

الله حرّم الخَمر، ودولٌ كثيرة لا تؤمن بالله إطلاقاً، قبل عامٍ أو عامين صدر فيها قرارات حرّمت فيها الخمر، فأنت إما أن تطبّق هذا الشرع عبوديةً لله، واستسلاماً له، وإما أن تعود إليه مقهوراً، بحكم التجارب والوقائع، والآن هناك انكماش عن الرذيلة لا حباً بالله، ولا حباً بطاعة الله، ولا تعبيراً عن طُهر، ولكن خوفاً من مرض الإيدز، والذين زاروا بعض البلاد الغربية أخبروني بأنّ أحياء بأكملها كانت بؤرة فسادٍ أُغلقت، حمّامات أغلقت خوفاً من انتقال هذا المرض، فالإنسان إما أن يطبّق أمر الله عزّ وجل تعبداً، وبهذا يرقى، وإما أن يطبقه مقهوراً خوفاً أو رجاءً أو ما شاكل ذلك، ولكن:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

إنّ العالَم قبل عشرين أو ثلاثين عاماً كان موزّعا في اتجاهات شتّى، الآن ثبت للعالم كله أنه لا خلاص إلا بالإسلام، وبمنهج الله عز وجل، وكل مذهبٍ وضعي انكشف على حقيقته، انكشف وأصبح لا يقوى على أن يقف على قدميه، وهذا التهافت، السقوط المُريع، هذا بسبب أن كل مبدأٍ لا يستمد من هذا الحق المبين مبدأٌ باطل، وآخرته إلى الزوال، وربنا عز وجل يقول:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

مرة ذكرت أن عالمةً في منظمة الصحة العالمية كتبت مقالةً عن الذين يصابون بمرض التراخوما في العالم، لا في عامٍ واحد، لا، خمسمائة مليون، وهذه أمراض القذارة، وأن هذه الأمراض تكاد تقلُّ نسبتها أو تنعدم في الدول الإسلامية، لسبب الوضوء فقط، فخمسمائة مليون إصابة بالتراخوما في العالم الثالث، البلاد الملتزمة بشرع الله عزّ وجل في منجاةٍ من هذا المرض، هذا قانون ربنا عزّ وجل، معناه أن الوضوء شيءٌ أساسيٌ سَنَّهُ الله لنا.

الذي أريد أن أقوله لكم هو: أن هذا المنهج من عند خالق الكون، فمهما ابتعدت عنه فلابد من أن تعود إليه، وروعة المؤمن أنه عرف الله في وقتٍ مبكر، أما الذين شردوا عن دين الله عزّ وجل فلابدّ من أن يعودوا إلى هذا الدين في وقتٍ ما، لكن يعودون إليه صاغرين، مقهورين، بعد أن تسقط من أيديهم كل أوراقهم، وكل معطياتهم، وكل ما كانوا يتوهمونه أنه حق..

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

هذا قانون أزلي أبدي، معركة الحق والباطل أزليةٌ أبديةٌ، يمكن أن تدخل في هذه المعركة آلاف القِصَص، آلاف الحوادث، ما جرى في العالم سابقاً، وما جرى لاحقاً، وما يجري الآن، هذا كلُّه ضمن معركة الحق والباطل الأزلية، فربنا عز وجل يطمئن النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

فكلمة كلمتنا، أي قانوننا، مشيئتنا، إرادتنا، قرارنا..

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)

للأنبياء الذين أرسلناهم، ولأتباعهم، ولمن استجابوا لدعوة الأنبياء، أحياناً وأنت تقرأ قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

هذا قانون ربنا عزّ وجل، هذه كلمات الله، ولا مبدل لكلماته، ولما يقرأ الأخ القرآن الكريم فمن حسن توفيقه في فهم كتاب الله أن يضع يده على هذه الآيات التي تعطي معنى القوانين.

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(33))

(سورة يونس)

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من الآية 9)

هذه كلها قوانين.

إذا قرأت القرآن فحاول أن تضع يدك على قوانينه، على سُنَن الله الثابتة، هذه مفاتيح ؛ مفاتيح النجاة، مفاتيح السعادة، مفاتيح الرُقِيّ، مفاتيح الفوز، مفاتيح الفلاح.

إذاً: ربنا عز وجل يبيّن أنه سبقت كلمته، قانونٌ أزليٌ، واقعٌ، أبديٌ..

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)

معنى: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ

قال بعض المفسرين: سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين بالسعادة في الدارين.

وأضاف بعضهم، وهذه إضافةٌ رائعة: ولمن اتبعهم، فرب الكون، خالق الكون يطمئنك أنني سأسعدك إذا اتبعت رضواني، هل فينا واحدٌ لا يتمنى أن يكون سليماً سعيداً ؟ السلامة والسعادة مطلبان ثابتان

لكل إنسان في الأرض، فسبقت كلمتنا لهم بالسلامة والسعادة، لهم ولأتباعهم، لأن الفعّال هو الله عزّ وجل، لأنه لا يقع شيءٌ في الأرض إلا بإرادة الله عزّ وجل.

لذلك قال بعض المفسرين: لم يقتل أحدٌ من أصحاب الشرائع، الأنبياء معهم رسالات، الأنبياء الذين يحملون رسالات الله عزّ وجل، هؤلاء لم يقتلوا أبداً، لأن قتلهم يعني أشياء كثيرة، شاءت مشيئة الله أن يرسلهم برسالة، إذاً: هم معصومون، وهذا قوله تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

أي لا يستطيع أحدٌ أن يُنهي حياتك يا محمد، لأنك مرسل من قِبَلِنَا، لا يستطيع أحدٌ مهما علا في الأرض أن ينهي حياتك.

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

لذلك جميع الأنبياء الذين كلِّفوا برسالات من قبل الله عزّ وجل، الأنبياء والرُسل أسوة، والنبي إنسان لا ينقطع عن الله لحظة.

((إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا))

[الجامع الصغير عن عطاء بسند صحيح]

اتصال دائم، وهذا مقام النبي، وما سوى النبي فساعةٌ وساعة:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً))

[مسلم عن حنظلة]

إذا الشيء الثاني:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

معرفة قوانين الله والتعامل معها سببٌ للسعادة:

أيها الإخوة، أتمنى على الله جلّ جلاله أن يوفقنا جميعاً إلى معرفة قوانينه، كما قلت قبل قليل: القانون مفتاح السعادة، مفتاح السلامة، إذا كشفت قانون الله عزّ وجل عرفت كيف تسعد بطاعة الله، كيف تسعد في بيتك، في اختيار زوجتك، كيف تسعد في عملك، بتنفيذ أمر الله في البيع والشراء، كيف أسعد بصحتي، بتنفيذ السُنة النبوية الشريفة ؟ قوانين كلها، فإذا وضعت يدك على قوانين الله عزّ وجل، بل إذا قرأت القرآن، وحاولت أن تكتشف القوانين، القرآن عَبَّرَ عنها بكلمة: (كلمة).

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 115)

أي أن كلماته فوق المكان والزمان، والظروف والأحوال، في كل عصر، في كل مِصر، في كل وقت، في كل زمان، قوانينه هي هي، ما علينا إلا أن نتمسّك بها.

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171)إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ)

النصر المطلق: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ

أروع ما في هذه الآية أنها مطلقة، وإذا أردنا أن نحللها: منصورون بالحجة والغَلَبَة، منصورون بالحوار معهم الحق المبين، ومنصورون من قبل الله عزّ وجل بالغَلَبَة المادية، لقوله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: من الآية 55)

وعد إلهي بالاستخلاف والتمكين والتطمين، استخلافٌ وتمكينٌ وتطمينٌ، وعلى العباد أن يعبدوه فقط، يعبدونني، إذاً:

(إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ)

المؤمن معه حُجة على كل شيء:

بالحجة، المؤمن معه حق، والحق شيء مريح جداً، يفهم سر الوجود، سر الحياة الدنيا، سر وجود الإنسان في الأرض، سر مهمته على هذه الأرض، يفهم أين كان ؟ وماذا بعد الموت ؟ يفهم أثمن شيءٍ في الدنيا، أغلى شيءٍ في الدنيا، يضع يده على جوهر الحياة لا على ظاهر الحياة، كما بيَّن الله تعالى واصفاً أهل الدنيا:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(سورة الروم)

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه، والمؤمن يعرف من هو ؟ وما قيمته ؟ هو المخلوق المكرَّم، الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وأبدع صُنعه، منحه نعمة العقل، سخَّر له الكون، أنزل له التشريع، أرسل له الأنبياء، أعطاه حريّة الاختيار، أودع فيه الشهوات، أعطاه فيما يبدو قوةً يتحرّك بها، ويحقق بها اختياره، منحه فطرةً تكشف له خطأه، إذا عرف الإنسان هذا كله تحرّك في هذه الدنيا تحركاً صحيحاً، لذلك استشعروا معي قول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)

إذا كنت مع الحق فلا تخف، لأن الحق معك، إذا كنت مطبّقاً لمنهج الله فلا تخشَ أحداً، لأن خالق الكون يؤيدك، وينصرك، ويرقى بك إلى أعلى عليين..

(إِنّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ(55))

(سورة القمر)

فليس هناك شعور ينتاب المؤمن أعلى من أن يشعر أن الله راضٍ عنه، وأن الله معه، وأنه يؤيّده، وأنه ينصره، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والرعاية.

(إِنّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ)

أنا أقول لكم كلاماً دقيقاً: دعك من القوة المادية، مهما كان الكافر ذكياً إذا جلس مع المؤمن ليحاور تتساقط أفكاره، الحق ليس له داعم، لا يوجد معه دليل، لماذا أنت في الدنيا ؟ لا يعرف لماذا هو في الدنيا.

(قُلْ هَلْ نُنَبّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا(103)الّذِينَ ضَلّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

تجده يتحرك في طرق مسدودة تنتهي به إلى الهلاك، يُعطي قيمةً لأشياء تافهة زائلة، وينسى أبرز ما في الحياة الدنيا، لا يملك نظرية متكاملة في خلق العالم، وفي فلسفة الوجود، وفي فلسفة المعرفة، وفي فلسفة الحياة الدنيا، وفي فلسفة الإنسان، ولأن هذا القرآن من عند خالق الكون فقد بيّن لنا ما كان في عالم الأزل، وما سيكون في عالم الأبد، وسر وجود الإنسان على الأرض، بيّن لنا من هو الخالق، من هو الرب، من هو المسيّر، من هو المعبود بحق، هذا كله في القرآن ؟

فهل من الممكن لإنسان لم يقرأ القرآن أن يكتشف التفسير الكامل، الصحيح، الجامع، المانع، للكون ؟ لا يعرف، قد يرى أن الدنيا هي كل شيء، هذا أكبر ضلال، قد يرى أن الموت نهاية الحياة، ولا شيء بعد الموت، هذا نهاية الضلال، قد يرى أن المال كل شيء، قد يرى أن القوة هي كل شيء، هي الضلال بعينه، فحينما يهتم الإنسان بأشياء زائلة وتافهة وصغيرة الحجم فهذا هو الضلال المبين، أما حينما تتعرف إلى الله عزّ وجل فإنك تعطي لكل شيءٍ حجمه الحقيقي، المال قوام الحياة ؛ ولكن لا أعبده من دون الله، لا أضحي بديني من أجله، هناك منظومة قيَم أتحرك من خلالها.

(إِنّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ)

المؤمن معه الحق المجرّد، فإذا حاور كافراً يتغلّب عليه، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه.

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 83)

إبراهيم نبيٌ عظيم، وكل من اتبع إبراهيم، وكل من اتبع النبي الكريم معه حُجة، عندما تتعلم اللغة العربية مثلاً، ويكون أمامك إنسان يقرأ نصاً، تكشف أخطاءه، فإن لم تكن عالماً باللغة فإنك تثني على قراءته، فإذا عرفت الله عزّ وجل وعرفت منهجه، لو جلست مع ضالٍ ربع ساعة تكشف الخلل في تفكيره، تكشف الزَيف في معتقداته، تكشف عقائده الفاسدة، وعلاقاته غير الصحيحة، علاقات كلها جهل.

ضربت مرة مثلاً: هناك ضوء على لوحة السيارة يتألّق إذا انتهى الزيت في المحرك، هذا ضوء خطر جداً، لو تألّق يجب أن تقف فوراً، وإلا يحترق المُحرك، لو اعتقد إنسان أن هذا الضوء إذا تألّق فليسلِّيك في الطريق مثلاً، هذا اعتقاد خطير جداً، قد تحرق محرك السيارة وأنت لا تدري، فما هو الجهل ؟ قد يظن الناس أن الجهل ألا تعرف، لا، فالجهل أن يكون الذهن محشواً بعلاقاتٍ كلّها فاسدة، علاقات مغلوطة.

إذاً:

(إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ)

أدِّ الذي عليك واطلب من الله التوفيق والنصر:

بالحجة، وبالغلبة المادية إذا طبقوا دين الله عزّ وجل، يعبدونني: أدِ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك، لك منه النصر، لك منه التأييد، لك منه أن ينصرك على عدوك، لك منه التمكين، لك منه التطمين، هذا كله لك من الله، ولكن قبل أن تطالب ما لك، أدِّ الذي عليك، عليك أن تطيعه، فقبل أن تقول: لماذا تخلّى الله عن المسلمين في العالم ؟

اسأل سؤالاً آخر: ما الذي قصَّر فيه المسلمون ؟ هل بيتهم إسلامي ؟ هل بيعهم وشراؤهم إسلامي ؟ هل خروج نسائهم كما يرضى الله عزّ وجل ؟ هل كسبهم للمال وفق الشرع تماماً ؟ هذا الذي أتمنّاه على كل إنسان أن يسأل نفسه: ما الذي علي ؟ علي أن أؤدي الذي علي، ثم أدعو الله بالذي لي، اللهم نصرك الذي وعدتنا، اللهم انصرنا على أنفسنا حتى نستحق أن تنصرنا على أعدائنا، أدِّ الذي عليك، وبعد أن تؤدي كل ما عليك قل: يا رب نصرك الذي وعدتنا، بعد أن تؤدي كل ما عليك قل: ربنا إننا كما قال أحد الأنبياء، إني مغلوبٌ فانتصر يا رب لدينك، لا يحق لك أن تطالب بالنصر والتأييد والحفظ قبل أن تؤدِّي الذي عليك.

(إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ(172)وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

والله شيء جميل جداً، هذه آية رائعة جداً:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

فإذا ادّعيت أنك من جند الله ولم تنتصر ؟ الجواب المنطقي: لست من جند الله، لو كنت من جنده لنصرك الله على أعدائك، لقوله تعالى:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

فشيء جميل جداً أن تكون من جند الله، ولن تكون من جند الله إلا إذا أطعت الله عزّ وجل، لن تكون من جند الله إلا إذا تركت الكبائر، كيف نكون من جند الله ونشرب الخمر مثلاً ؟ مستحيل، كيف نكون من جند الله ولا نصلي ؟ كيف نكون من جند الله ونقترف الكبائر ؟

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

فهذا قانون أيها الإخوة، بأي مكان، بأي زمان، بأي عصر، بأي مصر، هذا ما يقال على التفوق، تفوق العدو، هذا يقال إذا تساوى الأطراف في عدم الإيمان، إذا تساوى الطرفان في عدم الإيمان فلك أن تتحدث ما تشاء عن تفوق العدو، عن التفوق، والتكنولوجيا، وعن الأسلحة الفتّاكة الحديثة، وعن الليزر، وعن الأقمار، كل شيء تسمعه الحديث عنه مقبولٌ ومعقولٌ إذا تساوى الطرفان في عدم الإيمان، أما إذا كان أحدهما مؤمناً فتختلف كل الموازين، وتنقلب كل الموازين..

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

إذاً كن من جند الله وخذ النتيجة، لكن ربنا عزّ وجل أحياناً حينما يرى المسلمين في أنحاء العالم في تقصير، في غفلة، هم وغيرهم سواء، لا تجد فرقاً إطلاقاً بين مسلمٍ وغير مسلم إلا إذا كنت سألته: ما اسمك، أو قلت له: أين بطاقتك الشخصية، أما مظهره في الطريق ؛ وزوجته، وبناته، ومتجره، ولهوه، وعطلة نهاية الأسبوع أين يقضيها ؟ لا ترى فرقاً إطلاقاً، فمثل هذا المسلم الغافل لا بد له من صعقة، لأن القلب إذا توقف أول شيء يفعله الطبيب يعطيه صعقةً كهربائية، تهُز أركانه لعله ينبض، إما أن ينبض، وإما أن لا ينبض، فإذا نبض الحمد لله، فلما يضيّق ربنا عزّ وجل على المؤمنين المقصرين فليس معنى هذا أنه تخلّى عنهم، لكنه يريد أن يدفعهم إلى طاعته، وإلى الصُلح معه، وإلى القُرب منه.

أجمل ما في هذه الآية:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ

1 ـ المؤمن متميز عن غيره:

أي يجب أن يفترق المؤمن عن الكافر، يجب أن يكون المؤمن صارخاً في إيمانه، علاقاته كلها وفق الشرع، أي أن كل حركاته وسكناته يتميَّز بها على الكافر، أما إذا كان الاختلاط، والأماكن التي يرتادها الكافر يرتادها المؤمن، المقاصف التي يجلس بها الكافر يجلس بها المؤمن، الموائد التي لا ترضي الله يجلس عليها المؤمن والكافر، أو اختلاط في التجارة، الأساليب التي لا ترضي الله التي يمارسها الكفار يمارسها المؤمنون، فما بقي شيء، فأين: تولى عنهم ؟

المؤمن متميز، في كل علاقاته، في حركاته، في سكناته، حتى في أفراحه، إذا الأفراح في أماكن لا ترضي الله عزّ وجل، في اختلاط، عُرس مختلط، والأسر مسلمة، ويقولون: الله لا ينصرنا ؟ فماذا تفعلون ؟ إذا في بعد عن الله عزّ وجل بحيث لا يبدو للمراقب أن هذا مسلم، مثله مثل الآخرين، فلابد من التمايز في البيع والشراء، والبيت، والعادات.

مثلاً: الآن في الأعراس هناك آلة تصوير، النساء كلُّهن كاسيات عاريات، كيف تسمح أسرةٌ مسلمةٌ أن تصور المدعوات وهن بأبهى زينة، وهذا الفيلم يطبع عليه عشرات النسخ، ثم يشاهد في البيوت، وهذه المرأة التي تبدو في الطريق محجبة قد رآها الأجانب كلهم بأبهى زينة، أين الإسلام ؟

أيعقل أن يكون المسلمون تحت رحمة مصمم أزياء يهودي فرنسي، فكلما صمم أزياء معينة لهثوا وراءه ليقلدوا آخر ما أنتج، أهذا هو الإسلام ؟

قال: **" يا رب عصيتك، ولم تعاقبني ! قال له: عبدي كم عاقبتك ولم تدر ".**

لما تقصر فالله عزّ وجل يؤدِّب، حتى تظن أنه تخلّى عنك، هو لم يتخل عنك، ولكن يؤدِّب، ويشدد، ويضيّق، إلى أن تقول: يا الله، إلى أن تقول: يا الله تبنا إليك، عدنا إليك، رجعنا إليك، رجعنا إلى شرعك، رجعنا إلى قرآنك، رجعنا إلى سُنة نبيك، فلابد من العودة إلى الله، ولابد من الصلح مع الله، وإن لم يكن في بداية الحياة فلن ينفعنا في نهايتها..

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ)

(سورة النساء: من الآية 18)

(لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام: من الآية 158)

لكن..

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

عبادنا المرسلين هم المنصورون بالحجة وبالغلبة المادية.

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)

2 ـ لابد من الابتعاد عن الأماكن التي تليق بالمسلم:

ابتعد عنهم، دعهم في متنزّهاتهم، في مطاعمهم، في أماكن لهوهم، في منتجعاتهم، في أسواقهم، في علاقاتهم الربوية، دعهم، فإذا كنت معهم البلاء سيعم الجميع، إن لم تبتعد عنهم، لن تنجو من عذابهم.

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)

3 ـ حَتَّى حِينٍ

حتى حين أن يأتي الله بوعده.

بالمناسبة من أدق الآيات في القرآن الكريم قول الله عز وجل:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس: من الآية 39)

قال بعض العلماء: إن تأويل القرآن في هذه الآية معناه تحقُق الوعد والوعيد، الله وعد الفاسق بالعقاب، وعد المُرابي بتدمير المال، وعد المؤمن بالحفظ، فكل وعود الله عزّ وجل، تحقق في الدنيا، لذلك تأويل القرآن أن يقع الوَعد والوعيد، قال:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)

حتى حين يأتي أمر الله فيستحق المؤمن النصر والتأييد، ويستحق الكافر الخَذلَ والخزي والعار، حتى حين مجيء وعد الله عزّ وجل، الله أعطى الإنسان خياراً، أعطاه فرصة، لو جاء العقاب بعد المعصية مباشرةً لألغي الاختيار، يعصي الإنسان، وبعد المعصية هو في بحبوحةٍ طويلة، لعله يتوب، فإذا انتهى الوقت الكافي كي يتوب ولم يتُب الآن يأتي الهلاك.

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)

الحبل مرخى، دعهم إلى حين.

مثلاً ـ الأمثلة تقرّب المعنى ـ: لو اجتمع طالبان أول السنة وتناقشا، الأول يقول: الدراسة مفيدة، والثاني يقول: الدراسة غير مفيدة، هذا النقاش الطويل يحسمه الفَحص، المُناقش الأول يرى أن زميله يركب رأسه ويتعَنّت، أو يدعي أنه على علم رفيع، وهو يراه لا يدرس إطلاقاً، يقال له: دعه لحين الامتحان،

اتركه، الطالب معه فرصة العام الدراسي بأكمله، لكن إذا جاء الامتحان عندئذٍ يكشف الإنسان على حقيقته، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)

حتى حين أن يأتي الله بوعده، حتى حين تحقق الوعد، تحق الوعيد.

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(174)وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

أي أبصرهم قبل فوات الأوان، لكنهم لابد من أن يروا الحقائق بعد فوات الأوان.

(وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

ضربت مثلاً: رجل يركب دراجة، ويسير بطريق مستوٍ، واجه طريقين، أحدهما نازل، والآخر صاعد، الطريق النازل مغرٍ جداً، معبّد، وحوله رصيف وأشجار، وظل ظليل، وحدائق غنّاء، ولكن هذه الطريق ـ الطريق تذكر وتؤنّث ـ تنتهي بحفرةٍ سحيقةٍ فيها وحوشٌ كاسرة جائعة مالها من قرار، فإذا بدأ الإنسان بهذا الطريق فلابد من أن يقع في الحفرة في نهاية المطاف.

الطريق الصاعد صعبٌ على راكب الدرّاجة، وفيه حفر، وفيه أكمات، وفيه غُبار، وفيه أتربة ؛ لكنه ينتهي بقصرٍ منيف فيه كل شيء، لكن رحمةً بهذا الراكب وضعت لوحةٌ بيانيةٌ تفصيلية، ذُكر عند مفترق الطرق: هذه الطريق النازلة تنتهي بهذه الحفرة السحيقة، وهذه الطريق الصاعدة تنتهي بهذا القصر المنيف، وإذا أردت أن ترى بعينك ذاك المنظار، لوحة ومنظار، انظر، فهذا الذي رفض أن يرى، ورفض أن يقرأ، وسار في الطريق الهابطة، انسجاماً مع راحته الجسدية، ومع تمتُّعه بالمناظر الخلاّبة، فأنت إذا بصرته أو بيّنت له لم يستفد، ولكن سوف يبصر، ولكن بعد فوات الأوان، أنت بيّن له قبل فوات الأوان، فإن لم يستجب فسوف يرى بعد فوات الأوان، وهذا معنى قوله تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

(وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(178)وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

بقي قوله تعالى:

يقول الله عز وجل:

(وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(175)أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ

هذا استعجال المستهزئ: متى يا سيدي ؟ دع الله يبعث العذاب، الكافر يستهزئ بوعيد الله عزّ وجل، لكن لو أن وعيد الله جاء، فماذا أقول ؟ يصيح كالكلاب، إذا جاء العذاب، ونحن نسمع ونرى حينما تأتي بعض المصائب من زلزال، من فيضان، من براكين، ترى أن الناس في ذهول، وفي فزع وخوف لا يتصور، قال:

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

الإنسان ماذا يتحمّل لو أفقده ربنا عزّ وجل شيئاً من أجهزته ؟ لو انحبس البول ماذا يصنع ؟ لو شُلّت قواه ماذا يفعل ؟ لو جاءته الآلام التي لا تُحتمل بسبب أورام خبيثة في أمعائه كيف يصيح ؟ وهناك أمراض يصيح المريض منها صياحاً يسمعه كل من في البناء، مهما كانت شخصيته قوية يخرج عن طوره، ويصيح من شدة الألم، هذا الذي يستهزئ بعذاب الله عز وجل إنسان جاهل..

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

فالإنسان أحياناً يفقد قوته، فهو طريح الفراش، يتمنّى أقرب الناس أن يموت، أحياناً يفقد عقله، يأخذه أقرب الناس إليه إلى المستشفى، أيضاً بواسطة، ويقولون: والله كان منظره مخيفاً، أرحنا منه، كان رب الأسرة، كان سيّد البيت، الله عزّ وجل عنده عذاب لا يحتمل، وآلام عصبية لا يتحمّلها إنسان، يتناول أعلى أنواع المخدرات والمسكِّنات، ويصيح بعدها..

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

وحوادث، وأمراض، وفقر مدقِع، وقَيْد، وحبس حرية.

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

وتعذيب لا يحتمل..

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

لما يقرأ الإنسان وعيد الله عزّ وجل ولا يرعوي فهو إنسان جاهل، وكلما نما عقل الإنسان نما خوفه.

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ(176)فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ

الإنسان كل يوم يستيقظ صباحاً، كل واحد له طريقة في استيقاظه، هذا يستيقظ ليصلي الفجر، يشرب فنجاناً من القهوة، يقرأ الجريدة أحياناً، يسمع أخباراً، يجلس مع أهله لطعام الفطور، وهو سعيد ومسرور، وأحياناً يكون في ضيق وكد كثير، لو تلقى خبراً سيّئاً في الليل عن صحته، أو عن وضعه

المالي، أو عن وضع عمله التجاري، أو عن وضع أهله صار الصباح صباحًا آخر، نعمل لك قهوة ؟ لا، لا أريد، هو تعيس مكتئب لا يريد قهوة، ولا طعاماً، ولا كلاماً، أما إذا كان مع الله عزّ وجل، كان مع منهج الله، إن شاء الله كل صباحه خير، فهذه الكلمة: صباح الخير تعني دلالتها هذا المعنى. استيقظ الإنسان، الحمد لله صحته طيبة، أولاده بوضع جيد، أهله، مستقبله واضح، أما إذا عصى، وأكل مالاً حراماً، واعتدى، وظلم، وطغى، وبغى، وتجبّر فله ظلام مزعج جداً، فبعض الإخوة الأكارم يذكرون لي عن وضع مرضى غير مؤمنين، انهاروا انهياراً كاملاً، أصبح كالطفل الصغير، لا يلوي على شيء، هذه:

(فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ)

((احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ))

(من سنن الترمذي عن ابن عباس)

قال له: **" يا بني، حفظناها في الصِغَر فحفظها الله علينا في الكِبَر، من عاش تقياً عاش قوياً ".**

ألا تحب أن يحفظك الله عزّ وجل ؟ ألا تحب أن يكون لك خريف عمر مشرق ؟ تزداد علماً، ونورانيةً، ومكانةً، ورفعةً، وقُرباً، وشأناً، وعطاءً، ودعوةً، الزم أمر الله عزّ وجل، لئلا يكون صباحٌ لا يرضي. قال:

(فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ)

إذا دخل الإنسان بيته فوجد فيه دافئاً فليحمد الله، يقول لك: مليون إنسان مهدد بالموت من شدة البرد، منهم المشرَّد، ومنهم الخائف، ومنهم الذي يُقْتَل.

(فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ(177)وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(178)وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

الله أعاد الآيتين مرة ثانية..

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ

سبحان ربك أي مهما تفكرت في ذاته فهو أعظم مما تتصوَّر، تنزَّهت ذاته وأفعاله وصفاته عن كل نَقص، هذه معنى سبحانك ؛ وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، سبحان الله، كل شيءٍ تظن أن الله هكذا هو فوق ذلك، وهذا معنى قولنا: الله أكبر، أكبر مما عرفت.

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ)

الله عزيز، معنى عزيز يحتاجه كل شيء في كل شيء، فليس الإنسان فقط، يحتاجه كل شيء في كل شيء.

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ)

عزة معنوية، وعزة مادية، هو ربُّ العزة، هو صاحب العزة، فإذا أردت العزة فكن معه، إن أردت العزة فلُذ بحماه، إن أردت العزة فاستعذ به..

اجعل لربك كل عز ك يســتقر ويثبت

فإذا اعتزز بمن يـمو ت فـإن عـزك ميت

***

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

شعار المؤمن دائماً ينزّه الله عز وجل، ينزّهُهُ ويسبّحُه، ويعتز به، وهو مع المرسلين له موقف ثابت، موقف الانصياع، موقف الاتباع، موقف الحُب، موقف السلام لا العدوان، لا يخطرنّ ببال مؤمن أن يعادي مُرْسَلاً.

(وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(181)وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

على كل شيء، لأنه لا يحمد على مكروهٍ سواه، أفعاله كلها يحمد عليها مهما بدت لنا غير معقولة، المؤمن يحسن الظن بالله عزّ وجل.

((فإن حسن الظن بالله تعالى ثمن الجنة))

[كنز العمال]

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى يوم القيامة فليقل عند انصرافه من الصلاة:(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)إلى آخر السورة))

[كنز العمال عن علي]

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(180)وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(181)وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة سبأ 034 - الدرس (10-01): تفسير الآيات 01 -10..... 1

سورة سبأ 034 - الدرس (10-02): تفسير الآيات 2 -5..... 19

سورة سبأ 034 - الدرس (10-03): تفسير الآيات 6 -9..... 33

سورة سبأ 034 - الدرس (10-04): تفسير الآيات 10 -14..... 49

سورة سبأ 034 - الدرس (10-05): تفسير الآيات 15 -21..... 66

سورة سبأ 034 - الدرس (10-06): تفسير الآيات 22 -23..... 84

سورة سبأ 034 - الدرس (10-07): محاورة بين الداعي والكافر..... 96

سورة سبأ 034 - الدرس (10-08): تفسير الآيات 31 -39..... 110

سورة سبأ 034 - الدرس (10-09): تفسير الآيات 40 -48..... 125

سورة سبأ 034 - الدرس (10-10): تفسير الآيات 49 -54..... 141

سورة فاطر 035 - الدرس (10-01): تفسير الآيات 1 - 2..... 155

سورة فاطر 035 - الدرس (10-02): تفسير الآيات 2 - 5..... 171

سورة فاطر 035 - الدرس (10-03): تفسير الآيات 3 - 8..... 186

سورة فاطر 035 - الدرس (10-04): تفسير الآيات 9 - 10..... 204

سورة فاطر 035 - الدرس (10-05): تفسير الآيات 11-12 223

سورة فاطر 035 - الدرس (10-06): تفسير الآية 13..... 242

سورة فاطر 035 - الدرس (10-07): تفسير الآيات 16 - 24..... 260
سورة فاطر 035 - الدرس (10-08): تفسير الآيات 27 - 34..... 282
سورة فاطر 035 - الدرس (10-09): تفسير الآيات 34 - 40..... 303
سورة فاطر 035 - الدرس (10-10): تفسير الآية 41 ، إلى الأخير..... 323
سورة يس 036 - الدرس (7-1): تفسير الآيات 1-12..... 340
سورة يس 036 - الدرس (7-2): تفسير الآيات 13-32..... 363
سورة يس 036 - الدرس (7-3): تفسير الآيات 20-35..... 383
سورة يس 036 - الدرس (7-4): تفسير الآيات 33-50..... 401
سورة يس 036 - الدرس (7-5): تفسير الآيات 45-65..... 420
سورة يس 036 - الدرس (7-6): تفسير الآيات 66-77..... 440
سورة يس 036 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 77-83..... 455
سورة الصافات 037 - الدرس (14-01): تفسيرالآيات 01 - 05..... 471
سورة الصافات 037 - الدرس (14-02): تفسيرالآيات 6 - 10..... 489
سورة الصافات 037 - الدرس (14-03): تفسيرالآيات 11 - 25..... 504
سورة الصافات 037 - الدرس (14-04): تفسيرالآيات 27 - 34..... 519
سورة الصافات 037 - الدرس (14-05): تفسيرالآيات 35 - 49..... 534
سورة الصافات 037 - الدرس (14-06): تفسيرالآيات 35 - 74..... 552
سورة الصافات 037 - الدرس (14-07): تفسيرالآيات 75 - 82..... 570

سورة الصافات 037 - الدرس (14-08): تفسير الآيات 83 - 98..... 586

سورة الصافات 037 - الدرس (14-09): تفسير الآيات 99 - 113..... 603

سورة الصافات 037 - الدرس (14-10): تفسير الآيات 114 - 122..... 618

سورة الصافات 037 - الدرس (14-11): تفسير الآيات 123 - 132..... 631

سورة الصافات 037 - الدرس (14-12): تفسير الآيات 133 - 148..... 648

سورة الصافات 037 - الدرس (14-13): تفسير الآيات 149 - 163..... 668

سورة الصافات 037 - الدرس (14-14): تفسير الآيات 171 - 182..... 682

الفهرس..... 697

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

التفسير الكبير

تفسير من سورة ص حتى فصلت

www.nabulsi.com
info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1- 10 حال الكافر وتعنته.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-12-04

بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة أو البيان آية من آيات الله الدالة على عظمته :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الأول من سورة ص، بسم الله الرحمن الرحيم:

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

صاد حرف من حروف الهجاء، أشار بعض المفسرين إلى أن في ذكر هذا الحرف لفت نظر للإنسان، أي يا أيها الإنسان هل فكرت في هذه الحروف التي تخرج من فمك؟ هل فكرت في هذا الجهاز الصوتي الذي أودعه الله فيك، الله جلّ جلاله يقول:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

من ثمانية وعشرين حرفاً تتكلم آلاف الكلمات، في بعض معاجم اللغة أكثر من ثمانين ألف مادة، والمادة كما تعلمون تتفرع إلى كلمات كثيرة، العين واللام والميم مادة، منها فعل ماض، وفعل مضارع، وفعل أمر، واسم فاعل، واسم مفعول، واسم مكان، اسم زمان، اسم تفضيل، اسم آلة، صفة مشبهة باسم الفاعل، فعل ثلاثي، رباعي، خماسي، سداسي، فعل مجرد، فعل مزيد، كلها مادة واحدة، ثمانون ألف مادة في بعض معاجمنا، وأصل كل هذه الكلمات ثمانية وعشرون حرفاً.

الإنسان يعبر عن معان دقيقة جداً من خلال اللغة، واللغة مكونة من ثمانية وعشرين حرفاً، فلك أن تعد اللغة أو البيان آية من آيات الله الدالة على عظمته، فالصاد تفخيم السين، والطاء تفخيم التاء، والضاد تفخيم الدال، حروف انفجارية، حروف صفير، حروف همس، مقاطع، حروف لين، حروف متحركة، حروف مَبنَى، حروف معنى، حروف مد، حروف صوت، اللغة من آيات الله الدالة على عظمته، اللغة أداة اتصال بين أفراد النوع، لولا اللغة كيف بإمكانك أن تعبر؟ أن تنقل مشاعرك وأفكارك لبني البشر؟ شيء صعب، بكلمة واحدة يفهمها الناس جميعاً، يفهمون مرادك.

الله عز وجل شاءت حكمته أن يخلق الأشياء من مواد بين أيدينا :

على كل ليس القصد أن نغوص في معاني اللغة، وفي فلسفة اللغة، وفي تفسيرها النفسي والاجتماعي، الهدف أن الإنسان حينما يتكلم كل حرف كما قال علماء اللغة وعلماء الطب أو علماء التشريح، كل حرف تصنعه سبعة عشر حرفاً، فكلمة من خمسة أحرف، وجملة من خمس كلمات، وكلمة من خمس جمل، ومحاضرة من آلاف الجمل، هذا اللسان يتحرك تارة يلتصق بسقف الحلق، تارة يأنف، تارة يفلطح، تارة يلتصق بأسفل الفم، تارة يأتي بين الأسنان وأنت لا تدري، فربنا عز وجل يقول:

(ص)

أي هذه الآية الدالة على عظمة الله عز وجل، هناك معنىً آخر هو أن الله عز وجل شاءت حكمته أن يخلق الأشياء من مواد بين أيدينا، لماذا خلق الإنسان من طين؟ الطين بين أيدينا، هل هناك جهة في الكون تستطيع أن تجعل هذا الطين إنساناً؟ مئة وأربعون مليار خلية في الدماغ هذه استنادية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد، أربعة عشر مليار خلية قشرية تتم فيها المحاكمة والتفكر والتذكر والتصور والاستدلال والاستنتاج والمقايسة، ومركز السمع والبصر والحركة والإدراك. وهناك قلب وأوعية وشرايين وأوردة وأعصاب حس وأعصاب حركة وأعصاب ملساء مخططة، وعظام ومفاصل وأشياء معقدة جداً لا يزال العلم حتى الآن عاجزاً عن إدراك عظمة خلق الإنسان، هل في الأرض جهة تستطيع والطين بين أيدينا؟

(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ)

[سورة السجدة: 7]

هذه البيضة موادها الأولية بين أيدينا، ما يأكله الدجاج تراه بعينك ماذا يأكل؟ هل في الأرض جهة تستطيع أن تجعل من طعام الدجاج بيضة؟ الحليب نشربه كل يوم، ومواده الأولية بين أيدينا، ماذا تأكل البقرة؟ تأكل حشيشاً، هل في الأرض كلها جهة تستطيع أن تصنع من الحشيش حليباً؟ كل مشتقات الحليب مادة أساسية لحياتنا، هذا هو الإعجاز.

الإعجاز في الخلق :

ربنا عز وجل شاءت حكمته أن يصنع شيئاً مواده الأولية بين أيدينا، نحن عاجزون ولكن الله جلّ جلاله يتجلى على الشيء فيجعله شيئاً بالغ التعقيد عظيم النفع.

هذه الزهرة التي تبهج النفوس هي من التراب، الألوان وتناسبها والرائحة العطرة من أين جاءتها؟ اللون الأصفر مع اللون الأخضر، تدرّج ألوانها، دقة تصميمها، روعة شكلها من أين جاءت؟ من

التراب، هذا هو الإعجاز، النبات شيء معجز، الحيوان الصغير، البيضة كيف تصبح بعد أيامٍ عدَّة صوصاً، كائناً يتحرك ويرى ويسمع ويصوت ويأكل، جهاز هضم، جهاز تنفس، جهاز دوران، جهاز عضلي، جهاز عصبي، عينان، أذنان، كل هذا من بيضة، كيف تحولت هذه البيضة إلى هذا الصوص؟ هذا هو الإعجاز، طعام الدجاج يصبح بيضة والبيضة تصبح صوصاً.

والإنسان نقطة من ماء مهين يصبح كائناً سويّاً، الأجهزة التي في الإنسان لا يستطيع الإنسان أن يعقلها، المعجزة أن تكون معافىً سليماً، حينما نستمع من بعض الأطباء الكرام عن أعراض المرض نسبة كذا ارتفعت ونسبة كذا هبطت، معناها أن الإنسان حينما يشعر بصحة وعافية، معناها آلاف الأجهزة وآلاف النسب الدقيقة جداً هي منظمة في دمه وفي عضلاته وفي غدده الصماء، هذا هو الإعجاز.

كل هذه الأمثلة مهدتُ بها لهذا المثل، و(ص) هذا الحرف بين أيديكم، هو بين أيديكم وأمثاله بين أيديكم، والحروف الهجائية كلها بين أيديكم اصنعوا القرآن الكريم، فيه نظام تشريعي كامل، نظام صحي كامل، إخبار عن الماضي، إخبار عن المستقبل، آيات دالة على عظمته، بيان، وبلاغة، وعلم، وخبر صادق، وحكم، وأمر ونهي، وحلال وحرام، وحكمة وموعظة، وتاريخ ومستقبل، كله في هذا الكتاب، هذا هو الإعجاز.

أي إذا تجلى ربنا على الحروف صارت قرآناً، تجلى على الطين صار إنساناً، تجلى على هذه المواد أصبحت وروداً وأزهاراً، تجلى على هذه النطفة فصارت إنساناً سوياً كاملاً.

العلماء أوردوا حول كلمة (ذي الذكر) معانيَ كثيرة :

الذي أردت أن أمهد لكم به هو أن القرآن من هذه الحروف، وهذه الحروف بين أيديكم.

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

القرآن هو الذي يُقرأ. كتاب الله عز وجل، الكتاب هو القرآن والقرآن هو الكتاب، إذا كتبته فهو كتاب، وإذا قرأته فهو قرآن كلام خالق الكون، لكن:

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

العلماء أوردوا حول هذه الكلمة معانيَ كثيرة:

1 ـ ذي الذكر أي أنك إذا قرأته وطبقته رفع الله لك ذكرك :

أول معنى أن هذا القرآن ذي الذكر أي ذي الشرف، أي إذا قرأته أيها الإنسان شرفت بين الناس، إن الله رفع بهذا القرآن أقواماً ووضع به آخرين، إذا تعلمت تلاوته تشرف بين الناس، إذا فهمت معانيه تشرف بين الناس، إذا طبقته تحلّق في سماء القرب، من أي طريق أخذته يعلو بك القرآن.

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

هذا مستنبط من قوله تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 4]

الإنسان قد يكون خاملاً مغموراً لا أحد يعرفه، فإذا قرأ القرآن وتعلمه، إذا تلا القرآن، إذا أحكم القرآن، إذا فهم معاني القرآن، إذا طبق القرآن رفعه الله في أعلى عليين.

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

كل من يأخذ به يشرف عند الله وعند الناس، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكمْ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[البخاري عن عثمان بن عفان]

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

2 ـ ذي الذكر أي ذي الشرف بذاته لا لغيره :

شيء آخر: ذي الذكر أي ذي الشرف بذاته لا لغيره، المعنى الأول أنك إذا قرأته، إذا تلوته، إذا جوّدته، إذا فهمت معانيه، إذا طبقته رفع الله لك ذكرك، كبار قراء القرآن الكريم لهم حرف كغيرهم ولكن الناس ينسون حرفهم ويلتفتون إلى تمكنهم من كتاب الله عز وجل، لذلك إذا أردت أن ترتفع فتعهّد هذا الكتاب تلاوة وفهماً وتطبيقاً، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

كل من تعلمه يرفعه الله عز وجل، المعنى الثاني: ذي الذكر أي شريف بذاته، أي فيه من الإعجاز اللغوي والبياني والأدبي، فيه من الإعجاز العلمي والتشريعي والتاريخي والإخباري الشيء الذي لا يصدق، معنى إعجاز: أي يعجز البشر لو اجتمعوا عن أن يأتوا بآية منه، وقد تحدى الله البشر بذلك فقال:

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

[سورة الإسراء: 88]

فهو يشرف من تعلمه وهو شريف بذاته، هذا المعنى الثاني من معاني:

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

3 ـ ذي الذكر أن به ذكراً لكل ما تحتاجه :

ومعنى ذي الذكر أيضاً أن به ذكراً لكل ما تحتاجه، مستنبط هذا من قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: 3]

كتاب تام كامل، تام في عدد الموضوعات التي عالجها، وكامل في طريقة المعالجة، أي تام وكامل، منهج كامل لا يحتاج إلى منهج آخر، لهذا أي زيادة أو حذف كفر بالقرآن الكريم لأنه كلام الله عز وجل، كل ما تحتاجه في شأنك مع الله، في شأنك مع أهلك، في شأنك مع الناس، في زواجك، في بيعك وشرائك، في مهنتك أو حرفتك.

بل إن العلماء يقولون إن في القرآن الكريم إشارات بليغة إلى أصول العلوم كلها، إلى الأصول لا إلى التفاصيل، حينما قال الله عز وجل:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

هذه إشارة لطيفة إلى علم الذرة، كل مادة خلقها الله عز وجل لو حللتها لوجدتها تنتهي إلى ذرات، والذرة نواة وكهارب وكهرباء، هذا للذكر.

4 ـ ذي الذكرأي فيه ذكر لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا :

وبعضهم قال:

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

أي فيه ذكر لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، الله عز وجل ذكّرنا وذكر لنا في كتابه الكريم ما يتعلق بذاته. بالمناسبة الإنسان بعقله يؤمن بأن لهذا الكون خالقاً، لكن من هذا الخالق؟ ما اسم هذا الخالق؟ لماذا خلق؟ ما الحكمة من خلقه؟ هذا جاء في القرآن الكريم، قال لك الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

[سورة إبراهيم: 19]

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

5 ـ ذي الذكرأي فيه ذكر لما عجز العقل عن إدراكه :

بيَّن لك من خلق، ولماذا خلق، وماذا بعد الخلق، وماذا بعد الموت؟ هذا كله بيّنه الله عز وجل، إذاً فيه ذكر لما عجز العقل عن إدراكه، الشيء الذي أدركه العقل بذاته شيء جيد، لكن كل ما عجز العقل عن إدراكه جاء القرآن وذكره لهذا العقل، فهناك تكامل بين تفكر العقل في السماوات والأرض وبين تلاوة القرآن، العقل له مهمة والنقل له مهمة، العقل يتأمل في الخلق ويستنبط بعض الحقائق، والعقل يقرأ القرآن فيكمل به ما فاته بعقله.

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

6 ـ ذي الذكرأي فيه تذكير لك أيها الإنسان بمهمتك بحقيقتك بما ينتظرك من مسؤولية:

فيه تذكير لك أيها الإنسان بمهمتك، بحقيقتك، بما ينتظرك من مسؤولية، من حساب، من عقاب، من جنة أو نار، والقرآن فيه إجمال معجز، علماء البلاغة يقولون: الكلام بين الإيجاز المخل والإطناب الممل، فهناك إطناب مملّ يمله السامع، وهناك إيجاز مخل لا يفي بالغرض وأيضاً يتأذى منه السامع، كلام ليس له معنى، لشدة اختصاره، لكن كلام الله عز وجل إعجازه في إيجازه، وإيجازه ليس مُخِلاً، وإطنابه ليس مملاً.

الحديث عن كتاب الله حديث يطول، وكل إنسان بنفسه تصور عن هذا الكلام بقدر تأمله في هذا الكلام، بقدر حضوره مجالس العلم، بقدر اهتمامه بهذا الكلام، اهتمامك واستماعك وتأملك يحددان حجم معرفتك بهذا الكلام.

الكافر موقفه من كلام الله عز وجل موقف المكذب المتأبي المستكبر :

قال تعالى:

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

لكن هذا القرآن على عظمته، وهذا القرآن على علوّ شأنه، وهذا القرآن على أنه حبل الله المتين، على أنه الصراط المستقيم، على أنه النور، على أنه البيان، على أنه البرهان، على أنه كتاب الهدى، على أنه المنقِذ، على أنه المنهج، على كل ذلك:

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

معنى العزة هنا: التأبِّي، هم يرفضون تلاوته، يرفضون فهمه، يرفضون أن يَذعنوا أنه كلام الله عز وجل، تأبى نفوسهم ذلك، عزة الشيطان هذه، عزة الكفر، عزة الاستكبار.

(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

[سورة الأنعام: 26]

المؤمن موقفه من كلام الله عز وجل موقف المصدِّق، موقف المستأنس، موقف المقبل، موقف المهتم، موقف المعتقد، لكن الكافر موقفه من كلام الله عز وجل موقف المكذب المتأبي المستكبر.

(فِي عِزَّةٍ)

أي هناك إباء عن سماعه، وعن فهمه، ألا ترون معي أن إنساناً كافراً مهما حاولت أن تسمعه القرآن يتأبى، يبحث عن أغنية يطرب لها، مهما حاولت أن تسمعه شريطاً فيه تفسير لا يرضى إطلاقاً، هذا هو التأبِّي، وهذه هي عزة الشيطان، لكن كما قال عليه الصلاة والسلام حديث رائع جداً:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة ألا يا رب مكرِم لنفسه وهو لها مهين))

[أخرجه السيوطي وابن سعد عن أبي البجير]

في القرآن الكريم كلام هداية ورشد فنظامه نظام نفسي :

تخيل الكافر أنه إذا تأبت نفسه عن هذا الكلام، هذا كلام لا يصلح لهذا الزمان، هذه غيبيات، قال أحدهم: يقول فلان يحمل رتبة علمية عالية القرآن ليس علمياً، ليس فيه علم، بعضهم قال: ليس فيه تناسق موضوعي بين آياته، هذا الذي يجرح في كلام الله يتوهم أن ليس في القرآن موضوعات موحدة، من قال لك أن كلام الله كلام مدرسي أو أنه كلام جامعي، كلام هداية ورشد، نظامه نظام نفسي، فتارة يصف لك مشهد من مشاهد يوم القيامة، وتارة يلفت نظرك إلى آية من آيات الله عز وجل، وتارة يبيّن لك حكماً شرعياً، وتارة يتحفك بخبر تاريخي، وأخرى يخاطب عقلك، ومرة يخاطب قلبك.

القصد أنك إذا قرأت هذه السورة أن تنتقل من الضياع إلى الهدى، من الشرود إلى الوجدان، من الشقاء إلى السعادة، فنظامه نظام نفسي، ومن قال لك أنه كتاب جامعي لا بدّ من فصول، هذا الذي يقول ذلك يتوهم أن فصل عن بني إسرائيل فيه فهرس، فصل عن الزكاة، فصل عن الصيام، طبيعة النفس لا

ترتاح إلى هذه التفصيلات الجامدة، لكن السورة هي هداية متكاملة من أمر إلى نهي إلى موعظة إلى حكم إلى خبر إلى آية إلى مثل إلى شاهد وهكذا.

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

يرفضون سماعه، يرفضون الإذعان له، تأبى نفوسهم أن يطبقوا أوامره ونواهيه هم فوق ذلك، في عزّة أي في تأبٍّ عنه وفي شقاق لمن أنزل عليه، يكرهون النبي عليه الصلاة والسلام لأنه قيّد حرياتهم، لأنه وضعهم أمام مسؤولياتهم، لأنه ذكرهم بالآخرة، لأنه جاء بمنهج تفصيلي فيه اِفعل ولا تفعل، هم يحبون أن يفعلوا ما يشاءون، لذلك هم في عزة واستعلاء وتكبر عن قبول هذا القرآن وما فيه من عقائد، من أوامر، من أخبار، وشقاق لمن أُنزل عليه.

بقدر ما ينطوي قلب المؤمن على حب للنبي بقدر ما ينطوي قلب الكافر على كره له:

حال المؤمن مع القرآن حال التعظيم، حال التصديق، حال الهداية، وحال الحب لمن أنزل عليه، هو الذي أنقذنا، هو الذي هدانا، هو الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور، هو الذي عرفنا بربنا، هو الذي عرفنا بالفضائل، هو الذي كان أسوة لنا، فبقدر ما ينطوي قلب المؤمن على حب للنبي عليه الصلاة والسلام بقدر ما ينطوي قلب الكافر على كره له، يظهر هذا من فلتات لسانه، من استهزائه، من سخريته أحياناً، يظهر هذا إذا ذكر النبي باسمه فقط، هذا استخفاف بالنبي عليه الصلاة والسلام.

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

لذلك اعتقدوا أن البشر على اختلاف مللهم ونحلهم واتجاهاتهم وأعراقهم وأنسابهم وقومياتهم وأجناسهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم هم رجلان: مؤمن وكافر، مؤمن بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر والقدر، وملتزم بشرعه مُحسن إلى خلقه، منوَّر سعيد، والآخر كافر بالله وبأسمائه وبوحدانيته وبكماله، كافر بكتابه ورسوله، بقضائه وقدره مقطوع عن الله عز وجل، متفلت من أوامره، مسيء لخلقه، شقي، في عمًى، الناس رجلان: مؤمن وكافر.

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

يرفع قدر المؤمن ويعلي شأنه، يذكره بربه، يذكره بآخرته.

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

لكن هؤلاء الذين كفروا الذين هم في عزة وشقاق لقد أهلكنا قبلهم أمثالهم، أهلكنا أقواماً كثيرين أمثالهم، الكافر دائماً يخاف بعينه، يرى أنه قوي وأنه غني فيعتدُّ بقوته وغناه، ويكذب الرسل، ويسخر من

دعوات الحق، لكن المؤمن يفكر، يعقل، يتأمل، يقرأ القرآن ويعمل عقله فيه، يفكر في خلق السماوات والأرض، يحجم نفسه، يصدق، يطيع، يقبل، يخاف.

حال الكفار :

أحياناً يتكلم بعض الأشخاص كلمة أشعر أنها تقطر كِبراً، وكأن الدين شيء صغير وهو عظيم جداً، يقول: أنا رجل علم، ولو كنت رجل علم!!! القرآن الكريم لو أمضيت كل حياتك في فهم دقائقه ما أحطْتَ بها، النبي عليه الصلاة والسلام العالِم يمضي سنوات طويلة لينال مرتبة علمية إذا هو فهم بعض الأحاديث الشريفة.

يا أيها الأمّي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء

* * *

الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، كلما تقدم العلم كشفوا جانباً من عظمته، كشفوا جانباً من أن هذا الذي جاء به كيف جاء به، لم يكن هناك معطيات حينما كان النبي فكيف جاء به.

يا أيها الأمّي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء

* * *

قال هؤلاء الكفار إنهم في عزة في تأبٍّ وشقاق لمن أنزل عليه القرآن، أهلكنا قبلهم أمثالهم، أهلكنا قبلهم أقواماً كثيرين تطاولوا وتكبروا وكذبوا وفخروا، ولكن حينما جاء وقت العقاب، وقت البلاء لو رأيتهم يا محمد:

(كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

أحياناً شخص خارج عن القانون يتبجح ويتعالى ويسخر من كل شخص، يريد أن يضبطه، هذا حينما يقع في قبضة العدالة لو رأيته في قفص الاتهام وهو ذليل، بصره نحو الأرض، حينما يعذّب يصيح يتوسل ينادي لو رأيته، كل كبره تلاشى، كل عنجهيته تلاشت، كل غطرسته تلاشت، الكافر يخاف بعينه.

أنا أعرف والله أناساً كثيرين يأتيهم مرض عضال فإذا هم كالأطفال، يصيحون، يولولون، يصرخون بويلهم، يلطمون وجوههم لمرض أوهمهم أن الأجل قريب، أين شخصيتك القوية! أين كبرك! أين استخفافك بالدين! أين احتقارك للمؤمنين الصادقين! أين كل هذا، لذلك:

(كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا)

قال بعض العلماء: نادوا بالتوبة، أو نادوا بالاستغاثة، إما أنهم يستغيثون الله عز وجل، وإما أنهم أعلنوا توبتهم ولكن بعد فوات الأوان.

يوم القيامة ليست الساعة ساعة خلاص هذه الساعة ساعة عقاب :

هذه ما معناها:

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

هذه كلمة منحوتة أساسها: وليس الحين حين مناص، أي من باب التقريب: إنسان ارتكب جريمة واقتيد إلى السجن وحكم وثبتت عليه الجريمة وصدر القرار بإعدامه واستأنف الحكم، وحكمت المحكمة التي هي أعلى بتصديق القرار واستأنف الحكم عند النقض وحكمت محكمة النقض بإعدامه وصدق الحكم من رئيس الجمهورية وسيق للإعدام وهو على حبل المشنقة بدأ يتوسل، نقول له هذا التوسل لا يجدي الآن، فات الوقت، وقت التوسل والبكاء والاسترحام والعويل، افعل ما شئت؛ لك أن تضحك، لك أن تبكي، لك أن تنهار، لك أن تتجشم، افعل ما شئت لا بدّ من تنفيذ الحكم، هذه الساعة لا تنفع.

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

وليست الساعة ساعة خلاص، هذه الساعة ساعة عقاب، هذه الساعة ساعة إنزال البلاء، فالإنسان كما كنت أقول لكم دائماً قضية الإيمان ليست أن تؤمن أو لا تؤمن، لا بدّ من أن تؤمن ولكن بعد فوات الأوان، بقيت قضية الإيمان أن تؤمن بعد فوات الأوان، القصة كلها هذه أن تؤمن وأنت شاب، أن تؤمن وأنت صحيح، أن تؤمن وأنت قوي، أن تؤمن وأنت غني.

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

وليست الساعة هذه الساعة ساعة خلاص من هذا العذاب، هذه ساعة عذاب لا ساعة خلاص، ساعة إنزال العذاب لا ساعة خلاص من هذا العذاب، أي أيها المؤمن لا تنظر إلى كبر الكافر، إلى عجرفته، إلى استعلائه، إلى رده للحق، إلى تأبيه عن قبول الحق، لا تعبأ، لو تنظر إليه وهو ينادي ويستغيث، لو تنظر إليه وهو على فراش الموت.

حال الكافر وهو على فراش الموت بعد فوات الأوان :

إنسان أمضى كل حياته وهو يكسب مالاً من طرق غير مشروعة عن طريق الملاهي والقمار حتى جمع ثروة طائلة تقترب من ألف مليون، جاءه ملك الموت وطالت فترة نزاعه، أولاده أحضروا له بعض أهل العلم، سأل أحدهم ماذا أفعل؟ فقال له هذا الرجل وهو صادق فيما يقول، قال: لو أنفقت هذه

الملايين التي تقترب من ألف مليون أنفقتها كلها لا تنجو من عذاب الله، أين كنت حينما كنت شاباً؟ أين كنت حينما كنت متألقاً؟ لماذا غفلت عن الله عز وجل؟ لماذا نسيت أمر الله؟ لماذا نسيت هذه الساعة؟

(فَنَادَوْا)

صرخوا، استغاثوا، استنجدوا، إما أنهم أعلنوا التوبة وإما أنهم طلبوا المعونة وهذا يحدث دائماً، لو ركب أكثر الكفار طائرة وأصابها خطر قريب من سقوطها، انظر إلى الركاب كلهم يقول: يا الله، بعضهم كان ينكر وجود الله، مرة ركب خبراء بطائرة كلهم ملحدون، دخلت الطائرة في جيب هوائي فهبطت فجأة واضطربت اضطراباً كبيراً، فإذا بهؤلاء الملحدين يقولون: يا الله أنقذنا.

(فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

هذا المتكبر انظر إليه وهو يعاني سكرات الموت، انظر إليه وهو يعاني من الضيق.

(فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ* وَعَجِبُوا)

هنا الحقيقة: ليس العجب أن يأتيك رسول من عند الله عز وجل قد أنزل عليه كتاب، العجب ألا يأتي الرسول، لأن خالق الكون كامل ومن لوازم كماله ألا يدع خلقه بلا أمر ونهي، الأب كامل من لوازم كمال الأب (تقريباً للمعنى) إذا رأى الأب ابنه منحرفاً يسكت الأب؟ لا لكن الأب الكامل دائماً ينصح أبناءه، يأمرهم وينهاهم، يقدم لهم النصائح والإرشادات والبيان والتوضيح والنصح لا بدّ من ذلك، فهم قالوا:

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ)

النبي سيد البشر تجري عليه كل خصائص البشر :

حسناً لو جاءك منذر من الملائكة أول كلام تقوله: هذا ملك وأنا بشر، أول كلمة تقولها لو أنه يُحس بإحساسنا لما أمرنا، لو أن الله ركّب فيه الشهوات التي عندنا لما استقام كما ترونه، الله عز وجل أرسل رسولاً من أنفسنا، يحس بما نحس، ويحب ما نحب، ويكره ما نكره، ويغضب كما نغضب، وينسى كما ننسى، ويتألم كما نتألم، لذلك قالوا لأن النبي تجري عليه كل خصائص البشر كان سيد البشر، لو لم يكن بشراً لما ركب الله فيه شهوة النساء، شهوة المال، وشهوة العلو في الأرض، لولا أنه يشعر بالحر والبرد والجوع والعطش، لولا أنه يغضب لما كان في هذا المستوى الرفيع.

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

لأن دعوته تتعارض مع شهوتهم، لأن دعوته تتعارض مع رغباتهم، قالوا:

(هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

إذا الإنسان دعا إلى الله عز وجل وقال من يعارضه أو من يجرحه له بهذا النبي أسوة حسنة، ساحر كذاب؛ سيد الخلق وحبيب الخلق، وقد يسأل سائل: لماذا أثبت الله تخرصاتهم في القرآن الكريم؟ أثبتها لتكون تسلية لكل من دعا إلى الله عز وجل بعد هذا النبي عليه الصلاة والسلام، من أنت؟ إذا تهجم الناس عليك وجرّحوك، وانتقدوا علمك، وقللوا من شأنك، ونظروا إليك نظرة ليس كما ينبغي، لك في هذا النبي العظيم الذي هو سيد الخلق وحبيب الحق أسوة حسنة.

أدلة تؤكد على وحدانية الله سبحانه :

قال تعالى:

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ*أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)

العجاب أبلغ من العجيب، أقول طويل وطُوّال، من بلغ حداً في الطول مفرطاً يقال له: طُوّال، عجيب وعجاب، شيء لا يصدق إله واحد للعالم كله، طبعاً ألا ترى الانسجام، ألا ترى الوحدة، ألا ترى أن الكون كله ينطلق من مبادئ ثابتة، من بنية واحدة.

الإنسان، مثلاً الآن معمل في كندا يصنع دواءً مسكناً يشحن إلى استراليا، يأتي طبيب في استراليا يصف هذا الدواء لمريض يعاني من آلام في الرأس فتسكن آلامه، ماذا نستنبط من هذا؟ أن الذي خلق الإنسان في كندا هو الذي خلقه في استراليا، الخالق واحد، البنية واحدة، الخصائص واحدة، يتعلم طبيب جراح تشريح الجسم البشري في فرنسا ويعمل في الهند، حينما يفتح البطن هنا يوجد شريان، يوجد هنا وريد، وهنا يوجد عصب حسي، وهنا يوجد عصب حركي، هنا انتبه الغدة، درست هذا في فرنسا فكيف طبقته في الهند؟ لأن البنية واحدة، ألا ترى أن لهذا الكون خالقاً واحداً.

بل إن هناك تشابهاً في بعض الأجهزة بين الإنسان والحيوان، الخروف ما منكم واحد إلا وقف عند القصاب فيرى كليتين ومعدة والمري والأمعاء الدقيقة والأمعاء الغليظة، الكبد والقلب، العضلات، الدماغ ولكن هناك فرق في الدماغ، لكن هناك تشابه كبير بين خلق الحيوان وخلق الإنسان معناه أنه خالق واحد.

بل إن هذا التوافق بين بنية الطعام وبين بنية أجهزة الإنسان، هذا الحليب لهذا الإنسان، القمح غذاء كامل، سوق القمح غذاء للحيوان، التبن غالٍ جداً، الغذاء الأول للحيوان من صمَّم هذا؟ سوق القمح للحيوان والثمرة للإنسان، ألا ترى هذا التوافق!

(أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)

إله واحد، خالق واحد، مشرِّع واحد، قرآن واحد، بنية في الخلق واحدة، هذه وحدة الوجود.

حياة الجاهلية :

قال تعالى:

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ)

الملأ عِلية القوم، أعمدة الكفر، وجهاء المجتمع، العتاة، الطغاة.

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا)

الصورة جميلة جداً، إذا وقف واحد عند بائع مثلاً فقال له: بكم هذه الحاجة (وبذهنه أن ثمنها ألف ليرة)، فقال له: ثمانون ألف، فيقول له: امش، هذا الجواب، ما أعجبه هذا الكلام لأنه غير منطقي وغير واقعي، سعر غير معقول، فكلمة امش أبلغ من المساومة.

فهؤلاء الكفار حينما استمعوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى كلمة التوحيد، بدل أن يقفوا ويصغوا ويتأملوا ويعقلوا ويستفيدوا ويستجيبوا ويثنوا على النبي خيراً، بدلاً من كل ذلك قالوا له: امش.

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ)

على اللات والعزى، لأنهم لا تكليف لهم منها، ليس هنا غض بصر، هنا مسموح الزنا والخمر والربا والغصب والظلم، ومسموح أن يكون للشخص عشر زوجات، والعشر رجال لزوجة واحدة هكذا كانت الجاهلية، حياة كلها فوضى وظلم، وغصب للأموال والأعراض، انغماس في الوحول.

الكافر يفسر كل صدق واهتمام وحرارة إيمانية بالمنافع المادية :

قال تعالى:

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)

هذه مؤامرة علينا من أجل انتزاع الميزات، من أجل تحويل الناس عن هذه البلدة، دائماً الكافر نظرته اقتصادية، مهما كنت متألقاً، مهما كنت غيوراً، مهما كنت صادقاً، مهما كنت متحمساً، يفسر الدعوة أن له مقصد مادي، هدفه المادة، دائماً الكافر يفسر كل صدق واهتمام وحرارة إيمانية يفرغها بالمنافع المادية، لذلك:

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)

يراد بكم، أي له خلفية (بالتعبير الحديث)، له خلفية انتبه، انتبهت لِمَ قال كذا، ماذا قال؟ دعاك إلى الله، هذا يسعى إلى الزعامة، أو يسعى إلى جمع الأموال، أو يسعى إلى جمع الناس، دائماً الكافر لأنه سيئ

يكون سيئ الظن، ما ذاق طعم الإخلاص، ما ذاق طعم الخدمة الخالصة، ما ذاق طعم القرب من الله عز وجل، فدائماً يفسر ما عند الناس على ما عند نفسه.

(إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ* وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)

أي هناك خطة ماكرة تراد لكم، يراد لكم أن تزول عنكم هذه الميزات، هذه المكتسبات، هذه الشهوات.

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ)

آخر ملة اليهودية والنصرانية، ما سمعنا أنه إله واحد بل هناك ثلاثة، باللغة العامية من أين طلع لنا هذا بالإله الواحد؟

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ)

تعجب الكفار من إنزال الوحي على محمد عليه الصلاة والسلام :

يقولون واحد وقلتها لكم مرة سابقة، داعية شاب تحلق الناس حوله، وأعجبوا به من إخلاصه وصدقه، فزعزع مكانة الكبار، فمرة أراد بعض الكبار أن يسفهه فحضر مجلسه، فلما انتهى مجلسه قال له: يا هذا ما سمعنا بهذا، قال: هل حصلت العلم كله؟، قال: لا، فقال: هذا من الشطر الذي لم تحصله.

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ)

هذا مفتري.

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)

الآن الآيات دقيقة جداً، يقول الله عز وجل:

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا)

أي هو نشأ معنا، من أين جاءته النبوة؟ من أين جاءه الوحي؟ هو حينما كان يتعبد في غار حراء أين كنتم أنتم؟ كنتم غارقين في ملذاتكم وشهواتكم، في الخمور والنساء والربا والسفر والصيد، أين كنتم حينما كان يتعبد الله عز وجل؟

هذا يحدث في كل زمان، الإنسان يكون تابعاً لشهواته غارقاً فيها، إذا إنسان ظهر وأكرمه الله بالعلم، يقول متى أصبح هذا كذلك؟ أين كنت حينما كان هو عاكفاً على تحصيل العلم، وحينما كان يمضي الليل في التهجد أين كنت أنت؟ كنت غارقاً في السهرات المختلطة، وفي القيل والقال والأخذ والرد، وفي إضاعة المال، والانغماس في الشهوات.

إن آمنت أن القرآن كلام الله من خلال إعجازه تؤمن أن الذي جاء به هو رسول الله:

قال تعالى:

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي)

هم ما قرؤوا القرآن، لو قرؤوا القرآن وتأملوا في آياته لعرفوا أنه معجز، وأن هذا الكلام المعجز الذي جاء به نبي قولاً واحداً، القضية دقيقة جداً، إن آمنت بهذا القرآن بأنه كلام الله من خلال إعجازه تؤمن بالتبعية، أن الذي جاء به هو رسول الله، لأنك لم تؤمن بالقرآن لم تقرأه، لم تتدبر آياته، لم تقف عند معانيه لذلك هان عليك تكذيب النبي، لو أنك آمنت بالقرآن لآمنت بالنبي، لأن طريق إيمانك بالنبي إيمانك بالقرآن الكريم، وطريق الإيمان بالقرآن الكريم كشف إعجازه، تؤمن به من إعجازه، وتؤمن بالنبي من القرآن الكريم، فقال تعالى:

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي)

شكّوا أن هذا كلامي، ما آمنوا بأنه كلامي، ما رأوا إعجازه، ما رأوا إحاطته، ما رأوا أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حينما لم يروا هذه الرؤية شكوا في الذي أنزل عليه.

أحد أكبر الأسباب التي يسوق الله العذاب من أجلها هو أن يعود الإنسان لعبوديته :

شيء آخر:

(بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)

الإنسان الكافر بالله مادام في صحة جيدة، ومادمت الدنيا مقبلة عليه، ومادام في حرز حريز، ومادام في بحبوحة وفي مكانة، وله أهل وأولاد والأمور تجري على ما يريد يتعالى، يستكبر، يتأبى، أما إذا أذاقه الله العذاب يصبح إنساناً آخر، لو أنهم ذاقوا العذاب عذاب الشرك لزال عنهم الشك، لذلك أحد أكبر الأسباب التي يسوق الله العذاب من أجلها هو أن يعود الإنسان لعبوديته، يزول عنه كبره، الإنسان أيّ عضو من أعضائه، أي جهاز من أجهزته، أي غدة صماء، مركز توازن السوائل، مركز تعيير الملح، مركز تنبيه الرئتين لو تعطل هذا المركز هل بإمكانك أن تنام الليل؟ لا تستطيع.

أعرف رجلاً أصيب مركز تنبيه الرئتين النومي بتلف، لا يستطيع أن ينام لأنه إذا نام يموت فوراً، جاءه ابنه من أمريكا ومعه دواء نادر، هذا الدواء عليه أن يأخذه كل ساعة، يضطر أن يأخذه الساعة التاسعة والعاشرة، أربع منبهات يصحو الحادية عشر، أربع منبهات يصحو الساعة الثانية عشر، أربع منبهات يصحو الساعة الواحدة يأخذ حبة، الساعة الثانية حبة، الساعة الثالثة حبة، الساعة الرابعة حبة،

الساعة الخامسة حبة، الساعة السادسة حبة حتى يستيقظ، فإذا نام يموت، لأن مركز تنبيه الرئتين النومي في الجملة العصبية تخرب، في الإنسان عشرات الغدد الصماء لو تغير معيارها.

مركز توازن السوائل لو اختل الإنسان يدع مكتبه التجاري، يدع تدريسه، يدع عيادته، يدع متجره، يدع كل شيء، يجب أن يبقى بين الصنبور والمرحاض، يشرب عشرين ثلاثين لتر ماء ويبولهم هذا إذا تخرب مركز السوائل فقط، يا ترى مركز توازن يحتاج إلى أدوات يتحرك على أساسها، ثلاث قنوات لو تخربت الإنسان لا يقف، لا يستطيع أن يقف وحده، عاد طفلاً، الإنسان إذا عصى الله على ماذا يعتمد؟!!

الكفار لو عرفوا أن القرآن كلام الله لما شكوا في رسالة النبي :

قال تعالى:

(بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)

سمعت هذا أن إنساناً يدفع لرجل عشرة آلاف ليرة في الشهر لأن مستقيمه أصابه شللاً، فالعضلات التي تطرح الفضلات خارج الجسم هذه العضلات أصيبت بالشلل، فلا بدّ من إنسان بآلة أو بأداة ينزلها له، عشرة آلاف ليرة بالشهر، لو أصيب مستقيمه بالشلل أصبحت الحياة لا تطاق، لو أن قناة الدمع سُدت يفيض الدمع يحفر الدمع أخدوداً لأن الدمع مادة قلوية، حياة الإنسان تصبح جحيماً لو سُدت إحدى قنوات العينين الدمعيتين، لو تعطلت إحدى كليتيه. ماذا أقول لكم عن الأمراض، هناك معاجم للأمراض، آلاف بل مئات الألوف من الأمراض، قال:

(بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)

لو ذاقوا عذابي، لو ذاقوا عذاب الشرك لذهب عنهم الشك، يشك ويتحفظ ويقول: أنا لا أقبل، لا أعتقد بها، من أنت؟

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند

* * *

من أنت؟ كلام خالق الكون، عندما الإنسان تحدثه نفسه أن لا يقبل آية، أو لا يقبل حكماً ويكون أحمق، هذا ليس كلام بشر بل هذا كلام خالق البشر، دقيقة الآية:

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي)

لو أنهم عرفوا القرآن أنه كلامي لما شكوا في رسالة النبي، وعلى كل لو أنهم ذاقوا العذاب لما وقفوا هذا الموقف، إذاً العذاب يحتاجونه.

تعريف العبد :

قال تعالى:

(بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ)

هل بإمكانهم أن يمنعوا عن النبي رحمة الله عز وجل؟ الله عز وجل إذا أعطى أدهش، وإذا أعطى لا ينتظر تزكية أحد، ولا يرد على اعتراض أحد، إذا أعطاك الله لا يعبأ لا بتزكية الناس ولا بذمهم، فهما سيان هو أعطاك وانتهى الأمر.

(أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ)

هم الذين يعطونك هذا القرآن، هذا الوحي، هذا القرب.

(أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ)

ليمنعوا عنك الوحي تفضلوا امنعوا عنه الوحي، لو أنهم ملكوا السماوات والأرض فارتقوا في السماوات ومنعوا عن النبي الوحي والقرآن إذاً هم آلهة، هم عبيد ضعاف.

(أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ* جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ)

كلهم عبيد لله عز وجل، مهزومون، مقهورون، هذا تعريف العبد، العبد مهزوم مقهور إلا إذا اعتصم بالله عز وجل، فالله جلّ جلاله يرفع له ذكره.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 11- 18 صفات المؤمن وصفات الكافر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-12-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى يُعزّي النبي عليه الصلاة والسلام ويواسيه ويطمئنه :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثاني من سورة ص، ومع الآية الحادية عشرة، بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله عز وجل:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ*وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ*إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يُعزّي النبي عليه الصلاة والسلام، معنى يعزيه بمعنى أنه يطمئنه، بمعنى أنه يؤنسه، لا، أنت يا محمد لست وحدك المُكذَّبُ، أقوام كثر أتوا قبل قومك وكذَّبوا رسلهم كما كذبك قومك، لست أنت وحدك المُكذَّبْ فالأنبياء الذين جاءوا قبلك كُذِبوا كما كُذِبت.

الإنسان أحياناً حينما تأتيه مشكلة وهذه المشكلة متكررة أرتاح، لا لأن هذه المشكلة ليست مشكلة ولكن هذا من سنة الله في خلقه، منذ أن خلق الله الإنسان هناك كفر وإيمان، وبين الكفر والإيمان معركة أزلية أبدية في أي عصر، الناس رجلان مؤمن غر كريم وفاجر لئيم، وبين المؤمن والفاجر معركة مستمرة.

أي حدث يفسره المؤمنون تفسيراً نابعاً من إيمانهم ومن تدينهم ومن عقيدتهم، والحادث نفسه يفسره الكفار تفسيراً نابعاً من لؤمهم ومن بعدهم ومن جفوتهم ومن حرصهم على الدنيا، فالإنسان يجب ألا يتفاجأ إذا دعا إلى الله وعارضه المعارضون، ما ينبغي أن يفاجأ إذا تمسك بأهداب الدين وانتقده المنتقدون، ما ينبغي أن يصعق إذا سلك طريق الإيمان وأقام من حوله من أهل الدنيا حوله النكير، هذا وضع طبيعي جداً، المؤمن الصادق يوطن نفسه على أن الحق والباطل لا يلتقيان، ولا يتهادنان، ولا يمكن للباطل أن يتوافق مع الحق، الحق حق والباطل باطل، لكن الحق واحد، والباطل متعدد.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

بين الكفر والإيمان معركة أزلية أبدية في أي عصر :

الخط المستقيم واحد، بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم، المستقيم الآخر يأتي فوقه تماماً، فالحق واحد، لو جلست مع المؤمنين في شتى العصور، لو أتيح لك أن تجلس مع مؤمنين من شتى العصور، من مختلف الأمكنة، من مختلف الأزمنة، من بيئات متنوعة، من مستويات مختلفة، مؤمن غني، مؤمن فقير، مؤمن مثقف ثقافة عالية، مؤمن غير مثقف، مؤمن مدني، مؤمن ريفي، مؤمن من أسرة عريقة النسب، مؤمن من أسرة ضعيفة النسب، الإنسان المؤمن له صفات وله قيم وله طباع وله أخلاق لكها تصب في حقل الإيمان، بينما الكافر له منطلقات وله تفكير وله طريقة في التعامل وله قيم وله تصورات كلها تصب في حقل البعد عن الله عز وجل، لذلك هذه الكلمة:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ)

قبل قليل:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ*إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ)

[سورة الصافات: 171-172]

هذا قانون ثابت، واليوم:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)

الذين بنوا الأهرامات.

(وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)

ما يجمع أهل الكفر جميعاً أنهم انقطعوا عن الله عز وجل واتبعوا الشهوات :

ما الذي يجمع بين هؤلاء الأقوام جميعاً؟ أنهم انطلقوا من شهواتهم، حينما انطلقوا من شهواتهم كذبوا بالحق، لأن الحق يحد من شهواتهم، كذبوا الحق واتبعوا شهواتهم، لذلك ربنا عز وجل قال:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

صفات دقيقة:

(يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً)

[سورة الأعراف: 45]

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

[سورة الدخان: 9]

في شك من القيم الثابتة، في شك من العقيدة الصحيحة، دائماً في تشكك، يقول لك: لست أدري، ولماذا؟ لست أدري، لست أدري، سمة الشك من سمات أهل الكفر، سمة الصد عن سبيل الله من سمات أهل الكفر، سمة يبغونها عوجاً من سمات أهل الكفر، فيجمعهم جميعاً أنهم انقطعوا عن الله عز وجل واتبعوا الشهوات:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

[سورة مريم: 59]

المؤمنون في كل زمان ومكان لهم صفات واحدة والكفار لهم صفات واحدة :

من لوازم هذا الاتجاه:

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

المصائب، المحن، الآلام، الكوارث الطبيعية، لهذا يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

[سورة الإسراء: 58]

كأن الله عز وجل يبين أن كل هؤلاء الأقوام انطلقوا من منطلق واحد، انقطعوا عن الله عز وجل، وانقطاعهم عن الله عز وجل جعلهم يتبعون الشهوات، أو أن اتباعهم الشهوات جعلهم ينقطعون عن الله عز وجل، إما أن تجعل اتباع الشهوات سبباً وترك الصلاة نتيجة، أو أن تجعل ترك الصلاة سبباً واتباع الشهوات نتيجة، أو أن تقول هناك علاقة ترابطية بين اتباع الشهوات وترك الصلوات، هؤلاء الأقوام كلهم جمعهم الكفر، ملة الكفر واحدة، وأنت إذا التقيتَ بكافر فالكافر هو الكافر في تفكيره، في ماديته، في أنانيته، في تفسيراته الأرضية، في كبره واستعلائه، الصفات مشتركة، المؤمنون في شتى الأقطار وفي كل زمان ومكان لهم صفات واحدة، والكفار لهم صفات واحدة، أي أن الإنسان إما أن يتصل بالله عز وجل، وبهذا الاتصال تصطبغ نفسه بالكمال فهو منصف، فهو متواضع، فهو حليم، فهو غيور، فهو رحيم، فهو كريم، الصفات الخُلُقية كلها نابعة من الله عز وجل، مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً.

معنى (الأحزاب) :

إنسان موصول ومع هذه الصلة انضباط شرعي، ومع الانضباط الشرعي إحسان للخلق، ومع الإحسان سلامة من الله عز وجل وسعادة في الدنيا والآخرة، كلام مختصر مفيد: إما اتصال بالله عز وجل وقبل الاتصال معرفة، تعرفه فتتصل به، فتنضبط بأمره ونهيه، فتحسن إلى خلقه فتَسلم في الدنيا وتسعد في الدنيا والآخرة، أو عدم معرفة الله عز وجل إذاً أنت لست موصولاً به، وحينما لا تتصل بالله عز وجل هناك الشهوات، قوى قوية جداً، تندفع إلى إرضاء الشهوات، طبعاً فيما يصح وما لا يصح، فيما يجوز وما لا يجوز، الاندفاع في إرواء الشهوات يأتي إلى العدوان، ينتهي بالعدوان، والعدوان إساءة ومع الإساءة يوجد عقاب ومع العقاب ألم، فالكلام واضح كالشمس، معرفة اتصال، إحسان انضباط، سلامة سعادة، جهل انقطاع، عدم انضباط، شهوات، طغيان، شقاء في الدنيا والآخرة، هذا الجمع:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)

ما معنى أولئك الأحزاب؟ أي هؤلاء الأقوام الأقوياء الذين يملؤون السمع والبصر، في كل مجتمع بشري هناك دول قوية جداً، مرهوبة الجانب لأن معها سلاح نووي، مشيئتها نافذة في العالم كله، سفيرها محترم جداً لأنه يمثل دولة عظمى، قال:

(أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)

هؤلاء الأقوياء الذين كفروا وانقطعوا وأساءوا دمرناهم، فأي قوم آخرون إذا كفروا كفرهم، وانحرفوا انحرافهم، وتكبروا تكبرهم لا بدّ من أن يلقوا المصير نفسه.

معنى هؤلاء الأحزاب: يعني هؤلاء الذين يملؤون السمع والبصر، هؤلاء الذين كانوا أسياد الدنيا، هؤلاء الذين كانوا مسيطرين، هؤلاء الذين كانت كلمتهم نافذة في كل بقاع الأرض، هؤلاء دمرناهم.

(أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)

أي كانوا متحزبين، يجتمعون، يخططون، يتآمرون على الضعفاء، ينهبون الثروات، يأخذون الغلات، يسيطرون على أسماع الناس، ينقلون الأخبار التي ترضيهم، يضعون في التعتيم الأخبار التي تزعجهم، هؤلاء المسيطرون، هؤلاء الأحزاب دمرناهم، وأهلكناهم، وجعلناهم أحاديث.

العقاب لا للتكذيب بل للانحراف :

قال تعالى:

(إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

أي ما منهم واحد إلا وقد كذب الرسل، وحينما كذب الرسل استحق العقاب من الله عز وجل، معنى ذلك أن التكذيب يتبعه الانحراف، والانحراف يتبعه العقاب، فالعقاب لا للتكذيب بل للانحراف، الإنسان إذا كذب نبي الله عز وجل، ومن لوازم تكذيب نبي الله عليه الصلاة والسلام عدم اتباع منهجه، والإنسان إذا لم يتبع منهج النبي ولا منهج القرآن سوف يأخذ ما ليس له، ويعتدي على الآخرين لذلك الله عز وجل يعاقبه.

(إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

أي الإنسان ألا يستطيع أن يستقرئ من التاريخ أن كل قوم كذبوا رسلهم واتبعوا شهواتهم وعتوا وطغوا وبغوا حاسبهم الله حساباً عسيراً، ربنا عز وجل قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: 11]

الأحداث وحدها تنبئك بالأخبار، ممكن أن تستخلص حقائق من أحداث متعددة، والإنسان مع نفسه إذا أراد أن يستقرئ حوادث من أقوام متباينة شيء، وإذا أراد أن يستقرئ الحوادث من قوم واحد شيء، وبإمكانه أن يستقرئ الحوادث من حياته شيء آخر، أي أنت كلما أقبلت على الله عز وجل شعرت بالتوفيق، شعرت بالسعادة، كلما ابتعدت عن الله عز وجل شعرت بالقلق، شعرت بالتعسير، فالتيسير والتعسير، الإقبال والإدبار، التوفيق وعدم التوفيق، هذه مشاعر متناقضة، فأنت ألا تستطيع أن تستنبط من حوادثك اليومية أنك اليوم صليت الفجر في جماعة وقرأت القرآن وأقبلت على الله عز وجل إذاً يومك يوم آخر فيه التوفيق والراحة، فيه الطمأنينة والاستقرار، فيه قوة الحجة، فيه سداد الرأي، فيه الحكمة البالغة، وحينما فاتتك صلاة لفجر في جماعة خرجت من بيتك لا تلوي على شيء، في ضياع، في قلق، في حمق أحياناً، ألا يمكن أن تستقرئ حينما أكلت المال الحلال بارك الله لك فيه، وحينما أكل الإنسان مالاً حراماً أتلفه الله، حينما اعتززت بالله أيدك الله ونصرك، حينما تعتز بغير الله يقهرك يخذلك.

من صفات الكفر :

إذاً استقرئ أنت، يمكن أن تستقرئ الحقائق من الحوادث التي تجري معك شخصياً، أنا كنت أعبر عن هذا بالتعبير الشائع: عندما الإنسان يفهم على الله عز وجل يقطع نصف الطريق، أي لماذا فعل الله بك هكذا؟ لأنك فعلت كذا، لماذا وُفِّقتَ؟ لأن نيتك كانت طيبة، لماذا جاء التعسير؟ لهذه المخالفة، لماذا نشب خلاف في البيت؟ لأن البصر قد أطلق في الحرام، لماذا سعدت في البيت؟ لأن هناك غض للبصر، ألا

يمكن أن تستقرئ بين كل موقف وقفته وبين النتائج قاعدة هذا هو المؤمن، فكره جوال دائماً، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي بتسع؛ خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ)

يجمعهم جميعاً الصد عن سبيل الله، يجمعهم التكذيب برسالات الأنبياء، يجمعهم الصد عن سبيل الله، يجمعهم اتباع الشهوات، يجمعهم يبغونها عوجاً، يجمعهم بل هم في شك، يجمعهم بل هم يلعبون، الشك واللعب، الصد عن سبيل الله وابتغاء الأمور بشكل أعوج غير سليم هذا كله من صفات الكفر.

آيات قرآنية تؤكد أن الإنسان إذا كذب سوف يجد العقاب :

قال تعالى:

(إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

أما هؤلاء الذين يكذبون كما كذب الذين من قبلهم، هؤلاء الذين ينحرفون كما انحرف الذين من قبلهم، هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله كما صدّ آخرون عن سبيل الله من قبلهم، هذا ماذا ينتظرهم؟ ينتظرهم العذاب أيضاً.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص: 4-6]

ألا تستنبطون من كل هذه الآيات، ومن كل هذه الحوادث حقائق أن الإنسان إذا كذب سوف يجد العقاب، مهما كان قوياً، مهما كان جباراً، مهما كان عنيداً، مهما كان متعجرفاً، العجرفة والصَلَف والكبر والقوة، أولئك الأحزاب وقد دمرهم الله عز وجل.

دلائل ساقها الله تعالى تبين أن الأقوياء في الأرض مهما علا شأنهم يدمرهم الله تعالى:

قال تعالى:

(إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ *وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

مثلاً: لو أن هناك رافعة على أساس الجذب المغناطيسي الكهربائي، سطح من الحديد محاط بوشيعة فيها تيار كهربائي، هذه الرافعة يمكن أن تحمل عشرات الأطنان من الحديد، إذا أراد العامل على هذه الرافعة أن يسقط الأحمال كلها ما عليه إلا أن يضغط مفتاحاً يقطع التيار عن هذه الرافعة، فإذا كل هذه الأحمال تقع فجأة.

من باب التقريب الله عز وجل، الأقوياء في الأرض مهما علا شأنهم، هؤلاء الأقوياء في المشرق كيف تفككت عراهم، وكيف انهارت أبنيتهم، وكيف أصبحوا شذر مذر، وكيف أصبحوا مضغة في الأفواه، وكيف تداعت هذه القلاع التي يظن أنها لا تتداعى، هذه من الدلائل التي ساقها الله عز وجل، قال:

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

معنى فواق: أي الإنسان إذا أراد أن يدوس نملة فرضاً يحتاج ضربتين أم ضربة واحدة؟ نملة صغيرة مع أن قتلها حرام بالمناسبة، لكن إنسان جاهل لو أراد أن يدوس نملة ليقتلها، وهو رجل وزنه ثمانين كيلو طويل عريض، ونملة صغيرة، كم ضربة تحتاج كي تموت؟ واحدة، لكن هناك حيوان يحتاج إلى ضربتين وثلاثة، يقول لك: أهلكني حتى قتلته، أما نملة، صرصور صغير.

(مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

معنيان لكلمة (فواق) :

هؤلاء الأقوام مهما علا شأنهم، مهما قوي عودهم، مهما علا ذكرهم:

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

لا تحتاج إلى صيحة ثانية، لا تحتاج إلى إعادة، الفواق هنا بمعنى الإعادة، أي على الله كن فيكون، زل فيزول، كن، زل كلمة واحدة:

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

الأمر سهل جداً، على أن الإنسان قد يطغى، قد يتكبر لكن هو في قبضة الله عز وجل، قلبه بيد الله، يقال لك سكتة دماغية، أحياناً وفاة بلا سبب، الإنسان ضعيف جداً، حياته متوقفة على عشرات الأجهزة، وعشرات الغدد، وعشرات المراكز العصبية، وعشرات الدسامات، وعشرات المراكز المتوازنة، فالإنسان المعجزة أن يكون سليماً.

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فُوَاقٍ)

المعنى الآخر لفواق، العيادة فواق ناقة، أي لا تكن طويلة بل قصيرة، فواق الناقة إذا حلبتها وتركتها فترة قصيرة كي تحلبها ثانية، هذه الفترة اليسيرة هي الفواق، أي مدة ربع ساعة أو ثلث يمكنك أن تحلبها مرة ثانية من أجل أن تطعم وليدها، فالفواق فترة قصيرة لا يوجد راحة طويلة بين حلبتين بل راحة قصيرة، حتى هذه الراحة القصيرة لا تكون حينما يأخذ الله الكفار. أحياناً الإنسان ضربة وتريحه، أما عندما ربنا عز وجل يأخذ هؤلاء الكفار ضربة واحدة ليس في أثناءها راحة أبداً إلى أن يقضي عليهم.

المعنى الأقرب للمنطق: ما لها من فواق أي ما لها من إعادة، صيحة واحدة، كلمة واحدة للتأكيد، ضربة واحدة ما لها من فواق، ومع هذا فالكفار دائماً يستهزئون.

الكافر يخاف بعينه لأنه عطل فكره أما الإنسان العاقل فيخاف بفكره وعقله :

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الكافر يخاف بعينه، لأنه عطل فكره إذا يخاف بعينه، أما الإنسان العاقل فيخاف بفكره وعقله، الإنسان العاقل يتوقع الشيء قبل مجيئه، لكن الإنسان الجاهل، المعنى المناسب لـ:

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فُوَاقٍ)

أي لا تحتاج إلى إعادة، هذا هو واقع الإنسان، الزلزال مثلاً تجد عمارة طويلة عريضة خلال تسع وخمسين ثانية أصبحت كتلة من الرمل أو من الإسمنت المطحون، بأشخاصها، برجالها، بنسائها، بأطفالها، بديكوراتها، بأثاث البيوت، حتى بالأموال، يوجد زلزال مصر في بعض العمارات يسكنها طبقة غنية جداً، وجدوا بين الأنقاض حقائب فيها أموال طائلة، فيها حلي، فيها ألماس، إنسان جالس فجأة وجد نفسه تحت الأنقاض.

مرة باخرة غرقت في البحر الأحمر، إنسان راكب درجة أولى في غرفة خاصة فجأة وجد نفسه في أعماق البحر، الإنسان ضعيف يركب طائرة يقال: مات جميع ركابها؛ بخبر من ثلاث كلمات، ثلاثمئة وخمسون راكباً وقد مات جميع ركابها، يحترقون ولا يبقى لهم أثر إلا الصندوق الأسود الذي فيه

تسجيلات آخر مكالمة، باخرة تجدها في أعماق المحيط، باخرة معروفة لكم وهي التيتانيك قيل عنها أنها لا تغرق، وقال بعض الحمقى: إن القدر لا يستطيع أن يغرقها، لأنها مصممة تصميماً عجيباً، من أشهر البواخر في أول رحلة لها من أوربا إلى أمريكا، كان على ظهرها أثرياء العالم، أساسها ومسابحها ونواديها الليلية والرقص والموسيقا والمطاعم والغرف والأجنحة، كل الحضارات في هذه الباخرة، وفي أول رحلة لها اصطدمت بجبل ثلجي شقها شطرين فغاصت، هذا رد السماء للأرض.

فالإنسان أحياناً يركب باخرة أو طائرة أو سيارة، أحياناً ينهار منزل.

(مَا لَهَا مِنْ فُوَاقٍ)

صبر النبي على قول المكذبين وعلى تصديهم للحق بأمر من الله :

الإنسان ضعيف، ما انهار بيته ولكن مرض، الله عنده آلاف الأدوية، ومع كل هذا هؤلاء قالوا:

(وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)

القط هنا النصيب، أي عجل نصيبنا من العذاب، أين العذاب؟ هذا قول استهزاء.

(عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)

متى يا سيدنا (خلّي) العذاب يأتي ونخلص لسنا مرتاحين، حينما يأتي العذاب تراه يصيح كالكلاب، فالعاقل هو الذي يفكر ويعقل ويبحث عن منهج الله عز وجل، ويطبق أمر الله عز وجل، ويتصل بالله عز وجل حتى إذا ما جاء العذاب شعر أنه في مأمن من العذاب.

(اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

الله عز وجل يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يصبر على قول هؤلاء المكذبين، على أقوالهم، على تخرصاتهم، على استهزائهم، على تصديهم للحق.

(اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

أيها الأخوة الكرام، قبل أن نمضي في الحديث عن قصة هذا النبي الكريم، وفي الحديث عن نبي يأتي بعده سيدنا سليمان، هاتان القصتان تتمحوران حول محور واحد، ما هو هذا المحور؟ المؤمن بشكل عام له نشاطان: نشاط في العبادة، ونشاط في العمل الصالح.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 19- 29 التوازن بين التعبد وبين خدمة الخلق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-12-18

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستفهام يحمل على التشويق أو على إبراز الإعجاز الإخباري في القرآن الكريم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة ص، يقول الله عز وجل:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)

أولاً: (هل) حرف استفهام، وهذا الاستفهام يحمل على محمل التشويق، على محمل التنبيه، على محمل لفت النظر، أو يحمل على محمل الإعجاز الإخباري في القرآن الكريم، في القرآن الكريم غيب متعلق بالماضي، وغيب متعلق بالحاضر، وغيب متعلق بالمستقبل، وهذه الحقائق التي وقعت والتي تقع والتي سوف تقع هذه غيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أُنبئْنا بها فهذه دلالة من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام.

أنت لا تعرف هذه القصص، ولا تعرف ما جرى، هل أتاك نبأ الخصم؟ لم يأتك به أحد، فمن أين جاءك إذاً؟ من الله عز وجل وأنت رسول.

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ)

إما أنها تحمل على التشويق، أو تحمل على إبراز الإعجاز الإخباري في القرآن الكريم، وأن هذه الأخبار وتلك القصص التي وردت في القرآن الكريم إنما تخبرنا عن صدق نبوته صلى الله عليه وسلم وعن أحقّية رسالته إلى العالمين.

التوازن بين التعبد وبين خدمة الخلق هو الأسلوب الأمثل والسلوك الأقوم :

قال تعالى:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ)

الخصم هذه للمفرد وللمثنى وللجمع، شخصان خصم، وأشخاص خصم، وشخص خصم، من اللذين تخاصما؟

(إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)

سيدنا داود كان قابعاً في محرابه يصلي، أو كان قابعاً في محرابه يقرأ التوراة، أو يسبح الله عز وجل، فهذا النبي العظيم كان في خلوة من خلواته مع ربه - حينما جاء رسول أذربيجان ووصل المدينة ليلاً لم يجد من المناسب أن يطرق باب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فذهب إلى المسجد، في المسجد سمع رجلاً يناجي ربه يقول: يا ربي هل قبلت توبتي فأهنئَ نفسي أم رددتها فأعزيها، هذا الرسول قال له: من أنت يرحمك الله، قال: أنا عمر، قال: أنت عمر، ألا تنام الليل يا أمير المؤمنين، فأجاب إجابة رائعة، قال: إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي وإن نمت نهاري أضعت رعيتي - معنى ذلك أن الإنسان لا بدّ له من حالين: أن يكون مع الخلق تارة، ومع الحق تارة، فإن بقي طوال وقته مع الخلق مات قلبه، وإن بقي طوال الوقت مع الحق قلّ عمله، فمن أجل أن تجمع بين حياة القلب وبين وفرة العمل الصالح لا بدّ أن تكون مع الحق متعبداً ومع الخلق محسناً.

سيدنا داود له ساعة مع ربه، له ساعة يخلو فيها مع ربه، كما مهدت لكم في درس سابق، هاتان القصتان في مجموعهما متكاملتان، نبي آثر العبادة على العمل الصالح فترك الأولى، ونبي آثر العمل الصالح على العبادة فترك الأولى، ومن مجموع القصتين يتضح: أن التوازن بين التعبد وبين خدمة الخلق هو الأسلوب الأمثل والسلوك الأقوم.

لكل قصة مغزى يتجه إلى القصد النبيل الذي أراده الله عز وجل :

ربنا عز وجل لعلمه بأن هذا النبي الكريم يؤثر جانب التعبد على جانب خدمة الخلق أراد أن يلفت نظره، أراد أن يضعه في ظرف يكشف له تركه للأولى، فجعل له هذه القصة، سيدنا داود وهو في محرابه، والمحراب مكان العبادة، مكان محاربة الشيطان، أوجه غرفة في البيت كما تروي كتب اللغة، أي أشرف غرفة يقال لها محراب، أو أشرف مكان في الغرفة يقال له محراب، فالإنسان يذكر الله عز وجل ويتعبد في مكان طيب طاهر بعيد عن الضوضاء سماه الله عز وجل محراباً، ومنه سمي المحراب في المسجد محراباً لأنه أشرف مكان في المسجد، فالله عز وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام يقول له:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا)

معنى تسوروا أي تسلقوا سور المحراب، ما دخلوا عليه من بابه ولكن تسوروا، قال بعضهم أنه منعهم من دخول محرابه، فجاءه هذان الشخصان فتسورا المحراب.

بالمناسبة هناك أقوال كثيرة جداً حول هذه القصة، بعضهم قال: اللذان دخلا المحراب ملكان طاهران، وبعضهم قال: إنهما رجلان حقيقيان، وبعضهم قال: إنهما ملكان في صورة رجلين.

دائماً وأبداً القصة لها مغزى، وفيها تفصيلات، وفيها تفصيلات لم تذكر، فيها تفصيلات ذكرت وتفصيلات لم تذكر، فالتي لم تذكر لا حاجة لها إطلاقاً، وينبغي أن نسكت عما سكت عنه الله، لو أن فيها فائدة لذكرها الله عز وجل، فالجزئيات والتفصيلات التي لم تذكر لسنا بحاجة إلى ذكرها، ولا إلى البحث عنها، ولا إلى التنقيب فيها. والتفصيلات التي ذكرت نكتفي بها، لكن بعيداً عن التفصيلات يجب أن نتجه إلى الكليات، يجب أن نتجه إلى القصد النبيل الذي أراده الله عز وجل من هذه القصة، إذا قرأنا قصة في القرآن ووضعنا أيدينا على مغزاها أو على الهدف الكبير التي أراده الله منها فقد قرأناها، أما إذا ضعنا في تفاصيل الجزئيات، وفي روايات الإسرائيليين، وفي تخرصات المتأولين، أي إذا دخلنا في هذه التفاصيل ننسى الهدف الكبير الذي وراء هذه القصة.

هناك آيات كثيرة تؤكد أن بعض الأنبياء خافوا :

بعضهم قال: ملكان، بعضهم قال: رجلان، بعضهم قال: ملكان في صورة رجلين، على كل ربنا عز وجل سماهما خصمين، أي شخصان مثلا أمام سيدنا داود.

(إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ)

قيل فزع منهما لأنهما دخلا عليه في وقت غير مناسب، أو لأنهما دخلا عليه بطريقة غير مناسبة ففزع منهم، وهذه القصة تثبت أن الأنبياء يفزعون، وهناك آيات كثيرة تؤكد أن بعض الأنبياء خافوا.

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى*قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

[سورة طه: 67-68]

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ)

[سورة القصص: 21]

إذاً لولا أن صفات البشر تجري على الأنبياء لما كانوا سادة للبشرية:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الكهف: 110]

أي يخاف مثلما يخاف الناس، ويجزع كما يجزعون، ويتألم كما يتألمون، ويحب كما يحبون، ولكنْ سمَا عن سقطات البشر وعن أوحال البشر، لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، إنسان لا يجوع إذاً ليس له أجر لكن يجوع ويصبر، إنسان لا يخاف ليس له أجر في خوض المعارك لكن يخاف على حياته فيضحي بها.

لكل قصة مغزى عميق :

هذان الملكان على قول، أو هذان الرجلان على قول آخر لم يدخلا إليه من باب محرابه، ولم يدخلا إليه في الوقت المناسب، بل تسورا المحراب، فلما تسورا المحراب فزع منهم، فالفزع يسقط على الأنبياء، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر))

[مسلم عن أنس بن مالك]

على كلٍّ القصة لها مغزى عميق هو أن في الإنسان شيء كامن في نفسه، هذا الشيء الكامن قد لا يظهر، لكن في ظروف معينة وفي شرائط معينة هذا الشيء الكامن يظهر، يخرج إلى السطح.

حدثني أخ كان في مصر أثناء الزلزال، طبيبان في مستشفى متعمقان في علمهما، أنيقان في مظهرهما، وديعان في معاملتهما، لما وقع الزلزال واحد ترك المستشفى واتجه نحو الإسكندرية، والأخر بقي يعمل أربعاً وعشرين ساعة حتى تورمت قدماه، في المظهر والشهادة والعلم والكياسة متشابهان، ولكن هذا الزلزال كشف حقيقة كل منهما، واحد ضحى بنفسه وقدم علمه سخياً لكل المصابين، وواحد نجا بنفسه وآثر سلامته على إسعاف المصابين.

فالقصة فيها مغزى عميق، كل إنسان في نفسه شيء كامن، هذا الشيء الكامن لا يتبدَّى إلا في بعض الظروف، لو أن الإنسان ساكن مع زوجته وحده ووالدته في بيت آخر، يمكن ألا يظهر إيثاره للحق، لكن أحياناً تنشأ خصومة بين الزوجة والأم، هنا يظهر موقف الزوج إما أن ينحاز إلى أمه انحيازاً أعمى، وإما أن ينحاز إلى زوجته انحيازاً أعمى، وإما أن يقف الموقف الحقيقي ويعطي كل ذي حق حقه، لولا هذه الخصومة لما ظهر ما في النفس من كمال أو نقص، هذا معنى قول الله تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

كل إنسان يوضع في ظروف دقيقة جداً، أي الإنسان يكشف، هذا يدعي الكرم يوضع في ظرف فيظهر أنه بخيل، هذا يدَّعي أنه بار بوالديه فيوضع في ظرف معين فيظهر أنه عاق لوالديه، هذا يدَّعي حب الله عز وجل يضعه الله في ظرف فيه إغراء شديد فيميل مع الشهوة ويظهر أن ادعاءه كان كاذباً، لا بدّ من أن تمتحن، قل ما تشاء، صف نفسك بأي صفة، ادَّع ما تشاء، حدثنا عن نفسك ما تشاء، الله عز وجل وحده يتولى كشف الحقائق عن طريق ظروف دقيقة دَقيقة، صَعبة صعبة يجتازها الإنسان.

النبي معصوم عن الخطأ :

قد يترفع الإنسان عن أخذ مبلغ مال حرام ويتبجح ويقول: أنا نزيه وأنا كذا، وهو ليس كذلك، يعرض عليه مبلغ كبير يقبل، معناه أن ادعاءه كان كاذباً.

مغزى القصة أن كل إنسان لا بدّ من أن يُفتن، ومعنى يفتن أي يكشف على حقيقته، تقول ما تشاء والله يتولى كشف صدقك أو عدم صدقك.

فهذا النبي الكريم كان في عبادته، وكان في تلاوته، وكان في تسبيحه، وكان في استغفاره، وكان في خلوته، وضع في ظرف صعب فجأة رأى نفسه أمام رجلين في محرابه ففزع منهم، طمأناه فقالا لا تخف لن ننالك بأذى.

(قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ)

نحن خصمان، أي اعتدى بعضنا على بعض.

(فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)

طبعاً ما ترويه بعض التفاسير من أن هذا النبي الكريم كان في محرابه، فإذا بطائر يطير أمامه، ثم وقف أمامه على المحراب فإذا كوة في المحراب نظر منها، فإذا امرأة على جانب كبير من الجمال كانت تغتسل، فوقعت في نفسه وملأ عينيه منها، ثم علم أنها زوجة أحد قواده، فأرسل إلى قائد الجيش أن قدِّمه قدمه واجعله يموت حتى آخذ زوجته، هذه قصة لا أصل لها، هذه قصة ساقطة ومعظم المفسرين أنكروها، هذه من قصص بني إسرائيل، فلذلك أتمنى وأرجو ألا يلتفت أحد إلى هذه القصص التي دخلت علينا من كتب بني إسرائيل، نبي كريم معصوم عن الخطأ.

معنى النبي أنه معصوم، هذا فعل الساقطين، هذا ليس فعل عامة الناس بل أقل من ذلك، لكن هذا النبي العظيم أراد الله عز وجل أن يكشف حقيقته الراقية.

كلمة خلطاء أوسع من شركاء :

قال:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

أي ضمها إليّ حتى أتكفل إطعامها.

(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

أي غَلَبني، تكلم أول خصم، سيدنا داود اكتفى بقول الخصم الأول ولم يطلب من الآخر أن يقرّ بذلك، ولم يطلب من الآخر أن يدافع عن نفسه، فما كان من هذا النبي وقد كان غارقاً في سعادة قربه من الله عز وجل، كان غارقاً في تسبيحه وتلاوته وتحميده، فأراد أن ينهي هذه القضية على عجل وأن يفصل بينهما فقال:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ)

ظلمك ظلماً صارخاً.

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

الخلطاء هم الشركاء، والزوجان شركاء وخلطاء، والمسافران خلطاء وشركاء، أي كلمة خلطاء أوسع من شركاء، فأي إنسان خالط إنساناً لفترة طويلة أو قصيرة، جليلة أو حقيرة، خالطه في سفر قريب، خالطه في عمر مديد، زوجته وهي شريكة حياته.

الإنصاف من علامات الإيمان :

الآن هذه حكمة أنطق الله بها هذا النبي الكريم:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

إذاً الخليط قد يبغي على خليطه، يأخذ ما ليس له، أو يقدم أقل مما يأخذ، أي هناك عدوان جلي وعدوان خفي، فإذا بذل أحد الشريكين جهداً أكثر من الأخر فقد بغى على شريكه، وإن أخذ من الأجر أكثر من الآخر فقد بغى على شريكه، حتى إن الآية أوسع بكثير من هذه المعاني، في التعامل اليومي أنت بائع وهذا شارٍ، هذان خليطان إن أخذت منه زيادة على السعر الحقيقي فقد بغيت عليه، وإن حاول أن لا يعطيك شيئاً من أرباحك فقد بغى عليك، أي علاقة بين اثنين إذا بغى أحدهما على الآخر فهذان متخالطان بغى أحدهما على الأخر، فقال هذا النبي الكريم وقد نطق بالحكمة:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

أما الاستثناء رائع فقال:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)

الله عز وجل استثنى المؤمنين من أن يبغي بعضهم على بعض، فإذا بغى بعضهم على بعض فقد انسلخوا من صفة الإيمان، هذا كلام أيها الأخوة دقيقٌ دقيق، نحن المعنيون بهذا الكلام، أي أنت مؤمن لا لأنك تصلي وتصوم فقط، أنت مؤمن لأنك تقف عند الحدود، لا تأخذ ما ليس لك، تنصف الناس من نفسك، تعطي الناس حقهم دون أن تتعبهم في ذلك، تأخذ ما لك فقط ولا تأخذ ما ليس لك، أي أنت

منصف، من علامات الإيمان الإنصاف، من علامات الإيمان الوقوف عند حدود الشرع، فإذا أخذت ما ليس لك، وإذا بغيت على خليطك وإذا تطلعت إلى ما لا تستحق فأنت لا تدري أنك انسلخت من الإيمان.

الدنيا دار امتحان :

قال تعالى:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)

أي ما أقلهم، فالإنسان إذا شارك إنساناً ليس مؤمناً الأصل أنه لن ينصفه، الأصل أنه يبغي عليه وهذا نص قول الله عز وجل، المؤمن فقط هو الذي لا يبغي، المؤمن فقط هو المنصف، المؤمن هو وحده الذي يأخذ ما له ويدع ما ليس له، لكن غير المؤمن يأخذ ما له وما ليس له، يبغي على خليطه وعلى قرينه وشريكه وزوجته ومن حوله وعلى جيرانه.

يبدو أن هذين الرجلين اختفيا فجأة، حينما اختفيا فجأة تيقن داود أنهما ليسا برَجُلين، وهذه القصة التي روياها له ليست حقيقية إنما فتنة فتنه الله بها.

(وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)

إذاً أنت ممتَحَن دائماً، اعلم هذه الحقيقة أنت دائماً ممتحن، ممتحن بالعطاء، ممتحن بالمنع، ممتحن بالضغط أحياناً، ممتحن بالإغراء أحياناً، ممتحن بخليط، ممتَحَن بشريك، ممتحن بجار، ممتحن بزوجة، ممتَحَن بولد، أنت ممتحن. الدنيا دار امتحان.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة الإنسان: 2]

يبدو أن النبي حينما اختفى هذان الرجلان المتسوِّران أو الملكان، حينما اختفيا فجأة، استمع للأول وحكم عليهما بأن الثاني ظالم ظلماً صارخاً ولم يلتفت إلى قول الطرف الآخر ولم يسأله ولم يستمع إلى إقراره، ثم اختفى الأول والثاني فجأة فعرف هذا النبي الكريم أن الله جلّ جلاله قد امتحنه.

من صفات المؤمن أنه كثير الأوبة إلى الله عز وجل فهو تواب أواب أواه :

قال تعالى:

(وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)

بعضهم قال: الركوع يجزئ عن السجود، وبعضهم قال: هذا سجود مجازي، على كل المؤمن من صفاته أنه كثير الأوبة إلى الله عز وجل، كثير العودة إليه، كثير الرجوع له، تواب أواب أواه.

(فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ)

الله عز وجل يؤدبنا جميعاً، يعني ترك الأولى لفت نظره بين حاله فغفرنا له ذلك.

(وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

زُلفى أي مقرَّب، هذا النبي الكريم كان مقرّباً إلى الله عز وجل، وحسن مآب أي له يوم القيامة عودة حسنة، يبدو أن أعظم نعمة ينعم الله بها على الإنسان أن يهيئ له عودة حسنة إليه، هناك عودة سيئة جداً، هناك إنسان دنياه ترقص ولكن إذا جاءه ملك الموت كان الموت مصيبة في حقه، لكن المؤمن واهنٌ راقع لكن له عند الله عز وجل وهذا هو ظنه عودة حسنة.

(وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

في الدنيا العمل مقدم على المتعة الروحية :

الآن جاء العتاب الإلهي:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى)

هنا السؤال: إذا عُزي الهوى إلى نبي فأي هوى هذا؟ إذا عزي الهوى إلى ساقط معروف أنه الهوى المنحط، إما إذا عزي الهوى إلى نبي عظيم أيّ هوى هذا؟ هو أن يحب الله عز وجل، أي حبه لله عز وجل ورغبته بالقرب منه، خلوده إلى الذكر، إلى التسبيح، إلى التحميد هو الذي صرفه عن أن يحكم بين الناس بالعدل، إذاً هو مُلام عند الله عز وجل، وقد ترك الأوْلى لكن ليس كما يتوهم بعض الساقطين من أن هواه إلى ما يهواه الناس عادة هو الذي صرفه عن الحق، لا.

قلت لكم في بداية القصة وفي الدرس الماضي أن هذا النبي الكريم ترك الأوْلى، بمعنى أنه لم يوازن بين أن يكون مع الحق وأن يكون مع الخلق، بل آثر أن يكون مع الحق على أن يكون مع الخلق، فلما جاء الوقت المناسب ليكون مع الخلق حكم سريعاً واستمع من واحد ولم يستمع من الآخر وأنهى القضية ليعود إلى ما كان عليه.

ظن بعضهم من أن النعجة هنا هي امرأة، هذا قول ضعيف جداً، لأنه أن يكون عنده تسع وتسعون امرأة ويطمع في امرأة أحد قواده، كما قلت قبل قليل هذه رواية إسرائيلية دخلت إلى كتب التفسير.

مشكلة حقيقية بين رجلين، أو مشكلة افتراضية بين مَلَكين، مشكلة حقيقية بين رجلين إن قلنا رجلين منعا من الدخول فتسورا المحراب، وإن قلنا ملكين تسورا المحراب والمشكلة افتراضية، المغزى أن هذا النبي حكم سريعاً وعاد إلى مُصلاه وإلى محرابه وإلى متهجده وإلى تسبيحه وتحميده وتلاوته.

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى)

حقيقة الدنيا أنها دار عمل والآخرة دار جزاء، فالسرور الروحي مكانه الحقيقي في اليوم الآخر، أما في الدنيا العمل مقدم على المتعة الروحية، إذا لم يكن عمل فإذا فرغت فانصب، اقرأ واذكر وتهجد وصلِّ واستغفر وسبِّح واحمد وكبّر وهلّل، هذه عبادة والعبادة لها شأنها في الإسلام، أما إذا خيرت بين عبادة (نفل) وخدمة فاختر الخدمة.

سبيل الجنة هو العمل الصالح :

سيدنا ابن عباس كان في معتَكَفه، دخل عليه رجل رآه كئيباً، قال له: ما لي أراك كئيباً؟ قال: والله هي ديون لزمتني لا أطيق وفاءها، قال: لمن هي؟، قال: لفلان، قال: أتحب أن أكلمه لك، قال: إن شئت، فخرج من معتَكفه، فقال له رجل: أنسيت أنك معتكف؟ قال: لا والله، ولكن سمعت صاحب هذا القبر وأشار إلى النبي عليه الصلاة والسلام يقول: والله لأن أمشي مع أخي في حاجته خيرٌ لي من أن أعتكف شهراً، وفي قول: سنة.

معنى ذلك أنك إذا خُيِّرت بين عمل صالح وبين اعتكاف أو ذكر أو تلاوة يجب أن تختار العمل الصالح، لأنك جئت إلى الدنيا من أجل العمل الصالح، والدليل أن الإنسان حينما يموت يقول: رب أرجعوني لعلي أعمل صالحاً، لكن العمل الصالح لا يكون إلا بالذكر، ما لم يكن لك صلة بالله وإقبال عليه لن تنطلق إلى العمل الصالح، إذاً لا بدّ من الموازنة كما بدأت القصة، لا بدّ من أن توازن بين العمل الصالح وبين التعبد، والإنسان لو أنه نظم وقته فجعل لله وقتاً ولعباده وقتاً ولأهله وقتاً ولجسده وقتاً، أعطى كل ذي حق حقه، إن لزوجك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لجسدك عليك حقاً فأعطِ كل ذي حق حقه.

(فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

سبيل الجنة هو العمل الصالح، فلو أن الإنسان ترك الناس وانسحب من المجتمع وقبع في صومعة وتعبّد الله عز وجل الآن ضلّ الطريق إلى الله، لأن الطريق إلى الله في خدمة الخلق، الآخرة دار نعيم مقيم، الآخرة دار سعادة روحية أبدية ثمنها هذه الدنيا، فلو تعجل هذه السعادة الروحية قبل أوانها فقد ضل طريقها، هذه السعادة الروحية ثمنها العمل الصالح، ثمنها طلب العلم، ثمنها تعليم العلم، ثمنها خدمة الخلق، فإذا عزفت عن خدمة الخلق وطلب العلم وعن تعليم العلم وقبعت في مكان تتعبد ربما ضللت السبيل إلى الله عز وجل.

الطريق إلى الله عز وجل أساسه العلم والعمل، هذا كلام دقيق، فكل من ترك العمل واعتمد على ذكره أو اعتمد على عبادته من دون عمل كانت مرتبته في الآخرة أقل بكثير من مرتبة العاملين، لقوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأنعام: 132]

الطريق الموصل إلى الله عز وجل هو الطريق الذي سلكه النبي عليه الصلاة والسلام:

قال تعالى:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

إذاً نحن نريد دائماً أن نصحح مسارنا، الخطر أن ينطلق الإنسان بقناعات ليس لها دليل، فهذا سلك هذا الطريق، آخر سلك غيره يا ترى أي طريق هو المجدي؟ أي طريق موصل إلى الله عز وجل؟ الطريق الموصل إلى الله عز وجل هو الطريق الذي سلكه النبي عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً... فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي))

[الترمذي عَنْ العِرْبَاض بْن سَارِيَة]

اختلاف بين جوهر الدين وبين ما آل إليه الدين، قد يصبح الدين في آخر الزمان حركات ورقص وحضرات، وقد يصبح أناشيدَ وطرباً، وقد يصبح فكراً فقط، فمن أدرك هذا الزمان فقال: عليكم بسنتي. عُودوا إلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام، الإسلام واسع جداً وفيه جانب علمي، وجانب سلوكي، وجانب عملي، وجانب انفعالي، فإذا ظننته أنه قلباً فقط فقد ضللت السبيل، سلوك فقط ضللت السبيل، فِكْر فقط ضللت السبيل، يجب أن تجمع بين الفكر وبين القلب وبين العمل، فكر متشبع بالعقيدة الصحيحة، تصوّر صحيح عن كل قضية في الدين، قلب مفعم بالإيمان من حب وإنابة وتوكل وتواضع، وسلوك منضبط وفق الشرع، فمن رجَّح السلوك وغفل عن قلبه فقد ضل سواء السبيل، من رجَّح القلب وترك العمل الصالح فقد ضل سواء السبيل، من اعتنى بعقله وفكره على حساب انفعالاته وسلوكه فقد ضل سواء السبيل.

الحق هو الشيء الثابت والباطل هو الشيء الزائل :

نحن في هذه القصة المقصود التوازن، تحقيق التوازن بين متطلبات العقل والقلب والسلوك، قلب وعقل وسلوك هذه القوى الثلاثة مجتمعة فإذا طغت إحداهما على الأخرى فقد تركنا الأولى، وربما انحرف بنا هذا التولي عن التوازن إلى ما لا تُحمد عقباه، ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

معنى ما خلق السماوات والأرض باطلاً، الشيء الباطل هو الذي يعاكس الحق، عندنا الحق والباطل، نعرف الحق بأنه الشيء الثابت فالباطل الشيء الزائل، جدار اِبْنِهِ على الشاقول يدوم طويلاً، اِبْنِهِ بلا شاقول لا بدّ من أن يقع، فكل شيء بني على أساس من طاعة الله عز وجل فهو حق، أما إذا بُنِي على معصية فهو باطل، فالباطل الشيء الزائل، الحق الشيء الهادف، الباطل الشيء العابث، إذاً الباطل ما كان زائلاً وعابثاً أي لعباً، عمل بلا هدف وبلا أصول، بلا أصول سيقع وبلا هدف سيتلاشى بحكم انقضائه.

إذاً ما هو الباطل؟ الشيء الزائل، أيُّ نظرية قائمة على الباطل لا بدّ من أن تزول ولو عمرت سبعين سنة، تتداعى وحدها، هناك اعتقاد باطل، هناك عادات باطلة، هناك شروط باطلة، هناك قوانين باطلة، الشيء الباطل ليس له أساس من الحق، والشيء الباطل ليس له هدف، هدفه محدود جداً، هدفه عبث لعب، فربنا عز وجدل منزه عن أن يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، خلقهما بالحق والحق هو عكس الباطل، لكن هؤلاء الذين ظلموا وكفروا يظنون أنه خلقهما باطلاً.

القرآن يبين لنا أن الدنيا لم تُخلق عبثاً :

قال تعالى:

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

أي هناك شيء أساسي جداً يفترق به أهل الحق عن أهل الباطل، يعتقد أهل الباطل أن الدنيا خلقت هكذا عبثاً، لماذا نحن هنا؟ لا ندري، قرأت في كتاب بالمقدمة لماذا نحن هنا؟ لا ندري لماذا نحن هنا، القرآن ينبئك يقول لك:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِي)

[سورة الذاريات: 56]

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الكهف: 7]

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

القرآن ينبئنا، أما إذا قلت: لا أدري ولا أعلم والدنيا خلقت عبثاً فهذا ظن الذين كفروا، هذه عقائد أهل الكفر.

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

ظن الذين كفروا أن الله يعامل المؤمن كما يعامل أهل الفسق والفجور :

ثم يقول الله عز وجل:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ)

معقول إنسان آمن بالله وعمل عملاً صالحاً واستقام على أمره الله عز وجل يعامله في دنياه كما يعامل أهل الفسق والفجور، كما يعامل الكفار، كما يعامل المنحرفين، ذلك ظن الذين كفروا.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

[سورة القلم: 35]

آيات تؤيد أن الفاسق والفاجر يبتليه الله ويدمره ويمحق ماله ويشقيه :

هنا يقول الله عز وجل:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

ثم إن الحوادث التي بين أيدينا والتي حولنا تنبئنا بهذه الحقيقة، مستقيم له معاملة خاصة، مستقيم له حفظ خاص الله عز وجل يحفظه ويؤيده ويوفقه وينصره ويسعده، والفاسق والفاجر الله عز وجل يبتليه ويدمره ويمحق ماله ويشقيه، وبين أيدينا آيات تؤيد هذه الحقائق:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

لذلك الله عز وجل يقول:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ* كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)

هذا القرآن فيه خبر عن كل شيء، أي أنت كإنسان هذا القرآن خطاب لك، يعرِّفك بحقيقة الدنيا، يعرفك بحقيقة نفسك، يعرفك ماذا بعد الموت، ماذا كان قبل الموت، يعرفك بالطريق إلى الله عز وجل، يعرفك بطريق الإيمان بالله، بطريق القرب منه.

القرآن الكريم لا تقطف ثماره يانعة إلا إذا عملت بأحكامه :

هذا الكتاب كتابنا المقرر، هذا الكتاب تعليمات الصانع، هذا الكتاب حبل الله المتين، هذا الكتاب هو الصراط المستقيم، هذا الكتاب هو الدستور، هذا الكتاب كتاب مذكرة إيضاحية للإنسان، فلذلك:

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ)

كله خير، إن قرأته خير، إن حفظته خير، إن أتقنت تلاوته خير، إن فهمته خير، إن عملت به خير، ولكن لا تقطف ثماره يانعة إلا إذا عملت بأحكامه.

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ)

أي قراءة مع تدبر، قراءة مع تبصر، قراءة مع تأمل، قراءة مع مدارسة، أما هذه القراءة:

((رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

الإنسان يتلو ويعصي، يتلو ولا يتقيد بالشرع، يتلو ويأكل مالاً حراماً:

((رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ*وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

هذه قصة أخرى، لكن هذه القصة تقع في الطرف الأخر، نبي كريم ابن هذا النبي الكريم سلك سلوكاً آخرَ حينما آثر حب الخير على ذكر الله عز وجل، فالقصد هو التوازن.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 30- 40 قصة سيدنا سليمان عليه السلام.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-12-25

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص لما ورد في الدرس الماضي :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة ص ومع الآية الثلاثين، ربنا سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن قصة سيدنا داود، وقد بينت لكم في الدرس الماضي أن هذا النبي الكريم ترك الأولى في أدق التعبيرات، الله سبحانه وتعالى جعله خليفة في الأرض، وكان في خلوته في أوج إقباله، في قمة استمتاعه، في قمة صفائه، امتحنه الله عز وجل بقضية تتعلق بأهل الأرض، فاستمع إلى أحد الطرفين ولم يستمع إلى الطرف الآخر وألقى حكمه ليعود إلى محرابه ومصلاه، هذا الموقف فيه ترك للأولى، لأن النبي الكريم داود عليه الصلاة والسلام خليفة الله في الأرض ومهمته الأولى أن يحكم بين الناس بالعدل.

في هذا الأسبوع قلت: هذه القصة كيف نستفيد منها في حياتنا؟ هذه القصة كيف نطبقها تطبيقاً عملياً؟ استعرضت بعض الصور المنتزعة من حياتنا، بعض القصص التي سمعتها أو التي عاينتها، فوجدت أن المؤمنين بالذات أحياناً الخطاب يوجه إلى عامة الناس، أحياناً: يا أيها الناس اعبدوا ربكم، أحياناً يا أيها الذين أمنوا لا يسخر قوم من قوم.

هناك توجيهات خاصة بالمؤمنين، فالمؤمنون إذا قرؤوا هذه القصة ما تطبيقاتها العملية في حياتهم اليومية؟

لو أن أماً استيقظت قبل الفجر بساعة وصلت قيام الليل، ثم أذن الفجر فصلت صلاة الفجر، ثم جلست لتقرأ القرآن، هل هناك عمل أعظم من هذا العمل؟ لاشك أنه عمل جليل، لقول الله عز وجل:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً*وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً)

[سورة الإسراء: 78-79]

سلوا هذه المرأة في الساعة السادسة تعبت فآوت إلى فراشها وأيقظت أولادها وتركتهم وشأنهم، الغرفة باردة، ليس لهم طعام الفطور، لم تهتم بهندامهم ولا بلباسهم، وبدأت تعطي التوجيهات وهي مستلقية على سريرها، يا ترى هذه المرأة إذا قرأت قصة هذا النبي الكريم ماذا عليها أن تفعل؟ إن الله جعلها

أمّاً، وجعل هؤلاء الصغار أولادها، فلأن تعتني بأولادها فتوقظهم وتطعمهم وتدفئ لهم الغرفة وأن تصلي الفجر في وقته وأن تتلو القرآن، أما أن تصلي قيام الليل في وقت مبكر وأن تصلي الفجر وأن تأوي إلى فراشها وأن تهمل مهمتها الأولى في الحياة فقد تركت الأولى، وتركت ما أعده الله لها من رعاية وخدمة لأولادها ونسيت مهمتها الأولى، أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة.

أمثلة من الحياة تؤكد أن لا شيء يعلو على أداء المهام التي أوكلها الله إلينا في الحياة:

أحياناً أستمع إلى قصة أم ربَّت أولادها خير تربية، وضَحَّت من أجلهم، قال لي أحدهم: إن زوجتي لا تخرج من البيت أحياناً إلا مرة وهي تعنى بأولادها، هذا هو التطبيق العملي لهذه السورة.

أنت ما مهمتك؟ أنت طبيب، أنت مهندس، إن لم تكن واقفاً ساعة إنجاز السطح لعل أحدهم يأخذ الحديد، لعل أحدهم لا يضع الإسمنت الكافي في غيبتك فإذا هذا البناء ينهار ويقضي على خمسة عشر إنساناً، فإذا قلت: أنا كنت أتلو القرآن، أنا مشغول بقراءة القرآن، أنا مشغول بأحاديث النبي العدنان، نقول له: لا، أنت مهندس يجب أن تكون على رأس عملك في الوقت المناسب وفي المكان المناسب، لأن الله أوكلك بهذا الأمر واستخلفك في هذا العمل.

طبيبة مولدة، أضرب لكم بعض الأمثلة، اتصلت بها المرأة التي على وشك الولادة، أُعلمت أنها قاب قوسين، صلت قبل العصر أربعاً وصلت العصر ودعت الدعاء، وجاءت إلى المستشفى فإذا بهذه المرأة قد ولدت، طالبتهم بالأجر. أضرب هذه الأمثلة لينتبه المؤمنون إلى أنه لا شيء يعلو على أداء مهمتهم التي أوكلها الله إليهم في الحياة، فأصحاب المهن جميعاً لو أهملوا مهنهم، لو أهملوا إتقان عملهم، لو أهملوا أشياء أودت بحياة أناس طيبين وادَّعوا أنهم يحبون الله ورسوله وهم في صلاتهم خاشعون، وهم يذكرون، وهم يفعلون هذا كله لا يعفيهم من مسؤوليتهم تجاه الله عز وجل.

أضرب لكم هذه الأمثلة لأنها كلها واقعية، امرأة خرجت من بيتها لشيء يرضي الله تركت أولادها في البيت، وقد انطفأت الكهرباء أشعلت لهم الشمع، هذه الشمعة ذابت حتى أحرقت جلال المائدة فاحترق البيت ومات الصغار، هذه أمٌّ مُوَكَّلة بأولادها، هذا مهندس موكَّل بإنجاز هذا البناء فإن أهمله يقع البناء ويحاسَب عند الله لأنه متسبب بالقتل، وهذا طبيب أوكله الله بهؤلاء المرضى فعليه أن يرعاهم الرعاية الكافية ولا يعفيه من المسؤولية لا هو ولا غيره قوله: أنا أحفظ القرآن، أنا أقرأ هذا البحث الفلاني.

قصة داود مفادها أن الله عز وجل لا يقبل النوافل قبل إتقان العمل:

القاضي الذي له مجالس علم يحضرها لكنه لا يقرأ الأضابير قراءة متأنية، يسرع في حكمه هذا محاسب عند الله ولو أنه يحضر مجالس العلم، ولو أنه يقرأ كتب الدين، ولو أنه يحفظ القرآن، أنت قاضٍ ينبغي أن تقوم بمهمتك خير قيام، يجب أن تقرأ المذكرات مُذكرة مذكرة، يجب أن تحللها، ينبغي أن تقرأ القوانين قبل أن تُصدر حكماً، لأن عدل ساعة خير من أن تعبد الله ثمانين عاماً.

الكلام ليس موجهاً إلى عامة الناس، الكلام موجه إلى الأخوة المؤمنين، أي أنت ما مهمتك في الحياة؟ ما وظيفتك؟ بماذا أقامك الله؟ أنت أب؟ أنت أم؟ أنت معلم؟ أنت طبيب؟ أنت صيدلي؟ لا ينبغي لصيدلي أن يعطي الدواء دون تعليمات، يقول ازدحام شديد ما فرغت لكتاب التعليمات، أحد أخواننا الكرام صيدلي غاب عن صيدليته وضع إنساناً مكانه، هذا الإنسان أخطأ في إعطاء الدواء، هذا الدواء كاد أن يودي بحياة المريض، دواء لا يجوز استعماله داخلياً، يخرش الجهاز الهضمي، استعماله خارجي والوصفة داخلي، هو دواء آخر.

أضرب لكم هذه الأمثلة لأن إنساناً يقول: أنا مع الله، أنا أحفظ القرآن، أنا أحضر مجالس العلم، أنا أتابع هذا الموضوع الديني، أنا أحب اللهَ وهو يُهمِل عمله، لأن الله جَعَله في الأرض خليفةً، ففي هذا الموضوع هو خليفة، الطبيب أمينٌ على صحة الناس، والمحامي أمينٌ على قضايا الناس، والصيدليُّ أمين على إيصال الدواء إلى أصحابه بشكل دقيق.

فهذه قصة سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مفادها أن المؤمن يتقن عمله، وكأن الله عز وجل لا يقبل نوافله قبل إتقان عمله، كأن الله عز وجل لا يقبل منه نوافل العبادات قبل أن يؤدي ما عليه من واجبات، إذا فهم المسلمون دينهم هذا الفهم، إذا عقل المسلمون دينهم هذا العقل كانوا في حياة أخرى غير هذه الحياة.

ترى القوانين التي وضعها الله عز وجل يا أيها الأخوة الأكارم لو أن إنساناً ملحداً طبقها لقطف ثمارها، الإتقان سرّ نجاح الإنسان، لو أن إنساناً لا يعرف الله وأتقن عمله لأقبل الناس عليه ولاغتنى، وهذا أليق بالمؤمن من باب أولى.

إذا أتقنا عملنا وانتظمت حياتنا صّحت عبادتنا :

إذا كان لهذه القصة مغزىً، إذا كان لهذه القصة حقيقة يستفاد منها هي أن الإنسان يجب أن يتقن عمله، وإذا أتقنا أعمالنا ارتقينا، ارتقى المسلمون وأصبحوا سادة وللشعوب قادة، أما إذا أهملوا أعمالهم فإن

عباداتِهم ليست مقبولة، النبي عليه الصلاة والسلام رأى شاباً يصلي في النهار، قال: من يطعمك يا بني؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك.

هذا المجتمع يجب أن يقوم على أسس سليمة، هذا المجتمع يجب أن يقوم على الإتقان، كل إنسان يجب أن يتقن ما أقامه الله به، إذا أتقنا وانتظمت حياتنا صحّت عبادتنا، وصحّ إقبالنا، وصحّت وجهتنا، أما أن نهمل، أحياناً يقع خطأ كبير يودي بحياة مريض، أحياناً المحامي لا يقرأ مذكرة خصمه لضيق الوقت فيكتب مذكرة ضعيفة، هذه المذكرة الضعيفة تسبب في أن يصدر القاضي حكماً ليس لمصلحة موكله، وفي هذا الحكم ظلم وجَور، والقاضي لا يدري لضعف مذكرة المحامي، والمحامي لا يدري لأنه لم يقرأ مذكرة خصمه قراءة جيدة.

يا أيها الأخوة الأكارم، ربنا عز وجل لأنه يعلم أن مجتمع المؤمنين ربما يصاب بمثل هذه الأمراض فجعل هذه القصص تشريعاً لهم، أذكركم بالدرس السابق وهو أن الله عز وجل حينما قال:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ)

معلم دين اختصم إليه طفلان صغيران في الصف الأول، ضاقت نفسه بهذه المهنة فطردهما معاً، أتدري أيها المعلم أن هذا الطفل الصغير الذي ظن فيك العدل وجاء يشكو إليك صديقه أنت حينما طردته وأعرضت عنه ولَدْتَ فيه عقدة قد ترافقه طوال حياته؟ لا تدري.

أنا سمعت عن رجل من كبار الفلاسفة الفرنسيين، بل يرأس حزباً علمانياً في فرنسا وهو معروف عند الناس جميعاً، سبب إسلامه قبل أربعين عاماً أنه كان أسيراً وجاء أمر بقتل الأسرى، وكلف جندي مغربي بقتله، قال المغربي: أنا لا أقتل أسيراً لأن ديني يمنعني من ذلك ولم يقتله، كلمة سمعها هذا الفيلسوف المفكر قبل أربعين عاماً انتهت بإسلامه، أنت لا تدري بكلمة لا تلقي لها بالاً ترقى بها عند الله درجات علية، وأنت لا تدري بكلمة من سخط الله لا تلقي لها بالاً يهوي بها الإنسان في جهنم سبعين خريفاً.

أن تبنى الحياة على أساس إتقان الأعمال هذا الذي أراده الله من قصة سيدنا داود:

إذا أردت للمجتمع الإسلامي أن ينهض، إذا أردت لهذا المجتمع أن يستعيد مجده التاريخي، أن يكون عزيزاً، أن يكون حراً، أن يكون قوياً ينبغي أن تُبنى الحياة بناءً صحيحاً، أن تبنى الحياة على أساس إتقان الأعمال، هذا الذي أراده الله عز وجل من قصة سيدنا داود حينما قال:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى)

وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الهوى إذا عزي إلى نبي كريم فإنما هو الهوى المقدس وهو حب الله عز وجل، الميل إليه، الشوق إلى مناجاته، حتى هذا إذا منعك عن القيام بواجبك وعن أن تنفذ مهمتك وعن أن تتقن عملك هذا الهوى العلوي، الهوى المقدس يغدو حجاباً بينك وبين الله والدليل:

(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

حقيقة الدين :

هذه الآية تذكرني بآية مفيد أن نسمع تفسيرها الآن، ربنا عز وجل خاطب المؤمنين فقال:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا)

[سورة المائدة: 8]

أنتم أيها المؤمنون تبغضون من؟ لا شك أن المؤمن يبغض الكافر، يبغض الفاسق، يبغض الفاجر، يبغض المرابي، يبغض الزاني، يبغض شارب الخمر.

أيها المؤمنون، إذا حملكم إيمانكم إلى بغض هؤلاء، وبغض هؤلاء حملكم إلى أن تأكلوا أموالهم بالباطل توهماً منكم أن الله يرضى عنكم أنتم واهمون، إنني لا أرضى عنكم إلا إذا أحسنتم إلى هؤلاء، لأن إحسانكم إليهم يقربهم مني ومنكم.

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

يجب أن نفهم الإسلام فهماً عميقاً، يجب أن نفهم هذا الدين فهماً صحيحاً، يجب أن تتبع سنة النبي جملة وتفصيلاً، الذي يؤخر الدين، الذي يجعل الناس يخرجون من دين الله أفواجاً بدل أن يدخلوا هو أن المسلمين ظنوا أن دينهم عبادات وتركوا المعاملات، ظنوا أن دينهم صلاة وصيام وحج وزكاة ونسوا أن دينهم إتقان في أعمالهم، صدق في أقوالهم، إخلاص في نواياهم، هذا هو الدين.

(إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

أراد الله عز وجل أن يستنبط المؤمنون التطبيقات العملية من قصة سيدنا داود عليه السلام:

يقول الله عز وجل:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ* كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)

هذه الآيات تم شرحها في الدرس الماضي، لكن تدبُّر الآيات هذا الذي أريده منكم في هذا الدرس، تدبر الآيات أن تبحث في تطبيقاتها العملية، أي هذه القصة لِمَ جعلها الله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة؟ أيريد الله عز وجل أن نعرف أن هناك نبياً اسمه داود؟ وماذا يفيدنا ذلك؟ وأن هذا النبي امتحنه الله عز وجل، وأن رجلين أو ملكين تسورا عليه المحراب واختصما إليه، واستمع إلى الأول وأصدر حكمه المبرَم ولم يستمع إلى الثاني، ثم اختفيا فجأة فظن أن قد فتناه فاستغفر وخر راكعاً وأناب، أيريد الله عز وجل أن يعرفني بهذا القصة وما شأني بها؟ وماذا أستفيد منها؟ وماذا يعنيني أن هذا النبي فعل كذا وكذا؟

لكن الله عز وجل حينما جعل هذه القصة قرآناً يتلى إلى يوم القيامة أراد من المؤمنين أن يدَّبروا هذه القصة، والتدبر أن يكشفوا مغزاها، أن يكشفوا خلفياتها، أن يكشفوا مقصد الله منها، أراد الله عز وجل أن نستنبط التطبيقات العملية منها، فلذلك القصة الأولى قصة سيدنا داود من أجل ألا تشغلنا عباداتنا عن أداء واجباتنا، ولا سيما بالحرف التي تتعلق بها سلامة الإنسان، بالحرف التي يمكن أن يكون الإهمال موديًا بحياة الإنسان.

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)

بقدر معرفتنا بالله عز وجل نقدس الهبة التي وهبنا الله إياها :

الآن قصة تابعة للقصة الأولى ولكنها في موضوع معاكس، قال تعالى:

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ)

قد نقف عند كلمة (وهبنا)، الله سبحانه وتعالى حينما يهب إنساناً طفلاً، غلاماً، ولداً، بنتاً، انتبه إلى العبارة وهبنا هذه هبة الله عز وجل، هذه هدية الله عز وجل، وكلما ارتقى الإيمان يؤمن الرجل أن بناته هدية من الله عز وجل، لا يتبرم بامرأته إن أنجبت له البنات إنها هبة الله عز وجل، وبقدر معرفتك بالله عز وجل تقدس هذه الهبة التي وهبك الله إياها، كان النبي عليه الصلاة والسلام يضم ابنته فاطمة عندما كانت صغيرة إلى صدره الشريف يقبلها ويشمها ويقول: ريحانة أضمها وعلى الله رزقها، المؤمن هكذا يستقبل الفتاة المولودة بهذه الطريقة، بهذا الترحيب.

أعرف رجلاً عنده سبع بنات، كلما اقترب موعد الولادة كلف كل بنت أن تحضر هدية ثمينة لأمهم ليستقبلوا بها المولودة الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، هدية الله عز وجل.

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ*أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

[سورة الشورى: 49-50]

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ)

شيء آخر، إذا وهب الله عز وجل الإنسان غلاماً نجيباً أخلاقيّاً متفوقاً في دراسته، من أدبه مع الله عز وجل أن يعزوَ هذا إلى الله، لا يقل أنا ربيته واعتنيت به، لولا أنا لم يصبح رجلاً، هذا كلام الجهل لأن الله عز وجل قادر أن ينجب النجيب من غير النجيب، قادر أن ينجب من النجيب المعتوه، فالإنسان إذا جاءه ولد صالح لا يدّعي أنه بذكائه وحنكته وتربيته جعله صالحاً، ليَعْزُ الفضل إلى صاحب الفضل وهو الله عز وجل، هذه هبة.

كلما كثرت إنابتك إلى الله علا مقامك عند الله :

قال تعالى:

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ)

هو نِعْمَ العبد، وكلمة نعم العبد من صيغ المدح، تقول: نِعْم العبد فلان وبئس العبد فلان، هذه صيغة مدح في اللغة العربية، فالله سبحانه وتعالى يثني عليه، بماذا أثنى عليه؟ قال:

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

أوّاب على وزن فعّال، صيغة مبالغة اسم الفاعل، أي كثير الأوبة إلى الله، الإنسان أحياناً يقول: بالشهر أصلّي صلاة مُتْقنة، من سنتين بكيت مرة، وهناك إنسان يبكي بالأسبوع مرات عديدة، وإنسان يبكي باليوم مرات عديدة، فكلما كثرت إنابتك إلى الله علا مقامك عند الله، وكلما كثر خشوعك في صلاتك ارتقيت مرتبة هذه العبادة، فهذا النبي الكريم سليمان الحكيم:

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

هنا المشكلة من نوع آخر، قال:

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

الصافنات جمع صافنة وهي الخيل إذا وقفت اعتمدت في وقفتها على رجل واحدة وتركت الأخرى سائبة، هذه وقفة تقفها الخيل أحياناً، والذين يحبون الخيل ولهم مراس ولهم خبرات، منظر الخيل وهي تقف هذه الوقفة تثني رجلها اليسرى وتعتمد على يدها اليمنى، فهذه الوقفة سميت في القرآن الصافنات، فعرضنا عليه بالعشي أي قبل الغروب.

سيدنا سليمان شغله العمل الصالح عن عبادة ربه :

قال تعالى:

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

الجياد من الجودة في الركض واقتحام الأهوال، هذا النبي الكريم شغله العمل الصالح وخدمة الخلق وتدريب الخيل استعداداً للجهاد في سبيل الله ونشر الحق، أعمال جليلة، ما من عمل أعظم عند الله من أن تنشر دين الله، ما من عمل أعظم عند الله من أن تهدي الخلائق إلى دين الله، ما من عمل أعظم عند الله من أن تهيئ الأسباب لنشر الحق في الخافقين، فهذا النبي الكريم كان يمرن الجياد لتستعد لمواجهة الحروب القادمة، فيبدو أن انهماكه في تدريب الجياد وانهماكه في تضميرها، وانهماكه في هذا العمل الجليل؛ عمل تهيئة أسباب الجهاد، هذا العمل جعله كما قال بعض المفسرين: جعل صلاة العصر تفوته حتى توارت بالحجاب، ما التي توارت بالحجاب؟ الشمس، شبهت الشمس بامرأة ثم توارت عن الأنظار لأنها تحجبت، وهذه صورة بلاغية في القرآن الكريم.

(حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

أحياناً الإنسان يقول البحر أكل الشمس، كيف أكلها؟ شبه البحر بإنسان والشمس قرص فأكلها عند الغياب، هذه صورة.

فهذا النبي الكريم شغله العمل الصالح عن عبادة ربه، والده شغلته عبادته عن العمل الصالح، هذا شغله العمل الصالح عن عبادة ربه حتى توارت بالحجاب.

(فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

هذا واقع، أحياناً تلتقي بأخ كريم، والناجحون في حياتهم وفي دعوتهم يقعون في هذا المطب، من عمل إلى عمل، من لقاء إلى لقاء، من كلمة إلى كلمة، من خطبة إلى خطبة، من جمع أموال لأيتام فقراء من الصباح وحتى المساء تضعف عبادته، يضعف ذكره، يضعف إقباله على الله عز وجل، تصبح أعماله الصالحة الجليلة على حساب عباداته المفيدة، هذا الإنسان يصح أن يقرأ هذه القصة، قصة سيدنا سليمان الحكيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

مثال عن كذب الروايات الإسرائيلية التي ليست مقبولة ولا أصل لها :

قال تعالى:

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ *فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

بعضهم فسّر الخير بأنه الخيل، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.))

[متفق عليه عن ابن عمر]

أي إما أنه أحب الخيل لا لذاتها وإنما لأنها مطية المجاهدين، أو انشغل في تدريبها وتضميرها تهيئة لقتال الكفار والمشركين، على كل انشغل بالعمل الصالح الجليل عن عبادة ربه الجليل. أراد أن يكفر عن ذنبه، كلكم يعلم أن في أكثر التفاسير روايات إسرائيلية ما أنزل الله بها من سلطان، من هذه الروايات أن هذا النبي الكريم حينما شعر أنه انشغل بهذا العمل الجليل عن صلاة العصر فقال:

(رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطفِقَ مَسْحاً بالسُّوق وَالْأَعْنَاق)

قطع أرجلها ورقابها انتقاماً منها لأنها شغلته عن صلاته، قرأت أقوالاً عديدة لكبار المفسرين ينكرون هذه الروايات، ويقولون لا أصل لها، وإنها من كذب الروايات الإسرائيلية، وأنه لا ينبغي أن تتسرب تلك الروايات التي رواها بنو إسرائيل عن أنبيائهم إلى كتب التفاسير، لأن نبياً عظيماً لا يعقل أن ينتقم من حيوان أعجم لا ذنب له لتقصير وقع به، ولأن نبياً عظيماً لا يمكن أن يتلف المال، هذه الخيل مال وفي ذبحها تقطيع أرجلها ورؤوسها هذا إتلاف للمال، وإتلاف المال حرام في الإسلام وفي كل الأديان. فهذه القصص إن سمعتموها أو قرأتموها هذه قصص ليست مقبولة، ولا أصل لها إلا من كتب بني إسرائيل.

بعض ما قاله كبار المفسرين حول هذه القصة :

لكن مفسرين عديدين أمثال الزمخشري وغيره قالوا: إن هذا النبي الكريم حينما رأى نفسه قد ضيع صلاة العصر من أجل هذا العمل الجليل لقد أتعبها وشغلته عن طاعة الله، فقال:

(رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطفِقَ مَسْحاً بالسُّوق وَالْأَعْنَاق)

أي مسح لها أعناقها من شدة التعب، ومسح لها سوقها تكريماً لها ومواساة لها، وقد سمعت من أكثر من خبير بالخيل أن الخيل إذا ركضت ومسح لها صاحبها سوقها وأرجلها هذا إكرام لها ومواساة لها، هذا ما قاله كبار المفسرين حول هذه القصة.

(رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطفِقَ مَسْحاً بالسُّوق وَالْأَعْنَاق)

أي أجهدها فواساها، أجهدها فمسح عرقها.

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ)

كما أن الله سبحانه وتعالى يعلم أن في نفس هذا النبي رغبة في العبادة يرجحها على خدمة الخلق، فأرسل له الملكين أو الرجلين ليمتحن بهما، كذلك هذا النبي يعلم الله عز وجل وهو العليم الحكيم أن في نفس هذا النبي الكريم رغبة في العمل الصالح تزيد في أداء عباداته لذلك فتن بهذه الطريقة.

إذا نظرنا إلى مقام النبوة يمكن أن تكون سيئات المقربين حسنات الأبرار :

أما كلمة:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ)

هذه الآية حيرت المفسرين، لاشك أنه في القرآن الكريم آيات قليلة من المناسب أن نكل تفسيرها إلى الله، هذا لا يمنع أن نقول الله أعلم بمراده من هذه الآيات، أما ما ترويه بعض الكتب من أن هذا النبي الكريم ضيع خاتم الملك وجاء شيطان فأخذ هذا الخاتم وتمثل شخصيته وضاعت منه الخلافة والملك مدة طويلة هذه قصة ساقطة لا تقف على قدمين، وليست مقبولة إطلاقاً. إلا أن بعضهم قال: حينما شعر أنه قصّر في حق نفسه مع الله، إن صحّ أن الكرسي علم، كان الجسد الذي ألقي على كرسيه أي حجاباً بينه وبين الله عز وجل.

هذه هي الفتنة، فإذا أردنا أن نوسع هذا المعنى هي سهلة جداً، الإنسان حينما يخطئ يشعر أنه محجوب، حينما يخطئ يشعر أن الطريق إلى الله غير سالك، حينما يخطئ يقف إلى الصلاة فلا يشعر أن له على الله إقبال بل يشعر بالخجل، والخطأ نسبيّ، هذه كلمة دقيقة جداً، أي الإنسان العادي إذا صلى وغض بصره وحرر دخله وأحسن إنفاق ماله يشعر أنه في الأوج، لكن كلما ارتقت مرتبته ازدادت حساسيته وازداد حسابه.

هناك مثل حينما يقرأ طالب في الصف الرابع نصاً أدبياً ويخطئ عشرة أخطاء، قد نعد قراءته جيدة، نص غير مشكول وهو في الصف الرابع، فلا نوقفه إلا عند الغلطة الكبيرة إذا رفع المفعول به نقول له قف هذه غلط، أما الحركات الداخلية ضبط عين الفعل هذه الأخطاء لا نعدها عليه لأنه في مستوى متدني، أما إذا كان في الصف السابع أو الثامن نحاسبه على بعض حركات الكلمات الداخلية، فإذا أصبح في صف متقدم في المرحلة الثانوية نحاسبه على كل الأخطاء، أما إذا كان طالب أدب عربي في الجامعة نحاسبه على ضعف العبارة، نقول هذه الكلمة ليست مناسبة الأوْلى أن تقول كذا، وهذا الحرف لا يأتي بعد هذه الكلمة، كلمة أعجب بي لا من، كلمة دعا إلى لا دعا لي، فكلما ارتقى مستوى الطالب اتسعت الدائرة التي يحاسب بها.

فإذا نظرنا إلى مقام النبوة يمكن أن تكون سيئات المقربين حسنات الأبرار، مثلاً عمل يرتكبه نبي فيعاتب عليه ويرتكبه مؤمن فيثاب عليه، الأمر دقيق جداً، الآن الكلام دقيق لأنه متعلق بنبيين كريمين، فإخلاصٌ ما بعده إخلاصٌ، إنابة ما بعدها إنابة، حب ما بعده حب، شوق ما بعده شوق، بذل وتضحية إلى أقصى درجة، لكن حينما رجّح داود عليه السلام كفة العبادة على كفة العمل الصالح ترك الأوْلى

فعاتبه الله عز وجل، وحينما رجحت كفة العمل الصالح عند النبي سليمان عليه السلام على كفة العبادة ترك الأولى فعاتبه الله عز وجل.

في الإسلام نواح علمية ونواح انفعالية ونواح سلوكية :

هاتان القصتان جعلهما الله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، من أجل أن يتخذ المؤمنون هاتين القصتين نبراساً لهم في حياتهم، فلا ينشغلوا بالعمل الصالح عن عبادة ربهم، وقد ذكرت لكم في درس سابق أن أروع كلمة سمعتها في هذا المجال من أصحاب النبي عليهم رضوان الله قول سيدنا عمر، لما جاءه رسول أذربيجان ليلاً في منتصف الليل، وكره هذا الرسول أن يطرق باب الأمير في هذه الساعة المتأخرة من الليل، ذهب إلى المسجد فرأى رجلاً يصلي ويناجي ربه ويقول: ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزِّيها، ما رأى شكله، فقال له: مَن أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عمر، قال: يا سبحان الله، يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل، فقال عمر رضي الله عنه: إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي.

أي رعيتك لها عندك حق، ونفسك لها عندك حق، وهذا معنى إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، لليل أعماله وللنهار أعماله، للصلاة طعمها وللعمل الصالح طعمه، فإذا اكتفيت بالصلاة ولم تعمل صالحاً أتيت يوم القيامة مفلساً، وإن اكتفيت بالعمل الصالح ولم تتقن صلاتك جَّف قلبك وانعكس هذا على عملك، تماماً كشحن هذا البطارية، إن شحنتها بالعبادة أعطتك قوة بالأداء، فإن لم تشحن ضعفت قوتها، يصح هذا المثل جيداً، أنت بطارية، العبادة تشحنها والحركة النشيطة تظهرها، فإن قصرت في شحنها ضعفت حركتها، وإن أجهدتها في الحركة دمرتها، لا بدّ من شحنها ومن تدريبها، لو أنها لا تعمل تتخرب، لا بدّ من أن تشحن ولا بدّ من أن تعمل، فالعمل يصونها والشحن يقويها.

هاتان القصتان متكاملتان، يجب أن نتوازن بين العبادة والعمل بشكل أو بآخر، في الإسلام نواحٍ علمية، وهناك نواحٍ انفعالية، وهناك نواحٍ سلوكية.

النواحي العلمية ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه، أنت كمؤمن لا بدّ من أن تكون عالماً، عقيدتك، إيمانك بالله، بوجوده، بوحدانيته، بكماله، الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، الإيمان بالأنبياء والرسل والكتب، هذا كله لا بدّ منه، هذا الجانب الاعتقادي العلمي الفكري، لكن عندنا جانب آخر الجانب الانفعالي، لا بدّ من أن يكون لك قلب يتأثر، ينبض بالحب، ينبض بالشوق لله عز وجل، لا بدّ

من سلامة قلبك، ولا بدّ من كمال قلبك، لا بدّ من حال ترقى به، لا بدّ من شعور تأنس به، ولا بدّ من عمل صالح ترقى به عند الله عز وجل لقول الله عز وجل:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: 132]

المؤمن كثير الإنابة إلى الله عز وجل :

إذاً هناك ثلاث خطوط يجب أن تتحرك عليها جميعاً، خط الإيمان والعقيدة والفكر والحقائق والعلم، وخط الأحوال الطيبة والرقي النفسي، وخط العمل الصالح، التوازن هو المطلوب.

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ)

حينما آثر العمل الصالح على عبادته شعر بالحجاب، الحجاب أشعره أنه قد فتن، وأنت أيها الأخ الكريم بالمناسبة حينما تشعر أنه بينك وبين الله حجاب ابحث عن شيء فعلته لا يرضي الله، هذا الشيء قد يحجبك عن الله وأنت لا تدري، قال:

(ثُمَّ أَنَابَ)

المؤمن كثير الإنابة إلى الله عز وجل، قال:

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

اليوم في الخطبة ذكرت لكم أن ربنا عز وجل ضرب للناس مثلاً:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)

[سورة الكهف: 54]

عندنا نبيٌّ أبوه كافر، هناك نبي ابنه كافر، وهناك نبي امرأته كافرة، وهناك كافر زوجته صدِّيقة، فرعون، وهذا أيضاً من كل مثل، هناك نبي ملِك هذا درس بليغ، ما هذا الدرس البليغ؟ الدرس البليغ أنه ليس في الأرض كلها علم إلا ويمكن أن يوظف في الحق، حتى لو كنت ملِكاً يمكن أن تكون في أعلى درجات الإيمان.

النبي سليمان طلب الملك ليكون له قوة في نشر الحق :

في القرآن قصص أخرى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً*إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً*فَأَتْبَعَ سَبَباً)

[سورة الكهف: 83-85]

المغزى الآخر لهذه القصة أنه لا يمنع إنساناً أن يكون ملكاً من أن يكون في أعلى درجات الإيمان والقرب من الله عز وجل، والشيء الآخر أن هذا النبي العظيم حينما سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده هو قولاً واحداً فوق أن يطلب الملك لذاته، لا يطلب الملك لذاته إلا من أحب الدنيا، لكن هذا النبي طلب الملك ليكون له قوة في نشر الحق، وهناك مستويات عليا في الإيمان قد تطلب المال لا حباً في المال ولا من أجل المال، من أجل أن يكون هذا المال عوناً للناس على نشر دينهم. قد تطلب قوة تنصف بها المظلومين، بهذه الطريقة يحمل قول النبي الكريم:

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ*فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ)

الريح مسخرة لهذا النبي الكريم، بإمكانه أن ينتقل عبرها لمسافات بعيدة جداً في وقت قصير جداً.

بعض من عطاء الله تعالى لسيدنا سليمان عليه السلام :

قال تعالى:

(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)

سيدنا سليمان عُلِّم منطق الطير، وسخر الله له الريح، وهذا الذي تسمعونه عن بساط الريح لهذا النبي الكريم يمكن أن يركب متن الريح وينتقل بها إلى مسافات شاسعة.

تروي الكتب قصة رمزية أن هذا النبي كان عنده رجل ودخل ملك الموت، فصار ملك الموت يحدُّ الطرف بهذا الرجل، هذا الرجل خاف، قال: يا سليمان الحكيم من هذا الذي ينظر إليّ؟ قال: ملك الموت، فاستعاذ به أن ينقله إلى طرف الدنيا الآخر عن طريق الريح، فنقله إلى طرف الدنيا الآخر، وبعد أيام جاءه ملك الموت وقبض روحه هناك، فلما قال سليمان لملك الموت: لماذا فعلت هذا؟ قال: كنت أنظر إليه وأستغرب أنا مأمور بقبض روحه هناك فما الذي جعله عندك، الإنسان لا بدّ من أن يلقَى أجله مهما احتال عليه. وسخر الله له شيئاً آخر:

(وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ)

كلكم يعلم أن الشياطين أوتوا قدرات فائقة، الشيطان أقدر من الإنسان على قطع المسافات الشاسعة.

(وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ *وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

شياطين مقيدون، وشياطين يتحركون.

(هَذَا عَطَاؤُنَا)

فالله إذا أعطى أدهش، وفوق كل هذا العطاء حرية في التصرف.

الانضباط والعمل الصالح يحتاجان إلى معرفة بالله :

قال تعالى:

(فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

أنت أحياناً تمنح إنساناً ميزات تقول له: لكن انتبه هذا استخدامه عن طريقي، هذا يحتاج إلى موافقة مني، وتحريك هذا الشيء يريد أمر مسبق بيومين، هذا ليس عطاء، قال:

(هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

يضاف إلى هذا المعنى أنه لولا أن هذا النبي كان في المستوى اللائق، ومن الحكمة، ومن العلم، ومن الرحمة بحيث أنه لو أطلقت يده لما فعل إلا الحق، أنت أحياناً يكون عندك ابن بمستوى رفيع جداً من الفهم والكياسة والذكاء والأدب والورع والخوف من الله لا تحاسبه، تقول له: يا بني أنا سأسافر افعل ما تشاء، هذا المحل استلمه بع واشترِ واصرف كما تشاء وادفع لمن تشاء، كلمة افعل ولا تفعل على مشيئتك هذه شهادة من الله على أن هذا النبي أوتي من الرحمة والعلم والعدل والحكمة لو أطلقت يده ما فعل إلا الحق، هذا معنى هذه الآية:

(هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ*وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

كان قريباً من الله عز وجل، معنى ذلك أن القربى من الله عز وجل هي كل شيء، القرب يحتاج إلى انضباط وعمل صالح، والانضباط والعمل الصالح يحتاجان إلى معرفة بالله، تعرف الله فتستقيم على أمره تحسن إلى خلقه تقترب منه تشعر بالسعادة.

(وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

وفي درس قادم إن شاء الله ننتقل إلى قصة أخرى من قصص القرآن الكريم وهي قصة سيدنا أيوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 41- 66
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-01-01

بسم الله الرحمن الرحيم

القصة لها مغزيان أساسيان العبرة والتثبيت :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة ص، ومع الآية الواحدة والأربعين، في الدرسين السابقين كانت الآيات حول نبيين كريمين، الأول سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، والثاني سيدنا سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وكل نبي من هذين النبيين الكريمين كان له قصة بليغة يمكن أن تضيء الطريق أمام المؤمنين، واليوم نبي ثالث هو سيدنا أيوب عليه وعلى سيدنا أفضل الصلاة والسلام.

الحقيقة أن قصصاً كثيرة جداً جِداً وردت في التفاسير معظمها أو جلّها مقتبس من روايات إسرائيلية ما أنزل الله بها من سلطان، فأعوذ بالله من أن نتورط في رواية هذه القصص التي ليست مقبولة ولا معقولة ولكن نبقى في حدود ما قال الله عز وجل، ماذا نفهم من كلمة عبدنا؟ أو لماذا أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن يذكر قصة أيوب؟ الله عز وجل قال:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة يوسف:111]

فالقصة فيها موعظة، والقصة فيها تثبيت.

(وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة هود: 120]

فالقصة لها مغزيان أساسيان: العبرة والتثبيت، أنت إذا سمعت قصة مؤمن لاقى في سبيل الله ما لاقى ثم جاء الجزاء والتكريم والشفاء والتقريب، هذه القصة بحدّ ذاتها تعطيك دفعاً قوياً في طريق الإيمان.

هناك جانب فكري وجانب نفسي في كل قصة :

القصص التي تنطوي على عِبَر وعلى أمثلة لها فائدتان: الفائدة الأولى أن تستقي منها حقيقة، هذه الحقيقة الفكرية، والفائدة الثانية أن تكتسب منها قوة نفسية، أنت أيها المؤمن إذا سمعت عن رجل استقام على أمر الله، آثر جانب الحق، أعطى لله، منع لله، بذل في سبيل الله الشيء الكثير وضاقت به الدنيا ثم فرج الله عنه وأكرمه وجازاه خير الجزاء، هذه قصة فيها شيئان: فيها حقيقة، وفيها قوة نفسية.

(وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة هود: 120]

يمكن أن تكون الدعوة إلى الله أساسها قصص واقعية جرت مع أناس قدَّموا لهذه الدعوة نماذج جيدة وواضحة، من هذا القبيل نستنبط حقيقة ونعطي المستمع قوة نفسية، هناك جانب عقلي وجانب انفعالي، جانب فكري وجانب نفسي في كل قصة، والجانب الفكري:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة يوسف:111]

الجانب النفسي:

(وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة هود: 120]

فالله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام واجه من المحن ما واجه، وواجه من الصعاب ما واجه، واجه معارضة، واجه تآمراً، واجه إخراجاً، واجه تنكيلاً، فالنبي يريد الله عز وجل أن يثبته، أن يقويه، قال:

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ)

لذلك كتطبيق عملي أنت أحياناً تستمع إلى قصة فيها مغزى كبير، إما فيها حقيقة صارخة تؤكد عدالة الله، أو تؤكد رحمة الله، أو تؤكد أن الأمر بيد الله وحده، أو تؤكد أن هذه الآية القرآنية حق لا بدّ من أن تقع، وتؤكد وعد الله أو تؤكد وعيده، أيَّة قصة تؤكد ما في القرآن الكريم هذه إذا قرأتها يمكن أن تقرر فيها حقيقة ويمكن أن تقوي بها نفوساً.

العبرة أن تمتلك معنويات عالية وروح قوية تتحمل كل المضايقات :

الإنسان أحياناً أكثر ما يعيش بحالته النفسية، حالته النفسية تقوى أو تضعف، القصص التي تبين عدالة الله عز وجل وتؤكد أن العاقبة للمتقين، وتؤكد أن الله لن يتخلى عن المؤمنين، وتؤكد أن الله سينصرهم وسيعلي قدرهم.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

مثل هذه القصص إذا رويت قويت بها معنويات المؤمنين.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران: 146]

أردت من هذه المقدمة أن حالة المؤمن أساسية، المؤمن له حالة نفسية، هذه الحالة إما أن تقوى وإما أن تضعف، ما الذي يقويها؟ أن يستمع إلى قصة مغزاها أن زيداً آثر جانب الله فأكرمه الله ونصره وأيده ورفع شأنه، وأن عَمراً آثر شهوته أو مصلحته فخذله الله عز وجل وخسر الدنيا والآخرة.

إذاً القصة لها جانب تقريري وجانب تأثيري، جانب عقلي وجانب نفسي، الجانب النفسي يقوي، أحياناً الإنسان يتحمل المشاق لكن معنوياته عالية، يتحمل بعض المضايقات لكن معنوياته عالية، فالعبرة أن تمتلك معنويات عالية وروح قوية تتحمل كل هذه المضايقات.

من معاني العبودية :

النبي عليه الصلاة والسلام واجه من المعارضات والمشاكسة ومن التكذيب ومن السخرية ومن الإيذاء، ومن التنكيل بأصحابه الشيء الكثير، فربنا جلّ جلاله يخبره عن نبي كريم اسمه أيوب لاقى في جنب الله ما لاقى ومع ذلك إنا وجدناه صابراً.

أحياناً الإنسان يتأثر لبعض الآيات تأثرّاً انفعالياً، أنت مستسلم لأمر الله، مستقيم على أمر الله، محب لله، جاءت الأمور على غير ما تريد لم تقل كلمة واحدة بل ما زدت عن أن شكرت الله، عن أن حمدته، عن أن رضيت بهذا الذي أصابك الله به، رضيت بقضاء الله وقدره، رضيت بحظك من الله عز وجل، كنت صابراً صبراً جميلاً، هذا النبي الكريم قدوة لنا معشر المؤمنين.

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ)

كلمة عبدنا أرقى مرتبة، الآن في الجامعات أعلى شهادة الدكتوراه، في أعلى منها أن يكون معه جائزة نوبل بالعرف الحديث، أعلى مرتبة في الأرض في حقل الدين، في علاقة الإنسان بربه، في عالم الحقائق، في عالم القرب من الله، في درجات المؤمنين عند الله، ما هي أعلى مرتبة؟ قال: أعلى مرتبة أن تكون عبداً لله، العبودية لله تعني أن تكون خالص الانصياع لله، الطاعة مع الانصياع مع الحب مع التوكل مع الرضا، معاني الطاعة، معاني الاستسلام، معاني التفويض، معاني التوكل، معاني الحب، معاني الشوق، إذا بلغت غاياتها، إذا ألغيتَ وجودك، ألغيتَ هوى نفسك فهذا معنى من معاني العبودية، فربنا عز وجل رفع هذا النبي إلى أعلى درجة حينما قال:

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا)

لذلك الإنسان إذا قرأ القرآن وقرأ قوله تعالى: يا عبادي، العلماء قالوا: هذه إضافة تكريم وتشريف، أي أن الله عز وجل كرمنا فنسبنا إلى ذاته.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر: 35]

كلمة عباد تعني هنا أن هذا الإنسان عرف عبوديته لله عز وجل وتتحقق بها فانطلق من خلالها.

المؤمن مخير في المباحات أما في العبادات فقد التغى اختياره أمام اختيار الله له :

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

أنت كمؤمن عبد لله متحقق في عبوديته لله إذا قضى الله ورسوله أمراً ليس لك خيار، أنت لك خيار أن تشتري هذا البيت أو لا تشتريه، أن تسافر إلى هذه الجهة أو إلى هذه الجهة، أنت مخير كمؤمن في المباحات، أما في العبادات والطاعات والأمر والنهي ألغيتَ اختيارك أمام اختيار الله لك.

يبدو أن هذا النبي العظيم كان متحققاً أكمل التحقق بعبوديته لله عز وجل، فكان خالص الخضوع لله، خالص الحب له، خالص الصبر على قضائه، خالص الاستسلام له، خالص الرضا بقضائه والقبول بقدره.

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ)

كما قلت قبل قليل هذا النبي ابتلاه الله، بعض المفسرين قالوا: ابتلاه الله بماله وأهله وصحته، والإنسان كما تعلمون حينما يبتلى بجانب من جوانب حياته يجمع كل طاقاته ويواجه هذه المشكلة، أما متى يسقط في يده؟ حينما تأتيه المشكلات من كل جانب، من صحته ومن ماله ومن أهله، هكذا ورد في بعض التفاسير، أي ابتلاه الله ابتلاء شديداً، وبالمناسبة الإنسان يمكن أن يكون مطيعاً لله عز وجل وينطوي على حب لله عز وجل وهو في الرخاء، هذا لا يكفي، يعني:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت]

مستحيل أن يصل المؤمن إلى جنة عرضها السماوات والأرض دونأن يمتحنه الله

حقيقة أضَعُها بين أيديكم أنتم كمؤمنين، مستحيل أن يصل المؤمن إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أن يُعطى عطاءً أبدياً سرمدياً، أن يصل إلى أعلى درجات النعيم وهو في الدنيا في الرخاء، في البحبوحة، لا بدّ من أن يمتحنه الله عز وجل، لا بدّ من أن يبتليه الله عز وجل، امتحاناً يُظهر إخلاصه ويُظهر حبه ويظهر ثباته.

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

حتى حينما جاءت موقعة الخندق كما تعلمون، وجاء الأحزاب من كل جانب، وما لم يجتمع في الجزيرة العربية كلها قبل هذا جيش يعد عشرة آلاف مقاتل في تاريخ الجزيرة، كلهم جاؤوا لا ليحاربوا محمداً وأصحابه، جاؤوا ليستأصلوا الإسلام كله، جاؤوا ليُنهوا كلمة الدين، جاؤوا ليبيدوا المسلمين، إذاً جاؤوا من كل جانب.

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)

[سورة الأحزاب: 10]

وفي آية أخرى، حتى إن اليهود في ظهرهم نكلوا بوعودهم ونقضوا عهدهم مع النبي عليه الصلاة والسلام فأصبح المسلمون محاصرين من كل جانب، وأصبح الإسلام كله والدين كله والرسالة كلها مجرد ساعات ليس غير، إلى أن قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، الله عز وجل قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب: 11]

محور الدرس اليوم أن الإنسان ممتحن :

الله عز وجل يعطي المؤمن صحة فيشكر الله عليها، يأتيه شبح مرض وبيد الله الشفاء ماذا يقول في المرض؟ يعطيه مالاً فيشكر الله عليه، يحرمه المال أحياناً ماذا يقول في الحرمان؟ يعطيه ما يعطيه فيمتحنه، ويأخذ منه ما يأخذ فيمتحنه، فنحن ممتحنون في الخير والشر، في العطاء والمنع، في الصحة والمرض، في إقبال الدنيا وإدبارها، في القوة والضعف. إذاً محور الدرس اليوم أن الإنسان ممتحن.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة الإنسان: 2]

لا بدّ من أن تمتحن إما بالعطاء وإما بالمنع، إما بالقوة وإما بالضعف، إما بالصحة وإما بالمرض، إما بالغنى وإما بالفقر، إما بإقبال الدنيا عليك وإما بإدبارها عنك.

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ)

ماذا قال؟ قال:

(أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)

هذه الآية لها معان كثيرة، أقول من معانيها، وحينما أقول من معانيها أعني بعض المعاني التي تحتملها، ماذا يفعل النبي؟ يدعو إلى الله، يرسخ الإيمان، وماذا يفعل الشيطان؟ عمل الشيطان دائماً

مناقض لعمل النبي، الشيطان يبث الضلال، يبث البغضاء، يغري بالفاحشة، يأمر بالفاحشة، يخوف، يضيق، فدائماً عمل الأنبياء في واد وعمل الشياطين في واد آخر.

مهما أسأت الظن بنفسك فهذا عمل جيد ومهما أحسنت الظن بإخوانك فهذا عمل جيد:

يمكن أن نفهم هذه الآية أن هذا النبي الكريم كلما دعا إلى الله رأى الشيطان يغري أتباعه فيصرفهم عن طريق الحق، الإنسان إذا كان له دعوة إلى الله ورأى شخصاً يحاول أن يفسد عليه المدعوين، أن يصرفهم إلى الدنيا، أن يشككهم بالدين، أن يزهدهم بالآخرة، أن يحببهم بالدنيا، أن يبث الشبهات والشكوك، هذا الإنسان يكون قد أصاب الداعية بإيذاء شديد، ليس الإيذاء مادياً لكنه إيذاء روحي من نوع آخر.

إذاً يمكن أن نفهم من هذه الآية أن هذا الشيطان نصب الشباك لأتباع هذا النبي ليصرفهم عن دعوته، وليحبب إليهم الدنيا، وليدفعهم إلى المعاصي، فهذا نوع من إيذاء هذا النبي الكريم.

(أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)

النصب هو التعب، والعذاب معروف، بعضهم قال: لا، حينما ابتلاه الله عز وجل هذا الابتلاء في ماله وصحته وأهله، ماذا قال الشيطان لأهله؟ لو أنه على حق ما أصابه ما أصابه، فهذا إيذاء. إذا إنسان مؤمن امتحنه الله عز وجل ببلاء، فالذين حوله إذا شمتوا به، أو استنبطوا من هذا البلاء أنه ليس على حق، وأنه يستأهل ذلك هذا من أشد أنواع الأذى للمؤمن.

لذلك نستفيد من هذه النقطة في هذا الدرس إلى تقرير حقيقة، أن الإنسان ليس له حق كمؤمن إن رأى أخاه قد ابتلاه الله بشيء أن يستنبط أن الله يعاقبه، وأن الله ما أصابه بما أصابه إلا لذنب اقترفه، هذا الاستنباط يؤذي المؤمنين، لذلك أكمل صفة في المؤمنين أنه إذا نزل بلاءٌ بإخوانهم يُحسِنون الظن بهم، ويظنون أنه تَرقِية إلى الله عز وجل، لكن إذا نزل البلاء بساحة المؤمن فالمؤمن يجب أن يتهم نفسه.

القاعدة: إن جاء البلاء إلى المؤمن عليك أن تتهم نفسك أشدّ الاتهام، ولا تحسن الظن بها، ولا تبرئها، أما إذا نزل البلاء بأخيك المؤمن فعليك أن تحسن الظن به، هذه قاعدة، مهما أسأت الظن بنفسك فهذا عمل جيد، ومهما أحسنت الظن بإخوانك فهذا عمل جيد.

إيذاء النبي أيوب وكيف أن الشيطان مسه بنصب وعذاب يحمل على محملين :

إذاً عند البلاء لا تحسن الظن بنفسك بل أحسِن الظن بالآخرين، هذا هو الموقف الكامل لا كما يفعله بعض الناس كلما جاءته مصيبة يقول: هي رفع لي عند الله، هي ترقية لدرجاتي عند الله، فإذا ألمت مصيبة بأخيك المؤمن اتهمته في دينه.

فإيذاء هذا النبي الكريم وكيف أن الشيطان مسه بنصب وعذاب يحمل على محملين: إما أن الشيطان لسعيه في إضلال البشر ولإبعادهم عن طريق الحق ولإغرائهم بالدنيا وصرفهم عن الآخرة وتشكيكهم في هذه الدعوة وإلقاء الشكوك في نفوس أتباعه هذا إيذاء وأي إيذاء!

إنسان افتتح مدرسة ليعلم الناس الحق، فإذا كان في البلدة دعوة لإلغاء العلم وإلى التزهيد به، وإلى إغراء الناس بالمال وصرفهم عن هذه المدرسة، هؤلاء الذين يدعون هذه الدعوة المناقضة هم في الحقيقة يؤذون صاحب هذه المدرسة، هو يريد أن يعلم الناس والآخرون يصرفونهم عن العلم، هو يريد أن يهذبهم والآخرون يريدون أن يسقطوهم في وحول الشهوة، هذا نوع من الإيذاء.

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)

بالمناسبة الإنسان أحياناً تأتيه مصيبة فيظنها أبدية، مع أن الله جلّ جلاله قادر دائماً أن يجعلك تنسى هذه المصيبة، كيف أنه يخلق المرض كذلك يخلق الشفاء، كيف أنه يخلق العسر يخلق اليسر، كما أنه يخلق الفقر يخلق الغنى، الغنى له أسباب والفقر له أسباب، الصحة لها أسباب والمرض له أسباب، أحياناً الناس كلهم يعملون ضدّ الإنسان، ما القصة؟ كلهم يعادونه، فإذا رضي الله عز وجل كلهم يكرمونه، فربنا عز وجل قادر على كل شيء، لذلك من علامات النفاق اليأس من رحمة الله، القنوط من رحمة الله.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر: 35]

المؤمن لا يقنط لكن الكافر يقنط :

المؤمن لا يقنط، المؤمن وهو في أشد الحالات، وهو في أشدّ المصائب يأمل بعفو الله ورحمته وإكرامه، لكن لا يقنط إلا الكافر، لا ييأس إلا الكافر، فالله عز وجل على الرغم من أن هذا النبي كان في محنة وفي شدة في ماله وأهله وصحته لم يقنط.

الإنسان أحياناً إذا ألمَّ بصحته ما ألمَّ، الأهل يعتنون، الأولاد يعتنون، في مال مقابل الأطباء والتحاليل والأدوية، فمصيبة واحدة يمتصها الإنسان أحياناً، يوجد مشكلة مع الأهل والصحة طيبة والدخل جيد

تنحل، يوجد مشكلة بالمال لكن هناك تفاهم زوجي وسرور وصحة، لكن أن تأتي المصائب من كل جانب من جهة الأهل والمال والصحة هذا شيء يعجز عن تحمله عامة الناس، لكن الأنبياء لمعرفتهم بالله عز وجل ولإقبالهم عليه ولرؤيتهم أن الفعل فعله، وأن اليد يده، وأن لا فاعل إلا الله هذا كله يجعلهم يتقبلون كل هذه المصائب، والدليل حينما انتهى الامتحان ونجح هذا النبي، الإنسان أحياناً يمتحن لينظر كيف تقول، يا ربي لك الحمد أنا راضي.

حدثنا أخ طبيب قال: كان عندنا في المستشفى مريض مصاب بمرض خبيث في أمعائه، كلما دخل عليه عائد يعوده يقول له: اشهد أنني راض عن الله، يا ربي لك الحمد، أيام ثلاثة وتوفاه الله، هذا نجح نجاحاً باهراً، ولو أن حياته قد انتهت، هناك بعد الحياة جنة عرضها السماوات والأرض.

المشكلة أن المصيبة تأتي ليسمع الله منك يا رب لك الحمد، يا رب أنا عبدك وابن عبدك وابن أمَتِك ماضٍ فيّ قضاؤك نافذ فيّ حكمك، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تُنزل بي سخطك، أو تَحلّ بي غضبك، ولك العتبى حتى ترضى ولكن عافيتك أوسع لي. العبرة أن تقف هذا الموقف.

لذلك الله عز وجل بعد أن أصاب هذا النبي ما أصابه من محن ألمت بصحته، لكن ما يصفه الواصفون أن كل جسمه قيوح، الأنبياء مبرؤون من هذه المصائب، هذا يمثل دين الله عز وجل، أي مبالغات وقصص ما أنزل الله بها من سلطان لا تعبئوا بها ولا تلتفتوا إليها، أكثر التفاسير قيمة أنْكَرَها وأسقطها من حسابه، قال: هناك امتحانات امتحن الله بها هذا النبي الكريم جملة لا تفصيلاً، هناك بلاء.

استنبط العلماء من هذه الآية أن هناك علاجاً داخلياً وعلاجاً خارجياً :

أحيانا الإنسان يعاني من معارضة قومه ومن سعيهم لإحباط رسالته معاناة أشد من معاناة المرض، فإذا كان هذا النبي يدعو إلى الله وينشر الحق، والشيطان ينصب لأتباعه الشباك ليحبط إيمانهم وليصرفهم عن دينه وليشككهم في نبيهم فهذا أذى وأي أذى للنبي، قال:

(ارْكُضْ برِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

معنى (اركض برجلك) أي اضرب الأرض برجلك، فلما ضربها نبع ماء اغتسل منه فشُفى كل شيء وشرب منه، أي جعل الله الشفاء في هذا الماء الذي نبع من ضرب قدمه في الأرض.

(هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

هناك أطباء استنبطوا من هذه الآية أن هناك علاجاً داخلياً وعلاجاً خارجياً، مغتَسل: علاج خارجي، وشراب: علاج داخلي، على كل حينما آن الأوان وشاءت مشيئة الله أن يشفى وأن يصح وأن يرتد إليه

أهله معظمين مبجِّلين انتهى كل شيء، الله عز وجل قادر دائماً وأبداً أن يجعل من المصيبة التي أضنت وآلمت ذكراً.

(هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ*وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

أهله التفوا حوله، وصحته عادت كما هي، وردّ الله له ماله، بماذا استفاد من هذه المصيبة؟ أنه امتحن فنجح.

شعور المؤمن أن

البلاء من عند الله وهو صابر على قضاء الله وقدره هذا الشعور مسعد:

قال تعالى:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

شعر بمشاعر خاصة مع هذه الآية:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

الله عز وجل يعلم أن هذه القضية مزعجة، أحياناً الإنسان تأتيه مشكلة لا يحتملها، يا رب هل ترى؟ نَعم الله يرى، يعلم حجم المصيبة ومدى الإيذاء، ومدى الضرر، ومدى الضيق، والله يقدر الليل والنهار، لذلك سيدنا إبراهيم قال: علمه بحالي يغنيه عن سؤالي، ويعاب من يشكو الرحيم إلى من لا يرحم، عندما يشعر الإنسان أن الله سبحانه وتعالى يرى ويسمع ويعلم، وأن هذا من عند الله، وهو صابر على قضاء الله وقدره هذا الشعور وحده مُسعِد.

(وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

تروي التفاسير أن هذا النبي حلف يميناً أن يضرب بعض أهله مئة ضربة، فقال:

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً)

أي مجموعة حشيش فيها مئة عود واضربْ بها ضربة واحدة ولا تحنث.

الآية التالية تعطينا رخصة للتكفير عن اليمين بطريقة لا تؤذي الآخرين :

قال تعالى:

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

الإنسان أحياناً يحلف يميناً، يرى الخير في عدم إنفاذها ماذا يفعل؟ قال العلماء: هذه آية تعطينا رخصة للتكفير عن اليمين بطريقة لا تؤذي الآخرين، أي هو حَلَف أن يضرب مئة ضرب، قال له: خذ بيدك

ضغثاً أي عرقاً من النخيل فيه مئة عود واضرب به ضربة واحدة، هذه الضربة الواحدة تقابل مئة ضرب.

(وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

أيضاً نأخذ هذه الآية على مجملها من دون تفاصيل كما وردت في كتب بني إسرائيل، يمكن أن نستفيد من هذه الآية أن الإنسان أحياناً يتمكن من أن يحقق يمينه بطريقة لا تؤذي ولا تترك أثراً سيئاً في الآخرين.

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

هذه إنا وجدناه صابراً، لذلك الناس دائماً كلما ألمَّ بهم مكروه يقولون: يا صبر أيوب، أصبح هذا النبي الكريم مضرب المثل في الصبر.

كلمة (الصبر) لها معانٍ كثيرة :

الحقيقة كلمة الصبر لها معانٍ كثيرة، من معانيه أن الإنسان حينما يسلك طريق الإيمان الله عز وجل يعرضه لظروف معينة ولأزمات ولمشكلات، هذه كلها من أجل أن ترفع من مستوى إيمانه، كلها من أجل أن تقوي عوده في الإيمان، من أجل أن تقوي يقينه بالله عز وجل، دائماً وأبداً المصيبة تأتي إذا أصابت المؤمن واستفاد منها تذهب عنه وقد زادته إيماناً وحباً لله عز وجل.

السيدة فاطمة سألها النبي عليه الصلاة والسلام: ماذا بك يا بنيت؟ قالت: حمى لعنها الله، قال: لا تلعنيها، فو الذي نفس محمد بيده لا تدع المؤمن وعليه من ذنب.

اعتقدْ هذا الاعتقاد أن كل مصيبة إنْ في صحتك، أو في أهلك، أو في مالِك، طبعاً هذا خطاب للمؤمنين، تأتي وترحل، إن جاءت ورحلت وكنت صابراً ورضيت بقضاء الله وقدره، ماذا تترك في نفسك هذه المصيبة من آثار إيجابية؟ تزداد بها معرفة بالله عز وجل، وتزداد به حباً، مثلاً جهة قوية أرادت بالإنسان مكروهاً، أنت ليس لك أحد، لا تملك أن تدفع هذه المصيبة، لا تملك إلا الدعاء، فدعوت الله عز وجل بقلب مخلص، صليت الليل فدعوت الله عز وجل، أنت ما كنت لتفعل هذا لولا هذه المصيبة، ما كنت لتقف هذا الموقف، ما كنت لتصلي الليل وتتهجد، لتسأل الله في أثناء الليالي تقول: يا رب ليس لي سواك، هذه القوة الغاشمة التي تريد بك مكروهاً تراها بقدرة قادر على خلاف نواميس الأرض تنصرف عنك، أو تأتي قوة أخرى فتصرفها عنك، ماذا حصل؟ ازداد إيمانك بأن لا إله إلا الله، وأن الأمر كله بيد الله، ولا نافع ولا ضارّ إلا الله، ازداد إيمانك بأن الأمر بيد الله، وازداد إيمانك بأن الله

سمعك في دعائك، وازداد حبك له، اعتقد هذا الاعتقاد أي مصيبة تترك مزيداً من معرفة الله، ومزيداً من الحب له، هذا إذا أصابت المؤمن.

الكافر بين مصيبة القصم ومصيبة الردع :

يمكن أن نفسر هذا الموضوع بالشكل الآتي: هناك مصائب تصيب أهل المعاصي والفجور، وهناك مصائب تصيب أهل الإيمان والحبور، مصائب أهل العصيان عقاب وهي نوعان: مصائب قصم ومصائب ردع، كما قال الله عز وجل:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة هود: 36]

الإنسان أحياناً قد يبلغ من الكفر والانحراف والإصرار على إيذاء الناس درجة بالغة، عندئذ هذا لا تنفعه إلا مصيبة القصم، ربنا عز وجل يبطش به، الآية الكريمة:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج:12]

أنا سمعت قصصاً كثيرة عن أناس شريرين يحبون إيقاع الأذى بالناس، تراهم بحادثٍ أصبحوا قِطعاً ثلاث، هذه مصيبة قصم، الإنسان إذا أراد إطفاء نور الله عز وجل، إذا أراد إيقاع الأذى بالمؤمنين، إذا أراد أن يمنع دعوة إلى الله عز وجل، إذا أراد أن يلصق تهمة بإنسان بريء، إذا أراد أن يصرف الناس عن طريق الحق، هذا يتعرض لغضب الله الشديد وقد يبطش الله به، هذه مصيبة القصم، وأحياناً يكون في هذا الإنسان بقية خير، تأتيه المصيبة من نوع الردع، مصيبة مؤلمة جداً قد تفقده بعض أعضائه، قد تفقده بعض حواسه. فالكافر العاصي الفاجر المنحرف بين مصيبة القصم ومصيبة الردع.

مصائب المؤمنين :

لكن المؤمنين لهم مصائب من نوع آخر:

1 ـالمصيبة الأولى مصيبة المؤمنين مصيبة دفع إلى باب الله يكون هناك تقصير :

قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة: 155]

المؤمن يخاف، يفتقر فقد لا يملك قوت يومه، يفلس وأحياناً تبور تجارته فيضطر إلى دريهمات يقترضها من بعض الناس، وقد يفقد بعض أولاده، وقد يحرق الله بستانه يقول لك المحصول تلف كله، بعد كل هذا:

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

[سورة البقرة: 155-156]

النبي عليه الصلاة والسلام قال مرة: إن لله ما أعطى وله ما أخذ، كلام بليغ عظيم له ما أعطى وله ما أخذ، شيء أعطاني الله إياه ثم استرده مني، فهذا الذي بيدي عارية مستردة، فلذلك هذه المصيبة الثانية، المصيبة الأولى مصيبة المؤمنين مصيبة دفع إلى باب الله، يكون هناك تقصير، من قصر بالعمل ابتلاه الله بالهمِّ، يكون هناك عبادة شكلية وصلاة صورية، تساهل ببعض الطاعات تقصير في الصلوات تلاوة القرآن عنده شكلية ليس فيها عمق ولا خشوع، من قصَّر بالعمل ابتلاه الله بالهمِّ، مصيبة المؤمنين مصيبة دفع، في تقصير، سرعة بطيئة وفي خير، إذا أحب الله عبده ابتلاه.

2 ـالمصيبة الثانية مصيبة الرفع للمؤمنين :

المصيبة الثانية مصيبة الرفع، هو مستقيم وسرعته عالية في طريق الإيمان، لكن يمكن أن يرقى عند الله إلى درجات أعلى، فلذلك إضافة إلى إيمانه وإخلاصه وإلى أعماله الصالحة يحمِّله الله بعض المتاعب كي يكون مثلاً أعلى في تحمله إياها وصبره عليها، هذه مصيبة الرفع، فالمؤمن بين الدفع والرفع، إما أنه يدفعه إلى بابه، وإما أنه يرقى به.

3 ـالمصيبة الثالثة مصيبة الكشف للأنبياء :

أما الأنبياء المكرمون هؤلاء تنطوي نفوسهم على خير وعلى حب وعلى كمال لا يظهر إلا بالمصائب، فأنَّى للنبي الكريم أن يظهر ما عنده من حب للآخرين، من رحمة بهم، من حلم على أعمالهم، لولا أنه ذهب إلى الطائف على قدميه مع سيدنا زيد دعاهم إلى الله عز وجل، فسخِروا منه وكذبوا دعوته وبالغوا في إيذائه وشتموه وضربوه، جاءه جبريل قال: يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، قال: لا يا أخي، اللهم اهد قومي إنهم لا يعلمون، لعل الله يُخرج من أصلابهم من يوحده.

هذا الذي حصل، إذاً هناك خمسة أنواع من المصائب، مصيبة القصم ومصيبة الردع للعصاة، ومصيبة الدفع ومصيبة الرفع للمؤمنين، والكشف للأنبياء.

الأنبياء وصفهم الله بصفتين صحة الرؤية وصلاح العمل :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ)

أولي الأيدي أي أولي القوة، والأبصار الرؤية، هؤلاء الأنبياء وصفهم الله بصفتين: الأولى أنهم أصحاب بصيرة نافذة، والثانية أن لهم أعمال صالحة جليلة، أجمل وأدق وصف، إذا صحت رؤيتك وصح عملك فأنت في المقدمة، صحة الرؤية وصلاح العمل.

(أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)

أي الدار الآخرة دائماً يعيشونها، دائماً ماثلة أمام أعينهم، إذا كان الإنسان غافلاً فمن شقاء الإنسان أن يغفل عن الدار الآخرة وأن يعيش الدنيا وحدها، لكن من نعم الله على الإنسان أن تكون الآخرة دائماً في ذهنه، دائماً يذكرها، دائماً يعمل لها، دائماً يتقي عذابها.

(إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)

أي أنهم يذكرون الدار الآخرة هذا شأن ثابت من شؤونهم.

(وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ)

أي أن الله عز وجل اصطفاهم على العالمين، هم خيرة خلقه، لذلك هذا مدح لهم، فأية قصة لا تليق بهم تجعلهم كعامة الناس، أية قصة تجعلهم يثأرون لأنفسهم أو يُقبلون على شهواتهم هذه قصة مرفوضة من أصلها لأن الله نفاها عنهم.

وصف قريب لأذهان الناس في الجنة :

قال تعالى:

(وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ*هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ)

الآن ربنا عز وجل بعد أن ذكر بعض الأنبياء ذكر سريع ووصفهم بأن لهم بصائر نافذة وأعمال صالحة جليلة، ثم وصفهم بأنهم مع الدار الآخرة دائماً لا ينسونها، وهم مُصطَفَون أخيار، يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ)

تكريماً لهم، إذا الإنسان كان مدعواً وله شأن كبير طبعاً الأبواب مفتحة له قبل أن يأتي، أما إذا إنسان عادي حينما يأتي يطرق الباب فيفتح له، فتفتيح الأبواب له قبل أن يأتي تكريم كبير له من الله عز وجل.

(جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ *مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ)

أي جلسة مريحة جداً، وطعام نفيس، وحورية تملأ القلب سروراً، هذا وصف قريب لأذهان الناس في الجنة، مع أن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا)

جلسة مريحة جداً، أحياناً ريش نعام مريح.

الفرق بين مرتبة أهل الجنة ومكانة أهل النار :

قال تعالى:

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ)

أنفس أنواع الفاكهة وأطيب أنواع الشراب.

(وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ)

أي من سنِّهم، وقاصرات الطرف هذه الحورية لا تنظر إلى غيره، ولا تطلع إلى غيره، تقصر طرفها عليه.

(هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ)

الإنسان في الدنيا في قلق يقول: غداً أكبَر، الكِبَر مقلق، الفقر مقلق، وأحياناً يكون في منصب حساس يقول لك: عليّ ضغط، لي منافسون، في الآخرة ليس هناك قلق، وما هم منها بمخرجين، ليس هناك مرض وليس هناك غم ولا حزن، أما الذين طغوا في الدنيا:

(إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ* هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ)

أسْوَأ رجعة.

(جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ* هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)

الشراب يغلي، والنفس تعافه، الإنسان هل يستطيع أن يشرب شراب غسالة، بقايا الإنسان إذا غسل، هل يمكن أن يشرب الإنسان ما يحصل من تنظيف أنفه، هذا الغساق شيء لا يحتمل، حار يغلي ومنفِّر إلى أقصى درجة.

أهل الجنة على سرر متقابلين في محبة وود على عكس أهل جهنم في عداوة وبغضاء:

قال تعالى:

(هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ)

أنواع منوعة من أنواع الشراب التي لا يسيغها الإنسان ولا يحتملها.

(هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ)

أهل الجنة على سرر متقابلين، في محبة وود وأنس ولطف وسرور، أهل جهنم بالعكس في عداوة وبغضاء.

(هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ)

يتلاومون، أنتم ضلَّلتمونا، أنتم علمتمونا الانحراف، أنتم دللتمونا على المنكر، أنتم أقنعتمونا أنه ليس هناك إله، دائماً الحوارات في جهنم كل طرف ينحي باللائمة على الطرف الأخر.

(قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ*قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ)

ربنا عز وجل وصف لنا في قرآنه الكريم مشاهد من يوم القيامة :

آخر فقرة في الدرس:

(وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ)

أثناء الحوار والخصومات وتقاذف التهم في جهنم، ولا مرحباً بكم بل أنتم لا مرحباً بكم، أين فلان؟ هناك فلان مستقيم صالح يخاف الله عز وجل ويتلو آيات الله آناء الليل وأطراف النهار، يمضي الليل راكعاً وساجداً، يقدم للناس المعونات، يدعو إلى الله، يرحم الناس، هذا عند أهل الكفر شرير، هذا إنسان شِرِّير. في أثناء نقاش أهل النار وهم في النار يتصايحون قالوا:

(وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ)

أين فلان، وفلان، وفلان؟

(أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ)

هؤلاء الذين كانوا يعدونهم أشراراً هم في الجنان الآن، يتنعمون في الجنة، على سرر متقابلين، يأكلون ويشربون وهم في ظل الرحمن ينعمون، قال:

(إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)

كما أن أهل الإيمان قال: إنه كان لي قرين فاطَّلع فرآه في أصحاب السعير، كذلك أهل النار: أين فلان الذين كنا نعده من الأشرار، هذا مؤمن، هذا راقٍ مستقيم يخاف الله عز وجل، ربنا عز وجل وصف لنا في قرآنه الكريم مشاهد من يوم القيامة، هذا الوصف قبل أن يأتي رحمة بنا، أي يا عبادي انتبهوا، هذه المواقف سوف تقفونها، هكذا أهل الجنة وهكذا أهل النار، فالإنسان في الدنيا ليكن مع أهل الإيمان، ليكن مع الأتقياء الأبرار، ليكن مع المؤمنين الطاهرين، مع المستقيمين العابدين، مع الأولياء الذين يحبون الله عز وجل، وإلا فمصيره معروف.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ص 038 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 65- 88، التوحيد والفطرة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-01-08

بسم الله الرحمن الرحيم

نهاية العلم التوحيد :

أيها الأخوة الأكارم، الإيمان ينتهي بك إلى التوحيد، إذا وحدت فقد استرحت وأرحت، لذلك قيل: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، نهاية العلم التوحيد ألا ترى مع الله أحداً.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: 26]

اعمل لوجه واحد يكفِك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، لكن التوحيد يحتاج إلى جهد، إلى جهد في معرفة الله من خلال خلقه، ومن خلال كونه، آياته القرآنية، من خلال أفعاله، فإذا تعمقت في الإيمان ووصلت إلى عقيدة صحيحة قطعية يقينية أن في الكون حقيقة واحدة هي الله، وأن أي شيء يقربك من هذه الحقيقة هو الخير المحض، وأن أي شيء يبعدك عن هذه الحقيقة هو الشر المحض.

الصلاة تقرِّب، الصيام يقرب، العمرة تقرب، الحج يقرب، غض البصر يقرب، الكسب الحلال يقرِّب، ضبط اللسان يقرب، الغيبة تُبعِد، النميمة تبعد، إطلاق البصر يبعد، المال الحرام يبعد، الاتفاق في المعصية يبعد، في الكون كله حقيقة واحدة، لكنك ترى وتسمع آلاف الأسماء، وآلاف الأقوال، وآلاف المعتقدات، وآلاف الحركات، هذا الذي تراه كما قال سيدنا هود:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

أهمية التوحيد :

بشكل أو بآخر، وحوش كاسرة مفترسة مخيفة كلها مربوطة بأزمة بيد جهة، هذه الجهة فيها كل الكمال، فيها العدل والإنصاف والرحمة، فأنت علاقتك مع من؟ إن جعلت علاقتك مع هذه الوحوش فالقضية صعبة جداً، تعيش حياة الخوف والقلق والنفاق والتمزق والتبعثر والتشرذم، أما إذا جعلت

علاقتك مع هذه الجهة التي تملك هذه الوحوش تستريح وتريح، هذا هو التوحيد، تجاوزت هذه القوى الظاهرة إلى من أعطاها القوة، تجاوزت هذه المتحركات إلى من حركها، تجاوزت هذه المكونات إلى من كونها، تجاوزت هذه المخلوقات إلى من خلقها، تجاوزت هذه الأحداث إلى من أحدثها، هذا هو التوحيد.

لذلك أنت بالتوحيد سعيد، أنت بالتوحيد مطمئن، لأن علاقتك مع جهة واحدة، أحياناً يقول لك: تجارتي مريحة جداً، لماذا؟ يقول لك: أنا لي زبون واحد مرتاح معه، كل بضاعتي يأخذها ويدفع لي ثمنها نقداً بدون مماطلة، التجارة مع إنسان واحد مريحة جداً، لكن مئتا زبون هذا كذاب، وهذا يدفع وهذا لا يدفع، شيء متعب، أي هذا مثل من واقع التجار، موظف له خمسة أو ستة رؤساء هذا قال له: سافر، وهذا قال له: لا تسافر، هذا قال: بكّر وهذا لا تبكّر، يتمزق هذا الموظف، أما إذا موظف له مدير واحد شيء مريح جداً انتهت كل مشاكله، علاقته مع واحد.

لذلك التوحيد لماذا مريح؟ لأن كل مشاكلك مع جهة واحدة، لا تحتاج إلى أن تحلف له يمين، هذا الإله يعرف، ولا يريد وصل أنك دفعت إلى الجامع، كنت مضغوطاً فصبرت عرف ذلك، يعلم السرّ وأخفى، يعلم ما تبدي وما تخفي، يعلم ما تعلن وما تضمر، يعلم دوافعك الحقيقية تماماً، الأهداف الدقيقة، في شيء تعلنه أنت غير صحيح، هذه الرغبات الباطنة التي تحرك الأفعال يعلمها الله عز وجل، فعندما الإنسان يوحد يرتاح، لا يخاف أحداً، ولا يرجو أحداً، ولا ينافق، ولا يجامل، ولا يتملق، ولا ترتعد فرائصه من تهديد هدد به، ولا ينام مغموماً من وعيد وعد به، لأن حاله يقول: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي.

كن عن همومك معرضاً وكل الأمور إلى القضا
وابشر بخير عاجـــل تنسى به ما قد مضـى
فلرب أمر مسخـــٍط لك في عواقبه رضـــا
ولربما ضاق المضـيق ولربما اتسع الفضـــا
الله يفعل ما يشـــاء فلا تك معترضـــا
الله عوّدك الجمـــيل فقس على ما قد مضـى

* * *

آيات قرآنية تؤكد على التوحيد :

أنا أؤكد على التوحيد.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

أخوة يوسف ماذا فعلوا؟ أرادوا أن يلقوه في غيابة الجب وقد ألقوه ليموت ويستريحوا منه، فقال له ربنا سبحانه وتعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[سورة يوسف: 15]

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف: 21]

سيدنا موسى، فرعون قال: أنا سأذبح كل أبناء بني إسرائيل، هذا الذي سيقضي على ملكه رباه في قصره، والله غالب على أمره.

افهم كل شيء من خلال لا إله إلا الله عندئذ لا تقهر ولا تتمزق هذا هو جوهر الدين:

يا أخوة الإيمان، إذا علمت أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أصبحت علاقتك مع الله، أما إذا علمت أن زيداً ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وعُبيداً ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن هذا هو التمزق، هذا هو الشرك، هذا هو الشرك الذي يشلّ الإنسان، الذي يمزقه.

(وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ)

لأنه لا إله غيره، أما ما تزعمون هم آلهة مزورة، هم أصنام، أحجار، لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، لا يرفعون ولا يخفضون، لا يرزقون ولا يمنعون، ليس في يدهم شيء، الواحد لا إله إلا هو، القهار أمره نافذ.

مثلاً يقولون هذه الجهة تملك سلاحاً نووياً، وهذه الدولة دولة قرار، أي عاصمتها عاصمة قرار هذا مصطلح حديث، الله عز وجل قال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة يونس:24]

افهم كل شيء من خلال لا إله إلا الله، عندئذ لا تقهر، ولا تتمزق، ترى أن الإله بيده كل شيء، وعليك أن تعبده وكفى، عليك أن تطيعه وعليك أن تنتظر الخير منه، هذا هو جوهر الدين.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

هذا الإله الواحد الذي لا شريك له، القهار الغالب على أمره، فضلاً عن ذلك هو رب العالمين، كلمة رب فيها معنى التربية، التربية فيها حب، التربية فيها رحمة، التربية فيها حكمة، التربية فيها علم، التربية فيها تيسير لهدف نبيل، هذا معنى رب العالمين، أنا قلت قبل أيام أن الله عز وجل أعطانا عقلاً أداة معرفة الله، أعطانا كوناً يدل عليه، أعطانا فطرة تكشف الخطأ، أعطانا شهوة تدفعنا إليه، أعطانا اختياراً يثمن العمل، أعطانا قوة نحقق بها اختيارنا، أعطانا شرعاً نزن به العقل والفطرة، لو أنه أعطانا كل هذا وتركنا حتى يأتي الأجل، هو إله عظيم وعادل حكيم ولكن أين التربية؟ التربية حينما تختار شيئاً الله عز وجل يعاقبك على ذلك، يعاقبك، يحذرك، ينذرك، يضيق عليك، يشدد عليك حتى تعود إليه، إذاً هو يربيك.

الله عز وجل يكثر على الإنسان الوسائل كي يعرفه ويقبل عليه :

لا أعتقد أن واحداً من أخواننا الحاضرين إلا وله مع الله خبرات في هذا الموضوع، مثلاً هذه لأنني فعلت كذا، وهذه لأنني أخطأت هذا الخطأ، وهذا لأنني تجاوزت حدي، فحينما تشعر أن إلهاً حكيماً خبيراً يلاحظ أعمالك ويرقبها وهو لك بالمرصاد، ويعالج ويضيِّق ويشدِّد ويُكرم ويشجِّع عندئذ هو رب العالمين.

خطر في بالي مثل يقرب هذا المعنى وهو معنى الربوبية، مدير ثانوية مثلاً في النظام الداخلي كل طالب غاب أسبوعين يفصل، هذا المدير طلب الدوام ما تكلم للطلاب كلمة ولم ينصحهم وما حذرهم وما أنذرهم، إلا أنه عنده قوائم الدوام، فكلما رأى طالباً تجاوز غيابه خمسة عشر يوماً أصدر قراراً بفصله، هذا عدل وهذا تطبيق للنظام ولا يحاسب المدير على ذلك، لكن هناك مدير رحيم فضلاً عن أنه حازم، غاب الطالب يوماً واحداً استدعاه طلب منه تقريراً أو وليه، وشدد عليه، وكتَّبه تعهداً حتى لا يكررها، خلال سنة لم يدع طالباً أن يغيب أسبوعين، يعالجه من أول الأمر، فهذا بالإضافة إلى أنه مدير حازم هو مربٍّ حكيم.

فربنا عز وجل لم يعطنا الاختيار وتركنا نغلط ثم عند الموت حاسبنا إلى جهنم، ليس هكذا، بل إنه من أول غلطة هناك حساب، في حساب وتحذير وإنذار، وهناك معالجة وتضييق وتشديد، وهناك إكرام أحياناً، أحيانا عن طريق رؤيا مخيفة، عن طريق رؤيا سارة، عن طريق صديق أمين صادق مخلص،

عن طريق داعية، عن طريق خطيب مسجد، عن طريق كتاب يقرؤه، فالله عز وجل يكثر عليك الوسائل كي تعرفه وكي تقبل عليه هذه هي التربية، لذلك:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

العزيز هو الفرد الذي يحتاجه كلُّ مخلوق في كلِّ شيء، أدق تعريف للعزيز يحتاجه كل شيء في كل شيء، ليس هناك غيره، كل شيء في كل شيء، لا ينال جانبه، أمره هو الغالب، لكن إذا عدت إليه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه العزيز الغفار، إن عُدْتَ إليه قبلك.

الإنسان كائن معقد جداً إذا سار على منهج الله عز وجل يستقر ويسعد نفسياً :

قال تعالى:

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

أنا في طريقي كنت في عقد قران، وفي طريقي إلى هذا المسجد قلت كلمة: نبأ عظيم؛ أي إنسان جمع كل أمواله واشترى بها أرضاً ليشيد عليها بناءً ويربح منها، قرأ في الجريدة أخباراً منوعة رياضية وسياسية واقتصادية، إقلاع الطائرات ووصول البواخر، أسعار العملات، ثم قرأ خبراً مقداره سطر واحد فقفز من مجلسه قرأ أن هناك قرار استملاك الأرض، هذا نبأ عظيم، هذا خبر ليس ككل الأخبار.

مثلاً المؤمن شعر أن هذا القرآن، أحياناً الإنسان بحكم العادة يحضر خطب الجمعة، يحضر مجالس علم، إذا حضر عقد قران يسمع كلمة خطيب الحفل، يقول لك: يا أخي والله إنها كلمة لطيفة، إذا كان الدين بالنسبة لك قضية ثانوية، نشاط اجتماعي من جملة النشاطات الاقتصادية والثقافية والترفيهية أيضاً أنت لك أخوان، القضية أخطر من ذلك، سعادتك كلها تتوقف على علاقتك بهذا الدين، علاقة تصديق وتطبيق إذاً تسعد، علاقة عدم تصديق وعدم تطبيق تشقى، فقل هو نبأ عظيم.

الإنسان أحياناً يكون ببعثة ومعلقاً آمالاً وأحلاماً على نيل الشهادة، أحياناً تأتيه رسالة عادية: ألغي إيفادك إلى البلد، هذه رسالة غير عادية، يتلقى مئات الرسائل من أهله، سؤال وجواب عن دراسته وصحته وأحواله ومجاملات وسلام وكلام هذه رسائله، أما هذه رسالة خطيرة ألغت إيفاده، هذا نبأ عظيم.

أنا أضرب أمثلة، إذا كنت ترى الدين أنك تفهمه فهماً خطيراً الدين مصيري، سعادتك الأبدية مبنية على هذا الدين، استقرارك النفسي، صحتك النفسية في الدنيا، توظيفك في العمل أنت كائن معقد جداً، هناك ضغوط كثيرة يوجد عواقب، يوجد انفعالات، يوجد إغراءات، يوجد نشاطات،، يوجد صراعات،

أنت ككائن معقد جداً إذا سرت على منهج الله عز وجل تستقر وتسعد نفسياً، والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف.

هذا النبأ عظيم، ستبنى عليه سعادتك في الدنيا والآخرة، يبنى عليه استقرارك، يبنى عليه زواجك، يبنى عليه معاشك ورزقك، قل هو نبأ عظيم.

النبأ العظيم :

لذلك لا تظن أن إنساناً سمع خطبة جمعة، أو حضر مجلس علم، قرأ صفحة من القرآن قضية خطيرة جداً، الله عز وجل يضعك عند مسؤولياتك، يضعك عند مهمتك في الدنيا، فالإنسان:

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

* * *

يقولون إن الكاتب العظيم تقرأ قصته فلا تنام الليل، أما الكاتب التافه تقرأ قصته وتتثاءب وتنام، عالجَ موضوعاً خطيراً بعمق عجيب، وضعك عند مهمتك، قل هو نبأ عظيم.

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ*وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ*وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

[سورة النجم:59-61]

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

الناس مقبلون على مُتعها، على شهواتها، على مباهجها، على بيوتها، على تنظيم البيوت، على تزيين البيوت، على إنشاء المزارع، على اقتناء المركبات، على الاقتران بالزوجات، هذا همُّ الناس، أما النبأ العظيم في غفلة عنه، يحسبون حساباً لكل شيء إلا الموت، يحسبون حساباً حينما يولد يسجلون له طلباً للهاتف، أي يحسبون حساباً لعشرين سنة قادمة، أما ساعة المغادرة، ساعة النزول في القبر، ساعة الانتقال إلى الدار الآخرة هذا هو النبأ العظيم.

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

ما جاء به النبي من عند الله إنما وصله عن طريق الوحي :

كأن النبي عليه الصلاة والسلام، أو إن الله عز وجل أمر النبي أن يبلغ الناس أن هذا الذي أقوله عن الله عز وجل هو وحي ليس من عندي، والدليل:

(مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

عندما قال ربنا عز وجل:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)

[سورة البقرة: 30]

هذا الحوار بين حضرة الله عز وجل وبين الملائكة حينما أعلمهم بخلق مخلوق مكرَّم عليه وحيد، مخلوق أمر الملائكة أن تسجد له وإبليس رفض أن يسجد وقال: أنا خير منه، هذا الحوار وهذه المحاجة وهذا التساؤل وهذا الموضوع بكامله من أين جاء به النبي؟ كيف عرفه؟ عن طريق الوحي.

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ* أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ* مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ*)

الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان عقلاً وهذا العقل بإمكانه أن يصل إلى الله :

قال تعالى:

(إِنْ يُوحَى إِلَيَّ)

إن حرف نفي، أي ما يوحى إليّ:

(إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

معنى النذير أنه يعلمك شيئاً، إن لم تستجب له هناك عقاب أليم، وهناك شقاء أبدي.

(إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

الآن ربنا جلّ جلاله يحدثنا عن قصة خلق العالم، وقبل أن نأتي على تفصيلاتها لا بدّ من مقدمة قصيرة، هو أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان عقلاً، وهذا العقل بإمكانه أن يصل إلى الله من خلال آياته الكونية والتكوينية والقرآنية، وهذا العقل بإمكانه أن يصل إلى أن هذا الكلام كلامه عن طريق الإعجاز، وبإمكانه أن يصل إلى أن هذا الذي جاء بالقرآن رسوله، فبالعقل تؤمن بالله خالقاً وربا ومسيِّراً، تؤمن به واحداً وموجوداً وكاملاً، تؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، تؤمن بنبوة الأنبياء والكتب السماوية، كل هذا بالعقل.

لكن العقل بمثابة ميزان له طاقات تحد من قدرته، هذا الميزان تقدر طاقته القصوى بعشرين كيلو، أو ثلاثين، فهناك موضوعات لا يستطيع العقل معرفتها بذاته مستحيل، كيف بدأ الله العالم؟ ما كان، الله عز وجل قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

[سورة الكهف: 51]

الإيمان لا يصح إلا بالعقل لا بالتقليد :

الإنسان لم يكن موجوداً، كل شيء عجز العقل عن إدراكه أخبره الله به، إذاً في الإسلام معقولات ومنقولات، يقين استدلالي ويقين إخباري، شيء يجب أن تفكر به فإن لم تفكر به لا يقبل منك، الإيمان بالله بالعقل ولو قلدت به لم يقبل منك، لو قُبِل التقليد بالإيمان لأصبحت كل الفرق الضالة على حق، ما ذنبي أنا قلدْتُ فلاناً، الإيمان لا يصح إلا بالعقل لا بالتقليد، فالإيمان بالعقل، الإيمان بالله وبرسالة أنبيائه وبأنبيائه بالعقل، لكن الموضوعات التي يعجز العقل عن إدراكها لأنها فوق طاقته، العقل أساسه الاستدلال، أساسه شيء مادي أمامه يستنبط منه شيء مغيب عنه، الأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، والبعرة تدل على البعير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فِجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير.

هذا الاستدلال العقلي، فالعقل من شيء مادي إلى شيء مغيب عن الإنسان، هناك شيء ظهرت عينه وأثاره مثل نار تشتعل أمام عينيك وفوق النار دخان، فهذه النار ترى عينها بعينيك وترى آثارها بعينيك؛ اللهب والدخان، هذا اليقين الحسيّ، لكن رأيت جداراً ومن فوق الجدار دخان تقول: لا دخان بلا نار، هذا اليقين الاستدلالي، لا دخان بلا نار.

لكن جاءك رجل وهو صادق عندك مئة بالمئة وقال: نشب حريق في المكان الفلاني، أنت لا رأيت النار ولا آثارها لكنه أخبرك أن هناك حريق، فأول يقين يَقين حسي، ثاني يقين يقيْن استدلالي، ثالث يقين يقيْن إخباري، فيما يتعلق بذات الله يقين إخباري، فيما يتعلق بأصل الكون وقصة الحياة الدنيا وبدء الخليقة يقين إخباري، فيما يتعلق بعد الموت يقين إخباري، فيما يتعلق بالكائنات غير المرئية كالجن والملائكة يقين إخباري، هذه تسميها مسموعات، تسميها أخباراً، تسميها يقيناً إخبارياً، تسميها إيماناً تصديقيّاً، الأسماء كلها ذات مسمى واحد، أما المعقولات التي أنت مكلف أن تعقلها بذاتك، ولا يقبل منك أن تقلد بها. إذاً الإيمان فيه معقول وفيه منطوق، فيه استدلال وفيه تصديق، فيه تأمل وفيه مسموع.

قصة خلق العالم :

الآن ربنا عز وجل يحدثنا عن قصة خلق العالم، لو أنت قرأت شيئاً آخر خلاف هذا الشيء لك جواب واحد، ربنا عز وجل قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

[سورة الكهف: 51]

أنتم لم تكونوا معي، كنت أضرب مثلاً أن إنساناً جالس بمجلس في سهرة وقال: أنا في سنة الثلاثين أخذت محلاً في الحميدية، دفعت فروغه عشرة آلاف، عنده وَلَد وُلِد بعد شراء المحل بخمس عشرة سنة قال له: لا أنت أخذته بعشرين ألفاً بابا، قال له: أنت كنت معي وقتها؟ أنت لم تكن موجوداً حينئذ، عندما يريد الإنسان أن يتنطع ويتحدث عن قصة خلق الكون لم يكن موجوداً.

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

[سورة الكهف: 51]

ففيما يتعلق بأصل الوجود، بقصة نشوء الحوادث، بخلق الإنسان هذا يقين إخباري تصديقي، فيما يتعلق بكائنات لا نراها بالعين تصديقي، الحديث عن ذات الله وعن علمه وعن قدرته تصديقي، الحديث عن اليوم الآخر تصديقي، أما الحديث عن وجود الله عقلي استدلالي وعن أسمائه وعن صفاته، فربنا عز وجل الآن يذكر لنا في القرآن ما يعجز العقل عن إدراكه بذاته، عقلنا يعجز عن إدراك هذا الشيء بذاته، الله عز وجل يخبرنا عنه فيقول:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ)

كلكم يعلم أن المَلَك رُكِّب من عقل بلا شهوة، المَلَك مخلوقات نورية تسبِّح الله دائماً، لم تُكلف، ليس فيها شهوات، والحيوان ركب من شهوة بلا عقل، الملك ليس له حساب والحيوان ليس له حساب لأنه لم يكلف.

الإنسان إذا عرف الله واستقام على أمره أصبح فوق الملائكة :

الإنسان رُكِّب من عقل وشهوة، فإن سما عقله على شهوته سما فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، الإنسان حينما ينقطع عن الله عز وجل يرتكب من الجرائم، في فرنسا قبل أيام ظهرت رغبة أن يعاد العمل بالحكم بالإعدام شنقاً، السبب أن هناك شباب يغتصبون فتيات صغيرات ثم يقتلونهن، مجرم اغتصب ثلاث فتيات وعمرهن ست سنوات ثم قتلهن،عندما ينقطع الإنسان عن الله عز وجل يصبح مجرماً كبيراً، يمكن أن يدمر أمة من أجل مصالحه الشخصية، وعندما يرتقي الإنسان يسبق الملائكة بكثير، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 7]

ما من مخلوق يلحق الإنسان إذا عرف الله، أما الذي أعرض عن الله عز وجل أحقر مخلوق خير منه، النبي الكريم حدثنا عن رجل له جار، سافر هذا الجار وأوصاه بزوجته فخانه بها، كلبه قتله، فلما بلغ النبي القصة قال: خان صاحبه والكلب قتله، والكلب خير منه. فعندما ينقطع الإنسان عن الله ويتبع

شهوته يصبح مجرماً كبيراً دون الحيوان، فإذا عرف الله واستقام على أمره أصبح فوق الملائكة، فربنا عز وجل خاطب الملائكة:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ)

من تراب.

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

التسوية أي هذا التنظيم.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[سورة التين: 4]

أي هذا المِفْصَل، لولا المِفْصَل لا تستطيع أن تأكل إلا كما تأكل الهرة، يجب أن تنبطح على الأرض وتلعق الصحن ليس هناك غير هذه الطريقة، إذا ألغينا هذا المفصل، لو أن الإنسان يمشي على أربع لما أمكن أن يبني الحضارة، أما طلاقة يديه جعلت هذه الحضارة، إذاً: الإنسان يداه طليقتان ويمشي على رجلين.

السرّ في هذه النفخة أنها من روح الله عز وجل :

في الرأس، في الدماغ، في العينين بمحجرين تقيهما كل خطر، في هذا الأنف فوق الفم إذا كان الطعام فاسداً الأنف يعطي إنذاراً، هذا اللسان، هذا البلعوم في أحسن تقويم.

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

من طين، انظر إلى تمثال من الشمع يضعه بائعو الأقمشة في محلاتهم التجارية، وانظر إلى إنسان من لحم ودم فيه حياة، انظر إلى وردة طبيعية تفوح بالرائحة وانظر إلى وردة اصطناعية من ورق أو بلاستيك، أين الثرى من الثريا؟! قال:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)

فالسرّ في هذه النفخة من روح الله عز وجل، صار هناك دماغ يفكر ويحاكم، لو أن إنساناً مات لو صعد إنسان على سرير وتحت السرير ميزان، حينما تخرج روحه إلى السماء يا ترى كم غرام نقص وزنه؟ ولا غرام ولا ميلي غرام ولا ميكرو غرام، ومع ذلك العين لا ترى، الأذن لا تسمع، الدماغ لا يفكر، المعدة لا تهضم، الرئتان لا تخفقان، القلب لا ينبض، ما الذي حدث؟ ما هذا الذي خرج منه؟ العين تبصر الألوان، تبصر جمال الجبل الأخضر، تبصر جمال البحر الأزرق، تبصر جمال وردة فواحة، تشم رائحة عبقة، تعبر تتكلم، يضحك يبكي يخطب يبيِّن يفسِّر يؤلِّف يتحرك، الإنسان كائن راقٍ جداً فإذا ذهبت روحه أصبح مخيفاً، الغرفة التي ينام فيها الميت تبقى أياماً بل أسابيعَ بل شهوراً مهجورة

في البيت، قبل أيام كان هو مصدر أنس البيت، هو الأب إذا دخل هبّ له أولاده فرحين، ما الذي حدث حينما سحبت هذه الروح؟ أصبح مخيفاً، هذه النفخة.

ربنا عز وجل حينما أعطى الإنسان عقلاً وشهوة كرَّمه وكلفه وجعله خليفته في الأرض:

قال تعالى:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)

الموت بالعكس الروح انسحبت وأصبح جثة هامدة، إن كان في الصيف يحتاج إلى حمض الكلور وإلا خرج منه روائح كريهة، أنا في الحج والعمرة كنت أستغرب لماذا الجنائز يصلَّى عليها بعد العشاء، هناك الجنائز في كل وقت، أنا أعجب في الشام العصر آخر وقت، المغرب ليس هناك جنائز لشدة الحر، لا تبقى الجثة في الحنوط أكثر من ساعات وإلا تتفسخ، هذا الإنسان كان مصدر أنس بالنظافة والأناقة والعطور الفواحة، فإذا مات سحبت النفخة منه، ما الذي حدث؟ تفسّخ، وليس من رائحة أكره من رائحة الإنسان إذا تفسخ، يعرف هذا حفارو القبور إذا دعوا أن يفتحوا على ميت بعد فترة، رائحة لا تقابل.

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

انظر إلى الطفل حينما يولد نضرة سعادة، البيت كله فيه جمال وأنس، لكن لعبة من نفس الحجم لا حياة فيها.

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

هذا سجود تكريم لا سجود عبادة، إن الإنسان مكرم، والإنسان هو المخلوق الأول، والإنسان هو المخلوق المسخَّر له الكون من أجله، فربنا عز وجل حينما أعطاه عقلاً وشهوة كرَّمه وكلفه وجعله خليفته في الأرض.

الإيمان انصياع لله عز وجل والكفر استكبار :

قال تعالى:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ)

إبليس ليس مَلَكاً، هذا اسمه استثناء منقطع، إذا قلت حضر الطلاب كلهم إلا المدرس، المدرس ليس طالباً لكنه اجتمع مع الطلاب في وجود الحضور فحضروا ولم يحضر، فالاستثناء منقطع، معنى استثناء

منقطع أي ليس المستثنى منه من جنس المستثنى، أي ما بعد (إلا) ليس من جنس ما قبل (إلا)، والدليل سجد الملائكة كلهم وهذا توكيد أول، و(أجمعون) توكيد ثاني.

(إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

لذلك الكفر أساسه استكبار، المؤمن:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

الإيمان انصياع لله عز وجل، والكفر استكبار، قال:

(إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)

هنا الخلق مباشر من الله عز وجل، الله عز وجل يخلق عن طريق سبب، نحن حينما نخلق من أب وأم عن طريق سبب أرضي، لكن سيدنا آدم خلق من قبل الله عز وجل مباشرة.

أكبر عقوبة ينالها مخلوق أن يبعد عن رحمة الله :

قال تعالى:

(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)

أي أنت أكبر من أن تنصاع لهذا الأمر؟

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

لذلك قالوا أربع كلمات مهلكات: أنا ونحن ولي وعندي، (أنا) قالها إبليس فأهلكه الله، و(نحن) قالها قوم بلقيس نحن أولو قوة وبأس شديد فانهار ملكها، وقال قارون: إنما أوتيته على علم عندي، أنا عندي كذا، أنا حجمي المالي كذا، أنا أملك كذا، أنا أفعل كذا هذه كلمة مهلكة، وفرعون قال: أليس (لي) ملك مصرَ، إذاً أربع كلمات مهلكات: أنا ونحن ولي وعندي.

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

أي أن أكبر عقوبة ينالها مخلوق أن يبعد عن رحمة الله.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين: 15]

آيات قرآنية تبين اللعنة التي أصابت إبليس وكل من تبع إبليس :

أكبر مكافأة لمخلوق أن يتجلى الله عليه، إذا تجلى الله عليه أنساه كل شيء، إذا تجلى الله على قلب المؤمن، إذا شعر المؤمن أن الله يحبه وأنه بعين الله، وأن الله يحفظه هذا الشعور لا يوصف، الشعور الآخر شعور الطرد من رحمة الله، اللعنة.

(لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[سورة البقرة: 161]

(فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ)

[سورة النحل: 106]

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ)

[سورة النساء: 52]

(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

العلماء قالوا: فاخرج من رحمتي أو فاخرج من الجنة.

(وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

هذه اللعنة أصابت إبليس وكل من تبع إبليس، كل من استجاب لإبليس وائتمر بأمر إبليس، واستجاب لوسوسة إبليس عليه لعنة الله، إنما ذلك الشيطان يخوف أولياءه فإذا استجبت وخفت وتركت طاعة الله عز وجل حفاظاً على مصالحك فعلى هذا الإنسان اللعنة من الله لأن إبليس ملعون وكل من تبعه ملعون.

مهمة إبليس رئيس الجن :

قال تعالى:

(وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ* قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

معناها أن إيمان إبليس بالله ليس منجياً، غير كافي.

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

لذلك إبليس منذ أن خلقه الله وإلى يوم الدين هو حي، حياته مستمرة، هذا طلبه من الله، لكن الجن يموتون ويتزوجون، أما إبليس رئيس الجن حياته مستمرة.

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

أنا مهمتي يا رب:

(لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

أنا مهمتي أن أُبعدهم عنك، أن أزيِّن لهم الدنيا، أن أُوقع بينهم العداوة والبغضاء، أن أجعلهم يحبون الدنيا، أن أجعلهم يحبون المعاصي، أن أزين لهم كل المعاصي، أن أبعدهم عن كل الطاعات، هذه مهمته، لكن إبليس يفهم فقال: يا رب أفعل هذا:

(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

هؤلاء لا أستطيع أن أفعل معهم ذلك، هؤلاء حينما اعتصموا بك وأطاعوك واستعاذوا بك وأخلصوا لك انتهت مهمتي معهم.

إبليس لا يغوي إلا الغاوي ولا يزين المعصية إلا لمن يحب المعصية :

قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

[سورة إبراهيم: 22]

إذاً إبليس لا يغوي إلا الغاوي، لا يزين المعصية إلا لمن يحب المعصية، لكن المؤمن في حرز حريز وحصن منيع، المؤمن حينما يطيع الله عز وجل أبعد عنه سلطان إبليس، حينما يطيع الله عز وجل أبعد عنه وسوسته.

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف: 201]

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

[سورة الفلق: 1-2]

(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

هؤلاء الذين أخلصوا لك يا رب أنت خلصتهم من وساوس الشيطان، خلصتهم من كل هم وحزن.

الدين مغروس في فطرتنا وما هذا الكتاب إلا ليذكرنا بالدين :

قال تعالى:

(قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ)

الله جلّ جلاله لا يقول إلا الحق، هو حق ولا يقول إلا الحق.

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

الإسلام دين الفطرة من دون تكلف، من دون تصنع، المنطق يدل على الله عز وجل، العقل يدل عليه، الفطرة تدل عليه، الحوادث تدل عليه، القرآن يدل عليه، الراحة النفسية لها علاقة بالإيمان، أحياناً تحس أنها دعوة متكلفة فيها شد ومط، تجد الأفكار فلسفة غير طبيعية، الأفكار كلها مؤوَّلة، هذه دعوة باطلة، كل شيء فيه تكلف وتزوير وتأويل دعوة باطلة هذا الحق لا يحتاج إلى تأويل ولا إلى تزوير ولا إلى كذب، ولا إلى صخب وضجيج، الحق هو الفطرة، الحق هو العقل، الحق هو الواقع، الحق هو ما يألفه الناس ويرتاحون إليه، لذلك:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ *إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ*)

الدين مغروس في فطرتنا، وما هذا الكتاب إلا ليذكرنا بالدين.

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

البطولة أن تؤمن قبل فوات الأوان :

كما أقول لكم دائماً قضية الإيمان ليست على النحو التالي، ليست أن تؤمن أو لا تؤمن، قضية الإيمان متى تؤمن؟ لأنه لا بدّ من أن تؤمن ولكن بعد فوات الأوان، فالبطل ليس الذي يؤمن، بل الذي يؤمن في الوقت المناسب، أما فرعون آمن في الوقت غير المناسب، أيُّ مخلوق سوف يؤمن لكن بعد فوات الأوان، إذاً بطولتك أن تؤمن قبل فوات الأوان، أن تؤمن وأنت شاب، وأنت صحيح، وأنت شحيح، وأنت قوي، وأنت غني، فكرك مُتَّقد، عضلاتك مفتولة، الدنيا مقبلة عليك هذا وقت الإيمان، ليس بعد الثمانين ليس هناك شيء.

أحدهم قال لي: الدولاب ماسح والعداد قالب، ليس في هذا الوقت تؤمن، ليس هناك شيء، ليس هناك شيء تخاف منه أو تخاف عليه، مللتَ الحياة والأكل والشرب، الآن تبحث عن الإيمان؟ يجب أن تؤمن وأنت شاب بأن ريح الجنة الشباب.

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

أي دعوة فيها تأويل، فيها شدّ الآيات، تأويل متكلف، فيها تغيير الحقائق ليس هذا هو الحق، الحق فطري، الحق تسمعه فترتاح له، الحق يؤيده الواقع، الحق تؤيده الفطرة، الحق يؤيده العقل، الحق يؤيده النقل، الحق ينتشر سريعاً، الحق ترضاه النفوس، تطمئن له النفوس، أما التكلف والتأويل والتزوير، وما أنا من المتكلفين:

((إني تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[أخرجه أحمد عن حديث العرباض بن سارية]

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

هذه فيها تهديد، إذا الحق لم يعجبك فسوف ترى، سوف ترى أن هذا الذي دُكّرت به هو الحق، هناك جنة ونار، وهناك نار أبدية، وهناك حساب، وهناك صراط مستقيم، وهناك قبر، هناك عذاب في القبر.

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

[سورة غافر: 46]

هذه آية في أصل عذاب البرزخ، القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، يوجد موت والموت حق، وعذاب القبر حق، والجنة حق، والنار حق، والصراط حق، والحوض حق، وكل ما ورد في هذا القرآن حق، فهنيئاً لمن عرف الحق قبل يوم الحق، إذا عرف الحق قبل يوم الحق استعد لهذا اليوم، فإذا كذبه فسوف يعرفه لكن بعد فوات الأوان.

(وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (01-20): تفسير الآيتان 1- 2 ، الإخلاص والطاعة لله عز وجل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-01-15

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من تنزّل القرآن منجَّماً على النبي الكريم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الزُمَر، ومع الآية الأولى:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

كلمة تنزيل، قال بعض العلماء: تختلف عن كلمة إنزال، الإنزال يُفْهَمُ من هذه الكلمة أن القرآن أُنزِلَ دفعةً واحدة، وكلمة تنزيل يفهم منها أن القرآن أُنزل مُنَجَّماً، على حسب الحوادث والمناسبات، ولحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل أنزل القرآن دفعةً واحدةً على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، ثمَّ أنزله منجَّماً بحسب الحوادث والمناسبات.

وبعض العلماء يرى أن من رحمة الله في تنزيل القرآن منجَّماً، أن التشريع إذا جاء على إثر حادثةٍ، هذه الحادثة تدعو إلى التساؤل، ويقع الناس في حيرةٍ من أمرهم، ماذا يفعلون؟ يأتي حكم الله عزَّ وجل، هذا أبلغ في نفوس المؤمنين، وأوقع من أن يأتي حكمٌ مجرَّدٌ لا علاقة له بحياتهم، ولا بالأحوال التي يعيشونها، هذه واحدة.

والشيء الثاني: هو أن النبي عليه الصلاة والسلام سيواجه صعوباتٍ كبيرة، ومعارضاتٍ واسعة، فإذا كان القرآن يتنزَّل على قلبه على مُدَّةٍ طويلةٍ فهذا أعون على تثبيت النبي عليه الصلاة والسلام، فشاءت حكمة الله أن يتنزَّل القرآن منجَّماً على النبي الكريم.

شيءٌ آخر: هو أن كل الأحداث التي وقعت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، والتي في ضوئها نزل تشريعٌ حكيم، أو نَطَقَ النبي عليه الصلاة والسلام بتوجيهٍ كريم، هذه الأحداث ليست مقصودةً لذاتها، المقصود لذاته هو التشريع الإلهي والسُنَّة النبويَّة، فكلُّ الأحداث التي وقعت إنما يراد منها أن يكون القرآن حُكْمَاً، وسنَّة النبي عليه الصلاة والسلام تشريعاً.

كل الأحداث التي وقعت في عهد النبي ليست مقصودةً لذاتها إنما المقصود التشريع :

حينما أنزل النبي جيشه في معركة بدر في موقعٍ ما، وجاءه الحُباب بن المنذر رضي الله عنه وهو من أصحاب رسول الله، وسأله: يا رسول الله أهذا الموقع أوحاه الله إليك، أم هي المكيدة والمشورة والرأي؟"

كلامٌ دقيقٌ في أعلى درجات الأدب، إن كان هذا الموقع أوحاه الله إليك فهذا من عند الله وهو حق، أما إذا كان هذا الموقع من قِبَل الرأي والمشورة والمكيدة فليس بموقع مناسب، أليس الله قادراً على أن يوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام بالموقع المناسب؟ بلى، أليس الله قادراً على أن يلهم النبي عليه الصلاة والسلام بالموقع المناسب؟ بلى؛ ولكن هذا الحدث وقع ليقف النبيُّ الموقف الكامل ممن قدَّم له نصيحةً مخلصة.

إذاً النبي علَّم أصحابه، وعلَّم أمَّته من بعده، وعلَّم العلماء والأمراء من بعده أنه: إذا جاءتكم نصيحةٌ مخلصةٌ أساسها الغيرة على الدين فاستجيبوا لها، والنبي عليه الصلاة والسلام استجاب لهذا الرأي، ونقل الجيش إلى الموقع الذي ارتآه سيدنا الحُباب بن المنذر.

إذاً هذا التشريع، هذا الموقف الكامل، هذه القدوة التي وقفها النبي عليه الصلاة والسلام، ما كان لها أن تكون لو لا هذا الذي جرى، إذاً هذا الذي جرى ليس مقصوداً لذاته، المقصود لذاته أن يكون النبي في تصرُّفاته مشرِّعاً، وفي مواقفه كاملاً.

حينما أمَّرَ النبي عليه الصلاة والسلام أنصارياً على بعض أصحابه في سريَّةٍ، وفي الطريق تغاضبوا، وأمر هذا الأمير أن تُضْرَم نارٌ كبيرة، وقال لأتباعه أو لمن معه: "اقتحموها ألست أميركم؟ أليست طاعتي طاعة رسول الله". وقف أصحابه متردِّدين، بعضهم قال: علينا أن نقتحمها، وبعضهم قال: إنما آمنا بالله ورسوله فراراً منها، كيف نقتحمها؟" حينما عادوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأخبروه بما أمرهم أميرهم، قال عليه الصلاة والسلام: والله لو اقتحمتموها لا زلتم فيها إلى يوم القيامة إنما الطاعة في معروف.

إذاً يجب أن نؤمن أن كل الأحداث التي وقعت في عهد النبي، والتي في ضوئها، أو على إثرها، أو في مناسبتها تنزَّل قرآنٌ كريم، أو نطق النبي بحكمٍ هو من قَبيل السنة، أو من قِبيل الوحي غير المتلو، هذه الأحداث ليست مقصودةً لذاتها، إنما المقصود التشريع، والاقتداء بسنَّة النبي عليه الصلاة والسلام، هذه حكمةٌ من حكم الله في أن القرآن نزل منجَّماً، فكلَّما نشأت مشكلة عند أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وتوجَّهوا إلى النبي بسؤال، جاء حكم الله عزَّ وجل، فالحكم الذي يتنزَّل إثر مشكلةٍ، أو حادثةٍ،

أو قضيَّةٍ، أو مُعْضِلَةٍ يكون أوقع في النفس مما لو تنزَّل الحكم بلا سببٍ، وبلا مبرِّر، وبلا مناسبةٍ، تجعله حُكماً عظيماً في نفوس أصحاب النبي.

القرآن ليس من قِبَل البشر بل من عند خالق البشر فهو كتابٌ لا ريب فيه :

إذاً كلمة تنزيل توحي، أو نشعر من خلالها أن القرآن نزل منجَّماً بحسب الوقائع والمناسبات، على مدَّةٍ مقدارها ثلاثة وعشرون عاماً.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ)

هذا الكتاب، إن قلنا: قرآن فمن فعل قرأ، وإن قلنا: كتاب فمن فعل كتب، فهذا الذي نزَّله الله على النبي عليه الصلاة والسلام سمَّاه الله تارةً قرآناً لأنه يُقْرَأ، وسمَّاه الله تارةً كتاباً لأنه مكتوبٌ:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ)

دائماً يقولون: الرسالة شرفُها من شرف المرسل، كلَّما عظُمَ المرسِل عظُمَت الرسالة، ادخل إلى مكتبةٍ أيها الأخ الكريم ترى فيها عشرات الألوف من الكتب، كتبٌ في شتَّى العلوم، والآداب، والفنون، قديماً وحديثاً، لمؤلِّفين مشاهير، ولمؤلِّفين مغمورين، كتبٌ تبحث في كليَّاتٍ، كتب تبحث في جزئيَّات، كتبٌ فيها ضلالات، كتبٌ فيها هنات، كتبٌ فيها صواب، الكتب لا تُعَدُّ ولا تحصى، ولكن أيها الأخ الكريم ألا ينبغي أن تشعر أن القرآن شيءٌ آخر؟ إنه من الله العزيز الحكيم، كل الكتب مهما تنوَّعت، ومهما اختلفت كلها من تأليف البشر، والبشر:

((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ. وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[ابن ماجة عن أنس]

الإنسان ليس معصوماً، إذاً ما من كتابٍ على وجه الأرض إلا يؤخَذ منه ويُرَدُّ عليه، ما من كتابٍ على وجه الأرض إلا وفيه حقائقُ وأغلاط، لماذا؟ لأن المؤلِّف الغلط مركَّبٌ في طبعه، لكنك إذا تلوت كتاب الله عزَّ وجل، وهذه حقيقةٌ كُبرى إذْ يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا القرآن ليس من قِبَل البشر؛ بل من عند خالق البشر، لهذا ورد في بعض الأحاديث الشريفة أن:

((فَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى كَلَامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[أخرجه الدرامي عن شهر بن حوشب]

كم هي المسافة كبيرة جداً بين المخلوق والخالق، بين الحادث والمُحْدِث، بين الحديث والقديم، بين إنسان سبقه عدمٌ وينتهي إلى عدم، محدودٍ في تفكيره، محدودٍ في علمه؛ وبين خالق البشر، فلذلك حينما نمسك بكتاب الله فهذا كتابٌ لا ريب فيه، وهذا كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا

كتابٌ هو نورٌ مبين، وحبل الله المتين، كل من اقتدى بهديه نجا وسعد، وكل من جعله خلف ظهره ساقه إلى النار.

الأسماء التي سمَّى الله بها نفسه أسماءٌ حسنى والله هو الاسم الجامع لكل هذه الأسماء:

قال تعالى:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ)

من هو الله؟ صاحب الأسماء الحسنى:

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

[سورة الإسراء: 110]

فكل الأسماء التي سمَّى الله بها نفسه أسماءٌ حسنى، والله؛ هو الاسم الجامع لكل هذه الأسماء، أو هو عَلَمٌ على الذَّات كما يقول علماء التوحيد، أي أنَّ اسم اللطيف، مع اسم الرحيم، مع اسم القوي، مع اسم الغني، مع اسم الرزَّاق، مع اسم الوهَّاب، مع اسم الرافع والخافض، والمعزِّ والمذِّل، هذه كلُّها مجموعةٌ في كلمة: الله، وتعليقٌ طفيفٌ جانبي هو: أن بعض الأسماء الحسنى منها الضار والنافع، والمُذل والمعز، والخافض والرافع، قال علماء التوحيد: لا ينبغي أن تقول: الله ضار؛ بل يجب أن تقول: هو الضار النافع، هو المعطي المانع، هو الخافض الرافع، هو المعزُّ المذل، لماذا؟ لأن الشرَّ المَحْضَ لا وجود له إطلاقاً في أفعال الله تعالى، إذا ضرَّ الله عزَّ وجل فلينفع، وإذا أخذ فليعطي، وإذا أذلَّ فليُعِز، وإذا خفض فليرفع، وإذا قبض فليبسط، أسماء الله حُسنى، مثلها بشكلٍ أو بآخر؛ فكيف أن الطبيب الأب، أبٌ طبيبٌ يجمع بين الرحمة والعلم، إذا أجرى عمليَّةً لابنه فهو يفتح البطن ليستأصل المرض، الشرُّ موظَّفٌ للخير، ما يبدو لك شراً هو في حقيقته خير، وهذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

إذا تحدَّث الله عن أفعاله استخدم ضمير الجمع لأن أفعاله تتجلى فيها كل أسمائه :

إذاً تنزيل هذا الكتاب من الله، من صاحب الأسماء الحسنى، من صاحب الصفات الفضلى، من الذات الكاملة، من الواجب الوجود، من العليم الحكيم، من العزيز الرحيم، من اللطيف الخبير، من الغني القوي، كلَّما ذكرت اسم الله عزَّ وجل فاستعرض أسماءه الحسنى، فكل أسمائه الحُسنى داخلةٌ في أفعاله، أي فعلٍ يفعله الله عزَّ وجل فيه كل أسمائه الحسنى، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة حينما يقول الله عزَّ وجل متحدِّثاً عن ذاته بضمير الجَمْع:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى)

[سورة يس: 12]

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً)

[سورة الإنسان: 23]

إذا تحدَّث الله عن ذاته استعمل ضمير المفرد، كأن يقول: " إنني أنا الله "، أما إذا تحدَّث الله عن أفعاله استخدم ضمير الجمع، لأن أفعاله تتجلى فيها كل أسمائه، وإذا تحدَّث الله عن ذاته استخدم ضمير المفرد، قال:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

ما معنى العزيز؟ قال علماء اللغة: العزيز الشيء النادر، أما إذا وُصِف الله بأنه عزيز فهو الواحد الأحد، الفَرد الصمد، الذي لا مثيل له، ولا شريك له، الواحد.

معنى العزيز و الحكيم :

قال علماء اللغة أيضاً: العزيز الشيء الذي تشتدُّ الحاجة إليه، أما إذا وصِفَ الله باسم العزيز فهو الذي يحتاجه كل شيءٍ في كل شيءٍ، إذا وصفنا الشيء بأنه عزيز، يقول لك: هذه البضاعة عزيزة، أي تشتدُّ الحاجة إليها، أما إذا وصِفَت ذات الله جلَّ جلاله، إذا وصف الله ذاته بأنه عزيز معنى ذلك أن كل شيءٍ - وكلمة شيءٍ هي أشمل كلمةٍ تشمل كل شيء - أن كل شيءٍ يحتاجه في كل شيء، ويندر وجوده، أما إذا وصِفَ الله بأنه عزيز فهو الواحد الذي لا ثاني له، ولا مثيل له، ولا شريك له، ولا نِدَّ له، وإذا وصِفَ الله بأنه عزيز فهو الذي يصعُبُ الوصول إليه أو يستحيل الوصول إليه، لكن يمكن أن تصل إليه من دون أن تحيط به.

إذاً كلمة عزيز تعني أنه فردٌ، وأن كل شيءٍ بحاجةٍ إليه، وأن الإحاطة به مستحيلة، تصل إليه ولا تحيط به.

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 255]

(مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

الحكيم الذي يضع كل شيءٍ في مكانه الصحيح، ومن أدلَّة وجود الله عزَّ وجل أن في الأرض أشياء متحرِّكة، نجدها في مكانها الصحيح، وكلُّكم يعلم أنه لا ترجيح بلا مُرَجِّح، فكل شيء في مكانه الصحيح معنى هذا أنه يوجد عقل أول، فمفتاح الكهرباء يوضَع في مكانٍ مناسب، لو وضِعَ في أعلى الحائط، نحتاج إلى سلَّم للوصول إليه، فهذا المكان غير حكيم، لو وضِع في أسفل الحائط نحتاج إلى انحناء، هذا

مكان غير حكيم، أما لو وجدته في مكانٍ قريبٍ من مستوى كَتِفِ الإنسان، ومن مستوى يديه فهذا المكان مرجَّح، من الذي جعله في هذا المكان؟ إنسان عاقل، فلا ترجيح بلا مرجِّح، كل ما في الكون يدلُّ على حكمةٍ بالغة.

دقِّق في خلقه؛ وضع العينين في محجرين، وضع الأنف فوق الفم، وضع الفم وجعل حركته في الفك السفلي، وضع الأذنين جانبيتين، ولماذا أذنان؟ لحكمةٍ بالغة، لماذا عينان؟ لحكمةٍ بالغة، لماذا فمٌ واحد، ولسانٌ واحد؟ لماذا يدان ولماذا المفاصل؟ لو دقّقت في خلق الإنسان، أو في خلق الحيوان، أو في خلق النبات، لوجدت حكمةً ما بعدها حكمة.

هذه التفّاحة حجمها مناسب، لونها مناسب، رائحتها مناسبة، قِوامها مناسب، نُضجها مناسب، أيام قطفها مناسبة، أي صفةٍ من صفاتها لو دقّقت فيها لوجدت أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، هو الحكيم، فصفة الحكيم دليلٌ قطعيٌّ على وجود الله عزَّ وجل، وعلى صفاته، وعلى أسمائه.

معنى كلمة الحق :

هذا الكتاب بيَّن ربنا عزَّ وجل أنه تنزيلٌ، نزل منجَّماً، من عند من؟ من الله خالق السماوات والأرض، من الله مُبدع الكائنات، من الله ذي الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى..

(مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

أي أنَّ هذا الكتاب من الله العزيز الحكيم، قال:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

ما معنى كلمة الحق؟ الحق هو الشيء الثابت، ما هو الشيء الثابت؟ هو الشيء الهادف، فأنت إذا بنيت جداراً بشاقولٍ، هذا الشاقول أخذ وضعه الكامل، فهذا الجدار لا يسقط لأن بناءه صحيح، نقول: بني الجدار بالحق، أي وفق أسسٍ صحيحةٍ، وفق قواعد ثابتة، لأنه بني بهذه الطريقة فهو لا يسقط، بُني ليبقى، فكل شيءٍ صحيح، وكل شيءٍ أساسه صحيح، وكل شيءٍ بني وفق قاعدةٍ صحيحة هذا هو الحق.

الله هو الحق، الحقيقة الأولى في الكون هي الله عزَّ وجل، فكل شيءٍ فعلته وفق توجيه الله، وفق منهج الله، وفق أمر الله هو شيءٍ صحيحٌ، ودائمٌ، فالحق هو الشيء الثابت، فأي خللٍ لابدَّ من أن يُكْشَف، أي مبدأٍ ليس صحيحاً، فالواقع لا يؤكِّده، وهذا المبدأ إذاً سوف ينهار، لا يبقى إلا ما هو حق، إلا ما هو مرتبطٌ بالحق، إذاً:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

الله عزَّ وجل هو الحقيقة الكُبرى و ليس هناك حقيقة غيره :

أولاً: أنزلناه عليك بالحق، إنك أهلٌ لأن يُنزَّل عليك الكتاب، الله جلَّ جلاله اصطفى الأنبياء على عِلْمٍ، فبالحق أنزلناه وبالحق نزل، أي هو حقٌ وقد أُنْزِلَ عليك بالحق، فهو الحق دائماً وفي القرآن حقائق، في القرآن قواعد، في القرآن سُنَن، في القرآن أوامر، في القرآن نواهٍ، في القرآن توجيهات، هذه كلُّها حق، الحق ملابس لها، معنى حق أنها صحيحة، وأن الواقع يؤكِّدها، وأنها تفسِّر الواقع، هي تفسِّره والواقع يؤكِّدُهَا، فإذا أردت أن تقرأ كتاباً لا خطأ فيه، ولا غلط، ولا تناقض، ولا خلل، ولا رَيْب، ولا شك، ولا نقص، ولا مبالغة، ولا اضطراب، ولا خللٍ فاقرأ القرآن..

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

الحقُّ اسمٌ من أسماء الله عزَّ وجل، فإذا قال الله شيئاً فكلامه حق لأن الواقع يؤكِّده، وكلامه يفسِّر الواقع، إذا سَنَّ الله شيئاً فهو حق، لأن تتالي الأيام، والشهور، والسنوات لا يمكن أن تنقض هذا الذي سنَّه الله عزَّ وجل..

(وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)

[سورة الأنعام: 34]

كلمة حق واسعة جداً، فالله عزَّ وجل هو الحقيقة الكُبرى، ليس هناك حقيقة غيره، تشريعه حق، أفعاله حق، كلامه حق، أوامره حق، نواهيه حق، الأهداف التي رسمها لنا هي الحق لأنها هي الواقعة، إذاً كل هذه المعاني يمكن أن تستنبط من قوله تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

فالإنسان حينما يقرأ كتاباً ثمَّ يكتشف أن فيه أغلاطاً كثيرة، أو حينما يُضلَّل ثم يصحو، أو حينما تتسرَّب إليه معلوماتٍ مغلوطة يبني على أساسها سلوكه، ثم يكتشف أنها مغلوطة، يصاب بخيبة أمل كبيرة جداً، أما إذا قرأ القرآن، وحلَّق فيه، واستنبط منه الأحكام، ونفَّذ توجيهاته، وائتمر بأمره، وانتهى عما عنه نهاه، يشعر بطمأنينة لأنه مع خالق الكون، مع الذي لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، ولا يزول، مع الأزلي الأبدي، مع الحقيقة المُطلقة، مع الشيء الثابت، مع الشيء الهادف.

أروع تفسير للحق أن يُفْهَم بالطريقة المخالفة :

أروع تفسير للحق أن يُفْهَم بالطريقة المخالفة، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 16]

خلقناهما بالحق، الحق إذاً مناقضٌ للعب، اللعب عملٌ عابث، الحق عملٌ جاد، عملٌ هادف، عملٌ له هدفٌ كبير، إذا لعبت فاللعب شيءٌ عابث، وشيءٌ طارئ، وشيءٌ زائل، لكنَّك إذا عملت عملاً جاداً، هذا الشيء عملته ليبقى، ووراء بقائه هدفٌ كبير، فكأن من معاني كلمة (الحق) الشيء الهادف، وحينما قال الله عزَّ وجل:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

إذاً الحق عكس الباطل، الباطل الشيء الزائل، إذاً الحق الشيء الثابت والشيء الهادف، ثابتٌ خُلِقَ ليبقى ولا يزول أبداً، وله هدفٌ كبير، إذاً من هنا نستنبط أن هذا القرآن ما فيه من حقائق ثابتة، كلَّما تقدَّم العلم أثبت حقائق القُرآن، كلَّما تقدَّم العلم اقترب من حقائق القرآن، ما ورد في القرآن من أوامر، ومن نواهٍ، ومن تفاسير، ومن تبيين، ومن توضيح هو الحقُّ مئة في المئة، لأنه من عند الخالق.

أحياناً تشتري آلة معقَّدة، فمن هي الجهة الوحيدة التي إذا قالت لك: هذا المفتاح لهذا الهدف؟ من هي الجهة الوحيدة التي يُعدُّ كلامها صحيحاً مئة في المئة؟ إنها الجهة الصانعة، لذلك إذا اقتنيت آلةً وأردت أن تعرف ملابساتها، وطريقة عملها، وطريقة صيانتها، فعليك بتعليمات صانعها، وأنت إذا قرأت القرآن فأنت مع تعليمات الصانع الخالق، مع النشرة التفصيليَّة البيانيَّة لسر الكون، ولأسباب الخلق، ولأهداف الخلق.

ما دام هذا القرآن حقٌّ، أو ما دام هذا القرآن حقَّاً من عند الله عزَّ وجل بكل ما فيه فعليك أن تعبده، قال الله تعالى:

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

المعنى الواسع لكلمة عبادة :

قبل أن نقول له: أخلص له الدين، نقول له: اعبد الله مخلصاً، العبادة أيها الأخوة انصياع الجوارح لأمر الله، الإنسان له ظاهر وله باطن، له جوارح وله قلب، له شيء مُعْلَن وله شيء مُضْمَر، عبادة المضمر، عبادة السر، عبادة القلب هي الإخلاص، وعبادة الجوارح طاعة ظاهرة لله عزَّ وجل، فالشيء العظيم، الشيء الذي إذا وصلت إليه وصلت إلى كل شيء، المرتبة التي إذا بلغتها بلغت كل شيء، السلوك الذي إذا فعلته حقَّقت من خلاله وجودك، واثبت ذاتك، وحقَّقت المراد الإلهي من خلقك هو أن تعبد الله.

يا أيها الأخوة الأكارم، ينبغي أن نفهم هذا الأمر فهماً موسَّعاً، سبحان الله؛ كيف تقلَّص وأمر هذا الدين إلى صومٍ وصلاةٍ وحجٍ وزكاة، مع أن هناك في الدين آلاف الأوامر والنواهي؟ أن تعبد الله عزَّ وجل أي أن تتبع منهج الله الذي نزَّله على النبي عليه الصلاة والسلام، وكلُّكم يعلم أنك إذا قرأت أحكام الفقه،

وجدت الفقه يدخل معك في كل حياتك، ويدور معك في كل حركاتك وسكناتك، بدءاً من علاقتك بنفسك، إلى علاقتك بربِّك، إلى علاقتك بجسدك، إلى علاقتك بأهلك، إلى علاقتك بأولادك، إلى علاقتك بأصولك وفروعك، إلى علاقتك بجيرانك، إلى علاقتك بزملائك، إلى علاقتك بالمخلوقات - بالبهائم - إلى علاقتك بالنبات، إلى علاقتك بمجتمعك، إلى علاقتك بمن حولك، بمن فوقك، بمن دونك، هذا منهج الله عزَّ وجل، فكلمة..

(فَاعْبُدِ اللَّهَ)

تعني أنَّ عليك أن تطيعه في كل ما أمر، وأن تدع كل ما نهى عنه، لا تسمَّى عابداً إلا إذا أخذت الإسلام كلَّه كلاً متكاملاً، أما أن تأخذ منه ما يعجبك وأن تدع ما لا يعجبك، وأن تأخذ من الإسلام بعض العبادات التي لا تكلّفك شيئاً، وأن تقيم على بعض الشهوات التي حرَّمها الله عزَّ وجل، فليست هذه عبادة الله عزَّ وجل.

عبادة الله عزَّ وجل: طاعةٌ طوعيَّة، تطيعه عن حبٍ، وعن حريَّة اختيارٍ، لذلك فرَّق العلماء بين العَبيد وبين العِباد.

الفرق بين العَبيد و العِباد :

العبيد هم المقهورون، كلُّنا عبيدٌ لله، حياتنا متوقّفةٌ على هذه الأنفاس، فلو انقطعت لانتهت حياتنا، حياتنا متوقفةٌ على هذا القلب، فلو توقَّف لانتهت حياتنا، حياتنا متوقّفةٌ على لُقيماتٍ نأكلها، على كأس ماءٍ نشربه، حياتنا متوقفةٌ على أهلٍ نعيش معهم، على أولاد نستعين بهم حينما نكبر، إذاً حياتنا متوقفةٌ على إمداد الله لنا، فنحن عبيد، العبيد مقهورون بالعبوديَّة.

ولكنَّ المؤمنين فضلاً عن أنهم عبيدٌ لله هم عِباد الرحمن، عرفوه فأقبلوا عليه بمحض اختيارهم، عرفوه فأحبُّوه فأطاعوه، عرفوا عظمته فخضعوا لها، عرفوا كماله فأحبُّوه، عرفوا أنه هو الواحد الأحد فأخلصوا له، هذه العبادة، العبادة شيء والعبوديَّة شيء.

أن تكون حياتك متوقّفةً على إمداد الله فأنت عبدٌ لله، وجمع العبد عبيد، أما أن تتعرَّف إليه، وأن تقبل عليه طائعاً، أن تقبل عليه مختاراً، أن تأتيه بمبادرةٍ منك، أن ترى وحدانيَّته فتُخلص له، أن ترى جماله فتحبَّه، أن ترى كماله فتميلُ إليه، هذه عبوديَّةٌ، وجميع هؤلاء الذين يعبدونه بهذه الطريقة عِباد وليسوا عَبيد، لذلك كل الخلق عبيدٌ للرحمن، ولكن عباد الرحمن قلائل، هم الذين عرفوه فأقبلوا عليه.

إذاً أنت عليك أن تعبده في الظاهر، وأن تُخلص له في الباطن، القلب يعبده بالإخلاص، والجوارح تعبده بالطاعة، طاعةٌ في الظاهر وإخلاصٌ في الباطن، هذا هو سرُّ وجودك، وهذه هي مهمَّة وجودك،

وهذا هو الهدف من وجودك، وإذا ارتقيت إلى هذه المرتبة ارتقيت إلى مرتبة ما بعدها مرتبة، وإذا ارتقيت إلى مرتبة العبوديَّة فقد حقَّقت ذاتك، إذا ارتقيت إلى مرتبة العبوديَّة فقد حقَّقت المُراد من خلقك.

أيها الأخوة الأكارم، النفس الإنسانيَّة لا ترتاح إلا إذا شعرت أنها في مجال العبوديَّة، لذلك روي عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، أن الله جلَّ جلاله حين الإسراء والمعراج، أو عندما بلغ سِدرة المنتهى قيل له: اطلب يا محمَّد، فقال عليه الصلاة والسلام: اللهمَّ اجعلني عبداً لك، أي أن العبودية أعلى مرتبة.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

وأنت الآن بإمكانك أن تصل إلى أعلى مرتبةٍ، ولا سبيل إليها إلا بالطاعة لله عزَّ وجل، أنت كعبدٍ عليك أن تعبد الله، لذلك هناك آيات كثيرة تحث على العبادة، قال الله عزَّ وجل:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

المؤمن حينما عرف الله عزَّ وجل أضحت لديه قضيَّة واحدة وهي أن يطبق أمر الله :

أحياناً الإنسان يتطلَّع إلى مرتبة فوق مرتبة العبوديَّة، يُناقش، ويحاكم، وينتقد، من أنت؟ أنت عبدٌ لله، أنت عليك مهمَّةٌ واحدة هي أن تعبده، اعبده وكفى، اعبده وتنتهي مهمَّتك حينما تعبده، فإذا عبدته انتظر فضله، لذلك (بَلْ) حرف إضرابٍ تنفي ما قبلها وتثبت ما بعدها:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 144]

المؤمن حينما عرف الله عزَّ وجل أضحت لديه قضيَّةٌ واحدة، هذه القضيَّة التي تشغله، وتقلقه، ويهتمُّ لها، إنما هي أن يبحث دائماً عن أمر الله، يبحث عن حكم الله، ما الذي يُرضي الله أن يفعله؛ فيما إذا تزوَّج، إذا باع، إذا اشترى، إذا سافر، إذا أقام، كل نشاطٍ من نشاطاته، كل حركةٍ من حركاته، يبحث فيها جميعها عن أمر الله ليطبِّقه، هذه مهمَّتك..

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

[رواه ابن ماجه وأحمد والدارمي عَنْ ثَوْبَانَ]

ليس بين الله وبين عباده قرابة إلا طاعتهم له :

قال تعالى:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 144]

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

ليس بين الله وبين عباده قرابة إلا طاعتهم له، العباد يتفاوتون فيما بينهم بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة فقط.

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

لو أن الله عزَّ وجل قال: الدين له، لكانت العبارة تؤدي معنىً عاماً فقط، أما (له الدين) فيها قصر، أي أن خضوع الإنسان لا ينبغي أن يكون لغير الله، لأن غير الله ليس مؤهَّلاً، لأن غير الله ضعيف، لأن غير الله جاهل، لأن غير الله لا يسع العباد إطلاقاً، يجب أن تعبُد من إذا سألته أجابك، من إذا استعنت به أعانك، من إذا ناجيته سمِعك، من إذا طلبت منه أعطاك، يجب أن تعبُد الغني، أن تعبد القوي، أن تعبد القديم، أن تعبد الأبدي، أن تعبد الإله الواحد الذي لا إله غيره؛ أما إذا عبدت مخلوقاً ضعيفاً كالمستجير من الرمضاء بالنار، وإذا عبدت جهةً لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرّاً فلأن لا تملك لك شيئاً فمن باب أولى.

النفس البشرية ينبغي ألا تكون إلا لله :

الآية دقيقة المعنى جداً:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ)

أي أن الدين الحق والخضوع لا يكون إلا لعظيم، الخضوع للقوي، وليس في الكون قوياً إلا الله، الخضوع للعليم والله هو العليم، الخضوع للحكيم والله هو الحكيم، الخضوع للمهيمن، للجبَّار، للقهَّار، أسماء الله الحسنى كلُّها هي في مجموعها كلمة الله، إذاً:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

له الدين:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

كلمة: ألا لله الدين الخالص، أي له الخضوع كله، لو أنك خضعت لإنسان ضيَّعت نفسك، واحتقرت نفسك، هذه الجوهرة الثمينة والنفس البشرية ينبغي ألا تكون إلا لله، فشبابك ينبغي ألا يفنى إلا في طاعة الله، عِلمك ينبغي ألا يكون لغير الله، مشاعرك ينبغي ألا تكون لغير الله، ولاؤك ينبغي ألا يكون لغير الله، وكذلك مشاعرك، إخلاصك، طاعتك، شبابك، عمرك، مالك، لأن أية جهةٍ تخلص لها هذه الجهة ضعيفة وفقيرة، وقد تكون لئيمة، لا تعرف لك قدراً، ولا تعرف لعملك قيمة، فإذا عرفت لا تستطيع أن تكافئك..

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

[سورة فاطر: 14]

قس عليها كل شيء، فالجهة التي هي من دون الله لو قدَّرت عملك هي جهةٌ ضعيفة وأنت ضعيفٌ مثلها، لا تملك لك نفعاً ولا ضراً، لذلك:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

خضوع النفس ينبغي ألا يكون لغير الله :

هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)

[سورة المدثر: 56]

ليس هناك إنسان أهلٌ لأن تطيعه، ماذا يقول لك إذا أطعته؟ شكراً لك، هذه الكلمة ماذا تنفعك؟ لو أنك أفنيت عمرك من أجله، فماذا بإمكانه أن يفعل ليكافئك؟ هل بإمكانه أن يؤخِّر أجلك؟ لا يقدر، هل بإمكانه أن يصرف عن إنسانٍ مرضاً ساقه الله إليه؟ لا يقدر، هل بالإمكان أن يطيل عمره؟ لا يقدر، هل بالإمكان أن ينجيه من عذاب الله؟ لا يقدر، إذاً أنت علاقتك مع الله، فالدين خضوع النفس ينبغي ألا يكون لغير الله، أن تخضع لمخلوق، أن ترضي مخلوقاً، أن تخلص لمخلوق، أن تَهَبَ المخلوق حبَّك وولاءك وطاعتك، أن تفني من أجله شبابك، أن تنهي من أجله عمرك!! هذا المخلوق هو أقل من أن يستحقَّ ذلك..

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

أي أن الجهة التي تستحقُّ أن تكون أنت لها هي الله، فعمرك، وشبابك، ومالك، وفكرك، وعلمك، وعضلاتك، ووقتك، الجهة التي إذا وهبتها كل شيء أعطتك كل شيء هي الله عزَّ وجل، إذا وهبتها كل ما عندك أعطتك سعادةً في الدنيا وجنَّةً إلى أبد الآبدين هي الله عزَّ وجل..

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)

الله عزَّ وجل يريد أن يتوب عليكم وأن يطهِّركم لتسعدوا في جنَّته فالله له أمر ونهي:

هذه الدعوى الفارغة، هذه الفلسفة الناقصة والنظرة الزائغة التائهة لهؤلاء الأصنام:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

هذه فِرْيَةٌ وأكذوبةٌ فنَّدها الله عزَّ وجل، لأن الإنسان أحياناً يفلسف شِرْكَه، يقول: هؤلاء نحن نعبدهم حتى نتقرَّب إلى الله بهم، قال تعالى حكاية عنهم:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

لماذا يتَّجه الإنسان لغير الله؟ هل من سبب؟ لأن غير الله عزَّ وجل لا يطلب منك إلا الولاء، ثم افعل ما تشاء، أعلن له الولاء يرضى عنك، إن أعلنت له الولاء وفعلت ما تشاء أنت وغيرك، عندئذٍ يكثر أتباع من هم من دون الله عزَّ وجل فيسعون كما يسعى القطيع ويرضون كما يرضى، أما الله عزَّ وجل يريد أن يتوب عليكم، يريد أن يطهِّركم لتسعدوا في جنَّته، فالله له أمر ونهي، لا يرضى عنك إلا إذا كنت مستقيماً، لا يرضى عنك إلا إذا كنت مُنصفاً، لا يرضى عنك إلا إذا كنت محسناً، لا يرضى عنك إلا إذا كنت كاملاً، لذلك السير في ركاب الناس سهل جداً، هذا الشخص متى يرضى عنك؟ إذا أعلنت له الولاء، وافعل بعدها ما تشاء فيرضى عنك، لكن الله عزَّ وجل يعلم السرَّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، لا يرضى عنك إلا إذا كنت كاملاً، إلا إذا كنت مستقيماً، فلذلك:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)

فهذه دعواهم وهم فيها كاذبون.

اللهَّ عزَّ وجل أعطى الإنسان فكراً ليرقى به إلى الله :

قال تعالى:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

أي سوف يحكم بينهم، سوف تنطق جوارحهم بأعمالهم، إن اللهَّ عزَّ وجل أعطى الإنسان فكراً ليرقى به إلى الله، ليتعرَّف به إلى الله، فلمَّا أعرض عن الله استخدمه في فلسفة الباطل، في تزيين المُنْكَر، في تغطية الانحراف، في فلسفة الكفر والشِرك، فهؤلاء يوم القيامة يختِمُ الله على أفواههم، ويأمر جوارحهم وجلودهم أن تنطق بأعمالهم، فلذلك إذا كان يوم القيامة كان الأمر مختلفاً عما كانوا عليه في دنياهم. إدانتهم من أنفسهم:

(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

إذاً هؤلاء بهذه الدعوى كاذبون، وبهذه الدعوى كافرون، الإنسان أحياناً يفلسف الشِرْك، يفلسف عبادة غير الله بأنه (نعبدهم ليقرِّبونا)، قال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

هو كاذبٌ بهذه الدعوى، كافرٌ بالله عزَّ وجل.

تنزه الله سبحانه عن الزوجة والولد :

قال تعالى:

(لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

طبعاً هذا شيء افتراضي، لو أن الله عزَّ وجل أراد أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلُق ما يشاء، ولكنَّه تنزَّه عن الزوجة والولد.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص: 1-4]

هو نزَّه نفسه عن ذلك، فأي ادعاءٍ أو أي اعتقادٍ بأن له ولداً من خلقه، هذا كفرٌ صريحٌ يجب أن نعرفَ حجمه..

(سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

في درسٍ قادمٍ إن شاء الله عزَّ وجل نبدأ بقوله تعالى:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

أي أننا من خلال هذه الآيات التي تمَّ شرح بعضها، فالذي ينبغي أن نقف عنده هو أن نعبد الله مخلصين، من الداخل إخلاص، من الخارج طاعة، فإذا أطعت الله عزَّ وجل في كل ما أمر به، وفي كل ما نهى عنه، فقد عبدته، وإذا أردت بهذه الطاعة وجهه الكريم فقد أخلصت له، وإذا فعلت ذلك حقَّقت

عبوديَّتك لله عزَّ وجل، وإذا فعلت ذلك حقَّقت المُراد من وجودك، وإذا فعلت ذلك نِلتَ خيري الدنيا والآخرة، وإذا فعلت ذلك سعدت في الدنيا وفي الآخرة.

المؤمن متوحِّد أما الفاسق فمُبَعْثَر ومشتَّت :

مركز الثِقَل في الآيات السابقة..

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

والتعقيب المهم..

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

أي ينبغي ألا تدين لغير الله، ينبغي ألا تخضع لغير الله، ينبغي ألا تتجه لغير الله، ينبغي ألا تُفني شبابك لغير الله، ينبغي ألا تَتَعلَّم لغير الله، ينبغي ألا تُعَلِّم لغير الله، ينبغي ألا تكون لك أهدافٌ بعيدةٌ عن إرضاء الله عزَّ وجل، هذا هو الإيمان، هذا هو التوحيد، التوحيد أن تتوحَّد وجهتك، وأن تتوحَّد نواياك، وأن تتوحَّد أعمالك كلُّها لهدفٍ واحد وهو الله، لذلك قال بعض العلماء: " إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ". هذا هو الدين، والإنسان إذا وحَّد، وإذا جمع طاقاته كلها، وصبَّها في حقل واحد، فعندئذٍ يرتاح ويحقق غاية وجوده.

المؤمن متوحِّد، الفاسق مُبَعْثَر، مشتَّت، الحديث القدسي الشريف:

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[الترمذي عن أنَس بْن مَالِكٍ]

فليس بحياة الناس اثنينيَّة، بل توحُّد، في عملك، وزواجك، وتجارتك، ودراستك، وعنايتك بجسمك، وتربية أولادك، وحتى وقت لهوك هذا كلُّه وفق منهج الله، كله في سبيل الله، إن أعطيت وإن منعت، إن رضيت وإن غضبت، إن وصلت وإن قطعت، كل حركاتك، وكل سكناتك المؤمن الصادق يبتغي منها وجه الله عزَّ وجل، أعود وأكرر المؤمن موحَّد، يعيش في انسجام، في راحة نفسيَّة، ليس لديه تبعثر، ولا تشتُّت، لأن شِرك مضنٍ وعاقبته ضياع ثم بوار.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

على الإنسان أن يعقد العزم على شيئين؛ طاعة الله والإخلاص له :

وبعد: المؤمن حينما يتعرَّف إلى الله، ويرى من كمالاته التي لا نهاية لها، وحينما يعقد العزم على طاعته في كل شيء، وهو إذا وصل إلى هذه وتلك - إلى معرفته وطاعته - فالتعبير الشائع: فتح الله على قلبه، ووصله الله عزَّ وجل، فإذا وصله وصل إلى كل شيء، سعد بكل شيء، رضي عن كل شيء، القَصْد والغاية أن تعيش هذه الحياة هادفاً، ذا هدف يسمو بك ويرقى، أن تعيش بسلامةٍ وسعادة، وأن يكون لك عملٌ يصلُح للعرض على الله عزَّ وجل، فلنعقد العزم على شيئين، على طاعته والإخلاص له، وهذا واجبنا نحو ذواتنا وهو حق لله علينا. فإذا فعلنا الذي علينا عندئذٍ كافأنا الله بالذي لنا، كافأنا بخيرٍ ما بعده خير، توفيقٍ ما بعده توفيق، سعادةٍ ما بعدها سعادة، استقرارٍ ما بعده استقرار، توازن ما بعده توازن، سرور ما بعده سرور، هذا الذي عناه الله عزَ وجل بقوله:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

وهذا الذي عناه الله بقوله:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

وكذلك:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (02-20): تفسير الآية: 3- 4، الكون والآيات الكونية.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-01-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات الكونية التي تحدث عنها القرآن تأخذ حَيِّزاً واسعاً جداً في كتاب الله :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثاني من سورة الزُمَر، ومع الآية الرابعة، الآية الرابعة أيها الأخوة آيةٌ قرآنية تتحدث عن الكون، وقبل أن نمضي في شرح هذه الآيات بتوفيق الله وبعونه، أحب أن أقف قليلاً عند الآيات الكونية.

يا أيها الأخوة الأكارم، لو قرأتم القرآن بأجزائه الثلاثين لوجدتم أن حجم الآيات الكونية حجمٌ كبير، تأخذ الآيات الكونية التي تحدث عنها القرآن حَيِّزاً واسعاً جداً في كتاب الله، ألم يسأل أحدكم هذا السؤال: لماذا ذكَّرنا الله بهذه الآيات؟ ما الهدف من ذلك؟ الإنسان العادي العاقل إذا تكلم فلكلامه قصدٌ واضح، ربنا سبحانه وتعالى حينما قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ*خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

الآيات الكونية في القرآن الكريم ما ذكرها الله تعالى إلا لتكون وسيلة لمعرفته سبحانه:

سؤالٌ كبير وسؤالٌ خطير: لماذا هذه الآيات الكونية؟ الجواب البسيط هو: أن الله سبحانه وتعالى لا يدرَك بالحواس، قال تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

[سورة الأنعام: 103]

ولكن العقول تتعرف إليه، الشيء اللطيف في الموضوع أن الشيء إذا ظهر وآثاره فسبيل الإيمان به الحواس، هذا اليقين الحسي، إذا رأيت عينَ النار ودخانها يكفي أن تنظر إليها وتقول: هذه النار، أما إذا غابت ذات الشيء وبقيت آثاره، فسبيل الإيمان به الاستدلال العقلي، ربنا جل جلاله ذاته غابت عن حواسِّنا، ولكن آثاره باديةٌ لنا، آثاره في كل شيء، في أنفاسك، في تفكيرك، في أحاسيسك، في طعامك، في شرابك، في مسكنك، في لباسك، في أهلك، في أولادك..

في كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحد

* * *

هذه كلها تنطق بوجوده، تنطق بكماله، تنطق بوحدانيته، تنطق بأنه هو الخالق، هو الرب، هو المسَيِّر، لذلك لما ذكر ربنا عز وجل هذه الآيات الكونية في قرآنه الكريم، ما ذكرها إلا لتكون وسيلةً لمعرفة الله، قال تعالى:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية: 6]

فما من طريقٍ إلى الإيمان بالله إلا من خلال آياته، لأن ذات الله غابت عن حواسِّنا، قال:

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي)

[سورة الأعراف: 143]

أي أن طبيعتك المادية لا تحتمل أن تراني.

الكون تجسيد لأسماء الله الحسنى :

قال تعالى:

(وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

[سورة الأعراف: 143]

إذاً لا سبيل إلى معرفة الله عن طريق الحواس، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، ليس بشيءٍ ولا متبَعِّضٍ ولا متجزئ، فهناك وصف لله عظيم جداً، لكن هذا الكون يدل عليه، ربما كان هذا الكون إن صح التعبير مظهراً لأسماء الله الحسنى، ربما تجسَّدت إن صح التعبير أسماء الله الحسنى بهذا الكون، فأنت إذا تأمَّلت في الكون وصلت إلى الله، الأجانب تأملوا في الكون، لكن ما وصلوا إلى الله، لأنهم حينما تأملوا في الكون أرادوا النفع المادي، هدفهم مادي، وصلوا إلى أهدافهم بأعلى درجة، ولكنَّهم ما عرفوا الله، لكن المؤمن إذ تأمل في الكون لا ليخترع اختراعاً ويسجله في دائرة حفظ المُلكية الأدبية، وليربح منه ألوف الملايين، لا، ولكن يتأمل في الكون ليتعَّرف إلى خالق الكون، لأنك إذا تعرَّفت إلى خالق الكون صرت إنساناً آخر، قال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

[سورة طه : 123]

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 38]

فهل تريد أكثر من ذلك؟!!

التدين فطري :

ألا يضل عقلك، ألا تشقى نفسك، وألا تندم على ما فات، وألا تخشى مما هو آت؟ هذه أعلى درجة بالسعادة النفسية، ألا يضل عقلك، وألا تشقى نفسك، وألا تندم على ما فات، وألا تخشى مما هو آت.

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

[سورة طه : 123]

كم هناك من ضلالات في البشر؟ ملايين مُمَلينة - إن صح التعبير- تعبد البقر من دون الله، ملايين مُمَلْيَنَة تعبد آلهةً نُحِتَت من الحجر في شرق آسيا، ضلالاتٌ وأوهامٌ، التدين فطري أيها الأخوة، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه)

[سورة الروم: 30]

إقامة وجهك للدين حنيفاً هي الفطرة، أي أن نفسك مهما تحركتْ، مهما سعيت إلى السعادة لن تجدها إلا بالله، ربما لاح لك في أول الحياة أن المال هو كل شيء، ربما بدا لك أن المرأة هي كل شيء، ربما ظننت أن العلو في الأرض هو كل شيء، ولكن في منتصف مسيرتك في الحياة ترى أن المال شيءٌ وليس كل شيء، وأن اللذة شيءٌ وليست كل شيء، وأن العلو في الأرض شيءٌ وليس كل شيء، ولكن إذا اقتربت ساعة المُغادرة، المغادرة بلا عودة، إذا اقتربت ترى أن المال ليس شيئاً، وأن اللّذة ليست شيئاً، فالبطولة أن ترى هذا في مقتبل حياتك، وإذا كانت هذه الرؤية لا بُدَّ منها في وقتٍ ما، فالبطولة أن تراها في وقت مناسب، أن تراها وأنت مقبلٌ على الدنيا، حتى تتعرف إلى الطريق الصحيح.

تعاملنا مع الكون يجب أن يكون تعاملاً نفعياً وتعاملاً معرفياً :

إذاً ربنا سبحانه وتعالى جعل الكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، فحيثما وَرَدَ في القرآن ذِكْرُ الكون فالقصد الكبير أن تتأمل في الكون، لا من أجل أن تنتفع منه كشأن أهل الكفر، إذا تأمَّلت من أجل أن تنتفع منه فلا مانع إذا اقترن النفع مع الهدى، والذي يدل على ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما نظر إلى هلال، قال:

((هِلالٌ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[رواه أبو داود عن قتادة]

يا الله! أي أن هذا الهلال يرشدني إلى الله وينفعني في الدنيا، وقِس على الهلال كل شيء، ابنك الذي أمامك، خيرٌ لك ينفعك إذا شاء الله ذاك، وهو يرشدك إلى الله عزَّ وجل، كأس الماء، رغيف الخبز، الوردة التي خلقها الله إكراماً لك، تشم رائحتها، تنتعش برائحتها الفوَّاحة، وتدلُّك على الله.

ولكن أيها الأخوة الأكارم، أتمنى على الله أن تقنعوا أن الهدف الأول من خلق الكون هو أن تتعرف إلى الله عن طريق التفكر فيه والاعتبار منه، الهدف الثاني هو أن تستفيد منه، لو أن الإنسان استفاد من الكّون من دون أن يتعرف إلى الله عزَّ وجل، ماذا أقول لك، لا أستطيع أن أعبر لك عن فكرة دقيقة، لكني أقول: لو معك شيك بمليار، وأنت استخدمته كمسودة ثم مزَّقته، يا ترى هذه الورقة الصغيرة أيهما أشد قيمةً أن تأخذ ثمنها مليوناً أم أن تستخدمها كورقة مسودة ثم تمزِّقها؟ أنت حينما تنتفع بالكون ولا تتعرف إلى الله من خلاله فحالك كمن استخدم الشيك كمسودة، هذا النفع محدود في الدنيا، حتى ولو وصلت إلى القمر، لو غُصت في أعماق البحار، لو ملكت أعظم الأسلحة، لو تحكَّمت بالعالم كله، أليس هناك موت؟ سبحان من قهر عباده بالموت، أليس هناك نهاية؟ لا بد من نهاية، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلا بدَّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

* * *

إذاً هذا الكون نتعامل معه بنوعين من التعامل؛ تعامل نفعي، وتعامل مَعرفي، التعامل النفعي تنتفع به ما دُمت حياً ترزق، تنتفع به ما دام قلبك ينبض، تنتفع بطعامه، بشرابه، بحدائقه، بمبانيه، بمقاصفه، بجباله الخضراء، بسواحله الجميلة، تنتفع به، تنتفع بهذه المُخترعات، مركبة فارهة، يَخْت جميل، طائرة ضخمة، مقاصف جميلة، بساتين، قصور شاهقة، وسائل حديثة، تنتفع به كله، ولكن ماذا بعد الموت؟ هنا المشكلة، لو أن الحياة الدنيا هي كل شيء، لكان الذين انتفعوا بالكون هم أذكى الأشخاص، ولكن لأن الحياة الدنيا ظلٌ زائل، وعاريةٌ مستردة أمدها قصير، وشأنها حقير، فمن أقبل عليها إقبال النهم، من اتَّجه إليها اتجاه اللهفان، فوجئ بعد نهاية المطاف أنها ليست كل شيء، وأن الدار الآخرة لهي الحيوان، هي الحياة الحقيقة.

ثلاث طرق سالكةٍ إلى الله عزَّ وجل طريق خلقه وطريق كلامه وطريق أفعاله :

ما قولك أن يقول الإنسان عند الموت:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[سورة الفجر: 24]

لي قريب ترك ثروةً طائلةً، قال لامرأته قبل أيام من موته: أقبلنا على التافِه وتركنا الثمين. متى عرف ذلك؟ بعد فوات الأوان، الثمين أن تعرف الله، الثمين أن تغتني حياتك بالعمل الصالح، يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً، والله سؤال خطير وسؤال محرج، يا ربي، أنت إذا أوقفتني أمام خلقك، أنت إذا أوقفتني أمام هؤلاء المؤمنين الذي باعوا أنفسهم في سبيل الله، وسألتني: ماذا قَدَّمت؟ ماذا فعلت؟ ماذا تركت؟ كل شيءٍ تفعله للدنيا يبقى في الدنيا.

يا أيها الأخوة الأكارم، لماذا الإيمان؟ من أجل العمل، ولماذا العمل؟ من أجل السعادة، أنت لا تسعد إلا مع الله، والله لا يقبلك إلا بعملٍ صالح..

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النحل: 32]

ولن تعمل صالحاً إلا إذا آمنت به، وكيف تؤمن به؟ من فهمك لهذه الآيات التي بثَّها الله في الكون، إذاً يمكن أن تؤمن بالله من خلال خلقه، ويمكن أن تؤمن به من خلال أفعاله، آياته الكونية، أو آياته التكوينية، ويمكن أن تؤمن به من خلال كلامه، ثلاث طرقٍ سالكةٍ إلى الله عزَّ وجل، طريق خلقه، وطريق كلامه، وطريق أفعاله.

لا زال الفكر حتى الآن عاجزاً عن إدراك ذات الله تعالى :

ربنا عز وجل في آياته القرآنية حَدَّثَنَا عن آياته الكونية، قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

قبل أن نقول بالحق، نتوقف عند كلمتي (السماوات والأرض) أي أنك إنسان مكرم، أنت المخلوق الأول، أنت الإنسان الذي أعطاك الله قوةً إدراكية، فهذا كأس الماء لا يدرك، تشربه ولكنه لا يدرك، هذه الطاولة تستعملها ولكنها لا تدرك، الحيوان كذلك لا يدرك، هرةٌ صغيرة في بيتك مثلاً، كم تعرف من قضايا العالم؟ يا ترى هذه الأزمات الطاحنة بالعالم هل عندها علم بها؟ أطعمها قطعة لحمٍ رضيت وانتهى الأمر، هذه هي حالة الحيوان، خُلِقَ ليأكل ويشرب، المَلَك خلق ليسبِّح، لكنك أنت أيها الإنسان رُكِّبْتَ من عقلٍ وشهوة، فحينما أعطاك هذه القوة الإدراكية، فشيءٌ مؤلمٌ جداً أن تستخدم هذا الفكر البشري الذي يعدُّ أعقد ما في الكون فيما لا نفع فيه - أنا أعني ما أقول - إنه أعقد ما في الكون، رغم ذلك فلا زال هذا الفكر عاجزاً عن إدراك ذاته.

ثم إن هناك أسئلة كثيرة، اسألوا عنها الأطباء، لا يزال تحول الصوت مبهماً مجهولاً، أنت سمعت صوتاً، هذا الصوت تطرَب له، وذاك الصوت يكاد يخرجك من جلدك، فكلاهما ذبذبات، وكلاهما موجات، حتى الآن العلم عاجزٌ عن أن يدرك كيف تفرق الأذن بين النغم وبين الضجيج؟ تدخل إلى

شلالٍ، صوتٌ صاخب ولكنك تطرب له، تدخل إلى معملٍ تشعر كأن وخزاً في أذنك، هذا صوت وهذا صوت، العلم لا يزال يحبو، لا يزال كما قال بعض العلماء: " لم تبتل بعد أقدامنا ببحر العلم ".

كيف يتحول هذا الإحساس الكيميائي إلى ذَوْق؟ هذا الطعام طيب، هذه النكهة طيبة، حتى الآن ليس معروفاً، كيف تتذكر؟ فرضيَّات، مثلاً إن في ذاكرتك الشمية ثمانمئة رائحة، تشم هذه الرائحة، تفكر لعدة ثوان ثم تقول: هذه رائحة الياسمين، أو فيها يانسون، أو في هذه الرائحة مثلاً عنبر، من قال لك ذلك؟ قال بعض العلماء: إن هذه الرائحة التي شممتها قد عرضت على ثمانمئة رائحةٍ في أقل من لمح البصر، ثم أثناء العرض توافقت ما يشبهها، وهنا تقول: هذه ياسمين.

أحياناً تنظر إلى رجل قد رأيته قبل أربعين عاماً مرةً واحدة، تقول له: أنت فلان، فما هذه الذاكرة؟ كم تتسع؟ إلى صور، إلى مشمومات، إلى محسوسات، إلى مُدركات، سبعون مليار صورة، قال بعض العلماء: هو الحد الأدنى لذاكرة الإنسان، سبعون ملياراً، فهذه القوة الإدراكية هل سخرتها لتتعرف بها إلى الكون؟!!

البطولة أن تتعرف إلى الله من خلال الفكر :

هذا الفكر - لكي لا أخرج عن الموضوع - أليس من الجهل والعار أن تستخدمه لهدفٍ تافه؟ فإنسان يشتري كمبيوتراً، ثمنه خمسة وثلاثون مليوناً يستعمله طاولة يضع عليها جهاز الهاتف؟! لا، قد يقوم مقامه طاولة ثمنها خمسة آلاف أو أقل، خمسة وثلاثون مليوناً تجمِّدها من أجل أن تضع فوقها جهاز هاتف! هذا إنسان غير عاقل، يبدو أن هذا المثل صارخ وحاد، لا، الذي يستخدم فكره وهذه الطاقة الإدراكية الكبرى في كسب المال فقط، أو في الاحتيال على الناس، أو في الإيقاع بينهم، أو في السطو على أموال الناس، أو في السيطرة عليهم، من دون أن يستخدمه في معرفة الله، فو الله أنه مغبون، ألم يسمِّ الله يوم القيامة بيوم التغابن، ما هو يوم التغابن؟ الإنسان الذي قَصَّرَ في معرفة الله يشعر أنه مغبون، فالإنسان يومئذٍ يبكي ولو أجريت السفن في دموعه لجرت..

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ*وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

[سورة الفجر: 24-26]

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي* يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي* خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ*)

[سورة الحاقة: 25-33]

أي أن هذا الفكر لم يستخدمه في معرفة الله، استخدمه في كسب المال، في الإيقاع بين الناس، في الاحتيال، استخدمه في السيطرة على العالم، ليس هذا هو الذكاء، البطولة أن تتعرف إلى الله، لو ملكت العالم كله فالربح محدود، ولو كان العالم كله يأتمر بأمر رجلٍ واحد لا بد من أن يموت، ولا بد من أن يحاسب على كل دمعةٍ سالت لدى الشعوب المقهورة، وعلى كل قطرة دمٍ سالت من أجل كسب الأموال، والثروات، والسيطرة، لذلك المؤمن العاقل حينما يمتن الله عليه بالهداية، يرى أنه قد حصَّل شيئاً ما حصَّله أحدٌ من أهل الدنيا، ما قاله بعض الأئمة رضوان الله عليهم: " لو يعلم الملوك ما نحن فيه - والله لم يبالغ، لا والله - لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف ".

الإنسان في حياةٍ إعدادية لحياةٍ أبدية :

تتعرف إلى خالق الكون، وتهتدي بهداه، وتحقق الهدف الذي من أجله خُلِقت، وأنت في طريقك إلى الجنة، هذا هو المُلك، قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)

[سورة الإنسان: 20]

إذا فلان مساحة بيته ألفا متر، فما هذا الكلام، ليس من المعقول؟ ويقع وسط غابات مساحتها عشرة آلاف متر مربع، وله بكل مكان قصر جميل، وله يخت، ما هذا المُلك العظيم؟ ربنا العظيم قال:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)

[سورة الإنسان: 20]

فعندما تؤمن فلك عند الله ملكٌ كبير، الله عزَّ وجل خلقك لحياةٍ عُليا أبدية، وجاء بك إلى حياة دُنيا إعدادية، نحن في الإعداد، نحن في حياةٍ إعدادية لحياةٍ أبدية، فالشقي معه هذه السَنَد أو هذا الشيك، استعمله كورقة مسودة ومزقه، هذا الشيك بمليون أو بألف مليون بالعملة الصعبة، حينما يكتشف أن هذا شيك بألف مليون دولار، استخدمه مسودة ثم مزقه، يمكن أن يموت من القهر، هذه حالة الكافر يوم القيامة ولكن لا موت يومها، بل حسرات وعذاب..

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ*وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

[سورة الفجر: 24-26]

الكون من آيات الله الدالة على عظمته :

إذاً ما حجم الكون؟ هناك سؤال محرج: هل أنت موقن يقيناً يشبه يقينك بوجودك أن هذا كلام الله؟ إذا كنت كذلك فإن الله عزَّ وجل يقول:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

إنني الآن أرجو الله أن أتمكن من أن أقرب لكم فكرة عن الكون، الكون في بعض التعاريف الحديثة فيه مليون مليون مجرة، درب التبَّانة هي مجرتنا، المجموعة الشمسية، التي هي الشمس وأحد عشر كوكباً منها الأرض، تبدو نقطة صغيرة على هذه المجرة، تصور شكلاً مغزلياً والمجموعة الشمسية بأكملها نقطة على هذه المجرة، المجموعة الشمسية طولها مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، ما معنى سنة ضوئية؟ أي أن الضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، فالقمر مثلاً يبعد عنا ثانية ضوئية واحدة، أي أنه إذا صدرت أشعةٌ من القمر نراها في الأرض بعد ثانية، القمر بعده ثانية والشمس بعدها ثماني دقائق، الشمس بعدها عنا مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، ضوءها يصلنا بعد ثماني دقائق فقط، المجموعة الشمسية كلها - أحد عشر نجماً - قطرها ثلاث عشرة ساعةً ضوئية، أما درب التبانة فطوله مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، المجرة أمرها مذهل، بعض المجرات المتوسطة فيها مليون مليون نجم، كل هذا الكون من أجلك بنص القرآن الكريم:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

إعجاز الله في خلق الكون :

لا أريد أن أجعل الدرس درس علوم، لكن لا بُدَّ من ذلك، أقرب نجم ملتهب يبعد عن الأرض أربع سنوات ضوئية، أما المنطفئ، القمر وهو أقرب نجم يبعد ثانية ضوئية، أما الملتهب كالشمس فأربع سنوات ضوئية، الشمس ثماني دقائق، وعليك اليوم أن تجري حساباً بالآلة الحاسبة إن شئت، فهذا النجم الذي يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، لو ضربت المسافات وحولتها إلى الكيلو مترات، وقسمتها على مئة بالساعة، وقسمتها على أربع وعشرين ساعة باليوم، وقسمتها على ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً بالسنة، من أجل أن تصل إليه بمركبة أرضية تحتاج إلى ما يقارب الخمسين مليون عام، هذا النجم الذي هو أقرب نجم ملتهب إلى الأرض، أربع سنوات ضوئية فقط، بمركبةٍ أرضية سرعتها مئة كيلو متر بالساعة، تحتاج إلى أن تصل إليه إلى ما يقارب من خمسين مليون عام، وكل عمر الإنسان ستين سنة، فكيف بنجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية؟ فكيف بمجرة المرأة المسلسلة مليون سنة ضوئية؟ فكيف ببعض المجرات ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية؟ اسمع قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

فهل تعرف حجم الكون؟ هل تعرف معنى مليون مليون مجرة؟ هل تعرف أن المجرة فيها مليون مليون نجم؟ هذا خلق الله، والله سبحانه قال:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس: 101]

كذلك، الله عز وجل قال:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

[سورة يوسف: 105]

الإيمان أن يجتمع في قلبك تعظيمٌ وحبٌ وخوف :

كثير من الناس غافلون، أكبر مرض هو الغفلة والأمل، غافل عن الله، متأمل في الدنيا، هذا مرض خطير، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

هو الخالق، هل من خالقٍ غير الله؟ ما من إلهٍ إلا الله الواحد القهار، هذا الإله العظيم ألا يستحق أن تعبده؟ ألا يستحق أن تخافه؟ قال:

((يا رب! أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقك، قال: يا رب إنك تعلم إني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

أنا ذكرت هذا النص للفقرة الأخيرة منه: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي، الآلاء من أجل التعظيم، والنَعماء من أجل الحُب، والبلاء من أجل الخوف، فينبغي أن تعظِّمَهُ بقدر ما تحبه بقدر ما تخافه، الإيمان أن يجتمع في قلبك تعظيمٌ وحبٌ وخوف، من الأمراض الوبيلة التي لا يحتملها الإنسان أحياناً، من الزلازل والبراكين، من الفيضانات، من الصواعق، من الرياح العاتية، من بأس الإنسان.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

[سورة الأنعام: 65]

وتستمعون ماذا يجري في بعض البلاد من بأس شديدٍ يفعله الإنسان بأخيه الإنسان، أجل بأس شديد، فهذا البلاء من أجل أن تخافه، هناك أمراضٌ وبيلة، فهناك قهرٌ، هناك إذلالٌ، هناك فقرٌ، هناك فقرٌ مدقع.

العبادة الأولى هي التفكُّر في خلق السموات والأرض :

إذاً العبادة الأولى هي التفكُّر في خلق السموات والأرض.

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

وصلنا إلى كلمة (بالحق)، معنى بالحق: أي هذا الكون مبني على عِلم إلهي، هذا الكون إذا كان فيه مليون مليون مجرة، وبكل مجرة مليون مليون نجم أو أقل أو أكثر، تقريباً هذه النجوم متفاوتة في الحجم، فشمسنا تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، أي أن مليون وثلاثمئة ألف أرض تدخل في جوف الشمس، وشمسنا نجمٌ ملتهبٌ متوسِّط، وهناك شموس تكبره بملايين المرات.

تصوَّر حجم الكواكب والنجوم، تصور عددها، تصور الفراغات فيما بينها، تصور ساحة مدرسة مساحتها تعدل خمسين متراً بخمسين متراً، فيها كرات صغيرة، فيها عشرين كرة ملقاة في هذه الساحة، هذا حجم الفراغ الكوني إلى الكواكب في الكون، فالأرض فيها فراغات بينية، لو دخلت - كما يقول العلماء - في ثقبٍ أسود لأصبحت بحجم البيضة، الأرض تتكون من خمس قارَّات، وأربعة أخماسها بحر، بحجمها الكبير، لو دخلت في ثقبٍ كوني أسود لألغيت الفراغات البينية، وأصبحت في حجم البيضة، وبقي وزن الأرض نفسه، إذاً الكون بالمسافات بين الكواكب متجاذب تجاذباً حركياً..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

بعدد مجرَّاته، بعدد نجوم المجرة الواحدة، بالفراغات بين المجرات، بالفراغات بين النجوم في المجرة الواحدة، بالفراغات بين الذرَّات، هذا الكون متجاذب تجاذباً حَرَكِيّاً.

قوة التجاذب في الكون من آيات الله الدالة على عظمته :

هل تستطيع ولو كنت من أعلم العلماء بالفيزياء أن تأتي بقطعتي مغناطيس متفاوتتين بالحجم، وأن تضعهما على سطحٍ صقيل، وأن تضع بينهما كرةً صقيلةً، بحيث يتكافأ جذب الكتلتين فتستقر في الوسط؟ لن تستطيع ذلك، لن تستطيع مهما جهدت، أن تجعل هذه الكرة الصقيلة على سطحٍ صقيل تستقر بين الكتلتين المغناطيسيتين، لو تحركت ميكروناً واحداً تنجذب إلى جهة أخرى، تصور كتلتين ليستا في حجمٍ واحد، معنى ذلك أنها تحتاج إلى حسابات أكثر، ولو كانت بحجوم مختلفة هناك حسابات أخرى، لو كانت خمس كتل وبأحجام مختلفة فالحساب أصعب وأصعب، لو كان بالفراغ، لو كان ملايين

الملايين من الكتل فكلها متحركة، إن مستقرها صعب، فكيف وهي متحركة؟ ملايين الكتل كلها متجاذبة حركياً وكلها تتحرك في الفراغ، والمحصلة استقرار حركي، توازن حركي، هذه قوة التجاذب:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

هل هناك أعمدة؟ قالوا: لو أن الأرض خرجت من جذب الشمس، وأردنا أن نعيدها إلى الشمس، كم نحتاج؟ قال: نحتاج إلى مليون مليون كبل من الفولاذ المضفور، قطر كل كبلٍ خمسة أمتار، وكل كبل يتحمل قوة شد تقدر بمليوني طن، أي أن الأرض مربوطة بقوة جذب للشمس تعادل مليوني طن ضرب مليون مليون، أي بألفي مليار طن الشمس تجذب الأرض، كل هذا الجذب من أجل أن تحرف الأرض في مسارها حول الشمس ثلاث ميليمترات في كل ثانية، في أثناء حركتها حول الشمس تنحرف ثلاثة ميليمترات في كل ثانية فتشكل مداراً مغلقاً حول الشمس وتدور، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

كل كوكبٍ في الكون يدور ويرجع إلى مكان انطلاقه، لأن مساره مغلق.

معنى كلمة (بالحق) :

ربنا عزَّ وجل بكلمة واحدة وصف الكون كله، قال:

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

وإليك فيما يلي معنى (بالحق)، في أشياء كثيرة في موضوع المجرات، فأنا قد هيَّأت لكم بعض الحقائق، أولاً تصور أن الكون ليس متحركاً، ما معنى بالحق؟ لولا الذي هو عليه من الحركة لانتهى الكون، كلمة بالحق أي مبني على علم، لو أن الكون كَفَّ عن الحركة، ما دام هناك قوى تجاذب بين المجرات والنجوم، الأكبر يجذب الأصغر، إلى أن يصبح الكون كتلةً واحدة، نحن أين نصير؟ أرضنا ذرة وسط جسم لا يعلم إلا الله حجمه.

إذاً لولا الحركة، لأن الحركة ينشأ عنها قوة نابذة، هذه القوى النابذة تكافئ القوى الجاذبة، توازن حركي، فإذا أمسك أحد ما وعاء ماء وأداره، فالماء لا يندلق، حينما صار الوعاء في الأعلى تحت الماء فارغ، لماذا بقي الماء في قعر الوعاء؟ شيء عجيب!! لا، ليس عجيباً لأنه حين الدوران تنشأ قوى نابذة، فلولا حركة الكون لأصبح الكون كتلةً واحدة، فما معنى بالحق؟ أي أن الكون خلق وفق علم، علم دقيق.

الأغرب من ذلك، إن الأرض مثلاً في دورتها حول الشمس، سرعتها متبدلة بحسب مكانها في مسارها، فمسار الأرض حول الشمس إهليلجي - ليس دائرياً - معنى ذلك أن هناك قطراً أعظمياً وقطراً أصغرياً، حينما تقترب الأرض من القطر الأصغري تزيد سرعتها، لئلا تنجذب إلى الشمس، ولو أنها زادت من سرعتها فجأةً واحدة لقيل: هنا كانت مدينة اسمها باريس، لو أن الأرض رفعت سرعتها فجأةً لانهدم كل ما عليها، لما بقيت عليها مدينة ولا قرية، ولكن الله لطيف، يزيد سرعتها شيئاً فشيئاً، بالتدريج، وهذا ما يسمونه بالتسارع، تسارعها بطئ، وحينما تخرج من دائرة قطرها الأصغر، تعود إلى سرعتها البطيئة أيضاً بالتدريج.

فما معنى بالحق؟ أي وفق علم، هذا علم الله عزَّ وجل، هذا الذي سمَّاه الفلاسفة العقل الأول، تصميم رائع.

خلق الله عز وجل الأرض وما يتعلق بها بالحق أي وفق العلم :

هذه الأرض تستمد الحرارة والضوء من الشمس، لو أنها لا تدور حول نفسها، لانتهت الحياة من على سطحها، هذا الوجه مقداره ثلاثمئة وخمسون درجة، وهذا الوجه مئتان وسبعون درجة تحت الصفر، ولكنها حين تدور، فبهذا الدوران يصبح جوُّها معتدلاً، لو أنها توقفت عن الدوران لانتهت الحياة..

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي وفق علم، فلو دارت على محورٍ موازٍ لسطح دورانها حول الشمس - مستوي دورانها - دارت هكذا يميناً مثلاً والشمس من هنا، كأنها واقفة، لو أنها دارت هكذا، والشمس من هنا، نصفها الأول مع الشمس دائماً وأبداً، ونصفها الآخر من دون شمسٍ دائماً وأبداً كأنها واقفة، من الذي صممها أن تدور بمحورٍ ليس قائماً تماماً، مائلاً على مستوي دورانها؟ هو الله عزَّ وجل.

إذاً لو أيقنت أن الأرض لو كفت عن الدوران لانتهت الحياة، ولو أنها دارت على محورٍ موازٍ لمستوي دورانها حول الشمس لانتهت الحياة، ولو أنها دارت على محور قائمٍ مع مستوي دورانها لانتهت الحياة، ولانعدمت الفصول، هذه المنطقة صيف إلى أبد الآبدين، وهذه شتاء إلى أبد الآبدين، النبات يحتاج إلى حرارة وبرودة، وإلى طقس متبدل ورياح، أما ميل محورها جعل هذه المنطقة في الأرض تتعرض لأشعة الشمس وتكون عليها عمودية، هنا مائلة، هنا صيف، هنا شتاء، فلمَّا وصلت الأرض إلى هذه الجهة، الآية انعكست، عمودية في الجنوب مائلة في الشمال، إذاً دورتها حول محورٍ ليس موازٍ لمستوي دورانها (بالحق)، ودورتها حول محورٍ مائلٍ كذلك (بالحق).

حجمها (بالحق)، لو كان حجمها أكبر لكان الإنسان وزنه أكبر، فالإنسان على القمر، فالذي شاهد الإنسان على القمر بصور متحركة، رأى كيف أن رائد الفضاء لما ضغط ضغطة على قدمه ارتفع مترين، لأن وزن الإنسان على سطح القمر سدس وزنه على الأرض، كلما كبر الحجم زادت الجاذبية، فمن خلق الجاذبية؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل: 61]

من جعل الأشياء تنجذب إلى الأرض؟ الله عز وجل.

الماء أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته :

إذاً:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

معنى بالحق وفق العلم، معنى بالحق وفق الحكمة، بحكمةٍ ما بعدها حكمة، هل تصدق أن بالماء ظاهرة واحدة لو انعدمت لانعدمت الحياة؟ الماء شأنه كشأن أي عنصر يتمدد بالحرارة وينكمش بالبرودة، كأي عنصر، إلا أن الماء يتميَّز بأنك إذا بَرَّدته إلى درجة (+4) تنعكس الآية، يزداد حجمه مع تبريده تحت هذه الدرجة، فمن يصدق أن حياة الأحياء متوقفةٌ على هذه الخاصَّة؟

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

فلو قلنا: أن الماء كلما برَّدناه أو برد انكمش، لارتفعت كثافته، وإذا ارتفعت كثافته غاص في أعماق البحار، فمثلاً قطعة الثلج، لو زادت كثافتها لغاصت في أعماق الماء وعليه فالبحار المتجمدة كلما تجمد سطحها غاصت إلى أسفلها، بعد حين بناءً على ما سبق تصبح البحار كلها متجمِّدة، وبعد حين ينعدم هطول الأمطار، فينعدم النبات، فينعدم الحيوان، فينعدم الإنسان، هذه الحياة أساسها خاصَّة موجودة في الماء، لا تزال تحيِّر العلماء.

فهذا الماء إذا أراد أن يتمدد لا شيء يقف في وجهه، الآن أحدث عملية في تفتيت الصخور هي حقنها بماء ثم تبريد الماء، صخر من أقسى العناصر، الماء إذا تمدد يفلق الصخر كما يقولون، من أعطى الماء هذه الخاصة؟ الماء لا يُضغط، ثمانمئة طن بمكبس على متر مكعب ماء لم ينضغط ولا ميلي، الماء لا يضغط وإذا تمدد لا شيء يقف في وجهه هذا معنى:

(وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

[سورة الطارق: 11-13]

ما الذي صَدَّعها؟ تجمُّد الماء، ما الذي قلب الأرض من صخور إلى تربة؟ تجمد الماء:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ*وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ*إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

[سورة الطارق: 11-13]

بعض من دلالات معنى (بالحق) :

إذاً هناك أشياء بالكون مذهلة أيها الأخوة، هذا معنى بالحق؛ أي بالحكمة. حدثني أخ من مدة قال لي: كنا بفنلندا وكانت درجة الحرارة أربعين تحت الصفر، قلت له: هناك آية كونية، هل انتبهت لها؟ قال: لا، لم انتبه لها. قلت له: أنت بهذه المنطقة الباردة ممكن تضع قفّازات في يديك صوف أو جلد، وممكن أن تغطي رأسك بقطعة من الصوف، ويمكن أن تضع على رأسك شيئاً يقيك البرد، ويمكن أن ترتدي ألبسة قدم سميكة جداً، قال لي: هذا صحيح. قلت له: هل بإمكانك أن تغطي عينيك من أجل ألا يصيبهما البرد؟ قال: لا. قلت: فلمَ لم يجمد ماء العينين في درجة تحت الصفر؟ ثم قلت: الله عزَّ وجل أودع في ماء العين مادةً مضادةً للتجمُّد، وهذه من دلالات معنى بالحق، أنت مخلوق بالحق.

أي أن خلقك أساسه على علم، أساسه فيه حكمة، أساسه فيه رحمة، أساسه فيه لُطف، أبرع طبيب أسنان هل يتمكن من قلع سن لطفل دون أن يبكيه؟ يقول لك: أخدِّره بالبنج؟! لكنه يصرخ صوت عند وخز الإبرة لأنها أصعب من قلع الضرس، أما ربنا لطيف إذا أراد أن يبدل أسنان الطفل، تجد الطفل وهو لا يشعر رأى قطعة قاسية مع الطعام، ما هذه؟ سني، كيف هذه السن سقطت من جذرها بالتدريج دون أن يشعر الطفل، الله عز وجل لطيف.

المطر فيه لطف، لو كانت كل بَرَدَة تزن خمسة كيلوات، لما بقي على الأرض أي شيء سليماً، البرد حجمه صغير، المطر حجمه لطيف، فكل شيء بلطف الله عزَّ وجل، وكلٌ برحمة الله عز وجل وتدبيره.

عثروا بقمة جبل بأعلى جبال بالهند، على نبع ماء، ليس لهذه الظاهرة في الفيزياء تفسير إلا أن يكون لهذا النبع مستودع في جبل أعلى منه لأن بعض الوحوش تعيش في قمم الجبال، فهناك رحمة من الله سبحانه وعلم وحكمة ولطف، هذه ظاهرها تفسرها (بالحق)، أي أن كل أسمائه الحُسنى داخلةٌ في خلقه.

الكون أوسع بابٍ لمعرفة الله وأقصر طريق إليه :

قال تعالى:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

كلمة الحق اسمحوا لي أنا أشعر أن كلمة (بالحق) تعني وفق العلم، وأنها وفق الحكمة، وأن هذه السماوات والأرض خلقت لهدفٍ كبير ليس فيها عَبَث، مأخوذٌ هذا من قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 16]

اللعب شيء مخالف للجد، اللعب هو الشيء العابث، عمل بلا هدف، تجد إنساناً يلعب لعبة، لا فائدة من ورائها، يفضي خمس ساعات ويقول بعدها: والله غلبتك مرتين. فماذا أفاد منها؟ عمل غير جاد، عمل عابث، ليس وراءه هدف، لكن بالحق خلاف اللعب، بالحق خلاف الباطل، أي أنها خلقت لتبقى ولهدفٍ كبير، إذاً كلمة بالحق تعني الكون مخلوق وفق علم، ووفق رحمة، ووفق حكمة، ووفق لطف، ووفق قوة، ولهدفٍ كبير، وبعيداً عن الزوال.

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

وبعد فهناك أشياء في الكون والله أيها الأخوة ساعاتٌ طويلةٌ، وأشهرٌ عديدة، وسنواتٌ مديدة، لا تكفي للحديث عن عظمة الله من خلال الكون، كتابٌ مفتوح، اسمعوا مني هذه الكلمة: الكون أيها الأخوة أوسع بابٍ لمعرفة الله وأقصر طريقٍ إليه، أوسع باب وأقصر طريق:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران: 190-191]

خشية الله تعالى تحملنا على طاعته :

ربنا عزَّ وجل قال:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت: 53]

وربنا عزَّ وجل قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ *خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

لا إله إلا هو إلى أين تمشون؟ فأنى تصرفون، وإن شاء الله في درسٍ قادم نتابع هذه الآيات، لكن الذي أرجوه من الله عزَّ وجل أن يعمل أحدكم فكره في الكون وهو يأكل مثلاً ويطرح على نفسه آلاف

الأسئلة، وكذلك عندما يشرب كأس الماء، فاللتر ببعض البلاد النفطية يكلف ستة ريالات تحلية، ستة ضرب ثلاث عشرة ليرة، حوالي مئة ليرة تقريباً، مئة ليرة ثمن تحلية لترٍ من الماء، كأس الماء من جعله حلواً عذباً فراتاً، ذلكم الله رب العالمين، يمكن أن تأخذ العبرة من كأس الماء، من خصائص الماء، من الهواء اللطيف، فالهواء لا يحجب الرؤية ولكنه يحمل طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسون طناً، الهواء شيء عظيم إذا تحرك وزادت سرعته على مئتي كيلو متر بالساعة صار إعصار، لا يذر شيئاً أمامه، الهواء لطيف، والماء لطيف، تفكر في الطعام والشراب، في ابنك، في خلقك، فأنت محاط بآيات، إذا تأملت بها عرفت من خلالها عظمة الله عزَّ وجل، فإن هذه الخشية حملتك على طاعته..

(كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (03-20): تفسير الآية: 5- 6، طبيعة الإنسان وتذليل الأنعام.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-01-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة (بالحق) كلمة هادفة لأن الله حق :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثالث من سورة الزُمَر، ومع الآية الخامسة، ربنا جلَّ جلاله يقول:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

كلمة الحق كلمةٌ دقيقة جداً، لو قلت: حَكَمْتُ بالحق، أي حكمت بالعَدل، لو قلت: قلت حقاً، أي قلت صدقاً، لو قلت: خلق الله السموات والأرض بالحق، أي خلقها لهدفٍ كبير.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 16]

لو قلت: خلق الله السموات والأرض بالحق، أي خلقها خلقاً ثابتاً، لأن خلق الله أساسه العِلم فخلقه ثابت، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

[سورة ص: 27]

فيتضح لكم من هذه الأمثلة أن كلمة الحق إن جاءت مع القول تعني الصدق، أي القول المطابق للحقيقة، إن جاءت إخباراً فهي مطابقةٌ للواقع، إن جاءت في معرض الخلق أي أنه خلقٌ له هدفٌ كبير، إن جاءت في معرضٍ آخر أي بعيدٍ عن اللعب والعَبَث، فكلمة بالحق كلمةٌ هادفة لأن الله حق، إذا قلت: وفّقت بينهم بالحق، أي بالحكمة، إذا قلت: فعلت الحق، أي فعلت ما يرضي الحق، لأن الله هو الحق.

كلمة الحق تدور مع السياق حيثما دار :

كلمة (بالحق) دقيقة لأن لها معان كثيرة بحسب السياق، فمن أول معانيها أن الشيء إما أن يقوم على عِلم، وإما أن يقوم على جهل، فإذا قام شيءٌ على جهلٍ فلا بد من أن ينهار، إذا قام مذهبٌ على أساسٍ من الجهل، أو على أساسٍ من الهوى، أو من المصلحة فهذا المذهب لا يلبث أن ينهار، لأنه قام على مصلحة، أو قام على جهل، أو قام على هوى.

أما إذا قام على الحق، أي أنه قام على أسس علميَّة، والعلم علاقاتٌ ثابتة، الشيء الحق هو الشيء الذي بُنْيَ على علم، وكل شيءٍ بني على علم يحمل طابع الاستمرار، إذاً الشيء الحق هو المستمر، الباطل هو الذي سينهار، جدارٌ بني على الحق، بني وفق الشاقول، وضِعَت المواد بشكلٍ مدروس وكافٍ هذا الجدار لا يقع، أما إذا بني من غير شاقول، أي بني مائلاً، والمواد غير جيِّدة فهذا الجدار لا بد من أن يسقط، فبادئ ذي بدء أن الشيء الحق هو الذي بني على أسسٍ علميَّة.

ربنا سبحانه وتعالى بكل شيءٍ عليم، لذلك خلقه كامل، خلقه كامل لأنه عليم، عَلِمَ ما كان، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، هذا الشيء أُسِّسَ بالحق، أي أسِّسَ لهدفٍ نبيل، لا تؤسَّس الملاهي لهدفٍ نبيل، لكن الجامعات مثلاً تؤسَّس لترسيخ الحقائق ولترسيخ القيَم، نقول: هذه الجامعة أُنْشِئت بالحق، جامعةٌ أساسها الحقيقة والفضيلة، أما الملهى فقد أُسِّسَ بالباطل، لإفساد النفوس، لترويج الباطل، لتزيين المعصية.

كلمة الحق إذاً لها معانٍ كثيرة، إذا وردت مع الخَلق أي أن هذا الكون بني على علم، على علم الله عزَّ وجل، وأن هذا الكون خُلِقَ لهدفٍ نبيل، لهدفٍ كبير.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِي)

[سورة الذاريات: 56]

هذا الكون خُلِقَ ليبقى، لأن الإنسان خُلق ليبقى بمعنى أنه خُلِقَ لجنَّةٍ عرضها السموات والأرض، لو أن الإنسان خُلق لأمدٍ قصير وبعد ذلك ينتهي كل شيء، فهناك إذاً سؤالٌ كبير، إن هذه الأعمار القصيرة لا تستأهل كل هذا الكون، لكن الإنسان خُلق ليبقى في جنَّةٍ عرضها السموات والأرض، كلمة بالحق في اللغة أي لابس الحق خلق السموات والأرض، وكلمة الحق تعني الله جلَّ جلاله، إذاً إذا فعلت شيئاً بالحق أي فعلته وفق أمر الله، وفعلته بما يرضي الله، وفعلته لهدفٍ نبيل، وفعلته بعيداً عن اللعب والعبث، وإذا قلت الحق قلت قولاً صادقاً مطابقاً للحقيقة، وإذا قلت: بني هذا الشيء وفق الحق أي على أسسٍ علميَّة، فكلمة الحق تدور مع السياق حيثما دار.

كل أسماء الله الحُسنى ظاهرةٌ في خلق الله عزَّ وجل :

ربنا جلَّ جلاله يقول:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي أن هذا الكون العظيم ليس من أجل أن تعيش سنواتٍ معدودة وينتهي كل شيء، هذا الكون العظيم ينبئُك أن بعد هذه الحياة الدنيا حياةً أبديَّة تسوَّى فيها الحسابات، هذا معنى بالحق، خُلق وفق أسسٍ علميَّة، خُلق لهدفٍ نبيل، خُلق الكون ليكون للإنسان دليلاً إلى الله عزَّ وجل، وليبقى الإنسان في جنَّة الله

إلى أبد الآبدين، خُلق وفق الحكمة، خُلق وفق الرحمة، خُلق وفق أسماء الله الحُسنى لأن الله هو الحق.

وذكرت لكم في درسٍ سابق: أن كلمة السموات والأرض هي التعبير، القرآن الذي يرادف الكون، الكون ما سوى الله، وفي القرآن تأتي كلمة السموات والأرض لتعبِّر عن كل شيءٍ سوى الله، والخَلق بالحق، تأمل وانظر، يجب على المرء أن يصل إلى الحق من خلال خلق الله عزَّ وجل، لأن الحق لابس خلق الله، فتصل إلى الحق، إلى الذات الكاملة كمالاً مطلقاً، خلق هذا الكون يعبِّر عن العَدل، وعن الرحمة، وعن اللطف، وعن القدرة، وعن الجَمَال، وعن القهر، كل أسماء الله الحُسنى ظاهرةٌ في خلق الله عزَّ وجل، وبعدُ:

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ)

الشيء المكوَّر هو الشيء المنحني، الشيء المُلْتَف، فالأرض كرة، فإذا قابلت الشمس أصبح نصف سطحها منيراً، وخط النور خطٌ منحنٍ، فإذا دارت الأرض انتقل الخط المنحني من النور إلى الظلام، فكأن النور يدخل في الظلام بشكلٍ منحنٍ، وهذه الآية فيها إشارةٌ لطيفةٌ إلى كرويَّة الأرض، قد يسأل سائل: لماذا لم يذكر الله في القرآن الكريم آيةً قطعيَّة الدلالة تشير إلى أن الأرض كرة؟ لأن هذا الأعرابي، الذي عاش زمن نزول القرآن الكريم، يرى الأرض مُنبسطة، فإذا جاءت آيةٌ قطعيَّة الدلالة تبيِّن أنها كرة، فقد لا يحتمل عقلك ذلك، وإذا أغفل القرآن كرويَّة الأرض نهائياً، نأتي نحن وقد رأيناها كرة فنتعجَّب، خالق الكون ألا يعلم أنها كرة؟! لمَ لمْ يخبرنا؟ فهذا الموضوع موضوعٌ حسَّاسٌ جداً، ولذلك جاء التعبير عنه بطريقة الإشارة لا بطريقة العبارة.

الحكمة من عدم تفصيل النبي الكريم للآيات الكونية التي وردت في القرآن الكريم :

قال تعالى:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)

[سورة الحجر: 19]

وليس في الهندسة شكلٌ هندسي يمتدُّ الخطُّ عليه إلى ما لا نهاية إلا الكرة:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)

[سورة الحجر: 19]

(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)

[سورة النازعات: 30]

الدُحية هي الكرة، والتكوير هو الالتفاف والانحناء، فتداخل الليل بالنهار لا يكون إلا في شكل الكرة، لو أن شكل الأرض مكعَّبٌ ودارت حول نفسها فإن الضوء يأتي فجأةً، ويغيب الضوء فجأةً، لأن المكعَّب له

حروف، لكن الشكل الكروي شكل متصل ليس له حروف، إذاً إذا دار هذا الشكل الكروي تداخل الليل والنهار، ولا يتداخل الضوء والظلام بفعل دوران حجمٍ من الحجوم إلا إذا كان كرةً، فهذه إشارةٌ لطيفة من الله عزَّ وجل إلى أن الأرض كرةٌ كما هي في الحقيقة.

وقد يعجب الإنسان إذ يرى أن النبي عليه الصلاة والسلام قد فصَّل آيات التكليف تفصيلاً شديداً، لكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يُفَصِّل في الآيات الكونية، وقد يسأل سائل ما السبب؟ الجواب: هو أن النبي عليه الصلاة والسلام بوحيٍ من الله عزَّ وجل امتنع عن بيان تفاصيل هذه الآيات الكونيَّة، لماذا؟ لأنه لو فسَّرها تفسيراً بسيطاً يتناسب مع عقول من كان حوله لتساءلنا نحن لأن هذا التفسير البسيط لا يرضينا، ولو فسَّرها تفسيراً عميقاً يتناسب مع حقيقتها لعجب أصحابه من هذا التفسير، ولكن الآيات الكونيَّة في القرآن الكريم تركها النبي عليه الصلاة والسلام، ليكون التقدُّم العلمي في كل عصرٍ هو الذي يكشف خبايا هذه الآيات وإعجازها.

القرآن الكريم معجزةٌ مستمرّة :

كتاب القرآن الكريم معجزةٌ مستمرَّة، لأنه كلَّما تقدَّم العلم، وكلَّما حلَّق في أجواء المعرفة، وكلَّما خاض في أعماق الأسرار، وجد أن القرآن أشار إلى هذا، فإلى أمدٍ قصير كان الكتاب الأول في علم الأجنَّة - الكتاب الأول الذي يُدَرَّس في معظم جامعات العالَم - يبيِّن أن تشكيل العَظم يأتي بعد تشكيل اللحم، لكن القرآن يذكر عكس ذلك.

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً)

[سورة المؤمنون: 14]

العظم قبل اللحم، ثم يخرج أستاذٌ في جامعةٍ غربيَّة ليقول لطلابه: خبراً كأنه مفاجأة، أو كأنه قنبلة، ويخبرهم أن كل شيءٍ تعلَّمتموه عن تسلسل تشكيل الأنسجة في الجنين غير صحيح، والصواب هو هكذا، فيقوم طالب مسلم ويقول: يا أستاذ هذه الحقيقة أشار إليها القرآن من قبل، لا يصدِّق ما يسمع، فطلب القرآن، وطلب ترجمته، فإذا الآية تقول:

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً)

[سورة المؤمنون: 14]

فما كان من هذا الأستاذ إلا أن أعلن إسلامه، لأن هذه الحقيقة التكوينية لا يمكن إلا أن تكون من عند خالق الكون.

كلَّما تقدَّم العلم كشف حقيقةً ذكرها القرآن الكريم :

ربنا عزَّ وجل قال:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن: 19-21]

الآية واضحة، كلمة مرج، مرج الشيء أي اضطرب، والبرزخ هو الحاجز، فالآية مفهومة لكن الواقع لا يؤكِّدها، بحران متصلان ولا سيما عند المضائق، البحر الأحمر مع البحر العربي، البحر المتوسِّط مع المحيط الأطلسي، البحر الأبيض المتوسِّط مع البحر الأسود، وبين كل بحرين مضيق، فما معنى هذه الآية؟ إلى أن اكتُشِفَ من خلال الأقمار الصناعيَّة، ومن خلال تصوير البحار من طبقات الجو العُليا، أن هناك ألواناً متباينةً في البحار، تباين الألوان لفت نظر العلماء إلى أن هذا الماء غير ذاك الماء، هذا الماء له كثافة، وله مكوِّنات، وله درجة ملوحة، وله درجة حرارة، غير ذاك الماء، والدليل تباين الألوان، فلمَّا وصلوا إلى هذه المناطق الحرجة بين البحار وجدوا أن هذا البحر لا يطغى على ذاك البحر، وأن ذاك البحر لا يطغى على هذا البحر والأمر عجيب، فكلَّما تقدَّم العلم كشف حقيقةً ذكرها القرآن الكريم، وعندما قال ربنا عزَّ وجل:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

هذه (كلٌّ) كلمة مبهمة، وإذا كان الإبهام في اللغة يعني الشمول تقول: إنسانٌ عربي، هذه معرفة، أما إذا قلت: إنسان فهي نكرة، والكلمة إذا كانت نكرةً اتَّسع معناها، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

أي كل شيءٍ خلقه الله عزَّ وجل يدور في مدارٍ وفي فلكٍ يسبح، من الذرَّة وإلى المجرَّة، وقد تعجب العلماء لماذا تنجب هذه الأسرة أطفالا ذكوراً وتلك أطفالاً إناثاً؟ ففي نهاية المطاف اكتُشِفَ أن تحديد جِنْس الجنين يتعلَّق بالحوين لا بالبويضة، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى*مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

[سورة النجم: 45-46]

فقط،

(مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

العلم يصحُّ ويتقدَّم إذا وافق القرآن :

ربنا عزَّ وجل وصف السماء بصفةٍ واحدة فقال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

معنى هذا أن كل شيء في الكون يدور في مسار مغلق، لو كان المسار حلزونياً لما رجع إلى مكانه، فكل نقطةٍ تنطلق منها الأرض لا بد من أن تعود إليها بعد عام، فمسار الأرض مُغْلَق، إذاً نحن أمام كتابٍ يُعدُّ إعجازه مستمرّاً، فكلَّما تقدَّم العلم اقترب من القرآن الكريم، ومن ضعف الإيمان أن تفرح إذا جاء في القرآن آيةٌ تطابق حقيقةٌ علميَّة، هذا من ضعف الإيمان، لكن ينبغي أن تفرح إذا وردت حقيقةٌ علميَّةٌ مطابقةٌ للقرآن، بالعكس العلم يصحُّ ويتقدَّم إذا وافق القرآن، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى)

[سورة آل عمران: 36]

هذه آية موجزة، فإذا أردنا أن نجري مساواةً مُطلقةً تامةً بين الرجل والمرأة، فهذا مخالفٌ للقرآن الكريم، طبيعة المرأة بتفكيرها، ونفسيَّتها، وقدراتها الخاصَّة، ونَمط حياتها، حتى وبنيتها تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل، فربنا عزَّ وجل يقول:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى)

[سورة آل عمران: 36]

فأي نظامٍ اجتماعي، أو نظامٍ اقتصادي، يقيم مساواةً تامَّةً في العمل، والأجور، وما إلى ذلك بين المرأة والرجل فهذا مخالفٌ للحقيقة، مخالفٌ للواقع، أي نظريَّةٍ تقوم على جهلٍ فلا بد من أن تنهار، هذه ليست في الحق ولا من الحق، إذاً أي نظامٍ يُوضَع خلاف بنية النفس لا ينجح، ولا يستمر، ولا بد من أن ينهار، هناك أمثلة كثيرة جداً تدلُّ على أن هذا القرآن فيه إعجازٌ مستمر.

كلَّما تقدَّم العلم اقترب من القرآن الكريم لأنه كتابٌ من عند خالق الكون :

الشيء الثابت أنه كلَّما تقدَّم العلم اقترب من القرآن الكريم، لأنه كتابٌ من عند خالق الكون، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والباطل هو الشيء المتغيِّر، فأحياناً يكون كاتب عظيم الشأن لكنه ما أحاط بكل العلوم، ما من كتابٍ من صنع البشر إلا والزمن يكشف بعض أغلاطه، أبداً، اقرأ مقالة قبل خمس سنوات ترى فيها أشياء غير صحيحة، وفي وقتها بدت لك صحيحة، أما الآن فطبيعة التطوُّر تكشف خطأها، فهذا الشيء ثابت ـ أنا قرأت مرَّة كتاباً لعالِمٍ جليلٍ جليل كبيرٍ كبير، يقول: إن الإنسان إذا

أكل فبخار الطعام يصعد إلى الدماغ. وكأن البطن جوف متصل، هذا شيء مناقض للعلم، لكنه طبعاً لا يؤاخذ لأن معطيات العلم وقتها لم تكن تسمح له أن يعرف الحقيقة.

فهناك علماء أفتوا بأن التدخين حلال، اليوم ذكرت في الخطبة أن الدخان فيه أشياء خطيرة جداً، أول شيء أن الكريَّة الحمراء عند المدخنين تحب أول أكسيد الكربون أكثر مما تحب الأوكسجين، فإذا دخَّن المرء فإن هذا الغاز السام يتعلَّق بالكريَّة الحمراء، وقلَّل من قدرتها على حمل الأوكسجين، فالإنسان الذي يدخِّن يشعر بوهنٍ في قِواه، لياقته البدنيَّة أقل مما سواه، قدرته على بذل الجهد أقل من غيره، هذا أول شيء.

الشيء الثاني: هذه المادَّة في التبغ تسبِّب رفع ضربات القلب، من خمس عشرة إلى عشرين ضربة، تسبِّب لزوجة في الدم، هذه تجعل الإنسان معرَّضاً للإصابة بجلطات دمويَّة، الضغط يرتفع خمس عشرَة ضربة بالمئة عن ضغط الإنسان غير المدخِّن بالضبط، فأحياناً الشعيرات التي في الأطراف تُسَد بفعل الدخان، وإذا سُدَّت توقَّفت التروية، فاسودَّ العضو فلا بد من بتره، وبالقصبة الهوائيَّة أهدابٌ تتحرَّك نحو الأعلى دائماً، فأي شيءٍ غريب دخل إلى القصبة، فهذه الأهداب تدفعه نحو الأعلى، لكن إذا دخَّن الإنسان أصيبت هذه الأهداب بالشلل. ذكرت اليوم بالخطبة أكثر من ثمانية بنود خطيرة؛ بعضها يصيب الدم، بعضها يصيب القلب، بعضها يصيب العضلات، بعضها يصيب الأعصاب، هناك رجل عالم رأى أن الدخَّان مباحٌ وليس في التدخين حرج، فحينما قال هذا الكلام لم تكن معطيات العلم بين يديه، إذاً ما من إنسانٍ من بني البشر إلا ويغفُل عن بعض الحقائق، فإذا كُشِفَت له الحقائق عاد إلى الصواب، هذا القرآن الكريم هل رأيتم فيه شيئاً كشف العلم خطأه؟ مستحيل لأنه كلام خالق الكون، تشعر بكل خليَّةٍ في جسمك، وبكل ذرَّةٍ في دماغك أن هذا القرآن كلام الله.

الله عز وجل سخّر الشمس :

قال تعالى:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ)

كلمة سخَّر، الشمس مسخَّرة لمن؟ أنت أيها الإنسان بنصِّ القرآن الكريم ترى أن الكون مسخَّرٌ لك، فأيهما أعظم شأناً عند الله المُسَخَّر له أم المسخَّر؟ المسخَّر له، إذاً أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المكرَّم الذي سخَّر الله لك ما في السموات والأرض، إذاً:

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ)

هذه الشمس النجم الملتهب، الذي يمدُّ الأرض بالحرارة، يمدُّها بالضوء ويمدُّها بأشياءٍ لا نعلمها، ربنا عزَّ وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

حجم الشمس يزيد عن حجم الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، أي أن مليون وثلاثمئة ألف كرة أرضية تدخُل في جوف الشمس، وجوف الشمس تزيد حرارته عن ستة ملايين درجة، بينما سطح الشمس لا يتجاوز العشرين ألف درجة، لو أُلقيت الأرض في جوف الشمس لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، هذه الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، لهيب الشمس يخرج عن سطحها إلى أكثر من نصف مليون كيلو متر، وفي بعض الحالات مليون كيلو متر، أجل، لسان اللهب الذي يخرج من الشمس يزيد طوله عن مليون كيلو متر. وبين الأرض والشمس ما يزيد عن مئة وستَّةٍ وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، الشمس مسخَّرة، لو أنها انطفأت فجأةً، لأصبحت الأرض قبراً متحرِّكاً، لأن الأرض من دون شمس تصل حرارتها إلى درجة الصفر المُطلق، والصفر المطلق مئتان وسبعون درجة تحت الصفر، وفي هذه الدرجة ربَّما توقَّفت الذرَّات عن الحركة، وإذا توقَّفت عن الحركة تلاشى الجسم وانتهى، كل جسم له ذرَّات، والذرَّة فيها نواة وكهارب، وأساس الحياة هي الحركة الدائمة.

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

من قواعد التفكير أن يفكِّر الإنسان بالشيء وعدمه :

إذاً الله عزَّ وجل سخَّر الشمس، وهناك أقوامٌ عبدوا الشمس من دون الله، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

[سورة فصلت: 37]

في آسيا أقوام عبدوا البقر، وأقوام عبدوا الشمس، والأولى أن يعبد الإنسان خالق الشمس والقمر، وأن يعبد خالق هذه الأنعام التي سُخِّرت لنا.

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ)

الإنسان كيف يفكِّر؟ من قواعد التفكير أن يفكِّر بالشيء وعدمه، تصوَّر الأرض بلا شمس انتهت الحياة، الحياة تنتهي فجأةً، تصوَّر أن الشمس أقرب إلى الأرض مما هي عليه.

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[سورة الرحمن: 5]

هذه المسافة مسافة دقيقة جداً، لو أنها زادت لاحترق كل ما على الأرض، لو أنها ابتعدت لمات كل ما على الأرض من شدَّة البرد، إذاً الحجم مناسب، والمسافة مناسبة، والحرارة مناسبة، والأرض حجمها مناسب، ودورتها مناسبة، ومحورها مناسب، وسطوحها المائيَّة الواسعة جداً مناسبة، لولا هذا المُسَطَّح المائي الضخم لما كانت الأمطار، لو كانت أربعة أخماس الأرض قارَّات يابسة والخمس بحر، البحر لا يكفي عندئذٍ لإنزال الأمطار، لكن أربعة أخماس سطح الأرض بحر، وشمس، وتبخُّر، ورياح من أجل أن تنعقد الأمطار، فتبنت الزرع والكلأ، وكما قال الله عزَّ وجل:

(مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

[سورة النازعات: 33]

الكون نصبه الله عزَّ جل ليكون أداةً للتعريف به :

قال تعالى:

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

معنى هذا أن الكون له نهاية، وهذا هو الزمن، الشيء له بعد طولي هو الطول، وله بعدان سطحيَّان هو الطول والعرض، له بعدٌ حجمي هو الارتفاع والعمق، ولكل شيءٍ بعدٌ زماني هو حركته، الشيء إذا تحرَّك نتج عنه الزمن، فالأرض بدورتها حول الشمس ينشأ العام، بدورة الأرض حول نفسها ينشأ النهار والليل، بتنقُّل الأرض على مسارها حول الشمس تنشأ الفصول، فالحركة أساس الزمان، لذلك:

(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

فهذا الكون نصبه الله عزَّ جل ليكون أداةً للتعريف به:

(إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ*وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ*وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ*وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

[سورة الانفطار: 1-4]

انتهت الحياة الدنيا، وبقي يوم الدين.

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

[سورة الانفطار: 5]

الكون تنتهي وظيفته مع انتهاء الدنيا ويبدأ الحساب :

هذا الكون تنتهي وظيفته مع انتهاء الدنيا، ويبدأ الحساب، نحن في دار ابتلاء، وهناك أدلَّة عظيمة وكثيرة ومتنوِّعة، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 20]

وبعد هذه الأدلَّة، وبعد انقضاء العمر، لا بد من وقفةٍ بين يدي الله عزَّ وجل ليحاسب فيها الإنسان، إذاً:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ)

معنى هذه الآية أن الأرض كرة، ومعناها تدور حول نفسها، ومعناها أنَّ الشمس متألِّقة، وهي منبع الضوء والحرارة، ومعناها أن الأرض لها دورة حول نفسها ودورة حول الشمس، هذا كلُّه مستفاد من قوله تعالى:

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

من أدقِّ تعريفات (العزيز) :

من أدقِّ تعريفات العزيز، إذا قلت: هذا الشيء عزيز، أي يحتاجه الناس جميعاً، مادَّة أوليَّة، الخيوط مثلاً، يقول لك: هذه مادَّة أوليَّة، السكر في أكثر الصناعات الغذائيَّة، فالشيء العزيز الذي تشتدُّ الحاجة إليه، والشيء العزيز، يقول لك: هذه بضاعة عزيزة أي نادرة، قليلة، والشيء العزيز هو الذي يندُر وجوده، والشيء العزيز المنال هو الذي يصعب الوصول إليه، إذا وصفت الأشياء بأنها عزيزة، فتشتدُّ الحاجة إليها، ويقلُّ وجودها، ويندر وجودها، ويصعب الوصول إليها.

أما إذا وصفنا الذات الإلهيَّة، وصفنا الله بأنه عزيز كما وصف نفسه، نقول: يحتاجه كل شيء في كل شيء، هذا الافتقار، يحتاجه كل شيء في كل شيء، أنت أحياناً تحتاج شخصاً لشيء واحد، يعطيك مالاً، شخص يعالجك، الأشخاص تحتاجهم في حاجةٍ واحدة، لكن الله عزَّ وجل تحتاجه في كل شيء، لست أنت وحدك بل كل المخلوقات بل الكائنات كلُّها؛ الجماد، والحيوان، والإنسان، يحتاجه كل شيء في كل شيء.

وإذا قلت: يندر وجوده في الأشياء، الله عزَّ وجل لا ثاني له، لا شريك له، لا نِدَّ له، لا مثيل له.

والمعنى الثالث: أنه يستحيل أن تحيط به، يمكن أن تصل إليه بعقلك، يمكن أن تتصل به بنفسك، أما أن تحيط به فهذا مستحيل.

التفرقة لا وجود لها عند الله عزَّ وجل فالبشر جميعاً مدعوّون لفضل الله عزَّ وجل :

ربنا عزَّ وجل يقول:

(أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

مع كل هذه العظمة هو غفَّار، هذا اسمه متكاملاً، هو عظيمٌ عظيم لا مثيل له، لا ثاني له، لا شبيه له، لا شريك له، يحتاجه كل مخلوق، كل شيء في كل شيء، يستحيل الوصول إليه، ومع ذلك خلقكم ليغفر لكم.

(أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

لو تأمَّلت في خلق السموات والأرض لوجدت أن الله عزيزٌ غفَّار، أي أنه عظيم ومن جهةٍ ثانية خلقك ليغفر لك.

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

فالتفرقة لا وجود لها عند الله عزَّ وجل، البشر جميعاً مدعوّون لفضل الله عزَّ وجل، لا طبقيَّة، كل البشر مخلوقون للجنَّة، لو أن الله عزَّ وجل - كما يزعم بعض الجهلة - خلق النار وخلق لها من يدخلها، وخلق الجنَّة وخلق لها من يدخلها، فكان هذا يتناقض مع هذه الآية:

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

من طبيعةٍ واحدة، لذلك طبيعة الإنسان واحدة، والإنسان إذا كان جاهلاً يطغى.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: 6-7]

هذه طبيعته، إذا كان في غفلةٍ عن ربِّه وشعر بقوَّته، أو بغناه، أو بتفوقه، يطغى، هذه حقيقة بالإنسان، وهذه من طبيعة الإنسان.

طبيعة الإنسان :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

[سورة الانشقاق: 6]

طبيعة الحياة الدنيا أنه لن تصل إلى شيء إلا ببذل جهدٍ كبير.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

[سورة الانشقاق: 6]

طبيعة الإنسان أنه مبتلى.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة الإنسان: 2]

((يا داود ذكر عبادي بإحساني، فإن القلوب جبلت على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

لو تتبعتم طبيعة الإنسان من خلال القرآن، فالإنسان.

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

الإنسان خُلِق من عجل، الإنسان خُلق ضعيفاً، الإنسان حادث.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان: 1]

الإنسان مبتلى، الإنسان كادح، الإنسان أوتي القدرة على الإدراك، فيه قوَّة مدركة، الإنسان علَّمه الله البيان، الإنسان كما قلت: عجول، يطغى أن رآه استغنى، خُلِقَ البشر جميعاً من طبيعةٍ واحدة، هذه الطبيعة لصالحهم، لصالح إيمانهم، لصالح إقبالهم على الله، لصالح تحقيق الهدف الكبير الذي خُلِقوا له في الدنيا.

الإنسان مبدع ومشرِّع وفرد لا ثاني له والإنسان مريد وهذا كلّه تكريمٌ للإنسان :

قال تعالى:

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

هذه الآية دقيقة جداً، خذها من الناحية الماديَّة، تجد شركة في شمال كندا تصنع دواء، هذا الدواء يُصدَّر إلى جنوب أستراليا، فيه مادَّة مسكِّنة، يأخذه إنسان في جنوب أستراليا، وبين البلدين بحارٌ شاسعة، وهناك انقطاعٌ بين البلدين، ومع ذلك المادَّة الفعَّالة في شمال كندا تؤثِّر وتفعل فعلها في جنوب أستراليا، معنى هذا أن بنية الإنسان واحدة، بنية جسمه واحدة.

وربنا عزَّ وجل في خلقه إشارتان، الإشارة الأولى أنه واحد، الأساس واحد، وفي خلقه تنويع، ربنا عزَّ وجل واحد وواسع في وقت واحد، فكل إنسان له شكل، وله لون، وله نبرة خاصَّة، وله رائحة جلد خاصة، وله قُزحيَّة خاصَّة، وله زمرة دمويَّة خاصة، وله زمرة نسيجيَّة خاصَّة، وله بصمة خاصَّة، هذه هويَّة، رائحة جلده هويَّة، لا يتشابه إنسانان في الأرض برائحة جلدهما، القُزحيَّة توقيع. أحدث بحث علمي الآن، شكل القزحيَّة لا يشركك فيه أحد، حتى الآن توجد أجهزة، أقفال لا تُفتح إلا على شكل قزحيَّتك، تضع عينيك على القفل فيفتح الباب، لأن الإنسان ينفرد بنسيجٍ خاصٍّ في قزحيَّته، وينفرد ببصمةٍ خاصَّة، وينفرد بتركيبٍ دمويٍ خاص، وينفرد برائحةٍ خاصَّة وبنبرةٍ صوتيَّةٍ خاصَّة، هذه كلّها

هويَّات له، فالإنسان فرد تكريماً له، الله جعله فرد لا شبيه له، وهذا من اسم الله جلَّ جلاله " الواسع ". فتكريماً للإنسان جعله فرداً، وجعله مختاراً، وجعل الإنسان فوق هذا وذاك مشرِّعاً، أي أعطاه آيات احتماليَّة ظنيَّة الدلالة، فالإنسان يجتهد باستنباط الأحكام، إذاً سمح الله له أن يكون مشرِّعاً، حينما كلَّفه أن يجتهد من نصوصٍ ذات طابع كُلِّي جاءت الأحكام التفصيليَّة، وسمح للإنسان أن يُبدع لأن طبيعة الكون فيها إمكان لأن تبدع؛ لديه مورِّثات، لديه كروزومات، وعنده أشياء كثيرة، تجد أنهم اخترعوا وردة سوداء، اخترعوا أشجاراً مقزَّمة، اخترعوا أشجاراً مُعَمْلَقَة، أجروا تطويرات كثيرة جداً، هذا ليس سبقاً من الإنسان، لا إنه بعلم الله، ربنا عزَّ وجل صمَّم الكون بطريقةٍ تمكن الإنسان من أن يبدع بها، فالإنسان مبدع، والإنسان مشرِّع، والإنسان فرد لا ثاني له، والإنسان مريد، هذا كلُّه تكريمٌ للإنسان.

المرأة من حيث التشريف والتكليف مساوية للرجل تماماً لكنها تختلف عنه بالبنية :

قال تعالى:

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

المرأة من طبيعة الرجل، نفسٌ بشريَّةٌ فُطِرَت كفطرته، وكُلِّفَت بما كُلِّف، طُلبَت بالإسلام والإيمان، مشرَّفةٌ ومكلَّفةٌ، لها مشاعر، لها أحاسيس، كل ما يحسُّ به الرجل تحس به المرأة، إذاً هي مخلوق، والدليل أنَّ الله عزَّ وجل قال:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة آل عمران: 195]

إذاً المرأة من حيث التشريف والتكليف مساويةٌ للرجل تماماً، لكن من حيث البنيَّة الفيزيولوجيَّة والبنية النفسيَّة تختلف عنه باختلاف مهمَّتها في الحياة، لذلك قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

الله عزَّ وجل سخَّر لنا الأنعام :

الله عزَّ وجل قال:

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)

الضأن، والماعز، والبقر، والإبل، ذكور وإناث صارت ثمانية، هذه مسخَّرة، أخٌ كريم ذكر لي، في بعض القرى المحيطة بدمشق بقرةٌ جمحت وخرجت عن تذليلها، فقتلت رجلين وجرحت أربعة، فاضطُر صاحبها ـ وقد دفع ثمنها سبعين ألف ليرة ـ أن يمسك مسدَّساً ويطلق عليها الرصاص لتقف عند حدِّها، هذه قصَّة عميقة جداً، لو أن البقر كله أصبح متوحِّشاً لاضطرب شأن الإنسان واختلت بعض معاييره، من جعل البقرة مذلَّلة؟ تعطيك الحليب، لحمها تأكله، وجلدها تستعمله، وضَرْعُها تتغذَّى منه، والألبان أساسٌ في قِوام حياة الإنسان؛ السمن، والجبن، واللبن، والحليب، والقشطة، والزبدة، أصناف منوَّعة جداً، تجد على المائدة عشرة أصناف كلُّها أساسها اللبن، تحضر عقد قران فيقدِّمون لك بوظة في الصيف، هذا من الحليب، في الشتاء محلاية من الحليب، كثير من الأكلات أساسها الحليب، معظم الحلويات أساسها الحليب، إذاً الله عزَّ وجل سخَّر هذه الأنعام.

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)

الأنعام كلها مذلَّلة وهذه من نعم الله عزَّ وجل :

التذليل، لو أن الله عزَّ وجل ركَّب طِباع الضبع في الأغنام، هل تستطيع أن تحضرها إلى البيت في العيد؟ يلعب بها الصغار؟ لا يستطيعون، لو أنه سبحانه لم يذلِّلها لما استفدنا منها، إذاً هي مخلوقةٌ تكريماً لنا، وفيها شيء قد لا تنتبه إليه، هو أنها منذ البدء مذلَّلة، مخلوقة مذلَّلة، قال:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس: 42]

انظر إلى الجمل، فهو يزن ثلاثة أطنان أحياناً، أو طنين، أو طناً ونصف الطن تقريباً، لو كان غير مذلَّل لدمَّر ما حوله، تجد طفلاً صغيراً يقوده، ينيخه شابٌ يافع، ويركب عليه ويمشي به لأنه مذلَّل، الأنعام كلها مذلَّلة، هذه من نعم الله عزَّ وجل، فعندما يقرأ الإنسان قوله تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس: 42]

ألا يشعر بعظمة هذه الآية؟ ألا يمتلئ قلبه امتناناً لله عزَّ وجل أن الحيوان مذلَّل؟ معنى (أنزل) إذاً أي سخَّر لكم، تفضَّل عليكم، الله عزَّ وجل عظيم، فإذا أعطى شيئاً فهو بمعنى أنزل، يقول لك: أنا تنازلت عن حقي أي هناك نزول، الفضل ينزل من الأعلى، هذا معنى:

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

علم الأجنَّة وحده يكفي كي تؤمن بالله عزَّ وجل :

هذا الطفل الصغير، أي إذا أُتيح للإنسان أن يقرأ علم الأجنَّة، فعلم الأجنَّة وحده يكفي كي تؤمن بالله عزَّ وجل، فالطفل الصغير تراه كائناً جميل الصورة، له جمجمة، صندوق عظمي مغلق بمفاصل ثابتة، فيه تحرُّك بسيط ليمتص الصدمات، لو لم يكن هناك مفاصل بشكل خطوط منكسرة في الجمجمة لكان الطفل أول ما يقع على الأرض ويكسر رأسه يكسر، لكن أنت تسمع رنين رأسه على الأرض بشكلٍ صارخ، ومع ذلك ينجو من كسر الرأس، هذا بفضل وجود مفاصل بشكل خطوط منكسرة متداخلة، فإذا تلقى صدمةً تداخلت هذه المفاصل وامتصَّت الصدمة، والآن أحدث الأجهزة تبنى على هذه الطريقة، تجد فيها شيئاً من المرونة، وذلك لامتصاص الصدمات، تصميم من؟ وهذا الدماغ الذي فيه مئة وأربعون مليار خليَّة سمراء لا تُعرف وظيفتها بعد، وأربعة عشر مليار خليَّة قشريَّة فيها المحاكمة، والتفكُّر، والتذكُّر، والتخيُّل، والتصوُّر، ومركز السمع، والبصر، والرؤية، والحركة، وتوازن السوائل، والتوازن الحراري، ومركز الغدَّة النخاميَّة، موصول بها مئة وخمسون ألف عصب، ملكة الجهاز الهرموني، تفرز اثني عشر هرموناً، ملكة تسيطر على كل الغدد الصمَّاء في الجسم وزنها نصف غرام، مربوطة مع الجهاز العصبي بمئة وخمسين ألف عصب، تفرز مادَّة واحدة هي هرمون النمو مؤلَّف من مئة وثمانية وثمانين حمض أميني، والحمض الأميني أعقد تركيب كيماوي، ويجب أن يكون بالدم عشرة ميكرو غرام من هذا الهرمون لينمو النمو الطبيعي، وإلا يتعملق الإنسان أو يتقزَّم، أجل هذه النُخاميَّة تفرز اثني عشر هرموناً؛ هرمون النمو، والهرمون الجنسي، هرمون الثدي، إفراز الحليب، هرمون توازن السوائل، هرمون التوازن الحراري، أشياء لا يعلمها إلا الله.

الله عزَّ وجل يلفت نظرنا إلى آياته في أجسامنا :

قال تعالى:

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ)

أساسه نطفة صارت جمجمة، وأعصاباً، وخلايا عصبيَّة، وصار مخاً ومخيخاً، وبصلة سيسائيَّة، ونخاعاً شوكياً، وأعصاباً محوريَّة، أعصاب حركة، وأعصاب حس، وأوردة وشرايين، وقلباً، ودسَّامات محكمة تماماً، وثقب بوتال ينغلق عند الولادة، وتكون لديه دورة صغرى ثم تصير دورة كبرى، ورئتان، وشُعَب هوائيَّة، ومعدة فيها خمسة وثلاثون مليون عصارة هاضمة، تفرز لتراً ونصف اللتر من حمض كلور الماء، وهذا الحمض يتم الهضم به، وحتى الآن السؤال المحيِّر: لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟ أنت أحياناً تأكل أبوات،وهي عبارة عن معدة الخروف، فلماذا معدة الخروف هضمتها معدة

الإنسان وبينما معدتك لم تنهضم ذاتها؟ هذا سؤال كبير، لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟ فالله عزَّ وجل يلفت نظرنا إلى آياته في أجسامنا:

(خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ)

نطفة، هذه النطفة عبارة عن حوين يتألَّف من رأس وعنق وذنب، إذا دخل إلى البويضة التصق بها، فيه مادَّة نبيلة لها غشاء رقيق يتمزَّق الغشاء، وهذه المادَّة تؤثِّر بجدار البويضة، تثقبه وتدخل، ثم تغلق البويضة الباب، لقد اكتفت بواحد، لا تعدُّد أزواج عند البويضَّة، دخل أقوى حوين، الحوين فيه مورِّثات، الحوين فيه خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، أجل خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة في الحوين، وخمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة في البويضة.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة الإنسان: 2]

وبعد ذلك يجري الانقسام، تنقسم البويضة الملقَّحة إلى عشرة آلاف قسم دون أن يزيد حجمها، فهي تسير داخل أنبوب، والأنبوب رقيق، ودقيق جداً لو زاد حجمها لحبست، وفي الرحم يزداد حجمها؛ من نطفةٍ، إلى علقةٍ، إلى مضغةٍ مخلَّقةٍ، وغير مخلَّقةٍ، إلى عظمٍ، إلى لحمٍ، إلى طفلٍ صغير يبكي، ويبارك الأحبة لبعضهم، رزقوا مولوداً، طفل له عينان، وله أذنان، وله شعر، وله أنف، وله فم، وله لسان، وله يدان، وله أصابع، وله سُلاميَّات، يتحرَّك، يبكي، يضحك، يشرب حليباً، والطريق سالك ومفتوح، يحتاج إلى من ينظفه بعد ذلك، انهضم الحليب، فكل الآيات بين أيدينا، بين أيدينا جميعاً.

الظلمات الثلاث :

قال تعالى:

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)

ظلمة غشاء الجنين، الغشاء الذي يحيط بالجنين هذا هو الخلاص، وظلمة الرَحِم، وظلمة بطن المرأة، البطن مظلم، بداخله الرحم، بداخل الرحم الجنين.

الرحم هذا العضو في المرأة، حجمه سبعة ونصف سنتيمتر مكعَّب، أي كالإجاصة تماماً، بعد الحمل يكبر حجمه ويأخذ كل حيّز البطن، لكن كيف يخرج الجنين؟ قال تعالى:

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

[سورة عبس: 20]

هناك هرمون يأمر عظم الحوض فيتباعد، الولادة عمليَّة في منتهى التعقيد، لو درستم عِلم الأجنَّة وعلم الولادة شيءٌ لا يُصدَّق، الجهاز العظمي، الحوض يتمفصَّل ويتباعد قال:

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

[سورة عبس: 20]

تجد أن الطفل الصغير رأسه تقريباً قريب من عرض كتفيه، له نسب غير نسب الكبير، لو كان رأسه بحجم كتفيه لما استطاع الخروج، لكن له شكل انسيابي تقريباً يخرج بواسطته.

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

[سورة عبس: 20]

قلب الأم المؤمنة وحده آيةٌ من آيات الله عز وجل :

قيل: إن الرحم عندما يضغط جراء الطلق فلو أن الطريق مفتوح أمامه لقذف الطفل اثني عشر متر، أقوى عضلة في النوع البشري هي عضلة الرحم، هذا الرحم يتقلَّص تقلُّصاً خفيفاً لطيفاً ليخرجه شيئاً فشيئاً، بعد أن يولد يتقلَّص الرحم تقلُّصاً شديداً، قالوا: هذا التقلُّص الشديد من أجل أن يغلق عشرات ألوف الأوعيَّة الدمويَّة التي فُتِحَت، الطبيب أو القابلة تضع يدها على الرحم فتراه كالصخر فتقول: ولادة سليمة، الرحم بعد الولادة يصبح صخرياً، تقلُّصه قبل الولادة تقلُّص لطيف لئلا يموت الطفل، بعد الولادة تقلُّص عنيف، العلماء قالوا: لو انقلب حال هذه التقلُّصات لماتت الأم ووليدها، لو كان التقلُّص قبل الولادة تقلُّصاً حادّاً لمات الطفل، ثم بعد الولادة لو كان التقلُّص لطيف لماتت المرأة من النزيف، فتصميم من؟ تصميم الله عزَّ وجل، هذا خلق الله، قال:

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ)

هذا هو الله، هذه أفعاله، هذا خلقه، يتبدَّى من خلال خلقه علمه، وحكمته، وخبرته، ورحمته، ولطفه، ومحبَّته، هناك حيوانات تأكل أطفالها، لكن الإنسان مكرَّم، ربنا عزَّ وجل أودع في قلب الأم رحمةً ما بعدها رحمة، قلب الأم وحده آيةٌ من آيات الله، طبعاً أعني المؤمنة، قلبها وحده آيةٌ من آيات الله عزَّ وجل.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

لا إله غيره، إلى أين أنتم ذاهبون؟

كل الخير والسعادة من طريق الإيمان :

قال تعالى:

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

فأين تذهبون؟ السعادة من هنا، السعادة، والسلامة، والراحة النفسيَّة، والطمأنينة، وسعادة الآخرة، والبرزخ، والقبر، والتوفيق في الدنيا بالزواج، وبالعمل، وبالصحَّة، كل الخير من طريق الإيمان، وهو والكافر يسير بالعكس، فإلى أين يمضي؟ إذا رأى الوالد ابنه وقد هيَّأ له أسباب الدراسة في مدرسة من أرقى المدارس، وأعطى له كل لوازمه، ثم رأى الوالد ابنه يمشي في طريق آخر يقول له: إلى أين ذاهب؟ تعال إلى هنا، إلى أين تجري؟ إن هذا الطريق الذي أنت فيه طريق اللهو والضياع، هنا طريق العلم، طريق المستقبل، ربنا عزَّ وجل قال:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

لا إله إلا هو، لا إله غيره، فأنَّى تصرفون؟! والآياتِ الأخرى نتابعها إن شاء الله تعالى في الدرس التالي يقول الله عزَّ وجل:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

هذه الآية إن شاء الله نؤخِّرها إلى درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (04-20): تفسير الآية 7 كل إنسان محاسب على عمله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-02-05

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلائق خلقوا ليكونوا كسيدنا محمد ولكن الله أعطاهم الاختيار :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الزُمَر، ومع الآية السابعة من هذه السورة، يقول الله جل جلاله:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

الله جل جلاله فيما رواه النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي عن ربه، يقول:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً))

[مسلم عن أبي ذر]

لو أن الخلائق منذ آدم وإلى يوم القيامة كانوا كسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام تقوى وصلاحاً، مع أنهم خلقوا ليكونوا كسيدنا محمد، ولكن الله أعطاهم الاختيار، لو أنهم فرضاً كانوا جميعاً كسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً))

[مسلم عن أبي ذر]

الإنسان وجوده ليس ذاتياً هو مفتقر للآخرين لكن الله تعالى لا يتعلَّق وجوده بجهةٍ أخرى:

تصور أعتى العتاة، أشد المجرمين إجراماً، أبعدهم عن الله عزَّ وجل، لو أن الخلائق كلها كانت كإبليس، قال:

((مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

هذا الحديث القُدسي يفسر إلى حدٍ ما قوله تعالى:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

الله عزَّ وجل غني، واحدٌ أحد، فردٌ صمد، وجوده لا يتعلَّق بغيره، أما نحن كبشر وجودنا معلقٌ بغيرنا، نحن مفتقرون إلى الله في وجودنا، وفي استمرار وجودنا، وفي سلامة وجودنا، وفي كمال وجودنا، بل الأعظم من ذلك في ضعفنا أننا مفتقرون إلى شخصٍ من بني جلدتنا، فالله عزَّ وجل أودع في الرجال حاجةً إلى نظائرهم، والعكس صحيح، إذاً الإنسان وجوده ليس ذاتياً، هو مفتقر، لكن الله عز وجل لا يتعلَّق وجوده بجهةٍ أخرى، لذلك:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

الإيمان تصديق وإقبال أما الكفر فتكذيب وإعراض :

لكن من شأن الغني أنه يستغني، ومن شأن الغني أنه يتعالى، ومن شأن الغني أنه يتباعد، لكن الله عزَّ وجل مهما تحدثت عن قوته، وعن استغنائه، وعن علمه، وعن كماله، فهو قويٌ ولكنه كامل، لذلك أسماء الله الحسنى يتجه بعضها إلى أن يؤكّد فكرةً أساسيةً وهي أن الله قويٌ، وغنيٌ، وخبيرٌ، وسميعٌ، وبصيرٌ، لا يعجزه شيء، ولا ينأى عن علمه شيء، وفي الوقت نفسه الله جلَّ جلاله رحيمٌ، وكريمٌ، وودودٌ، ولطيفٌ، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، إذاً أسماء الله الحسنى بعضها يؤكّد قوته، وبعضها يؤكّد كماله، إذاً فالله غني..

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

لكن لأنكم مطلوبون للرحمة، لأنه خلقكم ليسعدكم، لأنه خلقكم ليرحمكم.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

لأنه خلقهم لسعادةٍ أبديةٍ، لأنه خلقهم لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، لأنه خلقهم ليتفضَّل عليهم، لأنهم مطلوبون لرحمته لا يرضى لعباده الكفر.

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

بعد فالسؤال الذي يطرح نفسه، ما الكفر؟ الكفر التكذيب والإعراض، التكذيب صفة عقلية، والإعراض صفة نفسية، بل إن الإعراض من نتائج التكذيب، إذا كذَّبْتَ أعرضت، إذا استنصحت إنساناً، ثم رأيت أنه لا يفقه شيئاً، هل تنفذ نصيحته؟ لا، الإعراض عن تنفيذ نصيحته من لوازم عدم تصديقك إيَّاه، فالكفر في حقيقته تكذيبٌ بما جاء عن الله عز وجل، والإنسان حينما يكذِّب بما جاء عن الله عزَّ وجل فمن لوازم التكذيب الإعراض، لكن ماذا يقابل الكفر؟ الإيمان، الإيمان تصديق والتفات وإقبال، الإيمان تصديق وإقبال، الكفر تكذيب وإعراض، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، فالآن شأن معظم المسلمين إيمانهم إيمان التمنِّي، هم غارقون في شهواتهم، غارقون في متعهم، بعيدون عن تطبيق منهج ربهم، ومع ذلك لسانهم كثيراً ما يرجو الله أن يدخلوا الجنة، يا رب أدخلنا الجنة، يا رب نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، يا رب لا تعاملنا على عملنا، هكذا المسلمون، العاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي.

ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي :

طبعاً هناك مظاهر إسلامية كأن تلبس لباساً إسلامية، وتمسك سبحة، وتعلِّق في بيتك آيات قرآنية، والله هذا شيء جميل، لكن يا ترى هل في تعاملك التجاري ربا؟ يا ترى علاقاتك الاجتماعية فيها اختلاط؟ يا ترى هل عندك ورع؟ هذا هو التحلي وذاك هو التمني، والنبي عليه الصلاة والسلام نفى أن يكون الإيمان تمنياً ونفى أن يكون تحلياً، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل.

الإيمان أيها الأخوة أن تؤمن بالله، أن تؤمن بوجوده، وأن تؤمن بوحدانيَّته، وأن تؤمن بكماله، والإيمان بالله عزَّ وجل يتأتَّى من جهدٍ، أجل جهد، فهل هناك إنسان ينال درجة دكتوراه وهو نائم؟ يقول لك: سنوات وسنوات وأنا أسهر الليالي؛ أدرس، وأطالع، وأراجع، وأدقق، وأمحِّص، وأكتب، وأراجع، وأعيد الكتابة، وأعرضها على أستاذي يقول لي: أعد هذا الفصل، ما نال لقب دكتور ولا أضاف على اسمه (د) أثناء التوقيع إلا بعد أن أمضى سنواتٍ وسنوات يقرأ، ويطالع، ويمحِّص، ويبحث، ويحصي.

هكذا الإيمان؟ لكن هذه الدكتوراه من أجل سنوات معدودة، الإنسان يعيش بعدها عدة سنوات؛ سنتين، ثلاثاً، خمساً، عشرَ سنواتٍ، ثلاثين وبعد ذلك يقال لك: المرحوم الدكتور فلان، فالدكتور يموت بعد ذلك،

طبعاً درجة دكتوراه، أو ماجستير، أو ليسانس، أو شهادة عليا، ليست مرتبة علمية بسيطة، حتى الشهادة الثانوية ألا تحتاج إلى جُهد؟ تريد إيماناً، إيماناً يستحق صاحبه دخول الجنان، من دون جهد؟ من دون مجلس علم؟ من دون تفكُّر؟ من دون تأمُّل؟ من دون دراسة؟ من دون مطالعة؟ من دون تعلم؟! فهذا مستحيل.

لذلك من ظن أن الإيمان قضية تصديق فقط فهو مخطئ، هذا الإيمان التصديقي لا يقف على رجلين، لا يصمد أمام امرأةٍ جميلة، لا يصمُد أمام مبلغٍ كبير، أمام مبلغٍ من المال، يقولون لك: تداعى إيمانه، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عما يكون آخر الزمان قال لك:

((بَادِرُوا بالأعْمَالِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ))

[أحمد عن أبي هريرة]

اقرأ القرآن تجد أن حيزاً كبيراً جداً في آيات الله كلُّها موجهة إلى إيقاظ الفكر :

هذا الإيمان التصديقي، والله أنا أسلمت والحمد لله، أشهد ألا إله إلا الله، من دون جهد، من دون بحث، من دون تمحيص، من دون تأمُّل، من دون تفكُّر، من دون طلب علم، من دون أن تجلس على ركبتيك ساعة أو أكثر في مجلس علم تستمع إلى تفسير كتاب الله، فالذي يضنُّ بنفسه أن يستمع إلى الحق أنَّى له أن يؤمن؟

على كلٍ من أجل أن تؤمن إما أن تستمع إلى الحق جاهزاً، بأن تحضر مجلس علم، وإما أن تقرأ، وإما أن تتأمَّل، لا بدَّ من طريقة بل من طرق عديدة لاكتساب المعارف، ربما كان أقرب إلى نفسك حضور مجالس العلم، وربما كان أقرب إلى نفسك قراءة القرآن الكريم وقراءة التفاسير لمعرفة معانيه الدقيقة، وربما كان أقرب إلى نفسك التفكُّر في خلق السماوات والأرض، على كلٍ الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، خلقه يدلُّ عليه آياته الكونية، وأفعاله تدل عليه آياته التكوينية، وكلامه يدلُّ عليه آياته القرآنية، اقرأ القرآن تجد أن حيزاً كبيراً جداً في آيات الله، كلُّها موجهةٌ إلى إيقاظ فكرك..

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران: 190-191]

الله أشار إلى التفكُّر.

أهمية العلم وقيمته :

الله أشار إلى التلاوة: يتلون كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار..

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)

[سورة فاطر: 29]

وأشار إلى العلم.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل:43]

أشار إلى طُرق العلم الثلاثة، طريقة أخذه عن أهله..

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل:43]

وطريقة التفكر في خلق السماوات والأرض، وطريقة طلبه مشافهةً، أو مطالعةً، أو تأملاً. إذاً الإيمان يحتاج إلى جهد، ويحتاج إلى وقت، لكن ثمار الإيمان كبيرة جداً، المؤمن مستنير، إيمانه يحرسه عن أن يقع في انحرافٍ أو خروجٍ عن منهج الله عزَّ وجل، وإذا بقي على الطريق المستقيم سعد في الدنيا والآخرة، قال سيدنا علي رضي الله عنه:" يا بني العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق".

مرة سألت طُلاَّبي قلت لهم: من يذكر لي اسم رجلٍ غنيٍ عاش في عام ألفٍ وثمانمئة وسبعة وستين في دمشق وله عندي علامةٌ تامة، ففكروا ملياً، وانتظرت دقائق، فلم تنجدهم ذاكرتهم باسم رجلٍ غنيٍ عاش في تلك الفترة في دمشق، فلم يجيبوا، فقلت لهم: وأنا معكم لا أعرف، لكن سيدنا علي يقول: " يا بني مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".

العلم أساس العمل والعمل أساس السعادة :

لا يرفعك إلا طلب العلم، ولا يعلي شأنك إلا أن تكون عالماً، والله جل جلاله لم يعتمد أيَّة قيمةً اعتمدها الناس في التفاضل فيما بينهم، هناك قيَم كثيرة، المال قيمة، والصحة قيمة، والشأن قيمة، والوسامة قيمة، والغنى قيمة، هذه قيمٌ زائلة؛ ولكن الله سبحانه وتعالى اعتمد قيمة العلم، قال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: 9]

وقال:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

[سورة طه: 114]

فأنت حينما تحضُر مجلس العلم، أو حينما تتلو كتاب الله، أو حينما تفكّر في خلق السماوات والأرض، فأنت في طريق العلم الموصل إلى الله.

ويجب أن تعلم أيها الأخُ الكريم علم اليقين أن هناك أشياء ثلاثة توصلك إلى الله، أولها العلم، وثانيها العلم، وثالثها العلم، أي العلم وحده ولا شيء آخر إلا العلم، لأن العلم أساس العمل، والعمل أساس السعادة، ثلاث مراحل، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِي)

[سورة الذاريات: 56]

العبادة طاعة أساسها معرفة تفضي إلى سعادة، الهدف الكبير أن تسعد بالقُرب من الله عزَّ وجل، ولن تسعد بقربه إلا إذا كنت عند نهيه وأمره، ولن تطبِّق أمره وتتنحَّى عن نهيه إلا إذا عرفته، لهذا ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِي)

[سورة الذاريات: 56]

ما استقرّ الإيمان في قلب مؤمن إلا أكَّد نفسه بالعمل الصالح :

إذاً نحن يجب أن نؤمن حقاً، أما الإيمان التصديقي فهو إيمان العجائز، إن نفع صاحبه في حينٍ من الدهر إلا أنه الآن لا ينفع، لماذا؟ لكثرة الشهوات، والفِتَن، والضلالات، والموبقات، والضغوط، والإغراءات، نحن في آخر الزمان، القابض على دينه كالقابض على الجمر، أجره كأجر سبعين، قالوا: منا أم منهم؟ قال: بل منكم، قالوا: ولم؟ قال: لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون.

أي أن الإيمان التصديقي من دون بحث، من دون دَرس، من دون تأمُّل، من دون تفكُّر، من دون طلب علم، من دون بذل جهد، هذا الإيمان التصديقي لا يقف أمام الشهوات، ولا يكفي، ولذلك تفاجأ أن كثيراً من المسلمين يقعون في أعمالٍ منحرفةٍ أشدَّ الانحراف، يقلّدون أهل الكفر؛ في حفلاتهم، وفي أحزانهم، وفي تجارتهم، وفي حركاتهم، وفي بيعهم وشرائهم، لماذا؟ لضعف إيمانهم، في زمن الفِتَن، وزمن الشبهات، وزمن الضلالات، وزمن الضغوط، وزمن الإغراءات، لا يستطيع الإيمان الشكلي، ولا الإيمان العفوي، ولا الإيمان التصديقي، ولا إيمان التقليد أن يعصمك من المعصية، أساساً في ظروف،

الانعطافات الخطيرة في المجتمعات لن تجد حلاً وسطاً، إما أن تؤمن أدق الإيمان، وأعمق الإيمان، وأشد الإيمان كي تنجو؛ وإما أن تنساق مع التيَّار الذي ينتهي إلى جهنم وبئس المصير.

فالقضية ليست سهلة لأن المعاصي حولك من كل جانب، والإغراءات تلوح برّاقة من كل جهة، يكفي أن تخرج من بيتك إلى عملك، هناك فتنٌ ما بعدها فتن في الطريق، ما الذي يجعلك تغضُّ بصرك عن محارم الله؟ هو الإيمان، ما الذي يحملك على أن تكون صادقاً؟ هو الإيمان، ما الذي يحملك على أن تتحرى الحلال في كسبك؟ هو الإيمان، فالإيمان أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقِوام الضمائر، وأساس العزائم، وبلسم الصبر عند الشدائد، الإيمان هو كل شيء، الإيمان تصديق، ومع التصديق إقبال، وبعد الإقبال عمل صالح، ما استقر الإيمان في قلب مؤمن إلا أكَّد نفسه بالعمل الصالح، لذلك ما من آيةٍ في كتاب الله في الأعَمّ الأغلب ذَكَرَت الإيمان إلا واتبعته بالعمل الصالح..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة الآية: 7]

لأن الإيمان من دون عمل كالشجر بلا ثمر، الإيمان بلا عمل جنون، والعمل بلا إيمان لا يكون، فنحن نُريد أن نؤمن، فعلينا إذاً أن نخصِّصَ وقتاً للإيمان، وقتاً لطلب العلم، وقتاً لقراءة القرآن، وقتاً كما أمرنا الله عزَّ وجل للتفكُّر في الأكوان.

طريق الإيمان هو طريق التفكر :

كيف تعرف الله؟ الله جل جلاله لا تدركه الأبصار، مستحيل، فحواسك أعجز من أن تعرفه..

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

[سورة الأعراف: 143]

إذاً، مستحيلٌ بهذا المخلوق الحادث المادي العاجز أن يرى ذات الله عزَّ وجل، لكن كل ما حولك في الكون يدلُّ عليه، فطريق الإيمان هو طريق التفكر، التفكُّر له جانب، بعد أن تتفكَّر وتوقن بوجوده، وبكماله، وبوحدانيته، عندئذٍ يتيسر لك أن تعبده، ويأتي القرآن يقول لك: افعل ولا تفعل، القرآن له وظيفة، والكون لو وظيفة، الكون يدعوك إلى الإيمان به، والقرآن يدلك على طريقة عبادته، فأنت بالكون تعرفه وبالقرآن تعبده، وخلاف ذلك فهلاكٌ محقق، لأنه ليس أمامك حل وسط، فو الذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

الناس رجلان، تقسيمات البشر الآن لا تعدُّ ولا تحصى، يقول لك: عرق آري، عرق سامي، هذا من الأنجلو ساكسون، هذا أوربي، هذا أسيوي، هذا إفريقي، هذه شعوب دول الشمال دول الجنوب، الدول

المتقدمة والدول المتأخرة، القوى العاملة القوى المستغلَّة، تقسيمات لا تنتهي ولا تعد ولا تحصى، وهذا منتمٍ وهذا غير منتمٍ، وهذا خلفيته كذا، وهذا انتماؤه كذا، كن على صعيد الحقيقة لا تجد إلا تقسيمين؛ مؤمن وكافر، مصدق مقبل، مكذب مدبر، متصل منضبط، محسن منقطع، متفلّت مسيء.

((فَالنَّاسُ رَجُلانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي ابن عمر]

التقابل في القرآن الكريم :

الناس رجلان ليس هناك تقسيم ثالث، مؤمنٌ فهو على الطريق الصحيح، على المنهج الصحيح، مؤمن يحقق الهدف من وجوده، يسعى إلى طاعة ربه. لذلك التقابل في القرآن: الذين آمنوا والذين كفروا، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والذين كفروا اجترحوا السيئات، وربنا عزَّ وجل يطمئن عباده، فيقول لك:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية: 21]

أهكذا تظن أيُّها الإنسان؟ هذه سذاجة، منتهى السذاجة، منتهى الغباء، منتهى الجهل أن تظن أن الذي آمن بالله عزَّ وجل، وتعرَّف إلى أمره ونهيه، وطبَّق أمره واجتنب نهيه، وتقرَّب إليه بالأعمال الصالحة، ووجده الله حيث أمره وفقده حيث نهاه، من السذاجة أن يعامل هذا المؤمن كما يعامل الفاسق، كما يعامل الكافر، كما يعامل المسيء، كما يعامل العاصي، فهذا الظن من السذاجة..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

مصادر الإيمان ثلاثة والطرائق ثلاث و هذا هو الإيمان :

الله عزَّ وجل قال في آية أخرى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى)

[سورة العلق: 9-10]

هذا الذي ينهى عن الصلاة، هذا الذي يحارب دين الله عزَّ وجل، هذا الذي يريد أن يطفئ نور الله، دعك من كلامه، دعك من فلسفته، دعك من مَنطقه، دعك من حُججه، دعك من منطلقاته، انظر إلى أفعاله تجد الدناءة، والأنانية، والتناقض، والكَيل بمكيالين، هذا الإنسان هو أقل من أن تلتفت إليه، هو أحقر من أن تصغي إلى كلامه.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى)

[سورة العلق: 9-10]

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

[سورة العلق: 11-12]

انظر إلى شهامته، انظر إلى ورعه، انظر إلى رحمته، انظر إلى مروءته، انظر إلى عطفه، انظر إلى لطفه، انظر إلى صدقه، انظر إلى إنصافه هكذا.

أيها الأخوة، تقسيمان، الناس رجلان مؤمن بالله؛ إما من طريق آياته الكونية، أو من خلال آياته التكوينية، أو بفعل آياته القرآنية، هذه المصادر، الطرائق: إما تفكراً، وإما دراسة، وإما استماعاً، يمكنك أن تستمع للحق جاهزاً، طبخة جاهزة، يمكن أن تعدها أنت، تتأمَّل، فالمصادر ثلاثة، آياته الكونية والتكوينية والقرآنية، الطرائق ثلاثٌ؛ المدارسة، الاستماع، التأمُّل، هذا هو الإيمان، فالإيمان جهد، الإيمان معرفة، الإيمان بحث، الإيمان يقين..

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت: إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسرٍ أو صحّ قولي فالخسار عليكما

* * *

قول الشاعر هذا إيمان مع تردد وارتياب لا يكون، هذا ليس إيماناً.

الإيمان ليس معه ارتياب وتردد بل هو يقين :

الإيمان ليس معه ارتياب وتردد، ليس معه ظَن، بل هو يقين:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[سورة التكاثر: 5-6]

ولا يقول:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[سورة التكاثر: 5-6]

عندنا علم اليقين، وعندنا عين اليقين، عندنا حق اليقين، علم اليقين: أن ترى دخاناً وراء جدار، فتحكم يقيناً وأنت بهذا تحكم مئة بالمئة أن هناك ناراً، إذ لا دخان بلا نار، هذا علم اليقين. فإذا تحرَّكت إلى خلف الجدار ورأيت بأم عينك لهيب النار، هذا ما اسمه؟ هذا عين اليقين. فإذا لا سمح الله ولا قدَّر أصابت النار جلد الإنسان، وصاح من شدة ألمه، هذه حق اليقين؛ علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[سورة التكاثر: 5-6]

لذلك، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً ما من بيتٍ إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات فإذا رأى أن العبد قد انقطع رزقه وانقضى أجله ألقى عليه غم الموت فغشيته سكراته فمن أهل البيت الضاربة وجهها والممزقة ثوبها والصارخة لويلها، يقول ملك الموت: مم الجزع وفيم الفزع، ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً ولا قربت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة ثم عودة حتى لا أبقي منكم أحداً، فو الذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميِّتهم ولبكوا على أنفسهم.

الله عز وجل قدَّم الموت على الحياة لا تقديماً زمنياً بل تقديماً رُتَبيَّاً :

أحياناً يتوفَّى للإنسان قريب، هذا القريب حالته المادية جيدة، من وفاته جاءهم ميراث ضخم حل بعض مشكلاتهم وتنفرج أمورهم، فينسوا أنهم سيموتون نتيجة، وتشغلهم دنياهم، ثم يفاجئهم بالموت..

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

* * *

أيها الأخوة، التفكُّر في الموت ليس تشاؤماً، هو عين الواقعية، أحياناً الإنسان يقول لك: أنا واقعي وينسى أنه سيموت، أنا واقعي، أنا رجل علم ويتناسى الموت، العلم يقول لك: لا بُدَّ من أن تموت، والواقع يؤكِّد ذلك، وما دام أن هذا أخطر حدث بحياتك، أجل أخطر حدث نهاية الحياة فلا بدَّ من الاستعداد له، بل إن الله عز وجل في القرآن الكريم قدَّم الموت على الحياة، لا لأن الموت قبل الحياة، الموت بعد الحياة، يحيي ويميت، هذا الترتيب الزمني، لكن قدَّم الموت على الحياة لا تقديماً زمنياً بل تقديماً رُتَبيَّاً، قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

انفتاح العام الدراسي شيء لطيف جداً، الخيارات كلُّها أمام الطالب؛ لكن أداء الامتحان شيء مصيري، ليس هناك حالة ثالثة، إما ناجح وإما راسب، فلذلك أخطر حدث بحياة الإنسان هو انتهاء حياته، لأن حياته رأسمالِه الوحيد، حياته سبب سعادته الأبدية أو شقائه الأبدي، فأن تنتهي الحياة على نحوٍ معيَّن هذا شيء خطير جداً، فلذلك المؤمن يعرف أن أثمن شيءٍ يملكه هو الوقت.

نحن الآن مدعوّون إلى طاعة الله فإن لم نستجب فالله عزَّ وجل يستبدل قوماً غيرنا:

الإيمان الإيْمان الإيمان أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

متاعٌ قليل، العظيم يقول لك: متاعٌ قليل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

(إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة التوبة: 39]

نحن الآن مدعوّون إلى طاعة الله، فإن لم نستجب فالله عزَّ وجل يستبدل قوماً غيرنا، هذه المعاني كلها ساقتها لكم الآية:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)

لا تمُنّ على الله إسلامك ولا تمن عليه إيمانك هو يمنُّ عليك أن هداك للإسلام :

قال تعالى:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

[سورة الحجرات: 17]

لا تمُنّ على الله إسلامك، ولا تمن عليه إيمانك، هو يمنُّ عليك أن هداك للإسلام.

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

يقول بعضهم: أأنت تدعوني لأصلي؟ فماذا جاءنا من الصلاة، ويقول آخرون: وها نحن قد صلينا فماذا له عندنا أيضاً؟ هذا كلام الناس، الله عزَّ وجل غني عنك، وعن صلاتك، وعن صيامك، وعن حجك، وعن زكاتك، وعن عبادتك كلها، وعن طاعتك:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

[سورة الروم: 44]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

[سورة فصلت الآية: 46]

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

لكن لكماله، ورحمته بكم، وحرصه على سعادتكم، ولأنه خلقكم ليسعدكم، خلقكم ليرحمكم.

الله خلق الكون وسخره للإنسان تسخير تعريفٍ ليؤمن بالله وتكريم ليشكره على نعمه:

قال تعالى:

(وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

فأنت مخلوق من أجل أن يسعدك الله، فإذا أنت قبلت هذا العرض العظيم، وسرت في طريقه القَويم، وسعدت بإيمانك، فقد حققت مراد الله من خلقك، إذاً يرضى عنك، ويشكر لك إيمانك به واستقامتك على أمره:

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

ولذلك فالله عزَّ وجل لما خلق الكون، خلق الكون وسخره لهذا الإنسان تسخير تعريفٍ وتكريم، فردّ فعل التعريف أن تؤمن به، ورد فعل التكريم أن تشكره على نعمائه، فإذا آمنت به وشكرته، فقد حققت المُراد من وجودك، إذاً ينتهي العلاج، وهذا مصداق قوله تعالى:

(مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 174]

لذلك دقق الفكر والنظر: أنه إذا جاءت الأمور على خلاف ما تريد، فهذه إشارة من الله إلى أنَّك لست على الخط الصحيح، فالخط الصحيح أن تؤمن وأن تشكر، والشكر عمل، والدليل قول الله عز وجل:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً)

[سورة سبأ: 13]

يجب أن نؤمن وأن نعمل صالحاً شكراً لله على منحة الوجود والإمداد والهداية :

إذاً الخط الصحيح والمنهج القويم أن تؤمن وأن تعمل صالحاً شكراً لله على منحة الوجود والإمداد والهداية، إن لم تكن كذلك فقد خرجت عن الطريق الصحيح، وعندئذ ليتحمَّل الإنسان ما يسوقه الله له، أعرابيٌ جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي أَمْراً فِي الإِسْلَامِ لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ...))

[مسند أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن سُفْيَانَ عَنْ أَبِيهِ]

نظر الأعرابي وقال: أريد أخف من ذلك. فقال له: إذاً فاستعد للبلاء، أمر سهل أن تطبق عملياً، أحد الناس قال لمهندس: الحديد المخصص للبناء كثير، أريده أقل. لا مانع إذاً فتهيَّأ لسقوط البناء، هذا علم،

الإسمنت له حجم مُعين والحديد له كمية معينة، تريد أقل من الكمية فلا مانع ولكن استعد لهبوط البناء أن يقع فوق رؤوس أصحابه، علم، قال: أريد أخف من ذلك. فقال له: إذاً فاستعد للبلاء. إذاً نحن إذا تعاملنا مع الله عزَّ وجل لنتعامل وفق القرآن الكريم وعندها نرتاح، قواعد واضحة، ربنا عزَّ وجل التعامل معه تعامل بكلام ثابت، هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

[سورة إبراهيم: 27]

التعامل مع أصحاب الأمزجة المتغيِّرة شيء متعب جداً، لا تعرفه على أيِّ حال هو يتصرف، لكن ربنا عزَّ وجل كلامه واضح، قوانينه واضحة، قرآنه واضح.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

إن اتبعت هدى الله لا يضل عقلك ولا تشقى نفسك :

الآية واضحة مثل الشمس.

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[سورة يونس: 62-63]

آمن بالله واستقم على أمره.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه:124]

انتهى الأمر:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 38]

شيء عظيم، إن اتبعت هدى الله عزَّ وجل لا يضل عقلك، ولا تشقى نفسك، ولا تخف مما هو آت، ولا تندم على شيءٍ فات، فهل هناك أرقى من هذا، هذا كلام الله عز وجل.

الشكر قبله إيمان والإعراض قبله كفر :

إذاً:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

الشكر قبله إيمان والإعراض قبله كفر، والكفر تكذيبٌ وإعراض، والإيمان تصديقٌ وإقبال، أجل تكذيب وإعراض كفر، تصديقٌ وإقبالٌ وإيمان، لذلك فالله عزَّ وجل قال في بعض الأحاديث القدسية فيما رواه النبي عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

والنبي حدثنا بقصة رمزية، أن أعرابياً ركب ناقته وعليها شرابه وزاده، وانطلق بها في الصحراء، أراد أن يستريح في ظل نخلةٍ فأفاق فلم يجد الناقة، أيقن بالهلاك لأن عليها زاده وشرابه، فجلس يبكي حتى غفلت عينه، ثم أفاق فرأى الناقة، فمن شدة فرحه قال: " يا ربي أنا ربك وأنت عبدي ". فقال عليه الصلاة والسلام: لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته.

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ فَطَلَبَهَا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا فَتَسَجَّى لِلْمَوْتِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةَ الرَّاحِلَةِ حِينَ بَرَكَتْ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ فَإِذَا هُوَ بِرَاحِلَتِهِ))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

لذلك:

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))

[أحمد عَنْ عقبة بن عامر]

((إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي))

[أخرجه ابن السني الديلمي في مسند الفردوس عن طلحة]

السكينة التي تتنزَّل على قلب المؤمنين خيرٌ من الدنيا وما فيها :

والله عزَّ وجل قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة: 54]

فالإنسان يفتخر بمحبة إنسان قوي، يقول لك: انظر هذه صورة لي معه، تعشينا مع بعض، زارني بالبيت، يعلّق صورته على الحائط، تفتخر بإنسان ولا تفتخر بالواحد الديان!! لكن الله قال عن قوم:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة: 54]

الله يحبك، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

هو يوادَّك، الله ودود، كنت في حفل قران، ذكرت لأخ جالس إلى جنبي نص الدعاء؛ يا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ هذا الذي لم يعرف الله عزَّ وجل، لو ملك أغلى ثروةً في العالم، سيأتي الموت وتنتهي هذه الثروة إلى ورثته، لو كنت أقوى رجل، لو كنت أغنى رجل، لو كنت أذكى رجل، لو كنت أكثر الناس حظوظاً في الدنيا، يأتي الموت فينهي كل شيء، فمن هو السعيد؟ الذي عرف الله عزَّ وجل، لذلك إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه؛ ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين. هذه السكينة التي تتنزَّل على قلب المؤمنين خيرٌ من الدنيا وما فيها.

الآية التالية قاعدة أساسية في تعامل الله مع خلقه :

قال تعالى:

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

هذه قاعدة أساسية في تعامل الله مع خلقه، كل إنسان محاسَب على عمله، لا يؤخذ إنسانٌ بجريرة إنسان، لا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى، أبداً، بل كل نفس بما كسبت رهينة.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

النبي قال:

((يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً))

[أخرجه أحمد و الشيخان و الترمذي عن أبي هريرة]

لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه، قال عليه الصلاة والسلام مخاطباً أصحابه:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

إن صحَّت علاقتك مع الله هذا هو الإيمان، علاقتك مع الله فقط، فراقب الله عزَّ وجل في خلوتك وفي جلوتك، في سرك وفي جهرك، في بيتك وفي طريقك، وفي عملك، وفي بيعك وشرائك، هذا هو الإيمان.

آيات تؤكد أن أفضل إيمان المرء أن تعلم أن الله معك حيثما كنت :

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء:1]

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

[سورة الأنفال: 24]

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

[سورة ق: 16]

أفضل إيمان المرء أن تعلم أن الله معك حيثما كنت.

أدلة من القرآن الكريم تؤكد أن كل إنسان يحاسَب على عمله :

إذاً:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

كل إنسان محاسب، والله هناك أدلة، فامرأة فرعون قالت:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم: 11]

قد تكون امرأةٌ في أعلى درجات الإيمان ولها زوجٌ فاسقٌ فاجر، والعكس صحيح، فاعتبره على كلٍ:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

((لا منكم، ولا منكم، سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد: 1]

عمه، عم النبي،

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبّ)

سلمان الفارسي (سلمان منا آل البيت) هذا الإسلام، فالإسلام ليس فيه تفرقة.

من أيقن أن الله يعلم وسيحاسبه لا بد من أن يستقيم على أمر الله :

قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

نعمة الأمن هذه من نصيب الذي عرف الله عزَّ وجل واستقام على أمره ولم يقع في ظلمٍ دقيقٍ أو جليل.

(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

أخواننا الكرام،إذا الإنسان أيقن أن الله يعلم، وأيقن أنه سوف يحْشَرُ إليه، وأيقن أنه سيحاسبه، لا بد من أن يستقيم على أمر الله، أنت إذا أيقنت أن بشراً يعلم ما عندك: فإذا استوردت بضاعة، بعثت نسخة للمالية، وتقدم حساباتك وتذكر الصفقة، لأنهم يعرفونها، إذا أغفلتها تعرض تجارتك لخطر، أنت تتعامل مع إنسان أخذ صورة عن استيرادك، وتعترف بكل ما يتعلق بالصفقة، لماذا؟ لأنك موقن أنه يعلم وسوف يحاسب، وقدير، فربنا عزَّ وجل قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

إذا آمنت أن علمه يطولك، وأنك سوف تنتهي إليه، وسوف يحاسبك، فتستقيم على أمره، لذلك الناس يتعجبون من المؤمن، لماذا هو مستقيم إلى هذه الدرجة؟ بعضهم يقول له: لا تحتاج لكل هذا!! العَجَب بالعكس، عليهم أن يعجبوا ممن يعصي الله، كيف يعصيه؟! كيف سيقابله؟ كيف سيقف بين يديه؟ ماذا يقول له؟!

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة يس: 65]

يوم القيامة الأمر كلّه مسجل علينا والأعمال تعرض على صاحبها بكل تفاصيلها :

لذلك المصير إليه:

(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

عملك، حجم عملك، نواياك، مؤدَّى عملك، مضاعفات عملك، آثار عملك، كله في علم الله عزَّ وجل، فإن قلت: أنا لست متذكراً.

(أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ)

[سورة المجادلة: 6]

احذر فليس لك أن تنسى، والأمر كلُّه مسجل عليك، والأعمال تعرض على صاحبها بكل تفاصيلها، قال بعضهم:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

[سورة المطففين: 7]

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

[سورة المطففين: 9]

ما معنى مرقوم؟ أي أن الكتاب مرقَّم، ولا تستطيع أن تخفي صفحة منه، هذا معنى، والمعنى الثاني من الرَّقم وهي الصورة، المخالفة مع صورتها، الدفتر مرقَّم والمخالفات مصورة.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء: 14]

الإنسان يريد من الله الكرامة والله يطلب منه الاستقامة :

لذلك أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، أرجحكم عقلاً من كان وقَّافاً عند كلام الله، أنت تريد من الله الكرامة وهو يطلب منك الاستقامة.

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

يعلم نفسك على حقيقتها.

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ)

معنى (وازرة) من الوزر وهو الحمل، (لا تزر) لا تحمل نفسٌ حاملةٌ حمل غيرها، هذا المعنى الدقيق. لا تحمل نفسٌ حاملةٌ حمل غيرها، كل إنسان محاسب على عمله.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نعرض صفة الإنسان:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (05-20): تفسير الآيتان 8-9 المصائب والنعم والعلم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-02-12

بسم الله الرحمن الرحيم

كل ما يسوقه الله جلَّ جلاله لعباده في الدنيا إنما يسوقه لهم من أجل أن يقرِّبهم إليه:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة الزُمَر، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

أولاً: كلمة الضُر، ليس في أفعال الله سبحانه في الكون ضرٌ مقصودٌ لذاته، هذه أول حقيقة، ولأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى، لأن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وأسماؤه حسنى، وخَلَقَ الخلق ليرحمهم..

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

ما دام الأمر كلُّه بيد الله؛ لا حركة، ولا سكنة، ولا فعَّال إلا الله، الذي أراده الله يقع، والذي لم يرده لا يقع، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، الذي وقع أراده الله، وإرادة الله متعلّقةٌ بالحكمة المُطلقة، وحكمته متعلّقةٌ بالخير المطلق، إذاً الشر غير موجود، شرٌ مقصودٌ لذاته لا وجود له في أفعال الله تعالى في الكون إطلاقاً، لكن الشر نسبي، الأب حينما يعالج ابنه قد يضيِّق عليه، هذا التضييق من وجهة نظر الابن تضييق وشر؛ لكن من وجهة نظر الأب تربيةٌ وفضل، فيجب أن نعلم علم اليقين أن كل ما يسوقه الله جلَّ جلاله لعباده في الدنيا، إنما يسوقه لهم من أجل أن يقرِّبهم إليه، والدليل قول الله عزَّ وجل:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

الله عزَّ وجل إذا ساق عذاباً لعباده فمع العذاب لطفٌ كبير يمسُّهم مسّاً خفيفاً :

كلمة (الضُر) ليست بالمعنى المطلق، بل بالمعنى النسبي، أي أنها ضرٌ بالنسبة للإنسان المقصِّر العاصي، لكنها بالنسبة إلى الله جلَّ جلاله تربيةٌ، وفضلٌ، ومعالجةٌ، ونعمةٌ باطنة، كما فسَّرها المفسِّرون.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

النقطة الثانية:

(وَإِذَا مَسَّ)

الإنسان أحياناً يمس مكواة ليرى أنها جاهزة للاستعمال، ماذا يفعل؟ يضع لعاباً على إصبعه، ويضع يده في أقلِّ مساحةٍ وفي أقل زمنٍ، هذا هو المس، أي أقل مساحة وأقل زمن مع مواد مخفِّفة، فالله عزَّ وجل إذا ساق عذاباً لعباده فمع العذاب لطفٌ كبير، لا يصيبهم بالعذاب بل يمسَّهم مسَّاً خفيفاً..

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ)

أما الإنسان المقصود في الآية هو الإنسان الذي أودع الله عزَّ وجل فيه خصائص، أودع فيه شهوات، أعطاه عقلاً، أعطاه فطرة، هذا الإنسان كمواد أوليَّة قبل أن يعرف الله جعل له خصائص، فإذا عرف الله عزَّ وجل فله خصائص أخرى، مثلاً.

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 19-21]

المُصلي له صفاتٌ خاصَّة تختلف عن الإنسان العادي :

بحكم حفاظه على حياته، بحكم حبِّه لوجوده، ولسلامة وجوده، ولاستمرار وجوده، ولكمال وجوده، يخاف؛ شديد الخوف، شديد الفزع، شديد الحِرص، فالغرائز التي أودعها الله فيه، وحبُّ ذاته، وحبُّ كمال ذاته كل هذه المعطيات يجعله شديد الخوف، شديد الجزع، شديد الهَلَع، شديد الحرص..

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 19-21]

ثم قال سبحانه وتعالى:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 22]

المُصلي له صفاتٌ خاصَّة، لأن المصلي اتصل بالله عزَّ وجل فقوي على ضعفه الذاتي، قوي على قلقه بالاعتماد على الله، قوي على ضعفه بالاتكال على الله، قوي على جهله بأنه استعان بعلم الله، قوي على حيرته بأنه استهدى الله عزَّ وجل، لذلك فالإنسان ضعيف لكنَّه باتصاله بالله قوي، الإنسان جاهل لكنه إذا اتصل بالله يصبح عالماً، الإنسان خائر القِوى، شديد الخوف، لكنَّه إذا اتصل بالله يلقي الله في قلبه السكينة.

الإنسان قبل أن يعرف الله أودِعَت فيه خصائص كل هذه الخصائص لمصلحته :

إذاً في الآية مراكز ثِقل، كلمة (مسَّ) تعني أن الله لطيف، فإذا ساق العذاب لعباده ليس القصد أن يعذِّبهم، بل القصد أن يردَّهم، لذلك يأتيهم العذاب مُلطَّفاً، والعوام لهم كلمة أحبُّها: " الله يبلي ويعين ". هذا معنى المس، أي أنه مسٌ خفيف، الإنسان يصاب بالمرض، لكن يلقي الله في قلب من حوله الرحمة عليه، فيهبّون لمساعدته، أحياناً يصاب بفقر، لكن يلقي في قلوب الآخرين حبَّ معاونته، فربنا عزَّ وجل إن ساق العذاب يجعل مع العذاب يُسراً، وهذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

[سورة الشرح: 6]

لم يقل: إن بعد العسر يسراً، بل قال:

(إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

أولاً أفعال الله عزَّ وجل فيها كل أسمائه، فالله قوي، وقهَّار، وجبَّار، لكن لطيف، ورحيم، وودود، وعفو، وغفور، فكل أسمائه داخلةٌ في كل أفعاله، لذلك:

(وَإِذَا مَسَّ)

الإنسان هذا المخلوق قبل أن يعرف الله أودِعَت فيه خصائص، كل هذه الخصائص لمصلحته، لكنها في الوقت نفسه حياديَّة، فهذا المحرِّك في السيارة مثلاً، أيعقل أن يكون إنسان ركب مركبة ووقع له فيها حادث وتدهورت، ويقول: يا أخي هذا المحرِّك إنما صُنِعَ من أجل أن ألقى هذه النتيجة، لا، صُنِعَ هذا المحرِّك كي تستعمله وفق الأصول، وكي تحقِّق من خلاله أهدافك من هذه المركبة، لكنك حينما قُدَّتَ هذه المركبة قيادةً غير حكيمة، ولم تكن منتبهاً ولا واعياً حينما قدتها، بل كنت غارقاً في الشراب، فنقلتك إلى الوادي، وأصابتك بما أصابتك مثلاً، فلا تقل: المعمل حينما صنع هذا المحرِّك إنما صنعه ليؤذيني، لا ثم لا.

جميع أنواع الحظوظ التي أودعها الله في الإنسان حظوظٌ حياديَّة :

لذلك الحظوظ كلُّها، جميع أنواع الحظوظ التي أودعها الله في الإنسان حظوظٌ حياديَّة، يمكن أن ينتفع بها في آخرته، ويمكن أن يهوي بها في جهنَّم، والحظوظ تماماً كدرجات أو دركات، درجاتٌ إلى الجنة يرقى بها، ودركاتٌ إلى النار يهوي بها، المال هو نفسه يمكن أن يكون سلَّماً إلى الجنَّة، والمال نفسه يمكن أن يكون دركات إلى النار، وكذلك الأولاد، فالكافر مثلاً لا ينجب إلا ولداً كافراً في الغالب لأنه هو الذي ينشئهم ويربيهم..

(إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً)

[سورة نوح: 27]

أجل، يُنَشِّئُ ابنه على معصية الله، ينشِّئه على أن هذا الدين لا يصلح لهذا الزمان، هكذا يُلقي في روعه، فالولد، المال، الصحَّة، الذكاء كل هذه الحظوظ حياديَّة، بإمكانك أن ترقى بها إلى الله، وبإمكان الإنسان أن يهوي بها إلى النار، فلذلك:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ)

الإنسان فيه شهوات من أجل أن يرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، فإن لم يرقَ بها إلى رب الأرض والسماوات، ومارسها بطريقةٍ غير شرعيَّة، قادته إلى الظلمات، وإلى نار جهنَّم، لذلك النبي الكريم يقول:

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

[مسلم عن أنس بن مالك]

إن عمل الجنة حزن بربوة، وإن عمل النار سهل بسهوةٍ..

((ألا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ثَلاثاً ألا إِنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عبَّاس]

هذا الإنسان إذا عرف الواحد الديَّان تجلت عنده صفات أخرى، لذلك فرَّق العلماء بين الفطرة وبين الصبغة، الفطرة أن تحبَّ الخير، الفطرة أن تحبَّ العدل، لكن الصبغة أن تكون عَدْلاً، الصبغة أن تكون خَيِّراً، فكل إنسان مفطورٌ فطرةً عاليةً، لكن المؤمنون وحدهم اصطبغوا بالكمال الإلهي، هذا الذي يمكن أن يقال في كلمة الإنسان المشار إليه في الآية الكريمة:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ)

أروع ما في هذه الآية أن الضُر يكشف زيف الإنسان ويجعله وجهاً لوجهٍ أمام فطرته:

الإنسان دائماً يتأمَّل نفسه، هل صفاته تشبه الصفات التي أوردها الله في القرآن الكريم قبل أن يؤمن؟ الإنسان قَتور، الإنسان جَحود، الإنسان كَفور، الإنسان كما قال الله عزَّ وجل: عَجول، الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً، هذه صفات الإنسان قبل أن يعرف الله عزَّ وجل، أما إذا عرفه فصفاته تتبدَّل تبدُّلاً جذرياً. وبعد فالله عزَّ وجل رب، وهو خالق، هو مسيِّر لكنَّه ربُّ العالمين، ومعنى رب العالمين أنه يربي النفوس، أجل يربيها، فإذا اختارت ما يؤذيها، اختارت طريقاً ضالاً، أو اختارت طريقاً يودي بها إلى النار لا يدعها على حالها، لا يتركها هملاً، بل يربيها تربيةً تعود عليها بالخير، فمن هنا يأتي الضُر.

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ)

أروع ما في هذه الآية أن الضُر يكشف زيف الإنسان، ويجعل الإنسان وجهاً لوجهٍ أمام فطرته، فطرته مؤمنة، الإنسان حينما فطره الله عزَّ وجل فطره فطرةً لا تسكنُ ولا ترتاحُ إلا بمعرفة الله، فعند المؤمنين شعور عجيب، يقول لك: بعدما تبت إلى الله ارتحت، كلام صحيح، كلامٌ صحيحٌ مئة في المئة لأن فطرة الإنسان لا تطمئن ولا ترتاح إلا بطاعة الله، إذا أطاعت الله عزَّ وجل شعرت أنها في حرزٍ حريز، وفي حصنٍ حصين، وأنها بأعين الله عزَّ وجل، إنها برعايته، إنها تحت مِظَلَّة رحمته، هذا الشعور لا يقدَّر بثمن.

لذلك قالوا: " إن الله يعطي الذكاء والقوَّة والجمال والمال للكثيرين من عباده، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين".

والله أيها الأخوة، في نفس المؤمن من مشاعر الرضى عن الله عزَّ وجل الكثير الكثير، ومشاعر الثقة برحمة الله، ومشاعر الطُمأنينة إلى عدالة الله، ومشاعر أن الأمر كله بيد الله، وأن علاقته مع جهةٌ واحدة، هذه المشاعر تملأ قلبه سعادةً، في حين أن أهل الدنيا لو حصَّلوا من المال الشيء الوفير، ومن الصحَّة، ومن الذكاء والقوَّة والجمال، فإذا فقدوا الإيمان فقدوا كل شيء، لذلك في المناجاة يقول الإنسان: " يا ربِّ ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ ".

الإنسان الكامل هو الذي يعرف حجمه قبل أن يُحَجِّمَهُ الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ)

الإنسان وهو في بحبوحة يتحدَّث عن قوَّته، عن ماله، عن شأنه، عن ذكائه، عن خبرته، لكن إذا ألمَّت به المكاره قال: يا رب يا رب. أنت أحياناً تلتقي مع إنسان له شأنٌ رفيع في المجتمع، كأن يشغل منصباً رفيعاً مثلاً، وله رتبة عالية، فإذا رأيته مريضاً وجدته عبداً لله عزَّ وجل، ويتضرع قائلاً: يا رب، فتقول في سرك: لم أكن أسمعه يقول هذا الكلام من قبل، بل كان يعتدُّ بنفسه، وقد حدَّثني أخ عن رجل من أشدِّ الرجال قسوةً، ومن أشدِّهم قوَّةً، ألمَّ به مرضٌ عُضال فزاره أصدقاؤه فإذا هو كالطِفْلِ الوديع، قلت: سبحان الله، ما الذي أعاده إلى فطرته؟ هذا المرض أعاده إلى فطرته، فالإنسان الكامل هو الذي يعرف حجمه قبل أن يُحَجِّمَهُ الله عزَّ وجل، الله يُحجِّم، لأن الله عزَّ وجل مربٍ، فأنت إذا عرفت حجمك كنت في بحبوحة، لقوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

أما إذا لم تعرف الله، وتبجَّحت بقوَّتك، وذكائك، وخبرتك، وعلمك، وأسرتك، ومالك، وأجهزتك، وبيتك، يأتي التحجيم من الله عزَّ وجل ليعرِّفك بعبوديَّتك، لذلك:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ)

الإنسان في أثناء المصيبة تُنْزَعُ منه كل الأقنعة المُزيَّفة، المال قناع مزيَّف، هناك مصائب لا يحلُّها المال، أنا كنت مرَّة عند طبيب فجاءه هاتف من أهل مريض، أنهم مستعدون للذهاب إلى أي مكان في العالم يرشدهم إليه لعلَّه تُجرى له عمليَّة، والمبلغ مهما كان كبيراً ندفعه، قال لهم: والله لا أستطيع، الحالة متفاقمة جداً وليس لها علاج لا عندنا ولا في أي مكانٍ آخر، فأين المال؟ ما قيمة المال؟!!

الإنسان كما يُبْتَلى بالمصائب يُبْتلى بالنعم :

بالمناسبة: إذا اعتمد الإنسان على ماله، فالله عزَّ وجل يعالجه معالجة لا ينفع فيها المال، إذا اعتمد على قوَّته يضعه بظرف لا تنفع فيه القوَّة، فكل شيء أنت معتمد عليه، ومتكئ عليه، فكأنك تجعله إلهاً من دون الله، الله عزَّ وجل لأنه رب العالمين لا بد من أن يتدخل في حل مشكلة، وهذا الذي تعتمد عليه لا يجديك نفعاً أبداً، الآن:

(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

[سورة الأنبياء: 35]

الإنسان كما يُبْتَلى بالمصائب يُبْتلى بالنعم، قال تعالى:

(إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ)

يُمْتَحَن بالنعمة ويُمتحن بالنقمة، يمتحن بالعطاء ويمتحن بالمنع، يمتحن بالإمداد ويمتحن بالقبض وبالبسط. لكن المؤمن يرى أن منع الله عطاء، أجل المنع من الله عين العطاء لأن الله عزَّ وجل يحمي صفيَّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام.

(إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ)

هذا الإنسان قبل أن يعرف الله يعيش لحظته فقط، قوي، يقول لك متفلسفاً: الإنسان كلَّما ضعف تفكيره يخاف بحواسِّه فقط، وكلَّما نما تفكيره يخاف بفكره، فالطالب ما دام بعيداً عن زمن الفحص تجده مهملاً ولا يدرس، يلهو مع أصدقائه، مع أهله، فمتى يشعر بوطأة الامتحان؟ في أيَّام الامتحان فقط، أما الطالب العاقل يخاف ضياع الفرصة لا بالظروف المعاصرة والظروف الآنيَّة؛ بل يخاف من مداهمة المستقبل، فالمؤمن دائماً يخاف إن كان قوياً أو ضعيفاً بفكره، وغير المؤمن فهو الذي يخاف إن بحواسِّه فقط، فهذا عندما شفاه الله عزَّ وجل من مرضه، أو أزال عنه الفقر إلى الغنى، أو واجهه شبح مصيبة فأزاحها عنه، رجع إلى ما كان عليه من قبل تمرداً وغطرسة.

المصائب التي يسوقها الله عزَّ وجل للإنسان تذكير له باقتراب الأجل :

اليوم ذكرت قصَّة بليغة جداً، ومناسبة جداً لدرسنا، أنه بينما كان شخص يقود سيَّارته وإلى جانبه زوجته، تعرَّض لأزمة قلبية حادَّة، عند وقوفه أمام إشارة المرور، فارتمى على المقود، لأن الله عزَّ وجل لطيف جداً، مرَّ صديقه في الوقت المناسب، فحملوه من فوره ووضعوه على المقعد الخلفي، وقاد صديقه السيارة إلى مستشفى وأدخلوه غرفة العناية المشدَّدة، وبعد سويعات استيقظ فطلب مسجِّلة، فذكر في هذه المسجِّلة اعترافاته، وقال: المحل الفلاني فروغه كذا مليون ليرة وهذا ليس لي ولكن لإخوتي، أنا اغتصبته منهم غصباً، اعترف، والأرض الفلانيَّة، والبستان الفلاني كذلك، وذكر كل ما عليه من حقوق كان قد اغتصبها بسبب هذه الأزمة التي ألمَّت له، وبعد أيَّام تخرَّج من المستشفى، وعادت له صحَّته وقوَّته، فقال: أين الشريط؟ أعطوني إيَّاه، أخذه وكسَّره، وبعد ثمانية أشهر جاءته أزمةٌ أخرى فأودت به ومات معتدياً، مغتصباً، مشغول الذمة.

هذه القصَّة نقلتني إلى شيء عِشْتُهُ حينما كنت في التعليم، فالتيار الكهربائي كان في بعض الأقبية ليس مستمراً بل كثيراً ما ينقطع، وفي الساعة الثانية عشرة تُطْفَأ الكهرباء، طبعاً كان عندنا تقليد لطيف أنه في الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق تطفأ لثانيةٍ واحدة ثمَّ تعود، أي إشارة أنه اقترب وقت انقطاع التيار الكهربائي فانتبهوا، أما الإشارات الضوئيَّة فلها وميض، فاللون الأخضر يومض وميضاً أي أسرع فستصبح الإشارة حمراء، فكل هذه المصائب التي يسوقها الله عزَّ وجل للإنسان تشبه انقطاع التيار لمدة ثانية وهي تذكيرٌ بأن اللقاء قد اقترب فهل أنت مستعد أيها العبد؟ فمثلاً شَيْبُ الشعر، يقول الله عزَّ وجل: عبدي كبرت سنُّك، وانحنى ظهرك، وضعُف بصرك، وشاب شعرك، فاستحي مني فأنا أستحي منك، لقد اقترب اللقاء، فإذا تجاوز الإنسان عتبة الأربعين فقد دخل في مدارج الآخرة، والإنسان إذا بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شرَّه فليتجهَّز إلى النار، الأربعين فما بعدها سِنُّ معرفة الله، سِنُّ التقرُّب إليه، وإن كان ما يفعله الشاب في شبابه يوازي أضعافاً مضاعفة ما يفعله الكَهل في كهولته، والشيخ في شيخوخته، لأن الله عزَّ وجل قال: أحبُّ ثلاثاً وحبي لثلاثاً أشد، أحبُّ الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، هذا شيء لا يُقدَّر بثمن:

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))

[أحمد عن عقبة بن عامر]

(إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ)

الكافر إذا خوَّله الله نعمةً نسي ما كان يدعو إليه :

ذات مرَّةٍ قُدّم للنبي عليه الصلاة والسلام لحم شاةٍ، قسم منه مشوي وقسم مطبوخ، وخبز شعيرٍ، وتمرٌ وبُسْرٌ ورُطَبٌ، فبكى وقال: لحمٌ، وخبزٌ، وتمرٌ، ورُطَبٌ، وبسَر؟! إن هذا هو النعيم الذي نُسأل عنه يوم القيامة.

يا أيها الأخوة، إذا كنت بصحَّة طيِّبة، فصحَّتك هذه نعيم، السؤال عنها: كيف استعملت هذه الصحَّة؟ في طاعة الله أم في معصيته؟ إذا كان عندك وقت فراغ فهذا نعيم تسأل عنه يوم القيامة، هذا الوقت كيف أمضيته؟ إذا كنت في طمأنينة لست مُلاحقاً، فهذه نعمة كبيرة جداً، حر تتحرَّك أينما تريد، تسافر، تقيم، لست خائفاً، نعيم الأمن ماذا فعلت به؟ هل استخدمت الأمن للتمادي في المعاصي، أم استخدمت الأمن الذي تنعُم به في المبالغة في الطاعات؟ هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

[سورة التكاثر:8]

نعمة الصحَّة، ونعمة المال، ونعمة الفراغ، ونعمة الأمن، ونعمة القوَّة، هذا كله من نعيم الدنيا. لكن الكافر إذا خوَّله الله نعمةً نسي ما كان يدعو إليه، ينسى حاله عندما كان يتوسل إلى الله عزَّ وجل، لا أعتقد أنَّ هناك إنساناً تلمُّ به مصيبة إلا ويناجي ربَّه، لكن البطل هو الذي يبقى عند ندائه، عند عهده، يا رب أنا أعاهدك إن نجَّيتني من هذه الورطة لأكونن من الصادقين، لأكونن من الطائعين، لأكونن من المؤمنين، لأكونن من التائبين، لأكونن من القانتين، فلمَّا نجَّاه منها عاد إلى ما كان عليه، ليته اكتفى بذلك، بل:

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً)

الآية دقيقة، الله عزَّ وجل ساق له الشفاء على يد طبيب، فجعل هذا الطبيب نداً لله، يا سيدي هذا الطبيب ليس له مثيل، لولا هذا الطبيب الذي تولى معالجتي لعاجلني أجلي، هكذا يقول لك.

الله عزَّ وجل هو الذي يستحقُّ وحده العِبادة :

قال تعالى:

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً)

عنده قضيَّة شائكة جداً، والله ألهم محامياً مخلصاً خدمه فيها، فربحت دعواه، هذا المحامي لا مثيل له، لو كان غيره لخسرت دعوانا، قل: الله عزَّ وجل. قل: الله عزَّ وجل ساق لي هذا المحامي ليدافع عني،

وألهمه الحجَّة، وألهم القاضي الإنصاف، فالإنسان حينما تأتيه مشكلة ويدعو الله عزَّ وجل، فيزيح عنه هذه المشكلة ينسى، فيعزو هذا النجاح إلى أشخاص، لذلك: ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد:

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً)

هناك رأي آخر وهو رأي قوي: حول موضوع الند لله وسيأتي بيانه فيما بعد، فالله معبود، الله عزَّ وجل الذي يستحقُّ وحده العِبادة، معنى العبادة الخضوع التام، الحب الكامل، الإخلاص الشديد. ولكن إذا كان الله عزَّ وجل هو المعبود الذي يستحقُّ العبادة، وهو المعبود الذي ينبغي أن تطيعه، وأن تخلص له، وأن تفني شبابك من أجله، وأن تمضي العمر كلَّه في طاعته، وأن تنفق المال في سبيله، وأن تجلس على ركبك السَّاعات الطوال لتحصيل العلم الذي يريده، وأن تخدم خلقه فهذه عبودية فقط. لكن إذا فعلت هذا مع غير الله عزَّ وجل، كأنَّك جعلت هذا الشيء نداً لله عزَّ وجل، فإذا أخلصت لامرأةٍ مثلاً وأنت ترى كل السعادة في الزواج منها، حتَّى أمرتك بمعصية الله فاستجبت لها، فأنت جعلتها نداً لله عزَّ وجل، أو إذا أخلصت لإنسانٍ، ورأيته قوياً، وبإمكانه أن يرفعك وإذا غضب عليك بإمكانه أن يخفضك، فأنت جعلت هذا الإنسان ندَّاً لله، حينما جعلت طاعته فوق طاعة الله عزَّ وجل، فليحذر الإنسان، فأحياناً يرى أشخاصاً، أو أشياء، أو شهوات، أو قيَماً ترتفع في نظره فتكون ندَّاً لله عزَّ وجل، فلا يعزو الخير الذي أصابه لله عزَّ وجل.

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ)

بل رأى أن هذه الأشياء هي من القوَّة، والجمال، والتأثير في حياته بحيث إذا أطاعها سَعِدَ في الدنيا والآخرة.

الإنسان إذا أشرك أضلَّ نفسه عن الله وأضلَّ غيره :

قال تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً)

الند طريقٌ غير سالك، لديك طريق وحيد سالك هو طريق طاعة الله، هذا الطريق سالك إلى الله، أما أي طريق آخر فهو مسدود، لو تعلَّقت بإنسان، هذا الإنسان ليس عنده ما يرضيك، ليس عنده سعادة تُسعدك، ليس عنده قوَّة تعينك، ليس عنده أنوار تنوِّر قلبك، طريقٌ مسدود، الطريق الوحيد طريق الله عزَّ وجل، هذا الطريق سالكٌ لرحمته، سالكٌ للسعادة، فالإنسان إذا تعلَّق بغير الله، وأطاع غير الله، أضلَّ نفسه عن الله، وسار في طريق مسدود.

لذلك لو فرضنا من باب التمثيل أن لك مبلغاً كبيراً جداً في مدينة حلب، وهو جاهز للدفع بمجرَّد أن تصل إلى هذه المدينة، وذهبت إلى محطَّة القطارات، والقُطر كثيرة، فقطار إلى حِمص، وقطار إلى درعا، وقطار مثلاً إلى بيروت، وقطار إلى تدمر فرضاً، وفي قطار إلى حلب، قطار حلب هو أهم قطار بالنسبة لك، لأنك إذا ركبته ووصلت إلى فلان قبضت المبلغ الكبير، أما القطارات الأخرى فليس لك بها فائدة، وطريقها لا يوصلك لحلب مسدود، فلو ذهبت إلى بلدةٍ على عكس حلب، فلن تجد شيئاً، ولن تقبض أي شيء وقد تفوتك الفرص، فالإنسان حينما يتَّجه إلى غير الله عزَّ وجل لا يفقه شيئاً، الإنسان إذا أشرك أضلَّ نفسه عن الله، وأضلَّ غيره..

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ)

متاع الحياة الدنيا محدود :

أطاع زيداً فقبض مبلغاً كبيراً مكافأةً على هذه الطاعة، قد يكون مبلغاً كبيراً جداً، فاشترى البيت الفخم، واشترى المركبة الفارهة، وتمتَّع، واشترى مزرعة، وتمتَّع وبذخ بهذا المال الكبير لكن الله عزَّ وجل يقول له:

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً)

أي أن كفرك الذي أورثك هذا المال تمتَّع به قليلاً:

(إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

سيدنا إبراهيم قال:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

[سورة البقرة:126]

الله عزَّ وجل قال:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة:126]

فهذه متعة محدودة.

آيات قرآنية تؤكد أن متاع الحياة الدنيا قليل :

قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

الله الله؛ ما أدق معنى هذه الآية:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

[سورة الإنسان: 27]

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

[سورة إبراهيم: 30]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص الآية: 61]

التمايز بين الناس يظهر جلّياً بعد العرض على الله :

قال تعالى:

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً)

هي أيَّام معدودة، وبعد فإذا عاش إنسان ثمانين سنة، السنة ثلاثمئة وخمسة وستين يوم ضرب ثمانين، تُعَد الأيام، كم مرَّة دعي إلى وليمة؟ كم مرَّة قام بنزهة؟ كم وكم كله معدود ومحدود، يقول لك مثلاً: قضيت مع زوجتي أربعين سنة فهذا عمر مديد، ولكن انقضى:

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً)

الإنسان عندما يكون قوياً، أو غنياً، أو له علاقات اجتماعيَّة نامية جداً، لكن في معصية الله كل هذا محسوب عليه، مسجَّل عليه، وكلها أشياء معدودة بعد الحساب العَسير، وأما إذا صَبَرَ الإنسان على طاعة الله فقد تفوته بعض المُتَع الرخيصة، والمباهج الشيطانيَّة، لكن ضمن الجنَّة، وبالحقيقة الآن بالتعبير الحديث الأوراق مختلطة، أي أن المؤمن شخص عادي، قد يكون موظَّفاً، مدرِّساً، طبيب له عيادته، بيته متواضع، زوجته، أولاده مثله، وهناك ناس أقوى منه، وأغنى منه، وناس لهم شكل أوسم منه، لكن حينما يقوم الناس لرب العالمين، يقول الله عزَّ وجل:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

[سورة يس:59]

في أثناء العالم الدراسي كل الطلاب يتشابهون، كلهم يلبسون لباس الفتوة ويدخلون إلى المدرسة، وإن كانت جامعة كلَّهم يلبسون بدلات الدراسة الجامعية ويذهبون إلى الجامعة، منهم كسول، ومنهم مجتهد، ومنهم عبقري، وبعضهم فلتة من فَلتات الزمان، وبعضهم كتلة غباء، مشكَّل، فمتى يُعْرَفون؟ بعد

الفحص، أثناء العام الدراسي فظاهرهم واحدة؛ فهذا اللباس الموحَّد، والحركة نحو الجامعة، وحضور المحاضرة والاستماع يوحد بينهم، لكن هذا يدرس، وذاك كسلان، متى يُكْشَف الأمر؟ بعد الامتحان.

ربنا عزَّ وجل نقلنا نقلة مفاجئة إلى نموذج آخر :

نحن في حياتنا كأننا في العام الدراسي، لكن يوم القيامة تعرف نتيجة الامتحان، ستعرف نعم الله العظمى عليك، عندما ترى أقوى الناس وأغنى الناس في حسرة كبيرة جداً، في خسارة كبيرة جداً، وأنت ربحت الدار الآخرة، أن هذا لهو الفوز المبين والفوز العظيم:

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

ثم إن ربنا عزَّ وجل نقلنا نقلة مفاجئة إلى نموذج آخر، هذا الإنسان سويعاتي، أي أنه تأتيه المشاكل فينهار، يقع في اليأس والقنوط، وأحياناً ينتحر، تأتيه الدنيا فيرقص، أمره عجيب، الخير يجعله خفيفاً، والشر يجعله يئوساً، وإذا ساق له الله عزَّ وجل بعد الشر خيراً ينسى الله، ينسى دعاءه وتبتُّله، ينسى ترجِّيه لله عزَّ وجل، يجمِّع الأموال يريد ليفجر أمامه..

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

فإذا هذا الإنسان الكفور، الجحود، الذي يعيش لحظته، ويعطِّل فكره، ويعطِّل قيمه كلها، ويعيش لذاته، فهل ذاك التائه يوازي هذا الإنسان العابد؟

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ)

هل يستوي هذا مع ذاك؟ إنسان يحضر مجالس العلم ليتعرَّف إلى الله، يقرأ القرآن، يصلي الصلوات الخمس، له دعاؤه، له أوراده، له أذكاره، يغض بصره، يضبط لسانه، يضبط يده، يضبط دخله، يضبط إنفاقه، من مجلس علمٍ إلى مجلس علمٍ، من طاعةٍ إلى طاعة، من خيرٍ إلى خير، من عبادةٍ إلى عبادة، من منزلة إلى منزلة، يقرأ القرآن فيبكي، يصلي فيبكي، ينفق ماله حباً بالله عزَّ وجل، هذا الإنسان المُحب، العابد، الطائع، المُتَّقي، المخلص، أيعقل أن يستوي مثلاً أفلا تذكرون؟!

التؤدَةُ خيرٌ كلُّها إلا في عمل الآخرة ليست خيراً إنها تقصير :

قال تعالى:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ)

القنوت الانقطاع، أي انقطع لطاعة الله:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة:111]

لقد باع عمره، باع وقته كله، يا سيدي: كم الزكاة؟ قال له: عندكم أم عندنا؟ قال له: ما عندنا وما عندكم، فكم دين لديه؟ قال له: عندكم واحد من الأربعين، أما عندنا العبد وماله لسيده. يقاس عليها أن الوقت كلُّه لله، كل طاقاتك لله، كل خبراتك لله، بيتك لله، مركبتك لله، مالك لله، أنت في زمن الامتحان، أنت الآن في حياة إعداديَّة، لذلك لا خير في الإسراف لكن لا إسراف في الخير، والتؤدَةُ خيرٌ كلُّها، إلا في عمل الآخرة ليست خيراً إنها تقصير، وإنها بطء..

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ)

أي في أطراف الليل:

(سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ)

دائرة المرئيات محدودة أما دائرة المسموعات فكبيرة جداً :

نحن على أبواب شهر رمضان، عندنا كل يوم صلاة التراويح، فإذا أكل أحدكم فليأكل أكلاً خفيفاً ولا يكثر، لكي يصلي صلاة فيها خشوع لله عزَّ وجل، لكي يشعر أن التراويح ولو كانت عشرين ركعة فهي خفيفة عليه، لو ملأ بطنه لما استطاع أن يصلي، فاكتفى بأكله الخفيف لكي يقوى على الصلاة، وقف بين يدي الله عزَّ وجل عشرين ركعة، ساعة وربع الساعة، واستمع إلى جزء من القرآن الكريم، وتأمَّل في الآيات التي رتلها الإمام، وشعر كأن الله يتلوها عليه، وركع وسجد، واستمع إلى درس علمي قصير، وعند الفجر كذلك، وصلى الظهر في المسجد، وكذلك العصر، ودائماً يقرأ القرآن، يذكر الله عزَّ وجل، يغضُّ بصره، يضبط سمعه ولسانه، هذا الإنسان له عند الله شيءٌ كثير، لذلك:

((أعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

ما لا عينٌ رأت، دائرة المرئيَّات محدودة جداً لكل واحد منَّا، ولا أذنٌ سمعت، المسموعات أكبر منها بمليون مرَّة، بمئة مليون، أنت رأيت كم مدينة في العالم؟ سبعة أو ثمانية، تسمع بالأخبار كم مدينة؟ مئات بل ألوف، تسمع أيضاً عن المجرَّات؛ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، الله قال:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ)

[سورة السجدة: 17]

لم يقل: لو تعلم، بل قال: لا تعلم، أي لا يمكن أن تعلم..

(مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة: 17]

فهذا الذي:

(قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)

المؤمن يخشى الله ويحاسب نفسه على الدرهم :

أحياناً يأتيك زبون بسيط إلى متجرك أو محل عملك فاحذر من غشيم، قال لي واحد بالمناسبة: إنه كان يلف محرِّكات ـ والله هذه الحادثة أرويها لأنها واضحة جداً ـ قال لي: أحياناً أفتح المحرِّك، وطبعاً صاحبه لما أحضره ظنَّ أنه محروق ويحتاج إلى لف، والشرط بيننا خمسة آلاف، أفتح فأجد أن المحرِّك فيه طاق محروق، فبالكاوية بدقيقتين أنهيه، قال لي: لما لم أكن أعرف الله عزَّ وجل، كنت أغلق المحرِّك ثم يأتيني صاحبه بعد يومين فآخذ منه خمسة آلاف، مثلما اتفقنا، بعدما اصطلحت مع الله وتبت إليه، صرت أطلب منه خمسة وعشرين ليرة، ألم تقل لي: خمسة آلاف؟ نعم ولكن تبيّن أنه العطل بسيط، هو لا يعلم ما بداخله، يعلم أنه توقَّف عن العمل، فغلب على ظنِّه أنه محروق، فجاء به إليك، فانظر إلى المؤمن، من هذه الحادثة هناك ملايين، المؤمن يخشى الله، يحاسب نفسه على الدرهم.

لي قريب عنده محل ـ مطعم تقريباً ـ قال لي: مرَّة دخل شخص معه ظرف رماه وهرب، كتب فيه: أنا أكلت ذات مرة عندك ولم أدفع ثمن الطعام. فيظهر أنه عرف الله عزَّ وجل، وأدرك أنه لزمت ذمته دين فرمى هذا الظرف الذي فيه الرسالة وفيه مبلغ من المال، قال لي: ولكن حسب التعرفة القديمة:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)

تجد إنساناً مؤمناً يبذل من ماله، من وقته، يرجو أن يرضى الله عنه، يرجو أن يتجلَّى الله على قلبه، يرجو أن ينجِّيه الله من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فرحمة الله عزَّ وجل واسعة، رحمته واسعة جداً، خلقنا ليرحمنا:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

العلم هو الطريق الموصل إلى الله :

هنا يوجد سؤال دقيق: لماذا هذا الإنسان تصرف على نحو ما جاء بالآية التالية:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ)

الله قال له عندما ضل بالنعمة التي أولاه الله إياها:

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

ولماذا الثاني هذا شأنه مع الله سبحانه:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)

فما الذي جعل الأول في هذه الحال المتناقضة المُزرية، وجعل الآخر في هذه الإنابة والإقبال والخوف والرجاء؟ جاء الجواب:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

معنى هذا أن الأول لا يعلم، والثاني يعلم، معنى هذا أن العلم طريقٌ وحيدٌ إلى الله عزَّ وجل، العلم هو الطريق الموصل إلى الله..

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

التوبة من دون علم مستحيلة لذلك العلم طريق وحيد إلى الله عزَّ وجل :

هذا الإنسان الضال، الشارد، تأتيه الدنيا فيرقص، تذهب عنه فينتحر مثلاً، يكشف الله عنه المصيبة فينسى أنه دعا ربَّه، ويكفر، ويشرك، ويضل نفسه عن سبيل الله، كل هذه الأمراض الوبيلة في عقيدته، في سلوكه، أساسها أنه لا يعلم؛ وهذا الإنسان القانت آناء الليل، الساجد، القائم، الذي يحذر الآخرة، ويرجو رحمة الله عزَّ وجل لأنه يعلم، إذاً إذا أردت أن تكون من الذين رضي الله عنهم، من الذين استقاموا على أمره، من الذين أنابوا إليه، من الذين وقفوا عند حدوده، من الذين أحبُّوه، من الذين باعوا أنفسهم في سبيله، فعليك بالعلم.

المشكلة الملحة الآن أن الإنسان الشارد كيف يتوب؟ إذا كان مقتنعاً بأن سلوكه الضال صحيح، وليس لديه معصية، فهذا لا يتوب، لماذا؟ لأنه لا يعلم، أجل لا يتوب إلا إذا تعلَّم أن هذا العمل مخالف للشرع، معنى هذا أن حتى التوبة من دون علم مستحيلة، أحياناً تلتقي مع أشخاص غارقين بالمعاصي ويقولون: ماذا فعلنا؟ هكذا كل الناس، من قال لك أنا غلطان؟ فهذه مشكلة مدمرة بالنسبة له، هو لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، لذلك العلم طريق وحيد إلى الله عزَّ وجل، ما في طريق ثانٍ إلا العلم.

فالإنسان إذا ما طلب العلم، يظن أنه تعلم، إذا حضر خطبة الجمعة، الخطبة لها طعم غير الدَرس، الخطبة فيها جذب الإنسان إلى طريق معرفة الله، فأحياناً يضعون إعلانات تدعوك إلى الانتساب إلى هذه المدرسة، وإن هذه المدرسة لها منهاج خاص، لها تفصيلات، بيان القرآن، والسُنَّة، والفقه، والسيرة، فيجد فيها العلم حقاً، فالإنسان لا يكفيه أن يحضر خطبة فقط، لا بد من طلب العلم، إذاً:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

العلم المقصود هو العلم بالكُلّيات الذي يقودنا لمعرفة الله ومعرفة منهجه وسرِّ وجوده:

بالمناسبة: بعض التفاسير فيها إشارة لطيفة إلى أن العلم الذي أراده الله هنا ليس العلم بالجُزْئِيَّات، أحياناً تجد شخصاً يحمل دكتوراه بالفيزياء، فهل يعلم بنصِّ هذه الآية، إن العلم إذا لم يأخذ بك إلى طاعة الله ليس علماً، العلم المقصود هنا العلم بالكُلّيات، العلم الذي يقودك إلى معرفة الله، ومعرفة منهجه، ومعرفة سرِّ وجوده، ومهمَّتك في الحياة، العلم الذي يحملك على طاعة الله هو العلم المطلوب، فليس كل إنسان نال شهادة عُليا، اختصاص معيَّن، صار عالِماً حسب نص هذه الآية:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

شخص اغترب وأقام في بلد ما، فالأساس أن يعرف لماذا هو في هذه البلدة التي جاءها طالباً؟ أو جاءها تاجراً، أو جاءها سائحاً، هذا سؤال كبير جداً: لماذا أنا هنا في هذه البلدة؟ فهناك جزئيات تواجهه مثلاً ثيابه، تنظيف ثيابه، أدواته، محفظته والحفاظ عليها، هذه أشياء ثانويَّة لو أنك أتقنتها وغابت عنك مهمَّتك الأولى في هذه البلدة ما عرفت شيئاً.

لذلك يقول الله عزَّ وجل بعدها يوجِّهنا:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

أي أنه لا بد من طاعة الله، فإذا حال أحدٌ بينك وبين طاعته، لا بد من أن تبحث عن مكانٍ تطيع الله فيه، هذا معنى:

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

[سورة العنكبوت: 56]

على الإنسان أن يرتحل من أرض يُعصى الله فيها إلى أرض يُطاع الله فيها وليس العكس:

ليس لك عذر، إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ، إذا ضاقت بك الدنيا في مكان فعليك أن تتحوَّل إلى مكانٍ آخر تطيع الله فيه، أما المشكلة الآن أن الإنسان يكون في بلدة تُقام فيها شعائر الله عزَّ وجل، وفيها مجالس العلم متوفرة، وفيها بقيَّةٌ من حياء، بقيَّةٌ من دين، فيها روحانيَّات كثيرة جداً، من أجل المال فقط يزهد بكل هذا ويضع نفسه في بؤرةٍ فاسدة إذ يرحل إلى بلد أجنبي ويزهد في دينه وعلمه:

((من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة))

[أخرج ابن المنذر عن جرير بن عبد الله البجلي]

فمن الصعب لطالب أُرْسِل بعثة إلى الخارج ولم يعلم مقدار الخطورة التي سيتعرض لها، إذا كان الشخص غير متزوِّج، أو كان إيمانه ضعيفاً فعليه خطر كبير جداً، أرسل أحدهم لي رسالة وقال لي فيها: والله كل ما قلته صحيح، فمقاومة الإنسان للشهوات صعب جداً إذا كان إيمانه ضعيفاً، لم يكن في حصن حصين من الإيمان والتقوى.

إذاً على الإنسان أن يرتحل من أرض يُعصى الله فيها إلى أرض يُطاع الله فيها، ولكن الناس هذه الأيام انعكس حالهم، تجدهم واقفين في طابور طويل ينتظرون تأشيرات الخروج لكي يذهبوا لبلاد ترتكب فيها المعاصي على قارعة الطريق، أجل على قارعة الطريق، فعلى الإنسان أن يختار أيضاً المكان المناسب لدينه، المكان الذي إذا نشأ أولاده رآهم قرَّة عين، فكيف بهؤلاء الذين يغتربون إذا فاجأته ابنته مع صديق يهودي مثلاً، وطلبت منه أن تتزوجه لأنها تحبه، فماذا تكون النتيجة وقتها؟ ألا يتقطَّع تقطيعاً ويتمزق حسرة لاغترابه، ولذلك يقول تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

لقد آمنتم بأن الله عزَّ وجل هو خالق الكون، وأنه خلقكم للدنيا كي تعرفوه، فهذا إذاً منهجه:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

الإيمان بلا عمل جنون والعمل بلا إيمان لا يكون :

الآن:

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

عليك أن تتحرَّك للعمل، يقول بعضهم: الآن آمنت، نقول بدورنا: فلا بد أن تعمل صالحاً، إن آمنت، فأين الحركة؟ إن آمنت، فأين الالتزام؟ آمنت، فأين الطاعة لله عزَّ وجل؟ الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، الإيمان بلا عمل جنون، والعمل بلا إيمان لا يكون:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

تحرَّك، ماذا تنتظر؟ إلى متى أنت باللذَّات مشغولُ؟

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد: 16]

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

لا نقدر يا أخي فلا مجال للعمل والتقوى، نقول له إن الله تعالى قال:

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

[سورة العنكبوت: 56]

دقة القرآن، أنت في مكان صعب، وكثير من أهل أوروبا الشرقيَّة هاجروا إلى هذه البلاد فراراً بدينهم، والله أغناهم في هذه البلاد.

الصبر وأهميته :

قال تعالى:

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

[سورة العنكبوت: 56]

والله مرَّة التقيت مع شخص فرَّ بدينه من تركيا، زمن مصطفى كمال أتاتورك، فذكر لي أنه الآن يملك خمسة وثلاثين دونماً، وبيوتاً، ومحلات تجاريَّة، وقال لي: لما جئت كنت لا أملك شيئاً. ولكن الله عزَّ وجل أكرمه ورزقه، فمعنى:

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

[سورة العنكبوت: 56]

أي ليس لك حُجَّة، إذا لم تستطع أن تطيع الله في هذا المكان فتحوَّل عنه إلى مكانٍ آخر:

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

[سورة العنكبوت: 56]

والله يرزقك.

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

الصبر لا بد منه، الإيمان والصبر والسماحة، الصبر تحمُّل، والسماحة إنفاق، الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، الصبر يعني أنك مكلَّف وعندك نوازع، فالنوازع إذا تعارضت مع الدين تقمعُها في سبيل الله، هذا هو الصبر، فكل إنسان يصبر، صلاة الفجر تحتاج إلى صبر النوم أريح للنفس، غض البصر يحتاج إلى صبر، الإنفاق يحتاج إلى صبر، طبعك أن تقبض المال، والأمر التكليفي أن تنفق المال، طبعك أن تنظر والأمر التكليفي أن تغضَّ البصر، طبعك أن تتكلَّم والأمر التكليفي أن تسكُت، طبعك أن تأخذ والأمر أن تعطي، هذا الصبر، طاعة الله تحتاج إلى صبر:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

الآيات تتحدث عن ثلاثة أنواع من الناس وهم الجاهل والمؤمن والمُؤمن العاقل :

صارت الآيات تتحدث عن ثلاثة أنواع من الناس: الجاهل، المؤمن، المؤمن العاقل:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ)

هذا نموذج أول؛ الإنسان الجاهل غير المؤمن، سويعاتي، يعيش لحظته، يعيش واقعه من دون تفكير، معطّل تفكيره، ما تعرَّف إلى الله عزَّ وجل، الخير يستخفُّه، والشر يُقْعِدُهُ، والمعروف ينساه، هذه صفات الكافر، وإذا حصَّل من هذه الدنيا مالاً وفيراً فهذا المال يستمتع به إلى حين، ثم يحاسب حساباً عسيراً، أما المؤمن قانتٌ، منقطعٌ لله أناء الليل:

(سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)

لأنه عَلِم:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

أصحاب العقول:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أي انتقلوا من السماع إلى التطبيق، من الإيمان للعمل، من التلقّي للإلقاء:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)

ففي الدنيا لمن آمن واتقى سعادة، وفي الآخرة الأجر بلا حدود وبغير حساب:

(وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (06-20): تفسير الآية: 10 العبودية لله والتوحيد.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-02-19

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عزَّ وجل نسب العِباد إلى ذاته تكريماً لهم وتشريفاً :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السادس من سورة الزُمَر، ومع الآية العاشرة وهي قوله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

أولاً كلمة قل، أي يا محمد قل لهم فإنما أنت مبلِّغ، الشيء الثاني:

(يَا عِبَادِ)

طبعاً هناك ياء محذوفة تخفيفاً، فبالأساس يا عبادي، (قل يا عبادِ)، الله عزَّ وجل نسب العِباد إلى ذاته تكريماً لهم، تكريماً وتشريفاً، (قل يا عبادِ)، وكلكم يعلم أن كل إنسان عبدٌ لله شاء أم أبى، من العبودية بمعنى: أنه مقهور، أي أن حياة الإنسان ليست ذاتية، حياته متوقفة على ظروف كثيرة جداً بيد الله عزَّ وجل، فما من عضوٍ، ما من حاسةٍ، ما من جهازٍ، ما من غُدَةٍ، ما من عضلةٍ، ما من خليةٍ، ما من نسيجٍ إلا بيد الله، والأمراض لا تعدُّ ولا تحصى، النُسُج بيد الله، هذه النسج قد تنمو نمواً عشوائياً، وحتى هذه الساعة لا يزال العِلم عاجزاً عن إدراك سبب هذا المرض. هذه الغدد الصمَّاء أوزانها ضئيلة، لكن لها أعمالٌ خطيرة، فلو أن غدةً تعطَّلت، لانقلبت حياة الإنسان إلى جحيم، هذه الأعضاء؛ القلب، الرئتان، الكليتان، المعدة، الأمعاء، الدماغ، العمود الفقري، الأعصاب، آلاف آلاف الأمراض، آلاف آلاف أنواع الخَلَل التي إذا أصابت أحد الأعضاء، أو أحد الأجهزة، أو أحد الأطراف، أو أحد النُسُج، أو إحدى الخلايا انقلبت حياة الإنسان إلى جحيم.

كلّ إنسانٍ هو عبد لله بمعنى أنه مقهور :

هذا الجهاز، جهاز المناعة الذي يكثر الحديث عنه اليوم لوجود مرضٍ يضعف هذا الجهاز، نقصٌ في جهاز المناعة المُكْتَسَب، هذا المرض يجعل حياة الإنسان جحيماً، إذاً فكل إنسان عبد لله عزَّ وجل، لكن الإنسان إذا عرف الله؛ عرفه من خلال الكون، من خلال القرآن، من خلال أفعال الله عزَّ وجل، من خلال الاتصال بالله عزَّ وجل، إذا عرف الله عزَّ وجل وقدَّره حق قدره، وأتى إليه طائعاً، منيباً، راجعاً،

مقبلاً، تائباً، هذا عبدٌ من نوعٍ آخر، هذا العبد جمعه عباد، وذاك العبد جمعه عبيد، فكل إنسانٍ مؤمناً كان أم كافراً هو عبد لله بمعنى أنه مقهور:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

[سورة الأنعام: 18]

العباد مقهورون بالموت، ما من إنسان إلا ويموت؛ عظيماً كان أو حقيراً، غنياً كان أو فقيراً، عالماً كان أو جاهلاً، قوياً كان أو ضعيفاً، كل مخلوقٍ يموت، فالإنسان مقهور بالموت، لكن العبد الذي أراده الله عزَّ وجل، هو ذلك العبد الذي أتاه طائعاً، الذي عرفه وهو في صحةٍ تامَّة، وفي بحبوحة، وفي مقتبل حياته، في شبابه، ريح الجنة في الشباب، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي. ذاك هو العبد، فربنا عزَّ وجل إذا قال:

(قُلْ يَا عِبَادِ)

أي يا محمد خاطب هؤلاء الذين آمنوا بي.

المؤمن كلما ارتقى إيمانه تعامل مع الله تعاملاً صادقاً وأصغى أذنه :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

الله عزَّ وجل كما تعرفون يخاطب الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروع الدين؛ يا من آمنت بالله خالقاً، يا من آمنت به مُرَبِّيَاً، يا من آمنت به مسيِّراً، يا من آمنت بوحدانيِّته، يا من آمنت بكماله، يا من آمنت بعظمته، بحكمته، بلطفه، برحمته، بقوته، بعدله، بغناه، يا من آمنت بأنه أعد لك حياةً:

((فيها ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

هذا الذي آمن:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

لا أعرف أن أحداً من الناس إذا كان ماشياً في الطريق وقال له شخص: يا أخ، أو يا فلان الفلاني إلا ويلتفت حوله، ألا يتَّجه إليه، إنسان إذا خاطبك، وأحياناً طفلٌ صغير يقول لك: يا عم كم الساعة؟ تستحي أن تسكت، تستحي أن لا ترد عليه، وقد تكون حاملاً في يدك اليسرى حاجةً ثقيلة تنقلها إلى اليد الأخرى وتقول له: الساعة كذا، والإلهُ العظيم خالق الأكوان يخاطبك فاستمع إليه: فهنا السؤال الوجيه: يا أيها المؤمن إذا قرأت هذه الآية ألا تشعر بشيء؟ ألا تشعر أنك معنيٌّ بالخطاب؟ ألا تشعر أن الله يخاطبك؟ يطلب منك إلهك، ربك، خالقك، مربِّيك أن تصغي بسمعك إليه:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

لذلك فالمؤمن كلما ارتقى إيمانه أُرْهِفَت أحاسيسه، كلما ارتقى إيمانه تعامل مع الله تعاملاً صادقاً، كلما ارتقى إيمانه أصغى أذنه.

علامة إصغائك إلى نداء الله توبتك :

الآية الكريمة التالية هي من أروع الآيات:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

[سورة التحريم: 4]

علامة إصغائك إلى نداء الله توبتك، علامة الإصغاء التوبة، فإن لم تتب أنت لم تصغ إلى الله عزَّ وجل،

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ)

والذي يستمع إلى الحق ولا يستجيب فكأنه ما استمع إليه، وتراهم يستمعون إليك وهم لا يسمعون:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

[سورة الأنفال: 21]

الضال لا يسمع، مرة ضربت مثلاً أن إنساناً يقف على كتفه عقرب، والعقرب لدغتها قاتلة في أغلب الأحيان، قاتلة، أجل لدغتها قاتلة، وقال لك رجل: انتبه أيها الأخ العقرب على كتفك، فأنت إن استمعت إلى كلامه وبقيت هادئاً متوازناً، وابتسمت في وجهه وقلت له: أنا أشكرك على هذه الملاحظة القيِّمة، وأنا ممتنٌ من حرصك على سلامتي. يا ترى أهذا الكلام يدل على أن المتكلم سمع ماذا قال المُنَبِّه؟ لا والله، فما دام بقي هادئاً، وبقي مطمئناً، وابتسم ابتسامة مجاملةٍ، وقال للذي نبَّهَهُ: أشكرك على حرصك على سلامتي، فهو لم يعرف: ما معنى عقرب؟ ولا عرف أين هي العقرب؟ رغم أنه سمع الكلام ولكنه لم يدرك محتواه، والحق أن مقياس صحة السماع الاستجابة، فهنا:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم: 4]

علامة إيمان أحدكم أنه إذا قرأ أية آيةٍ مُصَدَّرَةٍ بـ (يا أيها الذين آمنوا) يصغي ويستجيب:

طبعاً هنا:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

أنتم معنيّون بالخطاب، بل إن علامة إيمان أحدكم أنه إذا قرأ هذه الآية، أو أية آيةٍ مُصَدَّرَةٍ بـ: (يا أيها الذين آمنوا) يصغي ويستجيب، أما إن لم يستجب فهو لم يصغ، وإن لم يصغ فما قرأ القرآن، رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه، تعلموا ما شئتم فو الله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم، كل علمٍ وبالٌ على صاحبه ما لم يعمل به.

((والعلم علمان: علم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم))

[الجامع الصغير عن جابر]

أجل، حجةٌ عليه، إذاً:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)

الآن ما هو الأمر؟ الأمر:

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

فاتقوا فعل أمر، والمضارع يتّقي، والماضي اتّقى، واتقى فعل ماضٍ مزيد، على وزن افتعل، مجرَّده وقى، أي قِ نفسك من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بطاعة الله، كلمة وقى فيها شيئان، فيها خوف من خطر، وفيها حركة لدرء هذا الخطر، نفهم من كلمة وقى أن إنساناً أدرك خطراً وبحث عن سبيلٍ للخلاص من هذا الخطر.

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أي أطيعوه كي تسلموا من عذاب الدنيا، اتقوا عذابه بطاعته، ولك أن توسِّع معنى هذه الآية؛ أي اتق الاضطراب النفسي بطاعته، اتق الشرك بالتوحيد، اتق الكُفر بالإيمان، اتق اضطراب النفس بتوجيهها إلى الله، اتق خسارةً محققةً في التجارة بتطبيق منهج الله، اتق شقاءً زوجياً بتحكيم القرآن والسنة في زواجك، اتق سقوطك بين الناس بتعلُّقِكَ بمكارم الأخلاق، هكذا، فكلما أطعت ربك في جهةٍ حصَّلت نتائج باهرة من جهةٍ أخرى.

يجب ألا نخالف قوانين وسنن الله عز وجل ونحترمها ونتخذها مقياساً :

بالمناسبة نحن على أبواب رمضان، ورمضان شهر التقوى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 183]

لعلكم تتقون الله، لعلكم تطيعونه فتستحقون سلامة الدنيا وسعادتها، وسلامة الآخرة وسعادتها.

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

الأمر واسع جداً، اتقِه في صحتك، مستحيل أن ترى إنساناً يطلب من الله الصحة وهو يخالف القوانين التي قنَّنها الله عزَّ وجل، من يعرف هذه القوانين؟ الطبيب، أسمع أحياناً من أخوان كرام أن والده يدخِّن تدخيناً كثيفاً، أسمع من بعض الأخوان أن والده لا يعبأ بكل تعليمات الطبيب، ثم يصاب فجأةً بمرضٍ عضال، فيقول: يا رب ماذا فعلت؟ نقول له بدورنا: لقد فعلت كل شيء، خالفت القوانين التي قننها الله عزَّ وجل، أنت خالفت السُنَن التي سَنَّها الله عزَّ وجل، حتى في أمر صحتك ما لم تأخذ بهذه القوانين وتحترمها وتتخذ هذا مقياساً، فأنت لست متقياً الله عزَّ وجل.

لذلك النبي علمنا أن الإنسان إذا نام على سطح غير مسوَّر، فوقع فدقت عنقه مات عاصياً، والنبي عليه الصلاة والسلام مرةً قال لأصحابه: من كان جَمَلُهُ حروناً فلا يصحبنا. ولقد ركب صحابيٌ ناقةً حروناً، فرمته من على ظهرها فدقت عنقه، والنبي لم يصل عليه لأنه مات عاصياً، الله عزَّ وجل يقول:

(وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة: 195]

ويقول أيضاً:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)

[سورة النساء: 29]

بعض توجيهات النبي الكريم في الطعام والشراب والزواج والنظافة وما إلى ذلك :

الآن نبدأ بالجسم، فإذا لم يطبق إنسانٌ تعليمات الطبيب، ولم يعتن بصحته، لأن رأسماله صحته، هي رأسماله في الدنيا، ومطيَّتُهُ إلى الآخرة، إذاً اتقوا ربكم أي نفذوا التعليمات النبوية، النبي الكريم له طب نبوي، وتوجيهات النبي عليه الصلاة والسلام في الطعام والشراب والزواج والنظافة وما إلى ذلك كثيرة، فمثلاً النبي الكريم قال:

((أبن القدح عن فيك ثم تنفس))

[الجامع الصغير عن أبي سعيد]

((كان إذا شرب تنفس ثلاثاً))

[الجامع الصغير عن أنس]

التعليمات النبوية دقيقة جداً، قال:

((إذا شرب أحدكم فليمص مصاً، ولا يعب عباً، فإن الكباد من العب))

[الجامع الصغير عن ابن أبي حسين مرسلا]

قال:

((بحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ))

[الترمذي عن مِقْدَام ابْن مَعْدِي كَرِبَ]

التعليمات واسعة جداً، تعليمات متعلّقة بصحتك، تعليمات متعلقة بزواجك، تعليمات متعلقة بتربية أولادك:

((سووا بين أولادكم في العطية))

[أخرجه الحارث عن عبد الله بن عباس]

تعليمات متعلقة بجيرانك، تعليمات متعلقة بمن هم فوقك، بمن هم دونك، بمن هم حولك، تعليمات متعلّقة بالمخلوقات.

((إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ فإذا قتلتُم فأحسِنُوا القِتلة، وَإذا ذَبحتُم فأحْسِنُوا الذَّبحَ..))

[مسلم عن شداد بن أوس]

إذا عرفت الله وآمنت به فلا شيء يقدم على معرفة أمره :

تجد الشرع كيفما تحرَّكت اهتم ببيان الأحكام شرعية: من أوامر، ومن نواهٍ، ومباحات، ومندوبات، وفروض، وسنن، فالله يخاطبك:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

وأنا أرى من السذاجة وضيق الأفق أن يمسخ الدين عند بعض الناس إلى صلاةٍ وصيامٍ وحجٍ وزكاة، الدين آلاف التعليمات، الدين منهج تفصيلي دقيق جداً يعلّمك كيف تقلّم أظافرك، يعلّمك كيف تدخل على أهلك بعد سفر، يعلّمك كيف تتاجر، كيف تُعامل، كيف تجاور، كيف تلهو، كيف تعامل أولادك، لذلك فالعلم ضروري، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وطلب الفقه حتم واجب على كل مسلم، كيف تطيع الله إن لم تعرف أمر الله؟ بعد أن آمنت بالله لا شيء يقدَّمُ على معرفة أمره، معرفته مقدمةٌ على معرفة أمره، لكن إذا عرفته وآمنت به فلا شيء يقدم على معرفة أمره، إنك بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، أنت آمنت بالله، آمنت به، طبعاً لم تؤمن الإيمان الكامل ولكن آمنت به، ما دمت قد آمنت به ابحث عن أمره كي تُطيعه، هكذا الآيات:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

اتق:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء:9]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ)

[سورة البقرة:282]

الإنسان إذا آمن بالله لا شيء في حياته يعلو على معرفة منهج الله :

ابحث عن آلاف الحالات، آلاف المآسي التي سببها دينٌ غير مكتوب، خصومات، حالات طلاق، فساد أُسَر، لأن الناس خالفوا هذه التعليمات، شارك شريكاً بلا عقد، ديَّن بلا سند، اتفق اتفاقاً شفهياً بلا وثيقة خطِّية، فالأيام كشفت خسارة هذا المشروع، فالشريك غير المكلَّف بأعباء مالية ينسحب، يقول لك: أنا ليس لي علاقة. فتنشأ الخصومات والدعاوى والقضاء، فكل شيء سجِّله، وأنت بعد أن آمنت بالله لا شيء يعلو على معرفة منهج الله، بعد أن آمنت بالله لا شيء يعلو على معرفة الأحكام الفقهية، وكيف تعرفها من دون أن تأتي إلى بيوت الله لتتعلم، كيف تكون طبيباً وأنت لم تعرف أين كلية الطب؟ كيف تكون مهندساً زراعياً ولا تعرف أين مكان كلية الزراعة؟ كيف؟ بيت الله فيه تعليمٌ، وفيه عبادةٌ، وفيه ذكرٌ، لذلك فالإنسان إذا آمن بالله لا شيء في حياته يعلو على معرفة منهج الله، معرفة أمر الله، معرفة نَهي الله، معرفة دستور الله، معرفة قانون الله، معرفة سُنَّة الله، فهي منهج كامل.

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

اتق الله في علاقتك به، اتق الله في علاقتك بالناس، اتق الله في علاقتك بالمخلوقات جميعاً، فالنبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم، رأى رجلاً يذبح شاةً أمام أختها، فغضب غضباً شديداً وقال: هلا حجبتها عن أختها، أتريد أن تميتها مرتين؟ أحياناً بائعو السمك الطازج يأخذون هذا السمك مباشرةً وينظفونه، بينما لا تزال هذه السمكة حيةً تتحرَّك، يفتح بطنها ويخرج أحشاءها، وهذا خلاف المنهج الإلهي، هذا خلاف السُنَّة، بائع الدجاج أحياناً يذبح الفروج ويضعه في طبقٍ من الماء الذي يغلي لكي ينتف ريشه، عذبه مرتين لأنه جاهل، فالإنسان عندما يؤمن بالله عزَّ وجل بدراسة منهج الشرع يعلم عندئذٍ أن اللحم إن لم يذكى، فكل المواد السامَّة والموبوءة والمجرثمة في الدم، فالذبيحة إن لم تذكى لا ينبغي أن نأكلها، لذلك لحم لا تعرف مصدره لا تأكله، ذبح في بلادٍ أجنبيةٍ لا يعرفون الله عزَّ وجل، حيث الدابَّة تصعق صعقاً كهربائياً ليزداد وزنها اثنين أو ثلاثة كيلو، وزن الدم الذي لم يخرج منها، فتأتينا معلَّبة بعلب، فمفروض على المسلم أن يعرف ماذا يُدخِل لفمه، وهذا منهج الإسلام الذي لا بد من دراسته وفهمه.

الحد الأدنى أن نعرف أمر الله سبحانه :

أصعب شيء بالحياة أن يمسخ الدين إلى صلاةٍ وصيام وحجٍ وزكاة، الدين منهج تفصيلي، تعليمات الصانع واسعة جداً، بالقرآن أولاً، وبالسُنَّة ثانياً، باجتهاد الفقهاء ثالثاً، وبالقياس رابعاً، هناك مصادر

تشريعية، وهناك علماء فطاحل أفذاذ، الإمام أبو حنيفة صلّى صلاة الفجر بوضوء العشاء واستنبط من قول النبي:

((يا عُمير ما فعل النُّغَير))

[البخاري عن أنس]

استنبط سبعين حكماً فقهياً. فكيف يزهد الإنسان في أحكام الفقه؟!

ذكرت لكم في درس الفقه من قبل عن موضوع الكفاءة في الزواج، فالذي أعرفه أن معظم حالات الشقاق الزوجي والخصومات أساسها عدم الكفاءة بين الزوجين، فالكفاءة بحث مُهم، ثم يأتي بحكمه الشرعي، أن امرأةً إذا تزوجها شابٌ غير كفء لها، من حقها أن تطالب القاضي بالتفريق بينه وبينها، إلا في حالةٍ واحدة إذا حملت منه، إذاً كم هذا المخلوق الذي في بطنها غالٍ على الله؟ كم في الطلاق بعد إنجاب الأولاد من جريمةٍ بحق الأولاد؟ إذا حملت الأم ألغي موضوع الكفاءة حفاظاً على صحة هذا الجنين، صحته النفسية، إذا نشأ في الدنيا وأمه مطلقة وأبوه مشغولٌ عنه، فهذا تضييعٌ للإنسان.

فالحقيقة موضوع الفقه موضوع خطير جداً، فالإنسان عندما يحضر مجلس علم يتعلم أمور دينه، نحن في دروس الفقه بفضل الله عزَّ وجل نتكلَّم في موضوعات الخطبة، موضوعات الطلاق، موضوعات ستر العورة، موضوعات الوصية، موضوعات الإرث، موضوعات النَفَقَة، هذه كلها موضوعات يعاني الناس منها جميعاً، فالحد الأدنى أن تعرف أمر الله، وبماذا يأمر الله سبحانه؟ وما هو حكم الله عزَّ وجل لأنه:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

أنت ليس لك خيار مع طبيب يقول لك: تحليل، ولا تجرؤ أن تناقشه أساساً، وإن ناقشته قد يغضب، فأنت مع طبيب لا تجرؤ أن تناقشه بينما تناقش خالق الكون، ومع مهندس لو قال لك: أحضر طنين من الحديد محلزن اثنا عشر ميلي، فلو قلت له: مالنا قليل واكتفِ بثلاثة ميلي فإنه يطردك من مكتبه، هذا علم بناء، ينهار البناء، لماذا أنت مع طبيب، ولماذا جئت بالمهندس، تتأدب بتعليماته ولا تناقشه، وبينما مع خالق الكون مع الذي خلقك ولم تكن شيئاً، مع الذي صوَّرك، مع الذي أودع فيك العقل والنفس والشهوة والاختيار، مع الذي صممك بهذا الخلق الكامل تناقش وقد تعترض.

ما من مخالفةٍ لمنهج الله إلا ووراءها جهل :

قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[سورة التين: 4]

أنت آلة، بأبسط معنى، بالمعنى البسيط البديهي الساذج، أنت آلة معقدة ولك صانع وأصدر تعليمات، فمثلاً لماذا إذا اشتريت آلةً معقدة، جهاز كمبيوتر، فأنت تقول للبائع: أريد التعليمات؟ ثم ترجمها، فلماذا هذا الحرص الشديد على ترجمة التعليمات؟ يجيبك: الجهاز ثمين ولا مجال للتهاون، إذا استعملناه خلاف التعليمات نخربه، نترجمها، ثم تنتظر شهراً لكي تترجم التعليمات دون أن تستعمله، لأنك تريد أن تحافظ على سلامته، فهو باهظ الثمن.

فهل أنت رخيص على الله؟ تطلق بصرك في الحرام، تتزوج زواجاً غير إسلامي، خطبة ثم قرأنا الفاتحة وعقد غير قانوني، وصار الخطيب يدخل متى يشاء ويجالس الخطيبة ويتحدث إليها بما يريد، هذا خلاف الشرع، وتنشأ المآسي، اذهب إلى القصر العدلي، اذهب إلى السادة المحامين وانظر كم مشكلة عندهم، ستة آلاف أو سبعة آلاف قضية في كل محكمة وكلها جراء مخالفة الشرع، إن كان الأمر بالزواج، وإن كان بعقود الشراكة، فإنك تجد تساهلاً، فأحياناً تجد أخوين اشتركا في معمل، مصروفهما غير مسجَّل في قيود المعمل، هذا أخذ سيارة كبيرة وهذا أصغر، النساء اختلفن: لماذا اشترى أخوك هذه السيارة بهذا الثمن؟، ثم تنشأ خصومة كبيرة في الأسرة، ثم قطيعة كاملة، بعد ذلك انهيار الشركة، لأنه تم على خلاف الشرع.

أكاد أقول أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو، ما من مأساةٍ على وجه الأرض إلا وراءها مخالفة لمنهج الله، وما من مخالفةٍ لمنهج الله إلا ووراءها جهل، لذلك اعتبر الجهل عدوك الأول.

كل مشكلات الأمة أساسها الجهل الذي يؤدي إلى عدم تطبيق منهج الله عزَّ وجل :

نحن لنا أعداء تقليديون، اللهم اهزم الصهاينة، نسأل الله أن يهزمهم والصهاينة باقون ويتغطرسون، ولكن نحن إذا طبقنا منهج الله عزَّ وجل هزمناهم لأن الله تعالى يقول:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة: 123]

وهو ناصرهم، فكل مشكلات الأمة أساسها الجهل، الذي يؤدي إلى عدم تطبيق منهج الله عزَّ وجل، فالمرأة مثلاً إذا خرجت من بيتها متزيِّنة وخروجها على هذا النحو مخالفة صريحة لمنهج الله تعالى فإنها عندئذٍ فسدت وأفسدت.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

[سورة الأحزاب: 33]

أي إذا خرجتُنَّ:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

[سورة الأحزاب الآية: 33]

كم مشكلة الآن تقع في المحلات التجارية من تساهل المرأة في حديثها مع البائع؟

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

[سورة الأحزاب: 32]

(وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)

[سورة النور: 31]

الثياب التي تبرز مفاتن المرأة هذه كلها محرمة.

من علامات قيام الساعة أن يرفع الحياء من وجوه النساء :

حدثنا أخ طبيب مؤمن قال: أنا أعمل في مجال الأمراض التناسلية، ففي العشر السنوات الأخيرة ارتفعت الإصابات عشرة أضعاف لأن إثارة الشهوات في الطريق صارخة وسُبُل الزواج مغلقة، خالفنا منهج الله عزَّ وجل، لذلك كِدت أقول: كلما رخص لحم النساء ارتفع لحم الضأن، وكلما قلَّ ماء الحياء قل ماء السماء.

فمن علامات قيام الساعة أن يرفع الحياء من وجوه النساء، لا حياء، تُحِدُّ النظر إليك عليك أنت أن تتحجب منها، هذا الذي بقي عليك، تُحِدُّ النظر إليك، يرفع الحياء من وجوه النساء، وترفع النخوة من رؤوس الرجال، تراه يمشي مع زوجته وهي في أبهى زينة ويفتخر بها، وكأنه يقول: هذا اختياري وقد أحسنت انتقاءها، انظروا، ليس لديه نخوة، وترفع الرحمة كذلك من قلوب الأمراء، فلا نخوة في رؤوس الرجال ولا حياء في وجوه النساء ولا رحمة في قلوب الأمراء، فأنا أشعر أن كلمة:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أنت مؤمن اشعر أنها مادة دستورية إلهية لا بدَّ من إنفاذها، وتعمل في عمل تجاري، هل تعرف حكم الله في هذا العمل؟ هل تبيع بضاعةً محرمةً في الأصل، أخي هذا عملي والشغل عبادة، من قال لك ذلك؟ أن تبيع أشياء فاسدة تفسد الأخلاق وأن تقول لي: الشغل عبادة؟! أن تبيع مجلات مثلاً كلها تغضب الله عزَّ وجل فيها صور منحرفة، أخي أنا لدي مكتبة ومضطر لأن أبيع جميع ما يصدر من كتب ومجلات، ما معنى مضطر، هذا كلام فارغ، نحن نريد بيتاً مسلماً، حرفة صحيحة شرعية، راجع حساباتك، حرفتك التي أنت فيها هل ترضي الله أم تغضبه؟ نحن إذا لم نبع الدخان في المكتبة تنخفض الغلة للنصف، فنحن مضطرون لبيع دخان، يجب أن تجد لنا فتوى لهذه، يقول ابن عباس: "أيرتكب

أحدكم أحموقته ويقول: يا ابن عباس يا ابن عباس". فهذا الأمر ليس من شأننا، راجع نفسك هل في ببيتي غلط؟ وهل بخروج زوجتي غلط؟ هل بلباس بناتي غلط؟ هل بتجارتي غلط؟ هل بعملي غلط؟ هل بوظيفتي غلط؟ أنا يا ترى هل أعين الظالم؟ وهل أقبض مالاً حراماً؟ هل بتجارتي بضاعة محَرَّمة؟ هل في بيتي انحراف؟ هل فيه شيء لا يرضي الله؟!!

المؤمن إنسان كامل وأمين ومُخلص ويطبِّق منهج الله في كل حياته :

يدعو:

((يا رب، يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، فأنى يستجاب له))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لذلك تجد دعاءه مختاراً، أدعية منمَّقة، أدعية بليغة على السجع، صوت نبراته حادَّة ولكن دونما استجابة، ندعو ويعلو صوتنا لكن لا استجابة، سيدنا زكريا حدثنا الله عنه قال:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

[سورة مريم: 3]

أنت لو كنت صادقاً بإمكانك ألا تحرِّك شفتيك، بإمكانك أن تتوجه إلى الله بقلبك، تقول له: يا رب افعل كذا، أعني، ارزقني، ويستجيب لك، أي إذا لم يكن تعاملك مع الله مباشرةً، إن لم تدعه سراً وعلانيةً، ليلاً ونهاراً، في أعقاب الصلوات وفي السجود، إن لم تسأله سلامة الدنيا والآخرة، فكيف تشعر أنك مؤمن؟ أنا أركز على عنصر الإيمان فيك، فأنت لا شك أنك مؤمن، ما الذي جاء بك إلى هذا البيت بيت الله؟ إيمانك. فإيمانك جاء بك إلى هذا البيت، إلى هذا المسجد، إذاً مادمت مؤمناً فينبغي أن تستمع لقول الله عزَّ وجل:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أحد أخواننا الكرام المحامين، والله أنا أُكْبِرُهُ وأعجب به، قال لي: جاءني رجل يطلب توكيلي في قضية، قلت له: يا أخي هذه القضية شملها قانون العفو وأنت لا تحتاج إلى محامٍ إطلاقاً، يكفيك أن تقدم طلباً إلى المحكمة الفلانية، فيصدر الحكم لصالحك. ما إن انتقل إلى محامٍ آخر حتى أوهمه أن القضية خطيرة جداً وهذا الذي قال لك ذلك لا يفهم شيئاً، إلى أن ابتزَّ منه عشرين ألف ليرة. وبالطبع القضية منتهية بالعفو، فجاءني هذا المحامي من بعد وقال لي: يقولون عني إنني ساذج، قلت له: والله هذا وسام شرف بحقك.

سبب تخلّي الله عنا أنه قد هان أمر الله علينا فهنا على الله :

هذا هو المؤمن، المؤمن لا يكذب، المؤمن لا يغش، المؤمن لا يحتال، المؤمن لا يأكل مالاً حراماً، أجل هذا المؤمن، كلمة مؤمن صفة كبيرة، وبالتعبير التجاري شيء عظيم، إنسان صادق، إنسان كامل، إنسان أمين، إنسان مُخلص، يطبِّق منهج الله في كل حياته، أما التغرير بالناس والمخاتلة، والغش، والخداع، وعبارات المجاملة، التي هي نفاق صريح، كانت سبباً لتخلّي الله عنا، لقد هان أمر الله علينا فهنا على الله، هذا مختصر مفيد.

إذا أردتم أن تفهموا السبب الذي من أجله تخلى الله عن المسلمين في العالم هو: أنه هان أمر الله علينا فهنا على الله. ألفٌ ومئتا مليون مسلم، أكثر من خمس سكان العالم، وكلمتنا ليست هي العُليا، وليست عليا، المعنى معروف، مُقَدَّراتنا ليست بأيدينا، هان أمر الله علينا فهنا على الله..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

ولقد لقينا هذا الغَي، أصدق الله يَصْدُقْك، لله رجالٌ إذا أرادوا أراد، فأنت مؤمن تخاطب الله، استقم على أمره واسأله المعونة والتوفيق، ولكن هناك تقصير كثير، فعلى كل إنسان ولو رأى حوله المقصرين كُثُراً فعليه أن يستقيم، عليه أن يتلو قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

[سورة المائدة: 105]

المؤمن يطبق شرع الله تعالى في كل أفعاله :

هناك سؤال ملحٌّ أيها الأخوة، وهو سؤالٌ كبير: أليس في القرآن الكريم وعود كثيرة جداً للمؤمنين، ألم يقل الله عزَّ وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور: 55]

كل هذا تحقيقه على الله، وعلى العباد:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور: 55]

فليس عند الناس عبادة ولا طاعة ولا يرجون لله وقاراً، فمصمم أزياء يهودي بفرنسا، إذا صمم زياً للنساء يكشف كل مفاتنها، نحن نتبعه خطوةً خطوة، هؤلاء المسلمون اقرأ عليهم السلام، مصمم أزياء

يهودي يتحكم بأعراضنا، يتحكم بزي نسائنا، يفرض علينا الانحراف تحت اسم الموضة، فتقول إحداهن: هذا هو الدارج في هذه السنة؛ أما المؤمنة فلا تبالي بكل هذا، طاعة الله فوق كل شيء، هذه الموضات تحت قدمها، ليقل عنها الناس ما يقولون، طاعة الله فوق كل شيء، وقبل كل شيء، هكذا كانت الصحابيات، " يا فلان اتق الله بنا فنحن بك نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام " هكذا كانت الصحابية تقول لزوجها إذا خرج يرتزق.

قرش من حلال فهذا يبارك الله لك فيه، فيه بركة، فبين التجار وكلهم مسلمون قاعدة أصبحت قانوناً هي: إذا لم نكذب لا نبيع، هذه آية أم حديث؟ من قال هذا الكلام، إذا لم نكذب لا نربح؟ كذلك بعض المحامين: أخي إذا لم نكذب لا يأتينا بدل الأتعاب، هذا كله كلام الشرك، أما علمت أن على الله رزقك، هناك محل بمدينة بالشمال، فإذا كان بالمدينة تلك مئة مطعم فتسعون من هذه المطاعم تقدم الخمور، إلا هذا المحل وغيره قليل، فقد كتب صاحبه عند مدخله: الخمر ممنوعٌ بأمر الرب والرزق على الله. تأتي إلى المحل الساعة العاشرة فهو مليء، الثانية عشرة مليء!! وكذلك الساعة الواحدة مليء، والثانية ظهراً، والرابعة عصراً كذلك ثم الخامسة تجد الازدحام ملموساً، والآن أكثر محلات الأرمن صار أصحابها يكتبون: ممنوع شرب الخمر بأمر الرب. فالجماعة يريدون أن يربحوا، وسبيل الربح بيد الله تعالى، ونحن نريد مؤمناً هكذا، مؤمناً يطبق شرع الله تعالى.

على المؤمن أن يلغي الغش والكذب من حياته :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)

للذين أحسنوا في هذه الدنيا، يا ترى الحسنة في الدنيا مطلقة، والمطلق على إطلاقه، ومعنى مطلقة أن الحسنة في الدنيا والآخرة:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)

محسن، أخ يلف محركات، يأتيه محرك أجرته خمسة آلاف، فتحه فرأى فيه طاقاً مقطوعاً، لحمه في خلال خمس دقائق، جاء صاحبه فطلب منه صاحب المحل خمساً وعشرين ليرة فقط، وهو موطّن نفسه أن يعطيه خمسة آلاف ليرة أجرة لفه، فتبين لصاحب المحل أنه ليس محروقاً بل مقطوع، فلحمه وقال له: أجرته خمس وعشرون ليرة فقط، هذا شأن المؤمن، وصاحب المحرك أخوك، فكيف تأكل ماله بالباطل؟ حبّذا لو ألغينا الكذب في حياتنا، وألغينا الغش في تعاملنا، حتى في المهن الراقية أصبح فيها غش، حتى في المهن التي لا يرقى إلى صاحبها الشَك صار فيها ابتزاز بسبب ضعف الإيمان، طبيب

ووراءه ممرضة فقال لها: قولي له: عملية قيصرية لصالح المستشفى، وهي ولادة عادية تكلّف ثلاثة آلاف، والقيصرية بستة عشر ألفاً، لصالح المستشفى، صار الإنسان يشك لعل هذه الولادة غير قيصرية؟ ولكن هكذا جاء التوجيه، حتى في المهن الراقية التي أصحابها فوق الشبهات إن لم نؤمن بالله انزلقنا إلى الابتزاز، فكيف يرضى الله عنا؟ كيف يرحمنا؟ كيف ينصرنا ونحن نعادي بعضنا بعضاً؟ يبتز بعضنا أموال الآخرين؟ يغش بعضنا بعضاً؟

الإنسان المؤمن لا يزهد ببلاد الإسلام بل يبقى في هذه البلاد محافظاً على دينه :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ)

أي أن طاعة الله لا يعلو عليها شيء، فإذا كنت في هذا المكان لا تستطيع أن تطيع الله فيه فتحوَّل إلى مكانٍ آخر، التعلق بالأرض على حساب دينك هذا سلوك وثني، سلوك غير صحيح، الأرض التي ترفع رأسك بها، الأرض التي تطيعُ الله بها هي أرضك، فنحن والحمد الله في بلدٍ تقام فيه شعائر الله، من أجل دُريهمات يغادر الإنسان المؤمن الطيِّب بلده إلى بلدٍ آخر تنتهك فيه الحرمات على قارعة الطريق..

((من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة))

[أخرج ابن المنذر عن جرير بن عبد الله البجلي]

يفرح أن البلاد رخيصة وكلها متنزهات وحدائق خضراء، يقول لك: الحاجات متوافرة بشكل عجيب، المواصلات، البيوت الجاهزة للإيجار ميسَّرة، ولكن حينما يرى أن ابنته مثلاً أحبت يهودياً في بلاد الغرب، وأنها تنحرف انحرافاً خطيراً، عندئذٍ يعتصر قلبه من الألم، ولكن لا ساعة مندم بعد فوات الأوان، فالإنسان المؤمن لا يزهد ببلاد المسلمين، لا يزهد ببلاد الإسلام، وليبقَ في هذه البلاد محافظاً على دينه، وليجعل خبرته في خدمة هذه البلاد، يجعل ذكاءه في خدمة هذه البلاد، أما قالوا لك: مئتان وسبعون ألف طبيب يعملون في بلاد الغرب من أصل عربي، فهؤلاء نخبة المجتمع، الأدمغة تعمل لصالح الغرب، فشيء مؤلم أن الإنسان يسخر طاقته، وعلمه، وذكاءه، وخبرته، وينقل أمواله إلى هناك كي تعود علينا مؤامراتٍ وأسلحة فتاكة.

الصابر يرى أن يد الله تعمل في الخفاء والأمر كله بيده وأفعاله كلها يحمد عليها :

يا أيها الأخوة الأكارم:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

من هو الصابر؟ هو إنسان يعرف الله، يعرف أن الله يعالجه، فمثلاً بشكل أو بآخر، راقب طفلاً صغيراً على كرسي طبيب الأسنان، تجده يبكي، يتحرك حركات عشوائية، يمسك يد الطبيب، أحياناً إذا كان بلا تربية يسب الطبيب، راقب إنساناً راشداً تجده ساكت، الآلام شديدة، البنج ممنوع بالنسبة له لأسباب معينة، يعالج من دون بنج، يشد على الكرسي ولا يصيح، وبعد ذلك يشكر الطبيب ويعطيه أجرته كما يريد، انظر إلى العقل، الطفل يصيح ويسخط ويغضب، والكبير يسكت ويصبر، أي أن الصبر علم، لمَ الكبير صبر لأنه يعرف أن العملية لمصلحته، يعرف أن الطبيب عالم، والطبيب خبير، والطبيب دقيق، وهذا العمل بمجمله مع آلامه لصالحه، ويقول: وجع ساعة ولا كل ساعة.

فهذا إذاً سلوك الإنسان الراشد، فكل إنسان لا يصبر يعني أنه أحمق، لا يعرف الله أبداً؛ أما الصابر فهو يرى أن يد الله تعمل في الخفاء، يرى أن الأمر كله بيد الله، يرى أن أفعال الله كلها يحمد عليها، لذلك قالوا: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهٍ سواه.

((عَجِبْتُ مِنْ أَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْراً وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْراً))

[أحمد عَنْ صُهَيْبٍ]

فالمؤمن شيء عجيب، مثل المنشار على الحالتين شاكر، إذ أكرمه الله يقول: يا رب لك الحمد هذا فضلك علي، وإذا الله سلبه نعمة يا رب لك الحمد أنا أستحق، وأنت مربٍ، وأنت عالم، وأنت عادل، وأنت رحيم، وأنا طوعُ إرادتك، إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى ولكن عافيتك أوسع لي. والله شيء جميل، لا تجد عند المؤمن حالات انهيار عصبي، تجد بالغرب أن أعلى نسب الانتحار في السويد، وهذا جهل فادح، إن لم تأته الدنيا كما يريد ينتحر، بينما المؤمن تجده يحتاج الكثير الكثير ومع ذلك يرجو الله، ويدعوه، ويصبر على قضائه وقدره، فلذلك:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

معنى التوحيد :

من هو الصابر؟ هو الذي يعرف الله، يعرف أن الأمر كله بيد الله، لا بيد زيد ولا بيد عُبيد، ولا عند فلان ولا عند علان، لا أحد يقدر إلا الله، أما هؤلاء فهم مجرد صور، مثلاً إن تلقى أحدٌ ضربةً بعصاً، والعصا بيد إنسان، هل يصب نقمته على العصا، يحقد عليها؟ لا، يجب أن يحقد على من ضربه بها، فإذا كان من ضربه بها إنسان عظيم وعادل ورحيم، معناها أنه هو الغلطان، انظر كيف التسلسل، إن جاءتك مصيبةٌ على يد إنسان، هذا الإنسان أداة بيد الله، العصاة بيد الله، فالله عزَّ وجل عادل ورحيم وحكيم، معنى ذلك أن شيئاً ما من عند نفسي أنا، والمؤمن دائماً يتَّهم نفسه، ليس عنده حقد إطلاقاً، يعلم

أن الله بيده كل شيء، الإمام الشعراني قال: "أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي". معناها أن الإنسان أموره كلها بيد الله، عليه أن يصدق مع الله، عليه أن يصطلح معه، عليه أن يتوب إليه، عليه أن يصلح فيما بينه وبين الله، اعمل لوجهٍ واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، هذا هو التوحيد وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

راقب الله عزَّ وجل، ناجه، اسأله، ادعه، اقرأ كتابه، احضر مجالس العلم، تعلَّم أحكام الفقه، تعلم مواقف الصحابة من أجل أن تهتدي بهديهم، أن تستنير بنورهم، أن تقفُو أثرهم، أن تخطو خطوهم.

إذاً:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ*وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

أيها الأخوة الأكارم، نحن مقدِمون على شهرٍ فَضيل، على شهرٍ كريم، ما من شهرٍ في القرآن الكريم ذكر اسمه إلا رمضان حصراً، هذا الشهر دورةٌ سنوية، دورةٌ سنوية روحية لقفزةٍ إيمانية، أجل قفزة، فأنا أتمنى على كل أخ كريم أن يفرغ نفسه في هذا الشهر لله عزَّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (07-20): تفسير الآيات: 11-15، الإخلاص والطاعة والخوف من الله تعالى. `

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-02-26

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان مخلوقٌ من أجل أن يعبد الله :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السابع من سورة الزُمَر، ومع الآية الحادية عشرة وهي قوله تعالى:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

الآية التي قبلها:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ* قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ*)

الذي يبدو أن كل شيءٍ مسخَّرٌ لشيء، فالماء مسخَّرٌ للأرض، والأرض مسخَّرةٌ للنبات، والنبات مسخَّرٌ للحيوان، والحيوان مسخرٌ للإنسان، والإنسان مسخرٌ لمن؟ لله عزَّ وجل، ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كل شيء لك فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له؛ وفي أثر آخر: خلقتك لنفسي كل شيء لك فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب.

أنت مخلوقٌ من أجل أن تعبد الله، الله عزَّ وجل قال:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

[سورة البقرة: 30]

الإنسان مزوَّدٌ من بين جميع المخلوقات بقدرةٍ إدراكيَّة تميِّزه عن بقيَّة المخلوقات :

أنت أيها الإنسان خليفة الله في الأرض، آيةٌ دقيقةٌ جداً،

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

أنت خليفة الله في الأرض، وخليفة الله في الأرض من لوازمه، أو من أولى خصائصه، أو من أوَّل واجباته أن يتعرَّف إلى الله عزَّ وجل، وهل تصدِّق أن خلق السماوات والأرض من أجل أن تعرف الله، وإليك الدليل النقلي:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ)

[سورة الطلاق: 12]

علَّة خلق السماوات والأرض أن تعلم:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

أنت أيها الإنسان مزوَّدٌ من بين جميع المخلوقات بقدرةٍ إدراكيَّة، هي التي تميِّزك عن بقيَّة المخلوقات، الطعام والشراب تتساوى فيه مع بقية المخلوقات، النوم، العمل، المُتعة، الملذَّات، كل المخلوقات على نوعٍ أو على شيءٍ من خصائص الإنسان، إلا أن الإنسان يتميَّز على بقية المخلوقات بهذا العقل الذي زوَّده الله به، فالقوة الإدراكيَّة إن لم نستخدمها فقد احتقرناها، والدليل أن الله عزَّ وجل يقول:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة: 130]

هذا الذي لا يفكِّر، لا يعقل، لا يطلب العِلم، لا يبحث عن سر وجوده، لا عن مهمَّة وجوده، هو الذي يعيش على هامش الحياة، يأكل ويتمتَّع كما تأكل الأنعام، هذا الإنسان احتقر نفسه، ما عرف قيمتها.

عبادة الله عزَّ وجل لها معنيان معنى الخضوع ومعنى الحُب :

شيءٌ ثابت أنك المخلوق الأول..

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب:72]

أنت المخلوق المكرَّم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء الآية: 70]

فأنت خليفة الله في الأرض، وأنت المخلوق الأول، والمخلوق المكرَّم، وأنت الذي قبلت حمل الأمانة، وأن كل شيءٍ خُلِقَ من أجلك:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

أنت مخلوقٌ لماذا؟ من أجل أن تعرفه، من أجل أن تصل إليه، من أجل أن تُقبل عليه، من أجل أن تسعد بقربه، من أجل أن تكون نموذجاً للمخلوقات، فلذلك جاء الأمر الإلهي:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ)

مرَّة ثانية: عبادة الله عزَّ وجل لها معنيان، فيها معنى الخضوع وفيها معنى الحُب، فالذي خضع لله عزَّ وجل ولم يحبَّه ما عبده، والذي أحبَّه ولم يخضع له ما عبده..

تعصي الإله وأنت تظهر حبَّه هذا لعمري في المقال شنيعُ

لـو كان حبُّك صادقاً لأطعته إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ يـطيعُ

*** * ***

العبادة طاعة وحُب :

يا أيها الأخ الكريم، ينبغي أن يبقى في ذهنك أن العبادة هي في الأساس طاعةٌ ومَيْل، طاعةٌ بلا مَيل تسمى طاعة، وميلٌ بلا طاعة يسمَّى نفاق، لأن الإيمان بلا عمل جنون، والعمل بلا إيمان لا يكون، إذاً العبادة طاعةٌ وحُب، والدليل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه)

[سورة الروم: 30]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ - هذه الطاعة - حَنِيفاً، هو الميل أي مائلاً، أن تقيم وجهك للدين حنيفاً هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها.

فيا أيها الأخوة الأكارم، بنفوسنا حاجة لا يلبِّيها إلا الإيمان، وبعقولنا فراغ لا يملؤه إلا الإيمان، بنفوسنا خلل لا يقيمه إلا الإيمان، لو تعلَّمت وارتقيت إلى أعلى درجات العلم، إن لم تؤمن ففي هذا العلم نقص صارخ، لو وصلت إلى أقصى الغايات إن لم تؤمن تبقى مضطرباً، فكيف أن الإنسان مفطور فطرة سويَّة، فهذه الفطرة لا ترتاح ولا تطمئن إلا بطاعة الله. الإنسان قبل أن يؤمن في قلق، وخلل، وانهيار، وتعتريه ردود فعل عنيفة وتشاؤم، كما يعتريه جبن وهلع، والنفس لا تستقر ولا تتوازن ولا تسعد ولا تطمئن إلا بمعرفة الله وطاعته، لذلك أنت إذا آمنت بالله، واستقمت على أمره فقد أرحت نفسك وأرحت الناس، استقرَّت نفسُك.

الطاعة من ثمارها الطمأنينة والسكينة :

كل واحد منكم أنا أسأله هذا السؤال: وازن بين حالتك قبل أن تصطلح مع الله، وبعد أن اصطلحت مع الله؟ قبل أن تصطلح هناك أمراضٌ نفسيَّةٌ كثيرة؛ هناك خلل، هناك قلق عميق، هناك تشاؤم، أما إذا عرفت الله عزَّ وجل تشعر براحةٍ ما بعدها راحة، ما هي هذه الراحة؟ راحة الفطرة، فالفطرة مثلاً مركبة ضع فيها وقوداً غير البنزين، تجد أنها اضطربت، المحرِّك لم يعمل أو ينفجر، أما إذا وضعت

لها الوقود الذي صُمِّمَ لها فإنها تعمل بانتظام، الوقود المصمَّم لهذه المركبة يجعلها تعمل بانتظام، تستريح بها وتريح الآخرين، أما استعمالك وقوداً آخر فقد يؤدي إلى انفجار المحرِّك، أو قد تبقى متوقفة، أو قد يعمل ببطء، وقد يعمل ويقصر عمره، أما إذا أردت أن يعمل وفق الخطَّة المرسومة فاستعمل له الوقود المناسب.

وكما قلت لكم: فأنت كإنسان من أرقى المخلوقات، لك عقلٌ وهو قوَّةٌ إدراكيَّة، يعدُّ الدماغ الذي هو أداة العقل أعقد ما في الكون، ولك نفسٌ حسَّاسةٌ دقيقةٌ، لها قوانين، ولها مبادئ، فإذا حدَّت عن مبادئها عذَّبتك هي قبل أن تُعَذَّب يوم القيامة، أمراض الكآبة التي تعاني منها المجتمعات الغربيَّة، الشقاء الزوجي وأسبابه المعصية، شقاء الشباب، شقاء الفتيات، شقاء الزوجات، شقاء الأزواج، هذا الشقاء أساسه المعصية، فالمعصية ندفع ثمنها باهظاً دون أن نشعر، والطاعة نقبض ثمنها دون أن نشعر، فالطاعة من ثمارها الطمأنينة، هذه السكينة التي وصفها الله عزَّ وجل في القرآن الكريم، من أجل هذا كلّه قال:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً)

العبادة هي الطاعة، بالمناسبة: لا يمكن للعبد أن يطيع الله عزَّ وجل إلا إذا عرف حقائق ثابتة، أولها وأهمها أن الله موجود، هناك بعض الأشخاص وجود الله ليس داخلاً في حساباته، يتحرَّك ويتصرَّف وقد يغفل عن وجود الله، فحينما يكيدُ للآخرين، حينما يكيد لإنسانٍ مؤمن، هو يتصرَّف ويظن أن الله غير موجود، وكأن الله لا ينتقم منه، ولا يدبِّر له كيداً هذا إن اعتقد بوجوده..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

[سورة إبراهيم: 46]

أخطر شيء في الحياة التكذيب العملي :

كل إنسان يؤذي، يتطاول، يعتدي، يطغى، يبغي، يأخذ ما ليس له، يلصق تهمة ببريء، يبتزُّ أموال الناس، فلو قال: لا إله إلا الله، هو يتصرَّف على أساس أن الله غير موجود، أما لو أيقن بوجوده لاختلف كل فعله، وقد قلت في الخطبة اليوم: إن أخطر شيء في الحياة التكذيب العملي، التكذيب القولي قلَّما تجد في العالَم الإسلامي من يكذِّب حقائق الدين، فمستحيل أن يقول لك إنسان: الله غير موجود. لكن عشرات، بل مئات، بل ألوف، بل مئات الألوف، بل ملايين من المسلمين يتصرَّفون وكأن الله غير موجود، نحن نريد أن يشعر المؤمن أن الله موجود، بل وأن يوقن حقاً أنه موجود..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق: 15-16]

نسي الثانية: وَأَكِيدُ كَيْداً:

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال: 30]

معنى ذلك أن الإنسان إذا تصرف على أساس أن الله غير موجود فهو غير مؤمن، ولو قال بلسانه: أنا مؤمن.

ضربت مثلاً: أنت زرت طبيباً، عالجك، ثم وصف لك وصفة، صافحته وقلت له: شكراً لك يا دكتور، أو يا حكيم، وصفته باسم الطبيب، وصافحته، وضغطت على يده، ونقدَّته أجرته، لكن لمجرَّد أنك لا تشتري الدواء الذي وصفه لك فهو لا يرقى عندك إلى مستوى الطبيب الناجح، عدم شرائك الوصفة تكذيبٌ لعلمه، ولو طبَّقت كل أساليب التعظيم، والتبجيل، والاعتراف بالفضل، والتوقير، هذا كلُّه لا يقدِم ولا يؤخِّر. إذاً أنت لن تعبد الله إلا إذا آمنت بوجوده، وإلا إذا كان إحساسك بوجوده دائماً.

الإيمان الصحيح يكون في الرخاء كما في الشدة :

في البيع مثلاً، قد تبيع امرأة وقد تستغلُّ جهلها، وقد تبيع طفلاً صغيراً فإن استغللت صِغَرَهُ، وجهالته، وبعته بضاعةً سيئةً بثمن مرتفع، فاعلم علم اليقين أنك تبيع هذه البيعة وكأن الله غير موجود، فالإيمان بالله ليست كلمةً تقولها، إبليس قالها وهو الكافر الأول:

(فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: 82]

هذا الاعتراف الشكلي لا قيمة له، بل إن الالتجاء إلى الله عزَّ وجل وقت الشدَّة أيضاً لا قيمة له، إن لم تكن مستقيماً على أمره في أيام الرخاء فلن يفيدك، كل مخلوق حينما يُسْقَطُ في يده يرجو الله عزَّ وجل، هذا شيءٌ طبيعي جداً، حتى الكفَّار، حتَّى الملحدون، إذا ركبوا في البحر، أو ركبوا طائرةً وأصبح الخطر قريباً، يقولون: يا الله.

نحن نريد إيماناً مستقرَّاً في الرخاء، نريد أن تشعر أن الله موجود في حركاتك وسكناتك، في نشاطاتك، فلا بد من أن تؤمن أن الله موجود، وأن الله واحد، ما من إله آخر، ولن تجد إنساناً على وجه الأرض بإمكانه أن يفعل شيئاً لا نفعاً ولا ضُرَّاً أبداً، الأمر كلُّه بيد الله، موجود، وواحد، وكامل؛ وعادل، رحيم، حسيب، بالمرصاد، رقيب، سميع، مجيب، قدير، هذا الإيمان أن تؤمن به موجوداً، أن تؤمن به واحداً، أن تؤمن به كاملاً هذا الإيمان الصارخ، الواضح، الملموس، الذي يتغلغل في كيانك كلّه، هذا الإيمان الذي يحملك على طاعة الله.

تراقب الله، لا تقبل درهماً حراماً، ولا مثقالاً من درهم لأن الله يراقب، ولا تبتعد كثيراً، أنت إذا كنت في حضرة إنسانٍ تُجِلُّه لا تستطيع أن تفعل أمامه شيئاً لا يرضيه، هذا مع إنسان، وأحياناً الإنسان يُراقب، ويقال لك: هذه الصالة مراقبة فاحذر. مرَّة دخلت إلى محل تجاري، وجدت جهاز تلفزيون أمام مدير المَحل، وعلى الشاشة صورة مُحاسب، سألته فقال: المحاسب فوق، هذه كاميرا المراقبة، هذا إذاً مراقبٌ دائماً لا يستطيع أن يفعل شيئاً خلاف تعليمات المدير، فإذا إنسان راقب إنساناً تجد أن هناك انضباطاً، فكيف لو شعرت أن الله رقيبٌ عليك؟

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء:1]

الإنسان مخلوق لله عزَّ وجل وما أفدح خسارته إن باع نفسه لغير الله عزَّ وجل :

إذاً: العبادة هي طاعةٌ مع الحُب، لأن الله عزَّ وجل خلقك من عدم فهذه نعمة الإيجاد، وخلقك وأمدَّك بكل ما تحتاجه فهذا مقام الربوبيَّة، وسيَّرك لصالحك هذا مقام الألوهيَّة، فالله عزَّ وجل هو الجهة الوحيدة الذي ينبغي أن تمحضَهُ كل الحب، كل الولاء، فالإنسان مخلوق لله عزَّ وجل، وما أفدح خسارته إن باع نفسه لغير الله عزَّ وجل.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة:111]

ذكاؤك، طلاقة لسانك، خبرتك، عضلاتك، وقتك، علمك، مالك أن يكون مبذولاً لجهة غير الله؟! فأنت الخاسر الأكبر، حقاً أنت الخاسر الأكبر إذا وظَّفت حظوظك التي منحك الله إيَّاها في سبيل الشيطان، أو في سبيل الدنيا، فالإنسان ينبغي أن يكون لله، هذا أول معنى..

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ)

العبادة هي الطاعة مع الحُب، ولتعلم أن لكل عضو فيك عبادة؛ فالقلب له عبادة، الأعضاء لها عبادة، العين تعبد الله بأن تغضَّ عن محارم الله، الأذن تعبد الله، العين تعبد الله بشيئين؛ بشيء إيجابي وشيء سلبي، فالإيجابي أن ترى آيات الله - أُمرتُ أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً - يجب أن ترى آثاراً عظيمة لله عزَّ وجل، وأن تغضَّ عن محارم الله وهذه الناحية السلبية، هذه عبادة العين. الأذن هذا الجهاز المعقَّد الذي يَحَار به الأطبَّاء، وحتى هذه الساعة الأطبَّاء لا يعرفون الفرق بين النَغَم وبين الضَجيج؟ وكيف أن هذه الأذن تستمتع بالنغم، وتنفر من الضجيج؟ قنوات، واتصالات، وعظيمات، وغشاء طبل، ومرونة بالغة في هذا الغشاء، وقناة ملتوية، وصيوان متعرِّج ليجمع الأصوات، الأذن وحدها تحتاج إلى مجلَّدات من أجل أن تستمتع بالصوت.

الإنسان له ظاهر وله باطن ظاهره خاضعٌ لأمر الله وباطنه مخلصٌ لله :

هذه الأذن تعبد الله بها بأن تُصغي إلى الحق، وتعبد الله بها بأن تَمْتَنِعَ عن سماع الغناء، فالأذن تعبد الله بها، والعين تعبد الله بها، واليد تعبد الله بها، وهذا اللسان تعبد الله به، وهذا الدماغ تعبد الله به، تعمله في الحق لا بالباطل، وهذه الأجهزة حتى رجلك يمكن أن تعبد الله بها بأن تذهب بها إلى المساجد، وأن تبتعد عن كل مكانٍ لا يرضي الله عزَّ وجل:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

فالجوارح تعبده بأن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، لكن القلب يعبده بالإخلاص، فدائماً الإنسان له ظاهر وله باطن، ظاهره خاضعٌ لأمر الله، باطنه مخلصٌ لله، فقد تجد مؤمنين يطيعان الله عزَّ وجل، أيهما أعلى عند الله؟ أعلاهما الأكثر إخلاصاً، والإخلاص محصِّلة الإيمان، التوحيد ينتهي بك إلى الإخلاص، رؤية ربوبيته تنتهي بك إلى الإخلاص، رؤية مقام الألوهيَّة تنتهي بك إلى الإخلاص، فمحصلة الإيمان بالله خالقاً، ورباً، ومسيِّراً، محصِّلة الإيمان بالله موجوداً، وواحداً، وكاملاً، محصِّلة رؤية يد الله وحدها تعمل في كل شيء، محصِّلة كل هذا الإيمان أن تخلص لله عزَّ وجل:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

الدين يعني الخضوع، فلانٌ دان، الدينونة الخضوع، أنا مدين لفلان، فالدين في الأساس الخضوع، فالدين لله، الخضوع لله، فمن خضع لغير الله عزَّ وجل فقد أخطأ الهدف وضلَّ الطريق، خضوعك لا ينبغي أن يكون إلا لله وحده، لا يليق بك أن تعبد غير الله، ليس في الكون كلِّه جهةٌ تستأهلُ أن تُعْبَد من دون الله..

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)

[سورة المدثر:56]

الإنسان لا يخضع إلا لمن هو أعظم منه وأعظم العظماء الله جلَّ جلاله فالله تعالى مطلق:

الدين هو الخضوع لله، فالإنسان يخضع لمن؟ لو تصوَّرنا إنساناً يحمل شهادة عُليا، وعيِّنَ في مكان المدير فيه يحمل ابتدائيَّة، هل يخضع هذا لهذا؟ مستحيل، يتنافسان، يتطاول عليه لأنه دونه، ولو كلَّفنا رتبة متدنية أن تقود رُتَباً عالية، هل يخضعون له؟ لا يخضعون له، بل يستعلون عليه، ينتقدونه، أما المجنَّد فإنه أمام من أعلى منه رتبة يخضع، مثلاً طالب أمام أعلى شهادة علميَّة يخضع، فالإنسان لا يخضع إلا لعظيم، من طبيعة الإنسان أنه لا يخضع إلا لمن هو أقوى منه، لمن هو أعلم منه، لمن هو أكمل منه.

فالله عزَّ وجل مُطْلَق، ما معنى مطلق؟ أي نهاية القوَّة، القوَّة غير المحدَّدة، قوة البشر محدودة، أما الله عزَّ وجل قوَّته غير محدودة، عدالته غير محدودة، معنى مطلق أي أنه في كل شيء أعلى شيء، فمن هو الذي ينبغي أن تخضع له؟ هو المطلق؛ علمه مطلق، قدرته مطلقه، رحمته مطلقة، لطفه مطلق، فالإنسان لا يخضع إلا لمن هو أعظم منه، أعظم العظماء الله جلَّ جلاله، ملك الملوك الله جلَّ جلاله، أحكم الحاكمين الله جلَّ جلاله، أحسن الخالقين الله جلَّ جلاله، فله الدين، فالإنسان يكون مغبوناً كثيراً لو خضع لغير الله، لأن غير الله عزَّ وجل عاجز، ضعيف، والله عزَّ وجل يعلم والبشر لا يعلمون..

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة:19]

الله عزَّ وجل قوي والبشر ضِعاف، الإنسان تحت رحمة الله عزَّ وجل، فكل شخصيَّته اللامعة تنتهي لو تعطَّلت أعضاؤه، لو تخثَّرت نقطة دمٍ في شرايين دماغه لانتهى، فالإنسان قوي بالله، لكن من دون إمداد الله هو ضعيف، عالِم بالله، إذا حجب الله عنه علمه صار جاهل، حكيم بالله إذا سلب منه لُبَّه أصبح أخرق:

(لَهُ الدِّينَ)

انظر إلى الآية ما أروعها وما أدق معناها:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

علو الهمَّة والطموح والتنافس من الإيمان :

الإنسان لا ينبغي أن يقبل بالمرتبة الدنيا، علو الهمَّة من الإيمان، لماذا هو في الدنيا يحب الأكمل؟ لو اشتريت حاجة فيها خلل، تقول للبائع: أبدلها إذا سمحت. لماذا؟ لأنك تحب الكمال، لو كانت حاجة سعرها رخيص، لو كانت الأسطر غير متوازية، إذا سمحت بدله لي، أحياناً يكون الغلاف الخارجي الذي سوف ترميه بعد قليل غير مستقيم، فتقول: أرجوك أبدله لي. هذه طبيعة النفس أنها تحب الأكمل، ما دام الإنسان يحب الكمال فعليه أن يحب الله عزَّ وجل لأنه هو الكامل، وهو صاحب الذات الكاملة:

(وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

لماذا أنت في الدنيا تحب الكمال؟ تحب البيت الأوسع، إذا خطبت تختار الأجمل، إذا اشتريت دكَّاناً تختار الأكمل؟ لماذا في كل حاجاتك تختار الأجدر والأغلى والأقوى والأثمن؟ لأن هذا من طبيعة الإنسان، مفطورٌ على حب الأكمل، فلماذا نحن نبتغي الكمال في الدنيا ونقنع بمرتبةٍ وراء باب الجنَّة كما يقول الجهلاء في الآخرة؟ لمَ لا يكون الإنسان عالي الهمَّة؟ ورد عن النبي الكريم أن:

((علو الهمة والمروءة من الإيمان))

[أبو داود عن من العهود المحمَّديَّة]

وكذلك الطموح من الإيمان، الله عزَّ وجل قال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

هنا التنافس، أما أهل الدنيا يتنافسون في بيوتهم، في ولائمهم، في ألبستهم، في مركباتهم، في قصورهم، في حدائقهم، في أرصدتهم، في بَذْخِهم، في لهوهم، في فجورهم؛ لكن أهل الإيمان يتنافسون في طاعتهم لله عزَّ وجل، يتنافسون في طلبهم للعلم.

الأفعال كلها فِعل الله أما الشيء الذي يُحَرِّك الأعمال فهي النوايا الطيِّبة والإخلاص:

المؤمن غَيُور، لكن هذه الغيرة يحبُّها الله ورسوله، يغار من أخوانه أن يسبقوه، يتنافس مع أخوانه ولكن تنافساً شريفاً، تنافس مع أخيك، كن أنت الأول في حفظ كتاب الله، في فهم كتاب الله، في تعليم كتاب الله، في توظيف طاقاتك في سبيل الله، هذا الذي يطلب الأدنى يخالف الفطرة، فطرة الإنسان تطلُب الأعلى، قال:

(وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

مع هذه الآية نصل إلى نقطة دقيقة جداً وهي: أن الأفعال من الله عزَّ وجل، لماذا ربنا عزَّ وجل قدَّر على يد هذا الإنسان عملاً ما، ولم يقدِّر على يد إنسان آخر؟ لماذا أعطى هذا ومنع ذاك؟ قال: الأفعال كلها فِعل الله، أما الشيء الذي يُحَرِّك الأعمال هي النوايا الطيِّبة، والإخلاص لله عزَّ وجل، فالمؤمنان يرتقيان عند الله بحسب إخلاصهما لا بحسب أفعالهما لأن أفعالهما من الله عزَّ وجل، فكلَّما نويت عملاً صالحاً الله عزَّ وجل قدَّر لك هذا العمل، فكأن الأعمال التي أجراها الله على يديك تعبِّر عن نواياك، تعبر عن طموحك، تعبِّر عن إخلاصك، إذاً:

(وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

ومع هذا الأمر العظيم أن يعبد النبيَّ ربَّه، وأن يكون الأول أيضاً، قال:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يخاف الله ويخشاه كما يُخَبِّرُ الله عنه:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إذاً هذا مقياس دقيق لا أن يدعي أحدٌ أنه مؤمن، فإن علامة إيمانك خوفُك من الله.

إذا أردت أن تعرف مستوى إيمانك فانظر إلى مستوى خوفك من الله عزَّ وجل :

انظر فبعض الناس أحياناً يأكلون الأطعمة دون غسلها، لكن الطبيب لكثرة ما يرى من أمراض إنتانيَّة، التهابات أمعاء، من أوبئة تنتقل عبر الجراثيم، من أوبئة تنتقل بسبب القذارة، فهو حريص حرصاً بالغاً على تنظيف يديه، وأوانيه، وحاجاته، هذا الخوف من العدوى وانتقال المرض جاءه من علمه، فكلَّما ارتقى العلم ارتقى معه الخوف أبداً، الخوف مؤشِّرٌ على العلم، إذا ازداد خوفُك فهذا يدل على ازدياد علمك، لأن الجاهل لا يخاف.

أنا أضرب هذا المثل من باب الطرفة: مرَّة طالب قال لي في الصف: أنا لا أخاف من الله، قلت له: معك الحق ألا تخاف من الله، قال: لماذا؟ قلت له: لأن الطفل الصغير الذي عمره سنتان أحياناً يأخذه أبوه معه إلى حقل الحصاد، وقد يمر أمامه ثعبانٌ كبير لو رآه رجلٌ راشد لخرج من جلده خوفاً، أما هذا الطفل الصغير يضع يده عليه، لماذا لا يخاف؟ لأنه لا يُدرك، فالذي لا يدرك لا يخاف.

وأنت ترى أن مهندس الكهرباء يعرف ما معنى التيار العالي، فيقول لك: هذا يفحِّم الشخص أي يجعله كالفحم، إذاً قد يحترق إنسان ويتفحَّم بسبب جهله، فكلَّما ازداد العلم ازداد معه الخَوف، فإذا أردت أن تعرف مستوى إيمانك فانظر إلى مستوى خوفك من الله عزَّ وجل، هل تعلم أن الله سيحاسب الخلق أجمعين؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

هل عندك يقين أن لكل سيِّئةٍ عقاباً؟ وأن الله عزَّ وجل بالمرصاد؟ وأن الله عزَّ وجل كان عليكم رقيباً؟ وأنه..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه)

[سورة الزلزلة: 7-8]

وأنه لا ظُلم اليوم:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

هكذا إيمانك؟ إذا كان إيمانك هكذا فلتطمئن.

كلَّما ارتقى إيمان الإنسان يرتقي خوفه :

الإمام أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه وقف مرَّةً مع صديقٍ له في ظل بيت، فإذا بهذا الإمام يجرُّ صديقه إلى الشمس، قال له صديقه: لماذا، فهنا ظل؟ ثم قال أبو حنيفة: " هذا البيت مرهونٌ عندي، وإني

أكره أن أنتفع بظلّه "، فهذا هو الورع. النبي عليه الصلاة والسلام - فيما تروي بعض الكتب - انقطع عنه الوحي أسبوعاً أو أكثر، فقلق النبي، قال: يا عائشة لعلّها تمرةٌ أكلتها من تمر الصدقة، رأى تمرةً على سريره فأكلها، ثم شك لعلّها من تمر الصدقة؟ قال: يا عائشة لعلّها تمرةٌ أكلتها من تمر الصدقة، فعلامة الإيمان الخوف، لكن بعضهم يقول متهاوناً: لا تدقّق، فهذا ضعيف الإيمان، الإبرة دون الخَط الأحمر، لا تدقّق فالله لن يحاسبنا، سيدي الحال صعب، ماذا نفعل؟ نحن بزمان صعب، الله يعفو عنا، هذه الكلمات معناها أن الإيمان ضعيف جداً، لكن الإنسان لو عرف الله حق المعرفة لحاسب نفسه حساباً عسيراً، إذاً هذا هو الخوف.

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

من اصطاد عصفوراً لغير مأكلةٍ فإنه مسؤول عند ربه، هذا العصفور يأتي يوم القيامة وله دويٌّ كدوي الرعد، يقول: يا رب سله لمَ قتلني؟ فالذي يقول لك أنه اصطاد عشرة آلاف طير، وعلى الطريق تفسَّخوا فألقى بها جميعاً، ولكن قضى يومين رائعين في متعة الصيد، فهذا لا يعرف الله عزَّ وجل، فهو يستمتع بإيقاع الأذى بالحيوانات والطير، وبإتلاف المال، الحيوان مال أتلفته بلا فائدة، أما لو كان الإنسان على سفر، وأشرف على الموت جوعاً، واصطاد طائراً وأكله، هذا الطائر شعر أنه قدَّم شيئاً ثميناً لهذا المخلوق الأول، أما أن تقتله بلا سبب، طبعاً العلماء حكموا على أن الصيد إذا كان لغير مأكلةٍ فهو حرام، لأن فيه إتلاف مالٍ أولاً، وإيقاع الأذى بلا سبب ثانياً، فكلّما ارتقى إيمان الإنسان يرتقي خوفه، فالقضية سهلة، في تعاملك اليومي، في البيع والشراء.

المؤمن من شدَّة خوفه من الله يُضَحِّي بما فيه شك :

كلمة لا تدقّق هذه كلمة المنافقين، بل كل شيء دقّق فيه، من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، ألا تكفي هذه الآية:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه)

[سورة الزلزلة: 7-8]

والمؤمن من شدَّة خوفه من الله يُضَحِّي بما فيه شك:

((إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه))

[متفق عليه عن النعمان بن البشير]

شككت بمبلغ بينك وبين صديق لك قل له: أخي أن تقول أنت مسامح لا أريد، فالأسلم لك ألا تقع بالظن دائماً واجعل نفسك تتعامل باليقين، أو سَجِّل ما لك وما عليك، أو خذ إيصالاً، لكن شككت فهذه قد تودي بك وبالمال.

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

((دَخَلت امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ ربطتها، فلم تُطْعِمها، ولم تَدَعْها تأكُل مِن خَشاش الأرض))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

الله يحاسب من أجل هرة، إنسان ألقى هرَّةً من الطابق السابع، ضاق بها ذَرْعاً، ألقاها إلى الأرض فماتت، فَفَقد توازنه فجأةً، الله كبير وحسابه دقيق، وربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج:12]

البطولة أن تؤدي ما عليك تجاه الحق :

عندما يؤذي الإنسان المخلوقات فلا بد أنه ملاقٍ جزاءه، إذا كان إيذاء الهرَّة سبباً لدخول النار، فكيف بإيذاء الإنسان المُكَرَّم؟ أن تخيفه، أو أن تأخذ ماله، أو أن تذلَّه، أو أن تغتابه، أو أن تنال منه، أو أن تُحْرِجَهُ، هذا كله محاسبٌ عليه الإنسان:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إذا كان هذا حال النبي فما حال أمَّته من بعده؟ النبي وما أدراكم ما النبي، المخلوق الأول، الذي عرف الله، الذي أحبَّه، الذي أمضى كل حياته في طاعته، وفي خدمة خلقه، وفي نشر دينه، يخاف إن عصى الله عذاب يومٍ عظيم، فنحن إن لم نخف فنحن مرضى، الذي لا يخاف من الله مريض يحتاج إلى معالجة، لذلك:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

من المخلّط؟ هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، " ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعة من مخلّط، من لم يكن له ورعٌ يصدُّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله"، مقياس استقامتك يبدو جلياً وأنت وحدك، مقياس استقامتك فيما بينك وبين الله، أخي والله أنا عليَّ دين وقد أديته والحمد لله، أنا صاحب ذمَّة. فأنت كتبت على نفسك سند، أو إيصالاً، وعليك شهود، وخصمك يقظ وصعب، فلما أديت الدَّين فعملك هذا سلوك مدني، لكن هل تعلم ما هي الأمانة؟ إنسان أعطاك مئة ألف ولم يعلم أحد بذلك، ولم يأخذ منك إيصالاً، وتوفَّاه الله، ولست مُداناً أمام أحد، ولا يستطيع أحدٌ في الأرض أن يسألك

سؤالاً واحداً، جئت بالمال وطرقت باب الورثة، وقلت لهم: لوالدكم عندي هذا المبلغ خذوه. هذه الأمانة. ألا تكون مداناً أمام الخلق بأية وثيقة، أما حينما يكون الإنسان مداناً للخالق، فإذا دفع فقد دفع خوفاً من الخلق، لكن البطولة أن تؤدي ما عليك تجاه الحق، لذلك فالصيام هو عبادة الإخلاص، الآن الحمد لله الوقت لطيف، لكن تذكَّروا أيام الصيف، الصيام في شهر آب أو تموز، النهار سبع عشرة ساعة، الإنسان دخل إلى الحمَّام وفيه حنفية، ما الذي يمنعه أن يشرب؟ إيمانه أن الله مطلعٌ عليه.

كل أمرٍ موجَّهٌ إلى النبي موجَّهٌ إلينا بالتبعيَّة :

غض البصر، ليس في الأرض كلّها أمرٌ وَضْعِيّ ولا قانون يأمر بغضِّ البصر، إنك إن سرت في الطريق ورأيت امرأةً سافرةً فغضضت بصرك عنها، ما الذي حملك على ذلك؟ إيمانك بالله، إخلاصك له، حبُّك له فقط، فشاءت حكمة الله أن ينفرد الدين من بين كل الشرائع بأوامر، فمن أخذ بها فقد أكَّد إخلاصه لله عزَّ وجل، إذاً:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي)

النبيَّ قدوةٌ لنا، حقاً هو قدوة لنا، النبي أُمِرْ أن يعبد الله، أُمر أن يخلص له، أُمر أن يكون متفوِّقاً وتفوَّق، يعبِّر عن ذاته، يخاف إن عصى ربَّه عذاب يومٍ عظيم، هو قدوةٌ لنا، كل أمرٍ موجَّهٌ إلى النبي موجَّهٌ إلينا بالتبعيَّة:

(قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي* فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ)

هذا أمر:

(فَاعْبُدُوا)

فعل أمر، هل هذا أمر فقط؟ قال العلماء: هذا أمر تهديد، أي اعبدوا من شئتم وما شئتم وسوف تدفعون الثمن باهظاً، عندما يربط إنسان مصيره بإنسان آخر فهو يقامر بسعادته الأخرويَّة، هذا الذي عبدته من دون الله لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا رزقاً ولا حفظاً، ولا تأييداً ولا نصراً، وإن ملك من باب الافتراض قد لا يستجيب لك، وإن استجاب قد لا يسمعُك، فمثلاً شخص مليء يعطيك، لكن وأنت في وضعٍ حرج كأن تكون في مكان منقطع، فكيف تتصل به؟ لو اتصلت به ولم يستجب فماذا تفعل؟ إنك لم تستفد شيئاً، إذاً:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

[سورة فاطر: 14]

كل السعادة في معرفة الله وكل التوفيق في الاستقامة على أمره :

أما الإله فإذا آمنت أن ما سوى الله لا يملك لا النفع ولا الضرَّ، ولا الموت ولا الحياة، ولا الرزق ولا التوفيق، ما من مشروعٍ على وجه الأرض إلا ويحتاج إلى توفيق، ويؤتى الحذر من مأمنه، ولا ينفع ذا الجَد منه الجَد، أي في التعامل مع الله ليس هناك ذكي أو غير ذكي.. إذا أراد ربُّك إنفاذ أمرٍ أخذ من كلِّ ذي لبٍ لُبَّهُ..

((إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لبٍ لبَّه))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

إذاً أنت علاقتك مع الله وحده، حتَّى لو استطعت أن تنتزع من فم النبي حكماً لصالحك، ولم تكن محقّاً، لا تنجو من عذاب الله..

((.....وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه عن أم سلمة]

علاقتك مع الله فقط، فهو معك في بيتك، في غرفتك، في سفرك، في معاملاتك، في حساباتك، يمكن تضيف صفراً على السند وفلان في غفلة، فيصير المبلغ مئة ألف بدلاً من عشرة آلاف:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

معكم بعلمه، فإذا كنتم مؤمنين معكم بتوفيقه، مع كل مخلوقٍ بعلمه، أما إذا كنت مؤمناً به مستقيماً على أمره هو معك بالتأييد، والنصر، والتوفيق، والحفظ، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ كل السعادة في معرفة الله، كل التوفيق في الاستقامة على أمره، وانظر كيف أن الأمور تدور لصالح المؤمن:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

آيات كثيرة تؤكد أن الأمور تدور لصالح المؤمن :

آياتٌ كثيرة فيها:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة فصلت: 30-31]

(فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ)

أي اعملوا وكثِّروا، افعلوا ما تشاءون كل شيء بثمنه:

(فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

الإنسان يخسر بيتاً أحياناً لكن قد يعوِّضه، هناك تجَّار فلَّسوا خمس مرَّات، بعد التفليسة ينهض ويشتغل، فكل خسارة من الممكن أن نتلافاها، أو من الممكن أن نربح بعدها فهي ليست خسارة، لكن الخسارة الحقيقيَّة أن يخسر الإنسان ذاته، يقول لك واحد إنه فلَّس، فتقول له: الله كريم أنت خيرك للأمام، ما شي الحال، يرجع ويشتغل، يتدين مبلغاً، يتاجر، يربح، يوفي ديونه يتحسن حاله، أما إذا مات فقد انتهى.

أكبر خسارة أن تخسر ذاتك :

أكبر خسارة أن تخسر ذاتك، فما معنى خسارة الذات؟ عندما يأتي الإنسان إلى الدنيا ويغادرها دون أن يعرف الله، ودون أن يستقيم على أمره فقد خسر نفسه في الآخرة، أي أنه استحقَّ النار، فالإنسان حينما يخسر مكانه في الجنَّة، وأنت كإنسان خُلقت للجنَّة، فإذا لم تُؤمن خسرت هذا المقام في الجنَّة وهو أكبر خسارة، أكبر خسارة على وجه الأرض أن تخسر مقامك في الجنَّة، أي خسرت ذاتك، خسرت نفسك:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ)

فالله عزَّ وجل جعلك أباً، جعل لك زوجة، لك أولاد، لك بنات، لك أصهار، هؤلاء في الأساس من أجل أن يكونوا زادك إلى الله عزَّ وجل، من أجل أن تهديهم إلى الله، أن تعينهم على دينهم، فالكافر وجد نفسه أنه كان ضالاً مُضِلاً، فاسداً مُفْسِداً، منحرفاً وحمل ابنه على الانحراف، لذلك فوق مصيبته أنه ضال مُضل، تقول ابنته لرب العزَّة: يا رب لا أدخل النار حتى أُدخِل أبي قبلي، لأنه كان سببي.

فيوم القيامة ليست المشكلة مشكلتك وحدك، مشكلة الإنسان وذريَّته، ابنه علَّمه في مدارس أجنبيَّة، نشأ على الاختلاط، والانحراف، والزنا، لكن نال مرتبة دكتوراه، ولابنته قال كذلك: أنا لا أحب أن أقيِّد حريَّتها، أطلقتها، هي تقرر تتخذ قراراً بشأن مصيرها. أطلق لابنته حريَّتها ففسدت وأفسدت، فيوم

القيامة هؤلاء الأولاد الذين كانوا من الممكن أن يهتدوا إلى الله لو كان أبوهم مؤمناً ما زاغوا وما ضلوا، فأبوهم حملهم على الكفر.

والله حدَّثني شاب كان أبوه يدفعه إلى شُرب الخمر، وإلى ارتياد أماكن اللهو، وإن لم يفعل كان يعنِّفه، هذا أب؟! قال:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وأهليهم؛ خسر زوجته، أولاده، بناته، كلُّهم في ضلال، لأنه هو كان ضالاً مُضلاً، فاسداً مفسداً.

أثمن ما في الدنيا معرفة الله وطاعته :

الإنسان بعدما يتزوَّج تكبر مسؤوليته عن نفسه وعن أسرته، فمن الممكن أن تكون زوجته زاده إلى الآخرة إذا حملها على طاعة الله، إذا علَّم ابنه القرآن، إذا نشَّأهُ على حب النبي العدنان، إذا علَّمَهُ السيرة النبوية، إذا ضبط سلوكه، راقبه، وجَّهه، هذَّبه، نصحه، أكرمه، زوَّجه وهو في ريعان الشباب مبكراً، أما أن يقول: أخي أنا نِشأت عصامياً، وأحب أن يكون ابني عصامياً، فهل كلامه هذا آية أم حديث؟ صعب أن يكون عصامياً وحده، فأنت مقتدر وعليك زواج ابنك، أعرف أشخاصاً عندهم عشرات البيوت، وأولادهم يحتاجون إلى غرفه فلا يعطوهم، أنا نشأت عصامياً، وكل أب مقتدر ولا يزوِّج ابنه فسيُحاسب عند الله عزَّ وجل، وإذا ابنه زلَّت قدمه فهذا في صحيفة الأب، الأبوَّة مسؤوليَّة:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

هذه الخسارة الحقيقيَّة، أما أننا إذا فقدنا بيتاً، أو احترق بيت، احترق محل، تجارة فلَست، صفقة غرقت في البحر، فهذا الشيء يعوَّض، أما الخسارة الحقيقيَّة هي عندما يكتشف الإنسان أنه ضيَّع أثمن ما في الدنيا، لذلك قال بعض العارفين: " مساكين أهل الدنيا جاءوا إلى الدنيا وخرجوا منها ولم يعرفوا أثمن ما فيها ". أثمن ما فيها معرفة الله وطاعته، فالغنى والفقر بعد العرض على الله:

(لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ)

طبقات من النار:

(وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

ربنا يبيِّن لنا مشاهد الآخرة الآن :

هذه المشاهد ذكرها الله عزَّ وجل في القرآن قبل الأوان لتكون عبرةً لنا، كما لو سَرَّبنا الأسئلة لصالح الطلاب، انتبهوا لهذا الفصل، ربنا يبيِّن لك مشاهد الآخرة الآن، وهذا وضع الكافر في جهنَّم فاحذر:

(لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

أدركوا أنفسكم، أنقذوها، وكثيراً ما كنت أضرب هذا المثل: كنت مرَّة في العمرة، لي صديق حدَّثني بقصَّة جرت في بلاد العمرة، أن رجلاً من أطراف جدَّة، عنده أرض باعها لمكتب عقاري، هذا المكتب استغلَّ جهله وأخذها بثمن بخس، عمَّروها بثلاثة وعشرين طابقاً، أول شريك وقع من أعلى طابق فدقَّت رقبته، الشريك الثاني مات بحادث، الثالث فكَّر، أن الاثنين ماتا وانقصفا قصفاً، فبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر حتَّى وجده، ونقده الفَرق، وأخبروه أن أرضك ثمنها ثلاثة ملايين ونحن أخذناها بنصف مليون، أنا لي الثلث، هذا الفرق، وسامحني، فقال له هذا البدوي: " ترى أنت لحَّقت حالك".

فيا أيها الأخوة، أدركوا أنفسكم وأنقذوها قبل فوات الأوان، الذي عليه ذمم سابقة فيها حسابات غير مضبوطة، أو أكل مالاً حراماً، أو وضع يده على محل ليس له، الآن الحياة فيها بحبوحة، ما دام القلب ينبض الأمور تُحَل، لكن بعدما يموت الإنسان انتهى كل شيء، وبالموت يُخْتَم عمله ويحاسب حساباً عسيراً:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ*لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (08-20): تفسير الآيات: 16-20، البشرى والعبادة الخالصة لله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-03-05

بسم الله الرحمن الرحيم

الخسارة الحقيقية هي التي تبدأ بعد الموت :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثامن من سورة الزُمَر، ومع الآية السابعة عشرةَ من هذه السورة، يقول الله عزَّ وجل بعد أن حدثنا في هذه السورة الكريمة عن العبادة الخالصة لوجهه الكريم، فقال جل شأنه:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

كما قلت في الدرس الماضي: أشد أنواع الخسارة الخَسارة التي ليس بعدها تعويض، والخسارة الحقيقية التي يخسرها الإنسان في وجوده، حينما يشعر ساعة فراق الدنيا أنه خسر الدنيا وخسر الفرصة الوحيدة التي كان من الممكن أن يستغلها ليسعد إلى الأبد، فهذه هي الخسارة، أما لو خسر ماله كله، لو خسر مسكنه، لو خسر أحد أكبر مقوِّمات حياته، هذه خسارةٌ تعوَّض، وخسارةٌ تنتهي عند الموت، ولكن الخسارة الحقيقية هي التي تبدأ بعد الموت، الخسارات التي يعانيها البشر مهما عظمت تنتهي عند الموت، لكن خسارة الدار الآخرة تبدأ بعد الموت، فشتانَ بين الخسارتين، أن تخسر كل شيء، وألا تملك شيئاً، بل يعاني الإنسان من عذابٍ لا ينتهي هذه خسارة، أما أن يخسر شيئاً ويأتي الموت فينهي هذه الخسارة فهذه ليست خسارة.

العمل من لوازم العقيدة الصحيحة :

صار المعنى أن الإنسان إذا لم يُدخل موضوع الموت في برنامجه اليومي فقد ضل ضلالاً مبيناً، وإذا تصرَّف على أن هذه الحياة هي كل شيء، وقد بيَّنت في الدرس الماضي هذه النقطة الدقيقة، فدعونا من الأوهام، أو مما يعتقد بعض الناس، السلوك اليومي إما أن يؤكِّد أنك مؤمن بالدار الآخرة أو لا يؤكِّد، فالذي يتصرف على أساس أن الدنيا هي كل شيء، وإذا اعتدى على أموال الناس وكأن الله غير

موجود، فهناك تصرُّفات تؤكّد عدم الإيمان بالله، وهناك تصرفات تؤكد عدم الإيمان باليوم الآخر، فالعقيدة الصحيحة هي العقيدة التي تنقلِب إلى عمل، أو العقيدة التي يؤكّدها العمل، فالعمل من لوازم العقيدة الصحيحة، والعمل أيضاً يؤكّد العقيدة الصحيحة. ماذا في الآخرة؟

(لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

الظلل أي الطبقات، أي طبقاتٌ من النار من فوقهم، وطبقاتٌ من تحتهم، وهي طبقاتٌ بعضها فوق بعض، والإنسان في الدنيا يشعر بألم الحريق، يبقى أياماً معدودات لا يطيق هذا الألم، والحريق في الدنيا مس وليس حريقاً مباشراً، وليس بقاءً في الحريق إلى ما شاء الله، بل لحظات فهذا كلام الله عزَّ وجل، والله جل جلاله يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

أي كيف يصبرون على هذه النار المحرقة؟!!

الاثنينية واضحة والله عزَّ وجل جعل الحياة مثانيَ والقرآن مثاني :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا)

الطاغوت صيغة مبالغة من طغى، والطاغوت هنا هو الشيطان، والإنسان بشكلٍ أو بآخر إما أن يتَّبع وساوس الشيطان، وإما أن يهتدي بإلهامات الملائكة، فالإنسان رحماني أو شيطاني، إما مع الحق رحماني، أو مع الباطل شيطاني، مع الشهوة شيطاني، مع المبدأ رحماني، مع الإحسان رحماني، فمع الإساءة شيطاني، مع الإخلاص رحماني، مع الخيانة شيطاني، فهذه الاثنينية واضحة والله عزَّ وجل جعل الحياة مثانيَ، والقرآن مثاني، أهل إيمانٍ وأهل كفرٍ، أهل حقٍ وأهل باطل، أهل إحسانٍ وأهل إساءةٍ.

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)

أيضاً في هذه الآية دعوة إلى اجتناب سلوك سلبي، والإقبال على الله عزَّ وجل بكل سلوك إيجابي، فالمؤمنون من خصائصهم ومن لوازمهم أنهم يجتنبون الطاغوت أن يعبدوها، والعبادة كما مرَّ بنا من قبل هي: غاية الخضوع مع غاية الحُب، فالجهة التي تخضع لها والتي تحبها تعبدها وأنت لا تدري، ولو كان لسانك موحداً، فإذا أمرك إنسان بمعصيةٍ فخضعت له وأحببته، وبقي حبه في جوانحك أمداً طويلاً، فهذا الحُب وهذا الخضوع هو العبادة، فالجهة التي تستحق العبادة في الكون هي الله عزَّ وجل،

فإذا اتجهت إلى مخلوقٍ مما سوى الله ومحَّضته حبك وخضوعك واستسلمت له فأنت تعبده وأنت لا تدري، إذاً المؤمنون يجتنبون الطاغوت أن يعبدوها.

في الآية التالية بشرى يسوقها الله لعباده :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)

في هذه الآية بشرى يسوقها الله لعباده، والقرآن الكريم فيه بشارات للمؤمنين، فالمؤمن إذا قرأ القرآن وقرأ ما وعد الله به المؤمنين يستبشر ويطمئن، لكن هناك بُشرى من نوع آخر، هو أن المؤمن يشعر شعوراً واضحاً مركزاً أن الله سبحانه وتعالى أعد له خيراتٍ كثيرة في الدنيا والآخرة، هذا الشعور يجعله يطمئن ولو كان واقع المؤمن بعيداً عن شعوره، لكن ما دام الله عزَّ وجل قد طمأنَهُ بعطاءٍ في الدنيا وعطاء في الآخرة، هذا يعطيه ما يسمَّى في التعبير الحديث " معنويات مرتفعة "، فالبشارة هذه قولية من كتاب الله عزَّ وجل، ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي بشارةٌ نفسية في إشعار المؤمن أنه مكرمٌ عند الله عزَّ وجل، وأن عطاءً كثيراً ينتظره في الدنيا وبعد الدنيا.

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ)

أي عادوا إليه، ناب وأناب بمعنى رجع، أناب إلى الله بمعنى رجع إلى الله:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان:15]

أي اتبع سبيل من عاد إلى الله، كيف يعود الإنسان إلى الله عزَّ وجل؟ أي أنه كلما عرض له موقف يرجع إلى حكم الله فيه، هذا معنى العودة، واجه مشكلة في بيته، في تجارته، في عمله، في قبض المال، في إنفاق المال، في إرواء بعض الشهوات، في أي نشاط؛ نفسي، اجتماعي، جسمي، عقلي، هذا النشاط يعود بنفسه إلى حُكم الله في هذا الأمر، سمع قصةً يعود إلى القرآن، قرأ مقالة عن أن هذا الدواء يُطيل العمر، يعود للقرآن لِيجد أن عمر الإنسان لا يزيد ولا ينقص، وفي عقيدته، وفي سلوكه، وفي نشاطاته وفي كل أحواله، يعود إلى حُكم الله في كتاب الله، وليس من صفات المؤمن أنه إذا رأى حكماً لله عزَّ وجل ابتعد عنه، لقول الله عزَّ وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

الآية التالية تحمل عدة معانٍ :

الشيء الدقيق حقاً - الآن دخلنا في لُبّ الموضوع - الشيء الدقيق أنك عبد، العبد جاهل والله هو الذي يعلم، العبد فقير والله هو الغني، العبد ضعيف والله هو القوي، جاءك خطاب من الله هو القرآن الكريم، فموقف العبودية أن تعود إلى هذا الكتاب في كل أمر يعرض لك، فهُمُّ المؤمن الأول أن يتحرَّى أمر الله عزَّ وجل ليقيِّمَهُ، بعد أن عرف الله، واطمأنت نفسه لوجود الله، ولكمال الله، ولوحدانية الله، ولأنه رب العالمين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، بعد أن اطمأنت نفسه له همٌ واحد، في كل حركة، في كل سكنة، في كل تصرُّف، في كل إقدام، في كل إحجام يعود إلى أمر الله، هذا معنى:

(وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ)

أي عادوا إليه ليعرفوا أمره ونهيه في كل أحوالهم، هذا معنى.

المعنى الثاني: عاد إليه بمعنى أقبل عليه، لو أن الإنسان كان أمام عِدّة أشخاص، ثم تركهم جميعاً واتجه لشخصٍ آخر، نقول عاد إلى فلان، ترك هؤلاء وعاد إلى فلان، فأناب تحمل معنى الرجوع إلى حكم الله، القرآن هو الحَكَم، هو الفَيْصَل، هو الدستور، هو المنهج، هو القاعدة، هذا إذاً رجوع.

فمثلاً لاحظ موظفاً حريصاً على منصبه، ويريد أن يبت في أمر في معاملة ما، فالقوانين كلها في مكتبه، فإذا شك في قضية يقول لصاحبها: انتظر وتعال غداً، فيعود إلى القوانين السابقة يطالعها، هذا المواطن حينما طلب منه هذه الموافقة سأل الموظف نفسه عندئذٍ: يا ترى سمحت بها القوانين؟ أيُسْمَح للمدير العام أن يوافق أم لا ؟ فالإنسان الحريص على سلامة قراراته يعود إلى التشريعات الثابتة، والمؤمن الحريص على سلامة علاقته مع الله عزَّ وجل كلما عرض له أمر يعود إلى حكم الله فيه، إذاً كل إنسانٍ لا يُبالي كثيراً في حكم الله عزَّ وجل، فهذا إما من ضعف إيمانه أو من انعدام إيمانه، أما المؤمن فقد أناب إلى الله.

المؤمن يعود دائماً إلى الثوابت والقرآن هو الثابت :

قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

وإليك آية أخرى:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان:15]

عاد إلّي، فالقضاة أحياناً كثيرة يعودون إلى نصوص القوانين يراجعونها، الأطباء كذلك، يأتيهم مريض، فبعض الأطباء وأنا أعرفهم كثيراً ما يعود إلى المراجع أمام المريض، ليصفوا له هذا الدواء، فهذا الدواء أله تأثيرات جانبية؟ فيعود الطبيب إلى مراجعه ليكتب الوصفة بشكل صحيح، فالطبيب الحريص على سمعته وعلى أداء واجبه أداءً طيباً، يعود دائماً إلى المراجع المُعتمدة في تشخيص المرض ووصف الدواء، والقاضي الحريص على سلامة حكمه يعود دائماً إلى اجتهادات محكمة النقض، ليرى ما إذا كان هذا الحكم موافقاً لاجتهادات المحكمة أم ليس موافقاً، فهذه العودة، وأن تعود إلى المراجع الثابتة، أن تعود إلى الثوابت، وربنا عزَّ وجل قال في كتابه:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

[سورة إبراهيم:27]

من معاني هذه الآية أن القرآن هو القول الثابت، أي أنه كلامٌ قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، فيه الحق هو الفَيْصَل، هو الحَكَم، هو الرأي الصحيح، إن الحكم الصحيح في القرآن الكريم فقط، إذاً المؤمن يعود دائماً إلى الثوابت والقرآن هو الثابت، فأي قضيةٍ، أية فكرةٍ، أية مقالةٍ، أية خطبةٍ، أية نظريةٍ، أي مذهبٍ عرض له أو قرأه، يرجع إلى القرآن فيقبلها أو لا يقبلها، إذاً:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ)

أنابوا أي عادوا في كل ما يعترضهم من أحكام ومن نظريات ومن مبادئ عادوا إلى كتاب الله، و"أنابوا" بالمعنى الثاني: أنه عاد إلى الله مقبلاً عليه.

الله عزَّ وجل جاء بنا إلى الدنيا من أجل أن نعمل عملاً يصلح للعرض عليه :

وقد ذكرت اليوم في الخطبة مما يمس هذا المعنى: أن الإنسان لماذا ينفق؟ لأن الله عزَّ وجل خلق الإنسان ليسعده، فلو أردت أن تسقي نبتةً - مثل بسيط - فهذا الماء الذي تُلقيه على النبتة أيتناسب مع كرمك أم مع قوة احتمال النبتة؟ ولو أن إنساناً عنده نبتة صغيرة فصب عليها ماء غزيراً دافقاً، فقد أتلفها، يا ترى الماء الذي ينبغي أن أعطيه لهذه النبتة يتناسب مع كرم المُعْطِي أم مع احتمال المُعْطَى؟ لا شك مع احتمال المُعْطَى.

فالإنسان جاء إلى الدنيا من أجل ماذا؟ من أجل أن يؤهِّلَ نفسه لعطاء الله عزَّ وجل، كيف يؤهِّل الإنسان نفسه لعطاء الله؟ بالعمل الصالح، ضربت من قبل مثلاً قريباً، لو تصورنا قائد جيش، وعنده مجنَّد، فبين رتبة المجند ورتبة قائد الجيش مسافةٌ كبيرةٌ جداً، ربما كان الضُبَّاط الأُمَرَاء لا يستطيعون أن يقابلوه، وإذا أرادوا وأصروا هناك إجراءات طويلة وطلبات، وعلى رؤسائهم أن يعلّقوا على هذه الطلبات، لكن جندياً أنقذ ابن هذا القائد من غرقٍ مُحَتَّم، وضَحَّى وخاطر بحياته لينقذ ابنه، هذا العمل الذي فعله المجنَّد

يجعله يدخل عليه في أية لحظة، ما إن يقول هذا الجندي للحاجب قل للقائد: فلان بالباب. حتى يقال له: تفضَّل. ما الذي جعل هذا الجندي يدخل إلى صاحب هذه الرُتبة العالية جداً متى أراد ومتى شاء؟ ما الذي جعله؟ عمله الطيِّب.

هذا المثل يمكن أن يوَسَّعَ قليلاً، فالله عزَّ وجل جاء بك إلى الدنيا من أجل أن تعمل عملاً يصلح للعرض على الله، من أجل أن تعمل عملاً بإمكانك أن تقبل به على الله، فهذه (أنابوا إلى ربهم) أي عملوا أعمالاً صالحة استطاعوا بها أن يقبلوا على الله عزَّ وجل، والله عزَّ وجل غني، غنيٌ عنا جميعاً ولكنه يحب التوابين ويحب الصالحين.

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً))

[مسلم عن أبي ذر]

فكيف تتقرب إلى الله وهو الغني عن كل أعمالك؟ تتقربُ إليه بخدمة عباده، هؤلاء كلهم عباده، فإذا خدمتهم، أطعمتهم، أنفقت عليهم، دللتهم على الله، ترأفت بهم، أنصفت في حقهم، قرَّبك الله إليه، فهذا توضيح للمثل، إذ بإمكان هذا المُجَنَّد الصغير أن يدخل على هذا القائد الكبير متى شاء، لماذا؟ لأنه كاد أن يضحي بحياته من أجل إنقاذ ابن هذا القائد، هذا العمل العظيم يجعله يقبل على قائده متى شاء.

المؤمن وقَّاف عند كتاب الله ولا يتحرك عشوائياً :

هذا المثل لو أردنا أن نوسعه وأن نطبقه على علاقة المؤمن بربه، أعماله الصالحة كلها من أجل أن يكتسب ثقة الله لِيحبُّه، هذه الثقة التي هي كنزٌ عظيم كما وصفها النبي الكريم، هذه الثقة برضاء الله عنك هي التي تعينك على الإقبال على الله، هي التي تدفعُك إلى الاتصال به، إذاً معنى أنابوا إلى الله، أي عملوا أعمالاً صالحة أقبلوا بها على الله، هذا المعنى الثاني. والمعنى الأول: أنابوا إلى الله كلما اعترضهم أمرٌ قال: قفوا لنسأل القرآن عن حكمه في هذا الشيء، فالمؤمن ليس شارداً، ليس دابةً غير منضبطة، إنه إنسان مكرَّم، تحكمه الشرائع، تحكمه القيَم، تحكمه المبادئ، فالقرآن قَيَّدَ المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه، لذلك قيل عن سيدنا عمر: كان وقَّافاً عند كتاب الله، يروى أن عبداً أساء إساءة بالغة لسيده، فلما غضب سيده، قال العبد: يا سيدي لقد قال تعالى:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

[سورة آل عمران: 134]

قال: قد كظمت غيظي، قال العبد:

(وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)

[سورة آل عمران: 134]

قال: قد عفوت عنك، ثم قال العبد:

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة آل عمران: 134]

قال: أنت حرٌ لوجه الله، فالمؤمن وقّاف عند كتاب الله، لا يتحرك عشوائياً، لا تحركه شهواته، ولا أحقاده، ولا مزاجه العصبي، تحركه مبادئ الشرع، لهذا ترى الناس يطمئنّون للمؤمن، لا يخافونه، وفي الحديث القدسي: يا موسى خفني وخف نفسك وخف من لا يخافني، المؤمن لا يخافك ولا يخيفك، لا يخاف إلا الله، إذاً لا تخف منه لأنه مقيَّد بالشرع، لن يأكل مالاً حراماً، لن يغشّك، لن يكذب عليك، فلو سألت المؤمنين إذا تعاملوا مع مؤمن يرتاحون له أشدَّ الراحة، هذه الراحة نابعة من أنهم واثقون من استقامته، ومن خوفه من الله، ومن وقوفه عند كلام الله.

البشرى نصِّية نصّ عليها القرآن والسنة الشريفة :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى)

البُشرى كما قلنا: بشرى نصِّية نص عليها القرآن والسنة الشريفة، يقرأ آيةً فيها بشرى..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: 30]

وهذه بشرى..

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: 55]

وهذه بشرى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

وهذه بشرى رابعة:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

هذه بشرى.

البشرى نصية ونفسية :

البشرى نَصِّيَة، وهي في الوقت نفسه بشرى نفسية، تجد المؤمن مرتاحاً، فمعنوياته عالية جداً، وشعوره أن الله يحبه ويغنيه عن كل شيء، فهو غني ولو كان فقيراً، والغني غير المؤمن فقيرٌ ولو كان غنياً، المؤمن مطمئنٌ ولو أحدقت به الخطوب، وغير المؤمن خائفٌ ولو ملك كل أسباب القوة، شيء عجيب، هذا العجيب هو المؤمن مطمئن، وجميع الخلق أحياناً يتنكرون له لأنه على حق، والكافر بيده أسباب كل القوى ومع ذلك خائف، قلبه فارغٌ من الأمن، بل ممتلئٌ رُعْبَاً، المؤمن الفقير غنيٌ في نفسه مع أنه فقير في يديه، غير المؤمن فقير في نفسه، ولو كان غنياً فيما بين يديه.

(فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ)

البشرى إذاً نصيةٌ ونفسية، والإنابة؛ عن طريق الرجوع إلى أحكام الشريعة هذه إنابة أولى، وعن طريق الإقبال على الله على أثر العمل الصالح هذه إنابة ثانية، وهؤلاء المؤمنون الصادقون:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)

لهم صفةٌ أخرى:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

أي إذا الله عزَّ وجل وصف الدنيا ووصف الآخرة، يتَّبعون طريق الآخرة، وصف أهل الجنة ووصف أهل النار، يسلكون سبيل أهل الجنة وأحسن القول، أمر ونهى، يأخذ بأمر الله ويدع ما نهى الله عنه، فحينما يخيَّر بين شيئين يختار أرضاهما لله عزَّ وجل.

المؤمن كلما عرض له شيئان يختار أقربهما وأرضاهما لله عز وجل :

قال تعالى:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

من أبسط معاني هذه الآية إذا الله عزَّ وجل أمر ونهى، فالعبد حينما يتَّبع الأمر اتَّبع أحسن القول، وحينما اجتنب النهي انتهى عن أسوأ القول، وإذا الله وصف أهل الجنة وأهل النار، يتبع سبيل أهل الجنة، وإذا الله عزَّ وجل وصف السابقين السّابقين ووصف أهل اليمين يسلك سبيل السابقين، كلما عرض له شيئان يختار أقربهما إلى الله عزَّ وجل وأرضاهما لله.

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

الاستماع سهل، كلكم يستمع وأنا أستمع معكم أحياناً، والتكلُّم أيضاً سهل، وكلكم له لسانٌ طليقٌ في الدعوة إلى الله، لكن العبرة أن كل مستمعٍ لا جدوى من استماعه إن لم يُطبِّق الذي استمعه، وكل متكلمٍ

لا جدوى من كلامه إلا إذا طبَّق ما يقول، فما كل مستمع مرضيٌ عند الله عزَّ وجل، وما كل متكلمٍ مرضيٌ عند الله عزَّ وجل، لا المتكلم يرقى بكلامه ولا المستمع يرقى باستماع، ولكن المستمع إذا اتَّبع:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

إذا اتبع أحسن القول هذا هو المستمع المثالي الذي أراده الله عزَّ وجل.

المستمع المثالي هو الذي يتبع أحسن القول :

كذلك في آية أخرى يشير الله عزَّ وجل إلى أنَّك إن لم تلتزم بما استمعت فلست عند الله مستمعاً، الآية الكريمة:

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ)

[سورة الأنعام: 36]

وفي آية أخرى أيضاً يؤكِّد هذا المعنى فبعضهم يستمع ولكنه لم يسمع، أجل استمع ولم يسمع، كيف؟ كنت أضرب على هذا مثلاً، أنك لو قلت لأحد: إن على كتفك عقرب. فقال لك: أنا شاكر لهذه الملاحظة، وأنا مدين لك بالفضل لهذه البادرة الطيِّبة التي ذكرتها لي، وأنت إنسان كريم وفاضل. ولم يبادر لإزاحة العقرب التي على كتفه؟! معناها أنه لم يفهم ماذا قيل له، ما دام يجامله وهو هادئ ومرتاح، ويثني على ملاحظته القيِّمة، وعلى مبادرته الطيِّبة، فهذا لم يستمع لم يفهم قول القائل، فالمعنى أن الاستماع ليس أن تُصْغي والدليل:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

[سورة التحريم: 4]

علامة الإصغاء هو السلوك:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

[سورة التحريم: 4]

فإذا كان إنسان بحاجة ماسة لبيت، وبلغه أن هناك بيتاً ثمنه مئتا ألف، وهو يبحث عن بيوت من شهرين وأقل بيت بخمسمئة ألف، فالبيت بمئتين، لكن الدلال بالمخيم مثلاً وهو ساكن بالمهاجرين، والمواصلات سَيِّئة جداً، فلما يعلم أن هذا البيت ثمنه مناسب جداً ويخاف أن يسبقه أحد، فهو حينما يتوجه على قدميه مشياً إلى صاحب البيت، هذا دليل على أنه فهم الموضوع تماماً، فكل إنسان يتحرَّك بعد الاستماع يعني أنه قد سمع، وكل إنسان لا يتحرك فالمعنى أنه لم يسمع ولو أبدى إصغاءً مثالياً، ولو أثنى وشكر وقال: تباركنا واستفدنا.

أجمل ما في الآية أنك إن تبت إلى الله عزَّ وجل فقد صغى قلبك إلى هذا الحديث :

أحياناً تُجالس إنساناً تقول له: هذه حرام، وهذه حلال، وآخرة، وجنَّة. تجده يقول: والله تباركنا، والله كأن النبي زارنا عندما تكرمت بهذه الزيارة يا سيدي، الله يبارك فيك ويخليك لنا. ولا تجده مغَيِّراً شيئاً من أفعاله؛ دخلٌ حرام، واختلاطٌ، ولكن لسانه أحلى من العسل، فهل هذا استمع؟ والله لم يستمع إطلاقاً. وأحياناً الإنسان يستمع إلى محاضرة، إلى خطبة جمعة، إلى درس تفسير، إلى درس فقه، إلى درس سيرة، فالمقياس الدقيق الدّقيق أنه إذا لم يستجب بعد هذا الاستماع فهو لم يستمع، فقط موجات صوتية لامست غشاء الطبل، والغشاء تحرَّك، ونقل أصواتاً مُقَطَّعَة إلى الدماغ، بينما هو يغط في أحلام أخرى، أما قوله تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

[سورة التحريم: 4]

أي إذا تُبت فقد سمعت، وإلا فأي شيءٍ تسمعه؛ محاضرة، درس تفسير، درس سيرة، درس حديث، إذا كنت قد أثنيت على المتكلم، وعلى علم المتكلم، يا أخي ما هذه الطلاقة؟! واستفدنا، وتأثرنا، وخشعت قلوبنا، ونسأل الله أن يجزيه الخير. وأنت أنت لا غيرت ولا بدَّلت، دخلك دخلك، إنفاقك إنفاقك، علاقاتك علاقاتك، غيبتك غيبتك، لم تغير شيئاً، فهذا هو عدم الاستماع، وأجمل ما في الآية أنك إن تبت إلى الله عزَّ وجل، فقد صغى قلبك إلى هذا الحديث، وإن لم تتب فأنت لم تستمع ولو وقفت الموقف الأمثل في الاستماع.

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

الاستماع الحقيقي والإصغاء الحقيقي هو الذي يتبعه عمل :

فالإنسان قبل أن ينام ينبغي أن يُحاسب نفسه حساباً عسيراً، فقد استمعت اليوم إلى خطبة، والخطيب قال: أن أي مبلغٍ تنفقه الله جلَّ جلاله يعوضه عليك، وأي مبلغٍ تنفقه يعلمه الله، وذكر الخطيب حول الإنفاق الشيء الكثير، إن لم تنفق فلم تستمع إلى الخطبة ولو حضرتها، ولو كتبت بعض الفقرات والآيات، ولخَّصت، وحدثت بها الناس مراراً، وقلت: أنا سجَّلتها كلها عندي بنقاطها الدقيقة، الموضوع شامل، الخطيب استوعب الموضوع بكامله. خير إن شاء الله، فأنت فلم تنفق شيئاً؟ إذاً أنت لم تستوعب الموضوع، هذه النقطة الدقيقة:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

إن طبَّقت، معناها استوعبت، إن طبَّقت، معناها استمعت، إن طبَّقت، معناها أصغيت، الاستماع الحقيقي الذي يتبعه عمل، الإصغاء الحقيقي الذي يتبعه عمل، التأثُّر الحقيقي الذي يتبعه عمل.

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

بالمناسبة بين الاستماع وبين التطبيق كما بين لفظ ألف مليون وامتلاك ألف مليون، المسافة بين الاستماع وعدم التطبيق وبين الاستماع والتطبيق هي المسافة نفسها بين أن تقول: ألف مليون ولا تملكها وبين أن تقولها وتملكها، هذه المسافة، قال:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

لهذا فالعلماء فرَّقوا في أمة محمد بين أمة التبليغ وأمة الاستجابة، فهذا الوهم الذي شاع بين المسلمين أنهم أمة محمدٍ وهي أمة مرحومة، من قال لك: إن أمة محمدٍ كلها مرحومة؟ من قال لك ذلك؟ المرحومة المستجيبة والدليل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

كنتم. أي أنتم يا أمة محمد، فمعنى كنتم بمعنى أصبحتم، أي أصبحتم:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

ما نريده هو إسلام ملتزم لا إسلام شكلي :

طبعاً هذه الآية مكتوبة على مقر جامعة الدول العربية في القاهرة، كتبوا آيتين، الأولى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)

[سورة آل عمران: 103]

والثانية:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

والله شيء جميل، آيتان هما محورا هذه الجامعة، لكن أكمل تلاوة الآية:

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران: 110]

فإذا أمرت هذه الأمة بالمُنكر ونهَت عن المعروف، فماذا بقي من خيريَّتها؟ لم يبق شيء، كلام ربنا واضح، فالإنسان عندما يتمسَّح بألفاظ لا تعني شيئاً، يذكر آيات هو بعيد عنها، أحياناً تجد على واجهة المحل التجاري:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

خيرٌ إن شاء الله، فهل الغلَّة هي الفتح؟ أو يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، في الداخل كذب، وغش، واحتيال، ولديهم تدليس بالبيع، وعندهم بضاعة محرَّمة، ويحلفون أيْمَاناً كاذبة، ما قيمة:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

مع كل هذه المخالفات؟ أو أحياناً يضع السائق المصحف على مقدِّمة السيَّارة ويسب بالدين طول النهار، ما قيمة هذا؟ قلنا إن هذه النماذج البشعة القذرة بالحياة سوءة بين المسلمين، فنحن نريد مسلماً ملتزماً.

فرق كبير بين أمة التبليغ وأمة الاستجابة :

إذاً نحن خير أمةٍ إن أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، فإذا أمرنا بالمُنكر ونهينا عن المعروف فلسنا خير أمةٍ، ولسنا من أمة محمدٍ المرحومة، أمة محمدٍ المرحومة هي أمة الاستجابة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم)

[سورة الأنفال: 24]

أما أمة التبليغ، أي أن كل طالب أخذ شهادة ثانوية وتبلَّغ فروع الجامعة وعلاماتها فهل صار يحمل ليسانس؟! لا، تبلغ أن العلامات الفلانية تؤهله دخول كلية الطب، الفلانية هندسة، الفلانية صيدلة، الفلانية حقوق، آداب، تبلَّغ العلامات، ولكن لم ينتسب للجامعة، ولا داوم، ولا درس، ولا قدَّم فحص، ولم يأخذ ليسانس، فنحن نقول: هل كل واحد تبلَّغ قرار إدارة الجامعة بعلامات الكليَّات صار مجازاً؟ لا، ما صار مجازاً وهو مازال طالباً في الثانوي، أما الذي يدخل للجامعة ويستجيب، ويدرس، ويقدم فحصاً، وينجح هذا صار مجازاً، فالميِّزات لا لمن بلَّغوا قرار الإدارة، بل لمن اجتازوا فحص الليسانس، فالنقطة دقيقة جداً، هكذا انتماء شكلي، انتماء تاريخي لهذه الأمة، أصبحنا أمةً مرحومة بلا عمل، بلا انضباط، بلا استقامة، هذا شيء لا يكون ولن يكون.

البطولة في الإسلام الالتزام :

قال تعالى:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

لذلك فرِّق بين إنسان له ثقافة إسلامية وبين إنسان مهتدي إلى الله، المهتدي شيء، والمثقَّف ثقافة إسلامية شيء آخر، فقد عُقِد مؤتمر إسلامي فقال لي أحد الحاضرين، وهو قد عقد المؤتمر في آسيا، وأذَّنَ المغرب ثم العشاء وبعض الحضور لم يصلوا المغرب، فهذا يعني أنه عضو فخري، أو عضو فكري فقط. وانتماؤه للإسلام انتماء وراثي.

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)

[سورة النساء: 103]

أحياناً إنسان يحمل فكراً إسلامياً لكنه لا يصلي، يحمل فكراً إسلامياً ولكن دخله حرام، يحمل فكراً إسلامياً لكنه ليس ملتزماً بالإسلام، فالبطولة الالتزام:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)

أولو الألباب، أرجو أن تتصور معي علبة فخمة جداً مغلفة بورق هدايا ثمين، وعليها شريط حريري معقود ببراعة ومهارة، فهذه العلبة مظنة شيء ثمين، عقد ألماس مثلاً، أو ساعة ذهبية، أو أقلام فاخرة جداً، أن فيها شيئاً ثميناً، سبائك ذهبية، فلما فتحتها لم يكن فيها شيء، فليس فيها لُب، فالإنسان قد يكون له مظهر فقط، ولكنه من داخله خواء.

الهدى استقامة :

القصة معروفة: دخل رجل طويل القامة عريض المنكبين، يرتدي زياً فخماً مفخماً إلى مجلس علم، وكان المتكلِّم يشكو ألماً مُمضَّاً في رجله وحوله تلامذته، وقد مد رجله لعذرٍ بالغ، والنبي عليه الصلاة والسلام ما مد رجليه قط، والدرس كان عن صلاة الفجر، فلما دخل عليه - والقصة تروى عن أبي حنيفة - استحيا وثنى رجله، فلما انتهى الدرس سأله وقال: يا سيدي كيف نصلي إذا طلعت الشمس قبل الفجر؟ قال أبو حنيفة: عندئذٍ يمدُّ أبو حنيفةٍ رجله. فطبعاً إذا ما كان كلام الإنسان سديداً يسقط من نظر الآخرين:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

الهدى استقامة، فليس الهدى فلسفة وتنطُّع، وليس الهدى صف كلام.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

فرِّق بين الثقافة وبين الهدى، عليك أن تبحث عن الهدى، وأنا أقول لأخواننا دائماً: تريد الفتوى أم التقوى، فلكل معصية فتوى - فالأمور مدبَّرة - أية معصيةٍ هناك من يفتي بأنها حلال، تريد التقوى، استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك، البطولة بالتقوى، بتقوى الله عزَّ وجل، إذاً:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

انظر (الذين) من هم؟

تعريف المهتدي :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا)

أولاً ابتعد عن كل مظان المعصية:

(وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ)

في عقيدتهم وفي أحكامهم وفي إقبالهم:

(لَهُمُ الْبُشْرَى)

بشرى نصيحة أولاً بنصِّ القرآن ثم بشرى نفسية:

(فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ)

اجتنبوا الطاغوت، وأنابوا إلى الله، واستمعوا القول، واتبعوا أحسنه:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)

إذاً من الممكن أن نعرف المهتدي بأنه إنسانٌ ابتعد عن المنكر كلية، وتقصَّى أمر الله في كل أحواله، وعمل صالحاً، وأقبل على الله، وما خُيِّرَ بين شيئين إلا اختار أرضاهما لله عزَّ وجل، هذا المهتدي. ممكن إذاً أن تعرِّف المهتدي بالتعريف التالي: استقامة تامة، أعمال صالحة، اتصال بالله، ابتغاء مرضاة الله، هذا المهتدي بنص هذا القرآن الكريم:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)

الآية من الآيات الأساسية في نفي مفهوم الشفاعة الساذج الذي يعتقده مُعظم الناس :

أما إذا لم يجتنب الإنسان الطاغوت؛ بل كان مع طواغيت الإنس والجن، تعامل معهم، واستجاب لهم، وائتمر بأمرهم، وفعل ما يريدون، وأرضاهم وأسخط الله عزَّ وجل، هذا جانب أول، أما الجانب الآخر فهو لم يعد إلى الله في أحكامه، بل اتبع أهل الدنيا، اتبع أهل الضلال، اتبع الأحكام الوَضعية، اتبع مصالحه المادية، لم يُنِب إلى الله بل أناب إلى مصالحه، وحينما يستمع القول يتبع أحسنه للدنيا، إذا خُيِّرَ بين أمرين دنيوي وأخروي، اختار الطريق الدنيوي، فعن هؤلاء قال تعالى:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

أيها الأخوة، هذه الآية من الآيات الأساسية في نفي مفهوم الشفاعة الساذج الذي يعتقده مُعظم الناس، نعم أقول المفهوم الساذج لدى الكثيرين، الشفاعة حق ولتعلم أن بمفهومها الصحيح، وقد وردت في الكتاب والسُنة لكن بمفاهيم دقيقة جداً، فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يشفع إلا لمن مات غير مشركٍ بالله، لا شركاً خفياً ولا جَلياً، فإنسان دخل الجامعة، ودرس، قد تأتيه بعض المُساعدات، قد تأتيه بعض المكافآت، بقي له علامتان لينجح، هناك قرار بإضافة هاتين العلامتين، فما دمت أنت في الجامعة لك ميِّزات كثيرة منها المساعدة أو قل: الشفاعة، أما إذا لم تنتسب أصلاً فهذه الآية واقع عليك حكمها ونافذٌ بك:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

شفاعة النبي محمد ينالها المؤمنين الصادقين :

إذا كنت خارج الجامعة كلياً، ميزات الكتب المجَّانيَّة ليس لك الحق فيها، مساعدتك بعلامتين كي تنجح ليس لك حق بهما، اللباس المجاني ليس لك فيه حق، ارتياد المكتبة والاستعارة منها ليس لك حق فيها، وكثير من الميزات لا ينالها إلا من كان ضمن الجامعة، فإذا كانت الشفاعة من بعض الميزات التي خَصَّ الله بها النبي ليشفع للمؤمنين، إذاً لا ينالها إلا المؤمنون الصادقون، أما أن ينالها شاربو الخمر، ومرتكبو الحرام، أصحاب الدخل الحرام، يريدون كل ما يفعلون ويتَّكلون على شفاعة النبي لهم يوم القيامة، فهذا هو الحمق بعينه، وإجابة هؤلاء هذه الآية:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

أفأنت - يا محمَّد - تنقذ من في النار. طبعاً هذا استفهام إنكاري، أي أنت لا تنقذه، ولا تستطيع إنقاذه:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ* لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا)

الذين عبدوا الطاغوت:

(لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

مشهد آخر من مشاهد أهل الجنَّة :

لكن الذين اتقوا، مشهد آخر من مشاهد أهل الجنَّة..

(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ)

قصور في الجنة، وجنَّات تجري من تحتها الأنهار، أنهارٌ مما لذَّ وطاب، فواكه، حور عين، كلها في الجنة:

(غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ)

أي:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة: 111]

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

[سورة النساء: 87]

الله عزَّ وجل وعده حق، لذلك أخباره كأنَّك تراها، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

هذا حديث قديم، قصة قديمة جداً قبل آلاف السنين، لكن لأن الله أخبرك عنها يجب أن تعتقد بوقوعها كأنَّك تراها الآن.

أيَّ شيءٍ ذكره القرآن وصحَّ عن النبي هو حقٌ من عند الله عزَّ وجل :

لما ربنا عزَّ وجل قال:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة المائدة: 116]

جاء هذا الخبر عن المستقبل بصيغة الماضي، وقال علماء البلاغة: هذا الماضي الذي يؤكِّد تحقق الوقوع، فالله إذا حدثنا عن شيءٍ مستقبلي بالفعل الماضي، وعن شيء غائب عنا بفعل رأى، معنى ذلك أن كلام الله عزَّ وجل حق، ووعده حق، والجنة حق.

فأثناء تلقين الميت: ويقال اعلم أن الجنة حق، وأن النار حق، أي واقعة لا محالة، ثابتة، لن تفاجأ بشيء خلاف ما قرأت في القرآن، اعلم أن الجنة حق، والنار حق، وعذاب النار حق، والصراط حق، والحَوض حق، أيُّ شيءٍ ذكره القرآن وصحَّ عن النبي عليه الصلاة والسلام هو حقٌ من عند الله عزَّ وجل.

(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ)

الآية التي بعدها إن شاء الله تعالى ندرسها في الدرس القادم:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (09-20): تفسير الآيات 21-23، فضل تلاوة القرآن والاستماع إليه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-03-12

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم في توجيهه للنفوس البشريَّة ينوِّع

من أجل أن تتعرف النفس إلى الله تعالى:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من سورة الزُمَر ومع الآية الواحدة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

القرآن الكريم في توجيهه للنفوس البشريَّة ينوِّع، فتارةً يذكُر آيةً كونيَّة، وتارةً يذكر مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وتارةً يذكر حُكماً شرعياً، وتارةً يذكرُ خبراً من أخبار الأقوام السابقة، كل هذه الأساليب من قصَّةٍ، إلى مثلٍ، إلى وعدٍ، إلى وعيدٍ، إلى خبرٍ، إلى مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة، إلى آيةٍ كونيَّةٍ دالَّةٍ على عظمة الله عزَّ وجل، من أجل أن تتعرف النفس إلى الله، وأن تُقْبل عليه، وأن تسعد به. آيةٌ من الآيات الكونيَّة:

(أَلَمْ تَرَ)

كلمة (ألم ترَ) تعني أن هذه الآية تحت سمع كل إنسان وبصره، آيةٌ مرئيَّةٌ، الصغار والكبار يرونها، لكن المشكلة أن الإنسان بشهوته أصيب بعمى البصر والبصيرة، إذا انغمس في شهواته الماديَّة غفل عن الآيات الكونيَّة.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

[سورة يوسف: 105]

الماء آيةٌ كونيَّةٌ دالَّةٌ على عظمة الله :

شيء مألوف، الأمطار نزلت، منخفض جوي قادم متمركز فوق قبرص ـ مثلاً ـ الأمطار بلغت ثمانية وثلاثين ميليمتراً في دمشق ـ مثلاً ـ نحن إذا قرأنا هذه المعلومات ولم ننتبه إلى الذي أنزل المطر وقيَّض لنا هذه الأنهار تسيل بها الأمطار، نكون قد غفلنا عن الله عزَّ وجل، ففي بعض الأقطار في إفريقيا

مضى عليها سبع سنوات وهي تعاني من الجفاف، النباتات أكثرها يبس، والحيوانات على وشك الموت جوعاً وعطشاً، فحينما يكون الجفاف في أرضٍ ماذا نفعل؟ لو اجتمعنا وقررنا، هل بإمكان جهةٍ في الأرض أن تتخذ قراراً بإنزال المطر؟ أليست هذه آيةٌ كونيَّةٌ دالَّةٌ على عظمة الله؟ أليست هذه من نِعَمْ الله العظمى؟

(أَلَمْ تَرَ)

أيها الإنسان، طبعاً لو أن السماء لم تمطر؛ الينابيع تجف، والأنهار تجف، والأشجار في البساتين تعطش ثم تيبس، تغلو الأسعار، كلَّما قلَّ الإنتاج النباتي ارتفعت أسعاره، فإذا ارتفعت أسعاره وقعت مشكلات لا يعلمها إلا الله، فحينما يتفضَّل الله علينا بهذه الأمطار فهذا يعني أن هناك رخاءً اقتصادياً، واعتدالاً في الأسعار، ووفرة في المواد.

وبالمناسبة: الأمطار هذا العام غزيرة الحمد لله، البارحة قرأت بنشرة جويَّة أن المعدل بلغ في دمشق أكثر من مئتين وخمسين ميليمتراً، في حين أن معدلها العام مئتان وثمانية عشر، ووصل في العام الماضي إلى ثلاثمئة وخمسين مليمتراً، فهذا فضل من الله عزَّ وجل.

(أَلَمْ تَرَ)

أيها الإنسان، كل حياتنا على الماء، الماء نشربه، والماء نسقي به مزروعاتنا، والماء نسقي به الحيوانات الأهليَّة التي نحن في أشد الحاجة إليها، والماء نستخدمه استخداماتٍ للتنظيف، واستخدامات صناعيَّة، وقِوام حياة البشر على الماء، وقد قال الله عزَّ وجل:

(وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة الأنبياء: 30]

موضوع المياه الجوفيَّة آية من آيات عظمة الله :

هذا الماء العذب الفُرات لو أردنا أن نحليه بطرقٍ صناعيَّةٍ فكل لتر يكلِّف خمسين أو ستين ليرة، ينزل من السماء عذباً زلالاً، يسكنه الله في ينابيع في مواصفات غاية الدقَّة، تجد الماء الموصول بماء الينبوع عذبٌ فرات سائغٌ شرابه، صافٍ لا طعم، لا رائحة، لا لون.

(فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)

هناك ينابيع في العالم غزارتها في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف متر مكعب، نهر الأمازون غزارته في الثانية ثلاثمئة ألف متر مكعَّب، نبع الفيجة عندنا ستة عشر متراً مكعَّباً في الثانية الواحدة، فهذه المدينة على أنها مترامية الأطراف، ذات كثافة سكَّانية، فكلها تشرب من هذا النَبع، ويمتدُّ هذا النبع إلى مسافاتٍ شاسعة، والدراسات القديمة تبين أن النبع يمتد إلى حمص تقريباً، ومن الشرق إلى سِيفِ البادية، ومن

الغرب إلى ما تحت جبال لُبنان، أما مكان التصريف في قرية عين الفيجة، وهناك من يقول: إن حوض هذا النبع يمتد إلى بلاد أخرى وهي أبعد من سوريَّة، فمن أنزل هذا الماء من السماء:

(فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)

أإلهٌ مع الله؟ في إندونيسيا أربعة آلاف جزيرة، لكل جزيرةٍ ينبوعٌ خاصٌ بها، وإذا قلت: جزيرة وليس فيها جبل، يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا النبع ممدَّدةٌ أنابيبه تحت سطح البحر إلى جبلٍ في اليابسة أعلى من هذه الجزيرة، هذا قانون فيزيائي ـ قوانين الأواني المستطرقة ـ إن رأيت نبعاً في جزيرةٍ مسطَّحة ليس فيها جبال، فاعلم علم اليقين أن هذا الماء العذب الزلال تمتدُّ أنابيبه تحت سطح البحر إلى جبالٍ في اليابسة، هناك الخزَّانات، وهناك من يقول: إنه في بعض الجزر الكبرى لبريطانيا، نهر التايمز كل أمطار بريطانية لا تكفي لغزارته، العلماء يقدِّرون أن مستودعات هذا النهر في أوروبا وليس في بريطانيا، هذه التمديدات تحت سطح البحار من يجريها؟ من يمدِّدها؟

طبقات الأرض سخرها الله لجمع مياه الأمطار :

إن موضوع المياه الجوفيَّة آية من آيات عظمة الله، وكذلك موضوع الآبار، موضوع الطبقات التي سخَّرها الله لجمع هذه المياه؛ طبقات نفوذة تقوم بدور المصفاة، طبقات كتيمة تقوم بدور القَعْر، طبقات من الصخور المعدنيَّة من أجل أن تذوب هذه المعادن، يقولون لك: هذه مياه معدنيَّة، ولتعلم أن المياه المُحَلاَّة في بعض بلاد النفط لا تصلح للشرب، لأنها محلاة، لأنها ماء مقطَّر، ولا يمكن أن نستخدمها إلا إذا خلطناها مع بعض مياه الآبار، لأن المياه ينبغي أن تكون معدنيَّة، أي فيها نسبة من المعادن. فالأسنان بحاجة إلى كلور، الكلور نجده في مياه الشرب مُذاب بنسب طبيعيَّة دقيقة، الإنسان بحاجة إلى اليود من أجل الغدَّة الدرقيَّة، فإذا قلت: مياه معدنيَّة، أي أن الله عزَّ وجل جعل طبقات الأرض بعضها مصافٍ، وبعضها قَعر، وبعضها لإذابة بعض المعادن في الماء، فكأس الماء الذي تشربه لو ذهبت به إلى المحللين لرأيت فيه المنغنيز، والحديد، والكالسيوم، وجدت فيه الفوسفات، وجدت معادن كثيرة جداً محلولة في مياه الشرب، صُنع من؟ وفي آية أخرى ربنا عزَّ وجل يقول:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[سورة الحجر: 22]

أي أن الله عزَّ وجل لو كلَّفنا أن نخزن الماء الذي نحتاجه في عام واحد، لاحتجنا إلى بيتٍ يساوي بيتنا تماماً، الذي ساكن في مئة متر مربَّع، يحتاج إلى مستودع مساحته مئة متر مربَّع، لكي يزن فيه الماء لاستهلاكه لمدة عامٍ بأكمله. إذاً موضوع الماء وحده من الموضوعات الكُبرى الدالَّة على عظمة الله عزَّ وجل.

موضوعات للتفكر في خلق الله سبحانه :

من خلق هذه المسطَّحات من البحار الواسعة؟ لماذا كانت اليابسة خمس الأرض؟ هذه نسبةٌ مدروسةٌ من عند حكيمٍ عليم، لولا هذه المسطَّحات البحريَّة لما تبخَّر بخار الماء، ولما كان سُحُباً، ولما هَطَلَ أمطاراً أنبت به الزرع والزيتون وبقية النباتات والأشجار، إذاً البحار لماذا هي مالحة؟ حكمةٌ ما بعدها حكمة، لماذا هي تشغل أربعة أخماس اليابسة؟ حكمةٌ ما بعدها حكمة، لماذا أشعَّة الشمس تبخِّر هذه المياه؟ حكمةٌ ما بعدها حكمة، من أودع في الهواء خاصَّة حمل بخار الماء؟ حكمةٌ ما بعدها حكمة.

الهواء من خصائصه أنه يحمل بخار الماء، لكن هذا الهواء الذي يحمل بخار الماء يحمله بنسبٍ متفاوتةٍ تتناسب مع حرارته، فمتر مكعَّب الهواء إذا كان بدرجة ثلاثين مثلاً يحمل خمسة غرامات ماء، بخار ماء، فإذا هبط مثلاً إلى العشرين يتخلى عن غرامين من الماء، إذا هبط إلى الخمسة يتخلى عن أربعة غرامات، ولولا هذه الخاصَّة في الهواء لما كان المطر.

المطر ما هو؟ هواءٌ مشبعٌ ببخار الماء لامس جبهةً باردة فانكمش هذا الهواء، وعصر هذا البخار الذي يحمله فصار مطراً، فالهواء العادي فيه بخار ماء، لكن السحاب بخار ماء أكثف من البخار الشفَّاف، أما إذا واجهت هذه السُحُب طبقات باردة فانكمشت، وتخلَّت عن بخار مائها فأصبح مطراً، فإذا واجه المطر منطقةً باردةً أصبح ثلجاً، الثلج له فوائد، والمطر له فوائد، بخار الماء له فوائد، موضوعات لا مجال للحديث عنها بالتفصيل، ولكن كلُّها موضوعات للتفكُّر، موضوعات تثير فكر الإنسان.

أحياناً يرى الإنسان على النافذة طبقة من الضباب، من بخار الماء، لأن الطبقة الخارجيَّة طبقة باردة، لامست الهواء الذي خلف النافذة فانكمش الهواء، وعبَّر عن انكماشه بذرَّات من بخار الماء تعلق على زجاج النافذة، إذاً مبدأ أن الهواء يحمل بخار الماء، هذا المبدأ دقيق جداً، مبدأ أن الهواء يحمل بخار الماء بنسبٍ متفاوتة بحسب حرارته، فكلَّما اشتدَّت حرارة الهواء تحمَّل بخار الماء أكثر، وكلَّما قلَّت حرارته تخلَّى عن حمولاته فكان المطر، أو كان ما يسمَّى بالضباب، الضباب بخار ماء، لكن بنسبة أعلى من النسبة العاديَّة.

على كلٍ هذه موضوعات، التبخُّر موضوع، حمل الهواء لبخار الماء موضوع، الأمطار موضوع، المسطَّحات المائيَّة موضوع، مبدأ التبخُّر موضوع، الأمطار تنزل بشكل حبَّات صغيرة موضوع، تنزل بنسب متفاوتة موضوع، ثم كيف تغور في الأرض، كيف تصبح ينابيع، والينبوع خزان دائم طوال العام، كأن الله عزَّ وجل يدعونا، قال:

(أَلَمْ تَرَ)

أيها الإنسان، أليست هذه الآية بين يديك؟ ألا تراها كل عام؟ ألا تسمع بها؟

قيمة الأماكن بمياهها :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)

ينابيع، ما قيمة دمشق بلا نبع الفيجة؟ والله لو جفَّ هذا النبع لهبطت أسعار البيوت إلى الرُبع، ولقد سمعت أنّ بعض المدن خارج دمشق جفَّت المياه فيها منذ أعوام مضت فهبطت أسعار البيوت، وأصبحت هذه المنطقة ليست مرغوبة، ما قيمة السُكنى من دون ماء؟ إذاً قيمة الأماكن بمياهها، يقولون: مصر هبة النيل، ودمشق هبة بردى، هي هبة الله عزَّ وجل في الأصح، حمص فيها العاصي، كل مدينة فيها نهر تشرب منه، وتسقي منه مزروعاتها، به ينبت النبات والكلأ وما إلى ذلك.

(ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ)

ما هذا الزرع؟ إنه يُسقى بماءٍ واحد، الفستق ثمن الكيلو ثلاثمئة وخمسون، أو أربعمئة، وكيلو الفجل أرخص بالطبع، والماء واحد، نباتات متفاوتة في الطعم، بستان فيه أجاص، فيه درَّاق، فيه تفاح، فيه مشمش، فيه جوز، كل ثمرةٍ لها طعمٌ، ولها شكلٌ، ولها رائحةٌ، ولها قِوامٌ، ولها تغليفٌ، ولها حجمٌ، ولها وقت إنباتٍ، ولها وقت إزهارٍ، تفاوت عجيب جداً والماء واحد.

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

[سورة الرعد: 4]

آية النبات من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ)

فهذه الألوان تراب، ما هذا التراب؟ معادن، فكيف أصبحت هذه التفَّاحة صفراء؟ يقول لك: هذه كولدن، هذه ستاركن أي حمراء، هذه دبل رد ـ هذه كلها أسماء أجنبيَّة ـ فمن أعطاها هذا اللون؟ من أعطاها هذا الحجم؟ من أعطاها هذا الطعم؟ من أعطاها هذه الرائحة؟ من أعطاها هذه القِشرة؟ من أعطاها هذا العرق تتغذَّى منه؟ من صمَّمها هذا التصميم؟ يُسقى بماءٍ واحد، وبعد حين هذا النبات يهيج أي ييبَس.

(فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً)

إذا اصفرَّ النبات، ويبس، وتكسَّر، جاءت الرياح فقذفته في أطراف البلاد:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

آية النبات؛ بذرة فيها رشيم حي، بعض النباتات الغرام فيه سبعون ألف بذرة، سبعون ألف بذرة تزن غراماً واحداً، كل بذرة فيها رشيم وسويق وجذير، محفظة غذاء، والرُشيم كائن حي، كشفوا في الأهرامات قمحاً من عهد الفراعنة، ولمَّا زرعوه نبت، هذا القمح مخزَّن في الأهرامات ستة آلاف عام، وهذا الكائن الحي لا يزال على قيد الحياة، موضوع البذور وحده شيء مذهل لا يصدَّق.

هناك جذور مجنَّحة تطير عَبْرَ القارات، بذور الغابات مجنَّحة، هناك بذور المراعي على شكل حلزون يغرس في التربة، ثم تنتقل البذور في هذا الحلزون إلى أن تغرس تحت سطح الأرض، وأنت لا تدري، هذه كل الرعويات، وهذه البذور تقاوم مقاومة شديدة كل الأعراض الجويَّة، الإنسان أحياناً يأكل بعض الأطعمة وقد لا يمضَغُ البذر، يخرج كما هو، اللحم يذوب في حَمض كلور الماء، ما من شيءٍ إلا ويذوب في المعدة، حتى لو جئنا بقطعة لحم ووضعناها في كرة حديديَّة مثقوبة، وأطعمناها لإنسان، هذه القطعة من اللحم تصبح كالحليب بفعل حمض كلور الماء الموجود في المعدة، لكن البذر لا يتأثَّر أبداً، يخرج كما دخل، لماذا؟ لأن هذا البذر مُعَد للزراعة يجب أن يقاوم كل العوامل، فتجد بذرة صغيرة لها رشيم، لها سويق، لها جذير، لها محفظة غذاء إذا أصابتها رطوبةٌ ونور نبت الرُشيم.

البذور أيضاً من إعجاز الله تعالى :

هذا الشيء بين أيديكم، ائت بحبَّات الفاصوليا، أو حبَّات القمح، أو حبَّات العدس، ضعها على قطن مبلَّل في غرفة الجلوس، وانظر كيف ينمو الرشيم، فإذا بالبذرة فارغة، ونما الرشيم من هذه المحفظة الغذائيَّة، فمبدأ البذرة في الأرض ما هذا المبدأ؟ والشيء الغريب أن كل خصائص النبات مخزونةٌ بالبذرة، أحياناً الإنسان يتحدَّث عن خصائص البذرة ساعة، كل الخصائص؛ أن هذا النبات يُزْهِر في الوقت الفلاني، يحتاج إلى ماء غزير، يحتاج إلى ماء قليل، يحتاج إلى تيار رياح، أصحاب المزارع، أصحاب البساتين، خبراء بخصائص النبات.

كل نبات له طبع، كل نبات له وقت للنمو، وقت للإزهار، وقت للإثمار، هذه الثمرة غير هذه الثمرة، حتى أحياناً بعض الخضراوات يقول لك: هذه طماطم أو بندورة، هذه معدَّة للعصير، هذه نسيجها اللحمي كثيف، هذه للسفر، هذه شكلها كُروي، هذه فيها حموضة، آلاف الصفات لهذه الخضراوات مودعةٌ في البذور، كروموزونات، مورِّثات، افتح هذه البذرة هل ترى هذه الخصائص؟ هذه البذرة تقاوم المرض الفلاني، هذه البذرة تتحمَّل البرد، هذه البذرة تعطي عطاءً مديداً، هذه تعطي عطاءً قصيراً، هذه تعطي عطاءً كثيفاً وتنقطع، هذه الطباع التفصيليَّة التي استنبطها العلماء ـ علماء الزراعة ـ من هذه البذور أيضاً هي بحث قائم بذاته.

(ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ)

طبعاً ألوانه، وأشكاله، فهناك ثلاثمئة نوع من العنب، عندنا خارج دمشق في مركز زراعي عنده ثلاثمئة نوع من أنواع العنب فقط، ويوجد ثلاثة آلاف وخمسمئة نوع من القمح، ما من محصولٍ حقلي، ما من شجرٍ مثمر، ما من خضار إلا ولها أنواع تفوق الحصر، الإنسان يحتاج لعصير البرتقال، فهناك برتقال خاص للعصير كلُّه ماء، تحتاج إلى برتقال تأكله كفاكهة، هناك برتقال خاص للمأكل، برتقال حلو الطعم، برتقال له لون أحمر داكن، فالبرتقال أنواع، الليمون أنواع، الحمضيات أنواع، التفاحيّات أنواع، اللوزيات أنواع، كليات الزراعة لديها معلومات دقيقة جداً في هذا الموضوع، ومع هذا لا زلنا في أولويات العلوم.

ظاهرة النبات وحدها ظاهرةٌ تكفي لمعرفة الله :

أما هذا النبات كيف يغوص جذره في أعماق الأرض؟ بعض الأشجار تغوص جذورها في التربة ثلاثين متراً نحو الأسفل، تبحث عن الماء، بعض الأشجار تتجه جذورها في الصحارى إلى العُمق، لكن في الأماكن الرطبة إلى السطح، تجد الجذور ممتدَّة أُفقياً وليس عمودياً، فهذا الجذر يدخل في الصخر أحياناً، ينتهي بقلنسوة، وهذه تنتهي بأشعار، فهذه القلنسوة فيها مادَّة تذيب الصخر من أجل أن يأخذ المعادن المُذابة بالماء، هذه المعادن المذابة بالماء تصعد إلى الورقة كَنُسغٍ صاعد، في الورقة تتفاعل مادة اليخضور مع الآزوت الذي يمتصه النبات، مع ثاني أكسيد الكربون الذي هو محصلة تنفُّس الإنسان والمحروقات، مع بعض شِلاَّت الحديد فتصنع هذه الورقة النسغ النازل.

النسغ النازل سائل عجيب، فليس في عالَم الإنسان سائل تحقنه يصبح خشباً، أو حديداً، أو كوشوكاً بآن واحد، مستحيل وهو سائل واحد، هذا السائل ـ النسغ النازل ـ يصبح تارةً ثمرةً، وتارةً ورقةً، وتارةً جذراً، وتارةً جذعاً، وتارةً زهرةً، كلُّه من النسغ النازل، فظاهرة النبات وحدها تكفي لمعرفة الله.

أنت تحتاج إلى شيء تليِّف فيه جسمك أثناء الاستحمام، هناك نبات خاص له وجه ناعم لأصحاب الجلد الناعم، وله وجه خشن لذوي الخشونة الجلدية، تحتاج إلى نبات تنظِّف به ما بين الأسنان، هناك خِلَّة، تحتاج إلى نبات تنظِّف الأسنان كالسواك، تحتاج إلى نبات من أجل الأصبغة، الأصبغة مأخوذة من النبات، تحتاج إلى مادَّة مَرنَة، الكوشوك أصله نبات، مادَّة خفيفة كالفلين، تحتاج إلى نبات حدود بينك وبين جارك، هذه نباتات حدوديَّة كلها أشواك، تحتاج نبات مظلَّة أمام البيت، فهو نبات مهمَّته المظلَّة، مظلَّة دائريَّة، دائمة الخضرة، كثيفة، أوراقها صغيرة تتراقص مع الرياح، جذعها مستقيم، تشعر أن هذا النبات ليس له أي وظيفة أخرى إلا أن يكون مظلَّةً لك. نبات من أجل خشبه، فهذا خشب خاص للأثاث

المنزلي، يقول لك: هذا زان غالي الثمن، هناك خشب الكندي خاص بالنوافذ لأنه يتحمَّل المطر، والرياح، والعوامل الجويَّة ولا يتأثر، ولو وضع الخشب الزان مكانه يفتل، أخواننا النجارون يعرفونها، خشب شوح ليِّن، خشب قاس للأثاث، خشب له رائحة ورديَّة، أنواع منوَّعة من الخشب، بلغني أنه يوجد مئة نوع من الخشب.

خشب للاستعمال الصناعي مئة نوع تقريباً، خشب جميل جداً فاتح اللون كخشب السنديان، جميل لونه أشقر وفيه خطوط رائعة جداً، خشب كأنه حديد كالزان، خشب ليِّن كالشوح يستعمل في الكبريت وأقلام الرصاص، خشب من أجل صناعات أخرى، فهذا النبات نستخدم خشبه، وذلك نستخدم زهرته، كالزهرة، وآخر نستخدم جذره فالجزر جذر، وغيره نستخدم أوراقه فالملفوف أوراق، تارةً الأوراق، تارةً الزهر، تارةً الجذر، تارةً الأغصان، تارةً الجذع، نباتات زينة، ورود، أبصال، شيء لا ينتهي.

ملخص سريع لما ورد معنا من آيات كثيرة دالة على عظمة خلق الله سبحانه :

توجد نباتات أواني مطبخ، جاءت لي إلى المسجد أخ قدَّمها لي، آنية مثل النحاس تماماً، في نباتات مسابح، حبات مسبحة مثقوبة، ما عليك إلا أن تضع الخيط فيها، كلها نباتات، ولا يزال البحث مفتوحاً، في إفريقيا نباتات مفترسة، إذا مرَّ فوقها الحيوان التقمته وأكلته، وهي نبات، والجزر المرجانيِّة قيل إنها نباتات، البحر الأحمر كله جُزر مرجانيَّة وهي نبات.

على كلٍ فظاهرة النبات وحدها ظاهرةٌ تكفي لمعرفة الله، ظاهرة البذور وحدها تكفي لمعرفة الله، ظاهرة أن هذا النبات يأخذ غاز ثاني أكسيد الكربون الذي هو سام بالنسبة لنا، نطرح هذا الغاز كمادَّة سامة، ويأخذها النبات كمادة غذائيَّة أساسية ويطرح الأوكسجين، هذا التوازن من صمَّمه؟ الذي يعدُّ لك سُماً هو للنبات غذاءً، والذي يطرحه النبات هو لك مادَّة منعشة، إنه الأوكسجين، لذلك ينصح أصحاب العلل الرئويَّة، المصابون بالربو أن يسيروا تحت أشجار الصنوبر، فإذا مشى الإنسان في غابة في النهار يشعر بنشاط لأن هذا النبات يطرح الأوكسجين دائماً، فكأنك واضع على أنفك كمَّامة مليئة بالأوكسجين.

(أَلَمْ تَرَ)

أليست هذه الآيات دالَّة على عظمة الله؟

(أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)

قرب دمشق ينبوع الفيجة، أرادوا أن يقلّدوا تصميم ربنا عزَّ وجل، فأنشؤوا مستودعات لهذه المياه، على عمق أربعمئة متر تحت سطح الأرض، من أجل أن يُحْفَظ الماء برونقه؛ لا طعم، ولا رائحة، ولا لون، ولا تفسُّخ.

دورة حياة النبات تشبه دورة حياة الإنسان :

قال تعالى:

(فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

وبعد نزول الأمطار تتم هذه الدورة النباتية، أن أيّ شيء تزرعه ينبت أولاً غضّاً طرياً، جميلاً، يزهر، يثمر، ثم ييبس، يتحطَّم، تذروه الرياح، وأنت كذلك، فانظر إلى الطفل الصغير؟ كتلة من الحيويَّة، جميل الصورة، يكبر، ويكبر، ويكبرْ، بعد هذا تجد أنه مال إلى الضعف، ثمَّ تقرأ نعوة الإنسان على الجدران، دورة، نحن بضعة أيَّام كلَّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منَّه، كل واحد منا له صور تذكارية وهو صغير، فانظر إلى صورته عندما كان طفلاً فهل هو مثل الآن؟ ليست هناك أية نسبة، وهكذا الأيام، قال سيدنا عمر بن عبد العزيز: الليل والنهار يعملان فيك.

وأوضح مثل على هذا الكلام: خذ صورةً لك وأنت طفل، وخذ صورة لك وأنت في الأربعين وضعهما بجانب بعضهما البعض، هذا فعل الزمان؛ "الليل والنهار يعملان فيك فإذا كنت عاقلاً فاعمل فيهما"، الأعمال الصالحة، حتى لا تندم على هذه الدنيا، لئلا يقول الإنسان: يا ليتني قدَّمت لحياتي.

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

[سورة المؤمنون: 99-100]

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

أي أن الإنسان المؤمن هداه الله للإسلام، واستقرَّ عليه، والتزم الأمر والنهي..

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

القلب الرحيم من علامات الاتصال بالله :

أين جواب أفمن؟

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

الحقيقة الآية دقيقة، عندما اختار الإنسان الحق شرح الله له صدره، فالقلوب بيد الله عزَّ وجل يقلّبها كما يشاء، إنك إذا اخترت الحق شرح الله صدرك للحق، وإن اختار الإنسان الباطل فعندئذٍ يجد قلبه قاسياً كالصخر؛ أجل ومن اختار الباطل، من اختار الشهوة، من اختار الدنيا، من اختار المادَّة، من اختار الدنيا على الآخرة، كان قلبه قاسياً كالصخر وويلٌ لهذا القلب.

أطلّت الآن علينا قضيَّة دقيقة، أن علامة الاتصال بالله القلب الرحيم، وعلامة الانقطاع عن الله القلب القاسي، فهو أكبر مؤشّر لاتصالك بالله أو لبعدك عنه، الموصول بالله يرحم الخَلق، والمقطوع عن الله يقسو عليهم، وإيَّاكم أن تصدِّقوا مؤمناً متصلاً بالله بإمكانه أن يؤذي مخلوقاً، أو يكون سبباً في شقاء مخلوق، هو كلُّه خير، رحمته دفعته إلى الخير، وذاك قلبه القاسي حمله على الشر، إن رأيت إنساناً يقسو، يظلم، يأخذ ما ليس له، يبني سعادته على أنقاض الآخرين، يبني غناه على فقر الآخرين، يبني حياته على موت الآخرين، يبني أمنه على خوف الآخرين، إن رأيت هذا الإنسان فاعلم عِلم اليقين أنه مقطوعٌ عن الله عزَّ وجل، لأن انقطاعه عن الله سبَّب له قسوة قلبه، لذلك قال تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

إذا شرح الله صدر الإنسان لمعرفة الحق والثبات عليه فهذه نعمة كبيرة :

المقطوع عن الله إذا ذكَّرته بآيات الله يَضْجَر، لا يحب أن يسمعها، لو أنه وهو يبحث عن الأخبار في المذياع مرَّ بتلاوة للقرآن الكريم، لا يحتمل أن يصغي له ولا ثانية واحدة، على الفور يحرك المؤشر إلى الغناء..

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

لا يحتمل أن يسمع ذكر الله، ولا أن يدخل بيوت الله، ولا يحب مجالسة المؤمنين، هناك كراهيَّة ثابتة عند أهل الدنيا للمؤمنين، لأن المؤمن يذكِّره بتقصيره، المؤمن المستقيم يذكِّره بانحرافه، بخيانته، بكذبه، المُصلي بتركه للصلاة، الذي يغضُّ بصره بمعصيته بإطلاق بصره، فلماذا يكره أهل الدنيا المؤمن؟ لأنهم يرون أخطاءهم من خلاله، يرون انحرافهم، وتقصيرهم، وضياعهم، وشقاءهم من سلوكه واستقامته.

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

هذه الآية مؤدَّاها أنك مخيَّر، فإذا اخترت طريق الحق شرح الله صدرك له، فلا ترتاح إلا في المساجد، لا ترتاح إلا في طاعة الله عزَّ وجل، لا ترتاح إلا بالإنفاق، لا ترتاح إلا بغض البصر، لا ترتاح إلا بالصدق والأمانة والاستقامة، لا ترتاح إلا بنصيحة المُسلمين ما دمت قد اخترت رضوان الله عزَّ وجل

يشرح الله لك صدرك، فيقبل الحق ويثبُت عليه، البطولة أن تثبت، شرح الصدر معناه قبول الحق والثبات عليه، لأنك اخترت الحق.

فإذا اختار الإنسان الباطل يضيق صدره من ذكر الله، من تلاوة القرآن، من الموت، لا يستطيع أن يصلي صلاة الجنازة، يقف خارج المسجد يدخِّن، وكم رأيت بأمِّ عيني عشرات من المُسلمين إذا شيَّعوا جنازة وقد دخلت إلى المسجد ليُصلَّى عليها، وليُصلَّى الظهر قبل الصلاة عليها يقفون خارج المسجد لا يحتملون، لا يحبون ذكر الله، ولا مساجد الله، ولا بيوت الله، ولا القرآن، ولا أي شيء يذكِّرهم بالآخرة، منغمسون في الدنيا.

إذاً إذا شرح الله لك صدرك لمعرفة الحق وللثبات عليه فهذه نعمةٌ ما بعدها نعمة، تؤكِّدها الآية الكريمة:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

[سورة الحجرات: 7]

الآية التالية تتحدَّث عن القرآن الكريم أنه أحسن الحديث :

ثمَّ يقول الله عزَّ وجل:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

هذه الآية تتحدَّث عن القرآن الكريم، أنه أحسن الحديث، هو الغنى الذي لا فقر بعده، ولا غنىً دونه، لا فقر بعده، ولا غنىً دونه، هو الكتاب المحكم الذي لا ريب فيه، ولا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه.

((فَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى كَلامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[الدارمي عن شَهْرِ بن حوشبٍ]

فكم هي المسافة كبيرة جداً بين الخالق والمخلوق؟ هي نفسها بين كلامه وكلام خَلْقِهِ، فهو أحسن الحديث، فأجمل حديث تتحدَّث فيه كتاب الله، فمن الممكن أن تتوجَّه من خلاله الوجهة الصحيحة، وأن تتعظ من خلاله، بهذا الحديث توجِّه وتفكِّر، فيه نبأ من قبلكم، خبر ما بعدكم، حكم ما بينكم، فيه آيات دالَّة على عظمة الله، فيه أخبار الأمم السابقة، فيه أحكام شرعيَّة، فيه توجيهات تربويَّة، فيه نظرات مستقبليَّة، فيه وعد، فيه وعيد، فيه بشارة، فيه نذير، فيه كل شيء، هو أحسن الحديث ولا تنقضي عجائبه، كلَّما زدته فكراً زادك معنىً.

الصفات المُطلقة للقرآن قاسمٌ مشتركٌ بين آياته كلِّها :

لا تنقضي عجائب القرآن، تجد الإنسان أمضى أربعين سنة مع هذا الكتاب ولا يملَّه، يتلوه أناء الليل وأطراف النهار، وكلَّما قرأ آيةً كشف الله له معنىً لم يكن يعرفه من قبل، الشيء العجيب فيه أن القرآن غَني، والذي يقرؤه يشعر بالغنى، مبادئ أساسيَّة من قِبَل خالق الكون، مقياس دقيق تقيس فيه كل نظريَّة، كل شيء وافق القرآن صحيح، وإن خالفه فهو باطل، وطلع الفجر انتهى الأمر، إنه كلام الخالق، هو:

(أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً)

كل آياته يشبه بعضها بعضاً في الخير، في الصِدق، في الصواب، في التسديد الصحيح:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء:9]

كل الآيات الكريمة في مستوى واحد؛ من الدقَّة في التعبير، من الإعجاز، من الروعة، من البيان، من العُمق، من الصحَّة، من الصواب، الصفات المُطلقة للقرآن قاسمٌ مشتركٌ بين آياته كلِّها، هذه الصفات توضح معنى " متشابهاً "، أي أن هذه الآية ولو كانت في المواريث فهي دقيقة جداً، تشبه الآيات الكونيَّة، هذه الآية الكونيَّة تشبه آيات التشريع، كلُّها دقيقة، وكلُّها صحيحة، وكلُّها نافعة، وكلُّها خيِّرة، وكلُّها مُباركة، هذا معنى "متشابهاً"، يشبه بعضها بعضاً في الخير.

معنى كلمة (مثاني) :

قال تعالى:

(مَثَانِيَ)

وصفٌ لأهل الجنَّة وأهل النار، وصفٌ للحق وللباطل، للدنيا والآخرة، للخير والشر، لما قبل الموت وما بعد الموت، فدائماً القرآن فيه اثنينيَّة، هذا معنى أول.

المعنى الثاني: أن كل آيةٍ تنثني على أُختها فتوضِّحها، القرآن ليس متناقضاً، الآيات توضِّح بعضها بعضاً.

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر:99]

أي يقينٍ هذا؟ قال: هو الموت، من أين عرفنا ذلك؟ قالوا:

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)

[سورة المدثر:47]

أتانا الموت، فالآية الأولى توضِّحها الآية الثانية، فمعنى مثاني أي أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتوضِّحها:

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)

[سورة البقرة: 223]

معنى (أنَّى) موضَّحة بآيات ثلاث أخرى، فالآيات الثلاث توضِّح معنى أنَّى، وأنَّى توضِّح معنى الحرث، فإذا قرأت القرآن كلَّه واستوعبته استيعاباً جيداً تجد أن كل آيةٍ تفسِّر أختها، وهذا أعلى أنواع التفسير أن تفسِّر القرآن بالقرآن.

فكلمة (متشابهاً) أي تشبه الآيات بعضها بعضاً في الخيريَّة، والصدق، والدقَّة، والإعجاز، والكمال، والبَرَكَةِ، والعظمة. و(مثاني) إما أن القرآن فيه اثنينيَّة؛ الخير والشر، الحق والباطل، الجنَّة والنار، الدنيا والآخرة، أو كل آيةٍ تنثني على أختها فتوضِّح معانيها.

المؤمن يقرأ القرآن وهو يتفاعل مع الآيات :

قال تعالى:

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)

أي أن المؤمن إذا قرأ آيات العذاب بكى، أو تباكى، أو اقشعرَّ جلده، يتأثَّر لأنه يصدق هذا الكتاب، أشد أنواع الكفر التكذيب العَملي؛ أي ألا تبالي بالقرآن، أن تتخذه وراءك ظِهريّاً، أن تهجره، أن تقرأه دون أن تعمل به؛ لكن المؤمن يتعامل معه بصدق، يتعامل مع القرآن بواقعيَّة، فإذا وصف الله عذاب أهل النار انخلع قلبه، واقشعرَّ جلده، وأصابته الخَشْيَة، فإذا قرأ أحوال أهل الجنَّة..

(ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

فالمؤمن بين خشيةٍ ورجاء، بين خوفٍ ورجاء، بين وعدٍ ووعيد، بين وعدٍ بالجنَّة ووعيدٍ بالنار، فالمؤمن يقرأ القرآن وهو يتفاعل مع الآيات.

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ)

هناك معنى آخر: إذا خفت من وعيد الله عزَّ وجل فتبت إلى الله، واصطلحت معه، واستقمت على أمره، فإن القرآن يصبح ربيع قلبك، وجلاء همِّك، ونور بصرك، به تطمئن، به ترتاح، بتلاوته تتفاءل، القرآن صاحبه غَنِيّ.

بالمناسبة: من تعلَّم القرآن متَّعه الله بعقله حتَّى يموت، فما من شيءٍ يُزعج الرجل في خريف حياته إلا الخَرَف، يسقط اعتباره الاجتماعي، يتطاول عليه من حَوله، يسخرون منه، يتندَّرون به، لكنَّه إذا قرأ القرآن في شبابه متَّعه الله بعقله حتَّى يموت، والله ألتقي مع أناس في الخامسة والتسعين، يقول لك:

الحمد الله، لا يعيد القصَّة مرَّتين، فمنذ صغره حفظ القرآن، احفظ كتاب الله يحفظك، هناك أمراض تصيب الشيوخ المتقدِّمين بالسن، تضيق شرايين الدماغ فيخرف، أما هذا الذي يقرأ القرآن دائماً، ويصلي دائماً هو في نشاط دائم، ونحن عندنا قاعدة تتعلق بالجسم وهي أن العضو الذي لا يعمل يَضْمُر، فإذا الإنسان كُسِرَت يده ثم وُضِع حولها الجبصين، ستة أشهر تقريباً، إذا نُزِعَ الجبصين تصبح عضلاته ضامرة، العضو الذي لا يعمل يضمُر، والدماغ عضو، فإذا نشَّطته بالقرآن لا يضمر، فهل هناك أجمل من إنسان عمره تسعين سنة ولا ينسى؟!

فضل تلاوة القرآن :

والله سمعت عن رجل عاش في هذه البلدة قرابة مئة عام، وكان يعلِّم ثلاثة أجيال، كان يقول لمن يراه في الطريق من تلاميذه: يا بني لقد كنت أنت تلميذي أعرفك جيِّداً، وكان أبوك تلميذي، وكان جدُّك تلميذي، بدأ في التعليم في الثامنة عشرة من عمره، ومات في السادسة والتسعين وهو على رأس عمله، وكان مديد القامة، منتصب القامة، أسنانه في فمه، الآن في الخامسة والثلاثين أسنانه محشوة لم تبقَ سن واحدة سليمة في فمه، أما ذلك صاحب القامة المنتصبة فسمعه مرهف، وبصره حاد، يقال له: يا سيدي ما هذه الصحَّة؟ يقول: "يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكِبَر، من عاش تقياً عاش قوياً".

فهل هناك أغلى من الصحَّة؟ ثمنها الطاعة لله عزَّ وجل، استقم على أمر الله، هذه العين التي تَغُضُّ عن محارم الله، أو التي تسهرُ في سبيل الله، فالله أكرم وأعز من أن يفجعك بها، هذه الأذن التي تستمع الحق وتصغي إليه، فالله أكرم وأعز من أن يصيبك بها، ترثك ولا ترثها، كما قال النبي:

((اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا))

[من رياض الصالحين عن ابن عمر]

والله أسمع حكايات عن بعض الخرفانين، يضع أمَّه على كرسي مربوطة من أطرافها، قلت له: لماذا؟ قال: لئلا تأكل من غائضها.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً)

[سورة النحل: 70]

هناك حالات خرف لا تحتمل، الإنسان يأكل الغائط، أما المؤمن الذي نشأ في طاعة الله، شَبَّ على طاعة الله، هذا ينتظره خريفٌ مشرق، كلَّما ازداد عمره سنةً ازداد تألُّقاً، وازداد مكانة، وازداد عقلاً، وازداد وضاءة، وازداد شخصيَّة قويَّة، وقد يتوفَّاه الله عزَّ وجل وهو في أوج مكانته، تجده إنساناً مرموقاً، المؤمن عزيز غالٍ على الله عزَّ وجل، لذلك من تعلَّم القرآن متَّعه الله بعقله حتى يموت، هذه

ضمانة، تلاوة القرآن ضمانة لخريف عمرك، نور للقلب، والقرآن أيضاً نورُ البصر، وفيه جلاء الهَم والحزن.

القرآن الكريم هو كتابنا المقرَّر طوال حياتنا :

قال تعالى:

(ألاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

لذلك فهذا القرآن الكريم كتابنا المقرَّر طوال حياتنا، إنه غنىً لا فقر بعده، ومن آتاه الله القرآن فظنَّ أن أحداً أوتي خيراً مما أوتي فقد حقَّر ما عظَّمه الله، فالذي الله آتاه القرآن حفظاً، أو تلاوةً وتجويداً، أو فهماً وتفسيراً، أو عملاً، والأكمل أن تتلوه مجوَّداً، وأن تفهم تفسيره، وأن تعمل به، وهو كتابنا، هذا الذي آتاه الله القرآن اجتباه الله إليه:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً)

في الخير:

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

المسلمون حينما تخلَّفوا جعلوا هذا الكتاب فقط للمآتم، بعض المسلمين يقولون لك إذا سمعوا قرآناً يتلى: هل مات أحد؟ شيء مؤلم والله، لا يتلى هذا الكتاب إلا عند الموت فقط، اقرأه وأنت حي يا أخي، وأنت في أوج شبابك افهمه، لذلك حضور هذا المجلس في سبيل ماذا؟ في سبيل فهم هذا الكلام كلام الله عزَّ وجل.

درجات تلاوة القرآن :

قال تعالى:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ)

كيف يهديك الله؟ هذا كتابه، إذا أردت أن تُحَدِّث الله فادعه، وإذا أردت أن يحدِّثك الله عزَّ وجل فاقرأ القرآن، والتلاوة درجات ذكرها الإمام الغزالي بالإحياء، أولى الدرجات أنك إذا استمعت إلى كتاب الله فكأنَّه يُتلى عليك من قِبَل الله عزَّ وجل، وكأن هذا الآيات أُنْزِلت لتوِّها، طريَّة، وأنت كلَّما ازددت استقامةً، وبذلاً، والتزاماً، وإقبالاً ازددت سعادةً بكتاب الله، فالإنسان إذا قرأه:

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)

[سورة الإسراء: 78]

بعض العلماء قال: (قرآن الفجر) صلاة الفجر في المسجد، عندما تقف وتستمع إلى كتاب الله في صلاة الفجر يضاعف انشراح صدرك، نحن من فضل الله عزَّ وجل صلاة الفجر عندنا على مدار العام فيها ختمة بأكملها، من الأول من شوال إلى العشرين من شعبان يُتلى كتاب الله بأكمله في الفجر، إذا إنسان داوم على الفجر فمعنى ذلك أنه يستمع إلى كتاب الله كلّه خلال عام، وفي رمضان نعيده مرَّة ثانية والفضل لله عزَّ وجل، وأرقى حالة للتلاوة أن تتلو القرآن في صلاةٍ قائماً في المسجد، أعلى درجات الثواب أن تتلو القرآن في صلاةٍ قائماً في المسجد، ومثله أن تستمع له، بأن تكون مأموماً، فقراءة الإمام قراءةٌ لك، فالإنسان عندما يصلي التراويح ويصلي الفجر، ماذا يفعل؟ يستمع إلى كتاب الله يُتلى عليه فيزداد انشراحاً كما يزداد ثواباً:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى ننتقل للآية التي بعدها:

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (10-20): تفسير الآيات 23-26 ذات الإنسان.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-03-19

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان مؤلفٌ من نفسٍ و جسدٍ و روح :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس العاشر من سورة الزُمَر، ومع الآية الثانية والعشرين، وهي قوله تعالى:

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

هذه الآية رأيت من المناسب أن نَمُرَّ عليها مرةً ثانية.

أولاً أيها الأخوة: ذات الإنسان موضوعنا، فالإنسان مؤلفٌ من نفسٍ، ومن جسدٍ، ومن روح، الجسد هذا القالب المادِّي، الجسد يحتوي النفس، أما أنت فذاتك هي نفسك، فحينما قال الله عزَّ وجل:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[سورة التغابن: 4]

نفسك التي بين جنبيك، هذه النفس لا تموت، تذوق الموت ولا تموت، هي خالدةٌ مخلَّدة ؛ إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها، هذه النفس هي التي تؤمن، هي التي تكفر، هي التي تحب، هي التي تبغض، هي التي ترقى، هي التي تَسْفُل، وما الجسد إلا قالبٌ ماديٌ لها، تتحرك من خلاله، تنتقل بالرجلين، تبطش باليدين، ترى بالعينين، تسمع بالأذنين، تنطق باللسان، الفكر جهازٌ موضوعٌ تحت تصرُّفها، جهاز استشاري، فإذا أعملته عرفت الحقيقة، فإذا قال الله عزَّ وجل:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[سورة التغابن: 4]

أي النفس التي في صدرك، ومقر النفس في كل الجسد لكن مركزها في القلب، فحينما قال عليه الصلاة والسلام:

((أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[البخاري عن النعمان بن البشير]

بعضهم قال: قلب النفس، وبعضهم قال: قلب الجسد.

الروح قوة محركة :

على كلٍّ:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا)

[سورة الحج: 179]

المقصود هنا النفس، لسنا في صدد الدخول في تفاصيل بُنْيَة الإنسان من جسمٍ، ومن روحٍ، ومن نفس، الروح القوة المحرِّكة تماماً، فمن باب التشبيه والتقريب والتوضيح فإما الروح كالكهرباء في الآلة، إذا قطعت توقفت الآلة، المكيف يتوقف، البرَّاد يتوقف، المدفأة تتوقف، المسجلة تسكت، فالروح إذاً قوةٌ محركة، روح من الله عزَّ وجل، عند الموت يقطع الله عن هذا الجسد روحه.

كانت له عينان تتألقان، وتبصران، وتريان الأشياء بألوانها، وأحجامها، وأشكالها، ودقائقها، وتستمتعان، مئة وثلاثون مليون عصية، وسبعة ملايين مخروط، وعشر طبقات شبكية، وتسعمئة ألف عصب، وجسم بلوري، وسائل زجاجي، وقُزحية، وقرنية، وأجفان، وعضلات مائلة، فجأةً تُلقيها في القُمامة، العين لا تؤكل تلقى.

هذا اللسان كان ينطق: أعطنا سندويش لسانات، كان يتكلم، صار قطعة لحم لا قيمة له.

وهذه الكلية تقوم بأدق الأعمال، تصفِّي الدم، فيها طريق طوله مئة كيلو متر، يعبره الدم في اليوم خمس مرات، من أجل أن يتنقى مما علق به من فضلات الاحتراق الخَلَوي، فإذا هي كلية لا قيمة لها بعد الموت.

إذاً الروح هي القوة المحركة، بشكل أدق من ذلك، الإنسان ما دام حياً فهو في بيته مصدر أنس، جاء أبي، وجاء بابا، إذا مات يخافون منه، ماذا فقد؟ فقد الروح، كان مصدر أنس، كان يملأ البيت بهجة، وسروراً، وعطاءً، له مكانته، له تخطيطه، له عطاءاته، الكل ينتظره، الكل يأنس به، الكل يتقرَّب منه، فإذا خرجت روحه خافوا من الغرفة التي هو فيها، وبعد الموت تبقى هذه الغرفة مشؤومة لشهر أو شهرين، خافوا منها، هنا مات، فهذه الروح إذا سحبت أصبح الجسد جيفةً، انتهى، فالجسد بالغ التعقيد، بعضهم قال: الجسد إذا حللناه إلى مواده الأولية فيه حديد يكفي لصنع مسمار، فيه كلس يكفي لتبييض بيت دجاج، فيه مواد دهنية تكفي لصناعة لوح من الصابون، فأنت كجسد قيمتك ثمن لوح صابون، ثمن مسمار، الخلاصة، لوح صابون، ومسمار، وقليل من الكلس يكفي لدهن بيت دجاج، وسبعون بالمئة ماء، وانتهى الأمر، هذا هو الجسد.

أفضل نعمة أن يكون الإنسان مهتدياً بهدى الله عزَّ وجل :

أما النفس فشيء عظيم، الكون كله مسخرٌ لها، هي التي تعرف، هي التي تُحِب، هي التي تبغض، هي تؤمن أو تكفر، هي تنافق، هي تكون قذرة، هي تكون نظيفة، هي تكون أخلاقية أو لا أخلاقية، الوفاء والخيانة، الصدق والكذب، الاستقامة والانحراف، الإحسان والإساءة، كلها صفات النفس، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

البارحة قلت: الإسلام كله، والإيمان كله، والدين كله، والحياة كلها، ملخصةٌ في كلمتين حسن الخلق، فمن زكَّى نفسه استحق الجنان، ومن لم يزكِّها استحق النيران، لذلك في القرآن:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

هذه الآية:

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

إذا اختار الإنسان الحق، إذا اختار الحقيقة، إذا اختار ما عند الله، إذا اختار الجنة، إذا اختار أن يمشي على أمر الله، فمكافأةً له، أن ربنا سبحانه وتعالى يعينه على هذا القرار الخطير فيشرح صدره للإيمان، تجده يحب المساجد، يحب أهل الله، يحب المؤمنين، يحب القرآن، يحب السُنة النبوية، يحب أن يخدم الناس، يحب أن يعطي، يحب أن يتصدَّق، يحب أن يجلس مع مؤمن، ينزعج جداً لو التقى بكافر، ينزعج من مُزاح رخيص، ينزعج من موقف فيه قسوة، ينزعج من خيانة، ينزعج من كذب. وهو حينما اختار هذا الاختيار الراقي فربنا أعانه على نفسه، فشرح نفسه للإسلام، فهو على نور من ربِّه، الأمور واضحة جداً أمامه، واضحة وضوح الشَمس، كل شيء واضح؛ بشكله، بحجمه، بمكانه، بخطورته، بمفعوله، بفائدته، بمقدماته، بنهاياته، هذه نعمةٌ عظمى أن تكون مستنيراً، ما من نعمةٍ تفوق أن تكون مهتدياً بهدى الله عزَّ وجل، لأنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء، وإن فاتتك الحقيقة العُظمى فاتك كل شيء.

الكفر والفسوق والعصيان تمجُّه النفس لأنه يتناقض مع طبيعتها وفطرتها

ربنا عزَّ وجل يتحدث عن قلب النفس، القلب البشري، حينما يختار الحق، حينما يختار الصدق، حينما يختار الوصول إلى الله، فربنا عزَّ وجل يشرح الله له صدره، والإنسان المؤمن بمجلس علم تجده يرتاح

ويقول لك: ارتحت كثيراً وانبسطت نفسي، كنت متضايقاً فارتحت وانشرحت، كنت في ضيقٍ ففرِّج عني، كنت في يأسٍ فأشرق في نفسي الأمل، كنت في حيرةٍ فاهتديت إلى ذاتي، كل هذا الذي يقوله المؤمنون حقٌ وصواب، لأن الله عزَّ وجل شرح الله صدورهم بالإسلام، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

[سورة الحجرات:7]

الكفر والفسوق والعصيان تمجُّه النفس، لأنه يتناقض مع طبيعتها، يتناقض مع فطرتها، تصور من باب الأمثلة: غابة فيها حفر عميقة، فيها أشواك، فيها أفاعٍ، فيها عقارب، فيها أشجار مثمرة، فيها كل شيء ولا يوجد فيها ضوء، فلو سار الإنسان في هذه الغابة، قد يقع في الحفرة، قد تلدغه الأفعى، قد يصطدم بشجرة، قد تجرح أعضاءه الأشواك، فإذا كان مزوداً بمصباحٍ قوي الضوء، كل شيء واضح أمامه، صدقوني المثل ينطبق على حالة المؤمن تمام الانطباق:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

[سورة الأنفال:29]

الأمور واضحة، المؤمن لو أعطوه ملك الدنيا على أن يعصي الله فإنه لا يعصي الله، لأنه يعرف أن الدنيا لا قيمة لها، تنتهي بالموت وتبقى المعصية، إن الميِّت ترفرف روحه فوق النعش تقول: "يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرُم فأنفقته في حِلِّهِ وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي".

انقضاء الدنيا بكل ما فيها من لذائذ و متاعب وبقاء الموقف الذي اختاره الإنسان :

اللذائذ تنتهي وتبقى التبعات، والمتاعب تنتهي وتبقى الإكرامات، فحينما كنا بالمدرسة قبل عشرين أو ثلاثين عاماً كرَّموا الأوائل بحفلة ضخمة جداً، فقلت: هؤلاء الأوائل تعبوا أثناء العام الدراسي ونسوا تعبهم وبقي التكريم، تكريم، واحتفالات، وبعثات، وكل شيء، وحينما يعودون يحصلون على أعلى المناصب، هؤلاء انقضت متاعبهم وبقيت ثمار عملهم؛ والذين أمضوا العام الدراسي في الكَسَل، والسهرات الفارغة، والكلام السخيف، والمُتَع الرخيصة، هذه اللذائذ الأرضية انقضت وبقيت تبعة إهمالهم وكسلهم، وهكذا الدنيا، الدنيا تنقضي بكل ما فيها؛ بلذائذها وبمتاعبها، ويبقى الموقف المشرِّف، ويبقى الموقف الذي فيه خزيٌ وعار، هذا أو ذاك:

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

هذا الكون له خالق، فلا ينبغي أن تهتدي بغير الخالق، هناك اتجاهات، وتوجيهات، وكُتُب، ومبادئ، ونظريات، هذه كلها من صنع الفكر الذي أودعه الله في الإنسان، هذا الفكر طاقة هائلة جداً بإمكانها أن

تغيِّر الحقائق، أن تزيِّف، أن تحوِّر، أن تبدِّل، لكن نور الله عزَّ وجل حقٌ صُراح، فبطولتك أن تكون على نورٍ من ربك، ماشٍ بتوجيهات الصانع، ماشٍ بتعليمات صانع هذه الآلة، ليست لديك مشكلة، لا أعتقد أن إنساناً عنده جهاز معقد غال جداً - كمبيوتر - له صديق حميم تاجر، له جار صاحب محل تجاري صغير أو كبير، يمكن أن يسأل هؤلاء عن إصلاح هذا الكمبيوتر، يسأل الخبراء، يسأل خبير الشركة، مقر الصيانة، لأن هذه الشركة هي الجهة الوحيدة المخوَّلة بإصلاح هذا الجهاز، وأنت لك إله، فلتكن على نورٍ من ربك.

القلب البشري أصل النفس الإنسانية :

الإنسان شهوات، طموحات، حاجات، صراعات، فيه فكر، ونفس، ولديه حاجات أرضية، وشهوة جنسية، وعنده شهوة العلو في الأرض، و شهوة للطعام والشراب، مجموعة قيَم، ومبادئ، وشهوات، والإنسان كائن معَقَّد جداً فهل يعقل أن يتحرَّك بلا هدى؟ بلا توجيهات الصانع الذي أبدعه؟!

(فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

هذا نموذج، قلبٌ بشري اتصل بالله، أولاً: اختار الحق، اختار ما عند الله، اختار الجنة، فاتصل بالله، فربنا عزَّ وجل تجلَّى على هذا القلب فشرحه، صار مُنشرح الصدر، متفائلاً، أنت؛ اجلس إلى رجلين؛ رجل مؤمن، ورجل غير مؤمن، تلمح في كلام المؤمن الثقة بالله، تلمح الطمأنينة، تلمح الرضى، تلمح المعنويَّات المرتفعة، تلمح الراحة، تلمح الاستسلام، تلمح التفويض، تلمح التوكُّل.

ثم اجلس إلى إنسان غير مؤمن؛ تلمح السُخط، التبرُّم، الشكوى، القلق، الخوف، القهر، الحرمان، فهذا القلب البشري الذي هو أصل النفس، إن أراد الحقيقة واتصل بالله عزَّ وجل، شرح الله له هذا القلب فأقبل على مجالس العلم، ارتاحت نفسه في بيوت الله، سكنت نفسه بتلاوة القرآن، اطمأنَّ قلبه بذِكر الله، أحبَّ المؤمنين، أحبهم حباً شديداً، عاش معهم، تبادل وإيَّاهم المشاعر الصادقة، تبادل وإيَّاهم التناصح، تبادل وإياهم المودَّة، المؤمن يعيش بين أحباب، بينما أهل الكفر، والله، يعيشون بين أعداء، هم كالذئاب، وكما سمعت عن الذئاب من أن أحدهم ينام بعينٍ ويبقي العين الأخرى مفتوحة خوفاً من ذئبٍ آخر ينقضُّ عليه، إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، مجتمع الكفر مجتمع الذئاب، بينهم عداوة تفوق حدّ الخيال.

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

[سورة الحشر:14]

أما المؤمنون فهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

علامة إيمان الإنسان محبته الشديدة للمؤمنين :

علامة إيمانك محبتك الشديدة للمؤمنين، علامة إيمانك أنك تؤثرهم على نفسك ولو كان بك خصاصة، علامة إيمانك أنك تفرح إذا أصابهم الخير وكأنه أصابك أنت، تتألم أشد الألم إذا أصابهم مكروه وكأنَّه أصابك أنت، مسرَّاتهم مسرَّاتك، آلامهم آلامك، قضيَّتهم قضيَّتك، هذه علامة الإيمان، إذا كانت قضية أخيك المؤمن كقضيتك فأنت مؤمن، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة:188]

معناه أنّ هذا المال الذي هو لأخيك عزاه الله إليك فقال لك:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

[سورة البقرة:188]

لأن حق الأخوة أن تحافظ على ماله وكأنه مالُك، فلأن تمتنع عن أكله، أو عن العدوان عليه من باب أولى، فهذا شرح الصدر.

رأسمال الإنسان عند الله قلبه السليم ونواياه الطيِّبة ونفسه الطاهرة :

فأنا أقول لكم وأعني ما أقول: الذي يشدُّ المؤمن إلى الدين ليس فقط القناعات، وليس المبادئ فقط، لكن أيضاً هذه السكينة التي ينزلها الله على قلوب المؤمنين لتزيدهم إيماناً إلى إيمانهم، فهناك نقلة نوعية في حياة المؤمن قبل الإيمان وبعد الإيمان، قبل الإيمان ضياعٌ، وشقاء، وتعاسة، وقلق، وتشاؤم، وخوف، وقهر، وحرمان، وانحطاط في التفكير، وفي المطالب، وفي التصرفات، وبعد الإيمان سمو، وارتقاء، لذلك ورد في الحديث الشريف:

((إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها))

[أخرجه الطبراني عن حسين بن علي]

أنت بقلبك، والدليل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 88-89]

قلب سليم، رأسمالك عند الله قلبك السليم، نواياك الطيِّبة، نفسك الطاهرة، حبك للآخرين، المؤمن متألِّق، أخلاقي، حيي، خجول، أديب، منصف، متواضع، هذا الإيمان، الإيمان صبغه بصبغة الله عزَّ وجل، قال تعالى:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً)

[سورة البقرة: 138]

هذه صبغة الله.

قلوب الكفار أشد قسوة من الحجر الصلد :

وبعد؛ فأما القلب الذي أراد الدنيا، أراد الشهوة فانقطع عن الله عزَّ وجل، فما صفته؟ قال:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

قلب كالحجر.

(وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

[سورة البقرة : 74]

فقلوب الكفار أشد قسوة من الحجر الصلد.

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

فالإيمان قضية كبيرة جداً، قلبك يكون مؤمناً، قلبك يكون مصطبغاً بالكمال الإلهي، قلبك يكون رحيماً، قلبك يكون متواضعاً منصفاً، هذه صفات النفس، لأن القلب مركز النفس كما قلت قبل قليل:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا)

[سورة الحج: 179]

فالعقل عقل النفس للحقيقة، مركزه القلب، فهناك قلبان قلب الجسد، هذا الجسم الصنوبري، الذي له أذينان، وبطينان، ودسَّامات، وشريان أبهر، وشريان تاجي.. الخ، والثاني قلب النفس الذي أودعه الله في الصدر فقال:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[سورة التغابن: 4]

علامة حياة المؤمن أنه يتألَّم لأخطائه :

إذاً عندنا قلبان، قلبٌ موصول وقلبٌ مقطوع، القلب المقطوع قاسٍ، مُتَصخِّر، قلب لا يرحم، قلبٌ لا يخاف الله، لا يرجو ما عند الله، قلبٌ جلمود، قلبٌ فيه كبرٌ، قلبٌ فيه ضغينةٌ، فيه حقدٌ، فيه حسدٌ، فيه رغبةٌ أن يعيش وحده ويموت الآخرون، وقلب المؤمن قلبٌ رحيمٌ، طبعاً بالمقابلة، فيه كل الصفات العكسية لقلب الكافر.

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

أحياناً أخ كريم يكلمني قائلاً: أنا حينما تزلُّ قدمي أتألَّم ألماً شديداً، فأقول له: بخٍ بخٍ هذا محض الإيمان، لأن المؤمن من سرَّته حسنته وساءته سيِّئته، قلبه حيّ، أحياناً الطبيب يجد النبض صفراً، يكون القلب هبط ضغطه إلى درجة لا يسمع خفق نبضته، فيطلب الطبيب مرآه ويضعها على فم المريض، فإذا انطبع على المرآة شيء من بخار الماء معنى هذا أن فيه نَفَساً، ويطلب أحياناً مصباحاً، يفتح عينه ويشعل المصباح في عينه، فإذا ضاقت القُزَحية معناه عند المريض فعلٌ مُنعكس، القزحية لم تضق، وبخار الماء لم يجده على المرآة، والنبض صفر، والتخطيط خط مستقيم، والدماغ مستقيم، فيقول لأهل الميِّت: عظَّم الله أجركم، انتهى الأمر.

فالدماغ إذا كان التخطيط خطاً مستقيم معناه مات الدماغ، وإذا كان تخطيط القلب مستقيماً فمعناه مات القلب، ووقف، ولا يوجد بخار ماء، ولا توجد أفعال منعكسة، المعنى أنه انتهى.

وقلب المؤمن فيه نبض، فيه حياة، علامة حياة المؤمن أنه يتألَّم لأخطائه، تسوؤه سيِّئَته، وتسرُّه حسنته، أما إذا فعل الإنسان السيئات، وافتخر بها، وتبجح بها، وذكرها للناس، فهذا انتهى، وقل له: عظَّم الله أجركم، لا أمل فيه إطلاقاً.

الإنسان حكيم قلبه :

لذلك:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة هود: 36]

الجماعة انتهوا، حينما لا تبالي بالذنب فالقلب ميِّت، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لَو لَم تُذنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ، وَلَجَاءَ بقوم يُذْنِبُونَ))

[مُسلِمٌ عن أبي أيوب خالد بن يزيد]

هذا الحديث يحتاج إلى تفسير، على ظاهره المعنى خطير جداً، هذا القلب البشري إذا فعل ذنباً ولم يشعر بهذا الذنب إطلاقاً فمعنى هذا أنه ميت، أما إذا شعر بذنبه فهذا جيِّد، فهذه علامة الحياة، إذا شعر المذنب أنه أذنب، وندم، واستغفر، وتألم، فهذه علامة أن قلبه حي، فيه نبض، فيه حياة.

فيا أيها الأخوة،سيدنا عمر يقول: " تعهَّد قلبك ". والإنسان حكيم قلبه، يراقب قلبه؛ فيه حسد؟ فيه حقد؟ فيه ضغينة؟ فيه شرك؟ هل يعلّق الآمال على بني البشر؟ هل يرجو ما عند الله أم ما عند الناس؟ هل تؤلمه حسنات المؤمنين؟ أيحسدهم ؟ هل يفرح لخيرٍ أصابهم؟ يراقب نفسه لأنه يوم القيامة رأسمالك الوحيد قلبك الذي بين جنبيك، فإن كان هذا القلب سليماً فأنت من أهل الجنة، وإن كان مليئاً بالضغائن والحسد والكبر والبُعد والاستعلاء فالقضية خطيرة جداً.

أمراض الجسد تنتهي عند الموت لكن أمراض القلب تبدأ بعد الموت :

مشكلة أمراض الجسد تنتهي عند الموت، لكن أمراض القلب تبدأ بعد الموت، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، ما دام لديه طعام، وشراب، وسهرات، وحفلات، ومسلسلات، ولقاءات، وسفر، ورحلات، وصفقات، وأرباح، واختلاط، ونساء كاسيات عاريات، فهو غارق بالشهوات، فإذا جاء مَلَكُ الموت - الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا - فكل أمراض القلب يبدأ فعلها الخطير حين نزول القَبر، لهذا فالقبر حفرةٌ من حفر النيران أو روضة من رياض الجنان.

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ)

فأيضاً بعضهم قال: إن المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، سابح، فإذا دخل الأسواق تعكَّر، نساءٌ كاسيات عاريات، بضائع جميلة، الأسعار غالية، دخله محدود، فشرُّ البلاد أسواقها، بينما حين يدخل بيت الله عزَّ وجل، التوجيه إلى الله، توجيه للدار الآخرة، القيَم، الحقائق، غذاء العقول، غذاء القلوب، تجليَّات الله عزَّ وجل، تحفهم الملائكة، تغشاهم الرحمة، تنزل على قلوبهم السكينة، ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله إلا حفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده، فهذه اللقاءات في بيوت الله عزَّ وجل هذه رياض الجنان.

القلب المقطوع عن الله عزَّ وجل متكبِّر قاسٍ تعليقاته لاذعة :

القلب المقطوع عن الله متكبِّر، قاسٍ، تعليقاته لاذعة، يُحرج غيره، لا يعترف بالحق، يكيل بمكيالين دائماً، يعامل ابنه لا كما يعامل الصانع، أنا وقفت في محل تجاري ورأيت بعيني صاحب المحل عنده صانع وابنه يعملان في المحل فحمَّل الصانع أثواب قماش، أول ثوب، الثاني، الثالث، الرابع، قال له الصانع: معلمي أصبحت لا أقدر، قال له: أنت شاب، حَمَل ابنه حاجة ثقيلة فصاح به: احذر ظهرك يا بني. فنظرت ملياً فوجدته خلال دقائق يكيل بمكيالين، وغير المؤمن أيضاً معاملته مع ابنته غير معاملته مع كنته، أمه بخلاف حماته، والده ليس كعمه، والصانع ليس كابنه، يكيل دائماً بمكيالين، إذا باع يزيِّن البضاعة، إذا اشترى يذم البضاعة لينزِّل السِعر، إذا باع فالمديح زائد، فهذا شأن القلب المقطوع عن الله عزَّ وجل.

الويل لكل قلب متكبر جبار :

(فَوَيْلٌ)

ما معنى ويلٌ ؟ أي هلاك ينتظرهم، إذا راكب أحدهم مركبة، وكان الطريق منحدراً شديداً، وينتهي هذا المنحدر بمنعطف حاد، تسعون درجة، وهو نازل بسرعة كبيرة جداً، اكتشف أن المِكْبَح مُعَطَّل، ماذا يقول؟ يقولون لك: وَلَوَلَ، أي أيقن بالهلاك، فكل قلب مقطوعٍ عن الله عزَّ وجل، كل قلبٍ متكبرٍ، كل قلبٍ جبَّارٍ، كل قلبٍ فيه الضغائن، فيه الحَسد، فيه البُعد، فيه القسوة، فيه الظُلم، هذا القلب الويل له، أي أن الهلاك ينتظره.

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

بالمناسبة القلب القاسي الذي امتلأ شهواتٍ لا يحب ذكر الله، لا يحبُّ مجالس العلم، لا يحب تلاوة القرآن، لا يحب موعظةً، لاحظ إذا كانت هناك جلسة والحديث فيها عن التجارة، أو عن أمور أخرى تستمر الجلسة حتى الساعة الواحدة ليلاً، ولو أن أحدهم تكلم كلمة حق، لصار عندهم جميعاً مواعيد وارتباطات، عجيب حينما يبدأ ذكر الله عزَّ وجل تشمئزُّ من ذكر الله قلوب الكفار، لا يريدون سماعه لأن قلوبهم منكرة.

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

أما المؤمن فإنه يستمع، يرحِّب، ينسى تأخر الوقت أو فواته لأنه منسجم، أما غير المؤمن فهو يتضايق.

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

في ضلال مبين، ضلاله واضح للعيان وضوح الشمس، في ضلال بعيد.

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

فضل كلام الخالق على كلام خلقه كفضل الله على خلقه :

أقول لكم هذه الحقيقة: من تشرَّفَ قلبه بمعرفة الله وتلاوة القرآن لا يستطيع أن يهبط مستواه الثقافي - فلا يقرأ مثلاً قصة من ثمانمئة صفحة، أحداثها كلها مفتعله وفارغة، وملخص كل هذه القصة كلمتان - فوقته أثمن، فإذا تشرَّف قلبك بمعرفة كتاب الله عزَّ وجل لا تستطيع أن تتعامل مع كتابٍ آخر، هذا كتاب الخالق، فضل كلام الخالق على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، مسافة كبيرة جداً، النَظم المُعجز، الأدب الجَم..

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ)

[سورة النساء: 43]

لا تخدش حياء أحد، مثلاً:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المعارج: 31]

إشارات ذكيَّة، نَظم مُعجز، كلام موجز، كلام دقيق مُحكم، الكلمات تختار بشكلٍ رائع جداً، أحسن الحديث، بينما لهو الحديث الكلام الفارغ الذي لا طائل منه.

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ)

كتاب فيه تنويع، قصة، مشهد، خبر، تاريخ، آية كونية، حُكم فقهي، مثل، هذه كلها تُعطي النفس شوقاً وإقبالاً لعلة التنويع والإحكام.

آيات القرآن الكريم يشبه بعضها بعضاً في الحكمة والدقة والإعجاز والنظم :

قال:

(كِتَابًا مُتَشَابِهًا)

كل آياته يشبه بعضها بعضاً في الحكمة، وفي الدقة، وفي الإعجاز، وفي النظم، متشابهة، كل الآيات متشابهة لا تستطيع أن تفضِّل آية على آية، ولا مشهداً على مشهد، ولا سورة على سورة، ولا مقطعاً على مقطع، ولا جزءاً على جزءٍ، نظم متشابه، كله في منتهى الرَوْعَة ومنتهى الدقة، لكن المؤمن قد ينكشف له وجه الإعجاز في بعض الآيات، ولا ينكشف له وجه الإعجاز في آياتٍ أخرى، فإذا أقبل على هذه الآيات، لا لأن هذه أرقى؟ لا، فالكتاب في مستوى واحد من حيث الإتقان، الإعجاز، الدقة، الإحكام، البلاغة، الصواب.

هذه الآيات علامة للمؤمنين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، فالمؤمن إذا قرأ آيات الرحمة أو قرأ آيات العذاب يقشعر جلده، يقول لك: جلدي اقشعر، أو يقول لك: نَمَّلَ بدني أي شعر بصدمة انفعالية جعلت جلده يقشعر من شدة الخشوع، وأحياناً تأتي آيات البشارات؛ بشرى وراء بُشرى، وصف أهل الجنة وهم في الجنة يتنعمون، تطمئن النفس، إذاً هذا الكتاب متشابه، مثانٍ، أي فيه وصف أهل الجنة وأهل النار، الدنيا والآخرة، الخير والشر، والإيمان والكفر، الإخلاص والخيانة، أي فيه صور متناقضة أو مفاهيم متباينة لأهل الكفر والإيمان، أو أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسِّرُها:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

[سورة القدر: 1]

آية ثانية:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: 67]

إذاً وأنت في ليلة القدر ينبغي أن تقدِّر الله حق قدره، من التقدير والتعظيم، فكل آيةٍ تنثني على أختها فتفسرها، هذا معنى كلمة "متشابهاً"، هذا معنى " مثاني ".

رحمة الله عزَّ وجل هي غاية الغايات :

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

أي إنّ القلوب لتصدأ قيل: وما جلاؤها؟ قال: ذكر الله.

ذكر الله يطمئن القلب، والإنسان سعادته بقلبه، قد يتوافر له كل شيء ويفقد رحمة الله عزَّ وجل فلا يجد شيئاً، وقد يفقد كل شيء ويجد رحمة الله عزَّ وجل فلا يشعر أنه فقد شيئاً، فرحمة الله عزَّ وجل هي غاية الغايات، قال:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ)

هذا العقل المستنير، والقلب المطمئن، والجسد الليِّن في الطاعات، كله طاعات، عينه تغض عن محارم الله، وأذنه لا تستمع إلا إلى الحق، ولسانه لا ينطق إلا بذكر الله، ويده لخدمة الناس لا للبطش، ورجله ليأتي إلى المساجد، فأعضاء الإنسان ليِّنةٌ في الطاعات.

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ)

أي أنَّ هذا الهدى ليس مِلك أحد، ولكن كل واحدٍ بإمكانه أن يصل إليه، ففي العصور الوسطى كان رجال الدين المسيحي يبيعون صكوك الغفران، ويبيعون قِطَعاً في الجَنَّة، بأوراق تسجيل رسمية (طابو)، فجاءهم رجلٌ خبيث جداً أراد أن يشتري منهم النار، استغربوا ما هذه الصفقة؟! فما شأنك بها؟ هذه رغبتي، فاشتراها بثمنٍ بخس، الجنة كانت غالية جداً يشترونها شراءً بالمال، بعد أن اشتراها أذاع بين الناس: لا تشتروا شيئاً في الجنة فأنا اشتريت النار وأغلقتها. فاضطر الذين باعوه النار أن يشتروها منه ثانية بأعلى الأثمان - وقد وقعت هذه القصة فعلاً - بعد أن باعوه جهنم اشتروها منه ثانية، فقد أوقف لهم البيع كله.

فهذا الهدى ليس مِلك أحد، إنه من عند الله يعطيه من سأله، قال:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ)

من يشاء من عباده، كل من شاء الهدى ودفع ثمنه وصل إليه:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ)

[سورة المائدة: 12]

سلعة الله هي جنته ورحمته، ألا إن سلعة الله غالية.

رحمة الله عزَّ وجل لها ثمن ثمنها :

1 ـ تقوى الله :

رحمة الله عزَّ وجل لها ثمن، ثمنها تقوى الله..

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة الحجرات: 10]

هذا أول ثمن.

2 ـ طاعة الله و الرسول :

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة آل عمران: 132]

ثاني ثمن.

3 ـ إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة النور : 56]

ثالث ثمن.

4 ـ الإنصات عند سماع القرآن الكريم :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة الأعراف: 204]

رابع ثمن.

5 ـ الإحسان :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الأعراف: 56]

خامس ثمن.... الخ، أثمان واضحة.

تفاضل العباد عند الله عز وجل بطاعتهم له :

لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال؟

((اللهم إني أسألك .. موجبات رحمتك))

[الطبراني عن شداد بن أوس]

الموجبات، اطلب الموجبات، لو فرضنا " أب مَلِك "، طلب منه ابنه - ضربت مرة هذا المثل- طائرة خاصة، فقدمها له، فالقضية سهلة جداً، هذا يخت في البحر، هذا يخت، قصر هذا قصر، لكن بعد ذلك طلب هذا الابن أن يكون أستاذاً في الجامعة فقال له: هذه ليست لي، هذه عليك، فهذا الابن عليه أن يطلب موجبات هذه المرتبة العلمية، موجباتها يدخل الجامعة، موجباتها الكُتب، موجباتها الأساتذة، فأن تسأل رحمة الله بلا ثمن فهذا سؤال فيه حُمق، النبي عليه الصلاة والسلام سأل رحمة الله لكن سأل معها موجباتها، فالأمر بمنتهى البساطة وفيه وضوح، علاقتك مع الله تشبه القوانين، أتحب أن تلقى الله عزَّ وجل؟ أن تتصل به؟ فالقضية سهلة كثيراً:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 110]

تحب أن ترتاح نفسك؟ القضية سهلة:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: 20]

تحب حياة طيبة؟

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

اقرأ القرآن تجده كله قوانين، كل شيء له ثمن، فأنت ادفع الثمن وخُذ النتيجة، لا يوجد زيد وعُبيد، كلنا عباد الله عزَّ وجل، الناس سواسيةٌ كأسنان المشط، لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

لا يوجد تمايز إطلاقاً إلا بالعمل، فكلنا عباد الله، نتفاضل عند الله بطاعتنا له.

الهدى مبذول لكل الناس :

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ)

أيْ هذا الهدى، قلب ليِّن، عقل مستنير، جسد ليِّن بالطاعة، نفس متفائلة، واثق من الله، راضٍ عن الله، متوكّل على الله، مستسلم لأمر الله، موَحِّد، أعصابه مرتاحة، ليس عنده أية مشكلة، هذا الهُدى بمجموعه، الجانب الفكري، والنفسي، والجسمي، والاجتماعي، والعلاقات، والمهن، والزواج..

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ)

فالهدى مبذولٌ لكم يا عبادي، فأحياناً يكون مثلاً هناك بثٌ إذاعي، كل واحد أحضر جهاز استقبال يسمع الإذاعة، فاشترِ الجهاز واسمع فالبث موجود للكل، مبذول للكل، ما عليك إلا أن تقتني جهاز استقبال فتسمع الأخبار أو القرآن، البث مستمر، فالهدى مبذول، أما أن يقول: أخي حتى يهدينا الله، كلام مضحك، الله هداك وانتهى الأمر، الهدى مستمر، عليك أنت أن تستقبل الهدى، الهدى مستمر، ألا تصلي؟ الله لم يكتب لي الهدى بعد، من قال لك ذلك؟ هذا كلام شيطاني، الهدى مبذول، واتقوا الله ويعلمكم الله، عليك أن تستقبل الهدى، ولكنك تحتاج إلى جهاز الاستقبال، فتحتاج إلى قلب، قلب فارغ من الشهوات، ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه، قلب فارغ من الشهوات ليستقبل الهدى من الله عزَّ وجل.

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

الإنسان المعرض عن الله إنسان مضل ضلالاً جزائياً مبنياً على ضلال اختياري :

فإذا رأى الله عزَّ وجل إنساناً معرضاً عنه، مصراً على الدنيا، هذا الضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، فهذا ماله من هاد، هذا منتهٍ، أحياناً يرى المؤمن أشخاصاً بعيدين جداً عن الله عزَّ وجل، لا يبالي أحدهم من أين يكسب المال؛ من حرام؟ من حلال؟ همه كله أن يجمع المال، ظُلم، عدل، قسوة، عدوان، احتيال، كيفما كان الحال فهو يريد المال، فهذا ميت منتهٍ، لا خير فيه إطلاقاً، فالذي لا يبالي أطاع ربه أم عصاه، أغضب ربه أم لم يغضبه، كله عنده سيَّان، هذا إنسان ميت.

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

من أصرّ على الدنيا و مالها الحرام يتقي نار جهنم يوم القيامة بوجهه :

الآن تطالعنا آية مؤلمة جداً، الإنسان أحياناً يُدْفَع إلى النار، ماذا يفعل؟ فلو أن مدفأة مشتعلة ومتوهِّجة وإنسان دُفِعَ إليها، تجده يتقي النار بيديه، أخف من حرق الوَجه، أما إذا كان مقيِّد اليدين ودُفع إلى النار، فبماذا يتَّقيها؟ بأكرم أعضائه وهو وجهه، إنسان يتقي النار بوجهه؟!! وإذا ضرب فإنه يتقي الضربة بيده، أحياناً بكتفه، أما إذا اتقى الضربة بوجهه فهذه حالة مؤلمة جداً، قال: هؤلاء الذين أصروا على الدنيا، وأصروا على مالها الحرام، وانقطعوا عن الله عزَّ وجل، وأعرضوا عن طلب العلم، وابتعدوا عن الحق، هؤلاء قال تعالى في وضعهم:

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ)

لأن يديه مغلولتان، الأغلال في يديه وفي عنقه، يُرمى في النار، يتقي هذا الوهج وذاك الجَمْر بوجهه.

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

أحياناً تجد شخصاً يكسب مالاً حراماً ويفتخر ويقول: دَبَّرت حالي، يظن حاله ذكياً، هذا مُنتهى الغباء، منتهى الحمق، منتهى الجهل، تأتي ساعة يقال له: ذُق جزاء ما كنت تكسب:

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

[سورة التوبة: 35]

كلّ شي له ثمن :

فهنا:

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

تصور حالك، فأنت في كل حركاتك وسكناتك مراقب مصوَّر، صورة وصوت، ثم اقتيد الإنسان ليحاكم، عرضوا عليه الشريط، لماذا فعلت كذا؟ هذه ممنوعة، لماذا فعلت كذا؟ ؟ حدثونا عن رجل من الأغنياء، هو غني كبير وجاءته المَنِيَّة، أولاده خافوا عليه من أنكر ونكير - وهي قصة رمزية- طلبوا من شخص فقير جداً أن ينام مع والدهم ليلة في القبر لعله يؤنس وحشته وأعطوه مبلغاً كبيراً، فحينما قدم الملكان لهذا القبر رأيا رجلين، غريب هذا الموضوع، يوجد اثنان، هذا سمع حركة فخاف، فحرَّك رجله، فقالوا: هذا حي وليس ميتاً، نبدأ به، وكان يلف نفسه بكيس من الخيش وقد ربطه على جسده بحبل، فسألاه: من أين هذه الحبل؟ قال لهم: من البستان، كيف دخلت للبستان؟ نزلوا فيه ضرباً إلى أن

أرهقوه من الضرب، كيف دخل للبستان بدون إذن ليحضر هذا الحبل؟ فلما خرج من القبر في اليوم الثاني قال لهم: أعان الله والدكم إذا كان كل ماله حراماً.

فكل شيء له ثمن، الذي يقبض مالاً حراماً، يخدع الناس، يغتصب بيوتاً، يغتصب أراض، يكذب، يحتال، يغش، يبيع أشياء كلها من نوع سيئ جداً بمواصفات عالية، يلعب بالحسابات حسب هواه ويدعي بهذا العمل بأنه ذكي، فهذا كله محرم بالإسلام، وتقريباً أكثر البيع غش، والتاجر يرى نفسه ذكياً لأنه قدر أن يجمع ثروة طالة، وأنشأ بناية، واشترى سيارة، وضحكته ملء فيه، يظن نفسه عمل عملاً عظيماً، فانظر:

(ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

انتبه، لا تزول قدما عبدٍ حتى يسأل عن أربع؛ عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيمَ أبلاه؟ وعن علمه ماذا عمل به؟ أما المال فمن أين اكتسبه وفيمَ أنفقه؟ الله عزَّ وجل يجمع العباد يوم القيامة فيقول لأحدهم: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا ربي أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خيرٌ حافظاً وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله: يا عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك، ويقول لعبدٍ آخر: أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا ربي لم أنفقه على أحدٍ مخافة الفقر على أولادي من بعدي. فيقول الله عزَّ وجل: ألم تعلم بأني أنا الرزَّاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم.

على الإنسان أن يحرر دخله ويضبط جوارحه و يستقيم في سلوكه فيرتاح ويسعد :

إذا إنسان جمع مالاً حلالاً وأطاع الله عزَّ وجل، فالله عزَّ وجل يكرمه بأن يحفظ له أولاده من بعده، فهذه الآية:

(ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

قال عليه الصلاة والسلام لرجل: قل آمنت بالله ثم استقم ". قال: " أريد أخف من ذلك ". فقال النبي الكريم: " إذاً فاستعد للبلاء ".

فأنا أتمنى وأرجو الله عزَّ وجل ألا يفرح الإنسان بكسب حرام، لا يفرح بشيء ليس له، فهذا الذي يجمع الأموال حراماً تترجم مصيره الآية التالية:

(إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا)

[سورة النساء: 10]

فالإنسان عليه أن يحرر دخله، ويضبط أعضاءه، وجوارحه، ويستقيم في سلوكه وعمله فيرتاح عندئذٍ ويسعد.

من أساء و انقطع عن الله عز وجل يأتيه العذاب من حيث لا يشعر :

(كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

فالخزي في الدنيا عذاب كبير، الإنسان يعيش بكرامته، يعيش بمكانته، يعيش بحسن سيرته بين الناس، يعيش بثناء الناس عليه، أما إذا فُضِح، ومزَّقته الألسنة، ونهشته الأفواه، وأصبح في الحضيض، في الوحل، في مزبلة التاريخ، فأمره والله مشكلة، المشاكل مصيبة في الدنيا قبل الآخرة، فهؤلاء الذين أساؤوا وانقطعوا عن الله عزَّ وجل أتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، يتفاجأ من جهة أمنه، ويؤتى الحذر من مأمنه.

(فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (11-20): تفسير الآيات 27-31، الأمثال في القرآن الكريم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-04-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى ذَكَرَ قصصاً كثيرة في القرآن الكريم ليتذكر الناس :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الحادي عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية السابعة والعشرين من هذه السورة، والذي يليها، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

من معاني هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ذَكَرَ قصصاً كثيرة، فذكر نبياً كريماً له امرأةٌ كافرة، وذكر امرأةً في أعلى مستويات الإيمان صِدِّيقَة، وزوجها كافر، وذكر نبياً كريماً وله ولدٌ كافر، وذكر ابناً نبياً كريماً وله أبٌ كافر، فكل من يدَّعي أن بيئته هي سبب تقصيره، وأن وراثته التي ورثَها عن أبويه هي سبب تقصيره فهو واهم، وإذا ادَّعت الزوجة أن زوجها لا يريد الدين وهو سبب تقصيرها فهي كاذبة، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)

سيدنا يوسف كان شاباً وسيم الطلعة، وكان في بلدٍ بعيدٍ عن بلده، وفي قصر عزيز مصر، وراودته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال، هو شابٌ أعزب، وسيم الطلعة، في قصرٍ منيف، والتي أمرته سيدته، وليس من صالحها أن يفشو الخَبَر، وهناك أكثر من عشرة دوافع تدفعه إلى أن يقترف هذه المعصية، ومع ذلك قال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف: 23]

كلّ حجَّةٍ مزعومةٍ يزعُمُها الإنسان لتكون مبرِّراً له في تقصيره أبطلها الله جلَّ جلاله :

إذاً هؤلاء الأنبياء، وهؤلاء الصديقون بأوضاعٍ مختلفة، لو أن إنساناً مَلَكَ القوَّة في بلدةٍ معيَّنة، وقال: أنا طبيعة عملي لا تسمح لي أن أكون مع المؤمنين. نقول له: سليمان الحكيم أوتي ملكاً لم يؤته أحدٌ من قبله ولا من بعده، ومع ذلك كان نبياً صالحاً، فالفقر ليس حجَّة، والأب الكافر ليس حُجَّة، والمرأة الكافرة

ليست حجَّة، والابن الفاسد ليس حجة، كل الحجج المزيَّفة التي يزعمها الإنسان عائقاً بينه وبين الإيمان ربنا جلَّ جلاله أبطلها بأمثلة كثيرةٍ وردت في القرآن الكريم.

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)

سيدنا إبراهيم نشأ في بيئةٍ كافرة، تعبد الأصنام، ومع ذلك..

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)

[سورة الأنعام: 76]

والقصَّة عندكم معروفة إلى أن قال:

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة الأنعام: 79]

فكل حجَّةٍ مزعومةٍ يزعُمُها الإنسان لتكون مبرِّراً له في تقصيره أبطلها الله جلَّ جلاله، هذا مما نفهمه من قوله تعالى:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)

المثل أسلوبٌ تربوي فعال :

معنى آخر للآية السابقة هو أن الله سبحانه وتعالى ضرب أمثلةً، والمثل أسلوبٌ تربوي، والأمثال أنواع، هناك أسلوب التقرير، وهناك أسلوب التمثيل، وهناك أسلوب الصورة، وهناك أسلوب القصَّة، وهناك أسلوب الحوار، وهناك أسلوب الوَصف، وهناك أسلوب المَثَل، فالمثل الذي يضربه القرآن رائعٌ جداً، ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ما أبلغ هذا الكلام، ضع على ظهر حمارٍ كتاباً في الفيزياء، أو في الرياضيات، وبعد حينٍ اسأله عن معادلةٍ، بماذا يجيبك؟ فالذي يُحَمَّل الكتاب ولا يفهمه ولا يعمل به مثله كمثل هذه الدابَّة، ربنا سبحانه وتعالى ضرب مثلاً للكفَّار، قال:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

[سورة المنافقون: 4]

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان: 44]

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

[سورة الأعراف: 176]

أسلوب المثل أسلوبٌ رائعٌ جداً استخدمه القرآن الكريم واستخدمه النبي الكريم

في القرآن الكريم أمثلةٌ كثيرةٌ جداً، وحقيقة المثل أن المعاني المجرَّدة الدقيقة، حينما تجسَّد بمثلٍ حِسِّي تصبح واضحةً كقول الشاعر:

من يهن يسهُل الهوان علـيه ما لجــرح بمــيتٍ إيلامُ

****

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت أتاح لها لسان حســـود

كيف؟

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العودِ

****

فأسلوب المثل أن تجسِّد المعاني المجرَّدة بأمثلةٍ حسيَّةٍ، هذا أسلوبٌ رائعٌ جداً وقد استخدمه القرآن الكريم، واستخدمه النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديثه الكثيرة، وإذا أردت أن تدعو إلى الله عزَّ وجل فاعتمد هذا الأسلوب لأنه أسلوبٌ قرآني، وأسلوبٌ نبوي، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم عن أنس بن مالك]

وقد نطق بكلمة الكفر، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لله أشدّ فرحًا بتوبةِ عبدِه من أحدِكم براحِلتِه))

[مسلم عن أنس بن مالك]

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ الآية تحتمل معنيين :

1- أن في القرآن الكريم نماذج بشريَّة نجد مثيلها في كل عصر :

نقل الحقائق اختصاص وفن عظيم، تعلَّم من كتاب الله كيف ينقُل الحقائق للناس، مرَّةً بالتقرير، مرَّةً بالتصوير، مرَّةً بالحوار، مرَّةً بالوَصف، مرَّةً بالمشهد الكامل، مرَّةً بالقصَّة، مرَّةً بالمَثَل، فالآية تحتمل معنيين:

الأول: أن في القرآن الكريم نماذج بشريَّة نجد مثيلها في كل عصر، وفي كل مصر، لو زعمت امرأةٌ أنه لولا زوجها البعيد عن الدين لكانت امرأةً صالحة، نقول لها: أنتِ أم امرأة فرعون؟!

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم: 11]

والذي له زوجة سيئة جداً ولها طلباتٌ غير شرعيَّة، فإذا استجاب لها، فالحجَّة قائمةٌ عليه، لقوله تعالى:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

[سورة التحريم: 10]

لو أن إنساناً صالحاً، تقياً، نقياً، ورعاً، وابنه فاجر فاسد، لا ينبغي أن نتهم الأب من خلال الابن، الله عزَّ وجل ضرب مثلاً سيدنا نوح:

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ*قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ)

[سورة هود: 45-46]

وقد يكون الابن عظيماً، مستقيماً، طاهراً، وأبوه كافر مشرك، مثله في القرآن سيدنا إبراهيم:

(يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا)

[سورة مريم: 43]

الولد أفضل من أبيه، فكم من ابن فاق والده، وكم من تلميذ سبق أستاذه، إذاً الله عزَّ وجل ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل، جميع النماذج البشريَّة قد وردت في القرآن الكريم، سيدنا سليمان أُوتي الملك ومع ذلك كان نبياً عظيماً، ما منعه ملكه من أن يكون في أعلى درجات الإيمان والقرب من الله عزَّ وجل.

إذاً الحُجَّة التي يزعُمها المقصِّرون والعصاة وما أكثرها مرة، البيئة، والظروف، والمعطيات، والواقع السيئ، هي السبب، وتارة أخرى الفساد العام، والبلوى العامَّة، يتخذ قساوة والده ذريعة، وضعفه أمام زوجته حجة، هذه كلُّها حججٌ باطلةٌ عند الله عزَّ وجل، لأن الله جلَّ جلاله ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل، هذا المعنى الأول.

2 ـ الله تعالى قرَّب إلينا المعاني الدقيقة المجرَّدة بأمثلةٍ حسيَّةٍ واضحة :

المعنى الثاني: أنه قرَّب إلينا المعاني الدقيقة المجرَّدة بأمثلةٍ حسيَّةٍ واضحة، فإذا أردت أن تدعو إلى الله عزَّ وجل فاعتمد أسلوب المثل الذي اعتمده القرآن الكريم كأسلوبٍ تربويٍ رائع التأثير، شديد الفعل في نفس المُستمع:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

يتمتَّعون بحريَّة إرادة، وحريَّة اختيار، وحرية كَسْب، ولا أحد يستطيع أن يجبرهم، أنت حينما تعتقد أنك مجبرٌ على أفعالك فقد انحرفت عقيدتك انحرافاً خطيراً، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، لو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إذا اعتقدت لثانيةٍ واحدة أنك مجبرٌ على أعمالك التكليفيَّة فقد ابتعدت عن العقيدة الصحيحة:

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

حملت الأمانة، ومن لوازم حمل الأمانة أن الله أعطاك حريَّة الاختيار، وحريَّة الكسب، وأنك إذا ادَّعيت أنك مسير فهذا خطأٌ في فهمك، وانحرافٌ في عقيدتك، وهذا الادعاء لن ينجيك من الحساب والمسؤوليَّة يوم القيامة..

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

المستقيم حُجَّة على غير المستقيم، العفيف حجَّة على غير العفيف، المُخلص حجَّة على غير المخلص، فلماذا فلان استقام وأنت لم تستقم؟ لماذا فلان كان عفيفاً وأنت لم تَعُفَّ عن محارم الله؟ لماذا فلان كان مخلصاً وأنت لم تخلص؟ فربنا عزَّ وجل أعطانا حريَّة الاختيار، وأودع فينا الشهوات لنرقى بها صابرين وشاكرين إلى ربِّ الأرض والسماوات.

الله عز وجل اختار اللغة العربيَّة لأنها تتمتَّع بأعلى درجات الدِقَّة والرُقِيّ :

(قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

معنى عربي، يقال في اللغة العربيَّة: أعرب عن رأيه، أي بيَّن رأيه، فالقرآن العربي واسع البيان، وما اختار الله هذه اللغة العربيَّة إلا لأنها تتمتَّع بأعلى درجات الدِقَّة والرُقِيّ، ليس هذا في نظر العرب بل في نظر خصومهم، درسنا مادَّة فقه اللغة في الجامعة، وفقه اللغة يتحدَّث فيها أهل اختصاصها عن أقوال الأجانب في قيمة هذه اللغة العربيَّة التي أكرمنا الله بها، لذلك سيدنا عمر يقول: " تعلَّموا العربيَّة فإنَّها من الدين ".

فاللغة العربيَّة دقيقةٌ جداً في التعبير، أضرب مثلاً فعل نَظَرَ، هذا الفعل في اللغة العربيَّة له مفرداتٌ كثيرة، وكل لفظةٍ من ألفاظ النظر تعني النظر مع حالةٍ خاصَّة، وقلّما نجد هذه المعاني الدقيقة في بقيَّة اللغات الأخرى، فمثلاً إذا ظهر الشيء واختفى تقول: لاحَ، وإذا نظر وأعرض تقول: لَمَحَ، وإذا نظر وتمطى تقول: استشرفَ، وإذا نظر ودقّق بيديه تقول: استشفَّ، وإذا نظر مسروراً تقول: حَدَّجَ، إذا نظر مع المحبَّة تقول: حدَّج، وفي الحديث الشريف:

((حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم))

[فقه اللغة عن ابن مسعود]

وإذا نظر مع المتعة تقول: رَنَا، وإذا نظر مع الدهشة تقول: حَمْلَقَ، حتَّى ظهر حملاق العين، وتقول: بَحْلَقَ، وتقول: حَدَّقَ، وإذا نظر بعينه وأدرك بقلبه تقول: رأى، الرؤية تعني العلم، رأيت العلم نافعاً، وإذا نظر مع الخوف تقول: شَخَصَ..

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الأنبياء: 97]

طبعاً ليس هناك مجالٌ في هذه العُجالة أن نتحدَّث عن خصائص العربيَّة التي اختارها الله لغةً لكلامه..

(قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

أي واسع البيان، ولن يستطيع الإنسان أن يضع يده على دقائق النَظْم القرآني إلا إذا أتقن هذه اللغة العربيَّة، وعرف كيف تستعمل الأدوات، وكيف يكون التعبير، وكيف يكون الإيجاز والإطناب والاعتدال بينهما، وكيف يكون التصوير، وكيف يكون ضربُ المثل على كلٍ نظم القرآن، علمٌ قائمٌ بذاته، نظم القرآن، كيف نُظِمَت كلمات القرآن، وكيف صيغت جُمَلُهُ، وكيف جاءت أمثلته، وكيف وردت قصصه، فهناك دراسات مطوَّلة جداً عن أسلوب القرآن البلاغي.

على الإنسان أن يفهم القرآن الكريم في ضوء قواعد اللغة العربيَّة :

على كلٍّ ربنا عزَّ وجل قال:

(قُرْآنًا عَرَبِيًّا)

وكلمة عربي نستنبط منها أن هذا القرآن لا يُفْهَمُ إلا إذا أتقنَّا هذه اللُّغة العربيَّة، أن نفهم القرآن على مزاجنا أو وفق أهوائنا هذا ليس من فهم القرآن في شيء، لابدَّ من أن نفهمه في ضوء قواعد اللغة العربيَّة، لذلك علماء العقيدة اشترطوا على المفسِّر أن يكون متقناً للغة العربيَّة، مسافاتٌ كبيرةٌ جداً بين كلمة وأخرى وحرف وآخر، فمثلاً: ربنا جلَّ جلاله يقول:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

[سورة هود: 6]

هذا قرآن، فكلمة دابَّة جاءت نكرة، ولم تأتِ معرفة، ما نوع هذا التنكير؟ إنه تنكير الشمول، أي أية دابةٍ على وجه الأرض على الله رزقها، لو قلنا: الدواب، قد نقصد الأهلية، الدواب البريَّة، الدواب البحريَّة، أما إذا قلنا: ما من دابَّةٍ، فنحن نكَّرناها تنكير الشمول، وأما كلمة من فتفيد استغراق أفراد النوع، فإذا دخلت إلى صف وقلت للطلاَّب: كلكم له عندي جائزة، شيء، فإذا غاب اثنان فإنهما لا يستحقَّان الجائزة، لأنك خاطبت الحاضرين، أما إذا قلت: ما من طالبٍ في هذا الصف إلا وله عندي جائزة، هذه المِن تفيد استغراق أفراد النوع، إذاً:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ)

نملةٌ على صخرةٍ صمَّاء، في ليلةٍ ظلماء على الله رزقها، وَعْلٌ في قمَّة جبال همالايا، في القمَّة هناك ينابيع، والشيء الذي يلفت النظر أنك إذا رأيت نبع ماءٍ في قمم الجبال، فلابدَّ من أن يكون مستودعه في جبلٍ أعلى، ولابدَّ من تمديداتٍ تحت الأرض،

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

فهمنا دابَّةٍ ومِن، أما

(ما من دابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلا)

النفي والاستثناء يفيدُ الحصر والقصر، أي الدواب على الله رزقها، ولا يعني أنه على الله وحده، على الله رزقها وعلى غير الله رزقها، أما إذا قلنا: ما من دابَّةٍ إلا على الله رزقها، صار هنا معنى الحصر، فمعنى الشمول، ومعنى استغراق أفراد النوع، ومعنى الحصر والقصر، لو قلنا: ما من دابةٍ إلا الله يرزقها، ليس على وجه الإلزام أن يرزقها أو لا يرزقها، أما

(إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

صار هناك معنى الإلزام، ربنا جلَّ جلاله ألزم نفسه برزق العباد، هذا القرآن نظمٌ ما بعده نظم، قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات: 10]

تركيب اسمي، والتركيب الاسمي يفيد الاستقرار والاستمرار، بينما التركيب الفعلي يفيد الحدوث والانقطاع، تقول: دخل الطالب، دخل وانتهى دخوله، أما الطالب خلوقٌ، التركيب الاسمي يفيد الاستمرار والاستقرار، فمن صفات المؤمنين الثابتة أنهم إخوة؛ متحابون، متوادون، متناصحون، وكما قال الله عزَّ وجل في الحديث القدسي:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ المتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نُور، يغبطهم النبيُّون والشهداءُ))

[أخرجه الترمذي ومالك عن معاذ بن جبل]

أما كلمة

(إِنَّمَا)

فدقيقة جداً، إنما تفيد القصر، أي ما لم تشعر بهذا الانتماء لمجموع المؤمنين فلست مؤمناً، ولم يقل: إنما المؤمنون إخوانٌ، الإخوان هم الأصدقاء، أما الأخوة من كانوا من أبٍ أو أم أو من كليهما، فربنا عزَّ وجل رفع مستوى الأخوة الإيمانيَّة إلى أعلى أنواع الأخوة وهي أخوَّة النسب، ومن نظم القرآن الدقيق قوله:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة: 188]

لا تأكلوا أموالكم، لو نقلت مبلغاً من هذا الجيب إلى هذا الجيب ماذا فعلت؟ هل المقصود بأموالكم أموالكم فعلاً؟ لا، المقصود بها أموال إخوانكم، لماذا قال الله:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

قال علماء التفسير: سمَّى الله أموال إخوانكم المؤمنين أموالكم من زاوية وجوب المحافظة عليها فقط، هي ليست لكم، هذا مال أخيك، لكن من زاوية وجوب المحافظة على مال أخيك كأنه مالُك، أحياناً تعطي مركبتك لإنسان وتقول له: أرجوك اجعلها مركبتك. بمعنى حافظ عليها، اعتن بها، لا تجهدها،

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

فأنت منهيٌ عن أن تأكل مال أخيك، إذا كان هذا المال مالك من زاوية وجوب المحافظة عليه، فلأن تمتنع عن أكله باطلاً من باب أولى.

إعجاز القرآن البلاغي :

والله لو مضيت في أن نقف على دقائق نَظْمِ القرآن الكريم ساعاتٍ طويلة، وأشهراً عديدة، وسنواتٍ مديدة، والله لا ينتهي الأمر، لأنه:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)

[سورة الكهف: 109]

يجب أن نعلم أنه إذا درست قواعد اللغة العربيَّة، ووضعت يدك على إعجاز القرآن البلاغي والنَظمي، لشعرت أن هذا الكلام ليس كلام البشر، إنه كلام خالق البشر، لذلك قال النبي الكريم:

((فَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[الترمذي عن أبي سعيد]

(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)

أحياناً الأفعال باللغة العربيَّة تكون لازمة، لازمة كأن تقول: نام الطفل، أو غضب أخي، هذا فعل يكتفي بفاعله، وهناك أفعال متعديَّة تحتاج إلى مفعول به، و أفعال ليست لازمة ولا متعديِّة إنها قاصرة، أي لا تتعدَّى إلا بأداة، تقول: نظرت إلى، بحثت في، عجبت مِن، هناك أفعال لابدَّ لها من أدوات، في القرآن الكريم الذي يلفت النظر أن بعض الأفعال تستعمل معها أدواتٌ غير أدواتها، لعلَّةٍ بلاغيَّةٍ أرادها الله عزَّ وجل كقوله تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ)

[سورة النساء: 2]

هنا أكل أعطاه القرآن معنى ضَمَّ، ضمَّ المال إليه فكأنه أكله بالباطل، على كلٍّ المجال لا يتَّسع للإفاضة في الحديث عن إعجاز القرآن البلاغي، هذا كلُّه ينطوي بكلمة:

(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)

معنى ذلك كلام غير الله عزَّ وجل ذو عِوَج، لا يستقيم أحياناً، ليس فيه دقَّة، ليس فيه عُمق، ليس فيه مصداقيَّة تقابل الواقع، لابدَّ من خللٍ، من اضطراب، لذلك قال الله عزَّ وجل:

(الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة البقرة: 1-2]

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

كلام القرآن المُعْجِز يدفع الإنسان إلى طاعة الله عزَّ وجل :

لعلَّ هذا الكلام المُعْجِز يدفعهم إلى طاعة الله عزَّ وجل، لعلَّ هذا البيان الدقيق، العميق، الواضح، المُعجز يدفعهم إلى طاعة الله عزَّ وجل:

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

فما من كتابٍ من دون استثناء من تأليف البشر إلا وتقف له على خَلَل، أو على عِوَج، أو على نَقْص، أبداً، قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

[سورة المائدة: 3]

القرآن غير ذي عِوَج، غير ذي خَلَل، من هذه الأمثلة التي ضربها القرآن الكريم مثل الموحِّد ومثل المُشرك، قال:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

فأحياناً يموت الأب ويخلّف أولاداً ولهم معملٌ ضخم، هؤلاء الأولاد متشاكسون، متنافسون، متباغضون، وعندهم موظَّفٌ يعمل في المعمل على عهد أبيهم، فكلٌّ أخٍ من هؤلاء يعطيه أمراً مناقضاً للأمر الثاني، هو يتمزَّق إن أرضى زيداً أغضب عُبيداً، وإن لبَّى فلاناً قصَّر مع فلان، وإن انحاز إلى هؤلاء أثار حفيظة هؤلاء، فماذا يفعل؟ حياته كلُّها اضطرابٌ، وتمزُّقٌ، وصراعٌ، وحيرةٌ.

تصوَّر إنساناً في أعلى درجات الكمال عنده موظَّفٌ مخلص، يعيشان عمراً مديداً في وئامٍ، ووفاقٍ، وراحةٍ نفسيَّةٍ، وسرورٍ، وطمأنينةٍ، وانسيابٍ، وانسجامٍ، أمر واحد.

من أسباب سعادة المؤمن أن له أمراً واحداً ينصاع له وهو أمر الله عزَّ وجل :

لذلك أحد أسباب سعادة المؤمن له مرجع واحد، له أمر واحد ينصاع له وهو أمر الله عزَّ وجل، لا يخاف أحداً، لا يخاف إلا من الله، لا يرجو إلا الله، لا يخشى إلا الله، لا يعقِدُ الأمل إلا على الله، لا يخاف في الله لومة لائم، لا تحزنه الدنيا، حسبه الله ونِعْمَ الوكيل، لذلك حياة المؤمن حياة سعيدة ليس لأنه غني، قد يكون المؤمن فقيراً، ليس لأنه صحيح قد يكون مريضاً، ولكن سلامته النفسيَّة، مشاعره الداخليَّة مشاعر مريحة جداً، لأنه لا يرى مع الله أحداً، لا يرى مع الله متصرِّفاً، وإذا ارتقى لا يرى مع الله موجوداً، الله جلَّ جلاله لا وجود لغيره.

فالأحداث التي من شأنها أن تسحق الناس، وأن تقلقهم، وأن تضعهم أمام مسؤولياتٍ، وأمام تمزُّقاتٍ، المؤمنون في منجاةٍ منها، لأنه وحَّد، لا يرى مع الله أحداً، لذلك:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

أما الذي يخافُ من زَيد، ويخشى عبيداً، ويحسب حساباً لفُلان، ويأمل عطاء فلان، ويرضي هذا، ويغضب هذا، فحياته ممزَّقة، حياته مبعثرة، مشرذمة:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ)

مستسلم له:

(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا)

التوحيد وحده يضيف على حياة المؤمن طمأنينةً وسعادةً :

والله أيها الأخوة، التوحيد وحده في الدين يضيف على حياة المؤمن طمأنينةً وسعادةً لا توصف، لأنه يخاطب ربه فيقول: يا رب ليس في الكون أحدٌ سواك، تعلم السرَّ وأخفى، تعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، لا حول ولا قوَّة إلا بك، لا إله غيرك، لا رافع ولا خافض، ولا معزَّ ولا مذلَّ، ولا معطي ولا مانع، ولا قابض ولا باسط، ولا مغني ولا مفقر إلا أنت، فحينما أيقنت أنه لا إله إلا الله اتجهت إلى الله بكلّيتك، فسعدت في الدنيا وسعدت في الآخرة.

أحياناً الكفَّار يقولون: يا أخي لو أن هذا النبي مات وارتحنا منه، قال:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

فهناك تفكير ساذج عند مُعظم الناس، يظن أنه إذا مات فلان يرتاح ويرث أمواله، فهل أنت لن تموت بعده؟ أو ربما تموت قبله، شخص توفي من المحسنين ترك ألف مليون، أحد الورثة له نصيب كبير، عمل ليلاً نهاراً لأخذ نصيبه من هذه الثروة الطائلة، بعد عدَّة أشهر قبل أن يأخذ درهماً واحداً من هذا الإرث الضخم توفي وهو في الحَمَّام، فهذا الذي يقول: لو مات فلان لاسترحنا منه. هل أنت ضامن أن تعيش بعده؟ فالكفار كانوا يتمنَّوْنَ موت النبي عليه الصلاة والسلام.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ من معاني هذه الآية :

1 ـ ما من مخلوقٍ إلا وسيموت :

فربنا قال:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ)

أنت بشر، لأنه ما من مخلوقٍ إلا وسيموت، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت:

والليل مهما طـــال فلا بد من طلوع الفـــجر

والعمر مهما طـــال فلابد من نزول الـــقبر

* * *

فالموت حق، فالأنبياء ماتوا، والمؤمنون ماتوا، والكفَّار ماتوا، والأغنياء ماتوا، والفقراء ماتوا، والأصحَّاء ماتوا، والمرضى ماتوا، والأقوياء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والظالمون ماتوا، والمظلومون ماتوا ، وكل مخلوقٍ يموت:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

هم سيموتون أيضاً، يقول لك: مسكين مات، فهل أنت لن تموت؟ لا شماتة في الموت، فلان مات؟! وإنك ميتٌ معه، طبيب تراءى له أن مريضه سيموت بعد ساعتين، عاش ثلاثين سنة بعد هذه الكلمة، والطبيب مات بعد اثنتي عشرة سنة.

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

2 ـ كلّنا عبيدٌ لله عزَّ وجل والله وحده الباقي :

المعنى الآخر: أن كلّنا عبيدٌ لله عزَّ وجل، والله وحده الباقي، وهو الذي سيحاسبنا جميعاً، وهو الذي سيُوقفنا أمام أعمالنا، لماذا فعلتم؟ لماذا لم تفعلوا؟

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

بطولة الإنسان أن يكون مع الحق المبين :

هنيئاً لمن كان على الحق، كل إنسان يدَّعي في هذه الدنيا أنه على حق، القضيَّة سهلة:

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

[سورة المؤمنون: 32]

كل إنسانٍ يدَّعي أنه على حق، ومعه الأدلَّة، ومعه البراهين، ومعه الشواهد، ويظن نفسه محور العالَم، والناس من حوله جَهَلة، أما البطولة أن تكون على الحق فعلاً، البطولة حينما ترجع إلى الله عزَّ وجل أن تكون مع الله، أن تكون مع الحق المبين، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[سورة النمل: 79]

يا محمَّد، البطولة أن تكون على الحق فعلاً:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

خير الإنسان منه و شره منه و يوم القيامة كل نفس بما كسبت رهينة :

هل يبقى الناس في اختلاف إلى الأبد؟ لا، كلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى هل نبقى مختلفين إلى الأبد؟ لا، لابدَّ من أن تنكشف الحقائق، لابدَّ من أن يظهر الحق، لابدَّ من أن يزهق الباطل.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

[سورة الإسراء: 81]

لابدَّ من أن يقف الإنسان يوم القيامة ليحاسب عن أعماله كلها، أما في الدنيا فالإنسان قد يؤتى لساناً ذَرِبَاً، منطقاً، حجَّةً، أما يوم القيامة.

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

[سورة يس: 65]

فبشكل أو بآخر لو معك كيلو من الذهب الخالص، والناس جميعاً ظنُّوه معدناً خسيساً، لا تبالي بهم، ولو أوهمت الناس أن معك ذهباً خالصاً وهو معدنٌ خسيس، لا تفرح بهذا الإيهام، خيرك منك وشرُّك منك، سعادتك منك وشقاؤك منك، ويوم القيامة.

(يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)

[سورة القيامة: 13]

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[سورة المدثر: 38]

الموت مصير كل حيّ :

إذاً:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

وقد قالوا: سبحان من قهر عباده بالموت، فالإنسان له أن يقول ما يشاء، وله أن يفعل ما يشاء، ولكن لابدَّ من أن يموت، وبعد الموت يحكم الواحدِ الديَّان، من العلماء؟ يقوم العلماء أو يقوم بعضهم، فيقول الله عزَّ وجل: كذبتم تعلَّمتم العلم ليقال عنكم كذا، وقد قيل. فالإنسان له في الدنيا مظهر، وقد يوهم الناس بأن له مكانة رفيعة، ولكن عند الله عزَّ وجل لا مكانة له، فمن أدعية الصالحين: "اللهمَّ إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علَّمتني مني، اللهمَّ إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس فيه أحداً سواك، اللهمَّ إني أعوذ بك أن أتزيَّن للناس بشيءٍ يشينني عندك "..

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

أية حجَّةٍ يزعمها الإنسان داحضة عند الله عزَّ وجل لأنه بيَّن له كل شيء:

يقول أحدهم: لعن الله الشيطان، والله هو وسوس لي يا أخي، يوم القيامة لا يغني الشيطان عنك من الله شيئاً:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

[سورة إبراهيم: 22]

تكلَّم ما شئت، أما الحجَّة الدامغة فلله عزَّ وجل، يلقي اللوم على أبيه يقول: أبي هكذا ربَّاني، ما كنت بهذا الوضع، نقول هذا سيدنا إبراهيم كان أبوه كافراً، ويلقي التبعة على زوجته لولا زوجتي، هذا سيدنا لوط كانت تحته امرأة خائنة، تقول لولا زوجي، هذه السيدة آسيا كانت تحت جبار كافر، يحيل تقصيره على الفقر ويقول: لولا الفقر، سيدنا محمد كان فقيراً، قال:

((لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَأُخِفْتُ مِنَ اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِعِيَالِي طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلا مَا يُوَارِي إِبط بِلالٍ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

ذاق الفقر، وذاق الجوع، وذاق الخَوف، وذاق ترك الوطن، ليست لك حُجَّة، أية حجَّةٍ تزعمها داحضةٌ عند الله عزَّ وجل لأنه بيَّن لك كل شيء..

أشدّ الناس ظلماً لأنفسهم :

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ)

أظلمُ صيغة تفضيل، أظلمُ أي أشدُّ ظلماً، ما من إنسانٍ أشد ظلماً:

(مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ)

قال عن الله شيئاً غير صحيح لمصلحةٍ ماديَّة، تكلَّم بالباطل لمصلحةٍ دنيويَّة، قال كلاماً ليس قانعاً به ليرضي زيداً أو عُبيداً، أخفى حقيقةً اتقاءً من فلان، هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، هذا الذي يجرُّ الدين إلى أهوائه، يفسِّر الآيات وفق مِزاجه، يردُّ النصوص التي تكشف غلوَّه، هذا الذي يسخِّر النصوص لصالحه، هذا الذي يتَّخذ الدين مطيَّةً للدُنيا، هذا الذي يتخذ الدين ليعلو على الناس، ليأكل أموال الناس بالباطل، هذا الذي يتكلَّم على الله عزَّ وجل ما ليس بحق، يوهم الناس بأشياء لمصلحةٍ يريدها، قال: هذا ما من إنسانٍ على وجه الأرض ظلم نفسه كهذا الظلم:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ)

الظالم الثاني الذي جاءه الحق فكذَّب به، أعرض عنه، لم يبالِ به، فما من رجلين على وجه الأرض أشدُّ ظلماً مِمَّن زوَّر الحقائق الدينيَّة لمصلحةٍ شخصيَّة، كذب على الله، أو جاءه الحق الصريح فرفضه وكذَّب به ليحافظ على مكانته، أو على دخله، أو على ماله، أو على شأنه في المجتمع، هذان الرجلان أشد الناس ظلماً لنفسيهما.

استغلال الدين لأغراض الدنيا يفقده قيمته :

مرَّة ذكرت مثلاً وأعيده للفائدة: لو أحدنا معه شيك بألف مليون دولار، ظهر الشيك ورقة بيضاء، ظنَّ أن هذه ورقة ليستعملها لإجراء عمليَّةٍ حسابيَّة، فكتب عليها، ثم انتهى منها فمزَّقها، ثمَّ اكتشف بعد ذلك أن هذه الورقة التي مزَّقها قيمتها ألف مليون دولار، ماذا يفعل بنفسه؟ هذا الدين حينما تستغلَّه لأغراض الدنيا، حينما تَجُرُّهُ لمصالحك ولأهوائك تكون قد جهلت قيمته، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً:

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

إذا أردت الدنيا فاطلبها في مظانِّها، اطلبها في التجارة، والصناعة، والزراعة، وفي الأعمال، لكن دع الدين في مكانه العلوي، دع الدين في صفائه، دع الدين في السماء ولا تنزله إلى الوحول من أجل دريهماتٍ تكسبها:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

لينتبه الإنسان، ويطلب الدنيا من مظانها لا من الدين، لترك الدين في عليائه صافياً نقياً طاهراً، ليفصل كل مصلحةٍ ماديَّةٍ عن الدين..

((إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[من الدر المنثور عن جابر بن عبد الله]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (12-20): تفسير الآيات 32-35، أسعد الناس من صدَّق بالحقِّ وأشقى الناس من كذَّب بهذا الحق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-04-09

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس في الأرض كلّها إنسانٌ أشدَّ ظلماً من إنسان كذب على الله :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثاني عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية السادسة والثلاثين، يقول الله عزَّ وجل: وعودة إلى الآية:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

ليس في الأرض كلّها، ليس في بني البشر كلّهم إنسان أشدَّ ظلماً من هذا الذي كَذَبَ على الله، دعا إلى الله، وكذب عليه، وقال عنه بغير عِلم، أو قال عنه صفاتٍ لا تَليق به تحقيقاً لمصالحه الماديَّة، الإنسان أحياناً يتكلَّم بلا عِلم، وأحياناً يعلم ويتكلَّم بخلاف ما يعلم، فرقٌ دقيق بين أن تقول ما لا تعلم، وبين أن تقول بخلاف ما تعلم، الأول جَهْل، أما الثاني فخطأ كبير، معنى ذلك أنك تريد إضلال الناس، فليس في الأرض كلّها إنسانٌ أشدُّ ظلماً وأفدح خسارةً من إنسانٍ تكلَّم عن الله بخلاف ما يعلم جرَّاً لمصلحةٍ، أو دفعاً لإساءةٍ، أو تحقيقاً لمكسبٍ، شيء خطير أن تلعب بدين الله، أن تلعب به من أجل مصالحك، أن تُغَيِّر الحقائق من أجل مكاسب دنيويَّة زائلة، أن تجعل هذا الدين العظيم في الوحول من أجل مصالح ماديَّة، أن تقول كلاماً يُرضي الأقوياء ولا يرضي الله، أن توهم الناس أن الحق هكذا.

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ)

هناك متكلِّم، وهناك مُستمع، أشدُّ المتكلِّمين ظُلماً لنفسه، أشد المتكلمين خسارةً، أشد المتكلمين عذاباً، من تكلَّم إما بجهلٍ أو بخلاف ما يعلم، والثاني أشد إثماً، لذلك الإمام الغزالي يقول: " العوام لأن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله بغير علم".

أشدّ المتكلمين ظُلماً وخسارةً من تكلَّم على الله بغير علمٍ :

أنت حينما تلقي على الناس كلاماً غير صحيح، تبثُّ فيهم عقائد زائغة، توهمهم بأشياء غير واقعيَّة، بخلاف القرآن الكريم، بخلاف السُنَّة، أنت بهذا أفسدت عقول الناس، أفسدت بنيتهم النفسيَّة، أفسدت دينَهم، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

((إن هذا العلم دين فلينظر أحدكم ممن يأخذ دينه))

[كنز العمال عن أنس]

إذاً:

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

هناك متكلّم وهناك مستمع، أشد المتكلمين ظُلماً، أشدهم خسارةً، أشدهم عذاباً، من تكلّم على الله بغير علمٍ، أو تكلّم على الله بخلاف ما يعلم، هذا ضال مضل، الأول ضال والثاني مضل، فاسد مفسد، لأن الإنسان الذي يستمع، من الذي يبنيه؟ المتكلّم يبني نفسه، فلو أوهمه أن أمَّة محمد صلى الله عليه وسلّم أمةٌ مرحومة، وافعل ما شئت، النبي عليه الصلاة والسلام سوف يشفع لكم جميعاً، أي دافعٍ بقي عند الناس كي يستقيموا؟ أي دافع؟ أي دافعٍ بقي عند الناس ليكونوا أعفَّة؟ ليكونوا منزَّهين عن الغَلَط؟ انتهى، وقع الناس في الحرام، واعتدوا على بعضهم بعضاً، وأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، واعتدوا على أعراض بعضهم، كلُّهم يتأمل شفاعة النبي يوم القيامة، فهذا الذي بثَّ هذه الفكرة ماذا فعل؟

الضالّون المضلون يتكلمون على الله بخلاف ما يعلمون :

هذا الذي يقول لك: إن الله كتب على الإنسان الكفر، فإذا جاء إلى الدنيا أجبره على المعاصي، فعصى تحقيقاً لمشيئة الله، وبعد أن ينتهي أجله يدخل جهنَّم إلى أبد الآبدين، هكذا شاءت مشيئة الله عزَّ وجل، أيُّ شيءٍ أبقيته في نفوس المستمعين من حُبٍ لله عزَّ وجل ومن تعظيمٍ لكمالاته؟ أين اسم العدل؟ أين؟

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

[سورة الزلزلة: 7-8]

أين:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

أين فتيلاً؟ أين نقيراً؟ والقطمير.

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء:47]

العوام لئن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله بغير علمٍ، والضالُّون المضلون يتكلمون على الله بخلاف ما يعلمون.

الله جلَّ جلاله انتقى من صفات الذين يبلِّغون رسالاته صفةً واحدة هي الخشية :

من هنا ربنا جلَّ جلاله قال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 39]

انتقى ربنا جلَّ جلاله من صفات هؤلاء الذين يبلِّغون رسالات الله صفةً واحدة، أنهم يخشونه، فلو أنهم خشوا غير الله لتكلَّموا بالباطل إرضاءً لهؤلاء الأقوياء، ولسكتوا عن الحق خوفاً منهم، فإذا تكلَّم الداعية بالباطل وسكت عن الحق ماذا بقي من دعوته؟ انتهت، لذلك هذا الوصف مترابط مع الموصوف ترابطاً وجودياً، فلو ألغي الوصف ألغي الموصوف:

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

استفهام إنكاري، ليس في الأرض إنسانٌ أشدُّ ظلماً، ولا أفدح خسارةً، ولا أكثر عذاباً، من إنسانٍ تكلَّم على الله بغير علمٍ، قل: لا أدري، الإمام أحمد بن حنبل من أقطاب العلماء في عصره، من المجتهدين الأربعة، جاءه وفدٌ من المغرب العربي ويبدو أنهم قطعوا شهرين في الطريق، جاؤوه بسبعةٍ وثلاثين سؤالاً فيما أذكر، أجاب عن سبعة عشر سؤالاً وقال: الباقي لا أعلم، استغربوا هذا الكلام لا يُعقل، الإمام أحمد بن حنبل لا يعلم، كيف؟ فقال لهم: "قولوا الإمام أحمد لا يعلم ".

أمانة، هذه أمانة التبليغ، أمانة التبيين، إن لم تكن واثقاً من أن هذه الآية تُغَطِّي هذا الجواب، وهذا الحديث الصحيح يَدْعَم هذا الجواب، كيف تقول على الله ما لا تعلم؟ أو كيف تقول على الله بخلاف ما تعلم؟ الأول ضال الثاني مُضِل، الأول فاسد الثاني مُفسد، دائماً الله يقول:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

اسأل يا أخي، فاسأل به خبيراً، كُن جباناً في الإجابة، نصف العلم لا أدري، ارفع رأسك وقل: لا أدري يا أخي، أمهلني، أنظرني، ودعني أتريَّث، دعني أفكِّر، دعني أتأمَّل، دعني أراجع، دعني أسأل، قبل أن تقول على الله ما لا تعلم، قبل أن تفسد بناء الإنسان، قبل أن تفسد عقيدته، قبل أن تفسد تصوّره عن الله عزَّ وجل.

أسعد الناس من تعامل مع القرآن تعاملاً جدياً على أنه كلام رب العالمين :

لذلك:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ)

وشخصٌ آخر ليس أقلَّ من الأول، الثاني.

(وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ)

جاءه الحق من خلال القرآن، القرآن كلام الله، سمَّاه الله الصدق لأنه مطابقٌ للواقع، لأنه من لدن حكيمٍ خبير، لأنه من عند خالق الكون، لأنه كلام رب العالمين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الصدق كذَّب به، قرآنٌ كريم فيه إعجاز، ابحث عن إعجازه، ابحث في نظمه، ابحث في إعجازه العلمي، في إعجازه الإخباري التاريخي، في إعجازه البياني، في إعجازه التربوي، ابحث في إعجاز القرآن، لو أن الناس جميعاً اجتمعوا على أن يأتوا بسورةٍ من هذا الكتاب لا يستطيعون، تحدَّاهم ربنا جلَّ جلاله:

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

[سورة الإسراء: 88]

إذاً هذا صدق، فمن أسعد الناس من تعامل مع هذا الكتاب تعاملاً جدياً على أنه كلام رب العالمين، لكن هناك أشخاصاً كثيرين يتعاملون معه تعاملاً بعيداً عن الواقعيَّة، ولا يأخذون الأمر مأخذاً جدياً، فالقرآن فيه تهديد، وفيه وعيد، وفيه بشارة، وفيه أمر، وفيه نهي، يفعل ما يحلو له مخالفاً أمر القرآن، ولا يبالي، هذا أحد أنواع التكذيب الفعلي لكتاب الله عزَّ وجل.

المتكلِّم له حساب خاص والمستمع له حسابٌ خاص :

أنت بين أن تكون متكلماً أو مستمعاً، أحد حالتين؛ متكلِّم أو مستمع، المتكلِّم إذا تكلَّم بغير علمٍ أو بخلاف ما يعلم فالويل له، والمستمع إذا كذَّب بالقرآن الكريم وهو كلام الله، قطعي الثبوت، أو كذَّب بالسنَّة الصحيحة التي وردت عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، فالويل له، فالويل للمتكلِّم بغير علمٍ أو بخلاف ما يعلم، والويل للمستمع إذا كَذَّب بالحق لمّا جاءه، فلذلك المتكلِّم له حساب، والمستمع له حساب، المتكلِّم مهما أبان، وأفصح، وأجاد، وتشدَّق بالألفاظ، وألقى كلاماً ساحراً، واستخدم اللغة والبيان والبلاغة، مهما تكن عبارته طَلِيَّةً، وجملته متينةً، وأمثلته صارخةً، له حسابٌ عند الله خاص، حسابه هل أنت في مستوى ما تقول؟

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[سورة البقرة: 44]

المتكلّم له حساب، يحاسبه الله عن مدى تطابق كلامه مع سلوكه، والمستمع له حسابٌ خاص، جاءك بآية ولا تبالي بها!! جاءك بحديثٍ صحيحٍ عن رسول الله ولا تبالي به!! أعطاك حُكْمَ الشرع في هذا الموضوع ولم تعبأ به، فعلت ما يحلو لك! فكأنَّك كذَّبت.

أنواع التكذيب :

والتكذيب كما تعلمون نوعان: تكذيبٌ قولي وهو أن تقول له: هذا كذب، هذا لا يفعله أحد في العالم الإسلامي، لا يجرؤ إنسان أن يقول: هذه الآية غَلَط، ولكن حينما لا يطبِّق، وحينما لا يبالي، وحينما يتخذ القرآن مهجوراً، وحينما لا يعبأ بحكم الله عزَّ وجل، هذا كأنَّه كذَّب بالصدق إذا جاءه، المؤمن.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

حرام حرام انتهى الأمر، يا أيها الذين آمنوا، يخاطب المؤمن لأنه آمن بالله وهذا أمر الله، المؤمن له أن يبحث عن حكمة الأمر، لا مانع يمنعه لأن هذا من حقّه، لكن أن يعلّق التطبيق على معرفة الحكمة فليس عبداً لله عزَّ وجل، هذا الذي لا يطبِّق إلا إذا فهم الحكمة هذا ليس عبداً لله، لن تكون عبداً لله إلا إذا جاءك أمر الله عزَّ وجل فقلت: سمعاً وطاعةً يا رب، وحينما تندفع لتطبيق الأمر قبل معرفة حكمته يكافئك الله جلَّ جلاله بأن يلقي في قلبك حكمة هذا الأمر بعد تطبيقه، عندئذٍ تصبح عالِماً، فالذي يعلّق تطبيق الأمر على معرفة الحكمة هذا ليس عبداً لله عزَّ وجل، حرام حرام انتهى الأمر.

المؤمن حينما عرف الله وعرف أمره ونهيه صار اختياره وفق مراد الله عزَّ وجل :

همُّ المؤمن الأوحد أن يبحث عن أمر الله، فإذا وجده طبَّقه وانتهى الأمر، أما إذا أراد أن يدعو إلى الله عزَّ وجل وبحث عن حكمة الأمر والنهي ليقنع الناس، فهذا شيء طيِّب، عمل طيِّب، أما المؤمن فيكفيه عِلَّة لأي أمرٍ أنه أمر، فأنت في الخدمة الإلزاميَّة مع إنسان عريف يقول لك: نفِّذ ولا تناقش. فكيف مع خالق السماوات والأرض؟ كيف مع مُبْدِع الكون؟ كيف مع العليم الحكيم؟ الرحمن الرحيم؟ مع العَدْل؟ مع التواب؟ مع اللطيف؟ مع المهيمن؟ مع القدير؟ مع الغني؟ أتناقشه في أوامره؟ إذا بحثت عن الحكمة لا مانع؛ أما هذا الذي لا يطبِّق إلا إذا عرف الحكمة، فليس عبداً لله عزَّ وجل.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

أنت تختار بين هذا العمل وهذا العمل، بين أن تسافر إلى هذه البلدة أو هذه البلدة، هذا هو الاختيار، أما تختار أن تعصي أو ألا تعصي فهذا الخيار ليس للمؤمنين هذا لغير المؤمنين، المؤمن حينما عرف الله عزَّ وجل وعرف أمره ونهيه انتهى اختياره، صار اختياره وفق مراد الله عزَّ وجل.

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

تحبُّ الذي أحبَّه الله، تكره الذي أبغضه الله، توالي في الله، تعادي في الله، تُعطي لله، تمنع لله، تغضب لله، ترضى لله، هذا هو التوحيد، هذا هو الإيمان.

على الإنسان أن يفكر جيداً قبل أن يعصي الله عز وجل :

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

استفهام إنكاري، أي ليس في الأرض كلّها إنسانٌ أشدُّ ظلماً، ولا أفدح خسارةً، ولا أشد عذاباً، ممن تكلَّم على الله بغير علمٍ أو بخلاف ما يعلم، الأول ضال والثاني مُضل، والظالم الثاني هو الذي كذَّب بالحق إذا جاءه، والتهديد.

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

العقاب أليم جداً، والثمن فادح، والخَطْب جَلَل، فقبل أن تعصي فكّر كثيراً، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى خاطب نفسه مرَّة فقال: " يا نفس لو أن طبيباً نهاكِ عن أكلةٍ تحبينها لا شكَّ أنكِ تمتنعين عنها، يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله؟ ". طبيب قال لك: هذه الأكلة لا تناسبك، هذا البيت عال لا يناسب قلبك، في اليوم الثاني تعرضه للبيع، فالموضوع ليس معه لعب، قلب، فطبيب نصحك بأن تبيع هذا البيت العالي، أو أن تمتنع عن هذه الأكلة التي تؤذي شرايينك، لماذا أنت تستجيب؟ حفاظاً على صحَّتك وتصديقاً لكلام الطبيب " أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله إذاً ما أكفرك! أيكون وعيد الله عزَّ وجل أشدَّ عندكِ من وعيد الطبيب؟ إذاً ما أجهلكِ ! ".

فالإنسان حينما يعصي يُدْمَغ حتماً إما بالكفر وإما بالجهل، إما كافر ما عرف أحقيَّة هذا الأمر الإلهي، أو جاهل بما ينتظره من عذابٍ أليم في جهنَّم وبئس المصير.

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

النتيجة إلى جهنَّم، هذا الذي كَذَبَ على الله، وذاك الذي كَذَّبَ بالصدق، المُتكلِّم والمستمع، الثمن الباهظ عذابٌ أبدي في جهنَّم وبئس المصير.

المقارنة بين الصحابة الكرام ومصير هؤلاء الذين كذَّبوا النبي وعارضوه :

الآن:

(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)

سيدنا الصديق صدَّق، الصحابة الكرام صدَّقوا، الآن انظر في مصير هؤلاء الذين كذَّبوا، وعارضوا، وأخرجوا النبيَّ من مكّة، وائتمروا على قتله، ونكَّلوا بأصحابه، كيف أنهم ماتوا شرَّ ميتة، وكيف أنهم في مزبلة التاريخ؛ وانظر إلى أصحاب النبي رضوان الله عليهم حينما صدَّقوا، وحينما جاهدوا، وحينما صبروا، وحينما صابروا، وحينما رابطوا، وحينما أحبوا النبي، وحينما قدَّموا له الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، انظر إلى ألفٍ وخمسمئة عام بعد وفاتهم أو استشهادهم، كيف أن المجالس كلها تتعطَّر بذكرهم، سيدنا الصديق، وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان، وسيدنا علي، وسيدنا عمر بن عبد العزيز، وسيدنا صلاح الدين، هؤلاء الأبطال العِظام، هل يفتر اللسان عن ذكرهم في أي مكان في العالَم الإسلامي؟

(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ)

من سعادة الإنسان أن يستجيب للحق :

النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَصَدَّقَ بِهِ)

هذه الآية لها معنيان: إما أن النبي جاء بالصدق وصدَّق به، أو أن النبي جاء بالصدق والذي صدَّق به من أصحابه، قال:

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

هنيئاً لهم، اتقوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، نجوا من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، سَلِموا في الدنيا والآخرة، سَعِدوا في الدنيا والآخرة.

(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)

فأنت من سعادتك أن تستجيب للحق.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم)

[سورة الأنفال: 24]

دعوةٌ لحياة القلوب.

المؤمن شخصيَّة فذَّة عرف الحقيقة الكبرى :

وازن بين مؤمن وغير مؤمن، تجد الفرق شاسعاً والفرق كبيراً، كموازنتك بين درَّاجة مثلاً وبين سيارة من أحدث موديل، هل يستويان؟ لا، ليست هناك أي نسبة، وازن بين حياة المؤمن المستقرَّة، حياة المؤمن المطمئنة، الذي يلقي الله على قلبه السكينة، موفَّق في أعماله، هدفه كبير، هدفه أكبر من حاجاته، مطامِحه أثمن من رغباته، يحكم نفسه ولا تحكمه، يقود هواه ولا ينقاد له، تحكمه القيم ويحتكم إليها من دون أن يسخِّرها أو يَسَخَرَ منها، هذا المؤمن، شخصيَّةٌ فذَّة عرف الحقيقة الكبرى، عرف الله، يتحرَّك وفق منهج، حياته بين حلال وحرام، ومباح ومكروه، ومندوب، ماشي على هدى.

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

انظر إلى حياة المؤمن، انظر إلى أخلاقه العالية، انظر لصدق وعده، انظر إلى أمانته، إلى صدقه، إلى غَيْرَتِهِ، إلى عفَّته، إلى استقامته، إلى إنصافه، انظر إلى ورعه، انظر إلى دقَّته في التعامل هكذا صفات المؤمنين، هذه صبغة الله التي صبغ بها عباده المؤمنين، لذلك المؤمنون في شتَّى بقاع الأرض يلتقون، لأن الصفات واحدة، فتصوَّروا أطباء القلب في العام يلتقون على معلومات واحدة، كذلك المؤمنون يلتقون على حقائق واحدة، على قيَم واحدة، على أهداف واحدة، على وسائل واحدة، الحقائق التي آمنوا بها واحدة، والأهداف التي يسعون إليها واحدة، والوسائل التي يسلكونها واحدة، والقيَم التي تحكمهم واحدة، والأخلاق التي يتحلَّون بها واحدة، لذلك الإيمان عامل جَمْع وليس عامل تفريق، رُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْهُ أمُّك، وشيء عجيب قد تلتقي مع مسلم في أقصى الدنيا، تشعر وكأنه أخوك النَسَبيّ، يا ربي ما هذا الشعور؟ من بلدٍ بعيدٍ بعيد لا يجمعني به شيء، كفى بالإسلام جامعاً لنا.

المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون :

المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششةٌ متحاسدون ولو اقتربت منازلهم، حياة المؤمنين حياة سعيدة جداً، أنت بين أحباب، بين أناس أوفياء، بين أناس مُخلصين، بين أناس متناصحين، بين أناس متسامحين، بين أناس متحابِّين، يكفينا سعادةً في الدنيا أننا نعيش مع أخوتنا المؤمنين في راحة، لو انطلقت إلى أخٍ لك في حرفَةٍ من الحِرَف تكون مطمئناً فهو لن يكذب عليك، ولن يغشَّك، ولن يُدَلِّس، ولن يأخذ فوق حقِّه، ولن يخونك، مطمئن، لذلك النبي قال:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

لا مفاجآت في حياتك ولا غدر إذا صاحبت مؤمناً، دقّق في أحوال أهل الدنيا تجد أنهم يتلقون ضربات قاصمة من أصدقائهم لأنهم غير مؤمنين، حينما يتراءى للصديق أن مصلحته بتحطيم صديقه يحطّمه، أما المؤمن فوفي، لذلك قال الله تعالى:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة النور: 31]

معنى جميعاً أي لن تذوقوا طعم الإيمان، لن تقطفوا ثماره إلا إذا كنتم جميعاً مؤمنين، إذا عمَّ الإيمان فهذا شيء مريح جداً.

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

هؤلاء هم المتقون، وإن الله مع المتقين، والمتقون لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتَّقون، كلمة تقوى أي اتقى أن يعصيه، اتقى عقابه، اتقى شقاء الدنيا، الله عزَّ وجل قال:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

[سورة الطلاق: 2]

من عظمة القرآن الكريم أن كل آيةٍ فيه لها معنى في السياق :

من عظمة القرآن الكريم أن كل آيةٍ فيه لها معنى في السياق، فإذا نزعتها من السياق لها معنى آخر، فهذه الآية وردت في سورة الطلاق.

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

[سورة الطلاق: 2]

من يتق الله في تطليق زوجته، لم يطلّقها بالثلاثة مرَّة واحدة، بل طلقة واحدة، طلّقها في طهرٍ لم يمسَّها فيه، ما طلّقها في حيض، ما طلّقها لقضيّةٍ لا علاقة لها بها، طلّقها وَفْقَ السُنَّة، لم يكن طلاقه بدْعِيًّا بل كان سُنياً ؛ طلّقها تطليقةً واحدة، طلّقها في طهرٍ ما مسَّها فيه، طلّقها لموضوعٍ لها علاقةٌ به، هذا الطلاق إذا كان سُنِّيًّا يجعل الله لصاحبه مخرجاً لأن يعيدها إذا ندم على طلاقه، أما إذا طلّقها طلاقاً بدعياً سُدَّ عليه طريق أن تعود إليه:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

[سورة الطلاق: 2]

انزعها من سياقها، من يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي، لأنه من تزوَّج المرأة لجمالها أذلّه الله، ومن تزوَّجها لمالها أفقره الله، ومن تزوَّجها لنسبها زاده الله دناءةً، فعليك بذات الدين، من اتق الله في اختيار زوجته، جعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي، من اتق الله في تربية أولاده؛ علّمهم، وهذّبهم، وأرشدهم، وبيَّن لهم، وأمرهم بالصلاة، واصطبر عليهم، ونشَّأهم تنشئة

راقية، جعل الله له مخرجاً من عقوق الأولاد، وهو الشيء المزعج جداً، من اتق الله في كسب المال جعل الله له مخرجاً من إتلاف المال ؛ الحرائق، والمصادرات، وتدمير المال، والغرق، والحريق، من اتق الله في كسب المال جعل الله له مخرجاً من إتلاف المال، هذه الآية يُكْتَب عليها مجلّدات:

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

الدنيا أساسها الكدح و الآخرة أساسها الإكرام :

هؤلاء الذين جاؤوا بالصدق وصدَّقوا به:

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

اتقوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، اتقوا شقاء الدنيا وشقاء الآخرة، اتقوا أن يعصوا الله فاتقوا عذابه وعقابه، هؤلاء ما جزاؤهم في الآخرة؟ الأوائل.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

شيء عظيم، آيةٌ على إيجازها عظيمةٌ جداً، الدار الآخرة - الجنَّة - مبنيَّة على مبدأ، أي شيءٍ يخطر في بالك تجده أمامك، هذه الجنَّة.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ)

أما في الدنيا فيخطر في بالك مليون شيء ولا يتحقَّق، فالعين بصيرة واليد قصيرة، الدنيا مبنيَّةٌ على الكَدْح، الجهد.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

[سورة الانشقاق: 6]

مبنيَّة على الجهد، مبنيَّة على التعب، مبنية على النَصَب.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

[سورة البلد: 4]

طبيعة الحياة الدنيا هي تَكَبُّد المَشاق، الإنسان لا يصل لبيت صغير وفيه بعض قطع الأثاث، ودخل يغطي نفقات خمسة أيام بالشهر، حتى يعاني الأمرين - كما يقولون -الحياة مبنيَّة على بذل الجهد، أما الآخرة:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

اطلب تُعْطَى يا عبدي.

الآخرة مبنيَّة على الطلَب والدنيا مبنيَّة على بذل الجُهد :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات: 15-16]

ما آتاهم ربهم:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات: 16]

دفع ثمنها في الحياة الدنيا، الطبيب يعمل لك تخطيطاً بخمسمئة، وإيكو بثمانمئة، ودخله في اليوم كذا عشرة آلاف، دفع ثمنها؛ ثلاث وثلاثون سنة دراسة، وكل يوم للساعة الواحدة ليلاً، ومطالعة، وتقديم أطروحات، وتدريب عملي، عندما يتعب الإنسان كثيراً في دراسته يصل إلى مركز مرموق، ودخل كبير، وجهد قليل، هل من حق الجاهل أن يقول: أنا مثله؟ لا، أنت لست مثله، هو دافع ثمنها، عندما كان يدرس أين كنت أنت؟ كنت تلعب، كل إنسان يدفع فيجد، هذا في الدنيا فكيف في الآخرة؟

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات: 15-16]

من قضَى عمره بخدمة الخلق و بنصحهم و إرشادهم استحق جنة الله عز وجل :

لكن:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات: 16]

قَضَى كل عمره بخدمة الخلق، قضى كل حياته بالنصح والإرشاد، وبذل المال، وبذل الوقت والخبرة، والنصح للمسلمين، ليله نهار، ونهاره ليل، يا رب لا يحلو الليل إلا بمناجاتك، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

إنهم:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات:16-19]

دفعوا ثمنها، فالآخرة إذاً مبنيَّةٌ على الطلَب، الدنيا مبنيَّةٌ على بذل الجُهد، على الكدح، على النَصَب، على التعب، أما الآخرة فمبنية على الطلب.

الإحسان يعني إتقان العمل و الصدق و النصيحة :

تحضرني الآن صورة شخص كان جارنا في البيت، ولكن لم يكن يصلي، كان ضد الدين، أين هو الآن؟

(قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ*فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

[سورة الصافات:54-55]

على الخاطر، أي خاطرٍ يخطر على بالك تراه أمامك، هذه الآخرة، هذه الآخرة يُزْهَد بها؟! امرأة طلبت من زوجها الصحابي طلبات لم تكن مألوفة وقتها، قال لها: " يا فُلانة إنَّ في الجنَّة من الحور العين ما لو أطلَّت إحداهنَّ على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أن أضحي بهنَّ من أجلكِ ". هذه واضحة مثل الشمس.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

كن محسناً أيها الأخ، كلمة محسن مطلقة؛ أحسن في عملك، انصح المسلمين، ترأف بهم، ارحمهم.

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي))

[كنز العمال عن أبي بكر]

أتقن عملك، الإحسان يعني إتقان العمل، الإحسان يعني الصدق، الإحسان يعني النصيحة، الإحسان يعني أن تربِّي أولادك، الإحسان يعني أن تعتني بمن حولك، الإحسان يعني أن يكون لك عمل طيِّب.

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات: 16]

من كرم الله عزَّ وجل أنه ينسي التائب عمله السيئ في الآخرة:

(ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

كذلك ربنا رحيم، فالذي له جاهليَّة هذه تطوى وكأنها لم تكن، في الدنيا يذكرها، فإذا ذكرها تمزَّقت نفسه، الذي له جاهليَّة قبل التوبة، له انحرافات، له تجاوزات، له مُخالفات، له معاصٍ، هذه إذا ذكرها في الدنيا تمزَّقت نفسه، وذابت ألماً، ومن علامة الإيمان أنه يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُلقى في النار، يندم أشدَّ الندم على عمرٍ أمضاه في معصية الله.

يقول لي أحد الأخوة الأكارم: أنا ولِدت من جديد، لم أكن أعرف هذه السعادة إلا بعد أن تعرَّفت إلى الله، وُلِدْت من جديد.

(لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا)

كل أعماله السيئة السابقة، حتَّى أشدُّها سوءاً هذه تُكفَّر عنه، ولا يذكرها الإنسان يوم القيامة.

(لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فالإنسان أحياناً يكون له عمل طيِّب، وعمل سيئ، من كرم الله عزَّ وجل أن ينسيه عمله السيئ في الآخرة.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: 20]

إذاً كان له جاهليَّة، في الجاهليَّة كان له عمل سيئ، وبعدما تاب إلى الله واصطلح معه صار له عمل طيِّب، فكرم الله يعني أن عمله السيئ يكفِّره عنه، ينسيه إيَّاه، يمحوه ولا يذكره، وأن عمله الطيِّب يجازيه عنه بأعظم الجزاء، الإنسان قد يتصدَّق بلُقمة يراها يوم القيامة كجبل أُحد.

العطاء هو الذي يبقى لا الذي يفنى و عطاء الله عطاء أبدي :

لذلك يجب أن تعلموا أيها الأخوة علم اليقين أن كلمة غني في قاموس الإيمان تعني من أكرمه الله بالأعمال الصالحة، تعني من أجرى الله على يديه الخَير، هذا هو الغني، لأن مال الدنيا يبقى في الدنيا، وكل هذه الأموال المنقولة وغير المنقولة مرتبطة بنبض القلب، فإذا توقَّف القلب كل هذه الأموال ليست له، ولا ساعته، ولا سِنُّه الذهبي، ينزعونه يقولون لك: الحي أولى. لا تملك شيئاً، ولا خزانتك الخاصَّة، لك مكتبة خاصَّة، لك زاوية خاصَّة، الألبسة الخاصَّة، الأدوات الخاصَّة، كل شيء يؤخَذ منك، إذاً ليس هذا هو العطاء، العطاء هو الذي يبقى لا الذي يفنى.

إذاً العمل السيئ قبل التوبة من كرم الله عزَّ وجل أن الله يكفِّره، والعمل الطيِّب بعد التوبة يعطيك الله عنه أعظم الجزاء، والأمر واضح وضوح الشمس، وما علينا إلا أن ننطلق إلى الله عزَّ وجل، ففروا إلى الله، انطلق.

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

[سورة يونس: 58]

افرح بعطاء الله عزَّ وجل، افرح بمعرفة الله، افرح بمجلس علمٍ تحضره، افرح بآيةٍ تفهمها، افرح بعملٍ صالحٍ يجريه الله على يديك، افرح بشيءٍ تدَّخره لنفسك بعد الموت.

الفقر فقر الأعمال الصالحة :

بين أن يموت الإنسان فقيراً ليس له أعمال أبداً وبين أن يموت والعمل الصالح يسبقه؟ لذلك الفقر فقر الأعمال، سيدنا موسى ماذا فعل؟ حينما سقى للمرأتين تولّى إلى الظل وقال:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[سورة القصص: 24]

أنا مفتقر لهذا العمل، فأنا أقول لكم أيها الأخوة: قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، هل تفرح بالدنيا أم بعطاء الله عزَّ وجل؟ بمعرفة الله؟ بطاعة الله؟ بعملٍ صالحٍ؟ الآيات إذاً:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ*وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أسعد الناس من صدَّق بالحقِّ إذ جاءه وطبَّقه :

إذاً كُن مستمعاً حقّاً، صدِّق بكلام الله واحمله محملاً جدياً، واعتقد أنه كلام خالق الكون، وأنه يترتَّب على طاعتك له عطاءٌ كبير، وعلى معصيتك لله - لا سمح الله - شقاءٌ كبير، وأن هذا الكلام الخطير كلام مصيري إن صحَّ التعبير، فأحياناً الإنسان يحضر جلسة فيقول لك: والله سُررنا. فالقضيَّة أخطر من ذلك، أخطر من السرور، أخطر من أنك أمضيت ساعة في مسجد، القضيَّة متعلّقة بمصيرك الأبدي، متعلّقة بسعادتك الأبديَة، متعلّقة بسلامتك في الدنيا والآخرة، فالقرآن بين أيديكم إعجازه ظاهر، أمره ظاهر، نهيه ظاهر، وعده، وعيده، حرامه، حلاله، ما علينا إلا التطبيق.

وأقول لكم هذه الكلمة الختاميَّة: مهما كان كلامي واضحاً، أنا أُحاسَب على مدى التطبيق لا على مدى الفصاحة، وأنتم مهما كنتم مستمعين مهذَّبين، تصغون، لا تحاسبون على استماعكم بل على تطبيقكم.

أيها الأخوة، نحن وإياكم نحاسب بمقياس واحد، لا قيمة لكلامي إن لم أطبِّق، ولا قيمة لاستماعكم إن لم تطبِّقوا، والله حسيب كل إنسان، والسعيد من ترجم هذه القناعات إلى سلوك.

أنا والله يؤلمني أشدَّ الألم أن أرى أخاً ينتمي إلى مسجد، وتوجد عنده مخالفات كبيرة جداً في بيته، أو في عمله، أقول: يا رب هذا كيف يستمع إلى الدروس؟ كيف يتوازن مع نفسه؟ كيف يعيش في داخله هذا التناقض؟ فالإنسان متى يسعد؟ إذا ألغى التناقض من حياته، أنت مؤمن انتهى الأمر، المؤمن هذا سلوكه، وهذا نَمَطُ حياته، وهذا زواجه، وهذا عمله، في عمله صادق، أمين، أما مؤمن ينتمي إلى الدين

ويغشُّ الناس؟! أو يأخذ أكثر مما يستحق؟! أو يعتدي على أموال الناس بطريقةٍ ذكيَّةٍ ويصلي أول صف؟! والله هذه مستحيلة.

فهذه الآيات واضحة جداً، أسعد الناس من صدَّق بالحقِّ إذ جاءه، وطبَّق هذا الحق، فسعد به في الدنيا والآخرة؛ وأشقى الناس من كذَّب بهذا الحق، أما أظلم الناس فمن كَذَبَ على الله بعلمٍ أو بغير علم، ولا يقل عنه ظُلماً من كذَّب بالحق لمَّا جاءه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (13-20): تفسير الآيات 36-41، من كان مع الله كان الله معه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-04-16

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية تشمل كل مؤمن لكنها تشمل شمولاً أولياً النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثالث عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية السادسة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

الآية الأولى:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

في هذه الصيغة استفهامٌ تقريري، والاستفهام التقريري يعني أن الله كافٍ عبده..

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

الله يكفي عبده، وعبده هو الذي عرفه؛ الذي عرف مقام الألوهيَّة، وعرف مقام العبوديَّة، عرف فقره وغنى ربِّه، عرف ضعفه وقوة ربه، عرف جهله وعِلم ربه، عرف أنه حادث وأن الله قديم، عرف حقيقة افتقار الإنسان إلى الله، وعرف عظمة الله عزَّ وجل، هذا العبد الذي عرف، وهذا العبد الذي أطاع، وهذا العبد الذي تقرَّب، هذا هو المقصود بقوله تعالى:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

فبعد أن تعرف، وبعد أن تستقيم على أمر الله، وبعد أن تتقرَّب إليه، الله جلَّ جلاله ألا يكفيك؟ ألا يكفيك أمر الدنيا؟ ألا يكفيك أمر خصومك؟ ألا يكفيك أمر أعدائك؟ ألا يوفِّقك إلى ما تحب وترضى؟ ألا ترى الأمور ميسَّرةً؟ هل يستطيع أحدٌ كائناً من كان أن ينال منك؟ كيف ينال منك وأنت مع الله، وكل من في الكون بأمر الله عزَّ وجل؟

هذه الآية تشمل كل مؤمن، لكنها تشمل - كما قال المفسِّرون - شمولاً أولياً النبي عليه الصلاة والسلام، فخصوم النبي، أعداء النبي، المشركون، الكفَّار لن ينالوا من النبي، لن يستطيعوا أن يطفئوا دعوة الله عزَّ وجل، لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً أمام هذا الدين العظيم، أمام هذا الطود الشامخ.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ آية تبث الطمأنينة في نفس المؤمن :

لذلك هذه الآية إذا عقلها المؤمن تبثُّ في نفسه الطمأنينة، أنت مع من؟ أنت مع الخالِق وخصومك مع المخلوقين، أنت مع الرازق وخصومك مع المرزوقين، أنت مع من بيده ملكوت السماوات والأرض، أنت مع مَن كل من في الكون دونه، دونه في القوة، قوتهم من قوَّته، لا وجود لهم أمام وجوده:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

أفيعقل أن تؤمن به وأن تستقيم على أمره وأن يخوِّفك من خصومك؟ وأن يحوجك إليهم؟ وأن يسلطهم عليك؟ وأن يجعل مصيرك بين أيديهم؟ لكن إن لم نعبده ربَّما كان ذلك، ربَّما كان المُقَصِّر فتنةً للكافر، ربَّما سُلِّط الكافر على المؤمن، لكن إذا كان المؤمن عبداً لله بالمعنى الصحيح:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

انظر إلى التاريخ، سيدنا يوسف كان عبداً لله عزَّ وجل، ماذا فعل معه أخوته الذين حسدوه وكادوا له وألقوه في الجب؟ ماذا فعلوا معه؟ كان في النهاية أن دخلوا عليه فعرفهم.

(وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)

[سورة يوسف: 58]

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة يوسف: 90]

الآية التالية تطمينٌ للنبي ولمن اتَّبعه وتطمينٌ للمؤمنين إلى يوم الدين :

أيها الأخوة الأكارم، هذه الآية لها تطبيقٌ عمليٌ في حياتنا اليوميَّة، أي أنك إذا كنت مع الله لا ينبغي أن تخاف أحداً، لا ينبغي أن تخشى أحداً، لا ينبغي أن تستجيب لتهديدٍ ولا لوعيدٍ، لأنك مع الذي من بيده ملكوت السماوات والأرض، أنت مع مَنْ؟ خصومك كلهم في قبضته أتخشى أناساً والله معك؟

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ)

[سورة التوبة: 13]

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

الله يكفي عبده، وهذه الآية تطمينٌ للنبي عليه الصلاة والسلام ولمن اتَّبع النبي، وتطمينٌ للمؤمنين إلى يوم الدين:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

انظر إلى المؤمنين، يكفيهم مؤونتهم، يكفيهم حاجاتهم، يؤويهم في بيوت، يزوِّجهم مؤمناتٍ طيِّباتٍ طاهرات، يرزقهم ذريَّةً صالحة، يُعْلِي شأنهم في الدنيا، ييسِّر أمورهم؛ أما إذا قصَّروا، أما إذا خالفوا، أما إذا خرجوا عن منهج الله، فيؤدِّبهم لأنه ربُّهم، يكفيهم إن عصوه بالتأديب، ويكفيهم إن أطاعوه بالتكريم، يكفيهم خصومهم إن اعتصموا به، يكفيهم إن أقبلوا عليه شقاء الدنيا، يكفيهم إن استجابوا له ما في الحياة الدنيا من متاعب.

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

من كان مع الله كان الله معه :

يا أيها الأخوة الأكارم، هذه الآية لو عرفها المؤمنون حقَّ المعرفة، لو فهموا أبعادها، لو وضعوا أيديهم على مضمونها، لامتلأت قلوبهم طمأنينةً لا يعلمها إلا الله، وما المتاعب التي يعاني منها المؤمنون إلا بسبب تقصيرهم في عبوديَّتهم لله عزَّ وجل، هم يعبدون الله في بعض الأمور ولا يعبدونه في أمورٍ أخرى، هم لا يرون الله واحداً، لا يرون الله بيده كل شيء، يخافون من أشخاصٍ كثيرين، يرجون ما عند الناس ولا يرجون ما عند الله، فالضغوط التي يتحمَّلها المسلمون بسبب تقصيرهم في عبوديَّتهم لله عزَّ وجل، لو أنهم عبدوه لكفاهم كل مؤْنة، لكفاهم أمر دنياهم، لكفاهم أمر آخرتهم، لكفاهم خصومهم، لكفاهم هؤلاء الذين يكيدون لهم، ولكم في تاريخ المسلمين خير دليلٍ على هذه الآية، كلَّما كان المسلمون مع الله كان الله معهم، وكلَّما انحرفوا إلى الدنيا، وإلى الشهوات، وإلى حظوظهم، كلَّما قصَّروا في تطبيق أمر ربِّهم، كفاهم الله أمر أنفسهم بالتأديب، يأتي التأديب:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

استفهامٌ تقريري، والله جلَّ جلاله عَلَمٌ على الذات، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، الله جلَّ جلاله يكفي نبيَّه وكل من اتبع نبيَّه، وكل مؤمنٍ إلى يوم القيامة، والأمر بيده وحده، إذا أيقنا بمضمون هذه الآية انتزعت هذه الآية كل خوف، استأصلت كل قلقٍ، انزاح عن قلب المؤمن كل همٍّ وكل حَزَن، لذلك، من قصَّر بالعمل ابتلاه الله بالهم، و:

((الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

الأمر بيد الله وحده :

أيعقل أن تكون مع الله ويسلمك إلى عباده الذين لا يحبُّهم؟! أن تكون مع الله ويحوجك إلى عبادٍ لؤَماء؟! أن تكون مع الله ويقوي أعداءك عليك؟! أن تكون مع الله وأن يجعل حاجتك إليهم! أن يذلّك بين أيديهم! أن يجعلك تستخزي أمامهم! أن يجعلك تخنع لسيوفهم وأنت معه؟! أليس الله بعزيز؟ هل تقتضي عزَّته أن تكون ذليلاً؟ ألا تقرأ دعاء الثناء كل يوم:

اللهمَّ اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولَّنا فيمن توليت، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت، وقِنا واصرف عنَّا شرَّ ما قضيت، فإنك تقضي ولا يُقضى عليك، سبحانك إنه لا يذل من واليت - إنك عزيزٌ يا رب - ولا يعزُّ من عاديت".

لا يذل من واليت ولا يعزُّ من عاديت، أي أنك حينما تخشى الناس وأنت مستقيمٌ على أمر الله عزَّ وجل معنى ذلك أنك لا تعرف الله، لا تعرف ألوهيَّته، ولا تعرف ربوبيَّته، ولا تعرف وحدانيَّته، حينما ترى أقوياء يتصرَّفون، حينما ترجو ما عندهم، أو حينما تخشى بأسهم، أنت لا تعرف الله عزَّ وجل، هذه الآية لم تتحقَّق بها، لذلك تسرَّب الخوف إلى قلبك، تسرَّب القلق، تسرَّب الشعور بالقهر.

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

تكون معه ولا يكفيك؟! تكون معه ويسلمك إلى أعدائك؟! تكون معه ويقهرك أمام خصومك؟! أهكذا أخلاق الله عزَّ وجل؟!!

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد: 7]

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور: 55]

كلام خالق الكون:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور: 55]

حيثما ترى أن المسلمين مصابون يُسلَّط عليهم أعداؤهم، ينال أعداؤهم منهم كل نَيْل، يجب أن تعلم علم اليقين أن هناك نقصاً في عبوديَّتهم لله عزَّ وجل، لأنهم لو كانوا عبيده كما أراد لكفاهم كل مؤْنَة، ولجعل كلمتهم هي العليا، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العُليا.

على كلّ مسلم أن يجعل همه أن يعبد الله حق العبادة و يتقيه حق التقوى :

فيا أيها الأخوة الأكارم، لنجعل كل همنا أن نعبده حقَّ العبادة، أن نتقيه حقَّ التقوى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

وجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده، جاهدوا حق الجهاد، واتقوا حقَّ التقوى، وأطيعوا حقَّ الطاعة، وآمنوا حقَّ الإيمان، وتحقَّقوا من عبوديَّتكم لله عزَّ وجل من أجل أن يكفيكم كل مؤْنَة، وحينما يبدو لبعض المسلمين أن الله تخلَّى عنهم، والله ما تخلَّى عنهم؛ ولكن أراد أن يؤدِّبهم، أراد أن يجعلهم مؤمنين حقّاً، أراد أن يجعلهم مسلمين حقاً، أراد أن يدفعهم إلى أبوابه، أراد أن يحملهم على التوبة، أراد أن ينقذهم من شرور أنفسهم حينما سَلَّط عليهم أعداءهم:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

والعبد هنا كما قال معظم المفسِّرين: هو النبي عليه الصلاة والسلام، ألم تقف مكَّة كلها ضدَّه؟ ألم تأتمر على قتله؟ ألم تخرج أصحابه؟ ألم تُنَكِّل بهم؟ ما الذي حدث؟ في أول مواجهةٍ بين النبي وأصحابه وكفَّار مكَّة خاطب النبي قتلى قريش وهم أبطالها وصناديدها، قال: " يا عتبة بن شيبة، يا أميَّة بن خلف - خاطبهم بأسمائهم واحداً واحداً وهم قتلى - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذَّبتموني وصدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس ". قالوا: " يا رسول الله أتخاطب قوماً جيَّفوا؟! ". قال: " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبونني ".

الكفار دائماً يخوفون بالذين من دونهم :

أيها الأخوة الأكارم، وأنت في أي زمان، وفي أي مكان، وفي أي وضع، مهما تكن الظروف حرجة، ومهما يكن أعداء الله أقوياء، ومهما ينطوون على حقدٍ دفين لا يعلمه إلا الله:

(قَدْ مَكَرُوا مَكْرُهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

إذاً نحن مع كلمةٍ في هذه الآية:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

على مستوى أفراد وعلى مستوى جماعات، في أي مكان، في أي زمان، في أي حال، في أي ظرف، مهما يكن الظرف عصيباً:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

دَورُ الكفار دائماً أنهم يخوفون بالذين من دونهم، ويكفينا وصفاً دقيقاً لهؤلاء الذين يبدو أنهم أقوياء، وصفٌ دقيق، هم جميعاً دون الله في كل شيء، إذا تحقَّقت فلا وجود لهم إطلاقاً مع وجود الله، قوتهم مستمدَّةٌ من الله عزَّ وجل، حركاتهم وسكناتهم بيد الله عزَّ وجل، إقدامهم وإحجامهم بيد الله عزَّ وجل، ظهورُهُم واختفاؤهم بيد الله عزَّ وجل، بطشهم ولينهم بيد الله عزَّ وجل، هذا هو التوحيد، هذا هو الذي يجعل المؤمن شخصيَّةً فذَّة، هذا الذي يُبعد المؤمن عن النِفاق، عن التملُّق، وعن الخوف، وعن الخنوع، هذا الإيمان..

من أراد أن يكون أقوى الناس فليتوكَّل على الله :

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

فهل كنت معه وأصابك الضيم؟ يا رب كيف أفتقر في غناك؟ وكيف أضل في هداك؟ وكيف أذلُّ في عِزِّك؟ وكيف أضامُ في سلطانك؟ هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

فهل تعرف إنساناً واحداً على وجه الأرض اعتصم بالله وخذله الله؟

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف لك من نيته فتكيده السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه و أرسخت الهوى من تحت قدميه، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

أتحب أيها الأخ الكريم أن تكون أقوى إنسانٍ على وجه الأرض؟ والله إن هذا في متناولك، كن مع القوي تكن قوياً، أتحب أن تكون عزيزاً؟ كن مع العزيز، أتحب أن تكون غنياً؟ كن مع الغني، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

فجهةٌ من جهات الأرض إذا خدمتها لا تنسى خدمتك لها، لا تسلمك لخصومك، لا تُضَحِّي بك، لا تتخلَّى عنك، يقول لك: هذا من جماعتنا لا يتخلون عن بعضهم بعضاً، فخالق الكون، الذات الكاملة، العزيز، القوي، الرحيم، يتخلَّى عن المؤمن؟ يسلمه لخصومه؟ يجعل لخصومه سبيلاً عليه؟ أين قوله تعالى:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

فإذا كان لهم سبيل فلنقصٍ في الإيمان، نقصٌ في العبوديَّة، نقصٌ في الطَّاعة، خروجٌ عن منهج الله، ضعفٌ في العقيدة، ضعفٌ في التوحيد.

تسلُّط أعداء الله على المسلمين صعقة من أجل أن يعودوا إلى الطريق الصحيح :

وهذا الذي نراه من تسلُّط أعداء الله على المسلمين، إنها صعقةٌ من أجل أن نصحو، أليس طبيب القلب يَصْعَقُ القلب لعلَّه ينبض؟ لعلَّه يتحرَّك، لعلَّ الحياة تدبُّ فيه، وكذلك هذه الشدَّة التي يعاني منها المسلمون لعلَّهم يصحون من غفلتهم، لعلَّهم يعودون إلى ربِّهم، لعلَّهم يقفون على أبواب ربِّهم تائبين، خاشعين، هذه هي الحكمة، ينبغي ألا نسيء الظنَّ بالله عزَّ وجل، ينبغي ألا نظنَّ أن الله تخلَّى عن المسلمين، ولو سمعت أن أعداءهم يقسون عليهم في مشارق الأرض ومغاربها.

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

أما حينما يقصِّرون، حينما يعصون، حينما يشركون، حينما يعتمدون على أشخاصٍ لا يحبُّونهم:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران: 119]

الحقيقة أيها الأخوة أنه تكشَّف لجميع المسلمين أن خصومهم لا يرحمونهم، وينطوون على حقدٍ دفين، فلذلك علينا أن نكون عبيداً لله حتى يكفينا الله كل مؤْنَة، حتى يكفينا كل خصومةٍ وكل شدَّةٍ نعانيها من خصومنا..

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

المؤمن الحق لا يخوِّفك إلا من الله وغير المؤمن يخوِّفك من أشخاصٍ كثيرين :

إذاً شأن الكفَّار التخويف، أنت بإمكانك أن تمتحن الذي يكلِّمك أهو مؤمنٌ أم كافر؟ مؤمن أم مُشرك؟ مؤمنٌ أم عاصٍ؟ إذا طمأنك إلى أن الله لن يتخلَّى عن المؤمنين فهذه علامة إيمانه.

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ*الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام : 81-82]

أما الذي يخيفك من زيد، أو من عُبَيْد، فيظهر لك قوَّته، وبأسه، وبطشه، ووعيده، أما الذي يدفعُك إلى معصية الله إرضاءً لزيدٍ أو عُبيد فاعلم علم اليقين أنه ضعيف الإيمان، إن لم نقل: عديم الإيمان، والدليل:

(وَيُخَوِّفُونَكَ)

المؤمن الحق لا يخوِّفك إلا من الله، وغير المؤمن يخوِّفك من أشخاصٍ كثيرين، هذا إيَّاك أن تغضبه، وهذا إياك أن تستفزه، وهذا إياك أن تعصي أمره ولو أمرك بمعصية، هذا كلام أهل الدنيا، هذا كلام الجُهَّال، هذا كلام الفُسَّاق، هذا كلام المشركين.

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

ويكفينا تعريفاً من الله بهؤلاء أنهم دون الله عزَّ وجل، أنت مع الله وخصمك مع من سوى الله، مع من هو دون الله عزَّ وجل لا بقليل ولكن بكثير.

الإضلال إذا عُزِيَ إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري :

الآن أيها الأخوة:

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

الإضلال كما تعلمون إذا عُزِيَ إلى الله جلَّ جلاله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري، وأفضل مثالٍ يوضِّح هذه الآية: أن جامعةً حريصةً حرصاً لا حدود له على مستقبل طُلاَّبها، وعلى نجاحهم وتفوقهم، اكتشفت من خلال أوراق الدوام أن زيداً من الطلاَّب لم يداوم أبداً ولم يشتر كتاباً، ولم يحضر ولا محاضرة، ولم يتقدَّم إلى الامتحان، أرسلت له كتاباً تدعوه فيه إلى لقاء عميد الكليَّة، إلى التسجيل بشكلٍ استثنائي، محاولةً، واثنتان، وثلاث، وأربع، وخمس، وهذا الطالب مُصِرٌ على ألا يلتحق بالجامعة، وألا يشتري كتاباً، وألا يحضر أية محاضرة، وألا يؤدي امتحاناً، وبعد محاولاتٍ كثيرة ويائسة أصرَّ هذا الطالب على رفض الدراسة كلياً، عندئذٍ لابدَّ من صدور كتابٍ يُرَقم فيه قيد هذا الطالب، متى رقِّم قيده؟ ومتى أُخرِجَ من الجامعة؟ بعد أن أخذ آلاف المواقف العنيدة المُصِرَّة على عدم قبول الدراسة، إذاً هذا الفصل، وهذا التَرْقيم، وهذا الإخراج من الجامعة هو نتيجةٌ حتميَّةٌ، وعند عُلماء المنطق تحصيل حاصل، نتيجةٌ حتميَّةٌ لاختياره الذي أصَرَّ عليه في عدم الدراسة.

فإذا أصرَّ الإنسان على اختيار الشهوة، أصرَّ على الدنيا وترك الآخرة، أصرَّ على شهواته وترك مبادئه، أصرَّ على مصالحه وترك قيَمَهُ، أصرَّ على أن يكون مع الشيطان وترك ربَّه، وقد جرت محاولاتٌ عدَّة ؛ تارةً بالنُصح، وتارةً بالتضييق، وتارةً بالمرض، وتارةً بالشدَّة، وتارةً بالفقر، وتارةً بالخوف، وكل هذه المحاولات لم تُجْدِ، وبقي مصراً على معاصيه، وشهواته، وضلالاته، عندئذٍ التحصيل الحاصل أن الله يضلُّه، فإذا أضلَّه الله لا تستطيع قوَّةٌ في الأرض أن تهديه إلى سواء السبيل، لأن الله بيده كل شيء.

الله جلَّ جلاله هو الذي خلقه، وهو الخبير به، وقد ساق له كل شيءٍ لعلَّه يهتدي إليه، ومع ذلك أصرَّ على ضلاله، إذاً أضلَّه الله، وإضلال الله إضلالٌ جزائي مبنيٌ على ضلالٍ اختياري، عندئذٍ لا تجدي معه نصيحة، ولا يستطيع أن ينقذه إنسان كائناً من كان.

من اختار العقل على الشهوة والقيَم على المصالح سيهديه الله ويزيده هدىً :

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ)

هذا الذي أراد معرفة الله، أراد أن يضع يده على الحقيقة الكبرى في الكون، هذا الذي سعى لمرضاة الله، هذا الذي طلب العلم، حضر مجالس العلم، استمع إلى تفسير القرآن، إلى بيان السنَّة المطهَّرة، إلى أحكام الفقه، إلى سيرة النبي وأصحابه، هذا الذي أراد أن يكون مؤمناً سلك مسالك الإيمان، حضر مجالس العلم، ارتاد بيوت الله عزَّ وجل، وقف عند كتاب الله، وقف عند أمره ونهيه، هذا الذي اختار الهدى على الضلال، اختار الآخرة على الدنيا، اختار العقل على الشهوة، اختار القيَم على المصالح، هذا الذي طلب الهُدى سيهديه الله ويزيده هدىً، لقوله تعالى:

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

[سورة الكهف: 13]

من هداه الله بعد أن أصرَّ على الهدى ليس في الأرض كلِّها قوَّةٌ تستطيع أن تضلَّه :

هذا الذي هداه الله عزَّ وجل بعد أن أصرَّ على الهدى، وبعد أن طلب الهدى، ليس في الأرض كلِّها قوَّةٌ تستطيع أن تضلَّه، لا نظريات، ولا مبادئ هدَّامة، ولا نظريات إلحاديَّة، ولا أناسٌ أقوياء تلتمع بين أيديهم سبائك الذهب، ولا أناسٌ أقوياء تلمَعُ بين أيديهم السياط اللاذعة، لا السياط اللاذعة ولا سبائك الذهب اللامعة بإمكانها أن تقوِّض الإيمان في نفس المؤمن.

فالذي اهتدى اهتدى، لو أن الأرض كلَّها اجتمعت على أن تصرفه عن عقيدةٍ اعتقدها لا تستطيع، كل الضلالات في الأرض لا تستطيع أن تزيحه قيد أنملةٍ عن عقيدته الإسلاميَّة، كل ما في الأرض من ضلالات، من شُبَه، من نظرياتٍ هدَّامة، من مبادئ إلحاديَّة، من نظرياتٍ تريد أن تسلخ المسلم عن دينه، لا تستطيع أن تفعل شيئاً، وكل قِوَى الشر مهما ضغطت لا تملك شيئاً، فرعون قال:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا

وَأَبْقَى* قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

[سورة الشعراء: 70-72]

تصور هذه الآيات خاضعةً للتعرُّف عليها من خلال الممارسات اليوميَّة، مهما كان خصمك كبيراً إذا كنت مع الله لانَ لك، أو خَضَعَ لك، أو مكَّنك الله منه، أو ألقى الله في قلبه الرُعْبَ منك، كيف؟ هذا فعل الله عزَّ وجل.

الله عزيزٌ ذو انتقام تقتضي عزَّته أن يعزَّ المؤمن و أن يذلَّ الكافر :

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ)

ما علاقة هذا الاسم العظيم بسياق هذه الآية؟ تقتضي عزَّته أن ينصر المؤمن، تقتضي عزَّته أن يرفع شأن المؤمن، تقتضي عزَّته ألا يحتاج المؤمن خَصْمِهِ، تقتضي عزَّته ألا يجعل للكافر على المؤمن سبيلاً، تقتضي عزَّته أن يذلَّ الكافر، تقتضي عزَّته أن يُعاقب الكافر، تقتضي عزَّته أن يُحْبِطَ عمل الكافر:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

ألا ترون في التاريخ كم هي المحاولات التي أرادت إطفاء نور الله؟ كم هي المحاولات التي أرادت استئصال الإسلام من جذوره؟ والمحاولات تجري..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

ومع ذلك الله مع المؤمنين، وهذا الدين يزداد قوّةً على قوَّة:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

استفهام تقريري، أي أن الله عزيزٌ ذو انتقام، تقتضي عزَّته أن يعزَّ المؤمن، وتقتضي عزَّته أن يذلَّ الكافر، تقتضي عزَّته أن يرفع شأن المؤمن، وتقتضي عزَّته أن ينتقم من الكافر.

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

انتهاء مهمَّة المسلم عند طاعة الله عزَّ وجل :

إذاً الآيات:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

كن عبده وانتهى الأمر.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 144]

تنتهي مهمَّتك عند طاعة الله عزَّ وجل، وعندئذٍ ترى رأي العين كيف أن الله يجري الأمور كلها لصالِحِك، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يؤيِّدك بنصرٍ من عنده، كيف أن الله سبحانك وتعالى معك بالنصر، معك بالتأييد، معك بالحِفظ، معك بالتوفيق، معك بالهداية.

الآية التالية أراد الله منها أن يقيم الحُجَّة على الكافر و المشرك :

الآن المعنى نفسه جاء بصيغةٍ أخرى، قال:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

هؤلاء الذين معكم في أعمالكم، في بيوتكم، حولكم، فوقكم، تحتكم، أقوى منكم، أضعف منكم، هؤلاء الناس اسألهم: من خلق السماوات والأرض؟ سؤال إجابته فطريَّة، هو الله، فالذي يقول: ليس لهذا الكون إله قلَّةٌ قليلةٌ لا شأن لها إطلاقاً، لكن الكثرة الكثيرة يقرَّون أن الله هو خالق السماوات والأرض.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

لكن إذا كان الله كما تقولون هو الذي خلق السماوات والأرض لماذا تخافون من دونه؟ لماذا تخشون هؤلاء؟ لماذا تحسبون لهم حساباً؟ هذا تناقض، أنبئونا إذا كان الله هو الخالق هؤلاء لا قيمة لهم، هنا أراد الله عزَّ وجل أن يقيم عليهم الحُجَّة.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

كلام مُطْلَق، والمطلق على إطلاقه، إن أردت أن تفهم هذه الآية في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، هذه الأصنام اللات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى، هذه الأصنام التي عُبدَت من دون الله، هذه الأصنام هل بإمكانها أن تدفع عنك ضُراً أو أن تجلب لك نفعاً؟

وإذا أردت أن تفهم هذه الآية في هذه الأزمان: الأشخاص الذين تظنُّهم أقوياء، وتظن أن بيدهم الحل والربط، هم عبادٌ لله عزَّ وجل ضعفاءٌ مثلك، لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً إلا بإذن الله عزَّ وجل، لكن الآية مطلقة شملتهم جميعاً:

(قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أيُّ جهةٍ صنماً كان أو شخصاً، جهةً أو قوَّةً أو دولةً، فهناك من يتوهَّم وجود دولة قويَّة جداً تحكم العالَم كلَّه، هذا شركٌ بالله عزَّ وجل.

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

[سورة يونس : 24]

أَمْرُنَا لا أمرهم.

سعادة الإنسان وشقاؤه من قِبَل الله عزَّ وجل :

إذاً:

(قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

دقّقوا:

(إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ)

الأصنام أو الأشخاص أو الجهات الكبرى.

(إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ)

أجبنا؟ إذا كنت تؤمن أن الله خالق السماوات والأرض، وأن هذه الأصنام، أو أن هؤلاء الأشخاص، أو أن هذه الجهات القويَّة هي في قبضته، ومن خلقه، وأمرها بيد الله عزَّ وجل، هل هذه الجهات التي تعبدها من دون الله تستطيع أن تدفع عنك ضرّاً أراده الله؟ أو أن تجلب لك نفعاً منعه الله؟

لا تنسوا أن الإمام الحسن البصري كان عند أحد ولاة يزيد بن معاوية، وقد جاءه كتابٌ من يزيد، يبدو أن هذا الكتاب فيه توجيهٌ لا يرضي الله عزَّ وجل، فوقع هذا الوالي في حرجٍ شديد، إن أطاع يزيد أغضب الله، وإن أرضى الله أغضب يزيد، فماذا يفعل؟ كان إلى جانبه الحسن البصري، وهو من كبار التابعين، فقال: ماذا أفعل؟ أجابه الحسن البَصريُ إجابةً هي في الحقيقة قانون، قال له الحسن البصري: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.

وهذه قاعدة يمكن أن تستخدمها كل يوم، إنسان قوي أمرك بمعصية قل: إنَّ هذا الإنسان لا يمنعني من الله إذا أرادني الله بضر، أما إذا أرادني بخير فلا يستطيع هذا الإنسان أن يمنع عني الخير، إذاً سعادتي وشقائي من قِبَل الله عزَّ وجل، هذا لا يقدِّم ولا يؤخِّر.

خير الإنسان من الله عز وجل :

إذاً هذه المناقشة الثانية.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ)

أي إذا أراد الله عزَّ وجل أن يعاقب إنساناً بمرضٍ عضال، ماذا يفعل الأطبَّاء؟ لا حل، الأطباء جميعاً يرفعون أيديهم مستغربين، مرضٌ لا حلَّ له، ماذا يفعل المال؟ المال لا يُجدي، ماذا يفعل أقرب الناس إليه؟ ماذا يفعلون؟ فإذا أراد الله بإنسانٍ ضراً، أهل الأرض جميعاً لا يستطيعون أن يحولوا بين الله وبين هذا الضُر، وإن أراد الله بقومٍ رحمةً أهل الأرض جميعاً لا يستطيعون أن يمنعوا هذه الرحمة، إذاً خيرك من الله.

(قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)

حسبي الله ونعم الوكيل هذه من الأوراد التي كان النبي عليه الصلاة والسلام يذكرها، حسبي الله ونعم الوكيل.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

[سورة آل عمران: 173-174]

الفرق بين المكان والمكانة :

الآن:

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

ما الفرق بين المكان والمكانة؟ المكان الشيء المادي، والمكانة الشيء المعنوي، فلان في مكان كذا، في قمَّة جبل، في حضيض الوادي، في سهلٍ، في رابيةٍ، في تلَّةٍ، هذا هو المكان، أما المكانة؛ فلان له قناعاته يحتل مكانة المعارض للحق، فلان مكانته داعيةٌ إلى الله عزَّ وجل، فلان مكانته العمل الصالح،

فلان مكانته إيقاع الأذى بين الناس، المكانة التي تحتلُّها بحسب عقيدتك وقيَمك وقناعاتك هي المكانة وليست المكان، النبي عليه الصلاة والسلام أمره الله عزَّ وجل أن يقول:

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

أي استمروا على قناعاتكم، وعلى معتقداتكم، وتحرَّكوا من خلالها، واستمروا على شأنكم الذي بين الناس..

(إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

أهل الحق يعملون للحق، وأهل الباطل يعملون للباطل، أهل الحق يدعون إلى الله عزَّ وجل، أهل الباطل يدعون إلى الدنيا، يدعون إلى باطلهم، أهل الحق يدعون إلى الخير، أهل الباطل يدعون إلى الشر، أهل الحق يدعون إلى الوئام، أهل الباطل يدعون إلى الفِتَن..

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك :

النبي عليه الصلاة والسلام واثقٌ من النتائج، افعل ما تريد وأنا سأفعل وفق معتقداتي وإيماني، وسوف ترى من هو الخاسر، سوف ترون من هو الرابح ومن هو الخاسر، سوف ترون لمن العاقبة؛ للمؤمنين أم لغير المؤمنين؟ لمن النصر في النهاية، لأهل الإيمان أم لأهل الكفر؟ هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف : 128]

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ)

أي إني عاملٌ على مكانتي، شأن المؤمن أنه يدعو إلى الخير، وشأن الكافر أنه يدعو إلى الشر، شأن المؤمن أنه يدعو إلى الله عزَّ وجل، شأن الكافر أنه يدعو إلى زيدٍ أو عُبيد، شأن المؤمن أنه يحب الإصلاح بين الناس، شأن الكافر يحب الفساد بين الناس، قال:

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

أي على ما أنتم عليه من قيَمٍ، واعتقاداتٍ، ومبادئ، وتصوُّرات، وأوهام، هذه مكانتكم، كل إنسان له دور في الحياة، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، إنسان عمله الخَير، عمله العَطاء، عمله الهُدى، عمله إكرام الخَلق، عمله بثُّ الفضيلة في الناس، إنسان عمله بث الرذيلة، الإيقاع بين الناس، سلب حريَّة الناس، سلب ممتلكاتهم، إيقاع الأذى بهم، هذه مكانة وهذه مكانة، وكما ورد في الحديث القدسي:

((أنا خلقت الخير والشر، فطوبى لمن قدرت على يده الخير، وويل لمن قدرت على يده الشر))

[كنز العمال عن ابن عباس]

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[سلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

للفاسد المفسد عذابان؛ عذاب في الدنيا و عذاب في الآخرة :

ثم يقول تعالى:

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ)

عذاب مُخْزٍ:

(وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

عذابان، قال المفسِّرون: العذاب الأول في الدنيا، والعذاب الثاني في الآخرة..

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

يكاد المؤمن يعلم ما سيكون، لا لأنه يعلم ما سيكون ولكنه يعلم ما في كتاب الله من وعدٍ ووعيد، يكاد المؤمن يعلم ما سيكون لا لأنه يعلم ما سيكون؛ بل لأنه يصدِّق ربَّ العالمين، هذه الآية بإمكانك أن تتوقَّع أنه لكل فاسدٍ مفسدٍ، ضالٍ مضل، منحرفٍ، مؤذٍ، عذاباً في الدنيا مخزياً، وأن تتوقَّع له عذاباً في الآخرة مُقيماً، ماذا فعلت أنت؟ طبَّقت كلام الله عزَّ وجل؟ هذه الآية ألا تكفينا؟ ألا تكفي المؤمن أنه يعلم مصير أهل الدنيا؟ مصير إعراضهم؟ مصير غفلتهم؟ مصير انحرافهم؟ مصير معاصيهم؟ مصير فجورهم؟

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

افعلوا ما تشاؤون، لكم أن تفعلوا ما تشاؤون.

(إِنِّي عَامِلٌ)

على مكانتي أيضاً:

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ)

الإنسان مخير :

أيها الأخوة الأكارم، إذا أردتم أن تعرفوا مصير المؤمن ومصير الكافر، للمؤمن خطٌ بيانيٌ صاعدٌ صعوداً مستمراً، لا يتوقَّف هذا الصعود حتى عند الموت، لأن الموت نقطةٌ على هذا الخط، ويبقى الخط صاعداً، أما الكافر فقد يصعد خطُّه البياني صعوداً حاداً ليسقط من عَلٍ، لذلك:

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ *إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

الإنسان مخيَّر:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة القصص: 56]

هم مخيَّرون:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

[سورة البقرة: 272]

إنك لا تستطيع أن تهديهم لأنهم مخيَّرون، إن لم يختاروا الهُدى لن يهتدوا، ولست مسؤولاً عن عدم هدايتهم، عليك البلاغ وعلينا الحساب.

الأمر بيد الإنسان وحده وكل النتائج له خيرها وشرُّها :

إذاً:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

خيرك منك وشرُّك منك، طائرك معك، إن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها، إن آمنت فلنفسك، وإن لم تؤمن فعليها، إن استقمت فلنفسك وإن لم تستقم فعليها، إن طلبت العلم فلنفسك وإن أعرضت عنه فعليها، الأمر لك بيدك وحدك، وكل النتائج لك خيرها وشرُّها:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ)

أي ليقرأه الناس، ليتدبَّره الناس، ليفهمه الناس، ليكون لهم مبشِّراً ونذيراً:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ)

ليس لخاصَّتهم، ليس لفئةٍ قليلة، بل للناس جميعاً:

(بِالْحَقِّ)

بالقول الثابت.

الضلال عبءٌ على النفس يسحقها والهُدى يرفعها إلى أعلى عليين :

الحق ما طابق الواقع، الحق ما كان ثابتاً، وأنتم ترون أيها الأخوة كيف أن هناك مذاهب انهارت، وتبددت، وتقوَّضت دعائمها لأنها ليست حقّاً بل هي باطلاً، والباطل كان زهوقاً كما قال الله عزَّ وجل، الحق ثابت، إلى يوم القيامة الحق هو الحق، لذلك هنيئاً لمن كان مع الحق، مع القول الثابت، مع الواقع، ليس في حياة أهل الحق مُفاجآت، لكن في حياة أهل الباطل آلاف المفاجآت، إحدى هذه المفاجآت أن الذي كان يعتقدونه صواباً منذ بضع عشرات السنين أصبح باطلاً، أصبح خرافةً، أصبح بيتاً من عنكبوت، أصبح بناءً هَشّاً سُرْعَان ما تقوَّض.

إذاً:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ)

إليه:

(فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ)

عنه:

(فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)

انظر إلى عليها، الضلال عبءٌ على النفس، يسحقها، والهُدى مع اللام فلنفسه، يصبح الهدى ملكه هو ليرفعه.

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

هم مخيَّرون، وأنت عليك البلاغ وعلينا الحساب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (14-20): تفسير الآيات 41-42، القرآن الكريم حبل الله المتين من تمسك به نجا ومن تركه هلك.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-04-23

بسم الله الرحمن الرحيم

تحدث الله جلَّ جلاله عن ذاته بضمير المُفْرَد :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الرابع عشر من سورة الزُمَر ومع الآية الواحدة والأربعين وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

تعلمون أيها الأخوة أن الله جلَّ جلاله إذا تحدَّث عن ذاته تحدَّث بضمير المُفْرَد..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

أما إذا تحدث الله جلَّ جلاله عن أفعاله فيتحدث بضمير الجَمْع، لأن أفعاله فيها كل أسمائه، كل فعلٍ من أفعاله، فيه القدرة، وفيه الحكمة، وفيه العلم، وفيه الخبرة، وفيه الرحمة، وفيه اللطف، أفعاله فيها كل أسمائه.

القرآن الكريم حبل الله المتين من تمسك به نجا ومن تركه هلك :

قال تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ)

والكتاب، كلمة كتاب إذا عُرِّفَتْ بال تعني إما القرآن الكريم أو تعني مطلق الكتب السماوية، ولكن حينما توجه الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام فصارت كلمة الكتاب تعني القرآن الكريم بالذات.

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ)

القرآن الكريم ودعوة النبي للناس كافة، الإسلام لكل الناس، ليس حِكْرَاً على أناس، دين الله عزَّ وجل أعظم وأكبر من أن يحتكره إنسان، أو تحتكره جماعة، أو أن يحتكره زمانٌ أو مكان، أو فئة، دين الله لكل الناس، الله رب الناس وهم عبيده، وقرآنه لكل الناس، والقرآن الكريم كما تعلمون أيها الأخوة حبل الله المتين، فكل من تمسك به نجا، ومن تركه هلك.

من تعامل مع الله عزَّ وجل فلن يضلَّ أبداً :

ماذا تعني كلمة بالحق؟ قالوا: لابسَ الحق نزوله، والحق الشيء الثابت الذي لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، ولا يتحوَّل، ولا يتعدَّل، ولا يُلغى، ولا يجَدَّد، الحق هو الله عزَّ وجل واجب الوجود، كلامه هو الحق، أوامره هي الحق، نواهيه هي الحق، الحلال هو الحق، الحرام هو الحق فالحق أن يحَرَّم، فكل ما جاء في القرآن الكريم حقٌ من عند الله عزَّ وجل.

فالإنسان حينما يتعامل مع المتغيرات يتعثر، فالأنظمة الوضعية، والنظريات الوضعية، والمبادئ الوضعية، والمذاهب الوضعية، هذه كلها متغيرة، فإذا تعاملنا معها ففي حياتنا مفاجآتٌ كثيرة، وعثرات خطيرة، ومنزلقاتٌ مهلكة، لكنك إذا تعاملت مع الحق، مع الله عزَّ وجل، مع كلامه، مع قوانينه، مع تعليماته، مع أوامره، مع نواهيه، فإنك لن تضلَّ أبداً، ألم تقرؤوا قول الله عزَّ وجل:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

فهل هناك ثمرة أو نتائج أطيب من هذه النتائج؟ ألا يضل عقلك، وألا تشقى نفسك.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة : 38]

آية تبث في النفس الطمأنينة، هل هناك من آيةٍ تَبُثُّ في النفس الطمأنينة أكثر من هذه الآية؟ الماضي مغطَّى والمستقبل مغطَّى، لا خوفٌ عليه، لا يخشى مما هو آت في المستقبل، ولا يندم على ما فات، إذاً هذا الحق.

القرآن الكريم خطاب الله عزَّ وجل للناس كافة :

المؤمن الموفق، العاقل، الحكيم، هو الذي يسأل، هذا الخالق العظيم، الذي يدل خلقه على قدرته، ويدل خلقه على علمه، ويدل خلقه على كماله، أيعقل أن يدع الناس دون منهجٍ يسيرون عليه؟ يكون فيه تعليماتٍ، من أمرٍ ونهيٍ، من تبشيرٍ وتحذيرٍ، من بيانٍ لما سيكون، لما بعد الموت، من بيانٍ لما كان قبل أن يأتوا إلى الدنيا، لابُدَّ، وهذا القرآن خطاب السماء إلى الأرض، خطاب الله عزَّ وجل للناس كافةً.

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ)

فالإنسان يجب أن يعلم علم اليقين أن الخلق كلهم عند الله سواسية قال له: " يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له ". أنت مطلوب أيها

الأخ الكريم في أي زمان، في أي مكان، من أي جنس، من أي عِرق، من أي أمة من أي خلفية، من أي انتماء، أنت إنسان مطلوب من قبل الله عزَّ وجل خلقك ليسعدك، ولا يزالون مختلفين.

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ*إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)

[سورة هود: 118-119]

مخلوق كي يسعدك الله عزَّ وجل، جاء بك إلى الدنيا كي تكون الدنيا إعداداً للآخرة، جعلك في دنيا جعلك في حياةٍ دنيا إعدادية، لحياةٍ أخرى أبدية، ما جاء في هذا القرآن، منذ ألفٍ وخمسمائة عام لا يمكن أن يتبدل، ولا أن يتغير، ولا أن يطرأ عليه أي تعديل لأنه حق، والحق الشيء الثابت.

وهناك أمثلةٌ كثيرة: لو أن جداراً بني على الحق، بني على الشاقول، وحفرت له أساساتٌ عميقة، ووضعت مواد بنسبٍ ممتازة، هذا الحائط لا يقع، لأنه بُني بالحق، بُني ليبقى، أما إذا بني ولا أساس له فلابُدَّ من أن ينهار، إذا بني دون شاقول غالباً ما ينهار، وإذا بني بمواد ليست جيدة، أغلب الظن أنه ينهار، لأنه بني بالباطل.

كم أتى على الإسلام من مذاهب، واجتياحات من الشرق ومن الغرب، كم ظهرت من نظريَّات، كم ظهرت من مبادئ، كم ظهرت من مذاهب، هو كالطود الشامخ لأنه حق، ما من آيةٍ في القرآن الكريم يمكن أن يأتي وقتٌ ينقضها العلم، كلما تقدم العلم اقترب من القرآن الكريم، كلما تقدم العلم توافقت الآيات القُرآنية مع المنجزات العلمية الحقَّة.

القرآن يعبِّر عن الحقيقة والحقيقة التي جاءت في القرآن الكريم حقٌ ثابت :

إذاً كلمة

(بِالْحَقِّ)

هذه الكلمة يجب أن نشعر أنها كلمةٌ عميقةٌ جداً، القرآن يعبِّر عن الحقيقة، والحقيقة هي التي قنَّنها الله عزَّ وجل، السُنَّة التي سنَّها الله، الحقيقة التي جاءت في القرآن الكريم حقٌ ثابت، قال بعضهم: هذه الباء للملابسة، أي لابس الحق نزول هذا القرآن.

الإنسان يسعى للتعلق بشيء ثابت، ويتعلق بأشياء متغيرة، بأشياء لم تثبت صحتها، بأشياء لم تبن على أساسٍ صحيح، ولكن بُنيت على ظنون، بنيت على أهواء، بنيت على نزعات، لأن هذه الأشياء المبنية على الأهواء والنزعات والرغبات هذه تنهار، وقريباً ما تنهار ولو امتد بها الزمان، وبين أيدينا تجارب لأممٍ كثيرة بنت بناءً شامخاً على أساسٍ باطل، مهما امتدَّ الزمان هذا البناء قد انهار وتداعى وكأنه بيت العنكبوت، لهذا قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

[سورة الإسراء: 81]

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا*وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

[سورة الإسراء: 80-81]

وما من سعادةٍ تملأ قلب المؤمن أكثر من أن يعتقد اعتقاداً صحيحاً مهما امتد الزمان، مهما ظهرت العوامل الخارجية يبقى دينك شامخاً، تبقى عقيدتك صحيحةً، يبقى تصوُّرك عن الكون والحياة والإنسان مطابقاً للواقع، والحقيقة العلم ما طابق الواقع، هذا كأس ماء إذا قلت عنه: إبريق ماء، فقد خالفت الواقع، وإذا قلت: كأس ماء فأنت مع الواقع، وهذا علم لأن هذا الكلام مطابقٌ للواقع.

وتعريف الجهل هو الكلام الذي يخالف الواقع، فكل دعوةٍ باطلةٍ تخالف الواقع، كل دعوةٍ موهومةٍ مزعومةٍ تخالف الواقع، الواقع هو الشيء الثابت، فالقرآن يطابق الحق ويطابق الواقع، ويوافق العقل، ويوافق الفطرة، ويوافق النقل، نقلٌ وعقل وفطرةٌ وواقع، إذا اجتمعت هذه العوامل الأربعة فأنت في دائرة الحق.

الناس في الدنيا مخيَّرون :

لذلك:

(فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ)

من اهتدى إلى الحق.

(وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)

هذه اللام للمُلْكِيَّة، أي شيء ثمين يُمَلَّك.

(فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ)

فالضلال كأنه صخرةٌ تسحق الإنسان.

(وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

الله هو الوكيل، أمرهم ليس بيدهم، أمرهم بيد الله، هم في الدنيا مخيَّرون، إن أرادوا أن يهتدوا فلهم ذلك، وإن أرادوا أن يضلوا فعليهم ذلك:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

دعوة النبي دعوة حق لكن الاستجابة لها ليست بيده بل بيد الناس :

لذلك في آيات أخرى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

[سورة البقرة: 272]

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

[سورة القصص: 56]

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

دعوتك حق، لكن الاستجابة لها ليست بيدك بل بيد الناس، فإما أن يستجيبوا وهم مخيرون، وإما ألا يستجيبوا، إن استجابوا فلأنفسهم، وإن لم يستجيبوا فعليهم:

(فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

الإسلام ألغى كل الانتماءات إلا انتماءً واحداً هو انتماء الحق :

عم سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام "أبو لهب" لم يؤمن.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ*فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد: 1-5]

أما سلمان، قال:

((لا منكم، ولا منكم، سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، الإسلام ألغى كل الانتماءات إلا انتماءً واحداً هو انتماء الحق، فإذا انتميت إلى الحق فكل من ينتمي للحق أخوك في الدين، فالإسلام أداة جمع لا أداة تفريق، كل من تعرَّف إلى الله عزَّ وجل، وعرف منهجه، وطبَّق منهجه، تشعر أنه أخوك وأقرب الناس إليك، لأن نقاط اللقاء بينك وبينه كثيرة؛ العقيدة مشتركة، والقيّم مشتركة، والأهداف مشتركة، والمبادئ مشتركة، والسلوك مشترك، كلها قواسم مشتركة توحِّد بين المؤمنين.

من الوكيل إذاً؟ الله جلَّ جلاله، أي أن أمرك بيده، هو الوكيل.

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

لكن الوكيل الحقيقي هو الله.

الله سبحانه وتعالى مَلَّكَ الإنسان نفسه تمليكاً موقتاً فعليه تزكيتها لا تدنيسها :

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)

معنى يتوفَّى، توفَّيت الدين، أي أخذته بعد أن منحته، تمنح حاجة ثم تتوفَّاها أي تسترجعها، إذاً من كلمة:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ)

أي أن الله سبحانه وتعالى مَلَّكَكَ نفسك تمليكاً موقتاً ولابُدَّ من أن يستوفي هذه النفس، يستوفيها مرتين، يستوفيها مرةً وأنت نائم، هذه الوفاة وفاة النوم، ويستوفيها نهائياً عند الموت، هذا الشيء النفيس الذي منحت إياه، والذي جُعلت وكيلاً عليه، والذي جعل أمانةً في عنقك، والذي وكل إليك أمر تزكيته هي نفسك التي بين جنبيك، والدليل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

أنت حامل أمانة، الأمانة نفسك التي بين جَنْبَيْكَ، هذه النفس إن زكَّيتها سعدت بها إلى أبد الآبدين، وإن دنَّستها شقيت بها إلى أبد الآبدين، هي الآن ملكك، وباختيارك، وتحت تصرُّفك، لكن الله جعل النوم استيفاءً لهذه النفس مؤقتاً، وجعل الموت استيفاءً لهذه النفس استيفاءً نهائياً، لذلك شعور الإنسان حينما يستيقظ كأنما بعث من جديد، أنت كنت ميِّتاً بالتعبير القرآني، لكن الله سبحانه وتعالى ردَّ لك نفسك، لذلك ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوَّد مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

النبي عليه الصلاة والسلام من أدعيته النبوية الشريفة:

((إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا))

[أحمد عن أبي هريرة]

الإنسان إذا أوى إلى فراشه لينام، عليه أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى وهو نائم يستوفي نفسه أي يسترجعها، موتٌ مؤقَّت، النوم موت مؤقَّت، فإذا كتب الله على هذه النفس الموت، لا يردُّها إليك في صبيحة اليوم التالي، آلاف الحوادث، لم يستيقظ على صلاة الفجر، وجدوه ميتاً، فإما أن يستمر هذا النوم أو الموت، فهو الموت الحقيقي، وإما أن تسترد النفس لتعيش يوماً جديداً.

الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه :

الإنسان العاقل عندما يستيقظ يقول:" الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا" دعاء نبوي.

سمح الله لي أن أعيش يوماً جديداً، ماذا ينبغي أن تفعل في هذا اليوم؟ ماذا ينبغي أن تفعل من الصالحات؟ الزمن شيء ثمين جداً، أنت زمن، أنت أيها الإنسان بضعة أيام، وكلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، أنت مستهلك، الزمن يستهلك الإنسان، إذا الإنسان ركب سيارة واتَّجه إلى مدينة، كلما قطع كيلو متراً المسافة تنقص، فالحقيقة نحن كلما عشنا شهراً أو سنةً نقصت أعمارنا، فكلما كبرت صغرت، احسب كم بقي؟ اعمل عدّاً تنازلياً، كالمركبات الفضائية، سبعة، ستة، خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، صفر، والإنسان العاقل لا يقول: أنا عمري كذا، لا يسأل كم بقي له؟ إذا كان كما قال النبي عليه الصلاة - إذا كان عمري وفق المتوسط العام- "معترك المنايا بين الستين والسبعين"، إذاً بقي لي عشر سنوات، فكل إنسان ينبغي أن يسأل هذا السؤال الدقيق، وربما كان هذا السؤال قاسياً: يا نفس هل بقي بقدر ما مضى؟

الإنسان فوق الأربعين أغلب الظن الذي بقي أقل مما مضى، لأنه من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة.

يعمل الإنسان نزهة لو فرضنا ستة أيام، أول يوم والثاني والثالث والرابع التفكير إيجابي، لكن بالخامس والسادس التفكير سلبي؛ يفكر في جمع الأغراض، وتأمين العودة، فإذا دخل الإنسان في الأربعين، الأكمل أن يهيئ لملاقاة الله عزَّ وجل فما رأيت إنساناً أشد خسارةً ممن تخطى الأربعين وهو مقيمٌ على معصية الله عزَّ وجل، هذا الذي يجلس في المقاهي يلعب النرد، وهو في الخمسين أو الستين، يا ربي ماذا أبقى لآخرته؟! كيف سيلقاك هذا الذي لا يصلي؟ هذا الذي يطلق بصره في الحرام؟ هذا الذي يكسب مالاً حراماً؟ هذا الذي يكذب؟ هذا الذي يحتال على الناس ليأكل أموالهم بالباطل وهو فوق الأربعين، ماذا بقي له؟ كيف سيلقى الله عزَّ وجل؟

بطولة الإنسان أن يتهيأ للساعة التي لابدّ منها :

إذاً:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ)

انظر إلى النوم، النوم دليل، أنت في النوم ميِّت، لذلك النائم لا يحاسب، لأن الله أخذ منه نفسه، لا يحاسب مهما فعل، مهما تكلَّم، النائم في حكم الميت، موت مؤقَّت، ينام الإنسان بغرفة قميئة ومظلمة ويشعر بسعادة لا توصف، وينام في قصرٍ منيف ويشعر أنه بين الأفاعي والثعابين، يفيق مذعوراً،

معنى ذلك أن النفس منفصلة عن الجسد، لك نفسٌ هي التي تشقى، وهي التي تسعد، هذه النفس هي التي تلقى الله عزَّ وجل.

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

إذاً كل بطولتك أن تتهيأ لهذه الساعة التي لابُدَّ منها، كل بطولتك، كل ذكائك، كل عقلك، كل فوزك، كل نجاحك، كل فلاحك، كل تفوّقك أن تهيِّئ لهذا اليوم الذي لابُدَّ منه.

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ*فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

[سورة المدثر: 8-10]

عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت.

الموت أكبر درس للإنسان :

كان من الممكن أن يأتي الناس إلى الدُنيا دفعةً واحدة، وأن يغادروها دفعةً واحدة، عندئذٍ لا يتَّعظ بعضنا ببعض، الموت أكبر درس بين أيدينا، ما الموت؟ هذا الذي جمعته في سبعين عاماً، هذا الذي حصَّلته في ستين عاماً، هذا البيت الذي اشتريته، وهذا الأثاث الذي اقتنيته، وهذه المزرعة التي اعتنيت بها، وتلك السيارة التي ركبتها، وهذه الزوجة والأولاد الذين تعيش معهم، تفقدهم جميعاً إذا توقَّف نبض القلب، كل هذه الآمال مبنيةٌ على حركة القلب، فإذا توقف القلب كنت إنساناً فأصبحت خبراً، نعاك الأصدقاء والأهل، لذلك: " واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا.

على الجدران توفي فلان عميد أسرتهم، فلان الشاب، فلانة الشابَّة، حينما تقرأ هذه النعوات، أو تشاهد هذه الجنازات، الموت تخطَّاك إلى غيرك، لكن اعلم علم اليقين أنه سيأتي يوم يتخطَّى الناس إليك كما تخطَّاك إلى غيرك.

فالإنسان حينما يولد يبكي، وكل من حوله يضحكون، أما إذا جاء الأجل فكل من حوله يبكي، وهو يضحك، إذا كان لك عملٌ طيب لا يعنيك نوع الجنازة، ولا نوع المأتم، ولا مستوى الوليمة التي قدِّمت بعد الوفاة، ليفعلوا ما شاؤوا أنت مع ربك، أنت في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

ما رأيت إنساناً موفقاً وفالحاً وسعيداً إلا جعل هذه الساعة التي لابُدَّ منها، طالت أو قصرت نصب عينيه، ندخل إلى المسجد كثيراً لنصلي ولابُدَّ من أن ندخله مرةً واحدةً ليصلى علينا، ندخل قائمين وسوف ندخل ونحن على آلة حدباء محمولون، نخرج من بيتنا آلاف المرَّات إلا خروجاً واحداً لا عودة إليه، أهل الميِّت لا يقولون مساءً لمَ لم يعد فلان؟ انتهى الأمر، دفنوه ولن يعود، هذه الساعة التي لابُدَّ منها، فالله يقول:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

إلى أجل مسمى، أي كذا يوم، كذا أسبوع، كذا شهر، لك عند الله عدة أشياء، لك عنده هذه، إذا أعطاك إياها وانتهى أجلك استرد نفسك التي بين جنبيك.

الإنسان الآن مخيَّر أما حينما يتوفى الله النفس فلا يستطيع أن يفعل شيئاً :

لذلك:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

[سورة الفاتحة : 4]

الإنسان الآن مخيَّر بإمكانه أن يصلي أو ألا يصلي، بإمكانه أن يطلب العلم أو ألا يطلب العلم، بإمكانه أن يستقيم أو أن ينحرف، يُخلص أو يخون، يحسن أو يسيء، يصدق أو يكذب، مخير، أما حينما يتوفى الله النفس، خُتِمَ العمل، وانقضى الأجل، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً..

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[سورة الفجر: 24]

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي*لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا)

[سورة المؤمنون: 9-100]

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ*أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ*قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ*رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ*قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ*إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ*فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ*إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ*قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ*قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ*قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ*أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ*فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[سورة المؤمنون: 104-116]

القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران :

إذاً نحن في النوم يتوفى الله أنفسنا، موتٌ مؤقَّت، وعند الموت الحقيقي يتوفى الله النفس توفّياً نهائياً، إذاً نقدم على الله عزَّ وجل بأعمالنا، "يا قييس إن لك قريناً يدفن معك وهو حي، وتدفن معه وأنت ميت، فإذا كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك "

لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة. ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة. ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين. ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

[السيوطي عن أبي البحير]

لي صديق يعمل في معمل، صاحب المعمل يعيش حياةً فوق الخيال، أناقة ما بعدها أناقة، غنى، وبحبوحة، وأشياء جميلة ولطيفة، كل ألوان النعيم، جاءته المنية ووافاه الأجل في أيام الشتاء المطيرة جداً، اشترى له أولاده قبراً، فُتِحَ القبر فإذا فيه مياهٌ سوداء قد تفلّتت من المجاري، فلما سُئِل ابنه ماذا نفعل؟ قال: ادفنوه، فالذي يعمل في معمله لا يصدِّق أن هذا معلمي الناعم، الطاعم، الأنيق، المرفَّه، الذي في بيته من العجائب والأناقات والأشياء اللطيفة ما لا يحصيها المحصي هنا ينام؟ هنا يوضع؟ هذا مصير كل مخلوق، لابُدَّ من هذه الحفرة.

أخ كريم دخل في مشروعٍ شعر أن هناك شبهة، فقال لي كلمةً لا أنساها، قال لي: أنا غنيٌ عن هذا المشروع المشبوه إنني أخاف من الله ساعة وضعي في قبري.

كل واحد لابُدَّ من أن ينزل في هذه الحفرة، فبطولتك وذكاؤك وتوفيقك أن تعدَّ لها، أن تجعلها مدَّ بصرك، أن تجعلها روضةً من رياض الجنة؛ لكن الذي يأكل مالاً حراماً، ويعتدي على أعراض الناس، ويكذب، ويحتال، ويخرج عن منهج الله عزَّ وجل، يجعلها حفرة من حفر النيران فالقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)

الموت سيفٌ مُسْلَطٌ فوق رقبة كل إنسان :

طبعاً الآية التي قبلها:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

ما دام الله عزَّ وجل أخفى عنا ساعة الموت يجب أن نكون في استعدادٍ دائم.

ما من ميتٍ إلا وفي ذهنه أنه سيعيش طويلاً، الموت يفاجئ، يموت أحياناً سكتة دماغية، أحياناً سكتة قلبية، أحياناً بلا سبب، موت مفاجئ، فما دام الموت سيفٌ مُسْلَطٌ فوق رقابنا، البطولة أن نستعد له، فالموت لا أحد ينكره، ولكنهم يتفاوتون بين مستعدٍ له، وغير مستعدٍ له، الإنسان حينما يستعد للموت لا يفاجأ به، كتب وصيَّته، حرر دخله من الحرام، ضبط جوارحه كلها، ضبط عينه، ضبط أذنه، ضبط يده، ضبط لسانه، ضبط بيته، زوجته حجَّبها، بناته ربَّاهم، أولاده ربَّاهم، إذا جاء الموت مرحباً بلقاء الله، قالت له: " واكربتاه يا أبتي " قال: " لا كرب على أبيكِ بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبة".

عظمة الإيمان أن الموت الذي يعده الناس أكبر مصيبة يراه المؤمن السعادة المطلقة:

أتمنى وأرجو الله عزَّ وجل ألا يكون نظركم للموت نظراً سوداوياً ولا تشاؤميًّا، والله الذي لا إله إلا هو إذا آمنا حق الإيمان، واستقمنا على أمر الله، وعملنا صالحاً، يصيبنا ساعة الموت من السعادة ما نرى الدنيا كلها حقيرة:

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِي*قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

[سورة يس: 25-26]

أضرب مثلاً: إذا انتقل من يعيش في بيت صغير تحت الأرض، رطوبة، وضجيج، والمجاري مكشوفة، والأولاد كُثُر، إلى بيت كبير بأرقى أحياء دمشق، أثناء نقل الحاجات هل يتألم أو يحس بضيق؟ المؤمن حينما يأتيه أجله هذا عُرْسُهُ، الصحابة كانوا يفرحون بلقاء الموت، وما من صحابي أدركه الموت إلا وهو في أعلى درجات سعادته.

عظمة الإيمان أن الموت الذي يعده الناس أكبر مصيبة ويقول لك: مسكين مات، يراه المؤمن السعادة المطلقة.

رجل مؤمن وله دعوة إلى الله رآه تلميذه في المنام، قال له يا بُنيّ:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: 169]

يجب ألا نأخذ الموت بشكل مخيف، ولا بشكل سوداوي، خذ الموت وكأنه ساعة اللقاء مع الله، من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه، رجل صالح وهو على فراش الموت، وحوله أولاده، فقال لابنه: بني حضر عمك فقم وسلم عليه، الله عزَّ وجل أرسل له مَلَكَ الموت في صورة أحب الناس إليه، وكذا أنت يأتيك ملك الموت في صورة أحب الناس إليك، أحياناً يرى الميت في الرؤيا - والرؤيا حق - يطمئن

أهله، يقول: أنا في سعادة، أنا في خير، أنا في بحبوحة، نقرأ دعاء الميت: "اللهم أبدله أهلاً خيراً من أهله، وداراً خيراً من داره، وجيراناً خيراً من جيرانه، لقّه الأمن والبشرى والكرامة والزلفى، نقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس"، هكذا الدعاء، فكلمة موت عند الغافلين، عند الجاهلين، عند أهل الدنيا، لا تحتمل، كل رأسماله في الدنيا، كل مكتسباته في الدنيا، في الآخرة ليس له شيء، لذلك الموت عنده نقلة لا تحتمل، من النعيم إلى الجحيم، من العمار إلى الخراب، من كل شيء إلى لا شيء، شيء مخيف؛ لكنه عند المؤمن نقلةٌ من الدنيا المحدودة إلى آفاق السماوات والأرض، هكذا ورد في الحديث.

الله عزَّ وجل رحيم يعطي الإنسان إنذاراً مبكراً أن اللقاء قد اقترب فاستعد :

المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، ببطن أمه سبعمئة وخمسين سنتيمتراً مكعَّباً، محصور، يكبر، ينتقل من كندا، إلى أمريكا، إلى اليابان، يركب طائرات، يركب بواخر، ينتقل من قارة إلى قارة، أين حجم الأرض من حجم الرحم؟ مسافات كبيرة جداً.

فالمؤمن حينما ينتقل من الدنيا إلى الآخرة، ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الطفل من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا.

الحقيقة عندما تكون آخر محطة بالحياة للإنسان هي الموت وهي محببة له، والله هذه سعادة كبرى، الشيء الذي يخافه الناس، ترتعد مفاصلهم منه، تستقبله أنت باطمئنان فأنت والله مؤمن، إنسان لا إيمان له أصابه مرض عُضال تجده انتهى، يسقط على الأرض، لأن لقي الله بلا عمل صالح؟! قال له: " يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً؟"، مرة: رجل يركب سيارته وبجانبه زوجته، أصابته أزمة، فانكفأ على مقود السيارة، لحكمةٍ أرادها الله كان إلى جانبه صديقه، قاد السيارة إلى المستشفى، دخل العناية المشددة، ثم انتعش قليلاً، فحينما صحا من نوبته طلب مسجلة، سجل حقوق الآخرين التي اغتصبها وأعادها لأصحابها، بعد عدة أيام شفي فقال: أين الشريط؟ أحضروه له فكسره، عاش ثمانية أشهر ثم جاءته أزمةٌ قاضية، هذه إنذار مبكر.

أخواننا الكرام ربنا عزَّ وجل رحيم، أحياناً يعطينا إنذاراً مبكراً، المصائب أحياناً إنذار مبكر، انتبه يا عبدي، لابُدَّ من اللقاء، حتى إن بعض العلماء قال: هذا الشيب، ضعف البصر، آلام المفاصل، بعض الأمراض، هذه كلها إشارات لطيفة من الله أن يا عبدي قرب اللقاء هل أنت مستعد؟ هذه الأمراض أمراض الشيخوخة أجهزة إنذار مبكّر، تقول للإنسان: قرب اللقاء هل أنت مستعد؟

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

الدنيا دار تكريم و عمل أما الآخرة فدار تشريف و جزاء :

المؤمن الحق لا يخاف من الموت، لا يتمنى الموت ولكن إذا جاء لا يخافه، لماذا لا يتمنَّاه؟ لأنه كلما ازداد عمره ازداد عمله الصالح، لقول النبي الكريم:

((خيركم من طال عمره وحسن عمله))

[أحمد عن أبي هريرة]

لا يتمنَّى الموت، أما إذا جاء فيلقاه بشجاعةٍ فائقة، وهو ينتظره لأنه موعد اللقاء مع الله عزَّ وجل، فكل هذا العمر لهذه الساعة، أضرب مثلاً: طالب درس في بلد أجنبي، فقير جداً، اشتغل بمطاعم، غسل صحوناً، حتى استطاع أن ينال شهادة الدكتوراه، وهو موعود بأعلى منصب ببلده، وبأجمل زوجة، وبأحسن بيت عندما يعود إلى الوطن، ألا يرقص قلبه فرحاً؟ انتهى عهد التعب، انتهى عهد الدراسة، عهد العمل الشَّاق.

فالانتقال من حياة متعبة إلى الجنة، إلى الإكرام، الدنيا دار تكريم أما الآخرة فدار تشريف، الدنيا دار عمل، الآخرة دار جزاء، فالموت شيء مُحَبَّب، لكن البطولة أن تستقيم على أمر الله، أن تضبط دخلك، تضبط سمعك، بصرك، لسانك، زوجتك، بناتك، أولادك، أن تستقيم على منهج الله، وتأكد أنك لا تخاف الموت، هذا الذي يخافه الناس يصبح عندك مُحَبَّباً مقبولاً، تشتاق إليه.

واكربتاه يا أبت ". قال: " لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه".

سيدنا سعد بن الربيع تفقَّده النبي عقب معركة أحد فلم يجده، كَلَّف صحابته أن يبحثوا عنه، انطلقوا إلى ساحة المعركة، رأوه بين القتلى ولكن في النزع الأخير، قال له أحدهم: " يا سعد لقد كَلَّفَنِي رسول الله أن أتفقَّدك، فأنت مع الأموات أم مع الأحياء؟ ". قال: " أنا مع الأموات، ولكن أبلغ رسول الله مني السلام - وهو في النزع الأخير - قل له: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه لا عذر لكم إذا خُلِصَ إلى نبيِّكم وفيكم عينٌ تطرف". ليس لكم عذر أبداً، معنى ذلك أنه كان سعيداً جداً.

الموت عند المؤمن محبب أما عند الكافر فترتعد منه فرائصه :

اقرؤوا تاريخ الصحابة، اقرؤوا عن كل صحابي ساعة وفاته كان في جنة، في عرس، تحفة المؤمن الموت، نحن مؤمنون والحمد لله، الموت عندنا مُحَبَّب، أما العصاة، التائهون، الشاردون، المقصرون

الذين يرتكبون المعاصي ليلاً نهاراً، والله الموت يجعلهم ينسحقون سحقاً، ترتعد منه فرائصهم، لذلك هذه الآية من أدق الآيات، كل يوم عندنا موت مؤقت، لما تستلقي انظر إلى الدعاء:

((إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا))

[أحمد عن أبي هريرة]

استيقظت، الدعاء النبوي، الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور، تذكر قول النبي الكريم:

((ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة))

[ورد في الأثر]

بشكل مختصر كلما استيقظت قل: لقد سمح الله لي أن أعيش يوماً جديداً، هذا اليوم ماذا أفعل فيه؟ صلاتك، غض بصرك، صدقك، أمانتك، إتقان عملك، نُصْحَكَ للمسلمين، طلبك للعلم، التلاوة، سمح الله لي أن أعيش يوماً جديداً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (15-20): تفسير الآيات 43-46، بطولة الإنسان أن يملك تصوُّرات صحيحة عن الله عزَّ وجل و عن النبي الكريم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-04-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيَّ جهةٍ سوى الله لا تملك نفعاً ولا ضراً :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الخامس عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية الثالثة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)

أيُّ جهةٍ سوى الله لا تملك نفعاً ولا ضراً، لأن الله يُحيي ويميت، والله هو الرزَّاق، وهو المعز والمذل، هو المعطي والمانع، هو الرافع والخافض، هو القابض والباسط، هو الميسِّر والمعسِّر، هو المبتلي والمعافي، أية جهةٍ مما سوى الله لا تستطيع أن تفعل شيئاً، لا تملك النفع والضُرَّ لنفسها فضلاً عن الآخرين، لذلك أي اتجاهٍ من قِبَل الإنسان إلى جهةٍ سوى الله يعلّق عليها الآمال، يرجوها، يحذرها، يخافها، يخشاها، يطمع في عطائها، هذا نوعٌ من الشرك، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد.
فلو أن الإنسان اتخذ من دون الله شفعاء، لو اتخذ رجل دين من أجل أن يشفع له عند ربِّه، وهو مقيمٌ على معصية، لا ينفعه ذلك أبداً، الدليل: لو أنك استطعت أن تنتزع من فم النبي عليه الصلاة والسلام فتوى لصالحك، من فمه الشريف، وهو سيُّد الخلق وحبيب الحق، والمعصوم، والذي يوحى إليه، ولم تكن محقّاً، لا تنجو من عذاب الله، والحديث الصحيح:

((.....وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه عن أم سلمة]

إذاً سيُّد الخلق وحبيب الحق لا يستطيع أن ينفعك، ولا أن يمنع عنك عقاباً من الله عزَّ وجل إذا أراده الله، واستحققته بانحرافٍ أو بذنب، فكيف حال هؤلاء الذين يعلّقون الآمال على ما سوى الله؟ هم واهمون، هم جاهلون، سوف يُحبط عملهم، سوف يُخيَّب ظنُّهم، إنهم في طريقٍ مسدود، إنهم يتعلّقون بحبالٍ أوهى من خيط العنكبوت، إنهم لا يعتمدون على شيءٍ ثابت.

من أخذ بالأسباب و اعتمد عليها فقد أشرك :

لذلك أصعب شيءٍ في الحياة أن تضع الآمال في جهةٍ ثم تُخيِّب هذه الجهة ظنَّك، أن تعتمد على شيءٍ تظنه قوياً فإذا هو ضعيف، أن تنظر إلى الماء فإذا هو سراب، أن تظن أن هذا الإنسان القوي ينفعك فإذا هو أعجز من أن ينفعك، هذه الحالة اسمها خيبة الأمل، خيبة الأمل شيءٌ صعبٌ جداً، خيبة الأمل تشابه الإحباط، كأن تكون وضعت كل الثقة في زيد فخيَّب زيدٌ ظنَّك، علَّقت الأمل على المال فجاءت مصيبةٌ لا ينفع فيها المال، هناك أمراض لو أنفقت المال كلَّه لا ينفعك شيئاً.

فربنا عزَّ وجل كيف يعالج المشرك؟ إن اعتمد على المال عالجه بقضيَّةٍ لا ينفع فيها المال، وإن اعتمد على قوَّته أتاه من نقطة القوَّة، من مأمنه يؤتى الحذر، إن اعتمد على علمه، إن اعتمد على قوَّته، إن اعتمد على ماله، إن اعتمد على خبرته، إن اعتمد على ذكائه، فلا ينجيك من الله إلا أن تكون في طاعته، لذلك لا ينفع حذرٌ من قدر، ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل.

مهما كنت ذكياً ومتألِّقاً، مهما تكن خبرتك واسعة وثقافتك شاملة، مهما تكن ممارساتك عميقة، لا تنفعك شيئاً إطلاقاً، إذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردَّ له، ينفعك مع الله أن تستقيم على أمره، وأن تخلص له.

من أخلص لله عز وجل نجا من عذاب الدنيا و عذاب الآخرة :

لذلك إذا أخذنا بالأسباب واعتمدنا عليها فقد أشركنا، وكأني أرى أن الذين يضعون ثقتهم بغير الله، فالله سبحانه وتعالى لا يعالجهم إلا من خلال هذه الجهة التي وضعوا فيها ثقتهم، يضع أمله في زَيد، الله جلَّ جلاله يُلهم زيداً أن يخيِّب ظنَّه، هذه معالجة، يضع أمله في المال، المال لا ينفعه، يضع أمله في هذه الجهة، فإذا هذه الجهة مصدر خسارته، فلذلك من اعتمد على غير الله ضَلّ، من اعتمد على ماله ضلّ، من اعتمد على قوَّته ضلّ..

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)

هذا هو الدين، هذا هو الإيمان، أن ترى أنه لا إله إلا الله، لا موجود بحقٍ إلا الله، لا فعَّال بحقٍ إلا الله، لا معطي بحقٍ إلا الله، لا رازق بحقٍ إلا الله، لا مانع إلا الله، حينما تقطع الآمال من الخَلق تتجه إلى الحق، وإذا اتجهت إلى الحق سعدت في الدنيا والآخرة، فالإنسان إذا أخلص لله نجا من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

المرجحات في الدنيا كثيرة لكن عند الله لا يُرَجِّحك إلا التقوى :

أبو لهب عم النبي لم تنفعه صلة القربى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد: 1]

هل أبعد عن السعادة صهيبٌ وبلالٌ وسلمان؟ بلالٌ حبشي، وصهيبٌ رومي، وسلمانٌ فارسي:

((سلمان منا أهل البيت))

[الحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

((نِعْم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه))

[كنز العمال عن عمر]

هذه هي الحقيقة، هناك مُرَجِّحات في حياتنا الدنيا؛ المال مرجِّح، النَسَب مرجِّح، الذكاء مرجِّح، الوسامة مرجِّحة، القوَّة مرجِّحة، المنصب الرفيع مرجِّح، ولكن عند الله لا يُرَجِّحك إلا التقوى.

تفاضل الناس عند الله عز وجل بالتقوى :

هذه الآية على إيجازها، وعلى بلاغتها، لو عرفناها حقَّ المعرفة لحلَّت كل مشكلاتنا:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

الناس كلُّهم يتفاضلون بالتقوى، بطاعة الله، إذا أردت الكرامة فاستقم على أمر الله، إذا أردت التفوُّق فاستقم على أمر الله، إذا أردت الفوز فاستقم على أمر الله، إذا أردت النجاح فاستقم على أمر الله، إذا أردت الفلاح فاستقم على أمر الله..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

كل القيَم الدنيوية التي يتعامل بها الناس ويحاول أن يسمو بها كل إنسان متعالياً هي عند الله لا شيء..

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[الترمذي عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ]

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة. ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة. ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين. ألا يا رب مهين لنفسه وهو

لها مكرم. ألا يا رب متخوض ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله، ما له عند الله من خلاق. ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة. ألا وإن عمل النار سهل بسهوة. ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً))

[الجامع الصغير عن أبي البجير]

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)

هذا واقع الناس، تجد أن كل إنسان يتكئ على شخص قوي، له منصب حسَّاس، ينفعه إذا جدّ الجد، هذا كله شرك.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا)

أيعقل أن تدخل إلى دار حكوميَّة، ولك قضيَّة متعلّقة بالمدير العام، وتتذلّل أمام آذن وتقول له: وقعها لي؟ تكون عندها قد أصابك المس، هل من الممكن أن تبذل ماء وجهك تذللاً أمام شخص لا يملك أن يوقّع هذه المعاملة أو هذه الأوراق؟ ولا يملك الموافقة عليها إلا المدير العام أهذا هو العقل؟ هذا مثل ضربته أبغي من ورائه مقولة: اعلم أن أمرك بيد الله، صحَّتك بيد الله، رزقك بيد الله، أهلك بيد الله، أولادك بيد الله.

الله عز وجل يحب المُلحين في الدعاء :

لذلك:

لا تســـألنَّ بني آدم حاجة وســـل الذي أبوابه لا تغلقُ
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حيــن يُسأل يَغْضَبُ

***

الإنسان يغضب إذا سألته، لكن ربنا جلَّ جلاله يغضب إن لم تسأله، إن الله يحب المُلحين في الدعاء، إن الله يحب من العبد أن يسأل ربَّه حاجته كلَّها، إن الله يحبُّ من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، ما أروع المؤمن يسأل ربَّه في قيام الليل: يا رب أنا عبدك بين يديك، أنا عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي في يدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك.

ما أروع الإنسان عندما يستغني عن الخلق ليسأل الحق، فالله عزَّ وجل أكرم الأكرمين، لا تضع نفسك في موضعٍ ضعيفٍ أمام الخلق، تذلَّل للخالق، اطلب منه.

من لم يكن عبداً لله فهو عبد لعبد لئيم :

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)

فالإنسان يا أيها الأخوة إن لم يكن عبداً لله هو عبدٌ فعلاً لعبدٍ لئيم، يا ربي من لم يتحقَّق بالعبوديَّة إليك هو عبدٌ أسيرٌ لمن سواك، فشتَّان بين أن تكون عبداً لله وعبد الله حر، وبين أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، شتَّان أن تكون عبداً لله الذات الكاملة الأزليَّة الأبديَّة، وبين أن تكون عبداً لعبدٍ لا يقوى على أن يفعل معك شيئاً.

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

[سورة فاطر: 13]

أحياناً يضع الإنسان ثقته كلها في زوجته، تخيِّب ظنَّه، فإذا ضاقت به الأحوال، أو انصرف عنه الناس، أو كبرت سِنُّه، أذاقته ألوان الجفاء، وألوان الغلظة، إذا وضعت كل الثقة في إنسان ونسيت الله عزَّ وجل لن تأتي المتاعب إلا من هذا الإنسان.

هناك من يقول: " الدراهم مراهم ". هذا الإنسان علاجه مشكلة لا تحلُّها الدراهم، الإنسان في مقتبل حياته قد يرى المال كل شيء، في منتصف حياته يرى المال شيئاً ولكن ليس كل شيء، لكن قُبيل وفاته يرى المال لا شيء، كل شيءٍ هو طاعة الله عزَّ وجل، وكلما عرفت الحقيقة في وقت مبكِّر سعدت بها، وكلما عرفتها في وقت متأخِّر ندمت على تأخُّرك بها، أما إذا عرفتها بعد فوات الأوان فهذا أشدُّ أنواع الظلم، لأنه كما أقول لكم دائماً: قضيَّة الإيمان ليست أن تؤمن أو ألا تؤمن، لابدَّ من أن تؤمن، ولكن هذا الإيمان بعد فوات الأوان، البطولة أن تؤمن في الوقت المناسب، وأنت في مقتبل الحياة، وأنت شابٌ قوي، إن آمنت في هذه السن شكَّلت حياتك، اخترت زوجتك، اخترت حرفتك، اخترت أصدقاءك، نظَّمت علاقاتك، هذا كله يترتَّب وفق الشريعة في الوقت المناسب، أما إذا تأخَّرت:

((من بلغ أربعين سنة ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار))

[أبو الفتح الأزدي عن ابن عباس]

سعادة الإنسان تتجلى بإقامة علاقة طيبة مع الله في الدنيا :

إذاً:

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)

ما سوى الله، ما دون الله لا يعقل ولا يملك، لا يعرف الحقيقة الصافية، ولا يملك أن يدفع عنك ضُراً ولا أن يجلب لك نفعاً، لذلك مساكين هؤلاء الذين تعلَّقوا بما سوى الله، فاحتقارٌ لإنسانيَّتك أن تكون تابعاً لإنسان، لا يليق بك إلا أن تكون لله، لذلك السيدة عائشة حينما برَّأها الله عزَّ وجل قال لها سيدنا الصديق: " قومي إلى رسول الله فاشكريه " قالت: "والله لا أقوم إلا لله ". فتبسَّم النبي عليه الصلاة

والسلام وقال: " عرفت الحقَّ لأهله ". الله هو الأصل، إذا الإنسان أقام علاقةً مع ربِّه طيِّبةً في الحياة الدنيا هذه كل السعادة، أنت على صلةٍ وثيقةٍ بخالق الكون، ما بينك وبينه عامر:

فليتـــك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صحَّ منك الوصل فالكل هيِّنٌ وكل الذي فوق الترابِ ترابُ

***

من اصطلح مع الله و أخلص لدينه كشف عنه الغمة و الظلمة :

الإنسان يتعلَّق بأهله، فيطيعهم ويعصي الله، هؤلاء الذين أطاعهم وعصى الله من أجلهم سوف يفاجأ أنهم سينقلبون عليه، فالشيء الثابت أنك إذا تعلَّقت بما سوى الله، خيَّب الله ظنَّك، وخسرت الدنيا والآخرة، الإنسان أحياناً يتعلَّق بماله، المال لا ينفع، فهناك حالات كل الأموال الطائلة لا يمكن أن تعفي الإنسان من ألمٍ لا يحتمل.

حدَّثني أحدهم فقال: رجل غني يملك الجُزر، والسفن، والطائرات الخاصة، ولكنه أرق لا ينام، عولج من قِبل كل الأطباء ولم ينفع فيه دواء، إلى أن عرض على أحد الأطبَّاء الكِبار في الأعصاب أن يعطيه نصف ما يملك من هذه الثروة الطائلة على أن يجعله ينام كسائر الناس، هذا الطبيب طمع بالثروة الطائلة ووضع كل علمه في خدمته، ومع ذلك لم يفلح.

والقصَّة التي تعرفونها أن وزير هارون الرشيد حينما طلب الخليفة كأس ماء، قال: " يا سيدي بكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا منع عنك؟ " قال: "بنصف ملكي ". قال: " فإذا منع إخراجه؟ ". قال: " بنصف ملكي الآخر ".

الله عزَّ وجل على كل شيءٍ قدير، أنت في قبضته، أنت تحت رحمته، فالذكاء والعقل، والتوفيق، والنجاح، والرشاد، والفلاح، والتفوُّق، أن تصطلح معه.

إذا اصطلحنا مع الله، وأخلصنا ديننا لله، واهتدينا بهدي رسول الله، واتبعنا سُنَّة رسول الله، ثم قلنا: " يا رب اللهم إني أشكو إليك ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا رب المستضعفين وربي، يا أرحم الراحمين ". إذا دعوت هذا الدعاء وكنت كذلك، الله عزَّ وجل أزاح عنك الغُمَّة، وكشف عنك الظُلمة، ونصرك على عدوِّك.

حاجة الدعاء إلى أنفاس طاهرة و إخلاص كبير :

لذلك الدعاء يحتاج إلى أنفاس طاهرة، إلى إخلاص، يحتاج إلى كسب حلال، أنت كن مستقيماً وسوف ترى العجب العُجاب، سوف ترى المستحيل، سوف ترى أنك أقوى الناس لأن الله معك، سوف ترى أنك أكرم الناس، سوف ترى أنك أغنى الناس، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، فكأن الله يعجب:

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)

إنسان بالخدمة الإلزاميَّة ووالده قائد الجيش ويخاف من تهديد عريف؟ معنى هذا هو أحمق، لأنه يستجيب إلى رتبة دنيا ويعصي رتبة عُليا، يمكن أن يعصي الله عزَّ وجل ليطيع مخلوقاً؟ هذا هو الجهل.

رتبة العلم أعلى الرُتَب والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك :

والله إن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيعُ أعداؤه المجتمعون أن يفعلوا به، لذلك اعتقدوا أن الجهل أعدى أعداء الإنسان، وأن طريق الجنَّة أساسه العلم، بالعلم تعرف الحق والباطل، الخير والشر، ما ينبغي وما لا ينبغي، ما يجوز وما لا يجوز، العلم ممر إجباري، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، إذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، إذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، حينما تستمع إلى تفسير القرآن الكريم، أو إلى نفحاتٍ إيمانيَّةٍ حول القرآن الكريم، أنت بهذا لا تستهلك الوقت بل تستثمره - هذا بمنطق التُجَّار - لأن العلم سلاح، والعلم حارس، والعلم قوَّة، والإنسان المتعلّم إنسان متميِّز، إنسان عظيم، رتبة العلم أعلى الرُتَب، الإنسان أحياناً يدمِّر حياته الخاصَّة بغلطة، يدمِّر زواجه بمعصية، يدمِّر تجارته بمال حرام، يدمِّر صداقاته بحُمق، فالعلم أساس، رتبة العلم أعلى الرُتَب، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً.

((أَنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَفْعَلُ))

[الترمذي عن زر بن حبيش]

((... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ..))

[ابن ماجة عن أبي هُرَيْرَةَ]

إذا سمح الله للإنسان أن يتعلم فهذه بشارة من الله.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال: 23]

آية قرآنيَّة واضحة، قطعيَّة الدلالة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال: 23]

مُلْكِيَّة الله عزَّ وجل أوسع أنواع المُلكيَّة :

إذا سمعتم الحق فهذه بُشرى:

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

مُلْكِيَّة الله عزَّ وجل أوسع أنواع المُلكيَّة، أنت أحياناً تملك داراً ولا تسكنها، تملك الدار ولا تنتفع بها، وقد تنتفع بها ولا تملكُها، وقد تملكها وتنتفع بها لكن لا تملك مصيرها، قد يأتي تنظيم فيأخذها منك، إذاً قد تملك ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، وقد تملك وتنتفع ولكن لا تملك المصير.

لكن إذا الله عزَّ وجل قال:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

مُلْكاً وتصرُّفاً ومصيراً، قال:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

كل إنسان بملك الله عز وجل فعليه ألا يرجو غيره :

نحن في مُلك الله عزَّ وجل، ينظر الإنسان بعينيه لأن الله سمح له أن ينظر بهما، فإذا شاءت حكمته أن يفقد البصر فقده، ووقف الأطبَّاء حيارى أمام مرضه، سمح الله لك أن تمشي، فإذا سلب الله منك نعمة الحركة لا تملك إلا أن ترجو الله عزَّ وجل، سمح الله لك أن تذكُر، فإذا سلب الله منك الذاكرة لا تملك إلا أن تتضعضع له، سمح الله لك أن تسمع فإذا أخذ السمع لا تملك إلا أن تستجير به، سمح الله لك أن تنطق، فإذا أخذ النطق فلا يرده إلا هو، سمح الله لهذه الأجهزة التي أودعها الله فيك أن تعمل بانتظام، فإذا تعطَّلت تصبح حياة الإنسان جحيماً، أي عضوٍ إذا تعطَّل يمكن أن يستنفذ ثروتك كلَّها، وتدفع كل ثروتك وترجو الصحَّة وقد لا تنالها.

فنحن في قبضة الله عزَّ وجل أيليق أن نعصيه؟ أيعقل أن نخرج عن أمره؟ أيعقل أن نعاديه؟ مستحيل، لكن إذا أطعناه جاءتنا الدنيا والآخرة.

من آثر آخرته على دنيا ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً.

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)

هو الذي يشفع:

(مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ)

[سورة البقرة: 255]

إذا أكرمك إنسان هل تظن أنه هو الذي أكرمك؟ لا والله، لولا أن الله سمح له أن يكرمك، لولا أن الله ألقى في روعه أن يكرمك، لولا أن الله ألهمه أن يكرمك، لولا أن الله خلقه وألهمه وسمح له أن يكرمك لما أكرمك، فأنت إذا جاءك الإكرام من إنسانٍ وكنت موحِّداً، ترى أن هذا الإكرام من الله عزَّ وجل، وهذا لا يمنعك أن تشكر الناس، لأنه:

((مَنْ لمْ يشْكُر النَّاسَ لَمْ يشْكُر اللّه))

[أبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

لله الشفاعة جميعاً :

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)

(مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ)

[سورة البقرة: 255]

الشفع الجَمع، الاقتران، الله جمعك مع إنسان فيسَّر لك أمرك:

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ)

جمعك مع إنسان اشترى منك بضاعتك الكاسدة:

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ)

جمعك مع إنسان باعك صفقة رابحة، قل: لله الشفاعة، جمعك مع إنسان حلَّ لك مشكلةً عويصة معيَّنة، قل: لله الشفاعة، جمعك مع طبيب هداه الله إلى تشخيص الداء تشخيصاً صحيحاً، وهداه إلى الدواء الصحيح فشفيت من مرضك، قل: لله الشفاعة جميعاً، أنت في مشكلة فجمعك مع محامٍ مخلص، ذهنه متفتّح وموفَّق في عمله، فربح الدعوى، قل: لله الشفاعة جميعاً، جمعك مع زوجة طاهرة مستقيمة على شاكلتك، قل: لله الشفاعة جميعاً، رزقك ولداً صالحاً، قل: لله الشفاعة جميعاً، ليس بيدك، أحياناً تكون صالحاً جداً ولك ولدٌ طالحٌ جداً، هذا ممكن.

أي إنسان قدَّمَ لك خدمةً ينبغي أن تراها من الله من دون أن تقصِّر في شكره :

فكلمة:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ)

[سورة الأنبياء: 27]

هبة، أب عنده ولد صالح فلا يتيه على الناس ويقول: هذه تربيتي، قل: هذا من فضل الله عليّ، لقد تكرَّم الله عليّ بهذا الابن الصالح، ماذا تفعل لو أنه غير صالح؟ أحياناً لا يجدي الكلام، ولا التربية، ولا الضغط.

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)

فأنت متمتِّع بصحَّة، فهذه الأجهزة من سمح لها أن تعمل بانتظام؟ لو أن أحدها أصابه الخلل أصبحت حياة الإنسان جحيماً، وهب لك ولداً صالحاً، زوجة صالحة، شريكاً صالحاً، جاراً صالحاً، وهب لك إنساناً أعانك على أمر دنياك، فأي إنسان قدَّمَ لك خدمةً ينبغي أن تراها من الله عزَّ وجل من دون أن تقصِّر في شكر زيدٍ أو عُبيد الذي أسدى لك المعروف.

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

كلُّنا في مُلْكِهِ، مُلك تام، فحتى الإنسان عندما يستيقظ، يجب أن يوقن أن الله سمح له أن يعيش يوماً آخر، يوم بيوم، سمح لك أن تعيش هذا اليوم، هل أديت الصلوات؟ هل غضضت البصر عن محارم الله؟ هل أنفقت من مالك في سبيل الله؟ هل أمرت بالمعروف؟ هل نَهيت عن منكر؟ هل أصلحت بين اثنين؟ هل شفِعْتَ في نكاح؟ هل عُدَّتَ مريضاً؟ هل عطفت على مسكين؟ هل راعيت يتيماً؟ هل نصحت المسلمين؟ هل أزلت الأذى عن الطريق؟ هل ساهمت في بناء مسجد؟ هل ساهمت في بناء ميتم؟ ما دورك في الحياة؟ دور العطاء أم الأخذ؟ النفع أم الضر؟ دور الإحسان أم الإساءة؟ ما دورك؟ ما وظيفتك؟ ما مهمَّتك؟

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

هذه كلها مشاعر المؤمنين، أنا كما أقول: ليس هذا تفسيراً، هذه مشاعر إيمانيَّة حول الآيات القرآنيّة..

علاقة المشرك بالله علاقة سيئة فلا يرتاح للتوحيد :

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

المشرك يضيق صدره إذا عزوت الأمور إلى الله، الأحداث التي تحيط بنا إذا فسَّرتها تفسيراً إلهياً ينزعج، أما إذا فسَّرتها تفسيراً أرضياً فيرتاح، إذا صوُّرت الأحداث وكأنَّها من فعل البشر يرتاح، أما إذا وجَّهتها على أنها من فعل الله عزَّ وجل فيتضايق، لأن علاقته بالله ليست طيِّبة، علاقته سيئة بالله عزَّ وجل.

فالمنافق لا يرتاح للتوحيد بينما المؤمن يرتاح للتوحيد، المنافق إذا جاءت المصيبة يقول: هذا من فعل الدهر، هكذا الدهر يومٌ لك ويومٌ عليك. لكن المؤمن إذا جاءته المصيبة يراها تنبيهاً من الله عزَّ وجل، يراها لفت نظرٍ كريم، يراها إنذاراً من الله عزَّ وجل، يراها معالجةً ربَّانيَّة، فرقٌ كبير بين أن تقول: هكذا الدهر، وهكذا الأيام، والدنيا مدٌ وجزر، ورفعةٌ وانخفاض، وعطاءٌ ومنع، وصحَّةٌ ومرض، وغنى وفقر. هذا كلام أهل الدنيا، أما إذا عزوت الأمور إلى الله عزَّ وجل فالمنافقون يتضايقون، قال:

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

هو آمن بالدنيا فقط، ووضع كل ثقله فيها، وجعلها محطَّ رحاله ومنتهى آماله، فكيف تربطه بالآخرة فليس له فيها رصيد؟ الإنسان يفرح بشيء محصِّل فيه شيء، ويخاف من شيءٍ ليس له فيه شيء، الإنسان يدخل بيتاً يرحب أهل الدار به، إذا كان معروفاً عندهم، يكرمونه ويضيفونه، أما إذا دخل بيتاً لا يعرف فيه أحداً أبداً فيشعر بالحرج، فالمؤمن غريب عن الدنيا قريب من الآخرة، لذلك الآخرة تُثلِجُ صدره.

أهل الدنيا غرباء عن الآخرة ليس لهم في الآخرة شيء :

بينما أهل الدنيا غرباء عن الآخرة، ليس لهم في الآخرة شيء، لذلك يشمئزّون.

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

شرك، تجد وجناتهم تألَّقت، تحرَّكت عيونهم حركة زئبقيَّة، أما إذا قلت: الأمور بالتوفيق فينزعج لأنه غير مستقيم، الأمور بطاعة الله ينزعج، فلان خسر لأن ماله حرام، ينزعج، لأنه يعلم أن له من هذا الحديث نصيب، فكلَّما عزوت الأمر إلى الله وإلى التوحيد يتضايق، وإذا عزوته إلى الدنيا وإلى أحداث الدهر يستبشر، فهذه علامة دقيقة جداً، فالإنسان إذا ارتاحت نفسه للتوحيد هذه علامة الإيمان، وإن ارتاحت نفسه للشرك هذه علامة النِفاق، ما الذي يسعدك؟ أن تكون الأمور كلها بيد الله إذاً أنت مؤمن، أما إذا كنت تنزعج أن تكون الأمور بيد الله فهذا من الشرك.

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

أرقى أنواع الدعاء أن يدعو الإنسان الله عز وجل بأسمائه الحسنى :

العلماء قالوا: إذا دعا الإنسان الله بأسمائه الحسنى فهذا من أرقى أنواع الدعاء، يا حي يا قيوم، يا رحمن يا رحيم، يا قوي يا عزيز، يا قوي يا متين، إذا دعوت الله بأسمائه الحسنى فهذا من الدعاء المُستجاب، والذي يستنبط من هذه الآية قول الله عزَّ وجل:

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

أحياناً الإنسان يرى أنه على حق، والآخرون يرون أنه على باطل، هذا الخلاف من يحلُّه، ففي صحيح مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال:

((سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ : كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ كَانَ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ: بِ اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))

[مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف]

أهل الحق وأهل الباطل مختلفون، لكن أحياناً المؤمنون يختلفون يا ترى الحق مع هؤلاء أم مع هؤلاء أم مع هؤلاء؟ احترنا يا رب، فالنبي عليه الصلاة والسلام علَّمك في دعاء صلاة الليل أن تسأل الله عزَّ وجل أن يهديك لما اختلف فيه من الحق، يا ترى الذكر؟ أم الحال؟ أم العمل؟ أم الصلاة على النبي؟ أم الحضرات؟ أم مجلس العلم؟ أم التلاوة؟ أم التفسير؟ أم العمل الصالح؟ أم الأحوال القلبيَّة؟ يا ربي أي شيءٍ يرضيك؟ النبي عليه الصلاة والسلام كان يستفتح صلاته بهذه الآية:

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ)

الله هو الحق، فهذا العبد مع الحق، الله يحكم بين المؤمنين فيما اختلفوا فيه، أو بين الناس، الله وحده هو الذي يعرف، يعرف الحق لأنه الحق، ويعرف النوايا، يعرف الأهداف، يعرف الخلفيَّات، يعرف الأشياء المتداخلة.

أعظم نعمةٍ يُنعم الله بها على الإنسان نعمة الهُدى :

لذلك:

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

ليس في الكون كلّه جهةٌ مؤهَّلةٌ أن تحكم ين الناس إلا الله، أنت قد يرضيك إنسان كلامه مثل العسل، لكن له فعلٌ كالصبر، يعتقد شيئاً ويتقي فيقول شيئاً آخر، يؤمن بالتَقِيَّة، لا تعلم عقيدته إطلاقاً، يقول لك ما ترضى به عنه، إذاً ليس إلا الله هو الذي يعرف الحقيقة، فعندما يقع الإنسان بحيرة وبإشكال، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، ليتلو هذه الآية:

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

في أمور خلافيَّة كثيرة:

كل يدَّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

***

كل جماعةٍ تدعي أنها على حق وأن سواها على باطل، إذا أكرم الله عزَّ وجل إنساناً بمعرفة الحق، والمنهج، والدليل، والتعليل، والمقاييس الصحيحة، وكانت عقيدته وعمله وفق الكتاب والسُنَّة، وفق ما كان عليه النبي وأصحابه، فهذا من نعمة الله الكُبرى، نعمةٌ كبرى ما بعدها نعمة أن تكون كما كان النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه، فأنت من الفِرْقَةُ الناجية.

لذلك أقول لكم: إنَّ أعظم نعمةٍ يُنعم الله بها علينا نعمة الهُدى، أن تكون وفق الحق؛ عقيدتك، قيمك، تصوُّراتك، سلوكك، كسبك للمال، إنفاقك للمال، زواجك، تزويج بناتك، تزويج أولادك، مهنتك، كلها وفق الشرع، وفق المنهج الرباني، هذه النعمة العُظمى، وليست النعمة أن يكون مالك حراماً، وإنفاقه حراماً، وعلاقاتك الاجتماعيَّة فيها شبهات، وأنت في سن الخمسين، ماذا تنتظر؟

إلى متى و أنت باللذَّات مشغولُ وأنت عن كل ما قدَّمت مسؤولُ

***

حقيقة ثابتة جداً، إذا أيقنتم أن الله يعلم وسيحاسب، إذا أيقنتم أنكم عرفتم منهج الله، وخرجتم عنه سوف تحاسبون، لا يمكن أن تعصوا الله.

طلب الفقه حتمٌ واجب على كل مسلم :

اضمنوا لي هذه الثلاثة: أن تعرفوا منهج الله؛ هذا حرام، هذا حلال، وهذا يحتاج إلى طلب علم، لأن هناك أشياء يقترفها الإنسان ولا يعلمها، يقول لك: أنا جاهل. الجهل نفسه معصية، الإنسان يحاسب على جهله، الجهل ليس عذراً، لا جهالة في الإسلام، كما لا جهل في القانون، هل تستطيع أن تقول للشرطي: لا أعرف أن السير في هذه الطريق ممنوع؟ هل يسمع منك ذلك؟ هذه الكلمة لا يقبلها منك، يقول لك: لا جهل في القانون، فكما أنه لا جهل في القانون لا جهل في الدين، فإذا كنت جاهلاً فالذنب أنك لم تتعلَّم، لذلك:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المتناثرة]

طلب الفقه حتمٌ واجب، أول شيء يجب أن تعرف منهج الله، الشيء الثاني يجب أن توقن أنك إذا خرجت على منهج الله الله يعلم، الشيء الثالث يجب أن توقن أنك إذا خرجت عن منهج الله، الله يعلم وسيحاسب.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

إذا أيقنت بأن الله موجود، وهذا أمره، وهو يعلم، وسوف يحاسب، مستحيل أن تعصي الله، كما أنه مستحيل أن ترى شرطياً والإشارة حمراء، وتتجاوز هذه الإشارة، مستحيل.

العذاب الذي يعذِّب الله به عباده في الدنيا عذابٌ قليل بالنسبة لعذاب الآخرة :

الآن:

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

تصوَّر إنساناً يملك الدنيا، له ما في الأرض جميعاً، يملك أموال الأرض كلها، ورأى العذاب الذي وعده الله به، يتمنَّى أن يفتدي بماله كلّه هذا العذاب.

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

على كلٍّ عندما يذكر ربنا عزَّ وجل في كتابه الكريم وهو أصدق القائلين أن هناك عذاباً لا يحتمل، وأن العذاب الذي يعذِّب الله به عباده في الدنيا هذا عذابٌ قليل، والدليل قوله تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

فهذا الذي نراه بأعيننا، الأمراض الوبيلة، الآلام المُبَرِّحة، الفقر المدقع، الإهانة الشديدة، فقد الحريَّة أحياناً عشر سنوات، التعذيب، كل شيءٍ تراه عينك في الدنيا هذا عذابٌ أدنى فكيف بالعذاب الأكبر؟ والإنسان غالباً لا يحتمل عذاب الدنيا فكيف بعذاب الآخرة؟ الله عزَّ وجل قال:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

أما عذاب الآخرة، لو أن الدنيا كلها تملكها، لو أن الدنيا كلها في قبضتك ورأيت العذاب، قلت: خذوها وخلِّصوني، لكن هذا لا يكفي.

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

هذه الآيات إن شاء الله تحتاج إلى وقفة متأنيَّة.

أخطر شيء أن يتصوَّر الإنسان معلومات عن الدين غير صحيحة فيصعق يوم القيامة :

هذه:

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

كل التصوُّرات عن الله غير صحيحة، أضرب مثلاً سريعاً: لك قضيَّة عند قاضٍ، طمأنوك بأنك ستربح الدعوى، يوم الدعوى تفاجأ أن الحكم لم يكن لمصلحتك، والقاضي نزيه لا يقبل رشوة، وخسرت البيت، وخسرت الشركة، ما كنت تحسب لهذا الموقف حساباً.

هل تعلمون ما هو الجهل؟ الجهل ليس أن تكون فارغاً من المعلومات، الجهل أنت ممتلئ معلومات ولكن كلها خاطئة، عنده فكرة عن الشفاعة غلط، عن الله غلط، عن النبي غلط، وعن الشرع غلط، فمحشو معلومات كلها غير صحيحة، فهو يتحرَّك حركة خاطئة وفق معلوماته الغلط، أما متى يُصْعَق؟ حينما يرى أن كل هذه المعلومات والتصوُّرات غير صحيحة، لأن الواقع بخلاف ذلك، وهذه هي المشكلة.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

مثل آخر هناك أستاذ يدرس مادة صعبة، حل هذا الموضوع هديَّة ثمينة فيعطينا الأسئلة والمفاجأة أنه لم يعط الأسئلة، ورسب هذا الطالب، تفاجأ أن المعلِّم نزيه، والقاضي نزيه، فتصوُّراتك عن المعلِّم

والقاضي تصوُّرات خاطئة، دفعت الثمن باهظاً، أخطر شيء أن تتصوَّر معارف أو معلومات عن الدين غير صحيحة، هذا يؤكّده قول الله عزَّ وجل:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

[سورة آل عمران: 154]

لا يعرفون الله، أحياناً يحتالون على الشرع، وكأن الله تنطلي عليه هذه الحيلة، أحياناً يقسم أيماناً معظَّمة وكلها كذب، أحياناً يعد نفسه ذكياً إذا أكل أموال الناس بالباطل، وكأن الله غير موجود، وكأن الله لا يحاسب، وكأن هؤلاء الذين أخذ أموالهم بالباطل ليس لهم رب يحاسبه، فالمشكلة أنك حينما تتصوَّر عن الله تصورات غير صحيحة سوف تُصْعَق يوم القيامة، أحياناً الإنسان في الدنيا يرتِّب أموره على أساس تصوُّر معيَّن، فيجد أن التصوُّر غير صحيح، ويدفع الثمن باهظاً.

قصَّة رويت لي: توهَّم رجل بسذاجة وبغباء أنه إذا خلع أسنانه كلها يعفى من الخدمة الإلزاميَّة، رفض عدد من الأطباء أن يلبي رغبته، وبعد ذلك قَبِل طبيب هذا العمل، خلع كل الأسنان، ذهب وعرض نفسه على اللجنة الطبيَّة فاعتبروه متهرِّباً من الخدمة فضاعفوا له مدة الخدمة، وخسر أسنانه. هذا تصوُّر خاطئ خطأ شديداً.

التصورات الخاطئة أخطر شيء على الإنسان :

أخطر شيء على الإنسان تصورات خاطئة، كأن يعتقد أن أمة محمد مرحومة، فيغش، ويكذب، ويأكل مالاً حراماً، يأكل الربا ويقول لك: بلوى عامَّة، يشاهد مناظر خلاعيَّة يقول لك: بلوى عامَّة، ماذا نفعل؟ كل التيار هكذا، هذا كلام ليس له معنى إطلاقاً ولا يعفيك من العذاب يوم القيامة، أنت إنسان مخيَّر والمنهج واضح، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وسع النفس لا تقوله أنت، الله يقوله، الشيء الذي كلَّفك فيه من وسعك.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)

يبيع حاجات محرمة، هذه الحاجات كلها ممنوعة عند الله عزَّ وجل، ويروج المعصية، ويروج المنكر، وكله يسجل في صحيفته.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

[سورة يس: 12]

يكشف الله عز وجل هذه الأعمال كلها يوم القيامة، إذا إنسان غلط مع فتاة، ووجد مثلاً مليون واحدة من ذريتها في صحيفته- أعوذ بالله- فلا يلومنَّ إلا نفسه.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)

سنَّ سُنَّة سيئة، فعلى مدى التاريخ بعد ألف سنة، ثلاثمئة وخمسون مليون إنسان تدمَّروا بهذه السُنَّة السيئة، يقول له: انظر إلى عملك يا عبدي.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

طلب العلم فرض على كل إنسان :

البطولة أن تملك تصوُّرات صحيحة عن الله عزَّ وجل، عن النبي، عن هذا الشرع، عن وجودك، عن سرّ وجودك، عن الهدف من وجودك، القضيَّة خطيرة تمس مصيرك، تمس سعادتك في الدنيا والآخرة، تمس سعادتك الأبديَّة، فلا يوجد شيء أخطر من ذلك الشيء.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

إذا باع الإنسان كل شيءٍ يملكه، باع بيته، معمله، سيارته، متجره، وأراضيه، وأخذ عملة مقابلها، إذا اكتشف أنها مزوَّرة، ألا يُصْعَق؟ ما أصعب هذا الموقف، كل شيء يملكه فقده بثانية واحدة وسيحاسب، فهو شريك مع المزوَّرين، فلكي لا يقع الإنسان في شر عمله، لكي لا يتفاجأ، حتى لا يصعق عليه أن يطلب العلم من المهد إلى اللحد.

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المتناثرة]

ليس لك خيار، لا بد من طلب العلم، لا بد من معرفة حدود الشرع، معرفة الحلال والحرام، الخير والشر، ما يجوز وما لا يجوز، تعرَّف إلى الله من خلال الكتاب والسُنَّة، هذه القصص التي تسمعها من أشخاص غير مسؤولين لا قيمة لها، كل إنسانٍ يؤخذ منه ويُرَدُّ عليه إلا صاحب هذه القبَّة الخضراء، النبي معصوم، ما سوى النبي يؤخذ منه ويُرَدُّ عليه، علينا أن نأخذ من الكتاب والسُنَّة وما سواهما مرفوض مهما كان قائلها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (16-20): تفسير الآيات 47-52، ظلم النفس والغفلة عن الله سبحانه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-05-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الظلم هو الشِرك بالله والظلم هو أن تظلم نفسك قبل أن تظلم الآخرين :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السادس عشر من سورة الزُمَر ومع الآية السابعة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

الذين ظلموا هم الذي أشركوا، لقول الله عزَّ وجل:

(يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[سورة لقمان: 13]

ظلمٌ عظيمٌ لهذه النفس أن تتوهم القوة فيما سوى الله، أن تتوهم العزَّة عند غير الله، أن تتوهم السعادة فيما سوى الله، معنى ذلك أنك ظلمت نفسك ظلماً شديداً وظلماً كبيراً، وخسرت خسارةً فادحة، فالظلم هو الشِرك بالله، والظلم هو أن تظلم نفسك قبل أن تظلم الآخرين، ما ظلمت الآخرين إلا بعد أن ظلمت نفسك، حينما أبقيتها جاهلة فتحَرَّكت حركةً عشوائية؛ أكلت مال هذا، وشتمت هذا، واعتديت على هذا، لأنك ظلمتها بأن جعلتها جاهلة، لم تعلمها، لم تعرِّفها بربها، لم تعرفها بمنهج ربها لم تخوِّفها من الآخرة، استرسلت معها، أعطيتها ما تشتهي، كانت هي التي تحكمك ولست أنت الذي تحكمها، قادتك ولم تقدها، احتكمت إليها ولم تحتكم للشرع، ظلمت نفسك، فحينما ظلمت نفسك ظلمت الآخرين، وحينما ظلمت الآخرين للآخرين ربٌ يأخذ بحقوقهم.

أشد أنواع الظلم ألا تعتني بنفسك ولا تزكيها :

أغبى إنسان هو الذي يظن أنه إذا أكل أموال الناس بالباطل فهذا عملٌ ذكي، إنه عملٌ يقع في أدنى درجات الغباء، لأن لهؤلاء الذين أكلت مالهم، لأن لهؤلاء رباً، رباً سيأخذ حقَّهم منك ولو بعد حين، فلذلك ربنا عزَّ وجل يقول:

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا)

هذا الذي أشرك بالله، اعتقد أن زيداً بيده الأمر، عُبيداً بيده الرزق، فلاناً بيده العزَّة، بيده الرفعة، إذا اعتقدت أن إنساناً ما بإمكانه أن ينفعك أو أن يضرك فهذا هو الشرك، والشرك ظلمٌ عظيم، لو أنك في طريقك إلى بلدةٍ لتأخذ منها مبلغاً كبيراً جداً، وركبت القطار، ثم فوجئت أن هذا القطار لا يتجه إلى هذه البلدة؛ بل يتجه إلى بلدةٍ على الطرف الآخر، أليس هذا ظلمٌ لك؟ ضاع عليك المبلغ، وفاتت عليك الفُرصة.

فحينما يتجه الإنسان لغير الله لن يجد شيئاً، كما لو تعلَّقت بالسراب لن تجده شيئاً، ليس ماءً، فكل إنسانٍ اتجه إلى غير الله أشرك، أشرك شركاً عظيماً وظلم نفسه ظلماً عظيماً، الإنسان حينما يشرك سينفذ أمر هذا الذي توهَّمه عظيماً، سينفذ أمر هذا الذي توهَّمه قوياً، سينفذ أمر هذا الذي توهَّمه بيده الأمر، بيده الخير والشر، فإذا توجهت إلى غير الله وتوهمت أنه قادرٌ على أن ينفعك أو أن يضرك، وهو في الحقيقة لا ينفع ولا يضر فقد أشركت، وحينما أشركت ظلمت نفسك ظلماً عظيماً.

فحينما أشركت وظلمت نفسك ظلماً عظيماً الآن حركتك على غير هُدى، على غير منهج، سوف تأخذ ما لك وما ليس لك، وسوف تحاسب عن أعمالك في الدنيا وفي الآخرة، إذاً هذا هو الظلم العظيم، فالظلم أن تأخذ ما ليس لك، الظلم أن تعتدي على الآخرين، الظلم بل أشد أنواع الظلم ألا تعتني بنفسك، ربنا جلَّ جلاله يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

زَكَّاهَا عرفها بربها، زَكَّاهَا حملها على طاعة ربها، زَكَّاهَا حملها على الإقبال عليه حتى طهرت من الأدران، وتحلَّت بالمكارم الإنسانية، فاستحقت جنَّة ربها، هذه الزكاة، علة وجودنا على وجه الأرض أن نزكي نفوسنا، آية صريحة قطعية الدلالة.

الإنسان حينما يظلم نفسه في الدنيا

تُكْشَفُ له الحقائق حينما يقدُم على الآخرة :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

هذا الذي يشتغِل بنفسه، يطهرها من كل نقيصة، من كل انحراف، من كل درن، من كلِّ معصية، ثم يحليها بالكمال، يحملها على مكارم الأخلاق، يحملها على طاعة الله، على بذل الغالي والرخيص، هو يمهِّد لها السبيل كي تتصل بالله عزَّ وجل، فإذا اتصلت به زكت، وإذا زكت سعدت في دُنياها وفي

أخراها.

لكن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وهم في الدنيا، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، نائم، مخدَّر بالشهوات، من لقاء إلى لقاء، من صفقة إلى صفقة، من سَفَرٍ إلى سفر، من بلد إلى بلد، فحياته مفعمةٌ بالمباهج والمُتَع، فإذا اقترب الموت أو جاء الموت انكشفت له الحقيقة، عندئذٍ يُصْعَق، عندئذٍ يصيح صيحةً لو سمعها أهل الأرض لصعقوا.

هذا الذي يظلم نفسه بالشرك، ويظلم نفسه حينما يبقيها جاهلةً، ويظلم نفسه حينما لا يحملها على طاعة الله، ويظلم نفسه حين لا يزكِّيها، ويظلم نفسه حينما يبعدها عن طريق الحق، هذا حينما تُكْشَفُ له الحقائق حينما يقدُم على الآخرة، حيث هناك قيَم جديدة، وموازين جديدة، والإنسان يوزن بمدى معرفته بربه، بمدى طاعته له، بمدى إحسانه للخلق، كل مكتسباته، وكل إنجازاته، وكل ميزاته تتلاشى.

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

حجم الفدية يوم القيامة يشير إلى حجم العذاب :

الآن يتمنى هؤلاء الذين ظلموا.

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

ما في الأرض جميعاً، فلو فرضنا هناك من يملك حقلاً للألماس أو حقلاً للذهب، كم ثمنه؟ الذي يملك شارعاً بأكمله على الصفِّين المحلات والمكاتب والمستودعات، يملك مدينة، الشركات الكبرى له، كل الشركات ذات الجنسيَّات المتعددة كلها له، فما معنى:

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

كم هي أموال الدنيا؟ هذه الرساميل التي سُخِّرَتْ للشركات الكُبرى في العالم، كم هي؟ ما حجمها؟ ما حجم الإنفاق في العالم؟ ما حجم الدخل في العالم؟ ما ثمن الثروات في العالم؟ ما ثمن المواد الأولية في العالم؟

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

الإنسان لا يدفع إلا على قدر الشيء المُقابل، متى الإنسان يقول لك: ادفع مئة ألف وخلِّصني، معناها أنه يعاني كثيراً، ادفع مئتي ألف، معنى ذلك أن العذاب أشد، ادفع كل أموالي وخلصني، معناها العذاب لا يحتمل، فلو أن إنساناً يملك ما في الأرض جميعاً؛ من بيوت، وأراضٍ، وعقارات، وشركات، ومواد أولية، ومعادن، وفلزات، وعاين عذاب النار يقول: خذوا مني كل ما بيدي وخلصوني من هذا العذاب. كم هو هذا العذاب؟

فهل يتخلَّى إنسان عن بيته مقابل عذاب بسيط تلقاه من إنسان؟ يقدِّم بيته كله الذي لا يملك غيره، إذا كان العذاب لا يحتمل، إذا حُكِمَ عشرين سنة مع الأشغال الشاقة، يتخلى عن بيته وعن أرضه وعن متجره يقول لك: خلصني فقط. الصورة دقيقة جداً، حجم الفدية يشير إلى حجم العذاب، فكلما كان العذاب أشد، كلما سخا الإنسانُ بما يملك افتداءً من هذا العذاب، فربنا عزَّ وجل بطريقةٍ غير مباشرة، أراد أن يبين لنا أن العذاب الذي سيلقاه الظالم المشرك الذي أبقى نفسه جاهلةً، الذي لم يحملها على طاعة الله، الذي تحرَّك حركةً عشوائية فاعتدى على حقوق الآخرين وجاء يوم القيامة ليحاسب على أعماله كلِّها، هذا الإنسان لو أن الدنيا كلها بيده، لو أن أموال الأرض كلها بيده، لو أن كل ما في الأرض من مُمْتَلَكَات، كل شيء يُمَلَّك كان بيديه ورأى العذاب، لافتدى به نفسه.

الطَّامة الكُبرى أن تعتقد عقيدةً ثم تكتشف أن هذه العقيدة لا أصل لها :

قد يتلف أحد أعضاء الإنسان أحياناً، يقول لك: يجب أن أبيع بيتي لأصلح ما تلف، الإنسان في الدنيا يضحي بكل ما يملك من أجل أحد أعضائه، فكيف إذا واجه عذاباً لا يحتمل؟ هذه الآية:

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

هذا كلام خالق الكون، هذا كلامٌ له أبعاده، هذا كلامٌ دقيقٌ جداً إذا تأمَّلَهُ الإنسان عليه أن يبادر إلى طاعة الله، إلى تأدية الحقوق، إلى التبرئة من كلِّ ما عليه من ذمم، أن يُبادر إلى أداء الصلوات، أن يبادر إلى طاعة الله التامة في كل ما أمر، والانتهاء عن كل ما نهى عنه وزجر، لكن مركز الثقل في الآية:

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

يوجد عند الإنسان قناعات، وتصوُّرات، يُصعق حينما يأتي الواقع ليؤكد له أن كل تصوراته خاطئة، أن كل ما كان يعتقده ليس صحيحاً هذه هي الطَّامة الكُبرى، هذا هو الإحباط الذي ما بعده إحباط، أن تعتقد عقيدةً ثم تكتشف أن هذه العقيدة لا أصل لها.

إنسان اعتقد عقيدة خلال خمسين عاماً ودعا إليها ودافع عنها ثم اكتشف أنها عقيدةٌ لا أصل لها، صُعِق، والأمر حمله على أن ينتحر، مفاجأة كبيرة جداً، عاش عمره وفق هذه المعطيات، وفق هذه المبادئ، وفق هذه التصورات، ثم اكتشف أنها غير صحيحة وأنها ضالة.

للآية التالية معنيان :

لذلك لكي لا يتفاجأ الإنسان هذه المفاجئة التي لا يحتملها، ربنا عزَّ وجل وأنت في الدنيا ومن خلال القرآن الكريم بيَّن لك أن أمام الإنسان الظالم مفاجأةً خطيرةً:

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

العلماء قالوا: بدا لهم من الله، أي أنهم توهموا أن هذه الأعمال التي يفعلونها أعمال طيبة، ثم فوجئوا أنها أعمال سيئة، وأنها لا تُرضي الله عزَّ وجل، ولا بُدَّ من أن يدفعوا ثمنها باهظاً، توهَّموا أن هذا الذنب يمكن أن يتوبوا منه في المستقبل، ثم فاجأهم الموت، وماتوا على غير طاعة الله.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

توهموا أنهم يتوبون منه ثم فوجئوا أن الموت عاجلهم، هذا معنى.

معنى آخر، هو أن الإنسان يعتقد أن الله عزَّ وجل لن يحاسبنا هذا الحساب الدقيق، ثم يفاجأ أن كل أعماله سيحاسب عليها حساباً دقيقاً، الإنسان يتوهَّم أن النبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لأمته، ثم يفاجأ أن هذه الشفاعة ليست لكل أمته، لمن مات غير مشركٍ، فأخطر ما في الإنسان، أو أخطر ما في عقيدته أن يعتقد اعتقاداً يُبنَى عليه عملٌ خطير ثم يفاجأ أن اعتقاده خاطئٌ وأن هذا العمل سيحاسب عليه، هذا شيء خطير جداً.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

فإذا توهمت أن هذا القاضي يمكن أن يحابيك في الحكم، فاطمأننت ولم تعبأ بخصمك، ثم فوجئت أن هذا القاضي لا يحابي أحداً، ولن يقبل منك أي شيء نظير أن يحكم لك، كان نزيهاً إلى أعلى درجة، هذه المفاجأة مفاجأة صاعقة، خسرت الدعوى، لأنه بدا لك منه ما لم تكن تحتسب، بدا لك أن هذا المدرس يمكن أن يعطيك الأسئلة فلم تدرس، ثم فوجئت أن هناك أسئلة دقيقةً دقيقة وأنك لم تحضِّر، وأنك خسرت عاماً بأكمله، هذا يسمونه الإحباط.

العاقل هو الذي لا يندم على فعلٍ فعله :

الإنسان يتوهم شيئاً ثم يفاجأ أن هذا الشيء غير صحيح، يعتقد عقيدة ثم يفاجأ أنها غير صحيحة، يتوهَّم توهُّماً ثم يتفاجأ أنه خسر خسارةً كبرى في هذا التوهُّم.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

فالعاقل هو الذي لا يندم على فعلٍ فعله، معناها في خطأ بالعقيدة، العمل مُنْعَكِس للفكر، الإنسان يتحرَّك وفق قناعات، يتحرَّك وفق معتقدات، يتحرَّك وفق مفاهيم، فإذا كانت المفاهيم والمعتقدات والتصورات

والقناعات غير صحيحة، الحركة إذاً غير صحيحة، أنت مخير، منحك الله عزَّ وجل العقل أداة معرفة الله، منحك الكون من خلاله تتعرف إليه، منحك فطرةً سليمة، منحك شرعاً حكيماً، منحك اختياراً، منحك شهوةً كقوةٍ محرِّكة، أعطاك كل مستلزمات التكليف، ثم أنت أعرضت عن هذه المستلزمات واعتقدت اعتقاداتٍ ليست صحيحة، وفي ضوئها تحرَّكت، ثم فوجئت أن هذه حركة خاطئة وأنك ستدفع ثمنها باهظاً، هذا معنى:

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

المطلوب منَّا قبل أن نتحرك أن نجري جرداً لمعتقداتنا، جرداً لمفاهيمنا، جرداً لتصوراتنا، جرداً لقناعاتنا، هذه التصورات والقناعات والمفهومات والمعتقدات ينبغي أن تعرض على كتاب الله لأن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن تعرض على سُنَّة رسول الله، عملية تصحيح للمفاهيم، هل تعتقد أن إنساناً انتمى إلى هذا النبي الكريم وهو متلبسٌ بالمعاصي والآثام أن النبي عليه الصلاة والسلام سيشفع له، هذا اعتقادٌ خاطئ، فالإنسان إذا اعتمد على هذه العقيدة، ولم يلتزم، ولم ينضبط، ولم يستقم، وقال: النبي الكريم يشفع لنا، ونحن من أمة محمد، هذا اعتقاد خطير أودى به إلى الهلاك، لذلك كل قضية تحقق منها..

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان: 59]

البطل والعاقل هو الذي يسير في طريقٍ عرف نتائجه قبل أن يصل إلى نهايته :

قبل أن تتحرَّك، قبل أن تُعطي، قبل أن تأخذ، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تَصِل، قبل أن تقطع، قبل أن تأخذ هذا الموقف قبل أن تنحاز إلى فلان أو إلى فلان، يجب أن تتحرَّك وفق الحقيقة والحقيقة ما طابقت الواقع، العلم ما طابق الواقع بدليل، فكل شيء غير مطابق للواقع هذا جهل، ليس الجهل أن تكون خالياً من المَعلومات، لا، فالإنسان وعاء، إذا كان هذا الوعاء فارغاً فالإنسان أُمِّي، أما إذا كان ممتلئاً مفهوماتٍ خاطئة، منطلقاتٍ خاطئة، تصوراتٍ خاطئة، هذا إنسان جاهل، كل إنسان يحتوي أو يمتلك معلومات غير صحيحة، علاقات غير صحيحة، مفاهيم خاطئة هذا إنسان يسمى جاهلاً.

عملية جرد المفهومات، والمعتقدات، والتصُّورات، والقناعات هذه عملية مهمة جداً، وأنت عندك

مقياس، المقياس هو كتاب الله عزَّ وجل لأن هذا الكتاب حقٌ بأكمله، قطعي الثبوت، لا شك في ثبوته، كله من كلام الله عزَّ وجل، وما فيه حقٌ صِرف.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

لئلا تقع هذه المفاجئة، لذلك البطل هو الذي يسير في طريقٍ عرف نتائجه قبل أن يصل إلى نهايته، هذا هو العَقل، العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

يقول من لا علم له: الله عزَّ وجل لن يحاسبنا، الله غفور رحيم ولكن الله عزَّ وجل قال:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 49-50]

مُلَخَّص القول أن أية فكرةٍ يسمعها الإنسان لا بُدَّ من أن يطلب عليها الدليل :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

الله غفور رحيم وعنده عذاب أليم، مُلَخَّص القول: أن الإنسان أية فكرةٍ يسمعها لا بُدَّ من أن يطلب عليها الدليل، لكن أن تكون أنت ضحية إنسان أخطأ، تلقيت شيئاً من دون تدقيق، من دون بحث، من دون دليل، تلقيته هكذا ولم تدقق به واعتمدته كعقيدة، وانطلقت منه، فإذا النتائج خطيرة جداً، هذا ليس عمل إنسان عاقل.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

أحياناً ينطلق الإنسان في أعمال غير صحيحة، غير صالحة، مأخوذ بقيَم معينة، مأخوذ بروح العصر، قد يكون في هذا فساد، هذا العمل فيه اختلاط، هذا العمل فيه إفساد ذات البَيْن، هذا العمل فيه إيقاظ للشهوات النائمة، فالإنسان أحياناً بدافع من قناعات معيَّنة ينطلق في نشاطات، ثم يفاجأ أن هذه النشاطات لا ترضي الله عزَّ وجل، لأن العمل الذي يقبله الله عزَّ وجل هو العمل الخالص، ما كان خالصاً وكان صواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السُنَّة.

يوم القيامة يري الله الإنسان أعماله التي فعلها في الدنيا :

قال تعالى:

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)

لو أن الإنسان أطلق لابنته الحُرِّيَّة، فخرجت سافرةً كما تشتهي ثم فوجئ أن قدمها زَلَّت وانحرفت، وهنا بدا له في الدنيا:

(سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)

يوم القيامة يري الله الإنسان أعماله التي فعلها في الدنيا، كيف أنه سبَّب الفساد في الأرض، كان سبباً لفسادٍ عريض، أو كان سبباً لشقاءٍ كبير، وكل إنسان يتحرَّك على غير منهج الله عزَّ وجل، الله جلَّ جلاله يريه في الآخرة نتائج أعماله..

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

[سورة يس: 12]

ندم يصيب الإنسان يوم القيامة، ندمٌ لا يُحتمل، الفُرصة انتهت، فرصةٌ واحدة استنفذها ولم يعرف ربَّه بها. ما دمنا أحياء، وما دام القلب ينبض فنحن في بحبوحة، التوبة سهلة، العودة إلى الله سهلة، والإصلاح سهل، الإنسان يفكِّر، يستخدم عقله الذي جعله الله له أداةً للمسؤوليَّة، هو مَناط التكليف، وأداة معرفة الله عزَّ وجل.

الدين لا يُختَصَر إلى الصلاة والصوم والحج والزكاة، الدين مجموعة كبيرة جداً من الأوامر والنواهي، الدين منظومة قيَم، الدين نظام كامل للإنسان، منهج فيه تفاصيل كثيرة جداً، فالمؤمن همُّه الأول أن يتعرَّف إلى الله أولاً، وإلى منهجه ثانياً، ثم يحمِل نفسه على تطبيق منهج الله ثالثاً، ليس هناك عملٌ أعظم من هذا العمل، معرفة الله أولاً، ومعرفة أمره ونهيه ثانياً، وحمل النفس على طاعة الله ثالثاً.

الخسران المبين :

قال تعالى:

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

الإنسان الجاهل يستهزئ أحياناً بالدين، يستهزئ بأهل الدين، يستهزئ بالمؤمنين، يستهزئ بالقيَم الدينيَّة، الإنسان الورع الذي لا يعصي الله عزَّ وجل، يُتَّهم باتهامات شتَّى، هذه الاتهامات أساسها استهزاء أهل الدنيا بأهل الإيمان، فهذا الذي استهزؤوا به أحاط بهم، هذا الذي استهزؤوا به وضعهم عند مسؤوليتهم، هذا الذي استهزؤوا به جعلهم يندمون على فِعْلَتِهم.

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ *وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

الإنسان المؤدَّب لا يستهزئ، إذا لم يفهم شيئاً يسأل عنه، لو كان هو متلبّس بالتقصير ورأى إنساناً متفوّقاً يحاول أن يقلّده، يحاول أن يسأله، أما أن يأخذ موقف الاستهزاء من كل إنسان تفوّق، أو تعرَّف إلى الله عزَّ وجل، أو اعتقد أن طاعة الله هي كل شيء بالحياة، فهذا هو الخسران المبين.

الإيمان الفطري يدعو الإنسان إلى أن يلجأ إلى الله عند الشدَّة وهذا لا يكفي ولا يُنَجِّي:

قال تعالى:

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ)

الإنسان هذا جنس الإنسان، الإنسان مركَّب بخصائص:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

خُلِقَ هلوعاً، خُلِقَ منوعاً، خُلق عجولاً، الإنسان له خصائص، من خصائص الإنسان غير المؤمن أنه إذا مسَّه ضرٌ دعانا، هذا إيمانه الفطري، الإنسان مؤمن بالفطرة، مهما كان بعيداً عن الدين، مهما كان بعيداً عن الله عزَّ وجل.

فالإيمان الفطري يدعو الإنسان إلى أن يلجأ إلى الله عند الشدَّة، هذا الإيمان لا يكفي ولا يُنَجِّي، لأنه إيمان عند الضرورة، عند المصائب، والدليل:

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ)

الإيمان الذي يتأتَّى للإنسان عند المصيبة، ويدفعه إلى الالتجاء إلى الله عزَّ وجل، والابتهال له، والدعاء له، هذا الإيمان لا قيمة له ولا يجدي، الدليل أن الله سبحانه وتعالى إذا كشف عن هذا الإنسان هذه المصيبة عاد إلى ما كان عليه.

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا)

مرَّةً طائرة فيها رُكَّاب مُلحدون، فلمَّا هبطت في جيوب هوائيَّة واضطربت، وظنوا أنهم ميِّتون لا محالة، دعوا ربَّهم، إذا ركب الإنسان البحر، ركب طائرة، واجه خطراً شديداً، يجأر بالدعاء، ويستجير ويدعو الله عزَّ وجل، هذا الإيمان ليس كافياً، لأنه عندما ينجو يعود إلى ما كان عليه.

الإنسان الغافل عن الله عز وجل يعزو كل شيء إلى ذاته :

قال تعالى:

(ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ)

الإنسان في هذه الحالة ينسى الله عزَّ وجل، يحكي عن خبراته، عن ذكائه، عن الاحتياطات التي أخذها، عن خطَّته التي رسمها، عن تدبيره الذي دبَّره، عن كَيده الذي كاده، عن مكره الذي مكره، وكأن الله غير موجود، هذه النعمة التي أنعمها عليه، هذا الفضل الذي أسبغه الله عليه يعزوه إلى ذاته.

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ)

وهذه الكلمة قالها قارون، قارون:

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ*وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ*قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

[سورة القصص: 76-78]

أنت راقب الإنسان الغافل تجد أن كل أعماله يعزَّوها إلى ذاته وكأنه صنعها، وكأنه خلقها، يفتخر بإمكاناته، بقدراته، بذكائه، بثقافته، باطلاعه، بخطته الحَكيمة، بمواقفه الشجاعة، دائماً يفتخر، أي أنه يعزّي أعماله إلى قدراته الذاتيَّة مع أنها فضلٌ من الله عزَّ وجل، هو طلب لكن الله حقَّق، هو سعى لكن الله تفضَّل.

حظوظ الدنيا بأكملها موقوفة على طريقة التعامل معها :

قال تعالى:

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ)

معنى الفتنة الامتحان. حظوظ الدنيا بأكملها؛ المال من حظوظ الدنيا، العقل الراجح من حظوظ الدنيا، الوسامة من حظوظ الدنيا، الأولاد من حظوظ الدنيا، الزوجة من حظوظ الدنيا، المرتبة الاجتماعيَّة العليَّة من حظوظ الدنيا، القوَّة من حظوظ الدنيا، حظوظ الدنيا بأكملها ليست نِعَماً وليست نِقَماً، إنها موقوفة على طريقة التعامل معها.

المال ليس نعمةً وليس نقمةً، كيف اكتسبته؟ وكيف تنفقه؟ إن اكتسبته من حلال وأنفقته في حلال أصبح نعمة، إن اكتسبته من حرام وأنفقته في حرام أصبح نقمة، فلذلك هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر:15-16]

جاء الجواب مع الردع:

(كَلَّا)

[سورة الفجر: 17]

كَلا أداة نفي وردع، أي يا عبادي ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً وإهانةً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء، إن أعطيتكم المال فهو نعمةٌ موقوفةٌ على طريقة استعمالها، إن أعطيتكم الصحَّة فهي نعمةٌ موقوفةٌ على طريقة استخدامها، إن أعطيتكم القوة فهي ابتلاءٌ وامتحانٌ وفتنةٌ، هذه القوَّة كيف تستخدمونها؟

نِعم الله مطلقة :

إذاً:

(بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ)

حينما خوَّلناه نعمة مِنَّا، أي نعمة مطلقة، والمطلق على إطلاقه؛ المال نعمة، الصحَّة نعمة، الذكاء نعمة، القوَّة نعمة.

(بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ)

الله عزَّ وجل قال:

(لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

[سورة يونس: 14]

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

[سورة القصص: 105]

وهذا يذكِّرنا بقول الله عزَّ وجل:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

[سورة التكاثر: 8]

قال العلماء: النعيم نعمة الصحَّة، نعمة الفَراغ، نعمة الكفاية، نعمة الطُمأنينة، نعمة الأمن، نعمة الأهل، نعمة المأوى، نعمة العَقل كل هذه النعم سوف تُسألون عنها، كيف أنفقتموها في الطاعات أم في المعاصي؟ لذلك يمكن أن نسمي حظوظ الدنيا درجات نرقى بها إلى أعلى عليين، أو دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين، وهذا يذكِّرنا بقول الله عزَّ وجل:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ)

[سورة فاطر: 2]

أي إذا رحم الله عزَّ وجل إنساناً، هذا الإنسان يسعد في أصعب الظروف، يسعد وهو في بيتٍ قميء، يسعد وهو بين جدرانٍ لا تزيد عن حجم جسمه، يسعد بدخلٍ قليل، أما إذا أمسك الله عنه رحمته، يصبح المال وبالاً عليه ونقمةً عليه، ربَّما قُتِلَ من أجل ماله، أما إذا تخلَّت عنه رحمة الله عزَّ وجل الشيء الذي يراه الناس نِعَماً يراه هو نِقَماً..

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ)

[سورة فاطر: 2]

آيات تبين أن رحمة الله إذا جاءت أنستك كل شيء وإذا حُجِبَت عنك لم يعجبك شيء:

رحمة الله إذا جاءت أنستك كل شيء، وإذا حُجِبَت عنك لم يعجبك شيء، هذه الآيات التي تتعلَّق بهذه الآية:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر:15-16]

هذه آية:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

[سورة التكاثر: 8]

هذه آية ثانية:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

هذه آية أخرى.

هناك قوانين ثابتة مطبَّقة على الناس جميعاً :

إذاً:

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

عندما ترك الإنسان طاعة الله من أجل الدنيا، فهل الدنيا تمنَعُ عنه عذاب الله؟ لا تمنعه عنه، الإنسان عصى ربَّه من أجل هذا المال، فجمع مالاً وفيراً، فلمَّا جاء ملك الموت، ورأى الحساب الدقيق والعذاب الأليم، هذا المال الذي جمعه من معصية هل ينفعه الآن؟ لا ينفعه.

(قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

هناك قوانين ثابتة، قوانين ثابتة مطبَّقةٌ على الناس جميعاً، فالإنسان الذي يؤثر دنياه على آخرته يخسرهُما معاً، والذي يؤثر آخرته على دنياه يربحهما معاً، فحينما يعصي الإنسان ربَّه من أجل المال، المال لا ينفعه، حينما يعصي ربَّه من أجل مرتبةٍ معيَّنة، هذه المرتبة لا تحميه من عذاب الله، إن الله سبحانه وتعالى يمنعك من كل شيء، لكن الشيء الذي اعتصمت به من دون الله لا يمنعك من الله عزَّ وجل.

الإنسان المسيء ينتظره من الله معالجات كثيرة والإنسان المُحْسِن له عند الله حياةٌ طيِّبة:

قال تعالى:

(قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

معنى هذا أن الإنسان هو الإنسان، والقواعد التي يتبعها أو المواقف التي يقفها إذا كان جاهلاً وبعيداً عن الله عزَّ وجل هي هِي في كل زمان وفي كل مكان، لذلك قيل: ملَّة الكفر واحدة، الكافر هو الكافر في أي زمان وفي أي مكان، والذين كفروا بعضهم من بعض مواقفهم متشابهة، منطقهم متشابه، أفعالهم متشابهة، انحرافهم متشابه.

(فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)

الحقيقة الإنسان رهين كَسْبِهِ، أنت لك عمل، لك عمل متعلّق بحرفتك، متعلّق ببيتك، متعلّق بعلاقاتك الاجتماعيَّة، متعلّق بلهوَك، فالإنسان له عمل، إما عمل صالح أو عمل طالح، وعملك يحدِّد مصيرك الأبدي؛ إما إلى جنَّةٍ يدوم نعيمها، أو إلى نارٍ لا ينفد عذابها، وربنا عزَّ وجل يقول:

(وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ)

هناك قوانين ثابتة، الإنسان إذا انحرف ربَّما دفع ثمن انحرافه باهظاً، الله عزَّ وجل قال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

معنى هذا أن الإنسان المسيء ينتظره من الله معالجاتٌ كثيرة والإنسان المُحْسِن له عند الله عزَّ وجل حياةٌ طيِّبة.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

كسب الرزق قد يكون وراء أكثر المعاصي التي يقترفها الناس :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: 20]

معنى ذلك أن الإنسان عمله يحقّق له في الدنيا وفي الآخرة، وربَّما كان في الآخرة وحدها، لكن في الدنيا وفي الآخرة هناك تكريمٌ للمؤمن، وهناك تضييقٌ على غير المؤمن.

(وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

ربَّما كان كسب الرزق وراء أكثر المعاصي التي يقترفها الناس، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

هذا المال الذي كان وراء هذه المعاصي والآثام، لو أيقن الإنسان أن الرازق هو الله عزَّ وجل، وما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، إذا أيقنت أن الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين انتهى الأمر، أما إذا أيقنت أن الرزق متعلّق بالذكاء، متعلّق بالاحتيال، متعلّق بعمل الإنسان الأخلاقي أو غير الأخلاقي، مثل هذا الإنسان ليس من المؤمنين الصادقين، ليس من الذين يتوسَّم فيهم الإيمان.

حينما يوقِن الإنسان أن الله هو الرزَّاق ذو القوَّة المتين عندئذٍ لا يعصي الله أبداً :

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

الذي يكسب الرزق يا ترى يكسبه بذكائه فقط أم بتوفيق الله عزَّ وجل؟ أحياناً الإنسان يفقد شيئاً من عقله، انتهى، يفقد بصره ويكون في منصب رفيع جداً، انتهى، أحياناً هذه القدرات التي أودعها الله في الإنسان يفقدها، أحياناً الإنسان يفقد ذاكرته فيصبح أثر بعد عين، عند الإنسان مهارات معيَّنة، عنده حِرَف معيَّنة، هذه من فضل الله عزَّ وجل، أما أن يعزوها إلى ذاته، وأن يعتمد عليها من دون الله:

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الله هو الرزَّاق، لذلك قالوا: كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً، يحرص الإنسان على حياته ورزقه، وحينما يكون جاهلاً أو ضعيف الإيمان، حفاظه على حياته وعلى رزقه يحمله على معصية الله عزَّ وجل، ما النتيجة؟ النتيجة أنه يخسر الرزق وطاعة الله عزَّ وجل، أما حينما يوقِن الإنسان أن الله عزَّ وجل هو الرزَّاق ذو القوَّة المتين عندئذٍ لا يعصي الله أبداً، لا يغشُّ الناس، لا يكذب عليهم، لا يحتال عليهم، لا يأخذ ما ليس له، الله عزَّ وجل يتفضَّل عليه بالطاعة، ويتفضَّل عليه بالرزق الوفير.

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (17-20): تفسير الآيات 53-61، حال المستكبرين وحال المتقين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-05-14

بسم الله الرحمن الرحيم

يخاطب الله تعالى في هذه الآية المُسرفين في المعصية :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السابع عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية الثالثة والخمسين من هذه السورة، وهي قوله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

أيها الأخوة الأكارم، قال العلماء: هذه أرجا آيةٍ في القرآن الكريم، يخاطب الله المُسرفين في المعصية، ليس العصاة، بل المسرفين الذين فعلوا كل أنواع المعاصي، أو الذين فعلوا أكبر المعاصي، كل أنواع المعاصي إسراف، أو أكبر المعاصي إسراف..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

القانط لا يعرف الله، اليائس لا يعرف الله، القنوط كفرٌ بالله، اليأس كفرٌ بالله، أيها الأخوة، من لوازم المؤمن أنه بين الخوف والرجاء، فإذا زاد رجاؤه وقلَّ خوفه، خوَّفه الله عزَّ وجل، ربَّما لاح له شبحُ مصيبة، ربَّما حجبه الله عنه، وإذا زاد خوفه على رجائه قرَّبه الله إليه وطمأنه، والمؤمن الصادق يتراوح في حركته إلى الله عزَّ وجل بين الخوف والرجاء، يعبد الله خوفاً وطمعاً، رغباً ورهباً، فالله سبحانه وتعالى إن خفته طمأنك، وإن اطمأننت ولم تخف منه أخافك، فإذا خفت وحدك لم يخفك الله عزَّ وجل، وإذا رجوته كان الله سبحانه وتعالى كما تريد وتحب.

ربط الرجاء بالعمل :

على كلِ هذه الآية أرجا آيةٍ في القرآن الكريم، فكل إنسان يقع في معصية، تزل قدمه، ينحرف نحو مخالفةٍ، ثم يقعده اليأس:

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

[سورة آل عمران: 175]

لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون، فهذه الآية يجب أن ترفع معنويَّات المؤمنين، بل ينبغي أن ترفع معنويات المُقَصِّرين، كل إنسان مقصِّر بإمكانه أن يتلافى قصوره، لكن هناك من يفهم هذه الآية ومثلها من آيات المغفرة والرجاء فهماً ما أراده الله عزَّ وجل، يقول لك: يقول الله عزَّ وجل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

إذاً هو لا يقنط، مقيمٌ على معصيةٍ ويرجو الله عزَّ وجل، هذا هو المعنى الذي ما أراده الله عزَّ وجل.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

ربنا جلَّ جلاله ربط الرجاء بالعمل، إذا كنت راجياً فعلاً بادر إلى العمل، بادر إلى التوبة، بادر إلى الاستقامة، بادر إلى العمل الصالح، توبتك، واستقامتك، وعملك الصالح يحقّق رجاءك، أما إذا رجوت الله عزَّ وجل وأنت على ما أنت عليه من مخالفات، ومن تقصير، ومن تجاوزات فهذا رجاء البُلْه، رجاء الحمقى، رجاءٌ ما أراده الله، كل رجاءٍ لم يُرْبَط بالعمل رجاءٌ أبْلَه، ورجاءٌ ساذج، ورجاءٌ ما أراده الله عزَّ وجل.

الرجاء هو ما قارنه العمل والله جلَّ جلاله لا يتعامل مع التمنّيات :

ربنا عزَّ وجل يقول في آياتٍ أخرى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف:110]

علامة رجائك مبادرتك إلى العمل، إلى التوبة، إلى الطاعة، إلى البذل، إلى التوبة مما سلف منك من معاصي، إلى الائتمار بأمر الله عزَّ وجل، إلى التقرُّب إليه ببذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، لا تقل: أنا أرجو الله، وأنت على ما أنت عليه، هذا رجاء البُله، هذا رجاءٌ ساذج، هذا الرجاء الذي ما أراده الله، هذا ليس رجاءً بل هو تمنِّيات.

(لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء:123]

الله جلَّ جلاله لا يتعامل مع التمنِّيات، ما من إنسانٍ على وجه الأرض إلا ويتمنَّى أن يكون غنياً، إلا ويتمنَّى أن يكون من أهل الجنَّة، التمني كلام فارغ، التمني لا يتعامل الله معه أبداً:

(لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء:123]

تمنَّى ما شئت، أمنيتك لا ترفع عن مكانها شعرةً، لكن الرجاء هو ما قارنه العمل.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف:110]

الفرق بين العباد والعبيد :

إذا كنت ترجو الله حقّاً تتحرَّك، تُبادر، تقلع عن ذنبٍ، تبادر إلى عملٍ صالح، تلتزم طاعة الله عزَّ وجل، فإذا قلنا: إن هذه الآية أرجا آيةٍ في القرآن الكريم أي أن هذا الرجاء يتبعه العمل، والدليل:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ)

سنأتي بعد قليل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

يا محمَّد قل لعبادي، ربنا عزَّ وجل نسبنا إلى ذاته، نسبة تشريفٍ وتكريم، فليس شيئاً سهلاً أن تكون أنت من عباد الله.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان: 63]

أنت الآن نَسَبَكَ الله إلى ذاته تشريفاً وتكريماً، لكن العباد جمع عَبد، والعبيد جمع عَبد، شتَّانَ بين العباد والعبيد، العبيد هم الذين قُهروا بعبوديّتهم لله عزَّ وجل لحاجتهم إليه، أنت عبدٌ لله بمعنى أن حياتك متوقّفةٌ على هذا الهواء الذي تستنشقه، وعلى هذا الماء الذي تشربه، وعلى هذا الطعام الذي تأكله، وأنت بحاجةٍ إلى مخلوقٍ مثلك يُلبِّي ما فيك من دوافع، فأنت مفتقرٌ إلى فضل الله دائماً، بهذا المعنى أنت عبد، وجمع العبد عبيد.

لكنَّك إذا عرفت الله، وعرفت أسماءه الحسنى، عرفت وحدانيَّته، عرفت كماله، عرفت ما عنده من خير، فانطلقت إليه بدافعٍ ذاتي، بمبادرةٍ منك، طواعيةً من دون إكراه، من دون سَوْقٍ بمصيبةٍ، إذا فعلت ذلك فأنت عبدٌ لله، وجمع هذا العبد عباد وليس عبيد.

الله جلَّ جلاله تفضَّل وتكرَّم علينا ورفع من قدرنا وشرَّفنا حينما نسبنا إلى ذاته :

ربنا قال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان: 63]

الله جلَّ جلاله تفضَّل علينا، وتكرَّم علينا، ورفع من قدرنا، وشرَّفنا وكرَّمنا حينما نسبنا إلى ذاته، فهناك آلاف الموظَّفين في سلك الشرطة، مئات الألوف، ماذا يعمل؟ شرطي، لكن يقول لك: أنا شرطي الوزير، انتبه أنا لست شرطياً عادياً، يفتخر لأنه نُسِبَ إلى منصبٍ رفيع، هذا في الدنيا.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

ألا تكفيك هذه النسبة؟ يا رب كفانا فخراً أن نكون لك عبيداً، وكفانا اعتزازاً أن تكون أنت يا رب لنا رباً، نفتخر ونعتز، نفتخر أنَّا عبيدك ونعتز أنك ربُّنا.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

أحياناً توجد بالكلمات إيحات فيما بين السطور.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

أحياناً تخاطب إنسان ابن شخص عظيم، ما أعجبك سلوكه فتقول له: أنت ابن فلان - هذه الكلمة تكفي - أنت ابن فلان، أبوك له شأنٌ كبير، أبوك من وجوه الحي، أبوك من عليَّة القوم، أنت ابنه انتبه. أي إيَّاك أن تفعل شيئاً لا يليق بك، إياك أن تفعل شيئاً لا يليق بهذه النسبة إلى الله عزَّ وجل.

الله يُسترضى ولاسيما بالصدقة :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

إذا أدرك الإنسان وتذوَّق ما تنطوي عليه هذه الكلمة لذاب حبَّاً لله عزَّ وجل..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

ذلَّت قدمهم، شردوا، تاهوا، وقعوا في بعض المعاصي، ورَّطهم الشيطان، وقعوا في حبائل الشيطان، ما الحل؟ اليأس كفر، القنوط كفر، فما الحل؟ الحل أنه لا ملجأ منك إلا إليك، الحل يا رب ليس لي سواك.

إذا قال العبد يا ربُّ وهو راكع قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد يا رب وهو ساجد، قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد: يا رب وهو عاصٍ، قال: لبيك ثمَّ لبيك ثمَّ لبيك.

أحياناً الابن يخاطب أبوه، يكون ابن جيِّد جداً، الأب يستجيب له، لكن إذا ابن شارد، وبعيد عن هذا الأب، منحرف أشدَّ الانحراف، ورأى هذا الأب ابنه المنحرف قد أتى إليه تائباً، أتى إليه طائعاً، أتى إليه منيباً، والله السعادة والسرور الذي يشعر به أضعاف مضاعفة عن شعور الأب حينما يناديه أحد أولاده الأبرار، ولدٌ شارد، ولدٌ تائه، ولدٌ منحرف عاد إلى أبيه، لذلك إذا رجع العاصي إلى الله نادى منادٍ في

السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد. عوِّد نفسك يا أخي، كلَّما حُجِبْتَ عن الله، كلَّما زلَّت قدمك، كلَّما أخطأت، كلَّما بدرت منك بادرةٌ لا تُرضي الله عزَّ وجل، عوِّد نفسك أن تُقبل على الله تائباً، عوِّد نفسك أن تستغفر، عوِّد نفسك أن تراجع نفسك، عوِّد نفسك أن تقول: يا رب ليس لي سواك، استرضي الله، الله يُسترضى ولا سيما بالصدقة..

((إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

((باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة))

[أخرجه البيهقي عن أنس]

الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع بيد الفقير.

ضالٌ وكافرٌ وجاحدٌ الذي يقنط من رحمة الله سبحانه :

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

إسراف تنوُّع أو إسراف شدَّة، إما أنه ارتكب معصيةً كبيرةً جداً، أو أنه ارتكب كل أنواع المعاصي، كلاهما إسراف.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا)

لا تقنط نهيٌ إلهي:

(وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

[سورة الحجر: 56]

ضالٌ، وكافرٌ، وجاحدٌ الذي يقنط، جاء الجواب:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

هل هناك ذنبٌ أكبر من رحمة الله؟ لا، هل هناك ذنبٌ أكبر من مغفرة الله؟ كلا، وسعت رحمة الله كل الذنوب.

تعاظمني ذنبي فلمَّا قرنته بعفوك ربي عفوك أعظمُ

* * *

إذا تاب الإنسان إلى الله تعالى يجب أن يحافظ على أول توبة :

لكن الإنسان إذا تعامل مع الله، مع الله ما في مزاح، ما في تسلية، أنت تعاملت مع الله، زلَّت قدمك، انحرف سلوكك، تورَّطت في معصية، وقعت في انحراف، فما عليك إلا أن تتوب، لكن إذا تبت توبةً نصوحَ أنسى الله حافظيك، والملائكة، وبقاع الأرض كلَّها خطاياك وذنوبك، كأن هذه المعاصي لم تكنْ، وربنا جلَّ جلاله يُشْعِرُكَ بذلك، يشعرك أنه غفر لك، تشعر أنك خفيف، تشعر أن كابوساً أُزيح عن صدرك، تشعر أن الدنيا لا تسعك، يا ربي لك الحمد، أبداً يشعرك أنه غفر لك، أنه قبلك، تبت إليه فتاب عليك، تابوا فتاب الله عليهم، أقبلت إليه فقبلك، تبت إليه فتاب عليك، قلت: يا رب، قال: لبيك يا عبدي.

عجبت لإنسان معه كل هذه التسهيلات ولا يستخدمها! معه باب التوبة ولا يخترقه، ولا يدخل منه! معه رحمة الله عزَّ وجل كيف ينساها؟! أمامه هذه الآية كيف يقنط، كيف ييأس؟! لكن أنا لا ألوم إنسان تاب إلى الله توبةً نصوحَ ثمَّ نَقَضَ التوبة، ثم تاب ثمَّ نقض التوبة، عندئذٍ كلَّما نقض التوبة مرَّةً ضعفت إمكانيَّة توبته القادمة، كل نقض للتوبة يضعف مكانتك عند الله، أسهل توبة أول توبة، مهما تكن الذنوب كبيرةً، مهما يكن الانحراف خطيراً، مهما يكن حجم المعاصي واسعاً، أسهل توبة أول توبة، وتشعر أن الصُلح بلمحةٍ واحدة - الصُلْحَ بلمحة - يا رب اغفر لي ذنبي. يا عبدي قبلتك وغفرت لك، وتبت عليك.

لكن المشكلة عندما يتوب الإنسان ثمَّ يعود إلى الذنب الذي تاب منه، يشعر أن حجاباً صار بينه وبين الله، ثمَّ تاب مرَّةً ثانية وعاد إلى الذنب مرَّةً ثالثة، صار الحجاب أسمك، فكلَّما نقض التوبة ثَخُنَ الحجاب، إلى درجة أنه ربَّما لا يستطيع أن يتوب بعد ذلك.

لذلك أيها الأخوة إذا تاب الإنسان منكم فليحافظ على أول توبة، عاهد الله عزَّ وجل، عاهد خالق الكون، عاهد ربَّ العالمين.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

على الإنسان ألا يقنط من رحمة الله لأن الله يغفر الذنوب جميعاً :

كلمة جميعاً ماذا تُعْرَب؟

(يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

أي كل الذنوب إن شئت أن تعربها حالاً، وإن شئت أن تعربها توكيداً، على كلٍ هي تأكيد، لا تقنط لأنه يغفر الذنوب جميعاً، لأنه:

(إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

هو وحده الغفور، وهو العاطي لا يَسْأل، وهو الكريمُ لا يبخل، وهو الغفور لا يَعْجَل، علامة أنك ترجو الله عزَّ وجل، علامة أنك أيقنت أن رحمة الله أوسع من ذنوبك.

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ)

ما رأيت منظر ابن أمُّه حجبته، فضاق ذرعاً بحجابه عنها، ببعده عنها، فاندفع إليها ورمى نفسه على صدرها. هكذا ينبغي أن تكون، حينما تسجد لله عزَّ وجل، وتمرِّغ جبهتك بأعتاب الله: يا رب ليس لي إلا أنت، يا رب من يغفر إن لم تغفر؟ من يرحم إن لم ترحم؟ من يعفو إن لم تعفو؟ يا رب ليس لي إلا أنت، اغفر زلَّتي، وأقل عثرتي، واقبل توبتي، ارحم ضعفي، أعطني ولا تحرمني، أكرمني ولا تهني، آثرني ولا تؤثر علي، يا رب برحمتك أستغيث، يا رب رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

يجب أن يكون للمؤمن ابتهالات إلى الله عزَّ وجل، ابتهالات، مناجاة، استغفار، استعطاف، ما في أحلى من عبد يستعطف ربَّه، ما في أجمل من عبد يستغفر ربَّه، يُعلن التوبة لله عزَّ وجل، باب الله مفتوح.

والله أيها الأخوة من أخلص لله في توبته، والله الذي لا إله إلا هو يلمُس النتائج ليس بعد ساعة، بل في اللحظة التي تاب فيها إلى الله عزَّ وجل، يشعر أن جبالاً جاثمةً على صدره قد أُزيحَت، يشعر نفسه خفيف، الذنب أثقال.

الهدى يرفعنا والضلال يسحقنا والبطولة أن نعود إلى الله ونصطلح معه :

قال تعالى:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)

[سورة الروم: 44]

وزن يسحقُه، كلَّما انحرف الإنسان جاءت ذنوبه تسحقه، أما:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

الهدى يرفعك، والضلال يسحقك.

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ)

البطولة أن تعود إلى الله، أي أن تعود إلى أمره، قطار خرج عن سكَّته، انحرف، الحل أن يعود إلى الخَط، هذه المركبة خرجت بالوادي وتحطَّمت، البطولة أن تعود إلى خطِّ سيرها الصحيح، الحل الصُلْحُ مع الله.

والله يا أيها الأخوة ما يعانيه المسلمون اليوم في شتَّى بِقاع الأرض له حلٌ واحد، حلٌ واحد وهو الصلح مع الله، إن اصطلحوا مع الله، والله أيها الأخوة تُقْلب جميع الموازين، تتغيَّر كل المعادلات، كل ما يراه

المسلمون اليوم من ضعفٍ، ومن خيبة أملٍ، ومن هجمةٍ شرسة تتلاشى هذه إذا كانوا مع الله، لأنه إذا كان الله معك فمن عليك؟ إن الله مع المؤمنين، إن الله مع المتقين، أي معهم بالنصر، معهم بالتأييد، معهم بالحفظ، معهم بالتوفيق، هذه كلُّها وعود لله عزَّ وجل..

(وَأَنِيبُوا)

كل البطولة أن تنيب إلى الله عزَّ وجل، لو أنك سمعت دروساً لعشر سنوات، لعشرين سنة ولم تطبِّق هذه الدروس، ولم تُتَرْجَم هذه الدروس إلى سلوك يومي، إلى أن تعقد العزم على طاعة الله، أن تُقْلِع عن كل المعاصي والآثام، أن تبذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس، الطريق إلى الله غير سالك، المعلومات لا تكفي.

العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إطلاقاً إنه وسيلة للسمو بالنفس :

أيها الأخوة، كلمة اسمعوها مني: العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إطلاقاً، إنه وسيلةٌ للسمو بالنفس، فالعلم الذي لا يرقى بك ليس علماً، ربَّما كان الجهل أفضل منه، العلم الذي لا يُعْمَلُ به الجهل أفضل منه، لأن العلم الذي لا يُعْمَل به حجَّةٌ على الإنسان، حجَّةٌ قطعيَّةٌ عليه.

هل أنبت إلى الله؟ هل عدت إليه؟ هل عقدت معه صُلْحاً؟ هل أسلمت له وجهك؟ هل راجعت شؤون بيتك؟ شؤون عملك؟ علاقاتك الماليَّة؟ هل راجعت سلوك أولادك، بناتك، زوجتك؟ نوع تجارتك، نوع تعاملك؟ هل قيَّمت ما في البيت من أجهزة؟ هذا الجهاز حرام أم حلال؟ اسأل يا أخي، إذا حرام يجب أن تزيله، حلال اسأل عنه، لا تكن هكذا تعيش على هامش الحياة، كل شيء يحتاج إلى دليل، إلى برهان، إلى حكم شرعي، هذه التوبة الصحيحة، يا رب تبنا إليك؛ هذا كلام فارغ، تبت غيِّر، هذا التعامل ربوي، هذه الطريقة في البيع لا ترضي الله، هذه الأيمان كاذبة، هذا تدليس، هذا غش، هذه الحرفة كلُّها لا ترضي الله، البضاعة محرَّمة، هذه الحرفة مبنيَّةٌ على إفساد الناس، فيجب أن تراجع مهنتك، تراجع بيتك، تراجع سلوك أولادك، سلوك بناتك، نَمَط خروج بناتك، ما في البيت من أجهزة قد لا ترضي الله عزَّ وجل، هذه هي التوبة، أما صلينا - من شاء صام ومن شاء صلَّى ولكنَّها الاستقامة - أنت فعلاً إذا كنت عدت إلى الله تكره أن تعود في الكفر كما تكره أن تُلْقى في النار.

فأنا أقول لكم بصراحة: كلمة هنيئاً لا تُقال إلا لإنسان اصطلح مع الله، اشترى بيت، أخي تهانينا، سوف يتركه، تزوج، تهانينا، هذا شيء عارض كله، كل ما في الدنيا يزول لكنَّك إذا عرفت الله واصطلحت معه هذه هي التهنئة الحقيقيَّة، هنيئاً لك إيمانك، هنيئاً لك توبتك.

من كان مؤمناً وتلبس بمعصية فلا بد من علاج إلهي يرده لدينه :

قال تعالى:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

عُدْ إليه من المعصية، واستسلم له بالطاعة، ناب، أناب أي عاد، عاد إليه بعد أن شرد عنه واستسلم لأمره، هذا منهج الله عزَّ وجل، يا رب هذا كلامك أنا مؤمنٌ به، مؤمنٌ بكل ما فيه من أمر ومن نهي، من حلال ومن حرام، من وَعد ومن وعيد، هذا الكتاب كلامك وأنا مؤمنٌ به، وإن لم تفعلوا ذلك اسمعوا الآية، الآن جاء المؤيِّد القانوني:

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

لحِّق نفسك، ما دمت في صحَّةٍ فأنت في بحبوحة، لحِّق نفسك قبل أن يأتي العذاب، قبل أن تأتي المعالجة، قبل أن تبحث عن إنسان يُنَجِّيكَ فلا تجده..

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

هنا توجد نقطة دقيقة، أيها الأخ الكريم يجب أن توقن يقيناً قطعياً أنك إذا كنت مؤمناً، وكنت متلبِّساً بمعصيةٍ يجب أن تؤمن بحتمية العلاج، حتمية العلاج فلا بد من أن يسوق الله إليك شيئاً يردُّك إليه، وهذه رحمته.

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام:147]

تقتضي رحمته أن لا يردَّ بأسه عن القوم المجرمين، أبداً، الإنسان العاقل يخاطب نفسه: أنت مقيمة على هذه المعصية، وهذه المعصية، وهذه المعصية، لا بد من أن يأتي العلاج، لا بد، اسمع الآية:

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

الإنابة إلى الله عزَّ وجل :

من يحب العذاب؟ من يحب المرض العُضال؟ من يحب الذُل؟ من يحب الافتقار؟ من يحب أن يكون مهاناً؟ هذا عذاب الله عزَّ وجل، وربنا عزَّ وجل يعرف أن يداوي في المكان الذي يوجعك، لو خسرت مئة ألف، مئتي ألف، نصف مليون؛ لا يهمني، هكذا يقول الغني لك، الله عنده علاج لهذا بنوع ثاني، عنده علاج لهذا الإنسان لا تحلُّه الأموال إطلاقاً، كل إنسان يُعالج بطريقة، أفليس العقل أن نعود إليه قبل أن تأتي المصائب؟ أن نعود إليه في الوقت المناسب؟ أن نأتيه طائعين قبل أن نُساق إليه بالسلاسل، كلام طيِّب أيها الأخوة، كلام منطقي، كلام واضح، كلام رب العالمين.

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ)

في البيت مخالفة؟ اقنع ابنتك أن تضع الحجاب، في البيت غناء؟ اقنع الأهل أن يقلعوا عن الغناء، في البيت مخالفات؟ اعرف كيف تتخلَّص منها، هذه هي الإنابة إلى الله عزَّ وجل، في علاقتك التجاريَّة علاقة ربويَّة؟ انتبه لها، في البضاعة بضاعة محرَّمة، في عندك علاقات اجتماعيَّة فيها اختلاط، انتبه، هذه هي التوبة، فليس الأمر صلينا تبنا، الصلاة سهلة، الضبط، ضبط الأمور.

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ)

هذه الإنابة.

ربنا عزَّ وجل يسوق العذاب للإنسان إذا لم يتعظ يأتي العذاب الثاني بلا ممهِّدات :

قال تعالى:

(وَأَسْلِمُوا لَهُ)

لأمره ونهيه:

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ* وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

الله وصف المؤمنين ووصف الكافرين، أنت طبِّق صفات المؤمنين، وصف أهل الجنَّة ووصف أهل النار، كن من أهل الجنَّة، أحسن:

(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

أمر ونهى، تأتمر وتنتهي، وعد وأوعد، كن من الذين وعدهم ربُّهم لا من الذين أوعدهم، هذا معنى:

(أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

أعطى الرخص وأعطى العزائم، كن مع العزائم، وإن لم تفعلوا:

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً)

بالمناسبة: أول عذاب له ممهِّدات، ثاني عذاب نهائي، ربنا عزَّ وجل يسوق العذاب للإنسان، إذا لم يتعظ يأتي العذاب الثاني بلا ممهِّدات، يأتي قصم.

(بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

انتهى الأمر.

سياسة ربنا مع المجرمين :

مرَّة ذكرت قصَّة من الممكن أن نستفيد منها: إنسان صار معه مرض عُضال، مغتصب محل تجاري، وهو بالإنعاش - العناية المشدَّدة - طلب مسجِّلة وذكر بالشريط أن هذا المحل ليس لي، هذا لإخوتي، الأرض الفلانيَّة، أعطى كل ذي حقٍ حقَّه، بعد عدة أيام شعر براحة لم يعد شيء في صدره، طلب الشريط ثم كسره، وعاد إلى ما كان عليه، بعد ثمانية أشهر بالتمام والكمال كانت القاضية، أول عذاب فيه ممهِّدات، أما الثاني قاصم، قصم، أول واحد فيه ممهِّدات:

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

[سورة الدخان:15]

أحياناً ربنا عزَّ وجل يسوق العذاب ويرفعه، يعطيه نفس، ماذا تفعل؟ تأتيه كريزة فلا ينام منها، ثاني يوم ما في شيء، مغرم بالأفلام المعيَّنة، كريزة فما نام الليل، رفع العذاب:

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً)

[سورة الدخان:15]

إذا ما استفدتم:

(إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

[سورة الدخان:15]

هذه سياسة ربنا مع المجرمين، يسوق العذاب مع المُمَهِّدات، ثم يُرْفَع العذاب لينظر ماذا يفعل هذا الإنسان؟ بعد أن يُرفع العذاب ويعود إلى ما كان عليه، يُساق له العذاب ثانيةً كحلٍ جذري، كقصمٍ، كاستئصالٍ.

المصائب إنذار من الله سبحانه لعباده :

قال تعالى:

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

الإنسان لو أن الله عزَّ وجل ما ربَّاه، تركه، أنزل الكتاب على نبيِّه، وبُلِّغ الكتاب، ولم يأتمر بما أمر الله، ولم ينتهِ عما عنه نهى، والله عزَّ وجل أطلقه من دون علاج، من دون مصائب، من دون مشكلات، إلى أن جاء أجله فاستحقَّ النار، لو أن الإنسان هكذا عومل، لقال هذا الإنسان:

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ* أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

يا رب لِمَ لَمْ تسبب لي مشكلة، الفت نظري، ذكرني، خوفني، حذرني، تصور لو أن ابناً وضعه أبوه في مدرسة، الابن قال لأبوه كلمة واحدة: ما عندي رغبة أكمِّل، فقال له: مثلما تريد. الأب لم يعارضه أبداً، فلمَّا كبر الابن رأى أصدقاءه أطبّاء، ومهندسين، وأشخاص مرموقين في المجتمع، ومتزوِّجين، وعندهم بيت، وأولاد، مكانة، لماذا أنا أصبحت وراء الناس؟ يعاتب أبوه، عندما قلت لك: يا بابا لا أريد أن أدرس، لماذا بقيت ساكتاً؟ لماذا لم تضربني؟ لماذا لم توبِّخني؟ لماذا لم تضغط عليَّ؟ لماذا لم تخوِّفني؟ يعتب على أبوه، لو أن الله عزَّ وجل لا يسوق العذاب لقالت هذه النفس:

(لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

لا، أرسلنا لك المصيبة تلو المصيبة، وكل هذه المصائب تذكير، وهي نذير، الإمام القرطبي في قوله تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر: 37]

من جملة النذير المصائب.

إذا ساق الله للإنسان مصيبة فيجب أن يتعامل معها تعاملاً إيمانياً :

أيها الأخوة الكرام المصائب إنذار من الله، نصيحةٌ لوجه الله إذا ساق الله للإنسان مصيبة فيجب أن يتعامل معها تعاملاً إيمانياً، أول سؤال يقول: الله غني عن تعذيبي، الله ليس له مصلحة أن يعذبني، لا بد من سببٍ يدعو إلى هذه المصيبة، ما هو السبب؟ لا بد من خطأٍ، لا بد من انحرافٍ، لا بد من تقصيرٍ، لا بد من كسبٍ حرام، اتهم نفسك ما شئت، وبالغ في اتهام نفسك.

(أَنْ تَقُولَ)

لئلا تقول:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

قصَّرت، ما عرفت الله حقَّ المَعرفة، ما قدَّرته حقَّ قدره، ما عرفت عظمته، ما عرَّفت نفسي به، ما حملتها على طاعته، ما قرأت كلامه، ما حاولت فهم كلامه، ما حضرت مجالس العلم، ما اتعظت بما وعظني به من مصائب.

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

أحياناً الإنسان في الدنيا تفوته ميِّزة، فاته شيء من الدنيا، يتأوه فتحس أن قلبه تقطَّع، يقول لك: محروق قلبي، هذا البيت ضاع من يدي، فلانة خُطِبت، كانت في بالي ولكنها خُطِبت، ما كان في مثلها، هي أنسب زوجة لي، ولكن راحت من يدي، تجده على زوجة أو على بيت محروق قلبه، فإذا كشف أنه

خسر الآخرة كلَّها، خسر الأبديَّة كلَّها، عذابٌ أبديٌ سرمدي من أجل سنواتٍ عدَّة أمضاها في المعاصي، ألا يتألَّم؟ لذلك:

((إن أهل النار ليبكون حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت))

[الجامع الصغير عن أبي موسى]

لا يوجد شعور يهز النفس كالندم :

قال تعالى:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

إذا واحد مثلاً فقير، معه شيك ولا يعرف قيمته، ألف مليون دولار مزَّقه ورماه، لو عرف أن هذا الشيك يحل له كل مشاكله يكون أغنى الأغنياء، بيده مزقَّه وألقاه في المهملات، ألا يشعر بالندم؟ هذا الندم صعب جداً، لا يوجد شعور يهزُّ النفس كالندم:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

لم أكن أعرف، عندما يرى إنساناً يحضر مجلس علم يقول له: تضييع وقت، كله كلام نعرفه، كلام يُعاد، نعرفه، اذهب وتسلّى قليلاً، بعدما عرف الحقيقة يقول:

(يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 37]

المسجد مبارك، هذا بيت الله، تعال وذكِّر نفسك، اشحن البطاريَّة، أعطها شحنة، جدِّد إيمانك، تذكَّر ربك عزَّ وجل، فإذا الإنسان أبقى نفسه جاهلة فرَّط في جنب الله، ما عرَّفها بربِّها فرَّط في جنب الله، ارتكب المعاصي فرَّط في جنب الله، قصَّر في واجباته فرَّط في جنب الله.

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

البطولة أن تضحك آخر الناس :

يقول لك: فلان أصبح شيخاً، مرحباً شيخ، إذا له رفيق صار شيخاً يريد أن يتسلّى، فعندما يستقم هذا الإنسان، أصدقاءه، أهله يقولون: أين الشيخ لم نره اليومين؟ يكون شاباً صغيراً يقولوا عنه: أين الشيخ؟ سخرية.

(وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

إذا أحب أن لا يختلط مع النساء يقتحموا عليه اقتحام، أين ابن خالتنا؟ نريد أن نرى الشيخ الصغير، يقولوا له: ماذا حدث هل سنأكلك؟

(وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

يسخرون، لكن هنيئاً لمن عرف الله عزَّ وجل وعاش في الدنيا كالغريب، بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء، أناسٌ صالحون في قوم سوءٍ كثير، ما في مانع إذا من حولك سخروا:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين: 34]

البطولة أن تضحك آخر الناس، الكافر:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 13]

يضحك، ويسترخي، يتابع الأفلام كلها، وسهرة مختلطة، وكل شيء وصل ليده قبضه، يقول لك: ضع في الخرج لا تدقّق، هذه شطارة، هكذا البيع والشراء، ألبسناها له، هكذا يظن:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 13]

الفرق بين حال المؤمن وحال الكافر :

أما المؤمن:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 9]

عندما يأخذ الطالب جلاءه كله عشرات، كله جيِّدات، الأرض لا تسعه، يريد أن ينطلق إلى أهله ويريهم نتائجه وهكذا المؤمن، الكافر:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 13]

أما المؤمن:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 9]

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين: 34]

(أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

أي أن هذه المصائب التي ساقها الله لهذه النفس، لئلا تقول يوم القيامة: يا ربي لو أنك عذَّبتي، لو لفت نظري بمشكلة، بمصيبة، بمرض لكي أعرفك، يقول لك: ذكّرناك وأرسلنا لك المصائب ولم تتعظ.

الإنسان الذكي العاقل لا يوصل نفسه إلى طريق مسدودٍ مع الله :

قال تعالى:

(أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

هيهات:

ألا ليت الشباب يعودُ يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ

* * *

هيهات، الزمن لا يرجع للوراء، عقارب الزمن لا تَرجع، أنت بين يومٍ مفقود، ويومٍ مشهود، ويومٍ ممدود، ويومٍ مورود، ويومٍ موعود، اليوم المفقود لا جدوى من الحديث عنه، لأنه مفقود، انتهى، ما مضى فات، والمؤمَّل غيب، والغيب لا تملكه، الماضي خرج من يدك، والغد لا تملكه، ماذا بقي أمامك؟ الساعة التي أنت فيها:

((ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة))

[ورد في الأثر]

الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، إذا استيقظ الإنسان يجب أن يوقن أن الله سمح له أن يعيش يوماً جديداً، اعمل فيه قبل أن يعمل فيك:

(أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

هيهات:

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

[سورة ص: 3]

أي ليس الحين حينَ مناص، عندما يرتكب الإنسان جريمة، ويحاكم، ويُحكم بالإعدام، ويُصدَّق الحكم، ويُساق للمشنقة، فهل الرجاء يُجدي؟ انتهى الرجاء، التوسُّل، التذلُّل، البكاء، النحيب، قد يبكي وقد لا يبكي، قد يتوسَّل وقد يظل ساكتاً، قد يقول: يا أولادي وقد لا يقول يا أولادي، كل هذا لن يجدي، لا بد من تنفيذ الحكم، الإنسان الذكي العاقل لا يوصل نفسه إلى طريقٍ مسدودٍ مع الله، قصَّر، وقصَّر.

ما من آية أعطانا الله فيها الرجاء إلا عَقَّب بالخوف :

أنا والله أعجب عندما أرى شخصاً في الخامسة والخمسين أو في الستين من عمره ويلعب طاولة في القهوة، لا يصلي، هذا ماذا ينتظر؟ الموت محقَّق، الموت على الأبواب، من دخل في الأربعين دخل في

أسواق الآخرة. فماذا ينتظر؟ كيف سيواجه الله عزَّ وجل؟ عجيب أمر الناس، غارقون في الملاهي، غارقون في الأعمال الساقطة، غارقون في كسب المال الحرام، غارقون في الاختلاط، يطلقون أبصارهم في الحرام، يمتّعون أبصارهم بما حُرم عليهم أن يمتّعوا به أبصارهم، يا أخي الله غفور رحيم. هذا الكلام سذاجة، اسمع الآيات:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

آية ثانية:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 49-50]

ما من آية أعطاك الله فيها الرجاء إلا عَقَّب بالخوف، صحيح الله عزَّ وجل:

(لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

لكن:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

الموت عرس المؤمن على عكس الكافر :

هذه ساعة الغفلة، الإنسان كل يوم يستيقظ مثل اليوم الماضي إلى ما شاء الله؟ لا، غير معقول، في يوم في خبر جديد، يقول لك: أصبحت ولم أستطع أن أرى، أتألَّم، يقول لك: أشعر بضيق، بذبحة صدريَّة، إذا إنسان مقيم على المعاصي كل يوم من الأيام في شيء جديد أمامه، أما إذا كان مقيم على الطاعات يا مرحباً بقضاء الله، في سرور لأن هناك استسلام لله عزَّ وجل، الموت تحفة المؤمن، الموت عُرس للمؤمن، الموت ساعة اللقاء مع الله عزَّ وجل، أما الشيء المؤلم الذي يهزُّ النفس إنسان مقيم على المعاصي، تكلّس عقله على أنماط من الحياة كلها مخالفات، كلها اختلاطات، سهرات، إطلاق بصر، مزاح رخيص مع النساء، كسب مال حرام، أساليب ملتوية في كسب المال في إنفاق المال، ثم فجأةً شعر أن عنده مرض عضال، وأنه قاب قوسين من القبر، والله الذي لا إله إلا هو يحسُّ بآلام لو وزِّعَتْ على أهل بلدٍ لكفتهم، الآن صار الطريق مسدود. فالإنسان وهو في بحبوحة، صحَّته جيِّدة، بمقتبل حياته، بشبابه، الله أسمعه الحق، فليستجب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم)

[سورة الأنفال: 24]

دعوةٌ للحياة:

(بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

هذا الذي كذب على الله، أشاع أن هذه ليست حرام، فيها فتوى يا أخي، ومعنى الآية ليس هذا، معناها كذا، جرَّ النصوص إلى أهوائه، جرَّ الآيات والأحاديث إلى تغطية انحرافاته، أي أنه كذب على الله، هذه قد أفتى فيها عالِم، أنت أفهم منه؟ لا ليس أفهم منه، هذه قضيَّة خلافية، هذه هكذا قال العلماء عنها، كل معصية يغطيها بحجَّة واهية، هذا كذب على الله.

حال المستكبرين يوم القيامة :

قال تعالى:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

وأي مُقام!!

(لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

من هو المتكبِّر هنا؟ الذي استكبر عن طاعة الله، رأى نفسه أكبر من أن يطيع الله عزَّ وجل، احتال على الأمر الإلهي بتفسيرات وتأويلات، وجرَّ النصوص إلى أهوائه، ولعب بالنصوص، وتحكَّم بها ولم يحتكم إليها، جواب الله عزَّ وجل:

(بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي)

آياتي الكونيَّة، والقرآنيَّة، والحوادث، والأفعال، وشعر بانقباض مع المعصية، دليل هذه آية، وشعر براحة مع الطاعة دليل، آياته الكونيَّة، وآياته القرآنيَّة، وآياته التكوينيَّة، وآياته النفسيَّة، أراك مناماً مخيفاً، ما تأثَّرت، في آيات نفسيَّة، في تكوينيَّة، في قرآنيَّة، في كونيَّة، أربع أنواع من الآيات:

(بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي)

آيةٌ تلو آيةٍ، كل آيةٍ أوضح من أختها، كل آيةٍ كفلق الصبح.

الإنسان إذا كذب على الله يسوَّد وجهه :

قال تعالى:

(بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ)

هذه صدفة، وهذه هكذا الدهر يومٌ لك ويومٌ عليك، الله أرسل له مصيبة بدل من أن يستفيد منها قال لك: هكذا الدهر، الدنيا كر وفر، إقبال وإدبار، مد وجزر، يومٌ لك ويومٌ عليك. فرَّغ المصيبة من مضمونها، جعل المصيبة شيء يحدث دائماً..

(فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

ما عرفت الله عزَّ وجل:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

الإنسان إذا كذب على الله يسوَّد وجهه، وفي الدنيا إذا الإنسان كذب، ثمَّ كُشِفَ أنه كاذب لا يستطيع أن ينظر إلى الناس، يسقط من أعينهم، فكيف إذا كذب على الله؟ إذا كذب على إنسان وكَشَفَ أنه كاذب، وواجهه بكذبه يسوَّد وجهه، ويخفِضُ بصره، ويسقط من عين هذا الإنسان، فكيف إذا كذب على الله؟ لذلك:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

[سورة الصف: 7]

مصير الكاذبين على الله ومصير المتقين يوم القيامة :

ما في إنسان أظلم ممن كذب على الله، أوهم نفسه أن هذا الشيء غير حرام، يجوز، جرَّ النص إلى أهوائه، أوَّل الحديث تأويلاً باطلاً.

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)

معنى ذلك الكاذبون على الله مصيرهم إلى النار، أما المتَّقون:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ)

عرفوا ربَّهم في الدنيا، فازوا بمعرفته، فازوا بطاعته، فازوا برضوانه، فازوا بخدمة عباده، فازوا بالدعوة إليه:

(بِمَفَازَتِهِمْ)

الآن نجَّاهم الله بمفازتهم:

(لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

هذا الأمن الذي ما بعده أمن، يوم يفزع الناس، يوم يخاف الناس، يوم تملأ الحسرة قلوب الناس، يوم يندم الناس، يوم يُساق الناس إلى عذابٍ أبدي، هؤلاء المتَّقون الذين كانوا في الدنيا غرباء، الذين اتجهوا إلى المساجد واتجه الناس إلى الملاهي، اتجهوا إلى المساجد وقَبَعَ الناس في بيوتهم يتابعون المسلسلات

الخليعة والساقطة، اتجهوا إلى بيوت الله يُصَلون، ويقرؤون القرآن، تناصحوا، التزموا، وقفوا عند الأمر والنهي.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات: 15-16]

الفوز العظيم والفلاح يوم القيامة بتقوى الله سبحانه :

قال تعالى:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ)

اتقوا أن يعصوا ربَّهم، اتقوا غضبه، اتقوا الكفر بالإيمان، اتقوا الشِرك بالتوحيد، اتقوا العقاب بالطاعة.

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ)

فازوا، هذا هو الفوز العظيم، هذا هو الفلاح، هذا هو النجاح، هذا هو التفوُّق، هذا هو العطاء:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)

[سورة الإنسان: 20]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

[سورة يونس: 58]

مصير المتقين كما ورد في القرآن الكريم :

قال تعالى:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ)

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ*عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

[سورة الصافات: 43-44]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ*لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ*سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

[سورة يس: 56-58]

المؤمن يوم القيامة ينتقل من ضيق الدنيا إلى سَعَةِ الآخرة :

قال تعالى:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

لا يحزنون على الدنيا، لأنهم انتقلوا من دار همٍ وتعبٍ، وتكليفٍ وعملٍ، وكدحٍ وجهدٍ، إلى دار تشريفٍ وتكريم، انتقلوا من الخراب إلى العمران، من ضيق الدنيا إلى سَعَةِ الآخرة، من الهموم والأحزان إلى الجنَّة والرضوان..

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

إذا إنسان انتقل من بيت في أحد الأحياء المتواضعة الفقيرة، الضجيج، والازدحام، والطابق تحت الأرض، وضيِّق جداً، ومرافقه سيئة جداً، إلى أفخر بيت، أثناء الانتقال هل يشعر بحزن؟ أعوذ بالله، يرقص من الفرح، وهكذا المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، " واكربتاه يا أبت " قال: " لا كربَ على أبيكِ بعد اليوم غداً نلقى الأحبَّة محمَّداً وصحبه "، إذا كنت بطل كل من حولك يبكون وأنت وحدك تضحك، لا يهمَّك جنازة مقدَّرة أو ليست مقدَّرة، أنت نجوت من الدنيا وما فيها، هذه البطولة.

فالدنيا ساعة اجعلها طاعة والنفس طمَّاعة عوِّدها القناعة

* * *

الآية التالية غطَّت المستقبل والماضي :

قال تعالى:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

معظم الناس ضحكت عليهم الدنيا، فإن كنت بطلاً فاضحك عليها، ضعها تحت قدمك، لا تعص الله فيها، لا تلن لأهل الكفر، لا تتخاذل أمام بريق المال، لا تضعف أمام النساء، الله خيرٌ وأبقى:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

[سورة طه: 72]

(لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ)

في الجنَّة:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

على ترك الدنيا، هذه الآية غطَّت المستقبل والماضي، وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نأخذ قوله تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (18-20): تفسير الآية: 62-67، التوحيد والعبادة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-05-21

بسم الله الرحمن الرحيم

لا ينبغي أن تخاف أحداً ولكن ينبغي أن تخاف الله وحده:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثامن عشر من سورة الزُمَر ومع الآية الثانية والستين:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

ما من آيةٍ في القرآن الكريم تبث الراحة النفسية كهذه الآية، أي شيءٍ خلقه الله عزَّ وجل بيده، لا يستطيع مخلوقٌ أن يتحرك إلا بأمر الله وبعلم الله، يستنبط من هذه الآية أنه لا ينبغي أن تخاف أحداً؛ ولكن ينبغي أن تخاف الله وحده، والله سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى إذاً ينبغي أن تخاف من نفسك، لذلك هذا المعنى، لا يخافن العبد إلا ذنبه، خف أن تأكل حقوق الآخرين، خف أن تُذْنِب، لأنك إن أذنبت فكل شيءٍ خلقه الله عز وجل بيده، يُطْلِق ويقبض، ما من مثلٍ أقرب إلى توضيح هذا المعنى من أن وحوشاً كاسرةً مخيفة كلُّها مربوطة بأزمَّةٍ محكمةٍ بيد جهةٍ قويةٍ، عزيزةٍ، عادلةٍ، بصيرةٍ، سميعةٍ، فعلاقتك أنت ليست مع الوحوش، لأنها مملوكة ومربوطة، ولكن علاقتك مع الذي يملكها فإذا أطلق أحدها وصل إليك، وإذا منعه حجزه عنك.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

الشيء المخلوق بيد الله لا يتحرك إلا بأمره:

الأشياء المخيفة في الحياة كثيرة جداً، هناك أشخاص مخيفون جداً، هناك حيوانات مخيفة، هناك أعراض جوية مخيفة، هناك صواعق، هناك زلازل، هناك براكين، هناك سيول جارفة، هناك بأس الإنسان:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

[سورة الأنعام: 65]

الصواعق والقذائف:

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

[سورة الأنعام: 65]

الزلازل والألغام:

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

[سورة الأنعام: 65]

من مسلمات الإيمان أن كل شيءٍ تراه عينك بيد الله عزَّ وجل والله جلَّ جلاله أسماؤه حسنى، كل الكمالات عند الله عزَّ وجل، عدلٌ، ولطفٌ، ورحمةٌ، وقدرةٌ، وعلمٌ، لذلك:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

الشيء المخلوق بيد الله لا يتحرك إلا بأمره، حتى الأشياء الجامدة.

الدين كلّه توحيدٌ وعبادة:

قال تعالى:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

[سورة الأنبياء: 69]

حتى النار لم تعد ناراً، لذلك هذه الآية أو هذه الآيات التي نحن بصددها تتمحور حول كلمتين، حول التوحيد وحول العبادة، الدين كلُّه توحيدٌ وعبادة، الدين كله أن ترى أنه لا إله إلا الله، والدين كله أن تعبد الله وحده، وإذا شئت الدليل فالقرآن كله يدل عل هذين المعنيين:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي)

[سورة الأنبياء: 25]

التوحيد والعبادة، نهاية العلم التوحيد، نهاية العمل العبادة، إذا وحَّدت واستقمت فقد حققت المُراد من وجودك، إذا عرفت أنه لا إله إلا الله لن تعصيه، الذي يدعو إلى معصية الله أن ترى مع الله شركاء، أن تخاف من غير الله، أن ترجو غير الله، أن تحب غير الله، لا تستطيع أن تتقدم في مجالات الإيمان إلا بخطين؛ بخط التوحيد وخط العبادة، بعد هذه الآية هل هناك في الأرض قوةٌ تخيف الإنسان؟

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد عن أبي الدرداء]

هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

التوحيد والشرك:

كل الراحة النفسية في التوحيد، كل الضغط النفسي من الشرك، كل الطمأنينة من التوحيد، كل الخوف من الشِرك، كل التفاؤل في التوحيد، كل التشاؤم من الشرك، كل الرجاء في التوحيد، كل اليأس في الشرك لذلك:

(يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[سورة لقمان: 13]

الشرك أن تتجه بكل طاقاتك إلى جهةٍ لا تملك شيئاً؛ لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا حياةً ولا موتاً ولا نشوراً هذا هو الشرك، الشرك أن تعقد الآمال على جهةٍ مفتقرةٍ مثلك، أن تطلب العَوْن ممن يطلب العون، أن تطلب الغنى ممن هو فقير، أن تطلب القوة من الضعيف، أن تطلب التوفيق ممن يحتاج إلى التوفيق هذا هو الشرك، الشرك أن تتجه إلى ما سوى الله، أن تتجه بقلبك، أو أن تعقد عليه آمالك، أو أن تتكئ عليه، أو أن تعتمد عليه، هذا هو الشرك.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

صغير كبير، جليل حقير، مخيف غير مخيف، كبير صغير.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

انتهى الأمر، والله عزَّ وجل كامل، إذاً مصدر الخوف فقط من أن تذنب، مصدر الخوف الوحيد أن تقع في ذنب، أن تأكل حق مخلوق، أن تتجاوز حدود الله عزَّ وجل، دقق في هذا الحديث الجامع المانع الموجَز البليغ: لا يخافن العبد إلا ذنبه، وإذا وقعنا في مشكلة، ولا يرجون إلا ربه، لا تخف إلا من ذنبك ولا ترجو إلا ربك، هذا هو الدين، هذا هو التوحيد، الموحِّد إنسان متميِّز، إنسان عزيز لا ينافق، لا يمدح مديحاً كاذباً، لا يتملق، لا يخنع، لا يذل، لأن الله عزَّ وجل كرمه بالتوحيد، أمره بيد الله، رزقه بيد الله، حياته بيد الله، موته بيد الله، ما من إنسانٍ يتمتَّع بالعزَّة كالمؤمن لأنه يرى أن أمره بيد الله، لا بيد زيدٍ أو عُبيد، ولكن الشرك يذل، المشرك ذليل، أحياناً تجد المشرك أذل من شاته أمام من هو أقوى منه، فهناك حالات من الشرك الإنسان يتألَّم أشد الألم لهذه الحالة المتردية عند الإنسان.

كل شيءٍ خلقه الله القوة الفاعلة فيه بإذن الله لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله:

قال تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

هو الخالق، ومن لوازم رحمته وعدالته أنه خَلَق ومَلَك، أحياناً يصنع سلاحاً خطيراً ويباع هذا السلاح، فإذا هو بأيدٍ غير أمينة، وبأيدٍ غير حكيمة، وبأيدٍ غير رحيمة، هذا السلاح الفتَّاك يؤذي أذىً كبيراً، لأن اليد التي تملكه ليست في مستوى العدالة والرحمة، فالجهة الصانعة صنعت ولكنها ليست مالكة لهذا السلاح بعد أن صنعته، لكن الله عزَّ وجل:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

هذه الآية مريحة، فعلى مستوى عقرب لا تستطيع العقرب أن تلدغ إلا من يأذن الله لها، على مستوى أفعى، على مستوى جرثوم، على مستوى فيروس، على مستوى حشرة، على مستوى حشرة تؤذي المزروعات بيد الله، وهو على كل شيءٍ وكيل، الأصح من ذلك أن كل شيءٍ خلقه الله القوة الفاعلة فيه بإذن الله، لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله، لخَّص علماء التوحيد هذه الحقيقة بقولهم: عندها لا بها. النار لا تحرق بذاتها، لا تحرق بالقوة التي أودعها الله فيها، هذه فكرةٌ مغلوطة، لا تحرق إلا إذا أراد الله لها أن تحرق، إذاً عند مشيئة الله بها.

وإذا أيقنت أن كل شيءٍ بيد الله عندئذٍ تشعر بالراحة، إنسان بإمكانه أن يوقع بك الأذى، فيعمي الله بصيرته فلا يرى المخالفة، يمكن أن يراها ويخلق في قلبه شفقةً عليك، هذا الذي أمامك والذي يخشاه جميع الناس هو بيد الله، فإن شاء الله أكرمك وهو الشرير، وإن شاء الله تغافل عنك وهو الذكي، وإن شاء الله عرف الحقيقة ولكن ألقى في قلبه العطف عليك، فأنت إذا تعاملت مع بني البشر تأكَّد أنهم بيد الله عزَّ وجل حركاتهم وسكناتهم حتى خواطرهم، حتى مشاعرهم، حتى ميولهم، حتى رغباتهم بيد الله عزَّ وجل، فالتوحيد مريح جداً، التوحيد علاقتك مع جهة واحدة، هذا هو التوحيد.

فليتك تحلو والحياة مريــرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خــراب

* * *

الآية التالية تجعل الإنسان موحَّدَ الاتجاه لا مبعثر الاتجاه:

التوحيد أن ترضي الله وحده، التوحيد أن تعمل لوجهٍ واحد يكفك الوجوه كلَّها، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، وألا تعلّق على غير الله أملاً، حتى الإنسان أقرب الناس إليه، إذا عقد عليهم الآمال خيبوا ظنه، يقول لك: هذه زوجة مخلصة، اعتمد عليها قد يفاجأ أنها تنكَّرت له، يقول لك: هذا الابن ادخرته لكبري يذهب إلى بلدٍ أجنبي ولا يعود إطلاقاً وانتهى لأنه اعتمد عليه، إيَّاك أن تعتمد على غير الله، إياك أن تثق بغير الله، إيَّاك أن تسعى لغير الله.

فلا يليق بك كإنسان مكرم، أن تعمل لصالح إنسان آخر، هذا لا يليق بك، هذا مما يحط من قدرك، أنت المخلوق الأول والمكرم تكون لحساب إنسان؟! إنسان ضعيف، إنسان جاهل، إنسان لئيم أحياناً،

(هو أهل التقوى وأهل المغفرة)

هذه الآية مريحة جداً، هذه الآية يشعر بها المؤمن بانتشاء، هذه الآية تجعله شجاعاً، هذه الآية تجعله عزيزاً، هذه الآية تجعله مطمئناً، هذه الآية تجعله موحَّدَ الاتجاه لا مبعثر الاتجاه.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

الأمطار بيده، إما أن يجعلها رحمة، وإما أن يجعها نقمة، قد تأتي الأمطار في وقتٍ غير مناسب تهلك المحاصيل كلها، الرياح بيده إما أن يجعلها نسيماً عليلاً، أو رياحاً تسوق السحب، وإما أن يجعلها رياحاً مدمرةً تدمر كل شيء، الولد بيده إما أن يجعله بركةً لوالديه وقرة عين لهما، وإما أن يجعله نِقمةً في حياتهما يشقيا به، الزوجة كذلك إما أن تكون جنةً وإما أن تكون جحيماً، أعضاؤك، أجهزتك، حواسك كل شيءٍ بيد الله، المواد، خصائص المواد.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

شعور الضعف والخنوع هذه كلها مشاعر الشرك:

تبدأ بالجماد، الخصائص التي أودعها الله في الجماد لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله عزَّ وجل، الحيوان، نحن نفهم أن البقر حيوان ذلول، تجد أطفالاً صغاراً يسوقون البقر من مكان إلى مكان، يحلبون البقر، والبقرة حيوان وديع مستسلم أليف مذلل، لحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل هناك مرضٌ يصيب البقر يجعله متوحشاً، فهذه البقرة الوديعة التي هي رمز العطاء تنقلب لعلةٍ أصابتها إلى وحشٍ كاسر، حدثني أخ أن بقرةً في بعض قُرى دمشق أصبحت متوحِّشة وقتلت رجلين وجرحت ثالثاً، فاضطر صاحبها أن يطلق النار عليها ليقتلها، وليريح الناس منها. فالحيوان مذلل من ذلله؟ الله عزَّ وجل، هذه الغنمة مذللة، الجمل مذلل، البقرة مذللة، أما العقرب غير مذلل، العقرب إن رأيته على جسمك تكاد تخرج من جلدك من شدة الخوف، وجملٌ يزن ستة أطنان لا تخاف منه بل تقوده، يقوده طفلٌ صغير، الأمر كله بيد الله.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

هذه العقيدة وحدها تبث في نفس المؤمن راحةً ما بعدها راحة، مشاعر القهر التي يعانيها المشركون لا تُحتمل، مصيرك بيد إنسان لا يحبك ينوي أن يقضي عليك، هذا شعور القهر، شعور الضعف والخنوع هذه كلها مشاعر الشرك، لذلك أنت عليك أن توحِّد، فإذا وحَّدت عرفت الله عزَّ وجل.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

يحركه بأمره، لذلك إذا رأيت أهل الكفر والقوة يتحرَّكون فاعلم أن حركتهم وخططهم ومؤامراتهم استوعبتها خطة الله عزَّ وجل، فلا يفعلون إلا شيئاً أراده الله، إنهم لا يسبقون الله أبداً، ما فعلوا شيئاً ما أراده الله كل ما أراده الله وقع، وكل ما وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المُطلق، مثلاً يقول لك: الصهيونية العالمية تضع خططاً رهيبة وجهنمية ومدمرة للإنسانية كلها. لكن خطة الله استوعبتها، فلا يحقق من خططها إلا ما يسمح الله به، لذلك إذا عصاني من يعرفني سلَّطت عليه من لا يعرفني.

الأمر كله بيد الله فعلاقتنا مع الله وحده:

يجب أن تؤمن أن جهةً في الكون لا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا إذا أراد الله عزَّ وجل.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

أحياناً يقول لك: هذه القنبلة لم تنفجر. شيء غريب، نُزع فتيلها وارتطمت بالأرض ارتطاماً شديداً يكفي أن يفجرها، لكنها لم تنفجر لأنها بيد الله عزَّ وجل، فلان أصابته رصاصةٌ مرت جانب رأسه ولم تصبه، لأن هذه الرصاصة بيد الله وهو على كل شيءٍ وكيل، الحجر بيد الله، الرصاصة بيد الله، القذيفة بيد الله، الشظايا بيد الله، الأمراض بيد الله، الجراثيم بيد الله وهو على كل شيءٍ وكيل، ارتح، ونم، قال:

وإذا العناية لاحظتك جفونها نَم فالمخاوف كلُّهن أمان

* * *

هل هناك من راحةٍ أبلغ من هذه الراحة أن ترى أن الأمر كله بيد الله؟ قال الله عز وجل: (ليس لك من الأمر شيء) قالها للنبي الكريم لسيد الخلق ليس لك من الأمر شيء، فإذا كان النبي سيد الخلق حبيب الحق ليس له من الأمر شيء، الأمر بيد من إذاً ؟ بيد الله، حتى النبي عليه الصلاة والسلام لو كنت طليق اللسان، واضح الحجة والبيان، ودافعت عن نفسك أمامه في قضيةٍ هو حكمٌ بينك وبين خصمك، وانتزعت من فمه الشريف حكماً لصالحك، ولم تكن محقاً، لا تنجو من عذاب الله، علاقتك مع من إذاً ؟ مع الله وحده.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ* لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

كلمة السماوات والأرض تفيد الكون، الكون كله مقاليده قال علماء التفسير: مفاتيحه.

القرآن والكون والأحداث كلها تدل على وحدانية الله:

أحياناً تجد باباً محكماً، متيناً، قوياً، مُدَعَّماً، يأتي إنسان معه مفتاح صغير وزنه عشرون غراماً فيفتح الباب، فالبطولة لا بالمطرقة بل بالمفتاح، فالله عزَّ وجل بيده مفاتيح كل شيء، الإنسان مفتاحه بيد الله، يرضى إذا شاء الله، يغضب إذا شاء الله، يحقد عليك إذا شاء الله، يعفو عنك إذا شاء الله، مفتاحه بيد الله، حتى الأجسام المادية، حتى الكواكب، كل شيء:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أمر هذا الكون بيد الله بدءاً من الذرة وانتهاءً بالمجرة، الذرة، الفيروس، النبي قال: لا عدوى. إذا الإنسان مرض بسبب العدوى، لا ينبغي أن يقول فلان عداني، لا، لأن هذا الفيروس أو هذا الجرثوم لا يستطيع أن يفعل فعله إلا إذا شاء الله، إذاً شاءت مشيئة الله أن يمرض الإنسان، إذاً لا عدوى، أمَّا الاحتياط واجب، إذا كنتم في بلدٍ فيه طاعون فلا تخرجوا منه، ولا تدخلوا إليه، شيء طبيعي نأخذ بالأسباب، أما إذا مرضنا لا ينبغي أن نقول: بالعدوى، النبي قال:

((لا عَدْوَى))

[البخاري عن أبي هريرة]

أن هذا الجرثوم بيد الله عزَّ وجل، قال:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

أيَّةُ آياتٍ هذه؟ الآيات الدالة على وحدانيته، آيات التوحيد، الكون كلُّه يدلُّ على وحدانية الله، والقرآن كله يدلُّ على وحدانية الله، والأحداث كلها تدل على وحدانية الله.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

الآياتُ القرآنية والكونية والتكوينية كلُّها تدل على وحدانية الله عزَّ وجل:

المسلمون يوم بدر كانوا مفتقرين إلى الله عزَّ وجل.

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

[سورة آل عمران: 123]

ضعاف، قلةٌ قليلة، قلةٌ في العدد، وقلةٌ في العُدَد، وضعاف وفقراء، لا رواحل ولا أسلحة، وقريش بأبطالها، وخيلها، ورجلها، وعدَّتها، وعتادها، وكل ما تملك جاءت لتحارب المسلمين فأذلَّها الله، واختلف الأمر يوم وقعة حنين.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة: 25]

الآيات التكوينية تدلُّ على وحدانيته، والآيات الكونية تدل على وحدانيته، والآيات القرآنية تدل على وحدانيته، هذه آياتٌ قرآنية وكونيةٌ وتكوينية كلُّها تدل على وحدانية الله عزَّ وجل.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

لماذا ؟ معنى كفروا هنا أي لم يعرفوا، إما أنه لم يعرف الوحدانية، لم يعرف التوحيد، أو أنه ذُكِّرَ بالتوحيد فأبى إلا أن يشرك، على كلٍ لم يوحد، لم ير يد الله تعمل في الخفاء، مرةً قرأت آية في مسجد والله اقشعر جلدي، آية قرآنية مكتوب:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

هؤلاء الذين تخافهم أيها الإنسان يد الله فوق أيديهم، فانتهى الأمر، هؤلاء الذين يرعبونك، هؤلاء الذين يخيفونك، هؤلاء الذين تحسب لهم حساباً، هؤلاء الذين ترتعد فرائصك من ذكرهم، أقوياء طبعاً ؛ لكن يد الله فوق أيديهم، انتهى الأمر، انتهت قوَّتهم، وانتهى بطشهم، وانتهى بأسهم، وانتهى معهم كل شيء.

الإنسان إذا اعتمد على ما سوى الله اللهُ يخيّب ظنه ويؤدبه عن طريقه:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

الكونية، بآيات الله التكوينية، بآيات الله القرآنية، الآيات الثلاث الكونية والتكوينية والقرآنية الدالَّة على وحدانية الله، الدالة على أن الأمر كله بيد الله، الدالة على أنه لا إله إلا الله:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

لماذا هو خاسر؟ لأنه اتجه بكل طاقاته إلى ما سوى الله، ما سوى الله فقير، اتجه إلى زيد ليغنيه وهو فقير، اتجه إلى عُبيد ليدعمه وهو ضعيف، اتجه إلى فلان ليشفيه وهو مريض، المشكلة الشرك هو أن تتجه إلى جهةٍ موهومة لا تملك شيئاً، والله بيده كل شيء، والله عزَّ وجل يؤدِّب دائماً الخلق، فكلما اتجهت إلى من سوى الله عزَّ وجل معتقداً أنه يأمر وينهى، ويعطي ويمنع، وينفع ويضر، تأديبك لا بُدَّ من أن يكون عن طريق هذا الذي اعتقدت به القدرة، المشرك يفاجأ، فلان صاحبي، ويتمنَّى خدمتي، وينفذ لي كل طلباتي، تطرق بابه يتجاهلك ولا يقول لك: تفضل استرح، أين كل آمالك؟ الله ألقى في قلبه أن يشدد عليك لأنك اعتمدت عليه.

هذا ملخص الملخص، فهذا التوحيد لما تعتمد على ما سوى الله، الله يخيِّب ظنك ويؤدبك عن طريقه، أما إذا قلت: يا رب ليس لي إلا أنت انتهى، جاء الدعم.

الإنسان بين حالين لا ثالث لهما بين حال التخلّي وحال التولّي:

أنت في حياتك بين حالين لا ثالث لهما، بين حال التخلّي وحال التولّي، دائماً إما أن يتخلّى الله عنك وإما أن يتولاّك، إذ اعتمدت عليه تولاك، وإذا اعتمدت على نفسك أو على من سواك تخلى عنك، فأنت بين التخلية والتولية، مع التولية التوحيد ومع التخلية الشرك، إذا رأيت الله قد تخلى عنك، ووكلك إلى نفسك، وخيب ظنك، وجعلك في حالة إحباط ويأس، معناها أنت معتمدٌ على من سواه، أما إذا رأيت الله عزَّ وجل يوفق، ويدعم، ويحقق، فاعلم أنك معتمدٌ عليه.

الإنسان ضعيف، نقطة دم تجعله مجنوناً أو فاقداً لذاكرته، تنمو خلاياه نمواً عشوائياً يصاب بمرض ليس له دواء حتى الآن، لو بذل ألوف الملايين لا أمل في شفائه، أمراض تتحدى العلم الحديث، كل التفوق العلمي لا يجدي، فمثلاً الإيدز هذا مرض تحدى العصر كله، عقابٌ عاجل للفحشاء والمنكر. لذلك التوحيد مريح، المؤمن يتقلَّب على فراش التوحيد، على فراش وثير، أما الكافر أو المشرك يتقلَّب على فراش القلق والخوف، خائف من فُلان، موزَّع إن أرضى زيداً غضب عُبيد، وإن أطاع فلاناً غضب غيره، موزَّع، مبعثر، مشتت، دائماً في توزع وفي تبعثر، بينما المؤمن موحِّد، ثم يقول الله عزَّ وجل:

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

هل من الممكن أن تعبد غير الله؟ هل في الكون جهةٌ تستحق العبادة إلا الله؟ من الذي ينبغي أن يُعْبَد؟ الذي يلبيك إذا دعوته، والذي يستجيب لك إذا سمعك:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

[سورة فاطر: 14]

إذاً هذا الذي لا يسمع لا ينبغي أن تعبده، هذا الذي لا يستجيب لا ينبغي أن تعبده، هذا الذي لا يقدر على أن ينقذك مما أنت فيه لا ينبغي أن تعبده.

التوحيد هو أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد على الله:

ذكر لي أخ طبيب كريم أن حالات كثيرة جداً، يكون الشفاء ذاتياً بلا سبب، يسمّيه الأطباء الشفاء الذاتي، أما هو اسمه الحقيقي شفاء الله عزَّ وجل، وإذا مرضت فهو يشفيني، تجد هذا المرض تراجع بلا سبب، مع أن من طبيعته الازدياد، والانتشار، هذا هو التوحيد.

بالمناسبة لو أن الأسباب فعلت فعلها دائماً لنسي الإنسان ربه، لكن شاءت حكمة الله أن يعطّل الأسباب من حينٍ إلى آخر أو أن يلغيها، تحدث نتيجة بلا سبب، أو يكون السبب ولا تحدث النتيجة، لماذا؟ ليلفت الله نظرنا إلى أن الأسباب لا تخلق النتائج ولكنها ترافق النتائج. وأوضح سبب سيدنا عيسى بلا أب، والسيدة حواء بلا أم، وسيدنا آدم بلا أب ولا أم، والعاقر شاب، الأسباب مرةً تعطل، ومرةً تلغى، السبب موجود ولا توجد نتيجة، أو نتيجة بلا سبب، أحياناً في شرك الأسباب، تأخذ الحيطة، تعد العُدة، وتطمئن، ولكن يؤتى الحذر من مأمنه، حتى الإنسان لا يشرك بالله عزَّ وجل ويعتمد على الأسباب وحدها من دون الله.

لذلك فالتوحيد هو أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد على الله، فلو أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فقد أشركت، ولو لم تأخذ بها لعصيت، ما أشبه التوكُّل أو التوحيد بطريق على يمينه وادٍ سحيق، وعلى يساره وادٍ سحيق، إن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها سقطت في وادي الشرك، إن لم تأخذ بها سقطت في وادي المعصية، يجب أن تأخذ بها وأن تعتمد على الله وحده، هذا هو التوحيد.

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

لا يمكن للإنسان أن يعبد غير الله لأنه لا يوجد في الكون جهةٌ تستحق العبادة إلا الله عزَّ وجل.

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

من أسلوب القرآن الكريم أن يكون الخطاب للنبي والمقصود أمة النبي:

الحقيقة لا يتصور أن يشرك النبي عليه الصلاة والسلام، الشرك بعيدٌ عن الأنبياء بُعْدَ الأرض عن السماء، ولكن هذا من أسلوب القرآن الكريم، فقد خوطب النبي والمعني أمة النبي عليه الصلاة والسلام، كقول الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)

[سورة الطلاق: 1]

فالخطاب للنبي والمقصود أمة النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ)

هذه وَحْدَةَ التشريع:

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

معنى يحبطن عملك له معنيان؛ عمل طيب ولكن لغير الله، يأتي الإنسان يوم القيامة فلا يجد لهذا العمل أية قيمة.

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا)

[سورة الفرقان: 23]

عمل أعمالاً جليلة لكنه ابتغى بها السُمْعَة، أشرك نفسه، أو ابتغى بها إرضاء من هم فوقه، هذا هو الشرك.

التوحيد يرقى بالعمل والشرك يحبط العمل:

يحكم القضاء حكماً عادلاً وهو مشرك، هذا الحكم سوف يراقب من قبل رؤسائه، وسوف يذهب إلى محكمة النقض، وسوف يدقق القاضي الأول في هذا الحكم، وسوف يرى ما إذا كان هذا الحكم نزيهاً أو غير نزيه، إذاً عليه أن يحكم بالعدل، وعليه أن يدقق في هذه القضية، وعليه أن يضع لقراره مسوغاتٍ قانونية حتى يضمن سلامة سمعته عند رؤسائه، هذا عمل طيب حكم بالعدل لكنه أشرك، أراد بالعدل إرضاء من هم فوقه.

طبيب يسارع إلى إسعاف مريض وهو يرى أن هذه الرحمة التي أظهرها ترفع من شأنه في المستشفى، وتجعله الطبيب الأول، ربما عُيِّنَ مديراً لهذه المستشفى، العمل طيب لكن فيه شرك. لذلك يوم القيامة يأتي أصناف من البشر يا رب تعلمنا العلم في سبيلك يقول الله لهم: كذبتم، تعلمتم العلم ليقال عنكم وقد قيل، خذوهم إلى النار، يا رب قرأنا القرآن في سبيلك. يقول: كذبتم، قرأتم القرآن ليقال كذا وكذا وقد قيل خذوهم إلى النار. معنى إحباط العملْ، العمل طيب، لكن أراد به صاحبه غير الله، إما أراد السمعة لنفسه، أو أراد إرضاء من هم فوقه فقد أشرك، وإذا أشرك كأن الله عزَّ وجل يقول: هل لك عندي شيء؟ أنت فعلت هذا الشيء من أجل الناس.

أحياناً الإنسان يطعم الطعام، وهدفه أن يعرض على الناس ما عنده في بيته وترتيباته وأناقة الطعام، لذلك موضوع الشرك دقيق جداً، يقول لك: أنا أمين أدفع ديناً جيداً، لا لست أميناً، فعليك سند، ودفعت السند لأن صاحب السند قوي وقد يقيم عليك الحُجَّة، قد يُشَهِّرَ بك بين الناس، قد يقيم دعوى عليك، قد يضعه في التنفيذ، دفع هذا السند كسلوكٍ آمنٍ مدني المصلحة أن تدفع هذا المبلغ، لكن الأمانة التي هي عبادة ألا تكون مداناً في الأرض إطلاقاً.

مثلاً إذا أعطاك أحدهم مئة ألف أمانة. ومات هذا الرجل، ولا يوجد إنسان على وجه الأرض يعلم بوجود المبلغ عندك، فإذا ذهبت إلى الورثة وقدمت لهم هذا المبلغ فأنت أمينٌ ورب الكعبة، هذه الأمانة، لست مداناً أمام أحد، لكنك خفت الله عزَّ وجل، وأديت هذا المبلغ إلى ورثته، هذه الأمانة.

فالشرك يحبط العمل، العمل طيب، إذا أردت بأداء الحقوق إرضاء الله عزَّ وجل، أردت بإسعاف هذا المريض إرضاء الله عزَّ وجل، أردت بهذا الحكم العادل إرضاء الله عزَّ وجل، هنيئاً لك أنت موحد، التوحيد يرقى بالعمل والشرك يحبط العمل، هذه واحدة.

المعنى الثاني: أنك إذا أشركت، خفت من فلان، أعطاك أمراً غير منطقي وغير لائق، وغير مناسب، وغير إنساني، وغير عادل، ونفذته، العمل سيئ، تلبست بعملٍ سيئ لأنك نفذت أمر إنسانٍ ظننت بإمكانه أن يؤذيك، أو أن يرفعك، فأحياناً العمل يسفل لأن الأمر سخيف، الأمر الذي جاءك سخيف وأنت خفت من الآمر فنفَّذت هذا الأمر فحبط العمل.

مقام العبودية:

أما المؤمن لا يفعل شيئاً لا يرضي الله عزَّ وجل وليكن ما يكن، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ كأن يكلفك بشراء مادة محرَّمة، مشروب مثلاً، اعتذر وقل: لا أحمله، مهما كلف الأمر، فإذا تلقيت أمراً مما سوى الله، ورأيت أن هذا الآمر مخيف، وبيده الخير والشر، ونفَّذت أمره حبط عملك، العمل سخيف وسيئ ومؤذٍ، أو أن العمل طيب ولكن النية لغير الله عزَّ وجل.

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

أمامنا الآن آية عظيمة هي بيت القَصيد إن صَحَّ التعبير.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

أي أنك أيها الإنسان أنت كعبد هذه مهمتك.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

لا تنصِّب نفسك وصياً على الناس، لا تنصِّب نفسك مسؤولاً عما يجري في الأرض، أنت عبد عليك أن تتقصى أمر الله عزَّ وجل وأن تطيع الله، فإذا أطعته جاءتك الخيرات من كل جانب، عليك إذاً أن تشكر، قال أحدهم لعبد: سيدك يريد أن يبيعك. قال له: يعرف شغله. قال له: أنا سأشتريك. قال له: تعرف شغلك. قال له: اهرب. قال له، أعرف شغلي. أحياناً الشغلة ليست شغلتك، الله عزَّ وجل يدبِّر الكون، فما شغلتك أنت؟ أن تعبده، فإذا عبدته جاءتك الخيرات، إذاً اشكره، عليك أن تطيع وتشكر، هذا اختصاصك، هذا مقامك مقام العبودية.

همُّ المؤمن بعد أن يعرف الله أن يبحث عن أمر الله:

أحياناً الشغلة ليست شغلتك، الله عزَّ وجل يدبِّر الكون، فما شغلتك أنت؟ أن تعبده، فإذا عبدته جاءتك الخيرات، إذاً اشكره، عليك أن تطيع وتشكر، هذا اختصاصك، هذا مقامك مقام العبودية.

ما أجملها الآية، (بل) حرف إضراب..

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

همُّ المؤمن بعد أن يعرف الله، همه الوحيد أن يبحث عن أمر الله؛ في بيعه، في شرائه، في زواجه، في تربية أولاده، في مسكنه، في علاقاته الشخصية، في علاقاته الاجتماعية، في أفراحه، في نزهاته، في كل أحواله، همُّه الأول أن يرضي الله.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

هناك آية ثانية تشبهها:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف : 144]

تنتهي هنا مهمتك، أن تطيع الله وأن تشكره، لكن أحياناً تجد من ينصِّب نفسه مسؤولاً عما يجري في العالم، فهذا ليس معقولاً؟ فإله يتصرف، أنت تعاطف مع المسلم، أنت اخدم لكن لا تنقم، تشك برحمة الله، هذا ليس شغلك، لن تستطيع أن تثبت عدالة الله إلا إذا كان لك علمٌ كعلم الله، وأنت لا تعرف، صُلح الحديبية في ظاهره مهين ولكن في باطنه عاد بالخير العميم على المسلمين، في أحداث يصعب تفسيرها، في أحداث تفسيرها الظاهري مزعج جداً لا يحتمل، لا يقبل، الله عزَّ وجل متصرف، هو الفعَّال، هو الخالق، هو المربي، هو إله البشر جميعاً، هو أعطى القوي قوة، هو ضَعَّف الضعيف، ضَعَّف الضعيف لحكمة.

إذا استسلم الإنسان لله يكافئه الله بأن يكشف له الحِكَمَ البليغة من أفعاله:

قال تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص: 5-6]

هذا المسلم قصر فيحتاج إلى صعقة، صعقة صحوة، القلب عندما يتوقف، الأطباء يعطونه صعقة كهربائية، فإما أن يشتغل وإما الموت، هذا المسلم الميِّت ماتت نفسه يحتاج إلى صعقة، ففي صعقات

الآن قاسية جداً، هذا عمل الله عزَّ وجل، أنا علي أن أستقيم، علي أن أخدم، علي أن أتعاطف، ولكن ليس علي أن أنقم على الله عزَّ وجل، فأنت لست إله أنت عبد ضعيف علمك محدود..

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا)

[سورة الإسراء: 85]

أنت لا تعرف فهنا استسلم، أنت ابذل جهدك واستسلم، طبعاً.

وسلم إلينا الأمر في كل ما يفعل فما القرب والإبعاد إلا بأمرنا

* * *

ولكن والله الذي لا إله هو إذا استسلم الإنسان لله، الله عزَّ وجل مكافأةً على استسلامه وعلى انصياعه وعلى عبوديته يكشف له الحِكَمَ البليغة من أفعاله، يرى أن الذي وقع لا بُدَّ من أن يقع ولو لم يقع لكان الله ملوماً، يرى أن كل شيءٍ وقع أراده الله بحكمةٍ مطلقةٍ بليغة.

في الطاعة جانب معرفي وجانب سلوكي وجانب جمالي:

قال تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

تعطيك حجمك الحقيقي، أنت حجمك أيها الإنسان أن تعبد الله وأن تشكره وأن لا تنصِّب نفسك وصياً على العالم، لماذا يجري ما يجري؟ أين الله عزَّ وجل؟ هذا كلام الضعف والجهل، الله موجود، كل شيء ينطق بوجوده، وكل شيء فعله الكفار بأمر الله وبإذن الله؛ لكن هناك استحقاق.

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأنعام: 129]

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

هذا شعارك، هذه مهمتك، هذا حجمك، تحرك بهذه الآية فقط، هذه الآية تحجمك، أنت كعبد مهمتك أن تعبد الله وأن تشكره، ليس لك مهمة ثانية أبداً، ارتح وريِّح، العبادة الطاعة مع الحُب، حبٌ بلا طاعة لا يكون، وطاعةٌ بلا حب ليست عبادة، وحبٌ بلا طاعة ليست عبادةٌ، العبادة طاعةٌ مع حُب، الطاعة مع الحب تحتاجان إلى معرفة وتنتهيان بالسعادة، ففي الطاعة جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي، الجمالي هو الهدف..

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

والجانب المَعرفي هو الإيمان، والجانب السلوكي هو التطبيق.

الشرك أساسه ضعف العلم:

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

إذا كان في العمل خلل، معنى ذلك هناك نقص في المعرفة، فكلما وجدت خطأً، أو ضعفاً، أو انحرافاً، أو تقصيراً، يجب أن تعود إلى العلم، النقص في العلم ينتج عنه انحرافٌ في السلوك، فعلاج الضعف في السلوك أو علاج التقصير، أو علاج الخلل، أو علاج الخطأ أتي من تصحيح العقيدة، لذلك الشرك أساسه ضعف العلم، قال:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

تصور عَرِّيف بسبع أشرطة هدد جندياً، بينما طمأنه لواء، ولكنه خاف من تهديد العريف وصار يبكي، هو لا يعرف ما معنى لواء؟ لا يعرف ما هي العسكرية؟ ولا مدى سلطة اللواء قائد الفرقة، فكل إنسان يشرك معنى ذلك أنه لا يفهم شيئاً إطلاقاً، فهذا جاهل، فالله ماذا قال:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

أشركوا لأنهم ما عرفوا الله عزَّ وجل، لو عرفوا قدرته، وعرفوا وحدانيته، وعرفوا أن كل ذرةٍ في الكون بيده، وكل خاصةٍ بيده، وكل قوةٍ بيده، لوحَّدوه ولاتجهوا إليه، ولكن لضعف علمهم أشركوا.

ما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا أساسها المعصية والمعصية أساسها الجهل:

قال تعالى:

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

العلماء وحدهم يخشون الله، ولا يخشى الله أحدٌ سواهم.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

مشكلة المشاكل الشرك، وسبب الشرك نقص العلم، ما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا أساسها المعصية، والمعصية أساسها الجهل. الخطوة الأولى نحو السعادة في الدنيا والآخرة هي العلم، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، إذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معا فعليك بالعلم.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

لو أُمرت وأنت الجندي أمرين متناقضين، أمر من عرِّيف وأمر من قائد الفرقة، فَكَّرت، فنفذت أمر العريف، وعصيت أمر قائد الفرقة، أنت جاهل، وأحمق، ومعتوه، إذا أغضبت قائد الفرقة، فأنت لا تعرف مكانته وسطوته، إذاً لو وقعت بالشرك فهو نقصٌ في العلم، فعليك بالعلم، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ هَالَهُ اللَّيْلُ أنْ يُكَابِدَهُ، وَبَخِلَ بِالْمَالِ أنْ يُنْفِقَهُ، ..،فَلْيُكْثِرْ أنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ))

[الطبراني عَنْ أبِي أُمَامَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ]

إذا قلت، إذا بخلت نفسه بالمال، أو ضَنَّت بالسهر في سبيل الله معنى ذلك أنه لا يعرف الله، عليه إذاً أن يجَدِّد إيمانه بالله.

نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى:

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا)

كل ما فيها:

(قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

أي نزهوا الله عزَّ وجل، سبحانه عما يشركون، فهذه الآيات كلها حول شيئين، التوحيد والعبادة، والدين كله توحيد وعبادة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي)

[سورة الأنبياء: 25]

نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى، إذا أنت موحِّد ومستقيم جمعت الدين كله، وحزته من كل أطرافه، إذا وحدت وعبدت حققت المراد من وجودك، وكنت فائزاً وفالحاً وناجحاً ومتفوقاً وسعيداً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (19-20): تفسير الآيات 67-70، انحراف السلوك يقابل نقص المعرفة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-05-28

بسم الله الرحمن الرحيم

نقص المعرفة يقابله انحراف السلوك :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع عشر من سورة الزُمَر، ومع الآية السابعة والستين، وهي قوله تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

أي ما عظَّموه حقَّ تعظيمه، ما عرفوه حقَّ معرفته، كل أخطائهم، وكل شركهم، وكل انحرافهم، وكل معاصيهم بسبب نقص معرفتهم.

حقيقة تقول: نقص المعرفة يقابله انحراف السلوك، ما من سلوكٍ منحرفٍ، ما من إنسانٍ وقع في مخالفاتٍ، ما من إنسانٍ قَصَّرَ في أداء واجبٍ، ما من إنسانٍ وقع فيما حرَّم الله إلا بسبب نقص معرفته، فهناك علاقةٌ طرديَّة متوازية بين العلم وبين السلوك، فربنا عزَّ وجل بعد أن حدَّثنا عن هؤلاء الذين أشركوا، هؤلاء الذين عصوا، بيَّن أنهم ما عصوا، وما أشركوا، وما قصَّروا، وما أساؤوا إلا بسبب أنهم ما قدَّروا الله حق قدره..

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

فإذا كان هناك طبيب يحمل أعلى شهادة في العالَم - بورد - وطبيب مبتدئ جداً، وعلمه محدود جداً، أنت حينما تتوَّجه إلى الطبيب الأقل معرفةً، والأقلّ علماً، لا تعرف قدر الطبيب العالم، لما استغنيت عن العالِم واتجهت إلى الأقل علماً أنت ما قدَّرت علم الأول، لو قدَّرت علمه لاتجهت إليه، أنت أحياناً تتكلَّم كلاماً طيِّباً، ولكن السلوك يؤكِّد أنك لا تعرف الله، فحينما تعصي الله معنى ذلك أنك لا تعرفه، حينما تؤْثِر مرضاة إنسانٍ على مرضاة الله احكم على نفسك أنك لا تعرف الله، حينما تؤثر السلامة عن طريق معصيةٍ احكم على نفسك أنك لا تعرفه، لو عرفته حقَّ المعرفة، لو عظَّمته حقَّ التعظيم، لو قدَّرته حقَّ التقدير، لو عرفت قدره ما عصيته.

إذا عرضوا على الإنسان نماذج من البضاعة واختار أسوأها معنى ذلك أنه ما عرف قيمة أجودها، لو عرف قيمة أجودها لما اختار أسوأها، فأنت مع ما سوى الله عزَّ وجل تتجه إلى لا شيء، إلى جهةٍ لا

تملك شيئاً، لا نفعاً، ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً، لا تسمع، ولا تعقل، ولا تعطي، ولا تستجيب، ولا تنقذ، فإذا تركت خالق الكون، السميعَ البصير، الحيَّ القيُّوم، من بيده ملكوت كل شيء، واتجهت إلى ما سوى الله، أشركت، إذاً ما قدَّرت الله حقَّ قدره.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

إذ أشركوا به.

ما من إنسانٍ وقع فيما حرَّم الله إلا بسبب نقص معرفته :

هناك معنى ضمني، أنت حينما أشركت بالله، حينما توجَّهت إلى غير الله، حينما علَّقت الأمل على غير الله، حينما خِفْتَ غير الله، حينما أرضيت غير الله عزَّ وجل أنت ما عرفت الله، لو عرفته لما تركته، لو عرفته لما توجَّهت إلى سواه، لو عرفته لما صرفت نفسك عنه.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

إذ أشركوا به، إذ عبدوا غيره، هكذا التفسير:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

إذ قصَّروا في واجبهم تجاهَهُ، وما قدروا الله حقَّ قدره إذ خالفوا أمره، وما قدروا الله حق قدره إذ انتهكوا حرماته، وما قدروا الله حق قدره إذ قصَّروا في معرفته، وما قدروا الله حق قدره إذ لم يعطوا كل ما يملكون في سبيل معرفتهم بالله عزَّ وجل.

من ازدادت معرفته بالله استقام عمله :

إذاً هذا مقياس دقيق، كلَّما رأيت نفسك تقصِّر، تُهْمِل، تتجرَّأ، تتجاوز الحدود، احكم على نفسك أنك لا تعرف الله، هناك نقصٌ في العمل بقدر النقص في المعرفة، النقص في العمل أساسه النقص في المعرفة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح قال:

((من ضن بالمال أن ينفقه وبالليل أن يكابده فعليه بسبحان الله و بحمده))

[الديلمي عن عبد الله بن حبيب]

معنى ذلك تسبيحه قليل، والتسبيح هو التنزيه والتمجيد، قلَّت المعرفة فقلَّ معها العمل، قلَّت المعرفة فقلَّت معها التضحية، قلَّت المعرفة فقلَّ معها الصَبر، قلَّت المعرفة فقلَّ معها البذل، قلَّت المعرفة فقلَّت معها الطاعة، قلَّت المعرفة فقلَّت معها الخشية.

يجب أن تربطوا دائماً بين المعرفة وبين السلوك ، خطأ في المعرفة لابدَّ من أن يتبعه خطأ في السلوك، هناك خطأٌ في السلوك لابدَّ من أن يُعْزَى إلى نقصٍ في المعرفة، إن رأيت إنساناً منحرفاً احكم عليه أن معرفته بالله قليلة، إن رأيت إنساناً لا يعرف الله احكم عليه أنه لابدَّ من أن يخطئ، لأن ما في الداخل ينعكس على الخارج، وما في الخارج يؤكِّد ما في الداخل، وانتهى الأمر، هذا التلازم بين العقيدة والسلوك، أشركوا، وقصَّروا، وندموا، وعبدوا غير الله، وانكبوا على الدنيا، بعد كل هذه الأوصاف الدقيقة لانحرافاتهم، قال:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

إذ عبدوا غيره، لو عرفوا الله ما عبدوا غيره، أنت بحاجة إلى مال، وجهتان الأولى تملك المال، والثانية لا تملكه، توجَّهت إلى التي لا تملكه، إذاً أنت لا تعرف من يملك المال، لما توجَّهت إلى الذي لا يملكه وتضعضعت أمامه أنت لا تعرف الرجال، ولا تعرف الأحوال، فاتجاهك يؤكِّد معرفتك.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

أي ما عظَّموه حقَّ تعظيمه، ما عرفوه حقَّ معرفته، ما استقاموا على أمره كما ينبغي، ما قدَّموا الغالي والرخيص من أجله كما ينبغي، كل الخطأ في العمل، كل التقصير في العمل، كل الانحراف في العمل أساسه نقص المعرفة، العلاج إذاً المعرفة، وكلَّما نمت معرفتك استقامت أحوالك، كلَّما زادت معرفتك استقام عملك، فدائماً حاسب نفسك.

الفصل بين العلم و العمل أخطر شيء في الدعوة إلى الله :

أخطر شيء في الدعوة إلى الله أن تفصل بين العلم وبين العمل، وأن ترى العلم هدفاً بذاته، لكن العلم وسيلة وليس هدفاً، فإذا جعلته هدفاً فقد وقعت في خطأٍ شنيع، العلم وسيلة وليس غاية، العلم وسيلة إلى العمل، قال بعضهم: " العلم الذي لا يثمر العمل الجهل أفضل منه، لأنه حجَّةٌ عليك"، فهذه الآية:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

حينما أشركوا به ما قدَّروه حقَّ قدره.

الأرض في قبضة الله تعني أن :

1 - الأرض في حوزة الله و في ملك الله :

من الله عزَّ وجل؟ قال:

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

معنى هذا أن الشيء في قبضتي، أنه في حوزتي، أنا أملكه، وهو في قبضتي، مالك التصرُّف فيه، أولاً: في حوزتي، وثانياً: أملك التصرُّف فيه، الأرض كلُّها بما فيها وبمن فيها، وبما عليها وبمن عليها، الأرض جميعاً بقبضة الله عزَّ وجل، هي ملكه، ملك الله عزَّ وجل، هو الذي خَلَقَ، وهو المتصرِّف، وإليه المصير، قد تملك ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، وقد تملك وتنتفع وليس إليك المصير، ملكيَّة الله تامَّة، معنى:

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا)

كلمة جميعاً للتفخيم، الأرض جميعاً، وبعضهم قال: ما دامت الأرض في بعض الآيات سبعة أراضين، فجميعاً أي الأرض بكل طبقاتها حتَّى نواتها الملتهبة، بكل ما فيها من ثروات، من فِلْذات، من معادن، ربنا عزَّ وجل قال:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

[سورة طه : 6]

هذه إشارة إلى أن هناك ثروات، هناك فلذات، هناك مناجم، هناك معادن، هناك بترول، هناك مناجم ذهب.

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

[سورة طه : 6]

إذاً الأرض في قبضة الله تعني أن الأرض في حوزة الله، في ملك الله، ومُلْكِيَّة الله للأرض ملكيَّةٌ تامَّة، يملكها ويتصرَّف فيها وإليه مصيرها، هذه الملكيَّة.

2 ـ الله قادرٌ فيها على كل شيء :

المعنى الثاني: إن الله قادرٌ فيها على كل شيء، كل شيءٍ تتعلَّق به قدرة الله عزَّ وجل، قدرة الله تتعلَّق بكل شيءٍ على الإطلاق، قادرٌ أن يمحوها، قادرٌ أن يفعل بها ما يشاء، قادرٌ أن يغرقها بالماء، الماء يقدر أن يجعله رحمة، ويقدر أن يجعله عذاباً، الماء أحياناً يدمِّر كل شيء، يُتْلِف كل المحاصيل.

الهواء قادرٌ على أن يجعله رياحاً منعشةً تسوق السحب، وقادرٌ على أن يجعله ريحاً مدمِّرةً، لا تذر شيئاً إلا أتت عليه، كل شيءٍ بقبضة الله، الأرض مستقرَّة بقدرة الله، وقادرٌ أن يزلزلها، البناء الذي استغرق بناؤه عشرين عاماً يصبح رُكاماً بلحظة واحدة.

فماؤها رحمةٌ أو عذاب، هواؤها رحمةٌ أو عذاب، بموجة صقيعٍ واحدة قادرٌ على أن يجعل كل الإنتاج الزراعي صفراً، أسود اللون، يقول لك: الصقيع أتلف ثلاثمئة مليون في خلال خمس دقائق، ما معنى

في قبضته؟ أي هو في حوزته ملكاً وتصرُّفاً ومصيراً وضمن قدرته، قادرٌ أن يفعل بها ما يشاء، قادر أن تغور الينابيع فيموت النبات، ويموت الحيوان، ويموت الإنسان، وقادرٌ أن يجعل الأرض القاحلة وقد ارتدت حلَّةً قشيبة.

فما بين حمص والشام مسافة تعرفونها جميعاً، أرضٌ قاحلة، في هذا العام نسب الأمطار تضاعفت، الآن هي بساط أخضر بين حمص والشام، خضراء كلُّها، لأنه قادر أن تكون نسب الماء قليلة، قادر أن يضاعف هذه النسب، بعد أن يَئِس الناس من أن الأمطار في الشام باتجاه التناقص جاء عطاء الله مضاعفاً.

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

كل شيء في حوزة الله تعالى ملكاً وتصرُّفاً ومصيراً وضمن قدرته :

أي أن الأمطار بيده، الرياح بيده، البرودة والصقيع، أهل الساحل ما عرفوا الصقيع منذ ثلاثين عاماً، فجأةً في العام الماضي تسع درجات تحت الصفر على ساحل البحر، غير معقول إطلاقاً، الأمطار التي جاءت قبل أسابيع كانت أربعين ميليمتراً.

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

الأمطار بيده، الرياح بيده، الصقيع والحر بيده، الشام معتدلة "مَصْيَف"، تأتيها موجات حر فتصبح كبلاد الحجاز شديدة الحرارة.

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

الإنتاج جيِّد، حشرة يعجز في مكافحتها علماء الأرض، كل الإنتاج تجده يصاب بهذه الحشرة، ليس في العالم كلِّه مادَّة مضادَّة لهذه الحشرة، علماء ودول عاجزون أمام ذبابةٍ بيضاء، لا تبقي في الإنتاج الزراعي شيئاً.

مرَّة سألني أخ: هل على العسل زكاة؟ قلت: عليه زكاة، العلماء ألحقوه بالإنتاج الزراعي، وقالوا: زكاة العسل العُشر إذا كانت خلاياه طبيعيَّة؛ في الأكوار، وفي الأغصان، ونصف العشر إن كانت خلاياه خشبيَّة، فإذا في نفقه نصف العشر، قال لي: أكيد؟ قلت له: مثلما تحب أنت حر، إن لم تدفع الزكاة قُرَّاد النحل جاهز، أيضاً آفةٌ تصيب خلايا النحل لا تبقي فيها ولا نحلة، أصابت هذه الآفة أكثر المناحل قبل سنوات، أتت عليها جميعاً، ما تلف مالٌ في برٍ أو بحرٍ إلا بحبس الزكاة، إنسان ذهب إلى بلد غربي - إلى أمريكا - لمهمَّة تطوير معلوماته الاختصاصيَّة، وعاد بعد ثلاثة أشهر محملاً بالهدايا الثمينة لزوجته الوفيَّة، ولأصدقائه، ولأمِّه، ولأبيه، ولجيرانه، أنجب بعد عامٍ من مجيئه طفلاً كالوردة، بعد أن أنجبت

زوجته هذا الطفل شعر بآلام، بانحطاط، بضَعف من طبيب إلى طبيب إلى طبيب، إلى أن أشار عليه بعض الأطبَّاء أن يجري فحصاً لمرض الإيدز، أجرى الفحص النتيجة إيجابيَّة، بقي يعاني آلام هذا المرض سنتين ثمَّ مات، وبعد موته ماتت زوجته التي أُصيبت بهذا المرض، والآن ابنه في مرحلة الوفاة، وله بنتٌ أنجبها قبل أن يسافر إلى أمريكا، زلَّت قدمه، حُوصِر، وسُئل، وألقي عليه الحجر الصحي، وحقّق معه، زلَّت قدمه في هذه البلاد - ألا يا ربَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً - قال قبل أن يموت: لو أن لهذا المرض دواء، وثمنه كل ما أملك لدفعته، لا من أجلي ولكن من أجل إنقاذ زوجتي الوفيَّة البريئة وابني الصغير. ولكن المرض حصد الأسرة كلَّها، تستقيم أهلاً وسهلاً، لا تستقيم الإيدز جاهز.

طبيب أقام في فرنسا عشر سنوات، قال لي: أُجريت دراسة لبنات الهوى هناك، ثلاثون بالمئة أو أكثر مصابات بهذا المرض.

الاستقامة على أمر الله ضرورية في حياة كل إنسان :

الدين ضروري، العلم ضروري، من أجل سلامتك، فإذا كنت تتنزَّه بأرض فلاة، ورأيت كلمة (انتبه حقل ألغام) هل تشعر أن هذه اللوحة تحدُّ من حريَّتك أم أنها ضمانٌ لسلامتك؟ حينما تفهم الدين ضماناً لسلامتك فأنت فقيه، أما إذا رأيته حدّاً لحريَّتك فأنت لا تعرف شيئاً.

شابٌ من شباب هذه البلدة خطب فتاةً ملء السمع والبصر، وعقد قِرانه عليها في المحكمة الشرعيَّة، وأمضى معها سنةً وأكثر، في فترةٍ يسمِّيها الخُطَّاب من أمتع فترات حياتهم، الحديث عن غرفة النوم، وعن غرفة الضيوف، وعن موقع المَنزل، وعن ماذا يسمون أولادهم حينما يأتون؟ ثم شعر أن بإمكانه أن يشتري سيَّارةً وقد رخصت أسعارها، وشعر أنه بحاجة إلى رخصة قيادة، ذهب إلى الجهات المسؤولة ليحصل على هذه الرخصة، أحد الأوراق تحتاج إلى تبرُّع بالدم، ذهب ليتبرَّع بدمه، في اليوم التالي ألقي الحجر عليه - أنت مصاب بالإيدز- سنة وهذان العروسان يحلمان بأحلامٍ رغيدةٍ، ببيتٍ سعيدٍ، بأولادٍ نجباء، كان جريئاً وأخبر زوجته، فُسِخَ العقد فوراً عن طريق المُخالعة، وتألَّمت الزوجة أشدَّ الألم، وهو ينتظر الآن وفاته - هذه حصيلة المعصية، تحب نفسك استقم، تحب سلامتك استقم، الأمور واضحة وضوح الشمس.

فلذلك حينما تتجه إلى ما يغضب الله أنت لا تعرفه، والأدق من ذلك أنت لا تعرف مصلحتَك، إذا عصيته أنت لا تعرفه ولا تعرف ما يسعدك.

الله يحكم لا معقّب لحكمه له الخلق والأمر :

إذاً:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

الفيروس المسبب لهذا المرض خلقه الله عز وجل ليكون عقاباً عاجلاً، هؤلاء في أوروبا وأمريكا لم يرتدعوا، لا دين لهم، ولا قيم، ولا روادع، وما أبشع الإنسان حينما يرتدع عن الزنا لا خوفاً من الله عزَّ وجل؛ ولكن خوفاً من هذا المرض، ما أبشعه حينما يبتعد خوفاً على حياته، أو على سلامته، ولكن المؤمن يبتعد خوفاً من الله، شتَّان بين البُعْدَين، شتَّان بين العِقَّتين، عفَّةٌ هي التَعَبُّد بعينه، وعفَّةٌ هي الخوف بعينه.

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

المعنى الأول: قبضته أي هي في حوزته وملكه، وملكيَّة الله تامة.

والمعنى الثاني: أن كل ما في الأرض، ما فيها ومن فيها، وما عليها ومن عليها، وما فوقها ومن فوقها، في قبضته أي في تصرُّفه، هو الذي يحكمها، وهو الذي يتصرَّف بها، ومشيئته هي النافذة، والله يحكم لا معقّب لحكمه، له الخلق والأمر.

3 ـ الأرض في قبضته أنه قادر على إهلاكها وإتلافها والذهاب بها :

المعنى الثالث لهذه الآية: أن الأرض في قبضته أنه قادر على إهلاكها، وإتلافها، والذهاب بها.

(وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ)

[سورة المرسلات: 10]

متى؟ يوم القيامة.

مطويات أيضاً لها معنيان :

1 ـ أنها في تصرُّف الله عزَّ وجل :

قال:

(وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

معنى مطوياتٌ أيضاً لها معنيان، المعنى الأول: أنها في تصرُّف الله عزَّ وجل.

2 ـ أن هذه السماوات التي تبدو شيء لا يصدَّق :

والمعنى الثاني: إن هذه السماوات التي تبدو شيء لا يصدَّق مليون مليون مجرَّة تقريباً، في كل مجرَّةٍ مليون مليون نجم تقريباً، والفراغات البينيَّة بين النجوم شيء لا يُصَدَّق.

تسخير الله عز وجل الكون للإنسان من أجل أن يعبده :

لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة:75-76]

بعد الشمس عن الأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وتكبُر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، وهناك نجمٌ صغيرٌ صغير في برج العقرب لونه أحمر، اسمه قلب العقرب يتَّسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما.

(وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

الله قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

[سورة البروج: 1]

كل شهر في بُرج، برج العقرب فيه هذا النجم الصغير المتألِّق الأحمر، اسمه قلب العقرب، هذا النجم الصغير يتَّسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، الذي عنده آلة حاسبة يحسب، احسب بينك وبين أقرب نجمٍ ملتهب أربع سنواتٍ ضوئيَّة، هذه المسافة تعني أنك إذا أردت أن تصل إليه بمركبةٍ أرضيَّة تحتاج إلى ما يقارب من خمسين مليون عام، يجب أن يكون عمرك خمسين مليون سنة من أجل أن تصل إليه.

سيدنا المسيح ولِدَ قبل ألف وتسعمئة سنة تقريباً، سيدنا موسى قبل ستة آلاف سنة تقريباً، سيدنا رسول الله قبل ألف وخمسمئة سنة تقريباً، فأين خمسون مليون سنة من أجل أن تصل إلى أقرب نجمٍ ملتهبٍ؟ فنجم القطب تحتاج إلى أن تصل إليه إلى أربعة آلاف سنة ضوئيَّة، أقرب نجم أربع سنوات، القطب أربعة آلاف سنة، إذا الأربع سنوات تحتاج إلى خمسين مليون سنة مسافة الطريق، فكم تكون الأربعة آلاف سنة؟ والعمليَّة تتم بسهولة بالآلة الحاسبة.

هناك عمليَّة معقَّدة، الضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، اضرب ثلاثمئة ألف كيلو متر في ستين، بالدقيقة، في ستين، بالساعة، بأربعة وعشرين، باليوم، بثلاثمئة وخمسة وستين، بالسنة، بأربع

سنوات تستطيع أن تعرف كم تبلغ، الآن اقسِم على مئة كيلو متر سرعة سيَّارة، هذه بالساعة، على أربعة وعشرين باليوم، على ثلاثمئة وخمسة وستين بالسنة، أي حوالي خمسين مليون سنة تحتاج أن تصل إلى أقرب نجم ملتهب، هذا النجم الملتهب أربع سنوات، القطب أربعة آلاف سنة، المرأة المسلسلة مليونا سنة، مجرَّة حديثة ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة، هذه مواقع النجوم.

(وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

كل هذا الكون من أجلك، والذي خلق السماوات والأرض هو الذي خلقك، وسخَّر هذا الكون كله من أجلك وأمرك أن تعبده، لذلك قال سيدنا بلال: " لا تنظر إلى صِغَرِ الذنب ولكن انظر على من اجترأت.

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

ديننا دين توحيد :

ربَّما قال أحدكم - دائماً أركِّز على التوحيد - هذا هو الدين، ديننا توحيد، ما دام هناك شرك فهناك خوف، ومع الخوف هناك نفاق، مع النفاق هناك معاص، مع المعاصي هناك شقاء، أما إن كان هناك توحيد فهناك استقامة، مع الاستقامة راحة نفسيَّة، و عزَّة، و كرامة، رأسك مرفوع، لا تأخذك في الله لومة لائم، لا تخشى غير الله، ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، كل ما في القرآن يؤكِّد التوحيد.

وفي كل شيْ له آية تدلُّ على أنه واحد

***

فعندما أراد أخوة يوسف به كيداً:

(فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ)

[سورة الصافات: 98]

ما استطاعوا لأن الأمر بيد الله عزَّ وجل

قصتا يوسف و موسى تؤكدان أن الأمر بيد الله وحده :

سيدنا موسى وضِعَ في صندوق وأُلقي في اليم، الله عزَّ وجل أمر أمَّه بأمرين، ونهاها نهيين، وبشَّرها بشارتين، قال:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

[سورة القصص: 7]

هذا أول أمر:

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

[سورة القصص: 7]

هذا الأمر الثاني:

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)

[سورة القصص: 7]

نهيان:

(إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ)

[سورة القصص: 7]

هذه أول بشارة:

(وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ)

[سورة القصص: 7]

معنى هذا أن الصندوق بيد الله عزَّ وجل، وحركة الماء بيد الله، وحركة امرأة فرعون بيد الله، وميل قلبها بيد الله.

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا)

[سورة القصص: 9]

فرعون قتل كل الأطفال حتى لا يأتي طفل يقضي على ملكه، أما هذا الطفل الذي سيقضي على ملكه فربَّاه في قصره وهو لا يدري.

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

[سورة القصص: 8]

هذه لام المآل، ليست لام التعليل، انتهى الأمر أن هذا الطفل الذي أحبوه وربوه هو الذي قضى على ملك فرعون، الأمر بيد الله، قصَّة موسى كلُّها تؤكّد أن الأمر بيد الله، قصة يوسف الأمر بيد الله.

أخطر شيء أن تكون مع غير الحق وأسعد شيء أن تكون مع الحق :

سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، هؤلاء الكفَّار الذين عادوا النبي، أخرجوه من بلده، نكّلوا بأصحابه، ائتمروا على قتله، ماذا كان في النهاية؟ هم ماتوا في معارك شهيرة وأُلقوا في القليب، والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام تألّقوا في سماء الدنيا، ونصرهم الله عزَّ وجل.

فأخطر شيء أن تكون مع غير الحق، وأسعد شيء أن تكون مع الحق، قال:

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ* وَنُفِخَ فِي الصُّورِ)

بعد أن انتهت الأرض والسماوات:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)

كل مخلوقٍ يموت، هذا صَعْقُ الموت، هذه سكرات الموت، لابدَّ من أن يذوقها كل حَي، كل نفسٍ ذائقة الموت، سيدنا الصديق رضي الله عنه عندما بلغه نبأ وفاة رسول الله بقي متماسكاً، وقال كلمةً لو لم يقل غيرها لكفته، قال: " من كان يعبد محمَّداً فإن محمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ". كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت.

والليل مهما طـــال فلا بد من طلوع الفـــجر

والعمر مهما طـــال فلابد من نزول الـــقبر

* * *

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فـإذا حملت إلى القبور جنازة فـاعلم أنك بعدها محمول

* * *

صدر قرار من الله عزَّ وجل بموت جميع الخلق مع وقف التنفيذ، متى؟ الله أعلم.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

لذلك، من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، الذي يقول: غداً من أجلي. فقد أساء صحبة الموت، غداً سأفعل كذا، أنت لا تعرف الموت، الموت يخطف الإنسان خطفاً، بلمح البصر، سكتة دماغيَّة، هناك كثير من حالات الوفاة المفاجئة، نام ولم يستيقظ، خرج و لم يرجع، دخل و لم يخرج، سافر ولم يرجع.

(وَنُفِخَ فِي الصُّور فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْض)

فسابقاً أوضَّحت أن بحياتك توجد مجموعة هموم، لا أحد منَّا لا هم له، زواجه هم، عمله هم، صحَّته هم، أولاده هم، تزويج أولاده هم، هناك مجموعة قضايا، وكل هم يشغل حيِّزاً من حياتنا، أحيانا يشغل بالمئة عشرة، أو بالمئة ستين، وربما هم لا يجعلك تنام الليل، يستحوذ على كل اهتمامك.

وقد يشغل حيزاً كبيراً من اهتمامك، وربما يشغل حيزاً قليلاً يمتدُّ أثره إلى أمدٍ طويل، بعضها إلى أمدٍ قصير، فأنت حيالها لك خيار؛ خيار قبول أو رفض، هذه الفتاة رفضتها - شيء جميل - هذه قبلتها، هذا العمل قبلته، هذا العمل رفضته.

لكن الإيمان الذي يشغل كل الحياة، في علاقتك مع جسمك يدخل الإيمان، هناك تعليمات الخالق، مع أهلك يدخل الإيمان، مع عملك يدخل الإيمان، مع أولادك، مع ربِّك، الإيمان يغطِّي الحياة كلَّها، ويغطي الوقت كلَّه، لكن أخطر ما في الإيمان أن موقفك تجاهه لا موقف قبول أو رفض، بل اختيار زمن فقط، لابدَّ من أن تؤمن ولكن إما أن تؤمن قبل فوات الأوان فتستفيد من إيمانك، وإما أن تؤمن بعد فوات

الأوان فلا تنتفع بإيمانك، الإيمان يشغل كل الحيِّز وكل الوقت، والخيار معه، فكيف لا نهتم به؟ كيف لا نرعى الإيمان؟ كيف لا نرسِّخ الإيمان؟ كيف لا نعمل على زيادة الإيمان؟ كيف لا نقتطع من زبدة وقتنا وقتاً لمعرفة الله مادام بهذه الخطورة؟

فأنا أتمنَّى أن تبرمج حياتك، وعملك، وضيوفك، وزياراتك وفق معرفة الله عزَّ وجل.

كل إنسان ينتظر يوم القيامة ماذا يُفعل به :

إذاً:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى)

أول نفخة نفخة الموت، النفخة الثانية نفخة البعث:

(ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

هنا المشكلة، كل تعبك في الدنيا، سهر الليالي، غَضُّ البصر، إنفاق الأموال، حضور مجالس العلم، خدمة أهل الحق، خدمة الحق، الدعوة إلى الله، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، تلاوة القرآن، حجم عملك كلّه يظهر في هذه الساعة.

(فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

كلمة ينظرون تعني ينتظرون ماذا يُفْعَلُ بهم، إذا كان هناك مجموعة في السجن، وفتح الباب وقيل لهم: اخرجوا، فتجدهم يتساءلون: ماذا هناك يا ترى؟ يا ترى إفراج؟ تنفُّس؟ نقل لمكان آخر؟ لا نعرف، من شدَّة الخوف والرعب.

(فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

أنت الآن في بحبوحة، الآن بإمكانك أن تتوب، بإمكانك أن ترجع، بإمكانك أن تستقيم، بإمكانك أن تؤدي الحقوق، فإذا مات الإنسان وهو على معصية، وفي ذمَّته حقوق لم تؤدَّ، وفي ذمَّته واجبات لم تؤدَّ، وكان في حياته خلل، وجاءه ملك الموت وقبض روحه، ثمَّ نُفِخَ في الصور، وبُعِثَ من القبر، ووقف ينظر ماذا يُفْعَلُ به؟ أإلى الجنَّة أم إلى النار؟

(فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

الله عز وجل قطع حجة المعاندين إلى يوم القيامة :

يوجد سؤال فاتني أن أشير إلى جوابه، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

ولكن الله عزَّ وجل قال:

(يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

أي يا ترى في الدنيا أليست الأرض قبضته؟ في الدنيا أليست السماوات مطوياتٍ بيمينه؟ طبعاً، فلماذا قيَّد الله يوم القيامة؟ قال: لأن الدنيا فيها دعاوي كثيرة، كل إنسان يدَّعي أنه قوي وأنه يفعل ما يشاء، وربنا أشار إلى ذلك فقال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

[سورة يونس: 24]

الآن تجد أحدهم لا شيء ويقول لك: أنا أفعل، أعمل، أمنح، آخذ دعاوي كثيرة، لكن هل يستطيع أحدٌ يوم القيامة أن يدَّعي أن له فعلاً؟ فهذه المناقشة دقيقة، قال النمرود لسيدنا إبراهيم: من ربُّك؟ قال:

(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)

[سورة البقرة: 258]

أنا مثل ربِّك، أنا أحكم على إنسان بالقتل فيموت، أعفو عنه فيبقى حياً، سيدنا إبراهيم أوتي من الله الحكمة، فالمناقشة معه في هذا الموضوع طريق عسير، تركه كُلياً، وقال:

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)

[سورة البقرة: 258]

هذا الجواب المُفْحِم، الحاسم، ففي الدنيا هناك من يدَّعي أنه يفعل ولا يفعل، يمكن الذين يملكون أسلحة الدمار الشامل يظنون أن العالم مصيره بيدهم، فهناك وهم كبير، ادعاء كبير، مع أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً إلا أن يأذن الله عزَّ وجل، وهذا هو الإيمان، وكل ما تسمعون به مما يجري في العالم هو بأمر الله، وكل خطط البشر تستوعبها خطَّة الله عزَّ وجل، ولا يستطيع أقوى الأقوياء أن يفعل شيئاً ما أراده الله، أيحسب الكافر أنه سَبَقَ الله عزَّ وجل؟ بمعنى أنه فعل شيئاً ما أراده الله، لا، هذا هو الإيمان، لكن المناقشة مع هؤلاء في هذا الموضوع يدخلنا في متاهة، لذلك الله عزَّ وجل قطع حجَّتهم إلى يوم القيامة.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

كما فعل سيدنا إبراهيم مع النمرود، قال له:

(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)

[سورة البقرة: 258]

قال له ولكن:

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)

[سورة البقرة: 258]

فهُنا قطع الله حجة هؤلاء المعاندين.

يوم القيامة لا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي أن الأمر بيده :

لذلك بعضهم قال عن الآية الكريمة:

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

[سورة الشورى: 53]

يا رب هي بيدك سابقاً ولاحقاً، فكيف صارت إليك؟ وبيد من كانت قبلك يا رب؟ سؤال محيِّر، العلماء قالوا: في الدنيا المؤمنون وحدهم يرون أن الأمور بيد الله، لكن أهل الدنيا؛ الكفَّار، المشركون، المقصِّرون، ضِعاف الإيمان، يرون أن الأمر بيد زيد، بيد عُبيد، فربنا عزَّ وجل قال: أما يوم القيامة فلا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي أن الأمر بيده:

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

[سورة الشورى: 53]

هذا من باب المناقشة الحكيمة:

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)

شرقت الشمس أي ظهرت، أما أشرقت بمعنى أنارت، شرقت ظهرت، أما أشرقت فنوَّرت، فإذا كان الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، فما هو النور؟ هو العَدْلُ، أي أن هذا اليوم يوم العدل تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، ورد في بعض الأحاديث أنه من علامات قيام الساعة موت كعقاص الغنم، أحياناً يأتي وباء يذهِب بأربعة أخماس القطيع خلال يوم، موتٌ كعقاص الغنم لا يدري القاتل لمَ يقتل؟ ولا المقتول فيمَ قُتِل؟ فبالفطرة الإنسان يُقتَل إذا كان قاتلاً، يُقتَل إذا أنشأ فساداً في الأرض، أما يُقتَل فقط لأنه مسلم؟ لم يفعل شيئاً، لأنه مواطن صالح.

العاصي غبي لأنه قضى على سعادته في الدنيا والآخرة :

ما يجري في العالم الآن من الحروب الأهليَّة لا يدري القاتل لمَ يقتل؟ ولا المقتول فيم قُتِلْ؟ إذاً تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، يوم القيامة هذا يوم العدل:

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)

الآن يوجد عدل، لك أن تقول في الدنيا ما تشاء، لك أن تفعل ما تشاء، ولكن كل شيءٍ تفعله سوف تحاسب عليه، هذا معنى العَدل، لذلك الأحمق والغبي يظنُّ أنه ذكيٌ إذا أخذ ما ليس له، وهو في منتهى الحمق والغباء لأنه لابدَّ من يومٍ تشخص فيه الأبصار، والآية الكريمة:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

فالأمور أمامنا، الدروس والمواعظ لا تنتهي، كل قصَّةٍ فيها حكمة وموعظة، العاصي غبي لأنه قضى على سعادته في الدنيا والآخرة، فمن باب الاستنباط لو أنك مفرطٌ في أنانيّتك، لو أنك تحبُّ ذاتك أشدَّ الحب، عليك بطاعة الله طلباً لسلامتك.

طاعة الله عز وجل أساس النجاة يوم القيامة :

لا يوجد حل إلا طاعة الله عزَّ وجل، الأرض الآن امتلأت فِسقاً وفجوراً وفتنةً، الفتن الآن يقظى، الدنيا خضرةٌ نضرة، أينما تحرَّكت نساءٌ كاسياتٌ عاريات، ما من كلمةٍ أبلغ من كلمة النبي عليه الصلاة والسلام، مرتدية لكنها عارية..

((كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ))

[أحمد عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو]

المؤمن في المسجد كالسمكة في الماء، المؤمن جنَّته داره وليست الطرقات، جنَّته داره، جنَّته مسجده، مكان فُسْحَتِهِ مكانٌ طلق لا معاصي فيه إطلاقاً، هذا المؤمن، أما إذا عاش مع الناس فالعصر الآن فيه فساد.

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

لذلك هذه الآية فيها عزاءٌ لكل إنسان مظلوم، لابدَّ من أن تأخذ حقَّك من الذي ظلمك، ظالم، لابدَّ من أن تدفع ثمن الظلم باهظاً يوم القيامة، فكل إنسان يصل لهذا اليوم وهو معافى من قِبَل الله عزَّ وجل، ناجٍ لا له ولا عليه هو إنسان واع، هذا الذي قاله سيدنا عمر: " أتمنَّى أن أموت لا لي ولا علي ". لأن الأمر خطير جداً.

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ)

كل القيم التي يتفاضل بها الناس في الدنيا تسقط يوم القيامة إلا قيمة المعرفة والعمل :

صار هناك مقاييس جديدة، صار هناك مقياس وحيد هو مدى معرفتك بالله، مدى طاعتك له، مدى إحسانك إلى الخلق، قيم المال سقطت، قيم الذكاء سقطت، قيم الوسامة سقطت، قيم القوَّة سقطت، كل القيم التي تفاضل بها الناس كلُّها تحت الأقدام إلا قيمة المعرفة والعمل.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: 19]

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: 11]

علمك يرفعك، وعملك يرفعُك، مالك لا قيمة له، كنت ذكياً لا قيمة له، كنت وسيماً لا قيمة له، كل القيم تحت الأقدام إلا قيمة العلم والعمل هذا.

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)

البطل هو الذي يملك جواباً لله عزَّ وجل عن كل شيءٍ فعله في الدنيا :

الآن:

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

ما قولك أن كل حركاتك، وسكناتك، وكلامك، كله مسجَّل، ومصوَّر، وملوَّن، ثمَّ يُعرضَ هذا الفيلم عليك، لماذا قلت كذا؟ لماذا نظرت هكذا؟ لماذا أخذت هذا المبلغ؟ نحن في الدنيا إذا شعر الإنسان أنه مُراقب، إذا شعر أن هاتفه مراقب، يحسب ألف حساب، ويعد للألف ليتكلَّم كلمة واحدة إذا شعر أنه مصوَّر بآلةٍ خفيَّة، كيف يتصرَّف؟ أين يمشي؟ إلى أين يدخل؟ حتى لا يحاسب لم يترك دفتراً في محله، ولا ورقة، ولا فاتورة من أجل الماليَّة، خائف من موظَّف الماليَّة، يرجف إن وجد معه ورقة، أو مستنداً، مع إنسان ترتعد فرائصك فكيف مع الواحد الديان؟

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

هذه أعمالك، لماذا طلَّقتها؟ لماذا قلت هذا؟ لماذا اغتصبت هذا المكان؟ لمَ لمْ تعطي الأجير أجره؟ البطل هو الذي يملك جواباً لله عزَّ وجل عن كل شيءٍ فعله في الدنيا، عندك جواب؟ إذا معك الجواب فلا يوجد مانع، جواب لله عن كل موقف، افعل ما تشاء، اعملوا ما شئتم ولكن هيئ جواباً، لمَ قلت لهذا المريض كذا؟ أردت أن توهمه، معنى ذلك أنها مسجَّلة، لمَ قلت لهذا الموكّل كذا؟ هل القاضي يرتشي حتى قلت له: أنا أدبِّره، مفتاحه عندي، القانون واضح وهو لصالح الموكّل، لكنك أوهمته أن هذا القاضي صعب، ومفتاحه معي، كله مسجَّل، بالبيع وبالشراء كل شيء مسجَّل.

لكل إنسان كتاب أعمال يوم القيامة :

لذلك:

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

قال العلماء: كتاب الأعمال. تقول لزميلات زوجتك: تعالين إلى هنا، تريد الاختلاط وتدعي أن دعوتك لهن خوفاً عليهن من البرد في الغرفة الثانية، لا ليس من أجل البرد، الله يعرف لماذا قلت هذا الكلام، حركاتك، سكناتك.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

نظراتك، كلماتك، كلُّه بعلم الله عزَّ وجل.

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

كله مسجَّل، فإذا إنسان أراد أن ينكر، تفضَّل هذا صوتك. مرَّة أحضروا جهاز رادار يكشف المخالفات، فهناك سائق ذهب للمطار وأسرع أكثر مما ينبغي، الجهاز الجديد صوره وأحضروه للتحقيق، ما ترك يميناً إلا وحلفه، ما كنت في المطار أبداً، أروه الصورة، وهذه أليست سيارتك؟ و أليس هذا رقمها؟ فالصورة تسكت، فلم يستطع أن يتكلَّم ولا كلمة، هنا كذلك الكتاب فيه، الله قال:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

[سورة المطففين: 9]

أولاً: صفحاته مرقَّمة، وثانياً: مع كل مخالفة صورتها:

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

أولاً:

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

يقول بين يدي الله: ما كنت أدري وما علمني أحد، أولاً ميزان العدل، ثم صحيفة الأعمال، ثم إقرار الأنبياء الذين بلَّغوك، أو نوَّاب الأنبياء وهم العلماء الذين شهدوا..

الشهداء هم :

1 ـ إما العلماء الذين شهدوا لك بالحق أو شهدوا عليك بالتكذيب :

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ)

الشهداء قال بعضهم: هم العلماء الذين شهدوا لك بالحق، أو شهدوا عليك بالتكذيب. شهدوا لك أو عليك، بلَّغك، بيَّن لك، شهدَ لك، أعطاك مشاهداته، أو شهد عليك بالتقصير والتكذيب.

2 ـ أو الذين بذلوا دماءهم من أجلك :

بعضهم قال: الشهداء فعلاً الذين بذلوا دماءهم من أجلك. هؤلاء الذين فتحوا البلاد، فتحوها من أجل نشر الحق، فلا أعرف لماذا هنا الصحابة استشهدوا؟ من أجلك، لماذا ذهبوا إلى أطراف الدنيا؟ إلى الصين؟ إلى شمال إفريقيا؟ إلى تركيًا؟ لماذا؟ ذهبوا لينشروا هذا الدين، فإذا هم قد بلّغوك، فإن قلت: لا أعرف. لا إنك تعرف، الأنبياء أُنزل عليهم الكتاب، والذين قاتلوا في سبيل نشر الحق شهدوا لك بالحق.

3 ـ أو الملائكة :

المعنى الثالث: الشهداء هم الملائكة. إما العلماء، أو الذين استشهدوا في ساحات المعركة، أو الملائكة، لقوله تعالى:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)

[سورة ق: 21]

يسحبونه من رقبته، فإن قال: لم أفعل شيئاً. هذا شاهد عليك، لا تتكلّم ولا كلمة:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)

[سورة ق: 21]

سائقٌ يسوقها، فإن قال: ليس أنا. يجاب: هذا هو الشهيد:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)

[سورة ق: 21]

عدل الله يسكت الألسنة :

فهنا الميزان ميزان العَدْل، ووضِع الكتاب كتاب العمل:

(وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

فلا يوجد ظلم:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر:17]

اسم الله العَدْل يتحقَّق يوم القيامة، الآن اعملوا ما شئتم، الآن هناك حرية اختيار ولكن كلّه مسجَّل، اعملوا ما شئتم.

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

كل إنسان نال جزاءه الأوفى الكامل، لا يوجد ولا كلمة، لذلك قالوا: عدل الله يسكت الألسنة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزمر 039 - الدرس (20-20): تفسير الآيات 70-75، الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء و الآخرة دار تشريف و تكريم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-06-04

بسم الله الرحمن الرحيم

من أيقن أن الله يعلم كل شيء و سيحاسبه لابد من أن يستقيم على أمره :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس العشرين والأخير من سورة الزُمَر، ومع الآية الواحدة والسبعين، قال تعالى:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

الكون كله مظهرٌ لأسماء الله الحسنى، لكن اسم العَدْل لا يتحقق كاملاً إلا يوم القيامة، لأن في الدنيا قوياً وضعيفاً، وغنياً وفقيراً، وصحيحاً ومريضاً، وظالماً ومظلوماً، ومغتصِبَاً ومغتَصَباً منه، ومفترياً ومفترىً عليه، هذه العلاقات التي فيها تجاوزٌ و اعتداءٌ على الحقوق هذه متى يفصل فيها؟ متى يعطى كل إنسانٍ حقه؟ الآية الكريمة:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7]

مثقال ذرة:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

كلام خالق الكون، مثقال ذرة، لو أنك أنقذت نملة وأنت تتوضأ - أنقذتها من الغرق - هذا عملٌ عظيم، لو أنك نزعت قشةً من المسجد وضعتها في جيبك حفاظاً على نظافته، هذا عملٌ عظيم.

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

إذا أيقن الإنسان أن له إلهاً بالمرصاد يرقُبُ عمله، ويعلم عمله، وسيحاسبه على عمله، لا بد من أن يستقيم، إنك مع إنسان من بني جلدتك، من بني جنسك، إذا أيقنت أنه يراقبك وهو أقوى منك وسيحاسبك، لا بد من أن تنصاع إلى أمره، راقب نفسك مع إنسان قد لا تراه ذا قيمةٍ في مقياس القيَم الإنسانية، ولكن لأنه أقوى منك، ولأنه قادرٌ على إيقاع الأذى بك، ولأنه يعلم ما تفعل، لا بد من أن تستقيم على أمره، فربنا عزَّ وجل يقول:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

من يعطي ويتقي ويصدق بالحسنى يوفى أعماله كاملة و العكس صحيح :

ما عملك في الدنيا؟ أولاً: حرفتك، كيف تعاملت مع الناس بها؟ هل غششت المسلمين أم نصحتهم؟ هل شعرت أنهم بحاجةٍ ماسةٍ إلى هذه السلعة فرفعت سعرها أضعافاً مضاعفة كي تستغل حاجتهم؟ هل ذكرت لهم الحقيقة أم بالغت من أجل أن تأكل أموالهم بالباطل؟ عملك المهني جزءٌ من عملك العام، عملك في بيتك جزءٌ من عملك العام، عملك في لَهْوك جزءٌ من عملك العام، عملك فيمن حولك جزءٌ من عملك العام.

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

الذي أعطى واتقى وصدق بالحسنى وفّيت أعماله كاملةً، والذي كذَّب وتولى وبخل واستغنى وفّي عمله كاملاً، فلذلك لا ترى في الدنيا أشد حمقاً ولا أشد غباءً ولا أشد جهلاً من الذي يعمل السيِّئات وهو يظن أنه يُحسن صنعاً، من الذي يأكل أموال الناس بالباطل وهو الذي يظن نفسه ذكياً، هذا هو الغباء بعينه لأنه:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

الإنسان العاقل لا يرضى بالوهم المريح بل يبحث عن الحقيقة المُرَّة :

ما من حركةٍ، ولا سكنةٍ، ما من إساءةٍ، ما من إحسانٍ، ما من كلمةٍ طيبةٍ، ما من كلمةٍ سيئةٍ، ما من غمزٍ، ما من لمزٍ، ما من غيبةٍ، ما من نميمةٍ، ما من عدوانٍ، ما من نظرةٍ، ما من صيحةٍ، ما من إصغاءٍ إلا في كتابٍ دقيق، ويوم القيامة يُنْشَرُ هذا الكتاب ويحاسب الإنسان أشد الحساب، هذه حقيقة، إذا قبلت الحقيقة المرة حمدت الله عزَّ وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

[سورة الشعراء:88]

هناك وهم مريح وهناك حقائق مُرَّة، الإنسان العاقل لا يرضى بالوهم المريح، بل يبحث عن الحقيقة المُرَّة، الوهم المريح ما يقوله عامة الناس: نحن أمة محمد أمة مرحومة، نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، الله يعفو عنا، الله يغفر لنا ذنوبنا، ما لنا إلا كرمه. هذا كلام لا يعني شيئاً، ولكن ربنا عزَّ وجل يقول:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

إذا الإنسان عرف الحقيقة ولو أنها مُرَّة، ولو أنها حَجَّمَتْهُ، ولو أنها وضعته في زاويةٍ ضيِّقة، ولو أنها وضعته أمام مسؤوليَّاته، هذه الحقيقة المُرَّة هي المنقذة للإنسان من مغبة عمله، هذه الآية:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

من دون استثناء، أنت ماذا عملت في الدنيا؟ كل إنسان له عمل، محسن أم مسيء؟ صادق أم كاذب؟ ناصح أم غاش؟ وتحابي أم تستقيم؟ لسانك رطبٌ بذكر الله أم طليقٌ بالفحشاء والمنكر؟ جوارحك، عينك، أذنك، لسانك، يدك، رجلك، كيف تتحرك في اليوم؟

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

امتحان كل إنسان فيما أعطاه الله :

والإنسان أيها الأخوة مُمْتَحَن:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

لا يوجد واحد من المؤمنين، لا يوجد واحد من بني البشر إلا وهو مُمْتَحَن، أحياناً تعرض له الدنيا من طريقٍ غير مشروع، والطُرُقُ المشروعة مغلقةٌ في وجهه، ماذا يعمل؟ فإن صبر وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ويا ربي لا أعصيك ولو أطبقت السماء على الأرض، لا أعصيك ولو قُطِّعْت إرباً إرباً، لا أعصيك ولو أكلت التراب. إن علم الله منك هذا الموقف أعطاك الدنيا والآخرة:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

لكن أتمنى أيها الأخوة أن يكون في علمكم أن إكرام المُحسن في الدنيا إكرامٌ تشجيعي لبقية المُحسنين، وأن عقوبة المسيء في الدنيا هي عقوبةٌ ردعيةٌ لبقية المسيئين، ولكن تأدية الحساب كاملاً، ولكن توفية النفس حقَّها، ولكن الحساب النهائي، ولكن الرصيد الكُلّي يوم القيامة.

الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء :

لذلك لو رأيت إنساناً مستقيماً وهو ضيِّق ذات اليد لا ينبغي أن تتهمه في دينه، لعل الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغةٍ بالغة أراد إرجاء إكرامه إلى يوم القيامة، وهذه الآية الدليل:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

وإن رأيت إنساناً مسيئاً وهو يتمتع بالصحة، والمال، والجاه، والقوة، لا ينبغي أن يَهُزَّكَ هذا الموقف، قل: لعل الله لحكمةٍ بالغةٍ بالغةٍ أراد أن يرجئ عقابه إلى يوم القيامة.

إن رأيت المحسن يثاب في الدنيا فهذا ثوابٌ تشجيعي لبقيَّة المحسنين، وإن رأيت المسيء يعاقب في الدنيا فهذا عقابٌ ردعيٌ لبقية المُسيئين، ولكن الجزاء الأوفى، وتوفية النفس حقها كاملاً، ورصيد الحساب، هذا يكون يوم القيامة، والدليل:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

لا ينبغي أن تجعل الدنيا دار جزاء إنها دار ابتلاء، إنسان طيب، حافظ القرآن، مستقيم، مات في مقتبل الحياة، ولم ير من نعيم الدنيا شيئاً، فالدنيا في الأصل دار ابتلاء..

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة يس: 26-27]

لا تنتظر من الدنيا أن تكون دار جزاء، لكن اطلب من الله السلامة، لكن عافيتك أوسع لي، هكذا دعا النبي عليه الصلاة والسلام، فيجب ألا يهزك إنسان قوي وغني وعاص، ويزداد غنىً وقوةً، لقول الله عزَّ وجل:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ* لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

[سورة الزمر : 196-198]

الله عز وجل يعلم السر و أخفى :

الله عزَّ وجل الذي يعلمه لا نعلمه نحن، يعلم السِرَّ وأخفى، علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، هذا الإنسان من المناسب أن يعاجل بالعقوبة لعِلم الله به أن هذا العقاب لمصلحته، وهذا الإنسان من الحكمة أن تؤخَّر له العقوبة، وهذا الإنسان من حكمة الله أن يُتابعه على أدَقِّ الزلات، وهذا الإنسان يتركه الله عزَّ وجل بلا تأديبٍ ولا معالجة لحكمةٍ أرادها، أنت لا تستطيع أن تحكم على الأشياء بعلمك القاصر، ولكن الله عزَّ وجل هو العليم الحكيم، فدع هذا الأمر لله عزَّ وجل، لا يهزك إنسان يزداد قوةً وغنىً ومالاً وهو مقيمٌ على المعاصي كلها، ولا يهزك إنسانٌ مقيمٌ على طاعة الله جلَّ جلاله والدنيا صعبةٌ بين يديه، هناك حِكَمٌ لا نعلمها، الآية التي تحل هذه المشكلة:

(وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

الجزاء الأوفى وتوفية النفس حقها كاملاً يكون يوم القيامة :

ما من إنسانٍ كان أشدَّ عداوةً للنبي عليه الصلاة والسلام من عكرمة بن أبي جهل، حارب النبي عشرين عاماً، نَكَّلَ بأصحابه، ما من إساءةٍ إلا فعلها في حقِّ النبي، وهو يزداد قوةً وشأناً.. الخ، ثم فتحت مكة، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بقتله ولو تعلَّق بأستار الكعبة.

جاءت امرأته إلى النبي عليه الصلاة والسلام قالت: "يا رسول الله إن عكرمة قد هرب منك خوف أن تقتله فأمِّنه أمَّنَكَ الله ". قال: " هو آمن ".

ذهبت إليه فإذا هو على شاطئ البحر الأحمر ليسافر إلى الحبشة فراراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أقنعته بأن النبي عفا عنه، عاد إلى مكة وقال: " إنها تقول إنك قد أمَّنتني ". قال: " نعم صَدَقَتْ ".

القصة طويلة، وأصبح عكرمة بن أبي جهل من كبار الصحابة، وقد أبلى في القِتال أشد البلاء.

الله يعلم لو أن إنساناً قال: هذا ما شأنه؟ لماذا يزداد قوةً وهو ينكِّل بأصحاب النبي؟ أنت لا تعلم ولكن الله يعلم، هذا إنسان فيه خير ولكنه كامن، لم يأتِ الوقت المناسب ليظهر هذا الخير، وله قصةٌ طويلةٌ جداً في اليَرموك، وكيف أنه كسر غِمْدَ سيفه وترك فرسه الأشقر، ودخل في غمار المعركة يقاتل الكفَّار، حتى أن سيدنا خالد رضي الله عنه قال له: " إن قتلك يؤذي المسلمين ". فقال: " دَعْكَ عني لقد كان لك مع النبي مواقف ليست لي، دعني أكفِّر عن خطيئتي ".

فأنت لا تعرف إذا أعطى الله إنساناً مهلة لعلمٍ يعلمه وأنت لا تعلم ذلك، فعليك أن تستسلم، أنت لا تعلم ولكن الله يعلم، فإذا عاقب الله المسيء، هذا عقاب ردعي لبقية المسيئين، وإذا كافأ الله المُحسن، هذه مكافأة تشجيعية لبقية المحسنين، لكن توفية النفس حقها، والفصل الدقيق يوم القيامة:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

مكافأة بعض المحسنين في الدنيا مكافأة تشجيعية لبقية المحسنين :

أحياناً يقدم الطلاب امتحاناً، والامتحان مصيري ويترتب عليه مستقبل الطلاَّب، و ربما كانت العلامات في الامتحان أساس دخول الجامعة، لو فرضنا أن مدرِّساً فحص طلاَّبه، وزَّع الأوراق بعد أن صححها، وكتب على السبورة السلم الدقيق، ووزع الأوراق على أصحابها، والطالب قرأ ما كتب، وقرأ السُلَّم، ونظر إلى العلامات التي نالها وفق السُلَّم، وجمع وطرح وقَسَّم بأرباع العلامات، فإذا علامته تماماً كما يستحق دون زيادةٍ أو نقصان، انتهى الطلاَّب من مطالعة أوراقهم بعد التصحيح، وسأل الطلاب: ألا

لأحدهم سؤال؟ سكوتهم جميعاً دليل عدالته المُطْلَقَة، لو أن هناك خطأً في التصحيح، وإجحافاً، وزيغاً، وجحوداً، وميلاً، وزيادةً، ونقصاناً، لرأيت الطُلاَّب قد قاموا من مقاعدهم، وأحدثوا جلبةً وضجيجاً، انظر إلى هذه الآية:

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

كل إنسان يعرف عمله، كل منا له عمل، المهنة الواحدة تحتمل آلاف النماذج، هناك مهندس مُخْلِص، وهناك طبيب مخلص، وهناك محامٍ مخلص، و هناك مدرس مخلص، وهناك تاجر أمين صادق، و بائع، وموظف، المهنة نفسها تحتمل الزَيغ والاستقامة، الكذب والصدق، الرحمة والقسوة، العدل والظُلم، الإحسان والإساءة، كل إنسان يعرف عمله، فإذا الإنسان استقام على أمر الله، لا كذب ولا غش ولا أساء، ربنا عزَّ وجل ربما كافأه في الدنيا تشجيعاً له ولغيره، أما لو أنه لم يكافئه، فالمكافأة العظمى تنتظره يوم القيامة، الدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء.

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

أعلم اسم تفضيل، مهما علمت هو أعلم، سيدنا الصديق مدحه رجل، فتوجَّه إلى الله عزَّ وجل، وقال: " يا رب أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون ". وهو أعلم بما يفعلون، الذي خفي عنك يعلمه الله عزَّ وجل، من توفية كل نفسٍ ما عملت..

الناس رجلان؛ متصلٌ بالله منضبطٌ بشرعه ومقطوعٌ عن الله بعيد عن شرعه :

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا)

سيقَ، الإنسان حينما يلقى القبض عليه، ويقتاده المحضرون إلى التحقيق، أو إلى غياهب السجن، أو إلى العقاب الأليم، كلكم يعلم ما معنى كلمة سيقَ؟ سُئِل أحد العارفين بالله: كيف القدوم على الله؟ فقال أبو حازم: " أما العبد المؤمن فكالغائب رُدَّ إلى أهله، وأما العبد الكافر فكالعبد الآبق رُدَّ إلى مولاه.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

بالتعريف الدقيق الدقيق من هم الذين كفروا؟ الذي كذبوا وعصوا وأعرضوا، كذبوا بالحق لما جاءهم، كذبوا بما أوحاه الله إلى الأنبياء والمرسلين، كذبوا بهذا القرآن، ولأنهم كذَّبوا ما أطاعوا، ولأنهم ما أطاعوا فجروا وفسقوا وأخذوا ما ليس لهم، فالكفر له صفة داخلية وهو التكذيب، وصفة خارجية وهو الإعراض والمعصية، والناس رجلان؛ متصلٌ بالله، منضبطٌ بشرعه، محسنٌ إلى خلقه؛ مقطوعٌ عن الله،

بعيد عن شرعه، مسيء إلى خلقه، ولن تجدوا في الدنيا رجلاً ثالثاً أبداً، على اختلاف مشاربهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وانتماءاتهم، وأقوامهم، وأعراقهم، وعوائلهم.

موصولٌ بالله، منضبطٌ بأمره ونهيه، محسنٌ إلى خلقه، سعيدٌ في الدنيا والآخرة؛ منقطعٌ عن الله، مخالف أمره، مسيء إلى خلقه، شقيٌ في الدنيا والآخرة، هذا الذي كفر ما عرف الله عزَّ وجل، وكذَّب بالحق لمَّا جاءه، ولم يأتمر بما أمر الله، ولم ينتهِ عما نهى الله عنه، وأخذ ما ليس له، أعطى لنفسه كل شهواتها المشروعة وغير المشروعة، هذا هو الكافر ومات على الكفر.

القرآن الكريم فيه نبأ من قبلنا وخبر ما بعدنا :

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا)

بعضهم قال: زمراً أي جماعاتٍ جماعات، وبعضهم قال: المرابون زُمرة، والزناة زمرة، والغشَّاشون زمرة، وشاربو الخمر زمرة، والأفَّاكون زمرة، والدعاةُ إلى الباطل زمرة، أنواع المعاصي الاعتقادية والقولية والسلوكية، هؤلاء زُمَر، فأصحاب دور اللهو هؤلاء زمرة، همُّهم الأول إفساد الأخلاق، الكذَّابون المفترون الذين يكيدون لدين الله عزَّ وجل زمرة، الشادّون زمرة.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

إمعاناً في إذلالهم تُفْتَحُ أبوابها، متى؟ بعد أن يأتوها ويقفوا على أبوابها، بعد ذلك تفتح أبوابها.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

هذا من علم الغيب، هذا مما اختَصَّ به القرآن الكريم، القرآن الكريم فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، هذا الذي يتحدَّث القرآن عنه لم يقع بعد، ولكن رحمة الله بنا أن وضعت بين أيدينا هذه المشاهد، وهذه التفاصيل، وهذه المواقف، لنتخذ حذرنا من هذا اليوم الصعب.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا)

العقل أداة معرفة الله عز وجل :

عجيب الكون مسخر لكم تسخير تعريف وتكريم، العقل أداة معرفة الله، الفطرة تشعركم بخطئكم، الشرع بين أيديكم، الدعاة، العلماء الناصحون!! فالكون مع العقل مع الفطرة مع الشرع مع العلماء مع الدعاة مع الحوادث مع الانقباض النفسي مع التربية..

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى)

هنا المشكلة، الحُجَّة أقيمت عليهم، الإنسان أخذ من الله كل شيء، بقي عليه أن يستجيب له.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

[سورة التوبة: 38]

(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى :

الآيات الكونية، والآيات القرآنية، والآيات التكوينية، الكونية خلق الله، والقرآنية كلام الله، والتكوينية أفعال الله، وكلها آياتٌ دالةٌ على وجوده، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى كمالاته، وعلى وحدانيته.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)

أمركم عجيب، كون ينطق بوحدانيته، ينطق بعلمه، ينطق بعدله، ينطق برحمته، ينطق بلطفه، ينطق بحكمته البالغة، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيه إعجازٌ لا حدود له، سُنَّةٌ نبويةٌ ليس في الأرض بشرٌ كل كلامه حقائق إلا النبي عليه الصلاة والسلام الذي أرسله الله إلينا، وإلا بقية الأنبياء والمرسلين.

حديثان صحيحان، الأول رواه الإمام مسلم، والثاني رواه الإمام أحمد، في هذين الحديثين الشريفين يبين النبي عليه الصلاة والسلام أن في الإنسان ثلاثمئة وستين مفصلاً، ولو رجعتم إلى كتب التشريح الوصفي لوجدتم أن في الإنسان ثلاثمئة وستين مفصلاً، ومعطيات العلم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن تُعطي هذا الرقم الدقيق، أليس هذان الحديثان الشريفان من الأدلة القاطعة على نبوة النبي عليه الصلاة والسلام وعلى أنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى؟ وأن النبي ليس إنساناً عبقرياً كما يصفه أعداء الإسلام إنه نبيٌ يوحى إليه؟ لأن العصر كله ليس في قدرته أن ينبئنا بعدد مفاصل جسم الإنسان، والحديثان صحيحان؛ الأول في مسلم، والثاني رواه الإمام أحمد، ولو عدنا إلى التشريح الوصفي لوجدنا مئة وسبعة وأربعين مفصلاً في العمود الفقري، ثلاثة وأربعون بالطرف العلوي ضرب اثنين، أربعة وأربعون بالطرف السفلي، اثنا عشر بالحوض، اثنان بالفك، مجموعها ثلاثمئة وستين مفصلاً، النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، هناك أدلة من كتاب الله عزَّ وجل تؤكد إعجازه، وأدلة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤكد أنه نبيٌ يوحى إليه، وهناك فطرة سليمة.

من عرف الله و استقام على أمره ارتاحت نفسه :

إذا عرفت الله عزَّ وجل، واستقمت على أمره، ترتاح نفسك، فإن لم تكن كذلك فأنت في ضيقٍ لا حدود له، فهذا دليل أيضاً، لا ترتاح نفسك إلا إذا أطعت الله عزَّ وجل، لا تسكن نفسك، لا يطمئن قلبك، لا تسكن نفسك إلا بطاعة الله، هذا دليل الفطرة، هناك دليل العقل، و دليل الفطرة، و دليل الحوادث.

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: 11]

هذا دليل ثالث، فهناك آيات كونية، و آيات قرآنية، و آيات تكوينية، الملائكة:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)

في القرآن والسُنَّة حديثٌ طويلٌ طويل عن يوم القيامة، وعن أهل الجنة، وعن أهل النار، وعن البرزَخ، وعن عذاب القبر، وعن الصَيْحَة، وعن النَفْخ في الصور، وعن الصراط، كله مذكور في القرآن الكريم:

(وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى)

والله الرسل جاءت، والكتاب بين أيدينا، والسُنَّة بين أيدينا، والكون ينطق بعظمة الله، وكل الحوادث تؤكِّد وحدانية الله.

الكون ينطق بعظمة الله و الحوادث تؤكِّد وحدانية الله :

أحياناً تسمع قصة تشعر بكل خليةٍ في جسمك أن الله كبير، وأنه موجود، وأنه عادل، وأنه يعلم، وأنه ينتقم من الظالم، وأنه يكافئ المحسن ويدافع عنه، العوام يعبِّرون عن هذا الشعور بكلمة: الله كبير. تسمع أحياناً قصة تهتز مشاعرك، يقشعر جلدك منها، الله موجود، هذه القصة آيةٌ من آيات الله.

مرة ذكرت قصة عن إنسان في طريقه إلى مكان، يمشي على طريق عريض في أيام الشتاء يقود سيارة، رأى كلباً صغيراً يَقْبَعُ على طرف الطريق طلباً للدفء - لأن الزفت يمتصّ الحرارة - فسائق هذه السيارة أراد أن يظهر لصديقه الذي إلى جانبه براعته في القيادة، فحاد عن منتصف الطريق ومال على هذا الكلب الضعيف وقص يديه، وأطلق ضحكةً رنانةً - أنه لم يقتله ولكنه قطع يديه فقط - يروي لي القصة الصديق الذي إلى جانبه وهو حيٌ يرزق وهو عندي صادق، قال لي: بعد سبعة أيام في الطريق نفسه، وفي السيارة نفسها، العجلة أصابها خلل، فتوقَّفَ على طرف الطريق، ورفع السيارة بالجهاز الذي في السيارة، وحَلَّ العجلة وأمسكها بيده، فكان هناك خطأ برفع السيارة فوقعت السيارة على العجلة، والعجلة على يديه من الرسغين، فهرست هذه العظام، ما إن وصل إلى المستشفى حتى

اسودت يداه، فلا بد من قطعهما من الرسغ بعد سبعة أيام، وراوي القصة حيٌ يرزق أعرفه، هو الذي كان في السيارة، الله كبير.

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

في الدنيا ردع، أما في الآخرة فرصيد حساب، أحياناً تأخذ دفعة، لك مع شخص دين، فتأخذ دفعة في اليوم السابع عشر، دفعة ثانية، دفعة ثالثة، أما آخر دفعة فتكتب الرصيد، ثم يوقع، الرصيد يوم القيامة.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

الكون ينطق بوجوده، وكماله، ووحدانيته، والقرآن ينطق بوجوده، وكماله، ووحدانيته، والحوادث تنطق بوجوده، وكماله، ووحدانيته.

الله موجود ويعلم وسيحاسب :

أهم فكرة للاستقامة أن الله موجود، ويعلم، وسيحاسب. إذا أيقنت بهذه الأفكار لا بد من أن تستقيم على أمره، موجود..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

ويعلم:

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النحل: 91]

يعرف سلوكك، ونواياك، ومطامحك، وعقلك الباطن، والصراعات الداخلية، والخِطط التي ترسمها، كله في علمه.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

عند الله مكرهم، أنت مكشوف عند الله عزَّ وجل، مادمت مكشوفاً كُن نظيفاً، مادمت مكشوفاً كن مخلصاً، مادمت مكشوفاً كن مطيعاً.

القوانين التي قننها الله عزَّ وجل طُبِّقت على الكافرين :

(قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

القوانين التي قننها الله عزَّ وجل طُبِّقَت على الكافرين، مثلاً بالنظام الداخلي من يتخلَّف عن الدوام في الجامعة أربعة أسابيع من دون عذر مبرر، يصدر قرارٌ بترقيم قيده من الجامعة، هذه قانون، هذه كلمة أي قانون، هناك طالب تخلف أربعة أسابيع عن الالتحاق بهذه الجامعة، فحقت عليه هذه الكلمة، أي انطبقت عليه هذه الكلمة، شملته هذه المادة، هذا المعنى..

(حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

هناك قوانين قننها الله عزَّ وجل، و سُنَن سَنَّها الله عزَّ وجل، هذه السنن وتلك القوانين:

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء: 123]

هذا قانون، هذا القانون حق على الكافر، أي انطبق على الكافر لأنه كذب بالحق، ولم يطع الله عزَّ وجل، واعتدى على الآخرين، فعدالة الله عزَّ وجل وحكمته وتأديبه يقتضي أن يعذِّبَهُ، هذا معنى:

(وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ)

أخطر شيء في حياة الإنسان أن يوصل نفسه مع الله إلى طريق مسدود :

الإنسان بعد أن يصل إلى هذا المكان لا ينفع لا البكاء، ولا العويل،

ولا الترجي، ولا الندم، ولا العتاب، انتهى، أخطر شيء في حياة الإنسان أن يوصل نفسه مع الله إلى طريقٍ مسدود، أي أن يموت كافراً، ما دام القلب ينبض فنحن في بحبوحة كبيرة جداً، ما دام فيه نبض، فهو حي، معنى هذا أن باب التوبة مفتوح، باب الإصلاح مفتوح، والصُلْحَة بلمحة، ما دام القلب ينبض وأنت حيٌ ترزق، بإمكانك أن تتوب من توِّك، من هذه اللحظة، وإذا تبت إلى الله توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيك والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياك وذنوبك، وإذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

أما بعد أن مات كافر، وختم عمله، وسيق إلى جهنم..

(قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

هذا المكان المناسب، فالذي معه أمراض خبيثة، أين المكان المناسب له؟ المستشفى، هذا الإنسان مكانه الصحيح، المكان المناسب له المستشفى، أما الصحيح فمكانه النُزهة، مكانه الصحيح بيته، مكانٌ جميل يستمتع به.

الصورة المأساوية لأهل الكفر :

(قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ)

أبواب، من أي باب شِئْتُم، جهنم لها أبواب كثيرة، أبواب جهنم هي المعاصي، كل معصية هي بابٌ إلى النار.

(خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

تكبَّر على من؟ تكبر على الله، أبى أن ينصاع للحق، أبى أن يطيع الله عزَّ وجل، أبى أن يطلب العلم، أبى أن يأتمر بما أمر الله، أبى أن ينتهي عما نهى الله عنه، هذه الصورة المأساوية لأهل الكفر.

لن يتقي الإنسان الله إلا إذا عرفه وعندئذٍ يكافأ في الدنيا والآخرة :

لكن المؤمنين قال:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا)

هؤلاء المتَّقون الذين عرفوا الله في الدنيا، فاتقوا أن يعصوه، اتقوا غضبه، اتقوا الشرك بالتوحيد، اتقوا الكفر بالإيمان، اتقوا المعصية بالطاعة، اتقوا غضب الله برضوانه.

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا)

لن تتقي إلا إذا عرفت الله، تعرفه، تتقيه أن تعصيه، عندئذٍ تكافأ في الدنيا والآخرة.

الاختلاف بين سوق المتقين و سوق المجرمين :

(وَسِيقَ الَّذِينَ)

هناك آية أخرى تبين هذا السوق غير ذلك السوق، المتقون يساقون كالوفد، الوفد الرفيع المستوى حينما يأتي إلى بلدٍ بدعوةٍ رسميةٍ من عَلِيَّةِ القوم فيها، تجد السيارات جاهزة، والترحيب، والسجَّاد يفرش في الأرض، وكأس العصير في قاعة الشرف - فهكذا الوفود دائماً - تدخل بأبهى حلة، بأجمل مكان، بكل ترحيب، فسوق المتقين سوق الوفود، لا سوق المجرمين.

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا)

هناك آية أخرى تبيِّن الفرق:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا)

هناك دعاة إلى الله، وهناك محسنون، هناك من أنفق ماله، هناك من عبد الله، هناك من عمل الصالحات، أبواب العمل الصالح كثيرة جداً، المزكُّون، الحجاج، الصائمون، التائبون، العابدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، طلاَّب العلم، حُفَّاظ القرآن، الدعاة إلى الله، العلماء، المُجاهدون، هذه أبواب الخيرات زمراً.

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا)

من باب التكريم:

(وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

من قبل مجيئهم، إذا كان وفد رفيع المستوى يصل ليجد من ينتظره ويكرمه، فالسجاد ممدود، وفتحت أبوابها، والأرض مفروشة، والأزهار متفتحة..

(وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

من قبل أن يأتوها إكراماً لهم، هذا الفرق حرف الواو..

(وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

إكراماً لهم..

المؤمن في الجنة في سلام أبدي :

(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

أنتم في سلام، أنتم في سلامٍ أبدي، لم يبق مشكلة، الحياة كلها مشكلات، عندما يكبر الإنسان يعيش في قلق متسائلاً، يا ترى هل معي ضعف؟ معي نقص بالتروية؟ معي ضيق بالشريان التاجي؟ معي هبوط بأداء الكليتين؟ تصلب شرايين يا ترى؟ تشمع بالكبد؟ مليون خطر، لكن بالجنة انتهى لا توجد مشكلة.

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

لا توجد مشكلة، لا بصحتك، ولا بزوجتك.

(وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ)

كنتم في الدنيا طيبين، طابت نفوسكم بطاعة الله، طابت نفوسكم بمعرفة الله، وطابت بأعمالكم الصالحة، لأن نفوسكم طابت أنتم أهلٌ للجنة.

ملازمة القلق لأهل الدنيا لكيلا يتعلقوا بها :

(طِبْتُمْ)

قال بعضهم: طبتم بمعرفة الله. قال بعضهم: بطاعة الله. قال بعضهم: بعملكم الصالح. على كلٍّ المعاني كلها محتملة.

(طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

لا يوجد قلق إطلاقاً، لا يوجد إنسان في الدنيا إلا وهو يقلق، إن كان بمنصب رفيع يبذل جهده للحفاظ على منصبه، ويحسب ألف حساب لخصومه، وحُسَّاده، والوشاة، والمنافسين له، وإن كان ببيت فخم يخاف من نزع الملكية، وإن كان بمعمل فالقلق من معمل آخر منافس كيلا يخف البيع، دائماً هناك قلق، إن كنت ببحبوحة هناك قلق، إن كنت بصحة هناك قلق، هذا القلق يلازم الدنيا حتى الإنسان لا يتعلق بها، أما هناك:

(طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

إلى أبد الآبدين، فهذه الجنة الأبدية أيزهد بها من أجل سنواتٍ في الدنيا معدودة؟

الوقت و المال و الصحة عوامل السعادة في الدنيا للإنسان :

عوامل السعادة في الدنيا للإنسان؛ الوقت، والمال، والصحة، فالإنسان بأول حياته عنده وقت وعنده صحة ولكن لا يوجد عنده مال، يأتي بفترة عنده مال وصحة ولكن لا يوجد وقت، تأتي فترة ثالثة عنده وقت ومال ولكن لا توجد صحة.

بالضبط ثلاث مراحل؛ أول مرحلة المال، الصحة متوافرة، والوقت متوافر ولكن لا يوجد مال، فهذا الشاب ليس معه شيء، يأتي وقت يعمل ليلاً نهاراً، الصحة موجودة، والمال موجود ولكن لا يوجد وقت، لا يقدر أن يغيب عن محلّه ولا ساعة، بعد أن جمع ثروة طائلة، وسلّم أولاده، وتقاعد، صار عنده وقت، ومعه مال ولكن أصبح في جسمه عشرون علة، هذه الدنيا.

أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدري وتمرري وتضيَّقي وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي.

لاحظ الذي عمره تجاوز الستينات تجد خمسين علة بالجسم، لم يعد يتمتع بالحياة، هكذا طبيعة الدنيا كلها متاعب، لذلك لا راحة لمؤمنٍ إلا بلقاء وجه ربه.

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ* وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ)

المؤمن في الدنيا يحمد الله على أنه عرف الله :

قد أتصور أنه لا توجد ذرة بجسم المؤمن يوم القيامة إلا ويحمد الله بها، والله المؤمن في الدنيا يحمد الله على أنه عرف الله، سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبةٌ قال: "الحمد لله ثلاثاً؛ الحمد لله إذ لم تكن في

ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها ". ما دام دينك سليماً، لا تعصي الله، مستقيم على أمر الله، فأنت ملك من ملوك الأرض، أما يوم القيامة فيرى الجنة للأبد، لا توجد مشكلة، هو بالدنيا عرف الله..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات: 15-19]

(قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ*فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ*إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

[سورة الطور: 26-28]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

خالق الكون في كتابه الكريم المُعجز أخبر الإنسان بأن هناك جنة و نار ووعد ووعيد :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)

كلام خالق الكون، فهو يقول لك: هناك جنة وهناك نار، هناك عذاب وهناك برزخ، هناك قبر، وهناك صراط مستقيم، وهناك حوض، وهناك صحف تنشر، فهذا كلام ألا تأخذه مأخذ الجد؟ عجيب أمر الإنسان، كلام خالق الكون، الآن صدر قرار من خمس كلمات فرفع سعر السيَّارة مئة ألف ليرة، خمس كلمات فقط، معنى هذا أن الناس صدقوا، أنت تصدق إنساناً إذا أعطاك تصريحاً من خمس كلمات، فترتفع الأسعار وتنزل الأسعار بتصريح كلمات، وخالق الكون في كتابه الكريم المُعجز يقول لك: هناك جنة، وهناك نار، وهناك حساب، وهناك عذاب، وهناك سؤال، وهناك وعد، وهناك وعيد.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)

من آثر طاعة الله على حظوظ نفسه ربح الدنيا و الآخرة :

الله قال هناك جنة. فهذه الجنة ولحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل المؤمنون يَرِدُون النار ولا يدخلونها، ورود النار أن ترى أهل النار، وأن ترى شدة العذاب لو لم تكن مؤمناً من أجل أن تزيد سعادتك في الجنة.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

أضرب مثلاً: طبيب لامع جداً يستقبل باليوم عدداً كبيراً من المرضى، وله دخل كبير بالآلاف، فمن أين جاءه هذا الدخل الكبير؟ من عمر مديد أمضاه في الجامعة حينما كان طالباً في الجامعة، سهر الليالي الطويلة، وتحَمَّل مشاق الامتحان، وهموم الدراسة، وصبر على الأساتذة، وعلى موادِّهم الصعبة، وكذا وما فيها من نعيمٍ مقيم أساسه..

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

نحن في الدنيا عرفنا الله، كان هناك شمس وقمر ونجوم، وليل ونهار، وكسوف وخسوف، ومطر ورياح، ونباتات، وحيوانات، واسماك، وأطيار، وخلق الإنسان، هذا كلّه فكَّرنا فيه، وهناك قرآن قرأناه، وحفظناه، وفهمناه، وحضرنا مجالس العلم..

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

وكان لنا زوجة، وربينا أولادنا، وعلمناهم القرآن، وحفظناهم القرآن، ودائماً أمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ودعونا إلى الخير.

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

هذا النعيم المقيم لأننا في الدنيا تعرفنا إلى الله، وفي الدنيا أطعنا الله، وفي الدنيا تقرَّبنا إلى الله، وفي الدنيا بذلنا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وفي الدنيا وضعنا أنفسنا تحت أقدامنا إرضاء لله عزَّ وجل، وفي الدنيا آثرنا طاعة الله على حظوظ أنفسنا، وفي الدنيا كظمنا غَيْظنا، وفي الدنيا أنفقنا مالنا..

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

فأي إنسان لو حقق نجاحاً كبيراً في الدنيا، كلما تمتع بثمرات نجاحه يتذكر الأيام الصعبة التي تجاوزها حتى أعدّ نفسه لهذا النجاح، لا يوجد إنسان ينجح نجاحاً ملموساً في الحياة إلا ويذكر دائماً الأيام الصعبة التي هيأ نفسه لهذا النجاح.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

اختلاف نظام الجنة عن نظام الدنيا :

نظام الجنة نظام آخر غير الدنيا، لهم ما يشاؤون، كلما خطر في بالك شيء تراه أمامك، هذا نظام الجنة، دار إكرام، هنا دار كدح..

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

[سورة الإنشقاق: 6]

الواحد منا لا يصل إلى بيت مؤلف من غرفة ومنافعها في مكان بعيد إلا بعد جهد جهيد، ويكافح طويلاً ليصل للزوجة، ويصل للمنصب، ويصل لدخل ثابت، هكذا الحياة، مبنية على الكدح، مبنية على بذل الجهد، مبنية على تحمُّل المشقة؛ أما الآخرة فمبنية على الإكرام، لهم ما يشاؤون إذاً معنى كلمة:

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

أي أن هذا النعيم المقيم ثمنه كان في الأرض معرفة بالله، وطاعة له، وإقبالاً عليه.

أساس الجنة العمل وليس الكلام :

الآن..

(نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

الجنة مبنية على العطاء بلا كَدْح، بلا سعي، بلا جُهد.

(فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

معناها الجنة أساسها العمل وليس الكلام، العمل..

(فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

الذين عملوا في الدنيا يستحقون هذا النعيم المقيم في الآخرة.

(وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)

والملائكة أيضاً حول العرش امتلأت قلوبهم حباً لله عزَّ وجل، وتعظيماً له، وتسبيحاً له.

(وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ)

بين الخلق كلهم.

الحمد لله رب العالمين ملخَّص مشاعر الخلق جميعاً يوم القيامة :

(وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

ملخَّص مشاعر الخلق جميعاً يوم القيامة الحمد لله رب العالمين، لأن كل شيءٍ وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق، فكل ما فعله الله محض خير، ولو بدا لنا أنه شر، هذا معنى قوله تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: 26]

كله خير، فهذا الكلام لسان حال كل الخَلق يوم القيامة، لذلك بعضهم يقول: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهٍ سواه. الشيء الذي يبدو لك مكروهاً هو محض فضلٍ ومحض خير.

(بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (01-20): تفسير الآيات 1- 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-06-11

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعدُ، فيا أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة غافر.

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم)

حم

1 ـ معنى حم:

و(حَم) كما يقول المفسِّرون: الله أعلم بمراده.

ويقول بعض المفسِّرين: إنها أوائل أسماء الله الحسنى.

ويقول بعضهم الآخر: إنها أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

ويقول فريقٌ رابع: إن القرآن الكريم قد نُظِمَ من هذه الأحرف، والأحرف بين أيديكم، فحينما تجلّى الله على هذه الأحرف فجعلها كلاماً مُعجزاً.

2 ـ الحروف المتقطعة من إعجاز القرآن:

إذاً دليل إعجاز القرآن الكريم، أن هذا القرآن الكريم الذي فيه إعجازٌ علمي، وإعجازٌ بياني، وإعجازٌ بلاغي، وإعجازٌ تشريعي، وإعجازٌ أخباري، إذا قرأت القرآن متدبّراً، وإذا قرأت القرآن متأمِّلاً تشعر أنه لا يمكن أن يكون هذا الكلام إلا كلام الله عزّ وجل، تؤمن أن هذا الكلام كلام الله من خلال إعجاز القرآن الكريم، فهو من حروفٍ بين أيدي البشر، وقد تحدّى الله البشر جميعاً على أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً، أو أن يأتوا بسورة مثله أو بسورة من مثله.

على كلٍ، هذه التوجيهات الأربعة في تفسير هذه الحروف وردت في تفاسير كثيرة، ومرّاتٍ كثيرة، إما أنك تفوّض أمر معناها إلى الله عزّ وجل، وتقول كما قال بعض المفسِّرين: الله أعلم بمراده، وإما أن تجتهد، وتقول: لعلّها أوائل أسماء الله الحسنى، وإما أن تقول: لعلّها أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم، حامدٌ ومحمود، وإما أن القرآن الكريم من جِنس هذه الأحرف، وقد يعلم قارئ القرآن

ومتدبّره أن فيه إعجازاً، ومعنى الإعجاز أن البشر مجتمعين يعجزون عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا من حيث نظمه، ولا من حيث ما فيه من تشريعاتٍ حكيمة، ومن أخبارٍ صادقة، ومن إعجازٍ علمي، وإعجازٍ تربوي، وإعجازٍ تشريعي، إلى ما هنالك.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

أيْ أنّ هذا القرآن الكريم من عند الله العزيز العليم، فكلّما قرأت آيةً من آياته، وسورةً من سوره يجب أن تستحضر هذه الحقيقة، أنك مع كلام الله، وأنك مع كلام خالق الكون، أنك مع الكلام المطلق في صوابه، المطلق في صدقه، المطلق في بيانه، فكلّما نما إيمانُ الإنسان ينمو مع إيمانه تعظيمه لكلام الله عزّ وجل، المؤمن يتعامل مع كلام الله تعاملاً في أعلى درجات التقديس والتعظيم، تقرأ القرآن فتشعر بكل خليّةٍ من خلاياك، وبكل شعرةٍ في جسدك، وبكلِ نقطةٍ في دمك أن هذا الكلام كلام الله.

لكن إذا فهمت تأويل الآيات، ووضعت يدك على مواطن الإعجاز، ولمست عظمة النظم القرآني، ودقّة الصياغة البيانيّة، ودقّة الأمر والنهي، تعلم علم اليقين أن هذا القرآن كلام الله، ولا يكمل إيمان إنسان ما لم يتنامَ إحساسه بقدسيّة هذا الكلام، ولا يكون الإنسان مؤمناً ما لم يؤمن أن القرآن الكريم حقٌ من عند الله عزّ وجل.

لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا

إذا كان يخطر في بال إنسانٍ أنّ في القرآن آية لا تصلح لهذا الزمان فهذا نوع من التكذيب، لأن ربنا عزّ وجل قال:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من الآية 286)

ذات مرّةٍ أخ قال لي: إن غضّ البصر صعب، قلت له: اسمع هاتين الآيتين.

الآية الأولى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

قال لي: هذا صحيح، قلت له الثانية:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا)

الأولى تكليفٌ واضح الدلالة، قطعي الدلالة، وهذا التكليف ليس متعلِّقاً بزمن دون آخر

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ)

في أي زمان، في أي مكان، والأجر الآن يزداد كثيراً، فكلّما كثرت الفتن، وكانت النساء كاسياتٍ عاريات ازداد الأجر، وغضُّ البصر من وسع الإنسان، لقول الله عزّ وجل:

(لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من الآية 286)

أضعف ما في الإيمان أن تتوهّم شيئاً يخالف القرآن، إذا توهّم الإنسان أن بعض آيات القرآن التكليفيّة فوق طاقة البشر فهذا نوعٌ من أنواع التكذيب، وأنت لا تدري، حينما قال الله عزّ وجل:

(لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

الذي يقول لك: ماذا أفعل ؟ الحياة صعبةٌ، والناس كلّهم هكذا، كل تعاملهم ربوي، ماذا أفعل ؟ إذا صدّقت كلام الله عزّ وجل حينما قال:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: من الآية 279)

فعليك أن تستجيب لأمر الله وأن تكف عما يقوله الناس، وما يفعلونه.

ما من أمرٍ إلهيٍّ توعّد الله مخالفه بالحرب إلا موضوع الربا، فكلّما تنامى إيمان الإنسان تنامى معه إيمانُه بقدسيّة هذا الكلام، بأحقيّة هذا الكلام، لأن الكلام شرفه من شرف قائله.

((فَضْلُ كَلامِ اللّهِ عَلَى كَلامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[من سنن الدارمي عن شهر بن حوشب]

شرف الكلام من شرف قائله، الإنسان العظيم يتكلّم كلمة، لهذه الكلمة أثر كبير جداً، فكلّما قلّت قيمة القائل قلّت معها قيمة القَول، وكلّما ارتقت قيمة القائل ارتقت معها قيمة القول، فإذا رأيت أن هذا الكلام كلام الله ؛ منهجٌ قطعي الثبوت، منهجٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فقد صحّ إيمانك، والحقيقة هي أنّ ما تتخبّط به البشريّة اليوم، وما تعانيه البشريّة اليوم من أزماتٍ وأزمات، ومن ظلمٍ شديد، ومن أعمال عنفٍ لا تحتمل، كلها بسبب مخالفة منهج الله عزّ وجل، هذا المنهج من طبّقه سَعِدَ في الدنيا والآخرة، والدليل قول الله عزّ وجل:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من الآية 9)

هذه الآية مُطلقة، ومطلق القرآن على إطلاقه، للتي هي أقوم في كل شيء ؛ طبّقه في علاقاتك الزوجيّة، طبّقه في كسب المال، طبّقه في إنفاق المال، طبّقه في كل نشاطٍ من نشاطات الإنسان:

(يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

أيها الإخوة قال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

(سورة طه)

اتباع القرآن هدى، ومخالفته ضلال:

إذاً فليَعلم الإنسان أنّ كل أنواع الضلال بسبب عدم اتباع القرآن الكريم، كل أنواع الشقاء بسبب عدم اتباع القرآن الكريم، قال:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

هذا الخوف الذي يأكل قلوب البشر، هذا القلق الذي ما بعده قلق، هذا الخوف من المجهول، هذا الخوف من المستقبل، هذا القلق المدمِّر بسبب عدم اتباع القرآن الكريم.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

فبعض الثمار اليانعة: أنك إذا اتّبعت القرآن الكريم لا يضلُّ عقلك، ولا تشقى نفسك، ولا تخاف مما هو آت، ولا تندم على ما فات، فماذا بقي إذاً ؟ قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة يونس)

الشرك سبب للأمراض النفسية:

فسَّر النبي هذه الآية بأن هؤلاء الأولياء لا يحزنون إذا حزن الناس، ولا يخافون إذا خاف الناس.

إذًا: هناك خوف عامٌّ هذه الأيام، و حزن عامٌّ، نسمع أحيانا عن واحد بعيد عن الله نَجده كتلة من التشاؤم، كتلة خوف وقلق، يخاف من المجهول، يخاف من المستقبل، قال النبي عليه الصلاة والسلام حينما وصف أولياء الله الذين لا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون، إنهم لا يخافون إذا خاف الناس، لأن الناس عندهم شرك، ماذا يعني الشرك ؟ أي أن مصيرك بيد عدوّك، معنى هذا أن الشرك صعب جدا، شيء لا يحتمل، هذه الفكرة وحدها تسبّب أزمة نفسيّة، وقد تسبّب أزمةً حتى في جسم الإنسان، في أعضائه الأساسيّة، إذْ ترى أن مصيرك بيد إنسان ولابدّ من أن ينتقم منك، لابدّ من أن يأخذ منك كل شيء، لابدّ من أن يذلّك.

إذًا الشرك وحده يسبّب أشد الأمراض فتكاً بالإنسان، والتوحيد سر سعادة الموحِّد، إذ يعلم أن أمره كلّه بيد الله، وأن علاقته مع جهة واحدة، أما علاقة أهل الدنيا فمع آلاف الجهات، فاعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلّها.

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[كنز العمال]

فحقيقة الفلاح تكمن بالإيمان الحقيقي، وأذكركم دائماً بهذه الفكرة: قال لك إنسان: الدكتور فلان، فما معنى دكتور ؟ في العرف العالمي، وعرف الجامعات معنى دكتور أي أنه بلغ أعلى درجة في العلم تقريباً، لأن الليسانس أو الإجازة تعني أنه درس كل شيء في هذا العلم، أما الدكتوراه فتعني أنه أبدع في هذا العلم، قدّم بحثاً فريداً، قدّم شيئاً لم يُسْبَق إليه، فمعنى دكتور أن هذا مكث ست سنوات أو سبعًا ليعدّ أطروحة، وناقشها كبار العلماء ممن يحملون كبرى الشهادات مناقشة عالميّة، وكتب فصولاً، وأعاد فصولاً، وعنده شتى المراجع التي تتجاوز المئات، وبقي سنوات عديدة في كتابة هذه الأطروحة، هذا معنى دكتور، وقبلها تقدم لشهادة الماجستير، وقبلها تقدم لفحوص الدبلوم، وقبلها نال الليسانس، وقبلها نال الشهادة ثانويّة.. الخ، فكلمة دكتور تعني أن هذا الإنسان مرّ بمراحل علمية وأمضى سنوات طويلة في طلب العلم، وتجاوز وتخطّى عقبات صعبة جداً، وبلغ درجة عالية من التفوّق.

لكن كلمة مؤمن هي هدف كلِّ منا حقًا، فما معنى مؤمن ؟ أي أنّ هذه أعلى مرتبة في البشريّة، مؤمن بربّه، مؤمن بخالقه، متى آمن ؟ هل من الممكن إنسان يُعْطَى لقب دكتور دون أن يفتحَ كتاباً ؟ ولا قرأ رسالةً ؟ ولا سهر ليلةً ؟ هذا كلام فارغ، فإذا قلنا: فلان مؤمن، فمتى آمنت ؟ لابدّ من طلب العلم، لابدّ من تفكّرٍ في خلق السماوات والأرض، لابدّ من فهمٍ لكتاب الله عزّ وجل، لابدّ من اتباع الحق والابتعاد عن الباطل، هذا معنى مؤمن، فكلمة مؤمن أي أنّه وصل لإدراكِ أنْ يرى ما لا يراه الناس، يشعر بما لا يشعرون، إذا خاف الناس فهو لا يخاف، ألم يقل الله عزّ وجل:

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(سورة المعارج)

هذا ضعفٌ في خلقه ولمصلحته.

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

معنى هذا أن المصلي الذي آمن بالله حقًا، واتصل به قلبًا وروحًا، هذا ليس جزوعاً ولا منوعاً، ولا هلوعاً.

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ

مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ(35))

(سورة المعارج)

إذاً: موطن الشاهد:

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

أراك أحيانا تقول لي: أنا مؤمن، إلاّ أنني لا أراك متميِّزا عن بقية الناس، فأنت تخاف إذا خافوا، وتحزن إذا حزنوا، وتفزع إذا فزعوا، وتنهار أعصابك إذا انهارت أعصابهم، وتشعر بالقهر كما يشعرون، وتشعر بالحيف والظلم كما يشعرون، وأنه لا أمل لك في الخلاص، وأن المستقبل مُظلم كما يخيّم على الناس هذا الشعور السوداوي أفأنت مؤمن بعد كل هذا ؟!! لا ورب الكعبة، أنت تكون مؤمنًا ؛ إذا علمتَ حقًا أنّ الأمر كلّه بيد الله، وأن يدَ الله فوق أيديهم، مؤمن بأنه لا يقع شيءٌ في الكون إلا بعلم الله ومشيئته، مؤمن بأن كل ما يجري وفق عدالةٍ مطلقة، عرفت طرفاً منها، وغابت عنك أطرافها الأخرى ـ هذا المؤمن ـ أنت مؤمن إذا علمت أنّ الله سبحانه وتعالى لا يقضي لعباده إلا بالخير، مؤمن بأن الله عزّ وجل حينما قال:

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران: من الآية 26)

فإن أيقنت حقيقة ما تضمنته الآية كنت مؤمنا.

تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ

إن الله تعالى لم يقل: والشر، بل قال:

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

لأن إيتاء المُلك ونزع الملك، والإعزاز والإذلال خيرٌ مطلق، وما كلمة شر إلا مفهومٌ نسبي، فإذا رأى الأب ابنه على مشارف الامتحان يلهو بلعبةٍ، وربّما ضيّع مستقبله بأكمله أو على الأقلّ عامه الدراسي، فإذا حطّم الأب هذه اللعبة لإدراكه بخطورة هذا الامتحان، فتحطيم اللعبة في نظر العقل القاصر شر، أمَا هو في نظر الأب فمحض خير.

فربنا عزّ وجل يضحِّي بالأموال، يضحي بالمُمْتَلَكَات أحياناً، يضحي بحريّة الإنسان، و كأنه يقول لك أحدهم: بقيتَ عشر سنوات في معاناة قاسية.

حينما سلب الله حرية الإنسان عشر سنوات إذ أدخله مدرسة المعاناة، لكنه خرج بعدها إنساناً آخر ذا نظرة لوجوده صائبة مؤمنة، فالله عزّ وجل من أجل أن تؤمن، ومن أجل أن ترقى، ومن أجل أن تعرف، ومن أن تستقيم، ومن أجل أن تعرف سر وجودك، ربما يضيع جزءٌ من مالك، جزءٌ من حريّتك، جزءٌ من وقتك، هذه كلُّها مصائب هدفها صلاح النفس.

إذاً:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

كيف يشهد الله أن هذا القرآن كلامه ؟

فشعور المؤمن يجب أن يرقى إلى مستوى إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلما قال سيدنا سعد: **<< ثلاثٌ أنا فيهنّ رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس ؛ إحدى هذه الثلاث: ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى.. >>.**

اليوم خطر لي أنه لو فرضنا أن واحدًا دخل إلى صف، وقد كُتِبَ على السبورة: غداً الساعة الأولى مذاكرة في الرياضيات، يا ترى هذا الكلام صحيح ؟ هذا الخط هل هو خط المدرّس ؟ الخط جيّد، وهو يشبه إلى حدٍ كبير خطّ المدرّس، لعلّه طالبٌ له خطٌ مشابهٌ لخطه كتب هذه العبارة، لكن ما الدليل القطعي على أن المذاكرة غداً الساعة الأولى ؟ غداً ! فحينما يأتي الغد، ويدخل أستاذ الرياضيات، ويقول للطلاب: ضعوا كل شيء في الأدراج، وافتحوا أوراق المذاكرة تمهيداً لإلقاء الأسئلة، فشأن هذا المدرّس يؤكِّد الكلام الذي كُتِبَ البارحة.

فالقرآن الكريم كلام الله، لكن كيف يشهد الله أن هذا الكلام كلامه ؟

1 ـ الحياة الطيبة والحياة المريرة:

ذكرت أن الحياة الطيّبة التي يحياها المؤمن هي شهادة الله له أن القرآن كلامه، فعندما قال ربنا عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

الحياة الطيّبة ذاتها التي هي من فعل الله عزّ وجل، وهي شهادة الله لك أيها المؤمن أن هذا القرآن كلامه. فإذا أعرض إنسان عن ذكر الله ؛ كأن ترك الصلاة، أو صلّى صلاة شكليّة، وأطلق بصره في الحرام، وأصبحت حياته قطعة من الجحيم، مشاحنة في البيت، وشقاء زوجي، وفي عمله متاعب متواصلة، ويعاني من إخفاقات، وإحباطات، والأمور كلها ضدُّه، فتجده يقول: ما هذه الحياة المريرة ؟ فهذه المعيشة الضَنك التي يحياها المُعْرِضْ هي شهادة الله لك أيها الإنسان أن القرآن كلامه.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

(سورة طه: من الآية 124)

2 ـ أفعال الله مع العاصين والمنحرفين:

إذا تعامل إنسان تعاملًا ربويًا، وأمواله صُودِرَت، أو أُتْلِفَت، أو تعرض لخسائر فوق طاقته، وتألّم حتى العظم، هذا ما جرى معك من إتلاف المال وضياعه، شهادة الله لك بقوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: من الآية 276)

أما إذا أنت تصدّقت، وتحاشيت أن تكسب كسباً حراماً، والله نمّى لك مالك، هذه التنمية للمال شهادة الله لك.

(وَيُرْبِي الصّدَقَاتِ)

أيها الإخوة... لا بدّ أن يشعر كلٌ منكم أن يجري في الأرض ما هو إلا تأويلٌ لكلام الله عزّ وجل، أنت معك كلام الخلق، فانظر لمجرى الأحداث المحيطة بك، أكاد أقول لكم: إن المؤمن يكاد يستشف الغيب، هو لا يعلم الغيب، ولا يعلمه أحد أساساً، لكن قوانين الله تعالى ؛ بل قل: سنته في خلقه، أنّ من كسب مالاً حراماً أتلفه الله، ومن اتقى الله أكرمه الله، من كان صادقاً وثق الناس به، من خان الناس أتلف الله ماله وحطّ مكانته، تكاد ترى أن هذه القوانين كلّها تجري، والأحداث كلّها تؤكِّدها.

إذاً: هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(بَلْ كَذّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس: من الآية 39)

3 ـ وقوع الوعد والوعيد:

تأويل القرآن الكريم الحقيقي وقوع وعده ووعيده، وَعَدَ الله عزّ وجل، فوقوع الوَعْد هو التأويل، أوْعَد ؛ فوقوع الوعيد هو التأويل، وعَد المؤمن بالنصر ؛ فالنصر هو التأويل، وعَد المؤمن بالحفظ ؛ فالحفظُ هو

التأويل، وعَد المؤمن بالتمكين فالتمكين هو التأويل، وعد العاصي بالعقاب فالعقاب هو التأويل، و الآن عود على بدءٍ - فعندما كتب المدرّس: غداً الساعة الأولى مذاكرة في الرياضيات، تأويل هذا الكلام يأتي يوم الغَد، حينما يدخل المدرّس ويقول: ضعوا الكتب في الأدراج، وافتحوا أوراق المذاكرات، الآن نبدأ مذاكرة، حينما بدأت المذاكرة هذا أدقُّ تأويلٍ لها، وأدقُّ تصحيحٍ، وقطْعُ الشكِّ باليقين:

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

القرآن من عند العزيز العليم:

فكل واحد منّا إذا كان بوظيفة معيّنة، فأحياناً يأتيه كتابٌ من زميله محولٍ إليه مثلاً، وكتابٌ آخر من رئيس دائرة أيضا محال إليه تجده يهتم أكثر بكتاب رئيس الدائرة، فكلّما ارتفع مصدرُ الكتاب تجد الاهتمام به أكثر، لو جاءه كتاب موقّع بالأخضر من الوزير يهتم اهتمامًا بالغًا فيه، ويمكن على الفور أن يترك كل أعماله، ويحاول تنفيذ هذا التوجيه، وإذا وقف أمام عقبة على الفور يستأذن، ويدخل، ثم يقول لمن يمنعه: الكتاب موجه من السيد الوزير، فماذا نفعل ؟

إذًا كلّما كانت جهة التوقيع ذات مستوى أعلى يصبح الاهتمام أكثر، فأنت عليك أيها المؤمن أن تشعر دائماً أن هذا القرآن.

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

هذا الكتاب ليس ككل كتاب، نعم هو كتابٌ ولكنه كتاب خالق الكون، وبعد فمن هو العزيز العليم ؟

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ

ورد في كتب التفاسير أن سيدنا عمر رضي الله عنه، بلغه أن أحدًا ممن كان في صحبته قد سافر إلى بلاد الشام وانحرف، وارتكب بعض المعاصي، فسيدنا عمر أرسل إليه رسالة، و إليكم الخبر كما ورد.

قصة وعبرة:

روي عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنه افتقد رجلاً ذا بأسٍ شديد من أهل الشام، فقيل له: **" تتابع في هذا الشراب يعني انغمس في الشراب - "**، فقال عمر لكاتبه: **" اكتب: من عمر إلى فلان، سلامٌ عليك، وأنا أحمد الله إليك - وهذا لشارب خمر "**. فإذا كان للإنسان صديق زلّت قدمه، ترك الصلاة، انحرف، ارتاد دور اللهو، شرب الخمر، فلا ينبغي أن يبتعد عنه، لا ينبغي أن يقول: هذا

الإنسان ضل وانتهى أمره، فأين أمَلُك بالله عزّ وجل ؟ انظر إلى هذا الخليفة العظيم عملاق الإسلام، لم يقل عن صاحبه: انتهى، بل أرسل له رسالة ـ قال له: **" أمّا بعد ؛ من عمر إلى فلان، سلامٌ عليك، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم:**

(حم(1)تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(2)غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

ثمّ ختم الكتاب وقال لرسوله: **" لا تدفعه إليه إلا إذا وجدته صاحياً ـ أما إذا كان سكران فاتركه ـ إذا وجدته صاحياً ادفعه إليه "**، ثم أمر مَن عنده بالدعاء له بالتوبة ـ فدعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب لا يُرَد ـ فلمّا أتته الصحيفة جعل يقرأها ويقول: **" قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذّرني عقابه "**، فلم يبرح يردِّدها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزوع ـ أي أنه نزع عن شرب الخمر ـ وتاب توبةً نصوحًا، وحسُنَت توبته، فلما بلغ عمر أمره قال: **" هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم زلّ زلّةً، فسدِّدوه وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا يكن أحدكم عوناً للشياطين عليه".**

القصّة بليغة فيها توجيه دقيق. فأحياناً أخ يترك الصلاة، وبعد ذلك ينغمس في الملذّات، إخوانه يبتعدون عنه لأنه ضل، لا، ثم لا. بل يجب أن تصلوه، وأن تزوروه، يجب أن تتفقّدوه ليشعر بالعطف، وبالرحمة منكم ويدري أن له إخوة يقبلون عثرته. يقال: إن الإمام مالك بن دينار كان يمشي في الطريق، فرأى رجلاً سكران وقد وقع مغمياً عليه، والزبد وآثار الخمرة على فمه، وهو يقول: **" الله الله "**، وهو في غيبوبة، فكبُر على هذا الإمام العظيم أن يخرج هذا الاسم من فمٍ نجس، فجاء وغسل فمه، فلمّا صحا من سباته قيل له: **" أتدري من الذي غسل فمك ؟ قال: لا، قالوا: الإمام مالك بن دينار بنفسه "**، يبدو أن الله سبحانه وتعالى أذِنَ له بالتوبة، فتاب توبةً نصوحا، وصلّى الفجر يوما في المسجد الذي يصلي فيه مالك بن دينار.

فرأى مالك بن دينار الإمام العظيم إنسانًا يبكي أشدّ البكاء في صلاته، ولعله نسي ما جرى بالأمس القريب فقال: **" يا هذا من أنت ؟ "** قال: **" الذي هداني أخبرك بحالي "** فُيروى أن مالكًا رأى في المنام أن قائلاً يقول له: **" يا مالك طهّرت فمه من أجلنا فطهّرنا قلبه من أجلك ".**

أي أن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب لا ترد، إذا كان لك أخ ضَل، أو إنسان له ابن ضل، فدعاء الأب والأم وإخوته له بالهدى إذا صدر من قلبٍ مخلص، لعلّ الله سبحانه وتعالى يستجيب، ولعلّ الله سبحانه وتعالى يليّن قلب هذا الشارد.

على كلٍ، إنّ الإنسان إذا وقعت له مع أخٍ مشكلة، أو رأى أن أخاه قد زلّت قدمه فهو أمام خيارين ؛ إما أن يكون عوناً للشيطان عليه، يشهّر، يغتابه، يشمت فيه، ينشر الفضيحة بين الملأ جميعاً، فهذا الذي زلّت قدمه يزداد بُعداً وانحرافاً ومعصيةً وعناداً، ماذا فعلنا معه ؟ كنّا عوناً للشيطان عليه، أما إذا تلقّفناه

بالرحمة، وعالجناه بالصبر وكتمان الأمر، مع ستره، وعدم إذاعة سرّه، وزرناه ووصلناه، لعلّ قلبه يلين، ولعلّه يشعر بحب المؤمنين من إخوانه ووفائهم نحوه فيفيءَ إلى رشده.

سيدنا عمر جعل هذه الآيات الأولى من سورة غافر موضوعاً لرسالةٍ بعث بها لصديقٍ له في الشام زلّت قدمه، وانغمس في شرب الخمر.

(غَافِرِ الذَّنْبِ)

غَافِرِ الذَّنْبِ

إني أردت ولو لمرّةٍ واحدة أن تشعروا بقيمة دقّة اللغة العربيّة في فهم كلام الله عزّ وجل، ربنا قال:

(غَافِرِ الذَّنْبِ)

1 ـ معنى الذنب:

الذنب: قالوا: ذَنَب الدابّة وغيرها معروف، الذنب معروف، الذنب من الذَنَب، ويُعبَّر به عن المتأخِّر والرَذِل من العمل، عملٌ متأخِّر فيه تخلُّف، َعملٌ رَذِل يعبَّر عنه بالذنب، يقال: هم أذنابُ القوم، أي أن الإنسان السخيف والتافه، والحقير والمنحط، غير الأخلاقي، يوصف بأنه: من أذناب القوم، وفي تعبير حديث يقولون: هو من أذناب الاستعمار.

وعبَّروا أيضا بالذنب عن الحبل، فقال تعالى:

(إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ)

(سورة الذاريات: من الآية 59)

وذَنَبَ الشيء أي أخذ بذَنَب الشيء، ويستعمل في كل فعلٍ عاقبته سيّئة، كل فعلٍ عاقبته سيئة يقال له: ذنب، هنا موطن الشاهد.

تعريف الذنب إذاً هو الفعل الذي له عاقبة سيئة، ربَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً، فأحياناً الإنسان تزل قدمه بساعة، أو أقل من ساعة، يتحمّل آلامًا، يتحمّل عواقب أمراض وبيلة، وأمراض عضالة ما لها شفاء، ألا يا رُبَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً.

فما هو الذنْب ؟ هو فعل يندم عليه فاعله بعد حين، هو فعل له عواقب وخيمة، هو فعل مرذول محتقر بين الناس، هذا هو الذنب ؛ الخيانة ذنب، الكذب ذنب، العدوان على أموال الناس ذنب، العدوان على أعراضهم ذنب، فالذنب هو عملٌ عاقبته وخيمة، كيف أن الذَنَب شيء مسترذل محتقر، مؤخِّرة الشيء، عضوٌ تافهٌ لا شأن له، فالذنْب هو الفعل الذي له عاقبةٌ وخيمة، هذا التعريف اللغوي.

إذا فعل الإنسان المنكر فالله عزّ وجل له بالمرصاد، أكل مالًا حرامًا فالله عزّ وجل له بالمرصاد، أنفق إنفاقًا في معصية الله فالله عزّ وجل سيعاقبه، إذاً كل عملٍ عليه تبعةٌ ومسؤوليّة، كل عملٍ له عاقبةٌ وخيمة هو ذنب ؛ أما العمل الطيّب فعاقبته طيّبة، فلو سلك إنسان الطريق الصحيح، و سلك في حركته اليوميّة وفق منهج الله عزّ وجل فليس لديه مشكلة، وليس له ما يخيفه، أما لو أكل مالاً حراماً، أو حلف يميناً كاذبةً، أو زوّر وثيقةً، أو أدلى ببيان كاذب، ثم كُشِف أنه كذب فهذه مشكلة كبيرة جداً، لذلك:

(غَافِرِ الذَّنْبِ)

2 ـ التوبة ملازمة للذنب:

أي إذا فعل الإنسان فعلاً له عاقبةٌ وخيمة، فالله سبحانه وتعالى في مثل هذه الظروف يذكّر عباده بالتوبة، فالتوبة كأنها حبلٌ يتمسّك به الغريق، كأنها صمّام أمان إذا ازدادت الضغوط على الإنسان، فلئلا ينفجر فعليه بالتوبة فهي نافذة النجاة، حبل النجاة لمن غرق في ذنوبه، وصمّام الأمان إذا ضغطت عليه سيئاته، والمنهج الصحيح يلوذ به إذا زلّت قدمه، فالتوبة تلازم الذنب، لأن كل بني آدم خطّاء، ذلك بأنّ الله أودع في الإنسان شهوات، ووضع له منهجًا، فإذا تحرّك وفق المنهج فشهواته قوى محرّكة تدفعه نحو الأمام، لكن هذه الشهوة لو تحركتَ من خلالها بخلاف منهج الله عزّ وجل فهناك العواقب وخيمة، فشهوة النساء هذه لها قناة نظيفة، وهي ما شرعه الله لعباده عن طريق الزواج، هذه الشهوة ليس لها مصرف إلا هذه القناة، بهذه القناة تجد زوجة طاهرة، مؤمنة، مستقيمة، تسعدك إذا نظرت إليها، تحفظك إذا غبت عنها، تطيعك إذا أمرتها، تنجب لك أطفالاً هم زهرة حياتك، هذه الأسرة تنمو، فإذا بالأطفال قد كبروا، ثم أصبحوا عوناً لأمِّهم وأبيهم، فجاءك أصهار مؤمنون، انظر إلى أساس المشروع فهو مشروع رحماني، فكل ما ينتج عنه خيرٌ وبركة.

تجد إنسانًا شابًا نشأ في طاعة الله، تزوّج شابّة مؤمنة، هذه الأسرة بارك الله بها وعليها وفيها، تكونت أسرة صالحة رفدت المجتمع بعناصر طيّبة، هؤلاء الأولاد تربّوا تربية مؤمنة ؛ فهم صادقون، مخلصون، أمناء، ولو فرصنا أنهم تعلّموا فنالوا شهادات عُليا، أو امتهنوا حِرَفًا، تجدهم عندئذ صادقين في تعاملهم، وغدت هذه الأسرة مصدر سعادة للمجتمع، وهذه نتيجة طبيعية عندما أُفْرِغَت تلك الشهوة في هذه القناة النظيفة.

لكن لو انحرف الشباب بغرائزهم نحو الزنا، ونحو إشباع هذه الشهوة بعيداً عن الزواج، فلا بد أن تقع الأمراض التي تسمعون عنها ؛ أمراض الإيدز و تكثر المشاكل، والانحرافات، وحالات الطلاق، والشقاء الزوجي، وينفتح باب الجرائم واسعا، هذه كلها بسبب خروج الإنسان عن منهج الله.

فما هو الذنْب ؟ هو مركبة فيها محرّك ولها مقود، المقود هو الشرع، المقود هو الاختيار، والشرع هو الطريق، والمحرّك يعطيك قوة اندفاع، قوة الاندفاع من دون طريق تتحطّم السيارة، ومن دون مقود مشكلة، فالمقود هو الاختيار، والطريق هو المنهج، فما دُمت أنت توجّه المركبة لكي تبقى على الطريق المعبّد فأنت في بحبوحة، وفي يسر، وفي أمان.

إذاً ما هو الذنب ؟ هو وجود شهوة وخروج عن المنهج، أما المركبة لو لم يكن فيها محرّك فليس هناك مشكلة، لكن هذا المحرّك فيها، وهو يعطيها قوة اندفاع، هذا الاندفاع يحتاج إلى طريق، يحتاج إلى مقود، وأنت مخيَّر بالمقود، والطريق هو الشرع، فإذا أبقيت المركبة على الطريق المُعَبَّد نجوت وسلمت، أما إذا غفلت، فالغفلة تسبّب انحراف المركبة عن الطريق الصحيح.

فالذنب في أصله هو وجود شهوة في الإنسان، والمنهج خرج عنه بسبب غفلةٍ، فالغفلة عن المقود، والخروج عن الطريق مع وجود هذه الشهوة هو الذنب بعينه، فحبُّ المال شهوةٌ، إذا حسُن التوجيه ؛ كَسَبه من حلال، وأنفقه في الحلال، لكن إذا قام باغتصاب المال، فقد أكل المال بالباطل، وعندئذٍ لا بد من العقاب، ما هو العقاب ؟ هو الآثار المدمِّرة للشهوة التي أخرجت صاحبها عن منهج الله عزّ وجل.

لكن ربنا عزّ وجل رحمةً بالإنسان قال له: أنا أعطيتك الشهوة، ومع الشهوة أعطيتك المنهج، وإذا زلّت قدمك فقد فتحتُ لك باب التوبة، وأوسعت لك باب الاستغفار، فما عليك إلاّ أن تعود إليّ، وأن تنيب إليّ، و إني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا.

" إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهّرهم من الذنوب والمعايب".

فأنت فيك شهوة، ولديك منهج قويم، ومقود تمسك به، ولو غفلت لحظةً وخرجت بك المركبة عن الطريق الصحيح، فمن الممكن أن تعود إليه، وترفعك رافعة وتضعك مع المركبة على الطريق، وكلّما ابتعدت عن الطريق تحتاج إلى قوّة أكبر كي تعيدك إلى الطريق.

إذاً: هذا هو الذنب، فالحذر الحذر، فإن أخذ الله لمن لم يرتدع أليم شديد.

حتى كلمة (منتقم)، ما معنى منتقم ؟ أيْ ينتقم من عباده الجامحين ليعيدهم إلى الطريق الصحيح، لا ليدمرهم و يسحقهم، وكلمة منتقم بحق الإنسان قد لا نرضاها، ولكنها إذا عُزيت إلى الله عزّ وجل فهي تعني أنّ المنتقم أن يعاقب عباده العاصين ليعيدهم إلى الطريق الصحيح، ويستقيموا بعد ذلك، إذاً:

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ)

أيْ أنّهُ ما أمرك أن تتوب إليه إلا ليقبلك، وما أودع فيك الشهوة وهو يعلم أنه قد تزلّ قدمك، إلا سمح لك أن تتوب.

إذاً التوبة من لوازم الذنب، فالمؤمن مذنبٌ تواب، كلّما زلّت قدمه، كلّما قصّر، كلّما انحرف، كلّما غفل يقول: يا رب ليس لي إلا أنت. فعلى الإنسان أن يعوّد نفسه أن يكثر من التوبة.

((إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرّةٍ))

[سنن ابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ومعلوم أنّ النبي عليه الصلاة والسلام قدوةٌ لنا، لكن ذنبه غير ذنوبنا، فهو كلّما عرف الله في درجة، ثمّ ارتقت معرفته، رأى أن المعرفة السابقة تقصير في حقّه، وهناك تفسيرات دقيقة جداً للذنب في حقّ الأنبياء، ولهم تعاريف خاصّة بهم لا مجال لبيانها الآن، أما نحن إذا فعلنا شيئاً مخالفاً للشرع فهذا ذنب، وهو عمل عاقبته وخيمة، فمن هو العاقل ؟ هو الذي لا يعمل عملاً يندم عليه، لأن لكل سيئةٍ عقاباً.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ)

مرّ إنسان على رجلٍ يمتطي دابّة، فلمّا قرأ: **"غافر الذنب "**، قال: **" قل يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي"**، فلمّا قلت له: **" قابل التوب "** قال: قل: **"يا قابل التوب تقبّل توبتي "**، قال: **" فلمّا قلت شديد العقاب "** قال: **" قل يا شديد العقاب اعف عني "** قال: **"فلمّا قلت ذي الطول "** قال: **" قل يا ذا الطول طل عليّ بخير "**، فقمت إليه.

فغافر الذنب، اللهمّ اغفر لي ذنبي، قابل التوب، اقبل توبتي، شديد العقاب، اعفوا عني، ذي الطول، يا رب أعطني من خيرك ومن بركتك.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ)

فقرات هذه الآيات متلازمة، أيْ أنْ تقول: الله غفور رحيم، من دون احتياط، من دون خوف، من دون توبة، هذا فهم خاطئ، غفور رحيم لكنّه شديد العقاب، انظر إلى آيات الدرس الماضي:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ(53)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمّ لا تُنْصَرُونَ(54)وَاتّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ(55))

(سورة الزمر)

انظر مع:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

تجد أن:

(يَأْتِيَكُمْ العَذَابُ بَغْتَةً)

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ(50))

(سورة الحجر)

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ)

شَدِيدِ الْعِقَابِ

إذا لم ترجع في الوقت المناسب، ولم ترجع قبل فوات الأوان، ولم تتب إلى الله توبةً نصوحًا، فهو شديد العقاب، أي بقدر ما أنّ الله رحيم فهو شديد العقاب أيضا، فالمؤمن دائماً بين حالين، الحال الأول حال الخوف من الله، والحال الثاني حال الرجاء، فإذا غلب خوفه على رجائه اقترب من اليأس، وإذا غلب رجاؤه على خوفه اقترب من الانبساط، الانبساط موقف منحرف في علاقة المؤمن بربّه، أي أنه تساهل، وأخذ حريّته، ترك الخوف، ترك الوجل، لكن المؤمن بين الخوف والرجاء، يعبد الله خوفاً وطمعاً، رغباً ورهباً، في توازن دائماً.

(غَافِرِ الذَّنْبِ)

فهناك شهوة، وهناك منهج، وأنت مخيَّر، غفلت قليلا فلا تقل: لا بأس، لا، و لتعلم أنك حينما غفلت خرجت عن المنهج وهذا هو الذنب، وإذا لم تقبل توبة الإنسان فهذه مشكلة كبيرة حقا، إذا وقع الإنسان في ذنب وليس بعده توبة ولا مغفرة فقد انتهى أمره إلى بوار، وابتلي بحال أشد، فقد كان في الصغائر فينتقل إلى الكبائر، السبب لأنه يئس، ولكن ربنا عزّ وجل قرن الذنب بالتوبة، كلّما أذنبت يا عبدي غفرت لك، كلّما أذنبت وتُبت من هذا الذنب تبت عليك وقبلته منك، المؤمن مذنبٌ توّاب، أيْ أنّه كثير التوبة يتوب عند كل ذنب، وعند كل غفلة، وعند كل تقصير، هذا معنى:

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ)

تصوّر لو أن الله عزّ وجل ليس تواباً ـ افتراضاً ـ وإنسان زلّت قدمه، ماذا يفعل ؟ من معصية إلى أكبر منها، حتى ينتهي به الأمر إلى جهنّم، لكن رحمة الله بنا أنه أودع فينا الشهوات، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، ووضع المنهج، وأعطانا الاختيار، وكلّما خرجت هذه المركبة عن الطريق أعدناها إليه، فإذا وقعت مشكلة فهذه المشكلة يُصَحّح مسارها.

(شَدِيدِ الْعِقَابِ)

الله عزّ وجل عقابه شديد لأنه خبير، يعرف الإنسان من أي جهةٍ يتألّم منها، فمثلاً إذا نَمَتْ عند الإنسان كرامته، أو مكانته الاجتماعيّة، فهذا لا يعاقب بفقد المال، بل يعاقب أحياناً بجرح كرامته، المتكبر لا

يعاقب بإتلاف ماله، بل يعاقب بإهدار كرامته أحياناً، وإذا كان المال أثيراً عند الإنسان فهذا يعاقب بفقد ماله، بإتلاف ماله، فربنا عزّ وجل يعلم بالضبط ما الذي يؤلم الإنسان، فيأخذه من مأمنه، هذا معنى.

(شَدِيدِ الْعِقَابِ)

أحياناً مرض، وأدوية ما تزيد من حدةِ هذا المرض، وأدوية هذا المرض تزيد من حدة ذاك، تجد الآلام شديدة، ولا يُسمح بإجراء العمليّة، فقلبه لا يتحمّل البنج، وتجد الآلام لا تحتمل، فربنا إذا عالج مرض الإنسان فعلاجه شديد، يعالجه علاجا يرجعه إليه بالتمام والكمال.

(شَدِيدِ الْعِقَابِ)

أيْ أنّ عقابه أليم، ومثال ذلك أنه إذا أساء طالب في الصف فإن المعلم يُودّبه بضربة خفيفة، فإن لم يتأثر وينزجر، ورجع وهو يضحك، فهذا العقاب الخفيف يجعله يزداد تماديًا، لكن إذا تلقّى عقابًا أليمًا إلى حدّ أثّر فيه وأوجعه فإنه يعلم عندئذٍ أن النظام حق، فربنا عزّ وجل إذا عاقب فعقابه شديد.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

جزء من إيمانك خوفُك من الله عزّ وجل، فالله عنده أمراض لا تعد ولا تحصى يسلّطها على من يستحقها، عنده أمراض نفسيّة، وعنده أحياناً حزن يسلطه على العبد، فتجد أن الحزن أكل قلبه، وكذلك عنده همٌّ والهم يسحق الإنسان، والهموم والأحزان ربّما كانت أشدّ من الأمراض، وقد يسلط عليه الخوف الذي لا يحتمل، أو القلق، أو يصيبه اختلال نفسه من داخلها الأمراض النفسيّة أو يبتليه بفقر مدقع، وذل وقهر، أو يسلط عليه أمراضا جسمية، وهذه كلها علاجات يعالج بها ما عند الإنسان من أمراض الخروج عن المنهج الرباني.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ)

ذِي الطَّوْلِ

ذي الطول هنا: ذي الفضل، فمعنى الطول أيْ طال فضله كل مخلوقاته، أحياناً الإنسان يكون ماله قليلًا جداً، فلو أراد أن يتودّد للناس بماله فلن يستطيع، لكن الإنسان الأكثر مالاً فماله يطول كثيرًا من الناس، ولكنه لا يستطيع كل الناس، لكن ربنا عزّ وجل هو الخالق، وهو الغني، فخيره يطول كل الخلق، إنسان يقول لك: والله لم أعد أتحمّل، طاقة الاحتمال قلّت، الشاغر امتلأ، الميزانية أُغْلِقَت، فتحس أن الإنسان محدود، لكن ربنا عزّ وجل كن فيكون.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ، وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِيكُمْ إيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

ذي الطول أيْ أنّ عطاءه واسع كثير يطول كل المخلوقات لأنه:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

ليس من مسيّر آخر، وليس من إله آخر، الأمر كله بيده، هذا الإيمان الحق، والمؤمن لا يرى مع الله أحداً، لا يرى مع الله أحدًا إطلاقاً، فليس في الوجود إلا الله، والله كبير.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ)

تلازمُ فقرات الآية دقة وإعجاز:

هو غافر الذنب إذا أذنبت، كما أنه قابل التوب إذا تُبت، إذا أذنبت، ولم تتب فهو شديد العقاب، فانظر إلى التلازم بين الفقرتين.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ)

أما إذا وقع ذنب ولم تصدر عن المذنب توبة، فالفقرة الثالثة:

(شَدِيدِ الْعِقَابِ)

أذنبت وتبت، فليس من عقاب، ودخلت في إطار:

(ذِي الطَّوْلِ)

جاءت الخيرات في أربع حالات ؛ ذنب، ثم توبة، ذي الطول، ذنب بلا توبة: شديد العقاب، والثالثة شخص أذنب، ولم يتب فلا بد من عقاب، الرابعة شخص أذنب، وتاب فيتعرض لكرم الله، و يصيبه فضل الله، أجل إذا أذنبت، وتبت فالفضل من الله عميم، والخير وفير، والسعادة التي تملأ القلب مظلتُك، أما إذا أذنب، ولم يتب فله عقاب أليم، فأنت إذًا مخيَّر.

أحد الأعراب قال لرسول الله صلى الله عليه و سلم: **" عظني ولا تطل "** - يعني أوجز- قال:

((قل آمنت بالله ثمّ استقم))

قال الأعرابي: **" أريد أخفّ من ذلك "** ـ هذه ثقيلة عليَ ـ فقال له اللهمّ صلّ عليه:

((إذاً فاستعدّ للبلاء))

[ورد في الأثر]

فالأمر واضح جداً مثل الشمس، هذا كلام أقوله لنفسي، ولكم في آنٍ واحد، تحب أن تستقيم فأهلاً وسهلاً، الاستقامة ثقيلة عليك، إن لم تستقم فهناك سلسلة من المتاعب لا يعلمها إلا الله، تبدأ بالجسم، وبالزوجة، وبالأولاد، وبالعمل، وبالمشكلات، بالتجارة، بالعمل المهني والوظيفي، وبالتعبير العامي، من هنا سد، ومن هناك سد، وهناك خطر، وهناك خطأ، إن استقمت فلمصلحتك، وإلا تفضّل وتحمّل متاعب الحياة.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ)

ترتيب رائع، غافر الذنب مقابلها ؟ الذنب يقابله العقاب، أما مع التوبة فيقابله " ذي الطول "، أي إن أذنبت، ولم تتب هو شديد العقاب، إن أذنبت وتبت إلى الله عزّ وجل ذي الطول، وبعد هذا.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

أنتَ لِمَ لا تتوب ؟ خائف ممَّنْ ؟ مَن إله إلا الله ؟ وإذا كان الإنسان مقيمًا على معصية، وهو خائف من جهة أن يغضبها، معنى هذا أنه مشرك، ما من إله إلا الله عزّ وجل، فأنت ما الذي يمنعك من أن تتوب؟ هل تخاف أحداً مما سوى الله ؟

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

العلاقة كلها معه، أمرك كله بيده، أساساً ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه بيده، بيده مقاليد السماوات والأرض، بيده الأمر كله.

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

إذا كانت هناك موانع تحول من التوبة، وموانع من الاستقامة، وخوف من جهة، فمعنى هذا أن الإنسان في شرك، وأنه لديه خطأ في التصور وانحراف في العقيدة.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

لو فرضنا أن إنسانًا أُجبر على معصية، فماذا بعد الموت ؟ بعده حياةٌ أبديَّة، والمصير إلى الله، الدنيا دار ابتلاء لكن الآخرة دار جزاء، فالمصير إليه، إذاً ليست هناك مشكلة، حتى لو فقد إنسان حياته من أجل طاعة الله عزّ وجل فهو الرابح، لأنّه إليه المصير، ولو أن الإنسان ضحّى بحياته من أجل طاعة الله عزّ وجل، ودخل الجنّة فهو الرابح الأكبر، قال سبحانه:

(إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

آية في إيجاز وإعجاز:

فهذه الآية على إيجازها بليغة جداً.

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(2)غَافِرِ الذّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

غافر الذنب وقابل التوب معها، أي أنه عندما أودع فيك الشهوات علم أنه قد تزلّ قدمك، ففتح لك باب التوبة.

بقي علينا في الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (02-20): تفسير الآية 4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-06-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة غافر، ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ

1 - الجدال نشاط عقلي:

الجدال نشاطٌ عقلي، العقل في الأصل أودعه الله في الإنسان ليكون أداة معرفة الله، فلو أن الإنسان أعرض عن طريق الله عزّ وجل، واتبع طريق الدنيا، وطريق الملذات والشهوات، فلديه عقل وقوة إدراكية، وبإمكانه أن يستغل هذا العقل ويسخره لشهواته، ولمآربه، من هنا يأتي الجِدال، لماذا قال الله عزّ وجل:

(وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا(54))

(سورة الكهف)

لأن الإنسان في الأصل أعطي قوة إدراكية، أعطي عقلاً، بهذا العقل يسأل ويجيب، يستفهم، يدرك، يوازن، يقارن، يحاكم، يتصور، يتخيّل، ولهذا العقل قوة إدراكية كبيرة جداً، بل لست مبالغاً إذا قلت: إن أعظم شيءٍ مخلوقٍ في الكون هو العقل البشري، وهو عاجزٌ عن فهم ذاته.

هذا العقل البشري في الأصل الله زوّد الله به الإنسان مِن أجل أن يتعرف إلى الله، فماذا فعل المعرض عن الله ؟ ماذا فعل الذي أراد الدنيا ؟ أحب الدنيا، وأراد شهوات الدنيا، وأراد أن ينغمس في الملذات والمتع الرخيصة، رأى لديه عقلاً، وهذا العقل بإمكانه أن يفلسف انحرافه، وبإمكانه أن يغطي عدوانه بكلامٍ معسول، الكافر متفلسف دائماً، يرتكب أكبر الجرائم، ويقنعك أن عمله هذا مشروع، ويدّعي أنه عمل مشروع، فكيف أتيح له أن يغطي انحرافه ؟ كيف أتيح له أن ينفي رسالات الأنبياء ؟ عن طريق عقله التائه.

ربنا عزّ وجل أشار في آيات أخرى إلى أن العقل قد يضل، وقد يغتر، وقد يطغى، قال:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20)ثُمَّ نَظَرَ(21)ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(22)ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(23)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(24)إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ(25)سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(26)وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(27)لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ(28))

(سورة المدثر)

2 ـ العقل البشري يجادل حين يسيء الإنسان استخدامه:

إذاً العقل البشري متى يجادل ؟ إذا أساء الإنسان استخدامه، منحك الله العقل من أجل أن يرقى بك إلى الإيمان بالله، من أجل أن تتعرف إلى الله به، ولكن الإنسان الشارد أراد الدنيا، فمضى لاهثا وراء الشهوات، والمُتَع الرَخيصة، ثم هو يفكر بعقله تفكيرًا أحمق لفلسفة المعصية، لتغطية المعاصي، للإيقاع بأعدائه، لتكذيب رسل الله عزّ وجل، للطعن بإخلاص الأنبياء والمرسلين، للتشكيك في معجزاتهم التي جاؤوا بها بما فيها كتب السماء، للتقليل من أهمية الآيات الكونية التي تدل على عظمة الله عزّ وجل، للطعن بكل داعيةٍ مخلصٍ أراد نشر الحق من خلال دعوته وسلوكه ومن خلال علمه.

هذا العقل البشري أداةٌ خطيرةٌ جداً، إما أن تُوظَّف للوصول إلى أسمى هدفٍ وغاية، وإما أن تودي بصاحبها إلى الدركات السُفلى في النار، كهذا المحرك الذي يوضع في المركبة، إنه يوضع في الأصل ليدفعها إلى أهداف صاحبها المشروعة، فإذا أراد صاحب المركبة أن ينحرف، فهذا المحرك يزيده هلاكاً لو خرج عن الطريق الصحيح، فيصير المحرك أداة هلاك.

3 ـ الجدال تشكيك في القيم الدينية:

فيا أيها الإخوة كلمة يجادل التي وردت في الآية تعني أن الإنسان يشكك في القيم الدينية، ينحو منحى السفه العقلي، فمثلاً: يقول لك عن الإنسان: إن الإنسانَ أخلاقي إذا كان ضعيفًا، أما إذا كان قويًا فلن يكون أخلاقياً، يطعن كذلك بكل القيم الدينية، يقول لك: هذا الدين شعور الضعف أمام قوى الطبيعة، والشعوب المتخلفة كلها تؤمن بالدين، أما الشعوب المتقدمة التي اتخذت العلم ديناً لها فلا تعبأ بالدين، فهذا الكلام كلام فيه جدل، فيه قلب الحق إلى باطل، فيه قلب الباطل إلى حق، كل شهواته غير المشروعة يفلسفها العقل البشري إذا ضل وانحرف، ولم يعمله صاحبه فيما خُلِقَ له، ويصبح أداة لتغطية كل انحرافٍ وكل جريمة.

إذاً:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ)

4 ـ آيَات اللّهِ:

تعلمون أيها الإخوة أن الآيات جمع مفردها آية، والآية العلامة، فهي علامةٌ على وجود الله، علامةٌ على كمال الله، علامةٌ على وحدانية الله، فالآيات التي تدل على الله عزّ وجل كثيرة، فالكون هذا كله آيةٌ دالةٌ على وجود الله وكماله ووحدانيته، وكلام الله عزّ وجل آياتٌ قرآنيةٌ تعرّفنا بالله عزّ وجل - أي علامات مقروءة - وحينما يقع الزلزال، وحينما تحدث الفيضانات، وحينما تأتي بعض الكوارث الطبيعية لأناسٍ ضلوا وأضلوا، وانحرفوا وانغمسوا في الملذات وظلموا، تشعر أن هذه الأفعالَ أفعالُ الله عزّ وجل أيضاً، وهي آياتٌ دالة على عظمة الله عزّ وجل.

إذاً: كلمة الآيات تعني الآيات الكونية، وكلمة الآيات تعني الآيات القرآنية، وتعني كذلك الآيات التكوينية، أي أفعال الله عزّ وجل، فكلها تدل على عظمة الله، فالذي يشكك بمصداقيتها، والذي يشكك بدلالتها، والذي يشكك بقيمتها، والذي لا يعبأ بها، والذي لا يلتفت إليها أشارت إليها الآية التالية:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللّهِ إِلّا الّذِينَ كَفَرُوا)

5 ـ الكافر هو المجادِل في آيات الله:

هذه الآية دقيقة جداً تعرفنا أن أصل الدين معرفة الله، فأنْ يكفر إنسانٌ بالله شيءٌ طبيعيٌ جداً ومن لوازم الكفر بالله أنْ يستخف بآياته ؛ إن الكونية، وإن القرآنية، وإن التكوينية، فأنت الآن أمام مؤشر، مؤشر دقيق، فالذي يعظم آيات الله فهذا التعظيم علامة إيمانه، والذي لا يبالي بها، ويقلل أهميتها، يجعلها خارج اهتمامه، فهذا من علامات الكفر.

والكفر كما تعلمون أيها الإخوة تكذيبٌ وإعراضٌ، وبشكل أو بآخر يعني عدم رؤية عظمة الله عزّ وجل، أو قل: الكفر عمى يحجب صاحبه عن رؤية عظمة الله.

ما الذي يملأ عين الكافر وقلبه ؟ أشخاص أقوياء، أو أشخاص أغنياء، أو أشخاص يتمتّعون بقدرٍ عالٍ من الجمال، فهذا عندئذ إما أنْ أنه يؤلّه الأشخاص الذين نالوا حظوظاً كبرى من الله عزّ وجل، أو يؤله أشخاصاً آتاهم الله قوةً، أو يؤله أشخاصاً أتاهم الله مالاً، فهو ذائبٌ في هؤلاء محجوب عن الإيمان، وكان عليه أن يرى من خلال هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى هو القوي، وهو الغني، وهو الجميل، وهذا هو الإيمان.

الإيمان أن تتجاوز الخلق إلى الخالق، أن تتجاوز النعمة إلى المنعم، أن تتجاوز النظام إلى المنظِّم، أن تتجاوز التسيير إلى المسيّر، أن تتجاوز الفاني إلى الباقي.

الفرق بين المؤمن والكافر:

وإذًا فما الفرق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر أمام شمس، يقول لك: هذه شمس، وهذا قمر، وهذه جبال، وهذه نجوم، وهذه أزهار، وهذه أطيار، وهذه أسماك، فهو لا يستطيع أن ينكر هذا الكون وما فيه من عظمةٍ، ومن جمالٍ، ومن نفعٍ، ومن خيراتٍ لا يحصيها إلا الله عزّ وجل ؟ أجل لا يستطيع، ولكن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، أن المؤمن يخترق الكون إلى المكوّن، يخترق النعمة إلى المُنعم، يخترق النظام إلى المُنَظِّم، يخترق التسيير إلى المسيّر ؛ أما الكافر فيقف عند الكون، وهذا مبلغه من العلم، هو مع النعمة لا مع المُنعم، هو مع الكون لا مع المكوّن، هو مع النظام لا مع المنظِّم.

الله سبحانه وتعالى أخبرنا وقال:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

وقال الله عزّ وجل يصف أهل الكفر:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(سورة الروم)

فأبسط مثل: قد يستمع الكافر لنشرة جوية، فيقول لك مثلا: سيتعرض القطر إلى منخفض جوي متمركز فوق قبرص، وسيصل بعد عشرين ساعة، سرعته كذا، وهو منخفض مُمْطِر، لا يخطر في باله أبداً إلا أنه مُنْخَفَض، وبعد أيام هناك أمطار، ولكن المؤمن يرى من خلال هذه النشرة الجوية أن هذا المنخفض رحمة الله عزّ وجل، وأن الله هو الرزّاق، هو الذي ساق الأمطار لينبت النبات، ليكون متاعا لنا ولأنعامنا.

فالفرق فرق رؤية، فالكون هو كون، لا أحد بإمكانه أن ينكر وجود الكون، ولا مظاهر الكون، ولا خصائص الكون، ولكن الفرق الدقيق بين المؤمن وبين غير المؤمن هو أن المؤمن انتقل من الكون إلى المكوّن، من النعمة إلى المُنعم، من التسيير إلى المسيّر، من النظام إلى المنظِّم، من الربوبية إلى الرب.

هناك نقطة مهمة جداً، ألا وهي أن الإنسان إذا أراد أن يفعل ما يشاء مما يحلو له، إذا أراد أن يقتنص الشهوات، ويفنى في خضمها، هذا الاتجاه نحو التمتع في الدنيا والانكباب على شهواتها لا يتناسب مع معرفة الله ومع الانضباط بشرعه، فلما يصر على المعاصي تجده يقلل من قيمة الدين.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

هو نفسه، كأن هناك علاقة ترابطية، إن كذّبت بالدين فعملك سيّئ، وإن كان عملك سيّئاً فلابد من أن تكذب بالدين.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

فالمرءُ بين حالين ؛ إما أن تتبع الهوى، وإما أن تتبع الله عزّ وجل فيما أمر ونهى، أي إما أنّ الإنسان رحماني، وهذا فضلٌ كبير، أو أنه شيطاني، وهو إما أن يتحرّك بوحيٍ من إلهامات الملائكة، وتوجيهات الأنبياء، وكلام الله عزّ وجل ؛ أو يتحرك بوسوسةٍ من الشياطين، وبدافعٍ من شهواته وغرائزه.

إذًا: عندنا نموذجان اثنان لا ثالث لهما.

فلسفة الكفار في الدنيا:

إن الإنسان حينما أتاه الله عقلاً آتاه إياه ليتعرف من خلاله إلى الله، ليرقى به إلى الله، أما حينما اتجه إلى الدنيا، وأصر على شهواتها، سخّر عقله ليعنيه على فلسفة معصيته، وعلى إسكات خصومه، وعلى التحلل أو التحرر من كل قيدٍ أخلاقي، ومن كل قيدٍ اجتماعي، ومن كل قيدٍ ديني، يقول لك: الأخلاق نسبية، بذكاء يقول لك: يا أخي، ما تجده هنا حراماً أو عيباً، تجده في مكان آخر مقبولاً، إذاً الأخلاق عبارة عن أعراف.

حينما ينفي الإنسان القيم الثابتة في المجتمع البشري على مدى العصور والدهور فهذه أخطر فكرة، إنها فكرة خطيرة جداً، ثم هو يدّعي أن ليس في الأخلاق شيء ثابت، أي كل المجتمع الذي ألف أن هذا عيب، وهذا مقبول، بينما تجد مجتمعًا آخر يرفض ما أقره المجتمع الأول، فالعقل البشري حينما يعمل ببرمجة الشهوات ؛ لا ببرمجة الحقائق، حينما يتحرك الفكر البشري ليغطي الانحرافات والمعاصي يكون الجدل.

مثلاً: إنسان يحب الاختلاط، اسمعه ماذا يقول لك ؟ يتفنن في الحديث عن الاختلاط، وعن ميزات الاختلاط، فيقول لك: يهذب المشاعر، والمجتمع الذي فيه امرأة يصبح كل فرد فيه ينتقي كلماته اللطيفة، ويتحلى بأناقة خاصة، ويلهث وراء التنقيب عن ميزات الاختلاط، ولا يقول لك: إن هناك آلاف اللقطاء الذين لا أباء لهم من نتائج الاختلاط، هذا يغفله، اللقطاء يغفل أمرهم، أما التهذيب وانتقاء العبارات هذه

يبرزها، وهذه هي المجادلة، فهو يبحث عن منافع موهومة للمعاصي ويبرزها، يقول لك: الدين يجعل الإنسان متخلفًا، كل شيء حرام في حياة المسلم !! بيت المسلم مثل القبر، لأنّ كل لهو مثلا حرام، فهذه هي المجادلة.

إذا ضبط الأب أولاده يقول عنه: قمعهم قمعًا، وإذا أرخى الأعنّة لميولهم فهو عندهم أطلق الحرية لبناته، يقول لك: هذا أب ديموقراطي، إذا قد أطلق الحرية للبنات أصبح ديموقراطيًا، أما إذا ضبطهم بالأخلاق، وتابعهم صار قمعيًا، وبين قمعي وبين ديموقراطي مسافة كبيرة، هذه فلسفة الكفار.

هو يفلسف لك الزنا فيقول لك: هي راضية، يفلسف لك الربا، فيقول لك: هل من المعقول أن أجمِّد المال، ولا أربح منه ؟ يفلسف لك كل المعاصي.

دائماً المجتمع الكافر فيه كلام مزخرف يغطي كل المعاصي، هذه المجادلة، فهو يشكك بالقيم الدينية، وإذا كان انحرافه كبيراً فليس له إلا أن يشكك بوجود الله عزّ وجل، فيأتي لك بشبه مثل: فمَنْ الذي مات ورجع، وقال لك: هناك آخرة، فقد قال المعري:

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسرٍ أو صح قولي فالخسار عليكما

***

قال أحدهم لآخر: المصيبة ألا نجد جنة في الآخرة، ونكون قد تعبنا بهذه الدنيا على غير شيء، هذه المجادلة، أي أنّها سخريةٌ، وتشكيك، وعبث، واستهزاء بكلام الله إذْ لم يصدقه، فإذا قلتَ له: الله عزّ وجل يقول لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

يقول لك: أين أذهب بعيوني ؟ هذا كلام لا يسمع، ألم يقل الله عزّ وجل:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من الآية 286)

فتجده يضعك بزوايا ضيقة: وماذا عليّ أن أفعل ؟ لا بد من الربا، ولابد من إطلاق البصر، ولابد من الاختلاط، لابد من فعل كذا وكذا، نحن يجب أن نعيش واقعنا، يجب أن نتفاعل مع الواقع، يجب أن نُدرك معطيات البيئة.

أحياناً يقول لك: بيئة، وأحياناً واقع، وحينا يقول: تفاعل، وحينا آخر علاقة ترابطية، هذه هي المجادلة، فلسفة عقيمة، وعبث بالعقول، لكنّ الله عزّ وجل أعطانا منهجًا، وهذا كلام خالق الكون، فالحذر الحذر من التمادي.

أذكر لكم واقعةً هي صغيرة جداً، ولكن لها معنى كبير، إنسان يعمل في إصلاح السيارات، أمسك بشيء مما وضعته الوكالة أو المصنع لمحرك السيارة، ونزعه، وألقاه في الأرض، وقال: هذا ليس له لزوم، قلت له وقتها: ليس عندي استعداد أن استمع إليك إطلاقاً، شركة عمرها مئة سنة، وعندها خمسة آلاف مهندس، ويمكن أن تكون أنت على صواب، وهي على غلط ؟ مستحيل، فأنت لا تقبل من إنسان يعمل حديثاً في تصليح السيارات، ويلغي شيئًا بالسيارة كان المعمل قد وضعه، إنّ المعمل مبني على خبرة، مبني على علم، مبني على تجارب، لديه متابعة، مجموعة من المهندسين، فهل من الممكن لهذا العامل البسيط أن يكون رأيه أصوب ؟ أنا لا أصدّق، وأرفض ذلك واقعا و عقلاً.

الحَذَرَ الحَذَرَ من الإيمان الإبليسي

لتعلم أيها الإنسان أنّ هذا كلام الله عزّ وجل، كلام خالق الكون، إذا كان ليس عندك هذا اليقين، فقف، وابحث عن دليل قطعي على أن هذا الكلام كلام الله عزّ وجل، فاسلك الطريق الذي لا بد منه، إذ لابد من معرفة الله، هذه المعرفة السطحية التي لا تثمّر استقامةً، أعجبني إنسان والله، وأدهشني إذ سمّى إيمان أولئك الناس: **" إيمان إبليسي"**، لأن إبليس قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص: من الآية 82)

إبليس هل أنكر وجود الله عزّ وجل ؟ لا، خاطب الله عزّ وجل وقال له: رب، وقال له: فبعزتك، ومع ذلك هو إبليس من قبل مقالته ومن بعدُ، فماذا يفعل ؟ كل معصية وموبقة.

كل إنسان إن لم يفضِ به إيمانه إلى طاعة الله فهذا إيمان إبليسي، ليس له قيمة إطلاقاً، الإيمان الصحيح هو الذي ينقلك إلى الطاعة، هو الذي يترجم بسلوك، هو الذي يفضي إلى مواقف، إلى عطاء، إلى منع، إلى غضب، أن تغضب لله، أن ترضى لله، أن تُعطي لله، أن تمنع لله.

لو أن إنسانًا رأى الشمس ساطعة في كبد السماء، وفكر، وفكر، وفكر، وفكر، ثم قال: الشمس ساطعة، خيرًا إن شاء الله، فهي ساطعة، أقررت بها أم لم تقر فهي ساطعة، إن قلت: ساطعة فهي ساطعة، وإن قلت: الشمس ليست ساطعة، فكلامك لا قيمة له لأنها ساطعة، فالذي يكتفِ بالإيمان بلسانه فقط ماذا فعل؟ نقول له: أنت ماذا فعلت ؟ اكتفيت أن تفوهت بكلمة الإيمان، وهذا الإيمان لم يترجم إلى سلوك ؛ بيتك غير إسلامي، عملك غير إسلامي، جوارحك منطلقة عشوائيا، لسانك أفعى تلدغ، بيتك غير منضبط. هذا انطبق عليه الحديث الشريف:

((وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللّهِ))

[من سنن الترمذي عن شَدَّادِ بْن أوْسٍ]

المجادلة استخدام العقل في غير ما خُلِقَ له:

إذاً: المجادلة عملية استخدام العقل في غير ما خُلِقَ له، بينما خُلِقَ، وأودع في الإنسان ليكون أداة معرفة الله، فإذا استخدمته للطعن بالتشريع الإلهي، للطعن بمصداقية القرآن، للتشكيك بقيمة الوحي، للتشكيك بكمال الأنبياء، للتشكيك بالدعاة الصادقين، إذا أردْت أن تستخدم العقل للتشكيك وللطعن فهذه هي المجادلة، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم، قال تعالى:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللّهِ إِلّا الّذِينَ كَفَرُوا)

هنا معنى المجادلة، التكذيب، التشكيك، الطعن، التقليل، البحث عن المثالب، وحاشا أن توجد في كتاب الله، أما بالنسبة للمؤمن فعلى سبيل المثال، فالمؤمن ليس معصوماً، ولكن يغلب عليه الإيمان، يغلب عيه الورع، يغلب عليه حب الله عزّ وجل، إذا كان له قريبان ؛ قريب مؤمن وقريب غير مؤمن، تجد أن القريب المؤمن لا يرى من هذا المؤمن إلا الفضائل، القريب غير المؤمن إذا عثر على زلةٍ صغيرة، أو على غلطٍ قليل، أو على تقصير طفيف، هذا التقصير الطفيف يكبّره ويكبره، ويبالغ به ليجعله مجرماً، ويصوره تصويرا بشعا، لأن المؤمن حجة على غير المؤمن، فإذا أخطأ المؤمن، تجد أن أهل الدنيا يسارعون إلى نشر هذا الغلط، وإلى تكبيره وتفخيمه، فما الدافع إلى ذلك ؟ الدافع إلى ذلك أن الكافر عنده قلق عميق، وعنده شعور بالذنب مستمر، فإذا رأى المؤمن يغلط، فهذا الغلط يتخذه حجةً، فيقول على الفور: ألم أقل: إنّ كل أصحاب الدين هكذا، يكون له قريب له التزام ديني قليل، إذا غلط معه قريبه يتهم كل أهل الدين بالخطأ.

يستخدم الإنسان عقله لغير ما خلق له، يستخدمه أداة لتبرير غلطه، يستخدمه أداة لفلسفة المعصية، وتستخدمه كأداةٍ لتغطية الانحراف، إذا غَطّيْتَ الانحراف، وفلسفتَ المعصية، وبررت التقصير، فهذه هي المجادلة، وذو الجدال لا يستطيع ذلك إلا أن يطعن بالأنبياء، أن يطعن بالوحي، يقول لك: الوحي منام، هكذا تراءى للنبي، أو قد يسبغ هؤلاء وأهل الكفر على الأنبياء طابع العبقرية ليقللوا من شأن الوحي، فيقولون: يا أخي هذا محمد عبقري، ليس محمدً رسولاً، بل هو عبقري، وهذا بحث آخر، لكن الحق كل الحق أنّ محمداً رسولُ الله يوحى إليه، لا ينطق عن الهوى، هذا وصف الله له، وهذه حقيقة لا تعمى أمامها الأبصار، و لكن تعمى القلوب التي في الصدور، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

قال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

الله عزّ وجل يصف النبي بأنه يوحى إليه، وبأنه لا ينطق عن الهوى، وبأنه معصوم، ومع ذلك يرغب المجادلون بإسباغ صفة العبقرية على النبي عليه الصلاة والسلام ليقللوا من قيمة الوحي، ومن قيمة العِصمة، ومن قيمة التشريع حتى ينفوا الإسلام و النبوة، و يردوا القرآن.

أو يقولون لك: إنّ النبي عليه الصلاة والسلام تعلم كل هذا العلم من بَحِيرَة ـ هذا الراهب الذي التقى به في الشام ـ فهل يعقل لطفل صغير خلال ساعة أن يتعلّم علمًا غزيرًا ؟ أو يُعقل أنّ هذا الإسلام العظيم، وكل ما فيه من علمٍ جاءنا عن طريق النبي بلقاء تم خلال هذه الساعة ؟ هذا شيءٌ مضحك.

حدثني أخ كريم، وهو أستاذٌ في الجامعة ـ دكتور في التاريخ ـ قال لي: إنه بعد تحقيق وتمحيص وجد أنّ: **" قصة بحيرة بقضها وقضيضها، جملةً وتفصيلاً لا أصل لها في التاريخ إطلاقاً "**، وهذا رأي عالم باحث محقِق.

التفسير العلمي المحض للظواهر الكونية نوع من الجدال:

إذا استمعت لأهل الدنيا كيف يتحدثون، في محور واحد، الطعن والتشكيك والتقليل من أهمية الآيات الكونية، والآيات القرآنية، والآيات التكوينية.

مثلاً: لو قلت له: هذا الزلزال الذي حدث في بلد يعج بالفجور و الفسق، وإلى حدّ أنّ فيه نواديَ للعراة، ويفلسفون هذا كله باسم صناعة والسياحة المتفوقة جداً، ما معنى صناعة السياحة ؟ أي انحراف ما بعده انحراف، يقول لك: لا، ليس مصيبًا، فالزلزال عبارة اضطراب يحدث في القشرة الأرضية، كما يفسره العلم، ونقول بدورنا: لا يمنع أن تفسِّر الزلزال تفسيرًا علميًا، وأن يكون هذا التفسير العلمي موظّفاً كآية من آيات الله الدالة على أنه شديد العقاب.

المجادلة، أي أنه يطعن في الآيات الكونية، أو يقلل من قيمتها، أو يطمسها، أو يغفلها، أو لا يعجبه التفسير الذي تطرحه أنت من خلالها، هذه هي المجادلة، وأهلها كلُّ خصيم مبين.

أما الآيات القرآنية فيقول لك: إنّ الصحابة اختلفوا في بعض الروايات في قراءات القرآن الكريم، فلماذا هناك قراءات ؟ ويرى أنّ في القراءات مجالاً للطعن، أو يدّعي أنّ القرآن ليست موضوعاتُهُ موحدة، فيقول لك: عجيب يا أخي، فالآيات في سورة واحدة ذات موضوعات متنوعة، ليتها كانت مرتبة بحيث تدور الآيات في السورة الواحدة حول موضوع واحد فقط، هكذا يتمنى أن يكون هذا الكتاب منظمًا، فصل عن بني إسرائيل، فصل عن الكونيات، فصل عن الساعة، فصل عن الجنة، فصل عن النار، من قال لك: إن هذا الكتاب كتابٌ علمي ؟ هو كتابٌ هدايةٍ ورَشَد، وهو مرتب ترتيبًا يسمونه بالتعبير المعاصر: سيكولوجي ـ نفسي ـ مرتب ترتيبًا نفسيًا، الإنسان في السورة بحاجة إلى آية كونية، وخبر

عن أمة سابقة، ومشهد من مشاهد يوم القيامة، وحكم شرعي، كل ذلك آخذ بعضه برقاب بعض، ومنه التكامل، فالقرآن الكريم مرتّب لا على أساس الموضوعات، بل على أساس حركة النفس، فالنفس تحتاج إلى شيء مُقْنِع، وإلى ردع، وإلى مخاطبة الوجدان، وإلى مخاطبة العقل، وإلى الأخبار الصادقة، والتفسير التاريخي الصحيح، فالنفس بحاجة إلى هذا كله في آية واحدة، لأنها في معرض تثبيت العقيدة و ترسيخ الإيمان.

كانت السورة من السور، وكأنها سور تحيط بالآيات، إحاطة سور البستان بالأشجار، فالبستان فيه أشجار مثمرة، وفيه خضروات، وفيه أزهار، فالزّهرُ ليس للأكل بل للتمتع بمنظره، والفواكه للطعام، والقمح قوت، والماء للشرب، فهذا هو البستان، فلماذا لا يوجد بستان كله ماء ؟ يقول لك: فلماذا تجد بستانًا كله أشجار حور، أو بستان كله زيتون ؟

أما البستان فهو بستان فيه زيتون، وفيه تفاح، وعنب، وجداول الماء السلسبيل، هكذا السورة، فأساس المجادلة هي عملية طعن بالآيات ؛ كل الآيات سواء منها: الآيات الكونية، والقرآنية، والتكوينية، حتى الزلازل والبراكين والحروب الأهلية لا يقبل إلا أن تفسَّر تفسيرًا أرضيًا، لا يقبل أن تكون آياتٍ دالةً على عظمة الله وعلى عدالته، كلما علّلت الأحداث الكبرى التي تجري في العالم على أن الله عزّ وجل بيده كل شيء وأنه هو المصرّف، وهذه مشيئته:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

والله عزّ وجل خبير، وهؤلاء كلهم عباده، يعاملهم وفق حكمةٍ مطلقةٍ، وفق ميزان عدلٍ كبير، فهذا التفسير لا يعجبه، بل يطعن بهذا التفسير، ويعترض، و يماري:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللّهِ إِلّا الّذِينَ كَفَرُوا)

من أصول الدعوة: لا تناقش الكافر في الفروع:

لذلك إذا كان الإنسان كافرًا بالله فلا تحاول إطلاقاً أن تدخل معه بموضوعات فرعية، فهو كافر بالأصل، أصل الدين معرفة الله، هو لا يعرف الله، إذا كان لا يبالي بكل الآيات الدالة على عظمة الله ولا يعطيها قيمةً ويصم دونها آذانه فهذا من باب أولى إهماله.

وكأنّ هذه الآية فيها توجيه لنا، فأنت قبل أن تناقشه في التعدُّد، فدائماً أعداء الدين لا يذكرون سوى التعدد: أنتم عندكم تعدُّد زوجات، لا تناقشه في تعدد الزوجات، ناقشه في وجود الله، وإذا آمن بوجود الله ناقشه في الكتاب، إذا آمن في الكتاب فعندئذ من الممكن مناقشته، وقد يستجيب لنتيجة النقاش.

لدينا في الإسلام تسلسل وترتيب: أوّلا، لا جدوى من الإيمان بالأنبياء قبل أن نؤمن بالله، ولا جدوى من الإيمان بالكتاب قبل أن نؤمن بالله، فإذا آمنا بوجود الله ؛ آمنا به خالقاً، آمنا به رباً، آمنا به مسيّراً إلهاً، ثم آمنا بأن هذا القرآن كلامه من خلال الإعجاز، وآمنا بأن الذي جاء بهذا القرآن المُعْجِز هو رسول الله.

إذا سرنا بهذا الترتيب، الإيمان بالله أولاً ؛ الإيمان بالله موجوداً، والإيمان بالله كاملاً،

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف: من الآية 180)

ابحث في الإعجاز العلمي:

والإيمان بالله واحداً، هو واحدٌ في ذاته، وواحدٌ في صفاته، وواحدٌ في أفعاله، إذا آمنا بالله ؛ بوجوده وكماله ووحدانيته، ذاتاً وأفعالاً وصفاتٍ، فقد بات ممكنًا أن نؤمن بكلامه من خلال الإعجاز، وابحث فهناك إعجاز لا حصر له، قال تعالى:

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2) فِي أَدْنَى الأَرْضِ)

(سورة الروم)

أدنى يقابلها أعلى، أدنى وأعلى، الروم التقت مع الفُرس في غَوْر فلسطين، وقبل مئات السنين فقط عرف أن أخفض نقطة في الأرض هي غور فلسطين، الآن معروف أنّ أخفض نقطة في البحر هي خليج مِرْيَانة في المحيط الهادي، وأخفض نقطة في اليابسة غور فلسطين، والتاريخ يؤكِّد أن المعركة التي جرت بين الفُرس وبين الروم كانت في غور فلسطين، ولم يكن معروفاً قبل مئة عام أن هذا المكان هو أخفض نقطةٍ في الأرض، فالله عزّ وجل قال:

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3))

(سورة الروم)

غلبوا، غلبوا فِي بِضْعِ سِنِينَ، ففي الآية إعجاز إخباري، والإخبار في القرآن الكريم إخبارٌ عن الماضي.

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(44))

(سورة آل عمران)

من أين جاء النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الوقائع و أخبارها ؟ إنّ القرآن يردِّد دائماً كلمة فرعون عن حاكمًا لمِصْرَ، أما في قصة سيدنا يوسف فقداكم مصر:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ)

(سورة: يوسف: من الآية 50)

اسأل المؤرخين يخبروك أنّ الذين حكموا مصر هم الفراعنة، إلا في حقبةٍ يسيرة حكمها المُلوك، وحينما التقى سيدنا يوسف بملك مصر، لم يكن فرعون ملكاً، بل كانت أسرة الفراعنة منحّاةً عن الحكم معزولة ؛ فانظر إلى دقة القرآن الكريم.

مثلا: قال الله سبحانه وتعالى في سورة الحج:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(27))

(سورة الحج)

الله لم يقل: بعيد، بل قال: عميق، لأن الأرض كرة، فكلما ابتعدت عن إحدى نقاطها صار الخط منحنيًا، وصار هناك بعدٌ عمق، واللهُ قال:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(27))

(سورة الحج)

بإمكانك أن تصل من خلال عقلك، وبالدليل العقلي المُطْلَق إلى أن هذا القرآن لا يمكن للبشر مجتمعين أن يؤلفوا مثله، فإذا آمنت بالله من خلال كونه على أنه موجودٌ وكاملٌ وواحد، وآمنت بأن هذا القرآن كلامه، وآمنت بأن الذي جاء بهذا القرآن رسوله، فعندئذ تؤمن أنّ أي شيءٍ أخبرك الله به هو الحق، فانتهى دور العقل الآن وجاء دور النقل، العقل حصان ركبته وأوصلك إلى باب القصر، إذا وصلت إلى باب القصر انتهى دور الحصان، ومن ثَمّ دخلت إلى القصر، فالعقل إذا أوصلك إلى الله، وإلى أن هذا القرآن كلامه، وإلى أن النبي رسوله، فعليك بخبر الكتاب و السنة (النقل)، ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: من الآية 30)

لا تأخذ دينك إلا من أهله الموثوقين:

هو آدم، إذاً نظرية داروين صارت تحت قدمك، لأنها خلاف القرآن، وإذا لم تكن متأكداً فارجع وجدد إيمانك بالقرآن الكريم، فإذا شككت بشيء جاء به القرآن فاعلم أنّ إيمانك بهذا الكتاب لم يكمل، ولا يزال ضعيفًا، أما إذا بلغ إيمانك بأن هذا القرآن كلام الله فأي شيءٍ آخر يتناقض معه تشعر أنه تحت قدمك، لأنه مناقضٌ لكلام خالق الكون.

الأمر تماماً كما لو أنك جئت بجهاز حاسب إلكتروني ثمنه ثلاثون مليونًا، ومعه تعليمات تقدر بألف صفحة ورسوم، ولك جار يعمل في بيع الألبان، وقال لك: هكذا يعمل، وكان كلامه خلاف التعليمات، فمن تصدق ؟ أيًا كان هذا الإنسان، قد يكون أخاك، قد يكون قريبًا منك، والمودة بالغة بينك وبينه، فإنك

في موضوع تصليح الجهاز وتشغيله تقول له: لا، فهذه ليست من اختصاصك، هذا شيءٌ لا تعرفه أنت، بل يحتاج إلى ذوي اختصاص، فهل يعقل أن أسلِم جهازًا ثمنه ثلاثون مليونًا وكله صمامات وكله دارات، وشيء معقد جداً، أفأسلمه لإنسان لا خبرة له بهذا الجهاز ولا بأمثاله، و لو كان أخًا أو صديقا حميمًا ؟

فأنت عندما تعرف أن للكون إلهًا عظيمًا، وهذا كتابه وهذه تعليماته، وأنت كائن بالغ التعقيد، وتعيش حياة في الدنيا محدودة، وفي الآخرة أبدٌ، فإنك لا تسلم نفسك إلا إلى منهج الله عزّ وجل وتلتزم به.

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[كشف الخفاء]

((يا ابن عمر، دينَك، دينَك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

ما قولك أنك إذا صدّقت إنساناً، ولم تطالبه بالدليل في أمر دينك، واتبعت طريقاً غير صحيح فالعاقبة وخيمة، فلو كان دخلك حراما مثلاً، أو لو مارست هوايةً لا ترضى الله عزّ وجل على أنها مشروعة، بزعم زيد ودليل عُبيد، ثم فوجئت يوم القيامة أن زيدًا وعبيدًا لا يفقهان شيئاً، وأنهما ليسا مخوّلين أن يوجّهاك، وليس لهما عليك سلطان، وأنك تركت كتاب الله وراء ظهرك، واتبعت أمر أناسٍ جهلاء، أليست هذه خسارةٌ كبيرة ؟ قال تعالى:

(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(الأنعام: من الآية 20)

فأنا متأكِّد أنك لا تسلم ساعتك لإنسان غير خبير، ساعة لا تسلمها، بل تحرص عليها، فكيف نفسك التي بين جَنْبَيك، كيف هذه النفس التي لا تملك أثمن منها ؟ لذلك أكبر خسارةٍ تحيق بك أن تخسر نفسك التي بين جنبيك ؛ أن تبقيها جاهلة، أن تبقيها عاصية، أن تحجبها عن أنوار الله عزّ وجل، وتنأى بها عن رضوانه، هؤلاء الذين تفوقوا في الدنيا، وغابوا عن معرفة الله ما نالوا شيئاً، لذلك أجمل دعاء أنا أكرره: **" يا رب، ماذا فقد من وجدك ؟ والله لم يفقد شيئًا ـ وماذا وجد من فقدك ؟ "** والله لم يجد شيئًا ـ فالدنيا سراب ؛ فهل من مدّكر ؟

إذًا عليك أولاً أن تؤمن بالله من خلال آياته الكونية، والتكوينية والقرآنية، فإذا آمنت بالله يجب أن تؤمن بكتابه، إذا آمنت بكتابه تؤمن برسوله، لأنه سيضع بين يديك السُنّة بتفصيلاتها، فإذا آمنت بالله وكتابه ورسوله من الممكن أن تدخل في فروع الدين، أما أن تدخل في فروع الدين قبل أن تؤمن بأصل الدين، هذا طريقٌ مسدود.

الشيء الذي يلفت النظر قوله تعالى:

(فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ

1 ـ لا يغرنك التقلُّبُ في النِّعم:

أحياناً تجد الإنسان من قِصَر بصره إذا رأى إنسانًا لا يصلي، أو لا يعتد بقيم الدين، ولا يعبأ بها، و مع ذلك يراه غنياً وقوياً ووسيماً وذكياً وطليق اللسان، ويستخدم ذكاءه للتشكيك بالدين، يستخدم وسامته لإغواء الطرف الآخر، يستخدم ماله مثلا للانغماس في المتع الرخيصة، فالمرء يحتار ويتساءل: يا رب هذا يعصيك، وهو ذو شكل وسيم فما أجمله ؟ والمال بين يديه وافرٌ طائل، وقد كلّف عرسهم ثلاثة عشر مليوناً، ورغم ذلك ليس لديه لا قيم ولا دين يردع، قال:

(فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

فإذا كانوا يتقلبون من بيت لبيت، ومن مركبة لمركبة، من بلد لآخر، ثم يقول لك: كلفتني السياحة ثلاثمئة وخمسين ألفًا، في عشرة أيام، كلها فنادق خمس نجوم، يتقلب من فندق إلى فندق، من بيت لبيت، من قصر لقصر، من مركبة لمركبة، معه أموال طائلة، وهو لا يصلي، ولا يقيم للدين وزنًا، مثل هؤلاء الأشخاص بلاءٌ شديد مرٌّ عند ضعاف الإيمان، ويحدثون فيهم اضطرابًا.

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79))

(سورة القصص)

هنيئاً له، هكذا قال الذين يريدون الحياة الدنيا، فلتعلم أنك إذا رأيت شخصًا عمره خمس وثلاثون سنة محكوم بالإعدام، وسينفذ فيه بعد أسبوع، ورأيت معه زجاجة عطر ثمنها ثلاثة آلاف ليرة، فهل تقول: هنيئاً له على هذه الزجاجة، إذا كان كذلك فأنت مغفل حقًا، غابت عنك الحقيقة كلها.

(فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

المؤمن إذا كان على خطّ طاعة الله فهو الفائز، فإذا لم تعرف نفسك فاعرفها.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

والله أيها الإخوة ـ هذا كلام ربما وجدتموه قاسياً ـ إذا كنت مستقيمًا، وّقافًا عند حدود الله، ضابطًا جوارحك، ضابطًا دخلك وإنفاقك، ترضي الله، تؤدِّي الصلوات، تصوم رمضان، تحج البيت، تؤدي زكاة مالك، تغض بصرك، بيتك إسلامي، عملك إسلامي، ورأيت كافرًا فاسقًا فاجرًا على مستوى رفيع

من الغنى و الثراء، قلت: هنيئاً له ولو بقلبك فأنت غفلت عن صواب وحقيقة، يقولون لك: والله يا أخي وضعه فوق الريح، ثراؤه فاحش، وهو يعرف كيف يعيش، فهذا القول عنه خطير عليك، خطير على كل من يسمعه.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

هذا هو الفوز، الفوز أن يراك الله حيث أمرك، في الساعة الثانية عشرةَ والنصف أين تجلس ؟ أنت في الجامع يوم الجمعة وليس في النزهة، فقد تجد شخصًا في وقت الصلاة يعدّ سيارته لأنه سينطلق بعد قليل إلى المنتزه، وليس للدين عنده أيّ اعتبار!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا)

(سورة الجمعة: من الآية 9)

فهو غافل عن هذه الآية، إنه ينظف سيارته الساعة الثانية عشرة تهيئةً للنزهة، َصلّى أم لم يصلّ سيان، الاختلاط وعدمه عنده يستويان، دخل حرام، دخل حلال يقول لك: لا تدقق فالله غفور رحيم، فهذا جاهل كل الجهل، وإنّ الذين كفروا حينما يخرجون عن دائرة معالجة الله يُعطوْن الدنيا، بالتعبير العامي: " خذوها وانمحقوا "، حينما يصرّون على كفرهم، وحينما ينكبّون على شهواتهم، وحينما يؤثرون الدنيا على مرضاة ربهم، عندئذٍ يُعطوْن الدنيا:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196))

هذه آية في أواخر سورة آل عمران.

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

وهذه آية ثالثة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام: من الآية 44)

2 ـ المسلم المستقيم أسعدُ الناس:

والله أيها الأخ الكريم، أيها المستقيم، أيها المصلي، أيها الصائم، يا من تغضُّ بصرك، يا من تحرر دخلك، يا من تضبط أعضاءك وجوارحك، يا من تجعل بيتك إسلامياً، وعملك إسلامياً، أيها الأخ الكريم يجب أن تشعر أنك أسعد الناس، وأن طاعة الله أكبر نعمةٍ أنعم الله بها عليك، وأن نعمة الهُدى لا تعدلُها نعمةٌ على وجه الأرض، فأن تكون مهتدياً فأنت الأسعد، والله عزّ وجل يقول:

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(22))

(سورة الملك)

شخص أغمض عينيه، و يمشي في الطريق، وفي الطريق حفر فوقع في إحداها، وفي الطريق أكمات ارتطم فيها، وفيه مزالق انزلق فيها، فهل يستوي مع إنسانٍ مبصر يقظ يرى كل شيء ؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

إنّ شابًا نشأ في طاعة الله، يخشى الله، يؤدّي صلواته، له مجلس علم، يسعى لهداية الخلق ؛ فهل هذا كشابٍ آخر من بيتٍ إلى بيت يلهو ويلعب، ومن انحرافٍ إلى انحراف، ومن فيلمٍ إلى فيلم، ومن مسلسل إلى مسلسل، كلامه بذيء، منحرف السلوك والأخلاق، يختلط بالفتيات، ويفعل كل الموبقات، أهذا كهذا؟

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

هذا مؤمن موعود وعدًا حسنًا من الله عزّ وجل.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: من آية 61)

أنا أشعر أن الأخ الكريم أنه يجب أن يقول إذا سألته عن أحواله: الحمد لله على نعمة الهدى، على نعمة معرفة الله، على نعمة طاعته، على نعمة السَيْر على منهجه، على نعمة البيت المسلم، لك زوجة مؤمنة هذه لا تقَدَّر بثمن، تعينك على طاعة الله، فهذه النِعَم العظمى، هذه نعم، لأنها بحقّ سببُ الحياة الأبدية ؛ أما تلك التي سماها الله نَعمة ـ بفتح النون.

(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

(سورة الدخان)

هذا المال، وهذا الجمال، وهذا الغني، وهذه القوة، هذه إن لم توظّف في طاعة الله كانت دركاتٍ إلى جهنّم، حظوظ النفس إما أنها درجاتٌ إلى الجنة أو دركاتٌ إلى النار، هي حيادية، وأنت توجهها، لذلك سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة يقول:**"الحمد لله ثلاثاً ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني "** ديني سليم، فكل ما بعد ذلك سهل ـ صحابية جليلة رأت ابنها بين القتلى، وأخاها بين القتلى، وزوجها بين القتلى، وأباها بين القتلى، و مع كل هذا كانت تقول: **" ما فعل رسول الله ؟ "**، فلما علمت أنه بخير، قالت: **"كل مصيبةٍ بعدك هينة يا رسول الله ".**

نحن من باب أولى ؛ إذا كان دينك سليمًا، دخلك حلالًا، زوجتك محجَّبة، أولادك أبرارًا، عملك مشروع وليس لديك غلط، وليس عندك مادة محرمة في تجارتك، وليس لديك طريقة محرمة بالتعامل، فإذا كانت هناك أزمات تواجهك في حياتك، فهذا مما لا بد منه مع كل الناس، مرحباً بقضاء الله وقدره، فالإنسانُ يمتحن بالبحبوحة وبالضيق، لم أسمع أحدًا جرّب سيارة في طريق نازل، بل يجرّبها في طريق صاعد، خاصة إذا أراد أنْ يختبر مدى قدرتها على التحمل، وأنت مؤمن لابد من أن تمتحن بالشدة أحياناً:

" أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدّري وتمرري وتضيقي وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ".

ألا تحب أن تكون على رؤوس الأشهاد يوم القيامة مؤمناً صادقاً ؟ ألم يخطر ببالك ذات مرة أن الله عزّ وجل قادرٌ أن يخلق النبي وأصحابه المحبين له وحدهم في بلد، ولا يعكر حياتهم أو قيدتهم أحد ؟ كل أصحابه ؛ سيدنا الصديق وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان وسيدنا علي، وطلحة والزبير، والحسن والحسين، ولا أحد يعاديهم أو يعارضهم، أجل كان ذلك ممكنًا، فالله على كل شيء قدير، لكن إذا لم تكن هناك معارضة ولا متاعب، ولا جهاد، فالحياة عندئذٍ تصبح لا معنى لها، وأنت عندئذ لا ترقى إلى الله عزّ وجل.

3 ـ الهناء بعد التعب:

إنّ شخصًا تعب في دراسته إلى أن نال الدكتوراه، يقول لك فيما بعد: أنا في كل حياتي هانئ، فقد تعبت في الأيام السابقة، فلولا هذا التعب لم أبلغ هذه الراحة، هذه الراحة لن يصل إليها أحد إلا بعد اجتياز العقبات، واجتياز طريق الأشواك، والجنة التي وعد الله بها المتّقين لن يستحقها الإنسان، ولن يشعر بنعمها إلا إذا قد ابتليَ في الدنيا، وامتحن ودفع الثمن، فسلعة الله غالية، ولذلك فالمؤمن كلما ارتقى سلّم الإيمان واجهه الابتلاء، ويشعر أن الله سبحانه وتعالى لابُدَّ من أن يرقِّيه، ولكن مرة بالرخاء ومرة بالشدة، قال أحدهم، و ما أجمل ما قال:

بصُرتَ بالرّاحةِ الكبرى فلم ترَها تنال إلاّ على جسر من التعبِ

***

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللّهِ إِلّا الّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

لا تغتر.

4 ـ ما هو الغرور ؟

ما هو الغرور ؟ الغرور أن تجد علبة بالأرض فتظن أن بداخلها ساعة، فتنكب عليها، فتجد العلبة فارغة. هذا الغرور، أي أن تظن الشيء بحجمٍ أكبر من حجمه الحقيقي، الغرور أن تنكب على علبةٍ، وأنت تحسب أن فيها قطعةً ذهبيةً ثمينة، تفتحها فإذا هي فارغة، هذا هو الغرور، أن تغتر بالشيء، أي أن تراه بحجم أكبر من حجمه، الله عزّ وجل قال:

(فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

سيدنا إبراهيم.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

(سورة البقرة: من الآية 126)

يا رب ارزق المؤمنين فقط، فالله عزّ وجل قال:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة: من الآية 126)

قال الله:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من الآية 77)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

يا عبدي أأنت راضٍ بها ؟ فمتاع الدنيا قليل، ألا تطمع بما عندي من جنة ؟

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

خاتمة:

يا أيها الإخوة الكرام... أعظم نعمةٍ أنعم الله بها علينا أنه هدانا إليه، وعرفنا بذاته، وأعاننا على طاعته، فهذه نعمةٌ ما بعدها نعمة، وما سوى ذلك فكل مصيبةٍ تهون أمام هذه النعمة، كل ضائقةٍ تزول، كل كربٍ ينتهي، كل مرضٍ إلى شفاء إن شاء الله، فالعاقل لا يجعل الدنيا أكبر همه، يجعل معرفة الله أكبر همه، بل يجعل طاعة الله عزّ وجل أكبر همه، فإذا فعل ذلك كان في رضوان الله عزّ وجل. فالله عزّ وجل ما منح النبي الكريم وأصحابه الكرام النصر والعز إلا بعد أن دفعوا الثمن، فالإنسان

أحياناً يجد متاعب في بيته، متاعب في عمله، متاعب في كسب الرزق، متاعب في الاستقامة، يقول لك: وقعت في حرج، فهذا لا بدّ منه، هذا الإحراج هو الذي يرقى بك إلى الله عزّ وجل، هذا الإحراج هو الذي يظهر شرفك عند الله وعند الناس، لكن هناك من يرضي الناس كلهم، قالوا: من استطاع أن يرضي الناس كلهم فهو منافق، دائماً يقع واقفاً وهذا يسمونه: العفريت النفريت، يدبر حاله، ويخرج سالما من كل مشكلة، بالطبع على حساب دينه، فهو مع هؤلاء ومع هؤلاء، يرضي كل طرف على حساب دينه، ليس هذا ذكاءً، فالذكاء أن تكون ذا مبدأ، ولك اتجاه واضح الهدف، تتمسّك بالشرع، وفي ذلك الفلاح والسعادة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (03-20): تفسير الآيات 4 - 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-06-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة غافر، ومع الآية الرابعة من هذه السورة، يقول الله سبحانه و تعالى:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ

1 ـ العقل أداة بحسب الاستعمال:

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن العقل البشري أعظم شيءٍ خلقه الله في الكَون، إنما خلقه من أجل أن يكون أداةً لمعرفة الله، فكيف يستخدمه الإنسان أداةً لتغطية الانحراف، وفلسفة الشرك، وترويج الباطل، وتبرير الخطيئة ؟ ذكرت مثلاً لعلّه يوضّح تلك الآية:

لو أن جهازاً طابعاً ـ آلةَ طباعة ملوّنة ـ أي أنها تُعَدُّ قمّةً في بابها، لو أُعطيت لمهندسٍ فاستخدمها في اختصاصه لقفزت أعماله قفزةً نوعيّة، ولكانت هذه الآلة الطابعة الملوّنة ـ التي تظهر أدقّ الألوان ـ معواناً له في عمله، ولارتقى عمله درجاتٍ كبيرة ؛ ولو أن إنساناً اشترى هذه الآلة، واستخدمها في تزوير النَقد، ووقع تحت طائلة القانون والعقوبات، فأودِعَ في السجن، فالآلة هي هِي، عندما استخدِمَت لما صُنِعَت له، فارتقى َمن استخدمها، وحقّق أرباحاً طائلةً، ولمع اسمه، واستخدمها إنسانٌ سيئ بأبشع استغلال، واستخدمها لغير ما صُنِعَت له، فأودِعَ في السجن وصُودرت أمواله كلها، فالآلة رفعت الأول، والآلة أهلكت الثاني.

فكيف يستخدم الإنسان عقله الذي هو في الأصل من أجل معرفة الله، من أجل أن يرقى إلى الله، من أجل أن يصل إلى الله، من أجل أن يتفنّن في خدمة الخلق، من أجل أن يُعْمِلَهُ في الأعمال الصالحة، من أجل أن يكون العقل أداةً لسعادةٍ أبديّة، العقل هوَ هو نفسه إذا استُخْدِمَ لغير ما صُنِعَ له، لغير ما خُلِقَ له، يغدو أداة شرٍ مستطير، وينحدر بصاحبه دركاتٍ في جهنّم.

إذاً: حيثما ورددت كلمة مجادلة فاعلم أنّه إنسان سيئ، اختار الدنيا، واختار الشهوة، فوجِئ أو رأى أن بيده عقلاً، بإمكان هذا العقل أن يقلِب الحق إلى باطل والخير إلى شر، فاستخدم العقل في فلسفة الشرك،

وفي تبرير الخطيئة، وفي تغطية الانحراف، فكانت المجادلة، فالمجادل إنسان ذكي، لكن يستخدم عقله لغير ما صُنع له، يستخدمه في وظيفةٍ لم يُخْلَقْ من أجلها ـ هذه الآلة الطابعة الملوّنة، الغالية جداً ـ حدّثني عنها أخ فقال لي: إن ثمنها مليون ليرة، آلة طابعة ملوّنة تظهر أدقّ الأوان، لو أن مهندساً يعمل في تصميم الأشكال عن طريق الأجهزة الحاسبة، فهذه التصاميم يتم إنجازها في دقائق، ثم إن أرسلها إلى تلك الطابعة يغْدُ هذا التصميم مجسّداً ملوّناً، فبهذا يكون المهندس قد ارتقى عمله، وقفز قفزات سريعة جداً، فحقّق أرباحًا طائلة، وحقّق اسمًا في البلد، وتألّق نجمه من خلال هذا الجهاز البالغ التعقيد، بينما هذا الجهاز نفسه لو استخدمه مزوّر عملةٍ، وأتقن التزوير، وضُبط متلبّساً بجرمه، وأُودِعَ السجن، كانت هذه الآلة التي أعانته على التزوير سبباً لهلاكه.

2 ـ المنحرف يفلسف انحرافه بعقله:

فإذا رأيت في القرآن الكريم آيات تشير إلى المجادلة والمشاحنة، هؤلاء الذين يقلبون الحق إلى باطل، هؤلاء الذي يبرّرون أغلاطهم بذكاءٍ بارع، هؤلاء الذين يفلسفون المعاصي ويعطونها أسماء غير أسمائها، فإذا نافق الإنسان يسمّى مرنًا، وإذا كان متفلِّتًا يسمى حضارة وحرية، وإذا كانت له أساليب ملتوية في جمع الأموال يسمّى ذكيًا ماهرًا، وإذا كان مجتمع فيه اختلاط يقول لك: هذا مجتمع راقٍ مخملي، فهذه كلّها أسماء من ابتداع العقل البشري، وأحياناً يعطونك فلسفة لكل معصية، وتبريرًا لكل خطيئة، وتغطية لكل انحراف، هذا الذي يجادل، هذا الذي يتحرّك بعقله حركةً معاكسةً للقرآن الكريم هذا مجادل، هذا إنسان منحرف كمزوّر العملة، عثر على آلة تصوير ملوّنة رفيعة المستوى، فأعانته على عمله الإجرامي، فلمّا ضُبطَ كانت هذه الآلة سبيلاً إلى دخوله السجن، لهذا قال الله عزّ وجل:

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

3 ـ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا

هو الذي كَفَر بالله، وكفر باليوم الآخر، وآمن بالدنيا، وآمن بالمادّة، وآمن بالمال فقط، واتخذ سبيل الشهوة طريقاً له، وجعل إلهه هواه، ولديه عقل، معه عقل مبدع خلاق، فاستخدم العقل لغير ما خُلِقَ له، استخدم العقل لجمع الأموال عن طريقٍ غير مشروع، استخدم العقل للوصول إلى رغباته الدنيئة ؛ فنصَب الحيل، ونصَب الشباك. إذاً العقل إنْ يستخدم استخداماً مشروعاً يرقَ بصاحبه، وإنْ يستخدم استخداماً غير، مشروعٍ يهْوِ بصاحبه. العقل صار درجاتٌ إلى الجنّة، أو دركاتٌ إلى النار، سلّمٌ ترقى به أو منزلقٌ تهوي به، والعقل هوَ هو.

الحظوظ الدنيوية حيادية:

وهذا يذكِّرنا مرَّةً ثانية بأن كل الحظوظ التي آتاك الله إيَّاها في الدنيا ؛ كحظِّ العقل الراجح، وحظ المال، وحظ الجاه، وحظ القوّة، وحظ الذكاء، وحظ الوسامة، كل هذه الحظوظ حياديَّة ترقى بها أو تهوي بها، طريقٌ إلى الجنَّة أو منزلقٌ إلى النار، ولذلك فالإنسان مخيَّر.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

بل إن من المعاني الدقيقة التي أكرم الله بها المؤمنين، أن كلمة (الشكر) من معانيها: أنْ تستخدم النعمة في الحق.فأنت إنسان لك ميّزات كثيرة، لأنك أنت إنسان عاقل، إنسان قوي في مقتبل حياتك، إنسان ذو مال، إنسان ذو جاه، إنسان ذو ذكاء، إنسان ذو بيان، طليق اللسان، قويُّ الحجَّة، دقيق المعاني، كل هذه الحظوظ التي أكرمك الله بها بإمكانك أن ترقى بها إلى الجنة، والجنة تحتاج إلى عمل، والعمل هو استخدام الحظوظ ؛ فهذا إنسان يرقى إلى الله بإتقان صنعته، هذا يرقى إلى الله بإنفاق ماله، هذا يرقى بإنتاجه العقلي، يستخدم عقله في التعريف بالله عزّ وجل، هذا يستخدم قلمه الأدبي في تأليف كتبٍ تدلُّ على الله عزّ وجل، فهذه نقطة مهمَّة جداً، فليس في الوجود إنسان بلا حظوظ.

إنّ أصح من ذلك أن مجموع الحظوظ متفاوتة، الحظوظ منوّعة، هي متفاوتة بين الناس، لكن لو أجريت دراسة دقيقَة دقيقة، متأنيَّة متأنية، صابرة أو صبورة، لرأيت أن الإنسان في مجموع حظوظه يكافئ مجموع أي إنسانٍ آخر ؛ فراحة البال حظ، والدخل حظ، فإذا ارتفع الدخل قلّت معه راحة البال، وإذا انخفض الدخل ارتفعت معه راحة البال، فلو أعطينا راحة المال درجات، وأعطينا الدخل درجات، وجمعنا هذه الدرجات، لكان المجموع متكافئا عند معظم الناس.

ربنا عزّ وجل جعل الدنيا دار ابتلاء، ولم يَجعلها دار جزاء، لو جعلها دار جزاء لكان هيناً عليه أن يعطي كل إنسان كل الحظوظ في أعلى درجاتها، في درجاتها المُطْلَقَة، فأحياناً تجد امرأةً تجمع بين النسب، والجمال، والغنى، وربَّما كان اجتماع هذه الحظوظ لديها وبالاً عليها، فأن يصل الإنسان إلى المُطْلَق في الدنيا ربَّما كان هذا سبب البلاء، فربنا عزّ وجل هو الذي وزّع الحظوظ.

الحظوظ الدنيوية موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء، ويوم القيامة توزّع توزيع جزاء:

ولكن هذا يعطينا معنىً آخر، وهو أن الحظوظ في الدنيا موزّعة، لكن توزيعها توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة، لكن توزيع الآخرة توزيع جزاء، وأوضح مَثَلٍ الغنى والفقر، إنسان عاش ثمانين سنة ـ وهو عمر عالٍ، بينما النموذجي ستون سنة، الواقعي خمسة وخمسون سنة، سنأخذ إذًا عمر ستين سنة

لمثالنا هذا ـ إنسانان غنيٌ وفقير، عاش كل منهما ستين عاماً وتزامنا في فترة واحدة، واحد منهما تمتّع بالغنى الذي لا حدود له، فأكل ما لذّ وطاب، وسكن أفخر البيوت، وركب أجمل المراكب، وسافر، وتجوّل، أعطى نفسه كل شهواته ؛ وإنسان عاش في حرمانٍ وفقرٍ مدقع، فحياته خشنةٌ، طعامه خشن، بينه قميء، ثيابه رثّة.

إنسانان، الأول امتحن بالغنى والثاني امتحن بالفقر، الغنى في حق الأول ابتلاء، والفقر في حق الثاني ابتلاء، لو تصوّرنا أن الغنيّ امتحن بالغنى فلم ينجح، فتاهَ بماله على عباد الله، وأنفق ماله على شهواتٍ لا ترضي الله، ومنعه أهلهَ ومستحقيه، والمال جعل صاحبه يزهو على عباد الله ؛ والفقير رضي بقسمة الله له، واستقام على أمر الله، واتّقى الله في كل حياته، إلى أن وافت المنيّة الرجلين.

ففي الآخرة ستنعكس الآية، الذي كان فقيراً، ونجح سيغدو غنياً إلى أبد الآبدين ؛ والذي كان غنياً فرسب سيغدو فقيراً إلى أبد الآبدين، هذا معنى قول سيدنا علي: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله>>.**

لكن ما الذي يمنع من أن ينجح الغني في غناه في الدنيا فيغدو غنياً إلى أبد الآبدين ؟ ما الذي يمنعه ؟ ليس الفقير الصابر بأعظم أجراً من الغني الشاكر.

الإنسان يحتاج إلى تفكير، إلى أن يُعْمِلَ عقله، سيدنا نُعَيْم بن مسعود ـ نحن نقول: سيدنا من دون أن نشعر، جاء مع جيش أبي سفيان ليحارب المسلمين في المدينة، ثم أسلم، وصار صحابيًا جليلاً، وإنسانًا عظيمًا ـ إذًا: جاء مع الأحزاب ليقاتل النبي يوم الخندق، وقد بقي الحصار مستمرًا عشرين ليلةً، وفي إحدى الليالي أصابه أرقٌ، فخاطب نفسه، أجرى حوارًا ذاتيًا، قال: **<< يا نعيم، إنّك رجلٌ لبيب، ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ لماذا جئت تقاتل هذا الرجل الصالح ؟ إلامَ يدعو هذا الرجل ؟ هل انتهك لك عرضاً فجئت تقاتله ؟ هل اغتصب مالاً فأتيت تقاتله، ماذا فعل ؟ إنه دعا إلى الله، إن أصحابه أناسٌ طيّبون أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر >>**، وهذه محاكمة لم تستغرق إلا دقائق، هذه المحاكمة انتهت إلى أنه اتخذ قراراً بأن يُسْلِم، قام في جُنح الظلام، وتسلل إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فلمّا رآه قال: **" نعيم بن مسعود ؟ "** قال: **" نعم يا رسول الله، جئتك مسلماً "**، وأسلم، واللهُ عزّ وجل أجرى على يده وحده نصًار مؤزّرًا.

معركة الخندق من دون مبالغة تمّ فيها النصر على يدِ نعيم بن مسعود، كان ذكياً عاقلاً استخدم ذكاءه في أعلى درجة، فرّق الأحزاب وأوقع بينهم، وجعل بعضهم يشك ببعض، وجاءت الرياح فقلبت القدور، واقتلعت الخيام، وأطفأت النار، وكفى الله المؤمنين القتال.

لذلك هذا العقل الذي نتحدّث عنه به تسعد، وبه تشقى، تذكّر مثل الآلة، آلة غالية جداً، وفيها ألوان دقيقة جداً، يمكن أن تجني منها مئات الألوف بل والملايين، ويمكن أن تودعك السجن، والآلة هي نفسها، إن

استخدمتها فيما صُنعت له ارتقيت، وإن استخدمتها فيما لم تصنع له، فزوّرت بها العملة، ربّما أودى بك هذا العمل إلى السجن والهلاك.

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ(4) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ

1 ـ معركة الحق والباطل قديمة مستمرة:

الحقيقة معركة الحق مع الباطل معركةٌ قديمةٌ ومستمرّة، الإنسان لا يفاجأ، فبالحياة حقٌّ وباطل، هناك حقٌّ اعتقادي، وحق سلوكي، وباطل اعتقادي ؛ آراء، ومذاهب، ونظريّات، وفلسفات كلّها باطلة، وهناك سلوك أساسه الحق والاستقامة، وسلوك أساسه الانحراف، هناك معركةٌ قديمةٌ ومستمرّةٌ وأبديّةٌ بين الحق والباطل، فإذا كذّب كفّار قريش النبيَّ عليه الصلاة والسلام، ينبغي ألاّ يحزن النبي، و إن حَزِن فالله سبحانه وتعالى يواسيه، قال:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)

فلست وحدك المكذّب، فيا أيها الأخ الكريم ؛ إذا دعوت إلى الله، ورأيت معارضةً، ورأيت من يسفِّه رأيك، رأيت من يخوِّفك، رأيت من يقلّل من شأنك، هذه معركة قديمةٌ ومستمرّة، الحق دائماً يناهض الباطل، والباطل يناهض الحق.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ)

كل الذين تحزّبوا على أنبيائهم هم الأحزاب، هذه لا تعني أن الأحزاب كانوا فقط في عهد النبي، فالمفسّرون قالوا: الأحزاب، كل من تحزّب على نبيٍ فهو من الأحزاب.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ)

2 ـ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ

ليأخذوه ؛ إما ليقتلوه، وإما ليخرجوه، وإما لينهوا دعوته، أو يطفئوا نور الله في الأرض، أيْ أنّ أهل الباطل لا يتمنون الأماني فقط، بل يريدون أن تُطفَأ كلمة الحق، لا يريدون للحق أن ينتشر، لا يريدون للفضيلة أن تعُم، لا يحبون الخير، إنهم يحبون الضلال، ويحبون الإضلال، يحبون الفساد، ويحبون

الإفساد، هذا شأن أهل الباطل ؛ وشأن أهل الحق أنهم يحبون الخير للناس جميعاً، فربنا عزّ وجل يواسي النبي، يطمئنه، يخفّف عنه، يسَرّي عنه، قال له:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ)

لكن الله عزّ وجل بالمرصاد.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

(وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

3 ـ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ

كذلك حال أهل الباطل فهم أحياناً لا يكافحون الحق مجاهرةً، ولكن يواجهونه بأساليب ذكيّة جداً، هناك أسلوب أن يُجابه الرجل عدوه مجابهة، وأسلوب آخر أن يُفجّر الشرّ من الداخل، أي تجعل أهل الحق يتخاصمون فيما بينهم، إنسان يندسُّ بينهم ؛ يحرّف الحق، يزوّر الحقيقة، ويدّعي أنه من أهل الحق، فهناك أساليب ماكرة وخبيثة وذكيّةٍ من أجل إطفاء نور الله عزّ وجل، ومن أجل إنهاء أهل الحق.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

4 ـ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ

لو أن إنسانًا تيسّر له أن يطّلع على تاريخ الفِرَق الضالّة في التاريخ الإسلامي بشكل واسع، لرأى أنها أكثر من أن تُعَد، وأكثر من أن تحصى، وكل فرقة بنت اعتقادها على فلسفة معيّنة، وعلى أدلّة معيّنة، وعلى كلام مُزَخْرَف، ونمّقوا، وزخرفوا، وأفسَدوا، وفي النهاية بقي الحق شامخاً، وكل هذه الفرق تداعت كبيت العنكبوت، الباطل باطل.. وليطمئن أهل الإيمان إلى إيمانهم وسلامة نهجهم:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

كان زهوقاً، بمعنى أن من شأن الباطل أنه زهوق، ما قال: كان زاهِقاً، بل كان زهوقًا، وزهوق على وزن فعول، هذه صيغة مبالغة، الباطل لا يقف على قدمين، للباطل جولةٌ، ثمّ يضمحل.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

واللهُ عزّ وجل هو الموجود، وهو الحق.

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46))

(سورة طه)

فأين أنا ؟ معكما أسمع و أرى ؛ هذه الكلمة مطمئنة، الله موجود.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

جبالٌ بأكملها تزول من مكرهم.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

حتى إن بعض الآيات التي وردَت في القرآن الكريم من أن الناس جميعاً بما فيهم المؤمنون سوف يَردون النار، ورود النار لا يعني دخولها، الورود أن تقترب منها لترى مَن فيها، مِن أجل أن يتحقّق اسم الحق، فالإنسان كان في الدنيا، ورأى من اعتدى على حقوق الآخرين، من اعتدى على حياة الآخرين، من اعتدى على أعراض الآخرين، ربّما لم يحاسب في الدنيا، لكن اسم الله هو الحق، وهذا مثل بسيط:

لو أنك قرأت قصّة، أو شهدت عملاً مُمَثّلاً، ففي أول فصل قُتِل إنسان، وتمّت مشكلة، ووقعت جريمة، وأُرخي الستار، هل تعتقد أن المسرحيّة انتهت ؟ فماذا إذاً حلّ بالقاتل ؟ ماذا حلّ بهذا الذي فعل هذه الجريمة ؟ المسرحيّة ناقصة، لو أن الستار أرخي فهذا فصل واحد، وبقيت فصول، فالحياة تمثِّل فصلًا واحدًا، والفصل الثاني يوم القيامة من أجل أن تسوّى الحقوق، أن يعطى كل ذي حقٍ حقّه، أن يؤخذ للمظلوم من الظالم، وللمعتدَى عليه من المعتدي، وأن ينال كل مظلومٍ حقّه، لذلك فالله سبحانه وتعالى بدأ الخلق، ثم يعيده لتُجزى كل نفسٍ بما تسعى، فإعادة الخلق من أجل الجزاء.

(كَذّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمّتْ كُلّ أُمّةٍ بِرَسُولِهِمْ)

5 ـ نيّة الكافر شرٌ من عمله:

القضيّة برمّتها أنّ نيّة الكافر شرٌ من عمله، لو شققت على قلب الكافر لتمنّى أن يفنى الحق، وهذا عين الضلال كله. وألاّ يبقى على وجه الأرض من يوحِّد الله، لتمنّى أن يعمّ الضلال، لتمنّى أن يعمّ الفسق والفجور، فنيّة الكافر شرٌ من عمله، ونيّة المؤمن خيرٌ من عمله، لكن الله عزّ جل موجود، وبعضهم قال: الحمد لله على وجود الله، لأن خطّة الكافر مستوعبةٌ في خطّة الله عزّ وجل، فلا يقع منها إلا الذي يأذن به الله سبحانه وتعالى، لا يقع من خطّة الكافر إلا بالقدر الذي يأذن الله به، والله عزّ وجل أفعاله كلها خيرٌ مطلق، ولو بدا بعضها شراً بمقياس الناس، لكن الشرّ النسبي هو في الحقيقة خيرٌ مُطْلَق.

لا تيأس مهما عظُم العدو وطغى:

ربنا عزّ وجل علّمنا من خلال قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، فسيدنا موسى يحمل الأمر التكليفي، بينما سيدنا الخضر أعطاه الله سرّ الأمر التكويني، فالله عزّ وجل له أمر ونهي، وله أفعال، فبعض أفعاله أطلع سيدنا الخضر على سرّها، وعلّم سيدنا موسى الأمر التكليفي ؛ افعل ولا تفعل، الحلال والحرام، فربنا عزّ وجل أطلعنا على أن هذا الذي خُرقَت سفينته، فهذا الخرق شرٌ في نظره، لكن بعد حين تكشّف أن هذا الشر النسبي هو خيرٌ مطلق نجت من المصادرة، فيا حبّذا هذا الخرق كي تنجو من المصادرة، وهذا الذي أنشأ بناءً من دون أن يأخذ أجرةً كان هذا هو الخير، والقصّة بين أيديكم في سورة الكهف، تُعَلِّمنا أن الفعل التكويني خيرٌ مطلق، لكن قد يبدو للإنسان شرّاً نسبياً، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

فالمؤمن مستسلم لله عزّ وجل، فعليه أن يتقصّى أمر الله عزّ وجل، وهو راضٍ بقضاء الله وقدره. أريد من هذه الآية أنك مهما سمعت عن كيد الكافرين، وعن خططهم الجهنّميّة، وعن نواياهم الشريرة، وعن أعمالهم الفظيعة، مهما سمعت لا ينبغي أن تضعف همّتك، ولا ينبغي أن تشعر بالوَهن، يقول لك: يا أخي انتهينا، لن تقوم للمسلمين قائمةٌ بعد اليوم، وتسمع منه: المستقبل مظلم، وأعداؤنا تملّكوا زمام الأمور، أمورنا بيدهم، هذا كلام يُلقى بعيدا، هذا من عمل الشيطان.

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

(سورة آل عمران)

فهذا الذي حدث في شرق الأرض، من كان يظن أنه يحدث قبل خمسة أعوام، والله لو أنّ أحدًا تنبّأ بحدوثه لأودع مستشفى المجانين، ثمّ حدث ما حدث، معنى هذا أن الله عزّ وجل موجود.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(15)وَأَكِيدُ كَيْدًا(16))

(سورة الطارق)

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

(سورة الأنفال: من الآية 30)

مكر الله عزّ وجل يسمونه في البلاغة مشاكلة، يس هذا مكراً كمكر أهل الكفر والضلال، بل هو تدبير حكيم، لكنّه تدبيرُ حكمةٍ يردُّ على مكرهم، تدبيرٌ يوقفهم عند حدِّهم، تدبيرٌ يعلِّمهم أنه لا إله إلا الله.

إخوة يوسف ماذا فعلوا ؟ بخطّةٍ جهنّميّةٍ أرادوا أن يتخلّصوا من أخيهم يوسف، طفلٌ صغير كالوردة أودِعَ في جُبٍ ليموت، احتمال الموت محقّق.

(وَجَاءَتْ سَيّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً)

(سورة يوسف: من الآية 19)

وأصبح هذا الطفل المقهور شابا، ثم اكتهل، و صار عزيزَ مصر.

(قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنّهُ مَنْ يَتّقِ وَيَصْبِرْ)

(سورة يوسف: من الآية 19)

ربُّنا عزّ وجل علّمنا فقال:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

هذه آية يجب أن تكون شعار كل مسلم

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)

مهما سمعت من كيد الكفّار، مهما سمعت من خططهم الجهنّميّة، مهما سمعت من نواياهم الشريرة، مهما شعرت أنهم أقوياء، قال النبي عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم:

((لعلّه يا عدي إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة البابلية تحجُّ البيت على بعيرها هذا لا تخاف، لعلّه إنما يمنعك يا عدي من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوّهم، وايم الله ليوشكنّ أن ترى القصور البابليّة مفتّحةً لهم، لعلّه إنما يمنعك يا عدي من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ـ أناس فقراء ـ وايم الله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه))

[ورد في الأثر]

الحقيقة أن الخط البياني للدعوة الإسلاميّة كان في الحضيض لما قدم الرسول إلى الطائف، فالنبي ذهب ماشيًا على رجليه، وقطع ثمانين كيلو متراً ليدعو أهل الطائف، فكذّبوه، وسخروا منه، وتهجّموا عليه، واعتدوا عليه. وقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله ناصر نبيّه))

[ورد في الأثر]

في الهجرة، ونحن في ذكرى الهجرة.

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

فبربّكم إنسان في دولة من دول العالم الخامس وليس الثالث، دولة متخلِّفة جداً جداً، ليس فيها شيء، صحراء وخيام، لو قلنا لأحد أفرادها: كيف بك أن تتصدَّر البيت الأبيض ـ في واشنطن ـ بماذا يتَّهمك ؟ بالجنون، النبي عليه الصلاة والسلام وهو مطارد، دمه مباح، مئتا ناقة لمن يأتِ به حياً أو ميّتاً، يلتقي بسراقة فيقول له:

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

مدينة كسرى العاصمة الأولى في العالم، والقسطنطينية العاصمة الأولى كذلك، عاصمتان للعالم فقط يوم ذاك، الأولى عاصمة كسرى: المدائن، والثانية القسطنطينيّة، والذي حدث في عهد عمر أن سراقة لبس سواري كسرى، إله يَعِدُ ويفي.

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: من الآية 41)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

فإذا اللهُ عزّ وجل وعد المؤمنين بالنصر فنحن علينا أن نطيعه فقط، فما مهمّتي إذًا ؟ أنا لا أملك أن أمنع قِوى الشر أن تفعل ما تفعل، هذه بيد الله عزّ وجل، ولكني أملك أن أطيعه أولاً، فإذا أطعته ألهمني رُشْدِي، وأعانني، وقلب الموازين أمامي، أما إذا لم أطعه، وبقيت على مستوى العواطف، والثقافة الإسلاميَّة، وعاطفة إسلاميّة، ولكن بدون تطبيق إسلامي على أيّ مستوى، ليس هناك تطبيق إسلامي لا في البيت ولا في المعمل، ولا على مستوى السلوك الفردي ولا الجماعي، عندئذٍ لا نستحق النصر.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

أين هم ؟ هؤلاء الذين ائتمروا على قتل النبي أين هم ؟ قُتِلوا في بدر، هؤلاء الذين كادوا للمسلمين أين هم ؟ كل الذين كادوا للمسلمين لم تقم لهم قائمة، وبقي الدين شامخاً كالطود، الله موجود، كلّما ضاقت نفسك قل: الحمد لله على وجود الله، اطمئن هذا دين الله، هذا دين الله لا يستطيع أحدٌ في الأرض أن ينال منه.

(فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

هكذا ينتقم الله من أدائه وينتصر لأوليائه:

ولماذا نحن نبتعد كثيراً ؟ فالأحداث التي من حولنا تؤكِّد هذه المعاني، أليس هناك بلاد خضراء كجنات النعيم، ذاقت حرباً أهليةً خمسة عشر عاماً ؟ ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

ألا ترى مدناً فسقت وفَجَرَتْ فأصابها زلزالٌ فهزّ أركانها ؟ ألم تر الأعاصير تجتاح أجمل الولايات في بعض البلاد ؟ يقول لك: الخسارة بلغت ثلاثين مليارا في يومين، لم يبقَ شيءٌ على الساحل إلا وهُدِّم، إعصار واحد، ترى الكوارث الطبيعيَّة، الزلازل، البراكين، الحروب الأهليَّة، بأس الإنسان، كلها عقاب إلهيّ.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

هناك أدلّة تاريخيَّة، وأدلّة معاصرة، فهذا مرض الإيدز أليس آيةً من آيات الله عزّ وجل ؟ أحدث إحصاء أن هناك عشرين مليون إنسان يحمل هذا المرض في أمريكا، ويقول الأطبّاء: أغلب الظن أنه لن يصل الإنسان إلى مضادٍ لهذا المرض أبداً، لأنه عقابٌ إلهي لمن خرج عن فطرته الإنسانيَّة، لكن ما أكثر العبر، وما أقلّ المُعْتَبرين، أنت مخيَّر، إما أن تستقيم على أمر الله، ولك الاستقرار والتوازن، ولك النعيم، ولك التوفيق.

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

(سورة الأنفال)

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(36))

(سورة التوبة)

(إِنّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ(153))

(سورة البقرة)

هذه معيَّة خاصّة أيها الإخوة، أي أنّه معك بالتأييد، معك بالحفظ، معك بالنصر.

واللهِ هذه آية لا أشبع من تكرارها:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

مَن منكم يحب المرض يا أيها الإخوة ؟ مَن يحب القهر ؟ من يحب الذل ؟ من يحب التعذيب ؟ من يحب الفقر المُدْقِع ؟ من يحب الشقاء الزوجي ؟ من يحب أولادًا عاقِين ؟ هذا كله لا يحتمل، ربنا سبحانه قال:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

الله يعجب !!، هل تعتقد أيها الإنسان أنني سأعامل المؤمن المستقيم كما أعامل المُنحرف ؟ أو أنني سأعامل المنحرف كما سأعامل المستقيم ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

الأمر واضح جداً، إن أردت أن تستقيم لك الخير، لك الطمأنينة، لك الرضى، لك التوفيق، لك الحِفْظ، لك التأييد، لك السكينة، لك السعادة ؟ وإن خرجت عن أمر الله عزّ وجل ـ قال له: **" عظني ولا تطل "**، قال له:

((قل آمنت بالله ثم استقم))

قال: **"أريد أخفّ من ذلك "**، قال:

((إذاً فاستعدّ للبلاء))

[ورد في الأثر]

(وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ

1 ـ معنى: حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

قد يفهم بعضهم الآية فهماً ما أراده الله أبداً، فنحن قد قررنا في النظام الداخلي للمدارس أنّ كلّ من يتغيَّب أسبوعين عن المدرسة يفصل، المادة رقم ثلاثة في النظام الداخلي للمدارس، فقد يغيب طالب يومًا، يومين، ثلاثة، خمسة، اثني عشر، ثلاثة عشر، أربع عشرة، لكن إذا غاب خمسة عشر انطبقت عليه المادّة الثالثة من النظام الداخلي فاستحقّ الفصل، هذا هو المعنى بالضبط، هذا المعنى الذي يليق بجلال الله عزّ وجل.

(حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ)

فالكلمة هي القانون، القانون الإلهي يقتضي بأن الذي يكفر سوف يعذّب في الدنيا والآخرة، ومصيره إلى النار.

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[من الجامع الصغير عن جابر]

2 ـ العذاب الدنيوي للكافر:

لذلك كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله، القانون الإلهي والسُنّة الإلهيّة أن الذي يشعر أنه خسر نفسه يدخل في عذابٍ نفسي في الدنيا لا يُحْتَمَل، ثم يدخل في عذابٍ مادي لا يحتمل، هذا هو القانون الإلهي.

(وَكَذَلِكَ حَقّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا أَنّهُمْ أَصْحَابُ النّار)

فربنا عزّ وجل حدّثنا عن سيدنا إبراهيم:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النّار وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة)

إن إنسانا في بعض المدن كان ثَمِلاً ـ شرب الخمرة حتى ثَمِل ـ فلمّا دخل البيت قتل زوجته وأولاده الخمسة، فلمّا صح سأل نفسه: ماذا فعلت ؟ فقتل نفسه، لأنه ما تحمّل هذه الجريمة، نفسك لها قوانين.

حدّثني رجل عن إنسان يقود مركبته الساعة الثانية ليلاً، وأب أرسل ابنه ليشتري له حاجة من البقاليّة تفتح إلى ساعة متأخِّرة من الليل، فسائق السيارة دهس هذا الطفل الصغير، وأرداه قتيلاً، وعدا لا يلوي على شيء، ما أحد عرف القاتل، ولم يُكتب ضبط، ولم يلاحق من قِبَل الشرطة، يقول هذا الذي دهس الغلام: بقيت عشرين يوماً لم أذق طعم النوم، إلى أن أتصل بطبيب نفسي، الطبيب أدرك المشكلة ـ الشعور بالذنب ـ طفل وديع، يصبح تحت عجلات السيارة، وبالطبع ما أحد أدانه، وما أحد ضبطه، هذا الطبيب كان حكيماً فقال له: لن ترتاح نفسك إلا إذا أرسلت لأهل القتيل الديّة الكبيرة، لعلّك إذا دفعت هذا المبلغ الكبير أن تنام الليل ـ فلا أحد يعذّب المعتدي أو المخطئ، ولكنه يعذِّب نفسه.

هناك عذاب في جهنّم، عذاب الحريق وهذا ثابت ويضاف إليه العذاب النفسي كذلك، أجل يضاف إلى عذاب الحريق، إلى عذاب النار التي تشوي الجلود عذاب النفس وهو شديد..

(وَكَذَلِكَ حَقّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا أَنّهُمْ أَصْحَابُ النّار)

فالإنسان أحياناً يسرف في المعصية إلى أن يصل إلى طريق مسدود.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14))

(سورة الإسراء)

(الّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلّذِينَ آمَنُوا رَبّنَا وَسِعْتَ كُلّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلّذِينَ تَابُوا وَاتّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ

1 ـ الملائكةُ أنصحُ خلق الله إلى البشر، وأغشُّ خلق الله إلى البشر الشياطين:

هؤلاء مَنْ ؟ الملائكة، أنصح خلق الله إلى البشر الملائكة، وأغشُّ خلق الله إلى البشر الشياطين من غير الإنس، أنصح مخلوقٍ لك المَلَك، وأغشُّ مخلوقٍ لك الشيطان، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(59)أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(60)وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(61)وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ(62)هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(63)اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(64))

(سورة يس)

من جهتي كلّما رأيت إنسانًا يُشْنَق، أقول: هذا من عمل الشيطان، سار مع الشيطان فكان هذا مصيره، كلّما رأيت إنسانًا مودعًا في السجن لاقتراف الجرائم، المخدِّرات، القتل، السرقة، أقول: هذا من عمل الشيطان، الشيطان سوّل له هذه المعاصي فاستحقّ هذا المصير، كلّما وجدت شقاقًا زوجيًا غير محتمل أقول: أحد الزوجين مع الشيطان يسلك سلوك الشيطان، والشيطان يأتينا عن أيماننا، وعن شمائلنا، ومن أمامنا، ومن ورائنا، عن أيماننا بالغلو في الدين، غلو الإفراط، وغلو التفريط، وغلو التعصُّب، غلو المنافسة غلو الحسد، غلو الطَعْن، غلو الاعتقاد إلى درجة أن يقولوا: إننا وحدنا على حق، هذا غلو عن أيمانهم، وعن شمائلهم المعاصي، ومن بين أيديهم التجديد والتحديث، ومن خلفهم التمسُّك بالتقاليد غير الإسلاميّة، أربع جهات، لكن جهة العلو ـ جهة الاتصال بالله عزّ وجل ـ فهذه طريقٌ آمنةٌ وسالكة، وكذلك جهة العبوديّة لله جهةٌ آمنةٌ وسالكة. فهؤلاء الملائكة.

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ)

2 ـ العرش:

هذه الكلمة وردت في القرآن الكريم، استوى على العرش كما قال الإمام مالك: **" الاستواء معلوم ـ عُلِم بهذه الآية ـ والكيف مجهول "**، أيْ نَكِلُ أمر تفسير العرش إلى الله عزّ وجل، لأننا لا نملك إمكانيّة تفسير هذه الكلمة.

بعضهم قال: **"بيتٌ في السماء، بيتٌ معمور يطوف حوله الملائكة كما هي الكعبة في الأرض**، فهذا ممكن، فأيّ تفسير للعرش قاصر، هذا مما استأثر الله بعلمه.

على كلِ الملائكة.

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

دائماً عندنا في الدين منطقة اعتقاديه، ومنطقة تحقيقيَّة، ومنطقة في أفكار الدين تصديقيَّة، موضوع العرش والكرسي، وكذلك موضوع وجاء ربُّك، موضوع: يد الله فوق أيديهم، موضوع: استوى على العرش، موضوع: تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، موضوع: إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربُّكم إلى السماء الدنيا، هذه كلها مجموعة آيات لا تزيد على عشر آيات متعلِّقة بذات الله عزَّ وجل، العلماء الأجلاء وقفوا حيال هذه الآيات موقفين صحيحين، وموقفين غير صحيحين:

الموقف الأول الصحيح: فوّضوا أمر تفسيرها إلى الله، العرش معلوم، والكيف مجهول، لأن هذه مغيَّبات، فالله أخبرنا أنه يوجد عرش في السماء، فليست لدينا إمكانيَّة أن نصل له، ما عندنا إمكانيَّة أن نعمل له تنظيرًا، مثلاً بالأشعَّة نصوّره، بالطيف نصوّره، ليس من مجال، علمُنا قاصرٌ عن إدراك العرش، وأي تفسير للعرش لم يرد في الحديث الصحيح هو غير صحيح، فنحن في مثل هذه الكلمات الغيبيَّة لا نملك إلاَّ التطبيق، لأن الله عزَّ وجل:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

السلف فوّضوا أمر هذه الآيات إلى الله، الخلف أوّلوها ـ وهذا شيءٌ جميل ـ قالوا: وجاء ربُّك ؛ أيْ جاء أمره، يد الله ؛ أيْ قدرته، سمعه وبصره ؛ أيْ علمه، نفسه ؛ أيْ ذاته، نزل بمعنى أن الله سبحانه وتعالى سمح لهذا العبد أن يُناجيه، هذا هو المعنى، فإما أن تفوّض، وإما أن تؤوّل، أما الذين عطّلوا هذه الآيات، وأما الذين جسّدوها، جسّدوا، وعطّلوا فهم فرقتان ضالتان، نحن مع التفويض أو مع التأويل، ولسنا مع التعطيل ولا مع التجسيد. إذاً الملائكة:

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ)

لا نملك من شرح هذه الآية إلا ما وردت به السُنَّة، فالنبي الكريم ما وصف تفاصيل حول العرش أو حمل العرش.

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)

3 ـ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

الملائكة كائنات نورانيَّة دائمة التسبيح لله عزَّ وجل، كما قال سيدنا علي: **<< رُكِّبَ المَلَك من عقلٍ بلا شهوة، ورُكِّبَ الحيوان من شهوةٍ بلا عقل، ورُكِّبَ الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان >>.**

(يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا)

انظر إلى هذه الآية ما أدقها !

(وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا)

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا

أحياناً يكون هناك علم ولكن ليست لديه رحمة، علم مع قسوة، فهذا شأن الإنسان، أحياناً ترى الرحمة البالغة، ولكن بلا علم، تصير مؤذية، فاجتماع الرحمة مع العلم عند الله فقط، وربنا عزّ وجل قال:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ(78))

(سورة الرحمن)

فبقدر ما هو عظيم بقدر ما هو كامل، فعند الله تجد رحمةً وعلماً، بقدر ما هو عليم هو رحيم، أفعال الله كلها تنظُمَها رحمته وعلمه.

(رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا)

هل هناك شيءٌ لا تسعه رحمة الله ؟ لا، هل هناك شيءٌ لا يسعه علم الله عزّ وجل ؟ أي شيءٌ تسعه رحمة الله عزّ وجل ويسعه علمه.

(فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

دعاء الملائكة للمؤمنين:

هذا دعاء الملائكة للمؤمنين.

لا يسعد الأبُ إلا إذا رأى ابنه سعيداً:

(رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وهذه بشارة للمؤمن إذا ربّى أبناءه تربيّةً صالحة:

(أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور: من الآية 21)

والأب لا يسعد إلا إذا رأى ابنه سعيداً.

(رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ)

(فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)

(سورة هود)

معنى هذا.

(وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(8)وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

كل مصائب الدنيا تهون، لكن احذر المعصية:

فإذا وصل الإنسان إلى دار السلام بسلام، إذا انتهت حياته إلى الجنّة، فقد فاز فوزاً عظيماً، مهما فاته من أشياء في الدنيا، لذلك سيدنا الصديق كُتِبَ عنه أشياء كثيرة.

لفت نظري مرّة هذه العبارة: **" ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط "**، فإذا أنت عرفت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، وسلكت الطريق إليه، وكان دخلك محدودًا، فلا بأس، إنا لله وإنا إليه راجعون، زواجك غير ناجح، لا مانع، الأولاد من الدرجة الوسطى، لا بأس ولا حول ولا قوة إلا بالله، خمس أو ست علل في جسمك، أفوض أمري إلى الله، فلو فاتك شيء من دنياك فقد وصلت أخيرًا إلى جوهر الحياة ونعيمها، والأمور بخواتيمها.

أما الذي أعطاه الله كل شيء، وحجب عنه معرفته، حجب عنه شرعه، حجب عنه الكمال، ما ربح شيئاً، هذا معنى القول الثابت: **" يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك "**. هؤلاء:

(وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

من هنا كان سيدنا عمر إذا أصابته مصيبةٌ قال: **<< الحمد لله إذ لم تكن في ديني >>**، كله سهل، ما دام أني ما عصيتُ، وما خرقتُ حُجب الاستقامة، وما أكلت مالًا حرامًا، ما ارتكبت مُنكرًا، ما عملت السيئات، ما دُمتُ مستقيماً فكله يهون.

هذه المرأة الأنصاريّة التي رأت ابنها قتيلاً في أرض أُحد، وبعد قليل رأت زوجها قتيلاً، ثم رأت أباها قتيلاً، رأت أخاها كذلك قتيلاً - هذا شيء فوق طاقة البشر، الزوج والابن والأب والأخ - قالت: **" ما فعل رسول الله ؟ "** قالوا: **" هو بخير "**، قالت: **"يا رسول الله كل مصيبةٍ بعدك تهون "**، ليست هناك أي مشكلة.

الإنسان إذا كان دينه سليمًا فالمشكلة يسيرة، هو مثلاً ساكن في بيت عالٍ، أو قبو بأجرة، ملك، كبير، صغير، ضمن المدينة، خارج المدينة، هذه ليست مشكلة، أجل، ليست هذه المشكلة، المشكلة أن تعصي

الله، المشكلة أن يكون الطريق مسدودًا، المشكلة أن يصل الطريق إلى النار فهذه هي المشكلة، بل هذه مشكلة المشاكل.

الأحوال مهما قست فكلُّها تمضي تنقضي إلى زوال، والموت يسوي بين جميع الناس، فالرياضي يموت، والإنسان الذي أهمل في نفسه يموت، والغني يموت، والفقير يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والحاكم يموت، والمحكوم يموت، والظالم يموت، والمظلوم يموت، كلهم يموتون ـ سبحان من قهر عباده بالموت ـ كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت، المشكلة أن تقع في معصية، فقط هذه هي المُشكلة، لذلك: كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله، إذا كنت مستقيمًا فأنت الفائز الأول، أنت الرابح، أنت المفلح، أنت الناجح، أنت المتفوّق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (04-20): تفسير الآيات 10 - 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-07-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الرابع من سورة غافر، ومع الآية العاشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

1 - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

كيف يكون الكافر حين يكشف الحقيقة يوم القيامة ؟

يبدو أن الإنسان يوم القيامة حينما يرى مصيره الأبدي، وحينما يرى أنه خسر كل شيء، خسر نفسه التي هي أمانةٌ في عنقه، لم يزكها، بل دسّاها، وقد قال الله عزّ وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

حينما يرى الإنسان الحقيقة التي كان غافلاً عنها، حينما يصبح بصره حديداً أي نافذاً، حينما يكشف له الغِطاء، حينما تضح الحقائق، حينما يبدو ما كان خافياً عنه، يصيبه من الألم ما لا سبيل إلى وصفه، حتى إنه ورد في كتاب الجامع الصغير:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر إلي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[الجامع الصغير عن جابر، وفي إسناده ضعف]

فإضافةً إلى عذاب الحريق، وإلى عذاب النار المادي، هناك عذابٌ نفسي لا يحتمل، فهؤلاء الذين كفروا، معنى كفروا أي كذبوا بالحق لما جاءهم، كذبوا وأعرضوا، الإيمان تصديق وإقبال، الكفر تكذيب وإعراض، هؤلاء الذين كفروا يصيبهم من الألم ما لا سبيل إلى وصفه، حتى أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

لا يحتمل الندم والخسارة أحدٌ:

أيها الإخوة... مشاعر الندم صعبة جداً، الإنسان إذا اكتشف فجأةً أنه خسر خسارةً كبيرة، الخسارة في الدنيا صعبة، خسارة المال صعبة، يكون التاجر يتمتع بصحةٍ تامّة، وله بيت، وله مركبة، وله متجر، وله مستودعات، ومعه أموال طائلة، يعقد صفقة من الصفقات فيخسر أرباحها، وقد يخسر جزءاً من رأس ماله، تراه بأحوالٍ لا توصف، الخسارة مؤلمة، خسارة جزءٍ من المال مؤلمة فكيف خسارة المال كله.

أطباء القلوب عندهم حالات كثيرة، أزمات قلبية حادة أساسها فقد المال، والإنسان يوم القيامة لم يفقد ماله، بل فقد نفسه، رأس ماله الوحيد لدخول الجنة تزكية نفسه، جاء إلى الدنيا وغفل عن الكون الذي سخّره الله تسخير تعريف، استخدم عقله على خلاف ما خلق له ـ كما قلت في الدرس السابق ـ استخدم عقله بخلاف ما خلق له، لم يعبأ بفطرته، نادته فطرته: لا تفعل، يا عبد الله لا تفعل. لم يستجب لنداء الفطرة، ولم يستمع لصرخة العقل، ولم ينظر إلى عظمة الكون، ولم يعبأ بهذا التشريع، ولم يستخدم حظوظه إلا في خلاف ما خلقت له، استخدم الشهوات لا ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، بل ليهوي بها إلى أسفل سافلين.

هذا حينما يكتشف الحقيقة ماذا يحصل له ؟ فتصور إنسانا باع بيته الذي في أرقى أحياء دمشق، وباع البُستان مع كل مستلزمات قضاء الإجازات، باع معمله، باع مركبته، باع المحلات، وقبض أثمانها عملةً، وذهب ليضعها في المصرف فإذا هي مزيّفة، ففي هذه اللحظة بماذا يشعر ؟ الصعقة لا تحتمل، الخسارة صعبة جداً، الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا.

هذا العمر ثمين، ربنا عزّ وجل أقسم بالعصر، لأن الإنسان زمن، والإنسان يستهلكه الزمن، كلما مضت الأيام والأسابيع والشهور والسنوات استهلك الإنسان، فإذا اكتشف بعد فوات الأوان أنه خسر كل شيء، خسر نفسه التي بين جنبيه، هذه النفس كان من الممكن أن يعرفها بالله، كان من الممكن أن يحمِلها على طاعة الله، كان من الممكن أن يستخدم ماله، ووقته، وصحته، وعقله، ولسانه، وبيانه، وذكاءه، وخبرته في الأعمال الصالحة التي هي ثمن الجنة، كل هذا لم يحصل، جاء إلى الدنيا، وكان في غفلةٍ شديدة، انهمك في الشهوات، ثم فوجئ أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه عن كل شيء، الألم الذي يتحمله هذا الإنسان لا سبيل إلى وصفه، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

يا أيها الإخوة، الإنسان صحا في الوقت المناسب فهذه نعمةٌ لا تقدر بثمن، فما من نعمةٍ أثمن من أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان، ما دمنا أحياء نُرْزَق، ما دام القلب ينبض، ما دام في العمر فُسْحَة، فنحن مدعوون إلى معرفة خطر مهمتنا.

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا(72))

(سورة الأحزاب)

ما كان ظلوماً جهولاً حينما حملها، أما إذا حملها، ولم يؤدِّها كان ظلوماً جهولاً.

يا أيها الإخوة... كل شيءٍ يعرفنا بالله ؛ الكون، القرآن، العقل، الفطرة، الحوادث، الحالة النفسية، كل شيءٍ يعرفنا بالله عزّ وجل، فإذا غفل الإنسان عن الله، وكذب بالحق لما جاءه، وأعرض عن الله عزّ وجل.

الكفر بين المفهوم الواسع والمفهوم الضيق:

أيها الإخوة ما دام الحديث عن الكفر، الحقيقة أن الكفر مصطلح واسع جداً، له مفهوم واسع، ومفهوم ضيّق.

توضيحاً لهذه الحقيقة: كلمة سيارة لها مدلول واسع، ولها مدلول ضيّق، إذا قال واحد: أنا اشتريت سيارة، ماذا نفهم ؟ أنه اشترى مركبة مصنوعة من الحديد لها محرك، تعمل على الوقود السائل، لها مقود، هذا معنى سيارة، فكيف ربنا قال:

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ)

(سورة يوسف: من الآية 19)

هذه السيارة بالمعنى الواسع، أي شيءٍ يسير اسمه سيَّار، ومؤنثه سيارة، إذاً: الكلمة لها معنى واسع، ولها معنى ضيق.

الكفر الاعتقادي:

فكلمة الكفر معناها الضيّق أن تكفر بوجود الله، أن تكذِّب بوجوده، أو أن تكذب بأحد أسمائه، أو أن تكذب بكماله، أو أن تكذب بوحدانيّته، لا أعتقد على وجه الأرض إلا قلةٌ قليلة تنفي وجود الله عزّ وجل، ومع ذلك في ضمائرهم، وفي عقلهم الباطن، وفي فطرتهم شعورٌ أن الله موجود، ولكن هذا الذي يؤمن بوجود الله، ولا يؤمن بوحدانيته ؛ يرى آلهةً كثيرةً، كل شخص مهم يراه إلهاً، كل شخص قوي يراه إلهاً، يعبده من دون الله، فهذا أحد أنواع الكفر الذي أساسه الشِرك.

كفر، فما رأى أن الله سبحانه وتعالى إضافةً إلى أنه موجود هو واحد، إلهٌ في السماء، وإلهٌ في الأرض، ما رأى هذه الحقيقة، رأى آلهةً من دون الله، خاف منها، أطاعها في معصية الله، عبدها من دون الله، رجا رضاها، سعى إليها، ثم يكتشف فجأةً بعد فوات الأوان أنها لم تكن شيئاً، لم تكن شيئاً على الإطلاق، لا إله إلا الله، لا رافع ولا خافض، ولا معزّ ولا مذل، ولا معطي ولا مانع، ولا قابض ولا باسط إلا الله، لذلك ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

فهذا الكفر، الكفر بوجود الله، أو الإيمان بالله والكفر بوحدانيته، أو الإيمان بالله والكفر بكماله، أو الكفر ببعض أسمائه، هذا كله كفر، لكن الكفر يأخذ دائرة واسعة جدا ودائرة أضيق، أحد أنواع الكفر أن يُعْرِضَ الإنسان عن ربه، أن يغفل عنه، قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة التوبة: من الآية 80)

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا(142))

(سورة النساء)

هذه الآية تشير إلى معنى واسع جدا من معاني الكفر، الإعراض عن الله عزّ وجل، أي أراد الدنيا ولم يرد الآخرة، أراد الشهوة ولم يرد نداء العقل، أراد المُتْعَة ولم يرد السعادة التي تتأتى من الاتصال بالله عزّ وجل، فالكفر يفهم بشكلٍ ضيق من أنكر وجود الله، من أنكر وحدانيته، من أنكر كماله، من أنكر بعض أسمائه، من أنكر بعض أوامره، والإنسان إذا رأى أن الصلاة مضيعةٌ للوقت فهو كافر، إذا رأى أن للذكر مثل حظ الأنثيين شيء لا يتوافق مع روح العصر، أين العدالة ؟ هذا كفر.

عندنا كفر اعتقادي، عندنا كفر سلوكي، لو أنه أمسك بالمصحف، وألقاه على الطاولة بشكلٍ مهين فقد كفر، هناك كفر اعتقادي، وكفر سلوكي، فموضوع الكفر يحتاج إلى تفصيل، وقد عولج في مدارج السالكين في بعض دروس جامع العثمان، الكفر له تعاريف، له حدود، له أنواع، له دوائر، له مستويات، على كلٍ أضيق تعاريفه أن يكفر الإنسان بوجود الله، أو أن يكفر بوحدانيته أو بكماله، أو أن يكفر ببعض أسمائه، أو أن يكفر بأوامره.

تارك الصلاة يسمى تارةً عاصياً، وتارةً يسمى كافراً، إذا ترك الصلاة إنكاراً لفرضيتها فهو كافر، وإذا ترك الصلاة تساهلاً وتقصيراً ونسياناً فهو عاصٍ، وشتان بين المرتبتين، فكلمة كفر لا ينبغي أن نستخدمها بلا تحفُّظ، كلمة كبيرة جداً، ومن أدق ما يفعله بعض الناس هم أنهم، أو من أبشع ما يفعله بعض الناس حينما يستخدمون هذه الكلمة من دون تحديد، فالتكفير سلوكٌ غوغائي، السرعة في تكفير الناس سلوكٌ لا يتّسم بالمنطق ولا بالتؤدة، ولا بالتعقُّل، ولا بالموضوعية، فالكفر كلمة واسعة جدا، كما أن كلمة سيارة يمكن أن تطلق على كل شيءٍ يتحرك.

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ)

(سورة يوسف: من الآية 19)

هذا المفهوم الواسع للسيارة، مفهومها الضيّق هذه المركبة الآلية التي تعمل بمحركٍ انفجاريٍ أساسه الوقود السائل، فالكفر يتسع هذا المفهوم ليشمل المعرض عن الله.

فلو فرضنا مدرّسا ملء السمع والبصر، طويل القامة عظيم الهامة، واضح النبرة، طليق اللسان، جذّاب الشخصية، يقف ويشرح الدرس، وطالب يتلهّى عن درسه، وعن شرحه، وعن بيانه بألعابٍ سخيفةٍ يجريها على ورقٍ أمامه، نقول: هذا الطالب المُتَلَهّي عن قيمة هذا المدرس كافرٌ بقيمة درسه، لأنه لا يعبأ بهذا الدرس، وينصرف عنه إلى أعمالٍ أخرى، فهذا معنى واسعٌ جداً من معنى الكفر.

الإعراض عن الله عزّ وجل والالتفات إلى الدنيا، عدم الاهتمام بأمر الله ونهيه وعده ووعيده، عدم المبالاة بالحرام والحلال، عدم المبالاة بكسب المال، عدم المبالاة بإنفاق المال، عدم المبالاة بإقامة الحدود، عدم المبالاة بالائتمار بما أمر، وترك ما نهى الله عزّ وجل، هذا معنى موسّع من معاني الكفر.

المعنى الضيق الذي أنكر وجود الله، أو أنكر وحدانيته، أو أنكر كماله، أو أنكر أحد أسمائه، أو أنكر فرضية أحد أوامره.

عندما يقول لك الإنسان: لماذا نوزّع الإرث بين الذكر والأنثى بنسبة واحد إلى اثنين، هذا شيء غير منطقي وغير عادل ؟ هل تدري أن هذا الكلام يعني الكفر، لأن الله عزّ وجل حينما يقول:

(فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ)

(سورة النساء: من الآية 176)

هذا تشريع من قِبَل خالق الكون، وأنت تقول: هذا تشريع غير منطقي، وغير واقعي، ولا يتناسب مع العدالة الاجتماعية، مع أن المرأة تشكِّل نصف المجتمع، هذا كفر.

الكفر العملي:

عندنا شيء آخر، هذا الكفر اعتقادي، وعندنا كفر قولي فالإنسان أحياناً من دون أن ينبس ببنت شفة، من دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة، لو أنه يصلي، ويصوم، ويفعل كل الطاعات، لكن إذا اعتقد أن ما يجري في هذا الكون لا عدالة فيه، ولا رحمة فيه، وأن القوي يأكل الضعيف، وأن الضعيف لا مكان له في هذا العالم، إذا أصابته هذه الأفكار السوداوية بسماعه أخبار ما يجري في العالم، المسلم مضطهد، المسلم لن تقوم له قائمة بعد اليوم، العالم كله يفعل ما يفعل ضد المسلمين، أين الله ؟ أين رحمته ؟ أين عدالته ؟ أين وعده ؟ أين كذا ؟ مشى في هذا الطريق، واعتقد هذا الاعتقاد فو الله الذي لا إله إلا هو هذا الاعتقاد نوعٌ من الكفر، كفرت بأنه إله، عددت أقوياء العالم هم الآلهة كفرت بأن الله سبحانه وتعالى

عادل، فعددت أن الحق ليس لصاحب الحق، ولكن للقوي، وأن الضعيف مقهور ومأكول. لذلك هناك خطر شديد أن الإنسان يتلقى معلومات دون أن يعرضها على القرآن الكريم، دون أن يعرضها على الذكر الحكيم، دون أن يعرضها على كلام رب العالمين، فهناك خطر كبير أن يتصور الإنسان أن ليس في الكون عدالة، الله عزّ وجل قال:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام: من الآية 59)

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[الجامع الصغير عن البراء]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

(فَوَ رَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

هذا الإيمان، هذا القرآن.

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند أحمد عن أبي الدرداء]

لا تقل: لو أني فعلت كذا، وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنك كلمة لو تفتح عمل الشيطان. معنى الكفر معنى خطير، يضيق حتى ينصب على من ينكر وجود الله، أو ينكر وحدانيته، أو ينكر أسماءه، أو ينكر كماله، أو ينكر بعض أوامره، هذا كفر اعتقادي.

وهناك كفر قولي، فما قولكم عن الذي يقول: الله عزّ وجل يعطي الحلاوة للذي ليس له أضراس، هذه كلمة يقولها معظم الناس، هل تصدقون أن هذه الكلمة كفر ؟ إنك تتهم عدالة الله، تتهم حكمة الله، تتهم عِلم الله، قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن كلمة لو تفتح عمل الشيطان، فعندنا كفر اعتقادي، في كفر قولي.

الكفر السلوكي:

وهناك نوعٌ من أنواع الكفر هو من أخطرها ومن أخفاها، هو الكفر السلوكي، وأوضح مثل عليه: لو أنك زرت طبيباً، وعالجك، وشخص المرض، وكتب الدواء، ووقفت معه موقفاً في غاية الأدب والاحترام والشكر والعرفان، ولكن في قرارة نفسك لم تعبأ بعلمه، ولا بمهارته، فامتنعت عن شراء الدواء، هل تصدق أن عدم شراء الدواء نوعٌ من أنواع الكفر بهذا الطبيب، ما قلت شيئاً، ولم تنطق بكلمة، ولم تنبس ببنت شفة، بل امتنعت عن شراء الدواء.

فإلهنا وربنا، وخالقنا يقول:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 221)

عبد مؤمن، ولا يوجد الآن عبد، أي لو جاءك إنسان فقير، إنسان أخلاقه عالية، إيمانه عالٍ، وخطب ابنتك، لم تعبأ لا بأخلاقه، ولا بإيمانه، ولا باستقامته ؛ بل أردت المال، فلما جاءك خاطبٌ آخر رأيت عنده المال الكثير والجاه العريض، ولم تعبأ برقة دينه، ولا بتركه للصلاة، فزوجته، هل تدري أنك لم تقل: صدق الله العظيم، الله عزّ وجل ينبئك أن المؤمن ولو كان عبداً خيرٌ من الكافر ولو كان غنياً، لم تعبأ بهذا، فكيف تقول: صدق الله العظيم ؟ فحينما يقول الله عزّ وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

فإذا قلت: أين أذهب بعيني ؟ ألم تقرأ قوله تعالى:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من الآية 286)

كأن الله سبحانه وتعالى كلّفك ما لا تطيق، وكأنك تكذب هذه الآية:

(لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

إذا توسعنا بمفهوم الكفر وجدنا شيئًا مخيفا، فإذا اعتقد الإنسان، أو تكلم، أو سلك سلوكا ينطوي على تكذيبٍ بما في القرآن الكريم، فلو اعتقد وقال: والله داروين معه حق، فانظر كيف أن المخلوقات تطورت، هل تصدقون أن الذي يؤمن بما قاله داروين هو كافر، لأن الله يقول حينما بدأ الخلق بدأه بآدم وحواء، فإذا اعتقدت أن الخلق بدأ بالقرد، فهذا نوعٌ من أنواع الكفر بكلام الله عزّ وجل.

تقرأ نظرية داروين، تقرأ نظرية فرويد تجده يقول لك: الجنس هو كل شيء، ونظريّات الماديين: المادة كل شيء، وما سواها سراب، فإذا قرأ الإنسان كتبا في المذاهب، وفي المعتقدات، كتبا في علم النفس، فلو أن طبيبا في علم النفس، بعض الأطباء النفسيين يرون الصحة النفسية أن يكون لهذا الشاب صديقة ـ رفيقة ـ فينصحه أن ينطلق، أن يكون له صديقة، أن يذهب إلى السينما، أن يفعل، وأن يترك، فهذا الطبيب ماذا يفعل ؟ طبيب مختص بالنواحي النفسية، ينصح مرضاه المصابين باضطرابات نفسية أن ينطلقوا في الحياة كما يفعل أهل الغرب، فأين الدين ؟ أين القرآن ؟ أين الحديث الشريف ؟ فهذا الطبيبٌ النفساني الذي ينصح مرضاه بالانطلاق في الحياة، وبارتياد دور اللهو، وباصطحاب الفتيات لكي يتوازن، لكي يمتلك الصحة النفسية، هذا الطبيب يكفر بكلام الله عزّ وجل، فأين غض البصر ؟ أين عدم الاختلاط ؟ أين أداء الصلوات ؟

والله البارحة سمع عن طبيبٍ مؤمن يعالج مريضاً نفسياً قال له: أنت بحاجة إلى مجلس علم، وإلى حفظ القرآن، وإلى أن تصحب إخوة مؤمنين، وإلى أن تعمل الصّالحات، وإلى أن تخرج من عزّلتك، والله بقيت ساعات وأنا أثني على هذه الطبيب المؤمن، هذه هي الصحة النفسية ؛ أن تعرف الله عزّ وجل، أن تعرف منهجه، أن تندفع إلى طاعته، أن ترتاد بيوت الله عزّ وجل، أن تطلب العلم، أن تقرأ القرآن، أن تحفظ القرآن.

كلمة كفر واسعة جداً، يكفي ألاّ تعتقد بصواب آيةٍ، أو بصواب تشريعٍ إلهي، أو بصواب توجيهٍ إلهي، أو بصواب حقيقةٍ في القرآن قد وردت، فهذا نوعٌ من أنواع الكفر.

لذلك ليس معنى أن فلانا كافر أي علمه قليل، فكلمة كفر كلمة كبيرة جداً، حينما تعتقد أن هذه الآية غير مناسبة لهذا الزمان فهذا كفر، كفرٌ من النوع الواسع.

مثلاً: حينما قال الله عزّ وجل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106))

(سورة يوسف)

أي شركٍ هذا ؟ هذا الشرك الخفي الذي لم ينجو منه إلا القليل، كما أن هناك شركاً خفياً يمكن أن يتلبّس ببعض المؤمنين، كذلك هناك كفرٌ خفي، كأن يكون هذا الأمر لست قابضه بالتعبير الدارج، لم تقتنع كثيراً به، ليس معقولا، هذا نوعٌ من أنواع الكفر، ولكن ليس الكفر الأكبر الذي يصح أن نقول لصاحبه: كافر.

مرة سئل رجل يحبّذ التعليم المختلط، وهو محسوبٌ على أنه داعية، قال: هذا التعليم يهذِّب المشاعر، ويزيل هذه الحواجز، وهذا الشيء الكبير يصبح صغيرا، هو لا يدري ما يقول، هذا كله مخالفٌ لكلام الله عزّ وجل، هذا أحد أنواع الكفر، وعندما تفكر تفكيرا خلاف كلام الله عزّ وجل قطعي الثبوت، هذا اتجاه فيه كفر، ولكن لا يسمى صاحبه كافرًا، لكن هذا الكلام فيه كفر، فكما أن هناك شركا أكبر، وهو أن تعبد بوذا من دون الله، هناك شرك أصغر، وهو أن تعتمد على زيد من دون الله عزّ وجل، هذا شرك، كذلك إنكار وجود الله عزّ وجل كفر، إنكار وحدانيته كفر، إنكار كماله كفر، إنكار أحد أسمائه كفر، إنكار أحقية أوامره كفر، ولكن إذا لم تفهم شيئًا، لم تقتنع به، هذا تفكير فيه كفر، ولكن لا يسمى صاحبه كافراً.هؤلاء الذين ماتوا وهم كفار.

بالمناسبة الله عزّ وجل قال:

(إِنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

(سورة النساء: من الآية 48)

حتى هذه الآية أوّلها المفسرون: ما لم يتب، إذا تاب يغفر له الشرك، الذي وردت فيه آياتٌ كثيرة من أن الله لا يغفره، كيف لا يغفره ؟ إذا مات مشركاً، فالإنسان قد يفكر فيكفر بتفكيره، قد يتكلّم فيكفر بكلامه، هذا الصحابي ـ الذي كان صحابياً ـ ودعي إلى المشاركة في الجهاد، وكان ابن زوجته غلاماً صغيراً يافعاً ممتلئاً حماساً، ورأى أن عمه تقاعس عن الإعداد للجهاد، فذكر له قصة سيدنا عبد الرحمن بن عوف، ذكر له ما فعله عثمان بن عفان، ماذا فعل أصحاب رسول الله ؟ فما كان من هذا الذي كان صحابياً إلا أن قال ـ دققوا بما قال ـ قال: لو أن محمدا صادقٌ فيما يقول لكنا شراً من الحُمُر.

هذه الكلمة كلمة كفر، فابن زوجته عمير قال له**": والله يا عمّاه، ما على وجه لأرض رجلٌ بعد رسول الله أحب إليّ منك، والآن قلت كلمة الكفر، وسأذهب إلى النبي لأقول له ما قلت "**، لم يعبأ بقوله، تكلّم هذا الطفل الصغير ـ عُمير ـ في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي استدعى عمه، قال له: مقالةٌ قلتها "، قال له: **" ما قلت شيئاً، هذا الطفل كاذب "**، ولم يمض وقتٌ قليل حتى جاء الوحي النبي عليه الصلاة والسلام، وقال:

(يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

(سورة التوبة: من الآية 74)

قال كلمة، فهناك اعتقاد كفر، وكلام كفر، وسلوك كفر، فهذا الذي يحتقر المقدّسات، أو يحتقر كتاب الله عزّ وجل ؛ يضعه في مكانٍ غير لائق، فهذا سلوك فيه كفر، نحن مهمتنا أن نلتمس عذراً للناس، وأن ننصحهم، لا أن نوزع عليهم ألقاب الكفر، فهذه ليست مهمّتنا، وأحد العلماء قال: **" نحن لسنا قضاةً، ولكننا دعاة "**، لسنا أوصياء على الناس، لا تفكر أبداً أن توزّع هذا اللقب على الناس، هذا من أكبر الكبائر، من كفّرَ مؤمناً فقد كفر، هذا ليس من شأن الناس، هذا من شأن الله، أما إذا تحدّثنا عن أنواع الكفر ؛ الاعتقادي، والسلوكي، والقولي، فمن أجل أنفسنا، لا من أجل أن نقيم الناس بهذا، أنت عليك من نفسك، لذلك ما من مرضٍ استشرى بين المسلمين كتقاذف هذه التُهَم، وتراشق كلمة كفر، حتى إن بعض المتطرفين كفروا المجتمع الإسلامي كله، هكذا بلا تؤدة، وبلا تعقُّل.

2 ـ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ

هؤلاء الذين ماتوا كفاراً ـ حديثنا الآن ليس على أنواع الكفر المخففة، والمفاهيم الموسعة ـ الذين ماتوا كفاراً، أي ختم عمله وهو كافر، هذه هي المشكلة، هؤلاء حينما تنكشف لهم الحقائق، وحينما يبدو لهم حجم الخسارة التي مُنُوا بها، حينما يرون مصيرهم الأبدي، حينما يرون أن الدنيا مرّت كلمح البصر، ساعة، الدنيا ساعة جعلها معصية، جعلها كفراً، جعلها شركاً، جعلها جريمةً، جعلها انحرافاً، ساعة مضت كلمح البصر، والأبد لا ينتهي، هؤلاء يصابون بآلامٍ لا حدود لها، ينادون وهم في النار، هم ماذا فعلوا ؟ مقتوا أنفسهم.

فتصور إنسان له محل تجاري، له بيت، عنده أولاد، عنده زوجة، عنده مركبة، مستور، يعيش حياة هادئة مستقرة، جاء إنسان فأغراه بأن يتاجر بالمخدرات، فقال له: ماذا تريد من كل هذه الأشغال، فمليون ليرة تحصل عليها في خلال أسبوع، فاقتنع، فسلك معه هذا الطريق، ألقي القبض عليه وحوكم، فحكم بالإعدام، أو حكم عليه فرضاً بالسجن ثلاثين عاما، وهو في السجن ماذا يتمنى أن يفعل بهذا الذي دلّه على هذه التجارة ؟ يتمنى أن يمزقه إرباً إرباً، يتمنى أن يقطعه قطعاً قطعا، هذا المقت، هذا الألم الشديد.

لكن لو أن إنسانا لم يدله أحد على هذا، فهو ومن بنات أفكاره، فكر أن هذا العمل مربح، فسلك به، ثم وقع في مغبّة عمله.

بالمناسبة، وإن كان هذا التعليق خارج الدرس، صدر قانون جديد للمخدارت، يحكم بالإعدام على من يتّجر بالمخدرات لو أن إنسانا لم يدله أحد، بل هو اختار هذا السلوك، فألقي القبض عليه، ودفع ثمن خطئه، ألا يتألّم من نفسه ؟ ألا يشعر بغبائه ؟ ألا يشعر بجريمته ؟ ألا يشعر بأن الشيطان قد تلبّسه ؟

حينما تكره نفسك إذا فعلت عملاً سيئاً، هذا الألم لشديد الذي لا حدود له من الذات، أو من الإنسان الذي أضلّك قال: هذا الألم الشديد، هذا المَقت، هذه الكراهية، هذا البُغض الذي لا حدود له.

أحياناً يقول لك واحد: والله أتمنى أن أفرمه فرما، لأنه قد سبّب له مشكلة كبيرة.

مرة عنده أحدهم صانع، هذا الصانع وقع في مشكلة، فطرده شر طردة، أخبر بعض الجهات على مستودعاته، فجاءوا، وجعلوه يدفع مبلغ ستمائة أو سبعمائة ألف، والقصة من عشرين سنة، فما كان منه إلا أن أطلق النار على هذا الموظّف عنده، وارتكب جريمة من شدة الحقد الذي نشأ في نفسه تجاه هذا الموظف، معنى ذلك أن الإنسان إذا كان شعر أن هذه الجهة، أو هذا الإنسان سبب له متاعب كبيرة جداً لا حدود لها، يتألم، يتمنى أن يقطِّعه إرباً إرباً، انظر إلى الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ)

يوم القيامة وهم في النار، وهم يستصرخون فيها.

(لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

3 - إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ

لمَ كان ربنا يدعوكم عن طريق الأنبياء، عن طريق الدعاة، عن طريق الخطباء، عن طريق العلماء، عن طريق الآيات الكونية، الآيات القرآنية، عن طريق الحوادث، عن طريق الفِطرة، عن طريق المنامات، لمَ كان يخوفكم، يدعوكم، وأنتم لا تبالون، لا تأبهون، لا تعتبرون، غارقون في أوهامكم، في شهواتكم، في معاصيكم، ربنا عزّ وجل رحيم، حريصٌ على هدى البشر، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

تصور، ولله المثل الأعلى، أبا عاقلا عالما حكيما، له ابن، الأب خبر الحياة، وعرف حلوها ومرها، وعرف ما تنطوي إليه، دعا ابنه إلى طلب العلم، إلى الدراسة، إلى تحصيل مراتب عُليا ؛ هذا الطفل أبى، وسها، ولها، وغفل، وأمضى الوقت الثمين في أشياء سخيفة، الأب يتألم أشد الألم، يكاد يعتصر قلبه، يكاد ينطلق لسانه، وهو ساكت، بعد أن كبر هذا الطفل، رأى نفسه ضائعاً بلا عمل، بلا مكانة، بلا مرتبة، في الطرقات وأصدقاؤه في مراتب عالية، لهم بيوت، ولهم مكاتب، ولهم أعمال، ولهم مكانة، فهذا الشاب بعد أن كبر تألم ألماً لا حدود له، فشكا إلى أبيه ذلك، فقال له: يا بني، أنت الآن متألم، أنا حينما كنت أدعوك إلى طلب العلم، وإلى بناء مستقبلك، وكنت أراك غافلاً وساهياً ولاهياً كنت أتألم ألماً أضعاف ألمك، ولكنني كنت أعلم النتائج، ولكن أنت كنت في غفلة.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

إذ تدعون: أي حينما كنتم تُدعون إلى الإيمان فتكفرون، فالإنسان لا يظن أن القضية سهلة، إذا حضر مجلس علم، والإنسان حدثه بالحق، عليه مسؤولية، حضرت خطبة مسجد، وهذا الكلام كان دقيقا، آيات واضحة تدل على وجوب الإيمان بالله، أعطاك حكما فقهيا، أعطاك موقف صحابي، أعطاك آية كونية، لا تقل: والله تسلينا، والله شيء جميل، والله قضينا وقتا لطيفا، لا، القضية أخطر من ذلك، قضية مصير، فلذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ(10)قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ

الموت الأول موت العدم.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

والموت الثاني بعد المجيء إلى الدنيا، والحياة الأولى حياة الولادة، والحياة الثانية البعث يوم القيامة.

(قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ)

وهذا أوجه تفاسير هذه الآية:

(قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)

ممكن ؟

(ذَلِكُمْ)

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

أي ما أنتم فيه من عذاب، ما أنتم فيه من عذاب الحريق، ما أنتم تعانون من آلامٍ توصف..

(ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

1 ـ التفسير الأرضي للحوادث ينافي التوحيد:

أي شيء إذا سمع التفسير على أن الله فعل ولم يفعل، هذا التفسير لا يعجبه، يعجبه أن زيداً فعل، وزيد لم يفعل، فإذا الأمور كلها فسرتها تفسير أرضي ؛ الدول العظمى، والدول الصغرى، وفلان وعلان، وزيد وعبيد، إذا فسرت الأمور على أن أشخاصاً يتحركون، وأن الأمر كله بيدهم، وأنهم يغضبون، وأن

يرضون، وأنهم يرفعون ويخفضون، يعطون ويمنعون، يصلون ويقطعون، إذا رأيت الأمر كذلك ترضى وتؤمن، أما إذا فسرت لك الأمور تفسيراً توحيدياً إلهياً، الأمر كله بيد الله، لم تكن ترضى، تقول: هذا التفسير غيبي، هذا التفسير قديم لا يتفق مع معطيات العصر ـ شيء جميل ـ قال:

(ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

البطولة أيها الإخوة ليست في أن تعرف ما حدث، ولكن البطولة في أن تفسِّر ما حدث، فكل إنسان بإمكانه أن يستمع لكل الأخبار، وهذا شيء سهل، فيشتري صحيفة، ويقرأ فيها كل ما جرى في العالم، يقرأه يوماً بعد يوم، لكن البطولة ليس في معرفة الأخبار، ولكن في تفسيرها تفسيراً توحيدياً، البطولة أن ترى يد الله فوق أيديهم، البطولة أن ترى يد الله تعمل في الخفاء، البطولة أن ترى عدالة الله، البطولة أن ترى أن الدنيا دار تكليف لا دار تشريف، الدنيا دار عمل لا دار جزاء، البطولة أن ترى موقع الحياة الدنيا من الآخرة الأبدية.

القدرة على التفكير هي من أعظم منجزات المؤمن، تفكيره الصحيح لما يجري، هذا التفكير التوحيدي المبني على كلام الله وكلام رسوله هذا يريح، يريح الإنسان من الضغط، من الحيرة، يرحه من الشرك، يريحه من القهر، يريحه من الشعور بالظلم، كل هذه المشاعر تزول عن المؤمن.

2 ـ الشرك سبب للأمراض النفسية:

الشيء الثابت الآن ما من مرضٍ عضويٍ إلا وله أسباب نفسية، وما من ألمٍ نفسيٍ أشد من أن ترى أن أمرك بيد عدوك، وأنه لن يرحمك، ولن يعطيك سؤلك، هذا الاعتقاد وحده يسبب أشد الأمراض فتكاً، أما المؤمن فيرى أن الأمر كله بيد الله، وأنه عليه أن يطيعه، وليس عليه شيءٌ آخر.

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

انتهى الأمر، أنا علي بعد أن عرفت أن الله موجود، وأن الله كامل، وأن الله واحد، عليَّ أن أتعرف إلى أمره ونهيه، فإذا طبَّقت الأمر انتهى الأمر.

أنا أتألَّم لما يصيب المسلمين، أتألَّم لكن لا أملك إلا أن أشعر أن الله سبحانه وتعالى أرحم مني، الأمر بيده، عليَّ أن أعمل، وأن أسعى، وأن أقدم كل معونة ؛ ولكن لا علي أن أنقم على الله عزَّ وجل، هذا دليل الجهل، ويمكن لك أن تقدم مساعدة لإنسان مصاب، أما أن ترى أن هذا المرض شيء يتنافى مع الرحمة الإلهية فهذا هو الجهل بعينه.

الملخص: ما من إنسان على وجه الأرض إلا وبإمكانه أن يعلم ما يحدث، لكن المؤمن يتميَّز بأنه يفسر ما يحدث تفسيراً صحيحاً، العبرة بالتفسير، فأقرب مثل لنا، بعض البلاد التي بجوارنا عانت من الحروب الأهلية ما عانت، يمكن أن تفسِّر ما عانت تفسيرات كثيرة لا تنتهي، ولكن التفسير الصحيح الوحيد:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

هذا تفسير خالق الكون، وفي ألف تفسير، في تفسير عربي، تفسير دولي، تفسير طائفي، وأخيراً هناك تفسير نسواني أصابتها عين ـ هذه تفاسير كثيرة جداً، البطولة أن تعرف تفسير القرآن.

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف: من الآية 59)

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

لا يعجز اللهَ شيءٌ:

أقرب شيء لنا الآن مرض الإيدز، اقرأ عنه، تجد أن كل العلماء يبحثون عن مصلٍ لهذا المرض، بينما ربنا عزّ وجل أراد من هذا المرض أن يكون عقاباً إلهيّاً للمنحرفين، فالعلاج ليس في المصول، بل في التوبة إلى الله عزّ وجل، فالمهم أن تعرف حكمة الله من هذا المرض الذي تحدَّى العصر كله، عشرون مليون إنسان يحمل هذا المرض في أمريكا وحدها، والنتائج مخيفة جداً، هذا عقاب السماء للأرض.

باخرة من أعظم البواخر في العالم ـ اسمها تيتانيك ـ بُنِيَت بناءً لا سبيل إلى وصفه، بنيت على طبقتين، وحواجز عرضية، فأي خلل أصابها يكفي القبطان أن يغلق المنافذ، وانتهى الأمر، لذلك قيل في نشرة صنعها: " إن هذه السفينة لا يستطيع القدر أن يغرقها "، هكذا كتبوا، وشاءت حكمة الله أن يركب في هذه السفينة أغنياء أوروبا، وقدروا قيمة الحلي التي على نساء الأثرياء بأرقام فلكية، فيها كل شيء، فحضارة أوروبا كلها في هذه السفينة ؛ المسابح، المطاعم، دور اللهو، المنتجعات، غرف النوم الفخمة، وفي أول رحلةٍ لها بين أوروبا وأمريكا ارتطمت بجبلٍ ثلجي شطرها شطرين، استغاثت كل السفن التي

حولها، ظنوا أنها تحتفل، فلم ينجدوها، فغرقت، وقبل سنة عرفوا مكانها، فقال أحد القساوسة وقتها: هذا درسٌ بليغ من السماء إلى الأرض.

أرسلوا مركبة حديثة جداً في رحلة فضائية ـ مركبة فضائية حديثة جداً اسمها المتحدي ـ بعد أن انطلقت بسبعين ثانية أصبحت كتلةً من اللهب، يجب أن تفهم على الله عزّ وجل، من تتحدون ؟ الأحداث لا ينبغي أن تفهمها فهماً أرضياً، البطولة أن تفهمها فهماً توحيدياً، البطولة أن ترى أن الله بيده كل شيء، وأن هؤلاء الذين تراهم على السطح ما هم إلا دمى الله عزّ وجل يحركهم، والدليل قوله تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

علاقتك فقط مع الله.

إذاً:

(ذَلِكُمْ بِأَنّهُ إذَا دُعِيَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِيّ الْكَبِير)

إذاً: الشرك زائد الكفر = أحد أسباب العذاب الأبدي.

أخطر شيء على الإنسان أن يشرك، وطبعاً.

(ذَلِكُمْ بِأَنّهُ إذَا دُعِيَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا)

الشرك هو السبب.

مرة ضربت مثلا، ويجب أن أعيده الآن: لو أن إنسانا له مبلغ كبير جداً في حلب، يجب أن يكون الساعة الثانية عشرة كي يقبضه، فإن لم يكن في هذا الوقت ضاع منه المبلغ، مبلغ كبير بالملايين، ذهب إلى محطة القطارات، ركب قطار حلب، فمن الممكن له أن يرتكب مائة غلطة في هذا القطار، ممكن أن يقطع درجة أولى، ويجلس درجة ثالثة، ليس منتبها، ممكن يجلس في جهة معاكسة للقطار يدوخ، يختار غرفة فيها رُكّاب سيئو الأخلاق، ممكن، يغيب عنه أن المركبة فيها طعام، وهو يتلوى من الجوع طوال الطريق، ممكن، لكن كل هذه الأغلاط تغفر لأنه في طريقه إلى حلب، وسيقبض المبلغ، أما إذا اتجه إلى محطة القطارات، وركب قطاراً متجهاً إلى درعا مثلاً، هذه غلطة لا تغفر، لأنه يمشي بعكس اتجاهه، ولو كان القطار فخما، لو كان فيه أرقى أنواع الفخامة، لكنه ارتكب غلطة لا تغفر.

عندما يتجه الإنسان إلى الله عزّ وجل الله يحل له كل مشاكله، أما إذا اتجه لغيره فلا يوجد شيء عند غيره، إن الله لا يغفر أن يشرك به، ولما أشرك الإنسان أي اتجه إلى لا شيء، اتجه إلى عباد ضعاف، فقراء، بخلاء، لؤماء، فالخطأ أن تعتقد الهدف هناك، وأن تتجه اتجاهاً معاكساً، فالمشرك ليس له طريق إلى الله عزّ وجل، لا يرى الله، يرى زيدا وعبيدا، يرى فلانا وعِلانا، يرى المال إلهًا، يرى اللذة إلهًا،

يرى هذا البيت يجب أن يبقى فيه مهما كلف الأمر، ولو على حساب دينه، فالطريق إلى الله أمام المشرك مسدود، لهذا:

(إِنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

(سورة النساء: من آية 48)

(ذَلِكُمْ بِأَنّهُ إِذَا دُعِيَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِيّ الْكَبِير)

3 ـ فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِيّ الْكَبِير

الله عليٌّ علواً ما بعده علو، وكبيرٌ كبراً ما بعد كبر، فما معنى الله أكبر ؟ ليس أكبر من كل شيء فهذا المعنى بسيط جداً أما هو فأكبر مما أعرف، مهما عرفت عن الله فهو أكبر، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعرف الله إلا الله، الأنبياء أشد الخلف معرفة بالله، لكن معرفتهم نسبية، هذا معنى قولنا: الله أكبر، أي أكب مما عرفت، مهما عرفت عن الله فهو أكبر، مهما عرفت عن رحمته فهو أرحم، مهما عرفت عن قدرته فهو أقدر.

نجم يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، وبينهما مئة وستة وخمسون كيلو مترا !! نجم يكبر الشمس بمئة مليون مرة، والشمس تكبُر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة !! مسافات، الأرض بحجمها الحقيقي إذا دخلت في ثقبٍ أسود في الفضاء يصبح حجمها كالبيضة والوزن نفسه، الأرض كلُّها يمكن أن تضغط بحجم بيضة، كم هي الفراغات البينية في المادة ؟

إذاً:

(فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِيّ الْكَبِير)

عليٌّ علوًّا ما بعده علو، وكبيرٌ ما بعد كِبر.

(هُوَ الّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ)

هُوَ الّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ

الناس بالبديهة والفطرة يقولون لك: الله كبير، لأنه رأى آية، نحن لو نظرنا إلى ما حولنا فحياتنا الدنيا طافحة بالآيات ؛ آيات كونية، آيات قرآنية، آيات تكونية، فالبحران:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيّ آلاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ(21))

(سورة الرحمن)

هذه الآية حيّرت مفسرين خلال ألف عام، أين البرزخ ؟ فهذا البحر الأحمر، وهذا المحيط الهادي، فأين البرزخ ؟ الآن اكتشف بالمراكب الفضائية حينما رأوا خطاً بين البحرين ـ خط لونيا ـ اكتشفوا أن كل

بحر له مكوّناته، له كثافته، له ملوحته، له خصائصه، وأن مياه هذا البحر لا تبغي على البحر الآخر، وبينهما حاجز وهمي لم يعرف حتى الآن طبيعته، بين الأحمر والعربي، بين الأبيض والأطلسي، بين الأسود والأبيض بالبوسفور، بمضيق باب المندب، وبمضيق جبل طارق.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(21))

(سورة الرحمن)

الآيات لا تعدُّ ولا تحصى ؛ آيات في الكون، آيات في خلق الإنسان، آيات في النبات، آيات في الحيوان، فالله عزّ وجل قال:

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ)

آياته، هذا الجسم أكبر آية من آياته، دقق كيفما تحولت ترى عظمة الله عزّ وجل.

(وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (05-20): تفسير الآيات 14 - 16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-07-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة غافر، ومع الآية الرابعة عشرَ، وهي قوله تعالى:

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

1 - الإخلاص أساس العمل:

الآية الكريمة تشير إلى الإخلاص، والإخلاص أساس العمل، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنّمَا الأعْمَالُ بِالنِّيّاتِ))

[صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب]

أي أن قيمة العمل من خلال نيّته فقط، وليس من خلال شيءٍ آخر، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال لمعاذ:

((أخلص دينك يكفك القليل من العمل))

[الجامع الصغير عن معاذ]

((درهمٌ أنْفِقَ في إخلاص خيرٌ من مئة ألف درهمٍ أنفِقت في رياء))

[ورد في الأثر]

الإخلاص ينفع معه قليل العمل وكثيره ؛ والرياء لا ينفع معه لا قليل العمل ولا كثيره.

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

وقالوا: الله عزّ وجل لا يتقبّل من العمل إلا ما كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السُنّة.

والإنسان أيها الإخوة، بفطرته يشعر ما إذا كان مخلصاً أو غير مخلص، إن كان مخلصاً شعر أن الله قد قَبِله، وأن الله عاد عليه بالسكينة، وعاد عليه بالتجلي، وكأن ثمن إخلاصه يقبضه عاجلاً لا آجلاً، أما إذا صلّى الإنسان، وعمل الصالحات، وقرأ القرآن، ودعا إلى الله، وما شعر بشيء، ففي عمله خللٌ خطير، وفي إخلاصه نقصٌ كبير، إذا صليت، وصمت، وقرأت القرآن، وعملت الصالحات، وما شعرت بشيء، ما شعرت بالقُرب، ما شعرت بالطمأنينة، فهذه علامةٌ خطيرة ؛ إمّا على خلل العمل، أو على ضعف

الإخلاص.

قد يكون العمل صحيحاً، وفق الكتاب والسُنَّة، ولكن لا تشعر بسعادةٍ معه، إذاً: هناك خللٌ أو نقصٌ في الإخلاص، قد يكون الإخلاص جيداً، ولكن العمل ليس كاملاً، فلن تقطف ثمار العمل إلا بشرطين، أن يكون العمل موافقاً للكتاب والسُنَّة، ومعنى هذا أنه لا تعفيك نيّتك الحسنة من محاسبة الله عزّ وجل، فالله عزّ وجل أنزل هذا الكتاب، وشرّع لنا الشرائع من أجل أن نطبّقها، لا من أجل أن نلقيها وراء ظهورنا، ونقول: نوايانا طيّبة، هذا كلام غير مقبول، فلذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ)

2 ـ قد يكون دعاء الإنسان ربّه بغير إخلاص:

مخلصين: حال، معنى ذلك أننا قد ندعو الله عزّ وجل، ولسنا مخلصين، قد ندعو الله ونتّكئ على أموالنا، قد ندعو الله ونتكئ على مكانتنا، قد ندعو الله ونعتمد على زيد أو على عُبَيد، هذه دعوةٌ ليست مخلصةً لله عزّ وجل، ما دام هناك جهات أرضيَّة تعتمد عليها فأنت في دعوتك لست مخلصاً، لذلك أن تقول: يا رب، مهما قلت يا رب الله عزّ وجل ناظرٌ إلى قلبك، القلب كما قالوا: منظر الرب، فإذا نظر الله إلى قلبك فرآه فارغاً إلا منه، فارغاً إلا من الاعتماد عليه، والتوجُه له قَبِلَ عملك.

فيا أيها الإخوة الأكارم لا تنسوا هذه الآية:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

لا تفرحوا بكثرة العمل، افرحوا بالإخلاص الشديد، كلّما زاد إخلاصك ارتقت مرتبتك عند الله، فهذه الآية أمرٌ إلهي:

(فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ)

والإنسان.

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

هو يعلم ما إذا كان مخلصاً أو غير مخلص، هو يعلم ما إذا كان يدعو الله وحده، أم يدعو الله بلسانه، وقلبُه معتمدٌ على زيدٍ أو عُبَيد.

أحياناً الإنسان يعتمد على عمله، إذا اعتمد على عمله، ورآه منجياً له من عذاب الدنيا والآخرة، هذا الاعتماد على العمل يُضعف الإخلاص لله عزّ وجل، لذلك قد يرى عمله قليلاً لا يغنيه، ولا يسمنه من جوع.

ما طريق الإخلاص ؟ ـ التركيز اليوم عن الإخلاص، فقد تحدّثنا في الدرس الماضي عن موضوع الكفر، الكفر الاعتقادي، والكفر القولي، والكفر العملي، والكفر بمعناه الواسع، ومعناه الضيّق، أمّا الإخلاص، كيف أُخْلِصْ ؟

3 ـ كيف أُخْلِصْ ؟

أيها الإخوة الأكارم، لا تستطيع أن تخلص ما لم توحِّد، إذا رأيت أن الله وحده بيده كل شيء، وأنه لا رازق إلا الله، لا معطي إلا الله، لا مانع إلا الله، لا معزّ إلا الله، لا مذلّ إلا الله، لا باسط إلا الله، لا قابض إلا الله، أمره كلّه بيده، كأن مؤشّر الإخلاص يتحرّك مع مؤشّر التوحيد، فكلّما ارتفع مستوى توحيدك ارتفع مستوى إخلاصك.

فكلمة إخلاص من أين تأتي بها ؟ السوق فيه كل شيء، فهل بإمكانك أن تشتري الإخلاص من السوق ؟ الإخلاص محصِّلة التوحيد، أي أن حجم إخلاصك بحجم توحيدك، كلما ازددت توحيداً ازددت إخلاصاً، إذاً: العمل لا يُقْبَل إلا إذا كان خالصاً.

الرياء مدخلٌ من مداخل الشيطان:

الحقيقة كما قلت لكم في درسٍ سابق: الإنسان قد يؤتَى من عن يمينه، الشيطان حينما ييأس أن يأتيك من أمامك بدعوى التجديد، والتحلل من القيم الدينيّة، وحينما يخفق من أن يأتيك من ورائك ؛ التمسُّك بالتقاليد البالية غير الإسلاميّة، وحينما يخفق من أن يأتيك من شمالك في دعوته إلى المعاصي والآثام، ليس له إلا جانبٌ واحد، وهو أن يأتيك من يمينك.

إذاً: في حلقات المؤمنين، في تجمُّعات المسلمين، وأنت في المسجد، وأنت بين إخوانك، وأنت تصلي، وتقرأ القرآن، وتحجُّ بيت الله الحرام، تصوم رمضان، وأنت في عباداتك، وأنت في طاعاتك، قد يؤتَى الإنسان من الشيطان.

من أين يأتي ؟ من الرياء، الرياء أحد مداخل الشيطان على الإنسان، قال عن شخص، وخلال أربعين سنة ما ترك الصفّ الأول خلف الإمام، في يوم من الأيّام لم يُدرك الصف الأول، فقال: ماذا يقول الناس عني، وقد صليت في الصف الثاني ؟ ففُهم أن هذه الأعوام الأربعين التي صلّى فيها في الصف الأول لا مخلصاً لله عزّ وجل، ولكن لينتزع إعجاب الناس.

نحن إذا تحدّثنا لأخوتنا المؤمنين عن الإخلاص، أن نقول لهم: إياكم أن تسرقوا، إياكم أن تزنوا، هذا كلام لا معنى له إطلاقاً في بيوت الله، لأن الذي يرتاد المساجد مسلماً يجتنب الكبائر، ولكن من أن يؤتى؟ من الصغائر، يؤتى من ضعف الإخلاص، ألا تذكرون أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الشيطان يئس أن يُعْبَد في أرضكم، ولكن رضي بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

[البيهقي عن معاذ]

وفي رواية أخرى:

((رضي بالتحريش بين المؤمنين))

[مسلم عن جابر]

الشيطان لا يستطيع أن يصل إلى المؤمن إلا عن يمينه، من عن يمينه من جانب دينه، إما بوساوس، وإما بمبالغات، وإما بالغلو في الدين، وإما بالرياء، وإما بضعف الإخلاص، وإما بالخوف من الناس، وإما برغبته الجامحة في انتزاع إعجاب الناس.

4 ـ الإخلاص أن لا ترى مع الله أحداً:

هناك مزلقٌ خطير أيها الإخوة. عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ))

[ابن ماجه عن أبي هريرة]

فكل ما أرجوه في هذا الدرس التركيز على الإخلاص، فأنت لماذا تأتي إلى بيت الله ؟ لئلا يقال عنك أنك تخلّفت عن درس الجمعة ؟ هذا ضعفٌ في إخلاصك، ليرضى عنك زيد ؟ ليراك عُبَيد ؟ ليقال عنك من روّاد هذا المسجد ؟ يجب أن تحرّر النيّة.

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا(9))

(سورة الإنسان)

كلّما ارتفع مستوى الإخلاص يئس المؤمن من رضى الناس، لا يعنيه رضاهم، ولا غضبهم، ولا سخطهم، ولا قربهم، ولا بعدهم، والإنسان حينما يستجدي الثناء والمديح فهذا ضعفٌ في إخلاصه، أما حينما يرى أن الله الذي خلقه راضٍ عنه.

فليتك تحلو و الحياة مريـرةٌ وليتك ترضى والأنامُ غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خـراب

***

الإخلاص أن لا ترى مع الله أحداً، أن لا ترجو غير الله، الإخلاص بتعاريفه الدقيقة: أن لا ترجو غير الله، أن لا تخاف غير الله، أن لا تطمع في غير فضل الله، أن لا ترجو قرب غير الله، أن لا تخشى غير الله، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليك مما سواهما، فلذلك من ضعف الإخلاص أن تؤثر خلقه عليه، لهذا قال الله عزّ وجل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24))

(سورة التوبة)

يا أيها الإخوة، الإنسان حينما تستهلكه الدنيا يأتي إلى المسجد، ينطلق إلى عمله، يبيع ويشتري، يداوم في مكتبه، يمارس نشاطاته، يجلس مع أهله، ينطلق إلى نزهة، ينطلق إلى سهرة، إلى لقاء، ولا يجلس ليتأمّل نفسه، ليراجع حساباته، ليفحص عمله، ليعتني بقلبه، هذا الإنسان الذي يستهلكه الوقت، وتستهلكه المشاغل، هذا في الأعمّ الأغلب يضعف إخلاصه، لأنه دخل في دوّامة، دخل في متاهة الانشغال، واللقاءات، والعمل، فلابدّ للإنسان من ساعةٍ يخلو بها مع ربّه، يفحص عمله، يتأمّل نواياه، يفحص إخلاصه، تَبَيَّنَ مقاصده، هل هي مقاصد نبيلة ؟ لأنه:

((درهمٌ أنْفِقَ في إخلاص خيرٌ من ألف مئة درهمٍ أنفق في رياء))

[ورد في الأثر]

فربنا سبحانه وتعالى يقول في الآية الرابعة عشرة:

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

5 ـ لَهُ الدِّينَ

لا تخضع إلا لله:

كلمة له الدين، إذا قلنا: الدين له معنى، وإذا قلنا: له الدين لها معنى آخر، إذا قُدِّم الخبر على المبتدأ فهذا يفيد القصر، أي أن الدين وحده له، أو الدين له وحده، أي أنك لا ينبغي أن تخضع لغير الله، لأنك إنسان مكرّم ؛ الماء للتراب، والتراب للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن ؟ لله عزّ وجل، أنت المخلوق المكرّم، أنت المخلوق المكلّف، أنت المخلوق الذي سخّر الله لك السماوات والأرض، أنت المخلوق الذي حملت الأمانة، لا يليق بك، ولا يحسن بك، ولا ينبغي لك أن تكون خاضعاً لغير الله، أن تدين بالولاء لغير الله، أن تدين بالخضوع لغير الله، أن تدين بالحبِّ لغير الله.

الخضوع لله، الحب لله، الطاعة لله، الإخلاص لله، لذلك الإنسان أحياناً يصبر، ولكن لا يصبر لله، يكون فوقه شخص ظالم قوي جبَّار، يسحقه سحقاً، يقول لك: ماذا نفعل ؟ فهذا ليس صبراً تؤجَر عليه، لكن الصبر الذي تؤجر عليه كما قال الله عزّ وجل:

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ(7))

(سورة المدثر)

أن تكون في أعلى درجات القوّة، وبإمكانك أن تسحق خصمك، ومع ذلك تصبر لله عزّ وجل.

إذاً:

(فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

الدين الخضوع، الإنسان هل يخضع لغير المنطق ؟ إذا قلت لكم: اثنان واثنان يساويان خمسة هل تسكتون ؟ اثنان واثنان أربعة، كلكم يسكت، هذا أبسط مثل، إذا تكلّم متكلِّمٌ بمنطق، بواقع، إذا خاطب العقل، إذا خاطب القلب، إذا جاء بالأدلّة، جاء بالبراهين تجد أن النفس تخضع، فالنفس من طبيعتها أنها لا تخضع إلا للحق، لا تعجب إلا بالكمال، أحياناً قد يكون الإنسان متلبّسا بالنقص، ولكنه يحب الكمال، فالذين يسرقون يقسمون السرقة بالعدل بينهم ـ يقول له: اقسم بالعدل، فحينما أخذت هذا المال هل أخذته بالعدل ؟ هذا يؤكِّد لنا الفرق بين الفطرة والصبغة، الإنسان مفطور على فطرة عالية، على فطرة طاهرة، على فطرة نقيّة، لكنّه دنّسها بأفعاله.

لذلك كل الناس تقريباً لو أنه لم يعدل يحبُّ العدل، لو أنه لم يرحم يحبُّ الرحمة، لو أنه لم يحسن يحبُّ الإحسان، بل إن أفسق الرجال إذا أرادوا الزواج يبحثون عن امرأةٍ عفيفةٍ طاهرة ليتزوّجوها، لأن هذه فطرة، فالإنسان في الأصل لا يدين إلا للحق، لا يخضع إلا للعلم، لا يخضع إلا للكمال، لا يقبل إلا الدليل، لا يقبل إلا التعليل، فهذا الدين دين الله.

لا تخضع لمخلوق مثلك:

والله عزّ وجل هو الذي خلق العقل، فهل دينه غير معقول ؟ هو الذي خلق المنطق، فهل دينه غير منطقي ؟ هو الذي خلق الكون فهل دينه غير واقعي ؟ هو الذي فطر النفس البشريّة، فهل دينه يتناقض مع الفطرة ؟ هذا مستحيل، ما دام هذا الدين دين الله، وما دام الذي خلق الإنسان هو الله، ما دام الذي ركّب الفطرة في الإنسان هو الله، ما دام الذي أودع العقل في الإنسان هو الله، إذاً من باب أولى، ومن اليقين القطعي أن يتطابق دين الله مع بنية البشر ؛ مع فطرة النفس، ومع عقل الإنسان، ومع الواقع، ومع المنطق، إذاً الدين هو دين الله، والإنسان ينبغي أن يخضع لله، وأيّ خضوع لغير الله فهذا ضعفٌ في الدين.

لذلك أيها الإخوة، بالكلام الواضح، أنت أيها الإنسان لا يليق بك، ولا ينبغي لك، ولا يحسن لك أن تجيِّرَ لغير الله، أن تخضع لغير الله، أن تُحْسَب على غير الله، أن تكون تبعاً لغير الله، أن تكون ذنباً لإنسان، أن تكون أداةً بيد إنسان، أنت حر **"متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ "** أنت حر، فإياك أن تخضع لمخلوقٍ في معصية الله، إياك أن تكون امتداداً لإنسان، ظلاً لإنسان، أداةً بيد إنسان، أداة رخيصة، فهناك أشخاص كما أقول كالمنديل، تُمْسَحُ به أقذر عمليّة، ثمّ يُلقى في سلة المُهْمَلات، إياك أن تكون ذلك، كن حراً، اربط نفسك بالحق، لا تخضع إلا لله، لا تطع مخلوقاً في معصية الله، لا تلن إلا لله، لا تمرّغ جبهتك إلا في أعتاب الله، لا تذلّ لإنسان.

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثُلُثا دينه))

[ورد في الأثر]

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ)

(سورة التوبة: من الآية 13)

إذاً:

(فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ)

فأنت بمن تتعلق ؟ تطمح لمن ؟ تُعلِّق الآمال على من ؟ كلُّهم مخلوقات، كلهم لا يملكون لك نفعاً ولا ضراً، ولا تنسوا هذه القصّة التي أقولها كثيراً:

كان الحسن البصري عند أحد ولاة البصرة، وقد جاءه توجيهٌ لتوّه من يزيد ـ من خليفة المسلمين ـ فهذا التوجيه يبدو أنه يتعارض مع حكم شرعي، لو نفّذ هذا التوجيه لوقع في الظلم، فسأل الإمام الحسن البصري: **ماذا أفعل، هذا كتاب يزيد، وتنفيذه لا يرضي الله، ماذا أفعل** ؟ أجابه إجابةً جامعةً، قاطعةً، مانعة، قال له: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله".**

أي ضغط يأتيك، هذا الذي يضغط عليك عبدٌ لله، في قبضة الله، بيدِ الله، الله جلّ جلاله يمنعه منك، لكنّك إذا أطعته، ولم تكن مخلصاً لله لا يمنعك من الله، إذا أراد الله أن يعالج، إذا أراد أن يؤدِّب، إذا أراد أن يردّك إليه لا يستطيع أحدٌ أن يمنعك منه، هذه القصّة على قصرها وعلى إيجازها احفظوها، **" إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

فأي إنسان ضغط عليك، أي إنسان لوّح لك بالعقاب إذا لم تفعل، أو أي إنسان أغراك بالمال على شرط أن تعصي الله، المؤمن الصادق لا ترهبه سياط الجلاّدين اللاذعة، ولا تغريه سبائك الذهب اللامعة، لا سبائك الذهب اللامعة سيضعف أمامها، ولا سياط الجلادين اللاذعة يذلُّ أمامها، لا يخضع إلا لله كما فعل بلال رضي الله عنه:

" أحدٌ أحد، فردٌ صمد".

هذه الآية دقيقة جداً:

(فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ)

أخلص دينك يكفك القليل من العمل.

أحد العارفين بالله توفّاه الله عزّ وجل، رآه أحد تلامذته فقال: يا سيدي، ما فعل الله بك ؟ **" قال: " يا بني طاحت تلك العبارات هذه المحاضرات البليغة، هذه الخطب الرنانة، هذه الكتب المؤلَّفة، هذه الدراسات، هذه البحوث طاحت تلك العبارات، وذهبت تلك الإشارات، ولم يبق إلا ركيعاتٍ ركعناها في جوف الليل ".**

الإخلاص الإخْلاص، مع الإخلاص ينفع قليل العمل، ومن دون الإخلاص لا ينفعك لا قليل العمل ولا كثيره.

((درهمٌ أنْفِقَ في إخلاص خيرٌ من ألف مئة درهمٍ أنفق في رياء))

[ورد في الأثر]

إذاً:

(فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

لا تعدُّدَ في الحقّ:

مخلصين، لأن الدين له وحده، لأنه ينبغي أن يكون الدين وحده لله، لأنه خالق، وأنت مخلوق، هل يليق بك أن تخضع لمخلوقٍ آخر مثلك ؟ هل يليق بك أن تكون تبعاً لمخلوقٍ ضعيفٍ جاهل، لئيمٍ، شهواني، أناني ؟ لا، فأشقى الناس الذين ربطوا مصيرهم بمصير بشَرٍ، لكن أسعد الناس هم الذين ربطوامصيرهم بالله عزّ وجل وبالحق، فأي مبدأ غير مبدأ الدين مبدأ غير صحيح، لأن الحق ليس فيه تعدُّد، نقطتان ووصلت بينهما بخطٍ مستقيم، هذا الحق، نريد خطاً مستقيماً آخر بين هاتين النقطتين ينطبق على الأول، خط ثالث ينطبق على الثاني، خط رابع ينطبق على الثالث، فالحق لا يتعدّد، والدليل:

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ)

مفرد.

(وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 153)

إذاً: لا تعدُّد في الحق، الحق واحد.

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقّ إلا الضّلالُ)

(سورة يونس: من الآية 32)

لا حل وسط، إما أن تكون مع الحق ؛ وإما أن تكون مع الباطل، أما الباطل فيتعدّد، بين نقطتين يمر مليون خط منحنٍ، ومليون خط متعرّج، ومليون خط منكسِر، ولا حدود لعدد الخطوط المُنكسرة والمنحنية التي تمرُّ بين نقطتين، إذاً الباطل يتعدّد، الحق واحد، لذلك قالوا: لا يمكن أن تنشِب معركةٌ بين حقين، لأنهما متطابقان، أما إذا نشبت معركةٌ بين حقٍ وباطل فسرعان ما تنتهي، لأن الله مع الحق، وإذا كان الله مع أحد الأطراف قلب كل الموازين.

أما إذا كانت المعركة بين باطلين فما أطولها، عندئذٍ تتحدّث عن الأقوى، وعن الأذكى، وعن الأكثر خداعاً، وعن الأكثر حكمةً، وعن الأكثر ممارسةً وتدريباً، وقيادةً، واستعداداً، وقوّةً، وصموداً.

المعركة بين الحق والحق لا تكون لأنهما متطابقان، وبين الحق والباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، أما إذا نشبت معركةٌ بين باطلين فما أطولها، عندئذٍ تتحدّث عن كل شيء، إلا أن الله سبحانه وتعالى ليس مع أحد الطرفين، لأنهما ليسا على حق.

إذاً: ما دام الدين له وحده ؛ لأنه خالق، لأنه رب، لأنه مسيّر، إذاً أي دينٍ آخر قطعاً باطل.

(إِنّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الإِسْلامُ)

(سورة آل عمران: من الآية 19)

ولو تتبّعتم كلمة الإسلام في القرآن الكريم، لوجدتم أن الأنبياء جميعاً مسلمون ـ دقِّقوا ـ افتحوا المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الأنبياء جميعاً مسلمون، بل إن فرعون مات مسلماً، بمعنى أنه آمن بالذي آمنت به نبو إسرائيل، معنى هذا أن الدين عند الله الإسلام، لا دين إلا دين واحد، هو الحق، أيّ دينٍ آخر، أيّ ولاءٍ آخر، أيّ اتجاهٍ آخر، أيّ عقيدةٍ أخرى، أيّ سلوكٍ آخر هو باطل، وليس حقًا.

إذاً:

(فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

6 ـ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

لا تحسبوا حساباً للكافر، الكافر لا يستطيع أن يفعل معكم شيئاً، لأن الله عزّ وجل مع المؤمنين، كلكم يذكر أن سيدنا سُراقة حينما تَبِعَ النبي عليه الصلاة والسلام في أثناء الهجرة، حينما رأى النبي وكان من أوائل الذين يقتفون الآثار، فلمّا أدرك النبي وصاحبه، أمسك بيده على رمحه ليرمي النبي ويأخذ الجائزة، ساخت قدما فرسه في الرمل، فعرف أنه ممنوع.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

قال: **" يا هذان ادعوا لي ربكما أن يخلصني "**، دعا له النبي فانطلقت فرسه، لمعت أمامه الجائزة مرّة ثانية، فانطلق نحوهما فساخت قدما فرسه مرّةً ثانية ـ القصّة معروفة عندكم، وذكرتها في خطبة سابقة ـ لكن موطن الشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له:

((يا سراقة، كيف بك إذا لبست سواري كسرى))

ما هذا الكلام ؟ النبي مطارد، النبي شريد، طريد، مهدورٌ ردمه، خائفٌ على نفسه من القتل ويقول لسراقة:

((يا سراقة، كيف بك إذا لبست سواري كسرى))

ما هذا الكلام ؟ وبالفعل دارت الأيام دورتين، وسيدنا عمر في آخر عهده بالخلافة جاءته رسل سيدنا سعد بن أبي وقّاص ومعهم الغنائم، فإذا من بين هذه الغنائم تاج كسرى، وسوارا كسرى، وثياب كسرى، قال: **أين سراقة** ؟ جاءوا بسراقة، وضعوا على رأسه تاج كسرى، وألبسه سواراه، وتحقّقت نبوءة النبي عليه الصلاة والسلام، وقال سيدنا عمر: **" بخ بخ أعيرابيٌ من بني مدلج على رأسه تاج كسرى ".**

ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال الله عزّ وجل:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

ماذا قال ؟

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: من الآية 55)

أما نحن فلسنا كذلك، فقال الله عزّ وجل:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصّلاةَ وَاتّبَعُوا الشّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

إذاً:

(لَهُ الدِّينَ)

لا تدِن إلا لله عزّ وجل:

(وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

هم في قبضة الله عزّ وجل، حيثما قرأت في القرآن الكريم أن الله عزّ وجل يؤكِّد أن الكفار لن يسبقوه، معنى لن يسبقوه أي لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لا يرضاه ولا يريده، لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لا يريده، وليس بإمكانهم أن يتفلّتوا من قبضته، فالكافر الذي تخافه هو بيد الله.

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدّرَجَاتِ)

رَفِيعُ الدّرَجَاتِ

أي أن أسماؤه حسنى، صفاته فضلى.

ثلاث حقائق في الإيمان:

أقول لكم دائماً: الإيمان يرتكز على ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الله موجود ولا أول لوجوده، أي أنه قديم، ولا نهاية لوجوده باقٍ على الدوام، لأن وجوده لا يقوم على غير ذاته، إنه صمد.

(قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ(1)اللّهُ الصّمَدُ(2))

(سورة الإخلاص)

هذه أول حقيقة، حقيقة الوجود، الله موجود، وجوده قديم، ووجوده لا نهاية له، مستمر، وجوده ليس متعلِّقاً بغيره، وجوده ذاتي، هذه أول حقيقة.

الحقيقة الثانية: الله واحد، واحدٌ في ذاته، ليس معه إلهٌ آخر، واحدٌ في صفاته، ليس من صفةٍ في المخلوقين ترقى إلى صفة الله عزّ وجل، واحدٌ في أفعاله لا أحد يفعل معه شيئاً، لا فعّال معه إطلاقاً، هذه الحقيقة الثانية.

الحقيقة الثالثة: موطن الشاهد، الله عزّ وجل كامل كمالا مطلقا، أي أن القاضي لو حكم تسعين حكما عادلا، وأخطأ في عشرة أحكام، يغلب علينا أن نقول: قاضٍ عادل، لأن الإنسان نسبي، لكن الله عزّ وجل مطلق، إذا قلنا: إنه عدل، أي ما من تصرُّف في الأرض، وفي الكون منذ أن خلق الله الوجود وإلى يوم القيامة فيه ظلمٌ لمخلوق، هذا معنى أن الله عزّ وجل عدل عدالة مطلقة، فربنا عزّ وجل ليس في أسمائه حل وسط، ولا في أسمائه نسبيَّة، أسماؤه مطلقة. إذاً:

(رَفِيعُ الدّرَجَاتِ)

مهما تحدَّثت عن رحمته فهو أرحم، مهما تحدَّثت عن لُطفه فهو ألطف، مهما تحدَّثت عن قدرته فهو أقدر، مهما تحدَّثت عن علمه فهو أعلم، مهما تحدَّثت عن عدله فهو أعدل.

(رَفِيعُ الدّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ)

العرش ما سوى الله عزّ وجل في بعض التفاسير ـ وهذه الآية من الآيات التي أوكل بعض العلماء تفسيرها إلى الله عزّ وجل، فيها تأويلاتٌ كثيرة، ولكن هذا العرش ليس في متناول أيدينا، وليس له آثارٌ نتعرّف إليه من خلالها، إذاً هو محض إخبارٍ من الله عزّ وجل، والأكمل أن نفوّض أمر حقيقة العرش إلى الله عزّ وجل، وإذا أردنا أن نؤّول العرش فهو مُلْكُ الله عزّ وجل.

(يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

فالأنبياء ما كانوا عباقرةً ولا أذكياء، وليسوا مصلحين، إنهم صفوة الله من خلقه، أوحى الله إليهم، وكلّفهم أن يبلّغوا رسالته، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، في حالات سروره، وفي حالات غضبه لا ينطق إلا بالحق، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟ فَأَمْسَكْتُ عَنْ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ فَقَالَ:

((اكْتُبْ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ))

[أبو داود]

لأنه مكلّف بتبليغ الرسالة، ولأن الله كلّفه بإبلاغ الرسالة عصمه من أن يخطئ، فكلامه تشريع، عمله تشريع، صمته تشريع، بعضهم قال: النبي عليه الصلاة والسلام مشرّعٌ وهو ساكت، لأنه مرّة كان عند أحد صحابته الذين ماتوا، وهو مسجّى على السرير سمع النبي عليه الصلاة والسلام امرأةً تقول: **" هنيئاً لك أبا السائب، لقد أكرمك الله "**، هذا كلام غير صحيح، لو أنها قالت: أرجو الله أن يكرمه، فهذا كلام طيّب والدعاء مقبول، أما أن تقول: لقد أكرمك الله، على وجه الجزم، فهذا اسمه تألٍ على الله، فالنبي لو أنه سكت لكان كلامها صحيحاً، عن خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ، وَغُسِّلَ، وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: **رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ**، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[البخاري]

إذاً: الجزم ليس من صفات الموحِّدين، كيف فلان ؟ والله يبدو أنه صالح، والله أعلم، هذا ليس طعناً فيه، كل إنسان يتألم، وينزعج من هذا الوصف يكون جاهلا، يبدو لي أنه صالحٌ، والله أعلم.

ألم تسمعوا يوم الاثنين الماضي أن رملة بنت أبي سفيان، أم حبيبة زوج عبيد الله بن جحش، الصحابي الجليل، الذي هاجر إلى الحبشة، ماذا فعل هناك ؟ ارتدّ عن دينه، وعاقر الخمرة حتّى مات، وخيَّرها بين أن يطلِّقها وبين أن تتنصَّر.

إذاً: القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، أما على وجه الجزم لا ينبغي أن تقول: فلان من أهل الجنّة. هذا تألي على الله. إذاً:

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

الأنبياء صفوة البشر:

الأنبياء صفوة الله من خلقه، تعريف النبوّة سهل: النبي إنسانٌ لا ينقطع عن الله طرفة عين، المؤمن ساعة وساعة، والقصّة المعروفة عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَيِّدِيِّ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم]

عَنِ أَبِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تَنَامُ عَيْنِي وَلَا يَنَامُ قَلْبِي))

[مسلم]

(يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

لكن من يشاء، على من اصطفاهم، هم صفوة الخلق، هم قِمَم البشر، هم المعصومون المنزّهون، المخلصون.

(لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ

إذاً: نحن مخلوقون لهذا اليوم **يوم الجزاء** نحن في دار بلاء، نحن في دار عمل، نحن الآن في المدرسة، لكن النتائج سوف تصدر يوم القيامة، لهذا يقول سيدنا علي: **<<الغنى والفقر بعد العرض على الله>>.**

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ)

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ

كلُّ إنسان يبدو يوم القيامة على حقيقته:

الإنسان في الدنيا يتجمّل، له حقيقة وله مظهر، له مخبر وله مظهر، بإمكانه أن يتظاهر بالغنى وهو فقير، يتظاهر بالعلم وهو جاهل، يتظاهر بالصلاح وهو مُجْرِم، في الدنيا في مجال، لكن يوم القامة تبدو على حقيقتك من دون زيفٍ أو تزوير.

(وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الكهف: من الآية 48)

فالإنسان مهما طلى نفسه بطلاءٍ مزيّف، مهما تظاهر في الدنيا، مهما تظاهر بالصلاح، مهما تظاهر بالورع، مهما حَسَّنَ سمعته، مهما كان منضبطاً أمام الناس، إذا كان له خلوة لا ترضي الله هو ساقطٌ من عين الله، لا تنسوا هذين القولين: **" من لم يكن له ورعٌ يصدُّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله ".**

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلِّط))

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ)

لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ

مكشوف، أحد العارفين قال:

والله لو علموا قبيح سريرتي لأبى السلام عليّ من يلقاني

***

1 ـ الحقيقة المهمة أن تكون عند الله كبيرا ولو كنت في الدنيا صغيرا:

من رحمة الله بنا في الدنيا أن ولحكمةٍ بليغةٍ ورحمةٍ عميمةٍ يظهر من الإنسان الجميل، ويستر القبيح، الله من أسمائه الستّير، الإنسان يبدو للناس بأجمل مظهر، يبدو للناس بأنعم طريق، سلوك متوازن، هادئ، فيه اتِّزان، فيه قبول، لكن الإنسان قد يكون له حقيقة ثانية لا ترضي الله عزّ وجل، هذا ساقطٌ من عين الله.

بالمناسبة أيها الإخوة، لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطّم أضلاعه خيرٌ له من أن يسقط من عين الله.

قد تكون فقيرا، هذه ليست مشكلة، لكنك عند الله كبير، قد تكون ضعيفا، عاملا على آلة كاتبة، موظّفا صغيرا في الدرجة العاشرة، وراء الباب، وضِعْتَ تحت الدرج، لكن قد تكون عند الله كبيراً.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي]

قد يكون لك منزل في أطراف المدينة، غرفة واحدة، لكنك عند الله كبير، لكن المشكلة أن يسقط الإنسان من عين الله، الإنسان يتقرّب إلى الله بالطاعة، بالاستقامة، بخدمة الخلق، بالنيات الطيبة، بحب الخير، بسلامة الطويّة، ببراءة السَجِيّة، بهذا يتقرّب، أما إذا كان له مظهر فخم وهو خبيث الطويّة، سيئ النيّة، يغدر، يتآمر، يتحايل، له وجهان ؛ وجهٌ يرضي، ووجهٌ لا يرضي، فهذا ساقطٌ من عين الله، لا تبحث عن قيمتك عند الناس لا قيمة لها إطلاقاً.

أنا أقول هذا المثل دائماً: لو أن معك كيلو معدن، وكنت أذكى الأذكياء، وأوهمت الناس أنه ذهب، وهو من أرخص المعادن ـ حديد ـ لو أوهمت الناس بطلاقة لسان، وبذكاءٍ بارع، وباحتيالٍ، وبحنكةٍ أنه ذهب، فصدّق الناس أنه ذهب، وهو ليس ذهباً، من هو الخاسر ؟ أنت، ماذا ينفعك أن يظنّ الناس أن هذا المعدن ذهب، وهو ليس ذهباً ؟

لو أن هذا المعدن كان ذهباً خالصاً، واتهمك الناس جميعاً بأنك لا تملك إلا هذا المعدن الخَسيس، هل يهمُّك ذلك ؟ قيمته فيه، أي أن خيرك منك وشرُّك منك، سعادتك منك وشقاؤك منك، لا تلتفت لأقوال الناس فيك، والذي يهتم كثيراً بالمظاهر هذا إنسان شقي، فالعظماء يحتاطون، رحم الله عبداً جَبَّ المغيبة عن نفسه، ولكن أن تؤلِّه الناس، وتخشى ذمَّهم، وتخشى انتقادهم، ولا تنام الليل إذا هُزَّت سُمْعَتُكَ، هذه المبالغة الشديدة هذه ضعفٌ في إخلاصك، فإذا كان الله راضٌ عنك فهو القصد الأخير والأول، ثم ليقُل الناس ما شاءوا أن يقولوا، وقد قيل: **"من عرف نفسه ما ضرّته مقالة الناس فيه ".**

إذاً:

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ)

2 - لا ينفعك شيء بغير استقامة وعمل صالح:

أقول لكم هذه الكلمة والله من قلبٍ مخلص لكم: مهما تكلّمت أنا أحاسب حسابا خاصا، أحاسب هل أنت مصدِّقٌ لما تقول ؟ فمهما بدوت لكم متكلِّماً بارعاً، لا قيمة لها عند الله ما لم أطبّق ما أقول، وأنتم مهما أصغيتم، وداومتم، لا قيمة لسماعكم ما لا تلتزموا، أنا سوف أُحاسب، المتكلِّم سوف يُحاسَب، والمستمع سوف يُحاسَب، المتكلِّم لا ينفعه أن يكون كلامه فصيحاً، بل ينفعه أن يكون عمله مستقيماً، والمستمع لا ينفعه إصغاؤه، بل ينفعه تطبيقه، فلا يكفي أن تنضمَّ إلى المسجد، ولا يكفي أن تحضر مجالس العلم، لابدَّ من التطبيق، وأنا أيضاً معكم لا يكفيني أن أنطلق في الحديث عن الله عزَّ وجل، لابدَّ من أن أكون عند مستوى القول، وإلا سيندم الإنسان يوم القيامة ندماً شديداً.

إذاً:

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ)

فالإنسان مع أخيه الإنسان يغيّر، يسحب ورقة من الإضبارة، يسحب ضبط الشرطة، يزوّر، يضيف، يغيّر التواريخ، يغيّر التواقيع، يأتي بشهود كاذبين، الإنسان يغيّر ويبدِّل، لكن الإنسان مع الله عزَّ وجل بارزٌ على حقيقته، مكشوف، ليس في إمكانه أن يفعل شيئاً، ولا أن يبدِّل شيئاً، ولا أن يغيّر شيئاً، ولا أن يمحو شيئاً، ولا أن يضيف شيئاً أبداً.

(لَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ)

وأبلغ من ذلك أن الله عزَّ وجل يعلم السرَّ وأخفى، يعلم ما أسررت، وما يخفى عنك أنت، طبعاً، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يعلم ما خفي عنك أيضاً.

في بعض التفاسير:

ينادي منادٍ يوم القيامة:

(لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ)

يأتي جواب الخلق جميعاً:

(لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

3 - الإيمان خيارُ وقتٍ:

أيها الإخوة، واليوم الحالي قبل يوم القيامة، ونحن في هذا العالم، ونحن في هذا الواقع، لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهّار، لكن هذه الحقيقة يراها المؤمنون، ولا يراها الكفّار، الكفّار يرون فلانا صاحب البيت الأبيض هو أقوى الأقوياء، يرون فلانا صاحب الأسلحة الفتّاكة، هذه الحقيقة، ولكن يراها المؤمنون في الدنيا ولا يراها الكفّار، أما هذه الحقيقة نفسها يوم القيامة يراها جميع الخلق، هذا هو الفرق. نعود إلى القول: إن قضية الإيمان قضية وقتٍ ليس غير، فإن لم تؤمن الآن فلابدّ من أن تؤمن بعد فوات الأوان، ليس لك خيار، مهما عتا الإنسان وطغى وبغى أيكون كفرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

ومع ذلك حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس)

أسلم، معنى هذا أن الإيمان قضية وقت، هذا هو الذكاء، هذا هو العقل، إن لم تؤمن الآن لابدّ من أن تؤمن، ولكن الحسرة إن آمنت بعد فوات الأوان لا ينفعك هذا الإيمان شيئاً.

فالسؤال إما أن تعرف جوابه وأنت على طاولة الامتحان، أو أن تعرف الجواب بعد الامتحان، تخرج، وتأخذ الكتاب، وتقرأ، وإذا عرفت هذا بعد الامتحان فلا قيمة لهذه المعرفة، أما البطولة أن تعرف هذا وأنت على طاولة الامتحان، إذا القضيّة قضيّة وقت.

إذا كان الشيء متعلِّقًا بالوقت فالعقل، والمنطق، والذكاء، والحِنْكة، والتفوُّق، والفوز، والنجاح يأمرك أن تفعله الآن، لا تقل: سوف، سوف سلاح إبليس، وقيل: هلك المسوّفون، والشيطان إذا أراد أن يأتيك عن يمينك يقول لك: سوف تتوب، وكل إنسان يعلِّق توبته على حدث قادم إنسان جاهل، قد لا يبلغ هذا الحدث.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (06-20): تفسير الآيتان 17 - 18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-07-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السادس من سورة غافر، ومع الآية السابعة عشرَة، وهي قوله تعالى:

(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

1 ـ كسبُ الإنسان:

لو وقفنا عند كلمة: بما كسبت، ما كسب الإنسان ؟ بعضهم قال: كسبه عمله، العمل حتمي، ما من إنسان إلا وله عمل شاء أم أبى، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى بادئ ذي بدء سخَّر السماوات والأرض من أجل الإنسان، وفضلاً عن ذلك أعطى الإنسان قوَّةً إدراكيَّة ليبحث، وينقِّب، ويهتدي، ويستفيد من خيرات السماوات والأرض.

والحقيقة الدقيقة أن خيرات السماوات والأرض في الأعم الأغلب لا يُنتَفَع بها مباشرةً، فالنبات لابدَّ من أن يُزْرَع، البئر لابدَّ من أن تُحفَر، المعادن لابدَّ من أن تُستخرج، المَسْكَن لابدَّ من أن يُبنى، النباتات القطنيَّة لابدَّ من تُغْزَل، والخيوط لابدَّ من أن تُنْسَج، والنسيج لابدَّ من أن يُخاط، لحكمةٍ بالغةٍ جعل الله خيرات الأرض لا يُنتفع بها مباشرةً إلا إذا بُذِلَ من أجلها جهدٌ بشري أساسه العلم.

إذاً: عندنا أرض فيها خيرات كثيرة، وهناك إنسان أعطاه الله قوَّة إدراكيَّة، قوة بحث، وتنقيبا، واستنتاجا، وكشفا، واختراعا، ولابدَّ من جهدٍ بشري من أجل أن تصبح هذه المواد نافعةً، هذه حقيقة.

2 ـ حاجات الإنسان:

الحقيقة الثانية: الإنسان ممكن، معنى ممكن أي يمكن أن يكون وأن لا يكون، فإذا كان يمكن أن يكون على نحو ما هو عليه أو على نحوٍ آخر، شاءت حكمة الله أن يجوع الإنسان، أن يكون هذا الجسد بحاجة إلى طعام وشراب، هناك حاجات أساسيَّة ثلاث ؛ الأولى حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب حفاظاً على

وجوده، وحاجة الإنسان إلى الطرف الآخر ـ إلى الجنس الآخر ـ حفاظاً على وجود نوع البشر، وحاجة الإنسان إلى الذِكْر أو بقاء الذكر.

أول حاجة هي كلّما شعر الإنسان بالجوع اندفع إلى الطعام والشراب، كلّما شعر بحاجته إلى الطرف الآخر اندفع إلى الزواج، كلّما شعر بحاجته إلى تأكيد ذاته، وتخليد اسمه اندفع إلى البطولة أو التجاوزات.

إذاً: هناك دوافع فطريّة لابدّ من تلبيتها، جوع الإنسان يدفعه إلى أن يعمل، عمله منصبٌ على تحويل هذه الخيرات التي أودعها الله في الأرض، إلى خيراتٍ يستفاد منها.

إذاً: الإنسان بفطرته، ببنيته النفسيّة، بطبيعة المواد في الأرض، بطبيعة قوّته الإدراكيّة لابدّ من أن يعمل، من خلال العمل يُبْتَلى الإنسان.

مهّدت لكم الموضوع على الشكل التالي: الأرض مسخّرة، لكن خيراتِها تحتاج إلى جهد بشري، الإنسان فيه دوافع ؛ دوافع إلى الطعام والشراب، دوافع إلى الجنس الآخر، دوافع إلى تأكيد الذات، هذه الدوافع تجعله يعمل من أجل أن يأكل، لولا دافع الجوع لما رأيت بناء قد بني، ولا بئراً قد حُفرَت، دافع الجوع هو الذي يحرّك البشر، إذاً: هناك اندفاع نحو كسب الرزق، واندفاع نحو استكمال شقّ الإنسان بشقِه الآخر، واندفاع نحو تخليد ذكره وتأكيد ذاته، وهذه الاندفاعات الثلاثة تقتضي أن يكسب الإنسان المال، من خلال تحويل المواد الأوليّة إلى موادٍ قابلة الانتفاع.

إذاً: هو يعمل شاء أم أبى، ما في خيار، ما دمت تحسُّ بالحاجة إلى الطعام فلابدّ من أن تعمل، من خلال العمل يُبتَلى الإنسان، يبتلى بالاستقامة أو بالانحراف، يبتلى بأنه لابدّ من أن يعمل، من خلال العمل يكذب أو يصدق، يُخْلِص أو يخون، يدلِّس أو يُحْكِم، لابدّ من أن يُمتحن، فكل إنسان له عمل، سمّاه القرآن كسب، هذا الكسب سوف نحاسب عليه في الآخرة حساباً دقيقاً.

فمن الغباء بالإنسان أن يتوهّم أن الأمور هكذا، والله أكلنا هذا المال والحلال على الشاطر، هذا كلام في منتهى السذاجة، في منتهى الغباء، الإنسان محاسب، لأن الله عزّ وجل عدالته تقتضي أن يحاسب العباد جميعاً.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

نحن أيها الإخوة في دار ابتلاء وانقطاع ـ دقِّقوا في هاتين الكلمتين اللتين قالهما النبي عليه الصلاة والسلام يصف فيهما الدنيا ـ دار ابتلاءٍ وانقطاع.

3 ـ الدنيا دار امتحان:

نحن في دار امتحان، نمتحن بكل شيء:

نُمتحن بالإيجابيات كما نمتحن بالسلبيات.

نمتحن بالخير كما نمتحن بالشر.

نمتحن بالعطاء كما نمتحن بالحرمان.

نمتحن بإقبال الدنيا كما نمتحن بإدبار الدنيا.

نمتحن بالصحّة كما نمتحن بالمرض.

نمتحن بالقوّة كما نمتحن بالضعف.

نمتحن بالمال كما نمتحن بالفقر.

كل طورٍ يطرأ عليك هو امتحانٌ من الله عزّ وجل.

لكن الله يعلم من أنت، إلا أن حكمة الله عزّ وجل من الامتحان أن تعرف من أنت، لأن الإنسان أحياناً يتوهّم أنه مؤمنٌ كبير، وربنا عزّ وجل يعلم أن إيمانه أقلّ من ذلك، يضعه في ظرفٍ دقيق فيظهر بحجمه الحقيقي، فالامتحان تعريفٌ لأنفسنا، وتعريفٌ لمن حولنا بنا.

فلذلك كل واحد منّا له عمل، فلان مثلاً خطّط للحرب العالميّة الثانية، التي ذهب ضحيّتها خمسون مليون إنسان، هذا عمله، إنسان أمر بإلقاء قنبلة على هيروشيما فقتلت ثلاثمائة ألف إنسان في ثلاث ثوانٍ، هذا عمله، عمله تدميري.

الأنبياء ماذا فعلوا ؟ أعطوا الخلق كل شيء ؛ أعطوهم الحب، أعطوهم الإيمان، أعطوهم الاتصال بالله عزّ وجل.

4 ـ ما عملك في الدنيا ؟

أكبر سؤال أن تسأل نفسك أنت أيها الأخ الكريم: ما عملك ؟ جئت إلى الدنيا، وسوف تخرج منها، ما العمل الذي يُربَط باسمك ؟ أعمال عظيمة، أو أعمال إجراميّة، أو أعمال تافهة، أو أعمال خسيسة، أو أعمال نفيسة، أو أعمال إيجابيّة، أو أعمال سلبيّة، أو أعمال خيريّة، أو أعمال أساسها الإفساد، أو أعمال أساسها رأب الصدع، فهذا السؤال الخطير: ما عملك ؟ ماذا تفعل ؟

نبدأ:

هل أنت أبٌ مثالي ؟ هل حرصت على تربية أولادك ؟ هل حرصت على أن تخلِف من بعدك أفراداً طيّبين صالحين ؟

أنت ابن: هل أنت ابنٌ بار ؟

كزوج، هل أنت زوجٌ مثالي أخذت بيد زوجتك إلى الله ورسوله ؟

كزوجة، هل أنتِ أيتها الأخت زوجةٌ مثاليّة تطبقين ما أمر الله به، وأمر رسوله به ؟

الإنسان له دور اجتماعي، بادئ ذي بدء هذا أب، هذا ابن، هذه زوجة، هذا إنسان تاجر، لكن التجارة لها صفات.

((إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا))

[من الجامع الصغير عن معاذ]

فلان موظّف: هل تقوم بواجباتك كموظّف ؟ هل أنت في خدمة هذا المواطن، أم أنك تخلق له العقبات والمشكلات كي تبتزّ من ماله ؟ عمل هذا الموظّف أنه يخلق للمواطنين المشكلات كي يبتزّ أموالهم، هذا عمله، ربّما كان هذا العمل ترضى عنه في الدنيا، لأنه يجلب لك مبلغاً أكبر من دخلك الحقيقي، ولكن ما قولك إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجل وسألك: لماذا فعلت هكذا بعبادي ؟

أنت مدرّس: هل أعطيت هؤلاء الطلاب حقّهم، أم اضطررتهم إلى دروسٍ خاصّة ؟ لم تعلِمهم علماً كافياً، لم تصحِّح لهم وظائفهم، لم تجر لهم اختبارات صحيحة، حتى اضطر الأهل إلى دروسٍ خاصّة يدفعون عليها مبالغ طائلة.

أنت طبيب: هل نصحت هذا المريض ؟ هل راقبت الله عزّ وجل وأنت تعالجه، أم آثرت أن تكبّر حجم مشكلته كي تجعله يرتبط بك دائماً ؟

أنت محام: أنت مقتنعٌ أن هذه الدعوى لن تنجح، كيف أقنعت الموكِّل بأنها تنجح ؟ من أجل أن تأخذ مالاً ليس مشروعاً ؟

كل واحد منا له دور اجتماعي في أسرته ؛ هذا أب، هذا ابن، هذا أخ، هذه زوجة، هذا زوج. وهناك دورٌ مِهَنِي ؛ أنت تاجر، عندك معمل مواد غذائيّة، هل تخشى الله عزّ وجل في أطفالنا ؟ هل تضع في هذه المواد مواد من الدرجة الخامسة ليست جيدة، مواد فاسدة، ولا أحد يعلم ؟ لكنك تراقب الله عزّ وجل، أن الله الذي خلقك، وأكرمك بنعمة الوجود، ونعمة الإيجاد، ونعمة الهدى والرشاد يراقبك ماذا تفعل ؟ ما نوع المواد التي تضعها في هذه الصناعات الغذائيّة ؟

فكل واحد له دوران دور أسري، ودور مهني ؛ فالتجارة مهنة، والصناعة مهنة، والزراعة مهنة، والطب مهنة، والهندسة مهنة، والتدريس مهنة، والمحاماة مهنة، والوظيفة الإداريّة مهنة، كل واحد بعمل، فإما أن يحسن، وإما أن يسئ، إما أن يكذب، وإما أن يصدق، إما أن يخلص، وإما أن يخون.

هناك خيانة على مستوى اللون، لو قال لك إنسان: انتقِ أنت لي اللون الذي تحبُّه، فأنا لا أعرف، فانتقيت له اللون الكاسد، وأقنعته أن هذا أجمل لون، هذا لون السنة، وهو ليس كذلك، هذه خيانة.

أنت من خلال عملك إما أن تصدق، وإما أن تكذب، إما أن تُخلص، وإما أن تخون، إما أن تنصح، وإما أن تغُش، هذا عملك، هذا هو أنت، وهذا لا يبدو في هذه الدنيا صارخاً، ولكن عندما يقترب الإنسان من أجله يبدو عمله صارخاً.

إن الإنسان اسمه مرتبطٌ بعمله، ما نوع عملك ؟ وشتّان بين المؤمن والكافر، خذ حرفةً واحدة، راقب بها المؤمن، كيف ينصح ؟ كيف يصدق ؟ كيف يخلص ؟ كيف يرحم المسلمين ؟ كيف يحرص على مصالحهم ؟ كيف يرأف بهم ؟ وراقب الكافر كيف يقسو عليهم ؟ ويبتزُّ أموالهم، ويكذب عليهم، ويدلِّس، ويقنعهم ليأخذ أموالاً طائلة ؟

الدسّام، هناك دسّام ثمنه خمسة آلاف، ودسّام ثمنه ستون ألفا، قال له: قل له ركّبنا لك الدسّام الذي ثمنه ستون ألفا، لن يعرف المريض، وهو ثمنه خمسة آلاف، هذا عمل الإنسان، هذا العمل يوم القيامة سوف يظهر، سوف يظهر جَلِيّاً، كل إنسان يعرف بحرفته كيف يصدق أو يكذب ؟ ينصح أو يغش ؟ يدلِّس أو يستقيم ؟ ينحرف أو يعطف ؟

إذاً: أيها الإخوة أخطر شيء في الحياة هو عملك.

" يا قييس، إن لك عمل تُدْفَن معه وأنت ميّت، ويُدفن معك وهو حي، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك ".

العبادات الشعائرية والعبادات التعاملية:

فأنت لك عمل، والناس سبحان الله كما يقولون: **" ألسنة الخلق أقلام الحق "**، الإنسان عمله ظاهر ومكشوف، والناس يلهجون بالثناء عليه إن كان مستقيماً، إن كان صادقاً، ويطعنون به وبأقواله وأفعاله إن كان منحرفاً، فأخطر شيء أن الإنسان يتوهّم الدين بسذاجةٍ وغباء أنه صلاة وصوم، فالصلاة والصوم من أركان الإسلام، لكن الصلاة والصوم والحج تشبه تماماً ساعات الامتحان، ويسبق هذه العبادات الثلاث تسعة أشهر عاماً دراسيّاً.

فالعبادات نوعان: عبادات تعامليّة، وعبادات شعائريّة، العبادات الشعائريّة من صومٍ وصلاةٍ وحج لا معنى لها إطلاقاً، ولا قيمة لها، ولا تقدّم ولا تؤخِّر إن لم يكن الإنسان في عباداته التعامليّة مستقيماً على أمر الله عزّ وجل.

والله أيها الإخوة، لو استقام الناس على أمر الله، لو عرفوا ربَّهم حقَّ المعرفة لعدوا للمليون قبل أن يكذبوا، قبل أن يغشوا، قبل أن يدلِّسوا، قبل أن يوهموا، قبل أن يبتزوا أموال بعضهم بعضاً.

تجد من علامات فساد المجتمع أن الذي يأكل أموال الناس بالباطل يُعدُّ ذكياً، يعدُّ شاطراً، الذي يكذب عليهم، ويقنعهم يعد متفوّقاً ؛ لكن المستقيم هو عند الله له شأنٌ كبير، والإنسان العاقل هو الذي يبتغي العزّة لا عند الخلق، ولكن عند الحق، يبتغي المكانة الرفيعة عند خالقه من خلال إخلاصه، واستقامته على أمر ربّه.

الإنسان له عمل، حاسب نفسك، عملك في بيتك، هناك أب مُهمل، هناك أم مهملة، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[الجامع الصغير عن أنس، وفي سنده ضعف]

فامرأة تعتني بأولادها، تعتني بتلبية حاجاتهم، بتربيتهم، بالسهر على مصالحهم، بالحِرص على نفسياتهم، بتوجيههم التوجيه الصحيح، هذه يمكن أن تلقى الله بهذا العمل، يمكن أن تدخل المرأة الجنَّة إذا كانت أماً مثاليّة، والأمومة المثاليّة عملٌ تلقى المرأة به ربّها.

الأبوّة المثاليّة عملٌ يلقى به الرجل ربّه، ممكن أن تلقى الله بأولادٍ ربَّيتهم تربيةً صالحةً، وجَّهتهم توجيهاً صحيحاً، جعلتهم أناساً صالحين طيّبين، نشؤوا على مكارم الأخلاق، يمكن أن تلقى الله بهذا العمل، البنوّة المثاليّة يمكن أن تلقى الله بها.

الآن عملك المهني: أقول هذا كثيراً، وقد أعدت هذا على مسامعكم كثيراً: حرفتك، رزقك، عملك المهني، إذا كان في الأصل مشروعاً، ومارسته بطريقةٍ مشروعة، وابتغيت به كفاية نفسك، وكفاية أهلك ومن يلوذ بك، وابتغيت به خدمة المسلمين، ولم يشغلك عن فرضٍ، أو عن واجبٍ، أو عن طاعةٍ، أو عن مجلس علمٍ، هذا العمل المهني ينقلب إلى عبادة، ويمكن أن تلقى الله به، ويمكن أن تدخل به الجنَّة، ليس الشرط أن يكون الناس كلُّهم دعاةً إلى الله، كل إنسان بحسب دوره الاجتماعي.

أصحاب الحرف إذا أخلصتم في حرفكم، وابتغيتم بها خدمة المسلمين، ولم تأخذوا مالاً زائداً عن الحد المعقول، ولم تشغلكم هذه الحرف عن طاعات ولا واجبات، ولا عن طلب العلم، فهذه الحرف تنقلب إلى عبادات هناك وأنتم لا تشعرون، حتى إن العلماء قالوا: المباحات إذا ابتغي بها وجه الله انقلبت إلى عبادات.

درس اليوم: اسأل نفسك هذا السؤال: ما نوع عملك في الدنيا ؟

أنا أطمئن إخوتنا الكرام أنك إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فانظر فيما استعملك، لا تكذب، هناك هراءٌ كثير ـ إن لم تكذب لا تكسب المال ـ كلامٌ فارغ، الله سبحانه وتعالى هو الرزّاق ذو القوّة المتين.

((من حاول أمرا بمعصية الله كان أبعد له مما رجا، وأقرب مما يتقي))

[من كشف الخفاء عن أنس]

أيّ إنسان يبتغي كسب المال من خلال المعصية فهو أحمقُ كبير، لأنه يخسر شيئين، يخسر طاعة الله عزّ وجل، ويخسر المال، والدنيا بين أيديكم، ما أفلح عاصٍ لله عزّ وجل، ما أفلح كاذب، ما أفلح غاش، يجمع المال شيئاً فشيئاً فتأتي مصيبةٌ تمحقه جميعاً.

قال لي رجلٌ احترق محله: والله فيه ثمانية ملايين من البضاعة، ثم دمعت عينه، وقال لي: لعلي في الثلاثين عاما الماضية أكلت أموالاً غير مشروعةٍ، جمّعها الله لي، واحترقت هذه البضاعة. مشكلة الإنسان أحياناً يكسب المال الحرام شيئًا فشيئًا، يجمعها الله، حتى إذا أصبحت مالاً كبيراً في لمح البصر يذهب، والشواهد كثيرة، والأمثلة كثيرة، كل شيء يقع تحت سمعنا وبصرنا هو في الحقيقة وراءه مشكلة، وراءه ذنب، وراءه محاسبة دقيقة، وراءه قِصاص، وراءه جزاء، لكن البشر لا يعلمون، الله وحده يعلم لماذا تلف مال فلان ؟ لماذا فلّس فلان مثلاً ؟ لماذا محق الله البركة من مال فلان ؟ أنت لا تعلم كيف كسب المال ؟ إذاً: ربنا عزّ وجل يقول:

(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَا وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[من سنن الدارمي عن معاذ بن جبل]

5 ـ انتبه إلى عملك فإنه أخطر شيءٍ:

والإنسان لا ترتاح نفسه، ولا يطمئنُ قلبه، ولا يسعد في دنيا إلا إذا كان مصطلحاً مع الله، والله سبحانه وتعالى طيّبٌ ولا يقبل إلا طيباً، والأخطاء مع البشر من الصعب أن تُغفر إلا أن يغفر البشر، لكن الأخطاء مع الله عزّ وجل سهلٌ مغفرتها، هذه بينك وبين الله، لكن ما كان بينك وبين البشر صعبٌ أن تُغفر.

فكل إنسان أيها الإخوة ينتبه لعمله، أولاً أن لا يكون عمله غير مشروع، أن لا يكون عمله مبني على إيذاء الآخرين، على سلب ما عند الآخرين، ما يكون عمله مبنيا على الكذب أو الخِداع أو الغش، ما تكون البضاعة التي يبيعها محرّمة، ما تكون الطريقة التي يستخدمها طريقة غير مشروعة، ينتبه لعمله، لأن عمله هو الذي يعطيه مكانته عند الله عزّ وجل.

وما في عمل مهني للإنسان إلا وهو سُلّمٌ ترقى به إلى الله، أو دركاتٌ تهوي به إلى النار، أبداً ؛ حرفتك، دورك في الأسرة، أبوّتك ـ هناك أبوة فاسدة، وأمومة فاسدة، وبنوّة فاسدة ـ دورك في أسرتك، ودورك في مهنتك.

أنت الآن موظّف، يجب أن تكون مخلصاً لربِّ العمل، هذا الوقت وقته، أنت الآن رب عمل، يجب أن تكون منصفاً مع العمال أو مع الموظّفين، أن تعطيهم حقّهم، أن لا تستغل حاجتهم كي تنمّي على أكتافهم ثروةً طائلة، كل إنسان محاسب، دورك الاجتماعي، لك دور اجتماعي ؛ أنت جَد، الجد مَظنّة صلاح، مظنة إنصاف، حرمت فلانة، أعطيت فلانة لنزوةٍ شخصيّةٍ هذه تحاسب عنها.

يا أيها الإخوة الكرام... أخطر ما في حياتنا أعمالنا، بها نرقى أو بها نهوي، بها نسعد أو بها نشقى، بها تكون درجاتٍ إلى الله عزّ وجل، ومن خلالها تكون دركاتٍ إلى النار، فكل إنسان يراجع نفسه، الحياة الدنيا قصيرة، والإنسان في دار ابتلاء.

في أول الدرس قلت: نحن في دار ابتلاء وانقطاع، معنى انقطاع: أن الموت يأتي فيلغى غنى الغني، ويلغي فقر الفقير، ويلغي قوّة القوي، ويلغي ضعف الضعيف، ويلغي مرض المريض، ويلغي صحّة الصحيح، فالموت أنهى كل شيء، وبقي العمل.

الشيء المؤلم أن الإنسان بعد الموت تنقطع منفعة ماله، وتبقى تبعه هذا المال، تنقطع المنفعة وتبقى التَبعَة، الميّت ترفرف روحه فوق النعش فتقول: **" يا أهلي يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حلِه وفي غير حلِه، فالهناء لكم والتبعة علي ".**

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ))

[الترمذي]

السؤال صعب، صعب جداً، إذا قيل لإنسان: تعالَ إلينا بعد يومين، لا ينام الليل، لماذا يريدونني ؟ ماذا قلت ؟ لا ينام إطلاقاً، إن قيل له: تعال بعد يومين لنسألك، هذا سؤال بشر لبشر متعب ومخيف، فكيف بخالق البشر الذي يعلم السرّ وأخفى، ولا تخفى عليه خافية ؟ فالإنسان السعيد الذي طويّته كعلانيّته، سريرته كعلانيّته، سرُّه كجهره، خلوته كجلوته، ما عنده ازدواجيّة، ما في قلبه على لسانه، ما يقوله بلسانه يُحِسُّ به في قلبه، أما الأساليب الماكرة، الاتجاهات المنحرفة فهذه كلها خطيرة في الحياة.

أيها الإخوة الأكارم، احرص على أن يكون عملك في طاعة الله، احرص على أن يكون في مرضاة الله، لأن ربنا عزّ وجل إذا غضب:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

والله لا يتسع المجال لأذكر لكم قصصاً واقعيةً نعيشُها جميعاً.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

الله سبحانه وتعالى إذا انتقم كان الشيء الذي لا يُعقل، فالعاقل هو الذي يخاف الله عزّ وجل، فالكذب الذي هو شائعٌ بين الناس كله محاسبٌ عليه.

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[من مسند أحمد عن أبي أمامة]

لو ألغي الكذب من حياتنا لكنّا في حالٍ آخر غير هذا الحال، وربنا عزّ وجل كل أسمائه الحسنى الكون مظهرٌ لها، الكون مظهرٌ لعلمه، مظهرٌ لقوّته، مظهرٌ لقدرته، مظهرٌ للطفه، مظهرٌ لرحمته، إلا اسماً واحداً، هذا الاسم الواحد لا يتحقّق إلا يوم القيامة، وهو أنه عدلٌ، الآن هناك قوي وضعيف، هناك ظالم ومظلوم، هناك مريض وصحيح، متى تسوّى الحسابات ؟

الحظوظ في الدنيا توزّع توزيع ابتلاء:

بالمناسبة: ربنا عزّ وجل يوزّع الحظوظ في الدنيا ـ انتبه لكلمة حظوظ ـ المال حظ، الوسامة حظ، الذكاء حظ، الزوجة الممتازة حظ، الأولاد الأبرار حظ، المنزل الواسع حظ، المركبة الوطيئة حظ، السمعة الطيّبة حظ، القوة والصحة الطيبة حظ، هذه الحظوظ توزّع في الدنيا توزيع ابتلاء، كل إنسان مبتلى بما أعطاه الله، ومبتلى بما حرمه الله، في الوقت نفسه مبتلى بما أعطاه، مبتلى بما حرمه، لكن الحظوظ يوم القيامة تُوزّع توزيعاً آخر، لا توزّع توزيع ابتلاء، بل توزّع توزيع جزاء، ربَّ غنيٍ ابتلي بالغنى فلم ينجح، وربَّ فقيرٍ ابتلي بالفقر فنجح، فعاش الفقير إلى أبد الآبدين غنياً، وعاش الغني إلى أبد الآبدين فقيراً، فالدنيا لا قيمة لها.

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له

***

أنت دقِّق، حتى أخذ شقفة شهادة يقول لك: ذاب بذرُ مخِّي، حتّى عيّنوه مكث خمس سنوات بعد مسابقة، وبعدما تعيّن ظهر له أن المعاش لا يكفي، فاشتغل في عمل إضافي، حتى اشترى بيت صغيرا في طرف المدينة بمساحة ستين مترًا، حتى أمّن الأثاث لزمه سنتان، حتى تزوّج، بعد هذا اشتغل في

التجارة، جاءه دخل جيّد، غيّر البيت، غيّر الأثاث، زيّن البيت، اشترى سيارة، صار عمره خمسة وخمسين عاما بدأت متاعب الصحّة، وهكذا الحياة.

شروط اللذة الدنيوية:

مرة قلت لكم كلمة: إن السعادة ـ عفواً، اللذّة، دعك من السعادة لأنها هي بالقرب من الله عزّ وجل ـ لذّات الدنيا تحتاج إلى شروط ثلاث: تحتاج إلى وقت، وتحتاج إلى مال، وتحتاج إلى صحّة، الإنسان يمر في الحياة بثلاثة أطوار:

الطور الأول هناك وقت وصحّة، ولكن لا مال منتوف ما عنده شيء إذاً: ليس سعيدا، لأن لا مال معه.

الطور الثاني: هناك مال وصحّة، ولكن لا وقت، تجد أحياناً مائتي بيت بالمصائف فارغة، أصحابها مشغولون بأعمالهم التجاريّة، المال موجود، والصحّة، ولكن ليس هناك وقت.

يأتي الطور الثالث صار في وقت، والمال وافر، ولكن لا توجد صحّة، تجده يحمل حقيبة أدوية، هذه هي الدنيا، هذه الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمر، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

أن تغتر بها، أن تراها بحجمٍ أكبر من حجمها الحقيقي، هي صغيرٌ جداً، تافهة، يقول سيدنا علي عن رسول الله: **<<فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا >>.**

كان النبي اللهمّ صلّ عليه لا يتّسع بيته لصلاته ـ في قيام الليل ـ ونوم زوجته، فكان إذا صلّى قيام الليل رفعت السيدة عائشة رجليها ليتمكّن أن يصلي هذا سيّد العالمين، هذا يكفي، هذا أكبر شاهد، الدنيا لا قيمة لها، القيمة لطاعة الله عزّ وجل.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

الغنى والفقر بعد العرض على الله:

يقول سيدنا علي: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >>**، فالذي نجمّعه سنتًا سنتًا، يأتي ملك الموت فيأخذه دفعةً واحدة، وقف قلبه، غير معقول، يأتون بمرآة، ويضعونها على فمه، هناك آثار تنفّس؟ لا يجدون شيئًا، يأتون بمصباح شديد على عينه، هل انكمشت القزحيّة ؟ لم تتحرّك، القلب وقف، والقزحيّة ما تأثرت بالضوء، والمرآة لم تتأثر بالتنفّس، عظّم الله أجركم، أخذوا الساعة من يده، في فمه

سن من الذهب سحبوه منه، يقولون لك: الحي أولى، هذه الدنيا، كل شيء جمّعه في حياته يفقده في ثانيةٍ واحدة.

إذا كان الرجل ماشيا في طريق، ورأى بناء على العظم، وله بيت، فماذا يقول للناس ؟ أنا آخذ هذا البيت، فكيف رأيتموه، هل هو جيّد ؟ شيء طبيعي جداً إذا اشترى بيتا ببناء على العظم، ومررت مع صديقك تقول له: هذا البيت أنا اشتريته، أخذته قبليًا غربيا، ثالث طابق، وكذلك فيه مصعد، ومساحته مائتان وخمسون مترًا، لماذا إذا مرّ الواحد أمام مقبرة لا يقول: أنا لي بيت هنا ؟ هذا البيت أثبت من ذاك، البيت الذي اشتريته قد لا تسكنه، أما البيت الأخير فلابدّ من أن تقطن فيه، والدليل: النعي كله يكتب: **" وسيشيّع إلى مثواه الأخير "**، هذا المثوى الأخير حق، فالبطل العاقل الذكي الذي يعمل لهذا القبر، هو يتاجر، ويعمل، وينشط، لكن كله وفق منهج الله عزّ وجل، حتى إذا جاء ملك الموت كان مستعدّاً لهذا اللقاء.

الموت أسعدُ لحظات المؤمن، وأسوأ لحظات الكافر:

لا يستطيع أحدٌ على وجه الأرض أن يُنكر الموت، ولكن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن هو أن المؤمن يستعدُ له، بينما غير المؤمن يأتيه الموت فجأةً، وأروع شيء في الحياة أن لا تفاجأ، المؤمن لا يفاجأ بالموت، لأنه يستعد له من خمسين عاماً، **"مرحباً بالموت، حبيبٌ جاء على شوق "** هكذا قال أحد الصحابة ـ المؤمن الصادق المستقيم يستعد للقاء الله منذ أن عرف الله، كل موقف يزنه ؛ هل يرضي الله؟ هل في عملي شائبة ؟ أما غير المؤمن يفرح، ويمرح، والموت عنده كارثة.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ(83))

(سورة الزخرف)

الموت من دون توقّع شيء صعب جداً، وهذا يعرفه الإخوة الأطبّاء، عندما يعالجون مرضى على وشك الموت يجدونهم في ذعر واضطراب، أما لو قرأت سيرة أصحاب رسول الله لوجدت العجب العجاب، هم في أسعد حالاتهم حينما دنا أجلهم. **"واكربتاه يا أبتِ "**، قال: **"لا كرب على أبيكِ بعد الموت غداً ألقى الأحبّة محمّداً وصحبه".**

أحد الصحابة قال: **" والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي "**، فهو يمشي بأقصى سرعة، والباب مفتوح، وكلنا عند الله سواسية، لا أحد أحسن من أحد، **"يا سعد، لا يغرّنك أنك خال رسول الله، فالخلق كلّهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له ".**

لا ينفع نسب يوم القيامة:

فتقييم الناس هذه سقطاتٌ جاهليَّة، أي إنسان، كن ابن من شئت، واكتسب أدباً، الأنساب ليست لها قيمة أبداً.

((أنا جد كل تقي، ولو كان عبداً حبشياً))

[كشف الخفاء]

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبَلَّغْتُ ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ))

[من مسند الإمام أحمد]

أما الأنساب لها قيمة مع الإيمان، قال النبي الكريم:

((الشرف معوان))

[ورد في الأثر]

أما بلا إيمان.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

وهو عم النبي.

((سلمان منّا آل البيت))

[الجامع الصغير عن عمرو بن عوف]

سيدنا بلال دخل على عمر بن الخطّاب كثيراً، وزعيم قريش واقفٌ على الباب لم يؤذَن له، فلمّا دخل عليه عاتبه، قال له:**<< زعيم قريش يقف ببابك ساعاتٍ طِوال، وصهيبٌ وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان ؟ " قال له:"أنت مثلهما ؟ أين هم منك وأين أنت منهم ؟ >>.**

النقطة الدقيقة: أننا كلنا سواسية، فافتخار الناس بأموالهم، بأحسابهم، برتبهم الاجتماعيَّة بشهاداتهم، هذه كلها للدنيا، القرآن ما اعتمدها إطلاقاً.

إذاً: التركيز على العمل، قل لي ما نوع عملك أقل لك من أنت، وأخطر شيء عملك، صلاة جوفاء، وصيام أجوف، وحج سياحة لا يلغي العمل السيئ، العمل السيئ في دكّانك، في مكتبك، في عيادتك، في

مكتبك الهندسي، في صفّك، في وظيفتك، هنا عملك، هنا يبدو إسلامك، هنا يبدو إيمانك، إذا كنت ذا عملٍ طيّب فصلاتك مقبولة، تقف لتصلي ترى الطريق سالكاً إلى الله، ترى أن الله يتجلّى على قلبك، لأنك إنسان خيّر، طيّب، صالح، أما إذا كان فيك غش، وكذب، واحتيال، وحرمان، و كسب مال غير مشروع، وإنفاق غير مشروع، وأعمال سيئة لا ترضي الله عزّ وجل، وأنت حريصٌ على مظاهر الدين، فهذه لا تقدِّم ولا تؤخِّر..

(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ

1 ـ الدنيا مملوءةٌ ظلمًا:

إذا امتلأت الأرض ظلماً وجوراً كما قال عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((الْمَهْدِيُّ مِنِّي، أَجْلَى الْجَبْهَةِ، أَقْنَى الْأَنْفِ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ))

[أبو داود وأحمد]

معنى هذا أحياناً تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، والأشياء بين أيديكم، في كل أنحاء العالم الظلم والجور، تمتلئ ظلماً وجورًا.

2 ـ لا ظلمَ يوم القيامة:

أما يوم القيامة:

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

هذه (لا) نافية للجنس، ونفي الجنس أبلغ من نفي المُفْرَدِ، أحياناً يقول لك واحد: عندك رغيف خبز ؟ إذا قلت له: لا، فقد يكون عندك كعك، قد يكون عندك معكرونة، قد يكون عندك أطعمة أساسها القمح، أنت لحرصك على أن تنفي له تقول، له باللغة الدراجة: جنس الخبز ما عندي، نفي الجنس أبلغ من نفي المُفْرَد، وهذه (لا) إعرابها: لا النافية للجنس، تنفي الجنس، الاسم الذي يأتي بعدها مبنياً على الفتح هو اسمها، و(لا) نافية للجنس.

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

أي لا يمكن أن يتصوَّر أي نوع من أنواع الظلم أبداً، تأخذ حقّك الكامل، فما دام هناك ميزان دقيق، وعدالة فلا ظلم.

أنا قلت لإنسان اليوم: تصوَّر لو أنك راكب مركبة والإشارة حمراء، والشرطي واقف، وشرطيان واقفان بجانبه على دراجتين، وسيارة فيها نقيبان من الشرطة، فهل تمشي والإشارة على الأحمر ؟ مستحيل ـ وأنت مواطن عادي طبعاً ـ لا تمشي، لأن الذي أصدر هذا القانون يطولك بعلمه، وتطولك أيضاً بقدرته، هناك حجز، وغرامة كبيرة، فأنت مع إنسان إذا أيقنت أنك لن تفلت منه تطيعه، فليت الإيمان بالله يرقى إلى مستوى الإيمان بإنسان أمامك قوي، مع إنسان من بني جلدتك لن تتخطّى الإشارة الحمراء، ما دام الإنسان يحاسبك حساباً عسيراً، فإذا أيقنت بوجود الله، أيقنت أنه سيحاسب، لأن الآية الكريمة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ)

احذر فإن علم الله وقدرتَه يطولانِك:

لماذا ؟

(لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

ذكر اسمين من أسمائه، له تسعةٌ وتسعون اسماً، ما ذكر إلا اسمين، لأن هذين الاسمين يكفيان كي تستقيم على أمر الله، إذا أيقنت أنه يعلم، وسيحاسب، انتهى الأمر، لابدَّ من أن تصدق، نسخة من البيان أرسلت إلى الماليَّة، سألوك: ما الذي استوردته في هذه السنة ؟ أنت تعرف أن هناك نسخة عندهم، فلا يمكن أن تكذب أبداً، لأنك لو كذبت ستُكْشَف فوراً، إذا أيقنت أن الله يعلم، وأنه سيحاسب فلابدَّ من أن تستقيم على أمره.

يا أيها الإخوة الكرام، إذا كان للإنسان معصية مقيم عليها فلابدَّ أن في إيمانه خللاً، أن يقينه بعلم الله ضعيف، أو أن يقينه بمحاسبة الله ضعيف، لو أيقن يقيناً قطعيًّا أن الله يعلم، وسيحاسب لا يعقل أن يعصي الله عزّ وجل.

الآية دقيقة جداً:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا)

أي أن علّة وجودكم أن تعلموا.

(أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

يعلم ويقدر، أي أنه يعلم وأنت في قبضته، مستحيل تعصيه، فإذا عُصِيَ الله عزّ وجل فلضعفٍ في إيمان الإنسان إن بعلمه أو بقدرته.

(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

ماذا أترك ورائي من عملٍ بعد الموت ؟

اسأل نفسك: ما نوع الكسب الذي أكسبه ؟ ما نوع العمل الذي ألقى الله به ؟ إذا ذُكِر اسمي بين الناس ماذا يقال عني ؟ أحياناً يقال: فلان أكبر دجّال، فلان ليس نظيفًا، فلان سارق، هذا عمله، فلان ابن حرام، فلان مؤذٍ، فلان كذّاب، هذا يسموه بادئ الرأي، أي النظرة الأولى، فكل إنسان له عمل، باستقامته وبحرصه على طاعة الله يلمع اسمه في سماء المعرفة.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

عندما تتقصّى طاعة الله عزّ وجل فلها مكاسب كثيرة في الدنيا، منها أن الله سبحانه وتعالى يرفع شأنك، صار لك مكانتك العالية، لك هيبتك، محبوب، والبطولة لا أن تمدح في حضورك، بل أن تمدح في غيبتك، فعلامة العمل الطيّب أن الناس يثنون عليك في غيبتك.

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

هذه (لا) نافية للجنس.

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

سريع الحساب: لأن الحساب طويل يحتاج إلى جهد جهيد، لكن ربنا عزّ وجل كن فيكون، والآن اخترعوا أجهزة تعطي حساباً سريعة، يقول لك: قفزة نوعيّة في الحسابات، ربنا عزّ وجل سريع الحساب، كل شيء جاهز.

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ

بقيت آيةٌ واحدة، وهي قوله تعالى:

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ)

1 - يَوْمَ الْآزِفَةِ:

سُمِّي يوم القيامة يوم الآزفة من الفعل أزفَ أي اقترب، كل آتٍ قريب، طبّقوا هذا أول رمضان، بقي عليه ثلاثون يوما، تمضي الأيام سراعاً، ويأتي العيد، العيد الكبير بقي عليه شهران وعشرة أيام، تمضي الأيام سريعاً، يأتي العيد الأضحى، دخلنا في الصيف، صيف وحر، يأتي الشتاء، تركِّب المدافئ، ترتدي المعاطف، وأنت في الشتاء يأتي الصيف، كنا بالسبعينات، أول سنة الثمانين، ألف وتسعمائة وثمانون، مضت الثمانينات، الآن بالتسعينات، مازال هناك عام الألفين وما بعده، وهكذا تمضي الحياة، الوقت من خصائصه أنه يمضي سريعاً.

فليسأل الواحد منا نفسه: كيف مضت هذه الأربعون سنة ؟ هذه الخمسون، هذه الخمسة والثلاثون ؟ يقول لك: البارحة كنا صغارًا، والإنسان يقول: يا ولد لا تحتاج إلى هذا، معنى هذا أنه ولد، ولا يزال يرى نفسه صغيرا، الأيام تمضي سريعاً، الموت على الطريق، محطّة، والقطار ماشٍ، والموت آخر المحطّة.

إذا ركب الرجل قطار الزبداني، انطلق من محطة الحجاز، دخل في منطقة الوادي، بعد هذا وقف القطار تفضلوا بالنزول، آخر المحطّة، ما دمنا متحرّكين والهدف ثابت فكل متوّقعٍ آت، فربنا عزّ وجل سمّى يوم القيامة يوم الآزفة، لأنها تأتي قريباً، أحياناً تجد نعيًا واحدا على الجدران، انتهى، كتاب وانطوى، قصّة وانتهت، كان شخصا صار خبرا على الجدران، انتهى، وبقي عمله، الآن الموت، البرزخ، ثم يوم القيامة، فالإنسان لا يغتر بالدنيا.

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ)

سُمِّيَت الآزفة لأنها قريبةٌ جداً.

(إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ)

2 ـ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ

من شدّة الخوف.

(كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

3 ـ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ

ما من إنسان له معك علاقةٌ حميمة بإمكانه أن ينقذك، وليس هناك شفيعٌ يشفع لك عند الله عزّ وجل في العمل السيئ الذي اقترفته، انظر للآية فما أوضحها.

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ)

لو أن إنسانًا ـ كما أقول هذا كثيراً ـ استطاع أن ينتزع من فم النبي عليه الصلاة والسلام حكماً لصالحه، وهو ليس محقًا، لا ينجو من عذاب الله ـ انتزعه من رسول الله ـ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه]

لا تنجو، فلا أحد يتّكئ على أشخاص، ولا على نَسَب، ولا على قرابات، نصيحةٌ لوجه الله، إيّاك أن تعتمد على نسب، ولا على قرابة، ولا على ولاء، ولا على اتصال، لو أن لك صلة بالنبي عليه الصلاة والسلام ما بعدها صلة، وانتزعت من فمه الشريف حكماً لصالحك، ولست محقًا بكلامك لا تنجو من عذاب الله، فما قولك ؟

(مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ، وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي))

[متفق عليه]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلَيُرْفَعَنَّ مَعِي رِجَالٌ مِنْكُمْ، ثُمَّ لَيُخْتَلَجُنَّ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أَصْحَابِي فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ))

[متفق عليه]

فكذلك الآن في الدنيا إذا تلبّس إنسان بمشكلة كبيرة فيها مساس بأشياء كبرى في حياتنا، تجد أن كل الوسطاء ينسحبون، يقولون لك: لا نقدر، هذه شيء فوق طاقتنا، وهذا في الدنيا، كموضوع مخدِّرات أو غيره، فالكل ينسحبون، يجب أن يلقى العقاب العادل، فكيف مع الواحد الديان ؟

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (07-20): تفسيرالآيات 19 - 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-07-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السابع من سورة غافر، ومع الآية الثامنة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

1 - يوم الآزفة:

يوم الآزفة أحد أسماء يوم القيامة، سُمِّيَت كذلك لقرب مجيئها، لأن كل متوقعٍ آت، وكل آتٍ قريب، الشيء الذي سيأتي ربما يُعَدُّ بقصر الزمن قد أتى، والدليل آيةٌ تقول:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من الآية 1)

أتى، ما دام هذا الأمر سيأتي، هو في حكم أنه قد أتى، هذا معنى الآزفة.

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ)

2 - إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ

من شدة الخوف والقلق.

(كَاظِمِينَ)

3 - كَاظِمِينَ

أي لا يستطيعون أن يتحرّكوا، ولا أن يتكلّموا، لأن الله سبحانه وتعالى وضعهم في موضع المسؤولية.

(مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

4 - مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ

الإنسان في الدنيا له جماعة، له أقارب، له أصدقاء ربما يعينوه على محنته، ولكن يوم القيامة الناس يأتون فرادى، ما من حميمٍ ينقذهم، ولا شفيعٍ يشفع لهم، هذه الآية شُرحت في الدرس الماضي، ثم يقول الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

لماذا اختار الله سبحانه وتعالى هذه الجُزْئِيَّة.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

1 ـ لا يعلم خائنة الأعين إلا الله:

أي يعلم الأعين الخائنة، العين أحياناً تسرق النظر، فإذا سرقت النظر إلى ما لا يحلُّ لها فقد خانت الأمانة، وما من مخلوقٍ على وجه الأرض يستطيع أن يعلم خيانة العين أبداً، وهذا يقودنا إلى أن بين التشريعات الوضعية والأوامر الإلهية نقاط مشتركة، وهناك نقاط مختلفة، فهناك مجموعة أوامر يحرّمها الشرع وتحرمها القوانين، لكن الشرع أحياناً ينفرد بأوامر، ما من قانونٍ على وجه الأرض يحرمها على الإطلاق، إلا أن الدين ينفرد بتحريمها.

إذا استرق الإنسان النظر إلى امرأةٍ لا تحل له، فما من تشريعٍ أرضي يحرم عليه ذلك، بل ما من جهةٍ أرضيةٍ بإمكانها أن تكشف هذه المخالفة، لأن خيانة العين يصعب ضبطها من قِبَل البشر، فقد يكون الإنسان في مكانٍ، وليس معه أحد، وبإمكانه أن ينظر، ولا يعلم هذه النظرة إلا الله، قد يكون مع جمعٍ غفير وبإمكانه أن يُسارق النظر دون أن يشعر به أحد، فالله سبحانه وتعالى ذكر جزئية من جُزئيات النظر لكنها بليغةٌ في مدلولها، فإذا كان الله عزّ وجل يعلم خائنة الأعين فما قولك بالذي فوق خيانة العَين؟ وهذا يقودنا إلى أن الله سبحانه وتعالى في بعض آيات القرآن الكريم يقول:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: من الآية 12)

هذه الآية دقيقة جداً، عِلّةُ خلق السماوات والأرض أن تعلم أن الله يعلم، لأنك إذا علمت أن الله يعلم قطعت أربعة أخماس الطريق إلى الله.

ما الذي يجعل الإنسان يُقدِم على المعصية ؟

ما الذي يجعل الإنسان يُقدِم على المعصية ؟ شعوره غير الصحيح أن الله في السماء لا يراه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت))

[الجامع الصغير عن عبادة بن الصامت، وفي إسناده ضعف]

إذا شعرت أن الله معك، إذا أيقنت أن الله يعلم انتهى الأمر، لا يستطيع الإنسان العاقل أن يعصيَ من يعلم المعصية، هل تستطيع أن تخالف أمراً من إنسانٍ قويٍ مُطّلعٍ عليك ؟ لا تستطيع.

إذا كنت لا تستطيع أن تخالف أمراً لبشرٍ مطّلعٍ عليك إذا عصيته، وهو قادر على أن يعاقبك إذا فعلت ذلك، أنت مع إنسان تقف موقف الالتزام، فكيف بك مع الله سبحانه ؟

فعلة هذه الآية، أي سبب مجيء هذه الجزئية هي أن الإنسان إذا علم أن الله يعلم قطع نصف الطريق إلى الله، أو قطع أربعة أخماس الطريق إلى الله، لأن من لوازم العِلم الخَشْيَة، إذا كنت مُرَاقَبًا فأنت ملتزم، إذا كانت اتصالاتك مراقبة إذاً أنت منضبط، إذا كانت حركاتك مراقبة فأنت مستقيم، هذا من لوازم العلم الذي يحصل للإنسان.

إذاً: ربنا سبحانه وتعالى جاء بجزئيةٍ صغيرةٍ صغيرة إذا وقفت عندها، وعرفت مدلولها وأبعادها عندئذٍ تلتزم، فالعينُ يمكن أن تسترق النظر، ولا يستطيع أحدٌ على الإطلاق أن يعلم استراق نظرها إلى ما حرّم الله، ولكن الله وحده يعلم، إذا علمت أن الله يعلم، انتهى الأمر.

من لوازم هذا العلم الاستقامة على أمر الله، إذاً: أن يكون علمك بأن الله يعلم ما في السماوات والأرض، هذا شيء كبير جداً، لذلك يفترق الناس هنا، فالمؤمنون يعلمون أن الله يعلم، فيلتزمون أمر الله، وينتهون عما نهى الله ؛ وضعاف الإيمان يغيب عنهم أن الله يعلم، فيقترفون المعاصي والآثام، ثم تأتي المصائب والمُلِمّات جزاءَ اقترافِهم هذه المعاصي.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

إذاً: هذا الأمر لا يعلمه إلا الله.

معنى: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ

المعنى الأول:

بعضهم قال: الآية موجهة إلى نظر الإنسان إلى المرأة التي لا تحلُّ له، فيستطيع أن ينظر إليها دون أن يشعر به أحد، وهو في جمعٍ غفير، أو يستطيع أن ينظر إليها، وهو منفردٌ لا يراقبه إلا الله عزّ وجل.

المعنى الثاني:

وقال بعضهم: هذه الآية متعلقة بغمز العَيْن، أحياناً يكون الاتفاق بين شخصين، حركة يسيرةٌ بجفن العين أو بحركة العين، أحياناً يحرّك الإنسان بؤبؤه نحو اليمين، أي افعل كذا، أو نحو الشمال، أو نحو الأعلى، لا تفعل، تحريك بؤبؤ العين هذه الحركة اليسير اللطيفة هي ما تعنيه الآية الكريمة:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

أي الغمز.

المعنى الثالث:

وبعضهم قال: إذا رأيت، وقلت: لم أر، أو إن لم تر، وقلتَ: رأيت، هذه خائنة الأعين، أي أنّ الله عزّ وجل أتى بحالةٍ دقيقة، جزئيةٍ يسيرةٍ من فعل العين، والله يعلمها، فإذا كان يعلم خائنة العين فما قولك بما فوق ذلك ؟

إذاً يجب أن تعلم أن الله يعلم، لأنك إذا علمت أن الله يعلم تلتزم أمر الله، وتلتزم شرعه، فإن التزمت أمره وشرعه سعدت في الدنيا والآخرة، كأنها تعني أنك بدايةً يجب أن تعلم أن الله يعلم، إن لم تعلم أن الله يعلم ربما وقعت في المعاصي والآثام.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

المعنى الرابع:

وقال بعض المفسرين: خائنة الأعين هي النظرة الثانية، النظرة الأولى نظرة الفجاءة، لك والثانية عليك، فهذه الخائنة، العين تخون متى ؟ في النظرة الثانية، في الأولى لا تعلم، فوجئت بهذا المنظر، أما النظرة الآثمة فهي النظرةُ الثانية، فعَنْ أَبِي رَبِيعَةَ عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رَفَعَهُ قَالَ:

((يَا عَلِيُّ، لَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ))

[الترمذي]

خائنة الأعين هي النظرة الثانية.

المعنى الأول: حينما تسترق العين النظرة إلى امرأةٍ لا تحل له، لو كنت وحيداً يعلم هذه الخيانة، ولو كنت في جمعٍ غفير، فإذا ما غفلوا عنك استرقت النظر، فإذا ما نظروا إليك غضضت البصر، هذه المخالفة لا يعلمها إلا الله، هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: أن خائنة العين هي غمز العين، أي إنْ أعطيت إشارةً بعينك يميناً أو شمالاً، نحو الأعلى، أو نحو الأسفل، وأنت تريد شيئاً، وقد لا يشعر بك أحد.

أحياناً يكون الضيف جالسًا أمامك، يلتفت نحو النافذة تعطي إشارة لابنك بعينك أن هيّئ الضيافة، بعينك فقط ـ وقد اخترنا الشيء الخير الطيّب، أما الشيء الشرير فالإنسان محاسب عليه ـ فغمز العين هي خائنة الأعين، واستراق النظر إلى المرأة الأجنبية دون أن يعلم أحدٌ من بني البشر هي خيانة العين.

تلخيص معاني خائنة الأعين:

كنت أذكر وأكرر كثيراً: أن الطبيب المؤمن له أن ينظر إلى موطن الداء في المريض، ولو كان امرأةً، إلا أن الله وحده يعلم، ولا أحد سواه إذا استرق النظر إلى مكانٍ آخر لا يعالجه، ولا يستطيع أحدٌ على وجه الأرض أن يكشف هذه المَعْصِية، بإمكانه أن ينظر إلى موطن الداء، وهذا حقٌ له لإنقاذ هذه المريضة، أما إذا نظر إلى مكانٍ آخر لا يحل له، فمن يعلم هذه المخالفة ؟ لا يستطيع لا الزوج ولا الأقارب ولا المرافق لهذه المريضة أن يكشف هذه الخيانة.

قل عن الطبيب، وقل عن القاضي حينما يريد أن يتأكد من شخصية امرأةٍ له أن ينظر إليها، من يعلم أن هذه النظرة تهدف إلى معرفة شخصية هذه المرأة، أو نظرتُهُ فيها هدفٌ آخر، من يعلم ذلك ؟ الله سبحانه وتعالى.

الإنسان أحياناً يتعامل بحكم العمل مع امرأةٍ، لكن مَن يعلم أن نظرته إليها بالحَدِّ الأدنى مع غَضّ البصر، أم أن نظرته إليها متعلقة بهدفٍ آخر؟ هذه خيانة العين، هذه بعض المعاني.

فالمعنى الأول استراق النظر.

والمعنى الثاني الغمز.

والمعنى الثالث أن تقول: ما رأيت وقد رأيت، خنت بهذه النظرة، أو أن تقول: رأيت، وما رأيت.

والمعنى الرابع: النظرة الثانية، الأولى لك والثانية عليك.

إذا كان الله يعلم خائنة الأعين فما فوقها أولى بالعلم:

ما أراد الله بهذه الجزئية الصغيرة من عمل العين إلا ليؤكد لك ما فوقها، أي أنك مكشوفٌ أمام الله عزّ وجل، مكشوفةٌ حركاتك وسكناتك، وخواطرك ونواياك، وما تطمح إليه، وما يدور في خلدك، وما يخفى عنك، إذا علمت أن الله يعلم قطعت نصف الطريق، أو أربعة أخماس الطريق إلى الله عزّ وجل.

وأفضل إيمان الرجل أن يعلم أن الله معه حيث كان، اعبدْ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، يا رب اجعلنا نخشاك حتى كأنّا نراك، وهذا ما يعبّر عنه بعض العلماء بحال المراقبة، المؤمن الصادق يشعر أنه مراقبٌ من قبل الله عزّ وجل، لذلك يستحيي أن يأتي بمعصية، فهو مراقَب، تحت المراقبة الشديدة، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من الآية 4)

وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُ السِّرّ وَأَخْفَى(7))

(سورة طه)

يعلم السر الذي أسررته، والذي يخفى عليك يعلمه، عَلِمَ ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

يمكن أن نقول: إن مشكلتك مع الله هي بين أن تعلم أنه يعلم، أو تتوهم أنه لا يعلم، قال تعالى:

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(16))

(سورة ق)

أيْ أقرب إليه من روحه.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من الآية 4)

هو معكم بعلمه.

هذه المعاني ملخّصها أن تعلم أن الله يعلم، فإذا علمت أن الله يعلم فبحكم فطرتك، وبحكم خوفك، وحبك لسلامتك، وحبك لوجودك، ولسلامة وجودك، ولاستمرار وجودك، ولكمال وجودك، بدافع فطرتك تستقيم على أمر الله.

الفرق بين رجلين: إنسان مستقيم وآخر غير مستقيم، المستقيم يعلم أن الله يعلم، ويعلم أن الله يعلم وسيحاسب، ولأنه لا مفرّ من محاسبة الله عزّ وجل فلا بد من أن يستقيم، كيفما شاء لا بد من أن يستقيم؛ أما غير المستقيم فيتوهّم أن الله في السماء، وأنه خلق الخلق، وترك بعضهم لبعض، هذا قد يكون وهمًا، وقد يكون هذا الوهم عن وعيٍ أو عن غير وعيٍ.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

1 ـ الإنسان بين لطف الظاهر وخبثِ الباطن:

أقرب الناس إليك قد يُبدي لك من البشاشة، والمودة، واللطف، والتقرب، وهو يخفي في صدره الخبث واللؤم، والحقد والحسد، وما إلى ذلك، مَن الذي يعلم هذا القلب، وما ينطوي عليه ؟ قيل في بعض الآثار: **عبدي طهّرتَ منظر الخلق سنين، أفلا طهّرت منظري ساعة ".**

منظر الخلق بيتك، غرفة الاستقبال، ثيابك، مركبتك، هذا منظر الخلق، لكن منظر الرب هو قلبك الذي في صدرك، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، فهنيئاً لمن كان طيّب السريرة، هنيئاً لمن كان بريئاً عند الله عزّ وجل، فهو يحاسب على ما في قلبك، لذلك فالإنسان صاحب النيات الطيبة، البريء، المستقيم الذي لا ينوي الغش لأحد، هذا القلب الثمين هذا أثمن شيء تملكه، والدليل:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

فهل هذا قليل ؟ أن تملك قلباً سليماً ليس فيه حقدٌ، ليس فيه حسدٌ، ليس فيه ضغينةٌ، ليس فيه تآمرٌ على أحد، ليس فيه غِلٌ على أحد المؤمنين، ليس فيه توجيهٌ لإيقاع الأذى بفلان ؟ هذا القلب السليم هو أثمن ثروةٍ تملكها، بل هذا القلب الثمين هو أثمن مكسبٍ تكسبه من الإيمان.

الإيمان قيد الفتك، المؤمن يعلم أن الله يعلم، لذلك لا يستطيع أن ينوي الشر لأحد أو يوقع الشر به، الإيمان يُلْجِمُهُ، يعلم أن لهذا الإنسان إلهاً سيحاسبه، الله وكيله، كلمة الله وكيلك، كلمة يألفها الناس كثيراً، يرددونها كثيراً، ولكن هذه الكلمة لو عرف الناس معناها لصعقوا، لو عرف الناس معناها لعدُّو للمليون قبل أن ينووا السوء لأحد، الله وكيل الخلائق.

الشيء الثاني:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

2 ـ لا يعلم النياتِ إلا الله:

هذا الذي يتزوج امرأةً وفي نيّته أن يطلقها بعد حين، ولم يقل لها ذلك حينما خطبها، فمن يكشف هذه المعصية الكبيرة ؟ الله جل جلاله، قد تخطب ويحصل الإيجاب والقبول، وتأتي بشاهدين، وتسمي المهر، وهذه أركان الزواج الشرعي، لكن في نيّة الزوج أن يمضي مع هذه المرأة ما دام مسافراً في

بلاد الغرب، فإذا أزمع العودة طلّقها، وانتهى الأمر، مَن يعلم هذه النية المخالفة لحقيقة الزواج، وهي نية التأبيد ؟ الله جل جلاله.

هذا الشريك المفتقر إلى خبرة الشريك الآخر، شارك إنساناً ذا خبرة، وفي نيته أن يكسب منه هذه الخبرة، فإذا تمّ له هذا الكسب فَكّ الشراكة، وألقاه خارج المحل، مَن يعلم ذلك ؟ الله جل جلاله.

الزوج الذي ينوي تطليق امرأته بعد حين دون أن تكون مذنبةً، إلا لمصلحةٍ عند الزوج.

وهذا الذي يتزوّج امرأةٍ ليأخذ جنسيةً معينة، تصدقه هي، وهو بمجرد أن يأخذ البطاقة الخضراء يطلقها، من يعلم ذلك ؟ الله جل جلاله، فإذا أراد الإنسان أن يخفي عن الناس شيئاً، فالذي يخفيه لا يخفى على الله، لا تخفى على الله خافية، هذا أكبر معين على الاستقامة، حينما تعلم أن قلبك مكشوف، صفحةٌ مبسوطةٌ أمام الله عزّ وجل، لذلك لا يفرح المؤمن إلا إذا كانت نياته طيّبة، ولا يسعد إلا إذا رأى نيّته سلمية.

أحياناً تجد أشخاصًا ينطوون على خبثٍ كبير، من دلائل خبثهم أنهم يسيئون الظن بمعظم الناس، فهنيئاً لمن كانت نيته سليمة، وبعض الخبثاء يتهمونه بالشر، وهو ليس كذلك، لذلك قالوا: الحمد لله على وجود الله ـ وجوده نعمة ـ الله موجود، ويعلم، وسيكافئ، وسيعاقب، فأنت علاقتك مع الله عزّ وجل.

القلب السليم:

لذلك أثمن شيءٍ أيها الأخ الكريم تملكه القلب السليم الذي لا ينطوي على حقدٍ، ولا على حسدٍ، ولا على ضغينةٍ، ولا على تآمرٍ، ولا على نيةٍ سيئةٍ، ولا على فعلٍ قبيحٍ، هذا هو القلب السليم محصلة الإيمان، هو الذي تسعد به في الآخرة، كل شيءٍ في الدنيا يزول، ويبقى القلب السليم، والآية واضحة جداً:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

أيْ أنّ الملايين المُمَلْيَنَة ـ إن صح التعبير ـ والألوف المؤلّفة من العُمْلات الأجنبية، إذا مات الإنسان يتركها، ولا يبقى من ذخيرته للآخرة إلا القلب السليم، والقلب السليم محصلةٌ طبيعيةٌ للإيمان، فإنك إن آمنت بالله ؛ آمنت بوجوده، وآمنت بوحدانيته، وآمنت بكلامه، وآمنت بأنه يعلم، وهو مُطّلع لا تخفى عليه خافية، وآمنت أنه سيحاسب فقد استقام أمرك، و فزت ورب الكعبة.

أنا لا أبالغ: إذا أيقن أحدكم أن الله موجود، وواحد، وكامل، ويعلم وسيحاسب، فلا يمكن أن يعصيه، وكل إنسان يعصي الله فهو لا يعصيه إلا لخللٍ في هذه الفِقَرات، آمنت بوجوده موجود، وآمنت بأنه كامل، أي عادل، وآمنت بأنه واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في صفاته، وآمنت بأنه يعلمُ، وآمنت

بأنه سيحاسب، لا يمكن لإنسان ينطوي على ذرة عقلٍ واحدة أن يعصي الله، ولا يعصي اللهَ إنسانٌ إلا لخللٍ في هذه المُسَلّمات ؛ في وجود الله، ووحدانيته، وكماله، وعلمه، ومحاسبته.

الظالم في قبضة الرحمن:

ما من إنسان يرتكب معصيةً إلا ويتوهّم أنه سينجو من العقاب، من عقاب البشر، لو علم أنه لا ينجو من عقاب رب البشر إطلاقا لاستقام.

دخل رجل إلى بيت، وكان جندياً في حملة قمع فتنةٍ، فأبيحت لهم المدينة قائد الحملة أباح المدينة للجنود فدخل جنديٌ إلى بيت ـ والقصة قديمة حدثت في العصور العباسيَّة ـ فرأى زوجاً وامرأته وطفلين، فقتل الرجل وأمر المرأة أن تعطيه كل ما عندها، أعطته سبعة دنانير ذهبية، فقتل الولد الأول، فلما رأته جاداً في قتل الثاني أعطته درعاً مذهبةً، أعجبته الدرع **درع مطلية بالذهب غالية جداً** فلما رآها، وقلّبها قرأ عليها بيتين من الشعر، فلما قرأهما وقع مغشياً عليه، قرأ على هذه الدرع:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضـي الأرض مـن قاضي السماء

***

إذا نجا إنسان ظالم من قبضة الرحمن فهذا الدين لا معنى له أبداً.

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

إذا أيقنتم أيها الإخوة أن الله سبحانه وتعالى لا بد من أن يحاسب، إنْ في الدنيا، وإنْ في الآخرة، ليس الشرط أن يحاسب في الدنيا ؛ لكن بعض الذنوب كما قال عليه الصلاة والسلام، يعجّل الله لفاعلها العقاب في الدنيا، من هذه الذنوب عقوق الوالدين، ومن هذه الذنوب البغي ـ أي الظلم ـ فالظالم وعاقُّ الوالدين وقاطع الرحم، قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، والبغي، هذه الذنوب الثلاثة يعجّل الله لأصحابها العقوبة في الدنيا، فإذا أيقنّا جميعاً أن كل خطيئةٌ مسجلةٌ، ولها حساب خاص، ولن تمحى إلا بتوبةٍ نصوح، فما من إنسان ينطوي على ذرة عقل يقدم على معصية أبداً.

فإنْ أكلَ هذا المالَ الحرام أتلف الله ماله، وأتلفه مع ماله.

حدثني أخ كريم بواقعة قصيرة: شخص يقتني مركبة جديدة، تَعَطّلت، فذهب إلى مرآب لإصلاحها، فصاحب المرآة شعر أن صاحبها جاهل، فطلب منه مبلغا كبيرا غير معقول ـ عشرة أضعاف ما يستحق ـ فلما عاتبه جاره، وهو من إخوتنا الأكارم قال له: أنت لا تعرف كيف العمل، هكذا العمل ـ أي افتَخَر

بهذه الطريقة في ابتزاز أموال الناس ـ ثم أخذ عشرة آلاف ليرة، بينما العمل الذي قام به لا يزيد أجره على ألف ليرة، لكن استغل جهل هذا الإنسان، وقال عليه الصلاة والسلام:

((غبن المسترسل ربا))

[الجامع الصغير عن أنس وعن جابر وعن علي]

المسترسل الجاهل، أي غشيم، بالتعبير الدارج.

((غبن المسترسل حرام))

[الجامع الصغير عن أبي أمامة]

لصاحب المرآب هذا ابنٌ يعمل في مخرطة، بعد أيامٍ أربعة دخلت نثرة فولاذٍ في عين هذا الابن، فاضطر أبوه أن يأخذه إلى بلدٍ مجاور، وأن يدفع ستة عشر ألف ليرة، أجرة عملية سحب هذه الشظية الصغيرة.

لو يعلم الإنسان أن كل مالٍ يكسبه حراماً لا بد من أن يدفع الثمن باهظاً، جزاءً وفاقاً، وأن كل علاقةٍ مشبوهة، وأن كل بغيٍ، وأن كل عدوانٍ لا بد من جزاءٍ له، إن عاجلاً أو آجلاً، لذلك يجب أن تعلم أن الله يعلم، ويجب أن تعلم أن الله سيحاسب، وأن لكل حسنة ثواباً، ولكل سيئةٍ عقاباً، وعلاقتك مع الله وحده، وكل إنسان يحاول أن يتبرك بأشخاص طيبين على أساس أن هذا الطيب ينقذه من عذاب الله فهذا جاهل، لا يستطيع النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق وحبيب الحق أن ينقذك من عقاب الله عزّ وجل.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[متفق عليه]

لو حكم لك النبي، وهو سيّد الخلق، ولست محقاً فلن تنجو من عذاب الله، فما قولك بما دون النبي ؟ النبي عليه الصلاة والسلام على علو شأنه وعظم مقامه وهو سيد البشر، لا يستطيع أن ينجيك من عقاب الله إذا كنت منحرفاً، فهل في الكون كله إنسانٌ بإمكانه أن ينقذك ؟ هذا وهمٌ، لذلك أخطر شيء في الحياة أن يكون في ذهن الإنسان تصوّراتٌ غير صحيحة، وأوهامٌ لا تقف على قدميها.

بين العلم والشك والوهم والظن:

قالوا: العلم علاقةٌ ثابتة بين شيئين، مقطوعٌ بصحتها، عليها دليل، مطابقةٌ للواقع، هذا تعريف دقيق، لو أن هذه العلاقة ليست مقطوعاً بصحتها، دخلنا في الوهم والشك والظن، وإذا كان يقينك بهذه الحقيقة أو

بهذه المقولة ثلاثين بالمائة فهذا وهم، وإن كان اعتقادك بأن هذه الفكرة صحيحة خمسين بالمائة فهذا شك، وإذا كانت ثمانين بالمائة فهذا ظن، وإنّ الظن لا يغني من الحق شيئاً، لا بد من أن تعتقد اعتقاداً قطعياً، وأعلى درجة باليقين هو القطع.

إذا هناك: وهمٌ، وشك، وظن، و غلبة ظن، ويقين، وقطع، إذا استطعت ألاّ تعتقد إلا بالحقائق المقطوع بصحتها فافعل، كل عقيدة زائغة فهي أوهام، وتصورات ما أنزل الله بها من سلطان، استقيت من زيد من عُبيد، وهو شخص غير ثقة، غير متحقق، من دون دليل، واعتقدت بها وتحرّكت من خلالها، فهذه مصيبةٌ كبيرة ؛ أن تعتقد اعتقاداً زائغاً تنطلق منه، القطعُ مرتبةٌ فوق الوهم والشك والظن وغلبة الظن واليقين.

مطابقةٌ للواقع، إن لم تطابق الواقع فهي الجهل، من هو الجاهل ؟ كل الناس يظن أن الجاهل هو الإنسان الذي لا يعلم، لا والله، ذاك الأمي، الجاهل هو الإنسان المُمْتَلِئ بالمعلومات غير الصحيحة، يعلم، ولكن كل معلوماته غلط، هذا هو الجاهل، فالجهل عدم مطابقة الوصف للواقع.

ومن دون دليل صار تقليدًا، فإذا استطعت أن تبتعد عن التقليد، وعن الجهل، وعن الوهم، وعن الشك، وعن الظن، واعتقدت اعتقاداً مقطوعاً به مطابقاً للواقع عليه دليل، فقد انطلقت انطلاقاً علمياً.

راجع كل معلوماتك، راجع كل معتقداتك، راجع كل تصوراتك، راجع كل المفهومات التي تملكها، اعرضها على القرآن والسنة، فهناك أوهام، وكذلك أفكار كلها خاطئة، تصورات غير صحيحة، هذه المعاني حول:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

أيْ أنّ الله يعلم، فإذا علم فسوف يحاسب، وإذا أيقنت بأنه يعلم، وسيحاسب فلا بد من أن تستقيم، وكل إنسان عنده مخالفة أو معصية يكون لذاته كالمُحَلِّل النفسي، عليه أن يُرجِعها إلى ضعفٍ في يقينه بوجود الله، أو بعلمه، أو بعدالته، أو بأنه سيحاسب. لذلك:

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ

1 ـ بين المفتي والقاضي:

لماذا يقضي بالحق ؟ قال: لأنه يعلم، ولأنه قادر، هناك شخص يعلم مَن هو صاحب الحق ؛ ولكنه ضعيف مستضعف لا يقدر على أن ينفِّذ قناعاته، وهناك إنسان قادر على أن ينفِّذ، ولكن لا يعلم من هو

المحق، ولكن الله جل جلاله يعلم ويقدر، فالقضاء يحتاج إلى علم وإلى قدرة، والفرق بين المفتي والقاضي هو أن المفتي يعطيك الفتوى من دون إلزام، أما القاضي فيحكم، ويقضي، ولديه قدرة على التنفيذ، يأمر بالسجن فيسجنه، فالفرق بين المفتي والقاضي أن كلاهما عالم، ولكن المفتي عالم ليس لديه سلطة، أما القاضي فهو عالم لديه سلطة، فالقاضي يقضي وينفِّذ، أما المفتي فيقضي ولا ينفِّذ، فيقول لك: حكم الشرع في هذا كذا، لكن لا يقدر أن يلزمك فعلَ ما يأمر به، لأنه لا سلطان لديه، قال الله عزّ وجل:

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ)

2 ـ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ

لأنه يعلم ولأنه يقدر، وبالحق، والحق هو الشيء الثابت الهادف، قال الله عزّ وجل:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(16))

(سورة الأنبياء)

بين الحق واللعب:

ما هو اللعب ؟ هو العَبَث، وكل مع عبث لعب، ولكن العمل الحق هو العمل الذي ينتهي إلى هدفٍ نبيل، والحق هو الشيء الثابت، الحق عكس الباطل، الباطل الشيء الزائل.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

فمثلاً: المُعتقدات الباطلة تهاوت كبيت العنكبوت، فأقوى القوى دعمتها، ومع ذلك سقطت.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

فالباطل من شأنه أنه زاهق، وليس زاهقاً، بل زهوق، و زهوق صيغة مبالغة.

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

3 ـ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

لا يعلمون ولا يقدرون.

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

ربنا عزّ وجل يحَذِّرنا في هذه الآيات من العقاب في اليوم الآخر، ولكن هناك إشارة أخرى إلى أن العقاب قد يكون في الدنيا.

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ

1 ـ لابد من التفكر في الأقوام الذين كانوا قبلنا:

أكبر دليل على ذلك أهرامات مصر، من ذهب إلى مصر، ودخل الأهرامات، يعرف كم كان الفراعنة أقوياء، وكم كانوا متفوقين في العلوم، فالشمس لا تدخل الهرم إلا في يومٍ واحد، فمن يقدر أن يصنع الآن نافذة لها زاوية لا تتوافق مع ميل الشمس إلا في يومٍ واحد من أيام السنة ـ هو يوم وفاة فرعون ـ فمن يعلم اليوم أسرار التحنيط ؟ لقد زرت مصر، ورأيت في متاحفها الشيء الذي لا يصدق، أطْعِمَتُهم قبل ستة آلاف عام، لحومُهم، خبزُهم، أدواتُهم، حليُّهم، مركباتُهم كلها كما هي، فأن تبقى المعادن سليمةً أمرٌ معقول، أما الطعوم، اللحوم، حتى الخبز، خبز الفراعنة منه نماذج قبل ستة آلاف عام، وتبقى على حالها، إذًا: لقد تفوقوا تفوقاً كبيراً، ربنا عزّ وجل يقول:

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ)

الأنباط في الأردن، مدينةٌ بأكملها محفورةٌ في الجبل ؛ بيوت، وقصور، ودور محاكم، وحمّامات، وأماكن لهو، كلُّها منحوتة في الجبال، قاعة الملك عشرات الأمتار طولاً وعرضاً وارتفاعاً، منحوتةٌ في جسم الجبل، وهي صالةٌ تشبه مكعباً نظامياً كله منحوت في الصخر نحتًا، مع الأعمدة والتيجان، شيء لا يصدق، نحن كل حضاراتنا اسمنت، وكلها سوائل، تصب اليوم فتجف غدًا، أما هذا الحفر فهو الأمر الذي لا يصدق.

ربنا عزّ وجل يقول:

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ)

2 ـ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ

ففي قلعة صلاح الدين مسلةٌ صخرية، أيْ جبل من الصخر، حُفِر الجبل، وبقيت مسلة قاعدة لجسرٍ متحرّك يصل إلى القلعة، تنظر إلى هذه المسلة ارتفاعها ثلاثون مترًا، فالجبل حُفِر، وبقيت هذه المسلة الصخرية، ولا تزال حتى الآن، فتشعر أن الأمم السابقة قدّموا أشياء عظيمة، وكان لهم حضارات

كبيرة، وكانوا متفوقين، في علومهم، وفي أموالهم، وفي سلطانهم، وفي ممالكهم، ومع ذلك عصوا فدمّرهم الله عزّ وجل:

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ)

الشيء الذي يدعو للعجب أن الأهرامات بُنِيَت في مكان صحراوي، لا يوجد فيه صخور إطلاقاً، المنطقة كلها رمال، فمن أين جيء بهذه الحجارة ؟ من جنوب مصر من أسوان، فكيف حُملت ؟ زِنَةُ كل حجر ثمانون طنًا، تسعون طنًا، فأي مركبٍ حمل هذا الحجر ؟ وكيف انتقل هذا الحجر من شَطِّ النيل إلى موقع الأهرامات ـ فهناك مسافة تبلغ حوالي عشرين كيلو مترًا، أو خمسة عشر كيلو مترًا بين شط النيل وموقع الأهرامات ـ وبعد أن وصل إلى هذا الموقع، كيف ارتفع إلى هذا العلو الشاهق ؟ بأي طريقة ارتفع ؟ شيء عجيب، فالأهرامات لا تزال أحد عجائب الدنيا السبع، هذه إشارة لنا، فاعتبروا يا أولي الألباب.

(كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ)

ومع ذلك.

(فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

3 ـ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ

هناك جهة قوية تدّعي أنها سيدة العالم، فمن السهل على الله سبحانه أن يأخذها الله بذنوبها، ولو ادعت أنها القوة الوحيدة في العالم، ربنا عزّ وجل قال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(24) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ)

(سورة يونس)

القُوَى الأولى كيف تداعت كبيت العنكبوت، فكذلك يمكن أن تتداعى القوة الثانية.

إذاً:

ربنا عزّ وجل قال:

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ(145))

(سورة الأعراف)

احذروا غضبَ الله وسخطه بسبب الذنوب والمعاصي:

إذا عم الفسق في بلدنا فنحن مهددون من قِبل الله عزّ وجل، فإذا انتشر الفساد، واتسعت دائرةُ الفسق والإباحية، والزنا، والخمور، والمخدارت، فقد عم الفساد، وإذا أصبح الطريق يَعُجُّ بالكاسيات العاريات المائلات المميلات فهذا هو البلاء، فإذا ظهر الفساد فليتوقع الإنسانُ العقاب الإلهي.

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

صواعق، وكذلك الصواريخ.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الزلازل والألغام.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

أو الحروب الأهلية، وهذه ثالثة الأثافي، وهي الأشد.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الحروب الأهلية بإسبانيا دامت أربعين عامًا، شيء مخيف، ولم تَدَع شيئاً، فإذا كان فساد، وزنا، وخمور، ومخدِّرات، وأكل مال بالباطل، وعدوان، وتفلُّت، وإباحية، وانحلال، هذا كله داهية فاقرة، ولا ينجو من عذاب الله إلا من استقام على أمر الله، ونصح.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا)

كن صالحًا مصلِحا في زمن الفساد:

لم يقل: صالحون، بل قال:

(مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

وفرقٌ كبير بين الصالح والمُصْلِح، الصالح في ذاته، أنا لا أؤذي أحداً، هذا لا يكفي، فيجب أن تنطلق في الدعوة إلى الله، في الأمر بالمعروف، في النهي عن المُنكر، يجب أن تسهم في إصلاح المجتمع، وأقل شيء على مستوى أسرتك، تجد رجلًا يرتاد المساجد، الصلاة في أول صف ـ والله شيء جميل ـ ونساؤه كاسياتٌ عاريات، يقول لك: لا يوجد فيهم دين، زوجتي ليس فيها دين، وبناتي مثلها أيضاً، وأنت أليس لك علاقة بهذا الموضوع ؟ فهو ليس له علاقة.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

فهذا الذي لا يتصدَّى للدعوة إلى الله، ولا يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آثم، وهناك أساساً حديث شريف لا أذكر نصه الدقيق:

((أن الله عزّ وجل أرسل ملائكة ليهلكوا قرية، قالوا: يا رب إن فيها رجلا صالحاً، قال: به فابدؤوا، لمَ ؟ قال: لأنه كان لا يتمعر وجهه للمنكر))

[مشكاة المصابيح عن جابر قريبا من هذا اللفظ]

أما المؤمن فيصلح أهله، يصلح إخوانه، يصلح زملاءه، يصلح جيرانه بلسانه، وإحسانه، ونصحه، وصلته، ومودته، يسلك كل الطرائق، فإذا كان الإنسان مستقيمًا ومصلحًا فهذا الذي ينجو من عذاب الله، لذلك قال الله عزّ وجل:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

4 ـ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ

الكافر أحياناً يهيّئ احتياطات لبقائه، كل هذه الاحتياطات تتلاشى، أين هي ؟ تلاشت أمام غضب الله ونقمته.

وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ

لا حصون، ولا أموال، ولا شيء من هذا القَبيل، يقول بعض الشعراء:

أفنى شَبابَكَ كَرُّ الطرفِ وَالنَفس ... فَالمَوتُ مُقتَربٌ وَ الدَهرُ ذو خُلَس

لا تَأمَنَ المَوتَ في طَرفٍ وَلا نَفَسٍ ... وَإِن تَمَنَّعتَ بِالحُجّابِ وَ الحَرَس

فَما تَزالُ سِهامُ المَوتِ نـــافِذَةً ... في جَنبِ مُدّرِعٍ مِنها وَ مُتَّـــرِس

أراكَ لَستَ بوَقافٍ وَلا حَـــذِرٍ كَالحاطِبِ الخابطِ الأعوادَ في الغَلَس

***

هؤلاء الذين أهلكهم الله عزّ وجل، وكانوا أشد قوةً وآثاراً في الأرض، والذين أخذهم الله بذنوبهم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا

ذلك الإهلاك:

(بِأَنَّهُمْ)

بسبب أنهم:

(كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا)

فكفروا ؛ كذبوا، أعرضوا.

التكذيب مراتب:

التكذيب مراتب كما تعرفون أيها الإخوة، هناك تكذيب أقل خطراً من تكذيب، التكذيب هو خطراً هو اللفظي، كأن تقول لهذا الداعية: هذا الكلام غير صحيح، لم أقتنع به، فيأتيك بالدليل لأنك تحاوره، أما التكذيب الخطير فهو التكذيب السلوكي، أيْ تستمع بأدب، وتشكره، وأنت لا تقتنع بحديثه، تسير مع الشهوات، هذا التكذيب العملي لا يُكشف، لذلك التكذيب الأخطر هو التكذيب العملي السلوكي، فتلاحظ أن سلوك هذا الإنسان لا يتفق مع ما يقول، فهو يدّعي أنه مؤمن، ويفعل فعل الكُفار، يدعي أنه مستقيم ويأكل أموال الناس بالباطل، يدعي أنه ورع، وهو مع النساء الكاسيات العاريات، يدعي أنه صاحب حق، ويأكل ما ليس له، هذا هو التكذيب الخطير، فلا تعتقد أن لهذا الشرع قوةً تنفذه.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

أحيانًا تسمع بزلازلَ، براكين، فيضانات، حروب، قتل، تعذيب، شيء لا يحتمل، هذا:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (08-20): تفسير الآيتان 23 - 27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-07-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة موسى عليه السلام مع فرعون:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة غافر، ومع الآية الثالثة والعشرين، وبدءاً من هذه الآية تبدأ قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون، ولهذه القصّة دلالاتٌ كثيرة، ومن الناس مَنْ يتوهَّم أن هذه القصّة تكرَّرت في القرآن كثيراً، فالحقيقة أنها لم تتكرَّر، ففي كل مرَّةٍ وردت فيها هذه القصّة كانت المناولة ـ بالتعبير الفني ـ من زاويةٍ خاصّة، فربنا جلّ جلاله من خلال هذه القصّة أراد أن يسلي النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يحذِّر أعداءه.

فالقصّة كما تعلمون حقيقةٌ مع البرهان عليه، والحقائق المجرَّدة لا تفعل في النفس فعل القصّة، لأن القصّة أحداثٌ وقعت، لكن هذه الأحداث تعني شيئاً يستنبط منها حقائق، هذه الحقائق لماذا تترسخ في النفس ؟ لأنها مستمدّة من الواقع، فلذلك قالوا: القصّة حقيقةٌ مع البرهان عليها، فربنا جلّ جلاله من خلال قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون أراد أن يثبّت النبي، وأن يسليه، وأن يحذِّر المشركين من مصير فرعون الذي يأخذ بعضهم دوره.

قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى)

1 ـ مِن رحمة الله بالعباد إرسالُ الرسل:

الحقيقة لأنّ الله جلّ جلاله صاحب الأسماء الحسنى، لأنه ذاتٌ كاملة، خلق الخلق في أبدع تكوين، ولكن رحمته تقتضي أن يُعْلِمَ الإنسان حينما يغفل وينبّهه.

تعلمون أيها الإخوة أن الإنسان مكلّف، الكون كلّه مسخّرٌ له، وعقله مسخّرٌ له، وفطرته مسخرةٌ له، والشهوة التي أودعها فيه من أجل أن تدفعه إلى باب الله عزّ وجل، وحرية الاختيار التي منحه إيّاها من أجل أن يكون عمله ثميناً.

الكون والعقل والفطرة والحريّة والشهوة هذه كلِّها مقوّمات التكليف، ومع ذلك كلِّه ربّما ضلّ الإنسان سواء السبيل، وربما غفل عن ذكر الله، وربما ألهته الدنيا، وربّما اتّبع شهوته، فرحمة الله بالخلق

تقتضي أن يرسل إليهم رسولاً، أن ينزّل عليهم كتاباً، ولأن كل إنسان يستطيع أن يتلقّى عن الله وحيَهُ، فتلقي الوحي يحتاج إلى أشخاص قمّة في الطُهر، وقمّةٌ في الحُب، وقمّةٌ في العلم، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(آل عمران)

إذاً: الفكرة هي أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرّمه أعظم تكريم ؛ منحه الكون، ومنحه العقل، و منحه الحريّة، منحه الشهوة، منحه الفطرة، ومع كل هذا قد يغفل الإنسان، قد يسهو، قد تضلّه أهواؤه، قد يتبع شهواته، قد تطغى عليه الدنيا، قد يُشْغَلُ بالمال فتقتضي رحمة الله عزّ وجل أن ينبّه هذا الإنسان الغافل، أن يذكِّره لأنه رب العالمين.

2 ـ لابد للرسول من معجزة دالة على صدق رسالته:

كيف يذكِّر الله البشر ؟ لابدّ من رسول، أيمكن أن يخاطب الله كل البشر ؟ إنهم لا يستطيعون تلقِّي الوحي، لابدّ من واحدٍ منهم اصطفاه الله عزّ وجل على عِلم، هذا الذي اصطفاه الله على علم يوحي إليه، فينبئ الناس بأنه رسول من عند الله عزّ وجل، لأن هذا الرسول معه منهج، معه أمرٌ ونهي، افعل ولا تفعل، هذا المنهج يُعَطِّل على أهل الأهواء أهواءهم، يعطِّل على أهل الشهوات شهواتهم، يحدُّ من حريّة الفُجّار والكفّار، ماذا يفعل الفُجّار والكفّار ؟ يقولون: لست مرسلاً، وأنت كاذب، فكيف يؤكِّد لهم هذا النبي المُرسل أنه رسول ؟ لابدّ من المعجزة.

إذاً: المعجزة شهادة الله لرسوله بأنه رسوله، يعطيه شيئاً يعجز عنه كل البشر، وشيئاً مما نبغ فيه أهل العصر، كل عصرٍ تفوّق في موضوع ؛ ففي عهد سيدنا موسى عليه السلام كان السحرة هم المتفوّقون، وفي عهد سيدنا عيسى عليه السلام كان الطبُّ هو المتفوّق، وفي عهد النبي عليه الصلاة والسلام كانت اللغة، والبلاغة، والفصاحة، والشعر في المحل الأول، إذاً كيف يثبت الله للبشر أن هذا الإنسان هو رسول الله ؟ لابدّ من أن يعطيه معجزة، وكلمة معجزة تعني أن البشر جميعاً يعجزون عن أن يأتوا بمثلها، إذاً: المعجزة شهادة الله عزّ وجل لهذا النبي بأنه رسول من عند الله.

بين المعجزة والكرامة:

بالمناسبة: خرق العادات للأنبياء معجزات، لكن خرق العادات للأولياء ليست معجزات، إنما هي كرامات، الشيء الدَقيق هو أن المعجزة ينبغي أن تُنْشر، وينبغي أن تُبلّغ، وينبغي أن يُتحَدّى بها، لكن الكرامة هذه خاصّةٌ للولي، ولا يجوز أن يتحدّث بها، ولا يجوز أن ينشرها، ولا أن يجعلها أساساً

لدعوته، هذه نقطةٌ دقيقة، فالكرامة إعلامٌ من الله عزّ وجل لهذا المؤمن أنك بأعيننا، وهي ردُّ السماء على طاعة المخلوق، لكن الكرامة خاصةٌ بالولي لا ينبغي أن يتاجر بها، ولا أن يُتحدَّى بها، ولا أن تُنشر، لأن كل الناس بإمكانهم أن يكذِّبوها، ولا يستطيعون تصديقها إلا أن تكون بنصٍّ قطعي الثبوت.

إذاً: قال الله سبحانه وتعالى في الآية الثالثة والعشرين:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا)

3 - بِآيَاتِنَا

بآياتنا، يمسك العصا، فإذا هي ثعبانٌ مبين، ينزع يده، فإذا هي بيضاء للناظرين، هذه معجزات، ولكن الله سبحانه وتعالى كرّم أمة محمد صلى الله عليه وسلّم بمعجزةٍ مستمرّة، المعجزات السابقات معجزاتٌ حسيّة، أيْ أنّها تقع وتنتهي، كعود الثقاب يتألّق ثمّ ينطفئ، ويصبح خبراً يصدِّقه مصدِّق، ويكذِّبه مكذِّب، لكن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام معجزةٌ عقليّةٌ بيانيّة منذ أن بُعِثْ وإلى يوم القيامة، كلّما تقدّم العلم كشف عن جانبٍ من إعجاز القُرآن العلمي، القرآن معجزةٌ مستمرّة تؤكِّد للبشر جميعاً أنه كلام الله، وأن هذا الذي جاء به هو رسول الله.

إذاً:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ(23)إِلَى فِرْعَوْنَ)

الآيات العلامات، العلامات الدالّة على أنه رسول، فأن تصبح العصا ثعباناً مبيناً هذه آية، وأن ينزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين هذه آية، وأي دليلٍ، وأي علامةٍ على صدق نبوّة النبي هي آيةٌ من الآيات.

أنواع الآيات:

وتعلمون أن الآياتِ أنواعٌ ثلاث: آياتٌ قرآنيّة تدلُّ على أن هذا القرآن كلام الله من خلال الإعجاز، وآياتٌ كونيّة تدلُّ على أن هذا الخلق خلق الله عزّ وجل، وآياتٌ تكوينيّة هي أفعال الله عزّ وجل، نحن دائماً مبهورون بآيات الله، فتارةً الآيات كونيّة، وتارةً تكوينيّة، وأخرى قرآنيّة، ولذلك ما حجّتنا في عدم توجُّهنا إلى الله ؟

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)

(سورة البقرة: من الآية 282)

الله جلّ جلاله يعلِمنا من خلال آيات الكون، ويعلِمنا من خلال آيات القرآن، ويعلِمنا من خلال أفعاله التكوينيّة.

إذاً: معنى الآيات هنا العلامات الدالّة على نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

4 - وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ

لابد من العلم:

السلطان المبين الحُجّة، فالله عزّ وجل أكرم الإنسان بالعقل، والعقل غذاؤه العلم، والعلم أحياناً يغذّي العقل، ويضعه أمام مسؤولياته، لذلك إذا تعلّم الإنسان، فكلّما ازداد علماً ازداد صلاحاً، كلّما ازداد علماً ازداد قرباً، كلّما ازداد علماً ازداد انضباطاً، كلّما ازداد علماً ازداد رُقياً، كلّما ازداد علماً ازداد سموّاً، العلمُ أساسٌ في كل شيء، **" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ".**

فسيدنا موسى إضافةً إلى الآيات التي أيّده الله بها، والتي هي معجزات، فلو أنه نزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين، ولو أنه ألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين، ثم تكلّم موسى، إضافةً إلى هذه الآيات الحسيّة كان له حجّةٌ قويّة، وكان واثقًا، وهو يتكلّم، لذلك قال تعالى:

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 82)

وما من مؤمنٍ إلا ومعه حُجّة، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلّمه.

الإنسان يتصل بالله عزّ وجل، يتعرّف إلى كتاب الله، يدقّق في آيات الكون، ثمّ لا يكون معه حجّة قاطعة مقنعة للأشخاص التائهين ؟!! فهذا لا يصحُّ أبداً، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلّمه.

لذلك أيها الأخ الكريم لا تكن عابداً فحسب، بل كن عالماً، كن عابداً عالماً، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي]

العابد مقاومته هشّة، سريعاً ما ينتكس، سريعاً ما يتراجع، لضغطٍ طفيف يترك دينه، لإغراءٍ قليل ينساق مع شهواته، لكن العالِم لو أن الناس جميعاً كفروا لا يكفُر، لو أن الناس جميعاً أشركوا لا يشرك، لو أن الناس جميعاً ضعفوا لا يضعف.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران: من الآية 146)

لذلك أيها الأخ الكريم العلم سلاح، قال الإمام عليٌ كرّم الله وجهه: **<< يا بني العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرُسُكَ وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدَهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة >>**، والمثل بين أيديكم.

مرّة قلت لطلابي: من يأتيني باسم غني عاش في دمشق عام ألفٍ وثمانمائة وثلاثٍ وستين، وله مني علامةٌ تامّة ؟ فكّروا مليّاً، فلم يفلحوا في الإجابة، قلت لهم: وأنا لا أعرف، لكن من منّا ينسى الإمام الشافعي، الإمام أبا حنيفة، سيدنا عمر، سيدنا صلاح الدين، هؤلاء الذين قدّموا علماً، أو قدّموا جهاداً، أو قدّموا قيادةً ؟ لذلك المال يذهب **" مات خزّان المال وهم أحياء لكن والعلماء باقون ما بقي الدهر "**، من هم العلماء ؟ أنتم ينبغي أن تكونوا علماء.

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

القضيّةُ في منتهى البساطة، فليس في الإسلام كهنوت أبداً، وليس فيه طبقة رجال دين، ليس فيه إلا مؤمن ومسلم، فإذا قرأت القرآن، ووعيت القرآن، وطبّقت القرآن فأنت وليٌ لله عزّ وجل.

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

تعرّف إلى الله، واستقم على أمره، وانتهى الأمر، القضيّة في منتهى البساطة، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ:

((قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[الترمذي]

الإسلام فيه شيئان: فيه معرفة، وفيه تطبيق، فيه عقيدة، وفيه سلوك، فيه إيمان وفيه عمل، والله عزّ وجل قرن الإيمان والعمل الصالح في أكثر من مئتي آية.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة البروج: من الآية 11)

الدين لا يحتاج إلى تعقيد، نحن عقّدناه، الدين بسيط، فهو دين الله، ولأن هذا الدين لكل الناس قاطبةً، يكفي أن تؤمن بالله عزّ وجل خالقاً، ومربيّاً، ومسيّراً، موجوداً، حكيماً، واحداً، عليماً، قوياً، قديراً، وهذا أمره بين يديك، هذا القرآن وتلك السُنّة، وهذه الأحكام الفقهيّة، فلذلك الولاية في متناول كل إنسان، وكل إنسانٍ مكلّفٌ أن يكون ولياً لله، أجل، مكلّف.

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62))

(سورة يونس)

(لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

مما سيأتي

(وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

عما مضى، فهي آيةٌ تغطِّي الماضي والمستقبل، لا خوفٌ عليهم من المستقبل لأن الله ناصرهم، وهو آخذٌ بيدهم كلّما تعثّروا، وإذا توفّاهم الله فإلى جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، ولا هم يحزنون على الدنيا الفانية التي.

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي عن سَهْل بْن سَعْدٍ]

هيّنةٌ على الله، مشى النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فرأوا شاةً ميّتة، فعَنْ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ الرَّكْبِ الَّذِينَ وَقَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّخْلَةِ الْمَيِّتَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا حِينَ أَلْقَوْهَا ؟ قَالُوا: مِنْ هَوَانِهَا أَلْقَوْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَالدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

[سنن الترمذي]

ألقوها في الطريق، لا قيمة لها إطلاقاً، لا ثمن لها.

هل لك علمٌ تقف به أمام التحديات والشهوات:

إذاً: السلطان المبين العلم، والسؤال هو: هل معك دليل يقف كالطود الشامخ أمام ملحدٍ، أو أمام فاجرٍ، أو أمام مشكِّكٍ على أن الله موجود ؟ هل معك دليل ؟ أيْ هل فكّرت في الكون ؟ هل فكّرت في خلقك ؟ هل فكّرت في طعامك ؟ هل فكّرت في شرابك، هل فكرت في ظاهرة النبات ؟ هل فكرت في المخلوقات التي خلقها الله عزّ وجل ؟ هل فكرت في أطيار السماء ؟ هل فكرت في أسماك البحار ؟ هل فكرت في هذا الهواء اللطيف ؟ في هذا الماء العذب السلسبيل ؟

معك دليل على أن الله موجود، وأنه واحد لا شريك له، وأنه كامل له الأسماء الحسنى ؟ هذا الإيمان، أما إيمان العجائب أي المعجزات الحسية، فهذا الإيمان إذا صلح في زمن ما، فالآن لا يصلح لكثرة الشهوات، وكثرة الضلالات، وكثرة الشُبهات، وكثرة المبادئ الهدّامة، وكثرة الفِتَن، وكثرة الانحرافات، فالآن لا يصمد إلا الإيمان القوي، لأن الشهوات كثيرة جداً، وهي كلُّها مستعرة، والفتن يقظة،

والطرقات كلُّها موبوءة، والمداخيل كلُّها مشبوهة، والانحرافات كلها على أشدُّها، من الذي يصمد في هذا الزمان ؟ فعليكم بالإيمان وعضوا عليه بالنواجذ تفضوا إلى النعيم الدائم.

إذاً: السلطان المبين هو العلم، ولكن هل من الممكن لك أن تتعلّم من دون مجلس علم ؟ هل من الممكن يقول إنسان: أنا طبيب، وهو لم يدخل الجامعة أبداً ؟ فالعلم إذًا من أجل أن تستقيم، من أجل أن تعرف الحق من الباطل، من أجل أن تعرف الخير من الشر، من أجل أن تعرف الحلال من الحرام، من أجل أن تعرف الخير من الشر لابدّ من أن تعلم، والعلم يحتاج إلى وقت، لذلك أنا أعْتَبُ على أخ قبل عملاً، وألغى كل وقت فراغه، هذا العمل خسارةٌ كبيرة، العمل الذي لا يسمح لك أن تطلب العلم هذا ليس عملاً، هذا استعباد، كيف تتعرّف إلى الله، إذا خرجت قبل الشمس وعدت بعد منتصف الليل ؟ أين أولادك ؟ وأين زوجتك ؟ وأين طلب العلم ؟ وأين مهمّتك في الحياة ؟

أيها الإخوة الأكارم، لا ينبغي للأعمال أن تمتصّ كل وقتنا، لا ينبغي لأعمالنا أن تأكلنا، وأن تستهلكنا، وأن تلقينا فتاتاً بعد أن نُستهلك، انظر إلى إنسانٍ استهلكه العمل حتّى قارب الموت، ماذا لديه من رصيد؟ عندئذٍ يتحسّر على هذه الأيام الطويلة التي أمضاها في جمع الدرهم والدينار، الإنسان يغادر الدنيا، وليس معه شيء، هكذا شاءت حكمة الله عزّ وجل أن نغادرها كما دخلناها حفاةً عُراةً.

إذاً ما من أخ كريم إلا وينبغي أن يكون له مَشْرَب، مشربٌ يشرب منه، منهلٌ ينهل منه، مصدرٌ يتعلّم منه، وليكن مصدرًا موثوقًا تتعلم منه أمر دينك.

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((يا ابن عمر، دينك، دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

وجودك، مصيرك الأبدي متوقِف على فهمك لكلام الله عزّ وجل، سعادتك في البيت أساسها المعرفة، توفيقك في التجارة أساسه الاستقامة، فالإنسان مهما كان ذكياً، مهما كان خبيراً يُؤتَ الحذِر من مأمنه، لا ينفع حَذَرٌ من قدر ولكن ينفع الدعاء، لذلك من أجل أن تسعد في بيتك، ومن أجل أن تنجح في عملك، ومن أجل أن تطمئنّ نفسك، ومن أجل أن تجد ذاتك، من أجل أن تعرف الحق من الباطل، والخير من الشر، والحلال من الحرام لابدّ من طلب العلم.

فالأنبياء معهم سلطانٌ مبين، وأنت هل معك سلطان مبين ؟ لا أقول لك على مستوى الأنبياء، ولكن أليس لك نصيب من هذه الآية ؟ معك حجّة ؟ لو أن صاحب بدعةٍ ناقشك، أو صاحب شبهةٍ أفحمك هل معك الحجّة ؟ هل أنت مطمئنٌ إلى ما أنت معتقدٌ به ؟ هل أنت مطمئنٌ وموقنٌ بأنه لابدّ من جنّةٍ أو نار ؟

لابدّ من حياةٍ أبديّةٍ فيها نعيمٌ أو شقاء ؟ هل تعلم أن الإنسان بلا منهج لا قيمة له ؟ وأن الله عزّ وجل حينما قال:

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4))

(سورة الرحمن)

قدّم تعليم القرآن على خلق الإنسان ليشعرنا بأن الإنسان لا قيمة لوجوده بلا منهج لا أحد يسعد بلا منهج إلا الدابّة، أما المؤمن فسعادته معرفة الحلال والحرام، علم ما يجوز وعلم ما لا يجوز، شيء مستحب وشيء مكروه، شيء مندوب وشيء مكروه كراهية تحريميّة، فالإنسان بلا منهج إنسان ضائع، حتى لو جعل مبدأ اللذّة مبدأ له، ينقلب مبدأ اللذّة إلى مبدأ للشقاء، وهؤلاء الذين أطلقوا لشهواتهم العنان أين هم ؟ في النهاية ينتحرون، الإنسان لو تبع شهوته إلى أقصاها يشعر بتفاهته، لكن لا يحس بقيمته الإنسانيّة إلا إذا عرف ربّه، عندما يعرف الإنسان ربنا عزّ وجل، ورفعنا لك ذكرك، لكنه قد يكون إنسانًا تافهًا، سخيفًا، في هامش الحياة فإذا استقام على أمر الله، وأقبل عليه، وتعرّف إليه رفع الله مكانته، وجعله علماً من أعلام الدنيا، جعله شخصيّةً مرموقة تهفو إليها القلوب، أليس هذا حاجةً أساسيّةً عند الإنسان ؟ أن يكون ذا أهميّة، أن يشعر بقيمته في مجتمعه، هناك من يشعر بقيمته من خلال البطولات، وهناك من يؤكِّد ذاته من خلال التجاوزات، المؤمن من خلال البطولات ؛ أما غير المؤمن من خلال التجاوزات، قال:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ(23)إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ)

إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ

فرعون معروف، قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

ادّعى الألوهيّة، وأمر الناس أن يعبدوه من دون الله، وهامان هو المنتفع الأول من فرعون، فالمنتفع يحاسَب كما يُحاسَب الأول، وفي أكثر الآيات ذُكِرَ هامان مع فرعون، ما دام قد انتفع من فرعون فليلقَ نفس المصير، ما دام قد انتفع مع فرعون فعليه من وزر فرعون.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ(23)إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ)

قارون ليس له علاقة، قارون أحد كبار الأغنياء في عصر فرعون، لكن الإنسان إذا أراد الدنيا، وأرادها من طريق المال، طبعاً حريّته كما يراها في اقتناص المال ؛ فالشهوات تتناقض مع المَنْهَج الإلهي، لذلك تجد الأقوياء والأغنياء غير المؤمنين هؤلاء كتلةٌ واحدة، طبعاً الأغنياء أحياناً يفجرون،

لكن الغني المؤمن هو المثل الأعلى للغنى في مجتمعه، فالغنى ربّما كان قوّةً للمؤمن، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْمُؤْمِنُ الْقوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضّعِيفِ))

[مسلم]

إذا اللهُ عزّ وجل آتى الإنسان المال، بهذا المال ممكنٌ أن يتقرّب إلى الله، ممكن أن يحل مشكلات كبيرة جداً، ممكن أن يسهم في إسعاد آلاف الأسر، لكن إذا تحدّثنا عن الأغنياء في مجالس العلم فالمقصود بهم الأغنياء غير المؤمنين، المنحازون إلى شهواتهم، الغارقون في ملذّاتهم، الذين إذا أنفقوا المال أنفقوه إسرافاً وتبذيراً ـ فهل يعقل أن يكلِّف عرسٌ خمسةً وعشرين مليونًا في ليلة واحدة، هل هذا معقول ؟ وآلاف الشباب يجرون بحثًا عن غرفةٍ يسكنونها ـ إن أنفقوه أنفَقوه إسرافاً وتبذيراً، وإن أمسكُوه أمسكوه بخلاً وتقصيراً.

أتعجبُ لسلوك الغني غير المؤمن، ينفق مئات الألوف، ألوف الألوف، الملايين على ملذّاته، أما إذا دعي إلى عملٍ صالحٍ قدّم عشر ليرات، إن أنفقوه أنفقوه إسرافاً وتبذيراً، وإن امسكوه أمسكوه بخلاً وتقتيراً.

لذلك قارون في خندق فرعون، فرعون وهامان وقارون في خندقٍ واحد، هذه كتلةٌ تعارض الحق، لأن الحق يتناقض مع شهواتهم، يتناقض مع طموحاتهم الدنيويّة، شيءٌ طبيعيٌ جداً أن يكذِّبوه.

(فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ

فالإنسان بدل أن يصغي إلى الحق ويستوعبه، ويحاكم هذه الحقائق، ويحكم عليها بأنها حقائق، بدل ذلك يقول: هذا كلام فيه سحر، هذا كلام غَيْبِي.

لو عرضت الحق على أهل الدنيا، أو عرضت الحق على الأقوياء أو الأغنياء غير المؤمنين لقالوا عنه قولاً باطلاً، و لكان كلامهم سقطًا سخيفًا، إنه دفاعٌ عن أنفسهم، يتّهمون الحق بأنه سحر كي يتخلّصوا من المسؤوليّة.

(فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

لماذا أثبت الله عزّ وجل تُهَم أعداء أنبيائه في القرآن:

وقد يسأل سائل: لماذا أثبت الله عزّ وجل هذه التُهَم بأنبيائه في القرآن ؟ فالكفار قالوا: ساحرٌ كذّاب، فلماذا أثبت الله في القرآن هذه التهم الموجّهة لأنبيائه، وأصبحت قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ؟ والنبي قالوا عنه: ساحرٌ مجنون، وقالوا عنه: شاعر، وقالوا عنه: كاهن، وقالوا عنه ما قالوا، فلماذا أثبت الله كلامهم في القرآن الكريم ؟

قال بعض العلماء: إنما أثبت هذا الكلام ليكون النبي قدوةً لمن بعده من الدعاة، فإذا عُورِض الإنسان، أو جوبه، أو نوقش، أو انتقص من قدره، أو اتُهم اتهاماتٍ باطلة، له في النبي عليه الصلاة والسلام أسوةٌ حسنة.

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا)

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

لمّا جاءهم موسى بالحق من عندنا.

(قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

1 ـ فرعون يقتل ذكور بني إسرائيل:

لأن فرعون فيما مضى رأى في الرؤيا ـ كما تروي الكتب ـ أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على مُلْكِهِ، لأنه جبّارٌ في الأرض، ولأنه علا علواً كبيراً فأمر بقتل أطفالهم كلهم، أية امرأةٍ من بني إسرائيل لابدّ من أن تحضر ولادتها قابلةٌ تنتمي لفرعون، فإذا كان غلاماً ذبحته ـ وكُتب ضبط بالموضوع: لقد تمّ ذبحه ـ يبدو أن هذا الأمر انتهت فورته، وتراخى، وخفت متابعته مع مرور الزمن، لكن العبرة أن الطفل الذي سيقضي على فرعون ربّاه في قصره، وهذه موعظةٌ كبيرة، الإنسان ضعيف، والإنسان في قبضة الله.

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

ففرعون قتل أبناء بني إسرائيل لئلا تُحقّق الرؤيا، لكن الطفل الذي سيقضي على ملكه ربّاه في قصره، من أجل أن تكون هذه موعظةً بليغةً لنا، فموسى لمّا كبر وأرسله الله إلى فرعون، ودعاه إلى الإيمان بالله.

قال تعالى:

(اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

أعاد الكَرّة، كأن هذا الأمر جُمِّد، ثمّ أُعيد العمل به مرّةً ثانية قال:

(قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ)

2 ـ فرعون يستحيي نساء بني إسرائيل:

وأما النساء من بني إسرائيل فأبقوهُنّ أحياءً للخدمة، هذا معنى استحياء النساء، أن تبقى المرأة حيّةً من أجل أن تُسْهِمَ في خدمة فرعون.

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

وذُيلت الآية أخيرًا تذييلاً بكلمات هي قانون إلهي لا يتبدّل ولا يتغيّر.

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

1 ـ خطة الكفار مآلها الفشل:

مهما رسم الكافر من خطّةٍ، ومهما دَبَّرَ من مؤامرةٍ ليقضي بها على الدين، إن هذه الخطّة سوف تبوء بالفشل، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحمي دينه، وهذا الإسلام العظيم لولا أنه دين الله لكان ينبغي له أن ينقرض من مئات السنين، لكن لأنه دين الله عزّ وجل فلن تستطع قِوى الأرض مجتمعةً أن تقضي عليه، والآن تقريباً قوى الأرض كلها تتجه للقضاء عليه، وأنا أبشّركم أنهم لن يستطيعوا، وأن هذا الدين من عظمته أنه كلّما ضغطوا عليه ازداد قوّةً، والحديث في العالم كله هذه الأيام عن الدين الإسلامي، في القارات الخمس، أرادوا أن يكيدوا له فقوّى الله مكانته في النفوس.

أنت تريد، وأنا أريد، لكن الله يفعل ما يريد، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، ولا يُحَقّقُ من خطط الكفّار إلا بالقدر الذي يتوافق مع خطة الله عزّ وجل.

ربنا عزّ وجل يوظِّف الشر للخير، هذه حقيقة أساسيّة، فهناك إنسان شرير يريد أن يوقع أشدّ الأذى بالآخرين، هذا الإنسان الشرير يسمح له بأن يعبّر عن الشر الذي في نفسه، لكن هذا الشر الذي في نفسه

يوظِّفه الله للخير، لذلك الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه، **" إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني "**، وأوضح آية:

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

يعني أنه وظّف شر فرعون.

(سورة القصص)

إذا قوّى الله الكافرَ على المؤمن، فذلك من أجل أن يقوي إيمان المؤمن، وأن يرقى به إلى مستوى رفيع، هذا قانون، لذلك اطمئنوا.

قال تعالى:

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلّا فِي ضَلَالٍ)

أيْ أنّ كيدهم لا يُحقّق غاياته، ويضل عن هدفه، لو أنك أطلقت سهماً على هدف، فانحرف هذا السهم ولم يصب الهدف، نقول: ضلّ السهم، فكأن كيدهم سهمٌ أخطأ الهدف.

2 - إِنّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلّا فِي ضَلَالٍ)

(إِنّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(15)وَأَكِيدُ كَيْدًا(16)فَمَهّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا(17))

(سورة الطارق)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

خطط محكمة منسّقة، قوى لا نهاية لها، كلها من أجل أن تقضي على الإسلام.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

هنيئاً لمن كان مع الله، هنيئاً لمن كان مع المؤمنين، هنيئاً لمن كان مع الحق، والويل لأعداء الدين، لا لشيء إلا لأن الله جلّ جلاله سوف يمحقهم.

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

(أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79)وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا(80)وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

لكن أيها الإخوة، ادعوا الله عزّ وجل أن يقوّينا على أنفسنا، حتّى نستحقّ أن ينصرنا على أعدائنا، لأن الله عزّ وجل يقول:

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد: من الآية 7)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(47))

(سورة الروم)

كونوا مؤمنين، وانتظروا نصر الله عزّ وجل، كونوا كما يريد الله عزّ وجل ليكون الله لكم كما تريدون.

"عبدي، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثمّ لا يكون إلا ما أريد".

إذاً: هذه الآية مُطمئِنة:

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

احفظ هذه الآية:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(15)وَأَكِيدُ كَيْدًا(16)فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا(17))

(سورة الطارق)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ)

جرأة فرعون على الله ورسله:

يبدو أنّ مَنْ حول فرعون نصحوه بألاّ يقتله، لعلّه رسول، ولعلّه يدعو ربّه، فيأتيك عذابٌ يا فرعون، قال: أنا لا أخاف.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ)

ففرعون ادّعى أنه إله، وقال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

وأمرهم أن يعبدوه، فهذا موسى سينغِّص عليه هذه الدعوى، فيشتِّت الناس عنه، لذلك قال:

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

1 ـ الفساد بمنظور فرعون:

الفساد في نظر فرعون أن ينصرف الناس عنه، إذا انصرف الناس عن عبادته فهذا هو الفساد.

2 ـ كيف يتغطرس الإنسان وهو ضعيف في قبضة الله:

طبعاً الكافر لا يرى الله عزّ وجل، لا يرى أنه في قبضة الله، يرى نفسه أنه قوي، وكلّما تعمّق الإنسان في العِلم شعر بضعفه، وشعر بافتقاره، وشعر أنه في قبضة الله، وشعر أنه عبدٌ ضعيف، هذا الذي يقول: أنا، هل علم هذا الإنسان أن خثرةً صغيرةً صغيرة من الدم لو تجمّدت في إحدى أوعية الرأس لشُلّت حركته، أو لأصيب بالعمى، أو لاختلّ توازنه، أو لذهبت ذاكرته، كيف يقول الإنسان: أنا، وهو ضعيف ؟

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

فكل إنسان يتفلسف أحياناً، حتى لو كان على باطل، حتى لو كان ضالاً مُضِلاً، حتى لو ادّعى الألوهيّة يتفلسف، يقول:

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ)

3 ـ الإنسان يفلسف كفره وفلسفته:

الإنسان منطقي، واللهُ أعطى الإنسان فكرًا ليتعرّف به إلى الله، لكنه ينحرف و يكفر، فإذا كفر بالله يستخدم فكره ليفلسف كفره، فإذا أراد الإنسان أن يكفُر أو أن يشرك، استخدم الفكر نفسه الذي هو أداة لمعرفة الله، استخدمه استخدامًا آخر لغير ما خُلِق له، استخدمه للبحث عن حججٍ واهيةٍ لكفره وفِسْقِهِ، وهذا معنى المجادلة التي وردت في القرآن الكريم.

(وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا(54))

(سورة الكهف)

مرّة قلت لكم: آلة تصوير ملوّنة غالية جداً، يمكن أن تستخدم استخداماً جيداً فيغتني صاحبها اغتناءً كبيراً، ويمكن أن يستخدمها لتزوير العملة فتنتهي به إلى السجن، والآلة واحدة، إن استخدمها في المخطّطات والتصميمات، لمع نجمه في سماء البلدة فاغتنى واشتهر ؛ أما إذا استخدمها لتزوير العملة، وكُشِفَ أمره ألقي في غياهب السجن، عن طريق هذه الآلة الواحدة الملوّنة.

وكذلك الفكر يمكن أن ترقى به، فتتعرّف إلى الله من خلاله، وتزداد به قرباً وله طاعةً، فتسعد وتسعِد، وإما أن يستخدم الفكر نفسه لفلسفة الشرك، والكفر، والنفاق، فيكون الفكر سبباً لهلاك الإنسان.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

إذاً: الكافر، أو مدعي الألوهيّة، أو المشرك كل منهم يتفلسف، ويقول لك: أنا على حق، وهذه مبادئ، وهذا تقدُّم، وهذه إنسانيّة، وهذه مبادئ العدل، وهذه قيم، وهذه مُعْطَيَات، وهذه بيئة، عنده فلسفة لكنها فلسفة باطلة، لأن الله عزّ وجل يقول:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ)

(سورة يونس: من الآية 32)

فلا يوجد إلا حق واحد، إن لم تكن مع الحق فأنت مع الضلال، إذا لم تكن أفكار الإنسان ومعتقداته وتصوُّراته وفق القرآن فهو ضال، قولاً واحداً بكل تأكيد، بالحجّة الدامغة، ليس مِنْ حلٍّ وسط، إمّا أن تكون مع الحق، وإما أن يكون الإنسان ضالاً، فإذا دعا إلى ضلاله صار مضلاً، فهذا إذًا إمّا أن يكون ضالاً أو مضلاً، فاسدًا مفسدًا، فليس هناك مبدأ آخر، فالله واحد، والحق واحد، والقرآن واحد، والدين واحد، والمبادئ واحدة، أما إذا اعتنق أفكارًا ليست في كتاب الله فهي ضلال قولاً واحداً.

والمؤمن إذا هُدِّد، وإذا تآمر عليه المتآمرون، وإذا توعّده المتوعِّدون ليس له إلا الله، يا رب ليس لي إلا أنت، أنت قصدي، إني مغلوبٌ فانتصر، أحد الملوك الصالحين وهو نور الدين الشهيد، الذي أجرى الله على يديه النصر، سجد لله عزّ وجل وقال كلمةً لولا أنها وردت عنه لما كنت أقولها لكم، قال له: **" يا رب من هو نور الدين الكلب حتّى تنصره ؟ انصر دينك "** أنا لا شيء، انصر دينك يا رب، إني مغلوبٌ فانتصر، فانتصر لدينك ـ والله سبحانه وتعالى أجرى على يده النصر المؤزّر، نصراً عزيزاً، فالمؤمن ليس له إلا الله عزّ وجل إذا كان ضعيفًا مستضعفًا، وأعداؤه أقوياء وتوعّدوه، وهدّدوه.

(ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

ماذا يفعل سيدنا موسى ؟

(وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)

الطاغية المتكبر لا يؤمن باليوم الآخر:

لو أن الإنسان آمن بيوم الحساب لاستقام على أمر الله، من المستحيل أن تجد إنسانًا يؤمن أن بعد الموت حياةً أبديّة، وأن الله سبحانه وتعالى لابدّ من أن يحاسبه، ثمّ لا يستقيم على أمر الله ؟! فهذا شيء مستحيل ـ ذكرت هذا كثيراً في هذه الدروس: أنت إزاءَ شرطي لا يمكن أن تخالف أمره إذا أيقنت أنه يراك وسيحاسبك، إزاءَ إنسان من أضعف الناس لن تخالف أمره، إذا أيقنت أنه يعلم وسيحاسب ـ إذا أيقنت أن الله يعلم، وسيحاسب لا يمكن أن تعصيه، لذلك:

(وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)

لذلك فالطغاة دائماً مُلْحِدون، لا يمكن يكون طاغية كفرعون مؤمنًا، لو آمن لاستقام، إنسان ضعيف وأمامه قوي فهل يتحداه ؟ يكون أحمق، ويكون مجنونًا، لكن لأنه لم يؤمن بالله أصلاً، ولم يؤمن بالآخرة إطلاقاً تراه متكبّراً متجبّراً، بَطّاشاً قهّاراً.

خاتمة:

بقيت قصّةٌ مهمّةٌ جداً أرجئُها إلى الدرس القادم، هي قصّة مؤمنٍ منْ آلِ فرعون، وله كلامٌ أيها الإخوة ـ هذا الرجل من آل فرعون ـ لم يؤمن بموسى عليه السلام من آل فرعون إلا زوجة فرعون ومؤمن آل فرعون، وهذا المؤمن له كلماتٌ هي منهجٌ في الدعوة إلى الله، أجل منهج.

إن شاء الله تعالى في الدرس القادم نقف عند كلماته مليّاً، ونحاول شرحها بتوفيق الله عزّ وجل، وجعلها قواعد في الدعوة إلى الله، وقف الموقف الحكيم من فرعون وآله، وأبلغهم الحق بطريقةٍ مُثْلى، فلعلّ الله سبحانه وتعالى ينفعنا بها في الدرس القادم.

في الدرس القادم إذاً قصّة رجلٍ مؤمنٍ من آل فرعون يكتم إيمانه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (09-20): تفسير الآية 28
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-08-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة غافر، ومع الآية الثامنة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

دلالات من الآية:

في هذه الآية أيها الإخوة دلالاتٌ كثيرة:

1 - وَقَالَ رَجُلٌ

أول شيءٍ فيها هو أن الله جلّ جلاله قال:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ)

فكلمة رجل جاءت نكرة، مَن هو الرجل ؟ ما اسم هذا الرجل ؟ ما نسبُ هذا الرجل ؟ ما علاقة هذا الرجل بفرعون ؟ إلى من ينتمي ؟ ما شأنه ؟ ما صِفَتُهُ ؟ كل هذا أغفله الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة، لذلك من العبث أن يتجه الإنسان ليتعرف إلى اسم هذا الرجل، فشيءٌ أغفله الله لماذا تبحث أنت عنه ؟

2 - القصة القرآنية للعبرة لا للتفاصيل والأحداث:

الشيء الذي أريد أن يكون واضحاً لديكم هو أن الله سبحانه وتعالى إذا ذكر قصةً في القرآن لا يريد أن تكون قصة، لو أرادها قصة لذكر أسماء الشخصيّات، وذكر التفاصيل، وذكر الجُزْئِيّات، وذكر ملامح البيئة لو أرادها أن تكون قصة، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا ذكر قصة في القرآن الكريم يريد أن تكون قانوناً، يريد أن تكون شخصيةً نموذجية تتكرر، ولو أنا توهّمنا أنها قصةٌ إذاً فهي وقعت ولن تتكرر، الله جلّ جلاله يريد أن نؤمن أن هذا نموذجٌ بشري لا بد أن يتكرر، رجل غيور، رجل ينطلق من سلبيةٍ إلى

إيجابية، رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، رجل يتكلم بحكمةٍ بالغة لا يلقي الكلام على عواهِنه، ينبغي أن تكونوا كذلك.

ربنا جل جلاله يرسم لنا من خلال هذه القصة نموذج المؤمن الصادق، نموذجَ المؤمن الغيور، نموذجَ المؤمن الناطق بالحق، نموذجَ المؤمن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، نموذجَ المؤمن الذي يخرج من قوقعته، ومن سلبيّته، هذا النموذج ما رسمه الله عزّ وجل في هذه السورة، وفي هذه القصة إلا ليكون نموذجاً يحتذى.

القرآن كتاب هداية، وليس كتاب تاريخ، كتاب هُدى، كتاب تربية.

إذاً: من كلمة رجل نفهم أن الله سبحانه وتعالى حينما أغفل اسم هذا الرجل، ونسب هذا الرجل، وشأن هذا الرجل، وعلاقة هذا الرجل بفرعون حينما أغفل اسمه، وأغفل الجزئيات والتفاصيل، وجعل اسمه نكرةً أرادنا أن نَتَّجِهَ في فهمنا لهذه القصة إلى أن مؤمن فرعون نموذج للمؤمنين ينبغي أن يتكرر، ينبغي أن يكون في كل مجتمعٍ مؤمنُ آل فرعون، أو ما يشبه مؤمنَ آل فرعون.

3 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفريضة السادسة:

هذا ينقلنا إلى موضوعٍ دقيق هو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسميه بعض العلماء الفريضة السادسة.

إذا كانت شهادة لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول الله، وأن الصلاة والزكاة، والحج، والصيام هي فرائض الإسلام، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضةٌ سادسة، والدليل قال تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران: من الآية 104)

اللام لام الأمر، ولام الأمر إذا جاءت مع الفعل المضارع انقلب الفعل المضارع إلى أمر، إذا قلت لشخص: لتأكلْ أو كُلْ، فهما بمعنى واحد، فعل الأمر معروفةٌ صيغتُهُ، أما إذا جاءت لام الأمر مع الفعل المُضارع انقلب إلى فعل أمر، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران: الآية 104)

ولماذا أهلك الله بعض الأقوام إهلاك استئصال ؟ قال تعالى:

(كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة: من الآية 79)

لأننا إذا تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوي الباطل وانكمش الحق، إلى أن يتلاشى الحق، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمانٌ لاستمرار الحق. لذلك في القرآن الكريم:

(وَالْعَصْرِ(1) إِنّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2) إِلا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ(3))

(سورة العصر)

أيْ أنّ الأمر بالمعروف، والدعوة إلى الله توازي الإيمان، أنت مؤمن، إذاً ينبغي أن تدعو إلى الله، أنت مؤمن ينبغي أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر، مؤمن سلبي مستحيل الوجود، لمجرد أن تؤمن لا تستطيع إلا أن تنشُر الخير، إذا انطلقت إلى فعل الخير وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه علامةٌ على أنك مؤمن بحق، أما إذا قلت: أنا مؤمن: ولكن لا دخل لي بالناس، فهذا ادِّعاء بأنك مؤمن.

يروى أن الله سبحانه وتعالى أرسل الملائكة لإهلاك قريةٍ، فقالت الملائكة: يا رب إن فيها رجلاً صالحاً!! قال: به فابدؤوا عجيب لماذا ؟ قال: لأنه كان إذا رأى المنكر لا يتمعر وجهه.

ابنة أخيك تزورك، وترتدي ثياباً فاضحة وتسكت ؟! هذا شأنها، أنا لا أحب أن أتدخل بشؤونها الخاصة:

(كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة: من الآية 79)

لذلك عدم الأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر أحد أسباب هلاك الاستئصال، يؤكد هذا المعنى أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا)

(سورة هود)

لم يقل: صالحون، بل قال:

(مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

وشتانَ بين الصالحين وبين المُصلحين، الصالح لذاته، إنسان صالح، أما المصلح فينطلق لإصلاح غيره، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

إذاً: الحق لا يستمر إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحق لا يستمر إلا بالتواصي بالحق، فالإنسان بمجرد أن ينسحب من المجتمع، وأن يكون صالحاً لذاته ؛ أن يصلي ويصوم، وألاّ يتكلم بكلمة لإصلاح ذات البين، أو لإصلاح المسلمين، أو لإصلاح المؤمنين، لا يغضب لوقوع المنكرات، ما الذي

يحصل ؟ تتسع دائرة المُنكر، وتنكمش دائرة الحق، أما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما الذي يحصل ؟ تتسع دائرة الحق، وتنكمش دائرة الباطل.

حينما قال الله عزّ وجل:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ)

إذاً: تنكير كلمة رجل تعني أن الله سبحانه وتعالى أراد من هذه القصة أن تكون نموذجاً بشرياً موجوداً في كل مجتمعٍ مسلم، لأن قصص القرآن لا ينبغي أن تكون تاريخاً، ولكن ينبغي أن تكون نماذج نهتدي بها، ونتأسى بها.

4 ـ مؤمن:

أما كلمة (مؤمن)، رجل مؤمن هذا لَقَب، يقولون لك: فلان مُنِح لقب الدكتوراه، كلمة دكتور تعني عند الناس جميعاً أنه إنسان يحمل شهادة عُليا، وتعني عند الناس جميعاً أنه إنسان متفوق، وتعني عند الناس جميعاً أنه أمضى سنواتٍ طويلة في طلب العلم.

إذا كان لقب دكتور لا ينال إلا بجهدٍ جهيد، ووقتٍ مديد، وعقلٍ رشيد، أتقبل أن يسمى الإنسان مؤمناً دون أن يطلب العلم ؟ أتقبل أن يسمّى الإنسان مؤمناً دون أن ينضبط بالأمر والنهي ؟ القضية ليست متوقفة على تسميتنا، فكل إنسان له أن يقول ما يشاء، ولكن العبرة أن تكون عند الله مؤمناً، أن تكون في مقاييس الدين مؤمناً.

هل يكون في الناس مؤمن ويغتاب، مؤمن يطلق بصره في الحرام، مؤمن يكسب مالاً حراماً، مؤمن يقدم الظواهر ويخفي البواطن، مؤمن علانيته لا كسريرته، جلوته لا كخلوته، هذا ليس مؤمناً، البطولة أن تكون مؤمناً وفق مقاييس القرآن.

(أَلا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62) الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ(63))

(سورة يونس)

مؤمن عند مَن ؟ ينبغي أن تكون مؤمناً عند الله بمقياس القرآن، لكن لو رأيت بيوت الله عزّ وجل مفعمةً بالمصلين ـ والله شيء جميل، بل جميل جداً، وهذه بادرة طيبة تثلج الصدر ـ ولكن إذا دخلت إلى بيوت هؤلاء روّاد المساجد لا تجد قواعد الدين متأصلةً في هذا البيت، أصوات الغناء تصدح في هذه البيوت، أجهزة اللهو تنطلق بأعلى أصواتها وأبهى صورها، نساء هذا البيت لسنَ ملتزمات بأمر الله وأمر رسوله، فهل هذا مؤمن ؟

مؤمن أي أنّه عرف الله، وعرف منهج الله، وطبّق منهج الله، هذا هو المؤمن، فلذلك كلمة مؤمن ـ انتبه ـ إذا وصفت نفسك بأنك مؤمن فهذا لقب من أرقى الألقاب، فكلمة دكتور قد لا ينجو من عذاب الله، لكن

مؤمن أي أنه إنسان حقق الغاية من وجوده، إنسان عرف هويّته، عرف ربّه، عرف سر الحياة، عرف سر الوجود، عرف الحقيقة العُظمى، ضبط نفسه وفق قيمٍ معينة، فهذا مؤمن، وهو ناجٍ بإذن الله.

النشاط العقلي والنفسي والسلوكي:

أقول دائما: لا بد لك من نشاطٍ عقلي، ونشاط نفسي، ونشاطٍ سلوكي، فالنشاط العقلي يعني أن هذا العقل غذاؤه العلم، لا بد من طلب العلم، لا بد من تفكرٍ في خلق السماوات والأرض، لا بد من نظرٍ في أفعال الله عزّ وجل، لا بد من تلاوةِ القرآن، لا بد من فهمه، إنه كتابنا الأول، هذا جانب عقلي.

الجانب النفسي: لا بد من ذكر الله.

(أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(28))

(سورة الرعد)

الجانب السلوكي: لا بد من استقامة على أمر الله.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود: من الآية 112)

و الاستقامةُ يقع في أول مضامينها ترك الحرام.

((والله لترك دانقٍ من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام))

[ورد في الأثر]

إذاً: كلمة مؤمن هذه مرتبة رفيعة في الإسلام ؛ مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، المؤمن أيْ أنّه سعيد، فالذي يشكو دائماً فهو ليس مؤمنًا.

المؤمن عرف ربه، عرف أن الأمر كله بيد الله، لأن أفعال الله كلها حكمة، وكلها عدل، وكلها رحمة، عرف أنه:

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[من مسند أحمد عن أبي الدرداء]

هذا هو المؤمن، فالمؤمن موحِّد لا يرى مع الله أحداً، فقبل أن تقول: أنا مؤمن، أو قبل أن تصف إنسانًا بأنه مؤمن تروّ كثيراً، فأنا ألاحظ أن الألقاب توزّع جزافاً، قد يكون الإنسان لا يصلي، أو يصلي، ولكن ليس منضبطاً بأمر الله ونهيه، فتجد أحدهم يصفه قائلاً: هذا إنسان مؤمن، هذا تألٍّ على الله، كلمة مؤمن مرتبةٌ علميةٌ وجماليةٌ وأخلاقية.

المؤمن عالم، وما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلّمه، والمؤمن أخلاقي، فلا غدر، ولا كذب، ولا تدجيل، ولا احتيال، ولا غمز، ولا لمز، لأن هذا كله من سلبيات الحياة، ويتنافى مع الإيمان والأخلاق،

المؤمن سريرته كعلانيّته، باطنه كظاهره، ما بقلبه على لسانه، ما يتكلّم به يعبّر عن قلبه، حياته نظيفة واضحة جليّة، دخله حلال، إنفاقه حلال، جوارحه منضبطة، بيته إسلامي، عمله إسلامي، هذا المؤمن، مرتبة أخلاقية ومرتبة جمالية، **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف "**، لأن الله عزّ وجل يعطي الصحة والمال والذكاء والجمال للكثيرين من خلقه، ولكن يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

هذا مضمون كلمة مؤمن.

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ)

أيْ إذا جَهدتَ ثلاثين عاماً في طلب العلم، وفي طاعة الله، وفي بذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس، إذا أمضيت ثُلُثَيّ عمرك تجاهد نفسك في سبيل الله، ووصلت إلى كلمة مؤمن فأنت الرابح الأول، وأنت الإنسان الفائز الناجح المفلح الذي حقق وجوده، كلمة مؤمن لقب رفيع، لأن مضمونها قيمٌ سامية، ولكن الناس لضعف إيمانهم يلقونها جزافاً وبلا تحفُّظ.

كما قلت في درسٍ سابق: المؤمن إيمانًا قطعيًا بأن الله موجود في السماء وفي الأرض، وأن الله سبحانه وتعالى كاملٌ كمالاً مطلقاً، وأن الله سبحانه وتعالى واحدٌ في ذاته، وفي أفعاله، وفي صفاته، وأن الله يعلم سرّك وجهرك، وأنه سيحاسبك، إن كنت مؤمنًا على هذا النحو فلن تعصي الله عزّ وجل ؟ فإن كنت مؤمنًا ؟! فمستحيل أن ترى المؤمن بوجود الله ووحدانيته وكماله وعلمه وحسابه، ثم ينطلق إلى معصية الله.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

***

قالت امرأةٌ لأبي السائب، وهو من أصحاب رسول الله وقد توفاه الله عزّ وجل، وكان النبي عليه الصلاة والسلام أمامه، قالت له: **"هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله "**، هذا تألٍّ على الله، لو أن النبي سكت لكان كلامها صحيحاً ـ فقال عليه الصلاة والسلام:

((ومن أدراكِ أن الله أكرمه))

قولي: أرجو الله أن يكرمه "، نرجو الله أن نموت مؤمنين، وأن يتوفّانا الله على هذا الدين الحنيف.

الآن أولُ مُرتَكز للآية رجل نكرة، المُرتَكز الثاني مؤمن.

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ)

5 - مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ

فرعون ادعى الألوهية، وقال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى)

فرعون ذبّح أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم، فرعون طغى طغياناً كبيراً وعتا عتواً كبيراً، فرعون.

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4))

(سورة القصص)

لا حُجّة للإنسان بالبيئة:

هؤلاء الذين يقولون: بيئة، معطيات، تأثّر متبادل، هذا يجب أن يكون مع فرعون، لأنه من آل فرعون، ماذا يعني أن يؤمن رجل من آل فرعون ؟ أوضح من ذلك: ماذا يعني أن تكون امرأةٌ كافرةً، وهي زوجة نبي ؟ وماذا يعني أن تكون امرأةٌ مؤمنةٌ كان فعلٌ تام في هذا السياق، أجل أي فعل تام أن تكون امرأةٌ أي أن توجد امرأةٌ مؤمنةٌ عند فرعون، وهي زوجةٌ له ؟ ماذا يعني ذلك ؟ ماذا يعني أن يكون ابن سيدنا نوح كافراً ؟

(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ(43))

(سورة هود)

نبيٌ ابنه كافر، كافرٌ كفراً بواحاً، وفرعون، زوجته مؤمنة، و سيدنا لوط نبي كريم، وامرأته كافرة، قال تعالى:

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلا لِلّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ(10)وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا لِلّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنّةِ وَنَجّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ(11))

(سورة التحريم)

ماذا تعني أن تكون امرأة فرعون مؤمنة، وزوجها الكافر الأكبر ؟ وأن تكون امرأة لوط كافرة وزوجها نبي ؟ وأن يكون ابن سيدنا نوح كافراً وأبوه نبي ؟ وأن يكون رجلٌ من آل فرعون مؤمنًا ؟ ماذا يعني كل هذا ؟ الإنسان مخيّر، لولا أنه مخيّر لبطل الثواب والعقاب، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، لو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، الإنسان مخير،

فمن يقول: هكذا أنا نشأت في بيئة سيِّئة، هكذا أبي علمني، هكذا علمتني والدتي، مجتمعي سيئ فاسد، هذا كلام غير مسموع إطلاقاً، الإنسان ليس منفعلاً، ليس الإنسان ريشة في مهب الريح، ليس الإنسان ماء يُلقى في منحدر ليس له خيار، لا، فإن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلما تنقضه الأيام إذا كان صادراً حقاً عن إرادةٍ وإيمان.

هذا الكلام مُفَاده ألا يحتجَّ أحدٌ أنّ البيئة سيئة، أن أباك لم يربّك، أمّك لم تربّك، العمل سيئ، المعطيات سيّئة، الفساد عَمَّ، الناس فسدوا، هذا كله كلام غير مقبول عند الله.

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

الإنسان مخير، ولا سلطان لأحدٍ عليه حتى الشيطان، فلا يدّع أحدٌ أن فلانًا أضله، وأنّ فلانًا أغواه، لولا أنه ضالٌ في الأصل لما مَكَّنَ الضال من أن يضله، ولولا أنه غاوٍ في الأصل لما مَكَّنَ الغاوي أن يغويه، هذه قاعدة.

إذاً:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

6 ـ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ

أيْ أنّ ربنا عزّ وجل وصف هذا المؤمن بأنه يكتم إيمانه، الإنسان أحياناً يكتم إيمانه لحكمةٍ يراها بالغة، لكن حينما يتناقض كتمان الإيمان مع الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر ينبغي أن تظهر إيمانك، لو أن إنسانًا امتنع عن شرب الخمر بدعوى أن معه قرحة ولا يقدر، أيْ أنّه كتم إيمانه، ولكن لو قال: هذا الشيء محرم، فلعلّ شخصًا ضعيف الإيمان يتهمه عندما يسمع أن هذا محرم، فالإنسان عندما يكتم إيمانه إلى ما لانهاية هذا ضعفٌ في إيمانه.

والدليل أنّ هذا الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه انطلق يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، أيْ خرج من السلبية إلى الإيجابية.

أحياناً قد يكون الإنسان في حالٍ لا داعي معه أن يظهر إيمانه بشكل صارخ، بل لا من أن يكتم ذلك، ولكن حينما يكون الثمن باهظاً يظهر إيمانه، فإنسان يمارس الشعائر بشكل صارخ ليعرف الناس: أنه متديّن، هذا نوع من النفاق، ولكن حينما تنتهك حرمات الله عزّ وجل، حينما يقع الظلم الشديد، ينبغي أن تكون مع الحق، وأن تدافع عن أهل الإيمان، وإلا فما قيمة إيمانك ؟

مثل صارخ: رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، وما أدراكم ما فرعون ؟ ففرعون هذا الذي أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، قتلُ الإنسان عليه سهلٌ جداً، هذا الرجل المؤمن وقف في وجه فرعون، فماذا قال ؟ قال:

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ)

7 - أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ

أيْ تقتلونه، لأنه يقول: ربي الله، فماذا فعل ؟ إن دعوته هذه لا توجب القتل، لم يقتل أحدًا حتى يُقتَل، قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ)

(سورة البقرة: من الآية 179)

أجل، القاتل ؛ يقتل أما أن يقتل الإنسان لأنه قال: ربي الله، فهذا ظلمٌ ما بعده ظلم، لأنه عرف ربه، لأنه أراد أن يستقيم على أمر الله، لأنه أراد أن يحقق وجوده، لأنه أراد أن ينجو من عذاب النار ؟! فلذلك من علامات قيام الساعة كما ورد في بعض الأحاديث:

عن عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ:

((اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنْ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا))

[البخاري]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ، وَلَا يَدْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ))

[مسلم]

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ)

لكن لعل هذه دعوى.

(وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ)

8 - وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ

قال: ربي الله، ومعه الأدلة.

وبشكل ملطّف: أنّ الشاب في بيت أهله يتمنى أن يقيم أمر الله عزّ وجل، فيجد أن الأب يثور عليه، والأم تثور عليه، وإخوته يثورون عليه، وأصهاره كذلك، لكن لماذا ؟ فيقول: هذا محرم بنص القرآن الكريم، معي الدليل، لا يُقبل دليله، لا بد من أن يعيش على نمط هذه الأسرة من اختلاط، وتفلّت حتى يرضى عنه أهله، لذلك شيء مؤلم جداً أنّ الإنسان إذا رغب أن يقيم شرع الله عزّ وجل، وأن يستقيم على أمر الله، تفسّرُ تصرُّفاته تفسيرات بعيدة عن مصدرها فيقال له: تريد أن تفرّق الأسرة، تريد أن تجافي أصهارك، تريد أن تفعل كذا، فهذا حال بعض الأُسَر المسلمة وللأسف، فهم لا يريدون أن يُطبّق الدين، والانتماء عندهم شكلي، إسلام بالهوية.

إذاً: هذا المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه جهر، وقال:

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ)

وهذا هو نفسه الذي قال لسيدنا موسى:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ(20))

(سورة القصص)

(وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ)

المؤمن لا يسير إلا بالدليل:

المؤمن لديه حُجّة، وعنده بيّنة، وله دليل عقلي، كما أن لديه الدليل النقلي، معه دليل فطري، معه دليل واقعي، المؤمن يمشي على هُدى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: من الآية 108)

علامة اتّباعك للنبي عليه الصلاة والسلام أنّك تسير على بَيّنَة، تسير على هدى من الله عزّ وجل، تفعل ومعك الدليل، ولا تفعل ومعك الدليل، تصل ومعك الدليل، تقطع ومعك الدليل، ترضى بالدليل، وتغضب بالدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، فالمؤمن معه حجة، قال تعالى:

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 83)

وكل آيةٍ متعلقةٍ بالأنبياء الكرام لكل مؤمنٍ منها نصيب، هذا النصيب بقدر إيمانه، وقدر إخلاصه، وقدر استقامته.

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ)

9 ـ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ

فأحياناً تقتضي الحكمة أن تبدو موضوعياً، لقد أردف مؤمن آل فرعون قائلاً، وفي قوله موضوعية تامة، قال:

(وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ)

قضية في منتهى الدِقّة، فمثلاً إذا دُعِيتُ إلى الله، دعيتُ إلى طاعة الله، دعيتُ إلى التوبة، فعلى أن أفكر، وأنظر إلى إلامَ ما يدعوني هذا ؟ يدعوني إلى طاعة الله، إلى أن أكون صادقاً، إلى أن أكون مستقيماً، إلى أن أكون نظيفاً عفيفاً، إلى أن أحرر دخلي من الحرام، إلى أن أكون مُحْسِناً، كلها قيم أخلاقية رفيعة، فهذه الدعوة تبدو صحيحة سليمة المضمون فإنْ لم أعبأ بها، فالخسارة كبيرة جداً.

مثلاً: فإذا دعاك إنسان إلى مجلس علم، فإذا حضرت، وسمعت، ووجدت أنّ الكلام غير صحيح، فما خسرت شيئًا، ولا تعُد ثانيةً، أما إذا كانت هناك دعوة طيبة جداً إلى معرفة الله، إلى طاعة الله، ورفضت قبل أن تعرفها فالخسارة كبيرة جداً.

لا ترفض شيئا إلا بعد سماعه والاستدلال له أو عليه:

بشكل أو بآخر، أيعقل أن تأتي لإنسان رسالة، معقولٌ أن يمزقها قبل أن يقرأها ؟ اقرأها يا أخي، اقرأ ما فيها !! فأنا كل عجبي من هؤلاء الذين يرفضون الدين قبل أن يتعرفوا إلى حقائقه من أوامر و نواهٍ، فيقف أحدُهم موقفاً ضد الدين، وهو لا يفقه من الدين شيئاً، ولو عرف حقائق الدين لذابت نفسه تعظيماً له.

هذا موقف في منتهى الحُمْق والغباء، أن يرفض الإنسان الشيء قبل أن يعرفه، يمزق الرسالة قبل أن يقرأها، يرفض دعوة إلى الخير قبل أن يستوعبها، لماذا ؟

أحد شيوخ القبائل في عهد النبي صلى الله عليه و سلم زار مكة المكرمة، فحَذّرَه الكفارُ من النبي عليه الصلاة والسلام، وقالوا: هذا إنسان ساحر يفرّق بين الأخ وأخيه، والزوجة وزوجها، وقد فعل بنا ما فعل، فإيّاك أن تستمع إليه، وإياك أن تزوره، وإياك أن تلتقي به ـ وكان هذا اسمه **" ثمامة "** فيما أذكر الطفيل الدوسي ـ وكان شاعراً أريباً ذكياً فَطِناً، أول الأمر وضع في أذنيه القطن لئلا يسمع كلامه، ثم التقى به، فقال مخاطباً نفسه: يا فلان، إنك رجل لبيب أريب فطن شاعر، استمع إليه أولاً، ميّز بين الحق والباطل، الخير والشر، فلمّا استمع إليه وقع كلامه في قلبه موقعاً لطيفاً فأسلم.

فالموقف المستنكر أن ترفض الشيء قبل أن تَطّلع عليه، أن ترفض الخير قبل أن تستوعبه، أن ترفض دعوةً إلى الله عزّ وجل قبل أن تأخذ نموذجاً عنها، هذا معنى:

(وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ)

أيْ أنتم إذا دعاكم إلى معرفة الله، ودعاكم إلى طاعة الله، ودعاكم إلى الإحسان، دعاكم إلى الخير، فهذه دعوة منطقية، ودعوة إيجابية المضمون، فإن كاذباً في هذه الدعوة فمضمونها جيد، أساساً خذ الحكمة ولا يهمك من أي مكانٍ خرجت.الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها التقطها.

(وَإِنْ يَكُ صَادِقًا)

10 - وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ

وإن كان نبياً فعلاً، ومعه المعجزات، ومعه البيان، ومعه الدليل، فهي إذًا دعوة صحيحة، وهو صادق بهذه الدعوة.

(يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ)

يقولون: إن الإنسان العاقل هو الذي يفعل فعلاً لا يندم عليه أبداً، وكل إنسان يفعل فعلاً يندم عليه هذا نقصٌ في عقله، فإنسان دُعي إلى الله، دعي إلى طاعة الله فليعمل عمله وليُلبِّ الدعوة، فانظر إلى الكافر.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

ندم.

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27))

(سورة الفرقان)

ندم، أكثر الآيات:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)

(سورة المؤمنون)

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

أكثر الآيات التي تصف مآل الكافر تصف حالة الندم التي تلبّس بها، فالعاقل هو الذي يفعل فعلاً لا يندم عليه أبداً، أما إذا تسرّع الإنسان، تسرّع ورد الحق، تسرّع، ولم يعبأ بالحق، ولم يأخذ بإنذار الله عزّ وجل، عندئذٍ لا بد من ساعة الندم.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

11 - إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ

الكذب على النفس:

أحياناً الإنسان يكذب على نفسه.

هناك امرأة تعمل في الفن سُئِلَت عن شعورها، وهي على خشبة المسرح ـ ولكنها صادقة ـ قالت: **" إنه شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الجمهور، إن الحُب يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرفٍ مُغْلَقة "**، هي صادقة، وصدقت، هذه هي الفطرة، فهناك نوع من الكذب ملموس، وهو أن تكذب على نفسك.

قد يزوِّر الإنسان الحقيقة، و يشوِّه الواقع، فيكون متلبِّسًا بالمعصية، ويقول لك: أنا بصفاء وخير، قد يكون دخله حرامًا، ويعطي لعمله السيئ تبريرًا، هو قبل كل شيء يكذب على نفسه، فعلى الإنسان أن يعاهد نفسه على أن يكون صادقاً مع نفسه، ألا يبطن شيئاً، ويظهر شيئاً، اصدقْ مع نفسك، كن صريحاً، هذا الذي تأمر به هل تفعله ؟ إن لم تفعله فأنت كاذب، هذا الذي تتمناه من الناس أن يعاملوك به هل تعاملهم أنت به ؟ إن لم تفعله إذاً فهذا كذب.

كلمة الصدق واسعة جداً، من أبرز معانيها أن تكون مع نفسك صادقاً، فهذا الذي يعتقد أنه لا إله وأفعاله سلبية مرذولة فهو كاذب، لماذا ؟ لأنه يوم القيامة يقول:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23))

قال:

(انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام)

كل الدعوات الباطلة كاذبة، ومن يعتنقها يكذب على نفسه، لكن أحياناً يعتنقها لماذا ؟ ليحقق شهواته، أساساً العقل له دَوْران ؛ إما أن يكون دوره قيادياً يقود النفس إلى الحق، وإما أن يكون دوره تبريرياً، كلما انحَطّت النفس في أتون الشهوة، جاء العقل ليفلسف لهذه النفس انحطاطها.

لذلك إن الفكر الغربي فكر تبريري، فالأصل عندهم أن هذا الإنسان يجب أن يفعل كل الشهوات القذرة التي نهى الله عنها، فدور العقل عنده تبرير لهذا السلوك، فهذا دور قذر للعقل.

الشرع حكَمٌ على العقل:

ذكرت لكم سابقاً أن العقل إما أن ترقى به إلى أعلى عليين، وإما أن تهوي به، فمثلاً آلة ناسخة ملوّنة، هذه غالية الثمن، عظيمة الخطر، يمكن أن يستخدمها إنسان، ويحصِّل منها ثروةً طائلة، وأن يلمع اسمه في سماء الأعمال والأشغال، يأتي آخرُ، ويستخدمها لتزوير العملة، فيلقى في غياهب السجن، إنسان يرقى بها، وإنسان يهوي بها وهي آلةٌ واحدة، كذلك العقل، إما أن يكون قائداً يقودك إلى الحق، وإما أن يكون جهاز تبرير، كلما أكلت مالاً حراماً يأتي العقل، ويفلسف لك ذلك فيقول: يا أخي، هذه بلوى عامة، الله يتوب علينا ـ تجد أن العقل يبرر الأساليب الملتوية ـ فيدّعي قائلاً: أنا عندي أولاد، أو هذا ماله حرام أريد أن أخذه، انظر إلى العقل كيف يفلسف المعصية، إذًا فهذا عقل تبريري، وهذا عقل ساقط متهافت، من هذا قوله تعالى:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20)ثُمَّ نَظَرَ(21)ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(22)ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(23)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(24)إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ(25)سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(26))

(سورة المدثر)

العقل ميزان، ولكن هذا الميزان قد يختلف، ما الشيء الذي يحكُمُهُ ؟ الشرع.

الشرع حكمٌ على العقل، هذه قاعدة، أعمل عقلك في موضوعٍ ما، فإن توصّل إلى نتيجةٍ موافقةٍ للشرع فأنْعِم بهذا العقل، وإن توصل إلى نتيجةٍ تخالف الشرع، فبئس هذا العقل، فالإنسان عقله ميزان، لكن الشرع يحكمه.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

12 ـ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ

معنى كذّاب أيْ دجّال، ومعنى مسرف أسرف على نفسه في المعاصي، فهذا المسرف لا يهديه الله عزّ وجل، وذاك الكذاب لا يهديه الله عزّ وجل، إذا كنت صادقاً مع نفسك، وإذا كنت منضبطاً فأنت أقرب إلى الهُدى من نفسك.

لا زلنا في هذه الآية الثامنة والعشرين:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

الهداية شيء ثمين جداً، سلعة الله غالية، الهداية سلعة الله، السِلع يعني البضاعة، سلعة الله غالية، و الغاية أن يهديك إليه، هذه السلعة ثمنها ألاّ تكون كذّاباً دجالاً، فتقول: أخي الاختلاط يعمل تهذيب للمشاعر. هذا في مقالته دجال، وهذا انحراف، وعن الكذب يقول لك: كذبة بيضاء، دائماً يفلسف

انحرافه، لا، إنه كذّاب، فهذا الذي يفلسِف انحرافه، يفلسف كسبه للمال الحرام، يفلسف علاقاته المشبوهة مع النساء، هذا الذي يفلسف المعصية، يدعو إليها، هذا كذّاب مهين تنكّب سبل الرشاد و الهداية.

أما المشرك فالله عزّ وجل أودع فينا الشهوات، وجعل لكل شهوة قناة نظيفة يمكن أن تسلكها، أودع شهوة المال، وقال: اعملوا، اكسب كسبًا مشروعًا، أودع شهوة النساء، وقال: تزوجوا، أما حينما يسرف الإنسان فيأخذ ما ليس له من المال، أو يعتدي على ما ليس له من العِرض فهذا صار مسرفًا، فكل إنسان يلتوي مع نفسه، ويبيح لها المعاصي والآثام التي تُبْنَى على العدوان على الغير، هذا إنسان ضلّ سُبُلَ الهدى، فإذاً: لا يُهْدَى إلى الحق، ولن يرى في خير صوابًا أبدًا، لقد طمس نور الفطرة في نفسه و تنكر لها، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

فلكي يهتدي الإنسان يجب أن يكون واقعيًا، أن يتحسس فطرته، أن يتحسس وجوده، أن يطلب الدليل العقلي والنقلي والواقعي والفطري، ثم أن يكون منضبطًا، لا تحتاج إلى من يعلّمك، العدوان تعرفه بفطرتك، كل شيء تنقبض له لا يرضي الله، الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يَطّلع عليه الناس، كل واحد يلازمه مُفتٍ: استفتِ قلبك، وإن أفتاك المفتون و أفتوك، كل واحد لديه مفتٍ خاص، وهو قلبه، الله فطرك فطرة عالية، فإذا عاد الإنسان إلى فطرته، ووقف عند حده، ولم يعتد على غيره، ولم يكذب على نفسه، فالنداء له من كل جهة: أن تعالَ إلى روضة الهدى.

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

هذه الهداية، إنّ الله عزّ وجل يهدي، و لكن لا يهدي إنسانًا معرضًا، كذّابًا، دجّالًا، غارقًا في الشهوات؟! هذا الإنسان أبعد عن الهدى بعد السماء عن الأرض.

إنها آية دقيقة جداً، وتعني أن الهدى مصلحةُ الإنسان ونور حياته.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

أسرف أي تجاوز الحدود، نظر إلى ما يحلُّ له، وإلى ما لا يحل له، أخذ ما له وما ليس له، اعتدى على أعراض الآخرين أي على سمعتهم، جرّح، طعن، اغتاب، نابز بالألقاب، فكل إنسان مسرف تجاوز الحد، سمته الأولى والأخيرة الكذب، فلن يهتدي إذًا أبدًا، وأما من كان صارما مع ذاته، رحيما مع نفسه مستقيم السلوك فالهدى من الله محقق، لأنه:

((من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم))

[كشف الخفاء]

وهذا هو الكشف ؛ يقول عنه بعضهم: الكشف والتجلي والإشراق ثمنه باهظٌ جداً.

((من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم))

[كشف الخفاء]

الهدى الإلهي، التجلي الإلهي، السكينة، هذه كلُّها تحتاج إلى انضباط واستقامة، استقم على أمر الله وانتظر من الله كل خير.

إن شاء الله في درسٍ قادم نتابع حديث هذا الرجل المؤمن، وينبغي أن يكون في كل مجتمعٍ مسلم رجالٌ مؤمنون من أمثاله، لأن الله عزّ وجل ما أرادها قصةً، ولكن أراده نموذجاً بشرياً يُحتذى به.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (10-20): تفسير الآيات 29 - 33
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-08-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة غافر، ومع الآية التاسعة والعشرين، ولكن قبل أن نمضي في الحديث عن الآية التاسعة والعشرين، لا بد من وقفة قصيرةٍ مرةً ثانية عند قوله تعالى:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ

1 ـ كتمان للإيمان:

الله سبحانه وتعالى وصف هذا المؤمن بأنه يكتُمُ إيمانه، والإنسان قد يكتم إيمانه من خلال ثيابه، فيرتدي ثياباً لا تدل على حقيقته، وقد يكتم إيمانه من خلال سكوته أحياناً، من خلال أثاث بيته، أو أثاث مكتبه، فكتمان الإيمان يكون تارةً بالسكوت، وتارةً بالثياب، وتارةً بوضع مقر العمل، أو مقر السكنى من دون أي مظهر، هذا كتمان للإيمان.

على كلٍّ، هذا المؤمن هل كتم إيمانه إلى ما لا نهاية ؟ لا لم يكتم إيمانه أبدًا، بلْ صرّح بإيمانه وأظهره.

2 ـ متى ينبغي أن نكتم الإيمان، ومتى ينبغي أن نجهر به ؟

السؤال إذًا: متى ينبغي أن نكتم الإيمان، ومتى ينبغي أن نجهر بالإيمان ؟

إن الإنسان إذا كتم إيمانه إلى ما لانهاية فأين إيمانه ؟ وما قيمة إيمانه ؟ هناك من يقول: أنا مسلم من ثلاثين عامًا، أو من خمسين عامًا، بعض النصارى أحياناً يقولون: نحن مسلمون، فلمَ لم تظهر إيمانك ؟ لا بد من إظهار الإيمان، هذا الذي يعمل من وراء ستارٍ كيف يستطيع أن يهدي الآخرين ؟ أن يدفع الآخرين إلى الإيمان ؟

إذاً: هذا المؤمن مؤمن آل فرعون كتم إيمانه في مرحلة، ثم أعلن عن إيمانه في مرحلةٍ أخرى عندما صار لزاماً عليه أن يعلنه، فإذا كان كتمان الإيمان يجر الإنسان إلى معصيةٍ فينبغي أن يظهر إيمانه، وإذا كان كتمان الإيمان يجره إلى تضييع حقٍ فينبغي أن يظهر إيمانه، أما إذا كان إظهار الإيمان يسبّب لك متاعب كثيرة من دون أن تحرز أية مكاسب فلا داعي لإظهاره.

ففي مجال العمل أحياناً لو أظهرت إيمانك لأصابك عنتٌ ومشقة، وقد يجرّ ذلك إلى متاعب لا نهاية لها، فنحن نكتم إيماننا حينما لا تكون مَدعاة لإظهار الإيمان، أما إذا كان كتمان الإيمان يؤدِّي إلى معصيةٍ، أو إلى انحرافٍ، أو إلى هضم حقٍ، أو إلى مجاراة مبطلٍ، أو إلى مداراة مبتدعٍ، أو إلى تطمين منحرفٍ، هذا ليس كتمان إيمان، بل هذا عدم إيمان.

كل إنسان مؤمن لا بد من أن يظهر إيمانه بشكلٍ أو بآخر، من خلال حركاته، من سكناته، من بيته، من عمله، من علاقاته، من ورعه، من غض بصره، من صدق لسانه، من نعومته، ولكن أحياناً الإنسان يظهر إيمانه دون أن يحقق غاية مرجوة، فلو بقي طيَّ نفسه لكان خيرًا له وأجدى.

إذاً: هذا المؤمن، مؤمن آل فرعون، كتم إيمانه في بادئ الأمر، فلما رأى أن فرعون سيتَّجه إلى قتل موسى هل بقي ساكتاً ؟ عندئذٍ كشف القناع، وأعلن عن إيمانه، إذاً أن تتكتم على إسلامك وإيمانك إلى ما لانهاية، وأن يكون كتمان إيمانك سببًا لاقتراف معصيةٍ، بترك صلاةٍ، بمماراة مبتدعٍ، لمصانعة قويٍ، لمداهنةٍ، لهضم حقٍ، لعدوانٍ على حقوقٍ أخرى، فلا بد من الوضوح وكشف القناع، وهذا حالُ مؤمن آل فرعون في بادئ الأمر كتم إيمانه، ثم لم يلبث أن أظهر إيمانه، لأن الهدف كبير في استمرار موسى ودعوته.

سُقْتُ هذا الكلام لأنك تستمع أحياناً كثيرة إلى رجل من دينٍ آخر يقول لك: أنا من ثمانين عاماً مسلم، كنت أخاف أن أعلن إسلامي فيقوم علي بنو قومي، هذا كلام غير مقبول، لأن بعض العلماء قال: إن لم تبدِ إيمانك فلست مؤمناً، ومن علامة الإيمان أن تنطق بالشهادة، أن تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، الحق وسط بين طرفين، أن تمضي إلى ما لانهاية في كتمان الإيمان على حساب ورعك، على حساب فرائضك، على حساب واجباتك الدينية، على حساب إحقاق الحق فليس صحيحًا.

السكوت عن المنكر سبيل الهلاك:

لقد آمنت إذًا، وإذا أعلنت أنك لا تشرب الخمر لأن هذا محرَّم، لعلك تشدّ من عضد الآخرين في مجال الإيمان، إذا قمت إلى الصلاة لعل كثيرين يقومون معك إلى الصلاة، فالسكوت في مجالات كثيرة مدمرة، قال تعالى:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة: من الآية 79)

سبب إهلاك بعض الأقوام أنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة المائدة: من الآية 79)

والله سبحانه وتعالى حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ)

(سورة آل عمران: من الآية 110)

خيرية هذه الأمة بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المُنكر:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة آل عمران: من الآية 110)

فلو تركتْ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لفقدتْ خيريتها، ولأصبحت أمةً مثل بقية الأمم، لا ميزة لها إطلاقاً عند الله عزّ وجل، فهذه الخيرية معللةٌ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا يدعونا إلى أن نُؤمن أنه لا إله إلا الله، وأن الله بيده الأمر كلّه، وإليه يرجع الأمر كله، بيده ملكوت السماوات والأرض، وكلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً.

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ)

(سورة هود)

تتعقل إلى حد، وتتوكل إلى النهاية، تتعقل وتكف عنك الأذى، ولا تسبب لنفسك متاعب لا حصر لها من دون أن تكسب شيئاً التعبير الدقيق فلا داعي لأن تسبب لنفسك متاعب لا حصر لها من دون أن تكسب شيئاً، ولا داعي أن تسكت عن إيمانك إلى درجة أنك تذوب في مجتمع الكفر، تذوب وينسى الناس أنك مسلم، كلما تجاوزوا حدودهم معك سكتَ لئلا يُعرف أنك مسلم، فإلى متى يستمر السكوت ؟ أردت من هذا التعليق أن يقف المؤمن موقفاً متوازناً، متى ينبغي أن يظهر إيمانه، ومتى ينبغي أن يكتم إيمانه، إذا كان في إظهار إيمانه متاعب لا حصر لها دون أي مغنم إيماني، دون أن يُحِقّ حقاً، دون أن يُبْطِلَ باطلاً، فلا داعي لإظهاره، ولا بأس بكتمانه، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ليس بحكيم من لم يدارِ من لا بد من مداراته))

[ورد في الأثر]

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامّ، فَإِنّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيّامَ الصّبْرِ، الصّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

[سنن أبي داود عن أَبِي أُمَيّةَ الشّعْبَانِيُّ]

هذا مقياس دقيق.

إذاً: كتمان الإيمان مقبول إذا كان في إظهار الإيمان متاعب دون تحقيق مكاسب، وكتمان الإيمان مرفوضٌ إذا جَرّ إلى معصيةٍ، أو مداهنةٍ، أو معاونةٍ، أو تضييع حقٍ، أو ترويج بدعةٍ، أو توقير

منحرفٍ، إذا أدّى الكتمان إلى السلبيات فلا خير في كتمان الإيمان، وأكبر شاهد هذا الرجل المؤمن الذي ذكره الله عزّ وجل في القرآن الكريم إذ كتم إيمانه في مرحلة، فلما رأى خطراً يتهدد هذا النبي الكريم انطلق، وأفصح عن إيمانه، ولم يبق إيمانه في حَيّز الكتمان.

إذاً: دائماً الحق وسط بين طرفين، التطرُّف الأول أن تكتم إيمانك إلى ما لانهاية، إلى درجة أن الناس ينسوا أنك مسلم، لكن كلما تجاوزوا حدودهم، وكلما ضغطوا عليه فخنعت، ورضيت حفاظاً على كتمان إيمانك، فليس هذا من أمر الشريعة في شيء، الله سبحانه وتعالى قال:

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

لا تأخذك بالله لومة لائم.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللّهَ)

(سورة الأحزاب: من الآية 39)

الأمر إذا وصل إلى تضييع حق، إلى ترويج باطل، إلى دعم مبتدع، إلى توقير مُنحرف، إلى تعظيم مُلحد، إلى تضييع حق، لا خير في كتمان الإيمان عندها، أما إذا أعلنت إيمانك، وسببت لنفسك متاعب لا حصر لها من دون أن تكسب شيئاً إطلاقاً، ليس بحكيم من لم يدار من لا بد من مداراته، فالحكمة ضالة المؤمن، والمؤمن الصادق يهتدي إلى ربه، قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنّ الصِّدْقَ يَهْدِي))

[صحيح البخاري عن عَبْدِ الله]

صدقك في طلب رضوان الله عزّ وجل يهديك إلى الطريق الصحيح، وحينما تتحرّك وفق منهج الله، ووفق تعليمات النبي عليه الصلاة والسلام، فإن الله سبحانه وتعالى يتولّى أمرك، ولا يضيُّعك، ولا يتركك، ولا يسلمك لخصومك.

مؤمن آل فرعون لكلماته معانٍ دقيقة، ولنطقه عظاتٌ بليغة، يقول:

(يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللّهِ إِنْ جَاءَنَا)

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا

1 ـ المؤمن لا خوفٌ عليه ولا هو يحزن:

المعنى الضمني: أن الإنسان إذا كان قويًا، إذا كان غنيًا، إذا كان الله عزّ وجل أكرمه بمنصب رفيع، أو بدخل كبير، أو بمكانة اجتماعية عالية، فهذا الشيء الذي تفَضَّلَ الله به عليه لن يدوم إلى الأبد، فلا بد من يومٍ يزول عن صاحبه.

ولكن المؤمن ـ هذه النقطة مهمة جداً ـ إذا آتاه الله شيئاً من الدنيا فحظه من الآخرة أوفر، والمؤمن خَطُّهُ البياني في صعودٍ مستمر، حتى لو جاء الموت، هو ما بعد الموت أسعد منه مما قبل الموت، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا)

(سورة التوبة: من الآية 51)

فالمؤمن لا خوفٌ عليه ولا هو يحزن، لا خوفٌ عليه مما هو قادمٌ عليه ولا هو يحزن على ما فاته، يا قومي، طبعاً كلمة يا قومي تعني أن مؤمن آل فرعون من القبط، من آل فرعون، يؤكد هذا قوله:

(لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ)

أي هل هذا الملك إلى ما لانهاية ؟ لا، فالموت بالمرصاد لكل إنسان، سبحان من قهر عباده بالموت.

هنا نقطة دقيقة، القوي يموت، والغني يموت، والمنحرف يموت، والمستقيم يموت، فالموت يلغي كل شيء، يلغي غنَي الغني، وفقر الفقير، وقوة القوي، وضعف الضعيف، وحكمة الحكيم، وصحة الصحيح، ومرض المريض.

(لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا)

هنا المعنى الثاني الدقيق بيّنه النبي عليه الصلاة والسلام والحديث يحث على العمل الصالح، فقال:

((بادروا بالأعمال سبعا ـ بادروا، اغتمنوا، سابقوا ـ هل تنتظرون))

[الترمذي]

2 ـ كسبتَ كلّ شيء، ثم ماذا ؟

تقول مثلاً: مرة كانت بعض الدروس تدور على محور إيجابي رائع، ثم ماذا ؟ كذلك عملت عملاً عظيمًا، ونلت مبالغ طائلة، ثم ماذا ؟ الموت بعد ذلك، سوف تحاسب عن كل ما فعلته، هذا المال من أين اكتسبته وفيم أنفقته ؟ سوف تحاسب عليه، ولو بلغت أعلى منصب ثم ماذا ؟، لابد من الموت بعدها، إنك

ميتٌ وإنهم ميتون، ولو تمتع الإنسان بكل مباهج الحياة، لم يدع شهوةً إلا ومارسها، لكن ثم ماذا ؟ بعد ذلك الموت، لو تمتع بمجد رائع جداً، ثم ماذا ؟ بعد ذلك الموت، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((بادروا بالأعمال الصالحة، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

هل تنتظرون إلا...

ماذا في الدنيا ؟ انظروا إلى الناس، الإنسان في أول حياته له اهتمامات، اهتماماته مدرسية، بعد ذلك اهتمامات عمل، بعد ذلك زواج، بعد ذلك سكن، بعد ذلك تزويج أولاده وبناته، بعد ذلك صحة، بعد ذلك عظّم الله أجركم، وهي مرحلة لا بد منها، الحياة تمضي، والإنسان يتحرك نحو مصيره المحتوم، ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((هل تنتظرون إلا فقرا منسيا))

[الترمذي]

فهناك آلاف الأشخاص الذين هم على غنًى عريض، فجأةً فقدوا كل أموالهم، فصاروا يتكففون الناس.

((هل تنتظرون إلا فقرا منسيا))

[الترمذي]

فقرًا ؛ ينيسك أيام الرخاء كلها، ينسيك المباهج كلها، ينسيك المسَرّات كلها.

((فقرا منسيا، أو غنى مطغيا))

[الترمذي]

والغنى المطغي مصيبة من أكبر المصائب، فالإنسان غالبا من دون غنى مستقيم، فإذا اغتنى أصبح عاصياً لله عزّ وجل.

((أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا))

[الترمذي]

مرض يجعل حياة الإنسان جحيماً.

((أو هرما مفندا))

[الترمذي]

تقدم في السن مع الخرف، مع أرذل العمر مال إلى النسيان، صار حشَرياً، أعاد القصة مئات المرّات، تدخّل فيما لا يعينه، انفضّ الناس من حوله، تركوه في غرفته وحده، اختل توازنه، صاح بأهله، شكاهم لزوّاره، أصبح وجوده عبئاً على أهله، هذا مرض مفنِّد:

((أو موتا مجهزا))

[الترمذي]

كان إنساناً وفجأةً صار خبراً، كان ملء السمع والبصر فصار حديث الناس، كان فوق الأرض، فصار تحتها، كان متربعاً على مكانةٍ عليةٍ في بيته وفي عمله، فصار ملقىً تحت التراب، بات خبرًا.

إذاً:

((هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى))

[الترمذي]

مؤمن آل فرعون أدرك أن الأمور تتحول، كل حالٍ يزول.

هناك ملِك قال لوزيره: قل لي كلمةً إن كنت فرحاً أحزن، وإن كنت حزناً أفرح ؟ قال له: كل حالٍ يزول، انظر إلى أي مكان، فإنك ترى خلائف، فالناس خلائف، هذه البيوت سكنها قبلنا أناس، وسيسكنها بعدنا أناس، هذا معنى خلائف، وهذه المحلاّت التجارية استعملها قبلنا أناس، وسيديرها بعدنا أناس، الإنسان شيء طارئ حادث.

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

فقال.

(يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ)

يوم مفقود و يوم مشهود و يوم موعود و يوم مورود و يوم ممدود:

هناك يوم مفقود، هذا الماضي، ولن يعود، والحديث عنه تضييع وقت، وهناك يومٌ مشهود نعيشه الآن، هذه الساعة التي نحن فيها، وهناك يومٌ موعود، الموت، وهناك يومٌ مورود، يوم القيامة، وهناك يومٌ ممدودٌ إلى أبد الآبدين، فأنت بين يومٍ مفقودٍ ومشهودٍ وموعودٍ ومورودٍ وممدود، أخطر هذه الأيام اليوم المشهود، الساعة التي أنت فيها، لأن الماضي انتهى، المستقبل متعلِّق بالحاضر، فإن كنت في يومك المشهود مطيعاً لله عزّ وجل، يومك الموعود إن أتى فهو استمرار لطاعتك، وإن لم يأتِ لا تندم على عدم مجيئه، هذا أكمل موقف، لذلك هلك المسوّفون.

فهذه إشارة دقيقة، أي أنتم يا آل فرعون لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض، لكن هل هذا الملك إلى ما شاء الله ؟ لا، هناك موت، وهو بالمرصاد، الحياة تنقطع وتنتهي، فإذا انقطعت الحياة، ولم نكن نعرف الله عزّ وجل، وفعلنا ما فعلنا، وأكلنا ما أكلنا، وانتهكنا ما انتهكنا، واعتدينا ما اعتدينا، وجاء أمر الله عزّ وجل ليحاسبنا عن كل صغيرةٍ وكبيرة.

(فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللّهِ إِنْ جَاءَنَا)

فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللّهِ إِنْ جَاءَنَا

هذه مناقشة منطقية، وكل واحد منا إذا ناقش نفسه نقاشًا منطقيًا، حاور نفسه حوارًا عقلانيًا، وتأمّل حياته، وتأمل مصيره، وتأمّل تاريخه، تأمل حركته في الأرض، تأمّل رسالته، تأمل مهمته، يهتدي إلى الحق.

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

كلمة بالغة:

(يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ)

لا عبرة لهذا اليوم، بل العبرة لما بعده، والغنى والفقر بعد العرض على الله، البطولة لا أن تكون في شبابك قوياً، أن تكون في شيخوختك محفوظاً من متاعب الدنيا، من الخرف، من أرذل العمر، بل العبرة في أن تكون في قبرك سعيداً، كأنه روضة من رياض الجنة، وأن تكون يوم القيامة حميداً، هذه البطولة.

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى)

قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى

1 ـ الفراعنة كانت لهم حضارة:

لو ذهب الإنسان إلى مصر، ورأى متاحفها، لرأى العجب العجاب، أين كان هؤلاء الذين أشادوا الأهرامات، نحتوا الأصنام، جعلوا هذه المقابر تحت الأرض فيها كل شيء، فيها من الذهب بكمياتٍ مذهلة، طعامهم، خبزهم، لحمهم كان تحت الأرض، لعقيدةٍ فاسدة أنهم يَحْيَوْنَ بعد الموت، لذلك فإنك ترى آثارًا من الخبز المحنّط حتى الآن من ستة آلاف عام، من اللحم المحنط حتى الآن، أدواتهم، مركباتهم، سلاحهم، حليُّهم، ذهبهم، شيء لا يصدق، إنها حضارةٌ تحت الأرض بأكلها، أين هم الآن ؟

(يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللّهِ إِنْ جَاءَنَا)

معنى ذلك أن كل واحد منا يحذر أن يغتر بشبابه، بمكانته، بدخله الكبير، باسمه المتألِّق، لينظر يوم يأتي ملك الموت ويقول له: تفضل معي ؟ إلى أين ؟ إلى قبر مساحته متران مربعان فقط، كل شيء يتركه في ثانيةٍ واحدة، لا يستطيع أن يأخذ معه شيئاً أبدًا، والعوام يعبرون عن هذه الحقيقة فيقولون: **" إنّ الكفن ليس له جيوب "**، أي لا تجد جيباً له لتَضع فيها دفتر الشيكات، لا يأخذ إلا عمله الصالح أو الطالح، فهذه إشارة، أي أنتم الآن يا آل فرعون ملوك، ولكن نريد أن نعرف ما مصيركم بعد الموت ؟

(لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

2 ـ لا يكون الاتباع المطلق إلا للنبي عليه الصلاة والسلام:

الإنسان العاقل لا يمكن أن يكون مطية خطأ لإنسان، ولا يمكن أن يكون ضحيةً لإنسان، ليس على وجه الأرض إلا إنسان واحد يمكن أن تكون مُتّبعاً له، هو النبي عليه الصلاة والسلام لأنه نبي، ولأنه معصوم، ولأنه رسول، ولأنه لا ينطق عن الهوى، ولأنه من عند خالق الكون، ولأن الله أمرك أن تتبعه، وأمرك أن تنتهي عما عنه نهاك، والذين يعلّمون الناس من بعده إذا اتبعوا سنته رشفوا عن حقيقته.

أي أننا إذا قلنا لك: اسمع كلام هذا المرشد، أو هذا العالم، أو هذا الداعية، لا يمكن أن يأتي من عنده بشيء، هو يشفُّ عن سنة رسول الله، فمن بعد النبي الصحابة والتابعون، والعلماء العاملون، والفقهاء والمحدثون، والدعاة والمرشدون، والمربون والأساتذة، هؤلاء الذين جاءوا من بعد النبي عليه الصلاة والسلام، والذين ينوبون عن النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ الناس هؤلاء لا يستطيعون أن يأتوا من عندهم بشيء إطلاقاً، إنما أنا متبع، ولست بمبتدعٍ، والنبي عليه الصلاة والسلام هو المشرّع، وهو الذي يوحَى إليه، وهو المعصوم، إذاً أنت بإمكانك أن تتبع إنساناً واحداً وأنت مغمض العين، ومع ذلك قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: من الآية 108)

عَلَى بَصِيرَةٍ، لكنه معصوم ويوحَى إليه، وقد أُمِرْنَا أن نتبعه بنص القرآن الكريم، أمّا أيُّ إنسان نقل لنا بأمانة سنة النبي علينا أن نتبعه، وهذا ليس اتباعاً له إنما هو اتباعٌ للنبي، فليس على وجه الأرض إنسان يمكن أن تتبعه لذاته، إن فعلت هذا كنت ضحيةً له، كنت أحد أخطائه.

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

إن كانت رؤيته غير صحيحة، إن كان في عمىً، إن كان في ضلال، إن كان في متاهة، إن كان في انحراف، هل يستطيع هذا الذي اتبعته أن يخلّصني ؟

ألم تسمعوا قصة أصحاب النبي عليهم رضوان الله، حيث أمَّر عليهم أحدهم، وأمَّرهم بسريةٍ بمهمةٍ، فلما غادروا المدينة تغاضبوا ـ ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة كانت هذه القصة ـ فقال أميرهم **":ألست أميركم ؟** قالوا: **" بلى "**، قال: **" أليست طاعتي من طاعة رسول الله ؟ "**، قالوا: **" بلى "**، قال: **" فأضرموا ناراً عظيمة فأضرموها**، قال: **" اقتحموها "**، وقفوا، تأملوا ملياً، حكّموا عقولهم، قالوا: **إنما آمنا بالله**

ورسوله فراراً من النار، كيف نقتحمها ؟ "، اختلفوا، بعضهم قال: **" نقتحمها، لأن طاعَة الأمير طاعة لرسول الله "**، بعضهم قال: **" والله لا نقتحمها "**، لما رجعوا، رفعوا أمرهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[البخاري ومسلم عن علي]

ماذا قال سيدنا الصديق ؟ قال: **<< وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني >>**، أي راقبوني، أي أنه طلب من كل فردٍ من أفراد رعيته أن يراقبه، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، إذاً: هذه سنة النبي.

لا يزاد في الدين ولا يُنقص منه:

عندنا في حياتنا إنسان واحد يمكن أن نطيعه من دون مراجعة، هو النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه جاء بهذا القرآن، ولأن هذا القرآن فيه إعجاز، إذاً هو كلام الله، والله يأمرنا أن نتبعه، وهو المعصوم عن أن يخطئ في أقواله وأفعاله وأحواله، وأي إنسانٍ بعد النبي عليه الصلاة والسلام ينقل لك سنة النبي كما هي من دون زيادة أو نقصان، أو تحريف أو تأويل، أو تكلُّف، فعليك أن تطيعه، وحينما تطيعه أنت بالتأكيد لا تطيعه، ولكنك تطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعبارة بسيطة أقول: العلماء من بعد النبي يجب أن يكونوا كلوح الزجاج يشفون عن سنة النبي، دون أن يكون لهم أي تدخل، لا بزيادة ولا بنقصان.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: من الآية 3)

هكذا، بهذه الطريقة يستمر الإسلامُ كما بدأ، أما لو رأيت نهراً في منبعه صافيَ الماء، عذب الماء، ثم جاءته الروافد، إلى أن يصل في نهايته إلى مستوى يصبح الماء فيه أسود اللون فهذا من فعل الروافد المنبوذة، ولذلك نحن الآن نحتاج إلى أن نعود إلى ينابيع الدين، إلى أصل الدين، إلى الكتاب والسُنَّة، ولا نرضى إلاّ بإنسان متبعٍ للني عليه الصلاة والسلام يشف عن حقيقة النبي، وعن حقيقة الشرع، لأن الله عزّ وجل يقول:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: من الآية 3)

أيَّةُ زيادةٍ مرفوضة، في العقائد ليس هناك زيادة ولا نقصان، العقائد موقوفة، والعبادات موقوفة، هناك مجال واحد فقط، بالاجتهادات، بالأحكام الفقهية، يجتهد الفقهاء أحكاماً فرعيةً تفصيليةً من أدلةٍ كليةٍ، هذا

المسموح به فقط، لذلك: **<< وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>**، معناها راقبوني، ألم يقل أحدهم لسيدنا عمر: **<< والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناك بسيوفنا >>**، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، وقال: " الحمد لله الذي جعل في رعيّتي من يقوّم اعوجاجي "، بهذا الدين وصلنا لأطراف الدنيا، بهذه العقيدة الصحيحة، بهذا الإخلاص الشديد، بإنكار الذات، فالذات تحت قدم الإنسان، أنت في سبيل الحق، إذا عزّ أخوك فَهُن أنت، أما حينما نضيف على الدين أشياء، ونحذف أشياء، ونُجَيّر النصوص إلى مصالحنا، عندئذٍ يصبح الدين أدياناً، والإسلام أنواعاً منوعة وانحرافاتٍ كثيرة، قال:

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

أي إيّاك أن تكون ضحيةً لأحد، إيّاك أن تكون مطية خطأ لأحد.

((يا ابن عمر، دينك، دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

((إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[كشف الخفاء]

لا تقبل شيئاً إلا بالدليل من كتاب الله وسنة رسوله، ولا ترفض شيئاً إلا بالدليل، اقبل بالدليل وارفض بالدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مبتدعاً فالدليل، شيء لم يفعله أحد، وتفعله أنت أوّل مرة فأنت مبتدع، هل عندك دليل على أن هذا العمل يقاس على عمل مشروع، بالقياس، أو بالإجماع ؟ إن كنت ناقلاً فالصحة، إن كنت مبتدعاً فالدليل، عوّد نفسك أن تقبل أشياء بأدلتها، هذا الفكر إذا قبل الأشياء من دون أدلّة انطمست بصيرته، أما إذا ناقش الأدلة صار إنسانًا واعيًا، ولعالِمٌ واحد أشد على الشيطان من ألف عابد.

3 - الرؤية الفرعونية:

فهذا فرعون ماذا يقول ؟ يقول:

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى)

أي إذا قال لك واحد: أنا هكذا أرى، قل له: ومن أنت ؟

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ

فرد عليهم:

ومن أنتم حتى يكون لكم عندُ!

مَن أنتم ؟ نحن لا يوجد عندنا إلا الله ورسوله فقط، ولا يوجد عندنا أكثر من ذلك.

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ ومَن أنتم حتى يكون لكم عِند

***

فهل أنت محور العالم ؟ هل أنت مشرع ؟ هذه لم تعجبني، ومن أنت ؟ هذه لم أقتنع فيها، ومن أنت ؟ هذه ليست معقولة، فيها شرع إلهي.

سئل إنسان ذات مرة سؤالًا عن موضوع، فقال: هذا الموضوع لا ينبغي أن يطرح كسؤال، فسئل: لماذا؟ إن الله عزّ وجل أنزل فيه حكمه.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من الآية 36)

انتهى الأمر.

يستشف من هذه الآية أن الإنسان لا يكون ضحية لأحد، ولا يكون خطيئة أحد.

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى)

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى(79))

(سورة طه)

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ(8))

(سورة القصص)

هذه الحقيقة متى عُرِفَت ؟ بعد فوات الأوان، تمشي مع إنسان يدعوك إلى المعصية، لترك الدين، لمعاداة أهل الحق، ثم يأتي ملك الموت فإذا أنت الضحية، يا رب، فلان قال لي ذلك، يقال له: أين عقلك؟

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

فمن يقول لابنه: نحن يا بني هكذا نشأنا، هكذا ربينا، اسمع كلامي، لا تغلط، ضعها برقبتي، هذا كله كلام فارغ هراء، تكون ضحيةً لإنسان، ومطية خطأ لإنسان.

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى)

أنت إنسان، ولهذا الكون خالق، ولهذا الخالق كتاب ومنهج، ولهذا الكتاب تفسير ـ هذه القصة كلها ـ هذا الكون العظيم له خالق يدل عليه، وهذا الخالق له كتاب أنزله، الدليل إعجازه، وهذا الكتاب له نبيٌ فسّره، فهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو كلام خالقنا، وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام، وانتهى الأمر، فكل شيء جاء بالكتاب والسنة على العين والرأس، أما إذا عارض الكتاب والسنة فلك أن تركله بقدمك، ولا تثريب عليك، أما إذا أراد الإنسان أن يسمع كلام الناس فإنهم كما قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ)

(سورة الأنعام: من الآية 116)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

(سورة يونس: من الآية 36)

لو أنّ واحدًا قال لك:

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

فالقرآن لا ينبغي أن يكون كتاب تاريخ لنا، فلو أن أحد الناس كان أقوى منك، وقال لك: لا تخَف، ضعها برقبتي، هكذا أنا أرى، أنا أعرف صالحك أكثر منك، قل له: لا فأنت لا تعرف مصالحي، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، اجعل هذه الكلمة شعاراً لك: لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

هناك قصة أذكرها كثيراً: الحسن البصري كان عند والي البصرة ـ الحسن البصري تابعي ـ كان عند والي البصرة، وبينما هو عنده جاء البريد، فيه توجيه من يزيد بن معاوية، وهذا التوجيه لو فعله الوالي لسخط الله عليه، ولو لم يفعله لسخط الخليفة عليه، وقع في حرج شديد، عنده الحسن البصري فسأله، ماذا أفعل ؟ "، أجابه إجابةً تكتب بماء الذهب، قال له: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

كل إنسان أقوى منك ضغط عليك، فاعلم علم اليقين أن الله يمنعك منه، ولكنك إذا اتّبعت توجيهه، هذا الإنسان مهما بدا لك قوياً لا يمنعك من الله، فالله عنده أمراض وبيلة، عنده أمراض تجعل حياة الإنسان جحيماً، ماذا نفعل ؟ أمْرُكَ بيد الله، صحتك بيد الله، قلبك بيد الله، الدسامات بيد الله، الشريان بيد الله، الأبهر، التاجي، كل أمور الناس بيد الله عزّ وجل، الكليتان بيد الله، الفشل الكلوي مخيف جداً، وليس له حل، ثمن إجراء عملية زرع الكلية مليون تقريبا، ونسبة نجاحها بالمائة ثلاثون أو أربعون، الأمور كلها بيد الله، دخلك بيد الله عز وجل، عملك بيد الله، أهلك بيد الله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

لذلك لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، على قدر ما يأتيك من ضغط فاسمع قول الله تعالى حكاية عن السحرة:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى(71)قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72))

(سورة طه)

انتهى الأمر، هذا هو المؤمن، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

" يا بني إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت "، قال: **" يا أمي، لو أن لك مائة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي "**، ثم أكلت بعد ذلك، فالأساس هو: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لك رب يجب أن تطيعه وحده، لكن عندما يطيع الإنسان الله وحده لا ينبغي أن يكون فظاً غليظ القلب مع الناس، لا، فبالتلطُّف وبالحسنى نأتيهم، ونتعامل معهم:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)

(سورة لقمان: من الآية 15)

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ

مؤمن فرعون.

(يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ)

هؤلاء الذين تحزّبوا على الأنبياء، وقاموا لهم، وحاربوهم، وأخرجوهم، وكذبوهم، وسخروا منهم، وائتمروا على قتلهم، هؤلاء الأحزاب الذين تحزّبوا على الأنبياء صلوات الله عليهم، هؤلاء مُنوا بهزيمةٍ منكرة وأهلكهم الله عزّ وجل، فالنبي عليه الصلاة والسلام في أعقاب معركة بدر خاطب كفار قريش القتلى: **" يا شيبة بن ربيعة ـ باسمه ـ يا أمية بن خلف يا فلان، يا فلان، يا فلان ". الصحابة دُهشوا!! قال: " هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس "**، قالوا: **"أتخاطب قوماً جيّفوا "**، قال:**"ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبونني"**، هذه ساعة عصيبة.

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ(30)مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ

دقة الآية: الله عزّ وجل نفى عن نفسه إرادة الظلم، عندك إرادة وحَدَث، الإنسان أحيانًا كثيرة لا يظلم، ولكنه يريد أن يظلم، ولكن لم يتح له، أما ربنا عزّ وجل:

(وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)

1 ـ لا تقف في وجه الحق:

حذرهم إذاً من مغبّة أن يحاربوا هذا النبي الكريم، فإن كل من حاربه، وكل من تحزّب ضده عاقبته وخيمة، لأنه رسول الله، فذنب كبير جداً أن يكون الإنسان ضد الحق، أن يكون أحمق إلى درجة غير معقولة، وأن يتورط ورطة كبيرة، وأن يقف لإطفاء نور الله ـ فهذه نقطة مهمة جداً ـ إياك أن تكون في خندقٍ معادٍ لأهل الحق، انجُ بجلدك، تحارب مَنْ ؟ أأنت تحارب الله ورسوله، فهذا الدين العظيم لولا أنه دين الله لتبددت معالمه من مئات السنين، ولانتهى، لكن لأنه دين الله بقي صامداً، شامخاً كالطود، هناك مؤامرات على هذا الدين لا يعلمها إلا الله، ومع ذلك كلها باءت بالإخفاق، دين الله، إن الله ناصر نبيه، إن للبيت رباً يحميه، فأغبى إنسان هو إنسان وضع نفسه في خندق معادٍ لأهل الحق، معادٍ لهذا الدين، إنه عندئذٍ يحارب الله ورسوله.

وهل بإمكان مخلوقٍ أن يطفئ نور الله عزّ وجل ؟ وهل بإمكان مخلوقٍ أن ينهي دين الله عزّ وجل ؟ ينتهي هو ولا ينتهي دين الله، هل بإمكان مخلوقٍ أن يلغي هذا الدين ؟ الذين أرادوا إلغاءه تهاوَوْا كبيت العنكبوت تحت سمعنا وبصرنا، من سبعين سنة قلعةٌ من قلاع الأرض ترفع شعار (لا إله)، فلمّا أراد الله أن يخزيهم أصبحوا في أسفل سافلين اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً وعسكرياً، الإنسان العاقل لا يمكن أن يكون في خندق معادٍ للحق، إن فعل هذا فإنما هو يحارب الله ورسوله، لا بريق للنصر، وتحارب الله.

2 ـ لا تطعن في الدعاة إلى الله:

يقاس على ذلك أن على الإنسان ألا يطعن بالدعاة إلى الله، ألا ينتقصهم، فالأفضل له أن يسلم بنفسه، لأن لحم العلماء مسموم، إنسان مسخّر لخدمة الناس، ويستفيدون منه، إيّاك أن تحاول تحطيمه، إياك أن تحاول الطعن به، لأن هذا عمل غير أخلاقي، عمل غير ناجح، ولا يُجدي، هذا عملُ الذين استفادوا من شخص دعهم يستفيدون منه، لا تكن حجر عثرة، لا تكن عدواً للحق، لا تكن سبباً لإضلال الناس وإطفاء نور الإيمان.

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ)

3 ـ مصير المعاندين إلى الهزيمة والعار:

هؤلاء الذين تحزّبوا على الأنبياء، وانتقصوا منهم، وكذّبوهم، وسخروا منهم، واتهموهم بأنهم مجانين، أو أنهم كُهّان أو شعراء، وأخرجوهم من ديارهم، وألّبوا عليهم الناس وحاربوهم، ماذا فعل أبو سفيان ؟ عشرين سنة يحارب النبي، لما دخل النبي مكة المكرمة، نظر أبو سفيان إليه وقال: **" ما أعقلك، وما أحكمك، وما أرحمك، وما أوصلك !! "** كبار زعماء قريش عرفوا الحقيقة بعد فوات الأوان. فأنا أريد من هذا الكلام، إياك ثم إياك ثم إياك أن تحاول إطفاء نور الله، أن تقف في خندق معادٍ الدين، إياك أن تحاول أن تفسد بين متعلمٍ ومعلِم، إياك أن تحاول ظلمًا أو قتلاً أو فسادًا، هذا فوق طاقتك.

(مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ(31)وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ)

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ

لا ينفع نسبٌ ولا قرابة يوم القيامة:

هو يوم القيامة، حذّرهم من مغبّة الخزي والهزيمة في الحياة الدنيا إذا هم ناهضوا وعادوا الأنبياء، وحذرهم من يوم القيامة الذي سمّاه الله عز وجل يوم التنادي، سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام سألته السيدة عائشة قالت: **" يا رسول الله أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ "** سؤال وجيه: لو أن إنسانًا وقعت عينه على عين أمه هل يعرفها ؟ وقعت عينها على عين زوجها هل تعرفه ؟ وقعت عينه على عين أخيه، وقعت عينه على عين ابنه هل يعرفه ؟ قالت: **يا رسول الله، أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((نعم يا أم المؤمنين، إلا في ثلاثة مواطن ؛ عند الصراط، وإذا الصحف نشرت، وعند الميزان، وفيما سوى ذلك لو وقعت عين الأم على ابنها تقول: يا ولدي، كان لك بطني وعاءً، وصدري سقاءً، وحجري وطاءً ـ فأنا أمك، صدري لك سقاء، وحجري لك وطاء، وبطني لك وعاء ـ فهل من حسنةٍ أنتفع بها اليوم ؟ يقول ابنها: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنني أشكو مما أنت منه تشكين))

هذا يوم التناد، تنادي الأم ابنها فلا يستجيب لها، ينادي الابن أمه فلا تستجيب له، ينادي الأخ أخاه فلا يستجيب له، ينادي التابع المتبوع فلا يستجيب له، ينادي الضعفاء الأقوياء فلا يستجيب لهم، يوم التناد، كل إنسان ينادي الطرف الآخر فلا يستجيب له.

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

(يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري:

الإنسان إذا أضل نفسه عن الله عزّ وجل، أي إذا ضل ضلالاً اختيارياً فاستحق الإضلال الجزائي، إذا ضل، كقوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

هذه الآية بعضهم يراها مشكلة، والآية واضحة تماما، أوضح مثل عليها: إنه طالب جامعي ما داوم، ولا قدّم امتحانًا، ولا اشترى كتبًا، أرسل له إنذار تلو الإنذار، فلما يئست إدارة الجامعة من استجابته أصدرت قراراً بترقين قيده، متى أصدرت هذا القرار ؟ بعد أن اتخذ هذا الموقف، فقرارها ظالمٌ ؟ لا والله، هذا معنى قوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

أيّ إضلالٍ عُزِيَ إلى الله عزّ وجل فالعلماء قالوا: فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري، الإضلال الجزائي، حينما أصدرت إدارة الجامعة قراراً بفصل هذا الطالب وترقين قيده، ليس هذا ظلماً إطلاقاً إنما هو نتيجةٌ طبيعيةٌ وتجسيدٌ لرغبة الطالب في الخروج من الجامعة.

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

فلما ضلّوا أضلهم الله، فلما أرادوا المعصية مكّنهم الله منها، هكذا لأن الإنسان مخيَّر.

(مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

وإذا ضل الإنسان باختياره، والله سبحانه وتعالى بأفعاله جسّد هذا الاختيار، فأضله الله عزّ وجل، عندئذٍ لا يستطيع أحدٌ هدايته:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: من الآية 56)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (11-20): تفسير الآيات 34 - 37
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-08-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الحادي عشر من سورة غافر، ومع الآية الرابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ

1 ـ تذكيرٌ بتكذيب بني إسرائيل بيوسف عليه السلام:

قال العلماء: هذه الآية تعني إما أن سيدنا موسى عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام هو الذي خاطب قومه، وذكّرهم بموقفهم المكذِّب من سيدنا يوسف عليه السلام، أو أن مؤمن آل فرعون تابع كلامه، وذكّرهم أيضاً بتكذيبهم العريق لسيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام. على كلٍ:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ)

2 ـ لابد للعباد من الرسل:

أيْ أنّ ربنا سبحانه وتعالى لرحمته بعباده، ولأنه خلقَهم ليهديهم، لابدَّ من أن يذكِّرهم، فالسماء لابدَّ من أن تتصل بالأرض، ولابدَّ من رسلٍ مبشِّرين ومنذرين، فمع أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، ومنحه نعمة العقل، وسخَّر له الكون، وفطره فطرةً عالية، وأعطاه حريَّة الاختيار، وأعطاه كل المقوّمات، ومع كل ذلك فالله جلَّ جلاله إذا رأى الناس قد غفلوا وانساقوا وراء شهواتهم لابدَّ من أن يذكِّرهم.

فالتذكيرُ الإلهي للإنسان شيء ثابت، والله عزَّ وجل يذكِّر عباده من خلال الأنبياء، ومن خلال الرسل، ومن خلال العلماء والدعاة، ومن خلال الحوادث، ومن خلال التسيير النفسي، ومن خلال كل شيء، فربنا سبحانه وتعالى يسوق كل الأساليب التي يمكن لهذه النفس أن تستفيد منها، وربنا جلَّ جلاله يعالج هذه النفس أدقَّ معالجة.

لكن النقطة الدقيقة هنا أن الحيّ مطموع فيه.

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ)

سيدنا عمر رضي الله عنه وقف مع أصحابه موقفاً، قالوا: **" وقفت موقفاً كموقف النبي معنا "** يبيّن لهم، أيْ أنّ ربنا عزّ وجل إذا أرسل الأنبياء فقد أرسلهم ليبيّنوا للناس، فإذا جاء العلماء من بعدهم فليذكِّروا الناس بدعوة الأنبياء.

كما قلت في الدرس الماضي: العالِم لا يستطيع أن يزيد شيئاً، ولا أن ينقص شيئاً، مهمّته الوحيدة التبيين، أيْ يجب أن يشفَّ عن سُنَّة النبي عليه الصلاة والسلام وعن دعوة النبي، فإذا عبَّر عنها تعبيراً صادقاً فقد أدّى مهمّته، لذلك فالناس حينما ينصرفون عن الدعاة إلى الله ينصرفون عن طريق سعادتهم.

والشيء الذي يلفت النظر هو أن الإنسان الداعية أو العالِم حينما يموت تبدو قيمته الحقيقية، ويبدو حجمه الحقيقي، يقولون: لماذا لم نعرفه في حياته؟

(حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا)

حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا

من معاني هذه الآية: أنه حينما كان بين أظهركم، وحينما كان بينكم كنتم زاهدين فيه، بل شكَّكتم في دعوته، فلم تتبعوه، فلمّا هلك عندئذٍ قلتم:

(لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا)

1 ـ لا تُعرَف قيمة العلماء إلا بعد موتهم:

ومن معاني هذه الآية: أنكم آمنتم به لكن بعد أن قُبِضَ، أيْ بعد أن توفّاه الله عزّ وجل آمنتم به.

لنا تعليق على هذا الموقف:

الملاحظ أن العالِم مثلاً في حياته يجتمع قليل من الناس حوله، ولكن إذا توفّاه الله ترى مئات الألوف، فليت هذه الجموع الغفيرة التي جاءت للتعزية، أو التي سارت في جنازته، ليتهم أمّوا بيته وهو حي، ليتهم استفادوا من علمه يوم كان بين أظهرهم، فهذا الموقف يتكرّر.

كنت قبل أيام في تعزية أحد العلماء الأجلاء، فوقفت خطيباً وقلت: جميلٌ جداً أن يتوافد الناس للتعبير عن إيمانهم وعن تقديرهم حينما يعزُّون في مناسبات انتقال العلماء الأجلاّء، ولكن الأجمل من هذا أن يتوافدوا إليهم في حياتهم، وأن يستفيدوا من علمهم، وأن يأخذوا عنهم ما يحدثون به عن النبي صلّى الله عليه وسلّم.

لابد للإنسان من التعلّم:

تأمّل مليًا ودقِّق في هذه الناحية، ربنا عزّ وجل حينما يقول:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: من الآية 12)

أي أنك خُلِقتَ كي تعلم، أنت إنسان، هويّتك أنك إنسان، وعليك أن تتعلّم، هذه اللام في الآية لام التعليل، أيْ أنّ علّة وجودك أن تَعْلم، إن لم تعلم فلست في مستوى الإنسانيّة، الله عزّ وجل أودع في الإنسان قوّة إدراكيّة، فهذه الطاولة لا تفقه ما حولها، هذه الطاولة لا تدرك لأنها جماد، وكذلك الحيوان، وكذلك النبات، فالله ما أودع القوّة الإدراكيّة إلا في الإنسان، إذاً: هو خُلِقَ ليعلم، فإذا كان الجماد شيئا له حيّز، له وزن، طول، ارتفاع، يشغل حيّزًا، والنبات يشغل حيّزًا كذلك، لكنّه ينمو، والحيوان يشغل حيّزًا أيضاً وينمو ومع ذلك يتحرّك، أما الإنسان فيشغل حيّزًا كالجماد، وينمو كالنبات، ويتحرّك كالحيوان، لكنّه يفكِّر ويدرك، فأعظم ما في الإنسان هذه القوّة الإدراكيّة التي أوعها الله فيه، وبهذا ميّزه الله عن كل المخلوقات.

إذاً:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: من الآية 12)

نعم، من أجل أن تعلم، من أجل أن تَعْلم أنّ الله يعلم، إن علمت أن الله يعلم انتهى كل لبسٍ وإشكال، واستقمت على أمره، إن استقمت على أمره سعدت بقربه، فهذه ثلاث كلمات: العلم، والسلوك، والسعادة، الهدف الأخير أن تسعد بقرب الله عزّ وجل، وثمن هذه السعادة أن تستقيم على أمره، ولن تستقيم على أمره إلا إذا عرفته، إذاً فلتعلم أن الله يعلم، وأنه قادر.

فما دامت علّة وجودك في هذه الأرض أن تعلم أن الله يعلم، فالذي يعلِّمك كتاب الله عزّ وجل، الذي يعلِّمك سُنّة النبي عليه الصلاة والسلام، الذي يعلِّمك الحكم الشرعي أهو حرام أم حلال ؟ الذي يبيّن لك سيرة النبي وسيرة أصحابه الكرام.

إذاً: فهذا الإنسان قائم بأخطر مهمّة تواجهك، في حياة كل واحد منّا آلاف الأشخاص، فأنت في حياتك مثلاً طبيب، الطبيب مرتبط بجسمك للعلاج، وأنت بحاجة إلى خيّاط، إذا طال شعرك فأنت بحاجة إلى حلاق، وأنت تأكل بحاجة إلى من يزرع لك النبات.

ففي حياتك آلاف الأشخاص، وهؤلاء كلهم مرتبطون بدنياك، لكن الذي يدلّك على الله هذا مرتبط بأمر آخرتك، لذلك ما دام الله عزّ وجل قال: لتعلموا أن الله يعلم، فالذي يدلّك على الله ينبغي أن تبحث عنه.

((يا ابن عمر، دينك دِينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

(كنز العمال عن ابن عمر)

كذلك ما دام الإنسان وُلد ووُجد في هذه الدنيا ليعلم، فالله عزّ وجل يقول:

(أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ)

(سورة النساء: من الآية 59)

أطيعوا الله من خلال قرآنه، وأطيعوا رسوله من خلال سنّته الشريفة المبيّنة لكتاب الله عزّ وجل، أمّا ؛ وأولي الأمر منكم بمعنى أطيعوا العلماء والأمراء، العلماء هم الذين يعلمون أمر الله هذا تفسير الإمام الشافعي والأمراء الذين يطبّقون أمر الله، قال:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرّسُولِ)

(سورة النساء: من الآية 59)

معنى ذلك أن الحَكَمَ هو الله ورسوله، من خلال كتاب الله عزّ وجل وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيّنَاتِ)

2 ـ الرسل جاءت بالآيات الواضحات:

البيّنات الأشياء الواضحة، فما مِن دعوة إلى الله إلا كفلق الصبح واضحة مشرقة نيّرة.

((قد تركتكم على البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

(الجامع الصغير عن العرباض)

فدين الله عزّ وجل لا يمكن إلا أن يكون متوافقاً مع العقل، متوافقاً مع الواقع، متوافقاً مع الفطرة، متوافقاً مع النقل، دين الله عزّ وجل كالهواء بالنسبة للإنسان، نعم كالهواء، ولا يمكن أن نحيا من دون هواء، والهواء في كل مكان، لذلك لا يستطيع أحدٌ أن يحتكر هذا الدين أيًا كان، فلا جماعةٌ، ولا فئةٌ أن تحتكر هذا الدين، ولا بلد، ولا عصر يمكنهم أن يحتكروا هذا الدين، لأنه دين الله.

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيّنَاتِ)

فمن المستحيل أن تجد تفسيرًا واضحًا منطقيًا للكون والحياة والإنسان بعيدًا عن الدين، فذلك تفسير أعرج، فأهل الدنيا دائما في اضطراب، وفي قلق، وأبسط سؤال يتردد على ألسنة الكثير منهم: يا أخي ما هذه الحياة ؟ أربعين سنة في كدٍّ وجدّ وشقاء ليعيش الإنسان عشر سنوات أو عشرين سنة، لأن معترك المنايا بين الستين والسبعين، وهذا العمر ينحدر متسارعًا مع ضغوط الحياة، ومع المشكلات والهموم التي تصرع الإنسان، وكلّما توفّي إنسان يتساءلون: كم عمره ؟ فيقال: خمسة وثلاثون عامًا،

اثنان وخمسون، سبعة وأربعون، ثلاثة وستون، سبعة وخمسون...الخ. وما وصل إلى مرحلة الاستقرار إلا في سن الأربعين.

والعجيب تساؤلهم: ما هذه الحياة؟ لماذا هذا العمر القصير؟ لماذا هذه المتاعب؟ لماذا هذا التناقض في الحياة ؟ وما فهموا أنّ الحياة، وما أدركوا أنّ الحياة مرحلةُ إعداد لحياةٍ أبديّة، وأنّ الحياة مزرعة، و أنها دار ابتلاء وامتحان، لا دار قرار واستقرار.

فلذلك من خلال فهم القرآن والسُنّة، ومن خلال فهم العقيدة الصحيحة تبدو الدنيا واضحةً وضوح الشمس.

لا تجتمع أسباب السعادة في مرحلة واحدة من العمر:

هناك تعليقات وملاحظات أساسية ذكرتها سابقاً مفادها: أن الإنسان في أول مرحلة في حياته تكون صحّته طيّبة، والوقت مديد، لكنّه فقير، لا يملك الدِرهم والدينار، إذاً سعادته عرجاء، المال أحد أسباب السعادة في الدنيا ـ بنظر الماديين طبعاً، أنا أقول هذا الكلام بنظر الماديين ـ المرحلة الثانية تكون الصحّة موجودةً والمال موجودًا، ولكن ليس لدى الإنسان فراغ وقت، منهمك في أعماله إلى قمة رأسه، المرحلة الثالثة المال موجود، والوقت موجود، ولكن تتراجع الصحّة فتعرج بك الأيام، فالمحصِّلة لو أن الإنسان عاش للدنيا، ونسي الله عزّ وجل ونسي الآخرة فلا يسعد ولن يسعد، ودائماً في تناقص وتراجع.

رأينا إذًا أن الإنسان في المرحلة الأولى ينقصه المال، وفي المرحلة الثانية ينقصه فراغ الوقت، وفي المرحلة الثالثة تنقصه الصحّة، أما المؤمن إذا عرف الله عزّ وجل معرفةً يقينيّة، وعرف سرّ وجوده، وعرف المهمّة العُظمى التي أنيطت به، وعرف أن هذه الدنيا دار ابتلاء، منزل ترحٍ لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضًا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي.

شتّان بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن، حياة المؤمن إنْ أعوزه المال لا تعوزه الأعمال الصالحة، يحقِّق وجوده بالأعمال الصالحة، بطلب العلم، بمعرفة الله عزّ وجل، بالدعوة إليه، سعيدٌ وهو شاب ولو أن جيبه فارغٌ من المال، فإذا أعوزه الوقت تنقلب أعماله المباحة إلى عبادات، فهو في عمله، وهو في بيته، وفي سعيه لكسب رزق أولاده في عبادة، لأنه يسير على منهج الله عزّ وجل، فأعماله تستغرق كلّ وقته، في كسب الرزق، وفي طلب العلم، وفي الدعوة إلى الله، في كلٍّ يحقِّق وجوده، فإذا بلغ خريفَ العمر وجدته سليم النفس و العقل.

" من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتّى يموت ".

فالله عزّ وجل يعامل المؤمن معاملة طيّبة، لأنه عرف الله في شبابه فأكرمه في شيخوخته، فما من شيء أجمل من إنسان نشأ في طاعة الله، فكانت شيخوخته سعيدة أيّما سعادة.

إن الإنسان يجب أن يطلب العلم ليتعلّم، يجب أن يكون على منهج الله عزّ وجل ليسعد، وإذاً فأخطر شيء في حياته أن يحقّق رسالته التي أُرسِلَ من أجلها، أن يحقّق الغاية من وجوده طاعة الله وعبادة ثم خلود أبدي.

(حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ

1 ـ الله لا يهدي إلا الصادقين:

بيّنت لكم في دروس مضت أن الإضلال إذا عزي إلى الله عزّ وجل، فمعناه أنه الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري، وأكبر دليل:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

أيْ أنّ الله عزّ وجل يهدي من ؟ يهدي إليه من أناب، يهدي من كان صادقاً، من كان مستقيماً، من تعامل مع آياتِ الله التي بثّها في الكون فهمًا و إيماناً.

2 ـ مَن هو المسرف ؟

أما المسرف المرتاب، فهو الذي أسرف في اقتناص الملذّات، فأخذ ما له وما ليس له، استمتع بما يحلُّ له وبما لا يحلُّ له، أخذ ما سمح له الشرع، وما لم يسمح له، أخذ حقّه وحقّ غيره، أخذ ماله ومال غيره، استمتع بما يحلُّ له، وما يحلُّ لغيره، فهو إذًا إنسان أسرف، فاتبع شهوته في الدنيا، ولم يعبأ بمنهج الله عزّ وجل، ولم يعبأ بالشرع الذي أنزله الله على نبيّه.

أما المؤمن ففي حياته وقفات كثيرة جداً، مثلما كان سيدنا عمر وقّافاً عند كتاب الله، فهذه الحركة العشوائيّة، والانسياق وراء الشهوات، هما سلوكُ إنسانٍ ضائع، سلوك نفس تائهة، سلوك إنسان بعيد عن الله عزّ وجل، المؤمن متبصّرٌ في قبض المال، في إنفاق المال، في إنفاق الوقت، في علاقاته، في مسرّاته، في أحزانه، دائماً منضبط يحجزه شرع الله سبحانه.

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

3 ـ مَن هو المرتاب ؟

أما المرتاب فما عَلِمَ عِلمَ اليقين الغاية من وجوده، بل عاش كل حياته بالشك والريبة والضياع، عاش في حيرة عمياء، زاغ عن الحق وما علم أن الحق والإيمان لا يخالطهما شك أبدًا، اسمع قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: من الآية 15)

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ)

(سورة البقرة: من الآية 2)

أنت الآن بحاجة إلى يقينيّات، فلا تعتقد اعتقادات لست متأكدًا من صحّتها مثل: لا نعرف، شيءٌ يحيّر، وكما قال بعض الشعراء:

جئت من حيث لا أدري ولكني أتيت فرأيت قدّامي طريقاً فمشيت

لماذا جئت ؟ قال: لست أدري ولماذا لست أدري ؟ لست أدري

* * *

تأمل الضياع، إنه الضياع حقيقة، ثم المصير نار جهنم، لأنه هو الذي سعى إلى الضياع. فالمشكِّك دائماً الذي لا يعلم، الذي لا يوقن، هذا إنسان ليس في مستوى الإنسانيَّة، أنت يجب أن تعتنق عقيدة صحيحة يقينيَّة، تدافع عنها حتَّى آخر لحظة في حياتك، الحياة أساسها اليقينيات، أليس عندك شيء ثابت؟ أليس هذا الكون يدلُّ على عظمة الله عزّ وجل ؟ هذا أول ثابت، الكون من الثوابت.

فكل شيء لديك لا نعرف، كل شيء الله يعلم، كل شيء عندك يحيّر، فهذا الذي يبني حياته على الشك ليس مؤمناً، فإن سئل: هل أنت متأكِّد أن هناك جنَّة؟ يقول: الله يعلم، أرجو أن يكون هناك جنَّة وإلا يكون قد خرب بيتنا ـ مثلاً ـ فهذا ليس كلامَ مؤمنٍ.

انظر.

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

4 ـ بين الإسراف والارتياب علاقة تلازمية:

الارتياب من لوازمه الإسراف، والإسراف من نتائجه الارتياب، فتجد المسرف دائماً بحركاته وسكناته مرتابًا، والمرتابُ مسرفٌ، يسمونها علاقة ترابطيَّة، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

لماذا اتَّبعوا الشهوات ؟ لأنهم أضاعوا الصلوات، لماذا أضاعوا الصلوات ؟ لأنهم اتبعوا الشهوات، أيْ أنّهم تارةً باتباع الشهوات ينقطعون عن الله عزّ وجل، وتارةً بالانقطاع عن الله عزّ وجل يلهثون وراء الشهوات، فالعلاقة بينهما علاقةٌ ترابطيّة، اتباع الشهوات وترك الصلوات.

كذلك المسرف الذي يتحرّك وفق شهواته من دون ضوابط، يجمع المال، ولا يعنيه أكان حلالاً أم حراماً، هذا مسرف، يطلق بصره فيما يحلُّ له، وما لا يحلُّ له، هذا مسرف، يتكلّم بما هو صحيح، وبما هو باطل، هذا مسرف، يتحدّث بلا ضوابط، يمارس شهواته بلا ضوابط، يكسب المال بلا ضوابط، هذا مسرف، لماذا هو مسرف ؟ لأنه مرتاب، ليس متيقّنًا أن هناك حسابًا.

مرّة قلت لكم: إذا كان الشخص أقوى منك وأعطاك أمرا، وهو يراقبك، وبإمكانه أن يوقع بك الأذى، هل من الممكن أن تعصيه ؟ مستحيل، بحسب قوانين النفس مستحيل، على أدنى مستوى، على أدنى إشارة مرور، ممكن أن تكون الإشارة حمراء والشرطي واقف، وأنت شخص عادي ؟ ليس من الممكن، بل مستحيل إلا أن تنضبط، لأن النتائج واضحة جداً، فأنت مع إنسان عادي يمكن أن يسبّب لك بعض المتاعب فلا تعصِيه، أما مع خالق الكون فأنت في ارتياب، فلتعلم علم اليقين خيرٌ لك، قال تعالى:

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

لو علمت علم اليقين لرأيت الجحيم.

الطبيب أحياناً لماذا يعتني عناية بالغة بتنظيف الخضراوات والفواكه ؟ لأنه يرى الجراثيم، يرى المرضى، يرى الأمراض السارية، يرى الإنتانات المعويّة، يرى هذه الأمراض رأي العين، ويعلم أن أسبابها كلها من الجراثيم، فرؤيته المستمرّة تجعله في هذا الحرص الشديد، لكن عدم الرؤية يسبّب الإسراف.

فهاتان النقطتان دقيقتان جداً:

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

5 - لابد من الانتقال من الارتياب إلى اليقين:

فأول شيء يلزمك أن تنتقل من الارتياب إلى اليقين، فماذا لديك من ثوابت في الكون ؟ الكون ثابت، هذا الكون ألا يدلُّ على وجود الله؟ بلى.

قلت لكم مرّة: هناك وهمٌ، وشك، وظن، وغلبة ظن، ويقين، وقطع، أعلى درجة القطع، إذًا فالوهمُ بالمائة ثلاثون، الشك بالمائة خمسون، الظن بالمائة سبعون، غلبة الظن بالمائة ثمانون، اليقين تسعة وتسعون، القطع بالمائة مائة.

ابحث عن اليقينيات ودعك من الارتياب، أليس يدلُّ الكونُ على وجود الله؟ ألا يدل على وحدانيّته؟ ألا يدل على كماله ؟ أليست هذه المقولة صحيحة: عظمة الخلق تدلُّ على عظمة الخالق؟ بلى وحقاً، كمال الخلق يدل على كمال التصرُّف، عظمة الخلق تدلُّ على عظمة الخالق، كمال الخلق يدل على كمال التصرُّف.

إذا كانت المؤسّسة راقية جداً فحساباتها راقية، علاقاتها العامّة راقية، ألا يدلُّ كمال الخلق على كمال التصرُّف، وعظمة الخلق تدل على عظمة الخالق ؟ هذا الشيء ثابت قطعي.

القرآن الكريم بين يديك، ابحث في آياته، هل هناك حقيقة قطعيّة ثابتة فيه نقضها العلم ؟ مستحيل، لأنه كلام خالق الكون، على مر العصور والدهور كل كتاب أُلِّف على وجه الأرض إلا وبعد حين ظهرت بعض أخطائه، أيّ كتاب من تأليف بني البشر فلابدّ من أن ترى بعد حين أن فيه أشياء غير صحيحة، هذه الأيام أقرأ كتابًا، وأنا من أشد الناس إعجاباً به، فمؤلفه لعالِم جليل عاش في العصور العبّاسيّة، وهو من أرقى الكتب تأليفًا ومضمونًا، ومع ذلك المعلومات في وقتها كانت محدودة جداً، وكان يظنُّ مؤلِّف الكتاب أن المعدة إذا امتلأت بالطعام ارتفع بخار الطعام إلى الدماغ فعطّل وظيفته، كأن داخل الإنسان جوف فارغ، هكذا توهّم مؤلِّف الكتاب، وهذه خطيئة لديه واضحة نقضها التقدم العلمي.

فهل في القرآن الكريم آية تتعارض مع حقيقة علميّة ؟ مستحيل لأنه كلام خالق الكون، فإذا كانت كل عقيدتنا يقينيّة، فالإنسان بشكل أو بآخر يجد نفسه مستقيمًا، لاحظ قوانين علم النفس، عندما تُحاصر فكرياً تستقيم سلوكياً، الاستقامة السلوكيّة أساسها القناعات الثابتة، اليقينيات الثابتة، فهناك علاقة دقيقة بين الإسراف والارتياب، المرتاب مسرف، والمسرف مرتاب، فلكي لا نكون مسرفين يجب ألاّ نرتاب، من أجل ألاّ نرتاب ينبغي أن نبحث عن الثوابت.

لابد من اتباع النبي عليه الصلاة والسلام في كل شيء:

الثوابتُ: الكونُ، والقرآن، والنبي وسنّته، والصحابة الذين رضي الله عنهم، هذه كلها ثوابت، فاجعل من كتاب الله، ومن سُنَّةِ رسوله ومن فعله، ومن فعل صحابته منهجاً لك، يقال: إن أعظم فهمٍ لهذا الكتاب هو فهم النبي عليه الصلاة والسلام، وسلوك النبي انعكاسٌ لفهمه.

بعض العلماء قال: تعلُّم السيرة فرض عين، لماذا؟ لأنك أمام نموذج كامل، فهذا الإنسان الكامل الذي فهم كتاب الله فهماً دقيقاً وكاملاً، وانطلق في حياته يتحرّك حركةً وفق منهج الله، فحركته تجسِّد فهمه لكتاب الله، والله سبحانه وتعالى جعله قدوةً لنا نتأسّى به، ونقتفي أثره، إذاً: معرفة النبي عليه الصلاة والسلام، ومعرفة مواقفه العمليّة، ومعرفة سُنّته المطهّرة جزءٌ من الدين.

نحن على أبواب عيد المولد، كلكم يعلم أن هذا البلد عريق بالاحتفالات بعيد المولد، وجوهر هذه الاحتفالات أساسها أن تتعرّف إلى رسول الله، لقوله تعالى:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

(سورة المؤمنون: من الآية 69)

والمرحلة الثانية أن تقتفي أثره، وهذا جوهر الصلاة على النبي.

(إِنّ اللّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلّونَ عَلَى النّبيّ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا صَلّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(56))

(سورة الأحزاب)

فالنبي عليه الصلاة والسلام هو سيد الخلق وحبيب الحق، بلغ أعلى درجة من الكمال بين البشر، أصبح أهلاً لأن يكون باب الله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى يصلي عليه أي يتجلّى عليه بالرحمة، وقد أُمِرْنا أن نصلي عليه أن نتعرّف إليه، وأن نقتفي أثره، وأن نتبع سُنّته، فإن عرفنا شمائله، وأخلاقه، وكمالاته، واقتفينا أثره فقد صلينا عليه، وهذه حقيقة الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، فنحن أمام نموذج إنساني كامل.

مرّة ثانية: أعلى فهم لكتاب الله هو فهم النبي، والنبي معصوم، فحركته بين أصحابه، في بيته، في عمله، في كل مناحي حياته تمثِّل فهمه لكتاب الله، لذلك معرفة سيرة النبي فرض عين على كل مسلم، هكذا عامل زوجاته، هكذا عامل أصحابه، هكذا كان في حياته الخاصّة، هكذا كان في حياته العامّة، هكذا عامل أعداءه، إذاً هو نموذج كامل، هذا يقين آخر بين أيدينا.

الكون يقين، والقرآن يقين، وسنة النبي يقين، وسيرة أصحاب النبي الذين رضي الله عنهم بنص القرآن الكريم يقين، نحن أحياناً تختلط الأمور علينا، نقول: فلان: الله يرضى عنه، هذه دعائيّة أم تقريرية ؟ فرقٌ كبير، الله جلّ جلاله رضي عن أصحاب رسول الله، قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشّجَرَةِ)

(سورة الفتح: من الآية 18)

الله أعلن في قرآنه الكريم أنه رضي عنهم، لكن إذا قلنا عن شخص: الله يرضى عنه، فهذه دعائيّة، وليست تقريريّة، فرقٌ كبير بين التقريريّة والدعائيّة، التقريريّة أن تقول: لقد رضي الله عن فلان، هؤلاء الصحابة وحدهم الذين رضي الله عنهم، أما الدعائيّة فأن تدعو لإنسانان يرضى الله عنه، كأن تقول: أغناك الله، تدعو له بالغنى، هذه ليست كأن تقول: لقد أغناه الله، صار غنياً، إحداهما تقريريّة والثانية دعائيّة.

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

إذاً: الإسراف هو تجاوز الحدود، وكما قال ابن عطاء الله السكندري: **" من تجاوز الحدود فهو من الحضرة مطرود".**

الإسراف أسبابه الارتياب، والارتياب أن تعيش في الأوهام، في الظنون.

(وَإِنّ الظّنّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقّ شَيْئًا(28))

(سورة النجم)

(إِنْ يَتّبِعُونَ إِلا الظّنّ وَإِنّ الظّنّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقّ شَيْئًا(28))

ظن، أوهام، أفهام سقيمة، أما المؤمن فمعه حجّة، المؤمن مع اليقينيات، المؤمن مع الثوابت، المؤمن عقيدته كفلق الصبح، عقيدته كالشمس في رابعة النهار، إنه على الحق المبين لا يخشى الضياع، فهو على يقين.

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

علم اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين:

بالمناسبة لدينا علم اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين، ما دامت هذه المراوح تدور فنحن موقنون أن في الجامع كهرباء، هذا يقين، الكهرباء لا نراها، ولكن تألّق المصابيح، وحركة المراوح، وهذا الصوت الذي يكبّر هذه علامة وجود كهرباء في المسجد.

إذًا: فهناك شيءٌ لا تراه، ولكنك ترى آثاره فهذا علم اليقين، أما إذا رأيتَ عينَه فهذا حق اليقين، لو رأيت الدخان لقلت: لا دخّان بلا نار، فالدخّان يدلّك على النار يقيناً، لا دخّان بلا نار، لكنك إذا رأيت بعينك التي في رأسك لهب النار فهذا حق اليقين، أما إذا لامست يدك النار، وشعرت بحرّها ووهجها فهذا عين اليقين، فأنت لك أن تتدرّج من علم اليقين، إلى حق اليقين، إلى عين اليقين، أما أن تبقى في الشك، فمع الشك إسرافٌ، لكنْ مع اليقين استقامةٌ، ومع حق اليقين هناك رقيٌّ، ومع عين الرقي في إشراق، كأنّ هناك ترابطًا فبقدر ما عندك من يقينيات يكون التزامك، بقدر تصوُّراتك الصحيحة تكون استقامتك، صحة عقيدتك بقدر التزامك، فكلّ أثرٍ داخلي ينعكس على السلوك الخارجي بشكل أو بآخر.

(الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ الّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتَكَبّرٍ جَبّارٍ)

من صفات المسرف المرتاب: الجدال بغير علم:

النقطة الحرجة في الآية السابقة، أنك تجد إنسانًا ما طلب العلم، ولا درس القرآن، ولا فهم الإسلام، ولا قرأ السُنّة، ولا قرأ السيرة، ولا قرأ الفقه، فمع جهله الفاضح، مع إهماله الشديد لمعرفته بالله عزّ وجل

يُنصِّب نفسه حكمًا بكل قضيّة إسلاميَّة، فكيف يناقش هذا الإنسان الجاهل، وكيف يجادل في موضوع ليس له خبرة فيه ولا دراية؟

(الَّذِينَ يُجَادِلُونَ)

تجده يعُدُّ طرقًا، ومرجِعًا، وحكمًا، ووصيًّا، وفي كل قضيَّة يحشر أنفه، ويدلي برأيه، وينتقد، ويقبل، ويرفض، وهذه غير معقولة، وهذه معقولة، فمن أنت؟

(الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ)

فلو سألت أحدًا: ماذا تعرف عن الصعود إلى القمر عبر مركبة فضائيَّة يدفعها وقود سائل ؟ فقد يقول: ولمَ لا نذهب إلى القمر بالطائرة مثلاً ؟ فالجواب أنه إذا لم تنطلق بسرعة سبعة كيلو مترات في الثانية فلن تستطيع أن تتحرَّر من جاذبية الأرض، بسرعة أقلّ منها ستبقى في نطاق الجاذبيَّة، ومهما كانت الطائرة سريعة فستبقى في نطاق الجاذبيَّة، أما من أجل أن تتجاوز، وأن تتحرَّر من الجاذبيَّة تحتاج إلى سرعة عالية جداً، أعلى سرعة يحقِّقها رد الفعل الناتج عن احتراق الوقود السائل، تبينها لك: الصواريخ التي تدفع الكبسولة إلى الفضاء الخارجي، ويبلغ ارتفاعها ارتفاع بناء شاهق، وفيها ألوف الأطنان من الوقود السائل، وكلُّها تحترق في وقت قصير جداً من أجل أن تنطلق المركبة.

كان إنسان جاهلاً بالفيزياء والكيمياء، والفلك، والسرعات، وردود الفعل والحركات والسكنات، وهو جاهل بكل هذه العلوم، ويريد أن يسقِّه آراء العلماء بهذا الموضوع، فهل هذا معقول ؟ لا، لن يُقبل، ولن يُعقل أن يكون الإنسان جاهلا، ثم يكون حَكمًا أو وصيًّا على علماء كبار؟.

فنحن مشكلتنا قبل أن تقول: هذه لم تعجبني، وهذه القضيَّة غير واقعيَّة، وهذه غير معقولة، قبل أن تقول فهل درست الإسلام ؟ هل فهمت القرآن ؟ هل اطلعت على السُنَّة النبويَّة المطهَّرة ؟ فأنت معلوماتك تُتَف، أخطر شيء في الحياة نصف العالِم، قرأ عددًا من المجلاّت، وعددًا من المقالات، وسمع حكايات وأقاصيص مهزولة، ثم يجعل من نفسه شيخ الإسلام، فأنت ليس لديك معلومات دقيقة، فقبل أن تنتقد، قبل أن تهاجم، قبل أن تقترح على الله عزّ وجل، قبل أن تقول: هذا غير واقعي، غير منطقي، قبل أن تقول: هؤلاء، لا بدّ من أن تتعلم، قال تعالى:

(الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا)

فهل من الممكن لإنسان يقرأ عددًا من المجلات الطبيَّة أن يصير طبيبًا ؟ إن هذا ليس ممكنًا، فالطبيب درس دراسة منهجية، درس السنة الأولى الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، وقضى سنة بالتشريح الوصفي، وسنة بعلم الأمراض، وسنة بعلم الأدوية، وسنة بالمعالجة السريريَّة، وسنة يدخل تجريبات عمليَّة، سبع سنوات، ثم ليصبح طبيبًا يحتاج إلى اختصاص، فهل من الممكن لإنسان يقرأ فقط مجلات طبيَّة، ويجلس مع عدد من الأطبَّاء ثم يدَّعي أنه صار طبيبًا ؟ فهل يعقل هذا الشيء؟

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ)

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ

أساس تعلُّم الإنسان التواضع، نصف العالِم مشكلته كبيرة جدًا، لا هو عالِم فيفيد من علمه، ولا هو جاهلٌ فيتعلّم. والآية دقيقة:

(الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ)

خطورة استخدام العقل:

المجادلة ؛ إنسان لديه فكر، وعَنْ الفكر قلت لكم مرّة: إنه سلاح خطير، جهاز بالغ التعقيد، هذا الجهاز إما أن يرقى بك إلى أعلى عليين، وإما أن يهوي بك إلى أسفل سافلين، كآلة طبع ملوّنة ثمنها مليون ليرة من الممكن أن يستخدمها الإنسانُ استخدامًا رائعًا جداً، فيجمع منها أموالاً طائلة، ويلمع اسمه في الحياة، ومن الممكن أن يُزوِّر عليها عملة تودي به إلى السجن، وهي هي الآلة، هكذا العقل البشري ممكن أن يقودنا إلى أعلى درجة من التألّق والسعادة، وممكن إذا استخدمناه لغير ما خلقه الله عزّ وجل أن يهوي بنا إلى الشقاء.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19))

(سورة المدثر)

إذاً: فنحن قبل أن ننتقد، قبل أن نَرُدّ الحقائق، قبل أن نرفض، قبل أن نتفلسف لابدّ من معرفة هذا الدين العظيم، بدءاً بقرآنه الكريم، ومروراً بسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وانتهاءً بسيرة النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا علمت عندئذٍ تتحجّم، فهؤلاء.

(الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ)

لابد من الحُجة والسلطان العلمي:

الحجّة سلطان، فالحجّة هي كلام مقنع، ولكن أحياناً تكون مثلاً صامتًا، يواجهك شخص يغلي ويفور كالمرجل، فتتكلّم معه بكلمة يسكت، ويقنع، لمصلحته، فالحجّة قوّة، الله عزّ وجل سمّاها حجّة وسمّاها سلطانا.

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 83)

وسمّاها سبحانه وتعالى السلطان.

(بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ)

التواضع من لوازم العلم:

هم لمْ يتعلّموا فكيف يناقشون ؟ الإنسان يناقش إما بحجّة، أو بعلم، أو بكتاب منير، فلا كتاب منير لديه، ولا علمٌ ولا حجّة، ومع ذلك يناقش، لأن المناقشة لا تكلِّفه شيئًا، بالعكس تعمل له نوعا من الوجاهة في المجتمع، وأنه إنسان حر لا يقبل كل شيء بداهةً، ولكن لو عرف عظمة هذا الدين لصار أمامه كالطفل الصغير، والعالِم الحق كلّما ازداد علمه تواضع، وكلّما قلّ علمه تكبّر، والعلاقة بين الكِبر والعلم علاقةٌ عكسيّة، يزداد الكبر مع قلة العلم، ويزداد التواضع مع وفرة العلم، يقول الإمام الشافعي: **" كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي "**، ويقولون: **" يظل المرء عالِماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد عَلِم فقد جَهِل".**

حينما يظن الإنسان أنه عالِم فهو جاهل، وأجمل كلمة تقال: فلان طالب علم، لا تقل: عالِم لأن العالم هو الله عزّ وجل، كلمة عالِم ثقيلة، فقد تجده يقول: أنا من علماء دمشق، ليقُلْ: أنا من طلاب العلم، لأنك قد عرفت شيئاً، وغابت عنك أشياءُ.

قل لمن يدّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

* * *

التواضع من لوازم العلم، والتكبُّر من لوازم الجهل.

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا)

فلو أردنا أن نوضّح هذه الآية بمثل لقلنا: إنسان جاهل يجلس بين علماء أفاضل ـ في أي اختصاص ـ هم يتكلّمون، وهو يردّ عليهم، وينتقد كلامهم بلا دليل، وبلا حجّة، ولا برهان، أليس هذا التنطُّع مدعاة للاشمئزاز والاحتقار ؟ فالسكوت مناسب جداً له، فربنا عزّ وجل قال:

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ)

إنسان جاهل لا يعرف شيئًا، يريد أن يدخل في موضوعات دينيّة كبرى، يدلي برأيه السخيف، وينتقد، ويجعل عقله هو الحكم في كل قضيّة، هذا الشيء مستحيل، فهذا يكسبه مقتاً عند الله، ومقتاً عند المؤمنين، لكن التواضع، والتعلّم هذا شيء من صفات الإنسان الكامل، لذلك قال سيدنا علي: **<< قِوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلّم>>.**

من لوازم العالِم أنه يستعمل علمه، من لوازم الجاهل أنه يتواضع، ويقبل على التعلُّم **<< عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلّم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالِم علمه، واستنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغنيٌ بماله، وباع الفقير آخرته بدنيا غيره فقد اختل كل ميزان وتاه كل عقل >>.** لذلك:

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ الّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتَكَبّرٍ جَبّارٍ)

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتَكَبّرٍ جَبّارٍ

1 ـ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ كِبْرٍ:

أولاً:

عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

[مسلم]

لماذا ؟ لأن الكبر يتناقض مع عبوديّة الإنسان لله عزّ وجل، وكل إنسان نازع الله الكبرياء قصمه الله، فمن الممكن للحليب أن يتحمّل ماءً من دون أن تغشّه، فلو أراد أحد أن يضيف ماءً له لجاز، أمّا أن يضع معه زيتا فقد فسد، ويجب أن يلقى في القمامة، أما الكبر فمهما كان قليلاً فهو مرفوض، والإنسان مهما كان كِبْرُهُ قليلاً يحجبه عن الله عزّ وجل، لأن كبره حجابٌ بينه وبين الله عزّ وجل:

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتَكَبّرٍ جَبّارٍ)

2 ـ العلاقة بين الكبر والتجبُّر:

كيف هناك علاقة بين الإسراف وبين الارتياب، هناك علاقة بين التكبُّر والجبروت، فالمتكبّر إذا بطش دمّر، قال تعالى:

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّارِينَ(130))

(سورة الشعراء)

فالتجبُّر ليس ظلماً فقط، بل هو ظلم، مع كبر، مع عنجهيّة، مع تدمير، مع إيقاع الأذى الشديد، هذا هو التجبُّر، وأساسه التكبُّر، والمؤمن بريء من التكبُّر والتجبُّر، والله سبحانه وتعالى قهر كل الجبابرة بالموت سبحان من قهر عباده بالموت والإنسان مهما كان عالياً في الأرض فلابدّ من أن يموت، كل

مخلوقٍ يموت، ولا يبقَ إلا ذو العزّة والجبروت، والليل مهما طال فلابدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلابدّ من نزول القبر، وسبحان من قهر عباده بالموت، فالمتكبّر والجبّار يجولان جولاتٍ ثم يزولان، ويقصمهما الله عزّ وجل، أما المؤمن فإنه ينمو، كلّما ازداد عمره ازداد مكانةً ورفعةً، لأنه متواضع، وبالتواضع تأخذ أعلى درجة.

انظر إلى الأكحال وهي حجارةٌ لانت فصار مقرُّها في الأعين

* * *

الحجر عندما لان أصبح يوضع في العين، والكحل أساسه حجر.

ما لي سوى فقري إليكَ وسيلةٌ فبالافتقار إليك فقري أدفعُ

ما لي سوى قرعي لبابك حيلةٌ فإذا رددتَ فأيّ بابٍ أقرعُ

* * *

علامة المؤمن التواضع، بالتواضع يعلو، والإنسان غير المؤمن متكبّر، وبالتكبُّر يَسْفُل، فربنا عزّ وجل يرفع المتواضعين، ويقصم العتاة والجبّارين. إذاً:

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)

وبعد تأملوا، وانظروا إلى هذا الموقف السخيف:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ(36)أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ)

من مواقف فرعون السخيفة:

فرعون يريد الوصول إلى إله موسى:

قد تجد أشخاصًا متكبّرين، جبابرة، فانظر أين صاروا ؟ انتهوا بالتعبير البسيط إلى مزبلة التاريخ، تجدهم إذا ذُكِروا فالنفوس ضاقت بهم، والعقول مجّت سيرتهم، وأقوالهم، وأفعالهم، أما المؤمنون الصادقون فسيرتهم تُعَطِّر المجلس، انظر لهذه السخافة، إنه إنسان بل عبد ضعيف يريد تعمير بناء، قال:

(فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا)

فالإنسان لا يكون بأعلى درجاته إلا وهو مؤمن، لا تراه منطقياً إلا وهو مؤمن، لا تراه في كمالٍ رائع إلا وهو مؤمن، أما مع الكبر، والبعد، والانقطاع، والإسراف، والتجبُّر تراه في أدنى دركاته، لذلك

الإنسان يعلو ويهبط، ويكبُر ويصغر، يرتفع ويسقط، بالإيمان ترتفع، بالإعراض عن الله تسقط، بمعرفة القرآن ترقى، بالبعد عن كتاب الله تسقط.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ(36)أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ)

فرعون وآله في عذاب القبر غدوًا وعشيا:

الله سبحانه في آيات أخرى قال عنهم:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(46))

(سورة غافر)

هذا هو البرزخ، لقد مضت ستة آلاف سنة بيننا وبين فرعون، اضربها بثلاثمائة وخمسة وستين يومًا، ضرب اثنين غدواً وعشياً والذل والهوان إلى الأمام.

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(46))

أما المؤمن وهو في قبره يغدو عليه قبرُه روضةٍ من رياض الجِنان.

إن شاء الله في الدرس القادم ننتقل إلى الآيات التالية:

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ(38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ(39)مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (12-20): تفسير الآيات 38 - 42
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-08-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة غافر، ومع الآية الثامنة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ

الذي آمن هو مؤمن آل فرعون، موضوع القصة في هذه السورة، هناك وقفةٌ متأنيّة، عند كلمة:

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ)

1 - لابد للناس أن يتبعوا هدى الله:

من الذي ينبغي أن يتبعه الناسُ ؟ هذا سؤال كبير، إذا كانت لديك آلةٌ بالغة التعقيد، عظيمة النفع، كثيرة الرزق، إذا تعَطّلت هذه الآلة تبحث عمن يحسن إصلاحها، ويحسن تشغيلها، إذا أصابها خلل عمن تبحث ؟ الحقيقة أن الإنسان بالفطرة إذا كانت عنده آلة بالغة التعقيد وأصابها خلل يسأل صانعها، يسأل الخبير، لذلك قال تعالى:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

لو كان لك صديق تحبه حباً لا حدود له، وعندك جهاز حاسب بالغ التعقيد تعطّل، هل تسأله لإصلاحه؟ لا، مع أنك تحبه حباً لا حدود له، بل تسأل الصانع، تسأل الشركة الصانعة، تسأل الخبير.

فهناك سؤال: أنا كإنسان من الذي ينبغي أن أتبعه ؟ مَن ؟ أيعقل أن أتبع إنساناً ضالاً ؟ فأضل معه، أو أتبع إنسانًا منحرفًا فأنحرف معه، أو إنسانًا جاهلاً فأجهل معه، من الذي ينبغي أن أتبعه ؟ لا تستطيع أن تتبع إلا هَدْى خالقك، ولأن الله سبحانه وتعالى رحيمٌ بخلقه، خلق الخلق وأرشدهم.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة النور: من الآية 35)

خلق السماوات والأرض ونورها بهديه.

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: من الآية 30)

جاعل اسم فاعل يقتضي الاستمرار، فلا يعقل أن تخلو الأرض من الحق، لا يعقل أن تخلو الأرض من الهدى، لا يعقل أن تخلو الأرض من خطاب السماء، بطولتك أيها الإنسان أن تصل إلى خطاب السماء، أن تصل إلى هدى الله عزّ وجل، أن تصل إلى ما أنزله الله على الأنبياء والمرسلين، إذاً لا يُتَّبَع إلا الرسل الذين جاءهم الوحي من عند الله، هذا بادئ ذي بدء.

2 ـ اتباع العلماء العالمين بشرع الله:

من هم العلماء ؟ هم الذين نابوا عن الرسل في تبليغ الحق، العالم ليس له وجود إلاّ أن يَشِفُ عن شريعة الله، يشف عن رسالة الأنبياء، ثم ينقُل لك بأمانةٍ، وهذه قد سميت أمانة التبيين ـ أمانة التبليغ ـ ينقل لك بأمانةٍ ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام، إذاً قال تعالى:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

خالق الكون ينهاك عن أن تتبع إنساناً تائهاً، إنساناً شارداً، إنساناً ضالاً، إنسانا غافلاً.

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

بالمقابل:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان: من الآية 15)

3 ـ أهمُ رجلٍ في الحياة هو الذي يدلك على الله:

بالمناسبة أيها الإخوة، نحن كأشخاص في حياتنا رجال كثيرون، في حياة كل واحد منكم آلاف الرجال، رجل عِلمُهُ علمٌ عصري، رجل علمه رياضيّات، رجل علمه فيزياء، رجل علمه لُغة، إنسان خاط لك الثياب، إنسان عالجك من المرض، ففي حياتك آلاف الرجال، لكن أخطر رجل في حياتك هو الذي يدلُك على الله، لأن هؤلاء الرجال مهما كثروا تنتهي مهمّتهم عند الموت، الذي خاط لك الثياب تنتهي مهمته عند انتهاء الخياطة، الذي عالج زيداً من مرضه تنتهي مهمته عند موت الإنسان، فعند الموت تنتهي مهمة كل الرجال الذين كانوا في حياتك، إلا رجلاً واحدًا هو الذي دلّك على الله، فآثار هدايته تبدأ بعد الموت.

أخطر إنسان في حياتك هو الإنسان الذي تهتدي به إلى الله، فإن كان على حق فقد نجحت وأفلحت،

وإن كان على باطل، وقد توهمت أنه على حق، وهو ليس على حق فقد ضحّيت بسعادتك الأبدية.

اعلمْ أنّه لا يُتّبع إلا الخبير، والله وحده هو الخبير، لا يتبع إلا الخالق، لا يُتبع في الآلات إلا الصانع، والخالق جلّ جلاله أنزل كتباً على رسله، ونحن أمة خاتم النبيين، وهذا الكتاب هو كتاب الله عزّ وجل، إذاً الاتباع للنبي عليه الصلاة والسلام، ولمن يَشِفُ عن دعوة النبي بأمانةٍ مطلقة.

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ)

الحقيقة هذا الذي يقول لك: اتبعنِي، وهو على الحقيقة الجلية والمحجة البيضاء فإنه يدعوك إلى اتباع منهج الله عزّ وجل، والدليل:

(أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

4 ـ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ

إلى الله، سبيل الرشاد قالوا: سبيل الهدى، وقالوا: سبيل الجنة، لأن الجنة هي مطمح الآمال، ومحط الرحال، ومبتغى كل كائنٍ حي.

(أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

أنت لماذا خُلقت ؟ للجنة، لماذا خلقنا الله عزّ وجل ؟ ليسعدنا في جنةٍ عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين، فأي إنسانٍ يطبق منهج الله فهذا المنهج هو سبيلٌ إلى الجنة، سبيل على المجاز.

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

من هنا يجب أن يفهم الإنسان أن أخطر شيءٍ في حياته الدين، هناك أشياء كثيرة لو أخطأت في اقتنائها فليست مشكلةً، فالرجل إنْ لم يوفق في شراء البيت فالقضية مؤقتة، لم يوفق في اختيار الزوجة فمن الممكن إصلاحها، والقضية كذلك مؤقتة، وما دام الأمر دنيوياً فهذه النتيجة الإيجابية أو السلبية يزول أثرها عند الموت، أفلح في شراء هذا البيت، أفلح في الزواج من هذه المرأة، أفلح في تأسيس شركة كبيرة، فلاحه أو إخفاقه ينتهي عند الموت، ولكن الشيء الخطير ما بعد الموت، إذًا المهم الاتباع، فاتباع إنسان يدلك على الله أهمّ شيءٍ في حياتك، ربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: من الآية 108)

يجب أن تدعو على بصيرة، أو أن تتلقى العلم على بصيرة، والبصيرة الدليل والتعليل، هذا الشيء حرام، وهذه الآية تحلل وتحرّم، وهذا الحديث ينهى أو يأمر، والله عزّ وجل يقول:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ)

(سورة النساء: من الآية 59)

إلى مَن تُردُّ أحكام النزاعات ؟

(وَأُوْلِي الأَمْرِ)

هم العلماء والأمراء، قال سبحانه:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

(سورة النساء: من الآية 59)

تنازعتم معهم.. أحرام أم حلال ؟... إلخ

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ)

(سورة النساء: من الآية 59)

إلى الله: إلى كتابه، رسوله: سنته.

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

الرشاد سبيل الجنة، سبيل السعادة الأبدية، السبيل المُفضية إلى الهدف الكبير الذي خلقتم من أجله.

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ

1 ـ الدنيا متاعٌ عابر زائل:

فالمتاع الشيء الطارئ، الشيء العابر، الشيء الذي ليس له أثر، لو أن إنسانًا فرضاً قام بنزهة، وسُرَّ بها، لكن هذه النزهة ليس لها مردود في المستقبل، أما لو حَصَّل شهادة عليا، بهذه الشهادة يستفيد، لو أسس عملاً، بهذا العمل يستفيد، بعض الأعمال لا مردود لها، ولا أثر لها، فالدنيا متاع، أيْ لذةٌ عابرةٌ تنقضي، كما وصفها النبي عليه الصلاة والسلام:

((الدنيا تغر وتضر وتمر))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

لذةٌ عابرة نهانا الله عزّ وجل على أن نغتر بها، قال تعالى:

(فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

(سورة لقمان: من الآية 33)

معنى:

(فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

أيْ لا ترونها بحجمٍ أكبر من حجمها، شأنها قليل، وشيكة الانقضاء، سريعة الزوال، الموت على الأبواب، و**" ما من بيتٍ إلا ومَلَكُ الموت يقف على بابه في اليوم خمس مرات، فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله وانقطع رزقه ألقى عليه غمّ الموت، فغشيته سكراته، فمِن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثيابها، والصارخة بويلها، يقول ملك الموت: فيمَ الفزع وممَ الجزع ؟ ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً، ولا قرّبْتُ له أجلاً، وإنّ لي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً، فو الذي نفس محمدٍ بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميّتهم، ولبكوا على أنفسهم ".**

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)

فلو أنّ واحدًا أكل أكلة، لدقائق وانتهى الأمر، ولو أن ضرساً آلمه، فهل لذّة الطعام السابقة تنسيه هذا الألم الذي ألمّ به ؟ الطعام متعةٌ عابرة، وكل متع الأرض عابرةٌ كذلك، ولكن العاقبة لما بعد الموت، لذلك فُرّقَ بين السعادة واللذّة، السعادة متنامية ومستمرة، أما اللذة أولاً فهي عابرة، وثانياً تعقبها ندامةٌ، وتعقبها كآبة، هذه هي اللذة، لذلك مَن عرف الله عزّ وجل زهد فيما سواه، من عرف حقيقة الدنيا مال إلى الله سبحانه، ولقد قال الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

الله عزّ وجل أثبت لأهل الدنيا أنهم يعلمون ظاهرها، لأنّ الإنسان عندما يطّلع على بعض مظاهر الترف، ومظاهر الدنيا عند أهل الدنيا، يأسِره ذوقهم، وأناقتهم ودقتهم، ومصنوعاتهم الراقية، وقد تستميله هذه المظاهر، وينشغل بها عن الله عزّ وجل الذي أثبت لهم ظاهرها، ولم يثبت لهم حقيقتها، فهم ما عرفوا حقيقة الدنيا البتة.

2 ـ طبيعة الدنيا كبَد ومشقة:

حقيقة الدنيا أنها دار عمل، حقيقة الدنيا أنها دار إعداد، حقيقة الدنيا أنها دارٌ تُكتسب بها أهلية لسعادة أبدية، حقيقة الدنيا كما جاءت في قول النبي عليه الصلاة والسلام " إن هذه الدنيا دار التواء "، فلا تجد إنسانًا أموره تامة، لحكمةٍ بالغةٍ أرادها الله، عنده زوجةٌ ممتازة، لكنّ أولاده ليسوا على ما يرام، أو بالعكس فأولاد أبرار وزوجته ليست على ما يرام، عنده زوجةٌ وأولاد قرة عين لكن دخله ليس على ما يرام، أو أنّ دخله جيد، وفي جسمه علةٌ تنغِّص حياته، لأن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى الدنيا أن تكدري، وتمرري، وتضيقي، وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي، أما الكافر فقد رضي بالحياة الدنيا، واطمأن لها، وهو عن آيات ربه معرض.

(إِنّ الّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(7))

(سورة يونس)

أخطر شيء في الدنيا أن تركن إليها، أن تستمرئها، أن تخلد إليها، أن تحبها، أن تؤثرها على طاعة الله عزّ وجل، لذلك النبي قال:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح))

[ورد في الأثر]

مشحونة بالمتاعب، مشحونة بالمصائب، مشحونة بالامتحانات، مشحونة بالبلاء، أساس الدنيا قائم على السعي، أساس الدنيا قائم على الكدح.

(يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

فمن أجل أن يصل الشاب إلى بيتٍ صغير، وإلى زوجةٍ متوسطة الحال، وإلى دخلٍ يكفيه نصف الشهر، يعاني الأمرّين نكدًا وكدحًا، هذه الدنيا مبنية على الكدح.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(4))

(سورة البلد)

أيْ أنّ طبيعة الحياة تَكَبُّد المشاق، ومُرُّ المذاق، وشدة العناء. فهذا مؤمن آل فرعون:

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)

فيها تكبُّد للمشاق، فيها كَدْح، أمدُها قصير، فهل من المعقول أن يقضي الإنسان لرحلة عشرين يومًا من الإعداد بينما الرحلة حقيقة لمدة خمسة أيام ؟ الإنسان هكذا في الدنيا، لكي يقدر أن يقف على قدميه يحتاج أربعين سنة، فيا ترى متى الأجل ؟ معترك المنايا بين الستين والسبعين، وقلّ مَن يجوز ذلك، الآن ما أكثرَ مَن يَقِلُّ عن ذلك، ضغوط الدنيا والهموم، لأن من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه، وهو لا يشعر، خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً.

الضغوط على الإنسان تؤثر على قلبه، وأكثر أمراض القلب أساسها الضغط النفسي، لكن الحياة أمدها قصير، الإعداد لها أكبر بكثير من أمدها، إذاً الدنيا فيها كدح، الدنيا فيها تكبُّد، الدنيا مبنية على السعي المضني، أما الآخرة:

(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31))

(سورة فُصِّلت)

الآخرة مبنية على العطاء بالطلب فقط، اطلب تُعط، وإلى أبد الآبدين، لا فقر فيها، ولا مرض فيها، ولا قلق فيها، ولا موت فيها، ولا مشاحنة زوجية، ولا دخل قليل، ولا تجارة بائرة، ولا بضاعة كاسدة، ولا ظلامات، ولا منغصات، سعادةٌ ما بعدها سعادة:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري]

هذه الآخرة، لذلك الدنيا:

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)

أيْ متعٌ قليلة، ومتاعب كثيرة، هكذا وصفها النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء))

[ورد في الأثر]

لأنه مؤقّت.

كم من إنسان أشاد بيتاً لا يوصف بروعته، وما سكنه ؟ كم من إنسان حصّل شهادةً، ولم ينتفع بها ؟ كم من إنسان سافر ولم يعد ؟ كم من إنسان دخل بيته ولم يخرج ؟ نام ولم يستيقظ، تزوّج ولم يدخل، الدنيا تأخذ الإنسان على حين غِرّة، لذلك كثير من الناس ضحكت عليهم الدنيا، وأما المؤمن فقد ضحك عليها، عرف قيمتها، وعرف شأنها، وعرف قصر أمدها، وعرف أنها زائلة، وأنها عابرة، وأنها مؤقّتة، وعاش كمسافرٍ استظل بشجرة، وعما قليل يرحل، فإذا عرف الإنسان أن الدنيا قصيرة سعد بها، إذا عرفها أنها مديدة، وأنها هي كل شيء شقي بها، وهكذا قال النبي الكريم:

((إن أسعد الناس بها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها))

[ورد في الأثر]

وقال:

((فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، جعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضَ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

إنّ أروع ما في حياة المؤمن أنه عرف حقيقة الدنيا، الدنيا للعمل الصالح، إن عرفت الله بها، وعملت الصالحات، لا تندم على مغادرتها، لأن الله عزّ وجل قال:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

لا خوف عليه لما هو قادمٌ عليه، ولا يحزن على ما فاته منها. وقد وُصف الصديق رضي الله عنه بأنه لم يندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط.

أنت مؤمن يجب أن تعرف حقيقة الدنيا لئلا تغترّ بها، لئلا تظنها بحجمٍ أكبر من حجمها، فأنا أروي حكاية تقليدية تعبّر عن حقيقة الدنيا: إنسان كان يعمل في محل تجاري، وكان يحب إزعاج الآخرين، فكان يكنس هذا المحل، ويضع قمامته في عُلبة أنيقة ويلفها لفة رائعة بأوراق هدايا، وشريط أحمر ـ ويضعها على الرصيف، فيأتِي مارٌ يظنها شيئاً ثميناً، يظنها تحوي قطعة ذهبية أو ساعة، أو قِطعة

ثمينة، فيأخذها، ويمضي بها مسرعاً، وهو يتبعه، بعد مئة مترٍ تقريباً يَفُكُّ الشريط الحريري، بعد مائة مترٍ أخرى يفك الورق الأنيق، ثم يفتح ليرى الساعة الذهبية فإذا هي قُمامة المحل التجاري.

والله هذه الحكاية تنطبق على الدنيا أشد الانطباق، في بدايات الحياة يظن الإنسان أن المال هو كل شيء، يسعى له بأي طريق، بأي أسلوب، من طريق مشروع أو غير مشروع، في وسط حياته، وفي كهولة عمره يرى المال شيئاً، ولكن ليس كل شيء، أما إذا اقترب من النهاية يراه ليس بشيء، ويرى طاعة الله هي كل شيء، فالبطولة هذه الرؤية الأخيرة أن تراها في مقتبل الحياة فتندفع لاقتناصها، وعند الموت ترى الحقيقة.

3 ـ لابد من الإيمان في الوقت المناسب:

وأنا أردِّد دائماً أيها الإخوة: علاقتك بالإيمان، أو مقولة الإيمان، أو معادلة الإيمان ليست أن تؤمن أو ألاّ تؤمن، معادلة الإيمان متى تؤمن ؟ معادلة وقت، وليست معادلة قبول أو رفض، متى تؤمن ؟ لا بد من أن تؤمن، ففرعون قمة الكفر آمن، فرعون أسلم:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

لكن بعد فوات الأوان، إذاً كلنا سوف نؤمن، ما أتعس الذي يؤمن على فراش الموت، ما أتعس الذي يؤمن بعد الموت، ما أتعس الذي:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

ما أتعس الذي يعض على يديه.

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا(27))

(سورة الفرقان)

ما أتعس الذي:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

4 - لابد من معرفة حقيقة الدنيا:

فيا أيها الإخوة الكرام، مؤمن آل فرعون عرف حقيقة الدنيا، وأنتم أيها المؤمنون لا بد من أن تعرفوا حقيقة الدنيا لئلا تجذبكم إليها، لئلا تستهلككم، لئلا تحتويكم، لئلا يصبح الإنسان في الدنيا مستَهْلَكًا، معظم الناس يستيقظ، يأكل، ثم يذهب إلى عمله، ثم يعود لينام، وتعود الكرة، يستيقظ، يأكل، إلى أن تأتيه مشكلة في صحته، قاضية، عناية مشددة، عظّم الله أجركم، قضى و مات، الله يرحمه، لكن لِمَ كان هذا غافلاً ؟ أين معرفته بالله، يقول لك: لا وقت لي، احضُرْ هذا المجلس، فيجيبك: والله ليس عندي وقت، أنا مثقل بالأعمال، إنسان ناجح بعمله جداً، هذا يسير بطريق مسدود، كل الذي يُجَمِّعُهُ في الدنيا يتركه عند الموت، وهناك أدلة كثيرة جداً.

الأغنياء الكبار حينما يموتون ماذا يأخذون معهم ؟ انظر إلى بيتٍ رائع أنشأه غنيٌّ، ومات، وغادر الدنيا، أين هو الآن ؟ تحت الثرى، تحت التراب، هذا البيت يستمتع به أهله، لذلك **" يا أهلي يا ولدي، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة علي ".**

أيها الإخوة الكرام، ينبغي أن تضحكوا على الدنيا، لا أن تضحك عليكم الدنيا، والإنسان حينما يأتي إلى الدنيا أهله يفرحون، ويزغردون ويحتفلون، وهو يبكي، أكثر وقت الطفل الصغير يبكي، تارةً يريد طعاماً، تارةً يكون مريضا، تارةً يريد أن ينظّف، هو يبكي دائماً، وأهله فرحون، لكن حينما يأتيه ملك الموت أهله يبكون، فإذا كان بطلاً فعرف الله وعبده حقًا فليضحك في هذه الساعة، إذا كان قد عرف الله في حياته، وأعد لهذا اليوم عُدَّتَهُ، وعمل الأعمال الصالحة، عندئذٍ يضحك، ويبكي من حوله، أما أن يبكي ومن حوله يضحكون فهذا شيء طبيعي، إنّ البطولة أن تضحك ومن حولك يبكي.

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26))

(سورة يس)

هذه السعادة الكبرى أن تغادر الدنيا، وقد رضي الله عنك، أن تغادر الدنيا، وقد عرفت الله في الدنيا، أن تغادر الدنيا، وقد أطعت الله في الدنيا، أن تغادر الدنيا، وقد سَخَّرْتَ حظوظ الدنيا لطاعة الله عزّ وجل، أعطاك الله صحة أطعت الله بها، أعطاك مالاً أنفقته في سبيل الله، أعطاك علماً بذلته، أعطاك وجاهة أنفقتها في نصرة الضعيف.

إذاً: دققوا وتبصَّروا، فالمؤمن الحق ينبغي أن يعرف حقيقة الدنيا.

مؤمن آل فرعون قال:

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)

وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ

المستقَرُّ، مَحَطُّ الآمال، منتهى الغايات، حيث لا قلق، ولا خوف، ولا حُزن.

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري عن أبي هريرة]

الدخول في وعد الله من أسباب السعادة:

سألني مرة أخ: كيف تقول: إن المؤمن سعيد في الدنيا، وهو يعاني كما يعاني كل الناس فيها ؟ كل شيء يعانيه الناس فالمؤمن يعاني مثلهم، فمن أين له السعادة ؟ ضربت له مثلاً وقلت له: لو أن إنساناً فقيراً جداً، فقره مدقع، عنده أولادٌ كثيرون، دخله قليلٌ جداً، بيته بالأجرة، عليه دعوة إخلاء، له عمٌ يملك أكثر من سبعمائة مليون، وهو قابضٌ يده، وليس له أولاد، وتوفي هذا العم في حادث سير فجأةً، أليست كل هذه الثروة الطائلة لعمه ستنتقل إليه ؟ نعم، قبل أن يقبض أي مبلغ قد يمضي سنة أو سنتان في إجراء معاملات حصر الإرث وضريبة التركات، لماذا في هذين العامين يكون من أسعد الناس، مع أنه لم يقبض قرشاً واحداً، ولم يأكل أكلةً واحدةً زيادة عن وضعه السابق ؟ لأنه دخل في الوعد، إذْ شعر بأن هذا الوعد العظيم منَّاه أن يملك سبعمائة مليون، فهذا الوعد يمتص كل متاعب السنتين، كلما رأى بيتاً فخمًا يقول سأشتري مثل هذا لبيت، سأقتني مثل هذه المركبة، سأفعل كذلك.

بصراحة فالمؤمن يعاني ما يعانيه الناس، وهو مواطن مع المواطنين، كائن مع هؤلاء الذين حوله، لكن المؤمن وعدَه الله بالجنة، هذا الوعد العظيم من خالق الكون يمتصُّ كل متاعب الحياة، يقول لك: لن تطول الحياة، وعْدَ الله عزّ وجل لا يخلف الله وعده، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

إذاً: في الدنيا أحد أسباب السعادة مما يجعله يزهد فيها، و ينصرف عنها، ذلك أن المؤمن موعود من قبل الله عزّ وجل بجنةٍ عرضها السماوات والأرض، أحد أسباب السعادة في الدنيا أنه يطبّق منهج الله، يطبق تعليمات الصانع، فهو على موعد يحفزه على العمل الدؤوب.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة: من الآية 51)

لأن الله عزّ وجل حينما خلق الدنيا جعل لها نُظمًا، وقنّن قوانين، فغضُّ البصر يسعد الإنسانَ في البيت، صدقه وأمانته يرفعانه عند الناس، فكل طاعة لله عزّ وجل فيها بذور نتائجها الإيجابية، وكل معصية

فيها بذور نتائجها السلبية، إذاً: أحد أسباب السعادة في الدنيا تطبيق منهج الله، ترقُبُ إنجاز وعد الله عزّ وجل، انصراف الإنسان عن الدنيا وزهده فيها، وهذا كله من دواعي سعادته.

(وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)

المكان المستقرّ الذي لا يزول، قَرَّ الشيء أي سكن، فالدنيا حركة طائشة، أما الآخرة دار القرار.

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا)

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا

هنا تطالعنا نقطة دقيقة جداً، أيْ أنّك إذا اعتقدت أن كل سيئةٍ تعملها فلا بد من تعاقب عليها فإذا اعتقدت ذلك فلن تعمل سيئة.

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

الإنسان متى يفعل السيئات ؟ إذا ظن أنه لن يحاسب عليها، أو أنه ينجو من عقاب الله، فإذا اعتقد عقيدةً زائغةً فاسدةً مفادها أن المذنب قد ينجو فقد شك بعدالة الله عزّ وجل، لكن:

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا)

ولحكمةٍ بالغةٍ قد يجعل الله العقاب من جنس الذنْب تعليماً للخلق، المتكبّر يهينه الله، المُسرف يفقره الله، المتطلع إلى غير ما يحل له يشقيه الله فيما يحل له، وهكذا.

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ

ما معنى بغير حساب ؟ أي مهما عملت من عمل صالح في الدنيا فليس هذا العمل ثمن جنة عرضها السماوات والأرض، العمل الصالح في الدنيا ليس ثمن الجنة، ولكنه مفتاح الجنة.

من الممكن أنّ بيتًا ثمنه ثلاثون مليونا يكون ثمن مفتاحه ست عشرة ليرة، ثلاثون مليونا ثمن البيت، وست عشرة ليرة ثمن مفتاحه، فكل أعمالك الصالحة ليست ثمناً للجنة، ولكنها سبب لدخول الجنة، فرقٌ بين أن تملك المفتاح، وهو السبب وبين أن تملك الثمن، لذلك عطاء الله لا يقدّر بثمن، عطاء خالق الكون، خالق الكون إذا أعطى أدهش، فالإنسان يعطيك شيئًا ينتهي أثره عند الموت، لذلك فالله عزّ وجل لم يسمّ عطاء الدنيا عطاءً، قال:

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15))

(سورة الفجر)

هذه مقولته، ليس هذا هو الإكرام.

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16)كَلا)

(سورة الفجر)

ربنا عزّ وجل نفى هذا المعنى، وردعنا عنه، كَلا، ليس عطائي إكراماً، إنه ابتلاء، وليس حرماني إهانةً، إنه دواء، فالإنسان إذا رأى أهل الدنيا وهم ينعمون في دنياهم، وظن أنه محروم فهو لا يعلم شيئاً، لأن الله يعطي الدنيا لمن يحب، ولمن لا يحب، أعطى الملك لعدوه فرعون، وأعطاه لسليمان نبيه الكريم، إذاً عطاء الدنيا ليس مقياساً، أعطى المال لصحابةٍ أجلاّء، وأعطاه لقارون، إذاً عطاء الدنيا ليس مقياساً، يعطي الدنيا لمن يحب، ولمن لا يحب، ولكِنّه يعطي العلم والحكمة لمن يحب.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22))

(سورة يوسف)

فأنت ابحث عن شيء ثمين، إن نلته من الله كان هذا الشيء علامة حب الله لك.

إذاً:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

انظر إلى صغر ما قدمت، ثم انظر إلى عظم الأجر والجزاء:

فمن يعرض عليك هذا العرض: هات ليرة واحدة وخذ مليارًا ؟ ليس هذا العطاء معقولاً، إذًا انظر إلى صغر ما قدمت، ثم انظر إلى عظم الأجر والجزاء، ماذا قدمت أنت ؟ غضضت بصرك عن محارم الله، حضرت مجالس العلم، صليت، صمت وحججت، تزوجت، وأكلت وشربت، ولكن كنت وفق الشرع، فلهذا الانضباط، ولهذه الطاعة التي استمرت لسنواتٍ معدودة أورثتك جنةً عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين ؛ إنه ثواب المصدقين، وثقوا بالله فأوصلتهم ثقتهم به خالقًا و إلهًا وربًا:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا(20))

(سورة الإنسان)

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري عن أبي هريرة]

(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(17))

(سورة السجدة)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة)

هذه البطولة.

والله أيها الإخوة، من عرف حقيقة الدنيا عمل ليلاً ونهاراً أعمالاً صالحةً يرجو بها رحمة الله، من عرف حقيقة الدنيا ما غفل عن الله لحظة، من عرف حقيقة الدنيا فإنه يستوي عنده التِبْرُ والتراب، فإذا كان المؤمن آمنًا في سربه، معافىً في جسمه، عنده قوت يومه، فكأنما مَلَك الدنيا بحذافيرها. ماذا في الدنيا فوق ذلك ؟ أن تكون آمناً من قبل الله عزّ وجل، لا ترتكب معصيةً تستوجب عقاب الله، وتكون معافىً في جسمك، وعندك قوت يومك، فكأنما ملكت الدنيا بحذافيرها.

أحد الملوك ذات مرة سأل وزيره: مَن الملك ؟ الوزير أحرج واضطرب، ما هذا السؤال ؟ يسأل الملك مَن هو الملك ؟ فقال له: أنت الملك، قال له: **" لا، الملك رجلٌ له بيتٌ يؤويه، وزوجة ترضيه، وهو لا يعرفنا ولا نعرفه، إن عرفناه جهدنا في إذلاله، وإن عرفنا جهد في استرضائنا "**، لا يعرفنا، ولا نعرفه، هذا هو الملِك.

فكل مؤمن عرف الله، وعرف منهجه، وطبق أحكامَ منهجه في بيته، فهو والله من ملوك الآخرة، هذا الملك، هذا المُلك الحقيقي، لأنه لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لـغيرنا
ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا
ولو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بـحبنا
ولو نسمَتْ من قربنا لك نسمة لَمِتّ غريباً واشتيقانا لقربنـــا
ولو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـا

***

المؤمن التقي لا يشيخ:

إن الدنيا والله مملة، والإنسان ينتهي بها إلى السأم والضَجَر، يقول لك: مللت، أحياناً تجلس مع واحد متقدم بالسن، تحس بالملل يلفّحه من كل جانب، يشعر أن حياته غدت هامشية، أما المؤمن فإنه لا يشيخ أبداً، هو شابٌ دائماً إلى أن يأتيه الأجل، لأن هدفه كبير، تجده في السبعين والثمانين شابا. أحد العلماء في مصر بلغ مائة وثلاثين سنة، وهو بأعلى درجة من ملكاته العقلية والذهنية، عالم جليل

في الشام تخرج من تحت يده أربعة أجيال، كان يقول للطالب: أنت طالبي، وكان أبوك تلميذي وجدك تلميذي، مات في السابعة والتسعين، وهو بأعلى درجة من النشاط، منتصب القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه، يا سيدي، ما هذه الصحة ؟ يقول: **" يا بني، حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر ".**

والله إنّ المؤمن له شيخوخة تضلّ بها العقول، يزداد مكانة، يزداد وعيًا، يزداد إدراكًا ؛ والعياذ بالله إذا أمضى الإنسان شبابه في معصية الله فيُردّ إلى أرذل العمر، تجد أهله يضيقون به ذرعاً، ظله ثقيل، يعافه الناس، ينفَضُّون من حوله.

((من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

[ورد في الأثر]

يا أيها الإخوة الكرام، حينما تتعرفون إلى الله عزّ وجل، وتلتزمون أمره ونهيه، ضمنتم سعادة الدنيا والآخرة.

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

فاز.

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

اركلوها بأقدامكم، إنسان من أجل المال يعصي الله عزّ وجل ؟! لا خير في دنيا جاءت على معصية الله، المؤمن كما أقول لكم: يستوي عنده التبر والتراب، أيْ أنّ مائة مليون تقدّم إليه مع شبهة يركلها بقدمه.

والله أخ من إخواننا لا أعرفه، ولكنه أعطاني ورقة، قال لي: سمعت درس الأمانة بجامع العثمان قبل سنة، وبيدي عشرون مليون لجهة، وتوفي صاحبُ هذا المبلغ، ولم يعلم بأن مالَ أبيهم عندي، فذهبت ونقدته للورثة إرضاءً لله عزّ وجل، هذا المؤمن يستوي عنده المائة مليون مع الليرة، المبلغان كبيره وصغيره سيان في جنب طاعة الله عزّ وجل.

إذًا: القضية قضية خطيرة جداً، مصير أبدي، فالإنسان إذا اصطلح مع الله شعر بسعادة كبرى، دخل في السلام ؛ علاقاته مع ربه دخل سبلَ السلام، علاقاته مع من حوله كلها سلام، وحياة المؤمن سلامٌ في سلام.

هذا معنى قوله تعالى:

(يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40))

فأنت لم تقدم ثمن الجنة، بل قدمت سببًا لدخول الجنة، الاستقامة والعمل الصالح سبب، كمن يشتري مفتاحًا بست عشرة ليرة، ويسكن في بيت ثمنه ثلاثون مليونًا، الثمن شيء، والمفتاح شيء، هذا معنى:

(بِغَيْرِ حِسَابٍ (40))

لو الله أراد أن يحاسبك، لما وجدت أنك قد فقدت شيئًا زائدا، كلها عشر سنوات، أو عشرون سنة تبت خلالها لله عزّ وجل، ماذا فعلت ؟ كم فرضًا صليت، وكم شهرًا صمت ؟ كله معدود، بينما الآخرة أبدية من دون حساب، هذا المعنى.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نفسّر قوله:

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41))

دعوة إلى النجاة ودعوة إلى النار:

احذروا الدعوة إلى جهنم:

هناك دعوتان، دعوةٌ إلى النجاة من قِبَلِ أهل الحق، ودعوةٌ إلى النار من قبل أهل الدنيا، فإذا قال لك واحد: ضعها برقبتي، غب من الدنيا بقدر ما تقدر ـ هذه دعوة لجهنم ـ أطلق بصرك، تمتع بالحياة ـ دعوة إلى جهنم ـ خذ المال ولا يهمك، حلال على الشاطر ـ هذه دعوة إلى النار ـ آلاف التوجيهات يلقيها الناس بعضُهم على بعضٍ كلها دعوةٌ إلى النار، يقول له: ما زلت صغيراً، التفت إلى شبابك، تمتع بالحياة ـ دعوة إلى النار ـ فانتبه هناك دعوةٌ إلى الجنة، وهناك دعوة إلى النار.

إذا: دعيت إلى أكل المال الحرام فهي دعوةٌ إلى النار، إذا دعيت إلى اقتناص الشهوات من أي طريق فهي دعوةٌ إلى النار، إذا دعيت إلى معصيةٍ فهي دعوةٌ إلى النار، إذا دعيت إلى الدنيا والانغماس فيها فهي دعوةٌ إلى النار.

إذا دعيت إلى معرفة الله، فهي دعوةٌ إلى النجاة أولاً، ثم إلى السعادة ثانياً، إذا دعيت إلى طاعة الله، إذا دعيت إلى أن تقف عند حدود الله، إذا نُهيَت عن عملٍ سيّئ، إذا نهيت عن كسبٍ حرامٍ، إذا نُهيَت عن تجاوزٍ للحدود، فانتبه هناك دعوة إلى النار، وهناك دعوة إلى الجنة، دعوةٌ إلى النجاة، ودعوة إلى الهلاك، دعوة إلى السعادة دعوة إلى الشقاء، وأنت بين دعوتين، ولحكمةٍ بالغةٍ جعل الله الدعاة من الصنفين متوافرين في كلّ مكان. لا تدقق هذه الكلمة البسيطة: (لا تدقق) دعوةٌ إلى جهنم، لمَ لا أدقق ؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

يقول لك: الله غفور رحيم.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه (7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

اعلم علم اليقين أن الحساب بالذرات، وهذه آيات قرآنية، فأية دعوة إلى التفلّت، إلى التساهل، إلى كسب المال غير المشروع، إلى اقتناص الشهوات هي دعوة إلى جهنم، يقول لك: يا أخي نحن هكذا ربينا، وهكذا نشأنا، وهكذا أبي علّمنا، فهل أبوك نبي ؟ أبوك شخص من عامة الناس، قد يكون مخطئا، هناك شرع لله عزّ وجل، هناك دعوةٌ إلى النار، وهناك دعوةٌ إلى الجنة، هناك دعوةٌ إلى الهلاك، وهناك دعوةٌ إلى النجاة.

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ)

فإذا وفّق الإنسان، وحجّب ابنته يجد معارضة، ويجد من يقول: خسارة، إذا أطاعت ربها فهل بذلك خسرت ؟ إنها نجت وربحت.

إنّ الإنسان إذا تعفف عن دخل حرام يَعتَبرهُ الناس مجنوناً، ويقولون له: فرصة سنحت لك اغتنمها وخذها، المال غير مشروع، يُتهم الورعُ بعقله بآخر الزمان، لذلك:

((إن الدين بدأ غريبا، و سيعود غريبا، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي))

[كنز العمال عن عمر بن عوف المزني]

قال تعالى:

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ(41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (13-20): تفسير الآيات 41 - 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-09-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث عشر من سورة غافر، ومع الآية الواحدة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ)

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ

1 ـ احذر أيها الإنسان الدعوة إلى النار:

أيها الأخ الكريم، أنت في الدنيا بين دعوتين، بين دعوةٍ إلى الجنة، أيْ النجاة من عذاب الدنيا وبلوغ الجنة، ودعوةٍ إلى النار، فأيُّ إنسانٍ دعاك إلى شيء فقف عند هذه الدعوة ؛ ما مضمونها ؟ ما مصيرها ؟ واعلم أنّ الأمور بخواتيمها فاحذر، والعاقل يعيش المُستقبل، لكن الأحمق يعيش الحاضر، وكل إنسان يعيش لحظته فهو أحمق، الأمور بخواتيمها، وهذه الدعوة إلى كسب المال الوفير، فماذا بعد المال الحرام الوفير ؟ الموت، وماذا بعد الموت ؟ الحساب، وماذا بعد الحساب ؟ جهنم، إذاً هذا الذي يدعوك لعقد هذه الصفقة، ولكسب المال الحرام إنما يدعوك في الحقيقة إلى النار، وإن كانت الدعوة إلى كسب المال.

هذا الذي يدعوك إلى حفل ماجن، أو إلى لقاء مشبوه، أو إلى نزهة مختلطة، أو إلى رحلة فاجرة، أو إلى سهرة ماجنة، أو إلى وليمة فيها المشروبات المحرمة، أو إلى قراءة كتاب مسموم، أو إلى اجتماع ولقاء محموم هو يدعوك إلى لقاء، أو إلى، تعارف، أو إلى طعام، أو إلى مُتْعَة، فيها مخالفات شرعية قد تنتهي بك إلى النار، فارفضها معتذرًا، واعلم أنَ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

دائماً اسأل نفسك هذا السؤال: ماذا بعد ؟ دعيت إلى كسبٍ حرام وفير، ماذا بعد المال ؟ الموت، دعيت إلى مكانةٍ رفيعة، لكن لا ترضي الله، ماذا بعد هذه المكانة الرفيعة ؟ الموت، ماذا بعد الموت النار، إذاً كل من يدعوك إلى معصية الله يدعوك في الظاهر إلى متعة، أو إلى مكسب، أو إلى مغنم، أو إلى مال، أو إلى جاه، أو إلى مكانة عَلِيَّة، لكن هذه المكانة يأتي الموت فيخرجك منها، إن لم تنتهِ من تلقاء ذاتها، ويأتي بعد الموت حسابٌ عسير، وبعد الحساب العسير نار جهنم، وبئس المصير.

إذاً: العاقل يرى أنه بين دعوةٍ إلى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وكل إنسان يعطل عقله يكون ذنبه الأكبر تعطيل عقله، ليس الذنب فقط في أنه ارتكب ضلالةً، و لكن الذنب الكبير في تعطيل عقله، هذا هو الذنب الحقيقي فيقال له: أين عقلك ؟

يا عبدي، أودعت فيك عقلاً يهديك إلى الخير لمَ لمْ تستعمله ؟ وأنت إذا منحك الله عقلاً صرتَ مسؤولاً مسؤولية كبرى، فأنت بين دعوتين، وعقلك هو مناط الاختيار والحلال بيّن، و الحرام بيّن.

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ)

2 ـ أجِبْ الداعيَ إلى الجنة:

إنسان دعاك إلى طاعة الله، فماذا بعد الطاعة ؟ رضوان الله، ماذا بعد رضوان الله ؟ التوفيق، ماذا بعد التوفيق ؟ السعادة، ماذا بعد السعادة ؟ الموت، ماذا بعد الموت ؟ الجنة إلى أبد الآبدين، وقد قال تعالى:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

وقال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان: من الآية 15)

3 ـ استعمل عقلك:

لك أبٌ أنجبك، ولك أبٌ زوّجك، ولك أبٌ دلّك على الله، فالإنسان ما إن يستمع إلى كلمة توجيهٍ، أو كلمة إرشادٍ، أو دعوةٍ، فليستعمْل عقله، هذه الدعوة ما مؤدّاها ؟ الدعوة براقة، دعوة إلى أن تعيش شبابك، دعوة إلى نزهة ممتعة، جبال خضراء، وبحر، ولكن هذا المكان لا يُتقى الله فيه، هذا المكان فيه نساءٌ كاسياتٌ عاريات، النظر مُحرم، والحديث محرم، وأحياناً قد تكون الدعوة ذكيّة جداً، دعوة مبطنة؛ الدعوة لنزهة، دعوة إلى سهرة مختلطة، دعوة إلى أمسية معها غناء مثلاً، فالإنسان لا ينتبه، فالدعوة مضمونها إلى النار، لكن فانظر بعين عقلك قبل أن تنظر بعين رأسك.

إذًا: الإنسانُ العاقل يفرّق دائماً بين دعوتين، وأنت مبتلى، كل من حولك يدعوك، هذا يدعوك إلى جادّة الصواب، وهذا يدعوك إلى الشر، ودائماً الأشرار يحبون أن يكثر الأشرار، يقول لك: ضعها برقبتي، فمن أنت حتى أضعها برقبتك ؟

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

قَالَ:

((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه]

كل واحد منكم أيها الإخوة الكرام قد تُوجِّه إليه دعوة، مِن والده، مِن أخيه أحياناً، مِن صديقه، مِن جاره، مِن زميل العمل، مِن أي إنسان، قد يُدعَى إلى النار، وهو لا يدري، فيكفي أن يبخِّس لك سعيك إلى الله، كأن يقول لك: خسارتك، يكفي لك أن يضعِّف همتك إلى الله، يكفي أن يصفك بالحمق إذا اتبعت منهج الله عزَّ وجل، يقول لك: مجنون، ضيَّعت عليك فرصة العمر، والمؤمن الصادق المستقيم دائما في نظر أهل لدنيا أبله، هم يظنون أنهم أذكياء باقتراف المعاصي واقتناص الملذات، وينسون أنهم يسيرون في المنزلق الخطير، فيفيقون ذات يوم فإذا هم أغبى الأغبياء، لأن البطل هو الذي يضحك آخر الأمر، وليس في أول الأمر:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا(13))

(سورة الانشقاق)

أما المؤمن:

(وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا(9))

(سورة الانشقاق)

الكافر:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا(13))

فالإنسان قد يقبع في بيته ؛ يحب البقاء في البيت كما هو حال بعض الناس، فالملهيات عنده، الأغاني، الغيبة، النميمة، النساء اللاتي لا يحللن له أمامه مزينات، يمتِّع بصره بهن، يمزح، يطرب، يستمع.

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا(13))

بلا صلاة، بلا صوم، مع الإدِّعاء بأنّ هذا الدين ليس لهذا العصر:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا(13))

أما المؤمن في نهاية المطاف:

(وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا(9))

البطولة أن تكون في آخر السباق مسروراً، وأن تكون ضاحكاً.

إذاً: كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أراد أن يعرفنا أن الإنسان بين دعوتين، دعوةٍ إلى طاعة الله، وبالأحرى إلى النجاة من عذاب الله، وبالتالي إلى جنةٍ عرضُها السماوات والأرض ؛ أو دعوةٍ إلى

معصيةٍ، أو متعةٍ، أو كسب مالٍ غير مشروع، وبالتالي إلى موتٍ، ثمَ إلى عذاب القبر في البرزخ، وأخيرًا إلى عذاب النار وبئس المصير. فالإنسان العاقل يحكِّم عقله في أيَّةِ دعوة، والله عزّ وجل حذّر وأنذر، وقال لك:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

إنسان غافل ـ فأبسطُ شيء مثلاً أن يدعوك إنسان لترسل ابنك إلى تعلُّم اللغة الأجنبية ببلد أجنبي، الدعوة ظاهرها إتقان اللغة الأجنبية، لأن التجارة تحتاج إلى لغة، ولكن هذا الابن يافعٌ في رَيْعَان الشباب، ولا بد من أن يقيم في أسرة بريطانية مثلاً، وهذه الأسرة متفلتة، وعندها فتيات، إذ لا قيم في مجتمعهم تهذِّبهم، فيعود إلى بلده شارب خمرٍ، وقد اقترف الزنا، عاد إلى أهله، وهو يحتقر أُمَّتَهُ ودينه، فضاع متردِّيًا في وحول الضلال والخنا، وكانت في ظاهرها إتقان اللغة الأجنبية، لكنها كانت دعوة محمومة، فقد دعي إلى النار، وهو لا يدري، فليحذر الآباء، فالأولاد أمانة.

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ)

كيف يُدعى الإنسانُ إلى النار ؟

وبعدُ فكيف يُدعى الإنسان إلى النار ؟ جاءت التفاصيل، قال:

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ)

1 ـ الكفر بالله:

لأكذب بهذا الدين، والكفر بالله أنواع، في أضيق معانيه ألا تطيع الله عزّ وجل، لأنك لست قانعاً بمنهج الله تعالى، وقع ذلك، تقول: إن الله خالق الكون، ولكنك رغم هذا الإقرار لا تطيع الله عزّ وجل، وتردّ منهجه، فأنت لم تكفر بخالق الكون، ولكن كفرت بمنهج خالق الكون، حينما تأبى نفسك أن تطيع الله في أمره ونهيه، فأنت بشكلٍ أو بآخر تكفر بمنهج الله.

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ)

2 ـ الشرك بالله:

أيْ أن أربط نفسي بإنسان ما، إنسان قوي مثلا، أبيع نفسي لجهة معينة، أجعل طاقاتي وأفكاري ومالي وذكائي وطلاقة لساني وعلمي في خدمة البشر، هذا الإنسان قد يعطيني الدنيا، ولكن لا ينجيني من عذاب الله.

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ)

أيْ أنّ الحد الأدنى من الكفر أن تكذِّب بمنهجه، وعدم طاعة الله تكذيبٌ بمنهجه.

(وَأُشْرِكَ بِهِ)

أيْ أنْ أجعل مع الله إلهاً آخر، فأنت لا تقول: هو إله، فهذا إنسان، لكن تقول: هو الذي ينفعك، هو الذي يضرُّك، هو الذي إن رضي أعطاك، وإن غضب منعك، حينما تشعر أن لهذا الإنسان ثِقَلاً، ودورًا خطيرا في حياتك فقد أشركته بالله عزّ وجل.

(مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ)

مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ

أيْ من دون دليل، تقول: هذا ينفع، وهذا يضر، ولكن لا دليل لديك، أما الله عزّ وجل فالكون كله يدلُّ عليه، الكون كله يشهد له بالألوهية والربوبية والخلق، أما هذا الإنسان القوي الذي تدعونني إلى أن أكون من أتباعه، فلما اتبعته جعلته إلهاً من دون دليل، قال:

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ)

العلم يحتاج إلى دليل، العلم يحتاج إلى تعليل، الإله الذي ينبغي أن يُعْبَد هو الإله الذي يرى، والذي يسمع، والذي يستجيب للدعاء، والذي ينفع، والذي يضر، والذي يحفَظ، والذي ينصر، فهذا هو الإله الذي ينبغي أن تعبده، أما أنت تدعونني إلى إنسان ضعيفٍ مثلي فقيرٍ مثلي، جاهلٍ مثلي، يصبح مشلولاً لو جَمُدَت نقطة دمٍ في دماغه، أو لو جَمُدَت في مكانٍ أيّ آخر، لذلك:

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ)

وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ

خالق هذا الكون.

(الْغَفَّارِ)

1 ـ التوبة الصادقة تمحو الذنوب مهما عظُمت وكثُرت:

الذي إذا عُدّتَ إليه غفر لك ما مضى، دائماً الله عزّ وجل يطمّع المذنبين، مهما كانت ذنوبك.

عَن أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: قَالَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السّمَاءِ ثُمّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي]

دائماً وأبداً المذنب في بحبوحة.

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49))

(سورة الحجر)

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ)

(سورة الزمر: من الآية 53)

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)

أي لأعصيه.

(وَأُشْرِكَ بِهِ)

أن أتكل على زيد أو عُبيد، أو فلان أو عِلاّن، وأن أعطي هذا الإنسان صفات الألوهية ؛ بأنه ينفع أو يضر، يرفع أو يخفض، يعطي أو يمنع.

(وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)

2 ـ معنى العزيز:

مَن العزيز ؟ قال بعض العلماء: الذي لا ينال جانبه، وقال بعضهم الآخر: الشيء العزيز هو الشيء النادر، الذي يندر وجوده، وتشدد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، أما إذا قلنا: إن الله عزيز أيْ هو واحدٌ لا شريك له، لا يندر، وهو واحد، لا يوجد غيره، و تشتد الحاجة إليه، هذا للشيء العزيز، أما إذا قلنا: إن الله عزيز، أي أن كل شيءٍ يحتاجه في كل شيءٍ، كل شيء على الإطلاق يحتاجه في كل شيءٍ ـ لا أعتقد أن هناك كلمة أوسع من هذه الكلمة ـ عزيزٌ واحد لا شريك له، الشيء العزيز النادر الذي يندر وجوده، لكننا وإذا قلنا: الله عزيز ؛ هو الواحد الأحد، وإذا قلنا: الله عزيز فهو الذي يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، وإذا قلنا: الشيء عزيز أي يصعب الوصول إليه، لكن إذا قلنا: إن الله عزيز، يستحيل أن تحيط به، يمكن أن تصل إليه، ولكنه يستحيل أن تحيط به.

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من الآية 255)

أنا أدعوكم إلى العزيز، إلى خالق هذا الكون، إذًا: بين مجرتين تبلغ المسافة ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، إذا كان قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، هذا هو العزيز، إذا كان في الفضاء الخارجي ثقب أسود لو دخلته الأرض لأصبح حجمها كالبيضة والوزن نفسه، منطقة ضغط هائلة، هذا هو العزيز الذي خلق هذا الكون.

(وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ)

3 ـ الله عزيز غفّار:

قد يخاف الإنسان من قويٍّ، ويخشى أن يفتك به، لكن الله عزيز وقويّ، وهو مع ذلك غفار، أي رحيم، إن جئته تائباً غفر لك، إن جئته منيباً قَبِلَكَ، إن جئته مستغفراً غفر لك.

(وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)

4 ـ هنيئاً لمَن يميّز بين دعوةٍ إلى النار ودعوةٍ إلى العزيز الغفار:

لذلك أيها الإخوة، هنيئاً للأخ المميّز الذي يميّز بين دعوةٍ إلى النار ودعوةٍ إلى العزيز الغفار، بين دعوةٍ إلى الهلاك ودعوةٍ إلى النجاة، بين دعوةٍ تنتهي بصاحبها إلى جهنم، ودعوةٍ تنتهي بصاحبها إلى الجنة، بين دعوةٍ إلى الكمال ودعوةٍ إلى النقص، هذا هو الإنسان العاقل ؛ وهذا يفسّره الحديث الشريف: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي، ابن ماجه]

الآية ملخصها: بينما أنت جالس إذ قال لك واحد: افعل كذا أو لا تفعل، فإياك أن تعطِّل عقلك، استعمل عقلك، هذا يدعونني إلى ماذا ؟ إلى كَسْبِ المال الحرام، ماذا بعد المال ؟ الموت، ماذا بعد الموت ؟ الحساب، ماذا بعد الحساب ؟ جهنم، إذاً: هذه الدعوة في ظاهرها إلى كسب المال، وفي باطنها دعوة إلى جهنم.

دعاك أحدُهم إلى غض البصر، هذه دعوة صعبة في نظر الشاب غير المؤمن، لكن لو كانت الإرادة قوية، وأطعت الله في هذا الأمر، تحس بسعادة ما بعدها سعادة، لأنك أصبحت في رضوان الله عزّ وجل، و عمل الجنة أيها الإخوة حزن بربوةٍ، وعمل النار سهل بسهوة، عمل النار سهل جداً، إنّ تفجير البارود لا يحتاج إلى ذكاء، فإذا ألقى شخص فيه عود ثقاب تجده انفجر ـ فالشهوات مثل البارود، فلما

يغريك إنسان لاقتراف معصية، يدلك على فيلم ماجن، ويدلك على مجلة خليعة، يدلك على شخص تائه، أو على سهر ماجنة، فالقضية سهلة جداً، تفجير الغرائز عمل حقير، وعمل لا يحتاج إلى بطولة، ولكن ترويض النفس على طاعة الله يحتاج إلى عزيمة، فالداعية يحتاج إلى علم غزير، وإلى ذكاء، وإلى حكمة بالغة، وإلى جهد جهيد حتى يستطيع أن يسلك بإنسان طريقَ الإيمان، وقد يأتي إنسان آخر بدعوة مغرية فينقله إلى وادي جهنم، وهو لا يدري.

ومعلوم أنّ التخريب سهل والبناء صعب، فبناء الإنسان عمل عظيم أما إفساده فعمل سهل، فمثلاً من جلسة واحدة أصبح مدمن مخدرات.

وبمناسبة ذكر المخدرات، فهي أنواع، منها ما يجعل المرء مدمنًا من شمة واحدة يشمّها، ولذلك عُدِّل القانون فأصبح الحكمُ إعدامًا، من يتّجر بالمخدرات فحكمه إعدام، قد يكون طفلا بريئًا، قد يكون شابا بريئًا، يعطيه دخينة فيها حشيش مرتين فيصر مدمنًا، وصار يسرق، وصار يقترف جرائم لكي يؤمّن المخدِّر بشكل مستمر، فالإفساد سهل، أما البطولة ففي البناء ؛ أن تبني إنسانًا مؤمنًا، تسلكه طريقَ الإيمان، تسمو بنفسه، هذه البطولة، فكل إنسان يسهم في ترسيخ الإيمان، ترسيخ الفضائل فهذا عمل من أعمال الأنبياء، قال تعالى:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي(41)اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي(42))

(سورة طه)

ومن ثَمّ فإني أقول: هنيئاً لكل إنسان يسهم في بناء الإيمان في نفوس البشر، فأنت شاب طالب علم، من روّاد مسجد معيَّن، لك منهج ديني، لك مصدر علم، تقرأ القرآن، حولك أصدقاء، حولك أقرباء، حولك صغار، كبار، جيران، أخ أكبر، أخ أصغر، لمَ أنت ساكت ؟ ادعُ إلى الله، وساهم في بناء النفس البشرية، ابْنِ نفوس الذين حولك بناء صحيحًا واذكر أنه مَن يعمل مثقال ذرة خيرا يره.

(لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ)

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ

1 ـ لا تَدْعُ مَن لا يستجيب لك:

العلماء فسروا كلمة (الدعوة)، أيْ ليس له استجابةُ دعوةٍ، قال القرطبي: **" ليس له استجابة دعوة "**، فإذا اتجهت لغير الله عزّ وجل، لجهة، أو لإنسان قوي، وكنت في مأزق، وأنت بعيدٌ عنه، وليس هناك هاتف، تقول له: يا فلان، فهل يستجيب لك ؟ فإذا كان الشخص في الصحراء، وعلى مشارف الموت

عطشاً، وله شخص مركزه قوي في العاصمة، اسمه مثلاً سعيد، قال له: أين أنت يا سعيد، أين أنت يا سعيد ؟ أين أنت يا سعيد ؟ فليس من مجيب، لكن إذا قلت: يا الله، فهذا شيء آخر، لأن الله معك دائماً، ليس له دعوةٌ، ليس له استجابة دعوة، أنت بالأزمات هذا الذي تدعوه من دون الله قد لا يكون معك، وإذا كان معك قد لا يسمعك، وإذا سمعك قد لا يستجيب لك، لكنك إذا كنت مع الله، فهو معك أينما كنت، وهو يسمع دعاءك قبل أن تتلفّظ به.

2 ـ لا تَدْعُ مَن ليس له موجبات الألوهية:

وهناك معنى آخر لطيف: ليس له دعوةٌ، أي ليس له موجبات الألوهية، الإله الذي ينبغي أن تعبده ينبغي أن يكون خالق الكون، ينبغي أن يكون رب العالمين، ينبغي أن يكون واحداً في ألوهيّته، واحداً في ربوبيّته، واحداً في ذاته، واحداً في صفاته، واحداً في أفعاله يستجيب لك، ويستمع إليك، ويعلم ما في قلبك، الكون كله بيده، الناس كلهم بيده، خلاياك بيده، قلبك بيده.

المعنى الأول: ليس له استجابةُ دعوةٍ، أي لو دعوته لا يستجيب لك.

والمعنى الثاني: ليس له موجبات الألوهية، فأنت إنسانًا لا ينبغي ألاّ تعبد إلا الله خالق الكون، رب العالمين، المسيّر، السميع، العليم، القادر، المريد، الحيّ، القيُّوم، القديم، الأزلي، الذي يرفع ويخفض، ويعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، ويعز ويذل، ويمرض ويشفي، أما الذي ليس دعوةٌ في الدنيا، أي ليس له استجابة دعوةٍ، أو ليست له موجبات الألوهية فلا ينبغي أن تدعوه.

ومعنى: لا جرم: أي لا شك.

(أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ)

وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ

نحن جميعاً مردنا إلى الله، فالذي عرفه في الدنيا يسعد بهذه المعرفة، أما الذي غفل عنه في الدنيا فيشقى بهذه العودة إلى الله، يقول له:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64))

(سورة يس)

فلذلك هذه الدعوة هي موجبات الألوهية.

(لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنّ مَرَدّنَا إلَى اللّهِ وَأَنّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النّارِ)

وَأَنّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النّارِ

مَن هو المسرف ؟

من أوجه معاني هذه الآية: المسرف من تجاوز الحد، نظر إلى زوجته، فهذا من حقه، أما إذا نظر إلى أختها فهو تجاوزٌ للحد، أكل المال الحلال من حقه أما الحرام فليس من حقه، فالإنسان بكل حركاته إما أن يبقى على منهج الله، أو أن يتجاوز، والتجاوز هو الذي يُردي ويشقي.

(وَأَنّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النّارِ)

ثم يقول مؤمن آل فرعون رضي الله عنه وأرضاه:

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ)

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ

هذه النقطة دقيقة جداً، أيْ أنّ هذا الذي أقوله لكم، إن صدّقتم به فقد أفلحتم، وإن كذّبتموه فسيأتي يومٌ تصدقون به. إذاً: كما أقول لكم دائماً: القضية قضية وقت، قضية الإيمان ليس قضية أن تؤمن أو ألاّ تؤمن، إنما هي قضية متى تؤمن ؟ لأنه لا بد من أن تؤمن ولو بعد فوات الأوان.

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ)

يبدو أنهم هدّدوه بالقتل، فقال:

(وَأُفَوّضُ أَمْرِي إلَى اللّهِ إنّ اللّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

وَأُفَوّضُ أَمْرِي إلَى اللّهِ إنّ اللّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ

بصير بنياتي، بنيّتي الحسنة، وبإخلاصي لكم، واستقامتي على أمره، وهو الذي يحفظني منكم.

لابد أن تثق بوعد الله:

بالمناسبة إذا لم يطمئن الإنسان إلى وعد الله فهذا نقصٌ في إيمانه، فأحياناً يكون الإنسان مستقيمًا، ولكن إيمانه بالله ضعيف فيخاف، يخاف خوفًا غير طبيعي، خوفًا مرضيًا، فهذا الخوف عقابٌ له على ضعف

إيمانه، لو أنه قوّى إيمانه ما خاف هذا الخوف، لأن الله يعدك بالنصر، ويعدك بالحفظ، ويعدك بالتوفيق، وأنت لا تصدقه !! أنا أقول هذا لمن يستقيم على أمر الله ويخاف، فالله عزّ وجل قال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

وأنت مستقيم بحسب معلوماتك، وتخاف أن تعامل كما يعامل الكافر ! معنى ذلك أنك لا تصدق الله عزّ وجل.

هناك نقطة دقيقة وهامة: لمّا يطمئِن ربنا عزّ وجل المؤمنَ ويعده بالحفظ، والتأييد، والنصر، والتوفيق، ويقول له:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(97))

(سورة النحل)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30))

(سورة فصلت)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

كل هذه الآيات المُطمْئِنَة المبشِّرة، ثم أنت تخاف خوفاً مَرَضياً من أن تعامل كما يعامل الكافرون ! هذا ضعفٌ في إيمانك، وهذا الخوف الذي تعاني منه هو جزاء ضعف إيمانك، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام كانت لا تزلزله الأزمات الخطيرة، لأنه واثقٌ برحمة الله، واثقٌ بنصر الله، في آخر حياته أعطوه دواءً بمرض ذات الجَنب، فغضب النبي أشد الغضب وقال:

((ذاك مرضٌ ما كان الله ليصيبني به))

فأنا استنبطت من هذا الحديث أن المؤمن غالٍ على الله عزّ وجل، فلا يظن المؤمن أنه هيّن على الله، فيعامل كما يعامل الفساق والفجار والمنحرفون، فأنت مؤمن، كما أنك تحرص على رضاء الله فالله عزّ وجل يشكر لك هذا الحرص، ويحفظك ويؤيدك وينصرك ويأخذ بيدك، ويرزقك، وينصرك على عدوك ولا يتخلى عنك.

وعندما هددوه بالقتل، قال:

(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

الله موجود والأمر بيده، وأنتم في قبضته، وأنا لا أخافكم، لكني أخافُ اللهَ.

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

الأمن أكبر نعم الله عز وجل، ونعمة الأمن خاصة بالمؤمن.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

ومن ثمّ فإني أدعوكم قائلاً: الحياة الدنيا مليئة بالمفاجآت، مليئة بالمحن والمصائب، مليئة بالأخطار، فالإنسان إذا ظن أنه يعامل كما يعامل أهل الدنيا العصاة الفسّاق يكون قد أساء الظن بالله عزّ وجل، يكون ما صَدّقَ بآيات الله، المؤمن الصادق يطمئن لوعد الله، ويطمئن لتبشير الله له، يطمئن بما في القرآن من آياتٍ مطمئنةٍ، هذا هو القول الثابت كما قال الله عزّ وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة إبراهيم: من الآية 27)

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا

فجاء الجواب:

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا)

مكروا.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

ماذا حلّ بفرعون وآله ؟ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ

ادرس التاريخ، اقرأ القرآن، تجد أن الحق والباطل إذا اصطرعا فالعاقبة لأهل الحق، وللباطل الخزي والعار أبدًا، وأيّ نبي، أيّ دعوةٍ مخلصة لله عزّ وجل، فالذين يقفون ضدها ليطفئوها يبوءون بالإخفاق والخزي والعار، والذين يدعمونها فالله جلّ جلاله ينصرهم ويؤيدهم، هذا دين الله، وهذه دعوة الله، وكل مَن وقف في سبيلها قصمه الله، وكل من دعمها وأعانها وفّقه الله عزّ وجل، قال:

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا)

أيْ فهل يستقيم لعقلك أن تعبد الله، ثم لا يحميك من أعدائك ؟ هكذا ظنك بالله عز وجل ؟

(قالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(45)قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه)

معقول أن يتخلى الله عنك ؟ فأنت تعبده، وتستقيم على أمره، تخاف أن يغضب، تنفق المال في سبيله، تطلب العلم من أجله ويتخلى عنك، وتعامل كما يعامل أهل الدنيا ؟ هذا سوء ظنٍ بالله عزّ وجل، قال:

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

ما هو سوء العذاب ؟

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا

أيْ في اليوم مرتان، آل فرعون يعرضون على النار من ستة آلاف عام كل يوم مرتان، غدوا وعشياً، وإلى يوم القيامة، هذا كلام رب العالمين، والنبي الكريم قال في بعض الأحاديث:

((المؤمن يعرض عليه مقامه في الجنة غدواً وعشياً))

[ورد في الأثر]

كل يوم مرتان، لذلك قالوا: القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

إذا كان واحد محكومًا بالإعدام، وسمع صوت مفتاح بالباب يسقط أرضًا، جاءوا ليأخذوني، إذا فتحوا الباب كل يوم مرتين يتصور كل مرة أنهم سيعدمونه، فإذا أخروه عشرة سنوات، وكل يوم فتحوا عليه الباب مرتين فماذا يحدث له ؟ تجده كل يوم يموت الميتة تلو الميتة، بينما هي موتةٌ واحدة، فانتظار العقاب أصعب أحوال النفس.

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ(45)النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ

1 ـ اغتنم وقتك في الطاعة:

أيها الإخوة، هذه اللحظة الراهنة، والإنسان قد لا يقدِّر تبعاتها، فأنت الآن حي ترزق، في هذه اللحظة لو اقترف الإنسان معصية، أو لو فعل طاعة يبنى على هذه اللحظة إما سعادة أبدية أو شقاء أبديّ، فكل إنسان لا يقَدِّر قيمة الوقت مخطِئ، إذْ هو أهمّ ما تملك، لأنه وعاء العمل الصالح، فالإنسان بلحظة ما إما أن يكون في طاعة أو في معصية، إما في طلب العلم أو في طلب الجهل، إما في القُرب من الله، أو في بعد عنه، إما في الإحسان أو في الإساءة، إما في العبادة أو في الشهوة، إما مع الخير أو مع الشر، إما مع العقل أو مع اللاعقل، اللحظة الراهنة يبنى عليها حياة أبدية سعيدة أو شقاء أبدي.

2 ـ فرعون وقف موقف الكفر:

فرعون وقف موقف الكفر، قال تعالى:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

سحرة فرعون قالوا: آمنا برب هارون وموسى، هذه اللحظة التي آمنوا بها أسعدتهم إلى أبد الآبدين، فالإنسان قضية موقف عقلاني وإرادة قوية، إما أن يسعد وإما أن يشقى.

(وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ)

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

الآن المشكلة في النار.

(فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)

مَن هم المستكبرون ؟

مَن الذين استكبروا ؟ هم الذين استكبروا عن طاعة الأنبياء، واستكبروا على دعوة الأنبياء، هؤلاء الأتباع الضعفاء هم الخط العريض بالمجتمع، أيْ يشكلون الطبقة الدنيا، ففي كل مجتمع تجد أقوياء

وأغنياء، وموجهين، وهناك أناس أتباع، الضعفاء هم الأتباع، هؤلاء الضعفاء الذين اتّبعوا الأقوياء ولم يتبعوا الأنبياء، هؤلاء في النار يتحاجّون فيما بينهم وبين الأقوياء الكبراء:

(فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنْ النَّارِ)

إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنْ النَّارِ

لا يغني أحدٌ عن أحد يوم القيامة:

أكبر خطأ في العقيدة أن يتوهم الإنسان أن هذا القوي الذي تطيعه وتعصي الله عزّ وجل من أجله بإمكانه أن ينجّيك من عذاب النار، والدليل هذه الآية:

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ

1 - التابع والمتبوع من الكفار سواء في النار:

نحن معكم حضور، فما ذنب الضعفاء ؟ هنا السؤال، الجواب ليس له علاقة بالسؤال.

(وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)

في الدنيا.

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنْ النَّارِ)

يعني هل بإمكانكم أن تمنعونا وتحمونا من عذاب النار ؟

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا)

نحن أيضاً معكم قاعدون، ماذا يقصدون ؟ لو أنه بإمكاننا أن نحميكم من هذا العذاب لحمينا أنفسنا، فإنْ عجزنا عن حماية أنفسنا من هذا العذاب فلأن نكون أعجز عن أن نحميكم منه من باب أولى، نحن أعجز عن أن نحميكم من عذاب الله، لأننا معكم في النار.

(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا)

2 ـ الضعفاء عطّلوا عقولهم واتبعوا الأقوياء:

فما ذنب الضعفاء إذاً ؟ ذنب الضعفاء أنهم عطّلوا عقولهم، وتوهّموا في الدنيا أن هؤلاء الأقوياء يمنعونهم من العذاب، هذه الآية دقيقة المغزى جداً، الجواب رائع.

(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا)

نحن معكم، فإذا كان بإمكاننا أن نمنع عنكم عذاب النار نمنعه عن أنفسنا من باب أولى، هذه واحدة. لكن ما ذنب الضعفاء الذين اتبعوا الأقوياء ؟ ذنبهم أنهم عطّلوا عقولهم، وتوهّموا أنهم ما داموا أقوياء في الدنيا، فسوف يحمونهم في الآخرة، فخاب ظنُّهم. إذاً مَن هو العاقل ؟ هو الذي يعرف الحقيقة قبل أن يكشفها الواقع، يعرفها بفكره قبل أن يكشفها الواقع عملياً.

(وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنْ الْعَذَابِ(49)قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(50))

قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى

1 ـ إقامة الحجة على الكافر بكل أنواعها:

إذاً الحجة مُقامة، الكون يشهد، والعقل يشهد، والفِطرة تشهد، والواقع يشهد، والشرع يشهد، والأنبياء تشهد، والعلماء يشهدون، وكل ما في الكون ينطق بوجود الله، وينطق بسعادة من يؤمن ويستقيم وشقاء من يكفر وينحرف، قال:

(قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

2 ـ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

هذا الدعاء لا يقَدِّم ولا يؤخِّر، وأصعب شيء في الحياة أن تصل إلى طريقٍ مسدود، وأنا أُشَبِّه هذا الذي يرتكب جريمة قتل، ويحكم عليه بالإعدام، ويساق ليشنق، قبل أن يشنق الحكم مبرم من محكمة النقض، مصدق من رئيس الدولة، والتنفيذ لا بد منه، هذا الطريق المسدود، فإذا أحببت أن تضحك، أو تبكي، أو ترجو، أو تتوسل، أو تطلب فلن يفيدك شيء، ولا بد من تنفيذ الحكم، فأنت سقت نفسك إلى طريق مسدود، لذلك فالعاقل دائماً يحرص على ألاّ يصل مع الله إلى طريقٍ مسدود، فقد مات كافرًا، وقُضي الأمر.

(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)

أما العاقل فإنه يستخدم العقل ويقول: هذه دعوةٌ إلى النار، وهذا الذي يدعوني لا ينجّيني.

مرة قلت لكم: عندما قال الحسن البصري لوالي البصرة ـ واليها ليزيد ـ جاءه أمر محرج، قال للحسن: ماذا افعل، إن أطعتُ يزيد أغضبت الله، وإن أطعتُ الله أغضبت يزيد ؟ فقال له الحسن القضية سهلة: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

إذا أطاع إنسان شخصًا فاجرًا، واستحق غضب الله، وأصابه مرض خبيث، فماذا ينفعه الفاجر ؟ يبعث له باقة ورد، وإذا مات يذهب لتعزية أهله، وانتهى الأمر، هل بإمكانه أن يفعل فوق ذلك ؟ لا، لن يمنعه من الله، لكن إذا كان الشخص مع الله، والناس كلها غضبوا منه، فالله يحميه منهم كلهم، كن مع الأقوى، كن مع الفعّال، ولا تكن مع القوّال، الإنسان قوّال.

ثم يقول الله عز وجل في الآية، وهي تأتي تاج القصة:

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ

النصر المعنوي والنصر المادي:

أيْ أيها المؤمن العاقبة لك، والنصر لك، العلماء فسروا النصر إما أن حجج المؤمنين تعلو، وأفكار المؤمنين تظهر، وأن الدعوات الأخرى تسقط، والآن ألست ترى أن مذاهب دنيوية سقطت، وأصبحت في الوحل، دعت إلى الإلحاد سبعين عاماً، ثم سقطت في الوحل، أليس الدين الآن هو الأساس في الحياة؟ هذا نصر، ولكنه نصر غير مادي، بل نصر معنوي، نصر الله عزّ وجل المؤمنين بأن تظهر حججهم، أن يغدو دينهم هو الحق الأوحد، والنصر الثاني أن ينتقم من أعدائهم، على كلٍ فأنت منصور مرتين مرة بأفكارك ومرة بالقوة المادية.

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا)

هذا قانون، كلام خالق الكون قانون.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

فلا تهنوا في ابتغاء القوم، فأخطر مرض يصيب المؤمن الضعف، الاستكانة، الخنوع، القنوط من رحمة الله.

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

في الدنيا والآخرة، الله هو الحق، ولا بد من أن يظهر الحق، كن مع الحق ولا تبال.

(يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ)

يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ

فالظالم تكون قوته بكلامه، يوم القيامة:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس: من الآية 65)

فليس له أن يتكلم بكلمة ما.

(يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ

اللعنة هي البُعد، وسوء الدار هي جهنَّم، وهذا مشهدٌ من مشاهد يوم القيامة، النقطة الأساسية فيه ألا أتباع يومئذٍ، المتبع أحمق، كل إنسان يتبع القوي، ويدَع الحق، ويدَع دعوة الله، ويتوهم أن هذا القوي قوي في الدنيا والآخرة فهو أحمق، قد يكون قويًا في الدنيا، أما في الآخرة فلا يستطيع أن يفعل شيئاً، وأجاب الله سبحانه عنهم إجابة رائعة إذ قالوا بلسانهم:

(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا)

نحن معكم وفي العذاب مشتركون، لو بالإمكان أن ننجيكم لنجَّينا أنفسنا، إذاً فما ذنبكم ؟ ذنبكم أنكم توهَّمتم أن القوي يحميكم، لكن القوي لا يحميكم.

خلاصة الدرس:

لا إله إلا الله، وأيها الإخوة، عليكم بطاعته، وأنتم بين دعوتين ـ محور الدرس ـ دعوةٍ إلى النجاة ثم إلى الجنة، ودعوةٍ إلى الشقاء، ثم إلى النار، وهذه الدعوة الخاصة بالنار لها مظهر براق، كأن تكون الدعوة

أحياناً صفقة تجارية، بضاعةً محرمة، يقول لك: أنت مجنون ؛ فربحُ القرش قرشان، يغريك بالربح، يقول لك: كن مع فلان رأساً تعلو، فدعوة النار دعوة مُبَطّنه ؛ النار في داخلها، لكن في ظاهرها مال، مكانة علية، مكتسبات، بيت فخم مثلاً، دعوةٌ إلى الدنيا، ولكن على أساس مخالفة منهج الله عزّ وجل، إذاً هي دعوةٌ إلى النار.

فمحور الدرس إذًا: هناك دعوة إلى الله ودعوةٌ إلى النار، وأن التابعين لا يغنيهم أتباعُهم من الله شيئاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (14-20): تفسير الآيات 53 - 56
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-09-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة غافر، ومع الآية الثالثة والخمسين، قال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ(53)هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ

في هذه الآية شيءٌ يلفت النظر، ولهذه الآية مثيلات.

(هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

1 ـ العقل السليم طريق إلى الهدى:

اللُبُّ هو العقل، والتسمية رائعةٌ جداً، شيءٌ بلا لُب لا قيمة له، وإنسانٌ بلا عقل لا قيمة له، قِوام الرجل عقله، أيْ أنّ كل إنسانٍ أعمل عقله يهتدي بهذا الهدى، كل إنسان استخدم عقله فيما خُلِقَ له ينتفع بهذا الهدى، كل إنسانٍ حكّم عقله يستجيب لهذا الهدى، لأن هذا الهدى من عند الله، والله سبحانه وتعالى وهب العقل، وهو مقياسٌ دقيق، فمن أعمل عقله، أو استعمل عقله، أو حَكّم عقله فلابدّ من أن يستجيب لهذا الهدى، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أرجحكم عقلاً أشدّكم لله حبّاً))

2 ـ تطابقُ صريح العقل مع صحيح النقل حق:

أيْ أنّ كل ما جاء به هذا الدين فالعقل يقبله، وكل انحراف عن أحكام هذا الدين فالعقل يرفضه، فدعوة الأنبياء متطابقةٌ مع العقل، وقد ألّف علماءٌ كثيرون كتباً قيمةً في تطابق العقل مع النَقل، فتطابقُ صريح العقل مع صحيح النقل حق، بل إن هذا التطابق حتمٌ لازم، والعقل لا يقبل التناقض، ولا يقبل الازدواجيّة في الكون، إلهٌ واحد، نواميس واحدة، كتابٌ واحد، نبيٌ واحد، مقاييس واحدة، فطرةٌ واحدة، نفسٌ واحدة، عقلٌ واحد.

فالذي أقوله دائماً: الكون خلقُه، والعقل مقياسٌ أودعه فينا، والقرآن كلامه، والفطرة ميزانٌ نفسيٌ فطرنا عليها، وتطابق العقل مع النقل مع الفطرة مع الواقع شيءٌ حتميٌ لابدّ منه، لكن هذا الذي يعطِّل عقله، و تجمح به شهوته، ويركب رأسه كما يقولون ـ ويتنكّر للواقع، للمنطق، للمبادئ، للقيَم، ينجرف مع هوى نفسه، مثل هذا الإنسان قد لا يستجيب للحق، وإليكم آيةً حاسمةً في هذا الموضوع:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

3 ـ المتّبع للهوى لا يستجيب للحق:

إن الإنسان إما أن يلبّي نداء العقل أو أن يكون أسيرَ الهوى، فإذا استجاب لنداء العقل قاده عقله لهذا الكتاب، وللهدى الرباني ـ بشكل واسع ـ وإنْ كان أسيرَ الهوى وقف هواه حجرَ عثرةٍ أمام الهدى، دخل في الحوار، والمجادلة، والكلام غير المنطقي، والأدلّة الواهية، والحجج السخيفة، والطرح غير المَوضوعي، دخل في متاهة الجدال.

إذاً: فالآيات التي تشير إلى العقل والقلب واللب كثيرة.

الآية الأولى:

(لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(37))

(سورة ق)

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ(9))

(سورة سبأ)

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ)

(سورة النحل: من الآية 104)

مجمل هذه الآيات تبيّن أنّ هناك مرحلة في الهدى لابدّ من أن تقوم بها أنت، وهي تأمّلٌ صحيح، تحكيم العقل، سماعٌ لنداء الفطرة، استقامةٌ على أمر الله، إنابةٌ لله عزّ وجل، من كان كذلك تجده سريع الاستجابة، والدعاة لهم تجربة في هذا الموضوع، هذه التجربة أن الداعية يقول كلاماً رائعاً منطقياً، مدعّماً بالأدلّة والشواهد، والآيات الكونيّة، والقرآنيّة، والتكوينيّة، ويتفنّن في عرض الفكرة، وفي أدلّتها، وفي تعليلها، وفي تنويع الأساليب ؛ فمن أسلوب قصصي، إلى أسلوب حوار، إلى أسلوب علمي، إلى أسلوب تقريري، إلى أسلوب مباشر، وأمامه شخصان: شخصٌ كأنه يتغدّى بهذا الكلام، وشخصٌ يرفضه، فما سرُّ ذلك ؟

أيُّ داعيةٍ لو سألته لأجابك، ظاهرةٌ تلفت النظر، إنسان يستجيب وكأنَّك تعرفه من خمسين عاماً، إنسان يتفاعل مع كلامك الحقّ تفاعلاً رائعاً، إنسان يدخل الهدى إلى كل خليّةٍ في جسمه، تتفاعل كلمات الحق مع كريات دمه، وإنسانٌ آخر كالحجر الأصم، كالصخر الجلمود لا يستجيب، لا يتأثّر، لا يتفاعل، يا ربِّ ما السر ؟ هذا هو السر:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

الله أجاب، الله جلّ جلاله أجاب في القرآن الكريم، إذا لم يستجب الإنسان لك فهو يتّبع هواه.

الآية الثانية:

آية ثانية تؤكِّد هذا المعنى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: من الآية 4)

إذا أصغى الإنسان للحق، فرّغ نفسه للحق، استمعَ للحق وفكّرَ فيه ؛ حلّله، تأمّله، بحثَ عن دليله وتبنّاه، فذلك دليل أنه صادق، أما إذا أعرض عنه فهو يبحث عن شيءٍ آخر.

أنا أشبّه الذي يبحث عن الدنيا وتسوقه قدماه إلى مجلس علم، فهو يبحث عن الدنيا ؛ يبحث عن ملذّاته، عن مصالحه، عن شهواته، يعيش للذّته، لو ساقته قدماه إلى مجلس علم، يشبه تماماً آلة التصوير الغالية جداً، من أرقى مستوى، ولكن ليس فيها فيلم، فمهما استخدمها الإنسان فلا غطاء لها، لأنها خاوية.

(حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا)

(سورة محمد: من الآية 16)

تسأله: ماذا سمعت في الدرس ؟ يقول: والله كلام يا سيدي، كله كلام في كلام، فهو إذًا لا يعي الخير، فالإنسان الذي يطلب الحق يشبه آلة تصوير فيها (فيلم)، فكل منظرٍ يطبع على هذا (الفيلم)، فالمهم وجود هذا (الفيلم) في الآلة، فإن كنت تريد الدنيا ومن أهلها، وساقتك قدماك إلى مجلس علم، فتشعُرُ بالضيق، والسأم، والضجر لأنك في واد وموضوع الدرس في وادٍ آخر.

إذاً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

الإنسان بين مجاراة الهوى ومتابعة العقل السليم:

فأنت إما مع العقل أو مع الهوى، إن كنت مع العقل فالعقل يقودك إلى الله، وإن كنت مع الهوى فالهوى يقودك إلى المعصية، والمعصية إلى البعد عن الله عزّ وجل، وأنت بين أمرين ؛ إما أن العقل هو الذي يحرّكك، وإما أن الهوى هو الذي يدفعك، وهنيئاً لمن كان العقل يوجهه ويسدده، والويل لمن كان الهوى يأسره.

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان: من الآية 43)

إلهه هواه، شهوته فوق كل شيء، قبل كل شيء، مقدّمةٌ على كل شيء، مصلحته، وشهوته، وملذّته، ودنياه، وماله، وبيته فوق كل شيء، لكن المؤمن يؤثر الحق ورضاءَ ربه، والجنّة، والعملَ الصالح على كل شيء، فمن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين.

والله أيها الإخوة كلمة لا أشبع من ترددها، وهي عميقةٌ جداً مع أنها موجزة:

" من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ".

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[كنز العمال عن جابر]

((ابن آدم، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثمّ لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء))

[ورد في الأثر]

((اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلها))

[ورد في الأثر]

((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر الهموم))

[كنز العمال]

هُمْ في مساجدهم، والله في حوائجهم، جرّب ؛ مع أن الله لا يُجَرَّب، جرّب أن تتجه إلى الله، أن تخلص له، أن تستقيم على أمره، أن تتوب إليه، وانظر كيف أن الله ينصرك، ويرفع ذكرك، ويسعدك، وييسِّر عملك.

قانون التيسير والتعسير:

الآن تطالعنا قضيَّة محيّرة للناس، يقولون: فلان محظوظ ـ هذا كلام ليس له معنى ـ فلان حظُّه قليل، هذا هراء أما الصواب فإنّ في القرآن تيسيرًا أو تعسيرًا فقط، والتيسير له قانون والتعسير له قانون، أما التيسير:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7))

كلام واضح كالشمس.

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(10))

(سورة الليل)

والنبيُّ اللهمَّ صلِّ عليه من عادته إذا رأى شيئًا صعبًا كان يقول:

((اللهمّ لا سهل إلا ما جعلته سهلاً))

[سلسلة الأحاديث الصحيحة]

إذا يسَّر الله أمرًا فعندئذٍ تجد العجب، تجد الغريب يخدمك، عدوُّك اللدود في خدمتك، وإذا عسَّر الله عزّ وجل أمرا تجد أن أقرب الناس إليك يتخلّى عنك، تنشأ المشكلات تِباعاً، قضية شائكة، عقبات، كلّما حللت قضيَّة تنشأ قضايا، فإذا كنت مع الله لا يضل عقلك، ولا تشقى نفسك، ولا تندم على ما فات، ولا تخشى مما هو آت، هكذا الآيات.

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

والذي ساقني لهذا الكلام قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ(53)هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

هناك ناس من غير لبٍّ وعقلٍ:

ماذا ينفع أن تبثَّ محطّة الإذاعة برامجها الرائعة، وليس عندك جهاز استقبال، مهما تكن هذه البرامج رائعة، أحاديث عميقة، برامج إخباريَّة واسعة جداً، محاضرات قيّمة، ولكن ليس لديك جهاز استقبال، الله عزّ وجل هدى الخلق ؛ هداهم بالكون، وهداهم بالقرآن، وهداهم بالأنبياء، وهداهم بأفعاله، وهداهم بالفطرة، وهداهم بالمعالجة النفسيَّة، وهو يهديهم دائماً، العقبة أن تهتدي أنت، أن تملك جهاز الاستقبال،

فالشيء العجيب أن أكثر الناس يقولون لك إذا دعوتهم إلى الهدى: **"حتى الله يهديني"**، هذا كلام لا معنى له، كلام مضحك تماماً، فالله هداك لكل خير، بقي عليك أن تستجيب أنت.

إذاً: هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

أحياناً من باب التسلية بعض الناس يقشّرُ برتقالة بمهارة، ويعيدُ قشرتها كما كانت من دون لُب بإحكامٍ بالغٍ، فالمنظر برتقالة، بحجم البرتقال ؛ بلونها، بتألّقها، بلمعانها، بإغرائها، تمسكها فتجدها فارغة، مجرد هيكل خارجي، إذًا هناك شخص من دون لب ـ أيْ من دون عقل ـ شهوته تحرّكه، عُلبة فارغة، برتقالة مفرّغة من مضمونها، هناك كثير من الفواكه تقشّر وينزع لبُّها، وتبقى قشرتها وتبدو لناظرها كأنها ذات لبٍ، الإنسان غير المؤمن بلا لُب، فهذا القرآن، وهذا الدين، وهذا الشرع.

(هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ(54)فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ

1 ـ الدنيا قائمة على الاجتهاد والصبر:

إنّ الدنيا قائمة على بذل الجهد، والكد والكَدح، دار الامتحان، ودار الابتلاء، أساسها كشف الطويّة، الغاية منها أن يأخذ الإنسان أبعاده، وأن يجتاز الامتحان المحتوم، والآيات كثيرة جداً.

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنّةَ وَلَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضّرّاءُ وَزُلْزِلُوا)

(سورة البقرة: من الآية 214)

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنّةَ وَلَمّا يَعْلَمْ اللّهُ الّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران: من الآية 92)

(أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

بهذه البساطة أقول: هناك جامعة رائعة جداً، عظيمة جداً، فهل إذا داوم الإنسان محاضرتين ينال دكتوراه بهذه البساطة ؟وبهذه السذاجة ؟ لابدّ من امتحان، وهل كل إنسان ادّعى أنه مؤمن صار مؤمنًا، واستحقّ الجنّة ؟

(أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

من دون فتنة، من دون ابتلاء، تستقيم على أمر الله زمناً لأنك تبتغي الغِنى، فالله لن يغنيك، هذه استقامة مخدوشة بطلب الغنى، تستقيم على أمر الله ليكثر زبائنك في المتجر، فالله جلّ جلاله يريدك خالصاً من دون شائبةٍ، هذا هو الإخلاص، فلابدّ من امتحان، قال:

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

2 ـ وعدُ الله حقّ:

وبعدُ، فهذه نقطة دقيقة المعنى جداً، وعدُ الله حق، العلماء فرّقوا بين الوعد والوعيد الوعيد لغير الخير، والوعد للخير، عندما وعد ربنا عزّ وجل المؤمن بالجنّة، أو وعده بالنصر، أو وعده بالتوفيق، أو وعده بالحفظ، أو وعده بالعِز، وعده أن ينصره، وأن يحفظه، وأن يعزّه وأن يوفِّقه، فوعد الله حق، فإذا رأينا رؤيةً ساذجة أن هذا الوعد لا يتحقّق أو لم يتحقّق، كيف نفسِّر ذلك ؟

التفسير بسيط، فهذا الذي وُعِدَ بالهدى ليس في مستوى الوعد، لو أني وعدت طالبًا نال مائتي درجة في الثانوية أن أدخله مثلاً الفرع الفلاني، الوعد صحيح، والوعد حق، ولابدّ من أن يقع، لكن هذا الطالب نال مائة وخمسين درجة، فكل إنسان يقرأ وعدًا من الله للمؤمنين ولا يراه قد حقق واقعيًا، فليس له إلا تفسير واحد ؛ وهو أن هذا الذي وُعِد ليس في مستوى الوعد، فوعْدُ الله لِلمؤمنين صادق وحق، والآيات واضحة.

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنّنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور: من الآية 55)

هذا وعد، هل هناك جهة أعظم من الله عزّ وجل ؟

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

هذا تعجُّب تقريري.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللّهِ)

(سورة التوبة: من الآية 111)

واللهِ زوالُ الكون أهون على الله من ألاّ يفي بوعده، البطولة أن تكون أنت الموعود، أن تتحقّق فيك صفات الموعود، الله قال:

(يَعْبُدُونَنِي)

فإذا عبد الناس غير الله، واكتفوا بانتماءٍ شكليّ للدين، وطالبوا ربهم بوعده، طبعاً وعدُ اللِه للمؤمنين الصادقين، للمؤمنين التائبين، لا لمن يدّعي الإيمان، وعدُه لمن وسعتهم السُنَّة، ولم تستهوهم البدعة، وقد تجد بيتًا فيه كل المنكرات، والاتجاه إسلامي ! فما قيمة هذا الاتجاه ؟

الانتماء الفكري للإسلام لا يكفي:

الفكر البشري إذا فكّر في المبادئ كلها يرى أن مبادئ الإسلام أعظمها واقعيَّةً، أعظمها منطقيَّةً، أقربها إلى ذاته، فهناك الآن إسلام فكري لا إيماني، والإنسان العاقل الذكي المفكِّر يقرأ فيقول: والله الإسلام شيءٌ عظيم، هذا دين ودولة، ودين متوازن، وفطرة، وعقل، وواقع، وجسد، وعلاقات اجتماعيَّة، يتفلسف ساعة على ميّزات الدين، وهو في الأساس ليس مطبّقاً لمبادئه، ولا ملتزمًا بالقيام بأركانه، فالانتماء الفكري للدين لا يكفي، وأساساً الشيطان قال:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

(سورة ص)

الانتماء الفكري وحده ليس له قيمة، فأنا أفكِّر فأجد الإسلام عظيمًا ؛ أجلْ إنّ الإسلام عظيمٌ، فمتى كان الإسلام غير عظيم ؟

أضرب مثلاً واحدًا: شخص نظر إلى قرص الشمس، تأمّلَ تأمّل وفكّرَ، قطّبَ حواجبه، حكّ رأسه، ثم قال: الشمس ساطعة، ومن قال لك: إنها غير ساطعة ؟ ومن يصدِّقك إذا قلت: غير ساطعة ؟ إنها ساطعة، أنت ماذا فعلت ؟ ما فعلت شيئاً، ولم تضف جديداً.

فإذا قلت: الدين حق، والإسلام حق، والقرآن حق، يا أخي الشرع حق، وهذا الدين عظيم، وهذا دين المستقبل، وهذا دين الأمّة، هذا كله كلام، فنحن نريد التطبيق، أين أنت منه ؟ أين مواقفك ؟ أريد بيتًا إسلاميًا، أريد عملاً إسلاميًا، أريد أخلاقًا إسلاميَّة، أريد وقوفًا عند الحلال والحرام، أريد معاملة إسلاميَّة، أريد إنسانًا المالُ تحت قدمه أمام حكم شرعي، فلو كان فيه شُبهة جعله تحت قدمه.

إنّ الدنيا تجذبنا، والمال يجذبنا، والمصالح تحرّكنا، وانتماءاتنا فكريَّة إسلامية، يقول لك: الإسلام حق، يا أخي سمعنا كلمة رائعة جداً، ما شاء الله على هذا الخطيب، فهل استجبت لكلامه ؟ لا لم أستجب، والله يا أخي الحياة صعبة ومعقّدة، ونسأل الله ألاّ يبتلينا، فنحن عبيد إحسان، ولسنا عبيد امتحان، ونحن ضِعاف يا سيدي، لا يسعنا إلا عفوه وكرمه، هذا النموذج الحديث لمدّعي الإسلام، لذا ألف مليون مسلم لا وزن لهم في العالم اليوم، و في الحديث الصحيح:

((وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود عن ابن عباس]

اثنا عشر ألفًا لن يُغْلبوا، أما المليار والمائتا مليون فيُغلبون، لأن الشرط اللازم هو:

(يَعْبُدُونَنِي)

والآن لا يعبدون الله.

الشكليات لا تنفع:

النقطة في هذه الآية التي أتمنى على الله أن تكون واضحةً عندكم، كلّما قرأت القرآن، ورأيت وعداً من الله للمؤمنين، ولم ترَ على الساحة تحقيقاً لهذا الوعد، فإيّاك أن تشكّ بالوعد، ثمّ إيّاك ؛ لكن لك أن تشكّ في الشخص الذي وعده الله، لم يحقّق المستوى المطلوب، لم يأتِ بالعلامات المطلوبة، لم يأتِ بالحد الأدنى حتى يُنَفّذ له الوعد، الله هوَ هو لم يتغيّر، فالإله الذي نصر أصحاب رسول الله حتّى فتحوا العالَم من أدنى أطرافه إلى أقصاه هوَ هو ما تغيّر، القرآن الذي قرأه أصحاب النبي، واستوعبوه، وطبّقوا، فاستحقوا أن يكونوا سادة الأمم هو ذاته القرآن الذي تلاه الصحابة، وانتصروا به ؟ الآن هو مطبوع طبعات مُذهلة، كلمة الله بالأحمر، وكلمة رب بالأحمر، ومذهّب، وآيات، وفهارس، ومعاجم، تحتاج إلى مصحف، تريد الشرط هو موجود، تريده مرتّلاً فهو موجود، وكذلك إن كنت تريده مجوّدًا.

سمعت من مدّة أنّ في المغرب بَنَوا جامعًا، وهو ثاني أكبر جامع في العالم الإسلامي، لكن روعة هذا الجامع أن قبلته صُمِّمَت وفق أشعة الليزر، أيْ إذا وقفت أمام محراب هذا المسجد فأنت في القبلة تماماً، لا تنحرف عنها، ولا نصف درجة، علّقت على هذا الخبر التعليق التالي، قلت: لو أن إنساناً مستقيماً، منيباً، طائعاً، تائباً، عابداً، يعرف الله حق المعرفة، وهو مستقيمٌ حقًا على أمره، ممتلئٌ قلبه حبّاً، و إخلاصاً له، لو كان في فلاةٍ، واجتهد في معرفة القبلة فصلّى، ثم تبيّن له أنه صلى بعكس اتجاه القبلة، هو أقرب إلى الله ألف مرّة من إنسانٍ صلى في ذلك المسجد، وكانت صلاته على أشعة الليزر باتجاه القبلة، لكنه كان عاصياً لله عزّ وجل.

نحن نريد حقائق، مسجد النبي عليه الصلاة والسلام الذي انطلق منه أصحاب رسول الله كانت أرضه من الرمل، الآن تشُده للرخام الذي يغطي أرضه، فهذا رخام يمتص الحرارة، هناك أجهزة تكييف وأجهزة تدفئة، وقد دخل إخوة إلى جوامع في بعض البلدان الإسلاميّة فلو مددت يدك للحنفيّة تحت الضوء لنزل الماء آليًا (إلكترون)، ثم يتوقف الصنبور آليًا إذا سحبت يدك، ومع ذلك ليست كلمتنا هي العُليا، كل هذا التقدُّم التكنولوجي، والجوامع الفخمة مظاهر لا تقرّب العبد إلى الله حقيقة، فالعبرة في التطبيق و العمل بالتشريع مع سلامة العقيدة.

فأيها الإخوة الكرام، إذا قرأتم القرآن، وقرأتم آياتٍ كريمة تَعِدُ المؤمنين بالنصر، أو تعدهم بالحفظ، أو تعدهم بالتوفيق، فعليكم بالتبصر والتأمل وعدم الغفلة عن قوله تعالى:

(وَيَنْصُرَكَ اللّهُ نَصْرًا عَزِيزًا(3))

(سورة الفتح)

وهل هناك نصر غير عزيز ؟ هذه الوعود الإلهية كلُّها إن لم تقع فعلينا أن نشكَّ في أنفسنا، أن نشكَّ في استقامتنا، أن نشكَّ في إيماننا، أن نتحسس الخلل في عقيدتنا، وأن نتحسس الخلل في منهجنا، أن نعتقد الخلل في استقامتنا.

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

لذلك العلماء حينما فسَّروا قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

(سورة الفيل)

قال لي شخص: واللهِ أنا ما رأيت هذا الشيء، وما رأيت هذه الحادثة، بل سمعت بها، ولكن ما رأيتها، والله يقول:

(أَلَمْ تَرَ)

كأنه يتمنَّى أن تكون الآية: ألم تسمع ؟ هي:

(أَلَمْ تَرَ)

بماذا أجاب المفسِّرون ؟ أجابوا بأن خبر الله لشدَّة أحقيَّته ووثوقه وصدقه كأنك تراه، وأنا بدوري أقيس على هذه الفكرة أنّ وعْد الله لأحقيَّة وقوعه كأنه وقع، والدليل:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من الآية 1)

معنى هذا أنه لم يأتِ بعد، انظر التعبير القرآني.

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

المعنى أنه ما أتى، تعرف ذلك من قوله تعالى:

(فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

هو قال:

(أَتَى)

عبَّر عما يحدث بالمستقبل بالفعل الماضي تحقيقاً لوقوعه.

إذاً ربنا عزّ وجل قال:

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

لذلك أحد الصحابة قال: **<< والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً >>**، أيْ أنّ يقينه بوعد الله قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء.

صحابي آخر قال: **<< والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي >>**، أيْ أنه استنفذ طاقته في الطاعة، وإخواننا السائقون يقولون ـ العدّاد مغلِق ـ هذه أقصى سرعة ينطلق بها، فهذا هو المؤمن الذي يستحقُّ وعد الله عزّ وجل، ويستحق النصر والتأييد، فنحن نجد المساجد مليئة، أما البيوت فليست إسلاميّة، والأسواق غصّت بالضلالات، ونساءٌ كاسياتٌ عاريات، وعمّت تلك الأسواق الأيْمَان الكاذبة التي تدكّ الآذان، جعلها أصحاب المحلات فخاخاً لاغتنام الأرباح.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ))

[متفق عليه]

فيها التدليس، فيها الكذب، فيها الغش، فيها بيعٌ لا يرضي الله عزّ وجل، فيها بيعٌ يشبه الربا، هذه أسواقنا، وهذه بيوتنا، فإذا كنت قد قرأت في القرآن وعدًا للمؤمنين بالنصر، ولم تجد هذا النصر، وقرأت وعدًا للمؤمنين بالحفظ، ولم تجد هذا الحفظ، قرأت وعدًا للمؤمنين بالتوفيق، وما وجدت التوفيق، فالقضيّة بسيطة جداً، عليك أن تشكّ بالموعود لا بالوعد، هذه فكرة دقيقة صائبة.

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ)

معنى حق أيْ أنّهُ لابدّ من أن يقع، وزوال الكون أهون على الله من ألاّ يقع.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

هذا وعد إلهي لكل مؤمن، هذه الآية لا علاقة لها بالظروف المستجدّة، لا علاقة لها بالأزمات، لا علاقة لها بالفَقر، لا علاقة لا بالضَعف، لا علاقة لها بالمرض، إنه وعدٌ إلهي.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ

من معاني استغفار النبي من الذنب:

العلماء وقفوا عند هذه الآية مواقف عديدة، بعضهم قال: استغفر لذنب أمّتك ـ شيء جميل ـ بعضهم قال: تعبّد الله النبي بهذا الدعاء، أيْ ادعُني هكذا ليقتديَ بدعائك أمّتُك من بعدك، استغفر لذنبك تعبُّداً، أيْ

تعبدني بهذا الدعاء لتكون قدوةً لأمّتك من بعدك. وبعضهم فسَّر ذنب النبي عليه الصلاة والسلام تفسيراً رائعاً وهو أن النبي كلّما عرف الله في درجة، ثمّ عرفه في درجة أعلى يشعر أنه قد وقع في ذنب، ذنبه أنه ما عرفه حقّ المعرفة، ما قدّره حقّ التقدير، هذا تفسير أيضاً.

إما: **" واستغفر لذنب أمّتك "**، أو أن الله سبحانه وتعالى أمره أن يتعبّده بهذا الدعاء لتَقتديَ به أمّته من بعده، وإما أن ذنب النبي عليه الصلاة والسلام له تفسيرٌ يليق بكماله، إنه كلّما عرف الله، ثمّ عرفه معرفةً أعلى، شعر أن معرفته السابقة ذنبٌ من الذنوب، كما لو أنك ظننت أن فلانًا يحمل هذه الشهادة، وعاملته على أنه يحمل هذه الشهادة، ثمّ اكتشفت أنه يحمل شهادة أعلى، تشعر بالخجل أمامه، ظننته في مستوى أقلّ مما هو فيه، هذه بعض التفاسير.

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ

1 - معنى العشي والإبكار:

العشي والإبكار قال بعضهم: صلاة الفجر وصلاة العصر.

وقال بعضهم: قبل أن تُفرَض الصلوات الخمس كانت صلاتان ؛ صلاةٌ في الفجر، وصلاةٌ قبل النوم.

2 - لابد من التسبيح في كل وقت:

على كلٍ القصد أن المؤمن عليه أن يسبّح الله عزّ وجل في أوقاتٍ دوريّةٍ في يومه وليله، لأن ذكر الله غذاءٌ للقلوب، والأطبّاء يتحدّثون دائماً عن الغذاء المتوازن، تحتاج إلى بروتين، تحتاج إلى نشويات، وتحتاج إلى معادن، تحتاج إلى فيتامينات، تحتاج إلى خضار، فواكه، مواد دسمة مثلاً، والتعبير الآخر لابدّ من غذاءٍ متوازن، فأنت تحتاج إلى غذاء لجسمك، وهذا معروف وبديهي، وليس له مشكلة، لكنك تحتاج إلى غذاء لعقلك، وهو العلم، تحتاج إلى غذاء لقلبك، وهو الذكر، وتلاوة القرآن تقع في رأس الذكر، والاستغفار يعد من الذكر، والدعاء يعد من الذكر.

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

2 - لابد من محبّةِ الله المنعِم:

لذلك:

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

أيْ أنّ عليك أن تحب الله لهذه النعم التي أنعمها عليك، فأنت من فرقك إلى قدمك مغموسٌ بنعم الله عزّ وجل، أقرب نعمة لك ذاتك، جسمك الذي بين جنبيك.

نعمة البصر، أحد الأدباء الذين فقدوا بصرهم، كان يذهب إلى بلد أوروبي يصيّف فيه ـ توفي هذا الأديب ـ خطر في بالي مرّة أنه لو وُضع في قرية من قرى الصعيد بغرفة فيها مكيّف فشأنه كما لو كان في ذاك البلد الغربي، لأنه لا يرى شيئاً ؛ جمال الطبيعة، جمال الجبال، جمال البحار، كل ما خلق الله من جمال لا معنى له بلا هذه العين، معنى ذلك ؛ انظر إلى عظمة ما أنت فيه من نعم: نعمة البصر، فنعمة السمع، نعمة النطق، نعمة العقل، نعمة الحركة:

((وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا))

[الترمذي عن ابن عمر]

نعمة السُمْعَة الطيّبة بين الناس، نعمة الأهل والتئام الأسرة في البيت، نعمة المأوى، نعمة الأولاد، فأنت مغمور بالنعم، وأقلُّ شيء في الجسم القناة الدمعيّة، لو سُدّت لصار الدمع دائماً يسيل على الخد، والدمع قلوي يحدِث التهابات في الجلد، فتحتاج إلى مراهم، وإلى محارم، وإلى مناديل، لأن القناة الدمعيّة سُدّت، كل شيء يعمل بانتظام ؛ القلب يعمل بانتظام، الرئتان، المعدة، الأمعاء، البنكرياس، الغدّة الدرقيّة، الغدد الأخرى تعمل بانتظام، الكظر، والنخاميّة، الأجهزة، العضلات، الأعصاب، الأوتار، جهاز الإدرار، كله سالم ومنتظم، هذه كلها نِعَم، وتتوجه أخيرا نعمة الهدى الذي يرقى بك إلى الله.

نعمة الإيجاد والإمداد والرشاد:

لذلك قال العلماء: هناك ثلاث نعم كبرى، نعمة الإيجاد، فأنت موجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

ونعمة الإمداد ؛ أمدّك بالهواء، أمدّك بالماء، بالطعام، بالشراب، بالأهل، بالبنين، بالمأوى.

وأخيرًا نعمة الهُدى والرشاد، وهي في رأس النعم كلِّها.

(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

1 ـ الجدل لردّ الحقّ:

هذه الآية دقيقة المدلول جداً، الإنسان أحياناً تتضارب مصالحه مع الهُدى، يتوهَّم أنه لو اهتدى لفَقَد مكانته، أو فقد منصبه، أو فقد دخله الكبير، له دخل مشبوه، لو أنه تاب إلى الله من هذا العمل لفقد دخله، لو أنه تابع النبي عليه الصلاة والسلام لفقد زعامته، هناك أشخاصٌ أقوياء أو أغنياء يتوهَّمون أن مصالحهم تتناقض مع اتِّباع الهدى، لذلك يلجؤون إلى ردِّ الهدى، إلى تكذيب الدعوة، إلى الحديث عن أغلاطها، عدم منطقيّتها، هذا سمَّاه الله الجَدَل، فالكلام الباطل هو الذي ليس رجل انم يقف عليهما، وليس عليه دليل ولا منطق، ولا واقعية، خلا من كل حقيقة، هذا الكلام المبني على أدلّة واهية، وعلى لقطات مفتعلة وفيها طعن في الدين، هذا الكلام سمَّاه الله في القرآن الكريم جدلاً.

(وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا(54))

(سورة الكهف)

لأن أساس حياته شهوته، فإذا دعوته إلى الدينِ، والدين طبعًا يحدُّ من شهوته، فإنه يرفض هذا الدين، كيف يرفضه ؟ يدَّعي أن هذا الدين كذب، يدَّعي أنه سِحر، يدَّعي أنه كِهانة، يدَّعي أنه خيالات، يدَّعي أنه أوهام، يدعي أنه غيبيّات، فما يقوله أعداء الدين من أن الدين غيبيّات، أو أوهام، أو مشاعر نفسيَّة مرضيَّة، أو شعور بالضعف أمام قوى الطبيعة، هذا الذي يقوله أعداء الدين ما هو إلا جدل، والسبب أنهم توهَّموا أن اتباع الهدى يحدُّ من شهواتهم، وأن اتباع الهدى يقيّدهم، أو أن اتباع الهدى يفقدهم مراكزهم، أو أن اتباع الهدى يفقدهم دخلهم الكبير، لذلك يلجؤون إلى محاربة الدين، ويلجؤون إلى الطعن بالدين، وإلى تفنيد حقائق الدين، كما يلجئون إلى أدلّةٍ واهيةٍ متداعية، فماذا قال الله عزّ وجل في شأن هؤلاء ؟ لقد قال سبحانه:

(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ)

2 ـ الجدال بغير حُجّةٍ طمعا في المكانة العليّة:

بدون حجَّة، وبدون دليل، ومن غير هدى، وليس لديهم كتاب منير، ولا نقل صحيح، ولا عقل صريح، قال:

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ)

يطمعون في منزلة عليَّة ولو اهتدوا لفقدوا هذه المنزلة، يتطلعون إلى ثروة طائلة، ولو تابوا إلى الله لفقدوا هذه الثروة، هذا الكبر، إما أنه كبر معنوي، أو كبر مادي يمنعهم من الهدى.

3 ـ المجادل بغير حق لا يبلغ هدفه الدنيوي:

لكن الشيء المؤسف أن هذا الكبر.

(مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ)

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[الجامع الصغير عن أنس]

هذا مثل يوضِّح الفكرة: لو أن إنسانًا يقود سيارة وأمامه طفل، فخاف أن يدهسه، فوضع رجله على المسرّع بدَل المكبح، ما الذي يحدث ؟ يقتله، أخطأ الطريق، وأخطأ الهدف، هذا الحديث اجعلوه شعاراً لكم:

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

أيْ أنّك إذا أردت أن ترضي الزوجة لتسعد بها على حساب دينك فلن تسعد بها، سوف تكون أشقى زوجٍ على وجه الأرض، لو أردت بهذه التجارة المحرّمة أن تصبح غنياً، لن تكون إلا أفقر الناس، إذا كان في الحياة شيء يناقض هذا الكلام ائتوني به.

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[الجامع الصغير عن أنس]

على مستوى التجارة، على مستوى الوظيفة، إذا أردت أن تتقرّب من هذا الذي هو أعلى منك رتبة في الوظيفة، فعصيت الله إرضاءً له، فلن يزيدك هذا العمل إلا بعداً عنه، وهو يحتقرك، يخلق الله الظروف فيبعدك عنه، أنت عصيت الله من أجله، فالله ألهمه أن يسخط عليك، وهذه سنّة طردية، لذلك أنا أمتحن عقل الإنسان من هذا الباب، هل يسلُك إلى أهدافه طريق الصحيح ؟ إن سلك إلى أهدافه ـ وقد تكون أهدافه مشروعة ـ إن سلك إلى أهدافه المشروعة طريقَ التقوى فالله عزّ وجل يوفقه ويسدِّده، وإلاّ يخطئ أهدافه، ويجانبه التوفيق، بل قد يكون قد تردّى في ضلال، ويجني الفشل و الخيبة.

هناك حفرةٌ سحيقة ما لها من قرار، وهنا قصرٌ منيف رائع، وأنت بين الحفرة والقصر، فإذا سلكت إلى هذا القصر سبيل المعصية اقتربت من الحفرة، وابتعدت عن القصر، وإذا سلكت لهذا القصر طريق الطاعة اقتربت منه، أيْ لا يمكن أن يتحقّق هدفٌ سامٍ وغاية صالحة على وجه الأرض إلا بتوفيق الله، لقول الله عزّ وجل:

(وَمَا تَوْفِيقِي إلا باللّهِ)

(سورة هود: من الآية 88)

لذلك:

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[الجامع الصغير عن أنس]

إذا خالف الإنسان أمر الله عزّ وجل في البيع والشراء ليحصِّل ثروةً طائلة، هذا المال الذي حصّله يمحقُه الله، ويتلفه، وما أكثر الطرق التي يُتْلف بها المال، يقول لك: لست محظوظًا، والحقيقة أن تلفُه بسبب المعاصي، ويا ربِّ لقد عصيتك، ولم تعاقبني، فوقع في قلبه: أن يا عبدي لقد عاقبتك ولم تدر.

احفظوا هذا القول:

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[الجامع الصغير عن أنس]

هنا يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ)

هم عرفوا أن النبي على حق، وأن دعوته حق، وأن القرآن حق، وأن الجنّة حق، وأن الآخرة حق، لكنهم لو تبعوه لفقدوا مكانتهم في قومهم، وفقدوا زعامة قريش، وصاروا من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، في نظرهم صاروا سوقةً، وقد كانوا سادةً، لذلك عارضوه، وناجشوه، وكذّبوه، وقالوا: ساحر، وشاعر، وكاهن، ولم يصدِّقوه، وائتمروا على قتله، وأخرجوه، فماذا كانت النتيجة ؟ أنه خاطبهم، وهم قتلى في بدر فقال فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ:

((يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَسْمَعُوا ؟ وَأَنَّى يُجِيبُوا، وَقَدْ جَيَّفُوا ؟ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا))

[مسلم]

(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ)

ليس لديك حجّة، وليس لديك دليل، وليس من آية كريمة واضحة، ولا حديثٍ صحيح، ولا منطق ولا برهان، لكنك تريد أن تعارض الدين رغبة في المناجزة وكبرًا، وأن تتهمه اتهامات باطلة، أن تنعته بما هو بريء منه، تريد أن تطعن برجال الدين مماحكة، لأنهم إذا دعوك إلى الله حَدُّوا من شهوتك، هؤلاء.

(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ)

هذه (إن) حرف نفي بمعنى ما، أيْ ما في صدورهم إلا كبرٌ.

(مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ)

4 ـ المعصية لا تقودك إلا إلى الخسارة:

بالتعبير العامي ـ لا يحلمون فيها ـ لا تحلم عن طريق المعصية أن تنال أهدافك، سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعزُّ من عاديت، لا تحلم أن تصل إلى هدفك بالمعصية، المعصية لا تقودك إلا للهاوية، المعصية لا تقودك إلا إلى الذُل، المعصية لا تقودك إلا إلى الفقر، المعصية لا تقودك إلا للمصيبة، المعصية لا تقودك إلا للهلاك، لذلك:

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ)

فاحذر أن تكون منهم، فالتعليم لنا معشر المؤمنين، إياك أن تبتغي أمراً بمعصيةٍ، إياك أن يمنعك كبرك، ومركزك، ومكانتك، ومالك عن أن تستجيب لأمر ربّك، فهناك من أعمام النبي من هم أكبر منه سناً، بعضهم استجاب له فكان إذا سُئل عن النبي يقول: **<< هو أكبر مني، وأنا ولدِتُ قبله >>**، فالله رفع شأنه، جعله في أعلى عليين، والذين عارضوه، وكذّبوه كبراً وحسداً قال الله عنهم:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2)سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(3))

(سورة المسد)

فبشكل عام لا تمنعك مكانتك، علمك، شهادتك، مكانتك الماليّة، مكانتك الاجتماعيّة أن تحضر مجلس علم، لا تمنعك مكانتك أن تستجيب لإنسان مخلص في دعوته، يهدف إلى إرساء الحق في المجتمع، أخي أنا أكبر منه في السن، أنا أفهم منه، أنا أذكى منه، أنا لي مكانة أسمى، هذه عنعنات جاهليّة، قال جبلة بن أيهم لعمر الخليفة:

كيف ذاك يا أمير هو سوقةٌ وأنا عرشٌ وتاج ؟

كيف ترضى أن يخرّ النجم أرضَ ؟

قال له:

هذه نزوات الجاهليّة، ورياح العنجهيّة قد دفناها، وأقمنا فوقها صرحاً جديدا، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيدا

* * *

الإسلام سوّى بين الناس، الإسلام أعطى قيَمًا خالدة.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

زعيم قريش وقف في باب عُمر ساعات لم يؤذن له، أما بلال وصهيب يدخلان بلا استئذان، قال له بعد طول انتظار: **<<زعيم قريش يقف في بابك ساعاتٍ دون أن يؤذن له، وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان ؟! قال عمر: أأنت مثلهما >>**. إنه عزُّ الإسلام.

ثم قال تعالى:

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ)

5 ـ الكبر ماديٌ ومعنويٌ:

إما كبر مادي، خائف على ثروته، كأن يكون ممن يتعامل بالرّبا، فكل مجلس علم فيه كلام عن الربا يهاجمه، ويدّعي أن هذا الشيخ لا يفهم. لماذا ؟ لأنه يتناقض مع مصلحته الماديّة، فهذه المجادلة أساسها مصلحته، قال:

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ)

أو كبر معنوي، له مكانة، إذا اتّبع أهل الإيمان صار تابعًا، ولم يعد الشخص الأول.

(مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ)

وبالتعبير العامي ـ لا يحلمون فيه ـ أي لن تتحقق أحلامهم، بل ستبقى أحلامهم أوهامًا، والدليل التاريخ أمامكم، كفّار قريش ما مصيرهم ؟ دُفِنوا في قليبٍ في بدر، أصحاب النبي ؛ رفع الله شأنهم، وأعلى مكانتهم، وفُتِحَت البلاد على أيديهم، ونحن نترضّى عنهم كل يوم، وازن بين أبي جهل وبين عكرمة بن أبي جهل، هذا سيدنا عكرمة، والثاني تقول: أبو جهل، لأنه جهلٌ في جهل، أو قل: جهل مركّب.

(مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

المعرض عن الحق غواه الشيطان فلابد من الاستعاذة منه:

فالإنسان ليحكِّمْ عقله، وليخضعْ نفسه للحق، وليروّض نفسه على قبول الحق والرضا به، وأحياناً الإنسان الكبير يدفعه الكبر، ويحول بينه و بين الحق والصواب، بينما يكون مجلس العلم عند المؤمن روضة من رياض الجنّة، تتعرف فيه على كلام الله عزّ وجل، وتفهم معانيه و مراميه، وهذا مكسب عظيم جداً، تعرف كتابك المقرّر الذي سوف تُمتحن به، تعرف منهجك، تعرف دستورك، تعرف خطاب الله لك، تعرف ماذا يريد الله منك، كل هذا في كتاب الله، وكل هذا في مجالس العلم، فالإنسان يدّعي بأنه لا وقت لديه إنما هو فريسة للشيطان، قاده مِنْ ناصيته واستقاده، و لم يعد قادراً على الإفلات منه، قال سبحانه في وصفهم:

(كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ)

(سورة التوبة: من الآية 65)

الدنيا لديه لعب ولهو، وهناك سهرة تروّح عن نفسه بعد أسبوع من عمل متواصل كما يدّعي، وقد يدّعي أن السوق اليوم مقبلة رابحة، ومنذ وقت والأسواق كاسدة، وهذه فرصة لا يريد أن تفوته، والخلاصة أن الدنيا أثيرة، وآخرته هينة رخيصة، لذلك:

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (15-20): تفسير الآيات57 - 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-09-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة غافر، ومع الآية السابعة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

لهذه الآية معانٍ عدّة، من أبرز معانيها:

المعنى الأول:

أن الله سبحانه وتعالى يبيّن للناس أنكم إذا أنكرتم البعث ـ بعث الأجساد يوم القيامة لتحاسبوا على كل ما فعلته أيديكم في الدنيا ـ إذا أنكرتم البعث، لاستحالة البعث في نظركم فهذا إنكارٌ موهوم، لأن الذي خلق السماوات والأرض قادرٌ على أن يُعيد هذه الأجساد إلى ما كانت عليه، وقادرٌ على أن يحاسبها، لأن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

هناك قريبا من مليون مليُون مجرّة، وإذا كان في المجرّة قريبا من مليون مليون نجم، وبعض النجوم يكبُر الشمس بملايين المرّات، وبعض النجوم يتّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، ونجومٌ لا يعلم عددها إلا الله، والكائنات في تنوُّعٍ عجيب، ولقد قرأت قبل أيام كلمة أن هناك مائتي مليون نوع من الكائنات الحيّة.

(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني:

أما المعنى الثاني: أنه إذا قلنا: إنّ الإنسان قد صنع هذا الشيء فهو إذًا صانع، إذا وازنّا بين صنعة الإنسان وصنعة الله عزّ وجل فهناك فرقٌ كبير، فالكُلية الاصطناعيّة لها حجمٌ كبير يزيد على حجم هذه الطاولة، والإنسان يحتاج إلى أن يبقى ثماني ساعات لينظّف دمه في عملية غسيل من حمض البول،

ويحتاج هذا في الأسبوع مرّتين، يُعطّل عن عمله، ويدفع أجراً باهظاً، وهذه الكلية الصناعيّة لا ترقى إلى الطبيعيّة إطلاقاً، فلابدّ من أن يبقى من حمض البول نسبة في الدم لا تستطيع الكلية الصناعيّة أن تنقي الدم منها.

لكن الكلية الطبيعيّة، وللإنسان كليتان صغيرتان تعملان بلا صوت، فيهما طاقةٌ للتصفية تزيد عشرين ضعفاً على حاجة الإنسان، أي أن كل كلية حجم تصفيتها عشرة أمثال حاجة الإنسان، تعملان بلا صوت، بلا ألم، بلا تعطيل.

وازن بين هذه العين وآلة التصوير، بينهما مسافةٌ كبيرةٌ جداً، هذه العين تلتقط الصور آناً بعد آن، مباشرةً، وتراها بحجمها الطبيعي، وبألوانها الزاهية دون أن تحتاج إلى سحب الفيلم، وطبع الفيلم، وتحميض الفيلم، مباشرةً بالحجم الطبيعي، ولو أتيت بأرقى آلة تصوير لما أمكنك أن ترى هذه الألوان الدقيقة التي في وجوه الناس، والعين البشرّية ترى من اللون الواحد ثمانمائة ألف درجة، أي لو درّجنا اللون الأخضر ثمانمائة ألف درجة لأدركت العين الصحيحة السليمة الفرق بين درجتين، دقّةٌ ما بعدها دقّة، وتنوُّعٌ ما بعده تنوُّع.

يكفي أن العين البشريّة فيها عملية المطابقة التي يعجز عن تصوُّرها الإنسان، عدسةٌ مرنة يزداد تحدبها، أو يزداد انبساطها، حيث إن خيال الشيء المنظور يبقى على الشبكيّة دائماً، وعمليّة المُطابقة عمليّةٌ تأخذ بالألباب، فلو جئت بعدسة من البلور، ووضعت أمامها شمعة، وضعت خلفها ورقا مقوّى، وحرّكت هذه الورقة، إلى أن ترى خيال الشمعة صغيراً ومقلوباً في مكانٍ ما من الورقة، هذا المكان الذي يبعد عن العدسة اسمه المِحْرَق، لو أبعدت هذه الصحيفة من الورق المقوّى ميليمترًا لأصبح الخيال غير واضحٍ، فكيف أن العين ترى الناس في الطريق يتحرّكون؟.

أحياناً تُلاحظُ العينُ الكرةَ في الملعب، وتلاحقها حيثما اتجهت، كيف ترى العين دائماً الأشياء بوضعٍ دقيقٍ صحيحٍ واضح ؟ والشبكيّة بعدُها ثابت عن العدسة، ولابدّ أن العدسة هي التي يزداد تحدبها وانبساطها حيث يبقى الخيال على الشبكيّة دائماً، هذه عملية إدراكها صعب فضلاً عن إحداثها. أي شيءٍ إذا أردت أن تتصوّره.

(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ)

الأجهزة، السمع، البصر، النطق، ولقد قرأت مرةً أنهم لو أرادوا أن يصنعوا حاسوباً أو عقلاً إلكترونياً إن صحّ التعبير كعقل الإنسان لاحتاجوا إلى أكبر شارع في أكبر مدينة في العالم، والأبنية على الصفين كلّها صمّامات من أجل أن يكون هذا العقل كعقل الإنسان، وجميع العقول التي اخترعوها عقولٌ غبيّةٌ جداً، لا تستطيع أن تتصرّف إلا بحسب ما لقّمتها.

إذاً: لو أردت أن تمايز بين العقل البشري وهذا العقل ـ الحاسوب ـ الذي صنعه الإنسان لوجدت فرقا كبيرا جداً، يمكن أن تقضي في هذا الموضوع أشهراً عديدةً، بل سنواتٍ وأنت توازن بين صنعة الإنسان وصنعة الواحد الديَّان.

تبرّدُ الهواء بأجهزة لها تكاليف باهظة، أثمانها باهظة، والطاقة باهظة، قد تأتِي نسماتٌ عليلة تلغي كل أجهزة التكييف في البلد، يقول لك: نسمات منعشة، إذا أراد ربنا عزّ وجل أن يجعل النسيم لطيفًا وعليلًا فما هي إلا لحظات يسيرة و يصير الجو لطيفًا إلى حدٍّ قد لا يصدق.

انظر إلى وردةٍ صناعيَّةٍ من البلاستيك، مهما بالغنا في إتقانها ضع إلى جانبها وردة طبيعيَّة، تشعر بفرقٍ كبيرٍ جداً بين الوردتين، الأولى نابضة بالحياة، تتمنَّى أن تشمَّها، وأن تضمها، والثانية بعد أيامٍ عديدة في البيت تعافُها، ما دخلت إلى بيت إلا ورأيت أن الذين يضعون الأزهار الصناعيَّة يعافونها بعد فترة، لأنه لا حياة فيها، لكن الأزهار الطبيعيَّة فيها حياة، فيها رائحة، فيها جمال، فيها ألوان دقيقة جداً، هذا شيء لا ينتهي الحديث عنه.

(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

على كل، لو أخذنا المعنى الأول، أن الآخرة حق، وأن بعث الناس حق، وأن محاسبة الناس حق لعلمنا أن هذا الموضوع حق، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان خلق عبثاً يعيث المفسدون في الكون كما يشاءون ولا حساب عليهم، يقول الله عزّ وجل:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

أكثر الناس غافلون عن مصيرهم في الآخرة:

لا يعلمون أنهم سوف يحاسبون، لا يعلمون أنهم سوف يدفعون ثمن أخطائهم باهظاً، لا يعلمون أن هناك حياةً أبديَّةً لا نهاية لها، إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها، لا يعلمون أن كل درهمٍ تأكله حراماً سوف تحاسب عليه، لا يعلمون أن كل نظرةٍ لا يحقُّ لك أن تنظرها سوف تحاسب عليها، لا يعلمون أن كل كلمةٍ تتفوَّهُ بها في حق أخيك من دون دليلٍ، من دون مستندٍ شرعيٍ تحاسب عليها، لا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليجزيَهم على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

إن أردنا المعنى الأول: فالذي خلق السماوات والأرض ظاهرةٌ قدرته، ظاهرٌ علمه، ظاهرةٌ حكمته، والذي خلق السماوات والأرض على عظمها دليل على أنه قويٌ، قديرٌ، غنيٌ، عادلٌ، رحيمٌ، قادرٌ على أن يعيد الأجساد إلى ما كانت عليه، وإلى أن يحاسبها على كل ما اقترفت في الحياة الدنيا.

لا مقارنة بين خلق الله وصنع الإنسان:

وإن أردت أن تفهم الآية فهماً آخر، أنك إذا وازنت بين خلق السماوات والأرض وبين صنع الناس ترى البون شاسعاً، والمسافة كبيرةً جداً.

ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ)

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ

1 ـ المؤمن بصير والكافر أعمى:

أدقُّ وصفٍ للمؤمن أنه بصير، وأبلغ وصفٍ للكافر أنه أعمى، وأنت إذا كنت مبصراً، ورأيت إنسانًا فاقد البصر يتحرّك في طريقٍ وعرٍ، فيه حفرٌ وأكماتٌ وحشراتٌ، ورأيت كيف أنه يتحرّك دون هدايةٍ، يتّجه نحو الحفرة وهو لا يدري، يكاد يصطدم بالشجرة وهو لا يدري، تعرف قيمة البصر، فربنا سبحانه وتعالى أراد أن يُجَسِّد حالة المؤمن بأنه كالبصير، يرى الأشياء على حقيقتها ؛ يراها بأحجامها، وبأشكالها، وبألوانها، وتفاصيلها، يرى الحقيقة، يرى سرّ وجوده، يرى غاية وجوده، يرى علّة وجوده، يرى عظمة ربّه عزّ وجل، يرى منهج الله الحكيم، يرى ذلك الصراط المستقيم، يعرف أنه إذا خرج عنه سوف يحاسب، وسوف يخسر لأن منهج الله عزّ وجل فيه بذور نتائجه.

أحياناً لا ترى علاقةً علميّةً بين الشيء وما يَتْبَعَهُ، وأحياناً ترى أن هناك علاقة علميّة، فإذا مسست بإصبعك المدفأة وهي مشتعلة، فمسُّك لهذه المدفأة من نتائجه الحتميّة احتراق اليد، فاحتراق اليد نتيجةٌ حتميّةٌ لِمَسّ المدفأة، نقول: بين المسّ والاحتراق علاقةٌ علميّةٌ، علاقة سببٍ بنتيجة.

2 ـ كل معصية هي سببٌ لنتائجها:

وإذا كنت متعمِّقاً في الدين ترى أن كل معصيةٍ هي سببٌ لنتائجها، فإطلاق البصر سببٌ للشقاء الزوجي، وأكل المال الحرام سببٌ لإتلاف المال، والأمانة سببٌ للغنى، وضبط اللسان سببٌ لسعادة الإنسان، ونزاهة الإنسان سببٌ لرفعته بين الناس، فكل طاعةٍ لها نتيجةٌ نابعةٌ من الطاعة نفسها، وكل معصيةٌ لها نتيجةٌ نابعةٌ من المعصية نفسها، ففي الطاعات بذور النتائج، وفي المعاصي بذور النتائج.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

أو لا يذكرون، لأن المؤمن بصير والكافر أعمى، لو تخيلنا أن أي مخلوق رأى ما يراه المؤمن لسلك ما يسلكه المؤمن، فالأزمة أزمة علم، فالإنسان بحسب حبّه لذاته، وحبّه لوجوده، وحبّه لسلامة وجوده، وحبّه لكمال وجوده، وحبّه لاستمرار وجوده يحرص على سعادته وعلى سلامته، فلو أن مجموعة أشخاص عرفوا المعرفة نفسها لسلكوا السلوك نفسه، فالإنسان بدافع من حرصه على ذاته، على سلامته وعلى سعادته يطبّق التعليمات، فالأزمة أزمة علم فقط، لذلك: **" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ".**

كل إنسان لو أتيحت له معرفة المؤمن لصار مؤمناً، ولسلك سلوك المؤمن بالتمام والكمال.

3 ـ غضُّ البصر قيد للسلامة لا قيد للحريات:

أضرب مثلاً من واقع حياتنا الدنيويّة: لو أنّ طبيبًا هادئًا جداً وضّح للمريض أن هذه الأكلة هكذا تفعل في جسمك، والملح يرفع ضغط الدم، وبرفع ضغط الدم تصبح معرّضاً لانفجار شريانٍ في الدماغ، وانفجار شريان في الدماغ يعني سكتة دماغيّة، مما يعني الموت المحقّق، فحينما توضِّح للمريض أخطار ارتفاع الضغط، وأخطار استعمال المِلح الزائد بالدليل العقلي يقنع، بدافعٍ من حرصه على حياته، وبدافعٍ من خوفه من أن يصاب بمرضٍ عُضال يتّبع التعليمات، فالأزمة أزمة علم فقط، وأي إنسان لو أقنعته أن في طاعة الله سعادةً، وفي طاعة الله سلامةً، وفي طاعة الله توازناً، وفي طاعة الله طمأنينةً، أيّ إنسانٍ إذا أقنعته أن أمر الله عزّ وجل ليس غايتُه حدًّا من حريّتك، ولكنّه ضمانٌ لسلامتك يستقيم، وحينما تتحرّك في حقل تُفاجأ بلوحة كُتِبَ عليها: انتبه حقل ألغام، ممنوع التجاوز، هل تشعر بحقد على من وضع هذه اللوحة ؟ بالعكس تشعر بامتنان بالغ له، لأنه أراد سلامتك، يقول بعض من زاغ بصره: يا أخي قيّدونا، هذا ليس قيدًا، فمن يقول لمن وضع لوحةً تنبّه المارة إلى أن بعد اللوحة حقل ألغام: إن هذا قيد، الذي يقول: إنهم قيّدونا وضيّقوا من حريّتنا، هذا جاهل، أما العاقل فيشكرهم على هذه اللوحة لأنها ضمانٌ لسلامتنا.

فإذا كنت عاقلاً وفهمت أوامر الدين هذا الفهم فإنك لا ترى أن في غضّ البصر تقييداً لحريّتك، بل فيه ضماناً لسلامتك، لا ترى في كسب المال الحلال تضييقًا للمكاسب، بل هو سلامةٌ لها، لا ترى في اختيار الزوجة الصالحة تضييق لمجال الاختيار، لا، إنك تضمن سعادتك الزوجيّة طوال حياتك حينما تبحث عن امرأةٍ مؤمنةٍ صالحة، فكلّما ازداد إيمان الإنسان يرى أن أوامر الله عزّ وجل ونواهيه ضمانٌ لسعادته، وسلامته، وأنه كلّما ضعف إيمانه يرى أوامر الشرع ثقيلةً عليه، تجده يقول: أوامر الشرع ثقيلة يا أخي، الدين أعباء كله، الإنسان من دون تديُّن، طليق ؛ وفي إطلاقه راحة، هكذا يدعي.

ربنا عزّ وجل وصف الكافرين بأنهم في ضلال، كلمة (في) تشير إلى دخول شيء في شيء، الكافر بارتكابه أغلاطاً كثيرةً ؛ بكسب المال الحرام، بإطلاق شهواته عشوائيًا على عواهنها، لابدّ من أن يقع في مغبّة أعماله الشريرة، لابدّ من أن يقع في فَخ، لابدّ من أن يقع في مَطب، لابدّ من أن يدفع الثمن باهظاً لذلك يشعر بأنه محبوس، إنه مُقَيّد، إن هذه النفس مقيّدةٌ بمعصيتها.

(وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(81))

(سورة البقرة)

(أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(22))

(سورة الزمر)

أما المؤمنون:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 5)

الهُدى يرفعهم، الهدى في ظاهره أنه قيود، أما في حقيقته رفْعَة، وعلو، وسمو، وطلاقة، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

المستقيم عندما قيّد نفسه ملك حريّته، والفاسد لما أطلق لشهواته العِنان فَقَدَ حريّته، أليس هذا واضحاً في المجتمع ؟ الذين يسرقون، أو يزنون، أو يرتكبون الموبقات ثم يُلقى القبض عليهم، ويودعون في السجون سنواتٍ طويلة، هؤلاء ألم يكونوا أحراراً ؟ ولأنهم تحرّكوا بلا منهج بلا دستور فقدوا حريّتهم، أما الذين انضبطوا بالمنهج بقوا أحرارًا طوال حياتهم، ففي الحياة مفارقة، كلّما ضبطت نفسك ضبطاً ذاتياً ملكت حريّتك، وكلّما تفلّتت من قواعد الشرع فقدت حريّتك، وأبلغ مثل: الذي أمضى حياته في طاعة الله، وفي تحري الحلال، وفي خدمة الخلق، وفي الأمر بالمعروف وفي النهي عن المنكر، وفي تلاوة القرآن، وفي تعلّم القرآن، وفي تعليم القرآن، الذي أمضى حياته في إطار أباحه الشرع الحنيف، و سمح به، إذا جاءه ملك الموت كيف تكون حاله ؟ يقول له: مرحباً، نحن مشتاقون إلى لقاء الله عزّ وجل، أما الذي أطلق لشهواته العِنان في الدنيا، إذا جاءه ملك الموت فهو من أشقى الناس، لأن كل هذه الحريّة الموهومة، والتفلّت من قواعد الشرع جعلته في قيودٍ ما بعدها قيود، جعلته أسير معاصيه، رهن مخالفاته، إذاً:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

4 ـ الناس رجلان مؤمن أو كافر:

الحقيقة أن التصنيف الدقيق للناس ليس أشكالهم، فمقياس الشكل ليس له قيمة، ولا لمقياس المال قيمة، ولا لمقياس النسب قيمة، ولا لمقياس الذكاء قيمة، ليس لهذه الاعتبارات قيمة تذكر، وإنما المقياس أهو أعمى أم بصير، الأعمى يتحرّك تحرُّكاً عشوائياً، ولابدّ من أن يقع في مطبّاتٍ كثيرة، لكن البصير يرى الطريق أمامه واضحاً، يرى الهدف واضحاً فيتحرّك حركةً صحيحةً.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

وهذا أبلغ وصف وَصَف به ربنا عزّ وجل حقيقة المؤمن و الكافر.

بالمناسبة: ربنا جلّ جلاله إذا وصف شيئاً وصفه صفةً جامعةً مانعةً، صفةً مترابطةً مع الموصوف ترابطاً وجودياً، المؤمن بصير والكافر أعمى، والدليل كلّما رأيت كافراً يتحرّك رأيت في حركاته الحُمْقَ الشديد، والرعونة البالغة، رأيت في حركته انحرافاً عن مبادئ فطرته، انحرافاً عن العدل، انحرافاً عن الرحمة، انحرافاً عن الحكمة، انحرافاً عن الفطرة، قد تعجب، فلك أن تعجب، ولك ألاّ تعجب فهو أعمى، فإذا رأيت أعمى انزلق في الهاوية فهل تغضب عليه ؟ إنك تتألّم لمصيبته، فالكافر أعمى، وأنا بدوري كلّما قال لي إنسان: هذا العمل أمعقول أن يفعله فلان ؟ فأين حكمته ؟ أقول له:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

لأنه انقطع عن الله عزّ وجل، حرّكته شهواته، والشهوة عمياء رعناء تدفعه نحو كسب مكاسب أرضيّة سخيفة، هذه المكاسب الأرضية السخيفة تجعله معرّضًا للتهمة، وللمصائب، وللموبقات، وأقرب مثل بين أيدينا: الذي يذهب إلى بلدٍ غربي، وتزلّ قدمه يصاب بمرض يدمّره، فذلك مرضه أصاب زوجته وولده، والآخر أصاب أمّه، وكل أسبوعين أو ثلاثة تجد واقعة مذهلة، نقرؤها في الصحف اليوميّة، ونسمع أشياء لا تُصدّق، إنسان دمّر حياته، دمّر زواجه، دمّر والدته، دمّر أولاده، هو نفسه تدمّر وهو في ريعان الشباب، فكل إنسان يبحث عن سلامته وعن سعادته عليه بطاعة ربّه، لأنك آلة معقّدة جداً، والله عزّ وجل هو الصانع، وهذا القرآن فيه تعليمات الصانع، بدافعٍ من حبّك لذاتك، بدافع من حرصك على سلامتك عليك بطاعة ربّك.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

الكافر أعمى، والتصنيف الدقيق الدَقيق للبشر، الناس رجلان: موصولٌ ومقطوع، الموصول بصير، المقطوع أعمى، الموصول منضبط بالشرع، المقطوع متفلِّت، الموصول محسن، المقطوع مسيء، هذا هو التصنيف الحقيقي، وهذا هو الفرز العلمي للبشر، أما أن يقول لك: الانتماء التاريخي، العِرق،

الجنس مثلاً، البلد، المنشأ، نشأ في منطقة جبليّة، منطقة سهليّة، من العِرق الآري، من العِرق الأوروبي، من العِرق السامي، هذه التقسيمات لا معنى لها إطلاقاً، التقسيم كائن موصول أو مقطوع، الموصول بصير، المقطوع أعمى، الموصول منضبط، المقطوع متفلِت، الموصول محسن، المقطوع مسيء، الموصول سعيد المقطوع شقي، هذا هو التقسيم الصحيح تقسيم خالق الكون، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((فَالنَّاسُ رَجُلان: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللّهِ))

[سنن الترمذي عن ابن عمر]

الأمور واضحة كالشمس، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[كنز العمال عن العرباض]

5 ـ المؤمن معه من الله حافظٌ:

فأحياناً تلاحظ إنسانًا في حياته الزوجية والأسرية يتحرّك وكأنه أعمى، لسببٍ تافهٍ جداً يطلِّق امرأته وعنده خمسة أولاد، يطلِّقها ويركب رأسه، والسبب تافه جداً، أولاده شُرِّدوا، زوجته نقمت عليه، خرجت من دينها نِكايةً به، أسرة شُرِّدت، الأولاد ضاعوا، لنزوةٍ طارئةٍ ولغضبٍ طارئٍ، أما المؤمن فمعه مَلَكٌ يُسَدِّده، معه من الله حافظ.

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: من الآية 257)

الله وليُّك، فتصوَّر إنسانًا يتولى خالقُ الكون أمره ؛ يسدِّده، يلهمه رشده، يهديه إلى سواء السبيل، يحذِّره، يؤدِّبه أحياناً، يعالجه، يعلِّمه، يجمعه مع أهل الحق، هذا معنى:

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

من معصية إلى معصية، من خيانة لخيانة، من أذى إلى أذى، من إساءة إلى إساءة إلى أن يقعوا في قبضة العدالة، أو إلى أن يقعوا في قبضة عذابهم النفسي، أو إلى أن يقعوا في قبضة ملك الموت حيث جهنَّم وبئس المصير، هكذا.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

6 - فرق كبير بين المؤمن والكافر:

قد تجد الفرق أحيانا قليلا، كأس ماء صغير ومتوسط، وهناك كأس أكبر، كأس وطني، وكأس أجنبي، كأس رفيع وطويل، كأس عريض وقصير، لكن كلاهما كأس، وكلاهما صالحٌ للشرب، وأحياناً ترى فرقاً شاسعاً جداً بين الشيئين، فقطعة لحم طازج، وقطعة لحم فاسد، قطعة اللحم الفاسدة لا تستطيع أن تشمّها، ولا أن تقترب منها، بل تعدو فراراً من رائحتها، تعدو هاربًا، أما اللحم الطازج تُقبل عليه، إذًا الفرقُ كبير، فإذا قال ربنا:

(لاَ يَسْتَوِي)

ليس معنى هذا أن هناك فرقاً قليلاً، بل هناك فرق كبير جداً على طرفي نقيض.

مثلاً: المؤمن مؤنس، وذاك موحش، المؤمن يطيّب القلوب، وذاك يوجعها، المؤمن يمدح، بينما الكافر يقدح، وكلماته جارحة، المؤمن يؤلِّف، وذاك يفرّق، المؤمن يصل بالله، والكافر يقطع عن الله، المؤمن يحبّب بالآخرة، وذاك يحبّب بالدنيا، المؤمن يرحم، والكافر يقسو، المؤمن ينصف، و الكافر يظلم، المؤمن يتلطّف، وذاك يتواقح، فالمسافة بينهما كبيرة جدًا.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

المؤمن منضبط والكافر متفلِّت، المؤمن رحيم، والكافر قلبه كالصخر الجلمود، قاسٍ جداً.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

العوام يعبّرون عنها بقولهم:المسافة مائة وثمانون درجة، إنسان في أقصى اليمين، وإنسان في أقصى اليسار، إنسان محسن، وإنسان مسيء، هذا مؤمن، وذاك كافر.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ

1 - لابد من العمل الصالح مع الإيمان:

الذين عملوا الصالحات ذكرهم بعد الإيمان، لأن العمل الصالح من دون إيمان مشبوه ومشكوكٌ فيه، وعملٌ قد يكون لنيات شريرة.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ)

المعنى أن العمل الصالح المقبول من الله عزّ وجل هو العمل الذي سبقه الإيمان، وإلا إذا كان العمل الصالح بدافع من ذكاء الإنسان، هدفه أن يكثِر جماعته، هدفه أن يكون له شعبيّة، هدفه أن يروّج بضاعته أحياناً، هذه أخلاق تجاريّة، أخلاق أساسها ذكاء الإنسان ومصالحه، لكن إذا تضاربت مصالحه انقلب كالوحش الكاسر، ولكن نظرًا لوجود انضباط شديد بفعل الأجهزة فيقولون لك: الصالة مراقبة تلفزيونياً ـ ولقد انقطع التيار الكهربائي في إحدى الليالي في بلد أجنبي فارتكبت مائتا ألف سرقة في تلك الليلة ـ هذا معنى الانضباط خارجي، انضباط الردع لا انضباط الوازع الداخلي، وفرقٌ كبير بين الردع الخارجي والوازع الداخلي.

لذلك ربنا وعزّ وجل وصف العمل الصالح الذي يصلح للعرض على الله بأنه العمل الذي سبقه الإيمان.

أوضح مثل: إنسان عليه سند، تسديد قيمة السند عمل صالح، ولكن يا ترى ما الدافع ؟ لعله تاجر له اسم مرموق بين التجار، فإن لم يسدد قيمة السند يلطِّخ اسمه في الوحل، إذا لم يسدد فخصمه قويٌّ يشكوه للقضاء، فيحجز الخصم محلّه التجاري، وخصمه يضع السند في التنفيذ، فإذا بادرت إلى تسديد السند فهذا عمل مدني ـ سلوك مدني ـ لكن متى يكون عند الله عملاً صالحاً ؟ إذا كان خصمك لا يملك عليك أية وثيقة، وقد أعطاك المال، وتوفّاه الله، ولا أحد في الأرض يطالبك، وأنت بدافعٍ من إيمانك بالله عزّ وجل وخوفك منه، وخوفك من الوقوف بين يديه يوم القيامة، تتوجّه إلى ورثة هذا الصديق، وتدفع لهم المال.

والله حدّثني أخ ـ بطريق رسالة وأنا لا أعرفه ـ قال لي: والله دفعت عشرين مليون لجهةٍ لا تملك عليّ أية وثيقة ـ أنا محتفظ بهذه الورقة عندي، كان المبلغ أمانة عنده، والذي ائتمنه على المبلغ مات، وليس بينهما أية وثيقة، والأهل لا يعلمون بذلك، فبادر إلى أداء الأمانة لأصحابها، فهذه هي الأمانة حقًا.

العفو مثلاً، العفو عمل صالح، ولكن من هو الذي يعفو ؟ هو الذي يكون له عدوٌ نال منه أشدّ النَيْل، ثم وقع العدو في قبضة الأول، وكان قادراً على أن يوقِع به ما يشاء من عقوبة، وأن يكيل له الصاع عشرة، لكنه عفا عنه، فالعمل الصالح الذي يسبقه الإيمان رائع جداً، عمل نزيه، عمل مبرّأ عن الشبهات، مبرّأ عن الدوافع الخسيسة، عمل يبتغي به صاحبه وجه الله عزّ وجل، إذاً:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

2 ـ المؤمن محسن والكافر مسيءٌ:

طبعاً الأعمى سوف يسئ، لأن المحرّك شهوته، والشهوة عمياء، أما البصير فهو الذي عرف الله عزّ وجل، إذاً صار محسناً.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ)

أنت راقب إنسانًا مهتديًا، التق به، انظر إلى جلسته، انظر إلى هندامه، انظر إلى منطقه، انظر إلى حركاته، انظر إلى طعامه، سافرْ معه، انظر إلى ورعه، إلى مروءته، إلى كرمه، اسكن معه، عامله بالدِرهم والدينار تجده نموذجا في الهداية و الورع، عامل إنسانًا آخر ترَ من حقده، ومن طيشه، ومن أنانيّته، ومن حرصه على مصالحه، ومن تجاوزه لحقوق الآخرين الشيء الكثير، لذلك ربنا قال:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

أكبر خطأ حينما تتوهّم أن الأعمى كالبصير، وأن المؤمن كالكافر، وأن المحسن كالمسيء وأن المستقيم كالمنحرف، وأن المُتّصل كالمُنقطع، أكبر خطأ يقع في حياة الناس هو التوهُم أن القضيّة بالمال، والقضيّة بالذكاء، والقضيّة باحتلال مركز اجتماعي مرموق، والقضية بزوجة تملأ قلب الزوج سروراً بشكلها وحركاتها، دون أن ننتبه إلى فضائلها وقيمها.

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

فما علاقة هذه الآية بهذه ؟

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ(58)
إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

1 ـ علاقة هذه الآية بما قبلها:

معنى ذلك أن الأعمى يتحرّك تحرُكاً عشوائياً، وسوف يقع في أخطاء كثيرة، فهذه الأخطاء هو محاسب عليها.

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ)

البصير يمشي على هدىً من ربّه، البصير يطبّق منهج الله عزّ وجل، وقّافٌ عند حدود الله عزّ وجل، يأتمِر بما أمر الله، ينتهي عما عنه نهى الله، هذا الانضباط، وهذا العمل، وهذه الاستقامة أيضاً سوف يثاب عليها.

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ)

2 - كلُّ عملٍ يظهر على حقيقته يوم القيامة:

إذا رأى أب ابنه لا يدرس يقول له: موعد الفحص اقترب، ففهم ما يقصد من معنى، ولكنه أدار ظهره لأبيه، بينما رأى ابنه الآخر يجتهد، فيقول له: سوف يَبْيَضُ وجهُك يا بني في الامتحان، هذا عمله سوف يظهر، وهذا عمله سوف يظهر.

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا)

فالعمل الطيّب سوف تظهر نتائجه، والسيئ سوف تظهر نتائجه، والانضباط يظهر حسنًا، والتفلّت يظهر قبيحاً، الاستقامة تظهر محاسنها الانحراف تظهر قبائحه.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

سبحان الله ! تجد معظم الناس إذا حدّثوك يحدِّثونك عن كل شيء، إلا الموت، لم يدخلوه في حساباتهم إطلاقاً، كأن الحياة أبديّةٌ.

إذاً:

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا)

3 - تهديد ووعيد:

هذا تهديد، أي اعمل، وكثِّر مما تعمل، إيجابًا أو سلبًا، افعل ما شئت، فهناك وقفةٌ بين يدي الله عزّ وجل، فالأعمى يدفع ثمن العمى الباهظ، طبعاً العمى وحده لا يكفي، العمى يَتبعه معاصٍ، العمى يتبعه عدوان، العمى يتبعه انحراف، العمى يتبعه تجاوز الحدود، العمى يتبعه أذى.

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا)

فهذا حالُ البصير ؛ البصير مستقيم، البصير ورع، البصير محسن، البصير مُنصف البصير عادل، أيضاً.

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ)

فهذه الساعة ترفع من شأن المؤمن، وتخفض من شأن الكافر.

(لَا رَيْبَ فِيهَا)

مجيئها حق، لا شك أبداً في مجيئها.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

4 ـ الكفر العملي بالآخرة:

أي أنّ عدم إيمانهم بها، أو قل كفرهم بها كفرًا عمليًا، و ليس لفظيًا، فقلّما تجد أحدًا يقول: لا توجد آخرة، هذا الإنسان نادر جداً، الذي يقول لك: لا أعتقد بوجود آخرة هذا صار ملحدًا، ولكنه عمليا لم يدخل الآخرة في حساباته، كيف؟

مثلاً: يأكل مالاً حراماً، معنى ذلك أن الآخرة ليست داخلة في حسابه، يعتدي على أعراض الناس ؟ معنى ذلك أن الآخرة ليست داخلة في حسابه، يتجاوز الحدود، معنى ذلك أن الآخرة ليست داخلة في حسابه.

عندما تتحقق من إيمان الإنسان بالآخرة أو عدم إيمانه انظر إلى انضباطه، إذا لم يكن منضبطًا فهو غير مؤمن بالآخرة، يقول لك الإنسان: "حلال على الشاطر "، هذه كلمة الشيطان، أيُّ شاطر ؟ مع الله لا شاطر، الله عزّ وجل قدير على أن يرغمك على أداء الثمن باهظًا في الدنيا قبل الآخرة، إذاً:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

بالآخرة.

5 ـ الفرق بين العاقل وغير العاقل:

بعضهم يقول لك: أعطني عمرًا لتلك الساعة، نحن الآن أولاد الحاضر، فتفكيره تفكير آني، تفكير من لا عقل له إطلاقاً، فدائما الإنسان كلّما ارتقى عقله خاف بفكره، وكلّما قلّ عقله خاف بعينه، فإذا واجهه الخطر خاف حقًا، أما العاقل فهو يستنبط الخطر، ويحذر قبل وقوع الخطر، و يعدّ العدة منذ الآن، فللاستعداد للأخطار المُقبلة دليل عقل.

أبسط مثل نضربه التدخين، فهل من الممكن لإنسان مهما أقنعته أن هذا التدخين يضر بالرئتين، يسبّب جلطة، يسبّب ضيقًا بالأوعية، يسبّب ارتفاعَ الضغط، يسبّب تسرُّعًا في القلب، يسبّب سرطانًا بالرئة، يسبّب مثلاً شللَ الأهداب في القصبة الهوائيّة، يسبب احتمال موات الأعضاء، مهما أقنعته فلن يقتنع، أما حينما يواجه أحد الأخطار يقول لك: نعم والله، والله هذا الذي حصل فقدّر، هكذا يدّعي، وإن الذي يتجنّب الخطر راجح العقل حقًا، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً))

[ورد في الأثر]

أما أن يصل الإنسان مع نفسه لطريق مسدود، فيواجه مغبة عمله بمرارة، كأن يواجه مصيبة كبيرة جداً سببها انحرافه، أو أكله للمال الحرام !! فإذا قلت له: يا أخي هذا الربا حرام، هذا ضلال، فإنك تراه

لا يعبأ بذلك أبداً، وعندما تأتي الضربة الإلهيّة القاصمة يقول لك: نعم والله كلامك صحيح، يا ليتني قبلت نصيحتك.

إذاً من أجل أن تعرف إذا كنت عاقلاً أو غير عاقل انظر هل تدرك الأخطار في وقت مبكِّر، وتتخذ الموقف الصحيح مبكراً ؛ أم أنك لا تعرفها إلا إذا واجهتها ؟ ضعاف التفكير لا يكشفون الأخطار إلا مع مواجهتها، لكن العقلاء يتوقّعون الأخطار قبل أن تقع، فالعاقل هو الذي يتوقّع الخطر قبل أن يأتيه الخطر.

خاتمة:

إذاً:

(إِنّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

الآيات أصبحت:

(لَخَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

لها معنيان: إما أن صنعة الله عزّ وجل أعظم بكثير مما يصنعه الإنسان، أو أن هذه الآية دليل على أن البعث حق، وعلى أن الله سبحانه وتعالى سيبعث من في القبور.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكّرُونَ(58) إِنّ السّاعَةَ)

هذا تهديد.

(لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (16-20): تفسير الآية 60
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-09-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السادس عشر من سورة غافر، ومع الآية الستين، وهي قوله تعالى:

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

1 ـ الدُّعاءُ هُوَ العبادَة:

قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((الدُّعاءُ هُوَ العبادَة))

[الترمذي عن النعمان بن بشير]

استنباطاً من هذه الآية، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ)

لم يقل: عن دعائي، قال:

(عَنْ عِبَادَتِي)

إذاً: العبادة هي الدعاء، والدعاء هو العبادة.

2 ـ الدعاء اعتراف بضعف العبد وافتقاره إلى ربه:

أيها الإخوة، الإنسان حينما يدعو الله سبحانه وتعالى، يعترف بضعفه وبقوّة الله، يعترف بفقره وبغنى الله عزّ وجل، يعترف بجهله وبعلم الله، فالداعي دائماً ضعيف، والمدعو قوي، فإذا عرف الإنسان نفسه، وعرف افتقاره إلى الله، وعرف ضعفه، وعرف قوة الله، ورحمته، وعلمه، وحكمته، وغناه، وقدرته، إذا عرف ضعفه، وعرف قوة الله فقد عَبَدَ الله عزّ وجل، أي أنه تلبّس بالعبوديّة، عرف حدّه فوقف عنده، وعرف ربّه فأقبل عليه، هذه هي العبادة.

الفرق بين الطاعة والعبادة:

العبادة في مجملها وفي أدق معانيها: طاعةٌ لله عزّ وجل، لكن هذه الطاعة ليست قسريَّةً، إنما هي طوعيَّة، لو أنها قسريَّة لم تكن عبادة، والفرق بين طاعة الأقوياء وعبادة الله عزّ وجل أن طاعة الأقوياء قسريَّة، لكن عبادة الله طوعيَّة، لذلك الفارق الدقيق بين الطاعة والعبادة أن الأولى قسريَّة، لكن الثانية طوعيَّة.

فارقٌ آخر: العبادة طاعةٌ طوعيَّة لكنَّها ناتجةٌ عن محبَّةٍ ذاتيَّة، مع الطاعة الطوعيَّة محبَّةٌ ذاتيَّة، لكن طاعة الأقوياء أوّلاً قسريَّة ولا تشوبها المحبَّة، طاعةٌ قد يشوبها الحقد، قد يشوبها الألم، قد يشوبها القهر. فالعبادة كما قال بعض العلماء: غاية الخضوع، مع غاية الحُب، مع غاية الإخلاص. خضوعٌ وحبٌ وإخلاص.

إنّ النفس البشريَّة لها طبيعةٌ خاصَّة، إنها لا تحب إلا الكامل، ولا تطيع إلا ما هو في صالحها، فإذا عرف الإنسان الله ؛ عرف كماله، عرف أنه موجود، وعرف أنه واحد، وعرف أنه كامل، وعرف أنه يعلم، وعرف أنه سيحاسب سيطيعه، هذه خمسة أفكار.

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف: آية 180)

أكرّر: إذا عرف أنه موجود، وعرف أنه كامل، وعرف أنه واحد، وعرف أنه يعلم، وعرف أنه سيحاسب، إذا عرف هذه الحقائق الخمس فلابدّ من أن يطيع الله عزّ وجل، إذاً: هذه العبادة التي هي طاعةٌ طوعيَّةٌ ممزوجةٌ بمحبّةٍ قلبية أساسها معرفةٌ يقينيَّة.

لكن ما الهدف ؟ ليس الهدف أن تعرف، ولا أن تطيع، الهدف أن تسعد، لأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم، خلق الخلق ليرحمهم، قال تعالى:

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: الآية 119)

هدف الإنسان السعادة الأخروية:

خلقهم ليرحمهم، خلقهم ليسعدهم في جنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، هذا هو الهدف الكبير من خلق الإنسان، لكن لأن هذه الرحمة رحمةٌ أبديَّةٌ سرمديَّةٌ، متعاظمةٌ متناميةٌ، هذه الرحمة فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذا العطاء العظيم والمديد والكبير يحتاج إلى إعداد، الإعداد في الدنيا، الدنيا إذاً مزرعة الآخرة، الدنيا إذاً دار عمل، الدنيا إذاً دار تكليف، في الآخرة

التشريف، في الآخرة الجزاء، في الآخرة جنّةٌ عرضها السماوات والأرض، في الآخرة حياةٌ أبديّةٌ سرمديّة، متناميةٌ متعاظمةٌ، لا قلق، ولا حزن، ولا مرض، ولا همّ، ولا خوف، ولا أي شيء يزعج الإنسان.

إذاً: الأصل أن تعرفه، ثمّ تطيعه، ثم تسعد بقربه في الدنيا والآخرة، هذا هو أساس كل الدين، الدين ثلاث كلمات ؛ جانب معرفي، جانب سلوكي، جانب جمالي، والجمالي هو الهدف، الجمالي تذوق منه طرفاً في الدنيا، وتذوقه كلّه في الآخرة، الهدف أن تسعد.

ألا تمرُّ بالإنسان أحيانًا ساعات يشعر بها بالسعادة ؟ لو فرضنا أنه شعر بنشاطٍ شديد، وأكل أكلةً طيّبة، وكان بين أهله وأولاده آمناً، وهم سالمون معافون، وكان له دخلٌ يغطِّي نفقاته، ألا يشعر بساعة من الساعات أنه مرتاح مطمئن ؟ فهذه لحظة عابرة، لكن هذا الشعور بالسعادة لا يستمر إلى أبد الآبدين، الإنسان قد يسعد من باب المجاوزة، من باب المجاز إذا توافرت له صحّةٌ طيبة، وحاجاتٌ، وسمعةٌ، ومكانةٌ، أما لو توافرت له هذه الحاجات كلها بشكلٍ متنامٍ متعاظم إلى أبد الآبدين فهذا هو الفوز العظيم.

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

إذاً: الدين معرفة وسلوك وسعادة، معرفة في البداية، سلوك في الوسط، سعادة في النهاية، وكل إنسان يسلك طريقاً آخر يُتّهم بالغباء، والجنون، والحُمق، وقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام مجنوناً، فسأل سؤال العارف: **" من هذا ؟ " قالوا: " هذا مجنون "**، قال:

((لا هذا مبتلى، المجنون من عصى الله))

[ورد في الأثر]

لو التقيت بأذكى إنسان يحمل أعلى شهادة، وهو متلبّس بالمعصية، بإمكانك أن تدمغه بالحُمْق والغباء والجنون، لأنه سلك طريقاً مسدوداً تنتهي بهاويةٍ وحفرةٍ ما لها من قرار.

3 ـ الدعاء لا يفارق المؤمن في جميع أحواله:

إذاً: الإنسان أحياناً يميل للتوسُّع والتفصيل، وأحياناً يميل للإيجاز والضغط، العبادة ؛ معرفة، وسلوك، وسعادة، جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي هذه العبادة، هي طاعةٌ تسبقها معرفة تعقبها سعادة، أحد أبرز مظاهر العبادة الدعاء، الصلاة عبادة، الصوم عبادة، الحج عبادة، غض البصر عبادة، ضبط اللسان عبادة، أن تقيم بيعك وفق الشرع أنت عابد لله، ألاّ تكذب، وأن تصدق فهذه عبادة، لكن هناك عبادات شعائريّة ؛ صلاة وصوم وحج، وهناك عبادات تعامليّة ؛ صدق، وأمانة، واستقامة، وبيع حلال، وكسب حلال، وإنفاق حلال، وغض بصر... الخ.

العبادات الشعائريَّة والتعامليَّة بمجملها عبادة، أحد أكبر مظاهرها الدعاء، إنك بالصلاة تتصل بالله في اليوم خمس مرّات، بالصيام تتصل بالله في العام شهراً، بالحج تتصل بالله في عمرك شهراً، لكنَّك بالدعاء تتصل بالله عند كل حركةٍ وسكنة.

فالنبي عليه الصلاة والسلام كانت له أدعيةٌ منوّعة، أدعيةٌ يدعو بها كل يوم، وأدعيةٌ يدعو بها في مناسباتٍ خاصّة، فإذا ذهب لينام فله دعاء، إذا استيقظ في منتصف الليل ليصلي فله دعاء، إذا استيقظ لصلاة الفجر فله دعاء، إذا جلس ليأكل فله دعاء، إذا انتهى من طعامه فله دعاء، إذا ارتدى ثيابه فله دعاء، إذا خرج من بيته فله دعاء، إذا دخل المسجد فله دعاء، إذا خرج من المسجد فله دعاء، إذا ذهب إلى السوق فله دعاء، إذا سافر فله دعاء، إذا مرض فله دعاء، إذا ارتدى ثوباً جديداً فله دعاء، يكفيكم على هذا دليلا كتابُ الأذكار للإمام النووي، أذكار النبي، له أدعية في كل أحواله، وهناك تفاصيل في هذا الكتاب دقيقةٌ جداً، أحوال الإنسان مهما بدت لكم كثيرةً ومنوّعةً ودقيقةً فكل حالٍ من أحوال الإنسان يغطيه دعاءٌ رائع.

لذلك فالإنسان يسعد إذا دعا الله عزّ وجل، أليس هناك أوقاتٌ كثيرة تمضيها وأنت تنتظر، أو تمشي في طريق، أو تجلس تنتظر دورك عند طبيبٍ، أو في أي مكان آخر، أو في دائرة حكوميَّة، هذا الوقت الذي تمضيه قسراً ينبغي أن تملأه بالدُعاء، إذا دخلت مكانًا تخشى أن يُرْفَض طلبك فهناك دعاء، إذا واجهت عدواً لك شرساً فله دعاء، إذا أصابك مكروه فهناك دعاء، والدعاء مخُّ العبادة كما قال عليه الصلاة والسلام.

أحد أبرز العبادات الدعاء، وكلّما أكثرت من الدعاء كنت أقرب إلى الله عزّ وجل، فبالدعاء تتصل بالله سبحانه، ويمكنك أن تتصل به في اليوم لا خمس مرّات، بل مئات المرّات، بل ألوف المرّات، لأنك كيفما تحرّكت أنت مغمورٌ بنعم الله، فعليك أن تدعو الله باستمرارٍ، وكيفما تحرّكت فهناك مفاجآتٌ مخيفة، فمن خلال المفاجآت تدعو مستعيناً بالله، ومن خلال النعم تدعو شاكراً له، فإذا فسّرنا قوله تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(23))

(سورة المعارج)

لا ترى عبادةً يمكن أن يداوم عليها الإنسان كالدُعاء، هذا الاتصال المستمر، مرّة التجاء، مرّة ثناء، مرّة خوف، مرّة دعاء، مرّة تسبيح، مرّة ذِكر، فالمؤمن على اتصالٍ دائمٍ بالله من خلال الدعاء، لكن هناك علماء جزاهم الله خيراً قالوا استنباطًا من هذه آية:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

معنى: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ

المعنى الأول:

ما أمرنا بالدعاء إلا ليجيبنا ـ هذا المعنى الأول ـ ما أمرنا بالدعاء إلاّ لأنه سيجيبنا، وسيكرمنا، وسيعطينا سؤلنا أمرنا بالدعاء، فما أمرنا أن ندعوه إلا ليجيبنا.

المعنى الثاني:

المعنى الثاني: هذه الآية متميّزة عن غيرها من الآيات.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة: الآية 186)

ليس بين العبد وربّه واسطة:

هناك نقطة في القرآن أحب أن أشير إليها، وقد ذكرتها سابقاً، وهي أنه ما من آيةٍ فيها هذه الكلمة: يسألونك إلا تلاها كلمة قل:

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

(سورة البقرة: من الآية 189)

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة: من الآية 219)

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)

(سورة البقرة: من الآية 217)

في القرآن ما يزيد على ثلاث عشرة آية بهذه الصيغة، يسألونك قل كذا وكذا، إلا آيةً واحدةً حصراً، هي هذه الآية:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة: الآية 186)

ليس في هذه الآية كلمة قل، استنبط العلماء من هذا أنه ليس بين العبد وربّه حجابٌ إطلاقاً، فإذا قال العبد: يا رب، قال الله: **لبيك يا عبدي**، أنا أنتظرك، أنا أنتظر أن تدعوني، أنتظر أن تسألني، أنتظر أن تتصل بي كي أجيبك، وكي أعطيك سؤلك، وكي أكرمك، وفي الحديث الشريف:

((من لا يدعني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((إن اللّه يحبّ الملحّين في الدعاء))

[الأذكار النووية]

((إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلّها))

((إن الله يحب من عبده أن يسأله ملح طعامه))

((ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع))

[من الجامع الصغير عن أنس]

إن الله يحب أن يسمع نداء العبد، وهو يعلم حاله:

قد يسأل سائل: يا رب لماذا أمرتنا بالدعاء، وأنت أعلم بنا من أنفسنا ؟ ورد في الأثر أن سيدنا جبريل جاء إبراهيم عليه السلام، قُبَيْلَ أن يُلقى في النار، وقال: يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال هذا النبي الكريم: **" منك ؟ قال: لا من الله، قال: إذا كان من الله فعلمه بحالي يغني عن سؤالي ".**

السؤال المطروح الآن هو: ما دام الله يعلم ما نحن عليه، يعلم السرّ وأخفى، يعلم ما ظهر وما بطن، فلماذا أمرنا بالدعاء ؟ العلماء قالوا: أُمرنا بالدعاء كي نرقى إلى الله مرّتين إذا وقعنا في ورطة، أو في مشكلة، أو لاح لنا شبح مصيبة وأُمرنا بالدعاء فنحن إذا دعونا أولاً استُجيب لنا ثانيًا، هذه الاستجابة تزيدنا يقيناً بأن الله استمع إلى دعائنا، وهي كذلك تزيدنا معرفةً بالله عزّ وجل، وحينما يستجيب الله لنا تزيدنا هذه الآية حبّاً بالله عزّ وجل، مرّةً نزداد علماً به، ومرّةً نزداد حبّاً له، إذاً صارت لنا قفزة إيمانية سامية.

إذا وصل الإنسان في معرفته إلى هذا المستوى، ثم وقع في مشكلة فإنه يدعو الله من كل قلبه، فإن أزيحت عنه هذه المشكلة، ارتقى إلى الله مرّتين، ازداد علمه بالله، ازداد يقينه أن الله سمعه، وازداد يقينه أن الله يحبُّه، إذاً هذا سر الدعاء، أي أن.

((إن الله تعالى يحب إغاثة اللّهفان))

[كنز العمال عن أبي هريرة]

أمٌ تحبُّ ابنها أشدّ الحب، بينما حاجته لها قليلة، هي عاتبةٌ عليه، فلمّا ظهرت له حاجةٌ عند أمِّه أقبل عليها، وطرق بابها، وزارها صباحاً ومساءً، هذه الحاجة التي عرضت له دفعته إلى أمِّه، ولله المثل الأعلى ربنا عزّ وجل أحياناً يخلق لنا حاجة عنده، أما الأنبياء فهم نوعٌ آخر، كان عليه الصلاة والسلام يصلي حتّى تتورّم قدماه، فيقول له أصحابه: **" يا رسول الله صليت حتى تورّمت قدماك، ألم يغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟! "**، فيقول عليه الصلاة والسلام:

((أفلا أكون عبداً شكوراً))

[متفق عليه عن المغيرة]

فالأنبياء لا يحتاجون إلى حافز، الأنبياء معرفتهم بالله عزّ وجل وإقبالهم عليه، وشوقهم إليه، واتصالهم به لا يحتاج إلى حافز، هم فوق الحافز، لكن المؤمنين تحت الحافز، يحتاجون أحياناً إلى حافز، أحياناً الإنسان ينسى، أحياناً يسترسل مع الدنيا، أحياناً ينشغل بها، أحياناً يركن إليها، استرساله وانشغاله وركونه للدنيا، وقد ينسيه الله عزّ وجل، أو يَذكره ذكراً شكلياً أو صورياً، أو ذكراً أجوفَ، عندئذٍ ربنا سبحانه وتعالى يجعل لهذا العبد عنده حاجة ؛ مشكلة، مرض، عدو مخيف.

هذا المؤمن لا يعرف إلا الله، ليس له ملجأً إلاّ الله فيبادر إلى الصلاة، إلى الدعاء، إلى قيام الليل، إلى التهجُّد، يمرّغ جبهته في أعتاب الله، معنى ذلك أننا قد سمعنا صوته، جاءنا فسمعنا صوته، فإذا كنت بطلاً كن معه دون أن تحتاج إلى حافز، الله عزّ وجل يُعيننا على أنفسنا إذا ركنت هذه الأنفس إلى الدنيا، يعيننا على أنفسنا إذا اطمأنّتْ لها، يعيننا على أنفسنا إذا أصبحتْ عباداتنا شكليّةً أو جوفاء، يعيننا على أنفسنا بأن تنشأ لنا مشكلة، وليس أمامنا إلا الله فندعوه، نبادر إلى الدعاء، وإلى الصلاة، وإلى التهجُّد، لكن الأكمل أن تأتيَه طائعاً لا مكرهاً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عَجِبَ اللّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ))

[البخاري]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى))

[البُخَاريُّ ومسلم]

إذاً: سر الدعاء أن الإنسان أحياناً يغفل، يقصِّر، يقعُد، يركن للدنيا، تُلِمُّ به مشكلة، فهذه المشكلة تضطرّه إلى أن يدعو، وأن يستجير، وأن يستعيذ، عندئذٍ يقترب من الله عزّ وجل، ويزداد معرفةً، ويزداد قرباً، هذا هو الدعاء.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

(سورة البقرة)

أي تؤمن، فتستقيم، عندئذٍ تعرف من تدعو، تؤمن بالله، تتعرّف إليه، تستجيب لأمره، تطيعه عندئذٍ تعرف كيف تدعوه، وتعرف بماذا تدعوه، إلام تدعوه ؟ ولماذا تدعوه ؟

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

هناك شروط للدعاء و الاستجابة، أما هذه الآية فلا شروط فيها.

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

بعضهم قال: هذا من مطلق القرآن، أي أن أي مخلوقٍ مهما كان إذا قال: يا رب، يقول له الله: لبيك يا عبدي، وبعض العلماء استنبط من هذه الآية أن كل داعٍ يُستجاب له من دون شروط.

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)

(سورة النساء: من الآية 57)

دعوةٌ إلى الدعاء مهما كان وضع الإنسان:

هنا تجد شرطًا ؛ ألا وهو العمل الصالح.

(أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى)

(سورة السجدة: الآية 19)

من دون شرط، والقرآن تارة يشترط، وتارةً يبشّر، وتارةً يهوّن الأمر، هذه الآية تدعونا إلى الدعاء:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

فالإنسان؛ إن لم تكن له صلةٌ بالله، إن لم تكن له وقفةٌ مع الله، إن لم يكن في سجوده دعاء، إن لم يتذلّل إلى الله، إن لم يطلُب العفو منه، إن لم يطلب منه حاجته مهما دقّت، إن لم يطلب منه أن يكفيه مؤونة نفسه في الدنيا فإنه سيضيع، والدعاء أوسع بابٍ إلى الله، وأقرب طريقٍ إلى الله، لذلك المؤمن يلجأ إلى الدعاء.

أنت بالدعاء تكون قويا:

وهل تصدّق أيها الأخ الكريم أنك بالدعاء تعدُّ أقوى إنسان على وجه الأرض ؟ فأنت تدعو مَن ؟ تدعو خالق الكون، والإنسان تكون أحياناً قوّته ذاتيّة، وأحياناً تكون قوته ليست خارجية، وليست ذاتية، فإذا قال لك شخص قوي جداً في البلدة: أيّ شيءٍ تطلبه مني ألبّه على الفور، وهذا رقم هاتفي، وأنت ضعيف، لكن بهذا الدعم أصبحت قوياً، وتشعر بنشوة معيّنة، أن فلانًا صاحب الحول والطول، فلانًا القوي، أيُّ شيءٍ أرده منه يُلبّني فوراً، فأنت إذاً قويٌّ بقوة الذي منحك هذه القوة، هذا تبسيط للأمر.

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، أنت بالدعاء تجد الله معك، لذلك لا قلقَ مع الدعاء، ولا خوفَ، فمن خصمك ؟ عبد، هو بيد الله عزّ وجل، جرثوم بيد الله، يوقفه عند حدِّه، وهناك حالات تقع فيها إصاباتٌ مرضية لا شفاء منها، ميؤوس منها، ثم يتم الشفاء الذاتي من الله سبحانه وتعالى بدعاءٍ صادق مخلص، وهذا تمّ بفضل الدعاء.

أحياناً يخيّم شبح مصيبة كبير جداً، ويُصرف عنك بأهون سببٍ، فهذا تمٌ بفضل الدعاء، فالدعاء مخُ العبادة، وعلى المؤمن أن يدعو الله دائماً، وفي ذلك إيجابيتان:

الأولى: القرب من الله، و الثانية: الاستجابة وكشف الضر أو تحقيق الرجاء.

إذا أصابتك مصيبة فتذكّر مصيبة سيدنا يونس:

بعض الإخوان يحدِّثوني أحياناً عن أخ له يعمل عند شخص أو جهة، وله دخل معيَّن، فجأةً قُطِعَ هذا الدخل، فشعر بالحرمان، فتوجَّه إلى الله عزّ وجل وقال: يا رب أغنني بفضلك عمن سواك، قالها بحرقةٍ، وألمٍ، وإخلاصٍ، وصدقٍ، ما هي إلا أسابيع حتى جاء رزقٌ وفير من حيث لا يحتسب، أمعك قوة الدعاء وتخاف ؟ أمعك سلاح الدعاء وتحزن ؟ أمعك الدعاء وتيأس ؟ أمعك الدعاء وتكون سوداوي المزاج ؟ معك الدعاء وتبدو حزيناً ؟! لا يحزن من يدعو الله عزّ وجل، ولا شيءَ صعبٌ مهما تكن المشكلة كبيرة، مهما رأيتها كبيرة، يقول أحدهم: يا أخي أنا مشكلتي معقدة ليس لها حل، ما هي مشكلتك التي ليس لها حل ؟ فهل هي أصعب مما كان فيه سيدنا يونس ؟

لقد استقلّ قاربًا فوجد نفسه فجأةً في جوف الحوت، الحوت وزنه مئة وخمسون طنًا، وجبته الغذائيَّة أربعة أطنان، فما وزنك بجانبه، فأنت بالنسبة له لقمة، سبعون كيلوا، أو ثمانون كيلوا بالنسبة للحوت لقمة واحدة، وجد نفسه فجأة في بطن الحوت، في ظلماتٍ ثلاث ؛ في ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة بطن الحوت، الله عزّ وجل ابتلاه بمصيبة، إذا قلت: هذه ميؤوس منها فمعك الحق، وهذه مصيبة، نعم هي مصيبة حقًا، ومع ذلك:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

لكن أروع ما في الآية التعقيب الذي ختمت به:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

في كل عصر، أتحزن ومعك سلاح الدعاء ؟ أتخاف ومعك سلاح الدعاء؟ أتتشاءم ومعك سلاح الدعاء؟ أترتجف ومعك سلاح الدعاء ؟ أتخشى عدواً لئيماً هو في قبضة الله عزّ وجل ومعك سلاح الدعاء؟ أتخشى فقراً مدقعاً ومعك سلاح الدعاء ؟ أتخشى من إنسانٍ أن يهدِّدك ومعك سلاح الدعاء؟

الدعاء يُبعِد المشكلات:

هذه المعلومات أيها الإخوة ليست للفهم، ولكن للتطبيق، إذا خرجت من بيتك: اللهمَّ إني أعوذ بك من أن أُضِلَّ أو أضَل، أو أزلَّ أزَل، أو أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يُجْهَل علي.

إذا استيقظت من نومك لك دعاء. إذا دخلت بيت الله عزَّ وجل: اللهمَّ افتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرجت من بيت الله إلى شؤونك في الحياة الدنيا: اللهمَّ افتح لي أبواب فضلك، ففي الجامع رحمة الله مطلوبةٌ، وفي عملك فضل الله مطلوب.

سافرت: اللهمَّ أنت الرفيق في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد، فيجب أن تدعو الله كل يوم ؛ قبل أن تقدم على أيّ عمل، وكذلك في أثناء العمل، وعقب إنجازه، قبل أن تسافر، وإذا دخلت البيت، أو خرجت منه، أحياناً يدخل الإنسان فتنشأ مشكلة فيطلِّق زوجته، يقول لك: حلفت بالطلاق، فلو دخل الإنسان إلى البيت وقال: السلام عليكم، قال الشيطان لإخوانه: لا مبيت لكم في هذا البيت.

إذا جلس إلى الطعام وسمَّى بالله عزَّ وجل. يقول الشيطان لإخوانه: لا طعام لكم في هذا البيت.

ورد في الحديث الشريف عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

[مسلم]

فهم نائمون وآكلون في ذاك البيت، وطول الليل مشاكل.

بعض الأطبَّاء لا يفحص المريض قبل أن يسمي الله عزَّ وجل، وقبل أن يسأل الله الهداية إلى المرض الحقيقي، وبعض أصحاب الأعمال كيفما تحرَّك يدعو الله مسترشدًا مستعيناً:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

الأمرُ عجيب ؛ فإذا قال أحد من أهلِ الدنيا الأغنياء أو الأقوياء: من كانت له حاجة فليأتني، وجدت الناس يتكاتفون على بيته، يتدافعون، بينما وخالق الكون يقول عزَّ وجل كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((إِنَّ اللّهَ يُمْهِلُ حَتَّى يَذْهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ ثُمَّ يَهْبِطُ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيُغْفَرَ لَهُ))

[مسند أحمد]

فالازدحام على بابه سبحانه قليل.

كلّما سألني أخ سؤال عن قضيّة أقلقَتْه مثلاً، أو همٌ أحاط به، أو مشكلة معقّدة لا تُحل، قضية مستحكمة، عقبة كَؤود، أقول له: ليس لك إلا الدعاء، صلّ قيام الليل، واسجد، واسأل ربّك قبيل الفجر الحاجة كلّها، هكذا المؤمن، المؤمن قوي جدًا، ليس لأن فيه قوة، بل هو ضعيف جدًا، ولكن لأن الله عزّ وجل قال:

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

أقوى قوّة في الكون معه ، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكلّ وحاذر طمعك

وإذا أعطاك فمن يمنعه ثمّ من يعطي إذا ما منعك؟

***

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضى من أحبّنا

ولـذ بحمانا واحتمِ بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

أيها الإخوة الكرام، المؤمن قوي جداً بالدعاء، وبإمكانه أن يقف في وجه أعتى العتاة وأقوى الأقوياء، وأشد الناس تخويفاً، لأنه مع الله.

(قالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(45)قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه)

إنّ مَعِي رَبّي سَيَهْدِين

سيدنا موسى وقومه كانوا في اتجاه البحر، وفرعون وراءه، فقال قوم سيدنا موسى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61))

أين نذهب ؟ هذا البحر من أمامنا وفرعون وراءنا، انتهى الأمر، انتهى أمرنا إما إلى فناء أو إلى استعباد دائم.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61))

ليس من أمل، فالبحر أمامنا وفرعون بكل قوّته وراءنا، وقد أدركنا.

(قَالَ كَلا)

ما هذه كلا؟

(قَالَ كَلا إِنّ مَعِي رَبّي سَيَهْدِين(62))

(سورة الشعراء)

الربُ هوَ هو، والله هوَ هو، ربُ موسى هو ربُنا، ورب محمّدٍ هو ربُنا.

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

في غار ثور بوسائل تافهة جداً حمى نبيَّه وصاحبه الصديق ـ عنكبوت، أو حمامة ـ أعظم رسالة سماويَّةٌ حُفِظَت بهذا السبب الصغير، فإذا كان الإنسان مع الله يصبح أقوى الأقوياء، فالمؤمن معنوياته عالية وبلا حدود.

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

آية في القرآن تكفينا:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

الأمور تدور وتدور وتدور، يعلو هذا، ويسقط هذا، وفي النهاية لا تستقر إلا على أن العاقبة للمتقين، اقرؤوا التاريخ الإسلامي فعندما بعث الله النبي محمداً فالذين عادوه، وائتمروا على قتله، وأخرجوه من مكّة، وكادوا له، وحاربوه عشرين عاماً كيف كانت عاقبتهم، وكيف استقرّت الأمور أخيرًا؟

(إِذَاجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3))

(سورة النصر)

هذا قانون إلهي، الله يمتحنك، قد تؤمن، وقد تتوب إلى الله، وقد ترى أحيانًا أنّ الأمور صعبة، تشديد، وقد ضاقت دائرتها حول العنق، وأخذت بالأعناق، فإياك أن تيأس، وعليك ألاّ تحزن، ولا تخنع، ولا تستسلم، ولا تضعف.

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

بالدعاء.

لا تغفل عن الدعاء:

يا أيها الإخوة أناسٌ كثيرون جداً يغفلون عن الدعاء، علمًا بأنّه من أرقى العبادات، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[من سنن الترمذي عن أنس بن مالك]

أنت مُقدم على امتحان، مُقدم على عمل عظيم، أسست مشروعًا، أسست تجارة، زرعت أرضًا قل: يا رب ليس لي إلا أنت، الله عزّ وجل يريدك أن تدعوه لأنه وعدك بالإجابة، فخالق الكون يفتح لنا باب الدعاء، ونحن نُحْجِم ؟ ما أشقانا لو غفلنا عن الدعاء، وأحجمنا عن الضراعة ؟ ألا نسأله ؟ ألا ندعوه ؟ هل نتأبّى؟ إذاً لا نعرفه.

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

فهل هناك إنسان بلا مشاكل ؟ تواجه كل واحد من الناس الكثير الكثير، والله يحلها بالدعاء واحدةً واحدة، وهو قادر، هذه القضيَّة: يا رب ليس لي إلا أنت، وفقني، ارزقني، زوجني، آوني يا رب، الله موجود. الوقت لا يتسع لضرب الأمثال، والله على كل موضوع من موضوعات الدعاء هناك آلاف الوقائع والأحداث الواقعيَّة.وأرجو الله سبحانه وتعالى أن أزوّدكم ببعض الوقائع المدهشة التي هي ثمرة من ثمرات الدعاء، هل أثر الدعاء قليل ؟ الله عزّ وجل أحياناً يدمِّر أمّة بدعاء واحد، إذا كان الإنسان مؤمنا، مستقيما، طاهرا، مخلصا، وأمّة كادت له، يدمِّرها من أجل مؤمنٍ غالٍ عليه، فربنا عزّ وجل قوي، وهناك آيات كثيرة تؤكِّد هذا المعنى.

(فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ(47))

(سورة إبراهيم)

الدعاء النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف:

أنت كن مع الله، وعلى الله الباقي، من أشهر الأدعية دعاء النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف، قال:

((اللهمّ إنني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

وما أحوج المسلمين إلى هذا الدعاء في هذه الأيام.

((اللهمّ إنني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا رب المستضعفين إلى من تكلني، إلى عدوٍ ملّكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

ماذا كان الجواب؟

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)

(سورة الإسراء: من الآية 1)

الإنسان يتوقّع الاستجابة، ويقول الله عزّ وجل: **" إن الله عليمٌ قدير "**، لكنه قال كذلك:

(إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(1))

أي أنه سمعك يا محمّد تدعو في الطائف، فكانت الاستجابة أن جعلك سيّد الأنبياء والمرسلين، وجعلك سيد ولد آدم، وأراك ملكوت السماوات والأرض، وأسرى بك إلى بيت المقدس، وعرج بك إلى السماء، وهذا تكريم وعطاء لا يصدّق، النبي ما كان يعرف قبل الإسراء أنه سيّد الأنبياء، سيد ولد آدم على الإطلاق، دعا الله عزّ وجل وكان مستضعفاً، وقد بلغت الآلام ذِروتها، فجاءت الإجابة من الله عزّ وجل بأن أُسرى به، وُعرج به إلى السماء، وأراه ملكوت السماوات والأرض، وأكرمه.

فأنت عبدًا لو قال لك طفل: كم الساعة يا عم ؟ أيعقل أن تتجاهله ؟ طفل يسألك وهو عابث: كم الساعة؟ ولو كنت تحمل حاجة بيدك أو فتحة الكُم ضيّقة، فتضطر أن تزيح الكُم عن الساعة، وأن تدير الساعة التي تحيط بمعصمك نحو الأعلى، وتنظر إليها، وتجيب الطفل، لأنه سألك، فأنت إنسان مقر بالعبودية تسأل خالق الكون أو لا يجيبك ؟ تسأله، ترجوه، تتذلّل أمامه، تمرّغ جبهتك في أعتابه أو لا يجيبك ؟ مستحيل.

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

كن عزيز النفس أمام الخلق ذليلا أمام الله:

ما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا، فالسعيد من يدعو الله عزّ وجل، والشقي يأبى، ويستكبر، يوسِّط فلانًا وفلانًا، ويتذلّل أمام فلان، ويريق ماء وجهه أمام الأقوياء، ويبدو أمامهم ضعيفاً فيحتقرونه، ويأبى أن يتذلّل أمام الله عزّ وجل، المؤمن الصادق فيما بينه وبين الله في أشد حالات الذُل، لكنه عزيزٌ أمام الخَلق، يرفع رأسه كريم النفس عزيز إذْ فرّج الله عنه وأغاثه و رفع شأنه.

يقولون عن سيدنا نور الدين الشهيد، الذي ردّ أوروبا بأكملها أيام الحروب الصليبية سجد، وقال ـ والله أستحي أن أقول هذه الكلمة إكراماً له، ولكن يجب أن أقولها ـ قال: **"يا رب، من هو الكلب نور الدين حتّى تنصره ؟ انصر دينك "**، فالله عزّ وجل مكّنه من النصر المبين والعزيز، فالإنسان كلّما كان مع الله متذلِّلاً فالله يرفع شأنه، مع الناس كن عزيزًا، لا تتضعضع أمام غني ولا أمام قوي، أنت مؤمن غالٍ على الله، ارفع رأسك، كن عزيز النفس، لكن فيما بينك وبين الله مهما استطعت تذلّل، مهما استطعت تبرّأ من علمك وحولك وقوّتك، قبل أن تقدم على أي عمل: " اللهمّ إني تبرّأت من حولي وقوّتي وعلمي، والتجأت إلى حولك وقوّتك وعلمك يا ذا القوّة المتين "، فيما بينك وبين الله تذلّل، مرّغ جبهتك في أعتاب

الله، اتهم نفسك بالقصور، اتهم نفسك بالضعف والجهل وعظِّم ربَّك، أما مع الناس كن عزيز النفس، لا ينبغي للمؤمن أن يذلَّ نفسه.

((اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ؛ فإن الأمور تجري بالمقادير))

[من الجامع الصغير]

((مَنْ دَخَلَ عَلَى غَنِيٍّ فَتَضَعْضَعَ لَهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِه))

[من الجامع الصغير]

المؤمن الصادق يتذلّل أمام الله عزّ وجل في السجود، ويشعر بعزّته الكاملة أمام الخَلق، الكافر تجده يأبى أن يدعو الله، يستعلي، تكبُر نفسه عنده، وهو كالحشرة الوضيعة أمام مَن هو أقوى منه، المؤمن بالعكس مع الله في منتهى التذلّل، ومع الخلق في منتهى العزّة.

قال: ما هذا ؟ أكِبْرٌ في الإسلام ؟ قال: لا معاذ الله، هذا عزُّ الطاعة، فنحن نريد مؤمنًا عزيز النفس، يرفع رأسه، يثق بربّه، يعرف قيمة إيمانه، يعرف دوره الخطير في الحياة، لكن إذا خلا مع ربّه، إذا صلّى في بيته، إذا سجد في الليل يذوب عبوديةً لله عزّ وجل، اتهم نفسك ما شئت، اتهمها بالقصور.

لذلك باب الانكسار أسرع الأبواب إلى الله عزّ وجل، باب الانكسار أسرع طريق إلى الله، ادخل على الله من باب الانكسار والتذلل و الضراعة، فالنبي عليه الصلاة والسلام فتح مكّة، هل الفتح قليل ؟ عدو عنيد، مسيطر، لئيم، شرس، قوي متحكِّم طوال عشرين سنة، يدخل مكّة فاتحاً بإمكانه أن يبيدهم عن آخرهم، هم تحت رحمة كلمةٍ من شفتيه، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ ـ حاربوه عشرين سنة، قتلوا أصحابه، نكّلوا بأصحابه، ضيّقوا على أصحابه، حاربوه ثلاث مرّات، ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ قالوا: " أخٌ كريم وابن أخٍ كريم "، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[السيرة النبوية]

وانتهى الأمر، دخل مكّة عليه الصلاة والسلام ساجداً على عُنُق بعيره، كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله.

أيها الإخوة الكرام، بطولتك ليست في الضعف والتذلل للناس، إذا كنت قوياً نجحت في عملك، سيطرت، بتجارتك رقم واحد، معملك بضاعته رائجة جداً، دخل كبير، صحّة طيّبة، الناس ينظرون لك هكذا، لكن البطولة حقًا أن تكون متواضعًا لله عزّ وجل، أروع مثل فعله النبي بعد أن فُتِحت مكّة، ودانت له الجزيرة العربيّة عن آخرها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، صعد المنبر واستقبل الناس باكياً، وقال:

((يا أيها الناس، إني قد دنا مني حقوق من بين أظهركم فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه، ألا ومن كنت قد شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالا

فهذا مالي فليستقد منه، لا يقولن رجل: إني أخشى الشحناء من قِبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي، ولا من شأني))

[مجمع الزوائد]

بإمكانك أن تحافظ على تواضعك وأنت في القمّة ؟ على التواضع، والنزاهة، والاستقامة، والورع، والعفّة ؟ هذه البطولة.

الخلاصة:

فلذلك أيها الإخوة، اليوم شرحنا الدعاء فقط، ووقفنا عنده وقفة صادقة، فالدعاء مخُّ العبادة، وهو أحد أرقى أنواع العبادات، لذلك ادعُ الله دائماً، بإمكانك أن تناديه نداءً خفيًّا، بإمكانك أن تدعوه دون أن تحرّك شفتيك، فهناك حالات لا يستطيع المرء أن يتكلّم ولا بكلمة واحدة، فليس شرطاً أن ترفع يديك وتقول: يا رب ـ إنكم لا تنادون أصَمّ ولا غائبًا ـ يكفي أن تدعوه بقلبك لا بلسانك، لأن الله مطّلع، قل: **" يا رب إني تبرّأت من حولي وقوّتي، والتجأت إلى حولك وقوّتك يا ذا القوّة المتين، اللهمّ اكفني شر ما أهمني وما لا أهتمّ له ".**

أينما تحرّكت، وكيفما تحركت فالتجئ إلى الدعاء، طبعاً هناك أذكار في كتاب الأذكار للإمام النووي دقيقة جداً، ولو لم تكن تحفظها ادعُ بغيرها حسب حاجتك، فبأي موقف ادعُ الله:

خرجت من البيت: يا رب يسِّر.

عقدت صفقة: يا رب ألهمني صفقة رابحة لا تكن خاسرة.

سافرت: يا رب، فركبت مركبة أو دابّة مثلاً: **" اللهمّ إني أسألك من خيرك وخير ما صُنِعَت له، أعوذ بك من شرّها وشرّ ما صنعت له".**

أحياناً دابّة تدمِّر الإنسان نهائياً، يقع حادث فيُشل طوال حياته، فاسأل الله عزّ وجل خيرها وخير ما صُنِعَت له، وتعوّذ بالله من شرّها وشر ما صنعت له.

جلست لتأكل للأكل دعاء، انتهى الطعام هناك دعاء، قمت لتنام للنوم دعاء: **" إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها ".**

وإذا قضى أحدنا حاجة، تبوّل، وأفرغ مثانته فهل هذا الأمر سهل أو بسيط، و الكليتان تعملان بانتظام ؟ اسأل عندما يصاب الإنسان بفشل كلوي ماذا يحصل له لترى ما أنت به من نعمة السلامة ؟

والله حدّثني أخ فقال لي: والله لا أستطيع أن أشرب كأسًا من الشاي أو الماء في النهار ـ لأن آلة التصفية معطّلة ـ قالت له الممرضة: لا تشرب ماءً كثيرًا الآلة معطّلة، بينما أنت أيها الأخ الكريم تشرب ما يطيب لك، لأن الكلية لديك تعمل بانتظام، ولو تعطّلت ـ لا سمح الله ـ لاحتجت إلى غسيل الدم مرتين

في الأسبوع، والوقوف على الدور، انتظار ثماني ساعات، وتحتاج إلى واسطة، وآلام، وبعد ذلك يتبقى من البولة في الجسم بالمائة عشرون، فيصبح بسببها إنسانًا آخر، عصبيٌ المزاج، خُلقه ضيّق من آثار البولة في الدم، فعندما يفرغ الإنسان مثانته فليس هذا أمرًا هيّنًا و لا بسيطًا، فليقل: الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأبقى عليّ ما ينفعني. أكلت طعامًا: الحمد لله إذْ أذقتني لذّته، وأبقيت فيّ قوّته، وأذهبت عني أذاه. إخواننا هذا مستحيل أن يكون إنسان شاكرًا نعمة الله، ثم يزيلها عنه، وبالشكر تدوم النعم، لا يغيّر الله ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم، فنحن نريد صلة بالله مستمرة عن طريق الدعاء، غير الصلوات الخمس، دعاء بإخلاص من دون ضجيج، من دون رفع صوت، من دون رفع الأيدي إلى السماء هكذا، هذا التفاصح بالدعاء، وإليكم آية دقيقة جداً أيضا حول الدعاء:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(55))

(سورة الأعراف)

أيها العبد لا تعتدِ على إخوانك، تأكل أموالهم بالباطل، وتقول لي: يا رب يا رب بفصاحة، فصاحتك غير مقبولة، مهما تفاصحت في الدعاء، ودعوتني بالدعاء النبوي الصحيح، والقلقلة قلقلة، والإدغام إدغام، ورفعت صوتك بالدعاء، ولكن مالك مالٌ حرام، ومنك على إخوتك عدوان، فالله عزّ وجل لا يستجيب للمعتدين، لأنه لا يحبُّهم، فالأمر لا يحتاج إلى حذلقة، ولا فلسفة، فمع عدوان، والمال حرام، والانحراف، و الطُغيان، مهما تفاصحت بالدعاء فلن يستجاب لك، والاستجابة تكون إذا كان فيك صلاح واستقامة وضراعة الحديث معروف:

((ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ثُمَّ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ ـ حروف من مخارجها تخرج ملء الفم ـ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

[من مسند أحمد عن أبي هريرة]

لا يستجاب.

((يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[مجمع الزوائد]

معنى أطب مطعمك: وليكن دخلك حلالاً، بعيدًا عن الكذب، والغش، والتدليس، والاحتكار، وتبرأ من كل المحرّمات

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

وموضوع الدعاء طويل جداً، وهو من أهم موضوعات الدين، بل الدعاء هو الدين كلّه.

وبعدُ، أيها الإخوة الكرام أتمنّى على الله عزّ وجل، وأرجو الله أن نعيش الدعاء حقًا، وأن يكون الدعاء أساس حياتنا، أساس تعاملنا مع الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (17-20): تفسيرالأية 61
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-10-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة غافر، ومع الآية الواحدة والستين وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

مقدمة:

1 ـ لا تصح حركتك في الدنيا إلا إذا عرفت الهدف:

أيها الإخوة الأكارم ـ العقل أصل الدين، لأنك لا تستطيع أن تستقيم على أمر الله إلا إذا تعرّفت إليه، هناك معرفة، وتطبيق، وسعادة، واعلم أنّ عِلّة وجودك، وعلة خلقك أن يسعدك الله سبحانه وتعالى بالقرب منه، خلقت لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، نحن في دار امتحان، نحن في دار إعداد، نحن في حياة دُنيا وليست عُليا، الحياة العليا في الآخرة، حياة التشريف في الآخرة، نحن في دار تكليف، حياة الجزاء في الآخرة، نحن في دار عمل، فكل إنسان يتجه في حياته الدنيا إلى أن يستمتع بها، ويجعل المُتْعَة نهاية آماله فقد ضل ضلالاً بعيدا، وضل ضلالاً مبينًا.

أقول لكم هذا المثل دائماً لخطورته: لا يصح عملك أيها الأخ الكريم إلا إذا عرفت لماذا أنت على وجه الأرض، كما كنت أقول وأضرب هذا المثل: إنسان سافر إلى بلد ما فلا بد من أن يطرح على نفسه السؤال التالي: لماذا أنا هنا ؟ إذا عرف لماذا جاء إلى هنا تصح حركته، لو جاء هذه البلدة طالبًا لتحرك في اليوم التالي إلى الجامعات، ولو جاء إلى هذه البلدة تاجرًا، لتحرك إلى المعامل، ولو جاء سائحًا لتحرك إلى المقاصف والمتنزهات.

لا تصح حركتك في الدنيا إلا إذا عرفت الغاية والهدف، الإنسان كائن فيه فاعلية كبيرة أساس الفاعلية الشهوات، شهواته تدفعه نحو كسب المال، نحو الاستمتاع، نحو العلو.

الإنسان يشكِّل كائنًا متحركًا، بالتعبير العصري (ديناميكي)، أي فيه فاعلية كبيرة جداً، هذه الحركة إما أن تكون حركة هادفة صحيحة مسعدة ؛ أو حركة طائشة مسيئة مُشقية، فكل إنسان له عمل في الحياة،

كل إنسان يتحرك، يأخذ، يعطي، يصل، يقطع، يسالم، يعادي، يقبض المال، ينفق المال، يستمتع بطريقة مشروعةٍ أو غير مشروعة، مجموع نشاطه في عمله، وفي إمضاء أوقات فراغه، وفي علاقاته الشخصية، وفي علاقاته الاجتماعية، مجموع حركته، مجموع نشاطه يقال له حركة.

حركة الإنسان على وجه الأرض، إما أن تكون صحيحةً، هادفةً، مسعدةً إلى أبد الآبدين ؛ وإما أن يتحرك الإنسان بلا هدف، أو بهدفٍ موهومٍ غير صحيح، حركةً ليست منضبطة لا بقيم ولا بشرع، فهذه الحركة المتفلِّتة من منظومة القيَم، هذه الحركة الطائشة غير المنضبطة غير الهادفة هي سبب شقائه في الدنيا والآخرة.

أخطر ما في الموضوع أن الإنسان بقدر معرفته بالله يطيعه، وبقدر طاعته يسعد، ملخص الملخص: بقدر معرفته يطيعه، بقدر طاعته يسعد، والهدف الأخير أن تسعد، والثمن أن تطيعه، السبب أن تعرفه، لذلك في كتاب الله عزّ وجل من حين إلى آخر لفتاتٌ تدعوا الإنسان للالتفات إلى الكون، فلماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، لك حواس خمس، هذه الحواس الخمس لا تستطيع أن تعرف الله، هذه الحواس الخمس تعرف الأشياء المادية المحيطة بك، لكن العقل الذي أكرمك الله به، ووضعه في رأسك إن صح في التعبير، أو في صدرك بمعنى آخر، هذا العقل الذي أكرمك الله به هو أداة معرفة الله.

2 ـ الكون طريق إلى معرفة الله:

العقل تماماً كهذه العين، الإبصار يحتاج إلى أشياء ثلاثة ؛ يحتاج إلى عين، ويحتاج إلى شيٍ تبصره، ويحتاج إلى وسيطٍ بينهما، وهو الضوء. العين موجودة، والشيء موجود، و لكن بلا ضوء لا تبصر، العين موجودة، والضوء موجود، والشيء غير موجود، فالعين عندئذ ليست لها فائدة، الشيء موجود، والضوء موجود، وبلا عين، فالإبصار مُستحيل.

فمن أجل أن تعرف الله سبحانه وتعالى لا بد من كونٍ يدل على الله، ولا بد من عقلٍ يفهم الكون، ولا بد من نورٍ إلهيٍ يكون وسيطاً بين الكون والعقل، كما أن العين تحتاج إلى نور وإلى شيء مُبْصَر، كذلك العقل يحتاج إلى نور وإلى كون يدل على الله عزّ وجل، لذلك الحقيقة الدقيقة أنك لن تسعد إلا بطاعة الله، ولن تطيعه إلا بعد معرفته ولم تعرفه إلا من خلال خلقه.

3 ـ الصنعة تدل على الصانع:

هناك نقطة مهمة جداً، هي أن الله على كل شيءٍ قدير، فقد كان من الممكن أن يكون الكون بوضع أبسط بكثير مما هو عليه، وإخواننا الذين يدرسون ويقرؤون في اختصاصات علمية يجدون أن المادة معقدة جداً، الذرّات شيء لا يُرى بالعين، الذرة فيها نواة، وفيها كهارب، وفيها إلكترونات، وفيها مدارات، أول مدار والثاني والثالث، ولها أنظمة دقيقة معقدة، فالذرّات معقّدة، وخُلق الإنسان معقدًا، خلق الحيوان معقدًا، الدماغ معقد تعقيدًا ليس له حدود، خُلق النبات معقّدًا، هذا تعقيد إبداع، وتعقيد إعجاز.

فالسؤال الآن: كان من الممكن أن يكون الكون بشكلٍ بسيطٍ بسيط، نأتي لكم بمثل: أحياناً في البيت طاولة، عبارة عن ترس خشب وأربعة قوائم، هذه قطعة أثاث في البيت غير معقدة بسيطة الصنع، لكن أحياناً تفتح جهازًا إلكترونيًا، لو عندك مثلاً حاسوب تفتحه فتجد شيئًا مخيفًا بداخله، صمامات ودارات وأشياء معقدة جداً، وتوصيلات، الطاولة البسيطة، ترس وأربعة أرجل، كهذا الحاسوب ؟ لا، فلماذا كان الكون بهذا الدقة البالغة ؟ وبهذا الإعجاز المُبدع، وبهذا التعقيد العظيم ؟ فهل من أجل أن يحقق هدفاً مادياً ؟ لا، بل من أجل أن يكون الكون مظهراً لعلم الله، مظهراً لقدرته، مظهراً لرحمته، مظهراً لحكمته، مظهراً للطفه، فالأساس أن يكون الكون مظهراً لأسماء الله الحسنى، إذا أردت أن تعرف الله ليس من سبيل تستخدمه، أو من طريقٍ تعبره، أو من أداةٍ تستعملها إلا أن تفكِّر في صنع الله عزّ وجل، لأن هناك آيات كثيرة تقول:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

إن لم تؤمن بالله من خلال آياته فلا سبيل لك إلى الإيمان، فأنت لو رأيت شخصين بشكلين مختلفين، واحد طويل والآخر قصير، واحد لونه أبيض والآخر لونه أسمر، واحد فيه وسامة، والآخر فيه دمامة مثلاً، كلاهما يصنع قطع أثاث، فأنت تعرف صنعتهما من شكليهما أم مما يصنعون ؟ بل أعرفهما من دقة صناعتهما، فالصنعة تدل على الصانع، والنظام يدل على المنظِم، وحسن التقدير يدل على المقدِّر، والحكمة تدل على الحكيم، فكل ما في الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى.

فمنطلق الدرس: خُلقتَ كي تسعد، والسعادة تحتاج إلى ثمن، ثمنها طاعة الله في الدنيا والطاعة ثمنها معرفة الله، ومعرفة الله طريقه التفكُّر في خلق السماوات والأرض، لذلك شيء طبيعي جداً أن تقرأ في القرآن الكريم من حينٍ إلى آخر آيات كونيةً تدل على الله.

الحقيقة هذه الآيات ليست على سبيل الحصر بل على سبيل المثال، فربنا عزّ وجل بثّ في الأرض آيات لا تعدُّ ولا تحصى، كل ما في الكون ينطق بوجوده، كل ما في الكون ينطق بوحدانيّته، كل ما في الكون

ينطِق بكماله، كل ما في الكون ينطق بعلمه، بحكمته، بقدرته بلطفه، بغناه، فنحن من أجل أن نسعد لا بد من طاعة الله، من أجل أن نطيعه لا بد من معرفته، من أجل أن نعرفه لا بد من التفكر في خلقه.

فكل إنسان أتاه الله عقلًا، العقل أثمن شيء منحك الله إياه على الإطلاق، العقل البشري أعقد مخلوق لله عزّ وجل ؛ مائة وأربعون مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد، أربعة عشر مليار خلية قشرية هي مكان التفكّر، والتذكر، والمحاكمة، والاستنباط، والاستنتاج، والقياس، والتصور، كل أنواع الأنشطة العقلية محلها القشرة الدماغية، لكن المشكلة أن هذا العقل لا بدّ أن يعرف المهمة التي أوكلت إليه.

4 ـ لا ينبغي للعاقل أن يستخدم عقله لأمر سخيف:

هل من الممكن لك أن تشتري جهازًا بثلاثين مليونًا ـ حاسوب ـ تستخدمه طاولة في البيت ؟ أليس في هذا امتهان واحتقار له ؟ هل يمكن أن تستخدم آلة معقدة جداً لهدف سخيف جداً ؟ فكل إنسان يستخدم عقله لكسب المال فقط، يستخدم عقله للإيقاع بين الناس فقط، يستخدم عقله لينتزع إعجاب الناس فقط، يستخدم عقله ليعيش حياةً وادعةً فقط، هذا إنسان في عقله خللٌ خطير، أي أنه استخدمه لغير ما صنع له، والعقل البشري لا يليق به إلا أن يكون أداةً لمعرفة الله، لأن هذه الأداة تجر لصاحبها سعادة أبدية.

إذا استخدم الإنسان عقله لجمع المال، وصار أغنى أغنياء الأرض، يقولون لك: هذا ملك الحديد في العالم، هناك أغنياء يقرضون الدول والحُكومات، وأحد كبار أغنياء العالم أمواله المنقولة ـ سبائكه الذهبية ـ أودعت في مستودع كبير، فدخل مرةً هذا المستودع فأُغْلِقَ عليه الباب، وهو في الداخل، ومن عادته أن يتنقل في اليوم مرتين أو ثلاثًا من بلد لبلد، فلما غاب عن البيت ظن أهله أنه في سفر، لكنه ظل يصيح، وينادي ويستغيث وهو حبيس فيه، حتى أدركه الموت جوعاً وعطشاً، فجرح إصبعه وكتب على الجدار: أغنى إنسان يموت جوعاً).

لو أن إنسانًا استخدم عقله، وجمّع أكبر ثروة في العالم فهذا الإنجاز الضخم لهذا العقل متى تنتهي فوائده؟ عند الموت، لو أنه استخدم عقله حتى بلغ أعلى منصب في العالم، فهذا الإنجاز لهذا العقل متى ينتهي؟ عند الموت، لو أنه استخدم عقله، وبلغ أرقى حياة يعيشها إنسان ؛ أطيب الطعام، أفخر البيوت، أفخر اللباس، فمتى ينتهي إنجاز هذا العقل ؟ عند الموت، إذاً هذا إنجازٌ سخيفٌ لهذا العقل، لكنك إذا تعرّفت إلى الله بعقلك من خلال الكون، وبهدى من الله عزّ وجل، فهذا الإنجاز لهذا العقل هو الذي يسبب لك السعادة الأبدية إلى ما شاء الله، لذلك لا يليق بالعقل أن تستخدمه إلا في معرفة الله، فإن استخدمته استخداماً جانبياً في كسب المال لا مانع، إن استخدمته استخداماً جانبياً في إصلاح حياتك لا

مانع، أما أن تستخدمه استخداماً وحيداً في كسب المال وفي الارتفاع أو في مكاسب مادية تنتهي عند الموت فهذا هو الحمق الشديد، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

5 - الموت ينهي كلّ شيء:

أيها الإخوة الأكارم، دائماً وأبداً بطولتك تظهر حينما تلقى الله عزّ وجل، هل أن نادم ؟ المؤمن كل جهده في الدنيا، وكل انضباطه وسلوكه الحميد، وكل تفكيره، وكل سعيه لمعرفة الله، وكل سعيه لطاعته، وكل بذله من أجل أنه إذا جاءه ملك الموت أن يشعر أنه حقق الهدف من وجوده، وأنه دخل في رضوان ربه، وأنه استحق جنة الخُلد، هذا هو هدف العقل الرشيد.

إنّ أيّ إنسان بلغ أعلى قمم النجاح في الدنيا، يأتي الموت لينهي له كل هذا النجاح في ثانية واحدة، الموت يلغي غنى الغني، ويلغي فقر الفقير، ويلغي قوة القوي، ويلغي ضعف الضعيف، ويلغي علو العالي ودنو الداني، ويلغي صحة الصحيح ومرض المريض.

6 - الإنسان مخلوقٌ مكرّم:

فقبل أن ندخل في تفاصيل الآيات أنت كإنسان وكمخلوق مكرّم.

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً(72))

(سورة الأحزاب)

أنت مخلوق مكرّم.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً(70))

(سورة الإسراء)

أنت مخلوق مكلّف.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُون (56))

(سورة الذاريات)

وفيك عقلٌ، هو أثمن شيءٍ في الكون، فإما أن تستخدم هذا العقل لمعرفة الله، وبالتالي إلى طاعته، وبالتالي لاستحقاق سعادة الدنيا والآخرة ؛ وإما أن تعطل العقل، أو أن تستخدمه استخداماً لا ينفعك بعد الموت، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام عجب أشد العجب من سيدنا خالد لا لأنه أسلم، بل لأنه تأخَّر في إسلامه، والعلة أن له فكرًا وعقلاً ناضجًا، قال:

((عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً))

[ورد في الأثر]

أيكون للإنسان عقل ويعصي الله ؟

7 ـ لا تشتغل بالمؤقت وتترك الأصل الدائم:

ألقيت كلمة قبل أسبوع في عقد قران ضربت مثلًا، وهو مثل معروف: إنسان ساكن في بيت أجرة، وصاحب البيت من القوة حيث بإمكانه أن يطرده منه في أيَّة لحظة، ومن دون سابق إنذار، ولهذا المستأجر دخلٌ كبير، ولهذا المستأجر بيتٌ خَرِب في منطقةٍ قاحلة، فهل من الحكمة أنّ عقل هذا المستأجر يأمره أن ينفِق كل دخله في تزيين البيت المؤقت المستأجر ويهمل ذاك البيت الذي سيؤول إليه شاء أم أبى، وسوف يُطرَد من بيته الأول المستأجر طرداً في أية لحظة من دون سابق إنذار ؟ لكل منّا أيها الإخوة بيتان ؛ بيتٌ مؤقت تسكنه في الدنيا، ولنا عند الله حياةٌ عليا، فالإنسان دخله، ماله، سعيه، جهاده، طاقاته هل يعقل أن يصرفها كلها للدنيا ؟ فهذا الذي كل خواطره، كل مشاغله، كل متاعبه، كل همومه متعلقة في الدنيا، فهو أكبر مقامر، ولو جاءه مَلَك الموت فجأة يجد نفسه أنه لا يملك للآخرة شيئاً، هو صفر اليدين، فهذا الذي يقول:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

إذاً: المقدمة في هذا الدرس ملخصة في ثلاث كلمات: إذا أردت أن تسعد فعليك بطاعة الله، ولكن طاعة الله عزّ وجل مرتبطة بمعرفته، والقاعدة: أن قيمة الأمر من قيمة الآمر، فلو كنت في الخدمة الإلزامية تتلقى أمرًا من عريف، فلك من هذا الأمر موقف ـ والرتب العسكرية لها اعتباراتها، وإذا تلقيت أمراً من أعلى رتبة في الفرقة لك موقف آخر، قد يكون الأمر نفسه، واللفظ واحد، لكن كلما علا الآمر كان للأمر أهمية كبيرة.

8 - أطع الله وعلى الله الباقي:

فمن أجل أن تطيع الله عزّ وجل لا بد من أن تعرفه، فأكثر الناس يرتكب المعاصي، ويقول بعدها: ماذا نفعل، الزمن صعب ؟ فهو لا يعرف ما عند الله من عذاب أليم عند المعصية، ولا يعرف ما عند الله من ثواب عظيم لو أطاعه، يقول لك: لا نقدر. لماذا لا تقدر، والآمر ضامن ؟ فهل من المعقول أنّ الله عزّ وجل يأمرك بأمر، ثم لأنك أطعته وخفت منه يجعلك وراء الناس، فيحرمك البيت، والزواج، وما ذاك إلاّ لأنك أطعته، ولأنك ترفعت عن مال الربا يتركك محرومًا، هكذا الإله ؟ هكذا يعامل عباده ؟ لا ثم لا، فالآمر ضامن.

((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[كشف الخفاء]

تجد بعض الناس يتهمون الله عزّ وجل بأنّ عباده الذين خافوا منه وأطاعوه هم ضائعون، فقراء، متخلفون، بلا عمل، هذه صورة شيطانية.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)

(سورة فصلت)

إذا كان الله عزّ وجل قد وعدك أنه وليُّك فهل تخشى سوءًا ؟ هل تخشى فقراً ؟ هل تخشى هضماً للحقوق؟ هل تخشى ظلماً، هل تخشى ضياعاً، أين قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: الآية 97)

يا أيها الإخوة الأكارم... الحديث الشريف:

((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[كشف الخفاء]

هذا الحديث مهم جداً، فأحياناً يأتيك عرض مغرٍ جداً لكن على أساس معصية أو شبهة، فأنت بسبب من إيمانك وورعك تقول: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين، الله غني، فماذا تنتظر من الله إذا ترفّعت عن شيءٍ في سبيل الله ؟ انتظر كل الخير، انتظر أن يعوّضك الله خيراً مما فاتك حرامًا، وأن يعوضك حلالاً، انتظر كل فضلٍ من الله عزّ وجل.

إذاً: من حين إلى آخر تجدون في كتاب الله عزّ وجل مقاطع من الآيات الكونية، من أجل أن تكون هذه المقاطع نماذج للتفكر في خلق السماوات والأرض، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ

1 ـ كل ما في الكون مسخّرٌ مذلّلٌ:

أي أنّ الذي أمرك بغض البصر، والذي أمرك بالصدق، والذي أنزل هذا الكتاب هو الذي خلق هذا الليل، هو الذي خلق النهار، هو الذي خلق الشمس، هو الذي خلق القمر، هو الذي أنزل المطر، هو الذي خلق الإنسان، هو الذي خلق النبات، فهل هناك إنسان لا يأكل في اليوم ثلاث وجبات ؟ على المائدة فكِّر واعتبر ؛ تأكل قطعة جبن من صنع الحليب ؟ من سخر هذه البقرة تصنع لك الحليب ؟ الغدة الثديية في البقرة عبارة عن قبة يجول في أعلاها شبكة من الأوعية الدموية الدقيقة جداً، ويرشح من أسفل القبة الحليب، وحتى هذه الساعة لا يعرف العلماء كيف يتم تصنيع الحليب في الغدة الثديية للبقرة ؟ الذي يرونه بأعينهم مجموعة خلايا على شكل قبة، يغلفها من الأعلى شبكة دموية دقيقة جداً، ويرشح من داخل القبة الحليب، نقطة وراء نقطة، كل ستمئة لتر من الدم الذي يجول في قبة، وهذه الغدة يرشح من داخلها لتر حليب واحد، فكل لتر حليب نتيجة دوران ستمئة لتر دم في أعلاها.

البقرة أولاً مذللة، وهناك مرض نادرًا ما يصيب البقر، هذا المرض اسمه التوحُّش، ذكر لي أخ كريم يقطن في إحدى مدن الغوطة الشرقية أن أحد الفلاحين عنده بقرة، أصيبت بهذا المرض فتوحشت، فقتلت رجلين، وجرحت ثالثاً، فاضطر أن يطلق عليها الرصاص، ويخسر ثمَنها سبعين ألف ليرة.

كلمة (وذللناها لكم)، هذه الكلمة ألا تحدث في المؤمن رعشة، والبفرة وزنها ستمئة أو سبعمئة كيلو يقودها طفل صغير، تحلبها امرأةٌ ضعيفة، تنقاد لطفل، أما لو توحّشت لا بد من أن تقتلها لئلا تقتل الناس.

الجمل مذلل، البقرة مذللة، هذه كلها آيات كونية.

2 ـ الماءُ آية:

وأنت تشرب فكِّر وتأمل ؛ فكأس الماء هذا، لو أردنا تحلية مياه البحر لكلفنا كل لتر من الماء أكثر من ثمن لتر من البنزين، يكلف أربعة أو خمسة ريالات في مراكز التحلية، فهذا الماء العذب الفرات، المحلى عن طريق الخالق جلّ جلاله، هل فكرت فيه ؟ وهذا الماء بلا لون ولا طعم ولا رائحة يتبخر بدرجة أربع عشرة، نفوذ إلى درجة متناهية ـ قيمة نفوذيته ـ فتصور أنه غير نفوذ مثل القطر، تحتاج إلى غسيل الشيء الملوث بالماء، سائل إلى درجة متناهية، فهو نفوذ، ومزيل للأجسام الأخرى التي

تخالط الملابس، لا لون، لا طعم، لا رائحة ؛ الماء وحده أكبر آية تدل على الله عزّ وجل، تبرّده فينكمش وينكمش و ينكمش، وعند الدرجة (+4) يزداد حجمه، على خلاف كل عناصر الأرض، كل ما في الكون من عناصر على التبريد تنكمش، وعلى التسخين تتمدد، هذا نظام إلهي ثابت، فالغازات، والمواد الصلبة، والمواد المائعة تتمدد إلا الماء في الدرجة (+4) إذا خفضت حرارته يزداد حجمه، وقد لا تصدق أن هذه الخاصة في الماء تتوقف عليها الحياة في الأرض، لو ألغيت لما كنا في هذا المسجد، لما كان في الأرض إنسان واحد ولا حيوان ولا نبات.

لو أن الماء كلما زدنا تبريده انكمش، فتزيد كثافته، ويغوص عندئذ إلى أعماق البحار، وتتجمد المحيطات، وينعدم التبخر، ويموت النبات، ويموت الحيوان، ويموت الإنسان، فمن الذي جعل الماء تنعكس قوانينه بهذه الدرجة ؟

بالمناسبة، لو وضعت مترًا مكعبًا من الماء في مكبس، ووضعت فوق المكبس ثمانمائة طن لا ينضغط أبدا، أما إذا برّدته فسوف يتوسّع، لو وضعته في أعظم الأجسام قساوةً، هذه الأجسام تتشقق، تتصدع، وأحدث طريقة الآن لقلع الرخام عن طريق حفر ثقوب في الصخور وملئها بالماء، ثم يبردون الماء، فيتوسع، فيقلعون مترًا مربعًا من الرخام.

الماء آية، الهواء آية، كأس الحليب آية، البقرة آية.

3 ـ البيضة:

الدجاجة آية، بيضة صغيرة رأيتها بأم عيني، بيضة صغيرة تأتي حمامة تجلس فوقها، بعد أيام خرج من البيضة صوص صغير جداً، ما مضى أسبوعان أو ثلاثة إلا وطار، أصبحت حمامة كأمها وطارت، تحت سمعي وبصري كل يوم أراقبها، هذا خلق الله عزّ وجل، بيضة انكسرت فخرج منها المخلوق الصغير فيه أجهزة ؛ فيه جهاز هضم، فيه جهاز عصبي، فيه قلب، فيه دوران، فيه رئتان، وله سمع،وله بصر، ويكسوه ريش، كله تحت سمع الإنسان وبصره، تأتي الأم تضع منقارها في فمه تغذيه، خلال أسبوعين في حجم بيضة صغيرة جداً أصبحت حمامة إلا قليلاً، وطارت منذ يومين، هذا من خلق الله عزّ وجل.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

* * *

أيها الإخوة الكرام، الذي يستخدم عقله لمعرفة الله هذا من السعداء، لأن كل هذا الكون آيات دالة على عظمة الله وكثير من الناس غافلون عنها ؟

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105))

(سورة يوسف)

بعض الناس في غفلةٍ، يشرب الماء كالبهيمة، يأكل كالحيوان، يستمتع بالدنيا استمتاع البهائم وربنا عزّ وجل وصفهم كذلك، يستمتع بالطعام والشراب كما تستمتع البهائم، لا عقل ولا إدراك، ولا حمد، ولا شكر ؛ أما المؤمن فكلّما تحرك يرى نعمة الله، كلما عاين نعمةً لله عزّ وجل ينفذ منها إلى المُنعم لذلك: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه.

ماذا أقول لكم ؟ والله في جسم الإنسان من النعم، وفيه من الإكرامات ما لا يحصيه محصٍ.

4 ـ العين البشرية:

العين البشرية عشرة طبقات بالشبكية، مائة وثلاثون مليون مخروط بالشبكية، تسعمائة ألف عصب بالعصب البصري، يخرج من قعر العين من ثقب صغير العصب البصري، ويضم تسعمئة ألف عصب، لكل عصب ثلاثة أغماد، من أجل نقل الرؤية الدقيقة الملونة الصافية إلى الدماغ، عضلات جانبية، عضلات علوية، سفلية، القَرْنية الشفافة، القُزحية، الجسم البلوري، الخلط المائي، العصب البصري، العين وحدها آية، أم المطابقة ؛ وما أدراك ما المطابقة ؟

اسألوا عن المطابقة، المطابقة شيءٌ معجز، عدسة مرنة، الشيء البعيد من أجل أن يقع خياله على الشبكية، تجد أن العدسة يزداد تحدبها قليلاً، فمن يزيدها ؟ حسابات دقيقة جداً.

إنسان ما ؛ يمشي بالطريق، فتمرُّ به سيارات، وأشياء أخرى منها البعيد ومنها القريب وأشياء متحركة، كله يراه رؤية دقيقة بفضل التطابق، وهذا التطابق وحده أكبر آية تدل على الله.

فلذلك أيها الإخوة الأكارم أنتم ترون أنّ الله يصف الإنسان فيقول:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9))

(سورة البلد)

كل حرف من الكلام يسهم في صنعه سبع عشرة عضلة، إذا قلت محمد ـ م، ح، م، د ـ والميم مشددة أي حرفين فالمجموع يصبح خمسة أحرف، والخمسة أحرف ضرب سبع عشرة عضلة، تقريباً خمس وثمانون حركة بالعضلات إذا قلت كلمة: محمد.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(10))

الثديين.

(فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(11)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(12)فَكُّ رَقَبَةٍ(13))

(سورة البلد)

أي أنْ تفك رقبتك من أسر الشهوة، ما دامت شهوتك هي الحاكمة، فالطريق إلى الله مغلق، مسدود. لذلك هذه الآيات الكونية التي وردت في كتاب الله، هي بشكل أو بآخر موضوعات للتفكر، فربنا عزّ وجل يقول:

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

5 - النوم في الليل نعمة كبرى:

إذا أردت أن تفكر في خلق الله، فالليل موضوع للتفكر، الخلية في الإنسان يتعبها الضوء والحركة، فلا بد من ليلٍ تسكن فيه، وإذا أردت أن تعذب الإنسان عذاباً لا يحتمله، اجعله في مكانٍ لا ظلام فيه ضوء مستمر، أو امنعه من النوم، لأن النوم من نعم الله الكبرى، النوم يحتاج إلى ظلام.

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ)

هذه كلمة (لكم)، أيْ جعله خصيصى لكم، إكراماً لكم، تفيد الاختصاص، الليل مخصص لكم.

لكمن كيف يكون الليل ؟ يكون من حركة الأرض حول الشمس، فالأرض تدور، لو لم تدر لما وجد ليل ونهار، نصفها ليل سرمدي ونصفها نهار سرمدي، وهناك آية أخرى تؤكِّد ذلك:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمْ اللّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ(71))

(سورة القصص)

الليل السرمدي دليل على أن الأرض واقفة. لكن لو أن الأرض دارت هكذا على محور موازٍ مستوي دوران الأرض حول الشمس، الشمس هنا، والأرض تدور حولها بكيفية معينة لما وجد ليل ونهار، نصف الكرة ليلٌ سرمدي، ونصفها نهارٌ سرمدي.

لو أن المحور عمودي على مستوى الدوران لما كان صيف وشتاء وربيع وخريف، ولانعدمت الفصول، ليل ونهار وأربعة فصول من دوران الأرض على محور مائل على مستوى الدوران، فالأرض محورها مائل، إذًا الشمس هنا عمودية وهنا مائلة، هنا صيف وهنا شتاء، فلما انعكست الآية العمودية هنا على نصف الكرة الجنوبي، والمائلة هنا على نصف الكرة الشمالي، ومن ميل المحور تنشأ الفصول الأربعة، والفصول من أساسيات حياة النبات، النبات يحتاج إلى برد، وإلى جو معتدل، وإلى حر ورطوبة، وأمطار، وشمس، وحرارة، فتبدل الحرارة والرطوبة والأمطار يحتاج إلى فصول، فالكون مترابط، فربنا عزّ وجل يقول:

(اللّهُ)

أيْ هل عرفتم من هو الله عزّ وجل ؟

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

من أجل أن تسكن، لو أن الإنسان نام بالنهار عشر ساعات بدل نوم الليل، لم يحقق القصد من النوم، لا بد من أن ينام في الليل، وأول ساعات الليل أفضل من ساعاته المتأخِّرة.

(وَالنّهَارَ مُبْصِرًا)

وَالنّهَارَ مُبْصِرًا

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إذَا جَاءَ اللّيْلُ فَأَيْنَ النّهَارُ ؟))

[أحمد عن سعيد بن أبي راشد]

تجد هناك وحشة، إذا دخل الإنسان ليلاً في غابة ينخلع قلبه من الخوف، فإذا أشرقت الشمس تصبح الغابة من أجمل الأمكنة، لو ركب البحر في الليل لشعر بوحشةٍ كبيرة، فإذا طلعت الشمس شعر بالأنس.

(وَالنّهَارَ مُبْصِرًا)

دورة الأرض حول نفسها، وميل محورها، وتشكّل الليل والنهار والفصول الأربعة، هذه من الآيات الكبرى الدالة على عظمة الله عزّ وجل.

هذا الموضوع لا بد له من التفصيل والتعميق والتحليل والدراسة، هذه الأرض مَن يحركها ؟ لو أن سرعتها زادت صار الليل ساعة، فليس من المعقول أن يكون الليل ساعة، فبينما يغلق التاجر محلّه إذْ طلع الفجر، لم يتعش بعد إلاّ وقد طلع الفجر، لو كان الليل ثلاثين ساعة ينام ويفيق، ويفيق وينام، ناس نائمون، ناس مستيقظون، فليس هذا معقولاً، فمن جعل الليل ثماني ساعات أو عشر ساعات ؟ أو أكثر، الليل و النهار متعلقان بالسرعة، فلو أن السرعة ازدادت لقصر الليل ولطال النهار، ولو أبطأت السرعة صار الليل طويلاً والنهار طويلاً، والنهار قصيراً لحدثت فوضى، لو أن دورة الأرض حول الشمس طالت، أو أن الأرض أبطأت صار الصيف ثلاثين شهرًا، فلا يعقل أن يكون الصيف ثلاثين شهرًا، فالناس لمدة ثلاثة أشهر يملّون، تجدهم يريدون أن يعود الشتاء، فمن جعل هذه المواقيت المعتدلة المتناسبة مع خلق الإنسان ؟ إنه الله.

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِرًا إنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَشْكُرُونَ(61))

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

فالإنسان كلّما تأمل نعم الله عزّ وجل واتصل بالله من خلالها امتلأ قلبه شكراً، وبعد كل هذا فلنعدِّد النعم العظمى على الإنسان: نعمة وجودك، أنعم عليك بالوجود، ثم أنعم عليك بالصحة، وأنعم عليك بزوجة، وبمأوى صغير، الناس يتسابقون لمتاع الدنيا ويتحاسدون، ويتباغضون، ويتخاصمون، ويلعن بعضهم بعضاً من أجل حطام الدنيا، مع أن الأساسيات متوافرة للجميع، الإنسان إذا كان جائعاً، وأكل أبسط طبق من الطعام يشعر بلذة لا توصف، أحياناً يكون الإنسان محرومًا من الأكل العادي بسبب صحي، حتى أبسط المأكولات، يقول لك: أشتهي قرصًا من الفلافل وأدفع ثمنه مائة ألف ليرة، لكنه ممنوع، إذا جاع الإنسان أمامه طعام، وأكله، وشعر بالشبع فهذه نعمة كبرى، وله مأوى، له أهل، له أولاد، هذه النعم الأساسية قواسم مشتركة، الناس يتحاسدون في الكماليّات ؛ كالمنزل الواسع، والمركبة، بالوجاهة، أما الأساسيات فهي موجودة، فإذا شكر الإنسان الله على نعمة الوجود، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، وامتلأ قلبه شكراً لله عزّ وجل سعد بهذا الشكر.

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ)

بالليل والنهار.

(لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ)

بدورة الأرض حول نفسها، بميل محورها، باعتدال سرعتها، باعتدال الوسط الذي يعيشه الإنسان.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ(61))

هذه النعم العظمى يمرُّ عليها وهو في غفلةٍ شديدة عنها.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

إلى أين أنتم ذاهبون ؟ ما الذي يشغلكم عن الله عزّ وجل ؟ ما الذي يصرفكم عنه ؟ أهو متاع الدنيا، تجارتها، أموالها، متعها، شهواتها ؟ هذه منقطعة بالموت.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(62)كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ(63)اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

هذه الآيات إن شاء الله تعالى سوف نعيد شرحها في درسٍ قادم، لأنه أتينا عليها سريعاً من دون شرح.

خلاصة الموضوع:

1 ـ تفكّرْ في الكون:

لكن المقدمة التي أريد تأكيدها أنك إذا أردت معرفة الله فعليك بالتفكر في آيات الله في الكون، وفي الدرجة الأولى جسمك الذي تصحبه، وأخطر ما في الموضوع أنك خلقت للسعادة الأبدية، والسعادة الأبدية ثمنها طاعة الله، وطاعة الله ثمنها معرفته، ومعرفته سببها التفكّر في خلق السماوات والأرض، فالمؤمن يخصص وقتًا يتفكر فيه في خلق السماوات والأرض، وفي أثناء النهار، وفي أثناء تناول الطعام، وفي أثناء التنقّل من مكان إلى مكان وفي كل ظاهرة.

العطاس:

فمثلاً لو أنّ واحدًا عطس، فالعُطاس من نعم الله الكبرى، إنسان صار معه سعال، لماذا السعال ؟ معنى السعال وجود حساسية معينة بالقصبة الهوائية، وهي فيها أهداب جاءها جسم غريب فطردته، أساساً الآن يستحيل عليه زرع رئة، لأن الرئة المزروعة صاحبها لا يسعل، فتتراكم المواد السيئة في القصبة، ويحدث إنتان قد ينتهي بصاحبها إلى موت، فظاهرة السعال هذه ظاهرة مهمة جداً.

التقلب في النوم:

الإنسان كيفما تحرك، في النوم مثلا، تقلّبه في النوم هذه من آيات الله الدالة على عظمته، لأن الإنسان عندما ينام وزن الجسم الذي فوق العظم يضغط على اللحم الذي تحت العظم، هذا الضغط يسبب ضيقًا في لمعة الأوعية الدموية، يصير لديه نقص تروية، فتنمل رجله أحياناً، وهو نائم ومستغرق في نوم عميق ينقلب على جنبه، فتستريح العضلات التي تحت الهيكل العظمي، ويأتي دور العضلات التي كانت مرتاحة، فكيف يقلب ؟ لأن في الجسم مراكز، وهي مراكز تتحسس بالضغط، هذه المراكز تعطي إشارة للدماغ، والدماغ يعطي أمرًا لتتقلب وأنت نائم، وربنا يقَلِّبُك مرة هكذا ومرة هكذا، وإلا وقعت من السرير.

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف: الآية 18)

تصوروا شخصًا نائمًا فإنه يتقلّب ثمانيًا وثلاثين مرة، كلما انضغطت العضلات التي فيها أوعية تحت الجهاز العظمي، صار فيه ضعف تروية، تأتي إشارات للدماغ أنّ هنا ضغط وتعب، فيعطي أمرًا فتتقلب، التقلب آية وأنت نائم.

اللعاب:

إذا كان الواحد عند طبيب الأسنان، والمعالجة طالت فيضع له شرّاقة، لماذا ؟ لوجود اللعاب الذي يخرج باستمرار، ولكي لا يضطر قطع العمل يضع له هذه الشراقة، لكن أين الشراقة وأنت نائم ؟ لسان المزمار، وأنت نائم إذا باللعاب يكثر في فمك، فتذهب إشارة إلى الدماغ، والدماغ يعطي أمرًا للبلعوم وأنت نائم، يغلق طريق الرئة إغلاقًا محكمًا، ويفتح الطريق إلى المعدة عبر المريء، فاللعاب يذهب عندئذ للمعدة وأنت نائم.

كيف لو رأيت شيئا مخيفا ؟

رفُّ الجفون، هذا فعل منعكس، فتح الحدقة فعل منعكس أيضاً، لو أنّ الإنسان رأى حشرة مخيفة، رأى عقربًا، فوراً صورة العقرب على الشبكية تنتقل للدماغ، يتم إدراك، والدماغ يسأل الغدة النخامية ملكة الجهاز الهرموني أن هنا خطرًا تصرفي، هذه الغدة النخامية تعطي أمرًا إلى الكظر في خطر تصرف، الكظر يعطي خمسة أوامر ؛ أمْر إلى القلب يسرع في نبضه، فالخائف يدق قلبه كثيرًا، مائة وعشرين دقة، أمرٌ ثان إلى الرئتين لكي يعتدل الشهيق والزفير مع ضربات القلب، فالخائف يلهث، أمرٌ ثالث إلى الأوعية الدموية كلها فتضيق لمعتها، حتى يتوفر الدم للعضلات، فلسنا مضطرين للون زهر، فالخائف لا يحتاج إلى اللون الزهر فهو يريد أن يتخلص من الموقف، (ينفد بريشه)، فتجد الدم يذهب للعضلات فتجد لونه يصفر، فلماذا الخائف يصفّر لونه ؟ لأن هناك أمرًا ثالثًا أرسله الكظر للأوعية كلها فضاقت اللمعة، أمر رابع يصدر للكبد أنْ اطرَحْ كمية زائدة من السكر في الدم، لو فحصنا دم إنسان خائف نجد السكر عاليًا بكثرة، الكبد طرح السكر، وكل ذلك خلال ثانية واحدة.

فإذا رأى شخص عقربًا أو أفعى ببستان، تجد قلبه يخفق بشدّة، يلهث بقوة، يصفر لونه يزداد السكر بدمه، وأنت لا تشعر، وهناك أمر خامس، ألا وهو هرمون التجلّط إذْ تزداد نسبته بالدم، حتى لو كان في الجسم جرح ونزيف فالدم لا يخرج كله، وأنت لا تشعر.

المثانة:

عندك جسم هو أعقد مخلوق في الكون، فإذا أحضر شخص بالونًا وملأه ماء وعلّقه، ثم ثقبه ثقبًا، فكم من الوقت يستغرق نزولُ الماء ؟ يستغرق نصف ساعة تقريباً، لعدم وجود تنفيس هواء، فهذه المثانة كيف تُفرغ ما فيها من بول بنصف دقيقة، لأن فيها عضلات ضاغطة، فربنا عزّ وجل أكرمنا بالعضلات، ولاحظ لو أنّ أحدًا أمسك بالونًا بيده وضغطه، فيُفرغ ما فيه من الماء على الفور، فللمثانة عضلات ضاغطة تفرغ المحتوى في نصف دقيقة، هذا كمال بالخلق.

فالإنسان يتأمل حياته، أجهزته ؛ جهاز الدوران، جهاز الهضم، جهاز تصفية البول، جهاز العضلات، جهاز العظام، السمع، البصر، النطق، اللسان.

الشّعر:

الشعر، ففي كل شعرة وريد، وشريان، وعضلة، وغدة دهنية، وغدة صبغية وعصب، وبرأس الإنسان ثلاثمائة ألف شعرة، كل شعرة وريد وشريان وعصب وعضلة، وغدة دهنية وغدة صبغية، ستة ضرب ثلاثمائة ألف، وأنت لا تدري، ولو جعل ربنا عزّ وجل في الشعر عصبًا حسيًا، لاضطر أن يذهب إلى المستشفى لإجراء عملية حلاقة، فالله أكرمك أن تقص شعرك من دون تخدير، وأكرمك أن تقص ظفرك من دون تخدير، لكن جعل لك في العظم عصبًا حسيًا خطيرًا جداً، ولكن ليس له فائدة، هل يوجد بنقي العظام عصب حسي ؟ لو حدث كسر، فشدة الألم تجعلك تبقي رجلك على ما هي عليه، وأربعة أخماس علاج كسور العظام أن تبقيها على ما هي عليه، فهذا العصب الذي ضمن نقي العظام له فائدة كبيرة جداً عند الكسور، إذًا فالخلق دقيق والخالق مبدع.

لقد أردت من هذا الدرس أن أجعله تمهيدًا لهذه الآيات فقط، إذا لم تفكر بجسمك، ولم تفكر بكأس الماء، ولم تفكر بهذا الهواء، ولم تفكر بطعامك، بالنبات، بالحيوانات، باللحوم التي تأكلها.

انظر إلى ابنك وقد كان نطفة:

وما فكرت بابنك كيف كان ؟ نقطة ماء، ثلاثمائة مليون حوين تختار البويضة واحدًا منها فقط، فيتم التلقيح، تسعة أشهر ثم يخرج طفلٌ يبكي، يعطس، يسعل، وجهه جميل، أوردة شرايين، قلب دسامات، بنكرياس، غدد، كائن معقد من حوين منوي مع بويضة، وأساس الحوين واحد من ثلاثمائة مليون في اللقاء الواحد.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

فإذا أردت أن تعرف الله فكل ما في الكون يدل عليه، إن تعرفه تطِعْه فتسعد، هذا هو الدين كله، لا تعقدوا الدين، أناسٌ عقدوا الدين تعقيدًا كبيرًا، الدين بسيط جداً، لأنه دين الله خلاصته: اعرفْ الله وأطعه، طاعته هذا القرآن والسُنَّة، الكون يدل عليه وأمره بين يديك، بالكون تعرفه، وبالقرآن والسُنَّة تعبده، خلقُه موجود وأمرُه موجود، ما عليك إلا الحركة، وأمّا الدنيا فتأتي وهي راغمة، هم في مساجدهم والله في حوائجهم.

((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[كشف الخفاء]

هذا الدين.

إن شاء الله الدرس القادم نأتي على هذه الآيات بشيء من التفصيل يلفت نظرك إلى معرفة الله من خلال آياته.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (18-20): تفسير الآيات 62 - 65
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-10-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثامن عشر من سورة غافر، ومع الآية الواحدة والستين، وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا

1 - الكون مسخّر للإنسان:

أيها الإخوة، هذه الآية تستوجب وقفة متروية لأمر حساس فيها، وهي أن الإنسان أحياناً يتوهّم أنه استغلّ الطبيعة، وجد هذه الطبيعة على نحوٍ أو آخر فكشف خصائصها واستغلّها، والحقيقة عكس ذلك، هذا الذي أمامك ؛ من ليلٍ ونهار، من شمسٍ وقمر، من جبال، من وديان، من ينابيع، من معادن صُمِّمَت من أجلك، والدليل:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

هذه اللام لام التعليل، أي جُعِل الليل في سكونه، وجُعل الليل بظلامه، وجُعل الليل بحرارته، وجُعل الليل باعتداله وبرودته، هذه الخصائص إنّما صُمِّمَت خصيصى للإنسان، وفرقٌ كبير بين أن تجد شيئاً فتستخدمه، أو تستغلّه، أو تنتفع به، وبين أن يكون هذا الشيء مصمّمًا خصيصى من أجلك.

الفكر العلماني يرى أن الطبيعة لها خصائص، والإنسان كشف هذه الخصائص، واستغلّها فانتفع بها، لكن التفكير الإيماني أن كل شيءٍ خلقه الله في الأرض، بخصائصه، وبصفاته مصمّمٌ بشكلٍ خاص لينتفع الإنسان به، فليس عبثاً أن معدناً كالرصاص ينصهر في درجة مائة، وأيُّ إنسان لو وضع رصاصًا في وعاء، وسخّنه ينصهر هذا المعدن، بينما الحديد لا ينصهر إلا في الدرجة ألف وخمسمائة، وليس من باب الصُدفة أن هذا المعدن إذا برّدته يزداد حجمه.

مِن هذه الخاصّة يمكن أن تتعامل المعادن مع الأحجار، احفر حفرةً في حجر، وضع فيها معدناً، اسكب الرصاص، أصبح المعدن والحجر قطعة واحدة، فإذا توهّم الإنسان أن المعدن هكذا، صفاته ونحن

استفدنا منه، فهذا شيء، أما إذا آمن أن هذا المعدن خلقه الله عزّ وجل بهذه الخصائص، وبهذه الصفات، وأنه ينصهر بدرجات متدنية، وأنه إذا برّدته يزداد حجمه، وأن الشيء الذي يزداد حجمه على التبريد يمكن أن يقدِّم لك خدمات جليّ، فهذا تفكير المؤمن، وهذا هو الحق، كلُّ هذا المعنى من (لام) التعليل.

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

2 ـ الليلُ سكنٌ:

هذه لام التعليل، أيْ علّة وجود الليل أن يكون لكم سكناً، فكيف يُخلق الليل ؟

الأرض كرة، والشمس كرة، والأرض تدور حول الشمس، والأرض تدور حول نفسها، لو دارت حول نفسها بمحور عمودي لألْغَيَت الفصول، أو بمحور أفقي لألغي الليل والنهار، لو توقّفت لألغي الليل والنهار، إذاً: ليلٌ ونهار مختلفان، يطول أحدهما تارةً ويقصر أخرى، واختلاف الليل والنهار أن يأتي الليل بعد النهار والنهار بعد الليل، هذا معنى، وأن يختلف الليل في الطول عن النهار، وأن يختلف النهار في الطول عن الليل، هذا معنى آخر، فاختلاف الليل والنهار آيةٌ من آيات الله الدالّة على عظمته.

وقد قلت لكم في درسٍ سابق: إن الإنسان لو نام ساعاتٍ عديدة في النهار، لا يشعر أنه قد سكن وارتاح، لا يسكن جسمه إلا إذا نام في الليل، لأن الخليّة الحية في الإنسان لا تستعيد نشاطها إلا في الظلام، لو نمت في النهار نوماً طويلاً فلابدّ من سكون، ولابدّ من الظلام.

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

وبعد فلنا مع الآيات التي تبدأ بهذه الصيغة وقفة:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: الآية 2)

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

3 ـ هل عرفت مَن هو الله ؟

أيْ هل عرفت مَن هو الله ؟ هو الذي فعل هذا وهذا، هل عرفت من هو الله ؟ هو الذي خلق الموت والحياة، هو الذي خلق الشمس والقمر، هو الذي خلق الليل والنهار، هو الذي منحك الوجود، هو الذي منحك الإمداد، هو الذي منحك الهداية والرشاد، الله صاحب الأسماء الحسنى، صاحب الصفات الفُضلى، عَلَمٌ على الذات ـ الذات الكاملة ـ واجب الوجود، الله خالق الكون، ربُّ العالمين، لا إله إلا هو، هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه.

قلت لكم في درسٍ سابق: المؤمن يعيش مع هذه النِعَم، والكافر كذلك، الكافر ينام في الليل، والمؤمن ينام في الليل، والكافر يستمتع بأشعّة الشمس في النهار والمؤمن كذلك، لكن الفرق بين المؤمن والكافر أن المؤمن يتجاوز النعمة إلى المُنعم، والكافر يبقى عند النعمة، فالذين عبدوا الشمس، والذين عبدوا البقر، والذين عبدوا الأمطار، والذين عبدوا بعض الحيوانات، رأوا أن البقر له خيرٌ عميم على البشر، فلم يتجاوزوا هذه النعمة إلى خالقها، لم يتجاوزوا هذه النعمة إلى مُوجِدها، وقفوا عندها فعبدوها من دون الله.

إذاً:

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

4 ـ الناس غيّروا نمط المعيشة في الليل:

الليل سَكَنٌ، لكن طبيعة حياتنا ؛ انتشار الكهرباء، والسهر إلى ساعات متأخّرة من الليل، أضاع على الناس وقت الرحمات، وقت الصلوات، وقت المناجاة، وقت تلاوة القرآن قال تعالى:

(أَقِمْ الصّلاةَ لِدُلُوكِ الشّمْسِ إلَى غَسَقِ اللّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنْ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79))

(سورة الإسراء)

هذا الوقت، وقت السحر، وقت التجلي

(إنّ نَاشِئَةَ اللّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا(6))

(سورة المزمّل)

هذا فَقَدَهُ معظم الناس لأنهم غيّروا َخلق الله، لأن الليل مديد، وينام الإنسان المتحضّر ـ بتعبيره هو ـ إلى ساعةٍ متأخّرة، ويسهر إلى ساعةٍ متأخّرة، فكأنه غيّر خلق الله، غيّر التصميم الإلهي.

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِرًا)

النهار معاش لكسب الرزق، للعمل، فهو مُبْصِر، وشتّان بين الليل والنهار، وقد ورد في بعض الأثر:

((إذَا جَاءَ اللّيْلُ فَأَيْنَ النّهَارُ))

[أحمد]

الليل فيه وحشة، الليل في البحر موحش، والليل في الغابات موحش، فإذا طلعت الشمس ذهبت الوحشة وعمّ الأنس.

((إذَا جَاءَ اللّيْلُ فَأَيْنَ النّهَارُ))

وأين النهار ـ أين هذا الضياء ـ إذا جاء الليل ؟

فالمؤمن يدلُّه الليل على الله، والنهار يدلُّه على الله، والشمس تدلُّه على الله، والقمر يدلُّه على الله، وكأس الماء يدلُّه على الله، وطعامه يدلُّه على الله، وابنه الذي كان نقطةً من ماءٍ مهين يدلُّه على الله.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحدُ

* * *

قال سبحانه:

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

1 ـ إذا أردت معرفة قيمة النعمة ففكِّر في نقيضها:

فمن أجل أن تعرف قيمة هذه الآية فكِّر فيما يناقض معناها، فكِّر في حياةٍ بلا ليل، فكِّر في ليلٍ بلا نهار، فكِّر في ليلٍ طويل، فكر في نهارٍ طويل، فكر في ليلٍ حار، كيف تنام الليل ؟ فكِّر في نهارٍ بارد، الإنسان في الليل في أغلب الوقت في بيته، وفي البيت التحكم بالحرارة ممكن، أما في النهار فهو في الطرقات، وفي الأعمال، وفي الحقول، فدائماً حرارة النهار أعلى من حرارة الليل، فكيف تكون الحياة لو كان العكس !! فمن أجل أن تعرف قيمة الآية التي تحياها، والنعمة التي تستفيد منها لابدَّ من أن تفكِّر في خلاف ما هي عليه.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)

والآية الأخرى التي ذكرتها لكم في الدرس الماضي:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ)

(سورة القصص: الآية 71)

والآية الثانية:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ)

(سورة القصص: الآية 72)

هذه من آيات الله الدالَّة على عظمته، قال سبحانه:

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ)

2 ـ البُعد عن الله ينسي الإنسانَ نعمَ الله:

فالإنسان من لِبُعده عن الله عزّ وجل يتعامى عن النعم الأساسيَّة الصارخة الواضحة، يبحث عن أشياء يرى أنها تنقصه مع أن هذا الكون بانتظامه، وهذه السماء بجمالها، وهذه الشمس بسطوعها، وهذا القمر بنوره، وهذا المطر بغزارته، وهذا الهواء بنقائه، وهذا الماء بحيويّته، هذه الأشياء الأساسيَّة التي يستمتع بها الناس جميعاً، وهي قِوام حياتهم، هذه النعم لا يلتفتون إليها إطلاقاً، يلتفت إلى شيءٍ ينقصه، شيءٍ ليس في متناول يده، فمن علامات المؤمن أنه يشكر الله عزّ وجل على النِعَم الكبرى الأساسيَّة التي لولاها لما تحقّق وجود الإنسان.

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

فأحياناً يصاب عضو في الإنسان، فتنقلب حياته إلى جحيم، كأن يختل شيء فيه، كأن يفقد بعض خصائص حواسِّه، كأن يفقد بعض وظائف أعضائه، وأحياناً يقول لك: أشعر بحرارة مرتفعة، أحياناً وخزات في صدره، أحياناً ضيق في تنفُّسه، أحياناً حساسية في تنفُّسه، فالأشياء الطفيفة جداً إذا استمرَّت تجعل حياته جحيماً، لذا فعندما يكون الإنسان متمتِّعًا بالنعم الكبرى فينبغي أن يشكر الله عليها، والدليل:

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ(61) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

1 ـ الله خالِقٌ مسيّر:

هذه الآية جمعت الخلق، والتربية، والتسيير في آنٍ واحد، ولله المثل الأعلى ـ فلو صمَّم الإنسان آلة، وأمدَّها بالطاقة، وحرَّكها لرأى لنفسه فضلاً، ومشى زهواً، فهل نسي أن المصمم الأكبر هو الخالق ؟ والمُمِد بالطاقة هو المربّي، والمحرّك هو المسيّر، فربنا سبحانه وتعالى خالق، وربنا ربٌّ كريم، ومسيرٌ حكيم، إذًا: هو خالقٌ، ربٌّ، مسيّر، ولن تكون عارفاً بالله إلا إذا عرفت أنه هو الخالق، وأنه هو الرب، وأنه هو المسيّر.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

إلى أين أنت ذاهب ؟ هو الخالق.

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(64))

(سورة غافر)

من أمدّك بالهواء ؟ من ثبّت نسبة الأكسجين في الهواء ؟ كيف أن النبات يحتاج إلى غاز الفحم الذي تطرحه أنت، وأنت تحتاج إلى الأكسجين الذي يطرحه النبات، ما هذا التوازن العجيب ؟ ثبات نسب الغازات في الهواء.

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

2 ـ أمرُ المخلوقات بيد الله:

الله عزّ وجل ـ كما جاء في آياتٍ أخرى ـ له الخلق وله الأمر، أيْ أنّه خلق، لكنّ أمرَ هذا المخلوق بيدِ الله، لم يسلمه لجهةٍ أخرى.

(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

وهناك آية أخرى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

أيْ في قبضته، فهذه الآية تبثُّ الطمأنينة، تبثُّ الراحة النفسيَّة، أي شيءٍ مهما بدا لك قوياً أو مخيفاً أو شريراً فهو بيد الله عزّ وجل.

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

أجْمَعُ هذه الآيات.

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

هو الخالق، هو الآمر، والآمر ضامن، فأحياناً يتوهّم الإنسان لضعف إيمانه أنني إذا أطعت الله عزّ وجل بقيت بلا بيت، وإذا استقمت على أمر الله بارت تجارتي، وإذا قصدت زوجةً صالحة فلن أجد، فلابدّ من امرأةٍ من عامّة الناس، ولابدّ من تجارةٍ فيها شبهات، هذا هو ضعف الإيمان، الآمر ضامن، الذي أمرك بالاستقامة هو الخالق الذي بيده كل شيء، وأساساً الآية التي أردِّدها لكم كثيراً:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: الآية 123)

أيْ أنّه ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه عائدٌ إليه، وإذا أيقن الإنسان أن أمره كلّه بيد الله طابت نفسه، واطمأن قلبه، وتوازن، ونجّاه الله من النفاق، ومن التزلّف، ومن التذلّل، ومن كل الصفات التي تزري به كإنسان، أمرك بيد الله، وكلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً.

(ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

3 ـ من الذي ينبغي أن تعبده ؟

في الآية معنى دقيق فخذ به و الزمْهُ، فمن الذي ينبغي أن تعبده ؟ هو الخالق.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 21)

مَن الذي ينبغي أن تعبده ؟ هو المربي الذي يمدُّكم، من الذي ينبغي أن تعبده ؟ هو المسيّر، فإذا كان الله هو الخالق، وهو المربي، وهو المسيّر فإلى أين تلتفت ؟ إلى أين؟

4 ـ إذا لم تنصرف إلى الله فإلى أين تنصرف ؟

في أثناء الخلافات الزوجيّة مثلاً، يقول بعض الأشخاص للزوجة: كل مصلحتك مع زوجك، كل مصلحتك مع رضاء زوجك عنك، مستقبلكِ مع زوجك، إلى أين تلتفتين ؟ هذا على مستوى دنيوي، ولذا فإن الإنسان إذا ترك الله عزّ وجل، ولم يؤمن به، ولم يلتفت إليه، ولم يستقم على أمره فإلى أين يذهب ؟ إلى مخلوقٍ ضعيفٍ لئيم ؟! إلى إنسانٍ لا يملك لك شيئاً؟

عندما قال ربنا عزّ وجل:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا)

(سورة الأعراف: الآية 188)

فالعلماء طبعاً فسّروا هذه الآية، أيْ: إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فَلأن لا يملك لغيره من باب أولى، يجب أن تؤمن أنّ أيّ مخلوقٍ كائناً من كان، ومهما علا شأنه، لا يملك لك شيئاً أبداً، الأمر بيد الله، فلذلك:

(ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

الخالق، والمربي، والمسيّر هو الله، الله هو الخالق، الله هو المربي، الله هو المسيّر.

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

أيْ أنّى تنصرفون ؟ إلى أين تتجهون ؟ تتذلّل أمام مَن ؟ أمام إنسان ضعيف، تتضعضع أمام مَن ؟ أمام غني ! تبذل ماء وجهك أمام مَن ؟ أمام إنسان لئيم ! تقدِّم كل حياتك ِمن أجل مَن ؟ من أجل إنسان لا يقدِّم لك نفعاً ولا ضرّاً !

فالمعنى الدقيق جداً، والمهم أيها الإخوة أنه كلّما كبُرَ عقلُ الإنسان، وكلّما نضج عقله توجّه إلى الله عزّ وجل.

(هُوَ الأَوّلُ وَالآخِرُ وَالظّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)

(سورة الحديد: من الآية 3)

هو الرافع والخافض، هو المعزُّ والمذل، هو المعطي والمانع، هو النافع والضار، هو القابض والباسط، هو الموفِّق، هو المُعَسِّر.

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى(5)وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7)وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(10))

(سورة الليل)

(ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَأَنّا تُؤْفَكُونَ)

أيْ ينبغي أن تعبد الخالق، وينبغي أن تعبد المربي، وينبغي أن تعبد المسيّر، والخالق والمربي والمسيّر هو الله عزّ وجل.

وبصراحة في الكون حقيقةٌ واحدة، إن عرفتها عرفت كل شيء، وإن غابت عنك غاب عنك كل شيء، هو الله، في الكون موجودٌ واحد، ولا موجود سواه، إن عرفته عرفت كل شيء، وإن فاتك فاتَك كل شيء، هو الله عزّ وجل، الحق، ما الحق ؟ كلّما اقتربت من هذه الحقيقة فأنت على حق، كلّما ابتعدت عنها فأنت في الباطل.

(كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ)

كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ

أُفِكَ أي انصرف، يؤفك عنه من أُفِك، ينصرف عنه من ينصرف، لكن فمن الذي ينصرف عن الله ؟ من الذي يتجه إلى زيدٍ أو عُبيد ؟ من الذي يعلِّق آماله على إنسانٍ لئيم ؟ من الذي يضع رجاءه في عنق إنسانٍ ضعيف ؟ هو الجاهل، قال:

(كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ)

الله عزّ وجل غاب عن أبصارنا، وغاب عن حواسِّنا، ولكن على العقول أنْ تدركه من خلال الآيات، فكل مَن يجحد بالآيات غابت عنه الحقيقة الكبرى، غاب عنه خالق الكون.

إذاً الآية دقيقة الدلالة جداً.

(كَذَٰلِكَ)

1 - كلُّ إنسان يجحد بآيات الله سينصرف إلى غير الله:

أيُّ إنسان جحد بآيات الله سينصرف إلى غير الله، ولو آمن بآيات الله سيتّجه إليه، لو آمن بآيات الله سيُقبل عليه، لو آمن بآيات الله سيطيعه، لو آمن بآيات الله سيسعد بقربه، لو آمن بآيات الله لَسَعِدَ في الدنيا والآخرة، لكن لأنه جحد بآيات الله انصرف إلى غير الله، إذا انصرف الإنسان إلى غير الله انصرف إلى لا شيء، انصرف إلى الضعيف، انصرف إلى الفقير، انصرف إلى اللئيم، انصرف إلى العاجز، ما سوى الله لا ينفعك أبداً.

لذلك إذا توهّمت أيها الإنسان أن مخلوقاً ينفعك، فاعلم هذا المخلوق ما نفعك إلا بعد أن أذن الله، ما نفعك إلا بعد أن سمح الله له أن ينفعك، ما نفعك إلا بعد أن ألهمه الله أن ينفعك، هكذا، فكل إنسان يرى نعمةً جاءت إليه من إنسان، إذا رآها من هذا الإنسان فقد أشرك، يجب أن يراها من الله عزّ وجل، فالمؤمن العاقل إذا أصابته نعمةٌ عن طريق إنسان يسجُد لله، على أن الله سبحانه وتعالى سخَّر له هذا الإنسان، وألهمه، وسمح له، ثمّ بعدها يشكر هذا الإنسان، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ))

[أحمد]

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

آيةٌ ثانية:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا)

2 - مِن لم يرَ النعمة وهي موجودة رآها وهي مفقودة:

في هذه الآية نقطة دقيقة المعنى جداً، وهي أن هذه النعم التي أكرمنا الله بها، إن لم نرها وهي موجودة رأيناها وهي مفقودة، ودعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ أرنا نعمك بدوامها لا بزوالها))

[ورد في الأثر]

فنعمة العقل مثلاً، لو رأيت إنسانًا فقد عقله فأنت لا تعرف نعمة العقل إلا عند فقد العقل، فالبطولة أن يكون لك عقل سليم، وأن ترى نعمة العقل، لأنك إن رأيت نعمة العقل أكرمك الله بدوامها.

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم: من الآية 7)

فالنبي الكريم علّمنا أنه إذا رأى الإنسانُ إنسانًا مبتلى، ففيما بينه وبين نفسه يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا))

[الترمذي عن عمر]

دون أن يسمعه.

فالنقطة أنه لابدّ من أن ترى نعمة العقل، إذاً فكِّر بهذه النعمة، واحمد الله على توافرها ولو ضاقت بك الأمور، لأن نعمة العقل لا تعدلها نعمة.

نعمة القوّة، إذا خدم الإنسان نفسه بنفسه، وقضى حاجته من دون مساعدة أحدٍ له، فهذه نعمةٌ لا تعدلها نعمة، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا))

[الترمذي عن ابن عمر]

عندما يفقد الإنسان حركته يصبح ثقيل الظل على أقرب الناس إليه، بل يتمنّى أقرب الناس إليه أن يخفِّف الله عنه، فنعمة الحركة، نعمة القوة، نعمة السمع، نعمة البصر، نعمة النُطق، نعمة سلامة الأعضاء، نعمة سلامة الحواس، نعمة سلامة الأجهزة نعمٌ عظيمة.

نِعمُ الله لا تُعدّ ولا تُحصى ؟

فيا أيها الإخوة الأكارم... المؤمن يرى نعم الله وهي موجودة، أما إذا كفرها وهي موجودة رآها وهي مفقودة، لذلك قالوا: **"الصحّة تاجٌ على رؤوس الأصحّاء لا يراها إلا المرضى "**، عندما تختل بعض أجهزة الإنسان يعرف قيمة هذا الجهاز.

فمثلاً: نعمة الاستقرار، أن الأرض مستقرّة هذه نعمة كبرى، متى نعرف هذه النعمة ؟ بالزلازل، ثلاثون ألف إنسان مصاب بالهند بثوانٍ معدودة، خمس درجات على مقياس رختر، فكل الأبنية أصبحت في الأرض، ثلاثون ألف إنسان مشرّد، فاستقرار الأرض من نعم الله الكبرى، لكن هذه الزلازل، وتلك البراكين، وهذه الفيضانات، وهذه الحروب الأهليّة هذه كلُّها معالجاتٌ إلهيّة.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

صواعق أو صواريخ.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

الزلازل أو الألغام.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: الآية 65)

الحروب الأهليّة، هذا من تأديب الله للبشر، لذلك:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا(59))

(سورة الكهف)

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا)

هناك نعم حينما كانت ما كنا نعرف قيمتها، من هذه النعم نعمة توازن القِوى في العالَم عندما كان التوازن موجوداً، فهذه الدول الكثيرة الضعيفة كانت تتأرجح على هاتين القوّتين، وتأخذ من كلا المعسكرين ميّزات كثيرة، فلمّا توحّدت القوى في قوة واحدة، فقدنا نعمة التوازن.

البقرة ذلول، إذا توحّشت، وبعد أن دفعت ثمنها سبعين ألف ليرة صرت مضطرًا أن تقتلها، لأنها قتلت رجلين، تذليل البقرة نعمة.

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس: الآية 72)

هذه نعمة.

فأيها الإخوة بالشكر تدوم النعم.

((يا عائشة، أكرمي مجاورة نعم الله فإن النعمة إذا نفرت قلّما تعود))

[ورد في الأثر]

إذا دخل الإنسان بيته يجب أن يشكر الله على أن آواه، وكم مِن الناس مَنْ لا مأوى له. وإليك دعاء من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام حينما يستيقظ، فإنه يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لأن النوم موت موقّت. كان عليه الصلاة والسلام إذا ألقى رأسه على الوسادة يقول:

((إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وَإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصّالِحينَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

معنى هذا أن الإنسان عندما ينام هناك احتمالان أن يستيقظ أو ألاّ يستيقظ

((إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وَإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها))

فلمّا كان النبي يستيقظ يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي، وأذن لي بذكره))

[الترمذي عن أبي هريرة]

فإذا سمح الله عزّ وجل للإنسان أن يحضر مجلس علم، سمح له أن يسمع الحق، أعطاه قوّة على طاعة الله عزّ وجل، إيّاك نعبد وإياك نستعين، هذه نعمةٌ كبرى، ونعمةٌ عُظمى.

(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 23)

ما دام أسمعنا الحق إذاً علم فينا خيراً إن شاء الله تعالى، هذه من نعم الله الكبرى أن أسمعك الحق، أسمعك كتابه، عرّفك برسوله، عرّفك بأهل الحق هذه نعمةٌ لا تعدلها نعمة، أعانك على طاعته، فهو يربّيك، إذا حصل تقصير، أو خلل، أو زلل تأتي المعالجة سريعاً.

((إذا أحب اللّه عبداً ابتلاه))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

((إذا أحبّ الله عبده عجّل له بالعقوبة))

((إذا أحبّ الله عبده عاتبه في منامه))

عندما يشعر الإنسان أن ربنا عزّ وجل يتابعه، يضيّق عليه أحياناً، يؤدّبه أحياناً فهذه علامةٌ طيّبةٌ جداً، أنه مقبول عند الله، ومطموعٌ فيه، لأنه:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

(اللّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً)

معنى استقرار الأرض:

فالأرض مستقرّة، والبناء الذي عمره طيلة خمسين سنة مستقر مائة بالمائة، لو حصل اضطراب لتداعى البناء، ثُمّ كون الأشياء تستقرُّ على الأرض لها معنى آخر.

المعنى الأول:

الأرض مستقرّة مع أنها متحرّكة:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

(سورة النمل: من الآية 88)

هناك أشياء بديهيّة الآن أقولها لك، يعرفها طلاب الثانوي جميعاً، الأرض في حركتها حول الشمس تقطع في الثانية الواحدة ثلاثين كيلو مترًا، الدرس بدأ الساعة السادسة، والآن الساعة السادسة والنصف، مثلاً، أمضينا ثلاثين دقيقة، ثلاثون كيلو مترًا في الثانية ضرب ستين يصبح ألفا وثمانمائة كيلومتر بالدقيقة، ضرب ثلاثين، نحن من أول ما بدأ الدرس وقلنا: بسم الله الرحمن الرحيم مع الدرس الثامن عشر إلى الآن قطعنا مئات ألوف الكيلو مترات.

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السّحَابِ)

(سورة النمل: من الآية 88)

لكن مع هذه الحركة استقرار، فهل تمكّن الإنسان من صنع مركبة تنطلق بسرعة، والاستقرار مائة بالمائة ؟ تضع كأس ماءٍ على الطاولة، وتراه مائة بالمائة مستقرًا، هذا هو معنى الآية، أي أن الأرض مستقرّة وهي متحرّكة، لو أنها، مستقرّة وهي ساكنة فالقضيّة سهلة، لكن مع الحركة هي ذات استقرار مائة بالمائة.

وحينما تضطرب الأرض يكون الزلزال، وحينما يكون الزلزال يكون الضحايا، الذي حصل بمصر أن الزلزال استمر خمسين ثانية، لو استمر أكثر من دقيقة ونصف ما بقي في مصر شيء سالماً، فالله عزّ وجل قادر على كل شيء، بناء أربعة عشر طابقاً أصبح كومةً من الأنقاض في ثوانٍ ؛ ببيوته، ومكاتبه، وأثاثه، وسكّانه، أشهر بناء وقع في الجيزة.

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا)

المعنى الثاني:

نظام الجاذبيّة الذي يعني أن كل شيءٍ على وجه الأرض يشدّ إليها، وينجذب إليها، فهذا هو الوزن، من يعرف قيمة الجاذبيّة ؟ روّاد الفضاء الذين طاروا إلى القمر هناك منطقةٌ بعد اجتياز نطاق جاذبية الأرض، وقبل الدخول في جاذبية القمر، هذه المنطقة اسمها: منطقة انعدام الجاذبيّة، وقد قرأت مقالات حول هذه المنطقة، الحياة في هذه المنطقة لا تطاق، لأن الإنسان ليس له وزن، فحاجاته تطير في جو الغرفة، وهو يتبعها إلى سقف الغرفة، فهل من المعقول أن تبحث عن حاجات في السقف ؟ شيء ما له وزن إطلاقاً، فلا الإنسان له وزن، ولا الحاجة لها وزن، لكن في الأرض نعمة كبرى، هذا الكأس مستقرة، لأن لها وزنا، ما هو وزن الشيء ؟ أساس الوزن قوة جذب الشيء لمركز الأرض، هذا هو الوزن.

فالإنسان الذي وزنه على الأرض ستون كيلو غرامًا يصبح على القمر وزنه عشرة كيلو، لذلك أي قفزة ينطلق بها عشرة أمتار نحو الفضاء لأنه ليس له وزن، القمر جاذبيّته أقلّ، إذاً وزن الإنسان يَعدل في

القمر سدس وزنه في الأرض، فمن صمَّم هذه الأرض بهذا الحجم، وبهذه السرعة، وبهذه الجاذبيَّة ؟ فالإنسان وزنه معقول في الأرض، فمن جعل هذه الأشياء تشدُّ إلى الأرض، تستقرُّ عليها ؟ قوة الجذب.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

هذا يؤكد معنى آية أخرى، حينما قال الله سبحانه وتعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: الآية 2)

لأن السماء بناء، لكن تصوَّر ـ كما قرأت مرَّة في مقالة علمية ـ أن الأرض، وهي في مسارها حول الشمس، طبعاً مرتبطة بالشمس بقوة جذب، كلكم يعلم أن الكون مؤلَّف من مجرَّات، وعدد المجرَّات يقترب من مَليون مليون مجرَّة، وعدد كواكب كل مجرَّة يقترب من مليون مليون كوكب.

وأما معنى قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً)

السماء بناء، ولكنها مبنيَّة بلا أعمدة ترونها، وهذه الآية من أدق الآيات:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: آية " 2 ")

أيْ بعمدٍ لكن لا ترونها، ما هي العمد التي لا ترونها ؟ هي قِوى التجاذب، فكل كتلتين تنجذبان إلى بعضهما بعضاً، الأكبر تجذب الأصغر، عامل الجذب الكتلة والمسافة، عوامل الجذب أو قوانين الجذب أساسها حجم الكتلة والمسافة بين الكُتَل، فكلَّما زادت المسافة ضعف الجذب، وكلَّما كبرت الكتلة ازداد الجذب، فالشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرَّة تجذب الأرض إليها بقوَّة، لو أن الأرض تفلَّتت من جاذبية الشمس، وسارت في الفضاء الكوني، وأردنا أن نعيدها إلى الشمس نحتاج إلى مليون مليُون حبل فولاذي، قطر الحبل خمسة أمتار، هذا الحبل يتحمَّل قِوى شد تزيد على مليون طن، حبل من الفولاذ المضفور يحمل مليون طن، نحتاج إلى مليون مليُون حبل، وكل حبل يتحمَّل قِوى شد مقدارها مليون طن، كأن الأرض مجذوبةٌ إلى الشمس بقوَّةٍ تساوي مليون مليُون مليون طن، المليون ستة أصفار ـ فمليون مليون مليُون أي ستة أصفار، وستة أصفار، وستة أصفار، أي أمامك ثمانية عشر صفرًا ـ قال: العلماء: كل هذه القوَّة الجاذبة إلى الشمس من أجل أن تحرف الأرض في مسارها حول الشمس ثلاثة مليمترات في الثانية، كل ثانية ثلاثة، مليمترات، فتبقى الأرض في مسار مغلق حول الشمس، فالآية:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من الآية 2)

لو أردنا أن نربط الأرض بالشمس بهذه الحبال الفولاذيّة سوف نربطها من وجهٍ واحد، الوجه المُقابل للشمس، فغزارة هذه الحبال تكون حيث إن بين الحبلين مسافة حبلٍ واحد، أيْ كل خمسة أمتار هناك حبل في البر والبحر، إذاً هذه الغابة من الحبال الفولاذيّة تمنع عنا أشعة الشمس، وتمنع زراعة الأرض، وتمنع البناء، وتمنع كل شيء، إذاً لا يعرف قيمة هذه الآية إلا من درس هذا الموضوع.

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا

وهناك أيضا بالغة الدقة أيها الإخوة، ربنا عزّ وجل قال:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر: الآية 41)

معنى الزوال في اللغة الانحراف، يقول لك: وقت الظهر بعد زوال الشمس عن كبد السماء، أيْ بعد انحرافها، فالزوال له معنيان: معنى الانحراف، ومعنى التلاشي، لو أن الأرض انحرفت عن مسارها، وسارت في الفضاء الكوني لحُرِمَت من أشعة الشمس، وحينما تُحرم من أشعة الشمس تُصاب بشيء اسمه: الصفر المُطْلَق، الصفر المطلق أيْ مئتان وسبعون درجة تحت الصفر، في هذه الدرجة تتوقّف الذرّات عن الحركة، لو أنها انحرفت عن مسارها لتلاشت.

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

هذا معنى:

(وَالسّمَاءَ بِنَاءً)

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسّمَاءَ بِنَاءً وَصَوّرَكُمْ)

وَصَوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ

كان عليه الصلاة والسلام إذا وقف أمام المرآة يقول:

((اللّهُمّ كما حَسّنْتَ خَلْقِي فَحَسّنْ خُلُقِي))

[البيهقي عن عائشة]

أولاً الخيّاط يأخذ لك قياسا مرات عدة، لماذا ؟ لمَ لا يأخذ الاثنين معاً ؟ لأن هناك تناظرا تاما في جسمك، أقل من ميلي، كُمٌ واحد، ورجْلٌ واحدة، وكتِفٌ واحد، لأن الثاني مثله، معنى هذا أن في الإنسان تناظرا.

لو رسمنا خطًا يبدأ من منتصف رأس الإنسان إلى أسفل جذعه لكان هذا الخط منصِّف لجسمه، وما على اليمين يساوي ما على اليسار بأدق الدقائق، إذاً:

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)

جعل العين في مكان مناسب، جعلها في الرأس، وما جعلها في الظهر، كلّما أردت أن ترى إنسانًا تخلع معطفك في الشتاء لتتمكن من رؤيته، لكنه جعلها في الرأس، وجعلها في محجر، وجعلهما عينين اثنتين من أجل البعد الثالث، فبعين واحدة ليس بإمكانك أن تُدخل خيطاً في ثقب الإبرة، يأتي الخيط بعيد عن الثقب بعشرة سنتمترات ـ بعين واحدة ـ أما بالعينين فهناك بعدٌ ثالث.

ولاحظ الأذنين، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9))

(سورة البلد)

لماذا أذنان ؟ لو كان هناك أذن واحدة لما وصل الصوتُ إليك، لكن لتعرف جهته، من تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين، التفاضل واحد على ألف وستمائة وعشرين جزءا من الثانية، يكتشف الإنسان من أين الصوت، من اليمين أو من اليسار، لو سمع بوق سيّارة ينحرف على عكس الصوت وهو لا يدري.

إذاً لك أذنان، ولك عينان، ولك أنفٌ فوق الفم، إذا كان الطعام فاسدًا فإن رائحته تجعلك تلفظه، والأنف نحو الأسفل، لو كان بالأعلى لكانت مشكلة، نحو الأسفل ونحو الفم، والهواء، هواء الزفير هو الصوت، تتنفّس بصوت، ولسان المزمار شرطي مرور يعمل ليلاً نهاراً ثمانين سنة، وأنت نائم، يغلق مجرى الهواء، ويفتح مجرى المريء من أجل أن يصل اللعاب إلى معدتك، العضلات، الأوعية، القلب، الرئتان، الدسّامات.

لو أوكل الله عزّ وجل لك التنفّس هل تستطيع أن تنام بالليل ؟ لا تستطيع، هناك مرض يصيب بعض الأشخاص، ولكنّه نادر جداً، مركز التنفّس النوبي يتعطّل، فإذا نام الإنسان يموت فورًا، وهناك أدوية حديثة جداً يجب أن يأخذ كل ساعة قرصاً، فيربط المنبّه الساعة العاشرة، يأخذ القرص الأول، وينام، ويستيقظ الساعة الحادية عشرة، قرصًا آخر، وهكذا على مدار الساعة. لو الله عزّ وجل أوكل لك التنفّس، أو أوكل لك ضربات القلب، أو أوكل لك الهَضم، بعد ما أكلت تحتاج إلى خمس ساعات ليتم الهضم في المعدة، البنكرياس، والصفراء، والاثنا عشري، والأمعاء الدقيقة، والكيلوس، هذه مشكلة صعبة جداً، الله عزّ وجل يقول:

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)

أنت لو رأيت إنسانًا بعضلات فقط، فإن منظره مخيف، كالبيت على العظم، أنت مكسو بجلد ناعم لطيف، الله جملّك حين الخلق.

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)

صورة حسنة، جميلة، متناسقة، كاملة، واحد حمل ابنه على يديه، الأمور مدروسة دراسة دقيقة، وبحكمة بالغة، الأربطة أربطة عضلات الكتف مع الجذع تتحمّل وزن الطفل، لو حمله، ولو لم تكن حكمة بالخلق لخُلِعت يده، تجد الأربطة كلها متناسبة.

فالعظام، عظم الحوض يتحمّل خمسمائة كيلو، عظم عنق الفخذ كل واحد يتحمّل مئتين وخمسين كيلوا من الضغط، فإذا كان فوق الإنسان نصف طن لا ينكسر هذا العظم، وقد كان ماءً مهيئًا.

ميناء الأسنان فيه قساوة تأتي بعد الماس، إنه كان ماء مهيئًا، لذلك:

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ)

وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ

الماء فرات، والفواكه، والخضراوات، والأطعمة، كل شيء لطيف، انظر ذو رائحة عطرة، وحجم مناسب، وقِوام يتناسب مع أسنانك، وكذلك المواد الغذائيّة، لو توافر في الغذاء المادة المفيدة مع طعم مر لا تستفيد منها، طعم مستساغ، ولكن ليس فيه غذاء، الطعم مستساغ، وفيه غذاء، ولكن قِوامه يحتاج إلى آلات لتقطعه، كل شيء صنعه ربنا عزّ وجل لطيف.

مرّة قال لي رجلٌ مضطر ليأكل علبة سردين بلا مفتاح ـ وكان حبيسًا ـ قال لي: أكثر من خمس ساعات، وأنا أعالجها على الأرض إلى أن فُتِحت معي، أما البيضة فبنقرة واحدة تُفْتَح وحدها، البيضة لا تحتاج إلى مفتاح، ففي الخَلق لطفٌ، وفيه ما يريح الإنسان، إذاً:

(وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

الذي خلقك بشكل حسن ؛ جعل الشعر، جعل الحواجب، العينين، الأجفان، العين ؛ قرنيّة، وقزحيّة، وجسما بلوريا، وخلطا مائيا، وعصبا بصريا، وتسعمائة ألف عصب، وشبكيّة، ومائة وثلاثين مليون عصيّة، وأنفًا وأسنانًا، والأسنان أنواع ؛ قواطع وأنياب وأضراس، والسن له عصب حسي، إذا حصل نخر فلن تنام الليل، تذهب فوراً لحشوه قبل أن تفقده، ففي الخلق تصميم رائع جداً.

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

هذا المقطع من عند قوله تعالى:

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِرًا إنّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ لَا إلَهَ إلّا هُوَ فَأَنّا تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ (63) اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسّمَاءَ بِنَاءً وَصَوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطّيّبَاتِ ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(هُوَ الْحَيُّ)

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

القيوم، هو الحي على الدوام، هو الباقي، مصدر حياة الخلق.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

أخلِص له.

((يا معاذ، أخلص دينك يكفك القليل من العمل))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

الإخلاص عبادة القلب، العمل لا يُقْبَل عند الله عزّ وجل إلا بشرطين، إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السُنّة.

(لَهُ الدِّينَ)

الخضوع لله وحده، الطاعة لله وحده، الحبُّ لله وحده، الإخلاص لله وحده.

(قُلْ إنّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(162))

(سورة الأنعام)

(لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

يُحمد على كل شيء ؛ على السرّاء والضراء، على الغنى والفقر، على الصحّة والمرض، على إقبال الدنيا وعلى إدبارها.

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(قُلْ إنّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَمّا جَاءَنِي الْبَيّنَاتُ مِنْ رَبّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (19-20): تفسير الآيات 65 - 77
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-10-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس التاسع عشر من سورة غافر، ومع الآية الخامسة والستين، وهي قوله تعالى:

(هُوَ الْحَيُّ)

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

1 ـ الحياة صفة من صفات الله:

الحياة من صفات الله عزّ وجل.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

ربنا عزّ وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

2 ـ دعوةٌ إلهية إلى الحياة الحقيقية:

قد تجد إنسان في أعلى درجات الصحّة والنشاط والقوّة، وهو في حكم الله ميّت.

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميتُ الأحياءِ

***

<< يا بني، مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر >>.

الإنسان كما تعلمون، أيها الإخوة، جسد، والجسد له مظاهر تؤكِّد أنه حي، وجيبُ قلبه، وجيبُ رئتيه، تأثُّر المنعكسات، حركة الأعصاب، هناك دلائل تؤكِّد أن الإنسان حي، لكن قلب الإنسان، بل قلب نفسه أيضاً يموت ويحيا، يحيا القلب بذكر الله، ويموت بالبعد عنه، فكم ترى من الأحياء وهم في أوج قوّتهم ونشاطهم هم في حكم الله أموات، وربنا عزّ وجل يقول:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(21))

(سورة النحل)

وعندما قال ربنا عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

فدعوة الله لحياةٍ أبديّةٍ سرمديّة، لأن الله هو الحي، وكل من اتصل به كان قلبه حيّاً، وكل من انقطع عنه كان قلبه ميّتاً، القلوب تحيا، وتلين، وتمتلئ رحمةً بالقرب من الله، وتموت وتقسو، وتصبح كالصخر، كالصحراء بالبعد عن الله، وإذا اقترب من الله بالاستقامة على أمره والعمل الصالح ذاق طعم الإيمان.

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: من الآية 255)

هو حيٌّ، ومصدرٌ لحياة المخلوقات، حياة أجسادهم وحياة نفوسهم، وحياة قلوبهم وحياة عقولهم.

3 ـ الإنسان في حياته مفتقرٌ إلى الله:

وقد ذكرت من قبلُ أن الإنسان في جوهره مفتقر إلى الله، الإنسان ضعيف بالأصل.

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21))

(سورة المعارج)

الإنسان خُلِق عجولاً، خُلق ضعيفًا، خُلق هلوعًا، منوعًا، جزوعًا، هذه صفاتٌ، وهي صفات ضعفٍ لكن لصالحه، لكن الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن عباده.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

الله عزّ وجل واحدٌ أحد فردٌ صمد، لا يستمدُّ حياته من غيره، ولا نفعه من غيره، ولا تستطيع كل الخلائق أن تنفعه أو أن تضرُّه، لذلك الله عزّ وجل صمد، ذاتيُّ الوجود، ذاتٌ كاملة، واجب الوجود، خالقٌ، ربٌّ، إلهٌ، موجودٌ، كاملٌ، واحدٌ في ذاته وأسمائه وصفاته، والإنسان مفتقر إلى الله عزّ وجل، فجسمه مفتقر إلى غذاء، وقلبه مفتقر إلى ذكر، وعقله مفتقر إلى علم.

من هم أشقى الناس ؟ الذين اعتنوا بأجسادهم فقط، وماتت قلوبهم، وضعفت عقولهم، هم أنكروا إنسانيّتهم، وما عرفوا قيمتهم، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

(سورة الحشر: من الآية 19)

يتوّهم بعضهم أن الله أنساهم أنفسهم، وفي بعض التفاسير: أن نسيانهم لله هو الذي أنساهم أنفسهم، عندما نسيت ربّك فقد جهلتَ قيمة إنسانيّتك، وما عرفت أين كنت، وماذا بعد الموت ؟ وما عرفت سرّ وجودك، وما عرفت حقيقة وجودك، وما بحثت عن طبيعتك العظيمة، وأنك أنت مخلوقٌ أول.

إذاً:

(هُوَ الْحَيُّ)

مصدر حياة الكون، هو حيٌّ في ذاته، ومصدر حياة الكون، كما تقول: رحمن رحيم، رحمنٌ في ذاته، رحيمٌ في أفعاله، هو حيٌّ إذًا من صفاته الحياة، وكل من اتصل به أصبح قلبه حياً، عاش حياته الإنسانيّة، والحقيقة أن المؤمن حينما يلتقي بغير المؤمن يشعر أنه ميّت لفقده الإيمان.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من الآية 21)

الكافر يبني حياته على الأخذ، والمؤمن يبنيها على العطاء:

ماديُّ النزعة، ضيّق الأفق، أناني الصفة، يحب ذاته، يحب أن يحيا، ويموت الآخرون، يحب أن يرقى، وينخفض الآخرون، يبني مجده عن أنقاض الآخرين، يبني غناه على فقرهم، يبني سعادته على شقائهم، يبني أمنه على خوفهم، يبني وجوده على فنائهم، هذا الكافر ميّت، لو نشد الإنسان السعادة في العطاء لا في الأخذ لارتقى في إنسانيته، وسما بنفسه في مدارج الإيمان، لكن معظم الناس يظنون أن السعادة في الأخذ، فالكافر قد بني حياته على الأخذ، على أخذ أموال الآخرين، على أخذ خبرات الآخرين، على أخذ خدمات الآخرين، على استعباد من دونه، على استغلال من دونه.

المؤمن بالعكس بني حياته على العطاء، المؤمن يبني سعادته مع ربه على أنه خيّر في طبعه، يعطي مما عنده، ربنا عزّ وجل وصف المتّقين بصفةٍ جامعة مانعة، قال تعالى:

(الم(1)ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(3))

(سورة البقرة)

الله ماذا رزقك ؟ رزقك قوّة، ابذلها في خدمة الآخرين، رزقك مالاً، أنفقه للفقراء والمسلمين، رزقك جاهًا، اجعله في خدمة المظلومين، رزقك علمًا، اجعله في خدمة الجاهلين، هذا المؤمن بني حياته على العطاء لا على الأخذ، وسعادته قائمة على أنه يعطي، لا على أنه يأخذ، لذلك قالوا: إذا أردت أن تعرف أنك من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يسعدك، الأخذ أم العطاء ؟ أن تقبض المال أم أن تنفقه ؟ أن تستغلّ خدمات الناس أم أن تخدمهم ؟ أن تأخذ مالهم أم أن تعطيهم من مالك ؟ ما الذي يسعدك

الأخذ أم العطاء ؟ إن كان الذي يسعدك هو الأخذ فأنت من أهل الدنيا، وإن كان الذي يسعدك العطاء فأنت من أهل الآخرة.

ماذا فعل الأنبياء ؟ جاءوا إلى الدنيا، وغادروها ولم يأخذوا شيئاً، أعطوا كل شيء، ولم يأخذوا شيئاً، سعادة البشريّة بفضلهم، وبهدايتهم، وبعطائهم ؛ ماذا فعل نقيض الأنبياء الذين هم على الطرف الآخر ؟ أخذوا كل شيء، ولم يعطوا شيئاً، والمؤمن يأخذ ويعطي.

لكن الناس يقولون لك: ميزان تجاري، فأيهما أكثر في ميزانك الأخذ أم العطاء ؟ إن كان الذي يرجح في حياتك هو الأخذ فأنت أقرب إلى الدنيا وأبعد عن الآخرة، وإذا كان ميزانك ترجح كفة العطاء فيه فأنت أقرب إلى الآخرة، وأبعد عن الدنيا، لذلك:

(هُوَ الْحَيُّ)

4 ـ إذا أردت الحياة فاتصل بالحي:

إذا أردت الحياة فاتصل بالحي، إذا أردت حياة قلبك، إذا أردت أن تعيش إنسانيّتك، أن تعيش حياة راقية.

هذه الحياة أيها الإخوة ـ حياتنا الدنيا ـ أكثر الناس يذمونها، يقول لك: ما أحد مرتاح فيها، وهذا صحيح، لأنه أعرض عن الله.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى(126))

(سورة طه)

لذلك قال بعض العارفين: **" مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إليها وغادروها، ولم يذوقوا أطيب ما فيها، قيل: ما أطيب ما فيها ؟ قال: ذكر الله ".**

وقال بعضهم: **" أتت عليّ ساعة قلت فيها: إذا كانت حال أهل الجنّة كما أشعر فهم في حياةٍ طيّبة ".**

وبعضهم قال: **" أبو بكرٍ في الجنّة "**، الآن في الجنّة، في جنّة القرب، هناك جحيم البُعد يدخله من لم يتذوق حلاوة الإيمان، فالمؤمن في جنة القرب، لذلك قالوا: هناك جنةٌ في الدنيا، إن لم تدخلها فلن تدخل جنة الآخرة، وهذا مصداق قول الله عزّ وجل:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

إذًا: فالله عزّ وجل حي، إذا أردت الحياة فاتصل به، وأسباب الاتصال بين يديك ؛ استقم على أمره، واخدم خلقه وانتهى الأمر، إذا صلّيت تتصل به وتشعر بمعنى القُرب، كلهم عباده لا تفرّق بين إنسان

وإنسان، الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، لا تشعر بمعنى القرب إلا إذا أخلصت للخلق، فلو كنت صاحب متجر فانصح الناس، لا تكذب أبداً، خذ الثمن المعقول، لا تستغل جهل المشتري، فلا تقل: هذا المشتري جهول، وهذا مكسب لي، عامله كما لو أن الله وكيله، عامله على أن الله يراقبك.

إنْ عرفتَ الله عرفتَ كلّ شيء:

موضوع الدين فهمه الناس صلاةً وصومًا، فهموه طقوسًا، الدين أعمق من ذلك، الدينُ أن تعامل الناس كلهم على أنهم عباد الله، تتقرَّب إلى الله بخدمتهم، تتقرَّب إلى الله بنصحهم، تتقرَّب إلى الله بدلالتهم على الله عزّ وجل، تتقرَّب إلى الله بإكرامهم، فلذلك في الكون حقيقة واحدة هي الله، إن عرفته عرفت كل شيء، إن اتصلت به وصلت إلى كل شيء، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ إذا وجدته فما فقدت شيئاً، وإذا فقدته فما وجدت شيئاً، هذا هو الدين.

الدين اتصال بالله، الاتصال ثمنه الاستقامة والعمل الصالح، الاتصال مُسْعِد، لذلك ممكن أن تسكن في غرفة صغيرة، وتأكل أخشن الطعام، وترتدي أرخص الثياب، وأن تكون موصولاً بالله فأنت أسعد الخلق، ويمكن أن تسكن في أجمل بيت، وأن ترتدي أجمل الثياب، وأن تأكل أطيب الطعام، فإذا كنت منقطعاً عن الله عزّ وجل فأنت أشقى الخلق، لذلك:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: من الآية 2)

عندما يرحم ربنا عزّ وجل مخلوقًا فقد سعد في الدنيا والآخرة، بكل ظرف من ظروفه تجده سعيداً، والدنيا مؤقّتة، والدنيا جيفة طلابها كلابها، والدنيا دار من لا دار الله، ولها يسعى من لا عقل له، وما أكثر ما ضحكت الدنيا على العباقرة وعلى كبراء الناس، لكن قلّةً من الذين عرفوا الله عزّ وجل فضحكوا عليها، وسخروا منها، وطلّقوها بالثلاث، وجعلوها في أيديهم، ولم يجعلوها في قلوبهم، ما حجبتهم عن الله عزّ وجل، ولا صرفتهم عن طاعة، ولا إلى مخالفة. فالآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

الإنسان حي أو ميت، بصرف النظر عن جسده، حي، ضغطه ثمانية عشر، سبعة عشر مثلاً، أو ثمانية، اثنا عشر، نبضه سبعون، دقّات قلبه نظاميّة، أجرى فحوصًا والنتائج إيجابية تامّة، قال لي الطبيب: ما بك خللٌ إطلاقاً، ولكن قلبه ميّت، لم نستفد، البطولة أن يكون قلبك حيّاً بذكر الله، لذلك:

(هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

1 ـ العلاقة الإيجابية بين السلوك والتوحيد:

بالمناسبة أيها الأخ الكريم: اعتقد أن هناك علاقة إيجابية بين السلوك والتوحيد، والإخلاص والتوحيد، إخلاصك بقدر توحيدك، الله قال:

(فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ)

الإنسان متى يُقَطِّع آماله من الخلق ؟ أنت إذا دخلت إلى دائرة متى تنصرف عن كل الموظّفين، وتتجه إلى المدير العام ؟ إذا أيقنت أن كل هؤلاء لا ينفعونك، وأن الموافقة بيد واحدٍ في هذه الدائرة كلها، فإذا أيقنت أن الأمر بيد واحد انصرفت عن هؤلاء جميعاً إلى من بيده الأمر، أما إذا توهّمت أن هذا الآذن له علاقة، والعامل على الآلة الكاتبة له علاقة، ورئيس الدائرة له علاقة تضطرب وتتمزّق، تتوزّع بين فلان وفلان وعِلان، ترجو هذا، وتَتَرضّى هذا، وتتملّق لهذا، وتخاف أن يغضب هذا، لذلك: **" من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها "**، و**" اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلها "** ، وسر سعادة المؤمن، أن علاقاته واضحةٌ محددة، علاقته مع ربه فقط، وربه بيده كل شيء.

فليتك تحلو و الحياة مريرةً وليتك ترضى والأنام غِضابُ
و ليت الذي بيني و بينك عامرٌ و بيني وبين العالمين خرابُ
إذا صحّ منك الوصل فالكل هيّنٌ وكل الذي فوق الترابِ ترابُ

***

الكافر ممزّق، مشتّت، مبعثر، مشرذم، يظن بتفكيره السقيم أن الناس كلهم آلهة، بمعنى أنّ كل هؤلاء الناس كما يتوهم بإمكانهم أن ينفعوه، يتملّقهم جميعاً، يخشى أن يغضبوا، فيعصي الله من أجلهم، يبيع دينه من أجل إرضائهم، ومع ذلك فالله عزّ وجل لا يرضّيهم عنه، لأنه:

((من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس))

[كنز العمال عن عائشة]

فلذلك أيها الإخوة، حقيقة واحدة هي: الله هو الخالق، هو الرب، هو المسيّر، هو المحي، هو المميت، هو الرازق، هو الرافع الخافض، هو المعطي المانع، هو القابض الباسط، هو المعز المذل، هو المسعد و المُشْقي، هو الغفور هو الرحيم، أمرك كله بيده، فإذا عرفته عرفت كل شيء.

هو الحي، أتحب أن تحيا حياةً أبديّة ؟ التزم أمر الله ونهيه، أتحب أن يكون جسمك في أعلى درجات النشاط وقلبك ميّت ؟ ابتعد عنه.

(إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

هذا هو التوحيد.

2 ـ أهمية التوحيد:

وبعضهم قال عني: إنني أركِّز على التوحيد، واللهِ معي حق في دعوتي هذه، لأنه لا شيء يدفعك إلى معصية الله كالشرك، لا شيء يبعدك عن الإخلاص كالشرك، فالإخلاص يحتاج إلى توحيد، والاستقامة تحتاج إلى توحيد، أنت لن تستقيم، ولن تخلص إلا إذا أيقنت أنه لا إله إلا الله. لذلك:

((لا إله إلا الله لا يسبقها عمل، ولا تترك ذنبا))

[الجامع الصغير]

وكما قال الله عزّ وجل في الحديث القدسي:

((لا إله إلا الله حصني من دخلها أمِنَ من عذابي))

[ورد في الأثر]

(فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

3 ـ تعاملْ مع الله مباشَرةً بالسؤال والدعاء:

فعلى الإنسان المؤمن، أيها الإخوة، أن يتعامل مع الله تعاملًا مباشرًا، أليست لك حاجات عند الله عزّ وجل ؟ ألا توجد لديك قائمة مشكلات ؟ تدعو مَن ؟ تجد الإنسان المشرك يبذل ماء وجهه أمام فلان، وأمام علان، وهو يتمسكن ويتضعضع.

((مَنْ دَخَلَ عَلَى غَنِيٍّ فَتَضَعْضَعَ لَهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِه))

[من الجامع الصغير]

أليس لك ثقة بالله عزّ وجل ؟ فالنبي عليه الصلاة و السلام قال:

((ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع))

[من الجامع الصغير عن أنس]

((إن الله يحب أن تسأله ملح طعامك))

[ورد في الأثر]

((من لا يدعوني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((إن اللّه يحبّ الملحّين في الدعاء))

[الأذكار النووية]

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلّ وَعَزّ فَقَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ))

[مسند أحمد عن أبي هريرة]

أليست لك حاجة عند الله ؟ أما عندك ولا مشكلة في حياتك ؟ اسأله، ولكن لا تجرّبه، فالله لا يُجرَّب ولا يُشارط، إلهٌ عظيم، تُبْ إليه، واصطلح معه، واسترضه، فاللؤماء لا يُسترضون، فمهما اعتذرت، ومهما تذلّلت لا يرضى، لكن الله يُسترضى، قال عليه الصلاة و السلام:

((إن صدقة السر تطفئ غضب الرب))

[الجامع الصغير]

قال:

((باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة))

[الجامع الصغير]

وقال كذلك:

((إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع في يد السائل))

[تخريج أحاديث الإحياء]

زلّت قدمك، استرضِهِ بعمل صالح، بخدمة خلقه، بصدقة، بعمل طيّب لعبادة دون أن تذكره لأحد، فاللهُ يُسترضى، ألم تذق طعم العمل الصالح مع الله ؟ ألم تذق طعم التوبة إليه ؟ طعم الإقبال عليه، طعم السعادة في ظلِّه.

أحياناً يتحرّك الإنسان فيعرف أن هناك شخصًا كبيرًا يحبُّه، ويده طائلة، فتجده يمشي براحة مطمئنًا، لكن المؤمن أسعد من هذا، يتحرّك في الدنيا، ويعلم علم اليقين أن الله معه، وأن الله يحبُّه، وأن الله بيده أمر كل أعدائه، وكل خصومه، وأنه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ هذا الشعور وحده لا يُقدَّر بثمن.

قال لي أخ طبيب: الشيء المؤسف أن معظم الأمراض أسبابها نفسيّة، وأنا أقول لكم: أسبابها الشرك بالله، خوف، شعور بالقهر، شعور بالحرمان، شعور بالخَوف، شعورك أن أمرك بيد فلان، وفلان لا يحبُّك، وسوف يقضي عليك، والله هذه الفكرة وحدها تحطِّم الإنسان، أما التوحيد فيعني أن أمرك بيد الله فتطمئن.

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

هذا الشعور مُسعد، أحياناً يرتِّب الإنسان بيته، يرتِّب أوراقه، يرتِّب مكتبته، يقوم بجردٍ يقول لك: هذه لا تلزمني فيلقيها في سلة المهملاتِ، هذه أحتاجها، أليس من المناسب أن تُجري جرداً بعلاقتك مع الله ؟ هذه البنود لا ترضيه، دعها، هذه ترضيه فأقبلْ عليها، ما الذي يرضيه ؟

لا تنسوا الحديث القدسي الذي رواه سيدنا ابن عمر عن رسول الله، والنبيُّ رواه عن ربّه، يقول الله عزّ وجل:

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[كنز العمال عن جابر]

4 ـ عليك بالكتاب المقرّر:

فأنت بحاجة إلى مجلس علم، بحاجة إلى مَنهل، بحاجة إلى أن يستنير قلبك، أن يستنير عقلك، بحاجة إلى فهم كتاب ربِّك، هذا الكتاب المقرَّر.

بربّكم إذا كان عند طالب امتحان بعد أسبوع، والمادّة أساسيَّة، وهي للتخرُّج، وعنده مكتبة تملأ أربعة جدران من الأرض إلى السقف، فيها عشرة آلاف كتاب، أليس الكتاب المقرَّر هو الأساسي ؟ هذا القرآن كتابنا المقرَّر، نحاسب على مدى فهمنا له، على مدى تطبيقنا له، على مدى طلبنا للعلم به، هذا هو الكتاب المقرَّر، ولذلك فالإنسان من دون علم يكون كالبهيمة عطّل إنسانيّته.

(هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

لو رأيت ما يجري في الكون لحمدت الله:

هذه:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

عميقة جداً، ألا ترى في الكون مشكلات، وفيضانات، وزلازل، وحروبا أهليَّة، وفقرا مدقعا، وناسًا هاموا على وجوههم ؟ أليس هناك مآسٍ لا يعلمها إلا الله ؟ لو تعمَّقت معتبراً متقصياً، لو تعمَّقت لوجدت أن كل ما يجري في الكون يستحق منك حقًا: الحمد لله رب العالمين، لكن الطفل الصغير إن رأى رجلاً يمسك المبضع، ويفتح البطن، والدم يخرج، وقلبه قاسٍ، هذا الطفل لجهله بعمل الطبيب ورحمته فإنه

ينتقده، لكنّ أهل المريض الراشدين يعطون هذا الطبيب المال والشكر، والمودّة، وكل ما يملأ قلبه غنًى، لأن عمله لصالح مريضهم.

فما يجري في الأرض من شيءٍ تستنكره أنت هو محض حكمةٍ، ومحض عدلٍ، ومحض رحمةٍ، ومحض تربيةٍ، ومحض علاجٍ، يجب أن تثق بالله عزّ وحل، ليس معنى هذا ألاّ تعين الناس، بل أعنهم، وابذل جهدك في خدمتهم، وخفِّف من آلامهم، لكن دون أن تتهم الله عزّ وجل، ولله في خلقه شؤون.

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

(سورة القصص)

فإذا رأيت المسلمين الآن مستضعفين في العالم، وكل القِوى الشريرة تريد أن تنال منهم هم مستضعفون، لكن تنطبق عليهم هذه الآية:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً)

على كلٍ، ماذا تملك أنت أن تفعله ؟ تملك أن تقيم الإسلام في بيتك، وتملك أن تقيم الإسلام في عملك، فإذا فعلت في هذين الحَقْلين نجوت من عذاب الله، ونجوت من المسؤوليّة التي سوف يُسأل عنها الناسُ كلهم يوم القيامة.

إذاً:

(هُوَ الْحَيُّ)

حيٌّ في ذاته، ومصدر حياة الخلق جميعاً، ولا سيما حياة قلوبهم.

(لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ)

الأمر كله بيده، وكلّما ازداد توحيدك يزداد إخلاصك، وكلّما ازددت توحيدًا ازدادت طاعتك، الطاعة والإخلاص مرتبطان بالتوحيد، كلّما توهّمت أن فلانًا بيده نفعك فتطيعه وتعصي الله فأنت في خسارة، أما إذا أيقنت أنه عبد مثلك، وليس له من الأمر شيء فأنت في خير، وإقبالك على الله هو الفلاح والصلاح، هذا ملخّص الكلام، فالتوحيد يعينك على الطاعة، والتوحيد يعينك على الإخلاص، وما عصى أحدٌ ربه إلا لضعفٌ في توحيده، وما ضعف إخلاص عبدٍ إلا لضعفٍ في توحيده، إذاً:

(هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَادْعُوهُ)

اسأل الذي يجيب المضطر إذا دعاه:

اسأله، اطلب منه في الصلاة، خارج الصلاة، في أي وقت.

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)

(سورة النمل: من الآية 62)

اثنتا عشرة آية في القرآن.

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

(سورة البقرة: من الآية 219)

اثنتا عشرة آية فيها يسألونك، وبين يسألونك والجواب قل، أي أنت الوسيط يا محمّد، إلا آية واحدة:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

(سورة البقرة)

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

فهل من الممكن لإنسان بعد أن عرف الله، بعد أن تشرّف قلبه بذكر الله، بعد أن رأى أن الأمر بيد الله، هل من الممكن أن يعبد غير الله عزّ وجل ؟ قد يقول أحدكم: غير معقول.

أيها الإخوة... أن يضع واحد صنما، ويعبده هذه مستحيلة، في العالم الإسلامي كله هذه مستحيلة.

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ))

[الترمذي]

" أخوف ما أخوف عليكم الشرك، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً".

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً))

[أحمد]

هذه بطلت، انتهت، ولكن عندما يطيع الإنسان مخلوقًا، ويعصي ربه، ويجعله إلهًا، فقد عبده من دون الله، قال:

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لا إله إلا الله، ما سوى الله كلهم دونه، الكون كله دونه، فإذا عبدت الله فقد نجحت وأفلحت، وما معنى عبدت ؟

معنى العبادة:

العبادة منتهى الخضوع، منتهى الطاعة، منتهى الإخلاص، منتهى الحب، منتهى الولاء، العبادة تكون لله وحده، للخالق، للمسيّر، للرب، للسميع، للبصير، للقوي، للغني، لمن يستجيب لك، لمن يستمع إليك، لمن يعلم ما يخفيه قلبك، هذه العبادة، فإذا توجهت بعبادتك لغير الله عزّ وجل تكون قد خسرت خسارةً كبيرة، لأن غير الله عزّ وجل عبد مثلك فقير، ضعيف، لئيم أحياناً، أفمن كانت هذه صفاته أتعبده من دون الله ؟ لذلك علمنا الله أن نقول:

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

ولا سيما.

(لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

1 - لابدّ من العلم:

لذلك عندما يرتاد مجالس العلم، فقلبه يستنير، وعقله يستنير كذلك، فهذا يردّه علمه شيئًا فشيئًا إلى أن يستقيم أمره، قال عليه الصلاة و السلام:

((العلم علمان: فعلم في القلب، فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم))

[الجامع الصغير]

كل شيء تتعلّمه، وتخالفه في حياتك اليوميّة فهو حجّةٌ عليك، ولكن بعض الناس يتعلم العلم، وينحرف في حياته اليومية وسلوكه، فهذا حجة عليه عند الله عزّ وجل، فقد أمره الله أن يستسلم لرب العالمين، وطريقة الاستسلام العلم بأحكام الدين كله:

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

2 ـ الإسلام استسلام لله:

هذا الإسلام، الاستسلام لأمره، الخضوع له، الائتمار بما أمر، الانتهاء عما عنه نهى وزجر.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

هذا هو الإنسان في جميع مراحله:

1 ـ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ

وكتوضيح بسيط: ابنك يولد ووزنه ثلاثة كيلوات، الآن وزنه سبعةٌ وستون كيلوا، مثلا، الأربعة والستون كيلو من أين جاءت ؟ من الطعام والشراب، من الأغذية، من اللحوم، من الخضراوات، من الفواكه، من الخبز، فهذه الأغذية من أين جاءت ؟ من التراب، فهذا المعنى البسيط.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)

أو المعنى الآخر: سيدنا آدم من تراب، وسيدنا آدم كان من نسله بنو البشر كلهم أجمعون.

(ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)

2 ـ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

ما هي النطفة ؟

ما هي النطفة ؟ هي حوين صغير جداً له رأس مدبّب، وله عنق حلزوني، وله ذيل، كل ثلاثمائة مليون حوين تعادل سنتيمترين مكعبين أو ثلاثة، في اللقاء ينطلق ثلاثمائة مليون، البويضة تحتاج إلى حُوين واحد، هذا الحوين فيه معلومات ـ فيه مورّثات ـ حوالي خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، فالحديث عن الحوين، وعن اللقاح، وعن البويضة، وعن علم الأجنّة شيء مذهل، فربنا عزّ وجل قال:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ)

3 - ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ

بعدما تتلقّح البويضة، وتتجزّأ إلى عشرة آلاف جُزَيْء، وهي في طريقها من المبيض إلى الرحم في الأنبوب، دون أن يزيد حجمها، لو زاد حجمها لوقفت في مكانها، بعد أن تصل إلى الرحم تنغرس في الرحم، وعندئذٍ تكون علقة.

(مِنْ عَلَقَةٍ)

مثل جلطة صغيرة، أحياناً تجد الطبيب يسحب من شريان جلطة دم، إذًا: من مراحل خلق الإنسان العلقة.

(ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا)

4 - ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا

طفل له عينان، له أذنان، له أنف، له لسان، له فم، له قلب، له رئتان، له عضلات، له عظام، له أنسجة، له معدة، أمعاء، بنكرياس، كبد، صفراء، نخاميَّة، خلايا عصبيَّة. شيءٌ يُصدِّقه الواقع، من نطفة، من حوين منوي مع بويضة لا تراهما العين المجردة إلى إنسان كامل.

(ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا)

الطفل صغير لا يقوى على أن يمشي، لا يقوى على أن يتكلّم، يحتاج لمن ينظِّفه، لمن يطعمه، إلخ.

(ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ)

5 - ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ

يصبح في شدة أسره مثل الحصان في سن السابعة عشرةَ، يتكلّم، يقفز كل خمس درجات معاً، يلعب، يذهب، يأتي، أين كان ؟ ثم هو عظام متينة، أسنان لحم، دم... الخ.

(ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا)

6 - ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا

تجد شخصاً يقفز عشر درجات بينما آخر درجةً درجة، ترى شخصًا منتصب القامة، وآخر منحني الظهر، هذا شخص من دون نظّارات وآخر بنظّارات، أحدهم شعره أسود وآخر قد شاب، أحدهم عموده الفقري منحنٍ قليلاً، والآخر عموده مستقيم، تجد كل هذا وتجد كل ذاك.

(لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ)

7 ـ الموت الحتمية الأكيدة في الصغر أو الكِبَر:

فالإنسان قد يموت في شبابه، الموت ليس له ترتيب، ليس له قانون ثابت.

(مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى)

أيْ أنّ الإنسان له عند الله أجل لا ينقص ولا يزيد، لو أيقن به لما اضطرب أحد أو خاف، وكثيرًا ما يقول الطبيب: هو في دور الاحتضار، اذهبوا به إلى البيت، ثم يعيش المريض بعد الطبيب اثنتي عشرة سنة أو أكثر أو أقل، إذْ يموت الطبيب، والمريض يعيش بعد موت الطبيب اثنتي عشرة سنة مثلاً، فالمرض لا يميت، الذي يميت انتهاء الأجل، هذه الحقيقة إذا آمنّا بها أصبحنا شجعانا.

كثرت بين الناس أمراضُ القلب، وأساسها الخوف والقلق النفسي، وأحياناً يصاب القلب بآفات بسبب وَهْم الإنسان من أمراض القلب، أما إذا أيقن الإنسان أن انتهاء حياته بيد الله، ولا تنتهي حياته إلا إذا أراد الله عزّ وجل، وأنّ الأمراض ليس لها علاقة بالموت، ولكنها أسباب يسوقها الله إذا أراد يعيش مطمئنا.

(وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(67) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

خلق، ويحي ويميت.

(فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

فهذه الآية عجيبة جداً، كن فيكون، دونما اعتبار للزمن، الإنسان هذا المخلوق الضعيف توصل بعلمه إلى اختراع حواسب، فقد يحتاج شيء ما إلى عمل شهرين من دون حاسوب، فالحاسوب ينجزه في خمس ثوانٍ، فإذا اختصر الإنسان الزمن من شهرين إلى ثوانٍ، فالله عزّ وجل إذا انتهى العمر بأمره فهذا شيء طبيعي جداً على الله، كن فيكون، عند الله لا يوجد زمن.

الآية قبل الأخيرة:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ

1 ـ المكذِّب بآيات الله منحرف السلوك:

هناك شيء لو وقع لكانت مشكلة، يقولون في وصف إنسان ما: إنه إنسان يكذِّب بآيات الله، ولكنه مستقيم، وأخلاقي، ويحب الخير، والحق أنك لن تجد إنسانًا يكذِّب بآيات الله إلا وهو منحرف، له أعمال سيئة، له مشاعر ليست راقية، له تصرُّفات خاطئة، يحبُّ ذاته، يعتدي على أعراض الناس، يعتدي على أموالهم، أجل، هذه حقيقته، قال:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)

أين يمضي سهراته ؟ ومع من يمضيها ؟ كم يرتكب من معاصٍ ؟

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1))

قال:

(فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

هو نفسه.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

(الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

أحياناً إذا ناقشك إنسان، وأراد أن يكذِّب بهذا الدين، بهذا الكتاب، هو أقل شأنًا من أن تناقشه، انظر ماذا يفعل، انظر إلى دخله، إلى تصرُّفاته، ولقاءاته، وندواته، وسهراته، كيف يعتدي على أعراض الناس، كيف يعتدي على أموالهم، هكذا قال الله عزّ وجل:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)

2 ـ المؤمن أخلاقيّ:

المؤمن أخلاقي، المؤمن قد نوّر الله عزّ وجل قلبه ـ ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه ـ فكلمة مؤمن مرتبة أخلاقيّة، على مرتبة جماليّة، على مرتبة علميّة، المؤمن عالِم، وصاحب ذوق وأخلاقي، المؤمن الحقيقي لأنه يمثِّل هذا الدين، اصطبغ بالكمال الإلهي، اصطبغ بتطبيق السُنّة النبويّة، فلن تجد مؤمنًا خائنًا، لن تجد مؤمنًا حقودًا، ولا حسودًا، ولا دنيئًا، ولا أنانيًا، المؤمن لا يكون بخيلاً، ولا يكون جبانًا، هذا مستحيل، الإيمان هذّبه، والإيمان صبغه.

فهؤلاء الذين يجادلون يريدون أن يطفئوا نور الله، يريدون أن يلغوا عظمة هذا الدين، يريدون أن يبتدعوا نُظُمَاً جديدة، تشريعاً وضعياً، يطعنون في الدين وفي صلاحية الدين لهذا الزمان، هؤلاء الذين يجادلون، قال سبحانه:

(أَنّى يُصْرَفُونَ)

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ(69)الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

تهديد الله للمكذِّب بآياته:

هذا تهديد.

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

طبعاً فرعون كذّب سيدنا موسى، وقال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

وقال:

(إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ الْمُثْلَى(63))

(سورة طه)

لكن ما الذي حصل ؟ أنه حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: من الآية 90)

البطولة من يضحك أخيراً، فلمن العاقبة إذًا ؟ الله قال:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83))

(سورة القصص)

(تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا)

(سورة القصص: من الآية 83)

بطولتك ليست في أول جولة، بل في آخر جولة، في نهاية المعركة مَن المنتصر ؟ في نهاية الحياة مَن الرابح ؟ عند ملاقاة الله من الفائز ؟ عند الدخول في القبر من الناجي ؟ هنا البطولة.

العاقل هو الذي يعمل لينجو في المستقبل الذي لابدّ منه، أما الجاهل فهو يعيش لحظته، ويفرح بتفوّقه في الدنيا. قال:

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(70)إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(71)فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(72)ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ(73)مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ(74)ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

1 - لا تفرح بغير الحق:

الإنسان أحياناً يفرح بالمال الحرام، يفرح أنه اغتصب هذا البيت، هذا المحل خلّصَه من شركائه، وألقى بهم بعيدًا، يفرح أنه استطاع أن يأخذ هذا المال من الورثة، عمل ترتيباته، كتّب والده تصريحات وديونًا وهميّة، واستطاع أن يأخذ كل الإرث، ويستولي عليه، وترك إخوته جائعين ضائعين، يظن أنه ذكي حاذق ماهر، فربنا عزّ وجل قال:

(ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

2 - ما الذي يُفرحك ؟

لذلك قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، ما الذي يفرحك ؟ مال حرام تكسبه بأسلوبٍ غير مشروع؟ إذاً أنت لا تعرف الله إطلاقاً، تفرح إذا أكلت مال الناس ؟ إذا عشت ومات الناس ؟ تفرح إذا حصّلت ربحًا على حساب دينك ؟ تفرح إذا كذبت وربحت ؟ تفرح إذا غششت وربحت ؟ هل تفرح ؟ إنْ كان حالك كذلك فاسمع قوله الله تعالى:

(ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ)

المرح هو اللعب واللهو وعدم التفكّر بالمسؤوليّة والمستقبل، قال:

(ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ

العبرة بالمصير:

هذا المصير، فلذلك البطولة في المصير، والغنى والفقر بعد العرض على الله.

إذا حضر شخص مائتي وليمة، وكل وليمة أحلى من أختها، وليلة من الليالي آلمه ضرسه، ولم يستطع أن ينام الليل، إنْ يتذكّر عزيمة فهل يسكن ألم ضرسه ؟ إنْ تذكّرَ أكلة أكلها طيبة فهل يذهب الألم ؟ أعوذ بالله، الآن واقعه ألم، وكل الماضي انتهى، كل شيء حصّله من لذّات الدنيا زال، بقي الألم، هذا واقع الإنسان إن لم يعرف الله عزّ وجل، كل أيام الدنيا التي أمضاها في اللهو، واللعب، والمرح، والمباهج، واللذات، والسهرات المختلطة، والنُزُهات الرائعة، والمعاصي، والموائد الخضراء، والموائد الحمراء، والمجتمع المخملي ـ هذا التعبير المهذّب للفسق والفجور ـ كل هذا الذي أمضاه في الدنيا عند الموت لا شيء، بقي عمله السيئ، وسوف يدفع ثمن عمله بالتمام والكمال.

(ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(76)فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ

1 ـ إخبار الله بالغيب كرؤيته بالعين:

قال ربنا عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

(سورة الفيل)

من منكم رأى أحداث هذه القصّة ؟ لا أحد منا رآها حتى أنا لم أرها، لكنّ الله قال:

(أَلَمْ تَرَ)

العلماء قالوا: خبرُ الله لأنه صادقٌ مئةٌ في المئة كأنّك تراه.

الآن المستقبل، الله قال:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة المائدة: من الآية 116)

فهذا الكلام لم يحدث بعد، لكنه سيكون يوم القيامة، ولكن لحتمية وقوعه صاغه الله بالفعل الماضي، الله قال:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من الآية 1)

معنى هذا أنه لم يأتِ بعد، ولكن كيف قال سبحانه:**" أتى فلا تستعجلوهُ "** ؟ هذا الفعل الماضي في القرآن يعبّر الله به عن المستقبل لتحقُّق الوقوع، لذلك وقوع وعد الله ووعيده حق كأنه وقع، قال:

(فَاصْبِرْ)

2 - لابد من الصبر لأن مصير الكافر إلى الله:

أحياناً يكون المؤمن ضعيفًا مستضعفًا، وأحياناً يكون فقيرًا، وأحياناً يكون من الطبقة الدنيا في المجتمع، أمّا أنت أيها الضال فأنت المتفوّقُ، وأنت الرابح، وأنت الفائز، وأنت الناجح، وأنت السعيد، وأنت المَلِك. ولكن.

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

وعد المؤمن بالنصر، وعد المؤمن بالتأييد، وعَدَه بالتوفيق، وعدهُ بالسعادة، وعدهُ بالعفو، وعدهُ بالمغفرة، وعدهُ بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، وعده بقبر روضة من رياض الجنّة، وقد يكون حفرة من حُفَر النيران لمن ضل أو كفر.

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

أيْ إن رأيت مصيرهم في الدنيا أو لم ترَ فلابدّ من أن يلقوا المصير المؤلم.

وفي الدرس القادم إن شاء الله ننتقل إلى الآيات التالية:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة غافر 040 - الدرس (20-20): تفسيرالآيات77- 85
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-10-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العشرين والأخير من سورة غافر، ومع الآية الثامنة والسبعين، ولكن في آيات الدرس الماضي آيةٌ أرغب أن نقف عندها وقفةً متأنية، الآية هي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ(69)الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(70)إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(71)فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(72)ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ

أيْ أين شركاؤكم الذين عبدتموهم من دون الله ؟ الذين اعتمدتم عليهم ؟ الذين عقدتم الآمال عليهم؟ الذين استعنتم بهم ؟ الذين توهمتم أنهم أقوياء، وأنهم ينفعونكم، أو يضرونكم، أين هؤلاء الشركاء؟

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ(73)مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)

قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا

معنى الضلال:

معنى الضلال هنا أي: لم نرهم، إذا صببت الماء في الحليب تقول: ضل الماء في الحليب، أي اختفى.

(قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا)

أدقُّ ما في الآية قوله تعالى:

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ

أحياناً الإنسان حينما يقرأ قوله تعالى:

(فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 8)

قد يسأل هذا السؤال: كيف يُضِل الله الإنسان ؟ اللّه هادٍ، أيعقل أن يُضِل اللهُ الإنسان ؟ إذا قرأت في القرآن الكريم أن الله يضل الإنسان، فهذا هو التفسير: أيْ أنّك إذا أشركت بالله، لا سمح الله ولا قدّر، شركاً جلياً أو خفياً، واعتمدت على غير الله، عقدت الأمل على غير الله، وضعت أملك بغير الله، توهّمت أن فلان ينفعك أو يضرك، إذا أشركت فالله سبحانه وتعالى يجعل هذا الشريك ضعيفاً أمامك، تستنجد به فلا يُنْجِدك، تستجير به فلا يجيرك، تطلب منه فلا يجيبك، ماذا فعل الله عزّ جل ؟ أضلك عن هذا الشريك وأرادك أن تتصل به.

لو أن هذا الشريك أجابك، لو أنجدك، لو أغاثك، لو نفعك فعلاً أو ضرّك لازداد اعتقادك به، لكن من شأن الله سبحانه وتعالى أنك إذا أشركت به أحداً، فهذا الشخص الذي أشركت الله به، يريك ضعفه، يريك لؤمه، يريك تخلِّيه، يريك أنه ضعيفٌ مثلك، تبحث عنه عند الضرورة فلا تجده، تسأله فلا يجيبك، تتوسل إليه فلا ينجدك، قال:

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ(73)مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أين هم ؟

(قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)

ما رأيناهم، ما أنجدونا، ما نفعونا، ما خلّصونا، ضلوا عنا، قال:

(بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا)

أيْ أنّ هؤلاء الذين أشركناهم مع الله ليسوا بشيء، لا يسمعون، ولا يستجيبون، ولا يمنعوننا من عذاب الله، ولا يجلبون لنا النفع، ولا يدفعون عنا الضُر، لذلك هذا فعل الله عزّ وجل، هذا هو إضلال الله للإنسان.

أيْ أنّ الإنسان إذا اعتقد الإنسان أن جهةً ما من دون الله عزّ وجل بإمكانها أن تنفعه، أو أن تضره، أو أن تجلب له النفع، أو أن تدفع عنه الضُر، فقد ضلّ حقًا، عقلاً و سلوكا، وأراه الله سبحانه هزال من أشرك بالله إذا أشرك الإنسان بالله عزّ وجل، هذا الذي أشركت الله به، الله جل جلاله سوف يريك ضعفه، يريك أنه ليس بشيء، لا يسمع، ولا يرى، ولا يستجيب، ولا يقدِّم، ولا يؤخِّر، ولا ينفع، ولا يضر.

(قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا)

أدقُّ ما في الآية:

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

فهل عرفتم أيها الإخوة ماذا يعني إضلال الله للإنسان ؟ لا يضل الله الإنسان عن ذاته بل يضله عن شركائه، إذا توهّم الإنسان أن لله شريكاً، الله سبحانه وتعالى يضل الإنسان عن الشريك الذي أشرك الله

به، هذا هو المعنى الذي يليق بالله عزّ وجل، أن الله حينما يضل الإنسان لا يضلُّه عن ذاته العالية الكاملة، بل يضله عن شركائه، الذين تعلق بهم، أو توهم بهم القوة، أو اعتدّ بهم، أو عقد الأمل عليهم، أو أراد أن ينفعوه، وهذا درسٌ بين أيدينا.

الإضلال عن الشركاء تذكيرٌ بالله:

التطبيق العملي لهذه الآية ـ دقق وتأمّل ـ أي إنسانٍ إذا توهّم أن المال يفعل كل شيء، جعل المال إلهاً، فالله كيف يعالجه ؟ يرسل له مشكلةً لا تحلُّ بالمال أبدا، يضله عن هذا الشريك، إذا اعتقد أن زيداً ينفعه، فربنا عزّ وجل من رحمة الله بهذا العبد يجعل زيدًا يتخلى عنه، يتخلى زيدٌ عنه بأمر من الله عزّ وجل كي يعرف قيمته، ويعرف أنه لا شيء.

لكن لو ظننا العكس، أنك اعتقدت بإنسان أنه يفعل أو يضر، أو يرفع أو يخفض، أو يعطي أو يمنع، وأجرى الله لك الخير على يده، لو فعل الله ذلك لزاد اعتقادك أنه شريك، فمن رحمة الله بك أنك إذا أشركت معه أحداً يريك ضعفه، أو يريك لؤمه، أو يريك أنه لا يفعل شيئاً، إما أنه لا يستجيب لك، أو لا يسمع، أو لا يرى، أو إذا سمعك وطلبت منه لا ينجدك، فحينما ربنا سبحانه وتعالى يحطّ من شأن هذا الشريك و قدره فإنه يسقط من عينك من أجل أن تلتفت إلى الله وحده.

إذا عُزي الإضلال إلى الله عزّ وجل، فهذا أحد معاني الإضلال: أي أن الله سبحانه وتعالى يضلّك عن الذين ادعيت أنهم شركاء لله.

لو فرضنا أنّ معلما، وحازمًا، ومخلصًا، وعالمًا، وأحد الطلاب أوْهَمَ زملاءه أنه حصل على الأسئلة، فحينما يأتي المدرّس بأسئلة بعيدة عن هذه الأسئلة، ماذا يفعل بهذه الطريقة ؟ يبيّن لهؤلاء الطلاب الذين توهموا أن زميلهم حصل على الأسئلة أنه شخص كاذب، فلو أن المدرس جاء بالأسئلة نفسها لرسّخ إيمانهم أنه حصل على الأسئلة كما ادّعى من قبل.

فالموضوع هنا حينما تعتقد أن زيداً أو عُبيداً يفعل أو لا يفعل، ينفع أو يضر، بإمكانه أن يجلب لك خيراً، أو يدفع عنك شراً، إن اعتقدت ذلك فالله سبحانه وتعالى كفيلٌ أن يضلك عنه، فإذا أضل الله عبداً لا يضله عن ذاته بل يضله عن شركائه، والآية واضحة:

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ(73)مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا)

الشركاء لا شيء:

هؤلاء لا شيء، أو هو لا شيء، فأحياناً تقول: فلان تبيّن لي أنه لا شيء، بل هو سراب وأوهام، هو شيء له وزن، لكنه ادعى، وادعى، وادّعى، وادعى، فكل هذا الذي قاله كلامٌ فارغٌ لا معنى له، تقول: هو لا شيء، بل سراب، فمعنى:

(بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا)

الأصنام أشياء، لكن وجدوا أنها لا تنفع ولا تضر، أو الأشخاص لا ينفعون ولا يضرون.

(بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

الآية المحكمة تُحمل عليها كل الآيات المتشابهات:

عندنا قاعدة في أصول الفقه دقيقة جداً هي: أن الآية المحكمة تُحمل عليها كل الآيات المتشابهات، أوضح مثل على ذلك لو قلت: إن القمح مادة خطيرة، كلمة خطيرة تفيد أنه مادة أساسية في حياة الإنسان، وتفيد أنها مادة مؤذية، متفجرة مثلاً، فما الذي يحدد لنا معنى الخطيرة هنا ؟ قول آخر: القمح مادة مفيدة للإنسان، فكلمة مادة مفيدة تعبير محكم واضح، وكلمة مادة خطيرة، تعبير متشابه يفيد أنه نافع أو ضار، فما الذي يحدد معنى الخطورة في التعبير الثاني ؟ المعنى الأول.

فالقاعدة أن الآيات المتشابهات تُحمل جميعها على الآيات المحكمات، بل هناك رأى آخر، هو أن آيةً محكمة واحدة تُحمل عليها كل الآيات المتشابهات مهما كثرت، لهذا قال ربنا عزّ وجل:

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

إذًا: في القرآن مائة آية، مائتا آية، تفيد أن الله يضل الإنسان، كيف يضله ؟ بهذه الطريقة، أيْ أنّه يضله لا عن ذاته بل عن شركائه، الإنسان كلما اعتقد أن فلاناً بإمكانه أن يفعل أو أن يترك، فربنا عزّ وجل كشفه على حقيقته، أو بين ضعفه، أو بين بعده، أو بين لؤمه، أو بين جهله وأضل الآخرين عنه عندما كشفه على حقيقته.

آيات اليوم:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ

1 - الأنبياء لمْ يُذْكَروا في القرآن جميعا:

حينما نسمع أن في القارات البعيدة شخصاً كان مصلحاً اجتماعياً، أو لعله كان نبياً، هذا لا يمنع، لأن الأنبياء الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم ليسوا كل الأنبياء الذين أرسلهم الله عزّ وجل، إذاً:

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

2 - من رحمة الله إرسال الأنبياء:

هذا يعطينا معنى دقيقًا جداً ؛ هو أن رحمة الله عزّ وجل لا تنفكُ لحظةً عن الخلق، ففي كل البلاد، وكل القارّات، وكل الأقاليم، وكل الأصقاع، لا بد من إرسال الأنبياء مبشرين ومنذرين، محذرين، مبيّنين، مفصِّلين، إذاً: رحمة الله تتمثل في إرسال الأنبياء، هم إذاً كثيرون جداً.

(مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

1 - لا أحَد من الأنبياء يأتي بمعجزة إلا بإذن الله:

أي أن المعجزات التي جاء بها الرسل إنْ لإثبات نبوّتهم أو رسالتهم، أو للقضاء على معارضيهم، هذه الآيات المبيّنة أو المدمرة لخصومهم، هذه الآيات ما كان لهم أن يأتوا بها من عند أنفسهم إلا أن يأذن الله.

2 - الأنبياء لا يعلمون الغيب إلا بما أطلعهم الله تعالى به:

فمثلاً الإنسان أحياناً يلتبس عليه الأمر، حينما يعلم أن الله يعلم الغيب وحده، لا يعلم الغيب إلا الله، فإذا قرأ أحاديث شريفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تُبَيّنُ أنه يعلم ما سيكون، أشراط الساعة مثلاً، عن آخر الزمان، فكيف نوفِّق بين قوله تعالى: لا يعلم الغيب إلا الله، وبين أن النبي عليه الصلاة والسلام

جاء بأخبارٍ عن آخر الزمان، وهذا غيب، وهذا يعرف بغيب المستقبل ؟ فالجواب بسيط جداً: النبي عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يعلم الغيب بذاته إلا أن يعلمه الله به.

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

فإذا أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام بشيءٍ عن آخر الزمان، وعن أشراط الساعة، فهذا ليس من عنده، وليس بإمكاناته الذاتية، بل بإعلام الله له، وهذه الآية تؤكد ذلك:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ

هنا الآية تشير إلى آية الهلاك، مثلا: قوم صالح عندما طلبوا أن تخرج ناقة من الجبل، وهذه آية خارقة، فخرجت الناقة، فلما لم يؤمنوا استحقوا الهلاك، فهذه آيةٌ جمعت بين التبيين والهلاك.

لابد من أن تؤمن في الوقت المناسب:

على كلٍ، أيَّةُ آيةٍ إذا آمن الإنسانُ بها بعد فوات الأوان فهذا الإيمان لا قيمة له، وكنت أقول لكم دائماً وأكرر: إن خيارك مع الإيمان خيار وقت، لا خيار قبول أو رفض، لأنه إن لم تؤمن في الوقت المناسب فلا بد من أن تؤمن في الوقت غير المناسب، إيمانك في الوقت المناسب ينجيك، أما إيمانك بعد الوقت المناسب فلا ينجيك، فرعون آمن، لكنه آمن بعد فوات الأوان:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

إذاً:

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

النبي عليه الصلاة والسلام عندما انتصر في معركة بدر، ورأى كفّارَ قريش، وهم صرعى في ساحة المعركة، وقد أمر أن يلقوا في القليب ـ أي البئر ـ خاطبهم بأسمائهم واحداً وَاحداً، قال: يا فلان، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف ـ واحدًا واحدًا ـ قال: **هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني ونصرني الناس، وخذلتموني وأيدني الناس، وأخرجتموني وأواني الناس ".** فقال أصحابه: **"أتخاطب قوماً جيفوا ؟ "** قال: **" ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجبونني".**

كلكم يعلم أن الباطل له جولة، ثمّ بعد ذلك يُظهر الله عزّ وجل الحق، فهنيئاً لمن كان مع الحق، لأن العاقبة له.

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(79)وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ(80)وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيّ آيَاتِ اللّهِ تُنكِرُونَ)

القرآن يذكِّر بنِعَم الله على العباد:

القرآن الكريم من حين لآخر يذكِّر الإنسان بهذه النعم التي أسبغها الله عليه، فأنت حينما تأكل هذا الطعام، الجبن، السمن، اللبن، الحليب، الزبد، هذا تأكله من أين ؟ من الأنعام، فمن خلق الأنعام ؟ الله سبحانه وتعالى، فهل عرفت الله ؟ إنه الذي خلق الأنعام، وبالطبع الألبان، ومنتجات الألبان، وصناعات الألبان تعد الغذاء الأول في حياتنا، الإنسان لو عزف عن شرب الحليب لسوّست أسنانه، وهشّت عظامه، ولنقصت حاجاته الأساسية، إذًا: هذا الغذاء الذي تأكله من الأنعام فهل عرفت من خلق الأنعام ؟ إنه الله.

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا)

الأنعام بعضُها للركوب وبعضها للأكل والانتفاع:

إذًا بعضها للركوب.

(وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

وبعضها للأكل، وبعضها تركبونها وتأكلوا منها.

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ)

جلدها، وبَرُهَا، صوفها، لحمها، عظمها، كل شيءٍ في الأنعام يستفاد منه من دون استثناء، حتى إن روثها أو بعرها، هذا يباع بأغلى الأثمان، هو أعلى أنواع السماد من دون استثناء، يقول لك: اشترينا بعشرين ألفًا سمادًا طبيعيًا للأرض، كل شيءٍ فيها يستفاد منه حتى روثها وبعرها.

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ)

وشيء آخر جدير بالذكر، هي مصممة لتركبها، مصممة لتأكل لحمها، مصممة لتستخدم جلدها، مصممة لتشرب من لبنها، وفوق كل ذلك مهيَّأة مذللة، وقد يغيب عنا أحياناً أنها مذلّلة، كيف ننتفع بها إذا كانت تصرفاتها تصرفات الضباع مثلاً، كيف ننتفع بها إذا كانت كالسباع وحشية و شراسة، كيف ننتفع بها إن لم تكن أهليّة كما يقولون، لو أنها كانت متوحشة لما انتفعنا بها.

ذكرت لكم غير مرة أن ربنا عزّ وجل جعل بعض الأمراض قد تصيب البقر، وهذا المرض اسمه التوحُّش، فصاحبها إذا توحشت بقرته، وقد دفع ثمانين ألفَ ليرة ثمنًا لها، يطلق عليها الرصاص، لأنها بدأت تقتل البشر، إذاً كونُ البقرة مذللة، والناقة مذللة، والحصان مذللا والدابة مذللة، والغنمة مذللة، هذه نعمةٌ تضاف إلى النعم الأخرى، مثل بنيتها وعظمها ولحمها وحليبها وجلدها ووبرها وصوفها، وتركب وتؤكل وتحلب، وفوق كل ذلك هي مذللة.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(79)وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ

قد يقرأ المسلم قوله تعالى في سورة النحل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من الآية 8)

لو أنه ركب طائرةً من أحدث الطائرات، ورأى أنها تقل أربعمائة راكب، وتعلو أربعين ألف قدم، وتمخر عباب الجو، وهؤلاء الرُكاب جالسون على مقاعد مريحة وحاجاتهم بين أيديهم، وحاجاتهم الأخرى في مستودعات الطائرة لذهل، و رأى فرقا يحيّره بعد خلق الله للحيوان وصناعة الإنسان، وقرأ قوله تعالى:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من الآية 8)

فأشار إلى الإنسان قد يصنع و ينتج، لكن صناعته وإنتاجه بعلم الله و إرادته.

لكن الله عزّ وجل قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل: من الآية 8)

هذه الآية غطت كل وسائل النقل الحديثة، لأن الله سبحانه وتعالى خالق الكون، وهو يعلم أن الإنسان سوف يخترع، أو سوف يصنع أدوات للمواصلات غير هذه الأدوات، فلو أن هذا القرآن كلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وأغفل آخر ما في الآية، لرأينا أن هناك بوناً شاسعاً بين الخيل والبغال والحمير والطائرة، والسيارة، والقطار، والسفينة قال تعالى:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من الآية 8)

هذا كلام خالق الكون الذي يعلم ما سيكون، ومهما امتد بنا الزمن، مهما تطور الإنسان فالقرآن الكريم يغطِّي كل الحوادث.

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ

لكن الإنسان الآن يقول: ركوب السيارة أريح وأهنأ، وهي في السفر مريحة، مقاعدها وثيرة، تنطلق بسرعة عالية، فيها كل وسائل الراحة والتكييف والتدفئة.

أحد إخواننا الكرام كان ببلد أجنبي حدثني أنه قرأ مقالةً مفادها أن ركوب الخيل يقي من أمراض القلب، بينما اعتياد ركوب السيارة دون أن يناوب الإنسان بينها وبين الحركة والمشي، هذا من شأنه أن يصيبه بأمراض القلب، فالله عزّ وجل صمم وسائل الركوب تصميمًا يتوافق مع صحة الإنسان.

(وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ)

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ

فَهَلْ في الكون شيء لا يدلّ على وجود الله، وعلى علم الله، وعلى قدرة الله، وعلى كمال الله، وعلى وحدانية الله ؟

(فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ(81) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ)

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

1 ـ الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

قد ينوّع ربنا عزّ وجل الطرق إليه، وقد قالوا: الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، فخلقُ السماوات والأرض طريقٌ إلى الله، لكنه طريقٌ سريع، وطريق عريض، وطريقٌ قصير ـ خلقُ السماوات والأرض هذا طريق ـ هناك طريق آخر، وهو أن تنظر في أفعال الله وتتأمل فيها.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

2 ـ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

وكلمة في الأرض هذه من إعجاز القرآن العلمي، فهل أنت أيها الإنسان تسير على الأرض أم في الأرض ؟ فهل أنت تمشي في السراديب ؟ في الأقبية ؟ أم تمشي على سطح أرض، العلماء قالوا: إن الهواء قد عَدَّهُ القرآن جزءاً لا يتجزّأ من الأرض، والدليل أنّ الهواء غلاف للأرض يتحرك معها، لو ثَبَتَ الهواء، وتحرّكت الأرض ما بقي على وجه الأرض شيء حيًا أو سالما، لأن سرعة الرياح المدمِّرة مائتا كيلو متر في الساعة، هذه الرياح هي الأعاصير التي لا تُبقِي ولا تذر، هناك أعاصير إذا أتت على مدينة لا تبقي فيها شيئاً سالمًا، ولا بناء قائماً، ولا أشجارًا، لو أن الغلاف الهوائي ثبت، والأرض تدور لكان على وجه الأرض تيّارات من الرياح سرعتها تزيد على ألف وستمائة كيلو متر في الساعة، عندئذ تدمّر كل شيء بإذن ربها، فالهواء غلافٌ للأرض يدور معها، إذا سرت أنت على وجه الأرض فهذه الآية فيها إشارة إلى أنك تسير في الأرض، لأن الهواء جزءٌ لا يتجزّأ من الأرض.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

3 ـ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

ماذا حل بفرعون ؟ وما هي عاقبة سيدنا موسى ؟ ماذا حل بأبي جهل ؟ وما هي عاقبة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ؟ هؤلاء الطغاة، العتاة، الذين أرادوا إطفاء نور الله عزّ وجل ماذا حل بهم ؟ وهؤلاء الدعاة الصادقون، الأنبياء، المؤمنون، المتقون ماذا حل بهم ؟ لمن كانت العاقبة ؟ أليست هذه قواعد ونواميس إلهية تكاد تكون ناطقة ؟ فالإنسان يدرس، ويتأمّل، ويستنبط، ويستنتج ثم يحكم.

لا تذهبوا بعيداً، وانظروا الآن، فالشاب المؤمن المستقيم مثلاً، لو تتبعت حياته، لوجدت أن حياته حافلة بالتوفيق، وحافلة بالسكينة، وحافلة بالاستقرار، وحافلة بالسعادة، يوفق في زواجه، يوفق في عمله، ماله حلال، بيته متوازن، عنده سكينة نفس، كل هذه الميزات هي ثمرة من ثمرات الإيمان..

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً)

4 ـ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً

إذا زار شخصٌ آثار الفراعنة يأخذه العجب العُجاب، فحجارة الأهرام التي بُنِيت منها كلُّ حجر يزن أكثر من عشرين طنًا، هذا الحجر جيء به من جنوب مصر، وحُمِّلَ على سفن عبر نهر النيل، ونقل من ضفة النيل إلى أقصى القاهرة، فهذا الحجر كيف حمل ؟ القاهرة وما حولها صحراء لا أحجار فيها،

وهذه الأهرامات جلبت أحجارها من مكانٍ بعيد، من جنوب مصر، هذه كيف جلبت، وكيف بنيت ؟ هناك صور أو بقايا من الأهرامات، الأهرامات كانت مغطاة بطبقة مزخرفة من الفسيفساء ذات الروعة والإبداع، فكيف بنيت الأهرام ؟ هناك بعض الأهرامات تدخلها الشمس في العام يوماً واحداً، هو يوم ميلاد فرعون، فهل ثقافة المهندسين هذه الأيام و خبرتهم تمكنهم من أن يصمموا نافذة بحجم وبأبعاد، وبميول تلك النوافذ الفرعونية، حيث إن أشعة الشمس تدخلها في العام كله في يومٍ واحد ؟

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

تحت الأرض مدن بأكملها، حضاراتٌ بأكملها، كل شيءٍ يخطر في بالك تحت الأرض، تجد في مقابر فرعون حاجاتهم، طعامهم إلى الآن مقدّد، قطع اللحم التي كانت قبل ستة آلاف عام إلى الآن موجودة في متاحف الفراعنة، خبزهم إلى الآن، أدواتهم الخاصة إلى الآن، ومراكبهم، فهم يعتقدون أن هناك حياة بعد الموت ـ حياة مادية ـ لذلك هؤلاء الفراعنة يهيئون في القبر كل شيء لفرعون، فهؤلاء هم الفراعنة وتلك حضارتهم.

وكذلك الأنباط الذين حفروا الجبال، وأقاموا القصور في الجبال، والقاعة فيها تقترب من حجم هذا المسجد، مكعبٌ دقيقٌ دقيق منحوتٌ من الصخر، وزخارف وتيجان وأعمدة، كلها من الصخر، ليس هناك بناء، بل نقب في الصخر، الأنباط فعلوا شيئاً عظيماً، وهناك دراسات تؤكِّد أن الأقوام السابقة لهم إنجازاتٌ مذهلة، لكن عفا عليها الزمان.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

5 ـ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

فهذه الإنجازات الضخمة لأنها للدنيا، لم تنفعهم شيئاً حينما جاءهم الموت، والإنسان حينما يأتيه ملك الموت، إما أن ينجح وإما أن يسقط، إنجازاتهم الضخمة كما قال الله عزّ وجل عنها:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

فالعمل إما أن يُقْبَل، وما أن يرفض، إما أن ترقى به، وإما أن تهوي به، إما أن يسعدك إلى أبد الآبدين، وإما أن يكون سبب شقائك إلى أبد الآبدين.

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(82)فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

هذه الآية وقف عندها المفسرون وقالوا: فيها ثلاثة أوجه.

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

المعنى الأول:

أن الرسل حينما جاءت بالمعجزات الدالة على رسالتهم، هم اعتدُّوا بعلمهم، يقولون لك: هذا علم مادي، طبعاً، وهناك علم ديني، فالعلمانيون يعتدون بعلمهم المادي، يقول لك أحدهم: أنا رجل علم، خير إن شاء الله، كأن رجل الدين إنسان غير عالم، فهذا الذي يعرف الله عزّ وجل، ويعرف قوانينه، ويعرف كتابه، هذا من أعلى رجال العلم، فهؤلاء الكفار حينما جاءتهم رسلهم بالبَيّنات، بالأدلة الواضحة، بالكتب المنزّلة، بالمعجزات فرحوا بما عندهم من علم، أي أنهم اكتفوا بعلمهم المادي كما قال الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

فالإنسان أحياناً إذا جاءه علمٌ ديني، وكان على علمٍ مادي، يعتد بعلمه، ويفتخر به، ويستغني عن علم الآخرين، هذا العلم المادي يعينك على كسب رزقك ليس غير، فإذا جاء الموت تبيّن لك أنك كنت مفتقرًا لمعرفة الله وعبادته، وهذه ملاحظة نجدها واضحةً عند من تفوقوا في العلم المادي، يستغنون بعلمهم عن معرفة الله، يستغنون بشهاداتهم العالية، وألقابهم العلمية، وإنجازاتهم في التأليف وفي حقول العلم المادي، عن معرفة الله، وعن معرفة كتابه، وعن معرفة ما ينتظرهم من عقابٍ أو من إكرامٍ، لكنهم لو أطاعوا الله عزّ وجل، وعبدوه مع ما حصلوه من علم مادي لحازوا قصب السبق، لكنهم:

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

إذًا علمهم المادي الذي لا يتصل بسبب مع أُخْرَاهم، هذا العلم أرداهم، وكان سبب شقائهم هذا، هو المعنى الأول للآية.

المعنى الثاني:

أما المعنى الثاني، فهو أنه لما جاءتهم رسلهم بالبينات، مَن الذين فرحوا ؟ هم الرُسُل، فرحوا بما عندهم من العلم، والله عزّ وجل طمأنهم، وقال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

المعنى الثالث:

وكذلك للآية معنى ثالث: المؤمن حينما يعلم أن الله قد بشّره بالجنة، وبشره بالحفظ، وبشّره بالنجاة من كل مصيبة، فإذا جاء البلاء العام هو يعلم أن الله قد بشّره بالنجاة، يفرح بهذه البشارة من الله عزّ وجل.

(فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا قالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ)

فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا قالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ

1 ـ الإنسان الشارد عند الشدائد والمصائب يرجع إلى الله:

الإنسان يعتمد على زيد أو عُبيد، وعلى فلان أو علان، فإذا جاء بأس الله عزّ وجل يقول: يا رب، ليس لي غيرك، فأين كانت الجماعات التي كنت تعتقد بهم، تعتقد أنهم يخلصونك من كل ورطةٍ ؟ فهذا من شأن الإنسان التائه الزائغ، متى يوحِّد ؟ عند المصيبة، لكن البطولة أن توحِّد وأنت في الرخاء، لكنه كان في الرخاء يقول: فلان وعلان، وزيد وعُبيد، وفلان نفعني، وفلان ضرّني، ولولا الطبيب الفلاني لما كان ابني نجا من هذا المرض الخطير، ولولا هذا المحامي اللامع لخسرت القضية، ولولا هذا الغذاء لفقدت صحتي، وهو في الرخاء يعزو كل شيء لغير الله، فإذا جاء بأس الله عزّ وجل قالوا:

(آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ)

لكن هذا التوحيد بعد فوات الأوان لا قيمة له عند الله عزّ وجل.

أيها الإخوة، مرةً ثانية وثالثة ورابعة: الإيمان له وقتٌ مناسب، أما إذا كان في الوقت غير المناسب فلا ينفع، والدليل:

(فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا)

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا

ما دمت في بحبوحة من صحتك، ما دمت في بحبوحةٍ من عمرك، ما دمت في بحبوحةٍ من شبابك، فهذا وقت الإيمان، أما على فراش الموت، حين اقتراب الأجل، أو عند نزول المصيبة، فهذا الإيمان الذي يتفجر في الوقت غير المناسب، بعد فوات الأوان لا ينفع أبداً، بل بالعكس يكون حسرة، قال تعالى:

(كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ)

(سورة البقرة)

مرة ثانية وثالثة ورابعة: لا بد للكافر من أن يؤمن، لكن بعد فوات الأوان، وإيمان فرعون أكبر دليل وأوضحه، لكنك مطالب بالإيمان قبل فوات الأوان، فتؤمن وأنت صحيح شحيح، أن تؤمن وأنت شاب، أن تؤمن وأنت في مقتبل الحياة، أن تؤمن وكلك أملٌ بالحياة هذا الإيمان الذي ينفع، فالإيمان إذا كان في مقتبل الحياة تحركت من خلاله، واخترت بيتك وأهلك وعملك، وعلاقاتك وأصحابك وأصدقاءك على نور الإيمان وتوجيهه، فالإيمان ماذا ينفع ؟ ينفع في اتخاذ القرار، لكن إذا الإنسان آمن بعد فوات الأوان، كان الإيمان حسرة، وهؤلاء الأقوام آمنوا، لكن متى آمنوا ؟ لما رأوا بأسنا.

اللحظة الصعبة:

أُلِف كتاب اسمه **" الحياة بعد الحياة "**، كتاب نادر، طبيب وجد مريضًا غاب عن الوعي في دقائق معدودة، ثم عادت له الحياة، فلما سأله: ماذا حصل لك ؟ أخبره بأشياء غريبة جداً، فأعماله كلها عرضت عليه منذ أن ولد وحتى تلك اللحظة بلمح البصر، شعر أنه ارتفع عن جسمه، وأصبح يراقب جسمه من علٍ، فهذا الطبيب خطر في باله أن يتقصى الحالات المماثلة في بقية المدن والمستشفيات، فجمع حوالي سبعين أو ثمانين حالة، وسأل هؤلاء الذين ماتوا لوقتٍ قصير، ثم ردت لهم الحياة ـ حالات نادرة ـ فجاء بتقارير من هؤلاء السبعين، ودرسها دراسة مستفيضة، فكان العجب العجاب أن كل هذه التقارير رأى فيها خمسة عشر قاسماً مشتركاً.

هؤلاء الذين فارقوا الحياة لفترةٍ محدودة لا تزيد على دقيقتين أو ثلاث، مشاعرهم، أحوالهم، تصوراتهم، حركات أجسامهم، ارتفاعهم عن أجسادهم، استعراض أعمالهم السابقة كلِها، هذا كله اشتركوا في الحديث عنه، مع أنهم لم يلتقي بعضهم مع بعض، فهم من أماكن متباعدة، من مدن متعددة، من دول متباعدة، فاستنبط هذا الكاتب أن كل إنسانٍ حينما يأتيه مَلَكُ الموت يشعر بأن عمله أصبح محكاً لمحاسبته. وكل إنسان إذا شارف على خطر معين يستعرض حياته كلها، دقيقةً دقيقة تمر أمامه كشريطٍ بلمح البصر، فهؤلاء.

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ)

وقد حَدَّثني شاب، والده اعتنق الفكر الإلحادي وكان مهندسًا، قال: كان طوال حياته يدعو للفكر الإلحادي ويروّج له، جاءته أزمةٌ قلبيةٌ فوضع على النقالة، وأدخل غرفة العناية المشددة، ثم أفاق من أزمته فقال له: يا بني كل شيءٍ سمعته مني هو باطلٌ، والدين هو الحق، قالها مرةً واحدة وهو داخلٌ للعناية المشددة وفارق الحياة بعدها.

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)

إنسان أمضى حياته في إدارة دور للقمار، وجمّع ثروات طائلة، حينما كان على فراش الموت شعر بالخطورة، وزاره شخص من أهل العلم، بناءً على طلبه، وقال له: ماذا أفعل ؟ قال له: والله لو أنفقت كل هذه الأموال وهي تزيد على ثمانمائة مليون لا تنجو من عذاب الله، فليحذر الإنسان أن يصل مع الله إلى طريق مسدود.

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)

كان شخص من أرقى أنواع التجّار، أوتي قدرةً في البيع والشراء يحسده عليها كل الناس، وغنى، وسيارات، وبيوت، ومصايف، عمره ثمانية وثلاثون عاماً، داهمه مرضٌ خبيث، فكلما تذكّر هذا المرض كان يهذي ويقول: لا أحب أن أموت، فلما جاء ملك الموت ذكر لي أحدهم وقال: واللهِ صرخ صرخةً ما بقي إنسان في البناء كله وهو مؤلف من أربعة طوابق إلا وسمعها.

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا)

ساعة الموت قادمة ولا بد منها، وعندها يدرك الإنسان أنه خسر كل شيء، إنّ الإنسان إذا خسر صفقة تجارية يقول لك: السارة مؤلمة جداً، ويظل يتندم سنوات ويتحسر، احترق قلبي على هذه الصفقة، اشتغلت فيها سنتين ما ربحت منها شيئًا، فكيف إذا الإنسان خسر حياته الأبدية ؟ قال:

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ(84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا)

ولات ساعة مندم:

فإذا ارتكب أحد جريمة قتل، وحوكم، وحكم عليه بالإعدام، وصدق الحكم، وسيق لتنفيذ الحكم، فإذا أخذ يبكي أمام من حوله، فهل بكاؤه ينفعه ؟ لو أراد ألاّ يرجوهم أن لا يعدموه، أينفعه رجاؤه إياهم ؟ إن بكى، وإن ضحك، إن عبث، وإن توسّل، وإن التمس، وإن رفض، وإن مدح، وإن ذَم، فكل ذلك لا ينفعه فلا بد من تنفيذ الحكم، هذا هو الطريق المسدود.

فنحن كلنا الآن في بحبوحة، بإمكانك أن تتوب، بإمكانك أن تتلخص من هذه العلاقة المشبوهة، بإمكانك أن تلغي هذه الصفقة التي لا ترضي الله عزّ وجل، بإمكانك أن ترفض هذا العمل الذي لا يرضي الله عزّ وجل، بإمكانك أن تقيم الإسلام في بيتك في عملك، بإمكانك أن تعود إلى الحق.

(فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ

فلذلك كما قال سيدنا عمر بن عبد العزيز: **" الليل والنهار يعملان فيك "**، كل واحد عنده صورة فوتوغرافية لنفسه قبل عشرين سنة، قبل ثلاثين سنة، يكون مثل الوردة، الآن أخاديد، وحفر بوجهه، ضع هذه الصورة القديمة مع الصورة الحديثة، فماذا تستنبط ؟ هذا فعل الزمن، الليل والنهار يعملان فيك قال: **" فاعمل فيهما "**، تدارك نفسك، ما دام الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، كيف ؟ البطولة أولاً أن نعرف الله عزّ وجل، وأن نعرفه في الوقت المناسب، وأن نعرفه في العمر المناسب، وأن نستفيد من هذه المعرفة استقامةً على أمره، وأن تعمل عملاً صالحاً تقرُّباً إليه، ثم دعوةً إليه.

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ(84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)

خاتمة:

هذا جبلة بن الأيهم ملك غسّاني، جاء سيدنا عمر مسلماً، أسلم وهو يطوف حول الكعبة داس بدوي على إزاره، فضربه على أنفه ضربةً هَشَّمت أنفه، فرفع الأعرابي الأمر إلى سيدنا عمر الخليفة، فقال لجبلة:

أرض الفتى ولا بد من إرضائه، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه، أو ليهشِّمَن الآن أنفك.

قال: كيف ذاك يا أمير المؤمنين هو سوقةٌ، وأنا عرشٌ وتاج، كيف ترضى أن يسقط النجم أرضًا.

قال له: نزوات الجاهلية ورياح العنصرية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً.

قال: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتدٌ إذا أكرهتني.

قال: عنق المرتد بالسيف تحز، عالمٌ مبني كل صدع فيه بشذا السيف يداوى، الخ...

فلما أيقن أنه لا بد من أن يقتصّ منه ولى هارباً شطر الشمال، والتحق بقومه الغساسنة، وشرب الخمر، وعاش حياةً لاهيةً عابثة، لكنّي عثرتُ قبل فترة على أبياتٍ قالها وهو يفارق الحياة، لو سمعتم هذه الأبيات لشعرتم أن قلبه يُعْتَصَر من شدة الندم، هل تحبون أن تعرفوا مَن هو العاقل ؟ هو الذي يفعل فعلاً لا يندم عند الموت، عند الموت هناك ندمٌ شديد.

ماذا قال أحد الصحابة ؟ قال: **<< والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي >>**، أي أنه منطلقٌ بأعلى سرعة، لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي.

وقال سيدنا علي: **<< والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً >>.**

أيْ أنّ أصحاب النبي بلغوا من يقينهم أنه لو كشف الغطاء، أنّ يقينهم قبل كشف الغطاء كيقينهم بعد كشف الغطاء، وأنه لو علم أحدهم أن غداً أجله ما قدر أن يزيد في عمله، فالإنسان هذه الساعة التي لا بد منها ساعة الفراق، يجب أن تكون ماثلةً أمامه دائماً، ومستعداً للقاء الله عزّ وجل، وللإجابة عن كل أعماله التي فعلها في الدنيا.

فلذلك الإيمان على فراش الموت لا ينفع، فلما كان على قيد الحياة حرم البنات حقّهُنّ، وأعطى البنين العطاء الجزيل، غيَّر في الميراث، وكتب سندات دَيْن خلّبية كلها، حتى جعل الثروة بأيدٍ قليلة، هذا كله متى يندم عليه ؟ وهو على فراش الموت.

في بعض البلاد الإسلامية عالِمٌ أفتى ببعض الفتاوى التي لا ترضي الله عزّ وجل، قال لي أحد علماء دمشق: حضرت نزعه الأخير، وهو على فراش الموت رفع يديه الاثنتين، وقال: **" إنني أشهدكم أنني بريءٌ من كل الفتاوى التي أفتيت بها من قبل "**، طبعاً أدرك الخطورة.

فنحن نريد أن نستعد لهذه الساعة، ساعة لقاء الله عزّ وجل، لذلك كل واحد منا عليه قبل أن يقول أيّة كلمةٍ، قبل أن يأخذ أيّ مبلغٍ، قبل أن يقطع قبل أن يمنع، قبل أن يُعطي قبل أن لا يُعطي، قبل أن يغضب قبل أن يرضى، قبل أن يصل قبل أن يقطع، قبل أن يقف أي موقف لنفسه هل عندي جوابٌ لله عزّ وجل؟ أعندك جواب لله ؟ إذا لم تجد جوابًا فكما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ))

[البخاري]

من معاني هذا الحديث: إذا عرضت هذا الأمر على نفسك، وأنت بين يدي الله، ووجدت أنك محقٌ في هذا العمل، وهذا العمل لا تستحي به، إذاً افعله، ولا تخشَ كلام الناس، إذا لم تستحِ من الله بهذا العمل افعله، ولا تخشَ أحداً، وعلامة المؤمن أنه لا يخشى إلا الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (01-11): تفسير الآيتان 1 - 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-11-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الأول من سورة فصِّلت، ومع الآية الأولى:

(حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4)

معاني الحروف المقطّعة:

أيها الإخوة، ذكرت من قبل في هذه الحروف التي تُفتتح بها بعض السور أقوال العلماء.

المعنى الأول:

فمن أقوالهم الشائعة: الله أعلم بمراده.

المعنى الثاني:

ومن أقوالهم أيضاً: إن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الكلام المعجز كلام الله عزّ وجل، إنما حروفه من هذه الحروف، والحروف بين أيديكم ؟ لذلك ربنا سبحانه وتعالى جعل إعجازه دليلاً على أنه كلام الله عزّ وجل، فكل من يزعُم أنه ليس كلام الله فليأت بسورةٍ من مثله..

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(24))

(سورة البقرة)

المعنى الثالث:

والمعنى الثالث: أن هذه الحروف إشاراتٌ إلى أسماء الله الحسنى.

المعنى الرابع:

وبعضهم قال: هذه الحروف إشاراتٌ إلى أسماء النبي عليه الصلاة والسلام.

لا أحد يحيط بكلام الله فهمًا كاملاً من غير نقص:

والقرآن كما يقال: حمَّال أوجه، ولا يستطيع أحدٌ أن يزعم أن هذه الآية هذا معناها على سبيل الحق، كل إنسان يُدلي بدلوه في الآيات المتشابهات، بينما الآيات المُحكمات لا يختلف فيها اثنان، ومن فضل الله عزّ وجل أن الآيات المتعلِّقة بأصول العقيدة، وأن الآيات المتعلِّقة بأصول التكاليف هذه آياتٌ محكمات لا يختلف فيها اثنان، بينما الآيات الأخرى المتشابهات، وهناك حكمٌ بالغة من كونها

متشابهات، أولاً هي حافز يحفز المؤمنين إلى البحث عن معناها، وثانياً: إذا كانت هذه الآيات المتشابهات تحتمل معاني كثيرة، فالله سبحانه وتعالى أراد كل هذه المعاني توسعةً على خلقه، ورحمةً بهم، ومن هنا قال بعضهم: اتفاق العلماء حجّةٌ قاطعة، واختلافهم رحمةٌ واسعة، وما كان لهم أن يختلفوا لو أن كل آيات القرآن الكريم قطعيّة الدلالة، الآيات المتعلِّقة بأصل العقيدة قطعيّة الدلالة لا خلاف فيها، فالآيات المتعلِّقة بالتكاليف التي سوف نحاسب عليها يوم القيامة قطعيّة الدلالة، ولكن بعض الآيات في القرآن الكريم سمّاها متشابهات، أي أنها تشبه الحق من جهة، وتشبه الباطل من جهة، ومن خلال هذه الآيات المتشابهات يُمْتَحن المؤمن، ومن خلال هذه الآيات المتشابهات ينطلق المؤمن ليفهم معناها، ولعلّ في هذا أسلوباً تربوياً حينما يجد الإنسان أنه مضطرٌ أن يفهم هذه الآية، فيَكِدُّ ذهنه، والشيء السهل يبدو قليل الأهميّة، لكن الشيء الذي يتحدّى فكر الإنسان وعلمه يبدو عظيم الأهميّة، هناك حكمٌ تربويّةٌ، وغاياتٌ مديدةٌ لا يعلمها إلا الله من وجود بعض الآيات المتشابهة التي اشتبه معناها على كثيرٍ من الناس.

فالذين قالوا: الله أعلم بمراده ما أخطئوا الحقيقة، لأنه يستحيل على المخلوق المحدود أن يحيط بالخالق، وهذا من كلامه، مهما اجتهدنا في فهم كتاب الله يبق فهمنا نسبيّاً، بل إن أعلى فهمٍ لكتاب الله هو فهم النبي عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فالنبي ما أحاط بكتاب الله، لأنه لا يعلم مضمون كلام الله على سبيل الحصر إلا الله، لكن المؤمن يجتهد.

فالذين قالوا: الله أعلم بمراده ما أخطئوا الحقيقة، لأنه يستحيل على المخلوق الحادث أن يحيط بكلام الله عزّ وجل.

والذين قالوا: إن القرآن الكريم المُعجِز صيغت آياته من هذه الحروف التي بين أيديكم، فكيف أن التراب حينما نَفَخَ الله فيه صار إنساناً يتكلّم، ويتحرّك، ويفكِّر، ويرى، ويسمع، وينطق، ويأكل، ويشرب، وهذا الإنسان بخلقه المُعجز أساسه ترابٌ نُفِخَ فيه، والمادّة الأوليّة بين أيدينا ندوس عليها..

خفِّف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجسادِ

* * *

ومع ذلك فخلق الحياة في الخليّة شيءٌ فوق طاقة البشر، ومكوّنات الحليب الذي تصنعه يد القدرة الإلهيّة من خلال البقرة بين أيدينا، هل يستطيع العلم مهما تقدّم أن يصنع هذا السائل المُغذي من مكوّناته الأساسيّة ؟ ومكوّنات البيضة التي تصنعها يد القدرة الإلهيّة من خلال الدجاجة بين أيدينا، فهل نستطيع أن نصنع هذه البيضة ؟ وهذه من أبسط الأمثلة، فالمكوّنات شاءت حكمة الله أن يجعلها بين أيدينا، ولكن خالق الحياة هو الله عزّ وجل، الذي يخلق الخلية الحيّة، والذي خلق هذه الخليّة لتنمو وتتكاثر، ثم كل قسمٍ منها يأخذ اتجاهاً حتى يكون نواةً لجهازٍ دقيقٍ في الإنسان، وهذا من فعل الله عزّ وجل.

فكما أن التُراب بين أيدينا، وخلق الإنسان من إعجاز الله، شيء يثبت عظمة الله عزّ وجل، كذلك هذا القرآن الحروف بين أيدينا..

(حم (1))

لا تصادم بين العقل السليم والنص الصحيح:

ولكن أن نصوغ كتاباً فيه إعجازٌ تشريعي، وفيه إعجازٌ إخباري، وعلمي، وفيه إعجازٌ تربوي، فهذا الكتاب لم تظهر حقيقةٌ علميّة تصادمت معه، لأن خالق الكون هو الله، ومنزل هذا الكتاب هو الله، لذلك استنبط العلماء أنه لا يمكن أن يتصادم العقل الصحيح الصريح مع النقل الصحيح، فالنقل من عند الله، والعقل جهازٌ عظيمٌ أودعه الله فينا، أما إذا بدا لكم بعض التصادم بين العقل والنقل، أي بين النصّ والفكر فهذا التصادم لسببٍ أو لآخر، أحد هذه الأسباب أن النقل غير صحيح، النقل غير الصحيح قد يتصادم مع العقل الصريح، أو أن النقل الصحيح يتصادم مع العقل غير الصريح، فالعقل حينما يغلو، أو حينما يزوّر، أو حينما يشتط قد يتصادم مع النقل الصحيح، أما نقلٌ صحيح يصطدم مع العقل الصريح فهذا من سابع المستحيلات، لأن المصدر واحد.

وكنت أقول دائماً: إن الحق دائرة يخطُّها أربعة خطوط ـ أو يمر بها أربعة خطوط ـ خط العقل، وخط النقل، وخط الفطرة، وخط الواقع، فالحق الذي يجب أن تعتقده يجب أن يتطابق مع الفطرة تطابقاً تاماً، ومع الواقع، والعقل، والنقل، اجتهد أن ترى الدليل العقلي مع الدليل الواقعي مع الدليل النقلي مع الدليل النفسي، فإذا تطابقت هذه الأدلّة الأربعة كان هو الحق، والحق من حقّ الشيءُ أي ثبت واستقر.

فالمسلم يعيش نعمة لا يعرفها إلا مَن فقدها، ما هذه النعمة التي يعيشها ؟ أنه متمسّك بمبادئ ثابتة، مُضِيُّ الأيام والليالي، ومضي القرون لا يهزُّها أبداً، بينما الذين تمسّكوا بمبادئ وضعيّة من وضع البشر حينما فُوجئوا بعد سبعين عاماً أنها لم تكن صحيحة، وأنها سرابٌ في سراب، وأنها تداعت كما تتداعى بيوت العنكبوت، هذه مفاجأةٌ ؛ وما من مفاجأةٍ أشد على النفس من هذه المفاجأة، أن المبدأ الذي أمضيت كل حياتك في خدمته والدعوة إليه كان مبدأ موهوماً غير صحيح، نعمة أن المؤمن عقيدته متعلِقةٌ بالثوابت، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)

(سورة إبراهيم: من الآية 27)

وثوابت المؤمن مستنبطةٌ من كلام الله، والله سبحانه وتعالى هو الأول والآخر، وهو الظاهر والباطن، وهو الحقيقة الأولى، والتي لا حقيقة غيرها، هذا على معنى:

(حم (1))

فإما أن تقول: الله أعلم بمراده.

وإما أن تقول: إن القرآن الكريم المُعجز بنظمه، المعجز بتشريعه، والمعجز بحقائقه العلميَّة مصاغٌ من هذه الحروف وهي بين أيدينا.

والمعنى الثالث: لعلّها أسماء النبي عليه الصلاة والسلام يا حامد ويا محمود.

ولعلّها أسماء الله الحسنى إشارةٌ إليها على طريقة الترميز، وعلى كلٍ فالقرآن حمّال أوجه، وكل إنسانٍ له أن يجتهد مع الضوابط ـ ضوابط اللغة، وضوابط علم العقيدة، ومقاصد الشريعة ـ في فهم كلام الله عزّ وجل من دون أن يكون لأحدٍ حق احتكار المعاني..

(تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 ـ اسم الله الأعظم:

فربنا عزّ وجل أسماؤه كلّها حسنى، وصفاته كلّها فضلى، لكن الاسم الأول الذي يلي اسم الله عزّ وجل، وكلمة الله علمٌ على الذات الكاملة، فأسماء الله حسنى كلّها جُمِعَت في كلمة (الله)، فالله علمٌ على الذات الكاملة.

2 ـ الرحمن الرحيم:

الاسم الذي يلي اسم الله عزّ وجل هو الرحمن الرحيم.

والرحمن الرحيم هذا الاسم أيها الإخوة على شيءٍ من التفصيل الرحمن في ذاته الرحيم في أفعاله، فذاته رحيمة وأفعاله رحيمة، وربنا عزّ وجل قال: هذا القرآن..

(تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الله خلق الخلقَ ليرحمهم:

فالله عزّ وجل خلق الخلق ليرحمهم.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

العبادة تبدأ بمعرفة الله، ويتوسّطها طاعة الله، وتنتهي برحمة الله، رحمة الله إلى أبد الآبدين، وكل من يتوهّم أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعذِّبهم، وقد يأتي بشواهد مفتعلة من فقر بعض الشعوب، من الزلازل، والفيضانات، والبراكين، والحروب الأهليّة، كل من يتوهّم أن الخلق مخلوقون للعذاب فهذا افتراءٌ على الله، وهذا قريبٌ من الكفر، لأن الذي يقول على الله ما لا يعلم يرتكب معصيةً هي من أشد المعاصي، وربنا عزّ وجل وضعها في بعض الآيات، وجعلها من أعظم المعاصي ؛ أن تقول على الله ما لا تعلم، أن تظنّ بالله غير الحق ظنّ الجاهليّة، أن تطعن برحمة الله، أو بحكمته، أو بعدالته.

ما يجري في الكون هو من مقتضى الحكمة:

فكمال الخلق يدل على كمال التصرُّف، وإذا ذهبت لتعرف الله من خلال خلقه فالطريق آمنٌ وسالك، أما إذا بدأت بمعرفة الله من خلال أفعاله فلن تستطيع إثبات عدالة الله، ولا إدراك حكمته إلا إذا كان لك علمٌ كعلم الله، وهذا مستحيل، لذلك ينبغي أن تستسلم في أفعاله.

قد يسأل سائل: ما حكمة ما يجري في العالم اليوم ؟ وقد يسأل سائل أيضا: لماذا يبدو أن الله تخلّى عن المسلمين ؟ هناك أسئلة كثيرة جداً.

إذا ذهبت لتعرف الله بدءاً من أفعاله فهذا الطريق غير آمن وغير سالك، لأنك لا تستطيع أن تدرك حكمة الله، ولا أن تدرك عدالته إلا أن يكون لك علمٌ كعلمه، لكن يكفي أن الشيء الذي يعجز عقلك عن إدراكه قد أخبرك الله سبحانه وتعالى به، قال تعالى:

(وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

قال تعالى:

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

(مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ(13))

(سورة فاطر)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت: من الآية 40)

هذا كلامه، فإن لم تصدِّق كلامه فالمشكلة في ضعف الإيمان، عُد إلى إيمانك وجدِّده، فإذا وجدت شكًا في كلامه فالقضيّة يجب أن تعود إلى الأصول.

هذا الكون بسماواته وأرضه يدل على خالقٍ عظيم، وعلى مُرَبٍّ حكيم، وعلى مسيّرٍ حكيم أيضاً، وعلى الله الموجود الكامل الواحد، وعلى أسماء الله الحسنى، وهذا القرآن كلامه، وقد أخبرك فيه أنه لا يظلم أحداً..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

فهذا الأعرابي الذي سأل النبي عليه الصلاة والسلام فقال: " عظني ولا تطل " فتلا عليه قول الله عزّ وجل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

قال الأعرابيُ: " قد كُفيت "، هذه الآية تكفيني.

الصادق تكفيه آيةٌ:

ويا أيها الإخوة، بالمناسبة الصادق تكفيه آيةٌ واحدة، آيةٌ واحدة تكفيه طوال العمر..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقْهَ الرجل))

[ورد في الأثر]

فآية:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

تكفي وآية:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

أمرك كلّه بيده.

آية:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من الآية 9)

هذه تكفي وآية:

(فَمَنْ اتّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

تكفي وآية:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

تكفي وآية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

هذه الآية تكفي، آمن واعمل صالحاً والحياة الطيّبة تنتظرك.

آية:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

تكفي وآية:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

آية:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

آية:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ)

(سورة هود: من آية " 88 ")

كل آية من هذه الآيات جامعةٌ مانعةٌ، كافيةٌ قاطعة، فالصادق لا يحتاج إلى مزيدٍ من التفاصيل، بل تكفيه آية، أما الذي لا يريد الحقيقة ولو حشرت له كل شيء، ولو رأى الملائكة، ولو فُتِحَت له أبواب السماء، ولو عرج في السماء، ولو عاد الموتى وكلّموه فلا يستفيد.

الصادق يتمسك بالحق:

لقد شبّهت إنسانا بلا بيت، أُخرج من بيته، فزوجته عند أهلها، وهو عند أهله، وأولاده بين بَين، ومدارسهم في حي، وبيت أهل زوجته في حي، وقد مُزّقت نفسه، وزوجته أُحبط عملها، والأولاد مشرّدون، وهو هائمٌ على وجهه، فالتقى برجل، وقال له: أتريد بيتاً ؟ كيف حال هذا الإنسان الشارد الضائع، الهائم على وجهه ؟ يتمسّك به، يقبّله، ويقول: نعم أريد بيتاً.

هذا هو الصادق في معرفة الله عزّ وجل، الذي يريد الله عزّ وجل فإنه يتمسّك بأهل الحق، وبمجالس العلم، ويتمسك بالقرآن الكريم، وبهذه السُنّة، والذي كان مضطراً للبيت، وقال له رجل كلمة واحدة: أتريد بيتاً ؟ تمسّك به، وأكرمه، وسأله عن كل حاجاته كي يصل إلى هدفه، أما الذي لا يريد البيت فلا يصغي إليه، ولذلك قال أحدهم: لم أجد أشدّ صمماً من الذي يريد أن لا يسمع، فهذا لو وضعت في أذنه مكبّر صوت، وتلوت عليه الحقّ الصُراح لا يستجيب، لأنه في وادٍ، وكلامك في وادٍ، فالقضيّة قضية صدق، والجنّة لمن صدق لا لمن سبق.

ولذلك فهذا القرآن الكريم ستمائة صفحة، فيه آيات كونيّة، وآيات تشريعيّة، وإخباريّة، وفيه وعد، و وعيد، وبيان الحلال والحرام، فيه مَشاهد من يوم القيامة مؤثّرة جداً، ومشاهد من أهل الجنّة وهم يتنعّمون، ومشاهد من أهل النار وهم يتصايحون، فيه كل شيء هذا الكتاب، وهو بين أيدينا وميسّر، مطبوع بطبعات عديدة، وبحجوم متفاوتة، وبمقاييس، ومطبوع طبعات موحّدة، ومطبوع طبعات مجزّأة، ويمكن أن تسمعه في أشرطة، وأن تسمع تفسيره، المساجد مفتوحة لكل الناس من دون قيد أو شرط، ومع ذلك أنّى يؤفكون ؟ أنّى ينصرفون ؟ والمؤمن هذا الكتاب بين يديه، فهنيئاً لمن عرف الله في حياته.

لابد من الإيمان في الوقت المناسب:

مشكلتنا أيها الإخوة مشكلة وقت فقط، كل الذي لم يؤمن في حياته لابدّ من أن يؤمن عند موته، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه، وإيمانه جاء متأخِّراً، وجاء بعد فوات الأوان، فكل طالب قدّم امتحان ولم ينجح، حينما يخرج من قاعة الامتحان يفتح الكتاب المقرّر، ويقرأ الجواب الصحيح الذي كان ينبغي أن يكتبه، ولكن متى عرف الجواب ؟ بعد أن سلّم الورقة بيضاء، وبعد فوات الأوان، فمعرفة الجواب لابدّ منها، إما أن تعرفه قبل دخول الامتحان، وإما أن تعرفه بعد الامتحان، وبعد الامتحان لا قيمة له.

مشكلتنا أنه لابدّ من أن نؤمن، ولكن متى ؟ حين لا ينفع الإيمان، فالبطولة أن تؤمن الآن وأنت صحيح، ومعافى، وغني، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

[الترمذي عن عمرو بن ميمون]

وهذه نصيحة مرّةً ثانية، إخواننا الشباب إذا آمنوا في سنِّهم المبكِّرة شكّلوا حياتهم تشكيلاً إسلامياً، فسعدوا بها إلى آخر حياتهم، سيختارون زوجة صالحة، سيؤسِّسون بيتًا إسلاميًا، سوف يختارون عملاً يرضي الله، والعمل الذي يرتزقون منه سيختارونه وفق مرضاة الله، ويسعدون بأعمالهم وأزواجهم، أما إذا عرف الإنسان ربّه في سنٍ متأخِّرة فربما شكّل حياته تشكيلاً غير إسلامي، بعد أن عرف الله يشقى

شقاءين، يشقى على ما مضى، ويشقى وقد عرف الله وهذا حاله الذي لا يرضي الله، ولا يستطيع الفكاك منه.

إذاً:

(تَنْزِيلٌ)

المصيبة من رحمة الله لأنها توقظ الغافل:

هذا الكتاب من الرحمن الرحيم، الرحمن في ذاته، الرحيم في خلقه، قد يسأل أحدكم هذا السؤال: فما بال هذه المصائب ؟ لا أستطيع أن أُفسِّر هذه المصائب التي تقع في بقاع العالم إلا على الشكل التالي: حينما صُنعت هذه السيارة إنما صُنعت لتسير، وفيها مكابح، والمكابح من شأنها أن توقفها، وكأن المكابح تتناقض مع الهدف من صنعها !! الجواب: أن المكابح ضروريَّةٌ لسلامتها.

حينما يغفل الإنسان، حينما يحيد عن سواء السبيل، وتطغيه شهواته، ويضلُّ عقله، وتغريه الدنيا، وتخدعه الدنيا، ويركن إلى الملذّات الرخيصة، لو أن الله تركه على حاله لمات على الكفر، ولاستحقّ جهنَّم إلى أبد الآبدين، فرحمة الله به أن توقظه من غفلته، من سُباته، ومن انحرافه، وهذا الإيقاظ يتم عن طريق المصائب، فإما أن تأتي إلى الله عزّ وجل مشتاقاً، وإما أن الله سبحانه وتعالى يجلبك إليه بأساليب عديدة بطريقةٍ أو بأخرى، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((عجب ربُكم من قومٍ يساقون إلى الجنّة بالسلاسل))

[البخاري عن أبي هريرة]

فإما أن تأتيه طائعاً، وإن لم تأته طائعاً فربّما جئته مكرهاً بسلاسل الامتحان، التي تحمده عليها يوم القيامة.

لا أيها الإنسان إنما خُلِقتَ للرحمة:

وكلمة رحمن رحيم تعني أنك خُلِقت ليرحمك، وتوجد آية تؤكِّد هذه الآية:

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

خلقهم ليرحمهم، وخلقهم ليسعدهم، وخلقهم ليعطيهم..

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،

فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

كلامٌ دقيقٌ واضح.

وكنت أقول أيها الإخوة دائماً، إن الإنسان إذا أفرط في حب ذاته عليه أن يطيع الله، ولأنك لن تنجو من عذاب الله إلا بطاعته، ولن تنجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة إلا بالاستقامة على أمره، لن تنجو من المفاجآت غير المتوقّعة إلا أن تكون معه، فإن كنت معه كان معك، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ويقول:

((اللهم إني أعوذ بك من تحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك))

[مسلم عن ابن عمر]

وقد تجد الأمور تدهورت، وتفجّرت، ويفقد الإنسان عمله أحياناً، يصاب بجسده، ويصاب ببيته أحياناً، فيستعيذ النبي عليه الصلاة والسلام من فجأة نقمته، ومن تحوّل عافيته، ومن جميع سخطه، فحتى ننجوَ من عذاب الله لابدّ من طاعته، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام في بعض أدعيته:

((لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك))

[متفق عليه عن البراء]

والصلحة بلمحة، والدنيا ساعة فاجعلها طاعة، والنفس طمّاعة عوّدها القناعة، والعودة إلى الله عزّ وجل مسعدةٌ جداً، ولا يعرف طعم التوبة إلى الله إلا من تاب إليه، ولا يعرف طعم الإقبال عليه إلا من أقبل عليه، لا يعرف طعم السكينة إلا من خضع لأمره، واصطلح معه، وملأ قلبه حباً له.

نِعَم اللهِ لا تُعدّ ولاتُحصَى:

وكلمة الرحيم تعني أن أفعاله كلها رحيمة، بدءاً من الظواهر الماديّة، فهذا الهواء الذي نتنفسه متوازن، فأنت تطرح غاز الفحم، والنبات يأخذه غاز الفحم، ويطرح لك الأوكسجين، فهذا الهواء المتوازن، هذه من نعم الله العظمى، ولو قلّ الأوكسجين لضاق نفَس الإنسان، ففي الطائرات يضعون لك كمّامة تضُخ غاز الأوكسجين، حتى إذا ضاق تنفُسك تستعمل هذه الكمامة، معنى هذا أن تشعر بالراحة في أثناء التنفس، هذه من نِعم الله العظمى، أن تجد أمامك الماء العذب الفرات الزلال، هذه نعمةٌ ثانية، وأن تجد طعامك وشرابك، أن تأوي إلى بيتك، وأن تلتقي بأهلك، وأن تجد أولادك بينك يمرحون، هذه كلُّها نعمٌ أساسها العطاء.

و لدى المؤمن نعم الدنيا متصلةٌ بنعم الآخرة، فإن صحَّ التعبير خطه البياني صاعداً صعوداً مستمرًا ثابتاً، وما الموت إلا نقطةٌ على هذا الخط الذي في صعود مستمر، فأيّ نعيم الدنيا متصلٌ بنعيم الآخرة، وهذا إذا استقام على أمر الله، ولقول الله عزّ وجل:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

الرحمة أحياناً تقتضي التضييق والشدّة:

ولكن الرحمن رحيمٌ في ذاته، وفعله مؤدّاه الرحمة، لكن قد يكون في ظاهره قسوة، فالطبيب الأب إن رأى في صحة ابنه خللاً ألا يمنعه من بعض الطعام ؟ إن استوجب عمليّةً جراحيّةً، وكان جرّاحاً ألا يُمْسك المبضع بيده ويفتح بطنه ؟ ولذلك لا يمكن أن تفسّر الأفعال التي يفعلها الله عزّ وجل إلا بهذا الاسم الرحمن الرحيم، رحمنٌ في ذاته رحيمٌ بخلقه، لكن الرحمة أحياناً تقتضي التضييق والشدّة.. "، **وأوحى ربُك إلى الدنيا أن تكدّري، وتمرّري، وتضيّقي، وتشدّدي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ".**

وأحياناً سر نجاحك ضيقٌ أصابك، سر توبتك إلى الله شدةٌ تبعتك، يقولون: ما من شِدَّةٍ إلا بعدها شَدَّة إلى الله، وما من مِحْنَةٍ إلا بعدها مِنْحَة من الله عزّ وجل، فالشر المطلق لا وجود له في الكون، الشر المطلق يعني الشر المطلوب لذاته، وهذا لا وجود له في الكون إطلاقاً، لكن كل الشر الذي يبدو لنا فهو شرٌ هادف، هدفه إصلاح النفس، وحملها على طاعة الله عزّ وجل.

أوامر الله ونواهيه في القرآن من رحمته بالناس:

إذاً: هذا الكتاب إذا قرأناه رحمنا الله به، وإذا قرأناه وتدبّرنا آياته فالله سبحانه وتعالى يسعدنا به..

((وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرّحْمَةُ، وَحَفّتْهُمُ الْملائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

(من صحيح مسلم عن أبي هريرة)

لأنها كلها مبادئ، تجد المسلم لا يعرف هذه النعم لأنها متوافرة، وحركته وفق منهج، وهذا حرام، وهذا حلال، وهذا يجوز، وهذا لا يجوز، فقراءة القرآن يجد فيه أمر الله له بغض البصر هذا يجعله عفيفاً، هذا يمنعه من منزلقات خطيرة، وأمر الله له بعدم أكل أموال الناس بالباطل، ليست هذه الأوامر قيداً تقيّد حرية الإنسان، بل هي ضمان لسلامته، وهناك رأي دقيق جداً: أنه لو كان ألف مليون مسلم، إذا أمرك الله عزّ وجل أن لا تأكل أموال الناس بالباطل، أمرك أنت، وأنت واحد، لكنّه أمر ألف مليون مسلم أن لا

يأكلوا مالك بالباطل، فهذا الأمر لصالحك، إذا أمرك أن تغضّ البصر عن امرأةٍ لا تحل لك، فقد أمر كل المؤمنين أن يغضوا بصرهم عن زوجتك.

فالإنسان حينما يقرأ القرآن، وحينما يستوعب أوامره ونواهيه، وحينما ينطلق إلى تطبيقه يشعر بعزّ الطاعة، ويشعر بسعادة ما بعدها سعادة، حياته نظيفة بالمعنى الدقيق، وليس عنده باطن وظاهر، فباطنه كظاهره، وظاهره كباطنه، واضحاً وضوح الشمس، فهذا من نِعَم الله في القرآن، لذلك والشيء الآخر:

((من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتّى يموت))

وما من مرحلة صعبة في الحياة كمرحلة أرذل العمر، قال تعالى:

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا)

(سورة النحل: من الآية 70)

فهذه المرحلة صعبة جداً، وإذا تعلّم الإنسان القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت، فقارئ القرآن مضمونٌ له أن لا يخرف أبداً، وأن يعيش مستمتعاً بعقله طول حياته إلى أن ينتهي أجله.

أيها الإخوة الكرام... هذه الآية:

أفعال الله متعلقة بالحكمة المطلقة:

لا تبقي في النفس مرضاً، ولا تبقي في النفس يأساً، ولا ضيقاً من الرحمن الرحيم، فليس في الإمكان أبدع مما كان، " ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني "، هذا قول الإمام الغزالي، أي كل شيءٍ وقع ما دام رحمنٌ رحيم، والفعل بيده لا بيد غيره، فإن كان من غيره كان هذا ليس فعله، ولكن ما دامت كل الأفعال له، وكل شيءٍ وقع إذاً أراده الله، أو أن كل شيءٍ أراده الله وقع، فمادام وقع أراده الله، معنى الإرادة هنا أنه سمح بوقوعه..

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة التغابن: من الآية 11)

وما دام وقع فقد أراده الله، فإرادة الله متعلِّقةٌ بالحكمة المطلقة، معنى الحكمة أن هذا الشيء الذي وقع لو لم يقع لكان عدم وقوعه نقصاً في حكمة الله، إذاً كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلِّقةٌ بالحكمة المطلقة.

والإنسان أحياناً يفعل شيئاً ليس حكيماً، يقول لك: انضغطت، لم أستطع أو أغريت، إما بدافع الإغراء أو بدافع الضغط يرتكب عملاً غير حكيم، ويفعل عملاً غير حكيم، أو بدافع الجهل، إما أنه يجهل، أو ضُغِطَ عليه، أو أغري بشيء، فكان فعله غير حكيم، الأشياء الثلاثة الله جلّ جلاله منزّهٌ عنها، إذاً أفعاله متعلِّقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته متعلِّقةٌ بالخير المطلق، وليس النسبي.

معنى المُطلق أن الخير المطلق ينتهي إلى الخير، فقد يَضُيّق الأب على ابنه، بعد حين صار شخصيَّةً لامعة في المجتمع، فهذا النجاح الذي حقّقه الابن ما كان له أن يكون لولا ضغط أبيه عليه، في أثناء الضغط والضغط مزعج، وقد لا يبدو للابن أن هذا الضغط لصالحه، لكن بعد أن يصل به هذا الضغط إلى مكانةٍ رفيعةٍ في المجتمع يحمد أباه على ذلك، فلذلك هناك آية قرآنيَّة دقيقة، يقول الله عز وجل يصف أهل الجنَّة:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر: من الآية 74)

أي نحن في الجنَّة ننعُم بها، ولولا أننا كنا في الأرض، وقد عرفنا الله في الأرض، واستقمنا على أمره في الأرض، وفعلنا الخيرات لما وصلنا إلى الجنَّة، فحينما يصل الإنسان إلى الدار الآخرة يُلَخِّص معاملة الله له في الدنيا كلِّها بكلمةٍ واحدة هي: الحمد لله رب العالمين..

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

كيف لو كشِف لك الغطاء عن حقيقة المصيبة ؟!

وكنت أقول لأحد إخواننا الكرام وهو في محنة: والله الذي لا إله إلا هو لو كُشِف لك الغطاء يوم القيامة عن حكمة هذه المصيبة لذُبت كما تذوب الشمعة حباً بالله عزّ وجل، وهذا والله إيماني، ما من شيءٍ يقع مكروه لو كشف الله لك الحكمة لذابت نفسك حباً لله عزّ وجل، فكلّما ارتقى إيمان الإنسان يشكر الله عزّ وجل على كل شيء، وتجده مستسلمًا، راضيًا..

فليتك تحلو و الحياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ و بيني وبين العالمين خرابُ

إذا صحّ منك الوصل فالكل هيّنٌ

****

والإنسان قد يفلِس، يحترق محله كله، إذا احترق محله وأفلس وحمله هذا على الصلاة، فالمصيبة موفية معه، وقد يصاب بمصيبة كبيرة جداً، وأنا أعرف رجلا شاردا على الله شرود البعير، بعيدًا عن الدين، مستهترًا، كثير السخرية بالأفكار الدينيَّة، فوجئت أنه يلتزم التزامًا تامًا في بعض المساجد، فلمَّا استوضحت الحقيقة منه قال لي: لي ابنةٌ هي أغلى عليَّ من نفسي، أُصيبت بمرضٍ عضال، وبذلت من أجلها كل شيء حتى بعت بيتي، وخطر لي مرَّةً لعلّي إذا تُبت إلى الله أنا وزوجتي لعلَّ الله أن يشفيها من هذا المرض العُضال.

ومن هنا انطلق، فتاب إلى الله، وبدأ يصلي، وحجَّب امرأته، وسبحان الله ربنا عزّ وجل استجاب له، وأزاح عن ابنته الحبيبة إلى قلبه هذا المرض العضال، فبعد أن امتد به العمر، والتزم المساجد، وأقبل على الله، وصار من أهل الإيمان، التقيت به مرّةً وقلت له: ألا تذكر حينما جاءت هذه المصيبة وكانت مؤلمةً جداً، انظر إلى أثر هذه المصيبة ؟ ردّتك إلى الله أنت وزوجتك.

وهكذا يفعل الله عزّ وجل، يسوق الشِدّة كي يشُدُك إليه، ويسوق المِحنة كي يمنحك الهدى، فالإنسان المؤمن مستسلم، هو عليه أن يطيع الله عزّ وجل، لكن أي شيءٍ يأتيه فهو رحمة، لأن الله عزّ وجل رحمن رحيم..

(تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

خاتمة:

إذا قرأت القرآن فهو من عند الرحمن الرحيم، فبعض الأشخاص يتوهّمون أن الدين قيود، لا يا أخي، الدين حدود وليس قيودا، حدودٌ لسلامتك، فيمكن لإنسان أن يرى في حقلٍ لوحة مكتوبًا عليها: احذر حقل ألغام، فهل من الممكن لإنسان أن يعدّ هذه اللوحة تقييداً لحريّته ؟ لكنّه يشكر من أعماق قلبه من وضعها في هذا المكان لأنها ضمانٌ لسلامته، وحين يضعون على التوتر الكهربائي العالي خطر الموت، ويرسمون جمجمة وعظمتين، فهل هذا قيد لحريّتك أم هو ضمانٌ لسلامتك ؟ هكذا حينما تفهم الدين أنه أوامر ونواه تضمن لك سعادتك في الدنيا والآخرة، فهذا الفهم هو الصحيح، أما إذا فهمت الدين أنه ثقيل، وأنه كلّه قيود، فيا أخي الإنسان يتقيّد بالدين، ولا يرتاح من دون، فله بالدين حرية حركة، فماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 5)

كلمة على تفيد الاستعلاء، أي وأنت مقيّد بكل أوامر الدين فالدين يرفعك إلى أعلى عليين، والكفّار قال:

(فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(3))

(سورة إبراهيم)

في تفيد الدخول شيئا بشيء، وأنت فيما يبدو لك وللناس حر الحركة، في النهاية مقيّدٌ بالذنوب والآثام التي ارتكبتها..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

هم طُلَقَاء، فالذي يبدو لك أنه قيد هو سبب حريّتك، والذي يبدو لك أنه يعطيك الحريّة هو سبب القيود التي تفرَض عليك، وهذه من عظمة الدين، فكلمة الرحمن الرحيم تعني أن الله خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا، و يهدينا، فإذا صار فيه تلكُؤ فتأتي الشدائد.

مرّة قال لي أخ كريم: هذه الدروس ما مضمونها ؟ فقلت له: كلمتان، إما أن تأتيه ركضًا أو أن يأتي بك ركضًا، اختر واحدة منهم ؟ إما أن تأتيه مسرعاً مشتاقاً، أو أن الله سبحانه وتعالى يعرف كيف يحملك على أن تأتي إليه، وعلى أن تسرع إليه، فالبطولة أن تأتيه من تلقاء ذاتك، وأنت صحيحٌ شحيح، وأنت في أوج حياتك ونجاحك، وغناك وصحّتك وقوّتك أن تأتي إلى بيوت الله، وأن تفهم كلام الله، وأن تفهم سُنّة رسول الله، وأن تلتزم بالأمر والنهي حتى يرحمك الله، وحتى يتحقّق فيك اسم الله عزّ وجل الرحمن الرحيم، وتشعر برحمة الله، هذه الرحمة قريبة من المحسنين.

إن شاء الله في درس قادم نتابع معنى قوله تعالى:

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (02-11): تفسير الآيات 3-8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-11-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة فصِّلت، ومع الآية الثالثة:

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2))

تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرت في الدرس الماضي أن هذا القرآن الكريم يحقِّق للبشريَّة سعادة الدارين في الدنيا والآخرة، بل يحقِّق ذلك للمخلوقات جميعاً، لأن المؤمن حينما يؤمَر أن يحسن لكل المخلوقات، كانت رحمة المخلوقات بشكلٍ غير مباشر قد وصلت إلى كل الخلائق، وقد قال أحد العلماء: **" الشريعة رحمة كلُّها، عدلُ كلها، مصالح كلها "**، فالأصل في الشريعة أنها لرحمة العالمين، فربنا عزَّ وجل بيَّن أن هذا القرآن الكريم نزل من الرحمن الرحيم، إذاً: هو عطاء، وخير عطاءٍ أن يكون لك منهجٌ تسير عليه، وهذا المنهج يُفْضي بك إلى الجنة، وإلى سعادةٍ أبديَّة، فالعطاء الحقيقي هو كل شيءٍ يوصلك إلى الله، وإلى الدار الآخرة، وإلى سعادةٍ أبديَّة هذا هو العطاء، أما الدنيا فليست عطاءً، لأن كل ما فيها ينتهي عند الموت، فالكريم لا يعطي عطاءً محدوداً، والدنيا عطاؤها محدود، وما دام الموت يُنهي كل شيء إذًا هي ليست بعطاء.

إذاً: هذا القرآن بأمره ونهيه، وبوعده ووعيده، وبقصصه، وأحكامه، وأوامره هو رحمةٌ للعالمين، لا للمؤمنين فحسب، بل للبشر قاطبةً، بل للمخلوقات قاطبةً، وإما أنّ هذه الرحمة أن ينالُها المؤمن المتبِّع لهذا القرآن بشكلٍ مباشر، أو ينالها غير المؤمن، أو المخلوق غير الآدمي بشكلٍ غير مباشر، وعلى كلٍ فهذا القرآن الكريم هو عطاءٌ من الله عزَّ وجل.

ورد في القرآن الشفاء في آيتين، العسل شفاءٌ للأبدان، والقرآن الكريم شفاءٌ للأرواح..

(وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا)

(الإسراء)

فأنت متى تُرحَم ؟ إذا اتبعت منهج الله عزَّ وجل، وهذا منهج الله عزَّ وجل لن تضل بعده أبداً، لأنه تعليمات الصانع، أمرٌ ونهيٌ من قِبَل الخبير خالق الأكوان.

(كِتَابٌ)

هذا القرآن الكريم الذي هو تنزيلٌ من الرحمن الرحيم هو:

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)

1 ـ معنى: كِتَابٌ فُصِّلَتْ:

قال: فصِّلت، أي مع الأغراض والمقاصد التي يسعى إليها الإنسان، وفصلت مع الطبائع والعقول التي يحملها الإنسان، ومع البيئات والظروف التي يعيشها الإنسان، ومع حاجات الإنسان، ومع أحواله.

الله عزَّ وجل صوَّر لنا في كتابه الكريم نبياً كريماً لم يكن ابنه على شاكلته، سيدنا نوح.

فصَّل في هذا الكتاب نبياً كريماً زوجته ليست على شاكلته.

فصل في هذا الكتاب الكريم نبياً كريماً أبوه ليس على شاكلته.

فأنت في كل الأحوال نموذجك ورد في القرآن الكريم، فقد يكون الأب بعيدًا عن الله، أو يكون الابن، أو الزوجة كذلك، وهناك أنبياء كانوا فقراء رعاة الغنم، وهناك أنبياء كانوا ملوكاً وحُكَّاماً، ولا يمنعهم أن يكونوا في أعلى مراتب القرب من الله عزَّ وجل، فمعنى:

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)

أي حاجات الإنسان مفصَّلة، وأنت تحتاج إلى تطمين، وإلى تبشير، وتحذير، وإنذار، ورسم المستقبل مثل مشاهد منتزعة من يوم القيامة، وتحتاج إلى أن تنظر إلى الماضي نظرةً فاحصة ؛ فيه أخبار تاريخيَّة في خير من كان قبلنا، ومن سيأتي بعدنا، وإشارات إلى آخر الزمان ومنهج، فيه أمر ونهي.

معنى كتابٌ فصِّلت أي أنه وفق المبادئ والأهداف، ووفق العقول والطِباع، والبيئات والأحوال، وحاجات النفس المتعدِّدة من تحذيرٍ، إلى تبشيرٍ، ووعدٍ، ووعيدٍ، وأمرٍ، ونهيٍ، و تطمينٍ، وتخويفٍ، وإخبارٍ، وتَنَبُّؤٍ، وبيان هدفٍ أخير، وكل هذه الأحوال التي يحتاجها الإنسان مفصَّلةٌ في كتاب الله، لأنه من عند الخبير، وقد قال الله تعالى:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)

2 ـ في قصص القرآن المفصَّل عبرة لكل معتبر:

شيءٌ آخر، إن كنت فقيراً فهناك من قمم البشر من كانوا فقراء، وإن كنت غنياً فلا يمنعك غناك من أن تكون في قمة المؤمنين، هناك أنبياء كانوا أغنياء، وإن كنت تعاني من مشكلةٍ في أسرتك فهناك نبيٌ كريم عانى من هذه المشكلة.. وإليكم:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10)وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11))

(سورة التحريم)

فأيّ مشكلة تعاني منها يجب أن لا تكون عائقاً بينك وبين الله ؛ لا وضع مادي معيَّن، ولا وضع أسري معيَّن، ولا وضع معاشي معيَّن، ولا وضع اجتماعي معيَّن، فهناك من الرجال الصالحين من كانوا في أحوال متعدِّدة.

إذاً:

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)

وأنت نفس تحتاج إلى تطمين ففيه تطمين..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: من الآية 61)

وتحتاج إلى تحذير، ففيه مشاهد مخيفة منتزعة من يوم القيامة، تحتاج إلى وعد، ووعيد، وأمر، ونهي، وتفصيل، وقصَّة، وخبر، وتاريخ، ومستقبل.

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً)

قُرْآناً عَرَبِيّاً

1 ـ اللغة العربية أفضل اللغات:

أولاً: لغة هذا القرآن عربيَّة، ففيه إشارة إلى أن هذه اللغة اختارها الله جلَّ جلاله لتكون قالبَاً لكلامه، لابدّ من أن هذه اللغة على مستوىً رفيع، لكن إذا تجاوزتها لُغات أخرى فلأن الأقوام الأخرى اعتنوا بها أشدَّ العناية، لا يعني هذا أن لغتنا ليست في المستوى العالي، هي في اعتراف أكبر علماء اللغة من أرقى اللُّغات العالميَّة، واللغة العربيَّة لا يعرف قدرها إلا من درسها، ومن عرف أسرارها، وخصائصها، وأساليبها بالتعبير، لغة غنيَّة، وتغتني دائماً، لأنها لغة الاشتقاق الأولى، لغة التصريف الأولى، فمن أي فعل ثلاثي يمكن أن تأخذ فعلا ماضيا، ومضارعا، وأمرا، و مجرَّدا، ومزيدا، وعندنا زيادات كثيرة جداً، وكل زيادة لها معنى، بالتشديد مثلاً، وبالتضعيف، وبألف واحدة، كاتب، وبألف

وتاء، تكاتب، بألف وتاء وسين، فهناك أوزان من الأفعال كثيرة جداً، وكل وزن يعطي معنى دقيقاً.

ولأضرب لكم مثلاً: فربنا عزَّ وجل قال:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

(سورة العصر)

فأنت ماذا تفهم من كلمة: تواصوا بالحق ؟ تواصوا، لعلَّك تفهم أنهم يوصون بعضهم، التواصي لا يعني إسداء النصيحة فقط، التواصي فعل وزنه من باب تفاعل أو فاعل، فاعل يفيد المُشاركة، أي أن المؤمن أسدى النصيحة، والطرف الثاني قبلها، تعني هذه الكلمة أن الذي يقبل النصيحة ليس أقلَّ فضلاً من الذي يُسْديها، إذاً: هذه تعلّمنا أنك إذا أصغيت إلى الناصح فأنت ممن تواصوا بالحق، وإذا أصغيت له، وسمعت كلامه، وقبلته، واستجبت له فلك فضلٌ كبير، وهناك فضلٌ لمن أسداها، وفضلٌ لمن قبلها، وفضلٌ لمن أصغى إليها، ثمَّ قَبِلها.

إذاً: لو ذهبنا لندقّق في أوزان الأفعال، في بناء الأسماء لوجدنا العجب العُجاب، وهذا بحثه يطول، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً)

ويبدو أن العربيَّة واسعة البيان، دقيقة التعبير، لغةٌ تعدُّ من أرقى اللغات المتطرِّفة، ولذلك كانت هذه اللغة قالباً لكلام الله عزَّ وجل.

وإشارة أخرى، مرَّة قلت لكم: في اللغة العربيَّة الفعل الواحد يعني معاني كثيرة جداً، بل إن كل فعلٍ يشير إلى حالةٍ دقيقةٍ دقيقة من أفعال النظر مثلاً، ومرَّة ذكرت لكم في قصة سيدنا يوسف ـ قديماً ـ أنه نظر، وهناك حدَّج، حدَّج بمعنى نظر مع المحبَّة، قال:

" حدِّث القوم ما حدَّجوك بأبصارهم ".

وهناك نظر شزراً أي مع الاحتقار، وشَخَصَ مع الخوف واستشرف مع التَمَطّي، واستشفَّ مع اللمس، ولاحَ شيء أي ظهر واختفى، ولَمَحَ أي نظر وأعرض، ورَنَا مع السرور، خمسون أو ستون فعلا تشير هذه الأفعال إلى فعل نظر، وإلى معنى النظر، لكن كل فعل معه حالة خاصَّة من حالات النظر.

الحديث عن خصائص اللغة العربيَّة عن اشتقاقها الصغير والكبير، ففعل عَلِمَ هذا الفعل الثلاثي له ست تقاليب ؛ علم، ولمع، وملع، رتَّب الحروف، وغيّر الترتيب، ستة تقاليب يمكن أن يكون هناك معنى واحد مشترك لكل التقاليب التي يحتملها فعل عَلِمَ، هذا اشتقاق كبير، ومن كل فعل اسم فاعل، اسم مفعول، اسم مكان، واسم زمان، واسم تفضيل، وصفة مشبَّهة باسم الفاعل، واسم آلة من فعل واحد، وقلت لكم: إنّ أعلى لغة من حيث التصريف هي اللغة العربيَّة.

2 ـ القرآن عربي يُفْهم وفق قواعد اللغة العربيَّة:

والإشارة الثانية في هذه الآية إلى أن هذا القرآن عربي، إذاً: لا ينبغي أن يُفْهم إلا وفق قواعد اللغة العربيَّة، فإذا أطحت بهذه القواعد، وأهملتها جانباً، ألقيتها وراء ظهرك فلست مؤهَّلاً أن تفهم كلام الله، طبعاً أنا لا أقوال: إنّ فهم قواعد اللغة العربيَّة وحده يكفي في فهم كلام الله، لكن فهم قواعد العربيَّة شرطٌ لازمٌ غير كافٍ.

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

القرآن يحتاج إلى إدراك عميق:

قال: لقومٍ يعقلون وينظرون، فهذا الكتاب يحتاج إلى عقل يستوعبه، يحتاج إلى نظر ينظر فيه، أما هؤلاء الذين يعطّلون عقولهم، يلهثون وراء شهواتهم فهؤلاء ليسوا مؤهَّلين لفهم كلام الله عزَّ وجل..

(لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

فهذا الدين، وهذا القرآن بالذات يحتاج إلى إدراك عميق، يحتاج إلى قدرات عالية، وإلى قدرة على الفهم، وسرعة الفَهم، والنظر في الأشياء، هذا معنى قوله تعالى:

(لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

فإنسان يعطّل عقله، ويتبع شهوته، يكون مقلّدًا في حياته، والمقلّد والمعطّل لعقله هذا ليس مؤهَّلاً لفهم كلام الله عزَّ وجل، فهذا الإنسان حينما يعطل عقله يشقى، وحينما يعطل عقله لا يفهم كلام الله عزَّ وجل، فإن لم تأنس من إنسانٍ قوةً إدراكيَّةً، وفهماً، وحصافةً، ودقَّةً في الفهم فلا تتعب نفسك معه، إن هذا القرآن..

(لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

أيّ لإنسان استخدم عقله، لإنسان استخدم إمكاناته الهائلة التي أودعها الله فيه، هذا القرآن مهيَّأ لإنسان يبحث عن الحقيقة، يبحث عن سعادته الحقيقيَّة، يبحث عن منهج الله في الأرض..

(لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

إذاً: هذه الآية رغم إيجازها تنطوي على..

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

حينما قال الله عزَّ وجل:

(قُرْآناً عَرَبِيّاً)

مدح هذه اللغة إذ جعلها قالباً لكلامه، وحينما قال:

(قُرْآناً عَرَبِيّاً)

جعل فهم قواعد هذه اللغة سبيلاً أولياً لفهم كلامه، قال:

(بَشِيراً وَنَذِيراً)

بَشِيراً وَنَذِيراً

الحقيقة عندما يقرأ الإنسان القرآن، وكان مستقيمًا على أمر الله، وملتزماً يشعر أن الآيات التي تبشِّر موجَّهةٌ إليه، والإنسان أحياناً يغتني بهذه البُشرى، فإذا وُعِد الإنسان من شخص ذي أهميَّة يطمئن، وإذا وعدك إنسان قوي وعدًا ترتاح، ولو تأخَّر تنفيذ الوعد، فكيف إذا وعدك خالق الكون ؟ قال:

(بَشِيراً)

القرآن بشير للمؤمنين نذير للعاصين:

فالمؤمن لماذا هو سعيد ؟ قد تكون حياته فيها منغِّصات.

مرَّة ضربت مثلا طريفا: أن إنسانًا فقيرًا جداً، وعنده أولاد كثر، وعنده مشكلات لا حصر لها، لكن له قريب هو وريثه الوحيد يملك مئات الملايين، ومات فجأةً بحادث، فكل هذه الملايين آيلةٌ إلى هذا الفقير، لكن إلى أن تصل إليه لابدَّ من معاملات، وإجراءات، وبراءات ذمَّة، ونظام معيَّن، فلماذا كان هذا الفقير في أشد حالات السعادة، مع أنه في هذه الفترة لم يأكل لقمةً غير خشنة ؟ إذاً هذا الإنسان مع أنه لم يقبض أي مبلغٍ من المال لكنه دخل في أملٍ محقَّق.

ولذلك أحد أسباب سعادة المؤمن أن خالقه العظيم وعده بجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، فلِمَ لا يطمئن ؟ وأحد أسباب سعادته أن الله بشَّره بالجنَّة، وعده بها، ولذلك فهذا الوعد، وهذه البشارة تمتص كل مشكلةٍ في حياته اليوميَّة، أما أهل الدنيا الذين لا يطمحون إلى الجنَّة، ولا يرجون الله عزَّ وجل فمهما كانت حياتهم ناعمةً فهم في شقاء، لأن أي شيءٍ إذا نقص من حياتهم يقلِب حياتهم إلى جحيم، أما المؤمن فلو اصطلحت عليه الهموم كلها فهو سعيدٌ بوعد الله له، سعيدٌ بما بشَّره به.

إذاً:

(بَشِيراً وَنَذِيراً)

وأيضاً الإنسان المقيم على معصية لو قرأ الآيات، وقرأ من هذه الآيات آيةً تحذِّره من مغبَّة عمله، فهذه رحمة الله عزَّ وجل يبشِّر المؤمن ويحذِّر العاصي، قال:

(بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ

1 ـ الأمراض التي يعاني منها الإنسان هي أعراض الإعراض:

الحقيقة أنّ كل الأمراض التي يعاني منها الإنسان هي أعراض الإعراض، لأن الله تعالى يقول:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

إذاً: الإعراض عن ذكر الله عزَّ وجل هو مصيبة المصائب، وهو أساس البلايا، وهو أساس الشقاء البشري، قال عن هؤلاء..

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

2 ـ السماع له قانون:

الحقيقة أن السماع له قانون، والإنسان لا يكفي أن تكون له أذنان سليمتان من عيوب السمع، فالسماع متعلّق بالاهتمام، والشيء الذي تبحث عنه تسمعه بدقَّةٍ بالغة، وتسمع أخباره كلَّها، والشيء الذي لا يعنيك ولو وُضع في أذنك أكبر مكبِّر للصوت فإنك لا تسمع شيئاً، والإنسان يجرِّب أحياناً، الأذنان زوَّدهما الله عزَّ وجل بقدرةٍ على الاصطفاء، اجلس مع صديقٍ لك في الغرفة، وضع على النافذة آلة تسجيل، لتسجِّل الأصوات الآتية من الخارج، تحدَّث معه طويلاً، ثم استمع إلى ما سجَّله الشريط، تفاجأ أن كل هذه الأصوات التي سجَّلتها الآلة لم تسمعها أنت في أثناء اندماجك في الحديث مع صديقك، فمعنى ذلك أن الأذن تصطفي، وهذا مثل مادي.

وعلى نطاقٍ أوسع: إن الإنسان يُرهف السمع إلى ما يعنيه، يرهف السمع إلى ما يحتاجه، ويبحث عنه، وما هو صادقٌ في طلبه، إذاً: عدم السماع يأتي من عدم الاهتمام، ومن عدم الصدق مع الله عزَّ وجل، عدم السماع يأتي من البعد عن الله عزَّ وجل، لذلك:

(بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ)

وهناك آية قرآنيَّة توضِّح هذا المعنى الدقيق، قال تعالى في سورة البقرة:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 7)

الخَتمُ الحُكمي على القلب:

العلماء قالوا: هذا ختم حُكْمِي، وما معنى ختم حكمي ؟ لو أن لهذا المسجد بابين، هذا الباب باب الحرم وبابٌ خارجي، فلو أقفلنا الباب الخارجي فهذا الباب الداخلي في حكم المُغْلَق، مادام الباب الخارجي مَنَع أيّ إنسان من دخول المسجد فهذا الباب لا معنى له ولو كان مفتوحا، فربنا عزَّ وجل يقول:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

فمنفذ القلب هو السمع والبصر، فإذا كان حب الدنيا يُغَشِّي السمع والبصر فالقلب قد خُتِمَ عليه حكماً، وحب الدنيا يُغَشِّي السمع والبصر، إذاً كأن القلب قد خُتم عليه ختماً حكمياً، كما يقول علماء المنطق: هذا تحصيل حاصل.

الخَتمُ على القلب ينتِج الفكر التبريري:

فهنا الإنسان إذا أحب الدنيا، وتعلَّق بها، وانغمس في ملذَّاتها، وخرق منهج الله عزَّ وجل كأن على سمعه وعلى بصره غِشاوة، وهذه الغشاوة التي على سمعه وعلى بصره تحول بينه وبين أن يعقل شيئاً، فلذلك إذا أراد الإنسان أن يعرف الله عزَّ وجل فلابدَّ من أن يتجرَّد من حب الدنيا، إنه إنْ أحبَّها، وأقام على بعض المعاصي فعندئذٍ يفكِّر بطريقةٍ غريبة، إذْ يفكِّر بطريقة المنطق التبريري، فالشيء المقيم عليه يدافع عنه، ويكابر كل بيانٍ لِدَحضِه.

إذاً: حينما تناقش إذا كنت متلبِّساً بمعاص فأنت تدافع عن نفسك، وتبحث عن حجَّةٍ ترضى بها، وأي حجةٍ تنقض مسعاك ترفضها، فهذا هو المنطق التبريري غير المقبول في البحث عن الحقيقة، أما إذا تجرَّدت من مصالحك الشخصيَّة ومن المعاصي المقيم عليها، ونظرت إلى الأمر نظرةً تجريديَّة فإنك ستعرف الحقيقة.

إذاً: إعراض الناس عن الحق هو تملُّقٌ لمصالحهم، ولشهواتهم، دفاعٌ عن مصالحهم الدنيويَّة، فلو أنّ إنسانا مقيما على أكل المال الحرام، كلَّما جئت له بآيةٍ أو حديثٍ يُذكِّره بعمله المنحرف يثور، ويغضب، ويقول: لهذه الآية معنى آخر، وليس هذا هو المعنى، فهو يدافع عن نفسه، ويحاول أن يبرِّر خطأه، إذاً: إما أن تبحث عن الحقيقة بحثاً مجرَّداً خالصاً من كل مصلحةٍ أو شهوة، وإما أن تستخدم هذا العقل العظيم الذي أودعه الله فيك استخداماً غير صحيح.

العقل أداة عظيمة لابد من استعمالها في الخير:

مرَّة ذكرت لكم أن آلة غالية جداً، إذا استخدمها الإنسان وفق ما صُنعت له قد يرقى بها إلى أعلى عليين، أما إذا استخدمها بخلاف ما صُنعت له فقد تودي به إلى السجن، والآلة هي هي، وكذلك العقل، أعظم منحةٍ منحك الله إيَّاها هو هذا العقل، إذا استخدمه وفق الهدف الجليل العظيم، الذي أعدَّك الله له، فهذا العقل يوصلك إلى الله، وإلى سعادةٍ أبديَّة ؛ أما إذا استخدمته لغير ما صنع له فقد وقعت في الجدل، ووقعت في التيه، وجعلت من العقل أداةً للهلاك، وهذا على قول الله عزَّ وجل:

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

يقول أحد العلماء: لم أجد أشدَّ صمماً من الذي لا يريد أن يسمع، فإذا كان الإنسان بعيدًا كما حدَّثني أخ كريم كان له حالة قبل أن يتعرَّف إلى الله عزَّ وجل، حضر مجلس علم، وكان منغمساً في انحرافاته، قال لي: والله لم أفهم شيئاً، ولا علاقة لي بهذا الدرس، وأنا في واد والدرس في واد، عبَّر تعبيراً صادقاً عن أن الإنسان إذا كان منغمساً في شهواته، غارقاً في حظوظه، ملتفتاً إلى مصالحه فهو في واد، والحق في واد آخر، فإذا ليس عنده تجرُّد، وترفُّع عن شهوات الدنيا، وعن مصالحها فالرؤية غير صحيحة، والأذن لا تسمع.

إذاً القرآن بشيرٌ ونذير، قال تعالى:

(بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

معنى: لَا يَسْمَعُونَ

ومعنى لا يسمعون إما أنهم رفضوا أن يسمعوا، أو أنهم حينما سمعوا لم يفقهوا ما سمعوا، أو أنهم فقهوا ما سمعوا، لكنَّهم آثروا دنياهم على آخرتهم، إما أنهم منعوا أنفسهم من السماع، فقد يقول لك الشخص: لست مستعداً أن أجلس معك أبداً، يرفض، أنا أقول: الإنسان عندما يرفض الحق كمن جاءته رسالة فمزَّقها قبل أن يقرأها، أليس هذا عملٌ غبي ؟ اقرأها ثمَّ ارفضها، لكن المسكينَ مزَّقها قبل أن يقرأها.

وبعض الناس ينتقد الإسلام، أو الدين الفلاني، فأنا أقول لهذا المنتقد: هل قرأت الدين ؟ هل استوعبته ؟ وهل قرأت القرآن ؟ وهل قرأت السُنَّة ؟ وهل أردت أن تستوعب قبل أن تنتقد ؟ النقد قبل الاستيعاب موقف غير علمي، وغير منطقي، كأن تهاجم شيئا دون أن تستوعبه، فعدم السماع يرفض أن يسمع، أو إذا سمع هو في وادٍ والحديث في وادٍ آخر.

تصوَّروا آلة تصوير من أعلى مستوى، لكن ليس في داخلها فيلم، فلو التقط صاحبها مناظر جميلة جداً، وجهد في تطبيق ضبط السرعة والمسافة، ولا يوجد فيلم، فكل إنسان يسمع الحق وليس طالباً له كهذه الآلة التي لا تنفع ولا تجدي..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ)

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ

أي قلوبنا مغطَّاة بأغشية وسُتُر كثيرة جداً، تدعونا أنت ولكن قلوبنا بعيدة عن دعوتك، في أكِنَّة مغطَّاة، الكنَّة أي الغطاء..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ)

فالكفَّار يعبِّرون عن بعدهم الشديد، والإنسان كلَّما كان بعيداً ساء فهمه، وكلَّما كان قريباً حَسُنَ فهمه، وربنا عزَّ وجل أشار إلى هذا المعنى، فقال:

(أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ(44))

(سورة فصلت)

أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

والمؤمن يُنادى من مكانٍ قريب، هو قريب ينادى من مكانٍ قريب فيعي، والكافر ينادى من مكانٍ بعيد، فما الذي يبعده عن الله عزَّ وجل ؟ المعاصي، فالمعاصي تُبعد، والطاعات تقرِّب، والمعاصي تقطع، والطاعات تَصِل، والمعاصي تُقَسِّي القلب، والطاعات تليِّن القلب، والمعاصي تجمِّد الفكر، ولا يعي على خير، والطاعات تفجِّر طاقات الإنسان، إنها ترفع صاحبها إلى الأوج، والمعصية تحبط عمله، وتقيِّد حركته، وتجمِّد فكره، وتشقيه ولا تسعده.

لا أحدَ يسعد بالمعصية أبدا:

وبعد ذلك أيها الإخوة، كل إنسان يتوهَّم أنه ممكن أن يسعد بمعصية فهو أغبى الأغبياء، وكل إنسان يتوهَّم أنه ممكن أن يُضَر بطاعةٍ من طاعات الله عزَّ وجل فهو لا يعرف الله أبداً، لأنك إذا أطعته انقلبت كل الموازين لصالحك، وتجلَّى على قلبك، وأسعدك سعادةً ما بعدها سعادة، فكل الدين من أجل أن تطيعه، وأن تسير على منهجه، ويكفينا قول الله عزَّ وجل:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

فخالق الكون، الذات الكاملة يقول لك: إذا أطعتني فزت فوزاً عظيماً، وطاعة الله عزَّ وجل في متناول كل واحدٍ منَّا، لماذا ؟ لأن الله عزَّ وجل لا يكلِّف نفساً إلا وسعها، تقول: لا أقدر، هذا كلام فيه جهل،

والله عزَّ وجل ما كان له أن يكلِّفنا ما لا نطيق ؛ لا في أمورنا المعاشيَّة، ولا في كسب الرزق، ولا العلاقات العامَّة، والاجتماعيَّة، ولا الأمور الشخصيَّة، كل شيء أودعه الله فينا من غرائز وشهوات، رسم لنا قنوات نظيفة لتحريك هذه الشهوات، ليس في الإسلام حرمانٌ إطلاقاً، الإسلام كله عطاء، وكله توازن، والإسلام واقعي، ويتماشى مع الفطرة.

إذاً: المعصية تُبعد، وتُشقي، وتجعل بينك وبين الحق أمداً طويلاً..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ)

فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ

فأنت تحرَّك كما يحلو لك، وافعل ما تريد، ونحن مقيمون على ما نحن عليه، ولن ندَع ما نحن عليه من أجلك، هذا لسان حال كل كافر، فأحياناً الناس يتكلَّمون كلمات مشابهة: يا أخي ادخل إلى الجنَّة واغلق الباب وراءك، هذه كلمة مشابهة، الله عزَّ وجل ينقل لنا أقوال هؤلاء لئلا نتألَّم لو سمعنا أمثال هذه الأقوال..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

النبي بشرٌ تجري عليه خصائص البشر:

أروع ما في هذه الآية أن النبي عليه الصلاة والسلام بشر، فقد كان يغضب كما يغضب البشر، ولو لا أنه تنطبق عليه كل خصائص البشر، وانتصر على نفسه لما كان سيِّد البشر..

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ)

(سورة التوبة: من الآية 128)

أي من بني جلدتكم، ومن طبيعتكم، فيه كل خصائصكم، وفيه كل نزواتكم وشهواتكم، لكنَّه انتصر على نفسه، وآثر ما يرضي الله عزَّ وجل، فأنت تغض بصرك عن محارم الله، وهو يغض بصره أيضاً، الشهوة التي أودعها الله فيك أودعها فيه، لكنه سما عليها، وجعل هذه الشهوة في حب الله عزَّ وجل، أي أنه ـ اللهمَّ صلّ عليه ـ بشرٌ، هو سيد البشر، لكن لو لا أنه بشر، وأن كل خصائص البشر تجري عليه لما كان سيِّد البشر..

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)

كذلك في هذا الكلام افتقار إلى الله عزَّ وجل، أي أنا واحدٌ منكم، وأنا مخلوقٌ وضعيفٌ مثلكم، والله أكرمني، وعلَّمني، ورفعني..

هذا ما يخالف فيه الرسولُ سائرَ البشر: يُوحَى إِلَيَّ

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

فأنا أمتاز عليكم بالوحي، والوحي شيء عظيم جداً، وإن السماء تختص أحد بني آدم ليكون رسولاً..

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

هنا جاء تلخيص القرآن كلّه في هذه الكلمات:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ

كلُّ مشكلةٍ على وجه الأرض سببُها الشركُ:

فما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا أساسها الشِرك، فإذا وحَّدت الله عزَّ وجل ؛ وحَّدته في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، واتجهت إليه بإخلاص انتهى كل شيء، فالإنسان متى يعصي الله ؟ عندما يرى مع الله إلهاً آخر، حينما يرى قوَّةً تؤثِّر في حياته تأثيراً إيجابياً أو سلبياً عندئذٍ يعصيه، أما إذا أيقن أن أمره كله بيد الله، وأن الأمر راجعٌ إليه وحده، وأن كل البشر لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيءٍ لن يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، إذا أيقنت هذا اليقين انتهى كل شيء، فلذلك فحوى دعوة الأنبياء جميعاً، وهي دعوة التوحيد..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

لذلك إذا سمعت التوحيد يتكرَّر لأن القرآن الكريم كلَّه بُنِيَ على التوحيد، والحقيقة أن الإنسان أحياناً لا تكفيه الكلمة مرَّة واحدة، فالقرآن الكريم فيه تركيز على التوحيد في أكثر الآيات، وأكثر السور، ويجب على المفسِّر أو الذي ينقل ما في التفاسير أن يبيِّن معنى التوحيد بشكل مستمر، لأن الإنسان لا يستقيم عمله، ولا يستقيم على أمر ربه، ولا يسعد إلا بالتوحيد، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، ونهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى..

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ)

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ

1 ـ الموقف العملي بعد التوحيد هو الاستقامة:

فالموقف العملي الاستقامة، ماذا يجدي أن تقول لا إله إلا الله وأنت مقيم على المعاصي ؟ فقيمة العلم التطبيق، والجدوى الحقيقيَّة من العلم التطبيق، لذلك جاءت الآية الكريمة:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ)

والفاء تفيد الترتيب والتعقيب، أي ما إن تتحقَّق أن الله واحدٌ لا شريك له، وأن الأمر كلَّه بيده إلا فينبغي لك أن تبادر إلى طاعته، لكن هذه الاستقامة أتبعها الله عزَّ وجل بقوله:

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

2 ـ الاستقامة من أجل الله تعالى:

ما قال: فاستقيموا على أمره، بل إليه، فاجعل استقامتك من أجله، لا من أجل سمعةٍ في الدنيا تنتزعها من أفواه الناس، ولا من أجل مصالح تحقّقها باستقامتك، هناك أهداف كثيرة تتحقّق إذا استقمت، الناس يمدحونك كثيراً، تشعر بنشوة، أحياناً تتيسَّر المصالح، لأن المستقيم أمين، والناس يثقون فيه، فهناك أشخاص كثيرون يجعلون من الاستقامة سبباً لسعادتهم في الدنيا، وهم لا يعبدون الله، لكنهم يحرصون على مواقف راقية في حياتهم من أجل مكانةٍ عليَّةٍ في مجتمعهم، ربنا عزَّ وجل قال:

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

أي اجعل مؤدَّى هذه الاستقامة خالصةً له، اجعل استقامتك طاعةً له، اجعل استقامتك وتحقيقاً لعبوديتك له، واستقامتك من أجله..

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

اجعل استقامتك تُفضي إليه، وتصلك به، واجعل من استقامتك سبيلاً إلى لقائه، وإلى مرضاته، ولا تجعل استقامتك من أجل دنياك..

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

الآن:

(وَاسْتَغْفِرُوهُ)

3 - لابد من الاستغفار لما مضى من الذنوب:

مما مضى، أنت بين وقتين وقت فيه معصية، والآن عرفت الله، إذاً: استقم إليه واستغفره مما مضى..

(وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ)

إلهٌ عظيم يقول:

(وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ)

وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ

إذا كان الإنسان راكبا مركبة، وماشيا بطريق منحدر انحدارا شديدا، ومنطلقا بأقصى سرعة، وهناك منعطف حاد، والمكبح معطَّل، وهو يضحك، فالذي يعرف الحقيقة يقول: ويلٌ له، الله يعينه، فبعد دقائق ماذا سيحدث له ؟ هو لا يعلم، هو يضحك، وهو غافل ساهٍ لاهٍ، لكن مادام الانحدار شديدًا، والسرعة كبيرة، والمنعطف حادًا، وليس معه مكابح، هو يضحك الآن، لكن لا يدري بعد هذا الضحك ماذا ينتظره من عذابٍ أليم ؟

فربنا عزَّ وجل يقول لِمَن آمن أنه لا إله إلا الله..

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

فماذا تنتظرون ؟ يجب أن لا يكون هناك وقت إطلاقاً بين استقرار هذه الحقيقة في أنفسكم وانطلاقكم إلى طاعته..

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ)

مما مضى، فكل مؤمن حينما يتصل، وحينما تستقر حقيقة التوحيد في نفسه، فيجب أن ينطلق فوراً إلى طاعة الله، لأن الأمر كلَّه بيد الله، وكل السعادة في طاعته، وكل السلامة والقُرب والتجلي في طاعته، قال:

(وَاسْتَغْفِرُوهُ)

أما هؤلاء المشركون..

(وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

1 ـ معنى الزكاة في هذه الآية:

هذه الآية مكيَّة، والزكاة لم تُشَرَّع بعد، إذاً العلماء قالوا: معنى الزكاة هنا في الأعم الأرجح هي زكاة النفس، أي الإنسان الذي لا يزكي نفسه بالإقبال على الله، والاتصال به، لا يزكي نفسه بطاعة الله، ولا يزكي نفسه باتباع منهج الله فويلٌ له..

(وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7))

2 ـ المشرك لا يؤمن بالآخرة:

فالكافر كل آماله وكل همومه متعلقة في الدنيا، أما الآخرة فلا يلقي لها بالاً، وليست داخلةً في حساباته أبداً، وتلاحظ أحدهم من حركته، ومن كسب ماله، ومن إنفاق ماله، ومن داخل بيته، فكأنه لا موت، ولا يدخل الآخرة في حسابه إطلاقاً ؛ بعلاقاته الاجتماعيَّة وباحتفالاته، وبصلاته، فحركته حركة متحرِّرة من أي قيد، من أي هدف، ومن أي خوف، ولا يخاف، ولا يرجوه، فهذا الإنسان لو قال لك: أنا مؤمن بالآخرة، لا تصدقه، لأن الطريقة الحديثة أن تكتشف اتجاه الإنسان لا من أقواله، إذْ من السذاجة ذلك، فالأقوال لا تقدِّم ولا تؤخِّر، كل إنسان يستطيع أن يتكلَّم بكلام طيِّب، لكن الاتجاه الصحيح هو أن تكشف حقيقة الإنسان من أفعاله.

أنت تشعر أن هذا الإنسان من خلال كسب ماله، ومن خلال خروج بناته في الطريق، ومن علاقته الاجتماعية التي فيها اختلاط، واتصالاته مع أُناس ليسوا على شيء من الحق، وتطلُّعاته، وآماله تشعر أن الآخرة ليست داخلةً في حسابه إطلاقاً.

3 ـ الكفرُ العملي بالآخرة:

هذا هو الكفر، أما أن يقول مسلم في العالم الإسلامي: أنا أعتقد أنه ليس هناك يوم آخر، والله هذه لا يقولها أحد، ولم يقلها أحد، لكن لو تتبَّعت أحوال الناس لوجدت الآخرة ليست في حسابهم، وهذا هو

الكفر الحقيقي العملي، إذْ هناك كفر قولي وكفر عملي، وهذا هو الكفر العملي بالآخرة، فهو لو أنه يصلي، ويبلغ من العمر الخامسة والستين وكل سهراته لعب بالطاولة، فماذا جعل لآخرته ؟ وهو بسن متقدِّمة وغارق في لعب النرد، وفي النظر للنساء، غارق في الحديث عن الدنيا، وفي شهواتها، فهذا لو قال لك: نحن مسلمون، والحمد لله، وهو ما في شيء بالإسلام في حياته اليوميَّة.

إذاً:

(وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(8))

معاني الحروف المقطّعة:

1 ـ معنى ممنون:

فمن معاني ممنون أنه مقطوع، ومن معاني ممنون أنه لا يُمَنُّ به عليه، لذلك إذا أحسن إنسان لإنسان يسمِّع، فيقول لك: لحم فلان من خيري، وإذا أحب أن يكرم، فطبعه أنه يمنّ على من يعطيه، هكذا طبعه، إلا من رحم ربِّي.

2 ـ عطاء الله غير ممنون:

أما ربنا عزَّ وجل فمن لوازم كرمه أن هذا العطاء العظيم الأبدي السرمدي غير ممنون أولاً، وغير مقطوع، بل مستمر، وبعد ذلك فما الذي يقلق الإنسان ؟ انقطاع النعم، فالدنيا كلها قلق، أن كل شيء لا يدوم على حال، وفي الحديث الشريف الدقيق جداً:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ ؟ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

فالحياة ليس فيها سرور، والزمن ليس في صالح الإنسان، وكلَّما تقدَّمت سنه ضعف جسمه، وضعفت قدرته على الاستمتاع بكل شيء، يتراجع إلى أن ينتهي أجله. إذاً: هذا العطاء ممنون أي مقطوع، فالصحَّة تنتهي بالموت، والمال ينتهي بالموت، والوجاهة تنتهي بالموت، والنعيم ينتهي بالموت، لكن الآخرة ليس فيها انقطاعٌ أبداً، بل فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين وهم فيها خالدون..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

ملخَّصُ ما مضى:

وهنا ملخَّص سريع: أولاً: القرآن فُصِّلت آياته، فكل حاجاتك محقَّقة في القرآن الكريم، لأن ربنا خالق الكون. شيء آخر: أسباب الإعراض هو عدم الصدق في طلب الحق والمعصية، فإن لم ترد الحق، وعصيت الله عزَّ وجل فهذه المعصية تُبْعِد، فالمؤمن قريب بطاعته، قريب بصلاته، وإقباله، وباستقامته، والكافر بعيد بمعصيته، وبانقطاعه.

شيءٌ آخر: التوحيد يجب أن ينتهي بنا إلى الاستقامة، اسمعوا كلام النبي اللهمَّ صلّ عليه، قال:

((من قال: لا إله إلا الله بحقّها دخل الجنَّة، قالوا: وما حقُّها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[ورد في الأثر]

كلمة أخيرة: إن لم يحملك علمك الذي تكسبه، وتسعى إليه على طاعة الله فهذا العلم لا يقدِّم ولا يؤخِّر، وربَّما كان حجَّةً عليك، وكان وبالاً، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((كل علم وبال على صاحبه يوم القيامة إلا من عمل به))

[من الجامع الصغير عن واثلة]

لا تنسوا كلمة:

(فَاسْتَقِيمُوا)

الفاء للترتيب والتعقيب، أي ما إن تستقر حقيقة التوحيد في نفوسكم إلا وينبغي أن تبادروا إلى طاعته، وهذه الطاعة لا تجعلوها من أجل الدنيا، ومن أجل مكانتك، أو كي لا يتكلَّم أحد عليك، لا..

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

اجعل طاعتك عبادة: ولا تجعلها سلوكاً ذكياً، لأن هناك سلوكا ذكيًا أساسه الطاعة، فاجعل طاعتك عبادةً لله، ولا تجعلها سلوكاً ذكياً..

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

من الآن:

(وَاسْتَغْفِرُوهُ)

عن ما مضى..

(وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

وجاءت البشرى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (03-11): تفسير الآيات 9-22
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-11-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة فصّلت، ومع الآية التاسعة، وهي قوله تعالى:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12))

أساليب القرآن متنوّعة:

أيها الإخوة، القرآن الكريم كتاب هدايةٌ ورشاد، فأساليبه متنوّعة، فمن حينٍ إلى آخر يتحدَّث القرآن الكريم عن آيات الله في الكون، وآيات الله في الكون بابٌ واسعٌ من أبواب معرفته، وطريقٌ قصيرٌ إليه تعالى، لأن الكون كما تعرفون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى ولصفاته الفُضلى، ومظهرٌ يعبّر تعبيراً دقيقاً عن عظمة الله عزّ وجل.

فإذا أردت أن تعرف الله فسبيل معرفة الله هو اليقين الاستدلالي، لأنك ترى الأشياء بحواسِّك، أما خالق الكون فلا تستطيع أن تتعرَّف عليه إلا بعقلك، وإذا ظهرت عين الشيء فسبيل معرفته الحواس الخمس، فبالعين نرى الضوء والأشياء، وبالأذن تسمع الأصوات، وباللّمس تتحسَّس الأشياء، ولكن إذا غابت عين الشيء وبقيت آثاره فسبيل معرفته هو الاستدلال العقلي، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى بثّ آياته في السماوات والأرض.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ

***

فإذا أردت أن تعرفه فكما قيل: " حسبك الكون معجزة "، فإنه ينطق بوجوده، وينطق بكماله، وبوحدانيَّته، وعلمه، وأسمائه الحسنى، فربنا جلَّ جلاله يقول هنا:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ

1 ـ الكفر بالله أمرٌ عظيمٌ:

أي أيها الناس إنكم بِمَنْ تكفرون ؟ بخالق السماوات والأرض ؟! فالإنسان أحياناً يتكلّم كلمة لا يدري لها بالاً فيقال له: أتدري مع من تتكلّم ؟ لقد أتلفت نفسك، أتدري من تخاطب ؟ أتدري من تنتقد ؟ كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أراد أن يبيّن لنا أن الإنسان حينما يكفر بشيء، أو بإنسان، أو بفكرة فهذه قضيّة سهلة، أما حينما يكفر بالله عزّ وجل يكفر بمن أوجده، وبمن خلقه، وبمن ربّاه، وجعله إنساناً سوياً، ورزقه، وبيده حياته وموته، وإليه المصير، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: أيها الإنسان ماذا تعمل أنت ؟ أتدري بمن تكفر ؟

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ)

2 ـ ما هو الكفر ؟

وما الكفر أيها الإخوة ؟ بحث الكفر واسعٌ جداً، ولكن بشكل مختصر الكفر فيه جانب فكري وجانب نفسي، فالجانب الفكري التكذيب، والجانب النفسي إعراض، تكذيبٌ وإعراض وبالمقابل الإيمان تصديق وإقبال، فالمؤمن مصدِّق مقبل، والكافر مكذِّب معرض، فالجانب الفكري في الإيمان هو التصديق، والجانب النفسي هو الإقبال، والجانب الفكري في الكفر التكذيب ؛ التكذيب بعظمة الله عزّ وجل، وبأسمائه، وبصفاته، وبكتابه، وبرسله، والكفر تكذيبٌ، وإعراضٌ.

إن الكفّار حينما كذّبوا النبي عليه الصلاة والسلام فتكذيب الرسول تكذيبٌ للمرسل، وحينما لم يقبلوا أن هذا الكلام كلامه، تكذيبٌ بالكلام تكذيبٌ بالمتكلِّم.

معنى: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ

المعنى الأول للآية:

والمعنى الأول في هذه الآية: أنْ أيها الناس أنتم حينما تكفرون أتدرون بمن تكفرون ؟ بخالق السماوات والأرض..

(بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)
إلى آخر الآيات.

المعنى الثاني للآية:

المعنى الذي ينبغي لنا أن نضع أيدينا عليه أن الله سبحانه وتعالى يبيّن للكفّار حجم جريمتهم، ما أكبر جريمتهم ! وما أشدّ تكذيبهم ! وأحياناً الإنسان يكذِّب بشيء غير واضح، فيقال: جهل هذا الشيء، أما حينما يكذِّب بوُجود الشمس في رابعة النهار فالناس يستغربون، وقد تكذِّب، أو قد تكفر بشيء وجوده مشكوك فيه فيقال: لقد جهل هذا الشيء، أما إذا أنكر الشمس في رابعة النهار فهذا عمل كبير جداً..

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ)

خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ

والحقيقة أن الخَلق خلقان ؛ خلق إيجاد وخلق إعداد، والله جلّ جلاله خلق الأرض، وهيَّأها لتكون صالحةً للإنسان في يومين، كلمة يوم نفهم منها نحن ـ سكّان الأرض ـ أن الأرض تدور حول نفسها كل أربعٍ وعشرون ساعة فهذه الدورة نسميها يوماً، وهذا اليوم هو يوم الأرض، ولكن كل كوكب من كواكب السماء إذا أردنا أن نعرف كم يومه، فهناك كوكب يومه سنتان، فخلال سنتين يدور حول نفسه دورةً واحدة، وكل كوكبٍ سابحٍ في الفضاء له يومٌ خاصٌ به، وهذه أيّام الكواكب، فما أيام الله عزّ وجل؟

أيام الله:

أيام الكواكب شيء وأيام الله شيءٌ آخر، فما معنى أيام الله ؟

الله سبحانه وتعالى يفعل فعلاً في زمنٍ لو أردنا نحن أن نفعله لاحتجنا إلى خمسين ألف عام تقريباً، إلى مائة ألف عام، فكيف أن الإنسان الآن استطاع ببعض الأجهزة الحاسبة أن يضغط الزمن، فما تفعله في شهر يتم في سبع ثوانٍ مثلاً، فالإنسان ضغط الزمن، وربنا عزّ وجل ألغى الزمن إلغاء كُليًا، كن فيكون، فأيام الله عزّ وجل غير أيام البشر، ومع ذلك هذه الأرض التي وضعها الله للأنام..

(وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ)

(سورة الرحمن)

خلقها خلق إيجاد، ثم خلقها خلق إعداد، أعدّها للإنسان، وعلماء الأرض يقولون: لقد مرّت الأرض بحِقَبٍ طويلة حتّى أصبحت على ما هي عليه، كانت غازاً، ثم صارت كرةً ملتهبة، وهذه الكرة الملتهبة تجمّدت، وبعد أن تجمّدت اتحد الأوكسجين مع الهيدروجين وشكّل الماء، فتشكّلت مياه البحار ـ وهناك نظرياتٌ كثيرة تفسّر ظهور البحار ـ ثم كان الهواء، ومن الهواء والبحار تفتّت التُربة، وهذه نظرياتٌ طويلة، أي أن مرحلة إعداد الأرض لتكون صالحةً للإنسان مرحلةٌ مديدة سمّاها الله في يومين ـ في أرجح التفاسير ـ وبعض النظريات العلميّة تؤكّد أن بين مرحلة الكرة الملتهبة ومرحلة القشرة الأرضيّة ألفي مليون عام، فهذا اليوم ليس يوم الأرض، ولا يوم الكواكب، بل هو يومٌ من أيام الله ، والنظريات العلميّة إذا كانت مُنصفة، وصادقة، وهادفة تجدها تُلقي ضوءاً على كلام الله عزّ وجل.

والشيء الذي يجذب النظر أن القرآن الكريم فيه أبوابٌ كثيرة، ومن أبرز أبوابه الآيات الكونيّة، جُمعت في بعض الكتب عدد الآيات الكونيّة في القرآن الكريم كبيرة جداً، هذه الآيات الكونيّة هي في الحقيقة أحد مظاهر إعجاز القرآن الكريم.

والنبي عليه الصلاة والسلام لحكمةٍ بالغة، ولعلّها بوحيٍ من السماء لم يفسّر هذه الآيات الكونيّة، لماذا ؟ لأنه عليه الصلاة والسلام لو فسّرها بطريقةٍ مبسّطة يفهمها أصحابه، وقد عاشوا مرحلةً معيّنة من التطوُّر العلمي لأنكرنا عليه هذا التفسير، ولو فسّرها بطريقةٍ دقيقةٍ كما هي عليه، وكما كشفها العلم الآن لأنكر عليه أصحابه، ولذلك تُركت الآيات الكونيّة ـ وهذا من حكمة الله البالغة ـ تركت الآيات الكونيّة كي يُلْقِيَ العلم عليها ضوءاً كلّما تطوّر.

إن هذا الكتاب معجزةٌ مستمرّة، وكلّما تقدّم العلم كشف جانباً من عظمة الآيات التي جعلها الله مظهراً لإعجازه.

وأحياناً تجري أبحاث عشر سنوات، أو عشرين عامًا، ونحن دائماً نفرّق بين المقالة والبحث العلمي، المقالة انطباع عابر، إنسان يسجّل انطباعاته على ورق، تطبع هذه الكلمات فإذا هي مقالة، أما إذا قرأت بحثاً علمياً، فالبحث العلمي قد يُفْرَغ في صفحتين، وهو محصّلة دراساتٍ استمرّت خمسين عاماً، وكلمة بحث علمي كلمة كبيرة جداً ؛ إنها تجارب، ودراسات، واستطلاعات، وإحصاءات، وملاحظات تراكمت في أذهان العلماء، ثم اكتُشِفَت حقيقة من الحقائق، وهذه الحقيقة التي اكتشفت بعد أمدٍ طويل تُسجّل في بحثٍ علمي، فالأبحاث العلميّة ـ طبعاً الموضوعيّة ـ كلّما تقدّمت كشفت جانباً من آيات القرآن الكريم الكونيّة.

فالعلم الآن يؤكِّد أن الأرض مرّت بحِقَبٍ طويلةٍ حتى أصبحت مهيأةً للبشر، يقدّرون هذه الحِقَب بألفي مليون عام..

(وَإِنّ يَوْمًا عِنْدَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ)

(سورة الحج)

فهذا ليس من أيام الأرض، ولا من أيام الكواكب، بل هو من أيام الله.

على كلٍ..

(قُلْ أَئِنّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ)

أي في يومين من أيّام الله..

(وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ

1 ـ الله عزوجل لا شريك له:

إنّ الله عزّ وجل ليس له مشارك، ليس له شريك، ولا نِد، وكل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك، فهل من المعقول أن يتخذ إنسان لله نداً ؟ أو أن يتخذ لله شريكاً ؟ هذا شيء مستحيل، لكن ما الذي يحصل ؟

2 ـ كيف يشرك الإنسانُ بالله ؟

حينما يعقد الإنسانُ الأملَ على إنسان عامَلَ هذا الإنسان كما ينبغي له أن يعامل الإله، فحينما يعتمد على إنسان اعتماداً كُلِّياً عامل هذا الإنسان كما ينبغي أن يُعامَلَ الإله، حينما يَتّكِلَ على إنسان، وحينما يعقد الأمل على إنسان، حينما يعتقد أن هذا الإنسان ينفعه أو يضرُّه، يرفعه أو يخفضه، يُعطيه أو يمنعه، يقرّبه أو يبعده، إذا توجّه اعتقادك إلى مخلوق ـ وهو مخلوقٌ ضعيف ـ فكأنك جعلت لله نداً، وهذا هو الشرك.

هذا الإله العظيم الذي خلق الأرض في يومين أتجعلون له أنداداً ؟ أيعقل هذا ؟

(ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

3 ـ الله هو الربُ المسيّر:

الرب هو المُمِد، الله عزّ وجل خالق ورب ومسيّر، الخالق خلق، والرب يُمِد، والمسيّر يحرّك..

(ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ)

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ

معنى الجبال الراسيات:

المعنى الأول:

هذه الأرض جعل الله فيها رواسي، والرواسي هنا الجبال، وسمّاها الله رواسي لأنها ترسو في أعماق القشرة الأرضيّة، وهذا الرُسو يثبّت طبقات الأرض، لأن كل طبقةٍ لها كثافة محدّدة، فإذا دارت الأرض فمع دورانها، ومع اختلاف كثافات طبقاتها ربّما اضطربت هذه الطبقات، فلئلا تضطرب جُعلت هذه الجبال كالأوتاد تربط طبقات الأرض ذات الكثافات المُختلفة بعضها ببعض لئلا تضطرب الأرض، هذا معنًى من معاني الجبال الراسيات..

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ)

المعنى الثاني:

والمعنى الآخر: هو أن الأرض حينما تدور دورةً سريعة لابدّ من أن تضطرب، لئلا تضطرب تأتي الجبال في أماكن محدّدة، وفي حجوم محدّدة، وفي أوزان محدّدة كما نفعل تماماً بعجلة السيّارة لئلا تضطرب في أثناء الدوران السريع، إذْ نضع بعض قطع الرصاص في أماكن محدّدة وفي أوزان محدّدة لئلا تضطرب العجلة، وهذا معنى آخر من معاني الجبال الراسيات..

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا)

معنى: وَبَارَكَ فِيهَا

الثروات من بركات الأرض:

ومعنى:

(وَبَارَكَ فِيهَا)

أي أودع فيها الحديد، والنحاس، والمعادن التي يحتاجها الإنسان بشكلٍ دقيق، وهذه المعادن جعلها الله على شكل فِلزَات مختلطة بالتراب، يأخذها الإنسان، ويصهرها، ثم يأخذ منها تلك المعادن الصافية التي تعينه على حياته، فالأرض ممتلئة بالخَيْرات، ممتلئة بالثروات، وبالمعادن، وبالفلذات، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

(سورة طه)

ومعنى بارك فيها أنت بحاجة إلى معدن خفيف، متين وخفيف الألومنيوم، وبحاجة إلى معدن ينصهر في درجة مائة، فإذا برّدته تمدّد هذا الرصاص، أنت بحاجة إلى معدن بكميات كبيرة جداً لا ينصهر إلا في ألفٍ وخمسمائة درجة، وذلك هو الحديد، أنت بحاجة إلى معدن يكون قيمةً للتداول هو الذهب، بحاجة إلى معدن آخر.

إخواننا الكرام الذين درسوا بعض العلوم الطبيعيّة، درسوا الفيزياء والكيمياء يعرفون ما معنى المعادن، وأشباه المعادن، والعناصر، وكل معدن له تركيب، وكل تركيب له خصائص فيزيائيّة وكيميائيّة، وهذه المعادن تتشابه في بنيتها الأساسيّة، وتختلف في صفاتها الفيزيائيّة والكيميائيّة، وهذه المعادن صُمِّمَت خصيصى للإنسان، بل إن هذه العناصر ـ وكلمة عناصر أوسع من كلمة معادن ـ هذه العناصر متدرّجة، العنصر الأول يوجد على مداره الخارجي كهروب واحد، والعنصر الثاني كهروبان وهكذا، فهناك مدارات تصل إلى ثماني مدارات في بنية الذرّة.

الشيء الذي يجذب النظر أن بين عنصرين كهروباً واحداً، الأول غاز والثاني صُلب، تعديل كهروب واحد على مدار الذرّة يغيّر طبيعة العنصر، من عنصرٍ غازي إلى عنصرٍ صُلب.

إذاً: هذا معنى وبارك فيها، أي أودع في الأرض ثروات، وأودع فلزات، ومعادن، وعدد المعادن كثير جداً، وأشباه المعادن كثيرة.

الإنسان أحياناً يظن أنه انتفع بهذه الفلزات، فليس هذا صحيحاً، هي حينما خلقها الله عزّ وجل صمّمها لينتفع بها، وفي أصل خصائصها مصمّمةٌ كي ينتفع بها الإنسان، كي تكون الأرض للإنسان كالبيت المعمور فيها كل شيء..

(وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ)

معنى: وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ

المعنى الأول:

فهذه الأرض بعد أن كانت ملتهبة، وبعد أن مرّت بأطوارٍ وأطوار، وحقبٍ وحقب حتى ابترد سطحها، وتجمّدت قشرتها، وأصبحت صالحةً ليكون فيها المخلوق جاءت المياه، وجاءت الرياح، وتفاعلت المياه مع الرياح، والرياح والمياه مع القشرة حتّى تفتّت تربتها، وبعد أن تفتّت قشرتها وأصبحت تربةً صالحةً للزراعة ظهر النبات، ومع ظهور النبات ظهر الحيوان، ثم جاء المخلوق الأول الذي هو الإنسان. فالإنسان له قوت يقتات به، وأساس قوته النبات والحيوان، فإذاً الأرض مرّت بيومين من أيام الله، وهذا كما قلت قبل قليل: خلق إعداد لا خلق إيجاد، ومرّت بأربعة أطوارٍ حتى أصبحت صالحةً لإقامة الإنسان.

إذاً:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10))

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: الأيام الأربعة هي الفصول الأربعة التي من خلال تبدُّل الحرارة، والرطوبة، والرياح، والعوامل الجويّة ينضُج النبات، وهذا رأيٌ آخر..

(وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)

ثُمّ اسْتَوَى إلَى السّمَاء

1 ـ لماذا الحرف ثم ؟

هنا بعضهم وقف عند ثمّ، أتُرَى هذه ثمّ للترتيب الزماني أم للترتيب الذِكْري ؟ فالله عزّ وجل ذكر نشأة الأرض قبل نشأة السماء، فهل تحتمل أن تكون ثم للترتيب الزمني أم للترتيب الذكري ؟ كِلا الرأيين وارد، ومع كل رأيٍ من هذه الآراء أدلّته..

(ثُمّ اسْتَوَى إلَى السّمَاء)

2ـ معنى: اسْتَوَى إلَى السّمَاء

معنى استوى إلى السماء أي قصد، هكذا يقول المفسّرون..

(ثُمّ اسْتَوَى إلَى السّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ)

ثُمّ اسْتَوَى إلَى السّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ

أصلُ الكون:

أصل الكون كما تروي بعض النظريات كان سَديماً، أي غازا وغبارا، ومن الغاز والغبار تشكّلت النجوم والمجرّات..

(ثمّ اسْتَوَى إلَى السّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ

1 ـ الكون كلّه يأتمر بأمر الله، وللإنسان حرية الاختيار:

هذه الآية تفيد أن الله سبحانه وتعالى كل الكون يأتمرُ بأمره، خلق الإنسان ومنحه حرية الاختيار، وخلق الجن ومنحه حرية الاختيار، لكن ما سوى الجن والإنس فكل المخلوقات ؛ الجمادات، والحيوانات، والملائكة ليس لها اختيار، إنما هي خاضعةٌ لأمر الله عزّ وجل، إلا الإنسان أعطاه

الاختيار، أيْ يخضع أو لا يخضع، لكن يقطف ثمن خضوعه إذا خضع، ويدفع ثمن معصيته إذا عصى..

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا)

(سورة الأحزاب)

2 ـ للإنسان حرية الاختيار:

المَلَك مستسلمٌ لله عزّ وجل، والحيوان تكفيه غريزته، والجمادات تأتمر بأمر الله عزّ وجل ليس لها اختيار، وليست مكلّفة، إلا الإنسان كُلِّف، وحمل الأمانة، وأمانته هي نفسه التي بين جنبيه:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

إذاً: ربنا عزّ وجل في هذه الآيات يبيّن لنا حجم جريمة الكفر ـ حجمها الكبير ـ أتدرون أيها الناس حينما تكفرون أنتم تكفرون بمن ؟ بالذي خلق الأرض في يومين، أي بهذه الحِقَب الطويلة من كرةٍ ملتهبة، إلى قشرةٍ مائعة، إلى قشرةٍ متجمِّدة، ثم قدّر أقواتها في أربعة أيام ؛ الماء، والهواء، وتفتيت التُربة، والعصور المطيرة، وعصور النباتات العملاقة، ثمّ نشأة الحيوان، وبعدها جاء المخلوق الأول الذي هو الإنسان.

فأحياناً يقول لك: هذا البيت استغرق إنشاؤه عشر سنوات، كلّما كان البيت أكثر فخامةً، وأوسع مساحةً، وأدقّ زخرفةً يحتاج إلى أمد طويل، طبعاً هذا على مستوى الإنسان، ولكن الإعداد المُتقن دليل العناية بالإنسان..

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

أي أن الكون كلّه يأتمر بأمر الله عزّ وجل: كن فيكون..

(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ

إذاً: قد تكون الأرض بدأ الله بها، على أن ثمّ للترتيب الزمني، وقد تكون الأرض والسماوات خُلِقتا معاً، على أن ثم للترتيب الذكري، كلا المعنيين وارد..

(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا

1 ـ السماوات السبع:

هنا السماوات السَبع قد تكون سبعًا، وقد يكون هذا الرقم للتكثير، أي أن السماء طبقات بعضها فوق بعض، ولو عدنا إلى كتب الفَلَك لوجدنا أن هناك طبقات ؛ طبقة الهواء هذه سماء، طبقة بعد الهواء، طبقة بعد التي بعد الهواء، هذه الطبقة سمكها مثلاً خمسون كيلو مترا، وهذه سمكها ألف كيلو متر، وهناك في كتب الفلك إشارة إلى هذه الطبقات، لكن كلمة سبعة في اللغة قد تعني الكَم، وقد تعني التكثير.

وهناك طبقاتٌ في السماء كل طبقةٍ لها وظيفتها الدقيقة، وخصائصها، وهواؤها، وكثافتها، ووظيفتها، وخصائصها..

(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)

2 ـ السماء الدنيا:

بعضهم قال: السماء الدنيا هي درب التبانَة ـ أي المجرّة التي نحن فيها ـ والتي يبلغ طولها مائة وخمسين ألف سنة ضوئيّة، وكلّكم يعلم أن بين الأرض والقمر ثانية ضوئيّة واحدة، وبين الأرض والشمس ثماني دقائق، المجرّة ـ مجرّتنا ـ طولها مائة وخمسون ألف سنة ضوئيّة، هذه هي مجرّتنا، والمجموعة الشمسيّة تبدو نقطة صغيرةً في هذه المجرّة، وكما أقول لكم دائماً: إن نجم قلب العقرب في برج العقرب هذا يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، وبعض المجرّات تبعد عنّا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيّة.

إذاً:

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ)

سُدُم..

(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)

إذاً: هذه الأيام التي ذُكرت في خلق الأرض، وفي تقدير الأقوات، وفي خلق السماوات والأرض هي أيام الله، وليست كالأيام التي نعرفها..

(وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا)

وظيفتها، ومهمّتها، وخصائصها، ودورها..

(وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)

هذه النجوم المتلألئة التي تُزَيّن السماء الدنيا..

(وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

حفظاً من الشياطين كما ورد في بعض الآيات الأخرى.

على كلٍ هذه الآيات تتحدّث عن أصل خلق السماوات والأرض، وكلّما تقدّم العلم كشف جانباً عن عظمة هذه الآيات الكونيّة، فكأن هذه الآيات معجزةٌ مستمرّةٌ لهذا الكتاب الذي بين أيدينا، كلّما تقدّم العلم كشف جانباً من جوانب عظمة هذه الآيات القرآنيّة التي وصفت الآيات الكونيّة.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ

لأن جريمة الكفر أبشع جريمة، وأكبر جريمة أن تكفر بالذي خلقك، أن تكذِّب الذي أرسل هذا الكتاب ليهديك إلى سواء السبيل، قال:

(فَإِنْ أَعْرَضُوا)

أي يا محمّد قل لهم: فإن أعرضوا عن قبول هذه الدعوة، إن لم يستجيبوا، وإن لم يؤمنوا، وإن كذّبوا..

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

الأقوام السابقة التي كذّبت الرسل جاءها العذاب الأليم، والعذاب المُهْلِك..

(أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

ملخّص هذا الدين كلِّه أن لا تعبد إلا الله، والعبادة كما تعرفون خالص الحُب، وخالص الطاعة، وخالص الانقياد إلى الله عزّ وجل..

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

وهذا قول كل مشركٍ وكل كافر من قديم الزمان إلى الآن:

(قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً)

جواب قديم يتجدّد: قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ

أي نحن لا نصدِّق أن الرُسل من بني البشر، إذًا: لو أن الرسول من الملائكة، وأمركم بأمر ماذا تقولون له ؟ يا أخي أنت ملك ونحن بشر، فلا يمكن أن يكون النبي إلا من بني البشر، ولا يمكن إلا أن تجري عليه كل خصائص البشر، فإذا انتصر على نفسه كان سيّد البشر، وكان قدوةً لنا، ومهمة القدوة في الأنبياء أبلغ من مهمّة التبليغ.

إذاً:

(قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

من شأن شرع الله عزّ وجل أن يَحُدَّ من شهوات الكفّار، فالكافر حينما يأتي منهجٌ إلهي يحدُّ من شهواته، فما السبيل إلى التخلُّص من هذا المنهج ؟ تكذيبه، فتكذيب المنحرفين، وتكذيب العصاة، وتكذيب الذين يُقيمون على شهواتهم الدنيئة، فهذا التكذيب هو دفاعٌ عن شهواتهم، ودفاعٌ عن مصالحهم، ودفاعٌ عن مكتسباتهم فكذّبوا، قالوا:

(فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

قال:

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

1 ـ استكبار الإنسان على الله دائماً بغير الحق:

لأن الاستكبار على الله عزّ وجل يكون بغير الحق دائماً، فالإنسان مخلوق حادث سبقه عدم، ويتبعه عدم، أما ربنا جلّ جلاله فهو الذات الكاملة واجب الوجوب، الأبدي السرمدي، الذي لا أول له ولا آخر، فهل يوازن خالق الكون مع مخلوقٍ حادث ؟!

إذاً استكبار هذا الإنسان على الله استكبارٌ دائماً بغير الحق، فلا يعقل أن يكون استكبار الإنسان بالحق ؟ بل إن هذه الآية لها معنى دقيق، فقد يفهم بعضكم من هذه الآية أن عاداً استكبروا بغير الحق، فهل هناك استكبار بالحق ؟ لا. كلا، هذا ليس قيداً احترازياً، هذا قيدٌ وصفي، فمن شأن الاستكبار دائماً أنه بغير الحق، الإنسان ضعيف، وعاجز، وجاهل، و فقير، يقوى بالله، ويعلم بالله، فإذا افتقر الإنسان إلى الله أصبح غنياً، فإذا استغنى عن الله أصبح فقيراً، وإذا التجأ إلى الله يطلب أن يعلِّمه علّمه الله عزّ وجل،

فإذا استغنى بعلمه المادي عن علم الله عزّ وجل أصبح جاهلاً، لهذا: **" يظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل ".**

(فَأَمّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا)

2 ـ إما عبودية لله وإما استكبار على الله:

وهناك صفتان أساسيّتان: العبوديَّة لله والاستكبار على الله، الكافر مستكبر، والمؤمن متعبّد لله عزّ وجل، والمؤمن حينما يعبد الله يرفعه الله، يعزّه الله، يقوّيه الله، ويغنيه الله، ويرفعه، والكافر حينما يعتزّ بعلمه يرتكب حماقاتٍ لا حصر لها، وحينما يعتزّ بقوّته يوقعه الله في حتفه من خلال تدبيره، الدعاء الذي يدعوه بعضهم: " اللهمّ اجعل تدميرهم في تدبيرهم ". أي أن يجعل الله تدميره ثمناً لتدبيره.

إذاً: هناك نموذجان استكبار وعبوديَّة لله عزّ وجل، فأنت حينما تعبد الله يرفعك الله، وحينما تستكبر تدفعه الثمن باهظاً في الدنيا وفي الآخرة.

(فَأَمّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوّةً)

قاصمة ظهور المستكبرين: مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوّةً

الإنسان أحياناً يبلغ قمة النجاح، والحقيقة أنّ البطولة ليس أن يبلغها، بل البطولة أن يبقى فيها، وإن كان الطريق إلى هذه القمة شائكا، ووعرا، وملتويا، وفيه حُفَر، وفيه أكمات، وفيه عقبات، لكن إذا وصلت إلى قمة النجاح فقد تصاب بمرض أخطر، ألا وهو الغرور، والغرور يهوي بك إلى الحضيض، فحينما شعروا بقوّتهم قالوا:

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوّةً)

فلو أن نقطةٍ دم تجمّدت في بعض أوعية دماغ الإنسان لَشُلّت حركته، أو لفقد ذاكرته، أو لاختلّ عقله، أو لفقد بصره، أو لفقد سمعه، نقطة دم واحدة، فكيف يقول: أنا ؟!

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوّةً)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوّةً

وكم من حادث حدث تحت سمعنا وبصرنا ؟ إنسان ملء السمع والبصر أصبح خبراً بعد أن كان ملء السمع والبصر، الإنسان حياته متوقِفة على نبضات قلبه، كم من حادث موت مفاجئ غير متوقّع.

إذاً:

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ

1 ـ عليك بالتواضع:

أيها الإخوة، كلّما ازداد علم الإنسان قاده علمه إلى التواضع، لأنه يرى عظمة الله عزّ وجل ويرى نفسه لا شيء، والتواضع حقيقةً قد يكون سلوكا ذكيا، أما التواضع الحقيقي الذي هو من لوازم طاعة الله عزّ وجل، فأساسه رؤية، إذا رأيت عظمة الله عزّ وجل ضَؤلت نفسك في نظرك، فلا يوجد إنسان متكبّر إلا وهو جاهل، ولا يوجد إنسان متواضع تواضعا حقيقيا، تواضع العبوديّة لله إلا وهو عالِم، فكلّما رأيت عظمة الله عزّ وجل رأيت صِغَر نفسك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام في أدعيته:

((اجعلني في عيني صغيرا، وفي أعين الناس كبيرا))

[من الجامع الصغير عن بريدة]

لكن بعض الناس يرى نفسه في عينه كبيراً، وهو في أعين الناس صغير.

هذا هو التواضع الحقيقي:

إذاً: التواضع الحقيقي أن ترى عظمة الله عزّ وجل، أن ترى رحمة الله، وعلمه، وقدرته، كلّما ارتقيت في معرفة الله صرت في معرفة ملازمة لهذه المعرفة، فتزداد معرفةً بعلم الله ومعرفةً بجهل الإنسان، هذا ما قاله الإمام الشافعي: **" كلّما ازددت علماً بالله ازددت علماً بجهلي ".**

إذاً التواضع الحقيقي أساسه رؤيةٌ صحيحة، وهذه الرؤية الصحيحة ينتج عنها تحجيمٌ لذات الإنسان، فإذا عَمِيَ الإنسان عن عظمة الله وشعر أنه قوي، وأنه غني، وأن مقاليد الأمور بعضها بيده، وأن الناس من حوله متزلِّفون، هذا الشعور الكاذب ربّما قاده إلى الهلاك.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

فربنا عزّ وجل قادر أن يدمِّر إنساناً يرى نفسه أقوى الأقوياء على أتفَهِ الأسباب، فالإنسان يشلّ بسبب حادث سير، أحياناً ببعض الأدوية يفقد بعض الحواس، الإنسان يمكن أن يحدث له خلل في بعض أعضائه، فيجعل حياته جحيماً، والإنسان يعيش بألطاف الله عزّ وجل، وفي قبضته، فكلّما ازداد علمك تواضعت، كلّما ازداد علمك عبدّت الله عزّ وجل، وتأدّبت مع الخلق، تجده أديبا، من أين جاء هذا

الأدب؟ من رؤية الحقيقة، الأمر كلّه بيد الله، وكل هؤلاء البشر بيد الله، ولذلك فالمؤمن تحت حديث شريف:

((الذنب شؤمٌ على غير صاحبه..))

[ثبت في الأثر]

الذنب شؤمٌ على غير صاحبه:

فإذا ارتكب الإنسان ذنبا فهناك ثلاث مطبّات قال: إذا ذكره فقد اغتبابه، وإن رضي به شاركه بالإثم، وإن عيَّره ابتلي به.

تصوّر إذا ارتكب الإنسان ذنبا فهناك ثلاثة مطبّات يمكن أن تقع فيها أنت الذي لم تذنب ؛ إن عيَّرته فهذا جهل ابتليت به، وإن أقررته على ذنبه شاركته في الإثم، وإن ذكرت ذنبه للناس فقد اغتبته، فإذا كان من الممكن أن يكون للعبوديَّة مؤشِّر، وللعلم مؤشِّر، وكلّما ازداد علمك ازدادت عبوديَّتك لله عزّ وجل، وكلّما ازداد علمك ازداد تواضعك، فلا ترى إنساناً في قمة النجاح إلا وهو متواضع، ويعرف أن وجوده بيد الله، ذكاؤه بيد الله، خبراته بيد الله، قراره الحكيم، ورؤيته الصحيحة، إدراكه العميق بيد الله، فإذا قال: أنا. فقد أهلك نفسه، وأربع كلمات مهلكات ؛ أنا، ونحن، ولي، وعندي.

قال:

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

كلُّ أمّةٍ مستكبرة لها يوم عند الله تعالى:

أتُرى هذه الآيات أليست هناك آيات مشابهة لها في حياتنا الدنيا ؟ يقول لك: إعصار أصاب ولاية في بعض الدول المستكبرة، فسبّب خسائر بثلاثين مليار دولار، وهو إعصار واحد.

فيضان أتلف المحاصيل أحياناً، زلزال جعل عاليها سافلها، وهذا فعلُ ربنا عزّ وجل، ونرى هذا بأعيننا كل يوم، تارةً أعاصير، تارةً فيضانات، تارةً زلازل، تجد محصولا زراعيا ثمنه مئات الملايين يأتيه صقيعٌ في دقائق، هذا المحصول كلّه يُدمّر، فنحن جميعاً في قبضة الله، فكلّما عرفنا حجمنا المتواضع وعظمة ربنا كان الله في عوننا ورفعنا، وأغنانا، وأعزّنا، أما إذا اعتززنا بمن يموتُ فإن عزّنا ميتُ..

اجعل لربّك كل عزّك يستقرُ ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزّك ميّتُ

*** * ***

قال:

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

فما من أمّة مستكبرة إلا ولها يومٌ عند الله..

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(58))

(سورة الإسراء)

فأية قريةٍ استكبرت، أحياناً قرية من القرى يلمع اسمها، يكثر دخل أبنائها، ينتشر الفساد والانحراف، ويفعلون كل المُنكرات ويظنون أنهم في مأمن، وأن هذا الدخل ثابت، وأن هذه الدنيا مستمرّة لهم، يستكبرون، لذلك الله عزّ وجل قال:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

فهذه القصص التي بين أيدينا في كتاب الله، هناك آلاف القصص المشابهة التي نستمع إلى أخبارها كل يوم..

(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ)

وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ

ومهما رأيت من عذاب الخِزي في الحياة الدنيا، فعذاب الآخرة أخزى لأنه عذاب مستمر إلى أبد الآبدين، قال:

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

فهل هناك من آيةٌ أوضح تبيّن أن الإنسان مخيَّر من هذه الآية ؟

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(18))

وَنَجّيْنَا الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ

المؤمن من الامتحان إلى النجاة والفوز:

يجب أن تعتقد من خلال هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يمتحن المؤمن، لكن في النهاية يُنَجّيه..

(وَنَجّيْنَا الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللّهِ إِلَى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19))

عندنا موضوع دقيق جداً ؛ سلطان الله عزّ وجل أمره نافذٌ في السماوات والأرض، ونافذٌ في كل شيء، ونافذٌ في أعضائك، قال:

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللّهِ إِلَى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ)

حَتّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ

هذا الذي يشهد عليك يوم القيامة ناطقا:

وجلودهم كناية لطيفة جداً عن أن الفواحش التي ارتكبوها بجلودهم هذه الجلود تشهد عليهم..

(بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللّهُ الّذِي أَنْطَقَ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(21))

فتصوّر أنك لا تملك جلدك، بينما الإنسان في الدنيا إذا كان عنده أتباع فأتباعه يأتمرون بأمره، لا يجرؤ تابع أن يكون كلامه مخالفا لكلام متبوعه، يقول لك: هؤلاء جماعتي، لا تتكلّموا هذا الكلام فلا يتكلمون، وإذا قال لهم: تكلّموا فيتكلّمون، لكن يوم القيامة لست مهيمناً على جلدك، ولا على سمعك، ولا على بصرك، ولا على ولسانك..

(قَالُوا أَنطَقَنَا اللّهُ الّذِي أَنطَقَ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ)

قَالُوا أَنطَقَنَا اللّهُ الّذِي أَنطَقَ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ

فالإنسان في الدنيا يعتزّ بذكائه، فيرسم خططا، يكذب، ويغيّر الحقائق، ويزوّر، ويظن أن الناس أغبياء، لكن بالآخرة لا يستطيع أن يفعل من هذا شيئاً..

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس: من الآية 65)

فهنا الله عزّ وجل سلطانه نافذٌ في السماوات والأرض، ونافذٌ في أقرب الأعضاء إليك، إنها تنطق ضدّك يوم القيامة، والإنسان لا يجرؤ ابنه أن ينطق ضدّه أو يتركه يفعل ذلك، لكن أعضاءك وجلدك الذي عصيت الله به ينطق شاهداً عليك يوم القيامة..

(حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ(22))

خاتمة:

إذا علمت أيها الإنسان أن الله يعلم فقد حُلّت مشكلتك، لأنك إذا علمت أن الله موجود، وأن الله واحد، وأن الله كامل ـ وهذه ثلاثة أوصاف ـ وأن الله يعلم، وسوف يحاسب فلابدّ من أن تستقيم على أمر الله، فهو موجود، وواحد، وليس معه شيء، وكامل لا يظلم مثقال ذرّة، ويعلم ما تفعل، وسوف يحاسب، إذا أيقنت بهذه الكلمات الخَمْس تجد نفسك تأتمر بما أمر، وتنتهي عما عنه نهى وزجر، لذلك الآية الكريمة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

اختار الله من أسمائه العلم والقدرة، فعلمه يطولك وقدرته تطولك، يعلم وسيحاسب، فإذا أيقنت أنه يعلم، وسيحاسب فلابدّ من أن تستقيم على أمر الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (04-11): تفسير الآيات 23-29
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-11-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة فصِّلت، ومع الآية الخامسة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

وقبل هذه الآية حينما قال الله عزّ وجل:

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ (22))

دقِّقوا في هذه الآية:

(وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (23))

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ

1 - الجاهل يظن بالله غير الحق:

ماذا نفهم من هاتين الآيتين ؟ أن الإنسان إذا ظنّ بالله غير الحق، فهذا الظن قد يُرديه، ويهلكه، ويوصله إلى النار.

فالجاهل أيها الإخوة جعبته ممتلئةٌ بالمعلومات، لكن هذه المعلومات ليست صحيحة، والإنسان أحياناً يتوهَّم أنه يعرف، وهو لا يعرف، يظن بالله غير الحق ظن الجاهليَّة، يظن أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان كافراً، وهذا الإنسان لا جريرة له بهذا الكفر، لكن الله قدَّر عليه ذلك، خلقه كافراً ولمَّا جاء إلى الدنيا نفَّذ مشيئة الله عزّ وجل، ثمّ استحقّ النار إلى الأبد، وهذا الظن بالله هو الذي يُردي صاحبه،

فالإنسان يجب أن يدقِّق في عقيدته، لعلَّ في عقيدته بعض الظن السوء بالله عزَّ وجل، والله عزَّ وجل يقول:

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف: من الآية 180)

فالإنسان عليه أن يراجع ما تسرَّب إلى عقله من عقائد زائغة، أو عقائد فاسدة، وليجعل من هذه الآية الكريمة:

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا)

(سورة يونس: من الآية 44)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت: من الآية 40)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

2 ـ الجاهل يظن أن الله لا يعلم ما يفعله العبادُ:

النقطة الدقيقة هنا أن الإنسان إذا عصى الله عزَّ وجل فقد يتوهَّم أن الله لا يعلم كثيراً مما يعمل، وربنا عزَّ وجل يقول:

(وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة]

ولذلك جعل الله علّة السماوات والأرض أن تعلم أن الله يعلم.

أنت إذا علمت أن إنساناً قوياً يعلم فإنك تنضبط، وهو إنسان من جلدتك، وهو ضعيف مثلك، وسيموت مثلك، لكنه الآن أقوى منك، إذا علمت أنه يعلم، وهو قادرٌ على أن يفعل ما يفعل فأنت لن تعصي هذا الإنسان، فكيف إذا علمت أن الله يعلم ؟ وأنت مكشوفٌ أمام الله عزَّ وجل، لا تخفى عليه خافية.

دقِّقوا في هذه الآية:

(وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ)

3 ـ العقيدة الفاسدة أحدُ أسباب الهلاك:

هذا الظن السوء بالله، أولاً: أن الله لا يعلم، أو أن الله لا يعلم كثيراً مما نعمل، ولا يوجد إنسان يرتكب المعصية وهو ضعيف الإيمان إلا ويتوهّم أنه ذكيٌ بهذا، ولو أنه علم أن الله يعلم، وسيحاسب لم يعد ذكياً، بل ظهر غبيا، بل من أغبى الأغبياء، فإذا أيقنت أن الله يعلم، وسيحاسب فلن تجد أنك أفلحت بالمعصية، ولن تجد أنك ربحت بالمعصية.

إذاً أحد أسباب الهلاك عقيدةٌ فاسدةٌ بالله عزّ وجل أو أن لا تعتقد الكمال المُطلق بالله عزّ وجل، أو أن تظنّ أن الله لا يعلم، أو أنه إذا علم لا يحاسب، إذا أسأت الظنّ بأسمائه الحسنى، أو بعلمه، أو برحمته، أو بعدالته، أو باليوم الآخر، أو بأنه لا شأن له بما يجري في الأرض، الله عزّ وجل يقول:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

النقطة الدقيقة جداً هنا أنك إذا ظننت أن الله لا يعلم فقد ترتكب المعاصي، ولن يرتكب أحدٌ المعصية إلا إذا ظنّ أن واضع هذا القانون غير موجود، فمتى تتجاوز الإشارة الحمراء ؟ الساعة الثالثة ليلاً، لماذا ؟ لأنه ليس هناك شرطة، فالذي وضع قانون السير لا يعلم من يخالف في هذا الوقت، إذاً الإنسان يخالف، أما إذا علمت أن الذي وضع هذا القانون يعلم فلا يمكن أن تخالف، هذا مع إنسان، فكيف مع الواحد الديان ؟ هذا مع إنسان من بني البشر، لكنه أقوى منك قليلاً، وبإمكانه أن يوقع بك الأذى كثيراً أو قليلاً، ومع ذلك فأنت لا تعصيه، قال:

(وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ)

لو استعرضنا بعض العقائد الزائغة أن الإنسان قد يفعل ما يفعل، وقد يرتكب ما يرتكب، وقد يرتكب حتى الكبائر، لمجرّد أنه منتسبٌ إلى هذه الأمّة الإسلاميّة فسوف تناله شفاعة النبي، انتهى الدين كله، هذه إحدى العقائد الزائغة، شفاعة النبي حق، ولكن ليست بهذه الصورة الساذجة، ليس النبي يشفع لمن مات مشركاً، لا ينال شفاعة النبي إلا من مات غير مشرك، أو مات مخلصاً، أو طائعاً.

الآن:

(فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ)

فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ

1 ـ لا صبْرَ على النار:

الصبر في الدنيا ينتهي إلى الفرج، فالإنسان يتحمّل بعض المتاعب على أمل أن يناله الفرج، ولكن الصبر على النار ليس بعده إلا النار، وهذا الصبر الذي لا شيء وراءه..

(فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)

هناك إنسان ساقوه للإعدام فهل يرغب أن يصبر أو لا يصبر إذ لابدّ من أن يُعدم، هل يضحك ؟ أو يبكي، أم يتوسّل، أم يتماسك، أم يتحدّى، أم يشتم، كله سواء، وصل إلى الطريق المسدود، فأخطر شيء أن يصل الإنسان مع الله إلى طريقٍ مسدود.

قال:

(فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ)

2 ـ لا عتاب بعد الموت:

العتاب ينقطع، لماذا ؟ أنت تعاتب من ترجو فيه الخير، وأنت تعاتب من ترجو فيه الصلاح، ولكن إذا مات الإنسان وخُتِم عمله، وضيّع الآخرة الثمينة بالدنيا تافهة ففرص الخلاص انتهت، وفرص النجاح انتهت، وفرص المغفرة والتوبة قد انتهت، فالعتاب لا معنى له.

أحياناً تلاحظ أبًا حينما يتلقّى نتيجة ابنه أنه راسب انتهى العتاب، قد يعاتبه قبل الامتحان لعلّه يضاعف جهوده، قد يعاتبه في الوقت المناسب لعلّه يتدارك النَقص، أما حينما يقدِّم الامتحان ويرسب، فهذه السنة الثانية في الرسوب، ولابدّ له من أن يُفْصَل من هذه المدرسة ومن كل المدارس فقد يسكت الأب، لا لأن ابنه لم يفعل شيئاً، بل لأن العتاب لا يجدي ولا ينفع.

(فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25))

وَقَيّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء

1 ـ إمّا ملكٌ يلهم الخيرَ ،عمّا شيطان يوسوس:

الحقيقة أن الإنسان إما أن مَلَكاً يُلهمه رشده، أو أن شيطاناً يوسوس له، شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يجعل لهذا الإنسان مَلَكاً يلهمه الخير وشيطاناً يوسوس له الشر، وهو مخيَّر، فلا الشيطان يستطيع أن يفعل به شيئاً إلا أن يوسوس.

2 ـ لا سلطان للشيطان على أحدٍ:

أدق آية في هذا الموضوع تكشف لنا حقيقة هذه الآية، والقرآن كما تعلمون سُمِّيَ بالسبع المثاني، أي أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسِّرها..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

كل إنسان يرتكب معصية ويقول: الله يلعن الشيطان، فهو إنسان جاهل لأن الله سبحانه وتعالى يبيّن هذه الحقيقة الخطيرة:

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

هناك إنسان نزل في حفرة من المياه السوداء، ويرتدي أجمل الثياب البيض، والمياه سوداء ـ مياه مجارٍ ـ فذهب إلى المخفر ليشتكي على من كان السبب، سأله المحقِق: الرجل دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال: لا والله، قال له: شهر عليك مسدّساً، وقال لك: انزل ؟ قال: لا والله، لم يفعل هذا، قال له: لمَ تشتكي عليه ؟ قال: قال لي: انزل فنزلت..

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

إذاً:

(وَقَيّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

3 ـ فلسفةُ المعصية وتزيينُها:

الشيطان يزيّن، لكن من هو أشقى الناس ؟ هو الذي يستجيب لهذا التزيين، ويظن أنه يُحسن صنعا.

الحقيقة عندنا إنسانان يرتكبان معصية ؛ واحد يرتكب المعصية وهو متألِماً أشد الألم، نادماً أشد الندم، منزعجٌ أشدَّ الانزعاج، وإنسان آخر يرتكب المعصية، ويظن أنه يُحسن صنعاً بها، يظن أن الحياة هكذا، وهذا مذهب، هكذا الواقعيَّة، والحضارة، هكذا الرُقِيّ، فأخطر إنسان هو الذي ماتت منه القيَم، وخَفَتَ في نفسه صوت الضمير، فإذا فعل معصيةً، أو ارتكب مخالفةً، أو وقع في انحطاطٍ معيَّن يظن أنه يحسن صنعاً، لهذا فربنا عزّ وجل قال:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8))

(سورة الشمس)

فالإنسان مفطور فطرةً حيث لو اتقى الله لعرف أنه يتقي الله، ارتاحت نفسه، اطمأنَّ قلبه، ولو أنه ارتكب معصيةً لشعر أنه قد عصى، شعر أنه قد فجر، وهذا من فضل الله علينا، ومن أكبر النِعَم على بني البشر أن الله فَطَرهم فطرةً عالية حيث لو فعلوا معصيةً، أو ارتكبوا إثماً، أو أساءوا، أو أوقعوا الضرر بالناس لشعروا بانقباض، هذا معنى:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8))

وأشقى من ذلك من خفت في نفسه صوت فطرته، فإذا فعل السيّئات يقول: ماذا فعلت ؟ هذا أشقى الناس، مَن طُمِسَت فطرته، وخفت صوت ضميره، وانقلبت موازينه، فبدل انه إذا عصى الله عزّ وجل يتألم، ولعلّ هذا الألم يحمله على التوبة، يفتخر، ويظن أنه يحسن صنعاً، هذا الإنسان بلغ الحضيض..

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

فالشيطان يزيّن، والمَلَك يُلْهم، والسعيد من أصغى إلى صوت الملك فاتبع رُشْدَهُ، والشقي من استجاب إلى وسوسة الشيطان فسلك في طريق الهلاك.

4 ـ استعذ بالله فيخنس الشيطانُ الرجيم:

أنت مخيَّر، والشيطان ليتكلّم ما شاء، لكن ليس له عليك من سلطان، ولا يستطيع الشيطان أن يفعل معك شيئاً إلا أن يوسوس، وأنت بهذه الوسوسة تُمتحن، فإما أن تستجيب لها، وهذا من اختيارك، ومن ضعف نفسك، وحبّك للمعصية، ورغبتك في اقتراف الإثم، وإما أن لا تستجيب فيخنس، وسمي الوسواس الخنّاس، لمجرّد أن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يخنس الشيطان، فالشيطان ضعيف جداً لا يملك إلا أن يوسوس، والوسواس الخنّاس لا يحتمل أكثر من كلمة أعوذ بالله، لا يحتمل أكثر من

كلمة خَسِئْتَ يا شيطان، وانتهى الأمر، لكن من كان في نفسه مرض، ومن أراد المعصية، والإغواء، والخروج عن منهج الله يتوافق خروجه مع وسوسة الشيطان، فأنا أعتقد من خلال آياتٍ كثيرة أن الشيطان لا يستطيع أن يضلّ أحداً..

(رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(27))

(سورة ق)

عملية توافق فقط، فالشيطان وسوس، والذي يستجيب لوسوسته هو على شاكلته، لأنه يرغب بهذا العمل، والدليل الشيطان يوسوس لمائة إنسان، المؤمن لا يستجيب له والفاسق يستجيب.

دعونا من الشيطان، رفيق سوء في مدرسة، في هذا الصف طلاب تربيتهم راقية، ورفقاء السوء لا يستطيعون أن يفعلوا معهم شيئاً، لكن رفيق السوء من الذي يُغويه ؟ من كان على شاكلته، ومن كان عنده استعداد للغواية، ولتشرد هذا اقترف المعاصي، فيجب أن تعتقد أنه لا يستطيع أحد أن يضلّ أحدًا، يجب أن تعتقد أن أحداً لا يستطيع أن يغوي أحداً، يجب أن تعتقد أن أحداً لا يستطيع أن يفسد أحد، ولا يفسد الشيطان إلا من هو فاسدٌ في الأصل، ولا يغوي إلا الغاوي، ولا يدفع إلى ارتكاب الإثم إلا الآثم..

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

5 ـ الغفلة باب عظيم يدخل منه الشيطان:

أحيانا إن لم ينظِّف الإنسان بيته تنظيفاً تاماً فهناك حشراتٌ مزعجة، وهذه الحشرات لها وظيفة، الرَدْع، فالإنسان إذا ترك نفسه بلا تعلُّم، وبلا طالب علم، وبلا إيمان فالشيطان جاهز، وله دور أنك إذا لم تسعَ إلى الله سعياً حثيثاً فقد يظهر قصورك الشيطان، والذباب أحياناً يظهر قصور أهل البيت في تنظيفه، ولمجرّد أن يبقى على المائدة بعض الطعام، أو بعض المواد السكريّة، أو الدهنيّة تجد الذباب جاء، ومجيء الذباب دليل على أن هناك خَلَلا في هذا البيت، وهناك تقصيرًا في نظافته، إذاً: هذا التوافق توافق عجيب، والإنسان حينما يغفل يأتي الشيطان، ويوسوس، و يدفع إلى المعصية، فله دور سلبي، وله دور إيجابي، الدور الإيجابي أنك إذا أردت أن تكون في منجاةٍ منه دائماً فاعتصم بالله، واستعذ بالله، وأقم على طاعته..

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

6 ـ الشيطان يأتي للإنسان من جهات معينة:

والشيطان له مهمّتان: ما بين يديك يقول لك: أنت شاب والآن، هذا المال بإمكانك أن تنفقه وتستمتع به، وأن تعبّر عن حاجاتك الأساسيّة، فيدعوك إلى المعصية، فإذا خفت من حساب الله عزّ وجل يقول لك: الله غفورٌ رحيم، يا أخي لا تدقِق، ولا تتزمّت، هذا كلام العوام، والشيطان له دوران ؛ أن يأمرك بالمعصية، وأن يطمئنك إلى أن الله لن يحاسبك، أنت مسلم تنالك شفاعة النبي، غداً تتوب، بعد غدٍ تتوب، هذه ليست معصية، وهذه قضيّة خلافيّة، وهناك من أفتى بها، فدور الشيطان أن يأمر بالمعصية، وأن يطمئِن من الحساب الدقيق الذي سيحاسبه الله عزّ وجل، وهذا معنى قوله:

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

7 ـ طولُ الأمل سلاح الشيطان:

أو يوقعك في الأمل، فتجد أحلام الإنسان بالمستقبل، يحلم أن يسكن بيتًا، وله صفات معيّنة، أو أن يملك كتلة نقديّة لها حجم معيّن، أو أن يشتري مركبة فاخرة ذات مواصفات خاصّة، ويحلم أن يصل إلى مركز معيّن، أن يتسلّم مثلاً منصبا رفيعا، هذا الأمل، وقد يكون الأجل قبل تحقّق الأمل، ودائماً الأمل أبعد كثيراً من الأجل، فلا تجد إنسانا مات إلا وله آمال تزيد عن عشرين عاماً، أو ثلاثين عاما، فأكفان هذا الإنسان نُسِجَت وهو يأمل بالدنيا ولا يدري، وهذا شيء بين أيدينا، مغادرة الدنيا تتم بثانيةٍ واحدة من دون إنذار مسبق، فهناك حالات موت تأتي بعد مرضٍ عضال، وحالات تأتي بلا مسبّب، يقول لك: البارحة كنا في نزهة معاً، وقبل قليل كان معنا يتحدّث ولا يشكو شيئاً، وهذه المغادرة السريعة..

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

8 ـ مَا خَلْفَهُمْ

إما أنه يخفِّف عليك من حساب الله، ويُمَنِّيكَ بالشفاعة تارةً، وبالعفو تارةً، والمغفرة تارةً، أو أن الله لا يحاسب بهذه الطريقة، هذه الطريقة ليست معقولة، أو أنه يزيّن لك الحاضر والمستقبل، ويوقعك بالأمل. إما أنه يدفعك إلى معصية ويخفِّف عن كاهلك أعباء العقاب، أو أنه يزيّن ما بين يديك وما خلفك أي ما بعد ما بين يديك..

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

9 - وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ

معنى:

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ)

أي أن الله عزّ وجل له سُنن، وله قوانين ثابتة، فكل إنسان أعرض عن الله عزّ وجل وانكبّ على الدنيا، وحجب نفسه عن ربّه، وغرق في المعاصي ينطبق عليه القانون الإلهي، وهذا حينما حجب نفسه عن الله صار أعمى، فلمّا صار أعمى حرّكته شهواته فقط، وشهواته ليس لها حدود، ولابدّ من أن يأخذ ما له وما ليس له، وأن لا يقنع بما أحلّ الله له، ويعتدي على أعراض الناس، لأنه وقع في العمى والشهوة مُسْتَعِرَة، واشتعال الشهوة مع العمى كمحرّك قوي جداً، والسائق مغمض العينين، والطريق كله منعطفات فالحادث حتمي.

قانون الهلاك:

إذا كانت شهوات الإنسان مستعرة، وإيمانه ضعيفا أو معدوما، وبصيرته منطمسة، والطريق فيه مفاجآت، وفيه التواءات، ومطبّات فالهلاك محقّق، هذا معنى:

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ)

والآن لو أن أحداً قال لك: فلان ركب مركبة، وانطلق بها في منحدر شديد، وفي نهاية هذا المنحدر مُنعطفٌ شديد، ومكبحه مُعَطّل، وأنت لم تشاهد الحادث فتقول: التدهور محقّق، فما دام الانطلاق سريعا، والطريق هبوطه شديد، وينتهي بمنعطف حاد، والمكبح لا يعمل فالحادث حتمي، هذا قانون، فالقضيّة سهلة، والله وضع قوانين..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة طه)

العقل بغير هدىً من الله مآله الضلال:

لم تكن بصيراً، بل كنت أعمى، فمعنى هذا أن الإنسان إذا أعرض عن ذكر الله صار أعمى، وأنّ عقل الإنسان كعينه تماماً، كيف أن هذه العين لو كانت اثني عشر على اثني عشر، هو طبعاً أعلى درجة في العين عشرة، ولكن هناك حالات بلوحات الفحص حرف في آخر سطر إذا عرفت جهته يقول لك: اثنا عشر على عشرة، أي أن العينين تتمتّعان بأعلى درجة رؤية، وأدق درجة، ولكن لا يوجد ضوء، لا

ترى شيئاً بهما على دقّتهما، فكذلك العقل لو كان عقلا ذكيا جداً، إذا لم يكن فيه نور إلهي وهدى من الله قد يضل.

وهذه أوروبا أمامكم، الأسرة انتهت، بنهاية هذا القرن عشرون مليون مصاب بالإيدز، وكل دقيقة يموت إنسان، أين عقلهم ؟ ضلوا، هداهم عقلهم إلى أن الشهوة هي إلهُهُم، هداهم عقلهم إلى أن الدنيا هي كل شيء، هداهم عقلهم إلى أن المتعة هي كل شيء في حياة الإنسان، فالعقل من دون هدى من الله يضل، وأمم كثيرة جداً قد قدّمت إنجازات حضاريّة يعجز العقل من تصوُّرها، ولكنّها في المستوى الآخر الأخلاقي في الوحول وفي الحضيض، معنى هذا أن العقل يحتاج إلى نور من الله عزّ وجل.

إذاً هذه الأمم..

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

واجهد أن لا تنطبق عليك قوانين الله، فنحن أحياناً بالتعامل اليومي تحاول بواسطة إدخال طالب للجامعة، وذلك مستحيل لنقص في العلامات، والقانون انطبق عليك، فحرَمك من الدخول إلى الجامعة، لأن علاماتك قليلة، فهنا حقّ عليهم القول، أي ليس الله عزّ وجل قدّر عليهم هذا الشقاء، لا، حاشا لله، لكن انطبقت عليهم قوانين الله، أعرضوا عن الله عزّ وجل فكانوا في عمىً، فلمّا كانوا في عمىً وفيهم شهوات مستعرة تحرّكوا بلا مقود، أو بلا بصيرة، أو بلا نور مصيره إلى الهلاك.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ

1 ـ الكافر ضالّ في نفسِه مضلّ لغيره:

الكافر مشكلته ليس ضالاً فحسب، لكنّه ضالٌ مضل، وليس فاسداً فحسب، بل هو فاسد مُفْسِد، وليس مُنحرفاً فحسب، بل هو منحرف ويدعو للانحراف، فهؤلاء هم الكفّار..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ)

2 ـ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ

لأن الكفار يبغونها عوجا، والقرآن مبادئ، وقوانين، وأوامر، ونواهٍ، وحدود، ومنهج، ودستور، ونظام يضمن للجميع سعادتهم، أما الكفار فشهوتهم تقودهم، وأهدافهم دنيويّة، ويحبون أن ينغمسوا في الملذّات إلى قمة رؤوسهم، ما الذي يعطِّل عليهم رغبتهم ؟ منهج الله عزّ وجل، إذاً لابدّ من محاربته، والقرآن

يأمر بغض البصر، وهم يجدون متعةً بالغةً في إطلاق البصر، القرآن يأمر بالكسب الحلال، هم يجدون متعةً بالغةً في الكسب الحرام، القرآن يأمرهم بعدم إيذاء الآخرين، هم يبنون أمجادهم على أنقاض الآخرين، القرآن يأمرهم أن يقفوا عند حدود الله، هم يريدون أن يتحرّكوا كالدواب المنفلتة.

نظام شهواتهم وعقيدتهم القائلة بأن الدنيا هي كل شيء، وأن الموت نهاية كل شيء، وأن الآخرة سرابٌ في سراب، هذه العقائد وتلك الشهوات لا يناسبها القرآن، القرآن منهج، القرآن منظومة قيَم، مجموعة أوامر و نواهٍ، لذلك هناك تناقض بين عقيدة الكافر ومطامحه في الحياة، لذلك من الطبيعي جداً أن يحارب القرآن، طبيعي جداً، فالقرآن نظام مثالي يكشف انحراف الكافرين..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ)

معنى: وَالْغَوْا فِيهِ

المعنى الأول:

أي ما من كلمةٍ تصدق على:

(وَالْغَوْا فِيهِ)

كالقراءة المُعاصرة للقرآن الكريم، أي نريد أن نفرّغ الآيات من مضمونها، نريد أن نربط القرآن بالسلوك المعاصر، وأن نجعل الإنسان يفعل كل شيء، ويرتكب كل المعاصي، ويقتنص كل الشهوات، وهو مغطّى بالقرآن، فعملية جر الآيات إلى مصالح وإلى انحرافات وإلى شهوات هذا معنى:

(وَالْغَوْا فِيهِ)

المعنى الثاني:

أو لا تسمعوا لهذا القرآن، وأتوا بكلامٍ آخر لينشغل الناس به، فهناك قرآن وهناك غناء، وشِعر لا يقدِّم للإنسان شيئاً، فإما أن تأتي بكلام من أجل أن تشغب على القرآن، من أجل أن تصرف الناس عنه، وإما أن تحاول أن تؤوّل القرآن تأويلاً غير صحيح، وإما أن تفجّره من داخله أو تُعَطِّله، أو تُشاغِب عليه، وأحياناً كثيرة نحن نرغب أن لا نسمع الناس هذا البث، فنشوّش عليه تشويشا، فالكافر ماذا يفعل ؟ يشوّش على القرآن بأن يأتي بأشياء مناقضة له.

والقرآن يقول: إن الإنسان أصله من آدم وحواء، والكافر يقول: الإنسان أصله قرد كما قال داروين، وهذه النظريّة تشوّش على الكتاب تفسيره لبدء الخلق، القرآن يقول لك: الآجال محدودة، والكافر يقول

لك: لا، هذا الدواء يطيل العمر، القرآن يقول: غضوا الأبصار، بينما يقول الكافر: لا، هذا جمال فاستمتع به، لأنك إنسان وعندك حاجات، فالكافر دائماً يأتي بنظريات، وتعليلات، وتوجيهات تناقض القرآن الكريم، فهذا معنى قوله:

(وَالْغَوْا فِيهِ)

أي شوّشوا عليه، أو انقضوا ما فيه، أو عطِّلوه، إنها عملية محاربة للقرآن الكريم، إما أن نقول: هذا الكلام ليس كلام الله، أو أنه لا يصلح لهذا الزمان، أو أن فيه تناقضات كثيرة جداً، أو أنه كتابٌ تاريخي، وانتهى أجله، أو أن نأتي بتأويلاتٍ لآيات القرآن الكريم تفسد معناها الحقيقي، أو أن نربط هذا القرآن بالسلوك المعاصر، أو أن نفرّغ الآيات من مضمونها، هذا كلّه محاولات الكفار للنيل من هذا الكتاب، لكنّه والحمد لله شامخٌ كالطود، وكلّما ائتمر الكفار على التشويش عليه ما زادوه إلا قوّةً، وما زادوه إلا وضوحاً، وكما قيل: لو تحوّل الناس جميعاً إلى كنّاسين ليغبّروا على الإسلام ما غبّروا إلا على أنفسهم"، وما ضرّ السحبَ وهي في السماء نباحُ الكلاب وهي في الأرض. يقول الله عزّ وجل:

(فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ

1 ـ للباطل جولة ثم يضمحل:

هذا وعيدٌ من الله عزّ وجل، فالإنسان ليتحرّك ما شاء له التحرُّك، أما أن يقف في خندقٍ معادٍ للدين فهذا من أشقى الناس، لأن هذا الدين دين الله، والله سبحانه وتعالى يقصم أعداءه، والإنسان يتحرّك لكن أن يجعل نشاطه في معاداة الدين، ومعاداة هذا الكتاب الكريم، وأهل الحق والدعاة الصادقين، فهذا من أشقى الناس..

(ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

وللباطل جولةٌ ثمّ يضمحِل، وكلكم يعلم أن البشريّة مهما ابتعدت عن الدين فلابدّ من أن تعود إليه، لأنه ملاذها في النهاية، وقد أتى على الناس وقتٌ تألّقت فيه المبادئ الوضعيّة، وأعرضوا عن دين الله عزّ وجل، لكن هذه المبادئ الوضعيّة ما لبثت أن انهارت واضمحلّت، وظهرت تناقضاتها، وأصبحت

تدوسها الأقدام، ولم يبقَ أمام الناس حلٍ لما هم فيه، وخلاصٍ لمحنتهم إلا أن يعودوا إلى الله عزّ وجل.
أما قوله تعالى:

(فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً)

2 ـ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً

ألا ترون أيها الإخوة إلى الكوارث التي تقع من حينٍ لآخر، ولا سيما في بلادٍ كفرت بربّها، وانحرفت انحرافاً شديداً ؟ البلاد التي تحتضن الانحرافات الأخلاقيّة، وترعى كل المعاصي، وفيها قلاعٌ عتيدة ترتكب فيها المعاصي، وهذه البلاد تارةً أصيبت بالزلازل، وتارةً أصيبت بالانهيارات أو الحروب الأهليّة، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً)

ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

فالتاريخ المعاصر مملوء بالعذاب الشديد الذي يصيب الكفّار، أما الذين يدّعون الإيمان أيضاً فلا ينجون من عذاب الله، لكن عذاب الله للمؤمنين المقصّرين عذابٌ رَدْعِيّ، بينما عذاب الله للكفّار عذاب قصم وإنهاء. أما يوم القيامة:

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

3 ـ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ

لقد استمتع عشر سنوات بالمعاصي، الأيام التي عاشها تُعد، والمباهج التي نعم بها تُعد، لكن جهنّم أبديّة لا تعد، أيّامها لا تعد. إذاً:

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28))

ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ

1 ـ الجحود بآيات الله أول طريق الكافر:

والحقيقة الجحود بالآيات أول الطريق، جحد بالآيات أي لم يؤمن بالله عزّ وجل من خلال جحوده بالآيات، إن لم يؤمن بالله عزّ وجل، وهو عنده شهوات متقدة انطلق وراء شهواته، من لوازم اتباع الشهوات الطُغيان، لأن الشهوة عمياء، الشهوة من دون منهج، ومن دون قرآن شهوة طاغية، والطغيان معه ظلم والظلم مصيره العقاب الأليم.

إذاً:

(ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

2 ـ كل المعاصي تأتي بعد الجحود:

الحقيقة أن الله ذكر أول الذنب، أما البقيّة فواضحة، جحد بالآيات فارتكب المعاصي والموبقات، وطغى وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى فاستحق هذا العذاب الأليم الأبدي السرمدي ..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)

إنه مشهدٌ عظيمٌ:

ففي يوم القيامة هناك مشكلة ثانية، هي أن الضال يصبُّ كل حقده على الذي كان سبباً لضلاله، وقبل قليل ذكرت لكم أنه لا يستطيع أن يضل أحدٌ، لكن توافق رغبات، توافق ميول، والإنسان بساعة من ساعات ألمه الشديد يتكلّم كلام لا معنى له..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى صورةٍ أخرى، هنا هؤلاء القرناء كيف يوسوسون، وكيف يدفعون الإنسان إلى المعصية، وكيف يتخلون عنه يوم القيامة، ولكن المؤمنين لهم شيءٌ آخر، لهم ملائكةٌ..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

وشتّانَ بين وسوسة الشيطان وإلهامات الملك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (05-11): تفسير الآيات 30-32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-12-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة فصِّلت، ومع الآية الثلاثين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32))

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ

1 - الغرضُ من استعمال التوكيد:

أيها الإخوة، إنَّ حرف مشبَّهٌ بالفعل يفيد التوكيد، فهنا تؤكِّد ماذا ؟

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ)

فإن تفيد توكيد، أو تأكيد إسناد الخبر للمبتدأ، تقول: العلمُ نافعٌ، يقول لك أحدهم: أين نفعه، فالمتعلِّمون أقلّ الناس دخلاً ؟ تقول له: إنَّ العلم نافع، تريد أن تؤكِّد إسناد الخبر للمبتدأ، أي أن العلم نافعٌ قطعاً، وأؤكِّد لك ذلك.

فربنا سبحانه وتعالى إذا جاء في كلامه أدوات توكيد فالتوكيد لنا ليطمئننا، وليزيل وحشتنا، وليجعلنا نطمئن إلى وعده، فالتوكيدات التي تأتي في القرآن الكريم المقصود منها تطمين المؤمن..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

2 - هل يكفي أن يقولوا: ربنا الله ؟

قد تسألون هذا السؤال: هل يكفي أن يقولوا: ربنا الله ؟ كلمة (قال) في القرآن الكريم وفي السُّنة المطهَّرة تعني أنه اعتقد جازماً، عملية تثبيت، هذا الإنسان درس، واستقصى، وتأمّل، وحلّل، وبحث عن الأدلّة والأسباب، ثم استقرَّت في نفسه حقيقة، فإذا استقرَّت يقول: أنا مؤمنٌ بكذا، لكن بعد ظهور النفاق صار القول يحتاج إلى أن يؤكِّده العمل، وأن يؤكده ما في القلب، لأن الإيمان تصديقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان.

" ليس الإسلام بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل ".

[هذا القول لم يصح عن النبي عليه الصلاة والسلام بل هو من قول الحسن البصري]

أما كلمة قالوا هنا فمقصودها إنسان بعد البحث، والدرس، والتأمُّل، والاستقصاء، والأخذ والرد استقرَّت في نفسه حقيقة، فلمَّا استقرَّت عبَّر عن استقرارها بأنه قال كذا..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

3 - إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ

مقام الربوبية:

ربنا تعني مُرَبِّينا، إذ لا يوجد اسم من أسماء الله عزّ وجل أقرب للمؤمن خاصّة، وللإنسان عامّة من كلمة رب، إذ مقام الربوبيّة يحتاج إلى عِلم، ويحتاج إلى رحمة، وخبرة، وقوّة، وغنى.

تصوَّر أبا في أعلى درجات الفهم، والغنى، والقوة، والحكمة، والنزاهة وعنده طفلٌ صغير يربيه، ويربي جسده، فإذا احتاج إلى عمليّة جراحيّة يجريها له عند أمهر الأطبّاء، إذا لزمه تقويم أسنان يقوم له به عند الأطبّاء، وإذا رأى في سلوكه انحرافاً يسلك معه طريق التربية الرادعة أو المشجّعة.

فالتربية مقام أساسه العلم والرحمة، وأساسه الحكمة، والعطف، والقوّة، والغنى، والخبرة، فإذا أيقنت أن الذي يربيك حقيقةً كيف يربيك ؟ أولاً اختارك من هذا الأب وهذه الأم لحكمةٍ ما بعدها حكمة، ولو كُشف الغطاء لاخترت الواقع، اختارك من أبٍ وأم، واختارك أن تكون في هذه البلدة، وأن تأتي إلى الدنيا في هذا الزمن، وأعطاك شكلاً خاصّاً، وقدارت ومعطيات وظروفاً بيئيّةً خاصّة، فهذه الأم وذاك الأب، وهذا المكان وذاك الزمان، وهذه القدرات وتلك المعطيات، وهذه الظروف التي مررت بها هذه من عند حكيمٍ، عليمٍ، خبيرٍ، رحيمٍ، قويٍ، غني، وليس في الإمكان أبدع مما كان.

لا يكمل إيمام مؤمن حتى يرضى بقضاء الله وقدره:

إذا أيقنت أن ربّك هو الله، الله عَلَمٌ على الذات صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، واجب الوجوب، الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، والكون كله بيده، والأحداث كلّها من صُنعه، وخصوم الإنسان كلّهم في قبضته، وأجهزة الإنسان كلها رهن إشارته، ما فوق الإنسان، وما تحت الإنسان، وما قبل الإنسان، وما بعده، وكل ما يجري في هذا الكون بيده.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(64))

(سورة غافر)

الإله الذي أوجد هذا العالم وسيَّره، هو الموجود والواحد والكامل، كلمة الله تعني مقام الخالق، مقام الخلق، مقام الربوبيَّة، مقام التسيير والألوهيَّة، وتعني الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

الإنسان لا يستكمل إيمانه إلا إذا علم أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، والإنسان أحياناً من بعض الأمثلة الماديَّة يفهم بعض الحقائق.

تصوَّر طفلا صغيرا له أبٌ عظيم ؛ عظيم برحمته، وبعلمه، عظيم بحكمته، عظيم بحرصه، عظيم بإخلاصه، وبقوَّته، كل هذه الخبرات، وتلك القُدرات، وهذه الحِكَم، وتلك العلوم كلها من أجل أن يكون هذا الابن في أعلى درجات الرُقي، الأب مربٍ والأم مربيَّة، أما إذا وضعنا تربية الأب والأم أمام تربية الله عزّ وجل فهي لا شيء، لأنهما يربيان ابنهما على حسب علمهما، وشتَّان بين علم المخلوق وعلم الخالق، يربيان ابنهما على قدر إمكاناتهما، وشتَّان بين محدوديتهما وبين طلاقة قدرة الله عزّ وجل، والإنسان حينما يؤمن أنّ الله هو المربي تُحلُّ كل مشكلاته، لأنه رحيم حكيم عليم، وهذا الذي ساقه لك قراره، هذا أمره، لهذا قالوا: " الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن "، فما من مشكلة، وليس في الإمكان أبدع مما كان..

((لا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[من صحيح مسلم عن أبي هريرة]

الإنسان لا يسعد إلا إذا اطمأنّ إلى جهةٍ عظيمةٍ ترعاه وتربيه، لذلك ترى معنويات المؤمن عاليةً جداً، من أين جاءها هذا العُلو ؟ من ثقته أن الله هو المُربي.

تربية الأب والأم مظهرٌ لعناية الله بالإنسان:

مرَّة سمعت كلمةً في الطريق أثارت مشاعري، أحدهم يقول للآخر: إذا لم يكن له أب فله رب ؟ شعرت أن ربنا جلّ جلاله هو المُربي وحده، وما تربية الأب وما تربية الأم إلا مظهرٌ لعناية الله بهذا الإنسان.

ليس هناك أمرٌ في كتاب الله من أوله إلى آخره، ولا في سنة رسول الله، يقول لك: كُلِ الطعام، لأن هذا شيء بديهي، فالله عزّ وجل أودع فيك الدافع إلى تناول الطعام، إنه دافع قوي، فأنت لا تنام الليل إن كنت جائعاً، تبحث عن الطعام من دون أن تحتاج إلى أمر يقول لك: كل الطعام، بل رَكَّبه في طبيعتك، ذكرت هذا المثل تمهيداً لمثل آخر:

الله عزّ وجل أودع حبّ الأبناء في قلوب الآباء، الأب لا يسعد إلا إذا كان ابنه سعيداً، فلا يقر له قرار إلا إذا كان ناجحاً في عمله، وزواجه، وبيته وفي مجتمعه، بل إن الأب يتمنّى أن يكون ابنه أعلى الناس وأعلى منه، والأم كذلك، فحُب الله لهذا المخلوق جُسِّد وتمثّل في حب أمِّه وأبيه له.

اذهب إلى بعض المصحّات أو إلى مستشفى الأطفال، وانظر، الأمهات على اختلاف زيّهن، وانتماءاتهن، ومشاربهن، وثقافاتهن ؛ أم مثقّفة، أم غير مثقّفة، أم مسلمة، أم غير مسلمة، أم متفلِّتة من الدين، أم منضبطة بأمر الله، كل هؤلاء النسوة يعطفن على أولادهن، ويشفقن عليهن بشكلٍ لا يصدّق، وهذا ما أودعه الله في قلوب الأمهات.. **" إذا أحبّ الله عبداً ألقى حبّه في قلوب الخلق ".**

والله الذي لا إله إلا هو حينما أرى عناية أبٍ أو أمٍّ منصبّةً على ولدهما لا أرى إلا عناية الله مجسّدة في عناية الأب والأم.

قصّة رمزيّة لم تقع، لكن لها معنى: أمٌ كانت تخبز على التنور، وابنها على طرف التنور، فكلّما وضعت رغيفاً في التنور قبّلته، نبيٌ كريم قال: يا رب، ما هذه الرحمة التي أودعتها في قلب هذه الأم ؟ قال: هذه رحمتي، ولو نزعتها لألقته في التنور.

أمامنا بعض الحيوانات تأكل أولادها، حيوانات كثيرة، تربيه إلى أجلٍ، ثم تأكله، من أودع في قلوب الآباء والأمّهات هذا العطف وذاك الحرص، انظر إلى كل الأسر تقريباً، الأب يسعى ليلاً نهاراً لتزويج أبنائه، ولتأمين مستقبلهم، والأم تسعى ليلاً نهاراً لزواج بناتها، بل إن في الأمهات عاطفةً عمياء فالأم تعطف على بناتها وتراهن في أعلى المستويات وهنّ لسن كذلك، لكن هذا من تكريم الله للإنسان.

حينما يكون علمُ الإنسانِ محدوداً يرى أمه وأباه، أما إذا تعمّق في العلم فيرى رحمة الله تجسّدت في رحمة الأب والأم، ينظر عناية الله تجسّدت في عناية الأب والأم، وحكمة الله تجسّدت في أنه أودع في قلب الأم والأب هذا العطف وذاك الحب وهذه الرحمة.

كيف أن الإنسان يندفع إلى تناول الطعام، ولا يحتاج إلى أمر، ولا إلى توجيه، ولا فريضة، ولا أن يسأل: أخي ما رأي الفقهاء في تناول الطعام ؟ فأنت لا تحتاج إلى رأي الفقهاء، قم وكل، هذا الموضوع لا يحتاج إلى رأي الفقهاء، وهو مركّب في جِبِلّتك، وفي كيانك. وكذلك رحمة الآباء والأمهات بالأبناء مركّبةٌ في كيان كل أبٍ وأم، وهذا تجسيدٌ لرحمة الله عزّ وجل، حتى أن بعض المفسِّرين حينما فسّر قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: من الآية 39)

فُسِّرَت هذه الآية بأن محبة العباد انعكاسٌ لمحبة الله.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

إذا آمنت أن الله هو الرب، وأنا أقول لكم أيها الإخوة: والله لو كُشِفَ الغطاء، أو لو كشف الله لهذا الإنسان عن حكمة الذي ساقه إليه من المكاره، والصعوبات، والمتاعب والله الذي لا إله إلا هو يجب أن يذوب كالشمعة تماماً حباً لله عزّ وجل، هكذا ينبغي له أن يكون، لكن هذا الذي يعترض على أفعال الله، وعلى حكمته، وتصرُّفاته، وقد يطعن في بعض أسمائه الحُسنى هذا إنسان لا يعرف الله..

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران: من الآية 154)

أنت ربك الله، فالتربية تبدأ ؛ إذا استقمت يشجّعك، إذا انحرفت يؤدّبك، وإذا كسبت مالا حلالا يبارك لك فيه، والمال الحرام يتلفه لك، وأعطاك درسا قاسيا، وإذا تجبّر الإنسان قصمه، وإذا تكبّر أهانه، وإذاتواضع رفعه، فحينما تفهم على الله أفعاله تكون قد قطعت شوطاً كبيراً في طريق معرفة الله.

4 ـ المؤمن يرى ربّه الله:

مركز الثِقل في الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

الإنسان لا يرى الله ربّه، بل يرى زيدا أو عُبَيدا، ويرى شخصاً قوياً هو ربُه يعبده من دون الله، يتمنّى رضاه، وينفِّذ أمره بتفاصيله، ولو خالفتْ أوامره أوامر الله عزّ وجل، أما المؤمن فيرى ربّه الله، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

5 ـ التربية تعني الحرصَ على التأديب:

آمن بالله خالقاً، وآمن بالله مربياً له، لكن اسم المربّي هو أقرب اسم من أسماء الله الحسنى للإنسان، يربيك الله عزّ وجل فيسوق لك مرضًا، وهذا المرض يردُّك إليه، أو يسوق فقرًا، وهذا الفقر يُلجِئُكَ إلى باب عبوديّته، ويفعل معك فعلاً بليغاً، فيعطيك درساً لا يُنسى، الإنسان أحياناً يتكلّم كلمة فيها شرك فربنا يؤدِّبه، فالمربي مؤدِّب.

لو كان هناك في الطريق ثلاثة أولاد يدخِّنون مثلاً، فمرّ رجل، وهذا الرجل أبٌ لأحد هؤلاء الأولاد، وعمٌ للثاني، والثالث لا يعرفه، ولا يقربه، أي ليس هناك قرابة، تجد هذا الأب انفعل انفعالاً شديدًا، وكاد يخرج من جلده حرصاً على ابنه، وانفعاله مع ابن أخيه أقلُّ، أما هذا الطفل الثالث فيقول له: امش، اذهب إلى سبيلك، فالأب يعنِّف ابنه تعنيفًا شديدًا، وأقلّ من هذا التعنيف لابن أخيه، وهذا الطفل الثالث لا يعنِّفه إطلاقاً.

إذاً: التربية تعني الحرص، والحرص يعني التأديب أحياناً، فربنا عزّ وجل لأنه يحبُّنا، ولأنه خلقنا لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، ولأنه يحرص على سعادتنا فلذلك يؤدِّبنا.

أحياناً أشبه بالأب الطبيب، لماذا أقول: أب طبيب، لأنه يجمع بين الرحمة والعلم، فالأب الطبيب إن رأى في جسد ابنه خللاً يمارس عليه كل وسائل الشدّة، لحمايته من الطعام المؤذي، فالتعليمات قاسية جداً، لأن الحِرص شديد جداً، والرحمة شديدة جداً، فالرحمة مع العلم ليس هناك أعظم منها، والآن هناك أمّهات جاهلات يرحمن أولادهن رحمةً عمياء، فيسببن لهم الدمار، ولكن رحمة الله مع العلم..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

ثُمَّ اسْتَقَامُوا

1 ـ معنى الاستقامة:

استقاموا على أمره، واستقاموا إليه، واستقامت عقيدتهم، واستقام وقلبهم بالإقبال عليه، وجوارحهم بالانضباط بأمره ونهيه، والاستقامة تعني أشياء كثيرة، فلان عقيدته غير مستقيمة أي فيها خلل، هؤلاء قالوا:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

2 ـ لابد من إتباع الإيمان بالاستقامة:

لكن المعنى الإجمالي هنا: استقاموا على أمره، والشيء الذي يجذب النظر في هذه الآية أن تقول: الله ربيّ، والإسلام ديني، ومحمدٌ نبيّ، من دون أن تستقيم على أمر الله، ومن دون أن تتبع سُنّة رسول الله، فهذا كلامٌ فارغٌ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، فعلامة صدق إيمانهم بربّهم استقامتهم على أمره..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

إعراب الذين اسم إنّ..

الجملة الأولى صلة والثانية معطوفة، وكل هذا الكلام اسم إن، أين الخبر ؟ الخبر هو الكلام المتمّم الفائدة، فقد تقول أحياناً: فلانٌ الذي شاهدته معي البارحة، ويقول لك: نعم، كان طويل القامة، يقول لك: نعم تذكّرت، يحمل محفظة، نعم تذكّرت، الذي يرتدي ثيابًا بنية اللون، ويقول لك: نعم ما الذي حصل له؟ يحتاج إلى خبر، الصفة غير الخبر..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

اسكت بعدها، يقول لك: ما بهم ؟ ما شأنهم ؟ ما الخبر ؟ الخبر..

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا

خطران يهدِّدان الإنسان: الخوف من المستقبل والحزن على الماضي:

أيها الإخوة الكرام، هناك خطران يعاني منهما كل إنسان، الخطر الأول: الخوف من المستقبل، يقول لك: الله لا يبرّكنا (يقعدنا)، هو ليس فيه شيء، ولكنه خائف أن يبرك، يسمع عن أمراض عضالة فتجده يدعو الله: يا رب، هذه الأمراض صعبة، يا رب عافِنا منها، إذًا هناك خوف من المستقبل دائماً، من مرض عضال، أو من فقر مفاجئ، أو من تدنٍ، من وقف هذا الدخل، من بوار هذه التجارة، أي هناك خوف المستقبل.

وهناك ندم على ما مضى، يقول لك: لو درست، ولو تزوّجت فلانة، ولو اشتريت هذا البيت كان ثمنه عشرين ألفا، والآن ثمنه ثلاثون مليونًا، عرضوه عليّ، ولم اشتره، فهذا الخوف من المستقبل، والندم على ما فات، هذان الشيئان المُقْلِقَان المؤمن عافاه الله منهما، سُئل سيدنا علي كرّم الله وجهه عن الزُهد فقال في كلمتين: **<< لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم >>.**

فالمؤمن تأتيه الملائكة، والشياطين يأتون أولياءهم ويوسوسون لهم ؛ فالملائكة دائماً تتنزّل على المؤمن تطمئنه لمستقبله، وتبعده عن أن يندم على ما فاته..

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا)

مما سيكون..

(وَلَا تَحْزَنُوا)

على ما فاتكم.

قال لي أخ كريم: أنا كنت قبل خمسين سنة أنشط من الآن، فالآن لست نشيطا، والإنسان إذا تقدّمت به السن تضعف حركته، ويضعف نشاطه، ويحتاج إلى قطع غيار، وإلى نظّارة طبيّة، وإلى بدلة لأسنانه، ويندم على سن الشباب، كيف كانت أسنانه كاللؤلؤ في فمه، وكيف كان حاد البصر ؟ كيف كان يتحرّك حركة نشيطة جداً ؟ يركض خمسة كيلو مترات، والآن لا يركض، ولا يمشي في الأصل، هذا الندم على ما فات شيء مؤلم..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ)

لا يوجد إنسان لا يترك بيتًا في حي خشن، فيه بيوت مزدحمة جداً، والأولاد كُثُر، والصرف الصحي سيئ مثلاً، والبيوت غير صحيَّة، وينتقل إلى بيت فخم بحي راق، حيث الشمس الساطعة، وحيث المساحات الواسعة والحدائق الغنّاء ويتألّم..

(أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ)

وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

1 ـ المؤمن يرى مقامه في الجنة:

يشعر المؤمن بدنوّ أجله، ومن كرامته على الله أن الله يريه مقامه في الجنة، فإذا أراه مقامه في الجنّة يقول: لم أرَ شرّاً قط، وينسى كل المتاعب التي عاناها في حياته، وكل المصاعب، وكل الأمراض حتى كل الأخطار، لذلك ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((إِنّ الْمَيّتَ لَيُعَذّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ))

[من صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر]

ومن أدقّ توجيهات هذا الحديث أن الرجل المؤمن إذا وافته المنيّة، وأراه الله مقامه في الجنّة، يتألّم كثيراً لأن أهله يبكون عليه، هو في أعلى مقام وفي أسعد حال، ولذلك فعلامة المؤمن أنه متفائل، ولا يزيده مضي الزمن إلا رفعةً، وإنّ تطور الزمن لصالح المؤمن، لأن خطّه البياني صاعد، ومضي الزمن لمصلحته، لأنه حينما يقوده الزمن إلى الموت، و**" الموت تحفة المؤمن ".**

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ)

هذه الآية تذكّرنا بقوله تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

وتوجد آية مشابهة:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

اجمع الآيتين، الذي يتبع هدى الله عزّ وجل لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يخشى مما هو آت، ولا يندم على ما فات. وأجمل آية توضّح هذه الآيات:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا)

(سورة التوبة: من الآية 51)

2 ـ الخوف من المجهول والندم على الفائت تدمير للصحة النفسية:

والحقيقة أن المستقبل مخيف، إذا نشأ الإنسان في معصية الله، ومكّن حياته، استقرّت حياته، واستقر دخله، ولا يقلقه إلا الأمراض التي يلدها الزمان، ولا يزعجه إلا المجهول، أما المؤمن فهو مرتاحٌ لعطاء الله، ومرتاحٌ لتطمين الله عزّ وجل، و لوعْد الله، ولبشارة الملائكة، فهذا الذي لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، ولا يخشى مما هو آت، ولا يندم على ما فات، ماذا بقي في السعادة ؟ هذه كل السعادة ؛ لا شقاء ولا ضلال، ولا ندم ولا خوف، ودائماً الندم للماضي والخوف للمستقبل، الأحوال النفسيّة السيئة تدمِّر الصحّة النفسيّة.

الآن أيها الإخوة أكثر الأمراض أساسها الشدّة النفسيّة، الضغط النفسي، والقلق، والشعور بالحرمان، والقَهر، وهي المشكلة التي لا حل لها، أما المؤمن فهو معافىً نفسياً من كل هذه الأمراض..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

لكن هذا الكلام يحتاج إلى همم عالية، كلمة..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

3 ـ الفائدةُ من العطف بثُمّ: ثُمَّ اسْتَقَامُوا:

ثمّ تفيد الترتيب لا على التعقيب، بل الترتيب على التراخي، فلماذا جاءت ثم ؟ لمَ لم يقل الله عزّ وجل: إن الذين قالوا ربنا الله فاستقاموا ؟ أن تقول: ربنا الله، هذه ليست كلمة تقولها عرضاً، هذه تحتاج إلى وقت، وإلى مُدارسة، وسؤال وجواب، وطلب عِلم، وتفكّر في السماوات والأرض، وتلاوة كتاب الله، وحضور مجالس علم، تحتاج إلى أن تبذل من مالك، ومن وقتك، وفراغك، وخبرتك..

(قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

وهذا القول أخَذَ من جهدهم ووقتهم الشيء الكثير..

(ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

4 ـ الاستقامة لابد لها من وقتٍ وجهدٍ:

هذا معنى أول، كلمة ربنا الله ربنا لخّصها بكلمة، لكنها جهد جاهد، فأنت أحياناً تتكلّم على حياة إنسان: أنه ولد في مكان كذا، ونشأ في المكان الفُلاني، وتلقّى علومه الابتدائيّة في المدرسة الفلانيّة، وعلومه الإعداديّة والثانويّة في المدرسة الفلانيّة، وانتسب إلى الجامعة، وأنت تقول: ثم نال الدكتوراه، سبع

سنوات دراسة، ماجستير، ودكتوراه، وأطروحات، ومواد متمِّمة، وأستاذ مشرف، وأستاذ فاحص، وأستاذ مقرِّر، وأستاذ يُعطي النتيجة، وأعد المحاضرة، وأعد البحث، وأعد كتابته، بيّضه لي مرّة ثانية، يقول لك: سبع سنوات متّ موتًا حتى نلت الدكتوراه، أما في تاريخ الحياة فيقال: ثم نال الدكتوراه، كلمة، ولكن يقابلها سبع سنوات، هذا معنى..

(قالُوا رَبُّنَا اللّهُ)

لكن هذه تحتاج إلى وقت طويل..

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت: من الآية 69)

كم درس علم حضرت ؟ يقول لك: سبع سنوات لم أتغيَّب عن درس واحد، كم من ماله أنفقه في سبيل الله ؟ وكم يوم استيقظ صباحاً فقرأ القرآن، وذكر الله عزّ وجل ؟ مائة ألف أو مليون امرأة غضّ بصره عنها، كلّما مشى في الطريق يغض بصره مثلاً، فهذه الجهود النظريّة والعمليّة، والبذل، والتضحية، وطلب العلم، والتواضع لمن تتعلّم هذا كلّه مشمول بقوله: ثم، التي تفيد الترتيب على التراخي..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

الحقيقة أنّ قيمة إيمانك من استقامتك، قبل الاستقامة لا تفكِّر أن إيمانك له قيمة إطلاقاً، لأنه قبل الاستقامة أنت مثلُ إنسان نظر إلى الشمس في رابعة النهار ؛ نظر، فصفن، فقطّب جبينه، ففكّر، وبعد هذا قال لك: الشمس ساطعة، أنت ماذا فعلت ؟ ما فعلت شيئًا، إني قلت: إنها ساطعة، هي ساطعة، وإن قلت: ليست ساطعة، هي ساطعة، سواء أثبت سطوعها لم تفعل شيئاً، ولا إذا أنكرت سطوعها فعلت شيئاً، إن قلت: غير ساطعة فلا أحد يصدِّقك، وإن قلت: ساطعة فما فعلت شيئاً.

إذا اعترفت أن الله موجود، تقول: أنا أشهد أنه لا إله إلا الله، لكننا نريد أن نرى استقامتك ؛ وبيعك، وشراءك، والتزامك، وصدقك، وأمانتك، وعفّتك، وغض بصرك، وإحسانك لزوجتك، ننظر أين عملك؟ فلذلك الله عزّ وجل جعل الاستقامة علامةً على صدق الإيمان، وإلا فالإيمان نفاق، والإيمان فيه خلل..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

قال: هؤلاء.

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

فعلامة المؤمن الصادق، المطبّق لأوامر الله عزّ وجل، المتمثِّل سنة النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يخاف مما هو آت، ولا يندم على ما فات، ولقد ورد في حق الصدِّيق أنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط.

من دواعي استسلامك لله عزّ وجل شعورك أن الذي حدث وراءه حكمةٌ بالغة، وأن الله بيده كل شيء،

وهذا الذي حدث فيه كل أسماء الله الحسنى ؛ فيه الحكمة، والعدالة، والرحمة، والخبرة، والقوّة، والرَدع، والتربية، وكل أسماء الله الحسنى منطويةٌ في أفعاله، ولذلك بعضهم قال: حينما يتحدّث الله عن أفعاله، يستخدم ضمير الجمع..

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى)

(سورة يس: من الآية 12)

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(1))

(سورة القدر)

أما حينما يتحدّث الله جلّ جلاله عن ذاته فيستخدم ضمير المُفْرَد..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

فإنني وإننا، إننا أي إن أفعاله فيها كل أسمائه الحسنى، وكل أسمائه الحسنى في أفعاله..

(أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ

1 ـ وعدُ الله بشارةٌ للمؤمن وسعادةٌ له:

الحقيقة أنّ بشارة الله للمؤمن، ووعد الله له هو الذي يسعده.

إنّ إنسانًا فقيرًا جداً متعبًا جداً، يعيش في أصعب الحالات، لكنه موعود بمبلغ كبير يوفِّر له أجمل بيت، وأجمل مركبة، وأجمل مصير، فهذا الوعد القطعي يمتصُّ كل متاعبه في الدنيا، فالمؤمن راض، لأنه موعود بالجنّة، قد يكون دخله قليلا فهو راض، أو يكون في جسمه عدّة علل فهو راض، وقد تكون زوجته ليست على ما يرام فتجده يقول: الحمد لله على الحال التي الله قسمها لي، حتى إن الإمام علياً كرّم الله وجهه حينما سُئل عن قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

قال: **<< الحياة الطيّبة هي القناعة بنصيبك من الله عزّ وجل >>.**

2 ـ الرضى بقسمة الله من سعادة المؤمن:

إذا رضي الإنسان عن الله، رضي عن نصيبه من الله، قبل شخصيَّته، وقَبلَ شكله، ودخله، وحرفته، وزوجته، وأولاده، فيقول: يا ربّ هذا أنت قسمته لي، فما من إنسان أسعد من الراضي بما آتاه الله، وهذا الرضى مقام عال، يا رب أنت هكذا اخترت لي، وأنا راض، تجد أن المؤمن قلبه مفعمٌ بالرضى، لأن رضاه من علمه، يعلم أن هذا الذي ساقه الله إليه هو أكمل شيء ـ بالنسبة له طبعاً، وليس كمالا مطلقا ـ فهذا الوضع يناسبه.

" إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه ".

وهناك حكمة إلهيّة، فالمؤمن مستسلم لله عزّ وجل، وليس معنى هذا الكلام أن يقعد الإنسان عن طلب المزيد، لا، ولكن حينما يبذل كل طاقته وتنتهي به كل جهوده إلى هذا المكان، فعندئذٍ يرضى بقضاء الله وقدره.

قال:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ{31} نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

1 ـ الله وليُّ المؤمنين:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ)

والله هذه كلمة رائعة، فالمؤمن يشعر أن الله وليُّه يدافع عنه، الله سبحانه وتعالى ينقله من منزلةٍ إلى منزلة، ويؤدِّبه، ويكرّمه، ويفرحه، ويبكيه أحياناً، ويحرمه، ويعطيه، ويسوقه إلى عباده الصالحين، يجمعه مع أهل الحق، ويبعده عن مزالق السوء..

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ)

ولله المثل الأعلى: تصوَّر أبًا يزوّج ابنته فيقول لك: أريد أن ألتقِي مع الخطيب، وأريد رؤيته، فيتفحَّص شخصيته، وأخلاقه، وصلاته، ويسأله عن دينه، وأين ستسكن ابنتي ؟ آلاف الأسئلة، لأنه هو وليُّها الذي يرعاها، ويحدب عليها، ويعطف عليها، ويحبُّها، ولله المثل الأعلى، إله خالق الكون يقول:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ)

هنيئاً لمن كان الله وليّه..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 257)

وربنا عزّ وجل ينقلك من وضع إلى وضع أحسن، ومن تفلّت إلى تمسُّك، ومن شقاء إلى لسعادة، ومن ضياع إلى وجدان، ومن نِقمة إلى رضى، ويؤويك في بيت، ويزوّجك، وييسّر لك عملك التجاري فتربح فيأتيك الدخل الحلال، ويجمعك مع أهل الحق، ويجمعك مع الصالحين، ويدخل على قلبك السرور..

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

2 ـ الاستقامة سببُ ولاية الله للمؤمن:

الإنسان إذا كان في طاعة الله صار الله وليُّه، والحقيقة أنّ القضيّة سهلة جداً، لمجرّد أن تستقيم على أمره تستحق أن يكون الله وليّك، خرج الإنسان عن أمر الله عزّ وجل فكأنه جعل الشيطان وليّه، هو عدوٌ مضلٌ مبين، فكل إنسان يعصي الله خرج من ولاية الله، وصار تحت ولاية الشيطان، هو وليُّهم يخرجهم من النور إلى الظلمات، فالإنسان المؤمن إذا قرأ هذه الآية شعر أن الله وليُّه يدافع عنه، يأخذ بيده كلّما عَثَرَ، كلّما زلّت قدمه يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة، يتوب عليه ليتوب، هذا معنى وليُّه..

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

فأنت لست سائباً، فالله عزّ وجل قال:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115))

(سورة المؤمنون)

بل أنت ضمن التربية.

3 ـ ولاية الله للمؤمن في الدنيا والآخرة معًا:

النقطة الدقيقة: أحياناً الإنسان يحرص على مصلحة إنسان، ولكن في الدنيا فقط، فالأم تتمنّى لابنتها البيت الفخم، والزوج الغني، والأدوات الحديثة، والمركبة الفارهة، وقد تنسى أن ابنتها ليست في طاعة الله، فإذا قرّت عينها بدنياها، وبيتها، وزوجها الغني، والبنت ليست مستقيمة مثلاً، فقد حرصت على دنياها فقط، فهذه ولايةٌ ناقصة.

والأب أحياناً لو أنه اهتمّ بطعام ابنه فقط، ونسي مستقبله فهذه ولاية ناقصة، أهمل دراسته، وما اهتم بعلمه، لكنه أمّن له طعامه وشرابه وثيابه فقط، فيقول له: هل ينقصك شيء ؟ ينقصه العلم، وأن يتعلّم، فالولايات البشرّية ولايات ناقصة مبتورة، وأكثر الناس يتوهّمون أن الإنسان إذا حقّق شيئًا في الدنيا فقد حصل له كل شيء، ويقولون: أمّن مستقبله، وركّز وضعه، ودخله ـ والحمد لله ـ كبير، وعنده سيارة، وبيت، ومعمل، ولا ينقصه شيء، بينما لم يأخذ شيئا من الاتصال بالله، فهو غارق في المعاصي، فربنا عزّ وجل قال:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

اللهُ حريص على آخرتنا، وعلى دخولنا الجنّة، ولذلك كل ما تراه أعينكم من مصائب في الدنيا، ومن نكبات، وأهوال لتسوق العباد إلى الله عزّ وجل.

رجل قال عن بلد تُعاني ما تعاني من خصومها الصرب، قال: نحن لم نكن مسلمين من قبل، وكنا نأكل الخنزير، ونشرب الخمر، ونأتي الفواحش، ونفعل كل المعاصي، والآن صرنا مسلمين بهذا الضغط الشديد..

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

فحتى النكبات الكبيرة أحياناً نفهمها فهما محدودا، فهذه الدولة فعلت كذا مع جارتها، فهناك فهم أعمق بكثير، قال الله عزّ وجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

وحتى الأحداث الكبرى لها تفسير توحيدي رائع جداً..

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ)

الدنيا لا معنى لها إلا أن تكون سبباً للآخرة:

وبما أنّ الولاية تمتد للآخرة، وكان التأديب في الدنيا، ولو كانت في الدنيا فقط لكان الناس جميعهم في بحبوحة، وفي غنى، وليست هناك مشكلة، ولا مرض، ولا هم، ولا حزن، لكن لأن الله سبحانه وتعالى وليُّنا في الدنيا والآخرة، والدنيا مطيّة للآخرة، ومزرعةٌ لها، بل إن الدنيا لا معنى لها إلا أن تكون سبباً للآخرة، لأن يوم القيامة حينما يدخل أهل الجنّةِ الجنّة يقولون:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر: من الآية 74)

فلولا أن كنا في الأرض، وعرفنا ربنا فيها، واستقمنا على أمره، وفعلنا الصالحات لما كنا في الجنّة الآن.

إذاً هنا الآية:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ)

أولياء أموركم..

(فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

فإذا جاءك من الله ما يعجبك فهذا من نِعَم الله عليك، وإذا جاءك من الله ما لا يعجبك فهذا من تربيته لتكون في الجنّة ؛ أعطاك مالاً للدنيا، أعطاك بيتاً للدنيا، أما إن سلب منك شيئا وأنت غافل، فهذا الذي سلبه منك من أجل أن تصحو، من أجل أن تلتفت إلى آخرتك، وأن تفعل الخيرات، إذاً عندما تجمع الدنيا مع الآخرة تحل مشكلاتك، أما الدنيا فقط ففيها متاعب لا تعد ولا تحصى، يقول لك: لا أحد مرتاح، سبحان الله ! طبعاً لا أحد مرتاح، لأنه لا أحد مستقيم، أما لو أنك استقمت على أمر الله فالله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

أما في الآخرة، فهذه الآخرة التي خلقنا لها..

((إن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد))

[البخاري]

طبيعة الحياة الدنيا قائمة على الكَدْح والمشقةِ:

طبيعة الحياة الدنيا قائمةٌ على الكَدْح..

(يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

طبيعة الحياة الدنيا قائمةٌ على تكبُّد المشاق..

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(4))

(سورة البلد)

يقول لك: ما وصلت إلى هنا حتى كابدت المشقات، واشتريت بيتا مسحته ستون مترًا في آخر ما عمَّر الله، يقول لك: مُت مليون موتة، هكذا الدنيا، حتى طلع على الأرض نصف متر يقول لك: هلكني السكن بزقاق الجن، الحياة مبنيَّة على الكدح وعلى التكبُّد..

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(4))

أما الجنّة فهي مبنيّة على الطلب، اطلب تعط، انظر إلى الآية:

(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ

ولمجرّد أن تطلب شيئاً فهو أمامك، إلى أبد الآبدين، لا تقدم بالسن، ولا أسيد أوريك، ولا كوليسترول، ولا دسّام معطّل، ولا ذرع كلية، ولا ابن عاق، ولا زوجة ناشذة، ولا بيت صغير، لا يوجد شيء من هذا..

(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

فهكذا الآخرة، إذْ نحن مخلوقون لهذه الحياة، فهنيئاً لمن سعى من أجلها، والشقاء لمن رضي بالدنيا، من أراد الدنيا فقط فقد غامر وقامر، قامر بسعادته الأخرويّة..

(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32))

نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ

أي أخطاؤك غفرها لك، ثم رحمك بهذه الجنّة، هذا كلّه:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32))

هذا المقام الأول، والمقام الأعلى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ

بعدما صوّر الله عزّ وجل لنا طريق كمال الإنسان، الآن المرحلة الثانية طريق تكميل الآخرين، طبعاً هذه صنعة الأنبياء وهذه بالدرس القادم إن شاء الله..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

خاتمة:

لكن ضعوا في أذهانكم أن علامة صدق إيمانكم الاستقامة على أمر الله، وأن علامة صدق الدعوة إلى الله العمل الصالح، ربنا عزّ وجل قَرَنَ الإيمان بالاستقامة، والدعوة إلى الله بالعمل الصالح، فإن لم يكن مع الإيمان استقامةٌ فلا قيمة لهذا الإيمان، وإن لم تكن مع الدعوة إلى الله عملٌ صالحٌ فلا قيمة لهذه الدعوة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (06-11): تفسير الآية 33
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-12-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السادس من سورة فصّلت، ومع الآية الثالثة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

1 ـ المؤمن والداعية إلى الله حقيقة صفتُهما الاستقامة:

أيها الإخوة الكرام، من خلال الآية السابقة والآية اللاحقة يتضح أن هناك مؤمنًا مستقيمًا، وأن هناك داعيةً إلى الله ذا عملٍ صالح، وأنه لن يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا استقام على أمر الله، ولن يكون داعية مخلصاً إلا إذا عمل صالحاً، أي جسّد بسلوكه ما دعا إليه بلسانه.

على كلٍ، فبعض المفسِّرين يقولون حينما قال الله عزّ وجل:

2 ـ كل كلام سوى الدعوة إلى الله لغوٌ باطلٌ:

كأن في هذه الآية إشارةً إلى أن كل كلامٍ لغوٍ أو باطلٍ، أو كل كلامٍ يدعو إلى الرذيلة أو يدعو إلى إفساد ذات البَيْن، أو أن كل كلامٍ يدعو إلى عبادة غير الله عزّ وجل، أو إلى أن أيّ كلامٍ يدعو إلى البعد عن دين الله عزّ وجل هو كلامٌ باطلٌ لا قيمة له، لكن الكلام الحَسَن هو أن تتعرّف إلى الله عزّ وجل، وأن تدعو إليه. ففي هذه الآية إشارةٌ إلى بطلان كلامه، وإلى تفاهة موضوعاته، ثم يقول الله عزّ وجل:

3 ـ لا رجلَ أحسنُ قولاً من الداعية الخاضع لله:

طبعاً هذا استفام تقريري، أي ليس في الأرض كلِّها رجلٌ أحسن قولاً ممن دعا إلى الله.

من خصائص الدعاة إلى الله:

1 ـ الاستجابة لأمر الله:

والحقيقة قبل أن تدعو إلى الله ينبغي أن تستجيب له، فإذا استجبت له، وطبّقت أمره، وانتهيت عما عنه نهى، وأردت أن تنقل هذه المعرفة للآخرين الآن ترتقي إلى مستوى الدعوة إلى الله.

2 ـ الاهتداءُ وعدمُ ابتغاءِ الدنيا:

على كلٍ فهناك آيات كثيرة في كتاب الله تبيّن شروط هؤلاء الدعاة إلى الله الصادقين، فمن هذه الآيات:

(قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

فالذي يدعو إلى الله بصدق وإخلاص، لا يرجو ثواباً، ولا مديحاً مادياً ولا معنوياً..

(اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

3 ـ الصبرُ:

ومن خصائص الدعاة إلى الله الصادقين كما أشارت إليه هذه الآيات الكريمة:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: من الآية 24)

فالذي لا يصبر على ابتلاء الله عزّ وجل ليس أهلاً لأن يكون داعيةً إلى الله عزّ وجل، لابدّ من أن يبتلى الداعية فيصبر، ولابدّ من أن تُكشف حقيقته فيصبر.

إذاً: عدم طلب الأجر، والصبر علامةٌ وخصيصةٌ من خصائص الدعاة إلى الله الصادقين.

4 ـ الطاعةُ:

ثم إن الطاعة..

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة: من الآية 124)

إذاً: التزام الأمر والنهي، والصبر على ابتلاء الله عزّ وجل، والترفّع عن الدنيا بكل أنواعها هذه خصائص الدعاة الصادقين.

5 ـ العلمُ مع التمحيص:

عنصر آخر من عناصر الدعوة إلى الله:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من الآية 18)

أي إذا شهدت للناس بأسماء الله الحسنى ؛ عدالته، ورحمته فهذا دليل العلم الصحيح، أما إذا كان العقل نَصِّيًّا، أي دون أن تمحِّص النص، ودون أن تدرسه، وأن تجعله منسجماً مع مقاصد الشريعة، نقلت ما سمعت دون تمحيص فهذا ليس علماً، إنما هو نقلٌ، وفي النقل صوابٌ وخطأ.

إذاً:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

يجب أن تبيّن للناس حقيقة الذات الكاملة، ذات الأسماء الحسنى والصفات الفُضلى.

6 ـ خشيةُ اللهِ وحْدَه:

ومن آيات الله الأخرى التي تصف لنا الدعاة الصادقين هي قوله تعالى حينما يتحدّثُ عن الذين يدعون إلى الله عزّ وجل، فيقول في الآية الكريمة:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللّهَ)

(سورة الأحزاب: من الآية 39)

أي أن خشية هذا الداعية لله عزّ وجل هي الصفة الجامعة المانعة، لأن الداعية لو خشي غير الله عزّ وجل فتكلّم بالباطل إرضاءً لمن خشيه، أو سكت عن الحق إرضاءً لمن خشيه، فماذا بقي من تبليغه رسالات الله عزّ وجل ؟

إذاً: الله عزّ وجل في كتابه بيّن هؤلاء الذين يدعون إلى الله، أولاً: تطبيقهم لأمر الله، ثانياً: صبرهم على ابتلاء الله، ثالثاً: ابتغاؤهم وجه الله عزّ وجل، رابعاً: ترفُّعهم عن المكاسب الدنيويّة، خامساً: عدم خشيتهم من غير الله عزّ وجل، سادساً: معرفتهم بالله المعرفة الصحيحة.

إذاً: هذه الصفات التي جاءت في آياتٍ متفرّقة من كتاب الله.

على كلٍ هنا:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

احذر أيها الداعية أن يخالف قولك فعلك:

دعا إلى الله بلسانه، وعمل صالحاً بسلوكه، فالإنسان نقّادٌ بارع، فإذا نظر المدعوون إلى الداعي، ورأوا مسافةً بين أقواله وأفعاله لم يعبؤوا بهذه الدعوة، فتسقط من أعينهم، أما إذا تطابقت الأفعال مع الأقوال، وجاء الكلام مطابقاً للحال، وكان السلوك موافقاً للتبليغ، فهذه النقطة الدقيقة جداً التي إذا توافرت في الداعية حقّق نجاحاً كبيراً، ولذلك فمن بعض الدعاة الصادقين من ينصح زملاءه الدعاة: **" احذر أن يراك المدعو على خلاف ما تدعوه "**، وهذا هو التوافق الدقيق.

الآية الأولى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

خصيصة البيان بين الاستعمال الحسن والاستعمال السيّئ:

هنا علامة الإيمان الصادق، استقامتك على أمر الله، هنا علامة دعوتك الصادقة، صلاح عملك، فليس على وجه الأرض إطلاقاً إنسانٌ أنجح، ولا أفلح، ولا أكثر فوزًا ممن دعا إلى الله، أي أن هذا النشاط الكلامي، وهذا النطق الذي كرّم الله به الإنسان..

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4))

(سورة الرحمن)

فهذا الكلام، وهذا الجهاز، والحنجرة، والرئتان، واللسان، ومخارج الحروف، واللغة، والمعلومات والقدرة البيانيّة في الإنسان كيف يستخدمها ؟ وما المضمون الذي يستخدمها من أجله ؟ ما الأهداف ؟ فربنا عزّ وجل يبيّن أن البيان تلك الخصيصة التي خصّ بها الإنسان، البيان..

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4))

فهذا البيان، وتلك الخصيصة النادرة التي خصّ الله بها الإنسان، ما من موضوعٍ يسمو بها، وما من نشاطٍ ترقى به، وما من أسلوبٍ تفوز به كأن تدعو إلى الله.

إنّ آلة غالية جداً إن لم يكن مضمونها مضموناً ثميناً، فعندئذٍ هذا المضمون التافه يشوّه هذه الآلة، فاللغة قوالب، فإن وضِعَ في هذه القوالب مادّةٌ رخيصةٌ قذرةٌ سيئةٌ هذه المادة أضرّت بالقالب، أما إذا عُبِّئت هذه القوالب الثمينة بمضمون ثمين فهذا شيءٌ يسمو بها، ويرقى بها.

هذه القدرة على البيان، وهذه طلاقة اللسان، البيان الذي خصّ الله به الإنسان إنه ميزةٌ ثمينة كبيرة، فإذا كان المضمون غيبةً، ونميمةً، وفسقاً، وفجوراً، وحديثاً تافهاً، ولغواً، وحديثاً عن الشهوات، أو إيقاعاً بين الإخوة، أو تأريثاً للأحقاد، فكل هذه الموضوعات تزري بهذه القوة البيانيّة التي أودعها الله بالإنسان.

اللسان طريق إلى الجنة أو "ريق إلى النار:

حينما تشعر أن كلامك جزءٌ من عملك، أو أن من أعمالك كلامك، **" يا رسول الله أو نؤاخَذ بما نقول؟"** قال عليه الصلاة والسلام:

((وَهَلْ يَكُبُّ النّاسَ في النّار على وُجُوهِهِمْ، أوْ على مَناخِرِهِم إلاّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[مسلم عن معاذ رضي الله عنه]

ألم يقل عليه الصلاة والسلام:

((لا يَسْتَقِيمُ إيمَانُ عَبْدٍ حَتّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[مسند أحمد عن أنس بن مالك]

ألم تقل السيدة عائشة رضي الله عنها لأختها صفيّة: " قصيرة " فقال:

((لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

[الترمذي عن عائشة]

ألم يقل الله عزّ وجل:

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ)

(سورة إبراهيم: من الآية 24)

فبكلمة قد تُحْيي نفساً، وإنك إن أحييت نفساً أحييت نفوساً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، وبكلمةٍ سيئةٍ قد تفسد نفساً، وإذا أفسدتها أفسدت جيلاً..

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ(26))

(سورة إبراهيم)

أيها الإخوة.

((إنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللّهِ لا يَرَى بِهَا بَأْسًا فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا))

[من سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

((إنّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَرْفَعُهُ اللّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ))

[من صحيح البخاري عن أبي هريرة]

((الْكَلِمَةُ الطّيِّبَةُ صَدَقَةٌ))

[من صحيح البخاري عن أبي هريرة]

بادئ ذي بدء يجب أن تعلم أن هذا اللسان قد يقودك إلى الجنّة، وقد يقود صاحبه إلى النار..

احفظ لسانك أيها الإنســانُ لا يلـدغنّك إنـه ثعبانُ

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعانُ

***

قبل كل شيء من أكبر نشاطات الإنسان كلامه ؛ كلامه في البيت، وفي الطريق، ومع جيرانه، وزملائه، وفي لهوه، وحُزنه، وفرحه، وسفره، وفي بَيعه وشرائه، ومع أصدقائه، فالمؤمن أبرز ما فيه أنه منضبط اللسان، كلماته موزونة، وكلماته منضبطة بأمر الله ونهيه، حتى إن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يتمنّى أن تكون له رقبةٌ كرقبة الجمل ليزن الكلمة قبل أن تخرج على لسانه بمراحل فسيحة، فكأن الله عزّ وجل في قوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً)

تعريضٌ بالأقوال السيئة: وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً

معنى هذا أن هناك من يسيئ القول، وهناك من يستخدم هذه القدرة البيانيَّة، هذه الخصيصة التي خصّ الله بها الإنسان، فهناك من يستخدم في التعبير اللغة في غير ما وَضِعتْ له، ودائماً وأبداً أقول لكم: الحظوظ التي خصّها الله الإنسان ؛ البيان، والذكاء، والوسامة والغنى والصحة، فهذه الحظوظ إما أن ترقى بك إلى أعلى عليين فهي درجاتٌ، وإما هي دركاتٌ تهوي بها إلى أسفل سافلين.

إنّ الإنسان الذي أوتي طلاقة لسان فهذا يحاسب حساباً خاصّاً، كان من الممكن أن يرقى بقوّته البيانيَّة وطلاقة لسانه إلى أعلى عليين، هذا الذي أوتي مالاً كان من الممكن أن يرقى بماله إلى أعلى عليين، هذا الذي أوتي قوّةً فبإمكانه أن يزيل بها المُنكر، وأن يحقّ بها الحق، وكان من الممكن أن يرقى بها إلى أعلى عليين، فالحظوظ التي ينالها الإنسان من الله عزّ وجل يمكن أن ترقى به ويمكن أن تهوي به.

فأول معنى في هذه الآية، كأن الله عزّ وجل يعرّض بالأقوال السيئة، واللغو، والحديث عن الدنيا، والحديث في الموضوعات السخيفة، وفي الموضوعات اليوميَّة، والحديث الفارغ، والكلام الذي لا طائل منه..

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

كأن الله يزري بهؤلاء الذين يستخدمون هذه القدرة البيانيَّة في موضوعاتٍ لا ترضيه، فكيف إذا استخدمت اللسان في الغيبة، النميمة، والفحش، والبذاءة، والسُباب، والسخريَّة، والتهكّم، والإفك، والافتراء، والإيقاع بين الناس، وفي تأريث العداوة والبغضاء بينهم، وفي شق الصفوف، وكيف إذا استخدمت هذا ؟ كأن هناك كلامًا يسبّب لصاحبه هلاكاً، وهناك كلامًا يسبّب لصاحبه خسارةً، وهناك كلاما يرقى بصاحبه.

والكلام في المباحات ؛ ما اغتاب، ولا نمّ، لكنه تحدّث في أمور الدنيا الزائلة، في أمور لا تنتهي، ولا قيمة لها، وهي ماضية، وحجمها صغير، وهناك أناسٌ كثيرون يمضون سهراتٍ طويلة في الحديث عن

الدنيا، في الحديث عن طعامها وشرابها، في الحديث عن متعها المُباحة، هذا الحديث ربّما جرّ لصاحبه إلى ضياع الوقت، والوقت ثمين، والإنسان بضعة أيّام، فكلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، ولكن أشرف حديثٍ، وكلامٍ، ودعوةٍ، ونُطْقٍ أن تدعو إلى الله.

يمكن أن تدعوَ إلى الله بمثل هذا:

كلمة (دعا) واسعة جدا، فيمكن أن تدعو إلى الله عزّ وجل إذا بيّنت آيات الله الكونيّة، هذه دعوةٌ إلى الله، لأنك تضع أمام الناس عظمة الله من خلال خلقه، تضعها بين أيديهم، وكأنهم أمامَ عظمة الله عزّ وجل، فإذا بيّنت للناس آيةً من آيات الله الكونيّة الدالّة على عظمته فهذه دعوةٌ إلى الله.

وإذا بيّنت للناس آيةً قرآنيّةً دقيقة المعنى، دقيقة الأسلوب، فيها حكمٌ دقيق، وقانونٌ يسعد صاحبه، فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل.

وإذا بيّنت سنة نبيّ الله صلى الله عليه وسلّم، وقد بيّن القرآن، فهذه دعوة إلى الله عزّ وجل.

إذا بيّنت الأحكام الفقهيّة التفصيليّة التي إذا طبّقها الإنسان سعد في الدنيا والآخرة فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل.

وإذا قصصت على الناس قصّة رجلٍ مؤمنٍ عظيمٍ طبّق أمر الله فسعد في دنياه وأخراه فهذه دعوة إلى الله عزّ وجل.

وكلام ربنا واسع، كلام ربنا حمّال أوجه، فأنت إن بينت للناس آيةً كونيّةً ؛ في الآفاق، أو في أنفسهم، أو آيةً قرآنيّةً، أو تكوينيّةً، وشيئاً من أفعال الله عزّ وجل، وربطته بالموعظة والعظة، إذا بيّنت سنة النبي، وسيرته، وأحكام الفقه، وسيرة العلماء الصالحين الصادقين، فكل هذه الموضوعات ترسّخ في الإنسان حبّ الله، وحبّ رسوله، وحب شرعه، ليس المطلوب أن تأخذ خطا واحدًا، وأن تجعل كل الوقت فيه، لكن نوّع في كلامك..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ)

إنّ الإنسان بحاجة إلى آيةٍ كونيّةٍ تملأ عقله، وبحاجةٍ إلى آيةٍ قرآنيّةٍ تغذّي فؤاده، وبحاجةٍ إلى آيةٍ تكوينيّةٍ ليفلسف أفعال الله عزّ وجل، فعل الله متوافقٌ مع حكمته، ورحمته، وعدالته، وقدرته، فالله جلّ جلاله يبدو تارةً قوياً عزيزاً، وتارةً رؤوفاً رحيماً، وحينا حكيماً عليماً، وحينا خبيراً، فإذا ربطت أفعال الله بأسمائه فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل.

فأنا أعطيكم الخيارات الواسعة، ثمّ أتحب أن تبيّن عظمة الله من خلال خلقه، هذه دعوة إلى الله، أم تحب أن تبيّن عظمة الله من خلال قرآنه ؟ فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل، أتحب أن تبين عظمة الله من

خلال أفعاله ؟ فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل، أتحب أن تبيّن عظمة الله من خلال عصمة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم ؟ بيّنت سنته القولية والفعلية فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل، أتحب أن تقدِّم نماذج للمؤمنين الصادقين الذين تغلغل الإيمان في كيانهم جميعه، فجعلهم أناساً متميزين بأخلاقهم، وعلمهم، ورهافة حسِّهم ؟ فهذه دعوةٌ إلى الله عزّ وجل..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ)

أنا أعجب من إنسان مع أهله في بيته، ومع أصدقائه في نزهاته، بأفراحه، وأحزانه النشاط الأول في كل هذه اللقاءات هو الكلام، وهل سمعت أناساً يذهبون إلى نزهةٍ وهم صامتون ؟ مستحيل، هل سمعت أناساً يُدعون إلى طعامٍ وهم صامتون ؟ كلُّهم يتكلّم، فهذا النشاط الأكبر والأول في حياة الإنسان الكلام أو الحديث، وهذا النشاط إما أن ترقى به إلى أعلى عليين، وإما أن يهوي الإنسان به إلى أسفل سافلين، فكلمة لا تلقي لها بالاً يهوي بها الإنسان في جهنّم سبعين خريفاً، وكلمة من رضوان الله عزّ وجل تهدي بها نفساً، وهذه النفس تهدي الآخرين، من خلال هذه الكلمة الطيّبة رأيت مجتمعاً طيّباً، كيف أن بذرة التين التي لا تزيد على رأس دبوس قد تصنع غابةً، فالبذرة تصنع الشجرة، والشجرة تصنع الثمار، والثمار فيها بذور، والبذور تصنع أشجارًا، وهكذا.

كأن الله سبحانه وتعالى يجذب نظرنا، أيها الإنسان المكرّم الذي أعطيتك هذا النشاط البياني، القدرة على الكلام، الحديث، والتعبير عن أفكارك وعن مشاعرك، والاتصال مع الآخرين اتصالا لغويا، فهذا النشاط الأول أفضل استعمالٍ له أن تدعو إلى الله، وأنت حرٌ في ذلك، فأنت أمامك خيارت كثيرة، خذ أي خط ؛ وخط العلم، خط القرآن، فالتجويد دعوة إلى الله، والتفسير دعوة إلى الله، واستنباط الأحكام الفقهيّة من كتاب الله والحديث وعلم الحديث و متن الحديث وأصول الفقه وأحكام الفقه والفقه المُقَارن كلها دعوةٌ إلى الله، فأي علمٍ ابتغيت به وجه الله، وأردت أن تقرّب الإنسان به إلى الله هو دعوةٌ إلى الله، والتنويع أفضل.

أنا أعجب أيضا ممن يحضر مجالس العلم، ويستمع خلال سنوات طويلة إلى دروس تفسير، وحديث، وسيرة، وفقه، كيف لا يستغلُّ هذه المعلومات التي حصّلها في سنوات طويلة في الدعوة إلى الله مع أهله؟ وأولاده، وزوجته، وإخوانه، وأصدقائه، وجيرانه، ومع من هم دونه، ومن هم فوقه، مباشرةً، بالواسطة، بكتاب، بشريط..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ)

الدعوة إلى الله وهداية الناس خيرٌ من الدنيا وما فيها:

هذا الكلام كلام الصحابة الكرام كلام دقيق جداً، يقول النبي عليه الصلاة والسلام وهو يخاطب سيدنا علياً كرّم الله وجهه، وهذا كلام نسمعه كثيراً، ولكن شتّان بين أن نسمعه وأن نردِّه، وبين أن نطبّقه، قال عليه الصلاة والسلام:

((يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً ـ وفي رواية ـ لأن يهدي الله بك قلب رجل واحد خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

((فَوَاللّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

((خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس))

هناك شركات تجاريَّة عالميَّة قرأت مرَّة عنها، فائضها النقدي الذي لا تدري له استثماراً ألفا مليون دولار، وبعض الدول فائضها التجاري سبعون مليار دولار، فهذه الدنيا فيها أموال، وفيها شركات، وفيها معامل، ومتنزّهات، وأماكن جميلة جداً، وطائرات، وبوارج، ويخوت، وتجارات، فقد يكون عند أحدهم محل في شارع تجاري رئيسي، يقول لك: المتر ثمنه نصف مليون، محلي خمسون مترًا، تجده يزهو به، ولو عنده على الصفين محلات، ولو كان له كل هذا الشارع على جنبيه بكل طوابقه ؛ المستودعات، ومكان البيع، والمكاتب على الصفين، فهذه الدنيا فيها شركات لها رأسمال فلكي، هذه هي الدنيا، فإذا صدّقت النبي عليه الصلاة والسلام وهو يقول:

((يا علي، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

تصوّر هذه الشركات الكبرى في العالَم التي توازي ميزانيّتها ميزانيات دول، وهذه الفنادق الكبرى التي لها دخل فلكي، لو أن لك أحد هذه الفنادق، وهديت رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها، دقِّقوا في كلام سيدنا رسول الله لأن هذا المال كلّه ينتهي عند الموت، لكن هداية هذا الإنسان تسعد به إلى أبد الآبدين.

إن هذا يعني أن الإنسان إذا بذل جهدًا، واعتنى بأخيه، وأكرمه، وزاره، وتفقّد أحواله، وأعطاه شريطا، وأعطاه كتيّبا صغيرا، وفسّر له آية كريمة، وفسّر له حديثا شريفا، ودعاه إلى المسجد، ودعاه إلى الدروس، وقدّم له هديّة، واستمال قلبه، واعتنى بأولاده حتى مال إليك هذا الإنسان، ومال إلى مسجدك، ومال إلى دروسك، وسمع الدروس، وائتمر بأمر الله، وانتهى عما نهى الله عنه فصار إنساناً مؤمناً، والله الذي لا إله إلا هو هذه أعظم تجارة.

ألا ترى معي أن الذين يملكون الملايين ؛ ترك ألف وثمانمائة مليون، ولكنه ترك معه الملهى فيه كل المنكرات، ألا ترى أن هؤلاء الذين يملكون آلاف الملايين إذا ماتوا فقدوا كل شيء، وأنهم قدموا على كل أنواع العذاب ؟ وأن الذي ترك هذه الدعوة إلى الله، وتلك الهداية، واحد فقط ـ

((يا علي، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

أليس للإنسان أخ ؟ أو صديق ؟ أو جار ؟ أو ابن ؟ أو ابن ابن ؟ أو عنده بالمحل موظّف ؟ أو إنسان يعمل تحت إمرته يمون عليه ؟ هذا الذي تنتفع بخبرته، وتنتفع بجهده، وتنتفع بعطائه ولا تنفعه بعلمك لقد خُنْتَهُ.

لو عندك معمل فيه ثمانون عاملا، وهؤلاء العمال هم بيدك، ودخلهم وإكرامهم بيدك، ألا ينبغي أن تدلّ هؤلاء على الله عزّ وجل ؟ وأنت بوظيفتك، وعملك، وعيادتك، ومكتبك، وبيتك، ودكّانك وأنت واحد فقط، اسع لهداية واحد هداية صحيحة، قال له: أسْلِم، قال: ماذا أقول ؟ قال له: والله لا أعرف ماذا تقول، يجب أن تدلّه على الله بشكلٍ صحيح، أن تبني له أُسُسَاً فكريَّة و انفعاليَّة، وسلوكيَّة، فهذه هي الهداية، وفاقد الشيء لا يعطيه.

حركةُ اللسان الدعوية يلزمها العلمُ والخلق الحسنُ:

أول شيءٍ اطلب العلم الصحيح ممن تثق بعلمه وإخلاصه، واطلب الدليل، ولا تقبل شيئاً من دون دليل، واطلب التعليل، واقرأ كتاب الله، وافهمه وحاول أن تفهم هذا الكلام العظيم، واقرأ سُنَّة رسول الله، وسيرته واسأل عن الأحكام الفقهيَّة.

اطلب العلم أولاً، فإذا طلبت العلم وسجّلته، وحفظته في كتيّب، أو شريط، أو ورقة، وكل علم ليس في القرطاس ضاع، فإذا سمعت العلم وسجّلته، لمجرّد أن تسجّله فقد حفظته، فإذا حفظته ملكته، فإذا ملكته نشرته، بمناسبات، أو بالنزهات، أو بالاحتفالات، ومن فضل الله هذه البلدة كل احتفال فيها فيه إلقاء كلمات، وهذه دعوة إلى الله، وهل سمعتم في هذه البلدة الطيّبة عقد قِرانٍ من دون إلقاء كلمة ؟ أبداً، الآن حتى في الأحزان، والتعزيات هناك إلقاء كلمات، وفي النُزهات، وفي الاحتفالات أيضًا، فمجال الدعوة إلى الله واسعٌ جداً.

المؤمن ـ أنا أقول هذا، وأنا أعني ما أقول، لا في الساعة، ولا في الدقيقة، بل في اللحظة التي يستقر فيها الإيمان في القلب يعبّر عن ذاته بالحركة نحو خدمة الخلق والدعوة إلى الحق، لك حركتان: حركة في اللسان وحركة في اليد، ودائماً تسعى لنفع الآخرين، فالمؤمن يبني حياته على العطاء، فأساس حياته

العطاء، والدلالة على الله عزّ وجل، يرقى بالناس بلسانه وبإحسانه، إذاً هذا الكلام يعنينا جميعاً، والله عزّ وجل ذكر هذه الآية بأسلوبٍ مشوّق، أي..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ)

لم يقل: ادعوا إلى الله، هذه الآية تقول:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً)

أي: ليس في عبادي جميعاً إنسانٌ أفضل ممن دعا إليَّ، لكن قبل أن يدعو إليّ عليه أن يعرفني، وعليه أن يطيعني، إذا عرفني وأطاعني، ثم دعا إليَّ وفّقته في دعوته، والدعوة إلى الله لا تحتاج إلى ذكاء فقط، ولا إلى علم فقط بل تحتاج إلى توفيق من الله عزّ وجل، لأنه: **" ما أخلص عبدٌ مؤمنٌ إلى الله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودّة والرحمة ".**

قلوب العباد بيد الله، فإذا عَلِم صدق عبادٍ جمعهم عليه، وجذبهم إليه فالتفوا حوله، وإذا علم كذب عبادٍ انفضوا من حوله، ومع ذلك هناك آيةٌ قرآنيّة دقيقةٌ جداً، يقول الله عزّ وجل مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلّم، وهو ـ كما أقول دائماً ـ سيّد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم النبي الأول، الرسول المبلّغ، المعصوم الذي يوحى إليه، يقول الله عزّ وجل، ومع كل هذه الخصائص، وهذه الميزات ؛ ومع عصمتك، وكرامتك، وتفوّقك، وفرديّتك:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)

(سورة آل عمران: من الآية 159)

الداعية رأسماله الأخلاق العالية ؛ فرحمته، وتواضعه، وتسامحه، أن يكون مع الناس في كل أحوالهم، لا أن يترفّع عنهم في برجٍ عاجي، فالأنبياء يمشون في الأسواق، عاشوا مع الخلق، كيف يستطيع النبي أن يدلّ الناس على الله إلا أن يكون معهم ؟ عاش معهم، فالانسحاب من المجتمع، والتقوقع ليس من صفات الدعاة الصادقين..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

والإمام الحسن رضي الله عنه كان إذا تلا هذه الآية:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

النبيُّ عليه الصلاة والسلام أولُ المَعْنِيّين بهذه الآية:

قال: هذا رسول الله، فالآية تشير إلى أنه رسول الله، وهذا حبيب الله، وهذا وليُّ الله، وهذا صفوة الله، وهذا خيرَة الله، وهذا والله أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب

إليه.

إذاً: بعض المفسّرين فهم أن هذه الآية تعني رسول الله، ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ؟ فأنتم أيها الكفّار ـ يخاطب الله كفار مكّة ـ الذين عارضتموه، وكذّبتموه، وسفّهتم دعوته، ودعوتم إلى أصنامكم، وإلى لهوكم، وإلى طغيانكم، وإلى ظلمكم، أنتم أم هو ؟

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

الآية عامة لجميع المسلمين:

ومفسّرون آخرون قالوا: هذه الآية عامّةٌ في كل من دعا إلى الله، وبعضهم وسّعها أكثر فأكثر فقال: هذه الآية تخصُّ كل مؤمن، لأن المؤمن أحياناً يدعو إلى الله وهو ساكت، قال له: عندك بيض طازج ؟ قال له: والله الذي عندي من يومين، جاري أحضره الآن اذهب إليه، شيءٌ يجذب النظر، الصدق، فقد يكون الرجل بائعا صغيرا لا يؤبه له يعلِّمك درساً في الصِدق، وهناك امرأةٌ أصابها جُذام، فنهاها عمر أن تكون بين الناس لئلا تؤذيهم، فاعتزلت الناس، وقبعت في بيتها، فلمّا مات عمر رضي الله عنه قيل لها: اخرجي، فالذي نهاكِ قد مات **"، قالت: " والله ما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميّتاً ".**

يمكن أن تدعو إلى الله وأنت ساكت، ولا كلمة، باستقامتك، بصدقك، وتواضعك، وامرأةٌ لها زوجٌ يملك مئات الملايين وليس على حق، جرى خِلافٌ بينه وبينها فطلقها ثلاثاً وسافر، وفي أثناء سفره توفّاه الله، فلمّا جاءوا ليعطوها نصيبها من الميراث بمئات الملايين قالت: أنا مطلقة، لقد طلقني قبل أن يسافر، فأحياناً إنسانة صغيرة تعلِّمك درساً في الأخلاق، والصدق، والأمانة، فالذي قال: تخصُّ كل مؤمن معه الحق، لأن المؤمن مستقيم واستقامته طاهرة، فاستقامة المؤمن لعفّته، غض بصره، وحياءه، وذمّته الدقيقة، وورعُه، وسلوكه الظاهر هذا دعوة إلى الله.

لا يكن دورُك معاكسا لدور الداعية إلى الله !!!

أخطر شيء في الحياة أن يكون لك زيٌ إسلامي، أو وصفٌ إسلامي، أو خلفيّةٌ أو انتماءٌ إسلامي، وأنت تؤذي الناس، هذا الإنسان له دورٌ معاكسٌ للداعية إلى الله، مُنَفِّرٌ من الله، مُبْعِدٌ عن الله، يقطع الناس عن الله، صار هناك من يدعو إلى الله، وهناك من ينفِّر من الله، هناك من يصل الناس بالله ومن يقطعهم عنه، هناك من يحبّب الله إلى عباده، ومن يبغِّض الله إلى عباده، لذلك أخطر شيء أن ترفع لافتةً إسلاميّةً، وأن تسيئ إلى الناس..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

1 ـ الإسلامُ حقيقة لا شكلاً وكلاما:

أما:

(إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

أي أنك لا تتكلم بالعموميات، والقيم الروحيَّة قل: أنا مسلم، تمييع القيَم، وجعلها تتسع لكل شيء، هذه تعمية على الناس، فلان لا يشرب الخمر، فيتعلل بقوله: معدتي وأمعائي لا تتحمله، قل: أنا مسلم لا أشرب الخمر، بسَذاجة، فبيّن أن هذه الأخلاق بسبب إسلامك، لا تعزُ هذه الأخلاق إلى عادات أو تقاليد، بل قل: أنا مسلم، أنا أقف عند حدود الله لأني مسلم، أمتنع عن قبض هذا المال لأني مسلم.

سمعت عن أحد الفلاسفة الفرنسيين الذين أسلموا حديثاً ـ روجيه جارودي ـ قال: قبل ثلاثين عاما في الحرب العالميَّة الثانية كُلِّف جندي مغربي أن يقتله لأنه أسير، فأعلمه هذا الجندي أنه لا يقتله، لأن إسلامه يمنعه من ذلك، بقيت هذه الحادثة في نفسه، واعتملت في فؤاده ثلاثين عاماً حتى نقلته إلى الإسلام..

(وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

فإذا رأى الناس منك موقفاً شريفاً، أو تصرُّفاً حكيماً، أو تمنُّعاً عن طمعٍ مادي، أو ترفُّعاً عن مكسبٍ فيه شُبهَة لا تعز هذا إلى مزاجك، ولا إلى طبعك، ولا إلى تربيتك، بل قل: هذا مما حرَّمه عليَّ الإسلام.

دائماً أبرز عظمة هذا الدين في سلوكك لتكون داعيةً إلى الله، أما إذا قلت: هذه قيم روحيَّة عامة إذ عمَّمتها، أو أخلاق، أو هذه أخلاق بلدنا، أو هذه أخلاق أسرتنا، فأنت ضيَّعت الناس، بل قل هذه أخلاق المؤمن، وهذه أخلاق الإسلام، الإسلام فعل كذا وكذا.

سمعت في بلد إسلامي أنه جاءت وزيرة زائرة، فهناك موظَّف كبير لم يصافحها، فغضبت أشدَّ الغضب، فلمَّا طلبته: لمَ لمْ تصافحني ؟ قال: إن ديني يمنعني من ذلك، قالت هذه الوزيرة البريطانيَّة: لو أن المسلمين أمثالك لكنَّا تحت حكمكم، بيِّن لها: لم أصافح، لأن ديني يمنعني من ذلك، فعندما يقيم الإنسان شرع الله عزَّ وجل لا ينبغي أن يستحي به، ولا ينبغي له أن يعزوه إلى عادات، وتقاليد، تربية، أسرة، أو بلد، لا بل قل: هذا هو الإسلام، لأن ديني يأمرني بذلك، وينهاني عن ذلك، ومن أجل أن تربط الحقائق بصاحب الحق، وهذا معنى:

(دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ

1 ـ علاقة الآية بما قبلها:

ما علاقة هذه الآية بالتي قبلها ؟ أي إذا كنت مسيئاً لا سمح الله فمهما ألقيت على الناس كلاماً رائعاً، ومهما ألقيت عليهم حِكَمَاً رائعةً لطيفةً، أو تفنّنت في شرح النصوص، أو تفنّنت في تحليل النصوص، مهما كانت التعليقات رائعةً كلُّها تسقط بسبب العمل السيئ، بل إن صاحب العمل السيئ يكفر الناس بأقواله ولو كانت حقّاً، ولذلك وأنت تدعو إلى الله..

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

2 ـ الحسنة ترفع مستوى الدعوة إلى الله:

بالحسنة ترفع هذه الدعوة إلى القِمَم، وبالإساءة تضع هذه الدعوة في الأوحال، فإذا أردت أن تضع دعوةً في الوحل فأسئ إلى الناس في أثناء الدعوة، وإذا أردت أن ترفع دعوةً إلى القِمَم فكن محسناً، وهذا معنى الآية الكريمة:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

3 ـ إذا سقط الداعية سقط معه غيرُه:

أنت داعية، وإنسان معروف بين أهلك، وأنت مؤمن، وإنسان معروف بالصلاح، وإنسان معروف بانتمائك الديني، وهويّتك الإسلاميّة، وإنسان معروف بين مجتمعك أنك صاحب دين، فإيّاك أن تؤذي مخلوقاً، لأن هذا الأذى يبطل دعوتك، ويجعلها في الأوحال، فقبل أن تُسيء إلى الناس، وقبل أن تكذب، وأن تأخذ ما ليس لك ففكّر مليون مرّة بأنك داعية، وإذا سقطت سقطت معك الدعوة، ألم يقل الإمام أبو حنيفة كرّم الله وجهه لهذا الغلام الذي كاد يقع في حفرةٍ قال له: **" يا غلام إيّاك أن تسقط "، فقال له الغلام: " بل أنت يا إمام إيّاك أن تسقط، إني إن سقطت سقطت وحدي، وإنك إن سقطت سقط معك العالَم ".**

أنا لا أرى غضاضةً في أن جزءاً من خيبة المسلمين، من تخلّفهم، ومن ضعفهم أن حياتهم افتقدت المُثُلَ العُليا، لأن المثل الأعلى له أهمية كبرى فما أهميته ؟ هو يعطيك الحقيقة مع البرهان عليها، فيجب

أن يكون في حياتك إنسان تثق بإخلاصه، ونزاهته، وورعه، وصدقه، وليس له مصالح أبداً، هذا الإنسان هو الذي يُنَمِّي فيك الخير، وينمي فيك العطاء، وهو القدوة الحسنة.

4 ـ هؤلاء الدعاة حقيقةً:

وجود النبي عليه الصلاة والسلام كان لأصحابه مثلاً أعلى، كان معهم في سرّائهم وضرّائهم، وكان مع أصحابه في سفر، أرادوا أن يعالجوا شاةً فقال أحدهم: " عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها ". فقال عليه الصلاة والسلام:

((وعليّ جمع الحطب "، قالوا: " نكفيك يا رسول الله "، قال: " أعلم ذلك ولكن الله يكره أن يرى عبده متميّزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

انتهى الأمر.

سيدنا الصديق، ركب أسامة بن زيد الناقة، وقد عيّنه الرسول قائداً للجيش، ومشى الصديق، الشيخ الوقور، خليفة المسلمين في ركابه، قال: **<< يا خليفة رسول الله، لتركبن أو لأنزلن "، قال: " والله لا ركبت ولا نزلت، وما عليّ أن تَغْبَرّ قدمايَ ساعةً في سبيل الله >>.**

وسيدنا الصديق قبل أن يكون خليفة المسلمين وله جارةٌ يحلب لها الشياة ـ وهكذا من عادته ـ فلمّا أصبح خليفةً توقّعت هذه الجارة أن هذه الخدمة قد انقطعت، لأنه ليس متفرّغاً لمثل هذا العمل، وفي صبيحة اليوم الأول من تولِّيه هذا المنصب طُرِقَ الباب، وقالت: " يا بنيّتي افتحي الباب "، قالت: " جاء يا أمي حالب الشاة "، جاء ليحلب لها الشياه، فهذا الدين عظمته بالتطبيق.

والله أنا دائماً أقول: لو أن صحابة رسول الله فهموا الدين كما نفهمه نحن، والله الذي لا إله إلا هو ما خرج الإسلام من مكّة المكرّمة، لكنه أنه وصل إلى الآفاق، وإلى المشارق والمغارب بفضل هذه الأخلاق الرفيعة، والآن لا سبيل إلى أن نعود إلى ما كنا عليه إلا بتمسُّكنا، فالناس سمعوا كلاماً، ومحاضرات، وكتبا، وهم الآن بحاجة إلى مطبّقين، وإلى مُثُل عُليا، وإلى أناس يطبّقون ما يقولون، فهذه الآية دقيقة جداً، وتعني كل مؤمن.

5 ـ إنْ لم تكن داعية بلسانك فكن داعية بحالك وخلقك:

أول معنى: تعني رسول الله، والمعنى الثاني: تعني كل داعية، والمعنى الأعم والأشمل: تعني كل مؤمن، وأنت إن لم يكن عندك طلاقة لسان، ولم تقرأ كثيراً، فكن صادقاً، كن صادقاً في مهنتك، وفي

حرفتك، وبيعك، وشرائك ولا تكذب، ولا تغشّ الناس فتصبح داعيةً، وأنت لا تدري، وسيقول عنك الناس: فلان لا يكذب، وهو صاحب دين، وفلان أخلاقه عالية، وكلمته كلمة، وهو عفيف يؤمن على الروح، وهذه هي الدعوة لله عزّ وجل، وبإمكانك من خلال استقامتك وعملك الصالح أن تكون داعيةً إلى الله، وبإمكانك ـ وهذا أرقى ـ أن تدعو إلى الله بعملك ولسانك.

بينما أن هذه الآية كانت تخصُّ النبي عليه الصلاة والسلام، إذا بها تخصُّ كل داعيةٍ، ثم هي تخصُّ كل مؤمنٍ، فإذا وفّقك الله عزّ وجل في كل العمر إلى هداية إنسانٍ هداية صحيحة دقيقة فقد وفِّقت إلى كل شيء، وهذه الدنيا كلها لا تلتفت إليها، لأنك تخسرها عند الموت جميعها مهما حصّلت منها..

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ {34} وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

هذه الآيات إن شاء الله نعود إليها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (07-11): تفسير الآيات 34 - 36
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-12-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السابع من سورة فصّلت، ومع الآية الرابعة والثلاثين.

أيها الإخوة، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

1 ـ الداعية الصادق قمة المجتمع:

أي أن الذي يدعو إلى الله، ويأتي عمله مصداقاً لقوله، بدافعٍ من إيمانه واستسلامه لله عزّ وجل، فهذا الإنسان يقع في قمّة المجتمع الإنساني، في القمّة عند الله، قد يكون الإنسان في قمة المجتمع عند الناس، لكن هذا الإنسان يقع في قمة المجتمع الإنساني عند الله، من دعا إلى الله، وجاء عمله مصداقاً لقوله، منطلقاً من إيمانه بالله وإخلاصه له.

2 ـ احذر فإنّ الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم:

لكن ربنا سبحانه وتعالى يلفت نظرنا إلى أخطر حقيقة في الدعوة إلى الله، الناس لا يتعلّمون بآذانهم، بل يتعلّمون بعيونهم، فهذه الدعوة إذا رافقتها حسنةٌ ترقى بها إلى أعلى عليين، أما هذه الدعوة نفسُها، بالأفكار نفسها، بالمبادئ نفسها، بالمعطيات نفسها، بالأساليب نفسها إذا رافقتها سيئةٌ تهوي بهذه الدعوة العظيمة إلى أسفل سافلين، الأفكار هي هي، والمبادئ هي هي، والقيَم هي هي، والمُنطلقات هي هي، والأهداف هي هي، والوسائل هي هي، الحسنة ترفع هذه الدعوة إلى الأوْج، والسيئة تهوي بها إلى الحضيض.

إنّ الذي ينطق لسانه بكلمة الحق ينبغي أن يحسب حساباً ألف مرّة لسلوكه، لأن سلوكه إما أن يفرّغ هذه الدعوة من مضمونه، ويجعلها دعوةً طارئةً زائلةً كغيرها من الدعوات، وإما أن يعطي بسلوكه لهذه الدعوة الخلود.

أيها الإخوة، القضيَّة أعقد من أن يقرأ الإنسان كتابا، يحفظ أحاديث، يحفظ تفاسير، القضيَّة أعقد بكثير، وأخطر بكثير، وأجل بكثير، القضيَّة قضية اتجاه، فالناس يتعاملون مع الواقع، يتعاملون مع المُعطيات الماديَّة التي تتعامل بها أنت.

إذاً من سرّ نظم الله عزّ وجل أنه بعد أن قال:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

أنه جاء بالآية التالية:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ

1 ـ إذا أردتَ تحطيم مبدإ فتعامل بخلافه:

إذا أردت أن تحطِّم مبدأ فادع إليه وتعامل مع نقيض دعوتك، تحرَّك وفق نقيض دعوتك، إذا أردت لمبدأ أن يتحطَّم، إذا أردت لمُثُلٍ أن تزول، إذا أردت لهدفٍ أن يصبح في الوحل فادع إليه، واسلك طريقاً مغايراً لهذا الهدف، قل شيئاً وافعل شيئاً، من هنا يقول الإمام علي كرَّم الله وجهه: << قِوام الدين والدنيا أربعة: رجال عالمٌ مستعملٌ علمه ـ هذا أحد أركان الدنيا ـ وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلّم ـ متواضع ويقول: يا أخي علّمونا مما علّمكم الله، هذه النفسيَّة المتواضعة التي تصغي إلى الحق هذه نفسيَّة رائعة جداً، المشكلة نحن في الكبر، وفي أنصاف المتعلِّمين الذين لا هم علماء فيفيدوا من علمهم، ولا هم جُهلاء فيتعلّمون ؛ إذاً: << قِوام الدين والدنيا أربعة رجال: عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلّم، وغنيٌّ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه **>>.**

الإمام علي كرّم الله وجهه يعقِّب على قوله فيقول: << فإذا ضيَّع العالِم علمه ـ ارتزق من الدين ـ سمعت أن أحد العلماء الكبار كان يقول: **" والله لأن أرتزق بالرقص أهون عليّ من أن أرتزق بالدين"**، فلو أنّ إنسانًا ارتزق بالرقص يقال له: هذا راقص، وانتهى الأمر، فهو ليس قدوةً لأحد، لكن أن يرتزق بالدين، أن يجعل الدين في وحل المادَّة، أن يجعل الدين في وحل المآرب الشخصيَّة.

إذاً: **" فإذا ضيّع العالِم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم ".**

أيها الإخوة الكرام، من أدق التفاسير التي مرّت بي حول قوله تعالى:

(رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة: من الآية 5)

2 ـ إياك أن تكون فتنة للذين كفروا:

فالكافر لم يُبلّغ الإسلام، فإذا التقى بمسلمٍ مقصّر يزداد كفراً، يقول لك: أهذا الدين ؟ أإلى هذا تدعوني ؟ إلى هذا الكذب، أو إلى هذا النفاق ؟ أو إلى هذه القسوة، أو إلى ذاك التناقض ؟ فالذي يعرض الإسلام عرضاً مشوّهاً أو عرضاً متناقضاً، أو يعرضه عرضاً رائعاً فتفاجأ أنه لا يطبّقه، هذا الإنسان ربما حمل وزر كفر الكافر ؛ لأنه لولا دعوتك المشوَهة لما كفر بهذا الدين، لو لا أنه رآك مخالفاً لما تقول لما كفر بهذا الدين، لو لا أنه رأى كلامك غير منطقي غير متماسك لما كفر بهذا الدين.

فهذا الذي يستخدم المنامات أحياناً، والكرامات، والخرافات، وبعض الأشياء غير المنطقيّة المعقولة، ويأتي بحوادث ما أنزل الله بها من سلطان، ويدعو إلى الله، هؤلاء الذين ينظرون إلى الدين على أنه دين الله عزّ وجل ربّما كفروا بهذا الدين، والسبب هذا الذي دعا إلى الله وهو يجهل، لذلك كان الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول: **" لأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون".**

انتبه إلى الذي تقوله، قبل أن تقول الكلمة فكِّر فيها، هذا الذي أمامك يظنُّك داعية، ويظن بك ظناً حسناً أنك منطقي، أنت واقعي، أنت مهذّب، أنت مستقيم، أنت ورع، أنت أخلاقي، أنت غَيْري، فإذا اكتشف فيك شيئاً خلاف ذلك فأول شيء يقول له الشيطان: أهذا هو الدين الذي يدعوك إليه ؟ إذاً: هذا معنى قوله تعالى:

(رَبّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة: من الآية 5)

أن لا نعطي الكفّار حجّة أن هذا الدين باطل، فالإنسان بتعامله التجاري، بمهنته، بحرفته، إذا كان طبيبًا، إن كان محاميًا، إن كان مهندسًا، إن كان مدرّسًا، إن كان صاحب مصلحة إيّاك أن تكذب، إياك أن تقول قولاً غير صحيح، إياك أن يكتشف هذا الإنسان أنك تصلي وتُخْلِفُ وعدك، أنك تصلي ورفعت عليه السعر مستغلاً جهله، أنك تصلي ولا تلتزم بأوامر الدين ـ **" فإذا ضيّع العالِم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيرها "** ـ عندئذٍ يبيع الفقير نفسه للشيطان من أجل أن يؤمّن حياته، فهؤلاء الأغنياء المؤمنون كما ورد في بعض الأحاديث:

((الأغنياء أوصيائي والفقراء عيالي، فمن حرم مالي عيالي أذقته عذابي ولا أبالي))

[ورد في الأثر]

وما دمنا في هذا الموضوع، فهناك ثماني آيات في كتاب الله تؤكد أنه:

(وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ: من الآية 39)

(وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ(273))

(سورة البقرة)

نقطتان: أن الله يعلم، وأن الله سيعوّض، فإذا كان إيمانك بهاتين الآيتين إيماناً يقينياً عندئذٍ تُنفق، ولا تخشى الفقر، تنفق ولا ترجو أن يعلم الناس أنك أنفقت، لأن الله يعلم، وكفى به عليماً، تستغني بعلمه عن علم الناس، وتستغني بفضله عن فضل الناس.

إذاً أيها الإخوة..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

3 ـ إيّاك ألأن تسقط من عين الله تعالى:

هؤلاء الذين يدعون إلى الله عزّ وجل، ويأتي عملهم مطابقاً لدعوتهم منطلقين من إيمانهم بالله، ومن إخلاصهم له، إذا توافرت لهم هذه الشروط هم في قمّة البشريّة، ولو كنت عاملاً متواضعاً، ولو كنت صاحب حرفةٍ يدويّة، ولو كنت موظّفاً من الدرجة العاشرة في دائرتك، ولو كنت إنساناً لا يؤبه لك، إذا حضرت ينتبه إليك أحد، وإذا غبت لم يفتقدك أحد، قد تكون خاملاً في الأرض عَلَمَاً في السماء، قد تكون في الدرجة الدنيا في السُلّم الاجتماعي، وقد تكون عند الله في الدرجة العُليا، لذلك المؤمن البطل يبتغي العزّة عند الله، يبتغي الرفعة عند الله، لا يأبه لمكانته عند الناس بقدر ما يأبه لمكانته عند الله، فالمؤمن إذا كان في نظر ربّه كبيراً، وفي نظر الناس صغيراً فلا يَضيره ذلك أبداً، لكن أخطر شيء أن يسقط الإنسان من عين الله.

والله أيها الإخوة، لأن يسقط الإنسان من السماء ـ من ارتفاع أربعين ألف قدم، كان في الطائرة، واحترقت الطائرة، وكان مقعده بجانب مكان تصدُّعها فوقع، هبط أربعين ألف قدم فتكسّرت أضلاعه ـ والله لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، أن يراك الله متناقضاً، أن يراك الله كاذباً، أن يراك الله نَفْعِيّاً تسعى لمصلحتك على حساب مبادئك، أن يراك الله ظالماً، أن يراك الله قاسياً، أن يراك الله مُنافقاً، لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله.

إذاً الآية الأولى: إذا دعوْتَ إلى الله، وكان السلوك مطابقاً لدعوتك، منطلقاً من إيمانك وإخلاصك ؛ فأنت في قمة البشريّة عند الله، وقد تكون لست كذلك عند الناس، هؤلاء الناس لا يقدِّمون ولا يؤخِّرون..

((واعلم أنّ الأمّة لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بشَيْءٍ قدْ كَتَبَهُ اللّهُ لكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بشَيْءٍ قدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ))

[الترمذي عن ابن عبّاس]

الآن: هذه الدعوة بمبادئها، بقيمها، بمنهجها، بتفاصيلها، بنُظمها، بأهدافها، بوسائلها، هذه الدعوة الحسنة ترفعها، وتجعلها دعوةً خالدة، والسيّئة تُسقطها، وتجعلها دعوةً عابرة، وشتّان بين الدعوتين، بين أن تكون دعوةً خالدةً وبين أن تكون دعوةً عابرةً، فلذلك عُظماء البشر حينما تركوا بصمات إلى أمدٍ طويل في تاريخ البشريّة، هؤلاء أخلصوا لله عزّ وجل..

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

4 ـ الناس بحاجة إلى أشخاص يجسِّد الإسلام بسلوكه:

الحسنة ترفع والسيئة تُسْقِط، الحسنة تَدْعَمَ الحق والسيئة تفرّغ الحق من مضمونه.

مرّةً ثانية: إذا أردت أن تحطِّم مبدءاً، إذا أردت أن تجعل الناس يكفرون بشيء فادع إليه، واسلك سبيلاً آخر متناقضاً معه، وهذا ما يحصل في تاريخ البشريّة حينما تظهر دعوات، ثم تُفَرّغ من مضمونها، ثم تغدو عبئًا على المجتمع، ثم يرفضها الناس، يرفضونها أشدّ الرفض، لكن الإسلام دين الله عزّ وجل، فهذا الإسلام لا ينتشر، ولا ينمو، ولا يصبح كالطود الشامخ إلا بالرجال الذين يجسِّدون في سلوكهم مبادئهم وقيمهم.

لذلك أيها الإخوة، المُثُل لا تعيش وحدها، المُثُل لا تعيش في الكتب، ولا في الخُطب، ولا في المقالات، ولا في الأشرطة، المُثُل تعيش مجسّدةً في الأشخاص، الناس بحاجة إلى إنسان يجسِّد هذا الدين بسلوكه في ببيته، في عمله، الربح تحت قدمه ولا يعصي الله، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

إذاً:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

طبعاً لا تستويان، لكن يبدو أن الله سبحانه وتعالى يقول: يا عبادي الحسنة إذا رافقت دعوةً إليه رفعت هذه الدعوة، والسيئة إذا رافقت دعوةً إليه أسقطت هذه الدعوة.

مثلاً: لو كنت صاحب متجر عندك صانع أو عندك موظّف، دعوته إلى الصلاة، شيءٌ جميل هذه دعوة من دعوة الله عزّ وجل، ولكن كنت بخيلاً عليه، كنت قاسياً عليه، قسوتك وبخلك يسقطان دعوتك، أما إذا رآك مُنصفاً، أباً رحيماً، خيّراً، معطاءً، هذا الخُلُق الكريم يرفع دعوته إلى الصلاة.

قبل أن تلفظ كلمة الحق انتبه إلى السلوك، أحياناً يحمل الأب أولاده على الصلاة، أو على تطبيق أوامر الدين، وهو في الوقت نفسه بخيلٌ عليهم، إذا ما ولّت عينه يفجرون أشدّ الفجور، لأن دعوته مع بخله لا تؤثِّر فيهم، لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسيّة:

((إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي، ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[كنز العمال]

إذا كان لك مظهر ديني، أو خلفيَّة دينيَّة، أو انتماء ديني، أو مظنة صلاح، أو معروف بين قومك أنك تصلي، ولك مسجد، ولك شيخ، معروف عند زملائك في الوظيفة أنك إنسان صاحب دين، مربًّى على أيدي علماء، فانتبه لكلامك، انتبه لمزاحك، انتبه لمجيئك، لدوامك، لعطاءك، لمنعك لأن هذا كلّه مسجَّلٌ عليك، وأول كلمة يقولها أعداء الدين أن هذا هو الإسلام، الغريب أن أعداء الدين إذا رأوا مؤمناً مقصِّراً يغفلون اسمه، يغفلون هويّته ويقولون: أهذا هو الإسلام !! لا يروون غلّتهم إلا إذا انتقلوا من المسلم المقِصر إلى الطعن بالدين، إلى الطعن بالإسلام، لهذا قال عليه الصلاة والسلام يخاطب المؤمن:

((أنت على ثغرةٍ من ثغر الإسلام فلا يؤتينّ من قِبَلِك))

[ورد في الأثر]

كل واحد مسلم واقف على الحدود على منطقة ضعيفة، فإياك ثم إياك أن يصل أعداء المسلمين فينالوا من الإسلام من عندك، من خلال معاملتك، من خلال تقصيرك، من خلال التناقُض، من خلال النِفاق، من خلال الأذى.

بل إن بعض أعداء الدين ـ وهذه النقطة مهمّة جداً ـ بعض أعداء الدين يقدِّمون خدماتٍ رائعة، وفي وقتٍ سريعٍ قياسي للمسلمين، ليثبتوا أننا على حق، وهم على باطل، فقد حدّثني أخ ذات مرة كانت زوجته في وضعٍ في مسيس الحاجة إلى طبيب، يأتي إلى البيت في ساعةٍ متأخِّرة، قال لي: اتصلت بأول طبيب، والثاني، والثالث حوالي عشرة أطبّاء، بعضهم اعتذر، بعضهم لم يلبِّ، بعضهم لم يستجب على الهاتف، فقالت له القابلة: أتوافق على طبيب غير مسلم ؟ قال لها: مضطر، فلمّا اتصلوا به قال: تجدوني في الساعة الفلانيَّة في المستشفى، فلمّا وصلوا رأوه موجوداً في الوقت المناسب.

فعندما يلبيك غير المسلم، ويكون صادقًا معك، هذه القضيَّة تحدِث زلزلة، أن هذا المسلم هكذا يفعل، وهذا غير المسلم هكذا يفعل !! فإذا أردت أن تدعم دينك فكن مستقيماً، إذا أردت أن تؤكِّد للناس أن هذا الدين حق كن صادقاً، إذا أردت أن تؤكِّد للناس أن هذا الدين من عند الله دينٌ صافٍ إيّاك أن تكذب، إياك أن تغش، إياك أن تخون، إياك أن تنافق، إياك أن تتناقض، إياك أن تقسو، إياك أن تزوِّر الحقائق، فلذلك:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

الحسنة ترفع المبدأ.

ما قولكم بأن بعض الناس يؤمنون بالمبادئ الهدّامة إذا رافقتها خدمات طيّبة، فأنت تتعامل مع الخط العريض في المجتمع، مع العوام، مع الدَهْمَاء، هؤلاء يتعاملون مع الواقع لا مع الفكر، فلو جاء إنسان ضال مضل يدعو لمبدأ هدّام ينكر وجود الله، وقدّم لك الخدمات، وأنكر ذاته أمامك، وأعانك ماذا يُحدِث لك ؟ يحدث لك اختلال توازن، تقول: أيهما على حق ؟ هذا الذي يدعو إلى ضلالة بهذه الأخلاق، وهذا التفاني، وهذا الذي يدعو إلى الحق بهذا التقصير وهذا الكذب ؟ فالقضيّة خطيرة جداً، أخطر ما في الدعوة إلى الله الحسنة والسيئة..

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

الحسنة ترفع وتدعم، وترسّخ، وتقوي ؛ والسيئة تسقط وتجعل الدعوة إلى الله في الوحل، تجعلها دعوةً عابرةً لا قيمة لها، فهذا الدين لا يعيش إلا بالمُثُل، ولا ينمو إلا بالمُثُل، والتطبيقات.

الآن:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ

قبل أن نشرح هذه الآية لابدّ من وقفةٍ قصيرة نتحدّث فيها عن سلوك الإنسان.

1 ـ سلوك الإنسان تجسيدٌ لعقيدته:

الحقيقة أيها الإخوة سلوك الإنسان تجسيدٌ لعقيدته، وتجسيدٌ لمدى اتصاله بالله أو انقطاعه عنه، المؤمن يتعامل مع الله، وغير المؤمن يتعامل مع الأشخاص، فإذا تعامل الإنسان مع الأشخاص الذي ينفعه ينفعه والذي يضرُّه يضرُّه، معاملة بالمِثل، الذي يرجو نفعه يتأدّب معه، والذي يخشى ضرَّه يتأدّب معه، هذه المعاملة المباشرة بينك وبين الشخص هذه دليل ضعف الإيمان، التعامل في غيبة الدين بين شخصين، هذان الشخصان قد يكونان في قوة واحدة، أو قد يكون أحدهما قوياً والثاني ضعيفاً، فالقوي يأكل الضعيف، قد يكون أحدهما ذكياً والثاني أقل ذكاءً، فالذكي يحتال على أقلهم ذكاءً، قد يكون أحدهما طليق اللسان واضح الحجّة والبيان والثاني عَيِيًّا، فطليق اللسان يستحوذ على العَيي.

أوضح مثل على ذلك: أنت بائع، وجاءك طفل صغير يريد شراء حاجة، لا يملك لا الخبرة ولا المعلومات، يمكن أن تعطي هذا الطفل أسوأ سلعة بأغلى سعر، أنت أقوى منه، وأعقل منه، وتملك خبرة أكثر منه، هو ضعيف وأنت قوي، لكن لو كان هناك إيمانٌ بالله عزّ وجل مهما كنت قوياً، ومهما كان

الطرف الآخر ضعيفاً إنك تتعامل معه من خلال ربّك عزّ وجل، تشعر أن الله وكيله، وأن الله سيسألك عنه، وسيحاسبك.

أحد إخواننا الكرام، ذُكِرت لي قصّة، أنا أقولها كثيراً فقط لوضوحها، عنده محل لف محرّكات قال لي: قبل أن أعرف الله يأتيني محرّك يحتاج إلى لفٍّ، أجرته خمسة آلاف، يقبل صاحب المحرّك هذا الرقم، يأخذ وصلا وينطلق إلى سبيله، أفتح المحرّك، فأرى فيه شريطاً مقطوعاً، من الظاهر لا يكلفني إلا دقيقة في وصله بالكاوي، وأعيد المحرّك إلى ما كان عليه، وحينما يأتي بعد سبعة أيّام أوهم صاحب المحرّك أنني لففته، وأشغِّله أمامه، وأتقاضى الخمسة آلاف ليرة، وصاحب هذا المحرّك لا يعلم ما في داخله، الذي يعلمه أنه توقّف عن الحركة، إذاً احترق، وصاحب المحل يعلم دقائق الأمور، هذا يعلم، وذاك لا يعلم، والاتفاق واضح خمسة آلاف، ثم قال لي هذا الأخ الكريم: بعد أن عرفت الله عزّ وجل جاءتني عدّة محرّكات على هذه الشاكلة، وعندما فتحتها وجدتها صالحة تحتاج إلى إصلاح طفيف، فلمّا جاء صاحبها بعد سبعة أيام قلت له: خمساً وعشرين ليرة، صُعِق الرجل فما كان يدري أنّ المحرّك سليم.

أردت من هذه القصّة أن أو أكّد لكم أنه من دون إيمان بالله القوي يأكل الضعيف، الذكي يأكل غير الذكي، صاحب الخبرة يستحوذ على قليل الخبرة، فأنت لا تعرف أنواع الزيت، أربعة أخماس نباتي وخمس بلدي، وأنت لا تعرف، والبائع يقسم لك أيمانًا مغلّظة، فلو ألغينا الإيمان في حياتنا فالحياة لا تُعاش، لأن فيها قويا وفيها ضعيفا، القوي يأكل الضعيف، الذكي يستحوذ على غير الذكي، صاحب الخبرة يسيطر على ضعيف الخبرة، المُنتج يأكل المستهلك، فحياةٌ من دون إيمان حياة غابة، حياة ذئاب، حياة وحوش.

أستمع أحياناً إلى بعض القصص التي تجري في مجتمعنا من نوع الاستغلال، من نوع الظلم أحياناً، وفي مهن راقية جداً، هذا المريض واثق من الطبيب، ومنحه كل ثقته، قد لا يكون هذا الطبيب في مستوى هذه الثقة، فيشير عليه بعمليّةٍ لا جدوى منها، وليس المريض بحاجةٍ إليها، حينما أستمع والله إلى مثل هذه القصص من أشخاص لهم مهنٌ عالية، أو مهن أخرى كالتجارة والصناعة، حينما أستمع لهذه القصص وأقول: هذا مجتمع وحوش، والله أخجل من الوحوش، لأنهم يأكلون حاجتهم وانتهى الأمر، حينما يجوع الوحش يأكل حاجته فقط، لكن هذا الإنسان حينما يغيب عنه الإيمان، وحينما يغفل يريد أن يوقع الأذى بأكبر عددٍ ممكنٍ من الناس، من أجل مصلحةٍ صغيرةٍ لا تقدّم ولا تؤخّر.

إذاً: التعامل مع الناس الآن إما أنه تعامل في ظل الإيمان، أو في غيبة الإيمان، في غيبة الإيمان تعامل وحوش، القانون قانون الغاب، الأقوى يأكل الأضعف، الأذكى يضحك على الأغبى دائماً، لكن إذا ساد الإيمان في المجتمع صار التعامل من خلال الله عزّ وجل.

قصّاب يأتيه طفل صغير ليشتري من عنده، يراقب الله عزّ وجل، هل أعطيته حقّه ؟ هل أعطيته البضاعة المناسبة ؟

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

2 ـ معنى: ادْفَعْ

معنى ادفع، أي ادفع شيئاً جاءك، أي جاءتك سيئة وكأنها قذيفة، المؤمن مأمور أن يدفعها بالتي هي أحسن.

3 ـ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

أما أحسن اسم تفضيل، أي إذا كان هناك مائة أسلوب لردِّ هذه السيئة، عليك أن تختار أحسن هذه الأساليب، إذا وجد مائة أسلوب، إذا وجد ألف أسلوب حسن لردِّ هذه الإساءة، عليك أن تختار أحسنها، لذلك هذه الآية تنفي الانتقام، المنتقم هبط إلى مستوى خَصْمِهِ، ما دام قد ردَّ عليه الإساءة بإساءةٍ مثلها هبط إلى مستواه.

القرآن الكريم يؤدِّب النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام أعلى تأديب، ونحن بالتبعيَّة، أي كلّما أساء لك مسيء أينبغي أن تردَّ على إساءته بإساءةٍ مثلها ؟ ليس هذا هو الإيمان، بل ينبغي أن تعفو عنه، ينبغي أن تترفَّع عن الإساءة إليه، ينبغي أن لا تردَّ هذه الإساءة بإساءةٍ مثلها، ينبغي أن تكون أرقى من ذلك..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

4 ـ يمكن ن تجعلك من عدوك صديقا مؤمنا:

الحقيقة أن هذا الكلام قد يقول عنه بعض الناس: إنه كلام خيالي، أو كلام مثالي، هو والله خياليٌّ وواقعيٌّ في وقتٍ واحد، إذا كنت تعرف الله عزّ وجل فوالله هو واقعي، إذا عرفت الله، وعرفت ما عنده من إكرام، وعرفت جنّته وناره، وعرفت أن هذه الدنيا زائلة، وأنها ماضية، وأن الأعمال الصالحة هي التي تبقى عند الله عزّ وجل، لذلك تضع نفسك تحت قدمك وتقول: سأردُّ لهذا المسيء إساءته بإحسانٍ كبير.

تجد في المجتمع الذي يعفو، والذي يترفَّع عن أن ينتقم، والذي يرد على الإساءة بالإحسان، تجده عظيماً جداً في نظر الناس، وربَّما انقلب العدو إلى صديق، فهذا عمير بن وهب قصّته معروفة، انطلق

من مكّة المكرّمة إلى المدينة ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام، واتفق مع صفوان بن أميّة إذ قال له: " والله لولا ديونٌ ركبتني وأطفالٌ صغار أخشى عليهم العنت لذهب وقتلت محمداً، ولأرحتكم منه "، فانتهزها صفوان عدو الله فرصةً، وقال له: " أما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت، وأما أولادك فهم أولادي ما امتدّ بهم العمر، اذهب لما أردت وأنا معك ".

سقى سيفه سُمًّا وهيّأ راحلته وانطلق إلى المدينة ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام غدراً، وحجّته أن ابنه أسيرٌ عند النبي ذهب ليأخذه، رآه سيدنا عمر رضي الله عنه فقال: " هذا عدوُ الله عمير جاء يريد شرّاً " قيّده بحمّالة سيفه وساقه إلى النبي، النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا عمر أطلق سراحه، فُكّ قيده، فكّ قيده، قال: يا عمر ابتعد عنه، ابتعد عنه، قال: يا عمير، ادنُ مني، دنا منه، قال: يا عمير، ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال: جئت أفدي ابني، قال: وهذا السيف الذي على عاتقك لمَ جئت به ؟، قال: " قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر ؟، قال: ألم تقل لصفوان: لولا ديونٌ ركبتني، وأطفالٌ صغار أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً، ولأرحتكم منه ؟، وقف عمير، وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسوله، وأسلم من ثَوّهِ.

يقول سيدنا عمر: دخل عمير على النبي صلى الله عليه وسلّم والخنزير أحبُّ إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحبُّ إليّ من بعض أولادي "، يمكن أن تجعل عدوّك صديقًا.

أحد أعداء النبي عليه الصلاة والسلام الألدّاء وقع أسيراً، قتل من أصحابه عدداً كبيراً ثم وقع أسيراً، اسمه ثمامة بن آثال، مرّ به النبي، وهو مقيّدٌ في سارية المسجد قال: ما وراءك يا ثمامة ؟ قال: إن تقتل تقتل ذا دم ـ أنا قاتل أصحابك ـ وإن تعف تعف عن شاكر، وإن تُرد المال فخذ منه ما تشاء، تركه يوماً آخر ومرّ به في اليوم الثاني وقال: ما وراءك يا ثمامة ؟ قال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تعف تعف عن شاكر، وإن ترد المال فخذ منه ما تشاء " تركه لليوم الثالث قال: أطلقوا سراحه، دعاه إلى الإسلام فأبى، خرج من مسجد النبي وعاد بعد حين، وأمام أصحابه جميعاً قال: أشهد أنه لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال: يا ثمامة لمَ لم تسلم حينما دعوناك ؟، هو أراد أن لا يكون إسلامه تحت ضغط إطلاق السراح، على كلٍ وقف وقال: **" يا محمّد، والله ما كان على وجه الأرض وجهٌ أبغض إليّ منك، والآن ما على وجه الأرض وجهٌ أحبُّ إليّ منك، وما كان في الأرض دينٌ أبغض إليّ من دينك، والآن ما في الأرض دينٌ أحبُّ إليّ من دينك، وما كان في الأرض بلدٌ أبغض إليّ من بلدك، والآن ما من بلدٍ أحب إلا بلدك".**

هكذا فعل النبي بأعدائه..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

فأنت يمكن أن يكون لك أعداء كُثُر، لكن أيَلزم كل عدو أن تنتقم منه ؟! اعف عن هذا، وسامح هذا، وأحسن إلى هذا.

أحدهم نال من النبي صلى الله عليه وسلّم أشدّ النَيل، فقال النبي عليه الصلاة والسلام من يقطع لسانه ؟، أصحاب النبي تفاوتوا في فهم هذا الأمر، بعضهم فهموا أن يقطع لسانه بالموسى أو بالسكين، أو المقص، وبعضهم قطع لسانه بالإحسان إليه، وأنت بإمكانك أن تقطع ألسنة أعدائك، بماذا ؟ بالإحسان إليهم، أي انطلق انطلاقة أنك يجب أن تكافئ المسيء بالإحسان..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

هل بإمكانك أن تعامل المسيء وكأنّه وليٌّ حميم ؟ هل بإمكانك أن تعفو ؟ هل بإمكانك أن تحسن ؟ إذاً أنت مؤمنٌ ورب الكعبة ؛ أما إذا أكل الحقد قلبك، وغلى في كيانك، وأردت أن تكيل له الصاع صاعين، عندئذٍ عليك أن تجدّد إيمانك، وأن تبحث عن مستوىً أرقى من هذا المستوى..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

1 ـ الأخلاق العالية تحتاج إرادة قويّة وإلى كمال رفيع المستوى:

هنا إشارة دقيقة جداً، الأخلاق العالية تحتاج إلى شيئين ؛ إما إلى إرادة قويّة، وإما إلى كمال رفيع المستوى، فأنت بالإرادة القويّة تضبط نفسك وهواك، وتجعل نفسك تحت قدمك، وتقف الموقف الكامل، معنى هذا أنت صاحب إرادة قويّة، صابر، استفززت فلم تفعل شيئاً، أو أنك على اتصالٍ بالله شديدٍ جداً نلت من حلمه الشيء الكثير، أي إما أنك نلت من الله الكمال الذي حملك على هذه المعاملة الطيّبة، وإما أنك قهرت نفسك، وصمّمت على الإحسان إلى من أساء من دون أن تبالي بالنتائج، إذاً إما أن تكون نفسك في مستوى هذا الأمر.

إذاً:

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

وإما أن تكون دون مستوى هذا الأمر عندئذٍ تصبر، أنت بين الصبر وبين الحظ العظيم..

(وَمَا يُلَقَّاهَا)

2 ـ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

أي أن تردَّ على إساءةٍ بالإحسان يحتاج إلى شيئين ؛ إما أن تصبر وإما أن يكون حظُّك من الله كبيراً، فالحظ هو النصيب هنا، أي إذا كان نصيبك من خلال إقبالك على الله شديداً وكبيراً ووافراً، معنى ذلك أنك تتمتَّع بكمالٍ كبير، هذا الكمال يحملك على العفو وعلى الإحسان، وعلى الردِّ على الإساءة بإحسان، وإن لم يكن في هذا المستوى الرفيع من الإقبال على الله واشتقاق الكمال منه بإمكانه أن يتحلَّم، أن يتصبَّر، أن يجعل من عمله تجسيداً لإرادةٍ صُلْبَة، على كلٍ كلاهما مقبول وكلاهما مثابٌ عليه..

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

نتابع تفسير الآيات التي بدأنا بها.

أيها الإخوة، الآيات لها سياق، لو نُزِعَت الآية من سياقها لها معنى مستقل، أما إذا أدرجت في السياق لها معنىً متعلِّقٌ بالسياق، فربنا عزَّ وجل يقول:

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

1 ـ الآيةُ من حيث سياقها:

لو جاء للإنسان وسواس من الشيطان، كي ينتقم من هذا المسيء ـ لازلنا في السياق ـ لو أن وسواساً أتاه من الشيطان لينتقم من هذا المسيء ليقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هذا الوسواس ينقطع عنه فوراً، هذا المعنى السياقي، أي أن الإنسان عندما يؤذى، أو تناله إساءةٌ بالغة من إنسان قد يغلي غيظاً، قد يفور كالمِرْجَل، قد يتمنَّى أن يمزِّق خصمه إرباً إرباً، يتمنَّى أن يجعله تحت الأقدام، يتمنَّى أن يسحقه، هذه مشاعر الإنسان إذا لم يعرف الله عزَّ زجل، فالمؤمن أحياناً قد تأتيه مشاعر من هذا النوع من الشيطان، أن اسحقه، دمِّره إنه عدوّك اللدود، لا ترحمه، قال:

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

أي إما أن تكون عوناً لأخيك على الشيطان، وإما أن تكون عوناً للشيطان على أخيك، الأكمل أن تكون عوناً له على الشيطان..

(فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

2 ـ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

هذه الوساوس من الشيطان في الانتقام من المسيء في سحقه في تدميره هذه لا تلتفت إليها، هذه من الشيطان، وإذا استعذت بالله عزّ وجل تذهب عنك بعيداً..

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

سميعٌ لقولك عليمٌ بصدقك، سميعٌ عليم.

3 ـ الآية في السياق العام:

أما الآية وحدها الإنسان بين وسوسة الشيطان وإلهام الملك، فإذا ألقى الشيطان في نفس الإنسان وسوسةً أو أمراً، أو زيّن له شهوةً، أو دعاه إلى معصية، أو إلى منكر، أو إلى قطيعةٍ، أو إلى هجرانٍ، أو إلى ما شاكل ذلك عليه أن يستعيذ بالله عزّ وجل من هذه الوساوس، أي إما أن تكون هذه الوساوس متعلِّقةً بالمسيء، أو ليس لها علاقة بالمسيء، وساوس إلى المعاصي، أو إلى الملذّات، أو إلى المخالفات، على كلٍ الشيطان لا يملك إلا أن يوسوس وهو أضعف من أن يُسَيْطِر، ولا تنسوا أبداً هذه الآية:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

4 ـ كيدُ الشيطان ضعيفٌ:

الشيطان ضعيف..

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا(76))

(سورة النساء)

أنت بإمكانك أن تستعيذ بالله عزّ وجل فتبعد عنك الشيطان مسافاتٍ طويلة..

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

5 ـ قاصمة ظهور الدجّالين والخرافيين:

أيها الإخوة، هذه الآية تحل محل التمائم، تحل محل الدجاجلة، محل السحرة، محل أنه مخاوي، محل أنه سنفك له سحره، ولكن يحتاج إلى خروف، هذه الآية تحل محل كل الخُرافات، وكل أنواع الدجل

والخزعبلات، وكل هؤلاء الذين يعيشون على مشكلات الناس، الشيطان لا يذهب إلا بالاستعاذة القلبيَّة، انتبه ! لكن بعضهم يقول: استعذنا، وما حدث شيء، لا يذهب إلا بالاستعاذة القلبيَّة، يجب أن يكون قلبك حاضراً، وأن تكون خاشعاً، وأنت تستعيذ بالله، إن فعلت هذا انصرف الشيطان.

هذه الآيةُ إما لوساوس متعلِّقة بالمسيء بحسب سياق الآيات، أو بوساوس متعلِّقة بالمعاصي إذا نزعنا هذه الآية من سياقها..

آيات اليوم:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا)

خلاصة الدرس:

1 ـ الكمالُ الإلهي يُتلقَّى:

وإنَّك لَتُلَقَّى القرآن، أي أن الكمال يتلقَّى من الله عزَّ وجل، إن مكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أحبَّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً، أي ألقى عليه هذا الخُلُق، إذاً كلمة..

(وَمَا يُلَقَّاهَا)

أنت تتلقَّى الكمال من الله، تتلقَّى الصبر من الله، تتلقَّى الحلم من الله، تتلقَّى الرحمة من الله، تتلقَّى العدالة من الله، تتلقَّى الإنصاف من الله، تتلقَّى حب الخير للناس من الله، ويتلقَّى الإنسان الشيطان كل أنواع الإساءات، والشهوات، والانحرافات، والضلالات، فلذلك كلمة..

(وَمَا يُلَقَّاهَا)

2 ـ الكمالُ الإلهي لا يناله إلا الصابرون أصحاب النصيب:

من الله هذه المكارم إلا الذين صبروا..

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

أما إذا جاءك الوسواس لتنتقم من عدوّك اللدود..

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

3 ـ اعفُ عمّن أساء إليك:

عبد أساء لسيّده إساءة بالغة فقال: يا سيدي..

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ(135))

(سورة آل عمران)

الآية الكريمة فيها ثلاث مراحل:

أول مرحلة قال:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

المرحلة الثانية:

(وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ)

والثالثة:

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134))

(سورة آل عمران)

إذا أساء لك أحد فهناك ثلاث مراحل: مرحلة تكون فيها تغلي غليانًا من الداخل، أحياناً تعض على أسنانك من شدة الألم، لكن تضبط أعصابك، هذا كظم للغيظ.

مرحلة ثانية من الداخل أمنٌ وسلام، كأنه واحد مريض أمامك، فإذا رأى طبيب مريضًا معه مرض جلدي قبيح جداً هل يغضب منه ؟ يحزن عليه، يرثي لحاله، فالمؤمن الراقي إذا أُسئ إليه يرى هذا المسيء مخطئًا، يرى هذا المسيء قليل القيمة عند الله عزّ وجل وجاهلا، هذه المرحلة الثانية.

أما الأرقى:

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134))

أن تحسن لمن أساء إليك، فإن كنت مسلمًا حقيقيًا، مؤمنًا حقيقيًا تمثِّل هذا الدين يجب أن تردَّ على الإساءة بالإحسان. إلا في حالات نادرة كمن كان طائشًا مثلاً، وأساء إساءة بالغة، فإذا قابلته بإساءةٍ توقفه عند حدِّه، إذا اقتضت الحكمة ذلك الأولى أن توقفه عند حدِّه، إذا لم يكن لديه إصرار أو طيْش، ولكن حصل نسيان أو تقصير فالأولى أن تعفو عنه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (08-11): تفسير الآيات 37- 39
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-12-24

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الثامن من سورة فصِّلت، ومع الآية السابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

تذكيرٌ بما سبق:

أيها الإخوة، أولاً: حينما ذكر الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين آمنوا بالله، واستقاموا على أمره..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

وبيَّنت لكم وقتها أن علامة صدق إيمانهم استقامتُهم، هؤلاء الذين قَبِلوا الحق، هناك مرتبةٌ أعلى من هذه المرتبة هم الذين نشروا الحق، قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

وبيَّنت لكم في الدرس الماضي أو قبل الماضي أن هؤلاء الذين دعوا إلى الله عزّ وجل، وطبَّقوا مضمون دعوتهم منطلقين من إيمانهم، ومن إخلاصهم هم في قمة المجتمع البشري عند الله، ولو كانوا عند الناس في أدنى درجة من درجات السُّلّم الاجتماعي، هؤلاء الفريق الآخر.

ثم يبيّن ربنا سبحانه وتعالى لنا أن طريق إيمان هؤلاء، وجوهر دعوة هؤلاء هو معرفتهم بالله عزّ وجل، إذا عرفت الله استقمت على أمره، وإذا عرفت الله دعوت إليه.

وطريق معرفة الله عزّ وجل آياته، لأن الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، ولكن خلق الكون ليكون الكون مظهراً لأسماء الله الحسنى وصفاته الفُضلى، فإذا أردت أن تعرف عظمة الله عزّ وجل، علم الله، رحمة الله، خبرة الله، قدرة الله، إن أردت أن تعرف أسماء الله عزّ وجل فهذا الكون ينطق، وكل شيءٍ في الكون ينطق بوجود الله، وبكمال الله، وبوحدانيَّة الله.

لذلك ربنا في سوره الكريمة كلّما بيَّن حقيقةً بيَّن سببها، أي إذا أردت أن تؤمن، ومن ثمَّ تدعو فعليك بهذه الآيات، لأنك إن فكَّرت فيها بدت لك عظمة الله عزّ وجل.

وكنت أقول دائماً: إن الكون أوسع بابٍ وأقصر طريق، إذا أردت أن تقف أمام عظمة الله عزّ وجل، أما قدرة الله، أما علم الله، أمام رحمة الله، أمام لطف الله فدونك الكون، وحسبك الكون معجزة.

إذاً: سياق هذه الآيات، الآيات مترابطة، ولو لم يبد لكم أدوات ربط ظاهرة، في اللغة أدوات ربط ظاهرة، لأنه كذا وكذا كان كذا وكذا، وانطلاقاً من كذا نقول كذا، هذه أدوات ربط ظاهرة، ولكن مقاطع القرآن الكريم مترابطة أدقّ الترابط، مترابطة ومتناسقة أدقّ التناسق.

إذاً: بعد أن بيّن لنا الفئة الأولى التي آمنت، وكانت استقامتها علامة إيمانها، والفئة الثانية التي دعت، وكان عملها الصالح علامة صدقها في دعوتها، بيّن الله سبحانه وتعالى أن الإيمان بالله والدعوة إليه أساسه معرفة الله، وطريق معرفة الله هذه الآيات الكونيّة جاءت..

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

(وَمِنْ)

1 ـ النظر في الكون طريق لمعرفة الله:

ومن هنا للتبعيض، أي من بعض الآيات التي بثّها الله في السماوات والأرض، من بعض الآيات، أما الحقيقة فإن الكون كلّه بسماواته وأرضه، بمجرّاته، بكازاراته، بالكواكب الملتهبة، بالكواكب المنطفئة، بالأقمار، بالأرض وبكل ما فيها من جبال، من مسطّحات، من وديان، من سهول، من أنهار، بحيواناتها، بأسماكها، بأطيارها، بنباتاتها، بأنسها، بحقيقة الإنسان، كل ما في الكون ينطق بوجود الله، وبعظمة الله، وبكمال الله، ربنا يقول:

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

هل فكّرت في هذا الليل ؟ يقول عليه الصلاة والسلام في بعض أقواله:

((سبحان الله، أين الليل إذا جاء النهار))

(من كنز العمال)

كل شيء مظلم، كل شيء ساكن، يأتي النهار يتضح فيه كل شيء..

((سبحان الله، أين الليل إذا جاء النهار))

(من كنز العمال)

أو أين النهار إذا جاء الليل ؟ الوحشة، والخوف، والقلق، والسكون، لو كنت في مكانٍ فسيح، أو في غابةٍ، أو في عُرض بحرٍ تأتي الشمس فتملأ الأرض ضياءً، وحركةً، ونشاطاً، ونوراً..

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

2 - الليل والنهار:

لماذا هناك ليل وهناك نهار ؟ لأن هناك مصدرًا للضوء وهو الشمس، لو أن الشمس انطفأت لما كان هناك ليلٌ ولا نهار، إذا لم يكن هناك نهار فليس هناك ليل، وبضدِّها تتميَّز الأشياء، ومصدر الحرارة، والطاقة، والضوء، والدفء من الشمس.

إذاً: كلمة الليل تشير من طرفٍ خفي إلى الشمس، وهذه الشمس وهذه الأرض، لو أن هناك شمسًا وهناك أرضًا، لولا هذه الدورة لما كان ليلٌ ونهار، لو أن الأرض دارت هكذا على محورٍ موازٍ لمستوى دورانها حول الشمس، لو دارت الأرض هكذا لما كان ليل ولا نهار، نصفها المُقابل للشمس نهارٌ أبديٌ سرمدي، ونصفها الآخر ليلٌ أبديٌ سرمدي، لأن المحور ليس موازياً لمستوي دورانها حول الشمس كان الليل والنهار..

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ)

تناسب الليل والنهار دليل على عظمة الخالق:

لكن لو أن الأرض تدور كل ساعة دورة حول نفسها، لكان الليل نصف ساعة واحدة، لا نستريح، نغلق المحلات، ونأتي إلى البيت، حتى يبدأ نهارٌ جديد، لو أن الأرض تدور حول نفسها كل خمسين ساعة دورة، لصار الليل خمسا وعشرين ساعة، فالإنسان إذا نام في وقت مبكِّر جداً، واستيقظ الساعة الثانية عشرة يحتار ماذا يفعل ؟ فالناس كلهم نائمون، لو كان الليل أطول من حاجة الإنسان للنوم أو أقلّ لاختلف نظام الأرض، لكن سبحان الله ! طاقتك للعمل ثماني ساعات، وحاجتك للنوم ثماني ساعات، وثماني ساعات بين ذهاب وإياب، وطعام وشراب، وجلوس مع الأهل، هذا تناسق تام بين سرعة دورة الأرض حول نفسها وجسم الإنسان، هذا يؤكِّد أن الذي خلق الأرض بهذا الحجم، وجعل سرعتها بهذه السرعة هو الذي خلق الإنسان.

لو أن حجم الأرض كحجم القمر، لكان وزن الإنسان على الأرض سُدس وزنه الحقيقي، أي أن الذي وزنه ستين كيلوا سيزن عشرة كيلوات، والوزن الخفيف أحياناً يكون مزعجًا جداً، أي حركة صرنا في الهواء، فوزنك يتناسب مع حجم الأرض، لأن حجم الأرض يؤكِّد مستوى الجاذبيَّة، فوزنك له علاقة بحجم الأرض، وطول الليل له علاقة بسرعة الدوران حول نفسها.

3 ـ الفصول الأربعة:

لو أن المحور هكذا عمودي على مستوى الدوران لانعدمت الفصول، وإذا انعدمت الفصول انعدم النبات، والنبات أحد أسبابه الفصول.

التأمُّل يضعنا أمام آياتٍ دالّةٍ على عظمته، فوزنك متعلِّق بحجم الأرض، وطول الليل والنهار المتناسب أشد التناسب مع حاجتك للنوم والعمل متعلِّقٌ بسرعة دورة الأرض حول نفسها، وميل المحور يجعل الفصول الأربعة، ولولا هذا الميل لكان الصيف أبديا في نصف الكرة الأرضيَّة عند خط استوائها، وفي طرفيها شتاءٌ أبدي، أما بهذا الميل فالشمس عموديَّةٌ على قسمها الشمالي، فإذا أصبحت في هذا المكان أصبحت عموديَّةً على قسمها الجنوبي، إذاً: تبدّل الصيف والشتاء والربيع والخريف يكون عبر مناطق الأرض.

إنّ الإنسان بإمكانه إذا ذهب إلى قارة أمريكا، بإمكانه وهو في شمال أمريكا أن يُعاين الثلوج المُتراكمة، فإذا ركب الطائرة، وطارت به إلى جنوب أمريكا يرى الناس يسبحون في البحار، هناك صيف، إذا كان عندنا شتاء ففي نصف الكرة الجنوبي صيف، وحينما يكون عندهم الشتاء يكون عندنا الصيف.

إذاً: لولا ميل هذا المحور ميلاً دقيقاً جداً لما كانت الفصول الأربعة، فمن دورة الأرض حول نفسها، وبمحورٍ غير موازٍ لمستوي دورانه حول الشمس يتشكّل الليل والنهار، ومن سرعة دورانها حول نفسها يتحدّد طول الليل والنهار، وميل محورها على العمود على مستوى دورانها يشكِّل الفصول الأربعة، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

4 ـ الشمس والقمر:

هذه الشمس التي تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرّة، التي تزيد حرارتها عند سطحها على ستة آلاف درجة، وقد تصل الحرارة في جوفها إلى بضعة ملايين درجة، هذه الشمس التي يزيد طول لَهَبِهَا على مليون كيلو متر، أحياناً في الكسوف التام يرسمون الشمس بأجهزة خاصّة، فإذا ألسنةُ لهبٍ تمتدُّ من محيطها، هذه الألسنة يزيد طولها على نصف مليون كيلو متر إلى مليون كيلو متر، وتكبُر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرّة، وتبعد عنها مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، ولا تنسوا أن من أبراج السماء برج العقرب، ربنا قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

برج العقرب فيه نجوم كثيرة، من هذه النجوم قلب العقرب، هذا النجم الصغير يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، عندما قال ربنا عزّ وجل:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس: من الآية 101)

كيف تطيعه ؟ لابدّ من أن تعرفه.

مثل بسيط جداً: أنت الآن في حياتك الوظيفيّة تندفع إلى تنفيذ الأمر بحسب نوع التوقيع، قد يأمرك وأنت في الجيش عريف، وهناك رقيب، وهناك ملازم، وهناك عقيد، أما قائد الفرقة إذا أعطاك أمرا فإنّ استجابتك له تختلف، هذا منطق الحياة، كلّما عظُم الآمر عظُم الأمر، وعظمةُ الأمر من عظمة الآمر، فإذا عرفت عظمة الآمر صار التطبيق سهلاً، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 28)

مرّة قلت في بعض الدروس، وأعيد هذا كثيراً: إنه بين الأرض وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئيّة ـ اليوم احسبها بالآلة الحاسبة ـ كم تبلغ مسافة أربع سنوات ضوئيّة بالكيلو متر ؟ الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر، وبين الأرض والقمر ثانية ضوئيّة واحدة، في الدقيقة ضرب ستين، في الساعة ضرب ستين، في اليوم نضرب بأربع وعشرين ساعة، في السنة ضرب ثلاثمائة وخمسة وستين ـ الثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربعة وعشرين ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، هذا ما يقطعه الضوء في سنة واحدة ـ هذا النجم الملتهب يبعد عنّا أربع سنوات ضوئيّة، لو قسّمت هذا الرقم على مئة كيلو متر وهو سرعة المركبة الأرضيّة، وقسّمته على أربعة وعشرين ساعة ـ على يوم ـ ثم على ثلاثمائة وخمسة وستين لفوجئت أن هذه المسافة تحتاج أن تصل إلى هذا الكوكب الملتهب إلى خمسين مليون عام، كل التاريخ الميلادي إلى اليوم ألف وتسعمائة وأربعة وتسعون، كل التاريخ الميلادي وليس الهجري، تحتاج خمسين مليون عام من أجل أن تصل إلى أقرب نجم ملتهب للأرض، هذا هي أربع سنوات ضوئيّة.

ومجرّة المرأة المسلسلة مليون سنة ضوئيّة، مليون ضرب خمسين مليون ؟ وأحدث مجرّة تبعد عنّا ستة عشرَ ألف مليون سنة ضوئيّة، اسمعوا الآية الكريمة:

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

هذه المسافات بين النجوم..

(وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

من معاني (لو) أنّها أداة حَض، يقول لك أحدهم: لو تذهب معي، أي اذهب معي، لو تأكل معنا، أي كل معنا..

(وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

لو علمتم لعرفتم من هو الخالق، ما معنى الله خالق الكون ؟ لذلك إذا عرفت الله حق المعرفة تعد للمليون قبل أن تعصيه، الآن الناس لأتفه سبب يقول لك: أنا مضطر، عندي أولاد، يقع في كل المخالفات لأن عنده أولادا، فهل غيرك ليس عنده أولاد ؟ وهل المستقيم ليس عنده أولاد ؟ لأنه لا يعرف الله عزّ وجل، لو عرفه حقّ المعرفة لو قُطِّع إرباً إرباً لا يعصيه، لكن ما عرفه، متى الحسرة والندامة ؟ حينما يأتي ملك الموت وقد ضيّع الإنسان عمره سُدى، وعندما يضيّع الإنسان عمره سُدى عندئذٍ يعرف حقيقة هذه الحياة الدنيا.

إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

الشمس والقمر من آيات الله الدالّة على عظمته.

لا أريد أن أطيل عليكم، إلا أن مركز الثقل في هذه الآية:

(لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ

أي أن هناك من يدّعي أنه إذا عبد الشمس فهو يتقرّب إلى الله بأعظم مخلوقاته ـ كان هذا قديماً ـ إذا عبدنا البقر نتقرّب إلى الله بأنفع مخلوقاته لنا..

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر: من الآية 3)

1 ـ يجب أن تعبد الله وفق الشرع لا وفق الهوى:

فهذا الردُّ عليهم: أي ينبغي أن تعبد الله أنت لا وفق مزاجك، ولا وفق تصوُّرك، ولا وفق هوى نفسك، إذا أردت أن تعبد الله فينبغي أن تعبده وفق ما أمرك به أن تعبده، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

إذا كنت تدّعي أنك تعبد الله فعليك أن تسجد لله عزّ وجل، لذلك رأى الهنود أن البقرة من أفضل الحيوانات المعطاءة ؛ تعطيك الحليب، والجبن، واللحم، لذلك عبدوها من دون الله، والآن هناك في الهند أكبر قطيع بقر في العالم، لأنه يمنع ذبحُه، يعبدون البقر من دون الله، لو دخلت البقرة إلى أرقى المحلات، وأكلت ما شاءت من أغلى أنواع الفاكهة، يرى صاحب المحل أنه سعيدٌ أيّما سعادة، لأن هذا الإله الذي يعبده من دون الله دخل إلى دكّانه وأكل من فواكه الدكّان.

فلا تعرف قيمة هذا الدين العظيم إلا إذا قرأت عن الأديان الأرضيّة الأخرى، فبعض الهنود يضعون في أيام الأعياد روث البقر على أفخر أثاث بيوتهم، لأن هذا من آثار إلههم، وهناك من عبدوا الشمس.. قال تعالى واصفًا بلقيس ملكة سبأ:

(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة النمل: من الآية 24)

إذاً: ربنا عزّ وجل يقول: يجب أن تعبدني وفق ما آمرك به لا وفق ما يتراءى لك أنت.

(لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ)

2 ـ الكافر يقف عند النعمة والمؤمن يقف عند المنعِم:

وهنا لابدّ من وقفةٍ قصيرة، الكافر يقف عند النِعمة، والمؤمن ينتقل من النعمة إلى المُنعم، لا شكّ أن النعم معروفة عند أهل الكفر، وعند أهل الإيمان، عند الملحدين، عند المشركين، عند الفجّار، عند المؤمنين، الشمس شمس، والقمر قمر، والهواء النقي هواء نقي، والماء العذب الفرات عذب فرات، والخيرات الوفيرة من الطعام والشراب هي خيرات وفيرة، فليس هناك أي خلاف على النعم في الكون إطلاقاً، اذهب إلى أي مكانٍ شئت، إلى شرق الأرض وغربها، إلى شمالها وجنوبها، لا تجد فرقاً في النعم، كل إنسان يحب بيتا واسعا، مدفّأ شتاءً، مكيّفا صيفاً، الطعام، الشراب، الفواكه، أنواع اللحومات، المقبّلات، الشراب، الفُرُش الوثيرة، الأثاث الفخم، التزينات، النعم نِعم، لكن المؤمن ينتقل من النعمة إلى المنعم، والكافر يبقى عند النعمة يعبدها من دون الله، هذا هو الفرق.

ولو كانت بلاد لا تعبد فيها الشمس، ولا تُعبد فيها الأبقار إلا أنه حينما نسعى لهذه النعم وننسى المنعم، حينما نتنافس على هذه النعم، وننسى منهج المنعم، حينما نسعى إليها وكأنها هي كل شيء ومحطّ الرحال، هنا المشكلة، المشكلة أن هذه النعم ينبغي أن نتجاوزها إلى المُنعم، لو قرأت أحاديث النبي عليه

الصلاة والسلام وأدعيته لوجدت أن كل نعمةٍ عزاها إلى الله عزّ وجل، فكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل الخلاء يقول:

((الحَمْدُ لِلّه الّذي أذاقَنِي لذّتَهُ، وأبْقى فِيّ قُوّتَهُ، وَدَفَعَ عَنّي أذاهُ))

[البيهقي في شعب الإيمان، وابن أبي شيبة في المصنف]

عرف هذه النعمة ؛ نعمة الطعام، نعمة أنك أكلت طعاماً وشراباً ولم تأخذ سيروماً، نعمة أن هذا الطعام والشراب لذيذ الطعم، طيّب المذاق، مستساغ، وهذه التفّاحة شكلها، ولونها، وحجمها، وقشرها، ولبُّها، وقِوامها، ومضمونها مناسبٌ للجسم، أذاقني لذّته.

وأبقى فيّ قوّته، هذه الطعوم التي خلقها الله لنا تفيد أجسامنا، طعام فيه كالسيوم، وفيه فيتامين، وفيه آزوت، وفيه منغنيز، هذه المياه معدنيّة، وهذه الفواكه فيها الأملاح الفلانيّة، وهذه مضادّات حيويّة، وهذه فيتامينات، أبقى فيّ قوّته.

وأذهب عني أذاه ؛ هذه الفضلات خرجت، ولو بقيت لكانت حياة الإنسان جحيماً.

إذاً: لو قرأتم أدعية النبي عليه الصلاة والسلام لوجدتم هذا المعنى، حتى إذا دخل بيته كان يقول:

((الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أطْعَمَنَا، وَسَقَانَا، وَكَفَانَا، وَآوَانَا، وَكَمْ مِمّنْ لاَ كَافِيَ لَهُ وَلاَ مُؤْوِي))

[الترمذي عن أنس]

النقطة الدقيقة في هذا الدرس أن المؤمن ينتقل من الكون إلى المكوّن، ومن النظام إلى المنظِّم، ومن التسيير إلى المسيّير، ومن الوجود إلى الموجد، ومن النِعمة إلى المُنعم، لا يقف عند الوجود، لذلك جاء في الفاتحة:

(الحَمْدُ للهِ)

لا خلاف بين الناس في النعمةِ، ولكن الخلاف في المنعِم:

الخلاف ليس على النعمة، لكن الخلاف إلى من تُعزَى هذه النعمة، الحمد لله، الحمد ليس فيه خلاف، هناك نعمةٌ تستحق الحمد، ولكن لمن ؟ لله، الحمد لله رب العالمين، ليس هناك خلافٌ على النعمة، بل الخلاف في مصدر هذه النعمة، إنه الله سبحانه وتعالى.

إذاً:

(لَا تَسْجُدُوا لِلشّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي خَلَقَهُنّ)

تطبيقاً لهذه الآية: لو أن أخاً مؤمناً مرض ابنه لا سمح الله ولا قدّر، وأخذه إلى طبيب، وقد أجرى الله الشفاء على يد هذا الطبيب، فالأخ المؤمن ينبغي أن يشكر الله سبحانه وتعالى أولاً، لأنه مكّن الطبيب

من معرفة الداء وألهمه الدواء، وسمح للدواء أن يفعل فعله ؛ أما أن تنسى الله سبحانه وتعالى، وينصَّب كل الشكر على عمل هذا الطبيب فهذا شرك.

لو وكّلت محامياً وقد وفّقه الله وأخذ لك الحكم ممن ظلمك، ينبغي أن تشكر الله عزّ وجل على أنه جعل القاضي يقتنع، وألهم هذا المحامِي أن يرفع مذكِّرةً قويَّةً، لولا أنّ الله أراد لما كان ما كان.

النبي عليه الصلاة والسلام يردّ كل النعم إلى ربّه:

كل النعم التي تساق إليك في الأعم الأغلب تساق على يد إنسان، فالشرك أن تراها من هذا الإنسان، والتوحيد أن تراها من الله عزّ وجل، لذلك بعد أن فتح النبي عليه الصلاة والسلام مكّة، وانتهى من معركة حُنَيْن، أذكر هذه القصّة لكلمة واحدة قالها النبي عليه الصلاة والسلام، جاءه أحد صحابته وهو سيدنا سعد بن معاذ قال: يا رسول الله، إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم ـ أي هم غاضبون ـ قال: " أين أنت منهم يا سعد ؟ "، قال: " ما أنا إلا من قومي "، فقال عليه الصلاة والسلام: " اجمع لي قومك "، فجمع الأنصار، وقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم))

[من كنز العمال: عن " أبي سعيد]

طبعاً النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الوقت، وفي هذا المكان كان في قمة انتصاره، الجزيرة العربيّة من أقصاها إلى أقصاها دانت له، مكّة والمدينة وجميع القبائل دانت له بالخضوع بعد معركة حنين، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام كغيره كان بإمكانه أن يُلغي وجودهم، وبإمكانه أن يهدر كرامتهم، لو قال عنهم: منافقون لانتهوا، وبإمكانه أن يهملهم، وبإمكانه أن يعاتبهم، ويذكِّرهم بفضله عليهم، لكنه لم يلغ وجودهم، ولم يهدر كرامتهم، ولم يهملهم، ولم يعاتبهم، ولم يُذكِّرهم بفضله عليه، بل جمعهم، وذكّرهم بفضلهم عليه فقال:

((يا معشر الأنصار لو شئتم لقلتم فصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك ـ هذا الحق، ذوبهم اللهمّ صلّ عليه ـ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟))

لم يقل: فهديتكم، هنا التوحيد.

يكون أحدنا ذا علم قليل فيتكلّم بكلمتين، فتدمع عين السامع، فيقول: أنا هديته، ولي فضل عليه ! أي فضل هذا ؟ النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد البشر قال:

((ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟))

هذا التوحيد.

أنا لا أقول هذا من باب التأدُّب، لا، هذه هي الحقيقة، الله عزّ وجل أوجدك، نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد إذ جعلك من أم وأب وليس لقيط، دلّك عليه، هيّأ لك عملا، أعطاك إمكانات خبرة، إما علم، أو صنعة، أو مصلحة، زوّجك، أمّن لك بيتًا، فهذا كله من فضل الله على الإنسان قال:

((ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: بلى، قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة))

ـ انظر إلى هذا الاسم أي مثل الخشخيشة ـ

((تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟))

قال: فبكوا حتّى أخضلوا لحاهم، قال عليه الصلاة والسلام:

((فو الذي نفس محمد بيده ! لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار))

[كنز العمال عن أبي سعيد]

قلت مرّةً تعليقاً على هذه القصّة في خطبة: كان الله في عون كُتّاب السيرة أين يضعون هذه القصّة، مع حلم النبي أم مع رحمته ؟ أم مع وفائه أم مع حكمته ؟ شيء يحيّر، حكمة أم رحمة، أم حلم أم وفاء ؟ هذا هو النبي اللهمّ صلّ عليه.

ذكّرني هذا بقصّة أخرى، عندما أرسل أحد أصحابه، وهو حاطب بن أبي بلتعة، كتاباً إلى قريش قبيل فتح مكّة يقول فيه: " إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم "، وهذا الكتاب في مقياس أمم الأرض قاطبةً، وحكومات الأرض قاطبةً خيانةٌ عُظمى، ويستحق صاحبه الإعدام، فلمّا أخبر الوحي النبي عليه الصلاة والسلام بهذا أرسل النبي أحد أصحابه ليأتوا بالكتاب من امرأة كانت في منتصف الطريق في مكان اسمه الروضة، واستدعي حاطب بن أبي بلتعة ليُحقّق معه، ما كان من عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلا أن قال: " يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق "، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أو ليس من أهل بدر "، أي لم يهدر له عمله، قال: " يا حاطب، ما حملك على ما صنعت ؟ " قال: " والله يا رسول الله ما كفرت ولا ارتددت، ولكن أردت أن يكون لي صنيعةً عند قريش، لأنه ليس لي عندهم أهلٌ يحمونني))

فقال عليه الصلاة والسلام:

((صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً))

[صحيح البخاري عن حصين]

وعلّق كُتّاب السيرة على هذه الحادثة: بأن عمر نظر إلى الذنب فرآه خيانةً عُظمى، لكن النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى صاحب الذنب فرآه قد وقع، وتعثّر في لحظة ضعفٍ طارئة، فأراد النبي أن يعينه على نفسه، وأن ينهضه، وأنهضه، وحَسُنَ إسلامه، وأرسله مندوباً شخصياً لبعض الملوك في المستقبل، لذلك النبي كما قال بعض الشعراء:

وأجمل منك لم ترَ قد عيني و أكمل منك لم تلد النساءُ

خُلِقت مبرّاً من كل عيبٍ كأنّك قد خُلقت كما تـشاءُ

***

موطن الشاهد في هذه الآية أي أن المؤمن ينتقل من الكون للمكوّن، من النظام للمنظِّم، من التسيير للمسيّر، من الوجود للموجد، من النعمة إلى المُنعم، كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ صباحاً أول ما يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي ـ أيْ أنه استيقظ، هناك ناس ينامون ولا يستيقظون ـ وعافني في بدني، وأذن لي بذكره))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

تطبيق عملي للآية:

إذاً: الآن كتطبيقٍ لهذه الآية: أية نعمةٍ ساقها الله إليك على يد إنسان لا تنسَ المنعم، بل إن بعض المؤمنين إذا استفادوا من جهازٍ دقيق يقول: لولا أن عقل الإنسان قد مُكِّنَ من اختراعه لما اخترعه هذا الإنسان، فهذا من نعمة الله أيضاً، فالمؤمن دائماً يصل إلى الله حتى من خلال جهاز اخترعه إنسان، القرود ما اخترعوا هذا الجهاز، القضيّة قضية ذكاء، هناك حيواناتٌ عاشت آلاف السنين، وما اخترعت شيئاً، معنى هذا أن الإنسان مهيّأ ليبدع، وهذا من ثمار عقل الإنسان.

إذاً: هذا الذي يعظِّم كل من اخترع أو اكتشف، الحقيقة التعظيم لله عزّ وجل، والدليل قوله تعالى حينما حدّثنا عن الدواب قال:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

فهذا الذي لم يكن يعلمه من نزلت عليهم هذه الآيات، الآن ظهرت وسائل المواصلات الأخرى كالطائرات وغيرها، هذه أيضاً من إلهام الله عزّ وجل، بل إن الحدس الإبداعي قفزة في المجهول، إشراقة، هكذا يقول العلماء.

إذاً: الملخّص هنا أن الإنسان عليه أن يرى المنعم، وقد ذكرت قصة النبي عليه الصلاة والسلام مع الأنصار من أجل كلمة واحدة وهي:

((ألم تكونوا ضُلالاً فهداكم الله بي))

فأنت إذا عزوت الأمر كله لله فأنت على حق، وإلا وقعت في شركٍ خفي وأنت لا تدري.

قال:

(فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ)

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ

1 ـ كيف يستكبر العبد الضعيف عن عبادة ربّه ؟!

إن استكبروا، أي أن الإنسان أحياناً لضعف تفكيره أو لجهله يستكبر عن عبادة ربّه. أحد إخواننا الكرام كان طبيبا لامعا جداً توفّاه الله عزّ وجل، فذهبت لتشييع جنازته، فوجدت أشخاصا مهمّين جداً يقفون خارج المسجد لا يصلون، لا صلاة الجنازة ولا صلاة الظهر، فعجبت وقلت: يا رب، أهؤلاء يرون أنهم أكبر من أن يصلوا ؟ يستكبرون عن عبادة الله أم ماذا ؟ ربنا عزّ وجل يقول في الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

2 ـ الملائكة طائعون غير مستكبرين:

فلو أن كل الناس كفروا الله عزّ وجل لا ينقص ملكه شيء..

(فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا)

عن أن يعبدوا الله..

(فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ)

وهم الملائكة..

(يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ)

أي يصلون..

(وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ)

وهذا تعريضٌ بالضعاف الذين يعبدون الله عزّ وجل..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً)

الاستدلال على البعث وهو غيب بالأرض المحسوسة:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً

الأرض في الشتاء يابسة، الأشجار حطب، معظم الأشجار تتعرّى في الشتاء، ويتوقّف النُسُغ الصاعد والنازل، فلو أمسكت غصناً وكسرته لوجدته حطبا، خشبٌ يابس لا حياة فيه، الأرض كذلك، والأشجار كذلك..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً)

هنا وُصِفَت بأنّها خاشعة، السياق يقتضي ذلك، في آية أخرى وصفَت بأنها هامدة..

(فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)

فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

أي بعد الربيع ترى المساحات الشاسعة كلّها خضراء، فإذا سرتَ في الطرقات وجدت أنواع الزهور التي تأخذ بالألباب ؛ من كل الألوان، والأحجام، والأشكال، والتناسُقات، والتداخلات، فإذا مشى الإنسان في طريق ريفي في فصل الربيع يجد أن أنواع الأزهار لا تعد ولا تحصى على جوانب الطريق، والمساحات الخضراء ومعها أزهار صفراء، معها أزهار حمراء اللون، بعض الأزهار معروفة ـ شقائق النعمان ـ

(فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ)

وهذا الحطب اليابس الذي كان بالأمس حطباً يابساً، تزهر هذه الشجرة، فإذا هي ترتدي ثوباً قشيباً من الأزهار، وتعلمون جمال الغوطة في الربيع في الشام

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

هذه آية ثانية..

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ)

أي أن هذا الماء جعلها تتحرّك، طبعاً تجد بذرة فيها رشيم، فهذا الرشيم فيه حياة، مع الرشيم محفظة غذاء وقشرة، هذه هي البذرة، ضع حبة فاصولياء، أو حبة عدس، أو حبة قمح على قطن وماء، بعد أيام تجد أنه قد ظهر لهذه البذرة نتوءٌ صغير هو السويق، ونتوءٌ آخر هو الجذير إلى أن تصبح هذه القمحة، أو هذه العدسة أو الفاصولياء فارغة، هذا الماء حرّك الرشيم، طبعاً الرطوبة والنور أحد أسباب نمو الرشيم، لذلك بعض أنواع النِمال إذا أرادت النملة أن تخزّن القمح تأكل الرشيم لئلا ينمو، وهناك بعض أنواع الحبوب لها زوجان من الرشيمات، تأكل الزوجين معاً لئلا تنمو، فإذا جاء الماء تحرّك هذا الرشيم، الرطوبة مع النور والدفء أعطت الرشيم حركة، وهناك في الأهرامات قمحٌ زُرِع فنبت، أي أن الرشيم يبقى حياً ستة آلاف عام أحياناً، لأن الرشيم فيه حياة..

(فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)

صار هناك حركة و نمو، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى)

النبات دليل على عظمة الله:

بعض أنواع نباتات الزينة الغرام الواحد فيه سبعون ألف بذرة، وكل بذرة لها رشيم، ولها محفظة غذاء، ولها جُذَير، ولها غشاء، الغذاء يكفي البذرة حتى ينشأ لها جُذَيْر ليمتص الغذاء من التربة، قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

ظاهرة النبات من أعظم الآيات الدالّة على عظمة الله عزّ وجل، يقول لك: هذه البذرة تصبح تينه، هذه مشمشة، هذه دراق، أمسك البذرة أين مكتوب درّاقة ؟ أين مكتوب دراق مخملي ؟ الدرّاق أنواع، ثلاثمائة نوع من العنب، ثلاثة آلاف وخمسمائة نوع من القمح، لا توجد فاكهة أو محصول إلا وله أنواع بالمئات أو بالألوف، أمسك البذرة، هذه البذرة مثلاً إنتاجها مبكِّر، مقاومة للأمراض الفلانيّة ـ شيءٌ جميل ـ إنتاجها مبكِّر ومديد، ثمرتها قاسية، لونها كذا، تفّاحيّة الشكل، قطرها كذا، حامضية الطعم، نسيجها كثيف، ماؤها قليل، تسمع أحياناً من شركات البذور اثنتي عشرة أو عشرين صفة للبذرة، امسك البذرة، أين توجد هذه الصفات ؟ لا ترى شيئاً، ترى بذرة صغيرة.

الله عزّ وجل جعل البذرة كأنها مبرمجة برنامجا دقيقا جداً، هذه البذرة تعطيك إنتاجا مبكِّرا أسعاره غالية، هذه تعطيك إنتاجا مديدا، هذه تعطي إنتاجا غزيرا، هذه تعطي إنتاجا من نوع معيَّن، فهذا علم قائم بذاته، فظاهرة النبات من أعظم الآيات الدالّة على عظمة الله عزّ وجل، وهذه البذور تتزواج أحياناً، فتنتج بذورا هجينة، نأخذ صفات هذا النبات مع صفات هذا النبات، مع صفات هذا النبات، بعض البذور تجرى لها عملية تهجين لها ثماني مرّات، ثماني حالات زواج بين نوعين من أنواع النبات حتى ظهرت هذه البذرة..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً)

بعض البذور تنتقل عبر الرياح، في بعض الغابات زُرعت من قِبَل الله مباشرةً، بذرة لها شكل حلزوني وقمع، فتنغرس بعد سطح التربة باثنين سنتيمتر، ثم تسير هذه البذور في الممر الحلزوني إلى أن تستقر في التراب، وبعض الرّعويات تُزرع بهذه الطريقة، والإنسان لا يد له فيها إطلاقاً، بعض أنواع البذور لا تنبت إلا إذا أكلتها الزرافة، وأخرجتها مع روثها عندئذٍ تنبت، فموضوع البذور عالم قائم بذاته..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى)

النتيجة الاستدلالية: إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى

هنا نحن أمام آيتين: آيةٌ دالّةٌ على عظمة الله، وآيةٌ دالّةٌ على اليوم الآخر..

(إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

النبات أيها الإخوة كما قال الله عنه:

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 99)

هناك نبات يعطيك الخشب، فخشب الزان نبات، وخشب الحور نبات، هناك حوالي مئة نوع من الخشب، كلها لاستعمال صناعي، هناك نبات يعطيك أصبغة، نبات يعطيك مطّاطا، نبات يعطيك أدوية، نبات يعطيك أغذية، أحياناً الغذاء يكون بالجذر، أحياناً بالساق، أحياناً بالأوراق، أحياناً بالزهر، أحياناً بالثمار، هناك نبات مظلة، هناك نبات تزييني، هناك نبات حدودي، هناك مسابح نبات، الليف نبات، الخُلّة نبات، السواك نبات، القطن نبات، نسيج، الأدوية نبات، المطّاط نبات، الفلين نبات، الكاوتشوك نبات، هذا..

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 99)

لو حاوَل أحدنا أن يحصيها، إذا نظر ضمن بيته ففي غرفة الضيوف خشب زان، النوافذ خشب كندي، الكبريت خشب شوح طري، يجد نبات كل شيء، أربعة أخماس موجودات البيت أساسه نبات، يرتدي ثيابا من قطن، هذا من النبات، النسيج أكثره نبات، إذاً عندما قال ربنا:

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 99)

هذه آية كبيرة جداً من آيات الله الدالّة على عظمته.

إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

خاتمة:

موضوع النبات، موضوع ورق النبات موضوع عظيم، وقد قرأت مرّة في مقالة أن أعظم معمل صنعة الإنسان يبدو تافهاً أمام الورقة، هذه الورقة التي فيها يخضور، وفيها طاقة شمسيّة مخزونة، وفيها يطلع النُسُغ الصاعد معه ثمانية عشر معدنا، فيحدث تفاعل مع الشمس، ومع الآزوت، ومع مادة اليخضور فيرجع نسغا نازلا يشكِّل الجذر، والساق، والأوراق، والنبات، ولا يوجد في عالم الصناعة سائل واحد يكون مرّة صاجا، ومرّة خشبا، ومرّة بلاستيكا.. إلخ، هذا غير معقول، هذا النسغ النازل يصنع الجذر من جديد، وينمّي الجذع، وينمي الأوراق، وينمي الثمار، وهو سائل واحد، ونحن نتكلّم أشياء من بديهيّات العلم، من مستوى الدارس في الإعدادية، وليس أكثر، أما لو تعمّقتم في العلم لرأيتم العجب العجاب.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نبدأ بقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)

بهذه الآيات الدالّة على عظمته..

(لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (09-11): تفسير الآيات 40- 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-12-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس التاسع من سورة فصّلت، ومع الآية الأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا

أيها الإخوة.

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)

معنى آية:

الآيات جمع آية، وهي العلامة الدالّة على الشيء، فإذا أطلقت كلمة الآيات في القرآن الكريم فإنما تعني الآيات التي تدل على وجود الله، وعظمته، وقدرته، ووحدانيّته، وكماله.

والآيات أحياناً تأتي على أنواع ثلاثة: آياتٌ كونيّة، وآياتٌ قرآنيّة، وآياتٌ تكوينيّة، آياته الكونيّة خلقه، وآياته التكوينيّة أفعاله، وآياته القرآنيّة كلامه، خلقه وأفعاله وكلامه هذه كلها آياتٌ تدلُّ عليه..

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)

معنى الإلحاد في آيات الله:

المعنى الأول:

الإلحاد في الآيات الطعن فيها، أو ردُّها، أو عدم اعتمادها دليلاً على ما تدلُّ عليه، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

والمعنى الثاني: حَرْفُهَا عن مرادها، أو تأويلها على غير ما يريد الله سبحانه وتعالى، أو الحذف منها، أو الإضافة عليها، فالكافر أحياناً إما أنه يردُّ هذا الدين رداً مباشراً، وإما أنه يخشى أن لا ينجح في هذه المحاولة فيحاول أن يفجّره من داخله، فردُّ هذه الآيات رداً مباشراً هو الطعن فيها، أو عدم قبولها، أو الاستخفاف بها، أو عدم قبول ما تدل عليه، هذا المعنى الأول.

والمعنى الثاني تزوير هذه الآيات، وتحريفها، وتغيرها، وتأويلها.

المفاد أن الكافر إما أن يرد هذه الآيات، وإما أن يؤوّلها تأويلاً لا يرضي الله عزّ وجل، لنأت ببعض الأمثلة.

مثالٌ للإلحاد في آيات الله:

عندما قال ربنا عزّ وجل:

(لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران: من الآية 130)

فالمقيم على الربا يؤوّل هذه الآية على غير ما يريد الله سبحانه وتعالى، يقول: أنا لا آكل الربا أضعافاً مضاعفة، أنا آكله بنسبٍ قليلة، فهذا تأويلٌ لا يرضي الله، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ(279))

(سورة البقرة: من الآية 279)

والقرآن مثاني، أي كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسِّرها، فإذا التبس الأمر في هذه الآية فالآية الثانية توضِّحها.

إذاً: الكافر إما أن يردّ هذه الآيات رداً مباشراً، وإما أن يؤوّلها تأويلاً لا يرضي الله عزّ وجل، على هو كلِ رَفَضَ الحق، فإما رفضه بشكلٍ وقح، أو بشكلٍ فيه مداراة.

مرّةً ثانية:

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ)

الإلحاد هو الطَعْنُ في الآيات، أو عدم قبولها، أو الاستخفاف بها، أو السخرية منها، أو عدم قبول ما تدل عليه، تقول له: هذا الزلزال دليل قدرة الله عزّ وجل، ودليل أن الله يعاقب هؤلاء الذين ابتلاهم به، فيقول لك: هذه حركة القشرة الأرضيّة لا تعني أكثر من ذلك، فالإلحاد في الآيات هو الطعن فيها، أو الاستخفاف بها، أو السخرية منها، أو عدم قبول ما تدل عليه، وهذا هو الرد المباشر، أو تأويلها تأويلاً على خلاف ما هي عليه، أو تزويرها، أو اللغو فيها، ففي المرحلة الأولى كان الرد مباشراً، وفي المرحلة الثانية كان الرد غير مباشراً، هؤلاء جميعاً الذين رفضوا الحق إما رفضاً مباشراً أو رفضاً غير مباشر..

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)

إنْ في آياتنا الكونيّة، أو في آياتنا القرآنيّة، أو في أفعالنا التكوينيّة..

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا

1 - لا يخفى على الله شيءٌ:

هم في علمنا، إن الله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد..

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

2 - إذا علمتَ أن الله يعلم فلابد أن تستقيم:

إن الله سبحانه وتعالى يعلم سرّهم وجهرهم، أي أن الإنسان حينما يعلم أن الله يعلم حُلّت مشكلته مع الله، لأنه إذا أيقن أن الله يعلم فلابدّ من أن يستقيم على أمر الله، فربنا عزّ وجل يقول:

(لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

الإنسان لا يستطيع أن يخالف إنسانا من جنسه إذا كان أقوى منه، وإذا كانت هذه المخالفة يعلمها ويضبطها، هذا شأن الإنسان مع الإنسان فكيف شأنه مع الواحد الديّان ؟

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

الله لهم بالمرصاد..

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل إيمان الرجل أن يعلم أن الله معه حيث كان))

[ورد في الأثر]

لمجرّد أن تعلم أنك تحت المراقبة، وأن الله مطلعٌ عليك، مطلعٌ على ظاهرك وعلى باطنك، على سرّك وعلانيّتك، على خلوتك وجلوتك، ولمجرّد أنك موقنٌ أن الله مطلعٌ عليك فلابدّ من أن تلتزم أمره، وأن تبتعد عما نهى عنه، وقد سُئل أحد العارفين بالله وهو الإمام الجنيد: من الولي ؟ فقال هذا الإمام الكبير: **" ليس الولي الذي يطير في الهواء، ولا الذي يجري على وجه الماء، إنما الوليّ كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام ".**

مرّةً ثانية، أيها الإخوة، وهذا من باب التأكيد والتوضيح، إذا أيقنت أن الله يعلم وسيحاسب لا يمكن ـ بحسب فطرتك، وبحسب عقلك ـ أن تعصيه، فإذا وصلت إلى اليقين القطعي أن الله يعلم، وأنه سيحاسب لاشك أنك تستقيمٌ على أمره، لن يفلح العاصي مهما كان ذكياً، لابدَّ من أن يدفع ثمن معصيته باهظاً..

(إِنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النّار خَيْرٌ أَم مّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

أَفَمَن يُلْقَى فِي النّار خَيْرٌ أَم مّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ

الظاهر أن الله سبحانه وتعالى يقول: أفمن يُلقى في النار خيرٌ أمن يدخل الجنَّة أيهما أفضل ؟ فربنا سبحانه وتعالى عَدَلَ عن قوله أمن يدخل الجنَّة إلى قوله:

(أَفَمَن يُلْقَى فِي النّار خَيْرٌ أَم مّن يَأْتِي آمِناً)

المؤمن يأتي يوم القيامة آمنًا:

عبّر الله عن الجنَّة بكلمةٍ أخرى، أن تأتي يوم القيامة آمناً، لأن الله سبحانه وتعالى سمّى يوم القيامة يوم الفزع الأكبر، فحينما يفزع الناس جميعاً لأنهم ما عرفوا ربهم في الدنيا، واقترفوا من السيئات ما لا يعد ولا يحصى، حينما يأتون يوم القيامة آمنين فهذه جنَّةٌ لا تعدلها جنَّة، وإذا خاف الناس كثيراً، واضطربوا، وكنت أنت أيها المؤمن آمناً، فهذا عطاءٌ لا يقدَّر بثمن..

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج)

ففي يوم الفزع الأكبر المؤمن يأتي آمناً يوم القيامة، أي هل من سعادةٍ تفوق أن تكون أيها المؤمن آمناً يوم الفزع الأكبر ؟ يوم ينخلع قلب الناس خوفاً وإشفاقاً من عذابٍ أليم، ويأتي المؤمن آمناً يوم القيامة، أي هل يستوي إنسان سوف يُلقى في النار ؛ وإنسان سيأتي يوم القيامة آمناً ليدخل الجنَّة ؟ كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية قال:

(إِنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

(لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

: أي أنه يعلم ما يفعلون، وأما..

(أَفَمَن يُلْقَى فِي النّار خَيْرٌ)

إذاً: سوف يحاسبهم.

المعنيان أتيا في هذه الآية، علم الله ومحاسبته، فإذا أيقنت أن علم الله يطولك، وأن محاسبته تطولك، لا يمكن أن تعصي الله، هذا ما أكّده الإمام الغزالي حينما خاطب نفسه فقال لها: **" يا نفس، لو أن طبيباً منعكِ من أكلةٍ تحبينها لاشكّ أنكِ تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أيكون وعيد الطبيب أشد عندكِ من وعيد الله ؟ إذاً ما أجهلكِ ".**

إذاً: كل إنسان يعصي الله عزّ وجل فهو مدموغٌ إما بالحمق والجهل، وإما بالكفر والانحراف. ثم يقول الله عزّ وجل:

(أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّار خَيْرٌ)

أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّار خَيْرٌ

موازنة بين حالتين متضادتين:

هذا استفهام تقريري، ومعنى كونه تقريريا أي: أن من يلقى في النار لا يستوي مع من يأتي يوم القيامة آمناً، هذا معنى الاستفهام التقريري، من يلقى في النار لا يستوي أبداً مع من يأتي يوم القيامة آمناً، وهذا المعنى تؤكِّده آياتٌ كثيرة..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا)

(سورة السجدة: من الآية 18)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

هذه الموازنة بين حالتين متضادتين، من يأتي آمناً أو من يأتي خائفاً، من يلقى في النار أو من يدخل الجنّة، من يعامل بالإكرام والإحسان ومن يعامل بالعقاب الأليم والعذاب الأبدي، أين عقلكم أيها البشر ؟ أيستوي هذا مع هذا ؟

طبعاً الإلقاء في النار سببه المعصية في الدنيا، وأن تأتي يوم القيامة آمناً سببه أن تستقيم على أمر الله في الدنيا، فالثمن في متناول اليد، أي أن هذه النتيجة المخيفة أنت السبب فيها، وهذه النتيجة المُسعدة أنت الذي اخترت هذا الطريق، فالأمر باختيارك، فإما أن تختار جنةً عرضها السماوات والأرض، وأن تأتي الله آمناً يوم القيامة مكرّماً، وإما أن يعصي الإنسان ربّه فيستحق دخول النار إلى أبد الآبدين.

ثم يقول الله عزّ وجل:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ

1 - هذه الآية تفيد الاختيارَ وتفيد التهديدَ:

هذه الآية تفيد الاختيار، وتفيد التهديد، أي أنتم مخيَّرون، فلكم أن تطيعوا الله في الدنيا فتأتون يوم القيامة آمنين، ولكم أن تعصوه في الدنيا فتلقوا في النار، فالأمر بيدكم.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

الأمر بيدكم، أي أن خيرك منك وشرّك منك..

(وَكُلّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

(سورة الإسراء: من الآية 13)

موضوع التشاؤم والتفاؤل كقولك: ما لي حظ، حظّي قليل، كل هذا كلام فارغ..

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى(5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى(7) وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

الأمر واضح، فالعجيب أن الحياة قصيرة، ووقتها محدود، والطاعات بيد الإنسان أن يفعلها، وفي إمكانه أن يفعلها، وهي متاحة لكل البشر، والمعاصي حالات سقوط وحالات انحطاط وقذارة، فالناس حينما يقبلون على الطاعات يسعدون في الدنيا والآخرة، وحينما يقعون في السيئات يشقون في الدنيا والآخرة، أين عقل الناس ؟ هل من شهوةٍ أودعها الله في بني البشر ليس لها قناةٌ نظيفة يسلكها الإنسان ؟

لا، لكن الناس بوسوسةٍ من الشيطان يندفعون إلى المعاصي، ويجتنبون الطاعات فيستحقون عذاب جهنَّم يوم القيامة..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

هذه تفيد التهديد، افعل ما بدا لك وكل شيءٍ له حسابه..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

هذه الآية مخيفة.

والمعنى الثاني أنتم مخيَّرون، طريق الجنَّة معروفٌ لديكم، وطريق النار معروفٌ لديكم.

((حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات))

[من الجامع الصغير عن أنس]

((ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة. ألا وإن عمل النار سهل بسهوة))

[من الجامع الصغير عن ابن سعد]

عمل الجنَّة يحتاج إلى جهد، ويحتاج إلى كُلفة، إنه ذو كلفة، لكنه في مقدور الإنسان، وعمل النار هو سهوٌ واسترخاءٌ وإعطاء النفس ما تشتهي..

((ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة. ألا وإن عمل النار سهل بسهوة))

[من الجامع الصغير عن ابن سعد]

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

2 ـ لو ألغينا الاختيار لألغينا التكليفَ:

مرَّةً ثانية أيها الإخوة، لو ألغينا الاختيار الذي تؤكِّده هذه الآية لألغينا التكليف، ولألغينا الثواب، ولألغينا العقاب، ولألغينا الجنَّة والنار، ولألغينا المسؤوليَّة، ولألغينا جوهر الدين، هذا ما قاله الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه: **<< ويحك لو ما كان قضاءً لازماً، وقدراً حاتماً إذاً لبطل الوعد والوعيد، ولانتفى الثواب والعقاب، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلِّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً >>.**

أنت مخيَّر، قال لك:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من الآية 17)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 148)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

حينما يشتطُّ عقل الإنسان فيعتقد أن الله قد أجبره على هذه المعاصي فقد وقع في شر عمله، وما من عقيدةٍ تشُل الإنسان وتقعده، وتوقعه في سوء الظن بالله عزّ وجل، وتجعله كتلةً هامدة كعقيدة الجَبْر، أن تعتقد أن الله أجبرك على فعل المعاصي، وأنها مقدّرةٌ عليك، ولا سبيل إلى الخلاص منها، هذه عقيدة أهل الضلال، وعقيدة المشركين..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

من جهة هي تهديد، أي افعل ما بدا لك وسوف ترى نتيجة عملك.

والمعنى الثاني أنك مخيَّر لك أن تستقيم ولك أن تنحرف، لك أن تحسن، ولك أن تسئ، لك أن تُقْبِلَ، ولك أن تُعْرِضْ، لك أن تطيع، ولك أن تعصي، لك أن تؤمن، ولك أن تكفر، لك أن توحِّد، ولك أن تُشرك، هذا باختيارك..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

طريق الجنة معروف وسبيلها واضح:

طريق الجنَّة معروف ؛ طاعة الله عزّ وجل، والتقرُّب إليه بالأعمال الصالحة، وطريق النار معروف ؛ معصية الله عزّ وجل، والتقرُّب منها بالموبقات والمعاصي، والبشر على اختلاف أنواعهم، ومشاربهم، وأجناسهم، وألوانهم، وأعراقهم لا يزيدون على رجلين: رجلٍ منضبطٍ بالشرع، محسنٍ إلى الخلق، سعيدٍ في الدنيا والآخرة، ورجلٍ متفلِّتٍ من الشرع، مسيء إلى الخلق، شقيٍ في الدنيا والآخرة. الأمور بسيطة ومضغوطة..

((الناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله))

(من الجامع الصغير عن ابن عمر)

أخطر شيء في حياتك أن تحسن الاختيار، اختر أن تكون مؤمناً، الإيمان يحتاج إلى تفكُّر في خلق السماوات والأرض، يحتاج إلى معرفة أمر الله، يحتاج إلى حضور مجالس العلم، يحتاج إلى الذِكْر، يحتاج إلى الطاعة، يحتاج إلى الأعمال الصالحة، فالإيمان معرفة الله عزّ وجل وطاعته، والتقرُّب إليه.

أما أن تعطي النفس شهواتها، أما أن تعطي نفسك ما تريد عندئذٍ لابدَّ من أن تقع في العدوان، ومع العدوان هناك العقاب الأليم، فتجد حياة الكافر من مصيبةٍ إلى مصيبة، ومن مطبٍ إلى مطب، ومن أزمةٍ إلى أزمة، ومن معضلةٍ إلى مُعضلة. وحياة المؤمن من إكرامٍ إلى إكرام، ومن سعادةٍ إلى سعادة..

(إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

ملخص الآية:

الآية صارت:

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)

آياتنا الكونيَّة، أو التكوينيَّة، أو القرآنيَّة، والإلحاد نوعان: إما طعنٌ بالآيات ورفضٌ لها، وعدم قبول دلالتها، واستخفافٌ واستهزاءٌ، وإما تحايلٌ على ردِّها بتأويلها، أو تزويرها، أو اللغو فيها، أو صرفها عن غير ما هي هادفةٌ إليه، هؤلاء..

(لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

بعلمنا، وسوف يحاسبون، والدليل..

(أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ)

فربنا عزَّ وجل بيَّن لك أن الانحراف مضبوط وسوف تُحاسب عليه.

أحياناً الإنسان يخفي شيئا عن بعض الجهات الماليَّة، وهذا الشيء الذي استورده أُرسلت نسخة منه إلى الماليَّة، وبسذاجة يخفيه، هو مضبوط، فإذا كُشِف أمره ندم على فعله، هذا مثل بسيط من حياتنا الواقعيَّة، فأعمالك مضبوطة ولابدَّ من الحساب، هذان المعنيان يكفيان للاستقامة على أمر الله، وأنت مخيَّر..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

وأثمن ما في الجنَّة أن الإنسان يأتي يوم القيامة آمناً، ونعمة الأمن لا تعدلها نعمة على الإطلاق.

ثم يقول الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ

1 ـ الذكر هو القرآن الكريم:

الذكر هو القرآن الكريم..

(لَمّا جَاءهُمْ وَإِنّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

2 ـ معنى: عزيز:

كلمة عزيز لها عدة معان، من معانيها أن هذا الكتاب لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، شيءٌ نادر، عزيز، أي ممتنع عن أن يحاكى، عن أن يقلّد، عن أن يُؤتى بمثله، هذا المعنى الأول.

وكلمة عزيز لها عدة معاني في اللغة، أن الشيء إذا أصبح نادراً صار عزيزاً، إذا كان هذا الشيء يصعب الوصول إليه صار عزيزاً، فصار الكتاب ـ كتاب الله عزّ وجل ـ ليس كمثله كلامٌ آخر..

((فَضْلُ كَلامِ اللّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفضْلِ اللّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[من سنن الترمذي عن أبي سعيد]

كما أن الله واحدٌ في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله كذلك كلامه لا مثيل له، ولا يرقى إليه كلامٌ آخر..

(وَإِنّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

أي أن كلام الله عزّ وجل كتابٌ ممتنعٌ عن التقليد، لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، ولا أن يحاكيه، ولا أن يقلِّده، ولا أن يعارضه.

قال:

(وَإِنّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ{41} لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ

1 ـ كتاب الله لا يُنقض بمرور الأيام:

أي لا يمكن أن يأتي كتابٌ آخر ينقض ما فيه من قبل، كما أنه لا يمكن أن يأتي بعده كتابٌ آخر ينقض ما فيه، وهذه النقطة واضحة جداً، ما من كتابٍ على وجه الأرض ألّفه بشر إلا وبعد حينٍ ظهرت حقائق تناقض ما فيه، كل كتاب له عُمر، ما من كتابٍ على وجه الأرض ألّفه بشر إلا وبعد حينٍ ظهرت حقائق تناقض ما فيه، لابدّ له من تعديل، هذه حقيقة ثابتة ؛ لكن كتاب الله عزّ وجل منذ أن أنزله الله عزّ وجل وإلى الآن وإلى قيام الساعة لا يمكن أن تظهر حقيقة علميّة تناقض آياته، لماذا ؟

2 ـ العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح:

لأن الحقائق العلميَّة هي استنباطاتٌ من الواقع، من خلق هذا الواقع ؟ هو الله عزّ وجل، وهذا كلامه فالمصدر واحد، فالكون كلُّه من خلق الله، من قنَّن قوانينه ؟ الله سبحانه وتعالى، من سنّ سُنَنَهُ ؟ الله سبحانه وتعالى، من بيَّن العلاقات فيما بين مكوّناته ؟ الله سبحانه وتعالى، وهذا كلامه، لذلك يجب أن تطمئن إلى أن النقل الصحيح لا يمكن أن يتعارض مع العقل الصريح أبداً.

العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح، لأن العقل الصريح مقياسٌ أودعه الله فينا، وأن الواقع هو من خَلق الله، وأن هذا القرآن هو كلام الله، وأن الفطرة التي فُطرنا عليها هي من صنع الله عزّ وجل، لذلك هناك من يقول: إنه لابدّ من تطابق العقل والنقل والواقع والفطرة، الحق ما جاء به النقل وأكّده الواقع، وارتاحت إليه الفطرة، وأقرّه العقل، هذا الحق الذي قامت من أجله السماوات والأرض.

عندما تعتقد اعتقادًا صحيحًا حقيقيًا، حينما تؤمن بالحق أي أنك آمنت بالواقع، وآمنت بالمنطق، وآمنت بالفطرة، وآمنت بالقرآن، هذا هو الحق، فكلمة حق تعني النقل والعقل والواقع والفطرة، لا يمكن للواقع أن يظهر خطأ في القرآن، لأن الواقع من خلق الله، وقوانينه قنَّنها الله عزّ وجل، وسُنَنه سنَّها الله عزّ وجل، وهذه النفس لا ترتاح إلا للحق، إلا لما في القرآن وهكذا فُطرت..

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

(سورة الروم: من الآية 30)

3 ـ النفس لا ترتاح ولا تنسجم إلا بما جاء في القرآن الكريم:

طبيعة النفس هكذا، لا ترتاح إلا لما جاء في القرآن الكريم، لذلك إخواننا الكرام، المؤمن حينما يتوب إلى الله عزّ وجل ـ ولست مبالغاً في هذا القول ـ يشعر كأن جبالاً قد أُزيحت عن كاهله، لأنه وجد نفسه، ارتاحت فطرته، اطمأنّ عقله، انسجم الواقع مع العقل والفطرة مع النقل، هذا الحق، الحق الذي قامت من أجله السماوات والأرض، والذي دعا إليه الأنبياء السابقون ونبيُّنا عليه الصلاة والسلام، الحق هو الله، الكون من خلقه، والقرآن كلامه، والفطرة هو الذي فطرنا عليها، والواقع هو الذي خلقه، هذا الانسجام بين الواقع والفطرة والعقل والنقل هو أجمل ما في الحق، ليس في حياة المسلم اثنيْنيَّة، ولا ازدواجيَّة، ولا تناقض، ولا تنافر، ولا تباعد، ولا تشتُّت، ولا تمزُّق، والإنسان أحياناً يتمزّق فيقول لك: شيء يحيّر، إن اقتنعت بهذا الرأي نقضت هذا الرأي، وإن اقتنعت بهذا الرأي نقضت هذا الرأي، إن أرضيت زيداً أغضبت عبيداً، وأصعب ما في الحياة هذا التمزُّق، لكن أجمل ما في الدين ذاك الانسجام.

حياتك ما فيها اثنينيَّة أبداً، دنياك وآخرتك واحدة، مهنتك وعبادتك واحدة، تعبد الله في مهنتك، في

حرفتك، في نصح المسلمين، وتعبده ثانيةً في مسجدك، إن عملت، وكسبت الرزق لأهلك فأنت في عبادة، وإن أتيت المسجد، واستمعت إلى درس العلم فأنت في عبادة، فالعبادة واحدة.

إذاً:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

أي ممتنع عن أن يُحاكى، يمتنع عن أن يُقلّد، يمتنع عن أن يؤتى بمثله، عزيزٌ لا مثيل له، ما من كتابٍ على وجه الأرض يمكن أن ينقضه لا سابقاً ولا لاحقاً، هذا معنى:

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

أكبر نعمة على الإنسان أن تعتقد اعتقاداً مع اعتقادك بهذا الشيء تطمئنّ إلى أنه لن يزول، ألا ترون أيها الإخوة أن هناك من اعتقدوا اعتقاداتٍ باطلة بعد حين تداعت كبيت العنكبوت، وتلاشت، وأيقن الناس بضلالها وانحرافها ؟ هذه مشكلة أن يعتقد الإنسان شيئا ويسعى من أجل هذه العقيدة طوال حياته، ثم يكتشف فجأةً أن هذه العقيدة باطلة ولا أصل لها، ولا تنسجم مع طبيعة النفس، ولا تحقِق لصاحبها سعادةً ولا شيئاً من هذا القبيل.

لكن المؤمن مطمئن، هو مع الحق الذي قامت من أجله السماوات والأرض، فليست هناك مفاجأة، عندما يؤمن الإنسان بالله عزّ وجل يصير عنده انسجام، هذا الكون يتناسب مع ما ذكره الله عزّ وجل، حتى إنهم قالوا: الكون قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي. الحق واحد، هذه الحقيقة الوحيدة في الكون ـ حقيقة الذات الإلهيّة ـ تتبدّى في الكون إبداعاً، وقدرةً، ورحمةً، وجمالاً، ولطفاً، وخبرةً، وغنًى، وتتبدّى في القرآن إعجازاً، وتتبدّى في أفعاله حكمةً ورحمةً، أفعاله كأقواله كخلقه، وأنت مخلوقٌ من مخلوقات الله عزّ وجل.

إن أروع ما في حياة المسلم هذا الانسجام في عقله، بين عقله وعاطفته، بين حاجاته وقيَمِهِ، بين دُنياه وآخرته ؛ لكن تضاد، تنافر، تشتُّت، تمزُّق، تبعثر كل هذه الأمراض التي يعانيها الناس المؤمن معافاً منها، هذا معنى..

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ

1 - معنى حكيم:

حكيم يضع الشيء المناسب، في الوقت المناسب، في المكان المناسب، بالقدر المناسب، مع الرجل المناسب، هذه الحكمة، ومعنى الحكمة أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن كل ما أراده الله وقع، وأن إرادة الله سبحانه وتعالى متعلِّقةٌ بالخير المطلق، وأن إرادة الله سبحانه وتعالى متعلِّقةٌ بالحكمة المطلقة، وأن حكمته المطلقة متعلِّقةٌ بالخير المطلق.

معنى الحكمة أن كل شيءٍ وقع على نحو ما وقع لو لم يقع على نحو ما وقع لكان هذا نقصاً في حكمة الله عزّ وجل، والشيء إذا وقع على خلاف ما وقع يعد هذا نقصاً في حكمة الله عزّ وجل.

(تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

2 - معنى حميد:

حميد أي يُحمد على أفعاله كلِّها، لذلك المؤمن حينما يؤمن أن أفعال الله سبحانه وتعالى حميدة، أي يحمده عليها كل مخلوق، يستقبل القضاء والقدر بكل رضى.

مرّةً كان أحد الرجال يطوف حول البيت، وكان يقول: **" يا رب، هل أنت راضٍ عني ؟ "، كان وراءه الإمام الشافعي فقال له: " يا هذا، وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ "، فالتفت نحوه وقال: " من أنت يرحمك الله ؟ "، قال له: " أنا محمد بن إدريس "، قال: " كيف أرضى عن الله، وأنا أتمنّى رضاه ؟ "، قال: " إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ".**

معنى ذلك أن الإنسان عليه أن يوقن أن أفعال الله يُحمد عليها، لكن لماذا نرى بعض الشر ؟ هذا الشر نسبي، والإنسان حينما يرى أن الدنيا هي كل شيء، ويأخذ الله منه بعض الصحّة، أو بعض المال يظن أن هذا شراً، لكن إذا أدخلنا في الحساب الآخرة، وأن الله سبحانه وتعالى إنما يسوق بعض الشدائد للعبد المؤمن المسلم من أجل أن يرقى به، ومن أجل أن يفوز بسعادة الدارين، عندئذٍ يتضح أن كل ما يفعله الله سبحانه وتعالى خيرٌ محضٌ.

ثم يقول الله عزّ وجل:

(مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ

هذا تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، أي أن هذا شأن الرسالة..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

(سورة الحج: من الآية 52)

أي أن النبي يتمنّى هداية الخلق، والشيطان يتمنّى إضلالهم..

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ)

(سورة الأنعام: من الآية 112)

فالله سبحانه وتعالى يُسَلِّي نبيَّه، ويسرّي عنه بهذه الآية..

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (10-11): تفسير الآيتان 45- 46
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-01-07

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس العاشر من سورة فصِّلت، ومع الآية الخامسة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

بعد أن قال الله سبحانه وتعالى:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ

1 ـ اختلاف الناس في الكتاب أمرٌ قديمٌ:

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبيّن للنبي عليه الصلاة والسلام أن اختلاف الناس في الكتاب أمرٌ قديم، لست يا محمد وحدك ممن اختُلِف في الكتاب الذي جئت به، لكن اختلاف الناس على الكتب السماويّة أمرٌ قديم، وهذا شأن الناس، فالمؤمنون الصادقون ينادون من مكانٍ قريب، يفهمون كلام الله عزّ وجل، يدركون مراميه ؛ والمنحرفون الضالون الشاردون ينادون من مكانٍ بعيد، يفهمون كلام الله عزّ وجل على خلاف ما أُنزِل، إما أن يطعنوا فيه ـ كما قلت في الدرس الماضي ـ وإما أن يزوّروا بعض حقائقه، ويؤوّلوه تأويلاً ما أنزل الله به من سلطان.

2 ـ تسلية الله للنبي عليه الصلاة والسلام:

أراد الله سبحانه وتعالى أن يسلِّي النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يخفِّف عنه وطأة التكذيب والاختلاف، فقال له:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

أي من قبلك..

(فَاخْتُلِفَ فِيهِ)

أيضاً.

والإنسان حينما يدرك أن معركة الحق مع الباطل قديمةٌ قديمة، ومستمرّةٌ وأبديّة يَخِفُّ عليه الأمر، فيجب أن تفهم أن كل خلافٍ بين أهل الحق والباطل فهذا الخلاف لابدّ منه، خلافٌ قديمٌ، ويكون وسيبقى، لأن الناس رجلان ؛ مؤمن وغير مؤمن، فالمؤمن يتعاطف مع الحق، ويؤيّد الحق، وينصر الحق، ويفرح بالحق، ويُسَر للحق، غير المؤمن يحقد، ويكذِّب، ويسخر، ويبحث عن المثالب، يتوهّم المثالب، فهذا الكلام أيضاً موجّه لكل مؤمن.

إذا استقمت على أمر الله، والذين حولك هجموا عليك عندما استقمت، وندّدوا بك، وانتقصوا من استقامتك، وشوّهوا سمعتك، وطعنوا في نواياك فهذا أمر طبيعي جداً، لأن معركة الحق مع الباطل معركةٌ قديمة، ومعركةٌ مستمرّة، أهل الحق يتعاطفون مع الحق، وأهل الباطل يتعاطفون مع الباطل.

لذلك أراد ربنا عزّ وجل أن يسلِّي النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يخفِّف عنه وطأة التكذيب، وأن يبعد عنه الألم المُمِض الذي ألمّ بقلب النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه يعلم علم اليقين أنه على الحق المبين، بينما كفّار مكة يشكِّكون في هذا الكتاب، ويستهزئون به، ويشكِّكون في مصداقيّته، فلذلك قال ربنا عزّ وجل:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

أي من قبلك..

(فَاخْتُلِفَ فِيهِ)

كما اختُلِفَ في كتابك، أما هذه الآية:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

هذه الآية أو هذه الكلمات وردت مرّاتٍ عديدة في أكثر من آيةٍ في كتاب الله..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)

1 ـ معنى: لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

معنى لقضي بينهم أي لعجّل الله لهم العقوبة، ولحَسَمَ الأمر.

2 ـ ما هي الكلمة التي سبقت من ربّك ؟

ما هي الكلمة التي سبقت من ربّك ؟ هنا السؤال.

إذا فهمنا هذه الآية فهماً دقيقاً ربّما فهمنا أكثر الآيات التي وردت فيها هذه الكلمات، فربنا سبحانه وتعالى خَلَقَ الخلق جميعاً، خلق السماوات والأرض، وعرض على السماوات والأرض والجبال حمل الأمانة..

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من الآية 72)

الإنسان حمل الأمانة باختياره:

الإنسان حمل الأمانة، هذه الأمانة تؤهِّله ليكون أعلى المخلوقات جميعاً، وأسعد المخلوقات جميعاً، إذا حمل الأمانة، وقام بواجب الأمانة كما ينبغي فهو أسعد المخلوقات وأرقاها قاطبةً من دون استثناء، الأمانة نفسه التي بين جنبيه، أوكل الله للإنسان تزكية نفسه، وتهذيبها، وتعريفها بربها، وحَمْلَهَا على طاعته، فمن زكّى نفسه سعد في الدنيا والآخرة، ومن أشقى نفسى ـ دسّاها ـ شقي في الدنيا والآخرة.

النقطة الدقيقة أن هذه الأمانة من لوازمها حرية الاختيار، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، لو أن الله أجبر عباده على المعصية لبطل العقاب، لأن الإنسان مخيَّر، فهذا الاختيار أثمن ما يملكه الإنسان، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 148)

أنتم في الدنيا تتمتّعون بحريّة الاختيار، وحريّة الاختيار هي التي تثمِّن أعمالكم، هي التي ترقى بكم، هي التي تجعلكم تستحقون الجنّة، هي التي تجعلكم تستحقون النَعيم الأبدي، هذه الحريّة ـ حرية الاختيار ـ من لوازم حمل الأمانة.

ربنا عزّ وجل خلق الإنسان في الدنيا أعطاه مقوّمات التكليف، الكون، كل ما في الكون ينطق بوجود الله ووحدانيّته وكماله، أعطاه عقلاً، جهازًا استشاريًا، قوة إدراكيّة إذا سأله يجيبه، أي سؤالٍ يُطرح على

العقل يأتيك بالجواب المُقْنِع، هذا إذا كان العقل عند صاحبه قائداً للحقيقة، أما إذا استخدمه مبرّراً للخطأ، استخدمه استخداما معكوسا عندئذٍ يشقى بالعقل..

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20))

(سورة المدثر)

فالعقل أيضاً من لوازم التكليف، الكون من لوازم التكليف، الفطرة من لوازم التكليف، الشرع الذي جاء به الأنبياء من لوازم التكليف، الشهوة التي أودعها الله في الإنسان من لوازم التكليف، حرية الاختيار من لوازم التكليف، القوة التي بها تحقِق اختيارك من لوازن التكليف، هذا كلّه من لوازم التكليف. فلذلك هذه الكلمة هو أنك أيها الإنسان مكلّف، ومع التكليف أنت حُر، لذلك لك أن تفعل في الدنيا ما تشاء..

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: من الآية 29)

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: من الآية 40)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من الآية 17)

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

فمن لوازم التكليف، من لوازم وجودك في الدنيا أنك مخيَّر، فالله عزّ وجل أعطاك الاختيار وأعطاك عمرا محدّدا، إذاً الحساب يوم القيامة، الفصل هناك، الحكم بين النـاس (من هم على حق، من هم على باطل) يوم القيامة، هذا يوم الجزاء، يوم الحساب، يوم الدينونة، يوم..

(وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ(111))

(سورة النحل)

أنت في الدنيا في امتحان:

إذاً لولا أن الله سبحانه وتعالى خلقك ليسعدك، وأعطاك فرصةً هي العمر كي تتعرّف فيه إلى الله عزّ وجل، وكي تسمو بنفسك وتزكيها، لولا هذه الأمانة التي حمّلك الله إيّاها، ولولا هذا التكليف الذي كلّفك به، ولولا أنك مخيَّر، ولولا أنه أعطاك عمراً محدّداً لقضي الأمر سريعاً، الكافر يُقصم، والمؤمن يُكافَأ. تصوّر طالبا في مدرسة، وفي عام دراسي تسعة أشهر، وهناك امتحان بشهر حزيران، وبالطبع لا يوجد في النظام في أثناء العام الدراسي أن نرسِّب طالبا، ولا أن ننجحه، نظام الداخلي في الثانويّة أن

يقضي الطالب على مقاعد الراسة تسعة أشهر يتلقّى العلوم من أساتذته ويدرس، لكن متى الامتحان ؟ في الخامس من حزيران، هذا الامتحان يكشف الطالب المجتهد من الكسول، الجاد من المهمل، الذي كان ينتبه من الذي كان يتلهّى، ولكن أن نعمل كل يوم امتحان فهذا مستحيل، نظام الله نظّمه، قانون الله قنّنه، سُنّة الله سنّها..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ)

فأنت الآن في بحبوحة، ما دمت في الدنيا ففي بحبوحة، وأنت مخيَّر، أودع الله فيك الشهوات إما أنها سُلّم ترقى به، وإما أنها دركات تهوي بها، أعطاك العقل قوة إدراكية إما أنه يقودك إلى الحق، وإما أنك تعمله في فلسفة الانحراف، أعطاك الله الكون إما أن تنتفع منه فقط كما فعل الغربيّون، وإما أن تهتدي به كما فعل المسلمون، أعطاك الكون لتهتدي به إلى الله ولتنتفع به، أما أن تنتفع به فقط، وأن لا تفهم منه شيئاً فقط ظلمت نفسك أشد الظلم، أعطاك عقلا ليكون هو القائد لا أن يكون هو المبرّر لعملك، أعطاك فطرة كي تكتشف فيها خطأك، أما إذا طُمِسَت بالشهوات أصبحت الفطرة عاطلة عن العمل، أعطاك شرعا كي تهتدي به لا كي تسخر منه، أعطاك اختيارا كي تختارا الحق على الباطل، إذاً هذه الكلمة تأتي كثيراً..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)

الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليرحمهم لا ليعذِّبهم:

هناك معنى آخر أرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكنني من توضيحه، ودائماً المثل يوضّح: في النظام الداخلي للتعليم الثانوي أن كل طالب يغيب خمسة عشرَ يوماً يُفصل من الثانوية، لو أن مديرا حريصا على طلابه حرصاً بالغاً، رحيمًا بهم، حريصًا على مستقبلهم، فهل هي القضيَّة قضيَّة تنفيذ قرار، لو غاب ثلاثون طالبًا بقرار واحد فصلهم كلهم ؟ ليست هذه هي المهمَّة، القصد أن يتعلّم هؤلاء، أن يتربَّى هؤلاء، لو أن الأمر أمر تنفيذ قرار يفصل هؤلاء جميعاً، أي أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليرحمهم، ليسعدهم لا ليعذِّبهم، لو كان القصد أن يعذِّبهم لأهلكهم فور المعاصي، ارتكب معصية قصمه، وانتهى الأمر، لو كان القصد أن الله خلقهم ليعذِّبهم، أو ليقمعهم إذا عصوا فالقضيَّة صارت سهلة، إلا أن الله عزّ وجل خلق الخلق ليرحمهم، خلق الخلق ليسعدهم، خلق الخلق ليدلّهم عليه، خلق الخلق ليهديهم إليه، لذلك الإنسان يخطئ مرّة، ومرّتين، وثلاثا، وخمسا، وعشرا، ومائة، والله عزّ وجل يغفر له، ويرحمه، ويقبله.

الشيء الذي يؤكِّد هذا المعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق وحبيب الحق، ومعه صحابته وهم أحبُّ الخلق إلى الله، منعهم من العمرة عام الحُديبيَّة، لماذا ؟ لأن هناك رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لا يعلمونهم، فلو فتحوا مكَّة، وحاربوا قريشًا لقتلوهم، والله سبحانه وتعالى يعلم فيهم الخير، فهذه الآية تؤكِّد هذا المعنى، ليس القصد أن يعذِّب الله سبحانه وتعالى عباده، أو أن يقيم عليهم ميزان العدالة فقط، ربنا سبحانه وتعالى يحب أن يرحمهم، يحب أن يهديهم إلى سواء السبيل، فلذلك الآية الكريمة:

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

أي أنه خلقهم ليرحمهم، وهذه الآية أصل في العقيدة، يجب أن تعتقد أيها الأخ الكريم أن الله سبحانه وتعالى ما خلقنا إلا ليرحمنا، وما خلقنا إلا ليسعدنا، وما خلقنا إلا لينجّينا من كرب الدنيا والآخرة، لذلك تأتي المحاولات العلاجيَّة من الله عزّ وجل.

إذاً: لو أن الله خلقنا ليعذِّبنا فلمجرَّد أن نعصي الله عزّ وجل يقصمنا وانتهى الأمر، أحياناً الإنسان يقول لك: لماذا لا يتدخَّل الله عزّ وجل ؟ هو خلقنا، وأعطانا حرية الاختيار، وربنا سبحانه وتعالى يريد أن يأخذ كلٌ منا أبعاده، أن يحقِّق في الدنيا نياته، أن تكون الدنيا ترجمةً لما ينطوي عليه الإنسان من حبٍ للحق، أو حبٍ للباطل، فكل إنسان له وجهة، كل إنسان له سلوك في الحياة، إذاً:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ)

إما المعنى أنك مخيَّر، وأنت لك عمرا محدودا، والعقاب والجزاء والفصل أُخِّر ليوم القيامة، هذا المعنى الأول.

والمعنى الثاني: هذه الكلمة تعني أن الله خلق عباده ليرحمهم، لأنه خلقهم ليرحمهم لا يعجِّل لهم العذاب، فالإنسان الرحيم لو ارتكب هذا الشخص التابع له غلطا يستدعي العقاب والبتر والقصم يعطيه فرصة، وفرصة، وفرصة، يذكِّره، ينبهه، يبيِّن له، يتوعَّده، يعده من أجل أن يعود إلى الصواب من دون أن يُسحَق، من دون أن يصاب بالأذى.

إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ)

لولا أن الإنسان مكلَّف، لولا أنه مخيَّر، لولا أن الله خلقه ليسعده س..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)

هذا على حق ؛ يُكَرَّم، وهذا على باطل يُقصم، وانتهى الأمر ! لكن قد تجد خلاف ذلك، قد تجد إنسانًا كافرًا وقويًا، الله يعطيه كل أبعاده، يعطيه كل نياته، وقد تجد مؤمنًا مستضعفًا، الله عزّ وجل يمتحنه.

أنت في الدنيا في دار اختيار:

هناك مثل آخر ممكن يوضِّح هذه النقطة، وهو مثل دقيق:

لو أن صيدليًا طلب موظَّفًا ليعمل في صيدليته، وأراد أن يمتحنه، فوضع له مجموعة أدوية، وقال له: ضع كل نوع من هذه الأدوية في خزانته المُناسبة، طبعاً هناك خزانة للسموم، خزانة للمنشِّطات، للفيتامينات.. إلخ، فصاحب الصيدليَّة الآن في طور امتحان هذا الموظف، فتناول الموظف الدواء الذي هو فيتامينات ووضعه مع السموم، لماذا سمح له صاحب الصيدليَّة أن يتوجَّه إلى خزانة السموم، ويضع هذا الدواء في هذه الخزانة ؟ هذا الموقف موقف امتحان، لو منعه لما ظهر، لابدَّ من أن يمتحنه، لابدَّ من أن يُمْسِك الدواء المتعلِّق باستطباب معيَّن، ويتوجَّه به نحو خزانة ليست له.

فنحن الآن في طور الاختيار، نحن مخيَّرون، من لوازم التخيير أن يُسمح لنا أن نفعل ما اخترناه، ولكن هذا ليس على حساب أحد، فعندما يختار إنسان أن يوقع الأذى بإنسان، الله عزَّ وجل يوجِّهه إلى من يستحقُّ هذا الأذى..

((الظالم عدل الله في الأرض، ينتقم به ثم ينتقم))

[من كشف الخفاء عن جابر]

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(129))

(سورة الأنعام)

المعنى الثالث: أي أنك الآن في طور اختيار، فالمخيَّر يجب أن يأخذ أبعاده، وبشكل أو بآخر ممكن أن تطيع الله إلى أمدٍ طويل، وأن لا ترى أن شيئاً تحرَّك ؟ فقد تكون مستضعفًا، قد تكون خائفًا، قد تكون تعاني من مشكلات، ومع أنك في طاعة الله الله يعطيك أبعادك، وقد ورد في الأثر أنه:

((من أحبّنا أحببناه، ومن طلب منّا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا))

الإنسان ممتحَن في جميع موادّ الامتحان:

فإما أن يُعطى الإنسان الدنيا ليُمتحن بها، يُعطى المال ليُمتحن به، يُعطى القوة ليمتحن بها، يعطى العلم ليُمتحن به، فأنت في امتحانٍ مستمر..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)

(سورة الملك: من الآية 2)

يجب أن تؤمن أيها الأخ الكريم أنّك ما دمت في الدنيا، ما دام القلب ينبض، وما دامت الرئتان تتحرّكان، وما دام الفم ينطق فأنت في امتحان، تُمتحن في كل شيء ؛ تمتحن بالزوجة الصالحة، هناك من يفسد الزوجة الصالحة، تُمتحن بالزوجة السيّئة، تُمتحن بالولد البار، تمتحن بالولد العاق، تمتحن بالدَخل الوفير، تمتحن بالدخل القليل، تمتحن بالصحّة، تمتحن بالمرض، تمتحن بالفراغ، تمتحن بالانشغال، هل يشغلك عملك عن طاعة الله عزّ وجل ؟ تمتحن بنعمة الأمن، تمتحن ببليّة الخوف.

فأنت ممتحن دائماً، أنت في الدنيا في طور امتحان، كيف أن صاحب الصيدليّة وضع الأدوية على الطاولة، وقال لهذا الموظف الذي يمتحنه: ضع كل دواءٍ في مكانه المناسب لأختبر خبرتك بالأدوية، فهو يراقب، وقد يُخطئ الموظّف، وينبغي أن يُكشف على حقيقته، قد يمسك بالدواء المتعلّق بالفيتامينات يضعه مع السموم، يراقبه إلى أن يضعه في هذه الخزانة يقول له: أنت أخطأت، هنا حصل الامتحان.

إذاً: هذه الكلمة التي سبقت من الله..

خلاصة معاني: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

المعنى الأول: أن الله خلقنا ليرحمنا لا ليعذّبنا، فلهذا يعطينا فرصاً تلو الفُرَص، فرصة أولى، ثانية، ثالثة، رابعة، خامسة، وهذا شأن الرحيم، الرحيم يوعد وعيدًا، لكن لأدنى اعتذار يقول له: أعطيناك فرصة ثانية، فرصة ثالثة، فرصة رابعة، فرصة خامسة.

جيء إلى سيدنا عمر رجل سارق فقال: " والله يا أمير المؤمنين هذه أول مرّة **"، قال له: " كذبت، إن الله لا يفضح من أول مرّة "**، وظهر أنها المرّة الثامنة.

ربنا عزّ وجل يعطي فرصًا كثيرة، هذا المعنى الأول، خلقك ليرحمك لا ليعذّبك، لذلك يحلم عليك، لذلك يعطيك فرصةً حتى نهاية العمر، تُب، ارجع، فكّر، دقّق، حقّق، اتعظ، اقرأ القرآن، اقرأ السُنّة، اقرأ السيرة، شاهد المُشاهدات، استنبط من الأحداث مواعظ، دروسًا، أي أن الله عزّ وجل ما خلقك إلا ليرحمك، إذاً يعطيك العمر كله فرصة كي تتوب إليه، هذا سبب تأخير العقاب للآخرة، هناك فرصة مثل العام الدراسي، فهذا الطالب معه فرصة حتى الامتحان الأخير، يمكن كلّما شعر في نفسه بتقصير يمكن أن يتلافى تقصيره، أما أن نعمل فجأةً امتحانا مفاجئا من الشهر الثاني، فننجح ونرسب، لا ليس هذا النظام، النظام أن الامتحان في شهر حزيران، هناك فرصة، هذا المعنى.

المعنى الثاني الذي ألححت عليه: أنك في طور الابتلاء، الابتلاء من لوازمه الاختيار، والاختيار من لوازمه أن تأخذ أبعادك الكاملة لأنك مخيَّر.

المعنى الثالث: أنك مكلّف، أساس وجودك أنك مخيَّر..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ

1- المنقطع عن الله أَمْيَلُ للتشكيك في الحق:

دائماً المنقطع عن الله عزّ وجل أَمْيَل للتشكيك في الحق، أما في علاقاته الدنيويَّة فدائماً على اليقين، يطلب عقدًا، يطلب توثيقًا، يطلب دليلًا، في علاقاته الماليَّة وعلاقاته الاجتماعيَّة لا يقبل بالظن، بل يطلب الدليل اليقيني، أما في أمور عقيدته الخطيرة، في أخطر شيء يتعلّق فيه الإنسان فيبقى على الظن، يقول لك: لا نعرف، من مات ورجع فقال لنا ماذا حدث معه ؟ دائماً في أمور العقيدة هو أميل للظن والشك والتردُّد، مع أن هذا ليس هو الإيمان..

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: من الآية 15)

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

قلت لكم مرّةً: هناك علم اليقين، وهناك حقُّ اليقين، وهناك عين اليقين. علم اليقين هو الاستنتاج القَطْعي، وحق اليقين أن ترى بعينك هذا الاستنتاج، وعين اليقين أن تلمس بأحاسيسك هذا الاستنتاج، أنت قد تقول: لا دخّان بلا نار، عقلك حكم أن وراء هذا الجدار ناراً، والدليل وجود الدخان، والقاعدة: لا دخّان بلا نار، أما حينما التفتّ حول الجدار، ورأيت النار بأم عينك، دخلت في شيءٍ آخر هو حق اليقين، أما إذا لَمَسَت يدك النار، وشعرت بألم الحرق عندئذٍ دخلت في حالةٍ ثالثة هي عين اليقين، فأنت بين علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين.

أما الشك، والرَيْب، والتردُّد، أضعف الأشياء هو الوهم، ثم الشك، ثم الظن، ثم غلبة الظن، لكن في العقيدة لا يُقبل إلا القَطْعُ، أي مائة في المائة، هذه عقيدة ودين.

((إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ))

[من صحيح مسلم عن محمد بن سيرين]

((يا ابن عمر، دينك دينكَ، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

2- لماذا تتساهل في أمر دينك وتبحث وتسأل في أمور دنياك

سألني أخ كريم عن موضوع بالفقه فقلت له: هذا موضوع خلافي، بعض العلماء تشدّد، وبعضهم تساهل، فرآها فرصة رائعة جداً كي ينجو من تعذيب ضميره، قال لي: ما القول في إنسان التقى بعالمٍ متساهل، وسأله عن هذا الموضوع فأفتى له بالتساهل، فهل عليه إثم ؟ فألهمني الله جواباً على السريع، فقلت له: ما قولك لو أن لك بيتاً أردت أن تبيعه، جمعتك الصُدَف بدلاّل أعطاك له ثمناً، هل تبيعه رأساً أم تسأل دلاّلا ثانيًا، وثالثًا، ورابعًا، وخامسًا، وتمتحن الأسعار، وتمضي في جولة في السوق، وتطلب بيتا مشابها لبيتك ؟ لماذا في أمر بيع البيت لا يكفيك دلال واحد، ولا مشترٍ واحد، بل تتقصّى الحقيقة من كل جوانبها ؟ أتكون هذه الدار أغلى عليك من الدار الآخرة ؟ لماذا في أمر الدين نقبل الظن، والتردُّد، والشك، يقول لك: شيءٌ يحيّر، لا أحد يعرف شيئا، كلهم يدّعي أنهم على حق، وأنت أين موقعك من هؤلاء ؟ فالإنسان يجب أن لا ينام الليل قبل أن يعرف الحقيقة المطلقة..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

حالة الكافر حالة شك، جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت، كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟ لست أدري ؟ ولماذا لست أدري ؟ لست أدري، أي أن حياة الكافر ليس يدري، لكن حينما يرى الحقيقة الناصعة عندئذٍ يعضُّ أصابعه ندماً، كان من الممكن أن يدري، وبإمكانه أن يدري.

هناك سؤال، الإنسان وصل إلى لقمر، هل تعرفون ما معنى أنه وصل للقمر ؟ أي أن علم البشريّة منذ فجر التاريخ حتى الآن تراكم وتراكم وتراكمَ، الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والحاسوب، والعدسات، وعلم الطب، والفسيولوجيا، علم البشرية المتراكم منذ فجر التاريخ هذا العلم تراكم، وسمح للإنسان أن يصل بمركبةٍ إلى القمر.

الإنسان غاص في أعماق البحار، أي أنه صنع غوّاصات تقاوم ضغوطًا هائلة، فالغواصات العاديّة بعد مائتي متر تتحطّم، صنع غوّاصات أبحاث يمكن أن تصل إلى خليج مريانة في المحيط الهادي على عمق اثني عشر ألف متر، ليرى الأسماك، والحياة في أعماق البحار، ووصل إلى القمر، و غاص لأعماق البحار، ونقل الصورة، ونقل الصوت، فلا يغيب عنكم ما وصل للإنسان من تقدُّم علمي، أتتصوّر أن الإنسان يوم القيامة إذا وقف بين يدي الله عزّ وجل، يمكن أن يقال لهذا الإنسان: لو استعملت من عقلك واحد بالمليون مما استعملته لدنياك لعرفتني، تجد كل اختراع شيئا يعجز عنه البشر مجتمعين، فهناك إنجازات علمية كبيرة جداً، فهل من السهل أن تضرب على حرف ضربة بنصف الثانية تكون في اليابان ؟ التلكس مثلاً، هل الفاكس سهل ؟ نقل الصورة، نقل صورة ملوّنة، الهاتف

التلفزيوني سهل ؟ توجد أشياء كثيرة جداً، لو أن الإنسان استخدم واحدا بالمليون من عقله في معرفة الله لعرف الله.

الإنسان تقام عليه الحجّة، في أمور دنياه صاحٍ، واعٍ، سريع البديهة، يتفحّص، يسلك الأسلوب العلمي، يتحقّق في أمور دنياه، لماذا في أمور الآخرة تترك الأمر على عواهنه ؟ لا تتحقّق من كلام خطيب يلقي خطبة، قد يكون كلامًا خطيرًا جداً يضعك أمام مسؤولياتك، فتجده يقول: الله يعفو عنّا، وهو مقيم على مخالفاتٍ لا ترضي الله عزّ وجل.

فلذلك دائماً أقول لكم أيها الإخوة: قضيّتك مع الإيمان قضية وقت فقط، لأن الإنسان حينما يأتيه ملك الموت تُكْشَف له الحقائق..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

لكن هذا الكشف لا ينفعك إطلاقاً، هذا جاء بعد فوات الأوان، جاء في الوقت غير المناسب، ولو كان الإنسان كافراً كفرعون عند الموت يؤمن كما آمن فرعون..

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

ما قيمة الإيمان عند الموت ؟ لا شيء. ما قيمة الإيمان بعد فوات الأوان ؟ لا شيء، فنحن مطالبون أن نؤمن، ونحن في مقتبل حياتنا، نحن مطالبون أن نؤمن ونحن أصحّاء..

((اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

[ابن أبي الدنيا]

الآن:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ

حينما تؤمن بالله تنفع نفسك:

هذه نقطة دقيقة جداً جداً، أي أنك حينما تؤمن بالله تنفع نفسك، حينما تعرف منهج الله عزّ وجل تُسعد نفسك، تنجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا)

إن الإنسان إذا كان عنده مركبة غالية جداً، وبلورها ثمنه ثمانون ألفًا، فأمسك بحجر وكسر البلور الأمامي، فهو يكون أذى من ؟ انتقم ممّن ؟ يكون أحمقً..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

تجد كثيرًا من الأشخاص يقولون لك: لأن فلان في الجامع لا أريد أن أذهب إلى الجامع، هذا حمق، ما علاقة فلان بالدعوة إلى الله ؟ فلان أساء لك في المسجد، دعه فأنت تبتغي مرضاة الله عزّ وجل، أشخاص كثيرون لسببٍ تافه يتركون الصلاة، فقد يقول: يا أخي واحد يصلي كذّب عليّ ! هذه الصلاة باطلة فلن أصلي، فهذا كلام حمق بحمق..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

هذه اللام سبحان الله لام الملكيّة، شيء الثمين يُمَلّك، أما على فشيء يسحق..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

جوهرة ثمنها مائة مليون يقول لك: هذه لك، هذه لام الملك..

(وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا)

تصوّر الإساءة كتلة من الباطون زنتها خمسة طن تهوي فوق إنسان..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

لام الملك مثل من معه جوهرة ثمنها مائة مليون، هذه لك، هذه ملكك..

(وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا)

ومن أساء صخرة كبيرة تهوي على إنسان..

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ

1 ـ الة نفى الظلم عن نفسه:

أقول لكم أيها الإخوة: الآيات التي تنفي عن الله الظلم هذه آيات في القرآن الكريم، والقرآن قطعي الثبوت، والآيات قطعيّة الدلالة، فإذا آمن الإنسان بالله من خلال الكون، وآمن بالقرآن من خلال إعجازه، وآمن بالنبي من خلال كتاب الله عزّ وجل، وهذا يجري كله بعقله، إذا جاء في كتاب الله آياتٌ تنفي عن الله الظلم فيجب أن تعتقد بها اعتقادك بوجودك، وإلا ففي الإيمان خلل.

لا تستطيع أن تُثبت عدالة الله بالدليل المادي:

أما أن تقول: الزلزال الفلاني، والفيضان الفلاني، والشعب الفلاني يموت من الجوع، والشعب الفلاني مستغل من قِبَل الشعب الفلاني، والحرب الأهليّة في المكان الفلاني، لا تستطيع أن تُثبت عدالة الله بالدليل المادي إلا إذا كان لك علمٌ كعلم الله، وهذا مستحيل، لكن الله أخبرك أنه لا يظلم مثقال ذرّة، وانتهى الأمر.

لا تسلك طريق معرفة الله من خلال الحوادث، هذه ألغام قد تنفجر، اسلك سبيل معرفة الله من خلال الكون، الكون أسلم، وهو طريق آمن، واعرف الله من خلال الكون، وصدِّقه حينما يقول لك:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

من خلال القرآن الكريم، تتوازن، أما إذا كنت تريد أن تتأمّل بما يجري في الأرض، فالله له علم نحن لا نعلمه، وله حكمةٌ قد تخفى علينا، وله مقاصد لا نعلمها، لكن الزمن يكشفها، ربنا عزّ وجل يعالج، فقد يعالج شعوبًا بأكملها، يعالج مؤمنين مُقَصِّرين..

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

(القصص: الآية 5 – 6)

فالله له حكمة، وأنت لا ينبغي أن تتعرّف إلى الله من خلال أفعاله، هذه قد تلتبس عليك، اعرف الله من خلال خلقه، فهذا طريق آمن، أما إذا رأيت في الأفعال ما يوقعك في اللبس فاقرأ هذه الآيات:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

وانتهى الأمر، هذا كلام خالق الكون، هذا الكلام إذا وجدت فيه شكًا فجدِّد إيمانك بالقرآن، وإلا جدِّد إيمانك بالله عزّ وجل، أما إذا كان إيمانك بالله يقينيا، وبالقرآن يقينيا، وبالنبي يقينيا فهذا كلام الله..

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

2 ـ معنى ظلّام:

هنا ظلّام ليس معناها اسم مبالغة، فلو أنها اسم مبالغة لوقعنا في مشكلة، هو ليس بظلام، فهل هو ظالم إذاً ؟ لا، معنى ظلام أي ليس بذي ظلمٍ، ليست صيغة مبالغة، بل هي اسم من أسماء الله، ننفي عن الله عزّ وجل صفة الظلم فقط، ليس بذي ظلم.

لا بأس أن نعيد هذه الفقرة مرّةً ثانية لأهميّتها وخطورتها:

العقل محدود:

الإنسان أيها الإخوة أعطاه الله عقلاً، وبثّ الله آياته في الكون، فبإمكانه أن يوقن بشكلٍ قطعي بوجود الله وكماله ووحدانيّته بالعقل، وإذا قرأ القرآن بإمكانه أن يوقن من خلال عقله فقط أن هذا الكلام كلام الله، عن طريق إعجازه، وبإمكانه أن يوقن أن النبي صلّى الله عليه وسلّم هو رسول الله من خلال هذا الكتاب، هناك أدلّةٌ عقليّة، يقينيّة، قطعيّةٌ، ثابتةٌ لا مجال للشك فيها.

بالعقل يكفي كي تؤمن به وبكتابه وبنبيّه، لكن العقل يبقى جهازاً محدوداً، أنت عندك بقاليّة، تشتري ميزانًا بخمسمائة ألف، حسّاسا ودقيقا جدا، فيه ذاكرات، أحدث ما صُنِع للموازين، ومع ذلك هذا الميزان يزن حتى خمسين كيلوا، الصانع صمّمه هكذا، فمادام الوزن أقلّ من خمسين يعطيك نتائج بارعة وباهرة، أما لو سوّلت لك نفسك أن تزين به سيّارتك لكسّرت الميزان وحطّمته، وعندئذٍ لا ينبغي أن تتهم الصانع: أن يا أخي ما هذا الميزان، فهو لم يعمل ؟ أنت كلّفته ما لا يطيق، كلّفته بمهمّةٍ لم يُصمَّم لها.

فعقلك إذا وجّهته لموضوعات ضمن اختصاصه يعطيك نتائج باهرة، أي أنك إذا فكّرت في الكون فالله عزّ وجل قال:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(191))

(سورة آل عمران)

الله أمرنا أن نفكِّر في الكون، هذا من مهمّته، قال لك:

(أَفَلا يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

مهمة العقل، اقرأ وتدبّر..

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

(سورة المؤمنون: من الآية 69)

تفكّر بالنبي الكريم، بمعجزاته، بأخباره، بأخلاقه، بما جاء به من سنةٍ نبويّةٍ محكمةٍ رائعةٍ مدهشة.. إلخ، لكن لو كلّفت العقل ليبحث في ذات الله فإنك تحطِّمه، لأنه لم يصمَّم ليبحث في ذات الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله فتهلكوا))

[من التفسير بالمأثور عن يونس بن مسيرة]

الموضوعات الغيبية أساسها التصديق بالنص الصحيح لا العقل:

تماماً كما لو أننا اشترينا ميزانا ثمنه نصف مليون ليرة حسّاس جداً، ووزنا فيه السيارة فحطّمناه، تماماً كما لو وقعت ورقة دخينة رقيقة في فرن صهر الحديد، وسألت: ما الذي حدث لها ؟ هذه من الوهج تبخّرت، فعندما توجّه عقلك لمعرفة ذات الله تعجز، والشيء الذي يعجز عنه عقلك أخبرك الله به في القرآن، وأنت له مرتاح، لو وجّهت عقلك إلى البحث في الماضي السحيق، الله قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الكهف: من الآية 51)

ما كانوا معي وقتها، لو وجّهت عقلك للبحث في المستقبل البعيد فقلت: أنا أريد دليلا قطعيا على الجنّة، والجنة، والنار، والصراط، والميزان، هذه أخبارٌ قطعيّة الثبوت جاءت في كتاب الله، لكن لا يستطيع عقلك أن يثبتها بالمادّة، مستحيل، إلا بالتصديق..

أيها الأخ الكريم... يجب بادئ ذي بدء أن تفرّق بين ما ينبغي أن تعمل عقلك به وبين ما ينبغي أن تصدِّقه، وأكبر غلط حينما تنقل موضوعًا من الذي ينبغي أن تصدِّقه إلى حقل العقل، فتقع في متاهات كبيرة.

أنا عندي قاعدة: هذا الموضوع إخباري انتهى الأمر، لست مكلّفاً أن تصدِّقه إلا بعد أن تؤمن بالله وكتابه ورسوله، إذا آمنت بالله وبكتابه وبرسوله الآن أنت مكلّف أن تصدِّقه، فإن لم تصدِّقه فارجع إلى إيمانك ففيه خلل، لذلك عندنا أخبار في القرآن هذه ليست خاضعة إلا للتصديق ؛ فالله عزّ وجل أخبرك عن الجن، فهل عندك دليل مادي على وجودهم ؟ لا، أخبرك عن الملائكة، أخبرك عن مستقبل العالم، أخبرك عن يوم القيامة، أخبرك عن حال أهل النار، عن حال أهل الجنّة، عن الصراط، عن الميزان، عن يوم تُنشر الصحف، هذه كلّها موضوعات إخباريّة لا تخضع لمناقشة العقل.

والماضي السحيق ؛ كيف خلق آدم، وكيف خلق حواء، وكيف أخرجهما من الجنّة هذا موضوع إخباري لا يخضع لسيطرة العقل.

وذاته العالية العظيمة الكاملة هذا موضوع إخباري لا يخضع لسيطرة العقل..

(إِنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(7))

(سورة المجادلة)

كيف يعلم ؟ هذا ليس شغلك، أخبرك أنه يعلم وانتهى الأمر، فنحن يجب أن نفرّق بادئ ذي بدء بين الموضوعات العقلانيّة التي ينبغي أن يعمل بها العقل، والموضوعات الإخباريّة التي ينبغي أن يصدِّقها العقل، لكن أنت لست مكلّفًا أن تصدِّق إلا بعد أن تؤمن، فأنت اجعل همّك الأول أن تؤمن بالله بوجوده وكماله ووحدانيّته، وأن تؤمن بكتابه المُعجز، وبنبيّه المرسل.

أي موضوعٍ لا يخضع لعقلك أخبرك الله عنه، فلو قلت: يا أخي أنا عندي هذا الميزان، وعندي هذه المركبة، ونريد أن نعرف وزنها ؟ اسأل الصانع، وأساساً وزنها مكتوب عليه ألف ومائتان وثمانية وثلاثون كيلوا على لوحة مثبّتة على المركبة، انتهى الأمر، هذا وزنها، أنت تستخدم الميزان للبقاليّة ضمن خمسين كيلوا، أما هذه المركبة فتأخذ وزنها من المعمل، أما أن تحاول وزن المركبة بهذا الميزان تكسره، تحطِّمه، عندئذٍ لا ينبغي أن تتهم العقل: يا أخي العقل قاصر، لا ليس قاصرا، هو يعطيك أرقى النتائج إذا أعملته في الحقل المخصّص له.

إذاً الله عزّ وجل قال:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

لو ترى بعينك مليون قصّة فيها ظلم، القرآن أثبت هذه القصص لا تعرفها، أنت تعرف منها قصّة اثنين أو ثلاثا، كل قصّة فيها خمسة فصول، فيها عشرة فصول، إذا عرفت أول فصل لا يكفي، الثاني لا يكفي، الثالث لا يكفي، الرابع، الخامس، السادس، السابع، الثامن، لو عرفت تسعة فصول لا تستطيع أن تحكم على هذه القصّة فيها عدل أم ظلم ؟ ما دام ليس لديك إمكانيّة أن يكون لك علمٌ كعلم الله، لا تستطيع إثبات عدالة الله إلا إذا كان لك علمٌ كعلمه، لأن ربنا عزّ وجل قال:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(17))

(سورة الإسراء)

مرّة ـ هذه القصّة أحب أن أذكرها لأنها واضحة جداً في دلالتها ـ استوقفني إنسان، اثنان تخاصما في سوق تجاري، واحد أطلق على الثاني النار فأصاب صاحب محل تجاري بريء، مدّ رأسه ليعرف من أين إطلاق النار فجاءته رصاصة في عنقه فجعلته مشلولاً فوراً، فقال لي أحدهم: ما ذنب هذا الإنسان ؟ جاء ليفتح محلّه التجاري فإذا بهذه الرصاصة تجعله مشلولاً، قلت: الله أعلم، أما ربنا عزّ وجل..

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

بعد عشرين يوماً لي صديقٌ يسكن في أحد أحياء دمشق له جار، هذا الجار وصيٌ على أموال أولاد أخيه اليتامى، وقد أكل من أموالهم مبلغاً ضخماً يكفي ثمن بيت، واحتكموا لأحد علماء دمشق الأكارم الذي توفّاه الله قبل أعوامٍ ثلاثة، قال هذا العالم لمن اشتكى على هذا الوصي: لا تشتكوا على عمِّكم، هذا عارٌ بكم، اشكوه إلى الله عزّ وجل.

هذا الكلام تمّ في الساعة الثامنة مساءً، وفي صبيحة اليوم الثاني هو نفسه الشخص الذي فتح محلّه التجاري ومدّ رأسه، فجاءت رصاصة وجعلته مشلولاً، فإذا نظر الرجل ببساطه للأمر يجد أنه ما فعل شيئًا، جاء ليفتح محلّه التجاري، وأودت به هذه الرصاصة، وجعلته مشلولاً، لو عرفنا ماذا فعل مع

أولاد أخيه قبل يوم، وكيف أنه أصرّ على أن يأكل أموالهم بالباطل، وأنه أبى أن يسمع لنصيحة العلم لعرفنا الحقيقة.

خاتمة:

أنت لا تعرف، لو عرفت من قصة خمسة فصول فهناك خمسة آخرين، عرفت ستة بقي أربعة، سبعة بقي ثلاثة، ثمانية بقي اثنان، تسعة بقي واحد، قد يكون السر كامنا في آخر فصل، لأنك لا تعرف، فأنت عشرات الآيات، بل بضع عشرات تؤكِّد لك أن الله لا يظلم:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

خيط في النواة بين فلقتيها..

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

يوجد رأس مدبّب في نواة التمرة، لا يظلمون مقدارا:

(مِنْ قِطْمِيرٍ(13))

(سورة فاطر)

غشاء رقيق شيء لا يُذكر لا قيمة له، في هذا المستوى..

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

من لوازم إيمانك بالله أن تؤمن بعدالته المُطلقة، أما إذا رأيت شيئاً لا تعرف تفسيره أوكله لله عزّ وجل، هكذا المؤمن.

فلدينا موضوعات في العقيدة موضوعات عقلانيَّة تخضع للعقل، وهناك موضوعات إخباريَّة، فالشيء الذي يعجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، فإن لم تصدِّقه فجدِّد إيمانك بالله، وجدِّد إيمانك بالكتاب، وإيمانك بالرسول.

فإذا سمحت لعقلك أن ينتقد خبرًا يقينيًا جاء في كتاب الله، فمشكلتك مع نفسك، عندئذٍ جدِّد إيمانك بالله أولاً، وإيمانك بالكتاب ثانياً، وإيمانك بالنبي ثالثاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فصلت 041 - الدرس (11-11): تفسير الآيات 47- 54

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-01-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر والأخير إن شاء الله تعالى من سورة فصّلت، ومع الآية السابعة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ)

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ

لا أحد من المخلوقات يعلم متى الساعة:

في هذه الآيات الأخيرة من سورة فصّلت يبيّن الله سبحانه وتعالى أنه استأثر بعلم الساعة، أي أن علم الساعة ووقوعها لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، والبشر لا يعلمون الغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله.

الغيب ثلاثة أقسام:

والغيب أيها الإخوة قسّمه العلماء إلى أقسامٍ ثلاثة: غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، ومن أسباب إعجاز القرآن الكريم أنه أخبرنا عن غيب الماضي، وأنه أخبرنا عن غيب الحاضر، وأنه أخبرنا عن غيب المستقبل، لكن الله سبحانه وتعالى وحده يعلم الغيب، فإذا أعلمنا به النبي عليه الصلاة والسلام فهذا من إعلام الله للنبي عليه الصلاة والسلام، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب بذاته، بل بإعلام الله له، هذه حقيقة..

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

(سورة آل عمران: من الآية 44)

هذه القصص التي وردت في القرآن الكريم من غيب الماضي، وكذلك ذكر القرآن الكريم..

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

(سورة الروم)

إعجاز القرآن:

هذا غيب المستقبل، وقد وقعت هذه المعركة، بل إن في هذه الآية إعجازاً إخبارياً مستقبلاً، وكذلك في الآية إعجازٌ علمي، لأن أدنى نقطةٍ في الأرض هي غَوْر فلسطين، الغور الذي ينخفض عن سطح البحر مئات الأمتار، وقد تمّت المعركة بين الفرس والروم في هذا الغَور، ولا يعلم أحدٌ إلا منذ أمدٍ قصير أن هذه النقطة أخفض نقطة على سطح الأرض، لذلك قال تعالى:

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الأَرْضِ)

- أي في أدنى مكان -

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3)فِي بِضْعِ سِنِينَ)

هذا من إعجاز القرآن العلمي.

وأما إعجازه الإخباري فإخباره عن قصص الأنبياء السابقين، وعن شيءٍ وقع بعيدًا عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، هذا غيب الحاضر، وعن شيءٍ سيقع في المستقبل، هذا غيب المستقبل، ولا يعلم الغيب إلا الله.

لكن الإنسان الذي يعيش في منطقةٍ ما يشهد الوقائع التي تجري أمامه، فهذا الواقع بالنسبة إليه عالَم مشهود، فالعالَم عالمان ؛ عالَم مشهود، وعالم غيبي، فالذي تعيشه أنت، وتعاصره، وتراه بعينيك وبحواسِّك فهذا عالم الشهود بالنسبة إليك، أما من ابتعد عن هذا المكان فهو غيبٌ بالنسبة إليه، لكنه غيب الحاضر، الذي وقع في الماضي، ولا تعلم كيف وقع فهذا غيب الماضي، لكن غيب المستقبل لا أحد على وجه الأرض يعلمه إلا الله.

من أبرز أحداث المستقبل علم الساعة، نهاية العالم، **" متى الساعة يا رسول الله ؟ "**. قال عليه الصلاة والسلام:

((مَا الْمَسْؤُلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ))

[مسلم عن عمر بن الخطاب]

أحد الأئمّة الكبار، وهو الإمام مالك رأى في المنام ملك الموت، قال: " يا ملك الموت كم بقي لي من أجلي ؟ " فأشار ملك الموت إليه بأصابعه الخمس، فلما استيقظ الإمام مالك وقع في حيرةٍ شديدة، أهي خمس سنوات، أم خمسة أشهر، أم خمسة أسابيع، أم خمسة أيام، أم خمس ساعات ؟ فلمّا توجّه إلى الإمام ابن سيرين المختصُ بتفسير المنامات قال: **" يا إمام، يقول لك ملك الموت: إن هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله "**.

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ)

لذلك الإنسان لا يعلم متى الساعة، فإذا أردت أن تفهم ساعة يوم القيامة، وإن أردت أن تفهم الساعة ساعة الإنسان، ولكلٍ منا ساعة فلن تستطيع ذلك، يا ترى متى ؟ **" من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ".**

متى الساعة ؟ متى ينتهي أجلي ؟ في أي سن ؟ في أي يوم ؟ في بيتي أم خارج بيتي ؟ في حضرٍ أم في سفر ؟ في الليلِ أم في النهار ؟ على أي طريقةٍ أموت ؛ بمرضٍ ؟ بحادثٍ ؟ لا أحد يعلم، وما دمنا لا نعلم ينبغي أن نستعدّ لهذا الحدث الذي لابدّ منه، وما رأيت عاقلاً أعقل ممن يستعد للقاء الله تعالى، بالاستقامة على أمره، وبالأعمال الصالحة، وبالتوبة إليه، وباب التوبة مفتوحٌ للإنسان ما لم يغرغر..

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام: من الآية 185)

فالمؤمن العاقل يبادر من فوره إلى التوبة إلى الله.

((ابن آدم، لا تعجز، ادعني أجبك، استغفرني أغفر لك))

[ورد في الأثر]

ولا تنسوا هذا الحديث الشريف الصحيح الذي يصف فيه النبي عليه الصلاة والسلام ربه فيقول:

((إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر))

[مسلم]

أي يجب على الإنسان أن لا يضيع الفرصة، لأن باب التوبة مفتوح، وما دام القلب ينبض فباب التوبة مفتوح، والصلح مع الله يسيرٌ جداً.

" إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ".

((لو أتيتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[مسلم]

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا)

(سورة الزمر: من الآية 53)

عندما أغفل ربنا عزّ وجل عنا علم الساعة، لك أن تقول: ساعة يوم القيامة، ولك أن تقول: ساعة نهاية الحياة، هذه الساعة مغيّبةٌ عنّا، وأقرب الساعتين إلينا ساعة الموت.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24))

(سورة الفجر)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27))

(سورة الفرقان)

العاقل مَن يستعد لساعة الحقيقة:

هذه الساعة الإعداد لها هو قمة العقل، قمة الذكاء، قمة التوفيق، قمة النَصر، قمة التفوُّق، قمة الفلاح، قمة الفوز، قمة العقل أن تعد لهذه الساعة عُدّتها..

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[من سنن الترمذي عن شداد بن أوس]

فأخشى ما يُخشى على الإنسان أن يستهلكه الزمن، وأن تستهلكه همومه ومتاعبه ومشاغله، من همٍّ إلى همٍّ، من إنجازٍ إلى إنجاز، من موعدٍ إلى موعد، من لقاءٍ إلى لقاء، من مشكلةٍ إلى مشكلة، من مطبٍ إلى مطب إلى أن يأتي أجله، فيذهب إلى الدار الآخرة صفر اليدين، وكل شيءٍ تَعِبَ فيه في الدنيا خلّفه في الدنيا، دقِّقوا في هذا الحديث:

((أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنّة، ودخل هو بماله النار))

[ورد في الأثر]

المال نفسه حصّله بطريقةٍ غير مشروعة، وضيَّع من أجل هذا المال دينه وآخرته، فاستحق دخول النار بهذا المال الذي كسبه، فجاء ورثته ـ أبناؤه ـ كسبوه حلالاً، وأنفقوه في الطريق المشروع، فاستحقوا دخول الجنة، ف..

((أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنّة، ودخل هو بماله النار))

[ورد في الأثر]

والميّت ترفرف روحه فوق النعش فتقول: يا أهلي يا ولدي، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حلِّه وفي غير حلِّه، فالهناء لكم، والتبعة علي ".

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ)

شيءٌ آخر يُردُّ إليه..

(وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا)

وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا

1 ـ انعقاد الثمرة بأمر الله عزّ وجل:

انعقاد الثمرة بأمر الله عزّ وجل، لذلك إخواننا الريفيون يلاحظون ملاحظة عجيبة، يقول لك أحدهم: في هذه السنة الموسم جيد جداً، والموسم الفلاني ضعيف، أحياناً يعطي الله عطاءً مدهشاً، ففي بعض السنوات كيس القمح في المناطق الريفية ـ في شمال سورية وفي شرقها ـ أعطى أكثر من سبعين أو ثمانين كيسًا، وصل كيس القمح إلى مائة وعشرين كيسًا، وفي بعض السنوات نحتاج جميعاً إلى مليون طن من القمح فكان إنتاجنا ثلاثة ملايين طن، وفي سنوات أربعمائة ألف، وهذا أقلّ من حاجتنا، فانعقاد الثمرة في المحاصيل، أو في الخضراوات، أو في الفواكه والثمار..

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا)

2 ـ النبات آية من آيات الله الدالّة على عظمته:

لكن انعقاد الثمرة شيء لا يصدّق، فربنا عزّ وجل جعل النبات آية من آياته الدالّة على عظمته، ظاهرة النبات أن هذا النبات الأخضر، وأن هذه الورقة الخضراء فيها من العجائب ما لا يُصدّق، الورقة الخضراء معملٌ، وأعظم معمل صنعه الإنسان يبدو أمامها سخيفاً، تافهاً، مبتذلاً.

الآن أعظم معمل صنعه الإنسان يبدو أمام الورقة الخضراء عملاً سخيفاً بسيطاً، لأن هذه الورقة تأخذ من التربة ما يزيد على ثمانية عشر معدناً مذابًا في الماء عن طريق الجذور، وعن طريق النسغ الصاعد، وتأخذ من الشمس طاقتها الحراريّة ـ الفوتونات ـ وتأخذ من الهواء ثاني أوكسيد الكربون، وفيها مادة اليخضور، وفيها ذرات الحديد، هذه الورقة بتفاعلاتٍ عديدةٍ عجيبة يصعب على العقل فهمُها، تصنع الورقة نسغاً آخر ينزل، هذا النُسُغ سائل موحّد يسهم في تصنيع الجذور، وتصنيع الجذع، وتصنيع الفروع، وتصنيع الأغصان، وتصنيع الأوراق، وتصنيع الثمار والأزهار، فانعقاد الثمرة في أكمامها بيد الله سبحانه وتعالى.

والشيء الذي يلفت النظر هو أن هذه البذرة فيها خصائص الثمرة، وقد تزيد الخصائص على مائة خاصّة، كلها في البذرة على شكل أوامر مُبَرْمَجَة، تقول: هذا النبات يقاوم المرض فلاني، وهذا النبات يقاوم البرد، وهذا النبات إنتاجه مبكِّر، وهذا النبات إنتاجه حامضي، وهذا النبات نسيجه كثيف، وهذا

النبات ماؤه كثيف، وهذا النبات من أجل العصير، وهذا النبات من أجل المائدة، فهناك أنواع منوّعة جداً جداً في كل نبات يخلقه الله سبحانه وتعالى.

يكفي أن من أصناف القمح ما يزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة نوع، يكفي أن أنواع العنب تزيد على ثلاثمائة، يكفي أن كل محصولٍ وكل نباتٍ أنواع منوّعة ترضي كل الأذواق، التفّاح مثلاً كم نوعا ؟ الدُرّاق كم نوعا ؟ القمح كم نوعا ؟ هناك نوع قاس، نوع ليّن، نوع يصلح للصناعة، نوع يصلح للخبز، فكل نوع له خصائص.

هذا العلم ؛ إنبات النبات، انعقاد الثمار في أكمامها هذا يرجع إلى الله سبحانه وتعالى، هو الرزّاق، وهذه ظاهرة وعلى مستوى البلاد كلِها، يقول لك: هذه السنة المحصول الفلاني جيد جداً على مستوى كل المحافظات، وهذه السنة المحصول الفلاني ضعيف جداً، في بعض السنوات الذين ضمنوا بعض الفواكه، دفعوا ثمن الكيلو في تقديرهم عشر ليرات، بيعت هذه الفاكهة بخمس ليرات لوفرة الإنتاج، فلذلك انعقاد الثمرة تعود إلى الله سبحانه وتعالى..

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى)

وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنثى

أيّ أنثى، أي أن الشيء الذي يتوالد هو النبات والحيوان، فانعقاد الثمرات بيد الله، وحمل الأنثى للجنين بيد الله سبحانه وتعالى، يجعل امرأةً عقيماً، ويجعل امرأةً تلد الإناث، وهذا من الرجل في العلم الحديث، وتؤكِّده الآية الكريمة:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى(45)مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

1 ـ الحوين:

أي أن الذي يحدِّد نوع الجنين ليست الأنثى لكنه الرجل، على كلٍ هناك بحث في انعقاد الحمل في رحم الأنثى، وهو بحثٌ طويل، لكن الشيء الذي يلفت النظر هو أن هذه الحوين الذي تصنعه الغُدَد الخاصة به يجري إعداده في ثمانية عشرٌ يوماً، هذا الحوين يعدُّ في الغدّة الخاصّة به لفترةٍ طويلة، ولكن قبل أن ينتقل من مكان إعداده إلى مكان فاعليّته تجرى عليه عمليّةٌ بسيطة حتى يصبح فعّالاً.

هذه النُطَف ثلاثمائة مليون حوين في اللقاء الواحد، كل حوين له رأسٌ، وله عنقٌ، وله ذنبٌ، وهذا الحوين فيه معلومات لتشكيل الجنين تزيد على خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، ولك أن تسميها

مورّثات، أو تسميها صبغيات، أو تسميها معلومات تسهم في تشكيل هذا الجنين، كل صفات الجنين ؛ صفات جلده، وصفات شعره، وصفات أعضائه وعضلاته، ولونه، حتى خصائصه الداخليّة ؛ خصائص دمه، وكبده، وقلبه، هذه الخصائص تزيد على خمسة آلاف مليون معلومة، لو أردنا أن نكتبها في كُتُب لكانت مكتبة بأكملها لا تتسع لهذه المعلومات، كلُّها في حوينٍ، كل ثلاثمائة مليون حوين لا تزيد على سنتيمتر مكعَّب.

والبويضة تحتاج إلى حوين واحد، يصل إلى البويضة أقواها، وفي رأس الحوين مادّةٌ نبيلة مغلّفةٌ بغشاءٍ رقيق، إذا اصطدمت بالبويضة تمزّق الغشاء، فأسهمت هذه المادة النبيلة بالوصول إلى داخل البويضة، تذيب جدار البويضة، فيدخل هذا الحوين إلى البويضة، يُغلق الباب، وتصاب بقية هذه الحوينات بالإحباط، لقد انتقت البويضة أقوى هذه الحوَيْنات وانعقدت، وانعقد الحمل.

2 ـ البويضة:

تنطلق البويضة من المبيض إلى الرحم، في أثناء انطلاقها تنقسم إلى عشرة آلاف خليّة دون أن يزيد حجمها، ولو زاد حجمها لوقفت في الطريق، لأن الأنبوب دقيق جداً، فإذا وصلت إلى الرحم انغرست فيه، وهناك علومٌ والله لا يتسع لا هذا الدرس ولا مئة درسٍ لتفصيلها في علم الأجنّة فقط، شيء لا يصدّق.

كيف تغرس في جدار الرحم ؟ كيف تأتي الدماء لتغذي هذه البويضة ؟ كيف تتشكّل أعضاؤه الأساسيّة؟ كيف تطوّر هذا الحمل إلى أن يصبح طفلاً جنيناً في تسعة أشهر، كاملاً ؛ فيه دماغ، فيه جمجمة، فيه عمود فقري، فيه عضلات، فيه عظام، فيه جهاز هضم، فيه جهاز دوران، فيه جهاز تصفية، فيه غدد صمّاء، فيه بنكرياس، فيه كبد، فيه شعر، فيه جهاز تناسلي، فيه جهاز بولي، فيه جهاز هضمي، فيه جهاز دوران، كل هذا من حوينٍ واحد، فالإنسان بإمكانه أن يعرف كيف خُلِق من خلق ابنه..

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

من دون حساب..

(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40))

(سورة القيامة)

بلى إنه على كل شيء قدير.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116))

(سورة المؤمنون)

أيها الإخوة الكرام، التفكّر في خلق الإنسان من أرقى العبادات، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24))

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

(سورة الطارق) إذاً:

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ

أي الذين عبدتموهم من دوني، الذين أشركتموهم معي، أين هؤلاء الشركاء ؟ قالوا:

(قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ)

أعلمناك يا رب أنه ما شهدنا أحداً غيرك، ولكن كذبنا على أنفسنا، قال:

(انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 24)

آذنّاك أي أعلمناك ما منا من شهيد..

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ)

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ

لو أنهم دعوا شركاء غير الله سبحانه وتعالى في الدنيا، وجاءوا ربّهم يوم القيامة فاستنجدوا بهؤلاء الشركاء، أين هم ؟ أين شركائي ؟

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ)

المؤمن يعرف الحقيقة وهو في الدنيا:

أيها الإخوة، من نعمة الله الكبرى على المؤمن أن الحقيقة التي يعرفها كل الخلق يوم القيامة، الخمسة آلاف مليون الذين يعيشون معنا الآن وهم في ضلالٍ عن هذه الحقيقة، الحقيقة التي سيعرفها الناس جميعاً يوم القيامة يعرفها المؤمن، وهو في حياته الدنيا، هذه أكبر نعمةٍ على الإنسان، لذلك قال بعض الصحابة وأظنّه عليّ بن طالب كرّم الله وجهه: **" والله لو كُشِف الغطاء ما ازددت يقيناً "**، وقال صحابيٌ آخر: **" والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي ".**

أروع شيء أن يعرف الإنسان الحقيقة في الوقت المناسب، لكن إنسانا اعتنق مبدأ غير صحيح، ثم اكتشف في آخر حياته أن هذا المبدأ هدّام، ليس له أصل في الواقع، مبدأ مُفْتَعَل، مبدأ شيطاني، أليست هذه خسارة كبيرة ؟ أليس هذا إحباطا لا يحتمل ؟

(وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ)

أي لابدّ من أن يلقوا هذا العذاب، ولم ينفعهم أحدٌ دعوه من دون الله عزّ وجل.

لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ

1 ـ من طبيعة الإنسان أنه يحب الخير ولا يسأم منه:

أما طبيعة الإنسان:

(لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ)

دائماً يطلب الخير، يريد الصحّة، يريد المال، يريد الجمال، يريد البيت، يريد الأثاث، يريد المَركبة، الدخل الكبير، العِزّ العريض، الشأن الرفيع، هذا الخير ؛ المال، والجمال، والقوة، والمَنَعَة، والأنصار، والأتباع، والأشياء الماديّة المُبْهِجَة..

(لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ)

لا يمل، أيّ إنسانٍ هذا ؟ قبل أن يعرف الله، فالإنسان إذا ورد معرّفة بأل فهذه أل الجنسيّة، أي أن جنس الإنسان قبل أن يعرف الله..

(لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ)

من طلب الخير، من البحث عن الخير في مقياسه، في نظره، في موازينه..

(وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ)

2 ـ من طبيعة الإنسان أنه يكره الشرّ:

لو أن هذا العطاء توقّف قليلاً، لو أنه خسر بعض صحّته، أو بعض ماله تراه عابساً، مُقَطِّباً، مُزَمْجِراً، يائساً، سوداوي المزاج، ضيّق القلب، فما هذا التناقض ؟

(لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ)

هذه حقيقة الإنسان، لكن المؤمن يطلب الخير، ويصبر على بلاء الله سبحانه وتعالى، يطلب الخير الحقيقي ـ خير الآخرة ـ ولا تعنيه الدنيا كثيراً، فإذا امتحنه الله بشيء تجده صابراً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إنّ أَمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ ؛ إنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللّهَ، وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ إلا الْمُؤْمِنُ))

[من مسند أحمد عن صهيب]

الكافر يطلب الدنيا، وإذا أصابته فيها مصيبة..

(فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ)

المؤمن يطلب خير الآخرة، فإذا ابتلاه الله في الدنيا بمصيبةٍ تراه صابراً راضياً عن الله عزّ وجل.

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ

الآن مع حالةٍ ثالثة:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ)

أصابه شبح مرضٍ عُضال، ثم أثبت التحليل أنه بريء من هذا المرض العضال، أصابه فقرٌ مدقع، ثم زال هذا الفقر، ونَعِمَ بدخلٍ كبير، أصابه همٌّ فزال ذلك الهم، أصابته مصيبة فانحسرت تلك المصيبة، قال:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا)

منّا تفضُّلاً، وتكرُّماً، ومِنْحَةً، وهبةً..

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي)

لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي

بعضهم قال: هذا ما استحقّه، وبعضهم قال: هذا من صنعي، ومن تدبيري، ومن علمي، ومن خبرتي..

(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً)

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

1 ـ الغافل ينسب الخير لنفسه:

يعبّر بعض الناس الغافلين عن هذه الحقيقة، فيقول لك: معك قرش تساوي قرشًا، الدراهم مراهم، ليس هناك آخرة، هذه الدنيا هي كل شيء، من كان فيها غنياً فهو السعيد، ومن كان فيها فقيراً فهو الشقي، فالإنسان أحياناً القوة تُعْمِيه، ويُطْغِيه المال، وتُلْهِيه الصحّة، قال تعالى:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي)

أي هذا ما أستحقُّه، تألياً على الله، أو هذا ما كان من صنعي، ومن تدبيري، ومن خبرتي، ومن سعيي، ومن كدِّي، ومن اجتهادي، فيعزو هذا الفضل الكبير الذي تفضّل الله به، والذي أكرمه به إلى سعيه، وهذا شرك..

(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً)

2 ـ الغافل لا يدخل الآخرة في حسابه:

من مات ورأى ماذا بعد الموت ؟ من هنا إلى ذلك يوم الله يفرجها الله، هذا كلام الناس، فهو يدخل في حسابه كل شيء إلا الموت، مع أن الموت أخطر شيء، تجد تفكير الإنسان في العمر الفلاني يحتاج إلى دخل أكبر، إذا سأوظِّف أموالاً من الآن، يقتطع من دخله مالاً يوظِّفه في جهة ليكون له دخل بعد سن معيَّنة من دون تعب، تجده يفكر في شيخوخته، يفكر بمستقبل أولاده، يفكر في بيته، أبيع هذا البيت بثمانية ملايين، ونأخذ بيت بالضواحي بلميونين، معنا فرق مالي نشتري به سيارة، نأخذ بيتًا صغيرًا، فهو يخطِّط، لكن يا ليته يخطِّط لمستقبله الحقيقي، لآخرته.

(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً)

لو لم يقل الإنسان هذا الكلام كان فعله يؤكِّد ذلك، يخطِّط دائماً، إلا لما بعد الموت، هذا خارج حسابه..

(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى)

وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى

من استنباطات الجاهل الغافل:

ما دام أغناني في الدنيا فهو راضٍ عني، ولولا أنه راضٍ عني ما أغناني، ما دام قد أطلعني على ملكه فهو راضٍ عني، فاستنباطات الإنسان الجاهلي الغافل سخيفةٌ جداً ؛ ما دام قد أطلعه على مُلكه فهو راضٍ عنه، ما دام قد أغناه فهو راضٍ عنه، مع أن الله أغنى قارون وهو لا يحبه، وأعطى فرعون وهو لا يحبه، لكن الذي يحبه يعطيه علماً وحكمةً..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14))

(سورة القصص)

(وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى)

ضمن الدنيا والآخرة تألياً على الله، ببساطة، بسخف، بجهل، بغباء..

(فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا)

هؤلاء الذين كفروا سوف ينبئون بما عملوا يوم القيامة ؛ أعمالهم، إساءتهم، فسادهم، انحرافهم، كذبهم، إفسادهم للناس، أعمالهم السيئة، اغتصابهم للأموال، انتهاكهم للأعراض، إفسادهم للمُجتمع، تسخير الناس لهم، بناء مجدهم على أنقاض الآخرين، بناء غناهم على فقر الآخرين، بناء أمنهم على خوف الآخرين، هؤلاء الذين كفروا ينبئون بما عملوا يوم القيامة..

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

أي عذاب لا يحتمل، الله سبحانه وتعالى العظيم يقول:

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

(سورة البقرة)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

(سورة البقرة)

الآن هذا الإنسان نفسه ربنا عزّ وجل يحدّثنا عن خصائصه..

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ

حال الإنسان قبل الإنعام غير حاله بعده:

كان يصلي فلم يعُد يصلّي، كان يحضر مجلس علم عندما كان فقيرًا، فلما اغتنى قال لك: والله ما عندي وقت، عندنا شغل فلا مجال للحضور، قبل الزواج كان يحضر، تزوّج ألهته الزوجة، واحتوته، وأنهته..

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا)

لا ينبغي للعاقل أن تشغله الدنيا عن آخرته:

الزواج نعمة، العمل نعمة، الوظيفة نعمة إذا كانت وظيفة جيدة، العمل التجاري نعمة، العمل الصناعي نعمة، لكن الإنسان يغفل عن ربه للدنيا، لذلك قالوا: العمل المهني إذا كان في أصله مشروعاً، ومارسه الإنسان بطريقةٍ مشروعةٍ ؛ لا كذب فيه ولا احتيال، وابتغى به كفاية نفسه وخدمة المسلمين، ولم يشغله عن فريضةٍ ولا عن واجبٍ ولا عن طلب علمٍ انقلب إلى عبادة، أما إذا شغله عن واجبٍ ديني، أو عن فريضةٍ، أو عن طلب علمٍ هذا العمل الدنيوي خسارةٌ محقّقة، ولو درّ على صاحبه آلاف الملايين.

أيها الإخوة دقِقوا في هذه الكلمة: العمل الذي يستغرق كل وقتك عملٌ خاسرٌ حتماً، لأنه ألغى وجودك، ألغى رسالتك، ألغى مهمّتك في الحياة، العمل الذي يستغرق كل الوقت هذا خسارةٌ كبيرة ولو درّ عليك المال بأكبر رقم.

إخواننا الكرام... أحياناً يبحث الناس عن عمل، فيجدون عملاً يشترط صاحب العمل أن الدوام كامل حتى الساعة التاسعة، يلغي له كل الدروس، هناك إخوان صادقون لا يرضون بهذا، لا يقبل عملاً يلغي له طلبه للعلم، لا يقبل عملاً يلغي له هذه الساعات المباركة التي يكرمه الله بها، لذلك الذي يؤثر الله على الدنيا يأتيه عملٌ في المستقبل مريح، ويتيح له أن يطلب العلم، وبدخلٍ أكبر..

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[ورد في الأثر]

قال:

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

كان له دعاء رقيق ترك الدعاء، كان يجلس يقرأ القرآن بحرارة ترك القرآن، كان يصلي صلاة مُتقنة صار يصلي ترقيعا، كان يحضر مجلس علم فترك مجلس العلم، صار شخصيّة لامعة، صار رجل أعمال، صار عنده مشروع..

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)

وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ

1 ـ المؤمن راض عن قضاء الله، والكافر ساخط:

أما إذا أرسل الله عزّ وجل له مشكلة تجده يعوي كالكلاب، وينهار، يصيح صياح الأعمى، هذه صفات الإنسان الغافل المُعرض ؛ لكن المؤمن أحياناً تأتيه مصيبة يرضى بها عن الله، يقبلها بقبولٍ حسن، يقول: يا رب أنا راضٍ عنك، أنا راضٍ عن قضائك وقدرك، أنا راضٍ بما قسمته لي، شتّان بين هذا وذاك.

قال لي طبيب يعمل في مستشفى، جاءه مريض مصاب بمرض عضال آلامه لا تحتمل، فهذا الرجل بعيدٌ عن الدين، فما من نبيٍ إلا وسبّه سبابا لا يحتمل، تجد رائحة كريهة تخرج منه، الغرفة قطعة من جهنّم، إذا قرع الجرس لا يأتيه أحد اشمئزازاً منه، لحكمةٍ أرادها الله جلّ جلاله في الغرفة نفسها جاء مريضٌ آخر مصابٌ بالمرض نفسه، وبالآلام نفسها، ولكن يبدو أنه من أهل الإيمان، الطبيب الذي عالجه حدّثني من فمه قال لي: والله يا أستاذ، كلّما زاه زائر يقول له: اشهد أنني راضٍ عن الله، هذه كلمة مأثورة له، وما سمعنا صياحه، ولا صوته، ولا تأفّفه، مع أنه كان يتحمّل أصعب الآلام، وكلّما جئته رأيت وجهه كالكوكب الدُرّي، أقسم لي إن له رائحةً كرائحة المِسك، إذا قرع الجرس يتدافع الممرّضون لتلبية طلباته، وتوفّاه الله بأحسن حالة، مرض واحد أصاب مؤمنًا، وأصاب غير مؤمن، وهذا النجاح يجعله في أعلى عليين، والدنيا لا قيمة لها.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

(سورة يس)

الإنسان قد يكون مبتلى أحياناً، لكن بطولته ليس في أن لا يصاب بمرض، لكن بطولته إذا أصيب بمرض أن يتقبّله من الله عزّ وجل بالرضى.

ذكرت لكم من قبل أن رجلاً كان يطوف حول الكعبة ويقول: "يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ "، كان رواه الإمام الشافعي فقال له: " وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى الله عنك ؟ " قال: " سبحان الله ! من أنت يرحمك الله ؟ "، قال: " أنا محمد بن إدريس "، قال: " كيف أرضى عنه وأنا أتمنّى رضاه؟ " قال: **" يا هذا إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله "**. علامة إيمانك أن تستقبل قضاء الله وقدره بنفسٍ راضية، ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من الآية 48)

2 ـ الحياة دار ابتلاء:

الحياة دار ابتلاء أيها الإخوة، الله يمتحنك بالمال وبالفقر، بالصحّة والمرض، وبالقوّة والضعف، وبإقبال الدنيا وبإدبارها، دائما أنت ممتحَن، وأغلب الظن أنك ممتحنٌ في الحالتين دائماً..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

أتمتحن المركبة بالطريق النازلة ؟ لا بل بالطرق الصاعدة، الامتحان الصعب هو الذي يثبت جدارة هذه الآلة، هذا الإنسان الغافل الجاهل..

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

على الإكرام يهرب، وقد سمّى النبي صلى الله عليه وسلم الإكرام بالغنى المُطغي، على الإكرام ينسى ربه، ينسى الصلاة، ينسى الصوم، يسافر لبلد غريب فيقول: هنا ليست الصلاة مناسبة، الصلاة فرض، وتجده لا يصوم، أحياناً يرتكب أكبر المعاصي لأتفه الأسباب، لئلا يقال عنه كذا وكذا..

(أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)

3 ـ المؤمن كلّما زاده الله إكراماً زاده حباً لله:

أيها الإخوة والله الذي لا إله إلا هو إن المؤمن كلّما زاده الله إكراماً زاده حباً لله، وزاد تواضعاً له، وزاد طاعةً له، وزاد ائتماراً بأمره، وزاد ذكراً له، وزاد خدمةً للناس، المؤمن كريم الأخلاق، فإذا أكرمه الله يذوب شكراً، النبي الكريم كانت تعظم عنده النعمة مهما دقّت.

ومرّة ثانية أقول لكم أيها الإخوة: سهل جدا أن ينطلق الإنسان إلى الله بالمصيبة، ولكن بطولته تظهر في أن يذكر الله في الرخاء، ليس بك شيء، صحّتك تامّة، بيتك جيد، دخلك جيد، ليست لديك مشكلة في عملك، بطولتك وأنت في هذا الرخاء أن تنطلق إلى الله، تفرُّ إلى الله.

إن الإنسان لا ينتظر من الله تأديبًا، انطلق إليه قبل أن يحملك على أن تنطلق إليه، انطلق إليه طواعيةً، انطلق إليه مبادرةً، انطلق إليه حباً قبل أن يسوق الله للإنسان مصيبةً يجعله ينطلق إليه مقهوراً، وشتّان بين أن تنطلق إليه باختيارك، وبين أن تنطلق إليه مقهوراً.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون جميعاً غير هذا النموذج:

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

المؤمن يزداد طاعةً، والتفاتاً، وإقبالاً، وشكراً، وعملاً صالحاً، وتضحيةً، ومؤاثرةً كلّما زاده الله إكراماً، لذلك:

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم: من الآية 7)

إذا كان الإنسان بحالة طيّبة، في بحبوحة، أموره ميسّرة ليس عنده مشكلة، وأراد أن تستمرّ هذه الحالة من دون أن تهتز فعليه بطاعة الله، لقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: من الآية 11)

إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

لا تغيّر كي لا يغيّر، إذا كان الإنسان متمتّعًا بصحّة، متمتّعًا ببيت، متمتّعًا بأهل، عنده سعادة، هذا التمتع بهذه السعادة لو أنه ثابر على طاعة الله، وعلى عبوديّته لله، وعلى خدمته للخلق، وعلى أعماله الصالحة أغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما به أبداً، بل إنه يزيده من فضله، فالمؤمن دائماً من حال إلى أرقى، من سعادة إلى أرقى، من توفيق إلى أكثر، دائماً في ازدياد، أي أن المؤمن خطه البياني صاعد صعودًا مستمرًا، حتى لو جاءه الموت يبقى خطّه البيانيُّ صاعداً، ما الموت إلا نقطة تحوُّل بسيطة على هذا الخط، خلع ثيابًا، وارتدى ثيابًا، وبقي خطه البياني صاعداً..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ

إنسان يُشاقق الله عزّ وجل، عدوٌ لدينه، عدوٌ لشرعه، عدوٌ لأوليائه، عدوٌ للمؤمنين، هل يعقل هذا ؟

(مَنْ أَضَلُّ)

لا أشد ضلالاً ممن يشاقق الله:

أي من أشد الناس ضلالاً ممن يشاقق الله سبحانه وتعالى ؟! يخاصم دينه، يخاصم أولياءه، يخاصم المؤمنين، يتمنّى لهم المصائب، يفرح بمصائبهم، يتألّم لنجاحهم، هذا إنسان مع المنافقين..

(مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ

ثم يقول الله سبحانه وتعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

المتكلِّم هو الله، والمخاطَب هم المؤمنون، والغائب من ؟ قال تعالى:

(سَنُرِيهِمْ)

1 ـ الإنجازات العلميّة كانت على يد الغَرْبيين لحكمة أرادها الله:

بعض المفسِّرين قالوا: لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل جعل الإنجازات العلميَّة على يد الغَرْبيين، والتي تأتي متوافقةً مع آيات القرآن الكريم بشكلٍ لا يصدَّق. فهذه الآيات سنريها للكفّار..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

2 ـ آيات الله في الكون لا تعد ولا تحصى:

كنت أقول دائماً: إن أبعد مجرَّة اكتُشِفَت بعدها عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة، كنت قبل يومين في مجلس علمي مع دكاترة في الجامعة مختصين في الفلك، فأنبأني أحدهم أن أحدث مجرَّة تبعد عنا الآن خمسة وعشرين ألف مليون سنة ضوئيَّة، والأربع سنوات ضوئيَّة تحتاج إلى مسيرة بمركبة أرضيَّة خمسين مليون عام ـ الأربع سنوات ـ فكيف بخمسة وعشرين ألف مليون..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ)

وكلّما تقدَّم العلم وجد في الجسد شيئاً عجيباً ـ شيء لا يصدَّق ـ مليار خليَّة بالمعدة، ذكرتها اليوم في الخطبة، مليون ميكرون في الكليتين، طول الميكرونات خمسين كيلو متر، والكليتان مائة كيلو متر، يقطعها الدم في اليوم خمس أو ست مرّات، إذاً شيء لا يكاد يصدَّق، مائة وثلاثون مليون عُصيَّة ومخروط في الشبكيَّة، ثلاثمائة ألف شعرة في رأس الإنسان، لكل شعرة بصلة، ووريد، وشريان، وعضلة، وغدَّة، وعصب..

إذا أردت الآفاق فما أعظم الآيات في الآفاق، بعض العلماء قال: الكون فيه تقريباً مليون مليون مجرَّة، وفي كل مجرَّة مليون مليون نجم، والمسافات بين النجوم لا تصدَّق..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

والشمس تتّسع مليون وثلاثمائة ألف أرض، وهناك نجوم تتسع لمليون شمس، هذه في الآفاق، اقرءوا، ادرسوا، فالآيات ناطقةٌ بوجود الله، وبعظمة الله، وكمال الله، وعلم الله، ووحدانية الله..

(وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

3 ـ جسمك آية:

جسمك أبسط شيء ؛ أنت ماشٍ في الطريق أطلقت وراءك سيارةٌ بوقها تحذِّرك، فانتقلت إلى الرصيف الأيمن، هل هناك في حياتك أبسط من هذه الحادثة ؟ فهناك جهاز معقّد جداً في الدماغ يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين، صوت إلى كل أذن، والتفاضل واحد على ألف وستمائة جزء من الثانية، هذا الجهاز يحسب التفاضل، جاء الصوت إلى هذه الأذن قبل هذه الأذن بواحد على ألف وستمائة جزء من الثانية، إذا كان الصوت من اليمين يعطي الدماغ أمرًا للعضلات أن اذهب إلى اليسار..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

أيها الإخوة فكِّروا في أجسامكم، شيء لا يصدّق، القلب مضخّة، تضخ كل يوم ثلاثة أمتار مكعّبة، كيف مستودعات الوقود السائل على ظهور أسطحة البنايات، فتجد من يقول: أخي أنا عندي خزان سعة اثنين طن، أي ألفي لتر، فالجسم يضخ ثمانية أطنان باليوم، يضخ الجسم بالعمر ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

الغدّة النخاميّة ملكة الغُدد، وزنها نصف غرام، تفرز اثنا عشر هرموناً، لو اختل هرمون واحد تصبح حياة الإنسان جحيماً، بعض الهرمونات تقيم توازنًا للسوائل، لو اختلّ هذا الهرمون الإنسان يجب عليه أن يجلس بجانب الصنبور يشرب طوال حياته، ويخرج هذا الماء بولاً، إذا اختل نظام السوائل في الجسم ـ شيء لا يكاد يصدّق ـ على كلٍ هذا عناوين موضوعات.

إذا لم يفكّر الإنسان بجسمه كل يوم ؛ بشعره، بعينيه، بأذنيه، بجهاز الهضم، بالمعدة، بالأمعاء، بالرئتين، بالقلب، بالشرايين، بالأوردة، بالقلب، بدسّامات القلب، كيف يعرف عظمة الله عزّ وجل ؟.

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ

حتى يؤمنوا بكل خليّة، أحياناً الإنسان يعبّر عن إيمانه بالشكل التالي، يقول لك: والله كل خليّة في جسمي تنطق بوجود الله، كل خليّة تنطق بحمد الله، تنطق بعظمة الله، هذا الإيمان، المؤمن لو قُطِّع إرباً إرباً لا يعصي الله، لأنه يرى عظمة الله عزّ وجل..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

في الكون حقيقة واحدة هي الله، كل شيء يقرّبك لها هو حق، وكل شيء يبعدك عنها فهو باطل، الشهوات تبعد، الطاعات تقرّب، لذلك أفضل مكان في الأرض المساجد لأنها تقرّب، أبعد مكان الملاهي والأسواق..

((خير البقاع المساجد، وشر البقاع الأسواق))

[كشف الخفاء عن ابن عمر]

ابحث عن شيء يقرّبك ؛ القرآن يقرّب، الكون يقرّب، الطاعة تقرّب، الصلاة تقرّب، العلم يقرّب، ابحث عن شيءٍ يقرّبك إلى الله عزّ وجل..

(أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ)

أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ

1 ـ كل إنسان يموت:

ساعة الموت لسنا مستوعبين لها، والله أيها الإخوة لو يكون الإنسان على غير طاعة لله، غير مصطلح مع الله، في عليه ذمم كثير، وفي عليه مشكلات ويشعر أن موته اقترب لمرض ألمّ به فجأةً، تشعر أن كل كيانه قد اهتز، شيء لا يصدّق، ويقول: سأموت.

قال لي مرّة طبيب زار امرأة فوجدها في حالة انهيار عصبي، فقالت له: سأموت، فقال لها: وأنا سأموت، كلنا سوف يموت، كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت..

والليل مهما طـــال فلا بد من طلوع الفـــجر

والعمر مهما طـــال فلابد من نزول الـــقبر

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة ص 038 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1- 10..... 1

سورة ص 038 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 11- 18..... 18

سورة ص 038 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 19- 29..... 27

سورة ص 038 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 30- 40..... 40

سورة ص 038 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 41- 66..... 54

سورة ص 038 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 65- 88..... 70

سورة الزمر 039 - الدرس (01-20): تفسير الآيتان 1- 2 86

سورة الزمر 039 - الدرس (02-20): تفسير الآية: 3- 4 102

سورة الزمر 039 - الدرس (03-20): تفسير الآيتان 5- 6 118

سورة الزمر 039 - الدرس (04-20): تفسير الآية 7 136

سورة الزمر 039 - الدرس (05-20): تفسير الآيتان 8- 9 154

سورة الزمر 039 - الدرس (06-20): تفسير الآية 10 173

سورة الزمر 039 - الدرس (07-20): تفسير الآيات: 11-15 189

سورة الزمر 039 - الدرس (08-20): تفسير الآيات: 16-20 206

سورة الزمر 039 - الدرس (09-20): تفسير الآيات: 21-23 222

سورة الزمر 039 - الدرس (10-20): تفسير الآيات: 23-26 238

سورة الزمر 039 - الدرس (11-20): تفسير الآيات: 27-31 256
سورة الزمر 039 - الدرس (12-20): تفسير الآيات: 32-35 271
سورة الزمر 039 - الدرس (13-20): تفسير الآيات: 36-41 286
سورة الزمر 039 - الدرس (14-20): تفسير الآيات: 41-42 303
سورة الزمر 039 - الدرس (15-20): تفسير الآيات: 43-46 317
سورة الزمر 039 - الدرس (16-20): تفسير الآيات: 47-52 334
سورة الزمر 039 - الدرس (17-20): تفسير الآيات: 53-61 349
سورة الزمر 039 - الدرس (18-20): تفسير الآيات: 62-67 370
سورة الزمر 039 - الدرس (19-20): تفسير الآيات: 67-70 386
سورة الزمر 039 - الدرس (20-20): تفسير الآيات: 70-75 405
سورة غافر 040 - الدرس (01-20): تفسير الآيات 1- 3..... 423
سورة غافر 040 - الدرس (02-20): تفسير الآية 4..... 442
سورة غافر 040 - الدرس (03-20): تفسير الآيات 4- 9..... 461
سورة غافر 040 - الدرس (04-20): تفسير الآيات 10- 13..... 479
سورة غافر 040 - الدرس (05-20): تفسير الآيات 14- 16..... 496
سورة غافر 040 - الدرس (06-20): تفسير الآيات 17- 18..... 513
سورة غافر 040 - الدرس (07-20): تفسير الآيات 19- 21..... 531
سورة غافر 040 - الدرس (08-20): تفسير الآيات 23- 27..... 548

سورة غافر 040 - الدرس (09-20): تفسير الآية 28..... 564
سورة غافر 040 - الدرس (10-20): تفسير الآيات 29- 33..... 580
سورة غافر 040 - الدرس (11-20): تفسير الآيات 34- 37..... 597
سورة غافر 040 - الدرس (12-20): تفسير الآيات 38- 42..... 614
سورة غافر 040 - الدرس (13-20): تفسير الآيات 41- 52..... 630
سورة غافر 040 - الدرس (14-20): تفسير الآيات 53- 56..... 649
سورة غافر 040 - الدرس (15-20): تفسير الآيات 57- 59..... 668
سورة غافر 040 - الدرس (16-20): تفسير الآية 60..... 682
سورة غافر 040 - الدرس (17-20): تفسير الآيات 16..... 699
سورة غافر 040 - الدرس (18-20): تفسير الآيات 62- 65..... 716
سورة غافر 040 - الدرس (19-20): تفسير الآيات 65- 77..... 734
سورة غافر 040 - الدرس (20-20): تفسير الآيات 77- 85..... 754
سورة فصلت 041 - الدرس (01-11): تفسير الآيتان 1 - 2..... 771
سورة فصلت 041 - الدرس (02-11): تفسير الآيات 3 - 8..... 786
سورة فصلت 041 - الدرس (03-11): تفسير الآيات 9 - 22..... 803
سورة فصلت 041 - الدرس (04-11): تفسير الآيات 23 - 29..... 822
سورة فصلت 041 - الدرس (05-11): تفسير الآيات 30 - 32..... 836
سورة فصلت 041 - الدرس (06-11): تفسير الآية 33 853

سورة فصلت 041 - الدرس (11-07): تفسير الآيات 34 - 36..... 869

سورة فصلت 041 - الدرس (11-08): تفسير الآيات 37 - 39..... 884

سورة فصلت 041 - الدرس (11-09): تفسير الآيات 40 - 44..... 900

سورة فصلت 041 - الدرس (11-10): تفسير الآيات 45 - 46..... 914

سورة فصلت 041 - الدرس (11-11): تفسير الآيات 47 - 54..... 931

الفهرس..... 950

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة الشورى
حتى
سورة الفتح

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (01-15): تفسير الآيات 1- 7 ، ظاهرة الوحي
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-01-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الشورى.

الأحرف التي تبدأ بها هذه السورة دليل الإعجاز في القرآن الكريم:

مع الآية الأولى:

(حم(1)عسق(2))

(سورة الشورى)

هذه الأحرف التي تبدأ بها هذه السورة، والأحرف الأخرى وقف منها المفسِّرون مواقف متباينة، وقد ذكرت لكم هذه المواقف في دروسٍ سابقة، والملخَّص هو أن هذه الحروف إما أن الله سبحانه وتعالى أعلم بمراده، هذه وجهة نظر بعض المفسرين. أو أن من هذه الحروف نُظِم هذا القرآن الكريم، وهذا دليل الإعجاز. أو أنها أسماءٌ لله عزّ وجل، أوائل أسماء الله عزّ وجل. أو أنها أوائل أسماء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم..

عالَم الشهود وعالَم الغيب:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3))

(سورة الشورى)

كأن هذه السورة (سورة الشورى) تلحُّ على موضوع الوحي، وموضوع الوحي يقودنا إلى مقدِّمةٍ يسيرة، وهي أن في العالَم عالَم الشهود وعالَم الغيب، فعالَم الشهود ما يتصل اتصالاً مباشراً بحواسِّنا، فالشيء قد تراه بعينك، أو قد تسمع صوته بأذنك، أو تشم رائحته بأنفك، أو تلمسه بيدك، فعالَم الحِس هو عالَم الشهود، وسبيل معرفة عالَم الحس هو الحواس، فبالحواس نتعرَّف إلى عالَم الحس، وما سُمِّيَ عالَم الحس إلا لأن الحواس هي سبيل معرفته، لذلك فهناك اليقين الحسي، أي اليقين الذي يعتمد على الحواس في معرفة ما حول الإنسان.

ولكن كل شيءٍ غاب عنك أيها الإنسان هو عالَم الغيب، فقد غاب عن حواسِّك، ولا سبيل إلى معرفته إلا بالخبر الصادق، فنحن الآن أمام عالمين، عالَم الحس وعالَم الغيب، فعالَم الحس نتعرَّف إليه من خلال الحواس، وعالَم الغيب نتعرَّف إليه من خلال الخبر.

وبشكلٍ مبسّطٍ جداً: لو أنك في زيارة صديقٍ لك في بيته، الغرفة التي أنت فيها هذه بالنسبة إليك عالم الحس، لأنك تشاهد ما فيها ؛ من أثاث، ومن ثريّا، ومقاعد، وأدوات، وتزيينات. لكن الغرفة التي إلى جوارها بعيدةٌ عن حواسِّك ولا تعلم عن مضمونها، وعن موجوداتها إلا من خلال إخبار صاحب البيت.

الشيء الذي يعجز عقل الإنسان عن إدراكه الله تعالى أخبره به:

فأنت أمام شيئين: إما أن تتصل بعالم الحس من خلال الحواس، وإما أن تتصل بعالم الغيب من خلال الخبر، فهذا شيء مبسّط جداً. فالشيء إذا ظهرت عينه فسبيل معرفته اليقين الحسي، إلا أن هناك شيئاً بين الحالتين إن شيءٌ غابت عينه وبقيت آثاره، فسبيل معرفته هو الاستنباط العقلي، فلو رأيت وراء الجدار دخاناً، والعقل لا يفهم الشيء إلا بسبب فتقول: لا دخّان بلا نار، فيقينك بأن هناك ناراً خلف الجدار فهذا يقين استدلالي و ليس يقيناً حسياً.

لكن الشيء إذا غابت عينه وغابت آثاره، فلا سبيل إلى معرفته إلا باليقين الإخباري، فعالم الغيب كالمستقبل الذي لا يقع. وكالماضي السحيق، وكالأشياء المُغَيَّبة عنك كعالم الجن، وعالم الملائكة، وذات الله عزّ وجل، فهذه عوالم لا نعرفها بحواسِّنا، والوحي هو الذي أخبرنا بها، وهذا الكلام مفاده أن الإنسان مهما نما عقله، ومهما اتسعت آفاقه، و تعمّقت ثقافته فهو بحاجةٍ إلى وحيٍ إلهي يخبره عن شيءٍ غاب عنه وعن قدرة عقله في فهمه.

فالقاعدة: إن الشيء الذي يعجز عقلك عن إدراكه فالله سبحانه وتعالى أخبرك به.

ظاهرة الوحي تعدُّ جزءاً من عقيدة المسلم:

إذاً ظاهرة الوحي هي ظاهرة تعدُّ جزءاً من عقيدة المسلم، أما الأشياء التي ضمن نطاق العقل، فعن طريق الاستدلال، والحواسُّ وعن طريق المعاينة.

على كلٍ فالعقل مبني على الحواس، إذ يأخذ الآثار ويستنتج النتائج، فهو يأخذ الآثار أولاً التي عرفتها الحواس، ويبني عليها استنتاجات عن طريق محاكمة العقل، فعالم الحس هو عالم الشهود، وعالم الغيب هو عالم الوحي.

لماذا خلقنا الله عزّ وجل ؟ هذا نعرفه من خلال الوحي. وأين كنا قبل أن نأتي إلى الدنيا ؟ وماذا بعد الموت ؟ وبماذا كلّفنا الله ؟ كل ذلك نعرفه من خلال الوحي. إذاً حقيقة الكون ومبدعه وحقيقة الحياة وفلسفتُها و رسالة الإنسان ومهمّته هذا كله نتعرّف إليه من خلال الوحي، إذاً العقل وحده لا يكفي،

وربّما أغناك العقل في معرفة الله عزّ وجل، لأن الكون كلّه تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، والكون يجسّد أسماء الله الحسنى.

فمن خلال عقلك ذي المبادئ المتوافقة مع نظام الكون(مبدأ السببيّة، والغائيّة، وعدم التناقض) فهذا العقل المتوافق مع مبادئ الكون يتعرّف إلى أنه لابدّ لهذا الكون من خالق. فمن هو الخالق ؟ يقول لك الوحي: الله الذي خلق السماوات والأرض.

الوحي الذي يأتي الأنبياء من لوازم كمال الله عز وجل:

اقرأ القرآن من خلال عقلك فتقول: هذا ليس من كلام البشر، لأن فيه إعجازاً ؛ إعجازاً علمياً، وإعجازاً لغوياً، وإعجازاً تشريعياً، و إخبارياً، تربوياً، وتشعر بالدليل القاطع تلو الدليل أن هذا الكلام ليس كلام البشر، هذا بالعقل تستنبطه، وتؤمن أيضاً أن الذي جاء بهذا الكلام هو رسول من عند الله عزّ وجل معه معجزة، وانتهى والآن دور العقل، فقد أوصلك إلى الله، وهو لا يحيط بالله لكن يصل إليه، وشتّان بين الوصول والإحاطة، أوصلك إلى الله، وأوصلك إلى أن هذا الكلام كلامه، وإلى أن الذي جاء بهذا الكلام رسوله ونبيُّه.

والآن جميع الموضوعات التي يعجز عقلك عن إدراكها أخبرك الوحي عنها ؛ وعن ذات الله، وعن أسمائه الحسنى، وعن سر وجودك على وجه الأرض، ولماذا خلقك ؟ وماذا بعد الموت ؟ وقبله ؟ وما سر هذه الحياة ؟ وما ينبغي لك أن تفعل ؟ فهناك أمر ونهي، وتوجيه، وإنذار، ووعد، ووعيد وهذا كلّه بالوحي.

والوحي الذي يأتي الأنبياء ولاسيما النبي عليه الصلاة والسلام، إنه من لوازم كمال الله عزّ وجل، ولذلك جاءت الآية:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3))

(سورة الشورى)

رحمة الله عز وجل تقتضي دعوة عباده إلى الطاعة ليسعدهم في الدنيا و الآخرة:

الوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ليس شيئاً جديداً، ولا مستحدثاً، ولا شيئاً لم يسبق له مثيل، فهذه سنة الله في خلقه، فأي أبٍ (من باب التقريب والتمثيل) لابدّ أن ينصح ابنه إذا انحرف عن سواء السبيل، فأن ينصح الأب ابنه، وأن يبيّن له طريق الفلاح والنجاح في الدنيا فهذا شيءٌ من لوازم الآباء الصالحين، فإن فعلها أبٌ فليس معنى هذا أنه عمل شيئاً لم يفعله أحد. فشيءٌ طبيعيٌ جداً أن الله سبحانه

وتعالى خالق الكون، ورب العالمين، رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لا يدع عباده من دون أمرٍ، ونهيٍ، وتوجيهٍ، وإرشادٍ، ونصحٍ، ووعدٍ، ووعيدٍ، وإنذارٍ، وتبيانٍ.. الخ.

فكلمة

(كذلك)

أي يوحي الله إليك وحياً كهذا الوحي، كما أوحى الله إلى الأنبياء السابقين كذلك أوحى الله إليك، وإذا أوحى الله إليك فهو وحيٌ كما أوحى الله إلى الأنبياء السابقين، إذاً هذه سنة الله في خلقه، ورحمة الله سبحانه وتعالى بعباده تقتضي أن يأمرهم، وأن ينهاهم، وأن يبيّن لهم، وأن يدعوهم إلى معرفته، وإلى طاعته حتى يسعدهم في الدنيا والآخرة.

ما من نبيٍ كُلِفَ برسالةٍ إلا أوحى الله إليه كتاباً يكون منهجاً لأتباعه:

لكن..

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ (3))

(سورة الشورى)

الله علمٌ على الذات وصاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية: 180)

فأسماء الله تعالى كلها حسنى، ولذلك فأية قصّةٍ، أو أي تعبيرٍ ينتقص من كمال الله عزّ وجل ؛ ومن عدالته، ورحمته، ولطفه، وقدرته، وقوّته، وغناه، وعلمه فهذا الكلام مرفوضٌ لأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلّها حسنى، وصفاته كلّها فضلى، إذاً:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ (3))

(سورة الشورى)

فمضامين الكتب السماويّة، أي ما من نبيٍ كُلِفَ برسالةٍ إلا أوحى الله إليه كتاباً يكون منهجاً لأتباعه الذين يدعوهم إلى الله، إذاً كما أوحى الله إلى الأنبياء السابقين أوحى إليك، فهذا الوحي ليس جديداً، وليس غريباً، وليس مستحدثاً..

من احتاج إلى العزيز نال منه العزة و الكرامة:

(اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3))

(سورة الشورى)

قال علماء التفسير: العزيز في مُلكه، والحكيم في أفعاله. وكلمة عزيز شُرحت سابقاً، أي أن الله سبحانه وتعالى واحدٌ أحد، فردٌ صمد، عزيز أي واحد، ويستحيل أن تحيط به، ويحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، عزيز، لذلك أنت محتاجٌ إليه، فإذا احتجت إلى العزيز نلت منه العزّة والكرامة..

اجعل لربّك كل عزّك يستقرّ ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزّك ميتُ

* * *

الحكيم، كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل ما أراده الله وقع، وإرادته متعلِقةٌ بالحكمة المُطلقة. فالإنسان أحياناً لا يكون حكيماً، لماذا ؟ لأنه قد تنقصه المعلومات، فيرتكب حماقةً بجهله، ولأنه قد يُضغَطُ عليه فيرتكبها، وقد يغريه شيءٌ فيرتكبها أيضاً، لكن الله سبحانه وتعالى منزّهٌ عن كل هذه الصفات التي تُعَدُّ في الإنسان صفات ضعفٍ، فحكمة الله مطلقة، ومعنى ذلك أي أن الذي وقع لابدّ من أن يقع، ولو لم يقع لكان هذا نقصاً في حكمة الله، ولكان الله مَلوماً، فليس في الإمكان أبدع مما كان.

وهذه عقيدة إذا آمن بها الإنسان ارتاحت نفسه، وارتاحت أعصابه، وعلم أن الله سبحانه وتعالى حكيمٌ في أفعاله، وأن شيئاً في الكون لا يقع إلا بإذن الله، وأن كل شيءٍ يقع في الكون هو مزيجٌ من عدالته مع لطفه، وقدرته، وغناه، ورحمته وكل أسمائه الحسنى داخلةٌ في أفعاله.

دخول أسماء الله عز وجل في أفعاله:

بعض المفسِّرين قال: حينما يتحدّث ربنا عن أفعاله يستخدم ضمير الجمع فيقول:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى)

(سورة يس: من آية " 12 ")

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9))

(سورة الحجر)

أما إذا تحدّث عن ذاته يقول:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

فضمير الجمع الذي يستخدم في القرآن الكريم في معرض ذِكْر أفعال الله عزّ وجل، يعني أن كل أسمائه الحسنى داخلةٌ في أفعاله.

معرفة أسماء الله الحسنى شيءٌ أساسيٌ في عقيدة المؤمن:

إذاً:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3))

(سورة الشورى)

فالحقيقة أنك حينما تؤمن بحكمة الله تستقبل قضاء الله وقدره بالرضا، وحينما تؤمن بحكمة الله ترضى عنه، وعن حظوظك من الدنيا، وترضى عن كل مصيبةٍ ساقها الله إليك، ولا تشعر إلا أن الذي بك هو أبدع ما يكون، وتقول مع بعض الأئمة العظام: ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني.

والإنسان أيها الأخوة إذا آمن بحكمة الله صان صحّته من العطب، وإذا توهّم أن هذا الذي أتاه ليته لم يأتِ، وأن هذا لو لم يأتِ لكان كذا وكذا، فهذا التفكير ليس سليماً، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أني فَعَلْتُ كَذَا كانَ كَذَا وَكَذَا، وَ لكِنْ قُلْ قَدّرَ اللّهُ وَما شاء فَعَلَ، فإنّ "لَوْ" تَفْتَحُ عَمَلَ الشّيْطَان))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

فمعرفة أسماء الله الحسنى شيءٌ أساسيٌ جداً في عقيدة المؤمن، وإذا قلت: الله خالق الكون. فهذا لا يكفي و أن تؤمن بوجوده، وبأنه هو الخالق، وهو الرب فهذا لا يكفي، والدليل أن إبليس قال:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

(سورة ص)

الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله فهذا إيمان لا يقدم و لا يؤخر:

الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله ليس كافياً، بل لابدّ من إيمانٍ يحدث فيك تأثيراً.

فدائماً أيها الأخوة هذه القاعدة أساسيّة: ومعتقدك إذا بقي في معزلٍ عن سلوكك فهذا المعتقد غير كافٍ.

والمعتقد الصحيح هو الذي يفعل فعله في سلوكك، فأنت في اللحظة التي تتريّث تقول: هذا لا أفعله لأنه لا يرضي الله، وهذا أفعله لأنه يرضي الله، فالآن إيمانك فعل فعله فيك، أما إذا كان إيمانك لا يقوى على توجيه سلوكك فهذا الإيمان لا يكفي، ولذلك ابحث عن إيمانٍ يكفي، ويكون له أثرٌ واضحٌ في مواقفك، أما إن لم تكن المواقف متأثِرة بالإيمان فهذه المعتقدات أو هذا الإيمان لا يقدِّم ولا يؤخِّر، والعبرة أن يكون عملك صالحاً، ولا يكون عملك صالحاً إلا إذا عرفت الله المعرفة الكافية، لا أقول: المعرفة المطلقة.لأن المعرفة المطلقة ليست في مقدور أحد، إذ لا يعرف الله إلا الله، لكن المعرفة الكافية التي تحملك على طاعة الله، فمادامت معارفك، ومعتقداتك، ويقينيّاتك تحملك على طاعة الله، كترك الحرام وأخذ الحلال، فالآن مبدئياً هذه العقيدة جيّدة وكافية لاستقامتك على أمر الله.

الحسد والضيق واليأس مشاعر ناتجة عن ضعف الإيمان:

الإنسان إذا ضعفت معرفته بالله ضاقت نفسه، وتبرّم من حياته، وألجأه ضعفه في إيمانه إلى متاعب كثيرة جداً، فيقع في الحسد، والضيق، واليأس، والتشاؤم، والضجر، وفي الشعور بالقهر، والشعور بالظلم، فهذه كلها مشاعر ناتجة عن ضعف الإيمان، أما إذا آمنت بالله حقّ الإيمان ورأيته هو المتصرّف، وهو الحكيم، والقدير، والفعّال، والغني، و السميع، والمجيب، والعليم، والرقيب، والقريب، وهو الذي إذا ناديته قال: لبّيك يا عبدي. وإذا تعاملت معه بهذه الطريقة، طريقة المعرفة، والسؤال، والدعاء، والجواب حُلّت كل مشكلاتك.

ملكية الله عزّ وجل للسماوات والأرض:

أيها الأخوة... أنت في مُلك الله عزّ وجل وأنت مِلْكُ الله، يقول الله عزّ وجل:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(4))

(سورة الشورى)

(له)

هذه اللام كما قال عنها علماء اللغة: لام المُلكيّة. أي أن هذا الكون كلّه بسماواته وأرضه له إيجاداً وتصرُّفاً ومصيراً، فهو الذي أوجده، وهو الذي يتصرّف به، وإليه مصيره. فإذا قلنا: له. هكذا، ملكية الله عزّ وجل للسماوات والأرض، ولمن في السماوات والأرض ملكيّةٌ تامّة كاملة، أوجده، ويتصرّف به وإليه مصيره.

فأين المفر ؟ لو أنك عصيت الله عزّ وجل فأنت في قبضته، ودائماً في قبضته، وخللٌ بسيطٌ جداً جداً في جسم الإنسان يجعل حياته جحيماً، والمال عندئذٍ لا يقدّم ولا يؤخّر، ولا ينفع ولا يغني، فأنت إذا عرفت أنك في ملكه، فهل يعقل أن تكون في ملكه وأن تعصيه ؟! هل يعقل أن تزور شخصاً في بيته وأنت تحت إشرافه وسيطرته، وأن تستفزه ؟! فمادمت في ملكه لابدّ من أن تطيعه، مادمت في ملكه فهو رقيبٌ عليك، وسيحاسبك، فهو يعلم سرّك ونجواك، سرّك وعلانيّتك، كلمة:

(لَهُ)

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (4))

(سورة الشورى)

إنه هو الذي أوجدها، وهو الذي يتصرّف بها، وإليه مصيرنا جميعاً بدءاً من الفيروسات وانتهاءً بالمجرّات.

فالمجرّة التي تبعد عنّا خمسة وعشرين ألف مليون سنة ضوئيّة له إيجاداً وتصرُّفاً ومصيراً، والفيروسات التي لا تُرى إلا بالمجاهر الإلكترونيّة التي تكبّر الشيء ثلاثمئة، أربعمئة ألف مرّة هذه له أيضاً، وأدق من الفيروس الذرّة، وبالتعبير الشائع من الذرّة إلى المجرّة له، وأنت من هذه المخلوقات.

العاقل من يطيع الله عز وجل و يشكر نعمه:

القصد أيها الأخ الكريم أن تشعر أنك في ملكه، وأنك في قبضته، فهو الذي خلقك، وهو قادرٌ في كل لحظةٍ على أن يتصرّف بك، إسعاداً أو إشقاءً، إعطاءً أو حرماناً، إكراماً أو إهانةً، إما أن يرحمك أو أن يعذّبك، إما أن ييسّر لك الأمور أو أن يعسّرها أمامك، وإما أن يعطيك أو أن يمنعك، وإما أن يسعدك أو أن يشقيك، أنت في قبضته وفي ملكه.

فالشيء الطبيعي المنطقي المعقول أن تطيعه، تعصيه وأنت في ملكه ؟! أم تعصيه وأنت في قبضته ؟! أم تعصيه وإليه مصيرك ؟! وكيف تعصيه وقد خلقك ؟ ويعلم سرّك وجهرك ؟ ولا يعزب عنه شيءٌ من أمرك ؟!

ورد في بعض الأقوال عن سيدنا بلال فيما أذكر:**" لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت ".** فالإنسان حينما يعصي الله عزّ وجل يجترئ على خالق السماوات والأرض، كأنه يستهين بمراقبة الله له، كأنه يستهين بوعيد الله له، ويستهين بهذا الشرع العظيم الذي أُنزل من أجله، فلذلك كلمة له في قوله تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (4))

(سورة الشورى)

أي أنت في ملكه. وكل أعضائك في ملكه ؛ عينك في ملكه. وهناك رجل نال شهادة عُليا من بلد أجنبي، وعُيّن في منصب رفيع جداً، ولحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل فَقَدَ بصره، أجرى عمليّة أو عمليتين، انتهت العمليتان بفقد بصره، ولقد جاءه البريد إلى البيت خلال شهر مع موظّف يقول له: يا سيدي هذه المعاملة كذا وكذا، ما توجيهك ؟ يقول له: موافق أو غير موافق، ثم سُرّحَ من منصبه، يقول لأحد أصدقائه: والله يا فلان أتمنّى أن أجلس على الرصيف أتكفّف الناس، وليس على كتفي إلا هذا الرداء، وأن يُردّ إليّ بصري.

الإنسان كلّما ارتقى يتعرّف إلى نعم الله بوجودها لا بفقدها:

عينك بملكه، والأذن بملكه، واللسان بملكه، والعقل كذلك ولماذا وزّع الله هؤلاء المختلين في أكثر أماكن البلد ؟ بكل منطقة يوجد واحد منهم مختلاً عقلياً، ما فائدة ذلك ؟ من أجل أن تعرف نعمة العقل، كيف أن عقلك برأسك متوازن، تتكلّم الكلمة المناسبة، تتحرّك الحركة المناسبة، تقف الموقف الملائم، هذا دليل أنه يوجد عقل برأس الإنسان، لو لم يكن هناك عقل برأسه لأصبح أضحوكةً بين الناس، إذاً يا ربي عرّفنا نعمك بكثرتها لا بزوالها. الإنسان كلّما ارتقى يتعرّف إلى نعم الله بوجودها لا بفقدها.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أفرغ مثانته يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأمسك علي ما ينفعني))

(الجامع الصغير: عن " طاووس مرسلا ")

فعمل الكليتين عمل عظيم، تعملان بصمت، وهدوء من دون جلسات ثماني ساعات، من دون اصطفاف بالدور في المستشفيات، وبلا دفع مبالغ طائلة، ولا آلام لا تُحتمل، كليتان تعملان بصمت، إنهما صغيرتان، هادئتان، وكل كلية فيها طاقة تصفية عشرة أضعاف حاجتك، فالكلية نعمة كبيرة جداً.

والكبد له خمسمئة وظيفة، يعمل بانتظام وكذلك المعدة، والأمعاء، والقلب، والرئتين، والبنكرياس.

فاليوم ذكرت في الخطبة أن وزن البنكرياس خمسة وتسعون غراماً، يقوم بوظيفتين خطيرتين، الأولى إفراز مواد هاضمة مؤلّفة من أنزيمات معقّدة جداً وخطيرة جداً، والوظيفة الثانية فيه جزر، فيه من اثنين إلى ثلاثة ملايين جزيرة، ومقياس كل جزيرة مئتا ميكرون، كل الجزر وزنها واحد بالمئة من وزن البنكرياس أي وزنها غرام، فثلاثة الملايين جزيرة وزنها غرام واحد، ثلاث خلايا: خلايا إلفا، وبتّا، وخلايا من نوع ثالث، أول خليّة تفرز مادّة مضادّة للأنسولين، إذا هبط مستوى السكر في الدم تحث الكبد على طرح كميات من السكر زائدة، والخليّة الثانية تفرز أنسولين، هذا إذا نقص في الإنسان يصاب بمرض السكر، والثالثة لم تعرف وظيفتها إلى الآن، ولو اختلّت هذه الخلايا لأصبحت حياة الإنسان جحيماً.

فأنت في ملكه ؛ فالبنكرياس، الكظر، الغدّة النخاميّة التي وزنها نصف غرام تفرز اثني عشر هرموناً، وكل هرمون تتوقّف حياتك الفيزيولوجيّة عليه.

العاقل من استخدم نِعم الله عز وجل في طاعته:

لا أريد أن أفصِّل أكثر من ذلك، ولكنني أريد أن يتحسس أحدكم ما معنى أنه في ملك الله ؟ إذا كانت عيناه سليمتين، أذناه سليمتين، ولسانه يتحرّك بانتظام، وبلعومه يعمل بشكل طبيعي، ومستقيمه يعمل

بشكل طبيعي، وأمعاؤه، و معدته، والبنكرياس، والنخاميَّة، والدرقيَّة هذه كلها تعمل بانتظام، هذه نعمة كبيرة جداً، أنت في ملكه، فإذا شكرت الله على سلامتك ليزيدنَّك صحَّةً إلى صحَّة، وقوَّةً إلى قوَّة، وتوفيقاً إلى توفيق، أما إذا كفرت هذه النعم وعصيت الله بها، فأصعب شيء أن تعصي الله بنعمٍ أنعم الله بها عليك، وأكمل شيء أن تستخدم النعم في طاعة الله، فعندئذٍ رضي الله عنك.

تسبيح السماوات و الأرض بالله عز وجل:

الآن الآية:

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ (5))

(سورة الشورى)

التفطُّر التشقُّق، فهذه السماوات هي جوامد، لكن ربنا عزَّ وجل قال:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

ومعنى هذا أن هذه الجمادات، والأقمار، والمجرَّات، والكواكب السيَّارة، والكواكب والنجوم، والكازارات، والمذنَّبات، وهذه السماوات الجمادات، وهذه الأرض وما فيها من جبال، ووديان، وصحارى، وأغوار، وشواطئ، وبحار، وبحيرات، وأسماك، وأطيار، وحيوانات، هذه السماوات والأرض تسبّح الله سبحانه وتعالى أولاً، بالدليل القطعي..

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

عرض الأمانة على السماوات و الأرض:

وقال الله عزَّ وجل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من آية" 72 ")

ومعنى ذلك أن هذه السماوات والأرض عُرضت عليها أن تحمل الأمانة فأبت وأشفقت من حملها، وهذه السماوات والأرض إن رأت غفلة الإنسان، وانقطاعه عن ربّه، وشروده عن شرعه، وشقاءه في البُعد عن الله، بل إن رأت معصيته، وكفره، وجحوده، وفجوره، وجريمته، فهذه السماوات والأرض تكاد تتفطَّر من هول جريمة الإنسان، من شذوذه، ومن كفره، من انحرافه. وهذا المعنى مأخوذ من آية أخرى في سورة مريم:

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ)

(سورة مريم: من آية " 90 ")

بآخر مريم تأتي آيةٌ تفسِّر معنى التفطُّر هنا، حينما يدعو الإنسان مع الله إلهاً آخر، أو حينما يقول: إن لله ولداً، إذا قال هذا الكلام..

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ (5))

(سورة الشورى)

للمؤمنين هؤلاء الذين آمنوا بالله عزّ وجل، وكانت لهم أعمالٌ قبل إيمانهم، الملائكة يستغفرون للمؤمنين..

توعد الله عز وجل الإنسان العاصي بالعذاب الشديد:

(لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(5))

(سورة الشورى)

والشيء الأساسي أنه من أسماء ربنا عزّ وجل أنه الغفور، فمهما كنت تحمل من خطايا فالتوبة مقبولة..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: من آية " 53 ")

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ(50))

(سورة الحجر)

لكن عندما قال الله عزّ وجل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53))

(سورة الزمر: من آية " 53 ")

قال..

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(54))

(سورة الزمر)

قد يأتي العذاب إن لم تتب إلى الله عزّ وجل.

باب التوبة مفتوح مادام في الحياة فُسحة:

إذاً أيها الأخوة ما دمنا أحياء، مادام القلب ينبض، مادام في الحياة فُسحة، مادام الإنسان يتنفّس باب التوبة مفتوح، وباب المغفرة مفتوح، وباب العطاء مفتوح، إذاً:

(وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(5)وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(6))

(سورة الشورى)

فحينما يتخذ الإنسان ولياً من دون الله، ويتحرّك بتوجيه من لا يعرف الله، وينفّذ نصيحة إنسانٍ جاهل، ويُرضي مخلوقاً ويعصي خالقه، ويطيع ضعيفاً ويعصي القوي، ويطيع الفاني ويعصي الأبدي، قال:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ (6))

(سورة الشورى)

أي يحفظ لهم أعمالهم كلّها، يسجّلها عليهم، وكلّها تحت مراقبته، وهي محفوظةٌ عنده..

كل إنسان مخير لا مسير:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(6))

(سورة الشورى)

فيا محمّد، لست موكّلاً عنهم، ولن تحاسب عنهم، لأن كل إنسانٍ أُعطي الاختيار، فالإنسان مخيَّر فإذا فعل شيئاً سيئاً فإنه محاسبٌ عليه..

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(6))

(سورة الشورى)

هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

من الآيات السابقة نجد أن:

1 - الوحي ظاهرة مستمرة:

من هذه الآيات نجد أن العالم مشهود وغيبي، عالم الشهود تتعرّف إليه من خلال الحواس، فإذا غابت عين الشيء وبقيت آثاره فمن خلال العقل، أما عالم الغيب لا تعرفه إلا بالوحي، أو بالخبر الصادق، والله سبحانه وتعالى لابدّ من أن يوحي إلى أنبيائه ورسله ليرشدوا الخلق إلى الحق، وإلى سرّ وجودهم، وطريق سعادتهم. إذاً الوحي ظاهرة مستمرّة، والوحي ليس جديداً ولا مستحدثاً إنه قديم، مادام الله سبحانه وتعالى قد خلق الخلق ليهديهم إليه، إذاً لابدّ من أن يوحي إلى أنبيائه.

2 ـ ملكيّة الله سبحانه وتعالى ملكيّة تامّة:

والنقطة الثانية موضوع المُلْكِيَّة، أنت في ملكه، وملكيَّة الله سبحانه وتعالى ملكيَّةٌ تامَّة، أي أنك ملكه خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً.

مهمة الأنبياء التبليغ و الإنذار و الإنسان مخير بعد ذلك:

حينما يغفل الإنسان عن ربّه، ويكفر به، ويجحد نعمته وقد سُخِّر له الكون كله من أجله، عندئذٍ السماوات والأرض يتفطّرن من فوقهن.

وأما الذين أشركوا بالله عزّ وجل، وتحرّكوا وفق مشيئة غير الله، عصوا ربهم وأطاعوا مخلوقاً ضعيفاً طارئاً في حياتهم، قال هؤلاء..

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(6))

(سورة الشورى)

فهم مخيَّرون..

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7)

(سورة الرعد)

(يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة المائدة: من آية " 67 ")

فعليك أن تبلِّغهم فقط، وعليك أن تنذرهم فقط، وهم مخيَّرون إن أحسنوا فلأنفسهم، وإن أساؤوا فعليها.

الكون يتفطّر عجباً وإنكاراً للإنسان الغافل الشارد عن ربّه

أيها الأخوة... الآية التي وردت في سورة مريم عن تفطُّر السماوات والأرض، قال تعالى:

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا(90)أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا(91)وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا(92)إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا(93))

(سورة مريم)

فهذه الآية تفسِّر هذه الآية التي نحن بصددها وهي:

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ (5))

(سورة الشورى)

الإنسان إذا انحرف في عقيدته، أو أشرك بالله، أو كفر به، أو انحرف في سلوكه والكون كله مسخَّرٌ له، فعندئذٍ الكون كله يكاد يتفطّر عجباً وإنكاراً لهذا الإنسان الغافل الشارد عن ربّه.

نزول الوحي باللغة العربية:

ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا (7))

(سورة الشورى)

فالوحي الذي جاء النبي عليه الصلاة والسلام جاء بلسانٍ عربيٍ مبين..

(لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا (7))

(سورة الشورى)

أم القرى هي مكّة المكرّمة، ومن حولها هي بقيّة البلاد، ورسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم رسالةٌ للبشريّة جمعاء، وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين.

وبالمناسبة أحد كبار الجغرافيين أثبت أن مكّة المكرّمة، لو رسمنا القارات الخمس على مسطّح، وأخذنا أقطار هذه القارات، أي الأطراف الأربعة، وصلنا أول قطر وثاني قطر، لتقاطعت أطراف القارات الخمس هندسياً بدقّةٍ بالغة في مكّة المكرّمة، فمكّة المكرّمة هي الوسط الهندسي للقارات الخمس، فقوله تعالى:

(لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(7))

(سورة الشورى)

موضوعات القرآن الكريم واحدة أما أساليبها و لغاتها فمختلفة:

القرآن الكريم له موضوعات كبرى، فما هي ؟ إنها الإيمان بالله ؛ الإيمان به خالقاً ومربياً ومسيّراً، والإيمان به واحداً، وكاملاً، إذًا الوجود والكمال والوحدانيّة. الإيمان بنبوّة الأنبياء موضوع ثان كبير، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالكتب المنزّلة على رسله. الآن التكاليف ؛ الأمر والنهي، والوعد والوعيد، ومشاهد الجنّة ومشاهد النار، هذه موضوعات القرآن الكبرى.

وفي القرآن الكريم آيات كونيّة، وآيات تكليفيّة، وآيات تكوينيّة، وإيمان بالله، وتوحيد، وبيان لأسمائه الحسنى، وبيان لوحدانيّته، وبيان لوجوده خالقاً ومربياً ومسيّراً، وبيان لأنبيائه ولكتبهم، وبيان لليوم الآخر، وتكاليف أمر ونهي، ووعد ووعيد، فهذه موضوعات القرآن الكبرى.

والعلماء يرجّحون أن هذه الموضوعات الكبرى لكل الكتب السماويّة، استنباطاً من كلمة

(كذلك يوحى)

فالموضوعات واحدة تقريباً، أما الأساليب مختلفة، واللغات مختلفة بحسب الشعوب التي أُنزلت إليها هذه الكتب.

العاقل من يهيئ لله عز وجل جواباً عن كل عمل يقوم به قبل يوم القيامة:

إذاً:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(7))

(سورة الشورى)

الحقيقة أن الإنسان إذا آمن بالله وحده، ولم يؤمن باليوم الآخر لا يستقيم على أمره، أما إذا آمن باليوم الآخر فمعنى ذلك أن كل حركةٍ وسكنةٍ سوف يُسأل عنها يوم القيامة، إذاً عليه أن يهيّئ الجواب لله عزّ وجل.

نهاية الإنسان إما إلى الجنة أو إلى النار:

إذاً:

(لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ (7))

(سورة الشورى)

ففي هذا اليوم ليس هناك حلٌ ثالث، إما في جنّةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفذ عذابها..

(فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(7))

(سورة الشورى)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (02-15): تفسير الآيات 8- 10 ، رحمة الله ثمنها طاعته و تنفيذ أوامره

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-01-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من سورة الشورى.

الله عز وجل لو شاء لجعل الناس كلّهم في طاعته:

مع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8))

(سورة الشورى)

هذه الآية أيها الأخوة في القرآن الكريم وآياتٌ كثيرة مشابهةٌ لها.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى)

(سورة الأنعام: من آية " 35 ")

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا (99))

(سورة يونس)

آياتٌ كثيرة تتمحور حول هذا المحور، أن الله عزّ وجل لو شاء لجعل الناس أمةً واحدة، أو لجعل الناس كلهم في طاعة الله، أو لجعلهم غير مختلفين.

الإنسان حمل الأمانة وأمانته نفسه التي بين جنبيه:

الحقيقة هذه الآية يفهمها بعض الناس فهماً ما أراده الله عزّ وجل، ليس المعنى أن الله عزّ وجل شاء أن يضلنا، أو شاء ألا يجعلنا أمةً واحدة، المعنى أن الله سبحانه وتعالى شاء لنا أن نكون مخلوقاتٍ من نوعٍ خاص، لما قال الله عزّ وجل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا(72))

(سورة الأحزاب)

فالإنسان حمل الأمانة، فلما حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض تسخير تعريفٍ وتكريم، ومنحه حرية الاختيار، وفطره فطرةً عالية، وأعطاه عقلاً، وفوق كل هذا أنزل على أنبيائه

شرعاً ليكون ميزاناً دقيقا على ميزاني العقل والفطرة، فهوية الإنسان أنه مخيَّر، وجنسه مخلوقٌ مكلف، ومع التكليف تخيير، الإنسان حمل الأمانة، وأمانته نفسه التي بين جنبيه..

(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا {9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا {10})

(سورة الشمس)

كل إنسان مُنح حرية الاختيار:

شاءت مشيئة الله أن نكون أصحاب مشيئةٍ حرة، وهذا تؤكِّده آياتٌ كثيرة في مقدمتها:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من آية " 17 ")

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

فآيات كثيرة جداً تؤكِّد أن الإنسان منح حرية الاختيار، وما دام قد منح حرية الاختيار فلا بد من أن يختلف زيد عن عُبيد، وفلان عن عِلاّن، فهذا اختار الهدى وهذا اختار الضلال، أي هذا اختار الإحسان وذاك اختار الإساءة، ومثله هذا اختار الإخلاص وذاك اختار الخيانة، وكذلك هذا اختار ما يمليه عليه عقله وهذا اختار أن تسيّره غريزته.

المخلوقات غير مكلفة يُسيّرها رب العالمين:

ولذلك لو أن الله عزّ وجل لم يشأ أن تكونوا مخيرين، أي لو أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يحمِّلكم الأمانة، لو أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن تكونوا مكلّفين، أو لو أن الله أجبركم وألغى اختياركم، وألغى تكليفكم، وألغى حمل الأمانة لجعلكم أمةً واحدة كبقية المخلوقات، انظر إلى مخلوقات الله عزّ وجل ليس فيها اختلاف، ليس فيها مشكلات، بل انسجام، لأن المخلوقات غير مكلفة، فما دامت غير مكلفة إذاً هي مسيَّرة، والذي يسيرها هو رب العالمين.

إذاً لا تجد اختلافاً إلا في عالم المكلّفين، لا تجد إحساناً أو إساءةً، استقامةً أو انحرافاً، صلاحاً أو طلاحاً، أو خيراً أو شراً، إخلاصاً أو خيانةً، إلا في عالم المكلفين، أما عالم المسيَّرين كبقية المخلوقات لا يختلفون أبداً، بل إن المخلوقات تتحرك وفق خطةٍ بالغة الدقة محكمةٍ لا خلل فيها إطلاقاً.

الاختلاف في عالم المكلفين لا عالم المسيرين:

هذا الذي يقول: لو أن الله عزّ وجل جعلنا أمةً واحدة. أي هل من الممكن أن يكون هناك امتحان حقيقي نزيه، وأسئلة دقيقة جداً، وأساتذة أقوياء مهرة متفوقون، والطلاب تفاوتوا في اجتهادهم، وفي حضورهم، وفي دوامهم، هل يعقل أن تأتي العلامات كلها متساوية ؟ مستحيل، فالعلامات متفوقة، ووسط، وضعيفة، وهناك رسوب، ونجاح، وممتاز، وجيد جداً، وجيد، ومقبول، وضعيف، وراسب، فهذا شأن الاختيار، لكن لو أن إدارة الجامعة ألغت الامتحان إلغاءً كلياً وأعطت علامات موحدة بلا امتحان، هذا الامتحان ليس له قيمة، هذه الشهادة لا قيمة لها إطلاقاً، لا قيمة لها لا عند رئاسة الجامعة، ولا عند الطلاب، أو عند أولياء الطلاب، أي إذا ألغي الامتحان فالنجاح ليس له قيمة، والشهادات لا معنى لها، فهذا مما نفهمه أحياناً من قوله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمّةً وَاحِدَةً (8))

(سورة الشورى)

إذا ألغي الاختيار في حياة الإنسان فالإنسان إذا عبد الله يعبده طوعاً:

أن يكون الناس نسخةً واحدة، شخصيةً واحدة، سلوكاً واحداً هذا ممكن، ولكن إذا ألغي اختيارهم، وتكليفهم، وألغيت الأمانة، أي ألغيت هذه الميزة الكبيرة التي أعطاها الله الإنسان فالإنسان إذا عبد الله يعبده طوعاً، ومبادرةً، ومن دون أن يكون مكرهاً ولا مضطراً ولا مجبراً، وإن الله قد أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

أي أن الإنسان مسيَّر ومخير، مخير فيما كُلِّف، أنت كلفت بالصلاة، لك أن تصلي ولك ألا تصلي، وكلفت بغض البصر لك أن تغض البصر ولك ألا تغضه، وكلفت أن تكون صادقاً لك أن تصدق ولك أن تكذب، إذ لا قيمة للصدق إلا إذا كان عن اختيار، ولا حساب على الكذب إلا إذا كان عن اختيار، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، فهذا المعنى الذي يحلّ كلّ المشكلات التي قد يظنها المؤمن مشكلة.

الإنسان مسيّر ومخير:

هل الإنسان مسير أم مخير ؟ الإنسان مسيَّر مخير، ففيما كُلِّف به فهو مخيَّر، وفيما لم يكلف به فهو مسيَّر. فأنت ابن من ؟ ابن فلان وفلانة، جيء بك إلى الدنيا في الأربعينات، وولدت في بلد معيَّن، بإمكانات معينة، بقدرات معينة، وببيئة معينة، بخصائص معينة، من أم وأب معينين، تلقَّيت العلم من جهة معينة فهذه كلها ليست في اختيارك، لكن حينما قال لك الله:

(وَأَقِمْ الصّلاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

فأنت الآن مخير بها. قال:

(وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)

(سورة الحجرات: من آية " 12 ")

فأنت مخير، قال:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ(119))

(سورة التوبة)

فأنت مخير.

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليكون سيّد المخلوقات:

لك أن تجلس مع الكاذبين، ومع أهل الدنيا، والأهواء، وأهل البدَع، والمؤمنين في بيوت الله، أنت مخيَّر، فلو أن الله عزّ وجل ألغى الاختيار لجعلكم أمةً واحدة، أي انتهى كل الاختيار، وقد ألغى التكليف، وألغى حمل الأمانة، جعلكم مخلوقات كبقية المخلوقات، ليس لها هذه الدرجات العالية لأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليكون سيّد المخلوقات.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ(7))

(سورة البينة)

من دون استثناء:

(أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ(7))

(سورة البينة)

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا(6))

(سورة البينة)

بالمقابل..

(أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيّةِ(6))

(سورة البينة)

وهذا ما يؤكده الإمام عليٌ كرّم الله وجهه: **" رُكِّبَ الملك من عقلٍ بلا شهوة (فليس لديه غرائز)، وركب الحيوان من شهوةٍ بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ".** أنت مخلوق لتكون فوق الملائكة، وإذا سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

العاقل لا يملك إلا الساعة التي هو فيها:

لا يوجد أيها الأخوة حل وسط، فالإنسان إما أن يتجاوز في مقامه الملائكة المقرّبين ؛ أو أن يسقط إلى أسفل السافلين، إلى أسفل من مرتبة الحيوان. والأمر بيدكم، والاختيار موضوع فينا، والآية الكريمة:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

ليس لك إلا هذا اليوم فالغد لا تملكه أبداً، من منا يملك غداً ؟ أبداً، ولا ساعة، ومن عَدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، الإنسان يكون ملء السمع والبصر فيصبح خبراً، أليس كذلك ؟ إذاً لك الساعة التي أنت فيها، ما مضى فات، الماضي ما دام ليس في إمكانك أن تعيده ولا أن تسترجعه، الزمن السابق ليس في الإمكان أن تسترجعه، والمستقبل لا تملكه، إذاً لا تملك إلا الساعة التي أنت فيها، لذلك:

((بادروا بالأعمال سبعا: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضا مفسداً، أو هرما مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (8))

(سورة الشورى)

لأنكم مختلفون إذاً أنتم مخيَّرون، لأنكم مخيَّرون إذاً أنتم مخلوقات من الدرجة الأولى.

تكريم الله الإنسان بتسخير الكون له:

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب)

أنت حملت الأمانة وقلت: يا ربي أنا لها. لذلك كرّمك الله بأن سخر لك ما في السماوات والأرض، كل ما في الكون مسخرٌ لهذا الإنسان، لكن الشيء المؤسف أن كل ما في السماوات والأرض يسبح الله عزّ وجل بنصّ القرآن الكريم، كل من في السماوات والأرض من دون استثناء يسبّح الله عزّ وجل..

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

كيف بكم أيها الأخوة إذا رأيتم أن الجمادات تسبِّح، وأن الحيوانات تسبح، وأن أحقر المخلوقات تسبح، وهذا الإنسان المخلوق الأول والمكرم الذي رفعه الله إلى أعلى عليين وسخَّر له ما في السماوات والأرض غافلٌ عن ربّه، غارقٌ في دُنياه، غارقٌ في شهواته وملذّاته، فلذلك كما قال بعض العلماء: في الدنيا جنَّةٌ من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، هي جنة معرفة الله والقرب منه.

رحمة الله واسعة تسع كل المخلوقات وما على الإنسان إلا أن يختار وأن يدفع ثمنها:

ولكن..

(وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (8))

(سورة الشورى)

ألا تتضح من هذه الآية أن الإنسان مخير،

(من يشاء)

(وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (8))

(سورة الشورى)

ولك أن تعيد فاعل يشاء على الإنسان.

(وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمّةً وَاحِدَةً (8))

(سورة الشورى)

ولكن الله شاءت مشيئته أن يعطيكم حرية الاختيار، وأن يكرّمكم، وأن يجعلكم مخلوقاتٍ مميَّزة، فلو شئتم لدخلتم في رحمة الله، رحمة الله واسعة تسع كل المخلوقات، وينالُها الإنسان بالدرجة الأولى لأنه مهيأٌ لها، ما عليه إلا أن يختار وأن يدفع ثمنها، أما أن يدفع ثمنها فالنبي عليه الصلاة والسلام من أدعيته الشريفة:

((اللّهُمّ إنّا نَسألُكَ مُوجِباتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالسّلامَةَ مِنْ كُلّ إثْمٍ، وَالغَنِيمَةَ مِنْ كُلّ برّ، وَالفَوْزَ بالجَنّةِ وَالنّجاةَ (بعونِك) منَ النّار))

(الأذكار النووية)

رحمة الله ثمنها طاعته و تنفيذ أوامره:

يجب أن تدفع ثمن الرحمة، قال تعالى:

(إنّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ(56))

(سورة الأعراف)

ورحمة الله هي عطاؤه، فسِّرها بما شئت، فسِّرها إن شئت تجلياً من الله على قلبه تسعد به، فسِّرها إن شئت توفيقاً، فسِّرها إن شئت حياةً طيبة، وفسِّرها إن شئت قرباً من الله عزّ وجل، وإن شئت غنًى تغتني به أو سلامةً في الدنيا وغنى في الآخرة، كل هذه المعاني التي تخطر في بالك يمكن أن تفسر بها رحمة الله، ورحمة الله لها ثمنٌ باهظ، أقول باهظ لضعف العزّائم، أما الثمن فليس باهظاً طاعة الله عزّ وجل، ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وطاعة الله عزّ وجل في قدرة كل واحدٍ منا، ولا يلتفت أحدكم إلى ما يقوله بعض الناس: يا أخي الفساد عَم، وأين أذهب بعيوني في الطريق. لا، انظر إلى قوله تعالى:

(لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا(286))

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

فما دمت مكلّفًا بهذه الأوامر فهي في وسعك قطعاً، بإمكانك أن تصلي، وأن تصوم، وأن تغض البصر، وأن تضبط اللسان، وأن تعطي مما أعطاك الله، وأن تدفع زكاة مالك، وأن تحضر مجالس العلم، هذا كلّه في إمكانك، لذلك لن تحاسب إلا على قدرةٍ أعطاك الله إيّاها، من هنا تأتي المسؤولية.

الخلق سواسية عند الله ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له:

إذاً:

(وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (8))

(سورة الشورى)

فرحمة الله لا تنالها إلا إذا أردتها، ولا تنالها إلا إذا دفعت ثمنها، تنالها بطاعته، سيدنا عمر قال لسيدنا سعد، وكان سعد من أقرب الصحابة لرسول الله، كان إذا دخل عليه يقول:

((هذا خالي أروني خالاً مثل خالي))

ما فدّى أحداً إلا سعد بن أبي وقاص قال:

((ارْمِ فِدَاكَ أبي وَأُمّي))

(صحيح البخاري: عن " عَبْدُ اللهِ بْنُ شَدّادٍ ")

ومع ذلك قال له سيدنا عمر بعد موت سيدنا محمد:**" يا سعد لا يغرّنك أنه قد قيل خال رسول الله فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له ".**

والله أيها الأخوة بإمكان كل واحد منكم أن يصل إلى أعلى عليين بطاعة الله، وطاعة الله بإمكانك، أي أن تصلي الفجر في جماعة، وأن تذكر الله صباحاً، وأن تفكّر في ملكوت السماوات والأرض، بإمكانك أن تستغفر الله طوال اليوم، أن تدعوه في كل شأن، أن تؤدّي الصلوات في أوقاتها وبإتقانٍ شديد، وأن تنفق من مالك، وأن تطلب العلم الشرعي، وأن تحضر مجالس العلم، كل هذا في إمكانك.

الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر:

لذلك:

(وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (8))

(سورة الشورى)

إن أردت رحمة الله فإليك طريقها، وإن أردت الدنيا فإليك طريقها، ولكنك إذا آثرت الآخرة على الدنيا (دققوا) ربحتهما معاً، وإن آثرت الدنيا على الآخرة خسرتهما معاً. فقراء اليهود خسروا الدنيا والآخرة. يقولون إن أحد العلماء الكبار قديماً كان له شأن كبير جداً، وله أتباع كُثُر، وكان بهي الطلعة، وعظيم القدر، وكثير الهيبة، فمرةً كان مع إخوانه في موقف، فنظر إليه رجل ذمي، معذب، فقير، مهان، يعاني من متاعب الحياة كلِّها، وهذا الإنسان الذمي نظر في قول رسول الله صلى الله عليها وسلم أن:

((الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر))

(الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

فخطر في باله أن يسأل هذا العالم الكبير قال له: يا سيدي يقول نبيكم: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكفار، فأي سجنٍ أنت فيه وأية جنةٍ أنا فيها ؟! فقال هذا العالم الجليل: **" لو نظرت إلى ما أنت فيه، إلى ما ينتظر الكافر من عذاب لكنت في جنة، ولو نظرت ما أنا فيه إلى ما وعدني الله به من مثوبة فأنا في سجن ".**

فهذه الدنيا بكل ما فيها من مُتَع، من مكانة، ووجاهة، وشأن رفيع، ومال وفير، وطعام طيّب، ونساء، وقصور، كل ما فيها لا تعدل عند الله جناح بعوضة.

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

(الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

العاقل من يُعِدُّ لساعة الموت عدّتها:

ليس بيننا وبين الجنة إلا أن نطيع الله عزّ وجل، والدنيا لا قيمة لها، هي فانية، يأتي الموت ينهي غنى الغني، ألا ترون أن أغنياء كثيرين حينما ماتوا ورّوا تحت أطباق الثرى شأنهم كشأن أفقر إنسان، فهل هناك كفن حرير، وكفن خام ؟ كله خام، وهل يوجد قبر درجة أولى، أو قبر خمس نجوم ؟ كله قبر، الموت ينهي غني الغني وفقر الفقير، ينهي قوة القوي وضعف الضعيف، ووسامة الوسيم ودمامة الدميم، وصحة الصحيح ومرض المريض، الموت يسوّي بين البشر، فلذلك العاقل من يُعِدُّ لهذه الساعة عدّتها، ويعدُّ لها العمل الصالح، ويعد لها طلب العلم، وخدمة الخلق، والأعمال الطيبة التي ترضي الله عزّ وجل. إذاً:

(وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8))

(سورة الشورى)

أعظم تكريم للإنسان أن يُعرّف نفسه بربها:

الذين اختاروا طريق الكفر، أي أنهم ظلموا أنفسهم، هم ما أرادوا أن يظلموا ولكنهم ظلموا أنفسهم، أرأيتَ لو أن إنساناً خَيَّرته بين شيءٍ نفيسٍ جداً وبين عذابٍ شديد فاختار العذاب، ظلم من ؟ ظلم نفسه، يجب أن نعلم علم اليقين أن أشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه بإبقائها جاهلةً بعيدةً مسيئة، فليس هناك تكريم أعظم من أن تعرّف نفسك بربها، ومن أن تحملها على طاعته، وتوقفها عند أمر الله، أن تجعلها وقّافةً عنده، أن تأمرها بالحلال وأن تنهاها عن الحرام، هذا أكبر تكريم، وكل واحد منا بإمكانه أن يكون مكرّماً أشد تكريم، والتكريم الحقيقي ما كان عند الله عزّ وجل لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

(الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

والرفعة عند الله تحتاج إلى طاعةٍ لله، وإلى إخلاصٍ له، وإنابةٍ إليه، وتطبيقٍ لأمره، وخدمة لعباداته، وإخلاصٍ لهم.

من انقاد وراء شهواته خسر الدنيا و الآخرة:

(وَالظَّالِمُونَ (8))

(سورة الشورى)

الذين اختاروا الشهوة قد اختاروا أن ينقادوا وراء غرائزهم، وحظوظ الدنيا ولم يختاروا ما عند الله في الآخرة، فهؤلاء ظلموا أنفسهم..

(مَا لَهُمْ (8))

(سورة الشورى)

عندما يأتي العذاب ويستحقوا العقاب..

(مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8))

(سورة الشورى)

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

فالإنسان في الحياة له أصدقاء، وأتباع وأقرباء، وجماعة، يحس أن حوله أناسًا كثيرين، ولكن يوم القيامة:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

عدم معرفة الناس بعضهم بعضاً يوم القيامة إلا في أربعة مواضع:

تروي بعض الآثار عن النبي عليه الصلاة والسلام، أن السيدة عائشة سألته: أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ نحن في الدنيا لنا أهل وأقرباء، وأم، وأب، وأخوات، وأصدقاء، وجيران، وفي العمل يوجد شخص أعلى منك، وأدنى منك، وصاحب، وصديق، وجار، وزميل، فهذه العلاقات الاجتماعية في الآخرة هل يا ترى نتعرف إلى بعضنا بعضاً، قالت يا رسول الله: أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((نعم يا أم المؤمنين إلا في أربعة مواضع (ذكر أربعة مواضع)عند الصراط، وعند الميزان وإذا الصحف نشرت (وفي موضع رابع لا أذكره الآن) وفيما سوى ذلك يعرف بعضنا بعضاً ـ فهذه أمه، وهذا أبوه، وهذا أخوه، وفلان ابن عمه، وابن خالته ـ قد تقع عين الأم على ابنها تقول: يا ولدي جعلت لك صدري سقاءً وبطني وعاءً وحجري وطاءً فهل من حسنةٍ يعود علي خيرها اليوم ؟ ـ (أي أعطني حسنة الله يرضى عليك) فيقول: يا أماه ليتني أستطيع ذلك إنني أشكو مما أنت منه تشكين))

(ورد في الأثر)

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ(101))

(سورة المؤمنون)

إذ تأتي ربك وحدك، ليس معك إلا عملك الصالح وطاعتك له **" يا قييس إن لك قريناً يدفن معك وأنت ميت، وتدفن معه وهو حي، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك "** اجهد أن يكون عملك صالحاً، اجهد أن تطيع الله عزّ وجل، هذا الذي ينفعك عند قبرك.

لا يليق بالإنسان أن يتخذ ولياً إلا الله:

أول ليلة يوضع الإنسان في قبره، يقول الله عزّ وجل: **" عبدي رجعوا وتركوك "** فالإنسان عندما يشيع جنازة بالمقبرة يعزي أقارب الميت بقوله: عظم الله أجركم. ويذهبوا إلى البيت وانتهى الأمر، أما هذا الذي في قبره ليس له إلا الله، وما دام ليس له إلا الله عليه أن يتعرّف إلى الله في حياته. اعرف ربك في الرخاء يعرفك في الشدة.

(وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8)أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (9))

(سورة الشورى)

أي أنه لا يليق بالإنسان أن يتخذ ولياً إلا الله، لا يليق به أن يهب عمره لغير الله، وأن يهب شبابه ووقته وفكره وطلاقة لسانه وماله لغير الله، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، فأنت لا يليق فيك أن تجيِّر لغير الله، أن تكون محسوبًا على غير الله عزّ وجل. سألوا عالمًا جليلاً من قطر عربي تجرى له عملية جراحية: لماذا لك هذه المكانة العالية ؟ فأجاب بتواضع جَم: لأنني محسوبٌ على الله. لم يقل لأني محسوب على جهة أرضية، وعلى الجماعة الفلانية.

فيجب عليك أن تكون محسوباً على الله لا على عبدٍ من عباد الله، إما أن تكون عبداً لله وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، كن عبد الله، لا تأخذك في الله لومة لائم.

الجاهل من يتخذ ولياً من دون الله:

(وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8))

(سورة الشورى)

ألا ترون معي أيها الأخوة أن هذه الآية تَشِفُ عن أن الإنسان مخيَّر.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8)أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ)

(سورة الشورى)

أي هل من الممكن لطالب جامعي يظن أنه يتعلم من شخص جاهل لا يقرأ ولا يكتب ؟ مستحيل، فنقول له: هذا هو الأستاذ وليس هذا.

وهل من الممكن لك أن تدخل إلى دائرة حكومية فيها ألف موظف وفيها مدير عام، وقضيتك متعلقة بالمدير العام، ثم ترجو حاجباً ليوقع لك معاملتك ؟ بذلك تكون لا تعرف شيئًا، فالإنسان عندما يتخذ من دون الله ولياً هو جاهل.

أشد الناس ظلماً و غباء من اتخذ من دون الله أولياء:

إذاً، أتعلِّق آمالاً على غير لله ؟ وهل ترجو غير الله ؟ وتخاف من غير الله ؟ وترجو العطاء من غيره ؟ وتخاف نقمة غيره ؟ فمعنى ذلك أنك جاهل، أو مشرك، فما وحَّدْت الله عزّ وجل، فالمؤمن لا يرجو إلا الله، ولا يعطي ولا يمنع إلا لله، ولا يغضب ولا يرضى إلا لله، وهكذا.

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (9))

(سورة الشورى)

أي هو الولي وحده ولا ولي سواه، لذلك أشد الناس جهلاً..

(يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

(سورة لقمان)

فأشد الناس جهلاً، وأشدهم ظلماً، وغباءً، وشقاءً من اتخذ من دون الله أولياء، الله هو الولي، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

آيات التوحيد كثيرة منها:

لذلك فآيات التوحيد كثيرة:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِي(55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

آياتٌ كثيرة.

(مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ (84))

(سورة الزخرف)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من آية " 4 ")

آيات التوحيد تبعث في نفس الإنسان الطمأنينة و الراحة:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الزمر: من آية " 63 ")

المقاليد أي المفاتيح.. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..كلما قرأت آيات القرآن الكريم الدالّة على التوحيد ترتاح نفسك، لأنّ أمرك متعلِّق بواحد، فالإنسان يرتاح، وما الذي يمزّق الناس ؟ أن تتوزع بين أولياء كثيرين..

العذاب الأليم عاقبة من يدعو مع الله إلهاً آخر:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَـهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

فمن أكبر أسباب العذاب أن تدعُو مع الله إلهاً آخر.

(فَاللّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

والمقصود هنا بإحياء الموتى، أن الإنسان حينما يكون جاهلاً بعيداً منقطعاً كأنه ميت، والدليل:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من آية " 21 ")

" يا بني مات خزّان المال (وهم في أوج حياتهم) والعلماء باقون بعد حياتهم " فالموت نوعان، موت حقيقي، وموت مجازي، الموت الحقيقي أن يفقد حركة القلب، ويتعطّل دماغه، فهذا هو الموت الحقيقي، ولكن الموت النفسي أن يعيش كما تعيش البهائم ؛ يأكل ويشرب، وينغمس في الملذّات من دون أن يبحث عن ربه ولا عن منهج ربه، ولا أن يعرف لماذا خلقه الله عزّ وجل..

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياء

* * *

من عامل الناس كما يعامل الله عز وجل كأنما عبدهم من دون الله:

"يا بني مات خزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ".

إنه على كل شيء قدير، فلا تخف من أحد، ولا تخشَ أحداً ولا تخشَ إلا الله، ولا تخشَ مرضاً عضالاً، فالله قادر يشفيك شفاء ذاتياً، فلا تخشَ إنسانًا قوياً هو بقبضة الله عزّ وجل.

(وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

أي تعلقت قدرته بكل ممكن.إذاً:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (9))

(سورة الشورى)

قد يقول أحدهم: أيعقل أن يتخذ الإنسان من دون الله ولياً، الله هو الخالق ؟ الجواب: إنك تعامل هؤلاء الذين اتخذتهم أولياء كما تعامل الله عزّ وجل، أي إنك ترضيهم بسخط الله، وتعصي الله من أجلهم،

تعتمد عليهم كلياً، وتعلِّق عليهم كل الآمال، فأنت لم تقل هؤلاء آلهة، فهذا الكلام غير معقول أن تقوله، لكنك حينما عاملتهم كما تعامل الله عزّ وجل، عبدتهم من دون الله، ومَحَضْتَهم كل إخلاصك وكل ثقتك من دون أن يكونوا أهلاً لذلك فقد اتخذتهم أولياء من دون الله.

كل شيء يملكه الإنسان هو لله عز وجل:

الله هو الولي، لا ينبغي لك أن تتخذ ولياً إلا الله، وأن تعتمد إلا على الله، وتثق إلا بالله، وتمحض غير الله ودّك، فشبابك، عمرك، ذكاؤك، وعقلك، ولسانك، وقلمك، وعلمك، ووقتك، ومالك، وصحّتك، وكل شيء تملكه لله عزّ وجل..

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(162)لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(163))

(سورة الأنعام)

(وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى (9))

(سورة الشورى)

تأكّدوا أن الإنسان قبل أن يعرف الله ميّت، وانه إذا عرف الله حي، طالبوني بالدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

أي كنتم أمواتًا قبل أن تعرفوه فأحياكم بمعرفته.

عدم استواء المؤمن مع الكافر في الدنيا و الآخرة:

إنسان يكون تائهاً، شارداً، ضالاً، فاسقًا، فاجراً، لا يعرف شيئاً، الحلال كالحرام، والحق كالباطل، والمذهب الوضعي كالمذهب الإلهي، فهو ضائع في الحياة، يسير بطريق مسدود، ويسعى بلا هدف، فمن هذا شأنه هل هو إنسان ؟ الإنسان يعرف ربه، وهدفه، وطبيعة الحياة، وأثمن ما في الحياة، ورسالته بالحياة، يقرأ القرآن، يتفقه في كتاب الله، ويقرأ حديث رسول الله، والصحابة قدوته، والآخرة مَحَطُّ آماله، والانضباط سمة من سمات حياته، فهل هذا كهذا ؟ دققوا في هذه الآيات:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

إذاً:

(فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

ثقة الإنسان بربه تبعد عنه الهم و الحزن:

إذا قلنا:

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

هذه الآية وحدها لو تفهّمناها لا تترك ألماً بالإنسان ولا حزن، على كل شيء قدير، إذا قرأها المريض يلقى في قلبه شعاع الأمل، على كل شيء قدير، وهناك أمراض عُضالة أجمع الأطباء على أنها مميتة، وجاءت يد الله الرحيمة فتدخّلت فشفت هذا المريض شفاءً ذاتياً، شيء عظيم جداً أن تثق بالله، من الفقر يجعلك غنياً، من الضعف يجعلك قوياً، من المرض يجعلك صحيحاً، ومن قلّة الشأن يجعلك ذا شأن كبير..

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

من وضع ثقته بالله حُلّت جميع مشكلاته:

مثلاً وقد ذكرتها اليوم بعقد قران: هل هناك مصيبة بالأرض تفوق أن يكون الإنسان في بطن حوت وفي أعماق البحر وفي الليل ؟ ظلمة الليل، الليل وحده موحش، والليل بالبحر أشد وحشة، وظلمة أعماق البحر، وظلمة بطن الحوت، سيدنا يونس:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

(سورة الأنبياء)

القصة انتهت، وبدأ القانون:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

هذه الميزة ليست لسيدنا يونس وحده بل لكل مؤمن هكذا الله قال، مهما رأيت الخطب مُدْلَهمّاً..

ورب نازلةٍ يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظن أنها لا تفرج

* * *

الإنسان قبل أن يعرف الله ميّت فإذا عرفه دبّت الحياة في قلبه:

الإنسان إذا وضع ثقته بالله لا توجد عنده مشكلة إطلاقاً، لا يوجد عنده هم، ولا حزن، فالله على كل شيء قدير، ويحيي الموتى، والإنسان قبل أن يعرف الله ميّت، فإذا عرفه دبّت الحياة في قلبه، فالمؤمن حي، عنده أحاسيس، وقيَم، ومشاعر، ومنهج، وهدف، ووسائل تخدم هذا الهدف.

وفي درس آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللّهِ ذَلِكُمْ اللّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (03-15): تفسير الآيات 9-11، الله عز وجل الأنسان ولا أحد سواه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-02-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة الشورى.

الولي هو الله و هو الذي يتولى أمرنا:

مع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (9))

(سورة الشورى)

الأولياء جمع وليّ، والولي هو الذي يتولّى أمرنا، وتوجيهنا، و تستعين به، وتسترشده، ونحتمي به، وتلوذ إليه، فالإنسان لا ينبغي له أن يتخذ من دون الله ولياً، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم، وغيره لا يعلم، فإذا استعنت بمن لا يعلم أوردك المهالك، والله تعالى هو القوي وغيره ضعيف، فإذا استعنت بالضعيف أسلمك إلى المهالك، فالله سبحانه وتعالى مُسعد وغيره لا يُسعد، فإذا طلبت السعادة في غيره شقيت ولذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (9))

(سورة الشورى)

هذه الصيغة تفيد القَصر ولو أن الله سبحانه وتعالى قال: فالله وليُّك. فليس فيها معنى القصر.

من ضعف تفكير الإنسان وشقائه أن يتخذ من دون الله وليّاً:

لكن..

(فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (9))

(سورة الشورى)

أي هو وحده الولي ولا وليّ سواه، فإذا قلنا: فلان شاعر. يقول شخص: فلان هو الشاعر. أي هؤلاء كلُّهم ليسوا شعراء من كلمة هو، فالله هو الولي، فهذه العبارة تفيد القصر، أي أنَّك إذا أردت أن تتخذ وليّاً ليس لك إلا الله ؛ لأنه يعلم وغيره لا يعلم، ولأنه قوي وغيره ضعيف، لأنه مُسعد وغيره محزن، فمن ضعف تفكير الإنسان ومن شقائه أن يتخذ من دون الله وليّاً، والحقيقة فالقضيَّة قد تكون عفويَّة، فلا

يعقل أن يقول الإنسان: فلان وليّ من دون الله. لا، لكن حينما يتجه الإنسان، ويتوهَّم أن الخير عنده، وأن السوء إذا غضب، وأن السعادة إذا رضي، وأنه بإمكانه أن يعطيك أو أن يمنعك اتخذته وليّاً وأنت لا تدري.

فبوعي الإنسان المسلم صعب أن يقول لك: أنا اتخذت فلاناً ولياً من دون الله. فهذه لا تقع ولكن حينما تنساق لإرضاء الإنسان، أو حينما تعجب بقوّة إنسان، أو بمال إنسان، أو حينما تتوهَّم أن هذا الإنسان يُسعدك من دون الله اتخذته ولياً وأنت لا تشعر..

من اتخذ من دون الله ولياً اتخذ شيئاً مُنْحَطّاً:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (9))

(سورة الشورى)

كلمة:

(مِنْ دُون)

فالإنسان توّاق للكمال، وتواق للأقوى، وللأعلى، و للأجمل دائماً، فعندما يتخذ الإنسان من دون الله ولياً اتخذ شيئاً مُنْحَطّاً، لأنه إذا قيس الإنسان بخالق الأكوان فلا شيء هو وقد تحتاجه في أشد الساعات فلا يلبيك، وقد تطلب منه فلا يعطيك، وقد تستنجد به فلا يُنجدك، وقد تعتمد عليه فلا يُعْتَمَدُ عليه..

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (9))

(سورة الشورى)

ربنا عزّ وجل يؤكِّد لنا أن الله هو الولي، ولذلك فالله عزّ وجل يقول:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

الظلمات جمع ؛ فظلمات العقائد، وظلمات العادات، وظلمات التقاليد، وظلمات الشهوات. أما النور فواحد، فالحق لا فيتعدّد، أما الباطل يتعدّد، آلاف مؤلّفة من ألوان الباطل العقائدي والسلوكي، لكن الحق واحد.

المؤمن إن توسّم الخير بمؤمن آخر هذا لا يتناقض مع التوحيد:

إذاً:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (257))

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

والمؤمن حقيقةً أيها الأخوة يشعر أن الله وليُّه، وهو الذي يتولّى أمره، وبه يستعين، وبه يسترشد، ألا تقرؤون في أول دعاء الوتر:

((اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى و نحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكفار ملحق))

(كنز العمال)

أي أن الله هو الولي، والمؤمن حقيقةً إن لم يدرك هذا المعنى فليس مؤمناً، فمؤمن على أعتاب كافر، ومؤمن يظن الخير بالكافر، ويرجو الخير عنده، مؤمن ويبذل ماء وجهه أمامه فهذا مستحيل، فيمكن لمؤمن أن يتوسّم الخير بمؤمن ولكن هذا لا يتناقض مع توكّله على الله عزّ وجل، ويمكن لمؤمن أن يتوسّم السعادة إذا عاشر مؤمناً أعلى منه، فهذا الشيء لا يتناقض مع التوحيد، لكن مؤمن الله وليُّه ويتّجه لغير الله، ويعتمد على غيره، ويأنس بغيره، ويستعين بغيره، فمعنى ذلك أنه اتخذه ولياً من دون الله.

على كل إنسان أن ينتبه لقلبه:

أهم شيء للإنسان أن ينتبه لقلبه، وعلى من يعتمد ؟ وبمن يثق ؟ وبمن يسترشد ؟ فأحياناً لو أن الإنسان سأل عامة الناس في موضوع تأتيه الإرشادات خلاف القرآن الكريم، فيقول لك مثلاً: **" لا تدَيّن فلاناً، احفظ دراهمك بلا جنون "** فيوجد تضخُّم نقدي بالمئة سبعة عشر فكيف تدينه، ولو سألت مئة شخص ينصحك بعدم إقراض الآخرين، أما ربنا قال:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة البقرة: من آية " 245 ")

فالله عدَّ القرض له وليس لعبده، وقال لنبيه داود:

((يا بن آدم، مرضت فلم تعدني. قال: يا رب، وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟))

(الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

فالشيء الدقيق في الموضوع أن المؤمن لا يمكن أن يسترشد، أو يسأل، أو يستنصح، أو يتحرّك بتوجيه غير المؤمن، ومعنى هذا أنه ليس مؤمناً..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

ولاية الله لك أن تطيعه و تنفذ أوامره:

الله توجيهه بالقرآن، وإذا احتاج القرآن إلى توضيح فالنبي يفسِّر القرآن الكريم، وبعد النبي الصحابة، وبعدهم الفقهاء المجتهدون، فإذا أردت حكم الشرع في موضوع فكأنَّك تقول: الله وليِّي، فأنا لا أتحرَّك إلا بتوجيهات ربي، وبتعليمات الصانع، وبمضمون كتاب الله. ألم تقل السيدة عائشة: " كان خلقه القرآن". الحقيقة ولاية الله لك تعني أن تطيعه، قال لك مثلاً:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 221 ")

ومعظم الأسر يريدون شاباً، ويريدون دخلاً كبيراً، وبيتاً واسعاً، ومركبة، وآخر شيء يسألون عن دينه، ويمشون بخلاف القرآن الكريم، ولذلك يعانون من متاعب لا تحتمل، فقد يأتي هذا الخاطب فيذلّهم، ويؤذي ابنتهم، وينغِّص عليهم عيشهم، طمعوا بغناه ونسوا دينه، ومعنى هذا أنهم تحرَّكوا بتوجيهات غير توجيهات الصانع.

المؤمن الصادق لا يتحرّك إلا بتوجيهات خالقه:

ما معنى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

أي أنت لا تتحرَّك إلا بتوجيهات خالقك في بيتك، وفي زواج بناتك، وفي تزويج أولادك، واختيار صنعتك، فإذا كانت صنعة مبنيَّة على معصيَّة أو فيها إعانة لمعصية فربنا قال:

(وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: من آية " 2 ")

فإذا كنت تساهم على تقوية منكر، بمعاونة على اغتصاب حقوق، فهذا عمل لا يرضي الله عزَّ وجل، فلا يوجد مؤمن على الإطلاق يتحرَّك بتوجيه كافر، أو مؤمن يتحرَّك من دون توجيهات خالق الكون، فأنت آلة معقَّدة جداً لك صانع، وكل واحد منَّا يراقب نفسه إذا اشترى آلة غالية كثيراً، ونفعها عظيم، ودخلها كبير، فلا يمكن له أن يسأل جاره، قد يكون جاره إنساناً صالحاً جداً، قد يكون إمام مسجد، أما هذا كمبيوتر يسأل خبير الشركة، لن يسأل شخصاً أميَّاً بهذا الموضوع، يقول لك: آلة غالية سأسأل الخبير، يقرأ التعليمات ويترجمها ويهتم فيها، فلماذا أنت في أمور الآلات المعقَّدة لا تقبل إلا رأي الخبير، وإذا كان مهندس جاء من شركة هذا أقوى بكثير، ويمكن ألا يعجبك مهندس مقيم في بلدك، فيقول لك: هذا لا يفهم. أنت تريد مهندس الشركة لأنك خائف على الآلة.

فلماذا تتساهل في أمر دينك ؟ وتتلقّى توجيهات من غير الله عزّ وجل ؟ يقول لك شخص: يا أخي ابنك إن لم يتعلّم المحادثة في دولة أجنبية فلا يقوى باللغة الإنكليزية، وهي أساس التجارة الآن. والله كلام صحيح، ولكن غاب عنك أنه هناك يجوز أن يضيع دينه، وأن يرجع إنساناً آخر.

من لوازم إيمان المؤمن أن يعرف أمر الله عزّ وجل:

المؤمن الصادق لا يتحرّك إلا بتوجيهات خالقه، ولذلك يسأل، ما أسباب السؤال ؟ لأن وليّك الله عزّ وجل..

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

فما حكم هذا الموضوع ؟ هل هو مباح، أم فرض، أم واجب، أم سُنّة مؤكّدة، أم سنة غير مؤكّدة، أم مكروه تنزيهاً، أم تحريماً، أم حراماً ؟ هذه كل الأحكام، فمعنى:

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

أن المؤمن لا يتحرّك إلا بتوجيهات خالقه، ولذلك يسأل عن الحكم الشرعي، وطلب الفقه حتمٌ واجبٌ على كل مسلم، ومن لوازم إيمان المؤمن أن يعرف أمر الله عزّ وجل، ولا يكفي أن يعرف الله. ولكن كيف تعبده ؟ فيجب أن تعرف أمره، وكيف تتقرّب إليه ؟ بطاعته، فأين أمره ؟ فلاحظ أن معرفة الله تتكامل مع معرفة أمره.

على كل إنسان أن يتعلم أمور الفقه:

إذا فكّرت بالكون تعرف الله، وإذا قرأت الأحكام الشرعيّة تعرف أمره، فليس من المستغرب أن يكون في بيت كل مسلم كتاب فقه مثلاً، فيه أحكام الطهارة، وأحكام الوضوء، والصلاة، والصيام، والحج، والزكاة،واليمين، والوكالة، والحوالة، فهناك أشياء نتعامل معها يومياً كالشراكة مثلاً، و المضاربة، والقرض الحسن، وأحكام الربا، ومن دخل السوق من دون فقه أكل الربا شاء أو أبى.

إذاً فالقصد أن الله ولي الذين آمنوا لا يتحرّكون إلا وفق تعليماته، وإلا بأوامره، إذاً من لوازم هذه الآية أن تتعلّم أمور الفقه، وهناك أشياء بالفقه لابدّ من أن تعرفها، وهي فرض عين على كل مسلم، مثلاً أحكام الصلاة والصوم والحج والزكاة، وكل حرفة لها أحكام فقه متعلِّقة بها، فإذا كنت شريكاً فيجب أن تعلم أحكام الشراكة، وإذا كنت طبيباً فأحكام الجُعالة، فالطبيب والمحامي والمدرّس يلزمهم أحكام الجُعالة، وإذا كنت تاجراً فأحكام البيع والشراء، هذا إذا آمنت بالله إيماناً حقيقياً وأردت أن تطيعه لابدّ

من معرفة أمره، لكي يتولاك الله، فأنت عندما تنفِّذ أحكام الصانع يتولاك الله. إذ عندما يمرض الإنسان يلجأ إلى طبيب، لماذا لجأ إليه ؟ لعلمه، قال له الطبيب: اترك الملح، وامش كل يوم، وخذ هذا الدواء. وهذه تعليمات الطبيب، فمعنى هذا أن الطبيب تولّى أمر شفائك، فلابدّ من طاعته.

يُحْيِي المَوْتَى: من معانيها:

1 ـ الله عز وجل بعد أن يموت الإنسان يحييه للحساب:

إذاً:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (9))

(سورة الشورى)

وهناك معنى دقيق جداً بهذه الآية، قال:

(وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى (9))

(سورة الشورى)

أي أن الله عزّ وجل لخّص ولايته بكلمة واحدة، أي تكون ميتاً فتحيا بهذه الولاية، فإذا جهل الإنسان ربه، فلا يعرفه ويتحرّك من دون طاعة لله عزّ وجل، إذ يتحرّك بمعصية، هذا الإنسان ميّت القلب. إذا عرف ربه، وعرف أمره، واستقام عليه، وأقبل عليه أصبح قلبه حيًّا، ربنا قال:

(وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى (9))

(سورة الشورى)

يحيي الموتى فبالمعنى الضيّق، الميّت يحييه، إما أنه بعد أن يموت يحييه للحساب، أو موت العدم ولم نكُ من قبل شيئاً، هذا معنى.

2 ـ الإنسان بلا عمل صالح إنسان ميّت ومن عرف الله فهو حي ولو مات:

والمعنى الأوسع تؤكِّده الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

تؤكِّده الآية الثانية:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

(سورة الأنعام: من آية " 122 ")

فمعنى هذا أن الإنسان قد يكون ميّتًا وهو في أوج حياته، وقد يكون حياً وهو تحت التراب، وهذا المعنى العميق للموت والحياة، فالموت والحياة بهذا المعنى إنسان بلا عمل صالح، وبلا معرفة لله يعيش لحظته لشهواته هذا ميّت ؛ إنسان عرف الله، وعرف أمره، ويمشي على منهج، له صلة بالله، ويعمل للآخرة هذا حي، ولو مات، ولهذا قال الله عزّ وجل:

(وَلا تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ(169))

(سورة آل عمران)

فولاية الله عزّ وجل تجعل الميّت حيًّا، وقول الشاعر المشهور:

ليس من مات فاستراح بمَيْت إنما الميّتُ ميّتُ الأحياءِ

*** * ***

إذا فالإنسان الذي لا يعرف الله كالبهيمة، يتحرّك وفق شهواته ومصالحه، وليس عنده قيم ولا روادع ولا نوازع ولا مبادئ، يتحرّك كالدابّة المتفلِتة من أي منهج فهذا ميّت.

إن كان الإنسان ميتاً لا يحيا إلا بالله تعالى:

إذاً ربنا عزّ وجل يقول:

(أَمْ اتّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ (9))

(سورة الشورى)

أي هو وحده الولي ولا وليّ سواه..

(وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

أيضاً هذه تطمين، أي أنك عندما اتخذت الله وليّاً الله على كل شيء قدير، إذاً ليس هناك مشكلة، ولا هم، مهما تكن القضيّة عويصة، والمرض عُضالاً، والفقر مدقعاً، والوضع سيئاً فالله على كل شيء قدير. وهكذا تعلّقت قدرة الله بكل ممكن.

إذاً أولاً: إن كان الإنسان ميتاً يحيا بالله، وإن كان يعاني مشكلةً فالله على كل شيءٍ قدير، فلمَ لا تتخذه ولياً ؟! لذلك دعاء السَحَر:

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللّيْلِ نَزَلَ إِلَى السّمَاءِ الدُّنْيَا جَلّ وَعَزّ فَقَالَ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ))

(مسند أحمد: عن " أبي هريرة ")

ونحن الآن في شهر رمضان، فهذا شهر القُرْب، شهر الاتصال بالله عزّ وجل، شهر البذل، وشهر أن الله سبحانه وتعالى يعافي عباده المؤمنين من جميع الهموم، من جميع المصائب.

الغافل عن الله إنسان ميت:

إذاً التركيز في هذه الآية:

(فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ (9))

(سورة الشورى)

فليس غيره ولياً، هو يعلم وغيره لا يعلم، وهو قوي وغيره ضعيف، وهو يسعد وغيره لا يسعد.النقطة الثانية:

(وَهُوَ يُحْيِ المَوْتَى (9))

(سورة الشورى)

الإنسان بالغفلة عن الله ميّت، فإذا أقبل عليه حَيَا قلبه..

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

أي مهما تكن المشكلة كبيرة فالله عزّ وجل عليها قدير، ولذلك الناس حينما يدعون ربَّهم عزّ وجل يقول بعضهم: يا رب يا من لا يعجزك شيءٌ في الأرض ولا في السماوات أنت على كل شيء قدير، فالإنسان أحياناً بجهل منه إذا كان له صلة مع شخص قوي يقول لك: لا يوجد مشكلة عندي. مع أنه مع شخص عادي، فيجوز أن يموت فجأةً، فكيف إذا كان له صلة مع خالق الكون ؟.

الله عز وجل حاكم عادل يحكم بين الناس جميعاً:

الآن الآية التي بعدها:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10))

(سورة الشورى)

والآن توجد موضوعات خلافيَّة بين الناس لا يعلمها إلا الله، بالعقائد، والمذاهب، والتطبيقات، ونظريات اقتصاديَّة، ونظريات نفسيَّة، وعلاقات اجتماعيَّة، وكل إنسان يدّعي أنه على حق وأن نظريَّته صحيحة، والخلاف واحد، فالناس فرق، واتجاهات، وأصحاب مبادئ وضعيَّة وغير وضعيَّة، وكلٌ يدَّعي وصلاً بليلى، فهذه زحمة الخلافات فمن يقضي بينها ؟ الله سبحانه وتعالى.

إذا كان هناك سبع قطع معدنيَّة صفراء لامعة، وواحدة منها ذهب عيار أربعة وعشرين، والباقي معدن خسيس مطلي بمعدن نفيس، فكلٌ يدعي أنها ذهب خالص، أما هي فواحدة فقط ذهب خالص، ولو أنه صار خلاف، ومنازعات، ومشكلات، وأخذ ورد، يأتي الخبير فيقول: هذه الذهب، وهذه كلها معدن

خسيس، بينما هذه من المعدن النفيس وتلك من المعادن الخسيسة. وانتهى الأمر، فالذي يحكم هو الله عزّ وجل، وربنا عزّ وجل يحكم وينفِّذ.

الله عزّ وجل حكمه تنفيذي:

أحياناً تجد خبيراً يعرف الحقيقة ولكنه ضعيف، وتجد شخصاً قويًّا لا يعرف الحقيقة، لكنه قوي، والذي يعرف لا يقوى على شيء، لكن ربنا عزّ وجل بكلمة

(يقضي)

فتشير إلى المعرفة والتنفيذ بآنٍ واحد. فما الفرق بين أن تسأل المفتي وأن تلجأ إلى القاضي ؟ يوجد فرق بينها، المفتي يقول لك: القضيَّة جوابها كذا وكذا، أما القاضي يصدر قراراً ويحال للتنفيذ، بالتنفيذ الشرطة يقبضون على السارق، القاضي معه حكم تنفيذي، أما المفتي معه حكم استشاري، فرق كبير جداً. والله حكم بين الناس لا يقول لأحدهم: أنت عل حق وأنت على باطل، لا، فالذي على حق يرفع شأنه، والذي على باطل يخسف به الأرض، فهناك فرق، إذ حكم الله غير حكم عبد الله، الله عزّ وجل إذا حكم نفّذ.

وأحياناً يحكم على إنسان أنه على حق فيرفع شأنه، ويقويّه ؛ ويحكم على إنسان مبطل أنه على باطل فيضعفه، ويبطل عمله، ويضعفه. وعندما حكم الله بين النبي وأعدائه فما معنى حكم الله ؟ أي أنت على حق وأنتم على باطل، فالله رفع شأن النبي ونصره، وهؤلاء خذلهم وجعلهم في مزابل التاريخ، وانتهى الأمر، إذا حكم الله غير حكم عبد الله، إذا حكم الله فحُكمه مع التنفيذ الكامل، إذ تأخذ حقّك كاملاً..

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ (10))

(سورة الشورى)

فأنت بطولتك أن تكون على حق.

من كان على حق رفعه الله و نصره و من كان على باطل خذله و ابتعد عنه:

الله عزّ وجل قال:فَتَوَكَّلْ يا محمّد..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

(قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(91))

(سورة الأنعام)

فقوّتك تستمدُّها من الله، فإذا كنت مع الله انتهى كل شيء، إن لم تكن معه فالمشكلة كبيرة جداً. فالآن كل أنواع الخلافات ؛ خلافات في العقائد، وفي النظم، والقيَم، فيجوز في مجتمع أن يكون هذا الشيء ليس عاراً، فالآن في المجتمعات الغربيَّة عملية الزنا أهون من تناول حبة سكّر، إنه أمر لا يحاسب الإنسان عليه إطلاقاً، شيء طبيعي جداً، فمعنى هذا أنه مجتمع فاسد، فإذا صار خلاف بالعقائد، أو بالنُظُم، أو خلاف بالقيَم، أو خلاف بالحقوق، أو بالتطبيقات، أو بالوسائل، إذا صار خلاف بين بني البشر فالحكم لله، فالله عزّ وجل حكمه تنفيذي، أنتم على حق يرفعكم وينصركم ويؤيّدكم ؛ وأنتم على باطل يخذلكم.

امتحان الله عز وجل للعباد:

لكن ربنا لحكمةٍ يريدها أحياناً يسمح للباطل أن يجول جولة لكي يمتحن الناس، إذ هناك أُناس إذا قوي الباطل يأخذون به، ينسوا الحق، هم مع الأقوى وليسوا مع الحق، فهذه مرحلة استثنائيَّة لأن الله قال:

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

فالله يسمح للباطل بعمل جولة أو جولتين يمتحن فيها الناس، من مال معه رغبةً فيما عنده وفي قوّته فقد سقط من عين الله، ومن بقي على إيمانه وعلى ورعه واستقامته فقد ارتفع في عين الله.

الحكمة من كون الأنبياء ضعفاء:

أساساً هناك نقطة مهمّة جداً قد تغيب عن معظم الناس، لماذا كان الأنبياء ضِعافاً، لمَ لم يكونوا أقوياء ؟ لو كانوا أقوياء ودعوا الناس إلى شيءٍ ما لأقبل الناس كلُّهم على تصديقهم، ولكن هذا ليس تصديقاً وليس إيماناً بل خوفٌ منهم، فجعلهم ضعفاء لحكمةٍ رائعة، بحيث إنك يمكن أن تتهم النبي بالكذب، أو بالجنون، أو بالسِحر، أو الشعوذة، أو الشِعر، وتنام مساءً ناعم البال، لذلك الذي يؤمن بالنبي له عند الله مقامٌ كبير لأنه ما آمن به خوفاً ولا طمعاً، فالنبي لا يوجد عنده شيء ليعطيه إياه.

وأوضح موقف عندما كان النبي عليه الصلاة والسلام يمر على آل ياسر وهم يُعَذّبون، فلا يستطيع أن يفكّهم من تعذيبهم فيقول:

((اصبروا يا آل ياسر! فإن موعدكم الجنة))

(كنز العمال)

والدليل الآخر عندما كان النبي في الطائف سُخر منه وكذِّب وضُرب، هو رسول الله. فالحكمة العظيمة من كون الأنبياء ضعفاء من أجل أن تكون قيمة الذين يؤمنون بهم عالية جداً، آمنوا بهم لا عن خوف ولا عن طمع، فهم ضعفاء وليس معهم الدنيا.

القوة والمال يأتيان ويذهبان أما الذي يبقى فهو أن تكون على حق:

الناس أحياناً يقبلون على الشيء إما خوفاً طلباً لسلامتهم، أو طمعاً بما عند هذا القوي، إما خوفاً من بطشه أو طمعاً بما عنده، و النبي جعله الله ضعيفًا في البدايات لحكمةٍ أرادها، حتى يكون إيمان من آمن به عظيماً جداً، لأنه ما آمن خوفًا منه فهو ضعيف، ولا عن طمعٍ في دنيا فما عنده دنيا..

(قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا(21))

(سورة الجن)

(قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة االأنعام: من آية " 50 ")

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(13))

(سورة الزمر)

فإذا كان الإنسان مستضعفًا فلا مانع، وله الشرف، ونبينا كان في مرحلةٍ مستضعفاً، لكن الأمر أن تكون على الحق، فالقوة والمال يأتيان ويذهبان، أما الذي يبقى فهو أن تكون على حق.

العبرة بخواتم الأعمال:

وقد خطر في بالي أنه صلى الله عليه وسلم في البدايات قال:

((لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال))

(الجامع الصغير: عن " أنس ")

فتعال الآن واشهد مقام النبي عليه الصلاة والسلام، فترى الناس من كل حدبٍ وصوب، من كل الملل والنِحَل، لم يروه، ولم يستمعوا له، ولم يأخذوا من عطائه، مضى على وفاته ألفٌ وخمسمئة عام ومع ذلك ذكره يعطِّر المجالس، يأتون إليه من أطراف الدنيا، يقفون أمام قبره يبكون، ويناجون، ويتأثّرون، ما معنى ذلك ؟ العبرة ليست بالبداية بل في النهاية.

ألم يكن في الطائف مستضعفاً ؟ ألم يُضْرَب فيها ؟ ألم يكذّب ؟ ألم يسخر منه ؟ ألم يقل:

((اللهمّ إني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس يا ربّ المستضعفين))

(الطبراني عن "عبد الله بن جعفر"، وفي سنده ضعف)

إذا كان سلطان كبير يحكم ثلثي الأرض جدّد شيئًا بمقام النبي يكتب: الفقير إليه تعالى، أحقر الورى. ليس له ذكر أمام النبي.

فلذلك أيها الأخوة العبرة لا بالبدايات بل بالنهايات، وبخواتم الأعمال، وأن تكون لك بداية محرقة حتى تكون لك نهايةٌ مشرقة، فالعبرة فيما يُختم عملك، الدعاء الشريف:

((اللهمّ اجعل خير أعمالنا أواخرها، وخير يومنا يوم نلقاك وأنت راضٍ عنّا))

(ورد في الأثر)

التوكل على الله يجعل الإنسان قوياً:

إذاً:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ (10))

(سورة الشورى)

فلو كان هناك خلاف فلا مانع، فالعبرة أن تكون على حق لأن الله هو الحق، وسوف يحقُّ الحق، الباطل له جولات ثم يضمحل، وقد تطول جولته حتى سبعين عاماً ثمّ ينهار، فالباطل باطل، والعبرة أن تكون على الحق وانتهى الأمر، فالله مع الحق لأنه هو حق..

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللّهِ (10))

(سورة الشورى)

حكمه إلى الله أي أن الله سبحانه وتعالى يحكم وينفِّذ، أحياناً شخص يحكم ويقول لك: والله لم نستطع تنفيذ الأمر. أحياناً الإنسان يستصدر حكماً ولا يُنفّذ، لكن ربنا عزّ وجل يحكم وينفِّذ..

(ذَلِكُمْ اللّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10))

(سورة الشورى)

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله.

من أخلص لله كان الله معه:

إلا أن هناك نقطة دقيقة: فأنا أشعر أن المؤمن لا يستطيع التوكّل التوكّل الكافي إذا كان عليه شوائب، أو مخالفات، أو معاص، فهذه المعاصي تحجبه عن التوكّل، لكنه لو كان على الحق مئة بالمئة، لو كان مصطلحاً مع الله مئة بالمئة، لو كان مقيماً لأمر الله مئة بالمئة، لو لم تأخذه لومةٌ في الله مئة في المئة وأصابه مكروه يقول: يا رب إني مغلوبٌ فانتصر لدينك. فأروع ما في التوكّل أنك تشعر أنك أقوى إنسان لأن الله معك، ومن كان الله معه فمن ضدُّه ؟! أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟

أي أنك إذا كنت مجنّداً غُراً ووالدك قائد الجيش، فمن يجرؤ أن يؤذيك بكلمة ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ ما معك أحد، إذا الخالق ضدّك انتهى، يهينه أقرب الناس إليه، أحياناً زوجته تهينه، وابنه يهينه إذا غضب الله عزّ وجل على إنسان. لذلك الدعاء الشريف:

((اللهم إني أعوذ بك من تحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك))

(تخريج أحاديث الإحياء)

أحياناً تأتي المصيبة فجأةً إما بمرض عضال، أو بإهانة شديدة، أو بفقر مُدقع، فإذا كان الله مع الإنسان لا يخاف، إذ أعداؤه تخدمه، انظر إلى هذه النقطة. وإذا تخلّى الله عنه فأقرب الناس إليه يخذله، حتى من كان من صلبه، من أخلص لها طول عمره تقف منه الموقف اللئيم، وأحياناً الزوج يعصي الله إرضاءً لزوجته فقد يمرض، فإذا يئست من شفائه تقول له: طلقني لأن الحياة معك لا تطاق. هذا الجواب، لأنه عصى الله من أجلها فكانت من ألأم الناس تأديباً له.

من اعتمد على الله تولى الله أمره و من اعتمد على نفسه تخلى الله عنه:

والنقطة الدقيقة يا أخوان، هل تعرفون يوم بدر ؟

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلّةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 123 ")

وهل تعرفون يوم حنين ؟..

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا)

(سورة التوبة: من آية " 25 ")

وأنا أقول لكم: في حياة كل واحد منّا باليوم الواحد عدة أيام بدر وحنين، إذا قلت: الله وأنا لا شيء. فهذا ليس تأدُّباً بل هذه حقيقة، الله يتولاك، وإذا قلت: أنا ؛ إما بخبرتك، أو بعلمك، أو بمالك، أو بقوّتك، أو بصحّتك فالله يتخلّى عنك، فأنت بين حالين: بين حال التولية والتخلية، فإذا اعتمدت على الله تولّى أمرك، وإذا اعتمدت على نفسك تخلّى عنك.

الأخذ بالأسباب من لوازم التوكل على الله عز وجل:

إذاً:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللّهِ ذَلِكُمْ اللّهُ رَبّي عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10))

(سورة الشورى)

وقد تتوكّل على الله عزّ وجل من دون أن تأخذ بالأسباب فهذه معصيةٌ كبيرة، لأنه استخفافٌ بنُظُم الكون، الله وضع للكون نظماً، فأنت عندما لا تأخذ بالأسباب تستخفّ بهذه النظم، لذلك من لوازم التوكّل أن تأخذ بالأسباب، ودرس الهجرة درس دقيق جداً بين أيدينا.

النبي عليه الصلاة والسلام سار مُساحلاً، وهناك إنسان لمحو الآثار، وإنسان لتتبُّع الأخبار، وإنسان لجلب الطعام، واستأجر خبيراً من الدرجة الأولى، أخذ بكل الأسباب ثم توكّل، هذا موقف المؤمن، إن أخذت بها واعتمدت عليها فقد أشركت، كشأن الغربيين، وإن لم تأخذ بها كشأن الشرقيين، وكمن يقولون: نحن أمة محمد مرحومة. فحالنا أصبح إلى أسوأ، وإن لم تأخذ بها فقد عصيت، وأنت مؤمن فيجب أن تأخذ بها وأن تعتمد على الله، فالتوكّل من لوازمه أن تأخذ بالأسباب.

سيدنا عمر رأى قوماً في مكّة فقال لهم: من أنتم ؟ قالوا: **" نحن المتوكِّلون "** قال: **" كذبتم المتوكِّل من ألقى حبّةً في الأرض ثمّ توكّل على الله".**

فالتوكّل يحتاج إلى أن تأخذ بالأسباب.

على المؤمن أن ينفذ أمر الله عز وجل و قلبه مع الله:

لذلك عندما حكم عليه الصلاة والسلام بين رجلين، الذي حكم عليه قال: **" حسبي الله ونعم الوكيل "** فالنبي تألّم من هذا الكلام، فهي كلمة حق أريد بها باطل، طالب لم ينجح، ما درس يوماً واحداً، فإذا سئل: كيف لم تنجح ؟ فيجيب: هكذا ترتيب الله. ما هذا الكلام ؟ هكذا يريد الله ؟ أنا هل يمكنني أن أفرّ من قضائه ؟ هذا الكلام جدل، فعندما قال هذا الشخص: **"حسبي الله ونعم الوكيل "** فالنبي الكريم قال:

((إنّ اللّهَ تَعالى يَلُومُ على العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ فإذَا غَلَبَكَ أمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ))

(أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك)

وإذا بذلت الجهد المستطاع ولم تتمكن من الوصول إلى هدفك فقل: حسبي الله ونعم الوكيل. أما قبل أن تقولها يجب أن تأخذ بالأسباب، إذاً التوكّل أيها الأخوة يحتاج إلى أن تأخذ بالأسباب..

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10))

(سورة الشورى)

هذه الإنابة أي الرجوع إلى الله، إما الرجوع إلى أمره، أو رجوع بقلبك إليه، أي إما رجوع ائتمار أو رجوع إقبال، وكلاهما تعتمده الآية، في قضيّة، ما حكم الله فيها ؟ أنت رجعت إلى الله في هذا الحكم، لأنه هو المرجع، أو حينما صليت أقبلت عليه، ما منحت قلبك لأحد، فقلبك لله عزّ وجل ـ **" لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكرٍ خليلي، ولكن أخٌ وصاحبٌ في الله "** ـ القلب لمن ؟ لله.

(إليه أنيب)

إما أن ترجع إليه في الحكم والأمر والنهي، أو أن ترجع إليه بالقلب، فالمؤمن ينفِّذ أمر الله وقلبه مع الله.

بطولة الإنسان أن يكون مع كلام الله عز وجل:

إذاً:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ (10))

(سورة الشورى)

والخلاف قائم أينما ذهبت، وأينما حللت، وفي أي بلد عِشت، ومجتمع أقمت، فلابدَّ من اختلاف وجهات نظر، والخلاف مثلما قلنا بالعقائد، والنظم، والمبادئ، والقيم، والأسباب، والعلاقات الاجتماعيَّة، وطرق التربية، فتجد الإنسان يربي ابنه على التفلُّت يقول لك: أحب أن تكون شخصيَّته قويَّة، وإنسان يربيه على طاعة الله ورسوله، إنسان يطلق لابنته العِنان، يقول لك: هي مستقلَّة في شخصيَّتها عني. يظن نفسه أباً مثالياً، فلا يحاسبها أبداً. فهناك خلاف في طرق التربية، بالنظم، وبالقيَم، والتربية، والمبادئ، والعقائد ولكن البطولة أن تكون مع الحق، مع كلام الله عزَّ وجل، لأن الله هو الحق وسيحقُّ الحق..

نظام الزوجية:

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ(11))

(سورة الشورى)

ومن أوجه المعاني لهذه الآية:

(يذرؤكم فيه)

أي يكثركم بهذا النظام (نظام الزوجيَّة) فلو لم يوجد نظام الزوجيَّة، وخلق الله مثلاً مليار طن خيار ولكن لا توجد بذور، فتنتهي، ولو خلق الله من كل مادة مليار طن، و استهلكناها لانتهى الأمر، ولو خلق مليون إنسان، أو مليار إنسان ولا يوجد نظام الزوجيَّة انتهت.

المرأة فطرها الله عزّ وجل لتكون مكمِّلة لزوجها:

الله عزَّ وجل قال:

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (11))

(سورة الشورى)

انظر هذه الآية ما أدقّها: أي أن زوجتك بشر، وإنسان لها عقل، وفكر، ومشاعر، وأحاسيس، وتغضب وترضى، وتحب وتكره، ويسعدها أن تكون زوجاً لها، ويغضبها أن تكون مقصِّراً في حقِها، هي إنسان لها مشاعرها، ولها قيمها، وطموحاتها، وما يؤلمها، فهي مثلك تماماً..

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ (11))

(سورة الشورى)

إلا أنها متكاملة معك، فما زاد في عاطفتها وقلّ في قوة إدراكها لصالح مهمّتها، وما زاد في قوة إدراكك وقلّ في انفعالاتك لصالح مهمّتك، أنت خارج المنزل وهي داخل المنزل، فنقص كمال وليس نقص نقص، إذا نقص شيء في قوة إدراكها وزاد هذا في قوة عاطفتها وحذرها على أولادها، وغيرتها على زوجها، وتلقيها عن زوجها، هكذا فطرها الله عزّ وجل لتكون مكمِّلةً لزوجها، وعندما جعل الزوج قوة إدراكه أقوى، وجلده أقوى، وعضلاته مفتولة، وقوة تحمُّله أشد هذه من أجل أن تكمِّلها، تكمله ويكمِّلها، قالت امرأة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن تركتهم إليه ضاعوا " هو يكسب وأنا أربي.

نظام التوالد على مستوى النبات والحيوان والإنسان نظام رائع خلقه الله تعالى:

قال:

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ(11))

(سورة الشورى)

أي يكثِّركم بهذا النظام، فنظام الزوجيَّة نظام رائع، الزوجيَّة على مستوى النبات، والحيوان، والإنسان، فقد تشتري مهرة (فرس) تلد حصانًا ثاني يوم، فلا أحد أخذ مركبة فرأى مركبة أخرى صغيرة بجانبها ثاني يوم، هذه ليست واردة إطلاقاً، فنظام الزوجيَّة نظام التوالد على مستوى النبات والحيوان والإنسان.

الله واحد أحد بيده مفاتيح كل شيء:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (11))

(سورة الشورى)

أي أن الله عزّ وجل واحدٌ في ذاته، وواحدٌ في أسمائه، وواحدٌ في صفاته، وواحد في أفعاله..

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ(11)لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

(المقاليد)

هي المفاتيح، فمفتاح كل شيء بيد الله عزّ وجل..

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(12))

(سورة الشورى)

ومعنى هذا أن سعة الرزق وقلة الرزق ليس بذكاء الإنسان ولا بجهده ولكن بتقدير الله عزّ وجل، فالتوفيق أفضل من السعي، أنت اسع لكن اطلب فمع السعي التوفيق، فإذا لم يحصل توفيق فالسعي غير هادف، وغير مجد، اسع وتوكّل، قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

((أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل ؟ قال اعقلها وتوكل))

(سنن الترمذي عن أنس بن مالك)

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى بقية الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (04-15): تفسير الآيات 12-15، على كل داعية أن يدعو إلى الله بلسانه وسلوكه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-02-18

بسم الله الرحمن الرحيم

مفاتيح كل شيءٍ في السماوات والأرض بيد الله عز وجل:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الشورى، ومع الآية الثانية عشرة وهي قوله تعالى:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(12))

(سورة الشورى)

كلمة:

(لَهُ)

هذه في رأي علماء النحو لام الاختصاص، أي له وحده، قد تملك شيئاً وبإمكان آخر أن يملكه، وقد تقتني سيارةً وبإمكان آخر أن يقتني السيارة، لكن لام الاختصاص تعني أن هذا الشيء له وحده.

(المَقَالِيدُ)

بمعنى المفاتيح، أي مفاتيح كل شيءٍ في السماوات والأرض بيد الله، فالمطر بيد الله، والرياح سرعتها بيد الله، فإن زادت عن حدٍّ معقول دمرت كل شيء،

(لَهُ)

كل شيء تراه عينك أو لا تراه عينك هو بيد الله، فالإنسان أحياناً بحكم طبيعته النفسية يتّجه للقوي، وللعظيم.

المؤمن لا يليق به أن يُحسب على أحد غير الله:

لو كنتم في مجلس وفيه أشخاص عديدون، فالأقوى أو الأعلم أو الأكثر طلاقة في حديثه تتجه الأنظار إليه، فهو مَعْقِدُ عيون الحاضرين، فطبيعة النفس تتجه نحو الأقوى، أو نحو الذي بيده الأمر، يقول لك: فلان الرجل القوي في هذا المكان. فالأنظار كلها إليه و تهمل ما سواه، فربنا عزّ وجل من أجل أن تلتفت إليه ومن أجل أن تعتمد عليه، وتثق به، وتجعله وكيلك في كل شيء، وتتوكل عليه قال لك:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

والإنسان يشعر أحياناً بالضعف، فيحتاج إلى ركن يركن إليه، فالناس من جهلهم ومن شركهم يلجؤون إلى بعضهم بعضاً، ويركنون إلى الأقوياء منهم، فيطمئنون إذا أعطاهم الأقوياء إشارة طُمأنينة، وإذا أعطوهم وعداً، أو أعطوهم عهداً، فالإنسان يطمئن ويقول لك: فلان صديقي، وقد سهرت معه البارحة ومعي رقم هاتفه، وأي قضية أتصل به، فيشعر بطمأنينة مع أنها مزيفة، ولكن الناس لجهلهم ولشركهم إحساساً منهم بضعفهم يلجؤون لبعضهم، ويعتمدون على بعضهم، وهم يقعون في هذا بشتى أنواع الشرك، لكن أنت أيها الإنسان لا يليق بك أن تُحسب على أحد، وأن تمنح ثقتك لغير الله، وأن تعتمد على غير الله، وأن تطمئن لغير تصميم الله لك.

الله عز وجل خلق الإنسان ضعيفاً ليسعد بافتقاره:

لذلك فالله عزّ وجل يبين في هذه الآية،

(له)

هنا لام الاختصاص له وحده..

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

أي أن الأمطار بيد الله، فلو اجتمع أهل الأرض على أن يتخذوا قراراً بإنزال الأمطار لا يستطيعون، وهذه الأوبئة التي تسري في الناس بشكلٍ مخيف وبسلسلة هندسية فهذه بيد الله، وما دام الناس مقيمين على المعاصي والفواحش والآثام، فهذه الأوبئة تسري فيهم سريان النار في الهَشيم، فالإنسان ضعيف وهذه حقيقة، وخلق الإنسان ضعيفاً، وما خُلق ضعيفاً إلا ليفتقر في ضعفه، كي يسعد بافتقاره، ولو خلقه الله قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، فالإنسان ضعيف يحتاج إلى قوي يلجأ إليه، وربنا عزّ وجل طمأنك فقال لك: بيدي مقاليد السماوات والأرض.

الصحة بيد الله عز وجل على الإنسان أن يشكره عليها:

الواحد منا بدءاً من جسمه، فالكليتان من الذي يضمن له أن تعملا حتى نهاية عمره ؟ والفشل الكلوي حتى الآن أسبابه مجهولة فجأةً تجده، وأوبئة الكبد، إذا تلف كبد الإنسان يعيش فقط ثلاث ساعات، والناس يخافون من القلب مع أن الكبد أخطر، فالكبد والكلية أخطر من القلب، فهذه الأجهزة الحساسة المصيرية التي إذا توقفت انتهت، الحياة بيد من ؟ بيد الله، والإنسان لو يقرأ بعض التفاصيل في عمل الأجهزة، يرى أن المعجزة أن يستيقظ الإنسان سليماً.

فالدم له تحاليل، فالغدة النخامية تفرز عشرة هرمونات، وزنها نصف غرام، فلو اختل إفراز هرمون واحد لأصبحت حياة الإنسان جحيماً.

البنكرياس فيه مليون جزيرة وزنها غرام تفرز الأنسولين، فلو تعطلت صار معه مرض السكر، وله مضاعفات على العينين، والأطراف، وأكثر مرض الموات من السكر، فإذا كانت هذه المليون جزيرة لم تفرز الأنسولين الكافي فتحدث مشكلة، وهي بيد من ؟ فهذه الجزر بيد من ؟ والدرقية بيد من ؟

والنخامية بيد من ؟ والكظر بيد من ؟

ومعامل نقي العظام لكريات الدم، أحياناً تتوقف فجأة، فالمرض خطير جداً واسمه فقر الدم اللامُصَنِّع، فهذا نقي العظام الذي يصنع في كل ثانية اثنين ونصف مليون كرية، هذا بيد من ؟ من الذي يجعله يقف عن العمل ؟ والإنسان يصاب بمرض خطير.

كل إنسان تحت ألطاف الله عز وجل:

معنى ذلك أن الإنسان بدءاً من دماغه هناك شرايين دقيقة جداً والدم يسيل فيها، فلو تجمدت نقطة كرأس الدبوس في أحد شرايين الدماغ، أو في محل ما من الشرايين التي في الدماغ فيفقد ذاكرته، وبمحل آخر يفقد حركته فينشل، وبمحل آخر يفقد توازنه، وبمحل ينسى أصدقاءه، وبمحل يفقد بصره، هي نقطة دم كرأس الدبوس إذا تجمّدت في أحد شرايين الدماغ يصاب الإنسان بأمراض مدمرة، فهذه الشرايين بيد من ؟ فهناك تصلب بشرايين الدماغ، فمرونتها بيد من ؟ والدم سيولته بيد من ؟ فلو صار لزجاً مشكلة، والقلب بيد من ؟ الدسّام بيد من ؟ والشريان التاجي الذي يغذي القلب بيد من ؟ والمعدة، والأمعاء، الكليتان، والكبد، والعمود الفقري، وتراكم هذه الفقرات وهذه الطبقة الغضروفية بينهما، حينما تنقرص بعض الفقرات يقول لك: الحياة لا تطاق، فآلام لا تطاق، فالإنسان تحت ألطاف الله عزّ وجل، قال لك: بيده.

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

فزوجتك بيده، وأولادك، وتجارتك، وهذه الرياح بيده، تكون رياحاً لطيفة ثم تصبح مدمرة، بأمريكا تحدث أعاصير لا تبقي شيئاً في طريقها، وسرعتها ثلاثمئة كيلو، والخسائر ثلاثون مليار دولار إنه إعصار واحد استمر ليلتين. وبيد من ؟ الحرارة، الآن موجات الصقيع بأمريكا خمس وستون تحت الصفر فكل شيء تعطّل، والرياح، والزلازل بشرقي آسيا.

بيت استغرقت الدراسات الهندسية سنتين، ونفذ بعشر سنوات و انهدم بخمس ثوانٍ، وشدة الزلزال ست رختر فانتهى البيت، فقد كان هنا بيت، بيد من ؟ قال:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

من كان قلبه معلق بغير الله فهذا عين النفاق و من التفت إلى الله فهذا هو التوحيد:

نحن إذا آمنا بالله انتهت مشكلتنا، لأننا إذا آمنا بالله اتجهنا له، والإنسان يبحث عن القوي، ويتمتم: من القوي ؟ هذه طبيعة الإنسان، يود القوي زيادة، ويحترمه زيادة، فإذا عطس: يرحمكم الله. وعلى أدنى حركة تجده يقدم واجباته تجاهه، لأنه قوي، فليس معه أي مزح، وأنت اعرف من هو القوي الحقيقي ؟ هو الله عزّ وجل، فإذا عرفت أن الله بيده كل شيء فعلاقتك مع جهة، خلصت من النفاق وانتهى إلى غير رجعة، فإذا عرفت أن الأمر بيد غير الله فهذه مشكلة كبيرة جداً، ولو صليت، وصمت، وزعمت أنك مسلم، فأنت في شرك، وقلبك معلق بغير الله، ويرجو غيره، ويخاف من غيره، وآمالك معلقة على غيره، فهذا هو الشرك، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106))

(سورة يوسف)

فهو طقوسه لله، أما قلبه فلغير الله، والله يريد قلبك، ولا يريد حركاتك، فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، يريد قلبك، هذا القلب إلى أين هو ملتفت ؟ إلى زيد أو عُبيد، فلان أو علان ؟ فهذا شرك، أما إذا التفت إلى الله عزّ وجل فهذا هو التوحيد.

على الإنسان أن يرضي الله عز وجل و لا يعبأ بغيره:

لذلك فالقرآن قد تعجب أن كل آياته على التوحيد، لأن الآيات كلها بالنهاية من أجل أن تلتفت إليه، وأن لا ترى غيره، وأما إذا تشعبت بك المذاهب فحياة الشك صعبة جداً.

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

إرضاء الناس غايةٌ لا تدرك، ومن استطاع أن يرضي الناس جميعاً فهو منافق، أو ذكي جداً ولكن ذكاءه شيطاني، وأنت عليك أن ترضي الله ولا تعبأ بغيره..

فليتك تحلو والحيـــاة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غضـاب

وليـت الذي بيني وبينك عامـرٌ وبيني وبين العالمين خـراب

وليـت شرابي من ودادك سائغٌ وشربي من ماء الفرات سراب

أقول لعزّالي مدى الدهر اقصروا فكل الذي يهوى سواه يعـاب

* * *

أي أنّك أيها الإنسان لا يليق بك أن تحب غير الله، ولا يليق بك أن تحسب على غير الله، فقد يقول: هذا محسوب علينا. فمن أنت ؟ فلست أهلاً أن يحسب عليك إنسان، كن محسوباً على الله، سألوا عالماً في مرض: لماذا هذه المكانة العالية ؟ قال: لأنني محسوب على الله، ولست محسوباً على جهة أرضية، فهذه الكلمة فيها أدب، ولم يقل: أنا أهل. بل قال: أنا محسوب عليه.

السعي والتدبير شرط لازمٌ غير كافٍ يحتاج إلى توفيق إلهي:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

هذه الآية وحدها تكفي، والأعرابي قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **" كُفيت "** إذ قرأ له آية واحدة ولم يقرأ القرآن كله، ونحن لدينا القرآن ستمئة صفحة، ومصاحف، وتفاسير، وأشرطة، وخطب، ومكتبات ومع ذلك فهناك شرك خفي. فأعرابي آية واحدة قال له: **"كفيت "**. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((فقه الرجل))

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (12))

(سورة الشورى)

فالرزق بيده، تجد شخصاً كتلة من الذكاء ولكن رزقه قليل، وشخص آخر على دروشته تجد ماله وفيراً، ولكن يوجد حكمة، فالقضية ليست بالذكاء ولا بالسعي، مع أن السعي ضروري، والتدبير ضروري، ولكن لا يكفي وحده، فالسعي والتدبير شرط لازمٌ غير كافٍ يحتاج إلى توفيق إلهي لأنه هو الرزاق.

من قوانين اتساع الرزق:

1 - الاستقامة:

ربنا عزّ جل بيده الرزق ولكن يوَسّعه في المستقيم على أمره وهذا أول قانون:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة: من آية " 66 ")

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من آية " 96 ")

وأول قانون لاتساع الرزق الاستقامة، صدق، وأمانة، وورع تام، فما دمت بهذه الاستقامة، وهذا الورع والأمانة فالله عزّ وجل يقدر لك رزقاً وفيراً.

2 ـ صلة الرحم:

والآن صلة الرحم تزيد الرزق، فإنسان له أخوات، وأولاد أخوات، وله أقارب، يتفقّدهم من حين لآخر وهم بحاجة لمساعدته، فإذا وصلت هؤلاء الأرحام زيارةً ومعونةً ودلالةً، فالصلة لها ثلاثة معان ؛ وأقل شيء الزيارة تأنس بها، وثانياً المعونة لا أن تذهب ملوحاً بيديك، ثالثاً الدلالة ؛ أعطهم شريطاً، وأسمعهم درساً، أو أعطهم درساً من عندك، فزيارة ومعونة ودلالة، هذه الصلة تزيد في الرزق وهذا هو الشرط الثاني.

3 ـ الأمانة:

والشرط الثالث: النبي الكريم قال:

((الأمانة غنىً))

والأمين غني لأنه موثوق.

4 ـ الاستغفار:

الشرط الرابع: الاستغفار، فإذا غلط الإنسان واستغفر..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

(سورة نوح)

5 - إتقان العمل:

فالاستغفار، وصلة الرحم، والأمانة، والاستقامة، وبقي إتقان العمل، فإذا أتقن الإنسان عمله لا يقف، لأنه عندما يدرس الناس من الذي يعمل مستمراً ؟ إذاً هو المتقن، فكل الناس تتحول له، أما عندما يكون السوق قوياً جداً فالكل يعمل، وأما إذا برد السوق فيبقى المتقن يعمل ولا يقف.

الدعاء طريق لحل مشكلات الإنسان بشرط أن يكون حقيقياً:

الإتقان، والاستقامة، وصلة الرحم، والأمانة، وبر الوالدين فهذه كلها من عوامل زيادة الرزق، والرزق بيد الله عزّ وجل، والإنسان يكون عزيز النفس ويضع حاجته عند الله عزّ وجل، وهذا الحديث القدسي الذي لا ينبغي لنا أن ننساه أبداً:

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلّ وَعَزّ فَقَالَ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ))

(مسند أحمد: عن " أبي هريرة ")

فالله يقول لك: اسألني، استيقظ بالوقت المناسب وصل ركعتين واسألني، لأنه لم يأمرك أن تدعوه إلا ليستجيب لك، ولم يقل ادعوني فهو إله ما أمرك أن تدعوه إلا ليستجيب..

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: من آية " 60 ")

فأنت بالدعاء أقوى إنسان، بالدعاء تحل كل مشكلاتك، لكن على أن يكون دعاء حقيقياً، وبشروط الدعاء..

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

(سورة البقرة)

الدعاء يحتاج إلى إيمان بالله واستقامة على أمره و أن يكون من القلب:

بالمناسبة إذا كان إيمان الإنسان بالله ضعيفاً، وإيمانه بالناس قوياً أي أنه مشرك، فإيمانه بزيد قوي وبالله ضعيف، واستجابته ضعيفة لا يطبّق أوامر الله، فتجده لا يستطيع أن يدعو الله، بل يستحي، إذ يوجد حجاب بينه وبين الله، عوامل بعد الإنسان عن الدعاء تلبسه بالمعاصي والشرك، فالشرك

والمعاصي لا تعينان الإنسان على أن يدعو الله دعاءً صادقاً (وهذه نقطة مهمة جداً) أما إذا كان الإنسان مستجيباً لله، ومؤمناً به إيماناً حقيقياً واستجاب له، وأمتع ساعاته حينما يدعو الله عزّ وجل، عندئذٍ:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر)

وجدناك مضطراً فقلنا لك ادعنا نجبك فهل قد كنت حقاً دعوتنا

دعوناك للخيرات أعرضت نائياً فهل لك من يحسن لمثلك مثلنا؟

* * *

فالإنسان بالدعاء قوي جداً، أما الدعاء فيحتاج إلى إيمان بالله وإلى استقامة على أمره، ثم إلى دعاء حقيقي من قلبك، والنتائج مضمونة.

جميع الرسالات السماوية تهدف إلى الإيمان بالله و عبادته:

إذاً:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(12))

(سورة الشورى)

هو يعلم، يعلم كل شيء..

(شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ(13))

(سورة الشورى)

في أول السورة قال ربنا عزّ وجل:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3))

(سورة الشورى)

أي يجب عليك أن تشعر أن هذه الرسالات السماوية واحدة، فكلها من عند الله، وكلّها تهدف إلى هدفٍ واحد أن تؤمن به وأن تعبده.

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: من آية " 32 ")

هذه الآية ذكرها كل الأنبياء.

الدين هو إيمان بالله و استقامة على أمره:

هناك آية أدق من ذلك:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

فالدين كله له منطلق فكري وله سلوك عملي، فالمنطلق الفكري، أن تؤمن به واحداً كاملاً موجوداً، وأن تؤمن به خالقاً مربياً مسيراً، واحداً في ذاته وفي أسمائه وأفعاله وصفاته، وموجوداً أي أن تؤمن به وأن تستقيم على أمره، هذا الدين كله.

النبي الكريم جاء في الترتيب قبل سيدنا إبراهيم وموسى وعيسى لبيان أنه سيّد الأنبياء:

في أول السورة:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3))

(سورة الشورى)

هذه السورة مجملة، تفصيلها:

(شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا (13))

(سورة الشورى)

وبالطبع أول رسول جاء للبشرية سيدنا نوح..

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى (13))

(سورة الشورى)

فسيدنا نوح، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى، وسيدنا عيسى، وسيدنا محمد هؤلاء في نظر علماء التوحيد أولو العزم من الرسل، لكن النبي عليه الصلاة والسلام أولاً جاء في الترتيب قبل سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وسيدنا عيسى، قال: قُدِّمَ لبيان أنه سيّد الأنبياء والمرسلين، ووصف شرعه بأنه وحيٌ من الله وليس وصيةً، فالوصية تعدّل وتبدل وتزوّر، ولكن الوحي قد حفظه الله سبحانه وتعالى إلى قيام الساعة، ولذلك جاءت الآية كما يلي:

(شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ(13))

(سورة الشورى)

دين الله عز وجل في الأرض واحد و الأنبياء دعوتهم واحدة:

مراد الله عزّ وجل أن يكون دين الله في الأرض واحداً، وأن يكون أتباع الأنبياء مؤتلفين لا متفرّقين، ولا متعادين، ولا متحاربين، فهذا هو الذي بين أتباع الديانات الثلاث لا يرضاه الله عزّ وجل، بل بالعكس هذا مما يُغضب الله، فأن أقيموا الدين أي أن هذا الشرع طبّقوه، واجعلوه قائماً بينكم، في بيوتكم وفي أعمالكم وفي كل نشاطاتكم.

(أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ(13))

(سورة الشورى)

وهذه الخلافات بين أتباع الديانات خلافاتٌ شيطانية ما أنزل الله بها من سلطان، فتقريباً تاريخ البشرية (وهذا الشيء مؤسف جداً) فسلسلة حروب حدثت بينهم أساسها أحقاد دينية قديمة، وهذا الشيء لا يرضي الله عزّ وجل فالأنبياء إخوة..

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)

(سورة البقرة: من آية " 285 ")

فالأنبياء دعوتهم واحدة، أما الأتباع فمختلفون.

المشركون كَبُرَ عليهم أن يتنزّل الوحي على محمدٍ صلى الله عليه وسلم:

(كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ(13))

(سورة الشورى)

المشركون كانوا يتمنون أن تنزّل النبوّةُ والوحي على رجل من القريتين عظيم، فسيد قبيلته أو غني أو رجل كبير، هكذا، فنزل هذا الوحي على إنسانٍ ذي نسبٍ عظيم، وأمانةٍ كبيرة، وصدقٍ عجيب، وقد سأل النجاشي سيدنا جعفر عن دعوة النبي فقال: **" يا أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف (هذه الجاهلية، الجاهلية الأولى غير الثانية)، الجاهلية الأولى: يا أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف نسبه (من أوسط بيتٍ في قريش ومن أعرقها) وأمانته وعفافه وصدقه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده".**

فالنبي كان فقيراً ولكن له نسب عريق، وله استقامة ظاهرة فكان في الجاهلية اسمه الأمين، وعندما هاجر إلى المدينة كان يضع في بيته الأمانات للكفار، فقد كانوا يثقون به أيما ثقة لأمانته وصدقه، وقد عرف بالأمين. والمشركون كَبُرَ عليهم أن يتنزّل الوحي على محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحي على الرجل من القريتين عظيم، فربنا عزّ وجل قال:

(كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ(13))

(سورة الشورى)

لكن اختيار الأنبياء هذا من الله وحده..

(اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(13))

من لم يطلب الهدى لا ينتفع بأي شيء إطلاقاً:

هناك نقطة مهمة جداً وردت في سورة البقرة أيضاً:

(الم(1)ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(3))

(سورة البقرة)

(هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2))

(سورة البقرة)

كأنه يوجد قرار سابق يتخذه الإنسان من ذاته بطلب الهدى وعندئذٍ ينتفع بالقرآن، والآيات الكونية، والأفعال الإلهية، و اعلم أنك لا تنتفع بكل وسائل الهدى إلا إذا أردت الهدى.

فلو أن إنساناً يبحث عن جهاز ضغط ليقيس ضغطه تجده مهموماً، دخل إلى مكتبة لا يعنيه منها شيء، ولو قيل له: هذا كتاب جديد، وهذا طبعة حديثة. ولكنه يسأل البائع: هل عندك جهاز ضغط ؟ طلبه جهاز ضغط. أما لو وجد طالب علم، وعنده قائمة كتب، فيدخل إلى المكتبة وعينه على الكتب كتاباً كتاباً.

فالإنسان إذا لم يطلب الهدى فإنه لا ينتفع لا بالقرآن، ولا بالعظماء، ولا بالدعاء، ولا بخطب المساجد، ولا بالأحداث، ولا بأي شيء إطلاقاً.

الهدى قرار داخلي على الإنسان أن يسرع باتخاذه:

لو أن إنساناً ليس لديه بيت، وكان عنده بيت وعليه دعوى إخلاء، فأخلوه، فأصبحت زوجته عند أهلها وهو عند أهله وأولاده بين الجهتين وهو معذب عذاباً لا يحتمل، ويمشي في الطريق هائماً على وجهه يبحث عن غرفة يأوي إليها، فقال واحد: أتريد بيتاً ؟ فيمكن أن يقبّل رجله، وأن يختل توازنه، فإذا كنت طالباً الشيء فعندئذٍ تستفيد من كل شيء، وإذا لم تطلب الشيء، كأن يكون لديه بيت كبير، وبيت ثان مغلق، وبيت ثالث يريد أن يبيعه، وسأله سائل: هل تريد أن تشتري بيتاً ؟ تجده لا يجيبه إطلاقاً ويعرض عنه، وقد لاحظت ملاحظة في كتاب الله كله، كثير من الآيات:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(37))

(سورة ق)

(هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2))

(سورة البقرة)

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ)

(سورة النحل: من آية " 104 ")

فأنت لك قرار سابق إذا لم تتخذه بطلب الهدى لا ينفعك الهدى إطلاقاً، ولا تستفيد.

من لم يطلب الحق لا ينتفع به ولو كان بين يديه:

أوضح مثل على ذلك: لديك آلة تصوير وهي أغلى آلة لكن ليس فيها فيلماً، فمهما تفننت بالتقاط المناظر، فمعنى ذلك أنك لست طالباً، وإذا لم يطلب الإنسان الهدى فلا ينتفع به إطلاقاً، و القرآن بين يديه، وكله كامل، ومطبوع أفخر طبعة، ومسجّل بأحدث القراءات، ومفسر، ودروس علم، وخطب، ولكن ليس هذا طلبه، بل طلبه الدنيا.

فالإنسان إذا لم يطلب الحق فلا ينتفع به ولو كان بين يديه، وطالب الحق ينتفع ببصيصٍ من نور، أو بورقة من كتاب، أو بنصيحة من عالم، نصيحة واحدة، يقول لك: لا أنساها، فعليك أن تجهد لتتخذ هذا القرار، وأن تتخذ قراراً بطلب الهدى لكي تنتفع بالقرآن، وبالخطب، والدروس، تنتفع بالأحداث التي تجري في العالم، والآيات الكونية.

من اتخذ قراراً بالهدى الله عز وجل يهديه و يستعمله صالحاً:

إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(13))

(سورة الشورى)

فإذا رجع الإنسان لنفسه، وتأمّل ذاته، في سر وجوده، في نهاية وجوده، وفي نهايته، وفي حقيقة الدنيا، وفي خالقه، اتخذ قراراً بالهدى، فالآن الله يهديه. فتصور أباً رأى ابنه شارداً فتجده يسأله: خير يا بني ماذا تريد ؟ فقال له: أريد أن أدرس. فيقول له: تكرم. الأب مقتدر فهيّأ له مدرسة، وأقساطاً، وأساتذة خاصين، وغرفة خاصة، ودخلاً يكفي، وأعفاه من كل أعباء البيت. فلما يطلب الإنسان فالله يعطيه، وأنت اطلب فقط..

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت: من آية " 69 ")

أما إذا طلبت فالقضية أصبحت سهلة جداً..

(وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(13))

(سورة الشورى)

فالإنسان يطلب من الله أن يهديه وأن يهدي به، وأن يرزقه طيباً وأن يستعمله صالحاً، ويطلب موجبات رحمة الله وعزائم مغفرة الله عزّ وجل.

البغي سبب من أسباب التفرقة بين الناس:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

التفرق الآن بين المسلمين أقرب شيء لنا، نراه بغياً بينهم أي حسداً، كطلبهم للرئاسة، رئاسة المجالس، فهذا العالم الفلاني، وهذا الداعي الفلاني، طلبهم للزعامة، وللدنيا، وللتجمُّعات الكبيرة، وهذه تجعلهم يطعنون ببعضهم بعضاً، فالتفرقة أسبابها البغي، قال الله تعالى:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

أي تفرقوا بغياً بينهم وبعدما جاءهم العلم، وهذه بغياً متعلقة بتفرقوا، عاملها تفرّقوا.

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

علامة إخلاص المؤمن أن ينتمي إلى مجموع المؤمنين و يحس بهم:

فيا أيها الأخوة الكرام علامة الإخلاص أنك تنتمي إلى مجموع المؤمنين، وترحب بكل المسلمين، وتقدر كل العلماء المخلصين، والدعاة الصادقين، والمستقيمين على أمر الله.

أما علامة البغي فترفع نفسك على حساب الآخرين، وترتفع وتطعن بهم، فهذا الطعن وتقاذف التهم، وتفتيت المسلمين، وشرذمتهم، وجعلهم جماعات جماعات وفرقاً فرقاً وطوائف طوائف، وكتلاً كتلاً، هذه بغياً بينهم، أي عداوةً وعدواناً وحسداً وتطلُّعاً إلى المكاسب الدنيوية الرخيصة.

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

الكتاب بين أيدينا، والكتب السماوية واضحة جداً، والأدلة قاطعة، والأمور ميسَّرة، وليس لنا حجة، فالحجة عليهم لا لهم، ولكن البغي الذي في نفوسهم جعلهم يتفرقون هذا قانون، فأنت عندما يكون عندك مبيع ولك جار بالحرفة نفسها، وأنت غير مؤمن بالله عزّ وجل، ويهمك أن تطعن ببضاعته وتمدح ببضاعتك، فمعنى هذا كله للزبون، وهو قد أخذ منك الزبون، فتعمل له مشكلة، فهذا سلوك الناس.

فعندما يكون التفكير تفكيراً تجارياً، وتفكير زُبن، وترويج بضاعة ودعاية، وطعناً بالبضاعة الأخرى،

فإذا كانت هذه الأمور التجارية انسحبت على الدعاة فهذه مشكلة كبيرة جداً، صارت عداوة صنعة، أما الدعاة إلى الله كلهم على منهج واحد، وعلى قلبٍ، وهدف واحد.

كل إنسان عليه أن يتعاون مع إخوته تعاوناً قوياً:

المفروض في الإنسان أن يكون متعاوناً مع إخوانه تعاوناً قوياً، لأن ربنا عزّ وجل قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: من آية " 2 ")

تقولها مرة ثانية وثالثة وخامسة: وكل إنسان يتوهم أن الله فقط له والجنة له فقط، وهو على الحق وحده، والناس كلهم ليس فيهم خير، قال: **" من قال هلك الناس فهو أهلكهم ".** وهذا الإنسان متقوقع، وأفقه ضيّق، محدود، أما الإنسان المؤمن فيتعاون مع كل إخوانه المؤمنين بروح متسامحة، وبإنكار للذات، وتمتين لأواصر المحبة والود بين المؤمنين:

((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

(من مسند أحمد: عن " النعمان بن البشير ")

هكذا:

((فإن يد الله مع الجماعة))

(الجامع الصغير: عن " عرفجة ")

((ويد الله على الجماعة))

(الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

((ومن شذ شذ إلى النار))

(الجامع الصغير: عن " عرفجة ")

((عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد))

(الجامع الصغير: عن " عمر ")

((فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

(أخرجه أبو داود عن " أبي الدرداء")

الإخلاص يرسخ الانتماء بمجموع المؤمنين:

إذاً التفرق سببه البغي، والبغي يعني الحسد، والعداوة، وطلب الوجاهة، والمكاسب الدنيوية، فإذا انسحبت العقلية التجاريَّة على الدعوة إلى الله رأيت الفرقة، والتشرذم، والعصبية العمياء، والانتماء لجماعات صغيرة جداً، وتفتيت المسلمين، والآية واضحة كوضوح الشمس:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(14))

(سورة الشورى)

وكنت أقول كلمة دقيقة: كلما انخفض مستوى الإخلاص ترسخ الانتماء لجماعتك وتطعن بالآخرين، وكلما ارتفع مستوى الإخلاص ترسخ الانتماء بمجموع المؤمنين (وهذه نقطة مهمة جداً) والإخلاص هو المحرّك، فأنت تنفذُ قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات: من آية " 10 ")

أما إذا كان الإخلاص ضعفاً فيهمك كيانك الذاتي، والمكاسب المادية، والوجاهة الاجتماعية وعندئذٍ تضطر لتطعن بالآخرين، لكي تروج بضاعتك وتصرف الزبائن لعندك، وبالطبع هذا منطق التجّار، أما الدعاة إلى الله فلهم منطقٌ آخر، منطقهم الآخر إذا عزّ أخوك فَهُنْ أنت، وإذا كانت الدعوة ماشية فأنت كن بخدمته، فأخ لك أطلقه الله بالدعوة عاونه، بدلاً من أن تنافسه.

على كل مؤمن أن يساعد الداعية إلى الله إن كان على حق:

أقول هذه الكلمة: لك أخ وانطلق في الدعوة إلى الله، فأنت أمامك أحد أمرين إذا كان على خطأ فانصحه، وإذا كان على حق فعاونه، فهل هناك أكثر من ذلك ؟ أما إن كان على حق وتعمل له مشكلة فمعنى هذا أنه حسد، وكل إنسان يؤلمه تفوّق أخ، أو انطلاق أخ فقد وضع نفسه بخندق المنافقين وهو لا يدري..

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

(سورة التوبة: من آية " 50 ")

لك أخ من سِنّك والله أطلقه بالدعوة، وصار له دعوة واسعة، فإذا كان على باطل فانصحه، وإذا كان على حق فادعمه وعاونه، وإذا عزّه الله فسيعزّك معه كذلك، أما هذه النفسية التي تريد كلما انطلق الإنسان فتكبّله وتقيّده وتطعن فيه وتشك بإخلاصه، فهذا تمزيق للمسلمين، وهذا لا يرضي الله أبداً.

الله عزّ وجل أعطى كل إنسان اختياره وأعطاه أجلاً يتناسب مع اختياره:

إذاً:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(14))

(سورة الشورى)

وهذه الآية دقيقة جداً أمضيت درساً في شرحها من قبل أسبوعين أو ثلاثة، أي إن ربنا عزّ وجل أعطى الإنسان اختياره، وأعطاه أجلاً يتناسب مع اختياره، فلو أخطأ ضمن هذا الأجل لا يحسمه، بل يؤخره إلى الوقت الذي أعطاه إيّاه.

والمعنى الأعمق إن ربنا عزّ وجل لو أنه حاسب الناس على أخطائهم لقضى عليهم وأهلكهم، لكنه يعطيهم مهلة لعلهم يتوبون، ويعودون، ويتفكرون، ويتذكرون، ومثال على إعطاء الأجل:

لو فرضنا أننا أجرينا للطالب مذاكرة أول سنة فأخذ صفراً، فهل نرسبه رأساً ؟ أم أن عنده فصلاً ثانياً وفصلاً ثالثاً وفحصاً أخير، وهناك فحص شفهي وتحريري ووظائف ونشاط، فليس من المعقول من أول مذاكرة أن ترسِّبه، فمن أعطيناه مهلة تسعة أشهر، فيها فصلان دراسيان وفيها مذاكرات وفيها شفهي وكتابي، وفحص نصفي، وفحص أخير، وجَمع للعلامات ومتوسِّطات، فهل من المعقول من أول مذاكرة أن نرسبه، هذا لا يعقل.

وعندما يقول ربنا إلى أجل، أي أنت يا عبدي انتبه، فإن رسبت اليوم، فهناك فصل ثان وثالث ومذاكرات، وفحوص، فالإنسان لمّا يرسب فليس معنى ذلك أن هلك، ولكن لو بقي على هذا الوضع فقد هلك، وأما أنه يستطيع أن يغيّر، ويبدِّل، فربنا من رحمته، يعطينا هذه المُهَل..

الخلافات بين الدعاة تبعد الآخرين عن الدين و تطعن به:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ (14))

(سورة الشورى)

أي أهل مكة، فعندما يجد الإنسان خلافات بين الدعاة هذا الطرف يطعن بالطرف الآخر يقول: أهكذا المسلمون !! وأحياناً تجد في بعض البلاد البعيدة يتقاتلون، بعدما انتصروا على العدو المُلحد يتقاتلون الآن وهل هذا الشيء معقول ؟ والله سقطوا كلهم، حرب مدمرة فقط لاستلام زمام الأمور ! بعدما كان هذا الجهاد في أعلى مستوى فقد هبط الآن، فالمشكلة مشكلة وعي (فأهل مكة عندما رأوا هذه الخصومات بين أهل الكتاب وبين المؤمنين) وقد جاءت الآية دقيقة جداً، فقال:

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(14))

(سورة الشورى)

فلو كان معك حق ساطع والذين يتعاملون بالحق مختلفون بين بعضهم، فأنت تشك فيهم كلِّهم، فما هذه القصة ؟ ولسان معظم الناس، لو وجدوا بين الدعاة خصومات، وطعناً، ولمزاً، وغمزاً، يقول لك: ما هذا؟ هكذا الدعوة إلى الله عزّ وجل ؟ أهذا دين هؤلاء كلهم ضد بعضهم ؟ والطرف الحيادي قد سقطت كل هذه الدعوة من عينه، فعندما يعمل الإنسان الخصومات مع الآخرين فقد سماه الله كفراً.

من فرّق بين المؤمنين و مزقهم ارتكب الكفر و هو لا يدري:

في آيات ثانية:

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 101 ")

لما اختلفت الصحابة بين بعضهم الأوس والخزرج لأن بعض اليهود كَبُرَ عليهم هذا الوفاق وهذا الود وهذه المحبة، فدسوا شاباً ذكّرهم بأشعار في الجاهلية يطعن ببعضهم بعضاً، فظهر بعض ضعاف العقول فاستل أحدهم سيفه والثاني استل سيفه فستصير مشكلة، فخرج النبي إليهم وقال:

((أتفعلون هذا وأنا بين أظهركم))

ونزل قوله تعالى:

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 101 ")

فهذا الذي يفرق بين المؤمنين ويعمل الإسلام جماعات وفئات وأحزاباً وطوائف وهذه ضد هذه، فهذا يرتكب الكفر وهو لا يدري، فقد مزّق المسلمين، فينظر غيرهم إليهم وكل هذا الإسلام يسقط من عينه، مع أن الإسلام على حق، والقرآن نَيّر بين أيدينا (وهذه نقطة دقيقة جداً) فمكانة المسلمين الكلية تسقط لو اختلفوا بين بعضهم، ولو طعنوا ببعضهم، فنحن المؤمنون نحترم كل الدعاة، والمساجد، والدعوات المخلصة، و هكذا المؤمن، فالدعاة إلى الله هم مدرسون لمنهج واحد، والمنهج هو الكتاب والسنة، وكلنا نقوم بتدريسه، فالكتاب واحد والسنة واحدة، ولا توجد تفرقة، فهذا الذي يرفع من قيمة الدعوة إلى الله في نظر الناس.

لا قيمة للدعوة إلى الله إطلاقاً من دون استقامة على أمره:

هؤلاء أهل مكة لما رأوا هذه الخصومات بين أهل الكتاب وبين المسلمين، قال:

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(14)فَلِذَلِكَ (15))

(سورة الشورى)

يا محمّد..

(فَادْعُ)

(سورة الشورى)

إلى الله..

(وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15))

(سورة الشورى)

فما دام هذا الواقع، خصومات، نفور، فأنت يا محمد ادع إلى الله واستقم كما أمرت، ولا قيمة للدعوة إطلاقاً من دون أن تستقيم على أمر الله.

على كل داعية أن يدعو إلى الله بلسانه و سلوكه:

هناك معنى آخر للآية: استقم على الدعوة أي اثبت عليها. والمعنى الثاني ادع إلى الله وكن قدوةً لهم، ادع إلى الله بلسانك وسلوكك.

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ (15))

(سورة الشورى)

هذه الخصومات، والعنعنات، والتبجُّح، والطعن.

(وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ (15))

(سورة الشورى)

فالدعوات كلها واحدة، من كتاب نكرة تنكير شمول.

(وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15))

(سورة الشورى)

الحجة لله علينا، الحُجَج الداخلية الفردية لا قيمة لها، والكتاب هو الحجة.

(اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (05-15): تفسير الآيات 16-18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-02-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من سورة الشورى.

اتحاد أهداف و وسائل المجتمع سبب قوته:

مع الآية السادسة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16))

(سورة الشورى)

ولكن نعود قليلاً إلى الآيات السابقة، كي نتابع المعنى المتصل بين آيات الدرس السابق وآيات الدرس الحالي، فربنا سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

أي تفرّقوا بسبب البَغي أي الحسد وطلب المكاسب الدنيويّة، إذاً الحق يجمع والباطل يفرّق، والآخرة تجمع والدنيا تفرّق، والقيم تجمع والحاجات تفرّق، فإذا أردنا أن نجتمع فلنطلب الدار الآخرة، وإذا أردنا أن نجتمع فليكن الحقُّ إمامنا، أما إذا أردنا الدنيا نتنافس، ونختلف، ويطعن بعضنا ببعض، ونتراشق التُهَم، وإذا أردنا أن نجتمع فيجب علينا أن تتحد أهدافنا ووسائلنا، أما إذا تفرّقنا، فكل إنسان طلب مصالح شخصيّة، ولو كان الإطار حقاً، والغلاف حقاً، وهذا مما يؤدّي إلى تفكيك الأمّة.

إيثار الدنيا على الآخرة سبب تفتت و تفرق المسلمين:

الآية الكريمة:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

أي

(بغياً)

سبب تفرُّقهم، وخصوماتهم، وتفتتهم، وسبب كونهم شيعاً وأحزاباً وملاً وطوائف، وهذا الوضع المأساوي سببه إيثار الدنيا على الآخرة، والحسد، وطلب الدنيا بوجاهتها، أو مالها، أو مكاسبها، أو بالأتباع.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ: من معانيها:

1 ـ اقتضت رحمة الله عز وجل أن يؤجِّل للناس أجلاً:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

وذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى اقتضت رحمته أن يؤجِّل للناس أجلاً، أي يعطيهم فرصة، كما لو أن الطالب نال صفراً في علامة المُذاكرة، فلو أنهينا له عامه الدراسي، واعتبرناه راسباً من أول شهر فهذه ليست رحمة، ولكن لو نال الصفر في المذاكرة الأولى فمعه لآخر شهر حزيران، فهناك مذاكرات، وفحوص، ومعدّلات، ونشاطات، فهذا مما يؤكِّد رحمة الله عزّ وجل..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

2 ـ إعطاء الله عز وجل الإنسان فرصة مديدة ليتعرض إلى رحمته و يصل إليها:

وهناك معنى آخر في هذه الآية: أنه ليس القصد أن يحاسبهم بل القصد أن يرحمهم، ولذلك يعطيهم هذه الفُرَص الجديدة، وعندما يكون هدف الإنسان أن يرحم الآخرين فكلّما استنفذوا الفرص يعطيهم فرصاً جديدة، فربنا عزّ وجل أعطانا فرصة مديدة..

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)

(سورة فاطر: من آية " 37 ")

أعطانا فرصة مديدة كي نتعرَّض لرحمة الله عزّ وجل، ونصل إليها، ونستحق سلامة الدنيا والسعادة في الآخرة.

الخصومات بين الدعاة إلى الله عز وجل تنعكس على مجموع الدعوة:

لكن النقطة الدقيقة جداً في هذه الآية أن مجموعة الأشخاص الذين يراقبون الخصومات، هذه الدعوة بأكملها قد تسقط، فإذا راقبت عدة دعاة يتراشقون التُهَم، ويجرح بعضهم بعضاً، ويبخس بعضهم مقام بعض، فقد تقول في ساعة غيظ: ما هذه الدعوة ؟ خصومات الدعاة تنعكس على مجموع الدعوة، ولذلك كما قلت في الدرس الماضي: سمّى ربنا عزّ وجل هذه الخصومات كفراً، قال:

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 101 ")

فليس من صالح الدعوة إلى الله، ولا من صالح مجموع المسلمين، ولا من صالح مستقبل هذا الدين أن تنشر معارف جانبيَّة، وخصومات، وعصبيَّات، وانحيازات بين الدعاة إلى الله عزّ وجل، إنهم إن فعلوا ذلك سقطوا جميعاً، وسقطت معهم الدعوة.

من رجّح مصلحته على مصلحة المسلمين ضعُف إخلاصه:

ذكرت لكم في الدرس الماضي كيف أن بعض الذين حاربوا المستعمرين في شرق آسيا، وكيف أنهم كانوا كباراً في عيون الجميع، فلمّا تخاصموا فيما بينهم وتناحروا تعجّبنا من هذا الوضع، وسكتت ألسنتنا عن أن نثني عليهم، فالخصومات بين الجماعات الدينيَّة خطيرة جداً، وتعود بالخطر على كل الدعوة إلى الله.

فلذلك هذا التفرُّق الذي كان بسبب البغي، والحسد، وطلب الرئاسة، وطلب المَجد، والسيطرة، والدنيا، والمال، والأتباع، هذه كلّها مكاسب دنيويَّة.

والإنسان أيها الأخوة بقدر إخلاصه (دقِّقوا في هذه الكلمة) إنَّه يُرَجّح مصالح المسلمين العامَّة على مصلحته الخاصَّة، وكلّما ضعف إخلاصه رجّح مصلحته الخاصَّة على مصالح المسلمين، والداعية الذي يرجّح مصلحة جماعته على مصالح جميع المسلمين هذا ضعفٌ في إخلاصه، ولذلك فنحن الآن بحاجة إلى أن نتعاون، وأن نتكاتف، أن يعذر بعضنا بعضاً، وأن نتعاون فيما اتفقنا، وأن يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا، نحتاج أن نحترم جميع الدعاة، وجميع العلماء من دون أن ننتقص منهم، وألا نجعل من مجالسنا نهشاً لأعراضهم ومكانتهم، فليس هذا في صالح المؤمنين إطلاقاً.

دعوة الله تعالى النبي الكريم بأن يكون قدوة للناس:

ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(وَإِنّ الّذِينَ أورثُوا الْكِتَابَ(14))

(سورة الشورى)

أي أهل مكّة الذين جاءهم هذا الكتاب..

(مِنْ بَعْدِهِمْ (14))

(سورة الشورى)

من بعد هذه الخصومات..

(لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(14))

(سورة الشورى)

لذلك يا محمّد

(فادع)

إلى الله على بصيرة، ادع إلى الله واعمل صالحاً، وكن قدوة للناس.

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ (15))

(سورة الشورى)

الثبات أساس وصول الإنسان إلى أهدافه النبيلة:

بعضهم قال: هذه الاستقامة في السياق تعني متابعة الدعوة، أي الإصرار، وتحمُّل المتاعب، والثبات، وفي الحقيقة لا يوجد إنسان وصل إلى أهدافه النبيلة إلا بالثبات، والله عزّ وجل يقول:

(أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

والله عزّ وجل يضع عقبات ليمتحن المؤمنين، فمنهم من يتجاوز هذه العقبات، ومنهم من يسقط، وهذه العقبات يضعها الله سبحانه وتعالى ليمتحن المؤمنين ؛ وليمتحن صبر المؤمنين، وصدقهم، وثباتهم، وإصرارهم على طلب الآخرة..

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ (15))

(سورة الشورى)

أعظم عمل على الإطلاق الدعوة إلى الله بصدق و إخلاص:

أنا والله أقول هذا الكلام وأتهيّب أن يُفهم على غير ما أردت، ما من نشاطٍ في إنسان يتذبذب بين أن يكون أخطر عملٍ على الإطلاق، وبين أن يكون أتفه عملٍ فالدعوة إلى الله، إذا رافقها صدق، وإخلاص، وتطبيق، والتزام فهي أخطر عمل على الإطلاق، وما من إنسانٍ يرقى إليك، لقوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ(33))

(سورة فصلت)

فما من إنسان أعظم من ذلك، إنه دعا إلى الله وعمل صالحاً، دعا وكان قدوةً، وأسوةً، ومثلاً أعلى، والتزم الأمر والنهي، دعا إلى الله وكان سبّاقاً إلى ما يدعو إليه. وكنت أقول لكم دائماً هذا الدعاء الذي يقصم الظهر:

((اللهمّ إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمّتني مني))

إنسان تدعوه إلى الله، فتبيّن له آية، فتشرحها، وتحلِّلها، وتبيّنها، ويصغي، ويصدِّق، ويطبّق، ويتألّق، ويرقى وأنت قاعد في أرضك، فأشقى إنسان عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنّة، ودخل هو بعلمه النار، ولذلك من أراد أن يصرف وجوه الناس إليه فليتجهّز إلى النار.

((من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء: أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله جهنم))

[زيادة الجامع الصغير: عن " أبي هريرة "]

المؤمن الحق يدعو إلى الله تعالى بالعقل و الشرع:

إذاً فلذلك يا محمّد بهذا التمزُّق، والتشردُم، والتبعثُر، والدعوة الساقطة بنظر المُنقطعين عن الله عزّ وجل، لأن أصحابها تراشقوا التهم، وتنافسوا الدنيا، وتدافعوا إليها، وطعن بعضهم ببعض، ولهذا..

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ (15))

(سورة الشورى)

فأنت دائماً بين أن تتبع العقل المتوافق مع الشرع، وبين أن تتبع الهوى المتوافق مع الشهوة، فإما أنت رحماني أو شيطاني، ربّاني أو شهواني، تتحرّك بما يمليه عليك العقل والشرع، أو بما يمليه عليك الهوى والشهوات..

الكتب السماويّة كلها من عند الله عزّ وجل:

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ (15))

(سورة الشورى)

أما كلمة

(مِنْ كِتَابٍ)

هذه كلمة في هذه الآية تؤلِّف القلوب، فكتابٍ نكرة، أي كل الكتب السماويَّة كما أنزلت حق، وكلُّها تلتقي مع بعضها بعضاً، إنَّها من مشكاةٍ واحدة، ولهدفٍ نبيلٍ واحد، ومن عند الله عزّ وجل..

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ (15))

(سورة الشورى)

الإنجيل كما أنزله الله على العين والرأس، والتوراة كما أنزلها الله على العين والرأس، والقرآن كما أنزله الله على العين والرأس.

النبي عليه الصلاة والسلام أمر أن يعدل بين الأديان:

(وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ (15))

(سورة الشورى)

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 64 ")

فيمكن أن نأخذ القواسم المشتركة في الأديان كلها، إذا آمنا بإلهٍ واحد، وآمنا بأن الخلق عباده، وأن على كل من عرف الله أن يستقيم على أمره، وأن يحسن إلى عباده، فهذا قاسم مشترك بين كل الأديان، فالنبي عليه الصلاة والسلام أُمِرَ أن يعدل بين الأديان.

من أيقن أن الله واحد وكتابه واحد ورسوله واحد أسرع إلى طاعة الخالق:

لذلك لو أن أهل الكتاب أيقنوا أن هذا القرآن من عند الله، وأن هذا الإنسان رسول الله ينبغي لهم أن يؤمنوا به، وأن يتابعوه وأن يعاونوه..

(اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ (15))

(سورة الشورى)

فهذا الشعور أن الإله الذي أكرم الصحابة الكرام هو نفسه ربُنا، الإله واحد، الذي أنزل هذا القرآن موجود معنا أينما كنّا، فالزمان تغيَّر، والمكان تغيَّر ولكن الله هو هو، وكتابه هو هو، والمبادئ هي هي، القيَم هي هي، فنحن إذا آمنا بأن الله سبحانه وتعالى واحد، وكتابه واحد، ورسوله واحد، وعباده كلُّهم عنده سواء يتفاضلون بطاعتهم له، انتهى الأمر.

الخصومات بين جماعة الأديان تغضب الله عز وجل:

هذه الفكرة التي تقول: إن الإنسان بآخر الزمان يصعب أن يصير، ففرص التفوُّق موجودة في كل زمان، فالفُرَص واحدة، والإنسان عنده مملكتان بيته وعمله، يتمكَّن أن يضبط جوارحه هذه بيده، ويتمكَّن أن يضبط لسانه، وبصره، وسمعه، ودخله، وإنفاقه، وبيته، وعمله وهذا الذي في قدرته، والإله موجود سميع وبصير..

(اللّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ (15))

(سورة الشورى)

أعجب ما يعجب الإنسان هذه الخصومات بين جماعات الأديان، لأنه على باطل، ولأنه عندما يتحرَّك الدين ويتغيَّر، ويدخل فيه ما ليس منه، فتجده بالطبع يصطدم مع الدين الآخر فمن هنا تأتي المشكلات، أما لو عادوا جميعاً إلى أصل دينهم، وإلى أصل توراتهم، وإلى أصل إنجيلهم، وعدنا إلى روح قرآننا، وعرفنا ربنا سبحانه وتعالى التقينا، فالله عزّ وجل لا يرضيه هذه الخصومات، وهذه الحروب، وتلك الأحقاد.

التغيير و التحريف أساس اصطدام الكتب السماوية مع القرآن الكريم:

البشريَّة تئن الآن إن كان في آسيا، أوفي أوروبا كما تعلمون الأحقاد الدينيَّة، والخصومات، والحروب الطاحنة فهل هذا يرضي الله عزّ وجل ؟ كلا لا يرضي الله، إذاً:

(وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنْ كِتَابٍ (15))

(سورة الشورى)

جاءت كلمة

(كتاب)

نكرة لتؤكِّد أن كل الكتب السماويَّة من عند الله، وأنها كلّها في الأصل حقٌ من عند الله، ولكن ما طرأ على بعضها من تغيير، وتبديل، وتزوير، وتحريف طبعاً عندئذٍ اصطدمت مع القرآن الكريم.

الله سبحانه وتعالى لا يتقبّل العمل إلا إذا كان خالصاً وصواباً:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (15))

(سورة الشورى)

كل واحد له عمله، وهذه كلمة دقيقة جداً، أنت تعرف عملك، فهناك عمل مبني على الاحتيال، وعمل مبني على الغِش، وعمل مبني على إيذاء الآخرين، وإنسان يصلح، وإنسان يفسد، وثالث يقدِّم، ورابع يأخذ، وخامس يحسن، وآخر يعتدي، وكل واحد له عمل، ولكن أسعد إنسان من كان عمله وفق الكتاب والسُنّة، ولذلك يقول بعض العلماء: **" الله سبحانه وتعالى لا يتقبّل العمل إلا إذا كان خالصاً، وكان صواباً وفق الكتاب والسنة، وخالصاً ابتغي به وجه الله ".**

وكل واحد منّا يحاسب نفسه حساباً دقيقاً ونحن في رمضان يسأل نفسه، هل عملي مطابق للكتاب والسنة ؟! فيه عدوان ؟ أم فيه بغي ؟ أم فيه أكل أموال الناس بالباطل ؟ بكسب المال. ومن حديث شريف يقول عليه الصلاة والسلام:

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[مجمع الزوائد]

من وصل إلى أن يكون كسبه حلالاً وصل لكل شيء وأصبح مستجاب الدعوة:

ما رأيت كلمةً جامعةً مانعةً موجزةً، مفعمة بالمعاني التفصيليّة كيف يكون طعامك طيّباً ؟ إذا كان ثمنه حلالاً، وكيف يكون الثمن حلالاً ؟ إذا كان الدخل حلالاً، وكيف يكون الدخل حلالاً ؟ إذا كانت حرفتك تنضبط بها تماماً بما أمر الله، فإذا وجد غش فمعنى هذا أن جزءاً من مالك حرام، لقد بعت هذه الحاجة على أنها مستوردة وهي وطنيّة، فأخذت سعراً غالياً، فصار جزء من مالك حراماً، فاشتريت به طعاماً فصار الطعام غير طيّب، وعندما كان الطعام غير طيب لست مستجاب الدعوة، ولذلك مليار ومئتي مليون إنسان يدعو الله عزّ وجل وأمرهم ليس بيدهم.

((يقول العبد: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنّى يستجاب له))

[الترمذي عن أبي هريرة]

أي أنك حينما تدع الطعام طيباً، أطب مطعمك أي ثمنه مالاً حلالاً، أي دخلك حلال، وفي كسب رزقك لا يوجد كذب، ولا غش، ولا تدليس، ولا إيهام، ولا احتكار، ولا بضاعة محرّمة، ولا تعامل محرّم، ولا شيء غير سهل، فإذا وصل الإنسان إلى أن يكون كسبه حلالاً وصل لكل شيء، ويصبح مستجاب الدعوة.

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

فكان السلف الصالح حريصًا حرصاً بالغاً على أن يطعم أولاده حلالاً.

من انضبط بمنهج الله عز وجل صار طريقه إلى الله سالكاً:

كل إنسان منّا أيها الأخوة الكرام، اعتقد اعتقاداً جازماً وأنا معك إلى أقصى مدى، لن يقلّ رزقك إذا استقمت على أمر الله، فبعض المطاعم يوجد فيها خمور، فيقول صاحبها: ماذا أفعل ؟ نحن أخذنا المطعم خمس نجوم، وإذا أردنا إلغاء الخمر يصير أربع نجوم، لا حول ولا قوة إلا بالله. يا سيدي الغ الخمر واطمس كل نجوم المطعم، واكسب رضاء الله عزّ وجل. فعندها لا يكون في دخل الإنسان مشكلة، ولا يتعامل ببضاعة محرّمة.

أعدهم لكم ؛ الغش، والكذب، والتدليس، والإيهام، والابتزاز، والاستغلال. فالإنسان يعرف، من خصائص النفس قال:

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

فالمحامِي يعرف إذا أوهم الموكِّل أن القضيّة رابحة مئة بالمئة، وهو يعرف أنها ستمتد معه خمس سنوات، فيمكن أن يأخذ منه خلال خمس سنوات مبالغ طائلة، وبعد هذا يفاجئه مرة واحدة أن القاضي لم يكن نظيفًا. الإنسان يعرف أنه يغشّ الناس، ولا حاجة لمن يوجّهه، هذه من خصائص النفس البشريّة، فالفطرة تعرف..

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

فالطبيب والمحامِي نفس الشيء، والمدرّس، يجد طالباً لا أمل منه إطلاقاً فيمنيّه بالنجاح ليعطيه دروساً خاصّة، فهذا الدخل صار حراماً، فالدخل الحرام، ثمن الطعام فيكون الطعام غير طيّب، أنت عند الله مرفوض، فما هذا الحديث:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

فعندما ينضبط الإنسان انضباطاً حقيقياً في عمله يصير دخله حلالاً، وطعامه طيّباً، ويصير مستجاب الدعوة، ويكون الطريق إلى الله سالكًا.

قليلٌ من الرزق الحلال خيرٌ من رزقٍ كثير فيه شبهة:

فيا إخواننا الكرام لا تتوهَّموا الدين بالصلاة فقط، تقولون صلينا، بينما المحل فيه عشرات المواد المحرَّمة، وإذا لم يكن في المحلّ دخّان يقِل البيع، أو طاولات زهر لا نبيع، أو ما ابتسمنا بوجه المرأة وضاحكناها، ومزحنا معها، وأثنينا على جمالها فإنها لا تشتري من عندنا، فمن قال لك هذا الكلام ؟ إذا كان الدخل متلبساً بالمعاصي، والحرمات، والمخالفات، وبالإيهام، والابتزاز، والغش، والتدليس، يصير الدخل غير حلال، وثمن الطعام غير حلال، والطعام غير طيّب، والدعاء غير مستجاب.

فيا إخواننا الكرام إذا عاهد أحدنا نفسه أن يجعل دخله حلالاً فقط، وصل إلى كل شيء، سبحان الله الحلال فيه بركة، ولو كان الدخل محدوداً فالله عزّ وجل يبارك فيه، وقد يعجب الإنسان كيف يعيش بهذا الدخل ؟ يعيش، إذا أعفاه الله عزّ وجل من مصاريف الأطبّاء والصيادلة، والأزمات، والطوارئ، والمصائب إذا أعفاه منها، وصار في قناعة، والمؤمن يأكل بمعي واحد، إذا أكل باعتدال، وإذا كان الشيء اشتراه من منبعه في وقته المناسب بأسعار معتدلة، وكانت الزوجة عندها إدارة وتدبير يكفي هذا الرزق الحلال، لذلك: قليلٌ من الرزق الحلال خيرٌ من كثير من رزقٍ فيه شبهة.

على الإنسان ألا يبني عمله على معصية:

إذاً:

(لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (15))

(سورة الشورى)

لا تبن عملك على معصية، لا تقل: لا أقدر، فهذه مصلحتي نشأت فيها هكذا. لك عمل وعملك أخطر شيء، وهذا العمل الذي معك في القبر، وكل إنسان يأتيه شبح مصيبة، أو شبح موت بشكل عجيب، وبثوانٍ معدودة يستعرض كل عمله، ويعلم أنه على حق أو على باطل، فالإنسان قبل أن تأتيه الأزمة، قبل وقوعه في ظرف صعب، يوجد طريق مسدود، قبل ما يجد أنه لا مجال يغيّر، وأنت الآن في بحبوحة راجع نفسك، يا ترى عملنا شيء فيه شبهة ؟ أو بضاعة محرَّمة ؟ أو تعاملاً محرَّماً ؟ أو علاقة محرَّمة ؟ أو معصية ترتكب في المحل التجاري ؟ أو مجالاً للإنسان يشعر أن دخله غير حلال ؟

فالسلف الصالح بارك الله لهم في أعمالهم، وفي أهلهم، وأولادهم، وتجارتهم، وصناعتهم، و زراعتهم، كلها فيها بركة ؛ بركة التوفيق، والحفظ، والرعاية..

لكل إنسان عمله و حسابه:

إذاً كلمة

(لَنَا أَعْمَالُنَا)

أنت لك عمل تجاري، ولك عمل وسط بيتك، يا ترى أنت أب مثالي أم غير مثالي ؟ أنتِ أيتها المرأة أم مثاليَّة أم غير مثاليَّة ؟ تقومين على رعاية أبنائكِ ؟

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

(الجامع الصغير: عن " أنس ")

فالمشكلة أن الإنسان يطلب الدنيا فالدنيا تتصادم، ولو أن الزوج أراد من الزواج المتعة، والزوجة كذلك يتصادما أحياناً، ولكن لو أرادت من هذا الزواج أن ترضي الله بخدمة زوجها، ورعاية أولادها، وأراد الزوج من خلال زواجه أن يأخذ بيد امرأته إلى الله ورسوله، وأن يدل أولاده على الله فإن هذه الأهداف النبيلة تتلاقى، وتتعاون، وتتكامل، وتتناسق، ويكون بينهما تنسيق.

فكل واحد له عمل، ولا أحد بإمكانه أن يحمل وزر إنسان آخر، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: من آية " 164 ")

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا (15))

(سورة الشورى)

أخطر شيء بحياة الإنسان زواجه و عمله:

أخ كريم والله أعجبني، يعمل في مطعم، اللحم نوع والإعلان عنه بنوع آخر أعلى بكثير، لم يتحمّل فتركه، لأنه عن طريقه يتم البيع، يجب أن تقول لهم إن هذا اللحم نوعه كذا، وهو ليس نوعه كذا، إنه أرخص بكثير، فمن قال له: هذا ليس شغلك. عندما تبني رزقك على الحرام هذا كذب، هذا بسعر وهذا بسعر، والزبون لن يعرف ولكن يسألك: ما نوعه ؟ هل بلدي، ضع لنا. وهو ليس بلدياً، فالأخ تحسّس، والبيع يتم على يده كل يوم، لو أنه إنسان يوهم الناس بنوع ويعطيهم نوعاً آخر فصار الدخل حراماً.

فأقول لكم دائماً: زواجك وعملك أخطر شيء بحياتك، لأنهما ألصق شيءٍ فيك، وألصق شيء فيك زواجك وعملك، فإذا اختار الإنسان الزوجة المؤمنة، أو إن لم تكن كذلك حملها على الإيمان، وأصلحها، واعتنى بها، وتعامل معها بالنفس الطويل حتى ارتقى بها إلى الله، واختار عمله بحيث لا يكون فيه شبهة، فوالله وصل إلى كل شيء، الزواج والعمل، هذه المعاني قلتها لكم استنباطاً من قول الله:

(لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (15))

(سورة الشورى)

كل واحد له عمل..

المذاهب الأرضيّة مبنيّة على فلسفة المعاصي والموبقات:

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا (15))

(سورة الشورى)

الحجَّة هنا معناها الاحتجاج، وأحياناً الإنسان يتسبَّب في الباطل، ويرفض المُناقشة الحُرَّة، ويرفض الأدلَّة القرآنيَّة، تأتيه بالقرآن فلا يقبله، يقول لك: هذه الآية ليس معناها هكذا، تأتيه بالحديث الصحيح لا يقبله، تأتيه بأقوال العلماء لا يقبلها، إنه يقبل دينًا وفق شهوته، وهواه، فإذا انقطع التحاجج أو امتنع، أو لم يحدث تحاجج فلا مانع..

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (15))

(سورة الشورى)

أي لا احتجاج بيننا وبينكم..

(اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15))

(سورة الشورى)

وعنده حينما نرجع إليه ينبئنا بما عملنا، فأنت على حق وأنت على باطل، وأنت صادق وأنت كاذب، وأنت محسن وأنت مسيء، أما الإنسان بالدنيا فيستخدم ذكاءه لتغطية عمله، ويقنعك أنه على الحق، الحقيقة هو يفلسف المعصية.

كل إنسان أعطاه الله عقلاً كي يرقى به إليه:

هناك كثير من المذاهب الأرضيَّة مبنيَّة على فلسفة المعاصي والموبقات، فالإنسان عندما أعطاه الله عقلاً كي يرقى به إلى الله، ويتعرَّف إليه، فلمَّا أراد الدنيا يوجد معه جهاز عجيب، ممكن تستخدم جهازاً تصير أكبر مصمِّم مثلاً، لكنه بهذا الجهاز استخدمه لتزوير العملة، فدخلت بسببه السجن، وهو نفسه ممكن ترقى فيه إلى أعلى مستوى اقتصادي، أنت استخدمه استخداماً آخر في غير ما صُنِعَ له. المركبة ممكن تنقلك إلى هدفك، وممكن تكون عكس ذلك. فلذلك:

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (15))

(سورة الشورى)

إذا انقطع التحاجج بين الناس ليست مشكلة، فهناك آخرة، وإله يعلم وسوف ينبّئ كل إنسان بما عمل..

(اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15))

(سورة الشورى)

كل إنسان مآبه إلى الله ليحاسبه على عمله في الدنيا:

العلماء قالوا: هذه الآية فيها عشر قضايا..

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15))

(سورة الشورى)

وهي من الآيات النادرة ففيها عشر قضايا.

أحياناً الإنسان عندما يناقش أهل الدنيا، وقد يكون مؤمناً عالي الإيمان، أحياناً يعجَز عن مناقشتهم لا لأنه ضعيف الحجّة، بل لأنه ليس بينه وبين الطرف الآخر لُغة مشتركة، فأنت مؤمن بالآخرة والآخرة خارج حسابه، فلا مناقشة، وإذا آمن الإنسان بالآخرة بحياة أبديّة، والدنيا مزرعة الآخرة، فهذا له منطلقات وله أهداف، لو تناقش مع إنسان كافر بالآخرة لا يلتقوا، هذا المال عنده كل شيء، الشهوات تملكه، المكاسب هدفه، فمادام لا يعتقد بيوم الحساب، ولا في الآخرة، إذاً يعد ذكياً إذا حصّل أكبر مبلغ ممكن في أقل جهد ممكن، معنى هذا إذا شخص هرّب مادّة مخدِّرة يكون ذكياً جداً لأنه حصل على أموال طائلة بيسر بسيط، لكن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر لا يستطيع أن يفعل هذا، في عنده مبادئ، في عنده أهداف، وأحياناً ينقطع الاحتجاج بين الناس، لا لأنهما على باطل ؛ لا قد يكون أحدهما على حق، إلا أنه حينما لا يكون هناك لغة مشتركة، ولا مبادئ، ولا قيَم مشتركة ينقطع، وإذا انقطع الاحتجاج بين الناس فهناك آخرة، كلنا إلى الله آيبون راجعون، والله سبحانه وتعالى ينبّئ كلاً منا بعمله وبمستواه.

المؤمن منضبط و مطبق لكل ناحية من نواحي الحياة:

الآن:

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16))

(سورة الشورى)

أي أن الله عزّ وجل أنزل هذا الكتاب على عبده، وعبده النبي عليه الصلاة والسلام دعا إلى الله، والناس استفادوا، واستجابوا، واطمأنوا، وسعدوا، وتألّقوا، على الرغم من كل هذا الإنجاز العظيم للدين، انظر كيف أن المؤمن منضبط أشد الانضباط.

امرأةٌ علمت أن زوجها تزوّج امرأةً ثانية، لكنها مؤمنة فرضيت، المرأة الثانية أيضاً مؤمنة، توفّى الله هذا الزوج، فما كان من الأولى إلا أن أرسلت للثانية نصيبها من الإرث، فقالت لها الثانية: **" لقد طلّقني قبل أن يموت، ليس هذا من حقي".** شيء لا يصدّق أن إنسانًا يقف عند الحدود بهذه الدقّة، فهذا هو المؤمن، هذا مطبق بكل نواحي الحياة ؛ في البيع والشراء، والتجارة، والتعامل.

من استجاب لله أصبح إنساناً كاملاً:

إذاً:

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ (16))

(سورة الشورى)

عندما استجاب الإنسان لله صار إنسانًا كاملاً، تثق بأمانته، وصدقه وإخلاصه وعفافه وإنصافه وإحسانه وإنكاره لذاته، فهذه الشخصيّة الفذّة التي صنعها الدين، بعد هذا الإنجاز الضخم تحاجج في هذا الدين، وتحاول أن تثبت العكس، وأن هذا الدين عبارة عن خرافة، وأنه شعور بالضعف عند بعض الناس ؟ إنه كلام غير معقول..

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ (16))

(سورة الشورى)

فالناس استجابوا، وطبّقوا، وسعدوا، وتألّقوا، وارتقوا، فانظر إلى مجتمع المؤمنين ليس فيه كذب، ولا تدليس، ولا غش، ولا خداع، ولا أعمال منحطّة، ولا قذارة، ولا عدوان على الأعراض، بل عفّة بالغة، فهذا المجتمع المؤمن الراقي أليس هذا دليلاً عظيماً على أن الدين حق ؟

فإذا لم تر الجامعة ولكنك رأيت خريجي الجامعة، فوجدت علماً ما بعده علم، وأخلاقًا انضباطيّة، وروحاً موضوعيّة، واندفاعاً إلى خدمة الناس، وإنصافًا، واعتدالاً في الأجور، ما هذه الجامعة يا أخي ؟ هذا دليل الجامعة التي خرّجت هؤلاء، فلو لم ترَ الجامعة ولم تدخل إليها لكنك أمام نماذج من خريجيها.

الإيمان يربي أشخاصاً صادقين مخلصين و أمناء:

فهذا الدين يقدّم نماذج، والله أخ بعث إلي برسالة مرّة قال لي: عشرين مليون ليرة في ذمتي، ولا يملك أصحابها أية وثيقة ولا علم أنها عندي، وقد توفي الأب فجأةً وما أعلم أهله بذلك، بادر إلى نقد هذا

المبلغ للورثة، وإذا لم يفعل ذلك لا أحد يعلم بهذا إطلاقاً، فالقضيَّة بينه وبين صاحب المال وتوفي فجأةً، فإيمانه دفعه إلى أن يؤدِّي هذا المال للورثة، الإيمان يصنع المعجزات يا إخوان.

فتصور مجتمعاً ليس فيه كذب أبداً، يا لطيف ! إنه شيء عجيب، ولا انحراف، ولا خيانة، ولا عدوان، بل فيه إنصاف، ورحمة لكنَّا في حياة غير هذه الحياة، نحن أحياناً مجتمع صغير تجد فيه قيَماً فيرتاح الإنسان، يسعد، يطمئن، فالآن إذا ذهب أخ مثلاً إلى أخيه وله مصلحة، كله طمأنينة أنه سينصحه، ولا يغشّه، ولا يزيد في السعر عليه، ولن يكذب عليه، سر الطمأنينة أنه مؤمن يخشى الله.

أما إذا دخلت إلى إنسان لا يعرف الله تخاف منه، وستقيده بعقد، وستخاف أن يضع قطعة مستعملة مكان قطعة جديدة، وأن يكذب بالسعر، وأن يغافلك بقضيَّة، تخاف أن يأخذ البنزينات، تخاف يبدِّل قطع بالسيارة لا ترتاح له أبداً، أما المؤمن ترتاح له، هذه من ثمار الإيمان، الإيمان يربي أشخاصاً صادقين، مخلصين، أمناء، منصفين، أشخاص متواضعين.

الشقي من وضع نفسه بخندق ضد الدين:

فبعد أن استجيب لله، وتألّق الناس، والآثار واضحة جداً، يأتي بعض الناس ليدحضوا أصل الدين، وأن هذه غيبيات، يقول لك: إنها أفكار ليست يقينيَّة. وهذا اتجاه غير صحيح، قال:

(حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ (16))

(سورة الشورى)

أي حجّتهم مردودة بألف دليلٍ ودليل، بالدليل النَقلي، والدليل العقلي، والواقعي، والفطري، فالفطرة تؤيّد، والعقل والواقع والنقل كلها تؤيّد..

(حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16))

(سورة الشورى)

وبعد ذلك فالإنسان أيها الأخوة الكرام يكون غلطان أشد الغلط، وشقياً أشد الشقاء لو وضع نفسه بخندق ضد الدين، فهو دين الله عزّ وجل، الإله معه، وهو الخالق، وقد فعل هذا فرعون فكان مصيره الغرق، فعل هذا قارون انتهى، فعل هذا النمرود انتهى، هذا هو التاريخ، الذين عارضوا الدين بقوا في مزبلة التاريخ، فأنت بطولتك أن تكون في خندق المؤمنين، داعماً لهم، مُعيناً إيّاهم، مصدِّقاً لهم، فأخطر شيء عندما يأخذ الإنسان موقفًا معادياً للدين، أو معادياً لمن سمح الله لهم أن يكونوا دعاةً في هذا الدين، طبعاً هم ليسوا معصومين، لكن نحن يجب علينا ألا نشرّحهم بل يجب أن نعينهم، نشجعهم، نغض البصر عن بعض الهفوات حتى يتقدَّم الحق.

العمل الصالح من لوازم الإيمان:

فيا إخوان توجد نقطة دقيقة جداً: هذا الباطل يتمدّد، بحكم طبيعة الحياة، فالحياة حركة، وكل إنسان يحب أن ينمي اتجاهه، فإذا تنامى الباطل والحق لم يتنامَ، يتحاصر الحق، إذاً التواصي بالحق سبب لبقاء الحق، فالقضية قضية وجود نكون أو لا نكون، إذا كان الحق منحسراً ومنكمشاً، والمسلم متقوقع وقال: ليس لي دخل، هم أحرار. فإذا كان لك ابنة أخ، ولك ابن أخ ولك أخ فانصحهم، فهذه الآية التي سمعتها انقلها لأخيك، انقلها لابنك، وجارك، وزميلك في العمل، لا تكن منكمشًا لأن العمل الصالح من لوازم الإيمان، إذاً يجب أن ينمو الحق لكي يحافظ على وجوده..

(وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16))

(سورة الشورى)

للميزان معنيان:

1 - الميزان هو العدل:

الآن:

(اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ (17))

(سورة الشورى)

بعضهم قال: الميزان هو العدل. أي يوجد بالقرآن الكريم مبادئ العدل، وهي كثيرة، وتشريع الزواج، والطلاق، تشريع التعامل في البيع والشراء، تشريعات كثيرة في القرآن، هذه التشريعات هي في الأصل مبادئ للعدل، ومبادئ العدل هي الميزان، فهذا تفسير.

2 - الميزان هو العقل:

هناك تفسير آخر: الميزان هو العقل، ممكن لنا أن نزن به الأمور، ربنا عزّ وجل جعل الميزان مع العقل متكاملين، وجعل الكون مع العقل متكاملين، في آية أخرى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(7))

(سورة الرحمن)

وهذه الآية الثانية، اثنين لا يوجد غيرهما..

(اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ (17))

(سورة الشورى)

من لوازم القرآن أن الله تعالى أعطانا قوّة إدراكيّة لندرك ما فيه من مبادئ:

فما قيمة الكون من دون عقل ؟ العقل قوة إدراكيّة، ما قيمة العقل من دون كون ؟ يتكاملوا، ما قيمة هذا الكتاب من دون قوة إدراكيّة عند الإنسان ؟ الله قال:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: من آية " 5 ")

إذا كان المخلوق ليس عنده قوّة إدراكيّة فهل ينفعه هذا الكتاب ؟ إنه لا ينفعه، إذاً من لوازم هذا الكتاب يكون الله عزّ وجل قد أعطانا قوّة إدراكيّة لندرك ما فيه من مبادئ، وتصوُّرات، وقواعد، وأوامر، ونواه، وحكم. إذاً الميزان هنا إما أنه مبادئ العدل التي جاء بها القرآن والتي تحكم بين الناس بالعدل، وإما أن هذا العقل الذي لولاه لما كان لكلام الله من معنى، بالعقل ندرك كلام الله، فالعقل وكلام الله متكاملان، كما أن الكون والعقل متكاملان لا نفع لأحدهما من دون الآخر..

كل إنسان متحرك و أجله ثابت فسيصل إلى النهاية لا محالة:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ(17))

(سورة الشورى)

(السَّاعَةَ)

كما قال بعض المفسِّرين: أي يوم القيامة، أو يوم البعث. فلماذا هي قريب ؟ إن الإنسان عندما يتحرّك فمعنى هذا أنه وصل، فإذا دخل أول جامعة أخذ ليسانس وهو في البداية، وما دام دخل فقد مشي، إنها أربع سنوات تمضي كلمح البصر ومادام القطار انطلق وصل، أخي لم يصل، ما دام انطلق وصل وهذا معنى **" كل متوقع آت وكل آتٍ قريب ".**

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ(17))

(سورة الشورى)

فنحن كم رمضان أكرمنا الله به ؟ فمن رمضان لرمضان، كل مرّة تراويح ودروس، وبعد هذا يأتي الأجل، و هذا له آخر رمضان، وهذه آخر جمعة صلاّها، وهذا آخر عمل عمله، وهذه آخر بناية عمّرها، في أجل، فمادام الأجل ثابتًا وأنت متحرّك فمعنى هذا أنك وصلت ولو لم تصل، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من آية " 1 ")

ومعنى هذا أنه لما يأتِ، وكأنه آت، فإذا أنت ماشٍ باتجاهه ومعنى ذلك أنك وصلت.

الموت لا ينتظر فعلى الإنسان أن يهيئ نفسه من أول لحظة:

إذاً عندما يضع الإنسان ساعة الفراق نصب عينيه يكون أسعد إنسان، فيهيّئ نفسه، شركة الطيران (هذه نادرة جداً) يقول لك: الإقلاع في ساعة نخبرك عنها فجأةً بالهاتف، إنها بين الثانية عشرة ظهراً والثانية عشرة ثاني يوم الظهر(أربع وعشرون ساعة) وأنت لا تملك سوى دقيقة فقط، تنطلق من بيتك فتركب السيارة لتكون في المطار، وبأية لحظة يخبّرونك ضمن الأربع والعشرين ساعة، أليس من العقل أن تهيّئ نفسك من أول ساعة ؟ هذه الأربع والعشرون ساعة في أية لحظة يخبرونك، وليس لديك وقت ولا ينتظرونك، ومعنى هذا الحكمة تقول: يجب أن تهيئ نفسك من أول لحظة، بأية لحظة اتصلوا بك وطلبوك وأنت جاهز، والموت كذلك، الموت لا ينتظر، فهل أنت مصفي حساباتك، وعلاقاتك، إنها علاقات شركة، وعلاقات ذمم، وإنه شيء غير واضح، فهل عملت وصية، الأمور كلها واضحة، هناك شيء ليس لك وكاتبه باسمك، فهذا كله يجب أن ينتبه له الإنسان..

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلّ السّاعَةَ قَرِيبٌ(17))

(سورة الشورى)

من ازداد علماً ازداد خوفاً:

الذين يكفرون بها..

(يَسْتَعْجِلُ بِهَا الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا (18))

(سورة الشورى)

استخفافاً، متى يا سيدنا ؟ أكثر الناس يسألون عنها استخفافاً..

(وَالّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا (18))

(سورة الشورى)

ولو تقرأ تاريخ الصحابة تجد العجب العُجاب، فإنسان يخاف هذا الخوف كسيدنا عمر **" ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيماً ". " ليتني ألقى الله لا لي ولا علي ".** فمعنى هذا أنه كلّما كبر عقل الإنسان يكبر خوفه.

فأنا مرّة دخلت إلى معمل فرأيت صاحب المعمل مهتماً جداً، فسألته: خير ؟ قال لي: الجسر منكسر من النصف. والله ما رأيت شيئاً وبعدها رأيت فعلاً أنه يوجد شق صغير، فالماء المالح بأساسات المعمل فتّتت التربة من تحت الاستناد فانزاحت العضاضة وانكسر الجسر، قال لي: تحتاج إلى أربعمئة ألف أو

خمسمئة ألف تدعيم. قلت: لو رآها دهّان لقال لك: تحتاج إلى معجون. فهناك فرق كبير بين دكتور مهندس يقول له: تحتاج إلى خمسمئة ألف تدعيم، وبين معجون، فكلّما ازداد علم الإنسان يزداد خوفه.

على الإنسان أن يراقب الله دائماً و يهيئ جواباً لكل سؤال:

أحياناً تكون هناك أمراض خطيرة ولكن ليس لها أعراض، فيمكن أن يظهر بالتحليل فتجد لون الطبيب يتغير، لكن المريض يقول: لا شيء عندي. فهذا الجاهل يقول ذلك، أما العالِم فيعرف ماذا هناك، فكأن الخوف يتناسب مع العلم، وكلّما ازداد علمك يزاد خوفك، وكلّما قلّ العلم يقول لك: ما الذي حدث ؟ كلمات الاستخفاف واللامبالاة دليل الجهل، والآتي هو القدوم على الله عزّ وجل.

والله كل كلمة، وهذا إيماني، كل كلمة، وكل ابتسامة، وكل مبلغ تقبضه من أين قبضته ؟ وكل مبلغ تدفعه لمن دفعته ؟ ولماذا دفعته ؟ وما هي النيّة ؟ إذا عرف الإنسان أنه يوجد سؤال دقيق، وأن هناك حساب، والنيات مكشوفة عند الله عزّ وجل..

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

فإذا أيقنت أنه هناك وقفة لابدّ منها، والحساب دقيق، وليس معك حجّة، ولذلك فالنبي قال:

((إذا لم تستح فاصنع ما شئت))

[كشف الخفاء]

من معاني هذا الحديث أن الحساب مع الله، فإذا كانت معك حجّة لله، ومعك مبرّر فليس هناك مانع، فأنت دائماً راقب الله، وهيئ جواباً لله.

السعيد من لام نفسه و حاسبها حساباً عسيراً:

كل واحد منا بأية حرفة، اترك الناس قد يكون الشخص ضعيفاً أمامك، وقد يكون جاهلاً، فإذا كنت على جانب من العلم والطرف الثاني جاهل، فتقول له: أريد ثمانية عشر تحليلاً. فيقول لك: حاضر دكتور. لا يحكي ولا كلمة لأنه واثق منك، ولكن الله يعرف إذا كان العدد مطلوباً كله أو نصفه، فأنت مكشوف كشفاً كاملاً عند الله عزّ وجل، فقبل أن تتكلّم أو تطلب، أو ترفع السعر، أو تنزل السعر، أو تحلف يميناً كذباً، تدلِّس، تغش، قف فهل معك لله جواباً ؟ هيّئ لله جواب وانتهى الأمر..

(بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا (18))

(سورة الشورى)

إذاً لينخلع قلب الإنسان خوفاً من الآخرة أن يكون غير مؤمن **" التقيت بأربعين صحابياً ما منهم واحد إلا ويظن نفسه منافقاً "** إنها شدة الخوف من الله، ولا يرضى عن نفسه إلا إبليس، أما المؤمن فقلق، إذ عنده قلق مستمر، لكن هذا قلق مقدّس وليس قلق العقاب، فالقلق المقدّس هل الله راضٍ عني ؟ هل عملي مقبول عنده ؟ وهل نيتي طيّبة ؟ وهل لي مقصد دنيوي ؟ فدائماً يحاسب نفسه، وهذا الحساب المستمر يرقى به، والله أقسم بالنفس اللوّامة فقال:

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(1)وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(2))

(سورة القيامة)

وكلّما لمت نفسك، وشددت عليها، وحاسبتها حساباً عسيراً، واتهمتها، وحاولت أن تقوّمها فأنت مع السعداء، فالذي لا يؤمن بها يستعجل بها استخفافاً.

من لم يُدخل الآخرة في حساباته اليومية خسر الدنيا و الآخرة معاً:

قال:

(يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(18))

(سورة الشورى)

أي إذا لم يدخّل الإنسان الآخرة في حساباته اليوميّة. إذ كل واحد منّا يدخل بحساباته أشياء كثيرة، يدخل في حساباته أن هذه المادّة يمكن أن يسمح باستيرادها، يقول لك: أخذت على الخفيف، أنا صاح، تجد التاجر كل قضاياه واضحة في ذهنه، فلماذا الأمور الأخرى ليست واضحة الوضوح نفسه ؟ ولماذا لا تدخل الآخرة بحساباتك اليوميّة ؟ كيف سأواجه ربي وهذه الحاجة ليست لي، اغتصبتها اغتصاباً ؟ كيف أواجه ربي وأنا أدلِّس في البيع والشراء ؟ أبيع مواد غذائيّة وفيها مواد مسحوب خيرها ؟ حليب ليس فيه دسم أبداً وأبيعه كامل الدسم، والأطفال كلهم صغار لا يعرفون، كيف سأنام مساءً ؟.

أنا والله أعجب، والله أيها الأخوة أعجب ممن ينام الليل ومتلبّس بحقوق العباد، أو له انحرافات، أو آكل حقوقاً ليست له، فكيف تنام ؟ والديّان لا يغفل ولا ينام، فأبداً إذا كان للعلم مؤشّر، فالمؤشّر الخوف معه تمامه، وكلّما ازداد علمك ازداد خوفك من الله.

العلم مفتاح كل شيء في حياة الإنسان:

رويت لكم سابقاً أنّ أحدهم قال لي: أنا لا أخاف من الله (طالب أرعن) قلت له: معك حق يا ابني. هو استغرب كيف هذا ؟ طبعاً أحياناً يأخذ الفلاح معه على الحصيدة، ابنه عمره سنتان، يضعه بين القمح

يمر ثعبان كبير فيمسكه، ولا يخاف الطفل الصغير، لأنه لا إدراك عنده، وأما لو رآه رجلاً يقفز من خوفه، أما إذا رآه طفل صغير فلا يخاف منه، بل يلمسه. فالخوف يتنامى مع الإدراك.

فالطبيب يعرف الجراثيم، وأحياناً يعرف مضاعفات شيء غير مغسول، فتجده على الفور يغسل، ويعتني، لأنه يرى حالات مرضيَّة، وإنتانات، وعدوى، وأمراضاً، فأبداً يتنامى الخوف مع العلم، فالعلم هو مفتاح كل شيء..

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا(114))

(سورة طه)

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّك فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً.

على الإنسان ألا يتخذ أي موقف من المؤمن الورع:

هذه الآية دقيقة الذي يستخف بها غير مؤمن، والمؤمن مشفقٌ منها..

(وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(18))

(سورة الشورى)

وعلى الإنسان ألا يكون في خندق معادٍ للدين، و هذه نصيحة كبرى، فكلنا مؤمنون والحمد لله، ولكن أحياناً يكون له شريك أشد ورعاً منه، و هو يأخذ الأمور بالحل الأبسط، فإذا كان شخص أورع منك فلا تعاده، إذا لم يحب الاختلاط فلا تعاده، ولا تأخذ موقفاً ضد المؤمن الورع.

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ندخل في قوله تعالى:

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(19))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (06-15): تفسير الآية 19 ، الله لطيف بعباده
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-03-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس من سورة الشورى.

الله لطيف بعباده:

مع الآية التاسعة عشرة وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(19))

(سورة الشورى)

كي نوضِّح معنى اللطف الإلهي، لو أن قائد مركبةٍ أوقفها فجأةً، لآذى كل من في المركبة، أو لو أنه أقلع بها فجأةً لآذاهم أيضاً، لكن قائد المركبة اللطيف هو الذي يُوقفها ببطءٍ تدريجي، دون أن يشعر الراكب أنها وقفت، ثم يقلع بها تدريجياً دون أن يشعر الراكب أنها أقلعت، هذا هو المعنى المادي لكلمة لطيف.

الأرض أيها الأخوة تدور حول الشمس في مسارٍ إهليلجي ـ بيضوي، والمسار البيضوي له بعدانٌ عن مركزه، بعدٌ أعظمي، وبعد أصغري، ونظراً لأن الشمس تجذب الأرض، فللأرض سرعةٌ وهي في بعدها الأعظمي، وسرعةٌ وهي في بعدها الأصغري، حينما تصل إلى المنطقة الصُغرى (إلى المسافة القريبة من الشمس) تزيد من سرعتها زيادةً ينشأ عنها قوةٌ نابذةٌ تكافئ القوّة الجاذبة، إذاً لابدّ من أن تزيد السرعة هنا، ولابدّ من أن تقلّ هناك.

لكن من عظمة الخالق أن هذه الزيادة تكون بتدريجٍ شديد، وهذا النقصان يكون بتدريجٍ شديد، وقد عبَّر الرياضيون عن هذه الحادثة بالتسارع والتباطؤ، فتسارع الأرض لو كان عالياً لانهدم كل ما عليها، وتباطؤ الأرض لو كان عنيفاً لانهدم كل ما عليها، لكن الله لطيفٌ بعباده (هذا المعنى التقريبي للطف)، أي أن الله عزّ وجل يقود عباده إلى مصالحهم الدنيويّة والدينيّة برفق.

الله عزّ وجل يقود عباده برفق إلى مصالحهم الدنيويّة والدينيّة:

لو جاء القرآن في أول آية منه يحرِّم الخمرَ، والخمرة في دم العرب في الجاهليّة، لرفضوا هذا الدين كلّه، فالموضوع مُجَمَّد عرّفهم بذاته من خلال الكون، ودعاهم إلى الاتصال به، وبيّن لهم أنه لا يليق بكم أن تُصلّوا وأنتم في سُكرٍ شديد، ثم مرحلة بعد مرحلة بعد مرحلة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

(سورة المائدة: من آية " 90")

إذاً فالله كان لطيفًا في تحريم الخمر، فالتعريف الدقيق للطف الإلهي: أن الله سبحانه وتعالى يقود عباده إلى مصالحهم الدنيويَّة والأخرويَّة برفقٍ، ولطفٍ، وتدريجٍ، ويسرٍ من دون أن يشعروا بعنف الصدمة.

وهذا هو المنطلق، أي أن الله لطيف، فقد يكون الإنسان مليئاً بالنقائص والانحرافات، فيعالجه مرَّةً تلو المرّة، يعالجه ويريحه فينتعش، ثمّ يظهر له نقيصة ثانية ويأتي التأديب عليها، فيتذلّل ويتوب ويعود إلى الله، فيريحه لفترة، الثالثة، وتمضي عشر سنوات، إلى عشرين سنة كان كتلة نقائص فصار مجموع كمالات دون أن يشعر. فالتطهير السريع العنيف مُهلك، وقد وصف أحمد شوقي النبيّ عليه الصلاة والسلام فقال:

داويت متئداً وداووا طفرةً وأخفُّ من بعض الدواءِ الداء

* * *

معالجات الله للإنسان لطيفة كي تقوده إلى ما يجب أن يكون عليه:

أحياناً يكون الدواء أصعب من الداء، وأكثر إيذاء للنفس من الداء نفسه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عليك بالرفق، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه))

[الجامع الصغير: عن " عائشة "]

((إن الله رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف))

[أخرجه مسلم عن "عائشة "]

والنبي قال:

((علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف))

[الجامع الصغير: عن " أبي هريرة"]

واللهِ موضوع اللطف يمكن للإنسان أن يمضي فيه وقتًا طويلاً جداً، لأن كل ما في الكون يشهد باسم اللطيف.

فالهواء لطيف، ونحن في أمسّ الحاجة إلى الهواء، فهل تصدِّق أن فوقك أطنانًا من الضغط الجوي وأنت لا تشعر ؟ ولو أن هذه الأطنان قلّت لخرج الدم من أوعيتك، ومن أنفك، ومن فمك وأنت لا تشعر، وهذا الهواء بلا رائحة، لكنّه إذا تحرّك بعنف دمّر كل شيء، يحمل طائرة تزن ثلاثمئة وخمسين طنًا وهو هواء.

والماء لطيف سريع النفوذ، ينفذ في أدقّ المسامات، ويتبخّر في أقل الدرجات، ويتلوّن بأي لون، مذيب يذاب فيه معظم الأشياء، فالماء يؤكِّد لطف الله عزّ وجل والهواء كذلك.

وعندما تنزع أسنان الطفل اللبنيَّة بلطفٍ لا يستطيع أكبر طبيب أسنان أن يفعل ذلك، فعلى قدر مهارة الطبيب لكن لابدَّ من إبرة بنج، توضع هذه الحقنة في اللثة فتسبب ألماً شديداً، لكن الطفل الصغير وهو لا يدري إذا بسنِّه بين الطعام، فكيف تحرّك السن من جذوره ؟ وكيف انقطع العصب ؟ وسحْبُ العصب لا يحتمل أحياناً، وعند قلع السن إذا كان التخدير غير ناجح يصيح المريض صيحةً ما صاح مثلها في حياته، لكن ربنا لطيف.

فالتعريف الجامع المانع للطيف أنه يوجد هدف وأنت هنا، ويمكن أن تنقل له نقلة عنيفة تُهَشِّم الإنسان حين تصدمه، وأن تنتقل نقلة لطيف، و كل واحد منَّا يتصوَّر كيف تطوَّرت حياته، شيء من التذكير والتخويف والتبشير والإنذار، ووعد، ووعيد، وإكرام، وحجاب أحياناً، وأحياناً تجلٍّ، وأحياناً جفوة أو تخويف، أو مرض، أو شدَّة خارجيَّة، وهذه معالجات لطيفة كي تقود الإنسان إلى ما يجب أن يكون عليه.

إن الله رفيقٌ يحب الرفق:

لو نظر الإنسان إلى ماضيه كيف أن الله سبحانه وتعالى تلطّف به فنقله من حالٍ إلى حال، ومن درجة إلى درجة، ومن منزلة إلى منزلة، ومن مستوى استقامة إلى مستوى أرقى، ومن مستوى في إقباله إلى مستوى أرقى، هذا هو لطف الله عزّ وجل..

وجدناك مضطراً فقلنا لك ادعنا نجبك، فهل أنت حقاً دعوتنا

دعوناك للخيرات أعرضت نائياً فهل تلقَ لمن يحسن لمثلك مثلنا

* * *

أي أن الله عزّ وجل لطيف، ترتكب خمسين معصية ويرزقك، وأنت صحيح البدن، معافى ومرزوق، يعالجك واحدة واحدة، ولو حاسبك حساباً سريعاً، وفي استقصاء لهلكك، فربنا لطيف بعباده ؛ لطيف في تربية أجسامهم، فهذا الجسم ينمو شيئاً فشيئاً، إلى أن يشتدّ عوده في العشرين، ويكتمل في الأربعين، ثم يميل هذا الميزان إلى الانخفاض، ثم يردُّ إلى أرذل العمر، فكل شيء بالتدريج.

ومجيء الضوء تدريجاً، فلو أنّ إنسانًا مستغرقًا في النوم في غرفة مظلمة، وتألّق المصباح فجأةً لتضايق، لكن ربنا عزّ وجل يبدأ الضوء بخيط أبيض في الأفق (وهذا هو الفجر)، وهذا الخيط يتسع ويتسع إلى أن تشعر أن الجهة الشرقيَّة أكثر إضاءة من الغربيَّة، ثم يبزغ قرص الشمس.

فحينما يكون قرص الشمس على مستوى النظر مقبولاً، تشاهده بملء عينيك دون أن تنزعج، لأن هذا الشعاع يتخطّى الطبقة الهوائيّة لا عمقاً بل أفقاً، فالطبقة الهوائيّة حينما يتخطّاها الشعاع أفقاً يخفِّف الهواء منها، فمنظر الشمس في الشروق رائع جداً، وفي الغروب رائع أيضاً، لكن قل: ما أبدع الظهيرة! وانظر إلى الشمس بعينيك فلا تتحمّل شدة الضوء، بل تنبهر، وفي حالات يضعف البصر من الانبهار، وأحياناً الانبهار يسبّب خللاً في الشبكيّة وتخريباً فيها، ولكن حينما تكون الشمس على مستوى النظر تكون لطيفة، ومنظرها مقبول، وفي الغياب مقبولة، أما وهي في كبد السماء فلا تحتمل، فالله لطيف.

الله عز وجل في كل شيء له آية تدل على أنه لطيف:

أقول: لو فكّرت في كل شيء، بدءاً من خلق الإنسان إلى نموّه في رحم أمِّه، إلى ولادته، فالله لطيف، فهذا الجنين في بطن أمِّه عندما يخرج، فهو هرمون لا يُرى بالعين، يفرز من غدّة صمّاء في الجسم يعطي أمراً لحوض المرأة فيتحرّك، وحوض المرأة قبل الولادة يتحرّك ويتمفصَل، فيصير المكان مناسباً لخروج الطفل، فيأتي الطلق بتقلّصات لطيفة، أول الأمر وكل نصف ساعة تقلّص واحد، وبعد هذا كل خمسة وعشرين دقيقة، وبعدها كل عشرين، ثم كل خمس عشرة، ثم كل عشرة، وكل خمس، فانظر إلى هذا التزامن، وهذه البرمجة، فالتقلّص لطيف إلى أن يخرج الطفل من رحم أمِّه.

والآن يأتي دور العنف، ينقبض هذا الرحم انقباضاً عنيفًا من أجل أن يغلق كل الشرايين المفتوحة، فعندما صارت الولادة تقطّعت الشرايين، فهناك احتمال أن تموت الأم بالنزيف، فلمّا انقبض الرحم انقباضاً عنيفاً أغلق كل الشرايين، ولو عكس الله الآية لماتت الأم مع طفلها، ولو جاء الانقباض عنيفًا والطفل في الرحم لمات الطفل، ولو جاء الانقباض الليّن اللطيف المتزامن بعد الولادة لماتت المرأة الوالدة، فالله لطيف.

وأنا أضرب أمثلة جاءتني عفو الخاطر، لكن لو دقّقت في النبات فالشجرة معمل قائم بذاته، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، من دون دخَان، ولا صوت، فلو أحضرت محرّك ماء صغير من أجل أن تستخرج الماء لعكّر على المتنزّه نزهته فلا يستمتع بالنزهة، وصوت المحرك لا يحتمل، من أجل أن تضيء خمسمئة شمعة في محل تجاري، لكن الشجرة معمل من دون صوت، ومن دون دخَان، ولا تلويث جو، بل بالعكس تعطيك أوكسجينًا، فالشجرة تأخذ فضلات الإنسان، وغاز الفحم وتعطي أوكسجينًا منعشًا، فالإنسان الذي عنده ضيق نفس أو معه حساسية ربويّة ينصح أن يمشي بين أشجار الصنوبر، وهذه أعلى أشجار تعطي الأوكسجين، وكأنها كمامة أوكسجين فتنتعش بها، فالله لطيفٌ

بعباده.

لا أعرف من أين أبدأ وكيف أتابع الموضوع، وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلُ على أنه لطيف.

كل إنسان بإمكانه أن يستشف اسم اللطيف من جسمه:

الولادة، وأجهزتك، فانظر إلى الكلية، فالكلية الصناعيّة كان حجمها بحجم هذه الطاولة والآن على أصغر، لكن ثماني ساعات وأنت مستلقٍ على السرير، وينفتح الشريان، وتوضع البرابيش، ثماني ساعات والتصفية بالمئة ثمانون، وبالمئة عشرون يتبقّى الأسيد أوريك بالدم وهذه مزعجة جداً، أما الكلية الطبيعية فصغيرة وليس لها صوت، وفي الكليتين طاقة للتصفية تزيد عشرين ضعفًا عن حاجة الإنسان، أي كل كلية فيها عشرة أضعاف حاجة الإنسان للتصفية، فالله لطيف.

الكبد له بدءاً من خمس وظائف كبرى إلى خمسمئة وظيفة، ويوجد قول خمسة آلاف وظيفة، وكل خليّة من هذه الخلايا تقوم بكل الوظائف، فالله عزّ وجل لطيف، و لو حدث استئصال لنصف الكبد فيحيا الإنسان حياةً سويّةً.

فالعلم حرف والتكرار ألف، فمن الممكن أن تستشفّ اسم اللطيف في جسمك، فيجب أن تقلِّم أظافرك، إذاً الله عزّ وجل لطيف لم يضع لك أعصاب حس فيها، ولو كان في الأظافر أعصاب حس لاحتجت إلى عملية جراحيّة في المستشفى، وتقول: عندي عملية قص أظافر، طبعاً تحتاج إلى تخدير.

ويجب أن تحلق شعرك، والشعر ليس فيه عصب، كذلك فالله لطيف، وهناك أعصاب محرّكة للشعرة ولكن لا توجد أعصاب حسيّة، ولا تشعر عندما يقص الحلاق شعرك، بل من دون ألم أبداً.

من رفق الله بالإنسان نمو الفواكه بالتدريج:

جسمك، وطعامك، ونمو الفواكه والثمار في لطف، إذ إنّ نمو الفواكه يكون بالتدريج، فالبندورة مثلاً، والخيار، والبطيخ، والمشمش لو نضج في يوم واحد لتلف كله، ماذا نفعل به ؟ يمكن أنْ تحصِّل من حقل بطيخ تسعين يوماً تجني بطيخًا، قال لي شخص تعهّد حقل بطيخ: في تسعين يوماً قطفت تسعين شاحنة من هذا الحقل، إنه نمو تدريجي، ومع أن النمو التدريجي خلاف المنطق، فأنت لو ألقيت بطاطا مثلاً في وعاء فيه زيت يغلي، فبحسب المنطق مادامت الظروف واحدة فسيكون النضج واحداً، لكن هذا البطيخ كلّه نما في ظروف واحدة من الماء، والأمطار، والرياح، والبرد، والظروف متشابهة لكل البذور، لمَ لا تنضج هذه المادّة في يوم واحد ؟ الله لطيف.

كيفما تحرّكت، فأجهزتك فيها لطف، فهناك منسوجات لطيفة تتناسب مع الجسم، فانظر أنت إلى ليفة الحمّام الطبيعيّة لها وجه ناعم ووجه خشن، فاللطيف على الوجه الناعم، والخشن على الخشن، فالله لطيف.

ولو دقّقت في كل شيء، الفواكه لو كانت قاسية جداً لاحتاجت إلى منشار، لكن بعضة الأسنان تأكل قسماً منها، انظر إلى الموزة تقشيرها سهل، فالفواكه تجد تقشيرها سهلاً. والبيضة تكسرها بطرف الصحن، فلو كانت علبة سردين لاحتاجت إلى مفتاح، فإذا لم تجد مفتاحاً فإنك تظل عشرين ساعة وأنت تخبطها على الأرض، واحد أعطوه علبة سردين وهو جائع وبدون مفتاح، كانت حريّته مقيّدة، قال لي: من الساعة الثامنة صباحًا إلى الساعة الثانية ظهراً حتى فُتِحَت معي وأنا أحكها على الأرض، أما البيضة فلا تحتاج إلى هذا، فالله عزّ وجل لطيف، ضربة على طرف الصحن تصبح قطعتين، وتضع مئتي واحدة فوق بعض فإنها تتحمل، فالشكل البيضوي هذا أمتن شكل هندسي، إذا بقي الضغط يتحمّل، سلّة كلها بيض، ولكن أمسك البيضة لوحدها وبضربة خفيفة على طرف الصحن تنكسر، فالله عزّ وجل لطيف.

كل شيءٍ خلقه الله يبدو فيه اسم اللطيف:

عنقود العنب إذا أردت قطعه سحباً للأسفل يصبح عصيراً في يدك، أما إلى الأعلى فيصير بيدك، خرج من المفصل، ولو سحبته سحبًا لانعصر ولا ينزل معك، وهذا لكي يقاوم الرياح، فإذا كان هذا العود غير متين فأول عاصفة ترمي العنب كله على الأرض، فخسرت، فكرم العنب يتحمل إذا كان هناك عواصف، وأمطار، والعنب عنب، وأحياناً تريد قطع عنقود، تقطعه بالعكس نحو الأعلى فيصير العنقود بيدك، أما إذا سحبته إلى الأسفل ينعصر ولا ينقطع معك، فهناك لطف إلهي. فأنت لاحظ كل شيء في الكون، هذا اسم واسع، وكل شيءٍ خلقه الله يبدو فيه اسم اللطيف، فربنا قال:

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ (19))

(سورة الشورى)

وحتى بالمعالجة، يعالج الإنسان والدواء جاهز، تأتيه حركة قلب، فلو كانت تأتيه دوماً لانتحر، تأتي مسًّا، أو تأتي بموجات خفيفة، فلو كانت الآلام تستمر لم يتحمّلها الإنسان، لكن الآلام العنيفة جداً تأتي موجات، وهذا اسمه أجهزة إنذار مبكّر..

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(21))

(سورة السجدة)

اسم اللطيف موجود في كل شيء:

الإنسان كلّما صار شفّافًا أكثر يرى المطر لطيفًا، فلو كان المطر ينزل كأفواه القُرَب لآذى الناس، وحطِّم الزرع، فالمطر لطيف، وحب العزيز وزنه مناسب، ولو كبر لانكسرت رؤوس الناس كلها، فلو أنّ الناس كانوا يمشون في الطريق وفجأةً نزل حب العزيز، وكل واحدة بحجم البطيخة ما ظلّ رأس سليماً، فالله لطيف، الحجم مناسب، وقطرة الماء مناسبة، وطبعاً هناك حالات يكون الحب كبيراً فيسبب أذى كبيراً.

والبقرة ذلّلها الله لك، فالله عزّ وجل لطيف، فإن البقرة لا تخيفك، فهي حيوان وديع تأخذ منه الحليب، والحليب تصنع منه سمنًا وجبنًا ولبنًا.. إلخ، لكن إذا غافل واحد عن هذا التذليل العظيم، وحصل مرض اسمه التوحُّش عندها تصير البقرة متوحِّشة، وقد قرأت منذ أيام في الجريدة أنه استوردت وجبة بقر لكن معها مرض التوحُّش فأوقفوا استيرادها، وهذا مرض خطير.

وأخ من إخواننا بريف دمشق قال لي: بقرة قتلت أول إنسان والثاني وأصابت الثالث، فاضطرّ صاحبها أن يقتلها بالمسدّس، وثمنها سبعون ألفًا، فالله لطيف، فلو كان كل البقر متوحِّشًا لما كان بالإمكان استعماله إطلاقاً.

والغنم، يقول لك: فلان مثل الغنمة. فلو كانت الغنمة كالضبع لما وجدت لحم ضأن أبداً، فأنت تهرب منها لو رأيتها، فالله لطيف بعباده ؛ فهو بالغنم لطيف، وبالبقر لطيف، وبالمطر، وبحب العزيز، وبالنسمات المنعشة العليلة، تجد كل مكيّف ثمنه ثلاثون ألفًا ويحتاج إلى كهرباء، وتخرج نسمات لطيفة تنعش كل الناس من دون مكيفات، أحياناً تأتي موجة برد شديدة وبعدها يدفأ الجوُّ، فلا تحتاج إلى مازوت، ولا تدفئة مركزيّة، والشوفاج تعطّل، والكهرباء لا توجد، إذ تخلّصنا منه كله، فالجو دافئ، والله لطيف.

الله عز وجل إذا أراد معالجة إنسان فيعالجه بلطف ويسخِّر له أناساً ليعينوه:

الذي عنده إحساس يتذوّق نعمة الجو اللطيف، والمطر اللطيف، والغذاء اللطيف، والهواء اللطيف، وقلع سن الطفل اللطيف، والبقرة المذلّلة، والجمل المذلّل، فهذا الاسم في كل شيء موجود، فكيفما تحرّكت ترى اسم الله اللطيف، وهذا الاسم يجعلك تحب الله عزّ وجل.

وحتى عندما يعالج الله الإنسان يعالج نفسه بلطف، والعوام يعبّرون عنها بكلمة: يبلي ويعين. يعمل له مشكلة ويسخِّر له أناساً ليعينوه، و يصيبه بمرض ويسخِّر له طبيب رحيم يطمئنه، فالدواء مسكِّن،

والعملية الجراحيَّة ناجحة، يُسَر الإنسان، مرض وآلام لكن العمليَّة ناجحة. فالتقدُّم الطبّي أعدّه من لطف الله عزّ وجل بعباده، داواهم بمرض وبعد هذا يسَّر لهم المعالجة والشفاء..

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ (19))

(سورة الشورى)

من ضبط جوارحه و إنفاقه و بيته ذاق طعم القرب من الله عز وجل:

الإنسان إذا لم يحبَّ الله عزّ وجل فما هذا الإيمان ؟ الإيمان أساساً كله حب، لا إيمان لمن لا محبَّة له، والمحبَّة كيف تكون ؟ إنك لن ترى الله عزّ وجل حتَّى تحبَّه، والإنسان بفطرته يحب الجمال، ويحب الكمال، ويحب النوال والعطاء، فلو أنّ رجلاً دميم الخلقة أعطاك مئة ألف لظلّ قلبك معلّقًا به، لكن منظره ليس على ما يرام، فإذا أعطاك مئة ألف تجد أنك تحترمه احتراماً غير معقول إطلاقاً، وقد يكون قميء المنظر، ومعنى هذا أن الإنسان يحب النوال، والجمال، والكمال، والله عز وجل أفعاله كمال كلها.

والجمال من ذاق عرف، فمن يتصل به اتصالاً حقيقياً، وهنا يحتاج إلى صلح مع الله، إذا اصطلحت معه تماماً، ضبطت جوارحك تماماً، وضبطت دخلك، وضبطت إنفاقك، وعملك، وبيتك، وعباداتك ؛ الصلاة والصوم، فأنت معاهده عهداً كاملاً على الطاعة التامَّة، فلو فعلت ذلك لأذاقك طعم القرب، و ساعتئذٍ تعرف ما هو الكمال **" واللهِ لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف ".** تعرف معنى الاتصال بالله كم هو مسعد، هذا الجمال.

والكامل كل أفعاله كاملة، وهذا الكون بين يديك.

ثم النوال فقد منحك الحياة، ومنحك الوجود، والإمداد، هو رب العالمين، ومنحك فوق ذلك الإرشاد.

الله لطيف بعباده منحهم نعمة الحياة و الوجود و الإمداد:

الإنسان عندما ينظر إلى ماضيه كيف نقله الله، وعرَّفه على أهل الحق، وجمعه بفلان، فكيف اهتدى، وكيف سمع هذا الدرس فتأثَّر، ثم ارتقى، فتزوَّج، وكيف اشتغل، وتعيَّن في وظيفة، فجمع هذا المال، وربَّى أولاده، وزوَّج بناته، تجد أنها كلها أعمال لطيفة من الله عزّ وجل.

انظر إلى الطفل الصغير لو كان بعقلية الكبير وبشخصية الكبير لا يُطاق، فالطفل يبكي ويضحك بآن واحد، ولو عاقبته لمصلحته ثمّ طلبته إليك يأتيك فوراً، لأنه لا يحمل الحقد، ولو كان يحقد عليك لم يأتِ، ويقول: أنت ضربتني، لا يُربَّى طفلٌ مع أبٍ إطلاقاً، فالطفل عنده ذاتية، صفاء، ولو عاقبته لنسي

العقوبة في ثانية، وصار يتحبَّب لك، وهذا يعين على تربيته، ولو كان يحقد عليك فلن يُرَبّى معك، فالله لطيف..

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ (19))

(سورة الشورى)

هذه بعض المعاني التي يمكن أن تكون محوراً للدرس.

للطف تعاريف كثيرة منها:

لكن أعجبني في القرطبي تعاريف كثيرة للطف، أنقلها لكم، قال ابن عبَّاس: الله لطيفٌ بعباده أي حفيٌّ بهم.

وقال عكرمة: **بارٌ بهم.**

وقال السُدِّي: **رفيقٌ بهم.**

وقال مقاتل: لطيف بالبَرِّ والفاجر. حتى مع الكافر لطيف، الكافر يظل عبدًا له، هو خلقه، فأنت منزعج من كفره وهو خلقه، تجد أن الله يعطف عليه، أحياناً ينبّهه، ويحذِّره، ويذكِّره، ويرسل إليه من يذكِّره، ويبتليه مشكلة، فمع الكافر لطيف، لأن الكافر عبد له. قال: لطيفٌ بالبر والكافر.

الله عز وجل لطيف حتى بالكافر:

كيف يكون لطفه بالكافر ؟ قال: حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم. تجد عندهم مخدِّرات، وزنى، ولِواطًا، وشذوذًا، وتبادل زوجات، وهم يأكلون ويشربون، ويزرعون، ويتحكَّمون، فالله لطيف بالكافر رغم معاصيه القبيحة والحقيرة. فأنت أحياناً ولو كنت كاملاً إذا أسيء إليك فإنك توقف المساعدات عن المسيء على الفور، ولا تتحمَّل، فليس لديك استعداد لتعطيه مساعدة أثناء الإساءة.

وسيدنا الصديق أعلى مؤمن لم يتحمَّل هذا الذي تكلَّم على ابنته فمنع عنه المساعدات، فعاتبه الله، واللهُ عزَّ وجل يرى معاصيهم، ويرى مخازيهم، وانحطاطهم، ودناءاتهم، وتجاوزاتهم، وكفرهم، وإلحادهم، وهم يزرعون، ويأكلون، والقلب صحيح، والدسَّامات تعمل، قال له:

((ابن آدم لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً))

((أنت تريد وأنا أريد فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

إذاً مقاتل قال: لطيفٌ بالبرّ والفاجر، حيث لم يقتلهم بمعاصيهم.

وقال بعضهم: لطيفٌ بهم في العرض والمحاسبة، يحاسب الله عزّ وجل عن واحدة ويعفو عن تسعة.

الله عز وجل يلطف في الرزق من وجهين:

1 - جعل الرزق من الطيبات:

قال جعفر: **يلطف بهم في الرزق من وجهين**، أحدهما أنه جعل رزقك من الطيّبات. فالآن في رزق سيروم، تتسطّح وتوضع في اليد إبرة تضخ السيروم ليمدك بالغذاء، لكنه لا ذاق طعمة طيّبة، ولا حلوة، ولا مُرّة، ما هذا الأكل ؟ وما هذه الفئة ؟ سيروم، الله جعلك تأكل فولاً، وحمصًا، وفئة، وشوربة، وبطيخًا، وحلويات، وفواكه، فأول لطف أن الرزق له طعم طيّب، وقِوام معقول، وشكل مقبول، ومنظر الفاكهة جميل في حد ذاته، وأحياناً يضعون مناظر للفاكهة تعلق في غرف الطعام، والفاكهة وحدها منظرها جميل.

2 - جعل الرزق دفعة وراء دفعة:

والثاني أنه لم يدفعه إليك مرّةً واحدة فتبذره، كذلك لطفه في أن جعل الرزق دفعة وراء دفعة، فالماء لو كانت تنزل الأمطار في يومين من السنة كلها وخُزّن، لاحتجتَ إلى بيت بحجم بيتك بالضبط، فكل إنسان يحتاج إلى بيت بحجم بيته ماء يكفيه سنة، أما الخزان عنده فيعطي كل ثانية ستة عشر متراً مكعّباً من عين الفيجة تسقي خمسة ملايين مقيم في دمشق (فالشام فيها خمسة ملايين) لطيف عنده مستودعات، قال:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22))

(سورة الحجر)

انظر إلى هذه الآية ما أجملها !! من لطف الله عزّ وجل.

الله عز وجل لطيفٌ بأوليائه:

كذلك الله لطيف، فهذه المرأة الله جعل في مبيضها مجموعة بيوض محدودة، وفي سن اليأس تنتهي، في الخامسة والأربعين أو الثامنة والأربعين، ولو كان معها مثل الرجل كمية مفتوحة وليست محدودة لصَعُب الأمر، فبالتسعين تحمل، وغير معقول أنْ تحمل بنتُ التسعين وترضع، فالله عزّ وجل لطيف بها، جعل البويضات محدودة تنتهي في الأربعين، أما الرجل بالعكس إلى آخر لحظة، فهذا رجل توفي في الخامسة والتسعين وعنده ولد عمره خمس سنوات، فالله لطيف بالمرأة.

هذا رجل يفقد شعره كله ونقول عنه: أصلع. ولكن لا توجد امرأة تفقد كل شعرها، أما النساء فالله لطيف بهن لأن الشعر جزء من كيانها و جمالها، شعرها يخف ولكن لا تفقده كله، فيصبح رأسها مثل الطاسة، وهذا غير معقول.

قال الحسين: **لطيفٌ بهم في القرآن في تلاوته**، وتفصيله، وتفسيره، والقرآن لطف إلهي، نقل لك المنهج بشكل لطيف، ستمئة صفحة، الآن تفتح أي قانون تعديلاته تضيع فيها، عمل لك الكليات بالمصحف، والنبي فصّل لك، فالقرآن الكريم فيه كل كليات الحياة.

قال الجنيد: **لطيفٌ بأوليائه حتى عرفوه.**

وقال محمّد: **اللطيف لمن لجأ إليه من عباده.** إذا يئس عبد من خلقه ولجأ إلى الله تقبّله الله واحتواه، كرّمه، ولبّاه من لطفه.

الله عزّ وجل أخفى عن الناس خواطر الإنسان وتفكيره ورغباته وهذا من لطفه به:

قال: اللطيف الذي ينشر مناقبَ عباده، ويستر مثالبهم، فمن لطف الله عزّ وجل أن الأشياء اللطيفة والطيبة تفوح منك يكشفها الله، والأشياء الخسيسة يخبئها عن العباد، فالله اسمه الستّار، أساساً ستره لطف، لطف بك، فلا يفضحك، فالإنسان تفكيره مخبّأ، إذا كنت تقرأ وتفكير الإنسان غير معقول أن يُفْضَح، فقد يفكِّر تفكيراً منحرفًا ولكنه لابس، ومرتّب، ومتعطِّر، وجالس في جلسة والناس يحترمونه: أهلاً وسهلاً، تفضّل يا أستاذ، ويكون من داخله غير منضبط، فالله عزّ وجل أخفى عن الناس خواطر الإنسان، وتفكيره، ورغباته، وهذا من لطفه، لأن الله عزّ وجل ستّار، فالنبي مرّة دعا ربّه وقال:

((يا من أظهر الجميل وستر القبيح))

[كنز العمال]

انظر إلى هيكل عظمي للإنسان فإنك تخاف منه، وإذا أرادوا تخويفك يرسمون لوحة عليها صورة جمجمة وعظمتين، فعند تحذيرك من خطر الكهرباء يضعون لوحة مرسوماً عليها جمجمة وعظمتين

فشيء مخيف، وانظر إلى وجه الإنسان ما أجمله بهذا الجلد، انظر إلى الإنسان بعضلاته فقط فشيء مخيف، وبالعظم مخيف، وبالعضلات مخيف، وبالشرايين مخيف، أما في التزيينات في النهاية، فالجلد في النهاية ومن داخله عضلات، وشرايين، وأوردة، وغدد، ومنافذ، وأجهزة، ومن الخارج جلد ناعم لطيف متناسق متكامل، فهذا من لطف الله عزّ وجل.

تتمة معاني اسم اللطيف:

قيل: هو الذي يقبل القليل ويعطي الكثير. يقبل منك شق تمرة، ولقمة تطعمها فقيراً فيجعلها كجبل أُحُد، فهذا من اسم اللطيف.

وقيل: هو الذي يجبر الكسير وييسِّر العسير، والله عزّ وجل لطيف، وتكون قضيَّة ميؤوس منها، فيأتي إنسان ويقول لك: إنها سهلة جداً، وليس فيها شيء، فتستغرب وتنصدم، ويحلها لك، لأن الله لطيف فيها، وأحياناً تريد شخصاً بعيداً فتجده أمام وجهك على غير ميعاد، فالله عزّ وجل لطيف.

وقيل: معنى اللطيف هو الذي لا يُخاف إلا عدله ولا يُرجى إلا فضله.

وقيل: هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيّب من رجاه.

وقيل: هو الذي لا يردُّ سائلاً ولا يُيَئِّس آملاً.

وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو. قال: **" يا رب أنا ربُّك وأنت عبدي (بدوي من شدة فرحه بالناقة تلعثم لسانه) فقال: " يا رب أنا ربُّك وأنت عبدي".** فعند غير الله هذه الكلمة لا ينفذ منها أبداً، أما عند الله فتنفذ لأنه يعلم نيتك، عند الله لطيف.

الله عز وجل يرحم من لا يرحم نفسه:

قيل: هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه. إذا اتخذ الإنسان قراراً خاطئًا فالله لا يسمح له..

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

الآن:

(إلا تنفروا)

إذا اتخذتم قراراً غلطاً خلاف مصلحتكم الأخرويَّة، وخلاف سعادتكم الأبديَّة، فما استجبتم للنبي، وما باليتم فلن أريحكم..

(إلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ)

لأنه لطيف، حتى لو اتخذت قراراً غلطاً فالله لا يعينك عليه، بل يؤدبك.

قال: هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه.

من اتخذ قراراً جيّداً فالله يكافئه عليه والقرار السيئ لا يقرّك الله عليه بل يعالجك منه

أنا مرّة زارني شخص (لا أنسى هذه القصّة) قال لي: أنا يا أستاذ نشأت عند معلِم صناعي مُلحد، قال له: لا يوجد إله والدين كلّه خرافة، افعل ما تشاء (وهو طفل صغير نشأ على هذه العقيدة)، قال لي: يا أستاذ لا توجد معصية لم أفعلها من دون استثناء، وكبر وتزوّج وعنده محل فيديو، والقصّة طويلة ولكن فجأةً الأمور تدهورت وأُغلِق المحل بالشمع الأحمر، وفقد كل ماله، و صودر كله، قال لي: المصائب تترى كالمطرقة على رأسي وأقول: لا يوجد إله، ستة أشهر حتى دخل إلى جامع وصلّى وصار يبكي، ومن هنا بدأ الصلح مع الله، ولكن عندما خرج قلت: لو أن الله جعله بهذه الحالة الطيّبة ؛ مال، وغنى، وعقيدة فاسدة، وانحراف أخلاقي، حتى الموت لكان مصيره إلى جهنّم، فربنا عالجه، وهو ما رحم نفسه ولكن الله رحمه، ومعنى اللطيف هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه، فأنت إذا اتخذت قراراً جيّداً فالله يكافئك عليه، والقرار السيئ لا يقرّك الله عزّ وجل عليه، بل يعالجك، وعنده أدوية مرّة كثيرة، وعنده أدوية منوّعة كثيرة، أينما ذهبت تجد أدوية.

وقيل: هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجاً، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجاً، وأجزل لهم من سحائب برّه ماءً ثجّاجاً.

هذا كله من معاني اسم اللطيف.

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(19))

(سورة الشورى)

الله عز وجل ألهم كل إنسان مصلحة يحبها و يهواها و هذا من لطفه بعباده:

وبعد فأنت موجود، وأنت بحاجة إلى اللطيف، فأنت بحاجة إلى الرزق..

(يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ (19))

(سورة الشورى)

هذا تجد خطه جيداً فهو خطّاط، وهذا عنده رغبة بالتزيينات، يقول لك: ورق جدران له فيه ميل، وهذا في الكهرباء، وثالث في التعليم و الهندسة، و في الطب، وفي الأحجار، وفي الرخام، ووفي البلاط، وفي

النجارة والبنّاء، والتدريس، فكل واحد ألهمه الله مصلحة أو صنعة يقتات منها، ويحبها ويهواها ويرغب فيها أيضاً، فهذا لطف من الله عزّ وجل.

وهذه الآية اليوم:

(اللّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ (19))

(سورة الشورى)

وسنجعل الدرس لطيفاً لأن هذه آخر جمعة في رمضان..

(اللّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(19))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (07-15): تفسير الآية 20 ، معرفة حقيقة الدنيا جزء من عقيدة المسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-03-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع من سورة الشورى.

أساس الحياة الدنيا الكسب و السعي و المجاهدة:

مع الآية العشرين وهي قوله تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ(20))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة المؤمنون، الإنسان في الأصل مخلوق للدار الآخرة، لأن الدار الآخرة أبدية، فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليرحمهم في دارٍ لا موت فيها، ولا نَصَب، ولا تعب، ولا هم، ولا حزن، ولا شيء مما يُنَغِّص الحياة فيها، مخلوقٌ للآخرة، وما الحياة الدنيا إلا إعدادٌ لها، سمّاها الله الحياة الدنيا لأنها إعدادٌ لحياةٍ عليا، فالحياة الدنيا أساسها الكسب، والسعي، وبذل الجهد، والمكابدة، والكدح، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ)

(سورة الانشقاق)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

(سورة البلد)

الحكمة من جعل الدنيا دار التواء لا دار استواء:

أساس الحياة الدنيا بذلٌ الجهدِ، واكتساب العمل الصالح، وأساس الحياة الآخرة الطلب..

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

(سورة ق)

لمجرد أن تطلب شيئاً فهو بين يديك، ولمجرّد أن يخطر على بالك شيء فهو في متناولك، إنها حياةٌ أبديةٌ سرمدية، لا مرض، ولا قلق، و لا خوف، ولا سيطرة، ولا حسد، ولا نقص، ولا تراجع، وكل منغِّصات الدنيا منتفيةٌ في الآخرة، بل إن الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يجعل الدنيا دار التواء،

لماذا ؟ كي ننصرف إلى الآخرة، ولو أن الدنيا جاءت كما نشتهي لكرهنا لقاء الله عز وجل، وليس من الحكمة أن تأتينا الدنيا كما نريد، إذاً نركن إليها، ونكره لقاء الله عزّ وجل.

المؤمن إن لم ينقل اهتماماته إلى الآخرة فعذابه شديد فيها:

لو دققت في حياة الناس، لوجدت كل إنسان له مشكلةٌ تجعله ينفر من الدنيا ؛ إما فقرٌ، أو قلقٌ، أو حياةٌ زوجية ليست سعيدة كما يتمنى، أو أولاد ليسوا أبراراً، أو أولاد أبرار والزوجة ليست وفيّة، أو الزوجة وفية والأولاد أبرار والدخل أقل مما ينبغي له، الدخل جيد، والزوجة جيدة، لكن في الإنسان مرضاً، فطبيعة الحياة الدنيا مؤقّتة، فكل من تعلق بها:

" أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه ".

الإنسان إذا عرف حقيقة الحياة الدنيا دار إعداد، فغرفة الصف لا ينبغي أن يكون المقعد فيها وثيراً، فلو أن المقعد وثيرٌ لاستغرق الطالب في نومٍ عميق، فلا بد من مقعدٍ خشن، ولا بد من جوٍ بين البرودة والحرارة، فلو كان الجو لطيفًا دافئًا جداً والمقعد وثيراً جداً، وكل أنواع المقبّلات، والموالح، و الساندويش في غرفة الدرس لنسي الطالب المحاضرة، فطبيعة الحياة الدنيا من أجل أن تكون منطلقاً فيها إلى الله عز وجل.

والحقيقة الإنسان إذا عرف حقيقتها لا يتألم مما فيها، أما إذا ظنها دار استقرار، ودار نعيم، ومتعة، ونشد فيها الراحة المُطلقة، والنعيم المقيم، والعِز، والمال، والجاه، فهذا الذي ينشده في الدنيا مستحيل أن يصل إليه، لأنها مركّبة على النقص، وإذا علمت أنها مُركبة على النقص فترضى بها، وتنطلق منها إلى الله عزّ وجل، وتجعل الهدف الكبير هو الآخرة، لا تعوّل عليها كثيراً، بل عوّل على ما عند الله كثيراً، ولذلك فالمؤمن ما لم ينقل اهتماماته الأساسية إلى الدار الآخرة، فإنه معذبٌ فيها أشد العذاب، بل إن طبيعة الإنسان إذا تقدّمت به السن ضعفت قواه، وضعفت ملكاته.

العاقل من أعدّ العدة لآخرته لا لدنياه:

ربنا عز وجل (وهنا نقطة مهمة جداً) كتب علينا أن ننتقل من الدنيا إلى الآخرة، فلو أن كل واحد منا جاءته الدنيا كما يشتهي تماماً، وحقق كل أهدافه فيها، لكان أصعب يومٍ عليه ساعة الفراق، فهو شيء صعب جداً لكن ربنا من رحمته بنا يكرّهنا بالدنيا من خلال بعض المشكلات، حتى إذا جاء لقاء الله عزّ وجل اشتاق المؤمن إلى هذا اللقاء.

وعلى كلِ جزء من عقيدة المسلم الأساسية أن يعرف حقيقة الحياة الدنيا: **" إنها دار التواء، لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء (مؤقت) ولم يحزن لشقاء (مؤقت) قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي ".**

إنسان يسكن في بيت مستأجر، والنظام القائم أن مالك البيت بإمكانه أن يُخرج المستأجر من دون سبب، ومن دون إنذار، ومن دون مبرّر، فهل يعقل أن يأتي هذا المستأجر وينفق كل دخله في تزيين هذا البيت المستأجر ؟ لهذا المستأجر بيت في البادية، بيت متداعٍ، أليس من العقل أن يرمم ذلك البيت، وأن يؤسسه، وأن يزيّنه، وهذا البيت البعيد فيه المُستقر، وفيه الإقامة الدائمة، وهو الآن خَربٌ متداعٍ، فهل ينفق دخله في البيت المستأجر، أم في البيت الذي سيستقر فيه دائماً ؟ العقل أن تسعى للدار الآخرة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والتزوّد لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور))

[ضعيف ملاحظة: الألباني المشكاة ((74]/ 5228)قال فيه الذهبي: عدي ساقط]

ففي حياتنا دنيا وآخرة، ومهما اعتنيت بالدنيا لابد من أن تخرج منها، فإذا خرجت منها باختيارك أكرمك الله بها وبالجنة، وإذا أردتها مصراً خسرتها وخسرت الآخرة.

الدنيا ليست مطلوبة لذاتها ولكنها مطلوبة لغيرها:

لذلك فمن الممكن أن ألخص لكم هذا الكلام كله بكلمتين، واللهِ الذي لا إله إلا هو هاتان الكلمتان لو عقلهما الإنسان لسعد في الدنيا والآخرة: **" من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ".** اطلب الآخرة تطلبك الدنيا، واطلب الدنيا تطلبك الآخرة بالموت فتخسر الدنيا والآخرة، إن طلبت الآخرة آتاك الله الآخرة وطلبتك الدنيا بالرزق والإكرام، وإن طلبت الدنيا وآثرتها على الآخرة، طلبتك الآخرة بالموت وخسرت الآخرة والدنيا.

فالقضية قضية عقل وتفكّر، وميزان رابح، الدنيا دار الغرور، وهي جيفة طُلاّبها كلابها، ودار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، وهي مطية الآخرة، فالذي يدرس في الدنيا من أجل أن تكون شهادته معواناً له على الآخرة، والذي يجمع المال في الدنيا من أجل أن ينفقه ليرقى في الآخرة، والذي يطلب العلم في الدنيا من أجل أن يعلِمه ليرقى في الآخرة، فالدنيا ليست مطلوبة لذاتها ولكنها مطلوبة لغيرها، من طلبها لذاتها خسر، ومن طلبها لغيرها ربح.

الآخرة تحتاج إلى عمل و تفوق:

بالطبع الآخرة تحتاج إلى عمل، والعمل يحتاج إلى تفوّق ؛ تفوق إما في علمك، أو في مالك، أو في قوتك. فالقوة أنواع ثلاثة، قوة المال، وقوة العلم، وقوة السلطان، فإن كنت على شيءٍ من الدنيا ووظّفت هذا الشيء من أجل الآخرة ربحت الدنيا، ولذلك يوم القيامة:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوّأُ مِنْ الْجَنّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر: من آية " 74 ")

فلولا الدنيا لما كانت الآخرة، ولولا أن الله عزّ وجل جاء بك إلى الدنيا من أجل أن تتعرف إلى الله فيها، وأن تعمل عملاً صالحاً يصلح للعرض عليه يوم القيامة. فنحن إذا ذممنا الدنيا، ذممنا الدنيا المقصودة لذاتها، أما إذا مدحنا الدنيا مدرسةً فلا تصل إلى الآخرة إلا بالدنيا.

الدنيا مزرعة الآخرة و تمهيد لها:

لو أن طبيباً أخذ أعلى شهادة وحقق حياة مستقرة ودخلاً مريحاً، ألا يذكر أيام الجامعة بخير؟ لولا هذه الأيام ودراسته والشهادات العليا التي أخذها، لما استطاع أن يجلس في العيادة ويأتيه الناس أفواجاً وزُرافاتٍ يدفعون له ما يريد، إذاً ما ينعم به من بحبوحة، ومن مكانة اجتماعية، ومن استقرار نفسي وأسري، هذه الميزات التي هو فيها الآن بسبب سنوات الجامعة التي أمضاها جاداً دؤوباً.

فنحن إذا ذممنا الدنيا نذم من يطلبها لذاتها، أما إذا مدحنا الدنيا فلأنها مدرسة، ولأنها مزرعة الآخرة، وتمهيدٌ لها، سمّاها الله الحياة الدنيا لأنها تمهيدٌ لحياةٍ عُليا، ولذلك لا تسبّوا الدنيا فنعم مطية المؤمن الدنيا، والآن أحاديث أخرى:

((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، حتى يصيب منهما جميعاً))

[الجامع الصغير: عن " أنس "]

فإن الأولى مطيةٌ للثانية.

على الإنسان أن ينظر بمنظار الإيجابية إلى الدنيا:

الجنة تحتاج إلى عمل، والعمل يحتاج إلى مال، فإذا كانت لك حرفةٌ، أو اختصاصٌ، أو مهنةٌ وكسبت من خلالها المال، فبالمال تنفق على أهلك فترقى، وتنفق على الفقراء فترقى، إذاً نعم مطية المؤمن الدنيا.

إن كان لك في الحياة الدنيا علم وأنفقته في سبيل الله، ارتقيت في الآخرة.

وإن كنت قوياً وجعلت قوتك حمايةً للضعفاء وعوناً للمظلومين، ارتقيت بقوتك إلى الله عزّ وجل، فهذه النظرة الإيجابية للدنيا.

النظرة السلبية: من كانت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه فقد ضل سواء السبيل، ولكن من جعلها في يديه وكان قلبه متعلقاً بالله عزّ وجل كانت قوةً له على آخرته.

من كان متفوقاً في عمله انتزع إعجاب الناس به و بدينه:

إذاً أنا أتمنى على كل إخواننا الكرام، وعلى كل المؤمنين أن يتفوّقوا في الدنيا، وأن يتفوقوا في العلم، والعمل، فالمؤمن الصادق في عمله قمةٌ، والطالب الصادق في دراسته قمةٌ، والمؤمن الصادق في عمله أو منصبه قمةٌ في الإخلاص واليقظة، لأنك بالدنيا تصل إلى الآخرة، وأقول لكم هذا الكلام الدقيق الآن: عامة الناس، أو الطرف الآخر غير المؤمن، لا يُقبلون على الدين إلا إذا كان المؤمنون متفوقين ؛ في عملهم مَهَرَة، وفي دراستهم أوائل، لأن الذي يرمق المؤمن في تفوقه في الدنيا يحترم دينه، و صلاته، ومبادئه، ولا يمكن أن يحترم الناس مبادئك، ولا اتجاهك الديني، ولا انتماءك إلا إذا رأوك علماً في الحياة، ولذلك فإتقان العمل ضروري، والتفوق في الدراسة ضروري، إن كانت لك حرفة يجب أن تكون فيها الأول، وإن كنت مدرساً، أو محامياً، أو طبيباً، أو مهندساً، أو تاجراً، أو موظفاً فيجب أن تكون متفوقاً في عملك حتى تنتزع إعجاب الناس بك، فإذا انتزعت من الناس إعجابهم بك، احترموا دينك، وصلاتك وانتماءك الديني.

فالحقيقة أنّ الإنسان إذا انسحب من الحياة وقال: مالي وللدنيا. خسر الدنيا والآخرة، فأنا حينما أُقرّع من أحبّ الدنيا أقرّع من أحبها لذاتها، لكن أنت محتاج إلى زواج، والزواج يحتاج إلى دخل، والدخل يحتاج إلى حرفة، ولا بد لك من حرفةٍ تتقنها وتخلص بها، إما أن تكون لك حرفة أو اختصاص، أو شهادة عليا، أو طريقة من طرق كسب الرزق حتى تؤسس بيتًا، وحتى تتزوج امرأة مؤمنة، وتنجب أولاداً طاهرين، وحتى يكون بيتك قدوة للمسلم ؛ فأنت وزوجتك وأولادك وعملك قدوة لهم.

من كان بحاجة إلى عدوه فلن يتمكن من اتخاذ القرار السليم:

الدعوة إلى الله قضية معقدة جداً، وأبرز معالم الدعوة أن يرى الناس إنسانًا كاملاً، ومخلصاً، وصادقاً، وذا مبدأ، يضع رضا الله فوق كل شيء، وفوق كل اعتبار، وإنساناً يضحي بمصالحه من أجل مبادئه، ويضحي بحاجاته الأساسية من أجل مُثُلِهِ العليا، فهو إنسان منضبط بالقيَم، والقيم فوق كل شيء، فإذا لا يوجد إنسان متمثل بهذه المبادئ كيف يتسع الحق وينتشر ؟ لا ينتشر.

وأكبر أخطاء المسلمين أن ليس هناك مجتمع مسلم يطبق هذا الدين تطبيقاً حقيقياً حتى ينتزع إعجاب العالم، فلو نظر العالم إلى المسلمين فماذا يرون ؟ يرون تخلفاً، وفقراً، ويرون أن المسلمين عالة على أعدائهم، فكل المصنوعات من إنتاج أعدائهم، وقطع الغيار والأشياء الأساسية في الحياة من إنتاج أعدائهم، فهم عالة على أعدائهم، فكيف يعجب الناس بالإسلام إن رأوا المسلمين متخلفين ؟ وأنّ مصيرهم بيد خصومهم ؟ فلم يكتفوا ذاتياً، بل هم في كل حاجاتهم عالةٌ على من سواهم.

وسيدنا عمر أيها الأخوة دخل إلى بلدةٍ متفقداً أحوالها، فهاله وأدهشه أن كل أصحاب الصناعات فيها من الأقباط، أي من غير المسلمين، فتألم أشد الألم، وعَنَّفَ أصحاب هذه البلدة أشد التعنيف، فما كان منهم إلا أن قالوا المقولة الساذجة: **"الله سخرهم لنا "**. فقال قولةً تنمُّ عن عمق تفكيره وعن دقة إدراكه، قال لهؤلاء أصحاب البلدة المقصِّرين في الأعمال: **"كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم "**.

أي ما دمت بحاجة إلى عدوك، إذاً لا تملك القرار السليم، فأنت ضعيف أمامه، يتحكم بكل شيء، فما دام طعامك وحاجاتك من عنده، فويلٌ لأمةٍ تأكل ما لا تزرع، وتلبس ما لا تنسُج.

معرفة حقيقة الدنيا جزء من عقيدة المسلم:

أنا حينما أتحدّث عن الدنيا مُقَبّحَاً شأنها إذا أردتها لذاتها، وإذا أردت الاستمتاع بها، وإذا رأيتها دار نعيم مقيم وهي دار قلق وممر وليست مقراً، أما إذا تحدثت عن الدنيا من زاويةٍ ثانيةٍ إيجابيةٍ: فالدنيا مطية الآخرة وممر لها، ففي الدنيا تعمل وفي الآخرة تجازى على عملك، الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، والدنيا دار للعمل الصالح، والآخرة دار للنعيم المقيم.

فيا أخي الكريم ؛ جزءٌ من عقيدتك الإسلامية أن تعرف حقيقة الدنيا، كما قلت قبل قليل: ولا يمكن أن تنتزع إعجاب الناس باتجاهك الديني إلا إذا كنت متفوقاً في الدنيا، فيجب أن يكون المحامِي المؤمن أول محامٍ، والطبيب المؤمن والمهندس المؤمن والمدرس المؤمن هم الأوائل أيضاً، وأصحاب الصَنعات المؤمنون أصحاب الصنعات المتقنة المحكمة، فكيف تنتزع إعجاب الآخرين ؟

فأنت الآن لا تدري إن رأيت جهاز حاسوب، تساءلت في نفسك: من الذي اخترعه ؟ ما أعظمه ! تجد نفسك وأنت لا تشعر تعظِّم أصحاب هذه الاختراعات، فكيف تريد من أهل الدنيا أن يحترموا دينك إن كنت عالةً عليهم، مستهلكاً لبضاعتهم، لا تقوى على فعل شيء، وكل شيء بيد خصومك، فهذه دعوةٌ.

على المؤمن أن يكون متميّزاً عن بقية الناس:

نحن في أول الدرس ذممنا الدنيا، إذا جعلتها هدفاً بذاتها، أما إذا جعلتها مطيةً فالدنيا نعم مطية المؤمن إلى الجنة.

فيا أخي الكريم ؛ في الدنيا تتزوّج، وحينما تتزوج فتاةً مؤمنةً وتأخذ بيدها إلى الله ترقى إلى الجنة، وحينما تنجب أولاداً أطهاراً، و تربّيهم على حبّ الله وحبّ رسوله تأخذ بيدهم إلى الجنة، وحينما تظهر أمام الناس مسلماً صادقاً ورعاً عفيفاً أميناً متقنًا أيضاً تقدِّم للناس قدوة خَيْر، إذاً تأخذ طريقك إلى الجنة، فالدنيا مطيةٌ للآخرة وممرٌ للجنة، فحينما نفهم الدنيا فهماً معكوساً، ماذا قال عليه الصلاة ولسلام ؟

((إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[صحيح البخاري: " أنس بن مالك "]

يجب أن تقدم للمجتمع قدوة كاملة، زواجاً إسلامياً، بيتًا وعملاً إسلامياً، وتجارة إسلامية، وتعاملاً إسلامياً، ونُزهة إسلامية في مكان بعيد عن الاختلاط، بعيد عن الموبقات، بعيد عن الغناء، فيمكن أن تتنزه نزهةً إسلامية، وأن تسهر سهرةً إسلامية مع إخوان طيبين تتذاكرون كتاب الله وسُنّة رسوله، فالمؤمن متميّز في سهراته، وفي لقاءاته، وفي ندواته، وحتى في سفره، وإقامته، ومعمله، ومكتبه، ودراسته، وعطائه و أخذه، والمؤمن له هوية، فالمؤمن يجب أن يبدو واضحاً جداً متميّزاً عن بقية الناس.

من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً:

إذاً:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ (20))

(سورة الشورى)

وكلمة:

(حرث)

تفيد أنك ألقيت شيئاً وأخذت أشياء، فهذا الحرث، ألقيت حبةً وأخذت أضعافاً مضاعفة، فالآخرة تقدِّم لها العمل الصالح وتسعد فيها إلى أبد الآبدين، إذاً هي حرث.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ (20))

(سورة الشورى)

أي نؤتيه الدنيا والآخرة، وهذا المعنى، لمن آثر آخرته على دنياه فربحهما معاً.

أشد الناس خسارة يوم القيامة من طلب الدنيا و نسي الآخرة:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا (20))

(سورة الشورى)

إذا طلب الإنسان الدنيا بصدق، فالله يعطيه إياها، ولكن..

(وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ(20))

(سورة الشورى)

هي نصيبه من الله، لذلك أشد الناس خسارةً:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف)

الدنيا مهما عَلَت، ومهما كبرت منقطعة بالموت.

من أحبه الله منحه العلم و الحكمة:

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي)

(سورة الفجر)

هذا كلامه، فالله قال له:

(كَلَّا)

(سورة الفجر).

ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً، بل عطائي ابتلاء وحرماني دواء، هذه الدنيا لو أنها تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، وهي أهون على الله من أن يجعلها مكافأةً لعباده، فأعطى المال لمن لا يحب، أعطاه لقارون، وأعطى القوة لمن لا يحب أعطاها لفرعون، لكن الذين يحبهم أعطاهم العلم والحكمة..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

(سورة يوسف: من آية " 22 ")

من كانت دنياه وفق منهج الله تعالى فمرحباً بها:

إذاً أيها الأخ الكريم ابحث عن العطاء الذي يليق بك وأنت مؤمن، إن جاءتك الدنيا أهلاً بها ومرحباً، ولكن وفق منهج الله، فسيدنا عبد الرحمن بن عوف كان من أغنياء الصحابة، سمع أن أم المؤمنين عائشة قالت:

" أخشى أن يدخل عبد الرحمن الجنة حبواً " فقال: **" والله لأدخلنها خبباً، وما عليّ إذا كنت أنفق مئة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء ".**

نعم مطية المؤمن المال، كان يقول:**" حبّذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي ".**

قال له سعد بن الربيع: **" دونك نصف مالي ".** فأجابه عبد الرحمن بن عوف: **" بارك الله لك بمالك ولكن دلني على السوق".**

فاليد العليا خير من اليد السفلى، فأنت كن معطياً ولا تكن آخذاً، فلا تتناقض الدنيا مع الدين أبداً، ولكن تتناقض المعصية مع الدين.

في الإسلام لا يوجد دنيا و آخرة فالإنسان كله لله:

والآن هناك سؤال سوف أجيب عنه: هل هناك من ضابط علمي للتفريق بين حبّ الدنيا واتّخاذها وسيلةً للآخرة ؟ الضابط لهذا الموضوع أن الدنيا إذا شغلتك عن فريضةٍ إسلامية: عن صلاةٍ، أو صيامٍ، أو حجٍ، أو زكاةٍ، أو طلب علمٍ، أو عملٍ صالح، إذا شغلتك الدنيا عن هذه المطالب الرفيعة فهذا حب مرضيٌ للدنيا، أما إذا لم تشغلك عن الآخرة وكنت فيه متفوقاً فقد جعلتها مطيةً لك.

إخواننا الكرام أقول لكم دائماً: عملك وحرفتك وتجارتك وصناعتك ووظيفتك وزراعتك، فأنت طبيب، أو مهندس، أو مدرس، أو محام، فحرفتك إذا كانت في الأصل مشروعةً، ومارستها بطريقةٍ مشروعة، وابتغيت بها كفاية أهلك وأولادك ومن يلوذ بك، وابتغيت بها خدمة المسلمين، ولم تشغلك عن فريضةٍ ولا عن واجبٍ ولا عن طلب علمٍ انقلبت حرفتك إلى عبادة، ففي الإسلام لا يوجد دنيا وآخرة، ولا يوجد ساعة لك وساعة لربك، فأنت كلك لله ؛ حياتك وحرفتك ودراستك ونشاطك، وكل حركاتك لوجه الله عزّ وجل، فالمؤمن الصادق يعرف حقيقة الحياة الدنيا، أما الذي يريد الدنيا للدنيا فالويل له، وقد يخسرها في ثانية واحدة إذا توقف القلب.

الموت مصير كل إنسان:

في أمريكا ألف ومئتا إنسان في وقت قصير (أذكر أنه أسبوع أو أقل) يصابون بسكتة دماغية، وسكتة قلبية، واضطراب بكهرباء القلب إذْ يتوقف القلب فجأةً، فكل هذه الدنيا التي بين أيديهم يخسرونها في ثانيةٍ واحدة، فإذا وضع الإنسان كل أمله فيها قال عليه الصلاة ولسلام:

((بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

[أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك]

فهذا الحديث مخيف جدّاً، فإنسان أصر على الدنيا وأراد الدنيا فقط، أرادها ومالها، ومتعها، ومباهجها، وشهواتها، فماذا أمامه ؟ قال:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السّاعَةَ فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك عَنْ "أَبِي هُرَيْرَةَ "]

الدنيا، لا بد من أحد هذه السبعة، وإلا كيف تنتهي حياة الإنسان ؟ لما يأتي الأجل إما من الكليتين، أو من الكبد، أو من القلب، أو بحادث، فبالطبع لا بد من الرحيل والرحيل محقق، لكن المؤمن الكيس قال:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ- ضبطها بالشرع - وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنّى عَلَى اللّهِ))

[سنن الترمذي: عن " شَدّادِ بْنِ أَوْسٍ "]

الدين مبعث تفوق للإنسان لا مبعث تخوّف:

أنا ما أردت أبداً أن أصرفكم عن طلب الرزق، ولا عن طلب العلم، ولا عن التفوّق في الدنيا، فما أجمل الإنسان إذا تفوّق فيها وفق منهج الله، فهل من الدنيا ألاّ تتزوج ؟ لا واللهِ، هل من الدنيا ألاّ تنجب أولاداً ؟ لا، أنجب أولاداً وربّهم تربيةً إسلامية ليكونوا عناصر طيّبة في المجتمع، أليس لك عمل ؟ أتقن عملك فإتقانه من الدين، وأخلص في عملك فإخلاص عملك من الدين، فالدين مبعث تفوق لا مبعث تخوّف.

فأعداء المسلمين أكبر وهم يتوهموه أن الدين سبب التخلف، واللهِ إنّ الدين سبب التقدم وسبب التفوق، لكن الدين الذي أراده الله عزّ وجل، ليس الذي ترونه بين الجهلة من سلوك لا معنى له، وتمتمات، ومواقف متناقضة، ليس هذا هو الدين، فالمؤمن شخصية فذّة.

المؤمن أسعد الناس لأنه موصول بالله:

أولاً: المؤمن عالم، فما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلّمه، والمؤمن يعلم الحقيقة العظمى في الكون، فيقرأ القرآن، فهو منهج، وكتاب تاريخ، وتربية، وتشريع، وأحوال شخصية، وفلسفة، والمؤمن له صفةٌ علمية، وله صفةٌ أخلاقية، وهو رجل قِيَم ومبادئ، ومصالحه تحت قدمه، ومبادئه في عينه، إنه جمالي، فأذواق المؤمن عالية جداً، إذْ له أذواق في حياته الخاصة، وأذواقه في الاتصال بالله عزّ وجل، وفي تلاوة كتاب الله، كنت أقول مرةً: واللهِ لو اجتمع ذواقو الغناء في العالم لا يستمتعون بأغانيهم المفضلة كما يستمتع أقل مؤمن بكتاب الله حينما يتلوه.

فإنسان يتلو كتاب الله، أو يستمع إليه، أو يمدح النبي عليه الصلاة والسلام، أو يستمع إلى أذان من صوتِ شَجٍ يذوب قلبه وجداً وطرباً، فليس منا من لم يتغنّ بالقرآن، فالمؤمن له أذواق رائعة جداً، وله أشواق، وله أحوال، **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف "**. فالمؤمن سعيد جداً، إذا لم يقل لك: أنا أسعد الناس فهو غير مؤمن، ما دام مؤمنًا فهو أسعد الناس، لأنه موصول بالله، أو موصول بمصدر السعادة، فمعنوياته عالية جداً، واللهُ يدافع عنه..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 ")

الإسلام انتماء حقيقي و ليس انتماء تاريخياً:

المؤمن حكيم جداً، لأنه مسدد من الله عزّ وجل، فهو يتحرك وفق منهج الصانع، ولو أنك اشتريت آلة معقدة، وفتحت التعليمات، ونفذتها، فإنّك تضمن سلامتها ومردودها العالي.

فكلمة مؤمن كلمة كبيرة جدّاً، ولكن مع تخلُّف المؤمنين والمسلمين، قد يقول أحدهم: هذا الشيخ. يقولها استهزاءً، فهل تعلم من هو المؤمن ؟ إنه شخصية من الشخصيّات النادرة، لا يسخر من القيَم، ولا يُسَخِّرُهَا بل يحتكم إليها، فله وعيٌ عميق، وإدراكٌ دقيق، إنه يرى ما لا يراه الآخرون، ويسمع ما لا يسمعون، فأحاسيسه مرهفة جداً، إنه سعيد في بيته، وسعيد في عمله، فهو شخصية نادرة جداً.

ولكن مع ضياع الناس، ومع تقصيرهم، والمعاصي والمخالفات التي يقترفونها فقد ضيّعوا ثمرة إيمانهم، ولذلك ترى المسلم شخصاً عادياً كهؤلاء لم يلتزم بدينه، ولم يطبق، وعندما لم يطبق صار له انتماء تاريخياً فقط، فهذا مولود مسلم، من أبٍ وأمٍ مسلمَين، هذا الانتماء التاريخي لا يعدُّ إسلاماً، فالإسلام هو انتماء حقيقي، وهو إدراك، وعقل، ومبدأ، واتجاه.

المؤمن كل شيء مدخر له بعد الموت لأنه عرف حقيقة الحياة الدنيا عكس الكافر:

دخلنا بموضوع:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ(20))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة الكرام، الإنسان يرتقي في الدنيا درجة درجة، فتصور إنسانًا طالعاً درجاً خمسين درجة، ثم سقط من علٍ إلى الحضيض، فالقضية خطيرة جداً، فالإنسان يبدأ متواضعاً، ودخله قليل محدود، و لا يوجد عنده بيت، ثم ينمو شيئاً فشيئاً، فهل من المعقول عندما تبلغ قمّة النجاح، وقمّة الفوز، جمعت المال الوفير، وارتفعت مكانتك وأنت في سماء الشهرة، وأنت في أوج نجاحك يأتي الموت فيأخذ منك كل شيء ؟!! والله مشكلة، مشكلة كبيرة جداً، فالناس في غفلة، والذي تجمعه في عمرٍ مديد يأخذه منك الموت في ثانيةٍ واحدة، لا تستطيع أن تأخذ شيئاً معك، هذا الموت.

إلا المؤمن، فكل شيء مدخر له بعد الموت، لأنه عرف حقيقة الحياة الدنيا، فتحرّك فيها وفق منهج الله عزّ وجل، وكسب أعمالاً تنفعه بعد الموت.

العاقل من أعدّ لساعة الفراق عدّتها:

من باب التمثيل: لو أنّ إنساناً باع أرضه وأرسل ثمنها لبلد آخر، وباع دكانه وأرسل ثمنه لبلد آخر، وكل شيءٍ يملكه باعه وحوّل المبلغ إلى بلدٍ آخر، فما بقي عليه إلا أن يلتحق بماله، فإذا أخذ جواز السفر، وركب الطائرة شعر بسعادةٍ كبرى، لماذا ؟ لأنه قدّم ماله أمامه فسرّه اللحاق به.

أما لو أن إنسانًا كان في أعلى درجات النجاح وقيل له: عليك أن تغادر خلال ساعتين ودع كل شيءٍ في بلدك، فهذه مصيبة كبيرة جداً ؛ ترك بيته، وأرضه، وسيارته، وكل شيء يملكه، فالمؤمن يشبه إنسانًا قدّم ماله أمامه فسرّه اللحاق به، وغير المؤمن إنسان أُمِر أن يغادر فجأةً من دون أي تأخير، إذًا هكذا هو المؤمن.

فيا إخواني إذا عزّى أحدُنا بعضَ المتوفين ولاحظ الفرق الكبير بين بيته الذي كان يسكنه وبين مقبرة باب الصغير، يقول لك: بيت ثمنه خمسة وعشرون مليونًا، أو ثلاثون أو أربعون مليونًا، ثلاثمئة متر، رخام إيطالي وجص، وثريات، و سجاد، لكن أين صاحبه ؟ في القبر، صار بمتر ونصف، وبعرض ستين سنتيمتر، تحت أطباق الثرى، فحادث الموت خطير جداً، فالناس نيام، وهم في غفلة، والإنسان يجب أن يزور القبور، ولو لم يكن له أقرباء فيتبع الجنائز، ويلاحظ اللحظة الحرجة حينما يفتح النعش

ويحمل الميت في كفنه ويوضع في القبر، وتوضع هذه الحجارة، ويأتي الحَفّار فيردم التراب، ويقف أولاد المتوفّى يقبلون التعازي، قال له: **" عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا ".**

والله أيها الأخوة ما رأيت إنسانًا أعقل من الذي يعدُّ لهذه الساعة عدّتها ؛ أعد لها استقامةً، ودخلاً شرعياً حلالاً، وبيتاً مسلماً، من زوجة و بنات وأولاد، وأعدّ لها عملاً صالحاً، فعمله المِهَني مشروع، فيه صدق وأمانة، فهو بعيد عن الكذب والغش والاحتيال، فالإنسان أعدّ لهذه الساعة بيتاً إسلامياً، وعملاً إسلامياً، واستقامةً على أمر الله، وعملاً صالحاً، إذا جاء الموت فهو في أسعد لحظات حياته.

اليأس و الإحباط يصيب أهل الدنيا عند مفارقتها:

اقرؤوا سيرة الصحابة ماذا تجدون ؟ تجدون أن كل أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند مفارقة الدنيا، والآن اسأل طبيباً مشرفًا يعاين حالات الوفاة (أطباء القلب يعرفون ذلك) انظر إلى فزع الإنسان عند الموت، إذا أيقن أنه سيغادر هذه الدنيا يختل توازنه، ويصبح كالطفل، يصيح ويبكِي، ويندب حظه، وقل للطبيب: صف لي حالة بعض المرضى ؟ انهيار عصبي كامل حينما يوقن أنه انتهى.

لي قريب زار صديقًا له وهو على وشك الموت، وكان قد أعدّ بيتًا فخماً جداً، فرآه متألماً حاقداً ناقماً، وقال له: غداً أموت، وزوجتي هذه تتزوج ويأتي زوجٌ غيري يأخذ البيت، فما هذا الشعور ؟ إنه شعور مدَمِّر، حتى تمّ بناء هذا البيت مات ألف موتة، وبعد أن نضج لم يستمتع به، صار معه مرض خطير، سوف يغادر، ورأى زوجته غير وفية، وسوف تأتي بزوج حسب مزاجها يستمتع بهذا البيت الذي تعب هو فيه، فهذه مشاعر الدنيا.

الدنيا تغر وتضر وتمر، وشعور أهل الدنيا حين المفارقة شعور لا يصدّق، شعور اليأس والإحباط، أما المؤمن: **"واكربتاه يا أبتِ ".** قال: **"لا كرب على أبيك بعد الموت، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه ".**

تصور طالباً يدرس على حسابه في بلد أجنبي يسكن غرفة قميئة، يعمل ليلاً نهاراً حتى أخذ الدكتوراه، وهو موعود في بلده بمنصب رفيع جداً، وبأجمل بيت وأجمل زوجة، فهو عندما أخذ الدكتوراه وصدقها، وركب الطائرة هذه أسعد لحظات حياته وهو يعود إلى بلده.

وأحد العلماء سئل كيف القدوم على الله ؟ قال: كالغائب ردّ إلى أهله.

ولو غاب إنسان عن أهله ثماني سنوات، ثم حضر يتفننون له في الطعام الذي يحبه، يطبخون له ست أو سبع طبخات، فأجمل الأكلات يحبها يعملونها له، وغرفة خاصة، وسرير فخم، وملاءات نظيفة، واحتفالات، وزيارات، وسهرات، فهذا للغائب الذي حضر، وهكذا المؤمن.

على كل إنسان أن تكون دنياه مطية للآخرة لا هدفاً لذاتها:

لذلك نحن نريد أن نضع آمالنا بالآخرة، أما الدنيا فنعمل فيها، ونتفوق ولكن بنية عالية، وبين أيدينا لا في قلوبنا، وعلامة الدنيا التي لا ضير من أن تعمل فيها أن لا تشغلك عن طاعة، فإذا كانت صلواتك، وصيامك، وزكاتك، و حجك، وانضباط بيتك، وعملك وفق الشرع إذاً عملك في الدنيا وليس من الدنيا للآخرة، أما إذا كان الأمر: عندنا موسم فتركنا الدروس، ولم نصلّ الظهر والعصر، بل نجمعهما مساءً. هذا حب الدنيا، فإذا ضيّع الإنسان صلواته، وضيّع مجالس علمه، وضيّع طلبه للعلم وهو منهمك في دنياه فهذا من حبّ الدنيا، أما إذا كان عندك حرص شديد على طاعة الله، فالدنيا عندئذٍ بين يديك، ولا بد من عمل تكسب منه رزقك، والعمل مشروع، والعلم مشروع، والحرفة مشروعة.

فالذي أريد من هذا الدرس إذْ ذممت الدنيا في أول الدرس، فأنا أذم من طلبها لذاتها، ومن جعلها كل همه ومبلغ علمه، ومن جعل الدنيا ديدنه، ومن أراد أن يستمتع بها، ويرتاح إليها، ويقتنص الشهوات فيها، فأنا ذممتها من هذه الزاوية، أما حينما أجعلها مطية للآخرة فلابد من أن تكون مثقفاً، أو صاحب حرفةٍ، أو صاحب مالٍ، أو منصبٍ من أجل أن تبذل هذا المال، وهذه الوجاهة، وهذه الحرفة في طاعة الله.

الإتقان و الإخلاص في العمل أساس طاعة الله:

الذين ينفقون أموالهم ليلاً ونهاراً هؤلاء ألا يغبطون على ذلك ؟ هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

[أخرجه مسلم عن " عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ"]

فالتفوق التفوق في الدنيا، ولكن على أن تكون مطية لا على أن تكون هدفاً لذاتها. وسيدنا النبي اللهم صلّ عليه أمسك يد عبد الله بن مسعود فرآها خشنة، فرفعها هكذا أمام أصحابه وقال:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

فالذي له مصلحة، أو حرفة، يعمل فيها بإخلاص، ويتقنها، ويخدم المسلمين بها ويكسب رزقاً حلالاً ينفقه على أهله هذا والله وليّ..

(ألا إنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(62))

(سورة يونس)

وامرأةٌ تحسن تربية أولادها، وترعى زوجها، وتربيهم، وتعتني بهم، ولا تؤذي خلق الله بسفورها، فهذه المرأة وليّةٌ عند الله عزّ وجل، إنها متزوجة ولها زوج، ولها أولاد تعتني بهم، وتطبخ لهم، وتنظف البيت، وتعتني بنظامهم ودارستهم، ومستقبلهم وأخلاقهم، فهذه ولية.

المسلم لا يرقى عند الله إلا بالعمل الصالح:

وإنسان يعمل في مصلحة بإتقان وإخلاص وصدق، يربح ولكن سعره معتدل، ولسانه طيب، وعمله متقن، فهذا وليّ، فلا تظن أن الإيمان انسحاب من الحياة وتقعد في الجبل، من قال لك ذلك ؟ الإيمان أن تعمل، والنبي قال لرجل يجلس في المسجد نهاراً:

" من يطعمك ؟ ". قال له: **" أخي ".** قال:

((أخوك أعبد منك))

أنا أدعوكم إلى العمل، ولإتقان العمل، وللإخلاص بالعمل، ولاختيار عملٍ يرضي الله، فإيّاك أن تختار عملاً يؤذي الناس، لأن ألصق شيء بحياتك عملك وزوجتك، ابحث عن زوجةٍ مؤمنة تسعدك وتسعد بها، وابحث عن عملٍ يرضي الله، فيه عطاء للناس وخدمة، فيه حلّ مشكلاتهم، ما أكثر الأعمال التي تفسد أخلاق الناس، فما أكثر الأعمال التي لا ترضي الله، وأخطر شيء في حياتك عملك الذي تعيش وتقتات منه.

هناك عمل أساسه إيقاع الأذى بالناس، وعمل أساسه سلب أموال الناس، وعمل أساسه سلب مشاعر الناس الطيّبة، وعمل أساسه الإيقاع بين الناس، فإياك أن تختار عملاً يؤذي المجتمع، ولا تنسَ هذه المقولة: **" إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك ".** وابحث عن عمل فيه عطاء للناس، وكله خير، وأنا أدعو للعمل، ولإتقان العمل، وللإخلاص في العمل، والمسلم لا يرقى عند الله إلا بالعمل، والعمل يحتاج إلى عمل، والعمل الصالح يحتاج إلى عمل تكسب منه رزقك، فأن ينسحب المؤمن ويعيش على هامش الحياة، ويعيش عالة على الآخرين، مهملاً حياته الخاصة، وشؤونه، وعمله غير متقن، فهذا ليس مؤمناً، والمؤمن إنسان متفوق ذو شخصية فذة المؤمن.

على كل إنسان أن يكون عمله الذي يرتزق منه زاده في الآخرة وسبباً لدخول الجنة:

فلذلك أيها الأخوة يجب أن يرفع الناس رؤوسهم، رجل كان يمشي أمام سيدنا عمر مطأطئ الرأس فعلاه بالدُرّة قال له: **"لا تمت علينا ديننا أماتك الله ؟ "** ارفع رأسك، الإنسان إذا أتقن عمله يكسب العزّة، والذي يُهمل عمله يكسب الذِلّة، قال:

(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

(سورة المعارج: من آية " 44 ")

فقانون العِز والذل، إتقان العمل يرفع رأسك، وإهمال العمل يخفض رأسك، فالعمل أساسي، وكل واحد يعتبر (أقول لكم هذا الكلام الدقيق): يمكن أن يكون عملك الذي ترتزق منه زادك في الدار الآخرة وسبباً لدخول الجنة ؛ فالطبيب والمحامِ والمهندس المدرس المخلصون، والتاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين يوم القيامة.

هذا الحديث أوقعني في حيرةٍ كبيرة، يا رُبَّ تاجر وباع واشترى وربح، فلماذا صار مع النبيين، ماذا فعل ؟ لأنه كان داعية إلى الله وهو لا يشعر باع بضاعة جيدة بسعر معتدل، ولم يغش الناس ولم يكذب عليهم، وكان سموحاً معهم، فكان داعيةً وهو لا يشعر، فهذا داعية صامت.

لابدّ لكل إنسان من حرفة لتكون يده هي العليا:

أكبر دولة إسلامية اليوم أند ونسيا ويبلغ عدد سكانها مئة وخمسون مليونًا وحدها، والعرب كلهم مئة مليون، هذه فتحت لا عن طريق السيف بل عن طريق التجارة، فأنت أيها التاجر قد تكون داعية وأنت لا تشعر.

والطبيب الذي لا يبتز أموال الناس، ولا يكذب عليهم، ولا يكبّر حجم المشكلة، هذا الطبيب المؤمن داعٍ وهو لا يشعر. والمحامِي كذلك، والمدرس، والمهندس، والموظف الذي يستقبل المواطن ويلبي حاجته بتواضع من دون أن يكبّر عليه المشكلة، هذا مؤمن، وهذا داعية، فإذا ذممنا الدنيا فنحن نذمها من أحبها لذاتها، ومن جعلها حجاباً بينه وبين الله، ومن أراد الاستمتاع بها، ولكن من جعلها مطية نقول له: مرحباً بك، أنت على الحق وأنت في الطريق الصحيح.

الإنسان لابدّ له من حرفة، أو عمل، ولا بد له من أن تكون يده عليا، أما أن يقول: اتركها لسيدك، ويمد يده للناس. أهذا الذي يمد يده للناس مؤمن ؟ يجب أن نعاون بعضنا، ولكن الأصل أن تأخذ حاجتك عند الضرورة وأن تسأل ربك من فضله.

على كل إنسان أن يكون له عمل وفق منهج الله و حدوده:

لذلك أيها الأخوة أكثر الدعاة إلى الله والخطباء يذمّون الدنيا وأنا معهم لأنه حق، ولكن الدنيا التي تقصد لذاتها، أما الدنيا التي يبتغى بها وجه الله، فالإنسان عندما يتزوج، وعندما يختار عملاً تعليمياً، وعملاً مهنياً، أو حرفياً، بإخلاص وإتقان يرقى عند الله، والمسلمون الآن بحاجة ماسة إلى التفوق في أعمالهم، وإلى أن يكتفوا عن استيراد حوائجهم من الغرب، فإذا أنشأ إنسان معملاً صغيراً وأغنانا عن استيراد بضاعة أجنبية، ونقل العملة الأجنبية إلى الغرب فهذا عمل طيب، ولكن على أن يبقى في منهج الله، ووفق حدود الله، فنحن لا ننجح إلا إذا طبقنا منهج الله عزّ وجل، ولذلك فمعرفة أحكام الله الشرعية فرض عين على كل مسلم، لئلا يقع في حرج كبير.

أحياناً تستورد مادة غذائية أولية فيها شحم خنزير وأنت لا تشعر، عملت معملاً ولكنه يصنِّع مادة مشكلة، فأحياناً هناك بعض المواد الغذائية فيها مواد مخدرة، حتى يصير إدمان عليها، فالمؤمن يعمل عملاً تاماً وفق الشرع، وقد اكتشفوا بعض الحلويات المستوردة فيها مواد تسبب عقماً لأطفالنا، وهذا عولج مرةً في مجلس الشعب، فيجب أن نصنع غذاءنا بأنفسنا، وأن نصنع ثيابنا بأنفسنا، وهذا الشيء مفخرة للمسلمين، فكلما رأيت مسلماً له عمل طيب وينفع فيه المسلمين، والعمل وفق المنهج الإلهي فهذا إنسان عظيم، لأنه أولاً خدم أمته، وخدم بلده، وخدم المسلمين وحصنهم من كل انحرافٍ وأذى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (08-15): تفسير الآيتان 21-22 ،المشرع هو الله لأنه يعلم حقيقة النفس الإنسانية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-03-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الشورى.

المُشَرّع هو الله لأنه يعلم حقيقة النفس الإنسانيّة:

مع الآية الواحدة والعشرين وهي قوله تعالى:

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(21))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية فيها استفهام إنكاري، أي أن الله سبحانه وتعالى يُنْكِرُ على هؤلاء أن يشرّعوا تشريعاً يخالف شرع الله عزّ وجل، وهذه الآية تنقلنا إلى موضوعٍ دقيقٍ في الإسلام، وهذا الموضوع هو أن المُشَرّع هو الله، لماذا ؟

أولاً لأن الإنسان يجهل حقيقة الناس، والذي يشرّع يجب عليه أن يعلم حقيقة النفس الإنسانيّة، وأن يعلم ما تنطوي عليه من حاجات، وما تعانيه من مُلِمّات، فالنفس البشريّة لها طبيعة، فمن هو الخبير بها ؟ هو الله سبحانه وتعالى وهو الصانع، فأنت بشكل بسيط جداً لو عندك جهاز مُعقّد (حاسوب مثلاً) وتعطّل، فهل من الممكن أن تلجأ إلى غير الخبير ؟ وإلى غير الشركة الصانعة ؟ وإلى غير مندوب من الشركة الصانعة ؟

فأولاً المشرّع لا ينبغي له أن يكون إنساناً، فلو أن المشرّع هو الإنسان فالإنسان يجهل، وإذا علم يجهل جانباً ويعلم جانباً، فأحياناً نشرّع من زاوية واحدة، ونجد أخطاء كثيرة جداً، ومضاعفات خطيرة جداً ظهرت معنا دون أن نحسب لها حساباً، وبما أنه لو علم يجهل، ولو علم جانباً جهل جوانب، ولو نظر في هذا التشريع من هذه الزاوية تغيب عنه بقيّة الزوايا، وهو إما أنه يجهل جهلاً مطبقاً، أو أنه يجهل جهلاً جُزْئِيّاً، فما دام هناك جهل فالجاهل لا يشرّع.

الإنسان لا يمكن أن يكون مشرّعاً لعدة أسباب منها:

هذه النفس البشريَّة لا يعلم حقيقتها، وقوانينها، وخصائصها، و بُنيتها، وفطرتها إلا الذي خلقها، فحينما نفكِّر، أو حينما نكتشف، إلى أن نشرّع لأنفسنا فقد وقعنا في مطبٍ كبير، وفي جهالةٍ جَهْلاء، وفي هلاكٍ في الدنيا وشقاءٍ في الآخرة، لمجرّد أن تفكِّر أن إنساناً ما كائناً من كان بإمكانه أن يشرّع، فالمشرّع هو الله لأنه هو الخالق، والبارئ، و المصوّر، والعليم، والحكيم، والخبير، والذي يعلم السرّ وأخفى.

1 ـ لأن الإنسان إما على جهلٍ مطبق أو على جهلٍ جزئي:

إذاً أول نقطة: أن مخلوقاً ما كائناً من كان، مهما علا قدره، و كثر علمه، واتسعت ثقافته، وسمت نفسه، لا يستطيع أن يشرّع لأنه إما على جهلٍ مطبق، أو على جهلٍ جزئي، ومادام في كيان هذا المشرّع جهلٌ ما ولو كان جزئياً، فإن هذا الإنسان ليس بمقدوره أن يشرّع، والدليل أن أي قانونٍ وضعيٍ من صنع البشر لا تزال ترى له تعديلاتٍ وتعديلاتٍ حتى تغدو التعديلات أكثر من مَتْنِ القانون، ثم يلغى كلياً ويوضع قانونٌ جديدٌ آخر.

وإن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الإنسان ليس مؤهّلاً أن يشرّع، وهذه حقيقةٌ أساسيَّةٌ في الدين، أي إنسان (أنا لا أتهم إنسانًا معيَّنًا ولو حسنت نيّته) فالإنسان يجهل، أو يعلم جانباً ويجهل جانباً آخر، ومادام في جهل من جانب فلا يمكن أن يكون الإنسان مشرّعاً.

1 ـ الإنسان له مصالح و غرائز فأي تشريع من وضع البشر يخدم مصالح المُشَرّع:

هناك عامل آخر: الإنسان له مصالح، وله غرائز، فإذا شرّع هو فمن أجل مصالحه، ومن أجل غرائزه، فأي تشريعٍ من وضع البشر تشعر أن هذا التشريع يخدم مصالح المُشَرّع قبل كل شيء، أو يخدم غرائزه، فعامل الجهل الكُلي أو الجُزئي، وعامل المصالح التي هي أحد أهداف الإنسان، وعامل الغرائز التي هي تتحكّم بالإنسان أحياناً، فلهذه الأسباب مجتمعةً أو غير مجتمعة فالإنسان لا يمكن أن يكون مشرّعاً.

أي تشريع يضعه البشر له مضاعفات خطيرة جداً:

هل تصدِّقون أن من المجتمعات التي توصف بأنها راقية أو متقدِّمة (بالمقاييس الحضاريَّة) من هذه المجتمعات من أقرّت اللواط، تفضّلوا، الإنسان إذا شرّع هكذا يفعل، طبعاً عندما شُرّعَ هذا القانون تملّقاً

لغرائز الناس المنحرفة، مع أن هذا الانحراف ليس في حياة البشر انحرافٌ أدنى منه، ولا أقذر منه، فهو تحطيمٌ للإنسان، ولهذا الطفل الذي سيغدو رجلاً، انتهى الإنسان، فحينما نقول للإنسان: تعال شرّع، يبيح لك الشذوذ. والآن في بعض الدول في اسكندينافيا توزّع على الناس المخدِّرات مع الحقن المعقمة لئلا ينتقل مرض الإيدز عن طريق الحقن، فإذا أردنا أن نشرّع فقد ألغينا تشريعًا آخر.

أنا أنقل إليكم بعض اللقطات من التشريعات الوضعيّة في مختلف بلاد العالم، في الصين ظهر تشريع يُلزم الآباء بإنجاب ولد واحد، فما الذي يفعله أهل الصين ؟ إذا جاءت الأنثى قتلوها إلى أن يأتيهم ذكر فيُصرّحون به، فما الذي حدث بعد حين ؟ أن قرىً بأكملها لا تجدُ فيها أنثى واحدة، تعطّلت الحياة. فالإنسان حينما شرّع ظهر معه هذا.

وفي تونس أي إنسان يطلِّق امرأته تتملّك فوراً نصف ثروته، فأصحاب الأعمال الناجحين عزفوا عن الزواج، وأمضوا حياتهم بالسِفاح، وكسدت سوق الزواج، فاضطرّ الآباء أن يعطوا خاطبي بناتهم سندات أمانة بمبالغ خياليّة إذا طلّقوا يستحقُ عليهم هذا السند. فعندما شرّعنا نحن وقعنا في مأزق كبير، وأي تشريع يضعه البشر يجب أن تجد له مضاعفات خطيرة جداً.

التشريعات التي جاءت في القرآن الكريم كلّما تقدّم العلم أثبت أنها هي الناجحة:

أيها الأخوة، طبعاً ليس غريباً عن أذهانكم أنه قبل عام أو أكثر دولة عظمى من دول العالم سمحت للشاذين بدخول الجيش، إنه تشريع ! فهذه كلّها أدلّة تؤكِد أن الإنسان حينما يشرّع إما أنه يجهل جهلاً كلياً، أو أنه يجهل جهلاً جزئياً، أو أنه يتملّق مصالحه، أو يتملّق غرائزه، فالتشريعات الوضعيّة دائماً لمصلحة واضع التشريع، تحقِق كل مصالحه على حساب الآخرين.

أما إذا كان التشريع من خالق الكون فهو الخالق أولاً، والبارئ و المصوّر، والعليم، والقدير، والعادل، لذلك التشريعات التي جاءت في القرآن الكريم كلّما تقدّم العلم أثبت أنها هي الناجحة، فمثلاً: هناك دول ألغت عقوبة الإعدام، لماذا عادت إلى تطبيق هذه العقوبة صاغرةً ومُرغمة الأنف ؟ صار الإنسان يقتل ثمانية وعشرين شخصاً برشّة واحدة بلا سبب، ضجر، ورفض، وضياع. فالله عزّ وجل قال:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ)

(سورة البقرة: من آية " 179 ")

طبعاً **" القتل أنفى للقتل "** حينما تقتل القاتل، إذاً حينما يفكِّر إنسان بالجريمة يرتدع، وقرّت حياة القاتل الآخر وحياة المقتول، فالشرع الحكيم أمر بقتل القاتل ردعاً لأي إنسان وحفاظاً على حياة الناس، أما بعض المجتمعات التي تظن أنها متقدِّمة حكّمت عقلها في كل شيء، والعقل لا يكفي، العقل وحده ليس مؤهّلاً أن يشرّع. فالمُنطلق أننا نحاسب الناس لكن لا نؤذي حياتهم (شيء جميل) القاتل له سجن،

وبحسب حقوق الإنسان له وهو في السجن حالات طيّبة، له حق أن يقرأ صحيفة، وأن يأكل أكلاً طيّباً، وأن يشاهد وسائل الإعلام، فصار السجن أكثر راحة من بيته، فهذا يدخل السجن وهو في راحةٍ تامّة، ولذلك حينما تفاقمت جرائم القتل في بعض البلاد الغربيّة عادوا إلى تطبيق عقوبة الإعدام مرغمين.

الإسلام دين وسطي:

فيا إخواننا الكرام، الآن الإسلام وسطي، والوسط هو الاعتدال وهو الصواب، والعالم توزّع نحو تطرُّفٍ نحو اليمين وتطرُّف نحو اليسار، والآن بفضل الله ورحمته عاد الطرفان مُرْغَمَيْن إلى الوسط لا اعتقاداً بأحقية الدين، بل انطلاقاً من مصالحهم، فهؤلاء عادوا إلى الوسط، وهؤلاء عادوا إلى الوسط..

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)

(سورة البقرة: من آية " 143 ")

من قوانين النفس أنّ الإنسان دائماً يوازن بين المكتسبات وبين التبعات:

أيها الأخوة الكرام، من قوانين النفس، أنّ الإنسان دائماً يوازن بين المكتسبات وبين التبعات، فإذا كانت التبعات أقل من المكتسبات وقع الإنسان في الجريمة، وحينما شَرَعَ الإسلام قطع اليد، طبعاً أحد الشعراء سأل الإمام الشافعي فقال له:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجدٍ وديَة ما بالها قُطِعَت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ونستجير بمولانا من العــار

* * *

أي أن ديّتها خمسمئة دينار. فأجاب الإمام الشافعي فقال:

يد بخمس مئين عسجد وُدِية لكنها قطعت في ربع دينـــار
هنالك مظلومة غالت بقيمتها وهاهنا ظلمت هانت على الباري

* * *

لمّا كانت أمينة كانت ثمينة فلمّا خانت هانت.

وفي بعض البلاد غير المستنيرة علمياً، وغير المتقدِّمة حضارياً، حينما طُبِّق فيه قطع يد السارق حصل العجب العجاب، تعجب أن بائع النقد يترك صندوق النقد بالملايين ويذهب ليصلي، ولا يجرؤ أحدٌ أن يأخُذَ شيئاً، وهناك قصص كثيرة جداً عن مجتمع غير حضاري، وغير متقدِّم، وغير متعلِّم ولكن طُبِّقَ فيه هذا الحَد (قطع يد السارق) لأن أكبر مبلغ يناله السارق لا يوازي يده، يعمل موازنة فيقول لك:

لا. أما إذا كان موضوع سجن فقط فالقضيَّة سهلة، ألف طريقة يخرج الإنسان منها، بكفالة، وباحتيال، ولذلك:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجدٍ ودية ما بالها قُطِعَت في ربع دينار

* * *

عزُّ الأمانة أغلاها، وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

* * *

والله عزّ وجل قال:

(وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ)

(سورة النور: من آية " 2 ")

الشفقة هنا شفقة شيطانيَّة، فحينما تُشفق على إنسان يعمل على هدم أركان المجتمع فهذه ليست شفقة، وإنما هي محاباةٌ للمُنحرف.

أعظم ما في التشريع الإلهي أن الذي وضع التشريع هو معك دائماً:

إذاً حينما نسمح لإنسانٍ ما أن يشرّع نقع في أخطاء كبيرة، غالباً أن الإنسان إذا طبّق شرع الله عزّ وجل، فالمؤيّد القانوني لشرع الله أن الله يعلم، ولكن واضع التشريع قد لا يعلم من يخالف هذا التشريع، أو لا يستطيع أن يعلم، فإذا كان بالإمكان أن ينجو من علم واضع التشريع إذاً يحتال عليه، لكنّه إذا علم أن المشرّع هو الله، فلو كان في عقر بيته فلا يستطيع أن يخالف شرع الله، ولو كان وحده في الليل يعجن العجين، في ساعةٍ متأخِّرة من الليل، لا موظّف تموين ولا مراقب، ولكنه يراقب الله عزّ وجل، فلا يستطيع أن يخالف الشرع، فأعظم ما في التشريع الإلهي أن الذي وضع التشريع هو معك دائماً. فأنت تلاحظ أحياناً الساعة الثالثة لا توجد إشارات، تتخطّى الإشارة الحمراء وأنت مطمئن لأنه لا يوجد شرطي. وهذا مثل بسيط، أن واضع قانون السير لا يستطيع أن يعلم كل المخالفات أثناء الليل، فالشرطي يريد أن ينام، ففي الساعة الثانية عشرة ينام، ومعنى هذا بعد الثانية عشرة لا يوجد شرطي إذاً تخالِف، وهذه من ثمار القانون البشري، فما دام واضع القانون لا يستطيع أن يضبط المخالفات، إذاً هناك عملية صراع بين عقلين، والأذكى ينتصر.

عدم انتظام الحياة إلا بتطبيق منهج الله عز وجل:

الآن في بعض البلدان المتقدِّمة (بمقياس العصر) يوجد أجهزة رادار لكشف السرعة الزائدة، والأذكياء صنعوا جهازاً للتشويش على هذا الجهاز، اضطروا أن يصنعوا جهازاً ثالثًا لكشف جهاز التشويش الموضوع داخل السيَّارة، فالأمر هو حرب بين عقلين، أما حينما يضع خالق الكون تشريعاً فهنا لا احتيال عليه، لأن الله يعلم، وسيعاقب، ولن تنتظم الحياة إلا إذا طُبِّق منهج الله عزَّ وجل، لأن المشرِّع وهو الله يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم أدقَّ المخالفات.

والدليل الصيام، فالمسلم، قد يكون شهر رمضان في أيام الصيف الحارة، وساعات الصيام سبع عشرَة ساعة، واستيقظ وهو في حالة عطش شديد، فكيف يمضي هذا اليوم إلى المغرب ؟ يدخل الحمَّام والماء بارد، عذبٌ فرات ولا أحد يراقبه، هل يستطيع المسلم أن يبتلع نقطة ماء في رمضان ؟ هذا من أثر التشريع الربَّاني. وتجد حالات من الأمانة، والصدق، وعدم الغِش، فإنه شيءٌ عجيب، لأن المراقب هو الله، فإذا قلت: إنسان سيراقب، فالإنسان يباع ويشترى.

يقول لك: كانوا قديماً، لا توجد أجهزة تكشف الحليب المسحوب دسمه، فالأمور فيها تراخٍ، ثم اخترع جهاز مكثِّف يوضع في الحليب، ويغوص في السائل بحسب قدر سحب المادَّة الدسمة، فهذا جهاز مكثِّف، فصار في حل، يسحب الإنسان المادَّة الدسمة في الحليب (القشدة) ويضع بدلاً منها النشاء، ويوضع المكثِّف فكأن الحليب كامل الدسم. والآن نحن نحضر جهازًا حديثًا جداً يحدِّد المادة الدسمة بأدق المعايير، الذي على الجهاز فقد يشترى وانتهى الأمر مادام التشريع أرضيًا، إذًا لابدَّ من أن يكون المشرِّع هو الله، لأن الله عزَّ وجل يعلم وسيحاسب، ولن تنتظم الحياة إلا بهذه الطريقة.

على الإنسان أن يخاف من عقاب الله لأنه لا مفر منه:

الإنسان أحياناً لو نجا من عقاب الإنسان لا ينجو من عقاب الله، فهناك حالات كثيرة، أخ كريم مرَّة سألني هذا السؤال قال لي: أنا في محضر تمكَّن يأخذه عن طريق دعوى إزالة شيوع بسعر أقل من سعره بثلاثين في المئة، أي أنه أدخل أربعة أو خمسة صوريين في المزاودة ورفعوا شيئًا قليلاً جداً، فرسا عليه المحضر بثمن يقل عن ثمنه الحقيقي بثلاثين في المئة، والرقم كبير جداً، فعاد إلى بيته ونظر إلى ساعة فِراق الدنيا، ونظر إلى ساعة نزول القبر، فصاحب هذا المحضر ومن أصحابه أيتامٌ كثر، فخاف فسألني، فقلت له: والله قلقك هو الجواب، إما أن تدفع لهؤلاء ثمنه الحقيقي، أو تنسحب من هذه المزاودة، فكان أن انسحب. انظر لأثر التشريع، لو كان المشرِّع هو الإنسان فالعمليَّة نظاميَّة، والمحضر على الشيوع، أُقيمت دعوى إزالة شيوع، وأُعلن عن المزاودة دخل بالمزاودة أشخاص كلهم

شُركاء، فزادوا مبالغ قليلة جداً، فرسَا المحضر على أكثرهم وهو واحدٌ منهم، فأُخِذَ المحضر بثلثي قيمته الحقيقيّة، فحينما لا نلحظ إلا تشريع الإنسان نقع في حرام شديد، وفي شقاءٍ كبير.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ: هذه الآية تؤكد:

أيها الأخوة الكرام... سمعت قصّة عن إنسان في باريس يسكن في بيت (وهو من دمشق) فذكر لأقربائه أنهم استيقظوا في منتصف الليل على أصوات إطلاق رصاص، ثم علموا في النهاية أن جاره قتل زوجته في الليل، لماذا ؟ لأنها تعمل موظّفة عند مدير عام لشركة، طبعاً فتاة في ريعان الشباب، وهي تعمل معه في غرفة واحدة، وقد استلطفها، وأحبّها وأحبّته فخانت زوجها، فلمّا علم زوجها بخيانتها قتلها أمام أولادها.

فهذا إنسان لا ينطلق من دين، وهذه فطرة الإنسان، فحينما نسمح بالخلوة بين رجل وامرأة وهما في ريعان الشباب، فهذا السماح مخالف لشرع الله عزّ وجل، فكم من جريمةٍ تقع في العالم بسبب مخالفة الإنسان لفطرته، وهناك أدلّة كثيرة جداً، ولكنني قد ذكرت لكم بعض النتائج المدمِّرة في المجتمعات الأخرى حينما طبّقوا شرعاً غير شرع الله عزّ وجل.

1 ـ عدم استقامة الحياة إلا إذا طبقنا شرع الخبير:

أولاً هذه الآية تؤكِّد أنه لا يمكن أن تستقيم الحياة، ولا يمكن أن يسعد الإنسان إلا إذا طبّقنا شرع الخبير، العليم، الغني، القدير، الذي خلق، والذي سوّى، والذي خلق طبيعة النفس، والذي فطرها الفطرة التي شاءها لها..

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ (21))

(سورة الشورى)

طبعاً سر نجاح المؤمن (أو أحد أسباب نجاحه) أنه حينما يطبّق منهج الله، فهو منهج الخالق، ومستحيل أن يكون فيه غلط، وهذا شيء من البديهيّات، وأنت في معالجة جهاز معقّد لا ترجع إلا إلى الشركة الصانعة، ومن الغباء والحُمق أن تعود إلى جارك البائع، وتقدِّم له جهاز حاسوب ثمنه ثلاثون مليونًا، وتقول له: هذا الجهاز فيه خلل، كيف أصلحه ؟ هذا لا يعلم شيئاً، فالإنسان حينما يعود في شؤون حياته إلى غير خالقه وقع في وادٍ سحيق.

2 ـ نظام البشر وضعي بحاجة إلى مؤيد قانوني:

الشيء الثاني، النقطة الدقيقة دائماً حينما يوضع نظام وضعي من صنع البشر، يحتاج في التعبير الحقوقي إلى مؤيّد قانوني. فلو فرضنا صدور قانون للسير، وأن السير على اليمين، والانعطاف، والمركبة، وكل التفاصيل، ولكن ليس فيه أي عقوبة، فهل يُطبّق هذا القانون ؟ لكن فقط يرجى للسائقين ملاحظة ما يلي، لا يوجد ولا مادة عقابية، ولا سحب إجازة، ولا غرامة ماليّة ضخمة، ولا مصادرة المركبة، ولا حبس، ولا شيء إطلاقاً، لكن توجد تنظيمات فقط، فهذا النظام لا قيمة له إطلاقاً لأنه يخلو في العرف القانوني من المؤيّد القانون.

وأعظم مؤيّد قانوني في الشرع الإلهي أن الله يعلم وسيحاسب في الدنيا والآخرة، وتجد شخصاً خائفًا ؛ خائفًا لأن صحّته بيد الله عزّ وجل، وسمعه، و بصره، وقلبه، وشرايينه، ودسّاماته، وكبده، وكليتاه، وجهازه العصبي، وجهازه الهرموني، وغدده، وعضلاته، وعظامه، وزوجته، وأولاده، وبيته، وعمله، وأصدقاؤه، ومن حوله، ومن فوقه، ومن تحته كلهم بيد الله عزّ وجل، فإذا خالف منهج الله، فليس ثمة مؤيد قانوني للشرع الحكيم أعظم من أن الله يعلم.

العلم وحده أكبر مؤيّد قانوني لشرع الله عزّ وجل:

لذلك حينما تعلم أن الله يعلم فلابدّ من أن تستقيم على أمر الله، وقد لا تصدّق أن الله سبحانه وتعالى جعل علّة خلق السماوات والأرض أن تعلم أن الله يعلم، وحينما ذكر هذه الآية الكريمة اختار من بين أسمائه كلِها اسمين فقط، العلم والقدرة، قال:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

من أجل أن تعلم..

(أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

فالعلم وحده أكبر مؤيّد قانوني لشرع الله عزّ وجل، إن الله يعلم وسيحاسب، وأنت في قبضته، وكل شؤون حياتك بيده، فالله عزّ وجل من قدرته أن يجعل حياة أي إنسان جحيماً لا يطاق، بخلل طفيف في إحدى غدده.

على كل إنسان ألا يعبد غير الله عز وجل:

الغدّة النخاميّة يا إخواننا هذه ملكة الغدد، لها اثنا عشر هرمونًا تفرزه، ومن بعض الهرمونات هرمون توازن السوائل، فلو اختلّ هذا الهرمون يجب أن تستقيل من عملك، وتجلس بجانب المرحاض والصنبور، تشرب عشرين تنكة من الماء وتخرجها، فهذا هرمون من هرمونات الغدّة النخاميّة لو اختلّ وزنه لحصل ذلك.

ولو اختل مركز تنبيه الرئتين النوبي بالبصلة السيسائية فكيف تنام ؟ تنام فتموت، يجب أن تجري تنفُّساً إرادياً، فالتنفس الآلي تعطّل، ومركز تنبيه الرئتين النوبي تعطّل، وبقي التنفُّس الإرادي، تعمل شهيقًا وزفيراً، تنام فتموت على الفور، فالله عزّ وجل بمليون مليون مليون خيار يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق.

فلو حصل خلل في الذاكرة لنسيت كل معلوماتك، أحد الأشخاص يحتل منصباً رفيعاً جداً ومعه دكتوراه بفرع علمي نادر جداً، وصل لمنصب قريب من معاون وزير، فقد بصره، طبعاً أول شهر جاملوه فبعثوا له بالبريد إلى البيت، فصدّق عليه، وبعدها سرّحوه، فزاره صديق لي فقال له: والله أتمنّى أن أكون متسوّلاً على قارعة الطريق وليس على كتفي إلا هذا المِعطف، وأن يُردّ إليّ بصري، قال كلمة مؤثِّرة جداً.

فالبصر ثمين، والسمع ثمين، وكذلك النطق، والدماغ أحياناً يكون فيه ورم فجائي، والإنسان في مقتبل الحياة ماذا يفعل ؟ فكيف يعصي الإنسان ربه وهو في قبضته ؟ أقل خلل في الجسم يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، فإذا اختل عقل الإنسان هل يبقى في البيت ؟ إنه يحتاج إلى واسطة للقصير، يقدِّمون استدعاءات، ويوسطون لكي يقبلوه هناك، فالله عزّ وجل بيده كل شيء، فلذلك لا ينبغي لك أن تعبد غيره، ولا ينبغي أن تتبع شرع غير الله عزّ وجل.

التشريع البشري تشريع ناقص والخلل لا يظهر إلا عند التطبيق:

كل شرع يضعه إنسان (دقِّقوا) إما أنه ينطلق من جهلٍ كلي، وهذا أسوأ شيء، أو من جهلٍ جُزئي، ومعنى جهل جزئي أي أن هذا القانون يحتاج إلى تعديل، أحضروا لي قانونًا وضعه إنسان على مرّ الزمان، إلا وصار تعديلاته أضخم من متنه بعشرات الأضعاف، وأحياناً يكبر بدرجة معقّدة بحيث يعجز عقل المحامي عن استيعاب القوانين، فتغدو متاهات، لأن التشريع فيه قصور في التعبير، والتقدير أحياناً، وفي ملاحظة الجوانب كلها، وفي النظرة الشموليّة، وفي معرفة طبيعة النفس، فيأتي التشريع ناقصاً، والخلل لا يظهر في البداية بل يظهر عند التطبيق، فصار فيه خلل كبير، نعدِّل فيه تعديلاً أولاً

وتعديلاً ثانياً، وبعد ذلك يصير فيه تعديلات غير معقولة، فيعود الأصل هو التعديل، والشواذ هو الأصل والأصل صار شواذاً، فيُلغى كلّه، وهذا هو التشريع البشري.

الحياة الدنيا تجسيدٌ لما تنطوي عليه النفس والثواب في الآخرة:

لذلك أيها الأخوة عندما تطبّق شرع الله عزّ وجل لا يمكن أن تقع في ضياع إطلاقاً، ولا خطأ، ولا شقاء، ولا إحباط، ولا مشكلة.

فأحياناً القانون البشري يضع عقوبات تدمِّر المجتمع أكثر من مخالفة هذه القوانين، كما قال الشاعر: **" داويت متئداً وداووا طفرةً ".** وأحياناً يكون الداء أقل من الدواء، فالتشريع يكون غير معقول، والعقاب لا يتناسب مع الجرم، إنه جرم صغير محدود وعقاب مدمّر يشمل الحياة بأكملها، فهذا من خصائص التشريع الإنساني، وأنا أقول: حتى في البلاد المتقدِّمة، هناك تشريعات مضحكة ولا تصدَّق..

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ (21))

(سورة الشورى)

لكن الله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يفصل بين الناس..

(وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (21))

(سورة الشورى)

أي أن الله عزّ وجل خلق الإنسان وأعطاه عُمُرَاً، فلابدَّ من أن يستكمل عمره، وأن يأخذ أبعاده، وأن يُكْشَفَ على حقيقته، وأن تُجَسَّدَ نياته، فهذه الحياة الدنيا تجسيدٌ لما تنطوي عليه النفس، ولذلك شاءت حكمته وجئنا على هذا الأساس، فالحياة دار عمل، أما الجزاء والفصل، والحكم، والتقييم، والعطاء، والعقاب، والثواب ففي الآخرة.

ربنا سبحانه يعاقب بعض المنحرفين في الدنيا لكن العقاب الحقيقي هو يوم القيامة:

لكن قد يقول قائل: ربنا سبحانه وتعالى حينما يعاقب بعض المنحرفين فهذا عقابٌ ردعيٌ لبقيّة المنحرفين، وحينما يكافئ بعض المحسنين فهذه مكافأةٌ تشجيعيّةٌ لبقيّة المحسنين، لكن العقاب الحقيقي الحتمي هو يوم القيامة..

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: من آية " 185 ")

فالعقاب جزئي في الدنيا، فما كل إنسان منحرف يعاقب وما كل إنسان معتدٍ يُعاقَب، العقاب الحقيقي هو الذي وعد الله به يوم القيامة، فهناك حتى إن الإنسان حينما يأتي في اليوم الآخر، واللهُ عزّ وجل ذكر في

كتابه الكريم أنّ كل إنسان من دون استثناء يَرد النار، وورود النار غير دخولها، الدخول أن تتلظّى بلظاها، ولكن الورود أن تشرف عليها، من أجل ماذا ؟ من أجل أن تتحقّق من عدالة الله عزّ وجل، ومن أجل أن ترى نعمة الله عليك بالإيمان، ولولا الإيمان لكنت في هذا المكان، فحتى المؤمنون إذا وردوا النار فليعرفوا اسم الله العادل، وأسماء الله سبحانه وتعالى كلّها ظاهرةٌ في الحياة الدنيا، أما اسم العادل هذا فلا يبدو جليًّا تماماً إلا يوم القيامة، هذا اليوم..

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(15))

(سورة طه)

ولذلك فالمؤمن يرد النار دون أن يتأثر بها إطلاقاً، ولكن يطلُّ عليها إطلالة فيرى عدالة الله عزّ وجل، و يرى من فيها وقد استحقوا عقاب الله عزّ وجل.

الحياة الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء:

إذاً:

(وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(21))

(سورة الشورى)

فأنت الآن في بحبوحة، لك أن تفعل ما تشاء، ولك أن تحسن و تسيء، وأن تعطي وتمنع، وأن تعلو وتتواضع، وتتقن وألاّتتقن، وأن تُخلص وأن تخون، وأن تتقي وأن لا تتقي، فأنت مخيَّر، لكن العقاب الأليم يوم القيامة، ولذلك:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: من آية " 40 ")

إذاً: الحياة الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، والدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف. **" عش ما شئت فإنك ميّت، وأحبب من شئت فإنّك مفارق، واعمل ما شئت فإنّك مجزيٌ به ".** وعقاب المنحرفين في الدنيا عقابٌ ردعي لبقيّة المنحرفين، فإذا وجدت إنسانًا منحرفًا ما عوقب فهذا شيء طبيعي جداً، لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، ومكافأة المحسنين في الدنيا مكافأةٌ تشجيعيّةٌ لبقيّة المُحسنين، لكن يوم القيامة هو يوم الجزاء، ويوم الفصل، والحُكْم، والعِقاب، والتكريم، والنَدَم، والفوز.

الفكر الجبري فكر منحرف يتناقض مع عدالة الله عزّ وجل:

إذاً:

(وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (21))

(سورة الشورى)

في الدنيا..

(وَإِنّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(21)تَرَى الظّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا كَسَبُوا (22))

(سورة الشورى)

انظر إلى كلمة:

(كسبوا)

فما من إنسان يعمل عملاً إلا من كسبه، والفكر الجبري فكر منحرف، إنه يتناقض مع عدالة الله عزّ وجل، يقولون: الله خلق الإنسان وأجبره على المعاصي كلها، ثم يضعه في جهنّم إلى الأبد، فهذا فكر مرفوض، وهذه عقيدةٌ فاسدة..

(سَيَقُولُ الّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا)

(سورة الأنعام: من آية " 148 ")

قول من هذا ؟ إنه قول المشركين..

أفعال الإنسان في الدنيا من كسبهم و اختيارهم:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: من آية "286 ")

ما من عملٍ تعمله إلا من كسبك، أي أنت أردته، لكن الله مدّك بقوّةٍ لتحقيقه، فالفعل فعل الله والكسب كسبك، وأنت اخترته، وأنت جئت إلى هذه الدنيا على هذا الشرط: إنه إذا تعلّقت إرادتك بشيءٍ، فالله سبحانه وتعالى تتعلّق إرادته لتحقيق هذا الشيء لأنه خيّرك، وكلّفك، وحمّلك الأمانة، إذاً شيء طبيعي جداً أن أفعال الإنسان في الدنيا هي من كسبهم. **" ولو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان ذلك عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلِّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً ولم يُطع مكرهاً ".**

في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكِّد أن الإنسان مخيّر:

إذاً:

(تَرَى الظّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا كَسَبُوا (22))

(سورة الشورى)

فهناك ليس لك أن تقول: يا رب أنت أجبرتني، فهذا كلام مرفوض، وهناك آيات كثيرة كثيرة تؤكِّد أن الإنسان مخيَّر..

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: من آية " 29 ")

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من آية " 17 ")

أبداً..

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: من آية "286 ")

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا (22))

(سورة الشورى)

هذا العمل عملهم، باختيارهم، لكن:

(مشفقين)

أي خائفين.

على الإنسان ألا يفرح إذا أخذ شيئاً ليس له لأن هذا العمل سيسحقه يوم القيامة:

الآن دقِّق في هذه الآية، المشرك أو الظالم يوم كان في الدنيا، وحقّق هذا الكسب الكبير ظنّ نفسه ذكياً، وشاطراً، ومتفوّقاً، وفالحاً، وقد ملك كل شيء، لكن حينما يأتي يوم القيامة فهذا العمل الذي تاه به في الدنيا، وافتخر وشعر أنه أعلى من غيره فيه، وهذا العمل نفسه يكاد يسحقه.

مثلاً مع الفارق الكبير الكبير، لو قيل لإنسان: احمل كيلو مخدِّرات وخذ عليه مئتي ألف ليرة خلال نصف ساعة فقبضوا عليه فصار عمله هذا عبئًا ثقيلاً عليه وأصبح يستحق الإعدام، كان يسرح في مئتي ألف فصار يرزح في الإعدام (هذا مثل يقرّب المعنى) حينما قبلت نقله ظنّنت نفسك ذكياً جداً، إنك ماهر، وخلال ربع ساعة تحقّق أرباح سنة، ولماذا كان العمل التجاري الشريف ثمينًا ؟ الجماعة مجانين، وهذا العمل أهون، وأسرع وخلال أشهر تصبح مليونيراً، فأمسكوا به والحكم إعدام، فإذا وقف

وراء القضبان، نظره في الأرض، مشفقٌ من هذا الحكم عليه بالإعدام، فالشيء الذي ظنّه مكسباً وربحاً وذكاءً أرداه.

والآن معظم الناس يغتصب دكّانًا، ويأخذ بيتًا، ويظن نفسه ذكياً، يموت أبوه ويخلِّف خمسة أولاد، فيأخذ وكالة من أخوته البنات كلهن فصار كل المال بيده، فمعه وكالة منهن، وبعد حين سجله كله باسمه، فيمشي هونًا ويقول لك: لم أعط أحداً، وهذا مثل المهرّب تماماً عندما عرضوا عليه تهريب الكيلو فرأى نفسه أذكى واحد، وعندما قبض عليه صار صغيراً..

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (22))

(سورة الشورى)

فالإنسان عليه ألاّ يفرح إذا أخذ شيئًا ليس له، لقد استغل ضعف إخوته الصغار، فأخذ كل الأموال..

في الجنة الإنسان في أعلى درجات التكريم و السعادة:

(وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا (22))

(سورة الشورى)

انظر إلى هذا النقلة المفاجئة..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ (22))

(سورة الشورى)

تصوّر شخصاً يتعذّب، يُعذّب بأقصى أنواع العذاب لأنه مجرم مرتكب جريمة قتل، أو جريمة اغتصاب، فهو يُعذّب ويصيح، وهناك إنسان آخر جالس يكرّم في حفلة، وتقدّم له المرطِّبات، والحلويات، والفواكه، والاحترام، والمكان الجميل، فهل هذا يوازى مع هذا ؟ النقلة المفاجئة..

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ (22))

(سورة الشورى)

هذه الكلمة الموجزة تبيّن حقيقة الجنّة، فالدنيا تحتاج إلى عمل، و كَسب، وكَدح، وجُهد، لكنّك في الجنّة أي شيءٍ تطلبه تراه أمامك، وأنت في أعلى درجات التكريم، وفي أعلى درجات السرور والسعادة..

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

الجنة هي الهدف الكبير لكل إنسان عاقل:

إخواننا الكرام لمثل هذا فليعمل العاملون، شبابك أفنه في هذا الهدف الكبير..

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من آية " 58 ")

دعك من الدنيا، فالدنيا زائلة، والدنيا ماضية ومنقطعة، ودار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، ولا تزيد عن لقمةٍ تأكلها، وبيتٍ تأوي إليه، وثيابٍ تستُر عورتك، وما سوى ذلك فمحاسبٌ عليه كيف اكتسبته ؟ وكيف أنفقته ؟

سأل ملك وزيره فقال له: من المَلِك ؟ فالوزير خاف فقال له: أنت الملك. فقال له: لا الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيتٌ يؤويه وزوجة ترضيه ودخلٌ يكفيه، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في إذلاله.

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

(من سنن الترمذي: عن " سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ ")

على كل إنسان أن يتقرب إلى الله بخدمة عباده ليصل إلى أعلى درجات الجنة:

الدنيا محدودة ولها سقف، فلو كان معك ألف مليون فهل يمكن أن تأكل ألف أوقية من اللحم ؟ أوقية واحدة، أوقية ونصفًا أقصى شيء وتظل متضايقاً، يجب أن تأكل ما تتسع له معدتك، وهل تستطيع لبس بذلتين فوق بعضها إذا كنت غنياً ؟ وهل بذلتك بأربعة أكمام أم بكمين ؟ بل بكمين، وأكثر لا يوجد، سرير واحد، وعشاء واحد، وغذاء واحد، والحياة كلها أوهام..

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

(من سنن الترمذي: عن " سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ ")

أما الآخرة فليس لها سقف، وانطلق إلى الآخرة، انطلق إلى الله عزّ وجل، ادعُ إلى الله، واعمل الصالحات، واقرأ القرآن، وافهمه، وعلِّمه، وتقرّب من الله عزّ وجل بخدمة عباده، فالآخرة ليس لها سقف، ولك أن تصل إلى أعلى الدرجات وهذا بإمكانك، فأما الدنيا فمحدودة..

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

هذا الفضل الكبير، العلي الكبير يقول لك: أن تصل إلى الجنّة..

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

الوصول إلى الجنّة حاجة كل إنسان مؤمن بالله:

لذلك فأحد العلماء الكبار كان في الحرم المكي، فدخل أحد الخلفاء (خليفة المسلمين وربما كان هارون الرشيد) فقال له: **"سلني حاجتك"**. أي اطلب أي شيء. فقال له: **" والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله "**. تَقَصَّدَ أن يلتقي به خارج الحرم، وقال له: **" سلني حاجتك "**. قال له: **"والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها ؟ "!** قال له: **"سلني حاجتك "**. قال له: **" أريد دخول الجنّة "**. قال له: **" هذه ليست لي "**. فقال له: **" إذاً ليس لي عندك حاجة"**. هذه حاجتي، الوصول إلى الجنّة.

وأبو جعفر المنصور جهد أن يلتقي بأبي حنيفة النعمان، لكنه رفض، ثم توسّط لدى بعض الأغنياء أن ادعوا هذا الإمام العظيم، ولا تخبروه أنني سآتي، فاجتمعا معاً وقال له: **"يا أبا حنيفة لو تغشيتنا (أي لو تزورنا) "**، قال أبو حنيفة: **" إنك إن قرّبتني فتنتني، وإن أبعدتني أزريت بي، ولمَ أتغشّاكم وليس لي عندكم شيءٌ أخافكم عليه، وهل يتغشّاكم إلا من خافكم على شيء "**.

أي أن الإنسان حياته بسيطة جداً، فصحّتك طيّبة، وعندك مأوى واطئ عالٍ، ملك أو أجرة، وصغير أو كبير لا بأس فهذا شيء مؤقّت.

من اشتدت رغبته في الدنيا شقي فيها و من قلت رغبته في الدنيا سعد في الدنيا و الآخرة:

لماذا لا تتضايق في المصيف إذا كانت الحاجات غير جيّدة ؟ لأنك ستظل فيه شهر زمان، ولكن في بيتك الأساسي إذا وجد شيء فيه خلل فأنت تتضايق منه، ومعنى هذا أن الإنسان إذا شعر أن القضيّة مؤقّتة وتنتهي كل مشاكله، حينما يشعر أن هذه الحياة الدنيا مؤقّتة سريعاً ما تمضي يرضيك فيها كل شيء، أما إذا رأيتها حياةً مديدةً وهي كل شيء، عندئذٍ لا يرضيك فيها شيء، وتغدو أشقى الناس.

اسمعوا كلام النبي اللهمّ صلّ عليه:

((إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم في الدنيا أرغبهم فيها))

وكلّما اشتدّت رغبتك في الدنيا شقيت بها، وكلّما قلّت رغبتك من الدنيا سعدت فيها..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22)ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(23))

(سورة الشورى)

لهذه الآية معنًى دقيق جداً وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكِّنني أن أفسِّره في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (09-15): تفسير الأية 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-04-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة الشورى.

الخوف و القلق يوم القيامة هو حال الأقوام الذين اقترفوا الآثام في الدنيا:

مع الآية الثالثة والعشرين وهي قوله تعالى:

(ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(23))

(سورة الشورى)

وقد جاءت الآية التي قبلها:

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (22))

(سورة الشورى)

حينما كان في الدنيا، وكان يظن نفسه ماهراً، أو ذكياً أو عاقلاً، و أخذ ما ليس له وانغمس في الدنيا إلى قمة رأسه، فهذا الذي ظَنَّهُ مجال فخرٍ إذا هو الآن يهلك به.

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (22))

(سورة الشورى)

النقلة المفاجئة، حال هؤلاء الذين اقترفوا الآثام في الدنيا وهم وجلون خائفون أذلاء يوم القيامة، مشفقون مما هو واقعٌ بهم، النقلة المفاجئة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ (22))

(سورة الشورى)

المفارقة الحادة بين حال الدنيا و الآخرة:

كما قلت في الدرس السابق إن الجنة مبنية على الطلب، اطلب تُعط، بل إن أي شيءٍ يخطر في بالك تجده أمامك، هذا نظام الجنة، ولكن الحياة الدنيا تحتاج إلى جهدٍ وبذلٍ، وسعيٍ وكدحٍ، ومعاناةٍ ومكابدةٍ، وهكذا طبيعة الحياة الدنيا، وتلك طبيعة الآخرة، فالحياة الدنيا محدودة، إنها أيام معدودة، ولكن الحياة الأبدية خالدة وغير محدودة.

وبعد أن يبين الله سبحانه وتعالى هذه المفارقة الحادة، بين إنسان (كما ذكرت في الدرس الماضي) أراد أن يُهرب مادة ممنوعة أو مادة مخدرة والصفقة يأخذ عليها عشرات الملايين، وهو في أعلى درجات النشوة من هذا المبلغ الضخم الذي حَصّله، فجأةً ألقي القبض عليه والحكم بالإعدام مثلاً، فقبل دقائق كان يعدّ نفسه من الأذكياء الذي جمعوا مالاً طائلاً بجهدٍ يسير، وفجأةً أصبح هذا الشيء الذي ضُبط معه سبب هلاكه وقتله، وضع هذا الإنسان وهو ينتظر النُطق بالإعدام وراء القُضبان، فهل هذا الإنسان يشبه إنسانًا آخر يكرم ؟ يقدم له أطايب الطعام، ويحاط بكل أنواع الحفاوة والتكريم ؟ إن المفارقة حادة جداً بين إنسان على وشك الهلاك مما كسب وإنسان يتلقّى كل تكريم.

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

مقاييس أهل الدنيا مقاييس مادية:

أيها الأخوة الأكارم، لا يوجد إنسان إلا وعنده مقاييس يقيس الأشياء بها، فالإنسان أحيانًا يقول: فلان حَصّل أموالاً طائلة بزمن يسير فيعده ذكياً، فالمقياس هنا مادي، وفلان وصل إلى منصبٍ رفيع في سنٍ مبكرة، فيعد هذا الوصول إلى هذا المنصب الرفيع أيضاً قدرةً فائقة على استيعاب القِوى التي تحيط به، يعده ذكياً.

فأهل الدنيا لهم مقاييس ؛ فالمال مقياس، والقوة مقياس، والدرجات العلمية العالية جداً، والقدرة على التكيف الاجتماعي، والوسامة فهذه مقاييس الدنيا، ولكن لن تكون مؤمناً أيها الأخ الكريم إلا إذا كانت مقاييسك التي تقيّم الأشياء والأشخاص بها نابعةً من كتاب الله، فحينما تقِيم الأشخاص والأشياء بمقاييس مادية فأنت بعيدٌ عن مقاييس القرآن، أما حينما تقيّم الأشياء والأشخاص بمقاييس قرآنية فأنت مؤمنٌ ورب الكعبة.

فمثلاً إذا عظّمت الغني بماله ولم تعبأ بالمعاصي التي يقترفها، وأزريت بالفقير لقلّة ماله ولم تعبأ بطاعته لله عزّ وجل، فأنت أبعد الناس عن الإيمان، اختلف المقياس، إذا عظّمت الأقوياء لقوتهم رغم معاصيهم، وازوررت عن الضعفاء لضعفهم رغم طاعتهم لله، فأنت بعيدٌ عن أهل الإيمان، فالإنسان لن يكون مؤمناً إلا إذا كانت مقاييسه التي يقيس بها الأشياء والأشخاص مقاييس قرآنية، فيجب عليك أن تحب المؤمن وأن تُكْبِرَهُ، وأن تتودد إليه ولو كان ضعيفاً فقيراً، ويجب أن تزورّ عن القوي الغني المتلبس بالمعاصي ولو كانت مصلحتك المادية متعلقةً به.

المؤمن الحق من كانت مقاييسه مطابقة لمقاييس القرآن الكريم:

لن تكون مؤمناً إلا إذا وضعت مقاييس أهل الدنيا تحت قدمك، ولن تكون مؤمناً إلا إذا أقبلت على المؤمن ولا تجمعك به قرابةٌ ولا مصلحةٌ ولا علاقةٌ مادية، فلا تحبه إلا لله، ولا تبغض أهل الدنيا إلا لله، فمن أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان.

فأيها الأخ الكريم، ليس من السهل أن تكون مؤمناً وأن تقترب من أهل الدنيا، وأن تدخل في حياتهم الخاصّة، وأن تسعد بالقرب منهم، أين إيمانك ؟ وأين طهارتك وقد خُدِشَت ؟ فليس من الإيمان أن تتضعضع لأهل الدنيا، ومن جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، فيجب أن تأتي مقاييسك التي تقيس بها الأشخاص والأشياء، مطابقةً لمقاييس القرآن الكريم.

المجاملة خلق ذميم على كل مؤمن أن يبتعد عنه:

لذلك كنت أقول دائماً: الخُلُقُ الذميم الذي يقع فيه معظم الناس المجاملة، كأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تعطّل، وصار الناس يجامل بعضهم بعضاً، هذا خَلَطَ الأوراق وضيّع المقاييس وأصبح الناس في جهالةٍ عمياء، لأن الله سبحانه وتعالى يغضب إذا مُدح إنسان فاسق متلبّس بالمعاصي، بعيد عن أوامر الدين، إذا مدحته فقد أوقعت الناس في حرج، أو أوقعت الناس في تيهٍ، أين المقاييس الصحيحة ؟

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

وهذا الذي نقلني إلى هذا التفصيل، وهل ترى أن الفضل الكبير أن تكون مؤمناً ؟ وهل ترى أن الفضل الكبير أن تكون طائعاً ؟ وأن تكون على المنهج الإلهي ؟ وأن يراك الله حيث أمرك وأن يفتقدك حيث نهاك ؟ و أن تثق بما في يد الله أكثر مما تثق بما في يديك، وفي معرفة الله، و طاعته، ألا تقرأ معي قوله تعالى:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22))

(سورة يوسف)

هؤلاء الذين يحبهم الله عزّ وجل آتاهم الحُكم والعلم، بينما الذين لا يحبهم أعطاهم المال.

(إِنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ)

(سورة القصص: من آية " 76 ")

الإسلام مجموعة قيم و التزامات ثابتة علينا المحافظة عليها:

المؤمن إن لم يَقِس الأشياء والأشخاص بمقياس القرآن فأين إيمانه ؟ فالإسلام منهج، والإسلام مجموعة قيَم، والتزام، وقد أردت أن أعبّر عن هذا الشيء الصلب فله شكلٌ ثابت وحجمٌ ثابت، أما الشيء السائل فحجمه ثابت لكن شكله متغيّر مع شكل الإناء، لتر ماء يوضع في قارورة طويلة، أو في حوجلة كروية، أو وعاء بيضوي، أو مستطيل، فالماء حجمه ثابت لكن شكله متغيّر.

أما الشيء الصلب فتقول: هذه قطعة مكعبة، وهذه قطعة هرمية، وهذه كرة، فالشيء الصلب يحافظ على حجمه وعلى شكله، والشيء المائع يحافظ على حجمه لا على شكله، لكن العنصر الغازي ليس له شكلٌ ثابت ولا حجمٌ ثابت.

فكيف إذا أصبح الدين غازيّ الطبيعة، غازاً له آلاف الأشكال، و آلاف الحجوم، فالدين شيء ثابت عُلِم بالضرورة، والعقائد والعبادات، والتعاملات والأخلاقيّات كلها ثابتة، فهذا هو الدين، فبقيت صور الدين أما المضمون فمائع أو غازي، بمعنى هذه الإذابة لمعالم الدين في معالم الدُنيا جعلت الأمور تختلف.

ما خيرٌ بعده النار بخير وما شرٌ بعده الجنة بشر:

إذاً من قوله تعالى:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

لن تكون مؤمناً عند الله عزّ وجل إلا إذا رأيت الفضل الكبير هو أن تستحق الجنة وما فيها من نعيمٍ مقيم، فلذلك الدعاء الشريف:

((اللهم نسألك الجنة وما قرب إليها من قولٍ وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قولٍ وعمل))

[إسناد صحيح قال فيه ابن حجر: تابعه الجُريري، عن جبر، وخالفه أبو نعامة عنه]

والإمام علي كرم الله وجهه يقول في حكمةٍ بالغة: **" ما خيرٌ بعده النار بخير ".** أي لو بلغت إلى أعلى القمم، وبعد هذا النار فليس هذا خيراً **" ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر "**، وكل أنواع المصائب و المضايقات، إذا انتهت بك إلى الجنة فانعم بها، وكل أنواع النعيم المقيم إذا انتهت بالإنسان إلى النار فبئس هذه الألوان التي يسعى الناس إليها ولا يدرون إلى أين هم سائرون.

والإنسان إذا كان راكباً مركبة ومنطلقًا بأعلى سرعة في منحدر شديد، وفي نهاية هذا الطريق منعطفٌ حاد، وهو في نشوة السرعة، ونشوة الهواء العليل، ثم اكتشف فجأةً أن المكابح معطّلة، فماذا يرى بهذه السرعة أو هذا الانطلاق ؟ يراه هلاكاً له، وهكذا معنى قوله تعالى:

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

العاقل من رأى أن طاعة الله و معرفته و التقرب إليه هي الفضل الكبير عليه:

الإنسان الذي يأكل أموال الناس بالباطل ويعدّ نفسه ذكياً، لو علم المصير، وعلم العقاب الأليم، والحساب العسير لرأى نفسه شقياً..

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

وهذا الذي يعتدي على أعراض الناس ولو بالنظر، ولو بالكلام، ويعدُّ هذا مهارة في البيع والشراء، أن تدير حديثاً لطيفاً مع امرأةٍ حسناء تظن أنك لطيف، رقيق الحاشية، طليق اللسان، وبإمكانك أن تأسر قلوب هؤلاء، حينما ترى أن هذا العمل فيه عدوان على أعراض الآخرين ولن تغض بصرك عنها..

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

إذاً الفضل الكبير أن ترى طاعة الله، وأن ترى معرفته وطاعته والتقرُّب إليه هو الفضل الكبير، لا أن ترى أن المال الوفير هو الفضل الكبير، ولا المنصب الرفيع، ولا الدرجات العلميّة العالية التي تُدِرُّ عليك مئات الألوف، فالفضل الكبير أن تكون مطيعاً لله عزّ وجل، ولذلك فالإمام الجنيد سُئِل: مَنْ وليُّ الله، أهو الذي يطير في الهواء، أم هو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال: **" لا هذا ولا ذاك، أن يجدك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، فأنت ولي الله ".**

أيّ إنسان عرف الله وعرف أمره وطبقه فهو وليٌّ لله:

إخواننا الكرام... الناس يظنون أن الولي إنسان نادر الوجود، الأمر أبسط من هذا بكثير، قال تعالى:

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

أي واحد منكم إذا آمن بالله حق الإيمان واتقى أن يعصيه حق التقوى فهو ولي الله وربِّ الكعبة، امرأةٌ ترعى زوجها وأولادها، ولا تؤذي الناس بمفاتنها، إنها محجبة، ومُصلية، وصائمة، ومطيعةٌ لزوجها

هذه والله وليةٌ لله، ومعلِم يُعَلم الطُلاّب علماً صحيحاً ويرعاهم ويربيهم تربيةً سليمة، دون أن يفعل شيئاً يغضب الله عزّ وجل فهذا والله وليّ لله، وأي إنسان، وأي حرفة، طبيب، أو مهندس، أو محامٍ، أو معلم، أو تاجر، أو بائع، أو موظف، فأيّ إنسان عرف الله وعرف أمره وطبقه وليٌ لله، هذا تعريف القرآن:

(ألا إنّ أوْلِيَاءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ(63))

(سورة يونس)

لن يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا كان المقياس الذي يقيس به مقياساً ربّانياً:

أردت من هذا الاستطراد من قوله تعالى:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

فهل رؤيتك تتطابق مع مقياس القرآن ؟ فلو أن إنسانًا كان ماله قليلاً، وكان مستقيماً على أمر الله، وله صديق متفلِت من أي منهج إلهي لكن ماله وفير، فإذا شعر الأول وهو المؤمن المستقيم أنه محروم، وأن الله قد أعطى فلاناً وهو لا يعرف الله أبداً، فهنا المشكلة، إذا قلت: الله لم يعطني وأعطى فلانًا، وأنت مستقيم وفلان ليس مستقيماً، فمعنى ذلك مقياسك غير قرآني، بل إن مقياسك مادي، ولن تكون مؤمناً إلا إذا كان المقياس الذي تقيس به الأشياء والأشخاص مقياساً ربّانياً.

فلو فتح إنسان محلاً، وكانت البضاعة محرّمة، والتعامل مع الناس محرّم ولكن دَرّ عليه مبالغ طائلة، فهل تراه ذكياً ماهراً ؟ وتقول: هو موفق، وهو على المعاصي والله موفقه ؟ إذا قلت ذلك فأنت لا تعلم من الله شيئاً، دائماً لاحظ نفسك، هل المقياس الذي تقيس به الأشياء والأشخاص مقياس قرآني أم مادي ؟ وأخروي أم دنيوي ؟ وشيطاني أم رحماني ؟ وعاجل أم آجل ؟ فأنت حينما تصلي وتصوم وتحج، لكن مقياسك دنيوي، فدائماً تشعر بالحرمان وترى الناس أذكى منك، وقد تفوقوا، وجمعوا أموالاً طائلة، وتزوجوا، واشتروا بيوتًا، وعندهم مركبات وأنت وراء الناس، فما هذا الإيمان القليل ؟ إذا رأيت أهل الدنيا الذين انغمسوا في شهواتها وأكلوا مالها الحرام، إن رأيتهم أعلى منك قدراً وأنت المؤمن المستقيم، فما هذا الإيمان إذاً ؟ فحينما يقول الله عزّ وجل:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

يجب أن ترى أن ذلك هو الفضل الكبير، وهذا هو معنى قول المؤمن إذا قرأ القرآن يقول: صدق الله العظيم.

الإيمان ليس ركعات أو دريهمات الإيمان مقياس يتغلغل في كل خلية من خلايا الإنسان:

إن رأيت أن أصحاب الأموال هم أصحاب الفضل الكبير، وكذلك أصحاب المُتَع والمباهج، فأنت لست تقيس الأشياء بمقياس قرآني، إذاً أنت بعيد عن الإيمان، فهذا الذي يظن الإيمان ركعتين يصليهما، ودريهمات يدفعهما إلى الفقير وانتهى الأمر، وكيانه كله كيان دنيوي، ومادي، ووصولي، فهذا ليس إيماناً، الإيمان عالم آخر، فإذا لم يتغلغل في كل خلية من خلاياك، وفي كل قطرة من دمك، فمقاييسك إيمانية، وأهدافك وبيئتك كذلك، ومن حولك مؤمن، وأنت لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنْ الآخِرَةِ)

(سورة الممتحنة: من آية " 13 ")

فالإنسان إذا اتصل بالمؤمنين وابتعد عن الكافرين، وأقام علاقات حميمة مع أهل الإيمان، وابتعد عن أهل الكفر والعصيان، فكيف يكون مؤمناً ؟ وكيف اختصر الإسلام إلى خمس صلوات، وصيام وحج، وعبادات شعائرية، أما الموازين والقيم والمبادئ والأهداف النبيلة، فهذه كلها هو في غفلةٍ عنها ؟

من فقد شيئاً من الدنيا و لكن دينه سليم على منهج الله و شكر فهو مؤمن حقيقي:

أيها الأخ الكريم... دقق في هذه الناحية: كلما رأيت القرآن الكريم يقيس شيئاً بمقياسٍ أخروي، إن رأيت أنّك بهذا المقياس تطابق القرآن الكريم وتشكر الله عزّ وجل، أما إن كان لك مقياس آخر، غير مقياس القرآن الكريم فالأمر يحتاج إلى عملٍ خطير، والأمر يحتاج إلى تجديد الإيمان، ولذلك لا يمكن أن ترى مؤمناً مستقيماً على أمر الله إلا ويشعر أنه ملك الدنيا بأكملها، ويقول لك: الحمد لله على طاعة الله.

ودقق أيها الأخ حينما كان سيدنا عمر يصاب بمصيبة يقول: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني ".** فالإنسان أحياناً يذهب ماله، و يفقد عمله، ويفقد أحد أولاده، وأحياناً يخسر صفقة كبيرة جداً، أو يفوته منصب رفيع، أو بيت جيّد، فالإنسان إذا فقد شيئًا من الدنيا ولكن دينه سليم على المنهج، وعلى صراط الله المستقيم، وعلى دينه القويم، وإذا قال الإنسان: الحمد لله إذ لم تكن في ديني. فمعناها أنه مؤمن، وأما إذا نسي الإنسان قيمة دينه وقيمة اتجاهه الصحيح واستقامته، وندب حظه وسحقته هذه المصيبة فهو بعيدٌ عن أن يكون من أهل الإيمان، وهذا الذي قلته قبل قليل هو:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ(22)ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(23))

(سورة الشورى)

الأمل الذي مَنّ الله به على المؤمنين وهو دخولهم الجنة ينسيهم كل مشكلات الدنيا:

ضربت مثلاً سابقاً وأعيده للفائدة، قال لي أحدهم: المؤمن سعيد، والله يصيبه ما يصيب الناس دائماً. قلت له: صحيح ذلك، ولكن تصور إنسانًا فقيراً جداً ودخْله قليل جداً، وعنده ثمانية أولاد، وبيته بالأجرة، وعليه دعوة بالإخلاء، فالمصائب تأتيه من كل جهة، وله عم، حجمه المالي خمسمئة مليون مات في حادث وليس له أولاد، وكل هذا المال انتقل إلى هذا الفقير، ولكن إلى أن يصل إلى هذا المبلغ هناك إجراءات وبراءات ذمة ومعاملات، وتحتاج إلى سنة تقريباً، فهذا الفقير المعدَم الذي امتلك خمسمئة مليون فوراً، ولكن إلى أن يقبضها يحتاج إلى سنة، فلماذا هو من أسعد الناس ؟ لم يأكل أكلةً زائدة، فأكله هو هو، وبيته، ولبسه هو هو، لكنه دخل في الوعد، والأمل، فهذا الأمل الذي مَنّ الله به على المؤمنين وعدهم بالدخول إلى الجنة، وهذا ينسيهم كل مشكلات الدنيا.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

من عرف الله و طبق منهجه فهو في قمة السعادة:

وشيء كبير جداً، أنت مؤمن، واللهُ وعدك بالجنة عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين. كان الصحابة يقولون: ليس بيننا وبين الجنة إلا أن نقتل في سبيل الله، بخ بخ تمرات قال: هذه بيني وبين الجنة فألقاها في الأرض، وخاض غمار الوغى، فالإنسان عندما يكون فعلاً يعرف الله عزّ وجل، ويطبق منهجه فإنه يشعر أن له عند الله شيئاً، أن له عند الله عطاءً كبيراً، فهذا الذي يبشر الله به عباده، وهذه البشرى من خالق السماوات والأرض تنسي الإنسان كل متاعب الدنيا، ويتحمل بيتاً صغيراً، وزوجة متعبة، ودخلاً قليلاً، وأولاداً مشاكسين، وبعض الأمراض بجسمه، ويقول لك: الحمد لله.

فالإنسان ما دام على الطريق المستقيم، وعلى المنهج القويم، ويرضي الله رب العالمين فهو قمة السعادة.

الشقي من أعرض عن ذكر الله عز وجل:

لذلك:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

والذي أعرض عن ذكر الله لو كان في قمم النجاحات المادية والمعنوية والأدبية، فهذا شقيٌ شقي ورب الكعبة، وعندما يستقيم الإنسان على أمر الله يشعر أن الله سبحانه وتعالى ينظر إليه بعين الرضا وأن الله معه، وأن الله آخذٌ بيده كلما عثر، وأن الله يدافع عنه، وأن الله يحبه، وهذا الشعور وحده يسعد الإنسان.

أحياناً إنسان له منصب رفيع ينظر نظرة لحاجب: كيف حالك يا فلان ؟ يمكث شهراً مسروراً، كلمة لطيفة، وهل يلزمك شيء ؟ يكون الحاجب لا يقرأ ولا يكتب، فالعظيم إذا التفت إلى الصغير أسعده.

الله عز وجل مع المؤمن دائماً بالتأييد و النصر و الحفظ:

ربنا عزّ وجل ينظر إلى قلب عبده المؤمن، والله عزّ وجل ينظر إلى المؤمن بعين الرضا، والمحبة، والتوفيق، وهذا معنى قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ مَعَ الّذِينَ اتّقَوْا)

(سورة النحل: من آية " 128 ")

وهذه معيةٌ خاصة ؛ معهم بالتوفيق، والتأييد، والنصر، والحفظ، أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ لا يوجد معك أحد، وإذا كان الله معك والله الذي لا إله إلا هو لو أن أمم الأرض جميعاً اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك أي..

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

* * *

فهنيئاً لمن ذاق معية الله الحقيقية، فلو كنت معه،

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللّهُ)

انظر إلى كلمة لن، لتأبيد النفي..

(وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

(وَقَالَ اللّهُ إِنّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصّلاةَ وَآتَيْتُمْ الزّكَاةَ)

(سورة المائدة: من آية " 12 ")

من هان أمر الله عليه هان على الله:

لكنك عندما تقرأ القرآن الكريم وترى أن وعود الله في أغلبها غير محققة لمن يدّعون أنهم مؤمنون، يجب أن تستنبط أن هؤلاء عندهم خلل كبير وخلل خطير، والله قال:

(وَقَالَ اللّهُ إِنّي مَعَكُمْ)

(سورة المائدة: من آية " 12 ")

ولكن ما حال الذين جاؤوا بعد الرعيل الأول ؟ قال:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59))

(سورة مريم)

أي حينما يهون على المسلمين أمر الله فلا يطبقونه، يهونون على الله عزّ وجل:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

(سورة الكهف)

لا يوجد وزن، لأنه لا يوجد ورع، ولا يقيمون أمر الله، فأمر الله عندهم سيّان فعلوه أم لم يفعلوه.

على كل مؤمن أن يلتزم منهج الله عز وجل في كل شيء:

الدخل يقول لك: حط بالخرج. لو قلت له: أخي هذا حرام فيه شبهة. يقول لك: لا تدقق أسهل لك. هكذا حال المسلمين، النبي يقول:

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[مجمع الزوائد]

هذه كلمة كبيرة جداً، طعام غير طيّب لأن ثمنه غير حلال، ولأن في الدخل كذب، والكذب يؤدّي إلى الغش، والتدليس، وتغيير المواصفات، والإيهام، والاحتكاك، وكل مخالفات البيع والشراء موجودة فالربح غير حلال، والطعام غير طيب، وادع حتى تشبع:

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[مجمع الزوائد]

من أيام أخٌ كريم قال لي: لي قريب عاش ستّاً وتسعين سنة، والشيء الغريب أنه يتمتع بأعلى درجات الصحة، فقال لي من حديث لحديث أنْ قال له: يا بني هذه ثمار اللُّقيمات الحلال التي أكلناها في شبابنا. يوجد نظام دقيق في الكون، وعدالة مطلقة، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد؟

ما من مخلوق يعتصم بالله عز وجل إلا جعل له مخرجاً من كل شيء:

قال الله عزّ وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا(55))

(سورة النور)

شرط واحد:

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور)

فالآن لا يعبدونه، بل يعبدون شهواتهم، ويعبدون الأقوياء، فيعبدون غيره..

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف له ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هويا تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

من اصطلح مع الله و تعامل معه بصدق جعل ألدّ الناس له في خدمته:

تقول: يا الله. وأنت مخلص، وأنت مقيمٌ على أمر الله، والإسلام مطبّق في بيتك، ومطبق في عملك، وتتقصى الدرهم الحلال ولو بذلت الجهد الكبير، وتنفر من الرزق الحرام ولو كان يسيراً، وأنت بهذا الورع، وبهذا الخوف من الله، والإخلاص، ويجعل للكافر عليك سلطاناً مبيناً !! حاشا لله..

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنْ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 ")

(وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

قضية خطيرة جداً قضية مصير، وسعادة دنيوية وأبدية، واصطلح مع الله، وتعامل معه بصدق، وإخلاص، وضع شهواتك تحت قدمك وضع أمر الله بين عَينيك، وانظر كيف أن أعداءك الألدّاء في خدمتك، بيد الله كل شيء، ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: 123)

هذا العطاء الأبدي السرمدي.

موضوع الأبد موضوع خطير جداً على كل إنسان أن ينتبه له:

إخواننا الكرام موضوع الأبد لا أحد ينتبه له، فجنة للأبد أي كم مليون سنة تكون ؟ عاش إنسان ستًا وتسعين سنة ما شاء الله، مئة وثلاثًا يقول لك: ما شاء الله على هذا العمر. فهل الآخرة مئة سنة فقط، ألف سنة، مليون سنة، ألف مليون، ألف ألف مليون، مليار مليار، واحد وأصفار للقمر، كيس من الطحين كل ذرة مليون سنة، فما هذه الآخرة ؟ هذا الأبد، الدنيا صغير جداً، فجنةٌ عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين ثمنها الطاعة في هذه الدنيا المحدودة، كم سنة كلها ؟

انظر إلى الناس يمضون هذا العمر القصير في المعاصي والآثام، يأتيهم مَلَك الموت فجأة، من أفخر بيت لقبر طوله متر ونصف، هذا المصير، هذا مصير كل حي، فموضوع الموت غائب عن الناس، فهل يستطيع إنسان يدعي أنه لن يموت ؟ فالموت بين أيدينا، وهل في اليوم أقل من خمسين نعوة في الشام، كم مرة يعلن على المآذن عن الموت، ألا نرى الموت بأعيننا كل يوم ؟ ماذا في القبر ؟ وماذا بعد القبر ؟ فهذه أسئلة كبيرة جداً.

الشقي من استهلكته الدنيا و العاقل من عمل لآخرته:

الإنسان يكون من الأشقياء حينما تستهلكه الدنيا، من عمل لعمل، ومن مشروع لمشروع، ومن لقاء إلى لقاء، ومن اجتماع إلى اجتماع، وبعد ذلك جاءه ملك الموت فجأة، أين المصير ؟ أم ماذا كنتم تعملون في الدنيا ؟

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(45)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(46)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(47)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(48)فَمَا لَهُمْ عَنْ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ(49)كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50)فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ(51))

(سورة المدثر)

ورد في بعض الآثار القدسية:

((أن عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعي بخلقهن أفيعبيني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟! لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا ـ نجاحات في الحياة الدنيا رجل أعمال ضخم ـ تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً))

[ورد في الأثر]

الفوز العظيم في طاعة الله، وفي السير على منهج الله، وأن تكون واثقاً بما عند الله، وأن تكون واثقاً بوعد الله، ومحباً لله هذا هو الفوز العظيم، وهذا هو الفضل الكبير، قال:

(ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(23))

(سورة الشورى)

من علامات البعد عن الله عدم تحرك الإنسان إلا بالأجر الجزيل:

إخواننا الكرام، من علامة صدق النبي، وصدق الأنبياء والمرسلين جميعاً أنهم لا يريدون منكم شيئاً..

(قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا)

(سورة يس)

أبداً أبداً، لا مادياً، ولا معنوياً، فهذه علامة الدعوة الخالصة، فلذلك:

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا (23))

(سورة الشورى)

فالإنسان إذا لم يعرف الله عزّ وجل لا يتحرك إلا بأجر، يصير ماديًّا، أي أقل خدمة إذا لم يأخذ عمولة لا يشتغل، لكن إذا عرف الإنسانُ اللهَ عزّ وجل، يحتقر أن يأخذ على عملٍ وَعَدَ الله الأجر الجزيل أجراً في الدنيا، ولذلك فأساس حياة المؤمن العطاء بلا حساب، ولا مقابل، فالمؤمن بني حياته على العطاء، فإذا قبض فليقيم أوده، وليعيش فقط، أما أنه لا يتحرّك ولا يقدم شيئًا إلا بالأجر الجزيل، فهذه علامة الافتقار أو البعد عن الله عزّ وجل.

النبي الكريم بنى حياته على العطاء:

الله عزّ وجل وصف النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (23))

(سورة الشورى)

إخواننا الذين يتقنون اللغة العربية هذه**"إلا "** أداة استثناء، لكن الاستثناء نوعان ؛ استثناء متصل، واستثناء منقطع، إذا قلت: دخل الطلاب إلا طالباً فهذا استثناء متّصل، أي المستثنى بـ **"إلا"** من جنس المستثنى منه، الطالب طالب، أما إذا قلت: دخل الطلاب إلا المعلم. هذا استثناء منقطع، لأن المعلم ليس طالباً.

(فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(30)إلا إِبْلِيسَ)

(سورة الحجر)

إبليس ليس مَلَكًا، هذا اسمه استثناء منقطع، فالعلماء قالوا في هذه الآية: هذه إلا أداء استثناء لكن الاستثناء منقطع، أي أن المودة في القربى ليست أجراً له.

النبي الكريم لا يريد شيئاً إلا أن يرى أمته طائعةً لله من بعده:

(لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (23))

(سورة الشورى)

وقف العلماء وقفةً طويلة عند هذه الآية، ولكن أوجه تفسير وجدته: المودة في القربى أي أن تتوددوا إلى الله فيما يقرّبُكم إليه، يقول الأب لابنه أحياناً: يا بني لا أريد منك شيئاً، أنا مكتفٍ، لكن أنا طلبي الوحيد منك أن تكون إنسانًا عظيماً مثقفًا، وإنساناً محترماً في المجتمع، هذا الذي يسعدني. فالأب كلما ارتقى مستواه يكون مترَفِّعاً عن عطاء ابنه لكن يتمنى له كل خير. فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يريد شيئاً إلا أن يرى أمته طائعةً لله من بعده، منيبةً إليه، عابدةً لله، مقيمةً على أمر الله.

(لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (23))

(سورة الشورى)

إلا أن تتودّدوا إلى الله فيما يقربكم إليه:

((لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجرا إلا أن توادوا الله ورسوله وأن تقربوا إليه بطاعته))

[مسند الإمام أحمد عن ابن عباس]

هذا حديث ورد عن رسول الله في تفسير هذه الآية. أي أن النبي لا يريد شيئاً ولكن يريد أن نكون مؤمنين، هذا الشيء يريحه، والعظماء فوق المكاسب المادية، فإذا رأوا الناس في بحبوحة، وأخلاق عالية، وتآلف، فهذا الشيء يسعدهم.

وأبسط مثال الأب الغني لو رأى أولاده في مناصب رفيعة علمية، وسمعتهم طيبة جداً، وأشخاصاً محترمين في المجتمع، تجده مسروراً جداً، فهذا الذي يريده.

من علامات الدعاة الصادقين:

1 ـ الدعوة على بصيرة:

إذاً المودة في القربى أن تتودد إلى الله بعملٍ يقربك منه، إن فعلت هذا فهذا جزاء النبي، فالنبي ليس له جزاء، الله سبحانه وتعالى هو الذي يجزيه كل خير.

إذًا النبي عليه الصلاة والسلام لا يريد شيئاً بنص القرآن الكريم، والآية التي تؤكد هذا المعنى:

(قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

ولو أحدنا أراد أن يتبّع الآيات المتعلقة بصدق الداعين إلى الله عزّ وجل:

(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية: 108)

الذي يدعو على بصيرةٍ متبعٌ للنبي عليه الصلاة والسلام.

2 ـ الترفع عن الأجر:

(شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من آية " 18 ")

والذي يبيّن عدالة الله عزّ وجل هو شاهدة الله من أولي العلم.

(قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20))

(سورة يس)

الترَفُّع عن الأجر هذا من علامات الدعاة الصادقين.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللّهَ)

(سورة الأحزاب: من آية " 39 ")

هذا من علامات الدعاة الصادقين.

3 ـ الصبر:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: من آية " 24 ")

والصبر من علامات الصادقين.

4 ـ النجاح في الابتلاء:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة: من آية " 124 ")

الصبر، والنجاح في الابتلاء، والدعوة الواضحة بالدليل، والتعليل، وبيان عدالة الله عزّ وجل، وعدم الخوف إلا من الله عزّ وجل، والترفُّع عن أي أجرٍ ماديٍ أو معنوي، هذه خصائص الدعاة إلى الله الصادقين كما وردت في القرآن.

5 ـ المودة من أبرز هذه الخصائص:

من أبرز هذه الخصائص:

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (23))

(سورة الشورى)

المودة سلوك مادي يؤكِّد مشاعر قلبية، أنت تحب شخصاً، فالمحبة شعور داخلي، أساسه المَيْل، تميل أن تذهب إليه، وأن تجلس معه، وأن تكون في قربه، فالحب هو شعور داخلي، هذا الحُب كامن، كيف يعبر عنه ؟ بعمل، فإذا زرته فالزيارة مودة، وإذا قدّمت له هديةً فالهدية مودة، ولك أخ مؤمن تحبُّه حباً جماً، تزوج، فعبَّرت عن حبّكَ له بهديةٍ في مناسبة زواجه، أو مرض فعُدْتَهُ في بيته، فالمودة سلوك مادي يجسِّد شعوراً قلبياً خالصاً.

المودة سلوك يجسد الحُب:

فهنا الآية:

(إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)

أي أن المشاعر من دون أن يكون العمل مؤكداً لها كلام فارغ، إلا المودة، أي سلوكاً، والتزاماً، وائتماراً بأمر الله، وعملاً بطاعته، فضابط الجوارح الخمس، وضابط الدخل، وضابط الإنفاق، وضابط اللسان هو المودة، فالمودة سلوك يجسد الحُب.

(إِلَّا الْمَوَدَّةَ)

والهدف ليس السمعة عند الناس، بل القرب من الله، فلو وقفنا عند هاتين الكلمتين سلوك يهدف إلى القُرب من الله، إن فعلت هذا فقد أرضيت النبي في قبره، وإن فعلت هذا فقد جعلت النبي عليه الصلاة والسلام أفرح الناس بنا، لأنه رحيمٌ بأمته أرحم منا بأنفسنا.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

(سورة التوبة)

النبي الكريم لا يبتغي من الإنسان أجراً بل أن يكون كما يريد:

النبي عليه الصلاة والسلام لا يبتغي منك أجراً ولا شيئاً آخر، بل يبتغي منك أن تكون كما يريد: مؤمناً، وكما قلت قبل قليل: أوضح مثل للأب، الأب الغني المستغني عن أولاده، لا يسعده إلا أن يكون أولاده في أعلى مقام في المجتمع، يصبح الابن قرة عين.

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (23))

(سورة الشورى)

أن تفعل عملاً يعبّر عن حبك لله وتبتغي منه القربى من الله فقط، وإن فعلت هذا فهذا أجر النبي عليه الصلاة والسلام.

لقد اختلفت أسرة في موضوع تجاري، فكلفني أخٌ كريم أن أكون حكماً بينهم، فالأمر استغرق معي عدة سهرات إلى ساعةٍ متأخرة من الليل، فبعد أن انتهت هذه اللقاءات باتفاق طيّب، وكتبوا أوراقاً ووقعوا، وحصلت مودة بالغة، أخطؤوا بحقي خطأً فقال أحدهم: كم تريد ؟ قلت: أعوذ بالله أنا لست محامياً أساساً، ثم قلت: لا، لا أريد على هذه الجلسات أجراً باهظاً، بل أن تحضروا دروس العلم، وهذه اسمها مشاكلة، و المشاكلة في اللغة هي ليس هذا أجراً، لكن النبي لكماله العظيم حينما يرى أمته منيبةً يسعد.

فالنبي قبل أن يتوفاه الله عزّ وجل نظر إلى أصحابه في الصلاة فابتسم حتى بدت نواجذه، قال:

((حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[تخريج أحاديث الإحياء]

من أصلح علاقته مع الله أصلحت علاقته مع الآخرين:

إذا دعا إنسان صغير بالنسبة لأي داعية إلى الله عزّ وجل، ورأى إخوانه منيبين إلى الله عزّ وجل، في صلاتهم خشوع، وتعاملهم إسلامي، وبيوتهم إسلامية، وعملهم إسلامي، وعندهم ورع، واللهِ الذي لا إله إلا هو هذا أكبر جزاء وأكبر عطاء تعطونه لمن يدعونكم إلى الله، وأن تكونوا على ما يريد الله ورسوله، فهذا أكبر عطاء، والإنسان تكفيه لقيمات، أما إذا زرع فسيلة واعتنى بها ثم أثمرت فهذا أجره، والأب والمعلم والداعية كذلك، وكل إنسان يقدِّم شيئًا لا يَفرحُ أن يُقدَّم له شيئًا مادياً، بل يفرحه أن تكون في مستوى دعوته.

لكن ماذا يؤلم الداعية إلى الله عزّ وجل ؟ أنْ يوجد إنسان محسوب على هذا المسجد ليس إسلامياً بعمله، وأخلاقيته غير إسلامية، وفي بيته لا يوجد استقامة، في بتعامله المادي يوجد أخطاء كبيرة جداً، يأخذ ما ليس له، يدّعي أنه صاحب دين، وهو محسوب على أهل مسجد وهو ليس منهم، فهذا الذي يؤلم، والذي يؤلم أن تنتمي إلى جماعةٍ دينيّةٍ يظن أنها طيبة طاهرة ولست في مستواها لا في بيتك، ولا في عملك، ولا في أخلاقك ؛ والذي يسعد أن تكون كما يريد الله ورسوله، فالحقيقة الإنسان إذا أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله فيما بينه وبين الناس، أنت أصلح علاقتك مع الله تصلح كل علاقاتك مع الآخرين..

(وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(23))

النظر إلى وجه الله الكريم خير عطاء للإنسان في الآخرة:

الحسنة في الدنيا لها عطاء وفي الآخرة لها عطاء، وفوق عطائي الدنيا والآخرة هناك نظرٌ إلى وجه الله الكريم، وهذا المعنى يؤيّده قوله تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: من آية " 26 ")

الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، فالحسنة في الدنيا لها عطاء وفي الآخرة لها عطاء، والبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان، أحسن في عملك، وأحسن في بيتك، وفي علاقاتك، وفي كلامك، وكل حركة مسجّلة، فأحسن، وأتقن عملك، وكن صادقاً، وكن وفيّاً للناس، ومخلصاً، وخذ بيد أولادك إلى الله ورسوله، و دُلّ امرأتك على الله ورسوله، هذا هو الإحسان، فلك الدنيا:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

ولك الآخرة، ولك نظرٌ إلى وجه الله عزّ وجل، ولذلك قال أحد العارفين بالله: **" في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة جنة القرب من الله ".** وقال أحدهم: **" ماذا يفعل أعدائي بي بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ ".**

هذه جنة القرب من الله، وجنة الطاعة لله عزّ وجل، فحبّذا لو ذقنا طعم القرب من الله.

من أخذ بعضاً من الدين و ترك بعضه الآخر لا يسعد و لا يرقى عند الله عز وجل:

آخر مثل أقوله لكم:إنسان اشترى قطع سيارة ؛ محَرّكًا، ورفاريف، ودواليب، ومقاعد، وسقفًا مقطوعاً، ومؤخرة مقطوعة وضعها في البيت، وهل هذه القطع تسعده أم هي عبءٌ عليه ؟ يملُّ منها، أما إذا اشترى سيارة متكاملة تمشي وراح بها نزهة يسعد بها، فإذا أخذت الدين قطعاً ونتفًا، صلِّيت وصمت، ولكن لا توجد استقامة تامة، ولا يوجد انضباط كامل، وعقيدتك غير صحيحة، فلو أخذت من الدين بعض الأشياء وجمّعتها يصبح الدين عبئاً عليك تملُّ منه، ولكن إذا أخذت الدين منهجاً متكاملاً، وإذا قطفت ثماره فأنت أسعد الناس به، فإن أخذت بعضاً من الدين وتدع بعضاً هذا لا يسعدك، ولا يرقى بك، ولا تحافظ عليه، وسريعاً ما تتفلّت منه.

فمن السهل جدّاً أخْذُ بعض أجزاء من الدين غير متكاملة، وسهل جداً أن يترك فريضة صلاة، ويقول: والله عندنا اجتماع ضروري، أو عندنا سهرة، أو موسم، أما عندما يأخذ الإنسان الدين متكاملاً، منهجاً كاملاً ويقطف ثماره ويحرص عليه حرصه على روحه، فعندئذ تركب هذه المركبة، وتقلّك أنت وأهلك إلى مكان جميل، وتقطف ثمارها، فهي لم تصبح بذلك عبئاً عليك، بل أصبحت مكسباً كبيراً.

من انضبط بمنهج الله عز وجل سعد في الدنيا و الآخرة:

إخواننا الكرام... كما قال الله عزّ وجل في الحديث القدسي:

((إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء، وحسن الخلق، فأكرموه ما صحبتموه))

[كنز العمال]

والإنسان إذا لم يأخذ الدين من كل أطرافه، بل أخذه متكاملاً، عقيدة ملأت عقله، ومشاعره وقلبه، وسلوكًا ضبط حركته فليس هذا هو الدين، هذا التوازن وهذا التفوق، ينمو عقلك بالعلم، وقلبك بالذكر، وينضبط عملك بمنهج الله عزّ وجل، وهذا التفوق، أما إذا أخذنا جانباً، فالصلاة لا تكلِّف شيئًا، ويوجد عندك اختلاط، وأخذنا الحج فهذا شيء جميل سياحة، وبالطبع إنسان ميسور فينزل في أفخر الفنادق، إنه طواف وسعي، فصار اسمه: الحاج فلان، أخذنا الحج من جهة، والصلاة من جهة، لكن لا يوجد انضباط في الحياة اليومية، في البيع والشراء وفي العلاقات الاجتماعية، هذا أخذ قطعاً من سيارة، فأصبحت عبئاً عليه فرفضها، وسهل أن يتخلى عنها، أما لو أخذها متكاملة سعد بها وحرص عليها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (10-15): تفسير الآيات 24-28 ، رحمة الله عز وجل بعباده

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-04-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس العاشر من سورة الشورى.

من أنكر ظاهرة الوحي ألغى الدين كله:

مع الآية الكريمة الرابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(24))

الحقيقة الدين في الأصل وحيٌ من السماء إلى الأرض، ونقلٌ من رسول الله إلينا، فحينما تشكِّك بالوحي، أو تشكِّك بمصداقية النبي عليه الصلاة والسلام فقد ألغيت الدين كلّه، فالكفّار كيف طعنوا في هذه الرسالة ؟ أنكروا ظاهرة الوحي..

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا)

أي أن هذا النبي الكريم جاء بهذا القرآن من عنده، أي هو الذي جاء به، وهو الذي رتّبه وأوهم الناس أنه من عند الله عزّ وجل.

إلزام الله عز وجل نفسه أن يهدي عباده:

النقطة الدقيقة جداً أيها الأخوة أن الله سبحانه وتعالى في سورةٍ أخرى يقول:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

الهدى على الله عزّ وجل، وحيثما وردت كلمة

(على)

متعلِّقةً بذات الله الجليلة، فمعنى ذلك أن الله ألزم نفسه أن يهدي العباد. والآن لأستعرض معكم بعض الآيات التي فيها

(عَلَى)

(إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

فبعضهم يقول: نحن عبيدٌ في ملك الله، والله سبحانه وتعالى حرٌ في أن يجعل الطائع في جهنَّم. هذا صحيح ولكنه على صراطٍ مستقيم، ألزم نفسه بالاستقامة..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

نفي الظلم عن ذات الله تعالى:

الآيات:

(لا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر: من آية " 17 ")

(ولا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(71))

(سورة الإسراء)

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

ولا قطمير.

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت: من آية " 40 ")

آيات كثيرة جداً تصل إلى مئة آية، تنفي عن ذات الله عزّ وجل أدقّ أنواع الظلم.

إلزام الله عز وجل نفسه أن يعدل بين العباد

كلمة:

(إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

أي ألزم الله نفسه أن يعدل بين العباد..

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: من آية " 6 ")

أي أن الله عزّ وجل ما من مخلوقٍ خلقه إلا وألزم نفسه برزقه، وهذه الآية شرحتها سابقاً لها معنى دقيق جداً، أي ما من دابةٍ، من تفيد استغراق أفراد النوع، وعلى تفيد الإلزام، وما من إلا تفيد الحصر..

(عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

أي أن الله سبحانه وتعالى طلب منّا أن نعبده وتكفّل لنا هو برزقنا..

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(132))

(سورة طه)

ألوان الهداية لا تعدُ ولا تحصى:

أردت من هذا أن أصل إلى قوله تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

أي أن الله عزّ وجل ألزم نفسه أن يهدي العباد، والله سبحانه وتعالى يهدي العباد بأساليب لا تعدّ ولا تحصى ؛ والكون أحد أسباب الهداية، والعقل أحد أسباب الهداية، والفطرة، وأفعال الله سبحانه وتعالى، والمُعالجة النفسيَّة للإنسان، والرؤيا التي يراها الإنسان أحياناً، والعلماء الذين يعينهم الله على نشر الحق في الدنيا كل ذلك أسباب للهداية، فهناك أساليب لا تعدُ ولا تحصى. وقد فسَّر بعضهم قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)

(سورة البقرة: من آية " 282 ")

أي ما دام الله يعلِّمكم بأساليب شتَّى فلمَ لا تتقونه ؟

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)

الكون يعلِّم، والقرآن يعلِّم، والنبي، والعقل، والفطرة، والحوادث، والرؤى تعلِّم، والدعاة، والمصائب، والضيق النفسي كل ذلك يعلِّمك، أي أن ألوان الهداية لا تعدُ ولا تحصى.

من افترى على الله كذباً لن يسمح الله له أن يضل الناس إلى ما شاء الله:

إذاً:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

ما دام الله سبحانه وتعالى تولّى الهداية، وكأن الهداية مستمرّة وما عليك إلا أن تلتقط هذه الهداية، من باب التقريب: فكيف أن البثّ الإذاعي مستمر دائماً، وما على الإنسان إلا أن يشتري جهاز الاستقبال ويستمع، ولن يُفقَد من السوق، البث مستمر فعليك أن تلتقط

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

الله عزّ وجل هدى العباد هداية كاملة.

الآن لو أن إنساناً يفتري على الله كذباً فهل يسمح الله له ؟ هل يسمح له أن يضلّ الناس إلى ما شاء الله؟ فهذا يتناقض مع حكمة الله في أن عليه الهدى، مادام الله عزّ وجل يقول:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

أيُّ إنسان يحاول أن يفتري على الله، أو أن يكذب على الله، أو أن يشوّه الحقائق لصالحه، فلابدّ من أن يفضحه الله عزّ وجل، ولابدّ من أن يكشفه، ولذلك يقولون: بإمكانك أن تخدع بعض الناس كلّ الوقت، وبإمكانك أن تخدع كلّ الناس بعضَ الوقت، أما أن تخدع كل الناس كلّ الوقت فهذا مستحيل.

مهما كانت محاولات إضلال الخلق قوية ستتهاوى في النهاية:

بالمناسبة إخواننا الكرام، ليس معنى قول الله عزّ وجل:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

أنه لا تجري محاولةٌ لإضلال الخلق، فالمحاولات على قدمٍ وساق، ولكن هذه الآية تعني أن هذه المحاولات لا تنجح في النهاية..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

وقد ترون بأعينكم، وتسمعون بآذانكم كيف أن الباطل مهما دُعِم، ومهما قوي بالأدلّة المفتعلة، ومهما دُعِمَ بالقوّة في النهاية فإنه يتهاوى كبيت العنكبوت.

الوحي كيانٌ مستقلٌ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

لذلك:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

هم بهذا ينكرون على النبي الوحيَ، ولا أدري ما إذا كان هناك بحثٌ طويلٌ عميقٌ دقيقٌ عن الوحي ؟ لماذا حينما رأى النبي سيدنا جبريل ضمّه ضمّاً شديداً ؟ لئلا يُظَن أن الوحي منام، ولماذا تأخّر الوحي في براءة السيدة عائشة شهراً بأكمله ؟ فلو أن الوحي شيءٌ بمتناول النبي عليه الصلاة والسلام، وبإمكانه أن يجلبه، وأن يمنعه، فلا يمضي دقائق حتى يأتي بآية تبرّئ السيدة عائشة، نبيٌ عظيم اتُهمَت زوجته بالزنا وهو يعلم براءتها، ولا يملك دليلاً إيجابياً ولا سلبياً، وانتظر شهراً حتى يأتيه الوحي مبرّئًا السيدة عائشة.

طبعاً لا مجال للإسهاب في هذا الموضوع، فهذا موضوع قائم بذاته عنوانه: ظاهرة الوحي في الإسلام، والله عزّ وجل بأساليب كثيرة جداً، وبأحداث عديدة جداً أكّد للعباد أن الوحي كيانٌ مستقلٌ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ليس بإمكانه أن يجلبه ولا أن يمنعه، وقد يأتِي الوحي معاتباً النبي عليه الصلاة والسلام، وقد يأتِي الوحي ليثبت حقيقةً اتهم به خصومُ النبيّ النبيَّ بالجنون، وبالكهانة، وبالشِعر، والوحي نقل إلينا ذلك، ولو أن الأمر بيد رسول الله لأغفل هذه التهم لأنها أصبحت قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة.

القلوب بيد الله عز وجل:

أيها الأخوة...

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ)

ولو طبّقنا هذه القاعدة على إنسان دعا إلى الله، ولو كان في نيات سيّئة لتلعثم المتكلِّم، ولانصرف الناس عنه..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

ما أخلص عبدٌ لله عزّ وجل إلا جعل قلوب العباد تنهال إليه بالمودّة والرحمة، فالقلوب بيد الله عزّ وجل، إذا علم الله من إنسانٍ كذباً، أو نفاقاً، أو تزويراً، أو إضلالاً، أو انحرافاً يصرف عنه القلوب، ويتهمه الناس، وقلوبهم تنفِر منه..

(فَإِنْ يَشَأِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)

فالله عزّ وجل بكلماته التّامة، وبكلماته الثابتة يمحُو الله الباطل ويحقُّ الحق.

الله سبحانه وتعالى تولّى هداية الخلق و ما على الخلق إلا الاستجابة:

لننتقل معكم إلى التاريخ، هؤلاء الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام، وكذّبوه، وادعوا النبوّة، وحَرّفوا الإسلام عن خطِّ سيره وما أكثرهم، وما أكثر الفرق الإسلاميّة، وما أكثر الضالين المضلين الفاسدين المفسدين، أين هم ؟ هل لهم ذكرٌ ؟ إنهم في مزبلة التاريخ، وهذا يؤكد أن الله يمحوُ الباطل ويحق الحق بكلماته، ولولا أن هذا الدين دين الله عزّ وجل ما بقي إلى هذه الأيام، لأن المؤامرات التي حيكت على هذا الدين أبلغ من أن توصف، ومع ذلك كل من افترى على الله كذباً، وكل من زوّر

الحقائق يتهاوى كبيت العنكبوت، فهناك فرق ضالّة مضلّة، منحرفة، فاسدة مفسدة شوّهت الإسلام، وجرّته إلى أن يطابق الحياة المعاصرة ومع ذلك فما استطاعوا.

وكأن هذه الآية تشير إلى قاعدة هي: أن الله سبحانه وتعالى تولّى هداية الخلق، بل جعل هداية الخلق عليه..

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

ويؤكِّد هذا قوله تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 23 ")

فكأنّه على الله عزّ وجل أن يُسْمِع الخلق، فالهدى على الله، وما علينا إلا أن نستجيب فقط، إذْ علينا الاستجابة.

أمّة محمدٍ صلى الله عليه وسلّم أمّتان أمة الاستجابة وأمة التبليغ:

لذلك ذكرت اليوم في خطبة الجمعة أن أمّة محمدٍ صلى الله عليه وسلّم أمّتان: أمة الاستجابة وأمة التبليغ، فكل من ينتمي لهذه الأمة تاريخياً هو من أمة التبليغ، لكن الذي استجاب لله ورسوله هذا من أمة الاستجابة، ولذلك كل الآيات التي تُثني على أمة سيدنا محمّد، وتَعِدُ أمة سيدنا محمد بالغلبة، والنصر، والتمكين، والاستخلاف، والتأييد هذه الأمّة هي أمة الاستجابة..

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ)

(سورة الشورى: من آية " 38 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

إذاً هذه الآية تؤكِّد أن الذي يفتري على الله، ويكذب على الله، و يضل العباد، ويجرُّ الحقّ لصالحه، ويطمِس، ولا يبيّن، ويَكْتُم، ويسعى بشكلٍ أو بآخر، وبطريقةٍ أو بأخرى أن يضل الناسَ فاللهُ له بالمرصاد، فلابدّ من أن يفضحه، ولابدّ من أن يكشفه، وأن يحبس لسانه، وأن يجعل الناسَ ينفضّون من حوله.

كل من يستخدم الهدى ليجرّ المصالح إلى ذاته الله له بالمرصاد:

لذلك:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا)

لو كنت كذلك يا محمّد..

(فَإِنْ يَشَأِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ)

(وَلَوْ تَقَوّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(44)لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45)ثُمّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(46)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

(سورة الحاقة)

إنسان يلعب بدين الله ؟!

يا إخواننا الكرام... أنقل لكم بعض الكلمات، يقول الإمام الغزالي:**" العوامُ لئن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون "**، لأنهم يضلون الخلق والله لا يسمح لهم، والإمام الغزالي يقول: **" لئن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين "**. لأن الذي يرتزق بالدين يلعب بدين الله عزّ وجل، ويحرّكه لصالحه، والله لن يسمح له، بل يقصمه لأن الله عليه الهدى، تولّى هداية الخلق، فكل إنسان يستخدم الهدى ليجرّ المصالح إلى ذاته، والله له بالمرصاد.

من بلّغ رسالات الله يجب أن يخشى الله وحده:

لو أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق وحبيب الحق..

(وَلَوْ تَقَوّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(44)لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45)ثُمّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(46)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

(سورة الحاقة)

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ)

وكل إنسان دعا إلى الله أيها الأخوة ليحذر أن يتكلّم في آيةٍ، أو في حديثٍ، أو في حكمٍ فقهي، أو أن يتكلّم ليجرّ مصلحةً إليه، أو ليبعد خطراً عنه، لقد خان الأمانة، ولذلك فالآية الكريمة:

(الّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَالاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللّهَ)

(سورة الأحزاب: من آية " 39 ")

هؤلاء الذين يبلِّغون رسالات الله يجب أن يخشوا الله وحده، ولا يخشوا أحداً إلا الله، ولو أنهم خافوا غير الله فسكتوا عن الحق خوفاً ممن يخافونهم، أو نطقوا بالباطل إرضاءً لمن يخافونهم سقطت دعوتهم، فماذا بقي من دعوتهم ؟.

الله عز وجل يعلم السر و أخفى:

ملخّص الملخّص:

الله هو الهادي، وهو تولّى هداية الخلق، وقد تجري آلاف المحاولات لإضلالهم لكنها لا تنجح، ولا يحقُّ في النهاية إلا الحق، ولا يستقرُّ إلا الحق، ولا يتألّق إلا الحق، والباطل زهوق ولو عُمِّر سبعين عاماً..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)

فكلمة من كلمات الله تنهي باطلاً وتحيي حقّاً..

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24))

أنت كإنسان لك الظاهر، ولكن الواحد الديّان يعلم السرّ وأخفى، فيعلم ما أخفيته عن الناس ويعلم ما يخفى عنك أيضاً، وأنت مكشوفٌ عند الله، حسب نيتك، فهناك من يجر الآية لصالحه ليغطي انحرافه، وليُقنع الناس بأنه على حق، وهناك من يلعب بكلمات الله، وبأحاديث رسول الله، فالصحيح يُضَعِّفُهُ والضعيف يقوّيه من أجل فريةٍ، أو انحرافٍ، أو إرضاءً لإنسانٍ لزيدٍ أو عُبيد، فالله سبحانه وتعالى يتولّى فضحه، ويتولى كشفه، وهذه المحاولة لا تنجح.

تولي الله عز وجل حفظ كلامه:

مثلاً الله عزّ وجل يقول:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9))

(سورة الحجر)

ألم تجرِ محاولاتٌ لتغيير كتاب الله ؟ جرت لكنّها ما نجحت، قبل خمسين عاماً (فيما أذكر وفيما سمعت) طُبِعَ خمسون ألف نسخة من هذا المصحف، حُذِفَت منه كلمة واحدة.. وَمَنْ يَبْتَغِ.... الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ.

حذفوا كلمة غير:

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 85 ")

النسخ كلها أُتلفت وأُحرقت، لم تنجح المحاولة. فإذا كان الله عزّ وجل تولّى حفظ كلامه فليس معنى هذا أنه لا تجرى محاولات لتشويه كلامه، بل تجري لكنها لا تنجح، لأن الإنسان مخيَّر في الدنيا..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: من آية " 36 ")

أسعد إنسان من آمن بالحق وانسجم معه فكانت النهاية له:

في النهاية دقِق في قوله تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

العوام يقولون كلاماً يعجبني، يقول لك: لا يصح إلا الصحيح. الأمور تتحرّك، وتسير، وتضطرب، وتتداخل وفي النهاية لا يحق إلا الحق، ولا يصح إلا الصحيح، ولا يستقر إلا ما أراده الله عزّ وجل.

((عبدي أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

ولذلك فأسعد إنسان هو الذي آمن بالحق وانسجم معه فكانت النهاية له. عندما يخالف الإنسان الحق تضطرب نفسه، ويختل توازنه، وقد يحمله هذا الضيق النفسي على أن ينتحر.

من خالف الحق انهار من الداخل و خسر الدنيا و الآخرة:

قلت لكم قبل درسين أو ثلاثة: إنسان يتمتّع بأعلى مكانة في فرنسا، وسمعة، وأسرة، وغنى، ومنصب رفيع جداً كان يتسلّمه (كان رئيس وزارة) فانتحر، فسمعت أن مئة صحفي كتبوا مقالاتٍ عدّة في سر انتحاره، ثم أحد الصحفيين وصل إلى الحقيقة، هذا كان يعتنق مذهباً باطلاً، عمره سبعون سنة، احتقر ذاته لأن إنسان يعتنق مذهباً لا صحّة له، فحمله ذلك على أن ينتحر، واليوم انتحر شخصٌ ثانٍ، لماذا ؟ لأن الإنسان عندما يخالف الحق تنهار نفسه من الداخل، أما الذي يربط نفسه مع الحق..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

أنت ربطت نفسك مع خالق الكون، ومع منهج الله، وكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24))

باب الرحمة مفتوح على مصراعيه لكل إنسان:

الآن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وانحرفوا وقصّروا فباب الرحمة مفتوح، وأرجى آية في كتاب الله:

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: من آية " 53 ")

فباب التوبة مفتوح..

((لله أفرح بتوبة التائب من الظمآن الوارد، ومن العقيم الوالد، ومن الضال الواجد))

[من كنز العمال: عن " ابن عباس"]

والنبي عليه الصلاة والسلام ذكر قصّةً تعرفونها جميعاً، هذا البدوي الذي ركب ناقته ليقطع الصحراء بها، جلس ليستريح وعليها زاده وشرابه فلم يجدها، أيقن بالهلاك فجلس يبكي حتّى أدركه النعاس، فأفاق فرأى الناقة، فمن شدة فرحه بهذه الناقة قال:**"يا رب أنا ربُّك وأنت عبدي ".** هكذا ورد في الحديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته))

[أخرجه البخاري عن الحارث بن سويد]

من اصطلح مع الله عز وجل غفر له ذنوبه جميعها:

إذا اصطلحت مع الله، وضبطت أمورك، وضبطت جوارحك، و بيتك، ودخلك، وإنفاقك، وبناتك، وأولادك، وعلاقاتك، وندواتك، وسهراتك، ونزهاتك، ضبطتها كلها وفق الشرع، معنى ذلك أنك اصطلحت مع الله، وجعلت بيتك إسلامياً، وعملك إسلامياً، وربّيت أولادك التربية الصالحة، وحملتهم على طاعة الله، وحفظت بناتك من كل تقصيرٍ أو انحراف، فأنت الآن مصطلح مع الله، والله يفرح بك لرحمته بخلقه، ولذلك يقول الله عزّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ)

والله أيها الأخوة ما أعرف شعوراً يسعد الإنسان كشعوره أن الله قَبِلَ توبته، ملك الملوك يقبلك، ويرضى عنك، ويمحو لك خطيئاتك، ويستر لك ما كان منك من قبل !!

((من تاب إلى الله توبة نصوحا أنسى الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

[من كنز العمال: عن " ابن عباس "]

((ابن آدم لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[ورد في الأثر]

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25))

من استقام على أمر الله و أخلص وجهه له ذاق طعم القرب منه:

إخواننا الكرام... ما دام القلب ينبض فأنت في بحبوحة وبإمكانك أن تتوب، وبإمكانك أن تصلح ما كان منك، وأن تؤدِّي الحقوق إلى أصحابها، وأن تؤدِّي الذمم التي عليك، وأن تعيد اقتسام الإرث إذا كان فيه ظلم، فإذا وضع الأخ الكبير يده على أموال والده المتوفّى وحرم إخوته الصغار فهو محجوبٌ عن الله عزّ وجل، وبإمكانه أن يعيد توزيع الإرث، وإيّاك أن ترجئ انحرافاً أو مالاً حراماً إلى المستقبل، فقد لا يأتي المستقبل، فلذلك من الآن أصلح حالك.

والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت أعقل من الذي اصطلح مع الله في وقتٍ مبكِّر، وسوّى علاقاته مع الله؛ فالذمم، والحقوق، والبيت، استقم، إن استقمت على أمر الله رأيت الطريق إلى الله سالكة، وإذا اتصلت بالله عرفت معنى القُرب، وعرفت لماذا قال أحد العارفين بالله:**" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف ".**

من استقام على أمر الله و أقبل عليه تذوق معنى وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ:

إن استقمت على أمر الله وأقبلت عليه، وأخلصت الوجهة إليه عرفت معنى أن في الدنيا جنّة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وتذوّقت معنى قوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

وعرفت معنى قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من آية " 21 ")

إلهٌ في عُلاه يقول لك: المؤمن له معاملة خاصّة، وله علاقات خاصّة، وله زواج وعمل خاص وسعادة نفسيّة، وكل ذلك خاص به، فأنت إذا عرفت الله كنتَ مستثنًى مما يصيب معظم الناس..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35))

أيُعقَل هذا الكلام ؟..

عدم استواء المؤمن مع الفاسق عند الله عز وجل:

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

أهكذا ظنُّك بالله عزّ وجل ؟ إنسان شاب في مقتبل العمر يخشى الله، ويرجو ما عند الله، ويؤدِّي الصلوات، ويستمع إلى مجالس العلم، ويطلب في شبابه، ويبتغي زوجةً مؤمنةً، ويتوخّى عملاً صالحاً وحرفةً ترضي الله عزّ وجل، فهل هذا الإنسان يُعامل كما يُعامل شاب فاسق منحرف ؟ مستحيل..

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)

لا يحيا الإنسان إلا بمعرفة الله و بابتغاء مرضاته:

دقِّقوا في هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

والإنسان ميّت قبل أن يعرف الله، يقول سيدنا علي كرّم الله وجهه: **" يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ".** تحيا بالعلم، وتحيا بمعرفة الله، وبطاعته، وبابتغاء مرضاته، وتحيا في بيت الله، وبهذا القرآن، وبتطبيق سنة النبي العدنان، بهذا تحيا..

أمة الاستجابة خير أمة أخرجت للناس:

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا)

إذا كنت من الذين استجابوا فأنت من أمة الاستجابة، أنعم بها من أمّة، كل الآيات التي تتحدّث عن أمة رسول الله:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران: من آية " 110 ")

من هي ؟ أمة الاستجابة، فأمة الاستجابة ليست أمة التبليغ، كل إنسان وُلِدَ في بلد عربي بحكم انتمائه التاريخي يقول لك: أنا مسلم و أنا من أمة محمّد، وهذا الشيء لا يعتبر إطلاقاً، ولا يُعْبَأ به، ولا تسمّى من أمة محمد صلى الله عليه وسلّم إلا إذا كنت من أمة الاستجابة، أما كلّنا جميعاً بحكم انتمائنا التاريخي فمن أمة التبليغ، لا من أمة الاستجابة..

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِه)

فأدنى حركة نحو الله، يعطيك الله عزّ وجل ما لا تحتسب..

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من آية " 17 ")

هديناهم..

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

من تحرك حركة نحو الله عز وجل كان الله في قضاء حاجته:

لكن..

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

فإذا تحرّكت نحو الله خطوة..

((إذا تقرب إلي العبد شبرا تقربت إليه ذراعا، وإذا تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإذا أتاني مشيا أتيته هرولة))

[من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة "]

هذا حديث قدسي، أي أنت تحرّك حركة نحو الله، انو نيّة طيّبة، انو أن تقرأ القرآن، وأن تحفظه، وأن تفهمه، وتحضر مجلس علم، عاهد نفسك على أن تلزم مجلس علم، وانظر ماذا يكون، هم في مساجدهم والله في حوائجهم، تحلُّ المشكلات بشكل عجيب، لأن هذا زكاة الوقت (دقِقوا في هذا الكلام) الله عزّ وجل قادر أن يضيّع لك خمسين ساعة لأتفه الأسباب ؛ فالسيارة توقفت، ليس لها قطع تبديل، بعثت لطلبها فجاءك قياس أكبر بقليل، ارجع وابعث مرّة ثانية، تدفع أموالاً وتنتظر، والآلة معطّلة، والعمال معاشهم مستمر، والله قادر أن يضيّع لك من وقتك مئة ساعة لأتفه الأسباب، فإذا حضرت مجلس العلم فهذا زكاة الوقت، فكيف أن المال له زكاة فالوقت له زكاة، يستنبط هذا من بعض الأحاديث الشريفة:

((من أخّر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره))

بركة الوقت أن تؤدِّي زكاته ومن تأدية زكاته أن تطلب العلم:

أنت تقول: هذا الذي ألّف الكتاب كم قرأ كتباً حتّى ألّفه ؟ كتاب في اثني عشر مجلّداً، يحتاج إلى عشرين عاماً لتأليفه، والسلف الصالح أعطاهم اللهُ عزّ وجل بركةً في أوقاتهم، وبعض العلماء ترك مؤلّفات قُسِّمت على أيام حياته فكان نصيب اليوم الواحد تسعين صفحة، فهل عندك استعداداً أن تقرأ عشر صفحات في اليوم بشكل دائم، تسعين صفحة تأليف، فهذا الوقت له بركة، بركة الوقت أن تؤدِّي زكاته، ومن تأدية زكاته أن تطلب العلم..

((إنّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أجْنِحَتَهَا لِطالِبِ الْعِلْمِ رضًا بمَا يَطْلُبُ))

[من سنن الترمذي: عن " صفوان بن عسّال "]

((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً))

[رواه الترمذي عن" أبي هريرة"]

مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهّلَ اللّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إلَى الْجَنّةِ:

الإنسان يكون في درس يوم الجمعة فيقوم قبل الموعد بساعة ونصف، فيغيّر ثيابه ويلبس، ويتوجّه إلى المسجد، ويركب المركبة العامّة، فإلى أين يذهب ؟ ليس إلى سهرة، ولا إلى ضيافة، ولا إلى مقعد وثير، ولا إلى شيء مضحك، جاء ليتعلّم..

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهّلَ اللّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إلَى الْجَنّةِ))

[من صحيح مسلم: عن " أبي هريرة "]

فالمجيء من الغوطة إلى جامع يظن أن فيه حقّاً، ونرجو ذلك، فهذا الطريق إلى الجنّة في النهاية:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهّلَ اللّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إلَى الْجَنّةِ))

فعندما يتوجّه أحدنا إلى بيت الله فأين يذهب ؟ إنه ذاهب إلى الجنّة، لأن هنا مكان معرفة الله عزّ وجل، والسوق والبيت مكان تطبيق معرفة الله، ألم يقل النبي عند دخوله إلى بيت الله:

((اللّهُمّ افْتَحْ لي أبْوَابَ رَحْمَتِك))

[من الأذكار النوويّة: عن " أبي حميد "]

هنا توجد رحمة، فإذا خرج من المسجد:

((اللّهُمّ إني أسألُكَ مِنْ فَضْلِك))

[من الأذكار النوويّة: عن " أبي حميد "]

أنت بين حالتين إما أنك تطلب العلم، وإما أنك تطبّق الذي تعلّمته، في بيتك وعملك والطريق تطبّق ما تعلّمت، وفي بيت الله تتعلّم، و..

((بلغوا عني ولو آية))

[من الجامع الصغير: عن " ابن عمر "]

من ضيع كل شيء خسر الدنيا و الآخرة:

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26))

إذا كان الإله يقول:

(شديد)

فما هو الشديد ؟ وإذا قال لك طفل: أنا معي مبلغ كبير. أي خمس ليرات، أما إذا قال لي غني: معي مبلغ كبير. أي معه خمسون مليونًا، فكلّما تكلّم العظيم، ووصف شيئاً بأنه عظيم يكون عظيماً جداً، والإله يقول:

(لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26))

وربنا عزّ وجل يقول لهم في آية أخرى:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ(175))

(سورة البقرة)

شيءٌ لا يحتمل أن يُدرك الإنسان أنه ضيّع كل شيء، وفقد وخسر كل شيء، فهذه هي الخسارة، ولهذا يقول سيدنا علي: **"الغنى والفقر بعد العرض على الله".**

الرخاء الاقتصادي في الغالب يرافقه انحراف أخلاقي:

الآن في الدنيا القضيّة لا قيمة لها إطلاقاً، ليس الغني غنياً ولا الفقير فقيراً..

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ)

وهناك سؤال كبير: يا ربي لماذا الفقر ؟ إذا وجد في انفتاح قليل واستيراد مسموح، تجد الناس قد انحرفوا انحرافًا شديداً، وهذا شيء ملموس، إذْ يرافق الرخاءَ الاقتصادي انحرافٌ أخلاقيٌّ، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27))

الله هو الذي يعلم..

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

هذه الآية أساسيَّة، وهي أصل في بابها.

من رضي بما قسمه الله عز وجل له كان أغنى الناس:

إذا رأينا إنسانًا دخله قليل فهذه رحمةٌ من الله، والذي يجبر كسره أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله ليحمي صفيّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

[ورد في الأثر]

((إن الله تعالى يحمي عبده المؤمن كما يحمي الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة))

[الجامع الصغير: عن " حذيفة "]

إذا اختار لك ربنا عزّ وجل شيئًا فابذل جهدك، وحَسِّن دخلك، وارفع ثقافتك، وكفاءة عملك، وافعل كل ما في إمكانك، لكن بعد أن تنتهي كل جهودك إلى هذا المستوى قل: الحمد لله رب العالمين، فأنا لا أدعو إلى الكسل، ولا إلى القعود، ولا إلى ترك الأخذ بالأسباب. خذ بالأسباب، افعل ما تشاء، ولكن إذا انتهت بك كل هذه الأعمال إلى هذا المكان فقل: حسبي الله ونعم الوكيل. ارضَ بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس.

(إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27))

الله عز وجل بيده خزائن كل شيء:

والله عزّ وجل قال:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

ولا خبير مثل الله، وأحياناً تأتي سنوات قاحلة، والناس يجأرون بالدعاء يا رب يا رب. أنا علمت قبل عدة سنوات أن محاصيل القمح ثلاثة ملايين طن، حاجة قطرنا كلِّه مليون طن، ثلاثة أمثال حاجتنا، وفي سنوات مئتان وخمسون ألف طن، أي ربع حاجتنا، فالله عزّ وجل المحاصيل بيده، يزيدها ويقلِّلها، وبيده الثمار والإنتاج ومياه الأمطار، فقد قلّت مياه حوض دمشق إلى درجة أن الناس يئسوا، وأشرفنا على الجفاف، عشر سنوات تقريباً وكان معدّل الأمطار مئة وعشرين، أو مئة وثلاثين، أو مئة وستين مليمتر، إلى أن يئس الناس وظنوا أن خطوط المطر تغيَّرت وسوف نلقى جفافاً قاحلاً، فجأةً العام قبل

الماضي كميَّات الأمطار التي هطلت في دمشق ثلاثمئة وخمسون ميليمتر، والعام الماضي ثلاثمئة وخمسون، والحالي حوالي مئتين إلى الآن، والله بيده كل شيء، وكل الخزائن والرزق بيده..

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28))

القنوط من رحمة الله علامة عدم معرفة الله:

أيها الأخوة الكرام... القنوط من رحمة الله علامة عدم معرفة الله، والقنوط من رحمة الله في القرآن الكريم كفرٌ، وجهلٌ، ويأسٌ، ولذلك حينما تضيق الأمور بالإنسان، ويظن أن السماء قد شَحَّت فلا تمطر، وأن الأرض قد يبسَت فلا تنبت، وإذا وصل إلى القنوط فهذه حالةٌ لا ترضي الله عزّ وجل، ولكن الله يقول:

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ)

قلت لكم قبل قليل: أخ كريم يعمل في حوض دمشق قال لي قبل عدة سنوات: انتهى الأمر، فلابدّ من أن يرحل أبناء هذه المدينة لجفاف الماء، فالحوض المائي في دمشق وصل إلى أقل مستوى، وكل شيء كان مهدّداً بالجفاف، وبعد ذلك جاءت الأمطار، وهناك أنهر جافة من ثلاثين عاماً، والآن فُجِّرَت وسالت مياهُهَا، وبعض الينابيع في منين وصلت إلى الشام، فلذلك عندما يعطي ربنا يدهش.

ثقة المؤمن بربه ولو كان في ضيق طارئ:

المؤمن دائماً يثق بالله ولو كان في ضيق مؤقّت، ضيق طارئ، وهذا الضيق تربوي، والله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

فكل أنواع الضيق، والتشديد هذا من أجل أن نرجع إليه، فإذا رجعنا إليه زال هذا الضيق، وربنا عزّ وجل ينوّع العلاجات إن لم يرجع الناس إليه، ويبلوهم بالشر فهل يرجعون ؟ وهل يخافون ؟ وبالخير هل يستحيُون من الله ؟ فالإنسان المعرض يمتحن مرّتين: مرّةً بالرخاء ومرّةً بالشدّة، فهل ترجعه الشدّة إلى الله ؟ على كلٍ فالمؤمن يثق بالله عزّ وجل..

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28))

الله عز وجل هو الرزاق و المعطي:

الآن الشيء الثابت أن الرزق من السماء، فإذا كانت الأمطار غزيرة، والنبات جيّد، والمحاصيل جيّدة فهذا يحرّك عجلة الاقتصاد في البلد، ولقد كنت واقفًا مع شخص عنده معمل مطرّزات ضخم، قال لصديقه أمامي: بعنا بيعاً مخيفًا هذه السنة، قال له: ما السبب ؟ فأجاب: كانت الأمطار في الجزيرة غزيرة جداً. فأنا انتبهت أنه معمل مطرّزات يبيع بكميات مذهلة لأن أمطار الجزيرة كانت غزيرة، ومعنى هذا عندما تنزل الأمطار بغزارة، والمحاصيل تنبت بغزارة فهذا الذي يحرّك اقتصاد البلاد، وأحياناً سعر العملة يزداد بالمحصول الاقتصادي الجيّد، فحصل عندنا مخزون وشيء نبيعه، وقطّع أجنبي، فلذلك الرزق من السماء، فإذا انهمرت السماء بالأمطار، وأنبتت الأرض من خيرات السماء كان هذا حركةً لكل نشاطٍ اقتصاديٍ في البلد، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28))

مرّة قلّ إنتاج القمح كثيراً، فثمن مستوردات القمح أرهقت الميزانيّة، لأننا نحتاج أن نأكل الخبز، وأحياناً القمح يكون ثلاثة أمثال حاجة القطر، فالملاحظ أن الرزق من السماء، وأحياناً بشكل متزامن، أي هو مثالي في كل فترة مطرة بعدها شمس، وهذا يعين على إنبات النبات، ونضجه، إذْ نحن في برمجة زمنيّة للأمطار، فالله هو الرزّاق، وهو المتصرّف، والمعطي، والمانع، والمغني، والمفقر.

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (11-15): تفسير الآيات29-31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-04-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة الشورى.

الإيمان بالله و التشريع أمران متكاملان:

مع الآية التاسعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(29))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة المؤمنون... بادئ ذي بدء هناك آياتٌ دالّةٌ على وجود الله، وعلى كماله، وعلى وحدانيّته، وهناك آياتٌ تشريعيّة، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما دعا إلى الله بَثّ في نفوس أصحابه الإيمان بالله عزّ وجل، ثم جاء التشريع، فكان الإيمان بالله، وبوحدانيّته، وكماله ووجوده مع التشريع متكاملان، ونحن إذا أردنا لأنفسنا الخير، أو أردنا أن ندعو إلى الله عزّ وجل لابدّ من وقفةٍ متأنيةٍ عند آيات الله الكونية، لماذا ؟ لأنها تعرّفنا بالله، فإذا جاء أمر الله عزّ وجل عرفنا من أين هذا الأمر، فشرف الأمر من شرف الآمر، فإذا أردنا أن نعرف الأمر مباشرةً دون أن نعرف الآمر، أغلب الظن أننا لن نُطبّق الأمر، أو نحتال عليه.

من قصّر في معرفة الآمر انعكس هذا التقصير على إيمانه:

إذا سألت هذا السؤال الدقيق: لماذا يعصي الناس ربَّهم ؟ الجواب البسيط لأنهم لا يعرفونه، ولو عرفوه ما عصوه، لقد عرفوا أمره ولكنهم ما عرفوه، فما من واحدٍ في العالم الإسلامي إلا وهو يعلم أن الكذب حرام، والغش حرام، والأمر معروف، لكن الناس قصّروا في معرفة الآمر، فحينما قصّر الناس في معرفة الآمر انعكس هذا الضعف في الإيمان بالله عزّ وجل وانعكس تقصيراً في تطبيق أمره، وإلا فهذه الآيات التي تزيد عن ثلاثمئة آية في القرآن الكريم، والتي تحدّثنا عن هذا الكون العظيم لنصل منه إلى خالقه العظيم، فماذا نفعل بها ؟ إذا أهملنا التفكّر في خلق السماوات والأرض، أو أهملنا معرفة الله عزّ وجل فماذا نفعل بهذه الآيات ؟

الكون أكبر آية من آيات الله الدالة على عظمته:

أيها الأخوة الكرام، نحن في الكون، والكون بيننا تحت سمعنا وبصرنا، فالشمس معروفة، والقمر معروف، والليل معروف، والنهار معروف، والهواء، والماء، وأنواع النباتات، والطعام، والشراب، وأنواع الأطيار، والأسماك، والبحار، والبحيرات، والرياح، فهذا بين أيدينا جميعاً، والآية الكريمة:

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

(سورة السجدة: من آية " 27 ")

لكن ما الفرق بين الإنسان المؤمن وغير المؤمن ؟ الفرق أن غير المؤمن بقي في الكون، والكون حقيقة، وأهل الدنيا عرفوه أدقّ المعرفة، فأهل الدنيا كما قال الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم: من آية " 7 ")

فقد عرفوا الكون، وعرفوا قوانينه، وغاصوا في أعماق البحار، ووصلوا إلى القمر، وجالوا في الفضاء الخارجي، وكشفوا الذرّة، وكشفوا الخليّة، ووصلوا إلى أدق المعلومات، إذاً فالكون بين أيدينا وتحت سمعنا وبصرنا.

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن تجاوز الحقيقة إلى حقيقة أكبر:

فما الفرق بين المؤمن وغير المؤمن ؟ فالكون حقيقة والمؤمن تجاوز هذه الحقيقة إلى حقيقةٍ أكبر، وانتقل من الكون إلى المكوّن، ومن النظام إلى المنظِّم، ومن الخَلْق إلى الخالق، ومن التسيير إلى المُسَيّر، ومن التربية إلى المُربي، فهكذا المؤمن، فإذا بقينا في الكون فنحن والغربيون سواء، لقد درسوا المادّة، والذرّة، وأنواع التُرَب، والنباتات، والحيوانات، وغاصوا في أعماق البحار، ووصلوا إلى خليج مريانا في المحيط الهادي، فاستخدموا سفن أبحاث مصفّحة تصوّر، وصعدوا إلى الفضاء الخارجي، ونقلوا الصورة، والصوت، فالعلماء الأجانب درسوا الكون دراسة عميقة، ولكن خطأهم المُميت أنهم بقوا في الكون.

لكن المؤمن ينتقل من الكون إلى المكوّن، ألم يقل كبير من علمائهم الذي اكتشف النظريّة النسبيّة: **" كل إنسانٍ لا يرى من هذا الكون قوّةً هي أقوى ما تكون، رحيمة هي أرحم ما تكون، عليمة هي أعلم ما تكون، حكيمة هي أحكم ما تكون، هو إنسانٌ حيٌّ ولكنّه ميّت ".**

والماء بين أيدينا، وابنك بين يديك، وتعرف أنه قد كان نطفةً من ماءٍ مهين، وتعرف كيف أصبحت هذه النطفة التي هي واحد من أربعمئة أو خمسمئة مليون في اللقاء، وقد تلقّحت أو دخلت إلى البويضة

وانقسمت وكلنا يعلم أنه على هذه النطفة توجد خمسة آلاف معلومة مبرمجة، وأن البويضة فيها خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، وأن النطفة دخلت إلى البويضة وتمّ الانقسام، وهذا الشيء معروف، ولكن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن خرج من هذه الحقيقة إلى حقيقةٍ أكبر.

من أغفل الآيات الكونية أغفل جانباً أساسياً في الدين وهو معرفة الله:

النِعم هل هناك من ينكرها ؟ فنعمة الهواء، ونعمة الماء، والقلب والرئتين، والحواس الخمس، فالفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن انتقل من النعمة إلى المُنعم، وهذه أول نقطة، والكون حقيقة بين أيدينا، والكفّار والأجانب وصلوا إلى معلومات في منتهى الدقّة عن الكون، ولكنّهم ما عبروا منه إلى الله، أما المؤمن فقد تكون معلوماته عن الكون أقل بكثير من معلومات غير المؤمن، ولكن هذه المعلومات المتواضعة وصل منها إلى الله.

إذاً فحينما نغفل هذه الآيات الكونيّة، التي تزيد عن ثلاثمئة آية في القرآن الكريم، وقد ذكرها الله عزّ وجل ؟ كي تكون دليلاً لنا على الله، وعلى وجوده، وعلى أسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، ووحدانيّته.

فهذه الآيات أيها الأخوة حينما نغفلها نغفل جانباً أساسياً في الدين وهي معرفة الله، ولذلك فكل إنسان يعصي الله، فالجواب البسيط أنه لا يعرفه ولو عرفه ما عصاه، فقد عرف أمره ولكنّه لم يعرفه، وأمر الله أيها الأخوة يُعْرَف بالمدارسة، وكتب الفقه بين أيديكم جميعاً ؛ فالطلاق والزواج، والإرث، والفرائض، والوصيّة، وأحكام المرابحة، وأحكام المضاربة، والمتاجرة، والمُزارعة، والمساقاة، فأحكام الفقه بالمعاملات واضحة بين أيدي الناس، ولكن هذا أمره، فلمَ كان معظم الناس لا يطبّقون أمره ؟ لا لأنهم لا يعرفونه.

آيات الكون آيات قرآنية و كونية في آن واحد:

إذاً هناك آياتٌ كونيّةٌ تدلُ عليه، وآياتٌ قرآنيّةٌ تدل عليه، وآيات كونيّةٌ قرآنيّةٌ في آنٍ واحد، وحينما يذكر القرآن الكريم آياتٍ في الكون فهي آياتٌ كونيّةٌ قرآنيّةٌ في آنٍ واحد، يقول الله عزّ وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ (29))

(سورة الشورى)

فهذه كلمة من للتبعيض، أي هذه بعض آياته، لأن آيات الله سبحانه وتعالى لا تعدُ ولا تحصى..

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (29))

(سورة الشورى)

فكلمة السماوات والأرض هذا مُصْطَلح قرآني يعني الكون، والكون يعني ما سوى الله، فالله فوق الخلق فيها وحده، وما سوى الله هو الكون فالسماوات والأرض، فالله واجب الوجود، وما سوى الله فممكن الوجود وخلق السماوات والأرض، مجرّات متحرّكة، ولو سكنت لأصبحت كتلةً واحدة، وكل متحرّك في الكون يسير في مسار مغلق، والله عزّ وجل عبَّر عن هذه الحقيقة بشكلٍ معجز فقال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11))

(سورة الطارق)

أي أن كل متحرّك يعود إلى مكان انطلاقه النِسبي بعد حين..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11))

(سورة الطارق)

دوران الأرض حول الشمس من آيات الله الدالة على عظمته:

يقول لك: في السنة ألف وثمانمئة وستين (أو سبعين لا أذكر) مذنّب هالي اقترب إلى الأرض، وفي السنة ألف وتسعمئة وست وسبعين (أو ست وثمانين) عاد إلى اقترابه من الأرض..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11))

(سورة الطارق)

فكم مجرّة توجد في السماء ؟ بعضهم قال: قريب من مليون مليون مجرّة. وبعضهم قال: في المجرّة الواحدة قريب من مليون مليون نجم فهذا الكون كلّه يتحرّك، ولولا أنه يتحرّك لأصبح كتلةً واحدة. ولكن يوجد شيء دقيق جداً، فالأرض تدور حول الشمس لكن المسار غير دائري، فهو إهليلجي أي مفلطح، والشكل الإهليلجي له بعدان عن المركز بعد أعظمي، وبعد أصغري، فإذا اقتربت الأرض من الشمس وصلت إلى البعد الأصغر فتزداد قوة جذب الشمس لها، فتزيد سرعة الأرض، ولكي ينشأ من هذه الزيادة قوة جديدة نابذة تكافئ القوة الجديدة الجاذبة، فتبقى الأرض على مسارها. فإذا ابتعدت فلئلا تتفلّت من جاذبيّة الشمس تُبَطِّئ سرعتها، حتى تزيد من جذب الشمس لها وتقلُّ القوّة النابذة إنه شيء دقيق جداً. نظام هذه الأرض وعلى هذا فقس كل كوكبٍ في السماء.

دوران الأرض حول نفسها من عظمة الله عز وجل:

إذا جئنا إلى الأرض، فهذه الأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، وتدور حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً في الثانية، وبدرس علم صغير مقداره خمسون دقيقة قطعت في أثنائه مئة وثمانية آلاف كيلو متر، والمسافة إلى السعوديّة ألفا كيلو متر، مئة وثمانية آلاف كيلو متر

بمقدار درس من دروس الجمعة، فالأرض تدور حول الشمس ثلاثين كيلو في الثانية، والمجموعة الشمسيَّة تتحرَّك حول كوكب مركزي، وبعض المجرات تدور بسرعةٍ قد لا تُصدَّق إنها مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، وأنت ترى أن الأرض مستقرَّة، وكل شيء مستقر، فهذه من عظمة الله عزَّ وجل، إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (29))

(سورة الشورى)

اكتشاف أي حياة في الكواكب الأخرى القرآن الكريم أشار إليها في كلمة:(فيهما):

الآن توجد آية جديدة:

(وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ (29))

(سورة الشورى)

هذه الآية هي الآية الوحيدة التي فيها إشارةٌ إلى أنَّه إذا اكتُشِف في المستقبل أن في الكواكب البعيدة حياة حيوانيَّة (كائنات حيَّة) فهذه الآية تشير إلى ذلك..

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ (29))

(سورة الشورى)

أي في السماوات وفي الأرض من دابَّة، والدابَّة هي المخلوق الذي يتحرَّك، وكل شيءٍ يدبُ حركةً فهو دابَّة، والمخلوقات التي تدبُّ على وجه الأرض هي الدواب..

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: من آية " 6 ")

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

دعونا من هذه المخلوقات التي قد توجد في الكواكب الأُخرى، والتي إذا اكتشف العلم هذه المخلوقات فالقرآن الكريم أشار إليها في كلمة:

(فيهما)

(وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ (29))

(سورة الشورى)

عالم الأسماك عالم واسع علينا التفكر به:

لنقف عند الدوابِّ التي بثّها الله في الأرض، فهذا الموضوع من أكبر الموضوعات، عالم الحيوانات ولنأخذ عالم الأسماك. في بعض الموسوعات عن عالم البحار حقيقة تؤكِّد أن هناك مليون نوع من الأسماك فهناك أسماك صغيرة جداً إنها أسماك زينة، وهناك حيتان عملاقة وزن الحوت مئة وخمسون طناً، وجبته المعتدلة أربعة أطنان، وترضع أنثاه رضعة واحدة ثلاثمئة كيلو، فثلاث رضعات في اليوم تساوي طناً، جرّ الحوت مرّة باخرة ثماني وأربعين ساعة وهي تدير محرّكاتها بعكس حركته فجرّها ولم تستطع الإفلات منه، فهذا هو الحوت.

وهناك أسماك صغيرة فسفوريّة شفّافة سُود، مفلطحة، كرويّة متطاولة، لها أذناب، وأشعار، فدقِّق في أنواع الأسماك، فهذا كلام دقيق والعلماء حتى الآن اكتشفوا مليون نوع من الأسماك، وهناك أسماك تمشي على أرجل في قعر البحار، فكيف تتحمّل هذا الضغط الهائل ؟ فالغوّاصات العملاقة إذا انخفض غوصها في البحر عن مئتي متر فإنها تتحطّم، أي إذا تعطّل جهاز قياس البعد عن سطح الماء تتحطّم الغواصة، ولكن هذه السمكة تعيش في قعر خليج مريانا، والبعد يزيد عن اثني عشر ألف متر تحت الأرض، فكيف لا تتحطّم ؟ وربنا عزّ وجل جعل بين أجوافها الداخليّة والخارجيّة منافذ حتى يتساوى الضغط، فهناك ضغط داخلي يكافئ الضغط الخارجي.

وهناك أسماك تدافع عن نفسها بموجة كهربائيّة تزيد عن ستة آلاف فولت، فلو أن هذه السمكة أصابت إنساناً لقتلته، ونحن بمئتين وعشرين تكون الكهرباء خطرة، بينما ستة آلاف فولت تطلقها هذه الأسماك، وهناك أسماك تدافع عن نفسها بسحابة دخَانيّة فتغيب، وهناك أسماك تضيء طريقها في قعر البحار، وهناك أسماك تداوي الأسماك الأخرى، طبيبات فرتلٌ طويل من الأسماك التي تقرّحت حراشِفُها تقف في نظام وتنتظر أن تعالجها هذه السمكة، وهذه السمكة لا أحد يلتهمها، لأنها (هلال أحمر) تقدِّم خدمات للأسماك جميعاً.

عالم البحار من آيات الله الدالة على عظمته:

فيا أيها الأخوة عالم البحار عالم عجيب، فاقرؤوا، وشاهدوا، فالبحار لمن ؟ من أجل أن تعرف الله عزّ وجل. والآن لا يحضرني أشياء كثيرة مرّت بي، لكن والله هناك حقائق عن البحار لا تصدّق، ولولا أن الأسماك الكبيرة تلتهم الصغيرة لأصبح البحر كما لو وضعت في وعاءٍ حمصاً ونشف الماء، ما بقي غير الحمُّص، ولو أن الأسماك لا تلتهم بعضها لغلب السمك ماء البحر (يصير البحر من دون مرقة) أي كله سمك وهذا الشيء مخيف، لأن جُراب البيوض في الأسماك ملايين الملايين، فالسمكة عندها

خط تعرف أين هي من سطح البحر، وجهاز ضغط، وأنبوب مفرّغ من الهواء، والسمكة فيها وعاء في أسفله بعض الرملات فإذا كانت على عكس اتجاهها نحو السطح فتعرف ذلك، فكيف تعرف السمكة أن الهواء فوقها وأن قعر البحر تحتها ؟ الله عزّ وجل زوّدها بطريقة تعرف بها ذلك.

إباحة الله عز وجل للإنسان أن يأكل لحم السمك دون أن يذبحه:

الشيء الغريب هو أن الله سبحانه وتعالى أباح لنا أن نأكل السمك الذي نصطاده من دون أن نذبحه، مع أن بعض البلاد الأجنبيّة التي تتملّق المسلمين، وتظن أنهم ساذجون ترسل لهم معلّبات أسماك كتب عليها ذُبِحَت على الطريقة الإسلاميّة. أي طريقة إسلامية ؟! السمك لا يُذْبَح ويؤكل ميتاً كيف ؟

شخص سأل سؤالاً: إذا كان ذبح الحيوان من أجل تزكيته حقاً فكيف نأكل السمك من دون ذبح ؟ إذا كان الذبح قضيّة شكليّة إذاً ليس له فائدة، ثم اكتُشِف أن السمكة حينما تُصطاد ينتقل كل دمها إلى غلاصمها وكأنها ذُبِحَت، فعندما سمح لنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نأكل السمك من دون أن نذبحه، وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى، فلحم السمك ما فيه دم أبداً، كل دماء السمكة تنتقل عندما نصطادها إلى غلاصمها، فعالم الأسماك..

(وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ (29))

(سورة الشورى)

مليون نوع من الأسماك على شكل مزهريّة، الأشكال التي للأسماك مهما حاول الإنسان أن يتخيّل فهناك أشكال فوق تخَيُّله بالحجوم والأشكال وهناك أسماك متوحّشة، فسمك القرش مخيف، وأحياناً يصطادوا القرش فيجدوا فيه رأس إنسان، يد إنسان، حاجات، فإذا شعر أن هناك دم إنسان حي فإنه يتوحّش، وهناك سمك لطيف، وسمك لحمة طيّب، وسمك كالأفاعي، وسمك كالخنازير، فأنواع منوّعة من الأسماك، وليس القصد أن يكون هذا الدرس درساً علمياً، بل القصد..

(وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ (29))

(سورة الشورى)

فما خطر في بال الإنسان أن يفكّر في عالم الأسماك !

عالم الطيور عالم واسع خلقه الله سبحانه و تعالى:

وعالم الأطيار ؛ أنواعه، وأشكاله، الأطيار الجارحة وغير الجارحة، والتي تغرّد، والتي هي للزينة، والمتوحّشة، وأنواع منوّعة فطير يطير سبعة عشرَ ألف كيلو متر بلا توقُّف !! وأي طائرة تفعل ذلك ؟ والطائرة التي وزنها مئة وخمسون طناً، ومئة وخمسون طناً وزن وقودها، وهذا الحجم من الوقود

يكفيها لطيران أربع عشرة ساعة فقط (فهذه طائرة الجانبو العملاقة من أكبر قياس) أما هذا الطائر فيطير من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي بشكلٍ مستمر، ولكن كيف يهتدي ؟ طائر معشِّش في بيت في منطقة الشيخ مُحْي الدين، جاء فصل الشتاء فارتحل إلى جنوبي إفريقيا، والآن هو في طريق العودة ولو انحرف درجة واحدة فإنه يأتي في لبنان، ودرجتين فإنه يأتي إلى تركيًا، إنه يعود إلى دمشق، وإلى الصالحيَّة، وإلى الشيخ محي الدين، عرودك، البيت الثالث وينزل في محله، أين كان ؟ كان في جنوبي إفريقيا، فمن دلّه على الطريق ؟

إن قلت: التضاريس. إنه يطير في الليل. فالموضوع دقيق جداً.

الله سبحانه وتعالى هو الذي يُلْهِم الطير إلى أن يصل إلى هدفه:

هناك بحوث علميَّة حتى الآن لم يستطع العلم أن يقول: كيف يصل الطير في رحلته الطويلة إلى مكان خروجه ؟ إلى أن جاء بحثٌ يقول إن الطير (لا نظرية المغناطيسية صحيحة، ولا التضاريس صحيحة، ولا الشمس صحيحة، وكل النظريات التي وضعت لتفسير سر وصول الطائر إلى هدفه من دون دليل لم تنجح) فالله عزّ وجل أشار في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يُلْهِم الطير إلى أن يصل إلى هدفه..

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَانُ)

(سورة الملك: من آية " 19 ")

عزا ذلك إلى ذاته مباشرةً، فالطير يصل إلى هدفه بإمساك الله له ويلهمه طريقه الصحيح مباشرةً، وأي نظريَّة لم تنجح إلى الآن، فهناك بحوث بمئات الكتب، ومئات التجارب، فالطيور تلوَّن وتُرسل إلى أماكن بعيدة، إلى أستراليا، وهي في بريطانيا، يلونونها، وتعود إلى مكانها فكيف عرفت الطريق ؟ لو أنها سافرت كما هي العادة بخط نحو الجنوب فالآن أخذوها نحو الشرق وعادت، فكيف تعود ؟ إن عالم الطيور عالم قائم بذاته.

التفكر في عالم الأسماك يقودنا إلى الله عز وجل:

عالم الأسماك فيه أشياء مذهلة، فالأسماك التي تعيش في ينابيع الأنهُر في أمريكا ؛ كنهر الأمازون، ونهر الميسسبي، تنتقل من ينابيع الأنهار إلى المحيط الأطلنطي إلى أوروبا (فهذا سمك السلمون) وحينما تعود هذه الأسماك تعود إلى مسقط رأسها في أعالي الأنهار، وتقاوم الشلالات. فهذه حينما تخرج من سواحل فرنسا وتتجه نحو أمريكا، مرّة ثانية لو أخطأت درجة واحدة لجاءت في أمريكا

الجنوبيّة، وهذه في كندا، وهذه في أمريكا الشماليّة، وهذه في المكسيك، وهذه في البرازيل، فكيف تتجه بزاوية دقيقة جداً ؟ لا أحد يعلم.

وهناك أسماك تنتقل من ينابيع نهر النيل إلى بحر الشمال، فتقطع النيل بأكمله، وتدخل البحر المتوسّط، وتتجه نحو الغرب إلى مضيق جبل طارق، وتتجه نحو الشمال محاذيةً لإسبانيا ثم فرنسا، تدخل إلى بحر المانش ثم إلى بحر الشمال هناك، والله غواصة تضل تحت البحار، فتجد فيها ربُّاناً يقودها وخرائط ولاسلكي ومع ذلك ضلّت الطريق وغرقت، فهذه السمكة شكلها كشكل الأفاعي تنتقل من ينابيع نهر النيل إلى بحر الشمال وتعود، من ؟

(مَا يُمْسِكُهُنّ إلا الرّحْمَانُ)

(سورة الملك: من آية " 19 ")

فعالم الأسماك عالم عجيب يجب أن نفكِّر فيه، لنعرف الله عزّ وجل. عالم الأطيار.

تذليل الحيوان للإنسان بقدرة الله عز وجل:

الآية اليوم:

(وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ (29))

(سورة الشورى)

فهذه الكائنات، الآن الأنعام كيف أنها مذلّلة، فلو أن الله عزّ وجل وضع أخلاق الضبع في الغنمة، فلا تستطيع أن تأكل لحم غنم، ويقول لك: فلان مثل الغنمة ؛ أي مذلّلة، والبقرة مذلّلة، الجمل مذلّل، وهذه كلّها أنعام مذلّلة، فهذه البقرة تصنع الحليب، والآن هناك نوع هجين يعطي ستين كيلو حليب في اليوم، فالحليب كيف يأتي ؟ الغدّة الثديية للبقرة مثل قبّة، خلايا ثديية محاطة بشبكة أوعية دمويّة دقيقة جداً، فهذه الخليّة تأخذ من الأوعيّة الدمويّة حاجتها، وحتى الآن لا أحد يعلم كيف يتم تصنيع الحليب في الخليّة الثديية، ولكن الذي يعلمونه أن هناك مجموعة خلايا على شكل قبّة في أعلاها شبكة أوعية دمويّة، ويرشح الحليب من أسفلها، وكل أربعمئة لتر من الدم تشكل لتر حليب واحد، لأنها تجول في الغدّة الثديية وهذا ثدي البقرة الكبير لو لم يكن له قواطع عرضيّة وطوليّة لتمزّق، لأنه يحمل ستين كيلو، ولذلك له قواطع عرضيّة وقواطع طوليّة، أي أربعة أقسام، وكل حلمة لها قسم، ولو أن أربعةً كانوا شركاء في بقرة وأخذ كل واحد حلمة، فإنه يأخذ ربع الكميّة بأكملها، فما هذا الثدي ؟ البقرة آية من آيات الله، والهنود عبدوها من دون الله، أما المؤمنون فيعبدون الذي خلقها وسخّرها لهم. فهذا الحليب مادّة أساسيّة جداً في حياتنا، وأنت عدِّد مشتقات الحليب، آيات كثيرة تؤكِّد هذا المعنى..

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشّارِبِينَ(66))

(سورة النحل)

من آيات الله الدالة على عظمته:

1 ـ الناقة:

البقرة آية، و الغنمة آية، والناقة آية، من آيات الله الدالّة على عظمته، مزوّدة بعينين تُريان الجمل البعيد قريباً، والصغير كبيراً، ومزوّدة بأهداب تمنع عنها غُبار الصحراء، فتستطيع الناقة أن تعيش بلا ماء ثلاثة أشهر، ثلاثة أشهر بإمكانها أن تأخذ ماء الخلايا من دون ماء ومن دون غذاء، إنه شيء لا يصدّق..

(أفَلا يَنْظُرُونَ إلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإلَى السّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(18)وَإلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(19)وَإلَى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20))

(سورة الغاشية)

والناقة تجلس جلسة نظاميّة، فلو أنها تجلس كما يجلس بقية الدواب لا يستطيع الإنسان أن يستخدمها، فكيف يحمِّل عليها وهي مضجعة على اليمين ؟ أما هي فتجلس جلسة نظاميّة، يحمِّل بضاعته عليها ثم تنهض فهي تحمل كل هذا المتاع.

ونحن لا نتحدّث هنا حديثاً علمياً دقيقاً عن هذه الحيوانات، ولكن إشارات لكي تكون هذه الآيات دليلاً على عظمة الله عزّ وجل.

والجمال لا يستغنى عنها في بعض البلاد، رغم كل التطور التكنولوجي والميكانيكي للأسلحة، لأن الصحراء ليس هناك حيوان يستطيع أن يجتازها إلا الجمل، فالجمل آية، والغنم آية، والبقر آية.

2 ـ البقر:

البقر مذلّل، وهناك مرض يصيبه اسمه التوحُّش، فالبقرة تقتل أشخاصاً عدّة، يأتي صاحبها مختاراً ويقتُلها وثمنها سبعون ألفاً، وهذا التوحُّش يريد أن يلفت لنا ربنا نظرنا إلى نعمة التذليل، وذللناها لكم أعرفتم هذه النعمة ؟ إن غفلتم عنها أريكم كيف تكون البقرة متوحِّشة. ذكر لي أخ كريم أن بقرة قتلت أول شخص والثاني، وكادت تقتل الثالث فأسرع صاحبها إلى المسدّس وأطلق عليها النار وقتلها، وثمنها سبعون ألف ليرة، لأنها توحّشت، عندما قال ربنا:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس: من آية " 72 ")

هذه آية كونيَّة دقيقة، فعندما يرى الإنسان بقرة، وغنمة، ويأكل من السمك، و الدجاجة، وهذا شيء دقيق جداً، فهذه كلها حيوانات مذلّلة، قال الله:

(وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ (29))

(سورة الشورى)

جمع الخلائق بعد الموت:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(29))

(سورة الشورى)

هذه الآية دقيقة تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى سيجمع الخلائق بعد الموت، فكل إنسان سوف ينال حقّه، لاحظوا أيها الأخوة أن الله سبحانه وتعالى أكثر شيء جمع بينهما الإيمان بالله واليوم الآخر، لماذا اليوم الآخر ؟ لأن الإنسان يفعل ما يشاء، ولكن كل شيء يفعله محاسبٌ عليه حساباً دقيقاً، وحساباً عادلاً، ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أرجحكم عقلاً أشدُكم لله حباً))

[ورد في الأثر]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

[الجامع الصغير: عن " ابن مسعود "]

لكن هذا العقل الكبير الراجح من لوازمه الخوف من الله ومحبة الله، فأنت عاقلٌ بقدر ما تخاف من الله، وبقدر ما تحبُّه.

أعمال الإنسان مسجلة عليه و سيحاسب عليها حساباً دقيقاً:

لذلك:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(29))

(سورة الشورى)

أي اعملوا ما شئتم لكن أعمالكم كلّها مسجّلة عند الله عزّ وجل فالإنسان إذا أيقن أن الله موجود، وأن الله يعلم، وأن الله سيحاسب، وأن هناك ملائكة تُسَجِّل..

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(18))

(سورة ق)

وأن هناك حياة أبديَّة لا تنتهي، فالإنسان إذا أيقن بهذا دخل في عالم الاستقامة، وعالم الاستقامة سبب للكرامة، فأنت تريد من الله الكرامة وهو يريد منك الاستقامة.

الاستقامة على أمر الله سبب دخولك الجنة:

بصراحة أيها الأخوة دين من دون استقامة هو كلام فارغ، وثقافات، ومعلومات، ومقالات، ومحاضرات لكن مثله مثل أي شيء آخر، الدين عظمته أن الإنسان إذا استقام قطف كل الثمار، ولن تستطيع أن تقطف ثمار هذا الدين إلا إذا استقمت على أمر الله عزَّ وجل، ولذلك من يقول لك: أخي أنا فكري إسلامي. خير تشرّفنا، أنا عندي عواطف إسلاميَّة، خير إن شاء الله، لا العواطف تنفعك، ولا هذا الفكر ينفعك، ومطالعاتي إسلاميَّة، ومكتبتي إسلاميَّة، وأساليبي كلها إسلاميَّة، وأنا أريد منك أن تستقيم على أمر الله وكفى، فإن استقمت على أمر الله قطفت كل الثمار، لذلك:

(وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(29))

(سورة الشورى)

ما من مصيبةٍ في الكون أو في الأرض إلا بسبب معصية من الإنسان:

الآن أيها الأخوة ندخل في آية جديدة:

(وَمَا أَصَابَكُمْ (30))

(سورة الشورى)

والله الذي لا إله إلا هو هذه الآية وحدها لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفتنا..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (30))

(سورة الشورى)

هذه المِنْ يقول عنها علماء اللغة: لاستغراق أفراد النوع. لو قال الله عزَّ وجل: والمصائب التي تصيبكم بما كسبت أيديكم. المعنى غير المعنى الدقيق الذي تؤكِّده هذه الآية..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ (30))

(سورة الشورى)

مثلاً لو أن إنساناً قال لك: هل معك مال كي ننشئ مشروعاً تجارياً ؟ تقول له أنت: والله ما معي مالٌ. أنت معك مئتا ألف والمشروع يحتاج إلى مليونين، منك مليون ومنه مليون، إذا قلت: ما معي مالٌ. ماذا تقصد أنت بهذا ؟ أي ما معي مالٌ يكفي لهذا المشروع ولكن إذا قلت: ما معي من مالٍ، أي ولا ليرة

سورية واحدة، فهذه المِنْ تفيد استغراق أفراد النوع، ولا ليرة سورية، ولا نصف ليرة، ولا رُبع ليرة، ما معك شيء، ما معي من مالٍ، من تفيد استغراق أفراد النوع.

كل شيء في الكون بيد الله عز وجل:

والله عزّ وجل قال:

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود: من آية " 56 ")

أي لا توجد ولا حشرة سائبة:

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: من آية " 6 ")

وحيثما قرأتم كلمة من الزائدة فهذه تفيد استغراق أفراد النوع، فهنا يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ (30))

(سورة الشورى)

أي أقل مصيبة، ورد في الحديث الشريف:

((ما من عثرةٍ))

شخص وقع في الطريق ما حصل له شيء، وقف ومشى فهذه مصيبة إذا قلت: من أين هذه مصيبة، ماشي في الطريق فخدش جلدك مسماراً فما حصل شيء إطلاقاً انتهت العملية، الحديث الشريف:

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[من الجامع الصغير: عن " ابن عساكر عن البراء "]

الجهل بمعرفة الله و أمره يؤدي بالإنسان إلى المعاصي:

هذه الآية:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ (30))

(سورة الشورى)

ويمكنني أن أقول اعتماداً على هذه الآية: إنه ما من مصيبةٍ في الكون أو في الأرض (نحن نعيش على الأرض) إلا بسبب معصيتنا، وما من معصيةٍ إلا بسبب جهلٍ إما بمعرفة الله أو بأمره، فإن عرفته ولم تعرف أمره أصابتك المصيبة، وإن عرفت أمره ولم تعرفه فما طبّقت أمره أصابتك المصيبة، إذاً هذه الآية:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (30))

(سورة الشورى)

هذه الآية وحدها تكفي لتعاملك مع الله عزّ وجل..

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمّ أُوَفّيكُمْ إيّاهَا ـ دقِقوا الآن ـ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم: عن " أبي ذر "]

كل مصيبةٍ أصابت الإنسان بسبب معصيةٍ لكن ما كل معصيةٍ يتبعها مصيبة:

هذه الآية:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ (30))

(سورة الشورى)

وهناك مصائب أدبيّة، انحرجت، في مصائب ماديّة، فذهب منك مئة ألف، وهناك مصائب معنويّة، أهانك إنسان لا سمح الله، وهناك مصائب أسريّة ابن غالٍ مات، مرض، وأحياناً حبس حريّة، وأحياناً إهانة، وأحياناً ذل، وأحياناً فقر مُدقع، وأحياناً ألم لا يُحتمل، وأحياناً انحرجت قليلاً، فذكرت رقماً غير صحيح، فقال لك شخص: الرقم غير صحيح من أين أتيت به ؟ فاستحيت في نفسك، فهذه كذلك مصيبة..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

العكس غير صحيح، أي أن كل شيء أصابك بسبب معصية، لكن ما كل مخالفة وذنب يتبعها مصيبة، هو يعفو عن كثير (فالمعنى دقيق) فكل مصيبةٍ أصابت الإنسان بسبب معصيةٍ أو ذنب، لكن ما كل ذنبٍ أو معصيةٍ يتبعها مصيبة..

الله عز وجل عفو يعفو عن الإنسان و يسامحه و يعطيه فرصاً كثيرة:

(وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

فربنا عزّ وجل يحاسب قليلاً ويعفو كثيراً، إذ يحاسبك عن واحدة ويسامحك بعشرة كي تتعظ، وكي تقترب، والله يعطي فرصاً كثيرة..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

وهذه الآية قد تكون شعاراً للإنسان يضعها في بيته، وفي مكتبه ودكّانه حتى لا يتهم الخالق العظيم بشيء، الله عزّ وجل عادل.

المصائب التي تنزل بالإنسان ما هي إلا معالجة من الله عز وجل:

اسمعوا الآية الكريمة:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

الله ماذا يفعل بالمصائب التي ينزلها بكم ؟ لا معنى لها بالنسبة له لكنها معالجة..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

هذه الآية يجب ألا تغيب عن أذهان إخواننا الكرام، لا يلومن إلا نفسه.

من تعامل مع الله عز وجل بصدق و استقامة نال:

1 ـ السرور و السعادة و التيسير:

تعامل معه بصدق وباستقامة تر من السرور والسعادة ما لا سبيل إلى وصفه، وتر من التيسير..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل)

2 ـ الحياة الطيبة:

وهذه واحدة، ترى الحياة الطيّبة..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

3 ـ دفاع الله عن الذين آمنوا:

ترى أن الله يدافع عن الذين آمنوا، هذه الثالثة:

(وَلَيَنصُرَنّ اللّهُ مَنْ يَنصُرُهُ)

(سورة الحج: من آية " 40 ")

4 ـ النصر و التأييد:

والآية الرابعة..

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

(سورة الأنفال)

فهو معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق، والدفاع عنك، والحياة الطيّبة، والتيسير، فهذه كلها وعود الله عزّ وجل، فإذا لم تتحقّق هذه الوعود فلعلّة أن هناك كسباً لا يرضي الله عزّ وجل..

(فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

كل إنسان في قبضة الله عز وجل:

الآن:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ (31))

(سورة الشورى)

فإنسان يظن نفسه قوياً ؟ فالقوي هو الله عزّ وجل، ونقطة دم تتجمّد في مكان بالدماغ فيقول لك: خثرة دماغيّة، فشلل نصفي، وبمكان آخر جنون، وبمكان ثالث فقد ذاكرة، وفي مكان رابع عمى، وفي مكان خامس نِسيان، فالإنسان ضعيف جداً، في مكان ثالث يقول لك: درجتين لا يستطيع أن يمشي، إذا كان في القلب، وبالأعصاب، فشيء لا يحتمل..

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (31))

(سورة الشورى)

فأنت في قبضة الله، فتصوّر لو أن آلة تتحرّك على الكهرباء وأنت عندك الفيش، لو كبست الزر وقفت كلها، إذا قالت لك الآلة: أنا قويّة، وأنا كذا. ولا كلمة تكبس زراً فتقف، وكل من يقول: أنا، فهو جاهل، فكلمة أنا أي جاهل لا يعرف الله، وربنا عزّ وجل حكمته عجيبة يجعل إنساناً عليلاً ثلاثين سنة على الفراش، وإنساناً يموت مثل الحصان بلا سبب، فحالات كثيرة جداً يقول لك: سكتة قلبيّة، أو سكتة

دماغيَّة ولم يكن فيه شيء، وهو يسوق سيارته، ويشتغل، وهو قاعد سهران مال برأسه فإذا هو قد مات..

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (31))

(سورة الشورى)

الموت و الحساب نهاية كل إنسان:

نحن جميعاً في قبضة الله فكيف نعصيه ؟ وكيف ننسى ساعة اللقاء وساعة المغادرة ؟ وكل يوم فيه خمسون أو ستون نعوة، وفيه خمسون مثلهم بغير نعوات، إعلان بالمآذن، فخمسون شخصاً غادروا من مدينتنا إلى غير رجعة، فماذا بعد الموت ؟

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (31))

(سورة الشورى)

أغنياء يموتون، وفقراء يموتون، وأقوياء، وضعفاء، وجبابرة، ومستضعفون، وأذكياء، وأغبياء، وكل إنسان يموت، وكل مخلوقٍ يموت..

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (31))

(سورة الشورى)

فالله عزّ وجل قادر أن ينهي الحياة، وقادر أن يجعل الحياة جحيماً لا يُطاق..

(وَمَا وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(31))

(سورة الشورى)

فالولي هو الذي يوليكم، والنصير هو الذي ينصُركم، من دون الله لا ولي ولا نصير، فالله هو الولي والله هو النصير.

من أصابته مصيبة فليبحث عن السبب و ليتوب إلى الخالق لتنزاح عنه:

إخواننا الكرام تطبيقاً لهذه الآية: إذا أصابت الإنسان مصيبة من كل أنواع المصائب ؛ أدبيَّة، أو معنويَّة، أو ماديَّة، أو جسميَّة، أو في أسرته، أو في بيته، أو في عمله، أو أي نوع من أنواع المصائب إذا أصابته (لا سمح الله ولا قدّر) فالموقف الأخلاقي العلمي الدقيق أن يحاسب نفسه حساباً عسيراً، فإذا عرف السبب بطل العجب.

فكل أخ كريم (لا سمح الله ولا قدّر) أزعجته قضيَّة فيقول: يا أخي في الدنيا حلو وحامض ولفّان (كأنواع الرُمّان) وهذا كلام العوام، فالدهر يومان يومٌ لك ويومٌ عليك، وهذا كلام عوام أيضاً، فالقدر

سخر منه، وهذا كلام فلاسفة بعيدين عن الله عزّ وجل، والدنيا حظوظ، لا ليست حظوظاً فهذا كلام كذلك ليس له معنى، وليس له وزن في الدين إطلاقاً الوزن في الدين الإنسان إذا أصابه شيء ليقف عند هذه الآية، إله يقول لك:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (30))

(سورة الشورى)

ليبحث عن السبب فإذا وصل إليه، يتوب منه، وتزاح عنه المصيبة..

(إِنّ اللّهَ لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: من آية " 11 ")

نوع المصيبة يتوافق مع الذنب الذي أصابت الإنسان من أجله:

يوجد آية ثانية جميلة جداً:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ)

أن الله عادل، وحكيم، والله ليس له مصلحة أن يعذِّبنا، ومن يؤمن بالله، بكمالاته، وحكمته، ورحمته، وعدالته وتربيته

(يَهْدِ قَلْبَهُ)

إلى حكمة المصيبة:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

(سورة التغابن: من آية " 11 ")

وكأن ربنا عزّ وجل من حكمته أنه إذا ساق لإنسان مصيبة ينفث في روعه، أو يلهمه أن هذه من أجل كذا، أو أن نوع المصيبة يتوافق مع الذنب الذي أصابته من أجله.

فعندنا إشارتان، شخص بخل بالزكاة، وهي قصّة واقعة مع أحد الأشخاص الذين أثق بكلامهم، عليه زكاة فرضاً أحد عشر ألفاً وستمئة وخمسون ليرة، فما دفع الزكاة، واستجاب لضغط زوجته: أنها نريد ترتيب البيت، وتريد أن تدهنه. فلم يدفع الزكاة، صُدمت مركبته، فكان التجليس والقطع والدهان أحد عشر ألفاً وستمئة وخمسين ليرة بالضبط وهذه إشارة لعدم دفع الزكاة.

المؤمن الصادق يلهمه الله الحكمة من وراء المصيبة التي أصابته:

أغلب المصائب تأتي من جنس الذنب، فإذا وجد تكبُّراً تجد إهانة، وإذا وجد إسرافاً أو تقتيراً، أو إهمالاً لزوجة ابنك في البيت فيأتي إهمال لابنتك من زوجها بالمقابل، وإذا حصل إهمال للوالد يأتي إهمال

للابن، وأغلب الظن تأتي المصائب بشكل يوحي للإنسان بسببها، إما أن التوافق بين المصيبة وبين الذنب، أو أن الله عزّ وجل يلقي في روع المؤمن الصادق: أن يا عبدي هذه من أجل كذا، فانتبه. إما منام، أو إلهام، على كلٍ..

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

(سورة التغابن: من آية " 11 ")

إلى حكمتها.

كلما كبر عقل الإنسان ازداد محبة لله و خوفاً منه:

إخواننا الكرام كلّما كبر عقل الإنسان يزداد خوفه من الله، فيضبط لسانه، ويضبط سمعه، وبصره، وبيته، وعمله، فلا كذبة، ولا غش، ولا حركة، وكلّما كبر العقل يزداد الخوف، وكلّما كبر العقل تزداد المحبّة لله عزّ وجل، احفظوا هذين الحديثين أرجحكم عقلاً أشدُكم لله حباً.

((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

[الجامع الصغير: عن " ابن مسعود "]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

لا أحد يتملّق نفسه فيقول: أخي هذه ترقية، أنا لي عند الله مقام، فلولا هذه ما ارتقيت لهذا المقام. لا إذا أصيب أخوك بمصيبة فالأدب أن تقول: هذه ترقية، وإيّاك أن تتهم أخاك إذا ألمّت به مصيبة أنه مقصِّر بذنب، لا هذا من سوء أخلاق المؤمن مع إخوانه، فإذا أصابت المصيبة أخاك فأحسن الظن به وقل: هذه ترقيه إلى مستوى أعلى، أما إذا أصابت الإنسان مصيبة فلا يتملّق نفسه، ولا يرش على الموت سكّراً، ليكن مع نفسه صريحاً وجريئاً، وليبحث عن الذنب، فإذا تعامل مع الله بهذه الطريقة قطع أربعه أخماس الطريق إلى الله، وبالتعبير العامي ـ بدأ يفهم على الله ـ قال له: يا رب لقد عصيتك ولم تعاقبني. قال: **" يا عبدي لقد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذّة مناجاتي ".**

كلّما شعر الإنسان بمشكلة عليه أن يترك الحل الأرضي ويبحث عن العلّة السماويّة:

الآن هنا مصائب من نوع جديد للمؤمنين، ما فيه شيء، كل شيء على أحسن ما يرام ولكن يحجبك عنه، فالصلاة ما فيها شيء، تقرأ قرآناً ولا تشعر بشيء، وتذكر وما تحس بشيء، وبالذكر لا تذوق حلاوة، وبالتلاوة لا تجد لذة، ومعنى هذا فأنت محجوب، ولماذا أنت هكذا ؟ اعلم أن عندك مشكلة

فابحث عنها. فالإنسان إذا ارتقى يعاقب بالحَجب فقط وأموره كلها منتظمة وليس عنده مشكلة، ولكن إذا صلّى لا يشعر بطعم الصلاة، فهو محجوب، قال له: **" ألم أحرمك لذّة مناجاتي".**

فيا إخواننا الكرام هذا كلام رب العالمين، كلام الذي خلقنا والذي إليه المصير، لا أحد يتملّق نفسه، ولا أحد يغطي..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

وكلّما شعرت بمشكلة اترك الحل الأرضي وابحث عن العلّة السماويّة.

من أصابته مصيبة عليه أن يرجع إلى كتاب الله و يتعامل معها تعاملاً علمياً:

أحياناً هناك بلاد أصابها مصيبة، وهي بلاد بأكملها، فالله قال:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

ارجع إلى كتاب الله دائماً، فهذه الآية يمكن أن تكون شعاراً لكل مؤمن يضعها في بيته، ويضعها في عمله، وفي مكتبه، وفي محفظته..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

ويتعامل مع المصائب تعاملاً علمياً، فهذه لماذا ؟ شخص راكب مركبة فوقفت في الطريق، فبدأ يبكي، ارفع الغطاء وانظر ماذا يوجد ؟ بدل من أن تبكي وتنادي وتصيح افتح وانظر ما سبب وقوفها، وقوف المركبة فيها سبب، في محركها علّة، وبدل أن تعمل صخباً، وضجيجاً وصياحاً. لا لا، دعك من هذا فهذا موقف غير علمي، هذا موقف جهلي فافتح وابحث عن السبب، فإذا ظهر السبب بطل العجب، والله كريم وكلنا عباده..

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من آية " 13 ")

العلاقة الوثيقة بين الذنب و المصيبة:

هناك خطأ بكسب المال، فنقص منك مبلغ، وجاء إنسان وحمّلك غرامة كبيرة، لأنه بالكسب يوجد خطأ، فصار خلاف زوجي ومعنى هذا هناك إطلاق بصر، ومن ذلك كان أحد الأشخاص رجلاً معتبراً موظّفاً

وعنده خمس أو ست بنات متزوجات، وعنده هواية بسيطة ينزل من حي المزّة إلى طريق الصالحيَّة في أيام الصيف، مارين يمتّع نظره بالنساء فصار معه مرض، ارتخاء الجفون، فإذا أراد أن يرى إنساناً فإنه يمسك الجفن ويفتحه وينظر إليه..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (30))

(سورة الشورى)

انظر علاقة المصيبة: ارتخاء الجفون بسبب إطلاق البصر، والشقاق الزوجي من إطلاق البصر، وذهاب المال وإتلافه من كسبه، فكسب المال قد يكون حراماً، فكل إنسان ينتبه، فإذا انتبه يكون قد قطع أربعة أخماس الطريق إلى الله، وهذه الآية اجعلها شعاراً لك..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

الحياة الطيبة ثمن الاستقامة على أمر الله عز وجل:

كل مصيبة وراءها ذنب، ولكن ما كل ذنبٍ وراءه مصيبة لأن الله عفو كريم، يريحك قليلاً، ثم يبعث لك واحدة فانتبه، يريحكم فترة طويلة شهراً أو شهرين ولا يحدث لك شيئاً، إذ يكون عندك أخطاء ولكن يريحك مرّة ثانية فتأتي مشكلة ثانية، إلى أن تستقيم وجهَتك إلى الله، ويستقيم عملك تماماً فتجد الحياة أصبحت طيّبة كما قال الله عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

هذا كلام رب العالمين، فهذه الآية ليست آية خلافية، وليست آية معقّدة تحتاج إلى مفسّرين، ومعاجم لغة، أخي آراء الأشعريين كذا، لا تحتاج لأنها آية واضحة، وهي مفسّرة بنفسها، والقرآن بعض آياته متشابهة وأغلبه محكم، لا تحتاج لمفسّر..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

هذه بدون تفسير، هذه اجعلها شعاراً لك، وضعها في بيتك، وفي مكتبك، وجيبك.

من دقق في كل شيء توجه إلى الله عز وجل و نال رضاه:

كلّما شعرت بشيء غير طبيعي تذكّر الآية، ماذا فعلت ؟ ماذا حكيت ؟ أين كنت ؟ ومن أين جئت ؟ وكيف تكلّمت ؟ وكيف بعت هذه البيعة ؟ واحد من إخواننا عنده معمل ألبسة صغير، وقد جاءه شخص

درويش فقال له: بعني خمس قطع، وهو يبيع ثلاثمئة، أو خمسمئة، فعندما طلب منه خمس قطع رأى ذلك إهانة له، فقال له: ليس عندي مفرّق. قال له: لا تؤاخذني. وخرج، يقسم لي بالله ثلاثة وعشرين يوماً ما دخل لمعمله زبون، وقال لي: نشف دمي، لماذا صار معي هذا ؟ لا يوجد بيع أبداً ؟ تذكّر الذي كسر خاطره، وطلب منه خمس قطع ولم يرضَ أن يبيعه، فالآن أصبح يبيع قطعة واحدة، فالله أدّبه، ولكن عندما حرمه الله من الزبُن ثلاثة وعشرين يوماً ونشّف له دمه وألقى في روعه: أن عبدي هذه من أجل تلك، تتذكّر فلاناً الذي جاء لعندك وطلب خمس قطع بأدب وهو فقير، فلو بعتها له. وأنت رأيتها إهانة لك فحرمك الله البيع ثلاثة وعشرين يوماً، وعلى هذا فقِسْ، فما من شيء يقع إلا في حكمة منه، ولكن نحن لا نعرف، يقول لك: فلان صار معه هذا، وفلان صار معه هكذا، فلو أنت دقّقت تجد كل شيء بحساب دقيق، وهذه الطريقة تعين على التوجُّه إلى الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (12-15): تفسير الآيات 32-37 ،البحار همزة وصل لا همزة قطع بين القارات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-04-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني عشر من سورة الشورى.

الجوار في البحر كالأعلام من آيات الله الدالة على عظمته:

مع الآية الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32))

(سورة الشورى)

مرةً ثانية من تفيد التبعيض، أي ومن بعض آياته الدّالّة على عظمته الجواري في البحر كالأعلام، والجواري جمع مفردها جارية وهي التي تجري، أي السفينة، كالأعلام ؛ كالجبال، فهذه السفينة التي تمخر عباب الماء ما الذي يحملها ؟ هذا الذي كشفه بعض علماء الغرب وقال: وجدتها وجدتها. حين وضع يده في الماء، فشعر أن قوةً تدفعها إلى الأعلى، فالسائل متماسك، ومعنى متماسك أي أنه لا يقبل بسهولة أن ينغمس فيه جسم، فالإنسان لو ملأ وعاءً من الماء ووضعه في بركة ماء لشعر أن نصف وزنه قد ذهب، أو أكثر من ذلك، فأين ذهب الوزن ؟ إن قوةً في الماء تدفع نحو الأعلى، ولولا هذه القوة، لكانت البحار أداة قطع بين القارّات، بينما هي همزات وصل.

البحر ما هو إلا أداة اتصالٍ بين اليابسة:

لو أردنا أن نُعَبّد طريقاً إلى أمريكا، أو طريقاً إلى أفريقيا، أو إلى آسيا، أو إلى أوقيانوسيا، نحتاج إلى أموال لا يعلمها إلا الله، لكن البحر في الحقيقة طرقٌ معبدة، وما عليك إلا أن تصنع سفينةً وأن تتحرك أينما تشاء.

فهذا البحر بقوّة تماسك الماء، أو بقوة الدفع نحو الأعلى، له قانون يعرفه الذين درسوه، فهذا البحر بهذه الخصائص أصبح أداة اتصالٍ بين اليابسة، ولولا هذه الخاصة لكان سبباً في القطيعة التامّة بين القارات.

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(32))

(سورة الشورى)

أرقى أنواع الذكر التفكر في خلق السماوات والأرض:

إذاً الماء وحده هذا آية يدل على عظمة الله، فلو أن الإنسان فكر لأن الآيات التي بثّها الله في الكون لا تعدُّ ولا تحصى، ولكن ربنا جلّ جلاله ذكر في القرآن بعض الآيات الكونية، فالذي ينبغي أن نذكره أن الله حينما ذكر بعض هذه الآيات، إذاً هي موضوعاتٌ مثالية للتفكُّر، ولما حدثنا ربنا عزّ وجل عن الماء فقال:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22))

(سورة الحجر: من آية " 22 ")

فالمؤمن عليه أن يمشي في هذا الطريق، والإشارات القرآنية إلى الآيات الكونية هذه موضوعاتٌ للتفكر، وحبّذا لو أن كل مؤمنٍ جمع الآيات الكونية في القرآن الكريم، وجعلها عنوانات لموضوعات التفكر، فإذا أراد أن يصلي الفجر وبعد الفجر أراد أن يذكر الله، فمن أرقى أنواع الذكر التفكر في خلق السماوات والأرض، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

(سورة الزمر: من آية " 67 ")

فكيف نقدره حق قدره ؟ إذا تعرفنا إليه، وكيف نتعرف إليه ؟ من خلال خلقه.

إذاً العلماء قالوا: **أرقى عبادة على الإطلاق التفكر في خلق السماوات والأرض**، لأن هذه العبادة تضعك وجهاً لوجهٍ أمام عظمة الله عزّ وجل، وأنا أقول دائماً مئات المرات بل ألوف المرات: إن التفكر في خلق السماوات والأرض أسرع طريقٍ إلى الله، وأوسع بابٍ تدخل منه على الله (وأوسع باب وأقصر طريق) فلذلك الآن مهمتنا أن نحصي الآيات الكونية في القرآن الكريم.

وشيء جميل جداً أن تقرأ القرآن الكريم قراءة تدبر، وتأمل وبحث، ودرس، وإحصاء، وأن تُحصي الآيات الكونية، وأن تجعل منها موضوعاتٍ مثالية للتفكر.

الماء من آيات الله الدالة على عظمته:

واليوم الآية هي الماء، وهذا الماء آية من آيات الله العظمى الدالة على وجوده وحكمته، وعلمه، فالماء؛ هو سائل لا لون له، تصور لو أن للماء لوناً. ولا طعم له، تصور لو أن للماء طعماً، ولو كان طعماً طيّباً فكل أنواع الطبخ فيها ماء، وكل أنواع الشراب فيها ماء، ولو أن للماء طعماً لخرجت من جلدك بسبب هذا الطعم، ولو أن للماء لوناً لا تحتمل ذلك، فلا لون له ولا طعم له ولا رائحة.

ولو أن الماء أيها الأخوة يتبخّر بدرجة مئة، أي لو أن الإنسان غسل بيته لبقي الماء في أرض البيت أشهراً طويلة، فغير معقول أن تصل الحرارة لدرجة مئة في البيت، وهذا مستحيل، لكن الماء يتبخر بدرجة أربع عشرة، ويغلي بدرجة مئة، ويحافظ على هذه الدرجة. بينما الزيت تصل حرارة الزيت إلى درجات عاليةٍ جداً، ولذلك فالإنسان إذا طبخ بالماء يطمئن، ولو بقيت على الموقد ساعاتٍ طويلة، فالماء عند الغليان تثبت حرارته. والنفوذ نفوذ الماء شيء عجيب، ينفذ من أدق المسامات ومهما كان المسام ضيقاً ينفذ منه الماء، ومستوى سيولته لو أنه لزج لا يحتمل، ولو أنه كالقطر في لزوجته فكيف تغسل الأواني ؟ فتصور أنه لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، يتبخر بدرجة أربع عشرة، وهو سريع النفوذ في المسام الدقيقة.

خواص الماء:

هذا الماء إذا أراد أن يتوسّع، وأن يتمدد، فليس في الأرض كلها قوةٌ تقف أمام توسعه، فلو جئت بأرقى أنواع المعادن، بسبائك، بخلائط معادن قاسية جداً، وأدخلت فيها ماءً وتجمد الماء، لانشطر المعدن شطرين، واليوم أحدث وسيلة لاقتلاع الرخام من مناجمه أن تحفر أنبوباً وأن تملأه ماءً وأن تبرد الماء، من أربع جهات تجد هذا الصخر قد نزع من مكمنه.

فالماء إذا تمدد، لا قوة في الكون تقف أمامه، وإذا أردت أن تضغطه لا تستطيع.

وقد سمعت من أحد الإخوان الكرام عن تجربة أجروها، فضغطوا بمكبس وزنه ثمانمئة طن على متر مكعب من الماء، فهذا الوزن البالغ ثمانمئة طن ما تمكنت أن تضغط الماء ولا ميلي، لأنه لا يضغط. وإذا تمدد لا شيء يقف أمامه، فهو كثير النفوذ، يتبخر في درجة أربع عشرة ولا لون له، ولا طعم، ولا رائحة.

الماء شأنه كشأن كل العناصر يتمدد بالحرارة و ينكمش بالبرودة:

هذا الماء فيه خاصّة أيها الأخوة، يجب على الإنسان أن يعرف لولا هذه الخاصّة لما كنا جميعاً على سطح الأرض، ولما رأيت في الأرض نباتاً واحداً، ولا حيواناً واحداً، ولا إنساناً، ولولا هذه الخاصّة لانعدمت الحياة على وجه الأرض، ما هذه الخاصّة ؟ هي أن الماء شأنه كشأن كل العناصر، بالحرارة يتمدّد، وبالبرودة ينكمش.

وتفسير هذه الظاهرة تفسير دقيق، فالحرارة من خصائصها أنها تباعد بين الذرّات، والبرودة تقرّب بين الذرّات، فالجسم في الحرارة ينتقل من حالة الصلابة إلى اللزوجة ثم إلى الميوعة فإلى السيولة فإلى

التبخُّر فنظرياً أي معدن يمكن أن يصبح بخاراً، ففي الدرجات العالية جداً البازلت يصبح سائلاً، فالبراكين في الأساس سائل أسود، فما هذا السائل ؟ إنه صخر، وعند التبرُّد يعود صخراً من أقسى أنواع الصخور، فالحرارة من شأنها أن تباعد بين الذرّات، وأن تحوّل الجسم من حالة صُلبة إلى حالة سائلة، فإذا جاءت البرودة تقاربت الذرات، فانتقل الجسم من الحالة الغازيّة إلى الميوعة إلى التجمُّد. والهواء يمكن أن يصبح سائلاً، فحينما يأتون للمريض بأسطوانة أوكسجين، إذا حملت هذه الأسطوانة تحس أن بها سائلاً، فالغاز بالبرودة يصبح سائلاً.

ظاهرة انكماش الماء و تمدده وراء ظاهرة الحياة على سطح الأرض:

بالمناسبة: البرودة تلتقي مع الضغط في إحداث النتيجة، والحرارة تلتقي مع رفع الضغط في إحداث النتيجة، فيمكن أن نجعل من السائل مادةً جافّةً كالحليب المجفّف، وقهوة مجفّفة، نغلي القهوة فتصير مجفّفة، إما برفع الضغط أو برفع الحرارة، ونقل العنصر من الحالة الغازيّة إلى الحالة السائلة إما بالضغط أو بالتبريد، ونحن نقول هذا تميز لخاصّةٍ خطيرة، إن الماء شأنه كشأن أي عنصر، إذا سخّنته يتمدّد وإذا برّدته يتقلّص(ينكمش) الماء ويمتاز بخاصّة أنك إذا برّدته ينكمش كأي عنصر، لكن عند الدرجة زائد أربعة تنعكس الآية، بدل أن ينكمش يتمدّد.

ويمكن أن تعرف فتح الشيء بتجربة بسيطة جداً، املأ قارورة ماء وأحكم إغلاقها، وضعها في غرفة التبريد في الثلاجة، وانظر بعد حين كيف أن الزجاج قد انكسر، فالماء حينما يتبرّد يتمدّد، وهذه الخاصّة هي وراء انتشار الحياة على سطح الأرض، لأن البحار إذا بردت في أيام الشتاء، أو في القطبين الشمالي والجنوبي تجمّدت، فإذا تجمّدت حسب القانون انكمشت، فزادت كثافتها فغاصت إلى الأعماق، فالطبقة الثانية تتجمّد وتزيد كثافتها وتغوص إلى الأعماق، إلى أن تصبح البحار كلّها متجمّدةً، وعندئذٍ ينعدم التبخُّر، ومع انعدام التبخُّر ينعدم المطر، ومع انعدام المطر ينعدم نمو النبات، ومع انعدام النبات ينعدم الحيوان الذي يعيش على النبات، وإذا انعدم الحيوان وانعدم النبات تبعهما الإنسان، فهذه الظاهرة (ظاهرة انكماش الماء) وتمدُّد الماء عند التبريد في الدرجة زائد أربع هي وراء ظاهرة الحياة على سطح الأرض، فربنا عزّ وجل في هذه الآية يشير إلى ظاهرة الماء..

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(32))

(سورة الشورى)

الله عز وجل لحكمة بالغة خصّ كل بلد بمحصول معين:

هذه السفينة التي تمخر عُباب الماء، الآن بعض السفن حمولتها مليون طن (كلام دقيق) مليون طن حمولة بعض السفن، وقد سمعت مرّة تسعمئة حصان قوة المحرّك لدفّة السفينة كي تحرفها يميناً أو يساراً، فهذه المدينة العائمة ما الذي يحملها ؟ وهي مصنوعة من أمتن أنواع الحديد وتحمل مليون طن..

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(32))

(سورة الشورى)

وهناك آيات كثيرة، قال:

(لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة فاطر: من آية " 12 ")

فأنت تشرب شاياً، والشاي يأتي من سيلان، وليس عندنا شاي فتجد أنه بهذه البحار وتلك السفن تنتقل الحاجات، والأغذية، والمحاصيل، والقمح، والمصنوعات من بلدٍ إلى بلد، ومن قارةٍ إلى قارة، ولو أننا حاصرنا بلداً حصاراً اقتصادياً فإنه ترتفع فيها الأسعار إلى درجة جنونيّة إذاً ما معنى الحصار الاقتصادي ؟ أي منعنا السفن أن تصل إلى هذا البلد محمّلةً بالبضائع التي يحتاجها الناس، وربنا عزّ وجل لحكمةٍ أرادها جعل كل بلد يختص بشيء، فهذا البلد يزرع الرُز، وهذا عنده محصول قطن، وهذا بن، وهذا سكّر، فخصّ كل بلد بمحصول تمتاز به، وجعل العلاقات بين الشعوب هو الذي أرادها الله سبحانه وتعالى.

البحار همزة وصلٍ لا همزة قطع بين القارات:

إذاً هذه البحار أصبحت بهذه الخاصّة لأنها تحمل السفن، فأصبحت همزة وصلٍ لا همزة قطعٍ بين القارات..

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(32)إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ(33))

(سورة الشورى)

والآيات نزلت يوم كانت السفن شراعيّة، ونحن عندنا قاعدة عندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من آية " 8 ")

إذا ركب الإنسان الآن طائرة حديثة جداً مثلاً **(كونكورد)** أو ركب قطاراً سرعته ثلاثمئة وخمسون كيلو متراً في الساعة، أو ركب حوّامة تحوم فوق الماء، أو مركبة حديثة جداً فقد يتساءل: أين..

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

فالله عزّ وجل هو الذي أنزل هذا القرآن، قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

لأن هذا كلام خالق الكون، وهو علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون.

كلام الله عزّ وجل يغطي الماضي والمستقبل معاً:

إذاً قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

فإذا قرأت هذه الآية قلت:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من آية " 8 ")

ولو وقفت هنا تقول: فأين الطائرة ؟ وأين القطار السريع ؟ وأين هذه المركبات الفارهة ؟ قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

فهذه الآية غطّت المستقبل، فهذا ليس كلام بشر، ولو أنه كلام بشر لما رأى إلا خيلاً، وبغالاً، وحميراً، فإذا وقف عند هذه الكلمة وقرأ هذا الكتاب أناسٌ بعد ألف عامٍ، أو ألفي عام، وركبوا الطائرات، وركبوا القطارات، وركبوا السفن العملاقة وكأنها مدن تتحرّك فوق سطح الماء يقولون: هذا ليس كلام الله عزّ وجل. لكن كلام الله عزّ وجل يغطي الماضي والمستقبل، قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

الريح هي القوّة الدافعة للسفن عن طريق الأشرعة:

كذلك:

(إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ (33))

(سورة الشورى)

فالمقصود بالريح هنا الطاقة التي تحرّك هذه السفينة، وقتها كانت الرياح لسفن شراعيّة، قال:

ما كل ما يتمنّى المرء يدركه تجري الرياح بما لا يشتهي السَفِنُ

* * *

السَفِنُ أي صاحب السفينة (أو تجري الرياح بما لا تشتهي السُفُنُ. وهذه رواية ثانية للبيت).

الطاقة التي أودعها الله في الأرض عن طريق الأشجار:

الآن يوجد طاقة بتروليّة، والله أشار إليها فقال تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(80))

(سورة يس)

فقد يعجب الإنسان، ما هذه المفارقة التي جعلت من الشجر الأخضر ناراً ؟! الشجر الأخضر لا يشتعل فهو يعس عسيساً، والله قال:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ (80))

(سورة يس)

الحقيقة إحدى نظريات البترول أنه في العصور المطيرة التي شكّلت نباتاتٍ عملاقة، فهذه النباتات بفعل الزلازل طُمِرَت تحت سطح الأرض وشكّلت حقول البترول، وكلمة أخضر إشارة إلى أن هذا النبات ما كان له أن يكون نباتاً إلا بفضل المادّة الخضراء في الأوراق، فهذا وصف سببي لأن في الورقة الخضراء معملاً (وهكذا قرأت عنها في موسوعةٍ علميّة) أن الورقة الخضراء فيها معمل تبدو أعظم المعامل التي صنعها الإنسان تافهةً أمامه، وشيء عجيب، أن ثمانية عشر معدناً مذاباً بالماء تصعد على خلاف جاذبيّة الأرض من الأسفل نحو الأعلى، عن طريق خاصّة الشعريّة، فتصل إلى الورقة فيها الآزوت تأخذه من الجو، وفيها اليخضور وفيها الفوتونات مخزّنة بها الطاقة الشمسيّة، وفيها مواد عديدة تصنع هذه الورقة بشيءٍ معجز نُسُغَاً نازلاً، وهذا النسغ النازل هو سائل، ومنه تتكوّن الجذور الجديدة، ومنه تتكوّن فروع الجذور، والجذوع ونموّها، والأغصان والأوراق والثمار، وكلها من هذا النسغ النازل.

وليس في مقدور الإنسان أن يصنع سائلاً يحقنه مرّةً فإذا هو خشب أو يحقنه مرّةً فإذا هو كاوتشوك، أو هو معدن، فهذا شيء فوق طاقة الإنسان، لكن هذا النسغ النازل يفعل هكذا. فربنا عزّ وجل جعل هذه الطاقة التي أودعها في الأرض عن طريق الأشجار..

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(80))

(سورة يس)

ً إذا أشارت هذه الآية إلى أن الريح هي القوّة الدافعة لهذه السفن عن طريق الأشرعة، فالسفن الحديثة تتحرّك عن طريق الوقود السائل الذي خلقه الله في الأرض.

الله عز وجل خالق كل شيء:

وحينما قال الله عزّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل: من آية " 8 ")

والعلماء قالوا: عُزيَت هذه الوسائل الحديثة في خلقها إلى الله، لأن الله هو الذي ألهم، وهو الذي أودع الطاقات في الأرض، وهو الذي يسّر صناعتها، ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا ركب دابّة يقول:

((سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقرنين))

[من الأذكار النوويّة]

والإنسان إذا ركب سيّارة يقول: **" اللهمّ إني أسألك خيرها وخير ما صنعت له، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما صُنِعَت له "** فأحياناً يركب الإنسان مركبة فتكون سبب دماره، أو سبب عاهة دائمة، أو شلل، أو انقطاع النخاع الشوكي في العمود الفقري فيصبح مشلولاً **" فأسألك خيرها وخير ما صنعت له، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما صُنِعَت له "..**

(إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ (33))

(سورة الشورى)

إذاً نعمة السفينة، ونعمة قوة دفع الماء، ونعمة تحريكها كله بيد الله عزّ وجل..

الإيمان صبرٌ عند البلاء وشكرٌ عند الرخاء:

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلّ صَبّارٍ شَكُورٍ(33))

(سورة الشورى)

أي للمؤمن، فالمؤمن صبّارٌ شكور..

((والإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر))

[من أحاديث الإحياء: عن " ابن منصور الديلمي "]

((الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان))

[ورد في الأثر]

فيجب أن تُعَرّف الإيمان بأنه صبرٌ وشكرٌ، صبرٌ عند البلاء وشكرٌ عند الرخاء، وصبرٌ على المصائب وشكرٌ على النعم، وهذا المؤمن في المصائب صبور، وفي الرخاء شكور، قانعاً بالذي له، ولا يبتغي ما ليس له..

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلّ صَبّارٍ شَكُورٍ(33))

(سورة الشورى)

امتحان الشكر أهون على الإنسان من امتحان الصبر:

الحقيقة امتحان الشكر أهون من امتحان الصبر، فالإنسان أحياناً ينطلق إلى الله مع النِعَم، فإذا حُجِبَت عنه النعم فقد يسقط، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمِنْ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ)

(سورة الحج: من آية " 11 ")

ولذلك فالامتحان يجب أن يكون مع الشكر ومع الصبر..

عقاب الله عز وجل لمن قصّر في عبادته و توحيده:

(أَوْ يُوبِقْهُنّ بِمَا كَسَبُوا (34))

(سورة الشورى)

ومعنى يوبقهنّ أي يهلكهنّ، أو يغرقهنّ بما كسبوا، وقصّةٌ أرويها كثيراً أن باخرةً بُنيت في عام ألفٍ وتسعمئة واثني عشر، وقيل عندما بُنيت: إن القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة، لأنها بنيت بطرائق غريبة جداً، فقد بنيت على طبقتين وبين الطبقتين حواجز كثيرة، فلو أنها خُرقَت من جانبٍ أُغلقت الأبواب الداخليّة فأصبح الخرق محصوراً، ومن شدة ثقة الذين بنوا هذه السفينة لم يصنعوا لها قوارب نجاة، لأن القدر لا يستطيع أن يغرقها، كما زعموا في نشرتها، وأبحرت أول رحلةٍ لها من بريطانيا إلى أمريكا، وقد ركب في هذه السفينة أغنياء أوروبا، وقدّر بعض العلماء أن ثمن حلي النساء التي كُنّ يتزيّن بها تصل إلى ألوف الملايين، وهي من الروعة والجمال والأناقة بشكلٍ لا يوصف.

وفي أول رحلةٍ لها اصطدمت بجبلٍ ثلجي فشطرها شطرين، وحول هذه السفينة عشرات بل مئات السفن، ولا سفينة بادرت إلى إنقاذ ركّابها لأن كل السفن ما صدّقت أنها تغرق، فلمّا أرسلت هذه السفينة إشارات استغاثة ظنوها احتفالات، فهي تحتفل، وشُطرت شطرين وغرق ركّابها، وقبل عدة أشهر فيما أذكر عثروا عليها، واسمها تيتانيك..

ما من مصيبة إلا وراءها معصية:

(أَوْ يُوبِقْهُنّ بِمَا كَسَبُوا (34))

(سورة الشورى)

وهذه الباء هي باء السبب، قال تعالى:

(فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ)

(سورة النساء: من آية " 160 ")

باء السببيَّة، الباء لها معان كثيرة وأحد معانيها السبب، مثلاً بتقصيرك عاقبتك وبتفوّقك أكرمتك، هذه باء السبب..

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ(34))

(سورة الشورى)

كما قلنا في الدرس الماضي: كل مصيبةٍ وراءها معصية، لكن ما كل معصيةٍ وراءها مصيبة، لأن الله يعفو عن كثير..

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[من الجامع الصغير: عن " ابن عساكر عن البراء "]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

من يجادل في أحقية هذه العقيدة و يشكّك بها خياره خيار وقت فقط:

(وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ(35))

(سورة الشورى)

هذا الذي يقول مثلاً: يا أخي الدين غيبيات، والناس دخلوا في عصر العلم، وهذا الدين لا يصلح لنا.

فهذا الذي يجادل في القرآن، ويجادل في أحقِيَة الدين، وفي جدوى الدين، وفي الطرح الديني، وفي التصورات الإسلاميَّة، إن الله بدأ الخلق بآدم، والإنسان في الدنيا في مرحلة إعداد لحياة أبديَّة، فهذه هي النظريَّة الإسلاميَّة، والنظرة الإسلاميَّة لحقيقة الكون والحياة والإنسان، فهذا الذي يجادل في أحقية هذه العقيدة يشكِّك بها ويأخذ عليها بعض المآخذ، ولا يجعل من الإسلام نظاماً يصلح لكل مكان وزمان، أي أن له طروحات لا يرضى بها عن الإسلام، قال:

(وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ(35))

(سورة الشورى)

خيار الإيمان ليس خيار قبول أو رفض إنما هو خيار وقت فقط:

إخواننا الكرام، الإنسان أحياناً في شبابه يكون قوياً شديداً عتيداً يتفلسف على الله عزّ وجل ويطرح طروحات وينتقد فيقول: لست مقتنعاً بهذا الأمر ولست مقتنعاً بهذا الحكم وهذا التفسير غير مقبول. ولكن

كلّما تقدّمت به السن، ورأى أنه لابدّ من أن يغادر الدنيا، وماذا بعد الموت ؟ أنا أعرف عشرات الأشخاص، بل مئات في بداية حياتهم كانوا ملحدين، فلمّا تجاوزوا الأربعين بدؤوا بالصلاة، فهذا الخيار خيار وقت.

دقِقوا في هذا الكلام أيها الأخوة: فأنت أحياناً تخيَّر خيار قبول أو رفض. أتشتري هذا البيت ؟ تقول: نعم أو لا، أتسافر إلى هذا البلد ؟ تقول: نعم أو لا، أنت حينما تتخيَّر أن تسافر أو أن تشتري فأنت أمام خيار قبول أو رفض، إلا أن خيار الإيمان ليس خيار قبول أو رفض أبداً فخيار الإيمان خيار وقت، أي إن لم تؤمن وأنت في رَيْعان الشباب لابدّ من أن تؤمن وأنت في خريف العمر، ولكن والله الذي لا إله إلا هو شتّان (والكلام لإخواننا الشباب موجّه) شتّان بين من ينشأ في طاعة الله وبين من يأتي إلى ربه وقد انحنى ظهره، وشاب شعره، وضعف بصره فهو جيّد لا بأس.

شتّان بين من ينشأ في طاعة الله وبين من يأتي إلى ربه وقد انحنى ظهره:

أي أن خيار الإنسان في الإيمان ليس خيار قبولٍ أو رفض والدليل من هو أكفر كفّار الأرض الذي قال صراحةً، وبأعلى صوته:

(أنا ربكم الأعلى)

فرعون ولكن ماذا قال حينما أدركه الغرق ؟ قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: من آية " 90 ")

ومعنى هذا أنه آمن، لكن متى آمن ؟ بعد فوات الأوان عندما مات، فلا يوجد إنسان مخيَّر بالإيمان إلا خيار وقت فقط، خيار الإنسان بالإيمان ليس خيار قبول أو رفض، لأن ربنا عزّ وجل قال يوم القيامة:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(26))

(سورة الفجر)

بطولة الإنسان أن يؤمن في ريعان شبابه:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32))

(سورة الحاقة)

خيارنا خيار وقت فقط ولكن البطولة أن تؤمن وأنت شاب في رَيْعَان الشباب، لأنك إذا آمنت وأنت شاب شكّلت حياتك تشكيلاً إسلامياً، واخترت المهنة الشريفة التي فيها نفعٌ للناس واخترت الزوجة الصالحة وربّيت أولادك التربية الإسلاميّة، فإذا تقدّمت بك السن وأنت محاط بأناس مؤمنين، وبأناس مُحبّين، وموالين وبيتك إسلامي وعملك إسلامي وزوجتك وأولادك وبناتك وأصهارك، أما إذا عاد الإنسان إلى الله في سنٍ متأخِّرة فقد ينجو بنفسه، لكن ينظر حواليه فإذا أهلٌ متفلِّتون من أمر الله عزّ وجل، وإذا حرفةٌ قد لا ترضي الله عزّ وجل، يتمزّق كل يومٍ ألف مرّة فلذلك خيارنا خيار وقت.

على كل إنسان أن يعرف ربه قبل فوات الأوان:

هناك خيار آخر، فلو أن الإنسان آمن في الحياة الدنيا فكلّما تقدّمت به السن يميل إلى الإيمان، لكن البطولة وأنت شاب، وأنت تغلي والشهوات مستعرة، والطاقة عالية، والعضلات مفتولة، في هذا السن إذا آمنت بالله عزّ وجل نفعك إيمانك نفعاً لا حدود له، لذلك:

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ)

(سورة النساء: من آية " 18 ")

هذه ليست توبة..

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام: من آية " 158 ")

فنحن مدعوون إلى أن نعرف الله قبل فوات الأوان، وفي سنٍ مبكِّرة جداً كي تُشَكِّل حياتنا تشكيلاً إسلامياً.

(وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ(35))

(سورة الشورى)

كل إنسان مصيره إلى الله عز وجل:

ما لك إلا الله عزّ وجل، يموت الإنسان ويُوضع في قبره وأنا أقول لكم أيها الأخوة: من أدق العبر أن تمشي في جنازة، وأن ترى بعينك كيف يُفتح النعش، وكيف يُحمل هذا الإنسان وقد لُفّ بالقماش الأبيض مقيّد اليدين والرجلين، وكيف يُلقى في هذا القبر، وكيف تُوضع فوقه البلاطة وكيف يُهال عليه التراب، وكيف يعود أولاده إلى البيت وقد دفنوا أباهم. ويقول الله عزّ وجل لهذا الإنسان في أول ليلة: **" عبدي رجعوا وتركوك "** وأحياناً الناس يفرحون، فواحد له عمة معها أموال طائلة، فلما توفيت لبس الأسود

وعمل نفسه حزيناً وأحد الذين عزّوه قالوا له: تهانينا. وكثير من الناس يفرحون بموت أشخاص معينين ويحزنون حزناً شكلياً قال له:عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت.

إلى الله المصير، النهاية عنده، فالبطولة أن تقيم معه علاقةً طيبةً من الآن.

الرباني من يقيم علاقةً طيبة مع الله عزّ وجل أساسها الطاعة و البذل:

من هو الربّاني ؟ قال الله:

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)

(سورة آل عمران: من آية " 79 ")

من هو الرباني ؟ هو الذي يقيم علاقةً طيبة مع الله عزّ وجل أساسها الطاعة، والبذل، والعبادة الصحيحة، والتصدق، وطلب العلم ونشره.

الله عز وجل يعلم كل من يطعن و يقلل من شأن الدين و يتكفل هو بحسابه:

(وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا (35))

(سورة الشورى)

يطعن وينتقد ويقلل من أهمية الدين..

(مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ(35))

(سورة الشورى)

كلنا إليه..

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(18)وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(19)وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20)فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ(21)لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ(22)إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ(23)فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(24)إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

هذه الآية تكفي:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

المصير إلى الله.

الآخرة خير و أبقى للإنسان من الدنيا:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

ما هذه:

(مِنْ شَيْءٍ)

لو إنسان يسكن في بيت ثمنه بضع عشرات الملايين، والله سماه شيئاً، هذا التنكير تحقير، ولو كان عنده أموال منقولة أو غير منقولة بألوف الملايين، فهو شيءٍ تنكير تحقير ولو يتمتع بكل ما في الحياة الدنيا من مباهج فهو شيء تنكير تحقير، من دون تفاصيل ولو أنه ملك الدنيا بحذافيرها ؛ المال والنساء، والبيوت، والقصور، والبساتين، والمركبات، واليخوت، والطائرات، ولو أنه يملك أكبر الشركات..

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

دققوا في عبارة:

(خَيْرٌ وَأَبْقَى)

أي أن الآخرة خير من الدنيا وأبقى خيرٌ نوعاً وأبقى زمنا ولو خيرنا إنساناً (هذا مثل أضربه دائماً) لو خيرنا إنساناً بين دراجة تتملكها دائماً وسيارة تركبها ساعة، فتختار الدراجة طبعاً، لأنها الأبقى، ولو خيرنا إنساناً بين دراجةٍ يملكها دائماً، وسيارةٍ تملكها دائماً، هل يحتاج الإنسان إلى تردد ؟ مباشرةً يختار السيارة، ولو خيرناه بين دراجةٍ يركبها ساعة، وسيارةً يتملكها دائماً، فإذا اختار الدراجة فيكون يحتاج إلى القصير (مشفى المجانين) إذاً قال تعالى:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى (36))

(سورة الشورى)

وهذا الإيمان.

من عرف ربه و طبق منهجه ارتاح من عناء الدنيا:

إذا آمنت باليوم الآخرة ارتحت من عناء الدنيا **" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي ".**

إخواننا الكرام لا تنحل مشاكلنا كلها إلا إذا نقلنا أهدافنا إلى الدار الآخرة، ترضى من الدنيا باليسير، فماذا تحتاج من الدنيا ؟ لقمةً تقيم بها صلبك، وغرفة تؤويك، وثوباً يستر عورتك. مرة قلت لكم سابقاً ملك كبير سأل وزيره قال له: من الملك ؟ فالوزير خاف ما هذا السؤال ؟ قال له: أنت. قال له: لا، الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيتٌ يؤويه وزوجة ترضيه ورزقٌ يكفيه، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في إذلاله لا يعرفنا ولا نعرفه.

وكذلك المؤمن إذا عرف ربه وطبق المنهج، له غرفة يسكن فيها وقميص يرتديه ووجبة طعام يأكلها، وعنده زوجة وله دخل يكفيه بصعوبة فيمشي الحال، فهو ملك الدنيا بحذافيرها، مالي وللدنيا إذا لم ينقل الإنسان أهدافه إلى الآخرة، فالدنيا تغر وتضر وتمر، متعبة، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه..

(وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي: عن " سهل بن سعد "]

نيل الدنيا ليس مقياساً للتفاضل بين الناس:

أبى الله عزّ وجل أن يجعل الدنيا مكافأةً لأوليائه، وأن يجعل الحرمان منها عقاباً لأعدائه، قد يعطيها أعداءه، يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، أعطاها سيدنا سليمان..

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)

(سورة ص: من آية " 35 ")

وأعطاها فرعون، أعطاها سيدنا عبد الرحمن بن عوف، وأعطاها قارون، فإذا كانت الدنيا تعطى لأعدائه ولأوليائه إذاً ليست مقياساً إطلاقاً.

على كل إنسان أن يجعل بينه و بين المعصية هامش أمان:

إذاً:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36)وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

ومن صفات المؤمن أنه يجتنب، ومعنى يجتنب أي أنه يترك هامشاً بينه وبين المعصية وهذا معنى قوله تعالى في الحديث عن الخمر:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

أي دع بينك وبينه هامشاً ولذلك فالنبي قال:

((إن الله لعن الخمر ولعن شاربها ولعن عاصرها ولعن مؤديها ولعن مديرها ولعن ساقيها ولعن حاملها ولعن آكل ثمنها ولعن بائعها))

(من كنز العمال: عن " ابن عمر ")

وكل شيء متعلق بالخمر محرم، وهذا معنى فاجتنبوه، فالاجتناب أبلغ من التحريم وأبلغ بكثير، والدليل:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: من آية " 187 ")

وفي آية:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا)

(سورة البقرة: من آية " 229 ")

فلا تقربوها اجعل بينك وبين المعصية هامش أمانٍ.

كل معصية لها قوة جذب فيكون الأمر بالاجتناب:

قال:

(وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى)

(سورة الإسراء الآية: 32)

(وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

(سورة الإسراء: من آية " 324")

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: من آية " 187 ")

هذا معنى الاجتناب، أن تدع بينك وبين المعصية هامشَ آمان. وأوضح مثل لو أن تياراً كهربائياً شدته ثمانية آلاف فولط، فالمسؤولون عن الكهرباء هل يضعون الإعلان على الشكل التالي أم على شكلٍ آخر: يمنع مس التيار، أم الاقتراب منه. التيار ثمانية آلاف فولط يجذب الشخص من بعد ثمانية أمتار، فيجعله فحمة، فالإعلان ليس ممنوعاً مس التيار أو ممنوعاً الاقتراب منه، ويوجد معاص لها قوة جذب وكل

معصية لها قوة جذب جاء الأمر باجتنابها لا بتركها والأمر باجتنابها، لأن فيها قوة جذب، منها الزنى قال:

(وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى)

(سورة الإسراء الآية: 32)

والنظر طريق للزنى وصحبة الأراذل طريق له والمشي بأماكن موبوءة كذلك ومطالعة موضوعات ساقطة طريق أيضاً.

(وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى)

فغض البصر طريق للعفة والبعد عن الأماكن المشبوهة كذلك وعدم الخلوة والزواج طريق للعفة، إذاً كل معصية لها قوة جذب فيكون الأمر بالاجتناب.

على كل مؤمن أن يبتعد عن أسباب المعصية:

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ (37))

(سورة الشورى)

أي أن هؤلاء المؤمنين يهربون لا من المعصية بل من أسبابها، وهناك مثل دقيق أضربه دائماً: الشهوة تشبه صخرة في قمة جبل، فأنت مخير أن تدفعها إلى الوادي أو أن بقيها على قمة الجبل، لكنك إذا دفعتها لا تقف إلا في قعر الوادي، فإذا دفعتها قليلاً ورجوت أن تبقى في مكانٍ متوسط لا تستطيع. فأنت مخير، أن تبتعد عما يقربك من الزنى، فإذا اجترأت وجلست في جلسة مختلطة وخلوة، وصاحبت الأراذل فهذا الأمر ينتهي بك إلى الفاحشة، ولذلك فالشريف هو الذي يهرب من أسباب الخطيئة لا من الخطيئة نفسها، إذاً هذا معنى الاجتناب، فالمعصية لها قوة جذب، إذاً لابد من أن تجعل بينك وبينها هامش أمان.

الإيمان والقرآن قيّدا المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه:

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

أي أنه ملك نفسه عند الغضب، فالإنسان المؤمن يملك نفسه ولا تملكه، فالإيمان قَيْد، والقرآن قيّد المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه، والإنسان ليس دابة يفلت كما يريد، فمن يقول: لا أقدر. فمن أنت حتى لا تقدر ؟ ومعنى ذلك أنك لست إنساناً، وكل إنسان يقول: لا أقدر. فعنى ذلك أنه ليس إنساناً، فالإنسان يتميز بالسيطرة على أعضائه، وعلى جوارحه، وعلى ملكاته.

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(38))

(سورة الشورى)

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء نتابع شرح هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (13-15): تفسير الآيات 38-43
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-04-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث عشر من سورة الشورى.

الدنيا شيء عابر سريع الزوال:

مع الآية السادسة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

إلى آخر الآيات. هذه الآيات أيها الأخوة تحدِّد خصائص المؤمنين المؤمن فرد، والمؤمنون مجتمع، فمجتمع المؤمنين لهم خصائص.

وأول شيءٍ أيها الأخوة فالله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين فيقول:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

أي أن الدنيا بمجملها، بكل ما فيها من متع، وشهوات، ومباهج، وحظوظ، وأموال، ونساء، وأطعمة، وبيوت، وبساتين، مما فيها قال:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

والمتاع هو الشيء المؤقّت، شيءٌ عابر، وسريع الزوال، لا يبقى ولا يستقر.

الدنيا بكل ما فيها من متع لا تغني عن الآخرة شيئاً:

الإنسان أحياناً يشتري شيئاً يأكله في الطريق، وقد يشتري قطعة ماس ثمنها نصف مليون، فهذا الشيء الذي يأكله في دقائق وانتهى الأمر، لقد أكل هذه الشطيرة وهذه الحلوى وبقيت في فمه دقيقة، وكان استمتاعه بها ثانية واحدة إنه متاع، أي شيءٌ سريع الزوال، لا يستقر وليس له أثر يبقى.

ولكن عندما يشتري الإنسان قطعة ماس بنصف مليون ليرة، فهذه باقية ؛ فحجمها، وشكلها، وصفاؤها، وبريقها، وضوؤها باقٍ، وقد يتوارثها رجل عن رجل، وامرأة عن امرأة، وجيل عن جيل ومن باب التقريب شيءٌ عابر لا يستقر وطارئ ليس له أثر مستمر، وشيءٌ غير باقٍ، والدنيا بمجملها وبكل ما فيها من مال، ومُتَع، وبيوت، وبساتين وقصور، ومركبات، وأماكن عَلِيَّة، ومباهج فهذه كلُّها..

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

وليست فيها قيمةٌ في ذاتها، بل شيءٌ طارئ عابر والدنيا ساعة سريعة الزوال، وشيكة الانتقال، تغر وتضر وتمر وهذا معنى:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ (36))

(سورة الشورى)

قدرة الإنسان على الاستمتاع بالدنيا محدودة جداً:

إنسان أوتي مالاً عريضاً، ومن كل هذا المال، ماذا يأكل ؟ لا يستطيع أن يأكل فوق حجم معدته، وعلى كم سرير ينام ؟ إنه ينام على سرير واحد، وتكفيه غرفةٌ واحدة، فهذا المال الوفير لا يستطيع أن يستمتع به، فالقدرة على الاستمتاع بالدنيا محدودة جداً وهذا معنى..

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

وما أوتيتم من شيءٍ تنكير تحقير..

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

ولحكمةٍ أرادها الله أبى أن يجعلها مكافأةً لأوليائه، وأبى أن يجعل الحرمان منها عقاباً لأعدائه، وقد تُعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، فتعطى للمؤمن والكافر وليس في إعطائها أي دليلٍ على أن هذا الإنسان محبوبٌ عند الله، وليس في الحرمان منها أي دليل على أن هذا المحروم منها لا يحبه الله عزّ وجل، هكذا..

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى (36))

(سورة الشورى)

خيرٌ في ذاته وأبقى في أمده..

مجتمع المؤمنين يقوم على القيَم و المبادئ لا على المتع و الحاجات:

(لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

إذاً فالجماعة المؤمنة ليس همُّها الدنيا وجماعة المؤمنين ومجتمع المسلمين لا يبني مجده على الدنيا، ولا على المُتَع، ولا على الرفاهية، ولا على توفير الحاجات التي عندما يستخدمها الإنسان يشعر أنه فوق البشر، فهذه الجماعة المؤمنة أي مجتمع المؤمنين يقوم على القيَم لا على المتع، ويقوم على المبادئ لا على الحاجات، لأن الدنيا بمجملها لا تعدل عند الله جناح بعوضة.

أيعقل أن النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام الذين اختارهم له، هذا الإنسان العظيم الذي بلغ قمّة الكمال الإنساني، أيعقل أن ينام في غرفةٍ صغيرة، وأن يأكل خشن الطعام، وأن يرتدي خشن الثياب، وأن تكون حياته بسيطة ؟ **" ما لي وللدنيا".** وهؤلاء الذين جاؤوا في آخر الزمان يأكلون ألوان الطعام ويشربون ويتمتّعون بأجمل البيوت، ويركبون أجمل المركبات..

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي: عن " سهل بن سعد "]

الدنيا دار عمل و تكليف و الآخرة دار جزاء و تشريف:

للإمام عليٍّ كرّم الله وجهه قولٌ فيصلٌ في هذا الموضوع، يقول هذا الإمام الجليل: **" فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ فإذا قال أهانه فلقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا ".**

أي أنه لا يقلِّل من شأنك عند الله أنك فقير، ولا أنك من عامة الناس، ولا ممن إذا حضروا لم يُعرفوا ولا إذا غابوا لم يُفتقدوا.

ولا أنسى كلمة قالها سيدنا عمر حينما كانت غزوة نهاوند، وكان عدد المسلمين يقلُّ عن الثلاثين ألفاً، وكان عدد جيش الكُفْر يزيد عن مئة وثلاثين ألفاً، وكان من قلق هذا الخليفة العظيم على جنوده المسلمين أنه أمضى وقتاً طويلاً يمشي في أسواق المدينة دون أن يجرؤ أحدٌ على أن يكلِّمه من شدة قلقه، ثمّ جاء رسولٌ من معركة نهاوند، وسأله عمر رضي الله عنه عن واقع المسلمين فقال: **" مات فلان وفلان واستشهد فلان وفلان وفلان ".** وذكر له أسماء الذين يعرفهم قال: **"ومن أيضاً ؟ "** قال: **" وهناك أناس لا تعرفهم بالاسم قد استشهدوا ".** فما كان من هذا الخليفة الراشد إلا أن قال قولاً: **"وما ضرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم ".**

فلذلك أيها الأخوة مجتمع المؤمنين لا يقوم على الدنيا ؛ ولا على المال، والترف، والمتع، لا، إنه يقوم على المبادئ، وعلى أن الدنيا دار عمل وأن الآخرة دار جزاء، والدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، وأن هذه الحياة هي حياةٌ دنيا، وأحياناً ننسى معنى الكلمة، حياةٌ دنيا وأن الإنسان مخلوقٌ لحياةٍ عُليا..

((إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد))

[من الجامع الصغير: عن " سهل بن سعد "]

خصائص المؤمنين:

لذلك نحن الآن مع آيات تصف خصائص المؤمنين، فمجتمع مؤمن ما خصائصه ؟ يقول لك: مجتمع الكفاية والعدل أو مجتمع القانون لا المحسوبيات ومجتمع تكافؤ الفرص مثلاً، والعدل وهذه كلمات حديثة، والآن إذا عُدنا إلى كتاب الله فما الأوصاف التي وصف بها جماعة المؤمنين ؟ مجتمع مؤمن، أليس لهذا المجتمع خصائص تميّزه عن بقية المجتمعات ؟ الآن مجتمع المؤمنين مجتمع فيه صدق، ووفاء، وأمانة، وإخلاص، وليس فيه غش، ولا حسد، ولا غيبة، ولا نميمة، بل فيه تعاون، وتكاتف، وحُب، وإخلاص، وتناصح، وتلاقٍ، وتزاور، ومؤاثرة.

ومجتمع الكفّار مجتمع فيه تباعد، وتباغض، وحسد، وتآمر، واحتيال، وكراهية، وحقد، فنحن الآن أمام آياتٍ تصف مجتمع المؤمنين وهذا المجتمع أساسه يقوم على المبادئ لا على المادّة، ويقوم على القيم لا على الحاجات.

تفوق الفاسق لا يرفعه عند الله عز وجل:

لذلك يقول الله عزّ وجل:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ (36))

(سورة الشورى)

هذا ينقلنا إلى أن الأجانب حينما تفوّقوا في الدنيا فهذا لا يرفعهم عند الله عزّ وجل:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(24)وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ)

(سورة يونس)

متاع الحياة الدنيا قاسم مشترك بين كل الناس:

(وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ (36))

(سورة الشورى)

في ذاته..

(وَأَبْقَى (36))

(سورة الشورى)

أمداً، لكن هذا ليس لكل الناس، متاع الدنيا لكل الناس، والدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل. فمتاع الحياة الدنيا للكفّار وللمؤمنين، فالكافر يأكل والمؤمن يأكل،والكافر يسكن في بيت مريح والمؤمن يسكن في بيت مريح، والكافر يتزوّج والمؤمن يتزوّج والكافر يُنجب والمؤمن ينجب والكافر يستمتع بالشمس الساطعة والمؤمن كذلك، فمتاع الحياة الدنيا قاسم مشترك بين كل الناس..

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

المؤمن له عطاء خاص يتميز به عن بقية الناس:

لكن الآخرة خالصةٌ للمؤمنين ولذلك قالوا: إن الله يعطي الصحّة (تجد أحياناً شخصاً ملحداً قوي البنية) وإن الله يعطي الصحّة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، فالمؤمن له عطاءٌ خاص يتميّز به عن بقية الناس..

(وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

فإذا لم تتوكّل على الله فعلى من تتوكّل ؟

من توكل على الله تكفل الله عز وجل بالدفاع عنه:

مجتمع المؤمنين مجتمع أولاً يطيع الله عزّ وجل، يقيم فيما بينه منهج الله، ومن لوازم هذا المجتمع أنه إذا جاءت قوةٌ طاغية يبذل المؤمن ما في وسعه لكنّه في النهاية يتوكّل على الله، والله سبحانه وتعالى أخبره أنه يدافع عنه:

(إِنَّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج الآية: 38)

(إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 160)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

هكذا..

(وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا (55))

(سورة النور)

إذاً التوكّل على الله من صفات الجماعة المؤمنة، ومن صفات الفرد المؤمن.

على كل مؤمن أن يعدّ ما استطاع من قوة و على الله الباقي:

لو فرضنا جماعة مؤمنة إمكاناتها محدودة، وعلى أبوابها عدوٌ شرس، فماذا تفعل ؟ تطبّق قوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال)

والفارق بين القوة المُتاحة والقوّة الكافية يتولاّها الله عزّ وجل، فهناك فارق بينهما، وهذا الكلام يدعو للتفاؤل، وهناك من المسلمين من يدعو إلى اليأس يقول لك: يا أخي هناك مسافة حضاريّة كبيرة بيننا، فلو عشنا ألف عامٍ آخر لا نستطيع أن نلحق بهم، وهذا كلام غير مقبول لأن الله عزّ وجل قال:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141))

(سورة النساء)

فأنت عليك أن تأخذ بكل قوّةٍ متاحةٍ بين يديك وعلى الله الباقي..

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: 123)

المجتمع المؤمن مركز الثقل فيه في الآخرة بعكس المجتمع الفاسق:

إذاً الآية الأولى تبيّن مركز الثقل في الآخرة، فالمجتمع المؤمن مركز الثقل فيه في الآخرة لا في الدنيا، لكن أهل الدنيا كل إمكاناتهم، وكل مكتسباتهم، وكل إنجازاتهم في الدنيا ؛ بناء بنوه وجسر عمّروه وبيوت أنشؤوها ولكن مجتمعاً متفسّداً منحلاً أخلاقياً، فيه تحاسد وفيه تباغض، وتدابر، وتطاحن، وحقد، إنه مجتمع متفتّت ولو كان المظهر جميلاً.

والآن من ذهب إلى بلدٍ غربي يأخذه العجب من شوارعهم العريضة، وحدائقهم الغنّاء، وأبنيتهم الشاهقة، والمواصلات، وأماكن البيع والشراء، لكن لو دخلت إلى بيوتهم فمرض الإيدز يفتك بهم، والانحراف الأخلاقي لا حدود له، وزنى المحارم مُتَفَشٍ بشكل مذهل، وثلاثون بالمئة من حالات الزنى زنى محارم، بين الابن وأمه، والأم وابنها، والأخ وأخيه، والأب وابنته، فهذا المجتمع منحل، ولذلك فمجتمع المؤمنين يقوم على القيَم ولا يقوم على المظاهر الماديّة، فالمظاهر الماديّة مقبولة وليس فيها نقص، أما أن نكتفي بالمظاهر الماديّة فلا يجوز هذا، وهؤلاء هم المؤمنون قال:

(وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

خصائص المؤمنين الجماعية:

من هم المؤمنون ؟ وما خصائصهم ؟ الآن خصائصهم الجماعيّة قال:

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ (37))

(سورة الشورى)

ماذا يفهم من هذه الكلمة ؟ يفهم منها أن الإنسان إذا اجتنب كبائر الإثم فيما بينه وبين الله، والفواحش فيما بين العبد وبين بقية الناس، إذا اجتنب الكبائر فالله سبحانه وتعالى غفورٌ رحيم، أي يتجاوز عن الصغائر، والصغيرة هي العمل الذي تهمُّ به ولا تعمله، من بعض تفسيراتها والصغيرة هي الذنب الذي لا تصرُ عليه، وسريعاً تندم على فعله وسريعاً ما تستغفر الله عزّ وجل، أو حينما تحدِّثك نفسك بمعصيةٍ ولا تفعلها فهذه صغيرة، فما كان في نفس الإنسان من وساوس ومن خطرات ومن رغبة في معصية معيَّنة ولا يفعلها فهذه صغيرة يعفو الله عنها، بدرت منك غلطةٌ لا تقصدها فسرعان ما استغفرت الله عليها، أو أعلنت توبتك منها، أو ندمت عليها فهذه صغيرة ولكن لو أنك أصررت على أدق المعاصي فتغدو كبيرة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار))

[من الجامع الصغير: عن " ابن عباس "]

قبول الله عز وجل التوبة عن عباده:

على كلٍ فالآية توحي بشيء، أي أن الله عزّ وجل غفور رحيم ويقبل التوبة عن عباده، فإذا قال العبد: يا رب، قال الله: لبيك يا عبدي..

((إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها))

[الجامع الصغير: عن " أبي موسى "]

((ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له ؟))

[من أحاديث الإحياء عن " أبي هريرة "]

إذاً..

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ (37))

(سورة الشورى)

تعني أن الله سبحانه وتعالى يغفر الزلاّت، والصغائر، والذنب الذي لا تُصِرُّ عليه، والذنب الذي تندم على فعله، والذي تستغفر الله منه والذي لا تقصده، والخطأ والذنب الذي تحدّثك نفسك به دون أن تفعله، فهذه كلُّها صغائر، وربنا عزّ وجل رفع عن أمة النبي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه..

على كل إنسان أن يتجاوز عن أخيه إذا غضب لأن الله عفو رحيم:

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

وقد يسأل سائل: ما العلاقة بين الآيتين ؟ إنها علاقةٌ متينة، أي أيها المؤمن كما أن الله سبحانه وتعالى تجاوز عنك في الصغائر، فأنت إذا غضبت تجاوز عن أخيك المؤمن، كما أن الله عاملك بالمغفرة والعفو والحلم فأنت خليفته في الأرض، فإذا وقع تحت يدك إنسان وقد أذنب لا تكن قاسياً، ولا حاقداً، ولا منتقماً..

(وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

هذا هو المؤمن، فالمؤمن يُسترضى ويعفو، فأُناسٌ كثيرون أمر النبي بقتلهم لأنهم أساؤوا خلال عشرين عاماً لهذا الدين، ولأصحاب رسول الله وقتّلوا منهم، وهجوا الإسلام والمسلمين، وفعلوا كل ما يؤذي الله ورسوله، فلمّا فتح النبي مكّة عفا عن كل أهل مكّة وقال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

إلا بعض النَفَر الذين بلغت إساءتهم حداً لا يعقل، فهؤلاء حياتهم كلُّها شر فالنبي أهدر دمهم، ويكفي أن تأتي امرأة أحدهم إلى النبي وتقول له: **" يا رسول الله أنا زوجة فلان أمِّنه أمنك الله "** فيعفو عنه. فتقول له: **" أريد علامةً على ذلك "**، فيعطيها عمامته الشريفة. أصحابٌ كرام.

من علامات المؤمن:

1 ـ لا يوجد عنده حقد أبداً:

عمير بن وهب قال لصفوان بن أميَّة: **" لولا هؤلاء الأولاد الذين أخشى عليهم العَنَت، ولولا ديون ركبتني لذهبت إلى محمّدٍ وقتلته وأرحتكم منه "**، فهذا قول عمير بن وهب لصفوان بن أميَّة زعيم الشِرك في مكّة فصفوان انتهزها فقال له: **"يا عمير أولادك هم أولادي ما امتدّ بهم العمر، وديونك علي بلغت ما بلغت، فامض لما أردت".**

فسقى سيفه سُماً وعلّقه على كتفه، وركب ناقته وتوجّه إلى المدينة ليقتل محمّداً عليه الصلاة والسلام، فرآه سيدنا عمر فقال:**"هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً".** ساقه للنبي، وكَتَفَ بحمّالة سيفه وجرى حوار لطيف قال له النبي عليه الصلاة والسلام: **"ما الذي جاء بك يا عمير؟"** قال: **" لأفدي أخي أو ابني ".** قال: **" وهذا السيف الذي على عاتقك؟ "** قال: **" قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر ؟ "** قال له: **" ألم تقل لصفوان لولا ديون ركبتني وأطفال أخاف عليهم العنت لذهبت وقتلت محمّداً وأرحتكم منه ؟"** وقف وقال: **" أشهد أنك رسول الله لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله وأنت رسوله".** وأسلم.

ويقول سيدنا عمر: **" دخل عمير على رسول الله والخنزير أحبّ إليّ منه وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أولادي".** فما في الإسلام عداوة دائمة أبداً، المسلم لا يكره الإنسان الكافر بل يكره كفره فقط ويكره انحرافه، أما كإنسان يحبّه ولذلك الإنسان إذا رجع إلى الله أصبح أخاك وانتهى الأمر، وعلامة المؤمن لا يوجد عنده حقد أبداً وأعدى أعداء المسلمين لو أنه اصطلح مع الله يجب أن تحبّه من أعماق أعماقك..

2 ـ يغفر إذا غضب:

(وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

فالله عزّ وجل قال: كما أنني أعفو عنكم وأسامحكم وأتجاوز عن خطاياكم وأغفر لكم، فأنتم إذا غضبتم اغفروا..

(وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

فهذا المنتقم إيمانه ضعيف، والله عزّ وجل وصف أهل الكفر بأنهم إذا بطشوا بطشوا جبّارين، لا يرحمون. وسيدنا رسول الله في الطائف لا يوجد إساءة وجّهت إليه أبلغ من هذه الإساءة، جاءهم على قدميه مشياً(ثمانين كيلو متر على رجليه، والطُرُقات إلى الطائف طرقات وعرة جداً فحينما رصفوا طريقاً إلى الطائف قبل سنوات، جبال كأنها جُزر) فالنبي وصل إليهم ودعاهم إلى الإسلام، وبيّن لهم، وهداهم إلى سبيل الله، ما كان منهم إلا أن كذّبوه، وسخروا منه، وأغروا صبيانهم بإيذائه، قال له جبريل: **"لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين "**. قال:

((اللهمّ اهدِ قومي إنهم لا يعلمون عسى الله أن يُخرج من أصلابهم من يوحِّده))

من وصل إلى الله صَغُرَ عنده كل شيء:

إذاً:

(وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

فهؤلاء المؤمنون، ليس عندهم تشفٍ وما يجري في العالم اليوم شيء والله لا يحتمل، فالإنسان رخيص جداً، شيء بسيط يقول لك: عشرة آلاف قتيل بيومين قتلوا في إفريقيا. فالقتل على قدمٍ وساق، وهذه من قسوة الإنسان، ومن بُعده عن الله عزّ وجل. **" ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ "**. قالوا: **" أخٌ كريم وابن أخٍ كريم "**. قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

وسيدنا يوسف ماذا فعل به إخوته ؟ وضعوه في غيابة الجب ليموت، عندما دخلوا عليه قال:

(لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ)

(سورة يوسف: من آية " 92 ")

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ)

(سورة يوسف: من آية " 100 ")

لم يذكر الجُب لئلا يحرجهم، ولئلا يذكّرهم بجريمتهم، ويخذلهم ولم يقل: وأنتم مخطئون، قال:

(مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)

(سورة يوسف: من آية " 100 ")

فالمؤمن عنده عفو، ورحمة، وصدره واسع جداً، فهو حينما وصل إلى الله صَغُرَ عنده كل شيء، فمن هذا الذي تهجّم عليه ؟ هو إنسان جاهل اعفُ عنه وانتهى الأمر..

الإنسان في الدنيا يتعامل تعاملاً واقعياً مع الحياة:

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37)وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ((38)

(سورة الشورى)

كنت اليوم في حفل فألقيت كلمة ذكرت فيها مثلاً جديداً أنه: لو إنسان يحمل دكتوراه لكن بلا عمل، ثم قرأ في الصحيفة إعلاناً عن شاغر في الجامعة فالمؤهِّل هي الشهادة التي يحملها، والأوراق الثبوتيَّة كلها يمكن أن يأتي بها، وهو بلا عمل وينتظر عملاً بفارغ الصبر، وقد قرأ الإعلان في الصحيفة، وشهادته مناسبة، وسِنه، وجنسيَّته، وأوضاعه كلها مناسبة، والمعاش كبير جداً، والمنصب رفيع. يا ترى إذا قرأ الإعلان عصر يوم السبت فصباح الأحد ماذا يفعل ؟ إلى أي ساعة يبقى في سريره ؟ والله يمكن ألا ينام الليل أبداً، فإذا ما أصبحت الساعة الثامنة خرج من البيت ليحصل على هذه الوثائق، ويقدِّم الطلب لينال هذا المنصب الرفيع. فالإنسان في الدنيا يتعامل تعاملاً واقعياً، والله عزّ وجل يقول:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (38))

(سورة الشورى)

على كل إنسان أن يستجيب لله و للرسول و يلزم جماعة المؤمنين:

أنت ماذا فعلت ؟ الحق واضح كالشمس، تستمع إلى الحق ناصعاً كضوء النهار، وأنت ماذا فعلت ؟ هل استجبت لله عزّ وجل ؟ وهل أجريت تعديلات في بيتك، وعملك ؟ وهل جعلت لنفسك منظومة ؛ هذه تجوز وهذه لا تجوز ؟ وحاسبت نفسك يومياً ؟ ماذا فعلت من أجل أن تصل إلى الله ؟ وهل ابتغيت إليه الوسيلة ؟ وهل تعرَّفت إليه ؟ وتعرَّفت إلى منهجه ؟ وعملت العمل الصالح الذي يُرضيه ؟ ولزمت جماعة المؤمنين ؟ وهل تلقَّيت العلم الشرعي ؟ وتعلَّمت القرآن، وعلَّمته ؟ وهل أمرت بالمعروف ؟ وماذا فعلت بزوجتك ؟ هل تركتها على انحرافها أم لزمت نصحها وتوجيهها ؟ وتركت بناتك يفعلن ما يشأن أم ربَّيتهن تربيةً صالحة ؟

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا (38))

(سورة الشورى)

مثل آخر: إنسان لا يوجد لديه بيت وهو بأشد الحاجة إلى بيت خطب فتاة ومضى على الخطبة سنتان، ولا يوجد بيت، ومعه مبلغ نصف مليون، والبيت مليون فما فوق ولو بلغه أن هناك بيتاً سعره نصف مليون ومناسب، وجاهز للبيع، وفارغ، وتسجيل رسمي، لا ينام هذه الليلة أبداً ولو أن العلاقة مع صاحب هذا البيت وهو في أقصى مكان في الأرض لذهب إليه، وهكذا طبيعة الإنسان، هل أدركت أن

الدين شيء عظيم جداً ؟ وهل انطلقت مستجيباً لله ولرسوله ؟ إذا أذّن المؤذّن فماذا تفعل ؟ يناديك هَلُمَّ إلى طاعتي، هَلُمَّ إلى الاتصال بي.

المسلم حركة يتحرّك لمعرفة الله و تطبيق أوامره:

لذلك:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (38))

(سورة الشورى)

فالإسلام حركي، والإيمان حركي فليس هناك إيمان سكوني، إيمان إنسان مضّجع في سريره، قابع في بيته، ويقول ما دخلنا، لا توجع رأسك، ليس هذا هو المسلم، المسلم حركة يتحرّك لمعرفة الله ويحضر مجلس علم وينقل ما تعلّم إلى الآخرين، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((بلغوا عني ولو آية))

[من الجامع الصغير: عن " ابن عمرو "]

يحاول أن يهدي أولاده، وزوجته، وإخوانه، وجيرانه، وزملاءه ومن حوله، ومن فوقه، ومن دونه، هكذا هو المؤمن.

العمل الصالح أساس وصول الإنسان إلى الله عز وجل:

كما قلت سابقاً: في اللحظة التي يستقر فيها الإيمان في قلب المؤمن يعبّر عن ذاته بذاته، عن طريق العمل الصالح. فليس هناك مؤمن مكتوف اليدين، فلا يوجد مؤمن سلبي، أو متقوقع، أو انهزامي، فالمؤمن متحرّك، يطلب العلم والله عزّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

(سورة المائدة: من آية " 35 ")

فأنت هدفك حِمص وتحتاج إلى وسيلة (سيارة) فإذا كنت مصرّاً على أن تصل إلى هذه المدينة فلابدّ من أن تبحث عن وسيلة تنقلك إلى حمص. فإذا أردت أن تصل إلى الله فأنت بحاجة إلى وسيلة، ومن معاني الوسيلة أن تتعرّف إليه، ومن معاني الوسيلة أن تتعرّف إلى منهجه، وأن تلزم جماعة المؤمنين..

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

(سورة الكهف: من آية " 28 ")

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(119))

(سورة التوبة)

فهذه من لوازم الوسيلة، ومن لوازمها العمل الصالح، وأن تقدِّم شيئاً، وأن تبني حياتك على العطاء لا على الأخذ، وأن تبحث عمن تعلِّمه، عمن تقدِّم له خدمةً، ومن تعينه كي يرضى الله عنك..

الاستجابة لأمر الله طريق الإنسان للاتصال بالخالق سبحانه:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (38))

(سورة الشورى)

وبعد أن استجابوا لربِّهم أصبح الطريق إلى الله سالكاً..

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ (38))

(سورة الشورى)

لن تستطيع أن تتصل بالله إلا إذا استجبت لأمره، فحينما تطبّق أمر الله عزّ وجل تشعر أن الطريق إلى الله صار سالكاً..

((ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا))

[من صحيح مسلم: عن " عبد المطلب "]

الاتصال بالله ثمنه طاعة الله..

العاقل من استشار غيره في كل عمل يُقْدِمُ عليه:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ (38))

(سورة الشورى)

فالمؤمنون ليس عندهم كبر، ولا تسلُّط، ولا استبداد بالرأي..

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

ولذلك ورد في الحديث الشريف أنه:

((ما ندم من استشار ولا خاب من استخار))

[ورد في الأثر]

فأنت حينما تستشير ماذا تفعل ؟ تستعير عقل أخيك الإنسان، لك أخ له أربعون سنة خبرات في البيع والشراء، فأنت إذا استشرته استعرت كل خبرته بلا مقابل، فالمؤمن يستشير في كل عمل يُقْدِمُ عليه ويسأل أهل الخبرة من المؤمنين.

عدم استبداد المؤمن برأيه:

في معنى أوسع من ذلك: المؤمنون ليس بينهم من يستبد برأيه. فشاءت حكمة الله أن تجري هذه الحادثة في عهد النبي، ليقف النبي عليه الصلاة والسلام الموقف الكامل من أصحابه: وحين أنزل النبي عليه الصلاة والسلام جيش المسلمين في موقعة بدر في مكانٍ ما، جاءه صحابيٌ جليل اسمه الحُباب بن المنذر (أي أن هذا الصحابي في أعلى درجات الحب، وفي أعلى درجات الأدب، والغيرة على المسلمين فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وأنا أقول: يقطر أدباً ويقطر تواضعاً) قال:

" يا رسول الله أهذا الموقع وحيٌ أوحاه الله إليك أم هو الرأي والمشورة ؟ " قال عليه الصلاة والسلام:

((بل هو الرأي والمشورة))

قال: **" يا رسول الله ليس بموقع "** ماذا فعل النبي ؟ هل غضب منه ؟ لا. وهل أبعده ؟ لا. وهل قال: اغرب عن وجهي تجرّأت علي ؟ لا أبداً بل قال له:

((الرأي والمشورة))

قال: **" يا رسول الله ليس بموقع".** لذلك أعطى النبي أمره للجيش أن يستقرّ في الموقع الذي أشار عليه الحُباب.

لماذا شاء الله أن تقع هذه الحادثة ؟ كان من الممكن أن يوحي الله لنبيّه الموقع المناسب وحياً عن طريق جبريل، لأن جبريل جاءه في آلاف المرّات بموضوعاتٍ أقل من هذا الموضوع، وكان من الممكن أن يلهمه المكان المناسب، لكن شاءت حكمة الله أن يكون هذا الأمر على ما كان ليقف النبي الموقف الكامل ممن نصحه، وليُعَلِّم النبي أصحابه، وأمّته من بعده، والدعاة إلى الله من بعده، والأمراء المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحةً متوادون، أي إذا جاءك إنسان مخلص ناصح فأصغ إليه، واشكره وأعطه أذناً صاغية، تفهّم نصيحته، فهذه صفات المؤمنين..

المؤمنون نصحة متوادون لا استعلاء بينهم:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

استبداد بالرأي لا يوجد، واستعلاء، وتشنُّج، وسيطرة كلها لا توجد، قال له: **" الخليفة أنت أم هو ؟ ".** قال له: **" هو إذا شاء".** انتهى الأمر..

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

سيدنا الصديق على جلال عظمته قال لسيدنا عمر:**" مدّ يدك لأبايعك ".** قال: **" أنا ؟ (غير معقول يوجد قول لا أذكره الآن لكن بمعنى) " والله لأن أقطّع إرباً إرباً أهون من أن أكون أميراً على قومٍ فيهم أبو بكر "** هل أكون أميراً ؟، قال له: **"امدد يدك لأبايعك ".** فقال سيدنا عمر: **" أنت أفضل مني "** قال له: **" بل أنت أقوى مني "** قال له: **" قوتي لك مع فضلك "** وأنا بخدمتك وهكذا المؤمنون..

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

هذه صفة جماعة المؤمنين، إذا عزّ أخوك فهُن أنت، فأنت في خدمة إخوانك، **" وما ضرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم ؟ ".** فأنت جندي تعمل في خدمة الحق، أعرفك الناس أم لم يعرفوك، أرفعك الناس أم لم يرفعوك، أنوّه الناس بفضلك أم لم ينوّهوا به، ماذا يعنيك ؟ يعنيك أنك تفعل عملاً يرضي الله عزّ وجل.

فوائد الشورى:

إذاً:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

يا إخواننا الكرام الأب يسأل أولاده أحياناً، الشورى لها مجموعة فوائد، أولاً: قد تكون غافلاً عن فكرةٍ تأتيك ممن هو أدنى منك، والإنسان دائماً إذا كان في موقع اتِّخاذ القرار، يكون عليه ضغط، فإذا سأل إنساناً بعيداً عن الضغط يعطيه رأياً صحيحاً وكل إنسان بموضع اتخاذ القرار في عليه ضغط شديد، وهذا الضغط أحياناً يبعده عن الحقيقة، فلو أن كل إنسان كان حوله جماعة مستشارين.

فسيدنا عمر بن عبد العزيز بحث عن أرقى إنسان علماً وورعاً وتُقى اسمه عمر بن مهاجر، قال له:**" يا عمر اجلس إلى جانبي وراقب أحكامي، فإذا رأيتني ضللت فأمسكني من تلابيبي وهُزّني هزّاً شديداً وقل لي: اتق الله يا عمر فإنك ستموت".**

استشر يا أخي، قبل أن تقدم على عمل استشر أولي الخبرة من المؤمنين، واستشر من هم أعقل منك ومن هم أطول منك خبرةً، وأكثر منك قرباً من الله عزّ وجل، ولا تفعل شيئاً ارتجالاً..

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

فالإنسان بأسرته يستشير، وإذا كان موظّفاً في دائرة وحولهُ موظّفون آخرون عليه أن يستشيرهم، ما قولكم سنفعل كذا ؟ قد تأتيك أفكار لم تكن تعرفها. فأولاً الشورى حقيقيّة، والشورى أيضاً تؤلِّف القلوب،

وتزيل الأحقاد، فالقلوب تتألف، والأحقاد تتلاشى، والآراء تتضافر وهذه هي الشورى، والمؤمن الصادق يستشير ؛ على مستوى أسرته وعلى مستوى عمله، وجامعه، لا يقدم، وأحياناً يسافر الإنسان ويكون السفر ليس فيه خير، فيسأل من سافر قبله وغادر..

العطاء و الإنفاق من أبرز صفات المؤمن:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(38))

(سورة الشورى)

فجماعة المؤمنين أساسها العطاء والإنفاق وأبرز صفة بالمؤمن الإنفاق، ينفق وقته، وماله، وعلمه، وخبرته. أنا مرّة استشارني أخ كريم بعمل صناعي، فقلت له: والله أنا لا أعرف مدى جدوى هذه الصنعة، استشر من تجد فيه الأهليّة. قال لي أنه ذهب إلى أحد الأسواق التي تبيع هذه السلعة، وسأل أصحاب المحلات واحداً واحداً، وأكثرهم أشار عليه أن هذه المصلحة ليس فيها نفع إطلاقاً، ولها مشكلات، فجاء إلي مرّة ثانية وقال لي: هكذا قالوا. قلت له: أعرف واحداً في هذا السوق أظنّه مؤمناً فاذهب إليه واسأله. أعطاه كلاماً آخر وقال له: مصلحة جيّدة جداً وأرباحها مجزية وموادّها الأوليّة متوافرة، ومشكلاتها قليلة. قلت: سبحان الله المؤمن نصوح !! فهذا المؤمن نصحه أما هؤلاء لضعف إيمانهم ظنوه أنهم سينافسهم فأبعدوه عن هذه المصلحة، فالمؤمن نصوح وهذا ما ورد في الحديث الشريف:

((إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض متوادون وإن بعدت ديارهم وأبدانهم، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض))

[كنز العمال]

ليس من حق المسلم أن يخنع ولا أن يذل:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

وهل جماعة مؤمنة فيها ذل، وخنوع، وضعف !! لا..

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة المنافقون: من آية " 8 ")

استعن بالله ولا تعجز..

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

فالإسلام لا يأمرك أن تدير خدّك الأيسر لمن ضربك على خدّك الأيمن، يقول لك:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

صاحب الحق له أن يأخذ حقّه أو أن يعفو:

الإسلام أيها الأخوة وسطٌ بين أن تدير خدّك الأيسر لمن ضربك على خدّك الأيمن، وبين أن تكيل له الصاع صاعين، الإسلام يقول لك:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

فالمسلم حينما يُبغى عليه ويرضى، ويخضع، و يتطامن سقطت قيمته بين الناس، فالناس يحبون العزيز القوي، فلذلك ليس من حق المسلم أن يخنع، ولا أن يذِل، ولا أن يخضع..

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

لكن إذا أراد أن ينتصر ليس له أن يبغي، ولا أن يزيد الصاع صاعين..

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا (40))

(سورة الشورى)

إخواننا الكرام صاحب الحق له أن يأخذ حقّه، وهو مخيَّر أن يعفو وأما الذي عليه الحق فيجب أن يؤدِّي الحق ولذلك قالوا: **" العدل قسْريّ والعفو والإحسان طوْعِيّ "..**

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (40))

(سورة الشورى)

من أيقن أن عفوه عن المذنب يصلحه فليعفُ عنه:

لكن دقِّقوا في هذه الآية:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (40))

(سورة الشورى)

ما معنى:

(وَأَصْلَحَ)

هنا ؟ أحياناً عفوك عن هذا المذنب يصلحه، فإذا أيقنت أنك إذا عفوت عن هذا المُذنب تأخذ بيده إلى الله وسيدنا الرسول اللهمّ صلّ عليه، أحد الصحابة واسمه حاطب بن بلتعة ارتكب في العرف الحديث

جريمة الخيانة العُظمى، والنبي عليه الصلاة والسلام يزمع فتح مكّة، فهذا الصحابي أرسل رسالة إلى أهل مكّة يخبرهم فيها أن محمّداً يريد أن يأتيكم غازياً فخذوا حذركم وهذه الرسالة في كل الأنظمة في العالم، وفي كل أطوار البشريّة تعدُّ خيانةً عظمى توجب القتل.

فالنبي عليه الصلاة والسلام جاءه الوحي: أن فلاناً قد أرسل رسالةً مع امرأةٍ اسمها فلانة، وهي في طريقها إلى مكّة، يخبرهم بأن محمداً يزمع أن يغزوكم، أرسل أحد الصحابة أو صحابيّان، وعثرا على الرسالة في شعر هذه المرأة في مكان اسمه الروضة بين مكّة والمدينة، وجيء بالرسالة وقُرئت، وجيء بحاطب، ما كان من عمر إلا أن قال: **" يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ".**

قال النبي عليه الصلاة والسلام كلمة لو دقّق الإنسان في مضمونها لذابت نفسه حباً بهذا النبي الكريم، قال له:

((يا عمر إنه شهد بدراً))

أي إن النبي عليه الصلاة والسلام لشدّة وفائه ورحمته ما أراد أن يهدِر عمل هذا الصحابي، قال:

((يا عمر إنه شهد بدراً))

قال:

((يا حاطب ما حملك على ما فعلت))

قال: **" والله يا رسول الله لا كفرت ولا ارتددت ولكن ليس لي يدٌ عند قريش ولي هناك أموال، فخشيت أن يأخذوا أموالي وأن يؤذوا أهلي، وأردت أن يكون لي عندهم هذه الصنيعة، والله ما كفرت ولا ارتددت، واغفر لي ذنبي يا رسول الله ".** فقال عليه الصلاة والسلام:

((إني صدّقت ما قاله حاطب فصدِّقوه ولا تقولوا فيه إلا خيراً))

قال كُتّاب السيرة: إن عمر بن الخطّاب نظر إلى الذنب فرآه خيانةً عظمى ولكن النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى صاحب الذنب فرآها لحظة ضعفٍ طارئة، فبدل أن يسحقه مدّ يده وأنهضه من كبوته. وهذا الصحابي الجليل قام من كبوته، وجدّد إيمانه، وتألّق في عهد النبي، وبعثه النبي بعد حين مبعوثاً شخصياً له إلى بعض الملوك، تجاوز العقبة.

عفو الإنسان عن أخيه يعطيه معونةً على أن يلتزم الحق و يستقيم:

إخواننا الكرام هذه الآية دقيقة جداً:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (40))

(سورة الشورى)

فأحياناً عفوك عن أخيك تعطيه معونةً على أن يلتزم الحق وعلى أن يستقيم. وأنا أعرف رجلاً (سمعت هذه القصّة ممن أثق به) عاش في الأربعينات في هذه البلدة، خطيب مسجد من الخطباء اللامعين رأى النبي عليه الصلاة والسلام، قال النبي له في الرؤيا: **" قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنّة ".** جاره سَمّان، فهذا الخطيب اللامع تأثّر، وطرق باب جاره وقال له: لي عندك كلامٌ قليل، دخل إلى البيت وقال له: لك عندي بشارةٌ من رسول الله، ولكنني والله لن أقولها لك إلا إذا أخبرتني بماذا فعلت.

طبعاً تمنّع أن يقول وبعد أخذٍ ورد تكلّم هذا الجار عن العمل الذي فعله واستحق به هذه البشارة من رسول الله. قال: تزوّجت امرأةً وبعد دخولي بها بخمسة أشهر وجدت بطنها يحمل مولوداً في الشهر الثامن أو التاسع، فعلمت أنها زلّت قدمها قبل أن أتزوّجها. قال له: بإمكاني أن أطلِّقها وبإمكاني أن أسحقها، وأفضحها لكن شعرت أنني إذا عفوت عنها لعلّها تتوب توبةً نصوحاً، فجاء بقابلةٍ في الليل وولّدت له امرأته، وأخذ هذا المولود تحت عباءته، ولمّا أذّن الفجر وانتظر حتى أُقيمت الصلاة ؛ ولمّا نوى الإمام الصلاة دخل إلى المسجد ووضع المولود وراء الباب، فلمّا انتهت الصلاة بكى الطفل الصغير المولود حديثاً وتحلّق حوله المصلون وجاء هو واحداً منهم وقال: ما القصّة ؟ قالوا هناك طفلٌ وراء الباب، قال: أعطوني إياه أنا أكفله. وأعاده إلى أمِّه وسترها ولم يفضحها. فقال النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الخطيب:

((قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنّة))

من عفا عن أخيه شعر بنشوة الظفر على ذاته:

أحياناً الإنسان بعفوه يشتري أخاه وينقذه وبعفوه يرفعه وينهضه، أما إذا انتقم منه فقد أعان عليه الشيطان، وإذا عفا عنه أعانه على الشيطان..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (40))

(سورة الشورى)

وسيدنا الرسول اللهمّ صلّ عليه، حاطب بن بلتعة ارتكب خيانةً عظمى، يستحقُّ عليها القتل في كل الأنظمة والقوانين، ومع ذلك قال له:

((لا يا عمر إنه شهد بدراً))

فأنت أحياناً يسيء إليك إنسان تملك أن تصلحه إذا عفوت عنه، قال:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ (40))

(سورة الشورى)

يزداد عزّاً ويزداد رفعةً، وتألّقاً، وقرباً، قال العلماء في هذه الآية:

(مَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ)

الذي يعفو يصلح نفسه، والذي يعفو يشعر بنشوة، ويحسُّ أنه انتصر على ذاته، وعلى شهوة الانتقام، فهذه شهوة، من عفا عن أخيه شعر بنشوة الظفَر على ذاته وعلى نفسه وشعر بقيمته الإنسانيَّة، ولذلك فالذي يعفو هو نفسه يصلح نفسه، والذي عفا عنه يصلحه.

بطولة المؤمن أن يعفو عمن ظلمه عند قدرته على ذلك:

إذاً:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (40))

(سورة الشورى)

الإصلاح للذي تعفو عنه، تنهضه من كبوته، والإصلاح لنفسك بمعنى أنك انتصرت على شهوة الانتقام..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ (40))

(سورة الشورى)

((ما تجرّع العبد جرعةً أعظم عند الله من غيظٍ كتمه في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

قال الله:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134))

(سورة آل عمران)

فسهل جداً إذا كنت قوياً وأساء إليك إنسان أن تبطش به وتسحقه سحقاً، ولكن البطولة أن تعفو عنه، عفو المُقتدر، فالعفو عند المقدرة.

الإسلام دين خُلُق و رحمة:

اللهمّ صلّ عليه عندما فتح مكّة (طبعاً التاريخ كلمات نقرأها أما الوقائع فصعبة كثيراً) وكفّار قريش كادوا للنبي عليه الصلاة والسلام عشرين عاماً قتلاً، وتعذيباً، واغتصاب أموال، وتشهيراً، وهجاء، ثلاثة حروب قادوها ضده، ائتمروا على قتله، وائتمروا على إخراجه، وائتمروا عليه مع اليهود، فلمّا فتح النبي مكّة بعشرة آلاف سيفٍ متوهِّجة تنتظر كلمةً من فمه الشريف.

والله أيها الأخوة كان بإمكانه أن يلغي وجود قريش كلِها، وهم عرفوا أنهم تحت رحمة كلمةٍ تخرج من فمه، قال:

((ما تظنُّون أني فاعلٌ بكم))

قالوا: " **أخٌ كريم وابن أخ كريم** ". قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

فعندما دخل مكّة فاتحاً قال كتّاب السيرة: كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزّ وجل. وأبو سفيان عندما رأى منه هذا الموقف قال له: " يا بن أخي ما أرحمك، وما أكرمك، وما أوصلك، وما أحلمك ". فهذا هو الإسلام، الإسلام كله خُلُق.

الإنسان الذي يعفو عن غيره يزداد تألقاً عند الناس و عند الله:

لذلك أيها الأخوة..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ (40))

(سورة الشورى)

فالذي يعفو عن أخيه يصلحه، ويأخذ بيده، وينهضه، ويعينه على الشيطان ؛ والذي ينتقم من أخيه يسحقه، ويفضحه، ويعين الشيطان عليه، فإذا عفوت عن أخيك أصلحت نفسك وانتصرت على شهوة الانتقام، ولذلك فالإنسان الذي يعفو يزداد تألقاً عند الناس وعند الله، وبالمناسبة فبعض العلماء قالوا: لا يكون العفو عفواً إلا عن إنسان بالغ في الإساءة إليك ثم أصبح في قبضتك، وبإمكانك أن تسحقه فعفوت عنه. أما الذي يقول: أنا عفوت عنه. وهو أقوى منك هذا كلام فارغ، ولذلك العفو عند المقدرة فقط أما إن لم تكن قادراً عليه فاصبر أو لا تصبر فهذا هو الواقع.

من أراد أن يأخذ حقه عليه أن يأخذه دون أن يزيد عليه:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40))

(سورة الشورى)

أي إذا أردت أن تأخذ حقّك يجب أن تأخذ الحق فقط دون أن تزيد عليه، أما سأكيل له الصاع صاعين. فهذه لا آية ولا حديث وهذا كلام شيطاني، فإذا أردت أن تكيل له الصاع كِل صاعاً بصاع..

(وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ (41))

(سورة الشورى)

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا (40))

(سورة الشورى)

لو أراد أحدهم أن يأخذ حقّه، قال:

(فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ(41))

(سورة الشورى)

العدل قسري أما العفو فطوعي..

(وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ(41)إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(42)وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

(سورة الشورى)

من كان إيمانه بالله قوياً وتوحيده قوياً عليه أن يؤمن بالقضاء و القدر:

آخر آية:

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

(سورة الشورى)

إخواننا الكرام، أحياناً يأتي القضاء والقدر مباشرةً من الله مثلاً: شخص وقع ابنه من الشرفة فمات، فلمن يتجه الأب ؟ وسوف يحاكم من ؟ وسينتقم ممن ؟ ويقيم دعوى على من ؟ لا يوجد أحد، ابنه وقع من الشرفة إلى الأرض فمات، ولكن حينما يُدهس سائق سيارة ولداً، فبالحالتين الابن مات ولكن مرّة مات قضاءً وقدراً ومرّة مات بفعلٍ بشري، فالإنسان عندما يكون إيمانه بالله قوياً جداً، وتوحيده قوياً جداً ولو أن الفعل المؤلم جاءه على يد إنسان فيبقى موحِّداً ويبقى مؤمناً وإن الله وحده هو الذي شاء ذلك، ولذلك فليس عنده حقدٌ دفين على هذا الذي جرى على يده هذا العمل.

من صبر على قضاء الله و قدره فأجره على الله:

الآية الكريمة:

(وَلَمَنْ صَبَرَ (43))

(سورة الشورى)

على قضاء الله وقدره..

(وَغَفَرَ (43))

(سورة الشورى)

لمن كانت هذه الإساءة على يديه، قال:

(إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

(سورة الشورى)

إن يحتاج إلى إيمان قوي وإلى توحيد قوي والآية الكريمة:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(17))

(سورة لقمان)

من عاقب المذنب أو عفا عنه عليه أن يرى أن الله وحده هو الذي سمح له أن يفعل هذا:

أما هذه الآية:

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

(سورة الشورى)

لذلك المؤمن لو جاءه مكروهٌ على يد إنسان يرى أن الله وحده هو الذي سمح له أن يفعل هذا وتبقى علاقته مع الله، ويقف من هذا الذي ساق الله على يده الشر موقفاً حكيماً، إما أن يعاقبه لمصلحته، وإما أن يعفو عنه ولكن بالحالتين ليس في قلبه حقدٌ عليه. إنسان تلقّى ضربة من العصا فهل ألمه من العصا أم من الذي ضرب ؟ بل من الضارب، فإذا صبَّ كل نقمته على العصا يكون جاهلاً، وعليه أن يتألّم ممن ضرب لا من العصا لأنها أداة، وينبغي أن تعلم أن كل البشر الذين يُخافُ منهم إنهم عصيٌّ بيد الله، والدليل:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

الإيمان الكامل أن تقف موقفاً حكيماً من دون حقد ولا إشراك بالله ممن تلقيت منه الأذى:

الإيمان الكامل حتّى لو جاءك لا سمح الله شر على يد إنسان، فهذا الإنسان لا يستطيع أن يفعل ما فعل إلا بعد أن يأذن الله، وهذا الإنسان سيحاسب ولكن شاءت حكمة الله أن يكون الأذى على يده، إذاً يجب أن تقف موقفاً حكيماً من دون حقد، ولا إشراك بالله، فمع التوحيد الكامل تقف الموقف الكامل، فإن كانت الحكمة أن تعاقبه لتردعه عن أن يعود لمثلها فلا مانع ولكن بالحالتين بدون حقد..

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

(سورة الشورى)

آيات تصف جماعة المؤمنين:

إخواننا الكرام هذه الآيات آيات تصف جماعة المؤمنين:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (14-15): تفسير الآيات 44-46 ،الدنيا ليست مقياساً للتفاضل بين الناس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-05-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة الشورى.

على الإنسان أن يعفو عمن يعتقد أنه بالعفو عنه يقربه من الله:

مع الآية الكريمة الرابعة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة... قبل أن أمضي في الحديث عن هذه الآية الكريمة، سُئلت سؤالاً في الأسبوع الماضي حول آيات الدرس السابق، والسؤال هو: يبدو أن في الآية مفارقةً بين قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (40))

(سورة الشورى)

كأن الله سبحانه وتعالى يثني على المؤمنين الذين إذا أصابهم البغي ينتصرون، ثم يقول:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40))

(سورة الشورى)

فكيف نوفِّق بين أن ينتصر المؤمن على من بغى عليه، وبين أن يعفو عنه ؟ ذكرت في الدرس الماضي جانباً من تَبْيَان المفارقة بين الجزئين، والحقيقة إذا غلب على ظنِّك أنك إذا عفوت عن إنسانٍ أساء إليك سيجعله يجترئ على ظلم الآخرين فيجب ألا تعفو عنه، ويجب أن تنتصر منه، أما إذا غلب على ظنِّك أنك إذا عفوت عنه أصلحته وقرَّبته إلى الله عزّ وجل فيجب أن تعفو عنه، وهذا هو المقياس.

من عفا عن غيره أجره على الله لا يقدر بثمن:

المؤمن لقوة التوحيد الذي ملأ كيانه ليس له حظٌ وليس له رغبةٌ في الانتقام، ولكن إذا كان الأصلح، والأكمل، والأحكم أن تنتصر من هذا الذي بغى عليك كي تردَعه عن أن يظلم إنساناً آخر، فالحكمة أن

تنتصر منه، أما إذا رأيته قد نَدِم، وكان ضعيفاً أمامك، ورأيت فيه جانباً من الخَير بحيث أنك إذا عفوت عنه تقرّبه من الله عزّ وجل، وتُنْهِضُهُ وتعينه على نفسه فالأولى أن تعفو عنه، فهذا هو المقياس..

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (40))

(سورة الشورى)

الأجر ما بيّن، قال:

(فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ (40))

(سورة الشورى)

ولو أن أحداً (من باب التقريب) قال لك: أجرك من الملك. ماذا تعني كلمة مَلِك ؟ هل سيعطيك قلم رصاص ؟ وهل ليرة واحدة سيعطيك ؟ فماذا تعني أجرك من الملك ؟ شيء لا يقدّر..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ (40))

(سورة الشورى)

على كل مسلم أن يوقع الجزاء العادل بمن بغى عليه إن كان العفو لا ينفع معه:

أنت حينما تكون قادراً على أن توقع الجزاء العادل بمن بغى عليك، لكنك رأيت أنك إذا عفوت عنه تنهضه من كبوته، وتعينه على شيطانه، وتقرّبه من ربّه ومن المسلمين، وتجعله ينضمُّ إلى المؤمنين بعفوك عنه فيجب أن تعفو عنه ولكن أين حقُّك ؟ أجرك على الله. إذا كان لك مع واحد ألف، وقال لك شخص: سامحه وخذ مني مليوناً. ألا تسامحه ؟..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ (40))

(سورة الشورى)

إذاً الذي يجمع بين طرفي الآية هو أنه إذا غلب على ظنّك أنك بعفوك عنه تقرّبه، فيجب أن تعفو عنه، أما إذا غلب على ظنّك أنك بعفوك عنه تجعله يجترئ، ويعتدي على إنسان آخر فيجب عليك أن توقفه عند حدّه.

الله تعالى منتقم إذا أساء الإنسان يوقفه عند حدّه ويحمله على الاستقامة:

لعمري إن معنى المنتقم، المنتقم اسمٌ من أسماء الله عزّ وجل، فإذا قلنا: فلان انتقم. لا نشعر أننا نثني عليه، فكأننا نَذُمُّهُ، فالله سبحانه وتعالى منتقم بمعنى إذا أساء الإنسان يوقفه عند حدّه ويحمله على الاستقامة وعلى التوبة والانتقام من الله ليس بالمعنى الذي نفهمه فيما لو نُسِبَ هذا الاسم إلى الإنسان،

الانتقام من الله عزّ وجل يعني أن الله إذا رأى عبداً طغى وبغى، واستمرأ الظلم، وتجاوز الحدود، واعتدى يعالجه معالجةً يوقفه بها عند حدِّه رحمةً به، لأن الله عزّ وجل قال:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (180))

(سورة الأعراف)

أسماؤه كلُّها حسنى، وكماله مُطْلَق، وكل ما في الكون ينطق بوجوده ووحدانيّته وكماله، فهذا التوضيح من الدرس السابق..

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40))

(سورة الشورى)

الله عز وجل خلق الإنسان ليهديه لا ليضله:

أما الدرس الذي بدأنا به..

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

إخواننا الكرام... لا يعقل أن يَخْلِقَ الله الإنسان ليهديه إليه ثمّ يضلِّه، هذا الشيء لا يتناسب مع روح القرآن، ولا يتناسب مع سرّ الوجود..

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من آية: " 119 ")

فكيف يضلُّهم ؟ ماذا نفعل بالآيات التي تعزو الإضلال إلى الله عزّ وجل ؟

الحقيقة أن الله جلّ جلاله سمّى القرآن الكريم مثاني ومعنى مثاني أي أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسِّرها.

إذا عُزي الإضلال إلى الله فهو:

1 ـ الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري:

قال تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من آية: " 5 ")

فإذا عُزيت إزاغة القلب إلى الله، قال العلماء: هذه الإزاغة الجزائيَّة المبنيَّة على زيغٍ اختياري. وإذا عُزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي الذي بني على ضلالٍ اختياري.

وأنا دائماً أوضّح هذه الآية بمثل في متناولكم جميعاً: عندما لا يداوم طالب بالجامعة، ولا يشتري كتباً، ولا يؤدي امتحاناً، لقد أعطي فرصةً ليسجّل فلم يسجّل وأُنْذِر فلم يستجب وأُعطي فرصة استثنائيَّة ليقدِّم الامتحان من خارج الجامعة فلم يقدِّم، أرسل له مندوب شخصي ليقنعه بمتابعة الدراسة فلم يستجب، اسمه داخل السجلات وعندئذٍ صدر قرارٌ بترقيم قيده من الجامعة، فهل هذا الترقيم ظلمٌ له ؟ إن هذا الترقيم تعبيرٌ عن موقف الطالب، إنه ترقيمٌ جزائيٌ مبنيٌ على اختيارٍ ذاتي من الطالب، فكلّما عُزي الإضلال إلى الله عزّ وجل، فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري ويؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من آية: " 5 ")

وهذا هو المعنى الأول الذي يمكن أن نَلْمَحَهُ من الضلال.

2 - أو هو الضلال الحُكْمِيّ:

المعنى الثاني كما قال بعض العلماء: هو الضلال الحُكْمِيّ. كيف ؟ يضربون على ذلك مثلاً يوضِّح الفكرة: فأنت في الطريق إلى بلدةٍ بعيدة، وفي منتصف الطريق رأيت فرعين رئيسين للطريق، يا ترى أحمص من أي الفرعين ؟ رأيت رجلاً يقف على المفرق فسألته: أين حمص ؟ قال لك: من هنا. فقلت له: جزاك الله خيراً. وعندما رأى منك هذا الود وهذه الاستجابة، وهذا التقدير أعطاك عشرات المعلومات الإضافيَّة قال: انتبه بعد كذا كيلو متر يوجد تحويلة، وبعد كذا كيلو متر يوجد حاجز وبعد كذا كيلو متر هناك سؤال، وهنا في الطريق مُنزلق. فأنت عندما قبلت هذا الإرشاد من هذا الإنسان أعطاك معلوماتٍ كثيفةً كثيرةً، قال تعالى:

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

جاء إنسان آخر فرأى طريقين متشابهين من دون لوحة، ورأى رجلاً يقف فقال له: من أين حمص ؟ قال له: من هنا. قال له: أنت كاذب. فهل بإمكان هذا الدليل أن يعطيك المعلومات الإضافيَّة ؟

من رفض الدين سيرفض تفاصيله أيضاً:

الإنسان عندما رفض الدين أصلاً فكل الميزات، والتفاصيل، والأحكام، والأدلّة، والقواعد، وأصول التعامل، وأصول التربية، وأصول كسب المال، وكل هذه الحقائق والقوانين حُرِم منها حكماً وأضلّه الله ورفض الإنسان أصل الدين ورفض جوهر الدين، إذاً تفاصيل الدين، وأحكام الزواج، وأحكام الطلاق، والبيع، والشراء، وطريق تربية الأولاد والسعادة في النفس. إنه رفض الأصل وكان مع رفضه الأصل رفضه للتفاصيل، إذاً هذا أيضاً إضلال، ولذلك قال الله عزّ وجل:

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللّهُ (44))

(سورة الشورى)

الحالة الثانية.

3 ـ أو أن الله تعالى يضل عن شركائه و لا يضل عن ذاته:

الحالة الثالثة دقيقة جداً، أن الله سبحانه وتعالى لا يضل عن ذاته بل يضلُّ عن شركائه، فأنت حينما تتخذ إنساناً إلهاً لا تقول: هو إله. لا لكن تعتمد عليه، وتثق به، وتطيعه في كل شيء ولو عصيت الله عزّ وجل، فحينما ترى أن هذا الإنسان ينفعك، ويرفعك، ويعطيك، ويغنيك، وأن رضاه جنّة وغضبه نار، فلو تركك ربنا عزّ وجل على ما أنت عليه لمتّ مشركاً، ماذا يفعل ؟ لا يضلِّك عن ذاته بل يضلُّك عن هذا الشريك. أي وأنت في أحوج ما تكون إليه يتخلّى عنك، وأنت في أشد الشعور بأنه قوي يريكه ضعيفاً متخاذلاً، وأنت تظنُّ أنه وفيّ يبدو لك لؤمه، فالله أضلّك ولكن ما أضلّك عن ذاته بل أضلّك عن شركائه.

الإنسان حمل الأمانة ومن لوازمها أنه مُنِح حريّة الكسب:

لو أن معلِّماً مخلصاً رأى طالباً يروّج بين زملائه أسئلةً يدّعي أنها من المدرّس، وهو كاذب بهذه الدعوى، فلو جاء المدرّس بهذه الأسئلة في الامتحان، لقوّاه ودعّمه، فماذا يجب أن يفعل المدرّس ؟ أن يأتي بأسئلةٍ لا علاقة لها إطلاقاً بهذه الأسئلة التي يروّجها هذا الطالب، كي يكشف كذبه ويجعله صغيراً، هذا معنى آخر من معاني الضلال. فالله سبحانه وتعالى يضلُّ عن شركائه.

فالمعنى الأول: هو الضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري.

والمعنى الثاني: هو الضلال الحُكْمِيّ، بمعنى أن الإنسان رفض أصل الدين فخسر تفاصيل الدين، والأحكام الدينيّة، وأساليب الحياة السعيدة.

والمعنى الثالث: هو أن الله سبحانه وتعالى يضلُّ عن شركائه، ولا يضلُّ عن ذاته.

وهذه المعاني الثلاثة تليق بأسماء الله الحسنى، مضلٌّ عن شركائه، مضلٌّ أي يحقِّق اختيار العبد، أنت جئت إلى الدنيا على أساس أنك مختار، وأن لك إرادةً، فإذا أصررت على شيء فلابدَّ من أن يُنَفَّذ وهذه طبيعة الأمانة، فالإنسان حمل الأمانة، ومن لوازمها أنه مُنِح حريَّة الكسب، فلو أصرَّ على الضلال فلابدَّ من أن يسمح الله به، ليس معنى أنه أراد أي رضي، قد يريد ولا يأمر وقد يريد ولا يرضى، أمرك بالطاعة ورضي لك الطاعة، لكنَّك إذا أصررت على المعصية سمح لك بها تنفيذاً لوعده (فالفكرة دقيقة جداً) ما أمرك بالمعصية، ولا رضي لك المعصية، لكنَّك إذا أصررت عليها سمح لك بها، لأن هذا هو التكليف، وهذه هي حرية الكَسْبِ، وهذه هي الأمانة التي حُمِّلتها.

كل إنسان خلقه الله تعالى في طور الاختيار و الابتلاء:

إذاً فرّق علماء التوحيد بين إرادته، وبين أمره، وبين رضاه، أراد ولم يأمر، وأراد ولم يرضَ..

(إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ(8))

(سورة إبراهيم)

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)

(سورة الزمر: من آية: " 7 ")

(قُلْ إِنّ اللّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ(28))

(سورة الأعراف)

لم يأمر ولم يرضَ، ولكنَّه أراد بمعنى أنه سمح. أي إذا كنت صيدلياً وتحتاج إلى موظَّف على مستوى عالٍ من العلم، فجاءك موظَّف متمرِّن وأردت أن تمتحنه، فجئت بكمية من الأدوية ووضعتها على الطاولة وقلت له: هذه الخزانة فيها مضادات حيويَّة وهذه الخزانة فيها فيتامينات وهذه فيها سموم وهذه فيها كذا، فهذه الأدوية ضعها في أمكنتها. فإذا مسك دواء الفيتامينات ووضعه مع السموم، وتحرَّك باتجاه هذه الخزانة، فأنت إذا منعته ألغيت اختياره وهو الآن في طور الامتحان، فيجب أن تسمح له بالتحرُّك الخطأ، فالآن أنت تمتحنه، فيجب أن تسمح له بذلك. فأنت في طور الاختيار والابتلاء.

كل إنسان يحاسب يوم القيامة على اختياره في الدنيا:

لمَّا يختار الإنسان المعصية ويصرُّ عليها يُسمح له بها، فهذا معنى أن الله سبحانه وتعالى أراد من هذا العبد أن يعصيه وبمعنى أنه سمح له وبمعنى أن الله سبحانه وتعالى حينما جاء به إلى الدنيا، جاء به على هذا الأساس، فما هو الأساس ؟

(كُلا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

اطلب تُعطَ..

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كلا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

كلام واضح كالشمس، بيّن، قال عليه الصلاة والسلام:

((تُركتُمْ على الواضِحَةِ، لَيلُها كَنَهَارِها))

[أخرجه الموطأ.الحديث موقوف إسناد صحيح]

من يصرّ على الضلال و يرفض الدين فالنار مثوى له:

إذاً:

(وَمَنْ يُضْلِلْ (44))

(سورة الشورى)

فعندما يصر الإنسان على الضلال، ويضلّه الله جزاء اختياره، أو عندما يرفض الدين أصلاً، ويضلّه الله ضلالاً حكمياً، أو أن الله سبحانه وتعالى يضلّه عن شركائه..

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ (44))

(سورة الشورى)

هو أرحم الراحمين وهو العليم، والرحيم، والحكيم، والقريب، والقوي، والغني، فعندما يرى الله عزّ وجل بعلمه بهذا الإنسان أنه مصرٌ على المعصية، فمن في الأرض بإمكانه أن يهديه ؟

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

الإنسان كلّما ارتقى مستواه يخاف بعقله:

أيها الأخوة... شيءٌ دقيقٌ جداً، من تعاريف العقل: أن العاقل لا يفعل شيئاً يندم عليه، وحينما تفعل شيئاً ثمّ تندم عليه فهذا ضعفٌ في عقلك فهؤلاء الظالمون..

(وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

إخواننا الكرام... الإنسان كلّما ارتقى مستواه يخاف بعقله، وكلّما هبط مستواه يخاف بعينه والإنسان العاقل يصل إلى الشيء بعقله قبل أن يصل إليه حقيقةً، ودائماً العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ويعيش المستقبل والأقل عقلاً يعيش الحاضر والغبي يعيش الماضي. فالإنسان عندما يكون قوياً ويتحرّك حركة وَفق شهواته، ثم يدفع ثمن انحرافه كبيراً عندئذٍ يندم وحالة الندم دليل ضعف العقل، فمن هو الإنسان الذي لا يندم ؟ هو العاقل والنبي عليه الصلاة والسلام فيما روي عنه أنه يقول:

((أرجحكم عقلاً أشدُكم لله حبّاً))

[ورد في الأثر]

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[من سنن الترمذي: عن " شداد بن أوس"]

العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها:

إذاً يُمتحن العقل فيما إذا فعلت فعلاً فهل تندم عليه أو لا تندم ؟ وكلّما ندمت على شيءٍ فحينما فعلته كان هناك ضعفٌ في العقل، ولذلك فهؤلاء الظالمون..

(وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ (44))

(سورة الشورى)

والإنسان أحياناً يدخّن مثلاً يقول لك: ليس في جسمي شيء فماذا حصل ؟ وهناك إنسان واحد عاش مئة وثلاث عشرة سنة وكان مدخّناً يتخذه حجّة. لكن الأطبّاء يؤكّدون أن الدخّان له آثار واضحة جداً في القلب، والرئتين، والضغط، والشرايين، والأوردة.. إلخ، ولكن متى يتخذ قراراً صارماً بالإقلاع عنه ؟ حينما يُعطب، فهل هذا دليل عقله ؟ لا فكل إنسان يخاف بحواسّه فهذا يدلُّ على ضعف عقله، وكل إنسان يخاف بعقله فهذا يدل على رجاحة عقله، فالطلاب الكُسالى متى يندمون على كسلهم ؟ في أثناء الامتحان، فهذا السؤال لم يعرفه، وهذا ما قرأه، وهذا لم يتوقّعه، ولكن الطالب النبيه من أول يوم بالعام الدراسي يتصوّر الامتحان وصورة الامتحان لا تفارقه إطلاقاً، فيتوافق أو يتكيّف مع الامتحان في أول يومٍ في العام.

المؤمن يعيش المستقبل و الملحد يعيش اللحظة:

المؤمن يعيش المستقبل، تُرى هل في حياتنا جميعاً حدث سيقع أشد واقعيّةً من الموت ؟ وهل واحد منّا يجرؤ على أن يقول: أنا لن أموت ؟ لكن هذا الموت ما هو ؟ نقلة خطيرة من كل شيء إلى لا شيء.

فكل واحد له بيت، وغرفة نوم، وغرفة طعام، ومطبخ، وحمّام، وله زوجة، وأولاد، ووجبة غذاء، ووجبة عشاء، ومسليّات، ومرقّهات، وأماكن جميلة، وهذه المقابر أمامكم، فهل هناك قبر خمس نجوم ؟ لا يوجد، كله نجمة واحدة أو نجوم الظهر، فهذا الحدث الواقعي هل يستطيع واحد أن يتلافاه ؟ إذاً كل إنسان يخاف عند الموت يكون ضعيف العقل، أما النبي قال:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[من سنن الترمذي: عن " شداد بن أوس "]

ويقولون: الأغبياء يعيشون لحظتهم، فقوي ينكب على الشهوات فيعيش لحظته ويأكل ويشرب، ويستمتع ولا يصلي ولا يفكِّر في ربّه ولا يتأدّب معه ولا يطيعه مادام قوياً، فمتى يصيح ؟ عندما يمرض.

بطولة الإنسان أن يخاف من الله و يلجأ إليه عند الرخاء لا الشدة:

أنا سمعت أن طائرة تقل أشخاصاً ملحدين، فلمّا دخلت في غيمةٍ مكهربةٍ واضطربت وكانت على وشك السقوط، ما من هؤلاء المُلحدين إلا ويقول: يا رب أنقذنا. فالإنسان عند المصيبة يلجأ إلى الله والناس جميعاً كذلك ولذلك فالبطولة وأنت في الرخاء، وأنت في النَعيم، والصحّة والقوّة، والمال، وأنت شاب في رَيْعان الشباب، تتقِد عزيمةً ومضاءً أن تخاف من الله، لذلك..

((ابن آدم اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدّة))

[ورد في الأثر]

((اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك))

[من أحاديث الإحياء: عن " ابن أبي الدنيا "]

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

فالأغبياء يتعظون بحواسِّهم، والعوام يخافون بعيونهم. أما العاقل فيخاف بالكلمة، يخاف من الوعيد فقط ويفكِّر في المستقبل.

كل ظالم يعالج بالذل و المهانة:

يقول هذا الظالم بشكل يائس: هل هناك من أمل أن أعود إلى الدنيا فأؤمن ؟ وهل هناك من أمل أن أعود إلى الدنيا فأستقيم وأصلي ؟

(هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

وفي الأعم الأغلب إن الظالم كان قوياً، وكان متكبّراً، ومستبّداً، ومسيطراً، فهذا القوي كيف يُعالج ؟ بالذل..

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ (45))

(سورة الشورى)

وليس خشوع التقوى ولا خشوع العبادة ؛ ولكن خشوع الذل والمهانة فأن يكون إنسان رئيس عصابة سرقة، مجرماً عاتياً، متكبّراً، فَظاً غليظاً وحينما يقع في قبضة العدالة تراه صغيراً، متطامناً، نظره في الأرض فأين عُنْجُهيّته ؟..

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ (45))

(سورة الشورى)

من شدّة خوفهم..

(يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ (45))

(سورة الشورى)

تُرى ماذا سيُفْعَلُ بهم ؟

المؤمنون يوم القيامة هم سادة الموقف:

أحياناً الإنسان إذا كان مجرماً وألقي القبض عليه يضطرب اضطراباً شديداً، ولا ينظر إلا بطرفٍ خفي..

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا(45))

(سورة الشورى)

لمن السيطرة في اليوم الآخر ؟ للذين آمنوا، هم سادة الموقف وأحياناً في الدنيا يكون الكفار هم سادة الموقف، فالكلام لهم والرأي لهم..

(مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى)

(سورة غافر: من آية: " 29 ")

فالحق الذي يقولون والباطل الذي لا يقولون، فالكفار هم سادة الموقف في الدنيا (أحياناً طبعاً) ولكن المؤمنين يوم القيامة هم سادة الموقف..

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

فالذي كان في الأوج تراه في الحضيض، والذي كان في الحضيض تراه في الأوج.

الحظوظ في الدنيا توزّع توزيع ابتلاء و في الآخرة توزيع جزاء:

ذكرت اليوم في الخطبة أن الحظوظ في الدنيا توزّع توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، فأنت لك حظ من المال معيّن، فقد يكون وفيراً وقد يكون قليلاً وقد يكون معدوماً، فحظُك من المال هو مادّة امتحانك مع الله، فأنت ممتحن بوفرة المال، وفلان ممتحن بقلّة المال، وهذا وسيم الطلعة ممتحن بوسامته، وآخر دميمٌ ممتحنٌ بدمامته وهناك ذكيٌ جداً ممتحنٌ بذكائه، أو محدود التفكير ممتحنٌ بمحدوديّة التفكير القوي ممتحنٌ بقوّته، والضعيف ممتحنٌ بضعفه، والصحيح ممتحنٌ بصحّته وغير صحيح ممتحنٌ بمرضه، وهذا له زوجةٌ وأولاد ممتحنٌ بأسرته، وذاك حُرِمَ إلى حين من الزوجة والأولاد فممتحنٌ بالحِرمان، فالحظوظ في الدنيا موزّعةٌ توزيع ابتلاء، فأنت ممتحن مرّتين: ممتحن بما في يديك وممتحن بما ليس في يديك، لكن هذه الحظوظ توزّع في الآخرة توزيع جزاء.

الغنى غنى العمل الصالح والفقر فقر العمل الصالح لأن الموت ينهي كل شيء:

كنت أوضّح هذا، لو أن إنسانين عاشا ثمانين عاماً بالتمام والكمال واحد كان غنياً وواحد كان فقيراً، وأن الأول رسب في الامتحان فتاهَ بماله على عباد الله، وأنفق ماله على شهواته وانحطاطه وملذّاته الرخيصة، وأن الفقير امتحن بالفقر فنجح فكان عفيفاً صابراً متجمّلاً، لم يحمله الفقر على أن يأكل مالاً حراماً، ولا عن أن يكفر بالله عزّ وجل، وماتا والموت أنهى غنى الغني وفقر الفقير.

وإذا شئتم أنهى الموت قوّة القوي وضعف الضعيف، وصحّة الصحيح ومرض المريض، ووسامة الوسيم ودمامة الدميم، وأنهى الموت كل شيء وبقي العمل، وهذان الشخصان هل سيعيشان حياةً إلى ما لانهاية، فالذي نجح في امتحان الفقر سيكون غنياً إلى الأبد، والذي رسب في امتحان الغنى سيكون فقيراً إلى الأبد، إذاً الدنيا لا عبرة لها، وهذا ما قاله سيدنا علي كرّم الله وجهه: **"الغنى والفقر بعد العرض على الله ".** فالغنى غنى العمل الصالح، والفقر فقر العمل الصالح. وعندما سقى سيدنا موسى للمرأتين قال:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(24))

(سورة القصص)

أنا مفتقر لهذا.

الموت ينهي كل شيء:

إخواننا الكرام... لو واحد عنده تجارة رابحة، يبيع في اليوم بمليون ليرة، وربحه بالمئة خمس وثلاثون، وكل يوم ثلاثمئة وخمسون ألف، ومضى عليه يومٌ لم يزدد علماً، ولم يزدد قرباً، ولم يدعُ إلى الله، ولم يصبر على ما ابتلاه الله فهو خاسر رغم الدخل الكبير، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2))

(سورة العصر)

كلام خالق الكون، لو عندك شركة متعدِّدة الجنسيّات، لها في كل العالم فروع، بعض الشركات في العالم فائضها مليار دولار وسمعت أن بعض الشركات (رقم فلكي) ربحت هذا العام ألف مليار دولار، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2))

(سورة العصر)

لأن الموت يُنهي هذه الثروة، وأنتم ترون بأعينكم أحياناً يحضر الإنسان تعزية في بيت ثمنه خمسون مليوناً، وتزييناته خمسة ملايين، وفرشه بثلاثين مليوناً، وصاحبه قاعد في مقبرة باب الصغير. فالموت ينهي كل شيء، ينهي الغنى، والفقر، وينهي المرض والصحّة.

بطولة الإنسان أن يكون على منهج الله وفي طاعة الله والإقبال عليه:

إذاً ليست هذه نعمة، هذا ما قاله الله عزّ وجل:

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

(سورة الفجر)

هو يقول:

(رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16)كَلا)

(سورة الفجر)

ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء. وانتهى الأمر وبطولتك أن تكون على منهج الله وفي طاعة الله وفي الإقبال عليه والصبر على قضائه وفي التقرُّب إليه، والدعوة إليه، وفي طلب العلم، وتعليمه، هذه بطولتك، وهذا الذي يبقى.

وأحدهم قال: إذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يفرحك، أن تأخذ أم أن تعطي ؟ فهناك إنسان عندما يقبض يَشْرَئب، وإذا كان عليه دفع يماطل ويتضايق كثيراً من الدفع فالمؤمن يسعد إذا أعطى، لأن العطاء خلود في الجنّة، فمن قدّم ماله أمامه سرّه اللحاق به.

المؤمن أكبر من أن يحزن على فقد الدنيا:

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(45))

(سورة الشورى)

فقد تخسر كل شيء وأنت الرابح، وتفقد مالك كله وبيتك وتجارتك وكل شيء وأنت الرابح الأول، وسيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبةٌ قال: **"الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني "** فالدين سليم فليس هناك مشكلة، وما خرقت الاستقامة، وما ارتكبت معصية، وما أكلت مالاً حراماً، وما تركت الصلاة، وما تركت مجلس علم، فالدنيا إن أقبلت أقبلت وإن أدبرت أدبرت، اللهمّ صل عليه قال:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنّ أَمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ))

[من مسند أحمد: عن " صهيب "]

المؤمن أكبر من الدنيا وأكبر من أن يفرح بها، وأن يحزن على فقدها، وقد قرأت عن سيدنا الصديق، والله هذه الكلمة قرأتها أكثر من أربعين عاماً كأنها حُفرت في نفسي أنه: ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط.

الدنيا أحقر من أن يجعلها الله ثواباً للمؤمنين أو عقاباً للكافرين:

الدنيا لا قيمة لها..

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي: عن " سهل بن سعد "]

هي أحقر من أن يجعلها ثواباً للمؤمنين، أو عقاباً للكافرين والدليل:

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

(أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

الأموال، مع البيوت، والبساتين، والنساء..

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(126))

(سورة البقرة)

فقط.

الدنيا ليست مقياساً لأنها تعطى للمؤمن و الكافر:

ربنا عزّ وجل قال:

(وَمَنْ كَفَرَ)

وكذلك الكفّار..

(فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة)

فالدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البَرُّ والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل. والله أعطى الملك من لا يحب وأعطاه من يحب، أعطاه من لا يحب لفرعون، وأعطاه من يحب لسيدنا سليمان..

(رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)

(سورة ص: من آية: " 35 ")

أعطى المال من لا يحب أعطاه لقارون، وأعطاه من يحب ابن عوف، قال: **"ماذا أفعل ؟ والله لأدخلَن الجنّة خبباً (أي هرولة) ماذا أفعل إذا كنت أنفق مئة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء ؟ "** ما له ذنب. الدينا ليست مقياساً، تُعْطى للكافر وتعطى للمؤمن، ويُحرم منها الكافر ويحرم منها المؤمن، إذاً ليست مقياساً..

رأسمال الإنسان نفسه:

(وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا (45))

(سورة الشورى)

دقِقوا في هذا القول:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ (45))

(سورة الشورى)

لسيدنا علي كلمة دقيقة جداً، يقول لسيدنا حسن: **"يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير (الحياة إذا انتهت إلى النار ما خيرٌ فيها إطلاقاً) ما خيرٌ بعده النار بخير (أموالها، ونساؤها، ومكانتها، ووجاهتها إذا انتهت إلى النار فليست خيراً) وما شرٌ بعده الجنّة بشر (مرض، وفقر، وقهر، إذا انتهى بك الأمر إلى الجنّة فأنت الرابح الأول) وكل نعيمٍ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية ". " فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا ".** ماذا أعطي النبي من الدنيا ؟ لم يُعطِ منها شيئاً، غرفة صغيرة جداً، ما ترك شيئاً **" ما لي وللدنيا ؟ ".**

من عرّف نفسه بالله و حملها على طاعته ربح الدنيا و الآخرة معاً:

إذاً:

(إِنّ الْخَاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ (45))

(سورة الشورى)

رأسمالك نفسك، فإن عرّفتها بالله وحملتها على طاعته فأنت الرابح الأول، ولو كنت فقيراً، أو ضعيفاً مستضعفاً، أو تعاني من مشكلات الحياة الدنيا..

(إِنّ الْخَاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ (45))

(سورة الشورى)

لك زوجة، وأولاد، وبنات، فممكن أن ترقى إلى الله بزوجتك، عرّفها بالله واحملها على طاعته ترق بها، وزادُك إلى الله أولادك تنفق عليهم، ولو تركتهم هملاً ولم تربهم لخسرت، ولو أنك ربيتهم، وعرّفتهم بكتاب الله وسنة رسوله، ونشّأتهم على حب النبي عليه الصلاة والسلام وآل بيته، حتى صاروا أعلاماً من بعدك فأنت الرابح الأول.

أبواب الخير و العمل الصالح مفتوحة أمام كل إنسان:

الله عزّ وجل أعطاك فرصاً، وهذه الفرص لم تستفد منها وأعطاك زوجة، وأولاداً، وبنات، فإذا جاء للإنسان بنتان فربّاهما تربيةً صالحة يقول عليه الصلاة والسلام:

((أنا كفيله في الجنّة))

وواحد عنده واحدة فقال له: وواحدة ؟ قال له:

((واحدة فأنا كفيله في الجنّة))

كل بيت فيه بنت، فهذه البنت يمكن أن تكون سبب الجنّة لأمها وأبيها ولكن ربّها تربية عالية، ربّها على كتاب الله، وسنة رسوله، والصلاة والحجاب، والحياء، وأن تُبعد عنها المغذيات الثقافيّة الفاسدة، فهذه تفسدها، إذا اطلعت على عمل فني ففيه المتدينة محتقرة والفاجرة هي المحترمة، فتشتهي أن تكون مثل الفاجرة، أما كل بيت فيه بنت فالبنت وحدها يمكن أن تدخل أبويها الجنّة، واحدة حتى يزوجهما أو يموت عنهما فأنا كفيله في الجنّة فالله عزّ وجل أعطاك أبواباً للخير ؛ زوجتك باب، وأولادك الذكور باب، لأنه:

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثَةٍ إلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[من صحيح مسلم: عن " أبي هريرة "]

فعملك باب للخير، ومهنتك باب للخير، وأولادك، وزوجتك، وكل حركاتك جعلها الله مهيَّأة لأن تكون أعمالاً صالحة..

(وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ (45))

(سورة الشورى)

الابن استمرار لأبيه إن رباه تربية صالحة:

الآية التي تقابلها:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم: من آية: " 6 ")

انظر فهذه آية ثانية، خسروا أنفسهم وأهليهم..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور: من آية: " 21 ")

فإذا ربّى الإنسان ولده تربية صالحة لا يموت، ولن يموت لأن هذا الولد استمرار، إذ صار خليفته، فهذا ولد صالح يدعو له فليس هناك موت بالنسبة له، يقول لك: غابت عينه فقط. وهذا صحيح، أما هو فلم يمت، بل ترك أثراً مستمراً، هذه تأكيد على كلمة أهليهم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم: من آية: " 6 ")

في الآخرة لا يوجد مس بل عذاب مقيم:

(وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ(45))

(سورة الشورى)

عذاب مقيم، والإله يقول: عذاب مقيم، عذاب من الإله، قال الله:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ(175))

(سورة البقرة)

سأل واحد رسول الله اللهمّ صلّ عليه فقال له: **"عظني ولا تطل ".** قال له:

((قل آمنت بالله ثمّ استقم))

قال: **"أريد أخفّ من ذلك "**(هذه ثقيلة عليّ). قال له:

((إذاً فاستعدّ للبلاء))

إذاً لا تحب أن تستقيم تحمّل، وكل إنسان يعصي الله يتحمّل، وأحياناً آلام الدنيا لا تحتمل، ويقول لك: جاءتني كريزة رمل فلم أنم منها طوال الليل، صحت واسترحت. وآلام الضرس لا تحتمل، وآلام الأمعاء والشقيقة لا تحتمل، والله عزّ وجل يمس الإنسان بالعذاب، ومعنى المس معنى دقيق جداً، فإذا أمسك إنسان مكواة ووضع اللعاب على إصبعه، أقل مساحة ممكنة، وأقل وقت ممكن، ومخفّف وهو اللعاب، يقول لك: مثل النار. فهذا المس، والله في الدنيا يمسُّنا مساً، ولكن في الآخرة لا يوجد مس بل عذاب مقيم أي دائم، والفرق كبير جداً، ولذلك قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(21))

(سورة السجدة)

الولي من دلّ الآخرين على الخير:

(وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ (46))

(سورة الشورى)

فالولي هو الذي يدُل على الخير، والله عزّ وجل أودع فيك العقل وسخّر لك الكون، وفطرك فطرة عالية، وأنزل لك كتاباً، وبعث الأنبياء، وسخّر العلماء، وعلّمك بالأحداث، وعلّمك بالتربية النفسيّة، وكل شيء فالله سخّره للهدى ولم تهتدِ بهدى الله، فهل من المعقول جهة ثانية تهديك ؟ لذلك:

(وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ(46))

(سورة الشورى)

وعندما يقع الإنسان، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ ما معك أحد، فالدنيا فيها وحشة، والإنسان لا يعتز بشبابه، في خريف عمره، إما في عمر ثمانين، وإما في أرذل العمر، والإنسان أحياناً يرخي الله عزّ وجل له الحبل، ولكن عندما يستحق العقاب تجده صار يعاني ما يعاني.

كل إنسان بإمكانه أن يتوب إلى الله تعالى قبل أن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا رجعة فيه:

أيها الأخوة... مطلع الآيات يقول الله عزّ وجل:

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

هذا موقف الظالمين يوم القيامة، فالله عزّ وجل يخاطبنا ونحن في الدنيا فيقول: أنتم بإمكانكم أن تتوبوا..

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ (47))

(سورة الشورى)

أيها الناس..

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

والآن نحن في بحبوحة، وهذا قول الظالمين يوم القيامة..

(هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

أما نحن فالمرد موجود، والصلحة بلمحة.

العاقل من تاب إلى ربه قبل فوات الأوان:

إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنؤوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، تماماً كما كان يفعل بعض الصالحين، يشتري قبراً في حياته ويضجع فيه يوم الخميس ويتلو قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون الآية: 100)

يقول لنفسه: قومي قد أرجعناكِ، الآن يمكن أن نرجعك، وربنا يقول:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ (47))

(سورة الشورى)

أيها الناس، الأحياء طبعاً..

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

وهؤلاء قالوا:

(هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

الجواب: لا. أما فالآن المرد موجود، ونحن في الدنيا الآن والقلب ينبض، ونحن الآن في بحبوحة وبإمكاننا أن نتوب..

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

خاتمة:

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نفصِّل في هذه الآية الدقيقة، وأدق ما فيها كلمة:

(نكير)

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (15-15): تفسير الآيات 47-53
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-05-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون... مع الآية السابعة والأربعين من سورة الشورى.

دعوة الله عز وجل لعباده أن يطيعوه و يستجيبوا له:

مع الدرس الخامس عشر من هذه السورة، الآية الكريمة وهي قوله تعالى:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة...

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ (47))

(سورة الشورى)

الله سبحانه وتعالى يدعونا في هذه الآية إلى أن نستجيب لله، ومعنى أن نستجيب له أي أن نتوب إليه، أو أن نطيعه.

الإيمان حياة القلوب:

الله سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال)

فالإنسان قبل أن يؤمن ميّت، أما إذا عرف الله سبحانه وتعالى فأصبح حياً، فالإيمان حياة القلوب، وهذا الجسد يحتاج إلى طعامٍ وشراب حتى يحيا، أو حتى يستمرّ في حياته، ولكن النفس البشريَّة تحتاج إلى الإيمان حتى تحيا، فصدِّقوني أن كل إنسانٍ غفل عن ربه في حكم الميّت. قال: **" يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ".**

من عاش لمآربه الدنيوية إنسان ميت و لو كان على قيد الحياة:

يجب أن نفهم أيها الأخوة أن للقلب حياةً، وأن للجسد حياةً، والجسد قد نفحصه بمعايير طبيّة فإذا هو في أعلى درجات نشاطه، ولكن لو فحصنا قلب الإنسان (قلب نفسه) فقد نراه ميّتاً، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من آية " 21 ")

ميّت، هذا الذي يعيش لحظته، يعيش لمآربه الدنيويّة، ولا يعرف ربّه، ولا يأتمر بأمره، ولا ينتهي بنهيه، ولا يسعى للآخرة فهذا ميّت، بل إن بعض الأجانب الذين قالوا: كل إنسانٍ لا يرى في هذا الكون قوّةً هي أقوى ما تكون، عليمةً هي أعلم تكون، حكيمةً هي أحكم ما تكون هو إنسانٌ حي ولكنّه ميّت. قال هذا الكلام أعلم علماء الفيزياء، فيجب أن نفرّق بين حياة الجسد وحياة القلب.: **" يا بني مات حُزّان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر ".**

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال)

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ (122))

[سورة الأنعام]

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من آية " 21 ")

أسوق لكم الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، وأقوال الصحابة الكرام من أجل أن تتضح لنا الحقيقة..

أمراض الجسد تنتهي عند الموت وأمراض النفس تبدأ بعد الموت:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

معافى من الأمراض، فأمراض الجسد أيها الأخوة تنتهي عند الموت ولكن أمراض النفس تبدأ بعد الموت، ويستمرُّ عذاب الإنسان بأمراضه النفسيّة إلى أبد الآبدين، لكن أمراض الجسد مهما تكن وبيلةً فتنتهي عند الموت، ويقول لك: مات واستراح. لكن الكافر يبدأ عذابه بعد الموت والناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، فالإنسان حينما لا يستجيب لله عزّ وجل يموت قلبه، وإذا مات قلبه ضلّ عقله وشقيت نفسه، والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

ومن لم يتبع هدى الله عزّ وجل ضلّ عقله وشقيت نفسه.

من اتبع رضوان الله سعد في الدنيا و الآخرة:

والإنسان أيها الأخوة قد ينطلق من منطلق نفسي، ما منّا واحدٌ إلا ويحب نفسه ؛ ويحب وجوده، وسلامة وجوده، وكمال وجوده، واستمرار وجوده.و انطلاقاً من حبه لنفسه عليه أن يستجيب لله عزّ وجل، فالإنسان يحب استمرار الوجود، والإنسان يحب أن يعمّر مئة سنة، ما من إنسان إلا ويشتهي ذلك، ولكن ما الذي يجعلك تسعد إلى أبد الآبدين ؟ أن تستجيب لله عزّ وجل، لكن لو أراد الإنسان الدنيا وحدها فهو يقامر، لأن كل آماله متعلِّقة بضربات قلبه، فلو وقف القلب فجأةً انتهى كل شيء، وتحوّل عنه كل شيء، وخسر كل شيء، خسر الدنيا وخسر الآخرة، ولذلك لا يرتاح الإنسان ولا تطمئن نفسه إلا إذا شعر أنه إذا توفّاه الله فله عند الله جنّة وسعادة، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

من ابتعد عن الله عز وجل شعر بقلق يأكل قلبه:

في أعماق الإنسان البعيد عن الله قلق، وشعور بالخوف من المستقبل، تُرى ماذا يخبّئ له المستقبل ؟ يخبئ له مرضاً عضالاً ؟ تُرى هل المرض في قلبه، وفي كبده ؟ أو في كليتيه ؟ وفي الخلايا ورم غير طبيعي ؟ تُرى هل ينتظره حادث ؟ هل في شيخوخة يُردُّ إلى أرذل العمر ؟ هذا القلق المخيف الذي يأكل قلوب العباد سببه البعد عن الله عزّ وجل.

والآن يوجد أمراض متفشّية في العالم من أبرزها مرض الكآبة، يقول لك: نوبات كآبة. لأن خطّه البياني نازل وليس صاعداً، وكلّما تقدّمت به السن ضعفت إمكانيّته في الاستمتاع بالحياة، ويكون في أوج عطائه، فتقاعد وأصبح على الهامش، والكلام لأولاده، قال:

(إِمّا يَبْلُغَنّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا (23))

(سورة الإسراء)

كان ابنك عندك، فصرت عنده، فهذا الخط البياني حينما ينزل فالمؤمن العاقل الأريب الموفّق، هو الذي يسعى ليكون خطه البياني صاعداً باستمرار، فإذا عرفت الله عزّ وجل فخطّك البياني صاعد، وإذا تقدّمت بك السن فلك شيخوخةٌ متألِّقة ؛ فيها العطاء، والوقار، والحب، والقوّة والنبي عليه الصلاة والسلام من أدعيّته:

((ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا))

[من كنز العمال: عن " ابن مبارك "]

المؤمن متفائل لا ينتظر من الله إلا الخير:

المؤمن متفائل، لا ينتظر من الله إلا الخير، والسعادة، والسلامة، ولكن بشرط أن تستجيب له، وأن تعقد الصلح معه، وأن تعود وتنيب إليه، وأن تأتمر بأمره، وتنتهي عمّا عنه نهاك..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال)

ومعنى هذا دعوة الله عزّ وجل أنه يدعوك لحياة القلب، فإذا أصبح قلبك حياً عشت به سعيداً في الدنيا وبعد الموت، ولا يوجد ما يجذب نظر قارئ السيرة أكثر من أن أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم ما منهم واحدٌ إلا وكان يعيش أسعد لحظات حياته عند مفارقة الدنيا. ولو سألت الآن طبيباً يعمل في أمراض عضالة يقول لك: حينما يشعر المريض بأنه قد أُصيب بهذا المرض تنهار أعصابه، ويصبح كالأطفال، لأنه سينتقل من كل شيء إلى لا شيء، أما المؤمن فسينتقل من شيء إلى كل شيء.

شعور العبد أن الله يحبّه شعور لا يقدّر بثمن:

النبي عليه الصلاة والسلام صوّر انتقال المؤمن من الدنيا إلى الدار الآخرة فقال:

((كما ينتقل الجنين من رحم أمِّه إلى سعة الدنيا))

[ورد في الأثر]

كان الجنينُ يعيش في سبعمئة وخمسين سنتيمتراً مكعّباً في الرحم فانطلق إلى الدنيا، والمؤمن كذلك ينتقل بالموت من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا. فنحن نسعى إلى الراحة النفسيّة، والراحة النفسيّة لا تكون إلا بمعرفة الله، في فراغ.

والله أقول لكم هذا الكلام: لا يملؤه لا المال، ولا الجاه، ولا السلطان، ولا الصحّة، ولا الذكاء، ولا العلو في الأرض، لا يملؤه إلا أن تعرف الله، وأن تكون متبعاً لأمره، فشعور العبد أن الله يحبّه شعور لا يقدّر بثمن، وشعوره أنه في ظل الله، وفي رحمته، والله يدافع عنه..

المؤمن كل جهده في الدنيا يتجه إلى حُسن العلاقة بالله:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا(96))

(سورة مريم)

هذا الشعور بالانتماء إلى خالق الأكوان، شعور بالانتماء إلى رب العالمين، وأنك في ظل الله، وأن الله لا يتخلّى عنك، وأنه يحبُّك، وأنك كما قال الله عزّ وجل:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

وهذا الشعور لا يقدّر بثمن، وإذا شئتم عليه دليلاً: فالإنسان أحياناً يعقد صلة مع إنسان قوي أو ذي شأن في المجتمع، فالأرض عندئذٍ لا تسعه، فإذا كان معه صورة مع شخص مهم يضعها في صدر بيته، ويطلع عليها الزوّار تأكيداً لهذه العلاقة، ولكن المؤمن علاقته الطيّبة بربّه، فالمؤمن ربّاني أي أن كل جهده في الدنيا يتجه إلى حُسن العلاقة بالله والقضيّة سهلة جداً، وكل هؤلاء الذين تقع عينك عليهم هم عباد الله، فإذا أكرمت واحداً منهم فكأنّك أكرمت ربّك، وإذا نصحت الناس يرضى الله عنك، وإذا كنت لهم وفياً وخدمتهم وصدقتهم يرضى الله عنك.

على كل إنسان أن يصطلح مع نفسه:

الإنسان إذا صدق مع عباد الله قاطبةً (دون تعيين) كان صادقاً، ومخلصاً، وأميناً، وخيّراً، ومعطاءً، فالخلق كلّهم عيال الله وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله. أما آن الأوان أن يصطلح الإنسان مع نفسه ؟ وأن يدخل معها في سلام، لأن الفطرة عالية، فعندما ينحرف الإنسان فهناك عذاب داخلي، وهناك غليان داخلي، ووخز، وتأنيب، وتضييق، يقول لك: متضايق، الأرض كلّها لا تسعني، وأكاد أنفجر. فلماذا تنفجر ؟ إنك آكل شارب نائم، تملك كل شيء، فلماذا الضيق ؟ هذا ضيق البُعد عن الله، أو ضيق العذاب النفسي، وضيق تعذيب الفطرة لذاتها.

يوم الدين لا يستطيع أحدٌ أن يردّه:

لذلك فربنا عزّ وجل يقول:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

ومعنى:

(لَا مَرَدَّ لَهُ)

أحياناً يكون الإنسان على موعد مع شخص فيلغي الموعد، وأن يقف أمام فلان في اليوم الفلاني، فيعمل واسطة ويؤخِّر اليوم إلى شهر، أخي أجّل لي الدعوى لأسباب مرضيّة، فيأتي بتقرير طبي يؤجّل الدعوى، فالأيام الحاسمة في حياة الإنسان قد تؤجّل أو قد تُلغى، فإذا كنت أقوى من خصمك فتلغي

الدعوى كلِّها فتنشطب مثلاً، وإن كان عليك مسؤوليّة وسؤال وجواب، فإذا كان لك شخص أقوى من الذي سيسألك فيلغي لك اللقاء كله، فهذا اليوم الحاسم هل يُلغى، فالإنسان بحياته الدنيا يحتال أحياناً على إلغاء الأيام الحاسمة في حياته، إما أنه يغادر، أو يلغي، أو يتوسّط، أو يكون أقوى من الشخص الذي سيحاسبه فلا يأتي فهذه الأيام الحاسمة أيام الحساب، وأيام دفع الثمن، وأيام الحُكم، فهذا اليوم قد يُرد، أو يُدفع، أو يُلغى، أو تهرب منه، أو تبعده عنك ولكن يوم الدين لا يستطيع أحدٌ أن يردّه..

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ ِ(47))

(سورة الشورى)

يوم القيامة هو اليوم الحاسم عند كل إنسان:

هذا اليوم الحاسم، هذا اليوم الذي تُسأل فيه عن مالك من أين اكتسبته ؟ وفيم أنفقته ؟ وتُسأل عن شبابك فيم ضيّعته ؟ وتسأل عن عمرك فيم أفنيته ؟ وتسأل عن علمك ماذا عملت به ؟ هذا اليوم:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7))

(سورة الزلزلة)

تحاسب فيه على الابتسامة، وعلى الإعطاء، والأخذ، والكلمة والنظر..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ)

(سورة غافر: من آية " 19 ")

هذا اليوم لا مردّ له..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: من آية " 40 ")

فهذا أمر تهديد:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

كل شيء محسوب..

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[من الجامع الصغير: عن " علي "]

والله هذا الحديث الشريف يكفي العباد:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

يقول عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرّ))

[من سنن الترمذي: عن " أبي هريرة "]

على كل إنسان أن يستجيب لله قبل فوات الأوان:

كلام خالق الكون بين يدينا، يقول: يا عبادي استجيبوا قبل فوات الأوان، وقبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا شراء، وقبل أن يأتي يومٌ..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

وقبل أن يأتي يومٌ تقول فيه:

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

(يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27))

(سورة الفرقان)

(يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا(28))

(سورة الفرقان)

قبل أن يأتي يومٌ تقول:

(يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29))

(سورة الحاقة)

من رحمة ربنا عزّ وجل أن هذه المواقف الحاسمة أخبرنا ربنا عنها قبل فوات الأوان، وهذه المواقف التي لابدّ أن تقع أُخْبِرْنَا عنها قبل أن تقع.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

إذاً:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

هذا ينقلنا إلى الحقيقة الثانية، إخواننا الكرام أنت لك خيار، وخيارك مع أشياء كثيرة خيار قبول أو رفض، أتشتري هذا البيت ؟ تقول لا. أتسافر لهذه الجهة ؟ تقول: نعم أسافر. فخيارك مع أشياء كثيرة خيار قبول أو رفض، إلا أن خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط، أي أنك لابدّ من أن تؤمن الآن أو بعد فوات الأوان، فلا ينجو من هذا الخيار ولا فرعون، قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ(91))

(سورة يونس)

من لم يؤمن الآن فلابدّ من أن يؤمن بعد فوات الأوان:

هذه النقطة دقيقة جداً، يجب أن تبعث الإنسان إلى مزيد من الطاعة إلى الله، خيارك خيار وقت، إن لم تؤمن الآن فلابدّ من أن تؤمن بعد فوات الأوان..

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

هذا اليوم لا نهرب منه، ولا نستطيع أن تؤخّره، ولا أن تتحاشى المسؤوليّة فيه، هذا اليوم..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

قالت السيدة عائشة:

((يا رسول الله أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ قال: نعم يا أمّ المؤمنين إلا في أربعة مواضع: عند الصراط، وعند الميزان، وإذا الصحف نُشِرَت، وفيما سوى ذلك قد تقع عين الأم على ابنها تقول له: يا ولدي جعلت لك بطني وعاءً، وحجري وطاءً، وصدري سقاءً فهل من حسنةٍ يعود عليّ خيرها اليوم ؟ يقول: ليتني أستطيع ذلك يا أمّاه إنما أشكو مما أنتِ منه تشكين))

[ورد في الأثر]

التركيز على هذا اليوم..

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

العاقل من هيأ لله جواباً عن كل عمل قبل أن يلقاه:

إخواننا الكرام... قبل أن تقول كلمة، وقبل أن تُعطي، وأن تغضب، وأن تبتسم، وأن تصل، وتقطع، وتُسافر، وتؤسّس هذا المشروع هيّئ الجواب لله، لماذا فعلت هذا يا عبدي هل معك حجّة ؟ أو دليل ؟ وهل هناك آية تجيز عملك ؟ فالمؤمن العاقل دائماً عنده هاجس واحد: ماذا أقول لربي يوم القيامة ؟.

دخلت زوجة عمر بن عبد العزيز عليه فرأته يبكي قالت له:**" مالك تبكي ؟ ".** قال لها: **" دعيني وشأني "** فلمّا أصرّت عليه قال: **" وُليت هذا الأمر فنظرت إلى الفقير الضائع، وابن السبيل، والشيخ**

العاجز (وذكر أصنافاً من المعذّبين) فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن حجيجهم يوم القيامة هو رسول الله، فلهذا أبكي ".

يجب عليك ولو كنت في أية وظيفة ظلمت إنساناً، أو اعتديت عليه أو ألبسته تهمة بالباطل، أو ابتززت ماله، فيما إذا كنت قوياً، أو ذكياً بالاحتيال، أو أوهمته أن معه مرضاً خبيثاً، وأنه يحتاج إلى تحاليل كثيرة فالإنسان أحياناً يكسب المال حراماً إما بقوّته أو بحيلته، فإذا قوي فبقوّته ادفع، وإذا لم يكن قوياً فبحيلته، فقبل أن تأخذ المال هل أخذته حلالاً طيّباً ؟ وهل أخذته وفق الشرع إن كنت تاجراً ؟ أم هل غششت الناس ؟ أم أوهمتهم أن هذه البضاعة من نوع خاص وهي أقل بكثير من ذلك ؟

الله عز وجل لا يكلف الإنسان إلا بما أقدره عليه:

فيا أيها الأخوة الكرام... هذه آيةٌ حاسمة:

(اسْتَجِيبُوا (47))

(سورة الشورى)

النجاة النجاة، ما دام القلب ينبض، ومادام الإنسان يمشي على قدميه وبإمكانه أن يحضر مجلس علم، وبإمكانه أن يغض بصره، ويضبط لسانه، وينزّه سمعه عن كل ما لا يرضي الله عزّ وجل، ويصلح بيته، ويقيم فيه الإسلام، ويصلح عمله، وكله بيده، فأنت لا يكلِّف الله نفساً إلا وسعها الله لا يكلِّفك إلا بما أقدرك عليه.

على كل إنسان أن يتلافى أموره الخاطئة من قبل أن يأتي يوم لا مرد له:

فيا أيها الأخوة...

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

يعض على إصبعه ندماً. أضرب هذا المثل دائماً: وأحياناً إنسان يرتكب جريمة، ويُساق إلى المحكمة، ويحاكم، ويحكم عليه بالإعدام، ويصدّق الحكم، ويساق إلى المشنقة. والآن أمام المشنقة هو مرتكب جريمة، ومعترف بها، والحكم مستأنف ومميّز، والقرار مصدّق من أعلى سلطة في البلد، والآن تنفيذ الحكم إعدام، أيحب أن يبكي فيبكي، أيحب أن يضحك فيضحك، أيحب أن يتماسك فيتماسك، أيحب أن ينهار أتركه يسقط، فلابدّ من تنفيذ الحكم فيه، وهذا هو الطريق المسدود، وهذا هو اليوم الذي لا مردّ له، فنحن الآن في بحبوحة، ويمكن أن نتلافى أمورنا كلها، والإنسان يجب أن يضحك.

كلمة ليت لا تنفع الإنسان يوم الحساب:

أستطيع أن أعمل مراجعة دقيقة لدخلي، ولإنفاقي، ولبيتي، ولضبط البيت، ولكن يأتي يوم لا مرد له، ويقف الإنسان أمام طريق مسدود مهما فعل، لو قال:

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

كلمة ليت لا تنفعه، ولو قال:

(يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27))

(سورة الفرقان)

لا تنفعه..

ويا ليتني أرد ولا أكذِّب، لا تنفعه:

(رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

لا تنفعه..

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ(108))

(سورة المؤمنون)

هذا اليوم ما له مرد، وهذا الطريق المسدود لا توصل نفسك إليه، وبالعمر بقيَّة، وبحبوحة، وأنت نشيط الآن..

يوم القيامة ليس بإمكان أي إنسان أن يتهرب منه:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ (47))

(سورة الشورى)

قال لك: غض بصرك، قال لك: نزّه سمعك.. من استمع إلى صوت قينةٍ صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة، قال لك: اضبط بيتك..

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم)

آيات قرآنيّة كلها..

(إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ)

(سورة النساء: من آية " 29 ")

لو كان فيها احتيال فليس فيها تراض، ولو كُشف للطرف الآخر أنك احتلت عليه أيرضى عنك ؟ إنه لا يرضى، فليس هناك بيع عن تراضٍ فهذا البيع صار مشبوهاً، فالأمر بيدنا الآن، ولكن عند الموت ليس بيدنا، والآن باختيارك أن تهتدي، وأن تستقيم، وأن تصدق، فهذا اليوم الذي لا مردّ له ليس هناك إمكان أن تتهرّب منه، ولا أن تهرب منه، ولا أن تدفعه، ولا أن تستصدر استثناء خاصاً بك: ولا أن فلاناً يطوى من الحساب، فهذا اليوم لا مردّ له..

عدم وجود أي ملجأ يلجأ إليه الإنسان هرباً من الحساب:

(مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

إذاً اليوم لا مردّ له فهل هناك ملجأ، إذا وجد قصف صاروخي وهناك ملجأ فنصف مصيبة، أما هذا اليوم فلا مردّ له ولا ملجأ تلجأ إليه من هذا اليوم، ولا جهة في الخلق جميعاً تُنكر عليك، أو تنكر على من يصيبك ما أصابك. فأحياناً الإنسان يُعاقب، ولكن له ناساً يحتجون، ويعترضون، ويكتبون، وينشرون مقالة، ويتجمّعون، ويطالبون ويتوسّطون، ففي الدنيا لو أصاب إنساناً ظلم فهناك من ينكر هذا الظلم الذي لحق به، فالعلماء قالوا:

(مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

أي لا أحد يستطيع أن يستنكر ما حلّ بهذا الإنسان.

كل إنسان يوم القيامة يحاسب بمفرده:

لأنه:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

ففي الحياة الدنيا يوجد تجمُعات، وجماعات، يقول لك: هذا من جماعتي والله إذا أحد اقترب عليه نعمل كذا وكذا. لا يوجد ذلك يوم القيامة ففي الدنيا أحياناً ينتمي الإنسان إلى جماعة فتحميه، وقد تحميه على الحق إذا كانت جماعة مؤمنة، وعلى الباطل إذا كانت جماعة غير مؤمنة، وفي الآخرة:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

لا يقدر أحد أن يتكلّم بكلمة.

عدم استطاعة الإنسان إنكار ذنوبه يوم القيامة لأن أعماله كلها مسجلة عليه:

لذلك:

(مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

لا أحد يستنكر ما يحل بكم من عذاب، وليس بإمكانكم أن تنكروا الذنوب التي وقعت، وفي الدنيا إذا لم يوجد على الإنسان مستمسك، أو وثيقة، أو سند، أو صورة مثلاً فينكر، ويقول: هذا اتهام المتهمين وافتراء المفترين، وهذه محاولة تشويه لسمعتي. أما إذا وجد مستمسك، أو صورة، أو كتاب، أو مكالمة هاتفية مسجّلة فصار مداناً، ولكن يوم القيامة لا يستطيع الإنسان أن يُنكر أي ذنبٍ اقترفه، لأن هذا الذنب يعرض عليه. والآن أحدث المخالفات تُرسل الصورة مع التاريخ والساعة إلى البيت، وهذه المخالفة، لا يستطيع أن يتكلّم ولا كلمة.

حدّثني شخص فقال لي: كنّا في بلد أجنبي، فجاءتني مخالفة بسعر غالٍ كثيراً، فأنا على عادتي اعترضت أن هذا غير معقول، وأنا ما كنت في هذا المكان في هذه الساعة. فذهب لكي يحتج على المخالفة ذات الرقم العالي فقابلوه بأعصاب باردة، قال له: انتظر. دخل وعاد بالصورة صورة المركبة وهي تخالف بالساعة والتاريخ، فخجل، ولكن الآن تضاعفت المخالفة لأنك لم تصدِّقنا، فجعلوه يدفعها مرة أخرى فالصورة مسكتة.

فأن تقول: أنا لم ارتكب هذا الذنب. تعرض أعمال الإنسان على الإنسان متحرّكة، ملوّنة بأحجامها الحقيقيّة، فالآن لا تستطيع أن تنكر الذنوب التي اقترفتها، ولا أحد يستنكر ما يحل بك.

من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

متى هذا اليوم ؟ هل هناك إنسان يضمن أن يعيش ساعة بعد هذه الساعة ؟ قال: **" من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبةالموت ".**

كلُكم يسمع من حين لآخر موت فلان وموت فلان، اسألوا أقرباءه وليس هناك إنسان يموت إلا وهو يفاجأ بموته، وفي مخيلته أشياء لعشرين سنة، أو خمس عشرة، أو ثلاث عشرة. وقد رويت لكم قصّة لا أنساها: جلست مع إنسان في التعليم قال لي: أريد أن أستقيل وأذهب إعارة لبلد شمالي إفريقيا (بلد عربي) فهناك العمل مريح جداً والمعاش ثلاثة أمثال. وأنا أستمع له. ويقول: وسأقضي أول صيفيّة في فرنسا، والثانية في إنكلترا (حافظهم) والثالثة في إسبانيا، والرابعة في إيطاليا، وسأقضي الصيفيّة بأكملها أتملّى معالم هذا البلد، ريفه، ومتاحفه، وعادات أهله وتقاليده، وأنا لا أحب هذه الزيارة المستعجلة، وقال ثم أرجع بعد خمس سنوات أقدِّم استقالة وأتقاعد، فشيءٌ جميل ! وأفتح محلاً تجارياً وأضع فيه تحفاً، ولا أريد هذه الأشياء التي لها انتهاء مدّة وعطبها سريع بل تحف جيدة، ويكون أولادي قد كبروا فأضعهم في هذا المحل. وأنا أسمع له وضيّفني كأساً من الشاي وخرجت من عنده وذهبت إلى بيتي، وعندي بعد الظهر ساعات ليلاً، وأنا أعود إلى البيت مشياً رأيت نعوته على الجدران، والله في اليوم نفسه وليس غداً ثاني يوم. قال: **" من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ".**

على كل إنسان أن يستعد للقاء الله عز وجل:

هذا اليوم الذي لا مردّ له متى ؟ لو كان بعد سنة (فجيّد ماشي الحال) ولكنك لا تعرف متى، أترى فجأةً؟ أم خثرة في الدماغ فجأةً ؟ أو سكتة قلبيّة. واحد ينتظر أن يأخذ مئة وعشرين مليوناً ميراثه من شخص ثري وحصّته من الميراث هذه، وهو يعمل ليلاً ونهاراً، ويغسل وجهه وقع ميّتاً ولم يقبض قرشاً واحداً. فالحياة ملأى بهذه القصص ؛ بيت لا يُسكن، وصاحبه معه شهادة عُليا لا يستخدمها، ويكتب كتابه ولا يتزوّج، فهذا اليوم متى ؟ لا نعرف، من منا يضمن أن يعيش بعد ساعة ؟ أبداً، فما دام اليوم الذي لا مرد له، نهاية الحياة هذا اليوم ليس بيدي، إذاً عليّ أن أكون مستعدّاً دائماً للقاء الله عزّ وجل.

كل إنسان مخير و ما على الرسول الكريم إلا التبليغ:

قال:

(فَإِنْ أَعْرَضُوا (48))

(سورة الشورى)

الإنسان مخيّر، أنت يا محمَد عليك أن تبلّغ..

(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ(18))

(سورة العنكبوت)

(يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من آية " 67 ")

أنت عليك أن تبلِّغ..

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (48))

(سورة الشورى)

فلست بمكلّفٍ أن تسجّل أعمالهم وأن تحاسبهم، فأنت مبلِّغ فقط، فإذا بلّغت فقد انتهى أمرك، والإنسان يقف بعد الحج أمام قبر النبي اللهمّ صلّ عليه يقول له: **" أشهد أنك بلّغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمّة وكشفت الغُمّة، وجاهدت في الله حقّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد ".** انتهى، بلّغ، لأن الإنسان مخيَّر..

من آثر دنياه على آخرته إنسان تافه شارد عن الحق:

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ (48))

(سورة الشورى)

لكن هذا الإنسان الشارد، الذي لم يستجب لله عزّ وجل، الذي آثر الدنيا إنسان تافه، ودليل تفاهته قال:

(وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا (48))

(سورة الشورى)

يختل توازنه، تجد الإنسان إذا نجح في الحياة فقلما يبقى متماسكاً، يحكي عن حاله، وعن إنجازاته، وأمواله، ودخله الكبير، ونجاح شركته، ومبيعاته المُتنامية، ورحلاته، وصفقاته، وبيته، ويعزمك إلى البيت ليريك كم متر مساحته، فالبلاط أتى به من إيطاليا، وهذا القوس عمله له فلان، ودائماً يحكي لك عن حاله، والذي عنده هذه الإمكانيّة يفتخر ويتباهى ويعرض منجزاته على الناس قال: هذا الإنسان..

(وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا (48))

(سورة الشورى)

ولكن هذا فرح غير مرغوب فيه..

على كل إنسان ألا يفرح بالدنيا لأنها سريعة الزوال وشيكة الانتقال:

(لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76))

(سورة القصص)

أي لا تفرح بالدنيا لأنها سريعة الزوال وشيكة الانتقال، من عرفها لم يفرح لرخاء، لأنها مؤقّتة، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عُقبى..

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ(48))

(سورة الشورى)

فوضعه مضطرب، على العطاء يختل توازنه، ويستخفُّه الفرح، وعلى المُصاب ينهار وييئس، وهذا الإنسان البعيد عن الله بين اليأس القاتل وبين الفرح المُضحك، خفيف.

ثقة المؤمن بالله عز وجل ثقة كبيرة:

أما المؤمن فلا تستخفُّه الدنيا، ولا تسحقه الآلام، متماسك، في البلاء صابر في الرخاء شاكر..

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنّ أَمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ))

[من مسند أحمد: عن " صهيب "]

فهذا التماسك، مع المصاب له أمل بالله عزّ وجل، واثق، بأن يفرجها عليه الله، وقد حدّثني أخ فقال لي: ذهبت لأجري عملية في القلب في بلد أجنبي، وكنت أنتظر إجراء العمليّة فدخلت ممرّضة تحمل دكتوراه نسّقت الأزهار، وسألتني دون أن تلتفت إلي: ما عمليّتك ؟ فقلت لها: العملية الفلانيّة، ومن طبيبك ؟ فقلت فلان، وهو من أشهر أطبّاء بريطانيا قالت له: غير معقول هل قبل ؟ قال لها: نعم قبل. قالت له: غير معقول هذا من الصعب أن يقبل. قلت لها: قبل وأنا جئت على موعد. قالت: هذا عمل مئة ألف عمليّة ولا واحدة خابت معه، وقد تكلمت بهذا الكلام فارتاح له، وبعدما دفع الفاتورة فإذا فيها مكتوب: ألفا جنيه رفع للمعنويات.

المؤمن لا يحتاج لأن يدفع ألفين لرفع المعنويات، معنوياته عالية سلفاً، ولا حاجة لمن يرفع له معنوياته، هو واثق بربّه، فهم أدركوا أن الإنسان عندما يكون عنده معنويات عالية يشفى سريعاً، فالعضويّة تعينه على الشفاء، والمؤمن وحده عنده معنويات عالية، فله ثقة بالله عزّ وجل وأكبر ثقته أن الله لا يتخلّى عنه، وأن الله لا يسلمه، وأن الله لا يقدّر له إلا الخير..

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا)

(سورة التوبة: من آية " 51 ")

هذه المعنويات العالية لا تجدها ولا بمئة مليون، أن تشعر أن خالق الكون يحبّك ولا يتخلّى عنك، وهو أقوى الأقوياء، وكل خصومك بيده..

المؤمن غال على الله عزّ وجل و لن يضيعه أبداً:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

سُجل عليه ألفين مقابل أنها قالت له: كيف قبل غير معقول !. قال لها: معقول أنا جئت على موعد. قالت له: عمل كذا عمليّة ولا واحدة أخطأ فيها. فارتاح، وعندما وثق من الطبيب وارتاح أن العملية ناجحة سلفاً، فهذه العضويّة المتفائلة تعين على شفاء ذاتها، هكذا القاعدة الطبيّة. أما المؤمن وهو في أشد الحالات تجده واثقاً من الله عزّ وجل، فالله لا يضيعني، ولن يتخلّى عني، فالنبي عليه الصلاة والسلام مرض فأعطي دواء ذات الجنب، فغضب غضباً شديداً، وقال: **ذلك مرضٌ ما كان الله ليصيبني به.**

استنبطوا من هذه الواقعة أن المؤمن غال على الله عزّ وجل، فهو يؤدِّبه، في أمور كبيرة كثيرة صعب أن يسوقها الله عزّ وجل للمؤمن، فهو يرحمه ولا يفضحه، ودائماً يسبل عليه ستره، وخاصة في غيبته، وكان سيدنا علي إذا سافر يقول: **"اللهمّ أنت الرفيق في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد ".**

تُرى أي جهة في الكون تكون معك في السفر ومع أهلك في الحضر ؟ مستحيل إلا الله عزّ وجل. فعندما يدعو الإنسان ربه عزّ وجل بهذا الدعاء إذا سافر، أحياناً في غيبة الإنسان تصير مشكلة، ويصير حادث دهس، ومرض مفاجئ، وحالة خطرة، فأحياناً تشوُّه بوجه ابنته بسبب وقوع إبريق الشاي عليها، فالإنسان إذا سافر يكون قلقاً، أما إذا دعا هذا الدعاء: **" اللهمّ أنت الرفيق في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد "**، يستريح.

من عرف ربه و استقام على أمره ألقى في قلبه السكينة و الأمن:

هذه راحة النفس لا تقدَّر بثمن، وإذا عرف الإنسان الله عزّ وجل واستقام على أمره يلقي الله في قلبه السكينة، فتجد في قلب المؤمن سكينة لو وزّعت على أهل بلدٍ لكفتهم، فهو واثق من الله عزّ وجل، فلن يضيّعه ولن يخذله، ولن يسلمه، ولن يجعل لكافرٍ عليه سلطاناً، أنت خائف من الله في البيع والشراء، فهل يخيفك من إنسان ترجف أمامه ؟ حاشا لله، إذا كنت خائفاً منه لا يخيفك من أحدٍ آخر، أما إذا لم تخف منه، فتستغل ثقة الناس فيك، وتقتنص أموالهم بالباطل، وتغشّهم، فيأتيك شخص لا تقيم له وزناً يجعلك تضطرب، فكثير من الأشخاص دخل عندهم موظف ليحاسبهم على السعر وما السعر، فسقطوا أرضاً وإسعاف إلى العناية المشدّدة رأساً، ما تحمّلوا، فأنت تخاف من الله فيما بينك وبين العباد فالله لن يخيفك من عبدٍ مثلك ؟ لا والله حاشا لله (من هاب الله هابه كل شيء) **" ومن خاف من الله خافه كل شيء، ومن لم يخف من الله أخافه الله من كل شيء ".**

الإنسان مخير في الدنيا لا مسير:

المؤمن متماسك، والله يلقي في قلبه الثبات، ويلقي في قلبه الأمن..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

فالإنسان مخيَّر..

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا(48))

(سورة الشورى)

فرحه بهذه الرحمة يستخفُّه..

الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

سابقاً قلت لكم كلمة أن الله يملك السماوات والأرض وهذه أوسع أنواع المُلكيَّة، إنها مُلكيَّة خَلْق، ومُلكية تصرُّف، وملكية مصير، ونحن بني البشر أحياناً نملك التصرُّف ولا نملك المصير، أو نملك المصير ولا نملك حق الانتفاع (بيت مؤجّره بسعر رخيص) وقد تملك الانتفاع والرقبة ولكن لا تملك المصير (قد ينظّم هذا المكان فيعطونك عشر قيمة بيتك) إذاً الإنسان ملكيّته محدودة، لكن الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً..

تكريماً للبنات قدّم الله عز وجل الإناث على الذكور في هذه الآية:

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(49))

فالله عزّ وجل قدّم الإناث على الذكور تقديم تكريم، لأن العرب كانوا يكرهون البنات في جاهليّتهم..

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(58))

(سورة النحل)

ولذلك فربنا عزّ وجل تكريماً للبنات قدّم الإناث على الذكور، ولكن جعل الإناث نكرةً..

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا (49))

(سورة الشورى)

ويجب أن تكون المرأة محجّبةً لئلا تُعْرَف، من هنا جاء التنكير..

تعريف الذكور في هذه الآية تعريف تشريف:

(وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(49))

(سورة الشورى)

أخَّر الذكور لكن الله عزّ وجل عرّف الذكور، والتعريف تعريف تشريف، قال:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(50))

فالعقيم من الله، والذي عنده خمسة بخمس أو ثلاث باثنين، أو اثنتين بثلاثة، واحد بواحدة فمن الله، والذي عنده ست بنات فمن الله، والذي عنده ثمانية ذكور فمن الله..

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(50))

الله عز وجل جعل صفوة خلقه بأحوال متفاوتة تغطي كل البشر:

سيدنا لوط آتاه الله الإناث وحدهن، وسيدنا إبراهيم آتاه الله الذكور، وسيدنا محمّد آتاه الله الذكور والإناث، وسيدنا يحيى جعله الله عقيماً، فهؤلاء الأنبياء صفوة الخلق واحد آتاه الله ذُكراناً، وواحد آتاه إناثاً، وواحد جعله عقيماً، وواحد آتاه ذكوراً وإناثاً، وكل واحد منا كيفما كان وضعه يوجد نبي عظيم يشبهه، ونبي ابنه سيئ كابن سيدنا نوح، ونبي والده كان كافراً، ونبي زوجته كافرة، ونبي كان قوياً، ونبي كان ضعيفاً ونبي كان غنياً، ونبي كان فقيراً، والذي كان فقيراً فله أسوة بالنبي عليه الصلاة والسلام، كان راعي غنم.

فهذه الدنيا لا قيمة لها، فالله جعل صفوة خلقه بأحوال متفاوتة تغطي كل البشر، ولو أن امرأة تُكلِّم في شرفها وهي بريئةٌ براءةً حقيقيّة فلها في السيدة عائشة أسوة حسنة، وزوجة النبي عليه الصلاة والسلام تكلّم الناس عنها كلاماً لا يرضي، ولكن الله برّأها، فكيفما تحرّكت فهناك نبيٌ أو صحابيٌ، أو تابعيٌ يُغَطِّي هذه الحالة..

كل ما جاء من عند الله عز وجل وحي لا يملك النبي استقدامه ولا دفعه:

(إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا)

والآن ظاهرة الوحي ختم الله بها هذه السورة، أي أن هذا الذي جاء من عند الله عزّ وجل هو وحي، وليس شيئاً تراءى للنبي، عندما كان يأتيه الوحي وكانت الناقة تبرك لثقله، وكان النبي عليه الصلاة

والسلام يتفصّد عرقاً، ومرّةً كانت رُكبة النبي فوق ركبة ابن عبّاس فكادت تَنْحَطِم، فالوحي شيء ثقيل جداً يأتي، ولا يملك النبي استقدامه ولا دفعه، فلمّا تحدّث الناس عن عائشة رضي الله عنها تأخّر الوحي شهراً، فماذا يفعل النبي ؟ الوحي تأخّر، إلى أن جاء الوحي ببراءتها بحكمةٍ بالغة.

أنواع الوحي:

1 - إما أن يأتي الوحي على شكل إلهام:

إذاً:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(51))

إما أن يأتي الوحي على شكل إلهام، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله عباد الله، وأجملوا في الطلب واستجملوا مهنكم))

[ورد في الأثر]

هذا وحي على شكل إلهام.

2 - أو إيحاء عن طريق التكليم:

أو إيحاء عن طريق التكليم، كما كلّم الله موسى من وراء حجاب.

3 - أو عن طريق سيدنا جبريل:

أو أن يأتي سيدنا جبريل فيوحي للنبي ما يريد الله أن يوصله إليه.

عدم استطاعة أي إنسان أن يرى الله في الدنيا:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(51))

بعضهم قال:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا)

عن طريق جبريل..

(أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (51))

كما كلّم الله موسى، ولكن ما رآه، ولا يستطيع بشرٌ على الإطلاق ولو كان نبياً أن يرى الله في الدنيا، وهذه حقيقة..

(رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)

(سورة الأعراف: من آية " 143 ")

إذاً عندما كلّم الله سيدنا موسى كلّمه من وراء حجاب.

لا طريق نأخذ منه الحق إلا عن طريق الأنبياء:

الاتجاه الآخر في الآية أن الله عزّ وجل..

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا)

عن طريق سيدنا جبريل..

(أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (51))

كما كلّم الله موسى تكليماً..

(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ)

فنحن الآن نحن نُبلّغ عن طريق رسول الله، وبقية البشر يبلّغون عن طريق الرسل، والله عزّ وجل يبلِّغ الأنبياء وصفوته من خلقه عن طريق سيدنا جبريل، أو التكليم، وهم يبلِّغون البشر، وهذا اتجاه آخر بالآية..

اختار الله تعالى الأنبياء لتبليغ رسالته لأنهم معصومون وقِمَمٌ في معرفة الله وطاعته:

(إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51))

فالوحي تبليغ السماء للأرض، خالق الكون خلق الخَلق ألا ينبغي لهم أن يبلِّغهم ؟ لماذا خلقهم ؟ وماذا يريد منهم ؟ ألا ينبغي لهم أن يعرّفهم بذاته ؟ وبأمره ونهيه، بما أعدّ لهم بعد الموت ؟ فالله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي بلّغ الخلق لماذا خلقهم ؟ وماذا أوجب عليهم ؟ وما الذي يشقيهم ؟ وما الذي

يسعدهم ؟ وماذا بعد الموت ؟ وأين كانوا بعد الموت ؟ ومن الذي خلقهم ؟ وأسماؤه وصفاته، هذا هو مضمون الوحي..

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلَّا وَحْيًا)

أما عن غير طريق الأنبياء فهذا كلّه دَجَل، فالسماء لا تتصل بالأرض (أي بالخلق) إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين، وكل العلماء يجب عليهم أن يأخذوا عن الأنبياء، فالعالم ناقل ولكن لا يوجد عالم يأتيه الوحي أو يبتدع شيئاً، لأن الأنبياء معصومون..

(إِنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

فالأنبياء معصومون، وهم قِمَمٌ في محبة الله، وقِمَمٌ في معرفة الله وطاعته، والإخلاص له، ولذلك اصطفاهم وجعلهم أنبياءه ورسله، وأوحى إليهم، وأيّدهم بالمعجزات، وأمرهم بالتبليغ، وعصمهم عن الخطأ إذاً لا طريق نأخذ منه الحق إلا عن طريق الأنبياء، أما أي شخص آخر مهما كان عظيماً، ومهما كان عبقرياً، أو ذكياً، أو مُطّلعاً، أديباً كبيراً أو مصلحاً اجتماعياً فهو يخطئ ويصيب، ونأخذ ما هو حق وندع ما هو باطل.

دور العلماء دور التبيين فقط:

هناك نقطة مهمّة جداً، إذا اعتقدنا أن هناك جهة أخرى يمكن أن تستقي منها المعرفة، والمَنهج، والحقائق نكون دخلنا في متاهات لا تنتهي، ونحن لا نعتقد إلا أن الحق من عند الله، وعن طريق الأنبياء، ومهمة العلماء التبيين فقط، فالعالِم الحقيقي عبارة عن لوح بلور شفّاف، يشفُّ عن دعوة الأنبياء، فلا شيء من عنده إطلاقاً، وكما قال سيدنا الصديق: **" إنما أنا متبع ولست بمبتدع ".** أي إنسان مهما علا شأنه في الحياة لا يمكن أن يأتي بجديد..

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: من آية " 3 ")

وانتهى الأمر، فدور العلماء دور التبيين، ولا يجوز لإنسان أن يقول لك شيئاً من دون دليل، ومن هو حتّى يقول لك: هذا من عندي ؟ وما جاءنا عن صاحب هذه القبّة الخضراء فعلى العين والرأس، وما جاءنا عن غيره فنحن رجال وهم رجال، كل رجلٍ يؤخذ منه ويُردُّ عليه إلا صاحب هذه القبّة الخضراء، لأنه معصوم.

أمانة الأنبياء أمانة التبليغ وأمانة العلماء أمانة التبيين:

قال لك:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: من آية " 7 ")

وانتهى الأمر، قال لك:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: من آية " 21 ")

هو يأمرك وينهاك، وتقتدي بسيرته، ونأخذ عنه جميعاً، والعلماء كلُّهم عالةٌ على رسول الله يأخذون منه، ويوضِّحون للناس سُنَّته، وانتهى دورهم، أما هل يستطيع عالم أن يقول لك: خذ هذا من عندي ؟ لا، فالعلماء دورهم دور النقل والتبيين، والأنبياء دورهم دور تلقِّي الوحي والتبليغ، فأمانة الأنبياء أمانة التبليغ، وأمانة العلماء أمانة التبيين..

(لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 187 ")

هذا هو الوحي، فليس هناك حق من غير طريق الوحي، وهناك دجاجلة مضللون، وأصحاب أهواء، وأصحاب مصالح، ودجّالون، ومنحرفون، وأفّاكون، فلا نأخذ الحق إلا من الله عن طريق الوحي، وعن طريق فهم الأنبياء لهذا الوحي. وعندنا أصلان كتاب الله وسنة رسوله، ما إن تمسّكنا بهما فلن نضلّ بعدها أبداً، ولا يمكن أن يستمر الدين كما بدأ إلا بهذه الطريقة، ألا نضيف عليه شيئاً وألا نحذف منه شيئاً.

حياة قلب الإنسان لا تكون إلا بهذا الدين العظيم:

وآخر آية:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (52))

(سورة الشورى)

كلمة:

(روحاً)

أي أن هذا الوحي بمجمله، فالقرآن بمجمله، والسنة التي بيّنته بمجملها سمّاه الله روحاً، أي يهبك الحياة، كنت ميتاً قبل هذا الوحي، فأحياك الله بهذا الوحي، إذاً هو روح..

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (52))

(سورة الشورى)

هذا روح، أي أن حياة القلب بهذا الدين، وهذا القرآن..

عدم معرفة النبي الكريم تفاصيل الدعوة إلى الله حتى جاءه أمر الله تعالى:

(مَا كُنْتَ (52))

(سورة الشورى)

يا محمّد..

(مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ (52))

(سورة الشورى)

النبي عليه الصلاة والسلام وبقية الأنبياء معصومون قبل البعثة، أما هنا..

(مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ (52))

(سورة الشورى)

تعني شيئاً آخر، أي أنت مؤمن بالله، محبٌ له، محسن لخلقه، لكن تفاصيل الشريعة ما كنت تعرفها، وطريق الدعوة إلى الله لا تعرفه..

(مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ (52))

(سورة الشورى)

فهذا الكتاب بتفاصيله، بالعبادات الشعائريّة، وبالعبادات التعامليّة، وبالأمر، والنهي، والأخلاق، والمعاملات، والعقائد، وهذا الكتاب ما كنت تعلمه يا محمّد.

وما كنت تعلم أيضاً كيف تدعو إلى الله.

قدوم الوحي بتفاصيل الشريعة و الطريقة في الدعوة إلى الله:

جاءك الأمر: افعل كذا، ادع كذا، خاطب الناس بهذه الطريقة..

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة النحل: من آية " 125 ")

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 159")

أي جاء الوحي بتفاصيل الشريعة وبتفاصيل الطريقة في الدعوة إلى الله..

الدعوة إلى الله تعالى مآلها صراطٌ مستقيم:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)

نور.

تصوَّر إنساناً ماشياً في طريق فيه ظلام دامس، وبهذا الطريق حفر، وأكمات، وصخور، ومنزلقات، ووحوش، وحشرات قاتلة، فلو أن معك مصباحاً منيراً، فهذا المصباح المنير يقيك الوقوع في الحفرة، والارتطام بالصخرة، ويقيك أن تلدغك الحشرة، وكل هذه الأخطار تتلافاها بهذا النور.

من سار إلى الله تعالى وصل إلى طريق الجنة:

الصلاة نور كما قال عليه الصلاة والسلام، والمؤمن مستنير يرى الحق حقاً والباطل باطلاً، قال:

(جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(52))

(سورة الشورى)

هذه الدعوة مآلها صراطٌ مستقيم ومعنى مستقيم أي أقصر الطرق إلى الله..

(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ(53))

(سورة الشورى)

أي أنت يا محمَّد تهدي إليَّ، وكل دعوتك مآلها إليَّ، وأنتم أيها المؤمنون حينما تتلقون هذا الوحي بالفهم للقرآن والتطبيق، فأنتم تسيرون في الطريق إلى الله، فبالتعبير الدارج: فهل تعرف مع من أنت ماشٍ ؟ أنت ماشٍ بطريق يوصل إلى الجنَّة..

((إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ))

[من سنن الترمذي: عن " صفوان بن عسَّال المرادي "]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1-8 ،القرأن الكريم لا يعلو عليه شيء وحكيم يضع الأمور في نصابها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-05-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الزخرف.

الحروف التي في أوائل السور هي دليل إعجاز القرآن وسبيل الإيمان به:

الحروف التي ترد في أوائل السور كما سبق أن قلنا إن من تفسيراتها أن الله أعلم بمرادها، ومن تفسيراتها أن هذا القرآن المعجز إنما نظم من هذه الحروف التي بين أيديكم، ومن معاني هذه الحروف أنها أوائل لأسماء الله الحسنى، ومن معاني هذه الحروف أنها أوائل لأسماء الرسول عليه الصلاة والسلام، والقرآن كما قال الإمام علي كرم الله وجهه:

" القرآن حمّال أوجه."

على كلّ كما أن التراب نفخ الله فيه فإذا هو بشر سوي، إنسان يفكر وفي دماغه مليارات الخلايا، فيه أجهزة، له أعضاء، له عظام، له عضلات، فيه أوردة وشرايين وأعصاب حسّ وأعصاب حركة وغدد صماء، يعني شيء يعجز الفكر عن إدراكه، من تراب، فكذلك جعل من هذه الحروف كتاباً لله معجزاً وهي بين أيدينا، فالتراب بين أيدينا، وعندنا الدليل قريب، فمثلاً هذه البقرة ماذا تأكل ؟ الحشيش الأخضر، أو العلف، العلف بين أيدينا هل بإمكاننا أن نصنع منه حليباً ؟ الدجاجة ماذا تأكل ؟ تأكل هذا الطعام الذي نضعه لها، هل بإمكاننا أن نأخذ هذا الطعام ونصنع منه بيضاً ؟

هناك إعجاز في الخلق، فكما أن الله سبحانه وتعالى صنع من مواد بين أيدينا شيئاً معجزاً، كذلك هذه الحروف بين أيدينا، فكان هذا القرآن الكريم ومن تلك الحروف معجزاً، سبيل الإيمان به إعجازه.

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

الإيمان هو حقائق مدعمة بالأدلة والبراهين وليس كلاماً يُلقى:

قد يقول قائل: المؤمن ينبغي أن يعلم علم اليقين أن هذا الكلام كلام رب العالمين بالدليل، أما الإدراك الفطري البسيط فلم يعد قادراً على الوقوف أمام الشبهات، أمام الضلالات، أمام النظريات الهدّامة، ربما

كان التقليد قبل خمسين عاماً ينفع صاحبه، أما الآن فمن كان إيمانه إيماناً تقليدياً فهذا التقليد لا ينفعه ولا يمنعه من أن ينحرف، إلا أن يكون له إيمان تحقيقي دقيق مدعم بالدليل والبرهان، فالقضية دقيقة جداً، إنّ هذا الكلام كلام الله، وينبغي على كل منا أن يسأل نفسه: ما الدليل عندي على أنه كلام الله ؟ لأنه لما يأمر الله فهو أمر خالق الكون، ولما ينهَ فهو نهيُ خالق الكون، ولو أن الإنسان تحقق أن هذا القرآن كلام خالق الكون فلا يمكن أن يعصيه، كما أنه لا يمكنك أن تعصي مخلوقاً قوياً، إذا تحققت أن هذا الإنسان قوي وهو يفعل ما يقول، فهذا الذي يتجرأ ويعصي أمر الله عز وجل في هذا القرآن فهو بحاجة إلى تحقق وإلى تثبت.

وأنا لا أريد أن أقول لكم أنه يجب ألا نقرأه قبل أن نؤمن بأنه من عند الله، لا، لكن احذروا أن يكون إيمانكم إيماناً ساذجاً، إن كان عندك دليل قطعي أن هذا القرآن كلام الله فهذا أحد أبواب الإيمان، وأحد أركان الإيمان أن تؤمن بوجود الله وكماله ووحدانيته، وأحد أركان الإيمان أن تؤمن بكتبه، وأحد أركان الإيمان أن تؤمن بأنبيائه، وأحد أركان الإيمان أن تؤمن أن القدر خيره وشره من الله عز وجل، هذه أركان الإيمان، فأحد أركان الإيمان الخمسة الإيمان بالكتاب.

على كل ليس موضوعنا في هذا الدرس الأدلةُ التي يقوم عليها الإيمان بهذا الكتاب، ولكن هذا موضوع ينبغي أن نفكر به، وإذا وصل الإنسان إلى دليل قطعي تخضع له النفس على أن هذا القرآن كلام الله فقد قطع شوطاً على طريق الإيمان، الإيمان حقائق مدعمة بالأدلة والبراهين وليس كلاماً يلقى، وليس موضوعاً يُقبل من دون أدلة وبراهين.

يعني مثلاً: إن الله عز وجل يشهد لنا أن هذا القرآن كلامه، كيف ؟ خذ آية من كتاب الله:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً(97))

(سورة النحل 97)

بعض الأدلة على أن القرآن هو كلام الله:

لو أن شاباً استقام على أمر الله واصطلح معه وفعل ما أمر الله وانتهى عما نهى عنه وزجر وعاش حياة طيبة، هذه الحياة الطيبة التي ذاقها وعاشها هي شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، وإليك مثلاً آخر إذا دخل الطلاب إلى قاعة التدريس ورأوا أنه قد كتب على السبورة: غداً الأحد الساعة الأولى مذاكرة في مادة الجبر، فحينما دخلوا ورأوا هذا الكلام على السبورة، ترى أهذا كلام الأستاذ أم أن طالباً يمزح كتبه ؟! ما الذي يؤكد أن هذا كلام الأستاذ ؟ يوم الأحد الساعة الثامنة، إذا دخل أستاذ الرياضيات وذكرهم بالمذاكرة وطلب أن يهيئوا الأوراق والأقلام وأن يضعوا الكتب بعيداً عنهم وأملى عليهم

الأسئلة هذا الحدث يؤكد أن الكلام الذي كتب البارحة هو كلام الأستاذ وهذه الآية أحد الأدلة على أن القرآن كلام الله فاقرأ:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا(124))

(سورة طه 124)

فأيّ إنسان إذا كان يحيا حياة ضنك لأنه أعرض عن ذكر الله، هذه الحياة الضنك هي شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، هذا دليل كما قال الله عز وجل:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ(39))

(سورة يونس 39)

وتأويل القرآن وقوع وعده ووعيده، إتلاف مال المرابي شهادة الله لعباده أن القرآن كلامه، الحياة الطيبة التي يحياها المؤمن شهادة الله لعباده أن القرآن كلامه، المعيشة الضنك التي يحياها الكافر شهادة الله للعباد أن هذا القرآن كلامه، نمو مال الصدقة شهادة الله لعباده أن القرآن كلامه، المال إذا نما بعد صدقة وبعد إنفاق فهذا دليل أن القرآن كلام الله، لأن الله عز وجل قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ(276))

(سورة البقرة 276)

فأية آية في القرآن الكريم تؤكد الأحداث الكونية أو غير الكونية مضمونها فهذا دليل على أن القرآن كلامه.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

إن رأيت قرية انغمست في الرذيلة والفساد والانحطاط والعدوان، ثم أهلكها الله بوباء أو بحرب أهلية أو بحرب كونية أو بفيضان أو بزلزال أو بصاعقة فهذا الذي وقع دليل أنه كلام الله.

إيمان المؤمن بكتاب الله كإيمانه بوجوده:

وإني أتمنى على كل أخ كريم أن يكون إيمانه بهذا الكتاب كإيمانه بوجوده، كيف قال ديكارت: أنا أفكر فأنا موجود، كذلك إيمان المؤمن بهذا القرآن ينبغي أن يكون كإيمانه بوجوده، وإذا كان الإنسان لديه ارتياب بالقرآن الكريم فما عليه إلا أن يشمر ويبحث عن الحقيقة، لأنه من جاهد في سبيل هذه الحقيقة وصل إليها.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

(سورة العنكبوت)

ليس معقولاً أن يتعامل الإنسان مع أموره الدنيوية بحزم وبتدقيق وبحث ودرس واستنباط وتوقع، ونشاطه في الحياة الدنيا منضبط، وأن يتوانى في أمور الآخرة ويتقاعس عن أمور الدين، فهذا ذنب كبير وتقصير مرذول.

((ابن عمر، دينك دِينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

أن يتعامل الإنسان مع أمور الدين بتهاون وعفوية ومن دون تحقيق فهذا شيء غير معقول. ذات مرة قال لي شخص ويدينه أمام نفسه غداً كما يدينه عند الله تعالى، هذه كلمة: ما ذنب الإنسان لو التقى صدفة بعالم متساهل في أمر ما، وسأله في مثل هذا الموضوع فأفتى وتساهل في فتواه فالذنب عليه، قلت له: لا تأخذ عنه، فأنت المسؤول وفي عنقك إثم، قال: كيف ؟ قلت له: لو أن عندك بيتاً وأردتَ أن تبيعه، وفي اليوم الذي أردت أن تبيع هذا البيت التقيت صدفة بدلال وقال لك ثمنه مليونان، فهل تبيعه هذا البيت عند أول تثمين ؟ لا، فلماذا في أمر البيت تسأل دلالين أو أكثر، وتسأل أصدقاءك والجيران، وغيرهم، وغيرهم، فلماذا في أمور بيع البيت تأخذ الاحتياطات، وتتأكد، وتطلب التواتر، وتطلب الحل الوسط ؟ وهكذا لتكن آخرتك غالية عندك:

((ابن عمر، دينك دِينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

ربنا سبحانه وتعالى يقسم تارة ولا يقسم تارة أخرى:

إذاً ربنا سبحانه وتعالى يقسم بالكتاب المبين، وكما تعلمون أن الله يقسم أو لا يقسم

ويقول أحياناً:

(والشمس وضحاها(1))

(سورة الشمس)

ويقول أحياناً:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75))

(سورة الواقعة)

فإذا أقسم فليلفت نظرنا إلى عظمة هذا الشيء بالنسبة إلينا لا بالنسبة إليه، وإذا لم يقسم فليلفت النظر إلى أن هذا الشيء بالنسبة إلى الله لا شيء، وبعضهم قال: أنه إذا قال فلا أقسم لها معنى آخر، بمعنى أن هذا الشيء بنصاعته ووضوحه وثبوته لا يحتاج إلى قسم، الإنسان أحياناً يقول هذه القضية لا تحتاج إلى نقاش يعني واضحة كالشمس، ربنا عز وجل يقول هنا:

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2))

(سورة الزخرف)

المنهج الذي أنزله الله على أنبيائه كتاب مبين له صفة الديمومة:

هذا يعني أن ربنا عز وجل لما خلق الإنسان أعطاه منهجاً، والمنهج مكتوب، والكتابة للثبات والديمومة، وبحسب مفهومنا إذا الشيء وثِّق بالكتابة فهو يعني أنه ثابت ودائم، وإذا الشيء كان شفهياً فهو متبدل وزائل، والإنسان ألف أن الشيء المكتوب أثبت، فربنا عز وجل يخاطبنا بحسب مفاهيمنا، فهذا المنهج الذي أنزله الله على أنبيائه كتاب مبين، يعني شيء واضح ثابت له صفة الديمومة والثبات.

وقال بعض العلماء الكتاب في الآية هو الكتاب السماوي، فكلمة الكتاب إذا أطلقت انصرفت إلى كل الكتب السماوية، وأما المبين: واضح البيان يعني معظم آيات القرآن الكريم بينة وواضحة، يعني محكمة لا لبس فيها، لا تحتاج إلى تفسير ولا إلى زمخشري ولا إلى قرطبي بل هي واضحة وضوح الشمس، لكن بعض الآيات المتعلقة بالذات الإلهية فهذه الآيات قد تحتاج إلى بيان، قال تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(43))

(سورة النحل)

أما آيات الحلال والحرام، وآيات التكاليف، والآيات التي تبنى عليها أصول العقيدة فهذه آيات واضحة وضوح الشمس.

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2)إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(3))

(سورة الزخرف)

اللغة العربية واسعة التعبير وتعبر عن أدق المعاني:

هذا القرآن الكريم بلسان عربي مبين، يعني ربنا سبحانه وتعالى شرفنا حينما جعل كلامه باللغة العربية، ويبدو أن اللغة العربية في أعلى مستويات اللغات الإنسانية، وقد درسنا في الجامعة أن هذه اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية، ليس هذا قول العرب أنفسهم ولكنه قول الأجانب، قول علماء اللغة، وليس المجال الآن مجال الحديث عن خصائص اللغة العربية، فهذه اللغة تتمتع بصفات مذهلة من أولى هذه الصفات: التصريف، يعني خذ الفعل مثلاً، فمنه ؛ الفعل الماضي والمضارع والأمر، ومنه فعل ماض ثلاثي، وماض رباعي، وماض خماسي، وماض سداسي، وكل حرف يزاد على الفعل يقابله زيادة في المعنى، فكتب: لها مدلول، لكن (كاتَبَ) لها مدلول آخر، (كاتَبَ) فعل يفيد المشاركة يعني كتبت إليه وكتب إليّ، أما (كتب) فمن جهة واحدة، (تكاتب) تعني شيئاً آخر، (استكتب) مدلولها مدلول

آخر، وعندنا اسم فاعل، واسم مفعول، واسم زمان، واسم مكان، واسم تفضيل، واسم آلة، ومصدر مرة، ومصدر هيئة، كل هذه الصيغ سواء كانت فعلية أو اسمية جاءت من فعل (كتب).

بنية الكلمة تتبدل وتعطي عدة معان:

وهناك طرق كثيرة تتبدل فيها بنية الكلمة وتعطي معنى آخر، وأحياناً ضمة تغير معنى الكلمة، يعني يُثني غير يَثني، أثنى عليه مدحه، أثنى يُثني، لكن ثنى القضيب يثنيه، فالضمة غير الفتحة، فهناك شواهد كثيرة جداً، أحياناً تقول في اللغة العربية (نظر) إلى الشيء وأحياناً تقول (لمح)، (فلمح) تفيد أنك نظرت ثم أعرضت، لو أن باباً مفتوحاً ومن خلفه امرأة فالمؤمن لمحها بمعنى أنه بمجرد أن عرف أن هناك امرأة غض بصره عنها، هذا معنى لمح، لكن معنى لاح شيء أي ظهر واختفى، التبدل في لمح من الناظر، والتبدل في لاح من المنظور.

وهناك (حدَجَ):

((حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم))

[ورد في الأثر]

ومعناها النظر مع المحبة، وهناك (شَخَصَ) وهو النظر مع الخوف.

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا (97))

(سورة الأنبياء)

وهناك (رنا) وهي النظر مع السرور، إنسان نظر إلى منظر طبيعي، أو شيء جميل، مثلاً سهل أخضر ووراءه جبل مسنن والجو لطيف، يقول رنوت إلى المنظر، (رنا) غير (حدج) غير (لاح) غير (لمح)، وهناك (حملق) يعني ظهر حملاق عينه الأحمر، وهناك (بحلق) اتسعت حدقة العين، وهناك (استشرف) تمطى مع النظر، وهناك (استشف) حرك يديه مع النظر، وهناك نظر شزراً مع الاحتقار، وهناك خمسون فعلاً للنظر في اللغة العربية، اللغة العربية كما يقول علماء اللغة واسعة التعبير، فيها سعة تمكن الكاتب أن يعبر عن أدق المعاني، فلما قال الله عز وجل:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(17)قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(18))

(سورة طه)

لو أننا بدلنا كلمة (أهشّ) بكلمة (أضرب) لما أمكن، لأن (ضرب) غير (هشّ)، (لوحّ) غير (هشّ)، (هشّ) أي وضع العصا على كتف الدابة من دون أن يؤلمها، أهشّ بها على غنمي، معنى دقيق جداً، وليس لدينا مجال لبحث هذا الموضوع لأن هذا علم قائم بذاته اسمه فقه اللغة العربية، وموضوعه

الحديث عن خصائص اللغة العربية في التعبير، وهناك خصائص أخرى دقيقة جداً منها أن الفعل الثلاثي مثل (علم) له ستة تقاليب: علم، لمع، وهذه التقاليب لا بدّ من أن نلمح فيها معناً واحداً، قاسماً مشتركاً بين كل التقاليب، وهذا يترك للاختصاصيين في اللغة العربية.

ثبات اللغة العربية واتساعها:

هناك ظاهرة الإعراب في اللغة، وظاهرة الاشتقاق، والثبات في اللغة العربية في التعبير، هل تصدقون أن آداب اللغة الإنكليزية التي كتبها شكسبير وأمثاله في القرن السادس عشر الميلادي لا يمكن أن تُقرأ اليوم أبداً إلا مترجمةً من اللغة الإنكليزية إلى اللغة الإنكليزية معنى ذلك أن هذه الإنكليزية متبدلة، سريعة التبدل، بينما اللغة العربية ليست كذلك ؛ طلابنا في الصف العاشر يقرؤون شعر امرئ القيس الذي قيل قبل ألف وخمسمئة عام، في حين أن ما كتبه أدباء الإنكليزية في القرن السادس عشر لا يمكن أن يُقرأ اليوم إلا مترجماً، من اللغة الإنكليزية إلى اللغة الإنكليزية، لكن ما كتبه شعراؤنا في الجاهلية يقرؤه طلابنا في مدارسهم كما لو أنه كتب اليوم، وهذا البيان لامرئ القيس مثال واضح:

ألا أيـها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثـل

فيا لك مـن ليـل كأن نجـومه بكـل مغار الفـتل شُدّت بيذبـل

* * *

هذا شعر قيل قبل ألف وخمسمئة عام، فثبات العربية في التعبير واتساعها في التعبير، وظاهرة الإعراب، يعني حركة واحدة كلها خصائص متفوقة.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ(28))

(سورة فاطر 28)

هذه الفتحة على كلمة (الله) تعني مفعولاً به مقدماً انتهى الأمر.

على كل أحياناً كلمة واحدة مثلاً: (حسَب) يعني عدّ، طيب (حسِب) بالكسرة ظنّ، و(حسُب) يقول لك أنا ابن فلان أي افتخر بحسبه، وأما (حسبُك) اكتف، و(قدَم) سبقه بقدمه، (قدِم) أصبح قديماً حركة واحدة اختلفت فغيرت المعنى، وكذلك بين (منصِب رفيع) و(منصَب) هناك اختلاف في المعنى، والاختلاف كبير بين الكلمتين، فاللغة العربية دقيقة جداً، والإنسان حينما يتبحر في اللغة يرى شيئاً لا يقدر بثمن.

إتقان قواعد اللغة والتعبير شرط أساسي ولازم لفهم النصوص القرآنية:

ربنا عز وجل شرفنا حيث جعل كلامه باللغة العربية، لكن ماذا يستنبط من قوله تعالى:

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا (3))

(سورة الزخرف)

يستنبط أن هذا القرآن لا يفهم إلا وفق قواعد اللغة، يعني إتقان قواعد اللغة وإتقان مدلولات الكلمات وإتقان أساليب العرب في التعبير وهذا شرطٌ أساسي ولا أقول: (شرط كافٍ) بل هو شرط لازم وأساسي لفهم النصوص القرآنية.

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(3))

(سورة الزخرف)

فهم كلام الله يتم وفق قواعد اللسان العربي المبين ثم الحكم الشرعي:

شيء آخر، إذاً لا يمكن أن نفهم كلام الله عز وجل الذي أنزله بلسان عربي مبين إلا وفق قواعد هذا اللسان العربي المبين أولاً، ثم الحكم الشرعي ثانياً، أي لا يمكن أن نأتي نحن بفهم جديد لكتاب الله، وقد قرأ كتاب الله خمسة عشر جيلاً قبله، وفهموه على نحو واضح وصريح، يعني أنّ كل نظرية تبني تفسير القرآن على ما لم يُعهد عند الصحابة والتابعين وتابع التابعين فهي فهم خاطئ، فحين سمع هذا القرآن الكريم أجدادنا في العصور الأولى (وهم خير من يفهم اللغة) فإنهم فهموه على نحو معين، أما أن نأتي نحن الآن ونقول قراءة معاصرة ونفهم كلام الله على نحو مغاير لما فهمه السلف من قبل فهذا ابتداع شيطاني لا علاقة له بأصل اللغة.

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(3))

(سورة الزخرف)

يعني الأمور مُيسَّرة، والقرآن واضح ذو أدلة، وتعليلات وهناك آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات تشريعية، وآيات تاريخية، في آيات علمية.

(وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(4))

(سورة الزخرف)

القرآن يصدر عن مبادئ أساسية اعتمدها الله سبحانه:

أيها الأخوة. (أمّ الكتاب) بعضهم قال: يعني اللوح المحفوظ وقد تكون (أم الكتاب) هذه المبادئ الأساسية التي صدر عنها هذا الكتاب فمثلاً هناك عشرات المراسيم التشريعية، لكن كل هذه المراسيم

التشريعية إنما تنطلق من مادة واحدة في الدستور، هي أن التعليم حق لكل مواطن، مثلاً من حق المواطن الحرية، ففي الدستور مبادئ أساسية وهذه المبادئ تترجم إلى عشرات بل مئات القوانين التشريعية.

فهذا القرآن على ما فيه من سور وآيات هو في النهاية يصدر عن مبادئ أساسية اعتمدها الله سبحانه وتعالى لتكون علة الخلق وغاية الإيجاد.

(وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(4))

(سورة الزخرف)

يعني: القرآن عليٌّ لا يعلو عليه شيء، أي إذا وفِّق الإنسان في حياته الدنيا وفِّق إلى قراءة القرآن، إلى تلاوته حق التلاوة، وإلى فهمه حق الفهم، وإلى العمل به فما فاته شيء في الحياة الدنيا، فاعلم أن أعلى درجات العلم أن تفهم كلام الله، لأن فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، كم هي المسافة بين الخالق والمخلوق ؟ هي نفسها بين كلام الخلق وكلام الخالق.

فالذي يمضي وقته في قراءة قصة لكاتب قصصي، أو قراءة مسرحية، أو قراءة مقالة، ليس هناك مانع من أن تقرأ، لكن أن تنصرف إلى قراءة ما كتبه البشر وتعرض عن قراءة كلام خالق البشر فهذه خسارة كبيرة جداً، أن تنصرف إلى قراءة ما كتبه البشر وهم ضعاف يتناقضون أحياناً، يجهلون أحياناً، سطحيون أحياناً، ترى التناقض في كلامهم أحياناً، ترى اختلافاً في كلامهم، وقد ترى كتاباً غير وافٍ أو غير متوازن، فصل فيه عمق شديد وفصل هزيل، وقد يكون الكتاب سطحياً وليس فيه أدلة، ومن دون تطبيقات، وقد يكون مليئاً بالمتناقضات، هذا شأن كلام البشر، لكن لكلام خالق البشر شأن آخر أي لا ريب فيه البتة.

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(82))

(سورة النساء)

القرآن عليٌّ لا يعلو عليه شيء وحكيم يضع الأمور في نصابها:

لقد مضى على نزول هذا الكتاب ألف وأربعمئة عام ونيف، فهل في العلوم الكونية كلها حقيقة علمية واحدة تتعارض مع كلام الله ؟ مستحيل، هذا دليل على أنه كلام الله، وإليكم هذه الآية الفذة، ربنا قال:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

لو أن واحداً ركب طائرة جامبو أو كونكورد، أو ركب باخرة حمولتها مليون طن، أو ركب الحوامة فوق البحر، أو ركب قطاراً سرعته 360كم/سا، فكل هذه الوسائل تندرج تحت قوله تعالى:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

لأن الله عز وجل يعلم ما سيكون، لو كان هذا الكلام من عند رسول الله ما كان يعرف أن هناك وسائل أخرى سوف تكون، كذلك حينما تقرأ القرآن تمتلئ ثقة أنه كلام خالق الكون، ولديك إحساس فطري يدفعك إليه.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى(12))

(سورة يس)

من يجرؤ على أن يقول هذا الكلام من بني البشر جميعاً ؟ هذا من اختصاص الخالق، إذاً عليٌّ لا يعلو عليه شيء، حكيم يعني يضع الأمور في نصابها، الآية الفذّة أيها الأخوة:

(أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ(5))

(سورة الزخرف)

دليل قربك من الله عز وجل هو عقابه كلما أذنبت والتدقيق في الحساب معك:

والله إن هذا الكلام دقيق المعنى جداً، ما من مصيبة أشد على الإنسان من أن يكون خارج العناية الإلهية، يعني ضرب عنه الذكر صفحاً، كأن يقول لك أنا حذفت اسمك من جدولي، بالتعبير الآخر وضعت إشارة إكس على اسمك انتهى، فلما يكون الإنسان منصرفاً إلى الدنيا مصرّاً على الشهوات فالأمر مخيف جداً، وهو أن يخرجه الله عز وجل من مجال العناية المشددة.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

أخواننا الكرام. المؤمن الذي يعاقبه الله كلما أذنب، ويدقق معه الحساب كثيراً فهذا مؤمن قريب من الله عز وجل، إذا أحبّ الله عبده عجّل له بالعقوبة، إذا أحبّ الله عبده عاتبه في منامه، إذا أحبّ الله عبده ضيّق عليه أحياناً، أوحى ربك إلى الدنيا أن تضيقي وتشددي وتكدري وتمرمري على أوليائي حتى يحبوا لقائي، فكم يثلج الصدر أن تكون في عناية الله، بل أن تكون في عنايته المشددة، فالإنسان إذا أخطأ وعاقبه الله فلا يتبرم بل ليفرح لأن هذا يعني أنه مقبول ومرغوب ويُنتظر منه أن يكون مؤمناً كاملاً، والدليل هذه المعالجة وهذه التربية وهذا الاهتمام، والخطورة أن ينساق الإنسان وراء شهواته دون أن يعاقبه الله عز وجل، بل يترك حبله على الغارب، اقرأ قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ(44))

(سورة الأنعام)

أخطر شيء أن يطرد الإنسان من العناية الإلهية:

الخطورة كل الخطورة أن يطرد الإنسان من العناية الإلهية، وأن يطرد من العناية المشددة، وأن يفعل كل المعاصي دون أن يصيبه الله بمصيبة إذاً فقد وقع في فخ الاستدراج، وكمثال على العناية والاهتمام: أبٌ له ثلاثة أولاد ؛ ولد متفوق في الدراسة، وولدٌ ذو عاهة في دماغه، وولد ذكي ولكنه مقصر في الدراسة، تجد الأب ترك الأول والثاني، الأول تركه لأنه يسير وفق الهدف، وهو متفوق في قدراته العلمية ومتفوق في تحصيله الدراسي، والثاني تركه الأب دون أن يحاسبه لعجزه، أما الثالث الذي يتمتع بقدرات عالية لكنه مقصر، فيهتم به أبوه غاية الاهتمام لأنه يرجو منه خيراً إذا لاحقه.

فالله عز وجل إذا كان الإنسان مصرّاً على الدنيا، وليس فيه خير إطلاقاً يعطيه الصحة والجاه والمال والقوة، يعني بالتعبير العامي خذها وانمحق.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً (44))

(سورة الأنعام)

من غفل و انحرف عن منهج الله عالجه الله بعقاب و هذا دليل خير:

أما الإنسان الذي يحاسب حساباً عسيراً، ويدقق معه ويعاتبه، مرّة بمنام مخيف، ومرة بمشكلة تؤرقه، كلما غفل وكلما انحرف يعالجه العقاب فهذا دليل خير وأنك في العناية المشددة، وأنك في مجال رحمة الله، هذه رحمة الله.

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(147))

(سورة الأنعام)

بَأْسُ الله من رحمته، هنا:

(أَفَنَضْرِبُ عَنكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ(5))

(سورة الزخرف)

يعني رحمة الله تقتضي ألا يضرب الذكر عنّا صفحاً فإذا أسرفنا يعالجنا ولا يهملنا.

لهذه الآية عدة معان:

1 ـ المعنى الأول استنكاري:

أن هذا الاستفهام في الآية استفهام استنكاري، يعني رغم أن بعض الناس يسرفون في المعاصي فالله سبحانه وتعالى يؤدبهم ويقربهم، يسوق لهم من الشدائد ما يحملهم على طاعة الله.

2 ـ المعنى الثاني تهديدي:

يعني إذا أسرفتم في المعاصي نضرب عنكم الذكر صفحاً.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38)إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(39))

(سورة التوب)

الله عز وجل يسوق الشدائد للعبد، ويسوق له ما يؤلمه، ولكنه رغم الإيلام يبقى مصراً على المعصية، فإن أصرّ على ما هو فيه عندئذ يفتح الله له باب الدنيا إلى أن يأتيه أجله فيقصمه قصماً.

عقاب الله للمؤمن كلما أغضبه هو رحمة بالمؤمن ليكون في مرتبة عالية:

أخواننا الكرام. الأخ المؤمن الذي كلما أغضب الله أدبه فهذه رحمة من الله، وهذه عناية مشددة، وهذا لطف، وهذا يعني أنك مطلوب، وأنك مرغوب فيك، وأن فيك خيراً، وأنك مؤهل لتكون في مرتبة عالية، اسمعوا الآية الكريمة:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5))

(سورة القصص)

هذه الآية تكفي المستضعفين تثبيتاً، وتكفيهم أملاً بفرج الله فما دام الله عز وجل يريد بنا الخير وأن يرقى بنا ليعرفنا الحقيقة، وأن يحملنا على طاعته فمرحباً بهذا الذي يسوقه لنا، لكن الأكمل أن نسير إلى الله من دون سلاسل، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل، الأكمل أن نذهب إليه طائعين، راغبين، مخبتين.

العاقل من أتى ربه بمبادرة منه مختاراً لا مقهوراً:

إذا كنتم ترغبون في أن نلخص دروس عشرين سنة فاسمعوا هذا التلخيص: إما أن تأتيه مسرعاً، أو أن الله سبحانه وتعالى يأتي بك راكضاً، والأكمل أن تأتي من تلقاء نفسك، أي بمبادرة منك ومختاراً لا مقهوراً.

فهذه الآية لها معنيان، يعني ولو كنتم قوماً مسرفين فرحمتنا تقتضي ألا نخرجكم من عنايتنا المشددة، وهذا استفهام إنكاري:

(أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ(5))

(سورة الزخرف)

والمعنى الثاني إذا أسرفتم في المعاصي لم نعبأ بكم وأهملناكم وشأنكم تائهين نضرب عنكم الذكر وهذا تهديد.

(وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ(6))

(سورة الزخرف)

و(كم) هذه التكثيرية، يعني أرسلنا أنبياء كثيرين، فأحياناً تقول: كم كتابٍ عندي !. وقد تقول كم كتاباً عندك ؟ فهذه استفهامية، لكن كم كتابٍ عندي ! هذه اسمها خبرية أو تكثيرية.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت وليس خيار قبول ورفض:

(وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ(6)وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(7)فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ(8))

(سورة الزخرف)

معنى ذلك أن الإنسان مهما كذب، وأعرض، واستهزأ، فلا بدّ من أن يعترف بالحق، لكن بعد فوات الأوان، هذه الحقيقة أقولها كثيراً، وهي خطيرة جداً، خيارك مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض، الكأس أمامي فهل أشرب أو لا أشرب ؟ هذا اسمه خيار قبول أو رفض، لكن حيال فكرة الإيمان، فخياري مع الوقت، وليس خيار قبول أو رفض، الوقت يمشي شئت أم أبيت، بعد حين يؤذن العشاء فأنا خياري مع الوقت خيار انتظار، أما خياري مع هذا الكأس خيار شرب أو عدم شرب، خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط، يعني إما أن يؤمن في الوقت المناسب فيستفيد من إيمانه أشد الاستفادة ويسعد في الدنيا والآخرة، وإما ألا يؤمن في حياته، فيؤمن عند الموت ؛ لكن هذا الإيمان لا قيمة له ولا ينفعه أبداً، إذ جاء بعد فوات الأوان.

إن لم نؤمن عاجلاً فلا بد أن نؤمن متأخرين فنخسر الدنيا والآخرة:

هذه الفكرة أخطر فكرة يمكن أن تحرك الإنسان نحو الله عز وجل، فما من إنسان أشد كفراً من فرعون، يكفيه كفراً أنه قال أنا ربكم الأعلى، ومع ذلك حينما أدركه الغرق ماذا قال ؟

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس)

وهناك آيات كثيرة تحمل ذات المعنى، وحّد الرجل، لكن متى ؟ وهو يغرق، إذاً هل كان خيار فرعون مع الإيمان خيارَ قبولٍ أو رفض ؟ لا بل كان خيار وقت، لأنه ما آمن حينما دعي إلى الإيمان بل آمن حينما أدركه الغرق، ونحن إن لم نؤمن عاجلاً، فلا بدّ أن نؤمن متأخرين، لكن إن آمنا الآن نكسب الدنيا والآخرة معاً، وإن أخرنا الإيمان لحين الأجل نخسر الدنيا والآخرة معاً، إما أن تربح الدنيا والآخرة معاً وإما أن تخسرهما معاً.

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(7)فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ(8))

(سورة الزخرف)

الحكمة من بقاء آثار الأقوام الطاغية:

ربنا عز وجل شاءت حكمته في أن يترك هؤلاء الأقوام العتاة الطغاة آثاراً، تشهد لهم بقوتهم، يعني هل عندنا مهندس يستطيع أن يفتح نافذة في بناء تدخلها الشمس يوماً واحداً في العام كله، وهو يوم ميلاد إنسان ما، بناء نافذةٍ ضيقة بزوايا معينة بحيث تدخلها الشمس في العام كله مرة واحدة هذا شيء مذهل، وهذه النافذة ترمز إلى تاريخ محدد، وأصبح وجودها تاريخاً..

إذا ذهب زائر إلى الأهرامات ونظر إليها، فإنه يشاهد كلّ حجر تقريباً طوله خمسة أمتار وأحياناً ثمانية أمتار، عرضه أربعة أمتار، ارتفاعه متران، وقد حُمل من صعيد مصر، فعلى أي مركبات نقل والمسافة من النيل إلى منطقة الهرم كبيرة ؟ حوالي اثني عشر كيلو متراً فكيف نقل هذا الحجر، وعلام نقل ؟ ثم كيف وضع في قمة الهرم ؟ فالأهرام تعد من عجائب الدنيا السبع.

وأما الأنباط، فقد نحتوا الجبال بيوتاً وعمله أيضاً من عجائب الدنيا السبع، هؤلاء أقوام، ولما دخلنا إلى المتحف الفرعوني وجدوا الخبز الذي كانوا يأكلونه قبل سبعة آلاف عام رأيناه بأم أعيننا، وكذلك اللحم الذي كانوا يأكلونه قبل سبعة آلاف عام وجدناه محنطاً، وكذلك رأينا مركباتٍ، وألبسةً، ومذهبات، مما يذهل الإنسان، فهؤلاء أقوام لهم حضارات شاهدة على عظمتهم، ولكنهم بادوا.

وكذلك قلعة بعلبك التي فيها أعمدة ستة، كيف نحتت ؟ وكيف قطعت ؟ إنها شواهد تاريخية تكاد تنطق.

قراءة التاريخ تؤكد أن هؤلاء الأقوام كانوا أكثر قوة وبطشاً ومع ذلك أهلكهم الله بكفرهم:

(وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ(6)وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(7)فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ(8))

(سورة الزخرف)

يعني الإنسان، فقراءة التاريخ أو مشاهدة الآثار تقف بك أمام حقائق ناصعة تؤكد أن هؤلاء الأقوام كانوا أشدّ منا قوة وأكثر بطشاً ومع ذلك أهلكهم الله بكفرهم وعنادهم قال تعالى:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (19))

(سورة سبأ)

دخلنا قاعة في آثار الأنباط لا تقل عن حجم هذا المسجد منحوتة بالجبل الصخري، بأبعاد هندسية دقيقة جداً مكعب كامل، ليس بناء ولكنه نحت في الجبل، الأعمدة منحوتة من الجبل، التيجان منحوتة من الجبل، البيوت، الحمامات كلها منحوتة من الجبل، وبيوت منحوتة من الجبل ولها نوافذ تهوية وغرف عديدة ليس هناك بناء إطلاقاً، وإنما منحوتات!!.

(وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ(149))

(سورة الشعراء)

الأهرامات دليل، عاد وثمود دليل آخر.

(فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ(8))

(سورة الزخرف)

الاعتراف بوجود الله لا يكفي بل لا بد من الالتزام بمنهجه سبحانه وتعالى:

المشكلة أن هؤلاء الذين بطش الله بهم وأهلكهم ودمرهم لو سألتهم لأجابوك أنهم يقرّون بوجود الله، فاسمع قوله تعالى فيهم:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

فهل الاعتراف بوجود الله يكفي ؟ لا.. لا يكفي، الاعتراف بوجود الله لا يكفي ولا ينجي، لا بدّ من أن تلتزم منهج الله عز وجل، فإيمانهم هذا اسمه إيمان إبليسي، إبليس قال لربه:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

(سورة ص)

الاستقامة على أمر الله والتزام الأمر والنهي هو الذي ينجي من عذاب الله:

إبليس اعترف بوجود الله واعترف بعزته واعترف بربوبيته قال: ربي، وقال: فبعزتك، إذاً الاعتراف بوجود الله لا ينجي من هلاك الدنيا وعذاب الآخرة، الذي ينجي منهما أن تستقيم على أمر الله، وأن تلتزم الأمر والنهي، ليس الولي الذي يطير في الهواء ولا الذي يمشي على وجه الماء ولكن الولي كل الولي الذي تجده وقافاً عند الأمر والنهي.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9)الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10))

(سورة الزخرف)

هذا موضوع للتفكر فتفكروا فيه، كيف أن الله عز وجل جعل هذه الأرض ممهدة لحياتنا ؟ وجعلها منبسطة، فلو كانت الأرض كجدران مائلة من الصخور كيف نتحرك عليها ؟ وكيف نبني عليها البيوت ؟ لكنه سبحانه جعلها مسطحة، وجعل لنا التربة هشة، ولو أنها كانت صخرية فكيف نأكل ونشرب ؟ وجعل الأشياء مرتبطة بها عن طريق الجاذبية، هذا الكأس له وزن، ما معنى الوزن ؟ يعني لو تركناه لانجذب إلى مركز الأرض، يعني له قوة جذب، فكل شيء على سطح الأرض ينجذب إلى مركزها، لولا هذه القوة لما استقر شيء عليها وهذا يبدو واضحاً في مراكب الفضاء، فإذا تجاوزت المركبة الفضائية مركز الجاذبية الأرضي ولم تدخل في جاذبية القمر تصبح الحياة فيها صعبة جداً، الأشياء تطير لانعدام الوزن، فحالة انعدام الوزن صعبة جداً، الحاجات ترى عند السقف إذ ليس هناك وزن، وهذا الوزن له حدّ لو كان الكأس وزنه مئة كيلو فليس باستطاعتي أن أملأها، يعني أن هناك وزناً معقولاً يتناسب مع قدرة الإنسان، كما يتناسب مع قوة الجذب.

للأرض قوانين تحكمها لتناسب حياة الإنسان:

إذاً الأرض ممهدة، فهي مسطحة أولاً، ومؤلفة من تربة ثانياً، وثالثاً يلفّها هواء نتنفسه، وفيها ماء نشربه، والماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة، عذب فرات، وعلى سطحها بحيرات، وبحار، وجبال وكلها ذات آثار كبيرة في الطقس والمناخ، إضافة إلى النباتات والحيوانات، وقبتها سماء صافية، هذا معنى قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

ممهدة، مهيأة، وفيها المعادن من الرخيص المبذول كالحديد مثلاً، ومنها الثمين النادر كالذهب والفضة، وفيها معادن لينة كالرصاص سريعة الانصهار، ومعادن بطيئة الانصهار لها استعمال آخر، وفيها أشباه معادن، وفلزات، هذا كله يندرج تحت قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (10))

(سورة الزخرف)

وفيها وسائل لكسب الرزق، والممرات والوديان، ولها قوانين تحكمها، مثلاً قانون أرخميدس، فإذا وضعنا جسماً في الماء يطفو على سطح الماء بقدر وزن الماء المزاح، قوة دفع نحو الأعلى، إذاً لولا أن الماء يمتاز بهذه الخاصة لما أمكننا السفر عبر البحار والمحيطات، وعلى سطحها نزرع ونأكل، ونصيد السمك في البحار، ونبني البيوت من موادها الأولية للبناء، ومن موادها نكتسي ونلبس الملابس بأنواعه. فهذه سبل للكساء، وتلك سبل للغذاء، وسبل للبناء، وسبل لكسب الرزق، وسبل زراعية، وسبل صناعية، وسبل تجارية، وبحار، وبلاد، وأنهار، وجبال، هذا معنى قوله تعالى:

(وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (10))

(سورة الزخرف)

يعني: طرقاً، وهي إما طرق تعبرونها أو طرق لكسب العيش.

(لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10)وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(11))

(سورة الزخرف)

آيات ودلائل على وحدانية الله سبحانه:

تجد الأرض في الشتاء قاحلة، الأشجار يابسة، المنظر مكفهر، تهطل الأمطار الوفيرة، فتهتز الأرض، وتنبت النبات الأخضر، والأشجار تزهر وتورق وتثمر، كانت حطباً أصبحت أشجاراً مثمرة ذات أنواع منها التفاح والكمثرى الخ.. وفيها الفواكه التي تطيب بها النفوس، إذاً:

(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(11))

(سورة الزخرف)

الله من خلق هذا كله، الآيات صارخة لكن الإنسان الغافل لا يراها، والله هناك آيات في النبات تكفي لتجعل الإنسان يسجد لله عز وجل عمره كله، وآيات خلق الإنسان كافية وآياتٌ في طعامه وشرابه، وفي الحيوانات آيات، في النبات آيات، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(12))

(سورة الزخرف)

الآيات الكونية في القرآن هي موضوعات للتفكر:

أيها الأخوة الكرام. أعود فأذكركم بأن القرآن الكريم كثيراً ما يذكر الآيات الكونية، وهذه الآيات يمكن أن تكون موضوعات للتفكر، فعلينا أن نفصل فيها ما أمكن. قال سبحانه:

(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(11))

(سورة الزخرف)

ظاهرة الماء هذه من أضخم الموضوعات للتفكر، وكذلك ظاهرة الزوجية.

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (12))

(سورة الزخرف)

فنظام الزوجية في الخلق نظام دقيق وبديع.

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(12))

(سورة الزخرف)

كيف أن الماء يحمل الجواري المنشآت كالأعلام فهذا موضوع فسيح الجنبات أيضاً، وكيف أن هذه الحيوانات التي سخرها الله لنا نركبها وننتفع بها ونأكل من لحمها، فهذا كذلك موضوع واسع.

(لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13))

(سورة الزخرف)

ولنا عودة إلى هذه الآيات في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (2-9): تفسير الآيتان 9-14، تسخير كل شيء للأنسان بقدرة الله تعالى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-06-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الزخرف.

العلم ليس هدفاً وإنما وسيلة للعمل:

مع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

أيها الأخوة... العلم ليس هدفاً في ذاته إنما هو وسيلة، فتعلموا ما شئتم فو الله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم، إذا نمت ثقافة الإنسان ولم ينمُ مع ثقافته عمله لم يزدد من الله إلا بعداً، من ازداد علماً ولم يزدد هدىً أي لم يستفد من علمه لم يزدد من الله إلا بعداً، فالعلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إنما هو وسيلة للعمل، والعمل ثمن الجنة.

الأصل أن الإنسان خلق لجنّة عرضها السماوات والأرض، هذه الجنة يُؤَهل إليها بالعمل الصالح، والعمل الصالح سببه العلم الصحيح، فالعلم أولاً هو الباب الرئيسي، ولكن العلم وحده إذا اكتفينا به فلا قيمة له والدليل:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

الإنسان يرتقي عند الله بعمله الصالح وانضباطه وفق منهج الله:

ومع ذلك لم يستقيموا، ولم يتوبوا، ولم يُقبلوا، لذلك قال بعض العلماء: هذا الإيمان إيمانٌ إبليسيٌّ (منسوب إلى إبليس) لأنه قال: ربي، وقال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82))

(سورة ص)

إذاً الإنسان لا يرتقي عند الله بحجم معلوماته، وحجم ثقافته الإسلامية، بل يرتقي عند الله عز وجل بحجم عمله الصالح وانضباطه وفق منهج الله، هذا أول معنى يستفاد من تلك الآية.

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

***

يعني لو أن إنساناً على وشك الموت عطشاً، وعلم أن في هذه الجهة ماء عذب فرات ولم يتحرك إليه ومات عطشاً فذنبه أشد ممن لم يعرف ومات عطشاً، لذلك قال الله عز وجل:

(إِنّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النّارِ(145))

(سورة النساء 145)

الذين علموا ولم يعملوا هم المغضوب عليهم، الذي لم يعلم ولم يعمل هم الضالون، قال تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضّالِّينَ(7))

(سورة الفاتحة)

المغضوب عليهم علموا ولم يعملوا فهلكوا، الضالون لم يعلموا ولم يعملوا فهلكوا، النتيجة واحدة، بل إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

لا يُقبل الإنسان في الآخرة إلا بحدّ أدنى من معرفة الله وطاعته:

لذلك قال تعالى:

(وَالْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ(10))

(سورة فاطر)

وقال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبّهِ أَحَدًا(110))

(سورة الكهف)

وبهذا جاءت الآية الكريمة واضحة الدلالة:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا(19))

(سورة الإسراء 19)

لا يكفي أنك تريد الآخرة، ولكن سعى لها فلم يقل سبحانه: وسعى له، قال وسعى لها سعيها، فلها سعي خاص، لها شروط خاصة فلا يقبل الإنسان في الآخرة إلا بحدّ أدنى من معرفة الله وطاعته، هؤلاء قالوا:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنّ خَلَقَهُنّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

الانتماء الشكلي للدين لا يقدم ولا يؤخر:

وأنت لو تجولت في أرجاء العالم الإسلامي، فهل تجد فيه من أدناه إلى أقصاه من ينكر وجود الله عز وجل ؟ لا أبداً، وهناك من يؤدي بعض العبادات، وهناك من يرتدي مثل أزياء المسلمين، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود عن ابن عباس]

ونحن اليوم ألف مليون ومئتا مليون مسلم وليست كلمتنا هي العليا، معنى ذلك الانتماء الشكلي للدين لا يقدم ولا يؤخر، حينما قال الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي(55))

(سورة النور 55)

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح الذي يحتاج إلى نية خالصة وهي ملخص التوحيد:

إذاً مختصر الكلام، وملخص الملخص، والكلام المجدي حجمك عند الله لا بحجم معرفتك الدينية، وثقافتك، واطلاعاتك، ومعلوماتك، ومدى ما تعرف من كتب، ومدى ما قرأت، بل حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، والعمل الصالح يحتاج إلى نيّة خالصة، والنية الخالصة ملخص التوحيد، تسعى في طريق التوحيد فتخلص لله رب العالمين وتعمل الأعمال الصالحة فترقى عند الله، أما كثقافة إسلامية فمتوافرة والحمد لله، وهي كثيرة جداً، لكن هذه الثقافة وتلك العواطف لا تجدي في بناء رقعة الإسلام وعزة المسلمين.

يا إمام (والكلام للإمام الجنيد) من ولي الله ؟ أهو الذي يطير في الهواء ؟ قال: لا، أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال: لا، قالوا: مَن إذاً ؟ قال: الولي كل الولي من تجده وقافاً عند الحلال والحرام، أن يجدك حيث أمرك وأن يفقدك حيث نهاك.

يعني بكل بساطة اقرأ قول الله تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

بكل بساطة:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ(13))

(سورة الحجرات)

الإخلاص والعمل الصالح هما المقياس الحقيقي عند الله عز وجل:

تعليق قريب من موضوع الآية، النبي عليه الصلاة والسلام ألم يكن أعظم الخطباء قاطبة ؟ بلى، ألم يكن عالماً ؟ بلى هو أعلم العلماء، أفصح الفصحاء، أبلغ البلغاء، أعظم الخطباء، كان قائداً محنكاً، سياسياً ماهراً، كل الصفات كانت متوافرةً فيه، لما أراد الله عز جل أن يثني عليه بماذا أثنى ؟ بأخلاقه، قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

فالمهارات التي يكتسبها الإنسان بحكم عقله، وذكائه، وقوة إدراكه هذه لا ترفعه عند الله، ما الذي يرفعه ؟ إخلاصه وعمله الصالح، هذا المقياس الحقيقي عند الله عز وجل، فإذا أردنا أن نرتقي عند الله عز جل وقد أرشدنا النبي عليه الصلاة و السلام للطريق، فقال:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر]

إذا أردنا أن نرتقي عند الله هذا هو المقياس، فالكلام كثير، والكلام لا يقدم ولا يؤخر، وكلامٌ لا ينتهي، دعوةٌ باطلة خاضوا بحار الهوى دعَوْا وما ابتلوا:

كل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

***

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح الخالص لوجه الله، هذا كلام مختصر مفيد والدليل:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

الإخلاص محصلة التوحيد:

ومع ذلك لم يستقيموا، ومع ذلك لم يتوبوا، ومع ذلك لم يقبلوا، فهذا الكلام لنا جميعاً، حجمك عند الله لا بحجم معلوماتك بل بحجم أعمالك الخالصة، والإخلاص محصلة التوحيد، والتوحيد معرفة الله موجوداً وواحداً وكاملاً، تعرفه من خلقه ومن كلامه ومن أفعاله.

ثم إن ربنا عز وجل يعرفنا بذاته قال:

(لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

مَن هو العزيز العليم ؟ الآن الكلام اختلف:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ (10))

(سورة الزخرف)

إذاً هذا تعريف الله لذاته، لو كانت الآية (الذي جعل لنا) لكان هذا الكلام متابعةً لكلام المشركين ؛ بل هو كلام الله سبحانه:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

الأرض (مهد) لها عدة معانٍ:

والآن دقق النظر أيها الأخ في كلمة (مهد) المهد لمن ؟ للطفل الصغير، ومن الطفل الصغير بالنسبة لأبويه ؟ ما من شيء أغلى على الأب والأم من الطفل الصغير، لذلك المهد يهيأ ليحقق له كل وسائل راحته، فراش وثير، قماش ناعم، الغرفة دافئة، يعني يقدم المهد للطفل الصغير كل وسائل الراحة، فربنا عز وجل شبه الأرض التي نحن عليها بالمهد، فما وجه الشبه ؟ هذه الأرض سطحها مهد، إن الإنسان قد يركب طائرة يطير بها فوق مناطق وعرة لا يمكن أن يعيش عليها الإنسان، جبال كرؤوس المسننات، انحدارات قوية جداً، هذه المنطقة لا يمكن أن يعاش عليها، فلو أن الأرض كلها بهذا الشكل يستحيل أن نعيش عليها.

1 ـ المعنى الأول أنها مسطحة:

فأولاً معنى (مهد) أن الله سبحانه وتعالى جعل مساحات شاسعة منبسطة من أجل أن يسهل علينا أن نبني وأن نتحرك وأن نكسب رزقنا فالأرض مسطحة من معاني:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

2 ـ المعنى الثاني أنها ذات تربة زراعية قابلة للإنبات:

وأما التربة التي إذا زرعتها تنبت لك النبات الذي هو قوام حياتك فهذا من معاني أن الأرض (مهد) للإنسان، لو أن الأرض من صخر ماذا نـأكل ؟ كيف نعيش ؟ كيف نبني البيوت ؟ لكن الأرض جعلها الله تربة قابلة للإنبات، وقد مرت الأرض بحقب كثيرة حتى أصبحت بهذه الحالة التي نحن عليها.

3 ـ المعنى الثالث أن الأرض مستقرة:

شيء آخر، هذا السكون التام، فلو أن الأرض تهتز دائماً لما استقر عليها بناء، والأبنية تتصدع، لكن الأرض جعلها الله (مهداً) بمعنى أنها منبسطة، وأن قوامها تربة تصلح للإنبات، وأنها مستقرة مع أنها تدور حول الشمس بسرعة تقدر بـثلاثين كيلو متراً في الثانية الواحدة، طبعاً الطائرة تهتز، والقطار يهتز، والسيارة تهتز ومع الاهتزاز فالأشياء لا تستقر عليها فهي كانت قلقة بحركتها، لكن الأرض تبني عليها البناء فيبقى إلى ما شاء الله، ونعمة الاستقرار نعمة من خلق الله عز وجل، وإذا لم نعرف قيمة هذه النعمة فقد رأينا ماذا تفعل الزلازل في بعض البلاد، بناء شامخ بأقل من ثلاثين ثانية يصبح أنقاضاً بعضها فوق بعض.

4 ـ المعنى الرابع أن الأشياء التي على الأرض مستقرة أيضاً بفعل قوة جذب الأرض لها:

وهذا شيء آخر ؛ الأرض مستقرة، وقد قال الله عز وجل:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا(61))

(سورة النمل)

حركة مع السكون، سكون حركة، حركة ساكنة، هذه أرقى أنواع الحركة، تتحرك بثلاثين كيلو متراً في الثانية ومع ذلك الأرض مستقرة استقراراً تاماً.

شيء آخر، هذا القلم إذا وضعته على الطاولة يبقى في مكانه ولا يطير، ما الذي جعله في المكان لا يتزحزح عنه ؟ قوة جذب الأرض له، إذاً من نعم الله الكبرى أن الأرض تجذب كل شيء على سطحها إلى مركزها، فهذه نعمة أخرى.

إذاً معنى أن الأرض (مهد) أولاً هي مسطحة، ثانياً ذات تربة زراعية تنبت لنا الطعام والشراب، ثالثاً مستقرة، رابعاً الأشياء التي عليها أيضاً مستقرة بفعل قوة جذب الأرض لها، ثم إن هذه الأرض تتحرك، ومن حركتها ينشأ الليل والنهار، ومن دورتها حول الشمس تنشأ الفصول الأربعة، ومن ميل محورها ينشأ اختلاف الليل والنهار، هذه كلها من معاني قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

شيء آخر، هذه الطبقة الهوائية التي تلفُّ الأرض من أوجدها ؟ فالهواء قد لا نعرف قيمته، إن الهواء ليحمل طائرة وزنها 350 طن وعلى متنها خمسمئة راكب مع أمتعتهم على ارتفاع أربعين ألف قدم، هذا هو الهواء، والله سبحانه لطيف والهواء يمثل لطف الله عز وجل، لا يحول بينك وبين الآخرين فلا

يشكل حاجزاً، لكنه شيء مهم جداً، بحيث لو أن مركبة فضائية أدخلت مجال جو الأرض لاحترقت باحتكاكها بالهواء، فالهواء نستنشقه، ونسبه ثابتة أكسجين وغاز الفحم، هذه النسب الثابتة بفضل أن النبات يعمل عكس عمل الإنسان، النبات يأخذ غاز الفحم ويطرح الأكسجين، نحن نأخذ الأكسجين ونطرح غاز الفحم، فالهواء إذاً آية تندرج تحت قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

الماء، الهواء، الحركة، الحرارة وغيرها من معاني أنها (مهد) للإنسان:

وكذلك الماء الذي على سطح الأرض، هذه المساحات الواسعة جداً من المياه التي تحويها المحيطات من أجل أن تتبخر فتكون غيوماً، فتكون أمطاراً تحيا بها الأرض في بقاع أخرى، إذاً ماؤها من معاني أنها (مهد) للإنسان، وهواؤها من معاني أنها (مهدٌ) للإنسان، وحركتها التي ينشأ عنها الليل والنهار والفصول الأربعة من معاني أنها (مهد) للإنسان، وجاذبيتها للأشياء التي عليها من معاني أنها مهد للإنسان، واستقرارها مع حركتها من معاني أنها (مهد) للإنسان، وسطحها المستوي من معاني أنها مهد للإنسان، وتربتها التي تنبت من معاني أنها (مهدٌ) للإنسان.

وكلمة (مهد) هو الفراش الوثير المهيأ خصيصاً للطفل الصغير، الطفل يحتاج إلى عناية فائقة، وهذه العناية الفائقة أساسها المحبة الفائقة والرحمة الفائقة، وهذا الفراش يهيئ له كل أسباب الراحة، وكذلك الأرض.

ثم إن الحرارة معتدلة، يعني أحياناً 18، 20، 35،30، 6، 7، 0، كلها مقبولة، أما لو أن الأرض توقفت عن الحركة لأصبحت الحرارة في النهار 350 درجة فوق الصفر، وفي الطرف الآخر 270 درجة تحت الصفر. ولانتهت الحياة، فالحرارة أيضاً (مهدٌ)، حرارة إضافة إلى ماء، إلى هواء، إلى حركة ساكنة، إلى استقرار، إلى جاذبية، إلى تربة، إلى تسطح، وفوق هذا كله هذا الضياء، فالله جعل الشمس ضياء، وجعل القمر نوراً، والشمس والقمر آيتان من آيات الله الدالتان على عظمته.

معانٍ أخرى لكلمة (مهد):

ثم إن هذه الجبال الشامخة مستودعات للمياه ورواسي للأرض، ثم إن هذه البحار المالحة، وهناك حكمة بالغة من ملوحة البحار، وكل النظريات التي تتحدث عن سبب ملوحة البحار نظريات ليس لها دليل علمي أكيد، فمن الذي جعل هذا البحر عذباً فراتاً، وجعل هذا البحر ملحاً أجاجاً ؟ الله سبحانه وتعالى،

والبحيرات والأنهار والينابيع، بعض الأنهار، ومنسوب نهر الأمازون يقدر بثلاثمئة ألف متر مكعب بالثانية، دمشق فيها خمسة ملايين، نبع الفيجة كثافته في أعلى درجاته 24 متراً مكعباً بالثانية ومع ذلك فهذا النبع يكفي دمشق كلها، فهذا وذاك كله من عطاء الله عز وجل.

وبالتربة معادن منها معادن الحديد والنحاس والألمنيوم والقصدير والرصاص، معادن لا يعلم عددها إلا الله و أشباه معادن، فهذه التربة فيها فلزات، وفيها طاقة، وهذا البترول الذي أودعه الله في باطن الأرض أيضاً من معنى قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

ثم إن هذه النباتات، الغابات نباتات رعوية، نباتات غابات، نباتات أشجار مثمرة، أنواع النباتات لا يعلم عددها إلا الله، تكاد هذه النباتات تغطي كل حاجات الإنسان، فنبات لليف، نبات للسِّواك، نبات للخلة، نبات للألوان، نبات للمواد اللدنة، نبات للصناعات، نبات للغذاء، نبات للزينة، أنواع النبات لا يعلمها إلا الله، هناك أوعية أساسها نباتي كالنحاس تماماً، هناك مسابح يسبح بها المصلون من نبات خاص حباته صغيرة كروية مثقوبة أيضاً كله نبات، فالنبات من معاني قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

والحيوانات، حيوانات مفترسة، حيوانات أهلية، حيوانات مذللة، الأنعام، الجمال، الأغنام، الأبقار، البقرة وحدها آية من آيات الله الدالة على عظمته، الجمل وحده آية، الخروف الذي نأكله من جعله مذللاً لنا، كلٌ فيه خير لنا، هذه كلها آيات، هذا معنى قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

الأطيار، الأسماك، النباتات، المعادن، الينابيع، الأنهار، البحيرات، البحار، الجبال، الوديان، السهول، الأغوار كلها إن أردت أن تسميها بيوتاً بلاستيكية، تجد الحرارة في الشتاء ثلاثين أو خمساً وثلاثين، يعطيك جميع أنواع الخضراوات في غير موسمها، يعني هذا الحديث يطول، ويندرج كله تحت قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

الله عز وجل مهد لحياة الإنسان وفيها كل مستلزماته:

الأرض مهدت لحياة الإنسان وفيها كل مستلزماته، كل أنواع المعادن هناك معادن ثمينة القيم، هناك باخرة غرقت قبل مئة عام والآن أخرجوها سبائك الذهب التي فيها كأنها الآن سبكت، الذهب لا يتأثر لا بالماء ولا بالهواء ولا بالملوحة ولا بأي أعراض الجو، الذهب له وظيفة، البلاتين له وظيفة، الحديد له وظيفة، الألمنيوم له وظيفة، النحاس له وظيفة، القصدير له وظيفة، الرصاص له وظيفة، فالإنسان لو تأمل بخصائص المعادن الفيزيائية والكيميائية لأخذه العجب العجاب، معدن ينصهر في حرارة معدلة ألف وخمسمئة درجة، الرصاص ينصهر في درجة مئة، وإذا برد يتمدد، يعني إذا أراد الإنسان أن يعامل الرصاص مع الحجر يكفي أن يحفر حفرة في الحجر لها شكل الإناء ويضع الحديد فيها، ثم يصب الرصاص فإذا برد الرصاص تمدد وأصبح الحديد والرصاص كتلة واحدة.

لو تبحر الإنسان بالعلم لوجد ما يبهر العقول ويذهلها:

قد تجد محلاً تجارياً الغلق مربوط بكتلة من الحديد مغروزة في الحجر عن طريق الرصاص، الرصاص ينصهر بدرجة مئة ويتمدد بالتبريد، فمن أعطاه هذه الخاصة ؟ فالإنسان إذاً بحاجة إلى معدن سريع الانصهار يتمدد عند البرودة، وينفرد هذا المعدن بهذه الخاصة، النحاس ناقل شديد للحرارة، طبعاً هذه معلومات بدائية جداً وبسيطة يدرسها الطلاب في مرحلة التعليم الثانوي، لكن لو تبحّر الإنسان بالعلم وكان مختصاً في الفيزياء أو الكيمياء ودرس خصائص المعادن لوجد ما يبهر العقول ويذهلها.

الفضة من شأنها أن تطهر المياه في معامل تكرير المياه، ففي آخر مرحلةٍ من مراحل التكرير يسيل الماء بأنابيب من الفضة الخالصة لأن فيها إشعاعات معقمة للمياه، إذاً الفضة لها دور حساس ونافع.

بعض المعادن تعدّ علاجاً للجسم توضع على شكل أساور، فعلم المعادن لا حدّ له، ونحن في مجال العلم في البداية، وقد قال بعض العلماء:

" لم تبتل بعدُ أقدامنا ببحر المعرفة."

طبعاً هذه معلومات موجزة حول قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10))

(سورة الزخرف)

الله عز وجل جعل في الأرض سبلاً لكسب الرزق:

ما معنى السبل هنا ؟ المعنى دقيق جداً، هذا الإنسان أولاً فطره الله فطرة معينة، وخلق فيه دوافع وحاجات، خلق فيه حاجة إلى الطعام ودافعاً إلى طلب هذا الطعام، فهما حاجة ودافع، وخلق فيه حاجة إلى الشراب، كما خلق فيه حاجة إلى الطرف الآخر نصفه الثاني كما خلق فيه حاجات كثيرة جداً، هو بحاجة إلى الطعام وإلى الشراب وإلى الكساء وإلى السكن، لكن أكبر دافع هو الجوع ويحتل في مدارج التسلسل المرتبة الأولى.

وأوجد الله عز وجل (وهنا المعنى دقيق جداً) أوجد الحَر، كم إنسان يعيش على صناعة منتجات لمكافحة الحر، عُدَّ المعامل المختصة في صناعة المراوح، والمكيفات، ومعامل المرطبات في العالم، فستجد رقماً مذهلاً، وانظر نظرة اعتبار كم أداة يستخدمها الإنسان إذا شعر بالحر ؟ والبرد سبب للعيش، كم إنسان عيشه قائم على صناعة المدافئ، والوسائد، والأغطية الصوفية ؟ إذاً هناك ملايين يعيشون على المنتجات التي يستدعي وجودها حرٌ الصيف وبرد الشتاء.

المرض ؛ كم إنسان يعيش بسبب الإصابات المرضية ؟ ما عدد الأطباء بالعالم؟ إحصاء قرأته مرة يقول: إن مئتين وخمسين ألف طبيب من البلدان النامية يقيمون في بلد متقدم، الأطباء في العالم عددهم كثير جداً، والطبيب من أين دخله ؟ دخله من ذوي الأمراض.

كذلك فإن الخلافات بين الناس هناك من يعيش عليها إنهم المحامون، إذاً اتضح معنى السبل لديك أيها المؤمن، أي أن الله عز وجل جعل السبل لكسب الرزق، لكن الناس كلهم الله رازقهم، وأردت من هذا الكلام أن الله عز وجل جعل أسباب كثيرة لكسب الرزق، هذا قد تقرؤه في تفسير القرطبي حيث يقول:

" السبل هي سبل المعايش التي هي أسباب لكسب الرزق."

المقصود من كلمة (معايش):

أنت تحتاج إلى بيت، كم إنسان يعمل في إنشاء البيوت ؟ بدءاً من العمال، إلى المهندسين، إلى المصممين، إلى المنفذين، إلى المهندس المعماري، والمهندس المدني، وعامل الكهرباء، وعامل التمديدات الصحية، وعمال الطلاء، وعمال التبليط، وعمال المفروشات، وعمال الديكور، هذا البيت الذي تسكنه انظر كم إنسان عمل فيه ! وكذلك الطعام الذي تأكله ! ولكل مادةٍ من مواد الزراعة معامل وخبرات متراكمة لسنوات عديدة، تحسين الإنتاج من أجل أن تأكل طبقاً من السلطة مثلاً، فإنتاج المأكولات يعمل فيها الملايين، والكساء، فكم إنسان يعمل في المنسوجات ؟ بدءاً من غزل الخيوط إلى نسجها إلى صبغها إلى تفصيلها إلى بيعها جاهزة، لو أحصيت تجد الملايين يعملون في تأمين حاجة

اللباس، ملايين يعملون في تأمين حاجة الطعام، هذا الرغيف الذي تأكله كم إنسان عمل به ؟ كيف اشتُريَت البذور وفُلحت الأرض وألقيت البذور وألقي السماد، ثم حصد، ثم طحن، ثم خبز، كم إنسان يعمل في هذا الرغيف ؟ هذا معنى معايش.

الشّعر كم إنسان يعمل في حلق الشعر في العالم ؟ تسوُّس الأسنان كم إنسان يعيش على تسوس أسنان البشر ؟ ملايين، أجهزة وأدوات واستيراد ومواد سنية، وكم إنسان يعيش على منتجات تستخدم في الحمامات ؟ المواد الأولية، الصنابير، الأحواض وغيرها.

الله تعالى جعل خيرات الأرض قابلة للانتفاع بعد تدخل الجهد البشري فيها:

النقطة الثانية، لو أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه المواد جاهزة للاستعمال من غير تدخل اليد البشرية إذاً لما كان هناك حاجة للعمل والعمال، إذاً لحكمة أرادها الله فإن كل خيرات الأرض لم يجعلها الله عز وجل قابلة للانتفاع بها إلا بعد تدخل جهد بشري، والله سبحانه يقول:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

فمادام هناك جهد بشري فمن خلال هذا الجهد البشري يبتلى الإنسان، يعني بشكل ملخص، أودع فيك الدافع إلى الطعام والشراب فالإنسان يحتاج إلى أن يعمل، وجعل لك معايش، هذا مجال عمله بالتعليم، وهذا مجاله بالطب، وهذا صيدلة، وهذا هندسة، وهذا محام، وهذا عامل، وهذا صانع، وهذا تاجر، وهذا مزارع، وهذا مكتبات، وهذا بالتأليف كل إنسان الله عز وجل يسرّ له عملاً يقتات منه ويكسب منه رزقه، كل هذا الكلام يندرج تحت قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10))

(سورة الزخرف)

وملخص ما سبق يترجمه قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((كل ميسر لما خلق له))

[رواه الطبراني عن عبد الله بن بسر]

وكل يعمل في مجال معين، وقال أيضاً:

((الخلق كلهم عيال الله))

[رواه أبو يعلى عن ابن مسعود]

والعمل أيضاً من خلق الله عز وجل، فسبحان الذي قدر فهدى.

الدافع إلى الطعام والشراب هو المحرك الأول عند الإنسان:

مثلاً.. لو ألغي دافع الجوع فرضاً لما كان هناك حاجة لأعمال كثيرة، بل لعل الإنسان أقرب للدعة والسكون، لكنه مادام يجوع فلا بدّ من أن يتحرك ليأكل، فصار العمل ضرورياً، وكل يتجه لاختصاصه، إذاً فدافع الجوع أساس الحركة، والدافع إلى الطعام والشراب المحرك الأول عند الإنسان.

ثم إن الإنسان يتقن حاجة ويحتاج إلى الكثير من الحاجات، يتقن عملاً واحداً ويحتاج إلى المئات، ولذلك فإن الله عز وجل أراد للإنسان أن يكون اجتماعياً بالطبع، لا أحد يقدر أن يعيش وحده، ولنفترض أنه كان فلاحاً، فهو يزرع القمح، لكنه يحتاج إلى من يطحن ويصنع الخبز، وهو يحتاج إلى كساء، كما يحتاج لتعليم أولاده، لو الإنسان أحبّ أن يعيش لوحده ينبغي أن يتعلم كيف يعلم أولاده، إذاً ألف إنسان يقدم لك الكثير من الحاجات وأنت تقدم حاجة واحدة، فهذا معنى قول الله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10))

(سورة الزخرف)

ثم هانحن مع الدافع كي نبقى كأفراد ؛ فلنستمع لله تعالى يقول:

(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(11))

(سورة الزخرف)

الحفاظ على بقاء النوع لأن الحياة أساسها ازدواجي:

بعد أن خلق الله الأرض، وجعلها مهداً، وجعل فيها إمكانات لكسب الرزق، وجعلنا نحتاج إلى الرزق كي نبقى أحياء، والرزق من السماء، فهذه الأمطار تهطل، والينابيع تتفجر، والنبات ينبت، والحيوان يعيش، والإنسان يأخذ طعامه من النبات والحيوان إذاً الآن:

(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(11))

(سورة الزخرف)

فالبند الثاني إذاً الحفاظ على بقاء الفرد.

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (12))

(سورة الزخرف)

ويطالعنا الآن موضوع الحفاظ على بقاء النوع، ذكر وأنثى، على مستوى الإنسان وعلى مستوى الحيوان وعلى مستوى النبات، بنية الحياة ازدواجية، في عالم البشر ذكر وأنثى، وفي عالم النبات ذكر وأنثى، وفي عالم الحيوان ذكر وأنثى.

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (12))

(سورة الزخرف)

بعضهم قال: الحياة الإنسانية أساسها مزدوج، خير وشر، حق وباطل، جمال وقبح، عطاء ومنع، فقر وغنى، صحة وسقم، دنيا وآخرة، شيطان وملك، يعني الحياة الدنيا أساسها ازدواجي هذا معنى قوله تعالى:

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (12))

(سورة الزخرف)

والمعنى القريب أن الله عز وجل جعل الحياة البشرية قائمة على أساس أن الإنسان ذكر وأنثى، فما هو المعنى ؟ إنه استمرار الحياة، كيف يستمر البشر ؟ عن طريق التزاوج، لولا التزاوج لانقرض النوع البشري، كيف يستمر النبات ؟ عن طريق اللقاح والتزاوج، كيف يستمر الحيوان ؟ عن طريق التزاوج، قد تجد للسمكة الواحدة مثلاً ملايين البيض، يعني أن الله أعطى السمك وغيره خاصية التكاثر والتزاوج، وكل المخلوقات متشابهة تتكاثر عن طريق اللقاح.

الفلك والأنعام من آيات الله الدالة على عظمته:

وهناك حاجات للسفر والانتقال، لقد أكل الإنسان وشرب، وسكن البيت، وتزوج، والآن أحب أن يسافر، قال:

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(12))

(سورة الزخرف)

الفلك سفن في البحر، والماء من طبيعته أن يدفع الأجسام التي تطفو عليه نحو الأعلى (مبدأ أرخميدس) لولا هذا المبدأ لما كانت هناك ملاحة على وجه الأرض، فهذه الفلك من آيات الله الدالة على عظمته والأنعام.

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

وللسفر طائرة، وقطار، وسيارة، وهذا يندرج تحت قول الله سبحانه وتعالى:

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14))

(سورة الزخرف)

الآيات تؤكد أن الذي يخلق ما لا تعلمون هو الله تعالى:

هذه الآية دقيقة المعنى جداً، فالنبي عليه الصلاة والسلام جعلها دعاءً للسفر، يعني أن الإنسان إذا استخدم دابة من دواب الأرض فينبغي أن يذكر نعمة الله عز وجل، حتى ولو ركب سيارة فمن خلقَ موادها الأساسية ؟ ومن أودع في الأرض هذه الطاقة البترولية التي تتحرك بها ؟ حتى إن بعض الآيات تؤكد أن هذا الذي يخلق ما لا تعلمون هو الله عز وجل، فكأن الله عزا صنع الأجهزة الحديثة للتنقلات إلى ذاته عزّ وجل، فالإنسان إذا ركب طائرةً أو سيارةً أو قطاراً أو دابةً بحسب العصر والتطورات قال:

(لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13))

(سورة الزخرف)

بعض المفسرين قالوا: مقرنين بمعنى مطيقين، الإنسان لا يطيق أن يمشي إلى الحجاز مشياً، فجعل له هذه الدواب وهذه الإبل ثم أصبح في زماننا يركب الطائرة أو السيارة قال تعالى:

(وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13))

(سورة الزخرف)

إنجازات البشر من آيات الله الدالة على عظمته وفي رأسها العقل البشري:

ما كنا نطيق الوصول إلى هذه الأهداف البعيدة لولا هذه الوسائل التي منّ الله بها علينا، وبعضهم قال: وما كنا مقرنين أي لا فضل لأحد سواه، يعني هذا الفضل لله وحده، والإنسان العاقل إذا تمتع ببعض النعم التي هي من صنع الإنسان يجب ألا ينسى الله عز وجل لأنها في الحقيقة لولا توفيق الله لما كانت، ولولا أن الله ألقى في نفس المخترع وذهنه هذا الاختراع لما كان هذا الاختراع، فحتى إنجازات البشر إنما هي في الحقيقة من آيات الله الدالة على عظمته وفي رأسها العقل البشري، قد تجد آلة تختصر الوقت والجهد، أجل إن هذه الآلة من إنتاج هذا العقل البشري الذي أودعه الله فينا، إذاً فمن أودع هذا العقل فينا ؟ الله عز وجل، من أعطاه هذه الإمكانات كي يخترع ؟ الله جلّ جلاله، انظروا أصنافاً أخرى من المخلوقات هل اخترعت شيئاً ؟ لا، إذاً لولا أن امتنّ الله علينا بهذا العقل لما كانت هذه الإنجازات التي أمامكم.

(وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ(14))

(سورة الزخرف)

وهذا المعنى دقيق جداً، الإنسان حين يركب طائرة فاحتمال سقوطها قائم ولو كانت من أحدث المبتكرات ولأعظم الشركات، وفيها احتياطات إلى ما لا نهاية ومع ذلك قد تسقط ويغلب على الظن أن يموت جميع ركابها، فالإنسان إذا ركب مركبة أو دابة فالدابة قد تجنح به، والناقة قد تدق عنقه، والسيارة قد تتحطم، والطائرة قد تسقط، فالإنسان إذا أراد أن يسافر ينبغي أن يصطلح مع الله، وأن ينهي كل المشكلات بحيث لو جاءت منيته كان سليماً معافى عند الله، كأن الله يذكرنا أن يا أيها الإنسان حينما تركب هذه الدابة أو تركب هذه الوسيلة من وسائل النقل لتنقلك إلى بلد آخر فلا تنسَ:

(وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ(14))

(سورة الزخرف)

على الإنسان أن يهيئ نفسه دائماً للقاء الله تعالى:

والحقيقة أيها الأخوة أن الذي يفكر بالعودة إلى الله عز وجل دائماً فإنه ينجو من عذاب الله، فليهيئ نفسه للقاء الله دائماً، وتعلمون أن لقاء الله عز وجل لا يتعلق بعمر معين، هناك أناس يموتون شباباً، وأناس يموتون كهولاً، وأناس يموتون في سن متأخرة جداً، فالموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً، ولا مقيماً ولا مسافراً، ولا متزوجاً ولا أعذباً، ولا غنياً ولا فقيراً، فالمفروض أن يكون الإنسان ذاكراً لقاء الله تعالى في كل ظروفه.

أيها الأخوة بهذه المناسبة أذكركم أن الإنسان العاقل حقاً هو الذي يستعد أبداً للقاء الله عز وجل، يستعد لهذا اللقاء بالاستقامة، يستعد لهذا اللقاء بالأعمال الصالحة، يستعد لهذا اللقاء بإنفاق المال، يستعد لهذا اللقاء بطلب العلم، يستعد لهذا اللقاء بالتضحية والإيثار، فالإنسان كلما كان عمله أقرب إلى مرضاة الله عز وجل كان شوقه إلى الله أكبر، لقاء الله محبب، لكن الناس من جبلتهم أنهم يخافون الموت، والحقيقة أن الناس يخافون الموت لا لأنه مخيف ولكن لأن الله يقول:

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

(سورة آل عمران)

على الإنسان أن يبني آخرته على حساب دنياه:

يعني إذا ألقي القبض على إنسان وساقوه إلى أمه، فماذا عند أمه ؟ لا يوجد ما يخيف، فيبقى مطمئناً، ولما سئل أحد العلماء: لماذا نكره الموت ؟ قال لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، والإنسان بطبيعته يكره أن ينتقل من العمار إلى الخراب، فالإنسان إذا أصلح دنياه على حساب آخرته فإنه ترتعد فرائصه من الموت، وهو يكره نباتاً معيناً يوضع على القبور، ويكره سماع القرآن لأنه صار يتلى في المناسبات

الحزينة، الإنسان إذا عمّر دنياه على حساب آخرته يرتجف قلبه من ذكر الموت، أما إذا بنى آخرته على حساب دنياه يقول مرحباً بلقاء الله، ولو رأيت الصالحين في لحظات احتضارهم لرأيت العجب العجاب، لرأيته في أسعد لحظات حياته حينما يلقى ربه.

دعاء السفر:

الإنسان إذا ركب هذه المركبات فليتل قوله تعالى:

(سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين(13))

(سورة الزخرف)

فما قولكم طائرات بعض بلاد العالم الإسلامي ركابها يشربون الخمور على متنها، ونسي أحدهم أنه معلق بين السماء والأرض، أعلى متن الطائرة يشرب الخمر أيعقل هذا ! أيقترف المعصية في الأرض وفي البحر وفي الجو ؟

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ(41))

(سورة الروم)

أيعقل هذا أن يتم أثناء الانتقال من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي، والشركة مسجلة في أحد هذين البلدين والخمر يدار على ركاب الطائرة وكأنه شيء عادي جداً، سبحان الله فأي عقلٍ مسلمٍ يرضى أن يكون هذا ! قال تعالى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46))

(سورة الحج)

وقال أيضاً:

(وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ(14))

(سورة الزخرف)

على العاقل أن يتهيأ للقاء الله بطلب العلم والعمل الصالح:

ألا يعلم الإنسان أنه لا ينجو من هذه الساعة الأليمة إلا إذا كان مستعداً لها، والاستعداد لها بطاعة الله، والعاقل هو الذي يتهيأ للقاء الله دائماً، يتهيأ لهذا اللقاء بتحرير دخله، وضبط بيته، وضبط جوارحه، وطلب العلم والعمل الصالح.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15))

(سورة الزخرف)

الله عز وجل خلق كل حيوان مهيئاً لبيئته الخاصة:

الآن دخلنا في موضوع الشرك، لقد خلق الله عز وجل الإنسان في أحسن تقويم، وهيأ له هذه الأرض التي جعلها له مهداً، وجعل له أسباب لكسب الرزق، وأنزل له الماء من السماء ليكون قوام رزقه، جعل له نظام الزوجية، وسخر له من خلقه ما يتنقل عليه في أسفاره وترحاله. فالجمل مثلاً أيها الأخوة بإمكانه أن يعيش ثلاثة أشهر من دون ماء وهو في عرض الصحراء، يقول العلماء: إن الجمل يستطيع أن يأخذ الماء من خلاياه، وليس في الأرض الآن وسيلة نقل في الصحراء إلا الجمل، في أرقى الدول الجمل أداة أساسية للتنقل في الصحراء، هذا من خلق الله عز وجل، الجمل له عين تريه البعيد قريباً والصغير كبيراً، وللجمل رموش تقي عينيه إذا ثار الغبار في الصحراء، والله عز وجل قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17))

(سورة الغاشية)

يعني رقبة الجمل، سنام الجمل، والسفينات على بطن الجمل وقوائمه الأمامية والخلفية من آيات الله الدالة على عظمته من خلال بديع خلقه، وإن جلسة الجمل النظامية آية من آيات الله الدالة على عظمته، فالإنسان إذا نظر إلى كيفية خلق الجمل يأخذه العجب العجاب، كل حيوان مهيأ لبيئته الخاصة.

الشرك أن تتخذ مخلوقاً نداً لله وتجعله إلهاً:

ومع ذلك رغم أنه جعل الأرض مهداً للإنسان، وأن المعايش قد يسرها الله عز وجل لكل إنسان ورزقه وأغدق عليه نعمه، وجعل له زوجاً من طبيعته ومن شاكلته، وهيأ له ما ينتقل به من مكان إلى مكان، ومع ذلك جعلوا له من عباده جزءاً، فأشركوا معه شركاء، والشرك أن تتخذ مخلوقاً نداً لله وتعطيه ودك وطاعتك وحبك وتجعله إلهاً، هذا هو الشرك، لذلك قال الله تعالى:

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

(سورة لقمان)

المشرك كأنما هوى من السماء إلى الأرض، قال تعالى:

(ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء (31))

(سورة الحج)

وقال تعالى:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا(48))

(سورة النساء)

وقال:

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15)أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ(16))

(سورة الزخرف)

الكراهية للبنات هي نظرة جاهلية:

وكذلك قالوا: الملائكة بنات الله، بينما خصوا أنفسهم بالذكور أيعقل هذا !

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(17))

(سورة الزخرف)

يعني هذه الكراهية للبنات نظرة جاهلية رعناء، النبي عليه الصلاة والسلام حينما ولدت فاطمة الزهراء أمسكها وتشممها وضمها وقال: ريحانة أشمها وعلى الله رزقها. والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا أنه:

((من كن له ثلاث بنات فعالهن وآواهن وكفهن، وجبت له الجنة. قلنا: وبنتين ؟ قال: وبنتين. قلنا: وواحدة ؟ قال: وواحدة))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

ذلك أن البنات سبب في دخول آبائهن الجنة إذا أحسن صحبتهن وتربيتهن، والإنسان كلما ارتقى إيمانه يحتفل بالبنات أكثر وأكثر، ولا يعبأ بهذه التفرقة غير العادلة بين الذكور والإناث.

نوع الجنين يحدده الرجل:

الله عز وجل قال حينما تحدث عن امرأة عمران:

(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى(36))

(سورة آل عمران)

ولكن هذه الأنثى أنجبت السيد المسيح وهو نبي عظيم، إذاً النظرة إلى البنات بمنظار الجاهلية نظرة بغيضة عند الله سبحانه، ولا تليق بالمؤمن، وكل إنسان ينفر من امرأته، ويسخط عليها، لأنها أنجبت البنات فهو جاهل جهلاً مطبقاً، لأنه ثبت بالعلم أن نوع الجنين لا تحدده بويضة الأنثى بل يحدده حُوين الرجل.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

فالذكر والأنثى لا علاقة لهما بالبويضة بل علاقتهما بالحوين.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(17))

(سورة الزخرف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 15-25
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-06-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الزخرف.

العلم غذاء العقل والذكر غذاء القلب:

مع الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15))

(سورة الزخرف)

وقبل أن أبدأ شرح هذه الآية أريد أن أضع بين أيديكم حقيقة تعيننا على فهم كتاب الله، هذه الحقيقة هي أن الإنسان كما تعلمون جسد وقلب وعقل، فإذا اعتنى بعقله وغذاه بالعلم فقد حقق شطراً من الدين، وإذا اعتنى بقلبه فأكثر من الذكر فقد حقق الشطر الآخر، أما أن يكتفي الإنسان بسماع الدروس، حتى ولو أبدى إعجابه بالدروس، فما لم يكثر من ذكر الله عز وجل فلا يشعر بالسعادة التي وعد الله بها المؤمنين، فأحياناً الأخ يشكو ويقول: حينما سلكت طريق الإيمان كنت في سعادة كبيرة ما لبثت أن تضاءلت، إلى أن أصبحت أنكر على قلبي الأحوال التي أعيشها ؟!

فالجواب على هذا الشعور الذي ينتاب بعض الناس هو أن الدين يحتاج إلى علم كغذاء للعقل، وإلى ذكر كغذاء للقلب، وأبرز ما في الذكر الصلاة.

الذكر لا ينعقد إلا بالالتزام التام بالأمر والنهي:

قال تعالى:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

الإنسان حينما يصلي ينبغي أن يخشع بصلاته، وأن يستحضر عظمة الله عز وجل، وأن يعيش الآيات التي يقرؤها، وإذا ركع يشعر أنه خاضع لله عز وجل، وإذا سجد يشعر أنه يستمد العون من الله، فالصلوات ذكر، وتلاوة القرآن ذكر، والأدعية ذكر، والاستغفار ذكر، لكن هذا الذكر لا ينعقد إلا بالالتزام التام بالأمر والنهي، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

[كنز العمال 941]

من ذكر الله تعالى شعر بأثر ذلك في قلبه ونفسه:

إن الإنسان الذي يشكو من أنه ينكر على قلبه ما يعانيه، فعلاجه ضبط جوارحه ضبطاً تاماً كما أمر الله، وضبط دخله وإنفاقه، وضبط بيته، حينما يحقق هذا كله يشعر أن الطريق صار إلى الله سالكاً، فإذا ذكر الله عز وجل سواء في الصلوات الخمس.. أو في تلاوة القرآن.. أو في الأدعية والاستغفار يشعر بأثر ذلك في قلبه ونفسه، فإذا حضر مجلس العلم ليستمع إلى تفسير القرآن مثلاً فنفسه مهيأة لهذا السماع، أما أن يتلقى معلومات ودقائق وتفسيرات وتعليلات من دون أن يرافق هذا العلم ذكر، ومن دون أن يرافق هذا الذكر استقامة تامة وانضباطاً وبذلاً، فهو لا زال بعيداً محجوباً، وكل أخ يشكو فتور صلواته، فالجواب هو في قوله تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف 110)

الدين قضية مصيرية والإقبال على الله هو مصدر السعادة:

أليست الصلاة لقاءً مع الله ! أليس اللقاء مع الله مسعداً ! ألا يشعر المصلي حينما يصلي أن الله تجلى على قلبه ! فهذه قضية متكاملة، قضية الاستقامة مع العمل الصالح، قضية طلب العلم كغذاء للعقل، وقضية الذكر وفي قمة الذكر الصلوات الخمس، والأدعية والاستغفار وتلاوة القرآن.

فلما يلتزم المسلم بكل جوانب الدين يقطف الثمرات، كنت أضرب هذا المثل دائماً: أن الإنسان يمكن أن يشتري قطعاً من سيارة (عجلات، هيكلاً، مقاعداً، محركاً)، لكن هذه القطع المتناثرة، ولو كان لها ثمن باهظ، في مجموعها لا تشكل سيارة لينطلق بها حيث يريد كذلك الدين، فالإنسان لم يأخذ بالدين من كل جوانبه، يعني اعتنى بقلبه ذاكراً، واعتنى بعقله متعلماً، واعتنى بسلوكه مستقيماً ومحسناً فلا يقطف ثمار الدين، ويظل يشكو، ويعاني، ولم يدرك حقيقة أن الدين قضية مصيرية.

الدين كلٌ متكامل:

الإنسان حينما يصطلح مع الله فهو يتعامل مع خالق الكون، فهل من المعقول إن أقبلت على الله أن تشعر بالوحشة والملل ؟ مستحيل، فالله عز وجل هو مصدر السعادة، مصدر السرور، مصدر

الطمأنينة، مصدر الثقة، مصدر السكينة، كل المشاعر العالية جداً التي يحس بها المؤمن إنما هي ثمرة من ثمار الاتصال بالله، والدين كلٌ متكامل فلنأخذ به كلاً، لا أن نأخذ منه جانباً، وأن ندع جوانب.

الدين فيه كليات ثلاث:

1 ـ كلية السلوك:

لقد قلت سابقاً: الدين فيه كليات ثلاث، هذه الكليات الثلاث متكاملة، كلية العلم، كلية القلب، كلية السلوك، السلوك فيه شيئان: انضباط وعمل صالح، الانضباط هو الالتزام والاستقامة والطاعة، هذه كلها مترادفات، يعني ما من واحد إلا ويعلم الحلال والحرام، إطلاق البصر حرام وغض البصر طاعة لله عز وجل، الكذب حرام والصدق طاعة لله عز وجل، الإخلاص والخيانة، الإحسان والإساءة، فالإنسان حينما يستقيم يجعل الطريق إلى الله سالكاً، بقي أن يتحرك على هذا الطريق، الحركة هي العمل الصالح، العمل الصالح يدفعك في طريق الإيمان، والاستقامة تذلل العقبات التي في طريق الإيمان.
تصور أنك أمام طريق كله عقبات، وتقود مركبة صغيرة وكل عقبة تتشكل من خمسة أمتار مكعبة من الإسمنت المسلح، وهي كثيرة في الطريق فالطريق إذاً مسدود، كل عقبة عبارة عن معصية، فالإنسان حينما يزيل هذه العقبات يعني حينما يستقيم، يعني حينما يضبط بيته وعمله وجوارحه ولسانه وعينه وسمعه، معنى ذلك أن العقبات أزيلت من طريق الإيمان.
فحينما يبذل من ماله، من وقته، من عضلاته، من خبرته، من جهده يتحرك على هذا الطريق، والحركة هي العمل الصالح، فإذا عمل صالحاً تحرك على هذا الطريق، هذا الجانب السلوكي.

2 ـ كلية القلب:

الجانب القلبي الصلوات الخمس، الذكر، التلاوة، الاستغفار، والدعاء.

3 ـ كلية العلم:

الجانب العلمي طلب العلم، معرفة كتاب الله عز وجل والتفسير، ومعرفة سنة النبي عليه الصلاة والسلام لقول الله عز وجل:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا(7))

(سورة الحشر)

معرفة الله تؤدي إلى صدق الطاعة والعبادة:

ومعرفة سيرة الرسول ليكون لنا من النبي أسوة، إذاً أركان المعرفة معرفة كلام الله والكتاب المقرر، تصور أن إنساناً سيتقدم لامتحان بعد يومين ومكتبته عامرة بالكتب، وهذا الامتحان مصيري وسيحدد بعد يومين ولديه كتاب واحد مقرر، أليس العقل كل العقل أن يقرأ الكتاب المقرر ؟ ويترك ما عداه.

ذكرت في درس سابق: كل علم ممتع، لكنّ هناك علماً ممتعاً نافعاً، أما علم الدين فهو علم ممتع نافع مسعد، قد تقرأ في النعوة أن فلاناً يحمل أعلى شهادة، لكن حينما توفاه الله عز وجل مفعول هذه الشهادة انتهى، قد يكون أعلم إنسان في النحو، قد يكون أعلم إنسان في الطب، قد يكون أعلم إنسان في الهندسة حينما يفاجئه أجله يتوقف مفعول شهادته واختصاصه وينسى الناس تفوقه لمجرد وفاته، إلا من كان عالماً بالدين، فالذي سار في سبيل معرفة الله في حياته فهذه المعرفة تنفعه بعد الموت وإلى أبد الآبدين، لأن معرفة الله تؤدي إلى صدق الطاعة والعبادة.

لذلك ليس هناك تناسب إطلاقاً بين أن تتعلم علم الخليقة وبين أن تتعرف إلى الله عز وجل، كل العلوم المادية العصرية من طب وفيزياء وكيمياء ورياضيات وطبيعيات وفلك وعلم نفس هذه علوم الخليقة، وهناك علوم الشريعة، وهناك علوم الحقيقة.

معرفة الله عز وجل تحتاج إلى مجاهدة:

معرفة الله عز وجل لا تحتاج لا إلى مدارسة ولا إلى إصغاء ولا إلى مطالعة ولا إلى كتابة ولا إلى تذكر تحتاج إلى مجاهدة، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى قال: جاهد تشاهد.

المجاهدة توصلك إلى الاستقامة، يعني إنسان يضبط جوارحه فهو كمن يعرض نفسه للرحمة، أما حينما يتفلت الإنسان يقع الحجاب، ومع الحجاب يأتي الملل والسأم، والله الدرس طويل، وكل شيء قاله نعرفه سابقاً، الإنسان حينما تفتر همته يضعف اتصاله بالله عز وجل، ويتخلف عن القافلة، ويفوته زاده من الإيمان.

إذاً الذي أتمناه على الأخوة الكرام أن يأخذ كل منّا الدين من كل جوانبه، الجانب الاعتقادي العلمي، حضور مجلس العلم طلب للعلم، طبعاً المعلومات تتراكم، لأنه يتلقاها أسبوعياً فلا يفوته منها درس، وتتكون لديه القناعات، وتتراكم، والمسلم لا يعرف فضل طلب العلم إلا إذا جالس شخصاً في سنه لم يطلب العلم فيرى فرقاً شاسعاً بينه وبين من جالس ويرى سبقه وثراءه، عرف التوحيد، وعرف بأن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وعرف بأن الله سبحانه وتعالى بيده مقاليد السماوات والأرض، عرف أن الله يراقبه، ويكلؤه، وعرف أن الله سيحاسبه، ويكافئه، هذه المعرفة لا تقدر بثمن، لكن أهل الدنيا في

عداوة، وخصومة، وضلال، فيدفعون الثمن باهظاً نتيجة جهلهم بأحوالهم، كلام سخيف، وتفكير ضحل، وشرك واضح، واهتمامات بالدنيا زائلة، وهذا يعرفه كل من طلب العلم، فطلب العلم فريضة على كل مسلم، الإنسان بالعلم يرقى، ويسعد.

لا أحد ينال ثمار هذا الدين إلا إن أخذه من كل جوانبه:

والخلاصة ؛ أيها الأخوة الكرام.. أنه لا أحد منّا ينال ثمار هذا الدين العظيم يانعة ناضجة، إلا إذا أخذه من كل جوانبه ؛ الجانب السلوكي استقامة وعمل صالح، الجانب العلمي معرفة كتاب الله وسنة رسوله، وسيرة نبيه وصحابته، ومنهاجنا درس تفسير، ودرس فقه وحديث، ودرس سيرة، هذه أركان ثقافتنا الإسلامية ؛ القرآن كلام الله والنبي يفصل كلام الله في أقواله ويعبر عن فهمه لكلام الله بأفعاله، فنحن نريد الكتاب والسنة والسيرة، والفقه نأخذه من السنة.

بقي على الإنسان أن يذكر الله في خلواته، والذكر متعلق بالاستقامة، إذا لم يكن هناك استقامة فالإنسان يمل من الذكر، يقوم إلى الصلاة وهو كسول، لا يذكر الله إلا قليلاً، قال الحسن البصري: إذا قرأت القرآن ولم تشعر بلذة، وإذا صليت الصلوات الخمس ولم تشعر بخشوع فاعلم أن الإيمان تعدوه غشاوة كثيفة.

معنى ذلك أن الطريق مسدود، يعني أنه في حجاب فابحث عن سبب الحجاب، الإنسان لا يجامل نفسه، أكثر الناس يسخطون على قلة أرزاقهم، لكن يرضون عن عقولهم، وأنا أضيف إلى ذلك أنهم يرضون عن إيمانهم، لأن الإنسان أحياناً يتوهم أنه يوازن نفسه مع قطاع الطرق فيرى نفسه ولياً، يوازن نفسه مع المنحرفين، مع المقصرين، مع العصاة، مع تاركي الصلاة، فيجد نفسه من الأولياء، هذا خطأ كبير، يجب أن تقارن نفسك مع الصالحين، مع المؤمنين الصادقين، مع العلماء العاملين، مع العلماء المخلصين، مع التابعين، مع النخبة التي اختارها الله عز وجل لتكون من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فالإنسان دائماً إذا أراد أن يسعد عليه أن يوازن دنياه مع من هو دونه، وعليه أن يوازن إيمانه مع من هو فوقه حتى يسعد، فهذا الكلام إجابة عن سؤال أحد الأخوة الكرام عن أن الإنسان بعد حين تفتر أحواله.

وهناك جواب آخر، جواب طبيعي جداً.

الشيء إذا وجد يُؤْلَف:

الإنسان حينما ينتقل فجأة من بيت صغير إلى بيت واسع في حي بمقياس الناس راقٍ يشعر بنشوة ليومين أو ثلاثة أو عشرة، لكن بعد شهر أو شهرين يكون قد ألف البيت الجديد، وألِف مساحته الواسعة وألِف مرافقه الجيدة، هذه النقلة النوعية معها فورة هذه الفورة بعد الانتقال المفاجئ من شيء إلى شيء، أمرٌ طبيعي جداً، وبعد حين يألف الإنسان أحوال أهل الإيمان، هذا ما قاله الصديق عليه رضوان الله قال: بكينا حتى جفت مآقينا.

النقلة المفاجئة من الكفر إلى الإيمان، من التفلت إلى الاستقامة، من الضياع إلى الهدى، هذه النقلة المفاجئة مسعدة جداً، لكن من الطبيعي جداً أن هذه النقلة ستتضاءل النشوة التي رافقتها، لأنها أصبحت مألوفة، فمثلاً قد يشتري شخص مركبة، ولفرحته لا ينام تلك الليلة، ويتجول في الشوارع إلى ساعة متأخرة من الليل فرحاً بها، لكن بعد سنتين لا يركبها إلا عند الضرورة، معنى أن الشيء إذا وجد يؤلف.

من آثر مرضاة الله على شهوات نفسه ارتقى عند الله عز وجل:

إذا أحد شك أن أحواله في مسيرة الإيمان قد ضعفت فتفسير ذلك وتعليله أنه ألف ما هو فيه، واعتاده، والدليل لو أن واحداً يشكو من ضعف أحواله ألمّ بمعصية أو مخالفة فإنه يشعر وكأنه قد سقط من السماء إلى الأرض، إذاً حينما كان يشكو ضعف أحواله كان على اتصال بالله عز وجل، والدليل طمأنينته، والدليل سعادته، لكن هذه السعادة ألفها فظنها تراجعاً، أقول: إنها ليست تراجعاً.

وإليكم قصة أذكرها كثيراً ؛ شخص سمع من شيخه أن لكل معصية عقاباً، وزلت قدمه بمعصية خفيفة فصار ينتظر العقاب من الله عز وجل، مضى يوم ويومان وثلاثة فلم يشعر بعقاب أصابه، ففي الصلاة ناجى ربه وقال: ربي عصيتك ولم تعاقبني ؟ فوقع في قلبه أن الله تعالى قال له: عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ فالإنسان عندما يكون على اتصال بالله يشعر بسعادة، والإنسان حينما يستقيم استقامة تامة، كأن يمشي في الطريق ويغض بصره بشكل حازم وإذا كان وقت الصلاة دخل المسجد، وصلى خاشعاً، يشعر بأنه عفّ عن أشياء، وليس هناك من يعاقبه لو فعل عكسها، ويرى أن الدافع وراء غض بصره هذا كان خوفه من الله عز وجل فقط، ويقول في نفسه ويردد بلسانه:

(إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(28))

(سورة المائدة)

فيشعر عندئذٍ بالسعادة الغامرة، إذ آثر مرضاة الله على شهوات نفسه، فارتقى، واستعلى.

طلب العلم ومذاكرته والتدقيق في أفعاله تمكّن المرء من ترسيخ معلوماته:

فيا أيها الأخوة الكرام... ثلاثة أشياء أتمناها عليكم ؛ وأن تتحلوا بها متواكبة متزامنة معاً جنباً إلى جنب، أولاً طلب العلم، عن طريق حضور مجالس العلم، وأن يضاف إلى ذلك مذاكرة ما تلقاه في تلك المجالس، هذا ثانياً، فالإنسان إذا سمع درساً ولم يراجعه في البيت، تتفلت منه المعلومات، ثم تتلاشى، فيحسن به أن يعيده مع زوجته، ومع أولاده، ومع أقربائه، ومع جيرانه، ومع زملائه في العمل، فالعلم يلقى في الهواء والتأثير آني، لكن المراجعة والمذاكرة تمكن المرء من ترسيخ معلوماته، ثم الاستفادة منها، والله عز وجل قال:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ(46))

(سورة سبأ 46)

إذاً ؛ لقد أفاد هذا الإنسان علماً عندما حضر المجالس، ثم رسخ علومه، ومكنها في قلبه، وذاكرته عند مذاكرته، أما الأمنية الثالثة فعليه أن يدقق جداً في أفعاله، وأعماله، وفي دخله، وفي إنفاقه، وفي بيته، وفي سائر تصرفاته، يجعل ذلك كله موافقاً لشرع الله، وهذا هو الجانب السلوكي، وصار عندئذ من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومن بعد ذلك فإن الله عز وجل قال:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(3))

(سورة البقرة)

الذكر يحقق طمأنينة القلب والنفس:

لكل إنسان ما يميزه عن غيره، فمثلاً في مجال المعرفة ؛ هذا يتقن اللغة، وهذا يتقن الرياضيات، وذاك يتقن الهندسة، وآخر يتقن حرفة معينة، كل إنسان يتقن شيئاً، فإذا بذل من حرفته، من خبرته، من معلوماته، من طاقاته، من جاهه شيئاً للمؤمنين ابتغاء وجه الله عز وجل يكون قد حقق الجانب السلوكي، فهو إذاً استقام وعمل أعمالاً صالحة، وحضر مجالس علم وذكرها، وبقي عليه الجانب القلبي فإذا قام للصلاة فليصلّ خاشعاً، متقناً صلاته، وليكن ذاكراً، إما ذكراً منفرداً أو ذكراً جماعياً، وليدْعُ ربه، وليستغفر الله، وبهذا يحقق خشوع جوارحه وطمأنينة قلبه ونفسه، وصار الآن بإمكانك أن تقطف ثمار الدين وأصبحت (وقد تزودت بزاد العلم والمعرفة ثم الذكر والاستقامة) أهلاً للدعوة لله سبحانه وتعالى، تدعو غيرك عن علم وبصيرة، وتجاوزت نفسك إلى الآخرين، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس.

صفات البشر لا تليق بخالق البشر:

نحن الآن مع قوله تعالى:

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (15))

(سورة الزخرف)

أي قال الكفار من أهل الجاهلية: إن الملائكة بنات الله، لأن الابن في الأصل جزء من الأب والأم، فاطمة بضعة مني من أكرمها فقد أكرمني، من أحبها فقد أحبني، ومن أبغضها فقد أبغضني، الابن دائماً جزء من الأب، فهم حينما قالوا إن الملائكة بنات الله ماذا فعلوا ؟ جعلوا الذات الإلهية مركبة من أجزاء، هذا خلاف علم التوحيد.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (15))

(سورة الزخرف)

يعني وصفوا الإله العظيم بأن له بنات، أو ذرية، والذرية تكون من أجل الاستعانة بهم حينما تتقدم به السن، أو ليأنس بهم، أو ليكمل ضعفه بهم، فالإنسان يتخذ الأهل عن حاجة، أو عن ضعف والإنسان ضعيف، وهكذا خلق، فمع زوجته وأولاده يتكاملون، الرجل بحاجة إلى الأنثى، والعكس صحيح، وإذا اجتمعا صارا بحاجة إلى أولاد، والأبناء بحاجة إلى آبائهم، فهذه صفات البشر لكنها لا تليق بخالق البشر.

فالخلاصة أنهم جعلوا الذات الإلهية مركبة، كل شيء فيه أجزاء فهذا يعني أنه مركب، هذه الآلة فيها أجزاء فمكن أن نفصل أجزاءها بعضها عن بعض، إذاً مركّبة، والله عز وجل منزه عن التبعيض والتركيب، والجزئية، والمكان، والزمان، والصورة كل هذه الصفات لا تليق بالله عز وجل.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15))

(سورة الزخرف)

كفرٌ ظاهر بيّن، يكفر أحدهم ويتبجح بكفره، يكفر ويفتخر بكفره ويتطاول، يعني إذا أحسنت إليه لا يقابل الإحسان بالإحسان، بل يقابل الإحسان بالإساءة.

الذين يعصون الله قابلوا نعمه بالكفر والعصيان:

هؤلاء الذين يكفرون ويعصون الله، ثم يعتدون على عباد الله، ونسوا أن الله امتن عليهم بنعمة الوجود، نعمة الصحة، نعمة الإمداد، وبدل أن يقروا بها، ويشكروا الله عليها قابلوا هذه النعم بالكفر، والعصيان، والطعن، والسباب أحياناً، إذاً:

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (15))

(سورة الزخرف)

أي جعلوا لله أولاداً، جعلوا له ابناً، فبعضهم جعل له ابناً، وبعضهم جعلوا الملائكة بناتٍ لله عز وجل.

(إِنَّ الْإِنسَانَ (15))

(سورة الزخرف)

كلمة الإنسان معرفة بـ (أل) في القرآن:

كلمة الإنسان وردت في الآية معرفة، وكذلك في الآية التالية:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة العصر)

فحيثما وردت كلمة الإنسان معرفة بـ (أل) في القرآن فهذه (أل) الجنس، يعني جنس الإنسان قبل أن يتصف بالإيمان عملياً، وقبل أن تصطبغ نفسه بصبغة الله عز وجل، فهو كفور، هلوع، وفي خسر.

الفاجر لا يكتفي بالكفر بل يبالغ في إظهار الكفر:

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (15))

(سورة الزخرف)

هذا يعني كفره ظاهر، وأنه يعمل على إظهار كفره، هذا اسمه الفاجر، الفاجر لا يكتفي بالكفر بل يبالغ في إظهار الكفر، وبعض الأمراض الوبيلة التي تطحن البشرية اليوم (مرض الإيدز)، والذين يصابون به هم مجاهرون بضلالهم هذا، فهم فجرة، والنبي الكريم حدّث عنه قال:

((لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا))

[روى ابن ماجة و البزار والبيهقي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

وهؤلاء الذين ينغمسون في فعل الفاحشة صار لهم نقابات في بعض البلاد الغربية، ويطالبون بحقوقهم، والتحقوا في بعض البلاد في الجيش، ويمارسون فاحشتهم علناً، ويحميهم القانون، فهؤلاء كفرة فجرة.

ولقد طالعتنا الصحف مؤخراً بأخبار عن مرض جديد اسمه (آكلة اللحم)، والإنسان ينتهي مع هذا المرض بأربع وعشرين ساعة وسببه جنسي أيضاً، وكأن الله سبحانه رفع العيار قليلاً، فإذا لم يتأثروا بالمرض الأول، وهو (الإيدز)، فهناك مرض آخر.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15)أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ(16))

(سورة الزخرف)

والخليقة مؤلفة من ذكور، وإناث، وكان العرب في الجاهلية يكرهون البنات.

الحديث في كتاب الله عن وأد البنات:

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(58)يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ على هون)

(سورة النحل)

وتعلمون أيضاً أن العرب كانوا يئدون البنات، وقد قال الله عز وجل:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(9))

(سورة التكوير)

المولود هدية من الله عز وجل ذكراً كان أم أنثى:

لكن المؤمن يرى أن هذا المولود هدية من الله عز وجل ذكراً كان أم أنثى، ويحتفل بالبنت كما يحتفل بالذكر لأنها هدية الله عز وجل، وربنا عز وجل قال:

(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى(36))

(سورة آل عمران)

لقد تمنت امرأة عمران أن يأتيها غلام يدعو إلى الله، فلما جاءتها أنثى قالت وليس الذكر كالأنثى لأن الأنثى قعيدة البيت، والله عز وجل قال:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ(36))

(سورة آل عمران)

لكن الله عز وجل قبلها، وجعلها أماً لنبيٍّ عظيم، وكثير من النساء اللواتي يلدن ذكوراً، فهؤلاء منهم من يصلحون العالم وتكون هي السبب في إنجابه، أما هنا الآية:

(أَمْ اتَّخَذَ (16))

(سورة الزخرف)

ارتكاب الكفار خطأ جسيماً بادعائهم أن لله بنات:

فقد ادّعوا أن لله بنات، لكنكم كيف تَصطفُون لأنفسكم الذكور وتنسبون البنات إلى الله ؟ لو أراد الله أن يتخذ لنفسه ولداً لاتخذه ذكراً وليس أنثى.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15)أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ(16))

(سورة الزخرف)

يعني أنت تختار لنفسك الذكور وتجعل لله عز وجل الإناث:

(تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (22))

(سورة النجم)

ففي الآية الأولى جعلوا لله جزءاً حينما نسبوا له الذرية، ثم ارتكبوا خطأ آخر إذ جعلوا هذا الجزء أنثى، وليس ذكراً يعني أنهم اقترفوا خطأً مركباً.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(17))

(سورة الزخرف)

طبعاً حينما تقول: إن الله اتخذ الملائكة بنات رفعنا الملائكة إلى جنس الألوهية، وهناك رجل في الجاهلية زوجته ولدت بنتاً فغاب عن البيت من شدة ألمه، فقالت زوجته:

مال أبي حمزة لا يأتينا

غضبان ألا نلد البنينا

وإنما نعطي الذي يعطينا

*** * ***

نوع الجنين هو شأن الرجل:

وبعد تقدم العلم أثبت أن نوع الجنين ذكراً أو أنثى ليس من شأن المرأة بل هو من شأن الرجل، لقوله تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

فالمرأة ليس لها علاقة إطلاقاً بموضوع الذكر، أو الأنثى، فأن يغضب الإنسان من امرأته إن أنجبت له بنتاً، فهذا منتهى الجهل، ويذكر أن رجلاً قال: إن أنجبت بنتاً فهي طالق، فجاءته ببنتين معاً فلم تطلق شرعاً من جهة، ومن جهة أخرى عاقبه الله تعالى بولادة بنتين دفعة واحدة.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(17))

(سورة الزخرف)

يعني اسوداد الوجه دليل الألم، والإنسان إن يفرح يتألق ويتورد وجهه وتتحرك عيونه حركة زئبقية، أما إذا تألم يسودّ وجهه وتجمد عيناه، هذه علامات الحزن، هنا اسودّ وجهه وهو كظيم أي ممتلئ ألماً، ويكاد أن ينفجر غيظاً.

الله عز وجل وصف الفتاة أن من طبيعتها أنها تحب الزينة:

(أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ(18))

(سورة الزخرف)

من هذا الذي يُنَشَّأ في الحلية ؟ قالوا: هي الفتاة تنشأ في الحلية، والزينة، والدلال، فالله عز وجل وصف الفتاة أن من طبيعتها أنها تحب الزينة، وهذا جزء من طبيعتها.

(وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ(18))

(سورة الزخرف)

هذا المخلوق الأنثى الله عز وجل صممه تصميماً يتناسب مع دوره في الحياة، هذا الموضوع ينقلنا إلى موضوع دقيق المعنى هو أنّ الرأي السديد والعقيدة الصحيحة المرأة كالرجل تماماً في ثلاثة أشياء.

المرأة مساوية للرجل في التكليف والتشريف والمسؤولية:

في التكليف مكلفة بالإيمان وبأركان الإيمان، ومكلفة بالإسلام وبأركان الإسلام، وفي التشريف، يعني أن امرأة مؤمنة (والله الذي لا إله إلا هو) هي خير عند الله من مليون مشرك، من مليون رجل كافر، فالأنثى مكلفة ومشرّفة.

إذاً المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف، وفي التشريف، وكذلك في المسؤولية، وهذه الأخيرة تعني النقطة الثالثة.

((كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته، المرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[الجامع الصغير 3002]

اعلمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله، يعني مكلفة ومشرفة ومحاسبة كالرجل تماماً، هذا معنى قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ(189))

(سورة الأعراف)

والخلاصة ؛ أن المرأة تشعر كما يشعر الرجل، وتحب كما يحب، وتكره كما يكره، وتبغض كما يبغض، وتتمنى كما يتمنى، وتؤمن كما يؤمن، وتكفر كما يكفر، وتفعل كما يفعل، وترقى كما يرقى، لا فرق بينها وبين الرجل مطلقاً، و قد تكون مؤمنة إلى درجة كبيرة، صديقة، السيدة مريم كانت صديقة، والسيدة خديجة، والسيدة عائشة، والسيدة آسية امرأة فرعون.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11))

(سورة التحري)

والله الذي لا إله إلا هو أيما امرأة عرفت ربها، وقامت على تربية أولادها، وأطاعت زوجها، وكانت امرأة مثالية السلوك والأخلاق، فهي ولية عند الله عز وجل لقوله تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

النظرة الجاهلية للمرأة قبل الإسلام وبعده:

أخواننا الكرام. أية نظرة للمرأة تجعلها أقل من الرجل هي نظرة جاهلية، والجاهلية جاهليتان: جاهلية قبل الإسلام حيث كانوا يئدون البنات، وجاهلية أخرى بعد الإسلام، فحينما تُستغل الفتاة لأرخص الأهداف، فتكون الفتاة وسيلة للإعلان، أليس هذا امتهاناً للمرأة ؟ والله امتهان وأعظم امتهان، المرأة في الأصل أم أو أخت أو بنت أو زوجة إن هذا شنيع عليها، أن تصبح البنت سلعة تجارية، وإني أعوذ بالله من هذا الانحراف المدمر إنها جاهلية القرن العشرين فجاهلية ما قبل الإسلام تئد البنت، والجاهلية الثانية أنهم فتنوا البنات والفتنة أشد من القتل، فالإنسان الجاهلي كان يحفر حفرة ويضع ابنته حيَّة فيها ثم يواريها.

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(9))

(سورة التكوير)

والإنسان الحديث يقول لك: أنا ديمقراطي، أنا أُطلِقُ لابنتي العنان، أحب أن تختبر الحياة بنفسها، أحب أن تمارس التجربة الإنسانية باختيارها، فإذا أطلق لها حريتها، وهي بطبيعتها الأنثوية في الأمور العامة ضعيفة النظر، فلماذا مثلاً ينبغي أن يوافق ولي الفتاة والفتاة على الزواج ؟ لأن ولي الفتاة أخبر بالرجال، وهي لها الحق أن تختار شريك حياتها من حيث المظهر، والمخبر، لكن الأب معرفته بالرجال

أعمق بحكم المخالطة، إنّ المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف والمسؤولية ولكن هناك استثناء، والآية الكريمة:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى (36))

(سورة آل عمران: 36)

النقص يكون كمالاً في بعض الأحيان:

فالمرأة مجهزة نفسياً وعقلياً وجسمياً لتكون أماً، ولتكون زوجة، لذلك زاد الله عز وجل في انفعالها، وعاطفتها، ورحمتها، وحنانها على قوة إدراكها للقضايا العامة وقوة حجتها في الأمور النظرية، طبعاً لسنا بحاجة إلى محاضرة في أمور فلسفية بل نحن بحاجة إلى أم ترعى أولادها وتعتني بهم وتكون مصدر سعادة لزوجها ولأولادها.

ومن هنا فإن ما زاد في عاطفتها وانفعالها ورحمتها واهتمامها بأولادها وبيتها وزينتها وما نقص من قوة إدراكها وقلة اهتمامها بالقضايا العامة فهو كمال فيها، وما زاد في قوة إدراك الرجل للقضايا العامة وشدة اهتمامه لها وما نقص من قوة انفعاله وقوة اهتمامه في الأمور التزيينية والأسرية فهذا كمال فيه، وهاأنذا أضرب مثلاً بمركبتين ؛ مركبة ركاب ومركبة بضاعة، فأما مركبة البضاعة فإن مكان البضاعة يزيد على حساب مكان الركاب، بينما مركبة الركاب زادت مساحة الركاب على حساب مساحة البضاعة فهذا كمال فيها، في الأولى زيادة ونقص وهو كمال فيها، وفي الثانية زيادة ونقص وهو كمال فيها، الله عز وجل كامل وخلقه كامل.

بنية المرأة وبنية الرجل ليس فيهما نقص عيب بل نقص كمال:

فبنية المرأة العقلية والجسمية والنفسية كمال فيها، وبنية الرجل العقلية والنفسية والجسدية كمال فيه، هذا ليس نقص عيب بل نقص كمال، فأنت تريد أن تحمل بضاعة بهذه الشاحنة فهل معقول أن تجعل مكان البضاعة واحداً بالمئة من حجمها فقط ؟ ليس معقولاً، لكن مركبة الركاب أوسع مساحة للركاب، وأقل مساحة للحاجات، فإذاً ممكن أن يكون النقص كمالاً في حالات خاصة معينة.

وبشكل مجمل أقول: ما زاد في قوة إدراك الرجل وشدة اهتمامه بالقضايا العامة والفلسفية وما نقص من شدة انفعاله واهتمامه بالقضايا التزيينية، فهذا كمال فيه، وما زاد من قوة انفعالها وعطفها وحنانها وأنوثتها وما نقص من قوة إدراكها للقضايا العامة، فهذا كمال فيها، فمثلاً إذا دخل إلى بيته، ووجده غير مرتب، والطعام غير ناضج، والأولاد بمظهر لا يليق، والبيت فوضى لا تحتمل، وعند دخوله ألقت

عليه امرأته محاضرة في نظام الدولة الجديد، فهذا الأمر منها إساءة اختصاص، وإهمال في الواجبات التي خلقت من أجلها، قال تعالى:

(وقرن في بيوتكن (33))

(سورة الأحزاب: 33)

البيوت مسؤوليات وللمرأة وظيفة فيها:

وللبيوت مسؤوليات، وللمرأة وظيفة، وصدق الله العظيم الذي خلق، وقدر، إذ يقول:

(أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ (18))

(سورة الزخرف)

وهذا صرح في أن البنت مفطورة على حب التزين من أجل أن ترضي زوجها، وصدق الشاعر العربي حيث يقول مخاطباً المرأة:

فدعي الرماح لأهلها وتعطري

***

وتمام الآية:

(وَهُوَ فِي الْخِصَامِ (18))

(سورة الزخرف)

فالمشادات الفكرية، والقضايا الفلسفية ليس للمرأة باع طويل فيها، فلقد سمعت مثلاً أن أحداث لبنان السابقة لها تفسير عربي ودولي وطائفي، بينما سمعت تفسيراً نسائياً، فقلن: أصابت لبنان عين، فالمرأة أحياناً تدرك إدراكا مختصراً، وقناعتها بريئة، وفطرية، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي من أي أبواب الجنة شئت))

[مجمع الزوائد 7351]

المرأة دينها مختصر، أما دين الرجل في ألف مزلق بكسب المال، وألف مزلق بإنفاق المال، يعني الرجل أمام آلاف الأحكام الشرعية التي ينبغي أن يطبقها حتى يفوز، أما المرأة إذا صلت فرضها وصامت شهرها وأطاعت زوجها وحفظت نفسها دخلت جنة ربها، يعني ربع دين المرأة طاعة زوجها، قال عليه الصلاة والسلام:

((لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها))

[تخريج أحاديث الإحياء للعراقي 9]

لعظم حقه عليها.

حرص المؤمن على أسرته وعلى سعادة أبنائه:

فيجب على الآباء أن يربوا بناتهم على هذه المفاهيم، والأمهات على هذه المفاهيم والأحكام كي يعود للبيت تألقه، وكي تصبح بيوت المسلمين جنات صغيرة، لكن المرأة صارت تبدي كل زينتها للطريق، وكل ما فيها من تقصير لزوجها، والبيوت تعمها الفوضى لذلك أي مجتمع تضعف فيه الأسرة ينتهي إلى خسارة ودمار، ووضع الأسرة الأجنبية يشهد بذلك، فالأسرة عندهم وجودها بات إلى زوال. أما المؤمن فدائماً يحرص على أسرته، وعلى سعادة أبنائه، وعلى الوئام والوفاق، والحقيقة أن بطولة الإنسان أن يكون سعيداً في بيته، لأنه إذا سعد في بيته انعكس هذا على عمله، هذا معنى القرآن الكريم:

(أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18))

(سورة الزخرف)

إن الله عز وجل في الآية السابقة لم يمدح، ولم يذم ولكنه وصف، هذه الفتاة مصممة على أن تكون أماً تحتاج إلى عاطفة، تحتاج إلى رحمة، تحتاج إلى إدراك سريع، فيها حب التزين، الله عز وجل خلق الحلي لتكون زينة للنساء، والواقع يؤكد ذلك، ويلتقي مع نص الآية، قال تعالى:

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا (19))

(سورة الزخرف)

جعلوا الملائكة إناثاً وهذا افتراء آخر لأنهم مخلوقات نورانية لا يعصون الله:

هذا افتراء آخر، فأول افتراء أن جعلوا لله من عباده جزءاً، الافتراء الثاني جعلوا هذا الجزء بنتاً، والافتراء الثالث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ليس بين الملائكة ذكوراً وإناثاً، والملائكة ليسوا كالبشر يتوالدون، فالتوالد يقتضي أن يكون هناك ذكر وأنثى، والملائكة صنف ثالث من الخلق، فهم مخلوقات نورانية لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ (19))

(سورة الزخرف)

ومن ثم فهل رأيت أنت أنهم إناث، وحينما خلقهم الله فهل كنت مع الله عز وجل تخلق، أو تشاهد عملية الخلق ؟

(أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19))

(سورة الزخرف)

لقد سجل الله عليهم مقالتهم هذه، وسيسألون عنها.

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(20))

(سورة الزخرف)

ولقد تكررت مقولتهم هذه في القرآن الكريم مرات عديدة.

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

عقيدة الجبر عقيدة مضلة تلغي التكليف:

في الآية إشارة لعقيدة الجبر بأن تعتقد أن الله أجبرك على المعصية أو على الكفر وهذه عقيدة ضالة مضلة، هذه العقيدة تلغي التكليف، تلغي الأمانة:

(إنا عرضنا الأمانة(72))

(سورة الأحزاب 72)

تلغي الثواب، تلغي العقاب، تلغي المسؤولية، تلغي الجنة والنار، تلغي جدوى نزول الكتب السماوية، تلغي جدوى إرسال الأنبياء، والمرسلين، تجعل الدين تمثيلية عابثة، فلذلك قال تعالى مخبراً عنهم:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ(148))

(سورة الأنعام)

ومقولة العوام من الناس تلتقي مع تلك المقولة بأسلوب آخر فيقولون: طاسات معدودة بأماكن معدودة، يعني الجبر، يقولون لسنا لنا حيلة وهذا ترتيب سيدك، هذا جبر أنت ليس لك علاقة أبداً، والله ألهمك المعصية، هذه عقيدة أهل الجبر، وهي عقيدة زائغة، سيدنا عمر لما جيء له بإنسان شارب الخمر، قال له: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليّ ذلك، قال: أقيموا عليه الحدّ مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، وقال له: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.

الإنسان مخير فيما يفعل أو يقول:

لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ويجب أن نؤمن بأن الإنسان مخير فيما يفعل، أو يقول.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(46))

(سورة فصلت)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (17))

(سورة فصلت 17)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ(148))

(سورة البقرة)

هنا قالوا:

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ (20))

(سورة الزخرف)

هذا جدل وهذا افتراء على الله، إذ قالوا: إنهم مجبرون على أن يعبدوا هؤلاء.

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(20))

(سورة الزخرف)

أشد أنواع الكذب أن يخرص الإنسان:

أي يكذبون، وأن يخرص الإنسان فهذا في الحقيقة أشد أنواع الكذب، ثم إن الله سبحانه وتعالى يشير إلى أدلتهم الواهية:

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ (20))

(سورة الزخرف)

فهل لديكم دليل عقلي ؟

(مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ (20))

(سورة الزخرف)

المقصود بالعلم هنا المشاهدة.

(إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(20))

(سورة الزخرف)

هم لم يكونوا مع الله عز وجل حينما خلق الملائكة، وأفادت كلمة يخرصون أن الله عز وجل نفى عنهم الدليل العقلي، أما النقلي:

(أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ(21))

(سورة الزخرف)

الدليل العقلي والدليل النقلي:

فهل لديهم نص ؟ وهذه إشارة دقيقة جداً في هاتين الآيتين إلى الدليل العقلي والدليل النقلي، وقالوا:

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(19)وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(20))

(سورة الزخرف)

وبعد ؛ فهل هذه الدعوة، وهذا الافتراء، وذاك الكفر، ورد عندهم بكتاب منقول عن الله عز وجل ؟

(أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ(21)بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ(22))

(سورة الزخرف)

أيْ على طريقة أو على دين، والأمة في الآية هي الطريقة التي تؤم والنهج الذي يتبع.

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ(22))

(سورة الزخرف)

نحن هكذا نشأنا وهكذا تربينا، أولياؤنا هكذا علمونا، آباؤنا هكذا قالوا لنا، أجدادنا هكذا كانوا، تركوا النقل وليس نقل ولا عقل بل هو تقليد الآباء والأجداد.

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ(22)وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23))

(سورة الزخرف)

يعني عقل تقليدي لا يغير ولا يبدل، عادات، وتقاليد، وتراث، يقول لك تراث وصار التراث عندهم إلهاً.

(وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا (23))

(سورة الزخرف)

ثماني آيات في القرآن اقترن فيهن الترف مع الكفر:

وكلمة **" المترفون "** في القرآن في ثماني آيات حصراً، وفي هذه الآيات الثماني اقترن الترف مع الكفر:

(إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23))

(سورة الزخرف)

الترف مثلاً أن تقيم حفلة عرس أو حفلة عقد قران بعشرين مليون ليرة، بينما يمكن لشاب أن يتزوج بمئة ألف، ويسكن مع زوجه ببيت صغير خارج دمشق، وبالمقارنة بين الحالتين يتبين لنا بحق أن عمل الأول يفسر لنا الترف، والمترفين.

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23)قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(24))

(سورة الزخرف)

إذاً هم لن يغيروا، بل هم مصرّون على موقفهم.

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(24)فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(25))

(سورة الزخرف)

علاقة الآيات التالية بالآيات السابقة:

فالسؤال الذي يفرض علينا ذاته هو ما علاقة الآيات التالية والتي تتحدث عن سيدنا إبراهيم بالآيات السابقة:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26)إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي(27))

(سورة الزخرف)

هذا سؤال للدرس القادم، ما علاقة القصة بين إبراهيم بسياق الآيات ؟ القرآن مترابط، فالحديث الآن عن هؤلاء الذين وجدوا آباؤهم على أمة وإنهم على آثارهم مقتدون، قال تعالى:

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(24)فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(25)وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26)إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي(27))

(سورة الزخرف)

الله سبحانه نفى عنهم الدليل العقلي والدليل النقلي وأبقى لهم التقليد الأعمى:

دققوا النظر فستجدوا أن الله سبحانه وتعالى نفى عنهم الدليل العقلي، كما نفى عنهم الدليل النقلي، وأبقى لهم تقليدهم الأعمى، وهكذا سيدنا إبراهيم قال لأبيه وقومه:

(إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26))

(سورة الزخرف)

فالله عز وجل ينتظر منا ألا نقلد أحداً، ويريد منا أن نؤمن به بطريق العقل، والنقل، وفي درس قادم آخر نتابع هذا الموضوع إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 26-32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-06-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الزخرف.

الاتصال والترابط بين آيات القرآن:

مع الآية الكريمة السادسة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26))

(سورة الزخرف)

الحقيقة أن بين آيات القرآن الكريم اتصالاً و ترابطاً، هذا المعنى في الترابط أشار القرآن الكريم إليه في قوله تعالى:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ(1))

(سورة هود)

قد لا تجد بين المقطعين أو الآيتين رابطاً لغوياً، لكنك تجد الرابط المعنوي قطعاً، فحينما قال الله عز وجل:

(وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23))

(سورة الزخرف)

أي نحن نقلد آباءنا، هكذا نشأنا، وهكذا تربينا، وهكذا التقاليد، وهكذا العادات، وهذا هو التراث.

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23))

(سورة الزخرف)

فربنا جلّ جلاله جاء بمثل حيّ، بنبي كريم، بأبي الأنبياء، بالنبي الذي اجتمع على تعظيمه كل الناس، قال:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ (26))

(سورة الزخرف)

أي واذكروا إذ قال إبراهيم لأبيه:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26))

(سورة الزخرف)

التقليد في العقيدة مرفوض:

أيها الأخوة، لا تقليد في العقيدة، في العقيدة التقليد مرفوض وغير مقبول، وعند جمهور العلماء فسق، وعند بعضهم كفر، التقليد لا يكون في العقيدة إطلاقاً، لو سمحنا أن يكون في العقيدة تقليد لأصبحت كل الفرق الضالة على حق، لأنهم ما فعلوا إلا أنهم قلدوا من قبلهم، لا يمكن أن تعطل عقلك مع أي إنسان، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنما الطاعة في معروف))

[متفق عليه عن علي]

لذلك فالمترفون الذين يحبون الدنيا يقلدون آباءهم، يقتدون بهم، يقدسون العادات ولو كانت مخالفة لكتاب الله، يقدسون التقاليد ولو كانت باطلة، يقدسون التراث ولو كان انحرافاً، الله عز وجل يبين أن هذا النبي الكريم وقف الموقف التالي من أبيه وقومه، قال:

(إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26))

(سورة الزخرف)

أي براء من الأصنام التي تعبدونها، إنْ هي إلا أسماء سميتموها ما أنزل الله بها من سلطان، وبراء من عبادتكم لها، وبراء مصدر استعمل مكان الصفة، يعني إنني بريء، براء لأنها مصدر لا تجمع ولا تثنى ولا تذكر ولا تؤنث، تقول المرأة إنني براء، ويقول الرجلان إننا براء، ويقول الرجال إنا براء، على كل هذه القضية لغوية، براء مصدر حلّ محل الصفة.

(إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26)إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي (27))

(سورة الزخرف)

العبادة لا تكون لغير الله:

هذه الآية تبين أن العبادة للذي فطرك وحده، لأنه هو سبب وجودك، هو الذي خلق، هو الذي صور، هو الذي رزق، هو الذي ربى، هو الذي هدى، هو الخبير، هو المشرع، إليه المصير، إليه المآب، لا يمكن أن نتصور عبادة لغير الله، وهذا الذي يعبد غير الله يقع في مستنقع آسن، يعني احتقر نفسه، وأخذ بجريرة فعله.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ(130))

(سورة البقرة 130)

أنت حينما تعبد غير الله تحتقر نفسك، يعني باللغة الدارجة لا يليق بك أن تعبد غير الله، أنت المخلوق المكرم، أنت المخلوق الأول لا يليق بك أن تعبد غير الله، هو الذي خلقك، هو الذي أوجدك، هو الذي

رباك، هو الذي سيّرك، هو الذي أمدّك، هو الذي هداك، بيده كل شيء، مالك الملك، إليه يرجع الأمر كله، له مقاليد السماوات والأرض، إليه المصير، هو الأول والأخر والظاهر والباطن، أفتعبد غير الله عز وجل !؟

(إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26)إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي(27))

(سورة الزخرف)

الهداية لا تكون إلا من الذي فطر الإنسان:

إذا قال إبراهيم عليه السلام إنه سيهدين بمعنى أنه سيزيدني هدىً، وبمعنى أنه سيثبتني على الهدى وسيزيدني هدى، لكن هناك معنى آخر يستنبط من هذا: أن الهداية لا تكون إلا من الذي فطر الإنسان، يعني عندك جهاز كمبيوتر لو أنه أصابه خلل، أو لو أردت أن تستعمله لا يمكن أن تهتدي إلا بتعليمات الصانع، لا يليق بجهاز معقد جداً أن تسأل عن طريقة استعماله إنساناً جاهلاً، أو صديقاً حميماً لا خبرة له، أو إنساناً أمياً، أو بائعاً لطيفاً تحبه كثيراً، فهؤلاء جميعاً لا يفقهون بهذا الجهاز، ولا يمكن أن نهتدي إلى طريقة تشغيله وصيانته إلا بالاستعانة بصانعه.

ففي الآية إذاً معنيان دقيقان: الأول لا يمكن أن نعبد إلا الذي فطرنا، والذي فطرنا هو الذي سيهدينا، والمعنى أنه من لوازم الكمال الإلهية.. من لوازم ربوبية الله عز وجل أنه لا يدع عباده من دون توجيه، فمثلاً من المعاني الدنيا لأبوة الأب أنه يوجّه أولاده نحو الحق والخير، أيعقل أن يتوهم الأب أن كل مهمته في إطعام أولاده وإكسائهم فقط ؟ لا، فأقل أب يهتم بأخلاق أولاده، وبدينهم، وبمستقبلهم، فمن لوازم كمال الأب أن يوجه أولاده إلى طريق الخير، إذا كان في قلب الأب شيء من الرحمة قليل، وبهذا القليل يحنو على أبنائه، ويرحمهم فكيف بالرحمن الرحيم ! أيدع عباده من دون توجيهات، من دون رسل، من دون أنبياء، من دون إلهام، من دون تبيين، من دون توضيح فالآية تعني أن الذي فطر الإنسان هو الذي سيهديه هو وحده، يعني الهدى لا يمكن أن يؤخذ إلا من الخالق، إنسان مفكر، مصلح اجتماعي، إنسان طرح أفكاراً، طرح منهجاً، نقول له: بادئ ذي بدء من أين جئتنا بهذا المنهج ؟ من عندك، من أنت حتى تكون مُنظِّراً لنا ؟ من أنت حتى تكون مشرعاً لنا ؟ ماذا تملك من خبرات ؟ ماذا تملك من علم حتى تشرع لهذا الإنسان ؟ لذلك أي تشريع وضعي باطل في أصله، لأن المشرع رجل، إنسان علمه محدود، الدليل:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا(85))

(سورة الإسراء)

العبادة لا تكون إلا لله والهدى لا يكون إلا من الله:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ(255))

(سورة البقرة 255)

صاحب العلم المحدود بالنسبة لطبيعة النفس البشرية لا يمكن أن يكون مشرعاً للبشر، ولو أن الإنسان تعمق في العلم إلى حدّ ما لأن له نزوات وله سهرات وله مصالح وله سقطات، لا يمكن لبشر كائناً من كان أن يكون مشرعاً، لأنه لا يعلم وإذا علم لا ينصف، حينما يشرع الإنسان يوجب التشريع لمصالحه الشخصية، ولا يحيط علماً بخفايا النفس لدى من يشرع له، فلذلك الآية فيها معنيان دقيقان: الأول أن العبادة لا تكون إلا لله، وأن الهدى لا يكون إلا من الله، فمن الذي ينبغي أن تعبده ؟ هو الذي أوجدك من العدم.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

من الذي ينبغي أن تعبده ؟ هو الذي أمدك بما تحتاج، فهذا الهواء من الذي أمدك به؟ وهذا الماء من أمدك به ؟ لو أن السماء شحت ويبس النبات ومات الحيوان ماذا نفعل ببلادنا ؟ نهجرها، لو أن السماء شحت هل تستطيع قوى الأرض مجتمعةً أن تصدر قراراً بإنزال المطر ؟ لا، وهذه حقيقة بين أيدينا جميعاً، إذاً من الذي ينبغي أن يعبد ؟ هو الذي خلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يربي، وهو الذي بيده كل شيء، وهو الذي إليه المصير، هذا الذي ينبغي أن تعبده، ومن هذا الذي يقدر على أن يهديك ؟ هو الخالق، أي بمعنى مبسط جداً ؛ أيُّ آلة بين يديك بالبديهة وبالفطرة ومن دون تعقيدات تشعر أن الجهة التي يمكن أن تزودك بالتعليمات لتشغيلها هي الجهة الصانعة وحدها، وأنت لا تقبل أساساً أن تأخذ التوجيهات من غير صانع هذه الآلة، فكم من آلة معقدة، فأول شيء يتبادر له أن يطلب التعليمات، فإن كانت مثلاً باللغة الأجنبية قام وكيل هذه الشركة بترجمة التعليمات بلغتك ليسهل عليك استخدامها، فإذاً أنت بالفطرة حريص على سلامة آلة، أفلا تكون حريصاً على سلامتك، وسعادتك، وآخرتك، فإن كنت حريصاً على كل ذلك، فلن تسلم، ولن تسعد إلا بتطبيق تعليمات الصانع، لذلك:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26)إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي(27))

(سورة الزخرف)

(إلا) استثناء متصل بمعنى أني أعبد الله وحده:

قال (إلا) هذا استثناء متصل، هذه العبارة ترد كثيراً في دروس التفسير، معنى استثناء متصل: أي أن المستثنى منه من جنس المستثنى، إذا قلت: حضر الطلاب إلا خالداً، خالد طالب، أما المنقطع أن يكون

المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كأن تقول: حضر الطلاب إلا المدرس، فالمدرس ليس طالباً، فالعلماء قالوا هذا استثناء متصل، لأنهم يعبدون الله ويعبدون أصناماً من دون الله

(إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي (27))

(سورة الزخرف)

هذا استثناء متصل، أي أنا أعبد الله وحده.

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ (28))

(سورة الزخرف)

كلمة التوحيد باقية في عقب سيدنا إبراهيم:

إن الذي جعلها كلمة باقية في عقبه هو الله عز وجل، يعني كلمة التوحيد باقية في عقب هذا النبي العظيم سيدنا إبراهيم، وكلمة التوحيد هي لا إله إلا الله، وإذا أردت أن تعرف الدين كله فهو أن تؤمن أنه لا إله إلا الله، فاعلم أنه لا إله إلا الله، لكن دقة الآية أنّ الله عز وجل لم يقل فقل لا إله إلا الله بل قال: **فاعلم أنه لا إله إلا الله**، والإنسان لو فهم القرآن فهماً دقيقاً لانتبه لأفعال الأمر، ومؤدى كل منها، فالله جل جلاله حينما يقول لك فاعلم أي، فاعلم أن الله جل جلاله حينما يقول ذلك فاعلم هذا يقيناً، ما قال قل، قد يقول أحدهم ما معنى قول النبي الكريم: من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة ؟ الجواب معروف، قيل وما حقها ؟ قال أن تحجزه عن محارم الله، أحياناً يأتي القول تعبيراً عن عقيدة واضحة، هنا القول بمعنى قل ذلك عن عقيدة، وعن علم:

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(28))

(سورة الزخرف)

الشرك أن تتوهم أن الأمر بيد غير الله:

الرجوع إلى الله دائماً، والإنسان عندما يرى أن الأمر بيد غير الله فإنه لا يرجع إلى الله، بل يرجع إلى من يتوهم أن الأمر بيده، وهذا هو الشرك.

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

(سورة لقمان)

لكن إذا أيقنت أن الأمر كله بيد الله ترجع إلى من ؟ إلى الله، أيضاً ببساطة إذا دخلت إلى دائرة حكومية وأنت محتاج إلى موافقة، تقول: الموافقة بيد من ؟ يا ترى هل بيد المدير العام أم معاون المدير العام ؟

أم مدير الشؤون الذاتية ؟ فإذا أبلغت أن الموافقة من حق المدير العام وحده فإلى أين تتوجه ؟ إلى المدير العام، وتدع كل من سواه، لذلك فهذه كلمة التوحيد.

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ (28))

(سورة الزخرف)

أي ذريته.

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(28))

(سورة الزخرف)

إلى الله، فالشرك يرجعك إلى غير الله، يرجعك إلى عبد من عبيد الله، يرجعك إلى الجهة التي أشركتها مع الله، لكن التوحيد يرجعك إلى من ؟ إلى الله، لذلك قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

من أراد أن يسعد في الدنيا و الآخرة فليرجع إلى الله عز وجل:

إذا أردت أن تسعد فارجع إلى الله، وإذا أردت أن تشقى فارجع إلى غير الله، غير الله عز وجل ليس شيئاً لكن الله كل شيء، وجعلها الله كلمة باقية في عقبه، والهاء في عقبه تعود على سيدنا إبراهيم:

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(28))

(سورة الزخرف)

لعل الذراري من بعده يرجعون إلى الله دائماً، نقطة دقيقة جداً أنت ترجع لمن بيده الأمر، فإذا علمت أن الله بيده الأمر ترجع إلى الله، وإذا علمت أن الأمر بيد زيد أو عبيد أو فلان تتوجه إلى زيد أو عبيد أو فلان، تتوجه وتتوسل معصية الله لأنك أشركته مع الله.

ولقد قلت مرة في خطبة في يوم عرفة يوم وقفة عيد الأضحى المبارك، قلت: من قال الله أكبر ثم أطاع مخلوقاً كائناً من كان وعصى خالقه فهو بحكم من لم يقل: الله أكبر ولا لمرة واحدة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه إنما أطاع الأقوى في تصوره، ومن كسب مالاً حراماً، فكأنه ما قال الله أكبر ولا لمرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى أن هذا المال أكبر عنده من الله، أو من طاعة الله، ومن لم يُقم الإسلام في بيته إرضاءً لأهله فهو ما قال الله أكبر ولا لمرة أبداً، ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه إنما رأى أن إرضاء أهله أكبر عنده من إرضاء الله عز وجل، فالأمر بات واضحاً جلياً.

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(28))

(سورة الزخرف)

الله عز وجل يعلمنا أنه لا إله غيره عن طريق الوحي:

الله عز وجل لا إله غيره لكن دائماً يعلمنا أنه لا إله غيره، كيف يعلمنا ؟ يعلمنا عن طريق الوحي، القرآن كله يلخص بكلمة لا إله إلا الله، تقول هذه مبالغة، لا ليست مبالغة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ(64))

(سورة النساء)

ليس القرآن كله، بل الكتب السماوية كلها تحوم حول **" لا إله إلا الله ".**

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

لا إله إلا الله هي العقيدة وطاعة الله عز وجل هي السلوك:

العقيدة لا إله إلا الله والسلوك هو العبادة، لذلك العلماء قالوا: لا إله إلا الله نهاية العلم والتقوى نهاية العمل، فأنت إذا وصلت إلى لا إله إ لا الله وصلت إلى الحقيقة الكبرى التي لا حقيقة بعدها، وإذا أطعت الله عز وجل فأنت أكرم الخلق.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

معرفة أنه لا إله إلا الله هي الكلمة التي تقوم عليها العقيدة الصحيحة، وطاعة الله عز وجل هي السلوك الصحيح، وما سوى ذلك باطل في باطل.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

اللغو ما سوى الله عقيدةً وسلوكاً، أيُّ حركة لغير الله لغو وباطل، وأي توهم بعيد عن الله عز وجل لغو وباطل، يعني أنت ترجع لمن بيده الأمر فإذا علمت أن الله بيده كل شيء رجعت إليه.

الله عز وجل ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله إليه:

لذلك فالله عز وجل ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله إليه قال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ(123))

(سورة هود)

الله جل جلاله هو الذي ينبغي أن يعبد، والله جل جلاله هو الذي ينبغي أن يستهدى، الحديث القدسي:

((يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته. فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا. فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني. ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم. كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم. ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم. وإنسكم وجنكم. كانوا على أفجر قلب رجل واحد. ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم. وإنسكم وجنكم. قاموا في صعيد واحد فسألوني. فأعطيت كل إنسان مسألته. ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم. ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيرا فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))

[صحيح مسلم عن أبي ذرّ]

إنه كلام قطعي، والله عز وجل أكبر وأعظم من أن يظلمك، أو من أن يحرمك، أو من أن يعطي غيرك ولا يعطيك، أومن أن يكرم غيرك ولا يكرمك.

(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمْ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ(29))

(سورة الزخرف)

كلمة متعت: أي أطلت أعمارهم وأعطيتهم ما يشتهون، يعني فقد تجد إنساناً باعه طويل في الدنيا، المال عنده موفور، وصحته قوية، ودخله كبير، وجاهه عريض، ولا ينقصه شيء من الدنيا وبهجتها، فهل هذا إكرام ؟ هذه الدنيا لا علاقة لها بالإكرام إطلاقاً.

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16)كَلَّا)

(سورة الفجر)

فلا هذا صحيح ولا هذا صحيح، ليس عطائي إكراماً بل هو ابتلاء، وليس منعي حرماناً بل هو دواء.

حظوظ الدنيا درجات نرقى بها إلى الجنة أو دركات نهوي بها إلى جهنم:

ملخص الملخص أن: حظوظ الدنيا درجات نرقى بها أو دركات نهوي بها، وهي حيادية، كل شيء أعطاك إياه بإمكانك أن ترقى به إلى الجنة، وبإمكان الإنسان الضّال أن يهوي به إلى جهنم، الشيء نفسه كالعقل يمكنك أن تصل به إلى الله، ويمكن أن تستخدمه في المكر والدسيسة والكذب والاحتيال، والمال كذلك، والصحة كذلك، والذكاء كذلك، وطلاقة اللسان كذلك، أي حظ من حظوظ الدنيا يمكن أن تستخدمه

لتكون في أعلى عليين، وأي حظ من حظوظ الدنيا يمكن أن تستخدمه فتكون لا سمح الله في أسفل سافلين.

(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ (29))

(سورة الزخرف)

ولقد جاء الحديث الشريف أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((والله لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

لا أعتقد أن هناك مخلوقاً أهون على الناس من بعوضة، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يقل بعوضة بل قال جناح بعوضة.

ولقد رأى النبي الكريم مرة شاة ميتة وقد تفسخت فقال:

((انظروا إلى هذه الشاة كم هي هينة على أهلها، والله للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها))

الدنيا ليست عطاءً بل متاعاً ما دامت تنتهي إلى الموت:

وما أكثر ما أردد الكلمة التالية: الموت ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي وسامة الوسيم، ينهي دمامة الدميم، ينهي كل شيء، إذاً الدنيا ليست عطاء، فمادامت تنتهي بالموت إلى لا شيء فإذاً ليست عطاءً، هذا العطاء لا يليق بالله عز وجل، لا يليق بالله أن يعطيك شيئاً ثم يسترده، وهذه الفكرة الأخيرة تؤكد لنا هذه الدنيا بمجملها ليست عطاءً، وهذا ملخص قول الله عز وجل:

(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمْ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ(29))

(سورة الزخرف)

يعني إلى أن أسمعهم الرسول القول الحق، وأن الدنيا متاع والمتاع الشيء العابر، وهي متاع الغرور يُغتر بها.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

(سورة التوبة 38)

وبعد ؛ فهل سمعت ؛ أن الله يعجب من سلوك بعض الناس إذ يتناقلون إلى الأرض ويؤثرونها.

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة 38)

هذه الآية مما تهتز لها النفوس ! وإليك آية أخرى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

إنّ الرب العظيم يقول هذا عطاء قليل يجب أن نصدقه وألا نحرص عليه وألا نعصي الله أو نتنافس من أجله.

أشقى الناس من يأتيه الحق فيكفر به:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(30))

(سورة الزخرف)

هذا أشقى إنسان إذ يأتيه الحق فيكفر به، يأتيه الحق فيسخر منه، يأتيه الحق فيتهم من يأتي بالحق بالسحر والشعوذة والكهانة وما إلى ذلك.

(وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(30))

(سورة الزخرف)

هناك سؤال أطرحه عليكم: الكفار قالوا عن النبي إنه ساحر ومجنون وقالوا كاهن، هذه تهم وبهتان، هذا ما قالوه، فلماذا أثبته الله في القرآن وصار يتلى إلى يوم القيامة ؟

(وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(39))

(سورة الذاريات)

ما الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى أثبت التهم الباطلة التي نعت بها النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق ؟ الجواب: أنّ أيّ إنسان دعا إلى الله في الدنيا، ثم إذا هاجمه من هاجمه، وطعن به من طعن، وانتقص من قدره من انتقص فلئلا يتألم لما يصفه به الآخرون، فإنه يتعزى عندما يجد لنفسه في شخص النبي الكريم أسوة حسنة، يعني هذه التهم التي أتهم بها النبي وهو منها براء أثبتها الله في القرآن الكريم تطييباً لخاطر أمته من بعده، فإذا النبي الكريم قالوا عنه ساحر وشاعر ومجنون وكاهن فمن أنت ؟ فطب نفساً، وتابع مسيرة الدعوة إلى الله والإيمان به، والعمل الصالح الذي يرضاه.

الحياة الدنيا هي معركة أزلية بين الحق والباطل:

أيها الأخوة إن الحياة الدنيا كلها من بدايتها إلى نهايتها معركة أزلية بين الحق والباطل، والنبي الكريم قال:

((للمؤمن أربعة أعداء: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وشيطان يضله، وكافر يقاتله))

[الجامع الصغير 7352]

فليمعن أحدكم النظر في الحديث فالدنيا دار ابتلاء، وليست دار استواء:

(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمْ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ(29))

(سورة الزخرف)

الإنسان يمتع لكن إذا جاء الحق ولم يستجب يهلك، أحياناً الله عز وجل يعطيك فرصة، لكن بعد أن توضحت الأمور وأسمعك الحق بالحجج الدامغة لن يعذرك أبداً.

المؤمن لا يقلد بل يتحقق بالدليل:

وبعد فالآية الأولى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26))

(سورة الزخرف)

توجز أمر المؤمن الصادق من أنه لا يقلد ولكن يتحقق، وأنت كمؤمن لا يليق بك إلا الدليل.

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(117))

(سورة المؤمنون)

أنت تحتاج إلى برهان، إذاً:

(حَتَّى جَاءَهُمْ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ(29)وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(30))

(سورة الزخرف)

العلم هو الوصف المطابق للواقع وغير ذلك فهو جهل:

يعني إذا قلت عن هذه الكأس إن هذا الماء الذي فيها ليس صافياً وهو صافٍ، فوصفك المغاير للحقيقة هل يغير من طبيعة الماء شيئاً ؟ أبداً لن يغير شيئاً، من تعاريف العلم: أنه الوصف المطابق للواقع، فإن لم يكن الوصف مطابقاً للواقع فليس علماً، أصبح جهلاً، الجهل ليس فراغاً بل الجهل علاقات باطلة، والإنسان الجاهل عنده آلاف العلاقات، وآلاف التصورات، وآلاف المقولات لكن كلها غير صحيحة، أما الأمي فهو الفارغ، فالأمي وعاء عقله فارغ، أما الجاهل فعقله مملوء بالعلاقات الباطلة، وبالتصورات الخاطئة، وبالأفكار الفاسدة، وبالعقيدة الزائغة، فهذا هو الجهل.

لو أن مصباح الزيت الذي في السيارة، ظنه السائق مصباحاً تزيينياً، فإذا تألق، فهذا التألق من أجل أن يسليه أثناء القيادة فيكون هذا جاهلاً، فالجاهل هو الذي لديه تصورات ولكنها كلها باطلة.

القرآن كلام الله لا يليق به إلا أن ينزل على عظيم حسب نظرة الكفار:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(30))

(سورة الزخرف)

قولهم عن الحق أنه سحر لن يجعله سحراً، بل يبقى الحق حقاً والباطل باطلاً، والأسماء لا قيمة لها.

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة النجم 23)

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(31))

(سورة الزخرف)

هم عندهم العظيم هو الغني، والعظيم هو الوجيه، والعظيم هو القوي، وهذه هي مقاييسهم، وإذا كان القرآن كلام الله فلا يليق به إلا أن ينزل على عظيم حسب نظرتهم، وعلى رجل من أعلام قومهم فمن هو محمد بنظرهم ؟ فقير، يتيم الأب والأم، ليس من هؤلاء الكبار الأغنياء الأقوياء المسيطرين.

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(31))

(سورة الزخرف)

يعني لو أن هذا القرآن نزل على الوليد بن المغيرة نقبله، هذا إنسان من زعماء مكة، لكن من هو محمد إزاءه ؟ يقول الله عز وجل:

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (32))

(سورة الزخرف)

مقياس ربنا الطاعة ومقياس أهل الأرض الغنى والجاه:

النبوة رحمة الله عز وجل أفهم يقسمونها ؟ هذا شأن الله عز وجل، الله له مقاييس أخرى، مقياس أهل الأرض الآن هو الغنى لكن مقياس ربنا الطاعة له، فقد تجد صاحب شركة ضخم الثروة والسطوة لكن حاجبه عند الله أعظم منه، مقياس ربنا عز وجل الطاعة، في حين أن مقياس الناس الغنى، والقوة، والجاه، والسلطان.

سيدنا عمر رضي الله عنه قال لسيدنا سعد بن أبي وقاص: **يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية**، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له فقط.

فأنت بطولتك أن تعرف مقياس ربنا عز وجل، ابتغوا الرفعة عند الله وطريقها التقوى والطاعة، بينما هي عند الناس المال والقوة.

عالم القيم وعالم الدين هو الحق عند الله عز وجل:

أي شخص قوي يقولون هذا يده تصل إلى كل مكان فالناس يحترمونه كثيراً، كما يحترمون الغني والقوي وهذا مقياس مادي، لكن عالم القيم وعالم الدين هو الحق عند الله عز وجل، والإنسان لا يرقى إلا بمعرفة الله وبأخلاقه الفاضلة، والدليل: أن النبي عليه الصلاة والسلام هو أعظم عند الله، واسمع يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء.

وبعد فقد تجد شاباً يحمل شهادة الليسانس في الشريعة، ثم يحصل على دبلوم في الشريعة، ثم شهادة ماجستير، وبعد ذلك يختار حوالي عشرين حديثاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقوم بشرحها ويقول: هيأت أطروحة في الحديث الشريف، ونال على أثر هذه الأطروحة شهادة الدكتوراه.

فماذا فعل هذا الشاب القدير ؟ فهم بعضاً من أحاديث رسول الله، فأين هذا وغيره من النبي صلى الله عليه وسلم.

إذاً يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء.

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام كان أعظم الخطباء، وأعلم العلماء، وأفقه الفقهاء، وأقضى القضاة، وأعظم المفتين، وكان قائداً عسكرياً، وزعيماً مدنياً، ومصلحاً اجتماعياً، ولما أراد الله عز وجل أن يمدحه فبماذا مدحه ؟ لقد قال سبحانه:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

فهذا مقياس ربنا.

الصفة المرموقة عند الله الخلق العظيم:

الإنسان قد يكون ذكياً جداً، وطليق اللسان، وقد يكون فهيماً، ويحمل أعلى الشهادات، وهذه كلها صفات عقلية، وأما الصفة المرموقة عند الله الخُلُق العظيم، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة))

[رواه الطبراني عن أنس بن مالك]

فإذا أردت أن ترقى عند الله فكن ذا خلق عظيم، لأن الله عز وجل يمكن أن تعرفه، ويمكن أن تعرف أمره، ويمكن أن تعرف خلقه، أما خلق الله عز وجل الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا والفيزياء النووية والكيمياء العضوية والكيمياء اللاعضوية هذه علوم الأرض، وهي علوم خلق الله، وأما علم أمر الله، فهو الشريعة والفقه والمقارن

وأصول الفقه وأحكام الزواج والطلاق وأحكام العارية والبيوع إلى أخره هذا علم الأمر والنهي وعلم الشريعة.

لكن معرفة الله لا تحتاج إلى مدارسة بل إلى مجاهدة، جاهد تشاهد، إذا غضضت بصرك عن محارم الله فالله عز وجل ألقى محبته فيك وتجلى عليك وألقى في قلبك نوراً تعرفه به هذا معنى من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(31)أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (32))

(سورة الزخرف)

إن كل ما يتعلق بدنياهم قد قسمه الله بينهم، قال سبحانه نحن قسمنا بينهم معيشتهم، وجعلنا فيهم غنياً وفقيراً، قوياً وضعيفاً، صحيحاً وسقيماً، وفيهم على الخط الوسط وآخرون تحت الأحمر.

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (32))

(سورة الزخرف)

فكل ما يتعلق بهم ولا يستطيعون تدبيره نحن قسمنا بينهم معيشتهم، أما ما يتعلق برحمة الله عز وجل، فقال سبحانه:

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (32))

(سورة الزخرف)

هذه الآية فيها معنيان:

هذه الآية من أدق الآيات:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

هناك معنيان للآية: أما المعنى الأول فسأسمعكم إياه، وأما المعنى الثاني سأبينه لكم:

1 - المعنى الأول:

قد جعل الله غنياً وفقيراً لحكمة بالغة، وجعل قوياً وضعيفاً، وجعل صحيحاً وسقيماً، وجعل ذكياً وأقل ذكاءً، وجعل وسيماً وأقل وسامة، حظوظ الدنيا متفاوتة، شخص ما حجمه المالي ألف مليون، وآخر مئتا مليون، وثالث لا يكفيه راتبه يومين، هذه أرزاق متفاوتة، والعقول متفاوتة، والقوة متفاوتة، هذا هو المعنى الأول.

2 ـ المعنى الثاني:

الله أعطى كل إنسان اختصاصاً، ومن خلال اختصاصه تفوق على الآخرين، فهناك الطبيب والمهندس والحقوقي والمدرس والأستاذ الجامعي، كما أن هناك الميكانيكي والحداد والنجار وعامل البناء إلى غير ذلك من الأعمال والمهن وكل برز في اختصاصه، وكل يحتاج إلى غيره.

هذه الآية تعني إذاً أن الله أقدر كلّ إنسان على عمل، ويسره له، وبهذا العمل تفوق على بقية الخلق، وأنت بهذا الاختصاص سيد، ولو أعطوا عالماً من علماء الأزهر الكبار تخطيط قلب ليدرسه فماذا يفهم منه ! يرى خطوطاً ليس إلا، بينما الطبيب ينظر إلى التخطيط فيقول عند المريض تسرع في القلب، كما يفهم الطبيب منه أشياء كثيرة، فعالم الأزهر أمام التخطيط أُمّي، وهذا الطبيب أمام معاني كتاب الله أُمّي.

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (32))

(سورة الزخرف)

كل إنسان تفوق بشيء فهو سيد في مجاله، ولذلك قيل:

احتج إلى الرجل تكن أسيره، واستغنِ عنه تكن نظيره، وأحسن إليه تكن أميره.

فأنت ذو باع طويل بالعلم ولك شخصيتك عندك جهاز معطل فلا بد لك من شخص مختص يصلحه، وإلا بقي معطلاً، لأنه ليس لديك قدرة أو خبرة لإصلاحه، وهذا المعنى الثاني للآية:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (32))

(سورة الزخرف)

الله رفع بعض الناس فوق بعض درجات ليصبح المجتمع متكاملاً:

المعنى بصورة عامة أن الله سبحانه وتعالى رفع بعض الناس فوق بعض درجات في الاختصاصات، وفي كافة المجالات الدنيوية.

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (32))

(سورة الزخرف)

ليصير المجتمع البشري متكاملاً، ولو كان كل فرد يتقن كل شيء لما بقيت حاجة ليكون الإنسان اجتماعياً ولاستغنى كل فرد بنفسه ولكن:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (32))

(سورة الزخرف)

سخرياً ؛ من السُخرة لا من السخرية، أي الخدمة، أنت تَخدِم وتُخدَم، بهذه الطريقة أنت تمتحن، الإنسان يمتحن بالعمل، لكن الإنسان لو جعل اختصاصه لجمع المال، مسرور لأنه يملك ثروة طائلة، الله نبهه أنه ليس القصد أن تجمع الثروة من الاختصاص.

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

القصد من الحرفة أن تخدم بها المسلمين، فمن أين يأتي الجشع ؟ حينما تريد من هذه الحرفة أن تجمع ثروة طائلة، أنت إذاً تفعل أشياء مخالفة للفطرة، ترفع الأسعار وتستغل وتطعن بغيرك وتدلس وتكذب وتوهم وتغش ثم تجمع الأموال، لكن:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

ليس الهدف من الحرفة جمع المال بل خدمة الناس:

بالمناسبة أيها الأخوة. إليكم هذه الحقيقة الصارخة إن أيّ إنسان بأي حرفة إذا وضع المادة هدفه سقط وهان، أما إذا وضع المادة وراء ظهره ارتقى، وجاءته المادة حلالاً، وكل إنسان صاحب حرفة مادي ينتهي إلى خسران، فاجعل همك الأول خدمة المسلمين، فإذا كنت بهذا الإتقان وهذا الإخلاص أتتك الدنيا وهي راغمة، وإذا أردت الدنيا وحدها على حساب اختصاصك وإخلاصك وصدقك وإتقانك ذهبت منك الدنيا وذهب منك المال واستحق الإنسان لعنة الناس، ولذا فكل إنسان يستغل حرفته لابتزاز أموال الناس، فهو ملعون عند الله وعند الناس، وكل إنسان يهدف إلى خدمة الناس والمادة وراء ظهره يأتيه الثناء من الله ومن الناس وتأتيه الدنيا راغمة مثقلة بالمال الحلال هذه نقطة مهمة جداً، ولتعلم أن أكبر رأسمال تملكه في دنياك هو ثقة الناس، ولن يتحقق لك ذلك إلا بالتقوى والصلاح، واجعل نصب عينيك:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

واجعل شعارك في عملك:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

أتقن عملك، وانتظر من الله الثواب:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

والإنسان عند الموت يفقد كل شيء، ولكن رحمة الله هي التي تبقى، وتنفع.

الاختصاصي يصل بإخلاصه إلى رحمة الله:

من المعاني المستفادة من هذه الآية: أن الإنسان صاحب الاختصاص (كل إنسان له اختصاصه وعمله هو اختصاصه) ممكن أن يصل بعمله إلى رحمة الله، بإخلاصه وصدقه وأمانته ونصحه للمسلم، أما بعدم إخلاصه وغشه وتلاعبه واحتياله فقد يصل إلى المال الوفير ولكن يخسر نفسه، إذ يضيعها في جمع المال، واللهاث وراء الثراء. فبعض الأطباء يعطي المريض إبرة ماء مقطر ليكسب ثمنها حراماً وغشاشة، ولئن كان المريض لا يعرف فإن ربك بالمرصاد، لا أحد يجعل اختصاصه استغلالاً لحاجة الناس إليه، الله عز وجل يقول:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (32))

(سورة الزخرف)

إن على كل إنسان أن يتقي الله، خلل بسيط بدماغه يذهب اختصاصه، أنا أعرف رجلاً يحمل دكتوراه من النوع الذي نحن في أمسّ الحاجة إليه، وارتقى بالمناصب إلى منصب معاون وزير، وتزوج امرأة من أوروبا وعاش في بحبوحة، ثم فقد بصره وقبع في بيته، ثم سرّح من منصبه، أنقل لكم ما قاله لصديقه، قال له: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف وأن أتسول وألا أملك من الدنيا إلا معطفي وأن يردّ الله عليّ بصري، فليتعظ الإنسان بغيره، ولا يستغل اختصاصه لظلم الناس، ولا يبتز أموال الناس، ولا أن يتعالى باختصاصه على الناس، وليعلم أن للناس كرامة عند الله سبحانه هو خلقهم والكل عياله والآية دقيقة المعنى جداً ولئن كان قد رفعك بهذا الاختصاص، أو رفعك بهذه الوظيفة، فعليك أن تعلم أن الله أعطاك ليمتحنك، فإن اجتزت الامتحان فهنيئاً لك، وإلا فالحذر الحذر، قال الله عز وجل:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (32))

(سورة الزخرف)

من أجل أن تخدم أخاك، لا من أجل أن تستغله:

(لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (32))

(سورة الزخرف)

عطاء الله للإنسان امتحان له:

حينما رفعك فوق منزلة أخيك فمن أجل أن تخدمه، ومن أجل أن ترقى إلى الله بخدمته، يقول الله عز وجل:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

فإخلاص الإنسان في عمله، وإتقانه لعمله وصدقه وأمانته ونصحه للمسلمين هدف سامٍ وكبير ومرتقٍ إلى الله عز وجل ومشرف، إن بعض معامل الطحينة تضع إسبيداج في هذه المادة فتصبح بيضاء فيرتفع سعرها خمس ليرات، وهذه المادة تستعمل في الدهان هذا يجعل كسبه للمال عن طريق تلوين هذه المادة الغذائية بلون يؤذي الناس في صحتهم، ولئن كان الآخرون لا يعرفون لكن الله عز وجل يعرف ويشاهد ثم ينتقم، واعلم أنك إذا أخلصت واتقيت الله فرحمته خير لك من المال كله.

ما كل ربح هو مال، فأحياناً يكون الربح رحمة الله ومحبته لك ورضوانه، فتقر عينك، وتطمئن نفسك، ويأتيك الرزق وفيراً، لأن الله لا يخلف الميعاد، فهو القائل:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ(3))

(سورة الطلاق)

وكرر دائماً:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(33)وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ(34)وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(35))

(سورة الزخرف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 33-45
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-07-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الزخرف.

الآيات التالية أصل في نفي الجبر:

مع الآية الثالثة والثلاثين وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35))

(سورة الزخرف)

هذه الآية أيها الأخوة أصل أيضاً في نفي الجبر، كما أن قوله تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

فهاتان الآيتان أصل في نفي الجبر عن الإنسان كذلك هذه الآية ؛ لولا إعرابها أو معناها حرف امتناع لوجود، أداة شرط غير جازمة، و (لو) حرف امتناع لامتناع أداة شرط غير جازمة.

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

الفرق بين (لو) و (لولا):

امتنعنا عن أن نسقيهم ماءاً غدقاً لامتناع استقامتهم على الطريقة، حرف امتناع لامتناع، لو جئتني لأكرمتك، امتنع إكرامي إياك لامتناع مجيئك، لكن (لولا) حرف امتناع لوجود، لولا المطر لهلك الإنسان، امتنع هلاك الإنسان لوجود المطر، الآية:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا(33))

(سورة الزخرف)

لمَ لمْ يجعل الله عز وجل لبيوت الكافرين سقفاً من فضة ؟ طبعاً القصد لجميع الكافرين ؛ فهناك كفار فقراء، وبعض الكفار أغنياء، أما الآية: لمَ لمْ يجعل الله لكل كافر بيتاً واسعاً مزخرفاً فيه من المباهج وما تحار معه العقول وما لا يعد ولا يحصى ؟

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ(33))

(سورة الزخرف)

لمَ لمْ يجعل الله بيوت الكافرين من فضة ؟

تصور أن السقف كله من الفضة، في زماننا بعض البيوت سقوفها من الجبص فيقول الناس شيء بديع، مذهل، فكيف إذا كان فضة مزخرفة ؟ من الفضة الخالصة المزخرفة المنقوشة.

(وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33))

(سورة الزخرف)

المعارج هي الأدراج، يعني وأن يكون للبيوت أدراج فخمة جداً من الرخام ولها جوانب مزخرفة، أي أن كل شيء ممكن أن يرتفع مستواه إلى درجة مذهلة.

(وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا)

(سورة الزخرف)

والأبواب من فضة أيضاً.

(وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34))

(سورة الزخرف)

ناهيك عن أن السرر كذلك من الفضة.

(وَزُخْرُفًا(35))

(سورة الزخرف)

والإنسان قد يدخل إلى بيت فيه فخامة، وفيه أناقة، وفيه زينة، وفيه اتساع، وفيه راحة، وفيه وسائل، وقال سبحانه:

(وَزُخْرُفًا(35))

(سورة الزخرف)

أي أن السقف من الفضة المزخرفة، والأدراج من الفضة المزخرفة، والأبواب من الفضة، والسرر التي يجلسون عليها من الفضة، والبيت إجمالاً مزخرف، وبتعبير العصر يقولون: زينة وزخارف تحار فيها العقول.

الله تعالى لم يجعل الدنيا للكفار لأنه أصلاً لم يخلق للجنة أناساً وللنار أناساً:

ليس القصد الفضة بالذات، القصد أن الله عز وجل لو خلق الإنسان ليكون كافراً ولم يرد منه الهدى، ولم يخلقه لجنة عرضها السماوات والأرض، لو أن الله خلق للجنة أناساً كما يزعمون وخلق للنار أناساً، لو أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في الأصل كافراً وخلق إنساناً آخر في الأصل مؤمناً، لو أنه فعل ذلك لجعل الدنيا للكفار لهوانها على الله سبحانه، متى تعطي عدوك شيئاً ؟ إذا كان هذا الشيء هيناً عليك، ولأنها هينة فقد شبهها النبي عليه الصلاة والسلام بشاةٍ ميتةٍ متفسخة فقال لأصحابه حين رآها: انظروا إلى هذه الشاة كم هي هينة على أصحابها ألقوها في الطريق، وللدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أصحابها، والحديث الذي تعرفونه جميعاً يؤكد حقيقة شأن الدنيا، قال عليه الصلاة والسلام:

((والله لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

الله تعالى جعل الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى:

الدنيا هينة على الله لا قيمة لها، يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب، بل في الأعم الأغلب يعطيها لمن لا يحب، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

إذاً (لولا) حرف امتناع لوجود، لماذا لم يعط الله للكفار ما يشتهون من زينة الدنيا ؟ من متاعها ؟ من مباهجها ؟ من بيوتها ؟ من نسائها ؟ من قصورها ؟ من مركباتها ؟ من مقاصفها ؟ من بساتينها ؟ من جناتها ؟ ليس القصد البيت فقط، البيت وما يتبع البيت، البيت والبستان والمركبة، لمَ لمْ يعط الله جلّ جلاله للكافرين هذه المباهج التي يصبو الناس جميعاً إليها ؟ قال سبحانه:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً(33))

(سورة الزخرف)

الناس كلهم مخلوقون لهدف واحد ومدعوون لمعرفة الله:

لئلا يكون الناس أمة واحدة، ما معنى أمة واحدة ؟ أي مخلوقون ليؤموا هدفاً واحداً، مخلوقون لهدف واحد، مدعوون لمعرفة الله، مطلوبون للجنة، لو أن الله عز وجل خلق أناساً للنار وأناساً للجنة، خلق أناساً مؤمنين وأناساً كافرين، لو أن الله سبحانه وتعالى أجبر عباده على الكفر لم يكن هناك من حكمة

في تعذيب الكفار في الدنيا، والتضييق عليهم، وسوق الشدائد لهم، لكن لأنه خلق كل خلقه ليسعدهم، خلق كل خلقه من نفس واحدة ومن طبيعة واحدة ولهدف واحد نبيل، لأن الناس كلهم خلقوا لهدف واحد إذاً سيعالجهم وسيضيق عليهم، ولا يعطيهم سؤلهم في الدنيا كما يريدون، بل يعطيهم ما ينبغي أن يعطيهم إياه كي يلتفتوا إلى الله عز وجل.

الناس أمة واحدة، من طبيعة واحدة، من بنية واحدة، من جبلة واحدة، أودعت فيهم الشهوات ليرقوا من خلالها إلى رب الأرض والسماوات، أعطوا حرية الاختيار، زودوا بعقل يدلهم على الله عز وجل، فطروا فطرة نقية صافية طاهرة، خصائص واحدة والهدف واحد والطريق واحد، كل هذه المعاني تجمعها كلمة:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً(33))

(سورة الزخرف)

الله سبحانه خلق الناس ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة:

يعني أنت ترضى من أب عنده خمسة أولاد أن يهيئ واحداً ليكون طبيباً وواحداً ليكون حاجباً، ويكون أحدهم دخله غير محدود وآخر دخله محدود، ويهيئ أحدهم ليكون عالماً بينما يُبقي أحدهم جاهلاً، فهذا تصرف لا تقبله من أب أساساً، فالله عز وجل خلق الناس أمة واحدة ليؤموا هدفاً واحداً، ليقصدوا الجنة وما أعدّ لهم فيها من نعيم مقيم، خلقهم جميعاً ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة، هذا المعنى الذي يليق بالله عز وجل.

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً(33))

(سورة الزخرف)

((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون وفقت في توضيح معنى:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً(33))

(سورة الزخرف)

جميعاً مطلوبون، جميعاً خلقنا للجنة، جميعاً خلقنا للسعادة، جميعاً يحفزنا الله عز وجل لنلتفت إليه ونتقرب منه، فليس هناك عبد مخلوق للنار كما يدعي بعضهم، وعبد مخلوق للجنة، ليس هناك عبد قدّر عليه أن يكون كافراً من الأزل، وكفر في الدنيا نفياً لقضاء الله عز وجل، وسوف يحاسب في الآخرة لأنه كفر بقضاء الله، هذه المعاني الجبرية ما أنزل الله بها من سلطان، إذاً امتنع امتناع الكفار في الحياة الدنيا لأنهم مخلوقون للجنة.

الدنيا دار عمل و تنافس و ابتلاء:

كذلك ليس من الحكمة أنه إذا إنسان خُلق للجنة أن تمتعه في الدنيا إلى أقصى درجة، كما أنه ليس من الحكمة أن تجعل في الصف التعليمي المقاعد وثيرة جداً بحيث تصبح كالسرر تتحرك كمقاعد الطائرات، فهذا ليس معقولاً لصف في مدرسة، فلو أن المقعد مريح إلى درجة أنه يصبح كالسرير فلأبسط حركة ينام الطالب، هذا المكان مكان انتباه، مكان سماع محاضرة، مكان تفاعل مع المدرس وليس مكان استلقاء، أيعقل أن يكون الصف فيه كل ما لذّ وطاب من الطعام ؟ ليس من المعقول لأنه يتنافى مع الهدف التعليمي.

فلو أن الدنيا هي كل شيء للإنسان، لو أن الدنيا ليس وراءها آخرة فالمنطق يحتم ألا يكون هناك عذاب، وليس هناك مشكلة غنى وفقر، ولا قوي وضعيف، ولا غني وفقير، ولا وسيم ودميم، ولا غبي وذكي، إذا كان إلهنا واحداً وخلقنا للدنيا فلماذا التفاوت ؟ لا معنى للتفاوت، لكن لأننا خلقنا للآخرة ولجنة عرضها السماوات والأرض، وجئنا إلى الدنيا لتكون دار عمل ودار تنافس ودار ابتلاء لذلك هناك الشدائد، هناك الابتلاء بالعطاء والمنع، هناك الابتلاء بالغنى والفقر، والابتلاء بالقوة والضعف، دار ابتلاء، دار عمل، دار كشف، دار توبة، دار إنابة إلى الله عز وجل، فلذلك التنعم يأتي عرضاً، ليس التنعم في الدنيا هو الأصل، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

[أخرجه أحمد عن معاذ بن جبل]

الله تعالى عندما يعطي الدنيا للكافر لا لكرامته على الله بل لهوانه عليه:

إذا كان هناك إنسان يبني حياته على السرور، على الاسترخاء، على التنعم بالطعام والشراب وكل المباهج، يقعد عن طلب الحق، يقعد عن طلب العلم، يقعد عن عمل صالح، فهذا الإنسان ما عرف حقيقة الدنيا بل جهلها، إذاً ما الذي لم يجعل للكفار جميعاً بيوتاً فخمة وبساتين غنّاء وقصور رحبة ومال وفير وجمال لماذا ؟ لأنهم ما خلقوا للدنيا فقط، ولا أنهم خلقوا ليكونوا كفاراً، طبعاً هناك حالات نادرة، هناك إنسان يعطى الدنيا لا لكرامته على الله، بل لهوانه على الله، كما قال الإمام عليّ كرم الله وجهه:

"فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا"

قضية السيرة النبوية تعد أهم موضوع في هذا الأمر، يعني سيد الخلق وحبيب الحق ـ سيد ولد آدم ولا فخر ـ سيد الأولين والآخرين، سيد الأنبياء والمرسلين، المخلوق الأول الذي أقسم الله بعمره الثمين، لم يسكن في بيت فخم، كان إذا صلى قيام الليل نحى السيدة عائشة جانباً حتى يصلي لأن غرفته الصغيرة جداً لا تتسع لصلاته ونومها، كان إذا دخل بيته يقول:

((هل عندكم شيء ؟ قالوا: لا، قال: فإني صائم))

[مسلم عن عائشة]

بينما في بيوتنا لا يمكن ألا تجد شيئاً أبداً، لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، لأن النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وكان فقيراً، قال:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أنس]

السيدة فاطمة طلبت من النبي عليه الصلاة والسلام خادمة، فقال:

((والله يا فاطمة لا أؤثرك على فقراء المسلمين، لا أجد المزيد وفقراء المسلمين أولى منك))

لا يليق بخالق الأكوان أن يخلق أناساً للنار وأناساً للجنة:

فلولا أن يكون الناس أمة واحدة، وأنهم جميعاً مطلوبون، جميعهم مخلوقون لجنة عرضها السماوات والأرض، ويريد أن يتوب الله علينا جميعاً، جميعاً يريد أن يبين الله لنا، أن يخفف عنّا، هذا المعنى يتناسب مع عظمة الله ومع كماله، إذا الإنسان ميز بين أولاده يسقط، فإن كان هذا لا يليق بإنسان أيليق بخالق الأكوان ! قد تجد الإنسان خطأً يميز بين أولاده أو عن غير قصد فيصبح أحدهم في أعلى مرتبة اجتماعية، يعتنون بدراسته إلى حد أن يأخذ الدكتوراه ويزوجه أجمل فتاة وأفخر بيت، وابن آخر مهمل،

مثل هذا الأب يسقط في عينيك، هذا ابنك وهذا ابنك، لم كل هذه العناية بزيد وقد حجبتها عن عبيد ؟ ما ذنب الثاني ؟ إن كان هذا لا يليق بإنسان ضعيف أيليق بخالق الأكوان أن يخلق أناساً للنار ولا ذنب لهم وأناساً للجنة من غير سبب يدعو لذلك، فهذا المعنى لا يليق بحضرة الله عز وجل.

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35))

(سورة الزخرف)

عطاء الله سرمدي وأبدي فهو الجنة لا الدنيا:

كلمة متاع تعني شيئاً وشيك الزوال من الناس، مَن اعتنى بكسوة بيته سنتين، ويوم انتهى العمل في البيت توفى صاحبه ولم يسكنه، وهناك أشخاص نالوا أعلى الشهادات، وما استمتعوا بها أبداً مات في المطار في طريق العودة إلى بلده، أناس كثيرون قبضت أرواحهم ليلة عرسهم، معنى ذلك أن الدنيا هينة على الله عز وجل، بالمناسبة لا يليق بالله عز وجل أن تكون الدنيا عطاءً له لأن الدنيا منقطعة، كنت أقول دائماً أن الموت ينهي غنى الغني، إنسان ترك أربعين مليوناً ألف مليون، أربعة آلاف مليون دولار، لا بدّ من أن يموت فإذا مات ما مصير هذا المال ؟ لم يعد له، إذ مات، وانتهى أمره، فالموت ينهي غنى الغني وينهي فقر الفقير، وقوة القوي، ووسامة الوسيم، وذكاء الذكي، ينهي كل شيء، إذاً لا يليق بالله عز وجل أن تكون الدنيا عطاءً له، بل الله يعطي الشيء الأبدي السرمدي، عطاؤه الجنة.

(وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا(35))

(سورة الزخرف)

الحياة الدنيا خيال ولا يبقى منها إلا العمل الصالح:

متاع، كأن يأكل الإنسان وجبة طعام، فمدة استمتاعهِ بطعم الشيء لحظات أثناء مضغ اللقمة، والحركة قبل البلع، واللسان يدفع اللقمة إلى سقف الحلق، وهناك أعصاب ذوق في هذه اللحظة تشعر أن هذه الطعام لذيذ، طبعاً بعد ثانية إذا انتقلت هذه اللقمة إلى المري فالمعدة، غدت الفلافل مثل اللحم في جوف المعدة، هي كلها ثوان أثناء المضغ فقط، وبعد ذلك استوى الأمران، متاع.

يقال أحياناً: الدنيا خيال، يعني هذا العمر كيف مضى ؟ لا أعرف مثل لمح البصر، انظر فالإنسان يولد ويعتني به الأهل ويدخل المدرسة إلى كافة المراحل، ابتدائي، إعدادي، ثانوي، ويعيش في اهتمامات الدراسة، بعد ذلك يريد أن يتزوج، ومن ثم جاءه أولاد وتحولت اهتماماته إلى الأولاد، بعد ذلك زوج

الأولاد، ثم لم يلبث أن تقاعد، ثم أصبح عرضة للعلل في جسمه فينتبه إلى السكر وغيرها وبعد ذلك تطبع ورقة الوفاة، وعظم الله أجركم، هذه هي الدنيا خيال ؛ وكل ما فيها مضى، ويبقى من العمل الصالح أجره ومن اللذة تبعتها، هذه رحلة الحياة الدنيا، فليأخذ المرء منها لآخرته، وليكن عاقلاً، وليحذر.

(وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ(35))

(سورة الزخرف)

الأبدية، السرمدية، الدائمة، المتنامية:

(عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35))

(سورة الزخرف)

لمن اتقى الله في الدنيا، اتقى أن يعصيه، اتقى غضبه، اتقى سخطه.

أغلب آيات القرآن تتحدث عن الإيمان بالله واليوم الآخر فهما متلازمتان:

فالملاحظ أيها الأخوة أن الله سبحانه وتعالى في أكثر الآيات التي تتحدث عن أركان الإيمان يذكر الإيمان بالله مع اليوم الآخر طبعاً أركان الإيمان هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى، لكن أكثر ركنين يتلازمان في القرآن: الإيمان بالله واليوم الأخر، إذا آمنت بالله من دون اليوم الآخر ينشأ هناك مئات التساؤلات ليس لها أجوبة، فمثلاً قوي وضعيف يموت القوي قوياً، ويموت الضعيف ضعيفاً، وهناك إنسان لا يملك أن يفعل شيئاً وإنسان آخر بيده مقاليد الأمور، إنسان يملك أموالاً لا تأكلها النيران وإنسان يشتهي أن يأكل لقمة فلا يجدها، فلو أُلغي الإيمان باليوم الآخر ينشأ مليون سؤال بدون جواب، لكن اليوم الآخر فيه تسوية حسابات.

إن الدنيا كلها تنطق بأسماء الله الحسنى، الكون كله يجسد أسماءه الحسنى، لكن الدار الآخرة تؤكد عدالته، تتم فيها تسوية الحسابات كلها، مرة قرأت مثلاً أعجبني: لو فرضنا أن أناساً جلسوا في مسرح والمسرحية بدأت، فإذا الأحداث تطورت إلى أن وصلت إلى عقدة ثم أُرخِي الستار فلماذا يبقى الناس في مقاعدهم مع أن الستار أرخي ؟ لأن الناس يعتقدون أن المسرحية لم تنته بعد، ما مصير القاتل ؟ ما مصير هذا الذي خان ؟ فالقصة لم تنته بعد، ونحن في الدنيا يأتي الموت والوقائع لم تنته، هناك ظالم، ومظلوم، ومغتصب، وقاهر، ومقهور، مستغِل ومستغَل، ولقد مات الاثنان، ثم لا بدّ من يوم تسوى فيه الأمور يعود الحق إلى أصحابه، يؤخذ للمظلوم من الظالم، للضعيف من القوي، للمغتصَب من المغتصِب، فلذلك الإيمان بالله واليوم الآخر هما الركيزتان الأساسيتان لأركان الإيمان.

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36))

(سورة الزخرف)

إعراض الإنسان بنفسه عن رؤية الحق و صم أذنيه لسماعه:

عشا يعشو، طبعاً الفعل المضارع مجزوم بحذف حرف العلة والضمة دليل أن الحرف المحذوف هو الواو، أصل الفعل عشا، عشا لها معنى، وعَشِي يعشى لها معنى آخر عشي يعشى يعني لم ير بوضوح لضعف في بصره، هناك بصير وأعمى وأعور وأعشى، الأعشى ضعيف البصر، والأعور بعين واحدة، والبصير بصير، والأعمى أعمى، عشا يعشو لم ير حقيقة الشيء لضعف في بصره وهذا المعنى هنا غير مقصود، أما الفعل هنا فهو عشا يعشو، فما معنى عشا يعشو ؟ أي أن الإنسان لم ير حقيقة الشيء لا لضعف في بصره ولكن لرغبة في ألا يرى، أي يتعامى، يتعاشى، يُعرِض بنفسه عن أن يرى ويتعامى عنها.

معنى ذلك أن الله زودك بالعقل الذي يريك الحق حقاً، فأداة معرفة الله العقل السليم، كما أعطاك بصر كي ترى آيات الله، أعطاك سمع كي تستمع إلى آيات الله، وأعطاك لساناً كي تسأل، بالعين ترى الآيات، وبالأذن تسمع المواعظ، وباللسان تسأل، وبالعقل تحاكم، ومع ذلك يعشو يعني يريد ألا يرى، يريد ألا يسمع، يريد ألا يفكر، فعشا يعشو، يعني عدم وضوح الرؤيا لا لضعف في عينيه بل لرغبة في عدم الرؤيا، وهو لا يريد أن يرى.

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ(36))

(سورة الزخرف)

يتعامى عن آيات الله، يتعامى عن الموعظة، يُصم عن سماع الحق، يعطل فكره، ولا يُعمله في الخير.

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36))

(سورة الزخرف)

لا أحد يستطيع أن يُضل أحداً أبداً:

أخواننا الكرام الإنسان بين إلهام ملك وبين وسوسة شيطان إذا كان الإنسان مع الله يأتي الملك فيلهمه، وإذا ابتعد عن الله عز وجل يبادر الشيطان ليوسوس له، لكن بالمناسبة لا أحد يتوهم أن الشيطان بإمكانه أن يضل الإنسان، لكن هناك توافق بين رغبة الإنسان في الضلالة والانحراف والمعصية، وبين وسوسة الشيطان له، توافق فقط، أما الشيطان، فلا يستطيع أن يفعل شيئاً لقوله تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22))

(سورة إبراهيم)

يجب أن تعتقد أن الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا كنت معتصماً بالله، إذا كنت مستعيذاً بالله، لكن الإنسان حينما ينقطع عن الله عز وجل ويتمنى الدنيا، فالشيطان أصبح رفيقاً له، رفيقاً يدله على الشر، فالشيطان ليس له دور حقيقي ولكن دوره من قبيل تحصيل الحاصل، لاحظ في المدرسة أن الطالب المنضبط الأخلاقي ذا التربية العالية لا يتأثر أبداً برفاق السوء، يظل بعيداً عنهم ويحتقرهم، لكن رفاق السوء يؤثرون بمن ؟ بشاب منحرف في الأساس، شاب ضائع، شاب ليس عنده رادع ديني، فمثل هؤلاء الشباب يؤثر فيهم رفاق السوء وكخلاصة أنه لا أحد يستطيع أن يضل أحداً أبداً.

(قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(27)قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ(28))

(سورة ق)

وقال:

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36))

(سورة الزخرف)

تحضير الأرواح مجرد كذب و دجل:

هؤلاء الشياطين ماذا يفعلون ؟ أحياناً يقال إنهم يقومون بتحضير أرواح، وهم بهذا يدجلون على الناس، حقيقة تحضير الأرواح أن هذا الإنسي المتعاون مع الجن يسأل قرين هذا المتوفى فيحدثه حديثاً مسهباً عن تفاصيل حياته، ويوهمون أنهم حضّروا روح هذا الميت، الميت لا يأتي، ولا تحضر روحه، ولكن هذا القرين الشيطاني كان قريناً للإنسان الذي مات كافراً، وهو يعرف كل تفاصيل حياته، إذاً يستعين الإنسان أحياناً بالجن في معرفة تفاصيل حياة من توفاهم الله على غير ملة الإسلام.

(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37))

(سورة الزخرف)

هذا السبيل هو سبيل الله عز وجل، سبيل الجنة، سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، مهمة الشياطين الصدّ عن السبيل، والشيطان هكذا قال:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ(16))

(سورة الأعراف)

الشيطان لا يتحرك إلا عندما ينوي الإنسان السير إلى الله تعالى:

الملاحظ أن الإنسان مادام في المعاصي والموبقات والانحرافات ليس لديه مشاكل نفسية، وليس لديه وسوسة، ولا ضيق ولا كوابيس أبداً، لكن لمجرد أن يتجه إلى الله تقوم قيامة الشياطين، فمتى الشيطان يتحرك ؟ حينما يزمع هذا الإنسان السير إلى الله.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ(16)ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(17))

(سورة الأعراف)

تارة يزين له الحداثة والتقدم والعلمانية والمجتمع والعلم، وتارة يزين له التقاليد البالية في تراث الآباء، ويكون في التراث المعاصي الكثيرة، وعادات كلها خروج على الدين، إما أن يأتيه من الحداثة أو من التقليد، أو عن شمائلهم، وهي المعاصي، أو عن أيمانهم وهي الوسوسة، فدائماً يأتي الشيطان للمؤمن من باب أن يلقى في روعه أنك أنت لست مؤمناً، بل أنت منافق، أنت لا تحب الله عز وجل، يلقي في ذهنه خواطر سيئة، هذا الذي يفعله الشيطان، عن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن بين أيديهم ومن خلفهم.

(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37))

(سورة الزخرف)

أخطر شيء في الحياة أن تتوهم أنك على حق وأنت على باطل:

والحقيقة أن الخطر الأكبر في حياة الإنسان أن يتوهم أنه على حق بينما هو على الباطل، من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه، ومنهم يدري ولا يدري أنه يدري فهذا غافل فنبهوه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلموه، لكن أخطر واحد منهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري هذا شيطان فاحذروه.

المشكلة أن يكون الإنسان على باطل ويحسب أنه على حق، منحرف ويحسب أنه مستقيم، مسيء ويحسب أنه محسن، مفسد ويحسب أنه مصلح، ضال ويحسب أنه مهتدٍ، ماله حرام ويحسب أن هذا ذكاء، يقتنص الموبقات ويحسب أنه ذو باع طويل في خبرات الحياة، هذه كلها أوهام لذلك:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

المبتدع أحب إلى إبليس من العاصي لأن المبتدع لا يتوب لكن العاصي يتوب:

ضل سعيهم وهم يحسبون أنهم مهتدون، يعني أخطر آفة في الإنسان أن يكون في وضع سيئ جداً ويتوهم أنه خلاف ذلك، المشكلة إذا الإنسان عرف نفسه أنه مقصر أو عاصٍ أصبح باب التوبة أمامه مفتوحاً، لكن حينما يظن نفسه أنه على حق بينما هو على باطل فقد أغلق عليه باب التوبة، وقالوا أيضاً: المبتدع لا يتوب، قالوا: الابتداع أحب إلى إبليس من المعصية، إذا الإنسان اعتقد عقيدة فاسدة، فالشيطان يرحب به أكثر من المعصية، لأن المعصية قد يتوب منها الإنسان ولأنها معروفة أنها معصية بالبديهة، بالفطرة، بالنص، فكل من النص والفطرة والبديهة تؤكد أنها معصية، إذا أدرك الإنسان أنه وقع في المعصية فاحتمال التوبة كبير جداً، لكن إذا وقع في عقيدة فاسدة بابتداع هذا لا يتوب، قالوا المبتدع لا يتوب، وقالوا الكبائر هي ذنوب المبتدعين، والصغائر ذنوب المتبعين، فإبليس أحب إليه أن تبتدع من أن تعصي، لأن المبتدع لا يتوب، ولكن العاصي يتوب.

(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37))

(سورة الزخرف)

العلم هو الوصف المطابق للواقع وكل وصف خلاف الواقع هو جهل:

الحقيقة أن الشيء الخطير جداً أن تعتقد عقيدة غير صحيحة وهذا هو الجهل والضلال، لكن تعريف العلم: الوصف المطابق للواقع، أي أن تصف الشيء بما هو فيه، فكل وصف خلاف الواقع جهل، وإذا كانت العقيدة ترتكز على جهل فذلك هو الضلال البعيد، يعني لما الإنسان يحرص أن تأتي كل تصوراته وعقائده وفق الواقع معنى ذلك أنه على حق، أما خلاف الواقع، فهو باطل.

الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، أحد الصحابة قال:**والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً**، وقال صحابي آخر: **والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي**، يعني أن من نعمة الله الكبرى على الإنسان أن تتفتح بصائره في الحياة الدنيا، وهذا الذي أقوله لكم الآن قلته سابقاً، يعني مشكلة الإيمان مشكلة وقت فقط، خيارك في الإيمان ليس خيار رفض أو قبول بل خيار وقت، لأنه لا بدّ لأي إنسان أن يتوب ولكن بعد فوات الوقت لا تنفعه توبة أبداً، بقي أن تؤمن قبل فوات الأوان، الإيمان سيحصل لكن عليك أن تستفيد من وقتك، بقي أن تؤمن في الوقت المناسب، بقي أن تؤمن وأنت معافى وأنت صحيح وأنت غني وأنت قوي وأنت حي، هذا هو الإيمان النافع.

(حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ(38))

(سورة الزخرف)

شيطان الإنس أشد فتكاً وإضلالاً من شيطان الجن وكلاهما يُدعى قريناً:

كان هناك اتصال حميم، ولقاءات، واستشارات، والقرين كما قال العلماء: قد يكون من الإنس لا من الجن، ولما ربنا عز وجل قال شياطين الإنس والجن، فقد قُدم شياطين الإنس على الجن تقديم أهمية ربما كان شيطان الإنس أشد فتكاً وإضلالاً من شيطان الجن، لأن بينهما تجانس، صديق لصديقه، صاحب لصاحبه، إنسان مرح لطيف ذكي دلّك على معصية، على انحراف، على بؤرة فساد، على مكان ترتكب فيه المعاصي، وكلاهما شيطان الإنس أو الجن سماه الله قريناً.

(حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38))

(سورة الزخرف)

هناك عداوة حال وعداوة مآل وعداوة المآل أخطر:

هناك في الحقيقة عداوة حال وعداوة مآل، عداوة المآل أخطر، عدو الحال تتقيه، لك عدو يعيش معك تتقيه، تتقي أن تتحرك بتوجيهاته، تتقي أن تصاحبه، تتقي أن ينال منك، لأنه عدو في الحال وهناك إنسان هو عدو في الحقيقة لكنك لا تعرفه عدواً بل تعرفه صديقاً حميماً ودوداً محسناً ذكياً، فتلتقي معه فيأخذ بيدك شيئاً فشيئاً ـ لا سمح الله ولا قدر ـ إلى طريق الهاوية، متى تعاديه ؟ بعد الموت، لذلك لما ربنا عز وجل قال:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ)

(سورة التغابن 14)

بعض العلماء حملوا هذه الآية على عداوة المآل، يجوز وهو في الدنيا أن يحبَّ زوجته حباً جماً، فقد تحمله على معصية وقد تدفعه إلى الكسل والقعود عن طلب العلم، وقد تزين له الدنيا، وقد يرضيها ويعصي ربه وهو مستمتع في حياته الدنيا، أما إذا جاءه الموت يخلق في نفسه عداوة لهذه الزوجة لا حدود لها، لماذا ؟ لأنها سبب شقائه، وسبب دماره، فهذه عداوة مآل لا عداوة حال.

(حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(39))

(سورة الزخرف)

كل إنسان أودع الله فيه عقلاً يدنيه أو يرديه وهو مأخوذ بأفعاله الاختيارية:

قد تدعي أن المسؤولية على فلان، لا، كل إنسان محاسب عن نفسه، وكل إنسان أودع الله فيه عقلاً يدنيه أو يرديه.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14))

(سورة الإسراء)

وقال:

(قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(27)قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ(28)مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(29))

(سورة ق)

فلما يقع الإنسان بمخالفة كبيرة ويلقى عليه القبض متلبساً بهذه الجريمة، فما ينفعه أن يقول فلان دلني على هذا، فلان أغواني، هذه كلام لا يسمع منه، وقوله مردود عليه، والإنسان مأخوذ بأفعاله الاختيارية.

(وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(40))

(سورة الزخرف)

الإنسان مخير وكل إنسان له اختيار:

هذا الذي أصمّ أذنيه عن سماع الحق مختاراً، وهذا الذي أغمض عينيه عن رؤية الآيات مختاراً، وهذا الذي عطّل عقله عن إجراء المحاكمة المنطقية اختياراً، هذا إذا اختار الضلال واختار الشهوة واختار الدنيا لا يستطيع أحد وفيهم رسول الله أن يهديه إلى سواء السبيل لماذا ؟ لأن الإنسان مخير، كل إنسان له اختيار:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (286))

(سورة البقرة)

من هنا قوله تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص 56)

الإنسان مخير، فإن لم يشأ الإنسان الهداية فلن يهتدي، ولا أحد يستطيع أن يهديه إلى سواء السبيل، فأعظم الناس سيدنا النبي وقد رأى عمه كماله، ومنطقه، وحجته، ونورانيته، ورأى صدق دلالته، رأى ذلك كله، ومع ذلك لم يؤمن، أفأنت يا محمد:

(أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (40))

(سورة الزخرف)

لا تستطيع.

النبي بلّغ الرسالة لكن تلقي التبليغ والعمل به بيد الإنسان لا بيد المرسلين:

أما قوله تعالى:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(52))

(سورة الشورى)

يعني أن دعوتك حق، والنبي يبلغ، أما الاستجابة فصاحبها مخير، التبليغ وقع وهو حق لكن تلقّي هذا التبليغ والعمل به هذا بيد الإنسان لا بيد الدعاة ولا المرسلين، الآن:

(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41))

(سورة الزخرف)

إن كل إنسان يتمنى أن يرى نهاية القوي الظالم، يتمنى أن يرى نهاية المنحرف الذي أخذ أموال الناس بالباطل، الذي بنى مجده على أنقاض الآخرين، الذي بنى حياته على موت الآخرين، الذي بنى غناه على فقر الناس، الذي بنى أمنه على خوف الناس، يتمنى أن يرى إحقاق الحق، لكن الله عز وجل يسلّي نبيه فيقول:

(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ(41))

(سورة الزخرف)

على المؤمن أن يكون عمله مطابقاً لمنهج الله عز وجل:

قبل أن ننتقم منهم فلا ضير، وأنت عزاؤك أنك على الحق، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، وهناك أشخاص يقولون أين الله عز وجل ؟! الله موجود، المهم أن تكون أنت على الحق، أن تكون على الصراط المستقيم، أن تكون على المنهج الصحيح، أن يكون عملك مطابقاً لمنهج الله عز وجل، أما الكافر فالله انتقم منه أم لم ينتقم فليس هذا من شغلك، قال تعالى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران)

وقال:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(فَلَا تَحْسَبَنّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ(47))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(وَكَأَيّنْ مِنْ نَبِيّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللّهُ يُحِبُّ الصّابِرِينَ(146))

(سورة آل عمران)

على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره:

المؤمن معنوياته عالية جداً، كل إنجازه عظيم لأنه على الصراط المستقيم، أما أن الله عز وجل انتقم من الكفار أم لم ينتقم فهذا شأن الله عز وجل، والمؤمن أديب مع الله لا يحشر أنفه فيما لا يعنيه، والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا دعاء:

((اللهم رضّنا بقضائك وبارك لنا بقدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت))

والإنسان يتمنى شيئاً أخره الله بأن يعجله، أو شيئاً عجله الله أن يؤخره، سلِّم أمرك لله عز وجل، وهذا ما خاطب الله به نبيه صلى الله عليه وسلم:

(فَإِمّا نَذْهَبَنّ بِكَ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41))

(سورة الزخرف)

وسواء ذهبنا بك، أم لم نذهب بك فلا بدّ من أن ننتقم منهم، في عاجل أمرهم أم في آجله.

(أَوْ نُرِيَنّكَ الّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42))

(سورة الزخرف)

قضية زمن فقط، هذا تعبير مستخدم الآن ؛ قضية وقت، يعني صدر قرار بتنحيته مع وقف التنفيذ، ينتظر الوقت المناسب، قرار صدر بقي أن ينفذ هذا القرار بالوقت المناسب، فالقضية منتهية يا محمد لا تقلق.

(فَإِمّا نَذْهَبَنّ بِكَ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنّكَ الّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ(42))

(سورة الزخرف)

العبرة في العاقبة:

لهذا عليه الصلاة والسلام قال لعدي بن حاتم:

((يا عدي لعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم (يعني أن المسلمين كانوا ضعافاً جداً وأعداؤهم أقوياء) و أيم الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف، ولعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم (من فقرهم)))

المؤمن فقير وضعيف ومستضعف ولا يريد شيئاً، والإنسان يقول ما هذا الدين أهله كلهم ضعاف، متخلفون، كما هو حال العالم الثالث اليوم.

((والله يا عدي ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه))

النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة تبعه سراقة، وبعد أن غاصت قوائم حصان سراقة في الرمال وقال يا محمد: أعدك أنك لا ترى مني ما تكره، فقال له:

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

النبي ملاحق ومهدور دمه وضعت مئة ناقة جائزة لمن يأتي به ميتاً أو حياً، ومع ذلك كان واثقاً من نصر الله، ومن وصوله إلى المدينة، ومن إنشاء كيان إسلامي، ومن حرب الفرس والانتصار عليهم، وأن يؤتى بسواري كسرى إلى المدينة، وما لبث أن جيء بسواري كسرى وتاجه وسرواله وكل ما يلبسه كسرى، سيدنا عمر قلبه بقضيب بيده احتقاراً له وقال:**إن هؤلاء الذين أدوا هذا لأمناء**، قال له سيدنا علي: **يا أمير المؤمنين عفوت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا، ثم قال: أين سراقة ؟ وجيء بسراقة فألبسه تاج كسرى وقميص كسرى وسواري كسرى وقال: بخ، بخ، أعيرابي من بني مدلج يلبس سواري كسرى، وتحققت نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.**

العبرة للآخرة، العبرة للعاقبة، الله عز وجل قال:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

وقال:

(أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ)

(سورة الزخرف)

سواءً أنتقم الله من الكفار أم لم ينتقم، أحاسبهم في الدنيا أم لم يحاسبهم، أريت نتائج أعمالهم أم لم تر.

التمسك بالحق ينبغي أن يكون لأنه حق فقط ولا ينبغي أن يعلق على قوة المسلمين:

قال سبحانه:

(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43))

(سورة الزخرف)

الآية دقيقة المعنى جداً، معنى الآية: يعني لا يحملنك على ترك الدين أن ترى المؤمنين ضعافاً، أو أن تراهم فقراء، أو أن تراهم معزولين، أو أن تراهم عطلاً من متاع الدنيا، لحكمة بالغة تارة يقوّي المؤمنين وتارة يقوي أهل الدنيا، فإذا جاء دورك في الحياة في عصر كان فيه المؤمنون مستضعفين والقوة للكفار، فهذا الوضع لا يحملنك على عدم اتباع الدين.

(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43))

(سورة الزخرف)

إذاً استمساكك بالحق لا ينبغي أن يعلّق على قوة المسلمين، ولا على غناهم، ولا على أنهم بيدهم الأمر، استمساكك بالحق ينبغي أن يكون لأنه حق فقط، أقوياء ضعاف مستضعفين أغنياء بيدهم مقاليد الأمور أم ليست بيدهم، فهذا لا يقدم ولا يؤخر في حقيقة مسألة الإيمان:

(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ)

(سورة الزخرف)

يجب أن يكون الحق وحده سبباً لإتباعنا له:

انتقمنا منهم أم لم ننتقم، أريناك ما نعدهم أم لم نرك ما نعدهم فهو سواء، شخص يأتي بالقوة، إنسان يأتي بالحجة، الحق حق إن كان أصحابه ضعافاً أو أقوياء سواء، إن كان أصحابه أغنياء أو فقراء، إن كان أصحابه متمسكين بمقاليد الأمور أو متفلتين، فلا تجعل المظاهر سبباً لانصياعك، اجعل الحق وحده سبباً لإتباعك له.

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ: لهذه الآية معانٍ ثلاثة:

ثم يقول الله عز وجل: إن هذا القرآن الذي أوحي إليك:

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ(44))

(سورة الزخرف)

1 - أن هذا القرآن رفع من شأن النبي وأمته:

المعنى الأول: أن هذا القرآن رفع من شأن هذه الأمة، رفع من شأن النبي عليه الصلاة والسلام، أُوحي إليه هذا القرآن ورفع من شأن أمته، وهذا يؤكده قوله تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

وكل إنسان يؤمن بالله عز وجل ويستقيم على أمره لا بدّ من أن يرفع الله له ذكره، هذا من عطاء الله في الدنيا، له اسم متألق وسمعة طيبة وشأن وهيبة ومكانة، هذا المعنى الأول.

2 - الثاني أن هذا القرآن تذكرة للمؤمن بفطرته وبإيمانه:

والمعنى الثاني: أن هذا القرآن تذكرة لك، الإنسان بالفطرة مؤمن، الفطرة إذا انطمست يأتي القرآن ليذكر المؤمن بفطرته وبإيمانه.

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44))

(سورة الزخرف)

يعني كل ميزة وراءها مسؤولية، كل إنسان يرقى درجة يحاسب بدرجة أعلى، ما دام هذا القرآن أنزل علينا باللغة العربية ونحن عرب فنحن محاسبون أشدّ من غيرنا.

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44))

(سورة الزخرف)

3 - أن في القرآن نماذج بشرية متعددة ومتباينة:

وأما المعنى الثالث ؛ فكل من يقرأ القرآن يجد فيه وصفاً للناس، كما يجد نماذج بشرية متعددة ومتباينة.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15)آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16) كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17))

(سورة الذاريات)

هذا نموذج هل أنت منهم ؟ لعلنا منهم إن شاء الله تعالى.

النماذج البشرية متباينة فعلى كل إنسان أن يعرف أي نوع هو:

ثم هناك نموذج آخر:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(2))

(سورة الأنفال)

هل أنت منهم ؟ أي أن الله ذكر نماذج ؛ وهو ذكرٌ لك ولقومك وصف النبي بأعلى وصف فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

وصف المؤمنين منهم سابق ومنهم مقتصد، ووصف الكفار أيضاً، ووصف المنافقين والفجار، كما وصف المؤمنين، والمتقين، والصديقين، والأولياء:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

فأنت من أيّ هؤلاء ؟ ذكر لك إذا قرأت القرآن تعرف أين أنت من هؤلاء، المعنى الأول ذكر لك أي رفع لشأنك أنت وأمتك، هذا شرف لك ولقومك أن يأتيك هذا القرآن من عند الله عز وجل، والمعنى الثاني ؛ تذكير لك، فالفطرة عالية، لكنها تحتاج إلى تذكير، والمعنى الثالث ؛ أنك إذا قرأت القرآن عرفت أين أنت من هؤلاء المؤمنين، هل أنت مع المتقين ؟ مع الصديقين ؟ مع المؤمنين ؟ مع المقتصدين ؟ مع المقصرين ؟ مع المذنبين ؟ مع العصاة ؟ تعرف أين أنت من هؤلاء.

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44))

(سورة الزخرف)

عن كل صغيرة وكبيرة ندّت منكم في الدنيا.

يوم القيامة سوف تُسأل عن كل صغيرة وكبيرة:

آخر آية:

(وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا(45))

(سورة الزخرف)

طبعاً الرسل ماتوا، اسأل أتباعهم.

(أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45))

(سورة الزخرف)

الأديان كلها تدعو إلى التوحيد ومع ذلك فهم يعارضون:

فأنت يا محمد ما كنت بدعاً من الرسل، ما جئت بشيء لم يأت به الأنبياء من قبلك، أنت على شاكلة الأنبياء، ودعوتك كدعوتهم، والأديان كلها تدعو إلى التوحيد فلماذا هؤلاء يعارضونك ؟ هل جئت بشيء خلاف السابق ؟

(وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45))

(سورة الزخرف)

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46))

(سورة الزخرف)

هذه القصة إن شاء الله تعالى نبدأ بها درسنا القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 46-56
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-07-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام مع الدرس السادس من سورة الزخرف.

قصة قرآنية حول نبي كريم دعا إلى الله:

مع الآية السادسة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46))

(سورة الزخرف)

ربنا سبحانه وتعالى يقول في آية أخرى:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ)

(سورة يوسف 111)

وكذلك يقول سبحانه:

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود 120)

يحتاج الإنسان أحياناً إلى مثل حيّ وتطبيق عمليّ للثبات على منهج الله تعالى:

إذاً القصة القرآنية حول نبي كريم دعا إلى الله، وتحمل في دعوته ما تحمل، ثم انتصر على خصومه وتمت كلمة ربك لهذا النبي بالنصر والتأييد، هذه القصة من شأنها أن تثبت النبي محمداً صلى الله عليه وسلم.

ويقاس على هذا أنك إذا أردت أن تدعو إلى الله عز وجل وجئت المدعوين بمَثَل حيّ، إنسان وقف موقفاً صحيحاً وطبق أمر الله، وذكرت لهم كيف أن الله أكرمه وحفظه وأيده ونصره، هذه القصة الواقعية التي تثبت حقائق الدين وتؤيد نصوص الشريعة هذه لها دور خطير في الدعوة إلى الله، لأن الإنسان أحياناً لا تكفيه النصوص النظرية، ولا تكفيه الموضوعات المجردة، بل يحتاج إلى مثل حي، ويحتاج إلى تطبيق عملي، ويحتاج إلى أن يرى إنساناً كفّ عن الحرام فأكرمه الله.

هناك قواعد مستنبطة من التعامل غير الشرعي، منها أن الإنسان إذا لم يكذب لا يربح، إذا لم يغش لا يربح، وإذا لم يحتَل على الناس لا يربح، هذه قواعد شيطانية مستنبطة من طرائق الكفار في تعاملهم،

فأنت حينما تأتي بمثل حي عن إنسان صدق، وكان الصدق ليس في صالحه لكن الله سبحانه وتعالى قلب له المعايير فأكرمه بصدقه، إن هذه الأمثال الحية تقدم دعماً للمؤمنين.

فلذلك أيها الأخوة الكرام إذا كنت تعرف حادثة واقعية تبين أن إنساناً وقف الموقف الصحيح، وطبق أمر الله، وطبق شرع الله والله سبحانه وتعالى أكرمه فهذا مما يعين المدعو على التثبت والثبات على منهج الله عز وجل، من هذا المنطلق ربنا عز وجل يقول:

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود 120)

والنبي عليه الصلاة والسلام بشر (هو سيد البشر لكنه بشر) ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، فالخوف من طبيعة البشر، ولقد كان خوف النبي على هذه الدعوة وعلى سلامتها، فلذلك ربنا عز وجل جعل هذا القرآن منجماً أي كان ينزل في مناسبات خاصة وفق الحوادث التي تجري في عهد النبي من أجل تثبيت قلب النبي عليه الصلاة والسلام، يقول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ(46))

(سورة الزخرف)

الله أرسل المنهج للناس مع الأنبياء ليحد من شهواتهم وانحرافهم:

الحقيقة أن الفارق من حيث القوة كبير جداً بين كل من سيدنا موسى وفرعون، فسيدنا موسى إنسان فقير خرج من قصر فرعون خائفاً هائماً على وجهه، وصل إلى مدين وعاش فيها مع سيدنا شعيب، وأرسله الله عز وجل إلى فرعون، وفرعون من جبابرة الأرض، فسيدنا موسى ضعيف طريد أرسله الله بآيات إلى فرعون، ومن سنن الله سبحانه وتعالى أنه إذا أرسل رسولاً، فإنه يؤيده بما يؤكد أنه رسول، ويجري على يديه معجزة، وهذه المعجزة تنطق بأن هذا الإنسان رسول الله.

والسبب واضح لأنه إذا أرسل الله الأنبياء للناس بمنهج، فهذا المنهج من شأنه أن يحدّ من شهوات الناس، ومن طغيانهم وانحرافهم، فأغلب الظن أن علية القوم الأقوياء والأغنياء يرفضون دعوة الأنبياء، هذا هو الأعم الأغلب، ماذا يقولون ؟ يتهمون هؤلاء الأنبياء والمرسلين بالكذب، كيف يردون عليهم ؟ بالمعجزات، إذاً اتهام المنتفعين بالكفر والانحراف للأنبياء بالكذب فلا بدّ من أن يكون مع النبي دليل وحجة أنه رسول، ولذلك قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا(46))

(سورة الزخرف)

ولبعض العلماء رأي في أن أفعال الله عز وجل حينما تصاغ بضمير الجمع يستفاد منها أن فعل الله عز وجل داخل فيه كل أسمائه الحسنى، يعني فعل الله فيه لطف وعلم وعدالة ورحمة، ولقد أرسلنا فجاء الضمير بالجمع، أما حينما يتحدث الله عن ذاته يقول:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

فالحديث عن الذات يقتضي ضمير المفرد، والحديث عن الأفعال يقتضي ضمير الجمع لأن كل أسماء الله جلّ جلاله داخلة في هذا الفعل.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا(46))

(سورة الزخرف)

الآيات والمعجزات هي الدليل على صدق الرسالة:

الآيات هي الدليل على الرسالة، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، لم يألف الناس أن العصاة تنقلب إلى حية حقيقة.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ(46))

(سورة الزخرف)

ويقول بعض العلماء حينما قال الله عز وجل لسيدنا موسى في المناجاة:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(17))

(سورة طه)

إله يسأل، ما معنى هذا السؤال ؟ ألا يعلم الله أنها عصا، فسيدنا موسى حينما سأله الله هذا السؤال في المناجاة انتهزها مناسبة ليطيل الحوار مع الله عز وجل قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي(18))

(سورة طه)

واستحيا أن يطيل الجواب فقال:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(18))

(سورة طه)

فلو أن الله سبحانه وتعالى كان يريد أن يتابع الحوار لسأله يا موسى ما هذه المآرب الأخرى، لكن الله جلّ جلاله حينما سأله وما تلك بيمينك يا موسى ليوضح له أنها عصا من خشب وبعد قليل سوف تنقلب إلى حية (أفعى) تسعى.

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى(17)قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(18)قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى(19)فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى(20)قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى(21))

(سورة طه)

المعجزة التي جاء بها نبينا محمد ليست معجزة حسية بل معجزة دائمة:

لكن أيها الأخوة من فضل الله على أمة النبي صلى الله عليه وسلم أن المعجزة التي جاء بها النبي ليست معجزة حسية، المعجزة الحسية كعود الثقاب يتألق ثم ينطفئ ويصبح خبراً يصدقه من يصدقه ويكذبه من يكذبه، لكن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام كتاب بين أيدينا، كلما تقدم العلم كشف عن جانب من إعجاز هذا القرآن الكريم، فهو معجزة دائمة إلى يوم القيامة.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ(46))

(سورة الزخرف)

طبعاً ليس فرعون وحده هو المقصود بل فرعون وقوم فرعون، فقال سيدنا موسى:

(فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46))

(سورة الزخرف)

ولقد عاش موسى في قصر فرعون عمراً مديداً، قال الله تعالى حكاية عن فرعون:

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ(18)وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ(19))

(سورة الشعراء)

القصص في القرآن الكريم لها مغزى:

يعني فرعون تذكر أن هذا الإنسان الذي يقول إني رسول من رب العالمين كان عندنا في القصر، في قصر فرعون، لأنه يروى أن فرعون رأى في منامه أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه فاتخذ قراراً بذبح أبناء بني إسرائيل جميعاً وبزعمه يكون قد انتهى الأمر ولم يكن يدري أن الذي سيقضي على ملكه سيربيه في قصره.

ودائماً القصص في القرآن الكريم لها مغزى، فالله عز وجل يذكر المغزى أحياناً وفي أحيان كثيرة يدع القارئ يستنبط المغزى، ففرعون التقط سيدنا موسى من اليم، ولم يكن يدري أن هذا الطفل الذي سيربى

في قصره سوف يخرج من قصره خائفاً ويلتقي بسيدنا شعيب ويعود رسولاً إلى فرعون وسيقضي على ملكه.

(فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46))

(سورة الزخرف)

كلمة رسول رب العالمين، فهذه الكلمة تحدث عند المؤمن أثراً كبيراً، إذاً ليس موسى شخصاً عادياً، بل هو رسول الله عز وجل، القرآن كلام رب العالمين، هذا الأمر أمر رب العالمين، هذا الرسول رسول رب العالمين، شيء عظيم جداً أن خالق الكون يرسل رسولاً وهذا الرسول يتكلم بوحي من الله عز وجل، فلما إنسان ما لا يعبأ برسول الله ولا بسنته ولا يعبأ بكلامه فهذا دليل على عدم إيمانه.

(فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47))

(سورة الزخرف)

الإنسان عقل وشهوة ؛ الشهوة تدعو للانحراف والعقل يدعو لطاعة الله:

السخرية والاستهزاء والضحك دليل الجهل، أو أن الإنسان حينما يكون منغمساً في شهواته يرفض أي دعوة سماوية تضعه على صراط مستقيم، الإنسان له عقل وله شهوات، شهواته تدعوه إلى الانحراف لكن عقله يدعوه إلى طاعة الله عز وجل، مثل ما قال سيدنا علي: ركب الإنسان من عقل وشهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، ركب المَلَك من عقل بلا شهوة، إذاً فالإنسان عقل وشهوة، فإن سما عقله على شهوته كان فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

يعني ولقد ضربت هذا المثل كثيراً لأنه يعبر عن حقيقة ثابتة ؛ لو أن إنساناً ركب مركبة في أيام الصيف الحارة، عن يمينه شمس وعن شماله ظل ظليل، لكن هذه المركبة تدور حول ساحة وتأخذ مساراً عكسياً، فالطريق مداه ساعة، ودورة هذه المركبة حول هذه الطريق التي مداها ساعة تستغرق دقيقة واحدة، فلو أن الإنسان صعد إلى هذه المركبة، ورأى عن اليمين شمساً، وعن اليسار ظلاً، فإذا جلس في المقاعد التي تضربها أشعة الشمس المحرقة لدقيقة واحدة ثم لا تلبث أن تنعكس الآية ويغدو آخر الطريق في الظل الظليل، أما إذا ركب وفق حاجات جسده وعطل عقله يقبع في الظل لكن بعد دقيقة واحدة تنعكس الآية ويغدو في حر الشمس إلى آخر الطريق.

إذاً هي قضية تحكيم العقل، العقل أداة معرفة الله، أداة محاكمة، أداة ترى بها المستقبل قبل أن تصل إليه، فمثلاً ؛ مرة سألوا طالباً نال الدرجة الأولى على كل الطلاب في الامتحانات العامة: ما سبب هذا التفوق ؟ فقال كلمة لها معنى دقيق: لأن ساعة الامتحان لم تغادر مخيلتي طوال العام.

وكذلك المؤمن ساعة المغادرة، ساعة لقاء الله عز وجل، ساعة الموت إذا كانت ماثلة في ذهنه طوال حياته، ففي كل موقف وفي كل حركة وعند كل عطاء وكل منع يذكر كيف سيقابل ربه في هذا الموقف، معنى ذلك لابد أن يستقيم على أمر الله.

الخير كله في طاعة الله والشر في معصيته سبحانه:

(فَلَمّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47))

(سورة الزخرف)

ضحك الساذج، ضحك الجاهل، ولا تنسوا أيها الأخوة أن أعدى أعداء الإنسان على الإطلاق هو الجهل، وأن الذي يحب نفسه حباً جماً ويؤثرها على كل شيء يجب أن ينطلق من هذه المحبة إلى طاعة الله عز وجل، لأن الخير كله في الطاعة والشر كله في المعصية، خالق الكون يقول:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

يجب أن تعتقد أنه من المستحيل أن تعصي الله وتفوز، ومن المستحيل أن تطيعه وتخسر، سبحانك إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، تطيع الله ومع طاعته كل الفوز، ومن يعص الله فمع معصيته كل الخسارة.

إذاً هم يضحكون لكن بعد ذلك سوف يبكون، ضحكوا أولاً وبكوا ثانياً، البطل هو الذي يضحك آخر الأمر، يضحك حينما يلقى الله عز وجل وقد غفر له ذنبه واستحق جنة ربه، هذه هي البطولة، لأن هناك آيات تؤكد هذه الحقيقة:

(فَالْيَوْمَ الّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

العاقل هو الذي لا يفعل شيئاً يندم عليه:

العبرة ؛ من يضحك آخر المطاف، أما في أول المطاف هناك من يضحك وهو ساذج، يضحك وهو جاهل، يضحك وهو لا يدري أنه سوف يبكي، ونحن في حياتنا الدنيا قد نرى الخارجين عن القانون يسرقون، ويحسبون أنهم بهذه السرقة سبقوا الناس جميعاً، حصلوا أموالاً طائلة بلا جهد، أما حينما يقعون في قبضة العدالة ويودعون في السجن لسنوات طويلة يدركون أنهم كانوا أغبياء.

فمن العاقل إذاً ؟ هو الذي لا يفعل شيئاً يندم عليه، علامة عقلك الراجح أن كل أفعالك التي تفعلها لا

تندم عليها أبداً، أما الذي يندم هو الذي حكم شهوته في أفعاله فجاء وقت دفع فيه ثمن انحرافه باهظاً فبكى.

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

وقال:

(قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110))

(سورة المؤمنون)

الله يري المؤمن آياته كل يوم بتأييده مع ضعفه وخذلان الكافر مع قوته:

قال أيضاً:

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا(48))

(سورة الزخرف)

الحقيقة أيها الأخوة إذا أردنا أن نتوسع في فهم هذه الآية، وآيات الله لا تنقطع بل هي متلاحقة، طبعاً إذا وسعنا مفهوم هذه الآية فالله عز وجل يري الناس آياته كل يوم، يري آياته بتأييد المؤمن على ضعفه، وخذلان الكافر مع قوته، لأن في الحياة قواعد مستنبطة من طبيعة الحياة المادية، يعني مثلاً: لو أنك أقرضت إنساناً قرضاً حسناً، وعلى حسابات الآلة الحاسبة القرض الربوي أربح، والضمانات التي تقدمها بعض الجهات التي لا ترضي الله ذات جدوى في تحقيقها الربح والفائدة كما يبدو.

لكن حينما تلتزم بأمر الله عز وجل، فالله عز وجل يريك آياته، قد يؤتيك من الإكرام والعطاء مالا سبيل إلى وصفه لأنك التزمت أمر الله عز وجل ولم تقترف المعصية، قد يتراءى لك الخير في المعصية، أو قد تتوهم أن مصلحتك في المعصية، أما حينما تستقيم على أمر الله طاعة لله عز وجل هناك ظروف تستجد لا تعرف معناها، هذه الظروف كأنها آية من آيات الله الدالة على عظمته، مثلاً لو أن واحداً ترك شيئاً لله، دخل كبير مشبوه، فقال إني أخاف الله رب العالمين، حسب الظاهر هذا الدخل يحل له كل المشكلات، يوفر له بيتاً ومركبة وزواجاً لكن هذا الدخل مشبوه، فلما آثر طاعة الله عز وجل وحجزه عن قبض هذا المال خوفه من الله عز وجل، الآن تأتي الأمور بشكل غير طبيعي لتقدم لهذا المؤمن العطاء الجزيل الذي لم يكن متوقعاً وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

(سورة الطلاق)

إذا انطلقت من طاعة الله يرزقك من حيث لا تحتسب ويجد لك من كل ضيق مخرجاً:

ما معنى مخرجاً ؟ المخرج يعني بناء محكم الإغلاق، وإنسان في هذا البناء ليس له مخرج وضاق به الأمر، قال:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

المخرج: باب فرج، والأمر كان محاطاً، ومغلقاً، فأحدث الله فيه فرجاً.

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

* * *

وقال:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

(سورة الطلاق)

الآية دقيقة المعنى جداً، أنت إذا أطعت الله عز وجل قلت هذا حرام لا أقبله، وهذا الدخل مشبوه لا أقبضه، وهذا العمل لا يرضي الله لا أفعله، أنت إذاً انطلقت في حركتك اليومية من طاعة الله ولو بدا لك أو توهمت أنها خلاف مصالحك المادية ربنا عز وجل سيريك آياته بأن ترزق من حيث لا تحتسب، وأن تفتح لك أبواب النجاة بعد أن بدت لك أنها مغلقة، لذلك بعض الشعراء يقول:

كن عن همومك معرضا وكل الأمور إلى القضا
وابشر بخيـر عاجل تنسى به ما قد مضى
فلرب أمر مسخط لك في عواقبـه رضا
ولربما ضاق المضيق ولربما اتسـع الفضا
اللـه يفعل ما يشاء فلا تكـن معترضا
الله عودك الجميـل فقس على ما قد مضى

* * *

وإني لأرجو الله سبحانه وتعالى أن أوفق إلى توضيح هذه الفكرة، هناك قواعد يستنبطها الناس من طبيعة الحياة كأن تسمع مثلاً أن فلاناً تزوج امرأة غنية، هذا المال الذي تملكه سوف يسعده، فلأنه لم يرع الدين في اختيار الزوجة لكنه راعى المال، فالمال قد يشقيه، لكنه لو اختار زوجة لدينها تنفيذاً لسنة النبي عليه الصلاة والسلام ولو أنها فقيرة وأنها أقل من أختها الغنية تلك، فلعل الله سبحانه وتعالى يريك آياته بأن يسعدك عن طريق هذه الزوجة التي اخترتها إرضاءً لله عز وجل، وعملاً بتوجيه رسوله.

تأويل الآيات وقوع الوعد والوعيد:

إذاً هناك قواعد مادية يعرفها جميع الناس، وأوامر الله عز وجل تتناقض مع هذه القواعد المادية، فالمؤمن يلزم جانب الشرع، وحينما يلزم جانب الشرع يريه الله من آياته، يكون ضعيفاً فيقويه الله عز وجل، يكون فقيراً فيغنيه، تكون الأمور معسرة فتتيسر له، إذاً الآيات دائماً بين أيدينا، وما من حادثة تقع إلا آية دالة على عظمة الله، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس 39)

قال بعض العلماء: تأويل الآيات وقوع الوعد والوعيد، هذا الكلام إيضاح وبيان لقوله تعالى:

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا(48))

(سورة الزخرف)

يعني ؛ قلعة من قلاع الكفر بعد سبعين عاماً تنهار وتصبح شتاتاً ؟! أليست هذه آية من آيات الله عز وجل ؟ هذه آية كبرى، ما كان أحد يتوقع أن هذه القلعة التي بنيت على أساس أنه لا إله، تنهار بهذه البساطة وبهذه السرعة، هذه آية من آيات الله عز وجل، وأحياناً قد ترى بلدة غارقة في الفسق والفجور، فيأتيها زلزال فيقوضها عن آخرها وهذه آية من آيات الله عز وجل.

كل ما يجري من حولك هو آيات تدل على عظمة الله عز وجل:

قوم يفسقون ويفجرون ويأكلون الربا يبتليهم الله بحرب أهلية تسحقهم، هذه آية من آيات الله عز وجل، لو أردت أن تنظر إلى الأحداث نظرة توحيدية دينية لرأيت كل ما يجري في العالم آياتٌ تدل على عظمة الله عز وجل، لا تفصل بين ما يجري وبين كتاب الله قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

وأنت أيها المؤمن وحدك إذا استقمت على أمر الله ترى من آيات الله الدالة على وجوده وعلى عظمته الشيء الكثير، منذ سنتين أرسلوا إلى الفضاء الخارجي مركبة سموها المتحدي، فهذه المركبة بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب، مع أنهم راجعوا جاهزيتها مراجعة دقيقة جداً بالعدّ التنازلي، وكل جهاز له جهاز مضاعف ومع ذلك، آيات، طبعاً هذا الدرس يضيق بنا عن ذكر الآيات، لكن كل دقيقة وكل ثانية وكل حدث في العالم لو تعمقت في فهمه وحللته وتأملت فيه لوجدته آية دالة على عظمة الله.

من اختار جانب الله رفعه الله و من اختار جانب الشر خذله الله:

هذا:

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ(48))

(سورة الزخرف)

هذه آية مستمرة، طبعاً هذه الآيات التي مع الأنبياء معجزات صارخة، لكن هناك آيات كثيرة جداً تقع لأحدنا وتقع لمن حولنا وتقع في مجتمعاتنا وفي مجتمعات أخرى نراها كل يوم.

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا(48))

(سورة الزخرف)

قد يتصدق الإنسان، وهو في ضائقة مادية، فيأتيه رزق وفير وهو لا يدري يقول هذه آية من آيات الله، وقد يبخل أحدهم بهذا المال فيضيع منه هذا المال، وتلك آية من آيات الله، حينما يختار جانب الله عز وجل يرفعه الله، حينما يختار جانب الشر يخذله الله عز وجل، هذه آية من آيات الله، ضمن مجال عملك هناك آيات، وإذا الإنسان أطاع الله في عمله فالله يحميه من الأشرار، وعندما الإنسان يستغل جهل الناس ويكسب مالاً حراماً يأتيه من هو أقوى منه فيأخذ هذا المال، وهذه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

الله دائماً مع المؤمنين والكفار لا ينجحون إلا لجولة بسيطة وبعدها يخذلهم الله:

طبعاً الآية متعلقة بسيدنا موسى، لكن كل مؤمن إذا فكر يجد أن هناك آيات تحيط به كل يوم، تنطق بأن الله موجود، وأن الأمر بيده، وأنه عادل، وأنه رحيم، وأن الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين، وأن الكفار لا يفلحون ولا ينجحون ولا يتفوقون ولا ينتصرون إلا لجولة بسيطة وبعدها يقيم الله جلّ جلاله الحق على أنقاضهم.

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا(48))

(سورة الزخرف)

أحياناً نيأس من شدة جفاف السماء، فيقال: إن المخزون الجوفي نفذ، المياه الجوفية انخفضت للعشر، هذه البلاد مهددة بالعطش لا بدّ من أن نغادرها، فتأتي سنة بأمطار غزيرة تفوق الحدّ السنوي بضعفين، قبل سنتين بلغ المنسوب ثلاثمئة وخمسين مليمتراً في دمشق بعد أن يئس الناس من هطول الأمطار الغزيرة، هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته، قد تأتي مواسم جيدة جداً، وأحياناً يطوف عليها طائف من ربك وهم نائمون، تحترق بالصقيع، على مستوى الزراعة والصناعة والتجارة والأنواء الجوية والطقس، ودخل الإنسان إن كان دخلاً مشروعاً فله معاملة من رب العالمين، وإن كان غير مشروع فله معاملة أخرى، ولقد توسعت في شرح هذه الآية لأنها تمس واقعنا جميعاً:

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48))

(سورة الزخرف)

كل أنواع العذاب من أجل أن ترجع إلى الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام تأملوا في هذه الآية فهي أوضح الآيات، إن بعض الأشخاص وبسذاجة يقولون: يا أخي هذا عذاب من الله إذ لا ترى أحداً إلا وقد مسه الأذى والضرر، إن هذا كلام الجاهلين فالله عز وجل يقول:

(وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48))

(سورة الزخرف)

افهم ـ رحمك الله ـ ختام الآية، فكل أنواع العذاب من أجل أن ترجع إليه، فإذا رجعت إليه فاقرأ الآية التالية:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

انتهى الأمر، واتضح، وبان فهو مثل الشمس، إنه كلام ربنا عز وجل.

(وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48))

(سورة الزخرف)

إذا وقعت في مصيبة فاعلم أن هذه المصيبة هي تنبيه ولفت نظر:

أيها الأخوة أتمنى على الله أن كل أخ مؤمن لما تدركه أحداث معينة ألا يكون ساذجاً مع هذه الأحداث، بل عليه أن يقول: إن الله غني عن تعذيبي، وهذه المصيبة التي لحقت بي لها حكمة، فما هي الحكمة ؟ لعل في هذه المصيبة ردعاً، لعل في هذه المصيبة دفعاً، لعل في هذه المصيبة كشفاً، لعل في هذه المصيبة تنبيهاً ولفت نظر.

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا)

(سورة الزخرف)

طبعاً هناك آية سابقة ذكرتها لكم:

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ(94)ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(95))

(سورة الأعراف)

للدعوة أربع مراحل:

معنى ذلك أن هناك أربع مراحل ؛ أول مرحلة أن الله يدعونا دعوة شفهية عن طريق الأنبياء والمرسلين والدعاة الصادقين، يا عبادي اتقوا الله، يا عبادي آمنوا بالله ورسوله، يا عبادي أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، يا عبادي قولوا للناس حسناً، هذه دعوة شفهية وهي أول مرحلة ثم إن لم يستجيبوا أخذوا بالبأساء والضراء فلعلهم يضرّعون، فإن لم يتضرعوا يأت مكان السيئة الحسنة لعلهم يشكرون، فإن لم يشكروا دخلوا في مجال المرحلة الرابعة وهي مرحلة القصم.

(فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(95))

(سورة الأعراف)

هذه مراحل نظامية، تُدعى أولاً إلى الله، تدعى إلى الحق يجب أن تستجيب، فإن لم تستجب فهناك مرحلة ثانية وهي البأساء والضراء، يعني العذاب لعلهم يرجعون، لعلهم يضرعون، لم تضرع ولم ترجع ولا استجبت فهناك مرحلة ثالثة بدلنا مكان السيئة الحسنة، خير وأموال وفتحنا أبواب كل شيء لعلهم يشكرون، فما شكرت إذاً لا أنت استجبت ولا تضرّعت ولا شكرت فما بقي إلا الهلاك، ومع هذا البيان صارت الآية واضحة المفهوم تماماً.

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ(49))

(سورة الزخرف)

بعض المفسرين قالوا: الساحر له مكان كبير فهذا ليس استهزاء بل هو تعظيم، عندهم الساحر هو العالِم، وهذا يشير إلى أنهم ما اعترفوا به نبياً.

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49))

(سورة الزخرف)

أي أنهم قالوا لموسى: سوف نؤمن لك، فادع الله أن يكشف عنا هذه المصائب، القمل والجراد والضفادع والدم في تسع آيات وسنؤمن لك ونهتدي، المرحلة الثالثة:

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50))

(سورة الزخرف)

البطولة أن تدعو الله وأنت في الرخاء وهذا حال المؤمنين:

الحقيقة أيها الأخوة الكرام... قد يصاب أحدٌ بمصيبة فيبتهل ويتضرع، ويدعو يا رب، فالله عز وجل يستجيب له، ويكشف عنه هذه المصيبة، ومن ثم فكل بطولته ينبغي أن تكون في تنفيذ عهد الله عز وجل، لكن الإنسان الغافل بالرخاء ينسى وبالشدة يتذكر، هذا شأن أي إنسان جاهل، أي إنسان قليل

الإيمان، ولتلاحظ أن أكثر الناس عند الشدة يقولون يا الله، فلو أن أشخاصاً ركبوا البحر والموج ارتفع والباخرة أصبحت كريشة في هذا البحر، فلن تجد إنساناً إلا ويدعو الله عز وجل، فبطولة هؤلاء بالشدة لا بالرخاء، لكن البطولة أن تدعوه وأنت في الرخاء، وأنت صحيح معافى، وأنت في حالات السلام والاطمئنان، وهذه هي حال المؤمنين.

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50))

(سورة الزخرف)

إن الإنسان كلما هبط مستواه الفكري خاف بعيونه، أما المؤمن فيخاف بعقله، ولكن الكافر يخاف بعينه، فحينما يواجه الشدة يقول يا الله، فإذا أزيحت عنه الشدة ينسى ويعود إلى شهواته.

مرة ذكرت لكم أن شخصاً بينما كان يقود سيارته أصابته أزمة قلبية، وزوجته إلى جنبه، ومن رحمة الله به أن صديقه مر بسيارته الواقفة، فلما صرخت زوجته نزل الصديق وحمله إلى المقعد الخلفي وأخذه إلى المستشفى، إلى العناية المشددة، فحينما أفاق من هذه الأزمة طلب مسجلة، وذكر أن الدكان كذا ليست لي بل لإخوتي والمزرعة الفلانية وهكذا وبدأ يعترف بما اغتصب من حقوق لإخوته، فلما صحا من أزمته وعاد إليه نشاطه طلب هذا الشريط وكسره، وعاد إلى ما كان عليه من اغتصاب أموال إخوته، فالله عز وجل أعطاه مهلة خمسة أشهر ثم جاءته القاضية وقضى بها نحبه، ومضى إلى ربٍ عادلٍ، لكن العبرة أن الله سبحانه وتعالى أمرضه، ثم عافاه، ثم أمهله فهل من مدّكر ؟

المصائب هي إنذار مبكر من الله سبحانه وتعالى:

وليعلم أخواننا الكرام أن المصائب إنذار مبكر، والله عز وجل من سننه الكونية سوق الشدة، ثم يرفعها لينظر ماذا يفعل صاحبها ؟ يدعوك أولاً، فإن لم تستجب، جاء بالشدة، فإن لم تتضرع جاء بالخير فإن لم تشكر، فقد انتهى الامتحان، ولابد من المقصلة انتهى، ولابد من ينتظر أن يقصمه الله عز وجل، أسعد الناس الذي يستجيب بعقله من دون مشاكل، ومن دون شدائد، ومن دون مصائب، ومن دون مضايقات، ومن دون اختبار، هذا أسعد الناس، ويأتي بالدرجة الثانية من إذا أصابته المصيبة استفاد منها، وعاد إلى الله، ثم المرحلة الثالثة إذ يأتي بالرخاء استدراجاً، فنرجو من الله أن نكون من الفريق الأول وأن نستجيب لعقولنا، راشدين بإيماننا.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال 24)

اسمع، واستجب، وفكر، وحكّم عقلك، وقل: هذه الدنيا ممر، وليست دار مقر، منزل ترح لا منزل فرح، دار عمل لا دار أمل، دار تكليف لا دار تشريف، مرحلة مؤقتة، جسر نعبر من خلاله إلى الآخرة، فإذا عرف الإنسان حقيقة الدنيا سار على منهج الله عز وجل.

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50))

(سورة الزخرف)

وقال تعالى:

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)

(سورة الفتح 10)

وقال:

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ(51))

(سورة الزخرف)

تلبية دعوة موسى بكشف البلاء عن قومه كانت دعماً لهذا النبي العظيم:

طبعاً لما تتابعت الشدائد عليهم، وطُلب من سيدنا موسى أن يدعو الله عز وجل لرفع هذه المصائب، ورفعت فما الذي حصل ؟ صار لسيدنا موسى مكانة عند قوم فرعون، وأنه إنسان عظيم، فكأنه نافس فرعون، ونازعه مكانته، فأراد فرعون أن يستنقذ مكانته، قال تعالى:

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ(51))

(سورة الزخرف)

هل هناك أحد ينازعني في هذا الملك ؟ وبالمناسبة اذكر أن كلمة (لي) مهلكة لصاحبها، فهو من خلالها يريد أن يحوز كل شيء.

(وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51))

(سورة الزخرف)

فسيدنا موسى حينما طُلب منه أن يدعو الله عز وجل ودعا ربه فكشف هذا البلاء فكأن هذا كان دعماً لهذا النبي العظيم، فالناس التفتوا إلى سيدنا موسى فأين فرعون من موسى ؟ وأين ملكه ؟ لذلك استنقذ ملكه، قال تعالى:

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52))

(سورة الزخرف

مقياس أهل الدنيا هو المال والقوة:

ماذا يملك موسى ؟ إنسان ضعيف فقير مشرد هائم على وجهه، فماذا يملك هذا الإنسان ؟ بل انظروا إليه إنه مهين، وكذلك لا يكاد يبين بكلامه.

(فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ(53))

(سورة الزخرف)

دليل العظمة في عهد فرعون أن الرجل له سواران من ذهب وقلادة في عنقه من الذهب أيضاً، ليس مع موسى ذهب، وأين الذهب الذي يتحلى به، انظر مقياس فرعون، وهذا مقياس أهل الدنيا دائماً.

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52))

(سورة الزخرف)

يعني ضعيف، ليس حوله حاشية ورجال، ليس عنده أتباع، ليس غنياً، لا يملك ذهباً.

(فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53))

(سورة الزخرف)

الطاعة يجب أن تكون في المعروف لا في الباطل:

أين أتباعه ؟ أين الذين حوله ؟ أين الذين يرفعونه ؟ طبعاً قاسوه بمقياس مادي، الإنسان العظيم بمقياسهم هو القوي والغني، غني بالذهب وقوي بأتباعه، هذا لا أتباع ولا ذهب بمقياس فرعون، أما أدق آية:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

وطُمِسَ على قلوب قومه لفسقهم، فاستخف عقولهم فأمرهم بما لا يعقل، لكنهم أطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين، لما الإنسان يطيع مخلوقاً في معصية الخالق أو يطيع أمراً سخيفاً، فهذا لا عقل له، أروي هذه القصة مراراً، وأذكركم بها: لما أحد الصحابة كان أميراً على جماعة بأمر النبي وقال علماء السيرة كان به دعابة (أي عنده طرفة) **فأمر بإضرام نار عظيمة**، وقال لأصحابه: **اقتحموها ألست أميركم ؟ أليست طاعتي طاعة رسول الله** ؟ الصحابة وقفوا مترددين، بعضهم قال كيف نقتحمها ونحن إنما آمنا بالله فراراً منها ؟ فما اقتحموها ولم يستجيبوا له، فلما عرضوا أمرهم على النبي، قال عليه الصلاة والسلام:

((لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، إنّمَا الطاعةُ في المعروف))

[متفق عليه عن علي بن أبي طالب]

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

الحقيقة أن الإنسان يبدو سخيفاً، وسقيم العقل حينما يطيع إنساناً فيما لا يرضي الله عز وجل أو في أمر سخيف، علامة شخصيتك أنك لست ألعوبة ولا دمية ولا ريشة أنت إنسان لك اختيارك، يعني مما يستفاد أن زوجة فرعون آسية كانت صدِّيقة لم تنخدع به، وبملكه، وتعالت عليه لكفره، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمُل من النساء إلا مريمُ بنتُ عمران، وآسِيَةُ امرأةُ فرعون، وخديجةُ بنتُ خويلد، وفاطمةُ بنت محمد))

[متفق عليه عن علي بن أبي طالب]

ماذا يستفاد من أن امرأة فرعون كانت صدِّيقة ؟ المعنى عميق جداً أن المرأة مستقلة عن زوجها في دينها، وليست تابعة له في المعصية، هذه امرأة لها شخصيتها، هي صدِّيقة وزوجها أكفر كفار الأرض، المعنى أنه لا حجة لامرأة تقول هذا زوجي ليس فيه دين فماذا أفعل ؟ من قال لك هذا ؟ امرأة فرعون صدِّيقة وزوجها كافر، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أن تكون امرأة فرعون صدِّيقة هذا مما يرفع قيمة النساء، هي لها اختيارها ولها شخصيتها ولها اتجاهها ولها محاكمتها ولها إيمانها. فلذلك هذا الذي استخف قومه، رأى في عقولهم السقم والسفه فاستخف بهم، وأمرهم أمراً غير معقول، قال لهم: أنا إله، أنا ربكم الأعلى، فصدقوه لضعف عقولهم، وأطاعوه فيما لا يرضي الله عز وجل، فلماذا كانوا ضعاف العقول، والنفوس ؟ قال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

لا تقبل بأية فكرة أو فتوى إلا إذا اتفقت مع نصوص الدين:

أخواننا الكرام لما يعصي الإنسان ربه يصبح مثل سقط المتاع ليس له قيمة أبداً، يخاف من ظله، ومتى يُستخف بالإنسان ؟ ومتى تضعف نفسه وتتهاوى معنوياته ؟ ومتى يخنع ؟ ومتى يذل ؟ ومتى يقبل الضيم ؟ إذا كان عاصياً لله عز وجل، إذا كان عبداً لشهواته والآية دقيقة المعنى جداً بل هي من أدق الآيات دلالة في القصة.

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ(54))

(سورة الزخرف)

يروون: إن الشيطان تمثل شخصاً وطرق باب عابد، فقال له: أنا الخضر، فهذا العابد لضعف عقله، ومحاكمته، وإيمانه فرح به فرحاً شديداً، ورحب به ترحيباً شديداً، قال له: رفعت عنك الصلاة ففرح

أكثر، ورفعت عنك الصيام ففرح أكثر، ثم إن هذا نفسه طرق باب عالم فقال له: أنا الخضر، فقال له وقد عرف حقيقته: يا عدو الله لست الخضر وكاد يهوي عليه بالعصا، يعني عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، ولا تكن ضعيف العقل، لا تقبل أية فكرة، أو أي خبر، أو أية خرافة أو أي حكم، أو أي فتوى، إلا إذا اتفقت مع نصوص الدين.

يعني أنا أتألم حينما أسمع أن فلاناً أفتى بكذا، فهل هذا فلان مشرّع ؟ أنت يا أخي مؤمن، وعندك كتاب وسنة، وعندك قرآن قطعي الثبوت والدلالة، وعندك سنة نبوية مطهرة صحيحة، هذا هو المقياس، أما إذا صار كل إنسان مشرعاً فقد انتهى الدين إلى ضياع، وصار عندنا مليون دين.

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ(54))

(سورة الزخرف)

القبول والرفض كلاهما بحاجة إلى دليل:

قال له النبي الكريم:

((لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، إنّمَا الطاعة في المعروف))

[متفق عليه عن علي بن أبي طالب]

دائماً اطلب الدليل، اطلب التعليل، لا تكن إنساناً ساذجاً.

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف 108)

دين الله عز وجل له أدلة.

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(117))

(سورة المؤمنون)

لابد من برهان، حجة، دليل، نص قرآني، نص نبوي صحيح دلالته واضحة، لا تقبل شيئاً من غير دليل، وإياك أن ترفض شيئاً بدون دليل، لا القبول ولا الرفض كلاهما يحتاج إلى دليل، لئلا تكون من هؤلاء:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا)

(سورة الزخرف)

أي أغضبونا، أسخطونا، فلما عصونا.

(فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55))

(سورة الزخرف)

من حكمة الله أن يكون الأنبياء ضعافاً ليكون الإيمان بهم خالصاً لله تعالى:

هناك حكمة ظاهرة أيها الأخوة وهي أن الأنبياء لحكمة أرادها الله عز وجل يرسلون وهم ضعفاء، شخص عادي ضعيف، ليست في معصمه أساور من ذهب وليس معه جماعة تذود عنه، ليس غنياً بالذهب وليس قوياً بالجماعة، فهو ضعيف، والدليل النبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال عنه كفار مكة ؟ قالوا عنه شاعر، وقالوا عنه ساحر، وقالوا عنه مجنون، وقالوا عنه كاهن، لو كان قوياً لا يستطيعون أن يقولوا هذا الكلام، لكن شاءت حكمة الله أن يكون النبي ضعيفاً، وتستطيع أن تقول عنه مجنون وساحر وكاهن وشاعر وأن تنام في بيتك مطمئناً ولا شيء عليك، معنى ذلك أنه ضعيف جداً، لو كان على جانب من القوة وقلت عنه مجنون لانتقم منك أشد الانتقام.

وشاءت حكمة الله أن يكون الأنبياء ضعافاً، ليكون الإيمان بهم خالصاً لله، فحينما تؤمن بهذا النبي وتنصاع لأمره، ولا يحدوك رغبة بما عنده لأنه لا يملك شيئاً من متاع الدنيا، ولا رهبة فليس هناك ما يخيف، إذاً ليس عنده شيء لا من دواعي الترغيب ولا من دواعي الترهيب، لذلك من يؤمن بالنبي يؤمن به مخلصاً لله عز وجل.

أما الحكمة الثانية فهي ؛ أن هذا النبي يقوى، ويقوى، وهذا الطاغية يضعف، ويضعف.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

(سورة القصص)

الإنسان لا يجب أن يكون عبداً لغير الله لأن عبد الله حر:

أيها الأخوة الكرام...

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

يعني أنت أيها الإنسان لا ينبغي أن تكون عبداً لعبد، أنت عبد لله، كن حراً، ولا تكن أداة بيد أحد، ولا تكن خطيئة لأحد، ولا تكن تابعاً لأحد، كن عبداً لله عز وجل فعبد الله حر، أي أن فرعون لما استخف قومه طبعاً أمرهم بأوامر سقيمة غبية، ونفذوا هذه الأوامر.

(فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

فسقهم جعلهم هزيلي العقول ضعيفي النفوس، فسقهم مع ضعف عقولهم وشغف نفوسهم جعلهم أدواتٍ رخيصةً بيد فرعون.

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

(سورة الزخرف)

لما عصونا وأغضبونا انتقمنا منهم.

(انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55))

(سورة الزخرف)

قصة سيدنا موسى مع قومه الضعاف:

والقصة معروفة سيدنا موسى مع قومه الضعاف.

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(54)وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(55))

(سورة الشعراء)

فرعون وما أدراك ما فرعون ؟ بقوته وجيشه وبطشه كان وراء موسى.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي(62))

(سورة الشعراء)

وربنا عز وجل أمره أن يضرب البحر بعصاه، فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، سار سيدنا موسى وأصحابه في البحر في الطريق اليابسة، فلما خرج من البحر، وكان قد تبعهم فرعون، فلما كانوا وسط اليم عاد البحر بحراً، عندئذ قال فرعون: آمنت بالذي أمنت به بنو إسرائيل:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90)آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(91))

(سورة يونس)

المؤمن عاقل يتعظ بغيره بينما الشقي دائماً يتعظ بنفسه:

أيها الأخوة موضوع الإيمان موضوع وقت، إن لم تؤمن في الوقت المناسب لابدّ من أن تؤمن بعد فوات الأوان، والقضية قضية وقت، يعني خيارك مع الإيمان لا خيار قبول أو رفض بل الخيار خيار وقت، قل متى أؤمن ؟ الإيمان مجدٍ في حينه، لكنه بعد فوات الأوان ليس مجدياً.

(فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا)

(سورة الزخرف)

يعني وجبة سابقة، ومستعجلة إلى النار.

(وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56))

(سورة الزخرف)

والمؤمن عاقل يتعظ بغيره، والشقي دائماً يتعظ بنفسه، السعيد من اتعظ بغيره، الله جعل قوم فرعون مثلاً لكل من بغى وطغى، وقال أنا ربكم الأعلى، بئس العبد عبد طغى وبغى، ونسي المبتدا والمنتهى، سلفاً يعني وجبة سبقت كفار مكة إلى جهنم:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(46))

(سورة غافر)

العبرة أن السعيد من يتعظ بغيره:

يعني من ستة آلاف سنة أضربها بثلاثمئة وخمسة وستين يوماً ضربُ اثنين فهم يعرضون على النار غدواً وعشياً.

(فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56))

(سورة الزخرف)

أكرر، وأعيد ففي الإعادة إفادة، السعيد من اتعظ بغيره والشقي لا يتعظ إلا بنفسه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 57-66
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-07-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الزخرف.

العقل والشهوة متناقضان فمن يتبع شهوته يضعف عقله:

مع الآية السابعة والخمسين، ولكن قبل أن نمضي في شرح هذه الآية أود أن أقف قليلاً عند قوله تعالى حينما قص علينا ربنا جل جلاله قصة فرعون، ففي نهاية القصة قال:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

وكأن هناك علاقة بين الفسق وبين خفة العقل، استخفهم لأنهم كانوا فاسقين، والإنسان حينما يتبع شهوته يضعف عقله، لأن إتباع الشهوة مناقض للعقل، إما أن تتحرك وفق عقلك أو أن تتحرك وفق شهوتك، وحينما توعَّد الله هذه الأمة بالهلاك وصف سبب هذا الهلاك فقال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

كلمة المسلمين ليست هي العليا الآن لأنهم أخلفوا وعدهم لله:

إذا أردت أن تحلل أسباب ضعف المسلمين وهم يزيدون على ألف ومئتي مليون في العالم، إذا أردت تحليلاً قرآنياً لضعف المسلمين، وكيف أن كلمتهم ليست هي العليا، وأن الله فيما يبدو تخلّى عنهم، لا، فإنه ما أخلف وعده معهم، ولكنهم هم الذين أخلفوا وعدهم مع ربهم، قال:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

الله أودع في الإنسان الشهوات وجعل لها قنوات نظيفة:

أما موضوع الشهوات، فما من شهوة أيها الأخوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة، شهوة النساء، وشهوة المال، وشهوة العز والعلو في الأرض، هذه الشهوات الأساسية لها قنوات، لك أن

تكسب المال الحلال، ولك أن تتزوج من شئت، ولك أن ترتفع لا عن طريق إيقاع الأذى بالآخرين ولكن عن طريق نفعهم ومعرفة ربك، إذاً ما من شهوة أودعها الله عز وجل إلا وجعل لها قناة نظيفة، فإتباع الشهوات المقصود به من دون منهج الله عز وجل، والإسلام واقعي، كما أنه دين الفطرة.

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

على الإنسان أن يحسن استخدام عقله:

والفسق في تعريفه الدقيق الخروج عن منهج الله، آلة معقدة جداً، وهناك تعليمات للصانع، فاستعمال الآلة بخلاف التعليمات فسقٌ بها، أخرجتها عن تعليمات الصانع، والإنسان حينما يحب ذاته ويحرص على مصلحته، وعلى سعادته، ويحرص أيضاً على كمال وجوده وعلى سلامة وجوده وعلى استمرار وجوده، فعليه أن يطبق تعليمات الصانع، ويحسن استخدام عقله، وهذا الإنسان حينما يستخدم عقله لحظة، الإنسان وصل إلى القمر، ووصل بمركبة يسيرها إلى المشتري، والرحلة استغرقت ست سنوات وسرعة هذه المركبة تزيد عن أربعين ألف كيلو متراً في الساعة، وصل إلى الفضاء وغاص في أعماق البحار، إذ وصل إلى أعمق نقطة في المحيط الهادي وهي خليج مريانا، كما توصل إلى نقل الصورة عبر الأقمار الصناعية ونقل الأوامر عن طريق أجهزة حديثة جداً، ومن بعد ؛ فكأن الله سبحانه وتعالى يعاتب عباده الضالين يوم القيامة، ويقول: لو أنكم استعملتم عقولكم بنسبة واحد من المليون لعرفتموني، ها أنتم قد فعلتم ما فعلتم، ووصلتم إلى ما وصلتم، واخترعتم ما اخترعتم، ويسرتم لحياتكم السبل وقربتم المسافات، واخترعتم المركبات، وقذفتم بأنفسكم في البحار، ووصلتم إلى أطباق السماء، لو أنكم استخدمتم هذا العقل الذي أودعته فيكم أدنى نسبة لعرفتموني، لذلك:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

خُلِق العقل ليكون أداة لمعرفة الله فهو أصل الدين:

أيها الأخوة ما من عطاء على وجه الإطلاق يفوق هذا العقل الذي ميز الله به الإنسان على بقية المخلوقات، وهذا العقل إنما خلقه الله من أجل أن تتعرف إليه به، معظم الناس يستخدمون عقولهم لغير ما خلقت له، خلق العقل من أجل أن يكون أداة لمعرفة الله، فاستخدم الإنسان العقل للوصول إلى مآربه الخسيسة، ولجمع الأموال بأساليب غير مشروعة، لذلك فإن العقل كما أنه عطاء كبير، فهو في الحقيقة وبال كبير، فيما لو لم يستخدم وفق منهج الله عز وجل.

آية دقيقة الدلالة ؛ فالإنسان حينما يقبل شيئاً من غير دليل شرعي، وغير منطقي، وغير واقعي، ويتناقض مع الفطرة، ويتناقض مع العقل، يقبله ويعطل عقله ويتعامى عن فطرته ويتجاهل الواقع فهذا إنسان سفيهُ العقل أحمق، إذاً فرعون ما كان له أن يعطي أوامره لهؤلاء الذين كانوا معه لولا أنهم ضعاف العقول، وهؤلاء الذين كانوا معه ما كانوا ليكونوا ضعاف العقول لو أنهم اتبعوا الحق، بل اتبعوا شهواتهم فضعفت عقولهم فاستخف بهم فأمرهم فنفذوا أمره.

يعني فما من شيء يرفع شأن الإنسان في الحياة الدنيا ويميزه عن بقية المخلوقات كالعقل، والآيات التي تتحدث عن العقل والعلم في القرآن الكريم تقترب من ألف آية، وما من أمر إلهي إذا عرضته على العقل السليم إلا ويقبله، وما من نهي إذا عرضته على العقل السليم إلا ويقبله، فديننا دين العقل، إنما العقل أصل الدين، أفلا يعقلون ؟ أفلا ينظرون ؟ أنى تؤفكون ؟ قليلاً ما تذكرون، الآيات التي تتحدث عن الذكر والعقل والفكر والتذكر والتدبر تقترب من ألف آية.

العقل أصل الدين وفرعون استخف قومه لأنه وجد عقولهم سقيمة:

إذاً فهذه الآية دقيقة المعنى جداً، لماذا استخف قومه ؟ وجد عقولهم سقيمة، لماذا ضعفت عقولهم ؟ لأنهم اتبعوا شهواتهم، إذاً إتباع الشهوة يتناقض مع العقل، تقريباً لو مثّلتَ العقل نقطة هنا والشهوةَ نقطة هناك، وأنت بينهما، فإذا اقتربت من الشهوة ابتعدت حكماً من العقل، وإذا اقتربت من العقل ابتعدت حكماً من الشهوة، وأنا حينما أتحدث عن الشهوة لا أتحدث عن الشهوة التي تمارس وفق منهج الله، لا، فهذه انطلقت في قناتها الطبيعية المشروعة.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6))

(سورة المؤمنون)

لا لوم عليك، إذا كسبت المال الحلال ليس عليك لوم، إذا اقترنت بامرأة وأنجبت منها أطفالاً ليس عليك لوم، وإذا ابتغيت الرفعة بين عباد الله عن طريق طاعة الله عز وجل ليس عليك لوم، اللوم حينما تتبع الشهوة من دون منهج، وحينما يتبع المرء الهوى فإنه لا محالة زائغ قال تعالى:

(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (26))

(سورة ص)

وهذا تعليق على الآية السابقة:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

ومن ثَمّ فإن الإنسان لا ينبغي له أن يهمّش نفسه في الحياة فالإنسان أعماله ومشاغله وطلب الرزق وهموم العيش تستهلكه فلا تبقي له وقتاً ليتأمل وليتعرف إلى ذاته ويسأل من أنا ؟ وأين كنت ؟ وإلى أين المصير ؟ وماذا يعني الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ ومن خلقني ؟ ولماذا خلقني ؟ وما المنهج الذي ينبغي أن أسير عليه ؟ كيف أكسب المال ؟ كيف أنفق المال ؟ كيف أختار الزوجة ؟ كيف أختار الأصهار ؟ هناك أمور كثيرة جداً، فإذا أصم أذنيه تستهلكه الحياة، ويعمى عن الحق، ويهمش، فإذا نام استيقظ، ثم يأكل، ويشرب، ويعمل، ويجمع الأموال، وينفقها من غير هداية أو رشد، يزين بيته إلى أن يأتيه ملك الموت، فيقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون)

لا بد من وقفة تسأل بها نفسك أيعقل أن يُخلق هذا الكون عبثاً ؟

إذاً أيها الأخوة الكرام لابد من وقفة متأنية، لابد من وقفة تحاسب بها نفسك حساباً يسيراً، بل حساباً عسيراً كي يكون حسابك يوم القيامة يسيراً، لابد من وقفة لتعلم حقيقة أنك على سفر، فهذه الدنيا ليست دار قرار، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن أكيس الناس أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً))

[أخرجه يحيى بن هاشم عن زيد بن علي]

والتفكر أجود قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

(سورة آل عمران)

ولابد من سؤال تلقيه على نفسك يومياً ؛ هذا الكون العظيم أيعقل أن يخلق سدى وعبثاً وباطلاً ؟

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

ليس معقولاً، فاللعب عمل عابث بلا هدف.

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ(39))

(سورة الدخان)

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول:

ما هو الحق ؟ الحق الشيء الثابت والهادف، المخلوقات خلقت لتبقى والموت عرض يصيبها.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران 185)

خلقت لتبقى إلى أبد الآبدين.

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(77))

(سورة الزخرف)

خلقت لتبقى إلى أبد الآبدين، إما في جنة يدوم نعيمها، أو نار لا ينفد عذابها.

أيها الأخوة الكرام خيارك مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، خيارك متى تؤمن ؟ لأنه لابدّ من أن تؤمن، فاحذر أن تؤمن بعد فوات الأوان، فرعون آمن عند الموت، طبعاً فالإنسان عند الموت يعلم الحقيقة علم اليقين ولكن لا ينفعه علمه هذا.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

على المؤمن أن يتأمل ليعرف إلى أين هو ذاهب:

المؤمن حينما يأتيه الموت ويرى مقامه في الجنة يقول: لم أر شراً قط، كل المصائب التي ساقها الله له من أجل أن يطهره ويرقى به بها، ويكرر لم أر شراً قط، والكافر لمّا يرى مقامه في النار يقول لم أر خيراً قط ولو كان في الدنيا بأعلى درجات التنعم والغنى والقوة.

فيا أيها الأخوة الكرام مزيداً من التأمل، تأمّل، صلّ الفجر واجلس وتأمل إلى أين أنت ذاهب ؟ الله عز وجل قال:

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26))

(سورة التكوير)

هناك أناس جمعوا أموالاً طائلة ووصلوا إلى مراتب عالية وجاءهم ملك الموت فكانوا صفر اليدين، انظر فهل الطريق الذي أنت فيه سالك أم غير سالك ؟ أم يوصل إلى مطب كبير، وإلى شقاء كبير؟

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35))

(سورة يونس)

وقال:

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26))

(سورة التكوير)

وقال أيضاً:

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6))

(سورة الزمر)

على المؤمن أن تكون عقيدته ثابتة وأن يبتعد عن الاعتقادات الفاسدة:

وها نحن الآن مع موضوع جديد فإلى الآيات التي تبدأ بقوله تعالى:

(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59))

(سورة الزخرف)

أيها الأخوة هذه القصة تبين أن عقيدة الإنسان أهم شيءٍ في حياته، والخطأ في العقيدة مشكلته أنه خطأ قد لا يتراجع عنه الإنسان، لأن المعتقِد خطأ يظن أنه على صواب، أما المذنب إذا عرف أنه مذنب فقد يتوب من ذنبه، لذلك إبليس لا يفرح بالمعصية بل يفرح بالابتداع وهو أن تعتقد اعتقاداً فاسداً، فكل واحد من المؤمنين الطيبين يجب أن يعرف بالضبط ما عقيدته ؟ هل عقيدته مطابقة لكتاب الله عز وجل ولِما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ؟ إن لم تكن كذلك عليه أن يصحح قبل فوات الأوان.

هؤلاء العرب في الجاهلية اعتقدوا اعتقادات فاسدة، وكذلك أهل الكتاب اعتقدوا اعتقادات فاسدة، ومناقشتنا ستنصبُّ حول موضوع العقيدة، والإنسان حينما يعتقد اعتقاداً جازماً أن لهذا الكون خالقاً ومربياً ومسيراً موجوداً وواحداً وكاملاً، وأسماءه كلها حسنى وصفاته كلها فضلى، وأنه أنزل كتباً من عنده إلى البشر ليهتدوا بها، وأن القرآن الكريم قد حفظه الله من أن يُغير أو يبدل، وأن الأنبياء عباد مكرمون اصطفاهم الله عز وجل وأنعم عليهم بالوحي وأيدهم بالمعجزات وهم معصومون قبل النبوة وبعدها، وأن هناك مخلوقات نورانية هي الملائكة سخرها الله عز وجل لمهمات كثيرة منها أنها تسجل على العبد أعماله الصالحة والطالحة، وأن هناك عالماً بعد الموت أبدياً، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هذه أركان الإيمان ينبغي أن نتعلمها، ينبغي أن نعقلها، ينبغي أن نتبناها، ينبغي أن تحرك مجرى حياتنا وتوجهه.

يجب أن نؤمن بالحساب يوم القيامة:

الشيء الملاحظ أنك قد ترى إنساناً مسلماً من أب وأم مسلمين ولا ترى في حياته اليومية ولا في أعماله ولا في تصرفاته ما تشعر معه أنه يعمل للآخرة، بالعكس قد ترى في تصرفاته ما ينبئ أنه لا يحسب حساباً إطلاقاً لليوم الآخر، وأنه يتحرك وكأن هذا الكون لا إله له ولا خالق، القوي يأكل

الضعيف، الذكي يحتال على الغبي، الغني يزداد غنىً والفقير يزداد فقراً فالقضية خطيرة جداً، فلقد تعلمنا في المدرسة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، إذا آمنت أن الملك كما أخبرك الله عز وجل يسجل عليك كل شيء، فلن تقول: كذباً، أو زوراً، أو بهتاناً، ولن تحلف بالله كذباً، ولن تغش المسلمين، ولن تحتال لكسب المال، كيف تجحد الفضل ؟ كيف لا تكون منصفاً مع الآخرين إذا حكموك ؟ فمعنى ذلك أنه لابد أن تؤمن بعناصر الإيمان المذكورة وتؤمن كذلك بالحساب يوم القيامة، ولذلك لابد من مناقشة قضية العقيدة نقاشاً واضحاً مقنعاً:

(وَلَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57))

(سورة الزخرف)

المعجزات مقبولة عقلاً لكنها غير مقبولة عادةً:

سيدنا عيسى نبيٌّ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عُبِدَ من قبل النصارى من دون الله، فلما قال الله عز وجل:

(إِنّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ)

(سورة آل عمران 59)

إذاً لا تعجبوا من أن يخلق الله إنساناً من غير أبٍ ! فالله على كل شيء قدير، أن يخلق الإنسان من دون أب فهذا شيء غير مألوف، لكنه مقبول عقلاً لأن الذي خلق الكون من عدم، الكون بأكمله، والمجرات بأكملها، مليون مليون مجرة، في كل مجرة مليون مليون نجم، هذا الكون بأكمله خلق من عدم، أيعجز الله عز وجل أن يخلق إنساناً واحداً من غير أب ! فالمعجزات مقبولة عقلاً لكن غير مقبولة عادة، فلماذا عُبد من دون الله ؟ لأنه من دون أب، من دون أب كمثل آدم فسيدنا آدم خلق من دون أب وأم، السيدة حواء بلا أم، سيدنا عيسى بلا أب، بينما البشر العاديون من أب وأم، أربع حالات موجودة، تتعلق بخلق الإنسان، ويستفاد منها أن السبب يقترن مع المسبب، وليس خالقاً له.

الأسباب تقترن مع النتائج ولا تخلقها:

لما ربنا عز وجل خلق هذه القوانين ليُعْلِمنا أن الله هو الخالق وليس السبب هو الذي يخلق، الإنسان حينما يبتعد عن الله عز وجل يتوهم أن الأسباب تخلق النتائج، لكن علماء العقيدة يرون أن الأسباب تقترن مع النتائج ولا تخلقها، والدليل أن السبب قد يختلف، وتأتي النتيجة صحيحة، كسيدنا عيسى، فقد تخلف السبب وجاءت النتيجة، وقد توجد النتيجة بلا سبب، أو قد يوجد السبب ؛ كأم وأب كاملين ولا ينجبان أولاداً، إذ جعلهما الله عقيمين.

إذاً فحينما تخرق العادات فهذا من أجل أن نعلم أن السبب وحده لا يكفي لخلق النتيجة.

حينما يستخدم العقل لغير ما خلق له فهو كثير الجدل والمناقشة:

لذلك:

(وَلَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57))

(سورة الزخرف)

معنى يصِدّون أي يضجرون، يصُدون أي ينصرفون، أما يصِدون أي يضجرون، هم ماذا أرادوا ؟ هم أرادوا أن آلهتهم خير من عيسى، وقالوا:

(وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ(58))

(سورة الزخرف)

نحن نعبد الملائكة، والملائكة أقرب إلى الله من البشر، ونحن ماذا فعلنا ؟ إذا كان النصارى قد عبدوا المسيح فنحن نعبد الملائكة.

(وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلّا جَدَلًا(58))

(سورة الزخرف)

كلمة (الجدل) أيضاً أحب أن أقف عندها وقفة، العقل شيء ثمين جداً، لكن لو أن الإنسان اتبع شهوته سيجد أن لديه جهازاً خطيراً يستخدمه لتحقيق شهواته، لذلك فحينما يستخدم العقل لغير ما خلق له فهو كثير الجدل والمناقشة في الكلام وإظهار الحق باطلاً والباطل حقاً، وكل إنسان يتمتع بعقل وذكاء ولم يكن على هدى من الله عز وجل يستخدم هذا العقل لشهواته ومآربه واقتناص الشهوات وجمع الأموال وردّ الحق ورفع شأنه على الآخرين، العقل له نشاط ينقلك إلى أعلى عليين لو استخدمته وفق ما صنع له، وقد يودي بك إلى الهلاك إذا استخدمته لغير ما صنع له.

الآن هناك آلات طابعة تطبع الصورة الملونة غالية الثمن جداً يقترب ثمنها من مليون ليرة، هذه الآلة يمكن أن تستخدم استخدامات صحيحة وقانونية تجعلك من الأغنياء من خلالها، أما إذا استخدمتها لتزوير العملة فقد تودع في السجن، والآلة هي نفسها إن استخدمتها في الأغراض المشروعة اغتنيت منها وإن استخدمتها في الأساليب غير المشروعة أودت بك إلى السجن، فكيف العقل ؟!

المجادلة والافتراء و قلب الحق إلى باطل هذا كله نشاط عقلي ولكن لغير ما خلق له العقل:

فالمجادلة والمماحكة والإفك والافتراء وقلب الحق إلى باطل والباطل إلى حق وافتعال المبررات للصد عن سبيل الله، هذا كله نشاط عقلي ولكن لغير ما خلق له العقل.

(وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58))

(سورة الزخرف)

لنحتكم وإياكم للمنطق ؛ المنطق أتعجبون من أن عيسى بلا أب ونسيتم أن آدم بلا أب ولا أم:

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ (59))

(سورة آل عمران)

فلم يعجبهم هذا المثل.

(وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ(58))

(سورة الزخرف)

هم يعبدون الملائكة، والملائكة أقرب إلى الله في زعمهم من البشر فماذا فعلوا هم ؟ قال:

(مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا (58))

(سورة الزخرف)

الجدل سلاح المنحرفين والمنافقين:

بالمناسبة ما أضلّ الله قوماً بعد إذ هداهم إلا أوتوا الجدل، الجدل سلاح المنحرفين، سلاح المنافقين، سلاح الكفار، سلاح الفجار فمثلاً:

جاء أعرابي النبي عليه الصلاة والسلام، قال: **يا رسول الله عظني ولا تطل**، بهذه البساطة، فتلا عليه النبي صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

قال: **كُفيت**، آية واحدة اكتفى بها، فالنبي تأثر، قال: **فقُه الرجل.**

أيها الأخوة لو تبرأ الإنسان وتنزه عن مآربه الدنيوية وعن ترهات الجاهلية وعن أهوائه وعن مصالحه وابتغى الحقيقة لوجه الله عز وجل، فو الله لا تلبّث في مناقشته لنفسه أكثر من دقيقة واحدة، فالأمور واضحة كالشمس، كون ينطق بوجود الله، وينطق بكماله، وينطق بوحدانيته، وينطق بقدرته، وكتابه بين أيدينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنبياء كالشموس مثلٌ عليا، وقدوةٌ صالحة، ومنهجٌ واضح جداً، العقل يقبله والفطرة ترتاح له والواقع يؤيده والنقل يدعمه، ماذا بقي إلا التحرك نحو الله عز وجل، فماذا ننتظر ؟ النبي قال:

((شمروا فإن الأمر جد، وتأهبوا فإن السفر قريب، وتزودوا فإن السفر بعيد (يعني وقته قريب، ومسافته بعيدة) وخففوا الأثقال فإن في الطريق عقبات كؤود، لا يجتازها إلا المخفون، يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق، وأخلص النية فإن الناقد بصير))

على الإنسان أن يستقيم على أمر الله وأن يلتزم بمقتضيات الإيمان:

الإنسان لا ينبغي أن يتأخر، إن سمع الحق فليُشمِّر، وليؤد الصلوات، وعليه أن يستقيم على أمر الله، يراجع حساباته، يراجع بيته هل فيه مخالفة شرعية ؟ يراجع عمله، يتوب من ذنب اقترفه ليصلح ما أفسد، إذاً هناك حقوق عالقة فليؤدها قبل فوات الأوان، فأحياناً يصدر قانوناً يحرك البشر حركة مذهلة، ويصدر تصريحاً أحياناً في بيع وشراء، فيدفع الناس في حركة تعاملية نشيطة، ومشروع قانون قد يغير معالم التجارة كلها والله يقول لكم:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(102))

(سورة آل عمران)

أفلا تتحركون ؟ ويقول:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

(سورة التحريم 8)

أفلا تبادرون. ماذا دهاكم ؟! فيجب أن تشمر وأن تبادر وأن تتحرك، لذلك قال سبحانه:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال 72)

هو آمن ؛ لكنه لم يأخذ موقفاً عملياً، آمن لكنه لم يلتزم، آمن لكنه لم يحرك ساكناً، آمن لكنه قال: سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ليس باليد حيلة، هذا إيمان إبليسي لأن إبليس آمن وقال: فبعزتك، اعترف بوجود الله، وبأنه عزيز، ولكن تحرك حركة معاكسة لمقتضيات الإيمان.

الخطأ في العقيدة مستمر أما الخطأ في السلوك فمنقطع:

أيها الأخوة الكرام ليس المقصود تفاصيل هذه المناقشة بل المقصود أن تعتقد عقيدة صحيحة، لأن الخطأ في العقيدة مستمر أما الخطأ في السلوك فمنقطع، تغلط فتتوب، أما الذي يعتقد اعتقاداً فاسداً هذا كيف يتوب ؟ يظن أنه على حق.

(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57))

(سورة الزخرف)

يضجرون، ويعجبون، وقالوا:

(وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58))

(سورة الزخرف)

يعني الخصومة جزء من حياتهم، شريرون، يحبون الجدل بالتعبير العامي العيّ، المؤمن عملي في كل قضية، الصحابة الكرام الذين هم بتقييم النبي عليه الصلاة والسلام إذ قال خير القرون قرني الصحابة لم يلتفتوا إليها، ربنا عز وجل قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح 18)

يجب أن ننظر إلى المضمون لا إلى الشكل:

بنص القرآن رضي الله عنهم فهم خيرة الخلق، وحققوا الهدف من خلقهم وكانوا مع نبيهم، فالموضوعات التي لم يهتموا بها ينبغي ألا نهتم بها، ينبغي ألا نخوض في خلافات، وفي مماحكات، وفي مناقشات، الحياة قصيرة لا تحتمل جدلاً ولا عيّاً، والأفكار فيها بسيطة جداً، خلاصتها هذا الإله خالق الكون وهذا كتابه وهذه سنة نبيه فماذا تفعل أنت ؟ تحرك يا أخي، تب إلى الله، اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ولا تقحم نفسك في خصومات وخلافات وجدل عقيم، وينقضي العمر وأنت في جدل لا طائل منه.

لو فرضنا ؛ أن إنساناً قرأ إعلاناً على الجدار لمنع التجول تحت طائلة إطلاق الرصاص، ثم وقف عند الإعلان هذا الخط رائع والحبر لامع والتوقيع جميل، بدأ يحلل هذا البلاغ إلى أن جاءت رصاصة فقتلته، انظر المضمون أولاً، أن تدخل إلى بيتك فقط، لكن اهتمامنا انصبَّ على الشكل حتى نسينا المضمون، الإنسان عليه أن يتحرك نحو النجاة، عليه أن يستقيم، واللهِ إن عدل ساعة أفضل من أن تعبد الله ثمانين عاماً، أن تستقيم على أمر الله كما قال أحد العلماء: ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام، (الدانق) عشر الدرهم يعني عشرين قرشاً سورياً، واللهِ لأن أمشي مع أخ في حاجته أفضل من صيام شهر مع اعتكاف في مسجدي هذا، كن عملياً، الدين بسيط ولكن نحن عقدناه، قضاياه بسيطة، وربنا رب النوايا، النبي الكريم كلما سئل في الحج قال: افعل ولا حرج.

التاريخ لا علاقة لنا به نأخذ منه الإيجابيات فقط:

ليس القصد أن تقصر، لا ؛ لكن لا تدخل في مجادلات وخلافات وفي مسائل، الخلاف بين الفرق الإسلامية هذا لا ينفعك، هدفك واضح، والطريق سالك للهدف، واترك أي مشكلة وراء ظهرك والغ التاريخ كله من ذهنك وذاكرتك.

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(134))

(سورة البقرة)

انتهى الأمر، هذا التاريخ ليس لنا علاقة به، نأخذ منه الإيجابيات، نأخذ منه ما يحفزنا إلى البطولة، أما ما كان عبئاً علينا ندعه، العبء تركناه والحافز أخذناه، المنهج واضح أنا أريد أن تكون عملياً.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال 72)

هنا الهجرة تعني ترك الباطل، المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، المشكلة أن على الإنسان أن يشمر وينطلق إلى الله طالباً النجاة.

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(50))

(سورة الذاريات)

وقال:

(مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58))

(سورة الزخرف)

العبرة بالتطبيق والقصد أن تتبع منهج الله عز وجل:

حبُّ المناقشة، والحوار، والمجادلة، والمماحكة تجري في عروقهم، والأخذ والرد وقيل وقال، قال رسول الله:

((إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا ؛ قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

[متفق عليه عن المغيرة بن شعبة]

يجب أن نعرف الصحابة الكرام بماذا ارتقوا ؟ كيف رضي الله عنهم ؟ كيف أحبوا النبي حباً جماً ؟ كيف فدوه بأرواحهم وأموالهم ؟ اتبعوا المنهج، لكن نحن لا نتبع المنهج ومازلنا نناقش، تجده يؤيد العالم الفلاني لا الفلاني، والدعوة الفلانية لا الفلانية، يخوض في أعراض العلماء وهو لم يطبق شيئاً من دعواتهم كلهم، فكل واحد دعاك إلى الله على العين والرأس، دعاك إلى الله وفق منهج الله فلا تعقد الأمور، ولا تعمل انتماءات، وتطعن بهذا، وتسوء سمعة هذا، وتخطئ هذا، ليس هذا هو القصد، القصد أنهم كلهم يشرحون منهجاً موحداً هو الكتاب والسنة بأساليب متنوعة، العبرة بالتطبيق، ممكن أن تكون عند أعظم داعية ولا تكون مطبقاً، فمع رسول الله وعلى يساره كان يجلس أحد المنافقين، فلما مات قال: أريد قميص رسول الله ليكفن به، فأعطاهم الرسول قميصه وقال: **ما يغني عنهم من الله شيئاً، لقد استقر في جهنم حجراً كان يهوي به سبعين خريفاً**، لكن صحابي طلب قميصه، فسألوه لماذا ؟ قال: **إذا جاء الملكان وقالا: من نبيك ؟ قلت: هذا قميصه.**

القصد إذاً ؛ لا هذه المظاهر، ولا القصد السلوك الذي يبوئك مكانة ما، بل القصد أن تكون مخلصاً لله عز وجل، طاهر النية، طاهر السريرة، مطبقاً لمنهج الله فالإسلام يبدو لك بسيطاً، نحن عقّدنا الإسلام

حتى أصبح فرقاً، وشيعاً، ومذاهب، واتجاهات، وخصومات، وأدلة القرآن والسنة بين أيدينا، والكون ينطق بوجود الله، وعظمته، والله فطر الإنسان فطرة تؤهله للمعرفة الصحيحة.

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

ابتعد عن الخصومات الفكرية وكن عملياً:

قد يجد شخص أمامه خمسمئة ليرة فينحني ليتناولها وفي نيته أن يبحث عن صاحبها إذاً هو في عبادة لله، بينما إنسان آخر ينحني ليتناولها وفي نيته أن يأخذها لنفسه فهو عاصٍ، الشكل واحد لكن اختلفت النوايا، قال سبحانه:

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58))

(سورة الزخرف)

التعبير العامي (العيّ)، قال رسول الله:

((إنّ اللّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا ؛ قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

[متفق عليه عن المغيرة بن شعبة]

أنت كن عملياً وواقعياً والتزم ودعك من كل الخصومات الفكرية، فإنها ترهات جاهلية.

(إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ(59))

(سورة الزخرف)

بالنبوة وهذه نعمة عظمى.

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

أنعمنا عليه بالنبوة، أيدناه بالمعجزات.

(وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59))

(سورة الزخرف)

جعلناه مثلاً لقدرتنا، كن فيكون من دون أب، وجعلناه مثلاً للحياة بعد الموت.

(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60))

(سورة الزخرف)

نحن جميعاً في قبضة الله كن فيكون:

أنتم أيضاً في قبضة الله، كن فيكون، زل فيزول، يمكن أن نذهب بكم جميعاً وأن نأتي بملائكة مكانكم ولا تضرونه شيئاً:

(وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17))

(سورة فاطر)

وقال:

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ(38))

(سورة محمد)

بمجموعكم خمسة آلاف مليون بشر، كن فيكون، زل فيزول، بادوا وانتهوا وجعلنا مكانهم ملائكة.

الموت نوعان ؛ موت في النوم وموت عن طريق ملك الموت:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ)

(سورة الزخرف)

الهاء تعود على سيدنا عيسى، في هذه الآية أقوال كثيرة، من هذه الأقوال أن القرآن الكريم ينبئ بقيام الساعة، أو أن سيدنا عيسى مجيئه في آخر الزمان مرتبط باقتراب الساعة، لأن سيدنا عيسى لم يمت بعد.

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران 55)

فسيدنا عيسى ما مات الموت الأبدي، الموت نوعان ؛ موت في النوم، وموت عن طريق ملك الموت.

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(11))

(سورة السجدة)

وقال:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

(سورة الزمر 42)

فالوفاة التي وصف بها سيدنا عيسى وفاة النوم، وسوف يعود إلى الدنيا في آخر الزمان، وهذا شيء ثابت في القرآن.

(وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ)

(سورة الزخرف)

ولكن عَلَم الساعة إذا ظهرت العلامات الكبرى والصغرى، فإذا ظهرت هذه العلامات اقترب معها مجيء سيدنا عيسى.

على المؤمن أن يتنبه حتى لا يصده الشيطان عن سبيل الله:

قال تعالى:

(وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(62))

(سورة الزخرف)

أي لا يصدنكم الشيطان عن سبيل الله عز وجل، لأن الإنسان حينما يكون على الإيمان يأتيه الشيطان ليصده عن هذا السبيل، فيقول أنا قبل أن أتوب ليس عندي أي مشكلة، طبعاً لأنك كنت موافقاً للشيطان وهو راضٍ، هذه الآية مما يزعج الشيطان، من الطبيعي أن الإنسان عندما يسلك طريقاً إلى الله عز وجل تتوارد على قلبه خواطر كثيرة فيحتار في أمره، لأن الشيطان بدأ عمله، وعمله مثل اللقاح يأتي مخففاً فيعطيك مناعة، لا أحد يتألم من خاطر شيء أو شبهة طرحها الشيطان، هذه كاللقاح تماماً، جراثيم مخففة من أجل أن ينتج الجسم مصلاً واقياً من هذه الجراثيم، أما المؤمن فإذا خطر بباله خاطر وتألم لهذا الخاطر، فهذا دليل على أن هذا الخاطر هجين عليه أولاً، وثانياً هذا الخاطر يبحث عن جواب محكم لهذه الشبهة فيزداد إيمانه، تتكون لديه قدرة ليرد أي خاطر آخر.

(وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(64))

(سورة الزخرف)

المعجزات تأتي لتوافق طبيعة العصر:

سيدنا عيسى جاء بالبينات، من البينات إحياء الميت، وأنه أبرأ الأكمه والأبرص كذلك بإذن الله، طبعاً إذا الله عز وجل أرسل نبياً فهذا النبي يحمل للناس منهجاً، والمنهج يحد من شهوات الناس، ومن انحرافاتهم، ومن طغيانهم، فالإنسان لما يحد من انحرافاته صار عنده سبيل للدفاع عن نفسه فلا يكذب النبي ولا يقاومه، بل يصغي إليه ويقبل منه.

فلابدّ من معجزات يؤيد الله بها أنبياءه، المعجزات توافق طبيعة كل عصر، لو فرضنا أن عصراً لا يهتم بالطب، والنبي جعلت معجزاته طبية فلن يفهم أحد منها شيئاً، فليس لها قيمة، إذاً لا بدّ من معجزة في موضوع تفوقَ فيه عصر ذلك النبي.

وفي زمن سيدنا موسى ؛ كان السحر متفوقاً جداً، فجاء فرعون بالسحرة الذين أتوا بحبال وعصي جوفاء، طبعاً أتوا بأفاعٍ وضعوا فيها زئبقاً، ووضعوها على سطح ساخن، فالزئبق تمدد، ولما تمدد الزئبق تحركت الحبال والعصي كالأفاعي، عمل السحرة مهارة وإتقان قال تعالى:

(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45))

(سورة الشعراء)

وعلت الدهشة الوجوه، ووجم السحرة، إنها أفعى حقيقية وليست زئبقية، لأن هذا ثعبان مبين أكل كل هذه الأفاعي التي اصطنعها السحرة، فالسحر كان يومها متفوقاً جداً، فكانت المعجزة حية أو ثعباناً انقلب عن عصا موسى وهزم السحرة وانقلبوا صاغرين:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46))

(سورة الشعراء)

في زمن سيدنا عيسى كان الطب متفوقاً، أما الطبيب مهما كان متفوقاً فإن مات شخص وطلب من الطبيب إحياءه فيقول: هذا ليس من شأني، وفوق طاقتي، بل هذا لله.

إن الطبيب له علم يدل بـه إن كان للناس في الآجال تأخـــير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حار الطبيب وخـانتــه العقاقير

* * *

هذه فوق طاقة البشر إذ لا يستطيع طبيب أن يحيي ميتاً، فسيدنا عيسى أحيا الميت، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، هذه أمراض مستعصية، وأنبأ الناس بما في بيوتهم من مدخرات، فهذه بينات واضحة جاءت بأدلة لتدل على أنه نبي من عند الله عز وجل.

الحكمة كلام الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه:

قال تعالى:

(وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ(63))

(سورة الزخرف)

الحكمة يعني الإنجيل، الكلام الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، الحكمة كلام الله عز وجل، ما هذه الحكمة ؟ كلام واقعي منطقي صحيح، الإنسان إذا طبقه قطف نتائجه، أجل هذه هي الحكمة.

(قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ(63))

(سورة الزخرف)

وكلما سئل سيدنا عيسى من قبل بني إسرائيل عن قضايا خلافية بينهم مما في توراتهم فإنه يبين هذا الذي اختلفوا فيه، أما كلمة (بعض) أي أنه أجاب عن كل سؤال سئل عنه لكن هناك خلافات ما أجاب عنها لأنه لم يسأل عنها.

(وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64))

(سورة الزخرف)

وقال:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(116)مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117)إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118))

(سورة المائدة)

الخلاف ليس من النص بل من النفوس الضعيفة:

وقال:

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ(65))

(سورة الزخرف)

الخلاف فيما بينهم حسداً وظلماً وعدواناً واستعلاءً، والخلاف ليس من النص بل من النفوس (وهذه آية دقيقة جداً) القرآن الآن واحد والسنة واحدة، والخلاف خلاف حسد، خلاف كبر، خلاف بغي، خلاف عدوان، خلاف مصالح، ما عليه المسلمون اليوم من خلاف لا يعود إلى أصل دينهم، و لا إلى نصوصهم المقدسة، بل يعود إلى نفوس ضعيفة، هذه نقطة مهمة جداً، الخلاف بين المسلمين دليل انحرافهم، دليل بعدهم عن الدين، لو أنهم أخلصوا لاتفقوا، ولو أنهم أخلصوا لاتحدوا، طبعاً الخط المستقيم بين نقطتين يمر وحده، ولا خط غيره، أريد خطاً ثانياً يأتي فوقه تماماً، وكذلك الثالث فوقه تماماً، لو رسمت ألفَ مليون خطٍ مستقيم بين نقطتين فكلها تتطابق، لأن الحق واحد لا يتعدد، لكن الباطل يتعدد.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام 153)

السبل جمع سبيل.

(يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة 257)

الخلاف بين المسلمين ليس بسبب دينهم بل بسبب مصالحهم وانحرافاتهم:

والظلمات جمع، والنور مفرد، فالحق لا يتعدد، إذاً الخلاف أساسه الحظوظ النفسية، أساسه البغي، العدوان، الكبر، الحسد، المصالح المادية هذه تصنع الخلاف، أما الدين فهو واحد والقرآن واحد والسنة واحدة والهدف واحد والمنهج واحد والدستور واحد، فالخلاف الذي بين المسلمين الآن ليس بسبب دينهم لا، بل بسبب مصالح وأهواء وانحرافات وأمراض نفسية وكبر وحسد.

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ(65))

(سورة الزخرف)

من بينهم خلاف داخلي أسبابه أسباب أرضية وليست علوية.

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65))

(سورة الزخرف)

ظلموا الحقيقة، ظلموا أنفسهم، تكلموا بغير الحق، لمصالح، لمكاسب، الله عز وجل يتوعد هؤلاء بعذاب يوم أليم.

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66))

(سورة الزخرف)

من يفتي بخلاف ما يعلم فهو آثم عند الله أكثر ممن يفتي بلا علم:

رجل في بلد إسلامي أفتى بمعصية، خرّجها وعللها بتعليلات ملفقة، دخل عليه شخص (حدثني مباشرة بلسانه) وهو على فراش الموت، رفع يديه إلى السماء وأشهد الله أنه بريء من كل فتوى أفتى بها سابقاً، متى ؟ بعد فوات الأوان، فالإنسان وهو حي يجني مكاسب، ومطامع، ورغبات، ومالاً، ومظاهر، ومكانة علية، لكن حينما يقول ما ليس بحق، يفتي بخلاف ما يعلم، هناك من يفتي بلا علم هذا آثم عند الله، لكن إثمه أقل من الذي يفتي بخلاف ما يعلم، يعلم الحقيقة ويفتي خلافها لحظ دنيوي، قال سبحانه:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66))

(سورة الزخرف)

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((بادروا إلى الأعمال الصالحة ما ينتظر أحدكم من الدنيا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

لو أردنا الدنيا وحدها فما المغنم ؟ لو أعرض الإنسان عن الله وعن دين الله ولو انكب على الدنيا فماذا في الدنيا من مغانم ؟ هذه كلمة خطيرة جداً جعلتها محوراً لدرس طويل وهي: ثم ماذا ؟ صرت غنياً وبعدها على باب صغير، صرت قوياً وبعدها إلى القبر، صرت أعلى درجة علمية ثم ماذا ؟ هذه (ثم ماذا) تقصم الظهر، ثم ماذا بعد الغنى إلا القبر، ماذا بعد القوة إلا القبر، طبعاً القول الشهير: كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

* * *

المؤمن يتفوق إذا بقيت لحظة اللقاء مع الله في ذهنه دائماً:

ذكرت لكم في درس سابق أنهم سألوا طالباً نال الدرجة الأولى على جميع طلاب القطر: ما سبب هذا التفوق ؟ قال: لأن لحظة الفحص لم تغادر مخيلتي طوال العام، أعجبتني هذه الكلمة، وأنا أقول لكم المؤمن يتفوق إذا بقيت لحظة اللقاء مع الله دائماً في ذهنه، قبل أن يتكلم بأية كلمة يقول بينه وبين نفسه ماذا أقول لله إذا سألني لم تكلمت بكذا وكذا ؟ لم أقمت هذه العلاقة ؟ لم أعطيت ؟ لم منعت ؟ لم خاصمت؟ لم طلقت ؟ فكل حركة وسكنة سوف تُسأل عنها يوم القيامة:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

وقال:

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66))

(سورة الزخرف)

هل هناك أحد مات وتوقع الموت قبل أن يموت ؟ قليل ما هم، قد يكون إنسان في ذهنه مشاريع، فمثلاً قال أحدهم: مدخل البيت غير لائق فرتب، ودهن، ووضع تزيينات، ووضع مزروعات، إلى أن انتهى من عمله هذا، ثم توفي فكان هذا المدخل مناسب جداً للذين يعزون بوفاة هذا المتوفى، فالموت يأتي بغتة، والقبر صندوق العمل، لذلك:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة]

هذه سبع نهايات لا بدّ من إحداها، سبع نهايات لمن أراد الدنيا، أما لمن أراد الله:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(51))

(سورة التوبة)

من تعلّم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت:

لن يأتيك إلا الخير، يعني من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، أما أرذل العمر فهذه لغير المؤمنين، إن المؤمن ليتألق تألقاً ما بعده تألق كلما تقدمت به السن.

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

هذه آية دقيقة الدلالة جداً، سنقف عندها وقفة مطولة في الدرس القادم إن شاء الله.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

يعني هناك خلة أساسها المعصية والمصلحة، وهناك خلة أساسها الطاعة والإيمان، فالخلة التي أساسها الطاعة والإيمان هذه لا تتأثر، ولا تتبدل، ولا تتغير.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

فادعوا الله أن يجعل علاقاتنا علاقات إيمان، هذه علاقاتٌ ثابتة لا تتأثر لا بالمصالح ولا بتقلبات الظروف ولا بتغيرات الأحوال.

الصداقة والأخوة التي أساسها معرفة الله وطاعته لا تتأثر بالظروف والأحوال:

وعدتكم أنه في الدرس القادم نقف عند هذه الآية، لكن الخلة هي الصداقة والمودة، العلاقة بين اثنين إذا كانت أساسها المصلحة والشهوة هذه تنقلب إلى عداوة مع انقطاع المصلحة والشهوة، أما الصداقة والأخوة التي أساسها معرفة الله وطاعته هذه علاقة تتنامى وهي أثبت من كل شيء، ولا تتأثر أبداً بالظروف والأحوال، لذلك فالمؤمنون كما قال عليه الصلاة والسلام:

((المسلمون كالرجل الواحد إذا اشتكى عضو من أعضائه تداعى له سائر جسده))

(كنز العمال 759)

أما غير المؤمنين علاقتهم بحسب المصالح، إذا كان هناك مصالح فهناك علاقة بينهم، وإذا انقطعت المصالح انقلبت هذه العلاقات إلى عداوات، وأما المصالح أو الشهوات، فمثلاً قد يكون بين زوجين حب

أساسه قضاء حاجة كل منهما من غير روابط إيمانية، فإذا ما في إيمان وأصيب الزوج أو الزوجة بمرض أو افتقر أحدهما قامت بينهما عداوة، إن عالم الإيمان عالم رائع جداً، لا يتأثر الإيمان وعلاقات الإيمان بأي متغير، المتغيرات لا تقدم ولا تؤخر، لأن أساس العلاقة الإيمانية شيء متين، فلها جذور بعيدة في تربة القلوب الصادقة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 67-79
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-07-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الزخرف.

الخلة هي الصداقة الحميمة التي تتنامى بين المؤمنين إذا قامت على طاعة الله:

مع الآية السابعة والستين وهي قوله تعالى:

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

الخلة هي الصداقة الحميمة، والصداقة الحميمة أو الخلة تُبنى على دعامتين: إما على طاعة الله، وإما على معصية الله، فإذا بنيت على معصية الله فأساسها أمران: إما المصالح، وإما الشهوات، وعلى كلٍ فأية خلة، وأية صداقة، وأية علاقة تبنى على معصية أو على مصلحة كل منهما يُلقي اللوم على الطرف الآخر، ويظن أن الطرف الآخر هو السبب في هذا الشقاء الذي وصل إليه.

أما خلة المؤمنين فالعلاقة بينهم قائمة على الأخوة الصادقة، هذه أخوة متنامية، ويزداد نماؤها بعد الموت، لذلك ربنا عز وجل قال:

(عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ(47))

(سورة الحجر)

فهؤلاء المؤمنون بينهم مودة ومحبة، هذه المودة والمحبة تتنامى، حتى إن هذا النماء يتطور إلى الدار الآخرة، فلذلك من بعض ما يسعد المؤمن في الجنة أن يلتقي مع أخيه المؤمن، مما يسعد المؤمن في الجنة المودة التي كانت قائمة بينه وبين المؤمنين في الدنيا واستمرت.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

الخلة بين غير المؤمنين تدوم ما دامت المصلحة قائمة:

الحقيقة أن هذه الخلة بين غير المؤمنين قائمة، مادامت المصلحة قائمة هناك علاقة، فإذا زالت هذه المصلحة زالت تلك العلاقة، هذه الخلة وتلك المودة الظاهرة، أو هذه الصداقة تدوم مادامت هذه المصلحة، تدوم مادامت هذه الشهوة التي تجمع بين الخِلين، إلا أنها إذا انقطعت هذه الشهوة لسبب أو

لآخر وزالت تلك المصلحة لسبب أو لآخر تلاشت هذه المودة، وأصبحت عداوة لأن الثمن الباهظ الذي يدفعه كلا الطرفين يعزوه كل منهما إلى الطرف الآخر.

والله سبحانه وتعالى ؛ يسأل العبد عن صحبة ساعة، فليس هناك علاقة في الأرض أشرف من العلاقة بين مؤمنين، وما من علاقة أدوم من علاقة بين مؤمنين، وما من علاقة أكثر نماءً من علاقة بين مؤمنين، والأيام لا تزيد هذه العلاقات إلا متانة، ولا تزيد الصلات بين المؤمنين إلا وثوقاً ومحبة، وربنا سبحانه وتعالى في آية أخرى يقول:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ(24))

(سورة ص)

الخُلطة تعني شراكة أو علاقة عابرة أو علاقة دائمة أو علاقة زواج.

الخلة بين المؤمنين هي عدل وإنصاف وخارج نطاق الإيمان هي بغي وعدوان:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ(24))

(سورة ص)

يستنبط من هذه الآية التي لها علاقة بالآية الأولى أن كل خلة، أو كل اختلاط بين شخصين خارج نطاق الإيمان، فلا بدّ أن يشوب هذه العلاقة بغي أو عدوان أو ظلم، أما إذا كانت هذه الصحبة وهذه العلاقة والخلة والخلطة بين مؤمنين فهناك العدل والإنصاف.

على كل الإنسان أن يختار إخوانه وأصدقاءه بعناية فائقة، لأن الصاحب ساحب، والإنسان يُعرف مِن قرينه، والتأثير الذي يكون من الأصحاب والخلان والأصدقاء تأثير كبير جداً، وقيل لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ولا يدلك على الله مقاله، يعني هذا الصاحب يجب أن تختاره بحيث إذا تكلم تزداد علماً من كلامه، وإذا التقيت معه لقاءً عفوياً وصارت خلطة بينك وبينه تشعر بالراحة من نفسيته الطاهرة وحاله الطيبة.

اختيار الصديق أمر أساسي في حياة كل إنسان:

إذاً شيء مهم جداً أن نحسن اختيار أصدقاءنا أو أخواننا لأن هذا الصديق وهذا الأخ إما أن يكون له تأثير إيجابي وهذا المرجح والمطلوب، أو أن يكون له تأثير سلبي وهذا هو المحذور، طبعاً المتقون الطائعون لله عز وجل هؤلاء خلتهم تتنامى.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

وبهذه المناسبة النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن كل عمل من شأنه أن يضعف هذه العلاقة، وكل عمل من شأنه أن يمتن هذه العلاقة أمر به، ولو استعرضت الأحاديث التي تحض المؤمنين على أن يحسنوا معاملة إخوانهم لرأيت العجب العجاب، ما من شيء يضعف هذه العلاقة إلا نهى النبي عنه، نهى عن الغيبة لأنها تمزق العلاقة بين المؤمنين، نهى عن النميمة لأنها تفسد ما بينهم، نهى عن السخرية، نهى عن أن يحتقر المؤمن أخاه، نهى عن أن يسلمه، نهى عن أن ينهره، نهى عن أن يغتابه، نهى عن أن يفسد العلاقة فيما بينهما، فلو تتبعت الأحاديث ذات الطابع الاجتماعي من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام لرأيت أن كل شيء يضعف العلاقة بين المؤمنين نهى النبي عنه، نهى أن يحاكي المؤمن أخاه المؤمن أي يقلده، فإذا قلده في مشيته فقد اغتابه، إذا قلده في حركاته فقد اغتابه، فإذا قلده في نبرة صوته فقد اغتابه، التقليد ممنوع، قالت عائشة عن ضرتها: إنها قصيرة، قال:

((يا عائِشَةَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْه))

[رواه أبو داود والترمذي عن عائشة]

على المسلم أن يعمل بالأسباب التي تقوي علاقته بأخيه المسلم:

إذاً انتبه لأي شيء يضعف العلاقة بينك وبين أخيك، جانبه، كـأن الله يريد أن نكون صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، كأن الله يريد أن نكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، إن الله يريد أن نكون كتلة واحدة، وهذه الكتلة الواحدة لا تكون إلا بأن نراعي حقوق بعضنا بعضاً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يسلمه، ولا يحقره، ولا يأكل ماله، كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه، مال أخيك محرم عليك أن تأخذه بأي طريقة، محرم عليك أن تنال من عرضه، وعرضه سمعته.

إذاً على المسلم أن يعمل بالأسباب التي تقوي علاقته بأخيه المسلم، من هذه الأسباب أن تبدأه بالسلام، من هذه الأسباب أن تعوده إذا مرض، أن تهنئه إذا أصابه خير، أن تعزيه إذا أصابه شر، أن تعينه إذا طلب العون، أن تقرضه إذا طلب القرض، أن تدافع عنه إذا نال الناس منه، إذاً دقق يد الله مع الجماعة، وربنا سبحانه وتعالى في سورة الحجرات (اقرؤوها فهي تبين الآداب الاجتماعية) يقول:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنّ خَيْرًا مِنْهُنّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ(11)يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنّ إِنّ بَعْضَ الظَّنّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)

(سورة الحجرات)

اقرأ سورة الحجرات وانظر إلى هذا الأدب الرفيع الذي يريد الله أن نتأدب به.

من أحد أسباب سعادة المؤمن في الجنة أن يكون مع إخوانه المؤمنين:

إذاً نحن الآن في موضوع الخلة، فهذه المودة التي بين الأخوة المؤمنين إن كانت قائمة على الدنيا تنتهي بالعداوة، وإن كانت لله وحده وعلى طاعة الله تنتهي بالتنامي والازدياد حتى إن أحد أسباب سعادة المؤمن في الجنة أن يكون مع أخوته المؤمنين على سرر متقابلين.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

اللهم اجعل أخوتنا خالصة لوجهك الكريم، ودائماً عندنا قاعدة ؛ أخوان مؤمنان أقربهما إلى الله عز وجل أشدهما حباً لصاحبه، أضعفهما إيماناً أقلهما حباً، كلما نما حبك لله نما حبك لأوليائه، ونما حبك لإخوانك المؤمنين، والمؤمن يبني حياته على العطاء لا يقول: ماذا أخذت ؟ بل يقول: ماذا أعطيت ؟ دائماً يبحث عمن يعطيه، وأن يقدم لإخوانه كل ما يستطيع، لذلك العلاقة بين المؤمنين الكل للواحد والواحد للكل، والله ما آمن والله ما آمن والله ما آمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم، ما آمن.

التطبيق العملي لهذه الآية اختر إخوانك بعناية فائقة، سهل عليك أن تختار أخاً مؤمناً، لكن البطولة أن تحافظ على أخوته، الاختيار سهل، وأن تقوم علاقة عابرة بين مؤمنين فالقضية سهلة جداً، كمن كان في نزهة أو سهرة أو في المسجد فيصافحه، ويسأله عن اسمه، ويقيم معه علاقة، فهذا سهل جداً، لكن البطولة أن تحافظ على هذه العلاقة، والأكثر بطولة أن تنمي هذه العلاقة إلى أن تغدو علاقة مثالية لا يفصمها مصالح قريبة، أو بعيدة.

ابتعد عن الأمراض النفسية التي تشتت العلاقة بين المؤمنين:

إنّ الإنسان المسلم يسره أن يرى المؤمنين على محبة، ومودة، وتعاون، ومؤازرة، وتضحية، وكلهم يحافظ على مودة أخيه، يدافع عن أخيه، وهذه علامة طيبة، وأن الجميع بخير، أما إذا كان هناك غيبة، ونميمة، وسخرية، ومحاكاة، واحتقار، وترفع، ونظرة إلى الآخرين على أنهم دونك، فهذه كلها أمراض نفسية وهذه الأمراض النفسية من شأنها أن تفتت العلاقة بين المؤمنين، فلذلك قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

(سورة الأنفال 46)

هذه السمعة الطيبة التي لكم بين الناس تتلاشى بمنازعتكم.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

وقد ترى الناس جميعاً قال تعالى:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر14)

لكنهم شتى ومتفرقون، فحينما تكون العلاقة على غير حب الله ورسوله تجد مودة ظاهرة، لكن في الخلفيات هناك عداوات وحسد وبغضاء، وكل شخص يحيك للطرف الآخر مطباً ليقع فيه، فالعلاقة بين الناس البعيدين عن الله عز وجل علاقة لا يحسدون عليها أبداً، والله سبحانه وتعالى وصفها بهذا الكلام البليغ، وقال:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر14)

وقال:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال63)

الألفة بين المؤمنين من خلق الله تعالى:

فما قولك بأن الألفة التي بين المؤمنين من خلق الله، فقد يبدو لبعضهم أن إنفاق المال يؤلف القلوب، فإن دعوت واحداً إلى طعام نفيس، أو أمّنت له بيت، أو أعطيته معونة كبيرة جداً، فالشيء المعروف عند الناس والمنطقي والواقعي أن إنفاق الأموال من شأنه أن يؤلف القلوب، وكل الجهات في العالم إذا أرادت أن تستميل رجلاً، أو أن تشتري رجلاً بالتعبير المعاصر تمده بالمال، المال تشتري به الرجال، وتشتري به المودة ولكن إلى حين، لكن ربنا عز وجل يقول:

(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)

(سورة الأنفال63)

لو أنفقتم مئات الملايين من أجل تأليف القلوب لا تستطيعون، وهذا المال ينفق وتبقى العداوة بينهم قائمة، وربما انقلبت إلى صراع عنيف، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال36)

كلما كثرت نقاط التشابه بين شخصيتين ازدادت الألفة بينهما:

الآية دقيقة المعنى جداً، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً من أموال ما ألفت بين قلوبهم يا محمد ولكن الله ألف بينهم، إذاً هذه المودة بين أخوين مؤمنين بفضل الله، وتوفيقه، قد يزور أحد أخاه ولا يبتغي من هذه الزيارة أي شيء إلا أنه يحبه في الله، والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا أنك إذا أحببت أخاً في الله يجب أن تعلمه، قل له أحبك في الله، وعليه أن يقول لك أحبّك الذي أحببتني من أجله.

وأنا أقول لكم: والله إنها علامة طيبة جداً وجود هذه المودة الكبيرة بين المؤمنين فأحياناً ألاحظ أن أخوين كريمين يجلسان فيسعدان سعادة كبيرة بهذا اللقاء وقد لا يحس كلاهما بالوقت كيف ينقضي يقول: مكثنا ساعات ونحن في قمة السعادة، التفسير سهل جداً ؛ هو التوافق، لأنه كلما كثرت نقاط التوافق بينك وبين أخيك ازداد الحب بينكما، فالمؤمنون من طبيعة واحدة، من سجية واحدة، من جبلة واحدة، أهدافهم واحدة، طريقهم واحد، الله ورسوله جمع بينهما، فتجد أنه كلما كثرت نقاط التشابه بين شخصيتين ازدادت الألفة بينهما، وقد أكد النبي عليه الصلاة والسلام هذا الكلام حينما قال:

((الأرواح جند مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف))

[تخريج أحاديث الإحياء للعراقي]

وكما قيل رب أخ لك لم تلده أمك، يعني أخ من بلد بعيد، هذا البلد له عادات وتقاليد من اختصاص آخر، من جبلة خاصة، لكن جمعك به الإيمان، فترتاح إليه وتركن إليه أضعاف ما تركن إلى قريب نسب وله اتجاه آخر، إذاً القانون العلمي كلما كثرت نقاط اللقاء بينك وبين أخيك ازدادت المحبة بينكما، إذاً فهناك محبة عفوية وحتمية بين كل مؤمنين على وجه الأرض، لو دخل مؤمن على ألف رجل منافق، وفيهم مؤمن واحد لحنّ أحدهما للآخر تلقائياً من بين الألف، ولو دخل منافق على مئة مؤمن بينهم منافق واحد لحنّ هذا المنافق لمن يشابهه في نفاقه.

لا تكون الخلة متينة بين رجلين إلا إذا كان أساسها طاعة الله عز وجل:

إذاً أخوة الإيمان ثمينة جداً، وإذا قرأتم الحديث الشريف المتعلق بالعلاقات الاجتماعية تجدون هذه الحقيقة، مثلاً إفشاء السلام ينمي المودة، أن تنادي أخاك بأحب الأسماء إليه، أن تلبي دعوته إذا دعاك، أن تزوره من حين لآخر، أن تسلم عليه، أن تعينه في حاجاته، أن تهنئه، أن تعزيه، أن تقرضه، أن تتعامل معه بما يرضي الله ورسوله، فهذا كله ينمي العلاقة، في الطرف الآخر أن يزدري أحدهم الآخر، ويحتقره، ويعمل على أن يسلمه، وأن يأكل ماله، وأن ينال من عرضه، وأن يُحقره، وأن يغتابه، وأن ينمّ بينه وبين الآخرين هذا كله يضعف العلاقات.

أردت من هذه الكلمة السريعة أن أوضح أن الخلة هي العلاقة المتينة الوشيجة بين رجلين لا تكون وشيجة ومتينة ومستمرة ومتنامية إلا إذا كان أساسها طاعة الله عز وجل.

مرة سمعت كلمة ؛ أن أشخاصاً لهم اجتماع أسبوعي، أكثر الناس هكذا يجتمعون في بيت واحدٍ، وفي يوم معين في الأسبوع، هذا اللقاء بقي يتجدد سبعة عشر عاماً، والشيء العملي أن هذه اللقاءات سريعاً ما تتلاشى، قد تدوم شهراً، أو شهرين، تتوقف، فسأل سائل ما سرّ هذا اللقاء الذي استمر لمدة سبعة عشر عاماً ؟ فقالوا: لأنه ليس فيه غيبة، ولا نميمة، ولا نساء، فسر المودة طاعة الله عز وجل، فإذا أخذ كل واحد ما له وما عليه، قد تقوم علاقة في سفرةٍ واحدةٍ أدى الأجرة واحد، فانتهت العلاقة، لكن كل إنسان أدى ما عليه وعلى مستوى الخدمة، وعلى مستوى الإنفاق، فالعلاقة تستمر.

((النبي عليه الصلاة والسلام كان مع أصحابه في سفر، فأرادوا أن يعالجوا شاة، دققوا قال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: وعليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نكفيك ذلك، فقال: أعلم أنكم تكفونني ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

تطبيق السنة يقوي العلاقة بين المؤمنين ومخالفتها يمزق هذه العلاقة:

كما قلت قبل قليل ببساطة بالغة يمكن أن تقيم علاقة مع مؤمن، لكن البطولة يجب أن تحافظ على هذه العلاقة، تحافظ عليها بأداء الحقوق، تحافظ عليها بالمشاركة في الأعمال، إذا سافرت معه، إذا شاركته، فالمشاركة في الأعمال تستوجب العدالة بأن تأخذ ما لك وأن تعطي ما عليك، أن تزوره، أن تسلم عليه، أن تناديه بأحب الأسماء إليه، ألا تغتابه، لو نفذنا السنة لكنا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، الاعتذار إذا أخطأت فاعتذر، أخوك أخطأ التمس له العذر، التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة، هكذا النبي عودنا، من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، قضية خاصة به لا تتدخل بشؤونه، لا تسأله فتحرجه، ماذا تتقاضى في الشهر وكم ؟ وزوجتك ماذا كان مهرها ؟ بينك وبينها، هذه الأسئلة تعني تدخلات في شؤون الغير، تحدث نفوراً، فإذا كنت تحب أن تحافظ على علاقة طيبة مع إخوتك المؤمنين يجب أن تطبق السنة، تجد أنك كلما طبقت السنة قويت العلاقة، كلما خالفت السنة تمزقت العلاقة.

يكفي أن النبي علمنا أنك إذا كنت تسير مع أخوين وأسرّ أحدهما للآخر حديثاً، وسمع وقع أقدام من بعيد، فإذا التفت هذا الإنسان المتكلم أي خشي أن يسمعه أحد فهذا المجلس صار بالأمانة، حتى لو لم يقل لك احفظ هذا السر، المؤمن يستر، إذا أفشى لك سراً من أسرار حياته، أفشى لك مشكلة داخلية في بيته، فهذه المشكلة سر ينبغي ألا تشيع بين الناس أو يسمع بها أحد.

ربنا عز وجل يشرف عباده حينما ينسبهم إلى ذاته بقوله يا عبادي:

أخواننا الكرام اقرؤوا السنة فيما يتعلق بالعلاقة الاجتماعية وطبقوها تقطفوا ثمارها، والله في القريب العاجل تقطفوا ثمارها حباً ومودة وإخلاصاً وتضحية، وكان أصحاب النبي عليهم رضوان الله مثلاً أعلى في العلاقة الطيبة فيما بينهم.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

هذه هي السعادة المطلقة، ثم إن ربنا عز وجل يشرف العباد حينما ينسبهم إلى ذاته فيقول: يا عبادي، هؤلاء الذين عبدوا الله في الدنيا، هؤلاء الذين عرفوه، هؤلاء الذين أطاعوه، هؤلاء الذي آثروا مرضاته على ما سواه، هؤلاء الذين وقفوا عند الأمر والنهي، هؤلاء الذين ما تجاوزوا أمره، كان سيدنا عمر وقافاً عند كتاب الله، هذا يستحق هذا الشرف العظيم، يا عبادي.

الحياة الدنيا مركبة على الخوف مما سيأتي:

ما العطاء الآن:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

الحزن على ما مضى والخوف لما سيأتي، فبهذه الآية غُطِّي الماضي والمستقبل في آن واحد، يا عبادي أنتم في ظلي، أنتم في جنتي، لا خوف عليكم اليوم مما سيكون، الحياة كلها مخاوف، الحياة الدنيا طبيعتها كلها مخاوف، من منا يضمن ألا يصيبه مرض عضال.

كل الذين أصابهم مرض عضال كانوا أصحاء مثلنا، ثم فجأة ظهر هذا المرض، إذاً هناك قلق مرعب، من منا يضمن أن دخله سيكون مستمراً ؟ لا أحد، قد تنشأ ظروف مفاجئة، فيقل الدخل، أو تبور التجارة وتكسد البضاعة، تقدم الزمن عليه ليس في صالحه، كلما تقدم به العمر ضعفت قواه، قلّ استمتاعه بالدنيا، فالحياة كلها مقلقات، كلها مخاوف، والخوف ليس خاصاً بغير المؤمنين، سيدنا موسى خرج منها خائفاً، الحياة فيها خوف، وفيها قلق، وفيها حزن.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155))

(سورة البقرة)

قد يخاف الإنسان المؤمن أن يعصي ربه، يخاف على هذه الصلة التي بينه وبين الله أن تنقطع، فالحياة مُركّبة على الخوف، إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فيها موت، فيها مرض، فيها فقر، فيها هم، فيها حزن، مثلاً شخص يتزوج ويختار أفضل زوجة، وينجب ولداً يحتل مكانةً كبيرةً في قلبه، يسخن، ويمرض، فإذا بالأب والأم يتألمان ألماً لا حدود له، والطبيب قال: لعله مصاب بالتهاب سحايا، فماذا دهى الأب والأم ؟ هذه الحياة كلها متاعب، كلها هموم، وكلها أحزان.

الدنيا دار كدح وسعي وابتلاء وكل هذا يتلاشى عند الموت:

فالآية يا عبادي كنتم في دار ابتلاء وانتهت، كنتم في دار عمل وانتهت هذه الدار، كنتم في دار بذل، وفي دار كدح.

(يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

كنتم في دار سعي.

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا(19))

(سورة الإسراء)

فالدنيا دار سعي، ودار كدح، ودار ابتلاء، ودار عمل، ودار تكليف، وكلها متاعب، والعمر قصير، والهموم كبيرة، وترى الإنسان يصيبه مرض، ويتلوه مرض، فساعة يخاف من أمراض في قلبه، وساعة من جلده، وساعة من نمو الخلايا نمو عشوائي، قد يخاف من أن يمرض ابنه أو زوجته، أو يقل دخله، أو يفقد حريته، أو يتعرض لحادث.

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ(68))

(سورة الزخرف)

انتهى الخوف، والقلق، والحزن، وتبدد الخوف من الضياع والحيرة، كل متاعب الدنيا تلاشت عند الموت وعاد المؤمن إلى ربه راضياً مرضياً.

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

مهما كنت مُنعّماً في الدنيا فالجنة أعظم:

لو فرضنا أن شخصاً كانت دنياه من أعلى مستوى في الرغد والاستقرار، مال وفير، قصر منيف، زوجة جميلة رائعة، أولاد أبرار، أصلاً هذا شيء مستحيل، ولكن أفسحوا لخيالكم أن يحلق، ولو أنه

انتقل إلى الجنة، والأمر ليس نحو الأدنى بل نحو الأعلى، فالإنسان طبيعياً إذا انتقل من بيت إلى بيت أرقى لا يتألم، لهذا ورد عن النبي الكريم أن المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، أما قوله:

(وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

فمهما كنت منعماً في الدنيا، مهما كنت في صحة جيدة، مهما كنت موفقاً في حياتك، مهما تناولت أطيب الأطعمة، سكنت في أجمل البيوت، ركبت أجمل المركبات، فالجنة أعظم.

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

لا عطاء أعظم من هذا العطاء، هذا هو الفوز العظيم، هذا هو النجاح الحقيقي، يقول لك فلان ناجح في عمله ومتألق، هذا نجاح مؤقت لكن عطاء الآخرة هو الفوز الأكبر، هذا هو النجاح، هذا هو التفوق، هذا هو الفلاح، هذه هي البطولة، ليس من يقطع الطرق البطل إنما من يتق الله البطل، اتق الله، وأوصل نفسك بهذا المقام ليخاطبك الله عز وجل بقوله:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

ترى الآخرين يوم القيامة في حال لا يحسدون عليه:

لكن الآخرين يوم القيامة هذا حالهم الذي لا يحسدون عليه:

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج)

أنت ترى هؤلاء الذين كانوا في الدنيا مستمتعين منغمسين في شهواتهم تراهم يحترقون بالنار، وأنت في مأمن ويقول الله لك:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

لا أنتم تحزنون تغطّي الماضي، ولا خوف عليكم اليوم تُغطّي المستقبل، من هم عباد الله بتعريف جامع مانع مختصر مفيد ؟ قال:

(الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69))

(سورة الزخرف)

ثمن الجنة الإيمان بآيات الله وهو ثمن متاح لكل إنسان:

آمن بآيات الله الكونية، آمن بآياته القرآنية، آمن بآياته التكوينية، آمن بأفعاله، فكلها عدالة، آمن بخلقه، آمن بقرآنه، الذين آمنوا بآياته وكانوا مسلمين، طائعين، مستسلمين لأوامرنا، هذا الثمن، هذا ثمن غير تعجيزي، ثمن متاح لكل إنسان، عطاء الله عظيم، قد يكون هناك شروط تعجيزية، ولكن عند الناس بعضهم مع بعض، وفيما بينهم، فمن هم العباد الذين ناداهم الله فقال:

(يَا عِبَادِيَ (56))

(سورة العنكبوت)

نسبهم إلى ذاته وشرفهم بهذه التسمية، والذين:

(لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

(سورة البقرة)

قال:

(الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69))

(سورة الزخرف)

والآيات بين أيديكم، هذا القرآن بين أيديكم، وهذا الكون بين أيديكم، وهذه أفعال الله بين أيديكم، فكروا فيها.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

يوم القيامة ترى الفرح والحبور على وجه المؤمن حينما يرى الجنة وما فيها:

فكر في أفعال الله، وفكر في كلامه، وفكر في خلقه، يعني آمن بالله، آمن بالله أولاً واستسلم لأمره ثانياً، ائتماراً وانتهاءً، تستحق أن تكون من هؤلاء العباد الذين طمأنهم الله عز وجل يوم القيامة وقال:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70))

(سورة الزخرف)

تحبرون قال العلماء: هناك فرح حقيقي، الفرح إذا ازداد في القلب ظهر على الوجه، قد يفرح إنسان في قضية ولكنه لا يظهر فرحه، كأنه فرح من الداخل، قد يعقد صفقة رابحة، ولكن لا يظهر عليه أثر فرح، يفرح ويكتم فرحه، لكن تحبرون لها معنى دقيق في اللغة، يعني الفرح إذا بلغ مرحلة كبيرة جداً يظهر على الوجه، يتألق وجهه، تصبح عيناه زئبقيتان، تبرق عيناه، الحبور أن يظهر الفرح على وجهك،

فالمؤمن لما يرى الجنة، لا قلق فيها، ولا خوف، ولا حزن إلى أبد الآبدين، لا يخشى كبراً في السن، ولا الوهن والمرض، فقد كان في دنياه يحمل حقيبة أدوية دائماً، هذه انتهينا منها، رأى الجنة رضوان من الله عز وجل، الحور العين، جنات وفواكه مما يشتهون، أي شيء يخطر في البال يكون بين يديك، لهم فيها ما يشاؤون.

فمن شدة فرح المؤمن حينما يرى إكرام الله له ويرى الجنة وما فيها يحبر، يعني يظهر فرحه على وجهه.

كلما ارتقيت درجة في الجنة ازددت شأناً ومكانة:

وقال:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70))

(سورة الزخرف)

طبعاً قد يأكل الإنسان بصحن من كرتون في وليمة لأنه لا يحتاج إلى غسيل، أما إذا كان ضيف كبير القدر والمقام فالصحون من الدرجة الأولى.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ(71))

(سورة الزخرف)

إذا كان الضيف كبير المكانة رفيع المنزلة جداً يصبح مستوى الأواني فخماً جداً، أحياناً تكون الملاعق من الذهب الخالص، الأكواب من فضة، فكلما كان الضيف كبير الشأن وله قدر كبير تكون الأدوات أرفع مستوى وأبهى.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71))

(سورة الزخرف)

في الجنة كل أنواع النعيم ويسمح الله لهم بالنظر إليه:

سعادة متناهية، يعني كل أنواع النعيم في الجنة، وفوق كل هذا، فالمؤمنون يرون ربهم يوم القيامة كالبدر تماماً فيغيبون من نشوة النظرة خمسين ألف عام، لهم ما يشاؤون فيها من حور عين، من فواكه، من أنهار، من جنان.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(35))

(سورة ق)

يسمح الله لهم أن ينظروا إليه.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72))

(سورة الزخرف)

حضور مجالس العلم، طلب العلم، تلاوة القرآن، ذكر الله، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، صلاة الليل، إنفاق الأموال، غض البصر، هذه حرام لا أفعلها، هذا الموقف الأديب في الدنيا والتحلي بمكارم الأخلاق مع طاعة الله عز وجل، التوجه إلى المساجد، طلب العلم، إقامة أمر الله في البيت، هذا ثمن الجنة.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15)آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16)كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17)وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(18)وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19))

(سورة الذاريات)

كلما كان جهدك وتعبك أكثر في الدنيا كلما نلت العطاء الأكبر في الجنة:

هذه النتيجة سبقتها مقدمات ـ يعني مثلاً لتقريب الفكرة ـ إنسان عمله توقيع فقط يقول لك عشرة آلاف، وواحد يعمل اثنتي عشرة ساعة ويأخذ مئتي ليرة، هذا نال شهادة دكتوراه هو خبير في اختصاص نادر جداً، عندما كان يدرس وقد أمضى ثلاثاً وثلاثين سنة أين كنت أنت ؟ وأيام دراسته يبقى إلى الساعة الثالثة صباحاً كل يوم، أين كنت أنت ؟ كنت تنام، فالإنسان الذي يضحي لابد أن يقطف الثمار، وكلما كبرت التضحية كانت الثمار أوفر وأينع، هذه في الدنيا قد تراها، هناك مهن الجهد فيها بسيط، والدخل كبير، لكن قبلها كان الإعداد ثلاثاً وثلاثين سنة، لكن إذا كان الإعداد بسيط فالعمل اثنتي عشرة ساعة وبمئتي ليرة مثلاً، إن العمل شريف، وأنا لا أنتقص من قيمة الفاعل، لكن لما يكون جهد الإنسان كبيراً ودخله قليلاً فمعنى ذلك أنه ليس عنده خبرة فنية أي أنه ذو خبرة عضلية فقط، جهد عضلي، أما إذا كانت هناك خبرة فنية فنظرة أو توقيع يوجب خمسة آلاف، أو أقل أو أكثر.

في الجنة الآن هذا العطاء الكبير له سبب:

(كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17)وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(18)وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19))

(سورة الذاريات)

كذلك قال الله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ(19)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ(20))

(سورة الحاقة)

في الآخرة كل شيء بحسابه:

في الدنيا هذه الساعة لم تغب عن ذهني والناس نيام، ساعة اللقاء، ساعة الحساب، ما غابت عن ذهني أبداً.

(إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة)

كل شيء بحسابه، والله يقدر الليل والنهار.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72))

(سورة الزخرف)

الجنة بالعمل وبرحمة الله عز وجل.

(لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73))

(سورة الزخرف)

الفاكهة دليل الإكرام، المبالغة في الإكرام.

المجرمون يحتارون من شدة الألم في الآخرة:

صورة أخرى:

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75))

(سورة الزخرف)

أي أنّ الإنسان قد يحتار من شدة الألم، الإبلاس هو الحيرة، قد تأتي الإنسان نوبات ألم شديدة، وقد يصيح، وأحياناً يكز على أسنانه، ويشد على المقعد، وقد يضجر، ويكظم غيظه، يسكت، إنه محتار ماذا يفعل ؟ ألم لا يحتمل.

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(76))

(سورة الزخرف)

محاسبة كل إنسان على عمله يوم القيامة:

لا ظلم اليوم، قال تعالى:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77))

(سورة النساء)

وقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

وقال:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

وقال:

(لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76))

(سورة الزخرف)

الإنسان اختار بنفسه حمل الأمانة فإن أداها بحقها فله عطاء يفوق الخيال:

بساعة من ساعات الألم الشديد الذي لا يحتمل:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77))

(سورة الزخرف)

إنه لا يموت فيها ولا يحيا، الحالة لا تطاق، يموت فيستريح أم يحيا حياة مريحة لكن:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ(77))

(سورة الزخرف)

الإنسان خُلق ليبقى ويسعد، وهو اختار بنفسه حمل الأمانة.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

(سورة الأحزاب)

لقد حمل الإنسان الأمانة، فلو أنه أدى هذه الأمانة بحقها فله عطاء يفوق حدّ الخيال، المؤمن إذا أدى الأمانة يبلغ في سعادته أضعاف الملائكة، يتجاوز الملائكة المقربين لأنه فيه شهوة، ويتعرض لمخاطرة، فالموظف دخله محدود لأنه بلا مسؤولية، ولا يعاني قلقاً ولا خوفاً، فلماذا التاجر أحياناً يربح

أرباحاً باهظة ؟ فهذه الأرباح ثمن المغامرة يمكن أن يفلس، يمكن أن يخسر، دائماً قرار المغامرة فيه احتمالان إما أن يربح ربحاً فاحشاً، وإما أن يخسر ويفلس.

الإنسان إما أن يكون خير الخلق أو أنه شر الخلق لا يوجد حل وسط:

الإنسان قبل حمل الأمانة، فهو إما أن يبلغ في سعادته أضعاف الملائكة، وإما أن يهوي إلى أسفل سافلين، لا يوجد حل وسط، ركب المَلَك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الملائكة كالحيوان، وإن سمى عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ(7))

(سورة البينة)

على الإطلاق:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(6))

(سورة البينة)

فالإنسان إما أنه خير الخلق، وإما أنه شر الخلق لا يوجد حل وسط، ونحن ما دمنا أحياء فهناك بحبوحة، ونحن حملنا الأمانة وقبلناها، وكل شيء محاسبون عليه.

السعيد من عرف حقيقة ذاته وحقيقة الأمانة التي يحملها واستغل الوقت كله للعمل للآخرة:

السعيد من عرف حقيقة ذاته وحقيقة الأمانة التي يحملها واستغل الوقت كله للعمل للآخرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدكم استعداداً له))

ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور، وقال:

((الكَيّس مَنْ دانَ نفسَه، وعَمِلَ لما بعد الموت، والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواهَا وتمنّى على الله))

[أخرجه الترمذي عن شداد بن أوس]

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78))

(سورة الزخرف)

على الإنسان أن يفكر بشكل صحيح وأن يتحمل مسؤولية قراره:

في الدنيا الحق، بلغت الحق كاملاً، ودعيتَ إلى الحق، ودعيت إلى معرفة الله، دعيت إلى طاعته، دعيت إلى بذل المال في سبيله، دعيت إلى الائتمار بأمره، ولكنك كرهتَ الحق، وقلت إن هي إلا أساطير الأولين.

(لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

أحياناً الإنسان يفكر ويتخذ قراراً أحمقاً، هكذا اتخذ قراره، وربنا عز وجل يتخذ قراراً بمعاقبته.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

الله هو القوي، فإذا أنت اتخذت قراراً بأن هذا الدين لغير هذا الزمان، أو كله غيبيات، ونحن في عصر علم، فلابد من أن تتحمل المسؤولية، لذلك الله عز وجل قال:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

الإنسان قد يتخذ قراراً في معصية لكن الله أكبر من قراراته وهو له بالمرصاد:

أحياناً قد تكون قصة بليغة في التعبير عن معنى آية مما يغني عن شرحها، فاسمع يرعاك الله، حدثني رجل اشتغل في شراء الصوف في البادية، كان صغير السن، وليس فقيهاً في أمور التجارة فخطر في باله أن يتلاعب في الوزن، فاشترى كمية من الصوف من أحد تجار البضاعة وأعطاه زوراً وبهتاناً أوزاناً كلها مغلوطة، فبعد أن شعر البدوي أن هناك تلاعباً في الميزان تألم، وقال له: إن شاء الله تجدها في صحتك إن خدعتني في الوزن وغششتني، قال: وبعد أن قال صاحب البضاعة هذه الكلمة، دخلت مع نفسي في صراع وقتاً طويلاً والسيارة منطلقة بي، وأقول لنفسي: أأرجع وأعطيه الفرق، أم أبقى ساكتاً، ماذا أفعل ؟ قال لي: وقبل بلدة (الضمير) القريبة من البادية اتخذت قراراً ألا أرجع إليه، فو الله ما أكملت القرار في نفسي حتى وجدت نفسي في بركة من الدماء، إذ انقلبت السيارة والبضاعة تبعثرت، والسمن سال، وأصابني نزيف، وأخذوني إلى بعض الخيام ليسعفوني.

إذاً ؛ فالإنسان قد يبرم أمراً، أو يتخذ قراراً في معصية، أو يتخذ قراراً بعدوان على أموال الناس، يتخذ قراراً بأكل الحقوق، يتخذ قراراً بسحق خصمه، لكن الله أكبر منه ومن قراراته.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

انتبه أن تتخذ قراراً في معصية لأن الله عز وجل يدمرك بالمقابل:

كنت في العمرة وحدثني شخص بدوي من أطراف جدة، له أرض لما توسعت جدة أصبحت أرضه ضمن دائرة التنظيم، فأحب أن يبيعها لمكتب عقاري، فتلاعب أصحاب المكتب عليه وأخذوها بثلث قيمتها، وبنوها بناية من ثلاثة عشر طابقاً، كانوا ثلاثة شركاء، أول شريك وقع من أعلى سطح البناء فنزل ميتاً، الشريك الثاني مات بحادث سيارة، أما الثالث فانتبه أن القضية كبيرة، وأنه احتال مع شريكه على صاحب الأرض بالثلثين تقريباً، فبقي يبحث عن صاحب الأرض أكثر من ستة أشهر حتى عثر عليه ونقده الفرق، فقال له البدوي: أنت أدركت نفسك.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

آية تتضمن كل معاني التخويف والتهديد، انتبه أن تتخذ قراراً في معصية، في عدوان، لأن الله عز وجل يتخذ قراراً بالمقابل يدمرك به، يتلف مالك كله، أو يتلفك أنت نفسك.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

قال أعرابي: **يا رسول الله عظني وأوجز، فتلا عليه هذه المقولة:**

((قُلْ آمَنْتُ بِاللّهِ ثُمّ اسْتَقِمْ))

لما قال: ثم استقم، قال: أريد أخف من ذلك، قال:

((إذاً فاستعد للبلاء))

[رواه مسلم عن سفيانَ بن عبد الله]

إذا الإنسان لم يقبل الاستقامة، ولم يقبل أن يعطي الناس حقوقهم، بل أخذ أموال الناس بالباطل، فأمامه عقاب كبير، إن ربك لبالمرصاد.

انتبه أن تتخذ قراراً مغلوطاً لأن الأمر كله بيد الله:

أصيب شخص بمرض عضال، وبينما يقود سيارته، فاجأته أزمة قلبية، فأخذ إلى المشفى، وهناك طلب مسجلة، بدأ يذكر المتجر لفلان، وذاك المحل الآخر لفلان من خوفه، لكنه بعد أن صحا مما هو فيه

ومضى عدة أيام طلب الشريط وكسره، ورجع إلى ما كان عليه، وبعد ثمانية أشهر عادت إليه الأزمة القلبية، ومات على أثرها هذه الآية دقيقة الدلالة جداً فاحذر !!

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

انتبه أن تتخذ قراراً مغلوطاً، فيه عدوان، أو معصية، أو أكل أموال بالباطل، أو عدوان على الأعراض، أو إيقاع الظلم.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

الأمر بيد الله عز وجل، فالآية هذه تنطبق عليها، والله هناك آلاف الوقائع.

اعلم أن الله يعلم سرك ونجواك واجعل من هذه الآية شعاراً في تعاملك مع الآخرين:

وكخلاصة ؛ اجعل هذه الآية نصب عينيك، ولترفع منها شعاراً في تعاملك مع الآخرين، وأظنك قد نجوت إن التزمت.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80))

(سورة الزخرف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 80-89
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-07-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والأخير من سورة الزخرف.

إذا أراد أحد إبرام أمر فليتدبر عاقبته وليعلم أن لكل شيء حسابه:

مع الآية التاسعة والسبعين وهي قوله تعالى:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

وقد بينت في الدرس الماضي طرفاً من هذه الآية، حيث إن الله سبحانه وتعالى يبين أن الإنسان قد يفكر، وقد يتخذ قراراً، أو يبرم أمراً، لكن حينما يبرم الإنسان أمراً يعلم أن الله بيده كل شيء، وأن الله سبحانه مطلع على كل شيء، و أن الإنسان في قبضته عز وجل، فالإنسان حينما يتجاهل أن الأمر بيد الله وأن الله مطلع عليه وأن الله سيحاسبه يغدو بإبرامه هذا الأمر أحمقاً، يبدو باتخاذه هذا القرار متسرعاً بل متهوراً.

فالإنسان قبل أن يتحرك، قبل أن يعطي، قبل أن يمنع، قبل أن يغضب، قبل أن يتخذ قراراً، قبل أن يبرم أمراً، قبل أن يضع خطة، قبل أن يسيء إلى غيره، فعليه أن يفكر بماذا سيجيب ربه يوم القيامة ؟ وما حجته ؟ إذا أراد أحدكم إبرام أمر فليتدبر عاقبته، فأنت لك أن تتخذ أي قرار ولك أن تبرم أي أمر ولكن لكل شيء حسابه، ولكل عمل نتائجه، ولكل سيئة عقاب، ولكل حسنة ثواب، والأمر ليس كما يتوهم الناس.

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

هكذا بلا حساب، بلا مسؤولية، بلا جزاء، بلا ثواب، بلا عقاب، بلا جنة، بلا نار.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(115))

(سورة المؤمنون)

الدين هو العقل ومن لا دين له لا عقل له:

الجاهل وحده يتوهم ذلك، وقد ترى إنساناً يتحرك حركة عشوائية ويتطاول ويعتدي ويأخذ ما ليس له ويؤذي ويبالغ في إذلال الآخرين أو في أخذ ما في أيديهم ويظن نفسه ذكياً متفوقاً متمكناً وهذا هو الحمق بعينه، وهذا هو الجهل بعينه.

أيها الأخوة الكرام قبل أن تتحرك، قبل أن تتخذ قراراً، قبل أن تطلّق، قبل أن تتزوج، قبل أن تعقد صفقة، قبل أن تحدد سعراً، قبل أن توقع أذى، قبل أن تتحرك، فكر واذكر أنك في قبضة الله، فكر واذكر أن كل أمرك بيد الله، فكر واعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر بثانية واحدة أن يجعل حياتك جحيماً، الإنسان تعالجه المصيبة فجأة من دون سابق إنذار، إما في جسده، أو في ماله، أو في أهله، أو في أولاده، أو في عقله، فهذا الذي يرتكب الحماقات ويسيء إلى الناس إما معتداً بقوته، وإما معتداً بجبروته، وإما معتداً بذكائه هذا هو الجاهل بعينه.

أخواننا الكرام، دائماً فرقوا بين من هو متفوق في اختصاصه، غافل عن ربه، هذا ليس ذكياً، ولو بدا لكم أنه ذكي، ربما نسمي ذكاءه ذكاءً جزئياً محدوداً مهنياً حرفياً، لكن الذكاء الحقيقي هو الذكاء الشمولي الذي تعرف من خلاله حجمك، وأين كنت ؟ وإلى أين المصير ؟ وماذا ينبغي أن تفعل ؟ الذكاء الذي يضم الآخرة إلى الدنيا، والمسؤولية إلى العمل، والجزاء إلى المقدمات، هذا هو الذكاء، فلذلك من لا دين له لا عقل له، إنما الدين هو العقل.

كلما زاد إيمانك زاد خوفك من الله:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

هذه الآية يمكن أن تطبق على آلاف آلاف الوقائع، اتخذ الزوج قراراً بتطليق زوجته ظلماً وتعسفاً وهو يظن أنه قادر على كل شيء، قد يصاب بمشكلة لا يتحملها، قد يتخذ التاجر قراراً بعقد هذه الصفقة ولو كانت حراماً، قد يتخذ مَن أولاه الله أمرَ بعض الناس قراراً بإيقاع الأذى بمن هم دونَه، ويغيب عن ذهنه أن الله سيحاسبه حساباً شديداً لذلك:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

يعني البطولة لا أن تتفوق في لحظة واحدة، ولا أن توقع الأذى بالآخرين، اثنان لا تقربهما، الإشراك بالله والإضرار بالناس، فحينما تتخذ قراراً بالإضرار بالناس لا ينبغي أن يغيب عن ذهنك أن الله

بالمرصاد وأنه حسيب، النبي عليه الصلاة والسلام أرسل غلاماً في حاجة، وغاب طويلاً، والنبي بشر، فغضب، فلما عاد الغلام، قال عليه الصلاة والسلام:

((لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

[الطبراني عن أم سلمة]

أيها الأخ الكريم، كلما ازداد إيمانك ينبغي أن يزداد خوفك من الله، يجب أن تفحص إيمانك عن طريق شدة خوفك من الله، فالخوف من الله يتناسب مع معرفته، لذلك أخوف إنسان على وجه الأرض من الله هو النبي عليه الصلاة والسلام، وكلما قلّ الإيمان قلّ الخوف من الله، فإذا انعدم الإيمان انعدم الخوف، لذلك قال بعضهم:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

* * *

الخوف المقدس هو أن تعرف أنك مسؤول وتعرف حدود مسؤوليتك:

فإذا آمنت بالله عز وجل، وعرفت حدود مسؤوليتك، وعرفت الرسالة التي أناطك الله بها وعرفت أن هذه الدنيا دار عمل، وأن الآخرة دار جزاء، وأن كل حركة أو سكنة محاسب عليها وأنه:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

تشعر أنك خائف، وهذا هو الخوف المقدس، تشعر أنك مسؤول، لذلك لا تعجب أن يقول عمر: ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيماً، أجل لا تعجب، لا تعجب إن رأيت نفراً من أصحاب رسول الله وهم الذين جاهدوا معه وباعوا أنفسهم في سبيل الحق، لا تعجب أن يتهموا أنفسهم بالنفاق، كما قال بعض التابعين: لقيت أربعين من أصحاب رسول الله وما منهم أحد إلا ويظن نفسه منافقاً، لا تعجب كلما ازدادت معرفتك بربك ازدادت المسؤولية التي أناطها بك وعرفت المهمة التي كلفك بها معرفة أكثر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((والله لو تَعلَمُونَ مَا أعلَمُ لَضحِكتُمْ قليلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثيرا، وما تَلَذّذتُم بالنِّساءِ على الفُرُش، وَلَخَرَجْتُمْ إلى الصُّعُدَاتِ تَجأرُونَ إلى اللهِ))

[الترمذي عن أبي ذر]

على الإنسان أن يخشى الوقوف بين يدي الله فالصدق منجاة والكذب مهواة:

الحساب دقيق، والدليل أن إنساناً لو طُلب منه أن يقابل جهة ما بعد يومين، فلا ينام الليل وهو نظيف ومستقيم، فما بالك أن يسألك خالق السماوات والأرض، الذي يعلم السر وأخفى، أنت أمام إنسان من جنسك تخشى السؤال، ماذا سأسأل ؟ ماذا فعلت حتى طلبت ؟ فكيف إذا وقفت بين يدي الواحد الديان وهو الذي يعلم كل شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

والشيء الذي يلفت النظر هو أن الإنسان قد يؤتيه الله في الدنيا طلاقة لسان، وقوة بيان، ونصاحة حجة، قد يستطيع قلب الحق باطلاً، وقلب الباطل حقاً، قد يستطيع أن ينتزع إعجاب من يستمع إليه، وأن يقنع الناس، هذا الذي سماه بعض الصحابة جدلاً، قال كعب بن مالك: لقد أوتيت جدلاً، يعني عندي قوة إقناع، ولو أردت أن أسترضي رسول الله ليوشكن الله أن يسخطه عليّ، عرف أن الله بيده كل شيء، قال: فأجمعت صدقه، فحينما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سرّ تخلفه عن غزوة تبوك قال: والله يا رسول الله إني أوتيت جدلاً، ولكنني لم أكن في وقت من الأوقات أنشط مني ولا أقوى في الوقت الذي تخلفت فيه، فالنبي عليه الصلاة والسلام أكبر صدقه، وقال: أما هذا فقد صدق، سمع من خمسة وثمانين رجلاً مختلقاً أعذاراً، وقبلها منهم وسكت عنهم، أما هذا الصحابي فقال عنه: أما هذا فقد صدق، لذلك الصدق منجاة، والكذب مهواة.

يعني أشعر أن الآية لها ظلال كثيرة:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

كلما ازداد المؤمن علماً ازداد انضباطاً على منهج الله:

قلبك بيده، عينك بيده، الشبكية بيده، مركز البصر في الدماغ بيده، نمو الخلايا بيده، ضيق الشرايين بيده، عمل الكلية بيده، يقال فشل كلوي أخطر من مرض القلب، تشمع الكبد بيده إن توقف الكبد انتهى أجله وليس هناك أمل إلا الموت، فالإنسان ماذا يملك ؟ والله لا يملك شيئاً، فأي عضو في جسده لو تعطل قلبَ حياته إلى جحيم، هذه الأعضاء ليست بيدك، الله عز وجل قال:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران 26)

فعلام القول إنني سأفعل ولن أفعل، وأعطي ولن أعطي، تأدب مع الله، ولتعلم أنك كلما ازددت علماً ازددت تأدباً مع الله، كلما ازددت علماً ازددت تواضعاً لله، كلما ازددت علماً ازددت خوفاً من الله، كلما

ازددت علماً ازددت انضباطاً على منهج الله، لماذا مجلس العلم ؟ لتعرف الله، لتنعكس هذه المعرفة سلوكاً راقياً، كمالاً في التعامل أدباً مع الله، أدباً مع عباد الله، تواضعاً للمؤمنين، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو قمة البشر كلهم، يقول الله له:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

على المؤمن أن يحسب حساب كل شيء لأنه يعلم أن الله عليم بأفعاله خبير بنواياه:

هذا المؤمن غالٍ على الله، بل إن من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام أن تتواضع لمن تعلم، وأن تتواضع لمن تتعلم منه، هذا مجتمع المؤمنين مجتمع راقٍ حقاً، مجتمع متكاتف، متعاون، متساوٍ.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

قد يحلف الإنسان يميناً كاذباً، يميناً غموساً، وسماها العلماء غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار، ولأنها لا كفارة لها، ومن حلف يميناً غموساً عليه أن يجدد إيمانه، يحلف يميناً بكل بساطة يميناً كاذبة، وربنا عز وجل قد ينتقم منه انتقاماً سريعاً وقد يعطيه مهلة.

مضمون هذه الآية يعني أنك قبل أن تتحرك لابد من أن تحسب حساباً لأشياء كثيرة، الذي يؤسَف له أن بعض الناس إذا تحرك يحسب حساباً لكل شيء، ذكي جداً، لكنه يغفل عن ربه، وأنه مطلع عليه، ناظر إليه، عليم بأفعاله، خبير بنواياه، يرى كل أفعاله، وسوف يحاسبه حساباً دقيقاً.

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

ورد في السنة المطهرة أنه:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

وليس هناك مجال لذكر قصص كثيرة تؤكد هذه الآية، إياك أن تتخذ قراراً، أو تبرم أمراً لا يرضي الله لأن الله بالمرصاد، إياك أن تتخذ قراراً بإيقاع الأذى، إياك أن تتخذ قراراً بالاستعلاء، شخص عاقل قرأ وصية فقال تكتب على ظفر لإيجازها وبلاغتها قال: اتضع لا ترتفع، اتبع لا تبتدع، الورع لا يتسع، هذه وصية.

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(31))

(سورة الأعراف)

وقال:

(وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا(26)إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا(27))

(سورة الإسراء)

الخوف من الله هو النجاة لأن رأس الحكمة مخافة الله:

هناك الآن من يدفع عشرات الآلاف ليلتقط محطة تلفزيونية تفسد أهله وأولاده بماله، وهو عند الناس مسلم.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

الخوف من الله هو النجاة، أن تخاف من الله، الإنسان رأسه عنوان حياته، فلو قطع رأسه ماذا بقي منه؟ لا شيء، النبي الكريم يقول رأس الحكمة مخافة الله، إذا كانت الحكمة إنساناً فرأسها مخافة الله، فإذا ألغيت مخافة الله، فما بقي شيء من الحكمة إطلاقاً، والحقيقة الخوف من الله يتناسب مع العلم بالله، كلما ازداد علمك ازداد خوفك، لعل الخوف مؤشر لمعرفتك بالله.

الطبيب مثلاً ؛ لكثرة ما يرى في المستشفى من إنتانات معوية، من أمراض سارية، من عدوى، تجده يبالغ في النظافة، يبالغ بمعالجة الخضار بمواد كيماوية حتى تقتل الجراثيم، لماذا يخاف كل هذا الخوف؟ قد لا يأكل شيئاً في المطاعم لأنه يرى كل يوم حالات الإنتانات، وحالات الالتهابات، وحالات العدوى، والأمراض السارية يراها بعينه، لذلك هو يخاف، لماذا هو يخاف أكثر من الناس ؟ لأن علمه أكبر وأعمق من علم الناس في هذا الموضوع، هذا مثل، وأنت كلما تعرفت إلى الله أكثر خفت منه أكثر.

كلمة، ماذا تعني كلمة (قصيرة) ؟ السيدة عائشة قالت قصيرة عن أختها صفية، فقال:

((يا عائِشَةَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْه))

[رواه أبو داود والترمذي، عن عائشة]

كلمة (قصيرة)، فما قولك بما فوق هذه الكلمة، وقال أيضاً:

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

أفضل الإيمان أن تشعر أن الله معك ويراقبك وهذا يدعى مقام المراقبة:

فهذا الذي يغوص في أعراض الناس، وينهش أعراضهم، ويغتابهم، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، كيف يكون حسابه عند الله عز وجل ؟

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

يعني بالتعبير الدارج ؛ أنت هذا الذي صدر عنك، حسناً سوف نريك:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80))

(سورة الزخرف)

أفضل الإيمان أن تشعر أن الله معك ويراقبك، وهذا المقام سماه العلماء مقام المراقبة، وهذا يجعلك مع الله دائماً ومع منهجه، ومع سنة نبيه، ومع الإحسان إلى الخلق.

(أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80))

(سورة الزخرف)

على المؤمن أن يعلم أن الله يعلم كل شيء وسيحاسب كل إنسان على عمله:

ذات مرة ذكرت لكم أن الله سبحانه وتعالى اختار من بين أسمائه كلها اسمين، وقد يعجب الإنسان لماذا هذان الاسمان بالذات، قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

إذا أيقنت أنه يعلم وأنه قدير وأنه يحاسب انتهى الأمر عند جميع الناس إلى الاستقامة، أنت لا تنفذ الأمر إذا علمت أنه لا يعلم، أو علمت أنه يعلم ولكن لا يحاسب، أو علمت أنه يحاسب ولكن لا يعلم، أما إذا أيقنت أنه يعلم وسوف يحاسب فقد انتهى كل انحراف وضلال، ودقق أيها الأخ الكريم أنت مع إنسان مثلك إذا كان أقوى منك ويعلم وسوف يحاسب فلا يمكن أن تعصيه، هذا مع إنسان فكيف مع خالق الأكوان ؟

(أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80))

(سورة الزخرف)

كل شيء مسجل، لقد استطاع الإنسان أن يسجل على أي إنسان كل حركاته وسكناته، يعني أن الإنسان بلغ درجة صار كل شيء لديه مسجلاً صوتاً، أو صوتاً وصورة فإذا الإنسان استطاع أن يسجل فالله على كل شيء قدير، والإنسان سيرى أعماله يوم القيامة مكتوبة.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14))

(سورة الإسراء)

فإذا آمن بالملائكة كما أمر الله عز وجل وأنهم يكتبون كل الأعمال فمن البديهي أن يستقيم، أنت حينما تقول: السلام عليكم ورحمة الله في الصلاة على من تسلم ؟ على الملائكة الذين أوكل الله إليهم كتابة أعمالك الصالحة والطالحة.

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ: هذه الآية لها عدة تفسيرات:

(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81))

(سورة الزخرف)

لهذه الآية تفسيرات كثيرة، بعضهم قال: إنْ بمعنى ما، يعني ما للرحمن ولد وأنا أول العابدين له وحده، ولا شريك له هذا معنى.

والمعنى الثاني: قل إن كان للرحمن ولد، فأنا أول من يعبده لكن ليس له ولد، هذا طرح افتراضي لكن ليس له ولد، فلو أن له ولد فأنا أول من يعبده، أو قل إن زعم للرحمن ولد فأنا لا أعبد إلا الله وحده، هذا المعنى الثالث.

أول معنى ليس للرحمن ولد لذلك أنا أعبد الله وحده هذا هو المعنى الأول، المعنى الثاني: لو افترضنا أن للرحمن ولداً فأنا أول من أعبده، المعنى الثالث: إذا زُعم للرحمن ولد، فأنا أعبد الله وحده لا شريك له.

(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82))

(سورة الزخرف)

الله تعالى منزه أن يكون له ولد لأن الولد أساسه أن الإنسان يكمل به ضعفه:

كلمة سبحانك تفيد التنزيه، يعني نزّه الله عن أن يكون له ولد، لأن الولد أساسه أن الإنسان يكمل به ضعفه، الإنسان ينجب ولداً حتى إذا تقدمت به السن رأى شاباً إلى جانبه، فمن ضعف الإنسان يتمنى إنجاب الولد، لأن الإنسان سينتهي إلى عدم يقول لك هذا الولد يخلفني من بعدي، يخلد ذكري في

الأرض هذا من ضعف الإنسان، إما من ضعفه أو من فنائه، لكن الله سبحانه وتعالى لا يليق به هذه المعاني.

(سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82))

(سورة الزخرف)

أيعقل أن يكون له ولد ؛ هو الأول والآخر والظاهر والباطن، هو الأزلي الأبدي لا أول له ولا آخر، هو غني عن كل مخلوق، يحتاجه كل شيء في كل شيء وهو غني عن كل شيء.

(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82))

(سورة الزخرف)

هذا التسبيح، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذه الباقيات الصالحات التي قال الله عنها:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا(46))

(سورة الكهف)

الذكر يؤهل الإنسان ليكون في ذمة الله في نهاره وليله:

إنك إن سبحته وإن وحدته وإن كبرته وإن حمدته فقد عرفته، وإن عرفته عرفت كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، إن عرفته تقربت منه، وإن تقربت منه سعدت بقربه في الدنيا والآخرة، ملكت كل شيء، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا(46))

(سورة الكهف)

كتاب الأذكار للإمام النووي فيه أذكار النبي التي كان يذكرها كل يوم صباحاً ومساءً، فالإنسان إذا وفق إلى أن يذكرها، وإلى أن يستغفر الله في اليوم ألف مرة، فيقول أستغفر الله، فقد حقق خيراً لنفسه ومفازاً:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

(سورة نوح)

فالاستغفار سبب لرحمة الله عز وجل، أجل، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذه الباقيات الصالحات، لا حول ولا قوة إلا بالله هذه من أذكار النبي عليه الصلاة والسلام، فلو اطلعتم على أذكار النبي وحاولتم أن تقرؤوها صباحاً كل يوم، فهذه مما تعين الإنسان على أن يكون مسلحاً طوال النهار، مسلحاً بقربه من الله، فكل هذا الذكر أهّله لأن يكون في ذمة الله نهاره كله وليله.

غير المؤمن يكون غير جاد بطلب الحقيقة وهذه التسلية عبّر الله عنها بكلمة يخوضوا:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا(83))

(سورة الزخرف)

قال المفسرون: فذرهم يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في الدنيا، يعني غير المؤمن غير جاد في طلب الحقيقة، بل يريد أن يتسلى، ما قولك في الموضوع الفلاني ؟ ما قولك في السحر ؟ ما قولك في الكتاب الفلاني ؟ ليس عنده رغبة قوية في معرفة الحق، يتسلى بالأفكار تسليةً، هذا التسلي في الأفكار عبّر الله عنه في القرآن بكلمة **" يخوضوا ".**

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا (83))

(سورة الزخرف)

يخوض يعني أي شيء لا يقنع به، يطرح لك مئة موضوع، وليس عنده استعداد أن يصدق موضوعاً، هذا يشكك، هذا لا أعتقد، تجد شخصاً مترفاً ليس عنده رغبة بمعرفة الحقيقة ولا بتبنيها ولا بالسعي لها لست أدري، ولماذا لست أدري ؟ لست أدري، هذا معنى ذرهم يخوضوا.

تجد الإنسان يقرأ ويطالع لكن قراءة ليست هادفة، قراءة متعة، فتتكون عنده ثقافة واسعة، وعنده إمكانية أن يتكلم في المجالس كلاماً لطيفاً محبباً مسلياً للناس، لكن هو لا ينضبط لا بمنهج ولا بسلوك، لأن الحقيقة الكبرى ما عرفها، ما عرف سرّ وجوده ولا غاية وجوده، ولا عرف عن ربه شيئاً، ويقرأ، ويتعلم، ويستمع، ويشاهد، ويتأمل، ويلاحظ، وأصبح عنده مجموعة مقولات ليتسلى بها.

للمؤمن هدف واضح وهدفه معرفة الله وكل ما يقربه لله:

معنى **" يخوضوا "** ليس هناك هدف واضح، لكن المؤمن هادف، وهدفه أن يعرف الله، كل ما يقربه من الله يتمسك به، وكل ما يبعده عن الله يبتعد عنه وانتهى الأمر، عنده هدف، وعنده اصطفاء، الحياة محدودة، إن أردنا أن نقرأ كل شيء وأن نطالع كل شيء فالوقت لا يتسع، مثلاً تجد مجلة فيها ثلاثون مقالة، منها تسع وعشرون مقالة لا تعنيك نعم أنت تقرأ لكن هناك حقيقة أكبر لابد أن تعرفها، والحياة قصيرة، الإنسان فجأة يشعر بمرض يقربه من أجله، فليستغل حياته على قصرها، ويتدارك نفسه قبل مباغتة الأجل، وليعرف ربه.

الوقت ثمين جداً، أوضح مثل لذلك الطالب الذي عنده امتحان بعد أسبوع، سنة التخرج والمادة الأخيرة وهذه المادة أهم مادة ولها كتاب مقرر وهذا التخرج مهم جداً يبنى عليه مستقبله، يبنى عليه زواجه، يبنى عليه مكانته الاجتماعية، وعنده مكتبة ضخمة أربعة جدران كلها تغص بالكتب، أيعقل أن يقرأ

قصة في هذا الأسبوع، أو مسرحية مثلاً أو كتاباً لطيفاً عن غرائب العالم، أو قصص العرب، الآن نريد الكتاب المقرر الذي سيحدد مصير نجاحنا آخر العام، هذه حالة المؤمن، لا يكون مبعثراً كما أنه لا يتشتت، ولا يكون هائماً على وجهه لا، أنا أريد كتاب الله وسنة نبي الله وسيرة النبي وأصحابه الكرام، هذا منهجي في الحياة، أتقن معرفة كتاب الله وكلام رسول الله، وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وبعدها أقرأ ما يعينني على فهم كتاب الله، أقرأ موضوعاً علمياً يزيد من إيماني بالله، هذا ممكن، المطالعة الهادفة، القراءة الهادفة، أما أن أقرأ كل شيء بلا منهج، وبلا هدف، بل أقرأ تسلية، وتمضية وقت ليس هذا من صفات المؤمن.

في حكم الآخرة كل الدنيا لعب:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا (83))

(سورة الزخرف)

اللعب ؛ الله عز وجل سماه لعباً، ماذا يعني اللعب ؟ يعني عمل لا هدف له بل عمل عابث، قد يلعب المرء للساعة الواحدة ليلاً بالطاولة ماذا استفاد ؟ هل ألفت كتاباً ؟! أو ألفت موضوعاً ؟! أو دعوت إلى الله ! ما عملت شيئاً، هذا اللعب عمل لا طائل منه، مثلاً لاحظ طفلاً صغيراً يمسك بلعبة، فأنت كإنسان راشد تراه ضيق الأفق، لو أخذتها منه عنوة، يبكي ساعة، فهل من المعقول تبكي أنت من أجل لعبة ؟! لا فأنت كبير، لكن لا تنس أن ما أنت فيه لو تجاوزته إلى مرحلة تالية في حياتك لرأيت نفسك تلعب، أنت مهتم بالتحف، مهتم بالسجاد النادر مثلاً، لكن لو تجاوزت الدنيا لرأيت هذه الهواية الراقية في نظرك لعباً، لأنه لا طائل منها جاء الموت فأنهى كل شيء، فالدنيا كلها لعب.

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ)

(سورة الحديد 20)

فأنت ترى لعباً في مرحلة تجاوزتها، لكن المرحلة التي تعيشها فيها لعب وأنت لا تدري، سمعت بأذني أن شخصاً يقول قضيت ستة أشهر وأنا محتار أأجعل تمديدات التدفئة داخلية أم خارجية، بعد ذلك قال: نجعلها داخلية، وبعد عشرين عاماً حينما تفسد الأنابيب نجعلها ظاهرةً، هذا الرجل حينما يأتيه ملك الموت يرى أن هذا لعباً، فاللعب عمل لا طائل منه، لكن المشكلة أنت لا ترى اللعب إلا في مرحلة تجاوزتها، وما أنت فيه ترى نفسك جاداً وهو لعب أيضاً، في حكم الآخرة كل الدنيا لعب.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83))

(سورة الزخرف)

المؤمن يعلم أن الله خلاق وفعّال لكن غير المؤمن يعتقد أن الله خلاقاً وليس فعالاً:

هذا اليوم يأتيهم كالصاعقة، حينما يأتي ملك الموت ويرى المؤمن مكانته في الجنة يقول لم أر شراً قط، قد تكون حياته مشحونة بالآلام والمتاعب والمعالجات والمضايقات ويقول لم أر شراً قط، أما أهل الدنيا الذين انغمسوا في شهواتها وأكلوا مالاً حراماً وتطاولوا على عباد الله إذا رأوا مكانتهم في النار يقول أحدهم: لم أر خيراً قط، كل شيء تنعّم به في الدنيا لا يراه شيئاً.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا (83))

(سورة الزخرف)

هذه (ذرهم) تهديد، قد يقول الأب لزوجته: اتركيه لي (يقصد ابنه) تهديد.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف)

يعني أكثر الناس يتوهمون أن الله عز وجل خلق الكون وأعطى كل إنسان إمكانات، ثم ترك العباد وشأنهم، لا، ليس هذا من شأن الله، إن هذا لا يليق بعدالة الله، ولا بكمال الله، ولا بوحدانية الله، ولا بأنه فعال، الأجانب يرون أن الله خلاقاً وليس فعالاً، أعطى كل إنسان إمكانات وأطلق العباد في زعمهم يفعلون ما يشاؤون، لذلك لا يخافون من الله، بل يخافون من بعضهم بعضاً، لكن عقيدة المسلم الصحيحة أن الله سبحانه وتعالى خلاق وفعال، يعني كما هو في السماء إله هو في الأرض إله، الأمر كله بيده، هذا هو الإيمان الحق، فلا يقع شيء إلا بعلمه وبإرادته ومشيئته، هذا هو التوحيد، الله عز وجل بيده كل شيء، ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليه، قال:

(وإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود 123)

وقال:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ(84))

(سورة الزخرف)

علينا أن نفسر ما يجري في العالم تفسيراً توحيدياً ينسجم مع القرآن الكريم:

قد يحلو للإنسان أن يفسر كل شيء تفسيراً أرضياً بعيداً عن الإيمان، وقد يفسر الأحداث الكبرى في العالم من زاوية مادية محضة، أن فلاناً قوي، وفلاناً ضعيف، وفلاناً اعتدى، وفلاناً استغل، وفلاناً سيطر، وفلاناً قهر، يجب أن تفهم كل شيء من زاوية هذا القرآن الكريم، يعني أوضح مثل كأن يقول

فلان: هنا وقعت في مشكلة، وهناك قامت حرب أهلية، وهنالك حدث اجتياح، دون أن يعزو ذلك لإرادة الله ومشيئته، وما علم أن الله عز وجل قال:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

عليك أن تفسر كل ما تسمع من أحداث كبرى في العالم تفسيراً توحيدياً، تفسيراً ينسجم مع القرآن الكريم، لكن إذا تجاهلت أن الله هو الإله في الأرض، إذا توهمت أن الله إله في السماء فقط، عندئذ ينصرف الذهن إلى تفسير كل شيء تفسيراً أرضياً بعيداً عن تفسير أن الله في الأرض إله، وكل شيء بيد الله عز وجل، هذا شيء مريح كما أنه هو الحق، من دون هذا الإيمان تشعر بالقهر، تشعر بالذل، تشعر أن إنساناً لا يرحم وبيده الأمر، وأن جهة تطغى وهي قوية، وأن الناس ضعاف مقهورون له، أساساً أكبر عقبة أمام ضعاف الإيمان هي هذه العقبة، يرى مثل ما قال رسول الله لعله يا عدي أنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، لعله يا عدي ما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم (فقراء)، لعله يا عدي ما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، هذه كلها عقبات، إذا رأيت أن الأمر بيد أعداء المسلمين وهم أقوياء وأذكياء وبأيديهم التكنولوجيا الحديثة وتحت تصرفهم كل شيء ونحن ضعاف لا نملك شيئاً، طبعاً هذه الفكرة وحدها تسبب القهر، والضعف، والتخاذل، والخنوع، لكن إذا أيقنت أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء وهو على كل شيء وكيل، هذه الفكرة وحدها ترفع معنوياتك.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84))

(سورة الزخرف)

يجب تطبيق منهج الله حتى نصبح في حال أفضل:

أفعاله كلها حكيمة، وحكمته مبنية على علم.

(وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(85))

(سورة الزخرف)

تبارك أي كثر خيره، الله عز وجل خلق السماوات والأرض وأمدّ الإنسان بكل شيء، والخيرات التي أودعها الله في الأرض لا تعدّ ولا تحصى، والعطاء كبير ولكن الإنسان هو الذي أفسد الحياة، الحياة لا تفسد إلا حينما يتحرك الإنسان حركةً خلاف منهج الله، وربنا عز وجل وصف الكفار بأنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، الفساد أساسه إنسان مخير خرج عن منهج الله، الله صمم الأنثى والذكر

للزواج، فأحدث أهل الضلال الزنى، كما أحدثوا الملاهي، وقامت هناك انحرافات، صمم الحاجات من أجل أن تكسب منها رزقاً حلالاً فانحرف الإنسان إلى السرقة، ووقع البغيٌ، والعدوان، والاحتيال، والتدليس، والكذب، والغش، والاحتكار هذه كلها انحرافات عن منهج الله، لو طبقنا منهج الله في كل شيء لكنا في حال غير هذه الحال.

(وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ(85))

(سورة الزخرف)

الجهل هو العدو الأول للإنسان وهو سبب الشر:

من أين يأتي الشر ؟ من سوء استخدام الأشياء، أضرب مثلاً أعيده كثيراً الملح مادة أساسية في الحياة، وكذلك السكر مادة أساسية، ومسحوق التنظيف أيضاً مادة أساسية، لكن إذا وضعت الملح في الحلويات تفسد، إن وضعت السكر في الطبخ يفسد، يعني الموضوع سوء استخدام، والله عز وجل خلق كل شيء لحكمة بالغة، الدين أساسه تعاليم وإرشادات للناس في استخدام كل الأشياء، والله عز وجل كما أقول دائماً ما أودع فينا شهوة إلا وجعل لها قناة نظيفة نعبر بها هذه القناة، أما حينما يخرج الإنسان عن منهج الله يكون الفساد في الأرض، لذلك تأكد أنه ليس هناك مشكلة إلا ومن ورائها معصية، ولا تقع معصية إلا من ورائها جهل، فالجهل هو العدو رقم واحد للمؤمنين.

(وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85))

(سورة الزخرف)

والإنسان عليه أن يهتم أكثر ما يهتم بساعته هو، يعني ساعة لقاء الله عز وجل.

(وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ(86))

(سورة الزخرف)

أي ؛ صنم، حجر، اللات، العزى، الأشخاص الذين تعتمد عليهم وترجو نفعهم وتخشى ضرهم هؤلاء من دون الله لا يملكون الشفاعة، شفاعة تقريب من الله عز وجل قال سبحانه:

(إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86))

(سورة الزخرف)

علينا أن نتعلم من إنسان نثق بعلمه وبخبرته:

إذا الإنسان شهد الحق، فمعرفته تنفعك، وحاله ينفعك، وإذا سألته تنتفع من جوابه، إن أصغيت له تنتفع بعلمه، يدلك على الله، وعلى طاعة الله، وعلى طريق القرب من الله، وعلى طريق سعادة الدنيا

والآخرة، فالشفاعة هنا أي من شهد الحق ينفعك ـ الشفع الزوج ـ إذا اقتربت منه، تعاملت معه، سألته، جالسته، صاحبته، اقتبست من علمه تستفيد منه، يعني شفع لك.

فالمعنى اللطيف لهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يقول هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله لا يملكون لكم الشفاعة، لا ينفعونكم أبداً:

(إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86))

(سورة الزخرف)

يعني يشهد الحق ويعلم أنه شهد الحق، يعلم ويعلم أنه يعلم، هذا الذي تنفعك شفاعته، هذا معنى قول الله تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(119))

(سورة التوبة)

وقال:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

(سورة الكهف 28)

وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ))

[الترمذي عن ابن عمر]

أنت يجب أن تتعلم من إنسان تثق بعلمه وتثق بخبرته إذاً:

(وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86))

(سورة الزخرف

علينا ألا نفصل بين القناعة والسلوك فهما متلازمتان:

لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ويدلك على الله مقاله، يعني صاحب من يدلك على الله مقاله وينهض بك إلى الله حاله، هذه الصحبة صحبة المؤمنين.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87))

(سورة الزخرف)

أما بعد ؛ لو فرضنا أن مريضاً مرضه شديد، ويتألم ألماً لا يحتمل، وسألته: أين المستشفى ؟ يقول لك: هذه المستشفى أمامك مثلاً، ولكنه ذهب إلى نزهة ولم يذهب للمستشفى، فتقول له: إلى أين أنت ذاهب يا هذا ؟ طالب تعرفه في الشهادة الثانوية تقول له: متى الامتحان ؟ يقول لك: اليوم، لكنه يتخلف عن الذهاب للامتحان، ويذهب يتنزه، فتقول له: إلى أين أنت ذاهب ؟

شيء غريب جداً، وهذا هو حال أهل الكفر، فإذا أقرّوا أن الله هو خالق السماوات والأرض وبيده كل شيء فماذا ينتظرون ؟ ما الذي يمنعكم أن تتوبوا إليه يا قوم ؟ وأن تقبلوا عليه ؟ وأن تقيموا أمره ؟ الفصل بين القناعات والسلوك خطير جداً، في العالم الإسلامي اليوم لن تجد مسلماً لا يعلم أن الله هو الخالق، وأن الجنة والنار حق، وأن الحياة تنتهي بالموت، حركة الإنسان الذي لا يطلب العلم الديني حركة عجيبة جداً، يمشي في طريق مناقض لقناعاته.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87))

(سورة الزخرف)

يعني أين ينصرفون، وقول النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88))

(سورة الزخرف)

الدعوة إلى الله تحتاج إلى نفس طويل وإلى إدراك عميق:

النبي عليه الصلاة والسلام أمره الله أن يصفح.

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89))

(سورة الزخرف)

يعني إذا أنت رأيت واحداً بعيداً متلبساً في معصية فعليك ألا تحقد عليه، بل يجب أن تشفق عليه كالطبيب تماماً، الطبيب لو رأى إنساناً يعاني من مرض جلدي مزعج هل يحقد عليه ؟ لا، هو طبيب يشفق عليه، فهذا الذي لا يصفح قاسٍ، ومن ضعف إيمانه يقسو، ومن ضعف إدراكه، من ضيق أفقه، من إعراضه عن مجالس العلم، من جهله بكلام الله، من عدم إيمانه بحقيقة الحياة الدنيا تأتي قسوته، قد يكون لك صديق، أو قريب، أو جار منغمس في المعاصي ولا يصلي، فأشفق عليه مبدئياً، ثم ادعه دعوة الحاني إلى دين الله عز وجل:

(وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ)

(سورة الزخرف)

إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى نفس طويل، إلى صدر واسع، إلى إدراك عميق، إلى رحمة، إلى تحمل، إلى تجلد، وإلا إن ضاق الداعية بالناس ذرعاً فكيف يهديهم ؟ إن حقد عليهم كيف يهديهم ؟ إن عاداهم فكيف يهديهم ؟ النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق المعصوم الذي يوحى إليه قال له سبحانه وتعالى:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران 159)

على الداعية أن يكون على خلق حتى يملك قلوب الناس:

الداعية الآن ماذا يملك من صلاحيات ؟ لا يملك شيئاً، يملك فقط أن يعلم الناس، وأن يكون أخلاقياً معهم حتى يملك قلوبهم، الأقوياء ملكوا الرقاب، والعلماء ملكوا القلوب، وشتان بين الملكين، واحد بقوته يملك أن يحركك كما يشاء، لكن الداعية الصادق المخلص يملك قلبك بإحسانه، وبكماله، فأنت إذا أردت أن تدعو إلى الله عز وجل لا ينبغي أن تحقد على العصاة.

أبو حنيفة النعمان له جار مغنٍ أزعجه إزعاجاً لا حدود له، طوال الليل يغني، يقول: أضاعوني وأي فتىً أضاعوا، مرة ألقي القبض عليه فذهب أبو حنيفة ليتوسط له كي ينقذه بحكم حق الجار، فلما دخل على صاحب الشرطة، طبعاً أكبره إكباراً شديداً، وأطلق كل من معه إكراماً له، ففي طريق العودة قال يا فتى: هل أضعناك ؟ فكان صبر أبي حنيفة على جاره سبباً في توبة هذا الجار.

فالمؤمن يصبر ؛ يصبر على أذى الجيران، وعلى أذى المعرضين، وعلى أذى المقصرين، يتطاولون أحياناً، يتكلمون كلاماً فيه سخرية.

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89))

(سورة الزخرف)

النبي الكريم أمسكه أعرابي من ثوبه، وشده بعنف حتى أثر في عنقه، وقال: أعطني من هذا المال، فهو ليس مالك ولا مال أبيك فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: **صدق إنه مال الله**، نبي كريم، يعني حوادث كثيرة جرت مع النبي لو جرت مع غيره لكان قطع رأسه فوراً، قال تعالى:

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ(89))

(سورة الزخرف)

على المؤمن أن يتقرب إلى الله بخدمة خلقه والصبر عليهم:

الصفح أساسه الرحمة، إذا دعوت إلى الله يجب أن تحب الناس جميعاً، ينبغي أن تصبر عليهم، أن تصبر على جفوتهم، وعلى أذاهم أحياناً، على أسئلتهم أحياناً أخرى، وعلى بعض تصرفاتهم.

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89))

(سورة الزخرف)

بعض الشيوخ يقولون: ما وصل فلان إلى ما هو عليه من نضج حتى بذلنا جهداً كبيراً، يأتي إلى مجالس العلماء شاب غر، لكنه بعد سنة يكون قد نضج، وتوازن، وعرف الحقيقة، وأسرع إلى الله عز وجل، لو أنك لم تصبر عليه لما صار إلى حاله الجديدة، صبرك هو سبب نضجه، يعني هذه الآية خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام في الدرجة الأولى ولكل من سار على سنته في الدرجة الثانية:

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89))

(سورة الزخرف)

قلب المؤمن لا يعرف الحقد أبداً، ولا يضيق ذرعاً بالناس، يرى أن هؤلاء عباد الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعباده، وأنت دائماً تتقرب إلى الله بخدمة خلقه، ولا تنسوا هذا الحديث الشريف:

((اصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله))

[رواه ابن النجار عن علي]

فهذه نهاية حميدة، وخلاصة نافعة، كان هناك تابعي جليل أقذع بعضهم عليه بالسباب وهو الشعبي، فبكل بساطة قال لمن يؤذيه: إن كنت صادقاً فيما تقول غفر الله لي، وإن كنت غير ذلك غفر الله لك، الهادئ الحليم موصول بالله عز وجل وعنده قلب كبير يطفئ الشر كله، لأن العنف إذا قابلته بالعفو تجده صغّر فاعله، وأزرى به، وانفض من حوله الناس.

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ(89))

(سورة الزخرف)

لا عداوة في الإسلام بل علينا أن نتمثل أخلاق النبي الكريم:

تسمع أن فلاناً اسمه صفوح، كلمة كبيرة، كلمة صفوح تعني أن يتمثل أخلاق النبي، كان صفوحاً عليه الصلاة والسلام، عكرمة بن أبي جهل وهو أعدى أعداء النبي قاتله عشرون عاماً، فلما أسلم أحبه النبي حبّاً جماً، وإكراماً له قال:

((جاءكم عكرمة مسلماً، فإياكم أن تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغه))

عمير بن وهب جاء ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام، سيدنا عمر شعر بنيته، وهو مقبل، فقيده بحمالة سيفه وساقه إلى النبي، والنبي صاحب هذا القلب الكبير ليس عنده حقد أبداً، ليس عنده شيء اسمه ضغينة، يحب الخلق كلهم، قال: **يا عمر أطلق سراحه**، وقال له: **ادنُ مني يا عمير**، قال: **سلم علينا**، قال له: عمت صباحاً يا محمد، قال: **قل السلام عليكم**، قال: لست بعيداً بسلام الجاهلية، ما الذي جاء بك إلينا يا عمير ؟ قال: جئت أفكّ أخي من الأسر، قال له: **وهذا السيف الذي على عاتقك** ؟ قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال له: **ألم تقل لصفوان لولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت، وديون ركبتني لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه**، وقف عمير وقال: **أشهد أنك رسول الله**، لأن هذا الكلام جرى بيني وبين صفوان ولا يعلمه أحد إلا الله وأنت رسول الله.

لقاء شخصي، أما مغزى القصة فنجده في قول عمر: دخل عمير على رسول الله والخنزير أحب إليّ منه، وخرج من عندي وهو أحب إليّ من بعض أولادي.

لا عداوة في الإسلام أبداً، تُعادي أنت عمله فقط، فإذا رجع إلى الله صار أخاك في الله، إذا لم تشعر بالحب لإخوانك المؤمنين فلست مؤمناً، لذلك:

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89))

(سورة الزخرف)

أسعد الناس من استعمله الله في الخير وأشقاهم من استعمله في الشر:

أخيراً ؛ المرعبون في النار، شرّ الناس من اتقاه الناس مخافة شره، المؤمن سلام لا يخرج منه إلا كل خير، تجد الناس مرتاحين له، وإذا كان شخص يخيف لا يجعلك تنام الليل، ويمكن أن يشي بك وشاية مهلكة، فهذا في عداء مع الناس، وهو عدو نفسه حقاً وأولاً، أما المؤمن ليس عنده هذا الحقد، هو سلام، وهو مصدر سعادة للناس، لذلك إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فانظر فيما استعملك، أسعد الناس من استعمله الله في الخير، وأشقى الناس من استعمله الله في الشر.

منذ أيام بينما كنت في طريقي إلى بعض أشغالي، قال لي شخص: هذا ملهى ضخم أنشأه شخص ومات قبل أن يفتتحوه بأيام، قلت له من باب الطرفة: هذه صدقة جارية له، يعني أن كل معصية تقع فيه حتى يوم القيامة فهي في صحيفته.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الدخان 044 - الدرس (1-4): تفسير الآيات 1- 9 ، القرآن الكريم منهج الناس جميعاً

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-08-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الأول من سورة الدخان.

مواقف العلماء من الحروف التي افتتحت بها بعض السور:

(حم(1)وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2)إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(3)فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(4)أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(5))

(سورة الدخان)

(حم)

كما ذكرت سابقاً الحروف التي افتتحت بها بعض السور ومنها حم وقف العلماء منها مواقف متعددة من هذه المواقف:

1 - إنها دليل إعجاز القرآن الحكيم:

إنها دليل إعجاز القرآن الحكيم، فهذا الكتاب الذي بين أيدينا مؤلف من كلمات والكلمات مؤلفة من حروف هي بين أيدينا، ومع ذلك فهذا الكتاب أعجز من أن يأتي بمثله أو بسورة منه بل وبآية واحدة منه أهل السماوات والأرض، وأكبر دليل على أن هذا الكلام كلام الله، إعجازه، ومعنى إعجازه أنه يعجز الإنسان أن يأتي بمثله، أو أن يأتي بتشريع حكيم، أو بتشريع مبني على قواعد النفس، أو تشريع يسعد النفس إذا طبقته، فيه إعجاز تشريعي وفيه إعجاز علمي و بياني و إخباري و تاريخي، أي هذا الكتاب له بحث طويل.

تحدي الله عز وجل العرب جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن:

على كل من هذه الأحرف، كيف أن الإنسان مركب من مواد مأخوذة من التراب، لكن لو جئنا بهذا التراب وعالجناه هل بالإمكان أن يغدو إنساناً ينطق، ويتكلم، ويفكر، أي إعجاز بالخلق. وهذا الحليب من يأتي به، من البقرة والبقرة تأكل الحشيش وهل بإمكان كل من في الأرض أن يصنع من الحشيش

حليباً وهذه البيضة من أين تأتي بها الدجاجة ؟ تأكل مما في الأرض فهل بالإمكان أن نأخذ ما تأكله ونصنع منه بيضة ؟ لا، ولله المثل الأعلى فهذا الكتاب، الحروف التي بين أيدينا هي بين أيدينا وقد نظم منها ومع ذلك يعجز الإنسان عن أن يأتي بسورة من هذه الآيات.

فالمعنى الأول أن هذا الكتاب المعجز، مادته بين أيديكم فان لم تفعلوا أي أن الله عز وجل تحدى العرب جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

(وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(23)فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (24))

(سورة البقرة)

2 ـ هذه الحروف أوائل لأسماء الله الحسنى:

المعنى الثاني أن هذه الحروف أوائل لأسماء الله الحسنى.

3 ـ إنها أوائل لأسماء النبي عليه الصلاة والسلام:

وبعضهم قال: إنها أوائل لأسماء النبي عليه الصلاة والسلام: هو حامد ومحمود، محمود عند الله وعند الناس وعند نفسه.

4 ـ الله أعلم بمراده:

وبعضهم قال: الله أعلم بمراده والقرآن حمّال أوجه ولا أحد يزاحم أحداً في هذا الكلام المعجز.

قسم الله عز وجل بالقرآن الكريم ليبين قيمته للناس:

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2))

(سورة الدخان)

الله سبحانه وتعالى أقسم بهذا الكتاب المبين والله جلّ جلاله إذا أقسم بشيء دونه فليبين للناس قيمة هذا الشيء. أحياناً لا يقسم:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

حتى إذا قال الله لا أقسم أي أن هذا الشيء من شدة وضوحه ودلالته وبيانه لا يحتاج إلى قسم، أي ما دام الشيء دون الله عز وجل، فالعظيم لا يقسم بما هو دونه أو إذا أقسم فليبين أن الله جل جلاله هذا الشيء عظيم بالنسبة إلينا، والنقطة الدقيقة أن الله عز وجل يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (1))

(سورة الأنعام)

والسماوات والأرض تعبير عن الكون والكون هو ما سوى الله، فالحمد لله الذي خلق السماوات والأرض.

لا قيمة لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه:

في آية أخرى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف)

فماذا يستفاد من هذا ؟ يستفاد من هذا أن الكون كله في جهة وكلام الله في جهة، ويستفاد أيضاً أن الله عز وجل يقول:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

كيف علم الإنسان القرآن قبل أن يخلق ؟ قال هذا ترتيب رتبي، أي لا قيمة لوجود الإنسان من دون القرآن أو لا قيمة لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه. فكيف أن الآلة المعقدة جداً، والغالية جداً ذات النفع الكبير، تحتاج إلى كتيب يرشدك فيه إلى طريقة الاستعمال والصيانة لرفع المردود والمحافظة عليها، فإن هذا الكتاب لا يقل أهمية عن الآلة نفسها، إذا ربنا عز وجل يلفت نظرنا إلى أن هذا الكتاب فيه سر سعادتنا، فأنت آلة معقدة، لو تحركت بلا منهج هلكت وأهلكت وشقيت وأشقيت و ضللت وأضللت وفسدت وأفسدت. فحركة بلا منهج، تصور سيارة تنطلق بسرعة مئة بلا مقود وبلا قائد، فالدمار حتمي والهلاك حتمي والسقوط في الوادي حتمي، فحينما قدم الله تعليم القرآن على خلق الإنسان أي أن حياة الإنسان بلا منهج تغدو شقاء و فساداً وهلاكاً وانحرافاً و إيذاءً.

الآيات المتعلقة بأصول العقيدة والأمر والنهي آيات محكمات لا تحتاج إلى تفسير:

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2))

(سورة الدخان)

لكن كتاب الله عز وجل مبين، واضح البيان، أي الآيات المتعلقة بأصول العقيدة وبالأمر والنهي آيات محكمات لا تحتاج إلى تفسير. أحيانًا يتوهّم الإنسان أن الكتاب بحر من غاص فيه هلك، هناك تسعة أعشار كلام الله لا يحتاج إلى تفسير.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)

واضحة:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

(لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم)

اقرأ القرآن تجد أنك تقرأ الآيات و في معظمها لا تحتاج إلى مفسر، آيات محكمات هن أم الكتاب: الآيات المتعلقة بالعقيدة والتكليف والحلال والحرام وبأسباب سعادتنا وأسباب شقائنا فهذه الآيات كلها محكمات واضحات نيرات.

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2))

الآيات المتشابهات تحفز الهمم وتخلق التنافس الشريف بين العلماء:

لحكمة بالغة بالغة جاءت بعض الآيات متشابهات

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)

فهنالك حكم كثيرة من وجود آيات متشابهات: أولاً: ظنية الدلالة: إذا صار للعلماء دور في فهمها وتفسيرها واكتشاف مضامينها وتوجيهها وجهة خاصـــة، وصار فيه حفز للعلماء، ومنافسة، وأحكام اجتهادية وتفصيلية غنية جداً تسع كل الحالات وكل البيئات وكل الظروف، وصار فيه شيء يتحدى به الإنسان من أجل أن يجتهد وأن يشمر فهناك حكم أدرجهـــا العلماء بوجود آيات متشابهات وهي قليلة جداً، والإنسان حين يفهم آية متشابهة، يعبر فيها عن حسن ظنه بالله عز وجل. أي لو أنك قرأت قوله تعالى:

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

فلو أنك لا تعرف الله عز وجل هل هو يضل الناس ؟ ولكن لو أنك تعرف الله وتعرف أن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا وليهدينا سواء السبيل. فعندئذ تفسر

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

تفسيراً يتناسب مع كمال الله عز وجل: أن هذا الضلال الذي عزي إلى الله هو الضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري. فآيات متشابهات تحفز الهمم وتخلق التنافس الشريف بين العلماء وقد يجتهد المجتهدون في فهمها مناحي عدة، وهذه المناحي تغطي كل الحالات المستجدة والبيئات والتطورات.

معظم آيات القرآن الكريم آيات محكمات:

إذًا الإسلام فيه ثوابت وفيه متغيرات الثوابت تؤكده الآيات المحكمات، والمتغيرات تغطيه الآيات المتشابهات، فوجود الآيات المتشابهات تشبه المعنى الفلاني من جهة والمعنى الآخر من جهة ثانية، فهذا معنى متشابهات، فلو فرضنا قلت أعطِ فلاناً ألف درهم و نصفه، أمر متشابه هل هي ألف و خمسمئة أم ألف ونصف درهم، ألف درهم ونصفه، الهاء تعود على الدرهم أم على الألف. فإن عادت على الدرهم فهي ألف ونصف درهم، وإن عادت على الألف فألف وخمسمئة، وهذا نص متشابه، فالإنسان يمتحن به، أي هناك من يفهمه ألف ونصف، فيه امتحان و فيه حفز للذهن و فيه انغماس في الاجتهاد وفيه توجيهات. ليس الموضوع أن نستعرض حكمة وجود آيات متشابهات، لكن إن معظم آيات القرآن الكريم محكمات، وواضحات نيرات، بينات لا يزيغ عنها إلا ضال.

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2))

(سورة الدخان)

بين العبارة، واضح العبارة، محكم.

من عرف الله سعد في الدنيا و الآخرة:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(3))

(سورة الدخان)

قال بعض العلماء: إن هذا القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في رمضان وفي ليلة القدر ذاتها، ثم نزل تباعاً على النبي صلى الله عليه و سلم نزولاً بحسب الوقائع والمناسبات، وبعضهم قال ابتدأ نزوله في رمضان، لكن الذي يعنينا أن هذه الليلة المباركة عاد خيرها على البشرية جمعاء، فإذا سعد الناس في حياتهم و عرفوا ربهم وسعدوا في كل شؤون حياتهم وأكرمهم ربهم بفضل هذه الدلالة وهذا القرآن. هذا معنى قول الله عز و جل:

(لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ (3))

(سورة الدخان)

في حياة الإنسان ليلة مباركة و ليلة مشؤومة:

أنت أحياناً تسهر سهرة مع صديق مؤمن يلفت نظرك لأشياء في الدين و إلى آيات في كتاب الله وإلى حكمة وجودك في الأرض تنتبه وتصحو وثاني يوم تتوب، وتصلي، وتغض بصرك، وتحرر دخلك، وتضبط جوارحك، تشعر أنك ترقى و ترقى، وتوفق في عملك، وتوفق في زواجك، وتشعر بقيمة وجودك في الحياة، بعِظَم الرسالة التي تحملها، لا تفتأ تقول: والله كل هذا الخير جاءني في تلك الليلة التي سهرت بها مع فلان، وقد كانت هذه الليلة سبب هدايتي وسعادتي، ليلة مباركة والإنسان بلقاء وخطبة، وبدرس علم، وتفسير، ولقاء، ومحاورة، ومناقشة، تشرق في ذهنه الحقيقة فيلقى في نفسه نور الحق، وينطلق إلى طريق الله عز و جل، مفعماً بالحماس والإقبال فهذه الليلة (فأنا أُقرب المعاني) وأنت إنسان مؤمن عادي ولو كان هناك لقاء وفي هذا اللقاء جرى تبادل أفكار وطرحت موضوعات متعددة ومتعلقة بالدين، وموضوعات دقيقة وعميقة مدعمة بالأدلة والبراهين وأنت شعرت بأن هذا الذي طرح جواباً لمشكلات تعانيها و حلول لقضايا مشكلة في حياتك، وانطلقت بعد هذا اللقاء إلى طاعة الله و التوبة إليه، يأتي عليك عشرون عاماً و تقول لا أنسى هذه الليلة التي كانت سبيلاً لهدايتي، وأحيانا الإنسان يمر أمام مسجد، ويدخل ليصلي فإذا هناك درس علم قد تكون كل سعادته من هذا الدرس، يقول لك إن سبب هدايتي هو هذا الدرس، وسبب عودتي إلى الله، وسبب توبتي هو هذا اللقاء، إنها ليلة مباركة هذه، أحياناً يتلقى الإنسان نبأ مؤلماً في مكان معين وفي زمان معين، ويمضي عشرون عاماً في حياته ويقول هذا اليوم لا أنساه، لا أعاده الله علي.

القرآن الكريم أسعد الناس في شتى بقاع الأرض:

في حياة الإنسان ليلة مباركة و ليلة شؤم، ومكان مبارك و مكان غير مبارك، وربنا عز وجل في اللحظة التي تتعرف على الله فيها، وتهتدي إليه و تتوب إليه وتعقد الصلح معه وتنطلق إليه، فهذه اللحظة، أو الليلة مباركة و اليوم والمكان المباركان، وكل شيء يحيط بهذا الحدث مبارك، فأحياناً الإنسان يتلقى نبأ نجاحه مثلاً في محل تجاري، وخلال خمسين سنة وكلما مرّ أمام هذا المحل يقول لك في هذا المكان تلقيت نبأ نجاحي، وأحياناً يتلقى نبأ ساراً في مكان معين، لكن الله عز وجل يقول:

(إنا أنزلناه في ليلة مباركة)

(أي هذا القرآن) وهذا القرآن سعد به الناس جميعاً في شتى بقاع الأرض.

من رحمة الله بعبادهم إنذارهم و تحذيرهم:

ما قولك بإنسان يتحرك وفق منهج، وهذا المنهج رقي به إلى الله (ارتقى إلى الله) وهذا المنهج جعله يقبل على الله، ويحب الله عز وجل، فالإنسان أيها الأخوة لا يشعر بقيمته و لا بإنسانيته ولا بسر وجوده في الحياة ولا بالمهمة التي أوكله الله إياها ولذلك:

(إنا أنزلناه في ليلة مباركة)

فكلنا جميعاً أثناء حديثنا مع إخواننا و أصدقائنا يقول لك تباركنا، والله يبارك فيك، منزل مبارك، و لقاء مبارك، وحفل مبارك، أي لا يفتأ أحدنا أن يقول هذه الكلمة في اليوم آلاف المرات، ومعنى البركة الخير والرحمة الواسعة، نزل من السماء إلى الأرض حينما نزل هذا القرآن نزل على النبي العدنان عليه الصلاة والسلام.

(إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(3))

(سورة الدخان)

أي الرحمة تقتضي الإنذار.

وجود الله عز و جل من لوازمه أنه غفور رحيم:

فما معنى

(إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)

هذه كان فعل ماض ناقص، طبعاً تقول الجو صاح، ضع كان في أوّل الجملة تصبح كان الجو صاحياً، كان فعل ماض ناقص (ناقصاً ليس تاماً) الفعل التام يدل على الحدث خرج، دخل، أشعل، أطفأ، قام، قعد، كسر، هذه الأفعال تامة لكنّ كان تعرب فعل ماض ناقص لأنها لا تدل على حدث تدل على زمن الجو الصاحي، كان الجو صاحياً أي ربطنا علاقة بزمن معين، وهذا معنى فعل ماض ناقص، لكن حين يقول الله عز و جل:

(وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

كيف تفسر هذه الآية أي أن الله عز و جل كان في الماضي و الآن أليس غفوراً رحيماً ؟ لا، هذه إذا أتت في مثل هذه الآيات لها معنى آخر، أي هذه صفة مترابطة مع الموصوف ترابطاً وجودياً، أي منذ أن كان الله هو رحيم، ورحمته ملازمة لوجوده:

(وكان الله عليماً حكيماً وكان الله غفوراً رحيماً)

كان إذا جاءت مع اسم الله الأعظم تشير إلى هذه الصفة أو هذا الاسم متلازماً مع الذات الإلهية تلازماً وجودياً، فوجود الله عز و جل من لوازمه أن الله غفور رحيم تلازماً وجودياً، بحيث إن الصفة لو زالت عن الموصوف زال، فترابط الصفة مع الموصوف ترابطًا وجودياً هذه أقوى درجة في الترابط.

كلمة منذرين دليل رحمة الله عز وجل:

نقول هذه طائرة غالية الثمن وقد تقدم بلا ثمن أحياناً فهذه الصفة ليست ملازمة لوجودها، طائرة قدمت بلا ثمن، قد تقول هذه الطائرة جميلة جداً قد تحترق تصبح غير جميلة أي أية صفة تلازمه هي صفة طارئة أما إذا وصفتها أنها تطير؛ فالطيران صفة مترابطة مع الموصوف ترابط وجودي فإذا ألغي الطيران ألغيت الطائرة، هذه نقطة دقيقة جداً فحينما يصف الله جل جلاله ذاته بأنه كان عليماً ؛ أي علمه أزلي أبدي ملازم لوجوده مادام موجوداً فهو يعلم أنها قضية ثابتة مقطوع بها

(إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)

فالإنذار: مثلاً أنت جالس في مكان و رأيت طفلاً يقترب من المدفأة فلماذا تقوم من مجلسك و تصيح ؟ لماذا ؟ إنه دليل رحمتك، أما لو فرضنا جندياً في المعركة وتقدم العدو أمام لغم، فهل ينبهه ؟ لا، ليس معقولاً أن ينبه، هو ينتظر أن يقع في هذا اللغم (الرحمة تقتضي الإنذار) أما الحرب فتقتضي إيقاع الأذى بالآخرين، فكلمة منذرين دليل رحمة، وهناك أشخاص أحياناً يتلافون وقوع الأخطار برحمة في قلوبهم لكن الذي لا يعبأ أن يقع ألم شديد بمخلوق فهذا دليل على ضعف رحمته.

الإنذار صفة تؤكد رحمة المنذر دائماً:

إذا معنى

(إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)

الإنذار دليل رحمة الله عز وجل فربنا عز وجل دائماً ينذر عباده من مغبة أعمالهم (يقول الأب انبرى لساني) فهل من المعقول أن يرى أب ابنه مقصراً بدراسته ويبقى ساكتًا ؟ ولا حركة، يقول هو حرّ ويعرف مصيره ! إن اجتهد له وإن لم يجتهد فعليه، فهذا ليس موقف أب أبداً، موقف الأب ينذر ويحذر وينصح ويتابع الأمر، أي يقول لك انبرى لساني وأنا أنصح ابني ليدرس فالإنذار صفة تؤكد رحمة المنذر دائماً:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(3))

(سورة الدخان)

القرآن الكريم كتاب هداية أنزله الله عز وجل:

(فيها)

(سورة الدخان)

في هذه الليلة التي نزل فيها القرآن.

(يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(4))

(سورة الدخان)

الآية دقيقة جداً، يفرق: يتضح، يبين، ينجلي.

(كل أمر)

من الحكمة أن يبين، وبعض الأحيان ينتظر الإنسان أن يجد في القرآن كل شيء، نعم هو كتاب هداية ولكن هل أنواع الفلزات واردة في القرآن ؟ لا ليست واردة، ذلك لأنه كتاب هداية وكذلك هل وردت الصفات الكيميائية للرصاص في القرآن ؟ لا ليست واردة، فهذه الأمور متعلقة بالدنيا والعلماء عامة وعلماء الفيزياء خاصة هم المعنيون بمتابعتها.

فالقرآن هو كتاب هداية والله عز وجل هناك أوامر بينها و قضايا أغفلها، فالذي من الحكمة أن يبينه بينه والذي أغفله فمن الحكمة أن يغفله. إذًا فيها يفرق: يبين، يجلي، يوضح كل أمر من الحكمة أن يبين، أي هنالك اصطفاء بكتاب الله.

الاصطفاء في القرآن الكريم:

القرآن سكت عن قضايا فمثلاً لم يذكر أنواع الطعام، أي كُلْ ما شئت ولكن من غير إسراف ولا مخيلة، فلنفترض أن إنسانًا أكل أرزاً والثاني برغلاً والثالث فاصولياء وآخر باملياء، فما الحكم الشرعي في ذلك؟ ليس هناك أي شيء، فهذه الأمور سكت الله عنها.

ومثلاً لبس أحدهم ثياباً بيضاء والآخر ثياباً ملونة. فاللباس يجب أن يكون ساترا للعورة والطعام يجب أن يكون حلالاً طيباً.. وكل واشرب من دون إسراف ولا مخيلة.

وكذلك التفاصيل المتعلقة بالبيوت، عدد الغرف، والنمط.. وقضايا لا علاقة لها بالدين، فمسكوت عنها.

أما قضايا المرأة فربما تؤدي للفساد أو إلى البعد عن الله عز وجل، ففيها تشريعات. وكذلك قضايا كسب المال فربما أدى هذا إلى انحراف، ففيها تشريعات. فكل قضية من الحكمة أن تُبَين بيّنها الله عز وجل، أي أنت مثلاً في محطة وقود ولديك مكان للوحة، فماذا تكتب في هذه اللوحة ؟ قد تكتب ألف إعلان و لكن هنالك إعلان مصيري: ممنوع التدخين، فالدخان ربما سبب حرق كل هذه المحطة، أو

أطفئ المحرك مثلاً فيختار الإنسان إعلانات أو بيانات متعلقة بسلامة الناس في هذه المحطة. إذاً ليس كل شيء يكتب في هذه المحطة، فلو فرضنا كتب فيها السكر مادة غذائية، فليس لها علاقة بالمحطة، بل يجب أن يكتب شيئاً بسلامة المحطة.

مجموع القضايا التي عالجها القرآن تام لا يحتمل قضية جديدة:

القصد أنه ليس كل شيء في الحياة ذُكر في القرآن، أما كل شيء أنت بحاجة إليه فتجده في القرآن، وكل شيء من الحكمة أن يعالج، عولج في كتاب الله، فهذا معنى قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (3))

(سورة المائدة)

اليوم أكملت (الكمال نوعي)، وأتممت (الإتمام عددي)، مجموع القضايا التي عالجها القرآن تام لا يحتمل قضية جديدة، كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، طريقة المعالجة كاملة، لا يحتاج كتاب الله عز وجل أن تعالج الموضوعات معالجة أعمق أو معالجة أوسع أو أطول أو أغنى، فمن قال ذلك فكلامه مردود.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (3))

(سورة المائدة)

وأما القضايا التي سكت عنها القرآن ليس من الحكمة أن تعالج إطلاقاً.

القرآن الكريم منهج الناس جميعاً:

إذاً:

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(4))

(سورة الدخان)

الله عز وجل ذكر قصة سيدنا يوسف، ذكر تفاصيل وأغفل أخرى، فالذي ذكره متعلق بالحكمة، بالمغزى من القصة، والذي أغفله لا علاقة له بالمغزى، إذاً في هذه الليلة المباركة التي عاد خيرها على البشرية جمعاء، في هذه الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن (ذلك المنهج و الدستور) للبشرية جمعاء. في هذه الليلة يفرق - يبين - يجلي - يوضح- كل أمر من الحكمة أن يوضح، و كما تعلمون كل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقع، و إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق. أي كل شيء وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، كل شيء وقع ينبغي أن يقع، وليس في الإمكان أبدع مما كان، هذا معنى:

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(4))

(سورة الدخان)

كلام رب العالمين لا يوازى بكلام آخر أبداً:

(أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا)

الناس لا يستوعبون هذا المعنى، أي يوازن بين تشريع البشر وتشريع خالق البشر، ليس هناك موازنة مطلقاً، ويوازن بين قول قاله فلان مهما كان اسمه كبيراً و بين كلام خالق الكون.

(أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(5))

(سورة الدخان)

هذا كلام رب العالمين، هذا كلام الذي خلق السماوات والأرض، هذا كلام الخالق البارئ المصور، رب العالمين، بيده مقاليد السماوات والأرض، العليم، الحكيم، القوي، هذا شيء لا يوازى بكلام آخر.

نزول القرآن الكريم في ليلة مباركة من الله عز وجل ليرحمنا و يتجلى علينا:

(أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا)

من عند الله خالق السماوات والأرض،

(إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

ما دام فعلُ كان جاء مع ذات الله عز وجل، فالله عز وجل من أسمائه: الرحيم، وهذا من أسمائه الحسنى: الحكيم، الرؤوف، العدل.

(إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

: لماذا أنزلناه في ليلة القدر ؟

(فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ)

ولماذا في هذه الليلة ؟

(يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

قال:

(رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)

إعرابها مفعول لأجله، كأن تقول وقف الطلاب احتراماً للمدرس، لماذا وقفوا ؟ المفعول لأجله يجاب عنه بكلمة لماذا، لماذا أنزل الله هذا القرآن في ليلة مباركة ؟ ولماذا أنذر الله عباده بهذا القرآن ؟ وأرسل أنبياءه ؟ لماذا أرسل نبيه بهذا القرآن ؟ قال:

(رحمة من ربك)

ليرحمنا، ليتجلى علينا، ليسعدنا في الدنيا والآخرة، خلقنا ليسعدنا، خلقنا ليرحمنا، لا كما يقول الجهلة.

المصائب مناقضة للرحمة و لكن تقتضي رحمة الله عز وجل أن يفعل هذا ليردك إليه:

إخواننا الكرام، لماذا صنعت السيارة ؟ صنعت لتسير، سيرها علة صنعها، كان من الممكن أن تشتري سيارة بلا عجلات وترفعها على أعمدة، ولكن هذه ليست سيارة، السيارة صنعت من أجل أن تسير، إذاً لماذا فيها مكابح ؟ المكبح يفعل فعلاً مناقضاً لحركتها، ومهمته أن يوقفها ؟ فتشعر أحياناً أنه ضروري لسلامة صاحبها، وأحياناً السلامة ليست بالحركة بل بالوقوف، لذلك مع أن المكبح يناقض علة صنع السيارة فهو يوقفها، لكنكم تعلمون جميعاً أن إيقاف المركبة هو أسلم شيء أحياناً في السيارة، فإذا وقفت ينجو صاحبها من الهلاك، أما إذا بقيت تسير فيهلك صاحبها، فلو أن طريقاً تنتهي بواد وليس هناك إشارات مسبقة، فلما فوجئ السائق أنه اقترب من الوادي يقف، فالوقوف ضمناً فيه سلامة السيارة. ولذلك فالمصائب هي مناقضة للرحمة فهو خلقنا ليرحمنا وليسعدنا، فالفقر والمرض والقهر والسجن هذه الآلام كلها مكابح، تقتضي رحمة الله عز وجل أن يفعل هذا لذلك قال تعالى:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147))

(سورة الأنعام)

فبعض الأحيان تكون كل سعادتك على أثر مصيبة، كل السعادة بعد مشكلة، بعد ضائقة، وملمة، وتضييق، وتشديد. فالسعادة قد تكون لفتة إلى الله عز وجل وهذه اللفتة تحتاج إلى صعق أحياناً. القلب يقف أحياناً فيستخدم أطباء القلب صعقة كهربائية، فبهذه الصعقة ينبض والصعقة مؤلمة جداً ولكن هذا الألم الشديد دفع القلب إلى الحركة.

الله عز وجل يعلم السر و ما يخفى:

إذاً:

(رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(6))

(سورة الدخان)

هو السميع لما تقول، العليم لما تنطوي عليه نفسك، فلو لم تتكلم يعلم، فنحن مع بعضنا: أنت لا تعلم إلا إذا قلت لك ولكن إذا بقيت ساكتاً فأنت لا تعلم، مثلاً أقول لك إني أعاني هذه المشكلة: فالآن علمت بهذه المشكلة بعد أن أعلمتك بها أما لو بقيت ساكتاً فأنت لا تعلم، وربنا عز وجل إنه هو السميع العليم، فإن تكلمت يعلم فهو السميع، و إن لم تتكلم يعلم فهو العليم أي يعلم ما تقول، و مالا تقول، وما يخفى عنك،

وما أعلمته وما أسررته لذلك قال سيدنا علي: علم ما كان و علم ما يكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فمثلاً إنسان على الدخل المحدود جيد السيرة فلو صار معه ألف مليون لا يعلم حاله إلا الله ؛ على الدخل المحدود جيد أما على الغنى فقد ينتكس و قد يغدو إنساناً آخر.

من كان الدين خارج اهتمامه لا يسمع مهما بينت له:

(أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(5)رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(6)رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(7))

(سورة الدخان)

معنى موقنين هناك شرح لغوي دقيق، الفرق بين التقي والمتقي: المتقي يريد أن يكون تقياً، فهو غير التقي، فالتقي بلغ التقوى لكن المتقي في طريقه إليها، ويريد أن يكون في هذه المرتبة، والموقن هو الذي يبغي اليقين، فالمشكلة هو أن في الآية إشارة دقيقة ؛ فأنت إذا أردت أن لا تعلم، لا تعلم، ولن تعلم إلا إذا أردت أن تعلم، ولهذا قال بعضهم: لم أجد أشد صمماً من الذي يريد أن لا يسمع، تجد أحياناً إنساناً لا يعنيه من كل هذا الموضوع شيء، فلو دعوته لسماع شريط أو قراءة مقالة أو حضور درس فلا الدرس و لا الشريط و لا القراءة يعنيه، والدين خارج اهتمامه إجمالاً و تفصيلاً، ولذلك مهما حاولت أن تبين و أن تفصل فهو لا يسمع، هو في واد و أنت في واد.

الإنسان مخير لا مسير:

الله عز وجل قال:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

لكن أنت أيها الإنسان لا تعلم ولا توقن إلا إذا أردت أن تعلم وأردت أن توقن، فأحياناً يدخل الإنسان إلى محل تجاري و يكون في المحل مئات الأنواع من البضائع، هو يبحث عن نوع واحد من البضاعة فلو أن البائع عرض عليه بضائع أخرى يبين له ميزاتها (صفاتها) وسعرها الرخيص لوجود رخصة فالإنسان يبغي حاجة واحدة من كل هذا المحل، فلذلك مهما تكلم البائع وبيّن وفصّل وبيّن مميزات الحاجة وأسعارها الرخيصة والتي لا تنافس، يجبه هذا الإنسان بأن كل هذه الأمور لا تعنيه هو يريد حاجة معينة. فأنت لما تبين لإنسان شارٍ ميزات حاجة لا يريدها فالكلام موقف مضحك، وجهد ضائع، وجهد غير مجد لا تبين لإنسان ما لا يريد. قال:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

فأنتم لا تعلمون قيمته ولا عظمته و لا ربوبيته ولا قدرته ولا رحمته إلا إذا كنتم موقنين، أي إلا إذا أردتم اليقين. ولذلك فالإنسان مخير، وأبو لهب عاش مع النبي صلى الله عليه وسلّم، أنت تتمنى أن تراه في المنام فلو رأيته في المنام أعتقد بأنك تبقى أشهراً و أنت مغموس في سعادة لا توصف، وأبو لهب كان معه، رآه رأي العين لكنه لم يرد أن يؤمن.

إذا أردت الحقيقة كل شيء يعلمك:

(إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(7))

(سورة الدخان)

أيْ إذا أردتم اليقين حتى يؤثر بكم. أي أحياناً إن لم يكن في آلة التصوير فيلم فمهما وقفت أمام منظر جميل وجهدت أن تجعل الشجرة ضمن هذا المنظر وأن تضبط المسافة والسرعة و الفتحة وحاولت أن تعمل أرضية من الورد مثلاً و فوق الشجرة منظر بحر.... كل ذلك بلا جدوى، فلا تتعب حالك كل هذا الجهد ضائع لأن الإنسان رفض الهدى، أما إذا أردت اليقين كل شيء يعلمك، فأحياناً الكافر يعلمك و كلمة تعلمك، ومنظر. وقد سمعت عن شيخ من شيوخ الأزهر بدأ بطلب العلم (غير الأنصاري) بالخمسين بدأ يتعلم القراءة والكتابة، وبالخمسين حفظ القرآن و طلب العلم و ما مات إلا شيخاً للأزهر و لكن من علمه ؟ نملة علمته، صعدت على الحائط أمامه 48 مرة وتقع وكان عمره آنذاك 48 سنة فقال النملة أذكى مني ؟ 48 مرة صعدت ثم وقعت و هي تعيد الكرة فهذا رجل اتعظ بالنملة و طلب العلم و ما مات إلا شيخاً للأزهر، نملة علمته. أي أنت إذا أردت الحقيقة كل شيء يعلمك، فالكون و الحوادث وكل شيء يعلمك. بحياتنا آلاف المواعظ، فالحوادث التي نحياها، ونعيشها، ونراها، ونسمع بها هي مواعظ كبيرة جداً. والقرآن فيه كل شيء، السنة، وكذلك السيرة، والفقه.

من أراد أن يرى الله فالله عز وجل لا إله إلا هو:

(إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(7))

(سورة الدخان)

أي إذا أردتم اليقين، أي أردتم أن تروا ربكم و رب آبائكم الأولين.

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(7)لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

(سورة الدخان)

لا يوجد غيره، كل ما سواه صورة، قال تعالى:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية: 17)

ما هذه الآية ؟

(وما رميت)

الله عزا الفعل له،

(إذ رميت)

لم ترم أنت

(ولكن الله رمى)

عدم خوف المؤمن لأن هذه الحياة بيد الخالق سبحانه:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (10))

(سورة الفتح)

(اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: 54)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: 123)

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(7))

(سورة الدخان)

بيده الحياة وبيده الموت ولذلك فالمؤمن لا يخاف لأن هذه الحياة بيد الله، لا يستطيع مخلوق أن ينهيها و لو رأيت في الظاهر أن إنساناً حكم على إنسان بالإعدام، فالمقتول يقتل في أجله، وهذه الحياة بيد الله، هو المحيي وهو المميت، والإنسان إذا أيقن أن الحياة بيد الله والموت بيد الله سعد واطمأن وارتاح وصار شجاعاً وترك النفاق.

الحياة و الرزق بيد الله وحده:

شيئان خطيران: الحياة والرزق والله عز وجل قطع أمر العباد عن موضوع الحياة والرزق، فالحياة بيد الله والرزق بيد الله، و لا يستطيع مخلوق أن يمنح الحياة و لا أن يسلب الحياة، ولا أن يعطي ولا أن يمنع.

(مَا يَفْتَحِ اللّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية: 2)

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

(سورة الدخان)

لا معبود بحق إلا هو، ولا رازق، ولا معطي، ولا مانع، ولا رافع، ولا خافض، ولا ممد، ولا باسط، ولا قابض، ولا معزّ، ولا مذل إلا الله هذه معناها

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

من أيقن أن الأمر كله بيد الله عز وجل فلن يعبد غيره:

إذاً: لا معبود بحق إلا هو، ولا يستحق أحد العبادة إلا الله، لأنه بيده كل شيء، أي أنت قد تكون موظفاً بدائرة فتعرف من أقوى واحد فيها فتجد بأن كل الولاء له، قد يكون أقل من قمة الدائرة لأسباب أو لأخرى، قد يكون معاون المدير وأقوى من المدير فيكون الولاء كله لهذا وليس للآخر، شعرت بأنه الأقوى فسلكت سلوكاً طبيعياً، فأنت تمنح ودك واهتمامك وكل وسائل التكريم لمن بيده الأمر في عملك. فإذا أيقنت أن الأمر كله بيد الله، وحده لا شريك له.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(8))

(سورة الدخان)

فالله عز وجل أليس برب الصحابة الكرام الذين أعطاهم و نصرهم و أيدهم ومكنهم في الأرض وطمأنهم و استخلفهم ؟ أليس ربنا ربهم ؟ أليس ربهم ربنا ؟ هو هو، العلة فينا، في تقصيرنا.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59))

(سورة مريم)

فاعتقد أنه ربكم ورب آبائكم الأولين، هو هو.

من كانت عقيدته مفعمة بالشك و سلوكه لعب خسر الدنيا و الآخرة:

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

أي أن كلام الله موجز و قد يكون إعجاز كلام الله في إيجازه.

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

أي عقيدتهم مفعمة بالشك و سلوكهم لعب، فبعض الأحيان تجد الناس منهمكين في لعب وفي مباريات ومنافسات، فتقول أمَعْقُول ثمانمئة مليون إنسان يتابعون مباراة بالعالم ؟ يلعبون، هي فعلا أساساً لعبة،

يلعبون (أي عمل بلا هدف) فلو أن فلان أدخل هذه الكرة، ماذا حدث في العالم ؟ هل حصل رخاء اجتماعي ؟ وهل حصل تكافؤ فرص ؟ وهل التغى الفقر في العالم ؟ التغى الظلم في العالم، فماذا حدث ؟ ما حدث شيء، اللعب عمل بلا جدوى، ولا هدف، وأحياناً يرى الإنسان طفلاً صغيراً يمسك بعلبة ثقاب ويسيرها كسيارة، وهو فرح بذلك، وإذا أخذها أحدهم منه يبكي بدموع سخية، فهو تصور علبة الثقاب سيارة يسيرها على الأرض، فأنت ترى صغر عقل هذا الصغير، علبة ثقاب يمسكها الطفل ويحدث لها صوتاً وكأنها سيارة لو أخذتها منه لبكى، فوالله الذي لا إله إلا هو لو نظر مؤمن (أكرمه الله بسعة الأفق والقرب من الله عز وجل) إلى إنسان بعيد عن الله، غافل، غارق في هواية من هوايات الأرض و الله يراه مثلما يرى الكبير الطفل الصغير بهذه الطريقة: ضيق الأفق وسخيف العقل يعمل عملاً لا طائل منه و يستهلك وقته بلا جدوى.

لا تصح حركة الإنسان إلا إذا عرف الهدف من وجوده في هذه الدنيا:

الله عز وجل قال:

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

أي أوصاف ربنا عز وجل هي أوصاف بليغة، صفتان: في عقولهم شك و في حركتهم لعب، والآن أحياناً تجد بعض الألعاب تكلف مئات الملايين، ألوف الملايين، وتجذب مئات الملايين و في النهاية ليس لها هدف إلا إملاء وقت فراغ أو استقطاب الناس، طبعاً الإنسان بلا غاية، خلق بلا غاية، بلا هدف، تصور أن إنساناً ذهب لفرنسا ليدرس (مثل واضح) أي هو راح لمهمة واحدة أن يأتي بدكتوراه، و يجوز بفرنسا أشياء ملهية جداً فهنالك المتحف والمقاصف و المسارح و فيه مكتبات ودور لهو، أشياء كثيرة تجذبه، لكن إذا غفل الإنسان عن مهمته و عن هدفه الكبير تصبح حركته عشوائية. لنضرب هذا المثل: أحدهم ذهب إلى فرنسا ونام في الفندق وبعد أن استيقظ لديه سؤال كبير جداً، لماذا أنا هنا ؟ كل إنسان مسافر لديه هذا السؤال: لماذا أنا هنا ؟ أي إن كنت قد جئت تاجراً فتجده باليوم التالي بعد الثامنة صباحاً يأكل و يلبس ومعه العناوين، إلى أين ذهب ؟ إلى المعامل و المؤسسات لأنه جاء هذه البلدة تاجراً فالحركة صحت لأنه عرف الهدف.

آخر أتى طالب علم، نام في الفندق استيقظ صباحاً، وتناول طعام الفطور، ولبس وراح إلى السوربون، فلأنه جاء طالب علم توجه نحو المعاهد و الجامعات.

الآخر أتى سائحاً، نام بالفندق استيقظ تناول طعام الفطور ثم لبس بعدها و ذهب إلى برج إيفل مثلاً، فما الذي حدد الحركة: معرفة الهدف. وأنت في الدنيا، متى تصح حركتك ؟ تجد بأنك رتبت زواجك مع

عملك ومهنتك وتربية أولادك ولهوك وحزنك كله ضمن منهج واحد لهدف. لا تصح الحركة إلا إذا عرف الهدف.

من جاءت حركته موافقة لهدفه سعد في الدنيا و الآخرة:

الآن عرفنا الهدف، كيف نسعد ؟ لا تسعد إلا إذا جاءت الحركة مطابقة للهدف. فمثلاً (أنا أستخدم هذا المثل كثيراً) طالب على وشك أن يؤدي امتحاناً صعباً بآخر مادة في سنة التخرج و اختصاصه مهم جداً ونادر ويعلق أهمية كبرى على نجاحه، والآن جلس في غرفة مظلمة قميئة تحت الدرج وفتح الكتاب المقرر وقرأ بشغف ونهم واستوعب وحفظ وغلب على ظنه بأنه سينجح في هذه المادة، تجد أعصابه مرتاحة لأنه الدراسة والمذاكرة والفهم والتحضير ومناقشة الفقرات في الكتاب تفوق فيها، إذا غلب على ظنه أنه سينجح، حقق هدفه فسعد.

وهذا الطالب نفسه لو جاء أصدقاؤه و أخذوه قبل الامتحان بأسبوع إلى مكان جميل على البحر أو في جبل أخضر وأطعموه أطيب الطعام و أصدقاؤه يحبهم حباً جماً فالمكان جميل وراحة وكلام لطيف وطعام طيب، فلماذا ينقبض ؟ لأن هذه الحركة، والنزهة، تتناقض مع الامتحان، ويحس بالانقباض، كلمتان: متى تصح حركتك ؟ إذا عرفت هدفك، والثانية متى تسعد ؟ إذا جاءت حركتك موافقة لهدفك. فالذي ذهب لفرنسا ببعثة ولا يكون معه دكتوراه، فأمضى وقته كله في الملاهي و في المتاحف وفي المتنزهات، يحس بانقباض وضيق عميق لأنه لم يأت ليتنزه بل أتى ليدرس.

النفس البشرية لا ترتاح إلا إذا عرفت بأنها مخلوقة لمعرفة الله و طاعته:

النفس البشرية لا ترتاح إلا إذا عرفت هدفها و عرفت بأنها مخلوقة لمعرفة الله و لطاعته، فتجد المسلم قد تكون حياته خشنة، وقد يكون وقته كله ملآن بالمشاغل لكنه سعيد لأنه شاعر بأنه يتحرك ضمن هدف واضح. هذه الدنيا هي دار ابتلاء وليست دار استواء، ودار تكليف لا دار تشريف، ودار عمل لا دار جزاء، فإذا جهد كالتاجر في الموسم لا يعرف إن كان قد أكل أم لا من كثرة البيع والمردود، وهو يتمنى أن يكون في بيع كثير ولا يعود إلى بيته، أحياناً لا يكون هنالك بيع إطلاقاً فهو مرتاح ولكن متضايق لكساد بضاعته وكثرة التزاماته فالإنسان لا يسعد إلا إذا جاءت حركته اليومية مطابقة لهدفه، ولا يعرف صحة الحركة إلا إذا عرف الهدف الحقيقي، لذلك أيها الأخوة أن تعرف لماذا خلقك الله عز وجل ؟ ولماذا أنت في الدنيا ؟ و ماذا قبل الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ و ما البرزخ ؟ و ما الدار الآخرة؟ فهذه أساسيات يجب أن تعرفها قبل كل شيء و لاشيء يعلو عليها، ولديك أولويات في حياتك

أن تعرف من أنت، هويتك، هناك أناس يعيشون على هامش الحياة، أي كالناقة عقلها أهلها ثم أطلقوها لا تدري لم عقلت و لم أطلقت ؟

فإنسان يسير يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، وأكثرية الناس بهذا الشكل، وكذلك الناس، الزي، والترتيب، وكذلك جميع التجار، وكل الأعراس، مع الناس. لا يكن أحدكم إمعة، من هو الإمعة ؟ الذي يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساؤوا أسأت، أي فكره معطل وهو أخطر شيء أودعه الله فيه.

شعور الإنسان أن الله عز وجل وعده بالجنة هذا الوعد ينسيه كل متاعب الحياة:

فنحن يجب أن نعرف لماذا خلقنا ؟ و ما المهمة التي أوكلت بنا ؟ وما ذا بعد الموت ؟ لذلك عندئذ تتوقف كل حركاتك، نشاطك، مهنتك، بيتك، أولادك، وحتى أوقات الفراغ تملؤها وفق هذا الهدف، واللهو الذي سمح الله به تفعله وفق هذا الهدف، والعلاقات الاجتماعية، والمناسبات، وكل حركة، وكل سكنة مبنية على هدف مسبق نابع من عقيدتك الصحيحة. ولذلك حضور مجلس العلم ينمي في الإنسان التصورات الصحيحة و المقتبسة من منهج الله عز وجل.

الإنسان يجد نفسه بعد فترة حركته صحيحة، سلوكه منضبط، علاقاته كلها وفق منهج الله عز وجل، هذا يعطيه راحة نفسية فتجد المؤمن سعيداً، أسباب سعادته شعوره بأنه يسير بشكل صحيح و كذلك شعوره بأن في انتظاره عطاء كبيراً، شعوره بأن الله عز وجل وعده بالجنة و هذا الوعد ينسيه كل متاعب الحياة. ومرة قال لي أحدهم أنت تقول إن المؤمن سعيد و لكني أراه كبقية الناس فقلت له: إذا افترضنا أن شخصاً فقيراً دخله أقل من مصروفه بكثير ولكنه فجأة ورث مبلغاً كبيراً جداً، وليتمكن من الحصول على ميراثه يحتاج إلى عامين من معاملات إدارية مختلفة فلماذا هو في هاتين السنتين هو أسعد الناس ؟ علماً بأنه لم يحصل على شيء لكنه موعود. الله قال:

(أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا)

(سورة القصص الآية: 61)

أي سر سعادة المؤمن الله وعده بالجنة و الدنيا مؤقتة وهو راضٍ عن حاله.

الخاسر من علّق آماله كلها على الدنيا و العاقل من علّق سعادته بالآخرة:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص الآية: 61)

تجد الواحد منا يرتب ويرتب، لديه قلق عميق فلو مات فجأة لأن عنده مشكلة متعلقة بالقلب تجده انهار وكل هذا التعب على الأرض لغيره، فلما يعلق الإنسان أمله بالدنيا فهو يقامر بسعادته مقامرة ويغامر بها. أما إذا علق سعادته بالآخرة تجده يقبل كل مشكلة، يمتصها امتصاصا لأنّ هدفه حاصل. إذا:

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

أرجو من الله عز وجل أن نكون في يقين و لا نلعب، نتحرك وفق ما يرضي الله، إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها، وشرف المؤمن قيامه في الليل وعزه استغناؤه عن الناس.

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الدخان 044 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 10- 36 ، التأديب الإلهي للإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-08-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الدخان.

من سنن الله في خلقه نقل الحق إلى الناس:

ربنا سبحانه وتعالى يقول في الآية العاشرة:

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(10)يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(11)رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(12)أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(13)ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ(14))

(سورة الدخان)

أيها الأخوة: قبل أن نمضي في الحديث عن هذه الآيات، وعن اختلاف العلماء في تفسيرها، لابد من مقدمة دقيقة تلقي ضوءاً على مضمون هذه الآيات.

أيها الأخوة: ربنا سبحانه وتعالى، من سننه في خلقه، أنه ينقل الحق إلى الناس عن طريق الأنبياء المرسلين والدعاة الصادقين، يبلغ الناس الحق بطريقة أو بأخرى، عن طريق نبي أو رسول أو داعية أو عالم أو عن طريق مؤلف..... الخ. هذا الإبلاغ، والموقف الذي ينبغي أن يقفه الإنسان من بلاغ ربه أن يستجيب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال)

الاستجابة هي الموقف الذي ينبغي أن يقفه الإنسان من بلاغ ربه:

كل واحد من الأخوة الأكارم ينبغي له إذا سمع مقالة تدعوه إلى الهدى، أو خطبة تدله على الخير، أو جلس في مجلس علم بين له الطريقة إلى الله، أو قرأ كتاباً من الكتب المعتمدة التي تبين له الحقيقة الدينية، أو سمع شريطاً، أو أي أسلوب من أساليب إبلاغ الحق إلى الناس، يجب عليك أن تستجيب وأن تعلم أن هذا بشكل أو بآخر من عند الله. و لاسيما إذا جاءت الدعوة مؤيدة بالآيات الكريمة و مفسرة وفق القواعد الصحيحة والسنة الصحيحة المطهرة، إذا دعيت إلى الحق عليك أن تستجيب، فإن لم

تستجب فحرصاً على مصلحتك ورحمة بك ودفعاً لك إلى الهدى، عندئذ لابد من المعالجة، والله عز وجل عنده أنواع منوعة وأساليب عديدة من أنواع المعالجة لأنك كلك في ملكه، أجهزتك كلها، وأعضاؤك، وأنسجتك، وأحياناً النسيج ينمو نمواً عشوائياً، فالأنسجة والأعضاء و الحواس والأجهزة، كل شيء تتمتع به بملك الله عز وجل. ومن حولك الزوجة والأولاد، ومن فوقك ومن تحتك الرزق، وكل شيء بيد الله.

من لم تستجب لله في الدعوة السلمية نقل نفسه لمرحلة الثانية هي الشدة:

لذلك ربنا عز وجل حينما يصمّ الإنسان أذنيه عن سماع الحق، وحينما تأتيه الدعوة شفهية، وسلمية، ولطيفة، ولا يستجيب لها، يكون هو باختياره عرّض نفسه لمرحلة ثانية في الدعوة، المرحلة الثانية هي الشدة.

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

وكلام واضح كالشمس، جلي، في أكثر آيات القرآن الكريم، إن لم تستجب بالدعوة الكلامية، وبالدعوة البيانية، واللطيفة، والسلمية، فأنت بمحض اختيارك نقلت نفسك إلى أسلوب آخر من أساليب الدعوة. والآن الدعوة عن طريق الشدة، إن لم تستجب لله بلطائف الإحسان، ساقك الله إليه بسلاسل الامتحان، إن لم تأته مسرعاً حملك أن تأتيه مسرعاً، وإن لم تأته مسرعاً طواعية حملك على أن تأته مسرعاً قهراً. والموقف الأول أكرم وأعظم، وهذه الدنيا بين أيديكم، ما من قصة إلا وتؤكد هذه الحقيقة، ما من حدث إلا ويؤكدها.

فإن لم تستجب إلى الله في الدعوة السلمية الكلامية البيانية اللطيفة ؛ نقلت نفسك طواعية إلى المرحلة الثانية من مراحل الدعوة: البأساء والضراء، والهموم والأحزان، والأمراض والمشكلات، والقهر والقلق والخوف.

الإنسان باختياره وتقصيره ينقل نفسه إلى أسلوب آخر في الدعوة:

الآن لو أن الإنسان لا سمح الله دخل في المرحلة الثانية طواعية، فقد وضع نفسه في المرحلة الثانية، وأحياناً يقول لك الطبيب: هذا المرض يعالج بالحبوب إذا اعتنيت بأخذ الدواء، فإن لم تعتن بالدواء وتفاقم المرض فلابد من عملية جراحية، والأمر بيدك: إما أن تعالج معالجة لطيفة بحبوب بعد الطعام على شهرين أو ثلاثة، وإما إذا أهملت الحبوب ولم تعتن بالمعالجة الدوائية، فلابد من معالجة جراحية،

ساعتئذ هنالك تخدير وهناك غرفة عمليات وفتح بطن ومشكلات.. فالإنسان أحياناً هو باختياره وبتقصيره وعدم استجابته لربه ينقل نفسه إلى أسلوب آخر في الدعوة.

على كل لو أن الإنسان انتقل إلى المرحلة الثانية، فيسوق الله عز وجل إليه من الشدائد والضيق لعله يعود أو يرجع، والموقف الكامل أن يتضرع، ولو دخل إلى هذه المرحلة فعليه أن يقول يا رب تبت إليك، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى مناد في السماوات والأرض أن هنؤوا فلاناً فقد اصطلح مع الله. أيضاً شيء رائع جداً أن الإنسان حينما يدخل وهو لا يشعر بالمرحلة الثانية عليه أن يتوب إلى الله وأن يقلع وأن يتضرع.

من لم تُحْدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر:

أحياناً هذه الشدة يفسرها الإنسان تفسيراً أرضياً لا سماوياً، ويقول لك هذه هي الحياة: مد وجزر، يوم لك ويوم عليك، ويقول لك عندما تأتيه المصيبة: قلب لي الدهر ظهر المجن:

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(95))

(سورة الأعراف)

وشيء طبيعي، هكذا الحياة، لا يفسر الشدائد تفسيراً قرآنياً، كما أرادها الله أن تكون، لذلك قيل: من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر.

من لم يستجب لله هناك مرحلة ثالثة يؤدب الله بها عبده هي الإكرام الاستدراجي:

بعد ذلك فهنالك مرحلة ثالثة: مرحلة الإكرام الاستدراجي.

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ (95))

(سورة الأعراف)

كان هنالك شدة انفرجت فيقول الإنسان كانت الأمور صعبة فأصبحت ميسرة ولكن لم يعد الناس إلى الله عز وجل، هذه مرحلة ثالثة، كان هناك ضيق ؛ انفرج الضيق، كانت هناك أشياء صعبة المنال فأصبحت موفورة، والناس على ما هم عليه من فسق و فجور، أحياناً الله عز وجل يبدل الأسلوب: أولا دعوة كلامية بيانية لطيفة ثم معالجة بالسراء والضراء ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة، إذًا إكرام استدراجي، والموقف الكامل في الإكرام الاستدراجي الشكر.

القصم هو المرحلة الأخيرة من مراحل التأديب الإلهي:

إن لم يستجب بالدعوة البيانية ولا تضرع بالمعالجة التأديبية و لا شكر بالإكرام الاستدراجي فماذا بقي؟ بقي القصم:

(فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً (95))

(سورة الأعراف)

انتهى الأمر.

أيها الأخوة الكرام: هذا الملخص مستقى من آيات كثيرة، وهو من روح القرآن الكريم بأكثر من سورة و أكثر من موضع تؤكد هذه الحقائق. دعوة بيانية، معالجة تأديبية، إكرام استدراجي، القصم، من هو السعيد ؟ الذي يصغي إلى الحق بأذنه قبل أن تأتي المعالجة التأديبية، و إذا فاته الإصغاء إلى الحق بأذنه و عندما تأتي المعالجة التأديبية يتضرع إلى الله عز وجل، وإذا فاته التضرع ودخل في مرحلة ثالثة يشكر ويتوب، وإلا فلا بد له من حسم لهذا التردد وذاك التأرجح بين قيل وقال و فلان زعم كذا وفلان على حق وفلان على باطل، هذا الكلام ملخص الملخص.

الله عز وجل لو ترك الإنسان على اختياره لاستمرأ المعاصي والآثام:

الله عز وجل يقول:

(فَارْتَقِبْ)

(سورة الدخان)

(يا محمد) والارتقاب ليس للخير، فارتقب لهم أن يأتي العلاج الإلهي. وأنا أقول لكم هذا الكلام المستقى من هذه الآية، عندما يكون الإنسان غارقاً بالنعم وهو غارق بالمعاصي، غارق بالنعم وهو ملتفت إلى الدنيا وقد أدار ظهره للدين فرحمة الله به وحرصه عليه ورأفته به لابد من أن يساق إليه شيء ليصحو، فهو غافل، ومسترسل، فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل للناس ما يؤدبهم، ما يحملهم على التوبة، لكان معظم الناس من أهل النار.

أي لو أن الله عز وجل ترك الإنسان على اختياره ولم يسق له أية معالجة إطلاقاً فالناس يستمرؤون المعاصي والآثام، وفي الأعم الأغلب يعيشون لحظتهم فقط، والآن من هو الغبي ؟ الغبي الذي يعيش لحظته، في هذه اللحظة ليس فيه شيء، إذ يأكل كما يشتهي، و يشرب كما يشتهي، و يذهب إلى أي مكان يريد، ويلتقي مع من يحب، ويفعل ما يحلو له، ولا يعبأ بكل القيم والمبادئ، فهذا الإنسان هو

النموذج المعاصر، يعيش لحظته، يعيش واقعه، فإذا جاءه الموت فجأة، أو جاءه المرض بغتة، فعندئذ يقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24))

(سورة الفجر)

والذي يندم هو الغبي والعاقل لا يعمل عملاً يندم عليه، العاقل يرى الشيء قبل أن يصل إليه، ويعيش مستقبله والأقل عقلاً يعيش واقعه و الغبي يعيش ماضيه.

العاقل من أعدّ العدة لساعة الموت:

أيها الأخوة الكرام: هل يستطيع أحد على وجه الأرض أن ينكر وقوع الموت، أيوجد إنسان خلد ؟ أقوي أم ضعيف ؟ أعالم أم جاهل ؟ أمستقيم أم منحرف ؟ أي إنسان كان، وأي نوع فمحكوم علينا بالموت جميعاً، وهل هناك من حدث أشد واقعية وحتمية من الوقوع في الموت ؟ فمن هو العاقل ؟ الذي يعد له.

والحقيقة أيها الأخوة الكرام لكي لا يدخل الإنسان في متاهات التشاؤم، إذ لا علاقة إطلاقاً بين الموت والتشاؤم، فالموت حدث لابد منه وقد يأتي بعد ساعة وقد يأتي بعد خمسين عاماً، لكنه لابد من أن يأتي، وإذا أتى لا يؤخر ولا دقيقة، وما بعد الموت حياة أبدية سرمدية ؛ إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفد عذابها، فمنتهى العقل يقتضي أن تعد لهذه الساعة فلك أن تعمل، ولك أن تدرس، وأن تشتري بيتاً، وأن تؤسس مشروعاً، وأن تتزوج، وأن تنجب وأن تزوج بناتك.... وكل هذا مشروع، ولكن النقطة الدقيقة أن الله عز وجل نهى عن الهوى من غير هدى من الله. هناك ميول أودعها الله فينا، ميل أودعه الله فينا، إذا تحركت به وفق منهج الله فلا شيء عليك، أي إذا تمنى الشاب أن يتزوج، وأن يستقل ببيت صغير وأن يكون له عمل يدر عليه دخلاً معقولاً، فهل في هذا الميل ملامة ؟ لا، فهذا الهوى وفق منهج الله. أما إذا تطلع إلى الزنا، وخرج عن منهج الله فقد وقع في الإثم العظيم.

السعيد من استجاب لله ورسوله:

لو أن إنساناً أراد أن يعمل وأن يكسب المال بطريق مشروع فلا شيء عليه، وإذا أنفقه في الوجه المشروع فلا شيء عليه. الشيء الذي حرمه الله أن تتبع الهوى من غير هدى من الله.

الشيء الذي أود أن أقوله لكم: نحن أمام أربع مراحل: مرحلة الدعوة البيانية ومرحلة التأديب الإلهي والإكرام الاستدراجي والقصم. والسعيد من استجاب لله إذا دعي، والقرآن دعوة من الله، والحديث

النبوي الشريف دعوة من الله، والعلماء الأمناء على هذه الرسالة ؛ العاملون المخلصون الذين ينقلون لك ما في الكتاب والسنة بأمانة تامة ؛ من دون إضافة شيء أو حذف شيء هؤلاء أيضاً ينوبون عن النبي صلى الله عليه وسلم في إبلاغ الناس، فالسعيد من استجاب لله ورسوله إذا دعاه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال)

من لم يستجب لله فقلبه ميت لا محالة:

دقق في هذه الكلمة، فالإنسان إن لم يستجب فهو ميت ولو كان ضغطه 12 - 8 ونبضه 70 وعمل تحليلاً وكان كله كاملاً، فهذه الحياة لا قيمة لها، إنها حياة الجسد، أما قلبه فَمَيّت، إن لم يستجب فهو ميت. والله عز وجل قال:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

مقبورون في شهواتهم. قال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية: 21)

إذا جلست مع إنسان ساعات طويلة يحدثك عن كل شيء إلا عن الله واليوم الآخر وهذا الدين وماذا بعد الموت، هذه الموضوعات لا يفقه عنها شيئاً، فإذا طرقت بعض هذه الموضوعات تثاءب وتململ واعتذر وقام من المجلس، هذا ميت ومنتهٍ.

والطبيب إذا وضع يده على المريض وقال "خالص". تماماً والله أشعر أحياناً يوجد أشخاص "خالصون" فمهما حاولت تقرب، وتبعد، وتذكره بالموت، وبالآخرة وبالقرآن، يقول لك غيبيات ولنكن واقعيين، وكأن الموت غير واقعي وحسب اعتقاده، لنكن واقعيين:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم الآية: 7)

الموت تحفة المؤمن:

لذلك إذا سمح الله للإنسان أن يتعرف إلى الحق في الدنيا، وعرف سر وجوده، وعرف عظمة هذا الإله العظيم، عرف ماذا بعد الموت، فله عمل متعلق بالآخرة، وله عمل لا يبتغي به أجراً ولا سمعة ولا عطاءً ولا شكوراً.... إطلاقاً، له عمل وهو زاده في الآخرة.

أيها الأخوة الكرام: من هو الشقي ؟ ومن هو التعيس ؟ والخاسر ؟ والمخفق ؟ الذي يعمل للدنيا فقط والدنيا تنتهي بثانية واحدة، مثلاً أحدهم انتهى عمره أثناء عملية لوزات، وآخر أثناء عملية بحصة بالمرارة مات، أحياناً بلا سبب إطلاقاً.

مرة دعينا إلى مولد في بعض المساجد دخلت إلى المسجد واستقبلني أحد من أقام هذا المولد وصافحته ورحّب بي وقعدت في مكاني في المولد، شعرت بحركة غير طبيعية سألت فقالوا توفي الآن الذي استقبلك ! كان واقفًا فوقع ميتاً. فالموت قريب جداً وحينما يأتي تخسر كل شيء، الذي جمعه خلال سبعين عاماً يخسره بثانية واحدة إلا المؤمن فالموت تحفة المؤمن وعرس المؤمن، لأن كل هذه الحياة لهذه الساعة، ينتظرها بفارغ الصبر، تصور طالباً درس ليلاً نهاراً، صباحا ومساء، حتى أتقن الكتب لها، فقرع جرس الامتحان يلقي في قلبه الفرح، هو ينتظر هذه الساعة بفارغ الصبر ليصب علمه كله داخل الورقة، وليأخذ الدرجة الأولى ويتيه على زملائه بالفوز، فإذا تكلمت عن الموت من الناحية السلبية فأنا لا أنسى الناحية الإيجابية، والإنسان عندما يموت يلقى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

(سورة آل عمران)

الدنيا أحقر من أن تكون عطاءً لإنسان أو عقاباً له:

يا إخواننا الكرام: الإنسان إذا نقل اهتماماته و أهدافه للآخرة تهون عليه الدنيا، والله يرضيه منها بيت صغير ولقمة تمسك رمقه، ليس له طموح أكثر، الدنيا ماضية، دائماً أبداً تذكر: أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا. و هذه الدنيا أحقر من أن تكون عطاء لإنسان وأحقر من أن يكون الحرمان منها عقاباً لإنسان، لأنها زائلة، لنفكر في موضوع الأبد. فما معنى الإنسان عندما يموت إلى أبد الآبدين ؟ يا ترى مليون سنة، ألف مليون سنة، ألف ألف مليون سنة، ألف ألف ألف وأنا أقول هذا الكلام عشر ساعات مليون سنة، أكثر. إخواننا الكرام، أي رقم مهما بلغ فمثلاً واحد وأمامه أصفار بطول أربعين كيلو متر هذا الرقم صفر أمام اللانهاية، تصور رقم واحد بدمشق وأصفاراً حتى حلب، لأنقرة، لموسكو، للقطب، المحيط الهادي، القطب الجنوبي، إفريقيا، مكة، لِتبوك، لعمان، لدمشق أي رقم واحد وأمامه أربعون ألف كيلومتر أصفاراً وبين الصفرين 1 مم فهذا الرقم ضعه صورة والمخرج لانهاية فتكون القيمة صفر، بالرياضيات أكبر رقم إذا نسب للانهاية فهو صفر. والآخرة لانهاية،

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

فهذه الدنيا كلها هي سنوات محدودة، وكلها متاعب، فهل من المعقول من أجلها أن نضيع الآخرة، معقول من أجل امرأة نضيع ديننا، ومن أجل مبلغ من المال كبر أو صغر نضحي بقيمنا ومبادئنا، ولا يوجد عقل، فبالعقل تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

الله عز وجل يجعل التأديب من جنس الذنب:

أيها الأخوة: الآن الآيات من هذا المعنى، يوجد دعوة بيانية، تأديب، وإكرام استدراجي، وقصم

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(10))

(سورة الدخان)

يا محمد ارتقب لهؤلاء الكفار يوماً أسوداً، يوماً تأديبياً، وقلت قبل قليل إنسان منحرف وماله حرام لم يضبط جوارحه وفق منهج الله، ولم يقم الإسلام في بيته، لا يبالي بدخله أحراماً كان أم حلالاً، لا يبالي بإنفاق ماله، فهذا الإنسان ليس من باب التشاؤم، بل من باب رحمة الله به، وأن الله رب العالمين، وأنه الله لا يدع عباده معطلين من التربية، هذا الإنسان المنحرف لابد من أن يسوق الله إليه شيئاً ما: أنواع منوعة، فالصيدلية الإلهية فيها مليار دواء، وكل بلد له أساليب معينة، أحياناً يذهب الإنسان إلى بلد يقول لك هنا لا يوجد مشكلة، عند الله في هذا البلد تأديب من نوع ثان، وكل مكان فيه أساليب لربنا عز وجل بتأديب، وهذا هو الإنسان.

إخواننا الكرام: أي أقرب تأديب: جسم الإنسان مثلاً القناة الدمعية هي أضيق قناة في جسم الإنسان بين مؤق العين وبين الأنف، فلماذا الأنف رطب دائماً ؟ لأن فائض الدمع يصل للأنف، وهذه القناة الدمعية لو سدت صار فيضان دمع على الخد دائماً والدمع مادة قلوية، وبعد حين يصير مجرى أحمر، ويتخرش الخد، ودائماً بحاجة لمنديل لمسح الدمع، يعني حياة الإنسان تغدو جحيماً لو أن القناة الدمعية سدت.

مثل آخر: أحدهم يرغب بالتنزه في الطرقات أيام الصيف مساء ليمتع عينيه بمنظر الغاديات الرائحات، الله أدبه بارتخاء الجفون فنحن ننظر براحة والجفن مفتوح، وعندما ننام يرتخي الجفن بينما هذا الشخص يرتخي جفنه أثناء النهار ولا يستطيع أن يرى إلا إذا فتح عينيه بيديه ليرى، هذا تأديب وربنا عز وجل أحياناً يجعل التأديب من جنس الذنب كي يعلم العبد وكي يجعله موعظة للناس.

العاقل من اتعظ بغيره:

الدعاء الذي قرأته مرة وتأثرت به: اللهم لا تجعلنا عبرة لأحد من خلقك. فعلى الإنسان ألا يكون قصة فعندما ينحرف يصبح قصة، فالله قال:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

لما الإنسان ينحرف، ويتجاوز الحدود، ولا يطبق أمر الله عز وجل، ويظلم، ويبغي، يجعله الله قصة ليُتعظ به، فأنا أقول دائماً لإخواننا الحياة مسرح وفيها أماكن للمشاهدين وخشبة مسرح، المستقيم له محل مع المشاهدين يرى و يسمع فإن لم يستقم جرّ إلى خشبة المسرح ليكون قصة، ويشاهد، فإن لم يستقم على أمر الله جرّ إلى خشبة المسرح ليجري له حدث مؤلم يصبح قصة ومتعة للناس.

الآن اسمع ما الذي يتناقله الناس، أحيانا تجد قصة غريبة، أحياناً انهياراً لإنسان وأحيانا تأديباً قاسياً فالناس يتسلون بهذه القصص فالدعاء: اللهم لا تجعلنا عبرة لأحد من خلقك. أي ألا نكون قصة، فإذا سمع أحدنا قصة واتعظ فلا مانع، ولكن عليه ألا يكون هو نفسه قصة.

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ: من بعض تفسيرات هذه الآية:

1 ـ كنى الله عز وجل عن جفاف السماء و قحط الأرض بالدخان:

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(10))

(سورة الدخان)

من بعض تفسيرات هذه الآية أن سنوات القحط والمجاعة تجعل أمام العين غشاوة و هذه ثابتة علمياً، أي شدة الجوع تضعف البصر أو إذا السماء شحت بالأمطار سنوات جفاف، يصبح الجو مغبراً، أحياناً يغبر الجو وكأن فيه دخاناً من قحط السماء، ومن جفاف الأرض وكلكم يرى أول مطرة تأتي في أيلول يصبح الجو نقياً، كان مغبراً بآخر الخريف، جفاف فالجو كله يغبر، فإذا جاءت الأمطار فيُصبح الجو نقياً والأشياء متألقة، فربنا عز وجل كنى عن جفاف السماء وعن قحط الأرض وعن انعدام الرزق بالدخان، أو عن الغشاوة التي تكون على العين من شدة الجوع بالدخان، أي تأديباً.

من يعص ربه كأن لسان حاله يقول يا رب دمرني:

أنا كنت أقول لإخواننا إنه كلما رخص لحم النساء غلا لحم الضأن، وكلما قلّ ماء الحياء قل ماء السماء والدليل قوله تعالى:

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا لنفتنهم فيه)

(سورة الجن)

وحدثنا الله عن أهل مدين قال سيدنا شعيب: إني أراكم بخير (الخير وفرة المواد ورخص الأسعار) فلما قالوا ربنا باعد بين أسفارنا. فالمفسرون وقعوا في حيرة، فهل من المعقول أن يدعو إنسان الله أن يتلفه و يدمره ؟ فمعنى باعد بين أسفارنا، إن كانت البلاد خضراء ففيها مياه وينابيع وأنهار وفيها جنات وتكون الأسفار متقاربة والإنسان أحياناً لا يحتاج إلى حمل زاد إطلاقاً، والآن في بعض الأماكن التي تموج بالسكان كل مكان فيه حاجات ميسرة ولا يوجد مدن متمايزة ويقول لك إن العمران أصبح متصلاً، باعد بين أسفارنا أي يا رب امحق هذه الزراعة وهذه البساتين، والكلام غير معقول، إلا أن بعض المفسرين قالوا: حين يعصي الإنسان ربه وحينما يطغى و حينما يبغي كأن لسان حاله يقول يا رب دمرني، يا رب أفقرني، وأتلف مالي. فإذا كان الكسب حراماً كأنه يقول يا رب أقم حكمك فيّ، أتلف مالي، نحن لدينا قاعدة هناك لسان المقال ولسان الحال فعندما يعصي الإنسان فكأنه يقول يا رب أدبني، وأتلف مالي، ودمرني.

(يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(11))

(سورة الدخان)

2 ـ أو الدخان من أشراط الساعة:

وبعضهم قال الدخان من أشراط الساعة، ومن أشراط الساعة: الدجال والدخان وطلوع الشمس من مغربها ودابة الأرض ويأجوج ومأجوج، فهذه أشراط الساعة ومنها الدخان. فالتفسير الأول: أي قحط من السماء وأي سنة من سنوات الجفاف الشديدة و أي فقر شديد يلحق بالعباد هو بمنزلة دخان من السماء وأن العين من شدة الجوع ترى أنها مغشاة أو أن الجو مغبر وكأنه دخان.

التفسير الثاني: الدخان من علامات الساعة الكبرى، ومن علامات القيامة.

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(10))

(سورة الدخان)

أي دخان من أثر جهنم، من أثر نار جهنم وهذا الدخان يأتي قبل يوم القيامة.

(يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(11))

(سورة الدخان)

تضرع جميع الناس إلى الله عز وجل عند الشدة:

من شأن العباد:

(رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(12))

(سورة الدخان)

أي لا يوجد إنسان أثناء الشدة إلا ويقول يا رب عدت إليك أنقذني، وبالمناسبة هذا الالتجاء عند الشدة يستوي فيه كل الناس، لا فضل لك فيه، وأعتى الكفار يدعو ربه عند الشدة ويقول يا رب أنقذني، ولذلك فالبطولة أن تكون في الرخاء ملتفتاً إلى الله عز وجل، وأنت في بحبوحة وفي صحة، أما عند الشدة فكلهم يتضرع ولكن قد لا ينفع هذا التضرع.

(رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(12)أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(13))

(سورة الدخان)

استجابة الإنسان عند الشدة أقل من وضعه في الرخاء:

الإنسان وهو تحت الشدة تكون استجابته أقل من وضعه في الرخاء. أما إذا كان في رخاء ويوجد نبي ومعه أدله ومعه آيات وأشياء واضحة جداً، فهل يعقل أن تكون استجابته عند الشدة وهو في ضائقة كاستجابته وهو في بحبوحة:

(أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى (13))

(سورة الدخان)

كأن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن الإنسان حين الشدة، فقد تعمي بصره، وقد تربكه، والشدة قد تعطل فكره، قد تسحقه.

اتهام الكفار النبي الكريم بالكذب و الجنون لأن دعوته تتعارض مع شهواتهم:

(أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(13)ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ(14))

(سورة الدخان)

أي هناك من علمه هذا الكلام أو هو مجنون، نبي كريم على الله، معه وحي من السماء، ومعه كتاب وأخلاقه رضية، وما عُرف عنه كذب قط، صادق أمين، وعفيف ذو نسب، هذا النبي العظيم يقال عنه:

(مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ(14))

(سورة الدخان)

لأن دعوة النبي تتعارض مع شهوات الكفار، ولذلك ماذا يفعلون ؟ يلجؤون إلى رد هذه الدعوة عن طريق تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم.

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(15))

(سورة الدخان)

هذا الإكرام الاستدراجي:

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(15))

(سورة الدخان)

من رُفعت عنه الشِدّة و لم يتب إلى الله تعالى فلا يفرح بها:

النقطة الدقيقة أيها الأخوة، إذا كان الإنسان مقيماً على معصية ودخل في ضائقة ثم انفرجت هذه الضائقة فلا يفرح، فهذا انفراج مؤقت، أما إذا كان مقيماً على معصية وكان في ضائقة، جاءت الضائقة علاجاً له، وقد تنفرج الضائقة دون أن يقلع عن المعصية، فلا يفرح، فهذا استدراج:

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(15))

(سورة الدخان)

أنا أعرف رجلاً مغتصباً حقوقًا كثيرة، وله محل تجاري وأراض، وأبنية من أخوته حيث كان أكبرهم فلما توفي أبوه اغتصب هذه الأموال، فجاءه مرض عضال ونقل إلى المستشفى، صرح بأن المحل الفلاني لأخوته عند شعوره بأن أجله قريب، ثم ردت له صحته وشعر بأنه أصبح كما كان فطلب الشريط المسجل فيه تصريحه وكسره، وعاد إلى ما كان عليه، وعاش بعد هذا الحادث ثمانية أشهر، ثم جاءت الطامة الكبرى. فمن سنن ربنا عز وجل في خلقه أحياناً يرفع الشدة مؤقتاً، فالإنسان إذا رفعت الشدة ولم يتب فلا يفرح فيها. فهذا رفع مؤقت،

(إنكم عائدون)

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(15)يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ(16))

(سورة الدخان)

الله عز وجل منتقم جبار ممن اعتدى على حقوق الآخرين:

الله عز وجل حين يعاقب يعاقب وإذا بطش بطش، وإذا انتقم انتقم، ولذلك فمرة أحدهم قرأ على درع:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويــل لقاضي الأرض من قاضي السماء

* * *

وإنسان اشترى مع أخيه بيتاً ودفعا قيمة البيت مناصفة بينهما، وكان البيت باسم الأخ الأول وتمكن بخُبْثِه أن يهدد أخاه بإخراجه من البيت مع أن نصف البيت لأخيه، ثم أخرجه منه، وجعله في الطريق طمعاً بثمن البيت كله، والله أيها الأخوة أنا عشت هذه القصة، ولم يمض شهر إلا وأصيب بمرض خبيث بالأمعاء فهذا الذي اغتصب البيت، وكنت أظن بأن يبقى سنتين في هذا المرض وبعد شهر ثان توفاه الله

(إِنَّا مُنْتَقِمُونَ)

الإنسان إذا اعتدى على ما ليس له، استخدم قوته وفهمه واستغل ضعف الطرف الآخر وأخذ ما ليس له

(إنا منتقمون)

الله ينتقم.

خوف الإنسان من الله يتناسب مع حجم إيمانه:

أيها الأخوة الكرام:

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(15))

(سورة الدخان)

إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره، أما إذا كان الإنسان مستقيماً على أمر الله والله عز وجل أكرمه، فهذا إكرام حقيقي، هذا نتيجة طاعته لله عز وجل فالإنسان عليه أن يشكر، كل هذا الكلام مفاده، الإنسان يفكر، عليه أن يقف من حين لآخر ليقيّم نفسه، بيتي هل فيه مشكلات ؟ وعملي هل هناك علاقات غير شرعية ؟ لأن رأس الحكمة مخافة الله وخوفك من الله يتناسب مع حجم إيمانك، كلما ازداد إيمانك ازداد خوفك، والعالم هو الذي يخاف وأنا حينما أنقل لكم أقوال بعض الصحابة الكرام عن شدة خوفهم من الله فهذا كلام حقيقي، صحابي كريم لا يمثل بكلامه، بل يخاف الله حقاً، وهذا هو الخوف المقدس، وذاك هو القلق المقدس، والسعي المقدس لاكتساب مرضاة الله عز وجل.

(يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ(16))

(سورة الدخان)

توعد الله عز وجل الفاسد بالعذاب العظيم:

بعض الأحيان نرى بالصحف والمجلات بعض الزلازل، تجد بأن زلزالاً جعل بناء بكامله ركاماً في غمضة عين، فالزلازل والبراكين و الفيضانات و الأعاصير، فإعصار ضرب غربي أميركا فكانت الخسائر 30 ملياراً، فالأعاصير، والفيضانات، والزلازل، والبراكين، و الحروب الأهلية الطاحنة، والقهر، والمجاعات، إذا كانت البلاد استمرأت الفساد والزنا ودور الدعارة كانت أكبر من دور السكن بكثير والكسب الحرام أكثر من الحلال بكثير فهذا المجتمع تنتظره بطشة من الله عز وجل، الأمثلة كثيرة جداً:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

(وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ(17))

(سورة الدخان)

سيدنا موسى، ومعنى

(فتنا)

أي امتحنا وابتلينا والفتنة هي الامتحان.

الداعية الصادق ينقل للإنسان ما جاء في الكتاب والسنة دون زيادة أو نقصان:

(أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(18))

(سورة الدخان)

أي أيها العباد أدوا إلي طاعتكم وعهدكم الذي عاهدتم به ربكم أو يا فرعون أعطني بني إسرائيل لأخرج بهم كلاهما صحيح.

(أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(18))

(سورة الدخان)

أمين على وحي السماء، فالنبي الحق والرسول الحق أمين على وحي السماء ولا يستطيع أن يزيد كلمة ولا حرفًا ولا أن يحذف، وهكذا الداعية الصادق، ينقل لك ما جاء في الكتاب والسنة دون زيادة أو نقصان.

الكبر بطر الحق و غمط الناس:

(وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(19))

(سورة الدخان)

من هو المتكبر ؟ الكبر بطر الحق و غمط الناس. بطر الحق: رد الحق، أي يتكبر على الله أن يطيعه، فقد لا يعجبه حكم الله في موضوع ما، فمثلاً هذا حرام، فيقول لك نحن في حياة عصرية، فلابد من نماء الأموال، أنجمد المال ؟ لابد من الربا فهو لا يعبأ بالحكم الشرعي والآية القرآنية بهذا الموضوع، فهذا الذي لا يعبأ بحكم الله يستعلي على الله.

الحكمة من عصم النبي الكريم من الناس:

لذلك:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: الآية 36]

لذلك لا يوجد خيار، فإذا كنت مؤمناً حقاً ورأيت أمر الله في الكتاب والسنة، انتهى الأمر.

(وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِي(20))

(سورة الدخان)

أي أن الله يعصم النبي من الناس، يعصمه من أن يقتل، قبل أداء الرسالة لأنه إن قتل قبل أداء الرسالة انتهت الدعوة بموته، لذلك فالله يعصمه، وأما إذا أدى الرسالة فممكن.

(وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِي(21))

(سورة الدخان)

هذه الآية تذكرنا بقوله:

(مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

وحي الله عز وجل إلى سيدنا موسى أن يتجه باتجاه البحر:

(وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِي(20)وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِي(21))

(سورة الدخان)

لكم شأنكم.

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ(22))

(سورة الدخان)

فربنا عز وجل أوحى إلى سيدنا موسى:

(فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ(23))

(سورة الدخان)

(إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا)

(سورة الطارق)

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

(فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا (23))

(سورة الدخان)

سيدنا موسى مع بني إسرائيل ضعاف مستضعفون وفرعون وجبروته وقوته وجيشه وأتباعه، لا يوجد تناسب أبداً، فأُمِرَ سيدنا موسى من قبل الله عز وجل أن يتجه باتجاه البحر.

من يعص الله عز وجل يقصمه الله قصماً:

(فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ(23)وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ(24))

(سورة الدخان)

لما ضرب بعصاه البحر وأصبح طريقاً يبساً فلما كاد أن يخرج منه وخاف أن يتبعه فرعون فهم أن يضرب مرة ثانية ليعيد البحر كما كان قال واترك البحر رهواً، دعه كما كان لأن فرعون سوف يتبعه من هذا الطريق وفي منتصف البحر سوف يعيد الله البحر بحراً، واترك البحر رهواً أي ساكناً إنهم جند مغرقون.

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(26)وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(27)كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ(28))

(سورة الدخان)

الإنسان حين يعصي يقصمه الله قصماً، فيترك أموالاً وبساتين وبيوتًا وأراضي وزوجة ومتاعاً، فالإنسان كلما نما وكلما كبر يتنامى استمتاعه بالحياة، أما إذا قصمه الله قصماً ترك هذا كله

(كَمْ تَرَكُوا)

هذه الآية دقيقة جداً، كم تكثيرية.

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(26)وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(27)كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ(28))

(سورة الدخان)

آيات واضحة جداً.

من مات فاجراً فرح بموته كل شيء:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ(29))

(سورة الدخان)

بالعكس فرحت السماوات والأرض، لأن المؤمن مبارك والكافر مؤذٍ، مؤذٍ بكل شيء، فإذا مات العبد الفاجر استراح منه كل شيء، فما بكت عليهم السماء، أما المؤمن فأينما وجد يصلي ويسجد ويدعو ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر و يرحم الناس، فأينما سار فله آثار طيبة، فكيفما تكلم له آثار طيبة، وأينما حلّ له آثار طيبة، فبيته مكان للدعوة، ومركبته في خدمة الحق، إنه ينفق ماله في سبيل الله، ومن حوله يحبونه لشدة عطفه عليهم ورحمته بهم، فالمؤمن مبارك والحقيقة دليل صلاح العمل أن الإنسان إذا مات، هل يفرح الناس بموته أم يحزنون ؟ ليجهد الإنسان أنه إذا توفاه الله ليكون له أثر طيب.

إسراف فرعون في ظلم بني إسرائيل:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ(29)وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ الْعَذَابِ الْمُهِينِ(30))

(سورة الدخان)

كان فرعون يعذب بني إسرائيل عذاباً مهيناً.

(مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنْ الْمُسْرِفِينَ(31))

(سورة الدخان)

مستعلياً، لقد أسرف في الظلم، ما ظلم فقط ولكنه أسرف في الظلم، طبعاً بلغه بأن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على حكمه حيث رأى ذلك في المنام ؛ فعوضاً عن أن يتوب أمر بذبح كل أولاد بني إسرائيل، وأية قابلة لا تبلغ رجال فرعون عن مولود ذكر، تقتل مكان المولود، فالقابلة تبلغ، فيأتي الرجال لذبح المولود، وهذا مبالغة في الظلم.

(إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنْ الْمُسْرِفِينَ(31))

(سورة الدخان)

إنكار البعث و النشور من قِبل الكفار في كل زمان و زمان:

(وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(32)وَآتَيْنَاهُمْ مِنْ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ(33)إِنّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ(34))

(سورة الدخان)

قومك يا محمد يقولون:

(إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ(35))

(سورة الدخان)

هذا قول الكفار كلهم، لا يوجد غير الدنيا، و موتة واحدة، نحيا ونموت، فالجنة هنا والنار هنا، والذي معه مال في الجنة، والمحروم من المال في جهنم، فهذه مقولة الناس الجاهلين.

(فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(36))

(سورة الدخان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الدخان 044 - الدرس (3-4): تفسير الآيات 37- 50 ، يوم القيامة هو يوم الفصل بين الخلائق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-08-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثالث من سورة الدخان.

العبودية لله عز وجل:

مع الآية السابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(37))

(سورة الدخان)

معنى أهم خير أم قوم تبع أي أن قوم تبع كانوا أقوى منكم وكانوا أشد منكم وملكوا أطراف الأرض ومع ذلك أهلكهم الله عز وجل فمن أنتم ؟ هذا كلام دقيق، لو أردنا أن نسحبه على حياتنا المعاصرة، فإن كنت قوياً فقد أهلك الله من هو أقوى منك، وإن كنت غنياً فقد دمر الله مال من هو أغنى منك، وإن كنت ذكياً فقد وقع الذكي في شر عمله، فالإنسان إذا توهم أنه على شيء فقد أشرك، لأن هذا الشيء لو أراد الله أن يمحقه محقه في طرفة عين، وليس لك أي حول ولا أي طول، وهذا المعنى هو معنى العبودية لله عز وجل، إذا كنت على شيء فمن فضل الله، وإذا كنت على جانب من القوة فمن كرم الله، إن كنت على جانب من اليسر فمن إكرام الله لك.

قوة المال و العلم و السلطان من دون إيمان تحمل صاحبها على الطغيان:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

الإنسان قبل أن يعرف الله متى يطغى ؟ أن رآه استغنى، أن رأى نفسه قد استغنى، فالقوة في المال، والقوة في العلم، والقوة في السلطان، وهذه من شأنها من دون إيمان أن تحمل صاحبها على العدوان، ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف. معنى القوي، أي أن القوة من دون إيمان خطرة لأنها تهلك صاحبها، كيف تهلكه ؟ توقعه في الغرور، والقوة تحجب عن الحقائق، والمال يحجب، وكذلك التفوق العلمي في العلوم المادية تحجب، فهناك ثلاث قوى: قوة العلم وقوة المال وقوة السلطان، هذه من دون إيمان من شأنها أن تحمل صاحبها على الطغيان،

ولذلك فالإنسان أحياناً بجهد جاهد قد يصل إلى قمة النجاح ولكن بغفلة يسيرة يقع في الشرك، فيعتد في نفسه ويقول إنما أوتيته على علم عندي، فبلحظة واحدة وبغفلة يسيرة يصبح في الحضيض، فما الذي أهلكه ؟ شركه، وإذا قال أنا فقد هوى، إذا قال نحن (نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) فقد هووا، أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فقد هلك، إنما أوتيته على علم عندي فخسفنا به وبداره الأرض.

من بقي في النعمة ونسي المنعم فقد أشرك بالله:

انتبه إنّ الله عز وجل يعطي ويمتحن، فإن أعطاك شيئاً فلا تنس أن الله هو الذي تفضل عليك به، وكان فضل الله عليك عظيماً، فإذا ملكت النعمة فلا تنس المنعم، وإذا ملكت الذكاء فلا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى بقطرة دم لا يزيد حجمها عن حجم رأس دبوس تفقد ذاكرتك، ويختل عقلك، ويتوسط أهلك كي يودعوك في مستشفى الأمراض العقلية، بواسطة وبجهد جاهد، كان قد اشترى هذا البيت ورتبه ونظمه وأولاده يتوسطون الآن كي يضعوا أباهم في مستشفى الأمراض العقلية، فنقطة دم إذا تجمدت في بعض أوعية المخ تزول الذاكرة بأكملها، ويكون هذا المصاب يحمل دكتوراه فَتُمْحَى المعلومات كلها، وهكذا زالت شخصية الإنسان وقد أردت من هذه الأمثلة أن أبين بأن الإنسان إذا أعطاه الله شيئاً كنعمة القوة فعليه ألاّ ينسى من أنعم عليه بهذه القوة، وهو في نعمة المال وفي نعمة الصحة، ألاّ ينسى أن الله سمح له بذلك، فإذا بقي في النعمة ونسي المنعم فقد أشرك، وإذا أشرك يؤدب، فكيف يؤدب ؟ يريه الله النعمة بفقدها لا بدوامها، وكان عليه الصلاة والسلام يدعو ربه ويقول: اللهم أرنا نعمك بدوامها لا بزوالها.

شكر النعمة فيه سعادة حينما تعرف قدر المنعم:

أيها الأخوة الكرام: بالشكر تدوم النعم، كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت، وكم منا من يدخل إلى بيته ومعه مفتاح البيت، وعنده مأوى، وكم ممن لا مأوى له، فلو ذهبت إلى شرقي آسيا فملايين الأسر تنام على قارعة الطريق، هو وزوجته وأولاده، أو في القوارب، فمعك مفتاح، وعندك مأوى، ووجدت ثمن الطعام فهذه نعمة كبرى، وهي أنّه تعالى أطعمك، سيدنا عمر استقبل رسول عامله على أذربيجان فلما استضافه في بيته قال يا أم كلثوم: ما عندك من طعام ؟ قالت: والله ما عندنا إلا خبز وملح، فقال سيدنا عمر: (عملاق الإسلام وخليفة المسلمين): هاته لنا، أكل مع ضيفه خبزاً وملحاً ولما انتهى قال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وأسقانا فأروانا. أنت حينما تأكل، كم نوعاً من الطعام ؟ تأكل

ألوانًا مختلفة في بعض الولائم، فهل قلت الحمد لله من أعماق أعماقك للذي أطعمنا فأشبعنا وأسقانا فأروانا. شكر النعمة فيه سعادة، حينما تعرف قدر المنعم.

أي شيء بالجسم لو تعطل يجعل الحياة جحيماً، والله عز وجل يحبك أن تشكره، وألا تنسى فضله، وألا تتعامى عن كرمه، وكان فضل الله عليك عظيماً، وأكبر فضل هو أنه هداك إليه، عرفك بذاته، علم فيك الخير فأسمعك الحق، وهذا فضل كبير، فلذلك: إن الإنسان لو وصل إلى شيء من القوة، الله قد دمر من هو أقوى منه، كلكم يعلم ويرى أحياناً مدينة من أرقى المدن، مدينة سياحية جميلة جداً، دخلها كالبحر، هي على البحر ودخلها كالبحر، زلزال في ثلاث ثوانٍ جعلها قاعاً صفصفاً، فالله كبير، وإذا بلدة فسقت فإنّه تعالى يدمرها، وإذا إنسان فسق فإنه يزلزله، وإذا إنسان تجاوز يرسل إليه مرضاً عضالاً.

ثناء النبي الكريم على ملك التبابعة:

فيا أيها الأخوة الكرام، هذه الآية

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ)

قوم تبع أي قوم سبأ وتبع أي كان ملكهم، والتبابعة ملوك اليمن، كما أن القياصرة ملوك الروم والأكاسرة ملوك الفرس، كان من هؤلاء الملوك ملكاً صالحاً أراد أن يغزو الجزيرة العربية فوَصل إلى المدينة، وأعلمه بعض العلماء أن هذه المدينة مكان هجرة رسول وسيأتي بعد حين، فامتنع عن غزوها، فلما وصل إلى الكعبة، نبؤوه أيضاً أن هذه الكعبة بيت الله فكساها وأكرمها، فالنبي الكريم كان يثني عليه لأن الأخبار تواترت بأنه كان صالحاً، وبعض الروايات تؤكد أنه كان نبياً.

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ)

(سورة الدخان)

تبع دمرهم الله بسد مأرب، لأنهم فسقوا.

المعصية تودي بصاحبها إلى الهلاك:

قالوا ربنا باعد بين أسفارنا، والإنسان حين يعصي فلسان حاله يقول: يا رب دمرني، الآية حيرت العلماء، فَمعقول أنّ إنسانًا يدعو على نفسه، فبلادهم جنات، وبساتين، وأنهار، وخيرات، إني أراكم بخير، وفرة المواد ورخص الأسعار، إني أراكم بخير، كانت البلاد متصلة، لشدة الرخاء والعمران والبساتين والماء والأنهار والينابيع: العمران متصل، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا، يعني يا رب دمرنا، اجعل أرضنا قاحلة، ودمر هذه البساتين، وجفف هذه الأنهار، إنّه كلام غير معقول، فهذه الآية حيرت

علماء التفسير، فبعضهم قال: الذي يعصي الله لسان حاله يقول: يا رب دمرني، وإذا كان البيت فيه معصية كأنك تقول يا رب دمر هذه الأسرة، وامحق هذا الرزق، إذا دكان فيها بيع طيب وصار فيها معاص، وصار فيها غش، وصار فيها كذب، تحرش بالنساء، فكأن صاحب هذه الدكان يقول: يا رب امحق هذا الرزق، ويا رب دمرني، وهذا لسان حال العاصي، شاء أم أبى.

من يعص الله يمحقه و يدمره:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

(سورة القصص الآية: 8)

أيعقل أن يلتقط إنسان طفلاً لكي يكون له عدواً، هذه الآية أيضاً حيرت العلماء، هذه اللام لام التعليل فاخترع علماء النحو إعراب لهذه اللام قالوا هذه هي لام المآل، لأنه لا يعقل لإنسان أن يلتقط طفلاً ليكون له عدواً، ولكن في النهاية ما الذي حصل ؟ أن هذا الطفل سيدنا موسى هو الذي قوض عرش فرعون حينما دخل في البحر فتبعه فرعون فأغرقه الله عز وجل، إذا أردت من هذا التفصيل أن الإنسان في بيته ومع زوجته وأولاده وبعمله عندما يعصي على علم، أي يعرف نفسه أنه يعصي، فكأن لسان حاله يقول: يا رب دمرني، وامحق هذا الرزق، و أنشب خلافاً بيني وبين زوجتي، وحينما يتطلع الإنسان إلى غير زوجته ويطلق بصره في الحرام فكأنه يقول: يا رب دمر سعادتي الزوجية، فالله يخلق مشكلات: فكلاهما عندئذ لا يطيق الآخر وكلاهما يتجاوز حدوده مع الآخر، إلى أن يقع الخلاف والخصومة ويدخل الشيطان فيحلف بالطلاق لأتفه سبب ويشرد الأولاد، ولقد كان بيتاً عامراً بذكر الله فصار خرباً من المعصية. فالمعاصي تدمر.

من اعتصم بأقوى مخلوق من دون الله جعل الله الأرض هوياً تحت قدميه:

لذلك:

(أهم خير أم قوم تبع)

(سورة الدخان)

هناك أقوى منك دمره الله، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه.

إذا اعتصمت بأقوى مخلوق من دون الله، حصل لك ذلك، ولذلك كلما ازددت خوفاً من الله فهذا يدل على كبر عقلك، وكلما رجح عقلك ازداد خوفك، ورأس كل الحكمة مخافة الله، لا تبعد كثيراً، بل اسمع

الأخبار، ترى كيف أن الله يدمر مدناً، وأقواماً، ويمحق أمماً، و تجارات، وواضحة جداً هذه الأخبار فلو سمعتها عليك أن تسمعها بأذن موحدة، وعليك أن ترى يد الله تعمل في الخفاء، يد الله فوق أيديهم، وعليك أن ترى أن الله في السماء إله وفي الأرض إله، ومالكم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً، وأن الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، وأنه ما تسقط من ورقة إلا هو يعلمها، فإذا سمعت الأخبار، وقرأتها فعليك أن تفهمها بعقل موحد، افهمها بأن الله وراء كل شيء، وأنه بيده كل شيء، وأنه لا راد لمشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، افهم هكذا، ترى تفسيراً رائعاً.

على الإنسان ألا ينسى القرآن الكريم و يغتر بالأقوام الفاسدة:

يمكن أن تشاهد مثلاً حرباً أهلية في بلد، تسمع أخباراً خلال عشر سنوات عن التدمير وعن القتل، يُقتل مئات الألوف، وتدمر الأبنية، ويمكن أن تقرأ مئة تفسير لهذه الحرب ولكن لا تنس تفسير الله لها:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

تغب عن تفسير الله عز وجل، تغب عن القرآن الكريم فهو يعطيك تفسير أي شيء، حتى لو رأيت أمة متقدمة تتحكم بمعظم الشعوب رخاء، وبيوتًا رخيصة، مواصلات، ومركبات رخيصة، وكل شيء فيها جميل، وكلها خضراء، لا تغتر بهؤلاء:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196))

(سورة آل عمران)

من يقرأ القرآن الكريم يطمئن قلبه و ترتاح نفسه:

لا تنس القرآن الكريم:

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)

(سورة الأنعام الآية: 44)

لا تنس القرآن، فلو قرأت فيه كل يوم لعشت مع التفسير الصحيح لكل شيء، فلا تغترّ أبداً:

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ(47))

(سورة إبراهيم)

فهذا القرآن الكريم حين تقرأه يطمئن قلبك، وترتاح نفسك لكلام خالق الكون، يقول لك: أنا يا عبدي أفعل كذا وأفعل كذا، فكن دائماً مع التفسير الديني للأشياء.

من لم يضبط شهوته وفق منهج الله لابد وأن يعتدي على حقوق الآخرين:

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(37))

(سورة الدخان)

لأنهم فسقوا وفجروا ومن لوازم الفسق العدوان، عندما تتحكم بالإنسان شهوته لابد وأن يعتدي على حقوق الآخرين، ولو ضبط شهوته وفق منهج الله، لم يكن معتدياً، ولو ضبط شهوته في حبه للمال أو للنساء أو للعلو في الأرض وفق منهج الله لا يعتدي.

كمال الخلق يدل على كمال التصرف:

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

ما هو اللعب ؟ هو العبث، أو عمل لا طائل منه، فلعب الطاولة، ما نتيجتها ؟ تحررت القدس، أو أسست مشروعاً أو أخذت شهادة عليا، أو ساهمت في حل مشكلة ببلدك، فما معنى اللعب ؟ عمل لا طائل منه، وليس له ثمرة إطلاقاً، عبث، اللعب هو العبث، وربنا عز وجل ينفي أن يخلق الأرض والسماوات لاعباً، بالكون لا يوجد عبث، إله عظيم لا يعبث ولا يلعب، كمال الخلق يدل على كمال التصرف.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (38))

(سورة الدخان)

يعني الكون.

(وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

الله عز وجل نفى عن أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً:

الموضوع نجمعه من أطرافه، هناك آية أخرى:

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً)

(سورة ص الآية: 27)

فربنا عز وجل نفى عن أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، ونفى أن يكون خلق السماوات والأرض لعباً، فإذا عرفنا ما اللعب وما يقابله، وإذا عرفنا ما الباطل وما يقابله، أي أن الله عز وجل خلق السماوات والأرض بالحق، ما خلقها باطلاً ولا لعباً، فالحق هو ما يقابل اللعب وما يقابل الباطل، والباطل الشيء الزائل، فمن الممكن أن ننشئ جناحاً في المعرض من قماش من أجل 20 يوماً فقط، أما إذا أردنا أن نبني بناء يبقى مئات السنين، نبنيه من الحجر، فإنشاء بناء ليعيش مئات السنين، غير إنشاء جناح في معرض من أجل 20 يوماً فقط، فالباطل الشيء الزائل، أما الحق فالشيء الدائم الأبدي السرمدي، فاللعب الشيء العابث أما الحق فهو الشيء الجاد، فاجمع اللعب والباطل وما يقابله من الدوام والجدية، تجد الحق أن تعمل عملاً نبيلاً ثابتاً، فيه الثبات والسمو، والاستمرار والعظمة.

من أراد الآخرة عليه أن يعمل لها في الدنيا:

أحياناً يحتار الإنسان، يقول لك ما هذه الحياة ؟ حتى استقر وضعه بالأربعين، ومن الأربعين للخمسين استكمال تثبيت مكانة واستكمال تركيز أوضاع، ومن الخمسين إلى الستين كلها متاعب صحية، الميزان نزل، ومعترك المنايا بين الستين والسبعين فهذا إذا وصل إلى الستين، فحالياً لم يعد له إلا القليل فهل من المعقول ثلثا العمر إعداد والثلث الثالث متاعب، وكل هذا الكون من أجل عشر سنوات، إذْ لا يتناسب الكون معها، مجرة تبعد عن الأرض أربعاً وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، يوجد في الكون مليون مليون مجرة وكل مجرة فيها مليون مليون كوكب، فهذ شيء عجيب جداً فمن أجل عشر سنوات، انظروا إذا كنت مخطئاً، هذه النعوات أمامكم، كلما رأيت نعوة اسأل ما عمر صاحبها ؟ الجواب 53، 42، 39، 63،47 فهذا الأخير معمر، فمتى استقر ؟ ومتى تزوج ؟ متى أصبح له دخل ثابت ؟ وركز مكانته ؟ بالأربعين أو بالخامس والأربعين، كون من أجل عشر سنوات ؟ لا يتناسب، فلا يتناسب أن تعمر غرفة ضمن معرض من البيتون المسلح سماكة الحائط 1 م من أجل عشرة أيام ثم تهدمها بالمهدّة الآلية، إنه عمل غير عاقل، فإذا كان الشيء مديداً فيجب أن يكون الهدف كبيراً.

كل إنسان مخلوق ليحاسب إما إلى جنة أو إلى نار:

ربنا عز وجل قال:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون الآية: 115)

أي لعباً:

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

حياة دنيا تنتهي بالموت وانتهى كل شيء، وهذا ظن الجاهل، والإنسان مخلوق ليحاسب، جاء الله بك إلى الدنيا لتعرفه وتعرف منهجه وتطبقه، وسوف تحاسب عن كل حركة و سكنة، وسوف تلقى جزاء العمل في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفد عذابها.

الموت بداية الحياة عند المؤمن:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

يوجد آية أخرى:

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا (27))

(سورة الدخان)

فالذي يؤمن بالعبثية والزوال وأن الموت نهاية الحياة وأن لاشيء بعد الموت فهو كافر، بأوسع معاني هذه الكلمة، لكن الموت بداية الحياة.

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26))

(سورة الفجر)

المؤمن الحق لا يفرح إلا بعطاء الله:

الحياة الآخرة هي الحيوان أي هي الحياة الحقيقية لو كانوا يعلمون، وهي الحياة الحقيقية التي خلقت من أجلها، إنها حياة لا يوجد فيها قلق ولا حر ولا برد ولا هرم ولا مرض.

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة الصافات)

(قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة يونس)

والمؤمن الحق لا يفرح إلا بعطاء الله، العطاء الأبدي السرمدي، أما العطاء الدنيوي فهو زائل، ولا يسمى هذا عطاء.

الهدف من خلق السماوات و الأرض إسعاد الخلق:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

أي خلقنا السماوات والأرض بالحق لهدف كبير وهو إسعاد الخلق، فبالكون تتعرف إلى الله وإن عرفت الله وعرفت منهجه واتبعت منهجه سعدت بقربه في الدنيا والآخرة، هذا ملخص الملخص.

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (39))

(سورة الدخان)

لهدف كبير ودون عبث أو لعب:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(39))

(سورة الدخان)

جئت لا أعلم من أين ولكنـي أتيت !

ولقد أبصرت أمامي طريقاً فمشيت

أين كنت ؟ أين صرت ؟ أين أبصرت طريقي ؟ لست أدري.

كيف لا تدري والقرآن بين يديك ؟ هذا حمق، وتردد كلمة لا أدري والله عز وجل يبين لك:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

الفرق بين الحياة الدنيا و الحياة العليا:

الآية واضحة كالشمس.

(إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية: 119)

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الذاريات)

الله يميز بين الحياة الدنيا والحياة العليا واحدة دار عمل وتكليف والأخرى دار استقرار وتشريف ونعيم مقيم، الأولى حياة نظامها الكسب والسعي وبذل الجهد والكدح.

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

فهناك النظام:

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (16))

(سورة الفرقان)

إنه اختيار فقط ولمجرد أن يقع في ذهنك طلب تراه أمامك.

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(39))

(سورة الدخان)

فأكثرهم لا يعلمون.

يوم القيامة هو يوم الفصل بين الخلائق:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40))

(سورة الدخان)

كم فرقة وكم اتجاه وكم مبدأ وكم جماعة في الأرض الآن، خذ قارة قارة: مئات الجماعات كل جماعة لها مبدأ ولديها أدلة، إذاً من على الحق ؟ أمر يحير، المسلمون آلاف الفرق والنصارى آلاف الفرق وكذلك اليهود بالإضافة إلى البوذيين والسيخ والهندوس وديانات إفريقيا وأمريكا اللاتينية، كم دين يوجد في الأرض وكم اتجاه وكم فئة وكم حزب..... فمن يا ترى من هؤلاء على حق ؟ يجيب تعالى ؟

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40))

(سورة الدخان)

ففي هذا اليوم يفرز فيه كل الخلق، هذا على حق والآخر على باطل.

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40))

(سورة الدخان)

الفصل بين الخلائق، كل يدعي أنه على حق، من هو صاحب الحق.

في الدنيا مقاييس تدل الإنسان على الله عز وجل هي:

1 - الكون:

في الدنيا مقاييس، ولندخل الآن في هذا المقياس: الشيء الثابت الكون، قال ديكارت أنا أفكر فأنا موجود، لدينا شيء ثابت هو الكون فالشمس ثابتة والقمر والليل والنهار والأرض، الجبال، والبحار، والنباتات، والأسماك، والأطيار، وجسمك، وقلبك، ورئتاك، فأنت أمام آلاف الآيات الدالة على عظمة الله، يوجد لهذا الكون خالق، مربٍ، ومسير، وموجود، وواحد كامل. وكل ما في الكون يدل عليه، يدل على وجوده، وعلى كماله، وعلى وحدانيته، هذه ثابتة ولا يستطيع إنسان كائناً من كان أن ينقض هذه الحقيقة، الصنعة تدل على الصانع، والتسيير يدل على المسير، والخلق على الخالق، والتربية على المربي، والنعمة على المنعم، فهذا هو الخالق العظيم، وكمال الخلق من لوازمه كمال التصرف، أيعقل لإله عظيم خلق فسوى وقدر فهدى أن يدع عباده بلا توجيه، ولا منهج، ولا نظام، وأن ينساهم وأن يدعهم هملاً.

2 - القرآن الكريم:

والآن دخلنا في موضوع المقياس: الكون ثابت، كل ما في الكون يدل على الله، وعلى أنه خالق، ومرب، ومسير، واحد وكامل وموجود، وجيد، فالله موجود وخلقه كامل ومعجز فمن لوازم خلقه المعجز الكامل وتصرفاته الكاملة، أيعقل أن يبقى الناس بلا منهج ؟ ولا دليل ؟ فمثلا وزارة مواصلات تشق طريقاً وبعد فترة تضع إشارات تحذيرية للمنعطفات ولكل ما يجب تنبيهاً السائق، لوحات مختلفة وإلا تكثر الحوادث، إذاً بعد أن شق الطريق وضعنا إشارات لتنبيه الناس، الله عز وجل الله نور السماوات والأرض أي خلق الكون ونوره بالوحي أرسل كتاباً وهو لا يقل عن الكون، الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، فالكون في كفة والقرآن في كفة أخرى، منهج وهذا المنهج من عند الله، وما الدليل على أن هذا الكتاب هو من عند الله ؟ هنالك دليل قطعي: إعجازه: ففيه إعجاز إخباري لغيب الماضي، ولغيب الحاضر والمستقبل، ففيه إعجاز علمي، وإعجاز تشريعي، وبياني، وتربوي، فإذا كان الأمر يهمك هناك مليون دليل على أن هذا القرآن هو كلام الله، ومستحيل لمخلوق مهما علا أن يأتي بمثله، ولو اجتمعت الأمة على ذلك، هذا شيء ثابت آخر.

3 - النبي و كلامه:

والذي جاء بهذا الكتاب هو رسول قطعاً فما دام هذا معجزاً فالذي جاء به رسول، فأصبح لديك ثلاثة ثوابت: فالكون ثابت، والقرآن ثابت، والنبي وكلامه (ما صح عنه بالتمام فهو ثابت) وأصبح لديك قرآن وسنة، فأي شيء تسمعه ولو كان مليون مقولة تعرضها على القرآن والسنة فإن وافقت الكتاب والسنة فهي صحيحة.

من جرّ الحقائق إلى صالحه ولعب بالأفكار فحسابه يوم القيامة:

يوجد لدينا أدلة قبل يوم الفصل، وأما إذا كان هناك تعنت.

(إِنّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40))

(سورة الدخان)

وإذا كان فيه تعنت وفيه مكابرة وجرّ الأمور لمصلحة جهة معينة، فالإنسان يتحرك بعض الأحيان لا وفق قناعاته بل وفق مصالحه، فيزين فكرة لغاية في نفس يعقوب ويرفض فكرة لغاية في نفس يعقوب، هذا الرفض لا قيمة له والقبول لا قيمة له، لأنه قبول مصلحي و رفض مصلحي.

من أراد معرفة الحقيقة تعرّف عليها في الدنيا قبل يوم الفصل:

لو أردت الحقيقة وأنت في الدنيا وقبل أن تصل إلى يوم الفصل فتعرفها، من الثوابت: الكون ثابت والقرآن ثابت وكلام النبي ثابت، هذا هو الحق. تركت فيكم اثنين ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنة نبيه. وبكل قضية تسمع أحياناً فكرة، وتقرأ مقالة في مجلة، وتسمع محاضرة، اِعْرِضْ هذا على كتاب الله، فأهم عمل تفعله وقبل كل شيء، وقبل أن تأكل أن تفهم كلام الله، لأنه هو المقياس، هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكتاب المقرر، فيه النجاة، فلذلك عندما يجلس الإنسان في مجلس علم ليفهم كلام الله يقوم بأخطر عمل في حياته، ولا شيء يعلو على هذا العمل إطلاقاً، أنت الآن تتعلم كلام الله، فهو منهجك، ومقياسك، فلو أردت الحقيقة تعرفها في الدنيا قبل يوم الفصل، لو أردتها صادقاً، لو أردتها مخلصاً، تعرفها قبل يوم الفصل، لكن لو ركب الإنسان رأسه وجر الحقائق إلى صالحه ولعب بالأفكار وزور ودجل وحاور لمصلحة يريدها، هذا يقول له حسابه يوم الفصل.

(إِنّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40)يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(41))

(سورة الدخان)

يوم القيامة يأتي كل إنسان ربه فرداً:

الحياة الدنيا مبنية على العلاقات والجماعات والتحزبات والكتل، هذا من جماعتنا وهذا ضدنا وهذا معنا وهذا ليس معنا وهكذا الحياة الدنيا، لكن يوم القيامة: يا فاطمة بنت محمد، يا عباس عم رسول الله، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لن يسرع به نسبه:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

يا محمد، تنقذ من في النار.

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ِ(19))

(سورة الزمر)

يا رسول الله أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ قال نعم يا أم المؤمنين، إلا في أربعة مواطن.... وفي غير هذه المواطن قد تقع عين الأم على ابنها، تقول له يا بني: جعلت لك صدري سقاء وبطني وعاء وحجري وطاء فهل من حسنة يعود علي خيرها اليوم ؟ يقول هذا الابن لأمه يوم القيامة: ليتني أستطيع ذلك، إنما أشكو مما أنت منه تشكين.

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ِ(19))

(سورة الزمر)

لذلك الإنسان أحياناً كل الدنيا مبنية على أن هناك جماعة محيطة بإنسان، يوم القيامة يأتي كل إنسان ربه فرداً.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (94))

(سورة الأنعام)

رحمة الله عز وجل خير للإنسان يوم القيامة من كل أهل الدنيا:

الإنسان يسافر بعض الأحيان إلى بلد لا يعرفه فيه أحد، شخص عادي، قد يكون في بلده معروفاً ومخدوماً ومعززاً ومكرماً، بهاتف يحل ألف مشكلة، أما في بلد آخر لا أحد يعرفه والآخرة هكذا:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (94))

(سورة الأنعام)

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40))

(سورة الدخان)

لا يوجد هناك جماعات ولا تحزبات ولا تكتلات ولا وساطات:

(يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(41)إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(42))

(سورة الدخان)

إلا من رحم الله طبعاً رحمة الله خير للإنسان من كل أهل الدنيا.

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

من مشاهد يوم القيامة:

1 ـ شجرة الزقوم طعام الأثيم:

(إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ(43)طَعَامُ الْأَثِيمِ(44))

(سورة الدخان)

الآن مشهد من مشاهد النار، هذه الشجرة تنبت في البادية من أخبث أنواع الشجر، قال هي طعام الأثيم، الذي وقع في الإثم والمعصية في الدنيا.

2 ـ الزيت المغلي:

(كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ(45))

(سورة الدخان)

المهل عكر الزيت والزيت إذا غلى، فدرجته عالية جداً، يحترق فيه الشيء فوراً، والزيت المغلي لا يحتمل.

3 ـ سوق الكافر إلى منتصف الجحيم:

(كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ(45)كَغَلْيِ الْحَمِيمِ(46)خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ(47))

(سورة الدخان)

عتالة و أما المؤمن يأتي ربه كالوفد وأما الكافر يعتل عتالة كأنه من سقط المتاع:

(خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ(47))

(سورة الدخان)

أي إلى منتصف الجحيم.

4 ـ عذاب الجحيم:

(ثُمّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ(48)ذُقْ إِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(49))

(سورة الدخان)

أي كنت في الدنيا عزيزاً، أخذته العزة بالإثم، يعني مثلاً لا يصلي، اتبع جنازة والجنازة دخلت إلى المسجد ليصلى عليها فهو أكبر من أن يصلي بالمسجد، بل أكبر بكثير، وقف خارج المسجد ليدخن وينتظر إلى إن تخرج الجنازة.

(ذُقْ إِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(49))

(سورة الدخان)

أي كما قال عليه الصلاة والسلام: ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم.

من يعص الله لكرامة مزعومة وسلامة موهومة فالنار مثوى له:

أحياناً الإنسان يوضع في موقف حرج، لو صدق لتزلزل، يؤثر أن يصدق وأن يتزلزل على أن يغضب الله عز وجل، ولكن الله ينقذه، ويكرمه، أحياناً الإنسان محافظة على ما يتوهم أنه سلامة وكرامة يعصي الله، فمحافظة على سلامته الموهومة وعلى كرامته المزعومة يعصي الله، فإذا عصى الله يقال له يوم القيامة:

(ذُقْ إِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(49))

(سورة الدخان)

أنت لكرامة مزعومة ولسلامة موهومة عصيتني لذلك الله عز وجل يقول له هذه الكلمات كي يرى أنه اختار الأسوأ وحينما كان في الدنيا.

(إِنّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ(50))

(سورة الدخان)

الغارق في المعاصي ينفي الدار الآخرة ليتحرك حركة عشوائية:

عندما يغرق الإنسان في المعاصي لكي يتوازن مع نفسه يقول لك: من مات ورجع وقال لك أنه في آخرة ؟ حتى يتوازن، و أكثر الأشياء راحة نفي الدار الآخرة ؛ لأنه إذا نفى الدار الآخرة فقد نفى الجزاء والحساب، عندئذ يتحرك حركة عشوائية، ويأكل مال هذا، ويشتم ويعتدي على هذا، ويغتصب ويطغى

ويبغي، فصعب على الإنسان أن يتطاول ويأخذ ما ليس له إذا كان عنده يقيناً وأن هناك حساباً، ولذلك فأركان الإسلام خمسة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأكثر ركنين بالإيمان متلازمين الإيمان بالله و اليوم الآخر. إذا ألغيت اليوم الآخر يقيناً عندها لا توجد استقامة، وتصبح الدنيا كل شيء، فالحقيقة الإيمان باليوم الآخر من لوازم الإيمان بالله، عندئذ كل عمل يقيم وفق ساعة الحساب يوم القيامة.

الإيمان باليوم الآخر من لوازم الإيمان بالله:

أيها الأخوة، كما قلت قبل قليل الإيمان بالله واليوم الآخر يتلازمان في أكثر سور القرآن، الإيمان باليوم الآخر أن تؤمن أن هناك حياة أبدية سرمدية هي الحياة الحقيقية وهي الحياة التي خلقت من أجلها، لذلك إذا آمنت باليوم الآخر تجعل هذه الحياة الدنيا مدرسة للآخرة، حياة إعدادية لمدرسة عليا أبدية فلذلك التناقض من أين يأتي ؟ يأتي التناقض والهم والحزن من اعتبار الحياة الدنيا هي الحياة الأساسية، لذلك النقص مزعج، نقص المواد، وارتفاع الأسعار، ونقص شيء في الصحة، وعدم التوفيق في زواجه وفي عمله، هذه الهموم يراها كبيرة ساحقة لأن آماله كلها في الدنيا، لو أنه نقل أهدافه وآماله واهتماماته إلى الآخرة، كل شيء في الدنيا يرضيه لأن الحياة مؤقتة: عش في الدنيا كأنك مسافر، عندما يسكن الإنسان في بيت شهراً واحداً بمصيف، يكون فيه أخطاء كثيرة جداً ونواقص كثيرة جداً لا يعبأ بها أبداً، هو جاء استجماماً فأي شيء فيه نقص أو خلل أو خطأ يتجاوزه لو أردت أن تعيش الدنيا كما تعيش شهراً في مصيف تحل كل المشكلات، لأن الحياة مؤقتة، والشيء الذي يلفت النظر أن الإنسان أحياناً يهيئ بيتًا لا يسكنه، وينال شهادة لا يستفيد منها فالمنايا بالمرصاد، لا يجد إنساناً لديه ضمانة أن يعيش بعد ساعة وكل إنسان يموت لديه أمل يعيش عشرين سنة قادمة، فالموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل والدنيا ساعة فاجعلها طاعة والنفس طماعة عودها القناعة، أي لابد من نقل الاهتمامات لليوم الآخر، ولابد من الإيمان باليوم الآخر إيماناً حقيقياً، أن تجعل هذا اليوم محط الرحال ونهاية الآمال، لذلك الدنيا مقبولة في أي وضع، النبي قال: اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم.

من نقل أهدافه الحقيقية للدار الآخرة يسعده كل شيء:

تلاحظ إنساناً يجد الحياة الدنيا أكبر همه، ولذلك فأي نقص في المواد أو بالدخل يخرجه من جلده، تجده ناقماً دائماً كثير الشكاية يرى أن المال كل شيء، والطعام الطيب كل شيء، والبيت الواسع كل شيء، الزوجة، النزهة، هذا مبلغه من العلم أما لو نقل أهدافه الحقيقية للدار الآخرة يسعده كل شيء ويرضى

بكل شيء، إن هذه الدنيا هي دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

في درس قادم إن شاء الله تعالى نتابع تفسير هذه الآيات أما من حكمة ربنا عز وجل بعد كل مشهد من مشاهد العذاب هناك مشهد من مشاهد أهل الجنة.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ(51)فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(52)يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ(53)كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ(54))

(سورة الدخان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الدخان 044 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 51- 59 ، مشهد من أهل الجنة و أهل النار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-08-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الرابع والأخير من سورة الدخان، ومع الآية الواحدة والخمسين.

العاقل من اختار الجنة لا النار المحرقة:

أيها الأخوة الكرام، يبين سبحانه وتعالى في المقطع الأخير من سورة الدخان مشهدين من مشاهد يوم القيامة، مشهداً لأهل النار ومشهداً لأهل الجنة وقبل أن نمضي في الحديث عن هذين المشهدين، لابد من مقدمة.

أيها الأخوة: نحن الآن في الحياة الدنيا وبعد الحياة الدنيا تأتي الآخرة، ونحن في الحياة الدنيا مخيرون فمن إمكاناتنا أن نؤمن أو لا نؤمن، أن نستقيم أو أن لا نستقيم، أن نحسن أو أن نسيء، هذا ضمن خيارات الإنسان، وربنا جل جلاله يبين المقدمات والنتائج، فمن فعل هذا في الدنيا، فهذه نتيجته، فهل يوجد عاقل واحد يستعمل عقله ولو ساعة من الزمن يحتار بين عمل نتيجته نار محرقة إلى أبد الآبدين، وعمل نتيجته جنة عرضها السماوات والأرض.

الآلام في الدنيا لها وظيفة أبعد من وظيفتها الآنية:

أيها الأخوة الكرام: اليوم الآخر يجب ألا يغيب عن أذهان كل مسلم، ولا لحظة، الآن في حركته اليومية: سيعامل زوجته، ماذا أمر الله وماذا نهى ؟ إن فعل ما أمر فمصيره إلى الجنة، إن فعل ما نهى وأصر على فعله فمصيره إلى النار، ففي كسب المال، وفي إنفاقه، وفي كل حركاته و سكناته، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

أي الله عز جلاله يقرب إلينا الأشياء التي لا نحبها من أجل أن نقيس عليها ما في الآخرة من عذاب، بالمناسبة لدينا أشياء في الحياة، في الحياة آلام: ألم الحرق، وألم الفقر، وألم الذل، وأشياء مسعدة: الصحة، والجمال، والكمال، والنوال، لماذا كانت هذه الأشياء المزعجة في الدنيا ؟ ولماذا كانت هذه الأشياء المسعدة في الدنيا ؟ من أجل أن الله سبحانه وتعالى إذا حدثنا عن شيء في الآخرة يكون لهذا

الحديث معنى، الدليل: إذا ذاق الإنسان ألم الحرق، فالطفل الصغير لا يعرف ما الحرق، يقترب من المدفأة، فإذا لامست يده جدار المدفأة يصيح مذعوراً، الآن ماذا حدث ؟ خبرة مؤلمة، فكل شيء متعلق بالنار والمدفأة يبتعد عنه بسبب هذه الخبرة، فإذا قلت له بعد حين، هذا الشيء يحرق يخاف، كلمة يحرق أثارت عنده خبرات مؤلمة، لذلك الآلام في الدنيا والأشياء المسعدة والسارة في الدنيا، لها وظيفة أبعد من وظيفتها الآنية، وظيفتها البعيدة أن الله سبحانه وتعالى إذا حدثنا عن عذاب النار وعن طعام أهل النار وعن شرابهم وعن حريقهم ففي الدنيا نار ونار الدنيا تحرق، والحريق مؤلم جداً، الحر لا يحتمل، موجة حر ارتفاع خمس درجات زيادة عن المعدل أو عشر درجات لم يحتمل الناس هذا، فكيف بألم الحريق.

الأشياء المسعدة والسارة في الدنيا لها وظيفة أبعد من وظيفتها الآنية:

بالمقابل الله عز وجل، خلق أشياء جميلة، لماذا هذه الأشياء الجميلة ؟ خلق أماكن جميلة، وأشخاصاً حسان الوجوه، وأعطى الطعام نكهة طيبة، هذه الأشياء الجميلة لتكون مرتكزات فيما لو أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن أحوال يوم القيامة، عن أحوال أهل الجنة، لهذه الكلمات مرتكزات، تصور إنساناً لم ير البحر أبداً ولم ير صورته أبداً فمثلاً لو لم نُرِ إنساناً صورة البحر، ولا صوت موجه، ولا منظره، ولا تعامل معه، ولا ركبه، قل أمامه كلمة بحر مرة، مرتين، ثلاثاً... مليونًا. فهذه الكلمة تعني باء وحاء وراء، ثلاثة حروف لا تعني عنده شيئاً، أي ربما خاف من البلل من كأس ماء ولم يخف من البحر، ولكن لو أن الإنسان رأى البحر أو ركبه، أو رأى أمواجه الهائجة، أو استمتع بمنظر البحر، أو خاف منه، فهذه كلها خبرات: خبرات مسعدة ومؤلمة بعد حين كلمة بحر تثير عنده كل هذه الخبرات.

الإنسان في الدنيا لا يزال في بحبوحة التوبة و العفو و المغفرة:

لذلك في التربية أخطر أنواع التعليم، التعليم اللفظي، إنه كلمات جوفاء لا معنى لها، يقرأ الإنسان كتاباً ويحفظه غيباً وينساه بعد الامتحان، لأنه تعليم لفظي، أما إذا فيه خبرات عملية، أية كلمة تغطي هذه الخبرة لو أعيدت لأثارت كل هذه الخبرات، فلذلك الأشياء المؤلمة والأشياء المسعدة في الدنيا لها وظيفة بعيدة أنها تصبح مرتكزات لوصف أهل الجنة ووصف أهل النار، أليس في الأرض أماكن جميلة ؟ جبال خضراء ؟ بحار صافية ؟ أليس في الأرض وجوه جميلة ؟ وطعام طيب ؟ هذا كله مرتكزات فيما لو أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن أهل الجنة وعن أهل النار، المشكلة أننا اليوم في الحياة الدنيا، نحن

في بحبوحة التكليف و بحبوحة الاختيار والتوبة والمغفرة والعفو، كل هذا الآن ممكن، لو جئتني عبدي بملء السماوات والأرض ذنوباً غفرتها لك ولا أبالي.

الذنوب الاعتقادية والسلوكية مصيرها إلى النار و الأعمال الطيبة مصيرها إلى الجنة:

الآن:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49))

(سورة الحجر)

إذا تاب العبد توبة نصوحاً، أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه. إذاً فالدرس خطير جداً لأنه نحن في بحبوحة: بحبوحة أننا أحياء، بحبوحة أن الله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار، وأن الإصلاح ممكن، والتوبة، وإصلاح الماضي ممكن، فربنا عز وجل يصف لنا الآن أحوال أهل النار الذين وقفوا موقفاً سلبياً من الحق، أي الذين عارضوا الحق وأرادوا نشر الباطل وأوقعوا بين الناس، والذين كسبوا أموالهم بالحرام، كل هذه الذنوب الاعتقادية والسلوكية مصيرها إلى النار، وكل الأعمال الطيبة الاعتقادية والسلوكية مصيرها إلى الجنة.

تذكير الله عز وجل المؤمنين بأن طعام أهل النار من شجرة الزقوم:

(الزقوم)

شجر خبيث ليس في الجزيرة أخبث منه، فربنا عز وجل ذكر المؤمنين أو ذكر قراء القرآن الكريم بأن طعام أهل النار من هذه الشجرة.

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

فالإنسان أحياناً جائع يريد أن يأكل وقد لا يجد إلا طعاماً لا يؤكل فهو بين ألم الجوع وبين ألم تناول هذا الطعام.

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

من هو؟

(الأثيم)

الأثيم على وزن فعيل هو الآثم الذي يرتكب الإثم والمعصية، فأنت أمام منهج، في كل حركاتك وسكناتك، فإذا تعاملت مع نفسك خلاف منهج الله هذا إثم، وإذا قصرت في أداء العبادات هذا إثم، وإذا قصرت في معاملة الخلق فيما عليك من واجبات هذا إثم، وإذا اعتديت هذا إثم أشد، وإذا أخذت ما ليس لك هذا إثم أشد وأشد:

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

لكل إنسان منهج يسير عليه فمن قصّر في واجباته فالنار مثوى له:

المؤمن عليه أن يعرف ما هي الآثام ؟ ما الأعمال التي إذا فعلها كانت إثماً وكان هو آثماً أو كان أثيماً؟ والأثيم صيغة مبالغة، معنى مبالغة: أي أعماله الآثمة متعددة، أو ارتكب عملاً أثيماً كبيراً، المبالغة إما في الكم وإما في النوع، في النوع ارتكب عملاً في منتهى الإثم، أما أثيم في المعنى الآخر ارتكب أعمالاً كثيرة، فطبعا الأثيم غير الآثم، والإنسان إذا ارتكب إثماً واحداً يقال له آثم، وأما إذا ارتكب مجموعة ذنوب صار أثيماً أو ارتكب إثماً كبيراً جداً يقال عنه إنه أثيم - على وزن فعيل - صيغة مبالغة اسم الفاعل قال:

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

هنالك آية أخرى تذكرنا في هذا المعنى:

(لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6))

(سورة الغاشية)

ضريع: شوك.

(طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

هذه الشجرة.

الزيت المغلي عذاب الكافر يوم القيامة:

ثم قال:

(كالمهل يغلي في البطون(45))

(سورة الدخان)

أي أن الإنسان أحياناً يصب كأس شاي حار جداً ويظن بأن الحرارة معتدلة فيشرب شربة كبيرة، ويبقى يومين أو أكثر ولسانه محروق، إذا كان الكأس أحر مما ينبغي، وأحياناً يتناول طبق حساء، من الوعاء رأساً فيشرب ملعقة واحدة فيحترق لسانه، فكيف إذا تناول زيتاً مغلياً:

(كالمهل يغلي في البطون (45) كغلي الحميم(46))

(سورة الدخان)

الحقيقة عذاب الحريق لا يحتمل، والسائل الحار، وأحيانا الغاز الحار، ولهب النار كلها لا يحتمل.

(كغلي الحميم(46) خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(47))

(سورة الدخان)

أي الإنسان المجرم حتى في الدنيا إذا وجِدَ إنساناً مرتكب جريمتين أو ثلاثًا وكان مختفيا ثم ألقي القبض عليه كيف يساق إلى دوائر الأمن ؟ تفضل مثلاً أو شرف ! لا يقال له شرف أو تفضل بل لابد من خمسين أو ستين ضربة أثناء السوق، وهذا الضرب والإهانة تتناسب مع جريمته.

من هان أمر الله عليه هان على الله:

ربنا قال:

(خذوه فاعتلوه (47))

(سورة الدخان)

كأنه شيء هين رخيص، لأنه في الدنيا لم يعرف الله، في الدنيا لم يطع أوامره، فصار على الله هيناً، والشيء الذي أقوله دائماً: مرة حدثني أخ قال كنت ببلد من بلاد أوروبا الشرقية أقسم لي بالله أنه غادر المدينة التي يقيم فيها إلى المطار الساعة الثانية ليلاً ؛ حيث أن إقلاع الطائرة الساعة الثالثة أو الرابعة، جذب نظره في أيام الشتاء القارس طابور طوله 5 كم فسأل السائق ما القصة ؟ في أيام الشتاء، صقيع، ثلج برد والناس واقفون لخمسة كيلو متر الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فأجاب: قالوا إن غداً الساعة الثامنة هنالك توزيع لحم، كان تعليقي على هذا الخبر: هان أمر الله على الناس فهانوا على الله.

بإمكانك أن تفسر أكثر ما يعاني منه المسلم حينما يهون أمر الله عليه هونه على الله فالإنسان بقدر طاعته لله يغلو على الله عز وجل، الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله، معنى كريم أي أن حياتك مقدسة، زواجك، عملك كلاهما مقدسان، كرامتك محفوظة، رأسك مرفوع، لا يذلك الله عز وجل، ولا يجعل كافراً له عليك سلطان، ولا يجعلك تقف و تتضعضع أمام إنسان قوي أو إنسان غني، الله كريم وعزيز والعزيز من كان معه فهو عزيز، فلذلك لما يهون الإنسان عليه أمر الله، يهون هو على الله.

(خذوه فاعتلوه (47))

(سورة الدخان)

الإنسان بقدر طاعته لله يغلو على الله عز وجل:

شتان بين إنسان يدعى إلى حفل ليُكرم تجد أنهم يسألونه أن يرسلوا له من يأخذه ويُستقبل من أبعد مكان، ويُشيع إلى باب السيارة، ويُعظم، ويُكرم، ويُثنى عليه، ويُطلب منه الدعاء، وهذا تكريم، ولما يكون الإنسان مجرماً يساق إلى السجن مع الركل والضرب والوخز وما شابه ذلك.

(خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(47))

(سورة الدخان)

أي أنا الذي أتمنى أن أنقله إليكم نحن الآن أحياء جميعاً والقلب ينبض، باب التوبة وباب العمل الصالح وباب إصلاح الماضي كلها مفتوحة، وهناك علاقات وذمم، وأشياء ليست لك، أُخذت في وقت الجاهلية وهي في حوزتك وليست لك، وتعرف صاحبها نحن الآن في بحبوحة: بحبوحة أننا أحياء، بحبوحة أن باب التوبة مفتوح، وأن الإصلاح ممكن، أن أداء الحقوق ممكن لأصحابها، حقوق العباد أيها الأخوة مبنية على المشاححة، ولا تسقط إلا بالأداء أو بالمسامحة، وربما كانت حقوق الله عز وجل مبنية على المسامحة لكن حقوق العباد مبنية على المشاححة.

فنحن أمام مشهدين: مشهد لأهل النار ومشهد لأهل الجنة، أهل النار:

(طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

باب التوبة مفتوح على مصراعيه في الدنيا:

اسأل أنت أين الآثام ؟ النظرة إلى المرأة الأجنبية إثم، سماع ما لا يرضي الله إثم، أن تنطق بالغيبة، وبالنميمة، وأن تأخذ ما ليس لك، أن تزدري الآخرين، أن تحتقرهم، أن تستعلي عليهم، أن تسيء المعاملة، وأن تظلم كلها آثام.

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

فاعمل إحصاء للآثام وابتعد عنها، هذا التفكير العلمي، نحن أحياء، أما أن يقول أحدكم أنا شاب وعمري ثماني عشرة سنة، كم حادثة شاب رحل للدار الآخرة في ريعان الشباب، ربنا عز وجل لحكمة تربوية هائلة جعل انتقال الإنسان من الدنيا في كل الأعمار، شاب يموت، والذي عرسه بعد يومين

يموت، والذي نال الدكتوراه ولم يأت إلى بلده، والذي بنى البناء ولم يسكنه، والذي حصّل أموالاً طائلة ولم يستفد منها، كلهم يموتون وكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت. والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر، أي أردت من هذه المقدمة نحن أحياء في بحبوحة، والقلب ينبض في بحبوحة، باب التوبة مفتوح والإصلاح ممكن، والإحسان ممكن، وأداء الحقوق ممكن، والمسامحة، وكل شي ممكن في هذه الدنيا وبعد هذه الدنيا كل شيء مغلق.

سَوْق الكافر المتعالي إلى جهنم سوقاً شديداً:

(خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(47))

(سورة الدخان)

قال المفسرون

(اعتلوه)

أي سوقوه سوقاً شديداً، كما تشاهدون ركلاً، وخزاً، وضرباً وسباباً.

(ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم(48))

(سورة الدخان)

وقد نسمع عن ثوران بركان فتجد الحمم سائلة، هذه الحمم صخر بازلتي سائل، حرارته تزيد عن 1500 درجة فإذا تجمد شكل صخوراً سوداء، أساس بعض المحافظات براكين، فمحافظة السويداء أساسها براكين، وكلها حجار سُوداً:

(ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم(48))

(سورة الدخان)

الله عز وجل جمع لأهل النار كل أنواع العذاب:

الآن في عندنا عذاب مادي أحياناً تُحرق يد الإنسان، أو يشعر بموجة ألم في كليتيه، ويشعر بألم في رأسه هذا كله عذاب مادي، لكن أحياناً يتلقى الإنسان كلمات قاسية لا ينساها سنوات عديدة، لدينا عذاب مادي و عندنا عذاب أدبي، فالله عز وجل جمع لأهل النار كل أنواع العذاب.

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49))

(سورة الدخان)

فمن بعض معاني هذه الآية أنه كان في الدنيا عزيزاً وقد استكبر على الله أن يطيعه أو يسجد له، وأبت نفسه أن يقف عند أمر الله، لم يعبأ بأمره، ولا بنهيه، أي عزة الإثم مع أن الله سبحانه وتعالى هو

العزيز، ومع أن الله سبحانه وتعالى ما كان ليذل مؤمناً وكلكم يقرأ في دعاء القنوت: سبحانك إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، فالمؤمن عزيز لأنه مع العزيز والكافر ذليل لأنه عادى العزيز.

(خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(47) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم(48))

(سورة الدخان)

ذق ألوان العذاب إنك كنت في الدنيا:

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49))

(سورة الدخان)

توعد الله عز وجل كل إنسان آثم بالعذاب الشديد:

أي كما قلت لكم في الدرس السابق، كما قال عليه الصلاة والسلام: ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة. سيدنا الصديق خرج عن كل ماله فلما قال له النبي عليه الصلاة والسلام: ماذا أبقيت لنفسك يا أبا بكر ؟ قال: الله ورسوله، والذين استحوذوا على الأموال وعاندوا الواحد الديان وحاربوا النبي ماتوا شر ميتة ولعنهم التاريخ وهم في مزبلة التاريخ.

أتمنى على الله عز وجل أن نفهم هذه الفكرة، فهذه المقدمات تؤدي إلى هذه النتائج، يجب أن نعلم أن هذه المقدمة هذه نتيجتها، فربنا عز وجل في صفحة واحدة عرض مشهدين: الآثمون هذا مصيرهم.

(خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(47) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم(48))

(سورة الدخان)

ثم يعذب عذاباً أدبياً نفسياً:

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49))

(سورة الدخان)

من حملته عزته أن يكفر بالله سيُعذب عذاباً مادياً و معنوياً يوم القيامة:

إذا كان الإنسان في منصب رفيع ثم اقتيد للسجن فأقل كلمة من الجندي تهينه. إذا قال له يا سيادة هذه إهانة، قد يقولها استخفافاً، فالإنسان إذا كان مستكبراً وكان مترفعاً وكان له مكانة في الدنيا، هذا حينما يساق إلى النار يذوق عذاباً آخر غير عذاب الحريق وغير العذاب المادي، العذاب الأدبي والمعنوي يتكلم الإنسان أحياناً كلمة، يبقى شهراً متألماً من نفسه، كيف تكلم بها، وأحياناً يسمع كلمة من شخص

قاسية، فيها إهانة، فيها استخفاف، وسخرية، لا أبالغ قد يبقى سنة بأكملها وهو يتألم كلما ذكرها فالعذاب الأدبي لا يقل أحياناً تأثيراً عن العذاب المادي:

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49))

(سورة الدخان)

كنت في الدنيا عزيزاً وحملتك عزتك أن تكفر بالله، لقد كنت مستمتعاً بمباهج كثيرة توهمت أنك إذا آمنت بالله ذهبت عنك، لكنك تمسكت بها وبقيت في الباطل.

من لم يكن كلامه مطابقاً للحقيقة فكلامه لا يقدم و لا يؤخر:

الآن:

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49) إن هذا ما كنتم به تمترون(50))

(سورة الدخان)

أي الإنسان إذا كذب بشيء وكان هذا الشيء حقيقة واقعة ثم واجه الحقيقة يتألم أشد الألم، أي عُرِض عليه أن هذا العمل مصيره إلى السجن، في الدنيا لو خالف الأنظمة النافذة وكان العقاب شديداً جداً، نُصح، نُبّه، ذُكِّر، لم يرتدع فلما وقع في قبضة العدالة جزاء ما اقترفت يداه يتألم أشد الألم لأنه نُبه سابقاً لكنه لم يصدق قال:

(إن هذا ما كنتم به تمترون(50))

(سورة الدخان)

أي ما كنتم به تكذبون، فلك أن تقول ما شئت، وأن تصدق وأن تكذب، ولكن إياك أن تُكذب شيئاً لابد من أن يقع، هنا البطولة، لك أن تقول عن هذا الإنسان ما شئت، أنت مخير، لك أن تقول أن هذه ليست شمساً في رابعة النهار، إن قلت ذلك فهي شمس، وكلامك لا يقدم ولا يؤخر، وادّعاؤك وافتراؤك وتكذيبك لا يقدم ولا يؤخر، هذه أشياء دقيقة في المعنى، إن هذا كأس ماء هو كأس ماء فلو قلت عنه شيئاً آخر، الكلام لا يغير من طبيعته إطلاقاً، قل عن هذا الكأس إنه فنجان، يبقى كأساً، قل عن هذا الكأس إنه إبريق يبقى كأساً لا كلمة فنجان تجعله فنجانًا و لا كلمة إبريق تجعله إبريقًا، كلامك إن لم يكن مطابقاً للحقيقة لا قيمة له، إنه لا يقدم ولا يؤخر.

الإثم في الدنيا إذا كان متكرراً سيقود صاحبه إلى النار:

لذلك:

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49) إن هذا ما كنتم به تمترون(50))

(سورة الدخان)

وملخص هذا المشهد أن الإثم في الدنيا إذا كان متكرراً أو كان كبيراً وأصر عليه صاحبه فهذا الإثم يقوده إلى النار، وفي النار يصب على رأسه من الحميم ويعاقب عقابين عقاباً مادياً وعقاباً معنوياً وهذا العقاب الواقع كان يكذب به، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: والله والذي نفس محمد بيده لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوة (تذهب الشهية) ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه، ولذهبتم إلى الصعدات تبكون على أنفسكم.

لذلك المؤمن ساعة الفراق وساعة لقاء الله وساعة الوقوف بين يدي الله عز وجل لا تبرح ذهنه ولا دقيقة. لذلك في عطائه ومنعه، في غضبه ورضاه، ووصله وقطعه، في كل مواقفه يفكر كيف يواجه الله عز وجل بهذا العمل.

المتقي وعده الله بمقام مسعد و طمأنينة عالية يوم القيامة:

الآن الطرف الآخر:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ (45))

(سورة الدخان)

هذا الذي اتقى أن يعصي الله، يقول لك هذه حرام، أحياناً في الدنيا الكافر يضحك على المؤمن: ألا زلت خائفاً، إنك لا ترى شيئاً في الدنيا، كل شيء حرام وحرام.... ما هذه الحياة ؟ يسخر منه، هذا المتقي الذي يقف عند حدود الله، فيخاف أن يعصي الله، وقاف عند كتاب الله، يخشى أن يكون كسبه حراماً، وأن يكون إنفاقه حراماً، وأن يستمتع بما يغضب الله:

(إن المتقين في مقام أمين(51))

(سورة الدخان)

أي في مقام مسعد، لكن مع السعادة طمأنينة، وأحياناً يكون الإنسان في مقام عالٍ في الدنيا ولكن عنده قلق عميق أن ينحى عن هذا المنصب، هذا القلق العميق يفسد عليه الاستمتاع بهذا المنصب، لا يجد أمناً. وهناك إنسان وصل إلى دخل كبير عنده شيء يفسد عليه هذا الدخل هو خوفه أن ينقطع هذا الدخل. أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقّع المصيبة مصيبة أكبر منها.

(إن المتقين في مقام أمين(51))

(سورة الدخان)

وما هم منها بمخرجين.

الحياة الدنيا مشحونة بالمتاعب حتى تتضاعف السعادة في الآخرة:

لا يوجد بالجنة تقدم بالسن، ولا أمراض ولا نوبات كلية، أمراض قلب وضعف سمع، ولا ضعف بصر ولا خرف، ولكن شباب دائم، كل شيء تشتهيه بين يديك، والمنافسة لا يوجد، إزاحة شخص لآخر عن منصبه لا يوجد، وكل متاعب الدنيا يبرأ الإنسان منها في الآخرة.

في الحقيقة مما يضاعف نعيم أهل الجنة أن الحياة الدنيا متعبة فجاء إلى الدنيا فوجد فيها المتاعب والمخاوف والمقلقات والأمراض والمنافسة أحياناً والناس لا يرحمون والناس لا يرضون، ولا يوجد أحد ليس عنده قصص تملأ أشهر يحدثك عن متاعبه في الحياة، هذه المتاعب لحكمة بالغة، لو أن الله عز وجل لو أعطى الإنسان سؤله: ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وقفوا على صعيد واحد وسألني كل واحد منكم مسألته ما نقص ذلك في ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في مياه البحر، ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام.

أي أن الله عز وجل قادر أن يعطي كل إنسان مطالبه، شكل يعطيه أعلى شكل، وكذلك أعلى دخل، وأفضل زوجة وأعلى بيت وأعلى مركبة، وعندئذ نكره لقاء الله عز وجل، فالحياة الدنيا شاءت حكمة الله أن تكون مشحونة بالمتاعب، حتى تتضاعف السعادة في الآخرة، كل شيء كان في الدنيا يؤلمك يزول في الجنة، يكون الإنسان ساكنًا في بيت صغير وفيه متاعب، وشمسه قليلة، فينتقل لبيت الشمس في كل الغرف، وكان البيت صغيراً فأصبح كبيراً، وكان له درج فصار فيه مصعد مثلاً، كان فيه مدا فئ أصبح فيه تدفئة مركزية، كان فيه حر فصار فيه تكييف، وكل شيء في البيت القديم يضاعف سعادته في البيت الجديد، كان هنالك أشياء مزعجة كثيرة جداً هنا فاستراح هنا منها، لذلك من حكمة الدنيا المتعبة أنها تضاعف سعادة آل الجنة.

ورود الناس على النار يوم القيامة يضاعف سعادة المؤمن أضعافاً مضاعفة:

بل إن الناس جميعاً بما فيهم المؤمنون سيردون النار لقوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا (71))

(سورة مريم)

ورود النار ليس دخولها، لكن المؤمن يطّلع على النار، يطلع على مكانه فيها فيما لو عصى الله في الدنيا، ينظر إلى أهل الدنيا الذين لم يبالوا بطاعة الله، أين مصيرهم ؟ فيطمئن قلبه لعدالة الله ويرى أين مصير الجبابرة، ثم يرى مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً، هذا الورود على النار يوم القيامة يضاعف سعادة المؤمن أضعافاً مضاعفة، كذلك متاعب الدنيا من شأنها أن تزيد من سعادة المؤمن يوم القيامة.

(إن المتقين في مقام أمين(51) في جنات وعيون(52))

(سورة الدخان)

فالإنسان إذا كان لديه حديقة، وأرض خضراء، وأشجار باسقة، وينبوع ماء، وشلالات أحياناً يقول لك مثل الجنة، أي أن الله عز وجل جعل اللون الأخضر والنبات الأخضر والماء العذب الفرات وأصوات العصافير هذه كلها مسعدة للنفس.

(إن المتقين في مقام أمين(51) في جنات وعيون(52))

(سورة الدخان)

لابد وأن يكون دخَلَ الإنسان إلى بيت ومزرعةٍ جميلةٍ جداً منسقة الأزهار، فيها أشجار ، ومسطحات خُضر، وشلالات، هذه نماذج مصغرة جداً.

أعدّ الله لعباده الصالحين يوم القيامة:

1 ـ البساتين و الأنهار:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

إنه وصف دقيق.

(إن المتقين في مقام أمين(51) في جنات وعيون(52))

(سورة الدخان)

أي بساتين وأنهار.

2 ـ ما رقّ و ثخن من الحرير:

(يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين(53))

(سورة الدخان)

فيه حرير رقيق وحرير ثخين،

(السندس)

ما رق من الحرير، و

(الإستبرق)

ما ثخن من الحرير.

3 - سرر مريحة يتحدث كل للآخر حديثاً لا حقد فيه و لا ضغينة:

(متقابلين)

جلسات مريحة، لا يرى أحدهم إلا وجه الآخر، فيه تقابل، طبعاً وهم على هذه السرر متقابلون يتحدثون حديثاً عذباً، يتحدث كل للآخر عن تجربته في الدنيا، عن معرفته بالله، وعن أسباب إيمانه واستقامته، إنه حديث رائع فيه محبة ولا يوجد حسد ولا غيبة ولا ضغينة ولا تنافس.

(في جنات وعيون(52) يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين(53))

(سورة الدخان)

4 - حور عين:

ومن تمام نعمتهم في الآخرة:

(كذلك وزوجناهم بحور عين(54))

(سورة الدخان)

(الحور)

تحار العين في جمالها، الجمال المطلق في الجنة، في الدنيا الجمال متفاوت ولا يوجد امرأة كاملة، إذا كملت من جهة نقصت من جهة ثانية، حتى لو كمل جمالها نقص عقلها، فهناك توازن، والمجموع ثابت ولكن في الآخرة كما ل مطلق في كل شيء، ولحكمة بالغة فالنساء في الدنيا متفاوتات ولسن على ما ينبغي أن يكن كلهن، في الآخرة:

(وزوجناهم بحور عين (54))

(سورة الدخان)

كلام مختصر مفيد،

(الحور)

تحار العين في حسنهن و

(عين)

لهن عيون واسعة والعينان ذات العينين الواسعتين والحوراء شدة بياض العين وشدة سوادها، هذا الوصف كان العرب مغرمين به

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

أي امرأة كما ينبغي أن تكون في أعلى مستوى، لا يوجد في الجنة العيوب التي هي في الدنيا، فالإنسان بعض الأحيان يعاني من الكلام المستمر، من النغص في البيت، قد تكون الزوجة جيدة لكن لها إلحاحاً على موضوعات معينة يضجر منها في النهاية. قال:

(وزوجناهم بحور عين. يدعون فيها بكل فاكهة آمنين(55))

(سورة الدخان)

5 - لهم فيها ما يشاؤون من فاكهة وهم آمنون:

بالإضافة إلى الزوجة الحوراء و العيناء لهم فيها ما يشاؤون من فاكهة وهم آمنون، وأحيانا يخاف الإنسان من أن تُفقد هذه الفاكهة، أو يخاف أن تنتهي، أو يخاف ألا يشتريها (طبعاً الفاكهة بالجنة لا مقطوعة و لا ممنوعة)، أو ينتهي وقتها، أو يُمنع استيرادها (لا مقطوعة ولا ممنوعة)

كل شيء بعد الموت أصعب من الموت على الكافر و أهون على المؤمن:

(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى (56))

(سورة الدخان)

أي لا يوجد إلا موتة واحدة، حينما يلقى الإنسان ربه وبعد هذا الموت نعيم في نعيم، أي آخر شيء يمكن أن يزعج المؤمن حين تنزع روحه وتصعد إلى الملأ الأعلى.

(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى (56))

(سورة الدخان)

لذلك الكافر كل شيء بعد الموت أصعب من الموت وأما المؤمن كل شيء بعد الموت أهون من الموت، من الموت إلى الجنة، القبر روضة من رياض الجنة، لهذا قال سيدنا علي: يا بني ما خير بعده النار بخير (أي كل شيء مهما بدا لك عظيماً في الدنيا إذا انتهى إلى النار ليس بخير)، وما شَرٌ بعده الجنة بشر (حياة كلها شظف وخشونة ومتاعب وأمراض وهموم وأحزان إذا انتهت بك إلى الجنة فهذا ليس شراً، بل خير محض)، وكل نعيم دون الجنة محقور وكل بلاء دون النار عافية.

(إذاً كذلك وزوجناهم بحور عين(54) يَدعون فيها بكل فاكهة آمنين(55))

(سورة الدخان)

نظام الدنيا أساسه الكدح و نظام الآخرة أساسه الطلب:

نظام الآخرة نظام طلب فقط وأما نظام الدنيا فنظام كدح وسعي:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6))

(سورة الإنشقاق)

نظام الدنيا أساسه الكدح، فإذا أراد إنسان أن يأكل لقمة يحتاج إلى ساعات ليشتري الخضرة واللحم ويطبخ.... وإذا أراد أن يذهب إلى مكان جميل يحتاج أكثر من خمس ساعات أحياناً...إذ لا يوجد شيء في الدنيا إلا وله ثمن، بينما في الآخرة لهم ما يشاؤون، اطلب تعط.

النعيم في الآخرة مضاعف:

(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم(56))

(سورة الدخان)

فالنعيم مرتان، مرة لأنهم في نعيم، ومرة لأنهم ووقوا عذاب الجحيم، إذا كان الواحد كاد أن يغلط، لم يغلط، فكلما رأى مصير الذين فعلوا هذا الغلط يشكر الله عز وجل لأنه لم يتورط وتتضاعف سعادته.

(فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم(57))

(سورة الدخان)

الجنة هي الفوز العظيم للإنسان:

إخواننا الكرام:

(ذلك هو الفوز العظيم)

(سورة الدخان)

هذا هو الفوز، بعض الأحيان يكون الفوز بنظر الناس شيئاً آخرَ، المال عندهم فوز، وكذلك المنصب والنجاح كله فوز، ولكن الفوز العظيم هو أن تدخل الجنة. ولهذا فأحد خلفاء بني أمية التقى بعالمٍ جليل، فقال له سلني حاجتك ؟ فأجابه ليس لي عندك حاجة، فلما ألح عليه قال والله أستحي أن أسأل في بيت الله غيرَ الله، فلما التقاه خارج بيت الله، قال له ثانيةً سلني حاجتك ؟ قال له والله ما سألتها من يملكها، أفأسألها من لا يملكها ؟ فلما ألح عليه قال أريد أن أدخل الجنة، فأجابه: هذه ليستْ لي، فقال هذا العالم إذاً ليس لي عندك حاجة.

(فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم(57))

(سورة الدخان)

ولابد لكل أخ كريم من أن يتصور ما هو الفوز العظيم، لأن كل إنسان أحياناً يتصور فوزاً، هو في فوز جزئي، يقول لو وصلت إلى هذا المستوى فقد فزت، الدنيا كلها لو وصلت إلى قمة مجدها، وقمة الغنى فيها، وقمة السلطان فيها، لا تُعد عند الله فائزاً، الفوز العظيم أن تصل إلى الجنة. هكذا كلام رب العالمين:

(ذلك هو الفوز العظيم)

(سورة الدخان)

هذا الفوز وليس دونه فوز، دون هذا الفوز ليس هناك فوز وليس فوقه فوز، هذا هو الفوز:

(ذلك هو الفوز العظيم)

(سورة الدخان)

من توهم أن الفوز هو الاستمتاع بالدنيا فهو جاهل و واهم:

كل إنسان متوهم فوزاً غير هذا الفوز فهو جاهل وواهم، والمال ليس فوزاً وحيازته ليستْ فوزاً، أن يتمتع الإنسان بصحة جيدة ويعيش 98 سنة فليس فوزاً عند الله، هنالك طغاة عاشوا 130 سنة، أن تكون في أعلى مرتبة اجتماعية ليس فوزاً، أن تستمتع في كل شيء في الدنيا ليس فوزاً، دقق بالآية:

(فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم(57))

(سورة الدخان)

ليس فوقه فوز وليس دونه فوز.

الزمن في صالح المؤمن و ليس في صالح الكافر:

(فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون(58))

(سورة الدخان)

هذا قرآنُ تَذكِرة.

(فارتقب إنهم مرتقبون(59))

(سورة الدخان)

انتظر لابد من تحقيق الوعد والوعيد، الزمن ليس في صالح الكافر، هو في صالح المؤمن، لأن مضي الزمن سيوف يؤكد للمؤمن صحة رؤيته، وصلاح عمله، وفوزه الحقيقي، وأما غير المؤمن الزمن يفاجئه بأن أفكاره غير صحيحة ورؤيته كانت مشوشة، ضبابية، قيمه ساقطة، مبادئه هدامة، فالزمن لصالح المؤمن، وليس في صالح الكافر والدليل:

(فارتقب إنهم مرتقبون(59))

(سورة الدخان)

الأيام لا تلد للمؤمن إلا الخير:

(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا (51))

(سورة التوبة)

وأما الأيام لا تلد للكافر إلا الشر، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدجال، فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى و أمر.

مشهد أهل النار رادع للإنسان ومشهد أهل الجنة دافع له:

هذا المقطع إخواننا الكرام نحن أحياء والقلب ينبض، وباب التوبة مفتوح، وباب الإحسان والإصلاح والمسامحة والأداء كلها مفتوحة، وكل عمل له نتيجة، فهذه المقدمة تؤدي إلى هذه النتيجة، الأثيم هذا مصيره والمتقي هذا مصيره، ومعنى متقٍ أي اتقى أن يعصي الله، وبكل بساطة هناك مشهدان: مشهد لأهل النار والسبب هو الإثم، ومشهد لأهل الجنة والسبب هو التقوى، فهذا وقع في الإثم وهذا اتقى أن يقع في الإثم، هذه المقدمة أدت لهذه النتيجة وختام السور دائماً ملخص لها، ومن نعمة الله علينا أي أحياناً المدرس من شدة رحمته بالطلاب، يعطيهم نماذج أسئلة لئلا يتفاجؤوا، يقول لك مثلاً بالفحص يوجد مسألة ومعادلة و سؤال نظري والمسألة خمسة طلبات، وكأن الله عز وجل يسرب لنا ما سيكون قبل أن يكون.

فهذان المشهدان في القرآن مشهد لأهل الجنة ومشهد لأهل النار، ونحن في الدنيا قبل أن نصل إليها، ولكن من يقول لك هذا حق ورب الكعبة ؟ ولكن إن وصلت إلى دار الحق تصبح الرؤيا حقيقية وثابتة ولكنك لا تستفيد من هذه الرؤيا بعد أن رأيتها، إلا أنك في الدنيا لو رأيت هذا، أو صدقت بهذا، وتبنيت هذا فينعكس هذا إلى عمل صالح واستقامة، فالذي أتمنى من الله عز وجل أن ينقلب هذان المشهدان الأول والثاني إلى دافع وإلى رادع، مشهد أهل النار رادع، ومشهد أهل الجنة دافع، فإذا كان المشهد الأول ردعاً والثاني دفعاً فقد تحقق المراد من هذين المشهدين في أواخر سورة الدخان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 01 – 09
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-09-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الجاثية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6))

أيها الإخوة الكرامَ

حَـــم

(حم)

معاني الحروف المقطّعة

هذه الحروف من أوائل السور: إما أنها أوائل أسماء الله تعالى، أو أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم، أو هي إشارةٌ إلى إعجاز القرآن البياني، أن هذا القرآن الكريم نُظِم من هذه الأحرف، والله سبحانه وتعالى يتحدّى البشر جميعاً أن يأتوا بآيةٍ من مثله، أو كما قال بعض المفسّرين: **" الله أعلم بمراده "..**

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

شرف الرسالة من شرف المرسِل

الرسالة شرفها من شرف المُرْسِل، قيمة الكتاب من قيمة الكاتب، قيمة الرسالة من قيمة المُرْسِل، الله سبحانه وتعالى في آياتٍ كثيرة يشير إلى أن هذا البيان بيان الله، وتوجيه الله، وكلام الله، إنّ هذا الأمر أمر الله، وهذا النهي نهي الله، وهذا التفسير للكون وللحياة وللإنسان تفسير الله، إن هذا الكتاب من عند خالق الكون، لذلك قالوا: **" فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ".**

إن الإنسان إذا لم يستحضر عَظَمَة الله عزّ وجل وهو يتلو كلام الله لا يستفيد منه، ما لم يشعر الإنسان حينما يقرأ القرآن أن هذا القرآن كلام الخالق..

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت: آية " 42 ")

الله عزّ وجل كماله مطلق، حكمته مطلقة، علمه مطلق، خبرته مطلقة، كلامه لا يمكن أن يتطرّق إليه شكٌ، ولا خطأٌ، ولا غفلةٌ، فمن حينٍ إلى آخر يذكِّرنا الله عزّ وجل بأنّ الكلام كلامه..

تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللّهِ

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

إنّ اسم الله علمٌ على الذّات.. على ذات الله.. الله جلّ جلاله له أسماء حُسْنى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((إِنّ لِلّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنّةَ))

[متفق عليه]

معنى الإحصاء ليس العدّ،

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدّهُمْ عَدًّا)

الإحصاء أرقى من العد، إذا قال الإنسان: الله هو الخالق، البارئ، المصوّر فهذا عدٌّ، وليس إحصاءً، أما النبي الكريم فقال:

((مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنّةَ))

معنى إحصاء أسماء الله

فكلمة (الله) هي العَلَم على الذّات لصاحب الأسماء الحُسْنى والصفات الفُضلى، ولا تعرف معناها إلا إذا تفكّرت في خلق السماوات والأرض، كلمة واحدة نلقيها على ألف إنسان كل إنسان يفهم منها شيئاً بحسب خبرته.

يُروى أن إنسانًا يمشي في الطريق سمع كلمة كُرسي، هو أستاذ في الجامعة، ويحمل أعلى شهادة، لكن لم يُتَح له أن يكون أستاذًا ذا كرسي، وهو يتوقّع أن هذا الذي يحلُّ محلّه ليس في مستواه، فهو متألِم دائماً، فإذا سمع كلمة (كرسي) فهذه الكلمة تثير في نفس هذا الأستاذ شجونًا وآلامًا، وتمنيّات، وطموحات، وقد يمشي في الطريق ساعةً أو ساعتين، وكل خواطره أثارتها كلمة (كرسي)، إذاً الكلمة أثارت خبرات، أثارت تصوُّرات، أثارت طموحات.

يسمع هذه الكلمة: (كرسي) إنسان آخر يعمل في حلاقة الشَعر، يوجد عنده كرسيين، ويتمنّى المزيد، لكن يخشى أن ترتفع الضريبة، يخشى ألاّ يجد من يعمل على هذا الكرسي، أيضاً ساعة، وساعتين، وثلاثًا وهو يمشي في خواطر أخرى، ما الذي أثار كل خواطره ؟ كلمة: (كرسي).

يسمع كلمة (كرسي) إنسان يحتاج في بيته إلى كَراسٍ، ولكن لا يملكها، ولا يملك ثمنها، فالغرفة فارغة، ويأتيه ضيوف، ولا يملك ثمنها ؟ أيضاً ساعة أو ساعتين وهو يفكر في كلمة (كرسي).

ويسمع كلمة (كرسي) إنسان متعب، فيتمنّى أن يرى كرسيًّا يجلس عليه، فهذه كلمةٌ واحدةٌ أثارت تصوُّراتٍ شتّى، ومعانيَ شتّى.

ضربت هذا المثل لأصل به إلى أنك لو قلت: الله، فهذه الكلمة ماذا تثير في نفسك ؟ تثير في نفسك كل خبراتك مع الله.. فبحجم خبراتك، بحجم تصوُّراتك لله، بحجم تفكُّرك في خلق السماوات والأرض، بحجم عطائك، بحجم إقبالك على الله، بحجم تمنيّاتك أن يرضى الله عنك، فكلمة واحدة تثير عندك كل الخبرات، هذه الكلمات لها مضامين، وحينما تفقد الكلمة مضمونها تصبح لا قيمة لها، لذلك كلمة (الله) يقولها آلاف الناس، هناك من يُشْهِدُ الله، وهو يكذب، يقول: الله وكيلك، والله يراه، ليس لها مضمون عنده أبداً، هناك من يعتدي على الناس، ويقول: الحمد لله، الله وفّقنا، إلى ماذا وفّقك ؟ إلى إيذاء الناس ؟! فهناك كلمات يقولها الناس ليس لها مضمون أبداً، لكن المؤمن كلّما فكّر في خلق السماوات والأرض يزداد مضمون هذه الكلمة عنده.

لو فرضنا أن لك قريبًا يعمل في حقل التعليم الجامعي، تعرفه أنه أستاذ جامعة، لكن لم تلتق معه ولا مرّة، ولا ناقشته ولا مرّة، فكلمة أستاذ جامعة لها عندك حجم، أما لو جلست معه مرّةً، وسمعت من علمه الغزير، يظهر حجم هذه الكلمة بشكل أوسع، لو كنت طالباً عنده، واستمعت إلى محاضراتٍ سنواتٍ عدّة، وكل محاضرة رأيتها أجمل من أختها، وأعمق من أختها، فحجم تقديرك لهذا الأستاذ يساوي حجم خبرتك معه.

وكلما ازددت معرفة بالله اقشعر جلدك عند ذكره ووجل قلبك، واضطرب خشوعًا، وأتساءل: ما بال أناسٍ يسبُّون الدين أحياناً ؟ ويتهجّمون على الذّات الكاملة، ولا تملك إلا أن تقول: هذا لا يفقه شيئاً في الدين، فكلّما فكّر الإنسان في خلق السماوات والأرض ازداد حجم معرفته، وكلّما ازداد حجم معرفته ازداد حجم خشيته، لهذا يقول لنا ربنا عزّ وجل:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ

فأحياناً يقول لك أحدهم: يا أخي نفِّذ هذا الأمر، تقول: مِنْ مَنْ ؟ اهتمامك بالأمر ومبادرتك إلى تنفيذه، وتعظيمك له بحسب الآمر، إذا كنت جنديًا، وأمرك عَرِّيف، قد لا تعبأ به، أما إذا رأيت أن قائد الجيش وقّع على هذا الأمر تبادر إلى تنفيذه فوراً.

مدلولات النطق بكلمة (الله)

كل هذه الأمثلة ما أردت منها إلا شيئاً واحداً، كل واحد منّا إذا ذكر كلمة (الله) أثارت في نفسه مكنونات بحسب تفكّره في خلق السماوات والأرض، بحسب تأمُّله في آيات الله الدّالة على عظمته، بحسب خبراته في الاتصال به، بحسب أذواقه في الإقبال عليه، بحسب طموحه إلى مرضاته، كل هذه الخبرات، وتلك المعاني، والتصورات، والتأمُّلات، والأذواق إنما تثيرها كلمة (الله)، فـ (الله) تثير في الإنسان كل خبراته مع الله، كل أشواقه، كل ذكرياته الطيّبة.

فالمؤمن عليه أن يُحْكِمُ الصلة مع الله، لأن هذه الصلة إذا ضعُفَت أو انقطعت فلا شيء في الدنيا يرضيه، لأنه ذاق طعم القُرب، وما سوى هذا القُرب لا شيء يملأ عينه أبداً، مهما اغتنى، وقد يغتني، وقد يأكل أطيب الطعام، وقد يجلس في أجمل الأماكن، وقد يسكن في أجمل البيوت، يقول لك: لا أنسى تلك الأيّام الخوالي التي كانت صلتي بالله فيها محكمة، إذاً اجهد في معرفة الله، وفي التفكّر في خلقه، وفي الإقبال عليه، وفي الاتصال به، وفي مناجاته، وفي خدمة خلقه، وفي الالتزام بأمره ونهيه، إلى درجة أنه إذا ذُكِرَ الله وَجِلَ قلبك، واقشعرّ جلدك، وانهمرت دموعك، هذا معنى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

(سورة الأنفال: 2)

لو قلت لك: حدِّثني عن ربّك، فماذا تقول ؟ الله خلق السماوات والأرض ؟ أكمل ! ما بالك سكت ؟ بينما ترى المؤمن الذي سلك طريق الإيمان، وله مجلس علم، وله اتصال بالله، وله إقبال عليه، وله حبُّه له، وله شوقه إليه يحدِّثك ساعات وساعات، يمضي الوقت فلا يشعر به لا المتكلِّم ولا السامع، هذه خبرات، الإنسان المؤمن الصادق شغله الشاغل الله عزّ وجل، لذلك قال:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(3 سورة المؤمنون)

قال علماء التفسير: **" اللغو ما سوى الله "..**

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

حدّثني أخ عن صديق له صلة بالله وثيقة، أناب إلى ربه إنابةً رائعة، حديثٍ دنيويٍّ تافه لا يلتفت إليه، ولا يُصغي إليه، ولا يدلي برأيه فيه أبداً، أما إذا كان الحديث عن الله عزّ وجل تألّق وتكلّم، فالمؤمن هذه الحقيقة العُظمى تملأ نفسه، وتحتلُّ أكبر مكانةٍ في قلبه بل تحتلُّ كل قلبه، لذلك ورد في الأثر:

((أن يا عبدي، طهّرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة))

منظر الله عزّ وجل هو القلب، القلب منظر الرب..

((إنّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ـ هذا طويل وهذا قصير، هذا أبيض وهذا أسمر، هذا وسيم الطلعة وهذا دميم ـ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

(صحيح مسلم عن أبي هريرة)

الله جلّ جلاله يحبُّ في العبد أن يكون قلبه ذاكراً، ولسانه شاكراً، وبدنه على البلاء صابراً، يحبُّ في العبد أنه إذا صمت فكّر في آيات الله..

" أُمِرْتُ أن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرةً ". يحبُّ في العبد أن يُشْغَلَ بمعرفة الله، أن يملأ الكون كل اهتمامه، لأن الكون بابه إلى الله، وأقول لكم دائماً، وأعيد هذا الكلام كثيراً: إذا أردت أن تدخل من أوسع بابٍ إلى الله فدونك الكون، وإن أردت أن تقطع أقصر طريقٍ إلى الله فدونك الكون، لأنك لا تعرف الله لا بعينك ولا بسمعك، الله لا يُرى، ولا يُسمع، لكن لا تعرفه إلا بعقلك، فكأنّ الكون طريقٌ وحيدٌ لمعرفة الله عزّ وجل، وهذا المعنى ورد في هذه الآية:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

الحَكِيم

(العزيز) الغالي والعزيز النادر، لكن علماء التوحيد قالوا: " العزيز هو الذي يحتاجه كلُّ شيءٍ في كل شيء، ويستحيل الإحاطة به والوصول إليه "، ويمكن أن تصل إلى الله، لكن مستحيل أن تحيط به، باستقامتك وأعمالك الصالحة تصل إليه، أما أن تحيط به علماً فهذا أمر مستحيل.

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: آية " 255 ")

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا)

(85 سورة الإسراء)

إذاً يحتاجه كلُّ شيءٍ في كل شيء، وهو لا يحتاج شيئًا، هو الصمد، كل شيء بحاجته بينما وجود الله عزّ وجل ذاتي..

(الْحَكِيمِ)

الحَكِيم

(الحكيم) هو كل شيء تراه عينك، لو لم يكن على ما هو عليه لكان هذا نقصاً في حكمة الله، هذا الحكيم، حكمته مطلقة، لهذا القاعدة الدقيقة تقول: **" كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، والذي أراده الله متعلِّقٌ بحكمته المطلقة، وحكمته المطلقة متعلِّقة بالخير المطلق "، " ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن "، " وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق ".**

أما الإنسان فقد لا يكون حكيماً، لماذا ؟ يرتكب الإنسان أعمالاً ليست حكيمةً لنقصٍ في علمه، أو لضغطٍ عليه، أو لوقوعه تحت تأثير إغراء شديد، كل هذا الله جلّ جلاله منزّهٌ عنه، لذلك حكمته مطلقة، هذا الذي دفع بعض العارفين بالله على أن يقول: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان ".**

هذا الشعور وتلك العقيدة، أو هذا التصور هذا الذي سبب طمأنينة المؤمن، فهو لا يندم على شيء، ولا يتمنّى أن يكون في غير الذي أقامه الله فيه، لأن حكمة الله مطلقة، هو مولود في المكان الفلاني، من الأب الفلاني، من الأم الفلانيّة، بهذه الإمكانات، بهذه القدرات، بهذا المستوى الاقتصادي والمعاشي، الله يسّر له عمله، يرى أن هذا كلّه بحكمة الله عزّ وجل، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

(مسند أحمد: عن صهيب)

حالة المؤمن حالة راقية جداً، لأنه يرى حكمة الله، لا يوجد شيء يزعج المؤمن، لأن ما يزعج المؤمن هو الشرك، الشرك أن تتعامل مع الأشياء، وكأنّها قِوى مستقلّة عن الله عزّ وجل، شيء مخيف، وإنسان أقوى منك، وإنسان لا يحبُّك، ويتمنّى دمارك، فإذا تعاملت مع الأشياء بهذه الطريقة.. بطريقة المشركين.. أنّ هذه الأشياء المخيفة هي قِوى مستقلّة عن الله عزّ وجل فيجب أن تخاف، ويجب أن ينخلع قلبك، فالحياة كلها مخاوف، أقربها إلينا مخاوف الأمراض الوبيلة، الأمراض العُضالة، فهناك أشخاص أقوياء، وهناك مزالق كبيرة، وألغام، وحقول فيها ورطات، لكن المؤمن إذا استقام على أمر الله، وأقبل عليه ووحّده، علاقته مع جهة واحدة، وهذه الجهة هي الله عزّ وجل، لهذا ورد في الأثر:

((اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلها))

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللّهُ هَمّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللّهُ فِي أيّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

(رواه ابن ماجة عن عبد الله بن مسعود)

اجعل لربّك كل عز ك يستقرّ ويثبت

فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزّك ميّتُ

*** * ***

إخواننا الكرام.. لا يوجد شيء يسعدنا كالتوحيد، والتوحيد هو الدين، لا تعجبوا عندما ربنا يقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(25 سورة الأنبياء)

الآن ربنا عزّ وجل يبيّن لك أن فحوى دعوة الأنبياء كلِّهم التوحيد، التوحيد نهاية العلم، طاعتك لله عزّ وجل نهاية العمل، فإذا وحدّته وعبدّته فقد جمعت المجد من طرفيه، الله عزّ وجل ما خلقك إلا من أجل أن توحدّه، وأن تعبده، هذا هو ملخّص الدين كلِّه، أما التوحيد فكلمة نقولها جميعاً، والبطولة لا في لفظها، ولكن في فهم فحواها تقول: ألف مليون دولار، هذه كلمة، وقد لا تملك منها واحدا، أن تلفظ هذا الرقم شيء، وأن تملكه شيءٌ آخر، أن تقول: لا إله إلا الله بلسانك شيء، وأن تكون موحِّداً شيٌ آخر، الله جلّ جلاله يقول:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)

(سورة محمد: آية " 19 ")

فَاعْلَمْ أمرك أن تعلم، لأنك إذا علمت لم تبق هناك مشكلة..

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود56)

التوحيد يحتاج إلى جهد كبير، لكن والله الذي لا إله إلا هو لو وصلتم إلى معشاره لكنتم أسعد الناس، التوحيد هو ألاّ ترى مع الله أحداً، لا حقد، ولا بغضاء، ترى اليوم أكثر الأمراض أسبابها شدّة نفسيّة، والشدّة النفسيّة شعور بالقهر أحياناً، يقول بعض الشعراء:

يا أعدل الناس ! إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخَصْمُ والحكمُ

*** * ***

أحياناً يكون الشخص قويًا، وهو لا يحبُّك، وبحسب الظاهر مصيرك بيده، هذا الشعور وحده يدمِّر الصحّة النفسية، أما بالتوحيد فلا، لأنه:

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود56)

فهذا الكلام كلام الله..

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

العزيز

العزيز هو القوي، الغني، هو المُعطي، المانع، هو الرافع، الخافض، هو المعز، المذل، إن وجدت إنسانًا يضحك ببراءة أقول: هذه نعمة الله عليه، الله قادر أن يُبَكِّي الإنسان، يُبَكِّي الرجال، يبكِّي الأبطال..

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

(سورة النجم43)

إذا استيقظ الإنسان معافى في جسمه، وعنده قوت يومه، أولاده في أسِرَّتهم، زوجته في صحّة جيّدة، لا توجد عنده مشكلة، ولا فضيحة، يضحك، تجده مرحًا ولطيفًا، وجوده مؤنس، أما لو ساق الله عزّ وجل له مشكلة تراه لا يضحك أبداً، إذا تعطلت بعض أعضائه، أو تعطّلت بعض الأجهزة، أين الضحك ؟ تختفي البسمة من على وجهه نهائيًّا..

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

إذاً: (عزيزٌ) لا يوجد غيره، و(حكيم) كل شيءٍ ساقه لعباده محض رحمةٍ وفضلٍ وعلمٍ وعدالةٍ.. عزيزٌ حكيم..

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

السماوات، هذه المجرّات، مليون مَليون مجرّة، في كل مجرّة مَليون مليون نجم، أحياناً الإنسان في أيّام الشتاء إذا كان في غرفة فيها أشعّة الشمس، وكنست الأرض ترى ذرّات عالقة في الهواء، هباب، ليس لها حجم إطلاقاً، وليس لها وزن، الأرض لو قيست بما في الكون من مجرّات وكواكب فهي كهذه الذرّة. المجموعة الشمسيّة بأكملها نقطة على درب التبّانة، ودرب التبانة مجرة متوسطة، إذا رسمنا درب التبانة بشكل مغزلي نقطة على طرف هذا الدرب فهي المجموعة الشمسيّة بأكملها.

قبل عشر سنوات فيما أذكر أرسلوا مركبة فضائيّة إلى المُشْتَري، هذه المركبة كانت أسرع مركبة صنعها الإنسان، تسير بسرعة أربعين ألف كيلو متر في الساعة، الآن في الطيران هناك طائرة سرعتها أعلى من سرعة الصوت، ثلاثمائة وثلاثين متر في الثانية، أما الطيران التجاري العادي فسرعته تسعمئة أو ثمانمئة وخمسين كيلو متر في الساعة، أما هذه المركبة فسرعتها أربعون ألف كيلو متر في

الساعة، بقيت هذه المركبة في طريقها إلى المشتري ست سنوات، المركبة وصلت، وأرسلت صورًا من هناك، ست سنوات بسرعة أربعين ألف كيلو متر في الساعة حتى وصلت هذه المركبة إلى كوكب ليس بعيداً جداً في المجموعة الشمسيَّة.

وكم من المجرات في السماء بعيدة لا تطال ؟ أحدث رقم قرأته في بعض المقالات أربعة وعشرون ألف مليون سنة ضوئيَّة، معنى ذلك أن هذه المجرَّة الآن صوَّرناها بطريق معقَّد جداً علمي عن طريق الطيف الضوئي، هذه المجرَّة كانت في هذا المكان قبل أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئيَّة، الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، الدقيقة ضرب ستين، الساعة ضرب ستين، اليوم ضرب أربع وعشرين، السنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، اكتب ثلاثمئة ألف ضرب ستين على الآلة الحاسبة.. ضرب ستين، ضرب أربع وعشرين، ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، هذا ما يقطعه الضوء في السنة، ضرب أربعة وعشرين ألف مليون، هذه مجرَّة من المجرَّات كانت هنا قبل أربعة وعشرين ألف مليون سنة، أين هي الآن ؟ والله لا ندري، هذا هو الكون.

هناك نجوم حجمها يزيد على حجم الشمس بملايين المرَّات، شمسنا نجم متواضع جداً، يوجد في برج العقرب نجم اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، بين الشمس والأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، والشمس تكبُر الأرض بمليون و ثلاثمئة ألف مرَّة، جوف الشمس يتسع لمليون و ثلاثمئة ألف أرض، وبينهما مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، ونجم قلب العقرب يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، ألسنة اللهب التي صُوِّرت في أثناء الكسوف طولها مليون كيلو متر تخرج من قرص الشمس، وبعض الألسنة نصف مليون..

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

المذنَّب هالي كل اثنين وسبعين سنة يدور دورة، في عام ألف وتسعمئة واثني عشر مرّ بالقرب من الأرض، وقبل سنوات وصل للدورة نفسها، هذه ساعة (بيج بن) وهي الساعة الأولى في العالم بدقَّتها، وربما فقدت دقتها بمقدار ثانية أو ثانيتين في السنة كلها، ويصححِونها بمرور نجم، النجم أدق من ساعة (بيج بن)، حركة الأنجم شيء لا يُصدَّق، والحديث عنه يطول، ويحتاج إلى صفحات وصفحات.

ولكن بشكل مبسَّط الأرض تدور، وفي دورانها الحياة، إذا توقَّفت عن دورتها صار الوجه المُقابل للشمس حرارته ثلاثمئة وخمسون درجة، عندها يموت كل شيء، مئتان وسبعون تحت الصفر، وحكمة الله جعلتها تدور، الله علَّمنا..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ)

(سورة القصص: آية "71 ")

الله علّمك كيف تفكِّر، تصوّر الشيء وخلاف ما هو عليه، تصوّر ليلاً أبديًا، أو نهارا أبديًا، تصوّر الليل ساعة فقط، والنهار ساعة، تصوّر دورة الأرض حول الشمس مئة سنة، معنى هذا أن الربيع يدوم ربع قرن، وربع قرن آخر للصيف، هذا غير معقول، تصوّر الأرض صغيرة جداً، يصير وزن الإنسان فيها كيلو، ففي القمر روّاد الفضاء وزنهم يتضاءل ممن كان على الأرض بستين كيلو، يصبح في القمر وزنه عشرة كيلو، وزنك يتناسب مع حجم الكوكب، فإذا حرّك رائد الفضاء قدمه حركة بسيطة ارتفع عالياً في الهواء، لأنه لا يوجد لديه وزن، توجد أماكن بين الأرض والشمس لا يوجد فيها وزن إطلاقاً.. انعدام الوزن.

إذا صلّى أحدنا الصبح، وأراد أن يفكِّر قليلاً فليفكِّر في الليل والنهار..

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

(سورة فصلت: آية " 37 ")

كيف صار هذا النهار ؟ الأرض تدور، ولو اختلف لأصبح الليل سرمديًا والنهار سرمديًا، لو أنها دارت ومحورها عمودي على مستوى دورانها لانعدمت الفصول وألغيت، فيكون مكان في الأرض صيف إلى أبد الآبدين، ومكان آخر ربيع دائم، ومكان ثالث شتاء دائم، ومكان غيره خريف إلى الأبد، أما تبدُّل الفصول فمن ميل محورها، الشمس هنا، وهنا أشعّة عموديّة، هنا مائلة، إذاً هنا صيف وهنا شتاء، دارت الأرض صار هنا محورها عموديًا، وهنا مائلا، تبدّلت، إذا ركب إنسان طائرة من أمريكة الشماليّة إلى البرازيل يجد العجب العُجاب، في الشمال خمسة أمتار ثلج، وفي البرازيل الناس يسبحون على شاطئ البحر، في الشامل شتاء، وفي الجنوب صيف، جنوب الكرة عكس شمالها، فعندما يكون الطرف الآخر في الأرض ليلاً يكون عندنا نهار، فإذا ركب الإنسان طائرة في الساعة السابعة، ومشى باتجاه الغرب بسرعة الشمس يصل في السابعة هناك دون أي وقت زائد، فهذه الآيات الكونيّة دالّة على عظمة الله..

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

طبعاً هذه أمثلة، أما أنت فيجب أن تفكِّر، ألم تلاحظ ذات مرة أن الشمس تُشرق من مكان، وفي الفصل الثاني من مكان آخر ؟! الله قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)

(سورة المعارج: آية 40)

وقال:

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

(سورة الشعراء: آية " 28 ")

وقال:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

(سورة الرحمن17)

ورد المشرق جمعًا ومثنًى ومفردًا، إذا قال: مشرق أي جهة الشرق، أما إذا قال: مشرقين أي المشرق الأدنى والأعلى، فالذي له بيت مطل على الشرق أو على الغرب يلاحظ أن الشمس تغيب في الشتاء في مكان، وفي الصيف في مكان، والمسافة كبيرة جداً، ويلاحظ الإنسان في الشتاء أن الشمس تدخل إلى أعماق الغرفة، أما في الصيف فتكون عموديَّة، تجد أنه قلّما تدخل الشمس إلى الغرف في الصيف، تدخل مترًا فقط، معنى هذا أن أشعة الشتاء مائلة، أما في الصيف فهي عموديَّة، هذه أشياء تلفت النظر.

فهل يا ترى فكّرنا في الشمس ؟ هذه الشمس من خمسة آلاف مليون سنة متقدة، ولن تنطفئ قبل خمسة آلاف مليون سنة، فليس لدينا الآن مشكلة، ولكن هذا الاتقاد من أين جاء ؟ هل عندك شيء يشتعل من غير وقود ؟ عندك مدفأة من دون مستودع وقود ؟ عندك مركبة تمشي من غير بنزين ؟ هذه طاقة، من أين هذه الطاقة لهذه الشمس ؟ وبعد مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر الشمس بعدسةٍ تُحرق الورق، يقول لك: أشعّة محرقة، يحترق جلد أحدنا إذا سبح في الصيف، لأن هذه الأشعّة محرقة، فما هذه الشمس ؟ الله قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت: آية " 37 ")

القمر موضوع، الشمس موضوع، الليل موضوع، النهار موضوع، الفصول موضوع، أبراج السماء موضوع، أقسم الله جل جلاله فقال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج 1)

المذنّبات موضوع، الكازارات موضوع، الآن توجد الثقوب السوداء مقبرة النجوم، لو أن الأرض دخلت إلى ثقبٍ أسود في الفضاء الكوني لأصبح حجمها كحجم البيضة، ولها الوزن نفسه، فهذه الآيات يجب أن نتأمّل فيها، يجب أن نفكّر فيها، يجب أن تكون طريقنا إلى الله عزّ وجل.

هذا الموضوع الأول:

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ)

وَفِي خَلْقِكُمْ

خَلق الإنسان، إذاً أكبر موضوع في التفكّر هو خلق السماوات والأرض.

الآن مرحلة ثانية، قال:

(وَفِي خَلْقِكُمْ)

آيات الله في بديع مخلوقات

إنسان وزنه خمسة وثمانون كيلوًا، ولكن ما هو أصله ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة القصص: آية " 71 ")

إن سنتيمترًا مكعّبًا من الحوينات فيها خمسمئة مليون حُوين ؟ والإنسان من حوين واحد، والحوين جسم له عنق، وله ذيل، وله رأس مدبّب فيه غشاء تحته مادّة نبيلة، وأقوى حوين يصل إلى البويضة، إذا لامس البويضة تمزّق الغشاء، والمادّة النبيلة أذابت جدار البويضة ودخلتها، وصار داخل البويضة لقاح، وفي الطريق البويضة الملقّحة من المبيض إلى الرحم تنقسم عشرة آلاف قسم، وفي الرحم تُغْرَس فيتشكّل الجنين، تصير الجمجمة، والدماغ، العمود الفقري، العظام، العضلات..

(ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)

(سورة المؤمنون: آية " 14 ")

طفل له عيون، يبكي، له صوت، يتنفّس، فيه أنف، فيه قصبة متصلة بالرئتين، فيه قلب مشطور إلى أذينين وبطين، أوردة، شرايين، عضلات، كلى، معدة، أمعاء، بنكرياس، كبد، غدّة درقيّة، غدّة نخاميّة، غدد الكظرين، الحوض، العضلات، الجلد، اقرأ عن الإنسان تجد أنه حوين لا يُرى بالعين، لقّح بويضة لا تُرى بالعين، غُرِس بجدار الرحم، تشكّل العمود الفقري، من أين جاء العظم ؟ العظم مادّة قاسية، فمن أين جاءت ؟ ترسّبت المواد الكلسيّة، وشكّلت جهازًا عظميًا، وهو قِوام الإنسان، هيكل، قفص صدري، عمود فقري، العين فيها مئة وثلاثين مليون عُصيّة، العصب البصري فيه تسعمئة ألف عصب، لكل عصب ثلاثة أغمدة، وثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرة شريان ووريد، وغدّة دهنيّة وغدّة صبغيّة، وعضلة وعصب لكل شَعرة. كم في اللسان من خليّة ذوقيّة ؟ و لا يزال عملُ الأذن عجيبًا، السمع، البصر، الحركة، كيف يتحرّك الإنسان ؟

(وَفِي خَلْقِكُمْ)

(وَفِي أَنفُسِكُمْ)

(سورة الذاريات: آية " 21 ")

فلو فكّر الإنسان في خلقة لا ينتهي في مئة سنة، وكلّما فكّر يزداد تعظيمًا لله عزّ وجل..

(وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ)

البعوضة لها جهاز رادار، وجهاز تحليل دم، وجهاز تمييع دم، وجهاز تخدير، وجناحاها يرفّان أربعة آلاف رفّة في الثانية، ولها ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، ولها محاجم، ولها مخالب..

(إِنّ اللّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة: آية " 26 ")

الذبابة: إن أعظم طائرة عسكريّة صنعها الإنسان لا ترقى إلى واحد بالمئة من مناورة الذبابة وحركتها، هل توجد طائرة تطير بأقصى سرعة، وخلال ثانية تأخذ زاوية قائمة ؟ غير ممكن، هل توجد طائرة تحط على مطار في السقف ؟ الذبابة تقف على السقف، حركة الذبابة يعجز عن تقليدها أكبر طائرة عسكريّة، وكذلك شأن النمل.

اقرؤوا عن النحل تجدوا أنه شيءٌ لا يُصدّق، كيلو العسل محصلة طيران أربعمئة ألف كيلو متر، اقرؤوا عن خليّة النحل، عن عادات النحل الاجتماعيّة، النظام الاجتماعي، فيه ملكة، فيه ذكور، فيه إناث، وفيه عاملات، وفيه حُرّاس، وفيه كلمة سر، هل يستطيع عاملان يعملان لبلاط غرفة، أحدهما يبدأ من الجدار الأيمن، والثاني من الأيسر أن يلتقيا على بلاطة نظاميّة ؟! النحل يبدأ من كل الجهات فيشكّل شكلاً هندسيًا نظاميًا، وشمع النحل أيضاً شيء مذهل.

اقرؤوا عن النمل، اقرؤوا عن النحل، اقرؤوا عن الحشرات، اقرؤوا عن بعض الحيوانات، قال الله تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس: آية " 72 ")

هذه البقرة إذا توحّشت فإنها تقتل الإنسان، مرض يصيب البقر اسمه التوحُش، مرة بقرة توحّشت فقتلت أول شخص والثاني الله، وعطبت الثالث، فقتلها، قال الله سبحانه:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

لو أن الله لم يذللها، لو ركّب الله أخلاق الضبع في الخروف فكيف يمكن أن تذبحه ؟ يضرب مثلا فيقال: فلان مثل الغنمة، من ذلّله لنا ؟ الله عزّ وجل، اقرأ الآيات، هذا الحليب الذي تشربه، كيلو الحليب محصلة جَولان أربعمئة لتر دم في ثدي البقرة، ثدي البقرة غدّة كالقبّة، هنا توجد شبكة أوعية دقيقة جداً، وهذه الخلية الثديية حتى الآن لا أحد يعرف كيف تعمل، تختار من الدم ما يعجبها، وترشح نقطة حليب منها، فهذا ثدي البقرة ألا يتمزّق وهي تحمل أربعين كيلوًا ؟ لأن البقرة تحلب أربعين كيلوًا، لكن في وسط الثدي جدر عرضيّة طوليّة لكي تمسك الوزن، هذا تصميم من ؟ البقرة معمل، تصميم من ؟ الغنمة

معمل، الدجاجة معمل، بيضة فيها كل شيء هذا والدليل تصير فرخًا صغيرًا، البيض فيه غذاء عظيم ؟ فيه كالسيوم، فيه بروتينات، فيه فيتامينات، فيه دهون، كل شيء فيه، الله قال:

(وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ)

الدجاجة موضوع، البقرة موضوع، الغنمة موضوع، الحشرات موضوع، الحوت، الحوت وزنه مئة وخمسون طنًا، رضعته الواحدة إذا أراد أن يُرضِع وليده ثلاثمئة كيلو، وجبته المعتدلة أربعة أطنان.. فكيف لو كان جائعاً ؟!! لقد جرّ ذات مرّة سفينة لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة في عكس اتجاهها هذا والمحركات تعمل بأقصى طاقاتها، خلق الحوت، وخلق الفيروسات، الفيروسات لا تُرى بالمجهر، فيروس الإيدز حيّر العالم كلّه، أهلك البشريّة، ما هو قوي أبداً، لا يُرى بالعين ولا بالمجهر، فالآيات تبدأ من فيروس الإيدز إلى الحوت..

(وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

(وَآيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

أمامكم فُرَص، هذا الكون بين أيديكم، سخّره الله لكم بنص القرآن الكريم:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: آية " 13 ")

كل شيء مسخّر لك، النبات موضوع للتفكّر، الحيوان موضوع للتفكّر، خلقك موضوع للتفكّر، خلق الحيوانات التي حولك موضوع للتفكر، فمن الممكن لإنسان أن يتعرّف إلى الله بشكل واسع جداً من خلال الكون.

مرّة أخيرة: الكون أقصر طريقٍ إلى الله، وأوسع بابٍ تدخل منه على الله، وربنا عزّ وجل يقول:

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

لا يوجد طريق، الطريق الوحيد إلى الله هو الكون، فكّر، لأنك كلّما فكّرت ترى الله عظيماً، وكلّما استعظمت الله عزّ وجل تستقيم على أمره، وإذا استقمت سلِمْت، وإن عملت الصالحات سعدت بالله عزّ وجل، لأن الاستقامة سلامة، والعمل الصالح سعادة أساسها معرفة الله:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد

* * *

كل ما في الكون ينطق بوجود الله، ينطق بعلم الله، ينطق بحكمة الله، ينطق برحمة الله، ينطق بعدالة الله، ما عليك إلا أن تفكّر، هذا الفكر حرام أن تعمِله فيما لم يُخْلَق له، مهمّته الأولى أن يعمل في خلق السماوات والأرض، النبي الكريم استيقظ في الليل، وتوضّأ، وقرأ قوله تعالى:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(191))

(ال عمران 190)

ثم قال:

((الويل ـ أي الهلاك ـ لمن لم يفكِّر في هذه الآية))

[ابن حبان عن عائشة]

فإذا فكّر الإنسان في طعامه الله عزّ وجل قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

(سورة الطارق5-6)

هذا الذي يقف أمامك ووزنه مئة كيلو أساسه حوين من خمسمئة مليون حوين، صار إنسانا يتحمل، عنق الفخذ عنده مئتان وخمسون كيلوًا من الضغط، ميناء أسنانه أقسى مادّة في الأرض بعد الماس، هذه من أين أصلها ؟ من حوين منوي، من أين جاءت هذه القساوة وهذه المتانة في العِظام ؟

الدماغ فيه مئة وأربعون مليار خليّة لم تُعْرَف وظيفتها بعد في، والله إن هذا شيء مذهل.

الأطبّاء أمامهم فرصة، عندهم معلومات أوليّة حول خلق الإنسان شيء لا يُقدَّر بثمن، فالإنسان يفكِّر، يفكِّر في طعامه، في شرابه، في خلقه، في سمعه، في بصره..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد)

النجدان هما الثديان، كما قال ابن عبّاس، هذا الحليب معقّم، وفيه مناعة، دافئ في الشتاء، وبارد في الصيف، متدرّج في تعييره، شيء يعجز عن صنعه الإنسان، والآن شركات الحليب الصناعي، أو حليب القوارير مكلّفة أن تكتب على علبها: **" لا شيء يعادل حليب الأم ".**

فنحن أمام آيات كثيرة جداً، لو أخذت آيَة آية، ودرستها بهدوء يقشعر جلدك، هذا الطريق إلى الله، استقامتك بقدر خشيتك، وخشيتك بقدر معرفتك بالله، ومعرفتك بالله بقدر تفكّرك بآياته. مرّة ثانية الآيات:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنّ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقّ فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 09 – 11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-09-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الجاثية، ومع الآية السادسة.

في الدرس الماضي أيها الإخوة تحدثنا عن آيات الله الدالة على عظمته، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5))

إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

فالآيات الأولى آيات السماوات والأرض، والآيات الثانية الكائنات الحية، والآيات الثالثة آيات الرزق، أي أن الله عزّ وجل خلق الكون مسخراً لكم، وخلقكم، وسخَّر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً منه من أجل أن تُرزقوا.

النقطة الدقيقة: أن الإنسان عندما يجول فكره في آيات الله عندئذٍ تتسع دائرة معرفته، وأثمن شيءٍ على الإطلاق أن تعرف الله، والطريق الإجباري الوحيد الذي لا طريق سواه أن تعرف الله من خَلقه، فكلما تفكَّرت في خلقه ازدادت معرفتك، ازدياد المعرفة يتبعها ازدياد الطاعة، والطاعة تطبيق المنهج، معنى ذلك أنك سَلِمْتَ في الدنيا، وسعدت في الآخرة، وأساس كل الخيرات تبدأ بمعرفة الله، ومعرفة الله أساسها التفكر في الكون.

فأنا أدعوكم إلى اليقظة الفكرية، شربت كأس ماء النبي قال لك: سَمِّ، ما معنى سمِّ ؟ أي قل: بسم الله الرحمن الرحيم، مَن جعله عذباً فراتاً ؟ من جعله لا لون له ولا طعماً ولا رائحةً ؟ من جعله بهذه السيولة ؟ بهذه الخصائص ؟ البسملة من أجل أن تفكِّر في هذه النعمة، والحمد من أجل أن تشكرها، فإذا تناولت الطعام ؛ رغيف الخبز، الخضار، الفواكه، ابنك أمامك، نسمات عليلة، ترتدي ثيابًا من قطن، مَن خَلق القطن ؟ ثياب من الصوف في الشتاء، مَن خلق الصوف ؟ تنام على سرير، فراش وثير، من خلق هذا الفراش ؟ من خلق هذه المواد الأولية ؟ فلما يعوِّد الإنسان فكره ليجول في النعم، في البداية يحتاج إلى جهد، لكن بعد ذلك يصبح التفكُّر في آيات الله ديدنه، وشيئاً من سلوكه اليومي، وكلما جال الفكر في الكونيات اتسعت معرفتك بالله عزّ وجل، لذلك:

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

هذه الشمس أمامك، القمر أمامك، المجموعة الشمسية أمامك، فكر، وانظر، واقرأ، فكلما قرأت عن الكون تزداد تعظيم لله، كلما استمعت إلى محاضرات عن الكون تزداد تعظيمًا لله، كلما تأملت في خلق السماوات والأرض تزداد تعظيمًا لله، فلكَ أن تقرأ، ولك أن تسمع، ولك أن تفكر، كل هذه الطرق تؤدِّي إلى معرفة الله.

منهج التفكر في الخلق

وهناك منهج قد ذكرته من قبل: تصور أن الشيء ليس موجوداً، كيف تغدو حالتك ؟ ألغ هذا المفصل وفكِّر، تصور الإنسان بلا عين، أو بعين واحدة، بلا أذنين، أو بأذن واحدة، بلا لسان، بلا مثانة، تصور الرئتين لا تعملان بشكل ذاتي، تحتاج إلى أمر إرادي، فلا تستطيع النوم على الإطلاق، يلغى النوم، وأنت بحاجة إلى النوم، معنى ذلك أن هناك خالقًا حكيمًا، لو أوكل إليك التنفس فلا يمكنك أن تنام، وإذا نمت تموت، وهناك مرض أساساً يصيب الرئتين، يصيب مركز التنبيه النوبي في البصلة السيسائية، فالمريض به لا يستطيع النوم، فاخترعوا له دواء، واعتبروه إنجازًا كبيرًا جداً، يجب أن تأخذه كل ساعة مرة، فأنى لك أن تنام، أنت تنام ست ساعات بكل راحة، والرئتان تعملان بانتظام.

فبجسمك تفكّر، والكون من حولك، كأس الماء، رغيف الخبز، الفواكه، الثمار، ابنك أمامك، النهر، الطائر، السمك، عَوّد نفسك أن تفكر.

أول منهج: الشيء وعدمه، تصور حياتك من دون هذا الشيء.

المنهج الثاني: الشيء وخلاف ما هو عليه.

المنهج الثالث: الشيء وأصله، فهل يعقل أن عنق الفخذ يحمل مئتين وخمسين كيلوًا ؟! معنى ذلك أن الاثنين يحملان خمسمئة كيلو ؟ أي أن الإنسان يتحمل نصف طن ؟ فعظم عنق الفخذ مصمم أن يلقى نصف طن، معقول أن تكون أصل هذه القساوة من ماء مهين ؟!! ميناء الأسنان يعد ثاني أقسى عنصر في العالم، معقول أن يكون هذا الميناء أساسه من ماء مهين سائل ؟!! معنى هذا كيف تشكل هذا العظم وميناء الأسنان ؟ الشيء أمامك، فربما ترى عينك و تسمع أذنك.

الإنسان يمشي على قدميه، فهل يمكنك أن توقف ميتًا على قدميه ؟ الوقوف قضية ليست سهلة، انظر كيف يضعون خلف بعض واجهات المحلات مجسمات للنساء أو للرجال، للألبسة الجاهزة، انظر إلى الأرض قاعدتها سبعون سنتيمترًا لكي يقف النموذج، وإلا وقع، معنى هذا أن في داخل الأذن قنوات، ثلاث قنوات دائرية فيها سائل، وفيها أشعار تتأثر بالسائل، فلما يميل الإنسان السائل يثير الأشعار

الموجودة في الطرف المقابل، فالإنسان على الفور يعدل وضْعه، التوازن عملية خطيرة جداً، لو حدث التهاب في الأذن الوسطى، فالإنسان يمشي بقدمين متباعدتين لكي يوسع الدائرة الاستنادية، وإلا يقع، فهل التوازن سهل ؟

فالعين موضوع، والأذن موضوع، واللسان موضوع، والأوردة والشرايين موضوع، والشعر موضوع، وطبقات العين من الداخل، ومراحل الأذن من الداخل موضوع.

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات20)

الأبواب الثلاثة: الكون و الخلق والرزق

هذه الآيات الكونية خلقها الله عزّ وجل كي نتعرف إليه بها، فلا يكون موقفنا من الكون موقف المنتفعين الأجانب، ينتفع فقط ولا يتعظ، هذا الكون له وظيفتان كبيرتان ؛ الوظيفة الكبرى أن يكون هذا الكون دليلاً لك إلى الله، والوظيفة الصغرى أن تنتفع به، الكفار اكتفوا بالصغرى، انتفعوا بالكون، استخرجوا المعادن، صنّعوا المعادن، استخرجوا المياه، أنشؤوا السدود، صنعوا مركبات، صنعوا نقل الصورة والصوت، استفادوا من الكون، لكن لم يتعظوا به، المؤمن يَعْبُرُ من النعمة إلى المنعم، من الكون إلى المكوّن، من النظام إلى المُنَظِّم، من التسيير إلى المُسَيِّر، من التربية إلى المربي، دائماً ينتقل إلى الأصل؛ الكافر يبقى في الشيء، يبقى في النعمة، فيستغرق فيها، وينسى المُنْعِم.

تصور رجلاً ماشيًا في الصحراء بمركبة أو على جمل، إما أن المركبة تعطّلت، أو غاب الجمل عنه، وهو بالصحراء فأيقن بالهلاك، والهلاك هنا قطعي، من التعب والبكاء والخوف أصابته سِنَةٌ من النوم، فنام، ثم استيقظ، رأى مائدة عليها ما لذ وطاب، فهل من المعقول أن يأكل على الفور ؟ ينظر من أعد هذه المائدة ؟ من وضع هذه المائدة ؟ من هيأها ؟ من وضع هذا الطعام ؟ من وضع هذا الشراب ؟ أمن المعقول لإنسان يقبل على النعمة، وينسى المنعم ؟ هل من المعقول أن تدعى إلى وليمة فتدخل البيت وتتناول الطعام، وتأكل، وبعد ذلك ترجع، وتخرج من الباب ؟ ولا تشكر الداعي إلى الطعام ؟ فكيف بالإنسان يقبل على نعم الدنيا يستهلكها وينسى المنعم ؟

الشكر أن تعرف أن هذه النعمة من الله، وأن يمتلئ قلبك امتناناً له، وأن تخدم عباده شكراً على نِعَمِهِ، فالشكر إدراك وحال وسلوك.

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ)

خلق الإنسان..

(وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ)

انظر إلى الدجاجة، البقرة، الخروف، الأطيار، الأسماك..

(آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

ليل ونهار، صيف، شتاء، ربيع، خريف..

(وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ)

الأمطار.

(فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

آيات الكون، وآيات الخلق، وآيات الرزق، أبواب ثلاثة، وهذه بين أيديكم في متناولكم، تحت سمعكم وأبصاركم، ما عليك إلا أن تفكر، ما عليك إلا أن تفكر في هذه النِعَم التي أنت غارقٌ فيها، أما الآية الدقيقة:

(تِلْكَ)

آيات الخلق، وآيات التكوين، آيات الكون، وآيات الخلق، وآيات الرزق..

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ

الله عزّ وجل يتلو عليك عناوينها فقط، لأن كل آية تحتاج إلى سنوات، هذه الآيات الواردة في كتاب الله، إن هي إلا رؤوس موضوعات عليك أن تفكر بها، والإنسان الموفّق إذا أراد أن يرسم منهجًا لتفكره يجعل آيات الكون في كتاب الله هي المنهج..

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

نحن هنا مع استفهام إنكاري، والمعنى ليس هناك من حديث آخر، استفهام إنكاري، معه نفي أي:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ

ما من حديثٍ آخر غير هذا الحديث، ما من بابٍ آخر غير هذا الباب، ما من طريقٍ آخر غير هذا الطريق، ما من أسلوبٍ آخر غير هذا الأسلوب أبداً..

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

فإذا أعرض الإنسان عن التفكّر في خلق السماوات والأرض فقد أعرض عن معرفة الله، وكلما صغرت معرفته كثرتْ معاصيه، أنت تقول: أنا ليس من المعقول أن أعصي الله عزّ وجل، فما السبب ؟

لأنك تعرفه، تعرف طرفًا من عظمته، لكنك إذا رأيت إنسانًا يرتكب معصية بشكل وقح ماذا تقول ؟ إنه لا يعرف الله، ولو عرفه لما عصاه، هذا شيء طبيعي جداً، فسماعك للدروس جعل لك قناعات متراكمة، أن الله موجود، ويعلم، وسيحاسب، وقد تقول: والله لو أُقَطَّعَ إرباً إرباً لا أفعل هذا، خوفاً من الله عزّ وجل، هذا الخوف من الله محصِّلة التفكر في الكون، أو سماع الآيات، فلك أن تقرأها، ولك أن تسمعها، ولك أن تفكر فيها، الطرق كلها سالكة إلى الله، على كلٍ لو قرأت، أو سمعت، أو فكرت فالمحصلة أنك وصلت إلى الله، فإذا وصلت إلى الله تشعر عندئذٍ أن الله عزّ وجل عظيم، وأمره عظيم، ونهيه خطير، فإحجام المؤمن عن المعصية بسبب قناعات متراكمة عنده، وأعتقد أن المؤمن لو قطعته لا يعصي الله، لو مات من الجوع لا يأكل مالاً حرامًا مهما كلف الأمر، تجد إنسانًا من دون حاجة يحلف كذبًا، من دون سبب يطلق سبابًا يقشعر منه الجلد، معنى هذا أنه لا يعرف الله عزّ وجل، فعرفة الله عزّ وجل تؤدي إلى الطاعة، فأنت تطيع الله بقدر ما تعرفه، وكلما ضعفت المعرفة ضعفت الطاعة، إذاً:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ

هذه الآية خطيرة جداً، يقول الله عزّ وجل لكم: يا عبادي، ليس لكم إلي إلا طريقٌ واحد، طريق هذا الكون، هذا الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، كل أسماء الله في هذا الكون، عظمته من هذا الكون، علمه، قدرته، غِناه، رحمته، حكمته، كلها في هذا الكون، وبين يديك، هذا الكون فيه آيات لا يعلمها إلا الله:

في كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد

* * *

الآن انظر إلى نملة وهي تسير، ضع يدك أمامها تجدها قد وقفت لأنها رأت، وتجدها غيَّرت من اتجاهها، أمر صدر من الدماغ للعضلات ؟ معنى ذلك أن فيها دماغا، وجهازا عصبيا، وجهازا عضليا، وقلبًا ينبض، وإدراكًا، ورؤية، هذه النملة الصغيرة.

هناك دويْبِيَة لا تزيد على ربع مليمتر تمشي وترى، إذا كانت البعوضة عندها جهاز تحليل دم، وجهاز تخدير، وجهاز تمييع، وجهاز رادار، ولها ثلاثة قلوب، وترف أربعة آلاف رفة في الثانية، ولها محاجم، ولها مخالب، هذه البعوضة التي إذا قتلها الإنسان لا يحس بشيء، لأن قتل بعوضة هيّنة على الناس، والنبي قال:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(من سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

أي أن هذه الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة، لذلك هي أحقر من أن تكون عقاباً لعبد، وأحقر من أن تكون مكافأة، إن هذه الدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البَرُّ والفاجر.

فكر كل يوم بعد صلاة الفجر، قبل أن تنام، في أثناء النهار، هذا الفكر يجب أن يتحرّك، لأنه إذا تحرك قادك إلى الجنة، وإذا لم يتحرك استخدمت هذا الفكر لغير ما خلق له، وكنت من أشد الخاسرين.

جهاز كمبيوتر ثمنه الملايين، وتستعمله طاولة للأكل ؟! ألا تكون قد احتقرته ؟ حاسوب سعته التخزينية كذا ألف ميغا، وتستخدمه طاولة أكل ؟! هذا احتقار له، كذلك العقل البشري تستخدمه فقط لكسب الرزق؟! فقط لكسب المال ؟! فقط للإيقاع بين الناس ؟! للانغماس في الملذات فقط ؟! فيوم القيامة سيرى الإنسان أن هذا الفكر أداة معرفة الله، وأنه سبب سعادتك، لذلك هنيئاً لمن أعمل فكره في معرفة الله، وفي التقرُّب إليه.

(تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ

لا يوجد حديث ثانٍ، لذلك من دون تفكر يكون الإنسان عابدًا، والعابد مقاومته هَشّة، فلا يستطيع كثيراً مقاومة الشهوات، والإيمان أحياناً يقاوم، والدنيا فيها فتن كثيرة، والإنسان المؤمن يقاوم هذه الإغراءات، فتن في الطريق، في العمل، في كسب المال، في الزواج، الزوجة تضغط على زوجها ليكسِبَ مالاً حراماً ليلبي رغباتها، الزوجة أحياناً تكون فتنة.

أعرف شابًا عمل في مكان براتب جيد جداً، وهو متزوج حديثاً، تحت ضغط داخلي من زوجته، ألبسة، وزينة، وما شاكل ذلك مدّ يده إلى الحرام من المحل التجاري، كشف أمره، فطُرِد، بقي من دون عمل، فالزوجة فتنة، الطريق فتنة، التعامل المادي فتنة، كسب المال فتنة، إنفاق المال فتنة.

إن العبادة الآن لا تُنَجّي، يمكن قبل خمسين سنة، قبل مئة سنة كانت الأمور بسيطة جداً، والطرقات خالية من الفتن، وكسب المال سهل، وحلال، ويملأ قلب الناس الدين، أما الآن مع اشتداد الفتن، والضلالات، والمذاهب الهدّامة، وطُرُق الكسب غير المشروعة، فلا يكفي إلا الإيمان، لا يصمد أمام هذه الفتن وتلك الضلالات إلا الإيمان القوي، والقضية قضية مصيرية، لا قضية تسلية، قضية مصيرك الأبدي، إما أن تبقى، وإما أن تفنى، هذه قضية مصيرية.

فمثلاً: إذا كان عند إنسان عدة أعمال يجب أن ينجزها، لو فرضنا أنه أصابه مرض عضال، كل هذه البنود لا معنى لها، يلغيها كلها، عنده أمر أهم ؛ قضية وجوده أو عدم وجوده، بقاؤه حيًا أو موته، هذا مقدّم على تفاصيل الحياة، فقد يحتاج إلى جهاز صغير، أو يحتاج إلى (إرتاج للباب)، يحتاج إلى

إصلاح غرفة، إصلاح مركبته، يكون معه مرض عضال فينسى كل هذه الأشياء، فنحن نريد أن نعرف أن معرفة الله قضية مصيرية متعلقة بالآخرة، متعلقة بسلامة الإنسان في الدنيا، وفوزه في الآخرة، فلذلك ليس للإنسان الحق أن يجعل أخطر قضية في الهامش.

هناك شيء على السطح وشيء مهمل، الإنسان عادةً يهتم بالأشياء التي على السطح، فهو في الدنيا مثلا لا يخطر في باله أن يهيئ مستودعات الوقود للشتاء، القضية تركها، لكن متى يفكر فيها ؟ إذا جاء البرد فجأةً وبقسوة بالغة، فيفكر أن يملأ مستودعات الوقود عنده في البيت، لكن العاقل هو الذي يُعِد للشيء قبل أن يقع، فلذلك موضوع الموت موضوع خطير جداً، وأكثر الناس لم يدخلوه في حساباتهم، يفكر في كل شيء، يقول لك: هذا البيت لا يربح إذا اشتريته، هذه الدكانة عليها تنظيم، دائماً تفكيره إلى عشرين سنة قادمة، إذا اشترى أو باع، أو أسس شركة يقول لك: هذه ليس لها مستقبل، لأن في فكره يعيش خمسين سنة قادمة، أما الموت فلا يدخله في حساباته اليومية، قد ينتقل إلى الله عزّ وجل بأقل من لمح البصر.

هذا العقل، أو ذاك الفكر الذي أودعه الله فينا علينا أن نُعْمِلَهُ وفق ما أراد الله، لا وفق ما نريد.

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ (191))

(سورة آل عمران190-191)

إذا فكّر الإنسان صباحاً، وأحب أن يسجل تفكيراته على ورقة، مرة فكر في عينه، ومرة في أذنه، ومرة في شعره، مرة في جهازه العظمي، مرة في جهازه العضلي، مرة في جهاز الدوران، مرة في جهاز الهضم، مرة في جهاز التصفية والإفراز، مرة فكر في طعامه، مرة في شرابه، مرة في أولاده، مرة في الجبال، مرة في الأنهار، كل كلمة باب كبير لا ينتهي، فهذا الفكر ينبغي أن يدرّب على التفكّر في الكون، دائماً الشيء وخلاف ما هو عليه، الشيء وعدمه، الشيء وأصله، حتى تعرف قيمته.

رجل في الخمسين وزنه خمسة وثمانون كيلوًا، من أين جاء هذا الوزن ؟ من الطعام والشراب، فهذا الطعام والشراب ينمي العضلات، ويقوي العظام، وينشط الأنسجة، معنى هذا أن جهاز الهضم شيء عظيم جداً، تأكل تفاحة، تأكل برتقالة، تأكل خبزًا، تأكل لحمًا، هذا الطعام يصير كيلوسًا، يُهضم، تمتصه الأمعاء، يذهب إلى البناء، يصير عضلات، يصير فيه مواد شحمية، مواد دهنية، فهذا الجهاز الذي يحول الطعام إلى نسيج لحمي، ونسيج شحمي، ونسيج دهني، جهاز عظيم جداً، هذه من آيات الله.

(وَيْلٌ لِكُلّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ)

كلمة ويل الهلاك..

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

الأفاك من هو ؟ الذي يفتري على الله، يقول لك: هكذا رأيي، فمن أنت ؟

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ

الجواب:

فمن أنتم حتى يكون لكم عندُ ؟

من أنت ؟ أنت مشرّع ؟ لا، أنت منظّم ؟ لا تعرف كل شيء ؟ فالأفاك هو الذي يفتري على الله، تجده لو أحضرت له آية يقول لك: أنا هكذا قناعتي، هذا أفاك، أنت معك علم يقيني ؟ لا، جاءك الوحي ؟ لا، عندك مناقشة منطقية ؟ لا، فكيف تدعي هذه الآراء، اقعد مع أكثر الناس تجد أن كل واحد يفلسف الحياة فلسفة تتناسب مع وضعه، إذا كان يحب الاختلاط يقول لك: الاختلاط ليس حرامًا، هذا تزمت، إذا كان ماله بالربا، يقول لك: الربا ماذا فيه ؟ فهل يعقل أن المال لا نثمره، أأنت مجنون ؟ فهو أصبح مشرّعاً، كل إنسان يريد دينًا يتناسب مع شهواته وانحرافاته، هذا الشيء الخطير في الدين، الذي يعجبك تطبقه، وما لا يعجبك لا تهتم فيه، أو تنكره، هذا موقف خطير في الدين.

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

الإمام الغزالي يقول: **" لأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ".**

هناك آية قرآنية في سورة الأعراف، ذكر الله المعاصي بالتسلسل، ذكر الفحشاء والمنكر، والإثم والعدوان، وذكر الشرك، وذكر الكفر، وذكر أكبر معصية على الإطلاق قال:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف33)

الإمام الشافعي يقول: " لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين "، هذا دين، إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم..

((ابن عمر، دِينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[أخرجه الخطيب البغدادي في الكفاية في علم الرواية عن ابن عمر]

موضوع الدين شيء خطير جداً، الدين متعلِّق بالآخرة، فأمور الدنيا تنتهي مع الموت، الدين خطير جداً، حتى إنهم قالوا: " لك أباءٌ ثلاثة، أبٌ أنجبك، وأبٌ زوّجك، وأبٌ دلّك على الله، الذي أنجبك تنتهي مهمته عند الموت، والذي زوّجك تنتهي مهمته عند فِراق زوجتك، أما الذي دلك على الله هذا الخير الذي جاءك من هذه الجهة يبقى إلى أبد الآبدين "، فقضية الدين قضية مصيرية.

أنا أتمنى على كل إنسان أن يشكِّل حياته وفق الدين، هناك أشخاص يطلبون العلم في وقت فراغهم، أما عمله فقبل كل شيء، وليس مستعدًا أن يتخلى عن بيعة واحدة، ويتخلّى عن زبون واحد، ويحضر مجلس علم، إلى أن ينتهي الدوام، نشاطه الديني على الفضلة، ماذا بقي من عمله ؟

هناك إنسان الدين عنده كل حياته، يشكل حياته كلها وفق منهجه في الدين ؛ صلواته، دروس العلم مثلاً، طاعته لله عزّ وجل، وهناك أشخاص لا يهمه إذا كان ثمة اختلاط، يقول: ماذا أفعل ؟ هكذا أهلي، هكذا تريد زوجتي، فماذا أفعل ؟ لكن المؤمن يغيّر كل نمط حياته، يغيّر كل علاقاته وفق منهج الله عزّ وجل.

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

في هذه الآية شيء دقيق جداً:

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

هناك علاقة بين أفّاك وأثيم ؟ لو فرضنا أن انحراف العقيدة ليس له علاقة بالسلوك، فلا مانع، لتكن العقيدة منحرفة، لو فرضنا أن هناك انفصالا بين العقيدة والسلوك، لا مانع، اعتقد ما شئت، لكن هناك ارتباط دائم، الأفّاك دائماً أثيم.

مثلاً: لو أن إنسانًا اعتقد خطأً أن النبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لأمته مهما عملت من ذنوب، معه بعض الأدلة، وبعض النصوص، ولكنه لم يحاول أن يفهمها فهمًا عميقًا، كأن تعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيشفع لك، هذا الاعتماد سيحملك على أن تعصي الله، لا يمكن أن تعتقد اعتقادًا خاطئًا إلا ويقابل هذا الاعتقاد سلوك خاطئ، فالأفاك دائماً أثيم..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون1-2)

هو نفسه، لذلك على الإنسان أن يصحح عقيدته، لأن عقيدته متعلقة بسلوكه، فإذا اعتقدت أن فلانًا بيده أمرك، إذاً لو أمرك بمعصية تعصي الله من أجله، أما إذا اعتقدت أن الله بيده الأمر، وفلان لا يقدم ولا يؤخِّر، لا تطيعه في معصية، فلا يسلك الإنسان سلوكًا إلا كان أساسه قناعة، إما صحيحة، وإما باطلة.

سأل والي البصرة الحسن البصري.. وكان تابعيًا جليلاً.. جاءه كتاب من الخليفة، هذا فيه توجيه خلاف المنهج الإلهي، فوقع في حيرة، إن نفّذ أمر الخليفة أغضب الله، وإن أرضى الله، ولم يعبأ بأمر الخليفة أغضب الخليفة، وقد يعزله من منصبه، فسأل الحسن البصري، قال له: ماذا أفعل ؟ قال له كلمة: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

العقيدة الزائغة من لوازمها السلوك الزائغ، ولو فرضنا أن العقيدة الزائغة ليس لها علاقة بالسلوك فاعتقد ما شئت، لا مشكلة عندئذٍ، لكن نحن نشدد على العقيدة الصحيحة، لأن أي عقيدة خطأ يتبعها سلوك خطأ، فهؤلاء الذين يرتكبون المعاصي كيف يرتكبونها ؟ عندهم شعور أن الله لن يحاسبهم حسابًا دقيقًا، أو عندهم شعور آخر أن النبي سيشفع لهم، أو يقولون: من مات ورجع، وقال: هناك آخرة ؟ هذه أفظع، أما أن يرتكب الإنسان معصية من دون عقيدة فيها خلل فهذا مستحيل، العقيدة الصحيحة تحاصرك، انظر إلى الطبيب أحياناً تجده يبالغ في غسل الفاكهة أكثر من غيره، فما السبب ؟ مرة كنت مع مجموعة من الأصدقاء، وقدم لنا طعام فيه قشدة، الطبيب رفض أن يأكلها، لأنه: يفتح القلب ليجد الشريان مسدودًا كله من القشدة، كوليسترول، عنده كل يوم عملية قلب، يرى آثار المواد الدسمة في الشرايين، وكيف تسدها، فلا يأكل، الذي يرى الجراثيم والأمراض الإنتانية والحالات الصعبة في الحياة يكره أن يأكل فاكهة من دون غسل، أحياناً يغسلها مرتين أو ثلاثا، وبالصابون، لأنه يرى، فأنت كلما ازداد علمك يزداد انضباطك، فالقضية مصلحة ذاتية، أحب نفسك، ولا تحب أحداً آخر، حتى تنجو، إذا كانت نفسك غالية عليك، أنت حريص على سلامتك، على سعادتك، وهذا المنهج، هذه تعليمات الصانع، فهذه:

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

الأفاك دائماً أثيم، أيّ خلل في العقيدة يقابله خلل بالسلوك، فلا تصلح حياتك إلا إذا صحّت عقيدتك، ولا تصح عقيدتك إلا بمجلس علم، لابد من أن يجلس بمجلس، يسمع العقيدة الصحيحة، هذه أثرها كبير جداً، تتراكم هذه المعلومات، تتراكم القناعات فتنشئ استقامة، راقب نفسك، أنت لست مستقيماً ببساطة، مستقيم بعد قناعات طويلة جداً، مستقيم بعد سنوات حضرت فيها مجالس علم، مستقيم بعد قناعة أكيدة أن الله يعلم وسيحاسب، والرابح هو المستقيم، أنت مستقيم بعد قناعة متراكمة، فلذلك:

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

كل إنسان يعتقد اعتقادا خاطئًا، أو يفتري على الله كذباً فهذا لابدّ من أن يرتكب الإثم، لكن أيّ عقيدةٍ تسمح لك أن تفعل كل شيء ؟ إنها عقيدة الإلحاد، الملحد لا يوجد عنده ممنوع، يقتل إنسانًا لسبب تافه، وجد أحدهم سيارة عليها مفتاحها، شغّلها ومشى، سمع صوت طفل صغير فخنقه، وألقاه في الساقية، هذه بسيطة جداً، لم يفعل شيئًا، الطفل يحدث له مشكلة فتُكشف سرقته، خنقه، ورماه في الساقية، فالإلحاد يقابله توسُّع في الجريمة، توسع في أكل أموال الناس بالباطل، الذين يأكلون الأموال بالباطل لا يعرفون الله أبداً، أما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال:

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

ثمة قصص لا تعد ولا تحصى من هذا النوع:

اشترى أخوان بيتاً مناصفةً، لم يخطر في بال الثاني إطلاقا أن يطالبه بإيصال، وقد اشتراه عن طريق جمعية سكنية تابعة لإحدى الوزارات، فالأخ الأول سجل البيت باسمه، والثاني دفع نصف ثمنه، وهذا قبل عشرين سنة أو أقل، فبعدما صار ثمن البيت عشرين مليونًا، قال الذي يملك البيت لأخيه: لا شيء لك عندي، واستطاع بطريقة أو بأخرى أن يجعله خارج البيت، وظن نفسه ذكيًا، واتفق مع محامين لهم مكانة وشأن عظيم، واستأثر بهذا البيت.. وبالطبع هذه القصة طويلة.. بعد شهر مرض المغتصب مرضًا خبيثًا أصاب أمعاءه، بعد شهرين كان تحت التراب، رجع البيت إلى أخيه، فلو عرف أن الله يحاسب حسابًا دقيقًا لما فعل ما فعل.

إن الإنسان لا يرتكب معصية إلا بجهل كبير، أنت صديقك العلم، النجاة في العلم، بالعلم تعرف الله، تعرفه أنه يحاسب، تعرفه عادل، تعرف أنه لا يضيع عنده حق أبداً، تعرفه أن كل شيء بيده، فإذا أراد ربنا عزّ وجل أن يجعل حياة الإنسان جحيمًا بأتفه الأسباب، يجعلك من أسعد الناس بطاعته، فأنت عندما تتراكم عندك الحقائق والقناعات تستقيم، وتجد نفسك مستقيمًا بشكل عفوي، لا أفعل هذا، معاذ الله، سيدنا يوسف قال:

(مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة يوسف23)

لو وضعت ألف إنسان في مكان سيدنا يوسف لرآها مغنمًا، أما سيدنا يوسف فلأنه يعرف الله عزّ وجل قال:

(مَعَاذَ اللّهِ)

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

كل إنسان يفتري على الله كذباً، كل إنسان يعتقد اعتقادًا خاطئًا، يظن بالله غير الحق ظن الجاهلية، عقيدته زائغة، منحرفة، من لوازم انحراف عقيدته وزيغه أن ينحرف في سلوكه، هذا الأفاك الأثيم..

(يَسْمَعُ آيَاتِ اللّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً)

يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ فَيُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا

أحياناً يحب الإنسان أن يمزح، والكفار لا يحلو لهم المزاح إلا في شؤون العقيدة والدين، القضايا المقدّسة يجعلونها محلاً لمزاحهم واستهزائهم وسخريتهم

(أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ

كيف أنّهم استهانوا بالشرع، إنسان بعيد عن الدين يريد أن يضع شبهات للناس، فيسأل عن التيس المستعار ؟ لا يبحث إلا قضايا يصعب تفسيرها، ويستهزئ أحياناً بالعبادات، بالطاعات، بالحج.

(وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا

استهان بشرع الله عزّ وجل، هذا عذابه مهين، فالعذاب عذابان: عذاب أليم عظيم، وعذاب مهين، وربنا عزّ وجل ليؤَدِّب العباد بعذاب واحد يجعل العذاب متعلِّقًا بالذنب، إذا كان متعاليًا على الله، مستهزئًا بشرع الله، هذا العذاب المناسب له العذاب المهين، فكل إنسان يستهزئ بالدين، يستهزئ بالقرآن الكريم، يستهزئ بهذا الشرع الحكيم، يستهزئ ببعض المقدّسات الإسلامية، هذا الذي يستهزئ عذابه مهين.

(مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً)

مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبوا شَيْئًا

قد يكون غنيًا كبيرًا..

(وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ

وقد يكون حوله جمع غفير، لا تغني عنه لا أمواله ولا أتباعه يوم القيامة، لا أمواله الطائلة، ولا أتباعه الكثيرون.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

بالدنيا مهين، وبالآخرة عظيم..

(هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ)

هَذَا هُدًى

الأولى:

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5))

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

اعتبروا هذه الآيات شيئًا سخيفًا، قالوا: ما فائدتها ؟ هذه معروفة، هذه الشمس ظاهرة أنها شمس، فماذا فيها ؟ هذه طبيعة، صنعت نفسها بنفسها، مادة معقدة، قال:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ)

الوقفة الطويلة عند قوله تعالى:

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

هنا مركز الثقل: العقيدة المنحرفة يتبعها سلوك منحرف، والسلوك المنحرف سبب شقاء الدنيا وشقاء الآخر.

إذاً: أنت نجاتك في العلم، تعرّفت إلى الله عزّ وجل عرفته استقمت على أمره، ولما استقمت استحققت كل إكرام منه في الدنيا والآخرة، فالقضية بسيطة وبسيطة جداً، اعرف الله، واعرف أمره ونهيه، واستقم على أمره تسعد في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (3-8): تفسير الآيتان 12 – 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-09-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الجاثية، ومع الآية الثانية عشر وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وظيفة الكون

حقيقةٌ ثابتة دائما، أنّ الكون بسماواته وأرضه، بكل ما فيه من شيءٍ ظاهرٍ أو باطنٍ، كبيرٍ أو صغير، الكون له وظيفتان كبيرتان:

الوظيفة الأولى: أن يكون الكون وسيلةً لمعرفة الله.

الوظيفة الثانية: أن تنتفع به في الدنيا.

هذا الكلام أساسه أن النبي صلى الله عليه وسلّم حينما رأى هلالاً فقال:

((هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

(سنن أبي داود عن قتادة)

يرشدني إلى ربي، وينفعني في دنياي.

إن الكفّار ما استفادوا من الكون إلا بالوظيفة الثانية، انتفعوا بما في الأرض إلى أقصى درجة، سَخَّروا المواد، المعادن، المناجم، البحار، الفضاء استغلّوا ثروات الطبيعة إلى أقصى درجة، ولكنهم ما انتقلوا من الكون إلى خالق الكون، لكن الله سبحانه وتعالى أراد من خلق السماوات والأرض أن يكون الكون مظهراً لأسماء الله الحُسنى، أن تتعرّف إلى الله من خلال الكون، فلذلك تأتي الآيات في القرآن الكريم تلو الآيات تُنْبئ عن عظمة هذه الكون..

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ)

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ

البحر يشكِّل أربعة أخماس اليابسة، أوروبة، وأمريكة، وآسية، وإفريقية، وأقيانوسية هذه القارّات الخمس، وقارّة سادسة هي القطب الشمالي والجنوبي، هذه القارّات السِت لا تزيد على خمس سطح الأرض، بينما أربعة أخماس الأرض بحر، هذا البحر أكبر آيةٍ تدلُ على الله، وقد أحصى العلماء في البحر ما يزيد على مليون نوع من الأسماك، والمُطّلعون على أشكال هذه الأسماك، وأحجامها، وألوانها،

وخصائصها يأخذهم العجب الشديد، فأسماك عملاقة كالحيتان، تزن مئة وخمسين طنًا، وأسماك تعيش في قعر المحيطات لها أرجل تمشي بها، وأسماك سلاحها ومضة كهربائيَّة تقتل بها مَن أمامها، و تبلغ مضتها ستمئة فولط، وأسماك عندها مصابيح كهربائيَّة تتألَّق فترى طريقها، وأسماك تُطلِق سحابة دُخَّانيَّة تعمّي عن مكانها، وأسماك كالكرات، وأسماك متطاولة، وأسماك كالحيتان، وأسماك كالقنفذ، وأسماك كالخنازير، فعدد أنواع الأسماك لا يُعدُّ ولا يحصى، وما تراه في مصوَّرات أو في كتب شيء لا يكاد يُصدَّق.

هذا البحر يوجد في قاعه جبال، وما الجزر إلا رؤوس الجبال، هناك وديان، وتضاريس، وقد وضعوا خرائط لتضاريس البحار تحت سطح الماء، هناك وديان في البحار، أعمقها وادي مريانة في المحيط الهادي، هذا البحر المالح من أين جاءت ملوحته ؟ ولماذا كان مالحاً ؟ وما الحكمة في أنَّه مالح ؟ هذا البحر الذي يحوي من الأسماك ما لا عدَّ له ولا إحصاء، لماذا في المنطقة القطبيّة يتجمَّد سطحه الأعلى فقط، والأسماك تعيش في بطن البحر في بحبوحةٍ ويُسرٍ وسلام ؟ لماذا لا يتجمَّد الماء كلُّه من أعلاه إلى أسفله ؟

خاصَّة الماء هذه لولاها لما رأيتم على وجه الأرض كائناً حيّاً، فإذا بردَّته فشأنه كشأن أي عنصر يتقلَّص، وإذا سخَّنته يتمدَّد، إلا في الدرجة زائد أربع فتنعكس الآية، فإذا بردَّته يتمدَّد، وإذا تمدَّد كثافته قلَّت، فطفا على سطح الماء، لذلك لو ذهبت إلى المحيط المتجمِّد الشمالي التجمد فقط في طبقة سطحيَّة، لأنه كلَّما تجمَّد الماء طفا على السطح، وبقيت أعماق المياه دافئةً كجوٍ مناسبٍ للأسماك، لو أن مياه البحار شأنها كأي شأن عنصر آخر من عناصر الأرض إذا برَّدناها تقلَّصت فزادت كثافتها، فغاصت في أعماق البحار، وبعد حينٍ من الزمن، لا أدري كم هو ؟ تصبح البحار كلها متجمِّدة، وينعدم التبخُّر، وتنعدم الأمطار، ويموت النبات، ويموت الحيوان، ويموت الإنسان، هذه حقيقة.

الماء له خصائص، من خصائصه أنه يدفع السطح المنغمس فيه إلى الأعلى، ولولا هذه الخاصَّة لما أمكن أن نستفيد من البحار إطلاقاً، لولا هذه الخاصَّة لكان البحر همزة فصلٍ، وليس همزة وصلٍ، إنشاء طريق يكلِّف ألوف الملايين، أما البحار فكلها طُرُق مجّانية لكل الشعوب والأمم، فالبحر همزة وصل تمخر فيه البواخر كالجبال، كالأعلام، بعض البواخر الآن حمولتها تزيد على مليون طن، المليون ألف ألف، والطن ألف كيلو، أي طريقٍ يستوعب هذه المركبة، أو هذه السفينة ؟ لولا أن الماء يدفع الأجسام المنغمسة فيه إلى الأعلى، هذا هو قانون أرخميدس.

الحقيقة أن الآية فيها نقطة دقيقة جداً، هذه النقطة هي مركز ثِقَلها:

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ)

اللّهُ الّذِي سَخّرَ

أولاً: الله عزّ وجل خلق الخشب، وأعطاه خصائص، فالخشب يطفو على سطح الماء، خلق الماء، وأعطاه خصائص، وخلق الإنسان، وأعطاه عقلاً يكشف هذه الخصائص، فكلمة التسخير تعني أنه لولا أن الله جعل البحر بهذه الخصائص، لولا أنه حرّك الرياح قديماً، ولولا أنه أودع في بطن الأرض هذه الطاقة السائلة حديثاً لما أمكن التحرُّك على سطح الماء، فالتحرُّك كان من قبل بفعل الرياح، لأن الرياح تسيّر السفن عن طريق الأشرعّة، وحديثاً هذه المادّة التي أشار القرآن إليها:

(الّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

(سورة يس80)

إحدى نظريّات البترول أن في عصور الأمطار الغزيرة، وعصور النباتات العملاقة هذه كلها دُفِنَت تحت سطح الأرض، وأصبحت بترولاً.

(الّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

لذلك عندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: آية " 8 ")

أحياناً يستخدم الإنسان هذه لا لينتقل بها من مكانٍ إلى مكان، بل ليزهو به أمام أترابه..

وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ

لولا هذه الكلمة في هذه الآية لما كان هذا الكتاب كلام الله، النبي عليه الصلاة والسلام في عصره ما كان يُعْرَفُ إلا الخيل، والبغال، والحمير، هذه الوسائل الحيوانيّة في التنقُّل، أما الطائرات، والمركبات، والصواريخ، والسيارات، والقطارات فهذه لم تكن معروفة، لكن الله يعلم ما سيكون، فقال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

والعلماء استنبطوا من قوله تعالى:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

أن الفكرة من عند الله، وأن المواد الأوليّة من الأرض، وأن الطاقة التي تتحرّك بها من خلق الله عزّ وجل، فعُزِيَ خلق هذه المركبة إن كانت طائرة، أو مبحرة، أو على اليابسة تسير عُزِيَت إلى الله عزّ وجل.

هذا الكون لولا أن له قوانين ثابتة، ولولا أن الله أودع في الإنسان عقلاً فيه مبادئ تتوافق مع هذه

القوانين، ولولا أنه أعطى كل شيءٍ في الأرض خاصّةً، وهدى الإنسان إلى اكتشافها، ولولا أن الله ثَبَّتَ الخواص لما أمكن أن نستفيد من هذا الكون، ولما كان لهذه الآية من معنى.

معنى (سخَّر) أي جعل الماء يدفع الأجسام نحو الأعلى، وجعل الرياح تسير بسرعات معيَّنة، وبعض المواد تطفو على سطح الماء، وأعطى الإنسان عقلاً كشف هذه الخصائص، وصنع من كل هذه الخصائص مركبةً، أو سفينةً تمخر عُباب البحر..

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ)

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ

إنه الله، فهل عرفتموه ؟ هل عرفتم هذا البحر الذي تقف على شاطئه، وتنعم برؤية منظره الجميل، والذي يُقِلُّكَ من مكانٍ إلى مكان، والذي تأكل منه السمك الطري، والذي تستخرج منه حليةً لنسائك يتزيَّن بها من أجلك، هذا البحر هل عرفت أنه مسخَّرٌ لك ؟

الأشياء لها خصائص، ولولا أن هذه الخصائص ثابتة لما استفدنا منها، الحديد له خاصّة، الفولاذ له خاصّة، النحاس له خاصّة، القصدير له خاصّة، الرصاص له خاصّة، الخشب له خاصّة، والخشب أنواع تزيد على مئة نوع، ولكل نوع خاصّة، والعقل اهتدى لهذه الخواصّ، العقل البشري مع ثبات الخصائص هو الذي جعل الإنسان يستفيد من هذا الكون.

البقرة مسخَّرة.. مثلاً.. لولا أنها تنقاد لما أمكن الإنسان أن يستفيد منها، الغنمة مذلّلة ومسخَّرة، وهناك حيوان بحجمها غير مذلّل، كالضبع، العقرب غير مذلّل، إذا رأى الإنسان عقرباً قفز من مكانه، وصرخ بأعلى صوته، بينما يقود جملاً وزنه عشرة أضعاف وزن الإنسان، وهو مطمئن، هذا التذليل من فضل الله ونعمته، وليس من جهد الإنسان وعقله، الله جلّ جلاله جعلها مذلّلة.

إذاً: ينبغي أن نعلم أن الكون كله مسخَّرٌ لهذا الإنسان تسخير تعريفٍ وتكريم، إنسان أهداك هديَّة ثمينة جداً، ألا ينبغي أن تشعر تجاه الذي قدَّمه لك بشعورين اثنين ؟ الشعور الأول شعور الامتنان، والشعور الثاني شعور التقدير، شعور امتنان لأنه قدَّم لك هديَّةً من دون ثمن، وشعور التقدير لهذا العلم العالي الذي ينطوي عليه هذا الجهاز، لذلك ربنا عزّ وجل سخَّر لنا هذا الكون تسخيرين ؛ تسخير تعريفٍ لأسمائه الحُسنى، وتسخير تكريمٍ لنا، لذلك قال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن87)

الله عظيم، والله كريم، والإكرام من آثاره الحب، والعظمة والجلال من أثارها الإعجاب والتقدير، فربنا عزّ وجل في أكثر من آية وردت يقول:

(ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)

(الرحمن27)

بقدر ما هو عظيم بقدر ما هو مُكْرِم، بقدر ما ينبغي أن تعظِّمه بالقدر الذي ينبغي أن تحبه..

(ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)

(الرحمن27)

الآية قطعيَّة الدلالة، واضحة، وبنصها جعل الكون مسخَّرًا لهذا الإنسان، بسماواته وأرضه، بشمسه وقمره، بليله ونهاره، بفصوله، بالهواء الذي نستنشقه، الهواء الذي له نسبٌ ثابتة، ولولا أن النبات يأخذ من الهواء غاز الفحم ويطرح الأكسجين، ولولا أن الإنسان يأخذ الأكسجين، ويطرح غاز الفحم لما ثبتت هذه النسبة في الهواء، الهواء ذو نسبٍ ثابتة، الطعام الذي تأكله، النبات الذي تتمتَّع بمنظره، التضاريس التي تألفُها، الجبال لها مناخ خاصّ، والسهل له مناخ خاص، والساحل له مناخ خاص، والوديان لها مناخ خاص، والأغوار لها مناخ خاص، والصحراء لها مناخ خاص، ومن تفاوت هذه المناطق المناخيَّة يتحرَّك الهواء.

ما فائدة الصحراء ؟ لولا أن الصحراء كمنطقة حارَّة تسخِّن الهواء، فيتمدَّد، فيتخلخل الضغط لما أتى الهواء البارد من منطقةٍ أخرى ذات ضغطٍ مرتفع، فالضغط المنخفض يكون الهواء فيه مخلخلا، المنطقة حارَّة، والضغط المرتفع المنطقة فيه باردة، والهواء كثيف، فإذا كان هناك تفاوت في الضغطين تحرَّك الهواء ذو الضغط الأعلى إلى المكان الذي فيه هواء لضغطٍ أقلّ، لولا أن هناك صحارى حارَّة ومناطق باردة لما تحرَّك الهواء على سطح الأرض، هذه تسخير الرياح، هذه حكمة الهواء، إذاً الصحراء لها وظيفة، في أكثر النشرات الإخباريَّة يقال لك: يوجد منخفض متمركز فوق قبرص، حتى الجُزُر لها آثار كبيرة جداً في مناخ القارَّة، الجزر تستقطب أحياناً المنخفضات الجويَّة، وتحرِّكها حيث تتجه نحو المناطق الداخليَّة في الأرض، هذا علم قائم بذاته، علم المُناخ.

هذا الكون مَعْرِض لعظَمة الله، كيف أن الشركات أحياناً تشترك في معرض، ولله المثل الأعلى، تبرز بضاعتها الجميلة معروضة عرضًا رائعًا، الكون كلُّه معرضٌ لأسماء الله الحُسنى وصفاته الفُضلى، فإذا أردت أن تعرفه فلا سبيل لك إلا الكون، من خلال الكون تتعرَّف إلى الله عزَّ وجل، لهذا قال الله عزَّ وجل:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

اللّهُ الّذِي سَخّرَ لَكُمُ البَحْرَ

لا يوجد حديث آخر، لأن الحواس الخمس لا يمكن أن ترى الله، قال تعالى:

(لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام: آية " 103 ")

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((تفكّروا في مخلوقات الله ولا تفكّروا في ذاته فتهلكوا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند حسن]

السبيل الوحيد لمعرفة الله أن تتأمّل فيما حولك، كل شيءٍ صغر أم كبر، بَعُدَ أم قرب ينطق بعظمة الله، وما عليك إلا أن تتأمّل..

(اللّهُ الّذِي سَخّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ)

اللّهُ الّذِي سَخّرَ لَكُمُ البَحْرَ

توجد أسماك في البحار كالأزهار تماماً، كأنها إناء فيه أزهار، فإذا مرّت سمكةٌ لامستها أغصان هذه الأزهار، فخدّرت، وسقطت، وابتلعتها.

توجد أسماك في البحار كالطبيبات، يصطفُّ أمامها السمك في نَسَقٍ طويل، وتعيش هذه الأسماك على القروح التي تتوضّع على جلد الأسماك، فتنظِّفها، وكأن هناك عرفاً في البحار أن هذه الأسماك التي تعمل كطبيبات لا أحد يلتهمها، إنها في حصن، وقد قرأت بحثاً مطوّلاً حول هذا الموضوع، ورأيت بأمّ عيني الصورة الملوّنة كيف أنّ نسقاً طويلاً من الأسماك ينتظر كل منها دوره في المعالجة، فهذا السمك فيه آيات عظيمة جداً، وهو مسخّر لنا ؟

قال لي صيّاد: إنه يصنع مكعّب من الحديد الشبك، وله فتحة كالعنق، السمكة تدخل فإذا دخلت لا تستطيع أن تخرج أبداً، فالسمك لا يستطيع أن يخرج من مكان صغير، لولا هذه الخاصّة لما أمكننا أن نأكل السمك، كل الشباك أساسها الدخول من مكان واسع، والسمكة ليس بإمكانها أن ترجع نحو الوراء، لا يوجد رجوع، ولا تستطيع أن تدخل إلا من مكانٍ واسع، فإذا ضاق عليها المكان ليس عندها قوّة تسديد، لكن الخفّاش مثلاً لو وضعته في غرفة، وقسمت الغرفة بحاجزٍ إلى قسمين، وفتحت في هذا الحاجز ثقباً لا يزيد قطره على حجم الخفّاش، يقطع الخفّاش من قسمٍ إلى قسم مئة مرّة دون أن يلامس

جناحه جدار هذا الثقب، الخفّاش بإمكانه الخروج من مكان ضيّق، أما السمك فليس بإمكانه، لذلك بهذه الطريقة يُصاد السمك، عن طريق الشباك ذات الجهة الواحدة.

والسمك عنده جهاز هو سطح مُقَعَّر يوجد في أسفله حبّات رمل، وفي قعره أعصاب حسّاسة، فما دامت الحبّات في مكانها فالسمك نحو الأعلى، فإذا قلب جسمه تحرّكت الرمال بفعل الجاذبيّة، فعرفت السمكة أنها في اتجاه القعر لا في الاتجاه الأعلى، ثم إن فيها خطّاً، وهو خط ضغط في القسم الأول من سطحها الخارجي، هذا الخط أنبوب مفرّغ من الهواء، فبحسب ضغط الماء على هذا الخط تعرف السمكة أين هي من سطح الماء دائماً، وقد ورد في الحديث الشريف:

((أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ: الْحُوتُ وَالْجَرَادُ))

(سنن ابن ماجة عن ابن عمر)

ولكن السمك لا يُذْبَح، والذبح فيه تذكية للحيوان.

كلكم يعلم أن الدم محرّم أكله، وأن النبي صلى الله عليه وسلّم حينما أمر بذبح الأوداج دون قطع الرقبة هذا الأمر النبوي لا يعرف أحدٌ زمن الرسول حكمته، لأن معطيات العلم وقتها لا تسمح أبداً بتفسير هذا الأمر النبوي، الآن عرفنا أن القلب ينبض ثمانين نبضة بأمرٍ من القلب ذاته، بمركز كهربائي أول وثانٍ وثالث، لكن إذا كان الأمر يقتضي أن يضرب القلب مئة وثمانين ضربة فإن هذا الأمر الاستثنائي يجب أن يأتيه من الدماغ، أو يجب أن يأتي عن طريق الدماغ من الكظرين فوق الكليتين، فإذا قُطع الرأس تعطّل الأمر الاستثنائي، فضربات القلب البطيئة لا تكفي لإخراج الدم من الخروف، لذلك نهى النبي عن قطع الرأس، وحينما تُقْطَعُ الأوداج تنشأ حالة خطر عند الحيوان، فيأتي الأمر من الكظر إلى الدماغ إلى القلب بمضاعفة الوجيب، فالمئة وثمانون ضربة كافية أن تجعل الدم كله خارج الذبيحة، يصبح اللحم أحمر اللون، أزهر اللون رائعاً، فكيف أحلّ النبي صلى الله عليه وسلّم وهو المشرّع ؟

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: آية " 7 ")

كيف أحلّ النبي لنا لحم السمك الذي لا يُذْبَح ذبحاً، بل يُصطاد اصطياداً ؟ فالسمكة تموت حينما تُخرَج من الماء، هنا الإعجاز، العلماء قالوا: " السمكة حينما نصطادها ينتقل دمها كله إلى غلاصمها نهى وكأنك ذبحتها "، فدم السمكة كلّه ينتقل إلى الغلاصم، يفتح الغلاصم نهى فإذا كانت ممتلئة بالدم فهذه السمكة قد اصطيدت صيداً، أما السمكة الطافية في بعض المذاهب لا يجوز أكلها، لأنها ميتة، فإذا كانت الغلاصم ليس فيها أثر للدم فهذه سمكة ميّتة، وليست مصطادة، أما إذا اصطدت سمكةً فينبغي أن تكون غلاصمها ممتلئةً بالدم الأحمر القاني.

هناك معلومات عن الأسماك تضيق بها الدروس، تضيق بها المجلّدات، البحر شيء رهيب، ولا يتصوّر العقل عظمته، ومع ذلك يذهب الإنسان أحياناً إلى البحر ليستمتع بمائه، وبمنظر البحر، وهو غافلٌ عن الله عزّ وجل، وكثيراً ما تُرْتَكب المعاصي على شواطئ البحار، بدل أن نُسَبّح الله، وأن نوحّده، وأن نخشع لعظمته، وأن نسجد لإنعامه وفضله تُرتكب المعاصي أكثرها على شواطئ البحار، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الروم: آية " 41)

إما في البواخر العملاقة التي فيها كل الموبقات، أو على شواطئ البحار..

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ)

لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ

أي أن هذه السفينة العملاقة تتحرّك بأمر الله، لأنه حينما يريد الله إغراق سفينة فلا رادّ لقضائه، السفينة التي قال عنها من بناها: إن هذه السفينة لا يستطيع القدر إغراقها، في عام ألف وتسعمئة واثني عشر، اسمها (التيتانيك)، كانت تضمّ نخبةً من أثرياء أوروبة، ثمن الحِلي الذي على النساء في هذه الباخرة يُقدّر بمئات الملايين، فيها المسابح، فيها المطاعم، فيها الأبهاء الواسعة، الثريّات، هي من أعجوبة العصر، وأضخم سفينة، وقد صُنِّعت جدرانها طبقتين، وبين الطبقتين حواجز، فلو أنها خُرِقَت يكفي القبطان أن يُغْلِق الحواجز، فيبقى الخرق محصورا ومحدوداً، ومع ذلك في أول رحلةٍ لها من أوروبة إلى أمريكة غرقت في عرض المحيط الأطلسي، وقبل سنة فيما أعتقد عرفوا مكانها، واستخرجوا بعض ما فيها من الثروات، لذلك:

(لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ)

لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ

لا بأمر قبطانها، قبل سنة أو سنتين أبحرت باخرة من جدّة إلى مصر، فجأةً غرقت في وسط الجُزُر المرجانيّة، يركب رجل في أفخر غرفة من الدرجة الأولى فوجد نفسه يعالج مياه البحر، وراح من القتلى أعداد كبيرة جداً، فغرقُ الباخرة بأمر الله عزّ وجل، والطائرة شيءٌ آخر، تجدها وقد سقطت، ومات جميع ركّابها، هذه الطائرة التي تطير في جو السماء أيضاً بأمر الله عزّ وجل، ولو شاء الله لها أن تسقط لسقطت، فما قولكم أن تُرتَكب المعاصي على مَتْن الطائرات ؟ وأن توزّع الخمور على متن

الطائرات ؟ وأن تُرتكب الموبقات على متن الطائرات ؟ هذا هو الفساد الذي ظهر في البر والبحر والجو، لذلك قال تعالى:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46))

(سورة القمر46)

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

قد تأكل فاكهة ليست من بلادنا، هذه مستوردة، أو سُمِح باستيرادها حديثاً، كيف انتقلت ؟ عن طريق البحار، قد تشرب قهوة في فنجان، هذا من أين جاءنا ؟ من آخر الدنيا، قد تشتري خشباً لتبني بيتاً، هذا الخشب من أين جاءنا ؟، إن تسعة أعشار المواد التي نستهلكها مستوردة، كيف انتقلت إلينا ؟ هذا معنى قوله تعالى:

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

لذلك قد يكون البحر مادّة للتفكّر، قد يكون البحر أحد أكبر الموضوعات الدّالة على عظمة الله عزّ وجل، فإذا ذهب الإنسان إلى البحر فعليه أن يفكّر، من حرّك هذا الماء ؟ من جعله ساكناً، وكأنّه صفحة زيت ؟ ومن جعله هائجاً، وكأنّه الجبال ؟

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)

(سورة هود: آية " 42 ")

إنّ بعض الأمواج ارتفاعها عشرين مترًا، وهو ما يساوي ارتفاع بناء مؤلّف من ثلاثة طوابق تقريباً، وقد تبدو أكبر باخرةٍ كأنها ريشة، وقد أصاب إعصار المحيط الأطلسي في شاطئ أمريكة الشرقي، وكانت الخسائر ثلاثين مليار دولار، وقبل عشر سنوات تقريباً جاءت عاصفة بحريّة على الشاطئ السوري صدعت الميناء، لم يبق مقهى على الشاطئ من الشمال إلى الجنوب إلا وقد غمره الماء، فحينما يهيج البحر لا يقف أمامه شيء.

لقد بُنيت قاعدة نفطية في بحر الشمال، واستخرجوا النفط من قعر هذا البحر، والعمق خمسة آلاف متر، والبترول اكتشفوه على عمق خمسة آلاف متر أخرى، وأوصلوا فوهة البئر إلى سطح البحر بأساليب عجيبة، ثم بُنيت محطّة عائمة، مدينة فيها مطار، مكاتب، كل شيء في هذه المدينة، وقد دُرِسَت

دراسة محكمة، درست المنطقة خلال سنوات طويلة، ودرست ارتفاع الأمواج والعواصف يقف أمامه وما إلى ذلك، وعلى غير المتوقّع جاءت عاصفةٌ يقف أمامه وحطّمت هذه المدينة قبل أعوام، أحياناً تجد ناقلة نفط تحمل مليون طن تتحطّم بفعل أمواج البحار، فلذلك البحر ذاته آية كبيرة، يمكن أن نعرف الله من خلال البحر.

أحياناً يتجلّى الله على البحر باسم (الجميل)، فأن تركب البحر متعة من متع الحياة، وأحياناً ينخلع القلب حينما تكون على سطح البحر، والله سبحانه وتعالى يستدرج أحياناً أهل الدنيا إلى البحر، فإذا صاروا على مَتْن سفينةٍ هاجت الأمواج، وماجت، وقالوا: يا الله، فإذا أعادهم إلى البر عادوا إلى معصيته كما كانوا.

الغوّاصة تقليدٌ للسمك، طبعاً السمك فيه أكياسٌ هوائيّة في أحشائه، فإذا أفرغها من الهواء غاص، أما إذا ملأها هواءً طفا، من أين يأتي بالهواء ؟ جهاز الهضم في السمك يُصنِّع من الغذاء هواءً، يُصَنِّع الهواء فتملأ به الأكياس فيطفو على سطح الماء، وهذا مبدأ الغوّاصة نفسه، التي إذا انحدرت تحت سطح البحر إلى أقلّ من مسافة معيّنة قد تكون مئتي متر تتحطّم بفعل ضغط الماء، فما بال هذه السمكة التي لها أرجل، وتجري في قعر المحيط ! وتتحرّك في قعر المحيطات تحت اثني عشر ألف متر، ما بالها لا تتحطّم ؟ العلماء درسوا هذه الظاهرة فوجدوا أن فيها أجوافًا داخليّة يدخل فيه الماء، فصار الضغط متكافئًا، كما لو أن الإنسان سمع صوت مدفع، وفتح فمه، يدخل الصوت مرّة من فمه، ومرّة من أذنه فيتعادلا، أما لو بقي مغلقاً فمه، ينثقب غشاء الطبل، كذلك هذا السمك الذي في قعر البحار له أجواف فيها من ماء البحر، فصار الضغط متكافئًا، هذه بعض آيات الله الدّالة على عظمته.

شيء آخر، يجب أن يكون الإنسان في البحر مع الله دائماً، لأن هناك أخطار، فهناك سمك القرش، وهو من أشدّ الأسماك توحُّشاً، لذلك ما من إنسان يسبح في البحر إلا وفيه قلقٌ من سمك القرش، من أجل أن تكون مع الله دائماً لا أن تنسى، كبار السبّاحين لأتفه الأسباب ابتلعهم السمك، أحياناً يفتحون بطن سمك فيجدون فيه آثار عظام، آثار ساعات، لأنه كان قد التهم بعض السبّاحين، هناك أسماك كبيرة في الشواطئ، هذه الأسماك آتاها الله ذكاءً عجيباً، وهي الدلفين، لو درست وظيفتها على شواطئ البحار لوجدت أن وظيفتها إنقاذ الغرقى، تألف الإنسان أُلفةً لا حدود لها، وتحب الإنسان حبّاً شديداً، وتقود أصحاب السفن إلى شواطئ الأمان، وتنقذ الغرقى، هذه مهمّة هذه الأسماك.

وإذا أردت كائناً بحريًا يُعدُّ عملاق البحر فهناك الحوت الأزرق، وزنه مئة وخمسون طنًا، هذا الحوت ثروة كبيرة جداً، لكنّه الآن في طريق الانقراض، هذا الحوت يتنفّس الهواء، لولا أنه يتنفّس الهواء لما أمكن اصطياده، لأن بقيّة الأسماك تتنفّس عن طريق الغلاصم من أكسجين الماء، ويلاحظ في أحواض

الأسماك توجد فقعات هواء، فالسمك يتنفّس الأكسجين الممزوج بالماء، لكن الحوت أصله من الثدييات لا يتنفّس إلا بالهواء، فالحوت يخرج إلى السطح ليتنفّس فيصطاده الإنسان، هذا معنى:

(سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ)

والعجيب أن الأخبار عن البحار أخبار غريبة جداً، فإذا قرأ الإنسان، وإذا تأمّل، وإذا درس، وإذا سافر ينبغي أن يعلم أن البحر آية كبرى من آيات الله الدالة على عظمته.

ثم إنكم إذا أكلتم سمكاً صغيراً تشعرون ببعض اللّقيمات بمادّة كأنّها خشنة، هذا مبيض السمكة، المبيض فيه مئات ملايين البويضات، لو أن كل بويضةٍ أصبحت سمكةً لجفّت مياه البحار، ولامتلأ البحر سمكاً، لولا أن السمك الكبير يلتهم الصغير، كما لو أنك طبخت في وعاءٍ فوضعت بقولاً وجفّ الماء، لذلك ثروات البحار كبيرة جداً..

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

اللحم لم يُذكَر طريّاً إلا في السمك..

(لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)

(سورة النحل: آية " 14 ")

ولحم السمك له فوائد كبيرة جداً على القلب والرئتين، والأوعية والشرايين، بل إن هناك أمراض كثيرة جداً علاجها في لحم السمك أحياناً، فهو غذاء أساسي جداً..

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

وَسَخَّرَ لَكُمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ

الآن عطفنا العام على الخاص، السماوات والأرض كلها مسخّرةٌ لهذا الإنسان..

(جَمِيعاً مِنْهُ)

أي عطاءً منه..

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

هل بعد هذه الآيات من آيات ؟ هل هناك غموض في هذه الآيات ؟ أي أن السماوات والأرض مسخّرة لهذا الإنسان، فما قولك أيها الأخ الكريم أن كل شيءٍ خلقه الله يسبّح الله ؟..

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: آية " 44 ")

ما قولك في أن هذا المخلوق المكرّم الإنسان الذي خُلِقَت له السماوات والأرض، وسخرت له هو وحده غافل ؟ والكون كله يسبح الله عزّ وجل، هو وحده الغافل، لذلك:

(وَلا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ)

(سورة الأعراف205)

إذا أكل الإنسان شيئًا، أو شرب شيئًا، أو سافر، ونظر، وأتأمّل عليه أن يسبّح الله.

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

[مشكاة المصابيح عن أبي هريرة]

الطرق إلى معرفة الله ثلاثة:

ثلاثة طرق إلى الله..

الطريق الأول: هو الكون إلا أن الكون أقصر الطرق وأوسعها، أوسع بابٍ تدخل منه على الله وأقصر طريقٍ إليه.

وفي أسلوب آخر:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام 11)

الطريق الثاني: أن تفكِّر في أفعال الله، كيف الله عزّ وجل يمحق مال المرابي، ويُرْبي مال الصدقة، يقصم الظالم، ويعز المستقيم، كيف أنه يوفِّر الرزق الوفير لمن استقام على أمره، فأفعال الله وحدها تعرّفنا بذاته.

والطريق الثالث: هو القرآن الكريم، القرآن الكريم للتدبُّر، وأفعال الله للنظر، والكون للتفكُّر، فإذا جمعت بين التدبُّر والنظر والتفكُّر فقد سلكت الطرائق الثلاثة إلى الله عزّ وجل، هذا في العلم بالله.

أما العلم بأمره فيحتاج إلى مدارسة عن طريق معرفة أحكام الفقه:

(إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ)

إنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُون

فالتفكُّر في خلق السماوات والأرض من أرقى العبادات..

" تفكُّر ساعةٍ أفضل من تعبد الله سبعين عاماً ".

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 14 – 19
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-09-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الجاثية، ومع الآية الرابعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(15))

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ

هؤلاء الذين لا يرجون أيام الله هم الكافرون، المؤمن يرجو أيام الله، يرجو نصره وتأييده في الدنيا، ويرجو عطاءه في الآخرة، فالأيام التي يتحقق فيها وعد الله ووعيده هي أيام الله، فالمؤمن يرجوها، يرجوها عطاءً، ويخافها ابتلاءً، يرجوها عطاءً ويخافها عقاباً، فإذا أردت صفةً بارزةً في المؤمن فهو يرجو أيام الله، آماله كلها معقودةٌ على عطاء الله، رغائبه كلها موجَّهَةٌ إلى ما عند الله، كل آماله أن يرضى الله عنه، وأن ينجيه من عذاب النار، وأن يدخله الجنة، فأيام الله هذا معناها، أي الأيام التي يتحقق فيها وعده أو وعيده.

المؤمن يدخل في حساباته اليومية هذه الأيام، الذي يأكل أموال الناس بالباطل ولا يرجو أيام الله، لا يخاف يوماً يمحَق الله ماله، والذي يعتدي على أعراض الناس لا يرجو أيام الله، ولا يخاف يوماً يعتدى على عرضه، والذي يظلم لا يرجو أيام الله، ولا يخاف يوماً يُكال له الصاع صاعين، فأيام الله المستقبل، المستقبل فيه أيام، فيه وعد ووعيد، الكافر يرثى له، فلماذا يقول الله عزّ وجل للمؤمنين:

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ)

هؤلاء مساكين، هؤلاء في عمى، هؤلاء كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكري، هؤلاء عُمِّيَت عليهم رحمة الله، إذاً يرثى لحالهم، إذاً وضع المؤمن مع أهل الدنيا، مع الضائعين، مع الشاردين، مع التائهين، مع الضالين، مع الكفار، لا وضع ند لند، وضع طبيب مع مريض، حقيقة المؤمن إذا رأى إنسانًا شاردًا يرتكب المعاصي، يتباهى بالموبقات، يقول: هذا إنسان يرثى لحاله، فيشفق عليه، إنه جاهل، وسوف يدفع الثمن باهظاً، جاهل وسوف يشقى في الدنيا والآخرة، فأنت فضلاً على أنه سيشقى في الدنيا والآخرة اغفر له، عالجه..

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ)

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ

الحقيقة أن المؤمن سعيد، وقد يسأل سائل: كيف هو سعيد، وهو يعيش بين الناس، يصيبه ما يصيبهم ؟ الجواب: أن المؤمن لأن الله وعده بالجنة، ولأن الله راضٍ عنه، شعوره أن الله راضٍ عنه، وأنه موعودٌ بالجنة، هذا الشعور يمتص كل متاعب الحياة.

مثلا: اختار طالب جامعي فرعًا راقيًا جداً، وعنده آمال كبيرة جداً في المستقبل، دخلٌ كبير، وتحقيق لكل أهدافه، في أثناء الدراسة على الرغم من الدوام الطويل، والكتب الصعبة، والفحوص الشديدة، والإجراءات الدقيقة تراه مسرورًا، لا بيومه، ولكن بغده، فالمؤمن ربما تحمل من شَظَفِ العيش، ربما تحمل بعض المضايقات، ربما واجه بعض الاعتراضات، ربما كاد له الكفار، ربما ضَيَّقوا عليه الخِناق، ربما كان دخله أقلّ مما ينبغي، ربما كانت مكانته في الدنيا متوسِّطة، متواضعة، لم يكن من أهل الحول والطول، الذي يغطي كل ذلك أن الله وعده بجنةٍ عرضها السماوات والأرض..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا)

(سورة السجدة: آية " 18 ")

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص61)

هذا توجيه إلهي لطيف، المعنى التوجيهي: أن هذا الكافر، هذا المشرك، هذا العاصي، هذا الفاجر، هذا لا يرجو ما عند الله، لا يخاف وعيده، ولا يرجو وعده، لأنه في عمى، لأنه جاهل، فأنت أيها المؤمن أكبر منه، وأوسع أُفُقاً منه وأشد بصيرةً منه، قلبك مستنير، أنت رأيت الحق، رأيت مصائر الناس، كيف أن المؤمن سيصير إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وكيف أن الكافر سينتهي في الدنيا إلى عذاب وفي الآخرة إلى عذاب، فهذا يستحق الشفقة، لا يستحق أن تحقد عليه، ولا أن تنتقم منه، ولا أن تشعر أنك في مستواه، أنت أكبر منه بكثير، إذاً:

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

صبر النبي صلى الله عليه وسلم على أهل الطائف وإيذائهم

الحقيقة: ما الذي حمل النبي صلى الله عليه وسلم على أن يقول لأبناء الطائف حينما بالغوا في الإساءة إليه، وحينما كذّبوه وسخروا منه، وحينما دفعوا صبيانهم ليضربوه، لماذا حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يطبق عليهم الأخشبين، لماذا وقف النبي صلى الله عليه وسلم هذا الموقف ؟ وقال:

((بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند صحيح]

الحقيقة أن هذا موقف الطبيب من مريض، النبي صلى الله عليه وسلم ما رآهم أنداداً له، رآهم في جهلٍ عميق، وفي ضلالةٍ ضالة، وفي غِطاء، وفي ضياع، لذلك رثى لحالهم فقال:

((بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا))

ما تخلّى عنهم، ولكن اعتذر عنهم، ودعا لهم، وتوسم في أولادهم الخير، إذاً أنت دائمًا تمتحن نفسك من هذا الموقف، إذا أساء كافر إليك، أو اعتدى ضال عليك، هل تراه نداً لك، أم ترى نفسك أكبر منه بكثير ؟ أنت المؤمن، أنت صاحب الأفق الواسع، أنت صاحب القلب المستنير، أنت الذي أكرمك الله بمعرفته، أنت الذي أكرمك الله بالاستقامة على أمره، أنت الذي عرّفك الله بحقيقة الدنيا وحقيقة ذاتك، وماذا بعد الموت، وماذا قبل الموت، فهذا الذي يناهضك، ويعتدي، ويتطاول جاهل ضائع، كأن الله عزّ وجل يريد من المؤمن أن يكون أكبر من أخطاء الآخرين، أن يتسع صدره لأخطائهم، ولتطاولهم، ولبغيهم، ولعداوانهم، فهو أكبر منهم عند الله بكثير..

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا)

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا

فالمغفرة لا تكون تصنّعاً، لكن أساسها العلم، وأساسها الكمال، فكما أن الطبيب حينما يأتيه مريض مصاب بمرض جلدي مزعج هل يحقد عليه ؟ لا، بالعكس، يرثي لحاله، يرجو له الشفاء، ينصحه، فكلما رأيت نفسك فوق الحقد، وفوق الانتقام، وفوق الشعور أن هذا ند لك، كلما كنت بهذه الحالة فأنت أعلى عند الله، وأنت أكرم عند الله، وكلما رأيت الكافر نداً لك، وأردت أن تنتقم منه فأنت في مستواه، لذلك الأنبياء جاءوا بهذه الدعوة العظيمة، والنبي عليه الصلاة والسلام على رأسهم جاء بهذه الدعوة، لو أنه يرى المعارضين والكفار والمشركين نداً له لما كان نبياً عليهم، لكن النبي عليه الصلاة والسلام كان كالأب الرحيم، كالأم الرؤوم، يرى أخطاء الناس فيمتصها، ويتجاوزها، وكل إنسان أراد هداية الخلق ينبغي أن يتجاوز عن أخطائهم، فكما قال أحد الخلفاء: **" يا بنيّ، من عفا ساد، ومن حَلُم عَظُم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب "**، على كلٍ هناك أيام الله..

(لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

إنسان عنده صندوق حديد، أي شيء يضعه في هذا الصندوق هو له، لو وضع قطعًا ذهبية له، لو وضع قطعًا معدنية له، ولو وضع موادّ سامة له، كله له..

(لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

فإذا آمن الإنسان باليوم الآخر، آمن بالجزاء، آمن بعدالة الله عزّ وجل، لا يمكن أن يتجاوز الحدود، لأنه يعلم علم اليقين أن كل شيءٍ له عند الله حسابٌ دقيق.. لأن لكل حسنةٍ ثواباً، وإن لكل سيئةٍ عقاباً. أيها الإخوة الكرام، يقول الله عزّ وجل بعد هذه الآية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا

أجمل ما في الآية اللام وعلى..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ

هذه اللام لام المُلك، أي هذا يعود عليه بالخير، هذا له، هذا سينفعه يوم القيامة، هذا سينير له الطريق، سيكون في قبره مصباحاً وضاءً.

(وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا

كأن الله عزّ وجل شَبَّهَ الإساءة بصخرة كبيرة تسحقه عليها، هو تحت وطأة إساءته، وشبّه العمل الصالح بشيء ثمين، قطعة ماس ثمنها ملايين، سبائك ذهبية..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

يُشَمُّ من هذه الآية أن الإنسان مخيَّر تخييرًا كاملاً، إن عملت كذا فالنتيجة كذا، إن عملت كذا فالنتيجة كذا، لولا أنه مخير فلا معنى لهذه الآية، لولا أن الإنسان مخير، والاختيار الذي منحه الله للإنسان هو الذي يثمِّن عمله لما كان لهذه الآية من معنى إطلاقاً، فيا أيها الإنسان أنت مخير، فإن عملت صالحاً فلنفسك، وربنا عزّ وجل كلامه موجز، وقد قالوا: البلاغة في الإيجاز، أي عمل هذا ؟ يا ترى عمله في بيته ؟ عمله في حرفته ؟ كل واحد منا له حرفة، هذا مدرس، هذا مهندس، هذا طبيب، هذا بائع، هذا من أصحاب الحِرَف اليدوية.

وكل إنسان يعلم علم اليقين متى ينفع، ومتى يضر، متى يحسن، ومتى يسيء، متى يغش، ومتى ينصح، متى يتقن، ومتى يهمل.

أنت موظف، جاءك مواطن له عندك معاملة، لو أوهمته أنها تحتاج إلى يومين آخرين، وبإمكانك أن تخرجها من الدرج، وأن توقعها، وينتهي الأمر تعلم أنك أسأت، أطلت عليه الأمد، يأتيك المشتري وأنت بائع فقل له ما شئت، لكنك تعلم بالفطرة إن صدقته أو كذبته، إن نصحته أو غششته، إن أوهمته أو كنت صادقاً معه، هذه قضايا الفطرة مخيفة، لا تحتاج إلى تعليم، لا تحتاج إلى تذكير، فطرتك تكشف خطأك، وربنا عزّ وجل قال:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة14-15)

أحياناً أنت أقوى من زوجتك، أقوى بكثير، أمْرها بكلمة تلفظها من فمك، لكنك إذا أسأت، وأقمت عليها الحُجَّة تعلم أنك ظالم، وأنك تبالغ، وأنك لا تستقيم لك حجة عند الله، فالإنسان بصير على أعماله، وهنا المسؤولية، وهنا المحاسبة الدقيقة، في زواجك، مع أولادك، إن عدلت أو لم تعدل، مع زوجتك، إن أحسنت أو لم تحسن، مع زبائنك، إن نصحت أو غششت، مع صنعتك، إن أتقنت أو أهملت، يمكن أن توهم الناس بشيء لأمد طويل، ولا سيما أصحاب الاختصاص العالي، لا يكشفهم إلا أندادهم، من الذي يعلم أن هذا المريض لا يحتاج إلى تخطيط ؟ وأنك كلفته بالتخطيط لتزيد الربح، ما أحد يعلم إلا الله، المهندس، المدرس، ابنك يحتاج دروسًا خاصة، من يعلم ؟ الأب مستسلم، فعظمة الإيمان أن يرى الإنسان المؤمن أن الله عزّ وجل يراقبه، إذا دخلت في حالة المراقبة فقد وصلت إلى الجنة، وإذا دخلت في حالة المراقبة علمتَ أنّ الله يراقبك..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا

إياكم أن تظنوا أن الدين صلاةٌ فقط، وصيامٌ فقط، وحجٌ فقط، الدين يدخل في كل حركاتك وكل سكناتك، في عملك، كل كلمة تقولها لمن أمامك، أنت موظف، وهذا مُراجع، أنت طبيب، وهذا مريض، أنت مهندس، وهذا له عندك مشروع، أنت محامٍ، وهذا موكِّل، أنت تصلِّح الأجهزة، وهذا أمامك جاهل، كل كلمة تقولها لمن أمامك الله يعلم ما إذا كنت صادقاً أو كاذباً، يعلم ما إذا كنت ناصحاً أو غاشاً، يعلم ما إذا كنت متجنياً أو منصفاً، الله يعلم، فلا يسعد الإنسان عند الله عزَ وجل إلا إذا رأى أن الله يراقبه،

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

الكلام البليغ موجز:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا

ضمن الحرفة، ضمن البيت، ضمن العمل، ضمن النُزُهات، يمكن أن تعتدي على أعراض الناس، والناس لا يعرفون ذلك، لذلك الله عزّ وجل قال:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ

إذا وصل المؤمن إلى حال المراقبة مع الله، إذا شعر أن الله بالمرصاد، أن الله مُطّلِعٌ عليه، يعلم سرائره، يعلم نواياه، يعلم مقاصده، يعلم طموحاته، يعلم إلى ما يرمي بهذه الكلمة استقام على أمر الله. ومن أدق الآيات القرآنية:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة: آية " 97 ")

إذا وصلت إلى هذه الحقيقة، وهي أن الله يعلم فقد نجوت، لأنه إذا علمت أن الله يعلم، وسيجازي لا يمكن أن تعصيه أبداً، مستحيل، إذا أيقنت أنه يعلم وسوف يحاسب، ولن يفلت إنسان من قبضته، فقد نجوت، فإذا فهم الإنسان كتاب الله فهماً عميقاً، وكشفت له الحقائق، واستنار قلبه بنور الله عزّ وجل، تراه منضبطاً إلى أبعد الحدود، انطلاقاً من حبّه لذاته، انطلاقا من حبه لسلامته، انطلاقاً من حبه لوجوده، ولسلامة وجوده، ولكمال وجوده، ولاستمرار وجوده، لذلك كانت الاستقامة عين الكرامة، وكل كرامتك في الدنيا أساسها الاستقامة..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ

أحياناً قد يبدو لك ـ وهذا من الامتحان ـ أن دخلك يزداد إذا خرجت عن منهج الله، وهذا ما يقع فيه معظم الناس، فإذا كذبت عليهم، وتحكمت فيهم، وأنت تعلم، وهم لا يعلمون، تجني أرباحًا طائلة، وهذه أرباح توفِّر لك حياة ؛ فتقتني البيت الفاخر، والمركبة الفاخرة، وتؤمِّن لأولادك مستقبلهم، وتحل كل مشاكلك، لكن لا يمكن لإنسان أن يسلك طريق الانحراف و تنجح الخطة التي رسمها إلى ما لا نهاية، لابدَّ من أن يفاجأ بأن الخطة التي رسمها لم تنجح، وأن الله عاقبه، لكن متى ؟ بعد أن يأخذ مجراها، فالله عزَّ وجل لو عاقب الإنسان لعاقبه فور معصيته، لا يوجد اختيار، ألغي الاختيار، لو كافأه بعد الطاعة مباشرةً فلا اختيار.

ربما تطيعه فترة طويلة، ولا تجد أي ميزة لك، دخلٌ قليل، وبيت صغير، حياة فيها متاعب، وربما ترتكب أكبر المعاصي وإلى حين، سنة سنتين، ولا يحدث لك شيء، فأين الله ؟ هنا الاختيار، الله عزَّ وجل سمح لك، تحقق اختيارك، تحقق شهواتك، تحقق كمالاتك دون عقاب، ودون ثواب، لكن بعد حين يشد الحبل، فقد أمّنت مستقبلك، ورتبت وضعك، والأمور كلها جيدة، فتفاجأ بمفاجئات لم تكن في الحسبان، هذا:

(أَتَى أَمْرُ اللهِ)

هذا:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

إلى أن تأخذ أبعادك كلها، إلى أن تحقق اختيارك، إلى أن تمضي فيما تريد، إلى أن تصل إلى كل غاياتك، فيقول لك: هل انتهيت ؟ الآن جاء الحساب، وحتى المؤمن يستقيم، يبالغ في الاستقامة، يبالغ في تحرّي الدخل الحلال، إلى أن يثبت لنفسه، وللناس أنه يريد وجه الله عزَّ وجل، الآن تأتيك الدنيا وهي راغمة، لأنك نجحت في الامتحان، فليس هناك امتحان خلال دقيقة أو دقيقتين، بعدئذٍ يأتي الحساب..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

لك..

(وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا

العمل الصالح كالجوهرة الثمينة تتملّكها، والعمل السيئ كالصخرة الساحقة تسحق الإنسان، كلمة (لها) ومن كلمة (عليها)، الله عزّ وجل لم يقل: من عمل صالحاً فعلى نفسه، لم يقل: فمن أساء فلها، لا..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

العمل السيئ يسحق.

(ثُمّ إِلَى رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ)

ثُمّ إِلَى رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ

أردت من هذه الآية أن العمل الصالح في بيتك، في عملك، في نزهتك، في أفراحك، في أتراحك، تعلم بالفطرة من دون تعليم، تضع قطعة أثاث خشب من أسوأ الأنواع، بعد حين تتحطم القطعة، من يعلم ؟ الله وحده يعلم، فالذي يصل إلى مرتبة المراقبة، وصل إلى الله، الذي يصل إلى مرتبة المراقبة وصل إلى سلامة الدنيا وسعادة الآخرة، الذي يشعر أن الله معه دائماً، كل كلمة سوف يُحاسب عليها، لماذا قلت كذا ؟ يقول لك الذ يريد أن يشتري حاجة من عندك: أنت اختر لي اللون، على ذوقك، بإمكانك أن تختار له أسوأ لون، لا يباع معك، وتقول له: هذا هو اللون الحديث، من يعلم ذلك ؟ الله يعلم، عندما خَيَّرَكَ يجب أن تختار له أجمل لون، على هذا المستوى، فكل كلمة تقولها أنت مسؤول عنها..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا

لك أن تقول ما شئت، ولك أن تفعل ما شئت، لكن كله بحساب، كله بدقة بالغة، وكلما ظننت أن الله عزّ وجل لا يدقق تكون أنت لا تعلم، وما دام الله عزّ وجل قال:

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًا يَرَه)↓(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه

(سورة الزلزلة7-8)

فقد انتهى الأمر.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ)

هذه الذرة ليس لها وزن إطلاقاً، يحملها الهواء، لو عملت عملاً صالحاً بمستوى هذه الذرة فهي مسجلة ومحفوظة عند الله، ولو عملت عملاً سيئاً بمستوى فهذه الذرة محفوظة عند الله عزّ وجل، هذا الدين، لذلك عندما يعرف الإنسان الله، ويراقبه دائماً لا يستطيع إلا أن يقول حقاً، إلا أن يقول صدقاً، لا يستطيع

إلا أن يكون صادقاً، مخلصاً، نصوحاً، أميناً، المؤمن شخصية فذّة كبيرة جداً، أنه أمين، صادق، عفيف، منصف، محسن، رحيم، الكمال البشري كله في المؤمن، كلمة مؤمن، يقول لك: فلان دكتور مثلاً، يضعون له دالاً، هذه الدال تعني ثلاثًا وثلاثين سنة دراسة، إذا قلت: مؤمن، فهذه كلمة، ولكن بالمعنى الذي أراده الله، بالمرتبة الصحيحة، كلمة مؤمن منصف، كلمة مؤمن لا يظلم، لا يكذب أبداً، لا يخون أبداً، مستقيم على أمر الله، وفق المنهج، يؤتمن على الملايين، مؤمن، والله الذي لا إله إلا هو لا يسمح له إيمانه أن يأكل درهماً واحداً حراماً.

ذكر لي أخ قصة أعدّها نموذجية، أخ من إخواننا بعدما سلك في الطريق إلى الله شوطًا لا بأس به، وهو يعمل في لف المحركات قال لي: قبل أن أتعرف إلى الله عزّ وجل يأتيني محرك محروق، الشرط خمسة أو ستة آلاف ليرة، يذهب الشخص، أفتحه فلا أجده محروقاً، أجد سلكًا مقطوعًا، ألحمه بالآلة خلال دقيقة، فلا يبقى في المحرك أي شيء، في زمن الجاهلية عندما يأتي صاحب السيارة في اليوم الثاني أقيم تمثيلية أمامه، بأن إصلاحها استغرق وقتا طويلا، قال لي: بعد ما عرفت الله عزّ وجل أقول له: خمسة وعشرين ليرة، فيستغرب الزبون !! فأخبره الحقيقة، من يعلم ؟ الله يعلم، هذه قصة واضحة، هكذا المؤمن، لأنه يعلم أن الله يعلم فهو وقاف عند حدود الله عزّ وجل.

وعلى هذا فقس كل المهن، التدريس، الهندسة، المحاماة، التجارة، صناعة غذائية، الآن الذي عنده صناعات غذائية من يعلم ماذا يضع في هذا البسكويت، فيه مواد غذائية سيئة جداً، منها مواد مسرطنة، من يعلم ؟ كشفوا في بعض المعامل أنها تضع صباغ البلاط في السكاكر، من يعلم ؟ الله يعلم، عظمة الإيمان أنك ترى أن الله يعلم، وهؤلاء عباده، فإذا أحسنت لهم أكرمك الله.

والله حدثني أخ، والله لا أنسى هذه الكلمة، له معمل في الصناعات الغذائية، قال لي: والله أنتقى المواد من أعلى درجة، لكي يرضى الله عني، هؤلاء لأنهم أبناء المسلمين، الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، وكثيراً من المعامل يضعون مواد سامة، مواد للدهان يضعونها في الطحينة، لتبييض لونها، فتباع بثمن أغلى، لا يعرفون الله أبداً، ولو أنهم صلوا في المساجد !!! فإنهم لا يعرفون الله أبداً، أما الدين فيدخل في الصناعة، ويدخل بالزراعة.

ففي الزراعة هناك مواد هرمونية، هذه المواد مسرطنة، تعطيها للشجر فيعطي ثمارًا كبيرة، وألوانًا زاهية، تبيع بضاعتك بالضعف تقريباً، لكن هذه الهرمونات ممنوعة دولياً، يمكن أن تستقيم على أمر الله، خذ نصف الدخل أو ثلثيه بالحلال، كثير من الصناعات الغذائية فيها انحرافات خطيرة تودي بحياة الناس، أو تؤذي أطفالهم، من يعلم ؟

أقول لكم كلمة: والله لا يمكن أن تستقيم الحياة دون إيمانٍ بالله، من يعلم ماذا تفعل أنت في المعمل ؟ ربما يكون الزيت نجسًا، سقطت فيه فأرة، من يعلم أن هذا الزيت رديء نجس ؟ يمكن أن تستعمله في

صنع الصابون، وتبيعه كزيت، وهو نجس، من يعلم ؟ الله وحده يعلم، فإذا علمت أن الله يعلم انتهيت إلى الجنة، والإنسان المستقيم لا يخسر، والإنسان المستقيم لا يضيعه الله، واسمعوا مني هذه الكلمة: والله زوال الكون أهون على الله من أن يضيّعَ مؤمناً مستقيماً، لكن قد يبدو له ربحه في الغش، وهذه رؤية شيطانية، قد يبدو له أن أرباحه الطائلة تحتاج إلى كذب، أو إلى غش، أو إلى بضاعة محرمة، أو إلى أعمال لا ترضي الله عزّ وجل، ما الذي يحصل ؟

يعطيك في بادئ الأمر أرباحًا طائلة، ثم يأتي القصم، مرض خبيث أتلف الحياة كلها.

أعرف رجلاً يعيش على إفساد أخلاق الشباب، عنده دار سينما، جمع ثروة جيدة جداً لكي يمضي حياته في الدعة والبحبوحة، أصيب بمرض خبيث في وقت التمتع بالحياة، بعد أن استقرت هذه الثروة بين يديه، فصار يبكي على أن كل هذا التعب لكي يرتاح بضع سنين، الله لم يسمح له أن يتنعم بها، لأن هذا المال أساسه مبني على إفساد أخلاق الشباب، كلما كان الفيلم فيه مناظر مؤذية أكثر كان الإقبال عليه أشد، لكن الله كبير، كلمة: (الله كبير) يجب أن تعلمها، كبير أيْ:

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج12)

تبني مجدك على أنقاض الناس، تبني ثروتك على متاعب الناس، الله ينتقم إن عاجلاً أو آجلاً، اسمعوا هذه الآية:

الآية الأولى:

(فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة النحل36)

الآية الثانية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام11)

إذا وجدت إنسانًا انحرف، وبعد الانحراف جاءته البطشة الكبرى، هذه على (الفاء)، وإذا انحرف الإنسان و أمد له الله فهذه على (ثم)، الفاء للترتيب على التعقيب، وثم للترتيب على التراخي، فعلى كلٍ لابدّ من الفاء أو من ثم، إما أن يأتي العقاب عاجلاً لحكمةٍ أرادها الله، أو أن يأتي العقاب آجلاً، لابدّ من العقاب.. إن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً، والآية الأوضح من ذلك:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة7-8)

أبداً، هذا هو الدين، افعل ما تشاء

في آية قرآنية:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية " 40 ")

كلٌ بحسابه، الآية دقيقة جداً.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمّ إِلَى رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ)

ترجعون لتقبضوا ثمن الطاعة، وتدفعوا ثمن المعصية، لتسعدوا بطاعتكم، وليشقى الإنسان بمعصيته.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطّيّبَاتِ وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُمْ بَيّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنّ رَبّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17))

(وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ)

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَاب وَالحُكْمَ

التوراة.

(وَالْحُكْمَ)

فَهْمَهُ..

(وَالنُّبُوّةَ)

من فضل الله على بني إسرائيل أنه جعل فيهم النبوة إلى أمدٍ طويل.

(وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطّيّبَاتِ وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

في زمانهم، لئلا يُفْهَم أنها مطلقة.

(وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

في زمانهم.

(وَآتَيْنَاهُمْ بَيّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ)

الأمر هو الدين.

(بَيّنَاتٍ)

دلائل واضحة، حجج، براهين قوية.

(فَمَا اخْتَلَفُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ

الاختلاف: أنواع وأسبابه

وهذه الآية دقيقة جداً، الاختلاف له أسباب كثيرة، من أبرز أسبابه قلة المعلومات، أوضح مثل: سمعنا صوت مدفع ليلة العيد، فماذا نقول ؟ لعله مدفع العيد، لسنا متأكيدين، يقول قائل: لا، هناك تفجيرات في الجبل لشق طريق، لماذا اختلفنا ؟ لنقص المعلومات، هذا اختلاف طبيعي جداً، ومقبول، لكن الخلاف الخطير الخلاف القذر، ليس خلاف نقص معلومات، خلاف بغي وحسد، فمن المكن أن تعزي الخلافات بين المسلمين لا إلى نقص المعلومات، الكتاب واحد، السنة واحدة، علم الحديث واضح، حديث متواتر، صحيح، حسن، ضعيف، موضوع، الكتاب قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، وظني الدلالة، الحديث ظني الثبوت، وظني الدلالة وقطعي، الكتاب واحد، الحديث واحد، الإله واحد، الكعبة واحدة، المنهج واحد، ومع ذلك هناك خلافات لا يعلمها إلا الله، يا تُرى هذه الخلافات بين المسلمين بسبب نقص المعلومات ؟ لا، المعلومات وافرة، بسبب الحسد والبغي والهوى، وربنا عزّ وجل لحكمةٍ أرادها أحياناً يتحدث عن بني إسرائيل، ونحن المعنيون، لأن الأمراض التي أصيبوا بها نحن معرّضون إلى أن نصاب بها مثلهم.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ)

التوراة.

(وَالْحُكْمَ)

فهمه.

(وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

في زمانهم.

(وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ)

أي كل شيء أمرناهم به، أو نهيناهم عنه بحجةٍ قويةٍ دامغة وبرهانٍ ساطع.

(وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ)

العلم القطعي الواضح.

(بَغْياً بَيْنَهُمْ)

أي عدواناً على بعضهم بعضاً، حسداً لبعضهم بعضاً.

(رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

وهذه الآية يمكن أن تنسحب على المسلمين تماماً، فالخلاف بين فرقهم وجماعاتهم، هذا خلاف ليس أساسه الجهل، لا، إن أساسه هو الهوى، وأساسه المصالح، وأساسه المكاسب، وأساسه حب الرئاسة، وأساسه حب السيطرة، وأساسه الحسد، وأساسه البغي، لمَ الخلاف وكتابنا واحد ؟ لِمَ الخلاف والسنة واحدة، والنبي صلى الله عليه وسلم واحد، والأمور واضحة، والقرآن بلسانٍ عربيٍ مبين، فلِمَ الخلاف ؟ لمَ التشرذم ؟ لمَ التقوقع ؟ لمَ تراشق التُهَم ؟ لمَ الطعن ؟ لمَ الإنكار ؟ لمَ البغضاء ؟ لِمَ العداوة ؟ لمَ التحزُبات ؟ فهؤلاء ما اختلفوا لجهلٍ، بل اختلفوا وهمْ في أعلى درجات العلم، معهم كتابٌ واضحٌ كالشمس، معظم آياته محكمات لا تحتاج إلى تفسير، الآيات المتشابهة قليلة، آيات العقيدة محكمة، آيات العبادات محكمة، آيات التشريع محكمة، لا إشكال أبداً، والأحاديث واضحة، بَيّنَة، فلماذا اختلفوا ؟ اختلفوا طمعاً في المكاسب، كلٌ يدعي وصلاً بليلى، كل جماعة تدعي أنها على حق، وما سواها على باطل، هذا حسد، هذا بغي، هذا حب رئاسة، هذا هوى، هذا عدوان، هذه هي المشكلة.

(وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

هنيئاً لمن كان على حق، وكان مستقيم السريرة، وكان مخلصاً في دعوته، وكان وَفْقَ الكتاب والسنة، وكان متعاوناً مع الآخرين.

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ)

يا محمد.

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍمِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا)

جعلناك على منهج قويم، على دستورٍ عظيم، على كتابٍ معجز، على محجّةٍ بيضاء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العِرْبَاض بْن سَارِيَة]

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ)

قال تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل12)

الهدى على الله عزّ وجل، هو تكفل بهداية الخلق، ما علينا إلا أن نتبع الأمر، هو تكفّل بإظهار الحق، هو تكفل بإظهار الحق وإبطال الباطل..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء81)

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا)

إذا لم يتبع الإنسان الحق فماذا سيتبع ؟ قال تعالى:

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

وَلاَ تتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ

أنت بين أحد خيارين، إما أن تتبع منهج الله، أو تتبع البديل وهو الهوى ؛ والنزوات، والشهوات، والمصالح، والمكاسب، وكل شيء مادي دنيوي، فأنت بين خيارين صعبين، إما أن تتبع الحق، وإما أن تتبع الهوى، لذلك:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

اجعل دائماً هذه المعادلة: إما أن أتبع الهوى، وإما أن أتبع الحق في كل علاقاتك، في كل مواقفك، في كل نشاطاتك، إما أن تتبع الحق، وإما أن تتبع الهوى.

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ)

إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

هؤلاء الذين لا يعلمون، هؤلاء الذين يضغطون، هؤلاء الذين يغرونك، أو يضغطون عليك من أجل أن تتبع أهواءهم، يتساءلون مثلاً: لماذا هذا الحجاب ؟ لماذا أنت خائف من الربا ؟ مثلاً، هذه أهواء، الناس الضالون المضلون دائماً يحبون أن يوسعوا الباطل، فإذا كان الإنسان مستقيمًا لا يريحونه، دائماً عليه يكثرون الضغط، والإغراء، لا يعطونك ميزات إلا إذا كنت على هواهم.

(حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)

(سورة البقرة: آية " 120 ")

هذا الضغط وهذا الإغراء، هي أهواء..

(إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)

إذا ضغط على الإنسان كي يتبع أهواء الذين ضلوا، أو أغري بعطاء كبير كي يتبع أهواء الذين ضلوا، لا هؤلاء ولا هؤلاء، لا بالضغط، ولا بالإكراه، ولا بالإغراء، في النهاية ستستفيد، لأنك لا تنجو من عذاب الله.

والي البصرة جاءه من يزيد الخليفة الأموي توجيه معين، يبدو أن التوجيه مخالف للكتاب والسنة، فكان عنده الحسن البصري، فوقع في حيرة كبيرة، إن نفّذ توجيه الخليفة أغضب الله، وإذا لم ينفذه أغضب الخلفة، وقد يعزله من منصبه، فسأل الحسن البصري قال له: ماذا أفعل ؟ فأجابه بكلامٍ جامعٍ مانعٍ شافٍ، قال له: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

كلام في منتهى البلاغة، فإذا سمعت كلام فلان ورضيته، مهما كان عظيمًا فلا يمنعك من الله، أما إذا أرضيت الله عزّ وجل، وكان الشخص شريرًا، وأراد أن يوقع بك الله يمنعك منه، وانتهى الأمر، " إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله "، هذه الكلمة تكتب بماء الذهب، اجعلها شعارًا لك، كلما جاءك ضغط أو إغراء من أجل أن تتبع الهوى لا أن تتبع الحق، فإذا أحب أحدهم أن يسير أهل بيته وفق الشرع عاداه كل أهله، قد يحرمونه من الميراث، الضغط أو الإغراء من أجل أن تتبع الهوى، يريدون الاختلاط، يريدون كسب الأموال بالباطل، يريدون أفعالاً لا ترضي الله عزّ وجل، لذلك:

(إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

سبيل الضغط على المؤمنين، هذه التولية بالباطل، يتعاون الكفار على المسلمين وعلى المؤمنين، يضعفونهم يمنعون عنهم الأشياء الأساسية في حياتهم.

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

لكن هذه الولاية لا تنجح، لسبب:

(وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

ما أدق هذه الآية ! لو فرضنا أهل الأرض اجتمعوا، دول العالم كلها اجتمعت على أن توقع الأذى بالمؤمنين، دول كبرى عظمى معها أسلحة فتّاكة تسيطر على العالم كله، لو أنها اجتمعت على أن توقع الأذى بالمؤمنين لا يستطيعون لسببٍ بسيط، هو أن الله مع المؤمنين، لأن الله بيده كل شيء، تصور جهازين أمامك يعملان بقوة كهربائية، ومعك المفتاح، فأنت بضغط على زر توقف واحدة، وتشغل الثانية، انتهى الأمر كله، توجد رافعات ترفع خمسة أطنان من الحديد، الرافعة هي مسطح مربع كبير

حوله وشيعة كهربائية، فإذا سرت الكهرباء، ينزل فوق الحديد، ويحمل خمسة أطنان، الشد كبير، أما العامل على الرافعة فيكبس الزر ميلي مترا واحدا فيقطع الكهرباء، فيسقط الحديد، فعلى الله القضية سهلة جداً..

((وَاعْلَمْ أَنّ الأُمّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ))

(من سنن الترمذي عن ابن عباس)

(مَا يَفْتَحِ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر)

شيء دقيق جداً، الأمر بيد الله عزّ وجل، لو أن الناس اجتمعوا كلهم ضد الإسلام، أنت كن مؤمنًا صادقًا، ولا تخف.

(وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)

كن مؤمنًا صادقًا، أقم الإسلام في بيتك، أقمه في عملك، حرر دخلك من الشبهات، اضبط حواسك، اضبط بيتك انتهى.

(إِنّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة123)

لو تآمروا عليك، لو أن أقوى الأقوياء أراد أن يوقع بك الأذى لا يستطيع، لأن الله مع المتقين، فربنا لا يوجد غيره، الله عزّ وجل إذا كان مع المؤمنين انتهى الأمر، فإذا بدا لك أن الله تخلى عن المؤمنين، فهو لم يتخلّ، هم ليسوا بمؤمنين، لو أنهم مؤمنون لما تخلّى عنهم، وإسلامهم انتماء شكلي، وانتماء تاريخي، يقول لك: أنا مسلم، وتجده على البحر، المسلم وغير المسلم يشربون الخمر، ويسبحون عراة أمام بعضهم بعضاً، هذا مسلم، ما عاد مسلمًا، أين المسلم ؟ لا تجد فرقًا على الإطلاق، لا في كسب المال، ولا في إنفاقه، ولا في البيت، ولا في العمل، النظام ربوي، الشهوات، الاختلاط، هذا مسلم وهذا غير مسلم، هذه أصبحت عصبية، هذه أصبحت جهالة، أما المؤمن فهو متميّز بأخلاقه، متميز ببيته، متميز بعمله، نمط فذ، نمط غريب، كن مؤمنًا وانظر، الله لا يتخلى عنك:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

انظر إلى الآية ما أعظمها..

(لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

لكن:

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

فهم لا يعبدونه، البيوت ليست إسلامية، العمل ليس إسلامياً، فيه غش، وكذب، وخداع، واختلاط، قد ترى امرأةً تمشي في الطريق، هل هذه مسلمة ؟ وأبوها مسلم ؟ مستحيل، كل مفاتنها في الطريق، أين أبوها، وأين إخوتها ؟ كيف سمحوا لها أن تمشي بهذا الشكل ؟ كلما كما يقولون: وكلما قلّ ماء الحياء قلّ ماء السماء.

(وَأَلّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)

(سورة الجن16)

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: آية " 96 ")

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت: آية " 30 ")

نحن مقصِّرون، ولم يتخلّ الله عنا، ولكن وعده حق، والله لزوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعده للمؤمنين للكن أين المؤمنون ؟ عدد كبير، كان الصحابة واحدًا منهم كألف، الآن ألف كأف، لا دين، ولا صدق، تجد القصر العدلي به ستة آلاف دعوة، كلها باطلة، لا رحمة، ولا إنصاف، أكل أموال الناس بالباطل، هؤلاء يستحقون أن يرحمهم الله عزّ وجل ؟ فالإنسان عليه أن يستقيم على أمر الله، فالآية هنا:

(وَإِنّ الظّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُتّقِينَ)

تصور جندين تشاجرا، وكان قائد الجيش مع واحد منهم، من خصمه ؟ انتهى الأمر، لما يكون ربنا مع مؤمن فلا تجد كافرًا، انتهى.

(وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُتّقِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 20 – 22
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-09-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الخامس من سورة الجاثية، ومع الآية العشرين.

أيها الإخوة الكرام، يقول الله عزّ وجل:

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

معنى بصائر:

بصائر جمع بصيرة، وبصيرة على وزن فَعِيلَة، وفعيلة صيغة مبالغة اسم الفاعل، أي نُبْصِر بها، هذه العين لو أنها في أعلى مستوى، وفي أدق حالة، هل يمكن أن ترى الأشياء من دون نور ؟ لو فحص الإنسان عينيه فوجدهما بأعلى درجة، ودخل إلى غرفةٍ مظلمة فهل يرى فيها شيئاً ؟ إنه لا يرى شيئاً، لابدّ من وسيط، لابدّ من نورٍ ترى به الأشياء، والعقل كالعين، والعقل الراجح والمتفوق لا يرى الحقيقة إلا إذا كان مهتدياً بنور الله، لأن العقل يهديه إلى أن لهذا الكون خالق، ولكن من هو الخالق ؟ يأتي الوحي ويقول:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

العقل يصل بذاته إلى أن هذا القرآن كلام الله من خلال إعجازه، وأن الذي جاء به نبيّ الله من خلال قرآنه، ولكن هذا القرآن ماذا يقول ؟ من الذي يكشف لك حقائقه ؟ ربنا عزّ وجل يقول:

(أُوْلَئِكَ)

أهل البُعْدِ..

(يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

(سورة فصلت44)

فمهما الإنسان تمتّع بعقلٍ راجح فلابدّ له من نورٍ كاشف، وبشكل مختصر كيف أنك إذا شققت الطريق تضع لافتات، هنا منعطف خطر، هنا منزلق حادّ، هنا تقاطع خطر، هنا طريق ذات اتجاه واحد، هذه اللوحات فيها بصائر تنير للسائقين من ملابسات الطريق، وأخطار الطريق، وخصائص الطريق، كذلك الإنسان في الدنيا لابدّ له من بصائر، لابدّ له من كتاب من عند خالقه، أنت آلة معقّدة جداً، غاية التعقيد،

ثمينة جداً، غالية جداً، عظيمة النفع جداً، كيف تستعملها ؟ لابدّ من تعليمات الصانع.. القرآن تعليمات الصانع، قال:

(هَذَا بَصَائِرُ)

بصائر جمع بصيرة، بصيرة على وزن فعيلة، فعيلة مؤنّث فَعيل، فعيل صيغة مبالغة اسم الفاعل، أي به نرى الحقائق.

شيءٌ آخر، أحياناً أنت ترى الحقيقة بشيئين ؛ إما ببيان، أو بنور، البيان أن تصغي إلى الحق، هذا حرام وهذا حلال، هذا يجوز، وهذا لا يجوز، في هذا المجال افعل ولا تفعل، هذا بيان، وإما أن تتصل بالله عزّ وجل اتصالاً محكماً فيُلقي الله في قلبك النور، وهذا تؤكِّده الآيات الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد: آية " 28 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

(سورة الأنفال: آية " 29 ")

فالقرآن بصيرة، تقرأه وتستوعب أوامره ونواهيه فتطبقها، فصار التبصير بيانيا، أو صار التبصير نورانيا، إما أن تتصل بالله اتصالاً محكماً يلقي الله في قلبك النور، وفي النهاية من كانت صلته بالله محكمة، ومن كان إدراكه للقرآن عميقاً يلتقيان في تطبيق المنهج الإلهي..

(هَذَا بَصَائِرُ)

أي أنك في أشدِّ الحاجة إلى التبصير، وهذا لا يعرفه إلا من يقود السيارات.. إذا كنت في سفرٍ طويل، وتوجد مفارق متعدِّدة، ولا تعرف في أيّها تذهب، إنك تقع في أشد الحيرة، تقع في اضطراب، أذهب من هنا أم من هنا ؟ كم تكون ممتناً لو رأيت لوحةً مضاءةً واسعةً واضحةً بلغةٍ تفهمها، وكتب عليها: حمص من هنا، من هنا طرابُلس.. مثلاً.. هذه اللافتات بصائر، بدل أن تخطئ تصيب، وتسأل فتضطرب، وتقلق، فتجد لوحة مبيّنة، فربنا عزّ وجل من لوازم كماله أنه لمّا خلقنا نوّر هذا الكون ببيانه، الله عزّ وجل دائماً وأبداً يرسل الرُسُل، ينزّل الكتب، يبعث بالدعاة، فالإنسان دائماً في حالة تبيين، قال تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل12)

(علينا)، وعلى إذا جاءت مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام الذاتي، أي أن الله عزّ وجل تكفّل لنا أن يهدينا إلى سواء السبيل..

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

قال تعالى:

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل: آية " 9 ")

وعلى الله قال بعض العلماء: " بيان سبيل القصد ". خُلِقت كي تسعد في أبد الآبدين، على الله عزّ وجل أن يبين لك معالم الطريق التي تودي بك إلى سعادتك..

(وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

الآية معكوسة، وعلى الله بيان سبيل القصد.. هكذا.. إذاً نشر الهُدى وتوضيح الأمور، وإنزال الكتب، وإرسال الأنبياء، وإلهام الدعاة والعلماء بتبصير الأمور، هذا مما يفعله الله عزّ وجل رحمةً بالعباد، إذاً:

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

دقق في هاتين الكلمتين، هدىً من الضلالة، ورحمةٌ من الشقاء، قد يضل الإنسان وقد يشقى، يضلُّ عقله، وتشقى نفسه، فإذا قرأ هذه البصائر، قرأ هذا الكتاب، وتدبَّر آياته، واستوعب معانيه، وقف عند حلاله وحرامه، وقف عند مُحْكَمِهِ ومتشابهه، وقف عند الأمر والنهي، عند الوعد والوعيد، عند الحلال والحرام، وقف عند أخبار الماضين، وما سيكون بعد حين، إذا قرأ هذا القرآن كان له بصيرةً، وإذا أراه الحقّ حقاً عليه أن يتبعه، وأراه الباطل باطلاً فما عليه إلا أن يجتنبه، فالذي على الله الله عزّ وجل أدّاه..

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(هَذَا بَصَائِرُ)

الآن نحن إما أن نستجيب أو لا نستجيب..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

هذه دعوة الله لسعادتنا، دعوة الله كي نحيا حياةً حقيقيّة، دعوة الله كي نصل إلى دار السلام بسلام، دعوة الله إلى أن نحقق الهدف الذي من أجله خُلِقنا، دعوة الله إلى أن يرحمنا الله عزّ وجل..

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ)

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ

القضيّة قضيّة فهم، قضية محبّة للذّات، من أدرك إدراكاً صحيحاً وهو يحب ذاته لاشك أنه يسلك هذا الطريق.

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى)

من الضلالة..

(وَرَحْمَةً)

من الشقاء، والآية الكريمة:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

(سورة طه123)

من اتبع هداي فلا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يوجد إنجاز أعظم، ولا تفوّق أكبر من أن يستنير عقلك، وتهتدي نفسك، وتسعد نفسك ؟ عقلك مستنير، ونفسك سعيدة، عقلك مستنير بالحقائق الربّانيّة، ونفسك سعيدة بالرَحَمَات الإلهية، عقلك يرى الحقّ حقاً والباطل باطلاً، ونفسك تُقْبِلُ على الله عزّ وجل فتسعد بهذا القُرب..

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

يُفْهَم من هذه الآية معنىً مخالف: أن الناس دائماً في شك، ليس عندهم الصدق الكافي للبحث عن الحقيقة، يقول لك: لا نعرف، الله أعلم، الله يجعل الخاتمة بخير، دائماً كلماته فيها شك، لا يوجد يقين، بالإيمان لا يوجد فيه شك، الإيمان فيه يقينيّات، إذا كانت حقائق الإيمان ليست واضحة وشاخصة أمامك كإيمانك بوجودك فهذا ليس إيماناً، والدليل:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: آية " 15 ")

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

(سورة التكاثر5-6)

لا يوجد شك في الإيمان، لا يوجد احتمال، لا يوجد حل وسط بين اليقين وعدم اليقين، الإيمان كله يقينيّات، فلن تؤمن حتى تكون الحقائق كالشمس في رابعة النهار، لذلك لو اجتمع أهل الأرض على أن يفتنوك لا يستطيعون، لا تستطيع سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة أن تصرفك عما أنت فيه، هذا هو الإيمان:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

إن الذين آمنوا، آمنوا وازدادوا إيماناً، هذا الكتاب بصائر، تصور نفسك تمشي في طريق مظلم ملتوٍ، فيه أكمات، فيه حفر، فيه وحوش، فيه حشرات، فيه أفاعٍ، فيه ثمار يانعة، فيه كنوز، بلا مصباح، وهذا القرآن مصباحك، تأخذ الكنز، وتدع الأكمة أو الحفرة، أو الحشرة القاتلة، إذا كان هذا القرآن بصيرةً لك ما ضلّ عقلك، ولا شقيت نفسك، وإذا تفتّح عقلك نفسك تتبع العقل، وفي الأثر:

((أرجحكم عقلاً أشدّكم لله حبّاً))

إذا أدرك عقلك الحقيقة فقد أحببتَ لنفسك الخير، وبحكم حبّك لذاتك تبحث النفس عن الخير.

الآن الآية الدقيقةُ الدقيقة التي لو قرأها الإنسان، واستوعبها أدخلته في السعادة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

لو استوى الذي يجترح السيئات مع الذي عمل الصالحات، لو استوى المؤمن مع الكافر، لو استوى المحسن مع المسيء، لو استوى الخائن مع المخلص، لو استوى الصادق مع الكاذب، لو استوى النصوح مع الغاش لما كان للدين طعم، ولا جدوى، ولا فائدة، بل هو باطل، يقول الله عزّ وجل: أيعقل أن نسوّي بين الصالح والطالح ؟ بين المحسن والمسيء ؟ بين المستقيم والمنحرف ؟ بين الغاش والناصح ؟ بين الصادق والكاذب ؟ بين من تتبّع أمر الله وطبّقه ومن لم يبال بأمر الله ؟ بين من اتبع العقل ومن اتبع الشهوة ؟ بين من سار في طريق الجنّة ومن سار في طريق النار ؟ بين من أساء للخلق، فبنى حياته على أنقاضهم ومن بنى آخرته على حساب مصالحه ؟ أيستويان ؟

حينما تتوهّم أنه يمكن أن يكون الصالح كالطالح معنى هذا أن الدين لا فائدة منه، إذا لم يكن للمؤمن معاملة خاصّة من الله، ليس له زواج خاص، ليس له عمل خاص، ليس له سمعة خاصة، ليس له توفيق خاص، ليس له دعم خاص، يستوي مع الكافر، كلاهما سيّان، كلاهما يساق بعصا واحدة، كلاهما تحيط به ظروفٌ واحدة، يعانيان من مشكلات واحدة، إذاً الدين شيء لا يجدي، ولا يغني، ولا ينفع، إذا توهّمت أن فلانًا لا دين له، ومع ذلك يكرمه الله، هو لا يصلي، ولا يصوم، شارب خمر، كاذب، زانٍ الله ومع هذا أعطاه الله، وأنعم عليه، عندها تقول: سبحان المعطي !!! وترى المؤمن المستقيم، وقد حرمه الله من نعمائه، لماذا ؟ لا نعرف، هناك حكمة، إذا قلت: هناك حكمة، وتعني أن هناك حكمة فكلامك مقبول، أما إذا قلت: هناك حكمة، وتعني أنه لا توجد حكمة فهذا الكلام صار فيه كفر.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

هل من المعقول لشاب نشأ في طاعة الله، يرتاد المساجد، وينعم بمجالس العلم، يغض بصره، يحرر دخله، يصدق ولا يكذب، ينصح ولا يغش، أن يعامله الله كما يعامل المسيء ؟ هذا الشيء مستحيل.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

إنسان غضّ بصره طوال حياته، وقبل أن يتزوج لم يرتكب معصية إلى أن يسّر الله له زواجا، هذا زواجه كزواج إنسان له تجارب في المعاصي ؟ وله آلاف الانحرافات، أيعقل أن يكون زواج هذا كزواج ذاك ؟

أنت لا تكذب، مالك كله حلال، لا تغش أبداً، هل أموالك هذه كأموال طائلة جاءتك من طريق غير مشروع ؟ مستحيل، المال الحلال يبارك الله لك فيه، والمال الحرام يَتْلف، ويُتْلِف صاحبه، والإنسان المستقيم قبل الزواج من أوائل ثمرات الاستقامة زواج موفّق، زوجة تسرُّه إن نظر إليها، تحفظه إن غاب عنها، ولا نعمة أكبر من نعمة الاطمئنان لأهلك إذا غبت عنها، هذه نعمة كبيرة، هذه النعمة لا تُقَدَّر بثمن، لا يعرفها إلا من فقدها، إذا الإنسان شعر أن زوجته ليست مستقيمة، ربما خانته في غيبته، فهل هذه حياة ؟ المؤمن مستقيم يعرف أن زوجته عفيفة مثله، فتجده مرتاحًا، فزواج المسلم غير زواج الكافر، والمسلم لا يكذب أبداً في عمله، يخاف من الله عزّ وجل، المال تحت قدمه، لا يغش المسلمين ؛ لا في طعامهم، ولا في شرابهم، لا في بيعهم، ولا في حاجاتهم، فتجد المؤمن مستعدًا ليضحي بالغالي والرخيص من أجل أن يرضى الله عنه، وتجد الكافر مستعدًا أن يضحي بكل القيم وكل المبادئ من أجل أن يكسب المال، فهل تنتظر من الله أن يعامل هذا المسيء كهذا المحسِن ؟

حقيقة معاملة الله للناس

فلو أردنا أن نتعرّف إلى الحقيقة لا من خلال كتاب الله، ولا من خلال سنّة رسول الله، ولا من خلال الكون، ولكن نظرنا إلى الناس كيف يعاملهم الله عزّ وجل لعرفنا الحقيقة من معاملة الله لعباده، المستقيم محفوظ، المنحرف يفاجأ بمصيبة لم تكن متوقّعة، من يكسب المال الحلال يبارك الله له في هذا المال، من يكسب المال الحرام يُتلفه الله، الأمور دقيقة جداً وعميقة، إيّاك أن تفهم الأمور فهمًا سطحيًا، كل مصيبة لها حكمة بالغة، لو كُشِفَ الغطاء لاخترتم الواقع.

مرّة قال لي أحدهم، ووالله لا أنسى هذه الكلمة، قال لي: كم تُقَدِّر عمري ؟ قلت له: ستون عاماً، قال: لا، عمري ستةٌ وسبعون عاماً، قال لي: والله أنا أشعر أنني ذو نشاطٍ بحيث أهدم حائطاً، لأنني لم آكل في حياتي كلها درهمًا حرامًا واحداً، ولا أعرف الحرام، تجد أشخاصًا كثيرين أكلوا المال الحرام فأتلفهم المال، هذه الآية آية مصيريّة، آية مفصليّة، اطمئن إذا كنت مع الله، لا تبالي، لا تخف، أبشِر، فإن الله يؤكِّد لعباده المؤمنين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لن يكونوا كالذين عملوا السيئات..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لك معاملة خاصّة، لك توفيق خاص، لك حفظ خاص، لك تيسير خاص، لك بيت خاص، لك طمأنينة خاصّة، لك اتصال بالله خاص، لك مكانة خاصة، لك منزلة خاصّة، هذا كلّه من ثمرات الإيمان في الدنيا قبل الآخرة، لأن في الآخرة الرصيد..

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: آية " 185 ")

لكن في الدنيا تشجيع، توجد دفعات تشجيعيّة لبقيّة المحسنين، وتوجد عقابات ردعيّة لبقيّة المسيئين، ولكن الجزاء الحاسم يوم القيامة..

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

اطمئن، عليك أن تتبع أمر الله، وأن تطبّقه، وانتهت مهمّتك، والله عزّ وجل عليه أن يحفظك، قال تعالى:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود56)

هو يحفظك، هو يوفّقك، تجد أن الله خلق من الضعف قوّة، يقول لك: كان لا شيء فصار كل شيء، كان خامل الذكر فرفع الله شأنه، كان دخله أقل من حاجته فيسّر الله له دخلاً غطّى حاجاته، كان بلا زوجة فيسر الله زواجه، كان بلا بيت يسّر الله له بيتًا، كان له عمل مُجْهِد ومردوده قليل فصار له عمل مريح ومردوده كبير، إذا دعا إلى الله عزّ جل الله وفّقه، يُطْلِقُ لسانه في الحق، كلما قرأت هذه الآية ازددت تعلقا بها:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

ليس في الآخرة، بل في الدنيا، والدليل:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ

هل بيت المسلم مثل بيت غير المسلم ؟ إذا ذهب المسلم إلى نزهة مثلاً، وجلس في مكان جميل، لا اختلاط فيه، ولا خمور، ولا منكر، جلس مع أهله مسرورًا، لكن لو جلس في مكان عام لا يرضي الله عزّ وجل يشعر بانقباض، لو دعا إخوانه إلى بيته في لقاء لطيف، ولا يوجد اختلاط في هذا اللقاء يشعر بالسعادة، ولو وجد اختلاطًا لوجدت أن كل إنسان عينه على زوجة الآخر، يبدأ الحسد، والغمز و اللمز،

والاضطراب، الزوج لاحظ أن زوجته تتكلّم مع فلان بطريقة لم تعجبه، فعاتبها، وهي عاتبته، كل حياة أهل الدنيا مصاعب، فلذلك عندما يطبّق الإنسان شرع الله عزّ وجل يرتاح.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

الحديث عن الآخرة حق، وأركِّز الآن على الدنيا، وأنت في الدنيا، يستحيل على الله عزّ وجل أن يجعل حياة المؤمن في الدنيا كحياة الكافر، البيت متميز، الزواج متميز، العمل متميز، حتى الصحّة الجسميّة متميّزة، لأنه يصلي، والصلاة رياضة، يصوم، والصيام وقاية، يعتدل في الشهوات، والاعتدال هو الصواب، حتى في صحّته، حتى في بيته، حتى في عمله، حتى في علاقاته، حتى في أفراحه، النساء في الأعراس كلهنّ مصونات، لا تسمع إلا مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وربما امرأة ألقت كلمة، هذا شيءٌ جميل ! هذا عرس إسلامي ؛ لا كتلك الأعراس التي تمتلئ بالانحرافات، ولا تمتُّ بصلة للإسلام.

عقد قِران المؤمن تجد فيه منشّدين، إلقاء كلمات، توزيع حلوى، أما أهل الدنيا ففيه اختلاط، عرس أنفق فيه كذا مليون، والعروس على المنصّة قال لزوجته: أنتِ طالق طالق طالق، لأن كل زواج بني على معصية الله يتولّى الشيطان التفريق بين الزوجين، وكل زواج مبني على طاعة الله يتولّى الله التوفيق بينهما.

هذه الآية تدفعك إلى العمل الصالح، والله الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يضيّع مؤمناً مستقيماً، هل يضيعك ؟ يجعل أهل المعاصي يتفوّقون عليك ؟ وأنت متخلِّف في نهاية الركب، في الدرجة السُفلى لأنك مؤمن ؟ هذا دين الله عزّ وجل ؟ ألا يغار الله على أتباعه، وعلى المؤمنين ؟ لأنه مستقيم بقي بلا شيء، لأنه مستقيم طلّق زوجته، لأنه مستقيم فصلوه من عمله، هذا كلام الشيطان، وفّقه الله لأنه مستقيم، حفظه الله لأنه مستقيم، رفعه الله لأنه مستقيم، أكرمه الله لأنه مستقيم، يوجد كلام ـ والله ـ هو الكفر بعينه، كأن يقول: سبحان الله ! لأنه أحب أن لا يأكل مالاً حرامًا فبقي بلا عمل.. يذكرون كذلك كلمة (سبحان الله)، أين الله عزّ وجل ؟ أين التوفيق ؟ أين:

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند فيه مقال]

أين هي هذه ؟

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

هذه الآية يجب أن تُحْفَر في أذهاننا، يجب أن تمتزج مع دمائنا، يجب أن تتخلخل بين خلايانا.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)

هو لا يأبه لدين ولا لمنهج، حرام حلال يريد الربح فقط، غشّ الناس، كذب عليهم، لعب عليهم..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)

تجد أن ماله كله أتلف، مصادرات، مخالفات، أمراض وبيلة، في النهاية هو صفر اليدين، تجد المؤمن على دخل متواضع ولكن فيه بركة، الله متّعه فيه، متّعه بأهله وبأولاده، وحياته مستقرّة وهادئة، ومتنامية ومتصاعدة.

لا يوجد في الأرض كلِّها التي فيها خمسة آلاف مليون إنسانٍ إنسانٌ واحد سعيد بالبعد عن الله، فالله عزّ وجل قال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه124)

ولا يوجد مؤمن واحد حتى ولو كان فقيرًا، أو ضعيفًا، لو كانت حياته خشنة أو معه مرض، لا تجده إلا وهو سعيد.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ)

(سورة النحل: آية " 97 ")

اسأل إخواننا الأطبّاء عن الإنسان عند النزع كيف تكون حالته ؟ انهيار كامل، سيدنا سعد بن الربيع كان في طور النزع، تفقّده النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل من يسأل عنه في ساحة المعركة، وصل الصحابي، وقال له: " إن النبي الكريم أمرني أن أتفقّدك هل أنت مع الأحياء أم مع الأموات ؟ "، قال له: " أنا مع الأموات، لكن قل لرسول الله: "جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيّاً عن أمته..

فأنا متصوّر أن سيدنا سعد بن الربيع في قمّة السعادة وهو في النزع الأخير.. وقل لأصحابه: **" لا عذر لكم إذا خُلِص إلى نبيّكم وفيكم عينٌ تطرف ".**

ما هذه السعادة ؟ إنه في قمّة النشوة وهو ينازع، فما هذا الإيمان ؟

وأنت مريض سعيد، وأنت فقير سعيد، وأنت بالنزع سعيد، وأنت تغادر الدنيا سعيد، لا يوجد أذى، كل أطوار حياة المؤمن سعادة، وإياكم أن تتوهّموا أنني أعني بالسعادة الماديّة، المؤمن قد يكون فقيرًا، وليس غنياً، ومع هذا هو سعيد، السعادة تنبع من الذات، ولا تأتي من المحيط، إنها تنبع من الذات.

عناصر السعادة عند أهل الدنيا

أهل الدنيا يرون أن السعادة الماديّة تحتاج إلى ثلاثة عناصر: تحتاج إلى وقت، وتحتاج إلى صحّة، وتحتاج إلى مال، وهذه الأشياء الثلاثة دائماً يتوفر عند المحظوظين اثنان منها:

الإنسان في أول طور في حياته صحّة طيبة وعنده وقت فراغ، ولكن لا يوجد مال فهو غير سعيد.

في الطور الثاني المال موجود والصحّة موجودة ولكن لا يوجد وقت، إنه مشغول، فهو غير سعيد.

في الطور الثالث المال موجود، والوقت موجود، ولكن الصحّة لا توجد، فهو غير سعيد، لو أردت الدنيا لذاتها لا تسعد بها أبداً، قال النبي الكريم:

((إنّ أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها))

شيء يحيّر، إذا أقبلت عليها بعدت عنك، وإذا ابتعدت عنها أقبلت عليك، لذلك قال النبي الكريم:

((إياك والتنعُم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعِّمين))

[الجامع الصغير عن معاذ بسند حسن]

أنت نعيمك بالعمل الصالح، نعيمك بطلب العلم، نعيمك بملازمة أهل الحق، نعيمك بالدعوة إلى الله، نعيمك في خدمة الخلق، نعيمك في مناجاة الحق، هذا هو نعيمك، يوجد أناس يتوهّمون أن النعيم بيت فخم بمصيف، أكل وشرب ونوم، هذه حياة تُمَلّ، واسأل أصحاب هذه البيوتات الفخمة، إنهم يهجرونها كثيراً لأن حياتهم في ضنك..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(طه124)

هذه الآية آية مفصليّة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

أي حياتهم، صحّتهم، زواجهم، عملهم، أفراحهم، أتراحهم، ما يعتورهم من أحوال، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللَّهَ، وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ))

(مسند أحمد عن صهيب)

غير المؤمن يتكبّر في الرخاء وينسى، وفي الشدّة ييئس، يأسٌ قاتل أو غفلةٌ مستحكمة، المؤمن شكور في الرخاء، صبور في البلاء، متعفِّف في الفقر، متعفِّف في الغنى، سموح، منفق، منصف في القوّة، متذلِّل لله عزّ وجل في الضعف.

صبر النبي صلى الله عليه وسلم على الفقر والجوع والأذى والغربة

النبي الكريم أذاقه الله الضعف والقهر في الطائف، قال صلى الله عليه وسلم:

((إن لم يكن لك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولك العُتبى حتى ترضى))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

أذاقه النصر بفتح مكّة، قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[سيرة ابن هشام]

أذاقه الفقر.. عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ:

((يَا عَائِشَةُ، هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ))

[مسلم]

لا يوجد شيء في بيته إطلاقاً، ولا تمرة، فلمّا صار غنياً قال له أحدهم: لمن هذا الوادي ؟ قال له: " هو لك "، قال: أشهد أنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر، أذاقه الله الفقر، وأذاقه الغنى، وأذاقه القهر، وأذاقه النصر، وأذاقه موت الولد..

((تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا إِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[البخاري ومسلم، واللفظ له]

أصابه موت الولد، أصابه ترك الوطن، الهجرة، ترك مكّة، فقال: اللهمّ إني تركت أحبّ البلاد إلي فأسكني أحبّ البلاد إليك، ترك مكّة، وسكن في المدينة، وإذا ظن الإنسان أن الله يسوي بين المسيء والمحسن فقد أساء، قال تعالى:

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

هذا حكم سيئ، ونظرة قاصرة، وتفكير ساذج، وعمى في القلب أن يسوي الله بين المحسن والمسيء، والمستقيم والمنحرف، والغاش والمخلص، والخائن والصادق، أبداً، الدليل: قال الله:

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

تصوّر جامعة كيف يكون نظام النجاح فيها ؟ تهدي الأستاذ هديّة فينجّحك، ولو لم تدرس، الفحص اختياري، والهدية بدلاً من الفحص فتنجح، هل هذه جامعة ؟ العلاقات الشخصية وحدها تنجحك من دون ورقة امتحان، من دون سؤال موحّد، لك علاقة مع الأستاذ طيّبة تنجح بها، قدّمت له هديّة ينجحك، أعطاك الأسئلة فدفعت ثمنها فتنجح، هل هذه جامعة ؟ هذه بالحق أم بالباطل ؟ انظر إلى الآية الكريمة:

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

وَخَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ

لو كان الله يسوي بين الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات فهذا لم يُخلق بالحق، بل إنه خُلِق بالباطل ؟ لكنه لا يسوّي، بل خلق الله عزّ وجل السماوات والأرض وفق أسس ثابتة، أسس مكينة، وفق هدفٍ نبيل، ووفق استقرار، الدليل:

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا)

(سورة ص: آية " 27 ")

خلقهما بالحق، وما خلقهما بالباطل، معنى هذا أن الحق عكس الباطل، الباطل هو الشيء الزائل، الحق الشيء الثابت..

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء16)

معنى هذا أن الحق خلاف اللعب، والحق خلاف الزائل، وخلاف الزائل الثابت، وخلاف اللعب الهادف، معنى هذا أن الحق بتعريف القرآن له الشيء الثابت الهادف، الشيء الثابت النبيل العظيم، فربنا عزّ وجل خلق السماوات والأرض لهدفٍ كبير، وخلق الله السماوات والأرض لتبقى لا لتزول.

أيها الإخوة، العلاقة بين الآيتين علاقةٌ تامّة..

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

الأمر ليس كما تتوهّمون لأن الله خلق..

(السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ)

إذاً: لن يكون الذين عملوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، لذلك الروعة والعظمة أن تأتي النتائج وفق المقدّمات، قال تعالى:

(وَخَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

لا تتوهّم أنه يمكنك أن ترتكب إساءات دون أن تُحَاسَب عليها إطلاقاً، ثم تنجو، معنى هذا أن المنضبط غبي، الذي ضبط دخله، وكان قليلاً، وصبر على قلّته، والذي لم يضبط دخله، وتمتّع بهذا المال، ثم سوّى الله بين هذا وذاك، معنى هذا أن المستقيم إنسان غبي، محروم، من الذي أفلح ونجح ؟ الذي لم يبالِ بهذا النظام، ولم يأخذ به، فعلَ ما يشتهي، ثم جاء يوم القيامة وله الجنّة، لا..

(وَخَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر92-93)

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ)

(سورة إبراهيم: آية " 42 ")

لا يستوي الصالح والطالح، والمحسن والمسيء

أحياناً تسمع قصصًا مُفادها أن فلانًا عمل وكسّب، وكثّر واشترى، ونهب وسلب، وركّز وضعه، واشترى بيوتًا ومراكب، معنى هذا أنه لا يوجد إله، والدنيا !!!

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة36)

هكذا بلا حساب ؟ بلا مسؤوليّة ؟ معقول لغني مسرف، ماله أكثره من الحرام ينفقه على ملذّاته، وفقير محروم ما ذاق طعم الحياة، ثم ويستويان يوم القيامة ؟ وهل يستوي إنسان ظالم إنسان مع المظلوم ؟! وإنسان مستغِل مع إنسان مستَغَل ؟ ودول قوية عاتية تتحكّم بهؤلاء الشعوب، يقتلون ملايين من أجل رفع مستوى المعيشة عند شعوبهم، يفتعلون حروبًا أهليّة تمتد سنوات من أجل بيع الأسلحة فقط، هذه الدول لن تُحَاكَم عند الله يوم القيامة ؟ سيستوون مع الشعوب المتخلِفة ؟! يقول الله عزّ وجل:

(وَخَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

هذا الإيمان، تؤمن أنه لابد من العقاب لمن ظلم و أساء.

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

(ابراهيم42)

(لَا يَغُرّنّكَ تَقَلّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمّ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

سورة آل عمران196)

يقول الله عزّ وجل:

(فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنّي ظَنَنْتُ أَنّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلّوهُ (30) ثُمّ الْجَحِيمَ صَلّوهُ (31) ثُمّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة19-33)

لا تفكر أبداً أن يستوي المؤمن والكافر..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة18)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص 61)

مستحيل أن يسوّى بينهم.

هذا الإيمان أيها الإخوة يحملكم على طاعة الله، ويحملكم على الثقة بالله، ويحملكم على الاستبشار، كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله، اجعل شعارك دائماً:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب71)

أنت الفائز، أنت الرابح، أنت الناجح، أنت الفالح، أنت المتفوّق حين تكون على منهجه، تنام مساءً دون أن تكون مغتصباً حقّ أحد، دون أن تكون آكلاً مالَ أحد، دون أن تكون معتدياً على أحد، أنت وفق منهج الله.

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

لأنه خلقهما بالحق فلن يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنه خلقهما بالحق، ولأنه خلقهما بالحق.

(وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

اعتقد اعتقادًا قاطعًا أن الذي يرتكب المظالم، ويأكل أموال الناس بالباطل، ويعتدي على أعراض الناس إنسان أحمق على الإطلاق، ما السبب ؟ لأنه سوف يدفع الثمن باهظاً، إذا أخذ ليرة سرقة ودَفّعوه عوضاً عنها مليون ليرة، أخذ الليرة سرقة يكون هذا ذكاء منه أم غباء ؟ لا ينجو من العقاب، كله مسجّل عليه، فكل إنسان يرتكب المعصية، يأكل مالاً حرامًا، يعتدي على أعراض الناس، لا يقيم وزناً لشرع الله، لا يأتمر بأمر الله، لا ينتهي عما عنه نهى الله، ويظنُّ أنه على علم، وأنه ذكي وقادر، هذا هو الغباء بعينه.

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نتابع:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (6-8): تفسير الآية 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-10-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السادس من سورة الجاثية، ومع الآية الثالثة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

الإله الذي يُعْبَد، الإله الذي يُطاع، الإله الذي يُحَب، الإله الذي بيده مصيرك، بيده رزقك، بيده حياتك، بيده موتك، بيده سعادتك، بيده شقاؤك، بيده إعزازك، بيده إذلالك، بيده أن يطمئنك، بيده أن يخيفك، هذا الإله، لذلك لا معبود بحقٍ إلا الله، فالإله الذي ينبغي أن يعبد هو الله، لأن الأمر كله بيده، لأن مقاليد السماوات والأرض كلها بيده.

إذا عبد الإنسان إنساناً، فأطاعه، وأحبه، وتوهم أن بيده مصيره، يرفعه أو يخفضه، يقربه أو يبعده، يعزه أو يذله، فهذا الإنسان ليس إلهاً، بل إنسان ضعيف يموت، لكن المُشْرِك عامَله كما يعامَل الإله، ولا يعقل لإنسان ضعيف يأكل ويشرب وينام، ويتألم ويمرض ويبكي أحياناً ويخاف، لا يعقل أن يكون هذا الإنسان إلهاً، لكن حينما يقول: فلان أَلَهَهُ جماعةٌ من الناس، هو ليس إلهاً، ولكنهم عاملوه كما يعامل الإله، أحبوه، وأطاعوه، أطاعوه، وعصوا ربَّهم، خافوه ورجوه، عقدوا آمالهم عليه، عاملوه كما يعامل الإله، قال:

(أَفَرَأَيْتَ)

التعجب في اتخذا الناس آلهة غير الله

وكأن في هذا التركيب، وتلك الصيغة إبداء العَجَب، أيعقل أن يتخذ الإنسان هواه إلهاً ؟! فيتحرك وفق أهوائه، وفق نزواته، وفق ملذّاته، وفق شهوته، شهوته مقدسة، لابدَّ من أن يرويها ولو على حساب قيمه أو مبادئه، معنى:

(اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

معنى اتخاذ الهوى إلها

أي: جعل شهوته هي الموجِّهَة لحركاته وسكناته، والإنسان يتحرك بباعثين ولهدفين، الباعث مصلحته، أو الباعث طاعة ربه، ولهدفين، إما إرضاء الله أو إرواء شهواته، فسلوك الإنسان له باعثان، وله هدفان.

الباعث الأول: مصالحه، الهدف إرواء شهواته.

الباعث الثاني: طاعة ربه، الهدف السعادة في الدنيا والآخرة، إنسان يتخذ هواه شهوته، شهوة النساء، كيف يتخذها إلهاً من دون الله، فيقيم علاقة مع امرأة خارج نطاق الزوجية، خارج نطاق المنهج الإلهي، إذاً هذه الشهوة عبدها من دون الله، أي روّاها بخلاف منهج الله.

حبه المال طبيعي، لك أن تكسبه من طريقٍ مشروع، أما حينما لا يعنيك إلا أن تأخذ المال من أي سبيل، فقد اتخذت المال إلهاً من دون الله، فهو الذي يحرّك سلوكك ؛ تحلف وأنت كاذب، تبيع دينك وأهلك وذمتك وأمانتك، الهدف أن تقبض المال فقط، إذاً حينما يُتَّخَذ الهوى إلهاً ليس معنى ذلك أن الهوى إله، لكنه عومل معاملة الإله.

من هو الإله المستحق للعبادة والتعظيم ؟

من الإله ؟ الذي بيده حياتك، وموتك، ورزقك، وعزتك، وصحتك، وسعادتك، ورفعتك، هو الذي يعطي، والذي يمنع، الذي يرفع، والذي يخفض، الذي يعز، والذي يذل، الذي يجمع، والذي يفرّق، الذي يمنح الحياة، ويأخذ الحياة، ويقدِّر الموت، هو الإله، هذا الذي ينبغي أن تعبده، لأن ثمة تناسبًا بين صفاته وأسمائه وبين العبادة له، فأنت لا يليق بك أن تعبد إنساناً من دون الله، إنه ندٌ لك، إنه عبدٌ فقير، قد لا يعلم ما أنت عليه، وإذا علم قد لا يستطيع أن ينقذك مما أنت فيه، إذاً هو ليس إلهاً، ولا يليق بك أن تعبده من دون الله، فالعبادة شيء خطير جداً.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُون)

(سورة الذاريات56)

العبادة علة وجودك على وجه الأرض، لكن ينبغي أن تتوجه العبادة إلى الله عزّ وجل الذي منحك الوجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان1)

الذي خلق الهواء كي تتنفسه، ولأن الهواء ضروريٌ جداً لا يستطيع أحدٌ أن يتمَلّكَهُ، تستنشق الهواء في أي مكان، وخلق لك الماء، والطعام، والشراب، وخلق لك من نفسك زوجةً تسكن إليها، وجعل منك ومنها طفلاً صغيراً يؤنس وحدتك، هذا الذي يجب أن تعبده، لأنه هو الذي منحك السمع والبصر، وهو الذي منحك العقل، وهو الذي أعطاك القلب والشرايين، والرئة والتنفُّس، الأجهزة المتعددة، وأنت لا تدري.

كنتَ نقطة ماءٍ فأصبحت كائناً سوياً، في الدماغ مئة وأربعون مليار خلية، وفي شبكية العين مئة وثلاثون مليارًا، وفي الشعر ثلاثمئة ألف شعرة، ثم انظر إلى العضلات، والعظام، والكليتين، لو تعطلت الكلية تصبح الحياة جحيماً، ولو استؤصل المستقيم لمرضٍ خبيث، وأصبحت الفتحة خارجية لصارت الحياة عبئًا ثقيلا، ما أحد يعرف قيمة المستقيم والمثانة أبداً، تمشي على قدمين متوازنًا.

إن الله هو الذي منحك نعمة الوجود، وأمدك بالهواء والماء، وأمدك بالطعام والشراب، وخلق لك من نفسك زوجةً، ومنحك أولاداً يملؤون بيتك سروراً، هذا الذي يجب أن تعبده، هذا الذي يجب تحبه، هذا الذي تطيعه، هذا الذي يجب أن تخشاه، هذا الذي يجب أن تعلِّق عليه الآمال، هذا الذي يجب أن ترجو رضاه، هذا الذي يجب أن تخشى غضبه، وليس الإنسان الذي يبدو لك قويًا تحبه، وتعصي الله من أجله، وتظن أنه يقربك، ويرفعك، ويغنيك، ويقوي مركزك، هو ليس إلهاً، هو بشر من جنسك، ولكنك عاملته كما يعامل الإله.

فإذا قلنا: اتخذته إلهاً، فهو ليس إلهاً، لكنك عاملته كما يعامل الإله، فأطعته على حساب طاعة الله.

مرة ذكرت لكم أن الحسن البصري، وهو من كبار التابعين، كان مرة مع والي البصرة للخليفة يزيد، وقد أرسل يزيد توجيهًا لهذا الوالي بالذّات، وهو توجيه يتنافى مع الحكم الشرعي، وهذا الوالي وقع في صراع، ماذا يفعل ؟ أينفذ أمر الخليفة فيغضب الله عزّ وجل ؟ أم لا ينفِّذُهُ فيغضب الخليفة، وقد يعزل من منصبه ؟ فكان عنده وقتها التابعي الجليل الحسن البصري، قال له الوالي: **" يا إمام، ماذا أفعل أنا في حيرةٍ من أمري ؟ "**، القضية عند الحسن البصري واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، فقال له كلمةً تكتب بماء الذهب قال له: **" يا فلان، إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

حينما تتخذ زيداً إلهاً، وتطيعه من دون الله، فإذا أراد الله بك سوءًا فلا يستطيع زيد أن يمنع عنك هذا السوء، أما إذا أراد زيدٌ سوءًا فإن الله يستطيع أن يمنعه عنك، هذا التوحيد، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

لذلك الدرس اليوم حول الهوى لا حول الأشخاص..

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ)

الحقيقة أن ثمة مجموعة أحاديث شريفة يجب أن ندرسها جميعاً.

أولاً: ماذا قال الصحابة والتابعون في هذه الآية ؟

قال ابن عباس والحسن وقتادة:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

" ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه..

أليس هناك أشخاص غارقون في الطرَب ؟ غارقون في الملذّات الحسّية ؟ غارقون في تتبع أخبار النساء ؟ غارقون في مغامراتٍ لا ترضي الله عزّ وجل ؟ أناس تعلّقوا بالنساء، أناس تعلقوا بجمع الدرهم والدينار، أناس تعلقوا بالمظاهر، أناس تعلقوا بالقوة في الأرض، قالوا: **" الكافر اتخذ دينه ما يهواه "**، دينه هواه.

وهذا ما يفعله العالم الكافر اليوم، ما الذي يسعده ؟ أن تكون امرأةٌ إلى جانبه دائماً، اتخذ سكرتيرة، ما الذي يسعده ؟ أن تكون كل اللقاءات مختلطة ليمتع عينيه، ويدافع عن هواه، يقول لك: هذا رقي وهذه حضارة، هو يعبد هواه من دون الله، فأي شيء مهما بدا مخالفاً للفطرة، مخالفاً للقيم، مخالفاً للمبادئ السامية، يفعله، لأنه يُروي شهوته، ويحقق غريزته، ويدغدغ نزواته.

قال سعيد بن جبير: **" كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر ".**

وقال بعض التابعين: المعنى: " أفرأيت من ينقاد لهواه ولمعبوده تعجيباً لذوي العقول "، أي يا أيها العقلاء، يا أيها المفكِّرون، أيعقل أن يفعل إنسان هذا العمل ؟!

وقيل: **" إنما سمي الهوى هوىً لأنه يهوي بصاحبه ".**

هناك تناسب بين الهوى وبين الهَويّ، سمي الهوى هوىً لأنه يهوي بصاحبه في مظالم، وفي ظلمات بعضها فوق بعض، وفي متاهات، يقول لك: فلان سقط، انتهى، لأنه تبع هواه فسقط، واتباع الهوى تقبض المال أو باللذة المحرمة.

هناك حقيقة أقولها دائماً آلاف المرات: ما من شهوةٍ أودعها الله في الإنسان وإلا وجعل لها قناةً نظيفةً يمكن أن تروى بها، ليس في الإسلام حرمان، في الإسلام تنظيم، وكل إنسان يروي شهوته المشروعة وفق المنهج الإلهي فلا شيء عليه، ليس في الدين رهبانية.. قال عليه الصلاة والسلام:

((أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

(من صحيح البخاري عن حميد بن أبي حميد الطويل)

هذا هو الهوى.

ورود الهوى في القرآن في سياق الذم

ما وردت كلمة الهوى في القرآن الكريم إلا وذمّها الله عزّ وجل:

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ)

(سورة الأعراف: آية " 176 ")

وقال تعالى:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف28)

ذمٌ آخر، قال تعالى:

(بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)

(سورة الروم: آية " 29 ")

وقال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

وقال تعالى:

(وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة ص: آية " 26 ")

أمامك أيها الإنسان طريقان لا ثالث لهما: طريق الحق وطريق الهوى، طريق الرحمن وطريق الشيطان، طريق إرضاء الله عزّ وجل وطريق دغدغة نوازع الإنسان، طريق السمو وطريق اللذات، طريق اللذة العابرة وطريق السعادة الأبدية، طريق الشهوة وطريق العقل، طريق السماء وطريق الأرض، طريق الملائكة وطريق الشياطين، هذه الاثنينة في الحياة، فهما طريقان لا ثالث لهما: العقل، والخلق، والقِيَم، والمبادئ، والأهداف النبيلة، والسعادة الأخروية، والاستقرار، ورضاء الله عزّ وجل، هناك طريق الإيمان ؛ الشهوة العابرة مع الشقاء، والاكتئاب، والضياع، والتشعُّب، والتشرذم، والخوف، والقلق، والخنوع، والقهر والنفاق، كله في طريق الشهوة.

حينما يروي الإنسان شهوته بمعصية الله يضعف، لذلك أعداء المسلمين همّهم الأول إفساد أخلاق المسلمين، فحينما يتبرّعون بمحطات فضائية لإفساد أخلاق الشباب ما هدفهم ؟ حينما تفسد أخلاقُ الإنسان ينتهي كإنسان، وتبقي حيوانيته، هذا الحيوان يخاف، شديد الخوف، شديد القلق، شديد الخنوع، لأنه اتبع شهوته، لأنه أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب.

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

[شرح السنة للبغوي عن عبد الله بن عمرو]

من حقّ الإنسان أن يتزوج، لكن ليس من حقه أن ينظر إلى زوجات الآخرين، هن أجنبيات، لذلك:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

من حقه أن يكسب المال، ولكن ليس من حقه أن يعتدي على كسب الآخرين، حينما تقنع بالدخل الحلال، وحينما تقنع بزوجتك التي سمح الله لك بها تكون كما قال أحد الأنبياء:

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود86)

هناك طرق متعددة لإرواء الشهوات، وطريق مشروع واحد نظيف يرضي الله، ويسعد امرأة معك، وهو طريق الزواج، بقي لك من علاقتك بالنساء الزواج، هذا هو الخير.

ثمة ألف طريق لكسب المال، ولكن بقي لك من كسب المال البيع والشراء، العمل المشروع، الهبة، أو الإرث، أو العمل، أو الكسب، إلخ.. هذا مباح لك أن تأخذه، إذاً:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

وقال أبو أمامة: سمعت النبي صلى الله عليه ويسلم يقول:

((ما عُبدَ تحت السماء إلهٌ أبغض إلى الله من الهوى))

أكثر الناس الضالين، المنحرفين، التائهين، الشاردين، المقطوعين عن الله، يحركه الهوى فقط، يقسم وهو كاذب، يكابر، لأن هواه يتوافق مع هذه المكابرة، يرضى بالباطل، لأن هذا الرضا يجلب له الهوى، يغضب بغير حق، لأن هذا الغضب يجلب له الهوى، يتكلّم بما ليس قانعاً به تحقيقاً لأهوائه ومصالحه، يفند الأقوال وهي حق من أجل أن يحافظ على مكانته، فهذا الإنسان الذي يتبع الهوى إنسان شقي، أحياناً إنسان يسخر قلمه، يسخِّر فكره، يسخر لسانه، يسخر ذكاءه، يسخر مكانته، يسخر علمه وخبراته من أجل الهوى، وهذا هو الشقي الحقيقي، الإنسان أرقى من أن يكون مسخرًا للهوى.

أحياناً تبالغ في توضيح قضية، وأنت في الأصل لست مؤمناً بها، ولكن إرضاءً لزيد أو عبيد، تسخر ذكاءك، تسخر عبقريتك من أجل مدح شيء أو ذم شيء، مدح هذا الشيء يرضي زيدًا، وذم هذا الشيء يرضي عبيدًا، تمدح، وتذم لا عن قناعة، ولا عن رفض، لكن اتباعاً للهوى، تبالغ في مودة إنسان ليس حباً له، بل اتباعاً للهوى، تعادي إنسانًا اتباعاً للهوى، وهو من أكمل الناس، فعندما تكون علاقة الإنسان، وصلته، وقطيعته، ورضاؤه، وغضبه، وعطاؤه، ومنعه، وزيارته، ومجافاته بدافع الهوى فهو أشقى

الناس، وإن اتباع الهوى هوان، وإن عدوك الأول هو الهوى، وسمي الهوى هوى لأنه يهوي بك، والحديث المعروف:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(من سنن الترمذي عن " شداد بن أوس ")

لما يعطل الإنسان عقله يعيش لحظته، وحينما يعطل عقله يعيش واقعه، يقول لك: هكذا الناس، هكذا يريدون، بناتي لا أريد أن أزعجهم، وهو يطلِق لهن العنان، يفسدن الشباب، وهو يدري أو لا يدري، يُطلِق لزوجته العنان، يقبض الأموال من دون حساب، فيها حرام، أو شبهة ربا، أو غش، أو فساد، هو عليه أن يأخذ المال الوفير حتى ينفقه على شهواته المنحرفة، فهو إنسان هوائي أو شهواني. الرحماني ـ والحمد لله ـ يمشي على المنهج، الرحماني لا يتحرك قبل أن يعرف حكم الله في هذا الشيء، يفعله ولو دفع الثمن باهظاً، ويمتنع عن فعله ولو فوّت عليه أرباحاً طائلة، لأن الله أغلى عليه من المال كله.

من علامات قيام الساعة اتباع الهوى كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامَّ))

(من سنن الترمذي عن أبي أمية الشعباني)

الشهواني شهوته كلها في هذه البرامج المنحرفة، لذلك تجد العلم بالكتب، وفي مجالس العلم، وتأخذ العلم على يد العلماء، العلم في الكتاب والسنة، لذلك:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ))

لذلك:

((فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامَّ))

(من سنن الترمذي عن أبي أمية الشعباني)

المهلكات والمنجيات

وقال صلى الله عليه وسلم:

((ثلاثٌ مهلكات، وثلاثٌ منجيات، فالمهلكات: شحٌ مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه، والمنجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب))

[الجامع الصغير عن أنس بسند حسن]

ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، المهلكات شحٌ مطاع، بخل، ينفق الألوف، مئات الألوف، بضع الملايين على احتفالات، على مظاهر، على ثياب، يؤتى بها من باريس، يقول لك: الزهور بالملايين، فإذا دعي لمساعدة أسرة مقطوعة يتيمة، أو أرملة، أو مشروع خيري يبخل، لذلك:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ))

كل قد يظن أحد نفسه قطبًا عظيمًا، يقول لك: رأيي كذا، هل أنت مشرع ؟ أنت إنسان.

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ فمن أنتم حتى يكون لكم عندُ ؟

شيء جميل، لكن من أنت ؟.

هناك إله شَرَّع، وكتاب من الله أنزل، ونبي فَسَّر، فلذلك:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ))

عندئذٍ:

((الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ))

[أبو داود عن ابن عمرو]

أولاد أخيك، بناتك، بنات أخيك، أولاد أصدقائك الخُلّص، جيرانك، هذه خاصّة نفسك..

((وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ))

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

(سورة المائدة: آية " 105 ")

العبرة بالأقلية مع الحق لا بالأكثرية

هناك أشخاص من ضعف تفكيرهم يأخذون بالكثرة، لاعتقادهم أن الكثرة لا تخطئ ويقول: كلهم على غلط ؟! قال تعالى:

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

(سورة يونس: آية " 36 ")

قال سبحانه:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: آية " 116 ")

وقال:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف106)

فأنت كن مع الأقلية المؤمنة، مع الأقلية الواعية، مع الأقلية المتبصِّرة، مع الأقلية المستقيمة، مع الأقلية التي عرفت ربها، لا تؤخذ بالأكثرية.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: " إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه، فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء.. وإذا كان عمله متبع لهواه فيومه يوم سوء.. وإن عمله تبعاً لعلمه فيومه يومٌ صالح "، فهل هذا العمل، وهذه الحفلة، وهذه النزهة، وهذه السباحة وفق الهوى أم وفق الشرع ؟ وفق الشرع يكون في لباس معيَّن، مكان معيَّن، لا تُكْشَفُ العورات، ولا يرى أحدنا عورة أخيه، هذه سباحة وفق الشرع، وهناك سباحة وفق الهوى، وهناك نزهة وفق الشرع في مكان جميل دون اختلاط، دون موسيقى، دون غناء، دون كلام بذيء، وهناك نزهة في أماكن عامة، ومقاصف، وغناء، ونساء كاسيات عاريات، وطاولات الخمر حولك، هذه نزهة غير شرعية.

هناك زواج شرعي، وزواج غير شرعي، نساء كاسيات عاريات، عرس مختلط ومكتوب على البطاقة: **" الطيبون للطيبات "**، أيّ طيّبين وأيّ طيّبات ؟!!!

قال سهل بن عبد الله التستري وهو أحد العارفين بالله: **" هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك ".**

الداء هو الهوى، ومخالفته هو الدواء.

قال أحد العلماء: " إذا شككت في أمرين ولم تدرِ خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فافعله ؟.

الإنسان يحب الاختلاط، يحب إرواء شهواته، لكن المجتمع الذي أنت فيه، فيه جلوس على الركب، وسماع للحق، الزم هذا المجتمع، وابتعد عن الأهواء

أساس هذا الموضوع كله قوله تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات40)

الحقيقة أعمق من ذلك، المؤمن يدخل الجنة ؟ لأنه دفع الثمن، ثمن الجنة مخالفة الهوى، فأنت لا ترقى إلا بمخالفة الهوى، لذلك، ينبغي أن يكون التكليف الذي هو ثمن الجنة مخالفاً لطبع الإنسان، طبع الإنسان على محبة النوم، والتكليف أن تصلي الفجر في وقتها، طبع الإنسان على أخذ المال، والتكليف يأمره بإنفاق المال، طبع الإنسان على إطلاق البصر، والتكليف يأمره غض البصر، طبع الإنسان النَهْشُ في أعراض الآخرين، والتكليف يأمره بضبط اللسان، هذا هو الدين، الدين كله ضبط، أساساً الإسلام كله سيطرة على الذّات، والكفر كله إطلاق الأهواء إلى أبعد ما يمكن.

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

أما قول الله عزّ وجل:

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ

معنى الإضلال ومفهومه

قبل أن أشرح المعنى الأول لهذه الآية أضرب مثلاً:

لو أن طالبًا انتسب للجامعة، ودفع قسطًا، لكنه ما داوم، ولا اشترى كتبًا، ولا قدم امتحانًا، أرسل له إنذارات عديدة، وأصرّ على موقفه، إذا صدر كتاب أو قرار من رئاسة الجامعة بترقين قيده، وطرده من الجامعة، فهذا الكتاب على علم أم على جهل ؟ على علم، على علم يقيني، إنه لم يقدم فحصًا، ولم يداوم، ولم يستجب للإنذار

المعنى الأول:

الله عزّ وجل يعلم أن هذا الإنسان يريد الهوى ولا يريد الحق، إذاً هذا الإضلال كما يقولون: إضلال حكمي، أي تحصيل حاصل، فإذا لم يدرس الإنسان، ولا قدم فحصًا لا ينجح، لا لأنهم ظلموه، بل لأن عدم تقديم الامتحان يجعل المقصر في الامتحان حكماً راسبًا، فهذا الذي يصر على الكفر، وعلى اتباع الهوى، وعلى إيثار الشهوة، هذا إنسان قدّم الدليل القطعي على أنه ضال، إذاً: أضله الله، وإضلال الله له تحصيل حاصل، قدّم الدليل القطعي على أنه أراد الضلال، لذلك قال علماء التفسير: " الإضلال إذا عزيَ إلى الله عزّ وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، هذا معنى:

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

المعنى الثاني:

إن الإنسان يعلم أن الدين حق، وهذا العمل حرام، وهذا العمل لا يجوز، وهذا مخالف للشرع، لكنه يؤثر الهوى على الحق..

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

أي هو يعلم.

هناك قصة تؤكِّد هذا:

ذات مرة أبو جهل طاف بالبيت ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو جهل أكفر الكفار: **" والله إني لأعلم أنه لصادق، فقال له الوليد: مه !.. أي عجيب.. وما دلك**

على ذلك ؟ قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله، وكبر رشده نسمِّيه الكذّاب الخائن ؟! والله إني لأعلم أنه لصادق، قال: فما يمنعك أن تصدقه، وتؤمن به ؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب، واللاتِ والعزّى لن أتبعه أبداً ".

أضله الله على علم.

أحياناً يرتكب الإنسان المعصية، ويعلم أنها معصية، ويعلم أنها تنتهي به إلى النار، ويعلم أن المال سوف يدمِّر.

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

يفعل المعصية على علم، هذه مصيبة كبيرة، قال:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

* * *

أعظم بكثير، لأنه يعلم حقيقة هذا الدين، ويعلم حقيقة هذا الشرع، ويعلم أن الطريق النظيف هو الزواج، والزنا الطريق المنحرف، الكسب الحلال هو الطريق النظيف، إنه يعلم ذلك، لكنه آثر الهوى، وآثر الشهوة.

المعنى الثالث:

أحياناً تعجب من إنسان يحمل شهادة عليا، وهو وذكي، وعاقل، ويتبع الهوى، تعجب من طبيب لا يصلي، وقد قرأ في الجامعة من الآيات الدالة على عظمة الله ما يحيّرُ العقول، ومع ذلك لا يصلي، وقد يشرب الخمر، كيف ؟ هذا الذكاء في اختصاصه، هو ذكيٌ فيما هو فيه، قد تجد أناسًا أذكياء جداً في اختصاصهم، أو فيما أقيموا فيه، لكن الذكاء على مستوى الآخرة، الذكاء الشمولي يفتقرون إليه، إذاً هذا: أضله الله على علم.

معنى الأول: أنه أصر على الضلال فكان إضلال الله له جزاءً، جزاء ضلاله لاختياره.

والمعنى الثاني: هو يعلم الحق ولكنه آثر الهوى.

والمعنى الثالث: إذا كان في اختصاصه، في حرفته، في شهاداته، متفوقاً، وهو في سلوكه مع الله منحرفاً، هذا لا يمنع أن يكون هذا الذكي العاقل ذكيًا في اختصاصه، أما على مستوى الآخرة فهو أغبى الأغبياء.

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ)

الهدى ينفذ عن طريق الأذن، فالأذن طريق الهدى، يسمع الإنسان..

(أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق37)

سمع خطبة جمعة، سمع محاضرة، سمع درس دين، درس تفسير، درس حديث، درس سيرة، سمع موعظة، فالهدى يصل إلى القلب عن طريق الأذن، أحياناً يرى آيةً دالةً على عظمة الله عزّ وجل.. هناك حادثة وقعت في بلد مسلم لا يصدقها العقل: امرأة من باكستان مع طفليها في طائرة، لسبب أو لآخر تحطم زجاج النافذة الذي إلى جنبها، والضغط كما تعلمون ثمانية أمثال في داخل الطائرة عنه في الخارج، فهذه النافذة سحبت الطفلين وألقت بهما في البحر على ارتفاع أربعين ألف قدم، طبعاً الموت محقق، بعد أسبوع تأتي هذه المرأة برقية من السفارة: أن تعالي إلى قطر فالولدان صحيحان، قصّة ضَجَّت منها البلاد، نزلا إلى جانب قارب صيد، فالصيّاد رأى شيئا نزل من السماء فغاص، وأنقذهما، وأوصلهما إلى مستشفى، هذه آية من آيات الله..

وإذا العناية لاحظتك جفونها نَـمْ فالمخاوف كُلُّهُنّ أمانُ

* * *

حادثة أخرى، أحد ركاب طائرة كانت تحلِّق فوق جبال الألب احترقت وتصدّعت، وقع هذا الراكب فوق غابةٍ في جبال الألب المغطاة بخمسة أمتار من الثلوج، ومع مرونة الأغصان نزل هذا الراكب واقفاً على قدميه، هذه آيات، فربنا عزّ وجل يري آياته أحياناً، وهذه الباخرة التي غرقت في بحر البلطيق، في أقل من خمسة دقائق كان تسعمئة راكب في قعر البحر، والعمق ثمانون مترًا فقط، في أقل من خمسة دقائق، تسعمئة راكب أصبحوا في قاع البحر، أنقذوا مئة وأربعين، والباقي ثمانمئة راكب ماتوا، هذه كلها آيات دالة على عظمة الله عزّ وجل.

(وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)

(من سنن أبي داود عن أبي الصلت)

إذاً:

(وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً)

الهوى يقع على البصر وعلى الأذن، فإذا وقع كما قال النبي الكريم:

((حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ))

(من سنن أبي داود عن أبي الدرداء)

الهوى غشاوة على العين، والهوى وَقَرَ في الأذن، فإذا كانت العين مغطّاة، والأذن مغلقة القلب، فأنّى له أن يهتدي ؟ فإذا أغلقت الباب الخارجي فالأبواب الداخلية كلها مغلقةٌ حكماً، فالإنسان حينما يهوى، حينما يعبد الهوى، حينما يتخذ إلهه هواه جُعل الهوى غشاء على عينيه ووقرًا في أذنيه، فأنّى للقلب أن يهتدي بهدى الله عزّ وجل ؟ هذا ما قاله الله عزّ وجل في مطلع سورة البقرة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(سورة البقرة6)

لماذا ؟

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

(سورة البقرة7)

منفذا القلب السمع والبصر، الهوى غشاءٌ أمام البصر، ووقرٌ في الأذن، القلب إذاً تحصيل حاصل، حكماً القلب في عَمَى، لأن الهوى هو الحجاب، والإنسان حينما يهوى يعمى.

((حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمِ))

(من سنن أبي داود عن أبي الدرداء)

واعلموا أن صاحب الحاجة أعمى وصاحب الحاجة أرعن.

لك أن تقول: صاحب الشهوة أعمى، صاحب الشهوة أرعن، فالهوى حينما يستحكم بالإنسان يجعله أعمى أصم، قال تعالى:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ)

(سورة البقرة171)

لماذا لا يعقل ؟ لأن منفذ العقل هو السمع والبصر، والهوى حجابٌ كثيفٌ أمام البصر، ووقرٌ ثخينٌ في الأذن.الآية اليوم:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

الهدى هُدى الله، ليس هناك هدى من جهة ثانية أبداً، إذا لم الله يهدك فأنت لست مهتديًا، وهدى الله عزّ وجل يحتاج إلى إصغاء سمع، أن تلقي السمع وأنت شهيد، وهدى الله يحتاج إلى أن تنظر..

(قُلْ انْظُرُوا)

(سورة يونس: آية 101)

أمر بالنظر.

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس24)

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ)

(سورة الطارق5)

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

(سورة الغاشية17)

أمرك بالنظر..

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس: آية 101)

أمرك أن تصغي السمع..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: آية 4)

دليل الإصغاء الحقيقي التوبة، فالله أمرك أن تنظر، وأن تصغي، أن تنظر إلى الآيات لتعرف الله، وأن تصغي إلى الحق، فإما أن تصل إلى الحق بذاتك ؛ باحثاً، منقباً، متأملاً، محللاً، وإما أن يأتيك جاهزاً عن طريق الدرس، فهناك طريق جاهز، وتحتاج إلى إصغاء، وعلامة الإصغاء التوبة، فإذا غيَّرت في البيت بعدما سمعت الدرس، وقلت: هذا حرام، هذا لا يجوز، هذا العمل فيه شبهة، عندما تتحرك حركة وفق الشرع فقد صحّ إصغاؤك.

والله لا يوجد شيء يدعوني إلى العجب كأن أرى إنسانًا يلزم مجلس علم عشر سنوات، وفي بيته معصية، عجيب، ماذا يسمع ؟! هذا حينما كان ينظر ماذا يفعل ؟ ليس له محاكمة داخلية، هذه معصية، هذا مال حرام، هذا سلوك شائن، الشيء الذي يدعو للعجب أن يلزم إنسان مجلس علم، وأن يصغي، ثم لا يتوب.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: آية 4)

علامة الإصغاء الصحيح هي التوبة، وعلامة النظر الصحيح هي التوبة، إذا نظرت أو استمعت، النظر تأمُّل وبحث ودرس، والاستماع تأخذ العلم جاهزاً، لك أن تفكِّر، ولك أن تستمع، وكلاهما طريقٌ موصل إلى الله عزّ وجل.

إذاً:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24))

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ

لذلك يقال لك: هذه الحياة هكذا، يفسِّر المصائب، يفسر خرق العادات، يفسر توفيق الله، يفسر عقاب الله، على أن هكذا الدنيا مدٌ وجزر، يومٌ لك ويومٌ عليك، ما الذي يميتنا ؟ يقول لك: موضوع الهرم، الدهر هو الذي يميتنا، دائماً الكافر يميل إلى تفسير لا يوضح أن الله هو الخلاّق، هو المحيي، هو المميت، هو الرزّاق، هو المعز، هو المذل.

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)

لذلك ورد في الحديث القدسي:

((ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ))

(صحيح البخاري عن أبي هريرة)

تقول لي: حظ ! فلان محظوظ، هذه البنت حظها قليل، هذا الكلام ليس له معنى، فهل الحظ إله ثانٍ، الحظ هو الله عزّ وجل..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل5-7)

هذه آية الحظ، الدهر، القدر، كلام ليس له معنى، لا يوجد إلا الله عزّ وجل، فوحِّدوا، لا تَعْزُ الأشياء إلى شيء غير معقول، غير منطقي، ليس له اسم.

(إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة النجم: آية 23)

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ

أحضِرْ أبانا لنرى، هذا كلام ليس له معنى، الله عزّ وجل قال:

(قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ)

يحييكم في بطون أمهاتكم..

(ثُمّ يُمِيتُكُمْ)

في نهاية الحياة..

(ثُمّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 24 - 29
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-10-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السابع من سورة الجاثية، ومع الآية الرابعة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ

المفترق الذي يفترق عنده المؤمن من الكافر هو هذا المُفْتَرَق، الكافر يرى الدنيا كل شيء، من سعد فيها فهو السعيد، ومن كان شقيًا فهو الشقي، من غنى فهو الغني، ومن افتقر فيها فهو الفقير، إذا كانت الدنيا أكبر همّ الإنسان، أرادها من طريقٍ مشروعٍ أو غير مشروع، أراد مالها من حلالٍ أو من حرام، أراد المُتعة بطريقةٍ تُرضي الله أو لا ترضيه، فلذلك أركان الإيمان خمسة، الركنان الأساسيّان اللذان وردا دائماً مقترنين هما: الإيمان بالله واليوم الآخر.

أولاً: دنيا في القاموس هي دنيا، وليست عُليا، كلها متاعب، لكنها أساس الدار الآخرة، فيها ابتلاء الإنسان، يُبتلى بالغنى كما يُبتلى بالفقر، يُبتلى بالصحّة كما يُبتلى بالمرض، يُبتلى بالقوّة كما يُبتلى بالضعف، يُبتلى بإقبال الدنيا عليه كما يُبتلى بإدبارها عنه، فهي دار ابتلاء وانقطاع، الموت يأتي فيأخذ كل شيء، ولا شيء إطلاقاً، حتى خاتمه، حتى الذهب الذي في أسنانه يُنْزَع، حتى حاجاته الشخصيَّة، أخصُّ خصوصيَّاته تؤخذ منه، قد يكون مِلء السمع والبصر فيصبح في ثانيةٍ واحدة خبراً من الأخبار، المرحوم فلان، عميد الأسرة، يملك الأموال الطائلة وغير الطائلة، المنقولة وغير المنقولة، البيوت، البساتين، القصور، المركبات الفخمة، في ثانيةٍ واحدة أصبح خبراً بعد أن كان مخبراً، وفي الأثر:

((الدنيا دار بلاءٍ وانقطاع، والناس فيها في زمن هُدنة))

نحن في الدنيا الآن كل إنسان له حبل مُرخى، بإمكانك أن تستقيم، وقد لا ترى النتائج سريعة، وبإمكانك أن لا تستقيم، وقد لا ترى العقاب سريعًا، بإمكانك أن تأكل المال الحرام إلى أمدٍ طويل دون أن تشعر أن هناك من يُحاسبك، وبإمكانك أن تتقصّى الحلال دون أن يزداد المال زيادة غير متوقّعة، بإمكانك أن تُطلِق بصرك ولا أحد يُحاسبك، وبإمكانك أن تغض البصر، والله وحده يعلم أنك تطيعه، بإمكانك أن تصلي، بإمكانك أن لا تصلي، بإمكانك أن تُحسِن، بإمكانك أن تسيء، أنت مخيَّر، والعقاب يتأخّر، أو

الجزاء يتأخَّر، لو جاء الجزاء عقب السلوك لألغي الاختيار، ولو أن إنسانًا أساء، وجاءته الضربة الإلهيَّة مباشرة لامتنع عن الإساءة، لا سموًا، ولا كمالاً، ولا حبًّا لله، ولا تقرُّباً إليه، ولكن خوفاً من الضربة، إذًا ألغي الاختيار، لا، أنت لك أن تفعل ما تشاء، ولك أن تُحسن، ولك أن تسيء، ولك أن تعطي، ولك أن تمنع، ولك أن تعتدي على أعراض الناس، ولك أن تأكل مالهم ظُلماً وعدواناً، ولك أن تقمعهم، ولك أن تؤذيهم، ولك أن تأخذ ما بأيديهم، وكأنَّ الدنيا ليس فيها حساب، أما إذا جاء الحساب..

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر9-10)

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم42)

(إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود49)

المفترق الذي يفترق منه المؤمن والكافر هو هذا، الكافر يرى الدنيا كل شيء، المُتعة فيها هي كل شيء، اللذّة فيها كل شيء، نساؤها كل شيء، مالها كل شيء، مناصبها كل شيء ؛ وأما المؤمن فيراها دنيا لا عُليا، يراها ممرًا، وليست مقراً، يراها سببًا للآخرة، لذلك فيها يتعرَّف إلى الله، فيها يستقيم على أمره، فيها يتقرَّب إليه، إذا عمل فعمله طاعة لله، يعمل ليكسب المال لينفقه في سبيل الله، يتعلّم ليكون علمه موظّفاً في سبيل الله، يتزوّج ليأخذ بيد زوجته إلى الله ورسوله، ينجب الأولاد ليربّيَهُم على طاعة الله.

يوجد فرق كبير جداً بين حياة المؤمن وحياة الكافر، المؤمن هادف في حياته، المؤمن كل شيءٍ يسعده في الدنيا، لأنه في الأصل سعيدٌ بربّه، مهما تكن حياته خشنة فهو سعيد، سعيدٌ في الصحّة والمرض، في الغنى والفقر، في القوّة والضعف، قبل الزواج وبعد الزواج، قبل العمل وبعد العمل، قبل أن يكون مكتفياً، وبعد أن يكون مكتفياً، لأن سعادته لا تأتيه من الخارج، بل تنبع من داخله، تنبع سعادته من إقباله على الله، من ابتغاء مرضاته، تنبع سعادته من طمأنينته أن الله يحبُّه، تنبع سعادته من أنه يطبّق المنهج الذي لا يُخطئ، يطبّق ما في القرآن، لأن القرآن يهدي للتي هي أقوم، هذه سعادته، فلذلك سر إخفاق الكفّار أنهم ما رأوا في الدنيا إلا أنها كل شيء، ما رأوها ممراً، رأوها مقرّاً، ما رأوها دنيا، رأوها عُليا، ما رأوها فانية، رأوها باقية، لا تبقى لأحد..

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا)

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

ما الذي يميتنا ؟ هكذا الحياة ؟! الدهر يميتنا ؟! من هو الدهر ؟ يقول لك: تقلُّبات الزمان، قلّب لي الدهر ظهر المِجَنّ، سَخِرَ القدر مني، لي حظ، أو ليس لي حظ، هذا كلُّه كلام الشرك..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

((يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ))

لا يوجد في قاموس المؤمن دهر ولا حظ، ولا الأيام طحنته، ولا قلب الدهر له ظهر المِجَن، ولا حظُّه سيّئ، لم يُعطَ حظًّا كما ينبغي، هذا كله كلام لا معنى له إطلاقاً..

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ

تفسير المؤمن للحدث

من نعمة الله العظيمة على العبد القدرة على التفسير الصحيح، الحدث يقع، ويراه المؤمن والكافر، لا يتفاوتان في رؤيته، لكنّهما يتفاوتان في تفسيره، الله عزّ وجل يسوق مصيبة لإنسان، المؤمن يراها مَحْضُ رحمةٍ، ومحض عدلٍ، ومحض عنايةٍ مشدّدة، المؤمن يرى فحواها، يرى مؤدّاها، يرى الغاية النبيلة التي توخّاها الله عزّ وجل، يرى من خلالها رحمة الله، يرى من خلالها عدل الله، يرى من خلالها حفظ الله له، يرى من خلالها تربية الله له ؛ يأتي الكافر فيرى المصيبة سوء طالع، سوء حظ، قهر، ظلم، حظّه سيئ، محروم، هكذا يرى الكافر، لذلك:

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)

وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ

(الدهر) اسم بلا مسمًّى، كلمة بلا معنى، شكل بلا مضمون، محتوٍ بلا محتوى، دائماً الإنسان العاقل هو الذي ينفذ إلى أعماق الأمر، أجمل كلمة في موضوع المصائب أن من لم تُحدِث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر، وإذا لم تنفعك المصيبة فمصيبتك أعظم، لذلك آلاف الأشخاص اهتدوا عن طريق المصائب..

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا أَضْحَكَكَ؟ قَالَ:

((قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ))

[أحمد]

من لم تنفعه لطائف الإحسان نفعته سلاسل الامتحان، فإما أن تأتيه طوعاً، وإما يحملك على أن تأتيه كرهاً، لذلك بطولة المؤمن وهو في بحبوحة، وهو في صحّة، وهو في رخاء يذكر الله عزّ وجل، ويُقْبِلُ عليه، ويصطلح معه، ويتوب إليه، ويناجيه.

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

يا ترى هل حرَّرت هذا العقل من الأوهام، والظنون، والخرافات، من العقائد الزائغة ؟ ألا ينبغي أن يمتلئ هذا العقل باليقينيّات ؟ بالقول الثابت ؟ يقول ربنا عزّ وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة إبراهيم: آية 27)

عقل المؤمن مليء بالحقائق، مليء بالقوانين، مليء بمعطيات صحيحة مطابقة للفطرة، مطابقة للعقل، مطابقة للنقل، وإذا لم يحضر الإنسان مجالس علم، وإذا لم يتعلّم، وإذا لم يطلب العلم من أهله، وإذا ما قرأ كتاب الله، وإذا ما فهم كتاب الله، وإذا ما تدبَّر كلام الله أين يكون مصيره ؟ لابدَّ من أن يُخطئ. تصوَّر إنسانًا يقود سيَّارة في طرقاتٍ شديدة الانعطاف بلا ضوء، بلا مصباح، الحادث حتمي، وكل إنسان ليس له نورٌ من الله إما بفهم كتابه، وفهم سُنَّة نبيّه، أو ليس له نورٌ من الله باتصاله بالله فلابدَّ من أن يُخطئ.

النور نوران ؛ نورٌ بياني، ونورٌ إشراقي، النور البياني هو أن تقرأ كتاب الله، هذا حلال، وهذا حرام، هذا حقٌ، وهذا باطل، هذا يجوز، وهذا لا يجوز، هذا يرضي الله، وهذا لا يرضيه، أما النور الإشراقي فهو أن تتصل بالله، تشعر أن هذا العمل لا يرضي الله، تتكوّن عندك أذواق عالية، وكمالات إنسانيَّة، يمتلئ قلبك رحمة، يمتلئ إنصافًا، أنت مع الحق، ولو كان على نفسك، مع الحق، ولو كان ضدّك.

(وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ

إذاً ينبغي أن نحرّر عقولنا من الظنون، من الأوهام، من الخرافات، من الترّهات، من الدجل.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

هذا كلام تعجيزي، لأن الإنسان إذا أراد الهداية فهذا القرار الداخلي الذي يتخذه الإنسان كل شيءٍ حوله يزيده إيماناً، كأس الماء مثلاً، هذا لا تحتاج لكي تعرف الله أكثر من كأس ماء، من جعله عذباً فراتاً ؟ من جعله بهذه السيولة ؟ من جعله لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة ؟ من جعله يتبخّر في درجة أربع عشرة ؟ من خَزَّنه.

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر22)

لو أردنا أن نخزّن ماء لسنة فإننا نحتاج إلى بيتٍ بحجم بيتنا، وهذا الماء يصبح آسناً، انظر إلى الشروط الدقيقة التي خزّن الله بها الماء.. صنعوا خزّان للماء في جبل قاسيون، وقد قلّدوا تقليداً تخزين الماء الإلهي، المستودع عمقه أربعمئة متر تحت الجبل.. هناك شروط صعبة جداً لتخزين الماء، قال الله تعالى:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

يعطيك هذا النبع كل ثانية ستة عشر متراً مكعّباً، يكفي دمشق وما حولها، كل ثانية، تمتدُّ جذوره إلى حمص، إلى ما تحت جبال لبنان، إلى سيف البادية..

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

إذا أردت الهدى فكل شيءٍ يهديك، رغيف الخبز يهديك، العصفور يهديك، بعض الطيور تقطع اثنين وعشرين ألف كيلو متر في رحلةٍ لها من القطب الشمالي إلى جنوب إفريقية، هناك طيور تقطع ستة آلاف كيلو متر دون توقُّف، هناك طيور تخزّن في أجسادها من الدهون كوقودٍ يعينها على السفر الطويل، إلى أن يصبح جسمها ذا وزنٍ مضاعف، هناك طيور تحلِّق بسرعة مئة كيلو متر، فالطير وحده آية من آيات الله، قال تعالى:

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَانُ)

(سورة الملك: آية 19)

دعوة إلهيَّة، هل فكَّرت في هذا الطير ؟ هل فكَّرت في ريشة الطير؟ هل فكرت في طيران الطير ؟ هذا عن الطير، فماذا عن الأسماك ؟ البحار باب ثالث، الجبال باب رابع، الهواء باب خامس، تجد طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسين طنًّا، وتحمل أربعمئة وخمسين راكبًا بحاجاتهم وأمتعتهم، وتحلِّق على ارتفاع أربعين ألف قدم، ما الذي يحملها ؟ هذا الهواء الذي بيننا، الهواء آية، الماء آية، الطير آية، السمك آية، الجبال آية، تخزين المال آية، تتبّع الآيات الكونيَّة التي ذكرها الله في القرآن الكريم، هذه موضوعات للتفكُّر، وموضوعات للبحث، فلذلك:

(وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(25))

مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ

نريد إنسانًا مات يقوم من قبره ليحدّثنا أنه رأى النار، ورأى الآخرة، ورأى الجنّة، هذا أولاً طلب سخيف، كل هذا الكون ألا يدلُّ على الله عزّ وجل ؟ كل هذا الكون ألا يدلُّ على كماله، على علمه، على رحمته، على عدله، على أنه إلهٌ عظيم ؟ فعندما يتعامى الإنسان عن هذه الآيات الصارخة، ويطلب شيئًا سخيفًا فهذا يدلُّ على صغر عقل هذا الإنسان.

يروى من باب الطُرَف أن رجلاً طويل القامة، عريض المنكبين، ضخم الجثّة، يرتدي جُبَّةً وعمامة دخل إلى مسجد فيه مجلس علم لأبي حنيفة النعمان، وأبو حنيفة كانت رجله تؤلمه فمدّها بين إخوانه لعذر، فلمّا دخل هذا الرجل رفعها استحياءً من هذا الإنسان الغريب، طبعاً الدرس عن صلاة الفجر، بعد أن شرح الدرس، وفصّل، وبيّن، وأحضر الأدلّة، رفع هذا الإنسان الغريب يده، وقال: يا سيّدنا، كيف نصلي الصبح إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ قال له: " عندئذٍ يمدُّ أبو حنيفة رجله "، لأن هذا سؤال سخيف جدًا، فالشمس والقمر والنجوم، والسماء والمجرّات، وكأس الماء والهواء، والثمار والحقول، والمحاصيل مليون آية تدلُّ على عظمة الله..

(ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ

هذا طلب سخيف جداً، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يُطالَب من قِبَل كفّار مكّة بآيات حسيّة صارخة كقولهم: لو أنك فجّرت الأرض ينبوعاً، لو أنّك أزحت الجبال عن مكّة، لو أن كتاباً نزل من السماء نراه بأعيننا، كفّار مكّة طالبوا النبي بمثل هذه المطالب، وهي مطالب سخيفة جداً، لذلك الله عزّ وجل يواسي النبي صلى الله عليه وسلم فيقول:

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4))

(سورة الشعراء3-4)

ثم يذكر للنبي الكريم كيف أن بني إسرائيل رأوا البحر قد أصبح طريقاً يبساً، وكيف رأوا العصا أصبحت ثعباناً مبيناً، ثم إنهم أتَوا:

(عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

(سورة الأعراف: آية 138)

يقول ربنا عزّ وجل:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68))

(سورة الشعراء)

ذكر الله في سورة الشعراء عشرات الأقوام الذين طالبوا أنبياءهم بآيات حسيّة خارقة للطبيعة، والله استجاب لهؤلاء، ومع ذلك لم يؤمنوا، فهذا الذي يقول:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

لا ينجو من عذاب الله إلا إذا أدخل يوم القيامة في حساباته اليوميّة، ولو سألت المسلم: هل أنت مؤمن بالله ؟ يقول لك: نعم، أنا مؤمن بالله، واليوم الآخر، والكتاب، والنبيين، والملائكة، والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، تدقِّق في حياته فلا تجد في تعامله التجاري، في بيته، في خروج بناته، في علاقته بزوجته، في علاقته بجيرانه، لا تجد أنه يُدخِل في حساباته اليوم الآخر، يفعل ما يفعل، يأخذ ما لا حقّ له به، يعتدي، يظنّ أن الذكاء في كسب المال، ولو كان حراماً، واقتناص المتع، ولو كانت حراماً، العجيب أن الاعتراف القوي لا قيمة له أبداً، الحقيقة أنك لا تجد في حياته اليوميّة ما يُنْبِئ أنه مؤمن باليوم الآخر، وحينما يعصي الإنسان الله معنى ذلك أن هذا اليوم خارج حساباته، أما المؤمن فقبل أن يفعل أي شيء يفكِّر كيف سألقى الله بهذا العمل ؟ تجد شخصًا يَحْرِم بعض الورثة ظلماً وعدواناً، وهو يصلي، تجد شخصًا آخر يأخذ ما ليس له، وهو يُصلي، هذه النماذج المهزوزة، هذه النماذج المُسْلِمَة غير الملتزمة تبعد الناس عن الدين، لذلك:

(قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ

لاحظ نفسك لا مع خالق البشر، بل مع بشر مثلك، إنسان أقوى منك أصدر قانونًا، وعِلْمُ هذا الإنسان يطولك، وقدْرته تطولك تستقيم معه، استوردت بضاعة، تذهب بصورة هذه الوثائق إلى الماليّة، الماليّة طالبتك ببيان أرباحك، هل تستطيع أن تخفي عنها هذا الشيء المستورد ؟ لا تقدر، النسخة تذهب أصولاً إلى دوائر الماليّة كي تحاسب، فأنت مع إنسان مثلك أقوى منك لا تستطيع التفلّت من قبضته، لا من علمه، ولا من قدرته، فتستقيم معه، لماذا لا تستقيم مع الله ؟ ألست في قبضته ؟ أليس مصيرك بيد الله ؟ أليست حواسُّك الخمس بيد الله ؟ أليس قلبك بيد الله ؟ أليست عظامك بيد الله ؟ أليست عضلاتك بيد الله ؟

أليس أولادك، زوجك، عملك، رزقك بيد الله ؟ مادمت في قبضته، وما دام مصيرك إليه فكيف تعصيه ؟ ألا تعتقد أن الذي يعصي الله هناك خلل في عقله ؟ وفي الأثر:

((أرجحكم عقلاً أشدُكم لله حبّاً))

(قُلِ اللّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ)

أي أنه أحياكم في بطن أمهاتكم، ثم أماتكم بعد أن انتهت آجالكم.

(ثُمّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

ثُمّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

قرأتُ كتابًا يحتوي على مقالات طبيّة، حوالي مئة مقالة نُشِرَت تباعاً في مجلات طبيّة، مؤلفها جمعها في كتاب، المقالات رائعة جداً، كيف تحافظ على قِوامك، صحّة العينين، صحّة الجلد... إلخ، لكن الذي أدهشني بعد أن تصفّحت الكتاب أن الذي ألّف هذه المقالات مات، هو ألّف كل هذه المقالات فلمَ لمْ يحافظ على قِوامه، وعلى صحّته، وعلى، و على ؟ لأن كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت.

معنى ذلك أنك طارئ على الحياة، أتيت وسوف تغادر، أتينا إلى الدنيا وسوف نغادرها، اللذائذ تنقضي تبقى تبعاتها، المتاعب تنقضي تبقى ثمارها.

سمعت عن مطعمٍ يبيع الخمر، أصدقاء صاحب المطعم نصحوه ووجّهوه، أخذوه إلى الحج، وعاد من الحج، وألغى بيع الخمر، شيءٌ جميل، بعد فترة حنّ إلى بيع الخمر، فعاد وباع الخمر، وبعد سبعة عشر يوماً قضى نحبه، وجاء الأجل.

ثمة ملهى كبير فيه كل أنواع الموبقات، كل أنواع المحرّمات، الذي أشاده وصمّمه، وخطّط له بعد أن افتُتِح بأسبوع انتهى أجله، وكل ما يجري فيه الآن وزره عليه.

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر46)

الأعمال الصالحة متعبة، لكنها تنقضي، هذا الذي صلّى الفجر في جماعة كل يوم، هذا الذي غضّ بصره عن محارم الله، هذا الذي عُرِضَ عليه مال كثير فقال: مَعاذ الله، الله كريم، هذا الذي دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله ربّ العالمين، هذا الذي تقصّى الحلال، طلب العلم، جلس في مجالس العلم، طبّق الإسلام في بيته، طبّقه في عمله، وضع تحت قدمه الدنيا وما فيها، ركلها بقدمه وقال: الله هو الغني، هذا إذا جاء أجله انتهت متاعبه، وبقيت الجنّة، بقيت المكافأة، بقي النعيم المقيم..

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة19-23)

المتاعب تنقضي، جهاد النفس والهوى ينقضي، غضّ البصر ينقضي، الصبر على الطاعة ينقضي، الصبر عن الشهوة ينقضي، الصبر على البلاء ينقضي، ويبقى النعيم المقيم ؛ واللذائذ المحرَّمة تنقضي، والبيوت الفخمة نخرج منها إلى القبر، وما مِن بيت مهما كان فخماً، مهما كان واسعاً، مهما كان مزيَّناً، مهما اعتنى صاحبه به فلابدَّ لصاحبه من يوم يخرج منه بشكلٍ أفقي، ولا يعود، يشيَّع إلى مثواه الأخير، سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق على الله بيته لا يتَّسع لصلاته في الليل ونوم زوجته، فكانت تُنَحّي نفسها جانباً حينما يصلي، فما هذه الغرفة الضيّقة التي لا تتسع لصلاته ونوم زوجته ؟ هذه الدنيا لا شأن لها، لو أنها شيءٌ عظيم لأعطاها للنبي الكريم.. قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:

((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ، اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي، وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ، وَلَهُمْ الدُّنْيَا ؟ قُلْتُ:بَلَى))

[مسلم]

اللذائذ تنقضي، ويبقى عقابها، والمتاعب تنقضي، ويبقى ثوابها، انظر في رمضان يأتي يوم العيد يُفطِر الناس جميعاً، الذي صام ثلاثين يوماً انتهت متاعبه، والذي أفطر في رمضان بقيت تبعة مسؤوليَّة إفطاره، فاللذة تنقضي، والمتعة تنقضي، والابتلاء ينقضي، ويبقى الحساب الجزاء والعقاب.

لسيدنا علي كلمة رائعة جداً، يقول فيها: **" فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر ".**

هذا كلام عميق جداً، هذا الذي ألقى قنبلة على هيروشيما، وأزهق أرواح ثلاثمئة ألف إنسان بلحظة هم سيموتون عاجلاً أم آجلاً، لكن بقي من هذا العمل وزره على صاحبه، وفعْله هذا يشقى به إلى أبد الآبدين، معنى هذا أن فاعل الشر شرٌ من الشر نفسه، وأكبر شر في الأرض ينتهي مع يوم القيامة، مرض عضال ينتهي مع الموت، إنسان فقير مع الموت انتهى فقره، إنسان معذّب مع الموت ينتهي

عذابه ؟ ويبقى العذاب الأبدي لفاعل الشر، العمل الصالح تنتهي مشقّته وأعباؤه، ويبقى ثوابه وخيره إلى أبد الآبدين، والعمل السيّئ تنتهي لذّته، وتبقى تبعته..

(قُلِ اللّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26) وَلِلّهِ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وَلِلّهِ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

الله سبحانه وتعالى مالك الملك، وملكيّة الله عزّ وجل غير ملكيّة الإنسان، الله يملكنا ملكاً وتصرُفاً ومصيراً، أنت قد تملك، ولا تستطيع أن تتصرّف، وقد تملك المنفعة، ولا تملك الرقبة، وقد تملك الرقبة والمنفعة، ولا تملك المصير، لكن الله سبحانه وتعالى إذا وصف نفسه بأنّه مالك الملك فهو يملك خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً..

(وَلِلّهِ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أي أنت من ملك الله، معنى من ملك أنك لا تستطيع أن تتفلّت من قبضته، اعتقد ما شئت، وافعل ما شئت، لكنك في قبضته، والآن أعطاك حريّة اختيار، جعلك مختاراً..

(وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ)

وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ

النظريّات الباطلة، السلوك الباطل، الإنجاز الباطل، كل شيء يخدم الشيطان، يخدم الضلال، وكل شيء ينتهي بك إلى الله ورسوله فهو حق، كل شيء يقرّبك من الله فهو حق، كل شيء يقرّبك من المعصية فهو باطل ؛ كتاب، قصّة، حفلة، لقاء، نزهة، كل شيء يقربك من المعصية فهو باطل، كل شيء يقربك من الجنّة والطاعة فهذا حق، لذلك المبطل خاسر، لو كان مستقلاً بوجوده عن الله، قد نقول: هو ليس خاسراً، لكن مادام وجوده بالله عزّ وجل، وهو في قبضة الله، ومصيره إلى الله، إذاً: إذا كان مبطلاً فهو خاسر، لأنه سوف يُحاسَب، الله قال تعالى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية 40)

كل شيء مسجّل، وكله تحاسب عنه، فلذلك:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ)

الإنسان العاقل دائماً يعيش المستقبل، لا يعيش الحاضر، الحاضر دائماً يعيشه الأغبياء، الحيوانات تعيش الحاضر ؟ الآن أمامه شهوة يقتنصها، مكسب يأخذه، لا يفكِّر بالأبعاد، بالنتائج، بالمصير، دائماً العاقل يعيش المستقبل، وغير العاقل يعيش الحاضر، ماذا يوجد حوله من لذائذ يقترفها ليسعد نفسه حسب ظنّه، أما المؤمن فكما قيل: **" إذا أردت إنفاذ أمرٍ فتدبّر عاقبته "..**

الله أعطانا عقلاً، تصوّر إنسانًا معه جهاز يكشف زيف النقود، ويقبض مبلغًا ضخمًا بعملة صعبة، والجهاز في جيبه، والعملة مزوّرة، ولا يستعمله ؟ يكون أغبى الأغبياء، والله عزّ وجل أعطاك عقلاً يكشف لك الحق من الباطل، الخير من الشر، أنزل كتابًا، عندك قرآن، وعندك سنّة، وعندك علماء، وعندك عقل، وعندك تفكير فكيف تقع في شيءٍ يُهلِكك ؟

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ)

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ

لذلك الخسارة الحقيقيّة لا يكتشفها الإنسان إلا بعد فوات الأوان ؟ محل تجاري كله حركة وبيع وشراء، والمحل في طريق الهاوية، أرباح معدومة، ديون كثيرة، رأس المال يتناقص، فالإنسان العاقل يُدرك أن المحل سينتهي قبل مدة طويلة، أما الإنسان الغبي فمتى يشعر أنه على وشك الإفلاس ؟ حينما يُفلِس فقط، هذا هو الفرق بين العاقل وغير العاقل.

العاقل يصلُ إلى الشيء قبل أن يصلَ إليه، أحياناً تجد مركبة واقفة في الشمس، على اليمين شمس، وعلى اليسار ظل، أنت تركب في ناحية الشمس، لأنك تعلم أن الطريق من دمشق إلى حلب صباحاً تكون الشمس في ناحية الشرق، والأيّام صيف حارّة، والغرب فيه ظل، أنت تجلس في الغرب، على اليسار، لأنك فكرت جيدا، هذا العاقل، الإنسان عندما يركب سيّارة، يركب طائرة، ينتقي المستقبل، أما الشيء الآني فلا يلتفت إليه، فلذلك:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً)

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا

أمم حاربت، أمم انتصرت، أمم قهرت غيرها، هذه الأمم المبطلة التي بنت مجدها على أنقاض الآخرين، هذه تجثو يوم القيامة ذليلةً لتدفع ثمن ظلمها وانحرافها.

(وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا)

إلى المنهج الذي جاءها فلم تعتبر به..

(الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

اليوم الآخر في هذه الآيات كلِّها، هو المحور العام، وكل شيءٍ تفعله مسجَّلٌ عليك، وهناك حسابٌ دقيقٌ يوم القيامة، وربما كرَّم الله المحسن تكريماً ـ كما يقولون ـ تشجيعياً لبقيّة المحسنين، وربما عاقب الله المسيء عقاباً تحذيرياً لبقيَّة المسيئين، ولكن الحساب الكامل الرصيد في الحساب الختامي.

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: آية " 185)

لذلك العاقل هو الذي يجعل يوم القيامة هو الهدف، ويُدخِل هذا اليوم في حساباته اليوميَّة، كلَّما أعطى أو منع، وصل أو قطع، غضب أو حَلُم، أي حركة أو أي سكنة ينظر أن الله هل يرضى عنه بها أو لا يرضى ؟

(وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29))

هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ

يضعون على أحدث الطرقات العامَّة جهاز رادار يصوِّر السيَّارات المخالفة، وأحياناً تجيء المخالفة، ويتنصل منها صاحبها، يقال له: لا تتكلَّم بأي كلمة، هذه الصورة، أليست هذه مركبتك ؟ أليس هذا رقمها؟ لقد رآها مصوَّرة، فالمخالفة المصوَّرة تُسْكِت، فربنا عزَّ وجل قال:

(هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

كل المعاصي مصوَّرة، مسجَّلة، بتواريخها، بوقائعها، بمكانها، بزمانها، بألوانها، بملابساتها، بخلفيَّاتها، ببواعثها، بأهدافها، كلُّه مسجَّل وسوف يُعْرَض هذا على الإنسان يوم القيامة، لذلك يقول:

(يَا وَيْلَتَنَا)

ما هذه القصَّة ؟!!

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

أحياناً يكون الإنسان في سهرة، وهو لا يدري أن كل هذه السهرة مسجّلة، كل شيء تكلّمه مسجّل، إنه في الأخير يُصْعَق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 30 - 37
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-10-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والأخير من سورة الجاثية، ومع الآية الثلاثين، وهي قوله تعالى:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31))

لما قال الله عزّ وجل:

(هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

إن أعمال الإنسان ؛ دقيقها وجليلها مسجلةٌ عليه، ويوم القيامة تعرض عليه هذه الأعمال..

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

والإنسان في هذه الحياة الدنيا إذا شعر أنه مراقب، أو أن اتصالاته مراقبة، أو أن حركاته مراقبة ينضبط أشد الانضباط، ينضبط مع مخلوقٍ مثله، ربما كان أقوى، فكيف مع رب الأرض والسماوات ؟

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

كل حركةٍ، كل سكنةٍ، كل قولٍ، كل فعلٍ، كل نظرةٍ، كل تنصتٍ، كل استماعٍ، كل مزاحٍ، كل غضبٍ، كل وصلٍ، كل فصلٍ، كل عطاءٍ، كل مَنْعٍ، كل ضحكٍ، كل عبوسٍ، كل الحركات والسكنات، والأحوال والأقوال، والاتصالات، والغضب والرضا، والكرم والبخل، كله مسجل، وأفضل إيمانِ المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان.

إذا أردت أن تعلو، وأن يرقى إيمانك إلى مستوى أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فاعلم أن الله معك حيثما كنت.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية 4)

أنت أيها الأخ الكريم تستحي من إنسانٍ كبيرٍ في أسرتك، تستحي أن يسمعك تقول كلمةً بذيئة، تستحي أن يراك في ثيابٍ مبتذلة، تستحي أن يراك غضوباً، فكيف بخالق الأرض والسماوات ؟!

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

كان السلف الصالح إذا صلى قيام الليل، وقرأ آيةً فاهتزّت مشاعره بها يعيدها إلى الفجر.

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

في عملك، في دكّانك، في المخبر، في مكتب المحامي، في عيادة الطبيب، في مكتب البيع والشراء، مع خصومك، مع أحبابك، مع أقربائك، مع أعدائك، هل كنت عادلاً ؟ هل أنصفت الناس من نفسك ؟ هل قلت كلمة الحق ولو كانت مُرّة ؟ هل وقفت الموقف الأخلاقي ؟ هل حابيت أولادك ؟ هل قلبت الحق إلى باطل، والباطل إلى حق من أجل أقربائك ؟ هل اخترت رجلاً ليس كفئاً لعملٍ محاباةً له، وتجد مَن حوله من هو أكفأ منه ؟ إن فعلت هذا فقد خنت الله ورسوله، هل كبّرت على إنسانٍ مسألة، ضخمتها من أجل أن تأخذ مالاً وفيراً ؟ هل هوّنت على إنسانٍ مسألة من أجل أن تأخذ منه مالاً أيضاً ؟ ماذا فعلت ؟

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

لا يستقيم الإنسان إلا إذا رأى أن الله معه يراقبه، النبي عليه الصلاة والسلام رأى بعض أصحابه يضرب غلاماً، قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي:

((اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[مسلم]

حينما يشعر الإنسان أن المخلوقات التي هو أقوى منها حسيبها ربُّ العالمين يقشعر جلده، سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك فرأته يبكي، قالت: **" مالك تبكي ؟ "، قال: " دعيني وشأني "، فلما ألحّت عليه قال: " يا فلانة، إني وُليتُ هذا الأمر، ونظرت في الفقير الجائع الضائع، وذي العيال الكثير والرزق القليل، والمريض، والشيخ الكبير.. ذكر أصنافاً تزيد على ثمانية عشر صنفاً، فقال: فنظرت فرأيت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن حجيجي من دونهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلهذا أبكي ".**

هل سألت نفسك هذا السؤال: يا ترى أنا أعطيت من حولي حقه ؟ أدّيت الواجبات ؟ ربيت أولادي التربية الصحيحة ؟ ربيت بناتي التربية الصحيحة ؟ اخترت لهن أزواجاً أطهاراً، أم أن المال هو الذي غرك في قبول هذا الشاب، فلمْ تسأل عن دينه ؟ وأنمت تعلم أن في دينه رقة ولم تبالِ بها، أردت المال فقط، هذه الفتاة يوم القيامة التي تقول: **" يا رب، لن أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه هو الذي زوجني من هذا الرجل، وهو الذي حملني على الفساد ".**

لذلك: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ، وَسَقَاهُنَّ، وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[ابن ماجه بسند صحيح]

فأنت أب، وتربية البنات والأولاد شيءٌ عظيمٌ جداً، وشيءٌ كبيرٌ جداً، إذا ربَّيْتَ أولادك التربية الصحيحة، ونِمْتَ قرير العين، فأولادك من دون عملٍ آخر يدخلانك الجنة.

فالأبوة ـ أيها الإخوة ـ الكاملة سبب لدخول الجنة، والأمومة الكاملة سبب لدخول الجنة، والدعوة إلى الله الصادقة سبب لدخول الجنة، وإتقان عملك ورحمة المسلمين سبب لدخول الجنة، فأبواب الجنة مفتحةٌ على مصاريعها، كل عملٍ ابتغيت به وجه الله، وأتقنته، ورحمت به المسلمين فهو سببٌ لدخول الجنة، فلذلك أنت مراقب، افعل ما تشاء، قال تعالى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية " 40)

هذا اسمه أمر تهديد: افعل ما تشاء فكله مسجل.

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

(سورة المائدة: آية 64)

في آية أخرى:

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: آية 181)

لقد سُجِّلت.

فقبل أن تقول كلمةً، قبل أن تغتاب إنساناً، قبل أن تفتري على إنسانٍ، قبل أن تصغِّر إنساناً، اعلم أن هذا الكلام كلّه مسجّل.

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

هذه الآية يمكن أن تقف عندها وقفةً طويلة، في كل أعمالك، في بيتك، وأنت في خلوَتك، وأنت مع أهلك، وأنت مع خصومك، وأنت مع المشتري، وأنت مع المراجعين إن كنت موظفاً، وأنت مع المرضى إن كنت طبيباً، وأنت مع الموكِّلين إن كنت محامياً، وأنت مع الطلاّب إن كنت مدرساً، وأنت مع أي مخلوقٍ.

لماذا ذكر عليه الصلاة والسلام:

((أَنّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ ببِئْرٍ قدْ أدْلَعَ لِسَانَهُ مِنْ الْعَطَش، فَنَزَعَتْ لَهُ بمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا))

[مسلم]

قد يقرأ الإنسان هذا الحديث فيقع في حيرة، هل من المعقول أن تكون سقاية كلب سببًا للمغفرة ؟! بعضهم قال: إن هذا الكلب في الصحراء لا صاحب له، لا تنتظر من صاحبه أن يشكرها، وهذا الكلب لا يمكن أن يقدِّم لها شيئاً مقابل هذه الخدمة، ولا أحد يراها حتى تشعر أنها عملت عملا عظيمًا أثنى الناس عليها، فكل عوامل الشرك منفية بهذا العمل، لكنها سقته ابتغاء وجه الله، فاستحقت المغفرة، فإذا أخلص الإنسان في عمله يجزيه الله عزّ وجل خير الجزاء.

يكفيك أن الله يراقبك، يكفيك أن الله مطلعٌ على سريرتك، يكفيك أنك بعين الله، يكفيك أن كل كلمةٍ تقولها الله عزّ وجل يراقبها،

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر: الآية 14)

هل أنت صادقٌ بها ؟ هل أنت مخلصٌ لها ؟

لو انضبط الناس هذا الانضباط لكنا في حال غير هذا الحال، ولكنا في حال من الوئام، ومن المحبة، ومن الثقة.

والله إنّ الحياة بين المؤمنين فيها سعادة كبيرة جداً، يتعامل الإنسان معهم بثقة فترتاح، وأي تعامل من دون ثقة تصير الحياة به معركة، معركة في الشراء معركة، في البيع، كل شيء فيه لُغْم، لا تعرف، إذا اشتريت فأنت خائف، إن بعت فأنت خائف، إن تعاقدت فأنت خائف، هذا الخوف الذي يأكل القلوب سببه عدم الثقة، وعدم الثقة من عدم الإيمان، أما لو أن كل إنسان راقب الله عزّ وجل لهانت الأمور.

هذا الذي سأله عمر مختبرًا أمانته، وقال له: **" بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال له: ليست لي، قال له: قل لصاحبها: ماتت، قال له: ليست لي، قال له: خذ ثمنها، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدّقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟! ".**

إنسان يصدق فهل يتركه الله فقيرًا ؟

لي صديق عنده قطعة تبديل لسيارة خمس سنوات، ولم تبع معه، وهي غالية جداً، فجاءه شخص يطلبها وسأله: هل هي أصلية ؟ وهي ليست أصلية، قال له: ليست أصلية، قال له: أنزلها، لو قال له: أصلية كان البيع حراما، لا تخف في الله لومة لائم، وهذا هو المؤمن الحقيقي.

مع الإيمان تجد الاستقامة والخوف من الله الشيء المبهر.

إنسان يبيع بناية من اثنتي عشرة سنة، ولم تسجل، ويعرض عليه أصحاب البيوت كل واحد مليونا، وسجل لنا، سعرها كان بثمانية وثلاثين ألفا، وأصبح ثمنها اثني عشر مليونا، بعدما صار في إمكانه أن يسجل لا يأخذ قرشًا زائدًا، ويقول لهم: أنا أخذتُ حقي، وليس لي عندكم شيء أبداً، هذا هو المؤمن.

الدين ليس بالصلاة فقط، وليس بالصيام فقط، الدين بالمعاملة، الدين بالالتزام، بالاستقامة، لما ظهر الإسلام صارخاً في سلوكِ أصحاب رسول الله عليهم رضوان الله فتحوا العالمين، فلما انكمش الإسلام إلى عباداتٍ تؤدى أداء أجوف أصبحنا مقهورين، أصبح المليار والمئتا مليون لا يزنون في ميزان القوى قشةً، والله تعالى يقول:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

(يَعْبُدُونَنِي)

من أجل أن نوفِّر الوقت، وأن نكسب الحياة، الدين ليس لمن سبق، و لا لمن له في المسجد عشر سنوات، لا، الدين لمن صدق، لمن صدق في معاملة الله عزّ وجل، وأنت كلما بالغت في استقامتك على أمر الله أراك الله من آياته الشيء الكثير، أراك الله من آياته ما يبهر وما يُدْهِش، إذاً الآية الكريمة:

(هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

كله مسجل، والمفاجأة التي تصعق يوم القيامة يقول تعالى:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف49)

تجد أناسا يصلون، ويصومون، ويحجون، ويزكون، وإيمانهم ضعيف، هؤلاء ليسوا أبطالاً، لضعف إيمانهم.

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

(سورة ق18)

كله مسجل.

إذا علمت أن الله يعلم فلا مشكلة إطلاقاً، وحُلّت كل مشكلاتك، بل إن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض من أجل أن تعلم أن الله يعلم، والدليل:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: آية 12)

علة الخلق أن تعلم:

(أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق12)

لن تستقيم على أمر الله إلا إذا علمت أن الله يعلم، وسيحاسب، وأنت في قبضته، فالاستقامة حتمية، لأنك تستقيم مع إنسان إذا أيقنت أنه يعلم، وسيحاسب، لأنه أقوى منك، تستقيم على أمره، وهو من جنسك ضعيفٌ مثلك.

الناس رجلان: مؤمن وكافر

تصور خمسة آلاف مليون من البشر لهم نِحَل، لهم ملل، لهم أجناس، لهم أعْراق، لهم منابت، لهم ثقافات، لهم مناهج، لو أردنا أن نقسِّم البشرية إلى كم قسم ستنقسم ؟ يقول لك: العنصر السامي، والعنصر الآري، والعنصر الأنجلوساكسوني، والعنصر الأبيض، والملونين، وشمال الكرة الغني، وجنوبها الفقير، وشرقها الذي يؤمن بالمجتمع، وغربها الذي يؤمن بالإنسان، وكل عرق أقسام لا تعد ولا تحصى، وكل قسم طوائف، وكل طائفة مذاهب، وكل مذهب شُعَب، وكل شُعَب قبائل، وكل قبيلة عشائر، وكل عشيرة أسر، التقسيمات التي في الأرض لا تعد ولا تحصى، كم مذهبا ؟ كم اتجاها ؟ كم مشربا ؟ كم منزعا ؟ كم نزعة ؟ كم مبدأ ؟ شيء لا يعد ولا يحصى، كل هؤلاء البشر على اختلاف نحلهم، ومللهم، وأجناسهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وأصولهم، وفروعهم، وانتماءاتهم، ومذاهبهم، وعقائدهم، وأحزابهم، وطوائفهم، ومذاهبهم، وعشائرهم، وقبائلهم، وأسرهم، نوعان في النهاية، انظر إلى دقة القرآن، قال تعالى

(فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمّا الّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31))

معنى ذلك أن كل التقسيمات باطلة، الإنسان مؤمن وكافر، متصل ومنقطع، منضبط و متفلِّت، محسن ومسيء، مُنصف وظالم، هذا الإنسان سعيد وشقي، يؤْثر شهوته أو يؤثر مبدأه، يؤثر الدنيا أو يؤثر الآخرة، مذهبان في النهاية، إما أن يكون الإنسان مؤمناً بصرف النظر عن جنسه وعرقه، وأصله وحسبه ونسبه، وثقافته، وحرفته، وأسرته، وقبيلته، وعشيرته، وطائفته، وملّته، ومذهبه، أو يكون

كافرًا.

في الحياة شيء اسمه الاثنينية، إما مع هؤلاء، وإما مع هؤلاء، وملة الكفر واحدة في شتى بقاع الأرض، وفي كل الحقب والعصور والأزمان، والمؤمنون بخندقٍ واحد في كل العصور والأزمان والفصول، المؤمن مؤمن أينما كان، والكافر كافر، فربنا عزّ وجل كل هذه التقسيمات، وهذه الانتماءات، وهذه العنعنات، وهذه العنجهيات، وهذا التشقيق، وذاك التفريع، وفلان نسبه إلى كذا، وفلان من الدول الغنية، ومن الدول الفقيرة، كل هذه التقسيمات لم يعبأ الله بها، قال في النهاية:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا)

لماذا كفروا ؟ وما علة كفرهم ؟ الآية الأولى:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

إذاً: أيّ شيء اسمه إيمان وحده لا قيمة له.

العلم ليس مقصوداً لذاته في الإسلام، العلم وسيلة، وكل إنسان اكتفى بالعلم فهو جاهل، جاهل وهو عالم، لأنه اكتفى بالعلم، فهم الآية، حللها، نَمّق في شرحها، لكن لم يطبقها، لذلك الدعاء الذي يقصم الظهر:

" اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتني مني ".

يمكن أن تشرح لإنسان آية، وتتفنن بشرحها، وتتعمق في مدلولها، وتأتي بأمثلة، لكن المستمع عقل هذه الآية، وطّبقها، وسبقك.

" اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتني مني ".

انتبه إلى نفسك، لا تجعل أحداً من المستمعين أسعد منك بهذا القرآن، لا تجعل الذين تدعوهم إلى الله أسعد منك بهذا الدين، لا تجعل من يستمع إليك أوعى منك، إيّاك أن تفعل هذا، هذا الذي جاء في الأثر:

((أندم الناس رجلٌ دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار))

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ))

[الترمذي بسند حسن]

الإخلاصَ الإخلاصَ، تعامل مع الله بإخلاص، تعامل معه بصدق، لا يكن لك سر وعلانية، لا تكن ازدواجيًا، لك موقف معلن وموقف حقيقي، ورع ظاهر وعدم ورع باطن، لك خلوة لا ترضي الله

وخلوة ترضي الناس، لا تكن كذلك، كن موحّد الاتجاه، الذي في قلبك على لسانك، وعلانيتك كسريرتك، وظاهرك كباطنك، هكذا المؤمن، وذو الوجهين ليس عند الله وجيهاً، وهذا هو النفاق قال:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

العمل الصالح اقترن مع الإيمان في أكثر من مئتي آية في القرآن الكريم، الإيمان هو العقيدة، والعمل الصالح هو السلوك، الإنسان فيه جانب معرفي، وجانب سلوكي، إن لم يكن هناك تطابق كان هناك النفاق، من أي شيء عظمة كانت الأنبياء ؟ لأنهم فعلوا ما قالوا، وقالوا ما فعلوا، ليس هناك مسافة أبداً بين أقوالهم وأفعالهم، وإذا كنت كذلك فأنت من الموفّقين.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

عطاء الله عزّ وجل الجنةُ وما فيها مِن قرب مِنَ الله، وما فيها من جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ما فيها من حورٍ عين، ما فيها من ألوان النعيم، وألوان القرب من الله عزّ وجل، والدنيا وما فيها من عز، وما فيها من صحة، وما فيها من سعادة، وما فيها من سكينة، عطاء الله إجمالاً عبَّر الله عزّ وجل عنها بكلمة رحمة.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ)

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ

أنت في رحمة الله، أنت في توفيق الله، أنت في ظل الله، أنت في رعاية الله، الله يدافع عنك، ويرفع شأنك، ويعلي قدرك، وهذه رحمة الله عزّ وجل، يقدِّر على يديك الأعمال الكبيرة الجليلة العظيمة، هذه رحمة الله عزّ وجل، تعيش سعيداً، تموت حميداً، إذا انقلبتَ إلى الله عزّ وجل انقلبتَ إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية 119)

خلقك ليرحمك، ورحمته في الدنيا والآخرة، مادياً ومعنوياً، هذه رحمة الله، قال تعالى:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

فإذا انتهت بك الدنيا إلى الجنة، واللهِ الذي لا إله إلا هو سوف ترى أن أقوى الأقوياء ليس أمامك بشيء، وأنت مؤمن عادي مغمور، ولست مشهورًا، لا أحد يعرفك، إذا عرفت الله، وعرفت منهجه، واستقمت على أمره حينما تكشف الحقائق، وتنزع الأقنعة المزيّفة، ترى أن المؤمن هو الذي أفلح، وهو الذي نجح، وهو العاقل، وهو الذكي، وهو المتفوّق، وهو الفائز، وهو كل شيء، وأقوى الأقوياء، وأغنى الأغنياء، وأذكى الأذكياء، تراه في الحضيض يوم القيامة، فلذلك لا يحَقِّر الإنسان من شأنه فيقول: من أنا، لا أحد يعرفني ؟

سيدنا عمر رضي الله عنه في معركة نهاوند فيما أذكر جاءه رسول من هذه المعركة من أمير الجيش، قال له: " كيف الأحوال عندكم ؟ " قال: " واللهِ مات خلقٌ كثير "، قال له: " من هم ؟ "، ذكر له أسماء عدد كبير من الصحابة استشهدوا في سبيل الله، قال له: " ومن أيضاً ؟ " قال له: " مات خلقٌ كثير لا تعرفهم.. أي لا تعرفهم بالاسم.."، فبكى بكاءً شديداً، وقال هذا الخليفة العظيم: " وما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم ؟ " هذه علامة الإخلاص، فإذا لم يكن أحد يعرفك فلا توجد مشكلة أبداً إذا كان الله يعرفك، إذا كان الله مطّلعًا على عملك، مطلعًا على نواياك، مطلعًا على استقامتك، مطّلعًا على خوفك منه، مطّلعًا على حرصك على طاعته، فلذلك:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

خالق الكون يقول:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

هذا الفوز، انظر إلى الناس، من اشترى أرضًا، وصارت ثمنها مئة ضعف يقول لك: أنا فوق الريح، ما معنى فوق الريح ؟ ألن يموت بعد ذلك ؟ الذي عنده وكالة حصرية، والبيع بغير حساب، والوكالة متينة بيده، ألن يموت هذا ؟ انظر إلى مقاييس الناس، مقاييس الناس الذي عنده بيت واسع، الذي عنده دخل كبير، المتمكن من مركزه هو الذكي والقوي، ولكن الله قال:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

إذا أنت قرأت القرآن وقلت: صدق الله العظيم، ورؤيتك أن الغني هو الفائز، أو القوي هو الفائز، إذا أنت مؤمن إيمانًا حقيقيًا، وشعرت أنك محروم، فأنت لست مؤمناً، ما عرفت قيمة إيمانك.

" من أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقّر ما عظمه الله ".

إذا هدى الله إنسانًا، وآتاه العلم والحكمة، وفهمه القرآن، وأعانه على الاستقامة على أمره، وجعل له نورًا من قلبه، وجعل حوله أهلاً صالحين، فهذا عطاء لا يقدّر بثمن، هذا العطاء سبب للجنة، فلذلك إذا قال الإنسان:

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)

(سورة القصص: آية 79)

لا يعلم شيئاً، إذا قال:

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص: آية 80)

يعلم كل شيء، علامة العلم أن ترى العطاء عطاء الله، وأن ترى الهدى هدى الله، وأنت ترى الخير أن يجري الله على يديك الخير، وأن ترى الغنى والفقر بعد العرض على الله، هذا العقل، قال:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ

أيّ آياتٍ يا رب ؟ الكون آيات، آيات كونية، والقرآن آيات، وأفعال الله آيات، الآيات العلامات الدالة على وجود الله، ووحدانيته، وكماله، وعظمته، وعدالته، وعلمه، هذه الآيات، فالكون آيات، والقرآن آيات، والشيء الثالث أفعال الله آيات، أفعال الله وحدها يمكن أن توصلك إليه، لأن الله قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام 11)

أفعال الله آيات، لو دققت فيما يجري في العالم، وفي المجتمعات، ومع كل إنسان، تجد محض علم، ورحمة، وعدل، وإنصاف، وإذا تأمّلت في آيات الكون، يوجد بالمحيط الأطلسي تيّار الخليج عرضه ثمانون كيلو مترا، عمقه أربعمئة وخمسون مترًا، سرعته ثمانية كيلو مترات في الساعة، كثافته كبيرة جداً، ثلاثة عشر ألف مليون متر مكعب بالدقيقة، هذا التيّار ساخن، يلطِّف الأجواء في المنطقة الباردة الشمالية، وهناك تيار ثانٍ بارد يحمل معه مغذّيات عشبية يصل إلى سواحل أمريكة الجنوبية، هذا التيار الذي يحمل معه مغذيات نباتية، يجتذب ملايين مملينة من الأسماك الصغيرة، وهذه الأسماك الصغيرة تجتذب أكثر من خمسين مليون طائر اسمه غراب البحر.. اسم خاص به، غراب المحيط.. هذه الطيور تعيش على هذه الأسماك، وهذه الأسماك تعيش على هذه الأعشاب، أما البشر فكيف يستفيدون منها ؟ مخلّفات الطيور بألوف الأطنان، هذه ثروة قومية للشعب في تشيلي، وفي بعض البلاد هناك، الله عزّ وجل من حين لآخر يغيّر مجرى هذا التيار البارد، فتموت الأسماك، وتموت الطيور، ولا يوجد مخلّفات

للطيور، فيجوع الناس، إن الله هو الرزاق، يرزق شعوبًا بالملايين، من مخلّفات الطيور، لأنها من أرقى أنواع الأسمدة، ويرزق الطيور من هذه الأسماك، ويرزق الأسماك من هذه الأعشاب، والتيار يمشي في البحر حتى يصل إلى سواحل أمريكة الجنوبية في تشيلي، وفي بعض البلاد الجنوبية الأخرى، ثمن هذا السماد الذي يُخَلِّفُهُ هذا الطير يعد أكبر ثروة قومية في هذه البلاد، هذه من آيات الله.

فالكون آيات، وكلامه آيات، وأفعاله آيات، ألا ترى في أفعاله العجب العجاب ؟ ألا ترى كيف يقهر أحياناً الأقوياء ؟ تجد قلعة من قلاع العالم تلاشت، أصبحت هشةً كبيت العنكبوت، أليست هذه من آياته الدالة على أفعاله وحكمته ؟

(وَأَمّا الّذِينَ كَفَرُوا)

ما الذي حملهم على الفكر ؟ أنهم:

(أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ)

وَأَمّا الّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ

لا يفهم الأمور إلا فهماً مادياً، لا يفهم الزلزال إلا أنه اضّطراب في القشرة الأرضية فقط، لا يفهم أن الزلزال عقاب إلهيّ أحياناً، لا يفهم أن الحروب الأهلية تأديب إلهيّ للفسق والفجور، لا يفهم أن قحط السماء تأديبٌ للناس ؟ قال الله عزّ وجل:

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: آية 96)

(وَأَلّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)

(سورة الجن 16)

مؤتمر السكان الذي عُقِد في القاهرة ليعالج مشكلة الفقر في العالم الثالث، عندهم الفقر مشكلته زيادة السُكّان، إذاً يجب أن نؤخر الزواج إلى أعلى سن، وحتى يلبي الشاب حاجته، يجب أن نسمح له بالزنى، وأن تأتي القوانين مؤكِّدة لهذا السماح، وأن نسمح للشذوذ بين الرجال وبين النساء، حتى تقلّ المواليد، ولكي تكفي الموارد، حتى يعيش المجتمع في العالم الثالث في بحبوحة، هذا تخطيط الإنسان الأعمى، أما ربنا ماذا فقال:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبّكُمْ إِنّهُ كَانَ غَفّاراً (10) يُرْسِلِ السّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً (13))

(سورة نوح 10-13)

إذا تبتَ إلى الله توبة نصوحًا، واستغفرت من كل الذنوب، واصطلحت مع الله، واتجهت إلى الله، وطبّقت منهج الله، فإنه:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: آية 147)

لماذا ؟ هذا كلام خالق الكون، لو أن واحدًا وقف في المؤتمر، وقال:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)

أراد أن يحل هذه المشكلة العويصة في العالم عن طريق كلام الله عزّ وجل، ماذا سيلقى من ردود فعل عند المؤتمرين ؟ سيلقى السخرية، لأنهم لا يعرفون الله أبداً، فهم أرادوا أن يحلوا المشكلة عن طريق الشذوذ، عن طريق الزنى، وعن طريق تأجيل سن الزواج، وعن طريق إصدار تشريعات تسهّل الإباحية والرذيلة، أتحل مشكلة بمشكلة ؟ طبعاً من الجهل والغباء أن تحل مشكلة بمشكلات.

أضرب مثلاً لذلك بإنسان ذهب إلى طبيب جراح تجميلي في خده الأيسر ندبة، قال له: كيف نعالج هذه الندبة ؟ قال له: الأمر سهل جداً، ننزع لك قطعة من خدك الأيمن نضعها على خدك الأيسر، فما هذا العلاج ؟ هذا شيء مضحك، نريد أن نعالج مشكلة بآلاف المشكلات، وهذا الذي جاء في المؤتمر لا تقبله الفطرة، ولو كان الذي يستمع إلى هذه المقررات علمانياً، لا يقبله، قال تعالى:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ

أحياناً يخالف الإنسان مخالفة سير، فيدفع مبلغا من المال، وتُحجز مركبته أسبوعًا أو أسبوعين، هو غير مجرم، أما إذا قتل إنسانًا فهو عندها مجرم، كلمة مخالفة، جنحة، أما جريمة ؟ فهذه شيء كبير جداً، إذا لم يعرف الإنسان الله عزّ وجل، ولا عَرّفَ نفسه بالله، ولا حملها على طاعته، ولا حملها على حضور مجلس علم، ولا أقام الإسلام في بيته، سمّاه الله مجرمًا، فهو مجرمٌ في حق نفسه، لكن متى يكتشف الجريمة ؟ عند الموت.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر24)

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللّهِ)

(سورة الزمر: آية 56)

(يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلا)

(سورة الفرقان28)

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون99)

كل إنسان يعصي الله فهو مجرم بكل معاني هذه الكلمة، اجعل هذه الكلمة ملء فمك، قال الله عزّ وجل:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم35)

إذا لم يكن الإنسان مسلمًا فهو مجرم، نحن نفهم الإجرام القتل، لا، قد يكون ناعمًا، لطيفًا، معطرًا، أنيقًا، ما دام لا يصلي فهو لا يعرف الله عزّ وجل، ويطلق لشهواته العنان فهذا مجرم، قال الله عزّ وجل:

(أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ)

أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ

إن لم يكن الإنسان مسلماً فهو مجرم لا في حق الآخرين، لا، إنه لم يَقتل، ولا أساء إطلاقاً، لكنه مجرم في حق نفسه، لأنه خسر نفسه.

قد يخسر الإنسان أحياناً سيارته، يخسر بيته، أحياناً يخسر شيئا من ماله، يقولون: مات فلان، وانتهى، المال لم يعد له قيمة، فحينما يخسر الإنسان نفسه يخسر كل شيء، فالكافر يوم القيامة خسر نفسه، فهذا هو المجرم الذي ضيّع سعادته الأبدية لسنواتٍ معدودة أمضاها في بعض الشهوات، ولم يكن سعيداً.

(وَإِذَا قِيلَ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ وَالسّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)

وَإِذَا قِيلَ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ وَالسّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السّاعَةُ

الكافر لا شيء عنده اسمه يقينيات، دائماً يقول: لا أعرف، الله أعلم، يشكك في وجود الجنة، ما عنده شيء يقيني.

(إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: آية 15)

(وَمَا يَتّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنّ الظّنّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقّ شَيْئًا)

(سورة يونس: آية 36)

فالحقيقة ليست فقط لا يدري، لا يريد أن يدري، لأن الله قال:

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت: آية 69)

هل مِن إنسان يطلب الحقيقة، ولا يصل إليها ؟ مستحيل.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

الله عزّ وجل ينتظر منك أن تطلب الحقيقة حتى يهديك إليها، حتى يُلقي في قلبك النور، لكن لا تريدها.

(وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)

ثمة شاعر كان اسمه فيلسوف الشعراء، قال:

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسرٍ أو صح قولي فالخسار عليكما

* * *

مسألة لا تزال في الشك والظن والوهم، لعدم يقينه، ولعدم انضباطه، ولعدم طاعته لله عزّ وجل، يوم القيامة أعماله، وانحرافاته، وفساده، وعدوانه، وطغيانه تعرض عليه.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

أحياناً تتلو على الإنسان جريمته فتجد نظره في الأرض، قد أحاطت به خطيئته، وقيّدته سيّئاته، حجبته زلاّته، وأذلته مساوئه.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا)

انظر ماذا فعلت ؟ هذه الفتاة التي كنت سببا في فساد ذريتها، لو تزوجتها لما كانت كذلك، أنت أنشأت هذه الدار دارا للهو، انظر كم من الناس أفسدت بإنشائها.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا)

أنت روّجت هذه الضلالة، كم تبعك فيها ؟ مئة مليون اعتنقوا هذه الضلالة، ومارسوا الانحراف، لأنك أنت أقنعتهم بها.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا)

لذلك:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

(سورة يس: آية 12)

فأعظم عمل الذي يموت صاحبه، وتبقى آثاره بعد موت صاحبه، كإنسان ترك علمًا نافعًا، أو ترك ولدًا صالحًا، أو أسس ميتمًا، أو أسس معهدًا شرعيًا، أو بنى مسجدا، أو علّم الناس، وأسوأ شيء إنسان أسس ملهى، أسس دار قمار أو وبعد ذلك مات، كل من دخل هذه الدار في صحيفته، وفي رقبته يوم القيامة.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

هذا اليوم يوم الفصل..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات61)

(وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34) ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35))

وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

الغرور أن تظن الشيء أكبر من حجمه الحقيقي، دائماً أهل الدنيا مغرورن بها، قبل أن ينام يحلم بالبيت، كم غرفة ؟ في جناح شرقي، أو جناح غربي، هنا غرفة نوم، هنا غرفة جلوس، دائماً يحلم ببيت، بمركبة، بزوجة، بمركز، بدخل كبير، بسياحة حول العالم.

(ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

الإنسان في البدايات يظن المال كل شيء، بعد حين يظنه شيئاً، وليس كل شيء، لكن بعدما يواجه الحقيقة العظمى يراه لا شيئًا، المال والجاه، والسلطان، والنساء، والمُتَع، والشهوات، هذه في البدايات كل شيء، بعد حين شيء، وليس كل شيء، أما عند مواجهة الحقيقة فليس بشيء، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ))

[البخاري]

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37))

ملخص السورة:

ملخص هذه السورة أن الله سبحانه وتعالى يُحْمَدُ على أفعاله كلها، لأن أفعاله كلها خير..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران26)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (1-6): تفسيرالآيات الآية: 1-5 خلق الإنسان بالحق لأجل مسمى و هدف كبير

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-10-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة الأحقاف.

تحدي الله عز وجل الناس أجمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن:

(حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3))

[سورة الأحقاف]

أوّلا، قوله تعالى: حم، هذه الحروف أوائل السور، الحروف المقطعة، كما أذكر دائماً، وأُعيد، للمفسرين فيها مذاهب شتى، بعضهم قال: الله أعلم بمراده، وبعضهم قال: من هذه الأحرف نُظم القرآن الكريم، والله سبحانه وتعالى يتحدى الناس أجمعين، أن يأتوا بآية أو سورة من مثله، مع أن المواد الأولية بين أيدينا ؛ ثمانية وعشرون حرفاً في اللغة العربية نُظم منها هذا القرآن الكريم، أي تقريباً للحقيقة، مكونات الحليب معروفة، مكونات البيضة معروفة، هل يستطيع البشر قاطبة أن يصنعوا بيضة كالتي خلقها الله من الدجاجة، هل يستطيعون أن يجعلوا هذه الحشائش الخضراء لبنًا سائغًا للشاربين، فالإنسان، عضلاته، عظامه يقال لك: كلسيوم، مغنيزيوم، حديد، مكوناته معروفة، كلُّها تدخل في تركيب جسم الإنسان، هل بإمكان البشر أن يخلقوا الحياة في الكائن ؟ المواد معروفة، أما الحياة فهي سر من أسرار الله عز وجل، إذن من هذه الأحرف نُظم القرآن الكريم.

القرآن الكريم معجز لأنه كلام الله سبحانه و تعالى:

والحقيقة لو سألت، هل هناك دليل عقليٌ، قطعيٌ، جامعٌ، مانعٌ، يثبت للإنسان من دون أدنى شك أن هذا القرآن كلام الله ؟ طبعاً نعم، والدليل هو الإعجاز، كلما قرأت القرآن، وكلما تدبرت آياته، وكلما وقفت على إشاراته، تشعر أنه من سابع المستحيلات، أن يكون هذا الكلام كلام البشر، يعني لما ربنا عز وجل مثلاً قال:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

[سورة الروم]

قال في أدنى الأرض، ما أحد يعرف على الإطلاق وقت نزول كتاب الله، أن أخفض نقطة في الأرض هي غور فلسطين، والمعركة التي جرت بين الفرس والروم وقعت في غور فلسطين، فقال سبحانه: في أدنى الأرض، هذا من إعجاز القرآن العلمي، قال:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

[سورة الحج]

آيات الله الكريمة يستحيل أن تكون من كلام البشر:

في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ما كان أحد يعرف أن الأرض كروية، ولو كانت الأرض منبسطة، لقال: من كل فج بعيد، لكنه قال: من كل فج عميق، والعمق في الشكل الهندسي، كلما ابتعدت عن نقطة من النقاط، ينشأ بعد وعمق، لأن الشكل كروي، وكذلك لما قال ربنا عز وجل عن العسل:

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

[سورة النحل]

ما كان أحد يعرف أن العسل له قيم دوائية، يظن الناسُ أنه شراب، أو غذاء سكري الطعم، أما الآن اكتُشِفت خصائص علاجية في العسل تفوق الحد المعقول، ولو تتبعت آيات القرآن الكريم (وما أكثرها) لهالك الأمر، لكني ذكرت ثلاث آيات فقط، وهناك آلاف من آيات الله الكريمة، تدل بدليل قطعي لا لبس فيه، على أن هذا الكلام يستحيل أن يكون كلام البشر، وكذلك لما قال ربنا عز وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

[سورة النحل: الآية 8]

هذه وسائل النقل المعروفة في عهد النبي، الخيل، والبغال، والحمير، والجمال، ولم يكن هناك طائرات، لكن ربنا قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8))

[سورة النحل]

من أراد التثبت من أن هذا القرآن كلام الله فعليه بالتدبر و البحث و القراءة:

لأن هذا الكلام، كلام خالق الأكوان، فالله يعلم ما سيكون، علم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون، إذًا لو سألتني عن دليل قطعيّ، جامع، مانع، يثبت للإنسان الجاحد أن هذا القرآن كلام الله، أقول لك كلمة واحدة: هي إعجازه ؛ الإعجاز العلمي، والإعجاز الإخباري، غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، الإعجاز التشريعي، الإعجاز التربوي، هذا كلام الله عز

وجل، فمن أراد أن يتثبت من أن هذا القرآن كلام الله، فليبحث، فليتدبر، فليتفهم، فليقرأ قراءة تفهم، قراءة وعي، قراءة تدبر، حتى يستقر بأعماقه أن هذا القرآن كلام الله، حتى إذا قرأت القرآن ورأيت الأمر والنهي، ورأيت الوعد والوعيد، تعرف من صاحب هذا الكلام، والشيء الثابت أن الإنسان ينصاع للأمر على قدر الآمر، كلّما عظم الآمر عظم أمره، وكلّما صغر في عينك الآمر، صغر أمره.

الدعوة الناجحة إلى الله عز وجل تنطلق من تعريف الآمر قبل الأمر:

لذلك أية دعوة إلى الله عز وجل، تنطلق من تعريف الآمر قبل الأمر دعوة ناجحة، أما إذا انطلقت مَن تعريف الأمر قبل الآمر، فهذه الدعوة قد لا تنجح، لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر، لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت، ذكرت لكم مرة أنّ الإمام الغزالي لما خاطب نفسه، قال لها: يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟. طبيب يقول لك هذا البيت لا يناسبك، وهذا الطعام لا يناسبك، وإذا فعلت يُخْشى أن يكون كذا وكذا، تنصاع رأساً، والله سبحانه وتعالى، يأمرك وينهاك، ويعدك ويتوعدك، ولا تعبأ ؟ أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ ! قال: إذًا ما أكفرك !، أيكون وعيد الطبيب (يعني الإنذار بالمرض) أشدّ عندك من وعيد الله ؟ إذاً ما أجهلكِ ! والإنسان لمّا يعصي، فهو مذنوب بالجهل أو بالكفر، إذاً السلوك الصحيح أن توقن يقينًا لا شك فيه، يقيناً كيقينك بوجودك، كيقينك بالمحسوسات، كيقينك بالشمس في رابعة النهار، أن توقن أن هذا الكلام كلام الله، إذا أيقنت، تقف موقفًا آخر، الأمر تعبأ به، والنهي تخاف أن تقترفه، والوعد تصدِّقه.

من طابق بين أحواله و قناعاته و نصوص القرآن فهو مؤمن صادق:

أريد أن أوضح لكم حقيقة، يعني إنسان مستقيم على أمر الله، ولديه مع استقامته شعور بالحرمان، فالله ما أعطاه، ورأى صديقاً له أعطاه الله الدنيا بزخارفها، فإذا قال لك مرة واحدة: أنا محروم، والله قد أعطى فلانًا، فإيمانه صفر، لأن الله قال:

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

[سورة الأحزاب]

ذاك ما رأى الفوز، بل رأى الخسران، رأى الحرمان، يعني دائماً المؤمن الصادق، يحاول أن يطابق بين أحواله، وقناعاته، ونصوص القرآن الكريم، كلها تؤكد أنه من يطع الله ورسوله، فقد فاز فوزاً عظيماً، إذا كانت رؤيتك أن الأقوياء هم الذين فازوا فوزاً عظيماً، وأن الأغنياء هم الذين فازوا فوزاً

عظيماً، وأن الذين احتالوا على الناس، وحصّلوا ثروة طائلة،هم الذين فازوا فوزاً عظيماً، وأن المنغمسين في الملذات، والمباهج الدنيوية، هم الذين فازوا فوزاً عظيما، وأن الذي جمع المال مما حلّ وحرم، هو الذي فاز فوزاً عظيماً، وتقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

[سورة الأحزاب]

وتقول: صدق الله العظيم، والحقيقة بكل أسفٍ مُرّة، فإنّ هذا الذي يقرأ القرآن بهذه الطريقة، ما صدّق الله عز وجل وكبَا به حصانُه.

المؤمن الحق من تعامل مع الله عز وجل بالصدق:

إذا قال الله عز وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة: الآية 221]

هذا في شأن الزواج، فإذا جاءك من ترضى دينه، وخلقه، فلم تزوجه لا لشيء إلا لأنه فقير، وجاءك من لا ترضى دينه، ولا خلقه، فزوجته طمعاً في ماله، فأنت لست في مستوى القرآن الكريم، لأنك ما صدقت الله عز وجل، ليكن الإنسان جريئًا مع نفسه، ولا يكن كالنعامة، تغرس رأسها في الرمل، وتنسى أنها كبيرة الحجم، ومشاهدة من كل جانب، فتعامل دائماً مع الله بالصدق، إذا قال الله عز وجل وهو خالق الكون:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة: الآية 221]

فقوله هو الحق و الصواب، وحينما تتحرك حركة مناقضة لهذه الآية، فأنت إذًا ما صدّقت الله عز وجل.

من تحرك حركة مناقضة لآيات الله عز وجل فهو إنسان كاذب:

إذا قال الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور: الآية 30]

ولم تعبأ بهذه الآية، فأنت ما صدقت الله عز وجل، ولم تر عظمة الآمر، لقد قرأت الأمر، لكن لم تعرف عظمة الآمر، وإذا قال الله عز وجل:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: الآية 276]

وطُلِب منك أن تقرض إنسانًا، والمبلغ موجود، لكن بحسابات الآلة الحاسبة، هناك تضخم نقدي بعد عام، وإذا أقرضتُ هذا المبلغ سأسترده أقل بعشرين بالمئة، أو سبعة عشر بالمئة بعد عام، فقلت: والله لا مجال ولا إمكان، فأنت ما صدقت اللهَ عز وجل إذ يقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: الآية 245]

من تعامل مع القرآن تعاملاً جاداً كان إيمانه عميقاً:

وإذا قال ربنا عز وجل:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39))

[سورة سبأ]

إذا قلت لإنسان، لا تفرط، القرش إذا انصرف لا يعوض، فهذا كلام الشيطان، أما كلام الواحد الديان:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39))

[سورة سبأ]

الأمر يحتاج إلى إيمان عميق، كي تتعامل مع هذا القرآن تعاملاً جاداً، تعامل المصدِّق، هذا الذي يقول: قرأنا وتباركنا، وسلوكه في وادٍ، والقرآن في واد آخر، فهذا الذي أضعف المسلمين، وهذا الذي جعلهم (وهم يزيدون عن مليار ومئتي مليون) لا وزن لهم في العالم، لأن الله عز وجل كلامه واضح كالشمس.

عند عدم تعامل الإنسان مع الآيات على أنها كلام خالق الكون فإيمانه فيه ضعف شديد:

اسمع قوله تعالى و تدبّر:

(وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55))

[سورة النور]

فأين الاستخلاف ؟

(لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

[سورة النور]

أين الاستخلاف ؟ وأين التمكين ؟ وأين التطمين ؟ قال:

(يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

[سورة النور]

يعني الحقيقة، وهي مؤلمة ؛ أنّك إن لم تتعامل مع الآيات على أنها كلام خالق الكون، وعلى أن زوال الكون أهون على الله من ألاّ يتحقق وعده ووعيده، فهذا يعني أنّ الإيمان فيه ضعفٌ شديد.

مهما كانت الجموع كثيرة وقراءتهم شكلية فلا وزن لهم يوم القيامة:

إنّ هذه القراءة الشكلية: نقرأ، ولا نفهم، ونفهم، ولا نطبق، ونطبق، ولا نخلص، فالعاقبة عندئذ:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105))

[سورة الكهف]

مهما كانت الجموع كثيرة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث الصحيح:

((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَلَا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

لن لتأبيد النفي، لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفًا من قلة، وقد يجتمع في المسجد الحرام في موسم الحج، مليون ونصف مليون حاج، يطوفون، ويسعون، ويلبُّون، فكيف نوفِّق بين هذه الجموع الغفيرة، والملايين المملينة من حجاج بيت الله الحرام، وقول النبي في الحديث الصحيح:

((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَلَا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

من نشأ في طاعة الله عز وجل يطمئن الله قلبه:

أيها الأخوة الكرام، لو صدقنا اللهَ لكُنّا في حال غير هذا الحال، ولو قرأنا هذا القرآن قراءة من يخشى الله، قراءة من يصدِّقُ الله، قراءة من يرى أن وعد الله ووعيده قاب قوسين، يكون في حال غير هذا الحال، سيدنا سعد بن أبي وقاص يقول: ثلاثة أنا فيهن رجل، من هذه الثلاثة: أني ما سمعت حديثاً من رسول الله إلا ظننت أنه حق من الله تعالى، يعني شاب نشأ في طاعة الله، الله عز وجل يقول له:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40))

[سورة غافر]

قد يقلق حيناً، لكن خالق الأكوان يطمئن قلبه.

من بنى عمله على حرام له معيشة ضنكا:

ربنا عز وجل يقول من جانب آخر:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

[سورة السجدة]

هذا الذي يبني عمله متوهِّماً غفلة الله عز وجل، يتعامل ببضاعة محرمة، بأسلوبٍ محرم لا يرضي الله في حرفته، ولا في كسب المال، لا يقيم الإسلام في بيته، هذا ألم يقرأ قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

[سورة السجدة]

من بنى حياته على منهج الله فهو من أسعد الناس:

إذاً فاسمع قوله تعالى:

(فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ)

[سورة التوبة]

إنسان بنى زواجه وفق منهج الله، واختار عملاً يرضي الله، سلك في هذا العمل الأسلوب الذي أقره الشرع، حتى نزهاته جعلها وفق ما يرضي الله، من غير اختلاط، ولا انحراف، بل في استقامة وامتثال، فإذا بنى الإنسان حياته على منهج الله، فهو من أسعد الناس، فالقضية ليست قضية جموع، ولا قضية تبرك شكلي، بل القضيةُ قضية التزام عملي، يعني كما قال أحد العلماء، أظنه سهل التُستري، قال: تَرْكُ دانق من حرام، خير من ثمانين حجة بعد الإسلام، والحديث الشريف:

((لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيامِ شهرٍ واعتكافِهِ في مسجدي هذا))

[ورد في الأثر]

المؤمن يقينه بقوانين الله عز وجل في كتاب الله يقيناً قطعياً:

أي: أنا أرجو الله سبحانه وتعالى أن تجلسوا في البيت، وأن تتلو هذا الكتاب، وأن تتعاملوا معه بصدق، الأمر أمر، والنهي نهي، والوعد وعد، والوعيد وعيد، وأن يعتقد أحدكم جازماً أن القوانين في هذا القرآن لها حتمية الوقوع، أجل، حتمية الوقوع حقًا، كيف أنّ الحديد يتمدد بالحرارة، وكيف أنّ المباني

كلها حينما تصمم يتركون فواصل تمدد، لأن يقين المهندسين بخصائص الحديد، يقين قطعي، هذا المعدن يتمدد بالحرارة، فإن لم يتركوا فواصل تمدُّد تلتوِ الجسور، وتنهار الأبنية، إذاً يقينك بالقوانين الفيزيائية يقين قطعي، وينبغي أن يكون يقينك بقوانين الله عز وجل في كتاب الله يقيناً قطعياً، حينما توقن فإنك تتحرك حركة توافقية، وحينما توقن تلتزم، حينما توقن تتعامل مع الله بصدق، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((استقيموا ولَنْ تُحصُوا))

أي لن تحصوا الخيرات التي تأتي من الاستقامة.

الله عز وجل في أكثر الآيات يُعرف الإنسان أن هذا القرآن كلامه:

المؤمن الصادق يرى بأن الأمر كله بيد الله، مهما كان الأمر مستعصياً، مهما كان الأمر صعباً، فالأمر بيد الله، ما عليك إلا أن تطيعه، وترى عندئذ أن الأمور كلها تجري لصالحك، فالله سبحانه وتعالى ما من عبد خطب ودَّه إلا أراه من آياته التوفيقَ، والتيسيرَ، وتذليلَ العقبات، الراحة النفسية، التوفيق في الزواج، التوفيق في العمل، السمعة الطيبة، هذه كلها، بعض العطاءات المبدئية في الدنيا، تشجيعاً لا تكريماً، إذاً يطالعنا سؤال كبير، هل أنت موقن يقيناً قطعياً، كيقينك بوجودك، أن هذا القرآن كلام الله ؟ إذا كان يقينك هكذا، فصعبٌ جداً أن نفسر المعصية، وصعب جداً أن نفسر التقصير، وصعب جداً أن نفهم أنك تتحرك في بيتك، أو في عملك، بخلاف منهج الله، بل صار التفسير سهلاً، إن وقع شيءٌ من ذلك منك فأنت لست موقناً أن هذا القرآن كلام الله، أو لم تعرف من هو الآمر، لذلك ربنا عز وجل في أكثر الآيات، يُعرّفك بأنّ هذا القرآن تنزيل من الله العزيز الحكيم، أحيانا يسأل الإنسانُ إنساناً آخر هل تعرف مؤلفَ هذا الكتاب ؟ وأحياناً أخرى، هل تعرف من هذا الشخص الذي إلى جانبي في الصورة ؟ هو فلان، فأحياناً الإنسان يعِّرف غيره، وربنا عز وجل يقول معرّفًا بالقرآن العظيم ومنزلِه:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2))

[سورة الجاثية]

(الله): سبحانه وتعالى علَمٌ على الذات، ذات الله اسمها (الله)، علَمٌ على الذات صاحب الأسماء الحسنى، قال تعالى

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

[سورة الأعراف: الآية 180]

الموجود، الواحد، الكامل.

من أحصى أسماء الله تعالى اتجه إليه و إلى تطبيق أمره:

لذلك:

((إِنّ لِلّهِ عَزّ وَجَلّ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا كُلّهَا دَخَلَ الْجَنّةَ))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة]

الإحصاء شيء، والعدّ شيء، العد أن تقول: الخالق، البارئ، المصور، هذا العد، أما الإحصاء فهو غير العد، هل عرفت معنى رحمته، ومعنى حكمته...إلخ، فإذا عرفت معنى حكمته، ومعنى رحمته، ومعنى عدالته، ومعنى قوته، ومعنى علمه فقد أحصيتها، ومن أحصاها دخل الجنة، فيكفي أن تتعرف إلى أسماء الله تعالى، وأن تحصيها، إذا أحصيتها فلا شك أنك اتجهت إلى الله، واتجهت إلى تطبيق أمره، عندئذ تستحق دخول الجنة، إذاً ربنا عز وجل يقول لنا: هذا الذي بين أيديكم، هذا الكتاب ليس كتاباً من تأليف إنسان، وليس كتاباً من وضع بشر، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، هذا الذي بين أيديكم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، والله سبحانه سماه مرة كتاباً، وسماه مرة قرآناً، كما سماه نوراً يبدد الظلمات، ووصفه بأنه نور لأنه يبدد كلّ ظلمة، وسماه بأسماء كثيرة في القرآن الكريم، كل اسم يشير إلى خاصة، سماه: حبل الله، كل من تمسك به نجا، قال تعالى:

(مَا خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلّا بِالْحَقّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالّذِينَ كَفَرُوا عَمّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ((3))

[سورة الأحقاف]

تساؤل الإنسان عن الهدف من وجوده في الحياة:

أيها الأخوة الكرام، الإنسان أحياناً لديه أسئلة عميقة جداً يطرحها، فمثلاً ما جدوى الحياة ؟ والإنسان في يوم واحد يُشيّع جنازة، ويحضر عقد قران، ويزور زوجين حديثين أنجبا مولوداً، هذا طفل خُلق، خرج من قبر الرحم إلى الدنيا، وذاك إنسان دخل القبر، قبر التراب، هناك متناقضات ؛ مِن قبر الرحم إلى الدنيا، وإنسان خرج من الدنيا إلى قبر التراب، والكلُّ في أثناء حياته يعمل، ويسعى، ويجمع، ويبني، ويزين، ويتبجح، ثم يموت، وكأنه لم يكن، والأسئلة كثيرة جداً، منها: ما جدوى الحياة ؟ ما فلسفة الحياة ؟ لماذا نحن في الأرض ؟ نأكل ونشرب، ونجمع المال، وننام، ونستيقظ، إلى أن يأتي الأجل.

الحياة رسالة كبيرة:

فإذا الإنسان أغفل في حياته تلك الرسالة التي حمّلنا الله إياها، وغفل عن المهمة العظمى التي جاء من أجلها، فالحياة تغدو بلا معنى، عوام الناس يعيشون ليأكلوا، والأرقى منهم، يأكلون ليعيشوا، والأرقى من هؤلاء وهؤلاء، يعيشون ليتعرفوا إلى الله عز وجل، فالحياة رسالة كبيرة، وقد قال سبحانه:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

[سورة الأحزاب]

رسالة عظمى أنيطت بنا، فالإنسان حينما تستهلكه الحياة، يُستهلك، فقد يَستهلك عمره استهلاكاً وهو في غفلة، فمتى يصحو ؟ عند الموت، يصحو عند المرض العضال، يصحو حينما يقترب من أجله، حينما تأتيه مشكلة تدنيه من قبره يصحو، لكنه صحا بعد فوات الأوان.

خلق السماوات و الأرض بالحق:

فيا أيها الأخوة الأكارم يقول الله عز وجل:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ((3))

[سورة الأحقاف]

يعني قريب من مليون مليون مجرة، كل مجرة فيها قريب من مليون مليون نجم، بعض الشموس تكبر شمسنا بمليارات المرات، المجموعة الشمسية طولها مسافات شاسعة، الأرض نقطة في هذا الكون الكبير، الأرض أربعةُ أخماسها محيطات، وخمس قارات، وتجد المدينة الصغيرة، لا شيء أمام حجم الأرض، فهذا الكون لماذا خلق ؟ من خلقه ؟ ولماذا خلقه ؟ وماذا بعد ؟ فهذه أسئلة كبرى، جاء الجواب:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ((3))

[سورة الأحقاف]

السعيد من عرف الله فاختار الحياة الباقية:

ما معنى بالحق ؟ إنّ الله عز وجل وصف القرآن الكريم بأنه مثاني، قال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87))

[سورة الحجر]

من معاني المثاني، أن الآية تنثني على أختها فتفسرها، وربنا عز وجل نفى أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، ونفى أن يكون خلق السماوات والأرض لعباً، وأثبت أنهما بالحق، ما هو الحق إذاً ؟ نفى أن يكون الخلقُ بالباطل، نفى الباطل ونفى اللعب، وقال بالحق خلقت السماوات والأرض، معناها الحق هو الشيء المناقض للباطل، والشيء المناقض للعب، الباطل هو الشيء الزائل، و اللعب الشيء العابث، فالحق ثابت وهادف، يعني أنت، أنت خلقت بالحق، ما معنى بالحق ؟ أنك خلقت لتبقى، الموت حالة طارئة تصيبك، انفصال النفس عن الجسد عن الروح، حالة عرضية تصيب الإنسان، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران: الآية 185]

خلقت لتبقى، وخلقت لهدف عظيم، فمن هو السعيد ؟ هو الذي عرف أنه خلق ليبقى، فاختار الحياة الباقية، وعرف أنه خلق لهدف عظيم، فبحث عن هذا الهدف.

كل إنسان مخلوق بالحق و لهدف عظيم:

كلمة "بالحق" وحدها تكفي.

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ((3))

[سورة الأحقاف]

بالحق، هو الثبات، والديمومة، والاستمرار، أحيانا ننشئ جامعة، يقول لك استغرق بناؤها عشر سنوات، لأن الجامعة بنيت لتبقى، لكن ؛ جناح في معرض قد يكون من قماش، وقد يكون من مواد أولية بسيطة جداً، لا تقوى على الاستمرار شهراً، فالجناح في المعرض بني ليزال بعد حين، لكنّ الجامعة بنيت لتبقى، فكلمة "بالحق" تعني الشيء الثابت، وأنت مخلوق بالحق، قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77))

[سورة الزخرف]

خلق الله عز وجل الإنسان ليبقى:

خُلق الإنسانُ ليبقى، هذه نقطة هامة، وخُلِق لهدف عظيم، فالله عز وجل نفى اللعب، ونفى البطل، فالباطل هو الزوال، واللعب هو العبث، فأنت حينما توقن أنك مخلوق بالحق، وأن الكون كله خلق بالحق، وأنه ما من شيء خلقه الله إلا بالحق، وأن الموت حق، وأن الجنة حق، كيف يلقن الميت ؟ يا

عبد الله اعلم أن الجنة حق، والنار حق، والميزان حق، إلى آخره، كلمة حق، شيء ثابت، واضح، والحق تعني الشيء الهادف، فنحن نسعد إذا أيقنا بالثبات، وهذا ما يؤكده قوله تعالى:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ((3))

[سورة الأحقاف]

الشارد عن الله لا يدخل موضوع الموت في حساباته أبداً:

إنّ الإنسان قد يشتري بيتاً ليتملكه، وكلما دخل إلى البيت يشعر أن هذا البيت بيته وملكه، ويبقى فيه زمنًا ؛ شهرًا، شهرين، سنة، سنتين، خمساً، عشراً، والبيت بيته، أما إذا استأجر بيتاً إيجاراً سياحياً، فالمدة ستة أشهر بالضبط، ولا يتمكن من البقاء في البيت بعدها يوماً واحداً، ويصير إحساسه بالزمن قويا جداً، مضى شهر، مضى شهران، بقي أربعة، بقي ثلاثة أشهر، إحساسه بالزمن قوي، لأنه يقيم في بيت إقامة مؤقتة، والزمن يمضي ويتناقص، والإنسان أيها الأخوة أحياناً ينسى الزمن، لأنه شارد، وكأنه لا موت يرقبه، فموضوع الموت لا يدخل في حساباته أبداً، يغفل، ينغمس في الملذات، في كسب المال، يدخل منافسات، يدخل سباقات في الدنيا، يبني قيماً باطلة كلها، يتنافس مع زملائه لتجميع أكبر مبلغ ممكن، همُه الربح والثراء، يتنافس في درجات، في منجزات، في مكتسبات، كلها قيمتها في الدار الآخرة باطلة، لأن الإحساس بالزمن ضعيف لديه، لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَالْعَصْرِ ((1))

[سورة العصر]

أقسم بالزمن تنبيهاً للغافلين، فأنت زمن.

من عناصر سعادة الإنسان أنه خلق لهدف كبير ولم يخلق عبثاً:

هناك شيء ثان، من أجل أن تنجو، لابد أن تشعر وتوقن بالرسالة التي أنيطت بك، أنت مكلف، أجل: مكلف، أنت المخلوق الأول المكرم، المكلف، فأنت إذًا مخلوق أول، مكرم، مكلف، فسعادتك بمعرفة هذا التكليف، وتنفيذ هذا التكليف، وأنت مخلوق للأبد، الموت حالة طارئة، كمثل الإنسان يخلع ثياباً بليَت ويلبس ثياباً جديدة، وإذا امرؤٌ خلع ثياباً وارتدى ثياباً، فهل تغيرت حقيقتُه ؟ هو هو، ثقافته هي ثقافته، معلوماته هي معلوماته، شخصيته هي ذاتها بملكاته وإمكاناته، فقط بدل الثياب، والموت عملية تبديل، يخلع هذا الثوب الأرضي الترابي، ويرتدي ثوبا نورانياً في الجنة، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ((169))

[سورة آل عمران]

إذًا عناصر سعادتك، أن تعرف أنك خلقت لتبقى، بالحق مخلوقاً، وتعرف أنك خلقت لهدف كبير ولم تخلق عبثاً.

الأحمق من حسب أنه سينجو و يتفلت من عقاب الله:

انظر مليًّا في القرآن الكريم، قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

[سورة المؤمنون]

وقال كذلك:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38))

[سورة القيامة]

من دون حساب، اغتصاب أموال من دون حساب، اغتصاب أموال، وانتهاك أعراض، استعلاء في الأرض، هل يعد هذا ذكاء ؟ حينما يحسب الإنسان أنه يتفلت من عقاب الله، فهو أحمق حقًّا، قال سبحانه:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

[سورة الحجر]

وقال:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

[سورة إبراهيم]

شعور الإنسان بالزمن أنه سيمضي هذا الشعور يجعله على الصراط المستقيم:

نجاتنا أيها الأخوة ؛ إذا عرفنا أننا خلقنا بالحق، خلقنا لنبقى، وهناك هدف كبير يجب أن نسعى إليه، فالآن نحن في الدنيا، وأهم شيء في الدنيا أن نشعر بالزمن، فأنت رأسمالك زمن، وأنت باقٍ لأجل مسمى، الإنسان كل يوم يستيقظ كالذي سبق، فهل يبقى إلى ما لا نهاية، مستحيل، مستحيل، فإذا أراد ربنا عز وجل أن يقبض هذا العبد، فقد يبدأ بمرض، يا ترى بالكلية ؟ أو بالكبد ؟ أو بالقلب ؟ تصلب شرايين ؟ خثرة دماغية ؟ لا نعرف، كل يوم نستيقظ كالذي سبق، فهل إلى ما لا نهاية ؟ مستحيل، لكل أجل مسمى، ذكرت لكم قبل أسبوع، أنه وقع تحت يدي كتاب وصاحب الكتاب طبيب مشهور، توفي(رحمه الله) عمل مقالات بمجلة طبية، من ثلاثين سنة، و كل مقالة أوفى من الأخرى، كيف تحافظ

على نعومة جلدك، على رشاقتك، على كبدك، على كليتك، اطلعت على الفهرس، مقالات رائعة جداً، لكن فوجئت أن الطبيب نفسه مؤلف الكتاب مات، فلماذا لم يحافظ على كليتيه ؟ وعلى و على...؟ مات بعد ذلك، الموت لابد منه، إذا شعرت أنك مؤقت ولأجل مسمى، وهذا البيت مؤقت، هذه الوظيفة مؤقتة، كل شيء بين يديك مؤقت، وشعورك بالزمن أنه سيمضي، وأنه سيأتي يوم تحاسب فيه، هذا الشعور يجعلك على الصراط المستقيم.

من عرف الحق نجا من عذاب الله في الدنيا و الآخرة:

ثلاث كلمات كان درسنا اليوم في محيطها: الإنسان، خلق بالحق، ولأجل مسمى، يعني، خلق ليبقى، وخلق لهدف كبير، والآن بقاؤه في الدنيا مؤقت، تجد الإنسان عندما يبني بيتاً، ويؤثِّثه ويزينه، و كأنه سوف يعيش فيه مليون سنة، فهناك أشخاص بعد أسبوعين من انتهاء البيت ماتوا، بعد أسبوعين، أو أسبوع أحياناً ! فثلاث كلمات ؛ أنت واحدة، ثم خلقت بالحق، والثالثة لأجل مسمى، والحق خلاصته في كلمتين، الديمومة والهدف، والأجل إحساس بالوقت، تتذكرون مثال البيت المؤجر تأجيراً سياحياً ستة أشهر، يجد أنه مضى شهران، فهو يحسب كل يوم مضى، وكم يوماً بقي، إنه مضطر لتغيير البيت، وينتقل إلى بيت آخر، أما الذي اشترى بيتاً، ينسى الزمن نهائياً، فلذلك نحن ننجو إذا عرفنا الهدف الكبير، وعرفنا أننا مخلدون، إما في جنة يدوم نعيمها، أو لا سمح الله ولا قدر في نار لا ينفذ عذابها، وقد قال ربنا عن آل فرعون:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

[سورة غافر: الآية 46]

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

[سورة غافر]

ستة آلاف سنة مضت، وهم يعرضون يومياً مرتين على النار، إنه عذاب نفسي مرير.

كل شيء في الحياة الدنيا مرهون بوقت و مدة:

أما الشيء الآخر فهو:

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36))

[سورة البقرة]

إنّ الإنسان إذا نزل بفندق فخم، كل ليلة بعشرة آلاف ليرة، ثلاث ليالٍ فقط، هذا جهدي وهذه إمكاناتي، وإذا سافر أحدٌ إلى بلد أجنبي، فيدرك أنه سيرجع بعد أسبوع، ولا يتحمل أية نفقة أكثر من ذلك، كلٌ

شيء مرهون بوقت ومدة، كله مؤقت، فلذلك وأجل مسمى، وإذا علمت أنك في هذه الدنيا مؤقت، ولا بد أن تنتقل للدار الآخرة عملت لحياتك الأخرى.

الغفلة هي أخطر مرض يصيب الإنسان:

لكن الذين كفروا عما أنذروا معرضون، فالكافر غافل، يعني أخطر مرض يصيب الإنسان، الغفلة، أجل الغفلة إذا كان إنسان راكباً سيارة، وتنطلق به بمنحدر شديد، والمناظر جميلة، وعلى اليمين، وعلى اليسار غابات، والنسيم عليل، وليس معه مكبح، وفي النهاية منعطف حاد، وهو يضحك، معناه: أحمق، أحمق حقيقة، ولو عرف الحقيقة لتدارك أمره، ولو تيقن أنه ليس في السيارة مكبح لأصلح منذ البداية حاله، لكن لم يعد الآن سرور، ولا ضحك، فكل إنسان يضحك وهو يعصي، كالذي يركب مركبة تهوي بمنحدر شديد، في نهايته منعطف حاد، وليس معه مكابح، يضحك، وينظر إلى الغابات، ولا يدري سوء المصير، بينما ترى الإنسان المؤمن، دائماً يعيش في مستقبله، يعيش آخرته، لا يعيش في الماضي، ولا يعيش في الحاضر، الحاضر يتعامل معه لصلاح المستقبل.

النار عاقبة من أشرك مع الله أحداً آخر:

قال تعالى:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة الأحقاف]

إنهم معرضون عن الحق، ملتفتون إلى الباطل، وقديماً كانوا مع ضيق التفكير على مستوى الشعوب، يعبدون الأصنام ؛ كانت القبيلة تعمل صنماً من تمر، تجوع فتأكله، مرة رجل أديب، شاعر، رأى ثُعلبانًا (أي ثُعلبًا) يبول على رأس صنم، فقال:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه لقد ضل من بالت عليه الثعالب

* * *

عدم قدرة الأوثان على الخلق:

كان العرب في الجاهلية يعبدون أصناماً من دون الله، لا تتكلم، ولا تسمع، ولا تتحرك، ولا تملك موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، والإنسان أحياناً يعبد الشخص، يقول لك: فلان يدعمني، فلان يده طائلة، فلان يخلصني إذا نابني شيء، هذا كذلك شرك، ربنا عز وجل قال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة الأحقاف]

إما أن يكونوا أصناماً، وإما أن يكونوا أشخاصاً، فهم سواء:

(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ)

[سورة الأحقاف]

هذا الذي تعامله كما يُعامل الإله، ماذا فعل ؟ أيخلق إنساناً ؟ أيخلق دجاجة ؟ أيخلق ذبابة ؟ لو جاءه مرض عضال، هل ينجو منه ؟ تسمع أن ملوكاً أصيبوا بمرض خبيث، إنه ملك! نعم ملك، وهذا الذي تدعونه من دون الله، هل يستطيع أن يصرف عنه مرضاً خبيثاً ؟ لا يقدر، قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ)

[سورة الأحقاف]

الغبي من عَبَدَ الأوثان من دون الله:

الآن، ربنا عز وجل علمنا أن هناك دليلين، دليل عقلي ودليل نقلي، قال سبحانه:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ)

[سورة الأحقاف]

هذا الدليل العقلي، أما الدليل النقلي:

(ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4))

[سورة الأحقاف]

يعني إما أن تأتي بدليل عقلي، أو دليل نقلي، لكن لا دليل عقلي ولا دليل نقلي، وتعبد من دون الله أوثاناً، لا يملكون موتاً، ولا حياة، ولا رزقاً، ولا يسمعون، ولا يستجيبون، هذا هو الغباء الحقيقي.

من استعان بالله و لجأ إليه اطمأن و ارتاح:

لذلك يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5))

[سورة الأحقاف]

الإنسان ضعيف، هكذا خلقه الله، فمتى يرتاح ويطمئن ؟ إذا استعان بقوي، إذا احتمى بقوي، إذا لجأ إلى قوي، فمن هو القوي ؟ هو الله، ما سوى الله ضعيف مثلك، أحد الخلفاء رأى عالماً جليلاً في الحرم المكي، قال له سلني حاجتك ؟ قال له: والله إني لأستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما التقاه خارج الحرم، قال له سلني حاجتك ؟ قال له: والله ما سألتها من يملكها، أفأسألها من لا يملكها ؟ فلما ألحَّ عليه، قال له: نجني من النار، قال له هذه ليست لي، فقال العالمُ: إذاً ليست لي عندك حاجة، فيا أخي حاجتك كلها عند الله عز وجل، الدعاء اللطيف: اللهم ولا تجعل حوائجنا إلا إليك، لا تجعل حوائجنا إلا إليك، اجمعنا عليك، وفرقنا عليك، ولا تجعل حوائجنا إلا إليك، لذلك المؤمن عزيز عند بالله، شريف، كما قال النبي الكريم: شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس....

المؤمن لا يبذل ماء وجهه إلا لخالقه سبحانه:

تحس بنفس المؤمن غنى، وليس مستعداً أن يبذل ماء وجهه، ولا يتضعضع لأحد، ولا يتذلل لمخلوق، والإنسان المؤمن يقصد الواحد الديان، بصلاته، بركوعه، بسجوده، بقيام ليله، بدعائه، يا رب ليس لي إلا أنت، هذا الإخلاص في الدعاء، الله عز وجل يعطيك، قال سبحانه:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8))

[سورة الانشرح]

الموت أكبر واعظ للإنسان:

أيها الأخوة الأكارم، أرجو الله سبحانه وتعالى أن نستفيد من ثلاث كلمات في هذا الدرس، أن نعرف الهدف، وأن نعرف الديمومة، وأن نعرف التوقيت في حياتنا الدنيا، نحن مؤقتون، يعني لا تجد أحداً منا سواء من أقربائه، من جيرانه، من أصحابه إلا و يسمع أن فلاناً توفي رحمه الله، وبالشام وحدها تجد خمسين، أو ستين نعوة في اليوم، وقال لي شخص: إن النعوات المكتوبة عُشر غير المكتوبة، معنى هذا أن عدداً كبيراً يموت كل يوم، والإنسان بعد موته أين ذهب ؟ إلى أين ؟ ترك بيته إلى المثوى الأخير، فهذا الموت أكبر واعظ، يقول سيدنا عمر: كفى بالموت واعظاً يا عمر، كفى بالموت واعظاً يا عمر، وكل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال، فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمــول

* * *

أضلّ إنسان من يدعو من دون الله من لا يستجيب له:

كان أحد الصالحين قد اشترى قبراً، وصار يضطجع فيه كل خميس، ويتلو قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

[سورة المؤمنون]

فيخاطب نفسه ويقول: يا نفس قومي، لقد أرجعناك، فالإنسان ليتصور نفسه في كل يوم أنه قد انتهى أجله، ليهيئ أموره، حساباته، فإذا به جانَب المعاصي وأدّى الحقوق، وكلّ التزاماته أنفذها، ويبقى خفيفاً، التائب خفيف، والمذنب تثقله الكوابيس، عليه أوزارٌ كالجبال تسحقه، ومن أضل (ليس هناك رجل أضل من هذا الذي يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة)، بربكم، تحتاج إلى تأشيرة خروج مثلاً، ذهبت إلى دائرة الهجرة والجوازات، بناء مؤلف من أربعة طوابق، لا يمنحك هذه التأشيرة إلا المدير العام، فإذا وقفت أمام مدخل الدائرة، وهذا الذي يكتب العرائض، رجوته أن يوافق لك على الخروج، ألا يكون أحمقاً من يفعل هذا ؟ فما دخل كاتب العرائض ؟ تتجه إلى إنسان لا يملك شيئاً، أربعة طوابق، كل الموظفين لا يملكون حق التوقيع إلا المدير العام، العقل يقول لك: اذهب إلى المدير العام، هذا الذي بيده التوقيع، تبذل ماء وجهك لإنسان لا يملك لك حق التوقيع، إنها حماقة، بل اسأل: يا أخي بيد من القضية ؟ من المسؤول عن الموضوع ؟ من الذي يوقع ؟ ممّن الموافقة ؟

العاقل من استعان بمن بيده كل شيء:

هكذا يفعل الناس، فلماذا مع رب العالمين لا تفعل هكذا ؟ الأمر بيده، المرض بيده، الرزق بيده، الشفاء بيده، السعادة بيده، الزواج بيده، أعداؤك بيده، أصدقاؤك بيده، زوجتك بيده، أولادك بيده، كل شيء بيده، ضِمْنَ القلب، فالدسامات بيده، والشرايين كذلك، يقال لك: تسعون بالمئة أنها مسدودة، لكن الأمر بيده، كله بيده، أحياناً ينسد الشريان، وأحياناً ينفتح، فالكل بيده، فلماذا لا نتجه إليه ؟ لماذا لا نتوسّل إليه ونرجوه ؟ لماذا لا نقف بين يديه ؟.

أيها الأخوة الأكارم، قال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5))

[سورة الأحقاف]

قال تعالى:

(وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6))

[سورة الأحقاف]

هذه الآية إن شاء الله تعالى، في درس قادم نتابعها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (2-6): تفسيرالآيات 7-11 ، إصرار الكفار على العناد و الاستكبار و تعطيل القدرات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-11-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة الأحقاف.

الكفار في أي مكان و زمان ردهم على الحق واحد:

مع الآية السابعة وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7))

[سورة الأحقاف]

النبي عليه الصلاة والسلام، فيما روي عنه قوله: " ملة الكفر واحدة "يعني الكفار، في أي زمان، وفي أي مكان، ردهم على الحق واحد، تارة يقولون غيبيات، تارة يقولون ما وراء الطبيعة، تارة يقولون هذا فكر ليس واقعياً، لا يعنينا، نحن مع الواقع، كما يقولون: هذه مثاليات حالمة، هذا سحر مبين، هذه تقاليد، هذا فكر كلاسيكي، أساطير الأولين، هذه ردود الكفار دائماً.

عدم وجدان السعادة و الهدى لا يدل على عدم وجودهما:

الآية الكريمة التالية واضحة:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

[سورة هود: الآية28]

بينة، فكر واضح، عقيدة ناصعة، مبادئ كالشمس الساطعة، قال الله تعالى:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

[سورة هود]

هذه السعادة، أي قاعدة بالفلسفة، أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود كلية، يعني إذا الإنسان لم ير سعادة في حياته، ليس معنى ذلك أنه ليس في الأرض سعادة، إذا لم تر هدى في حياته، ليس معنى هذا ليس في الأرض هدى، عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، الإنسان التائه، الشارد، الضائع، الشقي،

المتحّير، الخائف، القلق، هذا له أن يقول: أنا خائف، وقلق، له أن يقول ذلك، ولكن ليس له أن يقول، ليس في الأرض هدى، وليس في الأرض قيم، وليس في الأرض رحمة.

الناس رجلان رجل موصول بالله و رجل مقطوع عنه:

لذلك أيها الأخوة الكرام، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7))

[سورة الأحقاف]

يعني معركة الحق مع الباطل، معركة أزلية، أبدية، دائماً من الناس مؤمن وكافر، ومنهم مستقيم ومنحرف، منهم عادل وظالم، فيهم موصول بالله، وفيهم مقطوع عن الله، بين الناس قاسي القلب، وبينهم رحيم، القصة كلها، أنك أحد رجلين، موصول بالله، أو مقطوع عنه، إذا كنت موصولاً فأنت رحيمٌ، وأنت متواضعٌ، وأنت منصفٌ، وأنت منضبطٌ بالشرع، وأنت موصولٌ، وأنت محسنٌ للخلق، فالقضية تتلخص في أنك يجب أن تختار أحد الاتجاهين، الاتجاه الأول، أن تختار العقل، العقل يقودك إلى الله، والله يأمرك بالإحسان وبالعدل، والله سبحانه وتعالى أعدك لحياة أبدية، وهذه الدنيا، حياةٌ دنيا إعداديةٌ لحياة عليا أبدية، فهنا الاختيار، اختيار مصيري، يعني أحياناً ليس من موضوع في حياة المؤمن أو في حياة الإنسان أخطر من دينك، قال لابن عمر: دينَك دينَك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا، قال تعالى:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7))

[سورة الأحقاف]

كل ما في الكون يدل الإنسان على الله عز وجل:

إذا أراد الإنسان أن يدرس مثلاً، فالكتاب يفيده، والمعلم يفيده، ووسائل الإيضاح تفيده، مناقشة في أسرته تفيده، مجلة فيها مقال علمي تفيده، هذا إذا أراد أن يتعلم، أما إذا رفض العلم من أصله، فلو وضعنا له أعظم الأساتذة، وألحقناه بأعظم المدارس، ثم وفّرنا له أفخم مكتبة، ووفّرنا له كل الوسائل السمعية، والبصرية، فلن يستفيد، فالهدى قرار داخلي، إن لم تتّخذ هذا القرار، لا شيء في الأرض يفيدك في الوصول إلى الهدى، وإن اتّخذت هذا القرار، كأس الماء يعلّمك، صوت الطّائر يرشدك إلى الله، القمر يدلك على الله، أي شيء تقع عينك عليه يدلّك على الله، أي حدث يقع لك تفهمه فهماً عميقاً، فهماً دينياً، فهماً إلهياً، فالخلاصة أن الإنسان يحْدِثُ في نفسه رغبة كي يهتدي، عندئذ كل ما في الكون يدله على الله، بل إن الكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى.

إصرار الكفار على العناد و الاستكبار و تعطيل القدرات:

أما الاتجاه الثاني فهؤلاء الكفار تتلى عليهم الآيات بينات، واضحات، بليغات، ومع ذلك، قالوا هذا سحر مبين، فخذ مثلاً أعمام النبي عليه الصلاة والسلام، ألم يلتقوا بالنبي؟ ألم يروا منطقه ؟ ألم يسمعوا حجته ؟ ألم يروا كماله ؟ ما أفادهم ذلك شيئاً، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2))

[سورة المسد]

أي أن أصحاب الاتجاه الثاني أصروا على العناد والاستكبار وتعطيل كل القدرات.

أما سيدنا سلمان الفارسي، جاء من بلاد فارس، كاهنٌ ينقله إلى كاهن، إلى أن وصل إلى النبي باختياره و سعيه.

الهدى قرار داخلي:

أيها الأخوة الكرام، نقطةٌ دقيقةٌ جداً أريد أن أقف عندها قليلاً، الهدى قرار داخلي، اختيار، إن اخترت الهدى، كل شيء في الكون يدل على الله، وإن لم تختر الهدى، لا شيء في الأرض تستفيد منه، حتى القرآن، وهو عليهم عمى، قال تعالى:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82))

[سورة الإسراء]

القرآن نفسه ما أجدى معهم، حتى الدعاة إلى الله لا يعبؤون بكلامهم، ينظرون إليهم من زاوية أخرى، يتهمونهم: لعل لهم مصالحَ، لعل لهم أغراضاً ماديةً من هذه الدعوة، يتعامون عن فحوى دعوتهم، وعن حقيقة الهدى التي جاؤوا بها، قال تعالى:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

[سورة الأحقاف]

القرآن الكريم أكبر حجة على أنه كلام الله عز وجل:

الحقيقة، هذا القرآن جاء النبيَّ عن طريق الوحي، والقرآن أكبر حجة على أنه كلام الله عز وجل، إعجازه: فيه إعجاز علمي، فيه إعجاز تشريعي، فيه إعجاز لغوي، فيه إعجاز بلاغي، فيه إعجاز إخباري، فيه إعجاز تربوي، فإذا أردت أن تفهم كلام الله، وأن تتدبر آياته، كل يوم، تضع يدك على دليل قطعي، جامع، مانع، على أن هذا الكلام كلام الله، يعني ؛ ما من صفحة في كتاب الله، ما من آية،

ما من توجيه، ما من أمر، ما من نهي، ما من حكم، إلا ويدلك على أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون كلام النبي عليه الصلاة والسلام، إنه كلام الله، قال تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

[سورة النجم]

كل إنسان يتهم هذا القرآن بأنه من عند النبي فهو لم يقرأه إطلاقاً:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)

[سورة الأحقاف]

معنى ذلك، أنهم يقولون: إنّ هذا الكلامَ كلامُ النبي، فمن يقل ذلك فما قرأ القرآن، يعني: لا يوجد موقف أشد سخافة بالإنسان من أن تأتيه رسالة، فيمزقها قبل أن يقرأها، هل رأيتم إنساناً جاءته رسالة ويمزقها من فوره ؟ لعل فيها حوالة، لعل فيها بشارة، لعل فيها دعوة، كيف تسيغ لنفسك أن تُمزّق هذه الرسالة قبل أن تقرأها، وكل إنسان يتهم هذا القرآن بأنه من عند محمد عليه الصلاة والسلام، هذا كلام مفترى، يقولون: محمد إنسان عبقري، ذكي جداً، صاغ هذا القرآن، اقتبس من بَحيرة الراهب، ومن أمية بن أبي الصلت، وجمع هذه الآيات، وجمع بدعوته العرب، وأراد أن يكون زعيماً لهم، هذا كلام الأجانب، الكفار، كل إنسان يتهم هذا القرآن بأنه من عند النبي، لم يقرأه إطلاقاً.

من قرأ القرآن الكريم قراءة متأنية اكتشف الإعجاز فيه:

أحد أكبر علماء البحار عرض ما توصل إليه في عالم البحار، وهذا العالم قد اكتشف عن طريق صور من المركبات الفضائية أن بين كل بحرين خطاً، بين البحر الأحمر والبحر العربي يوجد خط، عند باب المندب، وبين البحر الأحمر والمتوسط خط، عند قناة السويس، وبين الأبيض والأطلسي خط عند جبل طارق، وبين البحر الأسود والبحر المتوسط خطٌ عند البوسفور، هذا الخط رئي من خلال مركبات الفضاء، هذا العالم الكبير، عالم البحار، وجد أن كل بحر له مكونات، وله درجة ملوحة، وله درجة كثافة، وله خصائص ليست موجودة في البحر الآخر، بل إن مياه أي بحر لا تختلط بمياه البحر الآخر، وعدّ هذا إنجازاً، وقفزة في عالم العلم، وأنها تعني اكتشافًا لم يُسبق إليه.

الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

ثم إنّ أحد العلماء المسلمين سافر إلى بلد أجنبي، والتقى بهذا العالم، وتلا عليه قوله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

[سورة الرحمن]

يقول هذا العالم المسلم، ما إن سمع هذا الكلام، وطلب ترجمته الحرفية، وتأكد أنه في كتاب قديم هو القرآن حتى أعلن إسلامه، ليس معقولاً، شيء لم يعرفه أحد من قبل، بل أضاف إلى ذلك أن البرزخ يمنع مياه كل بحر أن تختلط بمياه البحر الآخر، بينما الحِجْر يمنع أسماك المياه العذبة من أن تذهب إلى المياه المالحة، قال تعالى:

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53))

[سورة الفرقان]

لذلك أكبر أساطيل صيد السمك تجدها في مصبات أنهار المياه العذبة في البحار، لأنه مكان تجمّع سمك هائل، أسماك المياه العذبة لا تذهب إلى المياه المالحة.

الحكمة من مخاطبة الله عز وجل النحل بالمؤنث و النمل بالمذكر:

إذا قرأت القرآن، ووقفت عند آياته، ولا سيما الآيات الكونية، تشعر بما لا سبيل إلى الشك، أن هذا الكلام كلام الله، والآيات هذه من لدن حكيم خبير، وقد ذكرت في الخطبة في أسبوع سابق أنه لماذا خاطب الله النحلة بضمير المؤنث ؟

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا)

[سورة النحل]

ولماذا خاطب الله النمل بضمير المذكر ؟

(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

[سورة النمل]

فهل كان في عهد النبي عالم يعرف أن للنحل ملكة أنثى، ولها ذكر، لكنه لا يشترك في صنع العسل، و الملِكة أنثى في عالم النحل ؟ والإناث تصنع العسل وحدها، وأن النمل ذكر وأنثى ؟ وأن التي تنسج بيت العنكبوت هي الأنثى ؟ اتّخذت بيتاً، هذه التاء المؤنثة الساكنة، هذه من الإعجاز العلمي لكتاب الله، التي تنسج بيت العنكبوت هي الأنثى، والتي تجني الرحيق، وتصنع العسل هي الأنثى، قال تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68))

[سورة النحل]

بينما النمل، خاطب الله مجموع النمل ذكوراً وإناثاً، والمجموع على مبدأ التغليب يُخاطب بضمير المذكر دائماً.

المؤمن الحق يسعى لتعظيم شأن القرآن الكريم:

لو دخل تسع وتسعون طالبة إلى القاعة ودخل معهنّ طالب واحد، نقول دخل الطلاب، من ضمائر التأنيث والتذكير، تعرف أن هذا القرآن كلام الله، يعني لا يوجد كتاب على وجه الأرض، إلا بعد شهر، شهرين، ثلاثة، سنة، سنتين، وجدوا فيه أخطاء، ومع تقدّم العلم فإنّ هذه المعطيات اختلفت، لا يوجد كتاب على الإطلاق، إلاّ بعد حين ظهر فيه بعض النقص، أو بعض الخطأ في المعطيات، لكن هذا القرآن الكريم، مضى على نزوله من السماء أكثر من ألف وخمسمئة عام تقريباً، فما ظهرت حقيقة علمية تصادم آية قرآنية من عند الله عز وجل.

أي إذا كان من عند الله، يجب أن يُقرأ قراءة واعية، متأنية، فيها تدبر، فيها تفكر، فيها موازنة، يجب أن يكون هذا الكلام في قلوبنا، فالإنسان مثلاً، لو أنه اعتلت صحته، لا سمح الله، واستدعى طبيباً من أعلى مستوى، وقال له هذا الطعام لا يناسبك، وصعود الدرج لا يناسبك، وهذا البيت لا يناسبك، وهذه الصنعة التي أنت فيها لا تناسبك، هذه كلها تجهد القلب، مثلاً، فكيف يفكر ؟ فَوراً يسعى لتغيير البيت، وتغيير الصنعة، وترك هذه الأكلات الطيبة، لماذا ؟ لحرصه على صحته، ولأنه صدّق الطبيب، إذًا هذا القرآن الكريم كلام خالق الكون، ليس كلام الطبيب، هذا كلام خالق الكون، ألا ينبغي أن نقرأه، فنحلّ حلاله، ونحرم حرامه، وأن نخاف من وعيده، وأن نستبشر بوعده، وأن نصدق غيبه، وأن نُعظّم شأنه، هذا كتابنا المقرر.

المؤمن من تناسب حجم إيمانه مع حجم تعظيم القرآن الكريم:

تصور يا أخي الكريم، إنساناً عنده مكتبة، والكتب ملءَ جدرانها الأربعة، من الأرض إلى السقف، ويوجد كتاب واحد بهذه المكتبة، سيؤدي أحدنا فيه امتحاناً بعد أسبوع، إنه امتحان التخرج، وسوف يترتب على نجاحه في هذه الشهادة مستقبل باهر، أليس من المنطق والعقلانية أن يقرأ هذا الكتاب المقرر وحده ؟ فنحن ؛ هذا القرآن، كتابنا المقرر، وهو منهج لنا، فيه أسباب سعادتنا، بعدم فهمه أسباب شقائنا، بتطبيق أحكامه أسباب سلامتنا، بتلاوته أسباب اتصالنا بالله عز وجل، فهذا يعني أنْ يتناسب حجم إيمانك مع حجم تعظيمك لهذا القرآن الكريم، هذا كلامه عز وجل قال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: الآية1]

الكون كله دخل في هذه الآية، وآية ثانية أشارت إلى القرآن:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1))

[سورة الكهف]

معنى ذلك أن هذا الكتاب في كفة، والكون كله في كفة، هذا الكون خَلْقُ الله، و القرآن كلامه.

كلام البشر لا يقدم ولا يؤخر في كتاب الله:

قال تعالى:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(8))

[سورة الأحقاف]

نحن الآن أمام نقطة مهمة جدًّا، إنك إذا قلت للذهب نحاس، لا يصير نحاساً، كلام البشر لا يقدم ولا يؤخر في قدر كتاب الله، قل ما شئت عن كتاب الله، قل ما شئت عن رسول الله، النبي حقيقة ثابتة، حقيقة النبوة ثابتة، وهذا القرآن حقيقة ثابتة، إذا قلت هو افتراء، فإنه يبقى وحياً، إذا قلت إن النبي ذكي وعبقري، يبقى النبي نبياً يوحى إليه، فإياك أن تتوهم أن ادعاءك، أو وصفك الأشياء على غير ما هي عليه، يبدّل من طبيعتها، قال تعالى:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ)

[سورة الأحقاف]

فأنْ يأتي إنسان ويدّعي أن هذا الكلام كلام بشر، فهل تعتقد أنّ الله عز وجل لا يحاسبه، لو أنني فعلت هذا، هل تملكون أنني لا أعاقب من قبل الله عز وجل ؟ هل تملكون ألا أكون عبرة للبشر ؟

توعد الله من قال بأن هذا القرآن كلام البشر بالعذاب الأليم:

اسمعوا قوله تعالى:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

[سورة الحاقة]

وبعد، فلما الإنسان يبحث و يجدُّ في الحياة، فإن الله يعطيه مدى، يرخي له الحبل، أما إذا أراد أن يلعب بدين الله، فإنّ الله يقصمه رأساً، إنسان يفتري، يدعي، يتعالم بشيء ما أنزل الله به من سلطان، يبتدع ولا يتبع، فالله عز وجل لا يتركه، الله هو رب العالمين.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: الآية 4]

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18))

[سورة ق]

الآيات التي تحدد مقام النبي عليه الصلاة والسلام:

النبي عليه الصلاة والسلام، قال: إن افتريته فَرضاً. يعني قل: إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً، إذا أنا افتريت كلاماً ما قاله الله عز وجل، وافتريته على الله، فالله سوف يحاسبني، وأنتم لا تستطيعون أن تمنعوا عقاب الله أن يأتيني، وبالمناسبة هناك أربع آيات تحدد مقام النبي عليه الصلاة والسلام، أول آية:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة هود: الآية 31]

ثاني آية:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21))

[سورة الجن]

ثالث آية:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

[سورة الأعراف: الآية188]

رابع آية:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15))

[سورة الأنعام]

العذاب الأليم لمن ادعى أنه يعلم الغيب:

إذا كان هذا شأن النبي، لا يملك لنا ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، ويخاف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم، ولا يعلم الغيب، هذا مقام النبي، فهل يجرؤ إنسان بعد النبي أن يتخطى هذا الخط الأحمر، هذا خط أحمر، أن ليس من شأن البشر أن يعلموا الغيب، وليس من شأن البشر أن يملكوا نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، وليس من شأن البشر أن يستثنوا من طاعة الله عز وجل، قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15))

[سورة الأنعام]

هذه الآيات الأربع، لو جعلتَها مقياساً، فأي إنسان تجاوز الخط الأحمر وادعى أنه يعلم الغيب، أو ادعى أنه يملك لك نفعاً أو ضراً، أو ادعى أنه ينقذك من عذاب الله، فهذا كلام باطل، لك أن تردّه.

كتاب الله عز وجل مقياس لكل إنسان على مرّ الزمان:

إخواننا الكرام، كتاب الله عز وجل مقياس، كيف أن الإنسان أمامه عدة قطع من القماش، على كل قطعة طولها، على لصاقة، وأنت معك متر نظامي، متر أساسي، محدد بقطع معدنية، لك أن تمتحن طول أي قطعة، أنت اكتب على هذه القطعة أي طول تريده، لكن هذا المتر كفيل أن يكشف الحقيقة، فالإنسان كلما تمكن من كتاب الله، يصبح كلام الله عز وجل مقياساً، مرة قال لي أخ: يقول رجل في مسجد: إن كل إنسان يقول: إن النبي ميت فهو كافر، قال له لماذا ؟ قال له لأن النبي يقول: أنا حي طري في قبري، طيب إن الله عز وجل يقول:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30))

[سورة الزمر]

فالحق أنّ هذه الآية مقياس، أنت لو توسعت بفهم كتاب الله، وتعمقت بفهم مدلولات آياته، صار كل كتاب الله مقياساً، أية مقولة، أية قصة، أي ادعاء، أي افتراء، أيّة نظرية أي كتاب، أيّة مقالة، مقياسها كلام الله عز وجل.

الله عز وجل وحده الذي يعلم حقيقة بني البشر:

قال تعالى:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ)

[سورة الأحقاف]

خوضكم في هذا الباطل، في هذه التُّهم، خوضكم في ادِّعائكم أنّ كلام الله كلام محمد، خوضكم في أن هذا الكلام مفترى من عند النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الخوض، وهذا الاسترسال في الباطل، هذا كلُّه يعلمه الله، يعني:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17))

[سورة الإسراء]

والنقطة الدقيقة، يجب أن تعلم علم اليقين، أن الله عز وجل وحده هو الذي يعلم حقيقة بني البشر، النبي عليه الصلاة والسلام، لما جاءه وفد وطلبوا منه علماء وقراء كي يفقهوا قومهم، فأرسل معهم النبيُّ سبعين قارئًا، وقتلوا على الطريق، لِمَ لمْ يعلم أن هذا الوفد كاذب، هذا شأن البشر، لا يعلم إلا إذا أعلمه الله، في حالات كثيرة جدّاً أعلمه الله، فجاءه الوحي، ونبهه، لكن إذا لم يأته الوحي، فالإنسان أيّاً كان لا يعرف حقيقة الإنسان من داخله، لأنّ الإنسان مستور، فكل إنسان يقول لك: الشيخ يعلم خبايا نفس

مريده، يعلم ما يجول في نفسه، يعلم ماذا يأكل في بيته، يعلم ماذا يفعل مع أهله، هذا كلام فيه شطحات، وهو غير صحيح، لأنه الإنسان ليس من شأنه أن يعلم إلا أن يُعلِمه الله عز وجل.

من قيّم الآخرين تطاول على مقام الألوهية:

لذلك:

(هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ)

[سورة الأحقاف: الآية8]

كان سيدنا الصديق رضي الله عنه إذا مُدِح فله دعاء لطيف جداً، كان يقول: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

أي أريد من هذه الآية أن نفهم أن تقييم الأشخاص من شأن الله عز وجل، لا من شأن البشر، وكل إنسان يُقيّم الآخرين، تقييماً في تسرع، و ارتجال، وإجحاف، فهذا إنسان تطاول على مقام الألوهية، تقييم البشر من شأن خالق البشر، حتى إذا زكيت إنساناً، قل: والله أعلم:

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32))

[سورة النجم]

حتى إذا مدحت نفسك، قل أرجو أن أكون كذلك، هذا هو الأدب، والأدب أحياناً يتطابق مع الواقع، أنت كذلك لا تعلم، قال تعالى:

(كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8))

[سورة الأحقاف]

من يشعر أن الله عز وجل يعلم كل شيء يستقيم أمره و ترتاح نفسه:

لذلك فالإنسان إذا آمن بالله إيماناً صحيحاً، ترتاح نفسه، لأن الله عز وجل لا يحتاج إلى إيصالات، لا يحتاج يميناً، لا يحتاج وثائق، هو يعلم، حينما تشعر أن الله يعلم يستقيم أمرك، فالمخلص، لماذا يستغني عن مديح الناس ؟ غني، يشعر بالغنى الذاتي، لأن عمله يعرفه الله تعالى، سيدنا عمر لما جاءه رسول من معركة من المعارك، أعتقد معركة نهاوند، وسأل هذا الرسول عن مصير الجيش، قال له: والله يا أمير المؤمنين، مات خلق كثير، قال له:من هم ؟ عد لي أسماءهم ؟ قال إنك لا تعرفهم، يعني أنّ بعض الأشخاص يعرفهم بأسمائهم، لكنّ خلقاً كثيراً لا يعرفهم بأسمائهم، لعله يعرفهم بوجوههم، قال له: مات خلق كثير أنت لا تعرفهم، بكى سيدنا عمر، ثم قال: وما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم، سر

الإخلاص، أنت لا تحتاج أن يعلم الناس ماذا تفعل، يكفي أن الله يعلم، لا تحتاج أن تبين ماذا فعلت ؟ كم دفعت ؟ كم تكلّفت ؟ كم جهداً بذلت ؟ كم كتاباً قرأت ؟ كم ليلاً سهرت ؟ لا حاجة لذلك، لأن الذي تعبده يراك حين تقوم، فالآية ما أدقها:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ(219))

[سورة الشعراء]

من وصل إلى الله وصل إلى كل شيء:

إخواننا الكرام، حال المراقبة، إذا الإنسان وصل إلى الله فقد وصل إلى كل شيء، لأنه إذا شعر أن الله معه دائماً، ينضبط، والكون كله خلق من أجل أن تعلم أن الله معك، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

[سورة الطلاق]

إذا علمت أن الله يعلم، وأنه سيحاسبك، فلا بد من أن تستقيم على أمر الله عز وجل، النبي عليه الصلاة والسلام في بعض توجيهاته النبوية الشريفة بيّن أن الإنسان ليستحي من الله، كما يستحي من رجل وقور في أسرته، يعني لو فرضنا أن إنساناً همَّ بمعصية، وشعر أنه مراقب، مراقب من إنسان، يكف، يستحي، فكيف إذا علم أن الله معه ؟

من ازداد إيماناً بالله ازدادت عزته بالله وازداد تعففه عن الناس:

يروى أن رجلا راود امرأة عن نفسها، وأغلق الأبواب كلها، قالت له إن هناك باباً لا تستطيع أن تغلقه، إنه باب السماء، فارتعش خوفاً، وكف عن فعلته، فإذا شعرتَ أن الله معك، انتهى كل شيء، إذا شعرت أن كل كلمة سوف تُحاسبُ عليها، أنت تتكلم، هناك من يصدّقك، بإمكانك أن تبالغ، بإمكانك أن توجه توجيهاً خاطئاً، بإمكانك أن تغريَ فلاناً حتى يشتري هذه البضاعة، بإمكانك أن تقول لهذا المريض، إنه يحتاج إلى تحاليل، أو إلى تخطيط، بإمكان المحامي أن يقول لهذا المُوكِّل، القضية رابحة مئة في المئة، بينما هي خاسرة مئة في المئة، لك أن تقول ما تشاء، وهذا الذي أمامك واثق منك، ولا يملك أن يناقشك فيما تقول، فمن الذي يعلم حقيقة ما تقول ؟ الله عز وجل، فتجد المؤمن منضبطاً، فأنا والله أحياناً يأتيني أخ كريم يرجوني أن أوصي طبيباً مؤمناً به، أقول له كلمة يستغرب، أقول له، والله الطبيب المؤمن لا

يوَصّى، لأنه يعلم أنّ الله يراقبه، يعني، يجب ألا تُجدِي معه التّوصية، لأنه يراقب الله في علاجه لهذا المريض، و لا يجرؤ إنسان أن يقول كلاماً غير صحيح، أو فيه مبالغة، أوفيه تخويف، أوفيه ابتزاز، فالطبيب هكذا، والمحامي هكذا، والمهندس هكذا، والمدرس هكذا، كلما شعرت أن الله معك، تجد أنك لا تتكلم إلا بالحق، ولا تقول إلا كلمة الحق، لا تزيد ولا تنقص، وكفى به شهيداً، الله مشاهد، ويكفيك أن الله معك، كفى به شهيداً بيني وبينكم، وهو الغفور الرحيم، والإنسان كلما ازداد إيمانه بالله، تزداد عزته بالله، ويزداد تعففه عن الناس، عن أموال الناس، ومن جلس إلى غني فتضعضع له، ذهب ثلثا دينه، أما المؤمن، يطلب من الله عز وجل، أي يبذل ماء وجهه لربه فقط، يتذلل، يمرّغ جبهته في أعتاب الله، بالسجود، أما مع الناس، فهو عفيف، عزيز، شريف، شرف المؤمن قيامُه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس.

المؤمن قوي في الله بعيد عن النفاق:

أحد الخلفاء رأى عالماً جليلاً في الحرم المكي، قال له سلني حاجتك ؟ قال له: والله إني لأستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلمّا التقاه خارج الحرم، قال له سلني حاجتك ؟ قال له: والله ما سألتها من يملكها، أفأسألها من لا يملكها ؟ فلما ألحّ عليه، قال له: أريد أن تدخلني الجنة، وأن تنقذني من النار، قال له هذه ليست لي، قال له: إذاً ليست لي عندك حاجة، فتجد المؤمن عزيز النفس، قوياً في الله، بعيدٌ عن النفاق، ليس عنده خنوع، دنياه محدودة، لأنه لا يحب الدنيا كما يحبها أهل الدنيا، يكفيه منها ما يُبلّغه المقيل، دخلوا على سيدنا أبي عبيدة بن الجراح، وكان قائد الجيوش الإسلامية في الشام، رأوا في غرفته قدر ماء مغطى برغيف خبز، وعلى الحائط سيفه، ولديه جلد يجلس عليه، فقالوا، ما هذا ؟ فقال هو للدنيا، وهو على الدنيا كثير، ألا يبلّغنا المقيل ؟ تجد الإنسان يسعى للدنيا سنوات قد لا يعيشها، يبني بيتاً لا يسكنه، يُهيّئ مرافق، أي تستهلك عشرة أشخاص، قال تعالى:

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9))

[سورة الأحقاف]

تقييم البشر ليس من شأن البشر بل من شأن خالق البشر:

أيها الأخوة الكرام هذه الآية دقيقة جداً، تروي كتب التفسير أن أحد أصحاب النبي (وهذه القصة أرويها كثيراً لكم) اسمه أبو السائب، توفي، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيت أبي السائب وهو مسجى على السرير، فسمع امرأة من وراء الستر تقول:

((رَحْمَةُ اللّهِ عَلَيْكَ أَبَا السّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللّهُ فَقَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَا يُدْرِيكِ أَنّ اللّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللّهُ فَقَالَ أَمّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللّهِ إِنّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللّهِ مَا يُفْعَلُ بِي قَالَتْ فَوَاللّهِ لَا أُزَكّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[رواه البخاري عن ابن شهاب]

فكما تعلمون أن أقوال النبي عليه الصلاة والسلام تشريع، وأفعاله تشريع، وإقراره تشريع، إذا سكت عند كلام أحد فالذي قيل صحيح، إذا صحابي قال في حضرته كلاماً معيناً، والنبي بقي ساكتاً، فالكلام صار سنة، وصار تشريعاً، أي إنسان غير النبي الكريم، إذا سكت يسكت، فلعله خير إن شاء الله، أما إذا النبي سكت عن قول قيل أمامه، فقد صار هذا القول حقاً، صار تشريعاً، فلما قالت:

((رَحْمَةُ اللّهِ عَلَيْكَ أَبَا السّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللّهُ فَقَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَا يُدْرِيكِ أَنّ اللّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللّهُ فَقَالَ أَمّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللّهِ إِنّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللّهِ مَا يُفْعَلُ بِي))

[رواه البخاري عن ابن شهاب]

يعني ليس من شأن البشر أن يعلموا مصير البشر، كثير من الناس مَنْ يقول لك: هذا إلى الجنة، وذاك كافر، من قال لك هذا الكلام ؟ منتهى السخافة، منتهى الجرأة، منتهى التطاول على مقام الربوبية، أنت تقول كافر ؟! تقول هالك ؟! من قال هلك الناس، فهو أهلكهم، لذلك تقييم البشر كما قلت قبل قليل، ليس من شأن البشر، بل من شأن خالق البشر، فلما قالت، هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنّ اللّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللّهُ فَقَالَ أَمّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللّهِ إِنّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللّهِ مَا يُفْعَلُ بِي))

[رواه البخاري عن ابن شهاب]

الجنة مصير من آمن و استقام على أمر الله و النار عاقبة المتلبس بالمعاصي:

يوجد علماء وقفوا عند هذا القول وقفة طويلة، قالوا ألا يدري النبي أنه إلى الجنة ؟ إذا بشّر النبيُّ بعضَ أصحابه أنهم إلى الجنة فهم إليها، ألا يدري النبي أنه من مات كافراً دخل النار؟ هكذا قال الله عز وجل في القرآن الكريم، فكيف يقول لا أدري ما يُفعلُ بي ولا بكم ؟ العلماء قالوا هذا الكلام منوطٌ بالدنيا، أمّا بالآخرة فالقرآن وضّح كل شيء، وضح كل شيء، حتى إذا الإنسان أمضى كل حياته في طاعة الله، وفي طلب العلم، وفي الإخلاص لله، فإذا قال لك لا أعرف، يجوز إلى جهنم، كل التعب على الأرض، هذا كلام فيه مخالفة لكتاب الله عز وجل، أين قوله:

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ)

[سورة التوبة: الآية 21]

أين هي ؟

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107))

[سورة الكهف]

أنت تخالف كلام الله عز وجل، إذا الإنسان أطاع الله كل حياته، ويقال: لا نعرف، يجوز إلى جهنم مرة واحدة، و إنسان آخر، يرتكب كل المعاصي والآثام، وهو زانٍ، وشارب خمر، رأيناه يلبس ثوباً أبيضاً، لعل الله غفر له، وجهه يفيض نوراً، هكذا يحكي العوام أحياناً، وقد يكون تارك صلاة، شارب خمر، زانياً، ما ترك معصية إلا وقع فيها، يقول لك:" وجهه كبة نور"، رأيناه يلبس ثوباً أبيضاً "، هذه مغالطات، الإنسان إذا آمن، واستقام على أمر الله، وأخلص، فالله وعده بالجنة، وإذا الإنسان مات كافراً متلبساً بالمعاصي، فالله أوعده النار.

لا أدري ما يفعل بي ولا بكم: آية متعلقة بالدنيا و ليس بالآخرة:

أما هذه الآية، ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم، في الدنيا، يا ترى حكمة الله أن ننتصر الآن ؟ أما بعد حين ؟ لا نعرف، يا ترى: أهذه السنة فيها خير ؟ لا نعرف، فيها أمطار غزيرة ؟ لا نعرف، الينابيع تجف ؟ لا نعرف، المحاصيل وفيرة ؟ لا نعرف، وماذا يحدث ؟ فالله أعلم، وهذا الذي حدث في شرق العالم، هذه الدول العظمى التي انهارت، والله لو تنبأ أحدٌ بما آلت إليه قبل خمسة أعوام لأودع مستشفى المجانين، أليس كذلك ؟ لو تنبأ أحدٌ بما كان، قبل خمسة أعوام لعُدَّ مجنوناً، مستحيل، يعني ليس من شأن البشر أن يعلموا الغيب، هذا المعنى، يا ترى، ماذا يحدث ؟ يحدث هذا الذي يقال عنه كذا وكذا ؟ يحدث، أو لا يحدث ؟ يا ترى، الأمور نحو الأحسن، نحو الأسوأ ؟ لا نعرف، هذا اسمه غيب، والغيب لله عز

وجل، يعني ليس من شأن البشر أن يعلم الغيب، هذا المعنى، أما قضية الجنة والنار، واضحة بالقرآن الكريم، الآيات التي تبشر المؤمن بالجنة، والآيات التي تتوعد الكافر بالنار واضحة جداً.

النبي الكريم متبع لأوامر ربه و ليس مبتدعاً:

قال تعالى:

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ)

[سورة الأحقاف]

أنا لست أول الرسل، هناك رسل جاءت قبلي:

(وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ)

[سورة الأحقاف]

أنتم تكلفونني مالا أطيق، افعل كذا، اجعل هذه الأرض تتفجر ينابيع، لا أقدر، أنزل علينا من السماء كتاباً نقرأه، باعد هذه الجبال عن مكة، أنا لا أقدر أن أعرف ما سيكون بعد حين حتى تطالبوني بما لا أطيق.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأحقاف]

أنا متبع، والمؤمن متبع، وليس مبتدعاً، قال أحد العلماء، وقد ذكر ثلاث نصائح تكتب على ظفر، لإيجازها، وبلاغتها، قال: اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع، أعيد: اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسِع.

المؤمن الحقيقي لا يقف موقف المتردد من قضاء قضاه الله عز وجل:

فالنبي الكريم:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأحقاف]

فكل بدعة ضلالة، أجل: كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أنت متبع، أنت كمؤمن لا يمكن أن تقف موقف المتردد من قضاء قضاه الله عز وجل، إذا كنت مؤمناً، يعني الله قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة: الآية 276]

انتهى الأمر، الحكم واضح، وكذلك يربي الصدقات واضح، إذا ترددت أن الصدقة تُنقص المال، فأنت لا تعرف الله عز وجل، أما الآية الدقيقة:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: الآية 36]

إذا الله قضى بشيء، أعطاه حكماً معيناً، قال لك:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة]

إذا كان لك رأي آخر لست مؤمناً بهذا الكتاب، أي إذا أنت بحثت عن رجل غني، ضعيف الدين لابنتك، فأنت لست مؤمناً بكلام الله عز وجل، ولو قلت صدق الله العظيم، ما صدقته، لأنك لو صدقته، لبحثت عن المؤمن فقط، عن المؤمن وكفى.

السعيد من اتبع تعليمات الوحي:

إذاً:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأحقاف]

كلمة الوحي لا أحد يعرف حجمها، الوحي يعني توجيه السماء للأرض، توجيه الخالق، فإذا كان عندك جهاز معقد، وأصابه عطب، وأمامك مئة كتاب على الطاولة، أحد هذه الكتب تعليمات صانع هذا الجهاز، ولك جار خضري مثلاً، تسأل مَنْ عن إصلاح هذا الجهاز المعقد ؟ فهل تسأل الخضري أم تعود إلى تعليمات الصانع ؟ فلإصلاح الحاسوب تسأل الصانع، وهذه تعليماته، هذا المنطق السليم فإذا كان لك رأي، أو موقف مغاير للوحي، فأنت لست مؤمناً، هذا الوحي من عند خالق السماوات والأرض:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9))

[سورة الأحقاف]

نذير، من هو النذير ؟ هو الذي يبين قبل وقوع الشيء علامات وقوعه، فإذا كان الإنسان من السعداء يتعظ، ويأخذ الحيطة.

الله عز وجل يقيم الحجج على من استنكف عن الإيمان:

قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(10))

[سورة الأحقاف]

دائماً الله عز وجل يقيم الحجج، فاليهود رفضوا أن يؤمنوا، لكن عبد الله بن سلام، من أحبار اليهود، آمن، وأصبح من كبار الصحابة، ودائماً وأبداً، هناك أشخاص يُعدُّون حجةً على أقوامهم، لقد آمن ابن سلام، وحسن إسلامه، وصار من كبار الصحابة، ومن بلاد الفرس سيدنا سلمان الفارسي، ومن بلاد الروم صهيب الرومي، فالإنسان إذا استنكف عن أن يؤمن، هناك من يُقيمُ عليه الحجة، أو هناك من تُقامُ عليه الحجة بعدم إيمانه.

الله عز وجل خلق العقل ليكون قائداً لا أداة تبرير:

أما قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10))

[سورة الأحقاف]

لأن الظالم يجعل من عقله أداة للتبرير، العقل يجب أن يكون قائداً، فإذا الإنسان ظلم، وتلبس بمعصية الظلم، صار همه الأول الدفاع عن سلوكه، وعن ظلمه، لكن الإنسان إذا استقام فإنه يرى نفسه مع المؤمنين بشكل عفوي، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

[سورة الماعون]

قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: الآية 50]

فالإنسان عندما يستقيم، يلتقي لقاء عفوياً مع المؤمنين، صار مؤمناً، ما الذي يحول بينك وبين أن تعتقد الاعتقاد الصحيح ؟ المعاصي، والموبقات، والافتراءات، والإنسان لما يعصي، لمّا يكسب مالاً حراماً، يدافع عن ذاته، فهو الآن يكابر، يجعل من عقله أداة تبرير، لا أداة تحرير، العقل قائد، صار مقوداً، العقل حاكم، صار محكوماً عليه.

من أسباب عدم الهدى الفسق والظلم والخيانة والانحراف:

لذلك: إن الله لا يهدي القوم الظالمين.. تحصيل حاصل، جلس مع إنسان متلبس بمعصية، ومصر عليها مستحيل أن تقنعه، لأنه يدافع عن ذاته، أما لو ترك المعصية، فالعقل يأخذ دوراً قيادياً، يصدّقك دائماً، لذلك أهون ألف مرة أن تقنع إنساناً بعيداً عن الإيمان، لكنّه أخلاقي، من أن تقنع إنساناً متلبساً بمظاهر الدين، لكنّه غير أخلاقي، لأن هذا يفلسف الأمر لصالحه، إن الله لا يهدي القوم الظالمين، وفي القرآن آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52))

[سورة يوسف]

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7))

[سورة الصف]

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5))

[سورة الصف]

الفسق والظلم، والخيانة، والانحراف، هذه أسباب عدم الهدى.

من لم يذق طعم القرب من الله عز وجل هو أغبى إنسان على الإطلاق:

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)

[سورة الأحقاف]

فعلاً لأن الإنسان، أي إنسان، يحب ذاته، يحب وجوده، يحب استمرار وجوده، يحب كمال وجوده، يحب سلامة وجوده، فكل إنسان بحسب تصوره المحدود، يظن أنه وصل إلى أعلى العُلا، أما لو اطّلع الإنسان الكافر على نعيم المؤمنين، على مشاعر المؤمنين، على ما أعدّ الله للمؤمنين، لاحتقر نفسه، فمثلاً شخص ما أكل في حياته عسلاً، أكل دبساً فقط، فإنه يقسم بالله: أن أطيب أكلة حلو بالأرض هي الدبس، هو صادق حسب واقعه، لكن لأنه لم يأكل عسلاً، فكلامه غلط، إن الكافر مادي، مقياسه الدنيا: بيت، دخل، مال، طعام، نساء، رحلات، سفر، حفلات، هذا مقياسه، ما ذاق طعم القرب من الله عز وجل، ما ذاق طعم السكينة، ما ذاق طعم الاتصال بالله، ما ذاق شعور: "أنه في خدمة خلق الله"، هذا الشعور ما ذاقه، ما عرف ماذا بعد الحياة، هو غارق في حياة مادية محضة، فبذهنه أنه هو سَبَقَ المؤمنين، والمؤمنون في تصوُّره دراويش (أي جدبان) هكذا يظنهم، هو الفَهِمُ فقط: أكل مالاً حراماً،

وركز وضعه الاجتماعي والمادي، ووصل إلى أعلى المراتب، وظن نفسه أذكى الناس، بينما في الحقيقة هو أغبى شخص، لأنه يوم القيامة سوف يدفع الثمن باهظاً.

بطولة الإنسان الكبرى أن يأتيه الموت و هو مستعد للقاء الله عز وجل:

دائماً أقول لكم من يضحك أوّلاً يبكي كثيراً، ومن يضحك آخراً يضحك كثيراً، بطولتك لا أن تضحك أوّلاً، البطولة أن يأتي ملك الموت وأنت في طاعة الله، وأنت مستعد للقاء الله عز وجل، وأنت قد أمضيت كل شبابك في طاعة الله، أمضيت كل وقتك في خدمة الخلق، في معرفة الله، في القيام بأمره ونهيه، هذه هي البطولة، لهذا يقول سيدنا عليٌّ: الغنى والفقر بعد العرض على الله، قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ((11))

[سورة الأحقاف]

أي إذا الإنسان، لم يصِل إلى الهدى، ولم يذق طعم الهدى، فإنه يقول لك مباشرة: هذه غيبيات، وهذا إفك قديم، قال تعالى

(وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12))

[سورة الأحقاف]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (3-6): تفسيرالآيات 13- 16 ، استقامة الإنسان تؤكد إيمانه بالله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-11-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام مع الدرس الثالث من سورة الأحقاف.

الصادق من طابق قوله ما في قلبه:

مع الآية الثالثة عشرة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13))

[سورة الأحقاف]

أولاً: إن الذين قالوا، ولم يقل الله آمنوا، فالعلماء قالوا: كأن الآية الكريمة تشير إلى أنه ينبغي أن يكون القول مطابقاً لما في القلب، فإذا طابق القول ما في القلب كان الإنسان صادقاً، أما إذا كان هناك مسافة واسعة جداً بين ما يقوله الإنسان وبين ما يفعله، صار نفاقاً، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول لمن سأله قائلاً: عظني ولا تطل، فعن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: يا رسول الله أخبرني أمراً في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك قال:

((قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[رواه مسلم عن سفيانَ بن عبد الله رضي الله عنه]

يفهم أن القول ينبغي أن يكون مطابقًا لما في القلب.

ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي:

لما سئل النبي عليه الصلاة و السلام عن الإيمان، قال:

((ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي))

[رواه البيهقي]

بالتمني كأن يقول قائل: اللهم اجعلنا مؤمنين، فالمسلمون دائماً وعلى تقصيرهم، وعلى مخالفاتهم، وعلى خرقهم لحدود الله، وعلى شركهم الخفي، وعلى انغماسهم في الملذات، وعلى أن بيوتهم مليئة بالمعاصي، ومع كل ذلك دائماً يقولون: اللهم اجعلنا مؤمنين، ويقولون: الله يتوب علينا، اللهم لا تعاملنا بعملنا، فالنبي قال ليس الإيمان بالتمني (ليس هذا التمني إيماناً)، ولا بالتحلي، أحدهم وضع مصحفاً في

سيارته، ووضع في محله التجاري: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، وأبرز آية الكرسي بمحله، أو ببيته، ليراها الناسُ، فإذا كان بيتُه يعجُّ باختلاط الجنسين، ويفور فيه نتنُ المعاصي، وفيه غناء، وأعمال لا ترضي الله عز وجل، وليس فيه قرآن يُتلى، فهذه اللوحات ماذا تعني ؟ لا أقول انزعوا اللوحات، لا، أبقوها على ما هي عليه فعسى أن يكون لها أثر يوماً ما، لكن ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، ما وقر في القلب، تَطَابَق مع ما أقرّه اللسان، وصدقه العمل.

من اكتفى بأن الله خلقه و لم يتحقق من ألوهيته فأمره خسارة:

من هو المؤمن ؟ هذا الذي ما في قلبه على لسانه، ويؤكد ذلك عملُه، فالعمل إذا كان موافقًا للقلب، موافقًا للسان، فيشعر القارئ بحلاوة:

(إن الذين قالوا)

يعني كأن الله سبحانه وتعالى، لا يريدنا أن نقول إلا ما هو حق، والقول يكفي، إذا كان القول مطابقًا لما في القلب، إن الذين قالوا ربنا الله، الرب هو المربي، والرب هو الممد، والتربية تربية نفسية و تربية مادية، فربنا الله هو صاحب الأسماء الحسنى، من الذي خلقك ؟ الله جل جلاله، من الذي أمدك بما تحتاج ؟ الله جل جلاله، من الذي أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ؟ الله جل جلاله، من الذي يعالجك إذا انحرفت ؟ الله جل جلاله، فربنا رب العالمين، لكنّ الإنسان إذا اكتفى بأن الله عز وجل هو الذي خلقنا، وهو الذي أمدنا، وهو الذي أنزل هذا الكتاب على نبيه، ولم يتحقق من ألوهية الله عز وجل، وبأنّ الله هو المعطي، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، الأمر كله بيده، المصير كله إليه، له الخلق، وله الأمر، وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، ولا يشرك في حكمه أحداً فأمره خسارة، أما إذا تحققت من مقام الألوهية، فأنت عندئذ مضطر لأن تنصاع لأمر الله، والأمر كله بيده، فمتى يعصي الإنسانُ ربَّه ؟ ولماذا يعصي ؟ وكيف يعصي ؟ يعصي حينما يرى أن في المعصية تحقيقاً لمصالحه المادية أو المعنوية، ومتى يعصي ؟ إذا توهم أو غفل عن أن الذي أمر لا يراه، لكن إذا أيقنت أن الذي أمر يراك، وأنه سيحاسبك، وأن الأمر كله بيده، فلن تعصيه، يعني هذا الكلام ينقلنا إلى موضوع دقيق، الإقرار بوجود الله عز وجل لا يكفي، الإقرار ببعض أسمائه الحسنى لا يكفي، ألم يقل إبليس: رب فبعزتك، الإقرار بوجود خالق عظيم لهذا الكون، والإقرار بوجود ربٍّ حكيمٍ، دون أن تستجيب لأمره، دون أن تنصاع لأمره، دون أن تعبده، دون أن يبدو ذلك في علاقتك اليومية، هذا لا يجدي شيئاً.

الإيمان الحقيقي هو الإيمان الذي ينتهي بالإنسان إلى الاستقامة:

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم)

ثم: حرف عطف يفيد الترتيب على التراخي، ولهذا الحرف معانٍ كثيرة، قالوا ربنا الله ثم استقاموا، يعني إلى أن أثمر إيمانه استقامة، صار لديه تأمل، وصار لديه بحث، وقام بدراسة، وأجرى مع نفسه تساؤلات، وتكونت لديه إجابات، ووقع بينه وبين نفسه حوار ؛ أي قال وتحقق، قال وتبنى هذا الأمر، قال وتعمق، قال و درس، قال وأتى بالبرهان، قال وطلب الدليل، ثم خلصوا إلى أن قالوا ربنا الله، هذا القول انتهى بهم إلى أن يستقيموا، والحقيقة هذا المقياس، دقيق، دقيق، فإن الإيمان لا يعد إيماناً مثمراً، إلا إذا انتهى بك إلى الاستقامة، الإيمان الذي ينتهي بك إلى الاستقامة هو إيمان حقيقي، أما الإيمان الذي لا ينتهي بك إلى الاستقامة فهو إيمان لا يكفي، أو إيمان شكلي، أو إيمان سطحي ناتج عن تفكير تقليدي، أما الإيمان الحقيقي الذي أراده الله عز وجل، من صفاته اللازمة أنه ينقلك إلى الاستقامة، إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، هذا يعني أن الإنسان عليه أن يقتطع من وقته وقتاً لمعرفة الله، قضية الإيمان خطيرة، قالوا ربنا الله ثم استقاموا، مع أن هذا القول أخذ فترة زمنية، واستغرق جانباً من وقت الإنسان، جانباً من تفكيره، جانباً من اهتمامه، بذل جهداً، بذل طاقة حتى استيقن بهذه الحقيقة.

استقامة الإنسان تؤكد إيمانه بالله عز وجل:

إن الذين قالوا، أولاً قالوا: تعني أنه لا ينبغي إلا أن تقول إلا الذي في قلبك، وإذا قلت ما في قلبك، وكان ما في قلبك إيمانًا، فهذا القول أصبح في مستوى الإيمان، ربنا الله، الله عز وجل له أسماء حسنى كثيرة، هو الخالق البارئ المصور، هو الرزاق، هو الغني، هو القدير، هو السميع، هو البصير، ولأسماء الله الحسنى معان دقيقة جداً، فإنّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، والإحصاء غير العد، الإحصاء يعني أن تفهمها اسماً اسماً، أن تفهم المدلول الدقيق لهذا الاسم، أن تعرف كيف يكون الله رحيماً، ما معنى رحمة الله ؟ أن تربط الاسم بأفعال الله، أن تربط الاسم بالآية الكريمة، فالذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يعني كما أقول لكم دائماً، الآيات القرآنية أحياناً تفصِّل، وأحياناً توجز، والدين أن تؤمن بالله وأن تستقيم على أمره، بل إنّ الاستقامة على أمر الله هي محك صحة الإيمان، الدعوى سهلة، أن تدعي أنك مؤمن قضية سهلة، لكن الذي يؤكد إيمانك هو استقامتك، هذا يذكرنا بآيات في سورة فصلت:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: الآية 30]

فعل الإنسان مؤشر لقناعته:

إذاً فالاستقامة هي المؤشر على صحة الإيمان، وكأن كلمة (ثم) تفيد التراخي، يعني أنّ الإيمان يجب أن يأخذ من وقتك وقتاً وجهدا ودراسة، وتمحيصاً ودرساً وبحثاً، إلى أن تتحقق من هذه الحقائق، إلى أن تتبناها عندئذ تجد أنك مدفوع شئت أم أبيت إلى تطبيقها، أوضح مثلاً: عندما يكون ضغط الإنسان مرتفعاً، وثقافته الطبية محدودة جداً، يجلس إلى طبيب، ويحاول هذا الطبيب أن يقنعه، بأن الملح يزيد اختزان السوائل في الجسم، والسوائل إذا اختزنت في الجسم امتلأت بها الأوعية، فصارت حركة القلب مجهدة، أما إذا السائل خفّ بالجسم صار القلب مرتاحاً، لو فرضنا أن الطبيب وضّح بشكل دقيق جداً مضاعفات شرب الماء، مضاعفات إكثار الملح في الطعام، كيف أن الملح يخزن سوائل كثيرة، وكيف أن السوائل لها علاقة بامتلاء الأوعية بالدماء، وكيف أن امتلاء الأوعية بالدماء يجهد القلب، فإذا أتيته بأمثلة بسيطة، ووضحت له حتى قنع، عندئذ تجده ترك الملح في الطعام، الترك دليل قناعة، وهذه نقطة مهمة جداً في حياتنا، ليس المهم ما تقوله، ولا ما تسمعه، ولا ما تقرؤه، موطن الثقل المعول عليه الذي تفعله، لأن الذي تفعله هو تعبير عن قناعتك بالذي تعتقده، قد تقترح على أحدهم يوماً خمسين اقتراحاً فيجاملك، ويقول لك: أنا شاكر لك كثيراً، لكن في النهاية لا يفعل ما هو قانع به، فكأن فعل الإنسان هو مؤشر لقناعته، إذاً إذا كان الإيمان لم ينتهِ بنا إلى التطبيق، فهو إيمان عقيم لا يجدي.

إنهاء الازدواجية في حياة المسلمين:

إبليس آمن، لكنه أبى و استكبر، فأنت إذا اعتقدت بحقيقة صارخة، كأن يقول قائل: أنا مؤمن بالله، فماذا فعل ؟ فما مردود هذا الكلام عنده ؟ الله عز وجل موجود، ووجوده ظاهر في كل خلقه، فأنت إذا قلت للشمس وهي ساطعة، إنها ساطعة، أنت ماذا فعلت ؟ ما أضفت شيئاً، لو قلت ليست ساطعة، وهي ساطعة لسخر الناس منك، إن قلت إنها ساطعة، ما زدت عن أن قلت الحقيقة، وإن أنكرت الحقيقة استخف بك الآخرون، أنت إذا قلت للشمس ساطعة، هي ساطعة، أنت ما فعلت شيئاً، لكنك حينما تستفيد من هذه الأشعة، حينما تسخن بها الماء، حينما تتعرض لها، من أجل صحة الجلد مثلاً، حينما تشتري بيتاً تدخل منه الشمس، فقد استفدت منها، أما أن تقر أنها في كبد السماء، فأنت ما فعلت شيئاً، أريد من هذه الأمثلة أن أقول لكم، حينما تقر أن لهذا الكون خالقاً ولم تستجب لأمره، فأنت ما فعلت شيئاً، حينما تقول: الجنة حق، ولا تعمل لها، فأنت ما فعلت شيئاً، إذا قلت: النار حق ولم تتقها، فكذلك أنت ما فعلت شيئاً، وإذا قلت: الصدقة ترضي الله عز وجل، ولم تنفق من مالك، فما فعلت شيئاً، إن قلت: إنّ أكل الربا يمحق المال، ثم أكلته، فما فعلت شيئاً، أريد وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تُمحَى الازدواجية في حياة

المسلمين، إنها ازدواجية واضحة جداً، تجد الجوامع ممتلئة، ولو دخلت بيوت رواد المساجد لَمَا وجدتَ في هذه البيوت ما يشعر أنهم متمسكون بهذا الدين، هذه المسافة بين الشروخ وبين الاعتقاد، هذه حالة مرضية يجب أن تعالج.

الأمانة و الصدق و التواضع عوامل تشد الإنسان إلى الإسلام:

أساساً أقول لكم دائماً النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

فكيف إذا كنا ملياراً و مئتي مليون ؟! معنى ذلك أنّ عندنا خللاً خطيراً، أداء الصلوات من دون استقامة، تصبح الصلاة جوفاء، أداء الصيام من دون ضبط الجوارح، فالصيام أجوف، أداء مناسك الحج دون عقد صلح قطعي، يصبح الحج سياحة، الأعمال التي يبدو للناس أنها أعمال عظيمة، إذا ابتغي بها السمعة والمديح والثناء، فهذه الأعمال تُفرغ من مضمونها، وتنتهي إلى الإحباط، فنحن نعاني من مشكلة مُرّة حقّاً، إنّ هناك ملايين في العالم الإسلامي، مشاعرها مع الإسلام، تفكيرها إسلامي، تمنياتها إسلامية، كذلك إذا دخلت إلى أعمالهم تجدهم يتعاملون بالربا، تجد كسباً غير مشروع، إذا دخلت إلى بيوتهم لا تجد انضباطاً، لا من حيث الحجاب، ولا من حيث وسائل اللهو، فإذا لم يتميز المسلم، وإذا لم يكن إيمانُهُ صارخاً، وإذا لم يكن إيمانه حقيقياً في عمله، فكيف يَعظُمُ هذا الدين ويسود ؟ الذي أراه أن الذي يشد الناس إلى الدين ليس الصلاة، الصلاة فرض، لكن الذي يشد الناس إلى الإسلام أمانتك، صدقك، وتواضعك.

من آمن بالله الإيمان الحق عليه أن يطبق هذا في بيته و علاقاته:

النجاشي لما سأل سيدنا جعفر عن الإسلام وعن نبي الإسلام ماذا قال ؟ قال: كنا قوماً أهل جاهلية حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه وعفافه، ونسبه، المفروض أن المؤمن يكون في أعلى درجات الأمانة، في أعلى درجات الصدق، في أعلى درجات الاستقامة، في أعلى درجات الإتقان والإخلاص، حتى يشد الناس للدين، باستقامته، بكلمته الصادقة، بتواضعه الشديد، بحبه للخير، هذا الذي أتمنى على الله عز وجل أن يوفقني في هذا الدرس إلى بيانه وتوضيحه،(إن الذين قالوا ربنا الله)، هذا هو الجانب الاعتقادي، يعني آمنت بالله خالقاً، وآمنت به مربياً، وآمنت به مسيراً، آمنت بالله موجوداً، آمنت به كاملاً، وآمنت به واحداً، آمنت بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، وماذا بعد الإيمان بالله ؟ ماذا تنتظر ؟

إصلاح بيتك، عملك، حرفتك، حركاتك، سكناتك، اتصالاتك مع الآخرين، متى تغضب ؟ متى ترضى ؟ متى تعطي ؟ متى تمنع ؟ متى تصل ؟ متى تقطع ؟ وفق منظومة قيم، هذا الذي نشعر أننا بأمس الحاجة إليه،(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا)، فالمؤمن الصادق مهما عظمت دنياه، إذا جاءته من طريق غير مشروع، ينبغي أن يركلها بقدمه، المال مهما كثر إذا كان فيه شبهة، ينبغي أن يدوسه بقدمه، لأن الله عز وجل هو الغني، وهو الرزاق، وهو المعطي، وهو المعز، وهو ذو القوة المتين.

لا يتعاظم إيمان الإنسان إلا إذا طبق ما يعتقد:

إذًا يلمح من الآيات أنهم قالوا ربنا الله، والقول تعبير عن إيمانهم، عما استقر من حقائق الإيمان في قلوبهم، ثم قال، مرة ومرتين وثلاثاً و أربعاً، كلما رأى آية، قال ربي الله، ربي وربك الله، النبي رأى الهلال قال: ربي وربك الله، كلما رأى آية كونية في السماوات أو في الأرض، ورأى ظاهرة تدل على عظمة الله، عظم الله بذكره المتواصل، يعني أحياناً، التراخي يفيد التكرار، يفيد الاستمرار، يفيد التراكم، يعني آمن وآمن وآمن وآمن، إلى أن حمله إيمانه المتراكم على الاستقامة على أمر الله، الإنسان قد يتولّى بنفسه فحص ذاته، فقد يعطي بعض الأطباء مريضاً جهازاً يفحص مستوى السكر ذاتياً، وقد يجري فحصاً دورياً، وأحياناً يعطيه جهاز ضغط، افحص ضغطك كل يوم، فإذا كان الإنسان حريصاً على صحته، حريصاً على جسمه، حريصاً على سلامة أعضائه وأجهزته، يحضر جهازاً إلى البيت، يقول لك: أنا أفحص ضغطي كل يوم، أنا أفحص السكر كل يوم، فهل تفحص إيمانك كل يوم ؟ مثل حرصك على فحص السكر كل يوم، والكوليسترول، والضغط، فلا بدّ أنْ تكون حريصاً على فحص إيمانك، فإيمانك يتعاظم بمدى تطبيقك لما تعتقد.

لا خوف عليهم و لا هم يحزنون: من ثمارها:

المؤمن معافى من القلق الذي يشيع بين المقصرين:

قالوا ربنا الله ثم استقاموا، عندئذ، قطفوا الثمار، أول ثمرة فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، هذا الخوف من المستقبل، هناك قلق عميق عند الإنسان البعيد عن الله عز وجل، المستقبل مظلم، يقول لك: تواجهه مفاجآت، وتطالعه أخطار، لعلي لا أستمر في عملي، هذا هاجسُه إذا كان موظفاً، وكان دخله كبيراً، فلعل تجارتي تبور، إذا كان وكيلاً حصرياً لشركة مثلاً، ولعل مشروعي لا ينجح، ويخشى أنْ تقع منافسة، فهو دائماً يرى في المستقبل شيئاً مخيفاً، كأن هناك ألغاماً في المستقبل، كأنما يغشاه ظلام،

ظلمات بعضها فوق بعض، هذا القلق الذي يشيع بين المشركين، يشيع بين المقصرين، فالمؤمن معافى من كل هذا، فلا خوف عليهم:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: الآية 51]

الله عز وجل لا يغير ما بك من نعمة إلا إذا غيرت ما بك من استقامة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: الآية 11]

انظر، دقة الآية، فأنت في بحبوحة، وأنت على منهج الله، الله عز وجل لا يغير ما بك من نعمة، إلا إذا غيرت ما بك من استقامة، إذاً المقصود الآن أن الثمرة الأولى، فلا خوف عليهم، الشدة النفسية، الضغط النفسي، القلق الممزق، الضياع، الشعور بالقهر، بالحرمان، الخوف الشديد، فهذه الأمراض النفسية، وهذه الشدة النفسية، إنْ صحّ التعبير، هي وراء أمراض كثيرة، وراء أمراض القلب، والأوعية والضغط، وأمراض الجهاز الهضمي، أمراض لا تعد ولا تحصى، حتى إن الشدة النفسية وراء الأمراض العضالة التي سببها ضعف المناعة في الإنسان، إذاً لا خوف عليهم، أنت عبد، لك أن تتلقى عن الله أمره، وعليك أن تطيعه، وانتهى الأمر، وهذا المعنى موجود بآيتين:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66))

[سورة الزمر]

وانتهت مهمتك، وقوله تعالى:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144))

[سورة الأعراف]

مهمة الإنسان في الدنيا:

تجد إنساناً بالتعبير العامي، " يحمل السُلم بالعرض" بالعرض، دائماً يعترض، وينتقد، ويتشاءم، وييأس، ويقنط من رحمة الله، أنت لك مهمتان ؛ مهمة أن تعرف الله عز وجل، ومهمة أن تستقيم على أمره وانتهت مهمتك إذ صار أمرك بيده، دع همّك عند الله عز وجل، هذا الهم الكبير دعه عند الله، واسترح، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون على ما مضى،

حياة المؤمن تبدأ بعد الموت:

قد تجد الإنسان الذي تجاوز الخمسين أو الستين، متألماً أشد الألم على شبابه، كان نشيطاً، وكان يتمتع بصحته تامة، وكان يتحرك حركة خفيفة، أمّا الآن فإنّ حركته صارت ثقيلة، فإذا كنت تتوهم أن الحياة تنتهي عند الموت، فعندئذٍ والله معك الحق، لكنْ ما قولك إذا كانت الحياة تبدأ بعد الموت، نعم تبدأ بعد الموت، والدليل تجده في حسرة الكافر بعد أنْ ظهرت له الحقيقة مُرّة صارخةً فهو:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24))

[سورة الفجر]

فالحياة الحقيقية بعد الموت، والإيمان بالآخرة يحل كلّ مشكلة، فإذا آمن الإنسان يقيناً أنه توجد آخرة، والآخرة هي حياة أبدية مسعدة، لهم ما يشاؤون فيها، على الطلب، بينما الدنيا قائمة على السعي، على السعي المضني، على السعي مع الكدح الشديد، أما الآخرة فعلى الطلب، لمجرد أن تتمنى شيئاً فهو أمامك، والدليل قوله تعالى:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35))

[سورة ق]

فهذه الحياة الأبدية، إذا أنت آمنت بها إيماناً حقيقياً، وسعيت من أجلها، فليس عندك من مشكلة، هكذا تمتص كل مشاكلك، والإنسان لما يرى أن الدنيا ممرٌ وليست مقراً، ويرى أنها مرحلة إعداد وليست مرحلة استقرار، يسعد بها، وقد قال عليه الصلاة والسلام: إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها.

من ازداد علماً ازداد رفعة و مكانة عند الله عز وجل:

إذاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، شيء جميل جداً، لا تحزن على ما فات، ولا تخشَ مما هو آت، أول ثمرة نفسية لمن قال: الله ربي، واستقام على أمر الله عز وجل، أنه لا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت، ولكنّ الذي يحطم الناس، القلق والندم، القلق من المستقبل، والندم على الماضي، فهو يرى أن الشباب مضى وانتهى ولن يعود، كما يرى أن ليس هناك حياة غير الحياة الدنيا، إذاً حينما تمضي دنياه، أو يمضي معظمها، أو يبقى منها أمد يسير، فهذا يورث نفسه كآبة، ويقول لك طبيبه: إنه يعاني من مرض كآبة، وهذا المرض منتشر بأوربا بشكل مذهل، طبعاً هو لا يؤمن بآخرة فأعطى نفسه كل الشهوات حينما كان شاباً، فلما كبرت سنه، وضعف بصره، وانحنى ظهره، وشاب شعره، وأصبح على هامش الحياة، انفض عنه الناس، وتهرب منه أهله، فدخل بمرض الكآبة، الكآبة يعني شعور بالنهاية،

شعور بالاضمحلال، لكنّ الإنسان إنْ آمن بالآخرة لم تعد هناك شيخوخة، بل شباب دائم، كلما ازداد علماً ازداد رفعة عند الله، كلما ازداد علماً ازداد مكانة، كلما ازداد علماً ازداد تألقاً، كلما ازداد علماً وعملاً ازداد سعادة، فلذلك مرض الكآبة هو محصلة القلق والندم، الندم على ما مضى، والقلق مما سيأتي، هذه المحصلة، هي الكآبة، والمؤمن معافى من هذا المرض ولا يعاني من كآبة.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(14))

[سورة الأحقاف]

عطاء الدنيا محدود و عطاء الآخرة إلى أبد الآبدين:

هؤلاء الذين في الدنيا، تعرفوا إلى الله، واستقاموا على أمره، وفي الدنيا لم يخشوا مما سيأتي، ولم يندموا على ما مضى، هؤلاء أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون، والحقيقة أن من كرم الله عز وجل أن حياتك في الدنيا معدودة: ستون، سبعون، خمس وسبعون، أو ثلاثون، أو أربعون، أو خمسون، إنها سنوات معدودة، لكن عطاء الآخرة بعدها إلى أبد الآبدين، في هذه الدنيا المحدودة، إيمانك بالله، واستقامتك على أمره، يجعلك من أهل الجنة، من أصحاب الجنة، خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون.

من حمل ابنه على طاعة الله عندئذ يغدو الابن عملاً صالحاً مستمراً لوالديه:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

[سورة الأحقاف]

هنا حقيقة وهي أنّ عطف الآباء على أبنائهم طبع فيهم، لكن بر الأبناء بآبائهم تكليف، عطف الآباء على الأبناء طبع، الله عز وجل لحكمة أرادها أودع في قلوب الآباء محبة الأبناء، ومع المحبة الرعاية، ومع الرعاية الخدمات، فلذلك محبة والديك لك، هذه من محبة الله لك، لأن الله أحبك أودع حبك في قلوب والديك، لكنك إذا كبرت، وبلغت سن التكليف، فالآن أنت مكلف أن تبر والديك، فبر الوالدين تكليف، بينما رعاية الأبناء طبع، لكن يضاف إلى ذلك أن الآباء حينما يرعون أبناءهم، لهم أجر، و هذا الأجر يزيد كثيراً إذا دلّ الأب ابنه على الله، وعرف ابنه بالله، وحمل ابنه على طاعة الله، عندئذ يغدو الابن عملاً صالحاً مستمراً لوالديه:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا)

[سورة الأحقاف]

العبادة لله وحده والإحسان للوالدين:

هنا يوجد تداخل، فبعض الأبناء يفهم أن الأب يعبد من دون الله، طبعاً لا يقول هذا بلسانه، لكن لو أمره أبوه بمعصية، لو قال له طلق زوجتك، يطلقها رأساً، لو حمله أبوه على كسب مال حرام، لقال: ماذا أفعل ؟ هكذا أبي يريد، فاعلم أنّ الله أمرك أنْ تبرّ أباك، وأن تحسن إليه، لا أن تطيعه في معصية الله عز وجل، العبادة لله وحده، والإحسان للوالدين:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا)

إذاً لماذا الأب ؟ لأنه سبب وجودك في الدنيا.

لا يعرف قدر الآباء إلا من أنجب الأولاد:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا)

الحمل حالة شاقة، تشبه حالة مرضية تصيب الإنسان، الحمل فيه مشقة كبيرة جداً، والوضع فيه مشقة كذلك، فأوّلاً، الأب والأم السبب في وجودك، وثانياً الحمل كان فيه مشقة، ولا يعرف قدر الآباء إلا من صار أباً، فالطفل الصغير كم يأخذ من اهتمامه ؟ من وقته ؟ من انشغال نفسه به ؟ من المال ؟ من الإنفاق والمعالجة ؟ تجد الابن يستقطب اهتمامات الأسرة كلها، ويستقطب كل طاقات الأسرة، من أجل أن ينمو نمواً صحيحاً، فلا يعرف قدر الآباء إلا من أنجب الأولاد.

الحمل حالة شاقة أقله ستة أشهر:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)

وعلى ضوء هذه الآية فإنّ سيدنا عثمان جيء بامرأة ولدت بعد ستة أشهر، يعني بحسب المألوف، كأن هذا الولد ليس من زوجها، فلما همّ أن يقيم عليها الحد، سيدنا أبو الحسن، سيدنا علي رضي الله عنه، ذكر له الآيتين:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ)

[سورة البقرة]

فاطرح أربعاً وعشرين شهراً من ثلاثين، تجد النتيجة ستة أشهر، فمن جمع بين الآيتين، يتضح له أن أقل الحمل ستة أشهر.

(وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار:

هناك خط بياني صاعد، هذا الخط يصل إلى سن الأربعين، عند هذه السن تكتمل رجولة الإنسان، ويكتمل عقله، وتكتمل مشاعره، ويكتمل نضجه، عندئذ تقام عليه الحجة، يعني من دخل في الأربعين أقيمت عليه الحجة، بلغ أشده، وبلغ أربعين سنة، لذلك ورد أنه من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره، فليتجهز إلى النار، يعني بلغ الأربعين وما استقام على أمر الله، فقد نضج عقله، وما هداه إلى الله، وكذلك انفعالاته نضجت، وما اتصلت بالله عز وجل، أي مشاعره ليست إسلامية، فكره غير صحيح، أعماله لا ترضي الله عز وجل، وهو في الأربعين، يعني يجوز أن تعذر شاباً في الثامنة عشرة، في الخامسة عشرة، يوصف بالطيش، يقولون لك: ما استقر بعد، لكن إنساناً في الأربعين قامت عليه حجة كبيرة جداً.

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15))

[سورة الأحقاف]

أولاً، أوزعني يعني ألهمني، أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ.

من آمن بالله و شكر نعمه حقق الهدف من وجوده:

الحقيقة، لما ربنا عز وجل قال:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء]

دقق في هذه الآية:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

فالمعنى أنكم إذا شكرتم وآمنتم لا يعذبكم الله عز وجل، ومعنى لا يعذبكم، أنكم حققتم المراد من خلقكم، معنى ذلك أننا خلقنا كي نؤمن، وكي نشكر، لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى تفضل علينا بنعمة الإيجاد، وبنعمة الإمداد، وبنعمة الهدى والرشاد، فهذه النعم الكبيرة، أنت موجود، لك اسم، وأنت تتلقى كل شيء، هواء، وماء، ولك بيت ومأوى، وعقل، وزوجة، وأولاد، وسائل راحة كثيرة، أنت مغمور بالنعم، فهذه النعم، ماذا تقتضي ؟ تقتضي أن تشكرها لله عز وجل، وأنت إذا آمنت بالله، لأنه خلقك، وأنعم عليك، أوجد وأنعم، إذا آمنت به موجوداً، وشكرت هذه النعم، فقد حققت الهدف الكبير من وجودك، لذلك قال الله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147))

[سورة النساء]

فعليك أن تشعر أن موضوع الشكر موضوع أساسي في حياتك، وما عليك إلاّ أنْ تؤمن وتشكر، فإذا آمنت وشكرت فقد وقعت على الخط المستقيم، على المنهج القويم، حققت الهدف الكبير من وجودك في هذه الحياة الدنيا.

العمل الصالح مقيد بأنه وفق منهج الله:

إذًا:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15))

وتطالعنا في الآية كلمة دقيقة جداً، وهي: أنْ أعمل صالحاً ترضاه والإعراب يفيدنا في إيضاح المعنى ؛ فإنّ (ترضاه) جملة فعلية، في محل نصب صفة لصالحاً، أعمل صالحاً مرضياً عندك يا رب، والصفة قيد، يعني إذا قلت أنا أريد إنساناً ليعمل في هذه الدائرة، أي إنساناً مقبولاً، إنساناً يحمل شهادة ثانوية، وصارت الصفة قيداً، فكلما أضفت صفة قيدت الأمر، فالعمل الصالح في القرآن الكريم مقيد بأنه يرضي الله، معنى ذلك أنّ هناك أعمالاً صالحة لا ترضي الله، يقول لك يانصيب خيري، مثلاً، حفلة ساهرة، يخصص ريعها للأيتام، هذا عمل لا يرضي الله، أي إذا كان فيه معصية، فيه فسق، فيه رقص، فيه غناء، ويُخصّص ريع الحفلة للأيتام، فهذا عمل من زاوية دنيوية صالح، لكنه لا يرضي الله عز وجل، والله قال:

(وأن أعمل صالحا ترضاه)

فالعمل الصالح مقيد بأنه وفق منهج الله، أنت يجب أن تعبد الله وفق منهج الله، لا حسب مزاجك الشخصي.

كلّ إنسان يشقى بشقاء أولاده ويسعد بسعادتهم:

إذاً موضوع النعمة موضوع كبير جداً، أنت يجب أن تؤمن، ويجب أن تشكر، والإيمان رد فعل لوجود الله عز وجل، والشكر رد فعل لإحسانه إليك، هو موجود، وأحسنَ إليك، فرد فعل وجود الله عز وجل، أن تؤمن به، وردك على إحسانه إليك بالشكر له:

(أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي)

الحقيقة أني ذكرت في إحدى الخطب أن الإنسان يشقى بشقاء أولاده ويسعد بسعادتهم، يعني أنّ الأب حينما يرى ابنه مؤمناً مستقيماً، طيباً، صالحاً، يشعر بشعور الرضا و السرور إلى حدٍّ لا يوصف أبداً، شعور: أن ابنك استمرار لك، وأنك تركتَ ذرية صالحة، هذا من الدعاء، وأصلح لي في ذريتي:

(إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15))

فواجب الأب أن يصلح ذريته، بالتوجيه، والإرشاد، والترغيب، والترهيب، والأسلوب الإيجابي، والأسلوب السلبي، والنصيحة مرة، والوعظ مرة، والإعراض مرة، عليك أن تحاول أن تربي ابنك ليكون صالحاً:

(وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15))

[سورة الأحقاف]

الدعاء والرجاء في الإسلام منوط بالعمل و السعي:

الإنسان عندما يقول: وأصلح لي في ذريتي، ويقرأ هذه الآية، ويدعو الله عز وجل من أعماقه:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

[سورة الكهف]

وهذه الآية، طبعاً ليس لها علاقة بالآية الأولى، إلا أنني أستنبط منها أن الرجاء في القرآن مرتبط بالسعي، إذا رجوت شيئاً أو دعوت الله لبلوغك شيئاً ما، فهذا الدعاء، أو ذاك الرجاء ليس مقبولاً إلا إذا سعيت إليه، شخص دعا ربه أن يهديه لطلب العلم ، ولحضر مجالس العلم، فهذا طلبُ هداية من دون جهد، فدعاؤه دعاء فارغ، لكنّ آخر دعا الله عز وجل أن يرزقه، فقام و تحرك وسعى إلى أبواب الرزق، فأصاب رزقًا، فأردتُ أن يفهم كلُّ مسلم هذه الآية:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

[سورة الكهف]

إذا رجوت فاعمل، وإذا تمنيت فاعمل، وإذا دعوت فاعمل.

من دعا الله بأمر جليل ينبغي أن يرى الله في سلوكه ما يؤكد هذا الدعاء:

الذي يقول: وأصلح لي في ذريتي، يردِّد ببساطة: الله يهديهم، ويصلحهم، وأنت لا تُربّيهم، ولا تعلِّمهم، فهذا دعاء فارغ، الدعاء سهل جداً، لا يكلف شيئاً، كل إنسان يدعو الله أن يهدي أولاده، لكن الدعاء في

الإسلام والرجاء في الإسلام منوط بالعمل و السعي، فأنت بعد أن تبذل كل جهدك، وكل طاقتك، بالرعاية والتوجيه، والإرشاد والدلالة، والحرص والإكرام، والتشجيع، بعد أن تستنفذ كل الوسائل في تربية أولادك، قل ربي أصلح لي في ذريتي، الآن صار الدعاء يتناسب مع السعي، فيه أدب صار الدعاء مسموعاً، أما دعاء لا يكلفك إلا كلمتين تردِّدهما، والبيت كله مسيب، لا توجيه، ولا رعاية، ولا أمر بالصلاة، ولا جو إسلامي في البيت، وتقول: ربي أصلح لي في ذريتي، وبدوري أحب أن نكون واقعيين، ونكون مع روح القرآن، لا مع نصه، ليس معقولاً أن تدعو الله عز وجل أن يصلح لك ذريتك، وأنت تهمل هذه الذرية، لا تحملها على طاعة الله، فإذا دعوت الله لأمر جليل، ينبغي أن يرى الله في سلوكك ما يؤكد هذا الدعاء، يا رب نجحني في الامتحان ! ادرُسْ حتى ينجحك، يا رب أضرع إليك أنْ تشفيني، فخذ بأسباب الصحة، نفذ الوصية النبوية، نفذ الطب النبوي، واطلب من الله الشفاء، يا رب أسألك أنْ تهدي أولادي، حاول إرشادهم، ودلهم على الله عز وجل، تقنعهم، تجلس معهم وترشدهم، فأنا أردت من هذه الكلمة، أنّ الدعاء إذا خلا من السعي والعمل، فهذا الدعاء لا قيمة له.

من شروط الدعاء المستجاب الإيمان بالله و الاستجابة لأمره:

لذلك ترى الله عز وجل قال:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186))

[سورة البقرة]

أي إذا آمنوا بي، واستجابوا لأمري، ثم دعوني، فالآن يرشدون إلى الدعاء المستجاب، إذا أردت أن تكون مستجاب الدعوة، فأطب مطعمك.

مرة ثانية أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفقني لتوضيح هذه النقطة ؛ الدعاء سهل، فالمسلمون في شتى بقاع الأرض يقولون: يا رب انصرنا على أعدائنا، اللهم شتِّت شملهم، اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم، اللهم اجعل الدائرة عليهم، هذا دعاء، و هذا وحده لا يجدي أبداً، فإن الله تعالى قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال]

و لكننا نقول: اللهم انصرنا على أنفسنا أوّلاً لكي نستحق أن ينصرنا على أعدائنا، فالدعاء واجب، و شيء أساسي: مخ العبادة الدعاء، لكن الفهم السطحي لموضوع الدعاء هو الخطير، إن الله سبحانه و تعالى يريد أن يرى من عملك ما يؤكِّد دعاءك، فإن دعوت: اللهم أصلح لي زوجي، فليس كاف، بل يجب أن تدلّها على الله تعرّفها بما أمر سبحانه، و بما نهى، و تعمل جادة، وأن تكون لها أنت قدوة،

فعندئذ يصلح أولادك أيضاً، لأن الأبوين في صلاح، ومع دعائهما للأولاد تكون أسرة صالحة. تدعو الله أن يرزقك رزقاً حلالاً طيباً، فيجب أن تسعى في السبل المشروعة لكسب الرزق، تدعو الله أن يعافيك من كل مرض، يجب أن تأخذ بأسباب الصحة، فلما يرافق الدعاء الأخذ بالأسباب وسعي حثيث، وعمل طيب، صار الدعاء جاداً، وعندئذ يكون الدعاء مستجاباً.

الدعاء وحده لا يكفي إن لم يأخذ الإنسان بالأسباب:

حتى لا نقع في مشكلتين، هناك ناس تطرفوا، لم يعبؤوا بالدعاء مطلقاً، يقول لك: يا أخي لا يستجيب لنا الله عز وجل، ولا يسمع لنا، أناس اعتقدوا به اعتقاداً مرضياً، اعتبروا أنك فقط تدعو، انتهى كل شيء عندهم، لا ما انتهى كل شيء، لأنّ الدعاء وحده لا يكفي، ولا عدم الدعاء يكفي، لابد من أن تعمل وتدعو، أن تتحرك وتدعو، أن تأخذ بالأسباب وتدعو، أن تفعل ما ألزمك الله به وتدعو، أن تقوم بجهد مشكور وتدعو، هذا الكلام تعليق على جملة

(وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك وإني من المسلمين)

(أولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف]

العمل إذا لم يرافقه إخلاص ونية عالية لا يقبل:

ثم يقول الله تعالى:

(أولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

[سورة الأحقاف]

فالعبرة بالقبول، أيها الأخوة، هناك عمل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

[سورة الفرقان]

فالعبرة بالقبول، والقبول يحتاج إلى إخلاص، نحن الآن دخلنا في موضوع ثالث، أولاً الله يريد منك أن تسعى، وأن تعمل، والعمل إذا لم يرافقه إخلاص ونية عالية، لا يقبل، فأنت يجب أن تعمل مخلصاً حتى تقبل عند الله عز وجل، حتى يستجيب دعاءك، يجب أن تعمل مخلصاً.

ربنا عز وجل من كرمه يأخذ أحسن أعمالك ويقبلها ويتجاوز عن أعمالك التي لا ترضيه:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

[سورة الأحقاف]

أي ربنا عز وجل من كرمه يأخذ أحسن أعمالك، ويقبلها، ويتجاوز عن أعمالك التي لا ترضيه، والتي تبت منها ويتجاوز عنها، شخص له جاهلية، الله يعفو عنه، الإسلام يهدم ما كان قبله، الإسلام يجب ما كان قبله، الذي فعلته قبل أن تعلم فالله عز وجل يغفر لك إن رجعتَ عنها، لكن دقق في هذه النقطة أيها الأخ، هناك ذنب لا يغفر، وذنب لا يترك، وذنب يغفر، ما كان بينك وبين الله، يغفره الله عز وجل إن تبتَ إليه، لأن حقوق الله مبنية على المسامحة، وما كان بينك وبين العباد هذا لا يُترك، لأن حقوق العباد مبنية على المشاححة، وما كان متعلقا بالشرك، فهذا الذنب لا يُغفر، لأنك كسرت قارب النجاة، فالغرق محقق، أنت حينما أشركت، توجهت إلى جهة فقيرة لا تملك لك شيئاً، أي واحد دمر نفسه بيده، فهناك ذنب لا يُغفر، وذنب لا يُترك، وذنب يغفر، ما هو متعلق بحقوق الله يغفر، ما هو متعلق بحقوق العباد لا يترك حتى يؤدّى، بالأداء أو المسامحة، لكن ما كان شركاً، هذا الذنب لا يمكن أن يغفر.

المغفرة تتعلق بالذنوب التي بينك وبين الله أما حقوق العباد لا تمحى إلا بالأداء أو المسامحة:

إذاً معنى قوله تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ)

أي سيئات ؟ ما كان بينك وبين الله، لأنه يغفر لكم من ذنوبكم، من للتبعيض، كثير من الأشخاص يتوهمون أنه بعد أن يحج كل الذنوب تمحى بالحج، يقول لك عاد من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فهذا غير صحيح وهو كلام جزاف، فالمغفرة تتعلق بالذنوب التي بينك وبين الله، وهذا صحيح، أما فيما بينك وبين العباد، فهذه الذنوب لو تحج مليون حجة، لا تسقط إلا بالأداء أو المسامحة، انتبه، حقوق متعلقة برقبتك، مال بذمتك ما أديته، حصة باسمك في البيت اغتصبتها، هكذا ذنوب لا يحلها ولا يمحوها الحج، ولا العمرة، ولا الصيام ولا الزكاة، لا يحلها إلا الأداء أو المسامحة، نعم، نتجاوز عن سيئاتهم، يعني التي كانت بينهم وبين ربهم، أما التي بينهم وبين عباد الله، هذه السيئات لا تمحى إلا بالأداء أو المسامحة:

(فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (4-6): تفسيرالآيات 15- 20 ، العاقل من برّ والديه و ادخر عطاء الله له للآخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-11-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة الأحقاف.

على الإنسان أن يحسن إلى والديه لأنهما سبب وجوده:

مع الآية الخامسة عشرة، وقد شُرحت في الدرس الماضي شرحاً موجزاً، ونظراً لارتباطها بالآية التي تليها، فلا بد أن نقف عندها وقفةً متأنِّيةً إن شاء الله تعالى، يقول الله عز وجل:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ (15))

(سورة الأحقاف)

الوصيَّة من الله تعالى أمر، يعني الله عز وجل أمَرَ الإنسان أن يُحْسنَ إلى والدَيه، أما كلمة " الإنسان"، مادامتْ جاءَتْ معرَّفَةً بألْ فهي تعني أيَّ إنسانٍ من دون شرْطٍ أو قَيْد، لأنه ولد مِن أبوين، ولأنَّ هذين الأبوَين كانَا سبب وُجوده، إذًا لا بدّ أن يُحْسِنَ إليهما والشيء الذي يلفت النَّظر هو أنّ الله سبحانه وتعالى في معظم آيات القرآن الكريم كلّما ورد الحديث عن الإيمان بالله، وعن عبادته، يوصي الإنسان بالإحسان للوالدَين.

أعظم عملٍ يأتي بعد الإيمان بالله برُّ الوالدين:

معنى ذلك أنَّ أعظم عملٍ يأتي بعد الإيمان بالله برُّ الوالدين، قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء)

وقال أيضاً:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا)

(سورة الأحقاف)

الله جلّ جلاله هو الذي خلق، وهو الذي ربّى، وهو الذي أمدّ، وهو الذي هدى، لكنّ هذين الأبوَين كان هذا الخَلقُ بِسَبَبِهما، لذلك: العبادة لله والإحسان للوالدين، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله.

وصية الله عز وجل للإنسان ببر والديه:

الشيء الآخر في الآية، أنّ الوصيّة بمعنى الأمر، ووصّينا أيْ أمرنا، ووصيّة الله تعالى أمر، قال تعالى:

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

يعني أمر.

(سورة الصافات: الآية 102)

مقام الألوهيّة ؛ إذا وصّاك الله بوَالِدَيك فهو يأمرك أن تبَرّهُما، والإنسان في الآية تعني أيّ إنسان مِن دون استِثناء، أما بوالديه فتعني والدَيه، المطلق في القرآن على إطلاقه ، الوالدان المؤمنان، المشركان، الفاسقان، والعاصيان، الكافران، ووصينا الإنسان بوالديه، أدِّ الذي عليك واطْلب من الله الذي لك ! لذلك لِيَعْمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنّة، لِيَعْمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يُغْفر له، ولا تتعامل مع عاقٍّ لِوَالِدَيه، لو كان فيه خيراً لكان خيرهُ لِوالِدَيه.

أجلُّ نعمة يسديها الابن لوالديه دعوتهما إلى الله عز وجل:

أقول لكم أيها الأخوة: إنّ أعظم عملٍ على الإطلاق أن تردّ على نعمة الأبوّة بدَعْوتِهما إلى الله عز وجل، فإذا وُفِّقَ الشابّ المؤمن بحِكمة بالغة وبأسلوب حكيم وبتَلطُّف شديد، وبإحسانٍ بالغ أن يأخذ بيَدِ أبيه وأمِّه إلى الله فهذه أجلُّ نعمة يسديها لوالديه، ولا يستطيع أن يفي بحقّهما إلا أن يجدهما عبْدَين فَيُعْتقهما، هذا الكلام إذا وسّعناه، يعني إذا كان والِداه عَبْدَين لِشَهواتهما، فليعتقهما من أسر الشهوة، وهذا أعظم عملٍ على الإطلاق، فالذي كان سبب وُجودك ردّدْت جميله بأن دَلَلْتَهُ على الله، قد يكون الأب شارداً ومُقصِّراً، وواقعاً في بعض المخالفات والمعاصي، ولكن الابن لا يستطيع أن يأخذ بيَدِ أبيه إلا بذكاءٍ بارع، وبحِكمة بالغة، وبتَفَهُّم دقيق، وبأدَبٍ جمّ، وبالإحسان، افْتَح قلبَهُ بالإحسان قبل أن تطلب منه أن يُصْغي لِكَلامك، إذًا قال تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ (15))

(سورة الأحقاف)

رعايَة الآباء لأبنائهم طبعٌ وفطرة فطرهم الله عليها:

الشيء الذي يلفت النّظر أيضاً أنّ رِعايَة الآباء لأبنائهم طبعٌ وفطرة، لذلك فالأب حينما يقدِّم كلّ ما في وُسْعِهِ لأولاده، هذا جزءٌ من كيانه، وجزء من فطرته التي فطره الله عليها، طبعًا في حالات شاذّة

ومرضِيَّة، لا حكم لها، ففي بلاد الغرب، امرأة فرنسيّة أغْلَقَت على أولادها الباب وغادرت المنزل حتى ماتوا جوعاً !! هذه حالات نادرة وشاذّة، أما أيّ أبٍ أو أمٍّ على وجه الإطلاق فقد أوْدَعَ الله في قلبهما حبّ أولادهما، ورعايتهم، وليس في بقيّة المخلوقات مخلوقات ترعى ما كان منها كبيراً إلا بني الإنسان، لأنّ الله عز وجل أكرم الإنسان، كيف تفهم رحمة الله بك ؟ وكيف تفهم حبّ الله لك ؟ وكيف تفهم رعايته لك ؟ إنه سبحانه أوْدع رحمته بك في قلب أبيك وأمِّك، ومحبَّتُهُ لك أوْدعها في قلب أبيك وأمِّك، وحِرْصُهُ عليك أوْدعهُ في قلب أبيك وأُمِّك.

من إكرام الله للإنسان أن يسخر له من يؤدبه و يرعاه:

الإنسان إذا كان إيمانه عميقًا، وكانت له القدرة على اختِراق الظواهر، فإذا رأى أُمًّا ترعى ابنها فهذه رعاية الله، إذا رأيتَ أباً يُعطي كلّ ما في وُسْعِهِ لأولاده، فهذه محبَّة الله، وهذا إكرام الله، ومن إكرام الله لنا أن يُسخِّر بعضنا لبعض، وإذا الإنسان تلقّى من أبيه وأمِّه رعاية، ومودّة ورحمة وحرصاً ومالاً، ووالده زوَّجَهُ، ينبغي أن يشْكر والدَهُ إلى أقصى الحدود، لكن ينبغي ألاّ ينسى أنّ هذا إكرام الله له، وأنّ الأب كلّه، والأمّ كلّها برَحمتها، وحرصِها، وحنانها، وعطفها، ورعايتها، إنّما هي تمثِّل رحمة الله تعالى فوصّينا بمَعنى أمرْنا، والإنسان مطلق الإنسان، والوالدان تعني مطلق الوالدين، عليك أن تُحْسن إليهما، والله يتولّى أمر إيمانهما، لكن إذا أمكن بحِكمة بالغة، وبأسلوب ذكيّ، وأدبٍ جمّ، وإحسانٍ بالغ أن تنقل إليهما الحق، وأن تنقل إليهما أمر الله عز وجل، وتعرّفهما به، فهذا عمل لا يعدلُهُ عملٌ على الإطلاق، فالذي كان سببَ وُجودك له عليك حقّ كبير، ولا تفي هذا الحق إلا إذا دَلَلْتهُ على الله تعالى، لذلك قال بعضهم: هناك أبٌ أنْجبك، وهناك أبٌ زوَّجَك وهناك أبٌ دلّك على الله، فالأب الذي أنجبكَ ينتهي فضلهُ عند نهاية الحياة، والأب الذي زوَّجَك يبدأ فضلهُ من وقت الزّواج وإلى نهاية العلاقة الزّوجيّة، أمّا الذي دلّك على الله، فهذا الإكرام يستمرّ إلى أبد الآبدين ! لأنّ أعظم نِعمةٍ على الإطلاق أنْ تعرف الله تعالى، وأن تعرف أمرهُ وتستقيم عليه.

الطاعة لله وحده والإحسان للوالدين:

قال تعالى:

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا (15))

(سورة الأحقاف)

(إحسانًا) إعرابها تمييز، ومعنى تمييز، أيْ في الجملة كلمة مُبهمة فأزال التمييزُ إبهامها، فلولا التَّمييز لصدَقَت على أشياء كثيرة، تقول مثلاً سِرتُ ثلاثين، فثلاثين لفظة مبهمة يا ترى ثلاثين متراً أو كيلو متراً، فثلاثين لا تُحدِّد المعنى، ولكن إذا قلتَ سِرتُ ثلاثين مترًا كانت (متراً) تمييزاً، فلولا ذِكْرُ هذه الكلمة لصدَقت الكلمة الأولى على أشياء كثيرة، فوصَّينا الإنسان ؛ طاعةً ؟ لا، بل إحسانًا ! وفرق كبير بين الطاعة والإحسان، وهناك أبناء يخلطون بين الطاعة والإحسان فالطاعة لله، ولا طاعة لِمَخلوق في معصِيَة الخالق، لكنّ الإحسان للوالدين شيء، والطاعة شيء آخر، أحياناً الأب تعاملهُ رَبَوي، وابنهُ معه في المحلّ، يأمره بالتعامل معه، فنقول: لا طاعة لِمَخلوق في معصِيَة الخالق، قال تعالى:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(15))

(سورة لقمان)

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

قالت له: يا بنيّ إما أن تكفر بمُحمَّد وإلاّ سأدع الطّعام حتى أموت (الكلام موجَّهٌ لسيّدنا سعد بن أبي وقّاص)، فقال: يا أُمّي لو أنّ لك مئة نفس فخرجَت واحدةً واحدةً ما كفرتُ بمُحمَّد، فَكُلي إن شئتِ أو لا تأكلي، ثمّ هي أكَلَت، المفروض أن يعرف الإنسان هذه الحقيقة فالطاعة شيء، والإحسان شيءٌ آخر، وكثير من الأبناء تجدهُ يطلِّق امرأة صالحةً مؤمنة محجَّبة، لا لِشَيء، ولكن لأنّ أمّه لم تحبّها فطلّقها !!! هذا خطأ كبير، فالأمّ لها حُقوق والزّوجة لها حُقوق وعلى المؤمن أن يُعطي كلّ ذي حقّ حقّه، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي قراءة: حُسنًا بدلَ إحسانًا، وقد وردت " حُسنًا " في سورة العنكبوت، في قوله تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا)

(سورة العنكبوت: الآية8)

والحُسن ضدُّه القبح، والإحسان ضدُّه الإساءة، فأنت مكلّف أن تحْسِن، وأن تُجْمل.

زيارة الأم و الأب أعظم عمل يقوم به الإنسان:

أحيانًا يتكلّم الإنسان كلمة مع والدَيه يريد بها وجْه الله، لكنّها قاسِيَة، فهذا أحْسنَ ولكنّه لم يُجْمل، فالكلمة اللطيفة والكلمة الجميلة والكلمة الرقيقة والكلمة المتوازنة، أحيانًا لا يُجْمل القَول من خلالها، لذا قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: (وبالوالدين إحسانًا)، هذه الباء حرف جرّ تُفيد الإلصاق، فأحيانًا يشتاق الأب لابنه، والابن بمنصب رفيع مشغول، يبْعث له سائقًا يقدِّم لأبيه الفواكه والحلويّات، ويأخذه إلى

نزهةٍ ممتِعَة، ولكن المقصود أن تكون أنت معه، فالباء هنا تفيد الإلصاق، أي أنّ الإحسان إلى الوالدين ينبغي أن يكون بالذّات، وينبغي أن تزورهما في أقرب وقت، إنّ الأب والأمّ أحدهما أو كلاهما قد يتقدّمان في السنّ، وعافَتْ نفسهما الطّعام والشّراب والنُّزهات، ولكنّ حبّهما لأولادهما شيء يتعاظم، لذا أعظم عمل أن تزور أمّك وأباك، فإن كانت الزيارة كلّ يوم كان الأفضل، وقد تكون كل يومين، أما أن تغيب الأشهر، ولا تراهما، فهذا لا عذر لك به عند الله عز وجل

العناية الفائقة بالمرأة الحامل لسلامة جسمها:

قال تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا (15))

(سورة الأحقاف)

العلّة أنّها حملتهُ كرهاً، فهذا الحُوَين من خمسمئة مليون حُوَين يقذفها الرّجل في اللِّقاء الزّوجي، أقوى حُوَين يلقِح البُوَيضة، والحوين الذي يلقِح البويضة يصبح بويضة ملقّحة، وهذه البويضة تنقسم إلى عشرة آلاف جُزَيْء، وهي في طريقها إلى الرّحِم، فإذا وصلت إلى الرّحم تعلّقت في جِدار الرّحم، وهذه البُوَيضة وصفها العلماء بأنّها الآكلة، أي تأكل جدار الرّحم، كي تصل إلى الدم، وهي شرهّة شرهاً لا حدود له بدَم الرّحم من أجل أن تتغذّى، فَمُهمّة الأم أن تقدِّم كل كيانها وكلّ أجهزتها وكلّ أعضائها وكلّ أنسِجَتها من أجل أن تؤمِّن لهذه البويضة الغذاء الأمثل، والشيء الذي يلفت النّظر أنّ هذه البويضة تحتاج إلى أكمل أنواع الغذاء، فإذا كان هذا الغذاء ليس متوافراً في الدمّ أُخِذ من أنسجة الأم، في أثناء تشكّل عظام الجنين، إذا كان الكلس في دم المرأة لا يكفي، وطعامها فقير من المواد الكِلسِيَّة، لذلك إطعامُ المرأة الحامل الحليب والجبن، ومشتقات الألبان ضرورةٌ، وإلا تفقدُ أسنانها، فهذه البُوَيضة وهي في طوْر تشكّل الجهاز العظمي، تأخذ كلّ الكِلس من المرأة فإذا لم يكفِ أخذَت من عظامها ومن كلس أسنانها، لذا معظم الحوامل يُصَبْن بِنَخر الأسنان في أثناء الحمل إذا كانت العناية بالغذاء ضعيفة، وهذا هو معنى حملتْهُ كُرهاً، حالة الحَمْل تعني جِسْماً مُسْتنفراً اسْتِنفاراً كاملاً بِكُلّ أجهزته وأعضائه، وأنسجته لِتَخليق هذا الجنين التّخليق الأمثل فالإنسان أحيانًا يحتاج إلى شريط كهرباء لآلة يُعالجها، فهل يُعقل أن يقطع الشّريط الأساسي في البيت ؟ هكذا الجِسم، لا بدّ من تَشكيل هذا الجنين، فإذا كان بالدم المواد الأوليّة فبها، وإلا أخذ الجنين من أنسجة أمِّه العظميّة وما سوى ذلك، هذا معنى قول الله تعالى:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا (15))

(سورة الأحقاف)

لذلك يَعُدُّ الأطباء حالة الحمل حالة ضَعف شديد، فالمرأة الحامل تحتاج إلى عِناية فائقة لسلامة جسمها من خلال العناية بغذائها.

عدم استطاعة أي إنسان تأدية حق أمه كاملاً:

قال تعالى:

(وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا (15))

(سورة الأحقاف)

أحدهم سأل النبي عليه الصلاة والسلام، وقد حملَ أُمَّهُ يطوف بها حول الكعبة، فقال: يا رسول الله هل أدّيتُ ما لها عليّ ؟ فقال: لا، ولا بزفرة واحدة، والزّفرة كلمة (آه) أثناء الطّلْق ! طبعاً ربُّنا عز وجل في هذا المقطع من كتاب الله كما ذكرت تفاسير كثيرة أنّ هذه القصّة لا تعني زيداً و لا عُبيدًا بالذات، بل هذان نموذجان بشريان متكرّران في هذه السورة، ولا تخصّ واحداً، بل هي عامّة.

من عرف الله شكره على وجوده:

بعد قليل تَرَوْن النّموذج الآخر، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ (15))

(سورة الأحقاف)

الأشُدّ تبدأ من سن الثلاثين، وتكتمل في سن الأربعين، قال تعالى:

(وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى (15))

(سورة الأحقاف)

أساس الإيمان شُكر، وإذا عرفت الله وشكَرْتَهُ حقّقت الهدف من وُجودك والدليل قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

أكبر شيئين تفعلهما في الحياة أن تؤمن بالله، وأن تشكرهُ على نِعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والإرّشاد.

اكتمال ملكات الإنسان بدءاً من الثلاثين و حتى الأربعين:

لذلك بدءاً من الثلاثين وحتى الأربعين تكْتَمِلُ ملكاتُ الإنسان، وإدراكه وانْفِعالاته، ومحاكمته، وهذه كلّها تكْتَمِل في تلك الفترة، فإذًا ما بين الثلاثين والأربعين أشُدُّ الإنسان، والعلماء قالوا: للإنسان خطّ

بياني صاعد، وعند عامٍ معيّن من الأعوام يقف الصُعود، ويبدأ السَّير المستقيم، ثمّ يبدأ الخطّ بالهبوط والانحدار، إذ قد يصل إلى أرذل العمر، فالإنسان خطّه البياني صاعد، ومستقيم وهابط، ويبدو أنّ الصُعود ينتهي في الثلاثين، ويستمرّ مستقيماً إلى الأربعين، وبعد الأربعين يبدأ الهبوط التّدريجي، فالإنسان إن ركب طائرةً، والمسافة بعيدة، فمن قبرص تبدأ الطائرة تهبط، تدريجيًّا إلى مطار دمشق ! هذا إذا كان السّفر طويلاً، فقبل ألف كيلو متر يبدأ الهبوط التدريجي، وكذلك الإنسان يكْتَمِلُ في الثلاثين ويستمرّ اكتِمالهُ حتى الأربعين، وبعد الأربعين يبدأ الهبوط التدريجي، ويشعر بوَهنٍ في قِواه، ويضعف بصره، ويشيب شعره، وأحياناً يشعر بميل إلى الراحة لم يكن يشعر به سابقًا، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً (15))

(سورة الأحقاف)

سِنُّ الأربعين هو النّذير للإنسان:

الإنسان ليس له عذر بعد الأربعين، لذلك القرطبي في تفسيره يقول: سِنُّ الأربعين هو النّذير، قال تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37))

(سورة فاطر)

سِنُّ الأربعين هو النّذير، ما لك حجّة، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ (15))

(سورة الأحقاف)

أوْزِعني أيْ ألْهمني أن أشكر نعمتك، والنِّعَم لا تُعدُّ ولا تُحصى، والدليل هل تقول لإنسان: خُذ هذه الليرة وعُدّها ؟ فهذا كلام لا معنى له.

من أعظم النعم التي منحها الله تعالى للإنسان:

قال الله تعالى:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(18))

(سورة النحل)

1 ـ نعمة البصر:

هناك نعمة واحدة لو أمضَيت الحياة كلّها في تَعداد خيراتها لما أدْركت هذه الخيرات، نعمة البصر.

2 ـ نعمة العقل:

نعمة العقل الذي في الرأس، فأقرب الناس إليك يحملونك إلى المستشفى إن جننت !! فنِعمة العقل لا تعدلها نعمة.

3 ـ نعمة السمع و النطق:

وكذا نعمة السمع والبصر، ونِعمة النُّطق، ونعمة سلامة الأعضاء والأجهزة.

4 ـ نعمة معرفة الله و الاستقامة على أمره:

نعمة معرفة الله والاستقامة على أمره، هذه نِعَمٌ لا تُعدّ ولا تحصى.

5 ـ نعمة الصراط المستقيم و هي النعمة المطلقة:

ولكن النّعمة المطلقة التي ما بعدها نِعمة هي نعمة الصِّراط المستقيم، قال تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(7))

(سورة الفاتحة)

أن تكون حركتك في الحياة وفق منهج الله، وإذا كنت كذلك فأنت في أعظم نعمة، ولو افْتَقَرْت إلى المال، ولو أتْعَبَتْك الحياة، وكانت تحفّ بك آلاف المشكلات، إذا كنت على منهج الله سائراً فأنت في النِّعمة العظمى المطلقة، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ((15)

(سورة الأحقاف)

6 ـ نعمة الولد الصالح:

من أعظم النِّعَم أن يُنْجِب الوالدان ولداً صالحاً، فالوالدان قد يسكنا أفخَر البيوت، لكنّ هذه النّعمة تنتهي عند الموت، وعندما يموت صاحب البيت يؤخذ النّعش إلى مقبرة الباب الصغير ! له فيها قبرٌ صغير، وبيته كانت مساحته أربعمئة متر، وتزيينات البيت بالملايين، فنعمة السّكن تنتهي بالموت، ونعمة المال تنتهي بالموت، ونعمة المكانة الاجتماعيّة تنتهي بالموت، لكنّ نعمة الطاعة لله عز وجل هذه تبدأ بعد الموت إلى أبد الآبدين، إذًا أعظم نعمة هي نعمة الهدى، فهذا الذي جاءهُ ولدٌ صالح فكان اسْتِمراراً له، كلّ أعمال ذريّته في صحيفته ولو مات الإنسان، فالذي خلّف ذريّةً صالحة لا يموت، يموت جسمه ويبقى عملهُ مستمرّاً، أعظمُ شيءٍ أيها الأخوة، أن تنتهي حياة الإنسان وأن يستمرّ عمله الصالح من بعده، علم صالحٌ نشره، أو ولدٌ صالح ينفع الناس من بعده، مشروع خيري أسّسهُ واستمرّ من بعده.

أسوأ عمل يفعله الإنسان هو العمل الذي يستمرّ شرُّه بعد موته:

بالمقابل أسوأ عمل يفعله الإنسان هو العمل الذي يستمرّ شرُّه بعد موته، أسّس ملهى من الدرجة الأولى فيه كلّ الموبقات ولم يلبث أن زوي عوده و مات، فكلّ هذا العمل في صحيفته إلى يوم القيامة، أفسد الفتيات، وفعل المنكرات، وسنّ سنة سيّئة، لذلك هناك عملان كبيران: العمل الصالح الذي يستمرّ بعد موت صاحبه، وهذا يكون في الدرجة الأولى عن طريق أولاد صالحين، فالذي خلّف الصالحين لم يمت وهذا يحتاج إلى جهد كبير.

من ربّى أولاده تربية صالحة فقد أكرمه الله بنعمة كبيرة:

الآن هناك عقبات كبيرة، ونحن في زمن الفساد، وإذا أكرم الله تعالى الإنسان بتَربيَة أولاده تربية صحيحة بحيث تعرّفوا إلى الله، واستقاموا على أمره، أقول لكم هذه الكلمة، وأقسم عليها بالله: الابن الصالح لو معك خمسة آلاف مليون، بل ولو ملكت الشام كلّها وأسواقها، ولك ولدٌ صالح يدعو الخلقَ من بعدك للإيمان بالله خير لك من كلّ هذه الدنيا وهذا هو معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنّ الرّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللّهُ وَرَسُولُهُ، فَبَاتَ النّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى ؟ فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ ؟ فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ، فَقَالَ: أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا، فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى

تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النّعَمِ))

(رواه البخاري عن سهل بن سعد)

لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم.

المؤمن الصالح لا ينسى الدُّعاء لِوالِدَيه بعد موتهما:

قال تعالى:

(أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيّ وَعَلَى وَالِدَيّ (15))

(سورة الأحقاف)

أنت خلقتني من والدين، وجعلتني نسلاً لهما، وأنعمت عليهما بي، وأنعمت عليّ بهما، أنعمت عليّ إذْ جعلتني نسلاً صالحاً منهما، وأنعمت بي عليهما إذْ جعلتهما يُربّياني هذه التّربيَة، لذلك المؤمن الصالح لا ينسى الدُّعاء لِوالِدَيه في الصلاة خمس مرات، قال يا رسول الله هل بقي عليّ شيء مِن برّ والديّ بعد موتهما ؟ قال: نعم، أربعة أشياء، أن تُصلِّي عليهما صلاة الجنازة، وأن تدعُوَ لهما كل يوم خمس مرات، رب اغفر لي ولوالديّ، رب ارحمهما كما ربّياني صغيرًا وأن تصل صديقهما، وأن تنفذ عهدهما، وأن تصل الرّحِمَ التي لم يكن لها صلة إلا بهما، فهذا الذي بقي عليك مِن برّهما بعد موتهما، النِّعمة الأولى هي الشُكر، والثانية أن أعملَ صالحاً ترضاه.

الفرق بين الاستقامة و العمل الصالح:

الحقيقة أنّ الاستقامة عمل لكنّها عمل سلبي، فالذي لم يؤْذِ، ولم يغتب، ولم يأكل المال الحرام، وما نَمّ، وما اعتدى وما بهت، وما سفك، وما غشّ، وما دلّس، ولكن ماذا فعل ؟! إنه امتنع عن الرذائل، فالاستقامة: الكفُّ عن الحرام، وعن ظلم الناس، والكف عن الكذب عليهم، وعن غشّهم و إهانتهم هذه الاستقامة، ولكن ما العمل الصالح الذي فعلته من أجلي ؟ العمل الصالح عمل إيجابي، يقول الله عز وجل للإنسان يوم القيامة: ماذا فعلت من أجلي ؟ يقول هذا الإنسان: صليت، يقول: كل هذا لك، فالإنسان أحيانًا يكون صادقًا لا يكذب ومعظّم، فيقطف الثِّمار كلّها بحياته، ويكون أميناً محترماً، ويكون مثلاً مستقيم اللِّسان، فكلّ طاعة يفعلها الإنسان يقطف ثمرها في الدنيا بالدرجة الأولى، وهذه كلها لنفسه، ولكنّ ماذا فعلتَ من أجلي ؟ هل أنفقت مالكَ ؟ هل أنفقت وقتك ؟ هل أنفقت خِبرتَكَ ؟ هذا هو العمل الصالح، قال تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ (15))

(سورة الأحقاف)

العمل الصالح لا يُرضي الله إلا بحالتين:

1 - أن يكون موافقاً للشريعة:

إنّ العمل الصالح لا يُرضي الله إلا بحالتين معاً ؛ أن يكون هذا العمل موافقًا للشّريعة، وفق منهج الله.

2 - أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى:

أن يكون هذا العمل خالصًا لِوَجه الله. فالإخلاص وموافقة السنّة شرطان ضروريان من شروط العمل الصالح، فالعمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، فالخالص ما ابْتُغِيَ به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة، فالعمل الصالح ليس على مزاجنا، ولكن وفق الشريعة، وذكرت في الدرس الماضي مثالين فَهمَهُما أخٌ كريم على غير ما أردتهما، فقُلتُ لو قرأت في الإعلانات أنّ حفلةً ساهرة غِنائيّة يرصد ريعها للأيتام، فهذا العمل في نظر الناس صالح، أما عند الله فهو ليس بصالح، فالقصد أن يكون العمل مَرْضيًّا عنه، فلا يقبل العمل الصالح إلا إذا كان وفق منهج الله.

العمل الصالح مقيّد بكونه وفق منهج الله:

أقول مكرراً: العمل الصالح مقيّد بكونه وفق منهج الله، فإذا خطر لإنسان أن يعمل عملاً صالحاً مخالفًا للشّرع، ومبنيًّا على فساد، ومَبنيًّا على إيقاظ الغرائز، مبنيًّا على معصِيَة، ثمّ يقول لك: هذا عمل صالح، فما أصاب، لأنّ العمل الصالح يجب أن يكون مقيّدًا بمَنهج الله تعالى، أيْ يجب أن تعملَ صالحاً وفق ما يريد الله، لا وفق مِزاج الناس.

الابن الصالح أكبر مصادر السعادة لأبيه:

قال تعالى:

(وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي (15))

(سورة الأحقاف)

هذا دعاء، وقد سبقه شُكْرٌ، ثم التمكين من العمل الصالح، ثم إصْلاح الذريّة، فكلاهما دعاء و ضراعة، فمن كان أباً يعرف تماماً معنى هذه الآية، حينما يرى ابنهُ وفق ما يريد، تقرّ عَيْنُهُ، حينما يرى زوجته

صالحة، تخاف الله عز وجل وترجو الله واليوم الآخر، حينما يرى أولاده واقفين معه في الصّلاة وحينما يراهم ورعين، هذه نعمة لا يعرفها إلا من أكرمه الله بها، لذلك الجهود الجبارة التي يبذلها الأب من أجل تربيَة أولاده ينساها كلّها إذا رأى ابنهُ صالحاً،! ويصبح الابن أحدَ أكبر مصادر السعادة لأبيه، قال تعالى:

(وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي (15))

(سورة الأحقاف)

أصلح تتعدّى بذاتها، أما أصلِح لي في ذريّتي أي أصلِحهم وألطُف بهم وأحيانًا يأتي الصّلاح بقَسْوة، فهناك ردّ جميل وردّ غير جميل، ونحن نقول: اللهمّ رُدّنا إليك ردًا جميلاً، فهناك ردّ غير جميل.

التوبة أساس استجابة الدعاء:

قال تعالى:

(إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ (15))

(سورة الأحقاف)

فهذا الدعاء ثمنه التوبة، فالإنسان إذا تاب يشعر أنّه قدّم بين يدي دعائه، وإذا كان الإنسان مقيماً على معصيّة تجده لا يستطيع أن يدعُوَ الله تعالى أبداً، فمعصيَتُهُ حِجاب، أما إن تاب فتوبتُه تصبح قربة بين يدي دعائه، يا رب أنا أدعوك ورأسمالي توبتي، فالإنسان قبل أن يدعو عليه أن يتوب، إذا كان يدعو وكان متَلبّساً بمَعصية أو مخالفة، فدعاؤُهُ لا يكون دعاءً حارّاً ولا مؤثِراً، قال تعالى:

(إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15))

(سورة الأحقاف)

الناس نموذجان:

1 ـ نموذج التقى الإيمان فيه مع النّسَب:

هذا النموذج قال تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

(سورة الأحقاف)

ومن كرم الله على الإنسان المؤمن أنّ الله سبحانه وتعالى يتقبّل عمله وهو في أعلى درجاته، لو أن الإنسان صنع عِدّة أشياءٍ متفاوتة في الإتقان، وأحد هذه الأشياء في درجةٍ عالِيَة من الإتقان، يُعْطَى الجائزة على هذا التّفوّق، قال تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

(سورة الأحقاف)

هذا النموذج الأول الذي التقى الإيمان فيه مع النَّسَب، الابن مؤمن والأبوان مؤمنان فكان الإيمان مع النَّسَب خير على خير.

2 ـ نموذج افترق الإيمان فيه عن النسب:

أما النموذج الثاني فافترق الإيمان عن النّسب، والذي قال لِوَالِدَيه: أُفٍّ لكما، (أُفّ) اسم فعلٍ مضارع يفيد التضجُّر، قال تعالى:

(وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17))

(سورة الأحقاف)

لقد أضاف إلى عقوق الوالدين الكفر بالآخرة، فهاتان النِّعمتان ؛ نِعمة الهدى والبرّ، وتِلْكُم الجريمتان ؛ الكُفْر والعُقوق، أوّلاً قال لِوَالدَيه أفٍّ لكما، فهذا أشدّ أنواع العقوق، وأن يتضجَّر الابن من أبيه وأمّه قائلاً: أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي، فهذا كفر بالدار الآخرة، الوالدان مؤمنان، وهما على أحرّ من الجمر قلقاً على ابنهما.

ملة الكفر واحدة في كل مكان و زمان:

قال تعالى:

(وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17))

(سورة الأحقاف)

وهذا ما يقوله الكفار في كلّ عصر، يقولون لك: أساطير الأولين كما هي مُغيَّبات، كما هي وراء الطبيعة، وإنّ الدِّين يلخِّص حالة ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة القاهرة، والدِّين أداة تفرقة، والدِّين مرحلةٌ عاشها الإنسان وانتهى منها الآن، هذه كلّها كلمات الكافرين، ومِلّة الكفر واحدة، قال تعالى:

(أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17))

(سورة الأحقاف)

أي هذه خرافات.

أشدُّ أنواع الخسارة أن يخسر الإنسان آخرته و نفسه:

قال تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18))

(سورة الأحقاف)

أخسر شيء يتردى إليه الإنسان:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104)أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(105))

(سورة الكهف)

يعني أشدُّ أنواع الخسارة أن تخسر آخرتك، وأشد أنواع الخسارة أن تخسر نفسك، فرأسمالك الحقيقي نفسك وعند الموت كلّ شيءٍ تتركهُ، وتبقى نفسكَ إما في جنّة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفد عذابها، فما هي الخسارة العظمى ؟ أن تخسر الدار الآخرة وأن تخسر نفسك التي بين جنبيك، وهي رأسمالك الوحيد.

العذاب عاقبة من أعرض عن ذكر الله تعالى:

قال تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18))

(سورة الأحقاف)

حقَّ عليهم القول، هو قانون ربنا عز وجل، لما أعرض عن الله عز وجل تبعَ شَهوته وانغمس فيها، وإنّ اتِّباع الشّهوة لا بدّ أن يتبعه اعتِداءٌ على حقوق الآخرين، فالشّهوة من لوازمها العُدوان، فوقع في شرّ عمله فاستَحقّ العذاب.

من خرج عن منهج الله عز وجل أصبح تحت طائلة العقوبات الإلهيّة:

أحيانًا يقول لك: تحت طائلة العقوبة الفلانيّة، لما الإنسان خرج عن منهج الله حق عليه العذاب، فكلمة حقّ عليهم القول تعني أنّ فلانًا خالف القانون الفلاني فانطبقت عليه المادة الفلانيّة القاضِيَة بإيقاع العقوبة فيه، هذا هو المعنى، فهو معنى مُقنّن، فالإنسان إذا خرج عن منهج الله، والخروج هو الظُلم، والظلم والعدوان له عقاب عند الله عز وجل، فحينما خرج عن منهج الله واتّبَع شهوته، أصبح تحت طائلة العقوبات الإلهيّة، قال تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18))

(سورة الأحقاف)

هذا شأن العصاة في العالم، وفي كلّ الأزمنة والأمكنة قال تعالى:

(إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18))

(سورة الأحقاف)

من شروط العمل الصالح الإخلاص و مطابقة الشريعة و المنهج:

قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19))

(سورة الأحقاف)

لِكُلٍّ من النموذجين، من المؤمنين والكفار، من هؤلاء ومن هؤلاء، ولكل درجات مما عملوا، فأنت لك عند الله تعالى مرتبة بحَجم عملك الصالح، والعمل الصالح لا يُسمّى صالحاً إلا بشَرطين ؛ الإخلاص ومطابقته للشريعة والمنهج، إنّ مرتبتك بحَسب عملك الصالح، وعملك الصالح لا يُسَمّى صالحاً إلا بنِيّة خالصة، ومُوافقةٍ للشّرع، وحجمك بحجم عَملك، وعملك يُقيّم بإخلاصك، وتَحرّيك الحلال، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19))

(سورة الأحقاف)

تأخذ حقّك كاملاً، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20))

(سورة الأحقاف)

العاقل من ادخر عطاء الله له للآخرة:

الإنسان له عند الله تعالى عطاءً، إما أن يستعجلهُ في الدنيا وينقضي مع الموت، وإما أن يدّخِرَهُ اللهُ له للآخرة، ويبقى فيه إلى أبد الآبدين:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَقِيَ مِنْهَا ؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا))

(رواه الترمذي عن عائشة)

فالذي أنفقته هو الذي بقيَ، أما الذي استهلكتهُ هو الذي فنيَ، فالباقيات هي ما أنفقته، أما المستهلك فهو الذي تأكله وتتمتع به آنياً، إذًا كما قال تعالى:

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا (20))

(سورة الأحقاف)

سبب عذاب النار ردّ الحق والانغِماس في المعاصي:

الإنسان قد يستعجل أحيانًا، يريد أن يتمتّع متعاً زائدة على الحدّ المعقول في الطعام، والشراب، والنِّساء، والسَّفَر، والبيوت، والقصور، والمركبات، والحفلات، والاختلاط، وهذا تنطبق عليه هذه الآية:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20))

(سورة الأحقاف)

الاستكبار ردّ الحق، والفسق معروف، فعذاب النار سببه ردّ الحق والانغِماس في المعاصي، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20))

(سورة الأحقاف)

العِبرة بخَواتِم الأعمال:

لذلك:

((اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ ؟ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ))

(رواه البخاري عن أم سلمة)

الأمور بِخَواتيمها، والذي يضحك أخيراً هو الذي يضحك كثيراً، والذي يضحكُ أوّلاً هو الذي يبكي كثيراً والعِبرة بِخَواتِم الأعمال.

الناس نموذجان لا ثالث لهما:

هذه الصفحة أيها الأخوة من هذه السورة تُقدِّم نموذجَين بَشَرِيَيْن، هذان النّموذجان لا يَعْنِيان أحداً بالذات، هذا أوجه التفاسير، إنّما هما نموذجان يُصَوِّران حالة شَخصَين، وكأنّهما يُوحيان أنّهما شَخصان مُحَدَّدان، لكنّ الآيات توحي أنّ هذا النموذج مُتَكرِّر، والإشارة إلى التحديد على أنّه نموذج مُتَكَرِّر، وكل نموذج له مصير، فأوّل نموذج في قوله تعالى:

(أولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

(سورة الأحقاف)

النموذج الثاني في قوله تعالى:

(أولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18))

(سورة الأحقاف)

حجم الإنسان الديني تحدّده التضحية و طلب العلم و الأمر بالمعروف:

التعقيب الإجمالي في قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19))

(سورة الأحقاف)

أكرر و أقول: حجمك عند الله تعالى بِحَجم عملك الصالح، الحجم الديني تحدِّده التَّضحِيَة والإنفاق، وطلب العلم، وعلمك واستقامتك، وعملك وذِكْرك، وإقبالك ودَعوتك وأمرَك بالمعروف.

من انغمس في الملذات تعجل نصيبه من الله:

آخر تعقيب يشمل النموذجين كليهما، أنّ هؤلاء الذين انغمسوا في الملذات واستمرؤوا المعاصي تعجّلوا نصيبهم من الله، لذلك فالنبي الكريم صلى الله عليه وسلّم حينما كان مضطجعاً على حصير، ودخل عليه عمر بن الخطاب، فصار يبكي، فقال له: ما يُبكيك ؟ فقال: رسول الله ينام على الحصير، وكِسرى ملك الفرس ينام على الحرير ! فقال عليه الصلاة والسلام عدة كلمات في ثلاث روايات: أولئك قَومٌ عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، والرّواية الثانية: ألا ترضى يا عمر أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا،

والرّواية الثالثة: يا عمر إنّما هي نبوّة وليسَت مُلكاً ! يقول عليه الصلاة والسلام إذا أصبح أحدكم معافى في جسده آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما ملك الدنيا بحذافيرها:

((كان النبي عليه الصلاة والسلام حينما يستيقظ يقول: الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي....))

(متفق عليه عن أبي هريرة)

فهناك من ينام ولا يفيق، ثمّ ينهض من فراشه ويمشى على قدَمَيه، ويرى طريقه ويسمع ويتكلّم:

((.... وعافاني في بدني وأذِنَ لي بذِكره))

فالإنسان إذا استيقظ معافى، وعنده قوت يومه، وكان له طعام ليلةٍ واحدة، كان وآمنًا في سربه فلا هو من الملاحقين ولا هو مطلوب، فكأنّما ملك الدنيا بحذافيرها.

من ازداد علماً ازداد قرباً من الله عز وجل:

إذا كانت الصِّحَة، وتحقق الإيمان والاستقامة والأمْن وصلْتَ إلى كلّ شيء، والباقي كلّه صُوَر خدّاعة مزيّفة، وكلّها تتساقط عند الموت، وتبقى حقيقة واحدة هي الإيمان، لذلك السُّعداء هم الذين ينطلقون إلى الله ولا يعبؤون بتَقاليد المجتمع، ولا لِمظاهره، بيتُ يسكنه ويأوي إليه كبيراً كان أو صغيراً، ملكًا كان أو أجرةً، مع مفتاح فهذا مأوى، والله تعالى آواك برَحمته، وألبسك ثياباً تسترُ عورتَك، ولك زوجة تعفُّك عن الحرام، ولك أولاد أبرار، ولك دخْلٌ يُغَطِّي نفقاتك أو لا يُغطِّي ومع المشقّة أحيانًا، على الدنيا السّلام، خُذْ من الدنيا ما شئتَ، وخذ بقَدرها همّاً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتْفِهِ وهو لا يشعر، فالدنيا لها سقف، ولو كان معك ألف مليون، ما الذي ستأكلُهُ ؟ ليس أكثر من ملء بطنك، وكم ثمن البذلة التي تلبسها ؟ وعلى كم سرير تنام عليه ؟ فالدنيا لها سقف حتمي، أما الآخرة فلا سقفَ لها، وكلّما ازْددْتَ علماً ازددتَ قرباً، وكلّما ازددْت عملا صالحاً ازْددْت قرباً، فالآخرة لا سقفَ لها، أما الدنيا فمحدودة بسُقوف عديدة، وبالعكس قد تجد الإنسان لا يأكل هذه الأكلة لأنّ معه مرض السكّر، ففي الدنيا قد تحرم الكثير، والدنيا دائماً لا تصفو لإنسان، أوحى ربُّك للدنيا أنْ تشدّدي وتضيّقي وتكدّري وتمَرْمَري على أوليائي حتى يُحِبُّوا لِقائي، فالعِبرة أن تُحِبَّ لقاء الله عز وجل، أما إن كانت الأمور على ما يرام فقد تكره اللِّقاء، وهذه هي الطامة الكبرى، لذا فالمنغِّصات أحيانًا لها فوائد تربويّة كبيرة جدّاً، فالإنسان المؤمن يرجو لقاء الله ويشتاق إليه، والدنيا كيف ما سمَحَ الله له منها يرضى بها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (5-6): تفسيرالآيات 21- 27 ، المواعظ و العبر من قصة سيدنا هود عليه السلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-11-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الأحقاف.

العبر من قوله تعالى وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ:

تذكير الله عز وجل النبي الكريم بهود عليه السلام و تكذيب قومه له:

مع الآية العشرين، وهي قوله تعالى:

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(21))

(سورة الأحقاف)

الله سبحانه وتعالى يُوجِّه الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، ويقول له: واذْكر أخا عادٍ، يعني هوداً، وهي أُخوّة نسَب، قال تعالى:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50))

(سورة هود)

فكان هود عليه السلام أخًا لقومه نسبيًّا فيقول الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام: اُذْكر هوداً، واذكر تَكذيب قَومهِ له، واذكر صبرَهُ على قومه، واذكرْ شِدّة المحنة التي قاساها، لك به أُسْوَةٌ حسنة.

قصص القرآن الكريم عبر و دروس للإنسان:

أيها الأخوة قصص القرآن لا ينبغي أن تكون قصصاً بالمعنى المعروف للقصة إطلاقًا ! إنّما هي عِبرٌ ودروس، فالله سبحانه وتعالى حينما يوردُ قِصّة في القرآن الكريم تُتلى إلى يوم القيامة، ومعنى ذلك أنّ هذه القصّة ينبغي أن تكون عِبْرةً، ينبغي أن تُستنبط منها الحقائق والدُّروس، وينبغي أن تؤخذ منها القواعد، فالله سبحانه وتعالى يؤدِّب النبي عليه الصلاة والسلام أدَباً رفيعاً، فإذا ضاقَتْ عليك الأمور، وضاقَتْ نفسُكَ بِتَكذيب قوْمِكَ لك، إذا ضاقَت نفسُكَ لِتآمُر الناس عليك، إذا أرادوا إخراجَكَ من بيتك، إذا

أرادوا أن يُحاربوك، إذا نكّلوا بأصحابك، إذا فعَلوا الأفاعيل، فاذْكُرْ أخا عادٍ، فقد أرْسِل إلى قومه وتحمّل منهم ما تحمّل.

نحن كيف نستفيد من هذه الآية ؟ إذا أُصِبْتَ بمُصيبةٍ فاذْكُر مصيبة المسلمين برَسول الله صلى الله عليه وسلّم، النبي على عُلُوّ شأنِهِ مات ابنه إبراهيم، وقال: إنّ العَين لتَدْمع، وإنّ القلب ليَخشَع، ولا نقول ما يُسْخِط الربّ، وإنّا على فراقك يا إبراهيم لَمَحزونون.

امرأة شريفة طاهرةٌ عفيفة، تكلّم الناس بها الناس عنها كلاماً لا يليق بها، فهذه لها في السيّدة عائشة أُسْوَة حسنة، وحديث الإفك لا تخفى على مسلم.

صحابيّ جليل عانَى مِن شِدّة الفقر لك بهِ أسْوةٌ حسنة، فإذا قرأت سيرَ الصحابة، وإذا قرأت قِصَص الأنبياء ينبغي أن تكون هذه القِصص عِبراً لك ودروساً.

إهلاك الله عز وجل قوم هود لإفسادهم في الأرض:

هناك معنى آخر وهو: يا محمّد اُذْكُر لِقَومك أخا عادٍ، أيْ ذَكِّرْهم كيف كان قوم هود أشِدّاء وأقوياء ؟ وكذّبوا ولم ينصاعوا، وسَخِروا واستهزؤوا فأهلَكَهُم الله عز وجل.

العاقل من اتعظ بغيره:

إذًا الآية تحْتَمِلُ معْنَيَيْن، أيْ اُذْكُر يا محمّد في نفْسِكَ أخا عادٍ كيف دعا قومه إلى ربّه، وتحمّل من قومه ما تحمّل، أيْ يا محمّد اذكر لِقَومك قِصّة أخي عادٍ سيّدنا هود، وكيف أنّ قومه لم يؤمنوا به، واستهزؤوا به، واستعجلوا العذاب، وغرهم أنهم كانوا أقوياء وأشِدّاء، ومع كلّ ذلك أهْلكهم الله عز وجل، إذًا نحن نستفيد من هذه الآية كَتَطْبيق عمَلي، إذا رأيْت في التاريخ إنسانًا طغى وبغى، ونَسِيَ المبْتَدَا والمُنْتهى، ثمّ قصَمَهُ الله عز وجل فهذه عِبْرةٌ ينبغي أن نأخذ بها، إذا رأيتَ إنسانًا أكل مالاً حراماً فدمّر الله ماله، هذه عِبْرةٌ ينبغي أن نأخذ بها، وإذا رأيتَ إنسانًا اعْتدى على أعراض الآخرين، وفضَحَهُ الله تعالى في بيته، فهذه عِبرة ينبغي أن نأخذ بها، والمؤمن شأنُهُ كما قال عليه الصلاة والسلام: أمرتُ أن يكون صمتي فِكراً، ونطقي ذِكراً، ونظري عِبْرةً ! فالمؤمن يتّعِظ بالآخرين.

الله عز وجل رحيم بعباده يُرْسِلُ أنبياءَهُ ورُسلَهُ إلى الأقوام ليبشروهم و ينذروهم:

قال تعالى:

(إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ (21))

(سورة الأحقاف)

الأحقاف كُثبان الرّمال المرتفعة، ويذكر المُفسّرون أنّ الأحقاف هي نُجود من الرّمال المرتفعة في جنوب الجزيرة العربيّة، وهي على وجْه الغلبَة بلاد حضْرَموت، فحَضْرَموت كانت بلاد أخي عادٍ، أيْ قَوْم هود، فالمعنى واذكر لِقَومك قصّة هؤلاء القوم، واذْكُر لِنَفسك قصّة هذا النبي، النبي حقيقة، فهي موعظة لِرَسول الله، وقوم سيّدنا هود موعظة لِبَقِيّة الأقوام، قال تعالى:

(وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ (21))

(سورة الأحقاف)

فالإنذارات مستَمِرّة متلاحقة، فمِن بين يَدَيْه أيْ مِن أمامه، ومِن خلفه، أيْ مِن ورائِهِ، فالنُّذُر كانت قبله وبعده، فليس هودٌ أوّل نذير، وليس آخر نذير، كان نذيراً وقد جاءَت من قبله النُّذر، وسوف تأتي من بعده النُّذر، وهذا يدلّ على رحمة الله جلّ جلاله بعِباده، فالإله الرحيم دائماً يُرْسِلُ أنبياءَهُ ورُسلَهُ إلى أقوامهم مبشّرين ومنذرين.

العبادة أعلى علاقة بين المخلوق و خالقه:

فمضمون الدّعوة:

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ (21))

(سورة الأحقاف)

أنْذَرَهم، وهم مُقيمون بالأحقاف، مضمون الإنذار: ألاّ تعبدوا إلا الله، قال تعالى:

(وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

فإذا ضَغطنا أيّة دَعْوَةٍ سماويّة بكَلمات كانت: ألاّ تعبدوا إلا الله ، العِبادة غاية الخُضوع مع غاية الحبّ والاستِسلام، مع غاية الإخلاص، العبادة هي أعلى علاقة بين المخلوق وخالقه ! قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

قال تعالى:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

الله عز وجل وحده من يستحق العبادة:

الإنسان لا بدّ له مِن أن يعبُد، فإما أن يعبد الله وإما أن يعبدَ غير الله، والإنسان فيه ضَعف، وهذا الإنسان الضّعيف كيف يَقوى ؟ بعِبادةِ جِهةٍ قَويّة، وفيه نقص، كيف يكمِّله ؟ بعِبادة جِهة قويّة، فالمؤمن يعبد الله القويّ الغنيّ الرحمن الرحيم الرؤوف الحكيم العليم السميع البصير، والأشقِياء لِضَعفِهم وخوفهم، وقلقِهم وضياعهم يعبدون غير الله، يعبدون الأقوياء، والتّوجيه الإلهي عن طريق هذا النبي الكريم، قال تعالى:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

هذا شيء دقيق جداً، و على الإنسان أن يحاسب نفسه، فهل يُطيع مخلوقًا، ويعصي خالقًا ؟ إذًا هو يعبدُهُ من دون الله ، هل يسمحُ لِنَفسِهِ أن تُرْتَكَبَ معْصِيَةٌ في بيتِه إرْضَاءً لِزَوجته، أو لبناته، أو لأولاده، أو لأصْدِقائه ؟ إذًا هو يعبدهم من دون الله، فالتوجيه الإلهي:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

من الذي يستحقّ العبادة ؟ هو اللهُ جلّ جلاله، فالذي يستحق أن يُعْبدُ هو الذي يُحْيي، والذي يُعبدُ هو الذي يُميت، والذي يُعبدُ هو الذي يرزق، والذي يُعْبدُ هو الذي يُعطي ويمْنعُ، ويرفع ويخفض ويبسط ويقبض، ويُحيي ويُميت ؛ هذا الذي يستحقّ العبادة، هو الذي يعلم ما كان وما يكون وما سيَكون، يعلم السرّ وأخفى، يعلم الجهر، وكل ما خفي عليك أنت يعلمه الله، ويعلم ما أعْلنْتهُ، وما أسْررْتَهُ، فهذا هو الذي ينبغي أن يُعْبد.

من عبد غير الله تعالى خسر دنياه و آخرته:

أما إذا عبدْت إنسانًا ضعيفًا لئيماً قاصِراً في إدراكه، وقاصِراً في سلطانه، فقد خَسِرتَ خسارةً مبينة، إذًا كما قال تعالى:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

فالمؤمن الصادق دائماً يراقب نفسهُ، هل يُطيعُ مخلوقًا ويعصي خالقًا ؟ هل يمحضُ حُبّه لِغَير الله تعالى ؟ وهل يمْحض ولاءهُ لِغَير الله ؟ هل يُوجّه اهْتِمامه لغير الله ؟ قال تعالى:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21))

(سورة الأحقاف)

الخير و الأمانة في منهج الله و الكذب و الخيانة في غيره:

و بعد، فإنه يطالعنا الآن سؤال دقيق ؛ أيْ إذا عبَدَ الإنسان غير الله، لماذا يستحقّ هذا العذاب العظيم ؟ لو أنّ الله تجاوَزَ عنه ؛ أعْبُد من شئتَ.

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إِلّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

لا إيماننا بالله عز وجل ينفعُ الله عز وجل، ولا كفرنا به يضرُّه، فلماذا إن عبدنا غيره فلنا عذاب عظيم؟! هذا سؤال ! لعلّ الجواب أنّك إذا عبَدْت غيره خرجْت عن منهج العدالة، وأقَمْت شؤونك على العُدوان، ولأنّ الله تعالى عادِل، ومنهجه هو الحقّ، وهو مصدر العدل، والرّحمة، والإنصاف، ومصدر الخير، والنور، والصِّدق، والوفاء، أما منهج غير الله يستحيل أن يكون فيه الصّدْق، بل الصِّدق كلُّه في منهج الله، وإذا ابْتدَعْتَ منهجاً آخر كان فيه الكذب والفجور، والأمانة كلها في منهج الله، وإن اتَّبَعتَ غير منهجه ففي الخيانة، والإحسان كله في منهج الله، وإن اتَّبَعت منهجاً آخر كانت الإساءة، وكذلك الاستقامة في منهج الله، وإن اتَّبعْتَ منهجاً آخر كان الانحِراف، فالخير كله في منهج الله، وفي غيره الشرّ.

الحق واحد لا يتعدد:

إذًا الله جلّ جلاله حينما تعبدُ غيرهُ لا بدّ من أن تطغى، ولا بدّ من أن تبْغي، ولا بدّ من أن تعتدي، ولا بدّ من أن تنحرف، ولا بدّ من أن تسيء، لأنّ الحق لا يتعدّد أما الباطل فيتعدّد، فالحق خطّ مستقيم، فبين نقطتين لا يمرّ إلا مستقيم واحدٌ، إذًا ينبغي أن نلحظ ما بين الآيتَين من صلة وشيجة:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

هذه الآية الأولى، والثانية:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21))

(سورة الأحقاف)

لأنّكم إن عبدتم غير الله فلا بدّ أن تنحرفوا، ولا بدّ من أن تُسيؤوا، فمنهج غير الله عز وجل ضلال و شقاء.

الطُغيان والبغي مِن لوازم عبادة غير الله:

في الهند إذا مات الرّجل ينبغي أن تُحرق امرأته معه، أو ينبغي أن تُدْفنَ معه وهي حيّة، هذا عُدْوان، فأيُّ منهجٍ آخر فيه عُدْوانٌ شديد، هناك أدِلّة واقِعِيّة، أنظر هذا الذي لا يستجيب لأمر الله تعالى، أين يذهب ؟ كيف يتعامل مع الناس ؟ قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

ثم أنظر إلى أحواله، وإلى علاقاته، إلى معاملاته، وإلى أخلاقه وسلوكه ففيه الكذب والفجور، وهو يخون وليس أمينًا، كما أنه قاسي القلب، لا يرحم، ومجحف لا ينصف، ومعتدٍ لا يستقيم، ومنحرف لا يسير على منهج الله عز وجل، لذلك مِن لوازم عبادة غير الله الطُغيان، والبغي، والعُدوان، والظُلم، وهذه الصِّفات لها عقاب شديد، ومن ثَم فالانْسِجام واضح بين الآيتين:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

إنّكم إن عبدْتم غير الله، قال تعالى:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21))

(سورة الأحقاف)

الذي يعبد غير الله قد يعتدي على أعراض الآخرين، وهذا واقِع.

العذاب الأليم لمن اعتدى على أعراض الآخرين:

المؤمن مستقيم لا يعرف من النِّساء إلا امرأته، أما غير المؤمن يعتدي على أعراض الآخرين، وهذه الفتاة التي اعْتُدِيَ عليها، فأصبَحَتْ بعد هذا الاعتِداء ساقطة، وأصْبحَتْ تأكل بِثَدْيَيْها، فلما زوى جمالها أُلْقِيَتْ على قارعة الطريق، أليس هذا الذي اعتدَى عليها وساقها إلى تلك النِّهاية الوخيمة يستحقُّ يوم القيامة أن يذيقه الله جزاء عمله ؟ إن هذه الفتاة كان مِن المُمْكن أن تكون أُمًّا شريفة لها أولاد، ولها أصهار، ولها مكانة اجْتِماعِيّة رفيعة، فأنت حينما اعْتَدَيتَ عليها حوّلتها إلى ساقطة، ولمّا سقَطت أكَلَتْ بِثَدْيَيْها، فلمّا زوى جمالها أُلْقِيَت كما تُلقى الفأرة الميّتة خارج المنزل، هذا هو العُدْوان، فيستحيل على الذي يخرج عن منهج الله تعالى إلا أن يستبد ويطغى ويعتدي، إما على أموال الناس، أو على

أعراضهم، أو على مُمْتلكاتهم، أو على حُقوقهم الأدَبيَّة فيهضمها، لا بدّ من أن يتكبَّر ويجْحَد، ولا بدّ من أن يكون قاسِيَ القلب، فهو مقطوع عن الله تعالى، فليس له العذاب العظيم لأنّه لم يعبد، ولكن لأنّه طغى وبغى، واعْتدَى وظَلَم، وجحَد وأنْكَر.

فَحْوى دعوة الأنبياء جميعاً عبادة الله وحده و توحيده:

إذًا فَحْوى دعوة هذا النبي الكريم: ألاّ تعبدوا إلا الله، والحقيقة هذه فَحْوى دعوة الأنبياء جميعاً، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

وقال تعالى أيضاً:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا(64))

(سورة النساء)

أن تعبد الله وحده، وأن تُوَحِّدهُ عقيدةً، وأن تعبدَهُ سلوكًا، هذا هو الدِّين، إذا أردت أن تبسِّط، وأن توجز، وأن تضغَط، فعليك أن تُوَحِّدهُ، وأن تعبُدَهُ، فما من نبيٍّ على الإطلاق إلا و قد جاء بهاتين الحقيقتَين، توحيد الله عز وجل وعبادته.

أمنية الكافر يوم القيامة أن يدفع دنياه بأكملها فداءً من العذاب العظيم الذي نوّه الله به:

قال تعالى:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21))

(سورة الأحقاف)

ما قَوْلُكَ أيها الأخ الكريم إذا قال لك الله العظيم: عذاب يوم عظيم ؟! لو قال لك طفل: معي مبلغٌ كبير، كم تُقدِّر هذا المبلغ ؟ فلعله مائة ليرة، ولكن إذا قال لك إنسانٌ راشِد: معي مبلغ كبير، فلعله مئة ألف ليرة، بينما إذا قال لك تاجر كبير: معي مبلغ كبير، وإذا قال لك أغنى أغنياء الأرض: أنا معي مبلغ كبير، فالمبلغ إذًا بالملايين، كلمة كبير تتراوَح بِحَسَب القائل، خالق الكون يقول لك: عذاب يوم عظيم، فما هو هذا العذاب ؟! هنا تجد مرجعيته، قال تعالى:

(يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(11)وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ(12)وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ(13))

(سورة المعارج)

لو أنّ للكافر الدنيا بأكملها ومثلها معها، لدفَعَها فداءً من العذاب العظيم الذي نوّه الله به.

إقبال الناس على عبادة غير الله على الرغم من الإنذارات المستمرة من الله تعالى:

قال تعالى:

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ (21))

(سورة الأحقاف)

فالإنذارات مستَمِرّة، وليس إنذار هذا النبي الكريم أوّل إنذار، وليس آخر إنذار، ونحن نعيش، ونرى مِن حولنا مواعظ وعِبَراً ودروساً، وهذه المواعظ وتلك العِبَر، وهذه الدروس ليْسَت أوّل الدروس وليْسَت آخرها، مادام هناك خالق رحيم فإنذاراته مستمرّة، وعلاجاته مستمرّة، وأدواؤه مستمرّة، لكن ردّ الفِعْل كان قبيحاً مستهجناً ؛ قال تعالى:

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

تأفِكَنا أي تصرفَنا عن آلهتنا، وقد يسأل سائل، كيف نُصَدِّق شعباً كشَعب الهند إحصاء ما قبل عشرين سنة أربعمئة وخمسون مليونًا، والآن حوالي سبعمائة مليون، يعبدون بوذا !! كيف يُقْبِلُ الناس على هذه العِبادة ؟ هناك جواب دقيق جداً خلاصته أن هذه الأصنام، وهذه الأديان الوَضْعِيَّة، ليس فيها تكاليف، فأتباعها في بحبوحة، اِفْعَل ما تشاء ولكنّ أقرّ بهذا الصَّنَم أنّه إله، وانتهى الأمر، إقبال الناس على هذه الأديان بمَلايينِهم المُمَلْيَنَة، وبالأعداد الغفيرة، هذا لا يدلّ على أنّ هذا الدِّين حق، ولكن يدلّ على أنّ هذا الدّين لا تكليف فيه، امتناع شكلي، وإقرار صوري، ثم لك أن تفعل ما تشاء.

إقبال الناس على التَّمَسُّك بالمذاهب الوَضْعِيّة لانعدام التكاليف فيها:

من قرأ تاريخ الأديان في العالم يرى العَجَب العُجاب ، فأكثر الأديان بُعْداً عن الحق أقربها إلى الإباحِيَّة والاشتراك في النِّساء وفي الأموال، فحينما تنعدم القيود والموانع والزّواج والأوامر والنّواهي يصبح الانتِماء سهلاً، فلذلك إن رأيْت الملايين من الناس تَدينُ بِدِين أرضي وضعي فلا تعْجَب، لأنّ هذا الدِّين لا تكليف فيه، والدُّخول فيه واعتناقه سَهل جدّاً، وهناك مصالح دنيوية كثيرة تتحقّق من هذا الدِّين، لكنّ دين الله هو دين الحق، بمَعنى أنّ فيه الأمر وفيه النّهي، فالإنسان المؤمن يبحث عن منهج حقيقيّ فيه الأمر والنّهي، والحرام والحلال، وما لك و ما عليك، فالجاهِلِيُّون مثلاً لو قرأت عنهم لوجَدْت أنّ بضعة عشر رجلاً يتزوّجون امرأة واحدة، وهي تنتقي وتختار منهم، فحينما تلِدُ تقول: هذا الغلام لفُلان،

وانتهى الأمر !! فوضى في العلاقات الجِنْسِيَّة، وإباحية مرذولة، وفوضى في كسب المال، بأيّ طريقة لك أن تكسب المال، وهذه هي الجاهليّة فإقبال الناس على التَمَسُّك بالجاهليَّة الأولى والثانية، أو على المذاهب الوَضْعِيَّة أساسه أنّ هذه المذاهب وتلك الجاهليَّة ليس فيها تكاليف، شريعة الغاب: البقاء للأقوى، والمسالك فوضى، فالأنبياء لمّا يأتون بالمنهج، فمن الذي يُعارضهم ؟ المُتْرفون، الغارقون في الشّهوات والمُنْحرفون و المتسلطون، قال تعالى حكاية عنهم:

(قالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

استهزاء الكفار بوعيد الله و تكذيبهم له:

طبعاً كذّبوا دعوته وسَخِروا منه ومنها، قال تعالى يحكي مقالتهم:

(قالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

(فَأْتِنَا) استِهزاء بوَعيد الله عز وجل و تكذيباً، ألمْ يقل لهم أخوهم هود:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

هذا هو الاستهزاء والتكذيب، فقال لهم بأدَب النبوّة:

(قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ (23))

(سورة الأحقاف)

هذا تركيب فيه قَصْر، يعني العلم عند الله وحده، فهو الذي يأتي بالعذاب، أما متى يأتي به ؟ أو كيف يأتي به ؟ وبأيّ طريقة يأتي به ؟ ومن يُصيب به ؟ هذا ليس من شأنك، هذا مِن شأن الله تعالى.

(المؤمن كلما ارتقى إيمانه تمسك بمنهج الله عز وجل:)

بالمناسبة المؤمن كلّما نما إيمانه يتمسّك بعُبودِيَّته لله عز وجل، ويتخلّى عن مواقف لا تليق بذوي الإيمان، فلو سُئِلَ عن تقييم شخصٍ ؛ ماذا يقول ؟ يقول: تَقييم الأشخاص من شأن الله، وليس من شأن البشر، ولا من شأني، وحتّى لو مدَحَ شخصاً يقول: أحْسَبُهُ كذلك، ولا أُزكِّي على الله أحداً، فالمؤمن كلّما ارتقى تمسّك بالمنهج، رسول الله عليه الصلاة والسلام دخل بيت أحد أصحابه وقد توُفِّي مِن فوره، فلما سمع امرأة تقول: هنيئًا لك يا أبا السائب فقد أكرَمَك الله قال: وما يدريك أنّ الله قد أكرمه ؟! فأنْ تقول: فلان من أهل الجنّة، هذا تألٍّ على الله تعالى، من قال لك ذلك ؟ ليس هناك على وجه اليقين أُناسٌ بُشِّروا

بالجنّة إلا العشرة المبشّرين، أما الباقون فنرْجو أن يكونوا من أهل الجنّة، وهذا هو مقام العبوديّة، مقام فيه تواضع، وبعيد عن التّألي على الله.

ملة الكفر واحدة في كل مكان و زمان:

قال تعالى حكاية عنهم:

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

وهذا يُعادُ كلّ يوم و يتكرر عن الكثير من الناس، فأنت تقول لأحدهم: هذا الدّخْل حرام، وهذا الدّخْل رَبَوي مثلاً، فيقول لك: وما الذي يحدث ؟ هل يُدَمِّر الله لي مالي ؟ دعْهُ يُدَمِّرْهُ !! فإذا نبّهتَ إنسانًا إلى معْصِيَة كبيرة، إلى حرام، إلى علاقة رَبَويّة، إلى علاقة مع النِّساء مريبة، واختلاط مرذول يقول لك آخر: دعْهُ يفعل ما يشاء، إنها مقالة أهل الضلال، وهذا كلام الكافرين، ومِلّة الكفر واحدة، قال تعالى:

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

خشية المؤمن بعقله و خوف الكافر بعينه:

سبحان الله ! فكلّ إنسانٍ يتحدّى ويتألّى، ويطلب العِقاب ويسْتِعجله، وحينما يأتي العِقاب تجِدُه يتلوى كما تتلوى الأفعى من شِدّة العذاب وقسوة النار و حرها، ثم نتيجة العُنْجهيّة والكبرياء يلاقي الذل و الهوان عقاباً و جزاء وفاقاً، ثم يصيح ويستغيث ولا مغيث، ويستجير ولا مُجير، إنّ الإنسان بطبعه يخاف، فأما المؤمن يخاف بعَقلِهِ، أما الكافر فيخاف بعَيْنِهِ، عندما يضرس ويأتيه العذاب حينها يخاف، أما المؤمن فهو يخاف بعَقلِه، والذي يخاف بعقْله نسمّيه يخْشى، وليس ما يعتريه خوف بل خشية، فالخوف بالعَين، أما الخَشْيَة فَبالعَقل.

مهمة الأنبياء التبليغ:

بأدب النبوّة قال هود عليه السلام:

(قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ (23))

(سورة الأحقاف)

هذا ليس من شأني، متى يأتي العذاب ؟ وكيف يأتي ؟ ما نوع العذاب، وما شدة العذاب ؟ ومن يُصيب هذا العذاب ؟ فهذا ليس من شأني ! هذا مِن شأن وحده، إنما العلم عند الله، وإنما من شأني أن أبلِّغكم ما أرسلت به:

(وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23))

(سورة الأحقاف)

من ازداد معرفة بالله ازداد خشية منه:

الذي لا يخاف جاهل، وبالمناسبة ما أكثر ما ذكرت هذه الحادثة، فبعض الفلاّحين يأخذون أطفالهم الصِّغار جدًّا، ابن سنة مثلاً، إلى الحقل، أثناء الحصيد، وقد يمرّ ثعبان كبير وقد يبقى بجانِب طفلٍ صغير، فهذا الطِّفل الصغير يضعُ يده على الثعبان ويألفُهُ ويستأنس به ولا يعرف ما خطورة هذا الكائن، فلو كان كبيراً لصاحَ بأعلى صوته ! فعَدَم الخوف يدلّ على عدم الإدراك، والإنسان يخاف بقَدْر عِلمِهِ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام رأس الحكمة مخافة الله، وأشدُّكم لله خشيَةً أنا، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، وسيّدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: أتمنّى أن أنقلب إلى الله لا إلي ولا عليّ، ليت أمّ عمر لم تلِد عمر، ليتها كانت عقيماً، هذا عِملاق الإسلام المبشّر بالجنّة، الذي جنّد الجند، وفتح البلاد، وجهّز الجيوش، وفتح الله على يديه أطراف الدنيا، وكان زاهداً متقشّفاً، يُضرب به المثل في الورَع، والزُّهد والعدل، ومع ذلك قال: أتمنّى أن أنقلب إلى الله لا إلي ولا عليّ، ليت أمّ عمر لم تلِد عمر، ليتها كانت عقيماً، هذا كلام حقيقي وليس تمثيلاً لِشِدّة معرفته بالله كانت خشيتُهُ منه كبيرة و موجعة، وأنت تخشى الله بقَدْر معرفتك به، كلّما ازددْت منه معرفةً ازْددْت به خشْيةً، قال تعالى:

(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23))

(سورة الأحقاف)

التعريف بالإنسان الجاهل:

من هو الجاهل ؟ هذا الذي يرتكب الموبقات، ويعتدي على أموال الناس وعلى أعراضهم، ويظنّ أنّ هذا العمل فيه ذكاء وبطولة، ثم هو يتبجّح بين الناس بعُدْوانه على الآخرين، وعُدوانه على أعراضهم، هذا جاهل حقًّا، هذا الذي لا يرى العقاب الحتمي، ولا يرى المصير الحَتمي لِكُلّ معْصِيَة وانْحراف، فهو جاهل حقًّا، قال تعالى:

(قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23))

(سورة الأحقاف)

وكلّ إنسانٍ يدعو إلى الله عز وجل يُواجِه هذه الحالات، إنسان مستهزئ، يقول لك: اليوم يفرجها الله !! هذا كلام الناس المُتفلِتين والمنحرفين الشادرين في الضلال و الغواية.

وصف حال قوم لوط عليه السلام:

تروي كُتب التفسير أنّ هؤلاء القوم، قوم هودٍ الذين سكنوا بالأحقاف أصابتهم مَوجة حرٍّ شديدة، جعلتْ بلادهم مُغْبرّة، حرّ لا يُطاق، وغبار شديد، وبعد هذا الحرّ الشديد، وهذا الغبار الذي لا يُطاق، رأوا السماء ملبّدة بالغيوم ! قال تعالى يصف حالهم:

(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا (24))

(سورة الأحقاف)

رأوا سحاباً في السماء، فقالوا: جاء المطر، قال تعالى:

(بل هو ما استعجلتم به)

هذا هو العذاب الذي أنذركم به نبيُّكم.

عقاب الله عز وجل لا يبقي على شيء:

قد تسمعون بالأخبار الإذاعية و تشاهدون في المحطات المرئية ما تفعله الأمطار، تدمّر وتهلك القرى، والإعصار الذي أصاب أمريكا دمّر كلّ شيء، وكانت الخسائر ثلاثين ملياراً، قال تعالى:

(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24))

(سورة الأحقاف)

الرّياح لها سرعات مذهلة تتجاوز المئة و الخمسين كيلومتراً أو المئتين، فتدمّر البيوت، و تتلف المحاصيل، وتزهق الأرواح، وتقتلع الأشجار، وقد يكون الدمار شاملاً، لا يبقى على شيء، وهذا يجري في ساعات محدودة.

الأعراض الجَويّة ليست شيئاً عارضاً بل هي عذاب من الله عز وجل:

قال تعالى:

(قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا (25))

(سورة الأحقاف)

انظر إلى الدِقّة في التعبير ؛ بأمر ربّها، معنى ذلك إن سَمِعت عن فيَضانٍ، أو إعصار، أو زلزال، أو رياح شديدة أهلكت الحرث والنّسل، عن وباء اجتاح العالم، إيّاك أن تفهم هذا أنّه شيءٌ عارض، بل قال تعالى:

(تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا (25))

(سورة الأحقاف)

هذه الرّياح لها ربٌ هو الذي أرسلها، وسمح لها أن تُدَمِّر، وهذه الصاعقة لها رب هو الذي أنزلها على القوم، وهذه الأرض لها ربّ هو الذي زلزلها، وهذا الماء الذي طغى وبغى، له ربّ هو الذي أرسله، فالإنسان حينما يرى الأعراض الجَوِيَّة مِن مطرٍ إلى ثلج أو رياح شديدة، أو صقيع يدمِّر المحاصيل كلّها، هذا الفهْم ينبغي أن يكون فهماً توْحيدِيًّا، في أحد المرات انخفضت الحرارة ببَعض المناطق الزّراعِيّة إلى اثنتي عشرة درجة تحت الصِّفر، فأتلفت ثمانين مليون ثمن البذور ! وأتت على محاصيل ثمنها مئات الملايين، وحتى ألف مليون أحيانًا تصاب بصَقيعٍ طارئ فلا يُبقي منها ولا يذر.

الدمار و الهلاك عاقبة قوم هود عليه السلام:

أدقّ ما في الآية:

(تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا (25))

(سورة الأحقاف)

فالمياه لها رب، والرياح لها رب، والجرثوم له ربّ، وكذا الزلازل والبراكين، وهذه الأوبئة والأمراض، هذه كلّها لها ربّ، قال تعالى:

(تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25))

(سورة الأحقاف)

فأصحاب المساكن بادوا وماتوا عن آخرهم، قال تعالى:

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25))

(سورة الأحقاف)

ما من مصيبة تقع في الأرض إلا ولها سبب معين:

أحيانًا يقولون لك: أصبح هناك انفِتاح، ولكن مع هذا الانفتاح معاصٍ، ومنكرات، وفِتَن، واختلاط، وشرب الخمور، ومناظر لا ترضي الله عز وجل، وبرامج ساقطة، ومحطّات فضائيّة، فإذا كان من

حولنا قد دُمّروا وفعلنا مثل فِعلهم فَمِن المحتمل أن نُدَمَّر مثلهم ! وهذه قاعدة إلهية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وشيءٌ مُتَوَقّع جدّاً أن يُصيب العُصاة ما أُصاب مَن قبلهم، قال تعالى:

(فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25))

(سورة الأحقاف)

وبعد، فإني أرجو الله سبحانه وتعالى وأطلب إلى الأخوة الكرام أنه إذا سمع أحدكم عن خبر من مشكلات العالم عليه ألاّ يعْزل هذه المشكلة عن التوحيد، هذا الشيء الذي حدث له ربٌّ أحدثه، وهذه المصيبة وقعت لسبب، وما من مصيبة تقع في الأرض إلا ولها سبب، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

من أعرض عن ذكر الله دمره الله و لو بعد حين:

الإنسان عليه أنْ يتّعظ، وعليه أن يستقيم على أمر الله، لِقَول الله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

القصّة مؤثِّرة، نبيٌّ كريم دعاهم إلى رب كريم، إلى منهج قويم، وإلى طاعة الواحد الأحد، كذّبوا واستهزؤوا، وأعرضوا واستعجَلوا العذاب، فجاءتهم سحابة ظنُّوها مطراً لأوديتهم، فإذا في هذه السحابة عذاب أليم، تُدَمِّر كلّ شيءٍ بأمْر ربّها، قال تعالى:

(فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25))

(سورة الأحقاف)

القوة و البأس لا ينجيان العبد من عذاب الله:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ (26))

(سورة الأحقاف)

إن الله سبحانه و تعالى يمهل و لا يهمل، والله يعطي الصِّحة، ويعطي القوّة، ويعطي المال والثَّرْوَة، الإنسان لما يكون قويًّا، ومع القوّة جهل، فإذا رأيْت الله يُتابعُ نِعَمَهُ عليك، وأنت تعصيهِ فاحْذَرْهُ، إذا وجد الإنسان القوّة والشّأن والمنعَة وهو على غير منهج الله فهذا اسْتِدراج، وليس إكراماً، قال تعالى:

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ (26))

(سورة الأحقاف)

أيْ مكّانهم ما لم نُمَكِّن لكم، فكانوا أكثر منكم قوّة، وأكثر جمْعاً، وأكثر غِنًى، ومع ذلك ما أغنى عنهم جمعهم ولا قوّتهم ولا بأسهم من الله شيئًا.

العقل من أعظم النعم التي منحها الله تعالى للإنسان:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً (26))

(سورة الأحقاف)

الأفئدة إن جاءت مع السمع والبصر فهي العقل، فهناك عَقل الرأس، وهناك عقل القلب، فإذا جاء الفؤاد مع السمع والبصر، فالبصر والسمع نافذة، والعقل هو الذي يحكم، أعطيناهم سمْعاً لِيَستمعوا إلى الحق، وأبصاراً لِيَرَوا الآيات، وأفئدةً عقولاً كي تحْكُم بوُجود الله عز وجل وأسمائه الحسنى، قال تعالى:

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(26))

(سورة الأحقاف)

من أراد الهدى فكل شيء يدله على الله:

أيها الأخوة، أراد الله جلّ جلاله من هذه الآيات أن يُعْلِمَنا أنّ الإنسان العاصي ينبغي ألاّ يغترّ بقُوّته، ولا برِفْعة شأنه، ولا بغِناه، ففي لحظة واحدة تصبح القوّة ضعفًا، والغنى فقْراً، ويصبح الرجل خبراً بعد أن رجلاً، لذلك قال تعالى:

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً (26))

(سورة الأحقاف)

هذه الأجهزة حجّة علينا، أعْطيتك يا عبدي سمعاً من أجل أن تستمع إلى الحق فأعرضْت عن الحق، وأعطيتُكَ بصراً من أجل تنظر إلى الآيات فلم تنظر، وأعطيتُكَ عقْلاً من أجل أن تحكم بهذه الحقائق فلم تستخدمه، فالإنسان إذا أراد الهدى كلّ شيءٍ يدلُّه على الله، أمّا إن أراد الدنيا وشهواتها تصبح الدنيا حِجاباً بينه وبين الحقيقة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: حبُّك الشيء يعمي ويصمّ، قال تعالى:

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(26))

(سورة الأحقاف)

حاق بهم: أي أحاط بهم، فاستِهزاؤهم أحاط بهم وأوْصَلَهم إلى الهَلاك.

الهلاك عاقبة من سار على درب الأقوام السابقة:

ثمّ يقول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27))

(سورة الأحقاف)

هذه الآية مُطبّقة الآن، شرقنا في هلاك، وغربنا في هَلاك، وجنوبنا في هلاك، تارةً حروب أهليّة، وتارةً صواعق، وتارةً براكين، وتارةً زلازل، وتارةً فيضانات، أي: أُهْلِكَ ما حولنا من القرى لأنّهم فسقوا وعَصَوا فإذا سِرنا على درْبهم، ومنهجهم فالهَلاك مُحَقّق، قال تعالى:

(وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27))

(سورة الأحقاف)

فالآيات صرّفناها أي أظهرناها، فالآيات صارخة، ولكنّ الأعمى لا يرى، وإذا ذُكِر الله وحده اشْمأزّت قلوب الذين كفروا، أما إذا ذُكِرَ الذين من دونه إذا هم يستبشرون !! فأنت إن أشْركت يفرحون، أما إن وحّدتَ وأعطيت تفسيراً توحيدِيّاً، وفسّرتها على أنها فعلٌ يتعلّق بالله سبحانه، قال جل جلاله:

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27))

(سورة الأحقاف)

الأحداث الكبرى ينبغي على الإنسان أن يربطها بكلام الله ويعطيها تفسيراً توحيدياً:

وإليك أيها الأخ الكريم هذه الواقعة: مركبة فضائيّة اسمها المُتَحَدِّي ! تتحدّى مَن ؟! بعد سبعين ثانية من انطلاقها أصبحت كتلة من اللّهَب، هذا الخبَر ينبغي أن نقف عنده، قلعة من قلاع الكفر في العالم، كيف تهاوت كبيت العنكبوت ؟ هذه آية من آيات الله الكبرى، وكذلك مرض الإيدز، هو آية من آيات الله عز وجل، وهناك مرض أحدث منه، وهذا المرض يؤدِّي إلى أن يتآكل جلد الإنسان وعضلاته في أقلّ من أربع وعشرين ساعة !!! وأسبابه أيضاً انحراف جنسي، وقد ظهر هذا المرض في بريطانيا، وهذه آية عن أعاصير في بلاد الفسق والفجور، ونوادي العُراة، فهبّ بها إعصار يُدَمِّرها عن آخرها، هذه آيات دالة على الله و على عظمته، فالذي أتمناه على الأخوة الكرام أنّ هذه الأحداث الكبرى ينبغي ألاّ نفهمها فهْماً ضيّقاً محدوداً، ولكن أن نربطها بكلام الله عز وجل، ونعطيها تفسيراً توحيدياً، قال تعالى:

(وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27))

(سورة الأحقاف)

و لكن هيهات فهُم عميٌ صمّ، كما قال تعالى:

(فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ((28)

(سورة الأحقاف)

من اتخذ جهة أرضية و اعتمد عليها فإنقاذًا للتّوحيد يُخَيّب الله له ظنه:

الشيء الثابت أنّ كلّ إنسان اتّخذ جِهة ما ّإلهاً من دون الله، هذه الجهة لا بدّ من أن تخذلهُ، وهذا من قدر الله عز وجل، لماذا تخْذِلُهُ ؟ من أجل أن يتّعظ، وأن يتخلّى عن شِرْكِهِ، وهذه قاعدة أساسيَّة، إذا اتَّخَذْت جهةً من الجهات، واعْتَمَدْت عليها، واتّخَذتها إلهاً فالنتيجة في قوله تعالى:

(فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ((28)

(سورة الأحقاف)

ولو اتّكَلْت على جهة أرضيَّة، واسْتَغْنيْت عن الله عز وجل بهذه الجهة، فلا بدّ من أن تُخَيّب أملك، واحذر إنقاذاً لفكرة التّوحيد لديك.

عزل خالد بن الوليد من قِبل عمر بن الخطاب إنقاذاً لعقيدة التوحيد:

سيّدنا عمر عندما عزل سيّدنا خالد، وهو سيف من سيوف الله، والعزل صعبٌ تفسيره، فعمر بن الخطاب من المبشّرين بالجنّة، وسيّدنا خالد وصفه النبي بأنّه سيف من سيوف الله، ولقد قبلَ العزل من قيادة الجيش، وجاء إلى عمر، فقال له: يا أمير المؤمنين، لِمَ عَزَلتني ؟ فقال له عمر: والله إنّي لأُحِبُّك ، فقال له: لِمَ عزلتني مرّةً ثانية ؟ فقال له عمر: والله إنّي لأُحِبُّك ، فلما ألحّ عليه في الثالثة، قال له: ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يُفْتَتَنَ الناس بِكَ لِكثرة ما أبليْتَ في سبيل الله، فعُمَر خاف على عقيدة التوحيد، خاف أن يظنّ الناس أنّ النّصر من عند خالد، وينسوا أنّه من عند الله فعزَلَه، واستمر النّصْر، فعمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنقذ فكرة التوحيد لدى الناس، وكلّ إنسان يعتمد على جهة أرضيَّة، ويثق بها، وينسى ربّه، فإنقاذًا للتّوحيد يُخَيّب الله له ظنّه، ويُحْبطُ عمله، وعند الضرورة هذه الجهة لا تنجدك، ولا تخلّصك، ولا تفكّ أسرك، قال تعالى:

(فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ((28)

(سورة الأحقاف)

هدف القصة في القرآن الكريم:

الموعظة و العبرة:

أيها الأخوة، عودٌ إلى فقرات هذه القصّة، أوّلاً إنّ الإنسان إذا قرأ القصّة في القرآن ينبغي ألاّ يتوهّمها قِصّة، وإنّما هي حقائق، وقوانين، صيغَت على شكل قصّة، ففيها الدروس، وفيها العِبر، وفيها المواعظ، وفيها الحقائق، وفيها الأُسس.

من عبد الله جاءته الخيرات و من كفر و طغى جاءه العقاب:

الشيء الثاني أنّ الإنسان إذا عبد غير الله لا بدّ من أن يعتدي، ولا بدّ من أن ينحرف، ولا بدّ من أن يطغى، ويبغي لذلك يأتي العقاب، قال تعالى:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21))

(سورة الأحقاف)

بالمقابل:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

فما هي العلاقة بين أن تكون عابداً، وبين أن تكون شاكراً ؟ العلاقة أنّك إذا عبَدْته جاءَتْك الخَيرات، إذاً عليك أن تشْكر، وإذا لم تعبدْهُ وفعلْتَ المنكران، فإذاً عليك أن تنتظر العقاب من الله عز وجل، إنها قوانين سماوية، وقد جاء رجل للنبي عليه الصلاة والسلام وقال: يا رسول الله عظني وأوجز، فتلا عليه هذه المقولة:

((قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمّ اسْتَقِمْ))

[رواه مسلم عن سفيانَ بن عبد الله رضي الله عنه]

قال: أريد أخف من ذلك، قال: إذًا فاستعدّ للبلاء.

ملخّص الموضوع إن عبدت الله عز وجل جاءتك الخيرات فلتشكر، وإن لم تعبدْهُ انحرفْت فاعْتَدَيت، فظَلَمْت فجاءك العقاب فاصبر.

على الإنسان أن يتقوّى بطاعة الله و يترفع عن عبادة غيره:

الشيء الثالث في الآية، أنّ الإنسان مهما كان مُمَكّناً في الأرض، مِن قوّة ومال وسلطان، فهذه كلها بثانية قد تصبح خبراً بعد أثر، لذا على الإنسان أن يتقوّى بطاعة الله، والعوام لهم كلمة تعجبني: التّقوى أقوى، فالاستقامة والترفّع عن أموال الناس وعدم إيذائهم، هذه هي القوّة حقّاً، لأنّ فيها رضا الله، وإذا رضي أمدَّ وقوّى، والإنسان عليه أن يتّعظ، قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27))

(سورة الأحقاف)

وبعد، فالإنسان إذا اعتمد على غير الله عز وجل، فهذا الذي اعتمَدَ عليه يُخَيّب ظنَّه، وعندئذٍ يرى حقيقة نتيجة التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (6-6): تفسيرالآيات 28- 35، خصائص الجن - علامة تدبّر آيات القرآن الكريم الانْطِلاق في تبليغه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-12-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والأخير من سورة الأحقاف.

العوالِمُ عالمان:عالمُ الغَيب وعالم الشّهادة:

نبدأ من الآية التاسعة والعشرين، وهذه الآية أيها الأخوة مُتَعَلّقة بالجنّ، والجنّ كما نعلم مِن إخبار ربّنا جلّ جلاله، مخلوقات خلقت من النار، لِقَول الله عز وجل في معرض الحِوار بين إبليس وبين ربّه:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(76))

(سورة ص)

قبل أن نمضي في الحديث عن الجِنّ، لا بدّ من مقدّمة أساسيّة.

العوالِمُ عالمان ؛ عالمُ الغَيب، وعالم الشّهادة، العالم المادي والمحسوس هو عالم الشّهادة، والعالم المُغَيَّبُ عنّا هو عالم الغيب، وهناك عالم يجمع بين الغيب والشّهادة، شيءٌ غابَ عنك، وبقِيَتْ آثارهُ، فذاته غائبة، أما آثاره فباقيَة.

عالم المحسوسات والمعقولات والإخباريات:

عالم المحسوسات:

عندنا عالم المحسوسات، وعالم الغيب، وعالم بينهما، فعالم المحسوسات هناك حواس أوْدَعَها الله تعالى فيك تتعرّف إليه عن طريقها، فالعين ترى بها الصُوَر، والأذن تستمع بها إلى الأصوات، وحاسّة اللّمَس تتحسّس ملْمسَ الأشياء، وهذه هي الحواس التي تتعرّف بها إلى عالم المحسوسات، بالإضافة إلى بقية الحواس فبالذّوْق تكتشف طُعُوم الأشياء، وبالشّمّ تكتشف روائِحَها، صورتها وصوتها وملمسها ورائحتها ومذاقها، هذا عالم المحسوسات ؛ سبيل اليقين به الحواس الخمس، حواس بني البشر، وغير البشر مشتَركون إلى حدّ ما في هذا العالم، وفي هذه الأدَوات.

عالم المعقولات:

العالم الثاني عالم ما غابَتْ عين الشّيء وبقِيَت آثاره، فهذا العالم يختص العَقْلُ أو الفِكر بمَعرفته، شيءٌ غابَتْ عينه، وبقيَت آثاره، هناك دُخانٌ وراء جِدار فتقول: لا دُخان بلا نار، وأنت لم ترَ عَيْنَ النار، لكنّك رأيْت آثارها، ولم ترَ عيْنَ الكهرباء، ولكنّك رأيْت تألّق المصباح، وتكبير الصّوت، ودوران المِرْوحة، وتبريد الثّلاجة، فالتّبريد، والدّوَران، والصّوت، والضوء ؛ هذه آثار الكهرباء، إذًا العالم الثاني هو عالم غابَتْ عينه، وبقيَت آثار، سبيل معرفته العقل أو باسم آخر هو الفِكر.

كلّ ما في الكون يدلّ على الله تعالى:

الله جلّ جلاله لا تُدْرِكُه الأبصار، ولا يُسأل عنه متى كان ؟! لأنّه خالق الزّمان، ولا أينَ لأنّه خالق المكان، وكلّ ما خطر في بالك فالله خِلاف ذلك، قال تعالى:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ(11))

(سورة الشورى)

ولكنّ كلّ هذا الكون يدلّ عليه، وكلّ هذا الكون بمَجَرّاته ومُذنّباته وكازاراته وكَواكبه، وأفلاكه، وأرضِه، وسمائِهِ، وبجبال الأرض وأنهارها ومهادها وصحاريها، وسهولها وأغوارها، وجبالها وهضابها وأغْوارها وبحارها وبُحَيْراتها، وبينابيعها، وبأسماكها وأطيارها، كلّ ما في الكون يدلّ على الله تعالى، وفي كلّ شي له آيةٌ تدلّ على أنّه الواحد.

إذًا العالم الثاني وسبيل معرفة الله عز وجل بواسطة العقل، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

(سورة آل عمران)

عالم الإخباريات:

بقيَ شيءٌ ثالث، فعالم المحسوسات تتم معرفته عن طريق الحواس الخمس وهي أدواتنا لمعرفة هذا العالم، والعالم العلوي غابَتْ عنّا ذات الله عز وجل، ولكنّ آثار قدرة الله عز وجل تحت سِمَعنا وأبصارنا، إذًا حواسُّنا طريقنا إلى معرفة ما حولنا، أمّا عقلنا فهو سبيلنا إلى معرفة الله عز وجل، وعالم الغيب عالم غابَت فيه ذوات الأشياء وآثارها، وإذا غابَتْ ذوات الأشياء وآثارها ليس هناك من سبيل

لمعرفة عالم الغيب إلا الخبر الصادق، فما له من طريق، إذ العقل عاجز، والحواس عاجزة، فمثلاً الجنّ، بالعقل لا نستطيع أن نتعرّف عليهم، ولا بالحواس الخمس، ولا يمكننا أن نعرف عن الجنّ شيئًا إلا بالخبر الصادق، وهو ما أخبرنا الله به، فعالم الغيب سبيل معرفته الخبر الصادق.

عالم الغيب لا يتعرّف الإنسان إليه إلا عن طريق الخبر الصادق:

الملائكة من عالم الغيب، الجنّ من عالم الغيب، الماضي السحيق من عالم الغيب، والحياة بعد الموت من عالم الغيب، البرزخ من عالم الغيب، وكذا الصِّراط المستقيم، والحوض، والجنّة والنار، هذه كلها من عالم الغيب، ولا نتعرّف إليه إلا عن طريق الخبر الصادق، فإنّ الجنّ مخلوقات خُلقت من نار، والدليل قوله تعالى:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(76))

(سورة ص)

وإبليس ليس طاووس الملائكة كما يدّعي بعضهم، إبليس من الجنّ، لِقَول الله تعالى:

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(73)إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ(74))

(سورة ص)

من خصائص الجن:

خُلقت من نار:

إذاً إبليس من الجنّ، والجنّ مخلوقات خُلِقَت من نار.

عالمُ الجنّ يَرَون عالم الإنس وعالم الإنس لا يرَون عالم الجن:

عالمُ الجنّ يَرَون عالم الإنس، وعالم الإنس لا يرَون عالم الجنّ والدليل، قوله تعالى:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ(27))

(سورة الأعراف)

عدم معرفة شيء عن الجن إلا من الأخبار الصادقة عن ربّ العالمين:

في موضوع الجنّ لا نملِك إلا الأخبار الصادقة عن ربّ العالمين، قال تعالى:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ(27))

(سورة الأعراف)

عالم الجن له تجمعات:

عالم الجنّ له تجمّعات، كيف أنّ البشر أُمَم وشُعوب وقبائل وعشائر، كذلك عالم الجنّ في عالمه، تجمّعات وتجمّعات، والدليل قوله تعالى:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ(27))

(سورة الأعراف)

الجنّ بإمكانه أن يعيش على الأرض:

عالم الجنّ بإمكانه أن يعيش على الأرض والدليل، قوله تعالى:

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(36))

(سورة البقرة)

الحديث للجنّ والإنس معاً، فالجنّ يسكنون الأرض، وفُضْلاً عن سُكنى الأرض فبإمكانهم أن يعيشوا خارج الأرض، والدليل قول الجنّ في القرآن الكريم:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(8)وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعْ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(9))

(سورة الجن)

فعالم الجنّ بإمكانه أن يحْيا على وجه الأرض، وبإمكانه أنْ يَحيا خارج الأرض.

سرعة انتقال الجن بين السماء والأرض سرعة قِياسِيّة:

سرعة انتقال الجن بين السماء والأرض سرعة قِياسِيَّة، لذلك حينما خاطب الله الجنّ والإنس قال:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(33))

(سورة الرحمن)

قدرة الجن على اجتياز المسافات البعيدة:

وقال أيضاً:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ(130))

(سورة الأنعام)

لماذا بدأ بالجنّ ؟ لأنّه أقدَر من الإنس على اجتياز المسافات البعيدة، قال تعالى:

(قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ(39))

(سورة النمل)

هذه أيضًا خاصّة من خواصّ الجنّ.

الجنّ سُمِحَ لهم أن يُوَسْوِسُوا لِبَني آدم الغافلون المنقطعون عن الله تعالى:

الجنّ سُمِحَ لهم أن يُوَسْوِسُوا لِبَني آدم، لِحِكمة مطلقة أرادها الله عز وجل قال تعالى:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82)إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(83))

(سورة ص)

الجنّ يُوَسْوِسون ولكن ليس لهم سلطان على أيّ إنسان:

العِباد المُخْلصُون لا يستطيع الجنّ أن يلقوا إليهم أيّة وسوسة، أما الأناس الضالون، المنقَطِعون عن الله عز وجل والغافلون، فالجنّ ولاسيما شياطين الجنّ يُوَسْوِسون إليهم، ومن الحقائق القاطعة في موضوع الجنّ، أنّ الجنّ ليس لهم على بني البشر سلطان، يُوَسْوِسون ولكن ليس لهم سلطان على أيّ إنسان، إنسانٌ يقول لك: اِفْعَل واتّجه إلى هنا، وقِفْ، لا تُنْفِقْ، أو أنْفِقْ، هذا كلام الناس للناس، ولكن هذا الجِنِيّ لا يستطيع أبداً أن يفعل شيئاً من ذلك، وأن يقودك مثلاً إلى مكانٍ ما، والدليل قوله تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22))

(سورة إبراهيم)

الاستماع لكلام البشر و فهمه:

الجنّ يستمعون إلى كلام بني البشر، ويفهمونه، والدليل قوله تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29))

(سورة الأحقاف)

فَمِن خصائص الجنّ أنّها تستطيع أن تستمع لِكَلام البشر، وأن تفهمه.

أقسام الجن:

والجنّ على أقسام ؛ منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون، والدليل قوله تعالى:

(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا(14))

(سورة الجن)

فالجنّ مهيؤون للهدى، فقد يضِلُّون، وقد يهتدون، يؤمنون أو يكفرون والشيء الثابت أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم كما يقول بعض المفسّرين: بل لم يرَ الجنّ، ولم يرهم يستمعون إليه، ولكنّ وحْيَ السّماء أخبره أنّهم استمعوا إليه، هذه الحقائق عن الجنّ مِن خِلال الكتاب الكريم، لا نمْلك غير ذلك، وأيّة نصوص أخرى ليْسَت صحيحة، وليْسَتْ بشيء في هذا الموضوع، هذا القرآن الكريم هو كتابنا، وما صحّ مِن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلّم هو مَصْدرٌ ثانٍ للعقائد، والتشريع في ديننا ولكن غير القرآن، وغير السنّة، لا نعبأ إطلاقاً بكُلّ ما يُقال خلافهما.

عدم معرفة الجن للغيب:

هذا القرآن أخبرنا أنّ موضوع الجنّ بمُجمَلِهِ موضوع إخباري، فليس الجنّ مِن عالم الشّهادة، ولكن هو مِن عالم الغَيب، وعالم الغَيب لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق الخبر الصادق، وفي القرآن الكريم الخبر الصادق، وما صحّ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم هو الخبر الصادق، فإذا جَمَعْتُم هذه الحقائق مِن خلال هذه الآيات والأحاديث، بإمكانكم أن تضَعُوا إشارة رفض على آلاف القصص، آلاف مُؤلّفة، فعَالم الجنّ لا يعلمون الغيب، والدليل أنّ سيّدنا سليمان لمّا توفّاه الله عز وجل وكان متّكئًا على عصاه، وقد كلّف الجنّ بأعمال شاقّة قال تعالى:

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ(14))

(سورة سبأ)

عدم معرفة الإنسان لحقائق للجن إلا عن طريق القرآن الكريم و الأحاديث الصحيحة:

هذه حقائق من كتاب الله فالجنّ مخلوقات من نار، وهم أوّلاً مُكلّفون كالإنسان، وثانياً يسكنون الأرض، وبإمكانهم أن يسكنوا في كوكب آخر، أو في السماء، وانتقالهم سريع جّدّاً، ولهم تجمّعات، وسُمِحَ لهم أن يُوَسْوسوا لنا، ولكن لا سُلطان لهم على بني البشر، هذه حقائق أساسيّة، وهم لا يعلمون الغيب، ومن الجنّ من هو مؤمن ومنهم من هو كافر، يسمعون صوت الإنسان ويفهمونه، وعندهم قابلِيّة الهدى والضّلال ؛ هذه بعض الحقائق التي وردَت في القرآن الكريم عن الجنّ. لذلك أيّة خرافة أو أيّة قصّة أو أيّة مقولة تتناقض مع هذه الآيات الكريمة، ومع تلك الأحاديث الصحيحة لك أن ترفضها، بل ينبغي أن ترفضها، لأنّ هذا الدِّين دينٌ قَويم، فيه الحق المبين.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ: آية يستنبط منها:

من خصائص النبي الشريفة أنه بُعث للإنس و الجن معاً:

والآن إلى الآية الكريمة، قال تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ (29))

(سورة الأحقاف)

الله عز وجل رحْمةً منه بعَالم الجنّ صرَف نفراً من هؤلاء الجنّ إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، واختلف العلماء في عدد هذا النّفر، بعضهم قال: من ثلاثة إلى عشرة، وبعضهم قال: عشرات الألوف، وهذا لا يَعْنينَا، لأنّه من الغيب، والله عز وجل لم يُحَدِّد عددهم قال تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ (29))

(سورة الأحقاف)

يُسْتَنبطُ من هذا النص أنّ هذا القرآن للإنس وللجنّ، وأنّ النبي عليه الصلاة والسلام مِن خصائصه الشريفة أنّهُ بُعِثَ للإنس، والجنّ معاً، وأنّه بُعِث للجن، ودليله هذه الآية.

السّماع عند الله ليس أنْ تُلقي السّمْع ولكن أن تصغي و تتدبر:

هناك معنى آخر نستفيده، ونلمسُهُ من هذه الآية أنّك مثلاً إذا التَقيْتَ برَجُلٍ ذكرَ لك حديثاً شريفاً، أو آيةً قرآنيّة، وإذا ساقك الله إلى مسْجدٍ فأسْمَعَك خطبةً، أو درس عِلمٍ، أو حديثًا فيه حقّ صريح فهذا ينبغي أن تراه من الله عز وجل، فرحمة الله تعالى ساقَتْك إلى هذا المسجد ورحمة الله تعالى هي التي ساقتْك إلى هذه الخطبة، ورحمة الله هي التي ساقتْك إلى هذا الإنسان، وهذا ليس عَفْواً، ولا مُصادفةً، ولا خطأً، إنّما هو مَقْصودٌ من الله عز وجل، قال تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا (29))

(سورة الأحقاف)

قال تعالى:

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(204))

(سورة الأعراف)

الإنصات أن تسكت، والإنصات عمل سلبي، أنْصِت أي اسْكُت، طيّب والسّماع ؟! قد يبْدو لِبَعض الناس أنّ الإنصات كالسّماع، الله عز وجل قال:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21))

(سورة الأنفال)

السّماع عند الله ليس أنْ تُلقي السّمْع، ولكن السماع عند الله تعالى أن تُصغي وأن تتدبّر، وأن تتأمّل، وأن تُفكِّر، وأن تتحرّك.

سماع الإنسان الحقيقي أن يفهم الكلام و يعيه و يتبنى مضمونه:

كنتُ أضربُ مثلاً طرقْتُهُ على مسامِعِكم كثيراً أنّه إذا قال إنسان لآخر: اِنْتَبِه على كَتِفِكَ عقرب، فما معنى سماع هذه الكلمة ؟ هل تعني أنْ تبقى هادئًا ومرْتاحاً ومُبْتَسِماً ؟ وأن تقول للذي نبّهك وأنت مرتاح النّفس، وبهُدوء، أنا شاكر لك لِتَنبيهك وملاحظتك القيّمة واللّطيفة، ولا يسَعُني إلا أن أُعبّر عن شُكري وامْتِناني، هل هذا الكلام يدلّ على سماعك لِما قال ؟! والله إذاً ما فَقِهْت أنت من كلامه شيئاً، لو فقِهْتَ لقَفَزْتَ قفْزةً، وصرخْتَ صوتًا، هذا إن فقِهْتَ معنى كلمة عقرب، فالسّماع الحقيقي ليس أن تصل هذه المَوجات إلى طَبْلة الأذن، ولكنّ السماع الحقيقي أن تفهم هذا الكلام، وأن تَعِيَه و تتدبّره، وأن تبحث فيه، وتقلِّب وُجوهه، أن تتبنّى مضمون هذا الكلام، أن تنطلق إلى تطبيق فحواه، فإذا قال الطبيب للمريض دَع المِلْح كُلِيًّا، وأنّ المِلح يرفع الضّغط، وارتفاع الضّغط قد يُسبّب انْفِجاراً ببَعض شرايين الدِّماغ،

ومعنى الانفِجار الشّلّل، فإذا فَهِمْتَ كلام الطبيب فهماً دقيقاً، وبيّن لك أنّك على خطر، فهل يُمكن أن تأكل المِلح بعد هذا التوجيه والتنبيه ؟! مستحيل، ما معنى السّماع ؟ السّماع هو التّطبيق، قال تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21))

(سورة الأنفال)

فالذي قُلتَ له: اِحْذَر على كتِفِكَ عَقْربٌ، وبقِيَ هادئًا مرتاحاً مبْتَسِماً وشكَرَكَ شكراً أدَبِيًّا، ورقّق العبارات وأثنى على ملاحظاتك اللطيفة، وقال: أنا لا يسعني إلا أن أُعبّر عن شُكري وامتِناني لهذا الكلام الطيّب، فهذا والله ما سَمِع ما قلتَ له إطلاقًا، لأنّه لو سَمِع لكان في شُغْلٍ عن شُكْرك، ولقفزَ مِن تَوّه، وصرخ ونزع العقرب عن كتِفِهِ، هذا إن عرف معنى كلمة عقرب.

على الإنسان أن يتأمل فيما قرأ من القرآن الكريم:

لذلك قال تعالى:

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(204))

(سورة الأعراف)

ماذا نفْهم من هذه الآية ؟ نفهم من هذه الآية أنّه ليس لك أن تقول مع القرآن الكريم شيئًا أبداً، إما أن تستمع إليه وإما أن تغلقَ المذياع إن كنتَ تسمع بواسطته، إذا كنتَ تقرأ القرآن في الصّلاة ينبغي أن تستَمِع، ومعنى تستَمِع أن تتأمّل فيما تقرأ، وإذا قرئ القرآن في مناسبة ينبغي أن تستمع أي أن تتأمّل فيما تقرأ، قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

التوبة النصوح علامة الإصْغاء إلى الحق:

الله عز وجل أمرنا أن ننظر في الكون، وأن نُفَكِّر، وأمرنا كذلك أن ننظر في أفعاله، وأمرنا في تلاوة قرآنه أن نتدبّر، وهناك آية أخرى تُؤكِّد هذا المعنى، قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم)

علامة الإصْغاء إلى الحق التوبة النصوح:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنّ اللّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم)

علامة تدبّر آيات القرآن الكريم الانْطِلاق في تبليغه:

إذًا قال تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29))

(سورة الأحقاف)

معنى ذلك أنّهم أنْصَتُوا، واسْتَمَعوا، وفَهموا، وتدبّروا، و امتلؤوا إعْجاباً وعلامة إعْجابهم أنّهم انْطَلقُوا إلى قومهم مسرعين ! فهل نفْهم من هذا المعنى معنى يتعلّق بنا نحن ؟ أنت إذا فَهِمْتَ آية في درسٍ ما فهْماً عميقاً هزّ كيانَكَ، فهل يعْقل أن تبقى ساكنًا ؟ مستحيل ! إن كنت قد فَهِمْتَ هذه الآية فهماً عميقاً هزّ كيانك، ورأيْتَ في الآية طريقًا لِسَعادتك، رأيتَ في الآية حلاً لِمُشكلات الإنسان، ورأيْت في الآية سبباً لِخُلودك في الآخرة، إذا فَهِمْتَ القرآن هكذا والله الذي لا إله إلا هو لا تستطيع أن تسْكتْ، فأنت إن الْتَقَيْتَ بأهل بيتِكَ تُخبرهم عن معنى هذه الآية، وكذا إن الْتَقَيْت بأولادك، وزملائك، وجيرانك، وبِمَن حوْلَكَ، وبمن فوقك، وبِمَن دونك، فعلامة التدبّر الانْطِلاق في التّبليغ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ))

(رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو)

الوعي و الإدراك و الفهم من علامات تدبر القرآن الكريم:

أنت إذا ملِئْتَ إعجاباً بالآية تُبَلِّغُها للناس، أما إن لم تنتَبه إليها، ولم تتأمل فيها، ولم تعْقِلها، ولم تتدبّر معانيها، فلن تتحدث بشيء، بل تبقى ساكنًا، فلو حضرْت الدرس الأسبوعي وقيل لك: ما هو ملخّص هذا الدرس ؟ وكنت في غيبوبة عن الدرس فلن تستطيع أن تتفوّه ولو بكَلمة، لذا من علامة الوَعْي، والإدراك، والفهْم، وتدبّر أنّ النّفس البشريّة تمتلئ إعْظاماً لِهذا الكتاب الكريم، وعندئذ تنطلق إلى نقله إلى الآخرين، أيَكون الجنّ أعْقَل مِن بني البشر ؟! قال تعالى:

(فَلَمّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (30))

(سورة الأحقاف)

وِحْدة الأديان السَّماويّة حقيقة مسلم بها، والحقّ كذلك واحِد، وإن رأيْتَ هناك تناقضاً، فَكِتابٌ بقي كما أنزله الله عز وجل، وحفظه الله عز وجل، وكتاب آخر لِحِكمةٍ أرادها الله لم يحْفظه فقد حرّف، وبُدّل، ونُقِلَ، وحُذِف منه، فمعنى أن الذي حفظه الله أبداً من أجل أن نعمل به، ونهتدي بهديه وحده و ندع ما سواه.

القرآن الكريم يهدي إلى الحق اعْتِقاداً وإخباراً:

قال تعالى:

(قالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30))

(سورة الأحقاف)

ماذا نفْهم من هذه الآية ؟! يهدي إلى الحق اعْتِقاداً، وإخباراً، نعتقِدُ أنّه لا إله إلا الله ؛ هذه عقيدة، ونعتقِدُ أنّ الله على كلّ شيء قدير ؛ هذه عقيدة، ونعتقد بأنّ الله بكلّ شيءٍ عليم، ونعتقد أنّ الله عليم، وقديم، وحيّ قيُّوم، كلّ هذه عقيدة، أخبرنا عن قوم عادٍ وثمود، وعن قوم فرعون، وعن آدم عليه السّلام، وعن إبليس، هذه أخبار، وكلها صواب وحق تعني أنّ هناك معتقدات وهناك أخبار، وقوله تعالى: وإلى طريق مستقيم تعني الأمْر، لذلك قال بعض العلماء كلمة رائعة جدّاً: القرآن خبرٌ وأمْرٌ، أيْ الخبر صادق والأمر عَدل، هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

كلام الله عز وجل إخبار عنه تعالى أو أمر و نهي:

كلام الله عز وجل لا يزيد عن كونه إخباراً عنه تعالى، أو أمراً ونهْياً فالإخبار صادق، والأمر والنّهي عدْلٌ:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

قال الله لك: إنّ الله واحدٌ لا شريك له، صدَقَ، وإنّه على كلّ شيءٍ قدير ؛ صدَقَ، وبكُلّ شيءٍ عليم صَدَق، وقال لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(30))

(سورة النور)

هذا هو العدل، لك أن تنظر إلى ما أحلّ الله لك، أما إذا نظرْت إلى امرأة لا تَحِلّ لك فهذا عُدْوان، فكلّ أمرِهِ ونهْيِهِ عدْلٌ، وكلّ إخبارِهِ صِدْقٌ:

(وَتَمّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

الإيمان شرط أساسي من شروط إجابة الدعوة:

قال تعالى:

(قالُوا يَا قَوْمَنَا إنّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إلَى الْحَقّ وَإلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللّهِ (31))

(سورة الأحقاف)

من هو داعيُ الله عز وجل ؟ محمّد صلوات الله عليه، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النّبِيُّ إنّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشّرًا وَنَذِيرًا(45)وَدَاعِيًا إلَى اللّهِ بِإذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(46))

(سورة الأحزاب)

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنّهُ إلَيْهِ تُحْشَرُونَ(24))

(سورة الأنفال)

دَعوة إلى الحياة، وآمنوا به وأجيبوا دعوته، ومعنى آمنوا به بعد أن قال: أجيبوا دعوته ؛ أيْ: إنّكم لن تستطيعوا أن تجيبوا دعوته ما لم تؤمنوا به.

حقوق الله مبْنيّة على المسامحة وحقوق العباد مَبْنِيّة على المُشاححة:

قال تعالى:

(وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (31))

(سورة الأحقاف)

من هذه للتّبعيض أي إذا آمنتُم بالله، واستَجَبتُم له، يغفر لكم بعض ذنوبكم التي هي بينه وبينكم ولكنّ الذنوب التي بينكم وبين العباد ؛ هذه لا تُغْفر إلا بالأداء أو المسامحة لأنّ حقوق الله مبْنيّة على المسامحة، وحقوق العباد مَبْنِيّة على المُشاححة هذا معنى يغفر لكم من ذنوبكم، قال تعالى:

(وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31))

(سورة الأحقاف)

طبعاً كما قال تعالى:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

الإنسان مصيره بيد الله عز وجل:

الحالة الثانية، قال تعالى:

(وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ((32)

(سورة الأحقاف)

إذا أحد الناس رفضَ الدِّين، ورفضَ أن يؤمن بالله تعالى، وقال: الكون طبيعة، والإنسان كائنٌ مُعَقَّد ومن خِلال التَّطوّرات أصبح إنسانًا، والدنيا هي كلّ شيء، وبعد الموت لا شيء، فمِمَّا يتْبعُ هذا الرّفض رفض الأمر والنَّهي، ورفض نِظام الله عز وجل وشريعته، وهذا الذي رفض الدِّين، ورفض أن يأتَمِر بما أمر وينتهي عما نُهي فما مصيره ؟ هو في قبْضة الله، قال تعالى:

(وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ((32)

(سورة الأحقاف)

من لم يستجب لله و لم يؤمن به لا يستطيع أن يتفلّت من عِقابه:

بأيّ لحظة ! نقطة من الدّم لا تزيد في حجمها عن رأس دبوس، إذا تجمَّدَت في مكان في الدِّماغ، ففي مكان تكون شللاً، وفي مكان تكون عمى، وفي آخر تكون خللاً، وفي غيره تكون جنونًا، الإنسان ضعيف، وخثرة من الدّم يكفي أن تتجمّد في أيّ مكان في الجِسم، فيكون لها مضاعفات خطيرة، أحيانًا موتٌ مفاجئ، هذا هو الإنسان ! الإنسان تحت ألطاف الرّحمن:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدّجّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السّاعَةَ فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(رواه الترمذي عن أبي هريرة)

إذا الإنسان لم يجب داعي الله، ولم يسْتَجب لله، ولم يؤمن بالله أو آمنَ به إيمانًا شَكْلِيًّا أجْوف، ولم يأتَمِر، ولم ينته، ولم يلتزم، ولم يُعطِ، ولا يمْنَع، ولم يُطبّق ما أمر الله به، فما الذي يحْصل ؟! قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أو الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أو السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(رواه الترمذي عن أبي هريرة)

الإنسان في قبضة الرحمن، لكنّ الحَبل مُرخى، إنسان مربوط بحَبل متين، يتحرّك وينسى أنّه مربوط بهذا الحبل، يظنّ أنّه حرّ، ولكن في أيّة لحظة إذا شُدّ الحبل أصبح في قبضة الرحمن عز وجل.

معنى الإعجاز في الأرض أنه:

لا يستطيع أن يتفلّت من عِقاب الله:

قال تعالى:

(وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ((32)

(سورة الأحقاف)

معنى الإعجاز في الأرض أنّه لا يستطيع أن يتفلّت من عِقاب الله.

لا يستطيع أن يفْعل شيئًا ما يرده الله:

ومعنى الإعجاز في الأرض أنّه لا يستطيع أن يفْعل شيئًا ما يرده الله ؛ فهما معنيان، كلّما قرأتم في كتاب الله هذه الآية، أو مثيلاتها فليس بمُعجز في الأرض أيْ لا يستطيع الإنسان مهما كَبُر، ومهما علا شأنهُ، ومهما قَوِي أن يفعل شيئاً لم يرده الله، كما أنّه لا يستطيع أن يتفلّت من عذاب الله، أو عقابه، بل هو في قبضة الله دائماً، قال تعالى:

(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ (32))

(سورة الأحقاف)

مهما كانت له جماعة في الدنيا، فهؤلاء لا ينفعونه يوم القيامة، ويأتي ربّه فرداً كما خلقهُ فرداً ! قال تعالى:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32))

(سورة الأحقاف)

قدرة الله عز وجل في خلق السماوات و الأرض:

ثمّ قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(33))

(سورة الأحقاف)

ورد في الأثر القدسي:

((أنْ يا عبدي خلقت لك السماوات والأرض، ولم أعْيَ بخَلقِهنّ، أفيُعْيِيني رغيف أسوقه لك كلّ حين ؟! لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعِزّتي وجلالي إن لم ترْض بما قسَمْتُهُ لك فلأسلطنّ عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسمتُهُ لك، ولا أبالي، وكنتَ عندي مَذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمتَ لي فيما أريد، كفيْتُكَ ما تريد، وإن لم تُسلِّم لي فيما أريد، أتْعَبْتُكَ فيما تُريد، ثمّ لا يكون إلا ما أريد))

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (33))

(سورة الأحقاف)

بعض المجرّات تبعد عنّا أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئيّة ! مع أنّ الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، فكم يقطع في هذه السّنوات ؟! مليون مليون مجرّة، وفي كلّ مجرّة مليون مليون نجم، وما المجموعة الشّمسيّة إلا نقطة كالهباء في جوّ الغرفة في الصيف.

جريمة الكافر جريمة كبيرة جداً لا تغتفر:

ثم يقول تعالى:

(بَلَى إِنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقّ قَالُوا بَلَى وَرَبّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34))

(سورة الأحقاف)

أحيانًا تكون مدة المحاكمات طويلة، ثماني سنوات، أدِلّة ومذكّرات وشُهود ودعاوى وافْتِراءات وأيْمان، وأحيانًا أخرى المحاكمة تستغرق دقائق ! متى ؟ إذا كان هناك اعْتِراف، هل أنت قتلتَ ؟ نعم ! انتهى كل شيء نتيجة الاعتراف، فالاعتراف سيّد الأدلّة باعتراف المجرم لا حاجة للشُهود، ولا للأدلّة انتهى كلّ شيء والقانون واضِح، فربّنا عز وجل أراد في هذه الآية أن يبيّن أنّ جريمة الكافر جريمة كبيرة جدّاً، وأنّه لا يستطيع أن يكذب إطلاقًا قال تعالى:

(بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34))

(سورة الأحقاف)

انتهَتْ المحاكمة بِكَلِمَتَين أليس هذا بالحق ؟!

حساب الكافر يوم القيامة حساب سريع جداً:

قال تعالى:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

فرعون حينما أدْركه الغرق قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس)

كما قلتُ قبل قليل أحيانًا تكون الجريمة واضِحة، والمجرم لا يسَعُهُ إلا أن يعترف، فإذا اعترف صدَر القرار، فالمحاكمة تكون سريعة جدًا، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34))

(سورة الأحقاف)

من بنى مجده على أنقاض الآخرين فالنار مثوى له:

الله عز وجل يُريهم أعمالهم، وإساءتهم، وإضلالهم للبشر، وأنهم بنَوا مجْدهم على أنقاض الآخرين، وبَنَوا حياتهم على موت غيرهم، كما بنوا غِناهم على فقرهم، وبَنَوا أمْنَهُم على خوفهم، قال تعالى:

(أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا (34))

(سورة الأحقاف)

مع القسم، قال تعالى:

(فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34))

(سورة الأحقاف)

لقي أحدهم النبي عليه الصلاة والسلام فقال له يا رسول الله: عِظني ولا تُطِل ! فقال عليه الصلاة والسلام:

((قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

(أخرجه مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي)

فقال: أريد أخفّ من ذلك فقال: إذًا فاسْتَعدّ للبلاء !

من آمن بالله و استقام على أمره أصابه الخير في الدنيا و الآخرة:

كلام واضح كالشمس، هذا نقوله لأنفسنا، الدِّين كلّه إيمان واستقامة والحق واضِح، والأمر واضِح، والنّهي واضح، والحلال حلال، والحرام حرام، والخير خير، والشرّ شرّ، والإساءة إساءة، إذا آمنت بالله واسْتَقَمت على أمره لك الخير في الدنيا والآخرة، وإلا فادْفَع الثَّمَن ، قال تعالى:

(قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ(15))

(سورة القصص)

لما وكزهُ موسى عليه السلام، أقول مرّةً ثانية وأكرر: فهذه الآية يُقاس عليها أشياء كثيرة كلّما وجدْت إنسانًا دُمِّر بِسَبب كسب مال حرام، أو عُدوان على أعراض الناس، أو جهله بالله عز وجل، فكلّما رأيْت مصيبة كبيرة فادحة، فقل: هذا من عمل الشيطان، إنه عدو مضل مبين، فالإنسان إما أن يكون رحمانيًّا، وإما أن يكون شَيْطانِيًّا، ملائكِيًّا أو شَهْوانِيًّا، مستقيماً أو منحرفاً، محسِنًا أو مسيئاً عدْلاً أو ظالماً.

الصبر مفتاح الفرج:

قال تعالى:

(فَاصْبِرْ (35))

(سورة الأحقاف)

يا محمد، إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام، وهو على علوّ مقامه، ورفْعة مكانته وعِصْمته، و الله جلّ جلاله يقول له: اصْبر ! وأنت يا أيها المؤمن اصْبر، إنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، هذه الحياة دار ابْتِلاء لا دار استِواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لِرَخاء، ولم يحزَن لِشَقاء، قد جعلها الله دار بلْوى، وجعل الآخرة دار عُقبى، فجعل بلاء الدنيا لِعَطاء الآخرة سبباً وجعل عطاء الآخرة من بلْوى الدنيا عِوَضاً، فيأخذ لِيُعطي، ويبتلي لِيَجزي، فاصْبر، الزّوجة ليْسَت على ما يُرام اصْبر، الله تعالى أمرك أن تصْبر، ودعوْت إلى الله فلم تُفْلح فاصْبر، دَعَوْت إلى الله تعالى فاستهزئ بكَ اصْبر، أحْسَنْتَ إلى إنسانٍ فأساء إليك اصبر، أولادك ليسوا على ما يُرام ؛ اصْبرْ، دخْلُكَ لا يكفي اصبر، ليس عندك بيت اصبر، تخاف أن تُقيم شرع الله اصبر.

الخوف لا يُنقص من قدْر الإنسان و إنما كلّ عمل له جزاء محدّد:

هؤلاء أنبياء وخافوا، قال تعالى:

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ(18))

(سورة القصص)

الخوف لا يُنقص من قدْر الإنسان، قد تخاف وأنت مستقيم، اصبر، وقال تعالى:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(10))

(سورة الزمر)

كلّ عمل له جزاء محدّد فالحسنة بعشر أمثالها إلى المئة وإلى السبعمئة، كلّك صبْر، إذًا فاصبر، فالجزاء وافر وكثير.

عُلُوّ الهمّة من الإيمان:

أيها الأخوة، إذا ذهب شخص إلى طبيب الأسنان، وهو يعلم عِلْم اليقين أنّ قلْع هذا الضِّرس يحتاج إلى مخدِّر لِصالِحِه، ولكن هذا المخدِّر يحدث ألماً بسيطًا حين الحَقْن، والأمر واضح، فما عليك إلا أن تصبر دون أن يطلب أحد منك ذلك، فالصَّبر مأمور به حينما لا يكون الأمر واضِحاً عندك، وإذا كان واضِحاً لا تحتاج إلى صبر، ولا أجر لك أساساً، فإن كنتَ مستقيماً، وتُعاني من مشكلة وتستغيث، يا الله ما السَّبب ؟ اصبر، ألسْتَ واثقاً بالله عز وجل ؟ ومن حكمته ؟ وعدالته ؟ ومن توفيقه ؟ ومن وعْده الذي لا بدّ أن يقع ؟ فاصبر، وإذا النبي قيل له: اصْبر فنحن من باب أولى، قال تعالى:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)

(سورة الأحقاف)

أرجح التفاسير أنّ كلّ الأنبياء من أولي العزم، وبعضهم قال: أولو العزم سيدنا نوح وإبراهيم وموسى ومحمّد، وبعضهم أضاف سيّدنا آدم، وبعضهم أضاف سيّدنا عيسى، لكنّ أرجح الأقوال أنّ كلّ الأنبياء من أولي العزم، لذلك عُلُوّ الهمّة من الإيمان.

الدنيا ساعة على الإنسان أن يشغلها بالطاعة:

المؤمن قويّ بدينِهِ، قال تعالى:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)

(سورة الأحقاف)

الدنيا ساعة، والدليل أنّ لِكُلٍّ مِنَّا عمر محدود، كيف مضَتْ هذه السّنوات ؟ سل واحداً واحداً، جوابهم واحد الدنيا حُلُم، فالبارحة كنت بالابتدائي، والإعدادي، والثانوي، مدرّس ثمّ التقاعد، فالإنسان له مجموعة أيام، يوم يولد، ثم دخل الابتدائي والإعدادي والثانوي والليسانس والدكتوراه، وأسّس مشروعاً تِجاريًّا، ثمّ تزوّج، وأنجَبَ أولاداً، زوّجَ بناته، وأولاده، وبعدها نقرأ نَعْوَتَهُ !! قال تعالى:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ(19))

(سورة الانشقاق)

ومن دخل الأربعين دخل أسواق الآخرة، والأربعين كما قال بعض المُفسّرين في قوله تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37))

(سورة فاطر)

قالوا النّذير سِنُّ الأربعين !

كل إنسان بين عملين: عمل سيئ و آخر جيد:

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

*** * ***

إلى متى أنت شارد ؟ أين التّوبة ؟ وأين الانضباط ؟ أين طلب العلم ؟ وأين الالتزام ؟ وأين التّطبيق ؟

إذًا:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)

(سورة الأحقاف)

لذلك قالوا: الدنيا ساعة اجعلها طاعة.

أيها الأخوة، اللّذائذ المحرّمة تنقضي، وتبقى تَبِعاتُها، والمشقّات في العبادات تنقضي، ويبقى أجرها وثوابها، أقرب مثل رمضان، إنسان يصوم وآخر يُفطِر، يوم العيد الذي صام فطر، ولكن كسب أجراً،

وبقي الأجر، والذي كفر أكل كالخِنزير، وبقي الإثم، فأنت بين عَمَلين، بين عملٍ يبقى ثوابه، وتنتهي متاعبهُ، وبين عملٍ سيئ يبقى عقابه، وتنتهي لذائذُه.

استعراض حياة الإنسان يوم القيامة:

قال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

(سورة الأحقاف)

الإنسان أحيانًا، وهذا شيء ثابت، لو أنّه لاحَ له شبَح الموت، يستعرض حياته كلها في ثوانٍ معدودة، قال لي شخصٌ وقع من الطائرة، وشاء الله له أن يبقى حيًّا ! قال لي: حينما كنت أهوي، والله اسْتَعرضْتُ حياتي دقيقةً دقيقةً، كَسُرعة البرق وهكذا حال كل الناس يوم القيامة، قال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

(سورة الأحقاف)

التبليغ مهمة الإنسان في الدنيا:

ثمّ يقول تعالى:

(بَلَاغٌ)

(سورة الأحقاف)

أي أنت جئتَ إلى الدنيا من أجل أن تُبَلّغَ هذا البلاغ، انتبه أنت الآن في دار الإبلاغ، وأنت الآن تُبَلّغ، وكلّ فعْل له حِسابه والأصل في المحاكمات الإبلاغ، فالذي لا يُبَلّغ لا يُحاكم، قال تعالى:

(فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

(سورة الأحقاف)

هذه الآية ردّ على كلّ من يدّعي، ويتوهّم أنّ في الكون ظلماً، هل نُجازي إلا الكفور ؟

طاعة الله عز وجل سبيل الإنسان للنجاة:

ما الذي يعصِمُك من الهلاك ؟ الطاعة لله تعالى، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

(سورة الحجرات)

قال تعالى:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)

(سورة الأحقاف)

الموت مصير كل إنسان:

كلّ مُتَوَقَّعٍ آت، وكلّ آتٍ قريب، الإنسان أحيانًا يرى الأمد طويلاً، وهذا من ضعف التّفكير، أو قل: نتيجة الغفلة التي تكتنف الإنسان، فما دام الموت في طريقِهِ إلينا فكأنّه جاء، وكلّ واحدٍ مِنّا عليه أن يعلم أنّه حُكِمَ عليه بالموت مع وَقف التّنفيذ، والتّنفيذ سيَكون فجأةً من دون سابق إنذار، عليه أن يستعِدّ، قال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

(سورة الأحقاف)

كلمة بلاغ مُخيفة، هناك توقيع، ومسؤوليّة، وتَبِعَة، قال تعالى:

(فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

(سورة الأحقاف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (1-8): تفسيرالآيات 1-6 ، من آمن بالله عز وجل أصلح باله في الدنيا و وعده بحياة طيبة في الآخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-12-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة محمد صلى الله عليه وسلّم.

الكافر من أنكر الحق و أعرض عنه و انصرف إلى الدنيا:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

الذين كفروا أي كذّبوا بالحق، وصدُّوا أي صدّوا أنفسهم عن الله عزّ وجل، وصدوا غيرهم، حقيقة الكفر تكذيبٌ وإعراض، إنكارٌ وإعراض، هؤلاء الذين كفروا ما رأوا أن لهذا الكون خالقاً، وما رأوا أن لهذا الكون مربّياً، وما رأوا أن لهذا الكون مسيّراً، ما عرفوا أسماءه الحسنى، وما عرفوا قدرته، ولا رأوا رحمته، ولا عدله، ولا لطفه، ثم إنهم انصرفوا إلى الدنيا، انكبّوا عليها، أداروا ظهرهم للحق، لم يعبؤوا به بل تنكروا له، هناك جانبٌ فكري وجانبٌ سلوكي، فكرياً أنكروا، سلوكياً أعرضوا..

للصدّ عن سبيل الله عدة معان:

1- أعمال الإنسان لأنه كفر بالله وصدّ عن سبيل الله ضلّت :

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

يحتمل أن يكون للصدِّ هنا معنيان: صدّوا أنفسهم، وصدّوا غيرهم، وهذا هو الضالُّ المُضِل، الفاسد المُفْسِد، الذي ينحرف ويأمر غيره أن ينحرف، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، لكن أدق ما في الآية:

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

المعنى الأول: لو أنّ للكافر أعمالاً جليلة، هناك كافر ينفق، يُحسِنْ، أحياناً يقف موقف فيه شهامة، هذه الأعمال الجليلة.. العرب كانوا في الجاهلية كُرَماء، وكانوا شجعان، وكانوا يُقرون الضيف، ويحملون الكَل.. هذه الأعمال الجليلة التي كانت للكافرين قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، ثم لما جاءت بعثة النبي ما أسلموا، بل كذّبوا وأعرضوا، فهذه الأعمال الجليلة التي كانت لهم ما مصيرها ؟ الجواب:

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

فيا تُرى هل الله جلّ جلاله أضلّ أعمالهم أم أنّ كفرهم هو الذي أضلّ أعمالهم ؟

من عمل عملاً صالحاً عليه أن يبتغي وجه الله عز وجل به:

الإنسان أحياناً يعْملُ عملاً صالحاً، لمن يعمله ؟ فإنه يريد مَنْ يشيد له بهذا العمل ويعلق لوحة رخاميّة، يَقول: أنفق المحسن الفلاني، و لقد ضلّ هذا الإنسان عن الله عزّ وجل، تنكب سبيل الهدى، فإذا عَمِلَ عملاً صالحاً فهذا العمل يدلُّ عليه هدفه الصحيح و سلامة توجهه، والهدف الصحيح أن تبتغي به وجه الله، العمل الصالح لا يليق به إلا أن يُبتغى به وجه الله، لأنه ما من إنسانٍ على وجه الأرض بإمكانه أن يكافئك عليه إلا الله، لذلك حينما يسدي إليك أحدٌ معروفاً تتوجّه إلى الله بأعماق قلبك فتقول: جزى الله عنا فلاناً ما هو أهله، لأنك أنت عاجزٌ عن أن تجزيه، لو جزيته في الدنيا من يجزيه في الآخرة ؟ كلمة:

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

الإنسان حينما ينسى الله عزّ وجل يضيع و يتردى:

الأعمال الطيّبة التي يفعلها الكافر لا هدف لها، لذلك تارةً يستجدي المديح، تارةً ينوّه بها هو، كأن يترك لها آثاراً مكتوبة لأنه لم يبتغ بها وجه الله عزّ وجل، لابدّ من جهةٍ تتجه إليها في كل أعمالك، لا يوجد إنسان يعمل عملاً إلا وفي خاطره جهة يتجه بها إليه، أحياناً الإنسان يقيم وليمة فلو أنه لم يبتغ بها وجه الله عزّ وجل لابدّ من أن يستجدي مديح الضيوف بهذا الطعام، يسألهم كيف الطعام ؟ هل أعجبكم هذا الطعام ؟ لأن الإنسان حينما ينسى الله عزّ وجل يضيع و يتردى، فأجمل كلمة:

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

أي أن هذا العمل الحسن الذي فعله مَن كفر بالله وصدّ نفسه عن سبيل الله، فماذا كان يبتغي من عمله ؟ عمل بلا هدف، إذاً لابدّ من أن يستجدي به المديح، لابدّ من أن ينوّه به، لابدّ من أن يمدح نفسه لأنه لا يوجد عمل بلا مقابل، الإنسان العاقل لا يعمل عملاً بلا مقابل، فالمقابل هو مديح الناس، أو إكبار الناس، أو رفعة الشأن، أو تخليد العمل.

العمل الصالح الذي يعمله الكافر عمل ضال لا هدف له:

إذاً:

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

المعنى الأول: أن العمل الحسن الذي يبدو للناس أن الكافر يفعله فهذا العمل كفرٌ بالله عزّ وجل، وإضلالٌ لنفسه عن سبيل الله مما يجعل هذا العمل ضالاً أي لا هدف له، الإنسان الضال يمشي بلا هدف، لو أن إنساناً ضلّ طريقه في الصحراء فهو يتحرّك حركة عشوائية بلا هدف، تارةً يميناً، تارةً شمالاً، تارةً شرقاً، تارةً غرباً، لا يعرف، فالحركة غير الهادفة حركة ضالّة، والعمل الصالح الذي يفعله الكافر الذي لم يؤمن بالله عزّ وجل، ولم يؤمن برسوله، وصدّ نفسه عن الله وعن رسوله، هذا العمل الصالح الذي يفعله الكافر عملٌ ضال أي بلا هدف فهو سراب بقيعة، لذلك مما يرافق هذا العمل التأكيد على مدح الذات، مما يرافق هذا العمل استجداء المديح، مما يرافق هذا العمل محاولة تخليد عمله بشيٍ أو بآخر.. هذا هو المعنى الأول.. أيْ حتى الأعمال الصالحة..(حتى هنا حرف ابتداء).. التي يفعلها الكفّار هذه الأعمال ليس لها هدفٌ واضح لذلك شُبّهت في هذه الآية الكريمة بأنها ضالّة تتحرّك حركة عشوائية.

2 ـ حينما يفقد الإنسان الهدف السامي من وراء عمله يضيع ويشقى :

شيءٌ آخر في هذه الآية: الإنسان حينما يكفر بالله، وحينما يرى أن الدنيا هي كل شيء، وحينما يبتعد عن الآخرة يُلغى الهدف السامي من حياته، حينما يفقد الإنسان الهدف السامي و الغاية النبيلة من وراء عمله يضيع ويشقى.

فالمعنى الثاني إذًا: أن أعمال الكافر الذي كَفَرَ وصدّ نفسه عن سبيل الله أعماله تتحرّك حركةً عشوائيّةً دونما هدف، إن كانت صالحةً يبتغي بها السمعة والمجد ومديح الآخرين فقد طها، وإن لم تكن صالحةً فهي أعمال ضالّة شاردة تتحرّك حركة عشوائيّة.

3 ـ الكافر يتحرك في الحياة الدنيا كما يتحرّك الأعمى في طريقٍ موحشةٍ :

ثم إن هناك معنىً ثالثاً:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لأنه في عمى..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة طه)

كنتَ في الدنيا أعمى، فالأعمى الذي لا يعرف الله عزّ وجل تجده لا يأتي عمله مصيباً، يأتي عمله أخرق، قد يدبّر تدبيراً يكون هذا التدبير تدميراً له..

الكافر مهما كان ذكيّاً لأنه كفر بالله عزّ وجل انقطع عن الله:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية 36)

أيْ أنّ الكافر مهما كان ذكيًّا، لو كان في أعلى مستويات الذكاء، لو كان عاقلاً كما يدّعي، لو كان ذا خبراتٍ متراكمة، لو أُتيحَت له الحقائق كلُّها وتوافرت بين يديه فلأنه كفر بالله عزّ وجل فقد انقطع عن الله عزّ وجل، وما دام قد انقطع عن الله عزّ وجل فهو في عمى، لذلك الكافر يتحرّك في الحياة الدنيا كما يتحرّك الأعمى في طريقٍ موحشةٍ مظلمة مليئة بالمخاطر، حركة الأعمى حركة عشوائيّة، حركة غير هادفة، حركة ضلالية.

من كان عمله خالصاً لله أكرمه الله في الدنيا و الآخرة:

أول معنى: لو كان يَقري الضيف، لو كان يعين على نوائب الدهر، لو كان شجاعاً، فأعماله لأنه كفر بالله وصدّ عن سبيل الله ضلّت، وتنكّبت الهدف الصحيح، لا يليق بالعمل الصالح إلا أن يتجه لله عزّ وجل، لأن الله جلّ جلاله هو الذي يكافئ على هذه الأعمال، ويكافئ عليها بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، فالإنسان لا يليق به أن يعمل شيئاً لغير الله، أما إذا كان عمله لله خالصاً فالله عزّ وجل أكرمه في الدنيا وفي الآخرة، هذه الآية دقيقة دلالتها جداً، أيْ لا ينفع الإنسان ذكاؤه، ولا عقله، ولا خبرته، ولا من حوله، ولا من فوقه، ولا من دونه لأنه لمّا كفر بالله، و صدّ نفسه وغيره عن سبيل الله ضلّ عمله، فإن كان هذا العمل صالحاً ليس له هدف، تارةً يثني على نفسه، وتارةً يستجدي المديح، وتارةً يخلِّد أعماله بأشياء يراها تنفعه، والخير كل الخير أن هذه الأعمال ينبغي أن يتجه إلى الله عزّ وجل:

(هُوَ أَهْلُ التّقْوَى)

(سورة المدثر: آية 56)

أيْ هو الله جلّ جلاله أهلٌ أن تتقيه، أهلٌ أن تخلص له، أهلٌ أن تتجه إليه، أهلٌ أن توظف شبابك في طاعته، أهلٌ أن تُنفِق كل ما آتاك الله في سبيله..

من يكفر بالله عز وجل يصدّ الناس عن فعل الخير:

(أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (1))

والمعنى الثاني: أن الإنسان حينما يكفر بالله و يضل عمله، فكيف يتصرف و يتعامل مع الآخرين ؟ فتراه يقول: اتق شرّ من أحسنت إليه، فإذا فعل عملاً صالحاً وقابله الناس على هذا العمل الصالح بإساءةٍ

يقول لك: حلفت يمينًا ألاّ أخدم أحداً، إنه لا يعرف الله عزّ وجل ؛ فهو إذاً يصد الناس عن فعل الخير.

المعنى الثالث: أنه إذا أراد أن يعمل فلمن يعمل ؟ فلأي رد فعلٍ سيّئ يحلف أيماناً مغلّظةً أنه لن يعمل صالحاً بعد اليوم، لأنه هو في الأساس كفر وضلّ نفسه عن سبيل الله إذاً فأعماله بلا جدوى، إذ يغلِّظ الأيمان ألاّ يفعل مع أحد خيراً.

والشيء الثاني:

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

يعني ؛ إذا أراد الكافر أن يكيد للمؤمن، وإذا أراد الكافر أن يطفئ نور الله عزّ وجل فالله لا يمكِّنه، ولا يسمح له، بل يجعل عمله خُلّبياً تائهاً، لا يتحرّك إلا حركة ضالّة.

الله عز وجل لن يتخلى عن دينه:

ثلاثة معانٍ أيها الأخوة...

أول معنى: العمل الصالح لا هدف له، لذلك يستجدي عمله تعويضاً بالمديح، والثناء، والتخليد.

المعنى الثاني: أنه إذا أراد أن يعمل ليس هناك جهةٌ عُليا يبتغي رضوانها، فهو يعمل بقدر ما ينال من مكافآت وثناءات، فإذا خاب ظنّه في الذين يحسن إليهم يقلع عن العمل الصالح.

والمعنى الثالث: أنه إذا أراد أن يكيد لدين الله، فإنه يعمل على أن يُحبط مسعى المسلمين، فهناك أناسٌ يتخوّفون من حربٍ عالميّةٍ ثالثة ضد الإسلام ويبعثون الأسى في نفوس المسلمين، والجواب: هذا دين الله عزّ وجل، والله جلّ جلاله لن يتخلّى عنه، لذلك:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

أيْ أنّه يخطِّط ويدبّر ويتآمر ليطفئ نور الله عزّ وجل، ثم هو ينخذل ويبقى دين الله قويّاً، قال بعضهم:" **ما ضرّ السحاب نبح الكلاب، وما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلامٌ بحجر، ولو أن الناس أرادوا أن يغبّروا على الإسلام ما غبّروا إلا على أنفسهم"**

من يكيد للمسلمين يدمره الله و يخذله:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

هذه آية، لكن والله الذي لا إله إلا هو هناك آلاف القصص التي تؤكِّدها وتوضِّحها، أحياناً ربنا عزّ وجل لحكمةٍ يريدها يجعل تدمير الكافر في تدبيره، يدبّر، ويدبّر، ويخطِّط، ويُحكم التدبير ثم يُدَمَّر من خلال تدبيره..

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

لا أعماله الصالحة مقبولة، وليس هناك جهةٌ يؤمن بها ويتوجّه إليها، وحينما يعمل فهو في حيرة كبيرة، وحينما يكيد للمسلمين لا يستطيع..بل يدمر مخذولاً.

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

على الإنسان أن يحذر من أن يكون في خندق معادٍ للدين لأن الله يدافع عن دينه:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(15)وَأَكِيدُ كَيْدًا(16) فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا(17))

(سورة الطارق)

لو عُدْنَا إلى التاريخ كم هي المؤامرات التي حِيكت ضدّ النبي صلى الله عليه وسلّم؟ أخرجوه من بلده، عذّبوه، وقاتلوه عشرين عاماً، فماذا كانت النتيجة ؟ النتيجة أن النبي صلى الله عليه وسلّم رفع الله ذكره، وأعزّ أصحابه، ونصر دينه، وهزم الأحزاب وحده، وأن الذين عارضوه وناوئوه، ونكّلوا بأصحابه، وقاتلوه وأخرجوه هم في مزبلة التاريخ الآن، وهذه سنّة الله في خلقه، فالإنسان لِيحذرْ ألف مرّة أن يكون في خندقٍ معادٍ للدين لأن الله يدافع عن دينه، وهذه الآية تلقي الأضواء كاشفة:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

يُنفِق الأموال، يخطط، يدبّر والإسلام يزداد قوّةً، أُنشئت في بلد إفريقي كان مستعمراً من قِبَل فرنسا أربعة آلاف كنيسة على مستوى القرى حتى غدا في كل قرية كنيسة، بل وعلى مستوى المزرعة، كم كلّفت هذه الكنائس ؟! ومع ذلك حينما انتهى هذا الاستعمار انقلبت كلّها إلى مساجد..

الأعمال الطيّبة لا يليق بها أن تكون لغير الله تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

أحياناً تُنْفِق الأموال الطائلة من أجل أن تضل إنسانًا وتخرجه من الإيمان إلى الكفر، فيأخذ هذه الأموال ويزداد إيماناً، أحياناً يقسو أهلُ الكفر على المسلم لكن قسوتهم عليه تزيده إيماناً بدينه، يزداد تمسُّكاً، فالأمر عجيب، هذه الآية يجب أن تُدخِل على قلب المؤمن السرور، الكافر لو كان ذكيّاً، لو كان قويّاً، لو استعان بخبرات العالم كلها، لو عمل ليلاً نهاراً ليكيد للمسلمين هو الذي يُخْفِق، وهو الذي يواجه الفشل، والمسلم هو الذي يوفّقه الله عزّ وجل هذا بشرط أن يكون المسلم مسلماً حقيقيّاً.

يمكن أن تقرأ التاريخ، وأن ترى التاريخ كلّه تأكيداً لهذه الآية، هناك آلاف الفرق الضالّة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي أين هي الآن ؟ لقد تلاشت وانهارت وبقي الدين شامخاً كالطود، فالإنسان يقوى

بالحق، أما إذا عارض الحق يدمّره الحق، لكن أخطر شيء في هذه الآية أن العمل الصالح هو أيّ عملٍ يحمل بذور التعاون، إنه عمل صحي، إكرام الأيتام، إطعام الفقراء، بناء المدارس مثلاً، تأسيس المساجد، هذه الأعمال الطيّبة لا يليق بها أن تكون لغير الله، الدعاء:**"اللهمّ إني أعوذ بك أن أتزيّن للناس بشيءٍ يشينني عندك ، اللهمّ إني أعوذ بك من أن أقول قولاً فيه رضاك وألتمس به أحداً سواك"** .. وقد قيل : **" كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله "** .. إذا كان خصمك في المعصية فأنت المنتصر ، ومعصيته تخذله ، معصيته تُضلُّ عمله ، معصيته تحبط مسعاه ، معصيته تفسد عليه خطّته، إذاً هنا أُلغي الذكاء ، وأُلغي التدبير ، وأُلغيت القوّة ، وأُلغيت الخبرات ، أين هي ؟ ما دام الله سبحانه وتعالى متكفّلٌ أن يضلّ أعمال الكافرين ، فلا تبتئس و لا تحزن .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا)

آمنوا بالله، آمنوا به موجوداً وكاملاً وواحداً، آمنوا به خالقاً، آمنوا به ربّاً، آمنوا به مسيّراً..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

استقاموا على أمره وتقرّبوا إليه بخدمة خلقه..

(وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)

هذا عطف الخاصّ على العام للعناية به، أيْ أنهم آمنوا بهذا القرآن بالذّات وآمنوا بما نُزّل على محمد صلّى الله عليه وسلّم..

(وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ)

حق من عند الله..

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

ما هو البال ؟ البال هو الحال، أيْ أصلح أحوالهم، فبينما تكون نفس الكافر قلقةً، مضطربةً، خائفةً، ممزّقةً، مشتّتةً، مبعثرةً، تائهةً، شاردةً، ضالّةً، تكون نفس المؤمن مطمئنّة، مستريحة، واثقة من حفظ الله لها، لا تخشى في الله لومة لائم، ينزّل الله عليها السكينة والأمن..

الله عزّ وجل رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الأنعام)

هذا معنى صلاح البال، وهناك آية أخرى:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(5))

(سورة محمد)

أيْ أنّ ربنا عزّ وجل رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى، تجد المؤمن لو شققت على صدره، أو لو قرأت أفكاره، أو لو اطلعت على سريرة نفسه وجدت فيه الأمن، وجدت فيه الراحة، الرضا بقضاء الله، وجدت فيه التفاؤل، وجدت فيه الاستقرار، هذا معنى يصلح بالهم، بالهم أي حالهم، أيْ يطمئنهم، يثبّتهم، يرفع معنويّاتهم، يأخذ بأيدهم، يلهمهم، يرشدهم، يسدد خطاهم..

لا قيمة للإيمان من دون عمل صالح:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا)

آمنوا بالله..

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

والإيمان والعمل الصالح يتكرّر في القرآن الكريم أكثر من مئتي مرّة، بمعنى أنه لا قيمة للإيمان من دون عمل صالح، والعمل من دون إيمانٍ ضلال في صحراء، العمل من دون إيمان لا يكون، والإيمان من دون عمل جنون، تزداد حجّة الله عليك، قال تعالى: فلله الحجة البالغة.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ)

صلاح البال لا يقدّر بثمن:

الحقيقة هذا الكتاب الذي بين أيدينا إذا قرأناه فكلّما كان إيماننا بالله عزّ وجل في مستوى عالٍ نأخذ بمعانيه مأخذاً جديّاً ونتحرّك وفق مدلولاته، أما إذا كان الإيمان ضعيف كما يقولون: فهم يقرؤونه للتبرّك ولا يتورعون عن أن يعصوه، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

(سنن الترمذي: عن محمد بن يزيد)

((ورُبّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

القرآن ينبغي أن تقيم حدوده، وأن تُحلّ حلاله، وأن تحرّم حرامه، وأن تتحرّك وفق ما يأمرك به، وأن تتخلّق بأخلاقه، كما سئلت السيدة عائشة فقالت:

((كان خُلُقُه القرآن))

عليه الصلاة والسلام..

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

هذا صلاح البال لا يقدّر بثمن.

القلق، الاضطراب، الضياع من لوازم الانقطاع عن الله عزّ وجل:

إن الله يعطي القوّة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.. يعني إذا صحّ التعبير ؛ الصحّة النفسية، التوازن، التكيُّف، الاستقرار، الأمن، الطمأنينة، التفاؤل، النظرة الموضوعية هذه الخصائص التي يسمّونها مظاهر الصحّة النفسية متوافرةٌ جميعها في المؤمن ؛ لكن القلق، الاضطراب، الخوف، العنف، التبعثر، الضياع من لوازم الانقطاع عن الله عزّ وجل، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2))

أعلى شعور يشعر به الإنسان أن خالق الكون راض عنه:

إنّ الإنسان إذا شعر أن خالق الكون راضٍ عنه، هل هناك شعور أعلى من هذا الشعور ؟.." **إن الله راضٍ عن أبي بكر** " .. هكذا أخبر النبي الصدّيقَ رضي الله عنه ، ماذا شعر أبو بكر ؟ وحينما قال النبي الكريم لسيدنا معاذ : " **والله يا معاذ إني لأحبُّك** " ، من هذا الذي يحبُّه ؟ رسول الله ، وحينما دخل سعد على النبي الكريم قال : " **هذا سعدٌ هذا خالي أروني خالاً مثل خالي** " ، بماذا شعر هذا الصحابي الجليل ؟ حينما قال لسعدٍ في بعض المعارك : " **ارم سعدٌ فداك أبي وأمي** " ، إذا أنت كنت تعيش بعصر وإنسان له شأن ومكانة فأكرمك ، أو رفع من شأنك ، أو خصّك بتحية أو بابتسامة ، خصّك ببطاقة ، خصّك بدعوة ، تجد نفسك لفترة طويلة تملأ الدنيا ضجيجاً بهذا اللقاء ، وبهذا التكريم ، فكيف إذا كان خالق الكون راضياً عنك ؟ كيف إذا شعرت أن الله يحبُّك ؟ من بيده ملكوت السماوات والأرض، فسعادتك مجنحة ولا توصف ، كل علاقاتك مع البشر علاقات محدودة ، والإنسان ضعيف ، فلو أن أحداً أكرمك بكلماتٍ معسولة ، أو أنه قرّبك ، فماذا عنده ؟ إنه فقير مثلك ، لكن الخالق العظيم إذا قرّب الإنسان ، أو إذا طمأن الإنسان ، أو إذا تجلّى على هذا الإنسان ، فملأ قلبه سكينةً ، أو ملأ حياته سعادةً، أو أودع محبّته في قلوب الخلق ، حتى جعل أعداءه في خدمته ، فبماذا يشعر هذا الإنسان ؟ إن شعوره التيه والاعتزاز و السلامة .

الإيمان يورث المرء سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها والبعد عن الله شقاء لا يعرفه إلا من ذاقه:

والله أيها الأخوة... إنّ الإيمان يورث المرء سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، وفي البعد عن الله شقاء لا يعرفه إلا من ذاقه، قال له: "يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنّة بشر، وكل نعيم دون الجنّة محقور وكل بلاءٍ دون النار عافية " لذلك عندما قال الشاعر:

فليتك تحلو والحياةُ مـريرةٌ وليتك ترضى والأنامُ غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمينَ خـرابُ

وليت شرابي من ودادِك سائغٌ وشربي من ماءِ الفراتِ سرابُ

* * *

فهو على صواب و قد أفلح، وقال بعض العارفين بالله:

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذ ي رأوه لما ولّيت عنّا لغيـرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العُجبِ ثم جئتنا

ولو ذُقت من طعم المحبّة ذرّةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بـحبّنا

ولو نسمت من قربنا لك نسمةً لمتّ غريباً واشتياقاً لقربـنا

* * *

فهذا ذاق طعم القُرب.

من انعقدت صلته مع الله عز وجل أيده الله بنصره و تأييده:

إخواننا الكرام... بالمختصر المفيد المعلومات الدينية وحدها لا تكفي، فهي ثقافة وحسب، والإسلام من دون اتصال بالله يصبح فلكلوراً، تراثاً، تقاليداً، عادات، ثقافة، مشاعر سطحيّة، أما إذا آمن الإنسان، وأحكم استقامته، وصلّح عمله، وانعقدت صلته مع الله عزّ وجل صار في عالَم آخر، تحوّل إلى عالَم القُرب واستظلّ ظلال رحمة الله، وأمن بحفظ الله وحالفه توفيق الله، وتأييد الله، وصار الله يدافع عنه، لذلك:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ)

فالماضي مضى وانتهى، الإسلام يجبُّ ما قبله، نعم، الإسلام يهدم ما كان قبله..

((يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي))

(سنن الترمذي عن أنس بن مالك)

من عاهد الله على طاعته شعر بحفظ الله له وتوفيقه إياه:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية 53)

القضيّة مع الله سهلة جداً، لذلك عُدْ إلى الله و سترى أن الله:

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2))

مهما كانت السيّئات، مهما كَبُرَتْ، مهما استحكمت، الصُلْحَة بلمحة، الصلح مع الله مُسْعِد، فإذا الإنسان تاب توبة نصوحاً وعاهد الله على طاعته، وشعر بالأمن والطمأنينة، وشعر بحفظ الله له وتوفيقه إياه، هذا الشعور لا يقدّر بثمن.

من آمن بالله عز وجل أصلح باله في الدنيا و وعده بحياة طيبة في الآخرة:

لذلك:

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2))

ذاك الماضي، وأما الحاضر:

(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

فالمؤمن مرتاح، بينما تجد شخصاً بعيداً عن الله تجده ثائراً، مضطرباً، أفعاله عنيفة جداً، كلامه قاسٍ، حياته تعيسة، لكن المؤمن مطمئن، متوازن، واثق أن الله بيده كل شيء، وأن الله لا يتخلّى عنه، وأنه وعده بالحياة الطيّبة فهو ينتظر وعد الله عزّ وجل..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَلِكَ)

من أسّس بنيانه على شفا جُرُفٍ هار انهار به في نار جهنّم:

لماذا هؤلاء سعداء، وأولئك أشقياء ؟ لماذا أولئك أضلّ الله أعمالهم ؟ بينما هؤلاء..

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

قال:

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ)

الباطل هو الشيء الزائل، أيْ أنّ المبطل أسّس بناءه على شفا جرفٍ هار فانهار به في نار جهنّم، أحياناً قد تجد بناء سقط فيقال لك: بُني على مغارة، شيء طبيعي جداً أن ينهار لأنه ليس له أساس، فقد

أنفق شخصٌ أمواله الطائلة وأنشأ بناء وفجأةً أصبح البناء أنقاضاً وتحته قتلى لا يعلمهم إلا الله، لأنه أسّس بنيانه على شفا جُرُفٍ هار فانهار به في نار جهنّم..

دين الله عز وجل دين ثابت لا تزيده الأيام إلا رسوخاً:

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ)

فمعتقداته باطلة غير صحيحة، وأفكاره سراب، معتقداته من بنات الخيال، فهي ترهات مخالفة للدين..

(اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ)

الحق الشيء الثابت، من نِعَمِ الله علينا أن ديننا الحنيف لا تزيده الأيّام إلا رسوخاً، فمنذ أن ظهر هذا الدين والأحداث، والاكتشافات، والعلوم تزيدنا إيماناً بهذا الدين، أما الباطل، فأيّ إنسان اتبع الباطل، اعتنق مذهباً أرضياً وضعياً يفاجأ بل ويُصْعَق أو يفاجأ بأن هذا المبدأ لا أصل له، قائم على رمال، وهذا ما جعل كل من يعتنق المذاهب الوضعيَّة التي انهارت انهياراً كبيت العنكبوت، يتضايقون إذ وقعوا في شرّ أعمالهم، ووقعوا في إحباطٍ شديد وفي خيبة أملٍ مُرّة، لكن الذي اتبع منهج الله عزّ وجل ينام مرتاح البال، ثم إنه لا يمكن أن يظهر شيءٌ في الأرض ؛ سواء أكان فكراً أو اكتشافًا، أو حقيقةً علميّ إلاّ و تؤكِّدُ صحة ما جاء في هذا الدين لأنه من عند الله عزّ وجل..

من اعتمد على غير الله تضيع آماله و يقع في شر عمله:

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ)

الشيء الزائل..

(الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ)

وبعد فإذا كان الإنسان مع الله، فالله لا يحول ولا يزول، أما لو كان مع إنسان مثله وهذا الإنسان مات فجأةً، ضاعت كل آماله، ولو اعتمد على جهة وهذه الجهة ضَعُفَ مركزها ضاعت كل آماله، أو لو علّق آماله بشيءٍ وهذا الشيء فقده فجأةً وقع في شرّ عمله..

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3))

من كمال عقل الإنسان أن يتمسّك بالحق و يتعلّق بالله عزّ وجل:

سمعت هذه القصّة: أنّ إنسانًا جاء بهذا الصحن.. الدش إلى بيته ولأن الصورة غير واضحة، فنصحوه أن يضعه في الشرفة، فلما وضعه في الشرفة تبيّن أمام الشرفة شجرة من التين، فجاء بسلّم، ونشر الغصن الذي يحجب عنه الصورة، ثم اضطرب السُلّم فتمسّك بهذا الغصن الذي قطعه وقد بقيت منه قطعة عالقة فوقع على الأرض وقد أُصيب بثلاثين كسراً في جسمه، إنه أمسك بشيء واهٍ خلا به..

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ)

أمسك بشيء باطل، شيء ليس له أصل، ليس له أساس، ليس له وجود، أفكار كلّها أوهام تعلّق بها، بنى حياته عليها فلمّا انهارت انهار معها، من كمال عقل الإنسان أن يتمسّك بالحق، يتعلّق بالله عزّ وجل، بكل العصور، بكل العهود، بكل المجتمعات، بكل البيئات، بكل الأنظمة والله هو هو لا يتغيّر، بيده كل شيء، فإذا كنت معه فليس عندك مفاجأة أبداً، إذا كنت مع غيره نجاحك منوط بهذا الذي تعلّقت به، فالبطولة أن تكون مع الأصل القوي، مع الواحد، مع القديم، مع الباقي، مع الذي بيده كل شيء..

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

لماذا أضلّ أعمالهم ؟ لأنهم اتبعوا الباطل..

العفو عن الأسرى وإطلاق سراحهم قد يقربهم من الحق:

(وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4))

هذه الآية تتحدّث عن الأسرى، الأسير إذا أطلقته وعاد إلى بلاد الكفّار وقوّى من شوكتهم، وأعاد الكرّة فإنه يُقتَل، لكن العفو عنه وإطلاق سراحه قد يقربه من الحق، وكذلك قبول الفدية منه إذ تُقبَل الفدية، أو يُمَنُّ عليه بالإطلاق، أو لحكمةٍ يراها الذي يتخذ القرار الكُلِي، فكل هذا ربما يدنيه من الإيمان. وهذا متعلِق بالقتال مع الأعداء.

على المؤمن أن يضعضع صفوف أعدائه و يأخذ منهم أسرى:

لذلك:

(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ)

أيْ ضعضعتم قوّتهم، وأزلتموهم عن مكانتهم..

(فَشُدُّوا الْوَثَاقَ)

خذوا منهم أسرى بعد أن تثخنوهم بالقتل و الجراح:

(فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ)

أي إطلاق سراحٍ بلا مقابل..

(وَإِمَّا فِدَاءً)

يُفدَى الأسير بمبلغ من المال، أو بشيءٍ آخر..

قدرة الله على إبادة أعدائه و لكنه سمح للإنسان بشرف الجهاد:

(حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ)

هذا المعنى دقيق جداً، دقة هذا المعنى توضّح أن هذا الدين دين الله، فالله عزّ وجل قادر أن يفني أعداءه عن آخرهم بأدنى بادرةٍ من عنده مباشرةً، دون أن نقاتلهم، ولكن شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يسمح لكم بشرف الدفاع عن دينه، فهذا الدين دين الله، وهذا الدين لن يتخلّى الله عنه، المشكلة بالنسبة لك أن يسمح الله لك أن تدافع عنه ويفيض عنك بشرف الجهاد.

أقوى أنواع الجهاد الجهاد الفكري:

طبعاً هناك حالات كثيرة تَمُر بالمسلمين، فهناك الجهاد الفكري وهو أقوى جهاد، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا(52))

(سورة الفرقان)

فتوضيح الحق، تبيين الحق، إقناع الناس بالحق هذا جهاد أيضاً، فأنت إما أن تنال شرف هذا الجهاد في إيضاح الحق للناس وتبيينه، وإما أن يستغني الله عنك وهو الذي ينصر دينه، على كلٍ فالله عزّ وجل لا ينتظر من عباده من ينصر دينه، هذا دينه ولا يتخلّى عنه، لذلك:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ((4))

الجنة مصير من قدّم حياته رخيصة لرفع كلمة الله وإعلائها:

(وَلا تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ(169))

(سورة آل عمران)

فبالجهاد يقدِّم الإنسان حياته رخيصة لرفع كلمة الله وإعلائها، والإنسان إذا قدَّم ماله، فالله عزّ وجل يتقبَّل هذا المال بيده، الصدقة تقع في يَدِ الله قبل أن تقع في يدِ الفقير، إذا أنت قدَّمت جزءاً من مالك تلقاه الله بيده على تفسيرٍ يليق بحضرة الله عزّ وجل، فكيف إذا قدَّمت نفسك كلَّها ؟! هذا شيء لا يُقدَّر بثمن، فهؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله قال سبحانه:

(فَلَنْ يُضِلّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5))

الله عز وجل ما ترك للإنسان الجهاد إلا ليكسبه هذا الشرف:

أدقُّ ما في الآية الرابعة:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ)

أيْ أن الله عزّ وجل لا ينتظر من الناس أن يؤيّدوا هذا الدين، هذا دينه ويؤيّده مباشرةً، ويهزم أعداءه من دون أن تنالوا شرف هذا العمل، ولكن إذا ترك الله الأمر لكم فمن أجل أن يكسبكم شرف الدفاع عن الدين..

(وَلَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَلَنْ يُضِلّ أَعْمَالَهُمْ (4))

وينبغي أن يشعر كل مؤمن إذا دعا إلى الله، إذا بلغ الناس آيات القرآن، طبعاً لكل عصرٍ جهاده، فإذا دعا إلى الله، وأقنع الناس بالحق، فحملهم على قبوله، أعانهم على تطبيقه، بيّن أسرار الشريعة وكان قدوةً لهم قبل كل شيء فهذا نوعٌ من الجهاد تنال به شرف الدفاع عن هذا الدين، أما إذا استنكفت فهذا الدين دينه ولن يخذله ولن يتخلّى عنه.

المؤمن حينما يرى مقامه في الجنّة ينسى كل المتاعب التي ساقها الله له في الدنيا:

هؤلاء الذين قُتِلوا في سبيل الله، قال سبحانه مبيّنًا مصيرهم:

(فَلَنْ يُضِلّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ)

إلى الجنّة، طبعاً بعد الدنيا لا يوجد هدى، الهدى في دار التكليف، فأما أن تأتي هذه الكلمة بعد الموت فمعناها..

(سَيَهْدِيهِمْ)

إلى الجنّة..

(وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5))

أيْ أنّ المؤمن حينما يرى مقامه في الجنّة يقول:**"لم أر شرّاً قط "**، كل المتاعب التي ساقها الله له في الدنيا ينساها ، والكافر إذا رأى مقامه في النار يقول : **" لم أر خيراً قط "** ، كل اللذائذ التي تمتّع بها في الدنيا ينساها ..

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

المؤمن بعد إخلاصه الشديد لله واتصاله العميق به يذوق طعم الجنّة في الدنيا قبل الآخرة:

الإنسان في الدنيا إذا اتصل بالله عزّ وجل ذاق طعم القُرْب، فالمؤمن في ساعات تألّقه وساعات قربه من الله عزّ وجل يشعر بطعم أهل الجنّة، على أثر عمل صالح، على أثر عبادة مقبولة، إذا خرج من الصيام، إذا ذهب لأداء فريضة الحج، إذا زار سيّد الأنام، بالعبادات أو بالأعمال الصالحة إذا توافر الإخلاص، والإحكام، والإتقان يحقق الله له هذا الاتصال، ويذيقه طعم قُرْبه، ويقول لك إن حدثك أنا في جنّة، فالمؤمن إذا دخل جنّة الله.. جنّة الآخرة.. قال: هذه الجنّة عرفت بعض مذاقها في الدنيا..

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

هناك تفسير آخر: أنّه في الجنة من يُعَرِّف أهل الجنّة على ما فيها من خيرات حِسان، وما فيها من لذائذ، وما فيها من فواكه، فهناك من يعرّفه على ما فيها، أو أن المؤمن حينما كان في الدنيا عَقِبَ أعماله الصالحة، أو عباداته المقبولة، أو بعد إخلاصه الشديد واتصاله العميق يذوق طعم الجنّة، لذلك:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

بعضهم قال:**"في الدنيا جنّة وفي الآخرة جنّة "** ..

شرح هذه الآيات في الدرس القادم إن شاء الله:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

هذه الآيات إن شاء الله تعالى نشرحها في درسٍ قادم.

الكافر لا ينفعه عقله يوم القيامة و المؤمن يتمتّع بسعادة لا توصف:

أريد قبل أن أُنهي الدرس أن أقف عند ثلاث نِقاط:

الأولى: أن الكافر لا ينفعه عقله، ولا ذكاؤه، ولا قوّته، ولابدّ من أن يرتكب أخطاءً فاحشةً وحماقات لا توصف لقول الله عزّ وجل:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

وأما المؤمن فيتمتّع بسعادة لا توصف، وهي مِصدَاق قوله تعالى:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5))

السبب أن الكافر بنى عقيدته على باطل، وسلوكه على باطل، والمؤمن بنى عقيدته على الحق، والحق أبدي سرمدي، وأن هذا الدين دين الله، وأن لكل عصرٍ جهاده، وأنك إذا سمح الله لك أن تنشر هذا الدين، وأن تدعو إلى الله عزّ وجل بحكمةٍ وبأسلوبٍ مؤثِّر فهذا شرفٌ لك، واعلم أنّ الله عزّ وجل لا ينتظرك هو مستغنٍ عنك..فبادر أنت لتوظيف نفسك لخدمة دينه و نصره.

ما لم ننصر دين الله فلن يحقق الله لنا أن ننتصر على أعدائنا:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

أيْ أنّ المؤمن ينتقل من جنّة إلى جنّة، فنعمه تتصل في الدنيا والآخرة معاً، لكن إذا أردتم النصر على أعدائكم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

ما لم ننصر دين الله فلن يحقق الله لنا أن ننتصر على أعدائنا، فالنصر على الأعداء ثمنه أن تنصر دين الله، والآية واضحة كالشمس، آية محكمة.. ونصرنا لدين الله، يعني العمل بالكتاب والسنة معًا بإخلاص ويقين: قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (2-8): تفسيرالآيات 7-11، المؤمن في عين الله مادام ملتزماً أوامره

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-12-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

من علامات الإيمان أنك إذا سمعت آيةً مُصَدّرَةً بـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تشعر أنك مَعْنِيٌّ بها:

مع الآية السابعة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8))

أولاً أيها الأخوة الكرام... من علامات الإيمان أنك إذا سمعت آيةً مُصَدَّرَةً بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

تشعر أنك مَعْنِيٌّ بها، وأنها موجهةٌ لك، ألست مؤمناً ؟ الله جلّ جلاله يخاطب المؤمنين، وقد قال بعض العلماء: **" الله سبحانه وتعالى يخاطب عامة الناس بأصول الدين ويخاطب المؤمنين بفروع الدين".**

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية 30)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(20))

(سورة الأنفال)

نصر دين الله عز وجل تطبيق لأوامره:

كلمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

إذا شعرت أنك مخاطبٌ بها، وأنك معنيٌ بها فهذه إحدى علامات الإيمان، الشيء الثاني أن الله جلّ جلاله مُنَزّهٌ عن أن تنصره، هو القوي العزيز، يحتاجه كل مخلوق، كل شيءٍ يحتاجه في كل شيء، فكيف يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ)

لعل بعض المفسرين يقول: إن تنصروا دين الله، وما معنى: أن تنصر دين الله ؟ أن تطبق الأوامر، ولأضرب على ذلك مثلاً بسيطاً، لو أن مئة رجلٍ في نزهةٍ، ودخل وقت العصر، فإذا قاموا جميعاً ليصلوا نصروا دين الله عزّ وجل، وصار الذي لم يصلّ شاذاً منحرفاً مقصراً، يشار إليه، أما إذا لم يقم أحد للصلاة فقد خذلوا دين الله عزّ وجل، فصار إذا قام أحدهم ليصلي صار هو الشاذ، وإذا حَجَّبَ المؤمنون نساءهم وواحدٌ قصر في تحجيب زوجته صار شاذاً، أما إذا سَيَّبَ جميع الرجال هذا الحكم الشرعي وأراد أحدٌ من الناس المؤمنين أن يقيم أمر الله عزّ وجل صار وحده شاذاً، فنصر دين الله أي أن تطبق الأوامر.

من طبق أمر الله عز وجل وسع دائرة الحق و حاصر دائرة الباطل:

طبعاً الأوامر كثيرة جداً ؛ العبادات ؛ الصلاة، الصوم، الحج، الزكاة، إذا أدّى الجميع زكاة أموالهم، صار الذي لم يؤدِّ الزكاة شاذاً، أما إذا تخلّف الناس عن تأدية الزكاة ضعف هذا الأمر الإلهي، طبعاً لأن معظم الناس يتحرّكون بالتقليد، الذين يتحركون وفق قناعاتهم ولا يعبؤون بالمجموع هؤلاء قِلّة، أما الخط العريض في المجتمع أن يتحرّك وفق التقليد، فحينما تقيم أمر الله عزّ وجل، حينما تجعل بيتك بيتاً إسلامياً، حينما تجعل عملك عملاً إسلامياً، حينما تتعامل مع الآخرين تعاملاً إسلامياً، أنت ماذا فعلت ؟ نصرت دين الله، فأوّلاً نصر دين الله عزّ وجل في التوجُّه إليه، في الإقبال عليه، في إفراده بالعبودية، في إفراده بالإخلاص، فإذا توجّهت إليه، وأقبلت عليه، وأخلصت له، ووحدته في أفعاله فلن تقبل أن أحداً مع الله عزّ وجل له فعل وإرادة، هذا هو التوحيد، ثم أقمت العبادات، أقمت الصلاة والصيام والحج والزكاة، ثم تعاملت مع الآخرين وفق منهج الله عزّ وجل، بأسلوبٍ رفيع، قالوا: إذا فعلت هذا فقد نصرت الله، وهو غني عن أن تنصره، لكنك طبقت دينه، وفي تطبيق دينه وسّعت دائرة المؤمنين وحاصرت دائرة المنحرفين فقوي الضعيف بهذا.

الله عز وجل غني عن العالمين:

أول معنى: الله جلّ جلاله غنيٌ عن أن تنصره، لأنه العزيز الحكيم.

((لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

(صحيح مسلم: عن أبي ذر)

كما قال الله عزّ وجل:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)

(سورة الزمر: آية 7)

معنى ذلك كلمة: إن تنصروا الله لا تعني أبداً ولا يعقل أن تعني، والله منزهٌ عن أن تعني أنك تنصر الله عزّ وجل، لكن هذا أسلوب من أساليب البلاغة، إنك إن طبّقت أمر الله وسّعْتَ دائرة الحق، وحاصرت دائرة الباطل، دائماً الأغلبية لهم قيمة.

المؤمن الصادق المطبّق أحكام الدين في عصر الفساد ينبغي أن يشعر بغربة:

إذا أراد الإنسان أن يعصي أمر الله عزّ وجل والأكثرون يطيعونه صار هذا الإنسان شاذاً، أما إذا كان الأكثرون يعصونه وأراد أن يطيعه صار المطيع هو الشاذ ويتحمّل مصاعب كثيرة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما أشار إلى أنه صلى الله عليه وسلم اشتاق لأحبابه، فقال أصحابه: " أو لسنا أحبابك؟ قال:

((لا أنتم أصحابي، أحبابي أناسٌ يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر))

قالوا: لمَ ؟ قال:

((لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

لذلك ورد في الحديث الشريف:

((بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء))

[مسلم، ابن ماجه، أحمد]

فالمؤمن الصادق، المخلص، الملتزم، المطبّق أحكام الدين في عصر الفساد والفتن والانحراف ينبغي أن يشعر بغربة، فإن لم يشعر بغربةٍ فهناك استفهامٌ كبير على إيمانه.

من أراد نصر الله فلينتصر لدينه:

إذاً..

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ)

فينصركم على ماذا ؟ أين مفعول ينصركم ؟ علماء البلاغة يقولون: إذا حذف المفعول أطلق الفعل، صار مطلقاً ؛ ينصركم على عدوكم، على أنفسكم، أي شيءٍ تريدونه يصبح مذللاً وهذا من كرامة الله للمؤمن، ربنا عزّ وجل قال:

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)

(سورة الصف: آية 13)

أخبار النصر تملأ القلب سعادةً، وأخبار التراجع والهزيمة تملأ القلب ضيقاً، وحرجاً، وحزناً، فهذه الآية أصلٌ في تعاملنا مع الله عزّ وجل في شأن النصر، إن أردت نصر الله فانتصر لدينه، إن أردت نصر الله فانتصر على نفسك، إن أردت نصر الله فأقم الإسلام في بيتك، وأقمه في عملك، إن أردت نصر الله عزّ وجل فكن له كما يريد ليكون لك كما تريد.

عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

وهذه الآية تصلح على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي، أي كأمة إن لم نقم أمر الله فينا فلن ننصر، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

من أراد ألا يعذب عليه بطاعة الله عز وجل:

بعض المفسرين وقعوا في حيرة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

أنت بين ظهرانيهم، لكن بعضهم وسّع المعنى قال: ما دامت سنتك فيهم مطبقةً في حياتهم، ما دام بيعهم وشراؤهم وفق شرع الله عزّ وجل، ما دام زواجهم وفق سنة رسول الله، ما دامت أفراحهم وأتراحهم وفق المنهج الإلهي، ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم قائمةً في حياتهم فهم في بحبوحةٍ من أن يعذّبوا، فهذه ضمانة كاملة، أي إذا أردنا ألا نعذب فعلينا بطاعة الله عزّ وجل.

مرة ثانية، هذه الآية الكريمة يمكن أن تفهم على مستويين ؛ مستوى جماعي كأمة ومستوى فردي، العرب حينما دخلوا الأندلس انتصروا وأنشؤوا حضارةً، وأنشؤوا دولةً عريقةً، أما حينما التفتوا إلى اللهو وإلى الموشّحات، وإلى المجون والقيان وما إلى ذلك خُذلوا، وتفرقوا ثم دحروا وأُخرجوا من الأندلس، هذا قانون الله في الأرض.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

وهو كلام خالق الكون، فعلاقتنا كمسلمين مع النصر تتم وفق هذا القانون.

المسلم الحقيقي يخشى من ذنبه أضعاف ما يخشى من عدوه:

لذلك المسلم يخشى من ذنبه أضعاف ما يخشى من عدوه، وقد ورد في الأثر أن:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه))

فالذنب خطير، لأن الأمر كله بيد الله، هكذا، الله يقوي الكافر ويقوي المؤمن، الأمر بيده، القوة بيده، حسم المعركة بيده، إذا تواجه الحق والباطل أو إذا تحارب الحق مع الباطل فالمعركة قصيرة جداً، لأن الله مع الحق، وإذا اصطدم باطلان فالمعركة طويلة جداً، لأن القوى تتغير فتتكافأ تارةً ولا تتكافأ تارةً أخرى، فهذه الآية أصلٌ في النصر على المستوى الجماعي.

أما على المستوى الفردي ؛ فأنت في عملك، في بيتك، إذا أقمت دين الله أعطاك الله هيبةً، ألم يقل الإمام الشعراني: " إني أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي "، حتى على مستوى البيت إذا كنت غيوراً، إذا كنت تأتمر بأمر الله، تنتهي عما نهى عنه، وتقيم شرع الله في بيتك فلك هيبةٌ كبيرة، الكل ينصاعون، فإذا أردت المعنى الفردي بحيث تكون كلمتك هي العُليا في أسرتك، فانصر دين الله في البيت، تساهلْ في الأمور التي لا علاقة لها بالدين، وكن في أمور الدين وقّافاً عند كتاب الله، في عملك، مع أقرانك، مع من هم أقوى منك، مع من هم أضعف منك، حتى على المستوى الفردي.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(من اعتصم بأمر الله و طبق أمره نصره على أقوى أعدائه:)

هذا القرآن معجز، كلامٌ جامعٌ مانع، إن أخذت هذه الآية على مستوى أمة لن نستطيع أن ننتصر على عدونا إلا إذا تمسّكنا بإسلامنا، و لن نستطيع أن نقف أمام القوى الغاشمة إلا إذا اعتصمنا بالله وأطعناه وطبقنا أمره، أما على المستوى الفردي فحتى في عملك لن تستطيع أن تنتصر على خصومك أو على منافسيك إلا إذا كنت مع الله عزّ وجل طائعاً، مستسلماً، مؤتمراً بما أمر، منتهياً عما عنه نهى وزجر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ)

والنصر مطلق، أي مشكلة النصر فيها محك، فالإنسان أحياناً ينتصر على مرضه، ينتصر على من يشاكسه، ينتصر على أقرب الناس إليه، ينتصر على أبعد الناس عنه، ينتصر في عمله، ينتصر في علاقته مع خصومه، مع الأقوياء، مع الضعفاء.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ)

بطولة الإنسان لا أن ينتصر أن يحافظ على هذا النصر:

لكن:

(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

هذه لها لفتةٌ لطيفةٌ جداً، يا ترى ثبت الله أقدامنا فانتصرنا ؟ أم انتصرنا فثبت أقدامنا ؟ لبعض المفسرين رأيٌ رائع في هذه الآية في حكمة تأخير:

(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

كيف ؟ فالحقيقة أن الإنسان حينما ينتصر أمامه منزلاقاتٌ خطيرة، فالبطولة لا أن تنتصر، البطولة لا أن تصل إلى قمة الجبل، فهذه بعض البطولة، ولكن البطولة أن تبقى في القمة، ما الذي يجعلك في الحضيض بعد أن بلغت القمة ؟ الكِبْر، الزهو، التقصير في طاعة الله عزّ وجل.. فقبل يوم حنينٍ طبعاً كان المسلمون قد انتصروا وفتحوا مكة، فتح مكة كان فتحاً مبيناً، هذه المدينة التي ناصبت العداء للنبي عليه الصلاة والسلام ولأصحابه عشرين عاماً، وكان عليه الصلاة والسلام بإمكانه أن يلغي وجود أهلها لكنه قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

فهذه مكة التي ناصبت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العداء عشرين عاماً فتحت وانتصر النبي وأصحابه نصراً حاسماً مؤزراً عزيزاً، فماذا قال أصحاب النبي، نعم أصحاب النبي ؟ وهم على ما هم عليه من حبٍ لله ورسوله، ومن ورع، ومن تضحيةٍ وإيثار، قالوا: لن نغلب اليوم من قلة، شعروا بالزهو وهم أصحاب النبي، والنبي معهم قال:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

من انتصر عليه أن يعزو هذا النصر إلى الله عز وجل:

إذاً البطولة لا أن تنتصر، بل أن تحافظ على هذا النصر، بالتواضع، دخل عليه الصلاة والسلام مكة فاتحاً وقد كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزّ وجل، فالمنتصر أمامه منزلاقات خطيرة، فتصور من باب التمثيل ؛ جبل له طرق صعبة جداً للوصول لقمته، طرق وعرة، ملتوية، فيها أكمات، فيها حُفَر، فيها صخور، فما إن وصلت إلى قمة الجبل حتى تنفّست الصُعَدَاء، لكنك وأنت على قمة الجبل تجد طريقًا زَلِقاً مبلّطًا ببلاط ثقيل مع آثار الصابون فرضاً، فأنت حين تصل إلى قمة الجبل

تبذل جهداً لا حدود له، لكن الزهو وحده وأنت في قمة الجبل يجعلك في الحضيض، والكبر يلقيك في الحضيض، الآن إذا انتصرت ورأيت أن الغلبة قد آلت إليك وأن العدو قد خضع فربما تساهلت في تطبيق أمر الله عزّ وجل، فللحضيض تنحدر، لذلك البطولة لا أن تصل إلى القمة، البطولة أن تبقى في القمة، لا أن تنتصر بل أن تحافظ على النصر، لذلك بعض العلماء يقول: ومعنى قوله تعالى:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

بعد النصر، يثبت أقدامكم على نتائج النصر، على مكتسبات النصر، وأنت إذا انتصرت ينبغي أن تعزو هذا إلى الله عزّ وجل، ينبغي أن تتواضع له، ينبغي أن تزداد تطبيقاً لأمر الله، فإذا فعلت هذا بعد النصر بقيت في القمة..

الغرور يودي بالمنتصر إلى الحضيض:

(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

القدم هي التي تزل، فالأصل أن يقال: ويثبتكم لكن لأن القدم أداة الثبات وأداة الانزلاق جاءت كلمة القدم لتعبّر عن الكيان كله، وهذا في المجاز العقلي الاستخدام الجزئي ليعبر عن الكل.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

تثبيت القدم الحفاظ على نتائج النصر بعد النصر، فهذه نقطةٌ دقيقة جداً، فآلاف الأشخاص، آلاف المؤسسات تبدأ بجهدٍ واضح، فإذا بلغت قمة النجاح تساهلت في مستوى البضاعة فانهارت وأصابها الكساد، ثم اختلف الشركاء وتفرقوا، وأغلقت هذه المؤسسة لماذا؟ لأنهم لم يحافظوا على النصر، فهؤلاء الذين يتحركون نحو العُلا، نحو القمم، عليهم أن ينتبهوا إلى أن أخطاراً كبيرةً تنتظر من يصل إلى قمة النجاح، الغرور يودي بالمنتصر إلى الحضيض، الغرور، الزهو، الكبر، المعصية.

ما من إنسان إلا وتغمره سعادةٌ لا توصف حينما ينتصر:

المؤمن لا يخشى من عدوه بل يخشى من ذنبه، لأن الأمر بيد الله، لكنه إذا أذنب ينبغي أن يؤدي الثمن باهظاً، هذا معنى أن الله سبحانه وتعالى قال:

(يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

أيْ يثبت أقدامكم بعد النصر، وبعضهم قال: عطف السبب على المُسَبَّب، يثبت أقدامكم عطف الله السبب على المسبب، أي ينصركم لتثبيت أقدامكم، والمعنى الآخر جيد، لكن هذه الآية أصلٌ، فليس من

إنسان إلا وتغمره سعادةٌ لا توصف حينما ينتصر، حتى ولو دخل امتحاناً وفاز فيه، لو نجح في امتحان، فالنجاح محبب للنفوس والدليل:

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)

(سورة الصف)

الله عز وجل لا يمنح النصر إلا بالعدل:

إنك إن قرأت في التاريخ عن معركةٍ وقعت بين المسلمين وغير المسلمين وانتهت المعركة بانتصار المسلمين تشعر بالراحة، والغِبْطة والسرور، وهي معركةٌ وقعت قبل ألف عام وقطفت ثمار نتائجها، فكيف إذا كانت معركة معاصرة ؟ أنت إذا سمعت أن هؤلاء الكفار اجتاحوا بلداً مسلماً تتألم أشد الألم وقد لا تحتمل هذه الأخبار، قال تعالى:

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ(13))

(سورة الصف)

لكن النبي صلى الله عليه وسلم لشدة أدبه مع الله عزّ وجل كان يدعو ويقول:

((اللهم إني أسألك موجبات رحمتك))

[الترمذي، ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى]

الموجبات، لأنك عادل يا رب فأنت لا تمنح النصر إلا بالعدل، لذلك لما وقف النبي عليه الصلاة والسلام في معركة بدر يناجي ربه ويقول: يا رب إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم. وقد وقع الرداء من على كتفه، فجاء سيدنا الصديق رضي الله عنه ووضع الرداء على كتف النبي وقال: " يا رسول الله بعد مناشدتك ربك، إن الله ناصرك "، ليس معنى هذا أن ثقة الصديق بالنصر أشد من ثقة رسول الله، لكن المعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخشى أن يكون هناك تقصيرٌ في الإعداد، لأن الله لا يعطي إلا بالعدل، فالحذر الحذر أن يكون هناك تقصير.

من أقام أمر الله عز وجل نصره الله و ذلل له كل الصعاب:

فلذلك:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ)

ولو قرأتَ التاريخ الإسلامي من ألفه إلى يائه لوجدتَ هذا التاريخ كله تجسيداً لهذه الآية: كانوا يقيمون أمر الله عزّ وجل فينتصرون، بمدينة فينا (عاصمة النمسا) لوحة في المتحف شهيرة، هذه اللوحة تصوّر وصول محمد الفاتح إليها فاتحاً، الجُند الأتراك حينما كانوا متمسّكين بإسلامهم فكانوا يشترون العنب من

فتيات فينا دون أن ينظروا إلى أولئك الفتيات، هكذا لوحة زيتية، كيف أن الجندي المسلم يشتري العنب من الفتاة دون أن ينظر إليها تطبيقاً لأمر الله عزّ وجل، كادت فتوحات المسلمين من الشرق والغرب أن تفتح أوروبا بأكملها إن لم ننصره بتطبيق دينه فلن ينصرنا، وهذه حقيقةٌ ربانية، فاعرف فضائل إسلامك أيها المؤمن و لُذ بها.

من انتصر على نفسه نصره الله على عدوه:

لهذا إذا دعوت في الخطبة فإني أقول: اللهم انصرنا على أنفسنا، حتى نستحق أن تنصرنا على أعدائنا، لنبدأ بأنفسنا، لنقيم الإسلام في بيوتنا، اعمل مراجعة ؛ فالزوجة هل ترضي الله عزّ وجل حال كونها في البيت ؟ هل يرضي اللهَ وضعُها خارج البيت ؟ بناتك في البيت، هل تأمرهن بالصلاة ؟ وأنت هل تتصرف في البيت كما أمر الله عزّ وجل ؟ فأنت حينما تقيم الإسلام في البيت وهذه مملكتك، وحينما تقيمه في معملك وهذا المعمل مملكتك أيضاً، عندئذٍ يتولى الله عنك أمر كل ما لا تستطيع أن تصل إليه ويذلله لك، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: آية 11)

فإذا كنت في بحبوحةٍ و أنت مستقيم، ولا تغير من استقامتك فلا يغير الله من بحبوحتك، وإن كنت في ضيقٍ غَيّر من سلوكك وتصرفاتك إلى الأحسن حتى يغيّر الله، هذا ملخص الملخص، إذا كنت في بحبوحةٍ لا تغير فلا يُغيُّر، وإن كنت في ضيقٍ غَيّر حتى يُغَيّر.

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

من أقام أمر الله عز وجل دافع الله عنه في عليائه:

مرة ثانية: هذه الآية تفهم على مستويين ؛ على مستوى فردي وعلى مستوى جماعي، وحدك، بعملك، ببيتك، الله يقوّيك، يسبغ عليك هيبةً، من هاب الله هابه كل شيء، ومن لم يهب الله أهابه الله من كل شيء، يروي أن الحسن البصري من كبار التابعين نفذ أمر الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا التنفيذ لأمر الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أغضب الحجاج، فقال لأصحابه: **" والله لأسقينكم من دمه، ائتوني به لأقطع رأسه، وجاء بالسيّاف، ومد النِطْعُ، وطُلِبَ لقطع رأسه، فلما دخل على الحجاج حرّك شفتيه بكلامٍ لم يفهمه أحد، فما كان من الحجاج إلا أن وقف وقال: أهلاً بأبي سعيد، واستقبله وما زال يقربه حتى أجلسه على سريره، وسأله عن صحته، واستفتاه في بعض**

القضايا، وتقول رواية: وعطره، ثم ودعه، وقال له مودعاً: أنت يا أبا سعيد سيّد العلماء، وشيّعه إلى باب القصر "..

السياف الذي جيء به ليقطع رأسه والحاجب صُعِقًا، فتبعه الحاجب عند خروجه وقال له: يا أبا سعيد لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت وأنت داخلٌ على الحجاج ؟ قال قلت: **" يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم"**. ما الذي بُدّلَ في قلب الحجاج ؟ جاء به ليقطع رأسه فأكرمه، واستفتاه وأثنى عليه، ودعا له وشَيَّعه إلى باب قصره، أنت إذا أقمت أمر الله عزّ وجل فالله في عليائه يدافع عنك، أنت مع من ؟.

(قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(45)قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه)

من شعر أن الله معه عليه أن يطيعه و يقيم أمره:

أين يكون الله تعالى ؟

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

إذا شعرت أن الله معك دائماً وأنه ناصرك دائماً، فما عليك إلا أن تطيعه فقط، ما عليك إلا أن تقيم أمره، ما عليك إلا أن تستلم له وعلى الله الباقي، لهذا جاءت الآيات:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

ما عليك إلا أن تعبده مخلصاً وانتهى الأمر، وانتهى كل شيء.

الشقاء والتعاسة عاقبة البعد عن الله والإقبال والتفاؤل عاقبة المؤمن:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8))

أما: (**تعساً لهم**) أورد القرطبي عشرة وجوهٍ في تفسيرها، فاتني أن آتي بها لكن أذكر بعضها: تعساً لهم أي شقاءً لهم، تعساً لهم أي خزياً لهم، تعساً لهم أي بعداً لهم، تعساً لهم أي تحقيراً لهم، الذين كفروا تعساً لهم، أي الشقاء والتعاسة، والخزي والعار، والبُعْد واللعن، والقلق والحيرة، والقهر والحرمان، والوحشة والضيق، كل هذا في البُعد عن الله عزّ وجل ؛ والأمن والطمأنينة، والثقة والرضا، والإقبال والتفاؤل في الإيمان بالله وطاعته.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8))

كلنا قد حُكِمَ علينا بالموت، أبداً كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت..

والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

***

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامتـه يوماً على آلة حدباء محمـــول

فإذا حملت إلى القبـــور جنازة فاعلم بأنك بعدهـا محمـــول

***

الذين كفروا أضل الله أعمالهم لكن المؤمن أعماله تنمو و ترقى به:

ما الذي يبقى بعد الموت ؟ العمل

((يا قييس إن لك قريناً يدفن معك وأنت ميّت وتدفن معه وهو حي، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك))

الذين كفروا أضل أعمالهم، لكن المؤمن أعماله تنمو و ترقى به..

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

(سورة إبراهيم)

النبي جاء بمفرده عندما بعثه الله لهذه الأمة، الآن في بالعالم مليار ومئتا ومليون مسلم، الخير يتوسّع، فالمؤمن إذا آمن بالله واستقام على أمره له عمل مشرف، له عمل ينمو، عمل يتوسّع، فإذا الإنسان دعا إلى هدى فكل من استفاد من هذا الهدى في صحيفته، أما الكافر:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

تجد طاقاته الفكرية، عمله، أمواله، حركته هذا كله يتبدد، لا وجود له، هذا معنى (فأحبط أعمالهم)، إن كانت فيما يبدو طيبة لا أجر لهم بها، أرادوا بها الدنيا، وإن كانت سيئة بحكم طبيعة البشر ينبذونها، و كل شيء سيّئ منبوذ، الناس ينفرون منه.

شعور الكافر بالتعاسة في كل أحواله:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8))

ألا تكفي هذه الآية ؛ أن الكافر يشعر بالتعاسة في كل أحواله وقد يؤكد هذا المعنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد الفرج، تعس عبد البطن، تعس عبد الخميصة))

[البخاري عن أبي هريرة]

(فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَلِكَ)

أيْ أنّ السعادة في النصر والشقاء في الخذلان.

الجاهل يرى أن حدود الشرع حدودٌ تقيّد حريته:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ)

أيْ الكفار..

(كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

الصحابة الكرام أخبر الله عنهم بأنهم يفرحون بما نُزّلَ عليهم، كلما جاء الوحي يشرّع لهم أمراً أو يحذرهم من أمر، يأمرهم بأمر، ينهاهم عن أمر، فرحوا به، أي سمت نفوسهم حتى اقتربت من مستوى الشرع، لكن الكافر تتوق نفسه للشهوة ويسلك فيها طرقاً غير مشروعة، لذلك يشعر بأن الشرع يقيّدُهُ، يكره أحكام الشرع، وقد يتضح من هذا أن المؤمن يرى أحكام الشرع ضماناً لسلامته، كما لو أن إنسانًا مشى في طريق فإذا بلوحةٍ: ممنوع المرور ؛ حقل ألغام، هل يشعر هذا الإنسان المواطن بحقد على من وضع هذه اللوحة ؟ لا أبداً بالعكس، يمتن لأن هذه اللوحة تضمن له سلامته، فإذا رأيت أن هذه اللوحة التي فيها منع، ورأيت أن فيها قيداً لحريتك فأنت لا تعرف الحقيقة، الجاهل يرى أن حدود الشرع حدودٌ تقيّد حريته، يحب أن يتفلّت، مع أن الحقيقة الدقيقة أنه على نور و تبصرة تورثه السلامة.

حياة المؤمن حياة مقيّدة بالمنهج و الأمر والنهي:

الله عزّ وجل قال:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: آية " 5 ")

(على) تفيد العلو، الهُدى كله قيود ؛ عليك بغض البصر، عليك بصدق الحديث، أداء الأمانة، صلة الرحم، عليك أن تؤدي الصلوات، هذه حرام، هذه حلال، هذا ممنوع، هذا مكروه، هذه فيها شبهة، حياة المؤمن بحسب الظن كلها قيود، وكلها مناهج، وكلها مبادئ ومع ذلك فهذا الهدى على ما فيه من قيود فإنها تطلقه إلى العلو وترقى به.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى)

على ما في الهدى من قيود، ومن أوامر ونواهٍ، افعل ولا تفعل، واجب، فرض، مندوب، مستحب، مباح، مكروه تنزيهاً، مكروه تحريماً، حرام، كل شؤون الدنيا تتعاورها هذه الأحكام الخمسة، فحياة المؤمن حياة مقيَّدة بالمنهج، مقيدة بالأمر والنهي، ومع ذلك هذه القيود تجعله طليقاً..

الانطلاق في الحرية تنتهي بالمتفلت إلى القيد والفتك:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

طلقاء، فالقيود تنتهي بك إلى الانطلاق والعلو، والضلال يزيّن للناظر السطحي أن الضال إنسان حر ؛ يفعل ما يشاء، يأكل ما يشاء، يذهب إلى أي مكانٍ يشاء، يلتقي مع من يشاء، يمارس المتعة كيفما يشاء، ومع ذلك فهذه الحرية، وهذه الانطلاقة في الحرية تنتهي به إلى القيد والفتك.

(أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(22))

(سورة الزمر)

فالمعنى المستفاد من كلمة (على) ومن كلمة (في)، أنّ الهدى على قيوده يرفعك، والضلال على طلاقته يقيِّدك، إما في كآبة، أو في مرض نفسي، أو في سجن، أو في قهر، أو في مرض بدني، أو في مصير أسود.

ما من معصية في الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله عز وجل:

لذلك:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

أيْ خرجوا عن منهج الله، والشيء الثابت أنه ما من مشكلةٍ على الإطلاق في الأرض إلا من بعد معصية، خروج عن منهج الله، من يعمل في الأمن الجنائي عندهم قاعدة، إذا بُلِّغوا عن جريمة، يقولون لك: فتش عن المرأة، هذه القاعدة عدّلتُها فقلت: إذا رأيت مشكلة في الأرض فتِّش عن المعصية، هذه المشكلة وراءها معصية، وراءها خروج عن منهج الله عزّ وجل، فتش عن المعصية تحل المشكلة، هذه القضية سببها تلك المعصية..

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

من كفر بالله عز وجل حبط عمله في الدنيا و الآخرة:

طبعاً عندنا دليل عملي:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

أخبرنا الله أن الذي يكفر بالله ويكفر بأمره ونهيه يُحْبِطُ عمله ويصبح عمله منحطاً، دنيئاً، خسيساً، محتقراً، أو يحبط عمله ولو كان صالحاً لأن نيته الدنيا وقد أصابها وانتهى الأمر، تعلّمت العلم ليقال عنك عالم وقد قيل خذوه إلى النار.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

من يتعدى بذاته يدمره الله عز وجل:

إذًا دليل عملي:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(6)إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(7))

(سورة الفجر)

الفراعنة أين هم ؟ قوم عادٍ وثمود أين هم ؟ هذه الأقوام التي آتاها الله قوةً وأشادت الأبنية، لا يزال بناء الأهرام سرّاً حتى الآن، كيف وصلوا إلى هذا البناء الشامخ، كيف نُقِلَتْ الأحجار ؟ كيف صممت هذه الخطوط ؟

الدمار ينتظر كل إنسان خرج عن منهج الله وكفر به:

لذلك:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10))

طبعاً دمَّر فعلٌ متعدٍ، يتعدى بذاته تقول: دمره الله، أما هنا دمر عليهم، قال علماء التفسير: " دمر عليهم بمعنى أنه دمَّرهم، ودمر ممتلكاتهم، ربما فوق رؤوسهم فدفنوا تحت أنقاضها، ودمر أموالهم، ودمر بيوتهم، ودمر آثارهم، أحياناً يأتي زلزال لا يبقي ولا يذر، أحياناً إعصار لا يبقي حجراً فوق حجر..

(دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10))

الشيء الدقيق في الآية أن هذه المواعظ وهذا التاريخ الذي يورده القرآن الكريم وكيف أهلك الأمم مهما كانت قويةً ؟ هذا المصير ينتظر كل إنسان خرج عن منهج الله وكفر بما عند الله.

المؤمنُ في عين الله عزّ وجل مادام مقيماً لأمره ملتزماً بطاعته:

(وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11))

تصور ؛ أب في أعلى مستويات العلم والقدرات المالية، والذكاء، والفهم، وله ابن يربّيه أعلى تربية ؛ يتابع نموه الجسدي، يتابع أسنانه فإذا تراكبت يذهب به رأساً إلى مقوم الأسنان، يتابع أجهزته، يتابع دراسته، يتابع ألفاظه، حركاته، عاداته، ترى هذا الابن في عناية فائقة تحوطه اهتمامات شاملة لأن له ولياً، له ولي عظيم، وعاقل، ومربٍ ساهر، وغني، ومقتدر، فكل طاقات الأب وخبراته في الحياة كلها تصب للعناية بابنه هذا، وتصور: طفل ليس له أب وليس له أهل، وفي الأزقة لا أخلاق ولا علم ولا عادات، منحرف، ذاك ابن له من يربيه، وهذا ليس له من يربيه، هذا المعنى القريب، أيضاً المؤمنُ في عين الله عزّ وجل، ولقد قال ربنا عزّ وجل:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: آية 48)

طبعاً هذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكنها في الوقت نفسه لكل مؤمنٍ بحسب إيمانه وإخلاصه وطاعته، أنت بعناية الله عزّ وجل، أنت تحت ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، أنت بتوفيق الله، وبتأييد الله، وبنصر الله.

الله مع المؤمن في التوفيق والتأييد والنصر والعَوْن:

حتى الآيات الكريمة:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

(سورة الأنفال)

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(194))

(سورة البقرة)

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(46))

(سورة الأنفال)

هذه معية خاصة أيها الأخوة، ومعنى المعية الخاصة أي أن الله مع المؤمن في التوفيق والتأييد والنصر والعَوْن، أما إذا قال الله:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية 4)

هذه مع أيّ مخلوق بالعلم، معهم بعلمه، لكن مع المؤمنين بتوفيقه وتأييده ونصره وإنجاحه..

الله عز وجل وليّ الذين آمنوا:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11))

الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30))

(سورة فصلت)

الآن دقق:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32))

(سورة فصلت)

ماذا تشعر إذا قال الله: يا عبدي أنا وليُّك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ لا يوجد معك أحد، يجب أن يشعر المؤمن إذا تلا هذه الآية بقشعريرة.

من استقام على أمر الله نقله من حال إلى حال:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا)

عليك أن تؤمن وأن تستقيم، والله بعدها وليك، فلا تخف، ولا تحزن، ولا تخشَ أحداً، ولا تخشَ إلا ذنبك.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا)

ينقلك من حالٍ إلى حال، من منزلةٍ إلى منزلة، من مقامٍ إلى مقام، من توفيق إلى توفيق، من نصر إلى نصر، الله وليك، اجعل هذه الكلمة هدفاً وشعاراً لك: إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ يا رب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟!

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

حياة الكافر حياة متعة ليس لها أثر مستقبلي إطلاقاً:

حياة الكافر حياة متعة، والمتعة الشيء الطارئ، لذة طارئة ليس لها أثر مستقبلي إطلاقاً، لذةٌ عابرة ليس لها مردود.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

دابةٌ في النهار جيفةٌ في الليل، في النهار دواب، في الليل جِيَفْ، هؤلاء الذين كفروا ؛ لا صلاة، ولا ذكر، ولا تلاوة ؛ ولا أمر بالمعروف ؛ ولا نهي عن المنكر، ولا مجلس علم ؛ ولا فهم لكتاب الله ؛ ولا فهم لسنة رسوله، كالبهائم، وأساساً فالإنسان من دون علم كالبهيمة، بهيمة فلتانة غير منضبطة، وهناك بهائم ملجومة، كما أن هناك بهائم برية شاردة هائمة، فانظر و تأمل.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

هذه الآية إن شاء الله تعالى نعود إليها بالتفصيل في درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (3-8): تفسيرالآيات 12-15، موازنة بين الحق والباطل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-12-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة محمد صلى الله عليه وسلّم.

انقسام البشر إلى فريقين: فريق إلى الجنة، و فريق إلى النار:

مع الآية الثانية عشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

ففي النهاية ينقسم البشر جميعاً إلى فريقين ؛ فريقٍ يدخل الجنّة ففيها:

((ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمِعَت، ولا خطر على قلب بشر))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

إلى أبد الآبدين، ولك أن تفهم الأبد كيفما شئت، على كلٍ أكبر رقم يمكن لعقلٍ بشري أن يتصوّره إذا نُسِبَ إلى الأبد أصبح صفراً، لو أن هناك رقماً من الأرض إلى القمر أصفار، ثلاثمئة وستون ألف كيلو متر أصفار، أو رقماً من الأرض إلى الشمس ؟ مئة وستة وخمسون مليون كيلومتر أصفار، كل ميليمتر صفر، لو أن هناك رقم من الأرض إلى المجرّة مليون سنة ضوئيّة كله أصفار بعد الرقم (1) هذا الرقم إذا قيس إلى اللانهاية تجده صفرًا، فما هو الأبد ؟

على الإنسان ألا يضيع آخرته بدنياه:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(12))

لو أن إنساناً آثر الحياة الدنيا بضْع سنوات، الإنسان متى يستقر نفسياً ؟ بعد أن يُنْهي دراسته، وبعد أن يؤسّس عملاً، وبعد أن يتزوّج، وبعد أن يشتري بيتاً، يعني بعد الزواج وتأمين العمل وشراء المنزل، وقد توفّر له ثابت، وصار ذا مكانة، واستقرار عائلي، فمن الآن بدأت حياته، كم سنة ؟ سنوات معدودة قد لا تزيد على عشر سنوات، قد لا تزيد على عشرين عاماً، من أجل هذه السنوات العشرين نُضَيّع الأبد ؟ من أجل بضع شهواتٍ، من أجل أن نكسب مكسباً محدوداً نتركه عند الموت نضيع الأبد ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(12))

إيمان الإنسان من دون عمل صالح لا قيمة له إطلاقاً:

أيها الأخوة الأكارم، في الأعمّ الأغلب إن كلمة الإيمان أُرْدِفَت في القرآن الكريم بالعمل الصالح، الإيمان بلا عمل لا قيمة له إطلاقاً..

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ (12))

والعمل الصالح من معانيه الاستقامة على أمر الله، من معانيه البذل والعطاء، وأن تنفق مما أعطاك الله عزّ وجل..

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ (12))

هذا الوعد من الله يُنسي المؤمن كل متاعب الحياة الدنيا، الإنسان إذا رأى مقامه في الجنّة يقول: **" لم أر شرّاً قط "**، لو أن حياته كلها كانت مشحونةً بالمتاعب ؛ فقر، مرض، ضيق، ضغط، شدّة، أجل مهما كانت حياة المؤمن كلها مشحونةً بالمتاعب فإذا جاء أجله ورأى مقامه في الجنّة يقول: لم أر شرّاً قط، وقد ورد في الحديث:

((وعزّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عمِلها سقماً في جسده، أو اقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدّدت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

من نجا من عذاب الآخرة لا قيمة لمتاعب الدنيا عنده:

نحن أيها الأخوة، في هذه الدنيا التي هي دار تنقية، دار ابتلاء، دار امتحان، في دار عمل، كل متاعب الحياة الدنيا ليست بشيء أمام أن ترى نفسك قد نجوت من عذاب الآخرة:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

هذا المعنى، المؤمن يوطِّن نفسه على تحمُّل بعض المشاق، على تحمّل بعض المتاعب، على الصبر، على معالجة الله له، لأن الله رب العالمين هو الذي يعالج عباده المؤمنين ؛ يُنَقِّيهم، يطهّرهم، يرقى بهم من حالٍ إلى حال، من مقامٍ إلى مقام، من منزلة إلى منزلة، من مستوى إلى مستوى.. أنا أعطيك الدليل.. أليس لك صديقٌ في سِنِّك تماماً، يمشي في طريقٍ آخر غير طريق الدين ؟ بعد حين التقيت به واستمعت إليه تعرف نعمة الله عليك، قد ترى ضيق أفقه، قد ترى شركه، قد ترى دناءة نفسه، قد ترى

تَعَلّقه بالدنيا، قد ترى ضعف إيمانه بالله، قد ترى مُزاحاً له لا يُرضي، إذًا لن تعرف قيمة الإيمان، وقيمة الطُهر، وقيمة السمو إلا إذا رأيت إنساناً آخر يمشي في طريقٍ آخر.

وعد الله عز وجل للإنسان بالجنة يلغي كل متاعب الحياة الدنيا عنده ويبددها:

فيا أيها الأخوة الأكارم:

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ (12))

أيْ إنّ هذا الوعد يمتص كل متاعب الحياة الدنيا، ذكرت مرّةً مثلاً يقرّب هذا المعنى: إنسان دخله قليلٌ جداً، عنده ثمانية أولاد، ودخله لا يزيد عن ألفٍ وخمسمئة ليرة في هذه الأيام، وبيته مستأجراً، حياته ضيّقة جداً، طعامه خَشِن جداً، بيته صغير جداً، له عمٌ مثلاً يملك خمسمئة مليون، ليس له أولاد وتوفي فجأةً بحادث، ألم تنتقل كل هذه الثروة لهذا الفقير فجأةً ؟ بقي عامٌ إلى أن قبض المبلغ الأول، لماذا هو في هذا العام من أسعد الناس ؟ مع أن حياته هي هي، وطعامه هو هو، وبيته هو هو، لم يتغيّر في حياته شيءٌ إطلاقاً، ومع ذلك تراه من أسعد الناس لأنه دَخَلَ في الوعد الحقيقي، كل هذه الثروة آلت إليه، وبقي أشهراً حتى يقبض هذه المبالغ الطائلة، إذاً هذا الوعد بهذا الغنى الكبير في نظره طبعاً يُنسيه كل متاعب دنياه.

وكذلك حال المؤمن، فحينما يعده خالق الكون بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض فهذا الوعد يلغي كل متاعب الحياة الدنيا ويبددها، يقول المؤمن: والله أنا راضٍ يا رب، راضٍ عن كل شيء.

المؤمن راض عن كل ما قدّره الله له:

لذلك أحد الأشخاص كان يطوف حول الكعبة ويقول: " يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ " كان وراءه الإمام الشافعي فقال: **" يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ " فوقف وقال: " من أنت سبحان الله ؟ من أنت يرحمك الله ؟ " قال: " أنا محمدٌ بن إدريس " قال: " ما هذا الكلام ؟ كيف أرضى عن الله وأنا أتمنّى رضاه ؟ ما فهمت هذا الكلام "، فقال الإمام الشافعي: " إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ".** المؤمن يرضى بقضاء الله وقدره، يرضى بنصيبه من الله عزّ وجل، المؤمن راضٍ عن الله عزّ وجل..

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(12))

هذا الفريق الأول.

الكافر من أنكر وجود الله عز وجل:

وأما الفريق الثاني، قال:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا (12))

أيْ ما عرفوا ربَّهم، ما عرفوا منهجه، وأنكروا ؛ إما أنكروا وجود ربهم، أو أنكروا أسماءه، أو أنكروا ألوهيته، آمنوا بأنه خلق لكنهم لم يؤمنوا بأنه فَعّال، فهو معهم أينما كانوا، والأمر كله بيده، فمن آمن بالله خالقاً ولم يؤمن به مربياً ومسيّراً ما عبده، إنه يعبد الذي يراه فعّالاً في حياته..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

فالأنعام ؛ حيوانات همّها الطعام والشراب، تأكل بلا قيد، وكلّما سَمِنَت اقترب وقت ذبحها، تأكل لتُذبَح، الأغنام تُسَمَّن لا من أجلها، لا من أجل صحّتها، لا، بل تسمَّن من أجل أن تُذبَح.

الكافر يتمتّع بالدنيا والمؤمن يتزوّد منها:

هؤلاء الذين كفروا..

(يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

فالكافر يعيش ليأكل، والأرقى من هذا قليلاً: الغافل الذي يأكل ليعيش، والأرقى من هذا وذاك الذي يعيش ليعرف الله عزّ وجل، يعيش ليعرف الله، لذلك قالوا: "المؤمن يتزوّد، والمنافق يتزيّن " ؛ الكافر يتمتّع والمؤمن يتزوّد ؛ يتزوّد من الدنيا بما يعينه على متابعة السير، يتزود من الدنيا بما يعينه على طاعة الله، يتزود من الدنيا ما يعينه على العمل الصالح، والمنافق يتزيّن، قيمته متاعه، أما الكافر يتمتّع، متعته في الحياة الدنيا هي كل حياته، ولا شيء عنده فوق ذلك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((تعس عبد الدرهَم والدينار، تعس عبد البطن، تعس عبد الفرج، تعس عبد الخميصة والقطيفة))

[البخاري عن أبي هريرة]

أيْ عبد الثياب..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

أولاً: حياتهم كلها متع ليس فيها أعمال، وليس فيها مبادئ يعملون بها، وليس فيها قِيَم يتحلون بها عملاً و سلوكاً، إنما هي متعٌ فارغة تنقضي بانقضاء الحياة الدنيا، وبعدئذٍ يواجهون تبعات أعمالهم.

ليس للإنسان من ماله إلا الذي أنفقه طاعات وصدقات و قربات:

أيها الأخوة الكرام... النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ليسَ لكَ مِنْ مَالِكَ إلا مَا أكَلْتَ فَأفْنَيْتَ أوْ لَبِسْتَ فَأبْلَيْتَ أوْ تَصَدّقْتَ فَأمْضَيْتَ))

[مسند أحمد عن مطرّف]

تصوّر: شخص عنده مئة مليون، ينفق على طعامه كم في السنة ؟ وعلى لباسه كم ؟ وبكم يتصدّق ؟ له من هذا المبلغ الطائل المبلغ الصغير الذي أكل منه، ولبس منه، وتصدّق منه، هذا المبلغ الصغير ثلاثة أقسام، الذي أكله فني، والذي لبسه بلي، ما له مما أنفق إلا الثلث، إن كان تصدّق بالثّلث وما تبقى محاسبٌ عنه حساباً دقيقاً، كيف اكتسبته ؟ وكيف أنفقته ؟ لذلك المال ما انتفعت به، والكسب الذي اكتسبته دون أن تنتفع به، اكتسبته وأنت محاسبٌ عليه..

تصوّر إنساناً استقرض قرضاً كبيراً، وبعد أن استقرض هذا القرض ضاع منه، لقد وقّع سندات، فعليه تبعة هذا القرض، وعليه أن يؤدِّي هذا القرض دون أن ينتفع به.. بالضبط هذا معنى الكسب، أي أنك بذلت جهداً كبيراً، اكتسبت مالاً وفيراً، أودعته في جهةٍ ما، لم تنتفع به إطلاقاً لكنك محاسبٌ عليه كيف كسبته ؟ وكيف أنفقته ؟ أما الذي لك، فالذي أكلته يفنى، والذي لبسته يبلى، ويبقي الذي أنفقته في سبيل الله، يعني من كل ثروتك ليس لك إلا الذي أنفقته طاعات وصدقات وقربات، والباقي فني وبلي وضاع بَدَدا، لذلك قالوا: **" أندم الناس غنيٌّ دخل ورثته بماله الجنّة، ودخل هو بماله النار، وأندم الناس عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنّة ودخل هو بعلمه النار "..**

الإنسان على الرغم من قوّته الله عزّ وجل قادرٌ على أن يحطِّمه في أية لحظة:

(وَالّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتّعُونَ وَيَأكُلُونَ كَمَا تَأكُلُ الْأنْعَامُ وَالنّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

المؤمن يأكل بمعىً واحدة، والكافر يأكل بسبعة أمعاء، أيْ أنّ همّه الطعام والشراب..

(وَكَأيّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أشَدُّ قُوّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الّتِي أخْرَجَتْكَ أهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13))

أيْ مع الله لا أحد قوي، ومع الله لا أحد غني، الإنسان على الرغم من قوّته المزعومة أو من ذكائه الموهوم فالله عزّ وجل قادرٌ على أن يحطِّمه في أية لحظة..

من عظمة الله عزّ وجل إهلاك القرى الظالمة بانهيار ذاتي:

(وَكَأيّنْ مِنْ قَرْيَةٍ (13))

أيْ وكم من قريةٍ، هذه كم تكثيريَّة، يعني أكثر القرى الظالمة:

(هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13))

وقد تقرأ في التاريخ الحديث عن دول عُظمى أشد من معظم الدول الأخرى تملك أسلحة نوويّة تكفي لتدمير الأرض خمس مرّات..

(أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13))

ما أهلكناهم بتسليط عدوٍ خارجي عليهم، لا، بل أهلكناهم ذاتياً، أهلكناهم بانهيار ذاتي داخلي، وهذا من عظمة الله عزّ وجل، وأحياناً إذا زال الشيء العظيم بشيءٍ عظيم نقول: القضيّة معقولة، أما أن يتلاشى الشيء العظيم بسببٍ تافه فهذه وقائع محيّرة، قال بعضهم: **" عرفت الله من نقض العزائم ".**

حياة المؤمن حياةٌ متميّزة بقيمها وأهدافها النبيلة:

المؤمن يأكل أيها الأخوة ويشرب، وينام، ويتزوّج، ويعمل، ويستمتع بالمباح، بما أباحه الله له، لكنه مع استمتاعه ليبقى هادفاً، قال تعالى:

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ)

لكن..

(وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ)

(سورة النساء: آية " 104 ")

المؤمن إذا تزوّج يرجو من الله ما لا يرجوه غير المؤمن، إذا أسّس المؤمن عملاً فهو يرجو من عمله أن يكون داعيةً بعمله لا بلسانه، هذا المؤمن ؛ صدق، أمانة، إخلاص، خدمة، قناعة، رحمة، فالمؤمن إذا تزوّج يرجو من الله ما لا يرجوه الكافر، والمؤمن إذا عمل عملاً، وأسّس عملاً يرجو من عمله ما لا يرجوه الكافر، وحياة المؤمن حياةٌ متميّزة بقيمها، وبأهدافها النبيلة، وبانضباطها بقواعد الشرع، فحياته انضباط وقيم وأهداف.

المتعة المشروعة ليست حراماً:

أيها الأخوة، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إياك والتنعُّم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعّمين))

[مسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل]

الحديث متعلِّقٌ بهذه الآية، إيّاك أن تجعله التنعُّم هدفاً في حياتك، هذا يتنافى مع حقيقة الدنيا، يتنافى مع كون الدنيا دار عمل، دار إعداد، دار سعي، لكن الإنسان أحياناً يكرمه الله بمتعةٍ بريئةٍ، أي أن الإنسان عندما يتزوج، وينجب أولاداً، ويعمل عملاً شرعياً فيكسب مالاً، قد يأكل طعاماً طيّباً، وقد يركن إلى

أهله ساعةً لطيفةً، قد يُداعب أولاده مساءً هذه متعة ولكنها متعة بريئة، متعةٌ أتتك عرضاً، قدَّرها الله لك من أجل أن تتابع مسيرة العمر، فالإنسان في السفر، والسفر طويل وشاق، من حين لآخر يستريح، هذه الراحة في أثناء السفر لصالح السفر، لصالح متابعة الطريق، لصالح تجديد النشاط، لذلك المتعة المشروعة ليست حراماً..

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ)

(سورة الأعراف: آية 32)

طبعاً هذه المتع التي سمح الله لنا بها كالطعام والشراب مثلاً، فالطعام له نكهات طيّبة، فهل المؤمن لا يحس بطعم الطعام ؟! لا إنه يحس بطعمه، سيدنا عمر مرّة قال: " والله إني لأذوَق منكم "، المؤمن عنده إحساس مرهف، لكن المؤمن يتمتَّع عرضاً دون أن تكون المتعة دَيْدَنَهُ، دون أن تكون زينة الحياة الدنيا هدفه، الله عزّ وجل يُقَدِّر له متعةً بريئةً طيّبةً طاهرةً نظيفةً في أثناء هذا الطريق الشاق الطويل وهو في طريق معرفة الله عزّ وجل والسعي للدار الآخرة، يتمتَّع، ولكنها متعةٌ تعينه على متابعة الطريق، أما أن تُتَّخذ المتعة ديدناً وهدفاً ومبدأً فهذا هو الذي لا يريده الله عزّ وجل، وهذا هو المقصود من قول النبي الكريم:

((إياك والتنعُّم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعّمين))

[مسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل]

من غادر بلده إلى بلد آخر تقام به شرائع الدين فهذا أمر مشروع:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الّتِي أَخْرَجَتْكَ (13))

النبي عليه الصلاة والسلام حينما خرج من مكّة قال:

((والله لأنتِ أحبُّ بلاد الله إلى الله، وأنتِ أحبُّ البلاد إليّ، ولولا أن أهلكِ أخرجوني ما خرجت))

فالهجرة قضيّة مؤثرة وعميقة الأبعاد، الإنسان حينما يهاجر تُقَطَّع جذوره، أو تُقتَلَع جذوره، الإنسان في بلده له مكانة ومع ذلك تغرّب منها إلى بلدٍ آخر ليتعرض أحياناً للهوان، ومع ذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام ضرب لأمّته المثل الأعلى في التضحية، من أجل الدعوة نرضى بكل شيء، من أجل الفوز بالآخرة مهما بلغ الثمن نبذله، ولو كان الثمن أن ندع الأرض التي ولدنا عليها..

(وَلَوْ أَنّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)

(سورة النساء: آية " 66)

فالإنسان بفطرته يتعلّق بموطنه ومع ذلك إذا كان يُرْضي الله عزّ وجل أن تغادر بلدك إلى بلدٍ آخر تُقام فيه شعائر الدين، وتنجو بدينك فهذا أمرٌ مشروع.

عدم استواء المؤمن مع الفاسق:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14))

دقق النظر في هذه الموازنة، فهناك آيات كثيرة تشبه هذه الآية..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

من يتمتع بعقيدة صحيحة يضع يده على حقيقة الكون و الإنسان:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (14))

إنسان يعتقد عقيدةً متينةً أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون، وأنه ربُّ العالمين، وأنه الفعّال لما يريد، ويعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا إله إلا الله، وأنه كاملٌ في أسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى، ويعتقد أن النبي عليه الصلاة والسلام سيّد الخلق وحبيب الحق، وأنه المثل الأعلى والقدوة لنا، وأنه معصومٌ في أقواله وأفعاله، وأنه الإنسان الكامل، وأن كل ما أمرنا به هو عين الحق، وكل ما نهانا عنه هو عين الباطل، ويعتقد أن لله ملائكةً يكتبون كل أعمالنا، ويعتقد أن هذا المنهج، هذا الكتاب هو من عند الله فيه خبرنا، وخبر من قبلنا، وخبر من بعدنا، فيه أمْرٌ ونَهْيٌ، ووعدٌ ووعيد، وحرامٌ وحلال، فيه غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، ويعتقد أن الله سبحانه وتعالى عادلٌ في كل أفعاله، حكيمٌ وقديرٌ، ولطيفٌ ورحيمٌ، هذا الذي يعتقد هذه العقيدة الصحيحة، المُطابقة للواقع، التي لا يمكن أن تُنقض في يومٍ من الأيّام، بينما أيُّ مذهبٍ وضعي من المحتمل جداً أن يأتي رأيٌ آخر ينقضه، إذا اعتقدت بنظريّةٍ ليست في كتاب الله فمن البديهي جداً أن تأتي حقيقةٌ فتنقضها، فلذلك هذا الذي يتمتّع بعقيدةٍ صحيحة، ويفهم فهماً عميقاً، وقد وضع يده على حقيقة الكون والحياة والإنسان، ثم هو يطيع الله عزّ وجل..

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ: آية لها معنيان:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ (14))

فمثلاً.. شخص يمشي في طريق وله عينان مبصرتان، يرى بهما الأكمة والحفرة، والشيء النافع والشيء الضار، ومعالم الطريق كلها واضحة وكذلك خباياها، يمشي مطمئن النفس لأنه يرى، يرى حقيقة الأشياء، هذا الذي يمشي مطمئناً لما يتمتّع به من رؤيةٍ صحيحة ونظرٍ ثاقب، فهل هذا يشبه إنساناً أعمى يتخبّط في مشيه، يتعثّر في خطواته، يصدم شجرة ويقع في حفرة، ويدوس على حشرةٍ مؤذيةٍ ؟ قال:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

1- الشيطان عن طريق الوسواس يزيّن للإنسان عمله:

المفسّرون في هذه الآية لهم رأيان..

الرأي الأول: أن الشيطان عن طريق الوسواس يزيّن له عمله، أي توجد عندنا مصيبتان، المصيبة الأولى أن عمله سيئ، والمصيبة الأسوأ أن يرى عمله حسناً ؛ ويزعم قائلاً: نحن مستنيرون، نحن تركنا هذا الشيء القديم.. الغيبيّات.. نحن في عصر العلم، في عصر المساواة، فيغطّي كل معاصيه بكلماتٍ برّاقة، فالمصيبة مصيبتان، الأولى أن عمله سيئ، والمصيبة الثانية أنه يتصوّر أن هذا العمل السيئ هو عملٌ طيّب..قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

نعوذ بالله من أن نتوهّم الأعمال السيئة أعمالاً طيّبة ونحسب الأورام شحمًا و لحماً.

من أخطأ و له عقيدة صحيحة سرعان ما يتوب إلى ربه:

إخواننا الكرام...إنّ الإنسان إذا أخطأ وله عقيدة صحيحة فالقضيّة سهلة جداً، لماذا هي سهلة ؟ لأنه سريعاً ما يعدل عن خطئه ويتوب، إنسان يعلم أن هذا الشيء يؤذيه لا يفعله، فإذا فعله مغلوباً ففي الأرجح فإنه في المرّة القادمة لا يفعله، وإذا فعله ثانيةً في الأرجح فإنه في المرّة الثالثة لا يفعله، لكنك إذا اعتقدت أن هذا الذي تفعله عين الحق، وعين الصواب، وهو الشيء الجيد فهذه هي المصيبة، المصيبة ألاّ تدري وألاّ تدري أنك لا تدري، المصيبة أن يكون العمل سيئاً وأن تراه حسناً، لذلك سيّد الخلق وحبيب الحق حينما كان يدعو الله عزّ وجل.. وأدعية النبي علم.. كان يقول:

((اللهمّ أرنا الحقّ حقّاً.. لأن هناك من يرى الحق باطلاً.. وارزقنا اتباعه))

أعظم نعمة على الإطلاق ينالها الإنسان هي نعمة الهدى:

ما قيمة الرؤية الصحيحة من دون عمل ؟

((اللهمّ أرنا الحقّ حقّاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[ورد في الأثر]

معنى ذلك أن هناك من يرى الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، ألم تلتق مع إنسانٍ يرى أن الدين كلّه قضيّة قديمة ليست صالحة لهذا العصر ؟ ألم تستمع إلى من يقول: الدين أفيون الشعوب ؟ ألم تستمع إلى من يقول: هذه التفرقة بين الجنسين شيء سخيف بالٍ لا يليق بعصرنا هذا ؟ ألا ترى من يقول: إن مظاهر العبوديّة لله عبارة عن ضعف بشري أمام قوى الطبيعة المخيفة ؟

يعني من دون مبالغة أعظم نعمةٍ على الإطلاق ؛ تفوق نعمة الصحّة، وتفوق نعمة المال، وتفوق نعمة القوّة، لأن الصحّة تزول بالموت، والمال يزول عند الموت، والقوّة تتلاشى عند الموت، أعظم نعمةٍ على الإطلاق هي نعمة الهدى، لذلك النِعَم التي دون الهدى لا تتم إلا بالهدى، الهدى واحد، والصحة صف فصار الرقم عشرة، مهتدٍ وصحيح، ومعه مال يكفيه هذا صفر ثانٍ فصار رقمه مئة، مهتدٍ وصحّته طيبة ومعه ما يكفيه، الهدى واحد والمال صفر والصحّة صفر ثانٍ، وله مكانة اجتماعيّة، واللهُ آتاه طلاقة لسان، آتاه ذكاء، آتاه حسن تصرُّف، آتاه زوجة صالحة، آتاه أولاداً أبراراً، كل نعمة صفر أمام الرقم (+)، ولكن لا تنسى أن هذه النعمة الأولى التي هي واحد هي نعمة الهُدى، لو ألغيتها فكل ما عندك يغدو أصفاراً، لذلك قالوا: تمام النعمة الهدى.

من أصابه الهدى و الصحة و الكفاية ما فاته من الدنيا شيء:

أحياناً تجد أخًا يقول لك: الله مفضِّل، فقد منّ عليه بمال، وهو ساكن في بيت، ويتوافر لديه من الطعام ما لذّ وطاب، وعنده مركبتان أو ثلاث، وله أولاد في خدمته، لكنّك لو استمعت إليه لوجدت في عقيدته خللاً، لا يؤدي العبادات أحياناً، له ظنٌ بالله سيّئ، إذا كنت مؤمناً حقاً ترى أن كل هذه النعم التي هو بها لا قيمة لها، نظير ضعف عقيدته، ونظير عدم عبادته لله عزّ وجل، فلذلك تمام النعمة الهدى، بعد الهدى الصحّة، بعد الصحّة الكفاية، وانتهى الأمر إلى وضوح وسعادة، فمن أصاب الهُدى، وأصاب الصحّة، وأصاب الكفاية ما فاته من الدنيا شيء، نال الدنيا بحذافيرها، بل بحذافير حذافيرها..

من عرف الله و عمل صالحاً فقد أنعم الله عليه:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (14))

هذا يعرف حقيقة الحياة الدنيا، أنها ممر وليست مَقَراً، يعرف سرّ وجوده بها، ويعرف أن له رباً عظيماً وهذا منهجه، وهذا نبيُّه عليه الصلاة والسلام، وهذه سنَّة نبيُّه، والفلاح أن تؤمن به، والفلاح أن تتبع أمره، والفلاح أن تنفق من مالك في سبيله، هذا الذي يعرف هذه الحقائق، يعرف أن الله موجود، وأن الله واحد، وأن الله كامل، وأن أسماءه كلها حسنى، وأن أنبياءه معصومون، وأن النبي الكريم سيّد الأنبياء، المثل الأعلى، وأن هذا القرآن كتاب الحق، كتابنا المقرّر، طبعاً هذه المعرفة الدقيقة العميقة، المتنامية، الواضحة، الشمولية، التفصيلية هذه المعرفة إذا اقترن بها العمل الطيّب فهذه هي النعمة الحقيقية..

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14))

زُيِّنَ فعل مبني للمجهول، مَن الذي زَيَّن له سوء عمله ؟ الشيطان، هذا وجه.

1- الإنسان الفاسق يفلسف عمله السيئ بأنه عمل طيب:

والوجه الثاني هو نفسه فلسف عمله السيئ، فهو ذو عقل.

العقل قوة إدراكية وضعه الله في الإنسان ليعرف الله به:

الله عزّ وجل أعطانا العقل كي نتعرّف إلى الله به، مثلاً: واحد يوجد عنده آلة معقّدة جداً فممكن أن يربح منها مئات الملايين، فاستخدمها في تزوير العملة فدخل إلى السجن، الآلة نفسها، بدل أن تكون هذه الآلة سبباً في غناك جعلتها سبباً في دمارك، كذلك العقل، هذا العقل قوة إدراكيَّة أودعه الله فيك كي تعرف الله عزّ وجل، لكنك إذا أردت الشهوة وانتبهت أن لديك جهازاً عظيماً، هذا الجهاز يمكن أن تستعمله لغير ما خُلِق له، يمكن أن تُعمِله في فلسفة انحرافك، هذا هو العقل التبريري، أخطر شيء في الإنسان أن يكون عقله تبريرياً، إنه مصرٌ على شهواته، مُصِر على باطله، على كفره، على انحرافه، على عدوانه، على بغيه، مُصِرْ على هذا الانحراف، لكن لو كان حيواناً ينحرف وكفى، أما الإنسان الذي لديه عقل ينحرف ويفلسف انحرافه، فهذه المبادئ الوضعيَّة الهدّامة، فلسفة الشر، فلسفة الكفر، فلسفة الانحراف، فلسفة الإلحاد، لأن لديه عقلاً، فإن هذا العقل قوّةٌ إدراكيَّة ما أودعه الله في الإنسان إلا من أجل أن يعرف الله به.

أخطر شيء استخدام العقل لتبرير الكفر و فلسفة الانحراف:

الإنسان أحياناً يركب مركبة كل ما فيها مجهّز لتنقلك إلى هدفك وأنت مرتاح، هذه المركبة هكذا صُمِّمت، حينما صُنعت في معملها صُمِّمت لتنقلك إلى هدفك وأنت مرتاح، يقول لك: هذه مكيّفة في الصيف، مُدفّأة في الشتاء، فيها أجهزة حمل مرنة جداً، مثلا القيادة سهلة، فيها صوت خفيف جداً، فيها إضاءة ذاتيّة الحركة، شيء جميل، أما إذا الإنسان قاد هذه المركبة وهو سكران هوى بها إلى أعماق الوادي فتحطّمت أضلاعه، المركبة هي هي، إما أن تنقلك إلى هدفك وأنت مرتاح، وإما أن تكون سبباً في هلاك الإنسان وهكذا العقل فهو حيادي، إذا الإنسان استخدمه كأداة لمعرفة الله كان سبب سعادته، ورد في الأثر أن الله جلّ جلاله عندما خلق العقل قال له:

((أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منك بك أعطي وبك آخذ))

أي إذا استعملك الإنسان لما خُلِقت له يستحق عطائي الأبدي السرمدي، وإذا لم يستعملك أو أساء استعمالك كان سبب هلاكه.. بك أعطي وبك آخذ.. فأخطر عقل هو العقل التبريري، الشهوة أولاً والعقل يبرّر، العدوان أولاً والعقل يبرّر، ولو استمعت إلى ما يقوله الكفّار عن أعمالهم فكله يفلسفه عقل تبريري، يعتدون ويرفعون أفكارًا إنسانيّة لا تَمُت إلى الواقع بصلة، فالشيء الخطر جداً أن تستخدم العقل لتبرير الكفر، لفلسفة الانحراف، لتغطية الشهوة..

العقل المفلسف للشهوة وللمعصية أخطر عقل:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

فمن هو المزيّن ؟ الشيطان، والإنسان يزيّن عمله في بعض الأحيان، يتفلسف، يفلسف انحرافه، ويفلسف حقده، ويفلسف انتقامه، ويفلسف شهوانيّته، ويفلسف طمعه، ويفلسف بخله، لذلك:

(كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

المصيبة الكبيرة أن يكون الخطأ لا في المفردات بل في المنهج، لا في الجزئيات بل في طريقة التفكير، لذلك العقل المبرّر، العقل المزيّن، العقل المفلسف للشهوة وللمعصية وللانحراف هو أخطر عقل، كيف أن العقل سبب الرُقي فالعقل الآخر سبب الهلاك.

الحقّ واحد لا يتعدد:

أيها الأخوة... أحياناً نرى في آيةٍ واحدة كلمةٍ هي مركز الثِقَل، لأننا نحن في عصر الباطلُ فيه مزيّن، والشهوة مفلسفة، والانحراف مغطّى، والإنسان الجاهل أحياناً يصدِّق هذا الكلام، فمن أجل ألاّ نقع في شرّ فلسفتنا، ألاّ نقع في شرّ أعمالنا، ينبغي أن تعلم علم اليقين أن الحق لا يتعدّد، الحق واحد، وأن الحق هو الله جلّ جلاله، وأن الحق كلامه، وأن الحق شرعه، وأن الحق ما قال، والباطل ما لم يقل، فلذلك هذا القرآن فيه تفسير لنشأة الحياة، فيه تفسير لما نحن عليه بعد الممات، فيه تفسير لأثمن ما في الدنيا وهو العمل الصالح، فيه تفسير لمهمّة الإنسان في الدنيا ورسالته التي أُنيطت به، للأمانة التي حملها، للتكليف الذي كُلِّف به، فهذا الكتاب هو خاتم الكتب، أُنْزِلَ على خاتم الأنبياء وهو الحق.

العقل إذا ضلّ زيّن للإنسان سوء عمله:

أي نظريّة، أي مبدأ وضعي، أي فلسفة مستوردة، أي تفسير للكون غير التفسير القرآني، أي تفسير لبدء الخليقة غير التفسير الإلهي فذاك باطل، باطل أي خطأ ليس له صحة، لا يتطابق مع الحقيقة، وبقي علينا ألاّ نصغي لهذا التزيّين للباطل ولا نلتفت للتزييف إن الله عزّ وجل..وسنأتي بمثل قريب..خلقنا وأنزل على عبده النبي الكريم منهجاً نتحرّك به، فإذا نهانا عن شيء ما، فقد نهانا عن أن نختلط بالنساء مثلاً، فلو رأيت من يقول: الاختلاط يُهَذِّب المشاعر فهذه فلسفة سقيمة، وهذا هو عمل العقل التبريري، هذا عمل العقل المُخادِع، وإذا رأيت المعصية.. قال بعضهم: " تعلّموا السحر ولا تعملوا به " هذا الكلام لا هو آية ولا هو حديث، هذا معنى للتوريط والمكر، فالإنسان قد يلتقي مع أصدقاء، وقد يقرأ مقالة في مجلّة، ويسمع محاضرة لإنسان غير مؤمن بالدين، ويسمع خبراً، ويقول بعضهم فيه: أنت مثلاً ضعيف لأنك أخلاقي، أعوذ بالله، الأخلاقي قوي جداً، وهذه كلمة من طغيان العقل، فالعقل إذا ضل يزيّن للإنسان سوء عمله، يبرّر له أخطاءه، يغطي له انحرافاته، فهذا مطبٌ كبير ومزلق خطير، أن يصغي الإنسان لهذه الأقوال، مقياسنا هو كلام الله عزّ وجل، هذا هو الحق وخلافه باطل، أما خلافه فمزيَّن برّاق، والله عزّ وجل قال:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

(سورة الأنعام: آية 112)

من زُيّن له سوء عمله وقع في مصيبتين مصيبة سوء عمله ومصيبة فلسفة سوء عمله:

يقولون: الإنسان أحياناً في نفسه شر، فإذا شاهد مسرحيّة فيها شر فالشر الذي في نفسه يتفرغ، ويصير طيّباً، يا ترى فهل المجتمعات الغربيّة عن طريق المسرحيات تحولوا إلى ملائكة أم أنهم ازدادوا وحشيّة؟! هذه من فلسفة الباطل، إنهم يفلسفون الفنون، يفلسفون الانحرافات، يفلسفون الاختلاط، الرقص يفلسفونه على أنه رياضة، كل شيء فيه انحراف أو معصية يتغطّى بفلسفة مفتعلة، هذا هو الذي ذكره الله عزّ وجل في القرآن الكريم:

(كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

فالذي يُزَيَّن له سوء عمله يقع في مصيبتين: مصيبة العمل السيئ، ومصيبة أنه يتوهَّم أن هذا العمل السيئ هو عملٌ طيّب، الذي يستبيح الربا بدعوى تنمية الأموال وعدم تجميدها هذه من فلسفة العقل المنحرف، فكلّما رأيت فكراً يفلسف الباطل، يغطّي الباطل، يثني على الباطل، يبيّن النواحي الإيجابيّة في الباطل، يبيّن النواحي التي تعود على الإنسان بالمتعة في الباطل، فاعلم أن هذا الإنسان مصاب بمصيبتين: بمصيبة سوء عمله، ومصيبة فلسفة سوء عمله، تلك الفلسفة قد تروق لبعض الناس، لكن أيها الأخوة الحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرّمه الله، والحق ما جاء في كتاب الله..فحذار ثم حذار.

مجموع القضايا التي عالجها القرآن الكريم تام:

(هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أحْصَاهَا)

(سورة الكهف: آية 49)

(مَا فَرّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: آية 38)

(الْيَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: آية 3)

الإتمام عددي، والإكمال نوعي، يعني مجموع القضايا التي عالجها القرآن الكريم تام، طريقة المعالجة كاملة وانتهى الأمر..

((كل محدثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالةٍ في النار))

[مسلم عن جابر بن عبد الله]

تسويغ المعصية ما هو إلا تغطية لسوء الفعل:

لذلك يجب أن نحذر جميعاً من أن يزيّن لنا سوء عملنا، الشرع سمح أن يرى الإنسان مخطوبته مرّة واحدة أو مرّتين دون ما بأس، لا شهرين أو ثلاثة، زيارات وسهرات ونزهات، ولم يعقد عقد قِران بعد ولا شيء يُثبت هذه العلاقة شرعاً، وفجأةً اختفى الخطيب وبطن الفتاة المخطوبة قد كبر، هذا زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً، وهذا هو الشيطان، يلغي العقد يقول لك: خطبة لكي نمتحنها، لنعرفها مثلاً، يُسمح بالاختلاط فينشأ عنه طلاق أحياناً، خراب بيوت، خيانات زوجيّة، يُسمح بالربا فيتجمّع المال بأيدي فئة قليلة وتُحرَم منها الكثرة الكثيرة، فلا ترى معصية إلا إذا استمعت إلى من يقترفها، وهو ذكي، يقدِّم لك تبريراً، أو عَقْلَنَةً لهذه المعصية، أو تسويغاً لمساءته، أو تغطيةً لقبح عمله، هذا معنى:

(كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

الله عز وجل وضّح للإنسان كافة الأمور مع الأهداف و الوسائل:

الذي يُزيّن له سوء عمله واقعٌ في مصيبتين: مصيبة سوء العمل ومصيبة الوهم أن هذا العمل صحيح، هذه الآية صحيحة الدلالة جداً، و لعلها تحمل لك أيها المؤمن تحذيراً صارخًا جداً:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (14))

الأمور واضحة جداً، جليّة جداً، والنبي الكريم قال:

((تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

الأمور واضحة، كل شيء مع الدليل العقلي، والنقلي، والفطري، والواقعي، الأهداف واضحة، الوسائل واضحة..

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14))

اتبع هواه أولاً واستنجد بعقله من بعدُ ليبرّر له هذا العمل السيئ، وذاك الانحراف، وهذا العدوان، وأكل المال الحرام.

الجنة ثمن طاعة الإنسان لله عز وجل:

الآية الأخيرة في درسنا:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (15))

هذه الجنّة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمِعَت، ولا خطر على قلب بشر، هذه الجنّة..

(فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (15))

الماء الراكد في الدنيا يتغيَّر طعمه ولونه وريحه، فالماء في الجنّة غير آسن..

(وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ (15))

اللبن في الدنيا إذا طالت مدّته تغيّر طعمه فأصبح حامضيّاً..

اصطلاح الإنسان مع ربه من أعظم النعم على الإطلاق:

(وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (15))

معنى ذلك أن خمرة الدنيا ليس فيها لذّةٌ أثناء شربها، يبدو أنها تُشْرَبُ كي تُخَدِّر صاحبها أما في أثناء شربها ليست لذيذةً..

(وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ (15))

وفوق كل هذا..

(وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ (15))

أنت بعدما تبت إلى الله فالماضي كلّه مُسِح وعفت آثاره، الإسلام يهدم ما كان قبله، الإسلام يجبُّ ما كان قبله، الصُلحة بلمحة، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنّؤوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

(وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ (15))

هذه الحالة الرائعة، جنّةٌ إلى أبد الآبدين، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، توازى..

النار عاقبة الكافر يوم القيامة:

(كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15))

وفي هذه الآية إعجازٌ علمي، ليس في الأمعاء أعصاب حس أبداً، لو فتحت بطن الإنسان وفتحت أمعاءه، وسكبت ماءً يغلي فإنه لا يشعر بألم أو سخونة أبداً، ذكر لي طبيب عن دماغ الإنسان: إنه فتح دماغ إنسان وبدأ يقطِّع منه، فالدماغ هذا العضو الحسّاس الذي تُنقَل إليه كل مشاعر الحس لا يحس بشيء إطلاقاً، يمكن أن تُجرى عمليّة في الدماغ من دون تخدير إطلاقاً، كذلك في الأمعاء لا توجد أعصاب حس، وعليه فالإنسان إذا شرب ماءً يغلي لا يشعر بشيء إطلاقاً، الآية جاءت:

(فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15))

لكن هذا الماء الذي يغلي مزّق أمعاءهم، قطّعها ولم يشعروا بألم الحر، من كان يعرف هذه الحقيقة ؟ ليس في الأمعاء أعصاب حس، لكن هناك أعصاب ضغط، آلام عقد الأمعاء لا تُحتمل، آلام ضغط وليست آلام إحساس..

(وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15))

موازنة بين الحق و الباطل:

أيضاً موازنة، من كان في الجنّة وهذه حاله كمن كان في النار وهذه حاله ؟..

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (14))

هذه حاله..

(كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

هذه حاله، هل يستويان ؟ فكأن الدرس اليوم عبارة عن عقد موازنة بين الحق والباطل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (4-8): تفسيرالآيات 16-18، من غفل عن الحق خسر الدنيا والأخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-12-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الرابع من سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

المنافقون إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً:

مع الآية السادسة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ(16))

هذه من للتبعيض..

(وَمِنْهُمْ (16))

الـهم على من تعود ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ(12))

(وَمِنْهُمْ (16))

أي من هؤلاء الذين كفروا ؛ الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، مِن هؤلاء من يستمع إليك، أي يمكن أن يتوجه الإنسان الشارد عن الله عزّ وجل إلى مجلس علم مثلاً، فيعرف: من هؤلاء الكفار، من هؤلاء المنافقين، من هؤلاء الذين:

(إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا(44))

(سورة الفرقان)

الآيات التي تصف بعضاً ممن عاشوا مع رسول الله في حقيقتها تصف نماذج بشرية:

لو أنهم مثلاً اجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ما الذي يحصل ؟ فلنستعرض بعض النماذج البشرية: لو أن إنساناً امتلأ قلبه حباً للدنيا، لو أن إنساناً شرد عن الله شرود البعير، لو أن إنساناً أعرض عن الله عزّ وجل وكان في جلسةٍ يُذْكَر فيها اسم الله عزّ وجل، ما موقفه ؟ ماذا يحصل ؟ في الحقيقة أيها الأخوة ؛ إن الآيات التي تصف بعضاً ممن عاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هي في

حقيقتها تصف نماذج بشرية، نموذج متكرر نراه في كل حين، في كل عصر ؛ إنسان شارد، إنسان غافل، إنسان منغمس في الدنيا، إنسان أخرج من حساباته الدار الآخرة، إنسان لم يعبأ بهذا الدين العظيم، هذا الإنسان لو جلس في مجلس علم، لو التقى مع إنسان يدعو إلى الله مثلاً، فما موقفه ؟ هذا الذي حصل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يمكن أن يقع في أي عصر.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ (16))

يستمع، يُصْغِي..

من أراد أن يعرف الله أي شيء في الأرض يدل عليه:

(حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

ما من مثلٍ يوضِّح هذه الحقيقة كالمثل التالي: إنسان ذكي، إنسان ذكي ولا أقول: عاقلاً، متفوقاً، دارساً، لكن امتلأ قلبه حباً للدنيا، أصر على الدنيا ولم يعبأ بالآخرة، لو أنه استمع إلى الحق لا يعقل شيئاً، لا يفقه شيئاً، لا يدري ماذا قيل، لا يدري ما موضوع الخطبة إطلاقاً.

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

طيب هو ذكي، حَصّل تحصيلاً عالياً، فلماذا غفل عن موضوع هذه الخطبة مثلاً ؟ لأنه هو في واد وموضوع الخطبة في وادٍ آخر، آلة تصوير من أغلى الآلات، لو أن إنساناً أمسكها ووضعها أمام منظرٍ جميلٍ جداً، وضبط كل حركاتها وسكناتها، ضبط الفتحة والمسافة والسرعة، وضغط على زرها المتعلق بالتقاط الصورة لكنها ليس بداخلها فيلم، فلا قيمة لهذه الآلة، ولا قيمة لهذا الضغط، ولا قيمة لذاك التوجُّه، فالإنسان إذا طلب الحق فأي شيءٍ يدله على الله، قرار الحق قرار داخلي، إذا أردت أن تعرف الحقيقة، إذا أردت أن تصل إليها، فأي شيءٍ في الأرض يدلُّك على الله، أما إذا كان هناك إعراض داخلي، انصراف عن الحق داخلي، عدم اعتناء بالحق داخلي، هذا الانصراف الداخلي أثره سقيم، فلو أنه التقى برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

ولو قرأ أعظم كتاب، ولو استمع إلى أبلغ شريط، ولو حضر أعظم خطبةٍ، يقول:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

لماذا لم يعقل ؟ لماذا لم يفهم ؟ لأنه في واد والحق في وادٍ آخر.

من لم يطلب الحق لا يفهم شيئاً:

أقرب مثل: أحياناً الإنسان يدخل إلى محل تجاري فيه بضائع منوعة، لقد دخل إلى هذا المحل ليشتري قماشاً معيناً، فقد يأتي صاحب المحل التجاري ويعرض عليه بضاعةً أخرى، لا يعبأ، ولا يهتم، ولا يسمع، ولا يدقق، ولا يفكِّر إطلاقاً، هو في واد والبضاعة المعروضة عليه في وادٍ آخر، فلذلك هذا نموذج متكرر، أن يكون الإنسان غافلاً أو ممتلئًا قلبه بالدنيا، منصرفًا إلى الدنيا، مصراً على شهواتها، لم يُدخل في حساباته الدار الآخرة، مثل هذا الإنسان لو التقى برجل يحدِّثه عن الله عزّ وجل، لا تجد إصغاءً، ولا فهماً، ولا تأثُّراً، ولا عقلاً.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ (16))

هل في الدنيا أبلغ من النبي ؟ هل هناك من رجل أبلغ من رسول الله ؟ أنقى منه ؟ أكثر تأثيراً من أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام ؟ أوتي جوامع الكلم، من حيث البلاغة فكلامه في أرفع مستوياتها على الإطلاق، بعد كلام الله كلام رسول الله، على الإطلاق، ومن حيث قوة التأثير، النبي عليه الصلاة والسلام أعلى مخلوقٍ على الإطلاق في قوة التأثير، ومع ذلك إن لم تطلب الحق تقل:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

إن لم تصر على طلب الحق تقلْ: لم أفهم شيئاً، ما الموضوع الذي طرقه اليوم الخطيب ؟ وما الشيء الطريف فيها يقول لك: والله حضرنا خطبة رائعة، فتقول له: ماذا قال الخطيب ؟ يقول لك: والله لم أتذكر ولكن خطبة رائعة، لا يذكر منها ولا كلمة واحدة ولا آية ولا حديث، لأنه في واد وموضوع الخطبةِ في وادٍ آخر.

من صدق في طلب الحقيقة تعلم من كل شيء:

لذلك لما الإنسان يصدق توجهُه في طلب الحقيقة يتعلم من كل شيء، فكأس الماء يُعَلِّمُهُ، ابنه الذي أمامه يعلمه، كل شيءٍ يُعْطيه درساً بليغاً، أما إذا ابتعد الإنسان عن الحق فلو واجه الآيات وجهاً لوجه لا يتأثر بها، لذلك النبي عليه الصلاة والصلاة قال:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

إذا نظرت فاعتبر، وإذا صمتّ ففكر، وإذا نظرت فاذكر، إذاً هؤلاء الذين كفروا والذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

حدثني أخ له صديقٌ دعاه إلى حضور مجلس علم قبل أن يصطلح مع الله، قبل أن يتوب إليه، قبل أن يلتفت إليه، قال له بعد أن حضر الدرس: بالحرف الواحد: والله لم أفهم من الدرس كلمة واحدة، ولم أع شيئاً، لأنني في واد والمتحدث في واد، لكن بعد أن توجّه إلى الله، بعد أن أراد الهدى، بعد أن اصطلح مع الله عزّ وجل، أصبح أذناً صاغية، آلة من دون فيلم، لا فائدة منها إطلاقاً، لكن لما يطلب الإنسان الحقيقة يتأثر بكل كلمة، فالإنسان بعد أن يطلب الحق، كله آذان، كله أعْيُن، لكنه قبل أن يطلب الحق.

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ(171))

(سورة البقرة)

في كل كرسي تَسَنّدَ إنسانٌ متكتفٌ أعمى أصمٌ أخرس

*** * ***

الإنسان إذا طلب شيئاً عقل عنه أما إذا أعرض عنه لم يفهم شيئاً:

أما في أوامر الدنيا فهو يفهم كل شيء، ربنا عزّ وجل وصف أهل الدنيا قال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون(7))

(سورة الروم)

والدليل: حدِّث إنسانًا بأمور الدين، فإذا كان في وادٍ آخر يشعرك أن هذا الحديث لا يعنيه، يتململ، يتثاءب، يعتذر، ثم أُطْرُق معه حديثًا آخر دنيوياً، يقف على قدميه ساعاتٍ طويلة وهو لا يشعر لأن الدنيا تعنيه، لأنه راغبٌ فيها، لأنه لا يعلم شيئاً غيرها، لأنها أمنيته في الحياة، فهذا نموذج بشري متكرر، وهذا الشيء مما يعزّي إخواننا الكرام، فلو كنت حريصاً على هداية أخ صديق وجئت به إلى المسجد وقد مُلِئْتَ أنت إعجاباً بالدرس، وسألته يقول لك: ما قال شيئاً يذكر، ماذا قال المتكلم ؟ لم أفهم عليه ولا كلمة واحدة، لا تتألم، لا تصب بالإحباط، فهذا شيء طبيعي جداً، الإنسان إذا طلب شيئاً عقل عنه، أما إذا أعرض عنه لم يفهم شيئاً.

علامة اهتمام الإنسان الحفظ و الإصغاء و التأثر:

شخص آخر مثلاً ساكن في بيت يملكه، والبيت مرتب ومنظم وهو مستقر فيه، فبينما هو في الطريق قال لقائل: هل تريد بيتًا شراءً ؟ فيمكن ألا يسمعه، إذ ليس له علاقة، لكنك تصور: إنسان بلا بيت، خطب وعقد العقد ولم يجد بيتًا، ومضى على الخطبة سنتان، والأمور تعقدت وصار مشروع الزواج في خطر، يتمزق، فهو لا يعرف نفسه متزوجاً غير متزوج، وبينما هو بالطريق قال له قائل: هل تريد بيتًا؟

يمكن أن ينكب على رجليه يقبلهما من شدة اهتمامه، فإذا اهتم الإنسان بطلب الحق، يصغي، يتأثر، يحضر المجلس، يحفظ كل ما قيل فيه، علامة الاهتمام الحفظ، الدليل:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

لم يفهم شيئًا، لا فهم ولا حفظ، وهذا كذلك مؤشر لنا كلنا.

من علامات صدق الإنسان أن يستوعب الحقيقة و يتفاعل معها:

إذا جلست في مجلس علم، واستوعبت الآيات وفهمتها وتأثرت بها، وحفظتها، وتحدثت بها أثناء الأسبوع، هذا دليل صدقك، دليل إخلاصك، دليل أنك طلبت الحق، أما إذا جلست مع عدد من الأخوة تتذاكرون بالدرس ولم يخطر ببالك ولا فكرة، ولا آية، ولا حديث، والله هذه مشكلة، مشكلة كبيرة جداً أن تقول كما يقول هؤلاء:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

أن تستوعب الحقيقة، أن تتفاعل معها، أن تحفظها، أن تكون في قلبك، أن تتمثلها كلما تحرّكت هذا من علامات الصدق، أما ألاّ تذكر ماذا قيل، ولم تستوعب شيئاً مما قيل، ولم تعبأ به، ولم تحفظ آية و لو واحدة أو حديثاً مما قيل بل نسيت، وتنسى ما قيل فهذا كله علامة أن هذا المستمع من أهل الدنيا.

من كان بعيد الاهتمام عن الدين فهو في غفلة مرعبة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ (16))

للصحابة الكرام المقربين من رسول الله صلى الله عليه وسلم مواقف للتعلم ملموسة، كسيدنا ابن الزبير، كسيدنا ابن مسعود، هكذا ورد في التفاسير..لكن من كانت قلوبهم غلف فيقولون:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

يعني ماذا قال قبل قليل ؟ أحياناً الإنسان يصلي، ويقرأ الإمام سورةً قراءةً جيدةً رائعةً فإذا سألته ماذا قرأ الإمام في الصلاة ؟ لا يذكر شيئاً، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام ؟:

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

[ورد في الأثر]

ماذا عقلت من الصلاة ؟ قد لا يذكر بعضهم ماذا قرأ الإمام، ومرة كان أناس في نزهة صلى فيهم الإمام الظهر خمس ركعات، وما من واحدٍ ذكر أنه أضاف ركعةً خامسة، فالإنسان أحياناً يكون بعيداً اهتمامه، ويكون له وجود جسمي لكن نفسه ليست موجودة فهذه غفلة مرعبة.

من امتلأ قلبه بالدنيا لم يعد فيه مكان للحق:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ(16))

كلمة (طبع) ؛ من أوجه تفسيراتها طبع بمعنى مَلأ، كأن يكون لديك إناء امتلأ ولم يبق فيه مكان لإضافة شيء جديد، إناء امتلأ بشيء وأردت أن تضع فيه شيئاً جديداً فليس هناك مكان إطلاقاً، كما كان الشاعر:

بلاني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبال
فكنت إذا أصابتني سهامٌ تكسّرت النصال على النصال

* * *

ليس فيه شواغر.. قال:

(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16))

أي أن القلب إذا امتلأ بالهواء لم يبق فيه مكانٌ للحق، هذا معنى الآية، فالقلب امتلأ بالهوى ولم يبق فيه مكانٌ للحق، فإذا الإنسان ملأ قلبه بالمتع، وملأت الدنيا قلبه وحضر مجلس علمٍ، هذا فالحق لن يجد في قلب هذا الإنسان مكاناً، لم يبق محلاّت، هذا معنى الطبع، طبع الإناء أي ملأه، أو طبع الإناء أغلقه بعد أن امتلأ، فهذا تحصيل حاصل..

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

(سورة الأحزاب: آية " 4 ")

لك قلبٌ واحد فإذا امتلأ بالدنيا لم يعد فيه مكان للحق، أما إذا فرّغته من الدنيا استوعب الحق.

من امتلأ قلبه بحب الدنيا خسر الدنيا و الآخرة:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (16))

أي أن الله عزّ وجل نظر إلى قلوبهم فرآها ممتلئة حباً للدنيا، إذاً هذا الإنسان لا يعي على خير..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: آية " 5 ")

فهذا الإضلال إذا عُزِيَ إلى الله عزّ وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، إذا عزي الزيغ إلى الله:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: آية " 5 ")

فهذه الإزاغة الجزائية المبنية على الزَيْغ الاختياري، إذا عزي الطبع إلى الله، فهذا هو الطبع الجزائي المبني على امتلاءٍ اختياري لحب الدنيا، امتلأ القلب فلم يعد فيه شواغر، وأنت أحياناً إذا أردت أن تضع في وعاءٍ شيئاً، تقول: إنه ممتلئ، فكما لو أن إنساناً أتى ليستمع إلى مجلس علمٍ لكن قلبه ممتلئٌ شهواتٍ دنيئةً.

ذاكرة الإنسان متعلقة باهتمامه:

لذلك يُروى أن سيدنا عثمان قال: " أيدخل أحدكم إلى المسجد والزنا بين عينيه ؟ فقيل له: أوحيٌ بعد رسول الله ؟ قال: لا ولكنها فراسةٌ صادقة ". فذاك يكون في عالم آخر.

أنت تلاحظ أحياناً.. إخوانَنا المدرسين.. تجد أن طالباً شارداً، يكون درس فيزياء، كيمياء، رياضيات، درس لغة عربية، المدرس يجهد في توضيح الأفكار، وتسجيل الملاحظات على السبورة، وإملاء القواعد، لكن ذاك الطالب في عالم آخر، فلذلك الانتباه أساسه الاهتمام، خذ مثلاً صاحب محل تجاري عنده عشرة آلاف صنف، كقطع الغيار، أعندك القطعة الفلانية ؟ يقول له: باقي قطعة، اصعد يا بني تجدها على الرف الثالث باليمين، بآخر الرف تجد قطعة أحضرها، فما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنه مهتم كل الاهتمام بهذه المصلحة ويكسب منها رزقه، فحفظ كل تفاصيلها، فسبحان الله الذاكرة متعلقة بالاهتمام، كلما نما اهتمامك في شيء نمت معه الذاكرة، أحياناً إنسان يكون نَسّاء أي كثير النسيان لكن بالموضوعات التي يهتم لها لا ينسى شيئاً، معنى ذلك أن الذاكرة اصطفائية، فلذلك هنا: كما أن هناك إضلالاً جزائياً أساسه الضلال الاختياري، وكما أن هناك إزاغةً جزائيةً أساسها الزيغ الاختياري، هناك طبع جزائيٌ أساسه امتلاء القلب بالشهوات، ذهبنا لنملأ قلبه خيراً فوجدانه ممتلئاً شرًا.

من اتبع أهواءه امتلأ قلبه بالشهوة:

إذاً..

(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (16))

تأمل في تتمة الآية تجد أن الله عزّ وجل عطف السبب على المُسَبَّب، بماذا امتلأت قلوبهم حتى لم يبق فيها مكان للحق ؟ قال:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16))

حينما اتبعوا أهواءهم امتلأت قلوبهم بالشهوات، وقد تجدون هذه النماذج كثيرةً جداً، شخص كل اهتمامه بالأعمال الفنية الساقطة، يتتبعها حركةً حركة، فإذا تكلم لا يتكلّم إلا عنها، وهذا النموذج إخواننا

الكرام متكرر، اليوم سألني أخ كريم فقال: إن الله عزّ وجل حينما يقص علينا بعض القصص لا نجد فيها تفاصيل، ولا جزئيات، ولا أسماء أمكنة، ولا أسماء أزمنة، كلامٌ عام، فما حكمة ربنا جلّ جلاله من أن قصص القرآن الكريم ليس فيها تفاصيل، ولا أمكنة ولا أزمنة ؟ قلت له: يا أخي لو أن الله سبحانه وتعالى ذكر لك أسماء الشخصيّات، والمكان الذي تحركوا عليه، والزمان الذي غَلّفَ هذه الأحداث، وأورد تفاصيل كثيرة جداً، لوقع في وهمك أن هذا تاريخ، أو أن هذه قصة وقعت ولن تقع مرة ثانية، فلم يعد القرآن إذًا كتاب هداية، لكن الله سبحانه وتعالى حينما يغفل هذه التفاصيل، والأسماء ؛ أسماء الشخصيات، والأماكن والأزمنة من أجل أن يلقي في روعك أن هذا نموذج متكرر تجده في كل زمان، فكل من يبحث عن تفاصيل قصص القرآن الكريم كأنه يَفْسِدُ على الله حكمته، بل هو نموذج متكرر.

من كان صادقاً في طلب الله عقل و فهم و استفاد:

طبعاً تقرؤون هذه الآيات:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ (16))

مَن هؤلاء:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

هؤلاء كانوا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ولكن خصوص السبب لا يعني أن هذه الآية لا تنطبق على كل إنسانٍ فيه هذه الصفات، فهذا إذاً كما يسميه بعض العلماء نموذج متكرر نجده في كل زمانٍ ومكان، فليحذر أحدنا أن يكون ذلك النموذج المتكرر، أي اطلب الله بصدق، إذا كنت صادقاً عقلت واستفدت وفهمت وحفظت وتحرّكت، أما إذا ما فقد الصدق في طلب الحقيقة تقول كما قال هؤلاء:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

موضوع التذكر له علاقة بالاهتمام و صدق التوجه:

صار عدم استيعاب موضوع العلم، أو عدم عقل المعلومات وفهمها، وصمة عار بحق الإنسان، الدليل أنه ليس مهتمًا، والإنسان أحياناً ينسى أشياء كثيرة ويذكر أشياء كثيرة، الذي ينساه لا يهتم له، فمثلا شخص تقول له: الاسم الكريم، يقول لك اسمه، بعد دقيقة تنسى اسمه، دقيقة واحدة وتنسى اسمه فما السر ؟ وإنسان آخر تسأله عن اسمه فلا تنساه طول حياتك، فموضوع التذكر له علاقة بالاهتمام و صدق التوجه، هذا النموذج الأول:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17))

من اختار رضوان الله و الدار الآخرة شرح الله صدره للإيمان:

هذا موضوع آخر، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))

[الترمذي عن أنس]

إذا اختار الإنسانُ أن يصل إلى الله، إذا اختار رضوان الله، إذا اختار الدار الآخرة، فالله عزّ وجل يزيده هدىً، هو اهتدى، حينما طلب الحقيقة اهتدى، حينما طلب رضوان الله اهتدى، حينما طلب الدار الآخرة اهتدى، فكيف يزيده الله هدىً ؟ قيل: يشرح الله له صدره للإيمان، ألم يقل الله عزّ وجل

(حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

(سورة الحجرات: آية " 7 ")

فهذا القلب، قلبك الذي هو بين إصبعين من أصابع الرحمن حينما يشرحه للهدى يكون قد أعانك على نفسك، أنت اخترت الطريق الصحيح والله سبحانه وتعالى وجّه قلبك إليه، فهذا مما يزيدك الله به هدىً، وبعضهم قال: النبي عليه الصلاة والسلام ببيانه وسنته المطهّرة القولية والعملية يزيدك هدىً، والله عزّ وجل قال:

(إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

(سورة النساء: آية " 29 ")

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى: آية لها عدة معان:

1- انشراح صدرك:

مثلاً أربعمئة حديثٍ شريف تُوضِّحُ أحكام البيع والشراء والتجارة، ففيها زيادة بيان و هداية، فالنبي من خلال سنته القولية والعملية زاد المهتدين هدىً، فإما أن نفهم أنّ الهدى انشراح الصدر، أي أن يزيدك الله هدىً فهو انشراح صدرك.

2 ـ بيّن لك ما في القرآن الكريم:

إما أن نفهم أن يزيدك الله هدىً أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن لك ما في القرآن الكريم.

3 ـ وفقك إلى العمل الذي يرضاه:

وإما أن تفهم أن يزيدك الله هدىً أنه وفقك إلى العمل، وإلى تطبيق هذا الذي سمعته.

4 ـ أن ترى بعينك الأحداث التي تؤكِّدُ ما في القرآن:

وإما أن يزيدك الله به هدىً أن ترى بعينك الأحداث التي تؤكِّدُ ما في القرآن، فالخلاصة: إما أن الحوادث تؤكد ما في القرآن، وإما أن الله سبحانهُ وتعالى يوفقك إلى تطبيق ما تعلمت، وإما أن الله سبحانه وتعالى عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم يوضِّح لك ما في كتابه من تفاصيل، وإما أن الله سبحانه وتعالى يشرح صدرك للهدى، فشرح الصدر، وبيان النبي، والتوفيق للعمل، وأن ترى الحوادث تؤكِّدُ ما في القرآن الكريم، أربع معانٍ في قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى (17))

من طلب الهدى أعطاه الله زيادة عليها:

على ضوء هذه الآية أرجو الإصغاء إليّ: أنت في طريق ووصلت إلى مفرق طرق، فهناك طريقان، وأنت تتجه إلى حمص، ولا تدري من أي طريقٍ تسلك، فرأيت إنسانًا سألته: من أين حمص ؟ قال لك: من هذا الطريق، قلت له: شكراً بارك الله بك، قال لك: انتبه يا أخي بعد حين هناك تحويلة، بعد حين آخر هناك ممر خطر، بعد حين ثالث يواجهك حاجز، أنت حينما سألته وأجابك، وشكرته زادك تفاصيل، هذا من باب التقريب، وأنت حينما طلبت الحق واهتديت إلى الله عزّ وجل فأعطاك تفاصيل كثيرة، كيف تعامل زوجتك، كيف تعامل أولادك، كيف تكسب رزقاً حلالاً، كيف تمضي وقت الفراغ، كيف تربي أولادك، زادهم هدىً، هذه الزيادة، طلبت الهُدى فأعطاك الله ما طلبت وزيادة.

من اختار الهدى شرح الله صدره بالإيمان:

إذاً المعاني الدقيقة لهذه الآية:

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى (17))

أولاً شرح الله صدورهم وهذا أكبر دعمٍ لهم، فالإنسان أحياناً ينقبض، ومن لوازم هذه الآية أن الإنسان لو اختار اختياراً سيئاً، لو اختار أن يعصي الله عزّ وجل يشعر بضيق، يشعر بقلق، بكآبة، هذه الكآبة من خلق الله عزّ وجل، فضيق القلب، وكآبة القلب، والشعور بالحرج حينما يقدم الإنسان على معصية، هذه معونة من الله لك إذ نَفَّرَكَ منها، أبعدك عنها، وحينما ينشرح صدرك، ويفرح قلبك، وتشعر بالانطلاق حينما تختار الهدى، فالله سبحانه وتعالى أعانك على ذلك..

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى (17))

النبي زاد الإنسان هدىً لأنه بيّن ما نزل في كتاب الله عزّ وجل:

حينما يبيّن لك النبي التفاصيل، فمثلاً أمرك الله بأداء الزكاة، والنبي بين لك بالأحاديث الشريفة أحكام الزكاة، تفاصيل الزكاة، زكاة العروض، زكاة النقدين، زكاة المواشي، زكاة الحلي، زكاة الركاز، النبي زادك هدىً لأنه بين ما نزل في كتاب الله عزّ وجل، وحينما توفق إلى العمل الصالح وتقطف ثماره يزيدك الله به هدىً، وحينما ترى المرابي وقد دُمِّرَ ماله، والله سبحانه وتعالى يقول مخوفًا من عاقبة الربا:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: آية " 279 ")

هذه الوقائع و الأحداث تزيدك هدىً، حينما ترى أن الذي يزني يُزنى به ولو بجداره فهذا مما يزيدك هدىً، حينما يعق الإنسان والديه ولا يوفق في حياته، فهذا كذلك يزيدك هدىً، فالحوادث تزيدك، والتطبيق حينما تطبّق تقطف ثمار الهدى، والنبي يبيّن، وشرح الصدر يدفع، هذا معنى:

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17))

الله عز وجل دلّ الإنسان على المنهج التفصيلي الذي ينبغي أن يسير عليه:

آتاهم المنهج التفصيلي الذي ينبغي أن يسيروا عليه، يعني بيّن لهم ما يتقون، لذلك قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: آية " 3 ")

ما من قضيةٍ متعلقةٍ بالدار الآخرة، متعلقةٍ باتصالك بالله عزّ وجل، متعلقةٍ بسبب وجودك في الأرض، متعلقةٍ بالهدف الكبير الذي خلقت من أجله، ما من قضيةٍ متعلقةٍ بهذه الموضوعات إلا وبينها الله عزّ وجل..

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: آية " 3 ")

العاقل من يحتاط لساعته و يعدّ لها العدة اللازمة:

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا (18))

وها نحن الآن بصدد الحديث عن الساعة: يعني أولاً هناك ساعتان، الساعة العُظْمى يوم القيامة، وساعة صغرى هي ساعة كل إنسان، فكل إنسان له ساعة، ساعةٌ خاصة وساعةٌ عامة، والأولى أن ينتبه الإنسان لساعته الخاصة، ساعة مغادرة الدنيا، والعاقل هو الذي يحتاط لهذه الساعة ويُعِدُّ لها كل شيء، يعد لها معرفة الله، يعد لها الاستقامة على أمره، يعد لها العمل الصالح.

ماذا ينتظر الإنسان من الدنيا ؟ هل ينتظر إلا:

1- الفقر المفاجئ:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا (18))

الناس في لهو، وفي غفلة، لكن لو أن واحداً منهم وهو منغمس في شهواته، في لقاءاته، في سهراته، في زياراته، في تمتعه بما حرّم الله، في كسبه للمال الحرام وهو منغمس وجاءته أزمةٌ في قلبه فجأةً، وأخذ إلى المستشفى، وشعر أنه على وشك مغادرة الدنيا، والله الذي لا إله إلا هو يشعر بآلام وبضيق لو وزّعَ على أهل بلدٍ لكفاهم.

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ (18))

ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا))

[سنن الترمذي: عن أبي هريرة]

فقر مفاجئ ممكن.

2 - الغنى المطغي:

((أَوْ غِنًى مُطْغِيًا))

والله لقد قال لي شخص يوماً: إنّ بيتي مساحته ألف متر مع الحدائق، ما دخل لبيتي حلويات إلا بالصواني، ولا دخل فواكه إلا بالصناديق، وعندي ثلاث سيارات، واحدة للسفر مريحة، وثانية للمدينة، وثالثة للمعمل، وذكر لي من دخله الكبير ومن ألوان حياته المترفة الشيء الكثير، ثم دارت الأيام فرأيته والله ينام في غرفةٍ قميئة ويأكل أكلاً خشناً لا يأكله معظم الناس، فقر مفاجئ، طبعاً هذا الغنى كان ببلد آخر، ثم أخرج بيومٍ واحد، وجاء إلى بلده لا يملك ولا ليرة واحدة، فأخذ غرفة صار يخيط فيها، فرأيت أن الفقر المفاجئ ممكن، هذا الفقر المفاجئ حذر منه رسول الله صلى الله عليه و سلم:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا))

ينسيك كل شيء.

((أوْ غِنًى مُطْغِيًا))

كنت مستقيماً لكنّ الغنى حملك على المعاصي كلها، هذا من البلاء، هذا من أكبر المصائب أن تكون ملتزماً فيأتي المال الكثير فيحملك على معصية الله عزّ وجل، هذا بلاء

دعوة النبي الكريم بأن من أحبه فليجعل الله رزقه كفافاً:

أنا مرة سألت إنسانًا قلت له: عدد لي المصائب، ذكر لي المرض والفقر والقهر والجوع، فقلت له: لكنك أكبر مصيبة لم تذكرها، قال لي: ما هي ؟ قلت له: الغنى المطغي إن هذا المال سبب الشقاء الأبدي، سبب دخول النار، لذلك النبي الكريم قال:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

وكلما قال لي إنسان: أنا دخلي الحمد لله كافيني، مستورة، أقول له: إذاً أصابتك دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، أنت ممن تحب رسول الله، إذاً أصابتك دعوة النبي، خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر، إذاً:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ (18))

3 ـ المرض المفسد:

((هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنىً مطغياً أو مرضاً مفسداً))

هناك أمراض تذهب بلذائذ الدنيا كلها، وأمراض تمنعك من لذائذ الطعام، وأمراض تمنعك من الأشياء التي يتمتع بها الفقير، كان في هذه البلدة قبل خمسين سنة والٍ، كان مركز الوالي بالمرجة التي فيها الآن

بائعو الحلويات، مرة دخل عليه مدير مكتبة فرآه مطلاً من نافذة غرفته.. وكان بالطابق الأرضي سجن.. والدمعة على خده، قال له: يا سيدي مالك ؟ قال: جاء إنسان ينتظر سجينه ليراه فلم يسمحوا له، فجلس على الأرض وتناول طعاماً بنَهَم، وأتمنى أن أكون مكانه على أن آكل هذا الطعام بهذا النَهَم، محروم من الأكل كله، فالنبي صلى الله عليه و سلم يقول:

((أو مرضاً مفسداً))

مرض يفسد الحياة كلها.

4 ـ الهرم المفند:

((أو هرماً مفنداً))

أي تضعف ملكاته، تضعف ذاكرته، يعيد القصة مئتين أو ثلاثمئة مرة في حياته، أهله يخرجون من جلدهم من قصصه، فقد حفظوها كلها، وذات مرة ذكر لي أخ قصة بينما كنت في أحد المساجد، وهي قصة مؤثرة وهو رجل يصلي بارك الله به، وبعد ثلاثة أيام أعادها علي ثم بعد جمعة أعادها مرة ثالثة، ورابعة، حفظتها غيباً بكل تفاصيلها، هذا الهرم المفند، يعيد القصة مئة مرة، ويصبح حُشرياً، وظله ثقيل، وينصرف الناس من حوله.

من كان تقياً متعه الله بسمعه و بصره و فؤاده إلى يوم مماته:

لذلك فالإنسان المؤمن يمتِّعُهُ الله بقوته وملكاته وعقله وذاكرته، وكذلك زرت إنسانًا أعرف أنه ما اقترف حراماً في حياته، ولا أكل درهماً حراماً، قال لي: والله أجريت تحليلات كلها مطمئنة عمره ستة وتسعون عاماً.. فكل التحاليل نتائجها سليمة، وذاكرته قوية، فالإنسان المستقيم جاء في وصفه من عاش تقياً عاش قوياً.

إذا كان دخله حلالاً، وأنفق المال وفق ما يرضي الله عزّ وجل يمتعه الله بسمعه وبصره وعقله وقوته ما أحياه، ويجعله الوارث له، كما قال النبي الكريم:

((اللهمّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا))

[سنن الترمذي: عن ابن عمر]

ذكر لي أخ أنّ أمه فقدت ملكاتها كلها، قال لي: نربطها، لأننا لو لم نربط يديها لأكلت من غائطها، وصلت إلى شيخوخة لا تحتمل، هذا يسمى أرذل العمر، أما المؤمن لكرامته على الله عزّ وجل تكون أجمل سنوات حياته في خريف عمره، يزداد عقله، ويزداد مكانة وعلماً وفهماً وهو في قلوب الآخرين،

الشباب كلهم مثل بعض، أما التفاوت فيبدو واضحاً في خريف العمر، أيام الشيخوخة، فالمؤمن حينما يكون في شبابه مستقيماً، يمتعه الله بسمعه وبصره وقوته ما أحياه.

5 ـ الموت المفاجئ:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ (18))

طبعاً:

((فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنىً مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً))

[سنن الترمذي: عن أبي هريرة]

يقول لك: بيتي ثمنه أربعون مليون، فلما توفي استقر بالقبر، أمعقول هذه النقلة المذهلة من قصر كل شيء فيه إلى حفرة صغيرة ؟ نعم معقول. وهذا هو مصيرنا جميعاً، لكن هذا القبر إما أن يغدو روضة من رياض الجنة أو حفرة من حُفَرِ النيران.

من أشراط الساعة بعثة النبي الكريم:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً (18))

أو أن الساعة التي وعد الله بها كل الخلائق كما قال عليه الصلاة والسلام:

((بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ يَعْنِي إِصْبَعَيْنِ))

[صحيح البخاري: عن أبي هريرة]

يعنى أنّ مجيء النبي عليه الصلاة والسلام من أحد أشراط الساعة، ما دام النبي قد جاء برسالته فالساعة قريبة..

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا (18))

من أشراطها بعثة النبي عليه الصلاة والسلام.

الإيمان قضية وقت لا قضية قبول أو رفض:

(فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18))

يعني كيف يتذكرون هذه الحقائق ومتى ؟ يتذكرون ؟ بعد أن جاءتهم الساعة ؟ كفرعون متى آمن ؟ بعد أن أدركه الغرق، فقال:

(آمَنْتُ بالذي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس)

فقال الله عزّ وجل:

(أَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس: آية " 91 ")

معنى ذلك أن الإيمان الذي يحدث عند الموت لا قيمة له ولا ينفع صاحبه بل يزيده ألماً وفجيعة، والإيمان قضية وقت لا قضية قبول أو رفض، أجل: قضية وقت حصراً لا قضية قبول أو رفض.

من أيقن بالساعة متأخراً ما نفعه يقينه أبداً:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلّا السّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18))

(فَأَنّى لَهُمْ (18))

أي كيف يتصرفون حينما تأتي ساعتهم ؟ إما أن تأتي ساعتهم، أو أن تأتي هذه الساعة، يوم القيامة، الطالب لما يقرع جرس الامتحان، ولم يكن درس من قبل، فماذا أفاده أنْ يؤمن أن هناك امتحانًا ؟ العبرة بالاستعداد له، لا باليقين أن هناك امتحان، لو كان طالب مشككًا بالامتحان ثم قرع جرس الامتحان، وأيقن أن هناك امتحان، فكونه ما درس ولا استعد لهذا الامتحان وقرع الجرس فلا يعني هذا شيئاً عنده، ولا ينفعه، ولا ينجّيه، هذا اليقين المتأخِّر لا قيمة له، فهو يقين متأخر دون أيّ عمل، لذلك:

(لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام: آية " 158 ")

من أتى أجله و هو منكر للإيمان خسر آخرته:

فالعبرة كما قلت وأقول دائماً وقد ذكرت هذه الفكر المرة تلو المرة: خيارك مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، لا تستطيع أن ترفض الإيمان حينما يأتي الأجل:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق: الآية "22")

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

(يَالَيْتَنِي اتّخَذْتُ مَعَ الرّسُولِ سَبِيلا(27)يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتّخِذْ فُلانًا خَلِيلا(28))

(سورة الفرقان)

(يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرّطْتُ فِي جَنْبِ اللّهِ)

(سورة الزمر: آية " 56 ")

الإيمان سيحصل، لكن ليس هناك عمل، كما لو أن طالباً عرف السؤال ولكنه لم يدرس ولم يستعد، خرج من الامتحان فتح الكتاب هذا هو الجواب، ما قيمة هذه المعرفة المتأخرة ؟ فالنتيجة صفر، والصفر خسار و بوار.

تذكر الإنسان لا ينفعه إذا جاء أجله:

(فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18))

يعني إذا جاءت الساعة فما قيمة هذا التذكر ؟ التذكر لا ينفعهم، فقد مضى وقت الاستعداد لهذا الامتحان، ولات حين مناص.

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

هذه الآية إن شاء الله لها تفاصيل في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (5-8): تفسيرالآيات 19 -23 ، لا إله إلأ الله أساس دعوة الأنبياء جميعا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-01-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الخامس من سورة محمدٍ صلى الله عليه وسلّم.

النشاط الفكري ميّز الإنسان عن سائر المخلوقات:

مع الآية التاسعة عشر وهي قوله تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

أولاً: العلم يقتضي النظر، التفكّر، التأمّل، البحث، الدرس، المتابعة، البحث عن الدليل، اعتماد التعليل، هذا هو العلم، لذلك عدّ العلماء هذه الآية أصلاً في رفض الاعتقاد تقليداً، من يعتقد تقليداً فإيمانه مرفوض، الإيمان المبنيّ على التقليد مرفوض بنصّ هذه الآية، فالله جلّ جلاله لم يقل للنبي عليه الصلاة والسلام: قل لا إله إلا الله، بل إنه قال: فاعلم.

والله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان قوّةً إدراكيّة، بهذه القوة الإدراكيّة يستطيع أن يَعْلم، يستطيع أن ينظر، يستطيع أن يتأمّل، أن يدرس، أن يبحث، أن يُعَلِّم، أن يبحث عن السبب، أن يربط الأسباب بالنتائج، هذا النشاط الفكري مما يتميّز به الإنسان، مما امتاز به الإنسان على سائر المخلوقات، ما أمرك أن تعلم إلا بعد أن أعطاك موجبات العلم، ما أمرك أن تعلم إلا بعد أن زوّدك بهذا العقل، أو ذاك الفكر،(فاعلم)، أما إذا قلنا لإنسان: افعل وهو يفعل ؛ فماذا يعني هذا الأمر ؟ يعني الثبات، إذا قلنا لمن لم يدرس: ادرس، أي عليه أن يدرس، أما إذا قلنا له وهو يدرس: ادرس، أي داوم على هذه الدراسة.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: آية لها عدة معان:

1- على الإنسان أن ينظر و يتأمل حتى يصل إلى يقين بأنه لا إله إلا الله:

المعنى الأول: يقتضي النظر والتأمّل إلى أن تصل إلى يقينٍ قطعيّ أنه لا إله إلا الله، أو إذا وُجِّه الأمر لمن يطبّق هذا الأمر فمعناه اثبت على هذا الأمر، وأيُّ أمرٍ موجّهٍ إلى النبي عليه الصلاة والسلام فهو موجّهٌ بالتبعيّة إلى أمّته صلى الله عليه وسلّم، إذاً نحن أيضاً مأمورون أن نعلم أنه لا إله إلا الله، ولكي

نعلم أنه لا إله إلا الله ينبغي أن نتفكّر في ملكوت السماوات والأرض، علينا أن نتفكّر في خلقه، وعلينا أن نتفكّر في أفعاله..

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

وعلينا أن نتدبّر آياته، فمن أجل أن تعرف الله بإمكانك أن تعرفه من خلال خلقه، ومن أفعاله، ومن كلامه.

2 ـ هذه الآية جمعت إلى اليقين الاستدلالي اليقين الإخباري:

شيءٌ آخر:

(فَاعْلَمْ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا اللّهُ (19))

ما وصلتَ إليه بالاستدلال، فالآن جاءك بالخبر اليقيني، أنت بحثت، ودرست، وتأمّلت، وتفكّرت إلى أن وصلت إلى أنه لا إله إلا الله استنباطاً، ثم أخبرك الله أنه لا إله إلا الله يقيناً، فقد جمعت إلى اليقين الاستدلالي اليقين الإخباري، هذا شرح و إيضاح لكلمة:

(فَاعْلَمْ (19))

والأمر في القرآن يقتضي الوجوب، أي من الخطأ الفادح أن يتصوّر الإنسان أن أوامر الله لا تزيد عن الصلاة والصيام والحج والزكاة، أيُّ أمرٍ في كتاب الله يقتضي الوجوب، أنت أمام منهج كامل، بل إن العبادات التعامليّة والعبادات العلمية هي أخطر بكثير من العبادات التَعَبُّديّة، أي أنه أمرك أن تفكِّر، أمَرك أن تؤمن، أمَرك أن تعتقد اعتقاداً صحيحاً، أمَرك أن تعامل الناس بالصدق والأمانة، هذه العبادات التعاملية مع العبادات العِلْمِيّة أهمُّ من العبادات الشعائريّة..

(فَاعْلَمْ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا اللّهُ (19))

لا إله إلا الله فحوى دعوة الأنبياء جميعاً :

العلم يحتاج إلى أن تقتطع من وقتك وقتاً تتعرّف فيه إلى الله عزّ وجل، أما أن يقول الإنسان: ليس عندي وقت، هذا عذرٌ أقبح من ذنبٍ، وهو مردود على صاحبه، أنت خُلِقْتَ من أجل أن تعرف الله، والله سبحانه وتعالى أعطاك كل المؤهّلات وكل الإمكانات وأمرك أن تعلم، والعلم يقتضي النظر، يقتضي التأمّل، يقتضي التفكّر، يقتضي البحث، يقتضي البحث عن الأسباب، يقتضي الموازنة، يقتضي ربط الأسباب بالنتائج، يقتضي البحث عن الدليل، يقتضي التعليل، إلى أن تستيقن أنه لا إله إلا الله، فهذه

الكلمة هي الدين كلّه، بل هي فحوى دعوة الأنبياء جميعاً، إذا أردت أن تضغط الدين كلّه في كلمات قل: (لا إله إلا الله).

الله عز وجل هو المعبود الوحيد الذي يستحق العبادة:

(الإله) هو المعبود الذي يستحقّ العبادة، كلمة معبود أي يستحق العبادة، ومن الذي يستحق العبادة ؟ هو الذي خَلَق، وهو الذي أمَدّ، وهو الذي ربّى، وهو الذي سيّر، وهو الذي يرزق، وهو الذي يحيي، هو الذي يميت، هو المعطي، هو المانع، هو الخافض، هو الرافع، هو المعز، هو المذل، هو الذي بيده الأمر كله، بيده ملكوت السماوات والأرض، بيده الخلق والأمر، هو الذي لا يُسأل عما يفعل، فليس من شأن الألوهيّة أن يُسأل..

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية " 84 ")

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: آية " 41 ")

أي إذا بحثت عن الآيات القرآنية التي تتحدّث عن الله عزّ وجل ملخّصها:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

الإله الذي يستحق العبادة، وهل يستحق العبادة من لا يخلُق ؟ هل يستحق العبادة من لا يرزُق ؟ هل يستحق العبادة من لا يحيي ولا يميت ؟ هل يستحق العبادة من لا يعلم ؟ هل يستحق العبادة من لا يرحم؟ هل يستحق العبادة من لا يعفو ؟ لا تجدُ جهةً مؤهّلةً أن تعبدها إلا الله..

3 ـ العلم هو الخطوة الأولى إلى أية مَكْرُمَةٍ:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

والعلماء استنبطوا من هذه الآية أن العبادة العلمية تسبق العبادة العمليّة، أنت لا تعمل أو لا يصح عملك إن لم تعلم، لذلك العلم هو الخطوة الأولى إلى أية مَكْرُمَةٍ، إلى أي كسبٍ حقيقي في الدين، الخطوة الأولى العلم، ينبغي أن تعلم، لذلك حينما نُعَطِّل الجانب العلمي في الإنسان عطّلنا فيه إنسانيّته، لو حذفت العلم وموجبات العلم لرأيت الإنسان يستوي مع الحيوان في كل نشاطات حياته ؛ من طعامٍ وشرابٍ، ونومٍ، وعملٍ، وزواجٍ، تستوي مع بقية المخلوقات لو ألغيت العلم، أما بالعلم فتتميز عليها جميعاً..

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

إنك إن علمت أنه لا إله إلا الله توجّهت إليه وحده، وهذا هو سر كلمة (فاعلم)

التوحيد أساس سعادة الإنسان في الدنيا و الآخرة:

أضرب المثل الثاني مرّة ثانية، بل لقد ذكرته كثيراً: أنت تدخل في بناء مؤلّف من عشرة طوابق، في كل طابق عشر غرف، في كل غرفة خمسة موظّفين، عشرة طوابق، في كل هذا البناء إنسان واحد مُخَوّل أن يعطيك الموافقة على السفر، واحد فقط، إذا أيقنت أن هناك واحداً هو الذي يوافق ؛ فهل يمكن أن تقف أمام موظّف وأن تبذل ماء وجهك أمامه ؟ أو أن ترجوه ؟ أو أن تستعطفه ؟ أو أن تقدّم له هديّةً، وأنت تعلم أن الذي يوقِّع على إذن السفر هو مدير هذه الدائرة ؟ لماذا أمرك الله أن توحده ؟ من أجل أن تتجه إليه وحده، وهيّأ لك أسباب السعادة من أجل أن تسعد، فغير الله عزّ وجل لا يُسعِد ولو كان كبيراً، ولو كان غنياً، ولو كان قوياً لا يُسعِد، أمرك أن توحِّد الألوهية من أجل أن توحِّد الوجهة، من أجل أن تسعد، من أجل أن تحقق سرّ وجودك في الأرض وإلى أبد الآبدين، لذلك قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

العلم بـلا إله إلا الله أساس كل سعادة و انضباط:

العلم يقتضي التفكّر في الكون، والعلم يقتضي النظر في أفعال الله عزّ وجل، والعلم يقتضي تدبُّر آيات القرآن الكريم، هكذا يقتضي العلم، لذلك إنسان ليس له مجلس علم، وما له منهل علمي، ما له مرجع علمي، ما له مسجد يأوي إليه، فهذا إنسان ضائع، شارد، هالك لأنه من دون مصدر علمي، من دون منهل علمي، من دون موجّه، من دون مرجع يضل ويفعل أفعالاً سيّئة، يتحرّك حركة عشوائيّة، يقترف الحرام وهو لا يدري، يأخذ ما ليس له وهو لا يدري، يمشي في طريقٍ مسدود وهو لا يدري، يتيه في هذه الدنيا وهو لا يدري، تتنازعه الأهواء، تمزّقه الشهوات، تحطِّمه الكآبة، لذلك فالله عزّ وجل أمرنا أن نعلم..

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

لأن العلم بـ:"لا إله إلا الله" أساس كل سعادة، أساس كل انضباط، أساس كل وجهةٍ إلى الله عزّ وجل..

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

ورد في بعض الأحاديث:

((لا إله إلا الله حصني، من دخلها أمن من عذابي))

[ورد في الأثر]

ورد أيضاً:

((لا إله إلا الله لا يسبقها عمل - لأنه لا شرك - ولا تتركُ ذنباً))

[أخرجه ابن ماجه عن أم هانئ]

من ألغى العلم من حياته ألغى وجوده الإنساني:

تصوّر أنك في مكان مع إنسان عظيم من البشر فهل بإمكانك أن تتبدّل في ثيابك أمامه ؟ لا يمكن، هل بإمكانك أن تلفظ كلمةً بذيئةً ؟ لا يمكن، فشعورك أنه يعلم وأنه معك في مجلس واحد يجعلك تنضبط، لذلك إذا علِمتَ أنه لا إله إلا الله كانت لك حصنًا، إخواننا كلمة لا إله إلا الله تُقال سريعاً لكن ترجمتها تحتاج إلى سنوات، إلى جهدٍ جهيد، لا تظن أن تنال الجنّة بركيعات تركعها ودريهمات تنفقها، الجنّة أعظم من ذلك، أعظم بكثير، الجنة تحتاج إلى طلب العلم، إلى جلوس على الركب في المساجد، إلى سنوات لأن سلعة الله غالية.

يعني بنظام الحياة الدنيا هل تجد إنسانًا يُقال له: دكتور، أو يضع حرف الدال قبل اسمه قبل دراسة خمسة وثلاثين سنة ؟ كي يُقال له: دكتور أو يُقال له السيد فلان، أو الأستاذ، أو المهندس، هناك إنسان قد يصل إلى مرتبة علميّة في الدنيا أن تغنيه شيئاً، وقد لا يكفي دخل هذه الشهادة خمسة أيام من الشهر، ومع ذلك هذا اللقب العلمي يحتاج إلى سنوات طويلة من الدراسة، والإنسان يطمع أن يدخل الجنّة، أن يكون مؤمناً وهذا أعلى لقب علمي، أعلى لقب أخلاقي، أعلى لقب جمالي، أفيطمع أحد أن يكون مؤمناً من دون أن يفرّغ من وقته وقتاً يطلب فيه العلم ؟ ينهل فيه من مناهل المعرفة ؟ لذلك كل إنسان يلغي من حياته العلم أو طلب العلم فأنا أقول لكم: إنه يلغي وجوده الإنساني..

الإيمان المطلوب هو الإيمان بلا إله إلا الله:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

إذا كان هذا الأمر موجّهاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا اليقين الإخباري المتطابق مع اليقين الاستدلالي، أو إذا أردنا أن نعمِّم هذا الأمر إلى أمّة محمد صلى الله عليه وسلّم.. أمة التبليغ فهذا يعني أنّ على كل مؤمنٍ أن يبذل جهداً واضحاً في معرفة أنه **"لا إله إلا الله".**

أيها الأخوة الكرام... لا ينبغي أن يغترّ الإنسان أو أن يتوهّم أنه مؤمنٌ بأن يقول إن لهذا الكون إلهاً، فهذه الحقيقة ما أنكرها أحد إلا قلّةٌ قليلةٌ جداً من المرضى..

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

(سورة لقمان: آية " 25 ")

لو سألت أهل الدنيا، سكّان القارّات الخمس من خلق الكون ؟ لقالوا: الله، وماذا عن بوذا ؟ قالوا: هذا نتقرّب به إلى الله..

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر: آية " 3 ")

فأن تعتقد أن لهذا الكون خالقاً فهذا إيمان لا أحد يُنكره أولاً، ولا يرقى بك ثانياً، ولا يمنعك من المعاصي ثالثاً، ولا يسمو بروحك إلى الله عزّ وجل، لكن الإيمان المطلوب هو الإيمان بـ: **"لا إله إلا الله"**.

العبادة هي خلاصة الطاعة و الحب و الاستسلام لله عز وجل:

توحيد الربوبيّة أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً واحداً، لكنّ توحيد الألوهيّة أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً هو المسير لكل شؤونه، هو المستحق للعبادة، العبادة أن تتجه إلى جهةٍ ما، أن تمحضها ودّك، أن تمحضها حبّك، أن تمحضها طاعتك، هذه العبادة، أي أن خلاصة الطاعة، وخلاصة الحب، وخلاصة الاستسلام، وخلاصة الانصياع هي العبادة، فلذلك إن علمت أنه لا إله إلا الله، لا مسيّر لهذا الكون إلا الله عبدته، فإذا عبدته سعدت بقربه، أي أن الدين علم وسلوك وسعادة، جانب عقلي، جانب عملي، جانب جمالي، الجمالي هو الهدف..

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

الجانب الجمالي، فالثمن السلوك، والسبب المعرفة، سبب وثمن ونتيجة، أنت إذًا تعرفه، فتطيعه، ثم تسعد به ؛ هذا هو الدين..

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (19))

النبي عليه الصلاة والسلام معصوم عصمة تامة لأنه مشرّع:

في الآية نقطة لغوية دقيقة جداً، هذه النقطة إعادة الجار، تقول مثلاً: أمسكت بالقلم والدفتر، ولكن أمسكت بالقلم وبالدفتر فهذا يقتضي معنى آخر، فرقٌ كبير بين أن تقول: أمسكت بالقلم والدفتر، أي أنك عطفت المجرور الثاني على الأول، أما إذا قلت: أمسكت بالقلم وبالدفتر هنا المجروران اختلفا، العمل اختلف والاسم اختلف، فإذا قال الله عزّ وجل: يا محمد استغفر لذنبك ويا أيها المؤمنون استغفروا لذنوبكم، معنى ذلك أن استغفار النبي غير استغفار المؤمنين، وأن ذنب النبي غير ذنب المؤمنين، إعادة الجار يعني التمايز بين المجرورين، فالنبي عليه الصلاة والسلام يستغفر لئلا يقع في الذنب، إن صحّ التعبير هو استغفارٌ وقائي، يستغفر لكي لا يُذْنِب، فلئلا يُذْنِب يستغفر، فالنبي عليه الصلاة والسلام كما هو ثابتٌ في علم العقيدة معصومٌ قبل النبوّة وبعد النبوّة من الصغائر والكبائر، من الأقوال والأفعال

والأحوال، عصمةٌ تامّةٌ مطلقة، الله سبحانه وتعالى يعصم الأنبياء لأنهم مشرّعون، لو أنه تطرّق إلى اعتقادنا أن النبي عليه الصلاة والسلام قد يُخطئ شككنا في كل سنّته، معصومٌ عن أن يُخْطِئ في أقواله وفي أفعاله وفي أحواله، لا قبل النبوّة ولا بعدها، لا في الكبائر ولا في الصغائر، فالنبي معصوم، إذاً استغفار النبي من طبيعةٍ غير طبيعة استغفار المؤمنين، النبي يستغفر لئلا يُخطئ، يستغفر لئلا يقع في الذنب، استغفاره وقائي..

استغفار المؤمنين غير استغفار النبي الكريم:

لو كان إنسان يمشي في طريق غير ممهد و لا معبّد، وفيه حفر، فإذا وقع في حفرةٍ نهض منها، هذا شأن المؤمن إذا وقع في حفرةٍ نهض منها، لكن الذي يطلق مصباحاً متألِّقاً كشّافاً يضيء طريقه، فهذا لا يقع في الحفرة لأنه رآها قبل أن يقع بها، فالأول يتقي الحفر بالخروج منها، والثاني يتقي الحفر بعدم الوقوع فيها.. فاستغفار النبي شيء، واستغفار المؤمنين شيءٌ آخر، المؤمن قد يقع في الذنب ثم يستغفر، لكن:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (19))

بعضهم قال: " إذا كان للنبي صلى الله عليه وسلّم ذنبٌ فهو ترك الأولى "، هكذا قال بعض المفسّرين، لكن الأصح أن استغفار النبي عليه الصلاة والسلام استغفارٌ وقائي، أي أنه يتصل بالله ليتألّق مصباحه ليرى كل شيءٍ أمامه فلا يقع في ذنب، أما المؤمن يقع في الذنب فيستغفر فيغفر الله له، لذلك فالجار عندما تتذكر:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (19))

فهذه اللام حرف جر تكرر في كلمة:

(وَلِلْمُؤْمِنِينَ (19))

مما يعني أن استغفار المؤمنين غير استغفار النبي، وطبيعة ذنب المؤمنين غير طبيعة ذنب النبي عليه الصلاة والسلام..

تقلب الإنسان في أحواله ثم استقراره على حال معين:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ (19))

بعضهم قال: **" إذا كان للنبي صلى الله عليه وسلّم ذنب فذنبه أنه كلّما أقبل على الله عزّ وجل عرف من كمالاته وأسمائه الحسنى ما لم يعرفه من قبل، فيشعر بالذنب لمعرفته الأدنى و الأقل التي كانت**

قبل معرفته الجديدة " إنسان أنت ظننت أن معه ليسانس فرضاً ثم اكتشفت أن معه دكتوراه، فأنت تشعر أنك لم تقدره حقّ قدره في النظرة الأولى، لعلّ هذا أيضاً مما يُفَسّر به ذنب النبي عليه الصلاة والسلام، فهو يقبل على الله بشكلٍ مستمر وكلّما أقْبَلَ عليه رأى من كماله ما لم يرَه من قبل..

(وَاللّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

الإنسان يتقلّب في أحواله ثم يستقر على حال، أو يتقلّب في النهار من نشاطٍ إلى نشاط ثم يثوي في الليل، أو يتقلّب في الدنيا من عملٍ إلى عمل ثم يثوي في الآخرة إمّا في الجنّة أو في النار، التقلّب هو الحركة، والثناء هو الاستقرار، فالله سبحانه وتعالى يعلم متقلّبنا ومثوانا، لعلّ الله سبحانه وتعالى يرى أن هذا الإنسان في حيرة، وفي حركة عشوائيّة، لكن الله يعلم فيه الخير إذاً يمهله إلى أن يثوي إلى طاعة الله، ولعلّ هذا المنافق يعلم اللهُ جلّ جلاله أنه يتحرّك ليرضي المؤمنين لكنّه ليس مؤمناً، له مصالح مع المؤمنين، فيعمل بعمل أهل الجنة لكنه ربّما استقر على غير ذلك، إذاً التقلّب: الحركة، أما مثواكم.. فالثوي: الاستقرار.. فالله عزّ وجل يعلم حاضركم ومستقبلكم، يعلم الحركة الظاهرة والحال العميق، يعلم حالكم في الدنيا وحالكم في الآخرة، فهي كلمة شموليّة..

(وَاللّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

الله عز وجل عليم بظاهر الإنسان و باطنه:

بعض الناس مثلاً يعمل في التجارة وفي الوظيفة ويسافر، ثم يستقر على عمل معين، فتوجد حركة استكشافيّة ثم هناك استقرار، قد تكون الدنيا للحركة والآخرة فيها الاستقرار، يعلم ما تفعلون في الدنيا ويعلم ما أنتم عليه في الآخرة، يعلم ما تفعلونه في النهار وما تستقرّون عليه في الليل، الإنسان له جلوة وله خلوة، في الجلوة متقلّبكم، وفي الخلوة مثواكم.

إنّ معنى الآية: أنه يعلم ما تفعلونه في النهار، وما تقولونه، وما تدّعونه، وما تفتخرون به، ويعلم ما أنتم عليه في الليل، هل أنتم في مستوى هذه الدعوى، أم أنّ أحوالكم في الليل غير أحوالكم في النهار ؟..

(يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

يعلم ما أنتم عليه في الدنيا وما أنتم عليه في الآخرة، يعلم ظاهركم ويعلم باطنكم، أي أنّ الآية شموليّة يطبق عليها معانٍ كثيرة..

(يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

الله عز وجل يعلم بتصرف الإنسان و استقراره:

هناك آية تؤكّد هذا المعنى وهي:

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(216)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(217)الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218)وَتَقَلُّبَكَ فِي لسَّاجِدِينَ(219))

(سورة الشعراء)

لعلّ التقلّب التصرُّف، فالإنسان قد ينتقل من حالٍ إلى حال، من يقين إلى يقين، من عمل إلى عمل، من درجة إلى درجة، من رقي إلى رقي، هذا التقلّب، التقلّب في مدارج الآخرة، في مدارج السالكين، أو التقلّب في دركات الضالّين، التطور نحو الأعلى أو نحو الأسفل، ويعلم الله عزّ وجل أين يستقر هذا الإنسان، في أي مكان يستقر، أو إلى أية دركة من دركات النار يهوي، ثم يستقر..

تشوق المؤمنين إلى القتال و خوف المنافقين منه:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ (20))

يعني سورةٌ تدعو إلى الجهاد، قال:

(فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (20))

المنافقون هم مع المؤمنين في صلواتهم، في صيامهم، في احتفالاتهم، أما في الجهاد والقتال هم ليسوا معهم، ترتعد فرائصهم، تخور قلوبهم، تضعف عزيمتهم، قال:

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ (20))

المؤمنون يدعون إلى القتال، إلى الجهاد، طبعاً لإيمانهم ولتشوقهم للبذل في سبيل الله ويلبون النداء.

آيات الله محكمة لا جدل فيها:

قال:

(فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ (20))

(محكمةٌ) أيْ واضحةٌ لا تحتاج إلى تفسير، ومن رحمة الله بنا أن الآيات التي تتعلّق بالحرام والحلال وبأصول العقيدة آياتٌ محكمة لا تحتاج إلى تفسير، واضحة لا تحتاج برهانًا، ليست موضع جدل، ولا موضع اجتهاد، ولا موضع تردّد، الآيات المحكمات واضحاتٌ جَلِيّات، قال:

(فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (20))

هؤلاء المنافقون، في آية أخرى قال الله عزّ وجل فيهم:

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(8)يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(9)فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا)

(سورة البقرة)

إذاً هذا المُصطلح في القرآن يعني المنافقين.

خوف المنافقين من القتال و ارتعاد أوصالهم عند ذكره:

قال سبحانه: أي رأيت المنافقين..

(رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ (20))

بخوفٍ شديد، بفزع، بانهيار نفسي..

(نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (20))

خافوا على هذه الحياة الدنيا أن تنقطع، خافوا أن يموتوا..

(فَأَوْلَى لَهُمْ (20))

أن يتوبوا إلى الله، والحقيقة هذا مقياس دقيق جداً..

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(6))

(سورة الجمعة)

علامة صحّة العمل عدم الخوف من الموت:

علامة المؤمن الصادق أنه يرجو لقاء الله، أو يشتاق إلى لقاء الله عزّ وجل، أما إذا أراد الحياة الدنيا فإنما يريدها ليزداد عمله، لأن النبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق يقول:

((خيركم من طال عمره وحسُن عمله))

[ورد في الأثر]

فلا يرغب المؤمن في الحياة إلا ابتغاء أن يزداد عمله الصالح، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يعلِّمنا ويقول:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي))

[صحيح البخاري: عن أنس بن مالك]

إلا أن الذين ابتعدوا عن ربهم وعصوا أمره لا شيء يخيفهم كالموت، والتفكّر في الموت مقياس دقيق، فالإنسان إذا خاف من الموت خوفاً مَرَضياً فهذه علامةٌ ليست طيّبة، أما إذا تصوّر الموت ولم ير فيه ما ينخلع له قلبه فهذه علامة طيّبة، لأن علامة صحّة العمل عدم الخوف من الموت، لكن علامة الانحراف وأكل أموال الناس بالباطل، والعدوان على الناس وظلمهم فهذه علامتها الخوف من الموت..

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ)

(سورة البقرة: آية " 96 ")

ترحيب المؤمن بالموت و خوف المنافق منه:

(رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (20))

والحقيقة أن الإنسان عندما يخوض غمار حربٍ.. مثلاً.. فالمؤمن يرحِّب بلقاء الله عزّ وجل، تظهر منه شجاعة، شيءٌ لا يُصَدّق، قد تكون فئة قليلة جداً تنقضُّ عليها فئةٌ كبيرةٌ كبيرة وتبقى أسابيع عدة دون أن تصل إلى مرادها، السبب أن المؤمن يُرَحِّب بالموت فيصبح شجاعاً، بينما غير المؤمن يشل الموت حركته، ينهار من فزعه...

أفضل شيء للإنسان أن يتجه إلى طاعة الله و طلب جنته:

(فَأَوْلَى لَهُمْ (20))

هذه الكلمة لها تفاسير كثيرة، من أوجه تفسيراتها: أولى لهم أن يطيعوا الله، أولى لهم أن يتوبوا إليه، أولى لهم أن يقبلوا عليه، أولى لهم أن يتجهوا إلى الآخرة، أولى لهم..

(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى(34))

(سورة القيامة)

الأولى أيْ الأفضل، الأحسن، الأكمل، الذي يليق بك أن تفعل كذا وكذا..

(فَأَوْلَى لَهُمْ (20))

أيْ أولى لهم أن يطيعوا الله عزّ وجل، أولى لهم أن يؤمنوا، أولى لهم أن يُخلِصوا، أولى لهم أن يتوبوا..

الأوْلى بالإنسان أن يكون عمله طاعة وقوله حقاً:

(فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ (21))

أيْ أنّ الأوْلى بالإنسان والذي يليق به أن يكون عمله طاعة وأن يكون قوله حقًا، فأنت سلوك وعندك كلام..

(طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ (21))

القول المعروف هو القول الحق، والطاعة هي طاعة الله عزّ وجل..

(طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ (21))

هذا أولى لهم، أولى لهم أن يطيعوا، وأولى لهم أن ينطقوا بالحق..

من آثر الآخرة على الدنيا ربح الدنيا والآخرة معاً:

(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ (21))

أيْ إذا جاء وقت الشدّة، وجاء وقت اللقاء مع العدو..

(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21))

صدقوا الله في بذل أنفسهم..

(صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ)

(سورة الأحزاب: آية " 23 ")

لماذا رضي الله عن المؤمنين ؟ قال: لأنهم بايعوا النبي صلى الله عليه وسلّم على الموت تحت الشجرة، إذا قلنا للصحابة **"رضي الله عنهم"** فهذه عبارةٌ تقريرية، أما إذا قلنا عن عالمٍ جليل: **"رضي الله عنه"** فهذه عبارةٌ دُعائيّة، وفرقٌ كبير بين التقرير وبين الدعاء..

(طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ (21))

أيْ أوْلى لهم أن يطيعوا وأن ينطقوا بالحق..

من صدق في نشر كلمة الحق ربح الدنيا و الآخرة:

(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21))

وهذا معناه أن الإنسان دائماً إذا آثر الآخرة على الدنيا ربح الدنيا والآخرة، وأنه إذا آثر الدنيا على الآخرة خسر الآخرة والدنيا، فليس هناك حل وسط، إما أن تربحهما معاً، وإما أن تخسرهما معاً، والإنسان ربما كانت نيّته أفضل من عمله..

(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ (21))

مَعَ بذل نفوسهم ربما ينتصرون فيعيشون حياةً مديدةً في عزّ كريم، الله عزّ وجل قال:

(وَيَنْصُرَكَ اللّهُ نَصْرًا عَزِيزًا(3))

(سورة الفتح)

النصر العزيز مفرح، والله عزّ وجل قال:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(4)بِنَصْرِ اللّهِ)

(سورة الروم)

فعندما يبذل الإنسانُ حياته من أجل نشر كلمة الحق فقد كسب حياته وكسب آخرته، والإنسان حينما يضنُّ بحياته من أجل نشر الحق خسر حياته وخسر آخرته، والقضيَّة معادلة صعبة إما أن تربحهما معاً وإما أن تخسرهما معاً، إذاً علينا بالصدق..

من أحبّ دنياه دفع آخرته ثمناً لها:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ (22))

أيْ في الأرض..

(أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22))

الإنسان حينما يتولّى أمر الناس إما أن يصلحهم وإما أن يفسدهم، لعلّه يفسدهم بالمعصية، يفسدهم حينما يظلمهم، يفسدهم حينما يسمح لبعضهم أن يتكلّم على بعض، أفسدهم جميعاً، يفسدهم إذا أصغى لأحدٍ وأصمّ أذنه عن الآخر، يفسدهم إذا فرّق بينهم، يفسدهم إذا قرّب بعضهم وأبعد بعضهم الآخر، يفسدهم إذا ميّز بينهم، يفسدهم إذا ظلمهم، يفسدهم إذا اهتم بدنياهم ولم يهتمّ بآخرتهم، بل إن بعضهم يرى أن في فساد الناس مصلحةً له، فلذلك:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22))

والإنسان أحياناً من أجل مصالحه يُضَحِّي بكل علاقاته، والدنيا إذا أحبّها الإنسان حبّاً جمّاً دفع ثمنها باهظاً، دفع آخرته ثمنها، ودفع علاقاته مع أقربائه، ودفع مبادئه ثمناً لدنياه.

من ولّي أمر الناس و لم يحطهم بنصحه حرم الله عليه الجنة:

قال:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22))

طبعاً أن يتولّى الإنسان أمر الناس هذه أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من رحم الله، أن يتولّى الناس أمر عشرة هي أمانة وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من رحِمَ الله، فالإنسان إذا تولّى أمر عشرة فلم يحطها بنصحه حرّم الله عليه الجنّة يوم القيامة..

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22))

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (22))

من عامل الناس بمكيالين فقد أفسدهم:

تصوَّر رئيس دائرة.. مثلاً.. عنده عشرة موظّفين إذا قرَّب الأغنياء وأبعد الفقراء فقد أفسدهم، إذا أصغى إلى وشاية بعضهم ولم يتحقّق من الأمر فقد أفسدهم جميعاً، إذا ظلمهم فقد أفسدهم، إذا ضَيَّق عليهم فقد أفسدهم، إذا توهَّم أن مصلحته في فساد دينهم فدعاهم إلى الفساد كي يُحْكِمَ عليهم قبضته فقد أفسدهم، فالإفساد هو إخراج الشيء عن طبيعته، فالإنسان مفطور فطرة عالية فإذا رسَّخت فيه الفضيلة، والصدق والأمانة، والرحمة والعدل فقد حافظت على البُنْيَة العالية، حافظت على طبيعة الإنسان، أما إذا قرَّبت المنافق وأبعدت الصادق، وإذا نصحك شخص أبعدته، وإن نافق لك آخر قرَّبته، قرَّبت الغني وأبعدت الفقير، أخذت من هذا وأعطيت لهذا، هذا ظلمته وهذا أكرمته فقد أفسدتهم، فالإنسان أحياناً يُمْتَحَن، يتولّى إدارة ما كمدير مدرسة مثلاً، رئيس مستشفى، رئيس دائرة عنده عشرة موظّفين أو أكثر فإذا حابى بعضهم وعاملهم بمكيالين فقد أفسدهم، قرَّب من يلوذ به فقد أفسدهم، قرَّب الأغنياء أفسدهم، وهذا هو المعنى:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22)

الإنسان بُنْيان الله وملعونٌ من هدم بنيان الله:

لذلك إذا انتقى الإنسان.. لو أنه مُعَلِّم ابتدائي انتقى عَرّيفًا وفي هذا الصف من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله.. يجب أن تختار إنسانًا مناسباً، تختار الكفء، المخلص، وأن تجعل هناك مقياساً دقيقًا، فإياكم أن تفعلوا السوء والزيغ، قال تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف)

فالحذر من الزلل.

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22))

والإنسان بُنْيان الله، وملعونٌ من هدم بنيان الله، هذا الإنسان إذا خوّفته، أو إذا أفقرته، أو إذا أحوجت المرأة أن تأكل بثدييها فقد أفسدتها، إذا ضيّقت على الإنسان حتى اضطر إلى أن يأكل المال الحرام فقد أفسدته، من الذي جعله يأكل المال الحرام ؟ الذي ضيّق عليه، إذاً الإفساد واسع جداً، فخلاصة الإفساد:

أن تخرجه عن طبيعته، الإنسان ينبغي أن يكون أميناً جعلته يخون من أجل أن يأكل، ينبغي أن يكون صادقاً فجعلته يكذب، ينبغي أن يكون عفيفاً فجعلته يزني، طبعاً طريق الزواج طويل جداً في أيامنا هذه، فحملت الشاب على أن يزني، أفسدناه نحن، حينما وضعنا العراقيل أمام زواج الشباب أفسدنا الشباب، فهذه أمور مخيفة، المفروض أن نعمل في بناء الإنسان لا في هدمه، واذكر أخي المؤمن أنّ الإنسان بنيان الله وملعونٌ من هدم بنيان الله، تخِوّفُ إنسانًا، وتضطره إلى أضيق السبل، تدفعه إلى القبائح والرذائل كالسرقة مثلاً، فعندما تنشأ بطالة تنشأ معها سرقات وجرائم، خط الجريمة يصعد مع البطالة، كذلك إذا سمحنا ببرامج داعرة مثلاً..فقد يقع الأخ على أخته، قد يقع زنا المحارم الذي لا يمكن لإنسان أن يتصوّره، وهذا يقع، إذا سمحنا بأيّ شيء يُفْسِد الأخلاق فقد عملنا على إفساده، وهدمنا بنيان الله تعالى في شخص الإنسان التائه.

من أخرج الإنسان عن طبيعته الخيّرة ساهم في انتشار الفساد:

هذه آية واسعة المعاني، ولذلك عندما تجد أن هناك قوانين صارمة جداً تكافح المخدّرات فعليك أن ترتاح لها، فالذي يتاجر بالمخدّرات في القانون الجديد يُعدم إن الله يزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن.. والآن هناك مخدِّرات: شمّة واحدة صار المرء مدمنًا، وبالإدمان انتهى الإنسان خلقاً و ديناً و مواطنة، من يشقى به ؟ أبوه وأمه يشقيان به، فمع هدمه فرداً هُدمت أسرة، وهذا هو الفساد، الفساد أن تُخْرِجَ الإنسان عن طبيعته الخيّرة.

عندما ترى فتاة.. مثلاً.. تخاف من الله، تؤدي صلواتها، تستحي هكذا طبيعة الفتاة كما أرادها الله، أما إذا دفعتها إلى الاختلاط مع الرجال، دفعتها إلى الاحتكاك معهم فأصبحت مسترجلة، وأصبحت جريئة بوقاحة، وأصبحت تتساهل في أمر دينها، أصبحت مثار فتنة، فقد أفسدتها وأفسدت من حولها وأنت لا تدري.

فالماء مثلاً لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، فإذا كان تعكر أفسدته، صار له رائحة نتن أفسدته، صار ذا له طعم قبيح أفسدته..هذه صورة مبسطة للفساد، فالإنسان ينبغي أن يكون صادقاً، أميناً، عفيفاً، بريئاً، محبّاً، منصفاً، فحينما تسهم في إفساد هذه البُنْيَة النفسية فهذا عمل خطير.

القتل عاقبة المفسد في الأرض:

لذلك:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا)

(سورة المائدة: آية " 33 ")

الإنسان الذي يقترف مثلاً جرائم هذا ينبغي أن يُعَاقَب عقاباً شديداً، المواطن يرتاح عندما يجد الأمن مستتباً، هذه من نعم الله العُظمى.. إن الله يزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن..

من لوازم اختيار الشهوة فقدان الرؤية الصحيحة و عدم الإصغاء للحق:

قال:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ)

أيْ أنّ هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض..

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23))

هؤلاء يفسدون وهم في حالة عمى، أيْ أنهم اختاروا الشهوة.. من لوازم اختيار الشهوة أن الشهوة كانت كالوقر في آذانهم، وكالغِشاوة على أعينهم ففقدوا أبصارهم، فقدوا رؤيتهم الصحيحة، وفقدوا إصغاءهم للحق..

أساس الدين أن تتقرب إلى الله بخدمة عباده لا بإفسادهم:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (23))

لعنهم عندما أفسدوا عباد الله، فأساس الدين أن تتقرّب إلى الله بخدمة عباده، بإكرامهم، بالإحسان إليهم، بإنصافهم، بمسح جراحاتهم، بمسح دموعهم، هذا الأساس، أصل التقرُّب إلى الله خدمة العباد، وكل إنسان يفسد إنسانًا، يفقره، يجيعه، يدفعه إلى الزنا، يدفعه إلى أن يأكل المال الحرام، يدفعه إلى أن يخون، يدفعه إلى أن يزني فقد أفسده. فالإنسان قبل أن يتحرك، قبل أن يقول، قبل أن يفعل، لينظر ماذا يفعل، وأقرب شيء لنا: الأب الذي يأتي بهذه الأجهزة التي تشيع الفساد في البيت، ماذا فعل هذا الأب بأولاده ؟ أفسدهم، هو وليّ أمر أولاده، فإذا سمح لهم بشيءٍ يحطِّمهم ويقيم العلاقات التي لا ترضي الله بينهم فقد أفسدهم، هذه كلمة واسعة جداً لكن ملخّصها: أن إفساد الشيء إخراجه عن طبيعته، والإنسان له فطرةٌ عالية فإذا حملته على المعصية، أو على الكذب، أو على النفاق، أو على السرقة، أو على الزنا، أو أخفته، أو أجعته، أو قهرته فقد أفسدته، تشوّهت حقيقته، فلذلك الصحّة النفسية بالإيمان، وكل إنسان بعيد عن الإيمان يصبح عنده مرض نفسي، خوف شديد، نفاق شديد، قهر، حرمان، ضياع، تشتُّت..

من علامات المنافق أنه يُفْسِدُ في الأرض:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ (23))

أفسدوا..

(لَعَنَهُمُ اللَّهُ (23))

فأنت أمام شيئين: إما أن تفعل شيئاً تتقرَّب به إلى الله كخدمة العباد، كإصلاح ذات العباد، الله عزّ وجل قال:

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 1 ")

إذا أصلحت بين الناس، نَمّيت القيم، نميت المكارم، وجّهت الآخرين نحو الاستقامة، نحو الخوف من الله، وحصّنت الإنسان بالفضائل، عرّفته بالله فأنت وصلته بالله عزّ وجل، إذاً فأنت تتقرَّب إلى الله بهذا العمل، أما إذا أفسدته، دَلّلته على الشهوات، فممكن إفساد إنسان بفيلم واحد تطلعه عليه، فانتهى وأخذ خطاً آخر، وممكن إفساده بمجلّة، أو بقصّة، أو بشمّة، فانتهى خيره، نسأل الله أن يعافي كل أخ مبتلى بالتدخين فأساسه رفيق سيئ أفسده، فالصديق السوء يسبب للأهل المتاعب التي لا حصر لها دائماً، فالفساد شيءٌ مخيف، ومن علامات المنافق أنه يُفْسِدُ في الأرض..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(11)ألا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ(12))

(سورة البقرة)

من أفسد الناس انقطع عن نور الله و طرد من رحمته:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (23))

حينما أفسدوا طردهم الله من رحمته، عندما طردهم انقطعوا عن نور الله عزّ وجل..

(فَأَصَمَّهُمْ (23))

تحصيل حاصل..

(وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23))

صارت الشهوة وقراً في آذانهم، أصمّتهم، وتحوّلت الشهوة إلى غشاوة على أعينهم فأعمت أبصارهم، الأساس أنهم آثروا الشهوة فأصبحوا في متاهةٍ، وفي عمىً، وفي صمم..

على الإنسان أن يتدبر القرآن و يفهمه:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

وبعد فهذه الآية دقيقة جداً في دلالتها، نحن مطلوبٌ منا أن نقرأ القرآن، وأن نقرأه مجوّداً، وأن نحفظ القرآن، لكن الشيء الذي لا يمكن أن نفرّط فيه وهو مطلوبٌ منا قبل كل شيء أن نتدبَّر آيات القرآن الكريم، إنّ الإنسان الذي هو صاحب حرفة عندما يصدر مرسوم تشريعي يمس حرفته، فكيف يقرؤه بعناية بالغة ؟ فلو فرضنا أنّ إنسانًا يعمل في حرفة وصدر مرسوماً ينظِّم هذه الحرفة، يعمل في تجارة العقارات وصدر نظام ضرائبي جديد، كيف يقرؤه ؟ بعناية بالغة حرفًا حرفًا، كلمةً كلمةً، يسأل الخبراء، يسأل المختّصين، ينتظر مرسوماً تفصيلياً تفسيرياً، هكذا الإنسان، لماذا في شأن دنياه يعتني بالنصوص ويفهمها، قال:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(25))

هاتان الآيتان إن شاء الله سبحانه وتعالى نشرحهما في درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (6-8): تفسيرالآيات 24-28
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-01-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس السادس من سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم.

العاقل من تدبر آيات القرآن الكريم و فهم معانيه:

مع الآية الرابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

أيها الأخوة تدبر الشيء: النظرُ إلى عاقبته ومؤدّاه، أو النظر إلى ما ورائه والقُبُل مقدم الإنسان والدُبُر عكس القبل، فنظر إلى دبر الشيء أي: نظر إلى نتائجه، نظر إلى ما ينتج عنه من نفعٍ أو من ضُر، تدبّر الأمر نظر إلى عواقبه، تدبّر آيات القرآن الكريم نظر إلى هذا الأمر ورأى الخير الذي ينتج عن تطبيقه، ونظر إلى هذا النهي ورأى الشر الذي ينتج عن اقترافه، فالإنسان عليه أن يقرأ القرآن، وعليه أن يتدبر آيات القرآن الكريم، إذا كان الله جلّ جلاله توعّد المرابين بحربٍ من الله ورسوله، فكيف يجرؤ عبدٌ على أكل الربا وقد توعده الله بحرب ؟! ما معنى تدبر هذه الآية ؟ إن الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم، وفي آيةٍ محكمةٍ واضحةٍ قطعية الدلالة تؤكد أن من يقترف هذه المعصية فالله سبحانه وتعالى سيدمره.

على الإنسان أن يقرأ القرآن تعبداً و تدبراً:

التدبر أن تقرأ الأمر وأن تعرف من هو الآمر، وما هي النتائج ؟ أن تقرأ النهي وتعرف من هو الناهي وما هي النتائج ؟ فانطلاقاً من حبك لذاتك، وانطلاقاً من حبك لوجودك ولسلامة وجودك، ولكمال وجودك، ولاستمرار وجودك تَدَبَّرْ آيات القرآن الكريم، تفحّصْ الحلال وكيف أن النفس تطيب به، وتدبر آيات الحرام وكيف أن النفس تحرم به من السعادة، تدبر آيات الأمر وكيف أن أمر الله أصل كل خير، تدبر آيات النهي وكيف أن النهي ضمانٌ من الوقوع في الهلاك، تدبر آيات الكون وكيف أنها السبيل لمعرفة الله عزّ وجل، تدبر مشاهد يوم القيامة وأن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالجنة ووعد الكفار بالنار.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

فهذا الكتاب الذي هو من عند خالق الكون ألا يستأهل أن تقرأه قراءة تدبر ؟ قراءة تمعُّن، قراءة تبصُّر، قراءة تأمُّل، قراءة فهم، قراءة بحث، قراءة درس، فأحياناً الإنسان يتأمل مادة بمرسوم أو قانون، ماذا يقصد الوزير ؟ أيسمح بالاستيراد ؟ لا يسمح، لو أنه سُمِح لأصبحنا فوق الريح هكذا يقول، أم لهذا السماح قيد يا ترى، من أجل مصالحك الدنيوية تقرأ القرار مرة ومرتين وثلاثاً وتسأل خبراء وأشخاصاً لهم خبرة، وأصدقاء، وزملاء، بعد ذلك تنتظر المرسوم التفسيري، لأن هذا الأمر يتعلق بمصالحك المادية، ولكن مصيرك في الآخرة متعلق بهذا الأمر والنهي الإلهيين.

تأكيد الله عز وجل على قراءة التدبر:

لذلك فالقرآن الكريم يُقرأ تعبداً، ويقرأ تدبراً، قراءة التعبد غير قراءة التدبر، قراءة التعبد تشعر براحة نفسية حينما تقرؤه وبسرور، كلام الله من أي بابٍ أتيته تسعد به، لو أنك قرأته تسعد به، حفظته تسعد به، فهمته تسعد به، لكن الله سبحانه وتعالى يؤكِّد على التدبر.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

إله في عليائه يأمرك بغض البصر، ليس هذا في الحديث الشريف فحسب بل في نص القرآن الكريم أيضاً، فالإنسان حينما يمشي في الطريق ويملأ عينيه من الحرام، ما موقفه مع الله ؟ مكشوف، كيف يتوازن ؟ كيف يقدر أن يرتاح نفسياً ؟ هل يأمن مكر الله عزّ وجل ؟ هل يأمن عقابه ؟ لما الإنسان تمتد يده لمال حرام فقد أهلك نفسه، والله عزّ وجل قال:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: آية " 188 ")

التدبر يوصل الإنسان إلى عاقبة كل أمر يريد أن يفعله:

خالق الكون بآيةٍ واضحةٍ، صريحةٍ، بينةٍ، محكمةٍ، قطعية الدلالة يقول:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

ورد في الحديث الشريف أنه:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَه))

[من سنن الترمذي: عن " صهيب "]

((ورب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

أنت مع كتاب خالق الكون، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، التدبر: هذا الأمر لو أنني طبّقته ما العاقبة ؟ الله عزّ وجل قال:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: آية " 97 ")

من أراد الدنيا و زينتها عاش عيشة ضنكاً:

قال لك:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

(سورة طه: آية " 124 ")

أردتَ الدنيا، أردت زينتها، أردت الملاهي، أردت الأصدقاء، أردت الاختلاط، أردت اقتراف الذنوب، أردت المُتَع الرخيصة.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

(سورة طه: آية " 124 ")

خالق الكون الذي بيده كل شيء يقول لك:

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

معيشة كلها متاعب، كلها احباطات، كلها إخفاق، كلها تعسير، كلها ضيق نفسي، ضيق على تعسير على إحباط على قهر على حرمان يعني معيشة ضنكاً.

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

ضيق القلب عاقبة المعرض عن ذكر الله:

قد يقول قائل: هؤلاء الذين ينعمون بأموالٍ كثيرة ومراتب عالية ما علاقتهم بهذه الآية ؟ أجاب المفسرون: ضيق القلب، لو أنك تملك المال الوفير والجاه العريض..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

(سورة طه: آية " 124 ")

وإذا أردت فابحث، اذهب إلى هؤلاء الذين هم في نظر الناس في أعلى قمم النجاح المادي، المالي، الاقتصادي، ادخُل في صميم حياتهم.

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

التدبر كلمة تتضمن عدة معان منها:

1- قراءة القرآن الكريم و فهم معانيه:

التدبر أن تقرأ كتاب الله، أن تقرأ الآية، أن تفهم معناها الدقيق، أن ترى ما النتيجة التي تتأتى من تطبيقها، وما الخطر الذي يتأتى من مخالفتها، فالإنسان قد أعطاه الله عزّ وجل فكراً، هو أثمن ما يملكه، هذا الفكر لماذا يعمل في الدنيا ؟ لكسب المال، والإيقاع بين الناس، يعمل في الكيد بين الخلائق، لِمَ لا يعمل هذا الفكر في فهم كلام الله، في التدبر ؟ الله يقول:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)

2 - النظر إلى النتائج:

التدبر أن تنظر إلى النتائج، نتيجة الطاعة، نتيجة المعصية، ماذا بعد الحياة الدنيا، ما معنى أن يدخل الإنسان جهنم ؟ الإنسان يتدبّر الآية، أيطيق لهب شمعةٍ على إصبعه، اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واتق الله بقدر حاجتك إليه، واتق النار بقدر صبرك عليها، التدبر مهم جداً.

من قرأ القرآن قراءة تعبد تمكّن من معرفة أحكام الله تعالى:

فيا أيها الكريم يجب أن يكون لك حصة تقرأ فيها القرآن قراءة تعبد، أنا والله بشهر أختمه، أو بأسبوعين، أو بأسبوع، أو بأشهر ثلاثة، لا يوجد مانع، ولك حصةٌ تقرأ فيها القرآن قراءة تدبر، يعني تكفيك آية واحدة، قال له: **" عظني ولا تطل "**، قال عليه الصلاة والسلام:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

قال: **" كفيت يا رسول الله "**، آية اكتفى بها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

فاقرأ آيات الأمر والنهي، اقرأ آيات الوعد والوعيد، اقرأ خبر الماضي، غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقل، اقرأ وصف ربنا للجنة والنار، اقرأ ما حدثنا به ربنا عزّ وجل عن ذاته وكيف حَدَّثنا عن نفسه لتتمكن من معرفته..

عظمة الله عز وجل تتجلى من خلال فهم الآيات الكونية:

(اللّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: آية " 255 ")

(هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24))

(سورة الحشر)

فاقرأ القرآن قراءة تدبر، اقرأ القرآن قراءة درس، قراءة تعبُّد، قراءة بحث، قراءة فهم، قراءة معاينة، قراءة غوص في الأعماق، هل هناك كتابٌ يستحق أن تغوص فيه كالقرآن ؟ العجيب أن دارساً للأدب يأخذ قصيدة قيلت في الجاهلية، فلا يزال يدرس أبعاد المعاني، وماذا يريد الشاعر من هذا البيت ؟ وما الخلفية التي دفعته لهذا البيت ؟ وماذا يعني هذا البيت ؟ فهذا الجهد الكبير يبذل لفهم كلام إنسان عادي، فالأولى أن تفهم كلام الله بهذا العمق، الأولى أن تقف عند آياته، عند حلاله، عند حرامه، عند محكمه، عند متشابه، عند وعده، عند وعيده، عند وصف الله للأقوام السابقة، عند مشاهد الجنة، عند مشاهد النار، عند الآيات الكونية الدالة على عظمة الله.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

الفرق الكبير بين العالم و العابد:

لذلك من بعض المعاني التي ترد في قوله تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(1)وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ(2)لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ(3))

(سورة القدر)

من بعض المعاني التي يمكن أن تستنبط من هذه الآيات أنك إذا قدَّرت الله حق قدره فهذا الذي حصل خيرٌ لك من ألف شهرٍ تعبده، لأن العلم شيء والعبادة شيء، العابد مهما عبد الله خيره محصورٌ فيه، يسعد لكن لا يستطيع أن ينفع، ويوم القيامة:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

من الممكن أن تقرأ القرآن قراءة تعبد وترتاح وتسعد، لكنك لا تستطيع أن تنقل هذا القرآن للناس شرحاً وإيضاحاً وتبصيراً، العابد لذاته، يعمل لذاته، يعمل لإسعاد نفسه، لكن الجنة تحتاج إلى عمل، ماذا قدمت؟ ماذا فعلت ؟ ما العمل الذي فعلته حتى تستحق رضوان الله عزّ وجل ؟ فقراءة القرآن قراءة تعبُّد

مريحة جداً ومسعدة، لكنك إذا قرأته قراءة تدبر وفهمت أسراره، ومدلولات كلماته، والقوانين التي يمكن أن تستنبط من آياته الدقيقة ووضحتها للناس فقد ارتقيت بالعلم..

((فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ))

[سنن أبي داود]

وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُم))

[سنن الترمذي]

قراءة التعبد تسعد بها لكنك لا ترقى بها و قراءة التدبر تسعد و ترقى بها:

لذلك قراءة التعبُّد شيء، وقراءة التدبر شيءٌ آخر، قراءة التعبد تسعد بها لكنك لا ترقى بها، ولا تستطيع أن تكسب الدرجات العُلا في الجنة بها، ولا تنسى أن الله سبحانه وتعالى يقول آمراً النبيَّ عليه الصلاة والسلام:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا(52))

(سورة الفرقان)

جاهدهم بالقرآن، قف عند آياته، ولو كانت آية واحدة فقط، القضية ليست قضية كم، بل القضية قضية نوع، لو أن آيةً واحدةً عقلتها لكانت سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، آية واحدة، ولا تنسى أن القرآن الكريم ما فرَّط بشيء، فيه كل شيء أنت محتاجٌ إليه في علاقتك بالله عزّ وجل، فيه كل شيء أنت محتاجٌ إليه في توجهك إلى الله عزّ وجل، كتاب هداية.

من عَقِل معاني الآيات و بلغها للناس شعر بسعادة لا توصف:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

لذلك أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الآية منطلقاً لنا، فما الذي يمنع في أيام الأسبوع أن تقرأ القرآن مرتين، مرة قراءة تعبُّد ومرة قراءة تدبر، لو أنك جعلت من آيات درس الجمعة، آيات التدبر طوال الجمعة، الإنسان يستمع أحياناً ويسعد في الاستماع ويتأثر، فلو أنه بعدما ذهب إلى البيت قرأ الآيات التي فُسِّرَت، ودرس ما قيل في شرح هذه الآيات وحَوْل هذه الآيات، واستعمل عقله، وقلّب الآية على وجوهها، فإذا عقل معانيها الدقيقة فعليه أن يبلِّغها للناس، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

[من صحيح البخاري: عن "عبد الله بن عمرو]

فإذا عقلها وبلّغها للناس فبدون أن يشعر يطبّقها على نفسه فيسعد بمعانيها، والإنسان يحب ذاته، وخيره في فهم كتاب الله وتطبيق ما فيه ؛ فلنستمع إذًا إلى بعض الآيات في الأسبوع ونطبقها تطبيقاً دقيقاً.

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً: آية لها عدة معان:

1- المعتدي لا يحبه الله و لا يستجيب له:

اليوم في الخطبة ذكرت:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(55))

(سورة الأعراف)

في معانٍ دقيقة، المعتدي لا أحبه وبالتالي لا أستجيب له، فالذي يعتدي على أموال الناس، الذي يعتدي على ما في أيديهم، الذي يعتدي على أعراضهم، الذي يبيح لنفسه ما حرّمه الله عليه هذا لو دعا دعاءً مُنَمّقاً بصوتٍ عالٍ، لو تشدق بالدعاء، لو تقعّر بالدعاء لا يستجيب الله له.

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(55))

(سورة الأعراف)

هذا معنى.

2 - على الإنسان أن يدعو ربه تضرعاً و تذللاً:

هناك معنى آخر: أمرك الله عزّ وجل أن تدعوه تضرعاً، تذللاً، خضوعاً، استكانةً، تعبُّداً، فإذا تعودته مستكبراً فقد اعتديت على شروط الدعاء ولن يستجيب الله لك.

3 - على الإنسان أن يدعو ربه همساً:

أمرك الله عزّ وجل أن تدعوه خفيةً همساً بينك وبينه، إنك لا تنادي أصم، إنك تنادي من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإذا رفعت الصوت في الدعاء رياءً، فقد اعتديت على شروط الدعاء، إذاً لا يستجيب الله لك.

4 ـ من دعا فأطال كثيراً حمل الناس على الملل و أثقل عليهم:

إنك إذا دعوت فأطلت كثيراً حتى حملت الناس على السأم والملل فقد اعتديت عليهم، إذا دعوت لنفسك فادعُ الساعات الطِوال، أما إذا دعوت للناس فادعُ الدعاء المختصر الذي لا يثقل عليهم، فأنت قد عرفت هذه الآية مثلاً بأربعة معانٍ، والشرطين الأساسين، الخفية والتضرُّع وعدم العدوان، إذا فهمت هذه الآية بهذا الفهم الدقيق لك أن تذكرها للناس، هذه الآية أصبحت للدعوة موضوعاً كما أصبحت موضوعاً للحديث في المجالس.

التدبر هو معرفة النتائج:

ما أسعد هذا الإنسان الذي يمضي كل وقته في ذكر الله عزّ وجل أينما جلس، معظم الناس يمضون الساعات الطوال مع بعضهم يتبادلون كلاماً فارغاً لا معنى له في معصية وبُعد عن الله عزّ وجل، أما إذا ذكرت الله عزّ وجل:

((ما ذكرني عبد في ملأٍ إلا ذكرته في ملأٍ خيرٌ منه، وما ذكرني عبدي في نفسه إلا ذكرته في ملأٍ من ملائكتي، وما ذكرني في ملأٍ من خلقي إلا ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فأحياناً تجد أن الآية فيها مفتاح سعادتك، مفتاح التوفيق، مفتاح الفوز في الدنيا والآخرة، آية واحدة، كلام خالق الكون..

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(سورة الأنعام: آية " 1 ")

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: آية " 1 ")

أيْ أنّ الكون يوازي هذا القرآن الكريم وأن هذا القرآن في عظمته يوازي الكون في سعته، الكون خلقه وهذا كلامه، فما الذي يمنعنا من أن نفهم كلام الله فهماً عميقاً، ما الذي يمنعنا من أن نقف عند آياته وقفةً متأنيةً ؟ ما الذي يمنعنا من أن نتفحّص كلام الله عزّ وجل، أبعاده، الأحكام الشرعية المستنبطة من كلام الله عزّ وجل ؟ ما الذي يمنعنا أن نأتمر بما أمر الله وأن ننتهي عما نهى الله عنه ؟ التدبر إذًا: معرفة النتائج.

العاقل من يصل إلى النتائج على صعيد الفكر قبل أن يصل إليها على صعيد الواقع:

إذا أردت أن تذهب إلى بلدٍ غربي، وتستقر فيه قد يذهب الإنسان إلى هناك فيعجب بالرفاه، والحضارة، والأبنية الفخمة، والمركبات الرخيصة، والحدائق الغنّاء، والشوارع العريضة فهذا لم يتدبر، أما الذي يتدبر فهو يتصور أنه تزوج هناك، وأنجب أولاداً، ونشّأ الأولاد في ظل الإباحية الجنسية، فماذا ينفعه ؟ إذا أردت إنفاذ أمرٍ تدبر عاقبته، لذلك: من هو العاقل ؟ هو الذي يصل إلى النتائج على صعيد الفكر قبل أن يصل إليها على صعيد الواقع، يصل إليها بعقله قبل أن يصل إليها بجسده، هذا هو التدبر، لذلك دائماً المتدبر لا يندم، لأنه رأى الذي سيكون قبل أن يكون.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

ليس هناك عمل يعلو على أن تفهم كلام الله، الإنسان يدرس ويعمل طيلة حياته، يا ترى عمله، دوامه في وظيفته، كسب رزقه، تجارته، صحته، زواجه، أولاده، فما من عمل على الإطلاق يعلو على أن تفهم المنهج الذي في كتاب الله.

وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه:

الله عزّ وجل قال:

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4))

(سورة الرحمن)

أيعقل أنّ يُعَلّم الإنسان القرآن قبل أن يخلق ؟ هكذا الآية:

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3))

فالإجابة عن هذا السؤال: أن الترتيب يبين الآيتين ليس ترتيباً زمنياً بل هو ترتيب رُتَبي، بمعنى أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه، لذلك ليس هناك من عملٍ على الإطلاق مقدّم على فهم منهج الله، ليس هناك عملٌ على الإطلاق يعلو على أن تفهم كلام الله، لأنه منهجك، نجاحك في الزواج نتيجة فهمك لكلام الله، نجاحك بالتجارة انعكاس لفهمك لكلام الله، نجاحك مع أهلك سببه فهمك لكلام الله، نجاحك في علاقاتك الاجتماعية، نجاحك في صحتك..

من كان حريصاً على سلامته و سعادته عليه أن يفهم آيات القرآن فهماً دقيقاً:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا)

(سورة الأعراف: آية " 31 ")

نجاحك في كل شيء أساسه فهم المنهج، مرة ضربت مثلاً قلت فيه: لو فرضنا جهاز حاسوب ثمنه ثلاثون مليون لتحليل الدم، فممكن أن تضع نقطة دم في مكان فيه وخلال ثوانٍ تظهر على الشاشة نتائج سبعة وعشرين تحليلاً، فلو فرضنا أجرة كل تحليل ألف ليرة، وعندهم مئة زبون، مئة ألف كل يوم، فلو أنك اشتريت هذا الحاسوب وليس معه كتاب التعليمات، تعليمات التشغيل والصيانة، وأنك إذا استعملته من دون كتاب تفسده، ويصاب بالعَطَب، وإن خفت عليه جَمَّدت ثمنه، أليس هذا الكتاب أثمن منه ؟ أنا أعتقد من يشتري هذا الحاسوب بهذا الرقم الكبير، يركب الطائرة ويذهب بنفسه ليأتي بدفتر التعليمات، لأنها أساسيةٌ في استعمال هذا الحاسوب، مصيريةٌ لتشغيله، فأقول لكم: ما من عملٍ على الإطلاق يعلو على أن تفهم منهجك في الحياة، كيف تعامل زوجك، كيف تتقي المصائب، كيف تتقي الهلاك، كيف تسعد بذاتك، فالإنسان آلة معقدة جداً، وهذا الكتاب تعليمات الصانع، ولاحظ نفسك حينما تقتني آلة غالية جداً، تحرص على ترجمة تعليماتها ولو كانت بلغة صينية، هل يوجد أحد هنا يفهم اللغة الصينية ؟ أو اللغة الألمانية، وقليل عندنا من يترجم لها فإذا كانت الآلة غالية،غالية الثمن وعظيمة النفع، تحرص على ترجمة تعليمات الصانع مهما كلّفك الأمر، وهذا القرآن الذي أمامك تعليمات الصانع، فإن كنت حريصاً على سلامتك، وإن كنت حريصاً على سعادتك فعليك بفهم هذه الآيات فهماً دقيقاً دقيقاً.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

القرآن الكريم فيه إشارات إلى أدق الحقائق:

مرة قال لي أخ: ابني مريض مضى عليه بالمستشفى أسبوع، قلت له: خير إن شاء الله، قال لي: لقد أكل فواكه غير ناضجة، عندنا بستان فقطف من أشجار البستان، فقلت له: هل علّمته القرآن ؟ قال لي: ما علاقة هذه بهذه ؟ قلت له: الله قال:

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ)

(سورة الأنعام: آية " 141 ")

الفواكه الفجّة تؤذي الجسم، القرآن فيه كل شيء تقريباً، لو قرأتَ القرآن قراءة دقيقة لوجدتَ فيه إشارات إلى أدق الحقائق.

على الإنسان أن يكون في حياته خبيران أحدهما لدنياه و الآخر لآخرته:

فيا أيها الأخوة الكرام... هذه آية دقيقة جداً:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

أنت أحياناً يغيب عن ذهنك أن بعض الناس من بني جنسك من هو أقوى منك بحكم موقعه، فيصدر قراراً، تتأمل بالقرار ساعات طويلة، ماذا يقصد بهذه الكلمة ؟ وماذا يعني بهذه الكلمة ؟ وهل يقصد المنع المُطْلق أم المنع المشروط ؟ وما رأي مفسري هذا القرار ؟ ما رأي كبار الموظفين عنده ؟ ألا تستحي من الله أن تأخذ نصّاً بشرياً وتدرسه وتقتله دراسةً وتقلبه على وجوهه وتبحث عن مراميه، وعن أبعاده، وعن دلالاته، وكلام ربك بين يديك ألا تسأل عنه؟ أنت يلزمك أن يكون في حياتك خبيران ؛ أحدهما لدنياك والآخر لآخرتك، قال تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(43))

(سورة النحل)

كل إنسان بحاجة إلى من يعرفه بالله عز وجل:

قال:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59))

(سورة الفرقان)

فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً: أنت بحاجة إلى إنسان يدلك على الله، يكون مرجعاً لك، طبعاً يأتيك بالدليل وليس من عنده ؟ لا أحد مؤهّل بأن يعطيك شيئًا من عنده، يقول لك: هذا افعله وهذا هو الدليل، وهذا لا تفعله وهذا هو الدليل، أنت بحاجة إلى من يعرّفك بالله عزّ وجل.

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59))

وأنت بحاجة إلى إنسان خبير في الدنيا، أردت أن تقدم على عمل، على مشروع، اسأل الخبراء المؤمنين، اسأل أهل الخبرة من المؤمنين، لأن من المؤمنين مَن ينصحونك، لو فرضنا أنك التجأت إلى مؤمنٍ غير خبير فلن يفيدك، هو طيّب لكنه ساذج بهذا الموضوع، ولو كان خبيثًا يقول لك: أنت تحتاج لهذا العمل، يخاف أن تنافسه فيه، في أمر الدنيا، اسأل أهل الخبرة من المؤمنين، وفي أمر الآخرة اسأل به خبيراً، أحياناً آية يعسر عليك فهمها.

(وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ)

(سورة السجدة: آية " 13 ")

هذه الآية ألم تشكل عليك ؟ اسأل عنها الخبراء من مفسّري القرآن الكريم، الله عزّ وجل جعل بعض الآيات تدعو إلى التساؤل حتى يتحرك الإنسان، لينطلق ولا يبقى خاملاً، الأشياء الواضحة جداً تدعو إلى الكسل أحياناً، فهناك آيات تحتاج إلى تأمُّل، إلى تدبر، إلى سؤال مَن هو أكثر منك خبرةً فيها.

حبّ الدنيا و المعاصي تحجب الإنسان عن الله عز وجل:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

ما الذي يجعل على قلب الإنسان قِفْلاً ؟ حب الدنيا، حبك الشيء يعمي ويصم، وما الذي يجعل على القلب قفلاً ؟ المعاصي، المعاصي حُجُب، كل معصية حجاب، الغارق في المعاصي لا يعي على خير، لا يرى شيئاً، غارق في شهواته، هو غارق وفيه عمى، هو في ظلام، وفي ظلماتٍ بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، فربنا عزّ وجل وصف الشهوات والمعاصي وصفاً مجازياً، فهي قفلٌ على القلب، فلا يظن أحدٌ أن الله عزّ وجل قفل قلب هذا الإنسان، هذا المعنى لا يليق بالله عزّ وجل، فالإنسان مخيَّر، حينما اختار الشهوة واختار المعصية جعل من الشهوة والمعصية قفلاً على قلبه، هذا يسمونه تحصيل حاصل، حينما اختار الشهوة الدنيئة والمعصية القبيحة، جعل من الشهوة والمعصية قفلاً على قلبه، المعاصي بريد الكفر، قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية.

علامة إصغاء الإنسان تطبيق ما سمع:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

(أفلا) حرف حض، أيْ تدبروا القرآن، فإن لم تفعلوا، فإن لم تستطيعوا فاعلموا أن على القلوب أقفالاً هي المعاصي والشهوات، لذلك فالإنسان بمجرد أن يستقيم يصبح مصغياً للحق، فلو فرضنا أنّ واحداً ألقى محاضرة والحضور استمعوا استماعاً دقيقًا جداً إلى درجة أنه لو رميت إبرةً لسمعت صوتها، يعني أنهم منصتون، فهل هذا هو الإصغاء الذي أراده الله ؟ لا والله..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: آية 4)

علامة الإصغاء لا أن ترى النفوس مستمعة استماعاً دقيقاً، علامة الإصغاء التطبيق..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

تدبر آيات القرآن الكريم يبدأ بالتفكر و التأمل و الدرس و ينتهي بالتطبيق:

لذلك التدبر علامته لا التشدُّق بمعاني الآيات، لكن تطبيقها، إذا طبقتها فقد تدبرتها، علامة الفهم الدقيق التطبيق العملي، وإلا دخلنا في متاهةِ العلم للعلم، والعلم في الدين ليس هدفاً لذاته، ما أردنا العلم للعلم، لكن العلم للتطبيق، للسمو، للسعادة، المعنى الجديد الآن الذي ينتج عن هذه المعاني، أنك إذا وقفت عند الآية فاهماً، متفَحِّصاً، كُشفت لك الأبعاد، المؤدى، النتائج، لكن إذا تعمّقتَ في فهمها ولم تبادر إلى

تطبيق مضمونها فأنت لم تتدبرها، لأن التطبيق علامة الوعي، وعلامة الفهم العميق، فالتدبر يبدأ بالتفكر، والتأمل، والبحث، والدرس وينتهي بالتطبيق، أما إذا لم يشعر الإنسان بحاجة إلى التدبر فالمعنى أن قلبه مقفل، فليبحث عن العقبات.

على الإنسان أن يبعد المعاصي و الشهوات عن قلبه ليتدبر آيات القرآن الكريم:

لا أحد تتعطل سيارته وهو في سفر فيبقى مكتوف اليدين، فأول عمل يفتح غطاء المحرّك، ما الذي حصل ؟ لماذا توقفت ؟ أين العُطل ؟ أين الخلل ؟ ما السبب ؟ فإذا الإنسان لم يرَ بنفسه حاجة ملحّة إلى التدبر فمعنى ذلك أن على قلبه قفلاً، فلينزع هذه الأقفال بعيداً، والأقفال هي المعاصي، والأقفال هي الشهوات، وهذا المعنى ورد في آيات أخرى، الذي يقترفون المعاصي..

(أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44))

(سورة فصلت)

والآية الثانية:

(وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا(82))

(سورة الإسراء)

الآية الثالثة:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصلت: آية 44)

الاتجاه إلى غير الله من أخطر الأعمال التي تؤدي بصاحبها إلى الشقاء:

الإنسان حينما يتلبس بالمعاصي، وينغمس في الشهوات يكون بينه وبين هذا الكتاب حجابٌ سميك، وكلما ازددت استقامةً وإخلاصاً وصفاءً كلما رأيت نفسك تفهم هذا القرآن فهماً دقيقاً عميقاً، قال تعالى يصف هؤلاء الذين ارتدُّوا على أدبارهم..

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(25))

الحركة الطبيعية نحو الأمام، ونحو الله عزّ وجل، ونحو الحق، ونحو الجنة، أما الحركة المعاكسة فهي نحو الشهوات، فربنا عزّ وجل عبر عن الحركة المعاكسة للهدف الذي خلقتَ من أجله بالارتداد على الأدبار، من هنا طريق الجامعة، أدرت ظهرك للجامعة واتجهت عكس الاتجاه، من هنا طريق الكسب أدرت، ظهرك لهذه الجهة واتجهت جهة معاكسة، فقال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(25))

وهذه هي المصيبة الكبيرة أن الإنسان بعد أن يعرف الحق يتّجه إلى الباطل، بعد أن يعرف الهدى يتجه إلى الضلال، بعد أن يعرف الطُهْرَ والكمال يتجه إلى الدَنَس والمعصية، بعد أن يعرف الله يتجه إلى ما سواه، هذا من أخطر الأعمال التي تؤدي بصاحبها إلى الشقاء.

على الإنسان أن يصغي لصوت الحق إن وقع بين وسوسة الشيطان و إلهام الملائكة:

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ)

إنّ الله عزّ وجل حينما خلق الإنسان رسم له هدفًا وقال: اتجه نحوي يا عبدي، اتجه نحو الحق، اتجه نحو الآخرة، اتجه نحو الإحسان، اتجه نحو الفهم، اتجه نحو العمل الصالح، فإذا سار الإنسان باتجاهٍ معاكسٍ نحو الشهوة، نحو الشيطان، نحو المعصية، نحو المتعة الرخيصة، نحو الدنيا، فكأنه أدار ظهره للحق، إذاً يرتد على دبره، وَلّىَ الحق دبره، واتجه نحو الباطل.

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(25))

أصغَوا إلى صوت الشيطان، أصغَوا إلى وسوسته، أنت بين وسوسة الشيطان وإلهام الملائكة، الملك يلهمك: أن يا عبد الله اتق الله، والشيطان يوسوس لك: أن يا أيها الرجل التفت إلى الدنيا، أما قوله تعالى: (أملى لهم) فبعضهم قال: الإملاء هنا بمعنى أنه منّاهم بمستقبل رغيد، إن فعلت هكذا سعدت في دنياك، إذا أخذت هذا المال الحرام اشتريت به بيتاً جميلاً وتزوجت أجمل امرأةٍ وعشت في بحبوحةٍ ويسر وكنت من سعداء الدنيا، أملى لهم الأماني، وبعضهم قال: الشيطان سوّل لهم والله سبحانه وتعالى أمدّهم تحقيقاً لاختيارهم، كلا المعنيين صحيح.

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ)

عدم تعاون الإنسان الكافر مع المؤمن بأي ظرف من الظروف:

الآن دققوا النظر:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26))

فهل من المعقول أن يتعاون إنسان مع كافر ؟

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ)

هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم، هؤلاء الذين أصغوا لصوت الشيطان، ماذا فعلوا حتى ألمّ بهم ما ألم بهم ؟ قال:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ)

هم اليهود، اليهود كانوا يقيمون على العرب بأنه الله بعث نبيًّا منهم هو خاتم الأنبياء، فلما كان هذا النبي الكريم من نسل إبراهيم عليه السلام كرهوا هذه النبوة لأنها ليست منهم.

من رغب عن الدين احتقر نفسه:

قال سبحانه:

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ)

اليهود..

(سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26))

يعلم أنهم كاذبون، أيْ أنّ هؤلاء الذين جاءتهم الرسالة وضلوا عنها آثروا في طاعتهم وفي تآمرهم الذين كرهوا هذه الرسالة وهم اليهود، والله يعلم إسرارهم يعلم نواياهم السيئة، يعلم كذبهم، قال:

(فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27))

لماذا وجوههم وأدبارهم بالذات ؟ الوجه الذي اتجه نحو الشيطان، أو نحو الشهوة، والدبر الذي استدار للحق، فلان أعطى هذا الشيء دُبُرَهُ، أعطاه ظهره، دليل الإعراض والاحتقار، وبالمناسبة الإنسان أحياناً يحتقر شيئاً ما برفضه، قد تحتقر صديقًا سفيهاً، فاسقًا، بذيء اللسان، تعرض عنه، رغبت عنه احتقاراً له، لكن أي إنسانٍ إذا رغب عن الدين فهو في الحقيقة يحتقر نفسه.

سمو نفس الإنسان مرتبطة بمعرفة و تطبيق منهج الله عز وجل:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة: آية 130)

في الدين وحده، إذا أدرت ظهرك له فأنت بهذا العمل تحتقر نفسك، تحتقرها وتجعلها سفيهةً لا قيمة لها، لأن الإنسان له حاجات عُليا وحاجات دنيا، الحاجات الدنيا الطعام، والشراب، والزواج، والعُليا معرفة الله، فالإنسان إذا أعرض عن الله عزّ وجل تخلّى عن قيمته الإنسانية وبقي على مستوى البهيمة، فكل إنسان يُعْرِض عن الدين يحقِّر نفسه، يجعلها في مصافِّ البهائم، الذي يرفعك عن الحيوانات أنّ الله سبحانه وتعالى أعطاك قوةً إدراكية، أنت بهذه القوة الإدراكية يمكن أن تعرف الله، إذا عرفته وعرفت

منهجه، وسمت نفسك إليه، أكّدت فيك الجانب الإنساني، الإنسان هو المخلوق الأول، والمخلوق المكرم، والمخلوق المكلف.

دُبُرُ الإنسان الذي أدَارهُ للحق هو مكان ضربه يوم القيامة:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27))

لا شك أنّ الإنسان إذا ارتكب جريمة وألقي القبض عليه، فإذا كان أتعب رجال الأمن الجنائي ثم ألقي القبض عليه، يتلقوه بالضربات والركلات الكثيرة إلى أن يصل إلى مكان التحقيق، فيُهان، يضرب أمام الناس أحياناً، يضرب على أي مكان في جسمه، بأي شيء، يرفس بالرجل، بعقب بندقية، مجرم أتعب رجال الأمن ثم ألقي القبض عليه، قال:

(فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27))

الوجه الذي ولّيته إلى الدنيا هو مكان الضرب، والدُبُرُ الذي أدَرْتَهُ للحق هو مكان الضرب.

(يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27))

النار عاقبة من يسخط الله عز وجل: لذلك هذه النتيجة المأساوية، وهذا الهلاك..

(الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27))

فهم في أدنى حالات الإهانة، قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28))

هل هناك إنسان على وجه الإطلاق لا يعلم بالفطرة ما الذي يرضي الله، وما الذي يسخطه ؟ ليس أحد أبداً، بالفطرة، بر الوالدين يرضي الله، عقوقهما يُسْخِطُ الله، الكذب يسخطه، الصدق يرضيه، الإحسان يرضيه، الإساءة تسخطه، العدل يرضيه، الظلم يسخطه، الرحمة ترضيه، القسوة تسخطه، فبالبديهة ومن دون تعلم من دون جهد كبير.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ (28))

الذي يسخط الله عزّ وجل فعلوه، والذي يرضيه ابتعدوا عنه، هذه النتائج، هذه النتيجة المأساوية، هذا الهلاك الشديد، دخول النار إلى أبد الآبدين..

من آثر دنياه على آخرته اتبع ما أسخط الله عز وجل:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ (28))

هذا مقياس دقيق، ما الذي يسعدك ؛ أن ترضي الله أم أن تسخطه ؟ أن ترضي الله أم ألاّ تعبأ برضاه ؟ لذلك الله عزّ وجل يضع الإنسان في امتحانات صعبة، كل كلام وكل سلوك لا قيمة له إذا فعل في سرّه ما يخالف علانيته:

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مُخَلِّط))

[الجامع الصغير عن أنس]

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللّهَ (28))

إذا آثر الرجل زوجته على والدته، وأهان والدته من أجل زوجته هذا اتبع ما أسخط الله، إذا كان يغش المسلمين في البيع والشراء ليكسب أموالاً طائلة على حساب استقامته وعلى حساب دينه، فهذا اتبع ما أسخط الله، حينما تاجر ببضاعة محرمة تفسد الناس كأن تنشر إحدى دور النشر كتاباً فيه ضلالات وسموم فكرية.. يقول المسؤول عنها: مبيعاته بلغت أربع طبعات.. فلو كانت مئة طبعة، أنت تربح من وراء إضلال الناس، اتبعت ما أسخط الله، هذا هو الدين، فالدين دخل في كل شيء، دخل بحرفتك، دخل بمهنتك، فلتعلموا إخواننا الكرام أن موضوع الاستقامة موضوع دقيق جداً، فينبغي ألاّ يكون في أعمال جانبٌ فيه معونة للباطل، وترويج للباطل أو شيء من الإثم والعدوان:

(وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: آية 2)

أول ثمرة من ثمار الدين الاتصال بالله عز وجل:

حتى تجد الطريق سالكًا إلى الله عزّ وجل، ومن أجل أن تسعد بهذا الدين، من أجل أن تُقْبِل على الله عزّ وجل ينبغي ألاّ يكون في كل حياتك ما فيه دعم للباطل، من أعان ظالماً ولو بشطر كلمة، لو أعطاه قلماً، أو قال له: معك حق، أو قال له: لا عليك، لو هز برأسه إرضاءً لهذا الظالم..

((مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللّهَ عَزّ وَجَلّ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللّه))

(من سنن ابن ماجة: عن " أبي هريرة)

أعمالك، مصلحتك، مهنتك، حرفتك، يا ترى هل فيها غش ؟ فيها حرام ؟ فيها مجاوزة للحدود ؟ حتى تشعر بقيمة الدين، أول ثمار الدين الاتصال بالله، توفيق، سعادة، إكرام، طمأنينة، سكينة، شعور بالتفوق، هذا يحتاج إلى استقامة، إلى بذل، إلى تضحية، قال:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللّهَ (28))

من كان عمله مبنياً على فاحشة ظاهرة عليه أن يتخلى عنه:

يا ترى أهذه الرحلة ترضيه أم تسخطه ؟ فيها اختلاط مع أناس متحللين من الدين، قد يشربون الخمر أمامك، قد يمزحون مُزاحاً رخيصاً، يعرضون زوجاتهم بأبهى زينة، أرخص رحلة، ارفضها من أساسها إذا كانت تسخط الله عزّ وجل، يا ترى هل هذه السهرة ترضيه أم تسخطه ؟ وهذا الاجتماع يرضيه أم يسخطه ؟ يا ترى هذه الأفكار التي تروّجها من أجل أن تبيع بضاعتك ترضيه أم تسخطه ؟ فالمشكلة كبيرة جداً، قد يكون العمل مبنياً على معصية واضحة جداً وفاحشة في قبحها، فلذلك:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ (28))

الله عنده حساب موحّد، بيتك، وعملك، ونشاطاتك، وأفراحك، وأتراحك كلها بحساب واحد، يقول لك: أنا أصلِّي، الصلاة مع المعاصي ليست لها قيمة، صلّ طبعاً لا أقول لك لا تصلي، لكن هذه الصلاة لا تقدم ولا تؤخر مع المعاصي، هذه الآية دقيقة جداً، هل تشعر أنك ارتكبت جريمةً حينما تفعل ما يسخط الله ؟ هذه علامة إيمانك، هل تسعد بطاعة الله ؟ بخدمة الخلق ؟ بالإنصاف ؟ أن تقول الحق ولو على نفسك ؟ أحياناً يكون الخلاف بين ابنك وبين ابن الجيران، أنت كمؤمن يجب أن تكون مع الحق، ما الذي يرضي الله ؟ أن تكون مع الحق ولو كان مع ابن الجيران، ما الذي يسخطه ؟ أن تنحاز إلى ابنك انحيازاً أعمى، عندك صانع بالمحل ما الذي يرضي الله ؟ أن تنصفه، أن ترحمه، أن تحسن إليه، ما الذي يسخطه ؟ أن تستغلّه ؟ أن تستغل يُتْمَهُ وضعفه ؟ وأن تعصره عصراً ؟

الدين سلوك و قيم و صدق و أمانة:

قال لي شخص يعمل في محل تجاري: طلب من معلمه إجازة ساعة ليومين في الأسبوع ليلتحق بمدرسة ليلية، فقال له: غير ممكن، فكان عنده صديقه وقال له: يفقس بكرة إن يتعلم يفقس، أما إذا أنفق على ابنه أربعين ألف ليرة مقابل دروس خاصة لكي يصبح طبيباً هذا ممكن، فابنه يجب أن يكون متعلماً، أما هذا الصانع إذا أحب أن يأخذ شهادة كفاءَةٍ بالليل لا يتركه يلتحق بمدرسة ليلية ويقول: يفقس بعد ذلك، هذا يسخط الله عزّ وجل، انتبه، فالدين ما هو صلاة وصوم فقط، الدين تعامل يومي، بعث ابنه ليعلمه ميكانيك (مكنسيان)، قال لأبيه: لم يفك صاحب المحل المحرك أمامي ولا مرة واحدة، الأب مقتنع أنه سيتعلم المصلحة فلم يأخذ أجرة من المعلم، فالمعلم صاحب المحل استخدمه في تنظيف المحل، أما وقت فك المحرك يصرفه إلى الخارج، يقول: إن يتعلم فسوف ينافسني، إذًا استخدمته ولم يعلمه و لم يعطه أجراً، فلو صلّى في أول صف فقد خان والد هذا الغلام الصغير، بل خان أمانته وخان الله من بعد، فالدين أعمق من أن تصلي وتصوم، الدين أعمق بكثير، الدين سلوك، الدين قِيَم، الدين صدق، الدين أمانة، الدين رحمة.

من فهم الدين فهماً أخلاقياً فتح العالم:

" الشريعة رحمة كلها عدلٌ كلها مصلحة كلها، وأية قضيةٍ خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل ".

الصحابة لما فتحوا العالم فهموا الدين فهماً عميقًا، فهموا الدين صدقًا وأمانة، وحسن جوار، وكفّوا عن الحرام والدماء، انظر إلى قصر العدل، يقال لك: ثمانية آلاف دعوى عقارية، وكذا دعوى مدنية وجزائية إلخ...، شخص استأجر بيتاً و تركه مهجوراً وحجزه بأجرة مئة ليرة في الشهر، وصاحب البيت يتحرق ليزوج ابنه فيه، فليس لديه بيت آخر، ولكن عنده بيت مؤجر، والمستأجر يحتجزه مهجوراً، فليحذر الإنسانُ قبل أن يقول لك الصلاة والصوم، فليعلم أن الدين استقامة، الدين أداء الحقوق، الدين رحمة، الدين خدمة، الدين إنصاف، فلما الصحابة الكرام فهموا الدين فهماً أخلاقياً فتحوا العالم، لما فهمناه فهماً شعائرياً وطقوساً، غُزينا في عقر دارنا، مليار ومئتا مليون مسلم ليست كلمتهم هي العُليا، وأمرهم ليس بيدهم.

الاستقامة أساس تمكين و استخلاف الإنسان في الأرض:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور: آية 55)

أين التمكين ؟ وأين الاستخلاف ؟ وأين الأمن ؟ هذا وعد الله:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللّهِ)

(سورة التوبة: آية 111)

فنحن أيها الأخوة بحاجة إلى استقامة، نحن كفانا كلاماً، فالكلام كثير، والكتب كثيرة، فنحن بحاجة إلى مسلم، ولسنا بحاجة إلى إنسان ثقافي، لا أريد مشاعر إسلامية، ولا أريد ثقافة إسلامية، لا أريد فكراً إسلامياً، أريد مسلماً، أريد مسلماً يرى الدنيّة في معصية الله، أريد مسلماً يقيم nالإسلام في بيته، في عمله، في أفراحه، في أتراحه، في علاقاته، في كل نشاطات حياته، انظر إلى هذه الآية ما أدقها دلالة ومعنى:

(ذَلِكَ بِأَنّهُمُ اتّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللّهَ (28))

من اتقى الله كان أعبد الناس:

والله الذي لا إله إلا هو ما من واحدٍ على وجه الأرض إلا ويعلم بالفطرة من دون تعليم ما الذي يرضي الله وما الذي يسخطه، فإذا اتبعت ما يرضي الله وابتعدت عما يسخطه نِلْتَ مرادك في الدنيا والآخرة.. **" ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء ولا الذي يطير في الهواء ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام ".. " اتق الحرام تكن أعبد الناس "..** الدين لا يحتاج إلى دجل، ولا إلى تغطية، ولا إلى مبالغة، هذِهِ كلها حالات مرضية، اتقِ الحرام تكن أعبد الناس.

((ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حجةً بعد الإسلام))

[ورد في الأثر]

((لأن أمشي مع أخ مؤمنٍ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافه في مسجدي هذا))

[الترغيب والترهيب عن ابن عباس بسند ضعيف]

((إنّ فُلانَة يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أنّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قالَ هِيَ فِي النّار))

[من مسند أحمد:عن أبي هريرة]

ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلِّط:

((من لم يكن له ورع يحجزه عن معصية اللّه إذا خلا بها لم يعبأ اللّه بسائر عمله شيئاً))

[رواه الديلمي عن أنس]

على المؤمن أن يتدبر القرآن و يفهم معانيه و يطبق آياته عبادة و سلوكاً:

كُن مؤمنًا صادقًا وخذ تأييداً وحفظاً ونصراً وتوفيقاً في كل شيء، الله عزّ وجل يرينا آياته دائماً، فالله عزّ وجل خلقنا ليسعدنا، ويرينا آياته دائماً في تأييد المؤمن وخذلان الفاسق، يرينا آياته في توفيق الذي يراعى منهج الله وفي التعسير على من يخرج عن منهج الله عزّ وجل، فهذه الآية كانت محور الدرس وجدير بالمؤمن أن يتدبر القرآن و يفهم معانيه و يطبق آياته عبادة و سلوكاً، قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

ليس هناك على وجه الأرض من عملٍ أبعد غايةً من أن تفهم كلام الله وأن تطبقه.

لا قيمة لعمل الإنسان إن اتبع ما أسخط الله تعالى:

والشيء الثاني:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28))

أي:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

لا قيمة لأعمالهم مهما بلغت ومهما عظمت في الدنيا، لا قيمة لها عند الله عزّ وجل ولا قيمة لأصحابها..

(فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(105))

(سورة الكهف)

لهم صغارٌ عند الله.

الغنى والفقر يكونان بعد العرض على الله:

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

يوم القيامة يعلو أناسٌ كانوا في مقياس البشر في الحضيض ؛ ويصغر أناسٌ كانوا في مقياس البشر في القمم.

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

والغنى والفقر يكونان بعد العرض على الله.

(تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83))

(سورة القصص)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (7-8): تفسيرالآيات 30-35
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-01-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم.

ستر الله عز وجل حال المنافق رحمة به:

مع الآية التاسعة والعشرين، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30))

أيْ أنّ المنافق سَتَر الله سبحانه وتعالى حاله رحمةً به، وقد أعطاه بهذا الستر فرصةً ليتوب، لكن المنافق شاء أم أبى يظهر نفاقه من فلتات لسانه، ومن سيماه..

(وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30))

فعملك عند الله سبحانه وتعالى مكشوفٌ ومحدّد، والإنسان إذا علِم علم اليقين أن الله يعلم فلابدّ من أن يستقيم على أمر الله، فالعاقبة أن تعلم أن الله لا يعلم، أما إذا علمت أن الله يعلم وأنه سيحاسبك، فهاتان الحقيقتان كافيتان كي تستقيم على أمر الله.

علّة وجود الإنسان في الدنيا امتحان الله سبحانه وتعالى له:

أكرّر: أنْ تعلم أن الله يعلم وأنّ الله سيُحاسِب..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31))

ولقد ذكرت في دروس سابقة: أن الإنسان جاء الله به إلى الدنيا ليمتحنه هو..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)

(سورة الملك: آية " 2 ")

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

الله عز وجل عليم بحقيقة كل إنسان:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

لو قرأت الآيات المتعلِّقة بالابتلاء لوجدت أن علّة وجود الإنسان في الدنيا ليبتليه الله سبحانه وتعالى..

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

ومعنى الابتلاء أنّ الله عزّ وجل أودع في الإنسان حاجات، حاجة إلى الطعام والشراب، وحاجة إلى النساء، وحاجة إلى الذِّكْر الخ...، أودع هذه الحاجات وجعل مضامين هذه الحاجات أمام عينيك، فإما أن تسلك إليها الطريق القويم وفق منهج الله عزّ وجل، وإما أن تسلك إليها الطريق المنحرف، فمِن خلق الحاجة وتوفيرِ مضمون الحاجة تُبتَلى، فهذه التفاحة التي خلقها الله على هذا الغصن هي لك، خَلَقَ التفاحة و غيرها من أجل أن تأكلها، وأودع فيك شهوةً كي تأخذها، لكن كيف تنتقل إليك ؟ إما شراءً، وإما ضيافةً، وإما هديّةً، وإما سرقةً، وإما تسوّلاً، فطريق الانتقال باختيارك وهي لك، فالله عزّ وجل يضع الإنسان في ظروف صعبة، هذه الظروف تكشف حقيقته تماماً، فالإنسان مهما حاول أن يخفي أحواله وحاول أن يخفي عن الناس حقيقته فالله عزّ وجل يعلم حقيقة كل إنسان، والإنسان كما قال الله عزّ وجل..

(بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

العاقل من آثر طاعة الله عز وجل على الدنيا و ما فيها:

الإنسان إذا تعامل مع الحقائق سَعِد في الدنيا والآخرة، وإذا تعامل مع الأوهام والتمنّيات شقي في الدنيا والآخرة.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ)

أيْ أنّ المرأة تُبْتَلى بها، فإما أن تزيدك طاعةً لله عزّ وجل، وإما أن تحرفك عن الطريق الحق، فالإنسان بعد الزواج، والزواج امتحان، إما أن تأخذ عليه.. هذه الزوجة.. كل اهتماماته، وإما أن تكون معواناً له على طريق الحق، المال إما أن يزيدك قرباً من الله عزّ وجل أو بعداً عنه، الوسامة، الجمال، الذكاء، الطلاقة، العلم، الجاه، كل حظوظ الدنيا إما أنها درجات ترقى بها، وإما أنها دركات تهوي بها..

(وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ(31))

قد تحتاج إلى المال، وهناك عدّة طرق لكسب المال لكنها غير مشروعة، فماذا تفعل ؟ وقد يؤخِّر الله لك الكسب المشروع، الباب المشروع مغلق، وغير المشروع مفتوح، هذا ابتلاء من الله، فهذا التأخير

في الكسب المشروع، وتوافر الكسب غير المشروع هذا ابتلاء، فالإنسان إما أن يصبر ويؤكِّد لنفسه أن طاعة الله أغلى عليه من الدنيا وما فيها، وإما أن تزل قدمه فيقول لك: أنا مضطر فماذا أفعل ؟

كل شيء ناله الإنسان من الله ممتحن به:

فأنت ممتَحَنْ في موضوعاتٍ ثلاثة ؛ ممتحن فيما أعطاك الله، وممتحن فيما حَرَمَكَ الله، وممتحن فيما أصابك من فعل الله من أمره التكويني، كل شيء نلته من الله ممتحنٌ به، والذي زواه الله عنك ممتحنٌ به، وفعل الله التكويني ممتحنٌ به، أعطاك حظوظًا معيّنة، قدر الله عزّ وجل وشاء لك أن تكون ذا دخلٍ محدود.. مثلاً.. أو دخل غير محدود، أو صحّة طيّبة أو مرض معيّن، أو زواج ناجح أو زواج غير ناجح، فأنت ممتحن..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31))

والحقيقة الابتلاء لا يكون في حالة الرخاء، أيْ أنه إذا كانت مصالحك كلها متوافقة مع عبادتك فليس هناك ابتلاء، متى يكون الابتلاء ؟ حينما تتعارض مصالحك مع شرع الله عزّ وجل، فلو فرضنا أن شاباً متزوّج ولكن عند أهله، والدته موجودة وزوجته، فإذا الزوجة والوالدة كانتا متوافقين توافقًا تامًا فلا امتحان عند الزوج، فمتى يُمتحن إذًا ؟ حينما يختلفان، فإما أن ينحاز إلى زوجته وقد تكون ظالمة، وإما أن ينحاز إلى أمه وقد تكون ظالمة، ففي حال الوفاق بين الزوجة والأم انتفى الامتحان، ليس هناك مشكلة، لكن متى يبدأ الامتحان ؟ حينما تتعارض الحقوق، أهو مع الحق أم مع أمه ؟ أهو مع الحق أم مع زوجته ؟ هو مع الحق حيثما كان الحق، فالإنسان بالزواج يمتحن، بالمال يُمتحن، بالفقر يمتحن، بالصحّة يمتحن، بالمرض يمتحن، بالغنى يمتحن، بالوجاهة يُمتحن، بالقوّة يمتحن، بالضعف يمتحن، كل وقت له امتحانه الخاص.

الكفر نوعان:

1- كفر بواح يُخرج من الملّة:

وبعد، مع الآية التي تليها:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

أيْ أنّ هذا الدين لا قيمة له عندهم، كفروا به، كفروا بأصله، كفروا بالوحي، أو كفروا بأحقيّته، أو كفروا ببعض أجزائه، فهناك أشخاص أحدهم يصلي ويصوم لكن قضيّة الربا غير مقتنع بها، فهذا

التحريم لم يعبأ به، وكفر به، فالكفر إما أن يكون واسعاً، وإما أن يكون ضيّقاً، إذا رفضت كل هذه الدعوة فهذا هو الكفر البواح الذي يُخرج من الملّة.

2 ـ كفر جزئي:

أما إذا قبلت هذا الدين ولم تقبل بعض أوامره ونواهيه فهذا كفر جزئي.

سعي الكافر دائماً لصرف الناس عن الدين بوسائل متعدِّدة:

على كلٍ فالآية يُقْصَد بها الذين كفروا في أصل الدين..

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا)

هذا الموقف الداخلي، كَفَرَ أيْ كذّب هذا الدين، كذّب هذا القرآن، كذّب الوحي، كذّب ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا كله تكذيب، والكفر معناه الإعراض، أيْ أنّه كذّب وأعرض، بينما الإيمان تصديقٌ وإقبالٌ..

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا)

فهذا الموقف العقائدي كفر، الموقف السلوكي:

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

أي أن الكافر دائماً يسعى لصرف الناس عن الدين بوسائل متعدِّدة، يصرفهم عن الدين بإلقاء الشبُهات، يصرفهم عن الدين بتفنيد حقائق الدين وإظهار أنها خطأ، هذه طريقة للصرف، يصرفهم عن الدين بتزيين الباطل، يصرفهم عن الدين بالشهوات، بالأموال، بالضغط، بالإكراه، بالتعذيب، بوسائل لا تعدُّ ولا تحصى يستخدمها الكفّار لصرف الناس عن الدين، إما بالتفنيد، وإما بالطّعْن، وإما بالتفجير من الداخل، وإما بإعطاء صور مشوّهة لرجال الدين، وإما بإلقاء الشُبهات، وإما بالإكراه المادي، وإما بالتعذيب الجسدي، وإما بإلقاء الفتن، وإما ببذر الشهوات.

حياة الكافر تكذيبٌ وإعراضٌ وصدٌّ:

هذه البرامج.. مثلاً.. التي تُبَثُّ فضائياً من دول كافرة من أجل أن تفسد أخلاق المسلمين، أليس هذا صدّاً عن سبيل الله ؟! هو من غير شك صدٌّ عن سبيل الله، هذه النظريات الهدّامة التي توضع بين أيدي المسلمين مبنيّةٌ على الكفر بأصل هذا الدين، والكفر بأوامره ونواهيه، هذه المبادئ الوضعيّة الهدّامة التي تخرج عن منهج الله عزّ وجل أليست صدّاً عن سبيل الله ؟ أجل هي صدٌّ عن سبيل الله، هذه

الشبهات التي يبثونها حول تعدد الزواج.. مثلاً.. والطلاق، وما جاء به الإسلام من قواعد شرعيَّة، فهناك من يأخذ بعضها ويشوهه ليظهر أن هذا الدين باطلٌ، هذا أيضاً صدٌّ عن سبيل الله، ولاسيما في العقدين الأخيرين من القرن الماضي فأساليب الكفّار الماكرة صارت لا تعد ولا تحصى فيما يتعلّق بصدِّ الناس عن سبيل الله، بل إن الحقيقة اتضحت في أن الكافر موقفه الداخلي تكذيب، موقفه النفسي إعراض، موقفه السلوكي صدٌّ عن سبيل الله، ثلاثة مواقف: عقيديًّا مكذِّب، نفسياً مُعْرِض، سلوكياً يصد الناس عن سبيل الله.. أبداً.. ولو درست حياة الكافر لما وجدتها تزيد عن هذه الخصائص، تكذيبٌ وإعراضٌ وصدٌّ، قال تعالى:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

تكذيب الكفار النبي الكريم قولاً و عملاً و سلوكاً:

بقي هناك شيء، أن هؤلاء الذين يدعون إلى الصدّ عن سبيل الله ويشاقون النبي عليه الصلاة والسلام قولاً و عملاً و سلوكًا..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(45)وَدَاعِيًا إِلَى اللّهِ)

(سورة الأحزاب)

فهو سيّد الدعاة إلى الله، لكنهم يشاقون النبي عليه الصلاة والسلام في حياته، أيْ يريدون أن يطفؤوا نور الله، يريدون أن يوقفوا دعوته، يريدون أن يتهموه اتهاماتٍ باطلة، يريدون أن يُخرجوه من بلده مكّة وقد أخرجوه فعلاً، يريدون لهذه الفئة التي آمنت به أن تُسْحَق، وأن تُسْتَأصل، وأن تُحارَب وقد حاربوها، هذا في حياته، بعد مماته..

(وَشَاقُّوا الرّسُولَ)

أي طعنوا في سُنّته، قالوا: يكفينا القرآن الكريم، لا نحتاج إلى سنّة، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: آية " 7 ")

الإنسان يدرك الحق بفطرته:

إذاً:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا)

كذّبوا، وأعرضوا، وصدّوا الناس عن سبيل الله، ثم إن هؤلاء الكفّار توجّهوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، في حياته كادوا له، في حياته كذّبوه، في حياته استخفّوا به، في حياته عذّبوا أصحابه، في

حياته أخرجوه من بلده، في حياته حاربوه، وبعد مماته حاربوا سنّته، وحاربوا منهجه القويم، وقياساً على ذلك الدعاة إلى الله عزّ وجل حينما يُنال منهم ظلماً وعدواناً فهذا نيلٌ من النبي عليه الصلاة والسلام لأنهم يسيرون على منهجه ويقتفون أثره..

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقُّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى)

والحقيقة أن الإنسان يُدْرِك الحق بفطرته، حتى هؤلاء الذين أشركوا يوم القيامة يقولون:

(وَاللّهِ رَبّنَا مَا كُنّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (24))

(سورة الأنعام: آية " 24 ")

فالإنسان بفطرته يدرك الحقيقة..

كفّار الأرض على كفرهم لن يضروا دين الله عزّ وجل:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقُّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

قال العلماء: هذا قرار إلهي، أيْ أنّ كفّار الأرض على كفرهم، على تكذيبهم، على إعراضهم، على صدِّهم عن سبيل الله، على نيلهم من النبي عليه الصلاة والسلام، بقوّتهم، بجموعهم، بأموالهم، بذكائهم، بأجهزتهم لن يضروا الله شيئًا و لا رسوله، وهم:

كناطح يوما صخرة ليوهنها فلم يضرها و أوهى قرنه الوعلُ

* * *

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقُّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا)

طبعاً لن يضروا الإله، فهذا شيء بديهي جداً لا يمكن أن يُقبَل كمعنى للآية، المقصود لن يضروا دين الله عزّ وجل، الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

(صحيح مسلم: عن أبي ذر)

دين الله عز وجل لن يزيده الله إلا قوة و منعة و بأساً:

إذاً هذا قرار إلهي، أي أن أهل الأرض لو أنهم كلهم كادوا لهذا الدين فلن يضروا الله شيئاً، والتاريخ أمامكم، كفّار قريش هم الأقوياء، هم الأغنياء، هم السادة، هم عليّة القوم، هم أشراف القبائل، وضعوا كل طاقتهم لدحض هذا الدين، ما الذي حصل في النهاية ؟ أتمّ الله نوره وأخزاهم وجعلهم في مزبلة التاريخ، هذه الحقيقة، ولا توجد جهة تقف في وجه الدين إلا سيحبط الله عملها، هذه الآية حقيقة ثابتة، هذه سنّة من سنن الله في خلقه، فالكفّار لن يضرّوا الله شيئاً.. ما ضرّ السحاب نبح الكلاب.. ما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلامٌ بحجر.. لو تحوّل الناس إلى كنّاسين لِيغبّروا على الإسلام لما غبّروا إلا على أنفسهم..

هذه الآية ينبغي أن تبثّ الثقة في نفوس المؤمنين، فمهما كان الكافر قوياً، مهما كان غنياً، مهما كان ذكياً، مهما امتلك من وسائل الدمار، هذه القلعة التي كانت من أقوى قِلاع الكفر في العالم ألم تتهاوى أمامكم كبيت العنكبوت ؟! هل استطاعوا أن يستأصلوا هذا الدين من نفوس المسلمين ؟ ما استطاعوا، سبعين عامًا يجرّدون قواهم ويقمعون قوى الإيمان والإسلام وفي النهاية ظل الإيمان أعمق في قلوب المسلمين من تجريدهم ومن قمعهم.. فلذلك يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا)

أيْ لا تقلق على هذا الدين لأنه دين الله، لا تقلق عليه أبداً مهما كاد له الكفّار، مهما بدت لك المعركة شرسةً، لو رأيت حرباً عالميةً تُقام على هذا الدين، فهذا الدين لن يزيده الله إلا قوةً ومنعةً وبأساً.

إحباط عمل الكفار من قِبل الله عز وجل و لو كان كالجبال:

أما القرار الثاني..

(وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

أول قرار:

(لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا)

أيْ أنّ الدين راسخ صرحه لا يتأثّر مهما أرجف المرجفون و تمادى الناعقون، ولو أن الناس جميعاً حاربوه، لو أن الناس جميعاً كادوا له، لو أن الناس جميعاً استخدموا كل ما يملكون للنيل منه..

(لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا)

أي لن يضروا دين الله شيئاً، وانتهى أمرهم إلى ضلالٍ وإلى بوارٍ.

(وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

أعمالهم لو أنها كالجبال..

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

دين الإسلام ثابت لن ينتهي و لو كاد له الكائدون:

أحياناً الله عزّ وجل يُلقي في قلب الكفّار الرُعْب، وفي قلب المؤمنين الثبات، فترى الثبات العجيب، شيء يفوق حد التصوُّر، قلّة قليلة تصمد أمام أكبر قوّة ؟! عشرة أسابيع وهي صامدة، فما هذا الإيمان؟

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرّوا اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

هذه الآية دقيقة المعاني والدلالات جداً أيها الأخوة، لا تقلق على دين الله، لا تقل: انتهينا، لا لم ننته، هذا الدين لا ينتهي لأنه دين الله، مهما كاد له الكائدون، مهما تنكّر له المتنكِّرون، مهما طعن به الطاعنون، مهما حاربه المحاربون، إن الذين كفروا..

(لَنْ يَضُرّوا اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

هذا العمل المُعَدّ له إعداداً كبيراً سيتهاوى كبيت العنكبوت، يُحْبِطُ الله أعمالهم..

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية " 36 ")

الفِرَق الضالة التي أرادت أن تكيد للإسلام أين هي الآن ؟ كلّها تلاشت، لو قرأت التاريخ الإسلامي تجد أنّ كل هؤلاء الذين كادوا لهذا الدين تلاشوا وانتهوا.

تعاطف المؤمن مع الكافر يؤدي إلى إحباط عمله:

لكن ألق السمع لهذه الآية بعد كل ما مضى:

(يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33))

قد يسأل سائل ما علاقة هذه الآية بالتي قبلها ؟

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرّوا اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

فالخطاب فيها يتحول للمؤمنين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33))

بعضهم قال: **" قد يكون للمؤمن مع الكافر مصالح، كعلاقات تجاريّة، أو علاقات قرابة، وعلاقات نَسَب، فلو أن المؤمن تعاطف مع الكافر في عمله فقد أحبط عمله.**

العلاقة الحميمة بين المؤمن و الكافر منهي عنها:

ربنا عزّ وجل يحذِّر المؤمن من أن تزلّ قدمه وأن يرضى عن عمل الكافر، يحذِّر المؤمن من أن يعشو بصره ويؤيّد كافراً في عمله، يحذِّر المؤمن من أن يزيغ قلبه ويدعم الكافر انطلاقاً من مصلحته، هذا الشيء غلط كبير، لو أن المؤمنين في جهة، والكفار في جهة فالقضية سهلة، ولكن أحياناً يكون هناك تداخل مصالح، فالذين آمنوا عليهم ألاّ تزلّ أقدامهم، طبعاً قد يكون إيمانهم ضعيف، الله عزّ وجل يخاطب المؤمنين دائماً ويأمرهم بأوامر هي في الأصل موجودة لديهم لكن إذا قيل لإنسان يصلي: صلّ، أيْ اثبت على صلاتك، وإذا قلنا لإنسان صلاته ناقصة: صلّ، معناها أتمم صلاتك، وإذا قلنا لإنسان لا يصلي: صلّ، معناها صلّ فعلاً، فإما أن تكون بعيداً عن هذا الأمر فمعنى الأمر إذًا أن تفعله، وإما أن يكون هذا الأمر عندك ليس كاملاً فمعنى الأمر أن تكمِّله، وإما أن تكون مطبّقاً له تماماً فمعنى الأمر أن تثبت عليه، إما الثبات، وإما الكمال، وإما الابتداء بالعمل، هذا معنى الأمر، فلو أن بين المؤمنين أناساً ضِعافاً في إيمانهم وهم على علاقةٍ مع الكفّار، والكافر هذا موقفه ؛ تكذيبٌ عقيدي، وإعراضٌ نفسي، وصدٌّ سلوكيٌّ عن سبيل الله، وكيدٌ للنبي وأتباعه من بعده..

(وَشَاقُّوا الرَّسُولَ)

من خصائص الكافر الإعراض مع الصدّ:

التكذيب مع الإعراض مع الصد مع النَيل هذه خصائص الكافر، لو أن هناك تداخل بين الناس، إنسان مؤمن له مع كافر مصلحة في ميراث، في قضيّة، في شراكة، وكيل شركة فرضاً، فهناك بينهم علاقات، فعندما يرضى المؤمن عن فعل الكافر فقد شاركه في الإثم، وكلكم يعلم أيها الأخوة، " من أعان ظالماً سلّطه الله عليه ". هنا النقطة دقيقة جداً: مؤمن له علاقة مع كافر، علاقة قرابة، أو علاقة مصلحة، أو علاقة شراكة مثلاً، أحياناً يكون ميل لمصلحته، والكافر هذا موقفه ؛ تكذيب وإعراض وصدّ عن سبيل الله ونَيل من النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا المؤمن سكت، أو أقرّه على عمله، أو

تياسر معه فقد حَبط عمله، فجاء الآن التحذير أن: أيها المؤمنون إن الكفّار هذه خصائصهم والله سبحانه وتعالى سيخذلهم، وسيخزيهم، وسيحبط أعمالهم فإياكم أن تزلّ أقدامكم فتكونوا على شاكلتهم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33))

فالعلاقة الحميمة مع الكافر منهي عنها..

من هوي الكفرة حُشِرَ معهم ولا ينفعه عمله شيئاً:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة: آية " 13 ")

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

(سورة المائدة: آية " 51 ")

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

(سورة آل عمران: آية " 28 ")

من هوي الكفرة حُشِرَ معهم ولا ينفعه عمله شيئاً، من أقام مع الكفّار برئت منه ذمّة الله. يحصل تداخل، هذا التداخل ينقلك شيئاً فشيئاً إلى طريقتهم، وإلى إعراضهم، وإلى حبّهم للدنيا، فلابدّ للمؤمنين من أن يتعاونوا، لابدّ للمؤمنين من أن يشكّلوا مجتمعاً نظيفاً، مجتمعاً تسود فيه الشعائر الدينيّة، يسود فيه النظام الإسلامي، أما التداخل فربما أدّى إلى مذلة القدم..

جهنم عاقبة من مات كافراً:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

مرّة ثانية..

(وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34))

الإنسان إذا مات كافراً فهو في جهنّم إلى أبد الآبدين، والإنسان إذا أقرّ لله بالتوحيد، وللنبي بالرسالة، ولهذا القرآن بالمصداقيّة، فإذا كان منه معاصٍ يُحَاسَبُ عليها حساباً دقيقاً لكن الخلود في النار لمن مات كافراً، مات منكراً لهذا الدين، مات منكراً للتوحيد، منكراً لهذا القرآن، منكرًا لهذه الرسالة..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34))

هذه (لن) تفيد تأبيد النفي، نفي المستقبل..

(فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34))

المؤمن الصافي عليه ألا يمتزج بعلاقة حميمة مع الكافر المنحرف:

لذلك القرآن الكريم يقول:

(إِنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

(سورة النساء: آية " 48 ")

سياق هذا الآيات يدعونا إلى هذا التوضيح، فما الذي يصرف الإنسان عن الدين ؟ عَلاقة حميمة مع كافر، أو مع منافق، المنافق كافر ولكن في غلاف إسلامي طبعاً لمصالح يراها، فالإنسان عندما يكفر وله غلاف إسلامي هش رقيق فهذا منافق، فالمنافق والكافر واحد، فلئلا تكون هناك علاقات، أو مصالح مشتركة، أو محاولة للتعاون، هذا مما يدفع المؤمن إلى أن تزلّ قدمه، لذلك فعلاقات المؤمن الحميمة يجب أن تكون مع المؤمنين:

((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم، عن أبي سعيد]

وأنت حينما تعيش مع المؤمنين تسعد بهم، فلا توجد تناقضات، علاقاتك الحميمة إن كانت مع المؤمنين فأنت بها سعيد، لأن الذي تحرّمه أنت يحرّمه المؤمن، والذي تحلّه يُحلّه، والذي تؤمن به يؤمن به، والذي تكفر به يكفر به، والذي يؤلمك يؤلمه، والذي يسعدك يسعده، هذا التوافق، فكأن هذه الآية تريد ألاّ يمتزج المؤمن الصافي بعلاقة حميمة مع الكافر المنحرف، هذا الذي جعل الآية بين الآيتين..

من تعاطف مع المنافق و مال إليه فقد حبط إيمانه:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقُّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ)

أيْ الزموا طاعة الله عزّ وجل، الزموا منهج الله عزّ وجل، إياكم أن تزلّ أقدامكم فتقتربوا من أهل الكفر، فتجاملوهم، تداهنونهم، تقرُّونهم على أعمالهم، ترضون منكراتهم، ترضون أعمالهم..

(أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33))

معنى هذا إذا أنتم تعاطفتم وملتم إليهم، أو دعمتموهم، أو أقررتموهم فقد حبط إيمانكم والنبي الكريم يقول: إن الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق. لماذا ؟ لأنك إذا مدحت الفاسق وهو فاسق عند الله وأنت مدحته فما الذي يحصل ؟ الجهلة يظنّون فسقه طاعة، ما دام مُدِح فهذا إذًا بريء، فالله عزّ وجل لا يريد أن يُمْدَح الفاسق، لك قريب لا يصلي مثلاً، لك قريب يحمل شهادة عُليا ولا يوجد عنده التزام بالدين إطلاقاً، فلو أنت أثنيت عليه أمام أولادك ثناء كبيرًا، أثنيت على ذكائه، وعلى فهمه، وعلى حكمته وهو لا

يصلي، ولا يصوم رمضان.. مثلاً.. ولا يعبأ بأوامر هذا الدين، وقد تزلُّ قدمه إلى معصيةٍ ويراها هو شيئاً طبيعياً، فهذا الابن إذا سمعك تمدح هذا القريب الفاسق غير الملتزم فأنت بذلك توقعه في حرج كبير، تجعل عقيدته مضطربة.

غضب الله عز وجل إن مدح الفاسق:

لذلك: إن الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق، فهذه الآية جاءت بين آيتين: الأولى(إن الذين كفروا)، والثالثة: (إن الذين كفروا)، بينهما(يا أيها الذين آمنوا)، معنى ذلك أن المؤمن معرّض أن ينحرف، أن يقترب، أن يُقِر، ولا يغيب عن أذهانكم أن النبي الكريم يقول:

((الذنب شؤم على غير صاحبه))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

إن الذنب شؤمٌ على غير صاحبه الآن إن رضيه يعني غير صاحبه فقد شاركه في الإثم، إذا كان لك صديق مؤمن وقع في ذنب أو ارتكب معصية أو مخالفة، وأنت لم تقل إلا: هو مضطر فدبّر حاله، هل تدري أنك بهذه الكلمة أصبحت شريكاً له في الإثم ؟ أنت لم تفعل شيئًا، هو الذي أكل المال الحرام، هو الذي فعل هذا الذنب، لكنك حينما قلت عنه: إنه دبّر حاله لأنه مضطر، أقررته على هذا العمل، فأنت شريكه في الإثم..

((فالذنب شؤمٌ على غير صاحبه إن رضي به فقد شاركه في الإثم، وإن ذكره فقد اغتابه، وإن عيّره ابتلي به))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

فانتبه إذا زلّت قدم أخيك المؤمن بذنب فإن ذكرت هذا الذنب فقد اغتبته، وإن رضيت به فقد شاركته في الإثم، وإن عيّرته ابتليت به، يجب أن تقول: أصلحه الله ووقاني الوقوع في هذا الذنب، ادعُ له بالصلاح واستعذ بالله من أن تزلّ قدمك، هذا شأنك مع المؤمن، فكيف بالكافر إذا أثنيت على ذكائه، على اختراعاته، على نظامه، أحياناً إنسان يذهب إلى أوروبا ويعود فيملأ أسماع أهله لشهرين أو ثلاثة مديحاً لأولئك القوم ؛ فالنظام، والترتيب، والحدائق، والأبنية، ومحلات البيع، والمواصلات، والاتصالات الرائعة، ويكون قد رأى آلاف المنكرات والقبائح والانحرافات والانحلال الأخلاقي وهذا يسكت عنه، يذكر الشيء الإيجابي فقط ويسكت على السلبي، بينما إن رأى في بلده أمراً سلبياً يضخِّمه وينسى الإيجابيّات.

أكبر خطر أن يموت الإنسان كافراً:

وبعد إليكم آخر خبر قد سمعته عن الإيدز: إنه يوجد في العالم خمسة عشر مليونًا مصابون بالإيدز، قالوا: هذا الرقم هو نصف الرقم الحقيقي، وهناك تجري إحصاءات كم يموت بالدقيقة، أما العالم الإسلامي فقد سمّاه الأجانب الحزام الأخضر لهذا المرض، شيء قليل جداً لا يُذكَر، والمصابون أساسهم كانوا في الغرب، الحِزام الأخضر لهذا المرض، نسبة الطلاق في أمريكا اثنان وستون بالمئة، أيْ أنّ بين كل مئة زواج اثنين وستين حالة طلاق، في ألمانيا ستة وثلاثون، وفي العالم الإسلامي أو في سوريا بالذات ثلاثة بالألف نسبة الطلاق، هذا عدا استهانتهم بالدين، فآثار العمل به ضعيفة..

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ ثُمّ مَاتُوا وَهُمْ كُفّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ (34))

أيْ أنّ أكبر خطر أن يموت الإنسان كافراً، والكفر كما قلت لكم قبل قليل: تضيق دائرته وتتسع، تضيق دائرته فيصبح كفراً بواحاً، وتتسع إذا طبّقت أمراً ما وقلت: غير معقول أن يُطبّق هذا الأمر، ليس هذا الأمرُ لهذا الزمان، أنت ماذا قلت ؟ كأنك كذّبت قول الله عزّ وجل أو اعترضت عليه:

(لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

شرع الله عز وجل كامل لا يحتاج إلى أي تبديل أو تعديل:

إذا كنت قلت: هذا الأمر صعب تطبيقه ومستحيل تطبيقه، بينما هذا أمر قد نصّ عليه في القرآن الكريم، والله عزّ وجل يقول:

(لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

معنى ذلك أنك أنكرت آيةً في كتاب الله، وهو إنكار لفظي.. إنكار نطقي.. إنكار عملي، فتضيق الدائرة حتى يصبح كفراً بواحاً، وتتسع حتى يشمل أي إنكارٍ لأمرٍ من أوامر الله، يا أخي هذه غير معقولة، هذه لا تصير في هذا الزمان، الله عزّ وجل قال:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: آية " 3 ")

هذا الشرع من حيث عدد القضايا التي طرحها تام، ومن حيث طريقة المعالجة كامل، وأية إضافةٍ على هذا الشرع هي إضافةٌ باطلة لأنها بدعة..

((كل محدثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالةٍ في النار))

[مسلم والنسائي، واللفظ له عن جابر]

لأنه شرع الله عزّ وجل، الله عزّ وجل خبرته قديمة، شيء بديهي جداً أن تنفي عنه البداءة، البداءة أنه بدا له شيءٌ لم يكن بادياً من قبل فعدّل رأيه، هذا من شأن الإنسان ينظِّم تنظيماً معيَّنًا، يرى الخلل فيجري تعديلاً يلغي النظام كلّه ويحدث غيره، ففي تبدُّل مستمر، لكن الله سبحانه وتعالى شرعه كامل، وحكيم، ولا يحتاج إلى إضافة، ولا إلى حذف، ولا إلى تعديل.

المؤمن يحمل عقيدة هي أعلى عقيدة مطابقة للواقع:

الآية تذكِّرنا بأن الله سبحانه وتعالى عنده ذنبٌ يُغفَر، وعنده ذنبٌ لا يُترك، وعنده ذنبٌ لا يُغْفَر، أما الذي يُغْفَر فما كان بينك وبين الله، وأما الذي لا يُتْرَك فما كان بينك وبين العبيد من حقوق، حقوق الله عزّ وجل مبنيَّةٌ على المسامحة، وحقوق العباد مبنيَّةٌ على المشاححة، وأما الذنب الذي لا يُغْفَر فالإشراك بالله عزّ وجل، الإشراك بالله لا يُغْفَر، فهذا الذي مات كافراً..

(فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

أنتم الأعلون، أعلون بعقيدتكم، وتصوراتكم للكون والحياة والإنسان، المؤمن يحمل عقيدة هي أعلى عقيدة مطابقة للواقع.. قال لي شخص: كنت في بلد في آسيا، وأمُّ مدير الشركة الذي علاقتي معه توفيت، فتوقَّع أن تلغى المواعيد كلها في اليوم التالي، فقال له: لا مانع كل شيء على حاله القديم فقال له: ووالدتك ؟ قال: أضعها في البراد شهرين أو ثلاثة حتى يأتي دورها بالحرق، ثم ماذا ؟ نحرقها لأن القبر يكلِّف ثلاثة ملايين والحرق يكلِّف مليون، كلفة الحرق أقل.. نحرقها ونضع رمادها في قارورة صغيرة، ثم ماذا ؟ ثم نضعها في بيت العبادة لكي تتقدَّس وفي الأعياد نأخذ هذه القارورة إلى بيتنا لنتبارك بها.. فتلك معتقداتهم، والزوجة تُحْرَق مع زوجها إذا مات الزوج، تُحْرَق معه في الهند فهناك أديان، وخرافات، وعقائد باطلة، ودجل، وتزوير..

المؤمن عال بعقيدته و تصوره للكون والحياة والإنسان:

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)

بعقيدتكم، عقيدتك أيها المسلم وفق الحقيقة المُطْلَقَة، عقيدتك وفق العلم، وفق الواقع، وفق الفطرة..

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)

وأنتم الأعلون بتوجهكم إلى الله عزّ وجل، وأنتم الأعلون بمنهجكم القويم، وأنتم الأعلون بسلوككم القويم، باستقامتكم، وأنتم الأعلون لأن الله معكم، لأن القوة الكُبرى في الكون معكم، لذلك:

(فَلَا تَهِنُوا)

ليس من الإيمان أن تشعر بالهوان، أنت عبد لله والله معك، ليس من الإيمان أن تيأس، ولا أن تخنع، ولا أن تخضع، ولا أن تستخذي، ولا أن تشعر ألاّ دور لك في الحياة، فأنت بإيمانك كل شيء، وأنت وأمثالك الأعلون ؛ قال سبحانه:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ)

أي الاستسلام..

كل عمل صالح يفعله المؤمن لا يُقْطَع عنه خيره ولا يغبن فيه:

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)

أنت مؤمن، أنت على الحق، وبالحق، ومن أجل الحق تعمل، التصوّر صحيح، العقيدة صحيحة، المنهج قويم، المبادئ سليمة، القِيَم رفيعة، المنهج أخلاقي، الهدف الجنة، القوة الكُبرى في الكون معك الله معك، أعلون لأن الله معكم، تصور لو كانت جهة قوية جداً وأمامها ضعيفان، فإذا كانت هذه الجهة القويّة مع أحدهما صار قوياً بها، إذا دعمَك أكبر شخص قوي فأنت أقوى من كل قوي، لذلك:

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

أي أنّ كلّ عمل صالح تفعله لا يُقْطَع عنك خيره ولا تغبن فيه.

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ آية تبثُّ في المؤمنين المعنويات العالية:

أيها الأخوة الكرام مرّةً ثانية هذه الآية أيضاً تبثُّ في المؤمنين المعنويات العالية إن صحَّ التعبير..

(فَلَا تَهِنُوا)

يجب أن تشعر أنك بإيمانك بالله، ومعرفتك بمنهجه، وطلبك للآخرة أنت أعظم الناس، لا تخضع، لا تحتقر نفسك، لا تضع نفسك موضعاً لا يرضي الله عزّ وجل، لا تيأس من نصر الله، لا تستخذي، لا تخنع، لا تضعُف قِواك أمام العقبات الكأداء..

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)

أنتم أعلون بعقيدتكم، أعلون بتوجّهكم، أعلون بمنهجكم، بقيمكم، بمبادئكم، باستقامتكم، بأهدافكم..

الله عز وجل مع المؤمن بالتأييد و الحفظ و النصر:

(وَاللَّهُ مَعَكُمْ)

وهذه معيَّةٌ خاصَّة، الله عزّ وجل مع كل مخلوق معيَّةٌ عامة..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية " 4 ")

أي معكم بعلمه، لكن هذه المعيَّة خاصَّة للمؤمنين ؛ معكم بالنصر، والتأييد، والتوفيق، والحفظ..

أعمال الإنسان الصالحة يضاعفها الله له يوم القيامة أضعافاً مضاعفة:

(وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

أي أن حجم أعمالكم، تضحياتكم، استقامتكم، الجهاد الذي تجاهدون به أنفسكم، فجهاد النفس يحتاج إلى جهد كبير، فضبط الشهوات، وضبط الجوارح، وضبط الدخل، وضبط الإنفاق، والبحث عن زوجة صالحة، هذا كلّه يحتاج إلى جهد، قال:

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

خدمت المسلمين، نصحتهم في عملهم، قدّمت شيئًا من مالك، من وقتك، من جهدك، من راحتك..

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

عملك محفوظ، بل يضاعفه لك أضعافاً كثيرة، الإنسان في الدنيا قد يضع اللقمة في فم زوجته فيراها يوم القيامة كأُحُد ثواباً، الله عزّ وجل ينمِّيها له، فأعمالك الصالحة ينميها الله كلها نماءً كبيراً..

دين الله لن تزيده الضغوط إلا قوّةً و ثباتاً:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

ملخّص الدرس: أن الله سبحانه وتعالى يبيّن أن خصائص الكافر تكذيبٌ بالحق، وإعراضٌ نفسيٌّ عن الله، وصدٌّ للناس عن سبيل الله، ومشاققةٌ لرسول الله في حياته وبعد مماته، في حياته تآمرٌ عليه، وبعد موته انتقاصٌ من سنّته، ولأتباعه من بعده، فهذا شأن الكافر، ومع كل الجهود، والأموال، والتخطيط، والقوى، والكَيد، مع كل هؤلاء قال:

(لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا)

دين الله لن تزيده الضغوط إلا قوّةً، ولن يزيده الإنكار إلا تأجُّجاً، ولن يزيده حرص الأعداء على زواله إلا ثباتاً وبقاء، والتاريخ أمامكم..

(وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

دين الله لا يتأثّر لكنهم هم سيتأثّرون..

ثقة المؤمن بالله عز وجل أساس إيمانه بالله تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

دولة استعمارية احتلّت بلداً عربياً وأراد أن يسيره تسييراً غير ديني، فأنشأت أكثر من أربعة آلاف معبد غير إسلامي، ثم تحوّلت كلها إلى مساجد بعد الاستقلال، فلذلك على المسلم أن يكون دائماً حريصاً على ثقته بالله سبحانه وأن تنمو وتتأجج و يعظِّم هذا الدين، الذي ارتضاه الله لعباده.

(لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

والله حذّر المؤمنين من أن تزلّ أقدامهم فيقرّوا الكافرين على أعمالهم، باتصال مصالح، بعلاقات معيّنة، بقرابة، بأشياء.

على المؤمن أن يتعامل مع الله تعالى بالصدق والإخلاص والطاعة:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ ثُمّ مَاتُوا وَهُمْ كُفّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(35))

هذه الآية وحدها تكفينا، ثق بنصر الله، بتأييده الفردي أو الجماعي، وأنت إذا أطعت الله عزّ وجل لابدّ من أن ترى آيات الله واضحة جليّة، إن أطعته لابدّ من أن ترى ما يرضيك، عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي في ما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي في ما أريد أتعبتك في ما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

المؤمن يتعامل مع الله تعاملاً مباشراً، يتعامل مع الله بالصدق والإخلاص والطاعة، والله عزّ وجل يريه من آياته العجب العُجاب في كل زمان، في كل مكان.

الله سبحانه وتعالى يوفِّق المؤمن ويؤيده ويبث في نفسه الطمأنينة والثقة:

سيدنا يونس دخل في بطن حوت، نادى في الظلمات ؛ ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، ثلاث ظلمات..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ (88))

(سورة الأنبياء)

هذه القصّة هنا انتهت، أما التعليق الذي جعلها قانوناً هو:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

في كل زمان عند كل كرب ننجي المؤمنين، والقصص التي تُروى لا تعد ولا تحصى، كيف أن الله سبحانه وتعالى يوفِّق المؤمن، ويؤيده، ويبث في نفسه الطمأنينة والثقة، ويرفع من شأنه، ويُعلي مقامه، ويرفع ذكره، وينصره على خصومه..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

على المؤمن أن يغير ما بنفسه حتى يغير الله ما به:

والآية الكريمة التي تعرفونها جميعاً والظرف مناسب لأن نذكرها فهذا المقام مناسبتها:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

أنت عليك أن تعبده وعلى الله التوفيق والتأييد، عليك أن تطيعه وعلى الله النصر و الإنجاح: "....لا يغير الله ما بقومٍ حتى يغيروا ما في أنفسهم ".. العقبة عندنا، علينا أن نغيّر ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا من كرب، ما بنا من قهر، فهذا الذي يجري في العالم الإسلامي يتألّم له كل مسلم، فالحل أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا، وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (8-8): تفسيرالآيات 36-38 ،قيمة الأنسان عند ربه تتعلق بقيمة عمله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-01-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثامن والأخير من سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

الله عز وجل نهى عبده المؤمن عن الاستكانة و الضعف:

مع الآية الخامسة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

هذه الآية وحدها تملأ قلب الإنسان المؤمن رضاً وثقةً بالله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نستكين، عن أن نستخذي، عن أن نضعف، عن أن تضعف معنوياتنا، عن أن نستسلم لمصيبةٍ دون أن نتحرك، الله سبحانه وتعالى لا يرضى لنا هذه الحالة لأننا عباده،

((إِنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[سنن أبي داود عن عوف بن مالك]

هذا الحديث أيها الأخوة وحده لو تدبره المسلمون اليوم لكانوا في حالٍ غير هذه الحال:

((إِنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ))

على الإنسان أن يبذل كل ما في وسعه قبل أن يستسلم و يضعف:

الإنسان قد يستسلم لمصيبة، يخضع لظالم، يستخذي، يقنع، يقول: هذا حظي، هذا ما أراده الله لي، لن تقوم لي قائمة..

((إِنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ))

يلومك على استسلامك و استخذالك.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

((وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ))

التدبير، دبّر أمرك، اتخذ بالأسباب، اسأل، ارفع قضيتك لمن تثق بعدله، تحرّك، لا تستسلم، لا تيأس.

((إنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ.. سلامة التصرف والتدبير، قال: فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

لا يُقبَل منك أن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل إلا عندما تبذل كل ما في وسعك من أسباب، والله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة يشاء لك أن تكون هكذا. فلذلك يقول الله عزّ وجل:

(فَلَا تَهِنُوا)

آيات التوحيد تملأ القلب طمأنينة و ثقة:

أنت غالٍ على الله، أنت مؤمن، والأمر بيد الله، لا يوجد إله آخر..

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية " 84 ")

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية " 123 ")

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

(وَاللّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: آية " 41 ")

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(أَلا إِلَى اللّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ(53))

(سورة الشورى)

هذه آيات التوحيد احفظها عن ظهر قلب، آيات التوحيد تملأ القلب طمأنينة، تملأ القلب ثقة، تورث القلب راحة، آيات التوحيد، ليس إلا الله، ليس في الكون إلا الله، وكل ما تراه صورٌ بصور.

من توكل على الله كان أقوى الناس:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ)

أن تتنازل عن حقوقك، وأن تتنازل عن كرامتك، وأن تبذل ماء وجهك، وأن تصير خطيئة لإنسان، وأن تصير مستضعفًا، لا. فليس هذا حال المؤمن أبدًا. فالمؤمن عزيز.

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ)

بربكم طفلٌ صغير أبوه ملك البلاد أليس أقوى من أقوى قويٍّ في هذه البلاد ؟ الطفل قوي بقوة أبيه، والطفل غني بغنى أبيه، والطفل يعلم بعلم أبيه.

(وَاللَّهُ مَعَكُمْ)

القوة الوحيدة في الكون معكم إذا كنتم مؤمنين، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، المؤمن قوي جداً، لا لأنه قوي، بل لأنه مستقيمٌ على منهج الله، والله لا يتخلى عنه، هذه قوته فقط، قوته ليست ذاتيةً، قوته من تأييد الله له، من توفيق الله له، من حفظ الله له، من نصر الله له، هذه قوته، ليست قوته ذاتيه، لكن باتصاله بالله، واستقامته على منهجه، وإقباله عليه، فهو يستمد قوته من الله سبحانه.

المؤمن الحقيقي لا يستسلم إلا لله عز وجل:

الآية دقيقة المعنى و الدلالات واضحة جداً:

(فَلَا تَهِنُوا)

لا تخشع لغير الله عزّ وجل، لا تذل نفسك لغير الله عزّ وجل، لا تبذل ماء وجهك لسبب تافه، لا تضيّع كرامتك، لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير.

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ)

تتخلى عن حقوقك، تتخلى عن كرامتك، تتخلى عما هو لك لأنك تظن أنك أضعف من الكافر، فالكافر من أين أتته قوته ؟ الذي أعطاه القوة يعطيك أمثالها وأضعافها، فالمؤمن لا يستسلم إلاّ الله.

المؤمن عال بمنهجه و قيمه و عقيدته:

(وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)

تصميم، أنتم الأعلون بعقيدتكم، أنتم الأعلون بمنهجكم، أنتم الأعلون بقيمكم، أنتم الأعلون بأخلاقكم، أنتم الأعلون بتأييد الله لكم.

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ)

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ تصور: مجنّد غر هدده عرّيف في الجيش، ووالده قائد الجيش، فانخلع قلبه من الخوف أليس هذا غبياً وجاهلاً ؟

عمل الإنسان محفوظ و يحاسب عليه يوم القيامة:

لذلك:

(وَاللّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

مهما عملت عملاً دقيقاً، قليلاً، صغيراً فالله سبحانه وتعالى يحفظه لك ويثيبك عليه.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

جئتَ إلى مجلس العلم من مكان بعيد، استغرق الطريق ساعة، فهذا محفوظ لك، أدّيت الصلوات في أوقاتها، أنفقت من مالك الحلال الذي كسبته بكد يمينك وعرق جبينك، عملك محفوظ، أمضيت الساعات الطوال في طلب العلم عملك محفوظ، كظمت الغيظ في سبيل الله عملك محفوظ، رضيت بقضاء الله وقدره عملك محفوظ، بذلت جهداً كبيراً في خدمة الآخرين عملك محفوظ، دعوت إلى الله عملك محفوظ، و كل ذلك مُثابٌ عليه.

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

الله عز وجل مع المؤمن يؤيده بنصره:

أنت تتعامل مع خالق الكون، مع رب العالمين، أيعقل أن يضيّعَ عليك عملك ؟ هذا يتنافى مع كمال الله، يتنافى مع رحمته، يتنافى مع عدالته، والتاريخ أمامكم، الباطل له جولات لكن الحق هو المنتصر أخيراً، الإنسان المنحرف ربما تاه على عباد الله لكن الله مع المؤمنين ؛ ينصرهم ويحفظهم، ويؤيدهم، ويوفقهم، ويعلي قدرهم، ويسدِّد خطاهم، ويرفع ذكرهم، وهذا التاريخ صحائفه بين يديك، هؤلاء الذي آمنوا برسول الله هم في العلياء، والذين حاربوهم في مزبلة التاريخ، أين أبو لهب ؟ أين أبو جهل ؟ أين أمية بن خلف ؟ هؤلاء صناديد الكفر، أقوياء مكة أين هم ؟ وأين سيدنا الصديق ؟ سيدنا عمر ؟ سيدنا عثمان بن عفان ؟ سيدنا علي ؟ هؤلاء الأصحاب الكرام هم في أعلى عليين، وتاريخ البشر يشفُّ عن هذه الحقيقة.

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

الله سبحانه وتعالى لا يضيّع أجر من أحسن عملاً:

واللهِ أيها الأخوة... لزوال الكون كله أهون على الله من أن يضيّع على مؤمن عمله الصالح، اعتنيتَ بأولادك تعبك محفوظ، صبرت على زوجتك صبرك محفوظ، كظمت غيظك كظمك محفوظ، عُرضَت لك الدنيا من طريقٍ مشبوه فعففت عنها، وقلت: حسبي الله ونعم الوكيل، والله الغني، عرض عليك مبلغٌ ضخم أنت في أمسّ الحاجة إليه لكنه من طريقٍ مشبوه فعففت عنه وبقيت على دخلك القليل، عملك محفوظ، فالله سبحانه وتعالى لا يضيّع أجر من أحسن عملاً.

((البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان))

[أخرجه عبد الرزاق في الجامع عن أبى قلابة]

البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت، السعيد من أمضى حياته في الأعمال الصالحة، في خدمة الخلق، في معرفة الحق، في الأمر بالمعروف، في النهي عن المنكر، في إقامة شرع الله عزّ وجل، في نصر دين الله، لأن كل هذه الأعمال سوف يكافأ عليها المؤمن أضعافاً مضاعفة، وقد يكافأ عليها بغير حساب، فالزوج إن يضع اللقمة في فم زوجته فهي له صدقة، إن يتصدق باللقمة من الطعام، يرَها يوم القيامة كجبل أحد، الله كريم خلقنا لنربح عليه، خلقنا لتكون تجارتنا معه أربح تجارة، فلا تجد تجارة تربح بالمئة مليون، إلا عند الله.

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليربح الدنيا و الآخرة:

أرباح التجارة في الدنيا لا تتجاوز بالمئة ثلاثين، خمسة وعشرين، خمسة وثلاثين، خمسة وخمسين، يقول لك: ربحنا بالمئة مئة، وهذا ربح خيالي، لكن الله سبحانه وتعالى خلقك كي تربح عليه لا ليربح عليك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(11))

(سورة الصف)

إذاً فهذه الآية إذا تدبرها الإنسان، وقرأها بعناية، وطبق مضمونها كما يريد الله عزّ وجل إيماناً واستقامةً وعملاً وإخلاصاً تأتي على نفسه بلسماً وشفاءً.

من أحبه الله ألقى محبته في قلوب الخلق:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

تجد ربنا عزّ وجل في الوقت المناسب أنقذك، بالوقت المناسب حفظك، قد يسخِّر لك عدوّاً يدافع عنك، وقد يسخِّر لك خصماً يدعمك، أو قد يسوق لك شخصاً فاجراً يكون حصنًا أحياناً " إذا كان الله معك فمن عليك ؟ أمّا إذا كان عليك فمن معك " فقد يهينك أقرب الناس لك، يتخلى عنك ابنك، تتخلى عنك زوجتك، يتخلى عنك أقرب الأصحاب إذا كان الله عليك، أمّا إذا كان معك ألقى حبك في قلوب الخلق، ألقى مهابتك في قلوب الخلق، وإذا تخلى عنك تنكّر لك أقرب الناس إليك، لذلك:

كن مع الله تَرَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك فمن يمنعه ؟ ثم من يعطي إذا ما منعك؟

* * *

من طلب العلم أكدّ إنسانيته ومن تخلى عن طلب العلم هبط إلى مستوى البهيمة:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

أما كلمة (إنما) أداة قصر وحصر، وللإيضاح أذكِّر بالمثل المعروف في كتب البلاغة: شوقي شاعر، وهذا لا يمنع أن يكون كاتباً، أو حقوقياً، أو موظفاً، أما إذا قلنا: إنما شوقي شاعر، قصرنا شوقي على الشِعْر، وإذا قلنا: إنما الشاعر شوقي قصرنا الشعر على شوقي مثلاً، فكلمة (إنما) دقيقة جداً في القرآن الكريم يجب أن تفهمها فهماً بلاغياً صحيحاً، فهماً أصولياً، إذا قال لك الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 28 ")

أيْ أنّ العلماء وحدهم وليس أحدٌ سواهم يخشى الله، أجل ؛ وحدهم يخشون الله حقّاً، هذه الآية معناها: الطريق الوحيد الذي لا ثاني له لخشية الله هو أن تكون عالماً، لذلك " كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك " فالإنسان إذا طلب العلم أكدّ إنسانيته، وإذا تخلى عن طلب العلم هبط إلى مستوى البهيمة.

من عمل عملاً انتهى عند الموت أضاع دنياه و آخرته:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

أيْ أنّ الحياة الدنيا تعريفها الحصري والقصري..

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ)

(لعب)، ما هو اللعب ؟ العمل الذي ليس أي نفع وراءه، إذا شخص انتسب للجامعة ودرس أول سنة، والثانية، و الثالثة، والرابعة، صار يحمل إجازة، فإذا تابع ودرس دبلوم، ماجستير، صار دكتوراً، تعيَّن بشهادته، صار له دخل، ارتفعت مكانته الاجتماعية، فالوقت الذي أمضاه في الدراسة كان من نتائجه هذا المنصب وهذا الدخل، إنسان أسس محلاً تجارياً، بعد أيام، بعد أشهر، بعد سنوات، اشتهر هذا المحل وعرف من القاصي و الداني وكثر رواده وغدا له زبائن ثابتون، وتعاظم دخل صاحبه، فالتأسيس ليس استهلاكاً للوقت، بل استثمارٌ له، أيام فالدراسة ليست استهلاكًا للوقت بل هي استثمارٌ للوقت.

أما إذا الإنسان لعب بالنرد (الطاولة) فيقول مزهواً: بعد ثمانية غلبته، خير إن شاء الله، شيء ليس له طائل، هذا اللعب، عمل عابث ليس له هدف، لا هدف، ولا نتيجة، ولا مردود، ضياع للوقت واستهانة بالعمر، فتعريف اللعب: عمل ينتهي بانقضائه، أما هناك أعمال خطيرة جداً تبقى آثارُها إلى يوم القيامة، وأعمال النبي اللهم صلِّ عليه آثارها إلى أبد الآبدين، جاء الحياة الدنيا ودعا إلى الله عزّ وجل فعمّ الهُدى بقاع الأرض، وهذا الدرس ووجودنا في المسجد من آثار دعوته، سوريا من فتحها ؟ أصحاب رسول الله، من فتح مصر ؟ من فتح العراق ؟ من فتح بلاد الهند والسند ؟ من فتح شمال إفريقيا ؟ الأعمال التي لها ما وراءها، التي لها نتائج كبيرة، التي تسعد إلى أبد الآبدين هذه أعمال جليلة، خُلِقتَ أنت لهذه الأعمال، أما أن تعمل عملاً ينتهي كله عند الموت فهذا عين الضياع.

أي عمل ينتهي عند الموت هو لعب و لهو:

وبعد، دققوا النظر: أي عمل ينتهي عند الموت هو لعب، لو زينت بيتك بأعظم زينة، فهذا العمل لعب، السبب ؟ أن كل هذا العمل الضخم ينتهي عند الموت، أنت ابحث عن عمل تبدأ نتائجه بعد الموت، وتقطف ثماره أبداً، ابحث عن عمل تقطف ثماره بعد الموت، هذا العمل المُجدي، فدائماً عندك خط أحمر هو خط الموت، كل عملٍ تستمر آثاره بعد الموت، احرص عليه، وكل عملٍ تنتهي آثاره عند الموت فهذا من اللعب، وقد يكون عملاً كبيراً، قد يكون عملاً فخماً جداً، قد يكون عملاً جليلاً جداً، كأن يؤسس الإنسان مزرعة ويبذل فيها ثلاثين مليونًا، حتى أصبحت قطعة من الجنة مثلاً ؛ المسابح، والماء الساخن، والملاعب، والورود، والفيلات، هذه المزرعة تنتهي كل ثمارها عند الموت، إذاً لعب، أما الأنبياء الذين دعوا إلى الله عزّ وجل فإلى الآن آثار دعواتهم، الصحابة الكرام الذين فتحوا هذه البلاد إلى الآن آثار فتوحاتهم، مقياس دقيق، كل عملٍ ينتهي عند الموت هذا لعب، كل عملٍ يبدأ بعد الموت فهذا عمل صالح.

العمل الصالح هو كل عمل يبدأ بعد الموت:

لذلك فالإنسان حينما يأتيه ملك الموت لا يندم إلا على شيءٍ واحد..

(رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

أيْ أنت هنا في الدنيا من أجل العمل الصالح، فإذا فعلته حققت المُراد من خلقك، وإذا أضعت الأوقات كلها في عملٍ لا طائل تحته فهو لعب، بالنسبة للذين ذهبوا إلى القمر، قرأت تعليقًا قال: هذا العمل ليس تقدماً لكنه تحرك، وصلنا إلى القمر ودفعنا أربعة وعشرين ألف مليون دولار، وهذا المبلغ أنهك العالم كله، وأخذ من سكان العالم كله فرق أسعار وتعويض دولار، ماذا فعلنا ؟ إنسان وقف على سطح القمر لساعات معدودة ورجع، فما المردود الذي جناه العالم كله ؟ لقد دفع الفقراء ثمن هذه الرحلة من أقواتهم، فهذا لعب.

أما الأنبياء الذين أرسلهم الله، وحملوا الرسالات ونشروا الحق والهدى فهذا عمل عظيم، أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ونشروا العدل ليسعد العباد.

قيمة الإنسان عند ربه تتعلق بقيمة عمله:

أنت قيمتك من قيمة عملك، فإما أن يكون العمل لعباً، أو يكون نفعاً و خيراً، إنّ كلمة لعب توحي بأننا صغار، فقد يكون شخص يتمتع بأعلى مكانة اقتصادية، مدير أكبر شركة في العالم، وتسمع منه عن أجهزة كهربائية دقيقة جداً وحساسة جداً.. يقول: نقلنا الصورة عبر الأقمار، ونقلنا معها الأفلام الإباحية، فهذا عمل، لكنه عمل لعب، لأن عند الموت تنتهي كل أرباحه ويبقى إفساده الناس وإضلالهم، فهل هناك أخطر من اللعب ؟ نعم العمل الذي أخطر من هو اللعب الذي تستمر آثاره السيئة بعد الموت، هذا أخطر من اللعب، الآن دققوا الله عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

لو فرضنا أنّ إنسانًا في العطلة الصيفية، طالب مثلاً ليس لديه واجبات دراسية، وليس لديه دوام في الجامعة، بلا مسؤولية في عطلته الصيفية، وأمضى أربع ساعات بلعب الورق مثلاً، فهذا اسمه لعب، وليس له فائدة، لكن تصور أنه أمضى أربع ساعات في أيام الامتحان بلعب الورق فهذا اسمه لهو، فاللهو يعني التلهي بالخسيس عن النفيس، فهناك إذًا فرق بين اللعب و اللهو، فاللهو شيءٌ خسيس، سخيف، دنيء، حقير، شغلك عن شيءٍ ثمينٍ عظيم، هذا هو اللهو، إن فعلت فعلاً لا طائل منه، لا فائدة منه، لا نتيجة له، لا أثر له، انقضى بانقضائه هذا لعب، أما إذا عملت عملاً لا فائدة له، ولا جدوى، ولا

مردود، ولا نتيجة، لكنه في الوقت نفسه شغلك عن عملٍ عظيم، عن كسبٍ كبير، عن رسالةٍ عظمى، فهذا اسمه لهو، اللهو أن تتلهى بالخسيس عن النفيس.

كل عمل ليس له نتائج لا فائدة منه:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(1)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(2)كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(3)ثُمّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(4))

(سورة التكاثر)

فربنا عزّ وجل يبيّن لنا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ، أي عمل ليس له نتائج ؛ أكلنا، شربنا، سكنا في بيوت، قمنا بنزهات، سهرنا، دعونا الناس لولائم، انطلقنا في سياحة حول العالم، شاهدنا البلاد، والعباد، والجبال، والبحار، والجزر، في المصايف، وفي المشاتي، وركبنا الطائرات، والبواخر، والبوارج، وركبنا اليخوت، وركبنا السيارات، وأكلنا ما لذّ وطاب، واستمتعنا بكل مباهج الدنيا، ثم جاء ملك الموت، هل لهذه المتع كلها أثر بعد الموت ؟ لا. بل ربما كان الأثر سلبياً، فمثلاً إذا الإنسان حضر أكثر من ثلاثين دعوة وآلمه ضرسُه، فإذا أراد أن يستدعي أول أكلة أكلها في أول يوم هل تنسيه وجع ضرسه ؟ أو التي بعدها ؟ لو استدعى بذاكرته كل ألوان الطعام التي أكلها لا يغنيه عن هذه الآلام المبرحة التي يَئِنّ منها.

اللهو هو التلهي بالخسيس عن النفيس:

لذلك:

(إِنّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

لعب: عمل لا طائل منه، أما اللهو عمل دنيء يصرفك عن النفيس، تصور (من باب التقريب) طالب أوفد إلى بلد غربي لينال دكتوراه، باختصاص نادر، فإذا تخرج وعاد إلى بلده شغل أعلى منصب في الجامعة، وكان هناك إغراء شديد: يُعطى" فيلا" وسيارة مع منصب رفيع ودخل كبير جداً، لكنه إذا ذهب إلى هناك وأعجبته لعبة كرة القدم مثلاً فأمضى وقته في مشاهدة مبارياتها هناك، ومضى الشهر والشهران والعام والعامان وعاد بعد أربع سنوات بخفّي حنين لا شهادة ولا علم، فماذا فعل بنفسه ؟ التهى بهذه اللعبة عن دراسة اختصاصه النادر الذي سيعود عليه بالنفع الكبير، فصار مفهوم اللهو واضحاً، واللعب واضحاً، قال:

(إِنّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا)

الهدف من وجود الإنسان في الدنيا هو معرفة منهج الله و تطبيقه:

البديل:

(وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا)

الإيمان أمر فكري والتقوى سلوك، الدين عقيدة وعمل، إيمان وعمل، أيْ نشاط ذهني، ونشاط سلوكي.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

هذه الآية وردت مئتي مرة في القرآن الكريم.

(وَإِنْ تُؤْمِنُوا)

أيْ بالله، بخالق الكون، برب الكون، بالإله المسيّر، تؤمنوا به خالقاً مربياً مسيراً موجوداً كاملاً واحداً، تؤمنوا بأسمائه الحسنى كلها، تتعرفوا إلى منهجه، تطبقوا منهجه.

(وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا)

هذا الهدف من وجودنا في الدنيا، هذه مهمتنا الأساسية، إن لم نعرف هذه المهمة خسرنا خسارةً كبرى..

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر: آية " 15 ")

من عمل عملاً صالحاً كافأه الله عليه أضعافاً كثيرة:

إذًا:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

أيْ أن كل عملٍ عملته سوف تكافأ عليه أضعافاً كثيرة لا تعد ولا تحصى..

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(261))

(سورة البقرة)

وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ: آية لها عدة معان:

1- الله عز وجل لا يسألكم أموالكم كلّها لتنفقوها في سبيله:

أما الآية الكريمة:

(وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

أول معنى: ولا يسألكم أموالكم كلّها لتنفقوها في سبيله، عند الله لا يوجد مصادرات، المال كله لا يأخذه منك، قال لك: ادفع ربع العشر، واحد بالأربعين، فالزكاة اثنان ونصف بالمئة، واللهُ ما سألك أموالك كلها، تكاليف الدين ليست مرهقة، لم يقل لك: صلّ ألف ركعة في اليوم، قال لك: خمس صلوات، لم يقل لك: صم خمسة أشهر، صم شهراً واحداً، لم يقل لك: اترك النساء كليةً، لا بل تزوج، لكن إياك أن تطلق بصرك في الحرام، لم يقل لك: لا تشتغل، اقعد بالبيت وتعبد، لا. بل قال لك: اشتغل لكن وفق منهج الله عزّ وجل وتعبد أيضاً، فالشرع واقعي، الإسلام دين الفطرة، دين الواقع، لا تطرُّفَ في الإسلام، قال:

(وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

طبعاً يقاس عليها كل شيء، أولاً ما سألك مالك كله، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما دعاكم إلى الله ما سألكم أموالكم، فالدعوة إلى الله من دون مقابل، لا يقدر إنسان أن يدخل عند طبيب إلا ومعه خمسمئة ليرة احتياطًا، المحامي كذلك، المهندس كذلك، لكنه يقدر أن يدخل إلى أي مسجد ويسمع الدرس دون رسم دخول دون رسم خروج، بالمجان، النبي عليه الصلاة والسلام حينما دعا إلى الله لم يسألكم أموالكم.

2 - الله عزّ وجل إذا سألكم أموالكم فهذه ليست أموالكم هي أمواله:

المعنى الثاني: ثم إن الله عزّ وجل إذا سألكم أموالكم فهذه ليست أموالكم هي أمواله، هذا ماله، لله ما أعطى وله ما أخذ، إذًا المعنى الثاني ما سألك مالك سألك ماله، مالك الذي بين يديك هو مال الله عزّ وجل، لم يقل له: أعطني من مال الله، أعرابي جاف قاسٍ قال: **" أعطني يا محمد من مال الله فهذا المال ليس مالك ولا مال أبيك "، فقال النبي: "صدق إنه مال الله "** فقد تلقّاه بالحلم، فأول معنى: ما سألك مالك كله، والمعنى الثاني أن النبي حينما دعاكم ما سألكم أموالكم.

3 ـ الله عز وجل حينما سألكم أموالكم ما سألكم مالكم ليأخذه بل ليعود عليكم ثواباً وأجراً:

والمعنى الثالث هو حينما سألكم أموالكم ما سألكم مالكم ليأخذه ؟ بل ليعود عليكم ثواباً وأجراً وسعادة أبدية، فهذه كلها معانٍ تلمح من كلمة:

(وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

الشرع واقعي ويراعي فطرة الإنسان دائماً:

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا)

لو أنه سألكم مالكم كله، وكلفكم صيام السنة كلها، ومنعكم من الزواج، ومنعكم من العمل لأعنتكم، قال:

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ)

بإلحاحٍ ومبالغةٍ تبخلوا عندئذٍ.

(تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37))

فلو أن إنساناً متعلقاً بالمال، متعلقاً بالزوجة بحكم فطرته، ولو قال الله لك: لا تتزوج، لا تشتغل، لا تكسب مالاً، هات مالك كله، فالإنسان عندئذٍ يضطر مرغماً انسجاماً مع فطرته وطبيعته أن يبخل، وأن يكره هذا الدين الذي يقرر أن يستولي على كل ماله، فالنبي الكريم لما أمر أحد ولاته بأخذ الزكاة قال:

((وإياك وكرائم أموالهم))

هو يعطيك، لا تنتقي أنت فتأخذ أجمل ناقة منه كزكاة، فالدين واقعي، الدين يكلفك واحداً بالأربعين، ربع العشر، قال لك: صلّ خمس أوقات، قال لك: صم شهراً، قال لك: إذا كنت مريضاً أفطر ولا حرج عليك على أن تقضيه، مسافر أفطر، أيضاً أباح لك أن تتزوج، كما أباح لك أن تشتغل، اكسب مالاً، فالشرع واقعي، ويراعي فطرة الإنسان تماماً.

الدين الإسلامي دين الفطرة:

قال:

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ)

أيْ إذا سألكم إياها بشدة وبإلحاح عندئذٍ تبخلون، لأنكم تكرهون ديناً يأخذ كل مالكم، تكرهون ديناً يأخذ كل وقتكم، تكرهون ديناً يمنعكم من شهوةٍ أودعت فيكم بالفطرة، فالدين الذي يمنع الزواج مكروه، وأتباعه كرهوه وكفروا به، لأنه ليس معقولاً، ولئن قبلوه ظاهراً فقد وقعوا في انحرافات خطيرة، هؤلاء

الذين اتخذوا هذه الرهبانية إذ ابتدعوها، وما كتبناها عليهم، هم حينما كتبوها على أنفسهم ما رعوها حق رعايتها، أما دين الفطرة فقد قال لك: تزوج.. و..

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 57 ")

فتح لك الأبواب أن تشتغل وتكسب مالاً، وادفع منه لنا إذا ادخرت و بلغ مدخرك النصاب بالمئة اثنين ونصف، صلّ خمسة أوقات، صم ثلاثين يوماً، فالإسلام واقعي، ولو أنه فرضٌ..

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا)

كلها بإلحاح، وإصرار..

(فَيُحْفِكُمْ)

إذا سألكم إيّاها مع المبالغة في السؤال فعندئذٍ تبخلون، وتكرهون هذا الدين..

الدين الإسلامي لو كلف الإنسان فوق ما يطيق لكرهه:

(وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37))

الكراهية عندئذ تظهر واضحة لهذا الدين لأنه غير واقعي، فربنا عزّ وجل حكيم، لأن كل شيء يتحمل ضغطًا معينًا ولدرجة معينة، لو رفعنا الضغط لاختلت الموازين، فالله حكيم، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لو كلّفنا فوق ما نطيق لكرهنا هذا الدين انسجاماً مع فطرتنا، لكن هذا الدين يتوافق مع الفطرة.

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا)

على الإنسان أن يتعامل مع الله بعكس ما يتعامل مع الناس:

طبعاً:

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا)

فعل الشرط.

(فَيُحْفِكُمْ)

معطوف عطف بيان، أيْ كيف السؤال ؟ بإلحاح، وجواب الشرط:

(تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37))

(تبخلوا) عندئذٍ، لذلك إذا أردت أن يحبك الناس فلا تسألهم ما في أيديهم أبداً، كلهم يحبونك، إذا أردت أن يحبك الله فاسأله كل ما عنده، فتعامل مع الله بعكس ما تتعامل مع الناس..

لا تسألن بني آدم حاجــةً وسل الذي أبوابه لا تغلق
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

* * *

المؤمن الصادق يدعو إلى الله دون أجر أو مكافأة:

دلني على عملٍ إذا عملتُه أحبني الناس ؟ قال: **" ازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس، وارغب بما عند الله يحبك الله "**، فالمؤمن الصادق يدعو إلى الله، لا يطلب لا أجرًا ولا مكافأة، ولا مادياً، ولا معنوياً، إطلاقاً..

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا(9))

(سورة الإنسان)

لا يذوق معنى الإخلاص إلا من كان مخلصاً، لا تبتغ من وراء عملك الصالح شيئاً عندئذ يحبك الناس جميعاً، فإذا نظرت إلى ما في أيديهم، وطمعت بأموالهم، ولمّحْتَ لهم، وصرّحْتَ لهم كرهك الناس، لو أن الدين الذي هو دين الله سألك كل مالك لكرهته، ولو سألك كل وقتك لوليت مدبراً، ولو منعك من تلبية شهوات أودعها الله فيك لسئمت وعاندت و أبيت.

الإسلام دين واقعي وازن بين الدنيا و الآخرة:

قال تعالى:

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

قال العلماء: الإنفاق هنا إنفاق الزكاة، أو إنفاق الصدقة، أو الإنفاق من أجل الجهاد، هذا السؤال واقعي، والدين ينسجم مع الفطرة، والله عزّ وجل ما كلّفك فوق ما تطيق، كلفك الشيء اليسير القليل.. **" إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً ولم يُطع مكرهاً "**.. لذلك فالنبي الكريم اللهم صلّ عليه قال:

((أنا أشدكم لله خشيةً، وأنا أنام وأقوم))

لم يقل لك: لا تنم، بل قال: نم.

((إنّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا))

(سنن البخاري: عن عمرو بن العاص)

((أَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

(صحيح مسلم: عن أبي هريرة)

دين الإسلام واقعي متوازن، وازنَ بين الدنيا والآخرة، بين حاجات الجسد وحاجات الروح، بين القيم والحاجات، بين الحاضر والمستقبل، بين ما ينبغي أن تفعله وما أنت فيه، هناك موازنات دقيقة، لذلك ديننا دين الحق، دين فيه مقومات استمراره.

التقصير بالعمل الصالح لا يضر إلا صاحبه:

وبعد فيا أيها المسلمون:

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

النفقة الشرعية، تدعون لتنفقوا زكاة أموالكم، فالزكاة فرض، تدعون لتنفقوا صدقاتكم، تدعون لتنفقوا في سبيل نشر هذا الدين.

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ)

إنّ الإنسان عندما يعرف أن عمله الصالح له، وتقصيره في العمل الصالح عليه، عندئذٍ يبادر بالعمل الصالح، قال:

(وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ)

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

(صحيح مسلم: عن أبي ذر)

النبي عليه الصلاة والسلام كان في رمضان أجود ما يكون:

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ)

نحن على أبواب شهر رمضان الكريم، والنبي عليه الصلاة والسلام كان في رمضان أجود ما يكون، كان جواداً وكان أجود ما يكون في رمضان، كان أجود من الريح المُرْسَلة، في الشدة والرخاء، قال:

(وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ)

كل مَن أنفق في سبيل الله بإخلاص عُوّض عليه أضعافاً كثيرة:

عندما يقرأ المؤمن القرآن يجد فيه ثماني آيات حصراً تَعِد المنفق بالتعويض والخُلف..

(وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ: آية " 39 ")

وكل مَن أنفق في سبيل الله بإخلاص يتحسس هذه الآيات، يجد أن الله سبحانه وتعالى عوّض عليه أضعافاً كثيرة، ورزقه من حيث لا يحتسب.

(وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38))

من أنفق ماله مخلصاً في سبيل الله لن يضيع الله عمله:

أيها المؤمن: لا تزهد فيما عند الله عز وجل، فهناك من لا يزهد فيما عنده، واعلم أنّك إذا بخلت بإنفاق المال على عباده الفقراء هناك من ينفق سخاء، والله عزّ وجل هو الغني وهو الكريم..

((أنفق يا بلالُ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا))

[أخرجه السيوطي في الجامع الصغير]

((عبدي أنفق أنفق عليك))

وما ذاق لذة الإنفاق، وما ذاق لذة العطاء إلا من أنفق مخلصاً في سبيل الله، فالصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير، قال النبي الكريم:

((باكروا بالصّدقة، فإن البلاء لا يتخطاها))

[رواه أبو الشيخ، وابن أبي الدنيا والبيهقي، عن أنس]

((صدقة السر تطفئ غضب الرب))

[أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس]

وإذا الإنسان أنفق من ماله فيما بينه وبين الله إنفاقاً مخلصاً وأراد به وجه الله فالله سبحانه وتعالى لن يضيّعَ عمله، وأحياناً يقال (وهذا مثل عامي): "يروح الزاهد فيأتي ألف عاشق". واسمع قوله تعالى ففيه تهديد ووعيد وترغيب.

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38))

أعيذ نفسي وإياك أخي المؤمن من سوء العاقبة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (1-8): تفسيرالآيات 1-7، إشاراتٌ دقيقة إلى ما جرى للنبي عليه الصلاة والسلام في صلح الحديبية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-02-03

بسم الله الرحمن الرحيم

ما من حدثٍ وقع في عهد النبي إلا وله أبعاده الجليلة وحكمته الفريدة :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الأول من سورة الفتح:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3))

[سورة الفتح]

الأحداث التي جرت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام قَدَّرها الله جلَّ جلاله لحكمةٍ بالغة، ولحكمةٍ تعليميةٍ وتشريعية، فما من حدثٍ وقع في عهد النبي إلا وله أبعاده الجليلة، وله حكمته الفَريدة، فالنبي عليه الصلاة والسلام بشكلٍ موجزٍ مختصر فيما ترويه كتب السيرة أراد أن يعتمر، فتوجَّه إلى مكة معتمراً وساق الهدي وقَلَّدها، أي أشعر أنها هديٌ تقدَّم لبيت الله الحرام، وسار معه بعض القبائل ممن حول المدينة، وعلمت قريشٌ بتوجُّه محمد صلى الله عليه وسلَّم مع أصحابه ليعتمروا، فأبت واستنفرت ووقفت موقفاً في غاية العداوة والخصومة.

وفي الحديبية جرت مفاوضات ورسل، وتبادل النبي مع قريش رسلاً عدة، واستقر الأمر على صلحٍ، هذا الصلح مؤدَّاه أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعتمر في هذا العام بل يرجع، وقد سمح للناس أن يؤمنوا بعد أن كانت قريش تعذب من يسلم أشد التعذيب.

الحكمة من عدم فتح الصحابة الكرام مكة عنوةً في يوم الحديبية :

هذا الصلح في ظاهره ليس مما يروي طموح المسلمين، إذا لم يستطع المسلمون أن يصلوا إلى مكة المكرَّمة ليطوفوا حول البيت معتمرين، بل ردوا إلى المدينة، وسمح لهم أن يعتمروا في العام القادم، وجرت نصوصٌ دقيقةٌ بين النبي وبين قريش أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الصلح فتحاً مبيناً، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يحقق ما كان يصبو إليه وأصحابه من وصولٍ لمكة المكرَّمة، وطوافٍ حول الكعبة، وقد اتجه أكثر المفسِّرين إلى تفسير هذا الفتح الجليل بصلح الحديبية، بينما قلة منهم فسَّرت هذا الفتح بفتح مكة، والحقيقة فتح مكة كان حدثاً من أبرز أحداث الدعوة الإسلامية، لأن

مكة التي ائتمرت على النبي، وأخرجته، وكادت له، وحاربته قرابة عشرين عاماً، فتحت عنوةً، والله سبحانه وتعالى نصر النبي عليه الصلاة والسلام نصراً عزيزاً، فلك أن تَعُدَّ هذا الفتح المبين هو فتح مكة، ولك أن تعد هذا الفتح المبين هو صلح الحديبية.

لكن الذين عَدُّوا هذا الفتح المبين صلح الحديبية انطلقوا من أن هذا الصلح في ظاهر نصوصه إجحاف بحق المسلمين الذين لم يحققوا أهدافهم، وتنازلوا عن مطالبهم، وفي باطنه خير عميم، من هذه الحكم الإلهية أن نفراً من المؤمنين كانوا قد آمنوا سراً في قريش، وخافوا أن يعلنوا إسلامهم وإيمانهم، ولو أن الصحابة الكرام فتحوا مكة عنوةً في يوم الحديبية لقتلوا أناساً عَلِمَ الله أنهم مؤمنون..

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ)

[سورة الفتح: آية 25]

لو قاتلتموهم لأصابتكم من قتالهم معرَّةٌ، أي تحمَّلتم إثم قتل إنسانٍ أسلم.

الإنسان يجب أن يستسلم لأمر الله لأن الله يعلم وهو لا يعلم :

ملخص هذا الموضوع أنه:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ((216)

[سورة البقرة]

أمر هذا الدين بيد الله عزَّ وجل، الدين دين الله، والله سبحانه وتعالى لا يتخلَّى عنه، فإذا رأيت أشياء قد لا ترتاح لها، هذا بتقدير الله، ولحكمةٍ بالغةٍ أرادها الله عزَّ وجل، فلعل ما يبدو لك أنه غير مُريحٍ للمسلمين هو سبب نصر المسلمين، هو سبب انتشار الدين في العالم، هو بدايات تحقُّق قوله تعالى:

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

[سورة الفتح: آية 28]

أراد المفسِّرون حينما رجَّحوا أن الفتح المبين صلح الحديبية، أن الإنسان يجب أن يستسلم لأمر الله، سيدنا عمر ضاق ذرعاً ببنود هذا الصلح، فَعَبَّر عن ألمه لسيِّدنا الصديق، فقال الصديق رضي الله عنه: الزم غرزه، أي أنا مستسلم، لأن النبي عليه الصلاة والسلام إنما فعل ما أمره الله به، فحينما توقَّفت ناقته قالوا: خلأت ناقة رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام:

((ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل))

[البخاري عن المسور بن مخرمة]

النبي عليه الصلاة والسلام تلقَّى توجيهاً من الله عزَّ وجل أن يقبل بهذه الشروط لصالح المسلمين، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، يعلم أن أُناساً مؤمنون في مكَّة لو أن الصحابة قاتلوا أهل قريش لقتلوهم وهم لا يشعرون.

الإنسان عليه أن يسعى ويجتهد وحينما تغلبه الأقدار يكون قد وقع ما أراده الله :

وقد نزلت هذه السورة بعد صلح الحديبية، وقد عَبَّرَ النبي صلى الله عليه وسلم عن أنه ما من آيةٍ في كتاب الله أحبُّ إليه من هذه الآية:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

والفتح هو النصر، فافتح بيننا وبينهم أي انصرنا عليهم، وفتحنا لك فتحاً، فتحاً مفعول مطلق تأكيدٌ للفعل، ولا تستخدم هذه الصيغة إلا إذا فُتِحَت المدينة عنوةً، لذلك بعضهم يرجِّح أن هذه الآية تعني فتح مكة..

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

[سورة الفتح]

أن على الإنسان أن يسعى لرفع شأن المسلمين، وأحياناً هو يريد والله يريد شيئاً آخر، لذلك التوجيه:

((إن الله يَلُومُ على العَجْز، ولكن عليكَ بالكَيْس، فإذا غَلَبَك أمر، فقل حَسبيَ الله ونعم الوكيل))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

الإنسان عليه أن يسعى، عليه أن يجتهد، عليه أن يتحرَّك، وحينما تغلبه الأقدار يكون قد وقع ما أراده الله، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته متعلقةٌ بالخير المطلق، فهذا من دواعي أن نستيقن أن الذي وقع إنما وقع لحكمةٍ بالغة، وليس في الإمكان أبدع مما كان، ومن يقرأ سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءةً مفصَّلة ولاسيما في ملابسات صلح الحديبية يرى ويعلم علم اليقين أن كل الخير كان من هذا الصلح، أحد بنوده: الذي يسلم لا ينضم إلى النبي، على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجعه إلى قريش، والذي يرتد من المسلمين يرد إلى قريش.

أي إجراءٍ يتولاَّه الله في شأن المسلمين هو خيرٌ إن في عاجل أمرهم أو في آجله :

شرطان ليسا متوازيين، وليسا متماثلين، هذا البند في صلح الحديبية كان له أثر كبير جداً في أن بعض القُرَشيين الذين أسلموا توجهوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام لينضموا إلى المسلمين فردَّهم في ضوء بنود الصلح، فلما ردهم تألموا أشد الألم وكَمَنوا لقريشٍ على طريقها إلى الشام، وهددوا مصالحها، فبعثت قريشٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام رسولاً ترجوه أن يقبلهم، ولكنَّه لم يقبلهم.

فالإنسان قد يبدو له أن هذه الشروط فيها تنازلات وليست متماثلة، ولكن لو درستم دقائق الشروط والنتائج التي ترتَّبت عليها هذه الشروط لاستسلمتم، فقد أراد الله عزَّ وجل أن يطمئن المسلمين، أي إجراءٍ يتولاَّه الله عزَّ وجل في شأن المسلمين هو خيرٌ إن في عاجل أمرهم، أو في آجله.

على كلٍّ الموضوع يحتاج إلى دراسات طويلة في شرح الحديبية، وفي دراسة الملابسات والبنود، والنبي صلى الله عليه وسلم قَبِل بهذه الشروط لأن الله أمره أن يقبل بها.. إنما أنا رسولٌ يوحى إلي.. تنفيذ لأمر الله عزَّ وجل، والله هو المدبِّر، اجتهد، وتوخ الخير، وتحرَّك، واسع، وطالب، لكن أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، وفعل الله عزَّ وجل كله حكمة.

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

الصُلح الذي جرى بين النبي وبين قريش كان سبباً لفتح مكة ولنصر المسلمين :

الهدف المباشر من تحرُّك النبي صلى الله عليه وسلم لم يتحقق، وسمَّاه الله فتحاً لأن الذي تحقق أن الناس بعد هذا الصُلح شعروا بالأمن نوعاً ما، وصار المسلمون الذين لم يُعترف بهم من قبل إطلاقاً صاروا أنداداً لقريش، هذا إنجاز لم يكن بادياً لكل ذي عَيْن، إنجاز كبير، حالة الحرب انتهت، ودخل المسلمون في حالة السلم، وحينما تنتهي حالة الحرب يطمئنُّ الناس، وينطلقوا إلى نشر هذا الدين، فنشاط المسلمين بعد صلح الحديبية تضاعف في بث هذا الدين، كانوا منشغلين بحرب قريش الآن انشغلوا بنشر هذه الرسالة في شتَّى الأنحاء، هذا الصلح فتح لأنه أعطى المسلمين والمؤمنين راحةً نفسية أتاحت لهم أن ينتقلوا إلى موقعٍ آخر من مواقع الدعوة، وهو موقع نشر الدعوة بالطريقة السلمية، هذا أيضاً فتح.

أعطت فرصة لمن أسلم في مكة المكرمة أن يتحرَّك وفق منهج إسلامه دون ضغطٍ أو تعذيبٍ، عاشوا في راحةٍ نفسية، وتحرَّك المسلمون تحركاً كثيفاً في نشر هذا الدين، وأُنقذ من أنقذ من مسلمي قريش الذين كانوا يخفون إيمانهم، كل هذا الخير نتج من خلال هذا الصُلح الذي جرى بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش، والذي كان هذا الصلح سبباً لفتح مكة، ولنصر المسلمين النصر الحاسم.

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

فتح مبين بهذا الجُهد الجهيد الذي بذله النبي وأصحابه الكرام في عمرة بيت الله الحرام، ثم في الصلح، ثم حينما بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام على الموت في سبيل الله..

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

[سورة الفتح: آية 18]

صلح الحديبية درسٌ على مرّ الأجيال للمسلمين :

لمَ كانت المبايعة؟ النبي عليه الصلاة والسلام أرسل سيدنا عثمان إلى قريش مفاوضاً، تأخَّرت عودته أياماً ثلاثة، فغلب على ظن المسلمين أنه قُتل، لذلك بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام بيعة الرضوان، وقد نزل فيها القرآن قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

[سورة الفتح]

كانت مناسبة أن عبر المؤمنون عن بذل كل ما يملكون في سبيل الله، وقد رَضي الله عن المؤمنين حينما بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام، لقد رضي النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى أصحابه بهذه التضحية وهذا الإيثار، إذاً هناك فوائد عديدة جداً؛ ظهرت تضحية الصحابة الكرام، أُنقذ من أسلم خفيةً في قريش، هؤلاء الذين ردّوا بعد أن أسلموا هددوا مصالح قريش، فتمنت قريش أن يقبلهم النبي خلافاً لبنود الصلح، لكن النبي لم يخالف بنود الصلح، قريش أصبحت نداً لندٍ مع رسول الله بعد أن كانت لا تعترف بوجود المسلمين.

شيءٌ آخر: هو أن النبي عليه الصلاة والسلام بعد الصلح صارت هناك بحبوحة والناس عاشوا في راحةٍ نفسيةٍ، وسلامٍ، وأمنٍ، وتوجَّهت كل طاقتهم إلى نشر الدعوة بدل توجيه طاقاتهم إلى صَدِّ العدوان، وفرقٌ كبير بين أن تشتغل في صدّ العدوان، وبين أن تشتغل في نشر الدعوة، هذه المعاني نستنبط منها المواعظ والعبر، فالله سبحانه وتعالى لا يتخلَّى عن دينه أبداً، هذا دين الله، وكأن صلح الحديبية بشكلٍ أو بآخر درسٌ على مرّ الأجيال للمسلمين، إذا جاءت الأمور على غير ما تشتهون فلا تحزنوا ولا تقلقوا فالعاقبة خير، إذا جاءت الأمور في العالم الإسلامي على غير ما يشتهي المسلمون، وتوهَّم المسلمون أن المسلمين لن تقوم لهم قائمة فهم واهمون، إذا توهم المسلمون أن هناك كيداً تزول له الجبال، ويحيق بهم مكر سيئ ينبغي ألا يقلقوا، لأن هذا الدين دين الله، وأن الله سبحانه وتعالى لا يتخلَّى عن دينه، وسوف يرى الناس جميعاً كيف أن الذي آلمنا من واقع المسلمين ربما كان سبب نصرهم وتقدُّمهم.

الحكم من الأحداث التي جرت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام :

عوداً على بدء: إن الأحداث التي جرت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، هذه الأحداث إنما وقعت لحكمتين، الأولى تعليمية؛ والثانية تشريعية، فالإنسان حينما يقرأ التاريخ يستنبط منه قوانين تعينه على التعامل مع واقعه، لذلك قراءة التاريخ فيها موعظة كبيرة جداً، اقرأ التاريخ ترى أن التاريخ يعيد نفسه،

وترى الإنسان هو الإنسان، وأن الخير هو الخير، وأن الشر هو الشر، وأن الإيمان هو الإيمان، وأن الكُفر هو الكفر، وأن التاريخ يعيد نفسه، وبإمكانك إذا قرأت التاريخ أن تستنبط من قراءته المواعظ والعِبَر التي تعينك على فهم الواقع، فصلح الحديبية في ظاهر بنوده تنازلٌ من المسلمين، لكن في حقيقته سببٌ لنصر المسلمين النصر المؤزر، ولفتح مكة الفتح المبين:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

فأنا من أنصار الذين يرون أن الفتح المبين هو صلح الحديبية لأنه كان سبب فتح مكة، والإنسان عليه أن يستسلم، ولاسيما وأن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إشاراتٍ صريحةً إلى أنه رسولٌ يفعل ما يأمره الله تعالى به، فسيدنا الصديق أدرك هذه الحقيقة، ذكر هذا لسيدنا عمر، قال له: " الزم غِرزه إنه يوحى إليه ".. وانتهى الأمر.

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

مغفرة ذنب النبي مغفرةٌ وقائية :

قالوا: ذنب الأنبياء له تعريفٌ خاص، أولاً: ترك الأولى، وقد قال بعضهم: إن مغفرة الذنب للنبي مغفرةٌ وقائيَّة، بمعنى أن اتصال النبي بالله عزَّ وجل الاتصال الشديد ينفي عنه الذنب، فإما أن يغفر الذنب بعد وقوع الذنب، وإما أن يحصل الاتصال بالله عزَّ وجل بحيث لا يقع معه ذنب، إما أنه مغفرةٌ وقائية وإما أنه ترك الأولى، لكن الثابت أن النبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ قبل النبوة وبعدها، معصومٌ في كل أقواله وأفعاله وإقراراته، معنى أنه معصوم أن كل ما قاله حق، في غضبه وفي سروره، لو أنه غير معصوم لكان ينبغي أن نتحرَّى حالات الغضب التي غضب بها حتى نحذف الأحاديث التي قالها وهو غاضب، لكن علماء العقيدة يؤكِّدون بتصريحٍ من النبي عليه الصلاة والسلام أنه معصومٌ في كل أقواله وأفعاله وإقراره، إذاً المغفرة هنا من نوع آخر، مغفرة ذنب النبي مغفرةٌ وقائية.

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2))

[سورة الفتح]

أربعةُ أشياء: مغفرة الذنب المتقدم والمتأخر، وإتمام النعمة عليك، والهداية إلى الصراط المستقيم، والقاعدة تقول: إنك إذا وصفت إنساناً مستقيماً بالاستقامة، أو إذا أمرت إنساناً بالاستقامة وهو مستقيم، معنى ذلك أن اثبت على استقامتك، فتمام النعمة الهدى، تمام النعمة النبوَّة، تمام النعمة انتشار هذا الدين، تمام النعمة فتح مكَّة المكرَّمة التي ناصبت العداء النبي عليه الصلاة والسلام ردحاً من الزمن..

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3))

[سورة الفتح]

والنصر هنا موصوفٌ بأنه عزيز.

القلوب بيد الله عز وجل يقلبها كيف يشاء :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الفتح: آية 4]

السكينة شيء يصعب تعريفه، شعورٌ لا يعرفه إلا من ذاقه، شعور بالأمن، منقطع النظير، شعور بالرضا، شعور بالسعادة، فقد قال النبي الكريم:

((قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء))

[الترمذي و ابن ماجه عن أنس]

في آية أخرى تقول:

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

[سورة الحشر: آية 2]

معنى ذلك أن الرعب شيء يخلقه الله خلقاً فيقذفه في القلب، فالقلب أحياناً يمتلئ رعباً، خوفاً، يمتلئ قلقاً، ضيقاً، يمتلئ ضَجَراً، سَأماً، من الذي خلق فيه السأمَ والضجر والضيق والقلق والخوف والرعب ؟ الله جلَّ جلاله، والقلب يمتلئ طمأنينةً، رضاً، يمتلئ استقراراً، تفاؤلاً، يمتلئ استبشاراً، هذا القلب بيد الله عزَّ وجل، فالإنسان المؤمن المستقيم، الخاضع لله، المنيب إليه، المطبِّق لمنهجه، يملأ الله له قلبَه طمأنينةً، هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

[سورة الشعراء]

هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ)

السكينة أحد أكبر الحوافز للإيمان بالله :

لذلك أحد أكبر الحوافز إلى الإيمان تلك السكينة التي يتفضَّل الله بها على المؤمن، هذه السكينة تُعْطيه طاقةً على الصبر عجيبة، تعطيه طاقةً في التحرُّك عجيبة، تعطيه حافزاً إلى البذل عجيباً، صبر وحركة وحافز، فلذلك إذا رأيت المؤمن متمَكِّناً في طريق الإيمان، ساعياً إلى مرضاة ربه الكريم، منطلقاً إلى طاعته، متحمِّلاً كل الشدائد في سبيله، لا تستغرب، لأن الله سبحانه وتعالى ألقى في قلبه السكينة، يعبِّر

عنه بعضهم بالأحوال؛ لك حال مع الله، استقامتك تنقلك إلى حالٍ مع الله طيِّب، استقامتك تجعلك شُجاعاً، متماسكاً.

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ)

هذه الآية ليست خاصَّةً بأصحاب رسول الله، هذه الآية لكل زمانٍ ومكان، لكل مؤمنٍ على كَرِّ الأيام، لكل مؤمنٍ في أي ظَرْفٍ صعب، لو أن الظرف صعبٌ في ظاهره لكن قد يكون في باطنه أمنٌ وطُمَأنينة، وسكينةٌ واستقرار.

المؤمن مع قناعاته الفكرية هناك مشاعر يشعر بها تزيده صلةً بالله وحباً له :

ثم يقول تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

[سورة الفتح: آية 4]

الإيمان الأول إيمان القناعة، أما الإيمان الثاني فإيمان السعادة، أنت أحياناً تقنع بالشيء ثم تنتفع به، انتفاعك به يزيدُك على إيمانك الفكري به إيماناً، هذه السكينة ضاعفت ثقتهم بالله عزَّ وجل، ضاعفت محبَّتَهُم لله عزَّ وجل، ضاعفت بَذْلَهُم وتضحيتهم، لذلك أقول لكم: إذا رأيت مؤمناً متمسِّكاً بأسباب الفَوْزِ في الدنيا، متمسكاً بهذا الدين، لا تظن أن قناعاته وحدها حملته على هذا التمَسُّك، يجب أن تعتقد أن مع قناعاته سعادةً لمسها في قلبه، النبي الكريم يقول:

((ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا))

[من صحيح مسلم عن عبد المطلب]

((من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه))

[ورد في الأثر]

فالمؤمن مع قناعاته الفكرية هناك مشاعر يشعر بها، هذه المشاعر تزيده صلةً بالله وحباً له.. ذاق حلاوة الإيمان:

((من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه))

[ورد في الأثر]

وهذا معنى الآية:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ)

القلب يملؤه الله بحسب عمل الإنسان وإخلاصه واستقامته :

بالمقابل.. الكفار:

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

[سورة الحشر: آية 2]

الكافر يملأ الله قلبه قلقاً، وخوفاً، وهلعاً، يملأ قلبه ضجراً، وسأماً، يملأ قلبه ذُعراً، فالقلوب بيد الله عزَّ وجل، هذا القلب يملؤه الله بحسب عملك وحسب إخلاصك واستقامتك.

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

أحياناً نحن في علاقاتنا اليومية نختار الشيء لأسباب فكرية، هذا الشيء شراؤه جيد، وسعره رخيص، يبدو أن الشركة المصنِّعة ممتازة، وإنتاجه كثير، وأعطاله قليلة، معلومات عديدة تدعوك لشرائه، فإذا اشتريته، واستعملته، وانتفعت به، واستمتعت به، وأعطاك الخير الكثير، تتضاعف ثقتك به، مع أنها ليست في الأساس كافية.

الله عزَّ وجل له جنود لا يعلمها إلا هو :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4))

[سورة الفتح]

الله عزَّ وجل له جنود لا يعلمها إلا هو، وربنا عزَّ وجل لحكمةٍ بالغة قد يكون من جنوده الجراثيم، نابليون أخرجه من عَكَّا الطاعون، اليوم أضعف فيروس على الإطلاق فيروس الإيدز، إذا خرج من الجسم يموت بعد دقائق، ومع ذلك ألوف الملايين مسخرةٌ للبحث عن مصلٍ مضادٍ لهذا الفيروس، والطريق لا يزال مسدوداً أمامه.

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الفتح: آية 4]

الملائكة جنود، الجن جنود، الجراثيم جنود، الفيروسات جنود، العواصف جنود، الأعاصير جنود، الفيضانات جنود، الصواعق جنود، الزلازل جنود، الحر الشديد جنود، البرد الشديد جنود.

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4))

[سورة الفتح]

الله عزَّ وجل قادر على أن ينصر المؤمنين في كل حال، لكن أحياناً لحكمةٍ بالغةٍ يُعْطيهم ويمنعهم، يرفعهم ويخفضهم، يؤَيِّدهم ويبدو أنه تخلى عنهم تأديباً لهم وتربيةً لهم.

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5))

[سورة الفتح]

الفوز الحقيقي يكون في دخول الجنة :

أخواننا الكرام... كلمة دقيقة جداً..

(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

الفوز الحقيقي في دخول الجنة..

(وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ)

التي وقعت منهم في الدنيا..

(وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5))

هذا هو الفوز عند الله، فما الفوز عندك؟ عند الناس الفوز هو المال، ومتاع الحياة الدنيا، لذلك حينما تختلف الرؤية بين الإنسان وبين مقاييس القرآن تقع الضلالة، أن تصل إلى الجنة ونعيمها، وأن تُكَفَّر عنك سيِّئاتُك، وتنال رضا الله عزَّ وجل، هذا عند الله هو الفوز العظيم..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

[سورة الصافات]

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

[سورة المطففين]

سبب عدم خروج المنافقين مع الرسول الكريم ليعتمروا :

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ)

[سورة الفتح: آية6]

المنافقون حينما خرج النبي عليه الصلاة والسلام ليعتمر مع أصحابه الكرام، ودعي بعض هؤلاء للخروج معه امتنعوا، لماذا؟ لأنهم ظنوا أنهم حينما يتجِّهون إلى مكة المكرمة فقريش تقتلهم عن آخرهم، ظنوا أن النبي لن يعود، نسوا أن هذا رسول الله، وأن زوال الكون أهون على الله من أن يتخلَّى عن رسوله.

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ)

ظنوا أن الله سيتخلّى عن النبي الكريم، وظنوا أن قريشاً سوف تتمكن من إبادتهم وقتلهم عن آخرهم، كيف لا؟ كيف يخرج النبي إلى مكة معتمراً وقد حارب قريشاً في أُحد وفي بدر وهناك قتلى من قريش؟ كيف يسكت أهل قريش عن محاربة النبي وعن إبادة النبي وأصحابه؟ فالمنافقون ظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم لن ينتصر، وأنه سيهزم، وأنه لن يعود إلى المدينة..

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7))

[سورة الفتح]

أيها الأخوة الكرام... هذه الآيات فيها إشاراتٌ دقيقة إلى ما جرى للنبي عليه الصلاة والسلام في صلح الحديبية، وأرجو الله سبحانه وتعالى في الأسبوع القادم أن نعود إلى هذا الصلح، وإلى ملابساته، وإلى أسبابه، وإلى نتائجه، فإن دراسة سيرة رسول الله في هذه الآيات بالذات تلقي ضوءاً كاشفاً وضَّاحاً على مدلول هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (2-8): صلح الحديبية 1/3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-02-10

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضُ عين على كل مسلم :

مع الدرس الثاني من دروس تفسير سورة الفتح.

آيات سورة الفتح لها أسباب نزول، إن هذه الأسباب كامنة في صلح الحديبية وفتح مكَّة، وبعض آيات القرآن الكريم المتعلِّقة بأسباب نزولٍ خاصَّة لا تتبدى، ولا تتضح، ولا تنكشف حقيقتها، ولا تظهر أبعادها إلا إذا عرفت الأسباب التي نزلت بسببها، وسوف أركِّز على السيرة لأنني أعتقد اعتقاداً جازماً أنَّ معرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضُ عين، والدليل ما قاله علماء الأصول: " ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا تتم السنَّة إلا به فهو سنَّة ".

الصلاة فرض لكن لا تتم إلا بالوضوء، والوضوء إذاً فرض، الله جلَّ جلاله يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: آية 7]

معرفة السنَّة فرض عين بشِقَّيها القولية والعملية :

ولكن كيف أعرف ما أمرني به رسول الله وما نهاني عنه إلا أن أقرأ سيرته القولية؟ ما قصد الأحاديث؟ هي فرض عين لأن السنة مُبَيِّنَة، لكن حينما قال الله عزَّ وجل:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21))

[سورة الأحزاب]

كيف يكون النبي عليه الصلاة والسلام أُسْوَةً حسنةً لنا إن لم نقف على حقيقة مواقفه وسيرته وأفعاله؟ إذاً يجب أن نعتقد بادئ ذي بدء أن معرفة السنَّة فرض عين بشِقَّيها القولية والعملية.

ألا نكتفي بالقرآن الكريم؟ إن الذي يكتفي بالقرآن الكريم ولا يعبأ بالسنة فإنه يُخالف القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم يأمرك أن تأخذ ما أمرك به النبي، وأن تنتهي عما نهاك عنه النبي، وأن يكون النبي لك أسوةً حسنة، إذاً معرفة الأحاديث شيء طبيعي جداً، لكن يجب أن تألفوا أيضاً أن قراءة السيرة بدقةٍ وإحكام جزءٌ من الدين، جزءٌ من عقيدتك، لأن هذا الإنسان الكامل الذي هو النبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ عن أن يخطئ؛ لا في أقواله، ولا في أفعاله، ولا في إقراره، هذا الإنسان الكامل حياته كلُّها بكل

ما فيها تشريع، أقواله تشريع، أفعاله تشريع، إقراره.. إذا سكت.. وصحابي تكلَّم كلاماً أمامه، سكوت النبي إقرار.. أصبح هذا الكلام -كلام الصحابي- من السنة لأن النبي عليه الصلاة و السلام لا يسكت عن الخطأ.

امرأة قالت لأحد الصحابة الذين توفّوا: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله. النبي موجود لو سكت لكان كلامها صحيحاً بل إنه قال: "وما أدراك أن الله أكرمه؟ قولي: أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبيٌ مرسل لا أدري ما يُفعل بي ".

حياة النبي ليست أحداثاً عفوية إنما هي مُقَدَّرَةٌ لحكمةٍ بالغةٍ :

ثمَّ إني ذكرت في الدرس الماضي أن في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام دلالاتٌ تشريعية، وأن النبي عليه الصلاة والسلام حياته ليست أحداثاً عفويةً، وما جرى في حياته من مواقف، ومن أزمات، ومن أحداث، إنما هي مُقَدَّرَةٌ لحكمةٍ بالغةٍ بالغةٍ بالغة، موقفه عليه الصلاة والسلام من هذه الأحداث أيضاً تشريع، لذلك يمكن أن ترى التشريع في كلام الله، ويمكن أن ترى التشريع في أقوال رسول الله، ويمكن أن ترى التشريع في أفعال رسول الله، ونظراً لأن في سورتَي محمدٍ صلى الله عليه وسلم والفتح توجد آياتٌ كثيرة متعلقة بصلح الحديبية وفتح مكَّة، هذه الآيات لا تُفْهَم، ولا تتضح، ولا تنجلي على حقيقتها، إلا إذا درسنا صلح الحديبية وفتح مكَّة دراسة وَعْي واستنباط.

قالوا: الكون قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي، لأن السيدة عائشة كانت تقول: " كان خلقه القرآن ".

كلَّما كانت الرؤيا واضحة وذات دلالة فهي إعلامٌ من الله مباشر لهذا المؤمن :

النبي عليه الصلاة والسلام أخبر أصحابه الكرام أنَّه رأى في النوم أنه دخل مكَّة.

من أجل أن تعرفوا ملابسات هذا الصلح.. الإنسان يتعلَّق ببلده.. فمكة بلد النبي عليه الصلاة والسلام، فيها أهله، وأقرباؤه، وأنسباؤه، وبنو رَحِمه، وقد ابتعد عن مكَّة سنواتٍ طويلة، وناصبته العِداء، حروب وعداوات، وتنكيل وإخراج وقتل، شيء يُنهك الطرفين، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أخبر أصحابه أنه رأى في المنام أنه دخل مكة هو وأصحابه:

(آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ)

[سورة الفتح: آية 27]

وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه، وطاف مع أصحابه واعتمر، هذه رؤيا النبي، ورؤيا الأنبياء حق، سيدنا إبراهيم قال:

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

[سورة الصافات: آية 102]

لم يقل له: افعل ما ترى، بل قال له:

(افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

فحينما رأى النبي عليه الصلاة والسلام أنه دخل مكة، واعتمر مع أصحابه، فهذه الرؤيا حق وهذه بشارة، وأحياناً المؤمن يرى رؤيا واضحةً كَفَلَق الصبح، كلَّما كانت الرؤيا واضحةً وذات دلالة فهي إعلامٌ من الله مباشر لهذا المؤمن، لذلك ورد في الأحاديث:

((الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ))

[عن أبي سعيد الخدري صحيح البخاري]

أي طريقة إعلام مباشر، لكن هذا الدين.. المنام لا يجوز أن تُتاجر به ولا أن تستنبط منه أحكاماً تشريعية.. المنام لك وحدك بشارةٌ أو تحذير، لك وحدك، لا يُروى، ولا يُتاجر به، ولا يُتحدَّى به الناس، إنما هو من أجل تطمينك أو تحذيرك.

تلبية النبي عند خروجه للعمرة تنطوي على دعوة أن تعال إليَّ يا عبدي :

طبعاً حينما أخبر النبي أصحابه فرحوا فرحاً شديداً، ثم أعلمهم أنه يريد الخروج للعمرة فتجهَّز المسلمون للسفر، وخرج عليه الصلاة والسلام معتمراً ليأمن أهل مكَّة ومن حولهم من حَرْبِهِ، وليعلموا أنه صلى الله عليه وسلم إنما خرج زائراً للبيت، ومعظِّماً له، عمرة لوجه الله عزَّ وجل، وكانت تلبية النبي عليه الصلاة والسلام: " لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لا شريك لك لبَّيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك ". وهذه التلبية تنطوي على دعوة، أن تعال إليَّ يا عبدي، الله عزَّ وجل تمشياً مع طبيعة الإنسان المادِّية اتخذ بيتاً في الأرض، ودعاك إليه، من أجل أن يُكرمك فيه..

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زواري فيها هم عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

واستعمل النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة عبد الله بن أم مكتوبٍ على الصلاة.. وهذا نظام إداري من نظم النبي يستخلف حينما يغزو أو يسافر من ينوب عنه في إدارة شؤون المدينة، واستنفر النبي العرب ومن حوله من أهل البوادي ممن أسلم من غِفار، وقبيلة أسْلم، ومُزَينة، وجُهَيْنة.

تخلف المنافقين عن الرسول صلى الله عليه وسلم خوفاً من العاقبة :

تخلَّف بعض الأعراب المنافقين.. المنافق كسول، المنافق مُثَبِّط، المنافق يتخلَّف، المنافق يُنفق وهو كاره، المنافق يقوم إلى الصلاة كَسْلان، المُنافق يفرح بمصيبةٍ ألمَّت بمؤمن.. الْمُنَافِق:

((إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

المنافق إذا دعي إلى القتال أو إلى الحَجِّ والعمرة توانى وتكاسل، ماذا قال الله عزَّ وجل؟ قال:

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11))

[سورة الفتح]

أراد النبي أن يخرج هو وأصحابه ومَنْ حول المدينة من المسلمين الذين أسلموا حديثاً، أن يخرجوا جميعاً معتمرين، بل إنَّ بعض الأعراب ظنَّوا أن النبي لن يرجع إلى المدينة، لأنه سيقتل هناك، قريش بينها وبين النبي دماء وحروب، فإذا خرج النبي وأصحابه إلى مكَّة معتمراً توقع هؤلاء.. وهم سيئو الظن.. أنه لا بدَّ من أن تنشأ معركةٌ حاسمةٌ ينتصر فيها الكفَّار، لذلك قال تعالى:

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

[سورة الفتح]

المؤمن عليه أن يتفاءل لا أن يستسلم ويضعُف لأن الأمر بيد الله :

الحقيقة هذا شيء مستمر، المنافق يقول لك: لن تقوم للمسلمين قائمةٌ بعد اليوم، لأن العالم كلَّه أجمع على حربهم، وعلى تفتيتهم، وعلى إضعافهم، وعلى إفقارهم، لا يرى أن الله عزَّ وجل بيده الأمر، لا يرى أن الله يحكم ولا مُعَقِّب لحكمه، لا يرى أن الله إذا أراد شيئاً كان هذا الشيء، المؤمن عليه أن يتفاءل، عليه أن يرجو رحمة الله ، عليه أن ينتظر وعده، لا أن يستسلم، ولا أن يستخزي، ولا أن يضعُف، ولا أن يهون..

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ)

بالله.. هل الله يتخلى عن نبيِّه؟! يتخلى عن المؤمنين؟! لا يتخلى عن المؤمن، بل إنه يعالجه، يؤدبه، يضيِّق عليه، لكن المؤمن ضمن دائرة العناية المشددة.

حكمة النبي الكريم من تقليد الهدي و عدم حمل الدروع عند خروجه من المدينة :

غادر النبي عليه الصلاة والسلام المدينة بعد أن اغتسل ببيته، ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء، وخرجت معه أم سلمة من زوجاته، ومعه الأنصار والمهاجرون ومن لحق بهم من العرب، وساق معه من الهدي سبعين بدنة- أي ناقة- وأشعر رسول الله بعضها، لطَّخ جنبها الأيمن بالدَّم إشعاراً أنها هديٌّ لبيت الله الحرام- لله عزَّ وجل- وجعل في عنقها قلادةً إشعاراً بأن هذا هديٌّ لله عزَّ وجل- هذا تقليد جاهلي أقرَّه النبي- وبذلك قطع النبي صلى الله عليه وسلم على قريشٍ كل حجَّة عندما جلَّل الهَدي وأشعره وقلَّده، ولم يحمل المسلمون من السلاح إلا السيوف في القُرَب.. سلاح شخصي فردي فلا توجد دروع، إذاً لا حرب، كان من عادة العرب في الجاهلية أن الذي يصُدّ الناس عن بيت الله الحرام يسقط من نظر الناس، والنبي لحكمةٍ بالغة حينما جلَّل الهدي، وأشعره، وقلَّده، ولم يحمل الدروع، واكتفى بالسلاح الشخصي، أراد أن يُحرج قريشاً، أنا جئت معتمراً فإن منعتموني فقد سقطتم أنتم.

وكان المسلمون ألفاً وأربعمئة رجل، ليس معهم سلاحٌ إلا السيوف ولا دروع، مع مئتي فرس، سيدنا عمر رضي الله عنه وهو عملاق الإسلام قال: يا رسول الله ألا تخشى من أبي سفيان وأصحابه ولم تأخذ للحرب عُدَّتها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: " لست أحب حمل السلاح معتمراً " النبي الكريم يقول: "المؤمن كيسٌ فطِنٌ حذر"، فماذا هيأ النبي من حذر وفطنة وكياسة.

الإسلام قوة وحكمة :

أرسل بشر بن سفيان الخُزاعي عيناً إلى مكَّة، اليوم المعلومات أخطر شيء في اتخاذ القرارات قرارات الحروب وغيرها، وكل إنسان معلوماته غير صحيحة فإن قراره غير حكيم، لا تستطيع أن تتخذ قراراً حكيماً إلا بمُعطيات صحيحة، فالنبي عاقل وحكيم.. أرسل من يخبره عن أهل مكَّة، وعن أحوالهم، وعن موقفهم من عمرة النبي عليه الصلاة والسلام، أرسل بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له إلى مكَّة، وعاد بشر وقال: يا رسول الله هذه قريشٌ قد سَمْعَت بخروجك، واستنفروا من أطاعهم من الناس، وأجلبت ثقيف معهم، ومعهم النساء والصبيان، ومعهم العود المطافيل- أي النياق مع وليداتها- إنهم استعدوا استعداداً كبيراً جداً، وساقوا معهم نساءهم وأطفالهم لئلا يتراجعوا، وساقوا معهم زادهم ونوقهم كي يمدُّوهم بالطاقة.. ولبسوا جلود النمر مظهرين العداوة والحقد، ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله ألا يدخلها عليهم عنوةً أبداً، أنت تلاحظ أحياناً أن الكافر عداوته غير معقولة، عداوته شديدة جداً، عداوته ليس فيها اعتدال، لم يفعل النبي شيئاً، أراد أن يعتمر فقط، فهل يحتاج هذا الأمر إلى كل هذا الاستعداد؟! خيول، ونوق، ونساء، وولدان، وجلود نمور؟

وسيدنا خالد لم يكن قد أسلم بعد، قد قدِم إلى كراع الغميم حول المدينة بمئتي فرس، فأمر النبي الكريم رداً على هذا الاستفزاز عبَّاد بن بشر فتقدَّم بخيله فأقام إزاءَه، الحياة مُعَقَّدة جداً، إن لم تكن قوياً أكلك الأقوياء، إن لم تكن حكيماً غلبك الحكماء، إن لم تكن مستعداً غلبك من استعد، فالإسلام قوة وحكمة.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: آية 60]

المشاورة أمر إلهي لأن من استشار الرجال استعار عقولهم :

عندما أرسلت قريش سيدنا خالد- وقتها كان مشركاً- إلى ظاهر المدينة بمئتي فارس، النبي الكريم أرسل من يقف أمامه وهو عبَّاد بن بشر، وجعلت قريشٌ على الجبال عيوناً ترقب حركات المسلمين- الإنسان هو الإنسان، والوسائل مختلفة، أما الحقائق فواحدة، فالآن بالأقمار الصناعية تُرصد حركاتنا- أرسلت قريشٌ رجالاً وقفوا على رؤوس الجبال عيوناً على تحرُّكات المسلمين، ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشاً تريد منعه من بيت الله الحرام قال: أشيروا عليَّ أيها الناس؟ ألم يأمره الله؟

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران: آية 159]

حينما يسأل الإنسان يستنير فكره، وتنجلي الأمور أمامه، سيدنا عمر كان يستشير الصِغار أحياناً لحِدَّة ذكائهم، يستشير النساء في أمر النساء، يستشير السيدة حفصة في المدة التي تتحمَّلها المرأة بعيدة عن زوجها، استشار السيدة عائشة في حياة النبي الخاصَّة، فالمشاورة أمر إلهي، وكل إنسان يستبدّ برأيه يخالف منهج الله عزَّ وجل، وقالوا: " من استشار الرجال استعار عقولهم ". والله عزَّ وجل أمر النبي أن يشاور، ووصف المؤمنين فقال:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

[سورة الشورى: آية 38]

فالنبي قال: أشيروا عليَّ أيها الناس أتريدون أن نَؤمَّ البيت فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟ فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامراً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً فتوجَّه له فمن صدَّنا عنه قاتلناه، ما دام خرجت فَسِر على بركة الله من صدنا عنه قاتلناه، وحزن النبي الكريم أشدَّ الحزن لموقف قريشٍ ومبالغتها في الخُصومة، فهناك دم وقرابة ونسب، وكان يتمنى أن تكون الرحمة والمودة مكان هذه الخصومة، فقال عليه الصلاة والسلام: فامضوا على اسم الله وعلى بركته فساروا، وقال النبي الكريم: يا ويح قريش نَهَكتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوه وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، أي

ماذا يمنعهم لو خَلّوا بيني وبين الاعتمار ببيت الله الحرام؟ قال عليه الصلاة والسلام: فلا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفر هذه السالفة.

المؤمن سليم الصدر طيِّب الطوية أما الكافر فموقفه عدائي :

كلكم يعلم عندما عرضوا عليه الغنى، والمال، والنساء الجميلات، قال: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه. سار النبي وأصحابه ووصلوا إلى مكانٍ قرب الحديبية، فبركت ناقته القصواء، فقال الناس: خلأت ناقة رسول الله- أي حرنت بعدما ألحوا عليها أن تنهض مصوتين لها: حل حل- فقال عليه الصلاة والسلام:

((ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل))

[البخاري عن المسور بن مخرمة]

فيل أبرهة أحجمت عن اقتحام الكعبة، ووقفت ناقته صلى الله عليه وسلم أمام بيت أبي أيوب الأنصاري بالهجرة، قال: ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفس محمدٍ بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خصلةٍ يسألون فيها صلة الرحِم إلا أعطيتُهُم إياها، والله أيها الأخوة هذه حقيقة، تجد المؤمن سليم الصدر، طيِّب الطوية، رحيماً، متسامحاً، لا حقد في قلبه، لا معاناة في نفسه، أما الكافر فموقفه عدائي، يرعد ويربد، يفور ولا يهمد، يضطرب، يعلو صوته، ويتكلم كلاماً قاسياً، فلم كل هذه العداوة؟ النبي الكريم وصف المنافق: إذا خاصم فجر. قال: والله والذي نفس محمدٍ بيده لا تدعوني قريشٌ اليوم إلى خصلةٍ يسألون فيها صلة رحِمٍ إلا أعطيتهم إياها.

موقف قريش العدائي من النبي عليه الصلاة و السلام :

وصل النبي إلى الحديبية واستقرَّ بها، أرسلت قريشٌ بعض الرُسُل من هؤلاء الرسل بديل بن ورقاء الخُزاعي وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم: جئناك من عند قومك، كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، معهم العود المطافيل، والنساء والصبيان، يقسمون بالله لا يُخَلّون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراءهم، رسول قريش يخبره أن قريشاً أخذت عُدتها وأُهبتها وهي تُقسِم أنها لن تسمح لك بدخول البيت، فقال عليه الصلاة والسلام: لم نأت لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرَّت بهم، فإن شاؤوا ماددناهم مدَّةً ويخلّوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإن أبوا فلهم ذلك.. هذا الرسول علِم علم اليقين أن النبي صلى الله عليه وسلَّم -بعد أن سمع منه ورأى بعينه- لم يأت يريد حرباً، إنما جاء معتمراً زائراً معظِّماً حرمة هذا

البيت الحرام، قال: سأبلغهم ذلك، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرض عليكم فعلنا، فقال سفهاء قريش: لا حاجة لنا أن تُخبرنا عن شيء، وقال ذو الرأي: هات ما سمعته، فحدثَّهم بديل بما قاله النبي وقال: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتالٍ، وإنما جاء زائراً هذا البيت، فقالت قريش: إن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا في جنوده معتمراً، تسمع العرب أنه دخل علينا عنوةً وبيننا وبينهم من الحرب ما بيننا، والله لا كان هذا أبداً وفينا عينٌ تطرف. أول رسول سمع من النبي، رأى الوضع طبيعياً، بلَّغ قريشاً فلم تتحرَّك ولم تلن قَنَاتُها.

أرسلت قريش رسولاً آخر، لما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذا من قوم يتألهون- أي يعظِّمون الله عزَّ وجل- فابعثوا الهَدْي في وجهه، فبعثوا الهدي، فلما رأى الهدي قال: إنما القوم أتوا عمَّاراً، فقال عليه الصلاة والسلام: أجل يا أخا بني كنانة، وعاد الحُلَيْس إلى قريش وأخبرهم بما رأى وقال لهم: إني رأيت ما لا يحلُّ منعه، رأيت الهدي في قلائده قد أكل أوباره، والرجال قد شَعُثوا، فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي ولا علم لك إنما رأيت من محمدٍ مكيدةً، فغضب الحُلَيْس من ذلك وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، يُصدّ عن بيت الله الحرام من جاءه معظِّماً؟ والذي نفس الحُلَيْس بيده لتخلُّون بين محمدٍ وما جاء به أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجلٍ واحد.

المبالغة في محبة الرسول الكريم و توقيره من قِبل أصحابه الكرام :

بان موقف قريش، إنه موقف عدائي، أول رسول قنع، والثاني قنع، أما الثالث فاسمعوا ماذا قال له، قولٌ بليغ: هم ليوث غاباتٍ، وغيوث جدباتٍ، ما في عهودهم خورٌ، ولا في صفوفهم كدرٌ، ولا في خدودهم ثُغُرٌ، ولا في عيونهم خَزَرٌ- صغر- ولا في صدورهم وَغَرٌ، ولا في حديثهم زَوَرٌ، ولا في قولهم خَلَفٌ- هذه صفة أصحاب النبي- قال عروة: يا معشر قريش إني جئت كِسْرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، ما رأيت ملكاً في قومه قَطُّ مثل محمدٍ في أصحابه، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً، فانظروا رأيكم فإن عرض عليكم رُشداً فاقبلوا ما عرض عليكم، فإني لكم ناصح مع أني أخاف ألا تُنصروا عليه.

وهذا دليلٌ على جودة عقله وتفطُّنه لما كان عليه الصحابة من المبالغة في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وتوقيره، ومراعاة أموره، هؤلاء الرسل رأوا النبي، وأصحاب النبي، رأوا هذا الحب الشديد، والتعاون المُعْجز بين النبي وأصحابه، رأوا التواد والرحمة والتضحية والإيثار، رأوا عظمة الداعي والدعاة.

فقالت قريش لهذا الرسول الثالث: لا تتكلَّم بهذا يا أبا يعفور ولكن نردَّه عامنا هذا ويرجع إلى قابل.. إنهم لانوا قليلاً، هذا العام لا اعتمار بل العام القادم.

بيعة الرضوان :

أرسل النبي عليه الصلاة والسلام رسولاً اسمه خِراش بن أمية إلى قريش، وحمله على بعيرٍ له يُقال له ثعلب، ليبلِّغ أشرافهم أنه ما جاء النبي إلا معتمراً، ماذا فعلت قريش؟ عقروا جمل النبي الكريم، عقره عكرمة بن أبي جهل الذي صار من كبار الصحابة، عقر الناقة عداوة وبغضاء وحقداً، عقر ناقة رسول الله والذي عليها رسول رسول الله، وأرادوا قتل الرسول، ولكن منعه الأحابيش فخلَّوا سبيله حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلَّم وأخبره بما لقي.

أرسل النبي صلى الله عليه وسلَّم سيدنا عثمان بن عفَّان سفيراً له إلى قريش، دخل عثمان بن عفَّان رضي الله عنه مكَّة مع عشرةٍ من المسلمين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ليزورا أهاليهم، فلقيه أبَان بن سعيد بن العاص فأجار عثمان حتى يبلِّغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وهم يردُّون عليه: إن محمداً لا يدخلها علينا أبداً.

ولما فرغ عثمان من تبليغ رسالة النبي قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف أنت وحدك، فقال رضي الله عنه: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله، قال بعض المسلمين: لقد خَلَصَ عثمان إلى البيت فطاف به دوننا، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أظنَّه طاف بالبيت ونحن محصورون، النبي يَعْرِفُ قَدْر عثمان، قال: لا يفعلها، أما سيِّئو الظن فقالوا: الآن سوف يطوف بالبيت، قالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه؟ صار قريباً، فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك ظنِّي به ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف ولو مكث سنةً ما طاف بها حتى أطوف.

وقريش حَبَسَت سيدنا عثمان ثلاثة أيام، فبلغ النبي الكريم أن عثمان قد قُتِل وقُتِل معه العشرة الذين رافقوه، فقال النبي الكريم عند بلوغه ذلك: لا نبرح حتى نُناجز القوم. ما دام أول رسول كادوا أن يقتلوه، وعقروا الناقة، والثاني قتلوه مع أصحابه العشرة، الآن: لا نبرح هذا المكان حتى نناجز القوم، وكانت بيعة الرضوان.

مبايعة الصحابة الكرام النبي عليه الصلاة و السلام على الفتح أو الشهادة :

قال سلمة بن الأكوع: بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله قائلون إذ نادى منادي رسول الله وهو عمر بن الخطَّاب: أيها الناس البيعة البيعة، فسِرنا إلى النبي الكريم وهو تحت الشجرة فبايعناه- في الطريق القديم

بين مكة والمدينة في المنتصف يوجد مسجد البيعة- وبايعه الناس على عدم الفِرار، وأنه إما الفتح وإما الشهادة، ولم يتخلَّف منا أحدٌ إلا الجدَّ بن قيس، قال ابن الأكوع: لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته يستتر بها، وكان من المنافقين فما بايع، وكان سيد بني سلمة في الجاهلية، ولما سألهم النبي من سيِّدكم؟ قالوا: الجد بن قيس على بخلٍ فيه، فقال النبي الكريم: وأي داءٍ أدْوَأ من البخل؟ هذا أكبر داء في الإنسان، فكيف هو سيدكم؟ بل سيدكم عمرو بن الجموح.

الصحابة الكرام بايعوا واحداً واحداً، تخلَّف هذا المنافق، والنبي الكريم بايع عن عثمان، وضع يده على يده وقال: هذه عن عثمان.." اللهمَّ هذه عن عثمان فإنه في حاجتك وحاجة رسولك فأنا أبايع عنه ".

فإذا كان الإنسان في حاجة الله ورسوله، في خدمة الخلق وإكرامهم، في الإحسان إليهم، في الدعوة إليه، فإن هذا عملٌ عظيم، قال: اللهمَّ هذه عن عثمان فإنه في حاجتك وحاجة رسولك فأنا أبايع عنه، فضرب بيمينه على شماله، وهذا يَدُلُّ على علم رسول الله بعدم نبأ مقتل عثمان، لكن كانت هذه البيعة شحذاً لهمة الصحابة، ورفعاً لمعنوياتهم، وتزاحم الصحابة على بيعة رسول الله، وبدأ البيعة أحد الصحابة وقال: إني أبايعك على ما في نفسك، هكذا قال الصحابي وهو سنان بن أبي سنان الأسدي، فقال النبي: وما في نفسي؟ أي كيف عرفت ما في نفسي؟ قال: أضرب بسيفي بين يديك حتى يُظهرك الله أو أُقتل، فصار الناس يقولون لرسول الله نبايعك على بيعة سِنان، واحد واحد، واحدهم بايع ثلاث مرَّات من شدة تعلقه برسول الله، كان أُبَيِّ بن سلول كبير المنافقين معهم، فجاء ابنه عبد الله وهو من الصحابة الكرام، وهو أدرى بنفاق أبيه وقال: يا أبت أذكِّرك الله ألا تفضحنا في هذا الموقف، تطوف ولم يطف رسول الله، قم فبايع النبي.

أيها الأخوة... هذه البيعة رضي الله عنهم بها جميعاً، والآية الكريمة:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

[سورة الفتح]

إن شاء الله في درسٍ قادم نتابع هذا الصلح الذي سمَّاه القرآن الكريم:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

[سورة الفتح]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (3-8): صلح الحديبية 2/3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-02-17

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الثالث من سورة الفتح.

ضعف قريش و استعطاف النبي عليه الصلاة و السلام في الصلح :

كان محمد بن سلمة رضي الله عنه على حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية، بعثت قريشٌ أربعين أو خمسين رجلاً عليهم مِكْرَز بن حفص- قائد هذه الحملة الصغيرة- وقال عليه الصلاة والسلام في حقّ مِكْرز: " هذا رجلٌ غادرٌ فاجر ".. لقد أرسلت قريشٌ هذه الكتيبة ليطوفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً رجاء أن يصيبوا منهم أحداً، وكانت قريش قد حَجَزَت سيدنا عثمان بن عفان وعشرةً من أصحاب رسول الله معه في مكة، وحجز هؤلاء الصحابة كان سَبَبَ بيعة الرضوان، جاءت قريش مرة ثانية لتأخذ مزيداً من الأسرى، فالنبي عليه الصلاة والسلام نَبَّه أصحابه. فما كان من محمد بن سلمة هذا الصحابي الجليل الشجاع إلا أن أخذ كل هؤلاء أسرى، إلا مِكْرَز فقد أفلت، وصدق عليه الصلاة والسلام حينما قال عنه: " إنه رجلٌ فاجرٌ غادر "، وأوتي بهؤلاء الأسرى إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فَحُبِسوا، وبلغ قريشٌ أسر أصحابها، فجاء جمعٌ منها رموا المسلمين بالنَبْل والحجارة، فقتل من المسلمين ابن زنيم رمياً بسهمٍ، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً، المسلمون أسروا جماعة ثانية، أول جماعة خمسين، والثانية اثني عشر، وعند ذلك بعثت قريشٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم جمعاً على رأسهم سُهَيل بن عمرو، وقالت: ائت محمداً وصالحه، أول جماعة أسرى، والثانية أسرى، بيعة الرضوان، مجيء النبي وأصحابه مهللين مكبِّرين، آمِّين البيت، معهم الهدي لا يريدون حرباً، مقالة قالها الرسل الثلاثة الذين أرسلتهم قريش إلى النبي، كل هذه العوامل اجتمعت وحَمَلَت قريش على طلب الصُلح، إذاً ضَعُفَت قريش، وبدأت تستعطف، وبدأت تريد الصلح، يقول الله عزَّ وجل:

(وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

[سورة الفتح]

النبي عليه الصلاة والسلام رحيمٌ بالخلق عامةً حتى الكُفّار :

إذاً هذا الصلح من فعل الله مباشرةً، كف أيدي قريش عن النبي وأصحابه، وكف أيدي النبي وأصحابه عن قريش، لحكمةٍ أرادها الله سوف نراها بعد قليل، فما مغزى هذه القصة إلا أن نوقن أن الأمر كله بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى بيده الخير في كل الأحوال، وأن الشيء الذي يُزْعِجنا ونكرهه ربما كان خيراً لنا.

النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى سهيل بن عمرو رئيساً للوفد عرف بفطنته كل شيء، قال: "قد سهَّل الله لكم من أمركم، القوم يأتون إليكم بأرحامهم وسائلوكم الصلح، فابعثوا الهَدي، وأظهروا التلبية، لعلّ ذلك يلين قلوبهم".

النبي عليه الصلاة والسلام رحيمٌ بالخلق عامةً حتى الكُفّار، لا يريد قتالهم بقدر ما يريد هدايتهم، وكلما اشتدت الرحمة في قلب الإنسان صارت رحمته تَنْصَبُّ على أعدائه، هو لا يريد إبادتهم، بينما نرى الحروب الحديثة الآن حروب إبادة، حروب منافع، حروب مكاسب، لكن الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم:

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)

[سورة التوبة: آية 36]

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39))

[سورة الأنفال]

إزالة الفتن وإقامة شرع الله هو الهدف الشريف والنبيل من الحروب الإسلامية :

الهدف الشريف والنبيل من الحروب الإسلامية إزالة الفتن، وإقامة شرع الله، الشيء الذي يَلْفِت النظر أن أبا سفيان لم يرد ذكره إطلاقاً في صلح الحديبية، إذ أنه كان غائباً في بعض تجاراته، والأرجح في اليمن لتعطُّل طريق تجارة قريش في الشام- كان أبو سفيان مسافراً إلى اليمن- كل ذلك مقدمة للأحداث الجليلة التي تمخضت منها المفاوضات.

كان من تعليمات قريشٍ إلى رئيس وفدها جليةً واضحة، ائت محمداً وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عامه هذا، فأول شرط أصرَّت عليه قريش أن يرجع محمدٌ عن العمرة في هذا العام، حتى لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوةً أبداً، تريد حفاظاً على ماء وجهها، إن قريشاً لا تحتمل أن يأتيها محمدٌ عليه الصلاة والسلام وهي التي أخرجته من مكة أن يأتيها ليعتمر البيت عنوةً وقسراً، فالرؤية واضحة في نفس سهيل بن عمرو وفكره، وهي أوضح في نفس النبي عليه الصلاة والسلام.

الغاية التي سعى سهيل بن عمرو لتحقيقها هي الصلح وإبعاد الحرب :

أقبل سهيلٌ على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: أراد القوم الصلح حينما بعثوا هذا الرجل. وكلكم يعلم أن من صفات الأنبياء الفطانة، والفطن سريع الإدراك، يدرك السطور وما بين السطور وما خلف السطور، يدرك الوقائع وما خلف الوقائع، يدرك البواعث العميقة، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى سهيلاً، قال: أراد القوم الصلح حينما بعثوا هذا الرجل، سهيل بن عمرو، قال: يا محمد إن الذي كان من حبس أصحابك- عثمان والعشرة- وما كان من قتال من قاتلك- مكرز- لم يكن من رأي ذوي رأينا، بل كنا كارهين له حين بلغنا ولم نعلم به، وكان من سفهائنا فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أولاً وثانياً. هذا الذي حدث من حجز عثمان وأصحابه ومن كتيبة مكرز، سوء تَصَرُّف ممارسات خاطئة من سفهاء مكة.

وهنا يُلْمَسُ في كلام سهيل المدخل اللطيف ففيه لينٌ وتوددٌ حتى وتراجعٌ، وغاية سهيل تحقيق الهدف الذي جاء من أجله ألا وهو الصلح وإبعاد الحرب، يبدو أن قريشاً أيقنت من بيعة الرضوان أن أصحاب النبي كرجلٍ واحد وقفوا معه صفاً واحداً، وبايعوه على الموت، الشيء الثاني ما ذكره الرسل الثلاثة من أخبارٍ طيبة، من أن أصحاب رسول الله ما جاؤوا يبتغون حرباً، والشيء المهم أن أسر الخمسين وأسر الباقين جعلهم يشعرون أنهم فيما لو التحم الفريقان فالنصر للمسلمين، وقد أشارت الآية الكريمة:

(مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

[سورة الفتح]

أولاً: سهيل أراد إطلاق سراح الأسرى القرشيين، لكن هؤلاء الأسرى كانوا ورقةً رابحةً بيد النبي عليه الصلاة والسلام، وأمام مطلب سهيل بن عمرو قال عليه الصلاة والسلام: " غير أني لا أرسلهم حتى ترسلوا أصحابي ". فقال سهيل: نفعل، فبعث إلى قريشٍ بذلك، فبعثوا بمن كان عندهم، عثمان والرجال العشر، فأطلق عليه الصلاة والسلام أسرى قريش ولم يسلبهم- لم يأخذ منهم شيئاً- بل مَنَّ وعفا عنهم وصَفَح، فمن دخل مكة من المسلمين لا يؤسَرْ ولا يحتجز لأنهم وفدٌ مفاوض.

حنكة النبي وانصياعه لأمر الله عزَّ وجل :

الآن سوف ترون معي حنكة النبي، ورحمته، وحكمته، وبُعد نظره، وأدب النبي مع الوحي، وانصياعه لأمر الله عزَّ وجل، وهذا الصلح يكاد يكون أمراً من الله، فيه استسلامٌ لمشيئته، لكن الخير كله كان فيما بعده، قال: جثا سهيلٌ على ركبتيه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، والمسلمون حوله جلوس، وتكلَّم وأطال، وكان عَبَّاد بن بشر يقول: اخفض صوتك عند رسول الله. أحياناً الكافر لا يعرف قدر النبي، ولا

يعرف مكانته العظيمة، فيكلمه كلام ندٍ لند، قد يرفع صوته، فقال له عروة: اخفض صوتك عند رسول الله، يقول عليه الصلاة والسلام لسهيل: خلّوا بيننا وبين البيت نطوف به، فقال سهيل: لا والله لا تتحدث العرب بنا أنَّا أخذنا ضغطة ولكن ذلك في العام القابل. النبي عليه الصلاة والسلام امتاز ببعد النظر، ودقة التقدير، ثم أراد سهيلٌ أن يكتب العقد كما يراه ويتصوَّره لا كما يراه النبي فتساهل عليه الصلاة والسلام معه.

أحياناً الإنسان يتساهل بشيء، هذه ملاحظة، أحياناً في الصلح بين الزوجين، الإنسان كبير العقل والنفس والقلب يهمُّه التئام الزوجين، يهمه الأولاد، يخاف من تشريد الأولاد، لذلك المُفاوض في شؤون الصلح بين الزوجين قد يتساهل في بعض الأمور فيُلام على تساهله، هدفه كبير جداً، هدفه عالٍ جداً، هدفه أن يتَّفِق الزوجان، والأمور المادية لا قيمة لها، أما حينما ندقق بالتفاصيل، ونجعل من هذه التفاصيل عقبةً كؤوداً، فعندئذٍ لا يعنينا هذا الهدف النبيل، يعنينا الانتصار، والتحدي، وتنفيذ القول، فحينما نرى أن النبي عليه الصلاة والسلام تساهل كثيراً مع سهيل بن عمرو، لا لضعفٍ به، ولا لضعفٍ في أصحابه، ولا ضعفٍ في تأييد قتاله، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام أراد هداية قريش، أراد أن يريح أصحابه سنواتٍ طويلة، وأن يلتفت إلى الدعوة إلى الله عزَّ وجل، وأراد أن يُلَيِّن قلب القُرَشيين.

موقف عمر بن الخطاب من العقد بين النبي الكريم و كفار قريش :

سيدنا عمر كما تعلمون كان شديداً، هو عملاق الإسلام، وقد أعزَّ الله به المُسلمين حينما أسلم، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، فدائماً يمَثِّل الجانب القوي، يمثل الصقور بالتعبير الحديث، حينما رأى أن العقد سيكتب وفق ما يمليه سهيل لا وَفْقَ ما يمليه رسول الله عليه الصلاة والسلام تألم أشد الألم ووثب، فأتى أبا بكر رضي الله عنه وقال: يا أبا بكر أليس هو برسول الله؟ قال أبو بكرٍ: بلى -إذا قلنا: نعم غلط، فبلى تفيد نفي النفي، ونفي النفي إثبات، أما نعم فتفيد إثبات النفي- قال عمر: أو لسنا بالمسلمين؟ قال أبو بكرٍ: بلى، قال عمر: أو ليسوا بالمشركين؟ قال أبو بكرٍ: بلى، قال: فعلامَ نُعْطي الدنيَّة في ديننا؟ يجيبه أبو بكر: يا عمر الزم غرزه.. أي ركابه، كن معه، كن تحت جناحه، لا تعترض فهو رسول الله يوحى إليه، الزم غرزه.. إنه رسول الله، وليس يعصي ربه، معنى ذلك أن الله أمره بذلك، وهو ناصره، استمسك بغرزه حتى تموت، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى عمر النبي عليه الصلاة والسلام قال له مثل ما قال لأبي بكر، فقال عليه الصلاة والسلام، وفي قوله حل للعقدة قال: " أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يُضَيِّعَني " فُهم أن تفاصيل الصُلح كانت بوحيٍ من الله عزَّ وجل، رحمةً بعباده كلهم، لأن بمكة أناساً مؤمنين، أخفوا إيمانهم، كتموا إيمانهم، فلو التحم

الصحابة الكرام مع أهل مكة لقتلوا منهم أعداداً كبيرة دون أن يعلموا، فالله سبحانه وتعالى رب العباد كلهم، هذا الجواب الدقيق الدقيق أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني.

شروط العقد الذي أبرم بين النبي عليه الصلاة و السلام و سهيل بن عمرو :

ثم دعا النبي عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب ليكتب فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا.. لا أعرف أنه رحمنٌ رحيم.. ولكن اكتب: باسمك اللهم، فكتبها، لأن قريشاً كانت تقولها، فَضَجَّ المسلمون، والنبي حليم هادئ، وهذا هو التعديل الأول لسهيل بن عمرو، النبي أراد تنفيذ أمر الله عزَّ وجل، وأراد أن ينْعُم الناس بالأمن سنواتٍ طويلة، وأراد أن يعطي فرصةً لأهل مكة لعلهم يتوبون إلى الله عزَّ وجل، ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولم أصُدَّك عن البيت، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، ولو علمت أنك رسول الله ما خالفتك، ولاتبعتك، فقال النبي عليه الصلاة والسلام بكل ثقة واطمئنان لعلي بن أبي طالب: امْحُه -امح رسول الله- فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: والله ما أنا بالذي أمحوه، والله لا أمحوك أبداً من الرسالة، فقال عليه الصلاة والسلام: أرينه.. أين رسول الله ؟ كان عليه الصلاة والسلام أمياً.. فأراه إيَّاه فمحاه النبي الكريم بيده الشريفة، وقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، وهذا هو التعديل الثاني لسهيل بن عمرو، وقال عندها صلى الله عليه وسلم: أنا والله رسول الله وإن كذَّبتموني، وأنا محمد بن عبد الله. فجعل عليٌ يتلكَّأ ويأبى أن يكتب، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب فإن لك مثلها.

يروي التاريخ أنه لما صار صلحٌ بين علي رضي الله عنه وكان أمير المؤمنين ومعاوية، رفض كاتب الصلح أن يكتب: هذا ما اتفق عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال له: ولك مثلها، وهذا من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم اتفق النبي عليه الصلاة والسلام، وسهيل بن عمرو على أن تضع الحرب أوزارها عشر سنين تأمن فيه الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريشٍ ممن هو على دين محمدٍ بغير إذن وليِّه رُدَّ إليه ذكراً كان أو أنثى، ومن أتى قريشاً ممن كان مع محمدٍ مرتداً ذكراً كان أو أنثى لن تردَّه قريش، شرط فيه إجحاف بالمسلمين لأنه لا توجد معاملة بالمثل، وشرطوا أنه من أحبَّ من القبائل أن يدخل في عقد محمدٍ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدها دخل فيه، وأن بيننا وبينكم هُدنةً.

وقال سهيل: وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل مكة.. والله لو عرف سهيل من يخاطب لذاب كما تذوب الشمعة ولكن لا يعرفه، يعرف أنه إنسانٌ جمع الناس حوله، واستقلَّ بهم، وحارب قريشاً مرتين، أما لو عرف أنه رسول الله لاختلف الوضع كثيراً، وقال سهيل: وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل مكة، وإنه إذا كان عامٌ قابل خرج منها قريش فتدخلها بأصحابك فتقيم بها ثلاثة أيامٍ، معك سلاح الراكب، السيوف في القرب والقوس لا تدخل بغيرهما، في العام القادم قريش تخرج والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه يعتمرون ثلاثة أيامٍ وليس معهم من السلاح إلا سلاحاً شخصياً -سيوفٌ في قربها- فكتب عليه الصلاة والسلام في أسفل الكتاب ولنا عليكم مثل الذي لكم علينا.

كُتب الكتاب فأخذه رسول الله ونُسخ مثله لقريش، نسخه محمد بن سلمة رضي الله عنه لسهيل لأن سهيلاً قال: يكون هذا الكتاب عندي، فقال عليه الصلاة والسلام: بل عندي.

وعند كتابة هذا العقد، عَقْد الصلح بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين سهيل بن عمرو قال المسلمون: سبحان الله! كيف نرد للمشركين من جاء مسلماً، وعسر عليهم هذا الشرط، وكان مما قال عمر رضي الله عنه: أترضى بهذا يا رسول الله؟ فتبسَّم عليه الصلاة والسلام وقال: نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله عنَّا-لا رده الله- ومن جاءنا منهم فرددناه سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً، ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه في شيءٍ وليس منا بل هو أولى بهم.

قصة أبي جندل مع النبي صلى الله عليه و سلم :

وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمروٍ يكتبان الكتاب بالشروط المذكورة، جاء أبو جندل وهو ابن سهيل بن عمرو، جاء مسلماً، يرسف في القيود، قد أُفلت إلى أن جاء النبي صلى الله عليه وسلم ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فجعل المسلمون يرحِّبون به ويهنئونه، فلما رأى سهيلٌ ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه بغُصنٍ من شجرةٍ بها شوكٌ ضرباً شديداً، حتى رَقَّ عليه السلمون وبكوا وأخذ سهيل بتلابيب أبي جندل وقال: يا محمد هذا أول ما أقاضيك به- شروط جديدة - وأن ترده إلي، لقد لَجَّت القضية بيني وبينك.. أي انتهت، وقّعنا وانتهينا، يجب أن تنفذ العقد.. فقال عليه الصلاة والسلام: صَدَقت.

فجعل سهيلٌ يجر ابنه أبا جندل ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونني عن ديني، ألا ترون ما لاقيت؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم فإنهم كانوا لا يشكّون في دخولهم مكة وطوافهم بالبيت لأن الله عزَّ وجل قال:

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ)

[سورة الفتح: آية 27]

النبي قَصَّ عليهم رؤياه، أيقنوا جميعاً أنهم داخلون مكة، الآن لا توجد مكة، ولا يوجد عمرة، وسوف يعودون إلى مكة، وهذا الذي جاء مسلماً عليهم أن يردوه، تألَّم السلمون أشد الألم ودخل عليهم همٌ عظيم، رُد أبو جندل إلى قريش بعد أن ضربه أبوه ضرباً مبرحاً، فقال عليه الصلاة والسلام لأبي جندل: " اصبر واحتسب فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ألا نغدر بهم "-أي هكذا الشرط- ومما قاله صلى الله عليه وسلم لسهيل: إنا لم نقضِ الكتاب بعد، فقال سهيل: بلى، لقد لَجَّت القضية بيني وبينك، فقال عليه الصلاة والسلام: أجره لي- اسمح لي بهذا الشخص- فقال: ما أنا مجيرٌ لك بذلك، فقال: بلى فافعل، فقال: ما أنا بفاعل، فقال مِكْرَز وحوَيْطِب: قد أجرناه لك، وقالا لسهيل: لا تعذبه، وقال حويْطِب لمكرز: ما رأيت قوماً أشدَّ حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد.. هذا منا.

ولما فرغ النبي عليه الصلاة والسلام من الصلح أشهد عليه رجالاً من المسلمين، هم: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقَّاص، وأبو عبيدة بن الجراح، ومحمد بن سلمة، ورجال من قريش، حويطب ومكرز، وقام إلى هديه صلى الله عليه وسلم وفيه جملٌ لأبي جهل، كان نجيباً في رأسه حلقةٌ من فِضَّة غنمه صلى الله عليه وسلم يوم بدر، ونفر هذا الجمل ودخل مكة وانتهى إلى دار أبي سفيان، وخرج في أثره عمرو بن غنمة الأنصاري، فأبى سفهاء مكة أن يردّوه.. لم يدخل الجمل في العقد.. حتى أمرهم سهيل بن عمرو بشرائه، فدفعوا فيه عدة ثياب، فقال عليه الصلاة والسلام: لولا أنا سميَّناه في الهدي فعلنا. وبأمرٍ من سهيل بن عمرو عرضوا مئة من الإبل مكانه، قال سهيل: فإن قبلها فامسكوا هذا الجمل، وإلا فلا تتعرضوا له، فأبى عليه الصلاة والسلام وقال: لو لم يكن هذا الجمل للهدي لقبلت المئة.

المشاورة من السُنَّة :

الآن بقي في هذا الصلح شيءٌ دقيق، لما فرغ النبي عليه الصلاة والسلام من كتابة الصلح أمر المسلمين بالنحر والحلق وذلك ثلاث مرات، يبدو أن الصحابة الكرام تألَّموا أشد الألم من هذه البنود، ورأوا فيها إحباطاً لطموحهم بدخول مكة والطواف حول البيت، فتلكؤوا في تنفيذ هذا الأمر قليلاً، النبي عليه الصلاة والسلام دخل على أم سلمة وهو شديد الغضب فاضطجع، فقالت: مالك يا رسول الله؟ قالت ذلك مراراً وهو لا يجيبها، ثم ذكر لها ما لقي من الناس وقال: هلك المسلمون، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا، وفي روايةٍ: عجباً يا أم سلمة ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه؟ فقالت له: يا رسول الله لا تلمهم، فإنهم قد دخلهم أمرٌ عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقَّة في أمر الصلح،

رجوعهم بغير فتحٍ، وأشارت رضي الله عنها أن يخرج ولا يكلّم أحداً منهم وينحر بُدنة ويحلق رأسه، وهذا يدل على فضل أم سلمة ووافر عقلها، لكن النبي عليه الصلاة والسلام حينما استشارها وعرض عليها الأمر أراد أن يكون قدوةً لنا في أن نستشير من حولنا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمره الله جلَّ جلاله بنصٍّ القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران: آية 159]

وقال:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

[سورة الشورى: آية 38]

وقال الله عزَّ وجل:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

[سورة الطلاق: آية 6]

إذاً المشاورة من السُنَّة، وها هي أم سلمة تشير على النبي صلى الله عليه وسلم وقد وقف منها الموقف المشرِّع، فهو حينما استشارها شرع لنا ذلك.

تسمية الصلح مع قريش بالفتح المبين :

وخرج النبي عليه الصلاة والسلام فأخذ حربةً وقصد هديه، وأهوى بالحربة إلى البُدن رافعاً صوته: بسم الله الله أكبر، ثم دعا خُراش بن أمية الخُزاعي، فحلق رأسه الشريف ورمى شعره على شجرة، فأخذه الناس فلما رأى أصحابه ذلك قاموا فنحروا وحلقوا وقَصَّر بعضهم، فدعا عليه الصلاة والسلام للمحلّقين ثلاثاً قال:

" رحم الله المحلقين، فقالوا: والمقصرين؟ قال: رحم الله المحلقين، فقالوا: والمقصرين؟ قال: رحم الله المحلقين، فقالوا: والمقصرين، قال: والمقصرين ".

عندئذٍ أقام المسافرين في الحديبية بضعة عشر يوماً، وقيل: أقاموا عشرين يوماً، ثم انصرفوا إلى المدينة، وكان عمر بن الخطاب يسير مع رسول الله ليلاً فسأله عمر عن شيءٍ، فلم يجبه النبي، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر يخاطب نفسه: ثكلتك أمك يا عمر، سألت رسول الله ثلاث مراتٍ فلم يجبني، فقال عمر: وحركت بعيري ثم تقدَّمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزَّل فيَّ قرآن- شعر أنه ارتكب ذنباً عظيماً حينما وقف هذا الموقف المُعارض- فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرُخ بي قال:

فقلت: لقد خشيت أن يكون قد نزل في قرآن فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال: لقد أنزلت علي الليلة سورةٌ لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس- نزلت في الطريق - ثم قرأ:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

[سورة الفتح]

الله عزَّ وجل سَمَّى هذا الصلح: فتحاً مبيناً.

بنود الصلح ليست في صالح المسلمين فيها تنازلات كثيرة و لكنه أمر من الله :

على أن الصحابة تضايقوا وتألّموا و أحبطوا، وشعر أحدهم أنه لم يعتمر، ولم يطف بالبيت، وعاد خائباً، وأن الصلح بنوده ليست في صالح المسلمين، فيها تنازلات كثيرة جداً، ولكن النبي قال: أنا عبد الله ورسوله، أفعل ما يأمرني الله به. ثم جاء قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10))

[سورة الفتح]

ثم يقول الله عزَّ وجل في الطريق إلى المدينة بعد صلح الحديبية:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

[سورة الفتح]

الحكمة من الصلح :

ثم يقول الله عزَّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

[سورة الفتح]

(وَهُوَ الَّذِي)

فلا تتألّموا، الله منع النبي أن يقاتلهم..

(بِبَطْنِ مَكَّةَ)

أي في الحديبية..

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ)

[سورة الفتح]

الهدي كان معكم، وأنتم أردتم بيت الله الحرام، صدّوكم عن المسجد الحرام.. وانظر إلى الحكمة:

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا)

[: آية 25 سورة الفتح]

لو أن المؤمنين في مكة الذين لا تعرفونهم لو تزيَّلوا:

(لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25))

[سورة الفتح]

لكن هؤلاء المؤمنين مع الكفار بينهم، لو حاربتموهم لقتلتموهم وهم مؤمنون..

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ)

[سورة الفتح: آية 26]

عدم فهم سورة الفتح إلا بقراءة أسباب النزول :

النبي كان هادئاً جداً، شرط مهين لا يوجد مانع، تنازل، محو اسمه من الرسالة لا يوجد مانع، من جاء مسلماً يرد، من جاء مرتداً لا يرد، كل هذه الشروط لم يفهمها الصحابة:

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28))

[سورة الفتح]

أرأيتم إلى أن هذه الآيات يَصْعُب تفسيرها دون أن نعلم القصة على حقيقتها، هناك آيات لا تفهم إلا بأسباب النزول، سورة الفتح بأكملها وبعضاً من سورة محمد عليه الصلاة والسلام لا نفهمها إلا إذا قرأنا أسباب النزول.

صلح الحديبية من أعظم الفتوح :

ولما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم، قال جبريل للنبي عليه الصلاة والسلام: نُهَنِّئُك يا رسول الله، وهنَّأه المسلمون، وتكلم بعض الصحابة وقالوا: ما هذا بفتحٍ لقد صددنا عن البيت؟! فقال عليه الصلاة والسلام لمَّا بلغه ذلك: " بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرواح عن بلادهم، ويسألونكم القضيَّة، ويربحوا إليكم في الأمان، لقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم، ورَدَّكم الله تعالى سالمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح ". الآن النبي حل الموضوع: لأن قريشاً أصبحت نداً لكم، طلبوا منكم الصلح، وهادنوكم، وخضعوا لكم، ولانوا لكم، وعُدُّتم سالمين غانمين، ثم قال النبي: أنسيتم يوم أحد؟

(إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ)

[سورة آل عمران: آية 153]

أنسيتم يوم الأحزاب؟

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10))

[سورة الأحزاب]

أنسيتم ذلك؟ فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكَّرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا، هذا هو الملخص، عندئذٍ الصحابة استسلموا، ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا.

الله سبحانه وتعالى ناصر دينه وناصر المؤمنين و لو بعد حين :

هناك رواية في ختام الدرس، لما صُدوا قال سيدنا عمر: أين الرؤيا يا رسول الله؟ أي كيف نفسِّر الرؤيا إذاً؟ وهذا يمثل منتهى الجرأة والحرية الفكرية، فأنزل الله عزَّ وجل:

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27))

[سورة الفتح]

سيدنا عمر قال: يا رسول الله ألم تقل إنك تدخل مكة آمناً؟ سأله سؤالاً، فأجابه النبي: بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟ من قال لك إنني سأدخلها في هذا العام؟ هناك نقطة ضعف في السؤال، فقال عمر ومن حوله: لا، فقال عليه الصلاة والسلام كما قال جبريل: فإنكم تأتونه وتطوفون به.

على كلٍّ حال هذا درس بليغ، أحياناً يكون الوحي هو الذي يأمر وينهى، وملخص الموضوع كله:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ((216)

[سورة البقرة]

قد يقول أحدكم: لماذا الإسلام مُحارب في العالم كله؟ والله الذي أراه أن الخير في النهاية للمسلمين، وأن هذا الدين سوف يظهره الله على الدين كله، وأن الإسلام يكسبُ أضعاف ما يخسر الآن، ألا ترى إلى أن الإسلام أصبح القضية الأولى في العالم؟ ألا ترى أن العالم كله فرز فريقين؟ مسلم وغير مسلم، فالذي نقيسه على هذا الصلح أن الله عزَّ وجل لا يتخلى عن دينه، وله حكمةٌ قد نعرفها وقد لا نعرفها، ينبغي أن نستسلم، والله سبحانه وتعالى ناصر دينه وناصر المؤمنين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (4-8): صلح الحديبية 3/3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-02-24

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الرابع من دروس تفسير سورة الفتح.

تعلق إرادة الله عز وجل بالحكمة المطلقة :

أيها الأخوة الكرام: إن المسلمين أحياناً تؤلمهم أحداثٌ معيّنة وقد يكون الخير فيها، وقد لا ينجلي خيرها إلا بعد حين، فلعل صُلْحَ الحديبية الذي أمَضَّ المسلمين وآلمهم أشدّ الألم وقتها، ثم تكشَّفت الخيرات والبركات التي أتت منه بشكلٍ غير متوقع، فلعل في هذا درساً مستمراً للمسلمين..

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

[سورة البقرة: آية 216]

هذا ينطبق على مجموع المسلمين، وينطبق على أفراد المسلمين، أنت مسلم مؤمن أنه ما من شيءٍ وقع إلا أراده الله، وما من شيءٍ أراده الله إلا وقع، وأن إرادة الله عزَّ وجل متعلقةٌ بالحكمة المُطلقة، وأن حكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق، هذه الفكرة تُلقي على قلبك برداً وسلاماً، تتحرَّك وتسعى دون أن تحقد، دون أن تُسحَق، دون أن تتألَّم، السعي مطلوب ولكنَّك مستسلمٌ لمشيئة الله.

صلح الحديبية نتجت عنه خيراتٌ لا يعلمها إلا الله، مع أن بنوده فيما يبدو كانت مهينةً، فكانت هناك تنازلات وكان المسلمون في أوج قوتهم متحمِّسون أعزَّة.

التفكير في شيءٍ أوحى الله به دليل على عدم اليقين من حكمة الله :

النبي عليه الصلاة والسلام كان ينفِّذ وحيّ الله من السماء، لذلك أنت عقلك يتحرَّك ويدرس، ويُحلِّل ويوازن، ويقيم ويقلِّد، ويبحث ويدرس فيما لا وحي فيه من السماء، أما إذا كان هناك وحي من السماء فانتهى كل شيء، لأن الله عزَّ وجل حكمته مطلقة، وعدله مطلق، ورحمته مطلقة، لا تسْمَح لنفسك أن تفكِّر في شيءٍ أوحى الله به، لأن التفكير به دليل على عدم اليقين من حكمة الله.

لنستمع الآن إلى ما قاله الإمام النووي رحمه الله تعالى قال: " إن المصلحة المترتبة على هذا الصلح هي ما ظهر من ثمراته الباهرة، وفوائده المتظاهرة التي علمها رسول الله وخَفِيَت عليهم، فحمله ذلك على موافقتهم، ذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تظهر عندهم أمور رسول الله

صلى الله عليه وسلَّم كما هي، ولا يجتمعون بمن يُعلِّمهم بها مفصَّلةً، فلَّما حصل الصُلْحُ اختلط المسلمون بأهل مكَّة، صار السفر مباحاً، كفَّار مكة جاؤوا إلى المدينة والمسلمون زاروا أقرباءهم، هذا الاختلاط عرّف أهل مكة بالإسلام، وعرّفهم بالنبي، بدلائل نبوَّته، بكمالاته، كل الخير كان في هذا الصلح، لأن المسلمين التفتوا إلى الدعوة وإلى نشرها، وإلى توضيحها، اطمأنوا لأن الدماء حُقِنت، في قلوبهم طمأنينة، وفي تصرفاتهم أمان.

ثم إن أعداداً كبيرةً جداً أسلمت في عهد هذا الصلح في سنتين وهي أعداد تفوق الأعداد التي دخلت في الإسلام منذ ظهوره، وهذه ثمرة من ثمار الصلح الكبيرة..

كلامٌ طويل قاله الإمام النووي وفيه تحليلٌ دقيقٌ جداً لنتائج هذا الصلح، لكن الملخَّص أن المسلمين انتقلوا من طور الحرب إلى طور السلم، من طور تجميع الجهود للدفاع عن كيان هذا الدين وأهله، إلى تجميع الجهود لنشر هذا الدين.. كان موضوعاً دفاعياً فصار موضوعاً دَعَوياً.. كانت قريش لا تعترف بالمسلمين، لا تعترف بوجودهم، وإنما تريد أن تستأصلهم، أصبح المسلمون أنداداً لقريش، اعترفوا بهم كقوةٍ مستقلَّةٍ وصالحتهم..

ومع ذلك سيدنا عمر حينما اعترض على النبي صلى الله عليه وسلَّم فقال: يا رسول الله علام نعطي الدنية في ديننا؟ قال عمر: وما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق مخافة كلامي الذي تكلَّمت به، حينما رجوت أن يكون هذا خيراً. فهذا الذي عمله عمر بعد موقفه من صيامٍ وتصدّقٍ وصلاةٍ وعتقٍ مخافة كلامه في الحديبية، إنما عمله لتأخره في قبوله توجيه النبي عليه الصلاة والسلام، سيدنا عمر كان في أعلى درجات الورع، لذلك كل ما فعله كان تكفيراً لموقفه من النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى في بنود الصلح مهانةً للمسلمين .

عمل النبي الكريم بعد الصلح :

الآن: ماذا فعل النبي بعد الصلح؟ بعث النبي صلى الله عليه وسلَّم إلى مكة من الحديبية بعشرين بدنةً مع ناجية بن جندل الأسلمي حيث نحرها بالمروة، وقسَّم لحمها على فقراء مكّة ففتح بذلك باب المودّة، وكسب شعور فقراء المكيّين بهديته المرسلة إليهم، وهذا من مزايا الصلح، فقبل الصلح كانت مكة محرمة على المسلمين، والآن زيارات متبادلة، استمال قلوب الفقراء إليه.

الحكمة من قطع الشجرة التي بايع المسلمون النبي تحتها :

و في خلافة عمر راح الناس يعظِّمون هذه الشجرة التي بايع الصحابة النبي تحتها، والله عزَّ وجل قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

[سورة الفتح: آية18]

حفاظاً على التوحيد قَطَعَ الشجرة، حتى لا يقدّسوا غير الله، وفعلها سيدنا عمر مرة أخرى لما رأى خالد بن الوليد ينتصر في كل معاركه التي خاضها، توهَّم الناس أن الناصر هو خالد فعزله سيدنا عمر، واستمر النصر، لماذا عزله؟ قال له: لمَ عزلتني؟ قال له: والله إني أحبك يا أبا سليمان، قال له: ولمَ عزلتني؟ قال له: والله إني أحبك، قال له: لمَ عزلتني؟ قال: والله يا أبا سليمان ما عزلتك إلا مخافة أن يُفتتن الناس بك لكثرة ما أبْليت في سبيل الله.. إنقاذاً للتوحيد.. فسيدنا عمر إنقاذاً للتوحيد عزل سيدنا خالد، وإنقاذاً للتوحيد قطع الشجرة..

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

[سورة فصلت: آية 14]

قصة أبي بصير مع قريش و النبي الكريم :

جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو بالمدينة أبو بصير وكان ممن حُبِسَ بمكة، وكتب في ردّه- طبعاً عندما هرب وجاء إلى المدينة والصُلح قائم، وأول بنود الصلح أن يرد النبي إلى مكة من جاء مسلماً- فهذا أبو بصير جاء النبي مسلماً فكتب في ردّه زاهر بن عوف والأخنس بن شُريق كتبا كتاباً إلى النبي أنه قد جاءك فلانٌ- أبو بصير- مسلماً فردّه إلينا وفق بنود الصلح، وبعثا به رجلاً من بني عامر، بعثوا رجلين ليتسلما هذا الذي فرَّ إلى النبي تنفيذاً لبنود الصلح، فقدِما على النبي صلى الله عليه وسلم بالكتاب، فقرأه أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه على النبي فإذا فيه: قد عرفت ما شرطناك عليه من رد من قدِم عليك من أصحابنا فابعث إلينا بصاحبنا.

فقال عليه الصلاة والسلام: " يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغَدْر، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك " قال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني عن ديني؟ موقف يقطّع نياط القلب، لكن الصلح يقضي بأن ترد من جاءك منهم.. فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن حولك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. فانطلق معهم وسلّمه لهم حسب الصلح، المسلمون ضجَّوا وصاروا يقولون: الرجل يكون خيراً من ألف رجل.. يغرونه بالذين معه..

حتى إذا كانوا بذي الحليفة جلس أبو بصير إلى جدار ومعه صاحباه، فسلَّ أحد الرجلين سيفه ثم هزَّه وقال: لأضربنّ بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل، فقال له أبو بصير: أو صارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ قال: نعم انظر إليه إن شئت، قال: ناولنيه، قال: انظر إليه، فناوله فلما قبض عليه قتله

به، ثم تناوله بفيه وصاحبه نائم فقطع أساره.. لأنه مقيّد.. قطع أساره بفيه، فطلب المولى، فخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ في المسجد، فلما رآه رسول الله والحصى من تحت قدميه.. من شدة الخوف.. وأبو بصير في أثره حتى أزعجه، قال عليه الصلاة والسلام: هذا الرجل قد رأى فزعاً، قد رأى هذا ذعراً. فلما انتهى إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو جالسٌ في المسجد قال له: ويحك مالك؟ قال: قتل صاحبكم صاحبي- قتل صاحبكم أي أبو بصير صاحبي من بني عامر- وأُفْلِت منه ولم أكد وإني لمقتول، واستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمَّنه النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا أبو بصير بباب المسجد ودخل متوشّحاً السيف وقال: يا رسول الله وفَّت ذمَّتك- أنت وفيت بعهدك واتركني أنا لكي أتصرَّف- وفَّت ذمتك وأدى الله عنك أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أُفتن فيه ويُفتَن بي، فقال له النبي الكريم: اذهب حيث شئت- ارجع- فقال أبو بصير: يا رسول الله هذا سَلْب العامري فخمِّسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إذا خمَّسته رأوني لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك- اذهب عنا-

موقف قريش من أبي بصير :

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيسى من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق عير قريش وتجارتها التي كانوا يمرّون عليها إلى الشام، واجتمع إليه جمعُ من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة، أي إنهم بلغهم خبره رضي الله عنه، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حقّه، ماذا قال النبي في حقّه؟ قال: وايَمْ أمّه مسعِر حربٍ لو كان معه رجال- أي رجل شديد جدا- مُسعِر حربٍ لو كان معه رجال- أي لو كان معه رجال يتسللون إليه- وفطِن أبو بصير من لحن هذا القول أن الله سَيَرُدُّه وأنه جاعلٌ له فرجاً ومخرجاً، وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو- لحق به- وخرج من مكة في سبعين فارساً أسلموا- هذا كلّه أثناء الصلح- فلحقوا بأبي بصير وكرهوا أن يقدموا على النبي في تلك المُدَّة التي هي زمن صلحٍ وهُدنة- لكي لا يحرجوه- خوفاً أن يردهم إلى أهلهم، فلم يزل أصحابه يكثرون حتى بلغوا ثلاثمئة- ثلاثمائة يقعدون على طريق القوافل- وكان أبو بصير كثيراً ما يقول وهو بسِيف البحر: الله العليّ الأكبر، من ينصر الله فسوف يُنصَر.

عندئذٍ اضطرت قريش أن تُرسل أمام هذا الواقع- واقع خطير لأن حياتها في تجارتها، وتجارتها مقطوعة بسبب أبي بصير وثلاثمئة فارس حوله على طريق القوافل- فأرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلّم: إنَّا أسقطنا هذا الشرط من الشروط فمن جاءك منهم إليك فأمسكه من غير حرج- اقبله- انظر النبي نفَّذ الوعد، ومن أتاه فهو آمن، فإنا أسقطنا هذا الشرط، فإن هؤلاء الرَكْب قد فتحوا علينا باباً لا

يصلح إقراره. الآن استنجدوا بالنبي أن هذا الشرط الغه لنا، من جاءك مسلماً اقبله ولا حرج عليك، نحن أسقطناه من المعاهدة، شيء جميل..

فكتب النبي عليه الصلاة والسلام إلى أبي جندل وأبي بصير أن أقدما عليّ ومن معكم من المسلمين يلحقون ببلادهم وأهليهم وألا يتعرَّضوا لأحدٍ مرَّ بهم من قريش ولا لعيرهم، فقدِم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وأبو بصيرٍ يُحتَضر، فمات رضي الله عنه وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في يده يقرأ به ويبكي من الفرح.. لكن الله عزَّ وجل كتب له الشهادة.. فدفنه أبو جندل مكانه، وقَدِم أبو جندل على النبي صلى الله عليه وسلَّم مع ناسٍ من أصحابه، ورجع باقيهم إلى أهلِهم، وأمَّنت قريش على عيرها وتجارتها، وعلِم الصحابة الذين عَسِرَ عليهم رد أبي جندل إلى قريش مع أبيه سهيل بُعْد نظر النبي الذي أصبح واضحاً وضوح الشمس.

النبي الكريم تلقَّى وحياً من الله ومع الوحي لا يوجد تفكير :

اسمعوا الآن ماذا قال سيدنا الصديق في هذا الصلح؟ يقول رضي الله عنه: ما كان فتحٌ في الإسلام أعظم من فتح الحديبية عندما قال الله عز وجل:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

[سورة الفتح]

صلح الحديبية، ولكن الناس قصُر رأيهم عما كان بين محمدٍ وربه، فالمشكلة كلَّها أن الصحابة ظنَّوا أنه اجتهادٌ من رسول الله، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم تلقَّى وحياً من الله، ومع الوحي لا يوجد تفكير.

تذكرون عندما الحباب بن منذر رأى الموقع الذي جلس فيه صحابة رسول الله في معركة بدر، قال له: يا رسول الله أهذا الموقع وحيٌ أم رأيٌ؟ قال: بل هو رأيٌ، قال: ليس بموقع.. انظر إلى دقة الصحابي، أول شيء سأل: وحيٌ أم رأيٌ؟ إذا كان وحياً لن يتفوه بكلمة وإذا كان الرأي والمشورة فموقع خطأ، هذه قاعدة.. الالتباس بالحديبية أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى النبي أن افعل كذا وكذا، وتساهل في كذا وكذا، فالنبي وقف عند أمر الله عزَّ وجل، كان الصديق قريباً من رسول الله لذا قال لعمر رضي الله عنه: الزم غرزه إني صدقته، سيدنا عمر لم يدرك هذه الناحية فكان في حيرةٍ من أمره.

يقول سيدنا الصديق: ولكن الناس قصُر رأيهم عما كان بين محمدٍ وربِّه والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

الله عزَّ وجل ناظر إلى أعداد كبيرة جداً من قريش مؤمنة لكنها تُخفي إيمانها خوفاً من قريش، فلمَّا كان الصُلحُ أعلنت إسلامها وبقيت في مكانها، فلما عرفوا أن أبا بصير في طريق قريش انضم إليه ثلاثمئة.

موقف سهيل بن عمرو رئيس الوفد المُفاوض من النبي الكريم بعد إسلامه

سهيل بن عمرو رئيس الوفد المُفاوض، عندما كتب النبي الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم فإنه رفض، وقال: لا نعرف هذا، نحن نعرف باسمك اللهمَّ.. عندما كتب هذا ما اتفق عليه محمدٌ رسول الله فقال له: امح رسول الله لو آمنا بك ما قاتلناك، هذا الإنسان نفسه، كان يعترض على مقولة النبي والنبي تساهل معه، سهيل بن عمرو نفسه بعد أن أسلم يقول سيدنا الصديق: لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المَنْحَر يقرِّب للنبي صلى الله عليه وسلَّم بُدْنَه- أي يقدِم ناقة وراء ناقة- والنبي ينحرها بيده، ودعا الحلاق لحلق رأسه، فانظر إلى سهيل بن عمرو كلَّما ينفَض من شعره صلى الله عليه وسلم يضع شعره على عينه، سهيل بن عمرو الذي رفض أن يكتب محمد رسول الله، وتكلَّم معه بالمفرد نداً لند، عندما عرف مقامه كان إذا قطع الحلاق شيئاً من شعر النبي يأخذ هذه الشعرة ويضعها على عينه تبرُّكاً به، هكذا كانت النتيجة، رئيس الوفد المفاوض أسلم، أعداد كبيرة جداً أسلمت، المسلمون ارتاحوا من الحرب وصار هناك دعوة إلى الله، النبي أرسل كتبه إلى الملوك الأعاجم، الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، كل هذا ببركة هذا الصلح.

يقول أحد العلماء وهو الزُهْري: " فما فتحٌ في الإسلام كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهُدنة ووضعت الحرب، وأمِن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في ثَيْنَك السنتين مثلما كان في الإسلام من قبل ". وقال بن هشام: والدليل على قول الزُهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ كل من معه للحديبية، وأخذ من هم حول المدينة فكم كان العدد؟ ألف وأربعمئة.. عندما دخل مكة فاتحاً دخلها في عشرة آلاف مقاتِل، كلَّهم آمنوا فيما بين الصلح وبين الفتح.

نتائج صلح الحديبية حسب آراء بعض علماء التاريخ :

قال: صُلح الحديبية اعترافٌ رسميٌّ موقعٌ من قريش بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه قوةٌ مستقلةٌ متميزةٌ، وصنو قريشٍ زعيمة القبائل، وهذا يعني أن كل قِوى الجزيرة العربية راجعت حساباتها، قريش اعترفت برسول الله، اعترفت به قوة متميزة ومستقلة، فكل واحد عاون قريشاً على النبي توقف وراجع حساباته.

أما هذه الهُدنة في هذا الصُلح كانت فرصةً ذهبيةً للمسلمين فاتصلوا بالقبائل، واختلطوا بأفرادها فشرحوا لهم الإسلام، وبلَّغوا الرسالة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالحُجَّة والبرهان والعقل والمنطق فأسلم في سنتين اثنتين من الصلح ما يعادل الذين أسلموا قبل الصلح منذ بداية الدعوة، أهل قريش جاؤوا

إلى المدينة ورأوا المسلمين في توادّهم وتراحمهم، وتعاطفهم وألفتهم، والتفاتهم حول النبي، وتعظيمهم له، أي سمعوا أخبار النبي.

المسلمون ذهبوا إلى أهليهم في مكة وذكَّروهم بالنبي، وبأخلاقه، وبنبوته، بدلائله النبوية، بالإسلام وعظمة الإسلام .

قريش أدركت بعد صلح الحديبية أن الأمر قد استبان، وأن الإسلام ظاهرٌ منتصرٌ لا محالة، وخاصَّةً بعد أن حشدت أضخم جمعٍ في تاريخها في غزوة الأحزاب وأخفقت، وبعد أن تكرَّرت انتصارات المسلمين أيقنت قريشٌ أيضاً أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عَظُم في جميع أنحاء الجزيرة، وأن العاقبة المحتومة ظَفَر الإسلام وظهوره وفتح مكة ذاتها قريباً.

إسلام خالد بن الوليد :

سيدنا خالد بن الوليد قال لقريش بعد الحديبية- هذا الرجل مفكَّر وهو الذي كان ألدَّ خصوم رسول الله، الذي كان أحد أكبر الأسباب في مشكلة أحد- قال خالد: لقد استبان لكل ذي عقلٍ أن محمداً ليس بساحرٍ ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين، فَحُق على كل ذي لبٍ أن يتبعه. هذا كلام سيدنا خالد، وقال عمرو بن العاص: والله ليظهرنّ محمدٌ على قريش عرف هذا الحق العرب والعجم.

يقول عمرو: ابتعت بعيراً وخرجت أريد المدينة حتى مررت على مرِّ الظهران، ثم مضيت حتى إذا كنت بالهدَّبة فإذا رجلان قد سبقاني بغير سفيرٍ يريدان منزلاً، وأحدهما دَخَلَ الخيمة والآخر يُمسِكُ الراحلتين، قال: فنظرت فإذا خالد بن الوليد، فقال لسيدنا خالد: أين تريد؟ قال خالد: أريد محمداً، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحدٌ به طُعمٌ- لم يبق أحد غيرنا- والله لو أقمت بمكة لأخِذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها- أي انتهينا- عمرو قال: وأنا والله قد أردت محمداً وأردت الإسلام، فخرج عثمان بن أبي طلحة فرحَّب بي فنزلنا جميعنا في المنزل، ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة فما أنسى قول رجلٍ لقيناه ببئر أبي عُتبة يصيح: يا رباح! يا رباح! يا رباح! فتفاءلنا بقوله وسِرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين- زعيمان كبيران من فطاحل أهل مكة هما سيدنا خالد وعمر- ماذا قال هذا الرجل؟ قال: قد أعطت مكة المقادة للنبي بعد هذين، فظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد، وولَّى مدبراً إلى المسجد سريعاً فظننت أنه بشَّر رسول الله بقدومنا فكان كما ظننت.. أدرك أنه إذا جاء هذين الرجلين ليُسلِما انتهت قريش.. وأنخنا بالحرَّة فلبسنا صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر فانطلقنا حتى اطلعنا عليه وإنَّ لوجهه تَهلُّلاً والمسلمون حوله قد سُرُّوا بإسلامنا.

يقول خالد رضي الله عنه: فأسرعنا في المشي فاطَّلعت عليه فما زال يبتسم لي حتى وقفت عليه فسلَّمت عليه بالنبوة وقلت: يا رسول الله، فردَّ عليَّ السلام بوجهٍ طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: تعال.. ثم قال عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلاً رَجَوْت ألا يُسلِمك إلا إلى خير. معنى هذا أن الإنسان إذا الله آتاه ذكاءً وعقلاً ولم يعرف الله صار سؤاله كبيراً ووضعه غير مقبول، إنسان عاقل وذكي ويتأخَّر عن طاعته لله عزَّ وجل؟ قال: يا رسول الله إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق فادع الله أن يغفرها لي، فقال عليه الصلاة والسلام: يا خالد الإسلام يجبُّ ما قبله.. سيدنا خالد كم مرَّة حارب النبي؟ في بدر، وفي أحد، وفي الخندق، فقال النبي: اللهمَّ اغفر لخالد بن الوليد كلّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك.. الصُلحة بلمحة، قائد عسكري من الطرف الآخر عندما أسلم غفر الله عزَّ وجل له كل ما كان منه من محاربةٍ للدين.. وتقدَّم عثمان وعمر فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ للهجرة.

قضية الإسلام هي القضية الأولى في العالم :

وبالطبع الصلح أعاد طريق القوافل، والحركة أصبحت سالكة، ولقاءات، واتصالات، ودخل الناس أفواجاً في دين الله، والنبي عليه الصلاة والسلام قوي مركزه كثيراً والتفت إلى الدعوة، وفي العام القادم دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة لعمرة القضاء، وبقي فيها ثلاثة أيامٍ محققاً نصراً إعلامياً رائعاً، وتمت العُمرة في العام القادم، وهذه بعض ما كتبه كتَّاب السيرة عن صلح الحديبية.

(فَتْحًا مُبِينًا (1))

هذه الفكرة.. فالإنسان لو شاهد ما يجري في العالم في أقاصي الدنيا من حروب ضد المسلمين لعل في هذا صحوةً لأهل الأرض كلّهم.. والشيء الحقيقي الآن قضية الإسلام هي القضية الأولى في العالم، والذين ابتعدوا عن هذا الدين هم الآن في شوق إلى معرفته لتفسير ما يحدث، فإذاً:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

[سورة البقرة: آية 216]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 1-10، الله جلَّ جلاله هو الذي يدبِّر الأمور ويتولى أمر هذا الدين العظيم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-17

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الخامس من دروس تفسير سورة الفتح.

الفتح المُبين هو صلح الحديبية :

قال تعالى:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

[سورة الفتح]

في أرجح الأقوال هذا الفتح المُبين هو صلح الحديبية، ذلك لأن المسلمين بعد هذا الصُلح برز لهم كيانٌ مستقلٌ، واعترف الخصوم بهم كقوةٍ مستقلةٍ في الجزيرة العربية، ودخل في دين الله في سَنَتي صلح الحديبية ما لا يدخل في الإسلام منذ نشأته، كلكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما خرج مع أصحابه في صلح الحديبية كانوا لا يزيدون عن ألفٍ وأربعمئة رجل، أما في فتح مكة صاروا فعشرة آلاف رجل، كل هذا في هذه السنوات المعدودة التي كان فيها صلح الحديبية، لذلك الله جلَّ جلاله عدَّ هذا فتحاً مبيناً.

الله جلَّ جلاله هو الذي يدبِّر الأمور ويتولى أمر هذا الدين :

أحياناً تمر الدعوة الإسلامية بمراحل، من مراحلها الأولى القتال والحماس، وهناك مرحلة تحتاج إلى سلمٍ، وإلى طمأنينة، وإلى استقرار، كي ينشط الدعاة إلى الله عزَّ وجل في نشر معالم هذا الدين، لذلك ربنا سبحانه وتعالى عدَّ هذا الصلح صلح الحديبية فتحاً مبيناً..

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2))

[سورة الفتح]

الله جلَّ جلاله هو الذي يدبِّر الأمور، وهو الذي يربي نبيه وأصحابه الكرام، وهو الذي يتولى أمر هذا الدين، فالإنسان إذا آمن أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ما شاء

الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه إليه يُرجع الأمر كله، وأن أفعاله كلها فيها حكمةٌ ما بعدها حكمة، وعلمٌ ما بعده علم، إذا أيقن الإنسان بهذه الحقائق عندئذٍ يستسلم لقضاء الله وقدره، ولتدبيره وتسييره.

النصر الذي أكرم الله به نبيه كان نصراً عزيزاً :

النبي عليه الصلاة والسلام في كل ما فعله في صلح الحديبية كان يستلهم التوجيه من الله عزَّ وجل، لذلك قال: إني رسول الله ولن يضيِّعَني، والصحابة الكرام حينما تألموا لبعض الشروط في صلح الحديبية انطلقوا من أن الأمر الذي تمّ بين النبي وبين الأعداء كان عن اجتهادٍ أو عن رأيٍ ومكيدة، الأمر خلاف ذلك، النبي عليه الصلاة والسلام كان يتلقَّى الأوامر التفصيلية من الله عزَّ وجل، وأوضح مثالٍ على ذلك أن ناقته حينما وقفت قالوا: خلأت، قال: ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل.

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3))

[سورة الفتح]

وصِفَ النصر هنا بأنه عزيز، أحياناً الإنسان ينتصر نصراً غير عزيز، نصر لجهاتٍ معيَّنة يدٌ في هذا النصر، هذا نصر يشوبه منة، لكن النصر الذي أكرم الله به نبيه كان نصراً عزيزاً.

نزول السكينة على قلب المؤمن يشعره بالسعادة و الطمأنينة :

ثم قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4))

[سورة الفتح]

هذه السكينة إذا نزلت على قلب المؤمن شعر بسعادةٍ ما بعدها سعادة، وشعر باستقرارٍ وطمأنينةٍ ما بعدها طمأنينة، والذي يعين المؤمن على سلوك طريق الإيمان ليست قناعاته الفكرية فحسب بل تلك السكينة التي ينزلّها الله على قلبه، هذه السكينة تحول بينه وبين الضعف، والوهن، والنفاق، والتملُّق، وضياع الذات، كل أعراض الإعراض تبدو مقيتةً في حياة الإنسان، لكن الإنسان إذا تنزَّلت على قلبه السكينة صار إنساناً آخر.

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4))

[سورة الفتح]

الإنسان خُلِقَ لجنةٍ عرضها السماوات والأرض وجميع المصائب ردعٌ له :

فهناك جنود لا نراها، أحياناً الله جلَّ جلاله ينزِّل ملائكةً يثبِّتون الذين آمنوا، هناك تصرفات كثيرة جداً لا نعلمها ولا نراها، وهذا من قبيل:

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4))

[سورة الفتح: 4]

كل هذه التصرُّفات.

(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5))

[سورة الفتح]

هذه الآية هي علة وجود الإنسان، خُلِقَ الإنسان لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، وجميع المصائب التي على وجه الأرض إنما هي ردعٌ للإنسان عن طريق هلاكه، ودفعٌ إلى طريق سعادته.

(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5))

الفوز العظيم أن تنتهي من الدنيا إلى جنة الله التي أعدَّها لعباده المؤمنين :

ما الفوز العظيم في نظرك؟ إن لم يكن الفوز العظيم في نظرك مُطابقاً للفوز العظيم في هذه الآية فأنت بعيدٌ عن الإيمان، الفوز العظيم أن تدخل الجنة، لهذا يقول سيدنا علي كرم الله وجهه: " يا بُنَيّ ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٌ دون الجنة محقور، وكل بلاءٌ دون النار عافية ".

مهما تمتَّعت في الدنيا، مهما نِلْتَ من مالها، ومن شهواتها، ومن مغانمها، ومن مكاسبها، إذا انتهت الدنيا بالإنسان إلى النار فهذا ليس بخير، ومهما ساق الله للإنسان من مصائب، مهما تحمَّل من مشاق، إذا انتهت الدنيا به إلى الجنة فهذا ليس بشر، لذلك المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ويريه الله مقامه في الجنة، يقول: لم أر شراً قط، ينسى كل متاعب الحياة، ينسى كل المَشاق التي تحمَّلها، ينسى كل الهموم التي عاناها، وحينما يرى الكافر مكانه في النار يقول: لم أر خيراً قط، فلذلك الفوز العظيم أن تنتهي من الدنيا إلى جنة الله التي أعدَّها لعباده المؤمنين، والآية واضحة جداً.

الآخرة شيء عظيم على الإنسان أن يسعى لها :

كل أفعال الله، وكل تصرُّفاته، وكل تدبيراته، من أجل أن يدخل المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

هذا كلام النبي، والنبي لا ينطق عن الهوى، الآخرة شيء عظيم، الدنيا فيها أماكن جميلة جداً، وفيها مباهج، وفيها مُتَع، وفيها طعام وشراب، ونساء، ورحلات، وسهرات، ولقاءات، والدنيا كما قيل: خضرةٌ نضرة، ومع هذا الجمال كله، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

بربِّك اذهب إلى طرطوس، واركب قارباً إلى أرواد، وامسك إبرةٍ واغمسها في مياه البحر واسحبها، ماذا أخذت من مياه البحر هذه الإبرة الصغيرة؟ ما عَلِقَ من الماء على هذه الإبرة هي الدنيا والبحر هو الآخرة، هذا كلام النبي ولا ينطق عن الهوى، ليس من شأن النبي أن يبالغ، المبالغات من شأن أشخاص عاديين، أما النبي الكريم فلا يبالغ، هذه الدنيا وهذه الآخرة، يكفي أنها إلى الأبد..

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73))

[سورة طه]

فلذلك الفوز العظيم دائماً وأبداً، وازن بين تصورك للفوز العظيم وبين الفوز العظيم الذي ذكره الله في القرآن الكريم، إذا كنت تتوهم أن الفوز العظيم بزوجةٍ، أو بمنزلٍ، أو بمكانةٍ، أو بمالٍ، فهذا التصور مناقض لما في كتاب الله.

المؤمن الكامل يُحسن الظن بالله لأن الله جلَّ جلاله لن يدع المؤمنين لخصومهم :

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ)

[سورة الفتح: 6]

حينما دعا النبي المنافقين ليذهبوا معه إلى العمرة قبيل صلح الحديبية ظنوا أن قريشاً لن تدع النبي ستقاتله، والنبي لن يعود إلى المدينة، ولن يعود أصحابه إليها، ظنوا بالله ظن السوء، ظنوا أن الله سيتخلَّى عن هذا الدين العظيم، سيتخلى عن نبيه، سيتخلى عن المؤمنين، سيعذب الله المشركين والمشركات، والمنافقين والمنافقات:

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6))

المؤمن الكامل يُحسن الظن بالله عزَّ وجل، لأن الله جلَّ جلاله لن يدع المؤمنين لخصومهم، الله جلَّ جلاله لن يُديل الكفر عن التوحيد، لن يُديل الشرك على الإيمان، لن يسمح لأعدائه أن يستمروا في قوتهم إلى ما شاء الله، يعطيهم جولةً ليمتحنهم لكن العاقبة للمتقين، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى ذكر أن المنافقين حينما دُعوا ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في هذه العمرة المباركة رفضوا لظنِّهم أن النبي عليه الصلاة والسلام لن يرجع وأصحابه إلى المدينة سالمين، لما بين النبي وأصحابه من جهة وبين كفار قريش من عداوةٍ وحروبٍ طويلةٍ تمَّت من قبل.

ربنا عزَّ وجل القلوب بيده والمخلوقات بيده والملائكة بيده :

ثم يقول تعالى:

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7))

[سورة الفتح]

أحياناً المرض الجلدي يكون من جنود الله، الفيروس الذي يصيب هؤلاء المنحرفين بنقص المناعة المُكتسب، أليس هذا الفيروس من جنود الله عزَّ وجل؟ وهذا الفيروس أضعف مخلوق على الإطلاق، ومع ذلك أوروبا وأمريكا بأكملهما، بكل طاقتهما، وبكل إمكاناتهما، لا يستطيعان أن يوقفا هذا الفيروس عند حدِّه.

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7))

فقلوب العباد بيد الله عزَّ وجل، أحياناً يلقي الله الخوف في قلوب الأعداء، والنبي الكريم يقول: نصرت بالرعب، فربنا عزَّ وجل القلوب بيده، المخلوقات كلها بيده، الملائكة بيده.

النبي الكريم يشهد يوم القيامة أمام رب العالمين على أمَّته استجابتهم أو رفضهم :

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8))

[سورة الفتح]

شاهداً على أمَّتك، قد بلَّغتهم، كلنا إذا وقفنا أمام مقام النبي عليه الصلاة والسلام نقول: أشهد أنك بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغُمَّة، وجاهدت في الله حق الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد. فكما أنك تشهد أن النبي بلَّغ الرسالة، النبي عليه الصلاة والسلام يشهد يوم القيامة أمام

رب العالمين أنه بلَّغ الرسالة، يشهد على أمَّته استجابتهم أو رفضهم، يشهد على أمته إيمانهم أو كفرهم، يشهد على أمَّته استقامتهم أو انحرافهم.

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا)

للمؤمنين..

(وَنَذِيرًا (8))

للكافرين..

من طبق شريعة الله عزَّ وجل وسَّع رقعة الحق وضيَّق رقعة الباطل :

(لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ)

أي تنصرونه، وتنصروا دينه، الله جلَّ جلاله غنيٌّ عن أن ننصره، لكنك إذا نصرت دينه فكأنما نصرت الله عزَّ وجل، إذا أقمت شرع الله في بيتك نصرت الله.. إذا طبَّقت شريعة الله عزَّ وجل وسَّعت رقعة الحق، فإذا وسَّعت رقعة الحق ضيَّقت رقعة الباطل، هذا هو النصر.

وأمثلة على ذلك كثيرة، تجار في سوق، لو أنهم جميعاً لم يتعاملوا بالربا، صار الذي يتعامل بالربا شاذاً، أما لو كلهم تعاملوا بالربا خذلوا دين الله عزَّ وجل، لو أراد أحدهم أن ينزه علاقاته المالية عن الربا صار شاذاً، نصر دين الله عزَّ وجل تطبيقه، إذا طبَّقت دين الله عزَّ وجل اتسعت رقعته وتنامت، وضيَّقت الباطل وحاصرته، أما إذا المسلمون استنكفوا عن نصرة دين الله عزَّ وجل فالباطل يتسع والحق ينكمش ويحاصر، وعندئذٍ يصبح الأصل هو الباطل والحق هو الاستثناء، وهذا الشيء واضح جداً في العلاقات الاجتماعية، في الحفلات، في التعامل المالي، في البيع، في الشراء، إذا كل المؤمنين طبَّقوا الدين تطبيقاً صحيحاً، أصبح الباطل هو الشاذ، هو الاستثناء، أما إذا قصَّروا وتهاونوا صار الأصل هو الباطل، والاستقامة هي الاستثناء.

من علامات الإيمان أن المؤمن يُعَظِّم شعائر الله و أوامره وكتابه :

لذلك:

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ)

التعذير النصر، والتوقير التعظيم، والهاء في توقيره تعود على الله جلَّ جلاله:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32))

[سورة الحج]

من علامات الإيمان أن المؤمن يُعَظِّم شعائر الله، يعظم أوامره، يعظم كتابه، يعظم رسوله، يعظم أصحاب رسوله، فمن لوازم الإيمان أنه إذا ذكر أصحاب النبي عليك أن تُمْسِك، من علامة الإيمان أن توقِّر الله، وأن توقر نبيه، وأن توقر أصحاب النبي الذين أحبوا النبي وأحبهم النبي، هذه من علامات الإيمان، أن تعظِّم شعائر الله، أن تعظم الأوامر الإلهية.

محبَّة النبي هي محبة الله وإرضاء النبي هو إرضاء الله حُكماً :

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9))

[سورة الفتح]

(بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

صباحاً ومساءً وبينهما، هذه الصلوات الخمس أنت تسبح الله في الصلاة، أنت آمنت بالله وآمنت برسوله، ونصرت دينه وعظَّمت شعائره، وذكرته في صلواتك الخمس.

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)

[سورة الفتح: آية10]

لمّا الصحابة الكرام نُمِيَ إليهم أن سيدنا عثمان رضي الله عنه قُتِل، أراد النبي أن يتوثَّق من جاهزية أصحابه للقتال، فبايعه الصحابة.. بايعوه واحداً واحداً على الموت في سبيل الله، هذه البيعة في حقيقتها إنما هي بيعةٌ لله عزَّ وجل، القرآن الكريم يذكر كثيراً أن محبَّة النبي هي محبة الله، إرضاء النبي هو إرضاء الله، حُكماً، أضرب مثلاً: أنت حينما تأتي لمجلس علم تأتي إلى ربك، هذا بيت الله عزَّ وجل، أنت حينما تعين أخاك المؤمن أنت تنفذ أمر الله عزَّ وجل.

الدين أعظم وأجلّ من أن يكون مرتبطاً بأشخاص لأنه مبدأ إلهي :

في الدين لا يوجد أشخاص، هناك مبادئ، والحقيقة كلما عَظُمَت المبادئ صغر الأشخاص، وكلما صَغُرَت المبادئ كبر الأشخاص، المؤمن الصادق عاهد الله، وعاهده على الطاعة، وعلى البذل، فلذلك هدفه كبير، من علامات ضعف التفكير ربط الدين بأشخاص، ومن علامات النُضْج أن الدين أعظم وأجلُّ من أن يكون مرتبطاً بأشخاص معينين، الدين مبدأ إلهي، منهج من السماء إلى الأرض نسير عليه، فلذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)

لا يوجد انفصال لأن النبي أنكر ذاته كلياً، هو باب الله كما قال عليه الصلاة والسلام:

((سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا))

[أخرجه مسلم عن ابن عمر]

وكلنا في الصلاة نقول: " اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ".

الحب في الله توحيد و الحب مع الله شرك :

لذلك الله عزَّ وجل في هذه الآية بيَّن أن نصرة النبي هي نصرةٌ لله عزَّ وجل، والبيعة للنبي إنما هي بيعةٌ لله عزَّ وجل، ومحبة النبي هي محبة الله عزَّ وجل، وفرقٌ بين أن تُحِبَّ في الله وأن تحب مع الله، أن تحب في الله هذا توحيد، وأن تحب مع الله هذا شرك، لأنك تحب الله تحب نبيَّه، لأنك تحب الله تحب نبيه وصحابته، لأنك تحب الله تحب النبي والصحابة والمؤمنين، فمحبَّتك للصحابة الكرام محبةٌ في الله، محبَّتُكَ للمؤمنين محبةٌ في الله، محبتك للنبي محبةٌ في الله، أما إذا أحببت إنساناً لذاته هذا حبٌ مع الله، الحب مع الله شِرْك.

(إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ)

على الموت..

(إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)

فأحياناً الإنسان يتصدَّق، ورد بالحديث:

((الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير))

[الطبراني عن أبي أمامة بسند ضعيف]

أحياناً الإنسان يزور أخاه المريض، يقول الله عزَّ وجل في الحديث القدسي:

((يا بنَ آدمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، قال: يا رب كَيْفَ أعُودُكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟ قال: أمَا علمتَ أنَّ عبدي فلاناً مَرِضَ فلم تَعُدْهُ؟ أما علمتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لوجَدتني عنده))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

انظر إلى التوحيد، إذا زُرت أخاك المريض كأنَّك تعود الله عزَّ وجل.

((استطعمتك فلم تطعمني، فيقول: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً جاع، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هذا هو التوحيد، المؤمن إذا زار أخاه المريض فكأنما عاد ربه، إذا أطعم أخاه فكأنما أطعم ربه، إذا سقى أخاه فكأنما سقى ربه، إذا بايع نبيِّه فكأنما بايع الله عزَّ وجل، وسع الدائرة تجد الدين فيه انسجام، وفيه تَوَحُّد.

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10))

[سورة الفتح]

من كرم الله العظيم أنَّ الإنسان إذا عمل عملاً خالصاً يتجلَّى على قلبه بالسكينة :

تصوَّر الصحابة الكرام عندما نزلت هذه الآية، لما بايعوا النبي، والله عزَّ وجل يقول:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

بماذا شعر الصحابي الجليل؟ لعله شعور لا يوصف عندما يعرف المرء أن يد الله فوق يده، وكل مؤمن في أي زمان إذا عمل عملاً خالصاً لله عزَّ وجل يشعر بسكينةٍ تنزل على قلبه، وهي رضا الله عزَّ وجل، فالله عزَّ وجل من كرمه العظيم أنَّك إذا عملت عملاً خالصاً له تجلَّى على قلبك تجلياً يشعرك أنه راضٍ عنك، هذه السكينة وهذه هي الرحمة، فإذا أنت أخلصت عملك لله عزَّ وجل تكون في رحمة الله، ومن كان في رحمة الله لا تستطيع قوى الشر كلها أن تنال منه، لذلك الإخلاص الإخلاص. طبعاً كلمة لو نزعتها وحدها لها معنى آخر، مهما كان عدوك قوياً يد الله فوقه، مهما كان عدوك لئيماً، أو قاسياً، أو قوياً، أو حاقداً، لا تخف منه، لأن يد الله فوقه.. مُكَبَّل.. هذا ما يؤكِّده قوله تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

[سورة الزمر]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54))

[سورة الأعراف]

مباركة الله عز وجل بيعة الصحابة للنبي الكريم :

لو نزعت هذه الفقرة من الآية وحدها:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

أما معناها السياقي فمعنى آخر، حينما وضعوا أيديهم في يد النبي عليه الصلاة والسلام وبايعوه على الموت في سبيل الله، قال تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

أي أن الله بارك لهم هذه البيعة، ورضي الله عنهم بهذه البيعة، لذلك النبي قال:

((يد الله مع الجماعة))

[رواه الحكيم وابن جرير عن ابن عمر]

((يد الله على الجماعة))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

عليها حفظاً، وعليها دفاعاً، وعليها مباركةً، وعليها تأييداً، وعليها نصراً.

كأن الله سبحانه وتعالى فيما يبدو من هذه الآيات يحبنا أن نكون متعاونين، متباذلين، متناصحين، متحابين، متزاورين، هذا معنى قول النبي الكريم: " يد الله مع الجماعة.. تأييداً ونصراً.. ويد الله على الجماعة.. حفظاً ورعايةً.. " معها وعليها، فلذلك الله عز وجل قال:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10))

[سورة الفتح]

أعظم أنواع البطولة أن الإنسان إذا عاهد الله عزَّ وجل أن يفي بهذا العهد :

الله عزَّ وجل في آية أخرى يقول:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102))

[سورة الأعراف: 102]

فمن أعظم أنواع البطولة أنك إذا عاهدت الله عزَّ وجل أن تفي بهذا العهد، إنسان عاهد الله وهو يطوف حول الكعبة ألا يعصيه، كلما هَمَّ بمخالفةٍ أو تقصيرٍ عليه أن يذكر ذلك العهد.

(وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ)

[سورة الفتح: آية 10]

هذا الضَم في عليُه للتعظيم لتعظيم العهد، أحياناً تعاهد صديقاً لك، تعاهد أخاً، تعاهد زميلاً، تعاهد رجلاً من عامَّة الناس، لكنك هنا تُعاهد الله، فجاءت الهاء مضمومة للتعظيم، هذا عهد غليظ، عهد كبير، أنَّك تعاهد خالق الكون.

من نكث فإنما ينكث على نفسه و لا يضر أحداً غيره :

لذلك قال أحد الصحابة:" لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت".

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)

[سورة الفتح: آية10]

وفي الحديث الشريف:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[مسلم عن أبي ذر]

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)

[سورة الزمر: 7]

لذلك:

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)

أما الإنسان إن قصّر، أو نقض عهد الله عزَّ وجل من بعد ميثاقه، أو لم يفِ بعهده مع الله عزَّ وجل، و لم يلتزم أوامر الشرع، فيضرُّ من؟ لا يضر أحداً لأن الله غنيٌّ عنه، لكن إنما يضر نفسه وحده.

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10))

فالإنسان عندما يخرج عن قواعد الشرع يجب أن يفكر على من يخرج.

زوال الكون أهون على الله من أن يُضَيِّعَ مؤمناً :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111))

[سورة التوبة]

أي أن زوال الكون أهون على الله من أن يُضَيِّعَ مؤمناً، من أن يبخس حَقَّه.

(فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112))

[سورة طه]

لا يظلم ولا ينقص من جزائه شيئاً..

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11))

[سورة الفتح]

الله تعالى يحول بين المرء وقلبه :

أحياناً الإنسان لضعف إيمانه بالله، لجهله، يظن أن الله لا يعلم ما في نفسه، نفسك مكشوفةٌ أمام الله عزَّ وجل، الله جلَّ جلاله يعلم حقيقة نفوسنا، الله يحول بين المرء وقلبه.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18))

[سورة ق]

فالمخلَّفون من الأعراب لما دُعوا إلى أن يذهبوا مع النبي:

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

الإعجاز العلمي في الآية التالية :

الحقيقة هذه يوجد فيها إعجاز قرآني، لما الله قال:

(سَيَقُولُ لَكَ)

هم لو سكتوا لبطلت هذه الآية، وهناك آية أبلغ من ذلك:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142))

[سورة البقرة]

الله عزَّ وجل وصفهم بأنهم سفهاء، وقال:

(سَيَقُولُ)

لو أنَّهم فكروا قليلاً لما وصفوا بالسَفَه، لم يقولوا بعد، لو سكتوا لأبطلوا الآية، لكن يجب أن تعلم أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء..

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

الإنسان إن أصرَّ على شيء ورغب فيه يجد متسعاً من الوقت ليفعله :

هناك آية قرآنية أخرى:

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46))

[سورة التوبة]

أحياناً يكون العذر غير مقبول عند الله، الدليل: لو أراد الإنسان شيئاً يفعله، إذا أصرَّ على شيء، ورغب في شيء، وتوجَّه إلى شيء، يجد متسعاً من الوقت ليفعله، إذا كان الأمر يهمك تلغي كل المواعيد، وتنظم أمورك، فالإنسان يلقي الأعذار وهي عند الله غير مقبولة إطلاقاً، يلقي الأعذار وهو يعلم أنه كاذبٌ بهذه الأعذار.

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا)

كل إنسان بقبضة الله عز وجل :

الإنسان يكذب، وينتحل المعاذير، ويقدِّم الأعذار الواهية، وهو يعلم أن الله يعلم كذبه، فهذا الإنسان لو أراد الله أن يعالجه من يستطيع أن يدفع عنه؟ هذه المعالجة.

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا)

الإنسان في قبضة الله عزَّ وجل، فكيف يجترئ على الله عزَّ وجل؟ في قبضته؛ أجهزته، أعضاؤه، حواسه، أهله، أولاده، من حوله، من فوقه، من تحته، كلُّهم بيد الله عزَّ وجل.

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

[سورة الفتح]

المنافق إنسان توعده الله عز وجل بعذاب أليم :

ترتاحون أيها المنافقون إذا لم ينقلب النبي والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، الإنسان حينما يفرح بمصيبة مؤمن يجب أن يعلم أنه منافق، وأنه وضع نفسه قطعاً في خندق المنافقين، لقول الله عزَّ وجل:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة التوبة: آية 50]

شعور مخيف إذا ارتاحت نفسك لمصاب مؤمن بمكروه، أو خسارة، أو فاحشة، ابك على نفسك، واندب حظك من الإيمان، ليس لك حظٌ منه إطلاقاً:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19))

[سورة النور]

الله عزَّ وجل توعَّدهم بعذابٍ أليم.

من علامة الإيمان أن يفرح الإنسان لخيرِ أصاب أخاه المؤمن :

لذلك:

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا)

[سورة الفتح: 12]

هكذا ظننتم، أما المشكلة فليس في هذا الظن:

(وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الفتح: 12]

شيء مُزَيَّن لكم، أن لن يعودوا إلى المدينة، أن يموتوا، أن يقتلوا، أن يقعوا في مواجهةٍ مع قريش فيبادوا، هذا هو المنافق، فالإنسان قبل أن يفرح بمصيبةٍ ألمَّت بمؤمن ليعُد إلى المليون، فرحه يعني أنه منافق، أضرب مثلاً هل في الأرض كلها امرأةٌ تفرح بفضيحة ابنتها؟ فإذا كان ذلك فليعلم الإنسان أن هذه الفتاة ليست ابنتها، هذا التفسير.. فإنسان يفرح بمصيبة مؤمن معناها أنه ليس بمؤمن.

ومن علامة الإيمان أن تفرح بخيرِ أصاب أخاك المؤمن، اشترى أخوك بيتاً، هنيئاً له، تهنِّئه من أعماق أعماقك، نال شهادة عالية، أسس مشروعاً ونجح، لأن المؤمن للمؤمنين، علاقة المؤمنين علاقة متميزة، الكل لواحد والواحد للكل، إذا أكرم الله عزَّ وجل أخاً لك، هذا خيره للجميع، كلهم له وهو لهم، هذا هو مجتمع المؤمنين، الفكر وحده لا يكفي، عندنا أفكار إسلامية، نحن بحاجة أن نعيش مجتمعاً إسلامياً، بحاجة إلى أن يشعر كلٌ منا بحبٍ حقيقي لأخيه المؤمن.

من لم يؤمن بالله يتفلت من منهجه و نظامه وهذا التجاوز له عقاب عند الله عزَّ وجل :

هؤلاء الذين زُيِّن في قلوبهم أن لن ينقلب النبي والمؤمنون قال:

(وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

كالأرض البور لا خير فيها، هناك إنسان كتلة من الشر، إذا لم يكن كتلة شر فهو كتلة سلبية لا ينفع ولا يضر، يعيش لذاته، ما خرج من ذاته أبداً، يعيش لمصالحه، لبيته، لأولاده فقط، لا يتحرَّك، لا يعنيه أمر المؤمنين، لا يأمر بمعروف، لا ينهى عن منكر، لا يعين، لا يتحرَّك، لا يغار، سلبي، انسحب من الحياة، متقوقع، انهزامي، خانع، ليس هذا هو الإيمان.

(وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ((13)

الحقيقة السعير لا لأنه لم يؤمن فقط، هو حينما لم يؤمن بالله، بكتابه، بوجوده، بمنهجه، وبيان رسوله لمنهجه، معناه أنه تفلَّت من النظام، لما تفلَّت أكل ما ليس له، وقع بالانحراف، بالعدوان، فصار السعير لعدوانه، وإساءاته، وتقصيره الناتج عن تفلُّتِهِ من منهج الله عزَّ وجل، هذا هو التفسير الدقيق.

(وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

من لم يؤمن بالله ورسوله، لا بدَّ من أن يتجاوز الحدود، مثله مثل سيارة تسير بلا مقود، محرك قوي ولكن لا يوجد مقود، والطرقات كلها متعرِّجة، فالحادث حتمي، إنسان فيه شهوات ينطلق بلا منهج، بلا قيم، بلا أمر، بلا نهي، بلا دستور، بلا نظام، تحرِّكه، شهواته، ونزواته، وأهواؤه، ومطامعه، فهذا الإنسان قطعاً لا بدَّ من أن يعتدي، أن يأخذ ما له وما ليس له، هذا العدوان وهذا التقصير وهذا التجاوز له عقاب عند الله عزَّ وجل.

(وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13))

[سورة الفتح]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 11-17 ، الله عز وجل عالم بخبايا الأنفس و ما يعتلجها من خواطر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيّ عذر يقدِّمه الإنسان لربه الله جلَّ جلاله يعلم حقيقته :

مع الدرس السادس من سورة الفتح، ومع الآية الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)

الذين هم حول المدينة المنورة، القبائل التي سَكَنَتْ حول المدينة المنورة دَعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليذهبوا معه إلى العمرة التي انتهت بصلح الحديبية..

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

هذا عُذْرُهُم، هم مشغولون بأموالهم وبأهليهم، والحقيقة أن الأمر خلاف ذلك، إذا تعاملت مع الله يجب أن تعلم علم اليقين أن الله يعلم السرَّ وأخفى، خواطِرُك التي في ذهنك يعلمها الله؛ الخواطر، الصراعات، التوقُّعات، التمنِّيات، كل ما خطر في بالك فهو عند الله مكشوف، هؤلاء الأعراب حينما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليخرجوا معه قالوا:

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

والإنسان في حقيقته إذا أراد شيئاً تجاوز كل المعوِّقات، لو أراد شيئاً دنيوياً ألغى كل المواعيد، ألغى كل المشاغل، أما أن يحتجَّ الإنسان بمشاغله وأمواله وأولاده فهذه حجَّةٌ واهية لا تُقبَل عند الله عزَّ وجل. يقول لك مثلاً أحدهم: أنا لا أستطيع أن أستيقظ على صلاة الفجر، لماذا إذا كان هناك رحلة لا تنام الليل؟ لماذا؟ فأية حجَّةٍ، وأي عذرٍ يقدِّمه الإنسان لربه فإن الله جلَّ جلاله يعلم حقيقته، فهؤلاء الأعراب الذين دُعوا إلى الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم قالوا:

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا)

طلب الجنة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوب :

إن طلب الجنة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوب، وربنا سبحانه وتعالى غفورٌ رحيم لكن مغفرته مقيدةٌ بتوبة العبد..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

[سورة الزمر]

لكن متى؟

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

[سورة الزمر: آية 54]

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50))

[سورة الحجر]

آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم تؤكّد أن الله يغفر ولكن متى؟

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119))

[سورة النحل]

فكلمة استغفر لنا من دون توبةٍ صادقة، من دون إنابةٍ إلى الله عزَّ وجل، نوعٌ من الاستهزاء..

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا)

من اشتغل بالخسيس عن النفيس فهو خاسر لا محالة :

إذا كنت مشغولاً عن معرفة الله، إذا كنت مشغولاً بدنياك عن طلب العلم، إذا كنت مشغولاً بدنياك عن أداء واجباتك الدينية، إذا كنت مشغولاً بدنياك عن الأعمال الصالحة، إذا كنت مشغولاً بدنياك عن القُرُبات إلى الله عزَّ وجل، فينبغي أن تعلم علم اليقين أنك خاسرٌ كبير لأنك اشتغلت بالتافه.. بالخسيس عن النفيس.. اشتغلت بالشيء الرخيص عن الشيء الثمين..

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا)

وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9))

[سورة المنافقون]

ربنا عزَّ وجل فضح هؤلاء:

(يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)

[سورة الفتح: آية 11]

لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فَتَخْطَفُ أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، الإنسان إذا كذب على الله يسقط من عينه، تقول: مشغول؟! لماذا أنت مشغول؟ لماذا إذا أردت الدنيا لا يشغلك عنها شيء؟..

(يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا)

على الإنسان أن يطيع الله لأن الله هو الأقوى :

إذا أراد الله أن يوقِع عقاباً بهذا الإنسان الذي كذب على الله من يستطيع أن يمنع عنه هذا الضُر؟ لا أحد يستطيع.. لا تنسوا أن أحد ولاة البصرة كان إلى جانبه الحسن البصري التابعي الجليل وقد تلقى توجيهاً من يزيد بن معاوية، يبدو أن هذا التوجيه لا يرضي الله عزَّ وجل، فوقع هذا الوالي في حيرة، أنه إن نفَّذ توجيه يزيد أغضب الله عزَّ وجل، وإن لم يُنفِّذ توجيهه أغضب يزيد، فسأل الحسن البصري ماذا أفعل؟ هذا هو التوجيه، فقال الحسن البصري كلمةً خالدةً، قال له: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.. ودائماً وأبداً قِس على هذه المقولة.

لو أجبرك إنسان أن تعصي الله عزَّ وجل، وأراد الله أن يوقع ضراً بهذا الإنسان، لا يستطيع أحد أن يَنقِذُك وينقذه من الله، أما إذا أرضيت الله وعصيت زيداً ولو كان قوياً فإن الله سبحانه وتعالى يمنعُك من زيد هذا، فهذا هو العقل والمنطق أن تطيع الأقوى، الأقوى هو الله، لهذا:

((من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه))

[أخرجه الترمذي والإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين]

(يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا)

على الإنسان أن يتفادى سخط الله برضوانه وعقابه بالعمل الذي يرضيه :

الإنسان في قبضة الله.. من يمنع هذه الخلايا في جسم الإنسان من أن تتكاثر تكاثراً عشوائياً؟ الله يمنعها، وتوجد حالات كثيرة جداً تمَّ شفاؤها ذاتياً دون تدخل طبي، لكنك إذا أرضيت زيداً أو عبيداً، وعصيت خالقك، لو أن الله عزَّ وجل شاء لهذه الخلايا أن تنمو في أماكن حسَّاسة من يمنعها؟ من يملك القلب؟ من يملك الكليتين؟ من يملك الكبد؟ هذه الأعضاء النبيلة الحسَّاسة التي إذا تعطَّلت خسِر الإنسان حياته الدنيا ووقع في ألمٍ شديد، فالإنسان يجب أن يشعر أنه في قبضة الله، هو وكل من حوله، وكل

أجهزته، وأن كل من فوقه، وكل من تحته، بيد الله عزَّ وجل، فالذي يجترئ على الله ويعصيه لا يملك من الله شيئاً لو أراد الله أن يؤدِّبه، كلَّما كَبُرَ العقل ازداد الخوف من الله، لاحظ الطبيب إنه يغسل الخضار ويبالغ في غسلها لماذا؟ لأنه يرى كل يومٍ بعينه في المستشفى الأمراض الوبيلة سببها العدوى وانتقال الجراثيم، فكلَّما ازداد علم الطبيب ازداد خوفه، وكلَّما ازداد علم الإنسان بالقوانين ازدادت حيطته، والخوف يتنامى مع العلم، والذي لا يخاف لا يعلم..

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)

هل هناك جهةٌ في الأرض مهما كانت قويةً تمنع عنك قضاء الله عزَّ وجل؟ لذلك لا ملجأ من الله إلا إليه، لا تستطيع أن تتفادى عقاب الله إلا بطاعته، لا تستطيع أن تتفادى سخط الله إلا برضوانه، لا تستطيع أن تتفادى عقاب الله إلا بالعمل الذي يُرضيه، والله سبحانه وتعالى بابه مفتوح لكل عباده، يكفي أن تقول: يا رب، ليقول الله لك: لبَّيك يا عبدي، بل إنه قد ورد:

((أن العبد إذا قال: يا رب وهو راكع، قال الله: لبَّيك يا عبدي، فإذا قال العبد: يا رب وهو ساجد، قال: لبَّيك يا عبدي، فإذا قال العبد العبد العاصي: لبَّيك يا رب وهو عاصٍ، يقول الله عزَّ وجل: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك))

[ورد في الأثر]

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

[سورة النحل: آية 60]

الابن الشارد المنحرف العاق لو أقبل على أبيه تائباً يدخل على قلب الأب من السرور ما لا يوصَف بخلاف ابنه المستقيم، لأن رحمة الله عزَّ وجل هي التي تجعل فرح الله بهذا العبد العائد إليه.

لحظة الرجوع إلى الله لحظة لا توصف :

لذلك:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

الإنسان يشتري بيتاً ويأتي المهنئون لتهنئته، ينال شهادة عُليا يأتيه المهنِّئون، يتزوَّج يأتيه المهنِّئون، يُنْجِبُ ولداً يأتيه المهنئون، والله الذي لا إله غيره التهنئة الحقيقية ذات المعنى لا تُقال إلا لمن اصطلح مع الله وتاب إليه، وسار على منهجه، فأنزل الله عليه سكينته، وأسعده وحفظه، وأيَّده ونصره، لحظة الرجوع إلى الله لا توصف، أن تشعر أن خالق الكون يحبُّك، أن خالق الكون يرضى عنك، أن خالق الكون أنت بعينه..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: آية 48]

ربنا جلَّ جلاله يعرف خبايا النفس البشرية وما يعتلج فيها من خواطر :

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ((11)

خبير غير بصير، أي أن ربنا جلَّ جلاله يعرف خبايا النفس البشرية، أعماق أعماقها، ما يعتلج فيها من خواطر، من هموم، من أحزان، فالله عزَّ وجل هو الخالق، هو الخبير، وقال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

[سورة فاطر]

أنت مكشوف عند الله عزَّ وجل، حينما تُقبِل على الله عزَّ وجل هذه الهموم تُبدَّد، هذه المُقلِقات تزول، هذا الخوف ينمحي، هذا الشعور بالضياع يذهب، تجد ذاتك..

(بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11))

[سورة الفتح]

وربنا عزَّ وجل خبير بالنفوس..

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا)

[سورة الفتح: آية 12]

هذا هو السبب الحقيقي، تَخَلَّف هؤلاء الأعراب عن رسول الله لظنِّهم أن النبي لن يرجع إلى المدينة، إنه يذهب إلى أُناسٍ حاربوه مرَّاتٍ عديدة ولا بدَّ أنهم سيحاربونه الآن، وربما أبادوا أصحابه ولن يعود إلى المدينة، انظروا إلى هذا الظن!!

من كان مع الله كان الله معه لأن الله جلَّ جلاله لا يتَخَلَّى عن عباده المؤمنين :

في حياتنا المعاصرة نرى مؤمناً مستقيماً ومخلصاً لله عزّ وجل، يحاط ببعض الأخطار، فتجد أهل الدنيا يقولون لك: انتهى لن تقوم له قائمة، خَسِرَ دنياه، خسِر منصبه.. لا.. هذا ظن الإنسان الذي لا يعرف الله عزَّ وجل، الله جلَّ جلاله لا يتَخَلَّى عن عباده المؤمنين، أحياناً الإنسان يجري حسابات كلّها مادِّية ويتغافل عن وجود الله عزَّ وجل، وعن أن الأمر كلّه بيد الله، يتغافل عن أن الله مع المستقيم، مع الطائع، مع المُنيب، مع المخلص، فربما هذا الإنسان المؤمن قد يكون فقيراً فيقال له: أنت لن تتزوج أبداً، على حسابات الآلة الحاسبة هذا صحيح لا يوجد أمل، دخله أربعة آلاف لا تكفيه مؤونته من الطعام

والشراب، أنىّ له أن يشتري البيت وأن يدفع المهر؟ لكن شاباً مؤمناً مستقيماً على أمر الله أيتخلى الله عنه؟ أهل الدنيا حساباتهم كلّها مادّية، يتغافلون عن أن الله موجود، وأن الأمر كلّه بيدِ الله، وأن الله هو الرزّاق، وهو الموَفّق، وهو الحافظ، وهو الناصر، وهو المؤيِّد، وهو الستّير، وهو الرزاق، إنهم يتغافلون عن هذا، لا مانع من أن يدرس الإنسان الأمور دراسة موضوعية، ولكن يجب ألاّ ينسى أن الله موجود، وأن الله لا يتخلّى عن عباده المؤمنين، وأن الله لا يسمح لأهل الدنيا أن يستطيلوا عليهم، هو يحفظهم وينصرهم، ويؤيدهم ويرزقهم، وخلاف هذا الظن جهلٌ بالله عزَّ وجل..

(بَلْ ظَنَنْتُمْ)

فقريش قوية جداً وهي في مكة.. في عُقْر دارها.. معها الرجال، معها الفُرسان، معها الأسلحة، معها المراكب، معها كل شيء، ومعها العرب جميعاً، والنبي عليه الصلاة والسلام هذا الذي خرج من مكة خائفاً أُهْدِرَ دمه، وضعت مئتا ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، مع أصحابه الضِعاف، هؤلاء سيذهبون إلى مكة ليعتمروا تحت سَمْع قريشٍ وبصرها هؤلاء المنافقون بحسابات أرضية، بحسابات مادّية، أيقنوا أن النبي صلى الله عليه وسلّم وأصحابه الكرام لن يرجعوا إلى المدينة لذلك تنصَّلوا وانسحبوا واعتذروا، الحقيقة أن الله فضحهم، قال:

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا)

ظننتم أنهم هالِكون، ظننتم أن قريشاً ستبُيدهم، أين الله؟

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45))

ويعنيان بهذا فرعون..

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46))

[سورة طه]

ويجب أن تكون هذه الآية في ذهن كل مؤمن.. إنني معك يا عبدي أسمع وأرى.. كن معه ولا تبالِ، كن مع الله ترَ الله معك، أخلِص له، استقم على أمره، اطلب رضاه ولا تخشى أحداً..

((إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك))

[ورد في الأثر]

ارتفاع معنويات المؤمن مهم جداً لأنّ همّ الكفار أن يضعضعوا ثقة المؤمن بربه :

أريد من هذا الكلام أن يثق المؤمن بربه لأن ارتفاع معنويات المؤمن مهم جداً، الكُفّار دائماً همهم أن يُضعضِعوا المؤمنين، أن يُضعِفوا ثقتهم بالله عزَّ وجل، أن يقيِّموهم بما في أيديهم..

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام عندما جاء إليه عدي بن حاتم قال له: " لعله يا عَدِيّ إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما تَرى من حاجتهم- أي من فقر أصحابه، لأن أصحابه كانوا فقراء- وَيْمُ الله ليوشكنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلَّه إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين أنَّك ترى أن المُلك والسلطان في غيرهم، وَيْمُ الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف أحداً- يستتبُّ لهم الأمر في طول البلاد وعرضها- ولعله إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوِّهم، والذي نفس محمدٍ بيده ليوشكن أن ترى القصور البابلية مفتَّحةً لهم ".. وعاش عدي بن حاتم حتى رأى كل ذلك بعينه..

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة وقد تبعه سُراقة ليأتي به إلى قريش وينال المئتي ناقة، عندما ساخت قدما فرس سُراقة في الرمال، والتجأ إلى النبي عليه الصلاة والسلام المرَّة الأولى، والثانية، والثالثة قال له: " يا سُراقة كيف بك إذا لبست سِواري كسرى؟.. هذه تعرفونها من السيرة لكن حللوها، النبي ملاحق، النبي مهدور دمه، أي إنسانٍ يأتي بالنبي يأخذ مئتي ناقة، ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام: "يا سُراقة كيف بك إذا لبست سِواري كسرى؟ ماذا يُفهم من هذا الكلام؟ يُفهم منه أن النبي عليه الصلاة والسلام سيصل إلى المدينة، وسيكون في المدينة مع المؤمنين، يكون لهم كيان، وهذا الكيان بداية المجتمع الإسلامي، وسوف يُحاربون قريشاً، وسوف تدين الجزيرة العربية لهم جميعاً، وسوف يَنْطلقون لفتح البلاد الأخرى، وسوف يصلون إلى أكبر دولةٍ في حينه- دولة كسرى- وسوف يهزمونها، وسوف يأتون بسِواري كسرى مع الغنائم- يا سُراقة كيف بك إذا لبست سِواري كسرى؟- وهذا الذي حصل، حينما جاءت الغنائم لو أن أحداً رفع رُمْحَهُ وأحداً آخر في الطرف المقابل رفع رمحه لما رأى الأول الآخر، كلّها غنائم؛ سِواري كسرى، تاج كسرى، قميص كسرى، كل ما في القصور قد جيء به إلى المدينة. تذكَّر عمر رضي الله عنه سُراقة ووعْد النبي له، قال: أين سُراقة؟ ألبسه سِواري كسرى فكبَّر الصحابة، فقال: أعيرابيٌّ يلبس سِواري كسرى !! لقد صدق رسول الله.

الله عز وجل مع المؤمن بالنصر والتأييد والحفظ والتوفيق :

إذا آمنت بالله، واستقمت على أمره، وتقرَّبت إليه، يجب أن تشعر أن الله لن يتخلى عنك، وأنه معك، وأنه سينصرك، وأنه سيؤيِّدُك، وأن الله سبحانه وتعالى يقول في آياتٍ كثيرة:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19))

[سورة الأنفال]

(مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

تعني أنه معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق..

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الفتح: آية 12]

نرتاح منهم، انظر إلى المنافق !!

المنافق كالأرض البور لا خير فيه إطلاقاً :

إذا أخوك المؤمن أصابه خير وتضايقت، وأخوك المؤمن تزوَّج، نال شهادة، اشترى بيتاً، دعا إلى الله فوفقه الله في الدعوة، فطعنت به، وحسدته، وتمنَّيت له أن يُخفِق في عمله، وإذا أصابه مكروه ارتحت لهذا المكروه، يجب أن تعلم علم اليقين أنَّك مع المنافقين.. هكذا.. هذا قرآن يُتلى إلى يوم القيامة..

(وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُم)

فرحتم، فالآن سيذهب ليعتمر فتحاربه قريش وتقضي عليه، وتبيده مع أصحابه، ونرتاح من هذه الدعوة بقضِّها وقضيضها..

(وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

[سورة الفتح: آية 12]

كالأرض البور لا تُمْسِك ولا تنبت، لا يوجد فيها خير إطلاقاً، تجد إنساناً كلَّه أذى، كلَّه انتقاد، كلَّه حسد، كلَّه غيبة، إنه أناني أنانية مفرطة، حريص على مصالحه، على أن يكون المال كلّه له، على أن يأكل وحده، على أن ينام وحده، على أن يسكن في البيت وحده، على أن يركب هذه المركبة وحده، إنه يحب ذاته ولا يحب أحداً، هذا البور لا يتحرَّك إلا بأجر وأجر باهظ، وإذا كان متمكناً ذبح الآخرين من الوريد إلى الوريد، بالأسعار المرتفعة يستغل، إذا علِم أن الناس بحاجةٍ إلى سلعةٍ بين يديه رفع سعرها رفعاً جنونياً ليقنصَهُم قنصاً، هؤلاء الذين يتمحورون حول مصالحهم، وحول المال يأخذونه جشعاً ونهباً، وحول الشهوات ينغمسون فيها إلى قمَّة رؤوسهم، ولا يعنيهم من أمر الناس ما يعنيهم، هؤلاء وصفهم الله عزَّ وجل بأنهم قومٌ بور، أرضٌ بور قاحلة لا ماء فيها، ولا نبات فيها، ولا زهرة فيها تُسَبِّح الله عزّ وجل..

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

المؤمن كلّه خير :

تجد المؤمن كلّه خير، كلّه أعمال صالحة، إذا تكلَّم ذكر الله، وإذا تحرَّك نفع الناس، وإذا صَمَتَ فكَّر بآيات الله، هكذا النبي علَّمنا قال أمرت:

((أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[القرطبي في تفسيره عن أبي هريرة]

إذا مات المؤمن بَكَتْ عليه السماوات والأرض بدليل أن الكفار إذا ماتوا:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)

[سورة الدخان: آية 29]

لا تبكي عليهم بل بالعكس تستريح منهم.. النبي عليه الصلاة والسلام:

((مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ - لم يفهم أصحاب النبي ماذا قال النبي- قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

[البخاري عن أبي قتادة]

(وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ)

بالله عزَّ وجل..

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

لا خير فيكم.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

الإنسان يعيش عمراً إما أن يكون هذا العمر كلّه خيراً أو شراً، الله سبحانه وتعالى أقسم بعمر النبي فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72))

[سورة الحجر]

وكل واحد منَّا يسأل نفسه ماذا قدَّمت للإسلام؟ ماذا فعلت؟ ما نوع عملي؟ حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، ماذا نفعت؟ هل دعوت إلى الله؟ هل أمرت بالمعروف؟ هل نَهَيْتَ عن المنكر؟ هل أعنت المسكين؟ هل أطعمت الفقير الجائع؟ ماذا فعلت؟

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13))

الإنسان إذا لم يؤمن بالله موجوداً، وكاملاً، وواحداً، وبالتالي لم يؤمن بمنهجه؛ بكتابه، وسنة رسوله، سيتفلت من هذا المنهج، وحينما يتحرَّك الإنسان حركة عشوائية سوف يعتدي على الآخرين، وسوف يأخذ ما ليس له عندئذٍ يستحق النار..

(وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13))

باب التوبة مفتوح أمام كل إنسان :

لكن رحمة الله عزَّ وجل وتربيته تُشير إلى أن باب التوبة مفتوح أمام هذا الإنسان الشارد، الشيء اللطيف في القرآن الكريم أنه كلَّما وصف الله أهل النِفاق أو أهل الكفر، كلَّما وصف الله مشاهد يوم القيامة يأتي باب التوبة ليُفتَح، قال:

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الفتح: آية 14]

قيل: إن هذه المُلكية أعلى أنواع المُلكية خَلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً.

معمل طائرات يصنع طائرةً ويبيعها، صنعها وانتهى الأمر، أما الآن هي في يد جهة أخرى تتصرَّف بها..

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

[سورة النحل: آية 60]

الله عزّ..

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

[سورة الزمر]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54))

[سورة الأعراف]

ملك الله عزَّ وجل ملك خلق ومُلك تصرُّفٍ ومُلك مصيرٍ :

إذاً معنى..

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الفتح: آية 14]

خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً، قد تملك ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، وقد تملك وتنتفع والمصير ليس لك، لكن ملك الله عزَّ وجل مُلكٌ، ملك خلقٍ، ومُلك تصرُّفٍ، ومُلك مصيرٍ، هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

أحاول أن أقرب هذا المعنى للأذهان؛ مرض عضال الشفاء منه عن طريق الجراحة وطريق الدواء أيهما تختار؟ لا شك طريق الدواء هو الأجدى عندك، وكذا الإنسان إذا استجاب لله عزَّ وجل يَشْفَى من أمراضه دون أن يدفع الثمن باهظاً، أما إذا ركب رأسه ولم يستجب لله عزَّ وجل عندئذٍ يُغْفَر له ولكن

متى؟ بعد عذابٍ شديد، فإما أن يُغفَر لك بالدعوة البيانية واستجابتك لهذه الدعوة، وإما أن يُغفَر لك بعد معالجةٍ مرَّة سببها عدم استجابتك لأمر الله.

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16))

[سورة الفتح: آية 16]

تعذيب تأديب، تعذيب معالجة..

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (14))

العطاء الإلهي نوعان :

كل أفعال الله تنطلق من حرصه على مغفرة ذنوب عباده،ثم رحمته بهم، المغفرة تنظيف، والعطاء الإلهي نوعان: نوع سلبي يغفر، يُطهِّر، والنوع الثاني يمنح، فربنا عزَّ وجل غفور رحيم، غفور يُطهر الإنسان من ذنوبه، ورحيم يتجلى عليه، هذه الآية تُشير إلى أن هؤلاء الأعراب الجُفاة الذين تخلَّفوا عن رسول الله، والذين ظنوا بالله ظن السوء، والذين زُيِّنَ لهم أن النبي لن يعود إلى المدينة، مع كل ذنوبهم وانحرافهم ومع ذلك باب التوبة مفتوحٌ أمامهم..

(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا)

[سورة الفتح: آية 15]

الله عزَّ وجل لا يُعطي إلا بعد أن يمتحن :

بعد صلح الحديبية توجَّه النبي إلى خيبر ليفتحها، وخيبر فيها غنائم كثيرة، المنافقون بحاسَّتهم السادسة شعروا أن هناك في هذه الغزوة مغانم كثيرة، حينما غَلَبَ على ظنّهم أن النبي لن يعود تخلوا عنه واعتذروا..

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

وحينما غلب على ظنّهم أن هناك مغانم كثيرة من خَيْبَر قالوا:

(ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ)

نحن معكم..

(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ)

الله عزَّ وجل لا يُعطي إلا بعد أن يمتحن، فالإنسان إذا رَسَب في الامتحان لا يُعطى شيئاً، الإمام الشافعي سُئل: أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء؟ فأجاب إجابةً رائعة، قال: " لن تُمكَّن قبل أن تبتلى ".

تظن نفسك ذكياً جداً، الأخطار تلافيتها، والمغانم سعيت إليها، هذا شيء لا يكون، حينما غَلَبَ على ظنِّهم أن النبي لن يعود إلى المدينة وأنه مقتول هو وأصحابه قالوا:

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

أما حينما غلب على ظنهم أن هذه الغزوة ناجحة وهناك مغانم كثيرة فقالوا:

(ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ)

الله عزَّ وجل نهى نبيه الكريم عن أن يقبل معه المنافقين :

هذا الكلام ينطبق على معظم الناس، يهرب من تكاليف الدين، ويسارع إلى المغانم، يتنصل من الأعمال الشاقة متوارياً عن الأنظار، ويتواجد عند الغنائم تراه في المقدِّمة، وهذا الإنسان يظن نفسه أنه ذكي، يريد الجنَّة بلا ثمن، يريد الدنيا بلا ثمن، وهذا شيء مستحيل، هذا خلاف سنة الله عزَّ وجل، خلاف سنن الله في خلقه..

(قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا)

[سورة الفتح: آية 15]

هكذا قال الله عزَّ وجل، نهى الله نبيه عن أن يقبل معه المنافقين، لن تذهبوا معي أبداً، ولن تقاتلوا معي عدواً أبداً.

الغُنمُ بالغُرمِ :

ويوجد رأي آخر: إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى نبيه أن الصحابة الكرام حينما فاتهم فتح مكة فوعدهم بغنائم خيبر حصراً لمن كان مع النبي في الحديبية، على كلٍّ التوجيه الأول قرآني والثاني نبوي، هؤلاء المنافقون يريدون أن يبدِّلوا كلام الله، أي يبتعدون عن المغارم ويقبلون على المغانم، والقاعدة الشهيرة: " الغُنمُ بالغُرمِ ".. ندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء؟ قال: لن تُمكَّن قبل أن تبتلى.. والمؤمن يريد مغانم الإسلام فقط، الإسلام فيه جهاد، الإسلام فيه ضبط الجوارح، ضبط الأعضاء، الإسلام فيه بذل، فيه صدقة، فيه ضبط الشهوات، بعد ضبط الشهوات، والمجاهدة، وضبط الدخل، وضبط الإنفاق، الله عزَّ وجل يُعلي قدر الإنسان، يرفع ذكره، أما يريد أن يُرفع ذكره بلا ثمن، فيتحطَّم..

(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا)

أي أنتم أنانيون تريدون هذه الغنائم لكم وحدكم؟!

(بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15))

[سورة الفتح: آية 15]

قولوا ما شئتم لن تتبعونا.

الله عز وجل يفتح باب التوبة دائماً لعباده :

لكن ربنا عزَّ وجل رحيم، هؤلاء الذين أرادوا أن يأخذوا المغانم دون المغارم، أرادوا أن يتبعوا النبي في فتحه لخيبر وأن يبتعدوا عنه في الحديبية، هؤلاء الذين ظنوا أنهم أذكياء يقبلون على المغانم ويتنصَّلون من المغارم، هؤلاء أنفسهم الله لا يتخلى عنهم فيقول:

(قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ)

[سورة الفتح: آية 16]

توجد عندكم فرصة ثانية، إذا أقبلتم على بذل الجُهْد فإنه بعد هذا الجهد غنيمةٌ تأخذونها ..

(تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16))

ربنا عزَّ وجل يفتح باب التوبة، توجد فرصة ثانية.

يُروى أن رجلاً رأى نملةً صعدت ونزلت ووقعت أربعين مرَّة، وكان عمره أربعين سنة، في الأربعين طلب العلم وتعلَّم القراءة والكتابة، وحفظ كتاب الله عزَّ وجل، ولم يمت إلا وهو شيخ الأزهر، قال: علَّمتني الحياة نملة وقعت أربعين مرة.

الله عزَّ وجل حينما يعلم من الإنسان الصدق يأتيه بنفحة ينسى بها كل متاعبه :

أنت استقم، وتُب إلى الله، واقرأ القرآن، وغض بصرك، وحرر دخلك ونفسك، و إن تفلّت فارجع وجرب المحاولة مرَّة ثانية، ومحاولة ثالثة، ورابعة، وخامسة، المؤمن مذنب توَّاب، كثير التوبة والأوبة إلى الله عزَّ وجل، فلا يستسلمنّ الإنسان إذا زلَّت قدمه مرَّة، وغلط مرَّة، وانحجب مرَّة، ولا يظنن أن حياته انتهت هذا جبن وصغار، أيعقل أن تكون النملة أشد تصميماً منك؟ نملةٌ علَّمت رجلاً فصار شيخ الأزهر، هذا الثبات والتصميم..

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

***

اجلس كل يوم واذكر الله عزَّ وجل.. ولا تيأسنَّ من المرة الأولى، في اليوم الثاني، الثالث، أول أسبوع والثاني تشعر بالراحة، أراد الله أن يمتحن صدقك، اقرأ القرآن كل يوم ستأتيك ساعة وتأتي نفحة تنسيك

التعب كلّه.. إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرَّضوا لها.. عرِّض نفسك للنفحة، اقرأ القرآن، صلِّ صلاة متقنة، اذكر الله عزَّ وجل، استغفر وادعُ، أنت بهذا تعرِّض نفسك لنفحةٍ إلهية، وربنا عزَّ وجل حينما يعلم منك الصدق تأتيك النفحة فتنسى بها كل المتاعب السابقة..

(قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16))

عُذران دائمان وعذرٌ مؤقَّت هذه الأعذار التي يمكن أن تُقبل عند الله :

أما هؤلاء الذين عذرهم الله عزَّ وجل في عدم خروجهم مع رسول الله فقال:

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ)

[سورة الفتح: آية 17]

هذا عذر دائم، الأعمى والأعرج..

(وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

هذا عذر مؤقَّت..

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17))

يعذِّبه عذاباً تأديبياً، تعذيباً ليتوب إلى الله عزَّ وجل.

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

عُذران دائمان وعذرٌ مؤقَّت، هذه الأعذار التي يمكن أن تُقبل عند الله، أما:

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

هذا عذر غير مقبول، توجد أعذار مقبولة عند الله وعند الناس، وتوجد أعذار غير مقبولة كالتكاسل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (7-8): تفسيرالآيات 18-24 ، أعظم هدف للإنسان أن يطلب رضا الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أعظم هدفٍ يسعى إليه الإنسان رضا الله عزَّ وجل :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس السابع من سورة الفتح، ومع الآية الثامنة عشرة وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

[سورة الفتح]

أيها الأخوة... ما منا واحدٌ إلا وله هدفٌ يسعى إليه، الأهداف على تنوِّعها إن كانت متعلقةً بالدنيا تنتهي عند الموت، فلو حَصَّلت مالاً وفيراً، أو منصباً رفيعاً، أو مكانةً اجتماعية، أو انغمست في متعٍ أرضيةٍ، كلُّ هذه المكاسب تنتهي عند الموت، لكن أعظم هدفٍ على الإطلاق يُمكن أن تسعى إليه ويمكن أن يستمر مكسبه إلى أبد الآبدين هو أن تطلب رضاء الله عزَّ وجل، لأن الله إذا رضي عنك نِلتَ كل شيء، وكنت الفائز الأكبر، والرابح الأكبر، والمُفلح الأكبر.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

هذه الآية ألا تَهُزُّ المشاعر؟ خالق السماوات والأرض، إذا كان الأرض لا تُرى في المجموعة الشمسية إلا كالهباء، ذرة، المجموعة الشمسية نقطة في نهر المجرة، مجرَّتنا نقطة من بين المجرَّات، وهذا الكون لا يعلم حدوده إلا الله، لا يعلم نهايته إلا الله، فإذا كان خالق هذا الكون راضٍ عنك ماذا خسرت؟ وماذا فاتك من الدنيا؟ هذا الذي يقولونه: " يا رب ماذا وجد من فقدك؟ وماذا فقد من وجدك؟

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

فلذلك الهدف، إلى ماذا تهدف؟ أتهدف إلى مبلغٍ من المال تحوزه؟ أم إلى مرتبةٍ تنالُها؟ أم إلى سمعةٍ تتمتَّع بها؟ أم إلى وجاهةٍ تنعم بها؟ ما الذي يدفعك ويحرِّك سلوكك في هذه الحياة؟ هؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ليس هذا الرضا رضاً دُعائياً بل رضاً تقريرياً، لقد حرف تحقيق.

رضا الله عز وجل في متناول كل مؤمن :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

أول معنى أن رضاء الله في متناول المؤمنين، أحياناً تتمنَّى أن ترضي جهةً ولكن لا سبيل إلى إرضائها، لا سبيل إلى أن تصل إليها، ولا إلى أن تتقرب منها، لكن الله سبحانه وتعالى جَعَلَ الطريق إليه سالكاً لكل مؤمن، بإمكانك أن تصل إلى رضوان الله عزَّ وجل بطاعته..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))

[سورة الحجرات]

أبلغ كلمة قالها سيدنا عمر لسيدنا سعد، قال له: " يا سعد لا يَغُرَّنَّك أنك خال رسول الله ".

النبي كان كلما دخل سيدنا سعد يقول:

((هذا خالي فليُرِني امْرؤ خَالَهُ))

[أخرجه الترمذي عن جابر بن عبد الله]

يداعبه، والنبي لم يفدِ أحداً بأمه وأبيه إلا سيدنا سعد، قال له:

((ارْمِ فداك أبي وأمِّي))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن علي بن أبي طالب]

ومع أن النبي فدّاه بأمه وأبيه ومع أن النبي كان يرحِّب به كلما دخل عليه ويقول: هذا خالي فليُرِني امْرؤ خَالَهُ. قال له سيدنا عمر: " يا سعد لا يغرنك أنك خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له ".

عدم استواء من كان في سخط الله ومن كان في رضوان الله :

أحياناً يكون الإنسان له شأن كبير، أقرباؤه في الدرجة الأولى، القرابة ليس لها علاقة بالكسب، لأن قريبه له مكانة عالية، أما الله عزَّ وجل فكما قال سيدنا عمر: " ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعته ". فلا أعتقد أنه يوجد هدف أسمى، ولا أنبل، ولا أعظم، ولا يوجد هناك شيء يقدِّس حياتك ويرفعك من المستوى التافه إلى المستوى الراقي إلا أن تطلب رضوان الله، أي لا يستوي من كان في سخط الله ومن كان في رضوان الله، لا يستوي من لا يتأثر لو كان في سخط الله.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28))

[سورة محمد]

هناك إنسان يَتَّبع ما يُسْخِطُ الله ويكره رضوانه، و إنسان آخر رضاء الله عنه يحرَص عليه حرصاً لا حدود له، فلذلك لا تنظر إلى صِغَرِ الذنب ولكن انظر على من اجترأت، الدنيا تفنى، مالها يفنى، نساؤها

تفنى، مناصبها تفنى، وجاهتها تفنى، شهاداتها تفنى، ملذَّاتها تفنى، بيوتها تفنى، قصورها تفنى، بساتينها تفنى، أما إذا كنت مع الله فالله هو الباقي، أول ليلة يوضع الإنسان في قبره يقول الله عزَّ وجل:"عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت "

شعور المؤمن لا يعرفه إلا من ذاقه :

أخواننا الكرام... هذه الآية كلَّما قُرأتْ الإنسان يتأثَّر:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

هل أنت في هذا الطريق؟ في طريق مرضاة الله؟ هل تتمنى رضوانه؟ هل تتمنى أن يتجلَّى على قلبك؟ هل تسعد أشد السعادة إذا شعرت أن الله يحبك، وأنك قريبٌ منه، وأنك على منهجه تسير؟

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

مرضاته ليست صعبة في متناول كل مؤمن، ألا تستطيع أن تضبط لسانك؟ ضبط اللسان ثمن مرضاة الله، ألا تستطيع أن تضبط جوارحك؟ ضبط الجوارح ثمن مرضاة الله، ألا تستطيع أن تتحرَّى الحلال؟ تحرِّي الحلال ثمن رضوان الله، ألا تستطيع أن تتحرك في شهواتك وفق منهج الله؟ نعم، هذا التحرُّك وفق منهج الله ثمن رضوان الله عزَّ وجل، فالشيء ليس مستحيلاً، لا توجد طلبات من الله تعجيزية، مرضاة الله عزَّ وجل في متناول كل واحدٍ منا، يكفي أن يكُفَّ عن الحرام، اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسمه الله تكن أغنى الناس، أدِّ الصلوات الخمس بإخلاص، اضبط الدخل والإنفاق، اضبط الجوارح، أقم الإسلام في بيتك، ربِّ أولادك وبناتك، وزوجتك، فأنت في مرضاة الله.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

فشعور المؤمن لا يعرفه إلا من ذاقه، فإذا أويت إلى فراشك وكنت في مرضاة الله هذا الشعور لا يقدَّر بثمن، تشعر بأن الدنيا كلها بين يديك، في أحد الفنادق كتب على السرير: إن لم تنم فالذنب ليس من فروشنا، ولكن من ذنوبك.

طاعة الله عزَّ وجل هي الشيء الوحيد الذي ينال به الإنسان رضوان الله

الإنسان في النهار يتحرَّك وقد يغفل عن حالته النفسية، أما إذا أوى إلى الفراش فتظهر عيوبه ونواياه، الإنسان متى يتألَّم؟ إذا خلا مع نفسه، فإذا كنت تطلب مرضاة الله عزَّ وجل فأنت أسعد الناس، ألا تحفزك هذه الآية إلى أن تكون على منهج الصحابة سائراً؟.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

ماذا يرضي الله؟ يرضي الله أن تُحْسِن إلى خلقه، يرضي الله أن ترى كل المخلوقات مخلوقاته، الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، يُرضي الله أن كل إنسان وقف في بابك؛ أنت موظف، مهندس، طبيب، عامل، صاحب مصلحة، صاحب حرفة، أن كل إنسان وقف في بابك ترى هذا الإنسان عبداً لله، ويرضي الله أن تُحْسِنَ إليه، وأن تعاونه، هؤلاء كلهم عبيده، أحياناً الإنسان يتقرب لإنسان بخدمة ابنه، أحياناً إنسان يقدِّم لطفل صغير قطعة من السُكَّر، وهي في الحقيقة للأب لا للابن، أراد أن يكرم الأب بإكرام ابنه، وأنت بمتناول يدَّك أن تتقرب إلى الله بخدمة عباده، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه، فأول نقطة أن رضوان الله في متناول البشر، بيدك، وطاعة الله عزَّ وجل هي الشيء الوحيد الذي تنال به رضوان الله..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))

[سورة الحجرات]

على كل إنسان أن يتوخى مرضاة الله عزَّ وجل :

بقي المؤمن الصادق في كل حركة، في كل سكنة، في نومه، في يقظته، في كل حركة يسأل: ما الذي يرضي الله؟ أنا حلفت يميناً ألا أزور أختي، أيرضي الله أن أحنث بهذه اليمين وأن أزورها وأن أُكَفِّرَ عنها؟ هكذا يرضي الله، أنا حلفت ألا أتكلم مع فلان، أيرضي الله أن أسلم عليه؟ المؤمن قال:

لو قال تيهاً قف على جمر الغضاء لوقفت ممتثلاً ولم أتوقف

أو كان من يرضى بخدي موطئاً لوضعته أرضاً ولم أستنكف

***

تيهاً: أي محبوبه.

إذا كان الله غالياً عليك من أجل أن ترضيه تفعل كل شيء، فالتبر يستوي عندك والتراب في مرضاة الله عزَّ وجل، يستوي عندك رضوان الناس عنك أو سخطهم، فالأبيات التي يقولها بعض العارفين بالله:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

***

لو أن الأنام كلهم غضبوا عنك والله جلَّ جلاله راضٍ عنك فبهذا تسعد.

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بينك وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خراب

***

أحياناً تكون هناك علاقات عامرة بينك وبين الله ومع الناس في أسوأ حال فلا يوجد مانع، الأصل أن تتوخى مرضاة الله عزَّ وجل، ولك في الصحابة أسوةٌ حسنة:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

على الإنسان ألا يعظِّم إلا الله عزَّ وجل :

شيء آخر: يا ترى سيدنا الصديق ألم يكن مع الصحابة في هذه البيعة؟ سيدنا عمر ألم يكن مع الصحابة في هذه البيعة؟ فإذا كان الله رضي عن أُنَاسٍ أيحق لك أن تغضب عليهم أنت؟ فمن أنت أساساً؟ إذا الله عزَّ وجل رضي عن المؤمنين وفيهم الصحابة الكرام الأربعة الراشدون فهل يحق لإنسانٍ كائناً من كان ألا يرضى عنهم؟ وما يزنُ عدم رضائك عنهم؟

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

تروي الكتب أن هذه الشجرة ضاعت عن الناس لحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل، صحابةٌ كرام في العام التالي توجَّهوا إلى مكان البيعة فلم يجدوا الشجرة، سيلٌ جرفها، نارٌ أحرقتها، ويُروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه قطعها، هذه رواية وردت وتلك روايةٌ وردت، إما أن الله سبحانه وتعالى تولَّى بنفسه أن يذهبها من مكانها لئلا تُعْبَد من دون الله، أو سيدنا عمر أمر بقطعها، لأننا نحن في الإسلام لا نعظِّم إلا الله عزَّ وجل، وأول بدايات عبادة الأوثان أساسها تعظيم رجال صالحين أو أماكن وهكذا، فلذلك من الحكمة أن سيدنا عمر لئلا تُعْبَدَ من دون الله أمر بقطعها، وبالطبع ليست القيمة للشجرة بل لمن بايع تحت الشجرة، ليست القيمة للمكان بل لمن كان في المكان:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

أكمل موقف ألا يجري الإنسان على لسانه عن صحابي جليل أنه أخطأ أو لم يخطئ

من لوازم الآية السابقة مادام الله عزَّ وجل في القرآن الكريم، وفي آيةٍ قطعية الدلالة، يبيِّن أنه رضي عن المؤمنين الذين كانوا مع النبي، والذين كانوا مع النبي التاريخ يعرف أسماءهم واحداً واحداً، لذلك إذا نُشِبَ خلافٌ بينهم ينبغي أن تسكت أنت:

((إذا ذكر أصحابي فأمسكوا))

[الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

فأنت لست في مستوى أن ترى الحق مع من:

((إذا ذكر أصحابي فأمسكوا))

[الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

هذا أكمل موقف، أكمل موقف تقفه فيما نُشِب بين الصحابة بعد وفاة النبي أن تلزم الصمت.. كجنديين غرِّين يتناقشان في مكانة رئيسي أركان، فمن أنت أمام أيهم أفهم؟ هذا الشيء فوق مستوى هذين الجنديين، ممرضان يتناقشان في أي طبيبي القلب أمهر؟ هذا النقاش فوق مستوى هذين الممرضين، فلذلك:

((إذا ذكر أصحابي فأمسكوا))

[الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

أكمل موقف ألا تجري على لسانك عن صحابي جليل أنه أخطأ أو لم يخطئ، الحق معه، الحق مع خصمه، هذه المعلومات لا تعنينا إطلاقاً لأن الله سبحانه وتعالى رضي عنهم أجمعين، وإذا اختلفوا فباجتهادات فيما بينهم، والمجتهد في الإسلام له أجر؛ من اجتهد وأخطأ فله أجر، ومن اجتهد فأصاب فله أجران.

لا يعني هذا أنهم معصومون كالنبي، إلا أن الله سبحانه وتعالى رضي عنهم، ورضاء الله عنهم يكفينا أن نصمت وأن نمسك ألسنتنا عن أن نخوض فيما بينهم.

على الإنسان أن يستهلك وقته فيما يرضي الله لا في القيل و القال :

شيء آخر: لا يعنينا أن نسترجع من التاريخ مشكلات نعانيها الآن، هذه القضايا مضت وعفا الزمان عنها، وكل واحد انقلب إلى رحمة الله، وكل واحد له مكان عند الله، بحسب إخلاصه، بحسب صدقه، بحسب بذله وتضحيته، هذا الشيء لا يعنينا أبداً، يعنينا أن الله سبحانه تعالى أخبرنا أنه رضي عنهم أجمعين، لذلك النبي الكريم قال:

((إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا))

[الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

((لا تسبوا أحدًا من أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مُد أحدهم ولا نصيفه))

[البخاري و مسلم عن أبي سعيد الخدري]

ونحن لسنا في مستوى أن نحكم بينهم، ولا أن ندخل في التفاصيل التي كانت بينهم، ولا يعنينا إلا أن الله رضي عنهم، ويعنينا أن نسير على منهجهم، وأن نقتفي أثرهم، لأن الله رضي عنهم، والآية التي أذكرها كثيراً:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

[سورة البقرة]

وَفِّر وقتك، الوقت ثمين جداً، والهدف كبير، والرسالة كبيرة، والزمن قصير، والموت على الأبواب، فهذا الوقت الثمين لا تستهلكه في قيل وقال، والحق مع مَنْ؟ والخلاف مِن حق مَنْ؟ هذا الوقت الثمين لا تستهلكه في هذه الموضوعات، استهلكه في القُرُبات من الله عزَّ وجل، استهلكه فيما يرضي الله..

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

الموت يلغي كل شيء :

أول معنى: أن أعظم هدفٍ على الإطلاق تتحرَّك نحوه أن تطلب مرضاة الله عزَّ وجل، وإذا رضي الله عنك نِلْتَ كل شيء، ما فاتك شيء، وإذا فاتك أن يرضى الله عنك ما نلت شيئاً وخسرت كل شيء، والدنيا منقطعة يأتي الموت يلغي كل شيء، يلغي غنى الغني، وفقر الفقير، وقوة القوي، وضعف الضعيف، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وصحة الصحيح، ومرض المريض، الدنيا تنتهي، لكن الذي يبقى رضوان الله عزَّ وجل.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

هناك نقطة ثالثة، أولاً: أعظم هدف، ثانياً: إذا رضي الله عن أناس لا يحق لإنسان كائناً من كان ألا يرضى عنهم، المعنى الثالث: رضوان الله على الإنسان في متناول الإنسان، طاعة الله وحدها طريق رضوانه، الرضا في متناول يدك، وإذا رضي الله عن إنسان لا يحق لك أن تتكلم عنه أنت.

الله عزَّ وجل لا يحتاج إلى بيان أو قسم لأنه يعلم السر و أخفى :

والمعنى الرابع: أن هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لا على شيءٍ فعلوه بل على نيةٍ عَقَدوها، ما حاربوا، هذا أبلغ شيء.

((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى))

[أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب]

ما فعلوا شيئاً، عاهدوا النبي على بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، والله عزَّ وجل ما حمَّلهم هذه الحرب، إذاً يمكن أن تصل إلى رضوان الله بالنية الصادقة فقط، لذلك هنيئاً لمن كانت نواياه طيبة للناس، هنيئاً لمن ينوي الخير للناس جميعاً، لمن يحب عباد الله، لمن لا يحسدهم، لمن لا يطعن بهم، لمن لا يوقع بينهم العداوة والبغضاء، نِيَّتُكَ وحدك سبب رضوان الله عنك.

(فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ)

الله عزَّ وجل لا يحتاج لا إلى بيان، ولا إلى فاتورة، ولا إلى قَسَم، ولا إلى يمين.

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7))

[سورة طه]

يعلم ما أسررت، وما يخفى عنك يعلمه، فعلم ما في قلوبهم.

نية المؤمن خير من عمله :

الإنسان إذا كانت نواياه طيبة، الله عزَّ وجل يكافئه على نواياه الطيبة، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((نية المؤمن خير من عمله ونية الكافر شرٌ من عمله))

[الطبراني عن سهل بن سعد]

لو اطلعت على ما في نفسه يتمنَّى أن يمحى الحق من الأرض، ألا يبقى مسجدٌ يذكر فيه اسم الله، فهذه تمنياته، لكن الله لا يسمح له بذلك، أما المؤمن فيتمنَّى أن يعُمَّ الهدى الأرض كلها، يتمنى أن يعيش الناس كلُّهم في بحبوحة، يتمنى أن ينتشر الحق، أن يعم الفضل، لذلك تَفَحَّص نِيَّتَك دائماً، أخواننا الكرام ورد: درهمٌ تنفقه في إخلاص خيرٌ من مئة ألف درهمٍ يُنفق في رياء- درهم واحد - رب درهم سبق ألف درهم.

((يا معاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل))

[الحاكم في المستدرك عن معاذ بن جبل]

سيدنا الصحابي الجليل زيد الخيل لما التقى النبي قال: من أنت؟ قال: أنا زيد الخيل، قال: بل أنت زيد الخير. بدل له اسمه، أعجب النبي قال: والله يا زيد ما وصِفَ لي رجلٌ فرأيته إلا رأيته دون ما وصف إلا أنت يا زيد. دعاه إلى بيته، أعطاه وسادة ليتكئ عليها قال: والله يا رسول الله - ولم يمض على إسلامه إلا وقتٌ قصير- لا أتكئ في حضرتك.. ما هذا الأدب؟.. قال: يا رسول الله أعطني ثلاثمئة فارس لأغزو بهم الروم، فقال عليه الصلاة والسلام: لله دَرُّكَ يا زيد، أي رجلٍ أنت؟! والقصة تعرفونها.. قال: كيف أصبحت يا زيد؟ قال: أحب الله ورسوله، أصبحت أحب الخير وأهله، إذا قدرت عليه بادرت إليه، وإذا فاتني حزنت عليه. غادر المدينة وفي الطريق توفَّاه الله.. فإنسان حصل على كل هذا المقام في يومين أو ثلاثة أيام.. " أخلص دينك يكفك القليل من العمل ".

سحرة فرعون في ثوان أصبحوا من كبار المؤمنين، الإنسان إذا صدق فلا توجد مرحلة أمامه، يحرق المراحل كلها، فلذلك رضي الله عن الصحابة الكرام.

حاجة الإنسان إلى فهم كلام الله :

كأن الإسلام هرم، والله أعلم، أول قسم القرآن الكريم، القسم الثاني السنة القولية، الأحاديث بيان لكتاب الله، القسم الثالث السنة العملية، سلوك النبي أوضح في الدلالة على فهمه لكلام الله من كلامه، لذلك أنت في حاجة إلى فهم كلام الله، وفهم سنة النبي القولية، وفهم سنته العملية، آخر قسم سِيَر الصحابة، لأن الصحابة فيهم كل النماذج، فيهم الشاب، الكبير، الفقير، والغني، فيهم جميع النماذج، لا بدَّ من أن ترى نموذجاً مشابهاً لك من الصحابة، لتقتدي به، هذا بجماله، هذا بشبابه، هذا بدعوته، هذا بلسانه، هذا بعلمه، هذا شاب، هذا كبير، هذا غني، هذا فقير، فأنت بحاجةٍ ماسَّة إلى أن تفهم كلام الله، وأن تفهم تفسيره من رسول الله، سنته القولية، وأن تفهم دقة فهم النبي لكلام الله من سنته العملية، ثم أن تقف على سِيَر الصحابة الكرام لترى لماذا رضي الله عنهم هؤلاء؟.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

المؤمن حينما يرضي الله تتنزَّل على قلبه السكينة و الطمأنينة :

هذه السكينة فيها آيات كثيرة، شَهِدَ الله أنها أثمن شيءٍ تناله في الدنيا من الله، الله عزَّ وجل قد يُعْطي المال للناس، قد يعطي الصحة يقول لك: صحته مثل الحصان، أو شيء ثان، أو يعطي الذكاء لكنه لا يعطي السكينة إلا بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينة خاصة بالمؤمنين يمكن أن ترى كافراً غنياً، وقوياً، ووسيم الطلعة، وذكياً، أما المؤمن فيتميَّز عطاء الله له بالسكينة، فتجده مطمئناً، الكافر قلبه يغلي قلقاً، يغلي حسداً، يغلي كَمَداً، يغلي ضجراً، يغلي تمزُّقاً، يغلي ضياعاً، المؤمن مستقر لأنه شعر أن خالق الكون راض عنه، جندي قائد الجيش يحبه، ما شعوره؟ شعور لا يقدَّر بثمن، لا يخاف من أحد، لا يوجد عنده وقاحة ولكنه أديب ومحمي، لا يجرؤ إنسان في كل هذا السلك أن يناله بأذى، وهذا مثال للتقريب، المؤمن حينما يرضي الله عزَّ وجل تتنزَّل على قلبه السكينة، تسميها حالاً هي الحال، تسميها السعادة هي السعادة، تسميها الأمن هي الأمن، الطمأنينة الطمأنينة، الله أسماها السكينة..

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

المؤمن مقدَّس أحواله الداخلية راقية جداً :

المؤمن مقدَّس، معنى مقدس أي أن أحواله الداخلية راقية جداً، لا توجد عنده نوايا سيئة، لا يوجد عنده قلق.

إذا كنت في كل حـالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

وإذا العناية لاحظتك جفونـها نَمْ فالمخاوف كلهن أمـان

***

الحياة كلها مقلقة، والله إذا الإنسان ترك الإيمان، وترك طاعة الرحمن، والله يعاني من آلام ومن مخاوف لا يعلمها إلا الله، ألف سيف مسلط فوق رقبتك، هكذا الحياة الحديثة، هذه الحياة المعاصرة هكذا، مقلقات بالصحة، مقلقات بالدخل، مقلقات بالتجارة، راكب مركبتك فتنام فجأة فتصاب بحادث يصيب عمودك الفقري فتصبح مشلولاً، أخطار، كيفما تحركت هناك أخطار، أما إذا تعرَّفت إلى الواحد الديان ورضي الله عنك، فأول ثمرة من ثمار الإيمان ينزل على قلبك السكينة، ساكن في بيت صغير فأنت أسعد الناس، عندك دخل وسط، أسعد الناس، عندك أولاد وسط، وزوجة وسط، كله وسط، وأنت أسعد الناس بهم، والذي عنده الدرجات العليا من كل شيء تجده شقياً، فالله إذا منح السكينة منح كل شيء، وإذا حَجَبَ عنك السكينة حجب عنك كل شيء، الله أسماها رحمة.

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2))

[سورة فاطر]

الله إذا حجب عن الإنسان الرحمة، أو السكينة، أو الأمن، حجب عنه كل شيء، وإذا منحه السكينة منحه كل شيء، والسكينة ثمنها طاعة الله عزَّ وجل، وبين الطاعة والسكينة في رضوان الله، وشتَّانَ بين أن تكون في رضوان الله وبين أن يكون الإنسان في سخط الله:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28))

[سورة محمد]

المؤمن يضحي بالنفس والنفيس والغالي والرخيص مقابل أن يرضى الله عنه :

المؤمن يقول لك: أنا أريد رضا الله عزَّ وجل، يضحي بالدنيا كلها، يضحي بالنفس والنفيس والغالي والرخيص مقابل أن يرضى الله عنه، المال تحت قدمه إذا كان إنفاقه يرضي الله، والمال تحت قدمه إذا كان تركه يرضي الله، لذلك المؤمن تجده كريماً لأنه يعرف ما عند الله، أحدهم قال للنبي: لمن هذا

الوادي؟ قال له: هو لك. قال: أتهزأ بي؟! واد من غنم بالملايين، قال: هو لك. فقال: أشهد أنك رسول الله تعطي عطاء من لا يخشى الفقر. لذلك لا يجتمع في قلب مؤمن بُخل ولا جبن أبداً، فالبخل والجبن من علامات ضعف الإيمان، إذا كان ضعف الإيمان فتجد هناك بخل، يحرص.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

[سورة المعارج]

من آثر الآخرة على الدنيا كسبهما معاً :

ثم يقول تعالى :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

بايعوا وكل طموحهم أن يصلوا إلى مكة، ويطوفوا حول البيت، وأن يعتمروا، الله عزَّ وجل رضي عنهم، وأنزل على قلبهم السكينة، وأثابهم فتحاً قريباً، والذي تمنوه وصلوا إليه.

(وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19))

[سورة الفتح]

فحتى الدنيا الإنسان إذا طلب مرضاة الله أتته وهي راغمة: "عبدي أنت تريد وأنا أريد فإذا سَلَّمْتَ لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإذا لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد ".

من آثر الآخرة على الدنيا كسبهما معاً- ربحهما معاً- ومن آثر الدنيا على الآخرة خسرهما معاً، هم ضَحّوا بأرواحهم في البيعة، عاهدوا الله على بذل كل شيء، الله عزَّ وجل ما أخذ منهم شيئاً، كَفَّ أيدي الناس عنهم، وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرةً تأخذونها، لذلك:

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

[رواه ابن ماجه وأحمد والدارمي عَنْ ثَوْبَانَ]

دنيا، ومال، وصحة، ومكانة، ومرضاة الله، وذكر عريض:

((أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمكِ فاستخدميه ومن خدمني فاخدميه))

[ورد في الأثر]

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

[سورة الرحمن]

من يصطلح مع الله عز وجل تتبدل حياته تبدلاً جذرياً :

لذلك:

(وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19))

[سورة الفتح]

فعندما تكون ماشياً مع الله عزَّ وجل فالخير كله معك، الدنيا كلها، عِزُّ الدنيا، طمأنينة الدنيا، سعادة الدنيا، عِزُّ الآخرة، ما يوجد الآخرة من نعيمٍ مقيم، أنت مع خالق الكون.

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

والإنسان عندما يرتدي ثيابه، ويخرج من بيته ليستمع إلى مجلس علم، فهذا طريق الجنة:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

و:

((إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع))

[الترمذي عن زر بن حبيش]

أنت لست ماشياً مع جهة أرضية، مع جهة يجوز أن تنجح أو ألا تنجح، أنت بقلق، هناك أناس ربطوا مصيرهم مع جهة أرضية فلما انهارت انهاروا معها، أنت مع الحق، مع خالق السماوات والأرض، مع الأبدي السرمدي، مع مالك المُلك، مع الذي بيده كل شيء، مع الذي بيده مفاتيح السماوات والأرض..

(وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19))

[سورة الفتح]

والله أنا هذا الذي أراه، إخواننا الكرام أحياناً أسمع من أخ مخلص وصادق، لما اصطلح مع الله بصدق، وتعامل مع الله بإخلاص، تجد دنياه تبدَّلت، فالشيء واضح جداً، واضح كالشمس، فالأمور كلها لصالحه، هناك دعم إلهي، ودفاع عنه، مَحْمي، إله يدافع عن مؤمن.

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38))

[سورة الحج]

يشعر بود مع الله، فهناك تبدُّل جذري يصيب حياة المؤمن حينما يصطلح مع الله، تبدل جذري.

(وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ)

[سورة الفتح: آية20]

العطاء الحقيقي لا يكون إلا في الآخرة :

هذا الصلح الذي دام سنوات عِدَّة وكَفَّ أيدي الناس عنكم هذه مغانم أولى، ثم جاءت المغانم الأخرى بفتح مكة، وغزو خيبر، وأخذ غنائم خيبر، فالمغانم لا تُحصى في الدنيا والآخرة، لكن العطاء في الدنيا عطاء تشجيعي، لو وزن ما في الدنيا لا يعدل عند الله جناح بعوضة، العطاء الحقيقي في الآخرة، لكن ربنا عزَّ وجل لا بدَّ من أن يُرِيَ المؤمن من آياته الدالة على محبته له، فأنت مخلص مستقيم، تبذل الغالي والرخيص، لا بدَّ من أن يريك الله من آياته التي تشعرك أنه يحبك، وأنك في رضوانه، فأحياناً شخص - ليس هذا الموقف حكيماً- يكون في أعماقه راضياً عن ابنه، لكنه لا يعطيه وجهاً أبداً، دائماً مقَصِّر، الابن يجهد، أما ربنا عزَّ وجل إذا رضي عن عبد فيُعْلِمُهُ بذلك، كيف يعلمه؟ يريه آية من آياته، أحياناً بالتوفيق، بالتيسير، بالحفظ، بالنصر، بالتأييد، بالإكرام، بالكرامة أحياناً، فالله عزَّ وجل قال:

(وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20))

[سورة الفتح]

إذا أخلصت لله عزَّ وجل في طاعتك لا بدَّ من أن يريك أنه يحبك :

أحياناً الإنسان يقول لك بلسانه: أنا راض عنك، أحياناً يبتسم لك، أحياناً يصافحك بحرارة، أحياناً يثني عليك، هذا موقف إنسان لإنسان، أما الواحد الديَّان إذا رضي عن عبد فكيف يعلم هذا العبد أن الله راضٍ عنه؟ أحياناً يشعر هذا بالتوفيق، بالطمأنينة، بالتجلّي في قلبه، بالسكينة، أحياناً يشعر أن الله يدافع عنه، كأنه محمي، الله عزَّ وجل إذا كاد له الناس يكيد الله لهم.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16))

[سورة الطارق]

هذا الشيء من آيات الله الدالة على محبته للمؤمنين.

فمن الممكن أن نقول: إذا أخلصت لله عزَّ وجل في طاعتك، وتقرَّبت إليه ببذل ما عندك، لا بدَّ من أن يريك الله من آياته التي تطمئِنُك ويشعرك أن الله يحبك، فالله عزَّ وجل أولاً رضي عنهم، أنزل على قلبهم السكينة، أثابهم فتحاً قريباً، مغانم كثيراً، ووعدهم بمغانم أكثر، وكف أيدي الناس عنهم قال:

(وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

من تقرب من الله تقرب الله منه :

الآن اسأل مؤمناً معاصراً يقول لك: والله الله وفقني بالزواج، وبشراء بيت، ومرتاح والحمد لله، وأموري منتظمة، وعندي أولاد أبرار، تجد المؤمن وهو لا يشعر ينطق بفضل الله عنه، فالله عزَّ وجل أنت قربت منه، فالله أيضاً يقرب منك، هكذا الحديث القدسي يقول:

((إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ أَهْرَوْلُ))

[البزار عن سلمان الفارسي]

أي إذا أنت قرَّبت فالله يقرب، أنت بذلت الله يعطيك، أنفقت ينفق عليك، ذكرته في نفسك يذكرك في ملائكته، ذكرته في ملأ يذكرك في ملأ خير منهم، تدافع عن دينه فيدافع عنك.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96))

[سورة مريم]

ادعُ الله وحده، أخلص له وحده، أقبل عليه، لأن:

(وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

وصدقوني أيها الأخوة ما من إنسان مؤمن يَصْدُق الله، يخلص له، يتحرَّى رضوانه، يخدم خلقه، ينصفهم من نفسه، لا يأخذ ما ليس له، يسعى لنشر الحق، يسعى للتوفيق بين الناس، هذا المؤمن الله عزَّ وجل يُريه من آياته، قد يريه كل يوم آية، تسميها كرامة، تسميها آية، تسميها توفيقاً، تسميها حفظاً، تسميها تأييداً، تسميها نصراً، فالله حاضر ناظر:

(وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

أي يجب أن ترى آية.

العاقبة أن يكون المؤمن صادقاً في إيمانه :

تقول لي : إنها شيء استثنائي ليس معقولاً، وفقني الله توفيقاً غير طبيعياً، الله يسر لي أموري، قلب همي فرحاً، قلب ضعفي قوة، قلب فقري غنى، قلب شتاتي اجتماعاً، قلب قلقي طمأنينة، وهكذا، هذه آيات الله في الأرض، هذه آيات الله للمؤمنين، هذه هي الكرامة الحقيقية، أنت قرَّبت من الله يريك من آياته الدالة على عظمته:

(وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا)

[سورة الفتح]

فتح مكة في حينه لم تتمكنوا منه، لكن الله عزَّ وجل مكة قد أحيط بها من أجلكم.. فهي لكم:

(وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21))

أحاط بها، وهيَّأها لكم كي تفتحوها بعد حين، ولا تنسوا أن مكة أخرجت النبي وصحابته، ونكَّلت بهم، وحاربتهم، وناصبتهم العداء، وقست عليهم، وكادت للمؤمنين، فلا تتصور عظمة الفرح الذي أصاب المؤمنين حينما دخلوا مكة فاتحين، ومع ذلك فالنبي كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزَّ وجل، إذا أنت مؤمن صادق، العاقبة لك، والمصير لك، والفوز لك، والنجاح لك، والتوفيق لك، ورفْعَةُ الشأن لك، ورضوان الله يحوطُك من كل جهة، العاقبة أن تكون مؤمناً صادقاً.

من رضي الله عنه أعطاه الدنيا و الآخرة :

هذه القصة ليست تاريخية، فهي لنا، إلههُم إلهنا، وربهم ربنا، الله واحد، كتابه واحد، والدنيا واحدة، فهذه الآيات ليست لأخذ العلم، بل للاتباع، يجب أن يقول لي الأخ: أنا رأيت من آيات الله الدالة على محبته لي- رأيت هذه الآيات- فلا يوجد إنسان إلا وعنده عدد من القصص، وفقني، أكرمني، شبح مصيبة أزيح عني، أسكت خصومي، الله دافع عني:

(وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا)

مجمَّدة لكم، مكة لكم..

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3))

[سورة النصر]

الله إذا أعطى أدهش، إذا رضي عنك أعطاك الدنيا والآخرة، رفع لك ذكرك، فهل هناك إنسان في الأرض على وجه الإطلاق أكرم من النبي عليه الصلاة والسلام؟ اذهب إلى مقامه، انظر إلى هذه العظمة، انظر إلى هؤلاء الملايين الذين يقفون أمامه وقد مضى على وفاته ألفٌ وخمسمئة عام، يقفون خاشعين، يبكون، ما هذه المكانة العلية؟ الله عزَّ وجل قال:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

[سورة الشرح]

المشقة وصعوبة الانضباط في آخر الزمان هذه عند الله مقدرة ولها جزاء مضاعف :

أنا أقول لكم أيها الأخوة: ربنا وربُّهم واحد، النبي يقول:

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك؟ قال: لا أنتم أصحابي أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، أجره كأجر سبعين، قالوا : منا أم منهم؟ قال : بل منكم، قالوا: و لمَ؟ قال : لأنكم تجدون على الخير معواناً و لا يجدون))

[الترمذي عن أنس]

الأجر الآن ضرب مليون، ضرب سبعين من أجر الصحابة، لأن الطُرُقات فيها مفاسد، فيها نساء كاسيات عاريات، أصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، أمر الناس بالمُنكر ونهوا عن المعروف، يؤتمن الخائن، يخوَّن الأمين، يصدَّق الكاذب، يكَذَّب الصادق، فهناك علامات للساعة كثيرة جداً وبعضها تحقق، فلذلك:

((الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، أجره كأجر سبعين، قالوا : منا أم منهم؟ قال : بل منكم))

[الترمذي عن أنس]

شجاعة المؤمنين ودعم الله لهم أصل في الدين :

(وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23))

[سورة الفتح]

أي أن الله عزَّ وجل أظهر في هاتين الآيتين شجاعة المؤمنين، ودعم الله لهم، أي أنتم الأقوياء وهم الضعفاء، أنتم الشجعان وهم الجبناء، أنتم المتحدون وهم المتفرِّقون، هذا شأن المؤمنين، هذا هو الأصل في الدين.

على كل إنسان أن يسعى و يتخذ الأسباب ثم يتوكل على رب الأرباب :

الله عزَّ وجل قال:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة المنافقون]

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

[سورة الفتح]

هذه الآيات- تحدثت في رمضان عن قصة صلح الحديبية بالتفصيل- وكيف أن الصحابة تألّموا لهذا الصلح، وكانوا يتمنَّون أن يفتحوا مكة، وهم أقوياء، ولكن الله كفهم عن فتح مكة، وكف أهل مكة عن حربهم، لحكمةٍ سوف نراها بعد آياتٍ عدة في الدرس القادم إن شاء الله تعالى، لذلك الملخص:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

[سورة البقرة]

دائماً استسلم لله عزَّ وجل، أنت اسعَ واتخذ الأسباب ثم توكّل على ربِّ الأرباب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (8-8): تفسيرالآيات 25-29 ، كل شيء يقع لا يقع إلا بمشيئة الله لأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-04-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أحداث صلح الحديبية إنما هي من صنع الله عزَّ وجل :

مع الدرس الثامن من سورة الفتح، ومع الآية الرابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

في هذه الآية إشارةٌ توحيديةٌ دقيقةٌ وخطيرة، فالصحابة الكرام وفيهم النبي عليه الصلاة والسلام ذهبوا إلى العمرة ولم يتمكَّنوا من أدائها، لأن قريشاً صدتهم عن البيت الحرام، وكانت وفود ورسل ومناقشات ومحاورات وعهود ومواثيق بين الطرفين، هذه كلُّها جرت بين قريش وبين النبي عليه الصلاة والسلام، يقول الله عزَّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ)

كل هذه الأحداث التي عاينتموها، ورأيتموها رأي العين، وعشتموها، إنما هي من صنع الله عزَّ وجل، أنت تدرس، تتجه نحو الوظيفة، أو نحو التجارة، تتزوج فلانة، تشتري بيتاً، أو تدعو إلى الله، فإنك تظن نفسك أنت الذي تتحرَّك، لكن يجب أن تعلم علم اليقين أن الله عزَّ وجل هو بيده كل شيء، هو يحرِّك، هو يوفِّق، هو يمنع، هو يُعطي، هو يُلهم، هو يلين قلب فلان، هو يقسِّي قلب فلان، الأحداث التي تعتقدون أنها من صنعكم إنما هي من خلق الله عزَّ وجل، هم خرجوا من مكَّة والنبي عليه الصلاة والسلام أراه الله رؤيا فيها بُشرى دخول المسجد الحرام، وخرجوا مع الهدي معكوفاً، ووقفوا في الحديبية، وجاءت قريش برسلها تمنع النبي عليه الصلاة والسلام، وتمَّت المفاوضات، وتمّ الصلح، وكُتِب الصلح، وحُذِفت كلمات، وأضيفت كلمات، هذه الأحداث الكثيرة التي عاينها الصحابة ورأوها رأي العين، وهم فيما يبدو فعلوها والنبي عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم، الله عزَّ وجل يقول:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ)

كل شيء يقع لا يقع إلا بمشيئة الله :

ما الذي قيّد قريشاً من أن يقاتلوا النبي؟ الله جلَّ جلاله، وأنتم في أعلى درجات قوَّتِكُم ما الذي منعكم من أن تفتحوا مكة؟ الله جلَّ جلاله، معنى هذا أن الإنسان يبدو أنه يتحرَّك، لكن الله يحرِّكه، يبدو أن فلاناً منع، لكن الله سمح له أن يمنع، يبدو أن فلاناً وافق، لكن الحقيقة أن الله سمح له أن يوافق، فالإنسان إذا تعمَّق في فهم الأحداث يرى أن الله سبحانه وتعالى وحده هو المتصرِّف، أنت أي فعلٍ تفعله لا تملك إلا الإرادة، المشيئة، الاختيار، الانبعاث لهذا الفعل، وما سوى ذلك فهو من فعل الله عزَّ وجل.

النقطة الثانية: أن الشيء الذي وقع لم يقع إلا بمشيئة الله، لذلك قالوا: لكل واقعٍ حكمة. لو أن الذي أوقعه ليس حكيماً، لو أن الذي أوقعه ليس فهيماً، ما دام قد وقع فلكل واقعٍ حكمة.

هذه الفكرة تُريح الإنسان أي ما الراحة التي تريحه يقدرها الله له و هي راحة لا تُقدَّر بثمن، الأمور بيد الله، هو المتصرِّف، هو الذي يعطي، هو الذي يمنع:

((قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن))

[أحمد و ابن ماجه عن أنس]

فلان قسا قلبه عليك، الله قسَّاه، فلان لان قلبه لك، الله ألان قلبه لك، حينما توحِّد تصل إلى نهاية النهاية، حينما توحِّد تصل إلى نهاية العلم.

الإنسان إذا فعل شيئاً لا يمكن أن يفعله إلا إذا كان موافِقاً لخطة الله عزَّ وجل :

أدق ما في الآية أن الأحداث التي جرت من مواقف النبي والصحابة وقريش والحوار والسؤال والجواب والاتفاقيات كلها من صنع الله، يقول الله عزَّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

لذلك يجب أن تعتقد اعتقادا جازماً أن الإنسان إذا فعل شيئاً، أراد شيئاً وفعله لا يمكن أن يفعله إلا إذا كان موافِقاً لخطة الله عزَّ وجل، فما دام قد فعله فقد أذن الله به، وما دام الله قد أذن به فهناك حكمةٌ منه عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، أنت قد لا تعلمها لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85))

[سورة الإسراء: آية 85]

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: آية 255]

لكن الله سبحانه وتعالى يكشف لعباده المؤمنين من حينٍ إلى آخر عن حكمة أفعاله، ماذا على المؤمن أن يفعل؟ أن يقيس كل فعلٍ لم ير حكمته على فعلٍ رأى حكمته، أن يقيس كل فعلٍ لم تبد له حكمته على فعلٍ رأى حكمته من قبل، الله عوَّدك الجميل فَقِس على ما قد مضى، الإنسان يتعرَّف إلى حالات كثيرة يرى فيها حكمةً ما بعدها حكمة، رحمةً ما بعدها رحمة، لطفاً ما بعده لطف، عدالة ما بعدها عدالة، فيخشع قلبه، فإذا رأى فعلاً لم تبدُ حكمته فعليه أن يقيسه على الذي بدت له حكمته.

من يربط أموره بالله عز وجل يطمئن قلبه وتطيب نفسه :

القصة كلَّها من أجل أن تستسلم لقضاء الله، من أجل أن تطيب نفسك بما يفعله الله عزَّ وجل..

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66))

[سورة آل عمران]

فهذا الذي جرى بدءاً من الرؤيا التي رآها النبي عليه الصلاة والسلام وفيها بشارةٌ بفتح مكة، وانتهاءً بفتح مكة، هذه الأحداث العُظمى التي تمَّت في هذا الموضوع يبدو للمراقب أنَّ قريشاً فعلتها، والنبي وأصحابه وافقوا ورفضوا، ولكن الله يقول:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

فهذه الآية يجب أن يكون لها تطبيق عملي في حياتنا، فأنت يجب ألا تيأس أولاً، وألا تعترض على قضاء الله ثانياً، وألا تظن أن الإنسان هو الذي يصنع فعله، الإنسان لا يصنع فعله أبداً، الإنسان يريد ويتمنَّى والله سبحانه وتعالى يسمح له أو لا يسمح له، أي أن الأمور إذا ربطتها بالله عزَّ وجل يطيب قلبك، يطمئن قلبك، وتطيب نفسك، وتستسلم لمشيئة الله التي من ورائها حكمةٌ لا يعلمها إلا الله، تجد المؤمن مستقراً، راضياً، لقناعته أن يداً واحدة تعمل في الكون، لا تنس قول الله عزَّ وجل:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: آية 10]

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: آية 17]

من استسلم لفعل الله ورضي به قبل أن تنكشف له الحكمة لا بدَّ من أن يكافئه الله

هذا الموضوع يجب أن ينسحب إلى حياتنا اليومية، أي إنّ هذا الزواج تمّ، سمح الله به، لم يتم لسببٍ تافه، هذه مشيئة الله، ابحث عن حكمة الله فإن وجدتها وجدتها، وإن لم تجدها يجب أن تستسلم لها، واعلم علم اليقين أن وراء هذا الفعل حكمة ربما كشفها الله لك بعد حين.

بالمناسبة من رحمة الله بالإنسان أن الإنسان إذا رأى تصرُّفاً لله عزَّ وجل ولم تتضح له حكمته فاستسلم بناءً على أن الله حكيم، وعلى أن الله رحيم، وعلى أن الله عادل، إذا استسلم لفعل الله ورضي به قبل أن تنكشف له الحكمة لا بدَّ من أن يكافئه الله على هذا الاستسلام، وعلى هذا الرضى، بكشف الحكمة له، لذلك الإنسان إذا كُشِفَت له حكمة الله في أفعاله يذوب حُباً لله، يذوب شكراً لله عزَّ وجل، المؤمن راض عن الله..

شخص يطوف حول الكعبة وهو يقول: يا ربّ هل أنت راضٍ عني؟ وكان وراءه الإمام الشافعي فقال: يا هذا هل أنت راضياً عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: يا سبحان الله كيف أرضى عنه وأنا أتمنَّى رضاه؟ فقال الشافعي: إذا كان سرورك بالنِقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

إيمان الإنسان يظهر في الشدة لا في الرخاء :

الحقيقة أن الإنسان لا يبدو إيمانه بالرخاء، بل يبدو في الشدة، لا يبدو في العطاء بل يبدو في الحرمان، لا يبدو في الصحة بل يبدو في المرض، لا يبدو في الغنى بل يبدو في الفقر، فهذا الذي يعاني ما يعاني ويقول: الحمد لله رب العالمين من أعماق أعماقه هذا دليل على أنه يرى أن الله وحده يتصرَّف، وأن أفعال الله رحمةٌ كلها، حكمةٌ كلها، عدالةٌ كلها..

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ)

الله عز وجل عليم و الإنسان لا يرى الأمور إلا من زاوية واحدة :

لماذا كفَّ الله أيدي المؤمنين عن أن يفتحوا مكة وكانوا أقوياء؟ وكانوا في أعلى درجات الاستعداد؟ وقد باعوا أنفسهم في سبيل الله، وقد عاهدوا النبي على بذل الغالي والرخيص في سبيل الله؟ ومع ذلك الله جلَّ جلاله كفَّ أيدي المؤمنين عن مكة، وكذلك منع قريشاً من أن يركبوا رؤوسَهم وأن يرتكبوا حماقاتٍ، فكأن الله سبحانه وتعالى كفَّ أيدي هؤلاء وأيدي هؤلاء، لماذا؟ جاء التفسير: لأن في مكة رجالاً مؤمنين، هؤلاء آمنوا وهم مستضعفون، آمنوا ولم يُهاجِروا، آمنوا ولم يُعلِنوا إيمانهم، وهم كُثُر، فلو أن اشتباكاً حصل بين المؤمنين وبين أهل مكة لقتِل هؤلاء، هم عند المسلمين كفَّار وهم عند الله

مؤمنون، معنى ذلك أن الإنسان إذا نظر إلى أمر في الأعم الأغلب يراه من زاوية واحدة، من وجهة نظرٍ واحدة، وهذه لا تكفي، لكن الله سبحانه وتعالى بكل شيءٍ عليم، هؤلاء المؤمنون الذين آمنوا سراً ولم يُظهروا إسلامهم وهم في قريش، وهم عند قريش مثلهم مشركون، هؤلاء الله جلَّ جلاله يريد أن يرحمَهم وأن ينقذهم فكفَّ أيدي المؤمنين عن قريش، وكفَّ أيدي قريش عن المؤمنين.. اتضحت الحكمة؟.. وعلى هذا: قِس كل ذلك..

(هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ)

ربما قتلتموهم، فإذا قتلتموهم وهم مؤمنون..

(فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

[سورة الفتح: آية 25]

الثمن باهظ، الذي يقتل مؤمناً خطأً عليه ديَّة، هذا مؤمن..

(لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)

[سورة الفتح: آية 25]

حكمة الله جلَّ جلاله من كفَّ أيدي المؤمنين وأيدي قريش وعدم اشتباكهم :

بالمناسبة: الله عزَّ وجل أسماؤه مطْلَقَة، الإنسان إذا قيل له: فلان عادل، هذه عدالة نسبية، قد يصيب وقد يخطئ، لكن الله سبحانه وتعالى أسماؤه مطلقة أي لا يمكن أن يُظلم في ملكِه عصفور، ولا نملة، عدل مطْلَق، لو أن قريشاً حاربت، أو لو أن المؤمنين فتحوا مكة لقتل المؤمنون المستترون في مكة، هذه هي حكمة الله جلَّ جلاله من كفَّ أيدي المؤمنين وأيدي قريش، وعدم اشتباكهم، وتوقيع العهد – الصلح- الذي بدا للمؤمنين أن فيه انتقاصاً من حقوقهم..

(لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا)

لو فُرِزوا، لو خرجوا من قريش..

(لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25))

أي كف أيدي المؤمنين عن كفار قريش لا لكرامتهم على الله، هم كفار، هم أعداء الدين، وهم صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، لكن كفَّ أيدي المؤمنين عن قريش رحمةً بهؤلاء المؤمنين..

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)

[سورة الفتح: آية 26]

الإنسان الكامل يغضب للحق لا لأسباب تافهة :

أحياناً الإنسان يغضب لسبب غير معقول، لسبب تافه.. مثلاً.. رجل غير مستقيم أقل من عادي، قيلت في حقه كلمة حق فيغضب غضباً لا حدود له، أحياناً لموضوعٍ تافهٍ لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، وصف الله عزَّ وجل هؤلاء بأنهم جاهلون، قال:

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)

أي أن الكافر يندفع ليقاتل الناس، يأخذ ما في أيدي الناس، يبالغ في إيذاء الناس، من أجل من؟ هو لا يعلم، انحياز أعمى، اندفاع أرعن، هذه حمية الجاهلية، يثأرون لقيمٍ تافهة، لمبادئ سخيفة، لأقوال لا تُقدِّم ولا تؤخِّر، فالإنسان الكامل يغضب للحق لا لأسباب تافهة، يُعْطي لأسبابٍ وجيهة، يمنع لأسبابٍ وجيهة، أما هذا الذي يعطي أو يمنع لأسبابٍ عُنصريةٍ تافهةٍ حقيرةٍ فهذا الجاهلية تحرِّكه، إذا الإنسان انحرف وارتكب حماقات يقال: يجهل، فما علاقة يجهل كسلوك ويجهل كعلم؟ نقص العلم يؤدِّي إلى انحرافٍ في السلوك، فسمي انحراف السلوك جهلاً بسببه- بسبب الجهل- وهذا معنى دقيق لأن الإنسان إذا جهل حقيقةً وهو يتحرَّك في الحياة ففي الأعم الأغلب سيتحرَّك حركةً حمقاء، حركةً رَعْناء، حركةً ظالمةً، حركةً سخيفة، فيتحرَّك لأسبابٍ تافهةٍ وحقيرة..

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)

أيّ نقص في العلم يقابله سلوك أرعن أحمق :

لو تتبعت ما يجري بين الناس تجد خصومات، دعاوى تستمر سنوات وسنوات، لأسبابٍ أتفه من التافه، هذه هي الجاهلية، كيد، بغضاء، تجد أسرة تتآمر على أسرة، وجماعة تكيد لجماعة، أما المؤمن فإنه مع الله:

((إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها))

[أخرجه الطبراني عن حسين بن علي]

رجل في ساعة غضب قال لعبدٍ أسود: يا بن السوداء، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: إنك امرؤ فيك جاهلية. أي إذا أنت انحزت انحيازاً أعمى، أو فعلت عملاً خلاف الشرع، أو غضبت لأسباب تافهة، أو تعصَّبت تعصُّباً أعمى، فإن هذا جهل، أي نقص في العلم قابله سلوك أرْعَن، إذاً كل نقص في العلم يقابله سلوك أرعن..

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)

توجد سورة الله عزَّ وجل قال فيها:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83))

[سورة مريم]

أحياناً يندفع الكافر اندفاع البركان، يندفع كالمِرْجَل ليوقِع الأذى بالناس دون أن ينال منه شيئاً، هكذا بلا سبب، فأنت تعجَب ما الذي يدفعه لهذا الإيذاء؟ ما الذي يحمله على هذه العداوة والبغضاء؟ لماذا يُصِرّ هذا الكافر على إيقاع الأذى بالناس؟ الإنسان أحياناً يوقِعُ الأذى بالناس ويكسب مكسباً كبيراً، مقابل هذا الأذى كسب إلى حدٍ ما، تقول: يوجد تكافؤ، إذا آذيت فلاناً يأتيك مبلغ كبير، فإذا أوقعت الأذى ونِلت هذا المبلغ إلى حدٍ ما فالعمل مقبول عند أهل الدنيا، عند الماديين، لكن الذي يلفت النظر أشخاص يندفعون اندفاع البركان، ويقتحمون اقتحام السَهْم لإيقاع الأذى بالناس دون أن يكسِبوا من إيقاع هذا الأذى أي مكسب، بماذا نفسِّر هذا؟ نفسِّر هذا بأن الشياطين تأزُّهم أزا، والعياذ بالله أن يكون الإنسان ألعوبة بيد الشيطان، يندفع إلى صدِّ الناس عن سبيل الله، يندفع إلى معاداة أهل الحق، يندفع إلى ما يتوهَّم أنه يطفئ هذه الدعوة، يُطفِئ نور الله عزَّ وجل.

الشقي من يجلس في خندق معادٍ للدين :

من هو الشقي؟ الشقي كل الشقي الذي يجلس في خندق معادٍ للدين، الله خالق الكون مع الحق وأنت ضد الحق؟! الله خالق الكون الذي بيده كل شيء هذا دينه وأنت ضدّ هذا الدين؟! هذه..

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

بالمقابل الكافر يغلي كالمِرْجَل، ينطلق كالسهم، يريد أن يوقِعَ الأذى بالناس، يريد أن يصدّ الناس عن سبيل الله، أن يُطفئ هذه الدعوة، أن يمحو الحق فيما يزعم، أن يعمل على تقوية الباطل، ويرسخ المعصية بين الناس، لمَ هذا الاندفاع؟ وعلامَ هذا الانفعال؟ ولمَ هذا السهر؟

من أحبه الله منحه العلم و الحكمة :

قال: أما المؤمن..

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

رحمته، تجلّيه، الطمأنينة التي يشعرها المؤمن لا يعلمها إلا من ذاقها..

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

المؤمن في هدوء، وسكون، وطمأنينة، وتوازن، وحِلم، وتبصر، ورؤية صحيحة، وأهداف واضحة، وحكمة بالغة، هذه كلها من عطاءات الإيمان.

أحياناً يقول أخ: ليس معي مال. أنت معك حكمة وهذه الحكمة لا تقدَّر بثمن، يوجد أشخاص معهم مال ولكنهم فقدوا الحكمة، فهذا المال يبدَّد، يوجد أشخاص متزوِّجون وفقدوا الحكمة فهم أشقى الناس بزواجهم، المؤمن بحكمته.. والله عزَّ وجل قال:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

[سورة البقرة: آية 269]

والله أعطى المُلك لمن لا يُحب ولمن يُحب، أعطى المال لمن لا يحب ولمن يحب، ما دام قد أعطى المال لمن لا يُحِب ولمن يُحِب إذاً المال ليس مقياساً، وما دام قد أعطى المُلك لمن لا يُحب ولمن يُحب إذاً ليس مقياساً، لكن الله إذا أحبَّ عبداً مَنَحَه علماً وحكمةً..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14))

[سورة القصص]

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26))

[سورة الفتح: آية 26]

قيد الشرع وسام شرف للمؤمن :

المؤمن أعلى وسام شرف في صدره أنه على منهج الله سائر، أنه وفق الشرع مقيَّد، المؤمن مقيّد وقيده يرفعه عند الله، وغير المؤمن متفلّت، يقول لك: أنا حر، الحر الذي يقيد نفسه بالحق فقيد الشرع وسام شرف، يوجد في حياتك منظومة قِيَم، يوجد شيء اسمه حرام وشيء اسمه حلال، يوجد شيء ممنوع تعمله، أما هذا الذي يفعل ما يشاء، يفعل ما يحلو له، يعيش لحظته من دون قيود، فهذا إنسان متفلّت، هذا إنسان يعيش على هامش الحياة..

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105))

[سورة الكهف]

فسيدنا يوسف ما الذي رفعه إلى أعلى عليين؟ لأنه قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23))

[سورة يوسف]

لو فعل ما يحلو له فقد هذه المكانة عند الله وعند الناس، لذلك قالوا: إن الحضارة الغربية أساسها السيطرة على المادة، لكن حضارة الإسلام أساسها السيطرة على الذات، المؤمن إنسان عظيم لأنه مُخَيَّر ولكنه مسيطر على حركاته، وسكناته، ونزواته، وأهوائه، يقيِّد حركاته وسكناته وفق الشرع..

(وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى)

المؤمن مقيَّد بالحق لكن هذا القيد يرفعه :

المؤمن وَقَّاف عند كتاب الله.. إنسان سأل سيدنا عمر فقال له: أتحبني؟ فقال له: والله لا أحِبك، قال له: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقّي؟ فقال له: لا والله لا أمنعك حقك مع أني لا أحبك.. هذا هو الدين، سيدنا الصدِّيق ماذا فعل؟ منع عطاءً عن مسطح الذي تكلَّم في حَقِّ ابنته عائشة تكلَّم في شرفها وعفَّتها فعاتبه الله عز وجل قال: ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ فالمؤمن يترفَّع عن الانتقام، يترفع عن أن يأخذ بالثأر، يترفع عن أن يوقع الأذى بالناس، مقيَّد بالحق، لكن هذا القيد يرفعه، والدليل كلمة.. على..

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: آية 5]

على حرف استعلاء، الهدى يرفعها، كلَّما قيدت نفسك بالحق الحق يرفعك، وكلما تفلَّتت فإن الباطل يدخلك في قيد، قال:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3))

[سورة الزمر]

شيء ضمن شيء، إما كآبة، أو سجن، أو وحشة، أو ألم..

(وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26))

[سورة الفتح]

المؤمن مظنة صلاح و صدق و أمانة :

أما معنى كلمة

(وَأَهْلَهَا)

فأنت مؤمن، أنت مظنة صلاح، مظنة صدق، مظنة أمانة، مظنة حياء، مظنة عَفاف، مظنة كرم، مظنة شجاعة، هذه المكارم الأخلاقية تليق بالمؤمن، فأنت أهلٌ لها وهي أهلٌ لك، أما المفاجأة أن ترى مؤمناً بخيلاً.. فإن هذا غير معقول.. أنت رجل مؤمن ومن لوازم الإيمان الكرم، أنت مؤمن ومن لوازم الإيمان الشجاعة، أنت مؤمن ومن لوازم الإيمان الحِلْم، فالناس إذا عرفوا إنساناً ديّناً فيتوقعون منه كل

خير، يتوقعون منه الإخلاص، الصدق، الأمانة، العفَّة، الحياء، الوَرَع، هذا ينبغي أن يكون وهذا لا ينبغي أن يكون.

(وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26))

[سورة الفتح]

أنت كمؤمن لا تخيِّب ظن الناس فيك، لك مجتمعك الصغير من حولك، أخوات، أقرباء، أهل زوجة، زبائن، جيران، زُملاء بالعمل، يرونك تُصلّي، يرونك تغض بصرك، عندها يعلقون آمالاً كبيرة عليك، أنت صادق لا تكذب، حييٌ لا تتواقح، فلا تفاجئ الناس بتصرُّف لا يتناسب مع الإيمان لا يليق بالمؤمن، حينما تخيب ظنهم تهدم المُثل العليا في حياتهم.

من خيب ظن الناس بموقف مفاجئ يكون قد هدم ركناً في الإسلام :

الناس في ظنهم أن صاحب الدين لا يغلط، لا تزل قدمه، هو عفيف، فلو وقع هذا الشخص في موقف لا يليق به تتزعزع ثقتهم لا في هذا الشخص بل في الدين كله، إذا كان الإنسان مظنة دين، معروف أنه دين، له مجلس علم، ينتمي إلى جماعة، إلى مسجد، مظنة صدق، وأمانة، وحياء، وعفاف، وكرم، وإخلاص، ليس له أن يخطئ، فإذا خيب ظن الناس بموقف مفاجئ يكون قد هدم ركناً في الإسلام:

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك))

[ورد في الأثر]

أنت رحيم لا تقسَ، أنت عادل لا تظلم، أنت منصف لا تجحد.

(وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26))

[سورة الفتح]

أحياناً موقف واحد يهدم ألف محاضرة، موقف من رجل دين واحد يجعل الكثيرين يشكون بالدين كله، لأنهم يرون الدين من خلال فلان، وهذا خطأ كبير، فقبل أن تعمل عملاً سيئاً، قبل أن تخلف وعدك وأنت مؤمن، قبل أن تكذب وأنت مؤمن، قبل أن تحلف يميناً غير صحيح وأنت مؤمن تمهل لأن حولك أصدقاء، حولك جيران، حولك موظفين، حولك زوجتك، إذا لم تكن أنت عظيماً في بيتك فهذه مشكلة كبيرة جداً، فلذلك كن أهلاً لهذا اللقب الكبير، كلمة مؤمن لقب عالٍ جداً لقب أخلاقي، جمالي، علمي، أنت تعرف الحقيقة، تعرف المنهج، تعرف ربك، وأنت أخلاقي، الإيمان صدق، وأمانة، واستقامة، وإخلاص، وإنصاف، وحلم، وحياء، وروعة، وأنت أيضاً سعيد بالله عزَّ وجل، فلا ينبغي أن تتضعضع أمام غني، ولا أن تذل أمام قوي، ينبغي أن تبقى في أعلى مكان، فقد تكون مواطناً عادياً لكن كرامتك موفورة، رغم أن منصبك بسيط جداً، دخلك قليل، فهذه مقاييس لا قيمة لها.

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ)

الله سبحانه وتعالى يُطَمْئِن المؤمنين أن هذا الدين دينه وسينصره إلى أبد الآبدين :

النبي عليه الصلاة والسلام رأى أنه سيدخل مكة إن شاء الله.

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27))

الله عزَّ وجل سمَّى صلح الحديبية فتحاً قريباً، وعلم أن في مكة مؤمنين لا تعلمونهم أنتم، لو دخلتم إليهم لقتلتموهم ظلماً، والله سبحانه وتعالى يُطَمْئِن المؤمنين أن هذا الدين دينه، وأنه سينصره، نصره وسينصره وسيتابع نصره إلى أبد الآبدين، فقال تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28))

[سورة الفتح]

انتشار الدين وانتصاره ليس بسبب قوة المسلمين الذاتية بل بسبب تأييد الله له :

انتشار الدين وانتصار الدين ليس بسبب قوة المسلمين الذاتية، بل بسبب تأييد الله له، والله سبحانه وتعالى يبشِّر المؤمنين أن هذا الدين سوف ينتصر على كل الأديان إلى يوم القيامة، والبشائر واضحة، ففي العالم كله الآن الإسلام ينتشر رغم المعركة الشرسة ضده لكنَّه ينتشر، ينتشر بشكلٍ عجيب، في فرنسا العام الماضي احتفل بافتتاح المسجد رقم ألف في فرنسا، في فرنسا صار الإسلام الدين الثاني، الدولة ملزمة بتعليم الطلاب التربية الإسلامية، وبإقامة الشعائر للمواطن الفرنسي المسلم، بأمريكا ملايين مملينة أصبحوا مسلمين، وقد أشادت القيادات العليا بالإسلام في عيد الهجرة، وعيد أول الفطر، وهذا الشيء لم يكن من قبل، فلذلك يبشرنا الله عزَّ وجل يبشرنا أن هذا الدين دينه، وسينصره على كل الأديان، والمستقبل له.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28))

أما ما يجري من هجومٍ على الإسلام، فبيت شعر يجيب على هذا السؤال:

إذا أراد الله نشر فضيلـــةٍ طويـت أتاح لها لسان حسـود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

***

شيء يثار حول الإسلام، أناسٌ كثيرون لا يعلمهم إلا الله يسألون: ما الإسلام؟ دعونا نقرأ عن الإسلام لنعرف ما الإسلام؟ الدخول في الإسلام بأعداد كبيرة جداً على مستوى العالم وهذا من فضل الله عزَّ وجل، وهذه بشارة، لكن النبي صلى الله عليه و سلم إنسان جاء بهذه الرسالة، وفي خلال ربع قرن يصل الإسلام إلى أواسط آسيا!! أعظم دولة في العالم وقتها دولة كسرى تتساقط كبيت العنكبوت أمام جيوش المسلمين، ودولة قيصر كذلك، مصر تفتح، بلاد الهند تفتح، بلاد السند تفتح، شيء غريب على قوى البشر المحدودة، أما أنه دين الله عزَّ وجل والله يؤيده وينصره، فهذا الشيء طبيعي.

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)

محمدٌ رسول الله معه وحي ومعه توجيهات الصانع :

طبعاً سهيل بن عمرو لم يرض أن يكتب: هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله، قال: لا، بل ابن عبد الله، سيدنا رسول الله قال: يا علي امحُ كلمة رسول الله، هذا هو الرد، أي رغم أنفك يا سهيل محمدٌ رسول الله وأكبر خطأ نرتكبه أن نقول: محمد عبقري، أو محمد مُصْلِح اجتماعي، هذا ما يريده الكفار، محمدٌ رسول الله، معه وحي، لا تعزُ نجاحه في الدعوة إلى ذكاء، ولا إلى عبقرية، لا، هو رسول الله، مؤيدٌ بالوحي، والأجانب أساساً يريدون أن ينتقصوا من إسلامنا بإضفاء صفة العبقرية على نبينا، هو لا شك أوتي من الفطانة ما لم يؤت أحدٌ مثله، ولكن هو في التعريف: محمدٌ رسول الله، معه وحي، معه توجيهات الصانع..

(وَالَّذِينَ مَعَهُ)

[سورة الفتح: آية 29]

المؤمن رحيم و رقيق القلب و هذه علامة إيمانه :

ماذا نرى اليوم؟ نرى قسوة المؤمن على أخيه المؤمن، ونرى ضعف المؤمن أمام الكافر، ليس هذا من الإيمان من شيء.

(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

هذه علامة الإيمان، هذا المؤمن يجب أن ترحمه، يجب أن تنصفه، يجب أن تدافع عنه، يجب أن يَرِقَّ قلبك له، الإنسان حينما يبتعد عن الله عزَّ وجب، يقسو على الضعيف ويركع أمام القوي، أما المؤمن فيرحم الضعيف، ولا يذلُّ أمام القوي:

(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

هذه مواقفهم في العلاقات العامة.

المواقف التعبدية للمؤمن :

أما مواقفهم التعبُّدية:

(تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا)

[سورة الفتح: آية 29]

فالصلاة عندهم في المقام الأول، الصلاة عماد الدين:

(تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا)

موقفهم مع الكفار هكذا، مع المؤمنين هكذا، عبادتهم صلاتهم في المقام الأول.

نوايا المؤمن :

الآن نواياهم:

(يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

[سورة الفتح: آية 29]

تَعْنيهم الآخرة، يعنيهم رضوان الله عزَّ وجل، يسعون إلى مرضاة الله فهو أسمى أهدافهم..

وما مقصودهم جنات عدنٍ ولا الحور الحسانُ ولا الخياما

سوى نظر الحبيب فذا مناهم وهذا مطلب القوم الكرامــا

***

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

[سورة الفتح: آية29]

فيمكن أن تفسر هذه الآية تفسيراً صغيراً، أن على جباههم علامات من أثر السجود، لكن وجهه المُقبل على الله عزَّ وجل، ترى الصفاء في وجهه، ترى الحب في وجهه، ترى الإخلاص في وجهه، ترى البراءة في وجهه، ترى النور في وجهه، ترى الحُسن الإيماني في وجهه.

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ)

من شدة اتصالهم بالله.

(مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

المؤمن مشرق و هذه الإشراق سببه الاتصال بالله عز وجل :

الله اختار بالصلاة السجود لأن أقرب وضعٍ تكون فيه مع الله وأنت ساجد، أعلى درجات الصلة وأنت ساجد، فلذلك اختار الله عزَّ وجل من الصلاة سجودها، قال:

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ)

المؤمن وجهه منوَّر، لا أعني أبداً لون الوجه، سيدنا بلال وجهه منور وهو أسود، أعني الحسن الإيماني، تجد فيه الصفاء، والبراءة، والحب، والإخلاص، والرقة، والنور، فيه إشراق، هي سيماهم، والسبب اتصاله بالله، هذا الإشراق وهذا الحسن وهذا النور وهذا التألُّق وهذا الجمال:

وأجمل منك لم تر قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءاً من كل عيبٍ كأنك قد خلقت كما تشاء

***

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

كل مخلوق له اتصال بالله يتألَّق و كل إنسان مقطوع عن الله في وجهه سواد المَعصية :

لكن هذا الشيء ليس في الدين الإسلامي فقط، كل إنسان في أي مكانٍ وزمان إذا اتصل بخالق الأكوان فله هذا الوجه..

(ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ)

[سورة الفتح: آية 29]

فهذا شيء قديم، هذه نواميس الله عزَّ وجل في الكون، كل مخلوق له اتصال بالله يتألَّق، مقطوع عن الله تجده انطفأ، انكمد، اغبر وجهه، صار في وجهه سواد المَعصية، سواد البعد، سواد الجَفاء..

المؤمن يبدأ صغيراً ولكن يتنامى إيمانه وملكاته حتى يصير إنساناً فذاً عظيماً :

(كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ)

[سورة الفتح: آية 29]

هناك أشجار كالزيتون تُخْرِج فسائل من طرف جذرها.

(كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ)

هذه الكلمة فيها إعجاز، هذا الزرع آزر هذه الفسيلة، وهذه الفسيلة آزرت هذا الزرع، النبي عليه الصلاة والسلام عَلَّم أصحابه، وجَّههم، تعهَّدَهُم بالتربية، دلَّهم على الله، زَكَّاهم، طهَّرهم، والصحابة دعموا هذه الدعوة، ونصروا النبي، فكانوا معه، وافتدوه بأرواحهم وأموالهم.

(فَآزَرَهُ)

يا ترى آزر الفرع أم الفرع آزر الأصل كلاهما صحيح.

(فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ)

كانت فسيلة غضة صغيرة صارت شجرةً وارفة الظلال، المؤمن يبدأ صغيراً، ولكن يتنامى إيمانه، تتنامى ملكاته، يصير إنساناً فَذاً عظيماً، أحياناً يصير أمة..

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120))

[سورة النحل]

(فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)

[سورة الفتح: آية 29]

المؤمن شخصيته فَذة :

الكافر تافه، المؤمن شخصيته فَذة ودائماً الكافر يحسده، من أين هذه الحكمة؟ من أين هذه الشجاعة؟ من أين هذا الحلم؟ من أين هذا التعفف؟ تجد الكافر حقيراً أمام شهواته، تافهاً أمام شهواته، المؤمن يضبطها، عفَّته تلفت النظر، أمانته تَلْفِت النظر، عفته عن المال الحرام تلفت النظر، عفته عن النساء تلفت النظر، استقامته تلفت النظر، دأبه على عمله يلفت النظر.

(لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ)

من كان على شاكلتهم، هذه للنبي عليه الصلاة والسلام ولأصحابه ولكل مؤمنٍ سار على أثره بعد مماته.

الأجر العظيم هو سعادة الدنيا والآخرة :

ثم قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29))

[سورة الفتح]

المغفرة محو السيئات، والأجر العظيم سعادة الدنيا والآخرة، هذه السورة عن النبي وأصحابه.

الحياة تعاون و النبي صلى الله عليه وسلم يوَضِّح ويبيِّن ويعاون :

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه السورة موجودة عندنا، تعاون في الحياة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يوَضِّح ويبيِّن ويعاون، وصحابته يتلقَّوْن ويعينونه، هناك تعاون، إذا لم يكن هناك تعاون بين المؤمن والمؤمن، الأول ينصح والثاني يستجيب، الأول يوجه والثاني يطبِّق، الأول يطلب والثاني يقدِّم.

(فَآزَرَهُ)

النبي آزر أصحابه، وأصحابه آزروه، والحياة تعاون، والله عزَّ وجل قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2))

[سورة المائدة]

وبهذا تنتهي هذه السورة الكريمة وهي سورة الفتح.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الشورى 042 - الدرس (15-01): تفسير الآيات 1- 7..... 1

سورة الشورى 042 - الدرس (15-02): تفسير الآيات 8- 10..... 16

سورة الشورى 042 - الدرس (15-03): تفسير الآيات 9- 11..... 32

سورة الشورى 042 - الدرس (15-04): تفسير الآيات 12- 15..... 49

سورة الشورى 042 - الدرس (15-05): تفسير الآيات 16- 18..... 67

سورة الشورى 042 - الدرس (15-06): تفسير الآية 19..... 88

سورة الشورى 042 - الدرس (15-07): تفسير الآية 20..... 102

سورة الشورى 042 - الدرس (15-08): تفسير الآيات 21- 22..... 119

سورة الشورى 042 - الدرس (15-09): تفسير الآية 23..... 136

سورة الشورى 042 - الدرس (15-10): تفسير الآيات 24- 28..... 155

سورة الشورى 042 - الدرس (15-11): تفسير الآيات 29- 31..... 173

سورة الشورى 042 - الدرس (15-12): تفسير الآيات 32- 37..... 195

سورة الشورى 042 - الدرس (15-13): تفسير الآيات 38- 43..... 213

سورة الشورى 042 - الدرس (15-14): تفسير الآيات 44- 46..... 237

سورة الشورى 042 - الدرس (15-15): تفسير الآيات 47- 53..... 256

سورة الزخرف 043 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1-8..... 280

سورة الزخرف 043 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 9-14..... 298
سورة الزخرف 043 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 15-25..... 316
سورة الزخرف 043 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 26-32..... 336
سورة الزخرف 043 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 33-45..... 354
سورة الزخرف 043 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 46-56..... 375
سورة الزخرف 043 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 57-66..... 395
سورة الزخرف 043 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 67-79..... 416
سورة الزخرف 043 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 80-89..... 435
سورة الدخان 044 - الدرس (1-4): تفسير الآيات 1- 9..... 454
سورة الدخان 044 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 10- 36..... 474
سورة الدخان 044 - الدرس (3-4): تفسير الآيات 37- 50..... 492
سورة الدخان 044 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 51- 59..... 509
سورة الجاثية 045 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 01 – 09..... 526
سورة الجاثية 045 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 09 – 11..... 541
سورة الجاثية 045 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 12 – 13..... 554
سورة الجاثية 045 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 14 – 19..... 566
سورة الجاثية 045 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 20 – 22..... 583
سورة الجاثية 045 - الدرس (6-8): تفسير الآية 23..... 598

سورة الجاثية 045 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 24 – 29..... 614
سورة الجاثية 045 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 30 – 37..... 627
سورة الأحقاف 046 - الدرس (1-6): تفسيرالآيات الآية: 1-5..... 643
سورة الأحقاف 046 - الدرس (2-6): تفسيرالآيات الآية: 7-11..... 662
سورة الأحقاف 046 - الدرس (3-6): تفسيرالآيات الآية: 13-16..... 681
سورة الأحقاف 046 - الدرس (4-6): تفسيرالآيات الآية: 15-20..... 697
سورة الأحقاف 046 - الدرس (5-6): تفسيرالآيات الآية: 21-27..... 715
سورة الأحقاف 046 - الدرس (6-6): تفسيرالآيات الآية: 28-35..... 734
سورة محمد 047 - الدرس (1-8): تفسيرالآيات 1-6..... 755
سورة محمد 047 - الدرس (2-8): تفسيرالآيات 7-11..... 772
سورة محمد 047 - الدرس (3-8): تفسيرالآيات 12-15..... 789
سورة محمد 047 - الدرس (4-8): تفسيرالآيات 16-18..... 806
سورة محمد 047 - الدرس (5-8): تفسيرالآيات 19-23..... 823
سورة محمد 047 - الدرس (6-8): تفسيرالآيات 24-28..... 841
سورة محمد 047 - الدرس (7-8): تفسيرالآيات 30-35..... 862
سورة محمد 047 - الدرس (8-8): تفسيرالآيات 36-38..... 880
سورة الفتح 048 - الدرس (1-8): تفسيرالآيات 1-7..... 896
سورة الفتح 048 - الدرس (2-8): صلح الحديبية 1/3..... 907

سورة الفتح 048 - الدرس (3-8): صلح الحديبية 2/3 917
سورة الفتح 048 - الدرس (4-8): صلح الحديبية 3/3 929
سورة الفتح 048 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 1-10 937
سورة الفتح 048 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 11-17 952
سورة الفتح 048 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 18-24 966
سورة الفتح 048 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 25-29 983
الفهرس 999

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

القرآن الكريم

تفسير من الحجرات حتى الواقعة

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (1-6): تفسيرالآيات 1-5، الأدب مع الله و رسوله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-04-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة الحجرات.

الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمن:

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

كلكم يعلم أيها الأخوة أن في الإسلام عقائدَ، وأن فيه عباداتٍ، وأن فيه معاملاتٍ، وأن فيه آداباً، فهذه السورة الكريمة فيها جانبٌ من الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمن تجاه خالقه، وتجاه رسوله، وإخوانه المؤمنين، لكن الآية الأولى لها أهميّةٌ كُبرى لأنها متعلِقةٌ بالعقيدة، أنت حينما تتعرّف إلى الله عزّ وجل من خلال الكون، تطلع على جانبٍ من عظمة الله عزّ وجل، وتعرف علمه وحكمته، ورحمته وعدله، وتعرف الله عزّ وجل وتعرف أن هذا كلامه لا يمكن أن يخطر في بالك أن تتناول هذا الكلام بالمناقشة، أو بالموازنة، فهذا كلام الله عزّ وجل، يمكن أن تعمل عقلك فيه لتكشف جوانب عظمته، أما أن تمتحنه، وتقدِّم البديل، وتناقشه، وتوازن بين ميزاته وبين مضاعفات تطبيقه فهذا دليل عدم الإيمان.

لا يعرف الله من اعتقد أن هناك حلاً لمشكلة ما خلاف حلّ القرآن الكريم:

لذلك بدأت هذه السورة بالأدب مع الله عزّ وجل، حينما تفكِّر أن لديك حلاً لمشكلةٍ خلاف حلّ القرآن الكريم فأنت لا تعرف الله، وحينما تفكِّر أن تقول: هذه القضية التي طرحها الدين هل تصلح لنا أو لا تصلح ؟ فأنت لا تعرف الله عزّ وجل، وحينما ترى أن حلاً أرضياً نجح في حلّ مشكلةٍ لم ينجح الإسلام في حلّها إذاً أنت لا تعرف الله عزّ وجل، فعليك ألاّ تقدِّم اقتراحاً، ولا بديلاً، ولا شيئاً، ولا نظاماً، ولا منهجاً يخالف منهج الله عزّ وجل، فتصوّر إنسانًا أُمِّياً عنده مرض قلب ثم جاء طبيب القلب، فقال له: إيّاك أن تتحرّك، بل إياك أن تتكلّم، فقال له هذا الضيف: لا، امش فالمشي مفيد، فهذا الذي قدّم اقتراحاً وهو جاهلٌ في حضرة طبيب قلبٍ وهو لامعٌ هو إنسان فضلاً عن أنه ارتكب خطأً فقد ارتكب وقاحةً حينما أدلى برأيٍ مخالف لرأي الطبيب المختص، المشي مفيد ولكن لغير هذا المريض، فهذا المريض لو تكلّم كلماتٍ فيهن جهدٌ لتوقّف قلبه، ولذلك لابدّ له من عنايةٍ مشدّدة.

من خالف منهج القرآن الكريم فقد قدّم بين يدي الله و رسوله:

تصور إنسانًا يدخل على طبيب مثلاً فيقول له: سآخذ الدواء الفلاني والفلاني، وسأعمل، يقول له الطبيب: لماذا أنت عندي ؟ ما دمت تقدِّم اقتراحاتٍ وأدويةً لمرضك فلماذا أنت عندي ؟ أي لمجرّد أن تعتقد أن هناك حلاً أرضياً وضعياً لمشكلةٍ خلاف حلّ الإسلام لها فقد قدّمت بين يدي الله ورسوله، وإذا فكّرت في طريقةٍ مخالفةٍ لمنهج القرآن الكريم فقد قدّمت بين يدي الله ورسوله وإذا رأيت أن نظاماً يجب أن نستورده ليحلّ مشكلاتنا وعندنا كتاب الله يُتلى بيننا وهو منهج الله لنا، وحينما تستقدم هذا النظام كي يَحُلّ مشكلاتنا، فأنت ماذا فعلت ؟ إنك قدّمت بين يدي الله ورسوله، أي أنك قدّمت البديل، فمن أنت إذا قيست خبراتك وعلمك بعلم الله عزّ وجل ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام يتلقّى عن ربّه، فإذا قدّمت أمام النبي اقتراحاً فأنت حكماً تقدِّمه أمام الله عزّ وجل، وإذا أمسكت بحكمٍ شرعي وقلّبته فهل يصلح أو لا يصلح؟ وهل هو معقول أم غير معقول ؟ أنت حينما تفعل هذا قدّمت بين يدي الله ورسوله.

كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

الآية الأولى في هذه السورة وإن كانت منتميةً إلى الآداب التي يجب أن تتأدّب بها تجاه الله أولاً، وتجاه رسول الله صلى الله عليه وسلّم ثانياً إلا أن هذه الآية متعلِّقةٌ بالعقيدة، وفرقٌ كبير لو أنك وقفت أمام مئة ألف كتابٍ كلها في كفّة وكلام الله في كفّة، فكلام الله وحيٌ من عند الله، وكلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو حقٌ صرف ليس فيه باطل، ولا فيه اختلاف، ولا ضعف، فالمشكلة أن الإنسان يلاحظ نفسه، أنا يمكن أن آتي بآية قرآنية ؟ بحكم شرعي ؟ وأرى أنه لا يصلح للتطبيق الآن.

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

قد تفكر في استثمار المال بربحٍ ثابتٍ على شكل الربا ؟ يا أخي هذا الشيء عملي وأريح، أنا أشعر أنّ أناساً كثيرون يرون في المناهج الوضعية البعيدة عن الدين مناهج صالحة للحياة، فمن هنا كانت هذه الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

هذه الآية تدعمها آيةٌ أخرى وهي:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

العاقل من لا يكون له رأي مع القرآن الكريم:

مرّة سألوا طبيبة: ما رأيكِ في تعدُّدِ الزوجات ؟ أجابت إجابةً قالت: هل يُعقَلُ أن يكون لي رأيٌ في هذا الموضوع وقد أباحه الله عزّ وجل ؟ والله إجابة رائعة، وهل يعقل أن يكون لي رأي مع القرآن الكريم ؟ هذا هو الإيمان، الله عزّ وجل حكم في هذا الموضوع، قال:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

فإذا أردت أن تقول: هذا الشيء غير واقعي، فالحياة تطوّرت، ولابدّ من استثمار الأموال بفائدةٍ ثابتة، ولابدّ من تحريك الأعمال يا أخي، فإذا انطلقت هذا المنطلق فقد قدّمت بين يدي الله ورسوله وأنت لا تشعر، فإذا منع الإسلام الاختلاط وأنت رأيت في الاختلاط حلاً لمشكلاتٍ كثيرة، فيمكن أن نوفّر في شراء المساكن، إذا كانت كل خمس أو ست أسر في بيت واحد، كل شاب وزوجته في غرفة، مع أن الله سبحانه وتعالى جعل زوجة الأخ أجنبية لا يجوز النظر إليها، فإذا أنت اقترحت اقتراحاً يخالف منهج الله عزّ وجل إذاً أنت نظرت من زاويةٍ واحدة.

الإنسان عندما يشرّع فإنه يشرّع من زاوية واحدة:

نحضر لكم أمثلة كثيرة: في بعض البلاد طبّقوا مبدأ أن الزوج إذا طلّق زوجته تأخذ نصف أملاكه قطعاً، قال لي أحدهم: بارت سوق الزواج في هذا البلد، فصار الأب الحريص على تزويج ابنته يعرض سند أمانةٍ بمبلغٍ فلكي يقدّمه للخاطب، فيما لو طالبناك بنصف أموالك عند الطلاق طالبنا بهذا الثمن.

في بلاد الصين صدر قانون قبل سنواتٍ عدّة يلزم الأبوين بإنجاب ولدٍ واحد، فكان بعض أهل الصين إن جاءتهم بنتٌ يخنقونها، وإن جاءهم غلامٌ سجّلوه في السجلّات الرسمية، وكان بعضهم أكثر رأفةً فكان يفحص امرأته بالأجهزة الحديثة عن طريق السائل الأمينوسي فإذا كان الحمل أنثى أجهضها وإذا كان ذكراً أبقاه (أنا أتابع هذا الموضوع على صفحات الجرائد)، وآخر خبر في عام ألفين هناك خمسون مليون عازب لا يقابل هؤلاء الفتيات، وقبل هذا الخبر خبر نشرته صحيفة دمشقية يومية يقول: إن هناك عصاباتٍ في الصين تخطف الفتيات في سنّ الزواج، لأنه حينما أصرّت الأسرة على أن يكون الولد الوحيد ذكراً، فكل واحد حلّ مشكلته الخاصّة أما في المجموع ظهرت مجتمعاتٌ ليس فيها نساء.

التشريع الأرضي يخدم مصالح المشرّع لكن التشريع السماوي يضمن سعادة الدنيا والآخرة:

حينما قلنا: الإنسان حر ينبغي له أن يفعل ما يشاء ! فإلى أين وصلنا ؟ إلى الإباحية، وإلى تبادل الزوجات، وإلى زنا المحارم، وإلى الشذوذ، وإلى مرض الإيدز، فالإنسان عندما يشرّع فإنه يشرّع من زاوية واحدة، ولكن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليسعده في الآخرة، وهو بنظره القاصر ينظر إلى الدنيا فقط، ولكن الشرع يضمن له سعادة الدنيا والآخرة، والإنسان إذا شرّع فعلمه محدود، قد يلبي حاجةً على حساب حاجاتٍ، فلذلك ما من تشريعٍ أرضي إلا ويظهر بعد حين خلله الخطير، يُعدّل، ثم يعدّل، ثم يعدّل، ثم يُلغَى، وهكذا نحن في دوّامة، تعديلٌ، وتعديلٌ، وتعديلٌ ثم تجميدٌ ثم إلغاء، لأنه لا يمكن للإنسان أن يكون مشرّعاً، فإن ملك العلم فلا يملك تحيّيد الهوى، وفي الأعمّ الأغلب أن الإنسان إذا شرّع وجّه النصوص لصالحه، فدائماً التشريع الأرضي يخدم مصالح المشرّع، فإذا ملك العلم ملكته نفسه، وملكته غرائزه، وإذا كان موضوعياً كان علمه قاصراً، وإذا كان علمه واسعاً نظر إلى الدنيا ولم ينظر إلى الآخرة، وهذا الخلل يعانيه العالم اليوم.

أي تشريع لا ينطلق من منهج الله عزّ وجل هو تشريع باطل:

مثلاً: نحن نراعي قوانين العرض والطلب في الاقتصاد، وهذا شيء جميل، ولذلك تمّ إعدام عشرين مليون رأس غنم في استراليا، بإطلاق الرصاص عليها ودُفِنت حفاظاً على سعرها المرتفع، هذا هو التشريع الأرضي، ومن أجل أن نحافظ على أسعار الحمضيات يُتلَف محصول عامٍ بأكمله في أمريكا، فإذا تسلّل الزنوج الفقراء لأكل بعض حبّات البرتقال، سمّموه في العام القادم، والحديث عن إتلاف المواد الغذائية يطول، إنهم وحوش، فالإنسان إذا شرّع فعلمه قاصر، ونظرته وزاويته محدودتان، وفوق هذا كله شهوته تتحكّم فيه، فالإنسان لا ينبغي له أن يفكر في حلٍّ لقضية خلافَ حلّ القرآن الكريم.

و أحياناً يذهب إنسان إلى بلد ليعمل، إن لم يكن دخله برقم عالٍ جداً لا يسمح له بإحضار زوجته، فإنسان يعيش سنتين أو ثلاثة أو خمسة بلا زوجة، وزوجة بلا زوج ؟ وهذا خِلاف النظام الإلهي، قد يحصل فساد من قِبَلِها ومن قِبَلِه، فأي تشريع لا ينطلق من منهج الله عزّ وجل هو تقديمٌ بين يدي الله ورسوله، فلا تقدّم بديلاً، ولا اقتراحاً، ولا منهجاً، ولا تتناول منهج الله عزّ وجل بالمناقشة، أي بالتقليب، بالمدارسة على أنه يصلح أو لا يصلح ؟ واقعي أو غير واقعي ؟ فمعنى ذلك أنك لا تعرف الله عزّ وجل.

أفضل نظامٍ للبشرية النظام الذي يعتمد على كتاب الله:

الصحابة الكرام كانوا في أعلى درجات الأدب، فالحُباب بن المنذر رضي الله عنه لمّا رأى موقع المسلمين في بدر ليس موقعاً جيداً توجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام (دقِقوا فيما سيقول) قال: **" يا رسول الله أهذا الموقع وحيٌ أوحاه الله إليك** ؟ أي لو أنه وحيٌ أوحاه الله إليه لا يمكن أن ينطق بكلمة، ولا يمكن أن ينبس ببنت شفـ**ة.. أم هو الرأي والمكيدة ؟ "** فلّما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((بل هو الرأي والمكيدة"))

قال: **يا نبي الله ليس بموقع. "** متى قدّم اقتراحاً ؟ حينما تأكّد أن هذا الموقع ليس وحياً من الله عزّ وجل.

فالمؤمن حينما يشعر أن هذا الكلام وحي الله عزّ وجل، فهذا هو الحل ولا حلّ سواه، وهذا هو المنقذ للبشرية مما هي فيه من آلام.. فإنسان يؤلِّف كتاباً اسمه**" الإنسان ذلك المجهول "**، إنسان غير مسلم عاش في بلاد الغرب، ويكتشف بالملاحظة الدقيقة، وبالتأمّل والدرس والبحث أن أفضل نظامٍ للبشرية أن يقصر الرجل طرفه على زوجةٍ واحدة، هذا هو الإسلام، غض البصر، ما دام هناك إطلاق بصر تولّدت الشهوات، وما دام الاختلاط موجودا فهناك من يشتهي امرأة غيره، وأكثر الاختلاط والحفلات المختلطة من أجل أن يمتّع الإنسان نظره بغير زوجته، فماذا يحدث بعد انتهاء الاحتفال ؟ تتفاقم الهوّة بين الزوجين، فتنشأ البغضاء بينهما، وإنْ بقي هذا الزواج قائماً فإنه فقد السعادة الزوجية، فنحن نؤمن أن هذا القرآن كلام الله، وإعجازه دليل أنه كلام الله، فإذا ثبت لديك أن هذا التوجيه من عند الله، وأن هذا الحكم حكم الله، انتهى الأمر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

ليس للإنسان أن يبحث إلا عن وجوه إعجاز و حكمة القرآن الكريم:

قد يقول أحدهم: نحن نعطِّل عقولنا ؟ لا، تناول الآية الكريمة بالبحث والدرس لمعرفة وجه إعجازها، ولمعرفة الفوائد التي لا تُحصى من تطبيقها، فيمكنك أن تتناول القرآن والسنة لا بنية أن تكشف الخطأ والصواب، وأنها واقعية أو غير واقعية، لا، بل بنية أن تعرف ما تنطوي عليه هذه الآية من إعجازٍ في نظمها وفي تشريعها وفي الأمر والنهي، فأنت ليس لك في كتاب الله إلا أن تبحث وجوه إعجازه، وأن تبحث عن حكمته، موقنًا أنها حكمةٌ ما بعدها حكمة، وفيه علمٌ ما بعده علم، وكذلك ما فيه من رحمةٍ، ومصلحةٌ لهذا الإنسان، هذا هو إيمانك، فإذا أردت أن تقرأ القرآن وأن تُعمِلَ عقلك فيه، وأن تتدبّره، وأن تفهمه فمن أجل مزيدٍ من كشف الحكمة والعلم والإعجاز في القرآن الكريم.

فحينما تقدِّم بديلاً، أو اقتراحاً، أو شيئاً مخالفاً للكتاب والسنة، أو حلاً لمشكلةٍ لم يحلّها القرآن بهذه الطريقة، حينما تفكِّر أن تفعل هذا فقد وقعت في خطأين كبيرين: الخطأ العقدي الموضوعي، والاجتراء على الله عزّ وجل.

الأحمق من يجرؤ على تقديم اقتراح أو بديل أمام الله أو رسوله:

الإنسان أحياناً يخجل أمام دكتور في الآداب أن يتكلّم باللغة، فهذا شيء مقبول، وواقع، أحياناً تكون جلسة فيها إنسان في أعلى مستوى في الأدب، أو في اللغة، وأعلى مستوى في أصول الفقه، وفي علم العقيدة، وفي الحديث، وعالم أحاديث، فالحاضرون يتهيَّبون لعلمهم الغزير من الحديث في موضوع اختصاصهم، لو فرضنا إنسانًا على أعلى مستوى من العلم باختصاص معين، وإنساناً يحمل ابتدائية وبدأ يتكلّم في الاختصاص نفسه، طبعاً سيتكلّم غلطًا ولكن فضلاً عن أنه سيتكلّم خطأً فهو بهذا الكلام اجترأ على مقام هذا العالم، فهذا مع إنسان لا تجرؤ أن تقول كلمةً في موضوعٍ في حضرة من كان متفوقاً فيه، أليس كذلك ؟ في حياتنا الاجتماعية العلمية، في الجامعة، وفي أعمالنا إذا وجد إنسان يحمل أعلى شهادة في اختصاصه وأنت تحمل شهادة ابتدائية أو كفاءة هل لك أن تدلي برأيك في موضوع اختصاصه، وأنت تتحدّث بطلاقة ؟ هذا مستحيل، أنت مع إنسان لا تجرؤ أن تقول كلاماً في اختصاصه وهو في أعلى درجة من العلم، فكيف تجرؤ على أن تدلي ببديلٍ أو اقتراحٍ أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وحينما تقدِّم اقتراحاً أمام النبي عليه الصلاة والسلام فأنت في الحقيقة تقدِّم اقتراحاً أمام الله عزّ وجل، فمن أنت؟

القرآن الكريم معجزة مستمرة إلى يوم القيامة:

ويا إخوتنا الكرام: ما من تقدّمٍ علمي على مستوى البشر في بقاع الأرض كلها إلا ويكشف جانباً من عظمة هذا الكتاب، إنه معجزةٌ مستمرّةٌ إلى يوم القيامة، وكلّما تقدّم العلم كشف جانباً من هذه المعجزة، ولعلّ في أسباب نزول هذه الآية تحديداً لها وتضييقاً لمفهومها، فالعبرة لا في خصوص السبب بل في عموم المعنى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

فمنهج الله هو الأكمل، والأصوب، والأصح، والمنقِذ لما نحن فيه من مشكلات، فلذلك في كل قضية اسأل: ما حكم الشرع فيها ؟ وإيّاك أن تحيد عن حكم الشرع لأنك لابدّ من أن تدفع الثمن باهظاً، ولابدّ من أن تحيد عن حكم الشرع. ففي أول عامٍ خطبت في هذا المسجد وهو عام ألفٍ وتسعمئة وأربعة

وسبعين قبل التوسعة، انتحى بي رجلٌ بعد الخطبة ناحيةً وأسرّ لي: أن امرأته تخونه وبدأ يبكي، فسألته: مع من ؟ قال: مع الجار، قلت له: وكيف تعرّف هذا الجار على امرأتك ؟ قال: والله مرّةً زارنا في بيتنا، وأنا قلت لزوجتي: يا أم فلان تعالي إلينا هو كأخيكِ، من هنا بدأت المشكلة.. فالله عزّ وجل أمرنا بغضّ البصر، ونهانا عن الاختلاط، فجهله قاده إلى ما آل إليه، وعنده خمسة أولادٍ منها.

ما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا وراءها مخالفة لمنهج الله:

ما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا وراءها مخالفة لمنهج الله، هذا كلام قطعي، وكلام أكيد وصحيح، ما من مشكلةٍ إلا وراءها مخالفة لمنهج الله، حتى لو انتقلت إلى المجتمعات الغربية تجد أن كل المشكلات الطاحنة التي تسحق المجتمع وراءها مخالفة لمنهج الله عزّ وجل، وما من مخالفةٍ لمنهج الله عزّ وجل إلا بسبب الجهل، فالعلم هو الأول، فإذا أردت النجاة فعليك بالعلم، وإذا أردت سعادة الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت سعادة الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردت الدنيا والآخرة فعليك بالعلم، لأن الله عزّ وجل له قوانين وله سنن إذا عرفتها سلكت السبيل الصحيح.

على الإنسان أن يتحرك في حياته وفق منهج الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

البديل.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)

أنت ما عليك إذا عرفت أن هذا حكم الله إلا أن تبادر إلى تطبيقه فقط، وما عليك إذا ثبت لديك أن هذا هو حكم الله، هذه القضية حرام دعها فوراً، وهذه حلال افعلها إذا شئت، واجب بادر إلى فعلها، أمر، فرض عليك أن تفعلها، القضية عند المؤمن، في كل قضيةٍ في حياته ؛ وزواجه، وطعامه وشرابه وعمله، وأفراحه وأتراحه، وفي نزهاته يتحرّك وفق منهج الله عزّ وجل، ووفق الأمر والنهي، فهذا الذي أراده الله من هذه الآية، وهذا بعض ما يُفْهَم منها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ)

عليك بطاعة الله.

إن تكلم الإنسان أو سكت فالله يعلم ما هو عليه:

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

ما الفرق بين سميعٍ وبين عليم، قال: إن تكلّمت، وقدّمت اقتراحاً، وطرحت بديلاً، فكّرت في طريق آخر، فإن تكلّمت فالله سميع، وإن سكت وقلت: هذا الأمر لا يصلح لهذا الزمان، فالله يعلم ما أنت عليه، إذن يعلم الله ما تقوله وما أنت عليه، إذن لا تقدِّم، وبادر إلى الطاعة، واعلم أنك مراقب في تكلُّمك وفي صمتك، فلا تقدِّم مقترحات بدائل، ولا تفكِّر في اتجاه خلاف اتجاه القرآن الكريم، بل أحصِ الذين إذا أرادوا أن ينظِّموا، أو يشرِّعوا، أو يضعوا حلولاً لمشكلات البشر، فكِّر مثلاً: هناك انفجار سكّاني في العالم كما يقولون، شيء جميل، فما الحل ؟ الحل في نظر أهل الدنيا. عُقِد مؤتمر للسكان في القاهرة. فالحل: أن نؤخِّر سنّ الزواج إلى الخامسة والثلاثين، ماذا يفعل الشاب حتى هذا السن ؟ يجب أن يمارس هذه الحاجة التي أودعها الله فيه خارج الزواج، بالزنا، أو الشذوذ بين ذكرين أو أنثيين، هذا الحل عندهم، وإذا حملت المرأة خطأً فمصيره الإجهاض، الحل أن نقيم كيانًا ليس بين زوج وزوجة بل بين شابّين، أو فتاتين، أو بين رجل وامرأة، دول تجتمع من أجل أن تقرِّر أن الحل هو الزنا، واللواط، والسِحاق، وتأخير الزواج، والحل هو الإجهاض، فأين منهج الله عزّ وجل ؟ والمؤتمر عُقِد في بلد إسلامي، هذا هو التقديم.

من وضع حلاً يخالف قواعد الشرع قضى على المجتمع بأكمله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

فهل نضع حلاً يخالف قواعد الشرع ؟ هذا حل وليس حلاً لهذه المشكلة، بل هو حل للمجتمع، المجتمع يُحلُّ بهذا الحل وينتهي الأمر، فيروون قصّة رمزية تعبّر عن المجتمع الغربي: إن شاباً أراد الزواج من فتاة فسأل أباه ؟ فقال له: لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري، الفتاة الثانية أيضاً قال له مثل قوله الأول، والثالثة قال له كذلك، فلمّا ضجر من أبيه ذهب إلى أمِّه وقال لها: ما القصّة ؟ قالت: خذ أيّاً شئت فأنت لست ابنه وهو لا يدري.

إذا أردنا أن نبتعد عن منهج الله فهذه هي النتائج، ومهما تكلّمت عن فساد العالم الغربي، وعن الانحلال.. مرّة أُجريت ندوة في التلفزيون الأمريكي حول الزنا، أو العلاقة غير المشروعة، فجاءت هواتف من عدد كبير يُثبت أن ثلث حالات الزنا في أمريكا زنا محارم، بين الأخ وأخته، والأب وابنته، والأم وابنها، الثلث، هذا المجتمع الغربي، هذا مجتمع من غير منهج. فالخطر أن نتحرّك بهذا الاتجاه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

من أحلّ الحرام أو حرّم الحلال وقع في الشِركِ وهو لا يدري:

كلّما قلّدنا الغربيين في علاقاتهم، ونظمهم، وقيمهم، واستوردنا منهم الحلول، وكلّما قلّدناهم في علاقاتهم، وفي أفراحهم وفي أتراحهم انتقلت أمراضهم إلينا، توجد عندنا سلسلة رياضية حسابية، وسلسلة هندسية وهل توجد سلسة ثالثة ؟ نعم هناك ثالثة وهي سلسلة انفجارية، فأحياناً تنتقل الأمراض بشكلٍ مخيف ؛ فأمراضنا الاجتماعية، وتفكّك الأسرة، وحلول السِفاح محل النِكاح، والخيانة الزوجية تنتشر، إله يُشَرّع أيُعقَلُ لهذا الإنسان أن يشرّع مع الله ؟

وبالمناسبة: من أحلّ الحرام أو حرّم الحلال وقع في الشِركِ وهو لا يدري، أيُّ شركٍ هذا ؟ أشرك نفسه مع الله في التشريع، فيكفي أن تقول: هذا الشيء أنا لا أعتقد أنه محرّم، افعله ولا شيء عليك، هذا الكلام شرك، إنه يكفي أن تحلِّل ما حرّمه الله، أو أن تحرّم ما أحلّه الله كي تقع في الشرك وأنت لا تدري.

فنحن أيها الأخوة: يجب أن نحصّن أنفسنا، ونضع التقاليد الغربية تحت أقدامنا، فالعادات، وروح العصر والحداثة هذا كلّه ينتهي بنا إلى أن ينحلّ مجتمعنا كما حُلّت المجتمعات الغربية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)

الإسلام أدب و احترام كله:

أنت لك أصدقاء، لك إخوان مؤمنون طيّبون، فالعلاقات كلها مع المؤمنين من طبيعة، والعلاقة مع رسول الله من طبيعةٍ أخرى، هذا ليس ندّاً لك، وليس زميلاً لك، وليس أخاً لك إنه رسول الله.

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)

(سورة الأحزاب: آية " 40 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)

أحد الصحابة الكرام وهو زيد الخير أسلم ودعاه النبي إلى بيته، فلمّا دفع إليه وسادةً ليتّكئَ عليها (ما مضى على إسلامه إلا وقت قليل) قال: والله يا رسول الله لا أتّكِئ في حضرتك.

إخواننا الكرام: الإسلام كلّه أدب، والذي يعلِّم مأمورٌ أن يتواضع لمن يُعلِّم، والمتعلِّم مأمور أن يكون أديباً مع من يتعلّم منه.

أمر الله عز وجل إلى الصحابة بألا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي الكريم:

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ)

ما معنى هذه الكلمة ؟ لا تقل له: يا محمد، قل له: يا رسول الله، قل له: يا نبيّ الله، أما باسمه هكذا: يا محمد.

(كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)

التواضع و الأدب من صفات المؤمن:

النبي الكريم يقول:

((تواضع لمن تعلّم وتواضع لمن تتعلّم منه))

والنبي عليه الصلاة والسلام أمره الله فقال له:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215))

(سورة الشعراء)

فالنبي الكريم أُمِرَ أن يخفض جناحه للمؤمنين، والمؤمنون أُمِروا:

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)

هو أُمِرَ أن يتواضع لهم، وهم أُمِروا أن يتأدّبوا معه، وهكذا الحياة الكاملة، الطرف الأول متواضع إلى أقصى درجة، فماذا قال النبي لسيدنا عمر ؟ قال له:

((لا تَنْسَنا يا أُخَيّ من دُعائك))

[إسناد ضعيف عن عمر بن الخطاب]

في العُمْرَة. فالنبي الكريم يطلب الدعاء من سيدنا عمر.

((لا تَنْسَنا يا أُخَيّ من دُعائك))

أمرَ الله النبي أن يتواضع مع أصحابه و أمر أصحابه بالأدب معه:

كان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في سفر، فأرادوا أن يعالجوا شاةً فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((وعليّ جمع الحطب))

إنه رسول الله، قمّة المجتمع، فقالوا: نكفيك ذلك يا رسول الله، قال:

((أعلم أنكم تكفونني ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

هو أُمِرَ أن يتواضع لأصحابه.

في (معركة بدر) كانت الرواحل قليلة، والصحابة ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً.. والنبي وهو قائد الجيش ونبيُّ هذه الأمّة ورئيس الدولة، أعطى أمراً أن كل ثلاثةٍ على راحلة، وأتبع الأمر وقال:

((وأنا وعليّ وأبو لبابة على راحلة))

أمعقول هذا !! فلمّا ركب النبي عليه الصلاة والسلام وانتهت نوبته في الرُكوب توسّل صاحباه (علي وأبو لبابة) أن يبقى راكباً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((ما أنتم بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر))

أُمِرَ النبي أن يتواضع وأن يخفض جناحه، والله عزّ وجل أمر أصحابه فقال:

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ)

لا تقل له: يا محمد، قل له: يا رسول الله، يا نبي الله.

من عرف قدر النبي الكريم و أخذ كلامه عليه أن يتأدب معه:

(أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ)

السبب، أنك إذا عرفت قدر النبي تأخذ عنه، فكلامه ليس ككلام البشر، بل كلامه وحي.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

أما إن رأيت نفسك ندّاً له، تأخذ منه وتردُّ عليه، فأنت لم تعد طالب علم، فعندئذٍ تأخذ بعض كلامه وتفعل في حياتك اليومية شيئاً آخر ليس منه، وعندئذٍ حَبِطَ العمل، إن فعلتم ذلك فربّما حبطت أعمالكم.

(أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

من حُجب عن الله تصبح صلاته لا معنى لها:

أحياناً يحضر الإنسان مجلس علم لكنه لا يأخذ كل شيء، بل يأخذ ما يعجبه، وما يرتاح له، وما يمكن تطبيقه، فتجد أن هناك كثيراً من المخالفات في البيت، يقول لك: هذه زوّدها الأستاذ، إذاً لست بطالب علم، بل تنتقي انتقاء، فتختار ما يعجبك وتدع ما لا يعجبك، القصّة أن تأخذ عن الله عزّ وجل، فهذا شرع الله عزّ وجل، وهذا كتاب الله، فإذا رأى الإنسان نفسه يأخذ ويعطي، ولا يوجد تلقٍ كامل بل بعض التلقي عندئذٍ يحبط العمل، فلو فرضنا شخصاً مقيماً على معصية، فإن هذه المعصية حجاب بينه وبين الله، فما دام محجوب فالصلاة ليس لها معنى.

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)

(سورة النساء: آية " 142 ")

و صار الإنفاق ليس له معنى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة: آية " 53 ")

على الإنسان أن يطبق المنهج الإسلامي بشكل كامل لا جزئي:

فالمنهج لا يؤخذ بعضه، إما أن تأخذه كلّه وإما أن تدَعه كلّه، ولا يصح غير هذا، ولا توجد حالة ثانية، فيجب أن تأخذه كلّه، إذاً:

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

و أنت لا تشعر انتقلت درجة درجة إلى أن تقول: هذا الدين لا يصلح لهذه الأيام، فتكون تحرّكت وفق هوى نفسك، فما التزمت، وما كنت حريصاً على طاعة الله عزّ وجل، ولا على معرفة حُكْمِ الله عزّ وجل.

الأدب دليل العلم:

لذلك الإنسان ينحرف شيئاً فشيئاً إلى أن يبتعد عن أصول الدين، ولكن هؤلاء الذين غَضّوا أصواتهم عند رسول الله.

(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى)

إخواننا الكرام: هذا الأدب دليل العلم، فلو فرضنا أن زائراً حضر إلى القطر وهو أكبر جرّاح للقلب في العالم، فقد نرى في بهو المطار ألف شخص تقريباً، فمن يقدِّم له أعلى درجات الاحترام ؟ طبيب قلب جاء ليستقبله، إنه يعرف قدره، وقيمته، أما بقية الموجودين في هذه الصالة فلا يعبؤون به إطلاقاً، مرّة دخلت إلى مسجد رأيت رجلاً متقدِّماً في السن، منحني الظهر، قصير القامة، يصلي بثوب عربي، والمرء يظنّه إنسانًا من عامّة الناس، كنت مع صديقٍ لي وأنا في المسجد، فبادرت إلى السلام عليه بأعلى درجات الأدب، فصديقي قال لي: من هذا ؟ قلت: هذا كان عميدنا في الكليّة، فأنا أعرف قدره، ومؤلّفاته، ودروسه، والآن تقاعد، فمن يعرف قدر العالِم ؟ العالِم، فإذا كان طبيب القلب الجرّاح فهل يحترمه إنسان تاجر ؟ لا، إنه لا يعرفه، يقول: من هذا ؟ لا ينظر إليه، أما لو جاء تاجر كبير جداً واستقبله تاجر ثانٍ في المطار إنه كذلك يحترمه احتراماً كبيراً، فالقضية قضية معرفة.

لا تصاحب إلا مؤمناً لأن المؤمن يعرف قيمتك و استقامتك:

(إِنّ الّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أُولَئِكَ الّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتّقْوَى)

ولذلك فالإنسان ليس له حق أن يخالط أناساً ليسوا على شاكلته، لأنه يقع في حالة إحباط، فأنت مؤمن وعندك قيم ومبادئ، وتقرأ القرآن، وتفهمه، وتدعو إلى الله وتجلس مع غني ليس عنده دين، يقول لك: ما معاشك ؟ لا يعرف ميّزة فيك إلا دخلك، هذا لا يكفيك فكيف تقبله ؟ قد أخذك إلى موضوع ثانٍ، أنت غني بالله، وغني بمعرفة الله، فأخذك من زاوية دخلك فقط، فإذا دخل إلى بيتك يقول لك: هذا البيت كيف يسعك إنه صغير، فكيف تعيش فيه ؟ الأمر يختلف، ولذلك قال: **" من دخل على الأغنياء (طبعاً غير المؤمنين) خرج من عندهم وهو على الله ساخط "** لأنهم يصغّرونه.

((يا عائشة إذا أردت اللحوق بي فليكفكِ من الدنيا كزاد الراكب، ولا تستخلقي ثوباً حتى تسترقعيه، وإياكِ والدخول على الأغنياء))

لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثلما ترى له، فصاحب مؤمنًا:

((لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم، عن أبي سعيد]

تصاحب مؤمناً لأن المؤمن يعرف قيمتك، و يعرف استقامتك، وعلمك، وأخلاقك، وباعك الطويل في طلب العلم وفي تعليم العلم، أما لو صاحبت شخصاً من أهل الدنيا فإن حجمك عنده صغير.

كبار الصحابة لشدّة هيبة النبي الكريم كانوا لا يستطيعون أن ينظروا إليه:

فهنا:

(إِنّ الّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ)

هؤلاء المتأدّبون مع رسول الله، وهؤلاء الذين كأن على رؤوسهم الطير أمام رسول الله، ولا يستطيعون أن يملِكوا نظرهم به، ما وصفه كبار الصحابة، بل الذين وصفوه ليسوا من كبار الصحابة، لأن كبار الصحابة لشدّة هيبته كانوا لا يستطيعون أن ينظروا إليه.

(إِنّ الّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أُولَئِكَ الّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتّقْوَى)

أربعة أخماس الدين أدب ؛ أدب مع الله و رسوله و المؤمنين:

إخواننا الكرام:أربعة أخماس الدين أدب ؛ أدب مع الله، وأدبٌ مع رسوله، ومع إخوانك المؤمنين، ومع من تُعَلِّم، ومن تتعلّم منهم، فالإسلام كلّه آداب، أدبٌ وأنت تأكل، وأدبٌ وأنت تمشي في الطريق، وفي لهوك، وفرحك، ومع أهلك، الدين كلّه آداب، أدبٌ في مجالس العلم، وفي طلبه، وتعليمه.

(إِنّ الّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أُولَئِكَ الّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

أما هؤلاء الذين جاءوا من وراء الحجرات وقالوا: يا محمد اخرج إلينا كي تعلِّمنا، ومرّة أحد الخلفاء طلب من الحاشية أن ائتونا بعالمٍ نستفد منه وهو في مكّة المكرّمة، فذهبوا إلى الإمام مالك وقالوا له: تعالَ معنا إلى الخليفة، فقال هذا الإمام العظيم: **قولوا له: العلم يؤتى ولا يأتي.**

من عرف الله تأدب معه و مع من يحبهم:

(إِنّ الّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

فهل من الممكن أن تلخِّص معرفتك بالله ورسوله من خلال أدبك ؟ نعم، يمكن أن يكون الأدب معياراً لإيمانك بالله، وكلّما عرفت الله أكثر تأدّبت معه أكثر، وتأدّبت مع من يحبُّهم، ومع إخوانك المؤمنين، فالإنسان بجهله قد يقيِّم الناس تقييماً مادياً، أما المؤمن والله الذي لا إله إلا هو لو رأى حاجباً، أو إنسانًا من الطبقة الدنيا في المجتمع وهو مؤمن فإنه يحترمه ويبجِّله ويراه أخاً له، ولا يميّزُ نفسه عنه بشيء، هذا هو المؤمن، فهذا أخ في الله، أما بعيداً عن الدين وعن الإيمان فيصير التقييم مادياً إذا، تقيّم الإنسان بماله ومرتبته الاجتماعية فقط.

من فكّر بأن الشرع لا يتناسب مع هذا العصر يكون قد ارتكب سوء أدب مع الله و رسوله:

(إِنّ الّذِينَ يُنَادُونَكَ)

يا محمّد.

(مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ)

يا محمد، يا محمد اخرج إلينا.

(أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنّهُمْ صَبَرُوا حَتّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(5))

هذه الآيات آيات الأدب مع الله ورسوله، ولكن أدقُّ ما فيها أنه لمجرّد أن تقترح على الله، أو أن تقدِّم البديل لشرع الله، أو أن تفكِّر أن هذا الشرع لا يتناسب مع هذا العصر، أو أن هذا التكليف فوق طاقة البشر، فأنت بهذا فضلاً عن بُعدِك عن الحقيقة ارتكبت سوء أدبٍ مع الله ورسوله.

كلما ازداد إيمان الإنسان ازداد تعظيمه لشرع الخالق سبحانه:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

كلّما ازداد إيمانك يزداد تعظيمك لشرع الله.

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج)

صحابي رأى النبيُّ في يده خاتماً من الذهب، فأمسكه ورماه النبي، فقيل له: خذه وبعه، قال: والله لا آخذ شيئاً رماه النبي، هذا الأدب العالي، لا آخذ شيئاً رماه النبي بيده، فإذا أردت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك.

من هان أمر الله عليه هان على الله:

الحقيقة عندما يرى الإنسان الناس وقد هان عليهم أمر الله فإذا رآهم هانوا على الله فعليه ألاّ يعتب على الله، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، صلى أو لم يصل سواء، يقول: نصليها كلها في الليل، لكي لا يغير إتقان الحسن لا يصلي العصر، لقد هان أمر الله عليه فهان هو على الله، لكي لا يعمل وجبتين في الطعام يقول لك: يا أخي نحن أهلية محليّة، فهل هذه آية أم حديث ؟ ليست بآية ولا حديث، إنّ أمر الله هان عليه، فحصل الاختلاط بالأجنبيات، نضعها مائدة واحدة لأنه أريح، وكلّما هان أمر الله على الناس هانوا هم على الله، وكلّما عظّموا أمر الله عزّ وجل تولاهم الله عزّ وجل، وأكرمهم، ورزقهم.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

على الإنسان ألا يتناول أية آية بالبحث إلا ليكشف حكمتها لا البديل عنها:

إخواننا الكرام: في نهاية المطاف يمكن أن تتناول آيةً بالبحث والدرس لعلّةٍ واحدة، ولهدفٍ واحد، أن تكشف حكمتها، وأن تكشف الخيرات التي نجنيها من تطبيقها، لا أن تقلِّبها على وجوهها، أتصلح أم لا تصلح ؟ فما البديل ؟ وأيهما أفضل ؟ هذا هو الذي يمكن أن يُستفاد من هذه الآيات التي تتعلّق بالآداب مع الله ورسوله.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله ننتقل إلى أدب المؤمنين مع بعضهم بعضاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (2-6): تفسير الآيتان 6-7 ،العلاقة بين المؤمنين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-04-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة الحجرات.

التشريع في القرآن الكريم شفاء للناس:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى في الآية السادسة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

أيها الأخوة الكرام: لهذه الآية أسباب نزول، ومناسبةٌ طيبة أن نقف عند حكمةٍ بالغة جعلها الله شبه قانونٍ في أن آيات التشريع تأتي عَقِبَ حوادث، وقبل أن نبدأ في شرح هذه الآية، لو أن واحداً ألقيت على مسامعه آلاف المواعظ في موضوعٍ ما، وحينما يدخل في تجربةٍ مُرَّة، ويعاني من مشكلةٍ حقيقيةٍ، إذا قرأ القاعدة المتعلِّقة بمشكلته، وبتجربته، تنقش في نفسه كما ينقش الحجر، الحقائق إذا جاءت عقب مشكلات تثبت، ولعلماء التربية رأيٌ في هذا الموضوع أن الإنسان لا يتعلم إلا بتجاربه الحقيقية، فلحكمةٍ أرداها الله عزّ وجل جعل حياة النبي مُفْعَمَةً بالحوادث الجيّدة والحوادث المؤلمة، ففي كل حادثٍ وقف النبي منه الموقف الكامل وجاء التشريع ليكون شفاءً للناس.

الأحكام في القرآن الكريم على الإنسان أن يتشبث بها:

إنسان مثلاً سمع آلاف المرات أنه لابدّ من كتابة إيصال للدين، كلام، أما حينما يُقْرِضُ قرضاً وينسى أن يكتب إيصالاً ويضيع عليه هذا المبلغ ثم تلقى عليه القاعدة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ)

(سورة البقرة: آية " 282 ")

هذه الآية يتفاعل معها أشد التفاعل، لأن هناك تجربةً مُرَّةً وهي ضياع مبلغٍ كبير بسبب عدم كتابة إيصال لهذا المبلغ، فالإنسان حينما يمر بتجربة ثم تلقى عليه القاعدة يتشبَّثُ بها، هذا هو التعليم الحقيقي، بل إن هناك نظريات في التعليم، أن نضع الطالب في مجموعة تجارب مرة أو مشكلات، ويكون حلها تلك القواعد التي تُلْقَى عليه.

أسباب نزول هذه الآية:

وسأروي لكم من كتب التفسير أسباب نزول هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

قال ابن كثير: ذكر كثيرٌ من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقْبَة، حين بعثه النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات بني المطلق، وقد روي ذلك من طرقٍ عدة ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده.

رواية الإمام أحمد للآية التي نزلت في الوليد بن عقبة:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سابق حدثنا عيسى بن دينار حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرارٍ الخُزاعي رضي الله عنه يقول: **قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها**، وقلت: **" يا رسول الله أأرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ؟ فمن استجاب جمعت زكاته وترسل أنت إلي يا رسول الله من يأخذ هذه الزكاة ".** فلما جمع الحارث الزكاة من قومه بعد أن أسلموا لم يبعث النبي له من يأخذ الزكاة، وظن الحارث أن هناك شيئاً حدث فيه سخطةٌ من الله تعالى ورسوله، من شدة محبته وورعه وحبه للنبي تأخر رسول النبي فأوقعه في شكٍ من نفسه، ولعل هناك شيئاً لا أعلمه، فدعا بوجهاء قومه فقال لهم: **" إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد وَقتَ لي وقتاً ليرسل إلي رسولاً ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله الخُلْفُ (أي مستحيل أن يخلف وعده) ولا أرى حَبَسَ النبي إلا من سخطةٍ فانطلقوا فنأتي النبي صلى الله عليه وسلم ".**

على الإنسان أن يتبين الأمر قبل أن يصغي إلى فاسق بنبأ عن مؤمن:

النبي عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده في الوقت المناسب فبعد أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق. خاف، خاف أن يقتلوه، وأن تكون غدرةٌ منهم. فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: **" يا رسول الله إن الحارث منعني من الزكاة وأراد قتلي ".** عندئذٍ النبي عليه الصلاة والسلام تريّث، وفي روايات أرسل سيدنا خالد بن الوليد ليتحقق، وسيدنا خالد بَثّ عيونه في القوم فرآهم يؤَذِّنون ويصلون ورآهم بأحسن حال، فرجع إلى النبي صلى الله

عليه وسلم فأخبره، فلما ذهب هؤلاء الذين بعثهم النبي لقوا الحارث في طريقه إلى النبي، فقالوا: **" هذا الحارث "** فلما غشيهم قال لهم: **" إلى من بعثتم ؟ قالوا: إليك، قال: ولِمَ ؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنّك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمداً بالحق، ما رأيته بَتّةً ولا أتاني "**، فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ "** قال: **" لا والذي بعثك بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني، وما أقبلتُ إلا حين احتبس علي رسولك، خشيت أن تكون كانت سخطةٌ من الله تعالى ورسوله علي".** فنزلت هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات عن الحارث بن ضرار الخزاعي]

الخصومات و الشك و الحسد أحد أكبر أسباب تفكك المجتمع:

أحياناً تأتي الآية بعد المشكلة وكأنها البَلْسَم، وكأنها الشفاء، وكأنها القاعدة، فأنت لاحظ نفسك إذا كنت تمر بمشكلة، أو بتجربة مُرّة، أو بقضية متعبة، ثم جاءتك القاعدة، فهذه القاعدة تتبناها وتصل إلى أعمق أعماق نفسك، وتصبح هذه القاعدة جزءاً من بُنْيانك، ولذلك فالحقائق إذا تُلِيَتْ بعد التجارب فهذه الحقائق لا تنسى ولا تمحى، وهذه قاعدة في التربية، فإذا أردت أن تربّي ابنك وقد مر في تجربةٍ مؤلمةٍ بعد هذه التجربة ألق عليه القاعدة، أولاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ويبدو أن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتحابب، وأن يكون المجتمع المؤمن مجتمعاً متماسكاً، متراصاً، متعاوناً، متآزراً، متحاباً، فما الذي يفتته ؟ وما الذي يُضْعِفُهُ ويمزقه ؟ ويضعف شأنه ؟ ويضعه في الوحل ؟ إنها الخصومات، والمهاترات، والطعن، والشك، والحسد فأحد أسباب تفكيك المجتمع أن تصغي إلى فاسقٍ بنبأٍ عن مؤمن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ)

المؤمن يتصف بالضبط و العدالة و الفاسق بالكذب و الفجور:

لماذا قال الله عزّ وجل:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ)

لأن المؤمن لا يمكن أن يكذب، ورد في الحديث الشريف أن:

((المؤمن يطبع على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة))

[أخرجه أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

فحينما يكذب أو يخون نُزع من الإيمان، فعندئذٍ لا يكون مؤمناً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ)

فالفاسق يكذب، والفاسق يفتري، ويقول ما لم يقع، ولمجرد أن يكذب الإنسان في الخبر فهو فاسق، بل إن بعض علماء الحديث لمجرد أن أحد الرواة كذب على فرسه، جاء من المدينة إلى البصرة ليتلقّى عنه حديثاً شريفاً فلما رآه قد كذب على فرسه، رفع رداءه لها وأوهمها بالشعير في الرداء فأقبلت عليه، فتقدم منه فلم ير في الرداء شيئاً، عاد إلى المدينة من توه ولم يسأله عن شيء، فقال: **" الذي يكذب على فرسه ليس أهلاً أن يؤخذ منه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ".**

المؤمن أيها الأخوة يتصف بالضبط والعدالة، والضبط دقة الرواية، والعدالة الصدق، والضبط صفة عقلية والعدالة صفة نفسية.

الفاسق من خرج عن أمر الله و على الإنسان أن يحاسبه على كذبه:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ)

هذا الفاسق أولاً: معنى فَسَقَ خرج عن أمر الله.

(كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

(سورة الكهف: آية " 50 ")

الفسق الخروج عن أمر الله عزّ وجل، فالفاسق يجب أن يحاسب على كذبه.

العجلة من الشيطان و التريث من الرحمن:

(فَتَبَيَّنُوا)

أي تحققوا، لما سيدنا سليمان جاءه الهدهد وحدّثه عن قومٍ يعبدون الشمس من دون الله، ماذا قال له سليمان الحكيم عليه أتم الصلاة والتسليم ؟

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة النمل)

أيها الأخوة الكرام:ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن:

((العَجَلَة من الشيطان والتثبُّت من الرحمن))

والتريث من الرحمن، وقد وقعت قصة في بلد عربي: فتاةٌ بريئةٌ طاهرةٌ صويْحباتها كادوا لها فرموها بتهمة الزنا، بلغت هذه التهمة أباها، فأراد الموقف الحاسم، أخذ ليحلل جزءاً منها كما هي العادة، والموظف الذي يعمل عند المحلل وقعت منه العينة خطأً في المجلة، فخاف من سيده فكتب الحمل إيجابي، فلما جاء الأب مساءً ليأخذ النتيجة قال له الطبيب: مبارك ابنتك حامل. فقتلها الأب، والله يعلم أنها بريئة، وثبت بعد ذلك أنها لم تكن حاملاً، والخطأ خطأ الموظّف.

كل إنسان يتولى أمر الناس عليه أن يضع هذه الآية أمام عينيه:

حدثني أخ كريم توفي رحمه الله من إخواننا الكرام، قال لي: بعث لي معمل مئة قطعة، فعددتها فإذا هي تسعة وتسعون قطعة، فاقتربت من معطف أحد العمّال في المعمل فرأيت قطعةً في جيبه، هل هناك دليل أقوى من هذا الدليل ؟ قال لي: لا أدري ما الذي ألجمني ومنعني أن أقيم عليه الدنيا لخيانته، وفي اليوم التالي ذهبت إلى صاحب المعمل لأحاسبه قال لي: بعثنا لك بمئة قطعةٍ أخذ أحدها صانعك ودفع ثمنها، فأعطنا ثمن الباقي، فعلى الإنسان ألا يتسرع.

هذه الآية منهج للمؤمنين، تلقى الأخبار كاذبة، افتراءات على الناس، وإفك، وكلام غير صحيح، فكلما ارتفع مستواك تتريث، وتتأنى، وتنظر، وتحقق، وتسأل، هناك علاقات كثيرة فُصِمَت لخبرٍ كاذب، وهناك أسر شردت وشركات فصمت بين الشركاء لخبرٍ كاذب، ولذلك فكل إنسان يتولّى أمر الناس ويحقق في قضاياهم يجب أن يضع هذه الآية أمامه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

البشر صنفان فريق يقبل كل شيء و فريق يرفض كل شيء:

والحقيقة الندم شيءٌ لا يحتمل أن تتهم بريئًا، وتوقع به أشد الأذى، فالإنسان قد لا يحتمل، الإنسان الذي يملك قلباً طاهراً وإحساساً أخلاقياً سليماً إذا أوقع الأذى بإنسان بريء لا يحتمل ذلك، فربنا عزّ وجل يبين لنا القاعدة الأولى في التعامل فيما بيننا.

الآيات الأولى كانت في الأدب مع الله ورسوله، أما الآيات التالية فهي في العلاقة بين المؤمنين، وأقول لكم العلاقة بين المؤمنين، الآن نحن عندنا صنفان من البشر، صنفٌ يقبل كل شيء بلا تحقق، ولا تروٍّ، ولا تثبت، ولا دليل، ولا هدوء، وفريقٌ يرفض كل شيء، فكلاهما مُغَالٍ في عمله، فهذا غلو وهذا غلو، وللعوام قصة غير معقولة مبالغ بها إلى أرقام خيالية يقبلها.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ)

لا تكذبوه ولا تصدقوه وتحققوا مما قال، فقد يكون خبر هذا الفاسق صحيحاً، وقد يكون كذباً فأنتم إيَّاكم أن ترفضوا بلا دليل، وإياكم أن تقبلوا بلا دليل، وعليكم بالتحقق، لذلك اجعلوا الآية الكريمة:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

الإنسان حينما يفسق يكون قد تفلت من منهج الله عز وجل فكلامه كذب:

إذا احتاج الآية مؤمنٌ مرة فيحتاجها من ولاهم الله أمر الناس ألف مرة، وكم من تقريرٍ كاذب، ومن فِرْيَةٍ كاذبة، ومن روايةٍ غير صحيحة، فيجب أن يضع الإنسان أمامه هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ)

والآن عندنا مشكلة، الإنسان حينما يفسق، ويخترق منهج الله عزّ وجل، ولا يطبّق شريعة الله، فهذا الإنسان تفلّت من منهج الله، فكلامه في الأعم الأغلب كذب، لأن الإنسان إذا كان مستقيماً على أمر الله فيغلب على الظن أن كلامه صدق، وإذا كان متفلتاً من منهج الله، وما دام يعصي الذي خلقه ولم يصدق كلامه أيصدق مع الناس ؟ فما الذي دعا الصحابة الكرام إلى الإيمان برسول الله ؟ قال: لأنه ما سمعنا منه كذباً قط، أيُعْقَلُ أن يكذب على الله عزّ وجل، فدققوا في هذه العلاقة.

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ)

الفاسق لا يصدق، والمستقيم لا يكذب، ولكن ضماناً للموضوعية هذا الذي جاءكم بهذا الخبر لا ترفضوه بلا دليل ولا تقبلوه بلا دليل، بل موقفٌ معتدلٌ وسطي، بين القبول الساذج وبين الرفض المكابر، وبينهما التحقق والتثبُّت.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

من أحسنَ الظن بأخيه فكأنما أحسن الظن بربه:

وبعد ذلك:

((اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب))

[أخرجه البخاري عن ابن عباس]

((اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً))

فقبل أن تقول: أخي هكذا فعل !! قبل أن تستمع إلى خبر فاسق، أو حاسد، أو مُبْغِض دقِّق في الخبر، من أحسنَ الظن بأخيه فكأنما أحسن الظن بربه، فهذا أخوك مؤمن، كما أنك تخشى الله هو يخشى الله، وكما أنك تخاف الله هو يخاف الله، وإذا كنت تخاف أن تأكل درهماً حراماً فهو يخاف مثلك أن يأكل درهماً حراماً، لماذا تُحْسِنُ الظن بنفسك وتسيء الظن به ؟ هذا من الخطأ الكبير.

للإنسان خمسة أعداء عليه أن يحذر منهم:

فلذلك أيها الأخوة: يجب أن نعد للألف وللمليون قبل أن نصدق خبراً عن مؤمن. وقد ورد في الأثر:

((أن المؤمن لابدّ له من كافرٍ يقاتله، ومنافقٍ يبغضه، ومؤمنٍ يحسده، وشيطانٍ يغويه، ونفسٍ ترديه))

لك خمسة أعداء، واحد يريد أن يقتلك وهو الكافر، وواحد يبغضك وهو المنافق، وثالث يحسدك وهو المؤمن، ورابع يغويك وهو الشيطان، والخامس النفس ترديك.

التثبت من الشيء له ثلاث حالات:

1 – من لم يؤثر فيه الخبر بل رآه من إنسان فاسق فلا حاجة له من التحقق:

إذاً لما ينقل لك خبر عن مؤمن (هنا نقطة دقيقة) إذا كنت واثقاً من إيمانه ومن استقامته، وهذا الخبر لم يحرك فيك شعرةً، بل رأيته من كاذبٍ فاسقٍ فاجر ورميت هذا الخبر كما يلقى الشيء التافه، فلا حاجة لأن تحقق.

2 ـ من ترك الخبر في نفسه ثلمة فعليه أن يتحقق:

أما إذا ترك هذا الخبر في نفسك شكاً وثُلْمَةً، وظناً سيئاً بأخيك فواجبٌ عليك أن تحقق، فإن كان هذا الخبر صحيحاً نصحته، وإن كان مكذوباً ارتاحت نفسك، فهذه الحالة الثانية، أما الحالة الأولى فالخبر لم يؤثر فيك، والحالة الأولى مقام أخيك عندك كبيرٌ جداً، وثقتك فيه لا نهاية لها، وترى طهره وعفافه رأي العين، فخبرٌ كاذب ينقل إليك عنه لا يهز شعرةً فيك، فهذه حالة.

3 ـ من له ثقة بأخيه و اهتز عند سماعه الخبر فعليه أن يتحقق:

إذا كنت في هذا المستوى ولك ثقةٌ بأخيك بهذا المستوى فلا مانع ألا تحقق، أما إذا ترك الخبر في نفسك ثُلْمَةً وقلت: هكذا يفعل فلان ؟ ألله الحق أن يفعل هذا ؟ فمعناها اهتزت مكانته عندك، و ثُلِمَتْ، وخدشت عدالته عندك، فالآن واجبٌ عليك أن تحقق، فإما أن تَثْبُتَ براءته فترتاح نفسك، وإما أن يكون قد ابتلي بما بلغك عنه، فعندئذٍ تتجه إلى نصيحته، وليس هناك حالة رابعة.

المؤمن مظنة صدق و صلاح و أمانة:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)

التبين هو التحقق، اطلب الدليل قالوا: لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، وكل إنسان يتهم أي إنسان، ففي المحاكم إذا اتهم إنسان إنسانًا شريفًا عليه أن يدفع كفالة، فإنسان له مكانة، تقيم عليه دعوى وتتهمه في أمانته، فالإنسان له شرف وله مكانة، والقاضي يطالبه بكفالةٍ باهظة الثمن، فإذا ثبت كذبه أُخِذَ بها، ودائماً المؤمن مَظَنَّة صلاح، وصدقٍ، وأمانة، وإنصافٍ، ورحمةٍ، فلا تتهم المؤمن بصفات لا تليق به، أستاذ معه دكتوراه في الرياضيَّات قال لك شخص: هذا لا يعرف أن اثنين وثلاثة تساوي خمسة قال: أربعة، فهذه تهمة غير معقول أن تصدّق عنه، وإنسان عرف الله عزّ وجل من هذا المُنْطلق، فأحياناً يتهم بعض المؤلفين السابقين بتهم، والذي عرف الله هذه المعرفة أيعقل أن يقول هذا الكلام ؟ يرجّح أنه ما قاله، ويرجح أنه دُسّ عليه، وهذا الموقف يتناسب مع مكانته، لذلك فالآية الكريمة يجب أن نأخذ بها جميعاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

على الإنسان ألا يضع نفسه موضع التهم ثم يلوم الناس إذا اتهموه:

والله في حياتي آلاف القصص عن إنسان برئ طاهر نقي روّجت عنه قصةٌ لا أصل لها، طبعاً أحياناً تروّج القصة بخطأٍ منه، سيدنا علي يقول: **" لا تضع نفسك موضع التهم ثم تلوم الناس إذا اتهموك "**، والنبي الكريم كان يمشي في الليل مع زوجته السيدة صفية، مر صحابيان جليلان، فقال عليه الصلاة والسلام:

((على رسْلِكُمَا هذه زوجتي))

[أخرجه البخاري عن الزهري]

فلو أنت سافرت وكلّفت شقيق زوجتك أن يتفقّد أخته بغيابك، ولك جيران لا يعرفون أن هذا شقيق زوجتك، رأوا رجلاً يدخل إلى البيت في غيبة جارهم، فالخطأ منك، ينبغي أن تبلغهم أنني سأسافر وأن شقيق زوجتي سيأتي إليها، هذه زوجتي، هذه يطبق عليها ألف موضوعٍ وموضوع، دائماً لا تضع نفسك موضع التهمة ثم تلوم الناس إذا اتهموك.

المؤمن العاقل لا يتصرف تصرفاً له تفسيران:

فالمؤمن العاقل لا يتصرف تصرفاً له تفسيران، واحد لصالحه، وواحد ضده، هذا التفسير غير صحيح، وهذا السلوك غير صحيح، فإن كنت جالساً وراء مكتب صديقك بمحله التجاري، ولزمك أن تصرف خمسمئة ليرة، إيّاك أن تفتح الدرج من دون إذنه وأن تصرفها، وأنت بريء وأنت ملك طاهر، ولكن خطأ في حسابات الصندوق خمسمئة ليرة ورآك فتحت الدرج، يتهمك وأنت بريء، فلا تضع نفسك موضع التهمة ثم تلوم الناس إذا اتهموك، ولا تدخل بيتاً ليس فيه رجل، ولا تخلُ بامرأة، لا تسمح لأحدٍ أن يدخل بيتك في غيبتك، وأنت لا تفعل هذا، دائماً المؤمن كما قال سيدنا معاوية إذ سأل سيدنا عمرو بن العاص قال له: **يا عمرو ما بلغ من دهائك ؟ قال له: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، قال له: لست بداهية، أما أنا فو الله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه**، عدم الدخول أصل، إنسان يدخل ويخرج، أما الأذكى والأعقل لا يدخل أصلاً، فكلما كبر عقل الإنسان، وطبق منهج الله عزّ وجل، واتبع السنة فحياته هادئة، والله عزّ وجل قال:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

(سورة محمد)

الله عز وجل رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى:

ربنا عزّ وجل رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى من خلال واو العطف، يقتضي التعاطف المشاركة بين المتعاطفين.

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

وصلاح البال سببه الوضوح، فكل شيء واضح، اتفقت فاعمل عقداً وسجله في محكمة البداية، وانتهى الأمر، قطعت على الطرف الآخر أن يفكر في نقضه، وأقرضت فاطلب سنداً، وأشهد عليه اثنين، وانتهى الأمر، قطعت على المدين أن يتلاعب بقضاء الدين، واتفقت سَجِّل هذا الاتفاق، وتصرفاتك وضحها، والبيان يطرد الشيطان، فوَضِّح، لك مع إنسان مال وفي النهاية تقول له: لقد تخالصنا، هذا

ليس وضوحاً، قدم له الحساب التفصيلي وبين له التساوي في المدفوعات والمصاريف، وإدراج الحسابات، وتوضيح التصرُّفات، وإيضاح الغايات، هذه زوجتي، بين له.

البيان يطرد الشيطان:

مرة كنت في محل تجاري وفيه رجل من أهل الصلاح، وفي المحل تاجر من مدينة في الشمال يبدو عليه الصلاح والورع، جاءت امرأةٌ لصاحب المحل فاستقبلها استقبالاً يفوق استقبال من تشتري منه بضاعةً، رأيت وجه هذا الزائر قد (انعبط) قلت له: لعلها أخته، فلما انصرفت علمنا أنها أخته، وكان يجب أن يقول: جاءت أختي، حتى رَحَّبَ بها ترحيباً زيادة على الحد، وهذا الترحيب مُغَطّى، أما إذا كانت امرأة غريبة فهذا لا يليق بمؤمن أن يستقبلها وأن يسألها عن صحتها، لماذا هذا الغياب الطويل ؟ هذا يقال للأخت، ولا يقال لامرأةٌ غريبة، فدائماً البيان يطرد الشيطان، وضح أغراضك دائماً. لزمك أن تدخل إلى المحل التجاري الساعة الثانية عشرة ليلاً لتحضر سنداً منه، وعندك سفر باكراً، فلا مانع من ذلك، هناك حارس، قل لهذا الحارس: أنا جئت لآخذ هذا السند، إن لم تقل له شيئاً يقول: ماذا يفعل بالليل في هذا المحل ؟ وله شريك، فهذه الزيارة من وراء شريكه، فدائماً وأبداً وضِّح الأمر، وضح أسباب حركتك، وأسباب زيارتك، وعدم زيارتك، وسفرك، وعدم سفرك، لماذا أقمت هذا الحفل ؟ ولماذا لم تقم هذا الحفل ؟ ولماذا حضرت ؟ ولماذا لم تحضر ؟ وضح البيان يطرد الشيطان، أما الفاسق فقنّاص، لو رأى تصرفاً غير معقول قنصه قنصاً ونقله بين الناس وسوّأ سمعتك.

إن تفيد احتمال الوقوع أما إذا تفيد تحقق الوقوع:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ)

إن تفيد احتمال الوقوع، أما إذا تفيد تحقق الوقوع، دققوا في دقة اللغة العربية:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

نصر الله عز وجل لابد من أن يأتي.

وهنا لو أن الله قال: إذا جاءكم فاسقٌ بنبأٍ، هذا ليس قرآناً لأن الفاسق قد يأتي وقد لا يأتي، ولكن نصر الله عزّ وجل للمؤمنين لابدّ من أن يأتي، فإذا تفيد تحقق الوقوع، بينما إن تفيد احتمال الوقوع.

على الإنسان أن يتحقق و يطلب الدليل قبل أن يتهم غيره:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

تحققوا، اطلب الدليل، هل رأيته بعينك ؟ يقول: لا والله لقد سمعت أن فلانًا رآه بعينه، يا فلان هل رأيته بعينك ؟ يقول لك: لا والله، القصة مختلقة، فأحياناً يكون الكذب في أصل الموضوع، وأحياناً يكون كذب بالحجم، تُكَبِّر وتكبر، وأحياناً بالتعليل، أو بالتفسير، شخص وجد خمسمئة ليرة في الأرض، انحنى ليأخذها، هل تعلم نيته ؟ لعله أخذها ليبحث عن صاحبها، فلم يفعل شيئاً، وهذا ليس دليلاً على أنه أخذها، شخص انحنى إلى الأرض ليأخذ مبلغاً من المال، فعندنا كذب بالتفسير، و كذب بالحجم والمبالغة، وبالافتراء، وكذب أن القصة ليس لها أصلٌ كلياً، وهناك قصة لها أصل ولكن حجمها صغير، كَبَّرَها الفاسق، وهناك قصةٌ لها أصل ولكن لها تفسير يليق بصاحبها، لكن هذا الفاسق وجَّه توجيهاً آخر.

الغيبة و النميمة من أسباب تفتت المجتمع:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

أولاً حينما تتهم بريئاً وتبلغه هذه التهمة يحقد عليك، ويبغضك وتنقلب المودة عداوةً، والصحبة فُرْقَةً، والمحبة بغضاً، لأن المجتمع تفتت بالغيبة والنميمة، كما قال الله عزّ وجل:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر)

وهناك أسر متفتتة، ومجتمعات متفتتة، فما الذي فتتها ؟

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

من يريد معرفة الحقيقة عليه أن يجتمع بالطرفين معاً:

إخواننا الكرام: هناك طريقة ناجحة جداً، لو جاءك رجلٌ بنبأٍ كاذب عن شخص، فلو أنك قلت له: ائتِ أنت معه، اسمع منه، يحكي لك ثلاث ساعات، ولو جلس مع الطرف الآخر يتكلم خمس دقائق فقط، أين ذهب الباقي كله ؟ كله مبالغات وزخرفة في الكلام وتعليلات خبيثة شيطانية، أما حينما يجتمعان معاً فلا يستطيع أن يقول إلا شيئاً ثابتاً يقره الطرف الآخر، فإذا استطعت ألاّ تصغي لإنسانٍ وحده فافعل، قل له: لا أستمع إليك إلا مع الطرف الآخر، تجد الأمور قد ظهرت على حقيقتها، وأحياناً تأتي البنت إلى أبيها، تتحدث عن زوجها حديثاً تجعله مجرماً، والأب غير العاقل وضعيف التفكير وضيّق الأفق يأخذ كلامها على أنه حقيقةٌ ثابتة فيحقد، ويتألم، ويبالغ، ولو أن هذا الأب استدعى صهره وقال له بلطفٍ: قل ما المشكلة ؟ اسمعها منه ترى بوناً شاسعاً بين الروايتين، فإياك أن تستمع من ابنتك وحدها، قد تكون فاسقة

وتقول لك ما يروق لها، وتخفي عنك ما تفعله مع زوجها، استدع الزوج وقل له: ما القصة ؟ وتأكّد من روايتها، وتحقق، وأنت حينما تتحقق، يخاف الناس بعد ذلك أن يلقوا أمامك الكلام على عواهنه، تحقق.

الافتراء مكشوف عندما كان الرسول بين الناس والوحي موصول بالسماء:

إذاً المؤمن لا يرفض ولا يقبل بل يتحقق، فالرفض غلو في الدين، والقبول الساذج غلو في الدين، والقبول سذاجة والرفض تعنُّت، ولكن الوسطية في الإسلام أنه إذا جاءك خبرٌ كاذب قل: سنبحث في الأمر، فتحقق، واطلب الدليل، ولا تقبل بلا دليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، وبعدئذٍ يقع الندم والندم أشد المشاعر إيلاماً للنفس، إنه إنسان بريء تتهمه ؟ قال:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ)

ما معنى هذه الآية ؟ أي أن الرسول بين أظهركم والوحي موصول بالسماء، والله عزّ وجل يخبره بحقيقة كل شيء، فالافتراء مكشوف.

بعد قبض الرسول الكريم الله عز وجل يتولى كشف الكاذب:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ)

ولكن بعد قبض النبي عليه الصلاة والسلام لا يوجد وحي، والله هو الحق، فإذا حصل افتراء وكذب فالله عزّ وجل يسخِّر أُناساً يتكلمون الحق، فما من كاذبٍ إلا ويكشف كذبه، وبإمكانك أن تكذب على إنسانٍ أمداً طويلاً، وبإمكانك أن تكذب على قومٍ أمداً قصيراً، أما أن تكذب على الناس جميعاً إلى أمدٍ طويل فهذا مستحيل، فكأن الله عزّ وجل يتولى أن يكشف الكاذب، مهما كان الكاذب ذكياً، والآن في علم النفس روائز للكذب، يعطون مئتين أو ثلاثمئة أو خمسمئة سؤال في موضوع واحد وعليه عشرة أسئلة متباعدة، فإذا كان الإنسان كذّاباً يكذب في أول سؤال، وفي الثاني، فيغيب عنه الثالث، والأسئلة الخمسة أو العشرة في موضوع واحد لكن بصياغات مختلفة مبعثرة بين خمسمئة سؤال، فالكاذب ينكشف، ويكاد يقول: أنا كاذب، من زلاّت لسانه، وقد قالوا: إن كنت كذوباً فكن ذكوراً، فأحياناً الإنسان يكذب وينسى ماذا تكلم، ويعيد الرواية بشكل آخر يبدو كذبه للناس واضحاً.

(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ: آية لها عدة معان:

1 ـ إذا علم الله منك رغبةً في معرفة الحقيقة فقلبك يميل إلى الحق:

الآن هذه الآية تنقلنا إلى موضوع جديد:

(وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ)

أولاً الله عزّ وجل كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن))

[أخرجه أحمد عن عائشة]

فالله إذا علم منك رغبةً في معرفة الحقيقة فقلبك يميل إلى الحق، وإذا علم منك صدقاً في طلب الحقيقة فقلبك يرتاح للحق، والحق محبب له، أما إذا كان هناك كذب ودجل ونفاق، فعندئذٍ تكره الحق وأهله وتحب الباطل وأهله، أما إذا كان قلبك بيد الله عزّ وجل، فالله عزّ وجل يقلبه كيف يشاء، وبعد أن يعلم مشيئتك أنت، وعندما يترك الإنسان شيئاً لله، فما كان الله ليعذب قلباً بشهوةٍ تركها صاحبها في سبيل الله، فقلبك بيد الله، والله عزّ وجل يلقي فيه الطمأنينة، ويلقي فيه الخوف والعزوف عن هذا الشيء، وعن هذه الفتاة أحياناً، ويجعل فيه محبة هذا المجلس ومحبة أهل الحق، فقلبك بيد الله، فأنت إذا طلبت الحق من الله عزّ وجل تولّى قلبك فمال إلى الخير وإلى صلاح حياتك، وهذا هو المعنى الأول.

2 ـ الإنسان عندما يؤمن ويستقيم ويخلص لله عزّ وجل ترتاح نفسه:

والمعنى الثاني النفس البشرية مفطورة على معرفة الله، وعلى طاعته ولا ترتاح إلا بطاعته والالتجاء إليه، فالإنسان عندما يؤمن ويستقيم ويخلص لله عزّ وجل ترتاح نفسه، والله حبب هذه الفطرة إليه، ألم يقل الله عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: آية " 30 ")

أي أن تقيم وجهك للدين حنيفاً، والتوجه إلى الله بطاعته والإقبال عليه والاتصال به، فهذا نفسه فطرة الله، وأحيانا ترتاح بها، كما تمشي السيارة على طريق وعر، وحينما تمشي على طريقٍ مُعَبَّد فتقول: هذا الطريق لهذه السيارة، حيث يوجد تناسب.

راحة الإنسان تتعلق بمعرفة الله عز وجل و الاستقامة على أمره:

الإنسان حينما يشرد عن طريق الحق يقع في عذاب، وقلق، و خوف، و قسوة بالغة، فردود فعله قاسية جداً من الخوف الذي في أعماقه، إنه خوف مرضيٌ، وبطش مرضي، وموقف ملائم، وانحياز مرغوب، أما حينما يتعرّف الإنسان إلى الله عزّ وجل ويستقيم على منهجه فترتاح نفسه.

(وَلَكِنّ اللّهَ حَبّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ)

من فضل الله على كل مؤمن أنه يحب الحق وأهله:

((قال لي: كيف أصبحتَ يا زيد ؟ قلتُ: أصبحتُ أحبُّ الخيرَ وأهله، إن قدرتُ عليه بَادَرْتُ إليه، وإن فاتَني حَزِنْتُ عليه، وَحَنَنْتُ إليه، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: فتلك علامة الله فيمن يريد. ولو أرادكَ لغيرها لَهَيّأكَ لها))

[أخرجهِ رزين عن زيد الخير]

إذاً صلاح القلب إما أن الفطرة التي فطر الإنسان عليها، وإما أن القلب بيد الله يقلِّبُهُ لصالح عبده المؤمن حينما يصدق معه، فأنت وَطِّن نفسك على أنك إذا اتجهت إلى الله عزّ وجل فالقلب ينشرح والصدر يطمئن.

من أراد الله أن يكرمه ألقى في قلوب الناس محبته:

أيها الأخوة: بقي معنا متعلق بالآية الكريمة:

(وَلَكِنّ اللّهَ حَبّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ)

وعندما يقلب الله عزّ وجل قلوب العباد كيف يشاء صار قلبك وقلب الآخرين بيد الله، فالذين أمامك وهم أقوى منك قلبهم بيد الله، فإذا رضي الله عنك ليّن قلوبهم تجاهك، وإذا رضي الله عنك ألقى في قلوبهم محبّتك، وإذا غضب الله عليك لا سمح الله ألقى في قلوبهم بغضك، فإذا أكرمك الناس ويسروا أمورك وأحبوك فهذه محبة الله تمثّلت في محبة العباد لك، فكما أن قلبك بيد الله أيضاً فقلوب العباد بيد الله، فأنت إذا أراد الله أن يكرمك ليّن القلوب، ورد في الحديث:

((ما أخلص عبدٌ لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة))

و لذلك محبة الخلق لك هي محبة الله أُلقِيَت في قلوبهم فأحبوك.

ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ: آية له عدة معان:

1 ـ كل إنسان تعرّف إلى الله وسار على منهجه ترتاح نفسه ويطمئن قلبه:

المُلخّص أن هذا القلب بيد الله، أولاً مفطورٌ فطرةً تتوافق مع الدين، فكل إنسان تعرّف إلى الله وسار على منهجه ترتاح نفسه ويطمئن قلبه، والآية الكريمة:

(أَلَا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

فهذا المعنى الأول.

2 ـ قلب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء:

والمعنى الثاني قلب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فإذا أنت أحببت الحق فالله يقلب قلبك نحو الحق، وإذا أحببت الله عزّ وجل قلّب قلوب العباد نحوك، فإذا أخلصت لله واتجهت إليه جعل قلوب المؤمنين تهفو إليك، فالإنسان حينما يحب الإيمان ويكره الكفر والفسوق والعصيان فهذا هو الرشاد بعينه، قال تعالى:

(أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

فعلامة عقلك الراجح أن تحب الحق وأهله، وأنت على هذا مفطور، لكن هذه الفطرة قد تنطمس، فإذا جليت وعاد إليها صفاؤها أصبح قلبك محباً للحق.

3 ـ من ترك شيئاً لله فلن يعذبه الله بمحبته:

وآخر معنى لو أردت أن تدع شيئاً لله فقلبك بيد الله، ولن يبقي في قلبك محبة هذا الشيء الذي تركته في سبيل الله، ولذلك: ما كان الله ليعذب قلباً بشهوةٍ تركها صاحبها في سبيل الله، فإذا ترك الإنسان شيئًا لله لن يعذِّبه بمحبَّته، والله أكرم وأجل أن يعذب قلباً آثر طاعته بمحبة شيءٍ سواه، والله عزّ وجل ينزع من قلبك هذه المحبة.

من امتلأ قلبه بمحبة الله سعد في الدنيا و الآخرة:

أخ كريم البارحة قال لي: والله كنت أحب شيئاً وأظن أنني أموت ولا أتركه، فلما تعرّفت إلى الله عزّ وجل تركته ببساطة، قال: كنت أظن أن هذا الشيء الذي أحبه لن أدعه حتى الموت، فإذا بي بعد أن عرفت الله عزّ وجل تركته ببساطة من دون جهد، والآن أكرهه وأكره من يفعله، والقلب بيد الله، والآية دقيقة جداً، فقلبك بيد الله، إذا علم الله منك صدقاً قلّب القلب بصالح إيمانك، وقلوب العباد بيد الله، إذا أحبك الله عزّ وجل ألقى حبك في قلوب العباد، وقلبك مفطورٌ على محبة الله فإذا أحببته اطمأن قلبك قال تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

وسيدنا عمر قال: **" تعاهد قلبك "**، القلب بالإنسان إذا امتلأ بمحبة الله عزّ وجل سعد في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (3-6): تفسيرالآيات 8-10، حرص المؤمن دائماً على وحدة المؤمنين و سمعتهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-04-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثالث من سورة الحجرات.

لا يمكن أن تحلّ مشاكل الإنسان المؤمن على يد عدوه:

مع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

يمكن أن تكون هذه الآية تحت باب العلاقات الدولية.

أيها الأخوة الأكارم... الأصل أن يكون للمسلمين إمامٌ واحد والآن هناك أئمّةٌ أو جماعاتٌ، هكذا اقتضت الضرورة، وهكذا كان الواقع، فلو أن طائفتين منهم أو أكثر اقتتلوا، قال تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

فكيف تُحلُّ مشكلةٌ بين المؤمنين ؟ أو مشكلةٌ بين جماعتين ؟ أو بين فئتين؟ أو بين طائفتين ؟ أو بين دولتين ؟ أو بين شعبين مسلمين، قولاً واحداً: لا يمكن أن تُحلَّ هذه المشكلة على يدِ طرفٍ ثالث غير مؤمن، وكل إنسانٍ يعلم الخسائر الفادحة التي خسرها المسلمون حينما حُلّت مشكلاتهم على يدِ أعدائهم، فالخسائر التي لا تُقدَّر بثمن، والأرقام الفلكيّة التي ذهبت من أموالهم إلى أيدي أعدائهم بسبب أنهم بدل أن يطبّقوا هذه الآية في الخلافات فيما بينهم احتكموا إلى جهةٍ ثالثةٍ ليست مؤمنةٍ فهي التي حكمت بينهم فأخذت ما في أيديهم، وهذا الذي حصل.

الاقتتال بمعانيه الواسعة التخاصم وبمعانيه الضيّقة القتل:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

أولاً: الاقتتال هنا قد يعني القتال، وقد يعني الخصومة، لأنه ما كل اقتتالٍ قتلٌ، وقد تفضي الخصومة إلى القتال، فالمعنى الواسع للاقتتال التخاصم، فأية خصومةٍ بين المؤمنين ينبغي أن تُحلّ بالطريقة التالية.

لنوسّع معنى الاقتتال، الاقتتال بمعانيه الواسعة التخاصم، ومعانيه الضيّقة أن يقتل كلٌ من الطرفين الطرف الآخر، القتل أي سفك دمه، لكن المعنى الواسع للاقتتال هو الخصومة لأنه يمكن في اللغة أن نوسّع المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي، وهذا واردٌ في اللغة بأدلّةٍ كثيرة.

إذاً ما كل قتالٍ بين مؤمنين ينضوي تحت هذه الآية، بل كل خصومةٍ بين جماعتين تنضوي تحت هذه الآية.

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

القرآن الكريم هو الفيصل في تحديد الباغي أو المَبْغِيّ عليه:

ماذا على الطرف الثالث، الطرف المؤمن الثالث ؟ طرفان اقتتلوا وهناك طرفٌ ثالث ليس طرفاً في القتال ماذا عليه أن يفعل ؟ قال:

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

كيف الإصلاح بين المؤمنين إن تخاصموا أو اقتتلوا ؟ إنّ الإصلاح أن يُدعى الطرفان إلى كتاب الله، وإلى حكم الله، وإلى حكم رسول الله، لأن هذا القرآن الكريم هو الحكم بين المؤمنين، وهو الفيصل في تحديد الباغي أو المَبْغِيّ عليه، قال تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

أي ادعوا الطرفين المتقاتلين، أو كلا الطرفين المتخاصمين، أو المتباغضين، أو المتعاديين، أو المتشاتمين إلى كتاب الله، وكتاب الله فيه كل شيء، وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم مبيّنةٌ لكل شيء، ففي الكتاب غُنْيَةٌ لكلّ خصومة، وفي السنة أيضاً تفصيلٌ لكل خلافٍ بين المؤمنين، ادعوا كلا الطرفين إلى العدل، إلى عدل كتاب الله وسنّته.

على المؤمنين جميعاً أن يقاتلوا الفئة الباغية إن لم تنصاع لأمر الله:

والحقيقة لو أن طائفةً من الطائفتين انصاعت وقالت: أنا أرضى بحكم الله، وأنا أرضى بحكم رسول الله، فإن هذه الفئة التي انصاعت نجت، أما الثانية إن لم تكن كالأولى.

(فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

أي أن مجموع المؤمنين يجب أن يقاتلوا الفئة الباغية، ولو أن هذه الآية مطبّقةٌ في العالم الإسلامي فإنّ المسلم قبل أن يعتدي على أخيه المسلم يتريّث كثيراً، لأنه إن فعل ذلك سيخسر كافّة المؤمنين، وسيوجه المؤمنين كافّةً إلى مستوى القِتال.

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

لو أن الفئة الثانية الباغية استجابت لانتهى الأمر.

القتال نوازعه أرضية لذلك علينا تغليب مصلحة المسلمين و وحدة صفهم:

الآن.

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا)

إن لم تستجب نقاتلها حتى تخضع، وأما إذا لم يستجب الطرفان المتقاتلان ويبغيان فإننا نقاتل الطرفين معاً، لكن الإنسان متى يلجأ إلى القتال ؟ فالقتال نوازعه أرضية، فتغليب مصلحة المسلمين، وتغليب وحدة صفِّهم، وسمعتهم، والألفة بينهم، وإيثار مصلحة كافّة المؤمنين على مصلحة فئةٍ منهم هذا مما يوجبه الإيمان، وهذه من صفات المؤمن المخلِص، فعندما يقاتل الإنسان في الأعم الأغلب يقاتل من أجل الدنيا، ومن أجل مكاسب رخيصة، فلذلك هذا هو الباغي، الباغي يجب أن نقاتله جميعاً.

(حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

إذا فاء الباغي إلى أمر الله لا تؤخذ غنائمه و لا تسبى نساءه:

لكن:

(فَإِنْ فَاءَتْ)

هذا الذي يبغي لا يجوز أن تؤخذ أمواله غنائم، فإن فاء، هذا ليس كافراً، فالله سبحانه وتعالى أثبت له الإيمان فقال:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

أثبت اللهُ للطائفتين الإيمان، ولذلك فالباغي إذا فاء إلى أمر الله وعاد إليه ورجع لا تؤخذ أمواله غنائم، ولا يُقتَل أسيره، ولا يُجْهَزُ على جريحه، ولا تسبى نساءه ولا ذراريه، ويُعامَل كمؤمن إذا فاء.

على المؤمن أن يصلح بين المتقاتلين بالعدل:

(فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا)

طبعاً الإصلاح هنا إقامة شرع الله، وإيقاف كل طرفٍ عند حدِّه فلا يعتدي، فهذا لك وهذا ليس لك:

((بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم على السمع والطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمرَ أهلَهُ))

[متفقٌ عليه عن عبادة بن الصامت]

أي إذا اجتمع المسلمون على مكره يجب ألا ننازع الأمر أهله، هذا من الدين.

على المؤمن أن يتقصى دقائق العدل بين الطرفين المتخاصمين:

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ)

بالعدل جاءت في المرحلة الثانية، وفي الأولى نَشِبَ القتال، أو نشبت الخصومة، ولكن في الثانية ربَّما تكوَّنت الأحقاد، وربما عدَّ كل طرفٍ الطرف الآخر متسبباً في هذا القتال، فالآن يجب أن نتقصَّى دقائق العدل، وتفاصيل العدل بينهما.

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا)

قَسَطَ بمعنى ظَلَمَ لقوله تعالى:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

(سورة الجن)

أما أَقْسَطَ أي أزال الظلم، أقسط.. بالهمز.. أي إزالة الظلم.

(وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ: هذه الآية توجب أشياء كثيرة منها:

ينبغي على الإنسان أن يعاون المَبْغي عليه:

أيها الأخوة... هذه الآية توجب أشياء كثيرة، وأول شيءٍ توجبه: أنه ينبغي أن تُعاون المَبْغِي عليه، فلا تقل: أنا ليس لي علاقة، شخصان اختصما في الحي، أو أخوان اختصما في البيت، فلا يجب أن يقف المؤمن متفرّجاً، هذان مؤمنان فإذا اختصما ضعفا معاً، قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 46 ")

تفشلوا أي تضعفوا، وتذهب ريحكم أي تذهب قوتكم، فلذلك الحكم الشرعي أنه إذا نشبت خصومةٌ بين مؤمنين، وبين طرفين أو بين أطرافٍ عدَّة لا ينبغي لك أن تقف أنت موقف المتفرّج وتقول: أنا ليس لي علاقة، فهذا الموقف سلبي وتُحَاسَب عليه، والدليل:

(فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

المنازعات و السكوت عليها سبب أساسي في تفتت عضد المسلمين:

لا شيء يعين الظالم على ظلمه كسكوت الآخرين على هذا الظلم، فلو أن كل مسلمٍ رأى انحرافاً، أو رأى ظُلماً بين مؤمنين ووقف إلى جانب المظلوم، لصار الظالم يفكِّر ألف مرّة قبل أن يقدم على ظلم أخيه، إذاً السلبية المقيتة التي تَفَشَّت بين المؤمنين، تجد أخوين متحاربين اثنتي عشرة سنة وبقية الأخوة متفرّجون، وأسرتين متعاديتين سنوات طويلة وبقية أطراف الأسرة متفرّجون، هذا الموقف الانهزامي أو السلبي ليس موقفاً إيمانياً يليق بالمؤمن لقوله تعالى:

(فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

هذه الآية أيها الأخوة... يجب أن نوسِّعها، ليست محصورةً في القتال، فالآية تشمل كل أنواع الخصومات، ولو أن الطرف الثالث وقف موقفاً مُنْصِفَاً من نزاعٍ بين مؤمنين، أو بين أطرافٍ عدّة من المؤمنين لحُسِمَ هذا الخصام ولعادت المياه إلى مجاريها، والتف المؤمنون وصاروا قوّةً لا يُستهَان بها، فما الذي ضعضع قوة المسلمين وفَتَّ في عضدهم، وفرّقهم وشتّت شملهم ؟ إنها هذه المنازعات فيما بينهم، وهذه الآية هي حلٌ لهذه المشكلة.

على الإنسان مقاطعة الباغي و زجره ليتقلص الظلم و ينمو العدل:

أنا لو وسّعت الآية إلى مستوى الخصومات بين الأسر ؛ فهناك خصومات، وتدابر، وبغضاء، وطعن، وغيبة، والأطراف الباقية متفرّجة تستمتع بهذه الخصومات، ولكن الموقف الإيماني يقتضي أن تنصح الطرفين بأن يلزما العدل، ويلزما ما أمر الله به.

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا)

يجب أن تقاطع الباغي، وأن تزجره، وأن توقفَه عند حدِّه، فبهذه الطريقة يتقلّص الظلم وتضيق دوائره، وينمو العدل وتتسع دوائره، ولذلك:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

ولو أن الله سبحانه وتعالى قال: صالحون لاختلف الأمر، لأن المعنى يختلف اختلافاً كبيراً، والله عزّ وجل لا يُهلِك قريةً وأهلها مصلحون، أما إذا كان أهلها صالحين، متفرّجين، يتأمّلون ما يجري،

ويستمتعون بما يجري، دون أن يتحرّكوا، ودون أن يقفوا مع المظلوم ومع المبغي عليه ضدّ الباغي، إن فعل هؤلاء كذلك استحقّوا الهلاك، إذاً:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

على المؤمن إذا نشبت فتنة بين المؤمنين أن يساهم في حلّها:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال: آية " 25 ")

إن الفتنة يجب أن يكون لك يدٌ في حلِها، مساهمةً، أو تمنّياً، أو حركة، أو كلمة، أو زيارة، أو كتابة كتاب، أو تحرُّكًا، أما أن تنشب فتنةٌ بين المؤمنين وأن تبقى متفرّجاً، وتقول: ليس لي علاقة، فالله عزّ وجل قال:

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

طبعاً مرّة ثالثة ورابعة الآية واسعة الشمول، ولا تعني الاقتتال الحقيقي أي سفك الدماء بين المؤمنين بل تعني أوسع من ذلك، تعني كل خصومةٍ بين المؤمنين لأن الخصومة إنما تُضعِف المؤمنين جميعاً.

لا يفشو الباطل وتتسع دائرة الظلم إلا إذا لقي الباغي احتراماً من الجميع:

أيها الأخوة... أقرأ لكم سطرين، قال علماء اللغة: **" المادّة قد تُحمَل على حقيقتها أو على مجازها فتتسع لهما "**، التعبير الشائع الآن يقول لك: قاتلت من أجله، أي دافعت، أي تكلّمت، يعني رددت، قاتلت من أجله، يقتتلون بمعنى يختصمون، فالمادة تُحْمَل على حقيقتها وعلى مجازها فتتسع لهما، لكي لا تقول: أنا ليس لي علاقة بهذه الآية، هذه إذا وجدنا الدماء سالت بين المؤمنين أفكِّر في هذه الآية، لا، إن هذه الآية تتسع لكل خصومةٍ بين المؤمنين، فينبغي للمؤمن أن يكون له يد، فأحياناً بكلمة، وأحياناً بكتاب، وأحياناً بموقف صُلْب ضد الباغي، فالباغي يعود، أما يبغي ولا أحد يردعه، أما أن يبغي والكل يسلِّمون عليه، ثم يبغي ويلقى احتراماً من الجميع، ويرى من يؤيده على بغيه، أو هناك من يطيّب له بغيه، فعندئذٍ يفشو الباطل وتتسع دائرة الظلم ويضمحلّ العدل، فهذه الآية يجب أن توضع موضع التنفيذ على أي مستوى من الخصومات.

الإصلاح أن يدعو المؤمن المتخاصمين إلى حكم الله وحكم القرآن وحكم النبي:

وعلى أكبر مستوى لو أن المسلمين كجماعاتٍ كبرى طبّقوا هذه الآية لما نُقِلت الأموال من بين أيديهم إلى أعدائهم، لكنهم لم يطبّقوا هذه الآية فاحتكموا إلى جهاتٍ أخرى، فكانت لهذه الجهات الأخرى فرصةٌ ثمينةٌ أن أخذت كل ما في أيدي المتخاصمين ولفّته إليها وبدأت تبتز أموال الأطراف جميعاً.

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

الإصلاح أن تدعوه إلى حكم الله، وحكم القرآن، وحكم النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا هو الإصلاح.

قتال الكفار يبيح أموالهم و ذريتهم أما قتال المؤمن لا يبيح ذلك:

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

(فَإِنْ فَاءَتْ)

هذا ليس كافراً بل هذا مؤمن، والدليل:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

إذاً ماذا نفهم من هذا الحكمِ شرعي ؟ هذا الذي بغى ثم فاء إلى أمر الله فأمواله ليست غنائم، وأسيره لا يُقتَل، وجريحه لا يُجْهَز عليه، وذراريه لا تؤْسَر، ولا يضمن ما فعل، فهذا هو البغي وليس هو كقتال الكفّار، فقتال الكفّار يبيح أموالهم، وذراريهم، ولكن قتال المؤمنين لا يبيح كل ذلك، حتى إنّ هذا الذي يُقتَل في معركةٍ من هذه المعارك يُغَسّل ويُصلّى عليه ويُدفَن في مدافن المسلمين، بل إن الذي فاء إلى أمر الله إذا قُتِل يُعَدُّ شهيداً، فهو الذي رجع وكان مبغياً عليه فهذا لا يُغسّل بل يُدفَن بثيابه لأنه شهيد، ففرقٌ كبير بين أن تنشب خصومةٍ تنتهي إلى قتالٍ بين مؤمنين وبين أن يقاتل المؤمنون الكفّار، إنه فرقٌ كبيرٌ في الأحكام الشرعية، فهذا لا يُقال له كافر بل يُقال له باغٍ، والباغي يوقف في وجهه، ويُردُّ إلى حكم الله ورسوله فإن أبى فيُقَاتَل.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ: آية لها عدة معان:

1 - جاء التعبير عن إخوة المؤمنين بالتعبير الاسمي لأنه يدل على الثبات و الاستمرار:

أيها الأخوة الكرام... ويقول الله سبحانه وتعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

والعلاقة بين الآيتين واضحةٌ جداً، والمؤمنون إخوة، وأول ملاحظة: هذا التركيب الاسمي، ومعنى التركيب الاسمي أي مؤلّف من مبتدأ وخبر، والتركيب الفعلي مؤلّف من فعل وفاعل، والتركيب الاسمي يدل على الثبات والاستمرار، بينما التركيب الفعلي يدل على الحدوث والانقطاع، دخل فلانٌ إلى غرفته، أي انتهى الدخول، لكن إذا قلنا: فلانٌ طويلٌ فهذا تركيبٌ اسمي، والتركيب الاسمي يدل على الاستمرار والاستقرار، والتركيب الفعلي يدل على الحدوث والانقطاع، ولذلك جاء التعبير عن إخوة المؤمنين بالتعبير الاسمي.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

2 ـ تشبيه العلاقة بين المؤمنين بأرفع علاقة بين الناس و هي علاقة النسب:

ويوجد معنى آخر:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

هذا تشبيه بليغ، شبَّه العلاقة بين المؤمنين بأرفع علاقة بين الناس وهي علاقة النَسَب، فكيف أن هذا الأخ أخٌ لك على التأبيد، وهل يستطيع أحدٌ أن يقول: هذا ليس أخي ؟ هو أخوك شئت أم أبيت، أخوك من أمِّك وأبيك شئت أم أبيت، وكيف أن التوالد بين الناس يسبب دوام النَسَب، كذلك الإيمان يسبب دوام الأخوة، فما دام الإيمان هو الأصل فالأخوة مستمرّة إلى ما شاء الله، وما دام التوالد هو الأصل فهذه أخوة النسب مستمرة، فكما أن أخوّة النسب مستمرّة فأخوة الإيمان مستمرّة، ولذلك شُبِّهَتْ العلاقة بين المؤمنين بالعلاقة بين الأخوين الشقيقين اللذين من أمٍ واحدةٍ وأبٍ واحد، وهذا المعنى الثاني.

3 ـ التأكيد على أن المؤمنين إخوة:

والمعنى الثالث: فكلمة " إن " هذه تفيد التوكيد، فلو أن الله سبحانه وتعالى قال: المؤمنون إخوة فهذا شيء، وقوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

4 ـ ما لم تشعر بانتمائك إلى أخيك في الإيمان فلست مؤمناً:

(إنما)

هذه كافّةٌ ومكفوفة تفيد معنىً رابعاً وهو أدق معاني هذه الآية وهو: أنه ما لم تشعر بانتمائك إلى أخيك في الإيمان فلست مؤمناً، وعلامة إيمانك أن تشعر بقربك الشديد من أخٍ مؤمنٍ ولو كان بعيداً عنك، أو من بلادٍ أخرى، ولو كان من أقوام أخر، لذلك:

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصَحَة متوادّون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

الله عز وجل هو وحده القادر على خلق المودة بين المؤمنين:

أي أن أحد أسباب شعورك أن هذا الذي أمامك مؤمن فهذا هو الود، والحب بين المؤمنين، ولذلك قال تعالى:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 63 ")

والإنسان لا يُشْتَرَى بالمال، وأي صفقة مهما كان الثمن باهظاً لشراء إنسان، ومودّته، وصلته، وحبّه، فهذه الصفقة خاسرة، لكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق المودّة بين المؤمنين، لذلك:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

أول معنى: التركيب اسمي.

وثاني معنى: إنّ تفيد التوكيد.

وثالث معنى: إنما تفيد القصر والحصر، أي ما لم تشعر بهذه المودّة، وهذا الحب، وذاك الانتماء فأنت لست مؤمناً، فإيمانك يقتضي أن تُحِسّ بالأخوة بين المؤمنين، وأن تحسّ بالمحبّة والشوق والمودّة والنُصح للمؤمنين.

كلما ازدادت استقامة المؤمنين ضاقت الدائرة التي تجمعهم:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

بالمناسبة: أوسع دائرة دائرة المؤمنين، وكل إنسان آمن بالله عزّ وجل، آمن به موجوداً وواحداً وكاملاً فهو مؤمن، أما الأنبياء فيقعون في مركز هذه الدائرة، وأوسع دائرة كل من أقرّ بأن الله موجودٌ وواحدٌ وكامل فهو مؤمن، آمن بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، فهذا هو المؤمن، والآن فكلّما ازدادت استقامة المؤمنين ضاقت الدائرة التي تجمعهم، فمؤمن ملتزم، ومؤمن غير ملتزم، والدليل الآية الكريمة:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ)

(سورة الأنعام)

فمعنى هذا أن هناك إنسانًا يؤمن ولكنه غير مستقيم، أو مؤمن غير ملتزم، فهذا يدخل في أوسع دائرة، أما إذا كان ملتزمًا فيدخل في الدائرة الصغرى، وكلّما اشتدّ التزام المؤمن تضيق الدائرة، ولذلك نحن نبحث عن مؤمن ملتزم، وهذه الدائرة إذا جمعت المؤمنين الملتزمين فهي دائرةٌ مباركة، فنحن نبحث عن مؤمنٍ ملتزم، فإذا كنت مع الملتزمين فهذه أمتن علاقةٍ بين المؤمنين.

5 ـ يجب أن يكون انتماء الإنسان إلى مجموع المؤمنين لا إلى جماعة قليلة منهم:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

ومعنى الآية أيضاً: ينبغي أن يكون انتماؤك لمجموع المؤمنين لا إلى جماعةٍ قليلةٍ تعمِّق انتماءك إليها على حساب انتمائك للمجموع العام، وهذا مما يفتت المؤمنين.

الإصلاح واجب إذا ظهر الفساد بين المؤمنين:

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

لماذا جاء هنا بالمُثَنّى ؟ طبعاً إذا ظهر فساد بين مؤمنين فالإصلاح بينهما واجب، أما إذا ظهر فساد بين مجموعة مؤمنين فإن الإصلاح بينهم من باب أولى، فالحد الأدنى لو أن مؤمنين اختلفا فينبغي أن تُصلِحَ بينهما، ولذلك فالمؤمن الصادق إذا رأى خصومة، أو مشكلة، أو قضية، أو مشاحنة، أو تدابراً، أو تباعداً، أو هجراً بين المؤمنين، ينبغي ألا يبقى متفرّجاً، بل يتحرّك، وهذا من أعظم الأعمال الصالحة، يتحرّك للإصلاح بينهما، ألم يقل الله عزّ وجل:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال: آية "1 ")

أي أصلحوا ما بينكم من علاقاتٍ لا تُرْضي الله عزّ وجل.

طاعة الله عز وجل تزيل أسباب الخصومة بين المتخاصمين:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

فعندما يتقي الإنسان الله يلتقي مع أخيه، ولو أن الأخوين اتقيا ربَّهما لالتقيا، ولو أن كل مؤمنٍ أقام الإسلام في بيته، وأقامه في عمله، والتزم كل حدود الله عزّ وجل لوجد نفسه مع أخيه المؤمن قَلْباً

وقالباً، فالطاعة لله تجمع، والمعصية تفرّق، ولو أن كل مؤمنٍ أخذ ما له وترك ما ليس له لالتقى المؤمنون، ولو أن كل أبٍ عرف ما عليه وما له لعمّ الوئام بين هذه الأسرة، ولو أن كل أخٍ أخذ ما له وترك ما ليس له لتوافق الأخوة، أنظر إلى الآية:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

فما الذي يسبب الخصومة بين الأشِقّاء ؟ إنه عدم العدل بينهم، فلو أن الأب التزم العدل بين أولاده لما أوقع بينهم العداوة والبغضاء، ولائتلف الأولاد ولأحبّ بعضهم بعضاً، فالذي يزيل أصل الخصومة طاعة الله عزّ وجل، أن تأخذ ما لك وتدع ما ليس لك، ولذلك قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

عدم وقوع العداوة بين الإنسان و أخيه إلا بذنبٍ اقترفه أحدهما:

لذلك لو تصوّرنا أخوين بينهما خصومة فإن المتسبب بالخصومة هو البعيد عن طاعة الله عزّ وجل، وأقربهما إلى الله أشدُّهما حُبّاً لصاحبه، فالإنسان لا تقع بينه وبين أخيه المؤمن عداوةٌ إلا بذنبٍ اقترفه أحدهما، أبداً، فما من خصومةٍ بين مؤمنين إلا بسبب ذنب، وهذا الذنب يسبب أخْذ ما ليس له، أو أن يستطيل بلسانه على أخيه إرضاءً لغروره، أو لهوىً في نفسه، أو لنزوةٍ طارئةٍ في سلوكه، فلذلك فإن الإنسان إذا تواضع لله عزّ وجل وعرف حدّه نشأت علاقةٌ طيّبةٌ بينه وبين المؤمنين، وأيّة خصومةٍ أساسها المعصية، وحبُّ الدنيا، والأهواء، والمصالح المتنازَع عليها.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

ونحن بطاعة الله عزّ وجل نفوز جميعاً.

كلما زاد حظ الدنيا مال الإنسان إلى التفرد و التنافس:

أيها الأخوة الكرام... كلمة أقولها لكم: الإنسان بدافع طبعه يحبُّ التفرُّد، ويحب السيطرة، ودافع تغليب مصلحة المسلمين على مصلحته الشخصية فيجب أن ينضوي مع المؤمنين، وعندما ينضوي الإنسان مع الجماعة طبعاً تَقِلُّ حظوظه من الدنيا، وتزيد حظوظه من الآخرة، فكلّما زاد حظُّ الدنيا مال الإنسانُ إلى التفرُّد، واستقصاء التفرُّد، والاستبداد، فعندنا تعاون وعندنا تنافس، وإنصاف وجحود، والجحود من الدنيا والتنافس منها، والإنصاف من الآخرة والتعاون منها، ولذلك الآية الكريمة:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: آية " 2 ")

موضوعات السخرية لا قيمة لها عند الله و ليست هي المرجحة بين عباد الله:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ)

وموضوعات السخرية على أشكال، فأحياناً الفقر، وأحياناً ضَعْف المعلومات، فالعالِم في اختصاص معيَّن يسخر من الجاهل، والغني يسخر من الفقير، والقوي من الضعيف، والوسيم من الدميم، والصحيح من المريض، وهذه الموضوعات التي هي موضوعات السخرية هذه موضوعاتٌ لا قيمة لها عند الله، وليست هي المرجِّحة بين عباد الله، ولذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً)

قد يتوهّم الغني أنه أفضل عند الله من الفقير، والحقيقة أنّ الفقير الذي لا يملك شيئاً من حطام الدنيا قد يكون له مقامٌ عند الله يفوق بآلاف المرات هذا الغني، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((أهلاً بمن خبّرني جبريل بقدومه (وكان صحابيّاً فقيراً) قال: أو مثلي؟ قال: نعم يا أخي خاملٌ في الأرض علمٌ في السماء))

العبرة بخواتيم الحياة لا ببداياتها:

خطأ كبير أن يظن الإنسان نفسه أنه غني والفقير ليس له قيمة عند الله عزّ وجل، فهذا الذي تراه فقيراً، وبيته صغير، ودخله قليل، وأثاثه خشن، وطعامه رخيص، ولباسه خشن، وقد لا يكفيه دخله لثمن طعامه، هذا ربّما كان أقرب إلى الله من الغني، وربّما كان أكرم على الله من الغني، والعبرة بخواتيم الحياة لا ببداياتها.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

وقد يوجد إنسان قوي أي يتحرّك حركة فيهُز الآخرين بحركته، ومع ذلك قد يكون المستضعف أكرم على الله منه، وأقرب إلى الله منه، فلا القوّة ولا الوسامة ولا الذكاء يرفعك عند الله، ولا الشهادات العُليا ترفعك عند الله، وأحياناً يكون العلم المادي العصري الذي هو من حظوظ الدنيا، ففلان معه دكتوراه دولة ودائماً يحب أن يُنادَى به، فإذا لم يُنادَ به فقد يتألّم أشدّ الألم، إلا أنك قد تجد إنسانًا لا يحمل هذه الشهادة ولكنه مستقيمٌ على أمر الله، وهذا الذي يحمل هذه الشهادة ليس ملتزماً، لكن من هو العالِم عند الله ؟

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله وكفى به جهلاً أن يعصيه))

[أخرجه الدارمي عن مسروق]

فالعاصي مدموغ بالجهل، والطائع مدموغ بالعلم، العالم طاعته شهادته، والعاصي معصيته دليل جهله، فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ)

من رأى عاصياً عليه أن يحمد الله أن هداه للإيمان و يدعو له بالتوبة:

الآن يوجد موضوع جديد، حتى لو كنت مقيماً على طاعة الله ورأيت إنسانًا مبتلى بمعصية، فأنت الآن طائع وهو الآن يعصي، ولو زهوت بطاعتك واحتقرت هذا الإنسان وهذه المعصية، ونسيت أن الله سبحانه وتعالى أكرمك بالهُدَى وأعانك على طاعته، وأن هذا المبتلى قد يتوب وقد يسبقك بآلاف الخطوات، حتى المؤمن إذا رأى عاصياً لا يحتقره بل يقول: أرجو الله أن يهديه، ولو لم يتفضّل الله عليّ لكنت مثله، ولذلك فالنبي الكريم علّمك إذا رأيت مبتلىً أن تقول:

((الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه))

ولكن دون أن تسمعه هذا الكلام، ففي إسماعه لهذا الكلام كسرٌ لقلبه، وعلى كلٍّ فالنبي الكريم يقول:

((الذنب شؤمٌ على غير صاحِبِه إن تكلّم به فقد اغتابه، وإن أقرّه فقد شاركه في الإثم، وإن عيّرَهُ ابتلي به))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

وحتى لو رأيت عاصياً يجب أن تحمد الله عزّ وجل أن هداك للإيمان وأن أعانك على طاعته، وأن تدعو له بالتوبة والطاعة لله عزّ وجل، هذا هو المؤمن.

موضوع السخرية موضوع فيه شرك بالله و تجبّر على عباده:

وبصراحة أقول لكم: جنس السخرية عند المؤمن غير موجود، حتى إنه لا يسخر ممن يعصي الله، فموضوع السخرية في الأساس موضوع فيه تَجَبُّر، وفيه شرك بالله عزّ وجل، واعتزاز بالنفس، وعنصر السخرية أصلاً لا يدخل في حياة المؤمن، لا يسخر من فقير إذا كان غنيًّا، ولا من ضعيف إذا كان قويًّا، ولا من دميم إذا كان وسيماً، ولا من مريض إذا كان صحيحاً، ولا ممن لا يحمل شهاداته إذا كان متعلِّماً، ولا ممن يقع في ذنبٍ أمامه إذا كان هو مستقيماً، لكنه يرى فضل الله عليه دائماً.

وأقول لكم هذه الكلمة: السخرية جملةً وتفصيلاً في كل مستوياتها، وفي كل مناحيها، وفي كل

موضوعاتها لا يمكن أن تدخل في حياة المؤمن، ولا يسخر أبداً لأنه يعلم أن فضل الله يؤتيه من يشاء، وأن هذا الذي سَخِرَ منه ربما رفاقه.

ومرّة كان رجلٌ يملك من المال ما لا سبيل إلى حصره، تقدّم مهندس وسيم الطلعة وأخلاقه عالية لخطبة ابنته، فقال ساخراً: كم دخلك ؟ فاستقلّ دخله ورفض أن يزوّجه ابنته.. والقصّة رواها لي والله أخٌ صادق وقد وقعت في هذه البلدة ولا سبيل إلى تفاصيلها.. ولم يمض أربعة أو خمسة أعوام حتى اضطر هذا الغني أن يعمل عند هذا المهندس موظّفاً، ثم توسّط له من شَجّعه على خطبة ابنته، والله عزّ وجل بترتيب معين كانت له مشاريع ومعامل، فبقرار واحد أُلغيت وعليه نفقات كبيرة جداً والتزامات كبيرة، فالالتزامات فوق كل أملاكه فوقع في عجز كبير وأعلن إفلاسه، ثم بحث عن هذا الخاطب قبل أربع سنوات لعلّه يخطب ابنته، فخطبها وتزوّجها وعمل هذا العمُ عند صهره موظّفاً.

(لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ)

الله كبير.

الإنسان العاقل لا يسخر من أحد حتى ممن يعصي الله فلعل الله يتوب عليه :

أيها الأخوة... مرّةً ثانية: السخرية مرفوضة في حياة المؤمن، حتى في موضوعات الدين لا تسخر ممن يعصي الله فلعلّ الله يتوب عليه، ولعلّه يسبق الساخر، وطبعاً هي معصية وأنت في طاعة، ولكن بدل من أن تسخر اشكر الله عزّ وجل على أن هداك إليه وأعانك على طاعته، وبدل من أن تسخر ادعُ له بالتوبة، وتوجّه لنصحه، وجنس السخرية لا يمكن أن يدخل في قاموس المؤمن في كل موضوعاتها، وفي كل مستوياتها، والسخرية تَجَبُّر وشِرْكٌ، فما معنى كونها شركًا ؟ أي أنت بذكائك حصّلت ما حصّلت إليه ؟ لا، بل بفضل الله عزّ وجل، ماذا قال قارون ؟ قال:

(إنّمَا أوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

هذا هو الشرك، فمن الذي يسخر ؟ من غاب فضل الله عنه، يرى جهده، وذكاءه، وعمله الدؤوب، وماضيه الطويل، وخبراته المتراكمة، هذا الذي يسخر، أما الذي يرى فضل الله عليه فلا يسخر بل بالعكس إنه يشكر، والشكر مكان السخرية، والنُصْح مكان السخرية، اشكر الله على ما أنت فيه، وانصح وادعُ لهذا الذي تراه أقلّ منك، وهذا نهي في القرآن الكريم، آية صريحة.

(يَا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ عَسَى أنْ يَكُونُوا خَيْراً)

المؤمن الحقيقي هو المؤمن الذي يبعد عنه السخرية و تعليقاتها:

تروي كتب الأدب أن رجلاً غنياً جلس مع زوجته يأكلان دجاجاً، طُرِقَ الباب، ففتحت الزوجة الباب فرأت متسوّلاً، همّت أن تعطيه من هذا الطعام شيئاً فنهرها زوجها ووبّخها وقال: اطرديه، وبعد حين ساءت العلاقات بين الزوجين فطلّقها، وتزوجت بآخر فكان غنياً، ومرّةً كانت مع زوجها الثاني يأكلان الدجاج فطرق طارقٌ، فذهبت لتفتح الباب فوجَمَت، قال: ما لكِ ؟ قالت: لا شيء، قال: قولي، قالت: أتدري من الطارق ؟ إنه زوجي الأول، قال: وهل تدرين من أنا ؟ إنني السائل الأول، فالله عزّ وجل قادر أن يجعل الفقير غنياً، فإذا أعطى أدهش، وإذا سلب أدهش، وأحياناً يُدهِش بالعطاء ويُدهِش في السلب، أحياناً شخص لا تعبأ به وقد يصبح في منصب كبير جداً، وأنت عنده تعمل، فالمؤمن لا يسخر.

لا يسخر قويٌ من ضعيف، ولا غنيٌ من فقير، ولا صحيحٌ من مريض، ولا وسيمٌ من دميم، هذه الوسامة بحادث بسيط يصير الإنسان مشوّهاً، فأين جماله ؟ ولا صحيحٌ من سقيم، ولا غنيٌ من فقير، ولا عالِمٌ من جاهل، فالجاهل علِمه، ولكن إياك أن تسخر منه، هناك جبابرة العلماء إذا سألهم واحد سؤالاً فيمطرونه سخريةً، فما هذا السؤال ؟ أنت اشكر الله على أن علّمك وزكّاك عن هذه النعمة بتعليم هذا الإنسان، فالسخرية وتعلّقاتها لا يمكن أن تكون داخلةً في حياة المؤمن، أيسخر ؟ فمعنى هذا أنه مشرك، أيسخر فهو متجبّر، وهل يسخر ؟ فيتجاهل أن الله بيده كل شيء، وأنه يجعل الفقير غنياً والغني فقيراً، والمريض صحيحاً والصحيح مريضاً.

كل إنسان يعتز بشيء ويحتقر ما عند الآخرين يقصمه الله عزّ وجل:

وقصة ليست في بلادنا بل في بلاد الغرب..إنه رجل يؤمن أن الجري هو كل شيء، مات وهو يجري، والجري عنده الصحة كلّها، فالجري مفيد جداً، أما أن تعبده من دون الله فلا، فكان حتفه في الجري، فكل إنسان يعتز بشيء ويحتقر ما عند الآخرين يقصمه الله عزّ وجل.

((الكبرياء إزاري والعظمة ردائي فمن نازعني فيهما شيئًا قصمته ولا أبالي))

[أخرجه أبو داود و ابن ماجه و أحمد عن أبي هريرة]

سيدنا عمر بن الخطاب بلغه أن أحد الأشخاص الذين كانوا معه ذهب إلى بلاد الشام وشَرِبَ الخمر وتنصَّر... الخ، فما سخِرَ منه بل أرسل له كتاباً رقيقاً وقال له: **"أما بعد ذكّره بربه.**

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ)

(سورة غافر: آية " 3 ")

أحمد الله إليك.. "، فهذا الذي يشرب الخمر وشرد عن أمر الله عزّ وجل يقرأ ويبكي إلى أن تاب الله عليه، فالمؤمن عنده رحمة وتواضع، وعنده شعور أن فضل الله عليه كبير، ألا تقرؤون قول الله تعالى:

(وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

الله علّمك وعلِّمه، ورفع شأنك فخذ بيده إليك.

من أراد محبة الناس عليه ألا يسخر منهم:

حاطب بن بلتعة ارتكب خيانة عُظمى، فقال سيدنا عمر: **يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق،** فقال له:

((لا يا عمر إنه شَهِدَ بدراً))

فجاء بحاطب وقال:

((يا حاطب ما حملك على ما فعلت))

قال له: والله يا رسول الله ما كفرت ولا ارتددت، ولكن أردت أن يكون لي صنيعة عند قريش أحمي بها مالي وأهلي، والله (أعادها ثانية) ما كفرت ولا ارتددت، فالنبي قال:

((إني صدقته فصدِّقوه ولا تقولوا فيه إلا خيراً))

أنهضه من عثرته، وأقاله من كبوته، ثم حسن إسلامه وأرسله مندوباً شخصياً له إلى بعض الملوك، أنت بالسخرية يصبح الطرف الآخر عدوّاً لك، ولكن بالنصح يحبّك، ولا يوجد شيء يبعد النفوس كالسخرية، والنصح يقرّب النفوس، فإذا أردت أن يحبك الناس فإياك أن تسخر منهم، ولا تسخر أبداً لعلّه أفضل منك عند الله.

السخرية علامة جهل وشرك وتجبّر :

مرّة كنّا في عرفات قبل أعوام، قال أحد الخطباء في عرفات: لعلّ واحداً منكم ممن لا يؤوبه له غفر الله له وبمغفرته غفر لنا، هناك أشخاص ربما كانوا عند الله في مقام عالٍ وأنت لا تعرفهم، فإياك أن تسخر من أحداً، السخرية علامة جهل وشرك وتجبُّر، وتوجد آية صريحة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنّ خَيْراً مِنْهُنّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ)

الإنسان المؤمن يسعى دائماً للحرص على وحدة المؤمنين و سمعتهم:

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات، ولكن الذي أرجوه من الله تعالى أن تُتَرْجَمَ هذه المعاني إلى علاقات، وإلى سلوك يومي، أي إذا بلغ واحد منا خصومةٌ بين أخوين فلا يقل: (ما دخلني يصطفلوا، فخار يكسِّر بعضه)، بل هذا ليس كلام مؤمنين، بل هذا كلام كفّار، وليس كلام رحماء، بل ليس كلام إنسان الإيمان غالٍ عليه، وليس كلام إنسان يحرص على سمعة المؤمنين، وعلى وحدة صَفِّهم، وعلى قوّتهم، فلذلك الموقف السلبي محرَّم في نص هذه الآية:

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

وأنا متشدِّد في فهم الآية بالمعنى الواسع، فالقضية ليست قضية اقتتال وسيل دماء، بل الخصومات، و الذي يفرّق المؤمنين الآن خصوماتُهم، فلا تُحدِث خصومة، انفتح وكن عدلاً ورحيماً ومتواضعاً.. فما أخلص عبدٌ لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودّة والرحمة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (4-6): تفسيرالآية 11،الغيبة و النميمة و التنابز بالألقاب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-05-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام...مع الدرس الرابع من سورة الحجرات.

الغيبة و النميمة أساس تمزق المجتمع:

مع الآية الحادية عشر وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

أيها الأخوة الكرام... كما تعلمون من قبل أنّ الله سبحانه وتعالى يخاطب الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروعه، فهناك دعوةٌ إلى الإيمان بالله، والإيمان بوجوده، وبوحدانيته، وبكماله، وهناك دعوةٌ إلى تطبيق منهجه، فهذه السورة من فروع الدين، فبعد أن آمن هذا الإنسان بربه فالآن تأتيه التوجيهات التفصيلية ؛ افعل ولا تفعل، فمن هذه التوجيهات التفصيلية أن نظام العلاقات الاجتماعية إذا شاعت فيه الغيبة والنميمة تمزّق المجتمع، والله سبحانه وتعالى أراد أن نجتمع، وكيف أراد أن نجتمع ؟ سمح لكل واحدٍ منا أو مَكّنَهُ أن يتقن عملاً وجعله في أمس الحاجة إلى ملايين الحاجات، وهذا التصميم الإلهي أراده الله لنا ومن محصلته ونتائجه الاجتماع.

مناط التكريم عند الله عز وجل ما استقر في القلب من معرفة الله:

نحن مقهورون للاجتماع، أنت محتاجٌ إلى أن تأكل وتشرب وترتدي ثياباً، وتسكن في بيت، وتعلِّم أولادك، وتعالج نفسك عند طبيب، وتقاضي عند قاضٍ عن طريق محام، فأنت تتقن عملاً واحداً أو عملين، لكنك في أمس الحاجة إلى ملايين الأعمال، فلذلك نحن نجتمع، وبنظام الاجتماع من أجل أن نبقى متماسكين، متعاونين، متحابّين، متناصرين، متفاهمين، ولتغدو الحياة جميلةً، فاضلةً، مسعدةً، مريحةً، ناعمة البال، هادئةً، جاء التشريع الإلهي المتعلّق بالعلاقات الاجتماعية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ)

كأن الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا أن المظاهر التي تروْنَها، وأن الصور التي تشاهدونها، والمتاع الذي تحوزونه لا قيمة له إطلاقاً في ميزان الرقي عند الله عزّ وجل ؛ فلا مكان البيت، ولا حجمه، ولا تزيينه، ولا أثاثه، ولا طول القامة، ولا اللون المتألِق، ولا اتساع العينين، ولا نوع المركبة، فهذه الصور التي تؤخذون بها، وهذا المتاع الذي تحوزونه هذا كله ليس مناط التكريم عند الله عزّ وجل، فمناط التكريم ما استقر في قلوبكم من معرفةٍ لله عزّ وجل، ومن مشاعر نبيلة تجاه الناس، وإخلاصٍ لله عزّ وجل.

الجاهل من يسخر من الإنسان الفقير المستضعف:

لذلك الذي يسخر من إنسان فقير هو جاهل، قد يكون هذا الفقير أرقى عند الله منك، والذي يسخر من إنسان ضعيف مستضعف أيضاً جاهل، والله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة قوّاك وضَعَّفَهُ، وليست القوة دليل قربك من الله، فالله عزّ وجل أعطى الملك مَن لا يحب، فقد أعطاه فرعون، وأعطى المال مَن لا يحب، فقد أعطاه قارون، فهذه الصور التي يتيه الناس بها، وهذا المتاع الذي يتفاخر الناس باقتنائه، وهذه المركبات التي يزهو الناس بركوبها، وهذه البيوت التي يبالغ الناس في الاعتناء بها، أي هذه الصور التي تلتقطها أعينكم لا قيمة لها عند الله عزَ وجل، وليست هي مناط التكريم.

فالتكريم ما استقر في قلوبكم من معرفةٍ بالله، ومن تعظيمٍ له، وإخلاصٍ له، وإخلاصٍ للخَلْق، ورغبةٍ في خدمة الخلق، ورحمة:

((إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

[أخرجه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة]

وهذا مقياس دقيق.

المؤمن كلما اقترب من الله اقتربت موازينه من موازين الشرع:

لذلك فالله عزَ وجل قال: إياكم يا عبادي، إياكم ثم إياكم أن تسخروا ممن هو دونكم في مظاهر الدنيا، فلا ينبغي للغني أن يسخر من الفقير، ولا للقوي أن يسخر من الضعيف، ولا للصحيح أن يسخر من المريض، ولا للوسيم أن يسخر من الدميم، ولا المستقيم الطاهر مسموحٌ له أن يسخر من العاصي، هو عاصٍ ولكن بعد حين قد يكون أقرب إلى الله منك، فحتى العاصي لا ينبغي لك أن تسخر منه، بل عليك أن ترثي حاله وأن تدعو له بالهدى وأن توجّهَهُ إذا أمكنك التوجيه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنّ خَيْراً مِنْهُنّ)

والنقطة الدقيقة: متى الإنسان يظلم نفسه ؟ إذا احتقر مخلوقاً فهو عند الله عظيم، فظلمٌ كبير أن تتهم إنساناً بشيءٍ من حطام الدنيا وهو عند الله عظيم، فأنت ما أعطيته حقه، ومقياسك غير صحيح، ولذلك فالمؤمن كلما اقترب من الله اقتربت موازينه من موازين الشرع ؛ وكلما ابتعد عن الله تصبح له موازين ليست في الكتاب ولا في السنة، فهذا القرآن كله بين أيدينا.

العلم والعمل أقرهما الله عز وجل لوزن الخلق فقط:

أيّ ميزانٍ أقره الله عزّ وجل لوزن الخلق ؟ فميزان الجمال مثلاً لا قيمة له قال:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: آية "221 ")

أميزان المال ؟ كذلك لا قيمة له.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبّلَ مِنْكُمْ إِنّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

أميزان الذكاء ؟

(إِنّهُ فَكّرَ وَقَدّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدّرَ (19) ثُمّ قُتِلَ كَيْفَ قَدّرَ (20) ثُمّ نَظَرَ (21) ثُمّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22))

(سورة المدثر)

فكل هذه المقاييس التي تواضع الناس على أنها مُرَجّحات بين الخلق، فالقرآن الكريم لم يعترف بها ولم يقم لها وزناً إلا مقياسين حصراً ؛ العلم والعمل، قال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: آية "9 ")

وقال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: آية " 132 ")

قيمة الإنسان عند ربه بإيمانه و عمله الصالح:

أنت كلما اقتربت من الله تقترب في الموازين التي تستخدمها من موازين القرآن، وكلما ابتعدت عن الله عزّ وجل تستعمل موازين ما أنزل الله بها من سلطان، تقيم الإنسان بحجمه المالي، أو بقوته، أو بمدى

تمكنه من السيطرة على الآخرين، أو بوسامته، أو بذكائه الشيطاني، أو بنسبه وكلها عنعنات ما أنزل الله بها من سلطان، فلذلك كأن الله سبحانه وتعالى يبيّن أن هذه الصور التي تقع على أعينكم ؛ بيت فخم، ومركبة ثمينة، وقامة منتصبة، ولون متألِق، وذكاء عالي المستوى لكن ليس في سبيل الله، هذه الصور التي تقع على أعينكم والتي يتفاضل الناس فيها لا قيمة لها عند الله، فالقيمة لإيمانك وعملك الصالح، ولِما استقر في القلب من رحمةٍ ومعرفةٍ وإخلاصٍ وإنابةٍ إلى الله عزّ وجل، وهذا يؤكده النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

[أخرجه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة]

حتى أن بعض العارفين بالله سمّى القلب: منظر الرب، ورد في الأثر القدسي أن:

((يا عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة ؟))

تناقض الكبر مع العبودية لله عز وجل:

تعتني بأثاث بيتك، وبمدخل البيت، تنظف مركبتك، تلبس ثيابًا أنيقة، فهذا منظر الخلق.

((أفلا طهرت منظري ساعة ؟))

وقد ورد في الحكم **" لا تجعل الله أهون الناظرين إليك "**، ولا تجعل الله الخالق العظيم أهون الناظرين إليك، فالإنسان أحياناً يستحي من ضيف تكون ثيابه غير أنيقة، بل متبذِّلة، فلا تجعل خالق الكون الذي يراك حين تقوم أهون الناظرين إليك، يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنّ خَيْراً مِنْهُنّ)

فقد تجد امرأة أقل جمال من أختها لكنها أكثر معرفةً بربّها، وأكثر رعايةً لزوجها، وعطفاً على أولادها، وطاعةً لله، فهذا الجمال يذوي، وهذا التيه والزهو لا شأن له عند الله عزّ وجل، فأنت متواضع بقدر إيمانك، متكبّر بقدر بعدك عن الله عزّ وجل، فلا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر لماذا ؟ لأن الكبر يتناقض مع العبودية لله عزّ وجل.

الجاهل من يستعلي على الناس و يتيه عليهم:

يمكن للحليب أن يضاف له من دون غش ضمن البيت، تضيف له لبنًا أوضح، فأن نضيف إلى اللبن ثلاثة أمثاله ماء وتعمله شراباً، فهو يتحمل أن تضيف له ثلاثة أمثال، ولكن لا يتحمل قطرة نفط واحدة،

وعندئذٍ يفسد وتلقيه في قارعة الطريق، فكذلك العبودية لله عزّ وجل لا تحتمل كبراً أبداً، ويجوز للإنسان أن يغلط آلاف الأغلاط عن غير قصد وعن غير تصميم ويتوب منها سريعاً، أما أن يأخذه العُجْب، و يستعلي على الناس، ويتيه على الناس بشكله، أو بماله، أو بقوته، أو بوسامته، أو بذكائه، فهذا الكبر يتناقض مع العبودية لله عزّ وجل، ولذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ)

المؤمن الغني هو المؤمن المتواضع أمام الفقراء، السخي في إنفاق المال:

أذكر أنني في الدرس الماضي قلت هذه الكلمة: السخرية جملةً وتفصيلاً في أي موضوع وفي أي مستوى وفي أي درجة ليست داخلةً في حياة المؤمن إطلاقاً، فلا يسخر إطلاقاً، وإن أردت التفصيل لا يمكن أن يضاف إلى كلمة مؤمن ولا كلمة أخرى، تقول: مؤمن فقط، أو مؤمن فقير، والفقر وسام شرف، فالنبي كان فقيراً، والفقير المؤمن متجمل، عفيفٌ عن المطامع وعن المحارم، وراضٍ بنصيبه من الله عزّ وجل، وعزيز النفس، ولا يبذل ماء وجهه لإنسانٍ ولا يثق بمودته، تقول: مؤمن غني، فالغني مقيد بالشرع، وسخيٌ في إنفاق المال، ومتواضعٌ أمام الفقراء، إذاً لم يعد اسمه غنياً، غني بحجمه المالي، أما بأخلاقه فمؤمن، والفقير لم يعد فقيراً، عنده نقص في المال، ولكن لا يوجد عنده نقص بالأخلاق، فأخلاقه عالية، مؤمن ريفي، الإيمان رفع شأنه إلى أعلى مستوى، فالعنعنات لا توجد في الإسلام.

الناس رجلان بر تقي أو غافل شقي:

والناس كما تعلمون أيها الأخوة رجلان في النهاية، الناس على اختلاف مللهم، ونحلهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وانتماءاتهم، واتجاهاتهم، وحضاراتهم، ورقيهم، ودخلهم الخ... الناس رجلان رجل عرف الله فاتصل به، وانضبط بشرعه، وأحسن إلى خلقه فسعد بقربه في الدنيا والآخرة، ورجل لم يعرف الله عزّ وجل، فمن لوازم عدم المعرفة أنه مقطوعٌ عن الله عزّ وجل، متفلتٌ من منهجه، مسيءٌ إلى خلقه، شقيٌ في الدنيا والآخرة، وهذا القرآن أمامكم، ليس في هذا الكتاب كله إلا هذان الصنفان، مؤمن وكافر، ومحسن ومسيء، وموصول ومقطوع، ومستقيم ومنحرف، ورحيم وقاسٍ، و مقبل ومعرض، أبداً هذا هو التقسيم الحقيقي، وأيّ تقسيمٍ آخر فتقسيمٌ جاهلي لا قيمة له، النبي سمع كلمة قالها رجل بحق إنسانٍ أسود البشرة، قال له: يا بن السوداء فقال له النبي عليه الصلاة و السلام:

((إنك امرؤٌ فيك جاهلية))

وانتهى الأمر.

الجاهلية من زان الناس بميزان غير ميزان الكتاب والسنة:

فالجاهلية أن تستخدم مقاييس غير مقاييس هذا الكتاب، وأن تزن الناس بميزان غير ميزان الكتاب والسنة، هذه هي الجاهلية، وأن تعظِّم إنساناً بماله، وتعظمه لقوته، وأن تحابيه لقربه منك فكل ذلك مقياس جاهلي:

((من ولي أمر عشرة وولى عليهم رجلاً فيهم من هو خيرٌ منه فقد خان الله ورسوله))

فالمحاباة غير موجودة في الإسلام:

((والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))

[أخرجه البخاري عن عائشة]

أبداً:

((إنما أهلك الله بني إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد))

[متفق عليه عن عائشة]

هذا هو الدين. فالمجتمع ما لم تحكمه قيمٌ واحدة تسري على كل أفراده فهذا المجتمع لا يتقدم أبداً، إنه مجتمع الإيمان ومجتمع المقاييس الواحدة، والمعايير الواحدة، فالمؤمنون جميعاً يُقَيَّمون بمقياسٍ واحد وبمعيار واحد، والإنسان كلما اقترب من الإيمان اقترب من مقاييس القرآن، فلا يُعَظِّمُ إلا المؤمن، ولذلك:

((لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أخرجه أبو داود، والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

اللمز هو إشاعة العيوب و التعيير و كشف العورات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

اللمز هو الطعن، والتشهير، وأن تعيب على الناس متاعَهُم الخشن، وحياتهم المتواضعة، وأن تعيب على الفقير فقره، وعلى الضعيف ضعفه، وعلى المريض مرضه، وعلى صاحب المتاع الخشن متاعه، فالنقد، والتعيير، وإشاعة العيوب، وكشف العَوْرات، هذا هو اللمز قال:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

دعوة الله عز وجل المؤمنين إلى أن يكونوا كالجسد الواحد:

أما:

(أنفسكم)

كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسم بالسهر والحمى، فكيف قال الله عزّ وجل:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: آية "188 ")

أي إن أكلت مال أخيك فكأنما أكلت مالك لأنه أخوك إن قويَ فقوته لك، وإن أضعفته تضعف أنت معه، فإذا أكلت ماله فكأنما أكلت مالك.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

يقاس عليها:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة النساء: آية "29 ")

أنت أخرجت عنصراً مؤمناً من المجتمع، فضعف المجتمع.

وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ: آية لها عدة معان:

1 ـ على الإنسان ألا يكون طعاناً أو لعاناً أو منتقداً:

حيثما وردت هذه الآية ومثيلاتها..

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة النساء: آية "29 ")

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: آية "188 ")

فالله سبحانه وتعالى عَدّ المجتمع الإسلامي مجتمعاً واحداً، فإذا أضعفت أحد أفراده أضعفت المجتمع كله، وهذا معنى.

2 ـ على الإنسان ألا يفعل عملاً يلام عليه:

والمعنى الثاني لا تفعل شيئاً تستحق أن تعيَّر به.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

إياك أن تفعل شيئاً تدعو الناس به إلى ذمِّك، فلا تضع نفسك موضع التهمة ثم تلوم الناس إذا اتهموك، وإياك وما يُعتَذر منه، وأيُّ عملٍ يصغرك تضطر أن تعتذر وأن تقول: لم أكن أعرف فسامحونا، ولا تؤاخذونا، فهذه الأعمال التي تحملك على أن تعتذر منها لا تليق بك.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

العاقل من يبحث عن الفضائل و يوسعها:

صار لهذه الآية معنيان: الأول: لا تعمل عملاً تُلام عليه، فالنبي عليه الصلاة والسلام من أسمائه محمود، محمودٌ عند الله وعند الناس وعند نفسه، فبعلاقاتك، وبيعك، وشرائك، ومواعيدك، وأفراحك، لا تفعل شيئاً تُلام عليه، ولا ترتكب عملاً تضطر أن تصغر أمام الناس، وأن تعتذر، فهذا الموقف الكامل، وإيّاك أن تدخل موقفاً لا تحسنه، وأن تقوم بعمل لا تستطيعه، وأن توهِم الناس بحجمٍ أنت أقل منه.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

لا تفعلوا عملاً تلامون عليه فهذا معنى، والمعنى الثاني، لا تكن طَعّاناً، ولا عَيّاباً، ولا منتقداً، ولا تكن معول هدمٍ في المجتمع، بل كن بَنّاءً، ولا تكن سلبياً ولكن كن إيجابياً، ولا تبحث عن العيوب بل ابحث عن الفضائل ووسِّعها ونَمِّها.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

من يستقم على أمر الله يحترم نفسه:

وحينما يحترم الإنسان نفسه يستقيم على أمر الله، وهذا شعور المستقيم.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

(سورة يونس: آية "26 ")

هذه الآية الكريمة أيها الأخوة الكرام هي قانون الذل والعز.

الجنة و النظر إلى وجه الله الكريم عاقبة المتقين:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

الجنة.

(وَزِيَادَةٌ)

النظر إلى وجه الله الكريم.

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

الإنسان حينما يطمح فيما عند الله يحبه الله:

الإنسان متى يذل ؟ إذا أساء، ومتى يُلام ؟ إذا قَصَّر، ومتى يصغر ؟ إذا أخطأ، فإذا الإنسان جهد ألا يخطئ وألا يقصر، وألا يتوانى عن شيءٍ مكلفٍ به يرفع رأسه، عندئذٍ لا يستطيع أحدٌ أن ينال منه، قالوا: "استغن عن الرجل تكن نظيره، واحتج إليه تكن أسيره، وأحسن إليه تكن أميره " فالإنسان حينما يستغني عما في أيدي الناس يحبه الناس، وحينما يطمح فيما عند الله يحبه الله، والناس بالعكس، يزهدون فيما عند الله فيبغضهم الله عزّ وجل، ويطمعون فيما عند الناس فيبغضهم الناس، وهم عند الله مبغَضون، وعند الناس مبغضون، ازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس، ولا تزهد بما عند الله عزّ وجل يحبك الله، الآية الكريمة:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

والنبي الكريم أشار إلى هذا المعنى بقوله الكريم:

((إياك وما يعتذر منه))

وكل موقف وتصرُّف سوف تضطر بعده أن تقول: لا مؤاخذة، عفواً، فهذا الشيء الذي تضطر أن تعتذر منه لا تفعله، وارفع رأسك، ارفع رأسك يا أخي، قال سيدنا عمر لرجل: **" وسيدنا عمر رضي الله عنه رأى رجلاً مُتَماوتاً، فقال: لا تُمِتْ علينا ديننا، أماتكَ الله ".**

المسلم عندما يطبق منهج الله عز وجل يشعر بعزة كبيرة:

هناك صحفي غربي يحلل هذا الحقد الشديد على المسلم الآن فقال: إن الشخصية الغربية الآن صغيرة أمام شخصية المسلم الأخلاقية، فصار للمسلم في شعور بالتفوق على الغربي لأنه غارق في الجنس والمخدرات، والانحلال الخلقي، بينما المسلم حياته نظيفة، ومشكلاته قليلة ودخله أعلى، وانضباطه

شديد، وأسرته ناجحة، وهذا منهج الله عزّ وجل، لذلك فالإنسان عندما يطبق منهج الله عزّ وجل يشعر بعزة ما بعدها عزة، ويُروى أن أحد الصحابة (ربما سيدنا الحسن) مشى مشية تيهٍ فقالوا: **" أتيةٌ يا سبط رسول الله ؟! قال: لا، هذا عز الطاعة "**، فالإنسان أحياناً يشعر بعز الطاعة لأنه نظيف، ولا يوجد عنده ازدواجية في حياته، فبيته نظيف، وعلاقاته نظيفة، وحساباته نظيفة، وليس عنده غموض، ولا شيء معلن وشيء لا يعلن، وما في قلبه ظاهر على لسانه، وما في لسانه مكشوف عنه في قلبه، فهذا التوحُّد والمظهر الواحد هذا من قوة شخصية المؤمن.

أحد أسباب استقامة المؤمن أنه يحترم نفسه:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

احترامه لنفسه يدعوه للاستقامة على أمر ربه، لأن أي تقصير أو أي خلل يصغّرك، فأحياناً الناس يقولون: ما أحببت أن أصغر، فلو طلب منك إنسان طلباً وأنت نسيت أن تنفذه، فعندك كلمتان ؛ كلمة نسيت صعبة كأنك لا تنسى أبداً، أما كلمة: اتصلت به فلم أجده، فهذه أهون لك، أما لو قدّمت له عذراً غير صحيح فتصغر أمام نفسك، وكفاك أن تشعر بالمهانة أمام إنسان، وقد كفتك المهانة أمام نفسك، فلذلك أحد أسباب استقامة المؤمن أنه يحترم نفسه، ولا يريدها أن تكون صغيرةً، ولا يحبها متناقضةً.

المؤمن الحقيقي من كان أداة بناء في المجتمع لا معول هدم:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

المعنى الذي يفهم لا تعمل عملاً يُعَيِّرُكَ الناس به، ويلومونك عليه، ويصغرونك فيما بينهم، والمعنى الثاني لا تكن طعاناً ولا فحاشاً، هناك إنسان نمطه متكبّر، لا يحتمل أن يكون معه أحد، ويحطم الكل من أجل أن يبقى وحده، فهذا نمط شيطاني.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

لا تكن طعّانًا ولا لعانًا ولا فاحشًا ولا بذيئًا ولا عيّاباً، ولا تنظر إلى نصف الكأس الفارغ بل انظر إلى نصفه المليء، ولا تكن سلبياً بل كن إيجابياً، ولا تكن متشائماً بل كن متفائلاً، وإذا جلست مع إنسان فابحث عن نقاطه الإيجابية ولا تلتفت إلى عيوبه، وأثنِ عليها تنمُ، أما إذا تغافلت عن إيجابيته ونقّبت في عيوبه فهذا موقف سلبي هدّام، فلا تكن معول هدمٍ في المجتمع ولكن كُنْ أداة بناء.

على الإنسان ألا يحتقر الآخرين أو ينتقص منهم:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

بالمناسبة السخرية أن تحتقر إنساناً أو أن تنتقص منه، أو أن تعيّرَهُ وهو في حضرتك، أما الغيبة فأن تقول عنه كلاماً يؤذيه وهو غائب، فالسخرية لا تقتصر على اللسان، فأحياناً بحركة تحاكي بها حركة إنسان فهي سخرية، وأحياناً بإشارة، وغمز، وحركة عينين، وتحريك عضلات الوجه فيها سخرية، وابتسامة، قال بعض علماء التفسير في قوله تعالى:

(يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةٍ ولا كبيرةً إلا أحصاها)

الصغير الابتسام، والكبير القهقهة، فلو ابتسمت لموقف من مؤمن أخطأ فيه، أو كنت متمكنًا في علمٍ من العلوم وسألك إنسان سؤالاً دلّ على جهله بهذا العلم فلا تسخر منه، بل عَلِّمْهُ، فهناك من تأخذه العزة باختصاصه، فيسخر ويتهكم، لا، لا، الله عزّ وجل علمك وحجب عنه العلم والله قادر على أن يعكس الآية.

المؤمن الحقيقي من ابتعد عن موضوع السخرية جملة و تفصيلاً:

مرة أخٌ يرعى عملاً اجتماعياً خيرياً، ورجل قدم بيتاً بمبلغ كبير، فأقيمت له حفلة لتكرمه على هذا التبرع الثمين، فكل الخطباء أثنوا على سخائه وإحسانه وجوده و... إلا أخًا كريماً لفت نظر هذا المحسن إلى حقيقة قال له: كان من الممكن لو أراد الله أن تكون أحد المنتفعين بجمعيتنا، أن نعطيك معاشاً شهرياً، ولكن الله شاءت حكمته أن يغنيك، فهذا من فضل الله عليك أنه أغناك وسمح لك أن تعطي، ولو شاء لكنت الطرف الآخر الذي يأخذ.

فالإنسان لا يسخر، كما قلت قبل قليل: فموضوع السخرية جملةً وتفصيلاً، بقضه وقضيضه لا يدخل في حياة المؤمن أبداً، ولا يسخر حتى ممن يعصي الله عزّ وجل، بل يدعو له بالهدى والتوفيق، ويقال: **" من عيّر أخاه بذنبٍ تاب منه لم يمت حتى يعمله"**، ونحن عندنا مشكلة لو أنّ إنسانًا غلط ثم تاب، فكلما رأيته تذكر تلك المشكلة، وهذا من لؤم الإنسان، امرأةٌ زلّت قدمها في عهد سيدنا عمر وأقيم عليها الحد، وبعد حين جاء من يخطبها، فجاء أخوها لسيدنا عمر يستفتيه: **" أأذكر للخاطب ما كان منها ؟ فما كان من عمر رضي الله عنه إلا أن قال له: والله لو ذكرت له لقتلتك "**، فالإنسان تاب وانتهى الأمر.

الكمال يقتضي إذا وقع أخ في ذنب وتاب منه فعليك أن تتجاهله تجاهلاً كاملاً:

إخوة يوسف عليه السلام ماذا فعلوا بأخيهم ؟ ألقوه في الجب لماذا ؟ ليموت، أي أرادوا قتله، فلما دخلوا عليه قال:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

(سورة يوسف: آية "100 ")

ولماذا لم يذكر الجب ؟ الجب أخطر، والإنسان تكون حياته مضمونة في السجن، وغذاؤه موجود لكن تؤسر حريته، أما في الجب فموته محقق، لماذا يا أيها النبي الكريم لم تذكر موضوع الجب بل ذكرت موضوع السجن ؟

(يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

(سورة يوسف: آية "100 ")

وماذا عن الجب ؟ إنه ما ذكر الجب لئلا يذكِّر إخوته بعملهم السابق، فإذا كان لك أخ تاب من موضوع فهل تظل تذكره بالموضوع ليس لك حق، لقد غلط في حياته، وهناك إنسان يضيّق ولا ينسى الماضي، والكمال يقتضي إذا وقع أخ في ذنب وتاب منه فعليك أن تتجاهله تجاهلاً كاملاً، قال: **" من عيّر أخاه بذنبٍ تاب منه لم يمت حتى يعمله "** عقاباً له، لأنه تجبر.

الذنب شؤمٌ على غير صاحبه:

والنقطة ذكرتها في الدرس الماضي ولكن يحسن أن نعيدها مرة ثانية الذنب شؤمٌ على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن عيَّره ابتلي به، وإن رضي به شاركه في الإثم، احذر إن اقترف أخوك ذنباً أن تشيع هذا الذنب بين الناس فقد اغتبته، ثم احذر أن تُعَيِّرَهُ به عندئذٍ فتبتلى به، ثم احذر أن تقره عليه فتشاركه في الإثم، لا هذه، ولا هذه ولا هذه، اشكر الله عزّ وجل على أن نجّاك من هذا الذنب وادعُ لأخيك بالتوبة منه وانتهى الأمر.

لا ينبغي للإنسان أن ينادي الناس إلا بأحب الأسماء إليهم:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

المؤمن ينادي أخاه المؤمن بأحب الأسماء إليه، فهذا هو المؤمن، من الرجل ؟ قال له: زيد الخيل، فقال عليه الصلاة والسلام: **"زيد الخير".. " ما اسمكِ يا فلانة ؟ " لفتاة صغيرة، قالت: عاصية قال: " بل أنتِ جميلة "**، اللهم صلّ عليه غيَّر الأسماء الجاهلية كلها.

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

فبعض الأشخاص يحلو لهم المُزاح في هذا الموضوع، وتأكدوا أيها الأخوة أن الإنسان إذا ناديته باسمٍ قبيح لو ابتسم لك لذكائه فيجاملك، ولكنه يتألّم، وطبعاً من أنواع الذكاء أن يجاملك ويضحك معك، أما لو ضحك من هذه التسمية القبيحة لكنّ قلبه يُكْلَمُ، ويقطر دماً وألماً منك، فلذلك لا ينبغي لك أن تنادي الناس إلا بأحب الأسماء إليهم.

إحدى قواعد التعامل مع المؤمنين أنه إذا ترك الإنسان ذنباً فلا تذكّره به:

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

العوام الجهلة البعيدون عن مجالس العلم لو استمعت إلى أقوالهم وإلى خطاباتهم لأخذك العجب العجاب ؛ وقاحة، وبذاءة، وتهَكُّماً، وعورات، فهذا مستوى الإنسان غير المتعلم ؟ لا، أقول: المتعلم الذي يكون معه شهادات ؟ لا، كل إنسان حضر مجلس علم أصبح متعلماً، وكل إنسان طبق الشرع فهو عالم:

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله وكفى به جهلاً أن يعصيه))

[أخرجه الدارمي عن مسروق]

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

وهناك نقطة أنه كان هناك يهودياً فأسلم (إذ عندنا يهود أسلموا)، فكان بعض المنافقين يقول له: يا يهودي بعد أن أسلم، ووُجد منافقاً، فاستقام وصلح أمره، وحتى الألقاب التي كانت لهم قبل الإسلام بعد أن أسلموا وتابوا لا ينبغي أن تطلق عليهم أبداً، فهذه إحدى قواعد التعامل مع المؤمنين، إذا ترك الإنسان ذنباً.. انتهى الأمر.. فلا تذكِّره به لا من قريب، ولا من بعيد، ولا إشارة، ولا عبارة، ولا تنويهاً، ولا تعليقاً، تاب فتاب الله عليه:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هَنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

((إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

[ورد في الأثر]

الله عز وجل ستار يحب كل من يستر على أخيه:

إذا كان الإله تاب عليه أفلا تتوب ؟ والإله ستره وأنت تفضحه ؟ فليس هذا من أخلاق المؤمنين، والله عزّ وجل ستّار يحب كل من يستر على أخيه، وقد ذكرت قصة سابقاً ؛ بنت زلّت قدمها فتزوجت، فلا

تقل: هذه كانت هكذا، إذا سمع زوجها بهذا الشيء يطلقها، بلا رحمة، يريد أن يتسلى، معه معلومات فيتكلم بها، إنه شيطان يتكلم، فإذا إنسان كان له ماضٍ وتاب واستقام، وله ترتيب سابق ورجع عنه قال:

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

لا التي بعد الإسلام ولا التي قبل الإسلام.

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ)

من تاب إلى الله توبة نصوحة عليه أن يستر نفسه مادام الله ستره:

بالمناسبة نحن لا يوجد عندنا بالدين اعتراف أبداً، فإذا كان للإنسان أخطاء، وتقصيرات، وزلاّت قَدَم، وتاب الله عليه لا ينبغي له أن يقول هذا لأحدٍ كائناً من كان، والإنسان لا ينسى، كلما رآه يتذكر الماضي، فإذا كان لك غلطة فلا تقلها لأحد، ما دام الله سترك وتاب عليك فأنت استر، ولا حاجة إلى الفضيحة، فالذي يفضح نفسه يجترئ على الله، لأنه سترك وأنت تتكلم !! فإذا تكلم الإنسان وعرف الناس أخطاءه السابقة عيّروه بها دائماً.

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

فلو فرضنا إنسانًا أكل في مطعم ولم يدفع الثمن، في زمن الجاهلية، ثم أراد أن يتوب إلى الله بإمكانه أن يدفع المبلغ دون أن يعلم صاحب المطعم أنه عن طعامٍ أكله دون أن يدفع ثمنه، ضع المبلغ داخل رسالة وألقه له وانتهى الأمر، والله لم يكلِّفك أن تفضح نفسك، لكن لابدّ من أن تؤدي الحقوق.

من تاب إلى الله عليه أن يعمل جرداً لأعماله السابقة دون أن يفضح نفسه:

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ)

قال لي صاحب محل يبيع حلويات: دخل شاب وألقى لي ظرفًا وقد كتب لي فيه: أنا مرة أكلت دون أن أدفع الثمن وقد تبت إلى الله وهذا هو المبلغ فخذه، فإذا أراد الإنسان أن يتوب توبة نصوحاً فعليه أن يؤدي ما عليه من حقوق، وقال لي أخ ثان صاحب معمل: حصل في معملي سرقات مستمرة ما تركت طريقة لكشفها، ولكن لم أكتشف السارق، وبعد عشر سنوات دخل شاب فقال لي: لقد كنت عندك وكان لي أخطاء وجئت لأعطيك ما علي، ونظير توبته قلت له: أنت مسامح وإذا أردت العمل ثانيةً فلك مكان في المعمل، فعد إلى المعمل واشتغل فيه، فلا تجد أحلى من التوبة إلى الله عزّ وجل، فإذا تاب الإنسان عمل جرداً لأخطائه السابقة دون أن يفضح نفسه.

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ)

المؤمن مقدم، والمؤمن غالٍ على الله، فلا يليق به أن يضاف لاسمه الشريف الطاهر اسم سيّئ أو عمل قبيح، وكلمة اسم هنا أي الذكر، فإذا ذكرت إنسانًا بماضيه بعد أن تاب فهذا الاسم لا يتناسب مع الإيمان.

المؤمن العاقل من يطلب الدليل قبل أن يظن بغيره:

(بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ)

الظن أن تعتقد شيئاً من دون دليل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ)

ولو دققت في علاقات الناس فتسعة أعشار أحكامهم مبنية على الظن، ومع ذلك فالمؤمن يطلب الدليل.

الحكم على الآخرين يحتاج إلى دليل قطعي لا يرد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

فالمؤمن يطلب الدليل، لما قال الناس: كذا، أحياناً يقولون لك: لا نعرف، هذه أقبح أنواع الغيبة، لا يعرف، إنك بهذه الإشارة بيدك قلت عنه كل شيء، بهذه الحركة لم يبق شيء لم تقله، وأحياناً كلمات تؤدي إلى طلاق، وإلى انفصام شركات، وإلى خراب بيوت.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ)

احكم على مثل الشمس، وعلى مثل الشمس فاشهد، الحكم يحتاج إلى دليل قطعي لا يمكن أن يرد هذا، هو الحكم.

على الإنسان ألا يسيء الظن بالآخرين حتى يتأكد بالدليل القاطع:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

والآن عندنا قاعدة، قالوا: لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، الكلام عندئذٍ يُلْقى على عواهنه، أما لو ألزمت نفسك ألا تقبل شيئاً إلا بالدليل فتسعة أعشار الكلام يسقط عندك، ولا أبالغ في قولي: تسعة أعشار الكلام يُلْقَى في الأرض، ولكن من أخطائنا الكبيرة نسمع قصة من دون دليل، نسيء الظن بإنسان من دون دليل، ونتهم إنسانًا من دون دليل، وإنسان عُرِض عليه عمل بفندق والفندق يقدم مشروباً فرفض أشد الرفض، وانتهى الأمر، يشاع عنه أنه قَبِل وفَعل العمل، وهذا الكلام غير صحيح، أنا أعلَمُ

الناس به، لقد رفضه أشد الرفض، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، وطِّن نفسك على ألاّ تقبل قصة من دون دليل، ولا تقبل إشاعة، ولا خبراً من كاذب، ولا من فاسق، و لا كلاماً ضبابياً، لا تقبل إلا كلاماً واضحاً مع الدليل، ومع رؤية العين، مع الدليل الخَطِّي، وكثير من علماء أجلاء لا يتكلمون كلمة في إنسان آخر إلا في كتاب أو في صوت، أما لا كتاب ولا صوت، وهكذا قال الناس ؟ عندئذٍ ليس عالماً، وجزء من علمك أساسه منهج التلقي، فكيف تقبل الأفكار والوقائع ؟ هل عندك منهج لقبولها ورفضها ؟

المؤمن الذي غلب عليه الصلاح والتستُّر علينا ألا نظن به السوء:

هنا الآية تحتاج إلى تفاصيل إن شاء الله نعيدها في الدرس القادم لكن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

من هو الذي يجب عليك ألاّ تظن به السوء ؟ إنه المؤمن الذي غلب عليه الصلاح والتستُّر، وما رأيته إلا يصلي، إنه يصلي في رمضان وهو صائم، وعياله محجبات، ولا يوجد في بيته أخطاء، غلب عليه الصلاح، ولو أخطأ لاستحيا من خطئه واستتر، وكل إنسان غلب عليه الصلاح والتستر أنا لا أقول: إنه كامل، ولا يوجد إنسان كامل بعد النبي، الكمال لله، والعصمة لرسول الله، وما دام غلب عليه الصلاح والتستر فهذا الإنسان لا يمكن أن تغتابه.

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت إخوته، وحرمت غيبته))

فقبل أن تقول: فلان فعل، وفلان أكل مالاً ليس له، فهل أنت متأكد ؟

من حُكِّم بين الناس عليه أن يجمع الطرفين معاً:

صدقوني لو أنك استمعت إلى إنسان عن إنسان وكان الطرف الثاني حاضراً فتسعة أعشار الكلام يُلْغَى، فكل إنسان يتكلم على حسب هواه، يبالغ، وينمِّق الكلام، ويدعم أفكاره بوقائع من خياله حتى يشكِّل لك كلاماً مرفوضاً عن الإنسان، فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

ومن أجمل ما قيل في آفات اللسان في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، باب آفات اللسان، فمن كان الكتاب موجود عنده، أو أحب أن يقرأه في مكتبة، فهذا الموضوع مفصل تفصيلاً بالغًا، فقد وضّح كل

شيء، فالغيبة والنميمة والسخرية والبهتان والإفك الخ... وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نعيد شرح هذه الآية مع تفصيلاتها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (5-6): تفسيرالآيات 12-13، الغيبة و أضرارها
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-05-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الخامس من سورة الحجرات.

الغيبة، النميمة، و سوء الظن، من الأسس الكبرى التي تفتت المجتمع:

مع الآية الثانية عشرة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة... ربنا سبحانه وتعالى في هذه السورة يعلِّمنا الآداب الاجتماعية، فالشيء الذي يفكِّك المجتمع، ويمزّقه، ويضعفه هي الغيبة، والنميمة، وسوء الظّن، وهي من الأسس الكبرى التي تفُتُّ في عضد المجتمع.

المؤمن الصادق لا يبني مواقفه وتصرُّفاته إلا على حقيقة يقينية:

أولاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

أي أن تتخذ قراراً على ظَنٍ غير ثابت، فالإنسان يعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويغضب ويرضى، فهذه المواقف إذا بُنِيَت على ظنٍ أو على وهْمٍ والطرفُ الآخرُ كان بريئًا تفتّت المجتمع، فالمؤمن الصادق لا يبني مواقفه وتصرُّفاته، وصلته ومنعه، وعطاءه، ورضاه وغضبه إلا على حقيقةٍ يقينية، وهذه الآية تؤكِّد الآية السابقة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

ما أروع الإنسان حينما يتحرّك وفق منهجٍ علمي، المقولات التي يستمع إليها لا تعدُّ ولا تُحصى، فإشاعات، وتخرُّصات، وخرافات، وافتراءات، وأقاويل، فالإنسان يُشحَن بآلاف المعلومات غير الصحيحة، فالمؤمن الكامل لا يبني على هذه الأفكار غير الصحيحة، وعلى هذه الظنون الكاذبة، وعلى هذه الإشاعات الواهمة، لا يبني قراراً، لا يبني موقفًا.

من أكبر أسباب تفتت المجتمع و ضعفه الظن الآثم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

أي حينما تظنّ بأخيك سوءاً وهو ليس كذلك وقعت في الإثم، فما العلم ؟ العلم هو الوصف المُطابق للواقع مع الدليل، هذا هو العلم، فإذا كان وصفك لأخيك غير مطابق للواقع ولا يوجد معك دليل فهذا ظنٌ آثم، وهذا الظن الآثم يفتت المجتمع، ويضعفه، ويوهّنه، فلو أن الإنسان عاهد الله عزّ وجل على أن لا يقبل عن أخيه شيئاً إلا بدليلٍ قاطع، وأن لا يرفض شيئاً إلا بدليلٍ قاطع لكنّا في حالٍ غير هذا الحال، فآلاف الدعاوى في قصر العدل، وآلاف الأسر الممزّقة أساسها كلمة لم تُقَل، نُقِلَتْ ولم تُقَلْ، إشاعة، وظن سيّئ، وتصوّر خاطئ، وتأمُّل كاذب.

المؤمن لا يتعامل بالظنون إنما بالبينة الصادقة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

كما قلت لكم من قبل: قذف محصنةٍ يهدم عمل مئة سنة، فامرأةٌ محصنةٌ في إشاعة كاذبة، والله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغةٍ بالغة كان حديث الإفك الذي أصاب السيدة عائشة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلّم **(أمّ المؤمنين)**، لماذا سمح الله لهذا الحديث أن يكون ؟ وهي أطهر من ماء السماء ؟ وهي أنقى من الثلج ؟ وهي زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؟ فالله سبحانه وتعالى سمح لهذا الحديث الكاذب أن ينتشر ثم جاءت تبرئة الله لها لتكون السيدة عائشة قدوةً وأسوةً لكل امرأةٍ جاءت من بعدها اتُهِمَتْ زوراً وبهتاناً، فلذلك:

(اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

فما الفرق الجوهري بين الإنسان العالم والإنسان الجاهل ؟ العالِم لا يقبل إلا بالدليل، بينما الجاهل فأيّة إشاعةٍ، وأيّة فكرةٍ موهومةٍ، وأيّ تصورٍ كاذبٍ يفشو بين الناس، هذا الخط العريض الخط غير المنضبط، الغوغاء والدهماء هم سوقة الناس، فهؤلاء يتعاملون بالظنون، وبالإشاعات، وبالأخبار الكاذبة، وبالتخرُّصات، أما المؤمن فلا يقبل إلا بالبيّنة الصادقة.

المؤمن كلّما ارتقى في سُلّم الإيمان تصبح تصرُّفاته موضوعية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

المؤمن كلّما ارتقى في سُلّم الإيمان تصير تصرُّفاته موضوعية وعلمية، ولو جاءته ابنته ضَجِرَةً من زوجها لا يسمع منها إلا بحضور زوجها، فلعلّها هي الظالمة، وهذا هو الموقف العلمي، كم من إنسانٍ سمع من طرف واحد فحمل عليه بنفسه حملةً شعواء، فلمّا استمع من الطرف الآخر شعر بالندم الشديد، وهذه آية قرآنية أصل في القرآن الكريم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

وكذلك في قصّة السيدة بلقيس، ماذا قال سيدنا سليمان عندما جاءه الهُدْهُد ؟ قال:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة النمل)

فلو أن المؤمنين تعاملوا بهذه الطريقة، لا يقبلون شيئاً إلا بالدليل، ولا يرفضون شيئاً إلا بالدليل، تجربة متواضعة: لو أنك استمعت من طرفٍ واحد على حِدة لأمضى معك الساعات الطِوال يتحدّث عن زيدٍ أو عبيد، اجمعه مع زيد فهذا الحديث يُختَصَر إلى العُشر، فالظن أن تبني موقفًا، وأن تعطي وتمنع، أن تصل و أن تقطع، أن تغضب وأن ترضى لا وفق حقيقة بل وفق وهم، والوهم فتّت الأُسَر، والظن الكاذب مزّق الأسر أيضاً وشرّد الأولاد.

من أساء الظن بأخيه كأنما أساء الظن بربه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

ولو فرضنا أن امرأة وقعت في جريمة الزنا فهل تُرجَم إلا بأربعة شهود رأوها عياناً ؟ هكذا الدين، أما هذا الذي يطلق التهم جزافاً، وينقل الرواياتِ الكاذبة، والإشاعات المغرضة، والأقاويل السيئة دون تحقُّق، ودون تبصُّر، ودون دليل، ودون علم، فهذا يقع في إثمٍ كبير، ومن أساء الظن بأخيه فكأنّما أساء الظن بربّه، وكأن الله سبحانه وتعالى يريد مجتمع المؤمنين مجتمعاً متماسكاً، مجتمعاً يحب بعضه بعضاً، مجتمعاً قوياً كالجسد الواحد، هذا لا يكون بسوء الظن، ولا يكون بالتهم الكاذبة، والأوهام، والأضاليل، والتسرّع في إطلاق الحكم، وبأن تبني على وهمٍ سمعته موقفاً عنيفاً أو قاسياً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

تناقض السذاجة و الغفلة مع الإيمان:

لماذا قال الله عزّ وجل:

(اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

لأن بعض الظن ليس بإثم، فبعضه إثم وبعضه ليس بإثم، ورد في الأحاديث:

((احترس من الناس بسوء الظن))

((وسوء الظن عصمة))

((والحزم سوء الظن))

فشخص لا تعرفه إطلاقاً قد يطلب منك شيئاً لا تقوى على تحمُّله، تحقّق من دون أن تُشعِرَه.. **" لست بالخِب ولا الخبُّ يخدعُني "..** أي لست من الخبث بحيث أخدع، ولا من السذاجة بحيث أُخدع، فشخص لا تعرفه، وهل يدخل إنسان بيتًا لا يعرفه ؟ يجب أن تتأكّد من صاحب هذا البيت ؟ لماذا دعاك ؟ دعاك عن طريق ابنه الصغير، قد يكون هناك خداع في هذه الزيارة، فالله عزّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(سورة النساء: آية " 71 ")

ولذلك فالسذاجة أحياناً والغفلة تتناقض مع الإيمان، وكما ورد في الأحاديث:

((المؤمن كيّسٌ فطنٌ حذِر))

المؤمن ليس ساذجاً و لا بسيطاً:

أحياناً إنسان له دعوة أراد أعداؤه الكيد به، فدعوه إلى بيت ولا يوجد فيه إلا طفلٌ صغير، طبعاً دخل البيت هو وغلامٌ وحدهما، والأب هيَّأ الترتيبات لاتّهامه بفعل شنيع، فبعض أنواع الظن عصمة، وحزم، واحتراس، فالمؤمن ليس ساذجاً، وليس بسيطاً، ولا يُقاد لكل إنسان بلا تبصُّر، ولا توهُّم، ولا تحقُّق، ولا دليل، وبعض الظن إثم، أي بعضه من الحزم، وبعضه من العصمة، ومن الاحتراس، ومن الإثم، فكيف نفرّق بينهما ؟

إذا كان هناك دليل على سوء النيّة، فإذًا يوجد دليل يُشعِر أن هناك مشكلة، وهذا صار سوء ظن، ولكن ليس إثماً، أما أن تتهم الناس بلا دليل فهذا سوء الظن الذي يُعَدُّ إثماً، أي لا يوجد أي دليل، وهناك وسوسة، وشك، وهذا يحدث بين الأزواج أحياناً، فمتى يحقُّ للزوج أن يسيء الظن بزوجته ؟ إذا بدر منها أشياء تُشْعِر بذلك، وأنها ليست مستقيمة، فهذا الظن في محلِّه، ولابدّ من التحقيق، والتدقيق، والمتابعة، أما إذا لم يبدُ أي شيء إطلاقاً، بل وسوسة فقط، أو نوع من أنواع الترف في سوء الظن فهذا

لا يجوز، ومتى يكون سوء الظن عصمة ؟ إذا كان هناك ما يُشْعِر بهذا السوء، أما إذا وُجد دليل فسوء الظن عصمة، وإذا لم يوجد دليل فإن هذا لا يجوز أن يكون.

الظالم من أنزل العقاب الأليم بالناس دون بينة أو دليل:

يروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه جاءته رسالة من أحد الولاة، فقال: **" يا أمير المؤمنين إن أناساً اغتصبوا مالاً ليس لهم، ولست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسّهم بالعذاب، فإن أذنت لي فعلت"**، قال: **" يا سبحان الله أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا حصنٌ لك من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البيّنة، فإن قامت فخذهم بالبيّنة، فإن لم تقم فادعهم للاعتراف، فإن اعترفوا كان بها وإلا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم ".** إذًا إما أن تملك بيّنة، وإما أن يعترف، وإما أن تدعوه لحلف اليمين، أما أن تسيء الظنّ به، وتُنزل به العقاب الأليم من دون بيّنةٍ، ولا دليلٍ، ولا اعتراف فهذا ظلمٌ شديد.

إذاً التفرقة بين سوء الظن الذي يعدُّ عصمةً، وحزماً، واحتراساً، وبين سوء الظن الذي يعدُّ إثماً، فالتفرقة بينهما إذا كان هناك دليل يُشْعِر بخطأٍ جسيم فعندئذٍ لك أن تسئ الظن، وإن لم يكن هناك أي دليل فعليك أن تُحْسِنَ الظن، ومن أساء الظن بأخيه فكأنّما أساء الظن بربه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

الفرق بين علم اليقين و حق اليقين و عين اليقين:

لكن كلمة الظن وردت في القرآن الكريم في أماكن أخرى بمعنى اليقين الفكري.

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: آية " 46 ")

فالظن هنا بمعنى اليقين الفكري، فعندنا يقين، وعندنا علم اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين، فعلم اليقين الاستدلال المنطقي على حقيقةٍ غائبةٍ عنك بدليلٍ ماديٍ بين يديك، هذا اسمه علم اليقين، سمّاه القرآن ظنّاً، أما حقُّ اليقين فحينما تشاهد هذا الشيء الغائب عنك، تعاينه معاينةً حسّيّة فهذا حقُّ اليقين، أما حينما تمسّ هذا الشيء مسّاً مباشراً بحواسِّك الخمس فهذا عين اليقين.

الفرق بين التحسس و التجسس:

قال الله عزّ وجل:

(إِنّ بَعْضَ الظّنّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسّسُوا)

والتجسُّس تتبع الأخبار السيّئة، والتحسُّس تتبع الأخبار الطيّبة.

(يَا بَنِيّ ادْهَبُوا فَتَحَسّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِنّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ)

(سورة يوسف: آية " 87 ")

التحسُّس تتبع الأخبار الطيّبة، والتجسُّس تتبع الأخبار السيئة، وهناك أناسٌ مغرمون بتتبّع الأخبار، هوايةٌ لهم، يستمتعون أشدّ الاستمتاع بتتبع قصص الناس، فلانة طُلِّقَت لماذا ؟ وفلان لم يُنجب أولاداً، أمنه أم من زوجته ؟ وماذا سيفعل بزوجته إن لم تُنْجِب أيطلقها يا ترى ؟ وما شأنك أنت بهذا ؟

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[رواه البزار عن أنس بن مالك]

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

الله عز وجل يحب معالي الأمور و يكره دنيها:

الإنسان المؤمن لشدّة تعلّقه بربه، وشدّة قيامه بالأعمال الصالحة ليس عنده وقتٌ لهذه السخافات، وتلك المجالات لأن الله عزّ وجل، أو لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيّها))

[الجامع الصغير]

فأكثر بني الإنسان إذا التقى بإنسان يسأله: أين تعمل ؟ في المكان الفلاني، وكم يعطونك في الشهر ؟ فما لك ولهذا السؤال ؟ أيكفيك هذا المبلغ ؟ أراض أنت به ؟ يجب أن تعترض، فهذا الذي يخبّب امرأةً على زوجها، أو يخبّب عبداً على مولاه، أو الذي يخبّب موظّفاً على سيده هذا ليس من عمل المؤمنين، دع الناس يرزق بعضهم بعضاً، دع الناس في غفلاتهم، لا ينبغي لك أن تثير الفتن، ولا أن تلقي في القلب الشك، ولا أن تفرّق بين إنسانٍ وإنسان لأن هذا ليس من شأن المسلم، **" وليس منّا من فرّق "** كما قال عليه الصلاة والسلام، أحياناً تدخل على أختك المتزوجة وتسألها: كيف زوجك ؟ وكم يعطيكِ في الشهر ؟ وماذا قدّم لكِ هديّةً عند الولادة ؟ فما هذه الأسئلة ؟ هي راضيةٌ عن زوجها وبينهما وئام واتفاقٌ وخلود، فلماذا تثير هذه الموضوعات ؟ هذا الإنسان يسلك سلوكاً خاطئاً بعيداً عن سلوك الإيمان:

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

العاقل من ينشغل بنفسه عن الآخرين لا من يتتبع أخبارهم:

مرّةً سيدنا عمر سألته زوجته عن قضيّةٍ حَكَمَ بها: **" ما ذنب فلان ؟ فقال لها: وأنتِ يا أمة السوء ما شأنكِ بهذا "**. فأخطر شيء أن تسمح لجانبٍ لا شأن له بهذا الموضوع بأن يتدخّل، وأن يدلي برأي، وأن يدفعك إلى فعلٍ أو تركٍ لأن هذا يفسد العلاقات العامّة، إذاً:

(اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا)

والأصح ألا يتتبّع الإنسان لا الأخبار الطيّبة ولا الأخبار السيّئة، بل عليه أن ينشغل بنفسه عن الآخرين.

غيبة القلب غيبة يحاسب عليها الإنسان:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

طبعاً الإمام الغزالي كما قلت لكم في الإحياء عقد باباً من أدق أبواب الكتاب حول آفات اللسان، وخصّ باب الغيبة باهتمامٍ بالغ، فذكر من الغيبة غيبة القلب، تُرْوَى في التاريخ قصّة لا أدري مبلغها من الصحّة لكن تعني شيئاً كثيراً، وهي: أن امرأةً كانت تُغَسِّل ميتةً فالتصقت يدها بجسم الميتة، ومضى وقتٌ طويل، ويدها وجسم الميتة أصبحتا قطعةً واحدة، فاحتار أهل الميّتة أيقطعون يد المغسِّلة أم يقطعون من لحم الميتة ؟ مضى وقتٌ طويل.. وفي عهد الإمام مالك والمقولة الشهيرة: **لا يُفتى ومالكٌ في المدينة**.. فالإمام مالك عندما بلغه الخبر قال: **اجلدوها ثمانين جلدة**، وفي الجلدة الثمانين فُكّت يدها، لأنها اتهمتها بقلبها بالزنا.

و أحياناً أنت لا تقول شيئاً لكن تتهم أخاك البريء بقلبك، فهذه التهمة تُحَاسَب عليها، لأنه لا يوجد معك دليل، فمن غير دليل تقول: فلان حرامي، إنها كلمة كبيرة جداً هذه، فالمؤمن الصادق لا يأكل دِرَهَماً حراماً، والمقولة الشهيرة: **" ترك دانقٍ من حرام خير من ثمانين حجّةٍ بعد الإسلام "**، فإشاعة أو تهمة، أو إنسان فاسق فاجر قال كلمةً: من أين حصل على كل هذه النقود ؟ قد يكون له دخل أنت لا تعرفه، قد تكون له تجارة، وعلى كلٍ أنت لست وصيًا عليه، أما أن تلقي هذه التهمة جزافاً فهذا إثم كبير.

الغيبة و البهتان:

فلذلك الغيبة أن تقول في أخيك كلاماً يتألّم منه إذا بلغه ولو كان صحيحاً:

((يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال: ذِكْرك أخاك بما يكره فقال رجل: أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول ؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهتّه))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

البهتان أي الافتراء، تهمة ليس لها أساس من الصحة، فهذا بهتان وإفك، أما الغيبة فأن تذكره بشيءٍ فيه ولكن هذا الذكر يؤلمه إذا وصل إليه، طبعاً:

(لَا يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلّا مَنْ ظُلِمَ)

(سورة النساء: آية " 148 ")

العلماء أجازوا الغيبة في ستّة مواطن منها:

1 - في شأن الزواج:

والعلماء أجازوا الغيبة في ستّة مواطن: في شأن الزواج ؛ فإنسان يشرب، وإنسان زانٍ، وإنسان دخله حرام، وإنسان زير نساء، وتعلم أنت عنه العلم اليقين، سُئلت في شأن الزواج فأثنيت عليه، هنا الغيبة واجبة، وهذه قضية مصير فتاة، ومصير أسرة، ففتاةٌ طاهرةٌ مؤمنةٌ صادقةٌ تزجُّها مع زوجٍ فاسقٍ فاجر، يقترف الحرام ولا يبالي !! ففي شأن الزواج لابدّ من أن تذكر الحقيقة وإن كان ذكرها يؤلمه.

2 - في شأن الشراكة:

وفي شأن الشراكة، الشراكة أموال سوف توضع بين أيدي الطرف الثاني، والطرف الثاني لص لا يتورّع عن أخذ المال الحرام، وتبقى أنت ساكتًا ؟ يا أخي هذا ورع، وهذا الورع ليس في محلِّه.

3 - في شأن القضاء:

وفي شأن القضاء، لو أن القاضي سأل المُدّعي ماذا فعل بك فلان ؟ أنا لا أقدر أن أغتابه يا سيدي، أنت الآن تشتكي عليه فلابدّ من ذكر ما فعل بك، فعند القضاء، وعند الاستشارة.

4 - من يقترف المعاصي دون أن يأبه:

وهناك مواقف عدّة أُجيزَت فيها الغيبة، أما الذي يقترف المعاصي دون أن يأبه، ويرتكبها أمام الناس.

5 ـ من يفطر في رمضان على مرأى الناس:

الذي يفطر في رمضان في الطريق على مرأى الناس، هذا لا غيبة له، فهذا فاجر، فمن هو الفاجر ؟ هو الذي يقترف المعصية جهاراً، أو هو الذي يقترفها سرّاً ويذكر أنه فعلها مُتباهياً:

((اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس))

6 ـ من يقترف المعاصي جهاراً أو سراً ويذكرها متباهياً:

والذي يقترف المعاصي جهاراً، أو يذكر معاصيه جهاراً ولا يبالي فهذا لا غيبة له.

الغيبة تكون بالقلب و بالحركات و الإشارات:

والغيبة أيضاً كما أنها تكون بالقلب تكون بالحركات، والمحاكاة، وتكون بالإشارة كما ذكرت.. حركة القميص، إن ذُكِرَت فلانة، يقول لك: الله أعلم، هذه غيبة يا سيدي.. أشدُّ أنواع الغيبة، وهذه إشارة إلى أنها ليست طاهرة، ففي الحركات، و التقليد، والمحاكاة، وغيبة القلب، وأحياناً يقول لك: أنا لم أذكر اسمه، لا، أنت ذكرت خمسين علامة تدلّ عليه، فذكرت مسكنه، ونوع عمله، وحادثة مشهورة عنه، وهذه كلها قرائن تشير إليه، طبعاً لك أن تروي قصّةً من أجل أن تعظ الناس بها بشرط ألا يعلم الناس أبداً من صاحب هذه القصّة، أما إذا ذكرت علامات وقرائن تشير إليه والناس عرفوه معرفةً يقينية، فأنت تقول: أنا لم أذكر اسمه، لكنك ذكرت كل شيءٍ عنه، ولم يبقَ إلا أن تذكر اسمه، واسمه صار معروفًا، وهذه غيبة أيضاً.

النار مصير كل إنسان يغتاب الناس:

والذي يغتاب الناس فالأحاديث الصحيحة تؤكِّد أنه يوم القيامة تؤخذ من حسناته، فإذا فَنِيَت حسناته طُرِحَت عليه سيّئاتهم. ولهذا فالنبي الكريم سأل أصحابه:

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ قالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللّهِ مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَارَ وَلَا مَتَاعَ قالَ الْمُفْلِسُ مِنْ أُمّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمّ طُرِحَ فِي النّارِ))

[أخرجه مسلم و الترمذي عن أبي هريرة]

فالإنسان الذي يغتاب الناس يكون مصيره إلى النار، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الغيبة أشدُ من الزنا))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري)

أضرار الغيبة:

الغيبة تمزّق المجتمع، وتفتِّت الأسر، وتجعل المجتمع الإسلامي ممزّقاً، وضعيفاً، تنتشر فيه العداوات والخصومات، والمناحرات والمنافسات بسبب الغيبة، والذي يغتاب الناس عليه أن يطلب السماح منهم قبل أن يموت، فإن لم يسامحوه فلابدّ من أن يلقى العِقاب الأليم، ولذلك فالإنسان عليه أن يضبط لسانه، والشيء الدقيق جداً في هذا الموضوع أنك إن اغتبته في ملأٍ عليك أن تبرّئَهُ في الملأ نفسه، أما أن تغتابه في أوسع دائرة وتعتذر منه بينك وبينه فهذا ليس معقولاً، فهناك مجلس فيه خمسون شخصاً، ولقد اغتبته أمام خمسين، ثم زرته وقلت له: سامحني فقد اغتبتك، فهذه المسامحة غير مقبولة، يجب عليك أن تجمع الخمسين مرّةً ثانية وتبين لهم الحقيقة وإلا فأنت آثم، أي أن المسامحة لا تكون إلا بالإصلاح.

(تَابُوا وَأَصْلَحُوا)

(سورة البقرة: آية " 160 ")

الله عز وجل جعل الغيبة بمثابة أن تأكل من لحم أخيك ميتاً:

(أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتاً)

أي لا يوجد شيء تنفر منه النفس كأن تأكل لحم ميْتةٍ، أما أن يأكل الإنسان لحم بشر وهو ميت، وأما أن يأكل لحم أخيه ميْتاً، فربنا عزّ وجل يُكَرّهنا في الغيبة والنميمة، وهذا أسلوب تربوي حكيم:

((الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْعَائِدِ فِي قَيْئِهِ))

[رواه مسلم عن ابن عباس]

أي أن الإنسان لو قاء هل يوجد إمكان أن يستعيد هذا القيء ويأكله إنه شيء تتمزّق منه أمعاؤه، فالذي يعود من هبته كمن أكل قيئه، وهذه من الأساليب التربويّة، والله سبحانه وتعالى جعل الغيبة بمثابة أن تأكل من لحم أخيك ميتاً، أليس هذا مستكرهاً ؟ ثم أليس هذا مستقبحاً ؟ وكذلك الغيبة، والبديل أن تذهب إليه وأن تقول له: لقد بلغني عنك كذا وكذا وأنت أخي في الإسلام فما حقيقة ذلك ؟ فإن كان وقع الذي وقع، فانصحه، وإن لم يقع الذي تصوّرته وقع فقد عافاك الله من سوء الظن به، وهكذا.

المبتدع و المظلوم و المستشير هذه حالات ليست من الغيبة:

فهذا الدرس نحب أن يترجم عملياً، حاول ألا تقبل شيئاً إلا بالدليل، وحاول ألا تغتاب أحداً إلا حينما يسمح لك الشرع في الحدود الضيقة جداً، فإنسان مبتدع جاء بعقيدة غير صحيحة، وسألك إنسان فهذا ليس من الغيبة، وهناك عقائد فاسدة وزائغة، وانحرافات فكرية، وانحرافات في السلوك، وهذا الإنسان السائل يريد أن يلتزم مع إنسان ذي عقيدة سيّئة، فهذا ليس من الغيبة، فالمبتدع، والمظلوم، والمستشير، هناك حالاتٌ نصّت عليها كتب الفقه أما فيما سوى ذلك فلا ينبغي لك أن تقول في الناس شيئاً.

كل المسلم على المسلم حرام ماله و دمه و عرضه:

أيها الأخوة الكرام. قال عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))

[مسلم، الترمذي، أبو داود، ابن ماجه عن أبي هريرة]

طبعاً المال واضح، الحكم فيه واضح.

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: آية " 188 ")

أما القتل فالحكم فيه واضح، وأما العِرْضُ فهو موضع المدح والذمّ من الإنسان، فأن تتهم إنساناً بالكفر دون أن تتأكّد.

من كفّر مسلماً فقد كفر:

أغلى شيء يملكه الإنسان إيمانه، وأنت ببساطة وسهولة تطعن في إيمانه، وتتهمه بالكفر والانقطاع عن الله عزّ وجل، وبمصيره إلى النار، بهذه البساطة ؟ ومن أنت ؟ هل أنت وصيٌّ عليه ؟ أليس هذا تألّياً على الله عزّ وجل ؟ فهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ)

من كفّر مسلماً فقد كفر:

((إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا))

[رواه مسلم عن ابن عمر]

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

" اخزن لسانك ". قل: لا أعلم.

الله عز وجل يدعو الناس إلى عدم الكِبر فيما بينهم لأنه خلقهم بطريقة واحدة:

(وَاتَّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ تَوّابٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))

الآن توجّه الخطاب إلى عامّة الناس، والله سبحانه وتعالى يبيّن للناس أن الله خلق الناس من ذكرٍ وأنثى خلقاً موحّداً، وما من إنسانٍ على وجه الأرض إلا خرج من عورة، ودخل في عورة، ثم خرج من عورة، وخُلِقَ من ماءٍ مهين، ولو أن هذا الماء كان على ثياب أحدنا لاستحيا منه، فالناس جميعاً أغنياؤهم وفقراؤهم، وأقوياؤهم وضعفاؤهم، وأشرافهم وصعاليكهم جميعاً خُلِقوا بطريقةٍ واحدة، وبأسلوبٍ واحد، وهذا يدعو إلى عدم الكبر فيما بينهم.

(يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى)

العمل الصالح ثمن الجنة:

لكن أريد أن أقف قليلاً عند حكمة هذه الآية في قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

أي أن الله عزّ وجل خلقنا للجنّة، دققوا فالمعادلة دقيقة، خلقنا للجنّة، لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، وهذه الجنّة لابدّ لها من ثمن تدفعه في الدنيا، والثمن هو العمل الصالح، والعمل الصالح لا يكون إلا وأنت في مجتمع، وهل هناك حلمٌ بلا مجتمع ؟ وهل هناك أمانةٌ وأنت وحدك في صومعة ؟ وكل الفضائل تحتاج إلى مجتمع، فمن أجل أن تكون مع المجتمع قهرك الله عزّ وجل بطريقةٍ رائعة، وسمح لك أن تتقن حاجة، وجعلك في أمسّ الحاجة إلى ملايين الحاجات، فلن تستقيم حياتك إلا أن تكون في مجتمع، وأنت تحتاج إلى رغيف خبز، وهناك عشرات الألوف من الأشخاص يسهمون جميعاً في صنع هذا الرغيف، وتحتاج إلى ثياب، هناك من يزرع القطن، وهناك من يجنيه، وهناك من يحلّجه، ويغزله، ومن يصبغ الخيوط، وينسجها، ويخيطها، ويبيعها لك في محل تجاري، وآلاف الأشخاص ساهموا في صنع هذا الرداء، وصنع رغيف الخبز، فأنت مدرّس، أو مهندس، أو طبيب، أو تاجر، أو موظّف، أو صانع ممتهن تتقن حاجة وأنت بحاجة إلى ملايين الحاجات.

الفضائل لا تكون إلا في المجتمع لذلك قهرنا الله بأسلوب لطيف أن نعيش في مجتمع:

الله سبحانه وتعالى قهرنا بأسلوبٍ لطيفٍ جداً أن نعيش في مجتمع، لأن الفضائل لا تكون إلا في المجتمع، والجنّة ثمنها العمل الصالح، وهذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الشعوب فالله عزّ وجل لحكمةٍ أرادها جعل لكل شعبٍ لغة، وطِباعاً، وعادات، وإمكانات، فشعب قوي، وشعب دؤوب على الصناعة، وشعب يحب التجارة، ففي بنيته العامة أنه تاجر، وشعب بلاده جميلة جداً، وآخر فيه ثروات نفطيّة، وآخر بلاده حارّة، و شعب بلاده معتدلة، فتنوُّع الأقاليم، وتنوع الثروات، والطِباع، والخصائص، فهذا بحاجة إلى طاقة لأنه لا توجد طاقة عنده، وآخر عنده تكنولوجيا عالية جداً، وشعب عنده طاقة وهو مرتاح من النواحي الإبداعية يبيع نفطه ويستقدم بهذا الثمن كل ما يحتاج، فالله عزّ وجل وزّع الثروات في مكان، والطاقات الفكرية في مكان، وبلاد جميلة، وبلاد حارّة، وبلاد معتدلة، وبلاد جبلية باردة في الصيف، وبلاد صحراوية، فالأقاليم والبيئات متنوّعة، والثروات ؛ وهنا نفط، وهنا حديد، وهنا زنك، ويورانيوم، فكل بلد فيها معدن معيّن، وهذا البلد يزرع الشاي، وهذا يزرع الموز، والموز ينتقل من بلد إلى بلد، والله عزّ وجل جعل بعض الأقاليم يتناسب معها إنتاج زراعي معيّن، فنحن في حاجة إلى بعضنا البعض.

ليس لأي إنسان حق أن يفتخر بشيء منحه الله إياه من دون جهدٍ:

والفقرة السابقة نحن في حاجة إلى بعضنا البعض على مستوى الأفراد، أما هذه الآية فعلى مستوى شعوب.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ)

أنْ تفتخر بلغتك إنه شيءٌ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، وتفتخر ببلادك الجميلة شيءٌ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، تفتخر بالثروات الباطنية التي عندك والتي ليست من جهدك شيءٌ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، فالله جلّ جلاله وزّع القدرات، والطاقات، والثروات، والأقاليم، والمناخ، والإمكانات، وجعل لكل شعب شخصية خاصّة، ولكل شعب قدرات خاصّة، وإمكانات خاصة، فشعب عنده جَلَدٌ على الصناعة، وآخر على الزراعة، وهذا التنوع في الشعوب تنوع غنى لا تنوع تضاد، فكل شعب بحاجة إلى شعب آخر.

الله جلّ جلاله وزّع القدرات والطاقات والثروات ليتكامل المجتمع و يتعارف:

فلذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

تتعرّف على ما عند الآخرين، من أجل أن تعرف ما عندهم، وأن تعرّفهم بما عندك من أجل التكامل، وأحياناً تجد صوراً مجزّأة مربّعات مربّعات، والطالب مكلّف أن يجمع هذه المربّعات كي تكتمل الصورة، لعبة من لعب الصغار، مربّعات تشكل في مجموعها صورة جميلة، إنها مبعثرة الآن، فهذا الطفل الصغير يضع هذا المكعّب هنا وهذا المكعب هناك، فإذا وصل إلى الصورة الكاملة شعر بنشوة.. فربنا عزّ وجل نوّع ووزّع القدرات، والطاقات، والأقاليم، والثروات، واللغات والشعوب، والتقاليد والعادات وكلها بشكل متكامل.

لا يحقُ لفردٍ ولا لشعبٍ أن يتيه على الشعوب الأخرى:

قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

ومعنى ذلك أنه ليس لإنسان حق أن يفتخر بشيء منحه الله إياه من دون جهدٍ، ومن دون ذكاء وطلبٍ وسعي، فإنسان خلقه الله طويلاً، وهذا قصيراً، وهذا أبيض اللون وهذا أسمر اللون، هذه أشياء من خلق الله عزّ وجل لا تُتّخذ عند الله مقياساً للرفعة إطلاقاً.

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب لو أقْسَمَ عَلَى اللهِ لأبَرَّهُ'))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

فلذلك لا يحقُ لفردٍ ولا لشعبٍ أن يتيه على الشعوب الأخرى، و الآن توجد بعض الشعوب صنّفت نفسها في الدرجة الأولى وصنّفوا الآخرين في الدرجة السُفلى، وهذا تعصُّب:

((لَيسَ مِنّا مَنْ دَعا إلى عَصبيّة، وليس منا من قاتل عصبيّة، وليس منا من مات على عصبيّة))

[أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم]

هذا ليس منّا إطلاقاً.

ليس بين الله وبين عباده قرابة إلا الطاعة:

والآن تأتي الآية:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

وعند الله مقياس واحد هي طاعته، ليس بين الله وبين عباده قرابة إلا الطاعة.

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

والمؤمن الصادق ينطلق من هذا المقياس وحده، ولا يأبه لا بالغنى ولا بالفقر، ولا بالقوة ولا بالضعف، ولا بالوسامة ولا بالدمامة، ولا بالصحة ولا بالمرض، هذه مقاييس ما أقرّها الشرع إطلاقاً في تقيّيم الأشخاص، ولكن الشرع والقرآن يتخذ مقياس الطاعة وحدها مقياساً للترجيح بين الناس.

الإيمان و الطاعة مقاييس للترجيح بين الناس:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

فالمعنى واضح والآية موجزة لكن شتّان بين أن نستمع إليها وبين أن نطبّقها، تجد أن هناك سلوكًا جاهلياً، وهناك من يأبى أن يسكن في هذا الحي، ومن يأبى أن يتزوّج هذه المرأة، وهناك امرأة تأبى أن يكون زوجها إلا من صنف التجّار، وامرأةٌ تأبى أن يكون زوجها من هذا الصنف، عنعنات جاهلية، وعصبيّات إقليميّة، أو عصبيات ليست مقبولة عند الله عزّ وجل.

(يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

فبعض العلماء استنبط من هذه الآية أن كل شابٍ مؤمنٍ كفء لأية شابّةٍ مؤمنةٍ، لأنّ الإيمان وحده هو المرجّح على كلّ قيمة، وهذه الآية لا تؤخذ في فهمها ولكن في تطبيقها، فالإنسان أحد شخصين إما أن يكون مؤمناً يطبّق هذه الآية في تقييمه للناس، وإما أن يكون عنصرياً يعتمد على مقياس ما أراده الله عزّ وجل ؛ كالمقياس الإقليمي، أو العشائري، أو القَبَلي، أو القومي، أي نحن من صنف متميّز، وكلُّ إنسانٍ خلقه الله عزّ وجل، والله مع كل الناس ولجميع الناس، ويعلم أحوال الناس، ويقبل عمل الناس، ويقرّب الطائعين، ويبعد العُصاة المذنبين، ويتجلّى على المؤمنين، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((الناس رجلان برّ تقي كريمٌ على الله وفاجرٌ شقي هينٌ على الله))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

الناس رجلان بر تقي أو فاجر شقي:

وأقول لكم هذه الحقيقة: الناس على اختلاف مشاربهم، واختلاف أعراقهم، واختلاف أنسابهم، واختلاف مللهم، واختلاف نِحلهم، واختلاف مستوياتهم الاقتصادية، والثقافية، والفكرية، والاجتماعية، والعرقية، الناس في النهاية رجلان مؤمن والثاني كافر، ومستقيم ومنحرف، ومحسن ومسيء، ومنضبط ومتفلِّت، وموصول ومقطوع، ورحيم وقاس، ومنصف وظالم، الناس رجلان، فالمستقيم، المحسن، المقبل،

المنضبط، الرحيم هذا عند الله له شأنٌ كبير بصرف النظر عن عرقه، وعن جنسه، وعن أسرته، وعن عشيرته، وعن قبيلته، وعن إقليمه، هذه عنعناتٌ جاهلية.. والذي قال لسيدنا بلال: **" يا ابن السوداء "**، قال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا فلان إنك امرؤٌ فيك جاهلية))

[أخرجه البخاري عن المعرور بن سويد]

العنصري هو الإنسان الذي يقيم مقاييس غير مقاييس القرآن الكريم:

الآن إذا كان عندك شعور أن ابنك من أسرة راقية يجب أن يكون مكتفياً، متنعِّماً، وهذا الموظّف الذي يعمل عندك في المحل هذا أبوه ميت وهو يتيم وفقير، ويجب أن يعمل عملاً شاقاً دون أن ينال نصيبه منك، فأنت إنسان عنصري، وهذا العنصري الذي يقيم مقاييس غير مقاييس القرآن الكريم، مقاييس الأنساب والأعراق، والغنى والفقر، ومقاييس أسرية عشائرية قبلية إقليمية، فهذه كلها مقاييس ما أنزل الله بها من سلطان، وسيدنا الصديق رضي الله عنه عندما رأى صفوان يعذِّب بلالاً اشتراه منه، قال له: **" خذه فو الله لو دفعت به درهماً لبعتكه "**، وسيدنا الصديق رأى في هذا الكلام إهانة لسيدنا بلال فقال له: **"والله لو طلبت به مئة ألفٍ لأعطيتكها "**، فلمّا اشتراه من سيّده وضع يده تحت إبطه وقال: **" هذا أخي حقّاً "**، فكان أصحاب النبي إذا ذكروا الصديق يقولون: **" هو سيدنا وأعتق سيدَنا "**. أي بلالاً.

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يخرج إلى ظاهر المدينة لاستقبال بلال الحبشي، ومرّة وقف أبو سفيان في باب عمر ساعاتٍ طويلة لم يؤذَن له، فلمّا دخل عليه عاتبه وقال: **" سيد قريش يقف ببابك ساعاتٍ طويلة وصهيبٌ وبلال يدخلان بلا استئذان "** فقال عمر: **أنت مثلهما في الإسلام ؟**

أكرم الناس عند الله عز وجل أتقاهم له:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

إن لم نتعامل مع بعضنا بهذا المقياس فلسنا مسلمين، الغنى تحت قدمك، والفقر تحت قدمك، فالغنى والفقر، الوسامة والدمامة، والذكاء وقلّة الذكاء، هذه المقاييس اختصّ الله عزّ وجل بها خلقه لحكمةٍ أرادها، لكنها لا ترفع ولا تخفض، والذي يرفع ويخفض الطاعة، مرّة ثانية:

((رُبّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب لو أقسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرّهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

الله عزّ وجل شاءت حكمته أن يكون الأنبياء فقراء في معظمهم، فماذا كان يعمل الأنبياء الفقراء ؟ رعاة غنم، وهل هناك حرفة أهون على الناس من أن يرعى الغنم ؟ تجد شخصاً في الجبال مع مئة

غنمة، وأنبياء عِظام رعوا الغنم لتحطيم هذه المقاييس التي ابتدعها الناس، أنا لا أدخل في التفاصيل، وهناك أوهام، ومظاهر فارغة، ومقاييس مضحكة يقيس بها الناس، ما أنزل الله بها من سلطان.

الدين و الخلق مقاييس مهمة في الزواج و ليس الناحية المادية:

على كلٍ:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

هذا هو المقياس، وإذا كانت الآية واضحة عندك وأنت مؤمن إيماناً صحيحاً فيجب عليك أن تمارسها يومياً، يأتيك خاطب مثقف يحمل شهادة عُليا، ديّن وأخلاقه عالية، إذْ يقيس بعض الآباء خاطبي بناتهم بالمقياس المادي وحده، يرفض أو يقبل لعلّة المال فقط، يرفض أو يقبل لعلّة الحرفة وحدها، يرفض أو يقبل لعلّةٍ أخرى فقط، أما هذه الآية فيجب أن نمارسها عملياً ؛ في علاقاتنا، ومهننا، وحرفنا، وأسواقنا، وزواج فتياتنا، وتزويج شبابنا.

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

((إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد))

[أخرجه الترمذي عن أبي حاتم المزني]

على الإنسان أن يتقي الله و يحسن إلى خلقه إخلاصاً و ليس نفاقاً لأن الله عليم بحاله:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

فما أحسن الذي يتقي، ألم يقل الله عز وجل قبل قليل:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

إنسان مستقيم على أمر الله هل يفعل هذا نِفاقاً أم إخلاصاً ؟ أم رياءً أم طاعة ؟ وهو ينضمُ إلى المؤمنين لمكاسب مادية أم لإخلاصٍ شديد ؟ قال:

(إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

المؤمن لن يُقبل عمله عند الله إلا إذا قاس بمقياس واحد:

أي إن قوله تعالى:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

يحتاج إلى تفصيلات كثيرة، وأحياناً الإنسان يُنفِق على ابنه مئات الألوف لينال درجة علمية عالية، أما إذا كان عنده موظّف صغير في المحل يتيم وطلب منه أن يغيب ساعة ليلتحق بدورة تعليمية فلا يسمح له، أليس هذا عنصرياً ؟ ابنك تريده في أعلى مرتبة علمية أما هذا اليتيم الذي ليس له أب ومن شدّة حاجته للمال التحق بالعمل عندك، وطلب ساعة قبل انتهاء الدوام يغادر المحل فيها ليلتحق بمدرسة ليلية لا تسمح له، أليس هذا التصرُّف خلاف هذه الآية ؟.

وشيءٌ آخر: حينما يعامل الإنسان زوجة ابنه معاملةً تختلف عما يتمنّى أن تُعَامَل ابنته بها، فهذا إنسان غير منطقي، وغير منصف، فحينما تنحاز إلى ابنتك، أو إلى أخيك، أو إلى ابنك انحيازاً أعمى على حساب الإنصاف والحق فهذه جاهليةٌ في الإنسان، ولن تكون مؤمناً صادقاً مقبولاً عند الله عزّ وجل إلا إذا قست الناس بمقياسٍ واحد.

الإنصاف من أكبر الوسائل التي تعين على الاتصال بالله تعالى:

الحقيقة هناك حديث وهو:

((عامل الناس كما تحب أن يُعاملوك))

هذا الحديث على بساطته أدق مقياس، دائماً اعكس الآية فهل تحب أن تُعَامَلَ هذه المعاملة التي تعامل بها الآخرين ؟ وهل تحب أن يُعامل ابنك هذه المعاملة التي تعامل بها أبناء الآخرين ؟ وهل تحب أن تعامل ابنتك في بيت زوجها معاملةً كما تعمل أنت مع ابنتك أو مع زوجة ابنك ؟ فالإنسان يقيس نفسه بهذا المقياس، إنه مقياس دقيق وفعّال، ودائماً اعكس الآية، هل ترضى أن تُعامل أمام موظّف كما تعامل هذا المواطن المراجع ؟ وأنت طبيب فهل ترضى لو كنت مريضاً أن تُعامَل هذه المعاملة من طبيب ؟ أنت لو كنت محامياً فهل ترضى أن تعامَل كما تعامل هذا الموكِّل ؟ لا.. فهذا المقياس دقيق جداً، وهذا المقياس ينهضنا جميعاً، فلذلك:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

والإنصاف أحد أكبر الوسائل التي تعينك على الاتصال بالله عزّ وجل، وإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 14-18، الإيمان و الإسلام
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-05-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس السادس والأخير من سورة الحجرات.

المسلم من طبق منهج الله عز وجل في حياته:

مع الآية الرابعة عشرة وهي قوله تعالى:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة... هناك إسلامٌ، وهناك إيمانٌ، وهناك إحسان، وقد وردت هذه المراتب في الحديث الصحيح الذي رواه النبي صلى الله عليه وسلم، فالإسلام هو الانصياع الظاهري لله عزّ وجل، وتطبيق الأحكام الشرعية، فالذي يكسب ماله وفق منهج الله، وينفق ماله وفق منهج الله، والذي يتزوج وفق شريعة الله، والذي يعمل وفق ما أمر الله، الذي ينصاع في شؤون حياته كلها ؛ صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، في بيته ومع نفسه، وفي عمله ومهنته وحرفته، وزواجه وطلاقه، ولهوه، وجِدِّه ومرحه، وإقامته وسفره، فهذا الذي يطبق منهج الله في كل شيء هو مسلم.

مرتبة الإسلام لا يبلغها إلا من طبق الإسلام في بيته:

أما الذي ينتمي إلى أبٍ وأمٍ مسلمين من دون أن يطبق من الإسلام شيئاً فهذا لم يبلغ بعدُ مرتبة الإسلام، يقول لك: كثير من المسلمين، النبي صلّى الله عليه وسلّم قال:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الجامع الصغير]

ألا تعجب من مليار ومئتي مليون مسلم في العالم يشغلون أكثر من خمس أهل الأرض وكلمتهم ليست هي العليا !! ألا تعجب من قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

إن روّاد بيت الله الحرام يزيدون عن أربعة ملايين، مع أن اثني عشر ألفًا من قلة لن يغلبوا.

الإسلام بناء أخلاقي و منهج و التزام:

أيها الأخوة الكرام... الإسلام انصياعٌ تام لأمر الله الواحد الديّان، فلو دخلنا إلى بيوت المسلمين فإننا لا نرى الإسلام فيها فهناك اختلاط، وأجهزة لهو كثيرة، وغيبة، ونميمة، ولو دخلنا إلى أسواق المسلمين نجد الكسب الحرام، والكذب، والخداع، والتدليس، والغش، ولو دخلنا إلى بيوتهم وإلى أسواقهم فنحن لا نرى للإسلام أثراً، ولعل الإسلام عندهم أن تؤدي الصلاة في المسجد، وأن تصوم رمضان وأن تحج البيت، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و الحج و صوم رمضان))

[متفق عليه عن ابن عمر]

ألا ترون معي أن الإسلام شيء وأن هذه الخمس شيءٌ آخر، بني الإسلام على خمس، الإسلام بناء أخلاقي، ومنهج، والتزام، وصدق.

العبادات الشعائرية هي مناسبات لقبض ثمن العبادات التعاملية:

ألا ترون أيها الأخوة أن سيدنا جعفراً وهو من كبار الصحابة حينما أراد أن يعرّف النجاشي بالإسلام قال: " وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء... "، فالصلاة والصوم والحج والزكاة عباداتٌ شعائرية وهي مناسباتٌ لقبض ثمن طاعتك في العبادات التعاملية، عباداتٌ شعائرية تقبض فيها ثمن العبادات التعاملية، ولذلك سئل النبيُّ عليه الصلاة و السلام: " أيكذب المؤمن ؟ قال: لا.

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة النحل: آية " 105 ")

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة))

[أخرجه أحمد عن أبي أمامة]

فإذا كان عنده كذب أين بقي الدين ؟

فيا أيها الأخوة... لو طبقنا منهج الله بحذافيره، جملةً وتفصيلاً، في جلائل الأمور وفي صغائرها، وإذا طبقنا منهج الله كنا مسلمين، وقد لا نصل إلى مرتبة الإيمان، فكيف بالذي تفلّت من منهج الله، ويقول لك: أنا مسلم، فشعوبٌ كثيرة تعيش في كل المعاصي وهي مصنّفةٌ عند علماء السُكّان أنهم مسلمون.

الإسلام هو الانصياع التام إلى شرع الله:

حدثني أخ ذهب إلى بلد في أوروبا الشرقية يغلب عليه الدين الإسلامي، فلما علم أحدهم أنني مسلم طار فرحاً وشوقاً وعانقني وقبّلني ورَحّب بي وقدم لي زجاجة خمر هدية، فهؤلاء المسلمون، اختلاط ورقص وشرب، وهم مصنفون عند علماء السكان أنهم مسلمون، فتعريف الإسلام الدقيق: الانصياع التام إلى شرع الله، فإذا كان الإسلام في بيتك مطبقاً على زوجتك، وبناتك، وكسب مالك، وإنفاقه، فأنت الآن مسلم، أما أن تنتمي انتماءً شكلياً وتقول: لمَ لمْ ينصر الله المسلمين.. فالله قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

قال:

(يَعْبُدُونَنِي)

ادفع الثمن، ادفع ثمن الاستخلاف وثمن التمكين والتطمين، فالثمن أن تعبده وأن لا تشرك به شيئاً.

على المؤمن ألا يغتر بكثرة عدد المسلمين العبرة بالتزامهم و تطبيقهم منهج الله تعالى:

إخواننا الكرام... قد آن الأوان ألا نجامل أنفسنا، وآن الأوان أن نعيش بالحقائق وليس بالأوهام، فلا يغرنّك كثرة المسلمين، فالعبرة بالتزامهم واستقامتهم، وتطبيقهم منهج الله عزّ وجل، وفي آخر الزمان قال عليه الصلاة والسلام (ولا أعتقد أن أحداً إلا ويرى أن هذا الحديث محقق):

((يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.. ألم تأتِ الأمم كلها لتحاربنا، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.. قالوا: أمن قلةٍ ؟ يومئذٍ نحن يا رسول الله ؟ قال: لا أنتم كثير (مليار ومئتا مليون) ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل))

[أخرجه أبو داود عن ثوبان]

أي الألف منهم كألف.. فهل تصدقون أن سيدنا عمر لما طلب منه سيدنا سعد دعماً لجيشه في القادسية، فخليفة المسلمين يُرسل لجيشٍ يحارب أكبر دولةٍ في العالم، يرسل له دعماً رجلاً واحداً اسمه القعقاع (والله شيء لا يصدق) بحجم جيش الواحد كألف، وقد تجد في آخر الزمان الألف كألف:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

[سورة الكهف]

الله عز وجل لا ينظر إلى صورة الإنسان و لكن ينظر إلى قلبه و عمله:

العبرة أيها الأخوة أن نكسب الوقت، وأن نكسب حياتنا الدنيا، وأن نتعامل مع الله تعاملاً صادقاً، وأن نكون أقوياء في ديننا، وأن نطبق لا أن نتكلم، ولا أن نتفلسف، ولا أن نحلل، ألف كلمةٍ ليس وراءها تطبيق لا تنفع ولا تغني ولا تسمن، قلت مرة في خطبة العيد، من قال: الله أكبر، أي من أطاع مخلوقاً وعصى خالقاً، ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى أن هذا المخلوق طاعته أكبر عنده من طاعة الله، من لم يُقِم الإسلام في بيته، رأى أن إرضاء أهله وسلامة رأسه أغلى عنده من طاعة الله، فهذا ما قال الله أكبر ولا مرة، ولو رددها بلسانه ألف مرة، ومن لم يدع الدخل الحرام فماذا رأى ؟ رأى أن هذا الدخل الحرام أغلى عنده من طاعة الله، فلو قال في العيد: الله أكبر، والله ما قالها ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، أي آن الأوان أن نتعامل مع الحقائق، آن الأوان أن نعرف حدودنا، ورحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، وعلينا أن نصدق مع الله، فالله عزّ وجل لا ينظر إلى صورنا، وإن كان للإنسان مظهر رائق، جميل، بياض، وعطر و مسواك، فالله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، والعبرة لا بالزي ولا باللباس ولا باللوحات الإسلامية في البيت والآيات قرآنية في مدخل المحل:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

(سورة الفتح)

وبالباب الثاني:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود: آية " 112 ")

وهناك غش في البيع والشراء، ونضع على السيارة مصحفًا ولا نتقي الله في هذه السيارة، ونطلق بصرنا في الحرام ونعلق تعليقات، فهذه المظاهر الشكلية من دون تطبيق هي علّتنا، وهذا هو الداء الذي يَفُتُّ عضد المسلمين.

الإسلام انصياع الجوارح لطاعة الله و الإيمان تصديق وإقبال:

الإسلام انصياع الجوارح لطاعة الله و الإيمان تصديق وإقبال:

فيا أيها الأخوة...

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)

لو طبقتم منهج الله بحذافيره، وكلياته وجزئياته فأنتم مسلمون، ولم تبلغوا مرتبة الإيمان، ولكن بعض العلماء يقول: إن الإيمان والإسلام له حكمٌ خاص، فهاتان الكلمتان إذا اجتمعتا تفرّقتا، وإن تفرقتا اجتمعتا، فإذا قلت: هو مسلم فأعني به أنه مؤمن، وإذا قلت: هو مؤمن فأعني به أنه مسلم، أما إذا قلت: الإسلام والإيمان، الإسلام شيء والإيمان شيء، إن اجتمعتا تفرقتا، كالفقراء والمساكين، وإن تفرقتا اجتمعتا.

أيها الأخوة... الإسلام انصياع الجوارح والأعضاء لطاعة الله، فالعين تغضُّ البصر، والأذن تكف عن سماع الغناء، واللسان لا يكذب، ولا يغتاب، ولا ينم، واليد تعطي ولا تبطش، والرجل تمشي إلى مساجد الله، فهذا هو الإسلام، أما الإيمان فعليك أن تصدِّق ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام وأن تقبل على الله بقلبك، فالإيمان تصديق وإقبال، والكفر تكذيب وإعراض.

الإيمان محله القلب و الإسلام محله الجوارح:

الكفر والإيمان محلُّهما القلب، والإسلام محله الجوارح، فأنت بجوارحك وأعضائك وبيعك وشرائك مسلم، وأنت بقلبك مؤمن، فإذا أيقنت بهذه الحقائق التي جاء بها الدين وتمثلتها وأقبلت على الله فأنت مؤمن، أما حينما تطبق أمر الله عزّ وجل فأنت مسلم، فالإسلام شيء والإيمان شيء، لكن أحياناً الله عزّ وجل يقول:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

(سورة آل عمران: آية " 19 ")

تفرقتا، إذاً الإسلام يجمع الإيمان والإسلام

(إنما المؤمنون إخوة)

أي المسلمون أيضاً، فحينما تأتي كلمة إيمان وإسلام مجتمعتين تفرقتا في المعنى، أما إذا أتت الكلمتان منفردتين فقد اجتمعتا في المعنى.

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

الإيمان المطلوب هو الإيمان الذي يحمل الإنسان على طاعة الله:

الحقيقة أيها الأخوة... الإيمان إذا كان اعتقاداً يقينياً بحقائق الإيمان فمرتبةٌ واحدة، ويجب أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، هذا هو الإيمان، أما إذا كان الإيمان اتصالاً بالله عزّ وجل فهنا يتفاوت الناس في إيمانهم، يزيد إيمانهم

وينقص بقدر إقبالهم على الله، فلذلك هناك يقينٌ يحملك على طاعة الله، واليقين الذي لا يحملك على طاعة الله لا يكفي، فإذا آمنت بالله ولم تستقم على أمره ففي الإيمان ضعف، وهذا الضعف تجسد في التفلت من منهج الله، أما إذا آمنت بالله إيماناً حملك على طاعته فهذا الإيمان المطلوب، ولذلك فالقضية مرنة، فيمكن أن تكون مع أكبر دائرة، ولكن أكبر دائرة لا تكفي، فأنت من جملة المؤمنين، تعتقد بوجود الله ووحدانيته وكماله، وجنته وناره والقدر خيره وشره والملائكة والكتاب، ولكنك لست مستقيماً، إذاً إيمانك غير كافٍ، ولذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)

(سورة النساء: آية " 136 ")

كلما ارتفع مستوى الإيمان عند الإنسان ارتفع مستوى سلوكه:

اطلب كمال الإيمان، اطلب الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، فهنا قضية دقيقة: هناك علاقة ترابطية دائمة بين تصوراتك وبين السلوك، فكلما ارتفع مستوى الإيمان يرتفع مستوى السلوك، فأنت منصاعٌ إلى أمر الله بقدر معرفتك به، ومتفلتٌ من منهج الله بقدر نقص معرفتك به، إذاً العلمُ هو المرحلة الأولى، فعلينا بالعلم.

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)

أما أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأما أن تكون حياتك وصلاتك ومحياك ومماتك لله رب العالمين، فهذه مرتبة الإحسان، وهناك مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين، ومرتبة الظالمين، وهناك أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقون السابقون.

المؤمن الحقيقي هو المؤمن الذي يبيع نفسه لله فقط:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: آية " 111 ")

فالإنسان السابق باع كل شيءٍ لله، فمن هو الشاري ؟ الله رب العالمين، وما هو الثمن ؟ الجنة..

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: آية " 111 ")

فالشاري هو الله، والثمن هو الجنة، ولذلك المؤمن يأبى أن يبيع نفسه لغير الله ويكون مغبوناً أشد الغبن، فإنسان يبيع سجَّادة بعشرة آلاف، والذي اشتراها باعها بمليونين، فهي حلقة مفقودة أثرية، فإنسان استدرجه وأعطاه عشرة آلاف، وثمنها مليونا ليرة، فبماذا يشعر هذا الإنسان ؟ بالغبن الشديد، فلما يبيع

الإنسان نفسه، أي يبيع وقته، وطاقاته، وذكائه، وعلمه، وشهادته، وماله، ويبيع مكانته لغير الله يكون قد غبن أشد الغبن، وباع النفيس بالخسيس، وخاتم ماس ثمنه مئتا ألف تبيعه بألفي ليرة !! ثم تكتشف الحقيقة أنك كنت مغبونًا، وأن الذي اشتراه منك غشّك وغبنك، إنه شعور لا يوصف، شعور بالغبن.

من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً:

ربنا عزّ وجل قال:

(إِنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمُ الْجَنّةَ)

(سورة التوبة: آية " 111 ")

فالشاري هو الله والثمن هو الجنة، فلا يليق بك كإنسان أن تكون لغير الله، ولا أن تحوّل لغير الله، ولا أن تصرف وقتك وجهدك وطاقتك ومالك لغير الله، قال: يا سيدي كم الزكاة عندكم ؟ قال: ماذا عندكم وماذا عندنا ؟ قال: عندنا العبد وماله لسيده، ولكن لما ربنا عزّ وجل رأى من المؤمن هذه البيعة، باع نفسه وماله في سبيل الله رد نفسه له أوفر ما كانت، ورد ماله له أوفر ما كان، وكان هذا البائع هو الرابح الأكبر، ولذلك: **" من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً "**، أي أن الله عزّ وجل خلقنا لنربح، وعليه:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11))

(سورة الصف)

كل عمل عند الله محفوظ و سيحاسب الإنسان عليه:

دقق في آخر فقرة:

(خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

إذا رأيت الدنيا خيراً من الآخرة فأنت لا تعلم ولو معك أعلى شهادة، و أن ترى أن الآخرة خيرٌ من الدنيا.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

(سورة الضحى)

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً)

واللهِ الذي لا إله إلا هو أريد أن أقدِّم لكم مثلاً لأصغر عمل يخطر ببالكم، لو أن أحدنا رأى في المسجد قشة صغيرة طولها سنتيمتر، فحفاظاً على قدسية المسجد أمسكها ووضعها في جيبه، إنها قشة، فهذا العمل عند الله محفوظ، فما قولك فيما فوق هذا العمل ؟.

الله عز وجل أجلّ و أعظم من أن يضيع مؤمناً أو يبخسه حقه:

(وَإِنْ تُطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً)

شاب في مقتبل الحياة يقرأ قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

فيغض بصره عن النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، وهو في أشد نزعة الشباب، أفهذا العمل يضيع عند الله ؟ هذا المحروم ؟ لا والله، هذا السعيد، فإذا كافأه الله عزّ وجل في الدنيا بزوجة مؤمنة تسره إن نظر إليها، وتحفظه إن غاب عنها، وتطيعه إن أمرها فإن الله عزّ وجل لم يضيّعه، وهذا الذي يعف عن المال الحرام هل يبقى فقيراً ؟ حاشا لله:

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

فلا تصدق أن إنسانًا يطيع الله ويخسر، أو يكون وراء الناس، لا يكون إلا في المقدمة، ولا تصدق أن إنسانًا يركل الدنيا بقدمه لأن فيها شبهة يبقى فقيراً، أبداً، الله أجل وأعظم وأكرم من أن يضيّع مؤمناً، ومن أن يُنقص له من عمله، وأن يبخسه حقه، ويظلمه، فلا يخاف ظلماً ولا هضما، هذا هو الدين.

امتحان الله الإنسان ليرى كيف يعمل ؟

أحياناً تأتيك إغراءات كثيرة، فالله عزّ وجل قال (دققوا في هذه الآية) قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

لم يكن هناك مخرج، فالأبواب كلها مغلقة، فهذا المسجد فيه أربعة أبواب، فإذا أراد إنسان أن يخرج فلا يقل: أين المخرج ؟ فمتى يقول: أين المخرج ؟ إذا كانت كل هذه الأبواب مغلّقة، فلا تسأل عن المخرج إلا إذا غُلِّقَت الأبواب، فالآية دقيقة جداً، وكذلك الإنسان أحياناً أبواب الرزق مسدودة كلها، يفتح لك أبواباً غير مشروعة، أما المشروعة فكلها مسدودة، لينظر ماذا تعمل ؟ فإذا قلت: أنا مضطر فماذا أفعل؟

رسبت في الامتحان، أما إذا قلت: الله الغني، يا رب لن أعصيك وليكن ما يكون، فعندئذٍ يفتح لك المخرج.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

ولا تجد قصّة يعانيها الأخوة المؤمنون إلا وتؤكد هذه الحقيقة.

من ابتغى أمراً فعليه التوكل على الله:

إخواننا الكرام... هذا الحديث يجب أن يكون في ذهن كل واحدٍ منا.

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

والله لزوال الكون أهون على الله من أن تدع شيئاً من أجله ولا يعوّضه عليك، كن واثقًا من الله عزّ وجل ولا تخف، والحرام اركله بقدمك، والعلاقة المشبوهة اركلها بقدمك، ولا تقل: أنا مضطر، فإن الله عزّ وجل لا ينال ما عنده بمعصيته: من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب ممن اتقى.

(وَإِنْ تُطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ)

أي لا يضيع عليكم..

(لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

العمل الحلال ولو كان فيه تعب وسهر وحسابات أفضل ألف مرة من الحرام:

العمل الحلال ولو كان فيه تعب وسهر وحسابات أفضل ألف مرة من الحرام:

لذلك فالمؤمن يطيع الله وكفى، ولا يعبأ بالنتائج، لأن النتائج حتماً لصالحه، فالله يمتحنه، وقد يريه أحياناً أن كل الخير بهذه التجارة ولكن فيها شبهة، ولا يوجد غيرها، ويقول لك: كل شيء واقف، وهذا هو الشغل، لأن الامتحان هكذا، ولولا أن الله يظهر للناس أن الخير في المعصية، والطاعة فيها ضيق، فالنبي قال:

((من بات كالاً في طلب الحلال بات مغفوراً له))

و الحلال صعب، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعل الله الحرام سهلاً، فالنبي قال:

((من بات كالاً في طلب الحلال بات مغفوراً له))

وحبذا العمل الحلال ولو كان فيه تعب وسهر وحسابات، ذلك أفضل من أن تمدّ يدك للحرام.

(وَإِنْ تُطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

المؤمن من ضمّ الدنيا إلى الآخرة ليفوز بكليهما معاً:

اسمع قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

فدائماً أيها الأخوة هناك نقطة مهمة جداً ؛ لا تنظر إلى قضية من زاوية الدنيا فقط، أحياناً تجد رجلين، الأول لا يوجد عنده دين على الإطلاق، فالأموال بين يديه كالتراب، وصحته قوية، ومكانته الاجتماعية عليّة، وهو قوي ومسيطر، وتجد الثاني مستقيماً متّبعاً لمنهج الله يعاني من ألف مشكلة، فإذا نظرت إلى الدنيا فقط وقعت في إشكال، فيجب أن تضم الآخرة إلى الدنيا، في الأول وفي الثاني، والله عزّ وجل قال:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

(سورة آل عمران)

و قال لك:

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

كل مؤمن له معاملة خاصة و موقف خاص بحسب إيمانه:

وقال لك: وبشر عبادي، فالله عزّ وجل بشر المؤمن وحذر الكافر، لكن قد تجد في الدنيا الكافر قوياً وغنيًا والمؤمن ضعيفًا وفقيراً، وإذا نظرت إلى الدنيا فقط فإنك تقع في إشكال، ودائماً ضُمّ الآخرة إلى الدنيا، فإذا ضممت الآخرة إلى الدنيا انتهى الإشكال، والحياة قصيرة، وأطول عمر مئة سنة، أو مئة وخمس وعشرون سنة، وهذا أمام الأبد ليس بشيء، بل هو كالصفر، واحد بالأرض و أصفار إلى القمر، كم هذا العدد ؟ إلى القمر المسافة ثلاثمئة وستون ألف كيلو متر، وبين كل صفرين مليمتر واحد، والواحد بالأرض والأصفار إلى القمر، هذا الرقم لو وضعته صورةً لكسرٍ عشري والمخرج لا نهاية فالقيمة صفر، وأكبر رقم في الأرض إذا نسب إلى اللانهاية فهو صفر، والآخرة لا نهاية، والدنيا رقم مهما طال عمر الإنسان فعاش مئة وثلاثين سنة !! أو مئتي سنة، فصفر، لأن الدنيا لا قيمة لها، والعبرة بالأبد، وذلك بأن تكسب جنة ربك إلى الأبد، العبرة أن يكون لك مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، وأن

تطمئن يوم يفزع الناس جميعاً، وأن ترتاح يوم يخاف الناس جميعاً، وأحد الصحابة قال: ينبغي أن يبكي حينما يضحك الناس، وأن يتقي حينما يتفلت الناس، فالمؤمن له معاملة خاصة، وله موقف خاص بحسب إيمانه.

المؤمن الحقيقي من آمن بالله و رسوله دون أي شك أو ارتياب:

إذاً:

(وَإِنْ تُطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ)

(إنما)

هذه أداة قصر، المؤمنون حقاً، الأعراب ماذا قالوا:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)

إذاً ما الإيمان ؟

(إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ لَمْ يَرْتَابُوا)

المؤمن لا يتعامل مع الظنيات إنما يتعامل مع اليقينيات:

المؤمن لا يتعامل مع الظنيات إنما يتعامل مع اليقينيات:

أيها الأخوة... الارتياب من الكفر، إنه شك وتردد..

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأجساد قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسرٍ أو صح قولي فالخسار عليكما

*** * ***

هذا ليس إيماناً.

(إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ لَمْ يَرْتَابُوا)

لا ينبغي لك كمؤمن أن تتعامل مع الظنيات، فلا بدّ من التعامل مع اليقينيات، يقين..

(كَلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنّ الْجَحِيمَ (6))

(سورة التكاثر)

لا تقبل بالدين ظنّاً..

(وَمَا يَتّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلّا ظَنّاً إِنّ الظّنّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقّ شَيْئاً)

(سورة يونس: آية " 36 ")

الدين يقين و كل ما في الكون يدل على الله:

مع الظن تردد، يقول لك: لا نعرف.

جئت من أين ولكني أتيت أبصرتُ قدّامي طريقاً فمشيت

فلماذا جئت ؟ لست أدري ولماذا لست أدري ؟ لست أدري

* * *

لا تكن متردداً، في الدين لا يوجد ظن، فالدين يقين، وكل هذا الكون يدل على الله، وينطق بكماله، وبوحدانيّته، وبوجوده، وكل ما في هذا الكتاب ينطق أنه كلام الله، بإعجازه، وما جاء به النبي ينطق بنبوّته، وهناك دلائل النبوة، قال النبي أشياء لا يمكن أن يصل إليها إنسان ذكي وحده، والآن كشف العلم صوابها، فهذه من دلائل نبوة النبي، فلذلك لا تقبل بالظنيات، مرة قلت لإخواننا: أحياناً يقرأ الإنسان في الجريدة خمس كلمات: " سيسمح باستيراد السيارات " فرضاً، ينزل سعر كل سيارة خمسمئة ألف ليرة، وإنسان كتب تصريحاً فانخفضت أسعار السيارات في كل مكان، وخالق الكون وهذا الكتاب بين أيدينا، كله وعد ووعيد، ولا أحد يتأثر ؟ وهكذا قال الإمام الغزالي قال: " يا نفس لو أن طبيباً حذّرك من أكلةٍ تحبينها فلا شك أنكِ تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أيكون وعيد الطبيب أشد عندكِ من وعيد الله ؟ إذاً فما أجهلكِ "، فالله عزّ وجل يقول: الإيمان هكذا:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

المؤمن الحق هو المؤمن بالله و بالجنة و النار الإيمان اليقيني:

يقول لك أحدهم: لا نعرف، إن شاء الله نكون على حق، فهذا ليس إيمانًا..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

هذا الإيمان..

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة)

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

لا يوجد ريب، فإيمانه بالله يقين، وبالجنة يقين، وبالنار يقين، وبالجنة والنار إيمان إخباري، وإيمانه بالله والقرآن والأنبياء إيمان عقلاني، وبالأشياء الموجودة إيمان إحساسي.

الله نصب الكون كله أدلة على وجوده و كماله و وحدانيته:

إذًا هناك يقين حسِّي، وعقلي، وإخباري، ولا يوجد عندنا شيء اسمه: لا نعرف، إن شاء الله، إن شاء الله نجد أنفسنا بعد الموت في الجنة مثلاً، فهذا ليس إيماناً، والصحابة الكرام قال سيدنا علي: " والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً "، يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء، فهذا هو اليقين، يقول أحد الصحابة: " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي " أي أنه ينطلق إلى الله بأقصى سرعة.

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

* * *

إن صح قولكما (أي إذا كان لا يوجد جنة ولا نار فلست بخاسرٍ أو صحّ قولي فالخسار عليكما) فهذا ارتياب، والارتياب من الكفر، والله نصب الكون كله أدلة على وجوده، وعلى كماله، وعلى وحدانيته، وجعل كلامه معجزاً، فيه إعجاز علمي، وبلاغي، وتشريعي، وإخباري، وتاريخي، وجعل نبيه كلامه في دلائل نبوته، وانتهى الأمر، فالعقل يحكم يقيناً بما جاء به القرآن.

(ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

إيمان الإنسان يعبر عن وجوده بالحركة نحو خدمة الخلق:

الآن:

(وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

إخواننا الكرام... في اللحظة التي يستقر فيها الإيمان بالقلب يعبر هذا الإيمان عن ذاته بالحركة نحو خدمة الخلق، فلا يوجد مؤمن منقطع عن إخوانه المؤمنين، وما دام استقر الإيمان في قلبه فعليه أن يتحرّك نحو إرضاء الله بخدمة خلقه، بالدعوة، وبالإحسان، وبإطعام اليتامى، ورعاية الأرامل، وبنشر العلم، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإنفاق المال، ففي اللحظة التي يستقر فيها الإيمان في القلب يعبّر هذا الإيمانُ عن ذاته بالحركة نحو إرضاء الله من خلال خدمة الخلق.

الإيمان يقين و عمل لا تردد فيه و لا انقطاع:

لذلك:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

فالإيمان يقين وعمل، لا تردد فيه، ولا انقطاع عن العمل، والإيمان يعبّر عن وجوده بالعمل، فهذه الآية أساسية في الدرس:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ)

الإنسان قادر في كل زمان و مكان على تطبيق القرآن بكافة جوانبه:

أي هل أنت وكيل على الأمة ؟ يقول لك: هذه لا تنفع، وهذه فوق طاقتنا في هذا العصر، وأنت متيقن أن هذا الأمر لا يطبق الآن ؟ فماذا تفعل بقوله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

من الصادق أنت أم الله ؟ يقول لك: اليقين، والمنهج صعب تطبيقه، وهذا كلام مستحيل أن يطبق في هذا الزمان، فهل الدين لغير هذا الزمان ؟ أي أن الله عليه أن يستثني هذا الزمان، فيقول: يعمل بهذا الكتاب إلى تاريخ كذا، فإذا كان الآن يصعب تطبيقه، أو انتهى تطبيقه، أما الله فيقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

فأنت قادر في كل مكان وفي كل زمان على تطبيق هذا القرآن من كل جوانبه ؛ في كسب المال، وإنفاقه، والزواج من مؤمنة، وإن شاء بيت مسلم، وإيّاك أن تقول: لا أستطيع، لأن الله عزّ وجل لم يكلّفنا إلا ما نستطيع، وحينما يعلم الله، وحيث علم الله أن هناك حالات صعبة جاءت الرخص، فقال لك: صلّ في السفر ركعتين الظهر فقط، وقال لك: في السفر إفطار، فعندما توجد المشقة فالله عزّ وجل يشرّع الرخص لأنه يعلم.

الإنسان إذا عرف علم الله تهيّب أن يدلي برأي أمام آية قرآنية:

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

الإنسان إذا عرف علم الله عزّ وجل تهيَّب أن يدلي برأي أمام آية قرآنية، ولذلك فالله عزّ وجل قال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

إذًا يوجد حكم، وامرأةٌ عاقلةٌ سئلت: ما رأيكِ في تعدد الزوجات ؟ قالت: ليس لي رأي وقد أباحه الله عزّ وجل، فأنت تختار هذا البيت أم هذا البيت ؟ وأن تتوظف أو أن تتاجر ؟ وأن تسافر أو أن تقيم ؟ فهذا اختيارك، أما الله عزّ وجل فقد حرم الربا تقول: والله أنا رأيي لابدَّ منه الآن..

يقولون: هذا عندنا غير جائزٍ فمن أنتم حتى يكون لكم عند

* * *

الأحمق من يدلي برأي مخالف لآيات القرآن الكريم:

ما قيمتك ؟ وهل أنت مشرّع ؟ فلا أحد في الأرض يشرع إلا الله عزّ وجل ومن خلال السنة، فلما يدلي الإنسان برأي، وفي آية حاسمة يكون أحمقاً، لأنه يدلي برأي مخالف للآية.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

انتهى الأمر..

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

يقول لك: يا أخي لا نقدر الآن، فهذا كلام غير صحيح، وعندي ضعف إيماني، والأمر الإلهي غير مقيد بمكان ولا زمان.

النظام الغربي قائم على الردع الخارجي أما النظام الإسلامي فقائم على الوازع الداخلي:

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ)

الله عزّ وجل هو الخالق.

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(سورة الملك)

هو الذي خلق، وأخْبَر إنسان بالآلة هو الذي صنعها، فالله هو الصانع، وهو الخالق، أمَر، ونَهَى، ولقد كنت البارحة في جلسة فقلت لهم: انقطعت الكهرباء في بلدة في أمريكا، ارتكبت في ليلة واحدة مئتا ألف

سرقة، قلت: النظام الغربي قائم على الردع الخارجي، أما النظام الإسلامي فقائم على الوازع الداخلي، وشتّان بين الوازع الداخلي والرادع الخارجي، شتان أن تستقيم حباً لله ولا أحد يحاسبك، وشتان بين أن تنصاع لأمرٍ خارجي، أما إذا حُذِفَ هذا الأمر وهذه المراقبة فقد تفلّت الإنسان من هذا المنهج.

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللّهَ بِدِينِكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللّهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

تعلّق علمه بكل شيء.

الدين الإسلامي سبب سعادة الإنسان:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا)

والإنسان أحياناً إذا قطف ثمار الإيمان يمن عليه، يقول مثلاً: جئنا إلى الدرس، وصلينا، و ماذا يريد الله غير الصلاة ؟ لا تزيدوا علينا الأمور، فاعلم أنّ وجودك كله منحة من الله، ووجودك نعمة، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى، وكلما عرفت أن فضل الله أكبر تذوب، فلا تمن على الله، نحن في غير الصلاة يقف شيء علينا، كأن الدين عبء أثقال، والدين ليس كذلك، إن الدين سبب السعادة، فإذا رأى إنسان لوحةً في أرض كُتِب عليها: حقل ألغام، يشعر أن من وضع هذه اللوحة قيّد حريته، لكن ضمن له سلامته ؟ يقول له: لم أدخل إلى الداخل من أجلك، لا ليس من أجله، بل لئلا ينفجر فيك تحته، فدائماً الإنسان إذا لم يقطف ثمار الشيء يمن على الآخرين، أما إذا استفاد لا يمن..

من أدى الحقوق الواجبة عليه نجا من عذاب الله:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيّ إِسْلَامَكُمْ)

يقول لك: أنا أؤدي الحقوق، هذه ليس لك فيها فضل، لأنك إذا أدّيت الحقوق نجوت من عذاب الله، فليس لك فضل، إخواننا ؛ بالمناسبة لا أحد يفتخر أنه أدى الحقوق، فهذه ليس له فضل فيها، فإذا كان عليك دين فوفّيته، فهذا واجب عليك أن توفيه، افتخر بعمل طوعي، وليس بعمل قسري، وافتخر بعطاء، وتضحية، وإيثار، وببذل شيء مما آتاك الله، أما تنفيذك للشرع فليس لك فضل فيه، لأن هذا هو المنهج الأقوم وإلا فإنك تدفع الثمن باهظًا، قال له: " يا رسول الله عظني ولا تطل (أعرابي من بدا فقد جفا) قال:

((قل آمنت بالله ثم استقم))

فوجدها صعبة، قال له: " أريد أخف من ذلك "، قال:

((إذاً فاستعد للبلاء))

فمثلما تحب أن تستقيم تربح.

والآن قل: أريد أن أعمِّر بيتًا، نحتاج ثمانية طن، يقول لك: يكفي أربعة طن فقط، ضع أربعة يقع البناء، فهذه قوانين، وهذا علم، أربعة يقع البناء، ثمانية لا يقع، أخي عملت مثلما تريد وضعنا ثمانية طن، لا، لا تمن عليه، أنت حفظت بناءك، أريد أن تصل إلى نقطة، عندما تنفذ شرع الله فالمكسب معك، لا تمن على أحد.

استقامة الإنسان و غض بصره و إنفاق ماله كل هذا لمصلحته:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

إذا ركب أحدُنا سيارة شاحنة تحمل ثمانية طن، فواجه جسراً كُتِب عليه: الحمولة القصوى خمسة أطنان، ثم رأى شرطة، لا ليس هذا الموضوع، لو مشيت لوقعت في النهر، أخي لم نمش من أجلكم، لا ليس هذا الكلام، لو مشيت لخرب بيتك، والمعنى واضح.

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ)

أخي لقد غضضنا بصرنا، فهذا لمصلحتك، ولقد أكلنا مالاً حلالاً، لمصلحتك، كل شيء تفعله لمصلحتك، والحديث القدسي:

((كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

أما استقامتك، وغض بصرك، وإنفاقك المال، وأداء الزكاة، هذه كلها لك.

من طبق أحكام الدين و قطف ثماره يذوب شكراً لله و من لم يطبقها يمن على الله:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

إذا كلفت إنسانًا بعمل وما نال منك جائزة فهل يمن عليك ؟ أما إذا نال جائزة كبيرة جداً فإنه يشكرك، ويختلف الوضع، فلو طبّق إنسان أحكام الدين تماماً وقطف ثماره يذوب شكراً لله عزّ وجل، أما إذا لم يطبّق وصار الدين عبئًا عليه، يمن على الله عزّ وجل، فالذي يمن على الله عزّ وجل دليل على أنه لم يقطف الثمار، وما نال الخيرات حتى إنه مَنَّ على الله، أما الذي طبّق وقطف الثمار فيشعر بامتنان لا حدود له من الله عزّ وجل، أساساً الله عزّ وجل قال:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

من يرى فضل الله عليه كبيراً يستحي من الله عز وجل:

المؤمن دائماً يرى هذا الفضل، أن الله خلقه ولم يكن شيئاً مذكوراً، منّ عليه بنعمة الإمداد، وبنعمة الهدى، وعرفه ذاته، ورزقه زوجة، أعطاه بيتاً، وأعطاه عملاً، ورفع له ذكره، فدائماً يستحيي من الله عزّ وجل.

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

فهو يعرف إذا كنت مسلماً أم مؤمناً أم محسناً، يعرف مستوى إيمانك وإسلامك وإحسانك.

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

لا أحد يعلم الغيب إلا الله:

كلمة:

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فيها قصر، ليس

(الله يعلم غيب السماوات)

أو يعلم غيب السماوات الله، يختلف الوضع.

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ)

أي وحده يعلم، ولذلك لا أحد يعلم الغيب إلا الله، وأي إنسان يدّعي ذلك يجب أن تسكته، و إن شاء الله في درسٍ قادم ننتقل إلى سورة (ق).

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ق 050 - الدرس (1-3): تفسيرالآيات 1-10 ، الإيمان بالله و اليوم الآخر كلٌ لا يتجزأ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-06-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة ق.

مذاهب العلماء في تفسير الحروف المقطعة:

(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)

للعلماء في هذه الحروف التي تتصدَّر بعض السور مذاهب كثيرة في تفسيرها:

من هذه المذاهب: الله أعلم بمراده، ومن هذه المذاهب أنها أوائل أسماء الله الحسنى.

ومن هذه المذاهب أنها أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

ومن هذه التفسيرات أن القرآن الكريم إنما صيغ من جنس هذه الأحرف، فإعجاز القرآن الكريم أن موادَّه الأولية بين أيديكم، فأحد أسباب الإيمان بأنه كلام الله تعالى، وهو سرّ إعجازه، والحروف التي نُظِمَ منها هي حروف اللغة العربية، ولكن الله تحدّى الناس جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يأتوا، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً.

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

هذا قسَم، فربنا سبحانه وتعالى يُقسِمُ بالقرآن المجيد، المجيد العالي، المجيد الشريف، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، كم هي المسافة بين الخالق والمخلوق ؟ بين القديم والحادث ؟ بين الكمال كمالاً مطلقاً والإنسان الضعيف ؟ كم هي المسافة بين الله وعباده ؟ هي المسافة نفسها بين كلام الله وكلام عباده، هذا ينبغي أن يدفعنا إلى قراءة القرآن، وإلى فهم

القرآن، وإلى تدبُّر القرآن، وإلى تطبيق القرآن، لأنه كتابنا المقرَّر، وفي القرآن الكريم أحاديث كثيرة لا شكَّ أنكم تعرفونها، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى أن هذا القرآن غنىً لا فقر بعده، على كلٍّ:

(بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)

انحراف الكفار و تقصيرهم بسبب إغفالهم اليوم الآخر:

(بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3))

هل العجب أن يرسِلَ الله سبحانه وتعالى رسولاً يبيّن للناس طريق سعادتهم ؟ العجب هو ألا يُرسِل، وهناك معنى دقيق جداً هو: أن كمال الخلق من لوازمه كمال التصرُّف، فكما أنّ في الخلق إعجازاً، كذلك في الخلق علمٌ وحكمةٌ، وغنىً وقدرةٌ، ولطفٌ، وكل أسماء الله تعالى ترونها في خلقه، وما الكون إلا مظهرٌ لأسماء الله الحُسنى، فكما أنّ الكون يدلُّ على الله، ومن لوازم كمال الخلق كمال التصرُّف، إذاً ليس عجيباً أن الله سبحانه وتعالى يُنزل على سيدنا النبي صلى الله عليه وسلّم كتاباً، بل العجب ألاّ يُنزل، العجب ألاّ يبيّن، العجب ألاّ يأتي رسولٌ معه كتابٌ فيه تبيانٌ لكل شيء.

الآيات بعد القسم وجوابه وصلت إلى الدار الآخرة.

ويا أيها الأخوة الكرام، إن أخطر موضوع في العقيدة بعد الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، لأنك إن آمنت باليوم الآخر غيّرت كل الخطّة التي تسير عليها، إذا آمنت باليوم الآخر، وأدخلت هذا اليوم في الحسابات اليومية صِرْتَ إنساناً آخر، لأن كل عملك سوف تُحَاسَب عليه، وكل دخلِك سوف تُحَاسَب عليه، وكل إنفاقك سوف تحاسَب عليه، في اليوم الآخر تسوّى الحسابات، وتؤدّى الحقوق، وتؤدّى المظالم لأصحابها.

فكل إنسانٍ يا أيها الأخوة أغفل أن يدخل في عقيدته اليوم الآخر، أو آمن باليوم الآخر ولم يُدخِل هذه العقيدة في العلاقات اليومية فإنه عندئذٍ ينحرف، ويقصِّر، وينقطع، ويشقى.

محاسبة الإنسان يوم القيامة حساباً عسيراً سبب في استقامته:

بادئ ذي بدء: قبل أن تعطي ماذا سأجيب الله عزّ وجل يوم القيامة إنْ سألني: لمَ أعطيت هذا، وأنت تعلم أنه فاسق ؟

قبل أن أمنع، قبل أن أُطلِق بصري، قبل أن أغضّ بصري، قبل أن أرفض، قبل أن أوافِق، قبل أن أغضب، قبل أن أُطلِّق، قبل أن تتحرّك يجب أن توقن أن هناك يوماً تُسأل فيه عن كل شيء، وتُحَاسَب فيه على كل شيء.

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟))

[الترمذي عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ]

يا أيها الأخوة الكرام، دقِّقوا إذا كنتم مع بشرٍ مثلكم، مع إنسانٍ قد لا تحبّونه، وقد لا تقدِّرونه، لكن هذا الإنسان قوي إذا ضبط أحد الناس بمخالفةٍ سوف يحاسبه، فحينما يوقِن الإنسان أن الذي أصدر قانوناً و مرسوماً يطوله علمه، وتطوله قدرته إذاً لابدّ من أن يستقيم على أمره.

أكاد أقول: إن قانون الاستقامة أن توقن أن الذي أصدر هذه التعليمات يطولك علمه إذا خالفتها، وتطولك قدرته إذا عصيت أمره، لمجرّد أن تؤمن أن علم الله يطولك إذا عصيته، وأنت في قبضته، وسوف يُحَاسِبُك، إذاً لابدّ من أن تستقيم على أمره، ومن هنا يمكن أن نقول: إنّ أيّ خللٍ في الاستقامة يتبعه خللٌ في العقيدة، إن أيّ انحرافٍ عن منهج الله أصله ضعفٌ في الإيمان بالله، لذلك أكثر ركنين من أركان الإيمان وروداً معاً هما: الإيمان بالله واليوم الآخر.

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

الإيمان بالله و اليوم الآخر كلّ لا يتجزأ:

إن الإيمان كلٌ لا يتجزّأ، محاولة الفصل بين أركان الإيمان محاولةٌ مستحيلة، أنت إذا آمنت بالله خالقاً ومربيّاً ومسيّراً، وآمنت به أنه يعلم، وسيُحاسِب فلابدّ من أن تستقيم على أمره، لا يمكن أن تفكِّر في معصيته، لأن الله سيحاسبك، وأقول مرّة ثانية: أنت تسلك هذا السلوك لا مع الله عزّ وجل، ولكن مع إنسانٍ قد لا تحبّه، وقد لا تقدِّره، ولكنه قوي، إذا كان قادراً على أن يعلم مخالفتك له، وإذا كان قادراً على أن يُنزل بالإنسان أشدّ العقوبات فلا يمكن أن تعصي أمره، فكيف بخالق الكون ؟

ليس معقولاً بعد أن صرنا تراباً أن نُخْلَقَ من جديد، وأن نحاسَب على كل أعمالنا وهذه عقيدة الكافرين، وهذا تفكيرهم ومقالهم.

الأدلة التي وردت في القرآن الكريم عن اليوم الآخر:

1 - الدليل النقلي:

بل يا أيها الأخوة الكرام، إن الإيمان باليوم الآخر هو إيمان من نوع اليقين الإخباري، لأن الله أخبرنا في قرآنه الكريم أن هناك يوماً يُحاسَب فيه الناس جميعاً، تسوّى فيه كل العلاقات، ترمَّمُ فيه كل المظالم، تؤدّى فيه كل الحقوق، يُحاسَب الإنسان على أدقّ الأعمال.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

إذا أيقنّا أن هذا اليوم يقوم فيه الناس لرب العالمين، ويأخذون جزاءهم العادل ؛ فالمنطق والعقل والحكمة، وحبك لذاتك وفطرتك كل هذا يقتضي أن تستقيم على أمر الله، هذا هو الدليل النقلي الذي ورد في القرآن الكريم عن اليوم الآخر.

2 - الدليل العقلي:

لكن العلماء يرون أن هناك دليلاً عقلياً: في الحياة تفاوت كبير، في الصحّة، في المال، في الوسامة، في الذكاء، في القدرات، في القوى، هناك ظالمٌ ومظلوم، قويٌّ وضعيف، غنيٌّ وفقير، فإذا انتهت الحياة الدنيا هكذا من دون يومٍ آخر فإن هذا الوضع غير السوي لا يتناسب مع كمال الله عزّ وجل، فكمال الله يقتضي أن تسوّى فيه الحسابات، هناك يومٍ تسوّى فيه الحسابات، تؤدّى فيه الظُلامات.

إذاً أنت مع دليلين: دليلٍ نقلي في الكتاب والسنّة، ودليلٍ عقلي، أن العقل السليم لا يقبل أبداً أن خالق الكون العظيم يَدَع خلقه هملاً بلا حسابٍ، ولا مسؤوليةٍ، ولا جزاءٍ، ولا ثوابٍ ولا عقابٍ، ولا جنّةٍ ولا نار، ومن ظنّ أن الحياة الدنيا تنتهي هكذا فما عرف الله أبداً.

الأحمق من يوهم نفسه أنه أدخل اليوم الآخر في حساباته اليومية:

الحقيقة أيها الأخوة والخطورة هي أن الإنسان أحياناً لا يكذِّب باليوم الآخر تكذيباً قولياً، ولا يكذب باليوم الآخر تكذيباً لفظياً، يقول لك: لا، أنا مؤمن بهذا اليوم، ولكن إذا دقّقت في سلوكه، وفي عمله، وفي

كسبه للمال، وفي علاقاته الاجتماعية، وفي زواجه، وفي طلاقه، وفي عطائه ومنعه لا ترى أبداً أن هذا اليوم العظيم داخلٌ في حساباته اليومية.

إخواننا الكرام، الذي يكسب مالاً حراماً، الذي يجمع مالاً عن طريق الكذب أو الاحتيال، والذي يغشُّ الناس، والذي يبتزّ أموال الناس، هذا لو أنه صلّى فهو في الحقيقة لم يُدخِل اليوم الآخر في حساباته اليومية، أين قوله تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

أين قول النبي صلى الله عليه وسلّم:

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ))

[الترمذي عن أبي برزة]

امتحان الإنسان لإيمانه بعمله لا بإقراره:

أيها الأخوة، أحد أكبر أركان الإيمان بعد الإيمان بالله أن يؤمن باليوم الآخر، لذلك تجد انضباط المؤمن عجيباً، وسر انضباطه أن لحظة الوقوف بين يدي الله عزّ وجل لا تغادر ذهنه أبداً، قبل أن يفعل شيئاً، قبل أن يغش، قبل أن يكذب، قبل أن يأخذ ما ليس له، قبل أن يفتري على الناس يقول: كيف أقول لله عزّ وجل ؟ ماذا أقول له ؟ فالإنسان يمتحن إيمانه لا بإقراره، بل بعمله، فإذا كان عمله يؤكِّد إيمانه فليحمد الله عزّ وجل، أما إذا كان عمله لا يؤكد إيمانه فليشمِّر، وليجدِّد إيمانه، ولمجرّد أن تأكل مالاً حراماً، وأنت تعلم يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا اليوم العظيم ما أدخلته في حساباتك، لمجرّد أن تظلم امرأةً لا سند لها يجب أن تعلم أن هذا اليوم العظيم ما أدخلته في حساباتك، لمجرّد أن تدلِّس، أو أن توهم لتكسب مالاً حراماً يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا اليوم العظيم ما أدخلته في حساباتك.

الفرق بين المؤمن و غير المؤمن في رؤية الحياة:

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

هذه مقولة أهل الكفر، إنهم آمنوا بالدنيا فقط بأنها كل شيء، والمال فيها كل شيء، والملذّات فيها كل شيء، والقوّة فيها كل شيء، والجمال فيها كل شيء، والتنعُّم فيها كل شيء، مالُها ونساؤها، وطعامها وشرابها، ومتعها ومباهجها هي كل شيء، لذلك الفرق الجوهري بين المؤمن وغير المؤمن، أن غير

المؤمن يقبلُ على الدنيا، ولا يسأل، ولا يلتفت إلى صواب عمله أو خطئه، لكن المؤمن لا يأخذ من الدنيا إلا بالقدر الذي سمح الله له به.

(بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)

(سورة هود: الآية 86)

أي ما بقي له، ما بقي مسموحاً له أن يفعله هو الخير، أما الذي حرّمه الله عليه فلا يقترب منه ولو أدّى ذلك إلى هلاكه.

فكيف قلتم هذا: رجعٌ بعيد ؟ الله جلّ جلاله الذي بدأ الخلق يعيده، الذي خلق الإنسان من تراب، من نطفةٍ، من ماءٍ مهين، وجعله إنساناً سويّاً، في دماغه مئة وأربعون مليارَ خليّةٍ عصبية لم تُعْرَف وظيفتها بعد، في شبكية عينه مئة وثلاثون مليونَ مخروطٍ وعُصيّة، فيه ثلاثمئة ألف شعرة، ولكل شعرة وريد وشريان وعصب وعضلة، وغدّة دهنية وغدّة صبغية، الذي أودع فيه قلباً يضخ كل يوم ثمانية أمتار مكعّبة، وشبكة شرايين وأوردة طولها مئة وخمسون ألف كيلو متر.

أكرر للبيان والاعتبار: في الإنسان شبكة أوردة وشرايين وشعريّات طولها مئة وخمسون ألف كيلو متر، كذلك في الكليتين طريق يقطعه الدم طوله مئة كيلو متر كل يوم، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم سيحاسبه، وسيعيد خلقه مرّةً ثانية.

إنكار الكافر يوم القيامة و الحساب فيها:

لذلك المقولات تتشابه، لأن ملّة الكفر واحدة.

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

فمن هو الكافر ؟ هو الذي آمن بالدنيا فقط، الدنيا في نظره كلّ شيء، القوّة فيها كل شيء، المال فيها كل شيء، المتعة الرخيصة فيها كل شيء، ثم يأتي الموت على كل شيءٍ حصّله في الدنيا، ويخسره في ثانيةٍ واحدة، لمجرّد أن يقف قلبه كل أملاكه ليست له، كل ثيابه تبقى في الخزانة، يُلفُّ في قماشٍ أبيض رخيص، ويودع في التراب، وانتهى الأمر، لذلك فإن المؤمن يحسب حساباً دقيقاً لهذه الساعة، ساعة مغادرة الدنيا، وغير المؤمن لا يُدْخِلُ هذه الساعة في حساباته أبداً، وكأن الموت على غيرنا قد كُتِب.

أحد أسباب انضباط المؤمن في الحياة الدنيا إيمانُه باليوم الآخر:

إخواننا الكرام، إذا آمنتم باليوم الآخر الإيمان الصحيح، وأدخلتم هذا اليوم في الحسابات اليومية، بل في الحسابات الساعية، بل في حساب الثواني، ونظر أحدكم وقال: ماذا سأجيب الله عنها يوم القيامة ؟ كلمة شاردة، أو ابتسامة في غير موضعها، مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، فكل محاسب عليه، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)

(سورة الزلزلة)

إذا أدخلتم اليوم الآخر في حساباتكم، في بيوتكم، في تجارتكم، في صناعتكم، في كل نشاطات حياتكم فقد أصبتم، ورضي الله عنّا وعنكم، لكن كثيراً من الناس في وادٍ آخر.

موضوع اليوم الآخر موضوع خطير جداً، وهو أخطر موضوع في العقيدة بعد الإيمان بالله هو اليوم الآخر، وأحد أسباب انضباط المؤمن إيمانُه باليوم الآخر.

ذات مرّةٍ ضربت مثلاً توضيحياً بإنسان ركب مركبة، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، وسيارة الضابطة واقفة، وضابط كبير من شرطة السير واقف، وإذا تجاوز شخص الإشارة يلحقونه، ويحجزون مركبته، وهؤلاء كلهم بشر عاديون، فهل يُعقَل أن يتجاوز هذه الإشارة ؟

من المستحيل، ولا بالمليار واحد أن يتجاوز إنسان الإشارة الحمراء، وهو يعلم علم اليقين أنه سيضبط، وسيُحاسَب أشدّ الحساب، فكيف مع خالق الأرض والسماوات ؟ كيف ؟!!

العاصي من يغامر بسعادته في الدنيا و الآخرة:

والله أيها الأخوة، لا أعجب من الذي يطيع الله عزّ وجل، هذا شيء طبيعي، لكن العجب العُجاب مِن الذي يعصي الله، فماذا تملك من الدنيا ؟ الإنسان كل كيانه منوط بشريان الدم في دماغه، لو تجمّدت خثرة في الدماغ لغيّرت حياته، فإن استقرت في مكان يصاب بالعمى، وفي مكان يفقد ذاكرته، وفي مكان يُصاب بالشلل، أين قوّة الإنسان ؟ هل تملك لهذا الدم الذي يجري في الدماغ في أدقّ الأوعية، هل تملك أن يبقى سائلاً ؟ إذا تجمّد أصبحت حياة الإنسان جحيماً، هذا القلب الذي ينبض من يملك حركته الدائمة ؟ من يملك مرونة شرايينه ؟ من يملك هذا الشريان التاجي الذي يغذّي عضلة القلب ؟ من يملك هذا الشريان ؟ إذا ضاق هذا الشريان أصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق، فعلى أي شيءٍ يستند العاصي ؟ العاصي مغامر، والعاصي مقامر، يقامر بسعادته في الدنيا والآخرة، فالعجب العجاب ممن يرى نفسه في قبضة الله و يعصيه، ممن يرى أن أمره كله بيد الله ويخرج عن منهجه، هذا هو العجب العجاب لا كما قال هؤلاء الكفّار.

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)

فناء الإنسان في قبره:

قال تعالى:

(قَدْ عَلِمْنَا)

أي حينما يوضعون في قبورهم، وحينما تبدأ الكائنات الحية عملها في أكل لحومهم.

(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)

الله جلّ جلاله هو الذي يعلم كيف أن هذا الإنسان يفنى في قبره، ولا يبقى منه إلا ذرّةٌ هي التي تعيد بناءَه من جديد يوم القيامة.. ألا وهي عَجبُ الذنَب.

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ: آية لها عدة معان:

1 ـ إما أنهم إذا ماتوا ابتلعتهم الأرض فأنقصت عددهم:

(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)

إما أنهم إذا ماتوا ابتلعتهم الأرض، فكأن الأرضَ أنقصت عددهم.

2 ـ أو أن التراب حينما يأكل لحمهم يتناقص الجسد شيئاً فشيئاً:

أو أن التراب حينما يأكل لحمهم في القبر فيتناقص الجسد شيئاً فشيئاً، وقد ورد في الأثر أن الإنسان في أول يومٍ يوضع في قبره يقول الله له:

((عبدي، رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحيُّ الذي لا يموت))

التفكّر في الموت جزء من الدين:

أيها الأخوة، إن الإنسان مدعوٌ وهو في الدنيا، وهو حيٌّ يُرزَق أن يدخل إلى غرفةٍ مظلمة، بلا مصباح أبداً، وليقبع فيها ساعاتٍ طويلة، ألا يشعر بالضجر ؟ ألا يشعر بالوحشة ؟ غرفة كبيرة فيها سرير وثير، وفيها نوافذ، أطفئ المصباح، واجلس وحدك عدة ساعات بماذا ستشعر ؟ القبر على طول الزمن لا نافذة

له ولا سرير، ولا شيء من هذا، إنك تحت التراب، وفي اليوم الواحد تشيّع عشرون جنازة أو أكثر، في هذا الحي في اليوم الكثير من النعي، فهذا الذي أعلمونا أنه توفي أين يبيت هذه الليلة ؟ تحت الأرض، تحت التراب، أين كان ينام قبل وفاته ؟ على سرير، حوله زوجة وأولاد، هناك طعامٌ وشراب، هناك ثياب، هناك بيتٌ نظيف، يُوضَع في القبر ويهال عليه التراب، وقد قال سيدنا عمر: **" كفى بالموت واعظاً يا عمر ".**

إخواننا الكرام، التفكّر في الموت جزء من الدين، التفكّر مع التساؤل: يا ترى كيف تنتهي حياتي ؟ بأية طريقة ؟ أين أموت ؟ في البيت أم خارج البيت ؟ أين أُغسّل ؟ أفي البيت ؟ أين أُدفَن ؟ هذه الخواطر ضرورية جداً لأنها كوابح.

ابتعاد الإنسان عن المعصية عند تفكيره بالموت و الحساب:

أيها الأخوة الأكارم، لو أنك كنت على طريقٍ معبّد تركب مركبة، الخطران الكبيران أن تنحرف يمنةً أو يسرةً، وعلى اليمين وادٍ سحيق، وعلى اليسار وادٍ سحيق، والخطر الثاني هو أن تتعطل المركبة، والتفكّر في الموت يجعلك على الطريق، ويدفعك نحو الأمام، والذي يقيك الانزلاق والوقوف هو التفكّر بالموت، وسبحان الله ! إن الموت ما ذُكِرَ مع كثيرٍ إلا قلّله، وما ذُكِرَ مع قليلٍ إلا كثّره، فالإنسان القوي الغني المتمكّن يحلّ بالمال كل قضية، ولكنّ الموت يقلِّل هذا المال، بل يذهبه، ماذا ينفعه المال حينما يموت ؟ والفقير المعذّب المريض يأتي الموت فينهي كل مشكلاته.

(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)

فيا أيها الأخوة الكرام، التفكّر في الموت جزءٌ من الدين، والتفكّر في الموت كابح يكبح جماح النفس، التفكر في الموت يكبح جماح النفس عن أن تزل قدمُها في معصية، أو أن تقف وهي في طريق الإيمان.

الانغماس في الدنيا والانشغال بها يجب ألا تبعد الإنسان عن التأمل:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

لا مانع من أن يزور الإنسان من حينٍ إلى آخر مقبرة، وإذا رأى جنازة فليتبع هذه الجنازة، ولينظرْ بنفسه كيف أن النعش يُفتَح، ويُرفع الميت، وقد بدا جسمه ملفوفاً بهذا القماش، ثم يُنزّل في القبر، وكيف يُوضع اللوح الحجري، وكيف يُهال التراب عليه، ويذهب أهله إلى البيت، وقد غادر البيت ولن يعود، خرج من البيت أفقياً، ليتذكّر الإنسان أنه إذا خرج من بيته آلاف المرّات قائماً فلابدّ من أن يخرج في إحدى هذه المرّات أفقياً، تذكّر أنك إذا دخلت إلى بيتٍ من بيوت الله لتصلي فلابدّ من أن تدخل مرّةً ليُصلّى عليك.

قرأت كلمة وهي: **" صلّ قبل أن يُصلّى عليك "**، فلابدّ من أن يصلّى عليك، فهذا الانغماس في الدنيا والانشغال بها، وكسب الدرهم والدينار، والانخراط في متاعبها ومشاغلها، وحُطامها ومكاسبها، هذا ينبغي أن يُعدّل، ينبغي أن تكون هناك ساعة تتأمّل فيها سرّ وجودك، وغاية وجودك، وعظمة ربك، ومنهج ربك.

تكذيب الكفار بالقرآن الكريم الذي أنزل على النبي الكريم:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ)

فقد قال بعضهم عن النبي عليه الصلاة والسلام: ساحر، لأن الحق الذي جاءهم هو النبي عليه الصلاة والسلام، والحق الذي جاءهم هو القرآن الكريم فقالوا:

(إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

قال بعض المفسِّرين: الحق هو القرآن الكريم الذي أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، كذّبوا به، وقالوا:

(إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

(سورة الصافات)

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ)

قالوا عن النبي عليه الصلاة والسلام: إنه شاعر، إنه كاهن، إنه ساحر.

رفض الكفار للقرآن الكريم قبل فهم و تدبر آياته:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ)

وفي الآية إشارة لطيفة.

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ)

أي أنهم لم يدرسوا القرآن، وما قرؤوا القرآن، وما تدّبروا آياته، وما وقفوا عند معانية آياته، كما لو أن شخصاً جاءته رسالة فسلّمها إليه ساعي البريد، وقبل أن يفتحها مزّقها، فهذا إنسان أحمق، اقرأها أولاً، لكنه مزّقها قبل أن يفتحها، وقبل أن يقرأ مضمونها، وهذا الذي يكذِّب بهذا الكتاب قبل أن يقرأه، وقبل أن يفهمه، وقبل أن يتدبّر آياته، وقبل أن يعمل على تطبيقه هو إنسان غبي، غبي جداً، رفض الشيء قبل معرفته، إنه غباءٌ من هذا الإنسان ما بعده غباء.

شقاء الإنسان في الدنيا و الآخرة عند تركه القرآن العظيم:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

لمجرّد أنه جاءهم كذّبوا به دون تدبُّر، دون وعي، دون فهم، هل هناك بربّكم من عمل أيها الأخوة أعظم من أن تمضي وقتاً في فهم كلام الله ؟ فهم هذا المنهج، هذا الوحي الذي جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، خطاب السماء إلى الأرض، هل في المكتبات كلها كتابٌ يرقى إلى هذا الكتاب ؟ أدخلوا إلى بعض المكتبات تجدوا آلاف الكتب، عشرات ألوف الكتب، مئات ألوف الكتب ؛ في التاريخ والجغرافيا، والقصّة والأدب، والعلوم والفنون بربّكم، وما شاكل ذلك، أما هذا الكتاب فهو منهج، هذا منهج حياتك، تسعد بتطبيقه في الدنيا والآخرة، و تشقى بتركه في الدنيا والآخرة.

تفسير كلمة مريج:

1 ـ المريج هو الكاهن:

(فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

بعضهم قال: كاهن.

2 ـ المريج هو الشاعر:

بعضهم قال: شاعر.

3 ـ المريج هو الساحر:

بعضهم قال: ساحر، وأهل الكفر إذا أرادوا أن يصفوا الحق يختلفون، ساعة يقولون: ضعف بشري أمام قوى الطبيعة القاهرة، وساعة أخرى يقولون: المتديّن إنسان يعوّض نقصاً ألمّ به، فيتهمون أهل الدين اتهامات ما أنزل الله بها من سلطان.

عدم اتفاق الكفار على وصف أهل الحق بوصف واحد:

(أَمْرٍ مَرِيجٍ)

أمرٍ مضطرب، هم فيما بينهم مختلفون، لم يتفقوا على وصفٍ موحّدٍ لأهل الحق، لكن الشيء الدقيق أن الحديث بينهم عن اليوم الآخر:

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5))

عدم اقتناع الكفار بأنهم سيبعثون بعد الموت و يحاسبون:

ولكن ما علاقة هذا الكلام بالآيات التالية ؟

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11))

الحقيقة أن هؤلاء الكفّار الذين كذّبوا، كذّبوا بالحق و كذّبوا هذا القرآن، وأنكروا اليوم الآخر، وقالوا:

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة المؤمنون)

فكيف السبيل إلى إقناعهم بوجود خالقٍ عظيم ؟ وربٍ رحيم ؟ ومسيرٍ حكيم ؟ كيف السبيل إلى إقناعهم بأن هناك يوماً آخر توزن فيه الأعمال، وتؤدى فيه الحقوق، وتسوى فيه الظُلامات ؟

منهج القرآن في إثبات اليوم الآخر:

السبيل: هذا الكون الذي تحت سمعنا وبصرنا، الشيء الثابت الوحيد الذي يخضع له كل إنسان هذا الكون العظيم، فكلّما تاهت النفوس، واضطربت الأفكار، وظهرت الشكوك، ومرجت النظريات، فالكون بسماواته وأرضه، بمجرّاته، بكواكبه ومذنّباته، بنجومه، بشمسه وقمره، والأرض: بالبحار والجبال، والصحارى والغابات، والأسماك والأطيار، والنباتات وخلق الإنسان، هذا الكون هو الذي يدلُّ على الله، هو الذي ينطق بكمال الله، هو الذي ينطق بوحدانية الله، هو الذي ينطق بحكمة الله، برحمة الله، بعلم الله، وبقدرة الله، هو الشيء الثابت، وإذا اضطربت عقيدة الإنسان، وتزلزلت أفكاره فليَدَعْ كل شيء، وليتجه إلى الكون ليتأمّل فيه.

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5))

فما هو الحل ؟ كيف نؤمن بخالق الكون ؟ بأسمائه الحسنى وصفاته الفَضلى ؟ كيف نؤمن بهذه الرسالة السماوية ؟ بهذا الكتاب المقدّس ؟ كيف نؤمن ؟ قال تعالى:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

عظمة الله تتجلى في الكون:

إنه لن تقع عينك على خلل، وبعض الأرقام تشير إلى أن العلماء قدّروا أن في الكون قريباً من مليون مَليون مجرّة، هذه المعلومات راجحة إلى الآن، وأن في كل مجرّة قريباً من مليون مَليون نجم، وأن المجموعة الشمسية نقطة في درب التبانة، والمجموعة الشمسية قطرها ثلاث عشرة ساعة، أما نحن أي: الأرض والقمر القطر ثانية ضوئية، نحن والشمس القطر ثماني دقائق فقط، هذه المجموعة الشمسية، وقد أرسلوا مركبة فضائية إلى المشتري، بقيت المركبة ست سنوات في الفضاء تسير ولم تصل.

بالمناسبة بيننا وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، ثم اضرب في الساعة، باليوم، بالسنة، وهذه المسافة بين الأرض وأقرب نجم ملتهب لو أردت أن تقطعها بمركبةٍ أرضية تحتاج إلى خمسين مليون عام، هذا رقمٌ دقيق.

أكرر: لو أردت أن تقطع المسافة بين الأرض وأقرب نجمٍ ملتهب تحتاج إلى خمسين مليون عام، وأقرب نجم ملتهب يبعد عنّا أربع سنوات ضوئية فقط، بينما نجم القُطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، في حين أن بعض المجرّات تبعد عنّا مليون سنة ضوئية، وبعض المجرات المُكتشفة حديثاً تبعد عنا أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، أي أنها كانت في هذا الموقع الذي رأيناه بالمراصد العملاقة قبل أربعة وعشرين ألف مليون سنة، الآن لا يعلم إلا الله أين هي.

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا)

صنعة الله المطلقة في كل شيء:

نجم صغير جداً أحمر اللون في برج العقرب اسمه قلب العقرب، يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرّة، أي مليون وثلاثمئة ألف كرة أرضية، يمكن أن توضع في جوف الشمس، وبينهما مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وقلب العقرب يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما.

وهذا الكون العملاق لولا حركة النجوم حول نجوم أخرى لأصبح كتلةً واحدة، لأن قوى التجاذب تجمعه في كتلة واحدة، أما الحركة الدائرية فينشأ عنها قوى نابذة تكافئ القِوى الجاذبة، هذه الحركة المستمرة تجعله مستقراً بهذا الترتيب، أما لو أن الحركة توقفت لأصبح الكون كتلةً واحدة.

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

(سورة ق: الآية 3)

يعني أنك لا ترى أي خلل، والفروج هنا تعني الخلل.

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: الآية 88)

كلُّ صنعتِهِ متقنة، كل عمله محكم.

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا)

التفكر في ملكوت الله يؤدي إلى عدم التكذيب بالحق:

إذا اضطربت الأفكار، و اضطربت الأدلّة، وكلٌ يدّعي وصلاً بليلى، والحياة كلها مذاهب، واضطرابات، وأفكار، ونظريات هدّامة، ونظريات صحيحة، ونظريات مغلوطة، كان الشيء الثابت هو الكون، فالكون يدلُّ على الله، ودعك من كل الخلافات، دعك من كل التمزُّقات، دعك من كل الاضطرابات الأرضية، الكون هو الشيء الثابت الوحيد الذي يدل على الله، طبعاً يدل على مليون حقيقة، ولكن كل هذه الحقائق في ثلاث كلمات: الله موجود، وواحد، وكامل.

الخلاصة اليقينية وجود، وحدانية، وكمال مطلق، فإذا دلّك الكون على خالقٍ عظيم واحد كامل، يقتضي كمال هذا الخالق العظيم أن يبين لخلقه لماذا خلقهم ؟ ولماذا أوجدهم ؟ وماذا ينتظرهم ؟ وماذا عليهم أن يعملوا ؟ فكان هذا القرآن الكريم، لماذا كذّبوا بالحق ؟ لأنهم لم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها، لو نظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها لما كذّبوا بالحق، هذه الآية دقيقة جداً:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

فما العمل ؟ لقد كذّبوا بالحق، كذبوا بهذا القرآن، كذبوا هذا النبي العدنان، لم يعبؤوا بهذا الدين وقالوا: الحياة هي كل شيء، بعد الموت لا وجود لشيء أبداً، فكيف السبيل للإيمان ؟ إنه قال:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

الدنيا ما هي إلا إعداد و تمهيد للآخرة:

لو نظرت في خلق السماوات والأرض لعرفت أن هذا الخالق العظيم كماله مطلق، ويقتضي كماله أن يبين لعباده لماذا خلقهم ؟ ولماذا أوجدهم ؟ وماذا ينتظر منهم ؟ وماذا عليهم أن يعملوا ؟ ولماذا جعل حياتهم محدودة ؟ ولماذا خلقهم لحياةٍ أبدية ؟ ولماذا كانت هذه الحياة الدنيا إعداداً وتمهيداً للحياة الآخرة ؟ هكذا، فلذلك ينقصنا أن نتأمّل في خلق السماوات والأرض، الكون يدلّنا على كل شيء، يدلّنا على أن لهذا الكون خالقاً واحداً كاملاً موجوداً، ومن لوازم كماله أن يبين لخلقه، وهذا القرآن بين أيدينا.

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

قدرة الله عز وجل في جعل الأرض لا تنحرف عن مسارها:

إخوتنا الكرام، الأرض تدور حول الشمس بمسار إهليلجي، وهذا المسار له قطران: قطرٌ أصغر وقطر أكبر، إذا وصلتْ إلى القطر الأصغر تزيد سرعتها، وينشأ عن هذه الزيادة قوة نابذة جديدة تكافئ القوة الجاذبة الجديدة من قِصَر المسافة، لأن الجذب متعلِّق بالمسافة، والكتلة في قانون الجاذبية، فحينما تصل الأرض إلى القطر الأصغر تزيد سرعتها، وحينما تصل إلى القطر الأكبر تقلّ سرعتها لكي لا ينشأ قوّة تفلّت من جاذبية الشمس، لكن فرضاً لو أن الأرض تفلّتت من جاذبية الشمس، وأردنا أن نعيدها إلى الشمس، ماذا علينا أن نفعل ؟ هذا كلام فرضي، وغير واقعي إطلاقاً، الجواب: نحتاج إلى مليون مَليون حبل فولاذي، وقطر كل حبل خمسة أمتار، طول كل حبل مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، تُزرَع هذه الحبال الفولاذية على وجه الأرض المقابل للشمس، وإذا زُرِعت فنحن أمام غابة من الحبال الفولاذية، بين كل حبلين مسافة حبل واحد، تستحيل الزراعة والصناعة، والبناء والعمران، وانتهى كل شيء، وتُحجَب أشعّة الشمس، فكل هذه الحبال المليون مليون حبل، قطر الحبل خمسة أمتار، هذا الحبل يقاوم قوى شد تقدر بمليوني طن، كلها تمسك بالأرض، وتثبتها في موقعها من الشمس.

الملخّص أن الأرض مرتبطة بالشمس بقوّة تساوي مليون مَليون ضرب مليوني طن، كل هذه القوة من أجل أن تحرف الأرض عن مسارها المستقيم ثلاثة مليمترات في الثانية، فلو أنها سارت بشكل مستقيم لخرجت من مدارها حول الشمس، فتنحرف كل ثانية ثلاثة مليمترات، وهذه الثلاثة مليمترات تشكِّل مداراً مغلقاً حول الشمس.

رفع السماء بغير عمد آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: الآية 2)

هل يقدر الإنسان أن يبني بناء من ثلاثين طابقاً مساحته ألف متر بلا أعمدة ؟ ويجعل ارتفاعه عن الأرض عشرة أمتار ؟ تمشي من تحته بالهواء من دون أعمدة ؟ هذا الشيء فوق طاقة الإنسان، أن ينشئ بناء من ثلاثين طابقاً من دون أعمدة إطلاقاً، وأول طابق يرتفع عن الأرض عشرة أمتار، وأنت تتحرّك من تحته، وأنت تمشي بالهواء، والهواء فيه قِوى جذب، وأنت لا تشعر.

ما المد والجزر ؟

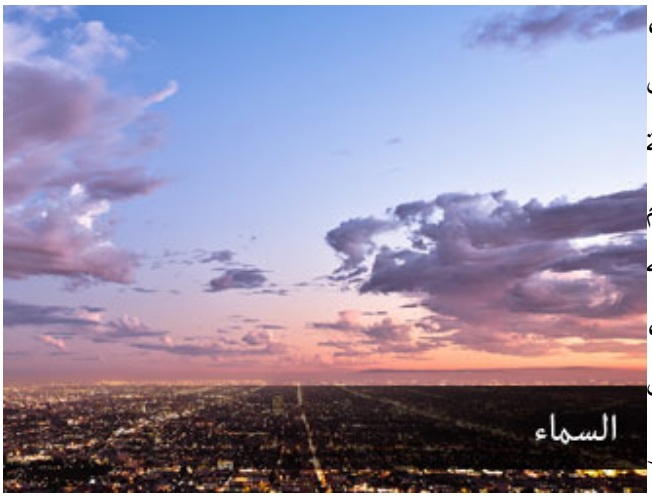

إن البحر أحياناً يرتفع إلى عشرين متراً، هذا مِن جذبِ القمر للبحر، هناك أبحاث تؤكِّد أن القمر يجذب القشرة الأرضية اليابسة، ولذلك يضطرب دمُ الإنسان في أيام مدّ القمر وهو بدر، والنبي صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نصوم هذه الأيام الثلاثة، وهناك بحوث الآن أُخِذت من ملفّات القضاء، وعيادات الأطباء، ومن مخافر الشرطة أن معظم الجرائم تُرتكب في هذه الأيام الثلاثة، حينما يفور الدم، هذا أيضاً متعلِّق بالجاذبية.

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

جعلها كرة، معنى مددناها أي جعلنا الصفوف التي عليها تستمر إلى أبد الآبدين، الشكل الوحيد الذي تمشي عليه الخطوط بلا توقف هو الكرة، أما المكعّب فإن الخط يقف عند الحرف.

(يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ)

(سورة فاطر: الآية 13)

هذه إشارة إلى أنها كرة.

وهناك إشارة ثانية، وهي:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)

تداخل الظلام مع النور بالأشكال الهندسية لا يكون إلا في الكرة.

الجبال آية عظيمة من آيات الله:

(وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)

جبال همالايا ارتفاعها اثنا عشر ألف متر، لو أتينا بكرة قطرها متر فإن أعلى جبل في العالم يُمَثّل على هذه الكرة بسنتيمتر واحد، أعلى جبل ارتفاعه اثنا عشر كيلو متراً يقابله سنتيمتر، وأعلى جبل في العالم ثلثاه تحت الأرض، معنى هذا أن اثني عشر كيلو متراً تحت الأرض، وأربعة وعشرين تحت الأرض، فربنا عزّ وجل وصف الجبال مرة بأنها رواسي، ومرّة وصفها بأنها أوتاد، فالطبقات الأرضية يأتي الجبل فيربط بعضها ببعض، والعلماء يقولون: لو جئت ببيضة غير مسلوقة وأدرتها فإنها تقع، لأن فيها طبقات غير متجانسة، أما إذا سلقتها فإنها تدور معك، فالأرض حينما تدور ففيها طبقات غير متجانسة، فيأتي الجبل كالوتد فيربط بعضها ببعض.

(وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)

الله جعل الجبال رواسي، كيف أن الدولاب إذا دار بسرعة كبيرة يضطرب فيوضع له قطع من الرصاص في بعض الأماكن كي يدور بسرعة من دون اضطراب، الله جعل الجبال رواسي، وجعلها مستودعات للمياه، وضاعف بها مساحة الأرض، وجعل الجو في الجبال جوّاً مريحاً، بارداً في الصيف.

الورود الجميلة لم يخلقها الله إلا تكريماً للإنسان:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

هل عندكم فكرة عن عدد الأبصال التي خلقها الله عزّ وجل من أجل أن نُمْتِعَ العين بها ؟ عددها أكثر من مئة ألف، فالورود التي من أصل بصلة أنواع كثيرة، وأنواع نباتات الزينة التي توضع في البيوت بمئات الألوف، وكل نبات له طباع، له خصائص، هذه ليست للأكل والشرب، هذه ليمتع الإنسان بها عينه، أفلا تشكرون ؟

هذه الورود الجميلة مثل الزنبق، ألوان جميلة جداً، روائح فوّاحة، لمن خُلِقت هذه ؟ خُلِقت تكريماً لهذا الإنسان.

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

الحكمة من نضج الفاكهة تباعاً:

الله عزّ وجل جميل يحب الجمال، الفاكهة التي تأكلها فيها متعةٌ للعين قبل أن تمتع فمك بها، التفاحة لها منظر جميل جداً، كل أنواع الفواكهِ النظرُ إليها مُتعة قبل أن تأكلها، ألوان، أشكال، حجوم، توشيح أحياناً، ألوان متألِقة، اللون الأصفر في التفاح جميل جداً، يوجد عليه خد أحمر أحياناً، وكذلك العنب، فهذه الفواكه من خلقها ؟ من صمّمها ؟ لماذا خُلقت ؟ خُلِقت للإنسان.

(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

هذه النباتات بعضها محاصيل تنضج في يوم واحد، وبعضها خضراوات تنضج تباعاً، وبعضها فواكه، والفواكه مبرمجة، لو أن الله عزّ وجل جعل جميع الفواكه تنضج في يومٍ واحد فماذا نفعل ؟ لكن انظر:

تنضج العوجة أولاً، وبعدها الكرز، ثم المشمش، وبعده التفاح، وبعده الأجاص، وثم الدُرّاق، هناك برنامج، والفاكهة الواحدة تقطفها خلال شهر، لو كانت تقطف في يومٍ واحد فماذا نفعل بها ؟ حقل البطيخ يُجنى منه البطيخ خلال تسعين يوماً، ثلاثة أشهر بأكملها تجني بطيخاً من هذا الحقل ذو تصميم، وله ترجيح، هناك مرجّح، وهو حكيم.

الهدى قرار داخلي يتخذه الإنسان قبل كل شيء:

(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

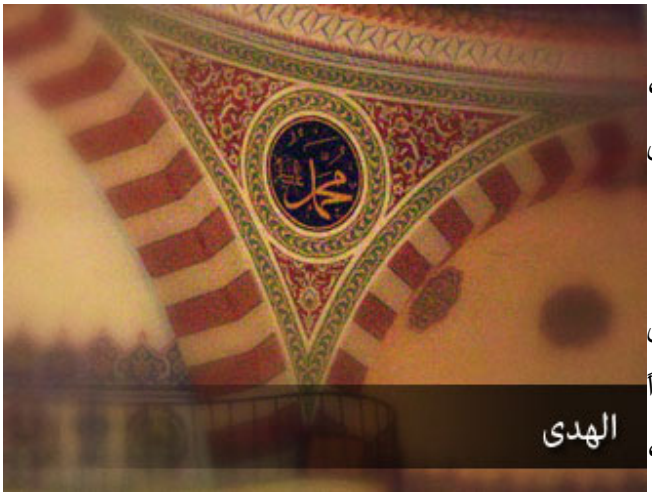

هذه الآية دقيقة جداً، هذا الكون هو تبصرة، أي: به تبصر عظمة الله عزّ وجل، فإذا كان الإنسان غافلاً يذكِّرَه هذا الكون.

(لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

إذا كان غير منيب لا يستفيد، معنى هذا أن منطلق الهدى يبدأ منك حينما تتخذ قراراً بطلب المعرفة، فإن كل شيءٍ يدلُّك على الله، وحينما يتجه الإنسان إلى شهواته، ويعرض عن ربه فلو رأى الآيات الصارخة فلن يهتدي إلى الله بها، معنى هذا أن الهدى يبدأ باختيار ذاتي، وهذه الآية واضحة جداً، الكون.

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8))

إذا أناب العبد إلى ربه يصبح الكون له تبصرة، إذاً الهدى قرارٌ داخلي تتخذه أنت قبل كل شيء، تريد أن تعرف الحقيقة عندئذٍ كل شيءٍ في الكون يدلُّ على الله.

قدرة الله عز وجل على إعادة خلق الإنسان كما أنشأ الجنّات و خلقها:

(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(9))

جنات أي بساتين.

وحبّ الحصيد أي: المحاصيل ؛ القمح والشعير، وما إلى ذلك.

(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)

هذا الرُطب الذي تحمله هذه الأشجار.

(رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)

كما أنشأ الله هذه الجنّات، وخلقها، وأصبحت ذات بهجةٍ للناظرين فالله سبحانه وتعالى يعيد خلق الإنسان مرّةً ثانية يوم القيامة.

إذاً: الجواب على تساؤل الكفّار، وإنكارهم البعث، وإنكارهم الحق، وتكذيبهم بهذا القرآن هو النظر في ملكوت السماوات والأرض.

الماء أساس كل شيء حي:

(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)

الله عزّ وجل قال:

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

(سورة الأنبياء: الآية 30)

وحيث رَأيت الماء رأيت الخضار، والبساتين، والجبال الخضراء والمحاصيل.

فوائد النخل:

(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)

والحديث عن النخل يطول، إنها من أكرم الأشجار، وهذا الذي تحمله من ثمار عبارة عن صيدلية، يوجد ست وأربعون مادّة غذائية في التمر، ولا يقبل التلوُّث، وهو مهدئ ومنشّط، ومليّن للأمعاء، ومضيّق للشرايين

من أجل النزيف، وربنا عزّ وجل تكلّم عن التمر في معرض المخاض فقال:

(وَهُزّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرّي عَيْناً)

(سورة مريم)

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع تفسير هذه الآيات الكريمة بتوفيق الله وعونِهِ.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ق 050 - الدرس (2-3): تفسيرالآيات 12- 29 ، إحصاء أعمال الإنسان عليه و محاسبة الله له

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-06-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة (ق)، ومع الآية الثانية عشرة.

توعد الله من حاد عن منهجه بالعذاب الأليم:

قال تعالى:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14))

ليس القصد في هذه الآية ذكر التفاصيل، إنما القصد أن هذا المنهج الذي جاء به الأنبياء من حاد عنه لقي العذاب الأليم.

الشيء الذي يلفت النظر هو أن تأويل القرآن أحياناً هو وقوع الوعد والوعيد، فهناك مبادئ نظرية، وهناك تصديقاتٌ عملية، المبدأ النظري أن هذا حلال وهذا حرام، وأن هذا حقٌ وهذا باطل، وأن الذي يفعل ما أُمِرَ به يلقى أحسن الجزاء، وأن الذي يقترف ما نهى الله عنه ينال أسوأ الجزاء.

إنزال العذاب الأليم بالأقوام السابقة:

لذلك:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ)

البئر.

(وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ)

أصحاب الأيكة قوم شعيب، والأيكة: الأشجار الملتفة.

(وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)

الوعيد الذي أوعدهم الله به وقع.

قدرة الله عز وجل في إعادة خلق الإنسان من جديد كما خلقه أول مرة:

(أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

في الخلق الأول، خلق الله جلّ جلاله الإنسان في أحسن تقويم، والذي خلقه أولَ مرة قادرٌ على أن يعيده في المرة الثانية.

(بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ)

هل تعبنا ؟

(بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

استفهام إنكاري.

لو أن خلق الإنسان في الأصل أشار إلى تعبٍ أو إلى جهدٍ أو إلى خلل لكان من المحتمل أن يكون الخلق الثاني غير قائم.

الله سبحانه و تعالى يعلم السر و أخفى:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)

الوسوسة حديث النفس، ويمكن أن تُسمي ذلك الخواطر، الخواطر التي تَرِدُ على ذهنك، يمكن أن تسمي ذلك حديث النفس فيما بينك وبين نفسك، فالإنسان له حالتان، حالةٌ يتكلم بها مع الآخرين، وحالةٌ يصمت بها، وهو صامت هناك نشاطٌ ذاتي، هناك حديثٌ، وعرضٌ، وأخذٌ وردٌ، وسؤالٌ وجوابٌ، واقتراحٌ ورفضٌ، وتطلعٌ وأملٌ، ورغبةٌ ورهبةٌ وخوفٌ، حديث النفس لا ينقطع.

اركب مركبةً عامةً إلى بلدةٍ بعيدة، طوال الطريق وأنت تحدِّث نفسك، سَمِّها إن شئت الخواطر، سمِّها إن شئت حديث النفس، على كلِ كل شيءٍ تبطنه يعلمه الله عزّ وجل، بل إن الله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى، يعلم ما أسررته في نفسك، وأخفيته عن الخلق، ويعلم ما خفي عنك، هذا معنى قول الإمام علي كرم الله وجهه: **" علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ".**

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(سورة الملك)

من لوازم الخلق العلم، الخالق هو الذي يعلم.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)

تبدأ استقامة الإنسان عندما يعلم أن الله يعلم كل شيء:

أيها الأخوة، النقطة الدقيقة جداً أنك إذا أيقنت أنك مكشوف، وأن كل خواطرك مكشوفةٌ عند الله، وأن كل تطلعاتك ظاهرة معلومةٌ عند الله، وأن كل حواراتك الداخلية مكشوفةٌ عند الله، وأن حديث النفس يعلمه الله، وأن النوايا يعلمها الله، فما خبّأت عن الناس فهذا كله يعلمه الله عندئذ ستستقيم.

المشكلة أنك إذا أيقنت أن الله يعلم فلا شك أنك تستقيم، لأنك إذا أيقنت أن زيداً من الناس يعلم، وزيدٌ مقتدرٌ عليك، ويعلم جميع حالاتك فلا يمكن أن تحيد عن أمره، وهذا شأن الناس مع الأقوياء، إذا أيقنت أن زيداً أو عبيداً يعلم سرّك وجهرك، يعلم ما تفعل، لا أقول: يعلم سرك، يعلم ما تفعل، وهو مقتدرٌ عليك فلا يمكن أن تعصي أمره، إذاً متى تبدأ بالاستقامة على أمر الله، ما هو المنطلق كي تستقيم ؟ المنطلق أن تعلم أن الله يعلم، إذا علمت أن الله لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، يعلم حديثك الذاتي، علمت عندئذٍ أنك مكشوف عند الله تماماً، طبعاً قد تقول: الذي تقوله يعلمه الناس، لكن الله سبحانه وتعالى أشار إلى حديثٍ ذاتي نفسي، لا يمكن لأحدٍ أن يعلمه، هذا الذي تُخْفيه عن الناس يعلمه الله، فَلأن يعلم جهرك من باب أولى، إذًا الله سبحانه يعلم سرك، وحديثك الذاتي الذي لا يمكن أن يطلع عليه أحدٌ من البشر أبداً، اجلس بين قوم واسكت، هل يستطيع أحدٌ مهما أوتي من الذكاء والخبرة والفراسة والعلم وقوة الشخصية أن يعلم ماذا يدور في خلدك ؟ أبداً، قد تبتسم، وفي الداخل تبكي، قد تمدحه بلسانك، وفي الداخل تلعنه، أيستطيع إنسان كائن من كان أن يعلم ما يدور في خلدك ؟ لكن الله يعلم.

العلم والقدرة صفتان من صفات الرحمن:

أيها الأخوة، دققوا في هذه الآية:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

ربنا جلّ جلاله اختار من بين الصفات كلها صفتين ؛ العلم والقدرة، إذا أيقنت أيها الإنسان أن الله يعلم، وأنت في قبضته وسيحاسبك، وأنا أعني ما أقول، وفي حدود ما أقول، يستحيل أن تعصيه، لأنك لن تعصي مخلوقاً ولو كنت لا تحبه إذا كان علمه يطولك، وقدرته تطولك، أبداً لن تعصي مخلوقاً لا تحبه بشرط أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، فكيف بخالق الأكوان ؟

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

لذلك: إذا أردت أن تستقيم على أمر الله في سرك وجهرك، في خلوتك وجلوتك فتيقّن أن الله يعلم ما تفعل، وما تقول، وما تحدِّث به نفسك.

علم الله و محاسبته للإنسان تحمل العبادَ على طاعته:

لو أن شريكين اتفقا على شراكةٍ أبدية، لكن في ذهن الأول أنه لمجرد أن يتقن الخبرة من الثاني يلقيه خارج الشركة، فالله يعلم ذلك، لو تزوّجت امرأةً وفق الشروط الشرعية ؛ بمهرٍ وشهودٍ، وإيجابٍ وقبولٍ، وفي نيتك أن تطلقها بعد نهاية الدراسة، فالله يعلم، فكلمة: (يعلم) تحمل العبادَ على طاعة الله، يعلم وسيحاسب، يعلم كل أحوالك، وأنت في قبضته وسيحاسبك.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الآية واضحةً لديكم:

يعلم كل شيء، وأنت في قبضته وسيحاسبك، لذلك فإن ذرة عقل تمنعك أن تعصيه، ولا يمكن ذلك، لأنك تعامل المخلوق هكذا، تعامل مخلوقاً من جنسك وهو بشر، وقد لا تحبه، قد تحتقره، لأنه يعلم مخالفتك لهذا القانون، ولأنك في قبضته، وسيحاسبك، لذلك تستقيم على أمره، فإذا كان هذا شأنك مع بني البشر، فكيف ينبغي أن يكون شأنك مع خالق البشر ؟ الخواطر كلها يعلمها، النيّات كلها يعلمها، التطلعات يعلمها، التصميمات يعلمها، الخطط التي ترسمها يعلمها، الذي تقوله ولا تعتقد به يعلمه، الذي تفعله، وتنوي عكسه يعلمه.

إطلاع الله عز وجل على سريرة الإنسان:

لذلك ألا يستحي الإنسان من الله ؟ **"عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة ".** لا تجعل الله أهون الناظرين إليك، هو ينظر إلى قلبك.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلّا مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

إذا نظر الله إلى قلبك فإن كان في قلبك السلامة والتواضع، والعبودية ومحبة الخلق، ورغبتك في خدمتهم وهدايتهم، والأخذ بيدهم فهنيئاً لك، أما إذا نظر الله إلى قلبك فإذا كان فيه الحقد والحسد،

والضغينة والعداوة، والبغضاء والنيّات الخبيثة، والرغبة في أن تزول النعم عن الخلق، وأن تأتي إليك، فالويل لهذا الإنسان، ومن أسرّ سريرةً ألبسه الله إيّاها.

و الله عزّ وجل يقول:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)

رب النيات.

أقرب شيء إلى الإنسان هو حبل الوريد:

قال تعالى:

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

حبل الوريد: الوريد هو هذا الذي في العنق، و الذي يغذي الدماغ، والذي يأتي من القلب مباشرةً، ولمجرد أن ينقطع هذا الوريد يموت الإنسان، هو جزءٌ من الإنسان، وأقرب شيءٍ إلى الكل بعض أجزائه، أقرب شيءٍ إلى الكل.. (الإنسان)أجزاؤه الداخلية، إن أجزاءه الداخلية أقرب شيءٍ إليه من أي شيءٍ خارجيٍ عنه، فأقرب شيء إليك حبل الوريد.

معنى القرب في: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

قال بعض العلماء: القرب هنا ليس قرب الذات، بل قرب العلم والقدرة، أي أقرب إليك بعلمه، وأقرب إليك بقدرته من حبل الوريد، كيف أن حبل الوريد أقرب شيءٍ إليك، وأخطر شريانٍ فيك، فالموت موت الدماغ، فإذا انقطع الدم عن الدماغ يموت الإنسان على الفور، فهذا الحبل الذي يغذّي الدماغ، والذي بقطعه يموت الإنسان، فكما أن هذا الحبل تتوقف عليه حياتك، وهو جزءٌ منك، وهو أقرب شيءٍ إليك، الله جلّ جلاله أقرب إليك بعلمه، وأقرب إليك بقدرته من حبل الوريد.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

كل المشكلة تحل إذا علمت أن الله يعلم، كل مشكلتك مع الله تحل إذا انطويت على قلبٍ سليم، على نفسٍ طاهرة، على عملٍ وفق منهج الله.

وظيفة التفكر في الموت:

أيها الأخوة، ذكرت مرةً أن التفكّر في الموت له وظيفةٌ إيجابيةٌ جداً، وظيفته الإيجابية أن التفكر في الموت يبقيك على الصراط المستقيم، ويمنعك من الانزلاق يمنةً أو يسرة، وأن التفكر في الموت يدفعك إلى الله.

هناك خطران ينتظران من يركب مركبةً، ويمشي بها في طريق:

الخطر الأول: أن ينزلق يمنةً أو يسرة.

والخطر الثاني: أن يقف.

إن التفكر في الموت يدفعك إلى الله، ويمنعك من السقوط، وأحد أسباب الاستقامة أن تعلم أن الله يعلم، إذا كان يعلم سرّك فَلأن يعلم جهرك من باب أولى، إذا كان يعلم خواطرك وحديث نفسك ونيّاتك المستقبلية فلأن يعلم أعمالك من باب أولى، وحينما يعلم فهو قدير.

الله عزّ وجل أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد علماً وقدرةً:

دقة التفسير أن الله عزّ وجل حينما قال:

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

أي أقرب إليه بعلمنا، وأقرب إليه بقدرتنا، أحياناً تعرف إنساناً قادراً، لكن تتصل به، ولا تجده، فهو بعيدٌ عنك، هو قادر، لكنه بعيدٌ عنك، أنت في الطريق، وهو في البلدة، تتصل به فلا تجده، لأنه مسافر، وأنت في أمسّ الحاجة إليه، ولو تدخّل فربما أنقذك مما أنت فيه، لكن قدرته ليست قريبةً منك، بل هي بعيدةٌ عنك، الله عزّ وجل أقرب إليك من حبل الوريد علماً وقدرةً.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة)

قدرة الله عز وجل في نجاة الإنسان إذا كان ذا نية حسنة:

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء)

والحقيقة أن الهلاك كان محققاً، لأن أصحاب موسى شرذمةٌ قليلون، كما قال فرعون، وما أدراكم ما فرعون بجبروته، وجيشه، وأتباعه، وقوته، وحقده، وتكبره، وهم يتبعون أصحاب موسى، والبحر أمامهم، قال تعالى:

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ(62))

(سورة الشعراء)

سيدنا إبراهيم قبل أن يلقى في النار جاءه جبريل عليه السلام قال: **يا إبراهيم، ألك حاجة ؟ قال: منك ؟ قال: لا، من الله، قال: علمه بحالي يغني عن سؤالي.**

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

* * *

حفظ الله المؤمن و تأييده و توفيقه في كل أموره:

فالله عزّ وجل علمه معك، وقدرته معك، أيضاً هناك آيةٌ يحسن أن نذكرها الآن، فالله عزّ وجل يقول: والله معكم أينما كنتم، قالوا: هذه معية العلم، لكن حينما قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

قالوا: هذه معية خاصة، هذه معية الحفظ والتأييد، والنصر والتوفيق، فالله معنا.

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك؟

* * *

المؤمن الصادق خلوته كجلوته:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

لذلك من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله، فالمؤمن الصادق مراقبته لله في خَلوته كجلوته، وفي سره كعلانيته، المؤمن الصادق ليس في حياته ازدواج أبداً، بل هو في انسجام كامل، ما في قلبه يكون على لسانه، ما يفعله في خلوته يفعله في جلوته، وما يفعله في جلوته مع الناس يفعله في خلوته.

إحصاء أعمال الإنسان عليه من قبل الملائكة الذين وكلهما الله بهذا:

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)

المتلقيان الملكان، أنت حينما تصلي تقول: السلام عليكم ورحمة الله يمنة، السلام عليكم ورحمة الله يسرةً، إنك تسلِّم على الملكين الذين أوكلهما الله بكتابة الحسنات والسيئات، المتلقيان سُمّيا كذلك لأنهما يتلقيان أعمال الإنسان الخَيّرة والشريرة، لكن الله عزّ وجل يقول:

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

علماً وقدرةً.

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ)

إذ ظرف.

أعماله الصالحة وأعماله السيئة، والله أعلم بأعماله من الملكين الموكلين بكتابة أعماله.

علم الله عز وجل بأعمال الإنسان:

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)ذٌ)

أيها الأخوة، لو أن إنساناً راقب إنساناً لحمله على الاستقامة، لو أن إنساناً روقب في كلامه وفي حركاته، وفي غدواته وروحاته، وفي تحركاته لوجدت منه العجب العجاب في الانضباط، يقول لك: أنا مراقب، فكيف إذا كان الذي يراقبك قيّوم السماوات والأرض ؟

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

قالت: يا رسول الله إنها قصيرة، تصف ضرّتها صفية قال:

((يا عائشة لقد قلتِ كلمةً لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

ماذا قالت ؟ قصيرة فقط، فكل كلمةٍ تقولها.

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ)

معنى يلفظ:

معنى يلفظ: يتكلم، ومنها لَفَظَ الطعام أي أخرجه، أي كلمةٍ تخرج من فمك، حتى إن بعض المفسرين قال: إن أنين المريض يُسَجَّل عليه.

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

معنى رقيب عتيد:

رقيبٌ يَرْقُبُ أعماله، **وعتيدٌ** يملك ناصيته، **عتيدٌ** جاهز متملِك، **رقيبٌ** مراقب، يعلم ومتمكن.

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(18))

تجد معظم الناس، بل تجد معظم المسلمين لا يدخلون هذا في حساباتهم اليومية، وهو يتكلم، وهو يمزح، وهو يقسم بالله أن هذه السلعة لا يبيعها إلا بأقل من رأسمالها، والحقيقة ليست كذلك، هذا الذي يقوله الإنسان قد لا يدخل في حساباته أنه مسجلٌ عليه.

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

العاقل من يفكر بكل كلمة قبل أن يقولها و يحاسب عليها:

قبل أن تقول قولاً فاعلم أن القول مسجل، سهرتَ في مكان، ورأيت آلة تسجيل مفتوحة تسجل عليك، فكيف تتكلم عندئذٍ ؟ وهم أصدقاؤك، وليس هناك أحد غريب، ولو أنهم أصدقاء فأنت تتحرج، فكيف إذا علمت أن كل كلمةٍ تقولها مسجلة.

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: آية 181)

هذا الإنسان حينما يأتي يوم القيامة تعرض عليه أعماله كما هي كشريط ؟ أحياناً حتى يوفروا على أنفسهم الأخذ والرد، فعلت أم لم تفعل ؟ يعرضون عليه شريطاً فيه أعماله، فيسكت، أنت خالفت، كنت في هذا الطريق في الساعة الفلانية، السرعة زائدة عن المقرر، يقول: لم أكن في هذا الطريق، فتبرز له صورة سيَّارته وسرعتها والوقت والزمان وكل شيء، يسكت، أحياناً عرضُ الصورة يُسكت، فما قول هذا الإنسان يوم القيامة إذا عُرضت عليه أعماله كأنه يراها حيةً كما وقعت ؟

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

(سورة الإسراء)

عرض أعمال الإنسان يوم القيامة عملاً عملاً:

اكتشفوا مؤخراً أنّ الإنسان إذا مشى مع الضوء توقّف الزمن، فإذا سبق الضوء تراجع الزمن، نحن في هذا المجلس أجسام عاكسة للضوء، هذا منبع ضوئي، ونحن أجسام عاكسة، إذاً يخرج منا موجات، هذه الموجات تسير بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية، هذه سرعة الضوء، لو تصورنا أن إنساناً سار معها لتوقف الزمن، هذا المجلس يبقى إلى أبد الآبدين، ما دامت هذه الموجات تنتقل عبر الفضاء

الخارجي، ومادام هذا الذي يسير معها يراها إذاً: هذا المنظر يبقى إلى أبد الآبدين، مع أننا قد نكون جميعاً تحت أطباق الثرى، فإذا سار الإنسان مع الضوء توقف الزمن، وإذا سبق الضوء تراجع الزمن.

ومن باب الخيال العلمي يمكن لو أننا سبقنا الضوء أن نرى معركة اليرموك، يمكن أن نرى معركة القادسية كما هي حقيقةً، لأن هذه المعركة صدر عنها موجات ضوئية إلى الفضاء الخارجي، وإذا سجّل الإنسان الصوت والصورة، ونقلهما عبر الأقمار، فهو عن طريق الحاسوب يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف في الثانية الواحدة، هذا حال الإنسان، فهل يعظم هذا على الواحد الديّان ؟

ازدياد حرص الإنسان على طاعة الله إذا عرف أن الله يعلم كل شيء:

تأكدوا أيها الأخوة، أن أعمالنا جميعاً مسجّلة علينا صورة وصوتاً، ملونة، ويوم القيامة تعرض عليك، ويقال لك: لماذا فعلت كذا ؟

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

فكلما كبر عقلك ازداد انضباطك، وكلما عرفت أن الواحد الديان مُطلعٌ عليك ازداد حرصك على طاعته.

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ(19))

كتابة الحسنة فوراً والسيئة لا تكتب إلا بعد الإصرار عليها:

كلاهما قعيد، وقعيد على وزن فعيل.

فهُما رقيب يراقب، وعتيد متملِّك.

لكن ورد في الحديث الشريف أن:

((مَلَك اليمين أميرٌ على ملك الشمال))

بمعنى أن الإنسان إذا فعل حسنةً سارع ملك اليمين فيكتبها له عشر حسنات، أما إذا اقترف سيئةً فملك اليمين يأمر ملك الشمال أن يتريّث سبع ساعات، فلعله يستغفر، فلعله يتوب، فلعله يندم، لا تكتب إلا بعد أن يصر، وهذا معنى قوله تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

والزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، أي أن الإنسان حينما يفعل سوءاً تدرس نيّته، ويدرس قصده، ويعطى مهلةً للتوبة وللندم، فإذا كان قاصداً هذه المعصية، ولم يندم عليها، وأصر عليها عندئذٍ

تكتب، إذاً: ملك اليمين أميرٌ على ملك الشمال، الحسنة تكتب مباشرةً بعشر أمثالها، والسيئة لا تكتب إلا بعد الإصرار عليها.

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ: من معاني هذه الآية:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)

النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم، حبيب الله، خليل الله، ومع ذلك حينما جاءته سكرة الموت قال:

((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ))

[متفق عليه عن عائشة]

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)

1 ـ أن سكرة الموت جاءت بالحق الذي سمعه الإنسان في الدنيا:

من بعض المعاني التي تستنبط من هذه الآية:

أن سكرة الموت جاءت بالحق الذي سمعته في الدنيا، رأيت الحق رأي العين، سمعت أنت أن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، سمعت أن الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، كل شيءٍ سمعته في الدنيا من كلامٍ، أو فكرةٍ سمعتها، فعند الموت تراها رأي العين.

مثلاً: قيل لك: وراء الجدار نار، هذا كلام، لكن نظرت فرأيت دخاناً وراء الجدار، فقلت بعقلك: لا دخان بلا نار، أول شيء كان كلاماً يحتمل الخطأ والصواب، فهذا خبر يحتمل الكذب والصدق، لكنك حينما رأيت دخاناً وراء الجدار دلك عقلك على أنه لا دخان بلا نار، فتحرّكت وراء الجدار، فرأيت لهيب النار، كنت أولاً بالخبر، ثم صرت بعلم اليقين، ثم لما رأيت لهب النار صرت بحق اليقين، فاقتربت من النار، فشعرت بوهجها، فصرت في عين اليقين، أولاً خبر، ثم علم يقين، ثم حق يقين، ثم عين يقين.

حينما يستمع الإنسان في حياته الدنيا إلى خطب في المساجد، إلى دروس تفسير، مواعظ، يقرأ كتباً، يستمع إلى أشرطة، كلها معلومات، هذه آيات، وأحاديث، وأدلة، وأقوال علماء، وفكرة عن الجنة والنار... إلخ، أما حينما يموت فكل هذا الذي سمعه يراه رأي العين.

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)

طلب العبد من الله أن يؤخر أجله:

لذلك يقول الإنسان عند الموت:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

هناك طلبٌ من العبد أن يُؤخره الله:

(لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(11))

(سورة المنافقون)

ندم الإنسان بعد رؤية الموت رأي العين:

عند الموت:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

عند الموت:

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

عند الموت:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً)

(سورة الفرقان)

عند الموت:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)

(سورة الفرقان: آية " 27 ")

هذا كله عند الموت لأنه رأى الحقيقة، رآها رأي العين، كانت خبراً، وعلم يقيناً، ثم أصبحت عين اليقين، وحق اليقين.

2 ـ الموت جاء بالحق:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)

من معاني هذه الآية: الموت جاء بالحق، وحَقّ الشيءُ: استقر، الشيء اليقيني، فلو فرضنا أن شخصاً قيل له: دكانك احترقت، هذا خبر، والخبر يحتمل الصدق والكذب، مشى باتجاه دكانه فرأى شخصاً قال له: احترقت دكانك، هذا خبر، لكن تَقَوّى الخبر الأول، ثم شخص ثالث، ورابع، أصبح هناك تواتر، أما حينما وصل إلى الدكان، ورآها قد احترقت هذا وصل إلى الحقيقة، رأى الأخبار كلها أصبحت حقائق أمامه.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

فلذلك إخواننا، سأقول لكم كلمة: نحن مخيَّرون، لكن خيارنا مع أشياء كثيرة خيار قبول أو رفض، أتسافر ؟ يقول لك: لا، أتسكن هذا البيت ؟ يقول: لم يعجبني، أتشتري هذه المركبة ؟ لا أحبها، أتتاجر ؟ يقول لك: نعم أتاجر، هناك أشياء كثيرة تعرض عليك، وأنت تقبل بعضها، وترفض بعضها الآخر، نقول: أنت مخيَّر، وخيارك خيار قبولٍ أو رفض، إلا أن خيارك مع الإيمان هو خيار وقت فقط، دقق في هذه الكلمة: خيار وقت، أي أنّ أكفرَ كُفّار الأرض يقول: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، هذا الذي قال: أنا ربكم الأعلى، هذا الذي قال: ما أرى لكم من إلهٍ غيري، هذا الذي ادعى الألوهية، حينما مات، وغرق قال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، دققوا، خيارنا مع الإيمان خيار وقت، إما أن نؤمن الآن قبل فوات الأوان، ونحن أصحاء.

((اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك))

[الحاكم عن ابن عباس بسند صحيح]

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

* * *

الموت ينقل الإنسان من علم اليقين إلى حق اليقين:

لا تملك إلا الساعة التي أنت فيها، فالماضي لا يعود، والمستقبل لا تملكه، من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت فإذا قلت: غداً سأدفع ما عليّ من رسوم الهاتف، سأسدد إيصال الهاتف غداً، أنت لا تعرف حقيقة الموت، الموت أسرع من ذلك، يخطف الناس خطفاً خلال ثانية، يكون شخص ملء السمع والبصر فإذا هو كلماتٌ على الجدران، المرحوم فلان، عميد أسرتهم، الشاب، الشابة، إثر حادث أليم،

إثر نوبة قلبية، ألا ترون هذا كل يوم ؟ واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا.

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)

فيا أيها الأخوة الكرام، الموت ينقلك من علم اليقين إلى حق اليقين، ينقلك من أفكارٍ منطقية سمعتها إلى مشاهداتٍ حقيقية تراها، خيارنا مع الإيمان هل هو خيار قبولٍ أو رفض ؟ لا والله، إنما هو خيار وقت، إما أن نؤمن قبل فوات الأوان، أو لابد من أن نؤمن بعد فوات الأوان، إما أن نؤمن، ونستفيد من إيماننا، أو أن نؤمن من دون أن نستفيد من الإيمان شيئاً، فتزداد الحسرة والندم.

على الإنسان أن يكثر من ذكر الموت لأنه يذكر بالآخرة:

إن أكثر الناس لا يستطيع أن يتصور أنه سيموت، يدخل في حساباته كل شيء، يقول لك: بعد عشرين سنة إذا كانت أنابيب التدفئة المركزية فسدت أدعها في مكانها، وأجعل التمديد خارجياً، كل شيء أدخله في حسابه إلى ما بِعدِ عشرين أو ثلاثين سنة، أما أنه سيموت ؟ فلم يحسب حسابه !

هناك أناسٌ لا يحبون سماع القرآن، لأنه يذكِّرهم بالآخرة، أو لأنه يتلى في المناسبات الحزينة، هناك أناسٌ لا يحبون أن يروا قبراً، بل إن هناك بلاداً تقيم فيها خمسين عاماً لا ترى فيها جنازة، ولا نعياً، ولا إعلاناً عن موت، كل شيءٍ ينبئ بالحياة لا بالموت، مع أن ذكر الموت مفيد جداً، النبي الكريم قال:

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ))

يَعْنِي الْمَوْتَ

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به))

[الجامع الصغير عن جابر بسند حسن]

(ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

إكرام الله عز وجل للمؤمن بأن يأتيه الموت بأحلى صورة:

هناك رجل أمضى حياته في المعاصي، فلما مرض مرضاً عضالاً أخفى عنه أهله ذلك، أما حينما أخبروه صارت تأتيه نوبات هستيرية كل ربع ساعة، يقول: لا أريد أن أموت، ثم حينما جاءه ملك الموت صاح صيحةً يقول لي شريكه: ما بقي في البناء المؤلَّف من أربعة طوابق إنسان إلا وسمع صيحته، من الذعر الذي أصابه.

والله عزّ وجل أعطانا مقياساً.

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الجمعة)

(ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

تمنّي الموت مِحَكٌ خطير، الإنسان المستقيم، التائب، الذي عمله طيب وفق منهج الله لا يخيفه الموت، يقول: مرحباً بلقاء الله، بل إن الله سبحانه وتعالى يُكَرّم عبده المؤمن بأن يأتيه ملك الموت بصورة أحب الناس إليه على الإطلاق، أناسٌ كثيرون، وهو على فراش الموت يقول: هذا عمكم قد جاء، أي أخوه، يَعجب أولاده أن عمهم قد مات منذ سنواتٍ عدة ! والمؤمن حينما يرى مقامه في الجنة، ويرى رضوان الله قد أسبغ عليه، يقول: لم أر شراً قط، كل شيءٍ ساقه الله له في الدنيا من متاعب هذه يراها وكأنها إكرام إلهي، لذلك اعمل عملاً يسرّك.

من أدخل الموت في حساباته اليومية أصبح حسابه يوم القيامة يسيراً:

إن الإنسان حينما يولد كل من حوله يضحك فرحاً به، لكنه يبكي وحده، أما حينما يموت كل من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً فهو وحده الذي يضحك، فإن قررت عند الموت أن تضحك وحدك فأنت بطل، لأن ساعة الموت إذا أدخلتها في حساباتك اليومية ؛ في قبض المال، وإنفاقه، بإطلاق البصر، وبغضه، بزواجك، بتزويج بناتك، بكل نشاطاتك، إن أدخلت حساب الموت في حياتك فقد وصلت إليه، وقد حاسبت نفسك حساباً عسيراً، فجعل الله لك حسابك يسيراً.

((لا أجمع على عبدي أمنين وخوفين، إن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة))

[الجامع الصغير عن شداد بن أوس بسند حسن]

فنحن كلنا سوف نموت، صدر قرار مع وقف التنفيذ بأن نموت، القرار صادر منتهٍ، لكن مع وقف التنفيذ.

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر)

الإنسان لن يفلح بشيء إلا إذا جعل الموت نصب عينه:

مرة سألوا طالباً نال المرتبة الأولى على القطر في الشهادة الثانوية: قالوا له: اذكر لنا أحد الأسباب التي حملتك على التفوُّق ؟ فأجاب إجابة رائعة، قال: إن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي طوال العام، طوال السنة، والطلاب المتفوقون تكون ساعة الامتحان ماثلة أمامهم طوال العام الدراسي، فكلما نازعته

نفسه ليتفلت من منهجه الدراسي عاد إلى غرفة درسه ليدرس، ويذاكر، لذلك نحن نفلح إذا جعلنا الموت نصب أعيننا، ولا يقولنّ أحدكم: الموت يدعو إلى التشاؤم، لا.. على الإنسان أنْ يدرس، ويتزوج، ويتاجر، ويؤسس عملاً، لأن النيات طيبة، هذا جزء من رسالتك في الحياة، فالأعمال المباحة بالنيات الطيبة تنقلب إلى عبادات، لم يعد لديك ازدواجية في حياتك، لأن زواجك من العبادة، وعملك من العبادة، وكل نشاطاتك من العبادة، فما معنى أن يفكر الإنسان في الموت، ويحسب له حساباً دقيقاً، ويرتب كل أموره وفق هذه الساعة التي يلقى الله بها ؟ ليس معنى ذلك أنه سيقيد، لا، بالعكس سيتحرك، كان عبداً لشهوته فأصبح حراً، كان عبداً لبطنه، أو لفرجه، أو لخميصته، أو للدرهم والدينار، فأصبح حراً، أساساً ربنا عزّ وجل قال:

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: آية " 5 ")

الإيمان قيود و حدود و الفسق تفلت و انحراف:

الإيمان كله قيود، كله حدود، افعل، لا تفعل، حرام، حلال، ومع ذلك الهدى يرفعك إلى أعلى عليين.

وأما الفسق والفجور فكله تفلّت، ومع ذلك:

(أولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الزمر)

فهو إما أنه يعاني مرضَ كآبةٍ، و إما أنه مودَعٌ في السجن، لأنه تفلت من منهج الله عزّ وجل.

احتضار الإنسان و عرض جميع أعماله أمامه:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

هذا الاحتضار، والمؤمن يرى مقامه في الجنة فيقول: لم أر شراً قط، والكافر يرى مكانه في النار فيقول: لم أر خيراً قط، يكون في دنياه قد سافر، وتنقل كيفما يشاء، وأكل أطيب الطعام، ومتّع عينيه بأجمل النساء، وما ترك مكاناً إلا وذهب إليه، وفعل كل ما يشتهي، وانغمس في كل الملذات إلى قمة رأسه، وعاش في مجتمعٍ كما يقولون مجتمع التفلت، وفعل كل ما يشتهي، وعندما يرى مكانه في النار يقول: لم أر خيراً قط.

و كمثال على هذا: إذا دعي شخص إلى خمسين وليمة، وكل وليمة أفخر من الثانية، وأصابه ألمٌ شديد في أسنانه في الليل، لو تذكر الولائم الخمسين هل تنسيه هذا الألم ؟ يتذكر أنواع الأطعمة التي أكلها ؛

أنواع الفواكه والحلويات واللحوم، هل تذكر ألوان الطعام ينسيه ألم أسنانه ؟ لا، لأن واقعه الراهن أنه في عذاب.

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ: فالسائق و الشهيد هما:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21))

يوم القيامة.

1 ـ الملكان الموكلان بحفظ أعمال الإنسان:

أرجح التأويلات أنهما الملكان الموكلان بحفظ أعماله، ملكٌ يسوق النفس إلى الله، وملكٌ يشهد عليها.

2 ـ أو أعمال الإنسان:

بعضهم قال: أعماله هي الشهيد.

3 ـ أو جوارح الإنسان:

وبعضهم قال: جوارحه هي الشهيد.

على كلٍ، أرجح الأقوال أن الملكين الموكّلين بكتابة أعماله واحدٌ يسوقه والثاني سيشهد عليه.

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

مرض الغفلة عن الله أخطر مرض على الإنسان بالنسبة لآخرته:

أحياناً تكون هناك عصابة تسرق وتنهب، وتقتل وتأخذ الأموال، وتشرب الخمور، وتتعاطى المخدرات، ويأكلون أطايب الطعام، ويسرقون السيارات، ثم يقعون جميعاً في قبضة العدالة، ويساقون إلى السجن، يقال لهم: كنتم في غفلةٍ عن هذا المصير، هذا المصير ما حسبتم حسابه إطلاقاً.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

لذلك إخواننا الكرام، أخطر مرض على الإطلاق عند الناس في دنياهم ورم خبيث، لكن أخطر مرض على الإطلاق بالنسبة لآخرتهم مرض الغفلة عن الله غافل، لهم قلوبٌ لا يعقلون بها، لهم أعينٌ لا يبصرون بها.

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

(سورة الأعراف)

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

الأحمق من ترك كل ما هو مشروع إلى ما هو غير مشروع:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

الغفلة غطاء، ضمن قوقعة، إنسان جالس في بيت تحت الأرض، ولكن خارج البيت شمس، و مروج خضراء، و بساتين غنّاء، و جبال خضراء، و رياحين، وأطيار، وجداول رقراقة، وهو في هذا القبو في رطوبة وظلام، هذه هي الغفلة، يعيش في شهوات، تفكيره محدود، قيمه مهزوزة، مبادئه أرضية، مطالبه مادّية.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

أنت المخلوق المكرم، أودع الله فيك العقل لتعرفه، أودع فيك الشهوات لترقى إليه، ومع ذلك شهواته يمارسها بالطريق غير المشروع، ما من شهوةٍ أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة، لكن المنحرف سلك مسلكاً في القنوات القذرة، ترك الزواج إلى الزنا، ترك المشروبات الطيبة إلى الخمر، ترك الطعام الطيب إلى لحم الخنزير، ترك ما هو مشروع إلى ما هو غير مشروع.

العاقل من يتيقن من الحقائق قبل فوات الأوان:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

لكن متى ؟ بعد فوات الأوان، إذا كان الطالب مقصراً، ولم يعرف أن يكتب شيئاً فـي الامتحان، ثم ذهب إلى البيت، وفتح الكتاب عرف الجواب الصحيح، ولكن متى ؟ بعد الامتحان، فليس لمعرفته الآن قيمة على الإطلاق، وما من طالب أساساً إن أخطأ في الامتحان إلا ويعود إلى البيت، ويفتح الكتاب ليرى ماذا ينبغي أن يكتب، يعلم ماذا ينبغي أن يكتب، ولكن بعد فوات الأوان، بعدما سلم الورقة بيضاء.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

لذلك قال سيدنا علي: **" والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ".**

هل تستطيع أن تتيقن من الحقائق قبل كشف الغطاء كما هي بعد كشف الغطاء ؟ أحياناً يتنبأ طبيب لمدخّن بمرض قلبي، قال لي مرة طبيب قلب: تنبأت لإنسان مدمن على التدخين بمرض، قال له: أنت سوف تصاب بجلطة بعد ستة أشهر، قال لي: والله كما قلت وقع، فإذا تنبأ الإنسان بالحقيقة قبل أن تقع يكون بطلاً، سيدنا علي قال: **" والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً "**، لأن يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء، لذلك النبي الكريم سأل أحد أصحابه قال له:

((كيف أصبحت))

قال له: **" أصبحت وكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنة يتنعمون وبأهل النار يتصايحون "**، قال:

((عبدٌ نور الله قلبه عرفت فالزم))

النار عاقبة كل إنسان عنيد مُصرّ على كفره:

أنت مثلاً مدرس عريق، ورأيت طالباً مهملاً في الدراسة، من ملعب إلى ملعب، من صديق إلى صديق، كونك بالتدريس وعندك خبرة طويلة تقول: هذا الطالب بعد عشرين سنة سوف ينكمش، وينزوي حين يرى أصدقاءه بمراتب عليا، وهو متخلِّف عنهم، سيتألم، هذا ليس علم الغيب، هذا علم قوانين.

(وَقَالَ قَرِينُهُ)

إما أنه الملك الذي قارنه طوال حياته، أو الشيطان الذي كان معه.

(أَلْقِيَا)

صفات أهل النار:

1 - الكفر و العناد:

هذا الإنسان، أعماله، سجلاته كلها جاهزة، فقال الله عزّ وجل مخاطباً الملكين:

(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

كَفّار صيغة مبالغة، شديد الكفر، عنيد مُصِر على كفره.

2 - منع الخير:

(مَنّاع لِلْخَيْر)

الخير المطلق هو الدين، يصد الناس عن الدين، أو الخير المقيّد، فعل الخير.

3 - الشك و العدوان:

(مَنّاع لِلْخَيْر مُعْتَدٍ مُرِيبٍ)

كل حياته شك ليس عنده يقين، بل صفاته عدوان، على ارتياب، على منع للخير، على كفر، على عناد.

4 - الإشراك بالله:

(الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27))

الشيطان لا سلطان له على الإنسان بنص القرآن الكريم: قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم: آية " 22 ")

إخواننا الكرام، الشيطان ليس له علينا سلطان بنص القرآن الكريم، وكل كلام خلاف ذلك خطأ ووهم وضلال.

القرين هو:

1 - إما الشيطان:

(قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

إما أن الشيطان الذي كان قرينه.

2 ـ أو الملك لشدة هول العذاب:

أو أنه الملك لشدة هول العذاب قال له: يا رب، أنا كتبت أعماله فقط، لم أفعل شيئاً، ما زدت على أن كتبت، فإمّا أنه الملك، وإما أنه القرين، والقرين هو الشيطان.

دعوة الله الناس إلى عدم الاختصام لأن الوقت وقت حساب:

(قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)

ليس هذا الوقت وقت اختصام، أو أن الاختصام لا يجدي، كل شيء قد انتهى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ق 050 - الدرس (3-3): تفسيرالآيات 30- 45 ، التفكر طريق الإنسان لمعرفة الحق و الصواب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-06-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثالث من سورة (ق)، ومع الآية الكريمة الثلاثين.

تذكير بالسابق و ربط باللاحق:

قال تعالى:

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

بعد أن وصف الله جلّ جلاله حال أهل النار، وكيف أن كل نفسٍ تُساق معها سائقٌ وشهيد، والحوار الذي يجري بين الإنسان وقرينه، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ)

(سورة ق: آية " 28 ")

لأن اختصامكم لدي لا يجديكم.

صورة أهل النار يوم القيامة:

يقول الله عزّ وجل:

(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30))

هذه صورةٌ مرعبة لحال أهل النار، لكن الله سبحانه وتعالى يعلِّمنا كيف نُبَشِّر كما ينبغي أن نُحَذِّر، وكيف ينبغي أن نقدِّم الصورة المشرقة كما ينبغي أن نقدِّم الصورة المرعبة، وكيف ينبغي أن يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء، وبين الطمع بمغفرة الله عزّ وجل والفَرَق من الذنب، لابدَّ من التوازن.

جنة الدنيا و جنة الآخرة:

ربنا جلّ جلاله يقدِّم لنا صورةً أخرى ؛ صورةً للمؤمنين، صورةً لحال أهل الإيمان يوم القيامة.

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

هي بذاتها اقتربت منهم، كيف ؟ لا نعلم، لكنه تكريم لهم تقترب الجنة من المتقين، وقال بعض المفسرين: **" إن كل إنسانٍ يعمل صالحاً في الدنيا كأن الجنّة تقترب منه "**، هذه السعادة المُطْلَقَة التي وعد الله بها عباده المؤمنين، هذه السعادة تقترب منه كلّما استقام على أمر الله، أتريد أن تكون في جنّة وأنت في الدنيا ؟ استقم على أمر الله، أتريد أن تكون في جنّة الله يوم القيامة ؟ استقم على أمر الله.

الاستقامة طريق الإنسان إلى جنة الدنيا و جنة الآخرة:

إن الحقيقة أن الإنسان أحياناً يقترب من الشيء قرباً سببيًّا، فلو أن الطالب مثلاً درس الكتاب جيداً اقترب من النجاح، ولو درس الكتاب الثاني اقترب أكثر، لو أتقن كل المواد صار بينه وبين النجاح قاب قوسين، هذا اقتراب سببي، فكلّما عملت الصالحات، وطبّقت منهج الله عزّ وجل فأنت قريبٌ من الجنّة التي وعد الله بها عباده المتقين، وحينما يطبّق الإنسان منهج الله في الدنيا فهو قريبٌ من جنّة الدنيا ومن جنّة الآخرة، ماذا بينه وبين جنّة الآخرة ؟ ليس بينه وبين جنّة الآخرة إلا أن يموت فقط.

أحد أصحاب رسول الله أمسك تمراتٍ ليأكلها وهو في المعركة، فقال: ليس بيني وبين الجنة إلا هذه التمرات، ألقاها، وقاتل حتى قُتِل.. فالإنسان المستقيم ليس بينه وبين جنّة الدنيا إلا أن يستقيم، فإذا استقام أقبل على الله عزّ وجل، هو في جنّة لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

جنة الدنيا هي القرب من الله عز وجل:

قال المفسِّرون: **" جنّة في الدنيا، وهي القُرب من الله "**، ليس معنى ذلك أن ترى المؤمن في بحبوحةٍ مادّيةٍ كبيرة، في غناءٍ فاحش، لا، ليس هذا هو المعنى، جنّة الدنيا أن تنعُم برضوان الله، أن تشعر أن الله الذي خلق السماوات والأرض يحبك، وهو راضٍ عنك، وهذا الرضا وذاك الحب لا يعرفه إلا من ذاقه، جنّة الدنيا أن تطمئن، جنة الدنيا أن ترضى بنصيبك من الله، جنة الدنيا أن تشعر أن الله معك ولا يتخلّى عنك، جنة الدنيا أن تشعر أن الله يدافع عنك، جنة الدنيا أن تشعر أن الله لن يكتب لك إلا الخير، ولن تفاجأ في المستقبل إلا بمزيدٍ من الخير.

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

لا خوفٌ عليهم من المستقبل، ولا هم يحزنون على الماضي، هذه جنّة الدنيا، جنة الدنيا مبذولةٌ لكل مخلوق، الثمن موحّد، أسعار موحّدة، الثمن واضح، والثمن تملكه، وهو طاعة الله عزّ وجل.

الجنة مصير كل إنسان اتقى الله و رسوله:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

الآية تحتمل المعنيين، تحتمل أنك إذا اتقيت الله عزّ وجل اقتربت منك جنّة الدنيا، وتحتمل أنك إذا اتقيت الله في الدنيا اقتربت منك جنة الآخرة سبباً، أي اقتربت منها من حيث الأسباب، كما لو أن الإنسان أتقن قراءة كتابٍ مقرّر في الامتحان فإذا أتقنه، وأتقن الكتاب الثاني والثالث والرابع يقول لك: كأنني نجحت، كأن النجاح لاح له بين عينيه.

على كلٍ، إذا وجّهنا الآية إلى الآخرة فاقتراب الجنة من المؤمنين تكريمٌ وأيّ تكريم، وكلّما علا مقامُ الإنسان تأتيه الأشياء، وتُقرّب إليه، وكلّما نزل مقامه درجة يسعى إليها بنفسه، فبين أن تسعى أنت إليها وأن تسعى هي إليك فرق كبير.

تكريم الله للإنسان في الدنيا و الآخرة بسبب طاعته لربه و استقامته على أوامره:

أحياناً يُدْعَى الإنسان إلى وليمة على نمط جديد، تحمل الطبق، وتذهب إلى الطعام، وتأخذ حاجتك منه، لكن بعض الضيوف الكِبار يأتيهم الطعام إليهم، فإما أن تسعى إلى الشيء، وإما أن يسعى الشيء إليك، لعلوّ مقامك عند الله عزّ وجل، وتكريماً لك على طاعته واستقامتك أزلِفت الجنة إليك، فكيف تأتي ؟ لا نعلم، هذا مما استأثر الله بعلمه.

أما في الدنيا فكلّما ازددت طاعةً لله اقتربت منك جنة الدنيا، جنة القُرب، جنة الطمأنينة، جنة الرضا، جنة الشعور أن الله لا يتخلّى عنك، أن الله يدافع عنك، هذه الجنة التي قال النبي عليه الصلاة والسلام فيها:

((أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ))

[الترمذي عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ]

فلعلّ النبي عليه الصلاة والسلام قصد أنهم في جنّة الدنيا، ولعلّه قصد أنهم في جنّة الآخرة.

الجنة عاقبة كل مؤمن صالح:

على كلٍ:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

ومن أجمل الأدعية: **" اللهمّ اجعل نِعَمَ الآخرة متصلة بنعم الدنيا "**، أي إن المؤمن خطّه البياني صاعد، والموت نقطة على هذا الخط، كأن يخلع ثوباً ليرتدي ثوباً، هو في سعادة،**يأتيه ملك الموت فيخلع عنه ثوب الجسد ليلبس ثوباً آخر لا يعلمه إلا الله".**

قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

وعد الله للإنسان في الدنيا من خلال القرآن الكريم:

(يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التحريم)

(هَذَا مَا تُوعَدُونَ)

الله وعدنا، يعدُنا في الدنيا من خلال القرآن الكريم، والنبي عليه الصلاة والسلام يعدنا من خلال سنّته المطهّرة.

مثلاً:

((الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

هذا وعد النبي عليه الصلاة والسلام.

الله عز وجل لا يعجزه شيء في الدنيا و لا في الآخرة:

فلذلك:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً)

(سورة النساء)

من الذي يعدك ؟ خالق الكون.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

شتّان بين أن يعدك إنسان محدود القدرات، قد يتمنى أن ينفِّذ وعده، ولكن لا يستطيع، قد يموت قبل أن ينفِّذ وعده، قد يكون طلبك أكبر من طاقته، لكن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء.

(كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلاّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إِلاّ نَفْسَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

ذلك لأنّ عطاءه كلام (كن فيكون)، وأخذه كلام، فمن وجد خيراً فليحمد الله.

الجنة ثمن من عرف أمر ربه و طبق منهجه:

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ)

لمن هذا الوعد ؟ قال الله تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ)

(سورة القصص: آية " 61 ")

من هو المؤمن ؟ هو مخلوق عرف ربّه، وطبّق أمره، فوعده الله وعداً حسناً، فهو موعود بالجنة، قال عز وجل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص: آية " 61 ")

هل يوازَى إنسانٌ موعودٌ بجنّة الله بإنسانٌ آخر سوف يُحضَرُ مكبّلاً ليلقى نتائج عمله السيئة ؟

وعد الله كُلّ أوّابٍ حَفِيظٍ بالجنة:

لمن هذا الوعد ؟ قال تعالى:

(لِكُلّ أوّابٍ حَفِيظٍ)

الأوّاب: الذي رجع من المعاصي إلى الله:

اللغة العربية تعيننا على فهم هاتين الكلمتين، الأوّاب: صيغة مبالغة، أوّاب فعّال، صيغتها الأصلية آيب، آب يَؤوبُ آيبٌ، آب بمعنى رجع، رجع من أين ؟ وإلى أين ؟ أجمع المفسرون على أن الآيب الذي صيغة مبالغته أوّاب هو الذي رجع عن المعاصي، كان في معصيةٍ فرجع من هذا الطريق، رجع من المعاصي إلى الله، هذا هو الأوّاب، رجع من المعصية إلى الله عزّ وجل، هو آيب وصيغة مبالغته أوّاب، هذا الوعد العظيم.

(هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلّ أوّابٍ)

لذلك:

((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطّائِينَ التّوّابُونَ))

[الترمذي عن أنس]

التوّابون: أي: كثيرو التوبة، ولم يقل عليه الصلاة والسلام: تائب، بل قال: توّاب، وهو كثير التوبة.

الحفيظ: من حفظ أمر الله و اجتنب نواهيه:

(لِكُلّ أوّابٍ)

معنى هذا أن الإنسان ما دام فيه بقيةٌ من حياة فعليه أن يؤوب إلى الله عزّ وجل، وكلّما شعر أنه في موقع غير صحيح وفي سلوكٍ غير صحيح، كلّما شعر أنه متلبّسٌ بمعصيةٍ أو بمخالفة، أو بشبهة أو بتقصير فعليه أن يؤوب إلى الله عزّ وجل، وأن يرجع عن معصيته إلى الله جلّ جلاله.

(لِكُلّ أوّابٍ حَفِيظٍ)

الكلمة الثانية أكثر إيجابيةً من الأولى.

أيضاً حفيظ صيغة مبالغة، حافظ اسم فاعل، أما حفيظ أي كثير الحفظ، يحفظ ماذا؟

معاني حفظ الإنسان:

1 - يحفظ أمر الله:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون)

2 - يحفظ الأمانة التي بين يديه:

المريض عند الطبيب أمانة، والموكِّل عند المحامي أمانة لا ينبغي أن يغشّه، ولا أن يحدِّثه بحديثٍ الموكِّل هو له به مصدِّق، والموكَّل هو له به كاذب، خان الأمانة، المريض عند الطبيب لا ينبغي أن يحدِّثه بحديث هو له مصدِّق، والمتكلِّم ليس له بصادق، المريض أمانة، والموكِّل أمانة، والذي يشتري بضاعةً من بائع هو أمانة، هو كلّه أمانة عندك، يسألك بدينك أن تنصحه، وأن تعطيه بضاعةً جيدة، وأن يكون سعرها معتدلاً، أمانة، وابنك أمانةٌ أودعه الله عندك، كيف ربّيته ؟ هل علّمته ؟ هل وجّهته ؟ هل ضبطت سلوكه ؟ هل درّبته على طاعة الله عزّ وجل ؟ هل لقّنته الحقّ ؟ هل أعنته على نفسه ؟ هل أعنته على برّك بالعدل بين الأولاد ؟ ابنك أمانة، زوجتك أمانة أوكل الله إليك مصيرها، أنت رُبّان السفينة، وأنت القيّم على هذا البيت، وأنت صاحب القرار.

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

(سورة النساء: آية " 34 ")

فالزوجة أمانة، والولد أمانة، وبحرفتك كل من تتعامل معهم أمانةٌ في عنقك.

الجنّة أُعِدّت لكل أوّاب شديد العودة إلى الله:

لذلك:

(لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)

شديد الحفظ أولاً لعباداته، لصلواته، شديد الحفظ لأوامر الله عزّ وجل، شديد الحفظ لما استودعه الله. هذه الجنّة التي عرضها السماوات والأرض أُعِدَّت للمتقين، أعدّت لكل أوابٍ حفيظ، شديد العودة إلى الله.

بالمناسبة، صيغة المبالغة تعني الكَمّ والنَوع.

(أوّاب)

مهما كانت المعصية كبيرةً فهو يعود منها إلى الله، أو مهما تكن المعاصي كثيرةً يعُد منها جميعِها إلى الله، هذا هو:

(الأوّاب)

و (الحفيظ) يحفظ أوامر الله ويطبّقها، يحفظ الأمانات التي استودعت إليه، يقوم بعمله خير قيام، يقوم برعاية من استرعاهم الله به، هذا هو الحفيظ.

عدم ارتقاء المؤمن عند ربه إلا إذا شكّل حياته وفق ما يرضي الله:

(لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)

لو أتينا بخمسة مليارات إنسان، وهم سكّان الأرض، وأطلعناهم على خطرٍ رأوه بأعينهم لاتّقوا الخطر، ولا فضل لك إذا رأيت بعينيك الخطر، وابتعدت عنه، ليست هذه هي العبادة، العبادة أن تُدرك الخطر بعقلك، الخطر ليس أمامك، لا تراه رأي العين، بل هو غائبٌ عنك، فهذا الذي يؤمن بالله يتقي الله بالغيب، أي أن عقله دلّه على أن لهذا الكون خالقاً، وأن كل البشر عباده، وأنك إذا أحسنت إليهم رضي عنك، وإن أسأت إليهم عاقبك عقاباً شديداً في الدنيا والآخرة، فهذا الذي يرى الخطر بعينه فيتقيه لا يسمّى عابداً لله لأنّ أيّ مخلوقٍ على الإطلاق إن رأى الخطر حادَ عنه، لكن المؤمن قال تعالى:

(الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة)

(مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)

أي أنه آمن بالله، ولم يره بعينه، آمن بوحدانيته، وآمن بكماله، وآمن بوجوده، وآمن بكتابه، وآمن برسله، فشكّل كل حياته وفق ما يرضي الله، هذا الذي يرقى عند الله، آمن بالغيب، احترم عقله، ذلك العقل، تلك الأداة الثمينة التي أكرمك الله بها كي تعرفه بها انتفعت به، لذلك هذا الأوّاب الحفيظ.

العاقل من آمن بالغيب و احترم عقله:

أما الذي يرى الزلزال بعينه، أو يرى المرض بعينه، الآن كل إنسان لا سمح الله ولا قدّر إذا أصابه مرض عُضال بسبب الدخان يُقلِع عنه، ولكن ليس له فضل، لأنه متى أقلع عنه ؟ بعد أن أُبلِغ أن هناك مرضاً عضالاً قد حلّ به، لكن العاقل هو الذي يدع الدخان قبل أن يحلّ به المرضُ العضال، هذا العاقل، هذا خشي عواقبه بالغيب، بالفكر أدرك أن هذه العادة تسبب مشكلات كثيرة في صحّته فتركها. وأريد من هذه الفكرة أنك إذا رأيت الخطر بأُمّ عينك، واتقيته فلا فضل لك في ذلك، ولا أجر لك في

ذلك، ولا ترقى عند الله بهذا الترك، لأن هذا جزءٌ من طبيعتك البهيمية، فالدابَّة مثلاً إن رأت خطراً ابتعدت عنه، أما كجزء من طبيعتك الإنسانية فقد أودع الله فيك العقل، فإذا أدركت به الخطر المتوقَّع، وابتعدت عن هذا الخطر الآن ترقى، الآن أنت إنسان، لذلك العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

أحياناً يريد إنسان أن يسافر، فيذهب ليقطع التذكرة، يفكِّر، السفر صباحي إلى حلب، الشمس من على اليمين، الشمس من جهة الشرق، إذاً يطلب في الصيف المقعد في جهة اليسار، وفي الشتاء يطلبه في جهة اليمين، فكَّر، كل إنسان يفكِّر يكون أكَّد فيه الناحية الإنسانية الراقية، وكل إنسان يعطِّل فكره يكون هبط إلى مستوى البهيمة، البهيم يتفاعل مع الأحداث حين وقوعها، أما الإنسان فينبغي أن يتفاعل معها قبل أن تقع يُدركها، لذلك يقولون: من صفات الأمم الراقية أنها تعيش المستقبل، والأقل رقيًّا تعيش الحاضر، والأمم المتخلِّفة تعيش الماضي فقط.

ألهى بني تغلبٍ عن كل مكرمةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومُ

* * *

بِقَلْبٍ مُنِيبٍ: آية لها عدة معان:

لذلك:

(وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

1 ـ قلب مخلص لله:

اختلف المفسِّرون في معنى:

(منيب)

فبعضهم قال: **" جاء بقلبٍ مخلص لله عزّ وجل.**

يا معاذ:

((أخلِص دينك يكفك القليل من العمل))

[الجامع الصغير عن معاذ بسند ضعيف]

إن درهماً أُنفِق في إخلاص خيرٌ من مئة ألف درهمٍ أُنفقَ في رياء.. فالإخلاص الإخلاص، لأن الإخلاص ينفع معه قليل العمل و كثيره، والرياء والنفاق لا ينفع معهما لا قليل العمل ولا كثيره.

قال بعض المفسرين:

(وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

أي مخلص.

2 - قلب سليم:

وجاء بقلبٍ منيب أي سليم.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

والقلب السليم هو وحده الذي ينفعك يوم القيامة، لأن الأمر كلّه بيدِ الله، وفي الأثر:

((عبدي طهّرت منظر الخلق سنين، أفلا طهّرت منظري ساعة))

القلب بيت الرب، أفلا طهّرت منظري ساعة ؟

هنيئاً لمن اطلع الله على قلبه فرآه سليماً، ليس فيه غلٌ لأحد، ولا حقدٌ على أحد، ولا احتيالٌ على أحد.

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[البخاري عن عمر بن الخطاب]

هذا الحديث متواتر، ويُعَدُّ أصلاً في أن الأعمال كلها تقيَّم عند الله حصراً بالنيّات الطيّبة.

روعة الجنة و الحالة النفسية التي ينعم بها أهلها:

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ)

اللطيف في هذه الآية أن الجنّة يدخلها المؤمنون في سلام، أحياناً في الدنيا تدخل بيتاً رائعاً، لكنّه قطعةٌ من الجحيم، فيه أمراض، فيه مشكلات، فيه خصومات، فهنا أشار الله عزّ وجل إلى روعة الجنّة، وروعة الحالة النفسية التي يَنْعُمُ بها أهل الجنّة.

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ)

الجنة جمال و رضوان:

ائتِ بإنسان مريض، وأدخله إلى حديقةٍ غنّاء، إنه لا يسعد بها، لأن همُّه يحجبه عن جمال المكان، ائتِ بإنسان على وشك الإفلاس، وخذه إلى مكانٍ جميل، لا يسعد به، هذه الآية فيها إشارة إلى أن الجنّة جنّتان، جمال المكان.

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة الصف: آية " 12 ")

فيها:

(فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

(سورة محمد: آية " 15 ")

(وَحُورٌ عِينٌ)

(سورة الواقعة)

و:

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ)

(سورة الواقعة)

وفوق كل هذا:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ)

(سورة آل عمران: من الآية 15)

أولاً: لا يوجد فيها قلق.

وثانيا: إذا أُدخِلت الجنّة لا تخرج منها.

الجنة مستقر دائم للإنسان و ابتعاد عن القلق و التشاؤم:

إن الإنسان إذا نزل إلى مكان بالأجر يقول لك: كل ليلة بخمسة آلاف، أو عشرة آلاف، شيء جميل، لكن ارتفاع الأجر يُذهِب سعادته بالمكان، يقول لك: صاروا خمسة عشر ألفًا، أو عشرين ألفًا، أحياناً يأكل أكلاً غالياً، والفاتورة تُنسيه لذّة الطعام كله، فهناك حالة نفسية ترافق الحالة المادّية، أما في الجنة.

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ)

لا يوجد قلق، ولا إخراج من الجنّة، ولا يوجد منافسون، لا وشاة، ولا من يسعى لإخراجك منها، ولا تقدُّم في السن، ولا مرض، لا يوجد شيء.

الدنيا دار كَدْح و عمل و الآخرة دار تكريم و تشريف:

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ)

لكنّ في الدنيا أحياناً يدخل الإنسان بيتاً فخماً، وهو ليس مرتاحاً، يقطن في حديقةٍ غنّاء، وليس مرتاحاً. وقبل أن نذكر نظام الجنّة نذكر أن نظام الدنيا أساسه الكدح والسعي.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق)

لكن نظام الجنّة قائمٌ على أن أي خاطرٌ يخطر في بالك تراه أمامك، أي شيءٍ تريده، الدنيا دار كَدْحٍ، ودار سعيٍ، ودار عملٍ، ودار ابتلاءٍ، ودار مشقّةٍ، والآخرة دار تكريمٍ، ودار تشريفٍ، ودار جزاءٍ، ودار راحةٍ.

أكبر تشريف للإنسان في الآخرة رؤية وجه الله الكريم:

أما الشيء اللطيف جداً.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

أحياناً يطلب الإنسان أشياء ثمينة جداً من الطعام، لكن يفاجأ أن في هذا المطعم ألوانًا من الطعام لا يعرفها، ولو عرفها لاختارها، فمهما تصوّرت نعيم الجنّة فعند الله مفاجآت لا تعلمها.

قال بعض العلماء: المزيد هو **" رؤية وجه الله الكريم "**، إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون البدر في كبد السماء، فعن جَرِيرٌ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ:

((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ))

[صحيح البخاري عن جرير]

كما ترون القمر ليلة البدر، طبعاً رؤية الله في الدنيا مستحيلة.

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

(سورة الأعراف: آية " 143 ")

الأحمق من يضيع الجنة من أجل سنواتٍ معدودة في الدنيا:

أجسامنا لا تحتمل أن نرى الله عزّ وجل، الجبل دُكّ دكاً حينما تجلى الله عليه، لكنه في الجنة كما أنبأنا النبي صلى الله عليه وسلم، وكما ورد في القرآن الكريم:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

هذا، ولدينا مزيد.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

أهذه الجنة التي هي إلى أبد الآبدين أتُضَيِّعُ من أجل سنواتٍ معدودة في الدنيا ؟ لنكن صريحين، متى يستقر وضعُ الإنسان ؟ بعد الأربعين، حتى يكون له بيت، وزوجة من الدرجة الخامسة، بعد الأربعين، ومعترك المنايا بين الستين والسبعين، وهذه السنوات العشرون كلها متاعب، وخصومات، وأمراض، وضيق مادي أحياناً، وقلق أحياناً، وخوف أحياناً، هذه السنوات العشرون التي استقرت بها حياة الإنسان مشحونةٌ بالمتاعب، من أجل سنواتٍ عشرين السعادة فيها ليست مضمونة تُضَيِّعُ جنةً عرضها السماوات والأرض ؟! أين عقل الإنسان ؟

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(35))

أصبحت هذه الصورة المشرقة.

(كم) أنواعها ومعانيها:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

(كم) هذه للتكثير، وفي اللغة العربية (كم) نوعان، (كم) الاستفهامية، و(كم) التكثيرية، يضربون على هذا مثلاً: تسأله: كم كتاباً عندك ؟ فيقول: عندي ثلاثون كتاباً، أما إذا قلت: كم كتابٍ عندي ؟ أنت لا تسأل، ولكنك تفتخر، ولكنك تستكثر، كم كتاباً عندك ؟ هذه استفهامية، الجواب: ثلاثون كتاباً، أما إذا قلت: كم كتابٍ عندي ؟ فالجواب ما شاء الله، فـ (كم) هنا تكثيرية.

الهلاك عاقبة الأمم الطاغية السابقة:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ)

ما أكثر الأقوام التي كفرت، وجحدت، وانحرفت، وطغت، وبغت، واستعلت فأهلكها الله عزّ وجل، وهذه الآثار بين أيديكم، اذهب إلى مدينة تدمرَ وكانت فيها دولة من أقوى الدول، هي دولة زنوبيا، أين هم ؟ أين عادٌ وثمود ؟ والأنباط في الأردن ؟ والفراعنة في مصر؟

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ)

لا تزال الأهرامات أحدَ أعاجيب الدنيا حتى الآن، فمصر أرضٌ منبسطة ليس فيها صخور، فمن أين جاءوا بالصخور ؟ من أسوان، كل صخرة مساحتها عشرة أمتار في خمسة أمتار، كيف حملت ؟ كيف نقلت من نهر النيل إلى موقع الأهرام ؟ كيف بنيت ؟ كيف نقلت إلى أعلى ؟ بأية طريقة ؟

هناك بعض الأهرامات فيها نافذة مدروسة بشكل أن الشمس لا تدخل منها إلا في يومٍ واحد في العام كله، هو يوم موت الملك الذي بنيت الأهرام له، أو يوم ميلاده، هل يمكن أن تجهز نافذة بزاوية معينة، عميقة، لا تدخلها الشمس إلا في يوم واحد ؟ لو زرت الأهرامات في مصر لرأيت كل شيءٍ تحت الأرض، حتى الطعام، قطع اللحم المُقَدّدة إلى الآن موجودة، عمرها ستة آلاف عام، القمح، الحلي الذهبية، كل حاجات الفراعنة وضعت في القبور، لتوهمهم أنهم سيحيون حياةً ماديةً بعد موتهم.

القبر نهاية كل إنسان:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

من أروع التفسيرات لهذه الآية أنّ:

(فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ)

أي سافروا، إما للتجارة أو للسياحة، يقول لك: أنت رأيت شلالات نياجارا ؟ لا، لم أرها، يقول لك: لم تر شيئًا !! ذهب إلى كندا، وذهب إلى أمريكا، ولليابان، ذهب إلى دول شرقي آسيا، زار المعابد، زار الأماكن الأثرية، ذهب إلى المشاتي، إلى بعض الجُزُر.

(هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

هل من محيص أي: هل من خلاص، لابدّ من أن ينتهي إلى القبر، لو رأيت جواز سفر إنسان كثير السياحة، مرة بأمريكا، مرة باليابان، مرة بالهند، مرة بباكستان، مرة بالشمال، مرة بالجنوب، آخر شيء بمقبرة باب الصغير.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

الأموال الكثيرة و الخيرات لا تنقذ الإنسان من الموت المحقق:

هل هناك مجال ؟

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة)

في القرآن الكريم صورة رائعة لرجل خائف، يعدو وخلفه من يلحقه ليقبض عليه، مذعور، قلبه يكاد ينخلع من صدره من شدة الخوف، وهو يعدو وآخر يلحقه، متى يُصْعَق ؟ إذا رأى الذي يلحقه من ورائه أمامه.

(قُلْ إِنّ الْمَوْتَ الّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة: آية " 8 ")

يكون الواحد معه مشكلة في جسمه، وهو يخاف أن يموت من هذا المرض، يقوم باحتياطات غير معقولة، ثم يفاجأ أن الموت جاء من طريق آخر.

(قُلْ إِنّ الْمَوْتَ الّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنّهُ مُلَاقِيكُمْ)

لذلك: أحد أكبر أثرياء العالم مات في يخت مع امرأةٍ عاهرة في عرض البحر، أين الغنى ؟ الإنسان برحمة الله، الله عزّ وجل يظهر آياته بطريقةٍ عجيبة، أحياناً الذين يملكون ألوف الملايين لا تنقذهم أموالهم من موتٍ محقق.

الإنسان العاقل من يعدّ للساعة عدتها بالاستقامة و الطاعة:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

كثير من الأشخاص حتى من أهل الفن، وهم في أوج نجاحهم جاءهم ملك الموت، فالإنسان العاقل هو الذي يعدّ لهذه الساعة عدتها، يعد لها طاعة، يعد لها معرفة بالله، يعدّ لها استقامة على أمر الله، يعدّ لها عملاً صالحاً، يعدّ لها إنفاقاً.

النظر في أفعال الله تلهم الإنسان إلى معرفة طريق الحق:

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

هذا الكلام، وهذه الصور المشرقة والصور المرعبة في هذه السورة صورتان، صورةٌ مرعبةٌ عن أهل النار، وصورةٌ مشرقةٌ عن أهل الجنة.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

الإنسان أحياناً حينما يتحرّى الحقيقة فيجدها عن طريق التفكر في خلق السماوات والأرض، وعن طريق تدبر آيات القرآن الكريم، وعن طريق النظر في أفعال الله.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

التفكر في خلق السماوات و الأرض يوصل الإنسان إلى الحقيقة:

يمكن أن تعرف الحقيقة الكاملة من النظر في أفعال الله، تابع المرابي كيف أن الله يدمِّرُهُ، وتابع المتصدق كيف أن الله ينمي أمواله.

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة)

تابع الشاب المستقيم كيف أن الله يوفِّقُهُ، وتابع الشاب المنحرف كيف أن الله يدمره، تابع الذي ينصح الناس كيف أن الله يحفظه، وتابع الذي يغش الناس كيف أن الله يسحقه، تابع الذي يتقي الله في معاملة زوجته كيف أن الله يسعده بها، وتابع الذي لا يتقي الله في معاملة زوجته كيف أن الله يشقيه بها، يمكن أن تعرف الحقيقة الكاملة من النظر في الحوادث، تابع البار بوالديه كيف أن الله يوفقه، وتابع العاق كيف أن الله يدمره، تابع الذي يغض بصره عن محارم الله كيف أن الله يسعده في بيته، وأن الذي يطلق بصره في الحرام كيف أن الله يشقيه في بيته، تابع هذا الطريق.

الطريق الآخر أن تنظر في خلق السماوات والأرض، ترى العلم والحكمة، واللطف، والرحمة، والقدرة، والغنى، ترى أسماء الله الحسنى كلها من خلال خلقه، تدبر كلام الله عزّ وجل ترَ أنه كتاب الله، كلام رب العالمين، وأقسمُ بالله العظيم أن الإنسان إذا تدبر كلام الله كل خليةٍ في جسده، وكل قطرةٍ في دمه تشعر أنه كلام الله، كلام الله، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

القلب و العقل طريق الإنسان إلى معرفة الله:

فالآية:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)

الإنسان عنده القلب والعقل، عنده عقل سلطه على الكون فعرف الله، تدبر به القرآن، فعرف كلام الله، توجّه به إلى الأحداث فعرف الله، هؤلاء المتفوقون بتدبرهم، وتأملهم، وتفكرهم، ونظرهم، يعرفون الحقيقة، وهناك طريق آخر أن تستمع إلى الحقيقة جاهزة.

يمكن أن تدخل غرفة وتتأمل، تتفكر، تنظر، تتدبر، تقرأ كلام الله عزّ وجل، يمكن أن تحضر مجلس علم فتستمع إلى الحقيقة خالصة:

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

على الإنسان أن يجمع بين العقل وإلقاء السمع وهو شهيد:

لكن مع إلقاء السمع شرط:

(وَهُوَ شَهِيدٌ)

يمكن لإنسان أن يجلس في مجلس علم وأفكاره خارج المجلس، يقول في نفسه: ماذا أعدوا لنا من العشاء اليوم ؟ في أثناء التفسير كان فكره في العشاء، في أثناء التفسير قبض المبلغ، ويسأل: هل دفع له؟ إذا كان في أثناء حضور مجلس علم خواطر تجارية، أو صناعية، أو زراعية، أو خواطر قبض أموال، أو حل مشكلات، أو فرق صندوق، يا ترى أين راح المبلغ ؟ فهذه مشكلة، ما أصبح شهيدًا في ذلك المجلس:

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

فعندك طريقان: إما أن تعد الطعام أنت بنفسك، وإما أن تأكله من يد أمهر الطبّاخين، وكلاهما حسن، فإذا سمع الإنسان كلام النبي عليه الصلاة والسلام فالنبي عليه الصلاة والسلام كل أحاديثه الشريفة في الحقيقة بيانٌ لكلام الله، فيمكن أن تقرأ السنة النبوية المطهرة فتعرف من خلالها كلام الله عزّ وجل، ثلاثمئة حديثٍ حول البيوع، والله عزّ وجل قال:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

(سورة النساء: آية " 29 ")

كلام الله موجز، والنبي عليه الصلاة والسلام فصّل، والأصح من هذا وذاك أن تجمع بينهم، أن تتفكر في خلق السماوات والأرض، وأن تنظر في أفعال الله، وأن تتدبر القرآن، وأن تستمع إلى الحقائق جاهزةً، أن تجمع بينهما، أن تجمع بين العقل وإلقاء السمع وأنت شهيد.

خلق الله عز وجل السماوات و الأرض في ستة أيام دون تعب و نصب:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)

(لُغُوبٍ)

هو التعب والنَصَب، وهذه الآية ردٌ على اليهود الذين زعموا أن الله خلق الدنيا في ستة أيام، ثم تعب فاستراح يوم السبت، هذه أضحوكة، وفرية من افتراءات اليهود، قال تعالى:

(وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)

طبعاً قال بعضهم: ستة أيام ستة الأطوار، نظام الكون ليلٌ ونهار، وصيفٌ وشتاء، وربيعٌ وخريف، ستة أدوار.

الإنسان حينما يتصل بالله يستطيع أن يواجه أعداء الحق:

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)

دائماً وفي أغلب الأحيان يأتي الصبر مع التسبيح، ما الذي يعينك على كلام هؤلاء الجهلة:

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

لما يكون الإنسان في ضيق مادي، أو ضيق معنوي، أو حوله أناس أعداء منكرون، مفنِّدون، إن كان له صلة بالله فهذه الصلة تغنيه عن صداقتهم، وتغنيه عن الاستماع إليهم، والحقيقة أن الإنسان حينما يتصل بالله يستطيع عندئذٍ أن يواجه أعداء الحق، لأن معه ذخيرة، ومعه سلاح، والاتصال بالله مُسْعِد، لذلك الإنسان الفارغ لا يحتمل المعارضة، ولا يحتمل النقد، ولا يحتمل التخويف، هو ضعيف في الأساس، أما حينما يقوى بالله عزّ وجل يصبح أقوى من كل قوةٍ تريد أن تنال منه.

الصبر مع التسبيح يغنيان الإنسان عن اعتراض المعترضين:

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

حينما تصلي تستعين بالصلاة على اعتراض المعترضين، وعلى كيد الكائدين، وعلى تشويش المشوّشين، وعلى انتقاد المنتقدين، وعلى تفنيد المفندين، لأنك تتصل بالله، لذلك قالوا: الناجحون في الحياة ليس عندهم وقتٌ يلتفتون فيه إلى منتقديهم، القافلة تمضي والكلاب تعوي، أما الفارغون من الاتصال بالله عزّ وجل فكل شيءٍ يزعجهم، ورد في الأثر أن موسى في أثناء المناجاة قال: **" يا رب، لا تبق لي عدواً "**، فقال الله عزّ وجل: **" يا موسى، هذه ليست لي "**، قال الله عزّ وجل:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)

(سورة الأنعام: آية " 112 ")

شيء طبيعي جداً أن يكون لك خصوم في العقيدة، خصوم في المنهج، فالمؤمن لا يبالي.

الخصم حينما ترد عليه ترفعه وحينما تهمله تسقطه:

(قُلِ اللّهُ ثُمّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأنعام)

(بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

لا تعبأ، من عرف نفسه ما ضرّته مقالة الناس به.

أحياناً يتمنى الخصم أن تلتفت إليه، وأن تردّ عليه، دعه مهملاً، دعه في حيّز النسيان، لا تعبأ به، لا تجعل له قيمة، بعض الكُتّاب الذين كتبوا كلاماً يطعنون به في القرآن الكريم، وفي النبي عليه الصلاة والسلام عرضوا كتابهم على مئات دور النشر فلم تقبل دار أن تنشر لهم هذا الكتاب، فلما حدث هجوم على شخص المؤلِف تهافتت دور النشر على نشر هذا الكتاب، فأحياناً الخصم حينما ترد عليه ترفعه، وحينما تهمله تسقطه.

النبي عليه الصلاة والسلام أوتي الفطانة كأي نبي.

على الإنسان أن يسبح ربه:

1 ـ قبل طلوع الشمس:

(وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشّمْسِ)

هذه صلاة الفجر.

2 ـ قبل غروب الشمس:

(وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)

صلاة الظهر والعصر.

3 ـ عند صلاة الليل:

(وَمِنَ اللّيْلِ فَسَبّحْهُ)

صلاة المغرب والعشاء وصلاة الليل.

على الإنسان أن يصلي السنن الراتبة التي صلاّها النبي بعد الصلوات المفروضة:

(وَأَدْبَارَ السُّجُودِ)

أدبار السجود أي السنن الراتبة التي صلاّها النبي بعد الصلوات المفروضة.

كل الخلائق يسمعون الصيحة يوم القيامة:

(وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)

هذه صيحة يوم القيامة، لكن تقريباً للأذهان إذا صلى الإنسان في الحرم المكي في أي مكان، في أي مكان على الإطلاق، خارج الحرم، أو داخل الحرم، أو حول الكعبة، أو تحت الأروقة، في الطابق الثاني، في الطابق الثالث، على السطح، في أي مكان تشعر أن صوت الإمام في أذنك، طبعاً من خلال أجهزة صوت راقية جداً، هذا تقريب للأذهان.

كل الخلائق يسمعون هذه الصيحة.

خروج الناس من قبورهم يوم القيامة للحساب:

طبعاً حينما تأتي يوم القيامة، تأتي الصيحة فينسل الناس من قبورهم.

(يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)

كنت مرة أمشي في جنازة فكان القارئ يقرأ:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

على الإنسان أن يعبد الله الذي يحيي و يميت:

لابدّ من العودة إلى الله.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ)

نحيي الميّت بعد موته، ونميت الحي بعد حياته، إذاً من ينبغي أن تعبد ؟ من يحيي ويميت، من يرزق، من يسيّر، من الأمر كله بيده.

أعمال الإنسان مسجلة عليه للحساب الدقيق يوم القيامة:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ(44))

قال تعالى:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

يجب أن تعلم علم اليقين أن أعمالك كلها صغيرها وكبيرها مسجلة عليك.

كل إنسان مخيّر ومهمّة النبي أن يبلغ فقط:

لذلك:

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

من أوجه التفسيرات: ما أنت مجبرهم على الهدى، أي أنت لك أن تبلّغ فقط، لن تستطيع إجبارهم لأنهم مخيّرون.

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

جبَّار هنا بمعنى مُجْبِر.

قال تعالى:

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

(سورة الغاشية)

وقال سبحانه:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الأنعام)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

أي أن نظام الخلق أن كل إنسان مخيّر، ومهمّة النبي أن يبلغ فقط.

على الإنسان أن يتخذ قراراً بطلب الهدى ليستفيد من القرآن الكريم:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

هذا القرآن لا نستفيد منه إلا إذا آمنا بالله، قال الله عزّ وجل:

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً)

(سورة الإسراء)

لذلك:

(فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

لابدّ من أن تتخذ قراراً بطلب الهدى، وطلب الحقيقة من أجل أن تستفيد من هذا الكتاب الكريم.

(فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-20 ، كل شيء في الكون يدل على الخالق سبحانه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-06-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأوّل من سورة الذاريات.

خلق الله الإنسان من أجل طاعته و عبادته:

قال تعالى:

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20))

[سورة الذاريات]

هذه الآيات ومثيلاتها في القرآن الكريم، ومثل هذه الآيات تحتلّ مساحة كبيرة في القرآن الكريم، الآيات الكونيّة الدالة على عظمة الله جلّ جلاله، هذه الآيات، لو أنّ واحدًا منا سأل نفسه، لماذا أورَدَها الله في كتابه الكريم ؟ الحقيقة أنّك خُلِقْتَ مِن أجل أن تعبُدَهُ، أن تعبُدَهُ أي أن تُطيعَهُ، لن تستطيع أن تُطيعَهُ إلا إذا عرفْتَهُ فمعرفتهُ سبب عبادته.

عبادة التفكر من أرقى العبادات:

الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن تراهُ بحَواسِّك الخمس، قال تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

[سورة الأنعام]

لكنّك بإمكانك أن تعرفَهُ إذا دقّقت في خلقه، فلذلك هذه عِبادة تُعدُّ مِن أرْقى العبادات على الإطلاق، عِبادة التّفكُّر، فأنت إذا فكَّرْتَ في خَلْقِهِ تتعرَّف إليه، إن عرفْته، عرفت الآمِر، هان عليك تطبيق الأمر،

فالآمر قبل الأمر والأصول قبل الفروع، والإحسان قبل البيان، والقدوَة قبل الدّعوة، هذه وسائل لِمَعرفة الله عز وجل.

الهواء مِن أكبر الآيات الدالة على عظمة الله:

مثلاً هذا الهواء لا يحول بيني وبينكم، لكنّ طائرةً يزيدُ وزنها عن ثلاثمئة وخمسين طنًّا يحملها ! فما هو هذا الهواء اللطيف ؟ أما إذا تحرّك وزادَت سُرْعتُهُ عن مئتي كيلو متر، ووصَلَتْ إلى الثمانمئة كيلو متراً أصْبَحَ إعْصاراً ودمّر كلّ شيء، فبينما هو نسيم عليل إذا هو إعْصار مُدمِّر، فما هذا الهواء ؟ هذا الهواء سبب تنافر الضوء، فلو ذَهَب الإنسان إلى القمر، وهو في رابعة النهار يرى الفضاء أسْوداً، وفي وسطِهِ قرْص الشمس، بينما في الأرض ترى الدنيا مضيئة وسببها هذا الهواء الذي ينثر الضّوء، ففي غرفتك ضَوء من دون أشِعّة الشمس، فالهواء وحدهُ مِن أكبر الآيات الدالة على عظمته، لطيف ويتحرّك، كيف يتحرّك ؟ مِن خصائصه أنّه إذا سُخِّن تمدّد، فالهواء الذي فوق الصّحراء حرارته خمسون درجة يتمدد، والهواء الذي فوق المناطق الباردة ينكَمِش، فهنا ضَغط منخفض، وهنا ضَغط مرتفع، والهواء يتحرّك من الضّغط المرتفع إلى الضّغط المنخفض، فلولا أنّ هناك مناطق صَحراويّة في الأرض هواؤُها حار، ومناطق باردة هواؤُها بارد منكمِش لما تحرّك الهواء، وهذا تفسير بسيط جدًا لِحَركة الهواء !

هناك تفسيرات أخرى مُعقّدة جدًا، فالهواء يتحرّك من القطبين إلى خطّ الاستِواء، ومن المناطق الباردة إلى المناطق الحارة، ومن الغرب إلى الشّرق، فلولا حركة الهواء لكُنّا في حالة لا تُحْتمل.

ذَرْوًا: كلمة لها عدة معان:

ربُّنا عز وجل أشار في مطلع هذه السورة إلى هذه الظاهرة التي يُمكن أن تكون أحدَ أكبر الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل، قال تعالى:

(وَالذّاريَاتِ ذَرْواً)

[سورة الذاريات]

ذَرْواً مفعول مطلق، وسُمِّيَ مفعولاً مطلقًا لأنّه يحْتَمِلُ معانٍ كثيرة، ذَرْواً حكيماً، وذَرْوًا رفيقًا، وذرْوًا لطيفًا، ذرواً هادفاً، والذاريات، فهذه الرّياح التي تذْرو السُحب تنقلها من مكان إلى مكان، ولو سَكَنت الرّياح ما قيمة السحب ؟

إذا كانت السُحب فوق البحار وسَكَنت الرّياح فمن ينقلها إلى اليابسة قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

[سورة الروم]

فهذه الرياح تسوق السحب.

ظاهرة التبخر والتقطير و التكاثف:

ثمّ يقول تعالى:

(فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً)

[سورة الذاريات]

الإنسان لو ركب طائرة وحلّق فوق الغيم لرأى جبالاً من السُحب، فمنظر السُحب من سَطح الأرض كالسّقف لكنّ منظرها من فوق السُحب جبال كالجبال، ورؤوس مؤنّفة وتلال، ووديان، وهذه السُحب تحمل ألوف ملايين الأطنان من الماء، وهذه تنتقل من البحار إلى اليابسة، ومن صمّم مبدأ التّقطير ؟ أنّ الماء إذا تبخّر ترك الأجسام المُذابة فيه في البحر ولولا هذه الظاهرة، التبخر لا يحمل معه الأجسام المذابة، لذلك ينتقل البخار من البحر المالح فيصبح ماء عذباً فراتاً من قِبل الله عز وجل، مع أن تحلية اللتر من الماء في المصانع التي صنعها الإنسان، تزيد عن عشر ريالات، تحلية لتر واحد من الماء، هذه الأمطار الغزيرة التي تتحلى عن طريق التبخر والتقطير، من قنن هذا القانون ؟ أن الأشعة (أشعة الشمس) إذا سلطت على مساحات واسعة من الماء تبخر الماء، القانون ؟ ومن قال: إنّ الهواء يحمل بخار الماء ؟ ولكل درجة من درجات الهواء كميّة من بخار الماء يحملها، فإذا برّدنا الهواء ظَهَرت ظاهرة أخرى، وهي التّكثف تجد أنّ قطرات من الماء عالقة على زجاج النافذة، يوجد بالغرفة الهواء مشبع ببخار الماء، لامس سطحاً بارداً فتكاثفت القطرات.

إنبات النبات سببه الرياح التي خلقها الله عز وجل:

هذه الذاريات التي تذرو السُحب، وتسوقها إلى بلد، أو تذرو حبوب الطّلع الملقِحة للنباتات فلولا الرياح لما أنبت النبات، وكلّكم يعلم (وفي ذلك آية كريمة) أنّ النبات مخلوق من ذكر وأنثى، النبات كله مخلوق من ذكر وأنثى، وهذا الذّكر والأنثى لا بدّ من أن يتلاقحا عن طريق الرياح، لذلك سمى الله الرياح في آية أخرى لواقحاً، قال تعالى:

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[سورة الحجر]

عبادة الإنسان لخالقه واجب عليه:

هذا الهواء الذي يتحرّك يُجدِّد الجو، لو أغلقت النوافذ في غرفة لضاقت نفسك، نسمة لطيفة تنعش الإنسان، وتحرّكه له قوانين دقيقة جدّاً ويسوق السُحب ويسوق حبوب الطّلع الملقِحة للنباتات، فهذا الذي صمّم وهذا الذي قنّن وهذا الذي وضَع هذه السُنن هو ربّ العالمين، ألا يستحقّ أن تعبده ؟ قال تعالى:

(وَالذّارِيَاتِ ذَرْواً (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (2))

[سورة الذاريات]

فالهواء مُحمّل بِبُخار الماء.

ثمّ يقول الله تعالى:

(فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً)

[سورة الذاريات]

مُحرّك ماء صغير في بستان يُقلق الحاضرين، ويُصْدِرُ صوتًا مزعجاً، يحطم الأعصاب، فهذه الكُتل الهائلة وملايين الأطنان المحمولة في الهواء وتسير بلا صوت، قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السّحَابِ صُنْعَ اللّهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ إِنّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل]

هذا تشبيه بليغ مصدري ! في هدوئها ولطفها.

قسم الله لفتُ لنظر الإنسان إلى عظمة هذه الآية:

قال تعالى:

(وَالذّارِيَاتِ ذَرْواً (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (4))

[سورة الذاريات]

يقول لك هنا ألف ميليمتر وهنا سبعمئة وخمسون، وهنا مئتين واثنا عشر كذا وكذا، والأمطار في طرطوس كذا، ومعدلّ الماء في منطقة كذا هي كذا، فَمن يُقسِّم هذه الأمطار بهذه النِّسب ؟ فالمقسمات أمراً، سيّدنا علي يُنقل عنه أنّه قال: الذاريات ذروًا هي الرياح، والحاملات وقرًا هي السحب، والجاريات يسرًا هي السفن، والمقسمات أمرًا هي الملائكة وهناك تفسير يجعل كلّ هذه الفقرات الأربع هي الرياح، فالرياح تسوق، وتحمل وتسير وتوزّع، فهذا قسَمٌ، والله سبحانه وتعالى حينما يُقْسِم يلْفتُ النّظر ! نظر الإنسان إلى هذه النِّعم العظمى، فما معنى أنّ الله سبحانه وتعالى إذا أقْسم بخَلقه فالقصدُ من

ذلك لفتُ نظر الإنسان إلى عظمة هذه الآية، فالله عز وجل أعظمُ من كلّ عظيم، فإذا قال لك: لا أُقْسِم فبالنسبة إليه، وإذا أقسم فَبالنِّسبة إلينا.

الماء موضوع من موضوعات التفكر في عظمة الخالق:

طبعاً ظاهرة الهواء، حركة الهواء، قوانين الهواء، الهواء يُضْغط ولكنّ الماء لا يُضْغط، لو وضَعنا متراً مكعّباً من الماء تحت مِكبس ثمانمئة طن لا يمكن أن يُضغط الماء ولا ميليمتر ! أما إذا أراد أن يتمدّد بِفِعل التَّجَمّد لا شيء في الأرض يقف أمامه ! بل إنّ أحدث طريقة لِتَفكيك الرُّخام أن تثقبَهُ وأن تضع فيه ماءً ثمّ تبرّدَهُ !! عندها ينفجر، أو يتصدع الرخام، وهو من أقسى الأحجار، مُحرّك مَصنوع من خلائط نادرة لو أنّ الماء تجمّد فيه لشَطَرهُ شَطرين، ما هذا الماء ؟ لا لوْن له، ولا طعم له، ولا رائحة له، ولا ينضَغط وإذا تمدّد لا شيء يقف أمامه، فالماء موضوع من موضوعات التّفكّر، والهواء موضوع من موضوعات التّفكّر، ولماذا ذكر الله ذلك في القرآن الكريم ؟ إنّما ذكر ذلك كي نتعرّف إلى الله مِن خِلال خلقه، قال تعالى:

(إِنّ فِي خَلْق السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَاخْتِلَافِ اللّيْل وَالنّهَار لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْق السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّار (191))

[سورة آل عمران]

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

قال تعالى:

(وَالذّاريَاتِ ذَرْواً (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسّمَاتِ أَمْراً (4))

[سورة الذاريات]

هذا قسَم، وجواب القسَم قوله تعالى بعدها:

(إِنّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

[سورة الذاريات]

أيها الأخوة الكرام، فِكرةٌ دقيقة جدًا ذكرتها مِراراً أنت مخيّر، لك أن تختار هذا البيت أو هذا البيت، حينما تُقْدِم على الزّواج لك أن تختار هذه الفتاة أو هذه الفتاة، وحينما تُجْمع أن تعمل لك أن تختار هذا العمل أو ذاك، أما خِيارُك مع الإيمان ليس خِيار قبول أو رفض، إنّما هو خِيار وقت فقط، فالأشياء التي جاء بها الأنبياء، لا بدّ من أن تؤمن بها عند الموت، ألم يقل فرعون كما في قوله تعالى:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس]

وعد الله للإنسان لا ينتفع به إلا إذا آمن بربه:

قضيتك مع الإيمان قضية وقت، فإمَّا أن تؤمن وأنت صحيح شَحيح، وإما أن تؤمن وأنت غنيّ شابّ قَويّ فارغٌ، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

[سورة الشعراء]

تصوّر طالباً خرج من الامتحان، ولم يكتب شيئًا، توجّه إلى البيت وفتح الكتاب وقرأ الجواب الصحيح ! ولكن متى عرف الجواب ؟ بعد فوات الأوان، فالله عز وجل قال:

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

[سورة الذاريات]

نحن الآن أحياء، ولكن حينما يأتي ملك الموت هذا الوعد نراه رأيَ العَين وعندئذٍ لا نَنْتفِع بهذا الوعد، ننتفع به الآن إذا آمنا بالله عز وجل.

عدم وجود الحساب يتناقض مع كمال الله عز وجل:

ثمّ يقول تعالى:

(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

[سورة الذاريات]

يقول تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

[سورة الحجر]

خَلْقٌ عظيم، وخالق كبير، لا يُعْقل أن يخلق الإنسان سُدى، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة]

قويّ وَضعيف، وحاكم ومحكوم، وظالم ومظلوم، ومُسْتغِلّ ومُسْتَغَلّ، ومُحْتال ومُحتال عليه ويموتون جميعًا، ثمّ ينتهي الأمر من دون شيء !! ومن دون حِساب !! هذا يتناقض مع كمال الله عز وجل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

[سورة الحجر]

محاسبة الله للإنسان محاسبة شديدة:

قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

[سورة الزلزلة]

وقال تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء]

أيها الأخوة الكرام، حينما تؤمن أنّ الله تعالى معك، ويعلم ما تفْعل وسيُحاسِبُكَ، هناك يوم لا ينفَعُكَ إلا عملُكَ الصالح، وعندئذ تستقيم.

الإيمان بالله و اليوم الآخر من لوازم الإيمان:

من لوازم الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر، وأن تؤمن أنّ الله تعالى يعلم وسَيُحاسِب، وأن تؤمن أنّ كلّ شيءٍ تفعلُهُ ينبغي أن تُجيب الله عنه، فالإنسان الموفّق قبل أن يتكلم كلمة، وقبل أن ينطق ببنت شفة، وقبل أن يعدو، قبل أن يبْتَسِم، و قبل أ ن يُعطي، قبل أن يمْنع، وقبل أن يتزوّج، قبل أن يُطلّق، قبل أن يضرب، قبل أن يُسامح، قبل أن يأخذ وقبل أن يُعطي يقول: ماذا سَأُجيب الله عز وجل عن هذا الموقف ؟ لِقول الله عز وجل:

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

[سورة الحجر]

إخواننا الكرام: فالمؤمن الموفّق لا تغيب عن ذِهنهِ ولو لحظة ساعة الحِساب وساعة نزول القبر، فمهما اعْتَنَيْنا بِبُيوتنا، مهما زيَّنّاها، ومهما زخرفْناها، مهما أغْنَيْناها بالفرش، لا بدّ مِن مُغادرة المنزل، فالإنسان داخل وخارج البيت عمودياً، إلا أنّ مرّةً سيخرج أفقياً ولن يعود، فمهما كان قويّاً سيموت، وكلّ مخلوق سيَموت ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت،

والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

***

يقول الشاعر:

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبــور جنازة فاعلم بأنك بعدهــا محمول

***

الموت و الحساب نهاية كل حي:

قال تعالى: أيها الأخوة الكرام:

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

[سورة الذاريات]

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5))

[سورة الذاريات]

هذا هو جواب القسم:

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

فخالق الكون الذي خلق المجرّات، والمجرة التي اكْتُشِفَت حديثًا تبعُد عنّا أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضَوئيَّة، فالذي خلق هذه المجرّات هذا هو كلامه، وسوف نُساق إليه.

تصوير الله ليوم القيامة لنستعد لها قبل فوات الأوان:

قال تعالى:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

[سورة ق]

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31))

[سورة الحاقة]

هذا كلام ربّنا، وكلام خالق الكون، صُوَرُ يوم القيامة إنما ذكرها الله عز وجل كي نستعدّ لها قبل فوات الأوان، قال له: كيف أصبَحْت يا زيد ؟ قال أصبحت وكأنّي بأهل الجنّة يتنعّمون، وبأهل النار يتصايَحون ! فقال: يا زيد عرَفْتَ فالْزَم ! عبْد نوّر الله قلبهُ.

طلب العِلم أهم عمل يفعله الإنسان في الدنيا:

العاقل يعيش المستقبل، أما الجاهل فيعيش الحاضر، و الأجهل يعيش ماضيه، فما مضى فات والمؤمّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، فيا أيُّها الأخوة الكرام، لا بدّ من الصُّلح مع الله تعالى، ولا بدّ من التوبة النّصوح، ولا بدّ من معرفة منهج الله تعالى، والله الذي لا إلا هو طلب العِلم أخطر عملٍ تفعلهُ في دُنياك، وهو أهمّ مِن أيّ نشاطٍ آخر، لأنّه منْجاة، فيجب أن تعلم من أنت ؟ ولماذا أنت في الدُّنيا ؟! وما هو سِرُّ وجودك، وما هي غاية وُجودك ؟ وما المنهج الذي ينبغي أن تسير عليه ؟ وكيف تتزوّج ؟ وكيف تكْسِبُ المال ؟ وكيف تنفق المال ؟ وكيف تُمضي وقت الفراغ ؟ هل تعلم أيُّها الأخ الكريم أنّ أثمن شيءٍ تمْلِكُهُ على الإطلاق هو الوقت ؟ فالإنسان قد يملك مئة مليون أو خمسمئة مليون، الوقت أثمن منها، والدليل أنّه لو مضى الوقت وجاء الأجل لا تنفعُكَ هذه الأموال الطائلة، ينفعُكَ أن تعرف الله في هذا الوقت هذا الوقت غِلاف الزّمن، غِلاف العمل.

كل إنسان مدان في الآخرة بأفعاله:

قال تعالى:

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6))

[سورة الذاريات]

الدين يعني الدينونة، الإنسان مدان بأفعاله.

قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[سورة المدثر]

فالذي فعل، وترك، وقبض، ودفع، وأعطى، ومنع، وقطع، ووصل، وغضب، ورضي، هذه الحركة سوف تُحاسب عليها جميعًا، قال تعالى:

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6))

[سورة الذاريات]

فالملخّص أنّ خيار الإنسان خيار وقت لا خيار قَبول أو رفض، خيار وقت.

على الإنسان أن يغتنم صحته و غناه و شبابه قبل موته:

لهذا:

((اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك))

[أخرجه ابن أبي دنيا عن ابن عباس]

أي أحدنا معافى، والحمد لله، أما لو توجد علة خطيرة، دخل في عالم آخر، ينسى كل شيء، فالإنسان مُعافى صحيح الجسم، مرتاح من قضية أولى، وثانية، وثالثة، ورابعة، له مأوى، وله دخْل يكفيه، له زوجة وأولاد، هذه حالة مناسبة جدًا للهدى لذلك قال الله عز وجل:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ(8))

[سورة التكاثر]

أي شخص راكب مَركبة، وهو منطلق بأقصى سرعة في منحدَرٍ شديد، وفي آخرها منعطف حاد مسرور، سرعة يرتاح لها الإنسان، الهواء يلطف الجو، ثم اكتشف فجأة أن ليس معه مكبح:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

لذا الإنسان لو يعلم ماذا ينتظرُهُ من نُزول القبر، ومن عذاب القبر، ومن البرزخ، ومن يوم القيامة، ومن الوُقوف بين يديّ الله عز وجل، لذلك: إن هذا اليوم عصيب.

على الإنسان أن يستغل أيامه المتبقية بالأعمال الصالحة:

مرّةً ذكر النبي عليه الصلاة والسلام: كيف أن عَبدين وقفا بين يدي الله عز وجل أحدهما مظلوم والآخر ظالم، فقال المظلوم: يا رب خُذْ لي ظلامتي من فلان فأعطاه كلّ حسناته فلم تف، وطُرحت عليه سيّئات المظلوم فلم تف فأُلقيَ في النار، وحينها بكى النبي عليه الصلاة والسلام.

فنحن الآن في بحبوحة، نحن أحياء، نحن وعلى وجه الأرض، نحن سُمِح لنا أن نعيش يوماً، فكلّ إنسان يستَيقظ يجب أن يعلَمَ عِلم يقين أنّ الله سمَح له أن يعيش يوماً جديدًا، سمَح له أن يعيش يوماً جديداً، وما من يوم ينشقّ فجره إلا ويُنادي، يا بن آدم أنا خلْق جديد وعلى عملك شهيد فتزوّد مِنّي فإنّي لا أعود إلى يوم القيامة ، فأنت بين يوم مفقود لا جدوى من الحديث فيه، وبين يوم مَشهود تعيشه ولا تملِكُ غيره، وبين يوم موْعود، وبين يوم مورود، وبين يوم ممْدود، فالموعود الموت والمورود يوم

القيامة والممدود في الجنّة أو النار، والمفقود الماضي، والمشهود الحاضر، فأنت لا تملك إلا هذا اليوم المشهود بِهِ تتُوب، وبه تستقيم، به تؤدِّي ما عليك، وبه تستَسْمِح من الآخرين، به تنفق، به تُصلِّي.

أكبر مصيبة تصيب الإنسان أن لا يعلم لماذا هو في الدنيا:

مرّ عليه الصلاة والسلام على قبر فقال:

((إنّ صاحب القبر لو أنّه يؤدِّي ركعتين متمثلتين، هي خير له من كلّ دُنياكم))

النبي اطّلَعَ على حالة صاحب القبر، يتمنى أن تكون الدنيا كلها بيده، ويسمح له بركعتين، هي خير له من كل الدنيا، فنحن في بَحبوحة، لا تدع مجلس العلم، به يذكرك بربك، به يشحنك شحنة روحية، به يبقيك على الصراط المستقيم، وعليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإنّ الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبْعَد، وإنّما يأكل الذئب من الغنم القاصِيَة.

فالإنسان يحتاج إلى شحنة علميّة وروحيّة كل أسبوع، الحد الأدنى، حتّي يبقى متوازناً، كحال المصباح يشحن بالكهرباء، إن شحنته يتألق، وإن نسيته من دون شحن، يخفت ضوءه، وكذلك الإنسان بلا شحن يقترب من حطام الدنيا، يدخل في دوامة كسب المال، وإنفاق المال، والعلاقات التجارية، والمالية، وزيد، وعبيد، وفلان و علان، وهذا أعطاني، وهذا لم يعطني، دوامة لا تنتهي، لا بد من أن تكون لك مكابح، لابد أن تخلو مع الله مِن حينٍ لآخر، ولا بدّ من أن تفكِّر لماذا أنا في الأرض ؟ فلا يُعقل أن يُسافر الإنسان إلى بلد وهو لا يدري لماذا أنا هنا ؟ فرْق كبير بين أن تكون سائحاً وبين أن تكون تاجراً وبين أن تكون طالب عِلم، فرق كبير جداً، السائح له برنامج، المكان الفلاني، المتحف الفلاني، إلخ...، والتاجر له برنامج، وطالب العلم له برنامج، فإذا إنسان سافر إلى بلد أجنبي، ولا يعلم لماذا هو هناك هذه أكبر مصيبة.

تسيير الله لكل شيء في الكون:

ثمّ يقول تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[سورة الذاريات]

آيةٌ أخرى، هذه آية التّجاذب الحركي:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

فالكواكب مَشدودة إلى بعضِها بعضًا، كيف ؟ أبْسَط شيء أن تأتي بِقِطْعَتي مغناطيس، وبحَجمٍ واحد، وبِقُوّة جذْبٍ واحدة، ضَعهما على طاولة ملساء وائتِ بكرة حديديّة، هل بإمكانك أن تضعها في نقطة تتعادَل فيها قِوى التّجاذب بحيث تقف، لا تنجذب لا إلى هنا، ولا إلى هناك، فلو أنّها أزيحت مِعشار الميليمتر لَجُذبت إلى الجهة اليُمنى، لذا أن تضَعها في مكان متوسِّط هذا يحتاج إلى قياسات دقيقة جدّاً، لو أن هاتين الكرتين متفاوتَتَيْن في الحجم، وبالتالي في قوة الجذب، لاحتاجت إلى دراسة أعمق، أن تدرس الحجم، قوة الجذب، أن تضعها في مسافة تتناسب مع بعدها عن هذه الكتلة الكبرى، ومع تلك الكتلة الصغرى، هذه عملية أعقد، ولو كان ثلاث كتل، وينبغي أن تضع هذه الكرة بينهما، بحجوم متفاوتة، أصعب، ولو كانت أربع كتل، ليست على سطح واحد بل معلقة في الهواء، ولابد من أن تضع كرة.

الكون أكبر دليل على عظمة الله و وحدانيته:

الآن: دراسة الجاذبية، وقوى الجذب، والاحتكاك، وما إلى ذلك أمام مليون مليون مجرة، وكل مجرة فيها مليون مليون كوكب، والكواكب متفاوِتَةٌ في الأحجام والمسافات، أدقّ ساعة في العالم تُضْبط على نجم، فالنّجم لا يتأخّر ولا يتقدّم ولا مِعشار ثانية، ساعة تضبط عليها ساعات العالم، هي تضبط على نجم يتحرك، فحركة النُّجوم تسير بِدِقّة متناهِية، وبِدقّة أُسطوريّة، فمن يُسيّرُها ؟

مثل بسيط، هذه الأرض تدور حول الشمس، والمسار ليس دائرياً، المسار إهليلجي، معنى ذلك أنّ هناك قطرين ؛ قطر أكبر وقطر أصغر، لو أنّها في القطر الأصغر في مسارها حول الشمس، في الجهة ذات القطر الأصغر يزداد جذب الشمس لها، إذًا هناك احتِمال ارتطامها بالشمس، فما حكمة الله في ذلك؟ تزداد سرعتها لِيَنشأ عن هذه الزّيادة قوّة نابذة تُكافئ القوّة الجابذة، أما إن ابتَعَدت للقطر الأوسَع تَقِلّ سرعتها لِتَقِلّ قوّة النّبذ حتى تتوازن مع ضَعف الجاذِبيّة، من يرفع سرعتها رفْعًا تَدريجيًّا ؟ ومن يخفض سرعتها خفضًا تدريجيّاً ؟ الله خالق الكون، ولو أنّ هذه السرعة ارتفَعَتْ فجأةً لانْهَدَم كلّ ما على الأرض ! فهذه المدن الكبرى، وناطحات السحاب هذه ! كلّها تنهدِم، لو أنّ التسارع سريع، التسارع بطيء والتباطؤ بطيء، هذا مِن حِكمة الله عز وجل، فلذلك الكون أكبر دليل على عظمة الله تعالى، ووُجوده ووَحْدانِيّتِهِ، وكماله.

قدرة الله عز وجل في رفع السماء بلا عمد:

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[سورة الذاريات]

هذا الترابط عجيب، فلو أنّ الأرض تفلّتَتْ من الجاذِبيّة مثلاً، وأردنا أن نُعيدها إلى هذه الجاذِبيّة لاحْتَجنا إلى مليون مليون كبل فولاذي، وهذا الحبل قطرهُ خمسة أمتار، ولو زرعنا هذه الحِبال على سطح الأرض المواجه للشمس وربطناها، وربطناها بالشمس، وطول الحبل مئة وستة وخمسون مليون، قال: كلّ حَبل قوّة تحمّله مليوني طن، يعني الأرض مربوطة بالشمس بقوة تساوي مليون مليون ضرب مليونين طن، وكلّ هذه القوى الجبارة من أجل أن تحرف الأرض ثلاثة ميلي كلّ ثانيَة، وينشأ مدار مُغلق حول الشمس، تدور !! ذلكم الله رب العالمين، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

[سورة الرعد]

هل يمكن أن تقيم بناءً مئة طابق، والطابق الأوّل كله هواء، ليس فيه عضاضة واحدة ؟ هل بالإمكان بناء مئة طابق وزنه رقم فلكي من الإسمنت المسلح، وليس له أي عمود على الأرض، وارتفاعه مئة متر، وتمشي تحته ؟ تصور! مستحيل، بناء مئة طابق، من إسمنت مسلح، وتحته كله فارغ، لا يستند إلى شيء، بل إلى قوة لا ترى بالعين، الكون هكذا ! الجاذِبيّة قوّة تمشي وسطها أنت، وهناك جذب، ولكنّه جذب لطيف لا تشعر به.

التوازن الحركي في الكون:

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[سورة الذاريات]

الكون مترابط، والحقيقة لولا هذه الحركة لكانت قِوى الجذب كافيَة أن تجعل الكون كلّه كتلة واحدة، الكون كله، المليون مليون مجرة، وفي كل مجوة، تقريباً مليون مليون نجم، كل هذا الكون يصبح كتلة واحدة، لأنّ الجرْمُ الأكبر يجذب الأصغر، أما بهذه الحركة المستمرّة فكلّ شيء يدور حول كوكب آخر، وهذه الحركة دائما تُشَكِّل قوّة نابذة تكافئ القوّة الجاذِبَة، إذًا هناك توازن حركي، التوازن السكوني سهل جدًا، أما التوازن الحركي صَعب جدًا، أثناء الحركة هناك توازن.

تعدد الباطل و الحق واحد:

ثمّ يقول تعالى:

(إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)

[سورة الذاريات]

أهل الحق كلامهم واحد، فمُؤمن من بلاد الشام، ومؤمن من باكستان، ومؤمن من الهند، من كندا، من أستراليا، من إفريقيا، كلّهم فِكر واحد ومبادئ واحِدَة، وقِيَم واحدة، أهداف واحدة، هناك توحّد، لكنّ مِلّة الكفر ألف اتِّجاه واتِّجاه، وألف سبيل وسبيل، قال:

(إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)

لذلك قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة الأنعام]

الحق يجمع الناس و الباطل يفرقهم:

الحق لا يتعدد، والباطل يتعدّد ولا نِهاية له، أما الحق فواحِد لذا وردَ في الآية طريق الاستِقامة مفرد:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة الأنعام]

وطريق الضلال بالجمع، وقال تعالى في آية أخرى:

(لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ)

جمع، إلى النُّور مفرد.

[سورة الحديد]

ما قال من الظلمات إلى الأنوار، وما قال من الظلمة إلى النور، قال من الظلمات إلى النور، النور واحد، الحق واحد، الحق مثل الخط المستقيم، بين نقطتين لا يمرّ إلا مستقيم واحد، ضع النقطتين على ورق، و ائت بمسطرة، وارسم أول خط، الثاني فوقه، الثالث فوقه، لو رسَمْت ألف خطّ كلها فوق بعضها بعضاً، الحق واحد، الباطل متعدد، لذلك ما الذي يَجمعنا ؟ الحق، ما الذي يُفرّقنا ؟ الباطل ! تحسبهم جميعاً، وقلوبهم شتى، التفرقة علامة الباطل، الباطل متعدد، المصالح متناقضة، الشّهوات متنوّعة متعدّدة، ومراكز قِوى، أما الحق فواحِد لذا قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[سورة الذاريات]

جواب القسم قوله تعالى:

(إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)

[سورة الذاريات]

الله عز وجل شَرَّف الإنسان بعبادته و معرفته:

مذاهب، واتِّجاهات، وآراء، ومنطلقات، وتفسيرات، ونظريَّات ما أنزل الله بها من سلطان، وفي الهند يعبدون البقر، وفي بلاد اليابان، وقد لا تُصدِّقون يعبدون عَورة الرجل، وفي أمريكا يعبدون الجرذان، وفي بعض البلاد يعبدون مَوْج البحر، ويضعون أطيب الطعام، والشراب، والفواكه أمام الموج ويقذفونه في الموج ثمّ يُصلُّون، وفي بلاد يعبدون الجرذان، يضعون في طبق الحليب، تأتي الجرذان، ويعبدونها من دون الله، وفي الهند يعبدون البقر، وفي بعض البلاد المتقدمة صناعياً جداً يعبدون عورة الرجل، يعني شيء لا يصدق، ولكن الله سبحانه وتعالى شرَّفنا بعِبادته شرفنا وبمَعرفَتِه، شرفنا بمَنهج سليم صحيح.

أخٌ كريم كان في بعض مدن الهند، وهو في غرفته بالفندق رأى أمام الفندق ساحة عامَّة والناس مجتمعون، وقد وُضِعَت أكداس مكدَّسة من الحطب فلما سأل قيل له: مات رجل وسوف يُحْرق ! فقال: ومن هذه التي بجانبه ؟ قال: زوجته، قال: أراها تتحرق، ويجب أن تُحْرق وهي حيَّةٌ، فإن لم تحرق سَقطت اجتماعيًّا هذا دين هذا ؟ امرأة متعها الله بالحياة، ينبغي أن تحرق مع زوجها ! قال تعالى:

(إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)

[سورة الذاريات]

الحقيقة، نحن لا نشعر بقيمة هذا الدِّين العظيم ؛ دينُ مبادئ وأحكام فقهيَّة، وعلاقات اجتماعيَّة، كانوا في الجاهليّة المرأة تتزوّج عشرة رجال ثمّ تحمِل هي تختار أحدهم لِتَنسِبَه، هذا سفاح الجاهلية، فالله عز وجل شرَّفنا بمَنهج قويم، شرفنا بعَقيدة صحيحة، وما علينا إلا أن نُقبل إلى الله، ما علينا إلا أن نعرف سِرَّ وُجودنا.

انهيار الدعوات الباطلة مهما كانت قوية:

ثمّ يقول تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9))

[سورة الذاريات]

هِرَقل سأل سيّدنا معاوية قبل أن يُسْلم فقال: **أصحاب نبيّكم يزيدون أم ينقصون ؟ فقال: يزيدون، قال هرقل: إذًا هو نبي**، لأنّ الباطل قد تنخدِعُ به إلى حين ثمّ ينكشف فتنْسحب، فإذا كان هناك دخول وخروج، أو خروج من دون دخول معنى ذلك هناك باطل، أما إذا كان هناك ثبات، ونماء وازْدِياد، معناها حق، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9))

[سورة الذاريات]

أي يُصْرفُ عنه مَن صُرِف، فلذلك الدّعوات الباطلة تنهار والله عز وجل قال:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

الحق نعمة لا تقدر بثمن:

مهما ظَنَنْتَهُ قويًّا، مهما ظننته مُتماسِكاً، مهما فلْسفْتَه، مهما دَعَمْتَهُ بالأدلّة الواهِيَة، ومهما جمَعْتَ الناس حوله، مهما رفعت شعاراته، فالباطل يبقى باطلاً:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

ثمّ ينهار كَبَيْت العنكبوت ثم يُصبح في الوُحول هذا الباطل.

لذلك أنتم أيها الأخوة تتمتّعون بنِعمة لا يعرفها إلا مَن فقَدَها ما هذه النِّعمة ؟ إذا كنتَ مع الحق فليس في حياتك مُفاجأةٌ أبداً، المفاجآت تكون لِمَن كان مع الباطل، يفاجأ لأنّ مبدأه باطل، مبدأهُ غير صحيح، ومبدأهُ فيه دَجل، أما المؤمن لن تزيدَهُ أيّامهُ إلا اعْتِقاداً بمَبدئِهِ، وكلّ أحداث الأرض تؤكِّد هذا المبدأ وتدْعَمُهُ، ولأنّه دينُ الله عز وجل، لذلك إذا الإنسان مع الحق فهذه نِعمة لا تعْدِلها نِعمة.

الإسلام مبدأ الله العظيم و منهجه القويم:

صَديقٌ ذَهَب إلى بلدٍ في شرق آسيا، وكان هناك لِقاء مع مُدير شركة، وإذْ به يُفاجأ أنّ أمّه قد تُوُفِّيَتْ، فهو توقّع أنّ تلغى المواعيد كلها، فقال المدير: لا، كل شيء على حاله، قال له والوفاة ؟ قال له: ضَعوها في البراد إلى أن يأتي دورها في الحرق، فقال هذا الأخ: ولمَا تحرقونها ؟ قال: لأنّ القبر مُكلف، أما الحرق أيسر، أرخص، نضعها في قارورة، الرماد، ونأخذها إلى المعبد، تتقدس هناك، في الأعياد نأتي بها، القارورة طبعاً، هي أمه، يرجعها، سبحان الله، شيء مضحك، لهذا ضحكتم أنتم:

(يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ)

والذي زار مِصر، زار الأهرامات يرى العجب العُجاب، حينما يموت الفرعون توضَع معه اللُّحوم المُقدّدة أنواع الحليّ، ومركبة، مركبة في قبر، مركبة كبيرة، لحوم، خبز، وطعام ؛ كلّ شيء في القبر، لأنّهم يعتقدون انّه سيحيى بعد حين، وسيَحتاج إلى كل هذه الأشياء، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9))

[سورة الذاريات]

فهذا الإله العظيم الذي خلق السماوات والأرض لا يُمكن إلا أن يكون مبدؤُه عظيماً، ومنهجُهُ قَويماً.

انغماس المنافقين في شهواتهم و مباهجهم في الدنيا:

الحق ما أقرّ به العقل، وما ارْتاحَت له الفِطرة، وما أيّدَهُ الواقع، وما أيده النّقل، فكلمة الحق ؛ الحق والنقل والعقل والواقع والفطرة كلّها متطابقة، فالفِطرة ترتاح، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الروم]

قال تعالى:

(قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)

الكذابون:

(قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11))

[سورة الذاريات]

في غَمرة الشّهوات، وغمرة جمْع الأموال، وغمرة اقتِناص الملذّات، وغَمرة القيل والقال، وغمرة البحث عن الأمجاد الزائفة في الدنيا، وغمرة التمتع بمباهجها:

(الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

غفلة الإنسان الكافر عن يوم الحساب:

غافلون عن هذا اليوم، يوم الحِساب، قال تعالى:

(يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ)

[سورة الذاريات]

استِهزاءً، قال تعالى:

(يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14))

[سورة الذاريات]

(قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)

الكذابون، يعني أخطر شيء في حياتنا الكذب، وأحيانًا تعتَقِدُ عقيدةً أنت لسْتَ قانِعاً بها.

الصدق يهدي إلى البر و الكذب يهدي إلى الفجور و النفاق:

أحياناً تجلسُ جلسةً كلّ ما قيل فيها كَذِب في كذب، كله نفاق، فالذي يُدَمِّر حياتنا هو الكذب، لذلك المؤمن صادِق، إن الصِّدق يهدي إلى البرّ وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصِّدق حتّى يُكتَب عند الله صدِّيقًا، النَّبيّ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

((إنّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلَى الْبرّ وَإنّ الْبرّ يَهْدِي إلَى الْجَنّةِ وَإنّ الرّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتّى يَكُونَ صِدِّيقًا وَإنّ الْكَذِبَ يَهْدِي إلَى الْفُجُور وَإنّ الْفُجُورَ يَهْدِي إلَى النّار وَإنّ الرّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللّهِ كَذّابًا))

[رواه البخاري]

المؤمن لا يكذب، ويجب أن تعتقِد ما هو واقِعيّ، فلا تعتقِد بالأوهام، ولا الترّهات ولا بالأباطيل، لا تقبل شيئًا من دون دليل، وأنت كريم على الله عز وجل والنبي عليه الصلاة والسلام أرْسَل سريَّة وأمَّر عليها أنصاريًّا ذا دُعابة:

((بَعَثَ جَيْشًا وَأَمّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا فَقَالَ ادْخُلُوهَا فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا وَقَالَ آخَرُونَ إنّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ لِلّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَالَ لِلْآخَرِينَ قَوْلًا حَسَنًا وَقَالَ لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللّهِ إنّمَا الطّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[رواه مسلم عن علي]

إكرام الله للإنسان بنعمة العقل:

العقل لا يُعطّل أبداً، والله تعالى وهَبَك عقلاً، وأعطاك منهجاً، وأعطاكَ قرآنًا بِلِسان عربيّ مبين، أخي هذا القرآن إذا الإنسان فكرفيه يغرق، لا، ما أنزله على النبي عليه الصلاة والسلام إلا لكي تفهمه، قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

[سورة محمد]

ما أمرك أن تتدبَّرَهُ إلا لأنَّه في مستواك، يمكن أن تفهمه، أنزله على نبيه بلسان عربي مبين، لا تدخل بدوامة، ما ننتهي من القرآن، إذا هو لمن ؟ يعني ممكن جهة ترسل رسالة، لا يفهمها المرسل إليه ؟ هذا شيء غير معقول.

الدنيا عرض حاضر و الآخرة وعد صادق:

إذاً:

(قُتِلَ الْخَرّاصُونَ (10) الّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11))

قال تعالى:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف]

قال تعالى:

(لَا يَغُرّنّكَ تَقَلُّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمّ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

[سورة آل عمران]

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة]

إنّ هذه الدنيا عرضٌ حاضِر، يأكل منه البرّ والفاجر، والآخرة وَعْدٌ صادِق، يحْكُمُ فيه ملِكٌ عادِل.

عرض الكفار على النار:

قال تعالى:

(الّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14) إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات]

يفتنون أي يعرضون على النار.

آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ: آية لها عدة معان:

1 ـ أخذوا أمر الله بالطاعة:

بعضهم قال: أخذوا أمرهُ بالقَبول والطاعة:

(آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

أمرهم بالصِّدق فصَدقوا، وأمرهم بِكَسب المال الحلال فكَسِبوا، أمرهم بالصلاة فصلوا.

2 ـ هم في ضيافة الرحمن:

والمعنى الآخر أنّهم الآن في ضِيافة ربّهم:

(آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

إذا الإنسان في مجال التّكريم تُقدّم له الهدايا، تقدم له الأطعمة النفيسة، تقدم له كل وسائل الراحة.

ثَمَنُ الجنّة أن تكون مُحْسِناً:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

طيب ما سبب هذا الإكرام، قال تعالى:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات]

هذا هو الثّمن، يا إخوان، ثَمَنُ الجنّة أن تكون مُحْسِنًا، على إطلاق هذه الكلمة مُحْسِن في عملك، محسن في حرفتك، محسن في وظيفَتِك، ومُحْسِن في طبابتك، محسن في أيّ مهنة تمْتهنها مُحْسِن مع زوجتك مع أولادك مع جيرانك مع إخوانك، ومع المخلوقات جميعها، ومع الحيوان الذي تذبحه، لا تعذبه، قال عليه الصلاة والسلام: **فليُحِدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته** مُحسِن يعني، والمؤمن لا يصدر عنه إلا كل خير، المسلم لا يُقلق أحداً، أما الكافر: اللهم إني أعوذ بك من جار سوء إن رأى خيراً كتَمَهُ، وإن رأى شرّاً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر، فالمؤمن محسِن يأمن جاره بوائقهُ، يأمن كل من حوله.

المؤمن مصدر أمْن و سعادة و الكافر مصدر خوف و تعاسة:

هذا الذي يُتّقيه الناس مخافة شره، هو شرّ الناس، الذي يُتّقيه الناس مخافة شره هذا ليس مؤمنًا، المؤمن مصدر أمْن مصدر سعادة، مصدر طمأنينة، مصدر عطاء، وهو يبني حياته على العطاء، أما الكافر فيبني حياته على الأخذ، وإذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة، فانظر ما الذي يسعدك ؟ أن تأخذ أم أن تعطي ؟ المؤمن يسعده العطاء، أهل الدنيا يمْلِكون الرّقاب بقُوَتهم، والأنبياء يمْلِكون القلوب بكَمالهم، أنت مع من ؟ فهل تُحبّ أن تملِكَ قلوب الناس بكَمالك، بلُطفك، بتواضعك، بحِلمِكَ، برحمتك، بإنصافك، بخدمتك للخلق ؟ إما أن تملك قلوبهم بكمالك، وإما أن تملك رقابهم بقوّتك، فالطُّغاة يملكون الرّقاب بالقوّة، و الأنبياء فيملكون القلوب بكَمالهم، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16))

[سورة الذاريات]

المؤمن محسن ينصف الناس من حوله:

وفيّ لِزَوْجته، ويربّي أولاده تربيَةً عالية جداً، كريم لجيرانه، ومُحسن لطلابه، ومُحسِن لِزَبائِنِه، ومُحسِنُ لِمَرضاه، ولا يكذب، ولا يغشّ، ولا يسْتحكِم، ولا يسْتغلّ، لا يبتز أموال الناس بالباطل، ولا يتكبّر، لا يستعلي، ولا يتغطْرسَ، ولا يقول: أنا وأنا، متواضع:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

وعمله مُتْقن، كلامه واضح، مواعيده صحيحة، ويأخذ ما له، ويَدَعُ ما ليس له، وينصِف الناس من نفسه، لا يحتاج أحد معه إلى أن يرفع عليه قضية أبداً، لما القضية؟ كنتُ في عَقد قِران فجلس بجانبي أخٌ كريم فقال لي: أنا دُهِشْتُ أنّ أحد إخوانكم جاء إلى مكتبي لِيَرْفَعَ الأُجرة التي عليه اتِّجاه مُوَكِّلي ؛ طواعِيَةً ومن دون دَعوى، فقلتُ هذا هو الأصل، وهو أن تُنْصف الناس من نفسك أن تعطيهم ما لهم، أن تأخذ ما لك، وقال لي أحد إخواننا القضاة: أربعة أخماس الدعاوى في قصر العَدل دعاوى كَيْدِيَّة، والدعوة المحقة قليلة جداً، لذلك المؤمن ينصف الناس من نفسه، لا يأخذ ما ليس له، قانع بالذي له، لا يطمح بما ليس له، ويعرف ما له وما عليه، ورَحِمَ الله عبداً عرف حدَّه فوَقَفَ عنده، فهذه امرأة تزوّج عليها زوجها من دون أن يُعلمها، فلما علِمَت سَكَتَتْ، ولما مات هذا الزوج، بعثت لضَرّتِها بالتركة، ففوجئت أن هذه الضرة قد طلقت قبل أسبوعين، الزوجة الأولى التي تزوج عليها زوجها، حينما مات زوجها بعثت لضرتها، بنصيبها من الإرث، ولم تعلم رسمياً بهذا الزواج، وهذه التي أرسل لها المبلغ، قالت لا: لقد طلّقني قبل أسبوعين، ليس لي عنده شيء، هذا هو المؤمن.

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات]

الإحسان سببه الاتصال بالله عز وجل:

فالمؤمن إذا عامل مؤمناً يقول لك: هنأه الله، بارك له الله، صنعته متقنة، سعره معتدل، مواعيده صحيحة، متواضع، هذا الذي نملكه، هذه ثروة الحياة الدنيا أن يرضى الله عنك:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

من أين جاءهم هذا الإحسان ؟ لماذا هم أحسنوا وغيرهم لم يحسن ؟ قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[سورة الذاريات]

كانت لهم صِلَة بالله، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحبَّ الله عبدًا منَحَهُ خُلقًا حسنًا، وهذا الإحسان إذًا سببه الاتِّصال بالله.

الناس رجلان برّ تقي و فاجر شقي:

الناس على اختلاف مِلَلِهم، نِحلهم، واتجاهاتهم، وأجناسهم، وأعرافهم، ومذاهبهم، ومعتقداتهم، وأصلهم، وفصلهم، ومهما قسَّمتَ البشر، ففي النِّهاية هم رجلان موصول بالله، ومقطوع عن الله، فالموصول مُحْسِن، والمقطوع مسيء والموصول مُنْصِف، والمقطوع مُجحف، والموصول عادِل، والمقطوع ظالم، الموصول متواضع، المقطوع متكبر، أبداً، محسن، منضبط، مسيء، متفلت، وهذا التَّقسيم الحقيقيّ، مؤمن وكافر، موصول ومقطوع، محسن ومسيء، مستقيم ومنحرف، مخلص وخائن، يرحم ويقسو، يعطي ويمنع، يعلو ويتواضع، أبدا هذا التقسيم الحقيقي، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((النَّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ))

[رواه الترمذي]

لا قيمة له عند الله.

قال تعالى:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

[سورة الكهف]

لهم صغار عند الله.

من صفات المؤمن الاتصال بالله و صلاة الفجر في جماعة:

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[سورة الذاريات]

متصلون بالله:

(وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

يصلون الفجر في جماعة، ومن صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله.

على الإنسان أن يبحث عن العفيف الذي لا يطلب:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات]

من ألطف تفاسير هذه الآية أنّ السائل الذي يسأل ويأخذ، لكن الذي يتعفّف ولا يسأل يُحْرَم، لا يعطيه أحد، فالجريء يسأل ويأخذ، الحييّ لا يسأل فيُحْرم، لذلك واجبنا أن نتحرّى هؤلاء الذين لا يسألون، بل يتعفّفون، والذين يحْسبهم الجاهل أغنياء من التّعفُّف، وهذا هو واجبنا اتّجاه هؤلاء أما الذي يسأل، يسأل ويأخذ، وهو يجرؤ على أن يسأل، فللسائل والمحروم.

الإنسان إذا طلب الحقيقة كلّ شيءٍ حوله يدله على الله:

قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

كلّ ما في الأرض آيات دالة على عظمة الله تعالى، العِبرة أن تملك آلة التصوير مع الفيلم، فإذا لم يكن هناك فيلم، فكلّ هذه الآيات لا تنطبع، إذا الإنسان طلب الحقيقة، كلّ شيءٍ حوله يدلّ على الله، وإذا أعرض عن الحقيقة لا شيء ينفعُهُ، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

يعني هذا الماء لما نجمده يتمدد، هل تُصدِّقون أنّ لولا هذه الآية لما كُنّا على وجه الأرض، ولما كانت حياة على وجه الأرض، الأجسام كلّها تتمدّد بالحرارة وتنْكمش بالبرودة إلا الماء، يتمدد بالحرارة،

وينكمش بالبرودة إلى درجة زائد أربعة عند هذه الدرجة تنعكس الآية فيتمدَّد بالتبريد، فلولا هذه الظاهرة لما كُنَّا في هذا المكان.

الماء حينما يتجمد، يزداد حجمه، فتقل كثافته، فيطفو، وتبقى البحار دافئة، أما إذا برد فقل حجمه، كثافته زادت، فغاص في أعماق البحر، بعد حقبة من الزمن، تصبح البحار كلها متجمدة، ينعدم التبخر، ينعدم إنبات النبات، يموت الحيوان، يموت الإنسان، هذا الماء الذي يتمدد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 15-19، قيمة الإنسان عند ربه تتعلق بعلمه و عمله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-06-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الذاريات، ومع قوله تعالى في الآية الخامسة عشرة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[سورة الذاريات]

التوازن في القرآن الكريم:

قلتُ لكم في درس سابق هذا الكتاب هو كتاب الله عز وجل، كِتاب هِدايةٍ ورشاد، لذلك فيه توازن، ليس القصْد أن يُقسّم تقسيماً موضوعياً لكنّ القصْد أن يكون هناك توجيه لهذه النفس إلى الله عز وجل، فحينما تأتي مشاهد مِن عذاب أهل الكُفْر تأتي مشاهد من نعيم أهل الإيمان، فبعد أن ورَدَ في هذه السورة عن هؤلاء الذين ينحرفون (الخراصون) الذين هم في غمرة ساهون قال تعالى:

(قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15))

[سورة الذاريات]

من هم المُتّقون ؟ الذين أطاعوا الله عز وجل، يعني إنسان فيه شَهوات، وله منهج، وله طَبع، وهناك تكليف، وفي الأعمّ الأغلب التكليف يُخالف الطّبع، الطّبع أن تنام والتّكليف أن تصلي، والطّبع أن تأخذ، و التكليف أن تُعطي، والطبع أن تنظر، والتكليف أن تغضّ البصر، فهذا الذي قرأ القرآن وعرف منهج الله عز وجل، وضَبَط شَهواته، وضَبَط جوارحه، ضبط كسبه للمال، ضبط إنفاقه للمال وفق منهج الله، وطلب العلم، وعرف الحُكم الشّرعي، وصاحبَ أهل الإيمان، وابْتَعَد عن أهل الفُسق والفُجور، وجعل دَخْلَهُ حلالاً، جعل إنفاقه وفق منهج الله، هذا الذي صاحب المؤمنين، دعا إلى الله، وعمل صالحًا، أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، هذا الذي اتّقى الله عز وجل، اتّقى أن يُغْضِبَهُ، اتّقى أن يُسْخِطَهُ، واتّقى أن يعصيه، اتّقى عذابه في الدنيا، واتّقى عذابه في الآخرة، هؤلاء المتّقون في جنّات وعيون.

خطأ الإنسان الكبير أن ينظر إلى أهل الدنيا فقط:

من الخطأ الفادِح أن تنظر إلى الدنيا على حِدَة، فإن نَظَرتَ إليها على حِدة، تجد الكافر أحياناً غنياً جداً، وقويّاً ولا يعْبأ بكُلّ هذه القِيَم التي تدّعيها، ولا بهذه القيود التي قيّدْت نفْسَكَ بها، فإذا نظَرْت للدنيا فقط تقَع في حَيْرة، ولكن إذا ضَمَمْت الآخرة إلى الدنيا لا تقع في حَيرة، يعني مثلاً إنسان يُهَرّب مادّة مُخَدِّرة، تقول: يا أخي على الكيلو بِخَمسمئة ألف ! لكن انْظر لمّا يقع بيَد العدالة، ويُحْكم بالسِّجن المؤبد، فإذا جمعت هذا بذاك وجَدْت أنّه غبيّ، أما إذا نظرت فقط للخمسمئة ألف يصير أذكى منك، كل تعبك لا يلحق به، شغل سنة لا يلاحق شغل ساعة عنده، فَمِن الخطأ الفادِح أن تنظر إلى أهل الدنيا في الدنيا فقط، فهذا خطأ كبير، فالله عز وجل قال:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

[سورة آل عمران]

العاقل من يجمع الآخرة مع الدنيا:

قد تُعْجِبُكَ أجسامهم، قد تُعْجِبُكَ أموالهم، وقد تُعْجِبك بيوتهم، ومركباتهم، وأماكن اصْطِيافهم:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

[سورة آل عمران]

في أيّ دِراسَةٍ، وفي أيّ موازنة، وفي أيّ بحث، وفي أيّ تَمْحيص، اِجْمَع الآخرة مع الدنيا، ترى الكافر كُتلة غباء لأنّه ضيّع الآخرة الأبدِيّة بِسَنواتٍ معدودة، وترى المؤمن المُقيّد والخائف والمُستقيم، هذه حرام، هذه لا ترضي الله، هذه فيها شبهة، دائماً خائف، دائماً قلق، دائماً يتقصد طاعة الله عز وجل، ترى هذا المؤمن الذي يبدو لك أنه محروم، ليس محروماً أبداً، هو يبْحث عن رحمة الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف]

خالق الكون، أعددت لعبادي الصالحين ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُن سَمِعَت، ولا خطر على قلب بشر، فيا أيُّها الأخوة الكرام، إذا أردْتَ أن تنظر إلى أهل الدنيا ينبغي أن تُضيف الآخرة إلى الدنيا، إذا أضفت الآخرة قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[سورة الذاريات]

العبرة بالخواتيم:

لكنّ الله تعالى قال:

(إِنّ الّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

[سورة البروج]

وقال تعالى:

(إِنّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14))

[سورة الانفطار]

فلو أن شَخصاً ركب أفْخر مركبة، ولكن يؤخذ لِيُشْنَق وآخر يمشي على قَدَمين، ويتّجه نحو تملّك قصْر كبير، فإذا التقيا في الطريق فهنيئًا لِمَن ؟ العِبرة بالخواتم، العبرة بالعاقبة، بالمصير، لذا قال تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ)

[سورة الذاريات]

المؤمن يسعى دائماً لمرضاة ربه:

هذا الذي قال لك: إنّ هذا حرام لا أفْعَلُه وهذا لا أفعلهُ لِشُبهة فيه، وهذا لا يرضي الله عز وجل، وهذا الذي يضَعُ المال تحت قَدَمِهِ، إذا كان فيه شبهة، وهذا الذي يسعى لمرضاة الله تعالى ولو تجشّم المتاعب، قال تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ)

[سورة الذاريات]

هذا كلام رب العالمين، ولذلك قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص]

الإنسان المستقيم مصيره يختلف تماماً عن الإنسان المتفلت:

أيُعْقَل أن يكون هذا المُطيع المستقيم الخائف الذي يتقصّى أمر الله عز وجل، ويسْعى إلى تطبيقه أن يكون مصير هذا الإنسان كَمَصير المتفلِت ؟! إذا لا معنى للدين إطلاقاً عندئذ، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية]

قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

قال تعالى:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

[سورة القلم]

الأحمق من انصرف عن الآخرة إلى الدنيا:

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[سورة الذاريات]

فالله تعالى حينما يُعِدُّ لهذا الإنسان حياةً أَبَدِيّة لا تنتهي، مُفْعمةً بالسّعادة، أليس من الغباء الشّديد أن ينصرفَ الإنسان إلى الدنيا ويستغني عن هذه الحياة التي وعد الله بها المؤمنين والحياة الدنيا ساعات ؟

قال تعالى:

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(115))

[سورة المؤمنون]

ترك الإنسان سدى يتناقض مع كمال الله عز وجل:

قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة]

أن تأخذ المال الذي تُريد، وأن تلتقي مع من تريد، وأن تستعلي، وأن تستكبر، وأن تَقْهر الناس وتنتهي الحياة هكذا ببَساطة ؟ ولا شيء بعد الموت ! هذا شيءٌ يتناقض مع كمال الله عز وجل، ويتناقض مع فلسفة الوُجود، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الروم]

استقامة الإنسان تتعلق بأن كل شيء يفعله سوف يحاسب عليه:

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه]

هذه الآية أيها الأخوة، كحديث ذاك الأعرابي الذي قال للنبي عليه الصلاة والسلام عِظْني ولا تُطِلْ، فتلا عليه قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8)

[سورة الزلزلة]

فقال كُفيت، اكتفى هذا الأعرابي بآية واحدة، اكتفى، مثقال ذرة، ولو ابْتَسَمْت ابْتِسامةً في غَير موضِعِها، فيها سخرية، مسجلة، وسوف تحاسب عليها:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

فإذا الإنسان أيْقَنَ من هذه الآية، أيها الأخوة، إذا أيقن أن كل شيء يفعله سوف يحاسب عليه، مهما بدا لك صغيراً، مهما بدا لك تافهاً، عندئِذٍ يستقيم الإنسان.

النّظر إلى وجه الله الكريم من أعظم الإكرام يوم القيامة:

ثمّ يقول تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات]

هم في طَوْر الإكرام، مضَى طَوْرُ العمل، ومضَتْ حياة التكليف، والآن حياة التّشريف، ومضَتْ حياة الكَدح والجُهْد، والسعي، ومكابدة المشاق وحمْل النّفس على غير ما تريد ابتِغاء مرْضاة الله، هذه الحياة انتهت، بقيت حياة التّكريم، فالإنسان قد يقول لك درسْتُ ثلاثة وثلاثين سنة، انتهتْ الدِّراسة نال الدكتوراه، وعُيِّن في منْصِب رفيع، وهو الآن طَوْر التّكريم، المكتب الفخْم والأوامر، والموظفين، والسيارات، والبيوت الفخمة، مثلاً كل هذا التّعب، الآن جاء دور الإكرام، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات]

من إكرام، لهم ما يشاءون فيها، نِظام الجنّة أساسه أنّ كلّ شيء يَخْطُر في بالِكَ تَجِدُهُ أمامك من طعامٍ وشرابٍ، وفواكه، وفوق كلّ هذه المُتَع السامِية رِضوان الله عز وجل وفوق كلّ هذا النّظر إلى وجه الله الكريم، في حياةٍ مُتَجَدِّدة ومُتناميَة ومُتصاعِدة إلى ما شاء الله، وهذه الحياة الآخرة هي التي يسْعى إليها المؤمن.

الخلق عند الله سواسِيَة يوم القيامة:

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات]

الإنسان أحياناً إن وجَدَ شيئًا عظيماً يسأل ما ثَمَنُهُ ؟ إن وجَدَ سيارة فارهة يقول: كم قيمتها ؟ وإن وجد بيتًا فخمًا يقول: بكَم اشْتراه صاحِبُهُ ؟ فهذا السؤال الفِطري، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

[سورة الذاريات]

بالمناسبة، لا يوجد شيء وعد الله به المؤمن إلا وفي يَدَيْه ثمنُهُ، إلهٌ عادِل والخلق عند الله سواسِيَة كأسنان المِشْط، ولا فضْل لِعَربيّ على أعْجميّ إلا بالتّقوى وسَلمان مِنّا آل البيت، ونِعْم العبد صُهَيب.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد]

عدم وجود أي فضل لشخص على آخر إلا بالطاعة:

هذا الدِّين، الدِّين كما قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

[سورة الحجرات]

والدِّين لا امْتِياز لِشَخص على إنسان إلا بالطاعة، وكلّ التّقييمات التي أحْدثها الإنسان عند الله باطلة، لا الغنيّ يرْفَعُهُ عند الله غِناه، ولا الفقير يخْفضه فقْرُهُ، ولا الصحيح ترفعُهُ صِحّتُهُ، ولا السّقيم يخفضهُ مرضُهُ، صحيح سقيم غني فقير وسيم دميم كبير صغير ؛ من أسرة ذات نسب، من أسرة غير منسوبة، هذه القِيَم التي أحدثها الإنسان في تقييم بني البشر، لا أساس لها عند الله أبداً، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

[سورة الحجرات]

أعظم قيمة للإنسان عند ربه تكون بالعلم و العمل:

أحدهم في غفلة سريعة، وفي سَبْق لِسانٍ، وزلّة لِسان قال لِسَيّدنا بلال: **يا بن السّوداء"** فقال عليه الصلاة والسلام:

((إنك امرؤ فيك جاهلية))

عظمة هذا الدِّين أنّ الخلق كلّهم سواسِيَة كأسنان المشط، إن أكرمكم عند الله أتقاكم:

((رُبّ أشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّهِ لَأَبَرّهُ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

يُمكن أن يكون الحاجب عند المدير العام يكون الحاجب أقرب إلى الله من المدير العام، ممكن، ممكن أن يكون أقرب إلى الجنة، باستقامته وخوفه من الله عز وجل، فهذا المبدأ يُعطي الإنسان دَفْعًا قَوِيًّا، كُنْ ابن من شِئْت، ومن أيّ منطقة ولدت، ومن أيّ أب، من أي أمّ، ومن أيّ أسرة، ومن أي قبيلة، من أي عشيرة، ومن أيّ بلد أو إقليم، ومن أيّ عصر، من أي مصْر، بأي شكل، يروي كُتّاب التاريخ أنّ أحَدَ التابعين كان قصِير القامَة، أسْمر اللّوْن، أحْنفَ الرّجل، مائِلَ الذّقن، ناتئ الوَجْنتَيْن، غائِرَ العَيْنَيْن، وليس شيءٌ من قُبْح المَنظر إلا وهو آخِذٌ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيّد قومِهِ، إن غَضِبَ غضِبَ لِغَضْبَتِهِ مئة ألف سيْف لا يسألونه فيما غضِب، وكان إذا عَلِمَ أنّ الماء يُفْسِدُ مروءَتَهُ ما شَرِبَهُ، بأيّ شَكل، وسيم جداً، أقل وسامة، أقل وسامة بكثير، دميم، بأي شكل، الصحابة الكرام، أنواع منوعة، في أجسامهم، أحد الصحابة كان يقف فالرياح كشفت عن ساقه، ساقه دقيقة جداً، فضَحك بعض الصحابة من دقة ساقه، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أتعجبون من دقة ساق فلان، هي والله عند الله كجبل أحد))

فكلها عنعنات جاهلية، أنا في قدر فلان، أبو لهب عم النبي، لا أسرة، ولا أم، ولا أب، بلا جهة الفلانية، بالعصر الفلاني، فأيّ قيمة وضَعها الناس، عند الله تعالى باطلة إلا قيمتي العِلم والعمل لقوله تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنّمَا يَتَذَكّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة الزمر]

على الإنسان ألا يفتخر بشيء لم يرد في القرآن الكريم:

القيمة الثانية، قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف]

فهذه نصيحةٌ عميقة ؛ إذا أردْتَ أن ترقى عند الله جميعُ القِيَم الأرضية ضَعها تحت قَدَمِك، وابْحَث عن قيمتي العِلم والعمل، وانتهى الأمر، قال:

كُن ابن مَن شئْت واكتَسِب أدباً يُغنيك محمودُهُ عن النّسَب

* * *

لا تفتَخِر بِشَيء لم يرد في القرآن الكريم، إذا قلتَ: أنا أقرأ القرآن فهذا جيّد، وأحفظُهُ هذا أجوَد، وأفهمهُ وأُطبّقُهُ وأُعلِّمُهُ جيد، خيركم من تعلم القرآن وعلمه، أما إن قلتَ أنا أملِكُ من المال كذا وكذا، قال تعالى:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص]

الافتخار ليس من خلق المؤمن:

أعطاهُ المال الوفير الذي تَعْجزُ عن حَمْل مفاتحِهِ سبعة رجال أشِدّاء أقوياء، ومع ذلك هو لا يحبه، أنا أحتل العمل الفلاني، عمل حساس، من خلاله معي قدرة على التحكم بمصير الآخرين، فالله أعطى الملك لِفرعون وهو لا يحبّه وأعطاه لِسُليمان وهو يحبّه، ليس له علاقة، أعطاه لِمَن يحبّ ولِمَن لا يحب، إذاً ليس مقياساً، لا تفتخر بمقياس غير صحيح، افتخر بالعلم والعمل الصالح، إن أردت أن تفتخر، والافتخار ليس من خلق المؤمن، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16))

[سورة الذاريات]

يعني مِن أرْوَع ما في كتاب الله الصِّفات المطلقة ؛ مُحْسِن إذاً مُحْسِنٌ بِماذا ؟ مُحْسِنٌ بِعمله ؟ بعمله، وبِحِرفتِه ؟ بحرفته، وبِزَواجِهِ ؟ بزواجه، وبِأُبوّتِهِ ؟ بأبوته، وبِبُنُوّتِه ؟ ببنوتهِ، ومحسِنٌ مع جيرانه ؟ مع جيرانه، مع أقربائه، مع أصدقائه، مع زبائنه، ومع مَن هم أدنى منه، و مع من هم أعلى منه، ومُحْسِن حتّى في علاقته بِجِسْمِهِ، حتى في علاقتِهِ بأهْلِهِ، وحتّى في صَنْعَتِهِ.

إتقان عمل الإنسان جزء من دينه:

النبي عليه الصلاة والسلام أثناء دفن أحد الصحابة ترك فرْجةً فقال عليه الصلاة والسلام:

((هذه لا تؤذي الميّت ولكنها تؤذي الحيّ إن الله يحب من العبد إذا عَمِل عملاً أن يُتْقِنَهُ))

إتْقانُ العمل جزءٌ أساسي من الدِّين، إتقان العمل يورثُكَ العِزّة، قال تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة يونس]

تستمِدُّ عِزَّتَكَ ومكانَتَك مِن إتْقان عَمَلِك، وكلّ واحد من إخواننا الكرام، بأيّ حِرْفة إذا أتقنها له شأن، تَجِدُهُ مُحْتَرَم ومُبجَّل وعزيز، أما إذا أهْمَل وأساء يأتيه اللّوْم مِن كُلّ جانب، ثمّ يُسْحَبُ اللّوْم إلى دينه، ثمّ إلى مُقدّساته، فإذا أردْتَ أن يعْتزّ الإسلام بِكَ أتقنَ عملك.

فالناس يعجبون دائماً بالعمل المتقن، فالطبيب المسلم ينبغي أن يكون أعلى طبيب، والمُحامي المسلم أعلى مُحامي، محامي ذو مبدأ لا يأخذ القضايا الباطلة، والمهندس كذلك، والتاجِر والصانِع، فكلّ إنسان له حِرْفة ينبغي أن يكون في قِمّتها ليتناسب مع دينه، لأنّ إتقان العمل جزء من الدّين.

على الإنسان أن يكون محسناً في كل شيء:

إذاً:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

[سورة الذاريات]

يجب أن نفْهم الإحسان بأوْسَع معانيه، الإحسان في كل شيء، يذبح الحيوان، وإنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[رواه النسائي عن شداد بن أوس]

في شأنك كُلِّه ينبغي أن تكون مُحسِناً، أحياناً الإنسان في حرفته يخطئ مع السرعة يُسيء، يأتيه اللّوْم من كلّ جانب، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، ثمّ الإحسان تعرفُهُ بالفِطرة، إذا كنت تاجراً، وقد ورد بالأثر:

((إنّ أطْيَبَ الكَسْب كَسْبُ التُّجار، الذين إذا حدّثوا لم يَكذِبوا، وإذا وَعَدوا لم يُخلِفُوا، وإذا ائْتمنوا لم يخونوا، وإذا اشْتَروا لم يُذمّوا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يُعَسِّروا، وإذا كان عليهم لم يُمْطِلوا))

أحسن في التجارة، أحسن في الصناعة، ضع المواد الجيدة.

المحسن يتلقى من ربه سكينة و طمأنينة على إحسانه:

أخٌ كريم لا أنسى كلمته، يعمل في صِناعة غِذائِيّة قال لي: هؤلاء أطفال المسلمين، أشتري لهم المواد الأوليّة مِن أعلى مُستوى، يدفع ثمن هذه القطعة من الحلوى مبلغاً أخذه من أبيه، وقد تعب هذا الأب حتى جنى هذا المبلغ من المال، أعطى لابنه هذا المبلغ الصغير، ليشتري به حلوى، ينبغي أن نضع له

في الحلوى أعلى المواد المغذية النافعة، غير المسرطنة، غير الكيميائية، إذا الإنسان أحسن فيما بينه وبين الله، الله عز وجل يدافع عنه فيما بينه وبين الناس.

ميزة المؤمن أنه لا يتعامل مع الخلق، يتعامل مع الحق، فإذا رَضِيَ الله عنه حُلّتْ كلّ مُشْكِلاته، ولمّا الإنسان يقْصِد أن يُرْضي مَخلوقاً ويَعْصي خالقه يسْخَطُ الله عنه، ويُسْخِطُ عنه الناس، أما إذا أردْت أن ترضي الله عز وجل، رضِيَ الله عنك، وأرْضى الناس عنك، وكلمة مُحْسِن (أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الكلمة في قلوبنا) لأنّ رحمة الله قريب من المحسنين ؛ المحسن يتلقى رحمات الله، سكينة وطمأنينة وثقة بالنفس، التفاؤل، معنويات عالية، وتوفيق بالعمل، وتوفيق بِبَيْتِهِ وزواجه وبأولاده، محسن، فلذلك الإنسان عليه أن يُحْسِن وعلى الله الباقي.

العمل الصالح ثمن الجنة:

أُخاطِب الآن أصحاب الحِرَف جميعاً، وأصحاب الوظائف جميعاً، وأصحاب الأعمال جميعاً ضَعْ إتْقان العمل أمامك، والمادّة وراء ظهْرك، تأتيك المادّة وزيادة، أما إذا وَضَعتَ المادّة أمامك، والإتقان خلفك، تفقد سمعتك، وتفقد المال معاً، في أي حرفة، ضع الإتقان أولاً، خِدمة المسلمين أوّلاً، وقد كان السّلف الصالح إذا فتَحَ الواحِد منهم باب محله التجاري يقول: نَوَيْتُ خِدمة المسلمين، وكلّ واحِدٍ مِنّا يُمكن أن ينقلب عملُهُ ببساطة إلى عِبادة وأنت في مَتْجَرِكَ، و أنت في معْمَلِكَ، وأنت في مكتبك، و أنت في حِرْفَتِك، فيكفي أنّك عرفْت الله وعرفْت أنّك في الدنيا من أجل العمل الصالح، وعرفت أن العمل الصالح ثمن الجنة، وعرفت أنّ كلّ هؤلاء الناس عباد الله وعِياله، فإذا أحْسنت إليهم تقرّبت إلى الله عز وجل، وحينها يختلف الوضع اختلافاً كلياً، تنطلق الآن لا من كسب مادي، ولا من جميع للثروة، ولا من تيه وفجر على من حولك، لا، تنطلق من إرْضاء الله عز وجل.

أي عمل يبتغي به الإنسان وجه ربه ينقلب إلى عبادة:

قال العلماء: أيّ عمل إذا كان في الأصل مَشْروعاً، وسلكت به الطرق المشروعة، وابْتَغَيْتَ به كِفاية نفْسك، وأهلك، وخِدمة المسلمين، ولم يشْغَلْك عن فرْضٍ، و لا عن واجِبٍ، ولا عن طلب عِلمٍ، انْقلبَ هذا العمل إلى عِبادة، وأنت في متجرك تعبد الله، وأنت في قاعة التدريس تعبد الله، وأنت في مكتبك تعبد الله، وأنت في معملك تعبد الله، فالدِّين يتَغَلْغَل في كلّ كيان الإنسان، وفي كلّ مناحي الحياة، وفي كل الأوقات، وفي كل المناحي مكاناً، وفي كل الأوقات زماناً، وفي كل كيان الإنسان عمقاً، في الزمان والمكان والعمق، يعني إذا كنت في نُزْهة فأنت في عبادة الهدف أن تدخل على أهلك السُرور، وإذا

اشْتَرَيْت ثِياباً لِتَرتديها فأنت في عِبادة، إنك تهدف أن تظهر أمام الناس وأنت محسوب على المسلمين، بمظهر لائق، فالله تعالى قال:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

[سورة الذاريات]

من صفات إتقان العمل الصدق و الأمانة و إنجاز الوعد:

أصحاب الحِرف أحياناً يسيؤون إساءة بالغة، الحياديون لا مع المؤمنين ولا مع غير المؤمنين، هؤلاء إذا جاء إنسان له مظهر ديني، وعمل عندهم في البيت عملاً، وأساء، هؤلاء الحياديون يبتعدون عن الدين مسافات بعيدة جداً، فالقضيَّة خطيرة جدًّا، أنت حينما تسيء ومعروف عند الناس أنك مؤمن وصاحب دين وتصلي ولك مظهر ديني، فإذا أسأت جررت إلى دينك النفور، سحبت إلى الدين كل الإساءة، وأنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يُؤْتينَّ مِن قِبَلِك، أعْطِ وعْداً دقيقاً، واذْكُر المواصفات الصحيحة، وضِّح السِّعر والشُّروط، ولا تدع الأمر في جهالة لأنّ الجهالة تُفضي إلى المنازعة.

إنّ هذا الدِّين قد ارْتَضَيْتُهُ لِنَفسي ولا يُصْلِحُهُ إلا السَّخاءُ وحُسْن الخلق، فأكرموه بهما ما صَحِبْتُموه، فأقلّ مظْهر من مظاهر الدِّين أن تُصلِّي في المسْجِد، وأكبر مظْهر أن تُتْقِنَ عملك وتكون صادِقاً، وأن تكون أميناً، وأن تكون وفِيّاً بالوعد، أن تُنْجِز العهد، وأن تكون متواضعاً، المظهر الصالح للدِّين هذا، لأنّ سيّدنا جعفر لما أجاب النَّجاشي عن حقيقة الدِّين ما قال له كنا نصلي ونصوم، قال: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، ونسفك الدماء، حتى بعث الله فينا رجلاً، ما قال يصلي، قال: نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، هذا الدين، فالدِّين مجموعة قِيَم أخلاقيَّة.

المؤمن لا يُسَخِّر القِيَم ولا يسْخَر منها:

لذلك لما تقلّص الدِّين وانْكَمشَ، حتى أصْبَحَ رُكَيْعاتٍ تؤدَّى جوفاء، وطقوساً تمارس من دون معنى انتهى الدين، و الآن لا بدّ لهذا الدِّين أن يُجدّد:

((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

كيف يُجَدَّد ؟ بالعمل، حدّثني أخٌ مِن إخواننا الكِرام أنّه وقف موقفًا أخلاقيًّا وفيه مؤاثرة، الذي يرْأسُهُ في العمل علِمَ هذه المؤاثرة، وهذا الموقف الأخلاقي، قال لي: والله ما دَعَوتُهُ إلى المسجد أبداً إلا أنّه في

الدرس القادم وجَدْتُهُ بين الأخوة المصلين، ما قلت له ولا كلمة، تعال إلى المسجد، رأى موقفاً أخلاقياً، موقفا يلفت النظر، لم يفعله أحد ممن حوله، بدافع دينه فعله، فرأى هذا الإنسان بين صفوف المصلين في الدرس القادم، هكذا يمكن أن تدعو إلى الله وأنت ساكت، ولا كلمة، استقامة، صدق، رجل يبيع مواداً غذائية وله درس في مسجد، قال له: هل عندك بيض ؟ فقال: نعم، فقال الزبون: هل هو طازج ؟ فقال الأخ: له أربعة أيام، ولكن جاري قد أحضر الآن البيض، هذا أبلغ من آلاف المحاضرات، الكلمة الصادقة أبلغ من ألف محاضرة في الدين، ونحن نريد مسلمين من هذا الطِّراز، صادق لا يكذب، وأمين لا يخون، لا يحيف، لا يمشي مخاتلة، ولا يَحتال، وله وجْه واحِد، سره كظاهره، وسريرتُهُ كظاهره، وجلوتُهُ كَخَلْوَتِهِ، ولا تأخذه في الله لومة لائم، والدنيا كلّها تحت قَدَمِهِ، إذا جرته إلى معصية، هذا المؤمن، لا يُسَخِّر القِيَم ولا يسْخَر منها، هناك من يسخر من القيم، هناك من يسخرها لمآربه، يركب القيمة، يدّعي أنّه صالح و أنه يسعى للخير، فهو يطوف على الناس من أجل أن تعمّر الأرض مسجداً وأخذ أقلّ سِعر، فصاحب الأرض باعهُ إيّاها بثَمن رمزي، فلمّا تملّكها أنشأ بيتاً وسكنَهُ، فهناك مَن يسَخِّر القِيَم، وهناك من يسْخر منها.

الكلمة الصادقة سلاح المؤمن:

أيها الأخوة، الآن فيما أرى أنّ المُمَارسات التي تُناقض الأقوال سبَّبَتْ في أن يكْفر الناس بالكلمة، فالكلمة لم تعُد لها قيمة، لأنّ هناك من يقول كلاماً مَعْسولاً، وله فِعلٌ آخر، وهذا التناقض بين الأقوال والأفعال، سبب للناس جهلهم بالكلمة، وإذا أردنا إحياء هذه الثقة بالكلمة لاحْتجنا إلى العمل الذي يُؤكِّد القَول، لذلك نحن لا نريد إنساناً عباداته صارخة، أحيانا تجد المسجد مليء، نريد إنساناً أعماله صارخة، نزاهته صارخة، واستقامته صارخة، والتِزامه صارخ، وبيته إسلامي، وعمله إسلامي، ودَخْلُهُ إسلامي، وإنفاقهُ مضبوط، ولا يكذب، هذا الشّخص يُعيد الثِّقة الِقُدْسيَّة الكلمة، فالأنبياء جاءوا بالكلمة وهذا الإسلام الذي عمّ الخافقين، بماذا جاء الإسلام ؟ جاء بالتكنولوجيا ؟ لا، لم يأت بشيء لا جاء بطائرة، ولا جاء بغواصة، ولا ببارجة، ولا بأجهزة اتصال، ولا بكمبيوتر، ولكن جاء بالكلمة الصادقة، الكلمة الصادقة سلاح الأنبياء.

فإذا عاملْت المؤمن يجب أن تعتقد أنّ موتهُ أهْوَنُ عليه من أن لا يَفِيَ بعَهده طبعاً من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذبهم، و وعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته، هذا المؤمن، وبقدر ما تكون أخلاقياً يلْتفّ الناس حولك، وبقدر ما تكون أخلاقياً يتّبعك الناس في سَيْرك الصحيح.

هداية الناس أعظم عمل على الإطلاق:

أعظم عمل على الإطلاق (دققوا في هذا الكلام) فيه تجارات رابحة، فيه معامل إنتاجها غزير جداً، وبضاعة مباعة لسنتين قادمتين، فهناك شركات متعددة الجنسيات، هذه شركة كمبيوتر لبيع الأجهزة، اشْترت شركة ثانية، والثانية حجمها بالنسبة للأولى كالذبابة إلى الفيل، وثمن الذبابة ثلاثمئة ألف مليون دولار، فكم هو الحجم المالي للشركة الكبيرة ؟ فقد يكون لك شركات رابحة جداً، وأعمال كبيرة جداً، و دَخل فلكي، وإنفاق فلكي ومكانة عليّة، ولكنّ أعظم عمل على الإطلاق فيما ذكرهُ الصادق المصدوق، قال :

((يا علي: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها))

بعض البلاد الصِّناعيّة كاليابان عندها مئة مليار دولار كل سنة فائض هي في حَيرةٍ كيف تُنفقُهُ، ليس له مكان استثمار، مئة مليار كل سنة، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، بكلمة الطيّبة، بمعاملة طيبة، بصبر، بتأن، بلقاء، اثنين، ثلاثة، يعني الإنسان إذا عرف يتكلم، يتكلم، إذا لم يعرف، يعطي شريطاً، إذا لم يعرف لا هذه ولا هذه يكون محسناً، وإنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسَعوهم بأخلاقكم، فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، الرواية الأولى، خير لك من حمر النعم، الثانية، خير لك من الدنيا وما فيها.

مقام الإنسان عند ربه متعلق بعمله:

الإنسان بعمله، وجد شخصاً عنده أخلاقا عالية، يوجد حياء، يوجد أدب، عنده قِيَم، يجب أن يطْمَعَ في هِدايته أن يطمع في ضمه إلى مجموع المؤمنين، بالكلمة الطيبة، بالخِدمة الصادقة، والمنطق القوي، بالحجة الدامغة، بالمعاملة الطيبة، بالنزاهة، أنت بإمكانك أن تجلب الناس، وأن تحملهم على طاعة الله تعالى، وإذا سخَّرك الله لأُناسٍ طيّبين فهذه من أعظم النِّعم، أن يستخدمك الله في الحق، وكلما ألتقي بأخ كريم له عمل طيب، أطمئنه بهذه الكلمة، إذا أردْت أن تعرف مقامك فانْظر فيما استَعملك، فهناك الطبال، والمغني، وهناك شخص أعماله خسيسة، وهناك من يقوم الليل بالدشّ، قيام ليل إلى الساعة الرابعة، بالوحل يعيش، بالمجاري، وهناك من يقرأ القرآن ويدعو الله ويُصلي، فإذا أردت أن تعرف مقامك، فانظر فيما استعملك.

المؤمن الحق من يسعى لخدمة الخلق و الدعوة إلى الله:

لذلك أيها الأخوة، لا يوجد إنسان في قلبه ذرّة إيمان إلا وهذا الإيمان يُعَبّر عن ذاته بذاته، بحركة نحو خدمة الخلق، لا يوجد مؤمن سلبي، المؤمن في قلبه غَيرة، في قلبه حبّ للآخرين، في قلبه غيرة على دينهم، وعلى آخرتهم، وعلى سعادتهم، فكل إنسان في قلبه إيمان، الإيمان يعبر عن ذاته بخدمة الخلق، يعبر عن ذاته بالدعوة إلى الله، ويسعى لِسعادة إخوانه، الإيمان يعبر عن ذاته بالأمر بالمعروف، و يعبر عن ذاته بالنهي عن المنكر، لا أمر بالمعروف، ولا نهي عن المنكر، ولا إنفاق المال، ولا إعمار مسجد، ولا إعمار ميتم، ولا خدمة، ولا صدقة، ولا شيء، وكان همّه بيْتُهُ، وترتيب بيته، ونزهاته، وانْغِماسه في الملذّات، وعلى الدنيا السلام، فهذا الإنسان إيمانه مهزوز، هذا إذا قلنا فيه إيمان، والأرجح أنه بعيد عن الإيمان. قال تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

[سورة الذاريات]

على الإنسان أن يقول الحق و أن يعمل له:

فنحن نريد إحساناً، المؤمن عمله متقن، وعدهُ صحيح، ولا يكذب أبداً، المؤمن لا يكذب، قل الحق ولا تأخذك في الله لومة لائم، قال لي أخ: عندي قطعة لسيارة، بقيت عنده خمس، ست سنوات، من جرد لجرد لجرد، وغالية، حقها عشرون أو ثلاثون ألفاً، لشاحنة كبيرة، جاءه زبون، لما قال له أريد هذه القطعة، كأنه عبء جبل أزيح عنه، ذهب لإحضارها، قال له أصلية ؟ قال وأنا على السلم، وقعت في صراع لأنها ليست أصلية، قال له ليست أصلية، قال له هاتها، بكلمة أصبح البيع حلالاً، وبكلمة أصبح حراماً، فلا تأخذك في الله لومة لائم، فالذي يقول لك: إن لم نكذب لا نعيش، هذه لا آية ولا حديث أساساً، هذا كلام الشيطان، أُصدق تعيش، وتربح، والله تعالى يرفعُ شأنكَ، فقط كلمة، إما أن ترفعك وإما أن تخفضك، وكلما توهّمت أنّه بالكذب رُزق فأنت مع الشيطان لا سمح الله، الرّزق مع الحق، ومع الصدق.

مطعم كان يبيع خموراً، وأحد الأخوة أقنعَهُ مراراً حتّى أقلع عن بيع الخمر، وإذا قلت لكم أن غلته أصبحت خمسة أضعاف لا أبالغ، عشرة أضعاف لا أبالغ، يوجد محل بشمال سورية، كاتب على المحل، ممنوع شرب الخمر بأمر الرب، والرزق على الله، تأتيه الساعة العاشرة، لا تجد مكاناً عنده، الساعة التاسعة، لا يوجد لحم، الثانية عشر، الواحدة، الثانية، الثالثة، الرابعة، أبداً، دائماً يوجد عنده ناس، صار غير المسلمين يضع اللوحة نفسها، غير المسلمين، ممنوع شرب الخمر بأمر الرب،

والرزق على الله، لكن لا زبائن، لذا عليك أن تتيقّن أنّ الحق هو الذي ينبغي أن تعمل له، ولا تأخذك في الله لومة لائم.

الإنسان الأحمق من يأكل أموال الناس بالباطل:

الوقفة كانت عند كلمة محسنين:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

[سورة الذاريات]

هل أنبئكم من هو الغبي ؟ الغبي كلّ الغبي هو الذي يُسيء للخلق، ويظنّ نفسه ذكيّاً وشاطراً، وغشّ الناس ولم يدروا، وجمع ثروة ضَخمة، أحد طلابي قديماً له خال صاحب دار سينما جمّع ثروة طائلة، القصة وهذه سنة الخامسة والستين، كان معه خمسة ملايين ليرة، وأصيب بمرض خطير (سرطان بدمه)، قال لي دخلت عليه وهو يبكي، فلما سأله عن سبب بكائه، قال له: أنا جمعت هذا المال لأستمتع به، و هاأنذا سأموت في مقتبل حياتي، طبعاً إذا أنت جمعت المال على حساب أخلاق الشباب لن تهنأ به، كل إنسان يسيء، يأكل مال الناس بالباطل، بالغش، بالاحتيال، بقوته، بهيمنته، بذكائه، بإمكانياته، يأخذ ما ليس له، والقضية مشت، وانطلت على الناس، هو أغبى الأغبياء.

الذكي و العاقل من يستقيم على أمر الله:

الذي يأخذ ما ليس له، لا بدّ أن يدْفع الثّمَن باهظاً في الدنيا قبل الآخرة، لذلك الذكي والعاقل هو الذي يستقيم، إذا انطلق الإنسان من حبه لذاته، إذا انطلق الإنسان من إفراطه في حبه لذاته يستقيم، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة الحجر]

وقال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

[سورة الزلزلة]

الإحسان يأتي من اتصال الإنسان بالله عز وجل:

الكل محسوب، إذاً هذا الإحسان مِن أين جاءهم ؟ النفسية العالية، حبّ الخير، والإنصاف، والغيرة، و العِفّة، العِفّة والغيرة والإنصاف وإتقان العمل والصِّدق والأمانة، هذه الفضائل النبيلة جداً ؛ مِن أين ؟

من اتِّصالهم بالله عز وجل، ولأنّ الله تعالى مَنْبَعُ الكمال، وأنت بقَدر اتِّصالك بالله تكون كاملاً قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[سورة الذاريات]

علاقة رائعة جداً، بقَدر ما أنت مُتَّصِل بالله بقَدْر ما أنت كامل، و بقَدر بُعدك يوجد نقصك، انقطاع تام، نقص تام.

كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ: آية لها عدة معان:

1 - هؤلاء الذين قاموا الليل نومهم عبادة لله عز وجل:

قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18))

[سورة الذاريات]

العلماء تساءلوا حول هذه الآية، إذاً: كانوا كثيراً من الليل ما يسجدون، لماذا ذَكَر الله تعالى نومهم، ولم يذكر تهجّدهم ؟ أي حسب المنطق البشري، كانوا كثيراً من الليل ما يتهجدون، قال لك: كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، الهجوع نوم خفيف، لذا قال العلماء إن في هذه الآية إشارة إلى أن هؤلاء الذين قاموا الليل نومهم عبادة لله عز وجل،أي استلقى حتى يستأنف، نوم المؤمن عبادة، وكأنه يعبد الله عز وجل.

2 - يستغفرون الله على أنهم لم يستطيعوا أن يكونوا في الطموح الذي يُريدونه:

شيء ثان:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18))

[سورة الذاريات]

ويستغفرون الله عز وجل لأنّهم هجعوا من شِدّة تعلّقهم بالله عز وجل، يستغفرون الله على هجوعهم، وأيضا يستغفرون الله عز وجل على أنهم لم يستطيعوا أن يكونوا في الطموح الذي يُريدونه، وما من واحد من المؤمنين وأنا متأكد، إلا ويطمح في مرتبة هو دونها، يقول لك: يا ليتني أنفق مالي كله، لكن مضطر، يا ليتني أقرأ الكتب التالية ولكن لا يوجد وقت، ويا ليتني أخدم الناس خدمة جيدة، دائماً المؤمن نيّتُهُ خير من عمله، دائماً، فهم يستغفرون الله عز وجل على أنّ أعمالهم لم تكن في مستوى طموحاتهم أو لأنّهم هجعوا قليلاً.

الاستغفار و الإنفاق أساس إيمان الإنسان:

أيها الأخوة، مركز الثِقل في هذه الآيات الإحسان، الإحسان سببه الاتِّصال بالله تعالى، قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18))

[سورة الذاريات]

الآن الصلاة عبادة، والصوم عبادة، لكن لا يكلف، يتوضأ ويصلي ويقرأ القرآن ولكن مِصْداقيَّتُهُ في الإيمان بالإنفاق، قال تعالى:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات]

الله عز وجل قال في آية أخرى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة آل عمران]

إنفاق المال علامة حب الإنسان لربه و سعيه إلى الآخرة:

المتّقون لهم آلاف الصِّفات، ربنا عز وجل بدأ بصِفة أساسيَّة، قال تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة آل عمران]

وما سُمِّيَت الصَّدَقة صدقةً إلا لأنَّها تؤكِّد صِدْق إيمان صاحبها، لأنّ الحقيقة المال مُحَبَّب، وطبعك يقتضي أن تأخذ المال، أما إنفاقه غير محبب، خلاف الطبع، فعلامة إيمانك بالله، وعلامة حبّك له، وعلامة سعيك للآخرة، هي إنفاق المال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17))

إنفاق المال في سبيل الله أشرف طريق على الإطلاق:

الإنسان حينما يعلم أنّ الدِّرهم الذي ينفقه في الدنيا يراه كأُحدٍ يوم القيامة يدهش، فالمال تنفقه في طرقٍ شتّى إلا أنّ أشرف طريق أن تنفقهُ في سبيل الله تعالى، وإنفاق المال له أهداف لا يعلمها إلا الله، فهناك من يجبره المال، إنسان يتزوّج، لما قدمت لإنسان مبلغاً من المال تزوج به، لما تزوج جبر خاطر فتاة، أهل الفتاة كلهم فرحوا، البنت جاء نصيبها، الذي أعطى المبلغ للشاب، والشاب اتخذ قراراً بالزواج، كل إنسان فرح.

مرة دخلت بيتاً، كان الأب مصاباً بمرض، وإنسانة كريمة دفعت قيمة العملية الجراحية، وجدت أولاده يرقصون من الفرح بعد نجاح العملية، فهذه التي دفعت المبلغ من المال في سبيل أن ترضي الله عز وجل، كم من إنسان سعد بهذا المبلغ ؟ فلو يعلم الأغنياء أنّ الأموال التي بأيديهم بإمكانهم أن يصِلوا بها إلى أعلى درجات الجنة.

إنفاق الإنسان للمال له أجر لا يعلمه إلا الله:

إخواننا الكرام: هذه حقيقة أريد أن أقولها لكم، كلّ إنسان بما آتاه الله يمكن أن يتفوّق، فالذي تعلّم يُعَلِّم، تفوق، هذا ليس معه مال، والذي كان غنياً بإنفاق ماله قد يصل إلى المرتبة التي وصل إليها العالم، هذا بماله، وهذا بعلمه، يوجد إنسان قوي بإنصافه، وخدمة الناس، إحقاق الحق، إزهاق الباطل، ونصر المظلوم، يرقى، إنسان قدم المال والمال شقيق الروح، وإنسان قدّم العِلم، إنسان قدم خدمة، وآخر ربّى ولداً صالحاً ينفع الناس من بعده، إذا أتقنت عملك تدخل الجنة، كنتَ أباً كاملاً أو ابناً كاملاً، أو تاجراً نصوحاً، صانعاً متقناً، أو مزارعاً خيّراً، فلا يوجد عمل يستعصي على أن تتّخذِهُ سلّماً إلى الله عز وجل، وإلى مرضاة الله، فليس الدعاة وحدهم ذهبوا بالخير، كل إنسان ينفق ماله له عند الله أجر لا يعلمه إلا الله، الحياة تعاون.

ممكن الطبيب بطِبّه والمهندس بهَندسته والداعية بدَعوته والمُحسن بإحسانه، أقرب مثل المسجد من عمّره كان له أجر، ومن صلى فيه إماماً له أجر، والذي خطب فيه له أجر، ومن درّس فيه له أجر، فكلهم من عُمّار المساجد.

كل إنسان يرقى عند الله بما آتاه:

لا تظن أنه يوجد عمل هو العمل الوحيد الجيد، كل إنسان باختصاصه يمكن أن يصل إلى أعلى مرتبة، باختصاصه إذا أتقنه ونوى به خدمة المسلمين، فالغني بماله يرقى، والعلم بعلمه يرقى، والقوي بقوته يرقى، والصانع بصنعته يرقى، وكل إنسان يرقى بما آتاه الله، أبلغ كلمة:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة]

كنت مرّة بحفل إنهاء كتاب الله حفظًا، فالذي كان عريف الحفل، شكر الطلاب الذين أقبلوا على حفظ القرآن وتجويده، كلام طيب، وشكر الذين قاموا بتَدريسهم خلال عام بأكمله، شيء جميل، وشكر الذين استمعوا إليهم وأعطوهم العلامات والدرجات، ولكن الذي أشْعرني بقيمة المال، طبعاً هناك بعض

الأشخاص قدموا جوائز مجزية، عمرة لكل حافظ قرآن كريم على حسابه، أناس قدموا عشرة آلاف لكل حافظ قرآن كريم، لفت نظري في عريف الحفل أنّه قال: والذين قدّموا أموالهم ابْتغاء مرضاة الله، والمال شقيق الروح، ليسوا أقلّ أجراً من هؤلاء، ترقى بمالك، ترقى بعلمك، ترقى بأي شيء، أي شيء أعطاك الله إياه ترقى به، فالباب مفتوح أمامك.

رحمة الله تشمل كل إنسان بما أقامه الله:

إذا الإنسان آتاه الله اختصاص هندسة، والله شيء جميل، طبعاً اختصاص هذا، إنسان آتاه الله طباً، يطبب المسلمين، بتواضع، بأدب، دون ابتزاز لأموالهم، دون تضخيم لمشاكلهم، من دون طعن بالآخرين، مع رعاية تامة، مع متابعة، شيء جميل، وكلّ شخص يقدر أن يدخل الجنّة من أوسع أبوابها، باختصاصه، وعمله، فرحمة الله ليسَت محصورة بفِئة واحدة، إياك أن تظن هذا، رحمة الله واسعة، وكل واحد فيما أقامك الله، بإمكانك أن تصل إلى أعلى درجات الجنة، فما أقامك الله عز وجل، وهذه حقيقة أساسية، وبالطريقة هذه تجد أن الحياة تعاون.

أنت قدمت لقمة طيبة ونظيفة وصادقة لهؤلاء المسلمين، لك أجر، بهذه الطريقة صار الإنسان يتعلم، ومجال عمله اختصاصه، باختصاصه يرقى عند الله عز وجل.

الزكاة فرض على كل مسلم و مسلمة:

إذاً الله تعالى يقول:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات]

هناك إشارة لطيفة، يوجد آية أخرى:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

[سورة المعارج]

قالوا هذه خاصّة بالزكاة، أما وفي أموالهم حق من دون معلوم ففي الصدقة، وفي المال حق سوى الزكاة.

عدم دفع الزكاة يؤدي إلى محق المال و إتلافه:

قال تعالى:

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

[سورة البقرة]

هذه غير هذه، الزكاة فرض، فأنت ممكن أن تدفع مثلاً (للتشبيه والتمثيل) الضريبة، وبهذه الضريبة تتلافى المصادرة، والمضاعفة، والجزاء، هذه فرض، أما كونك مواطن صالح ممكن أن تقدم مستوصف، هذا غير الضريبة، هذا يرقى بك كثيراً، يعني بالمفهوم المدني، كذلك إن أدَّيتَ زكاة مالك نجَوت من محق المال وإتلافه.

إنفاق المال يرقى بالإنسان عند ربه:

أما حينما تنفق فوق الزكاة على الفقراء والمساكين حباً في الله عز وجل هذا ترقى به أكثر:

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ)

مهمة الإنسان أن يبحث عن الإنسان المتعفف الذي لا يسأل:

فالعلماء قالوا هذه الآية فيها إشارة إلى الصدقات لا إلى الزكاة، الزكاة:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

أما في هذه الآية:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

السائل الذي يسأل، والمحروم هو المتعفف والذي لا يسأل فيحرم، فأنت مهمتك أن تبحث عن هذا الذي لا يسأل، عن هذا الند المتعفف الذي يحسبه الجاهل غنياً، مهمتك الكبرى الآن أن تبحث عن هؤلاء وما أكثرهم، لا أقول وتعرض عن الذين لا يسألون لكن الذي يسأل يعني أقل مرتبة من الذي لا يسأل:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

وفي درس آخر إن شاء الله تعالى، ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23))

[سورة الذاريات]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (3-7): تفسير الآيتان 20-21 ، آيات الله الدالة على عظمته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-07-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الذاريات، ومع الآية الكريمة العشرين.

الارتقاء إلى اليقين لا يكون إلا بالقناعة التامة:

قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

أي يا عبادي إذا أردتم اليقين، ففي الأرض آيات للموقنين.

اليقين أيها الأخوة شيء يختلف عن الوهم، وعن الشكّ، وعن الظنّ، واليقين قطعي، واليقين مع الدليل، واليقين الواقع يؤيّدُهُ، واليقين لا يُخالطه ريب ولا شك، قال تعالى:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

[سورة التكاثر]

والإنسان أيها الأخوة (ودقِقوا في هذا الكلام) إذا أيْقَنَ تحرّك، سُلوك الإنسان أساسه اليقين، إذا أيقن الإنسان أن في هذا الشيء شراً مُحققًا يبتعد عنه وإذا أيْقن أنّ في شِراء هذه السِّلعة ربْحًا مُحققاً يشتريها، لاحظ نفسك، حينما تقتنعُ قناعةً تامّة ترتقي إلى مستوى اليقين لا بدّ مِن أن تتحرّك، لابد من أن تستجيب، لابد من أن تلتزم، قال تعالى:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

[سورة التكاثر]

اليقين يفضي إلى طريق الحق:

الوهم ثلاثون بالمئة، أما الشك فخمسون بالمئة، والظنّ ثمانون بالمئة، أما اليقين فمئة بالمئة !! فنحن المشكلة أنّ المسلم يتعامل مع الظنّ، ولو تعامَل باليقين لالْتَزَم طريق الحق قطعاً، فربُّنا عز وجل يقول: يا عبادي إذا أردتم اليقين ففي الأرض آياتٌ للموقنين، لِمَن طلب اليقين، والدِّين لا يحْتمل الظن، ولا يحتمل كما قيل:

زعم المُنَجِّم والطبيب كلاهما لا تُبْعثُ الأموات قلتُ إليكمـا
إن صحّ قولكما فلستُ بخاسرٍ أو صحّ قولي فالخسار عليكمـا

* * *

فالشكّ لا يشْفي، والظنّ لا يشْفي، والوهم لا يشْفي، والرَّيْب لا يشفي، فلا يشفي إلا اليقين لذلك قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

الاستقامة على أمر الله مرتبطة بيقين الإنسان أن الله سيحاسبه:

إذا تيقّنْتَ أنّ الله يعلم وسيُحاسِب فلا بدّ أن تستقيم على أمر الله، وإذا أردت الدليل فابحَث في حياتك الخاصّة، متى تشتري ؟ ومتى تبيع ؟ ومتى تصِل ؟ ومتى تقطع ؟ ومتى تُعطي ؟ ومتى تمْنع ؟ عند اليقين، أما إذا أيْقَنتَ بحَقائق الدِّين فلا بدّ من أن تلْتزِمَ أوامر الله عز وجل، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

أي لمَن أرادوا اليقين.

من آيات الله الدالة على عظمته:

1 - حجم الأرض و حركتها:

حجمُ الأرض مناسبٌ جدّاً، فلو كانت أقلّ حجماً لكان الإنسان أقلّ وزناً، ولو أنّها أكبر حجماً، لكان الإنسان أكبر وزنًا، فعلاقة وزْنك بحَجم الأرض مناسب جدّاً، فالذين صَعدوا إلى القمر تضايَقُوا مِن خِفّة أوزانهم، ولو وقفنا فوق نَجم المُشتري لكان وزن الإنسان طنًّا أو طُنّين !! فالحجم مُناسب جدّاً. الآن حركة الأرض، فلولا هذه الحركة لما كانت هناك حياة، إما ليل سرمدي، الحرارة مئتان وسبعون تحت الصفر، و نهار سرمدي ثلاثمئة وخمسون فوق الصفر، فَحَجم الأرض يؤكِّد لك أنّ الله حكيم، ودَوْرة الأرض تدور بمِحور غير متوازٍ ومع مستوي الدّوران، فلو دارت على محور متوازٍ والشمس من هنا، لصار أيضاً نهار سرمدي، وليل سرمدي، لابد من أن تدور حول محور لا يتوازى مع مستوي

دورانها، إذا تدور بمحور غير متوازٍ مع مستوي الدوران، طيب إن وقفت، أو دارت على محور هكذا، نهار سرمدي، وليل سرمدي، قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

[سورة القصص]

إذاً: لو أن هذا المحور كان عمودياً على مستوي الدوران، الآية لأنه في الأرض آيات للموقنين، والشمس من هنا، هنا صيف سرمدي، خريف سرمدي، شتاء سرمدي، شيء لا يحتمل، الفصول لا تتبدل، إلا بميل المحور، مال المحور والأشعة عمودية (صيف)، هنا مائلة (شتاء)، انتقلت الأرض إلى هنا، هنا عمودية، هنا مائلة، فتبدل الفصول أساسه ميل المحور، من جعل محور الأرض مائلاً ؟ الله جل جلاله.

2 ـ دوران الأرض حول الشمس و حول نفسها:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

حجم الأرض، ودورانها، إذاً: سرعة دورانها متوافق بدِقَّة، لو أنها تدور حول نفسها بساعتين لكان الليل بساعة، والنهار بساعة واحدة، ولاخْتَلّ نِظام الأرض، اندفعت دفعة، النهار ساعة، دوامك ثمان ساعات، معنى في أربعة أيام، إذا استيقظت في أربعة أيام، وأربع ليالي، بالاستيقاظ، تريد أن تنام بالنهار، مستحيل، ولو أنَّها دارت حول نفسها بساعتين، لو أنها دارت بسنة لكان الليل سِتَّة أشهر، و النهار كذلك، مستحيل كذلك، إذا الدورة مناسبة، في الأربع والعشرين ساعة، تدور دورة، وهي تدور حول الشمس بسُرعة مُعيَّنة ؛ ثلاثين كيلو متر بالثانية، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

فأصبح حجمها، ودورانها، ومحور دورانها، وسرعتها حول نفسها، وسرعتها حول الشمس وبقيَ سطحها، ولو كان الخمس بحر، و الأربعة أخماس يابسة لمات الإنسان، ولانعدمت الأمطار، فلا بدّ أن تكون المُسطّحات المائيَّة أربعة أخماس اليابسة، ولو لم تكن هناك صحاري لما كانت هناك رياح فالصَّحارى حارّة، والهواء فوق الصحارى مُتَمَدِّد، وضَغط منخفِض، والهواء فوق المناطق القطبيَّة منكمِش وضَغط مرتَفِع، ومن تبايُن الضَّغطين تتحرّك الرِّياح، ما مصير السحاب بلا رياح تسوقه ؟ والرياح تسوق السحاب، من خلق الرياح ؟ الله عز وجل، و بسبب هذا التفاوت بين المناطق الحارة والباردة، وشمالاً وجنوبًا، وساحِلاً وداخِلاً.

3 - الهواء:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

مبدأ الهواء، والهواء من آيات الله الدالة على عظمة الله عز وجل، وتركيبه أوّلاً الأوكسجين، لو زادت نِسبتُهُ لاحْترق كل ما على الأرض، ولو قلّ لما اشْتَعَلت النار، والنبات يطرح الأكسجين و يأخذ غاز الفحم، والإنسان يأخذ الأكسجين، ويطرح غاز الفحم، يوجد توازن، فالغابات مُنْعِشَة، والصّنوبر مُنعِش جدّاً:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

إذاً المُسطّحات المائيّة تُسبّب الأمطار، والرّياح أساسها التفاوُت في مناطق الأرض، الآن هذا الهواء تركيبه، أخطر ما فيه أنّه ينثر الضّوء، تجد الأرض منيرة، ولو كُنّا على سَطح القمر لرأينا قرص الشّمس وما حولها أسْوَد أما في الأرض تجد ضياء، فالهواء ينثر الضوء، والهواء فيه أكسجين وآزوت و فيه غاز الفحم وفيه غازات أخرى، النبات يطرح الأكسجين و يأخذ غاز الفحم، الإنسان يطرح غاز الفحم ويأخذ الأكسجين، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

4 - الماء:

الماء ؛ له حالة تجمّد، وحالة سائلة، وحالة غازيّة، فإذا بُرّد انْكمَش شأنه كشأن أي عنصر، إلى درجة زائِد أربعة يتمدّد ولولا هذه الظاهرة لما قامَت حياة على وجه الأرض، عندما نبرّده يتمدّد وتقلّ حينها كثافته فيَطْفو، و عندما يطفو تبقى البحار دافئة والأحياء فيها، ولو أنّه كلّما برد تجمد، وكلما تجمّد انكمشَ، كلما انكمش تزداد كثافته، فيَهوي في أعماق المحيطات، فالمحيطات كلّها تتجمّد، ومع تجمّدها ينعدم التبخّر، ومع انعدام التبخر ينعدم المطر، ومع انعدام المطر يموت النبات، فيموت الحيوان، فيموت الإنسان قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

ازدياد حجم الماء بعد تبريده إلى درجة زائد أربعة، هذه من أكبر الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل.

5 - الأمطار و الرياح:

الشيء الآخر: الهواء يحمل بخار الماء، ولولا أنّه يحمل بخار الماء لما كانت السحب، يحمل بخار الماء بحسب حرارته، فكلّما سخن الهواء كلّما حمل بخار ماء أكثر، وكلّما برد يتخلّى عن الكميّة الزائدة، وهذه هي أساس الأمطار، قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجّاجاً)

[سورة النبأ]

نظام الأمطار نظام رائع جداً.

صار الهواء آية والماء آية، والرياح آية، والأرض يابسة وماء آية، حجمها آية، دورانها آية، نوع دورانها آية، السرعة آية، ميل المحور آية:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

6 - الأطيار:

الآن الأطيار: هذه الأطيار هي أنواع لا يعلمها إلا الله، وقد أجرَوا إحصاءً ثمانمئة وثلاثين ألف نوع من الطيور، طيور تقطع مسافة سبع عشرة ألف كيلو متر برحلة لا تحيد ولا تنحرف، يا ترى على أيّ شيء تمشي ؟ على التضاريس، من يهديها بالليل ؟ لا يوجد تضاريس بالليل، على أشعة الشمس، لا توجد فرضية طرحت إلا ونقضت، من الذي يهدي الطير في هذا السير الطويل ؟ طائر له عشّ بالشام، في دمشق، هنا في الصالحية، هاجَر إلى جنوب إفريقيا، حينما يعود ؛ من أعطاه الزاويَة المناسبة ليأتي إلى الشام ؟ لو انحرف درجة صار في مصر، درجة هنا بالعراق أو الأردن، من أعطاه هذه الزاوية، حتى يعود إلى عشه في دمشق ؟ وفي الصالحية ؟ الله جل جلاله، ما يمسكهن إلا الله، فالطائر نفسه آتاه الله تعالى ثمانية أمثال قوة رؤية عن الإنسان، لأنّه يُحلِّق على ارتفاعات شاهقة، إذا أراد أن يأكل، ولا يرى إلا لمسافة قريبة ماذا يعمل ؟ ينزل فلا يجد طعاماً، فيصعد، ينزل فيصعد، أما هو الطائر أحياناً يرى السمكة في الماء فينقض عليها، قوة إبصار الطائر رائعة جداً، من أعطاه هذه القوّة ؟ أحيانا ثلاثة وثمانين ساعة طيَرَان من دون توقف، إذًا له عضلات تتقلّص، وتحتاج إلى تبريد، فتنفّس الطائر يصل إلى كلّ خلية في جسم الطائر، فالقصبات الهوائيّة في الطائر تتمدّد إلى كل أجزاء الطائر، من أعطاه قوة طيران ثلاثة وثمانين ساعة بلا توقف ؟ سبعة عشر ألف كيلو متر يقطعها، فمن دلّه على طريق العودة ؟! هذه عناوين موضوعات، إخواننا الكرام، عناوين موضوعات.

7- السمك:

سمك السلمون الذي يأتي من رؤوس الأنهار في أمريكا، ويُهاجر إلى شاطئ أوروبا في الأطلس، ثمّ يعود إلى مسقط رأسه ثم يموت هناك، فهذه السمكة تتجه نحو الغرب، كذلك درجة واحدة تأتي في البرازيل، درجة في كندا، فهي تتوجه إلى مصب النهر الذي خرجت منه، من دلها ؟ سمك السلمون يصعد الشلالات، ليصل إلى مسقط رأسه، ويموت هناك، يضع البيوض في أعالي الأنهار وتعود، فسَمَك السلمون وحده من أكبر الآيات الدالة على عظة الله عز وجل، وهناك أفاعي بنَهر النيل تخرج من بحيرة فيكتوريا، وتتّجه نحو الشمال إلى أن تخرج من مصر، وتتّجه نحو الغرب إلى أن تصل إلى مضيق جبل طارق، وتتّجه نحو الشمال لِتُحاذي أسبانيا، ثمّ إلى فرنسا، تدخل في بحر المانش، إلى بحر الشمال وتعود أدراجها، والله قائد سفينة يحمل أعلى شهادة يضيع، فمن هداها إلى هدفها ؟

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

قدرة الله في خلق أجهزة عند السمك تعرف أين هي من سطح الماء:

هذه السمكة من أعطاها أجهزة تعرف بها أين هي من سَطح الماء ؟ فيها أنبوب مفرّغ، وكلّما غاصَت يضْغط الماء عليها فتعرف أنّها في الأعماق، هذا الجهاز ينبئها ببُعدها عن سطح البحر، وجهاز آخر ينبئها باتّجاهها (ي ظهرها)، نحو سطح البحر أم نحو قاع البحر، وأساس الجهاز محفظة فيها حبّات رمل، مع أشعار تتحسّس بِحَبّات الرمل، فالحبات إذا كانت في أرض هذه المحفظة معناه أنّ ظهرها نحو الأعلى، من أعطاها ؟ الأسماك آية، والآن علماء البحار عدُّوا مليون نوع من السَّمَك ! هناك أسماك طبيبات يَقِفن في عرض البحر، وتأتي الأسماك وراء بعضها بعضاً وتنتظر دورها في المعالجة، هذه الأسماك تتغذّى على الحراشف الملتهبة، والتي أصابها الإنتان تشفي وتتغذى، وهذه الأسماك لا أحد يأكلها باتّفاق بين كل اسماك البحار، هي أسماك طبيبات، مليون نوع من السمك في البحر، وهناك سمك متوحّش، وآخر وديع، وهناك الذي يُشبه باقة الزهور، والذي يمشي على أرجل في قاع المحيطات، غواصة مصنوعة من الفولاذ المصفح، إذا تعطل جهاز قياس الارتفاع، وغاص ربان الغواصة إلى أقل من مئتي متر، تتحطم الغواصة، أما هذه السمكة التي تعيش في خليج مريانة في أعمق نقطة في المحيط الهادي كيف تمشي على أرجلها في قاع البحر، وفوقها اثني عشر ألف متر من الماء ؟ يوجد قانون، فيها فتحات متداخلة، الضغط من الداخل يكافئ الضغط من الخارج، فالإنسان إذا أغلق فمه عند سماع مِدفع الإفطار ربّما ثقب غشاء الطّبل، أما إذا فتح فمه لا يحدث شيء، يدخل الهواء من فمه، ومن أذنه،

يتكافأ الضغطان، وكل سمك يعيش في قاع المحيطات هناك تكافؤ في الضغط، من جعله هكذا ؟ قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

8 ـ الحيوانات:

هذه الحيوانات التي نعيش معها نألفها وتألفنا، فالجمل وزنه طن، يألفنا ونألفه والطِفل يمكن أن يقوده، أما العقرب لو رأيتَهُ لخرجْت من جلدك، لماذا كان هذا الجمل مذللاً ؟ البقرة مذللة ؟ والغنم مذللة ؟ أما الضّبع غير مذلّل ؟ لو أن الله جل جلاله ركب أخلاق الضبع في الغنم، كيف نأكل ؟ هل يستطيع الإنسان أن يحضر أضحيته قبل يومين ؟ لا يقدر، قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

[سورة يس]

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

قدرة الله عز وجل في تحويل طعام البقر إلى لبن سائغ للشاربين:

وهذا الحليب التي تُنْتجُهُ بعض الأغنام والأبقار قُبّة والخليّة الغُدِيّة قُبّة من سَطحها الأعلى شبكة أوعية دمويّة كثيفة جدّاً وحتّى هذه الساعة لا يعرفون كيف يتحوّل الدم إلى حليب من بين فرث ودم ؟ فالخليّة الغديّة تأخذ المواد التي تحتاجها من الدّم وترشح هنا حليباً، أربعمئة حجمٍ من الدّم من أجل حجم حليب واحد، يعني كل لتر من الحليب تأخذه من البقرة، ساهم في تشكيله أربعمئة لتر من الدم، فضَرع البقرة الذي يتّسِع إلى عشرين كيلو، وإلى أربعين كيلو أحيانًا لما لا يتمزّق ؟! قال هناك حواجز، جدران داخلية، طوليّة وعَرْضِيّة فإذا كان هناك أربعة حلمات لثدي البقرة فكلّ حُلمة ممكن أن تُفرغ رُبع الحجم بالدِقة فمن جعل البقر مُذلّلاً ؟ لِنَعرف نِعمة الله عز وجل جعل الله هناك مرضاً يُصيب البقر، ويُصبحُ متوحِّشًا، فأخٌ كريم كانت له بقرة وتوحّشَت فقتَلت أول إنسان والثاني والثالث، فاضْطُرّ صاحبها أن يطلق عليها النار و قَتلها، وثمنها سبعون ألفًا فالبقرة ثروة وإنتاجها ثروة.

قدرة الله عز وجل في خلق الصوص من البيضة:

من جعل هذه الدجاجة تُعطي هذه البيضة ؟ البيضة تحوي كلّ شيء لأنّها تنتهي إلى صوص، ومعنى ذلك هناك كالسيوم ومغنزيوم، هناك عضلات، وأمعاء، وجهاز هضم، وجهاز عصبي، مخلوق كامل، فمن خلق هذه البيضَة ؟ أنظر إلى الدجاجة ماذا تأكل ؟ اِجْمع طعامها، لو اجتمع أهل الأرض و علماء الأرض ومعامل الأرض على أن يصْنعوا من هذا الطّعام الذي تأكله الدّجاجة وقد تكون أقذاراً هذه البيضة التي تحبها:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

و هذه البقرة ماذا تأكل ؟ خُذْ طعامها واجْعلْهُ حليباً لبناً سائِغاً للشاربين، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

تسخير الغنم و الإبل للإنسان و راحته:

فالبقرة آية، والدجاجة آية، والغنم آية، دائماً عضلات الرجل قاسية، والأنثى لينة، الغنم بالعكس، الغنم المؤنث لحمه قاس، ليبقى للولادة وللحليب، أما النوع الذكري لحمه طري بعكس الإنسان، وهي خلاف من جعل هذه الآية ؟ فالغنم آية، البقر آية، والجمل آية، الله عز وجل قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[سورة الغاشية]

الجمل له عينان تُريه البعيد قريباً، والصّغير كبيراً، وله رموش تحميه من رمال الصّحراء، ولو أنّ الجمل يسْتريح كما يستريح الحِصان كيف تُحمِّل عليه بضاعتك ؟ يجلس جلسةً نِظاميَّة،عن طريق هذه التفنات التي أودعها الله فيه، والجمل يمكن أن يعيش أشهر من دون طعام ولا ماء، وبإمكانه أن يأخذ من ماء خلاياه وسَنامِهِ، وهو مُجهّز خِصيّصاً للصّحراء:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[سورة الغاشية]

النحل:

انظر إلى النحل ؛ النحل مِن أعظم الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل، هل تستطيع أن تأتي ببَلاطين، يبدأ كل منهما من طرف، ويلتقيان على بلاطة نظامية من النصف ؟ مستحيل، أما النحل يبني

أشكال مُسدَّسة مئة بالمئة نِظاميَّة، يبدأ من كل الجهات فموضوع النحل وحده يحتاج إلى درس، العاملات تَقِفن على باب الخليَّة ومعهن كلمة سرّ، وكل نحلة لا تبوح بهذه الكلمة تُقتَل، لو يوجد مليون نحلة، كل جماعة تذهب إلى خلاياها، عاملات للتنظيف، عاملات للحراسة، عاملات للتدفئة عاملات للتَّهْوِيَة، وعاملات وصيفات، عاملات لو رأيْن حشرة كبيرة يُغلِّفنها بالشّمع، ليمنعن تفسخها، وهناك رقصة ترقصها النحلة تشعر زميلاتها ببعد الأزهار عن الخلية، والإيقاع أثناء الرّقص إذا كان سريعاً فمعناه الرحيق كثيف، وإذا كان الإيقاع خفيفاً يكون الرحيق قليلاً، والمَلِكة تبيض في اليوم آلاف البيوض، وتضع الأنثى في مكانها، والذّكر في مكانه، والملكة الأخرى في مكانها، من علمها ؟ موضوع النحل وحده، الإنسان يذوب خشوعاً لله عز وجل، النحل آية.

10 - النمل:

النمل آية، قال تعالى:

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[سورة النمل]

النملة تحمل أربعة أمثال وزنها، النملة تتخاطب مع بقيَّة النمل، لو شخص سحق نملةً بيدِه ؛ رائحة النملة بعد سَحقها استِغاثة لِزَميلاتها، وحينما تُخزِّن النملة الحبوب تأكل الرُّشَيم وهو الكائن الحي في البذرة، فمن علّمها تأكل الرُّشَيم ؟ هناك بذور لها أربعة رُشَيمات فتأكل هي الأربعة لكي لا تنبت.

مخلوقات الله جميعها آيات تدل عليه:

النمل آية، والعنكبوت آية، والنحل آية، والجمل آية، والبقر آية، الغنم آية، والسمك آية، والطّير آية، وأنا أذكر لكم عناوين موضوعات فقط، ولو أردنا التفاصيل لا ننتهي في سنوات، وكلّما فكّرت في خَلق الله عز وجل ازْدَدْت تعظيماً له، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

أنت لا تلتزم ولا تتحرّك إلى الله إلا إذا أيْقَنتَ، واليقين بين يديك، فيا عبادي إذا أردتُم اليقين ففي الأرض آيات للموقنين وما أكثرها، بل إن كلّ شيء خلقه الله هو آية تدلّ عليه.

11 - الإنسان من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله:

ثمّ يقول الله عز وجل:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

لا تبتعد، جِسْمك الذي يحملك ونفسك التي بين جَنْبَيك كلها آيات دالة على عظمة الله تعالى.

جسم الإنسان يدل على عظمة الخالق بما يحوي من:

1 - جهاز المناعة في الإنسان:

الآن أكثر شيء يتحدّثون عنه جهاز المناعة في الإنسان، خمسة وعشرون ألف كُريَّة بيضاء أو أكثر أو أقلّ، هذا الرّقم يتضاعف في زمن الاسْتِنفار ويتضاعَف في أثناء القِتال، يعني جهاز المناعة يتضاعف مرتين أثناء القتال، فما هو جهاز المناعة ؟ دخل جرثوم إلى الدمّ، تتوجّه عناصر من الكريات البيضاء لِتَكْتشِف تركيب الجرثوم والشيفرة الكيماويَّة وهذه الخلايا اسْتِطلاعِيَّة وليس لها مهمّة أخرى إطلاقًا، لا تقاتل، تأخذ هذه الشيفرة وذاك الرمز إلى العقد اللمفاويَّة، في هذه العُقَد عناصر تُصَنِّع المَصل المُضاد، تأخذ هذا الرمز أو تلك الشيفرة وتفكّها، وتصنع المصل المضاد لِهذا الجرثوم وتنتهي مُهمّتها، الآن تأتي الخلايا المُقاتلة فَتَحمِلُ هذا السِّلاح، وتتّجه إلى مكان الجرثوم، وتُقاتِلُهُ بهذا السِّلاح، فإذا قتَلَتْهُ انتَهت مهمّتها، وجاء دَور الخلايا اللاقِمة، هذه تتّجه إلى ساحة المعركة لِتُنَظِّف أرض المعركة من الجُثَث، خلايا مستطلعة، وخلايا مصنعة، وخلايا مقاتلة، وخلايا لاقمة، هذا هو جهاز المناعة، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

والآن ثبت أنّ الشِدّة النفسيَّة تُضْعِف جهاز المناعة، وأنّ هذا الجهاز المناعي إذا ضعف تفاقم المرض، ومات الإنسان لأدنى سبب، والآن المشكلة الأولى في العالم أنّ الانحراف الخُلقي يُسَبِّب فيروس الإيدز، هذا الفيروس يلتهم جهاز المناعة ؛ الكريات البيضاء، فإذا قُضِيَ على الجيش دخل العدوّ من أيّ جهة شاء.

الأعضاء النبيلة في الإنسان موضوعة في أماكن محْكمة لحفظها:

أيها الأخوة، الأعضاء النبيلة في الإنسان موضوعة بأماكن محْكمة فالدِّماغ بالجمجمة، والنُّخاع الشَّوكي بالعمود الفقري، والقلب بالقفص الصدري، والرَّحم بين عِظام الحوض، الرحم جهاز نبيل، ففيه ينمو الإنسان في قرار مكين، ومُحاط بعظام الحوض من كل الجهات، القلب في القفص الصدري، والنُّخاع الشَّوكي بالعمود الفقري، الدماغ في الجمجمة، هذه ملاحظة، والعين في المحجر، الأذن، المدخل أضيق من أصغر أصبع، فيه غشاء طبل، فهذه آية من آيات الله الدالة على عظمة الله عز وجل.

2 - العين:

العين فيها طبقة قرنيَّة شفافة، مع أنَّ نِظام التغذِيَة في الإنسان أساسه الأوْعِيَة الشعريَّة، لو كان تغذِيَة القرنيَّة بالأوعية الشعريّة لأصبَحت الرؤية من خلال الشَّبكة، ولكن الله جعل القرنيَّة تتغذَّى بطَريقة فذَّة، وهي طريقة الحلول، فالخليَّة الأولى تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، وتعطي جارتها غذاءها عبر الحلول لذلك تبقى القرنيّة شفافة مئة في المئة، ويأتي الدمع فيَغْسِلها، ويُذيبُ كلّ جسم غريب علِقَ بها، ويأتي الجفْنُ فيمْسَحَها كمسَّاحة السيارات بشَكل آلي، وأنت لا تدري، وتأتي الرموش فتمنع التصاق الجفنين، لئلا يلتهبان، وتأتي القزحيَّة، وهي فتحة العين تصغر كلّما ازداد الضوء، وتكبر كلّما قلّ الضوء، تصغر آلياً، وتفتح آلياً، بشكل ذاتي، ويأتي الجسم البلوري ؛ هذه العدسة المرنَة التي يزداد احْدِدابُها ويقلّ لِتَجعل خيال الشيء المرئي يقع على الشبكيَّة دائماً، وهذا من أعظم الأدلة على عظمة الله عز وجل، عملية المطابقة في العين، وتأتي الشبكيَّة في عشر طبقات، وكل طبقة مئة وثلاثين مليون عُصيَّة ومخروط، وتنتهي بعَصب بصري تسعمئة ألف عصب، ولكل عصب ثلاثة أغمدة، هناك حبل لا يزيد عن ثلاثة ميلي وهو العصب البصري، وتنتقل الصورة إلى الدماغ بشَكل متصالب مع البعد الثالث عن طريق العيْنين، طول وعرض وعمق، والصورة تراها بحَجمها الحقيقي، وتراها فوراً، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

3 - شعر الإنسان:

العين آية، شعر الإنسان، ثلاثمئة ألف شَعرة، ولكل شعرة وريد وشريان وعصب وعضلة وغدَّة دَهْنيَّة وغدَّة صبغِيَّة، فالشَّعر آية، العين آية، والشمّ آية، كذا اللِّسان من آيات الله فكلّ حرفٍ تلفِظُهُ يسْهم في

صُنعه سبْع عشرة عضلة! إذا الكلمة خمسة أحرف، والجملة خمس كلمات، والخطبة ساعة، كم عضلة ساهمت في صنع هذه الحروف ؟

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

4 - البلعوم:

البلعوم ؛ لسان المزمار هو شرطي المرور الذي يعمل ثمانين عاماً من دون كلل ولا ملل، وأنت نائم يزداد اللعاب في فمك، تذهب إشارة عصبية، اللعاب ازداد، يأتي أمر من الدّماغ لِتَحريك البلعوم، يفتح طريق المري، ويُغلق طريق التنفّس، ثمّ يعود وأنت نائم ! البلعوم أكبر آية دالة على عظمة الله عز وجل يعمل بلا توقف، بشكل ذاتي:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

5 - البروستات:

والبروستات تقف عند ملتقى مجرى الخِصْيَتين، ومجرى الكِليتين، يلتقيان في أنبوب واحد، وعند اللّقاء تقع البروستات، فإذا كان طريق البول هو السالك تفرز مادّة تتعادل مع حمض البول، وإذا كان طريق الخِصيتين هو السالك تفرز مادّة مطهّرة، ومادّة معطِّرة، ومادّة مغذية ! وتفتح وتغلق ثمانين عاماً، فيقول لك معه التِهاب بروستات، تحتاج إلى تجريد، هل تعرف ما هي البروستات ؟ البروستات آية، البلعوم آية، العين آية، اللسان آية، الشعر آية، الأذن آية.

6 - الدماغ:

من يُصَدِّق أنّ في الدّماغ جهازاً يحسُب تفاضل وُصول الصّوتين إلى الدّماغ والتفاضل واحد على ألف وستّمئة وعشرون جزءاً بالثانية، فيعرف الدّماغ جِهة الصوت لو كان أذناً واحدة يسمع الصوت دون أن يعرف جِهته.

7 - الأذن:

من خلق هذا الصّيوان الذي يلتقط الأصوات من كلّ الجهات ؟ من ؟ الله جل جلاله، ولا تزال هناك آلاف الأسئلة حول الفرق بين النّغم و بين الضجيج ؟ تقف أمام شلاّل صوته يصم الآذان، تستمتع،

تسحق قطعة بلّور تحت الباب، تكاد تخرج من جلدك لماذا طَرِبْت للشلال وصوته شديد وانزَعجْت من سحق قطعة البلور تحت الباب فهذا ضجيج وذاك نغم ؟ ولماذا تطرب بصَوت العصافير ولا تطرب بصَوت الآلات، ذاك نغم وهذا ضجيج ؟ ألف سؤال حول الأذن، فالأذن آية من آيات الله الدالة على عظمة الله جل جلاله.

8 ـ الهيكل العظمي:

الإنسان ينام، فيه هيكل عظمي، تحته عضلات، ونسيج لحمي، وفوقه عضلات، وزن الهيكل العظمي مع العضلات التي فوق الهيكل العظمي تشكل ضغطاً على ما تحته، الله تعالى جعل نقاط إحساس بالضَغط فإذا تحسست بالضغط، أعطت أمراً للدماغ، كان نائماً فقلب، مسألة التقليب من عظمة الله، قال تعالى:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

[سورة الكهف: الآية 18]

حتى لا يقع من على السرير، مرة على اليمين، مرة على اليسار، كلما العضلات انضغطت، بحيث لمعات الأوعية ضاقت، يتقلب الإنسان، هذه من آيات الله أيضاً، فالإنسان إن كان معه سبات إذا لم يقلب يتفسخ جلده، ينتهي، أوّل عِلاج له أن يُقَلّب إن كان معه سبات، أما تصوروا إنساناً نائماً، يتقلب بالليلة ثمانية وثلاثين مرة، أنت تتقلب بالليل ثمانية وثلاثين إلى أربعين مرة، وأنت لا تشعر بشكل عفوي، فتقلبك بالليل بشكل متكامل، ذات اليمين مرة، وذات الشمال مرة، كلما انضغطت الأوعية بحيث أصبحت التروية ضعيفة، الإنسان يجلس على رجليه، يقول لك اخضرت رجلاي، ما معنى اخضرت رجلاي ؟ يعني التروية ضعفت (نملوا)، تحركها، أو تفقد الإحساس بها، فالإنسان كيف ينام ؟ يتقلب، فهذه من آيات الله الدالة على عظمة الله عز وجل.

9 ـ الأعصاب:

من جَعَل بِنَقي العِظام أعصاب حِسّ ؟ أربعة أخماس عِلاج الكسور بسبب الألم، فالألم الذي أتى من عصب الحِسّ في نقي العظام هو أكبر وقاية لعِلاج الكسور، الألم يجعلك تبقيها على حالها، أربعة أخماس العلاج أن تبقيها على حالها، لكنّ الله تعالى ما جعل بالأظافر أعصاب حسّ، كنت تحتاج عملية جراحية لقص الأظافر، ولا بالشعر، تحلق بكل راحة، فقص الشعر ما فيه شيء، مع أن فيه عصب

محرّك، يقول لك وقف شعر بدني، كيف يعني وقف ؟ كل شعرة فيها عضلة، وفيها عصب محرك، وليس عصب حسي، من جعل هذا ؟ قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

10 - الخلايا:

الإنسان كله يتبدّل، فأنت بعد خمسة سنوات كلّ جسمك يتبدّل تبديلاً كاملاً لأنّ أطول عمر خليّة خمس سنوات، وأقلّ عمر ثمانية وأربعون ساعة، أمعاؤك الدقيقة، و زُغَابَات أمْعائك الدقيقة تتبدّل كل ثمانية وأربعون ساعة وأنت لا تدري، زُغَابَات أمْعائك الدقيقة تتبدّل كل ثمانية وأربعون ساعة بالضّبط فأقلّ عمر ثمانية وأربعون ساعة، وأطول عمر خمس سنوات، فأنت كلّك تتبدّل بعد خمس سنوات عدا الدِّماغ والقلب، لو تبدل الدماغ لقال لك أنا كان معي دكتوراه لكن راحت الآن، تروح المعلومات، تنمحي الذاكرة، الدماغ لا يتبدل، والقلب لا يتبدل، ما سوى ذلك كله يتبدل:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

11 - جهاز التوازن:

الإنسان إذا مات ليس بإمكانك أن توقِفَهُ عن الموت، ولكن لو كان حيّاً وكان سيَسْقُط يتنبّه، فما التفسير؟ هناك جهاز توازن، ثلاث قنوات بالأذن وثلاثة أقواص، نصفها فيه سائل، وعلى الأطراف فيها أشعار هدبيّة تتحسّس بالسائل، فإذا ملت السائل يبقى سطحه أفقياً، فيصعد بقوس، فتحس أنك ملت، فتجلس نفسك، فلو أنّ الإنسان التَهَبت أُذُنه الداخليّة لما استطاع أن يتوازن، أحياناً الإنسان لا يستطيع المشي بائعوا الألبسة في محلاتهم جسم بشري، انظر إلى قاعدته، سبعون سنتيمتراً، أما أنت بهذا الجهاز لك رجلان لطيفتان، فلولا جهاز الاستناد في الأذن الداخلية لاحْتَجت إلى قاعدة اسْتِناد سبعون سنتمتراً، إذا شخص لبس حذاء ومشى بالطين، يقول لك حملت كل رجل كيليين طين، صار المشي أشغالاً شاقة، أما أنت فلك قدمان لطيفتان ورشيقتان، حجمهما لطيف، ويوجد جهاز توازن، جهاز التوازن يجعل القدمين لطيفتين، لولا جهاز التوازن لاحتجت لأقدام أوزانها كبيرة ومساحاتها كبيرة لكي تتوازن، والله جعلك تمشي على رجْلين، هذا من آيات الله الدالة على عظمة الله عز وجل.

12 - الطحال:

الطُحال ! الإنسان في كلّ ثانية يولدُ فيه اثنان ونصف مليون كُريَّة حمراء، ويموت بكُلّ ثانية اثنان ونصف مليون كريَّة حمراء، إلى أين ؟ إلى المقبرة، مقبرة الكريات الحمراء هو الطُحال، لكنّ هذه المقبرة لها معامل، فهذه المقبرة تُحلِّل هذه الكريات إلى هيموغلوبين، وإلى حديد، فالهيموغلوبين يذهب إلى الكبد، ومنه إلى الصفراء، فالصفراء خلايا كريات حمراء ميّتة، والحديد يُعاد شحنه إلى نقي العِظام لِيُعاد تصنيعه من جديد، فالطحال مقبرة مع معمل، والطحال معمل كريات حمراء احتياط والطحال مستودع لكُريات الدم، مستودع ومعمل ومقبرة، هناك شَخص يصبح الطُحال يتجاوز حدوده فَعِوَض أن يُحلِّل الكرية الحمراء الميّتة يُحلِّل الحيّة، فيُميتها ويُحلِّلها، فصاحب المرض مات بهذا المرض، فالطُحال إذا رفع نشاطه قليلاً يموت الإنسان.

13 - الغدد:

وهذا البنكرياس، يقول لك: مرض السكر، فأنت لا تستطيع أن تضع على يدك قليلاً من السكر فتحترق، السكر يحترق على النار، أما البنكرياس فيُفْرِز الأنسولين، يجعل السكر يحترق بدرجة سبعة وثلاثين، وقت ضعف إنتاج الغدّة الصماء، يوجد شخص معه مرض سكر، معه سكر زائد بالدم.

من صمّم لهذه الغدّة ذات الإنتاج الداخلي أن تحرق السكر بالدرجة السابعة و الثلاثين، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

وظيفة الغدة النخامية (ملكة الغدد):

الغدّة النخاميّة وزنها نصف غرام، ملكة الغدد، وتفرز اثني عشر هرموناً، أحد الهرمونات إذا الإنسان رأى أفعى، أو رأى عدواً، أو رأى وحشاً، يخاف، طبعاً رؤية الأفعى تنطبع على الشبكية إحساساً، فتنتقل إلى الدِّماغ إدراكًا، بحسب المفهومات السابقة، الدِّماغ ملك الجهاز العصبي يعطي أمراً لِمَلكة الجهاز الهرموني (الغدّة النخاميّة) وهذه الملكة لها أتباع، وأحد أكبر أتباعها الكظر، فوق الكليتين، تعطيه أمراً فيتصرَّف، والكظر يعطي خمسة أوامر ؛ يعطي أمراً للقلب برَفع نبضاته فالخائف يلهث، يضرب قلبه مئة وثمانين ضربة، خائف لوجود خطر، لِخَطر يلمّ به، ويحتاج لدَم أكثر، لا يكفي ثمانون ضربة في الدقيقة، يحتاج نبضاً سريعاً، حتى يكون الدم إسعافي، والأمر الثاني للرِّئتين فيزداد وجيبهما، والأمر الثالث للكبد فيطْرح كميَّة سُكَّر إضافيّة، والأمر الرابع للأوعِيَة فتضيق لمعتها، والأمر الخامس

يزداد هرمون التّجلّط حتى إذا صار هناك نزيف لا يذهب الدم كلّه ! ثواني، بمعشار الثانية، القلب يزداد وجيبه، والرئتان يزداد وجيبهما، والدم في الكبد يطرح، ولمعة الأوعية تضيق، يصفر لونه، خائف، يدق قلبه، ويلهث، ويصفر لونه، ودمه فيه سكر زائد، ولو أنه جرح، يلتئم الجرح بسرعة، لأن معه تجلط، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

14 ـ جهاز تبريد التعرق أرقى جهاز تبريد للإنسان:

أيها الأخوة، قد يكون جسم الإنسان أكبر آية بين يديك دالّة على عظمة الله، فالجلد آية، والشعر آية، وجهاز تبريد التعرّق، وهو أرقى جهاز تبريد للإنسان، تُفْرز العرق، وبعدها يتبخّر، ولما يتبخّر يسْحب من حرارة الجسم، فالإنسان حينما يعرق تتوازن حرارته، فالتعرق جهاز تبريد، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

15 ـ منعكس المص عند الوليد:

الذي أتمنّاه ؛ أن يُفكِّر الإنسان بجِسمه، فهذا الطِّفل يولد الآن، وإذا أُعْطِيَ ثَدْي أُمِّه يلتقمه (يمصّه)، المص عمَلِيَّة مُعقّدة، قالوا الإنسان يولد مع منعكس المص، ولولا هذا المصّ لما عاش طفل، هل تستطيع تعليمه ؟ انتبه يا بني الله يرضى عليك ضع فمك على حلمة ثدي أمك و اشرب الحليب واسحب الهواء ؟ لو لم يكن عنده إمكانية التقام الثدي يموت، ومن جعل جهازه الهضمي مملوءاً شحماً أسوداً، ومن جعل في حليب الأم مادّة مُذيبة للشّحم في أوّل الجرعات ؟ تجده أول يومين، برازه أسود، لأنه شرب صمغة أذابت الشحم، هذا تصنيع راق جداً:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

16 ـ تقلص رحم المرأة و انقباضه:

هذا الرحم الذي يتقلص تقلصاً متباطئاً لطيفاً قبل الولادة، بعد الولادة، تقلص مفاجئ حاد، لأن عشرات الألوف من الأوعية تقطعت، عند الولادة لو كان تقلصه لينا لماتت الأم نزيفاً، فالرحم ينقبض انقباضاً

شديداً تلتئم به هذه الأوعية المتقطعة، أما أثناء الولادة يوجد طفل، تجد التقلص لطيفاً، متزامناً، من جعل حوض المرأة يتوسع عند الولادة توسعاً ميكانيكياً بفعل أمر هرموني، من ؟

17 ـ تغير تركيبة الحليب في الرضعة الواحدة:

من يصدّق أنّ هذا الحليب الذي يمصّه الطفل يتبدّل تركيبه في الرضعة والواحدة من أولها إلى آخرها، ويتضاعف السكر أربع مرات يكون الماء أول رضعة أربع أمثال، ثم ينزل إلى الربع، والسكر يتضاعف أربع أمثال، من؟! من جعل هذا ؟! ومن جعل تركيب حليب الأم يتناسب مع هضم الطفل ومع العصارات الهاضمة ؟

كلّ مناعة الأم بحَليبها، ساخن بالشتاء، وبارد في الصيف، ومعقّم جاهز، مع المناعة، وأحْدث بحث الآن أجري في جامعات راقية جداً، أنّ القصور العقلي سببه الإرضاع الصِّناعي، فالبديل مرضعة أخرى فإن ماتت الأم جاء الأب له بمُرضِعَة أخرى، وهذا الحليب مخصّص للطفل، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

[سورة البلد]

عظمة الخالق في النبات:

أنا ما ذكرت إلا عناوين موضوعات للتفكر، عناوين، وكل موضوع يتحمل يوماً، ويومين، وثلاثة، وأربعة، وتطالع، وتفكر، وتدرس، لتعرف من هو الله، من هو الذي خلق ؟، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25) ثُمّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً(26))

[سورة عبس]

ماء، ينحل فيه ثمانية عشر معدناً، من جعل المعدن يذوب ؟ فيه معدن، وفيه أملاح المعدن، يقول لك ماء فيه ماء حديد، الأشلات حديد، تعطي للنبات الأصفر حديد على شكل أملاح، يذوب في الماء يمتصه النبات، من جعل النسغ الصاعد فيه ثمانية عشر معدناً ؟ فيه اليخضور بالورقة، فيه الفوتونات، فيه الآزوت، نسغ نازل، يصنع الثمرة والزهرة والورقة والغصن والجذع، من جعل هذا ؟

أعظمُ معملٍ صنعه الإنسان يبدو تافهاً أمام الورقة، فالنبات آية، نحن ذكرنا نماذج في التفكر في آيات الله في السماوات والأرض، وفي النفس، فإذا صلى الإنسان الفجر، وجلس يقرأ القرآن أو يسبّح أو يكبّر، فليَجعَل جزءاً من هذه الجَلسة تفكّراً في خلق السماوات والأرض، والقضية بين يديك، وأنت تأكل، هذا القمح غذاء كامل، ستة أنواع من المعادن والفيتامينات في غشاء القمح (بغلاف القمح).

كأس الماء: إذا كان تحلية الماء يكلف حوالي خمسة عشر ريالا للتر، أغلى من البنزين، هذا ماء محلى خالص، من جعله عذباً فراتاً، وذاك ملح أجاج ؟ الله عز وجل.

الحكمة من نضج الخضار تباعاً و المحاصيل في يوم واحد:

إذاً لماذا الخضار تنمو تباعاً، والمحاصيل تنمو في يوم واحد ؟ آية دقيقة جداً.

مرة قال لي أخ، أخذنا حقل بطيخ تسعة أشهر، كل يوم نحول سيارة، قلت له كيف تعرفون البطيخة الناضجة كله أخضر ؟ قال لي يا أستاذ، فيها حلزون تمسكه إذا انكسر تكون مستوية، طري لم تستو بعد، حلزون صغير جنب منبتهاً، والله جعل لكل شيء علامة، علامة دقيقة جداً، قال تعالى:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

[سورة النحل]

أساساً الله جعل علامات، كل شيء له علامة، لولاها كنا ضعنا، وجهه أصفر، معه فقر دم، فيه بحة، معه رشح مثلاً، فموضوع العلامات كذلك من آيات الله الدالة على عظمة الله تعالى، فعندك طعامك، عندك شرابك.

خلق الإنسان خلق مدهش:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

[سورة الطارق]

خمسمئة مليون حوين بين لقاء الزوجين، الحوين الواحد عليه خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، كلام دقيق أحكيه لكم، عند العلماء بديهي، خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة على الحوين، وعندك خمسمئة مليون حوين، فالمرأة جعل الله من بيضها بيوضاً معدودة تنتهي دخلت سن اليأس، الرجل ليس كذلك، ممكن إنسان ينجب بالتسعين، لكن المرأة لا تحمل بالتسعين، الله جعل المبيض فيه بيضات معدودة، تنتهي في الأربعين، في الخامسة والأربعين، الخمسين، سن اليأس، من جعل البويضات محدودة ؟ الحوينات غير محدودة ؟ تصميم من ؟ الإنسان يصاب بالصلع، لكن المرأة لا تصاب بالصلع، يخف شعرها لكن لا تصلع أبداً، من صمم هذا التصميم ؟ دقق في هذه الظواهر، هي كلها بين يديك، انظر خلق الأنثى، خلق الذكر، طباع الأنثى، طباع الذكر، انظر لطفل ولد الآن، كبر قليلاً، ركب عصا وذهب، أما البنت التي ولدت الآن، بعد كم شهر، تحمل مخدة على ظهرها، إذا: لماذا هذا ركب القضيب، هي حملت المخدة ؟ هذا شيء ببنية الإنسان، ففيه خلق مدهش.

التفكر يؤدي إلى معرفة الله و عبادته و السعادة بقربه:

أنت إذا فكرت في خلق السماوات والأرض عرفت الله، وإذا عرفتهُ عبدْته، وإذا عبدته سَعِدت بقربه في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية]

ما فيه حديث ثان، هذا هو الكون أوسع باب إلى الله، وأقصر طريق إلى الله تعالى، الكل بين يديك، إذا فكرت بالكون، وقلت الله يقشعر جلدك، إله الذي خلق السماوات والأرض:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(5))

[سورة التين]

إذا ما عرف الله، رددناه أسفل سافلين.

سعادة الإنسان تكون بالتفكر بآيات الله و معرفة منهجه:

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الحقائق منطلقاً لكم في التفكر، جلست على الطعام فكر، نمت، النوم من نعم الله العظمى، الأعصاب تبتعد عن بعضها، السيالة العصبية تصل فتجد مسافة فتتوقف، أما إذا كان الصوت كبيراً جداً تتجاوز، تستيقظ، من جعل النوم سباتاً ؟ أي النوم آية، يعني الشيء الذي يعرفه العلماء عن الجسم البشري يفوق حد الخيال، ومع ذلك يقول لك أحد العلماء لازلنا لم تبتل أقدامنا بعد ببحر المعرفة، الإنسان لا يزال كله أسرار، يكشفون كل فترة أشياء لم تكن من قبل.

على كل، الآية اليوم قوله تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

[سورة الذاريات]

أي إذا أردتم اليقين القطعي، الأرض كلها آيات، والسماء كلها آيات، وأقرب الآيات لكم:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

دقق، وتأمل، وفكر، وتعرف إلى الله عز وجل، وتعرف إلى منهجه، طبق منهجه، تسعد في الدنيا وفي الآخرة، وفي درس آخر إن شاء الله تعالى، ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (4-7): تفسير الآيتان 22-23 ، الرزق و شروطه لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-07-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الذاريات، ومع الآية الثالثة والعشرين.

الله عز وجل موجود بذاته ولا يعتمد في وجوده على ما سواه:

قال تعالى:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))

[سورة الذاريات]

سيكون الدرس الحالي حول هاتين الآيتين، أيها الأخوة: بادئ ذي بدء هناك واجب الوجود، وهناك ممكن الوُجود، وهناك مستحيل الوجود، فواجب الوُجود هو الله سبحانه وتعالى، وممكن الوُجود هو ما سِوى الله تعالى، ومستحيل الوجود لا يمكن أن يوجد، كيف ؟ فلا يمكن أن يكون الجزء أكبر من الكل، ولا يمكن أن يكون الابن قد وُلِد قبل الأب، هذه أشياء يستحيل على العقل تصديقها، مستحيلٌ أن يكو ن هناك إلهٌ مثل الله تماما ! فهناك واجب الوجود هو الله جل جلاله، وهناك ممكن الوجود وهو ما سوى الله ؛ الكون وما فيه من مخلوقات، وهناك مستحيل الوجود، دَعونا من مستحيل الوجود ولْنَبْق في واجب الوجود وفي ممكن الوجود.

الله عز وجل موجود بذاته، واحِدٌ أحد فرْد صَمد، ولا يعتمد في وجوده على ما سواه، ولا في استمرار وجوده، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4))

[سورة الإخلاص]

أكبر شيئين في حياة الإنسان وُجوده ورزقه:

لكن ممكن الوجود، الآن دققوا: مفتقر في وجوده إلى مَن يوجِدُهُ، ومُفتَقِرٌ في استِمرار وجوده إلى مَن يُمِدُّهُ، ونحن من بني البشر، وهذه صِفتنا، مفتقرون في وجودنا إلى الله تعالى، وهو الذي أوْجَدَنا، وهو الذي خلقنا، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان]

ومفتقرون في استِمرار وُجودنا إلى من يُمِدُّنا بالهواء وبالماء، والطعام والشراب، وبالزوجة، وبالأجهزة ؛ القلب و الرئتين، وبالمعدة، والأمعاء، والكليتين، والأنسجة، والأوردة، والشرايين، فالإنسان جزءٌ من ممكن الوجود، وهو الكون، ومن خصائص ممكن الوجود أنّه مفتقر في وُجوده إلى من يوجِدُهُ وهو الله جل جلاله، ومفتقر في استمرار وُجوده إلى من يُمِدُّه.

لذلك الله جل جلاله هو الخالق أي الموجِد، وهو الرب أيْ هو المُمِدّ، خلقنا وأمدّنا بكُلّ ما نحتاج لذلك الله عز وجل خالق يعني موجدٌ، ورازق يعني مُمِدّ، وأكبر شيئين في حياة الإنسان وُجوده ورزقه لأنّ وُجوده من دون موجِد عدم، ولأنّ رزْقه من دون رازق موت ! لذلك من أسماء الله الحسنى أنّه هو الرازق.

للإنسان ثلاث حاجات أساسية هي:

1 ـ حاجة الإنسان إلى الطعام و الشراب لاستمرار وجوده:

شيءٌ آخر، هذا الإنسان أودع الله فيه حاجةً إلى الطعام والشراب ؛ مِن أجل استِمرار وُجوده، فلو لم يودِع فيه هذه الحاجة ونَسِيَ أن يأكل لمات، فهذه الحاجة هي التي تدْفعه للأكل والشرب، هل هناك قانون في الأرض يُلْزِم الناس بالطعام والشراب ؟ مستحيل، لأنّ الجوع هو الذي يأكل كبد الإنسان، ينطلق إلى الطعام والشراب من أجل أن يسدّ هذه الحاجة، فهناك حاجة أساسيَّة إلى الطعام والشراب، وهذه الحاجة مِن أجل بقاء الفرْد.

2 ـ حاجة الإنسان إلى الزواج لاستمرار النوع:

وهناك حاجة لا تقلّ في قيمتها عن حاجة الطعام والشّراب، وهي الحاجة إلى الزواج، هذه من أجل بقاء النوع.

3 ـ حاجة الإنسان إلى تأكيد الذات:

وهناك حاجة ثالثة لا تقلّ عن الأولى والثانية إلا أنّها ليْسَت ماديَّة ؛ حاجة إلى بقاء الذِّكر، أو إلى تأكيد الذات، أو إلى الشعور بالأهميَّة، هذه الحاجات الثلاث، الله سبحانه وتعالى حينما خلقها في الإنسان خلق ما يُلبّيها، فما دام أنّه خلق فماً، ومعِدةً، وأمعاء، وكبداً، و دماً، وإحساساً بالجوع فلا بدّ أن يوجِدَ لهذا

الجسم ما يسدّ جوعه، ثمّ إن الله سبحانه وتعالى ما دام قد أوْدَع في الإنسان الحاجة إلى الزواج فلا بدّ من أن يخلق الإنسان ذكراً وأنثى.

تساوي الذكر و الأنثى في التشريف و التكليف و اختلافهما في الخصائص:

للذّكَر خصائصُهُ الجِسْميّة والعَقليّة والنّفسيّة والاجتماعيّة، وللأنثى خصائصُها الجِسْميّة والعَقليّة والنّفسيّة والاجتماعيّة، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

[سورة النجم]

الذّكر والأنثى (يشكل سريع) متساويان تساوياً تاماً عند الله في التكليف والتشريف والمسؤوليّة، ومختلفان اختلافاً كبيراً في الخصائص لأنّ كلاً منهما له خصائص تناسب وظيفته قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

[سورة آل عمران]

كل مخلوق على سطح الأرض له رزق يصله بأية طريقة:

ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى أوْدَعَ في الإنسان الرغبة إلى تأكيد ذاته، وإلى الإحساس بالأهميّة، وهذه هي الوقائع الثلاث التي أوجدها الله في الإنسان وما أوْجَدَها إلا وأوجَدَ ما يسدّها أو يُلبّيها، ما أوْجَدَها إلا وأوجَدَ ما يسدّها.

لذلك الله جل جلاله هو الرزاق ذو القوة المتين، يرزق النملة السوداء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ولو تبحّرْتَ في اسم الرزاق لوجدْت العجب العُجاب، لو تبحّرْتَ في اسم الرزاق ولو جدت الشيء الذي لا يوصف، فكلّ مخلوق يصلُهُ رزقه بطريقة أو بأخرى.

امتحان الإنسان من خلال بقائه في المجتمع:

أيها الأخوة الكرام: هناك شيء آخر، وهو أنّ الإنسان طاقاتهُ وإمكاناته تُتيحان له أن يُتْقِنَ اخْتِصاصاً واحِداً، أو اخْتِصاصين، أو ثلاثة، لكنّه بحاجة إلى ملايين الحاجات، إذاً هو مَقهور أن يكون في مجتمع، لو كتبت على ورقة ما تستهلكه في اليوم الواحد ؛ تحتاج إلى خبز، إلى ماء، إلى طعام، إلى شراب، إلى بيت، إلى فراش، إلى غرف، إلى تعليم، و إلى طبابة، أي تحتاج إلى أشياء لا تعد ولا تحصى، وقد يسّر الله لك عملاً واحِداً أو اخْتِصاصاً واحِداً، ما معنى ذلك ؟ أنّك مقهور أن تكون في مجتمع .

الآن من خِلال حاجتك إلى الطعام والشراب تنطلق إلى العمل، ومن خلال حاجتك إلى الزوجة تنطلق إلى الزواج، ومن خلال حاجتك إلى تأكيد الذات تنطلق إلى أعمال تسعى إلى أن تكون لك نِبْراساً في المجتمع، ومن أجل حاجتك إلى آلاف المواد تعيش في مجتمع، كلّ هذا من أجل أن تُمْتَحن بالخير أو الشرّ، وبالعطاء أو الحِرمان، وبالإحسان أو الإساءة، وبالصّدق أو الكذب، وبالإخلاص أو الخيانة، وبالاستقامة أو الانحراف، بالكبر أو التواضع، وبالإنصاف أو الجحود، ومن خِلال العمل، ومن خلال الزواج، ومن خلال تأكيد الذات، ومن خلال بقائك في المجتمع تُمْتَحَن أشدّ الامتِحان، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك]

وقال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت]

الأعمال الصالحة ثمن الجنة:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت]

إذاً أنت في الحياة الدنيا مُبْتَلى من أجل أن تعمل عملاً صالحاً يُؤهِّلُكَ لِجَنَّة عرضها السماوات والأرض، فأنت مخلوق للجنة، للجنة وحدها، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

ليعرفوني فيُطيعوني فيسْعدوا بِقُربي في الدنيا والآخرة، وهذا هو الهدف.

أنواع الرزق:

1 ـ نوع ميسور بلا ثمن:

الرزق أيها الأخوة أنواع ؛ نوع مَيْسور بلا ثمن، الهواء، ولو كان الهواء بالثّمن و بالقسائم، وبالاحتِكار لهلَكَ الناس.

2 - نوع يحتاج إلى سعي:

نوع يحتاج إلى سعي طفيف كالماء ليس له ثمن، وثمنه ثمن خدماته، وتوفيره من مكان إلى مكان، نوع يحتاج إلى ثمن، ونوع يحتاج إلى عمل.

وهناك أنواع مُنَوّعة من الرّزق أوْدَعها الله تعالى في الأرض، وبعضها تستخدمهُ مباشرةً، وبعضها يحتاج إلى تدخّل من جهد بشري، ومن خِلال هذا الجُهْد البشري المَبنيّ على العِلم والعمل يُمْتَحَنُ الإنسان فيرْقى أو ينْحَدِر.

الثوابت و المتغيرات في الكون:

أيها الأخوة الكرام، شيء آخر في الموضوع، وهذه كلّها موضوعات تَمْهيديّة ؛ هناك في الكون ثوابت ومُتَغَيّرات، فمن الثوابت مثلاً دورة الأرض حول نفسها، ومن خلال آلاف السنوات بل مئات ألوف السنوات، بل مئات مئات ألوف السنوات ما رأينا مرة الأرض توقّفت عن الدّوران، تدور بسرعة ثابتة، وتتحرّك بمواقيت موزونة، بشكل مذهل، حتى إنّ أدق الساعات في العالم تُضْبط على حركة الكواكب، فحركة الأرض حول نفسها، وكذا حركتها حول الشمس، وميْل مِحورها من الثوابت، لكنّ نزول الأمطار من المتغيّرات، مع إنّ الأمطار مَبْنِيَّة على عِلمٍ دقيق إلا أنّ مفتاح التشغيل بيد الله عز وجل، فلو نظرت إلى آلةٍ بالغة التعقيد ؛ كلّ شيء يعمل فيها بانتظام، ولكن لهذه الآلة مفتاح إن لم تدر هذا المفتاح الآلة لا تعمل.

فالأرض من الثوابت، أما نزول الأمطار فَمِن المتغيّرات، والذي يُدْهش أنّ الله سبحانه وتعالى جعل الثوابت لِيَسْتقرّ الكون على نِظام ؛ نِظام الأيام والأسابيع والشهور والسنوات، ونِظام الليل والنهار، ونِظام الفصول هذه كلّها ثبّتها الله عز وجل، ومن الثوابت خصائص الأشياء، فالحديد صلب ما قولكم إذا كان الحديد مرة صلباً، ومرة مائعاً ؟ بعد أن أشدت البناء وقع، تغيرت خصائص الحديد، الحديد حديد، والنحاس نحاس، والفضة فضة، والرصاص رصاص، وبذرة الخيار خيار، والتفاح تفاح، والأجاص أجاص، فخصائص الأشياء ثابتة، هذه من الثوابت، خصائص الأشياء.

الهدف من التثبيت الاستقرار و الهدف من التغيير التربية:

نزول الأمطار من المتغيّرات فلمَ ثبّت ؟ ولمَ غيّر ؟ الذي ثبّته من أجل الاستقرار، والذي غيّره من أجل التربية، فالأب يُعطيك غرفة في البيت لك وحدكَ دائمةً بشَكل ثابت، أما المصروف فقد يدفعه إليك أو لا يدفعُه تأديباً وإثابة لك، فالثوابت كي يستقرّ الكون، والمُتغيّرات كي يُربّى الإنسان، إذا الرّزق متغيّر.

الفرق بين الرزق و الكسب:

أوّلاً هناك موضوع دقيق وهو ما الفرق بين الرّزق والكسب ؟ الرّزق ما تنتفِعُ به فقط، فالطعام الذي أكلته، والقميص الذي ترتديه، والسرير الذي تنام عليه، والبيت الذي تسكنه ؛ والطعام الذي تستهلكه، هذا فقط ووحده هو الرّزق، وأما الكسب فقد يكون لك في الحِساب مئات الألوف، أو بضعة ملايين، أو مئات الملايين، أو عشرات مئات الملايين لكنّها كسب وليس رزقاً، فالكسب حجمك المالي، أما الرّزق فهو مستهلكاتك، الكسب كلّه تُحاسب عليه ولا تنتفع به، لكنّ الرّزق تُحاسب عليه، وتنتفع به، أما انْتِفاعُكَ به فعلى ثلاثة أقسام ؛ قِسْمٌ تستَهلكُهُ كالطّعام والشراب، وقِسمٌ يَبلى كالثِّياب، وقِسمٌ يبقى كالصّدقات يقول ابن آدم مالي مالي مالي، وليس لك من مالك إلا ما أكلْتَ فأفْنَيْت، أو لبِسْت فأبْلَيت، أو تصدّقْتَ فأبْقَيت، من التي لك الثُلث، وما سِوى هذه الثلاثة ليست لك، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ))

[رواه الترمذي عن أبي برزة الأسلمي]

الرزق أنواع كالطعام و الشراب و الزوجة و العلم:

أيها الأخوة، أُريد أن أقول لكم حقيقة، وهي أنّ الرّزق أنواع، هناك رزق كالطعام والشراب، وهناك رزق من النوع الثاني كالزوجة رزق، قال تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة البقرة]

لما سُئِل أحد العلماء الكبار عن حسنة الدنيا قال: هي المرأة الصالحة، فالمرأة الصالحة رزق، والعِلم رزق، والدليل قوله تعالى:

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

[سورة الواقعة]

رِزْقُ العلم حُرِمْتُم منه:

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

[سورة الواقعة]

فكما أنّ الإنسان بحاجة إلى الطعام والشراب فَمِن الرّزق الطعام والشراب، وكما أنّه بحاجة إلى الزوجة فمن الرزق الزوجة، وكما أنّه بحاجة إلى عُلُوّ الذِّكْر فالعِلم والحكمة من الرّزق، وما استرذل الله عبداً إلا أحضر عليه العِلم والأدب.

الرزق أداة ابتلاء:

أيها الأخوة الكرام، الرّزق هو الذي تنتفعُ به، والكسب هو الذي لا تنتفعُ به، وكلاهما تُحاسب عنه، الآن الرّزق أداة ابتِلاء، وأداة ثواب، وأداة عِقاب، أما أنّه أداة ابتلاء فالإنسان يُمْتحن بما أُعْطِيَ، ويُمْتَحن بما حُرِم ! أيْ أنّ الغنيّ مُمْتحنٌ بالغنى، وأنّ الفقير مُمْتحنٌ بالفقْر، فإذا نجَحَ الغنيّ في امْتِحانه كَسِب الدنيا والآخرة، وإذا نجح الفقير في امْتِحانه كسب الدنيا والآخرة، الإنسان ممتحن فيما أعطي، وممتحن فيما حرم، وربما كان امْتِحان العطاء أشدّ على الإنسان، فالفقير مثلاً خِياراته قليلة، وخياراته محدودة، يمتحن بالصبر فقط، لكنّ الغني عنده ألف خيار وخيار لِيَعصي الله تعالى، فإذا قال: إنّ أخاف الله ربّ العالمين، كان صَبْر الغني في الابتِلاء أشدّ من صبر الفقير، والضعيف خياراته محدودة، ولكنّ القوي بإمكانه أن يفْعل ويفْعل، وأن يؤذي ويسْحق، ومع ذلك حينما يكفّ يدهُ عن ظلم الناس خوفًا من الله فقد دفعَ الثمن باهظًا، لذا الإنسان يُمتحن فيما أُعطي، ويمتحن فيما أُخِذ منه، ومن عادتي أنّني أقول لإخوتي الكرام دائماً إن رأيْتُهُ في بَحبوحة أقول له: هذه مادّة امْتِحانك مع الله تعالى، هل تؤدِّي شُكْر هذه النِّعمة ؟ وهل تدفَعُ جزءاً من هذا المال للفقراء والمساكين ؟ وحينما أرى إنسانًا آخر مُبْتَلى أقول له الكلمة نفسها ؛ هذه مادّة امْتِحانك مع الله تعالى.

العِبرة في خواتم الأعمال:

أيها الأخوة الكرام، الرّزق ابْتِلاء، وإنّ مِن عبادي مَن لا يصْلُحُ له إلا الفقر فإذا أغْنيْتُهُ أفسَدتُ عليه دينه، وإنّ من عبادي من لا يصْلُحُ له إلا الغِنى فإذا أفقرتُهُ أفسدتُ عليه دينه، فأنت ممتحن بالفقر و ممتحن بالغنى، ولكن لو أنّ إنسانين عاشَا ثمانين عاماً ؛ أحدهما فقير، والثاني غنيّ، لو أنّ الفقير نجَحَ في امتحان الفقر، ولو أنّ الغنيّ رسب في امتحان الغنى، ما النتيجة ؟ أنّه بعد الموت يسْعد الفقير في

جنّة ربّه إلى أبد الآبدين، ويشْقى الغنيّ الذي رسَب في امتِحان الغنى يشقى في جهنم إلى أبد الآبدين، إذًا العِبرة في خواتم الأعمال والعبرة كما قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

امتحان الفقر أهْون من امتحان الغنى:

الدنيا إن أتَتْ أو لم تأت لم تكن مِقياساً لإرضاء الله عنك، فالله عز وجل أعطى المال لمن لا يحبّه ؛ قارون، وأعطاه لِمن يحبّه ؛ سيّدنا سليمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ولبعض أغنياء الصحابة كسيّدنا عثمان رضي الله عنه، فالمال يُعطى وليس هو دليل الرّضا، ويُمْنع، ولا يعني أن منعهُ دليل الفقر، النبي عليه الصلاة والسلام سئِل: أتُحِبُّ أن تكون نبيّاً ملكاً أم نبيّاً عبداً ؟ فقال:

((نبيّاً عبْداً، أجوعُ يوماً فأذْكُرهُ، وأشْبَعُ يوماً فأشْكُرُهُ))

ولعلّ النبي عليه الصلاة والسلام لِحِكمة بالغة أراد الأقرب إلى العبوديّة، وأراد الأسلوب من امتحان الغنى، فامتحان الفقر أهْون من امتحان الغنى، ويكفي أن تقول حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، أما الغني هناك ألف مُنزلقٍ ومنزلق أمامه، فإذا نجا من هذا قد لا ينجو من الثاني.

الرزق أداة ثواب و عقاب:

أيها الأخوة، والرّزق أيضاً فضلاً على أنّه أداة ابتِلاء هو أداة ثواب وعِقاب والدليل ؛ أما العِقاب ورد في الحديث الشريف:

((قد يُحرم المرء بعض الرّزق بالذّنب يُصيبه، فمن نمّى ماله بالربا يمحقها الله، وأكل مالاً حرامًا أهلك الله ماله، وأهلكه معه))

فالرّزق أحيانًا أداة عِقاب، وأحيانًا أداة ثواب، قال تعالى:

(وَأَ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

[سورة الجن]

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: الآية 66]

إذاً الرّزق من المتغيّرات، وأداة ابْتِلاء، وأداة ثواب، وأداة عِقاب.

ضَمان الله عز وجل الرّزق المفيد للإنسان:

أما أنه مضمون، فقوله تعالى:

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

[سورة الذاريات]

ما دام هذا الفم خُلِقَ لِيَأكل فلا بدّ له مِن طعامٍ وشراب، فالرّزق مضمون وقد يكون في حدوده الدنيا، فلا أحد يعلم أن هذا الطعام الخَشِن الذي يأكله المحرومون ربما كان في من المواد الغِذائيّة ما يفوق الطعام الثمين، فأمراض القلب في البلاد الصِّناعيّة الغنيّة ثمانية أمثال، وبالمناسبة قد أُجْرِيَت دِراسة على طعام الشُعوب في كلّ أنحاء العالم، فكان طعام شُعوب حوض المتوسّط (وهي شُعوب فقيرة) أفضل طعام في العالم، والسبب أنهم يُكثرون من المواد السيللوزيّة، وهذه المواد تَصون الغشاء المخاطي في الجهاز الهضمي، وتمتصّ الكولسترول الزائد، وتُسْرِع في انتقال الطعام وإخراجه.

ًإذا الطعام الخشن غير العصير، غير المعالج، طعام مفيد جداً، واكتشفوا أيضاً أنّ هذه الشُعوب تُكْثر من البروتينات النباتيّة كالحمص والفول، وهذا أسلم للجسم من اللحم الذي قد يؤذي كثرته، ثمّ إنّهم يستعملون زيت الزيتون، وهو من أفضل الدهون التي تُعين على مرونة الشرايين والإنسان عُمرهُ من عمر شرايينه.

دراسة دقيقة أجريت في مقارنة فيما بين الطعوم التي يأكلها الشعوب، وجد أن الطعام الذي في البلاد التي هي في الحوض المتوسط، وهي في الأعم بلاد فقيرة، أفضل طعام على الإطلاق، لذلك ضَمِن الله عز وجل الرّزق المفيد.

زيادة الرزق يكون بـ:

1 ـ الإيمان و التقوى:

أما الترف فأن تأكل عشاءً بِخَمسين ألفًا، هذه ليست مضمونة للكل، للمترفين مضمونة، أما أن تأكل ما يقيم أودك، هذا للجميع، الرزق مضمون، والرزق موزون، فهناك حِكمة بالغة مِن كون هذا الرّزق وافِراً أو قليلاً، ولكن السؤال الدقيق: هذا الرّزق هل يزيد أو ينقص ؟ الجواب: نعم، يزيد وينقص، والأدلة كثيرة، وأوّل دليل قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأعراف]

فالرّزق يزيد بالإيمان والتقوى.

2 - الاستقامة:

يزيد أيضاً بالاستقامة، قال تعالى:

(وَأَ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

[سورة الجن]

3 - التزام أحكام الشرع:

يزيد بالتِزام أحكام الشرع، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

[سورة المائدة]

فالرّزق إذًا يزيد بالطاعة والإيمان والتقوى، والاستقامة وهذه الأدلة، ثلاث آيات قرآنية:

4 - الاستغفار:

والرزق يزيد بالاستغفار، قال تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

[سورة نوح]

يزيد بالاستقامة والأيمان والطاعة، ويزيد أيضا بالاستغفار.

5 - إقامة الصلاة:

ويزيد الرّزق بإقامة الصلاة، قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

[سورة طه]

بيتٌ تُقام فيه الصّلوات ؛ هذا بيتٌ في الأعمّ الأغلب ؛ الله سبحانه و تعالى يرزقه فالرّزق ليس بالذّكاء ولكن بالتوفيق، والرّزق ليس بالحركة الطائشة الدؤوبة، ولكن بتَوفيق الله تعالى، إذا الالتزام يزيد في الرزق، والاستغفار يزيد في الرزق.

6 ـ الصدقة:

وفي الحديث الشريف الصدقة تزيد في الرّزق قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

[سورة البقرة]

المال الذي تنفق منه الصدقات يربو و يزيد وقد قال عليه الصلاة والسلام: استمطروا الرزق بالصدقة ! أيْ إذا أردْتم رزْقًا وفيرًا فتصدّقوا، ولِحِكمة أرادها الله عز وجل على الآلة الحاسبة الإنفاق ينقص المال، ولكن القرآن الكريم على كلام خالق الكون الإنفاق يزيد المال، فالإنفاق بالحسابات المادّية ينقصه، لكنه بالحِسابات الربانيّة يُنمّيه يكثرهُ، لذلك ما نقص مال من صدقة.

7 ـ الإتقان:

شيء آخر، وهو أنّ الرّزق يزيد بالإتقان، فإتقان العمل جزء من الدّين و هو أحد أسباب الرّزق، لأنّ الله يحبّ من العبد إذا عمِلَ عملاً أن يُتْقِنَهُ، وأنتم أمام هذه الحقيقة وجهاً لِوَجه، فكلّ أصحاب المصالح المتقِنون لا يتعطّلون، مهما عمّ الكساد، ومهما فشت البطالة، ولكنّ المهمِلين إذا صار الكساد تعطّلوا، أما المتقن لا يتعطل، فالإتقان أحد أسباب نماء الرّزق.

8 ـ الأمانة:

والأمانة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الأمانة غِنًى))

فحينما تكون أميناً تمتلِكُ أكبر ثرْوة في الأرض، ألا وهي ثِقة الناس، الناس يُعطونك أموالهم حينما يأمنوك، فالأمانة غِنَى، وهذا في كلّ المجالات العامّة ؛ في الأعمال التِّجاريّة والصناعيّة والزراعية، فالعامل المخلص الأمين له مستقبل مزهر، ينتهي به الأمر إلى أن يكون صاحب العمل، والذي يخون ويأخذ ما ليس له يُلقى في مزبلة التاريخ، يلقى في المزبلة ويُطْرد، الأمانة غنى بالمعنى المادي، فإذا كنت أمينًا تهافت عليك الناس، وتنافسوا على أن يضمُّوك إليهم، الأمين، وأصحاب الأعمال يغفرون كلّ

خطيئة إلا الخِيانات فقد ترتكب أكبر الأغلاط في العمل،يمكن، أما أن تأخذ ما ليس لك، هذه لا تغفر لذلك ورد في الحديث:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[رواه أحمد عن أبي أمامة]

المؤمن لا يكذب ولا يخون:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[رواه أحمد عن أبي أمامة]

9 ـ صلة الرحم:

أيها الأخوة، الاستقامة، والصدقة، والاستغفار، وإتقان العمل، والأمانة والصلاة ؛ هذه كلّها تزيد في الرزق ! ثمّ إنّ صلة الرَّحِم أيضاً تزيد في الرّزق فمن أراد أن يُنسأ له في أجله، و أن يزداد له في رزقه فلْيَصِل رحمه، يوجد شخص إشرافه كان على كل الأسرة، على أخواته، على أصهاره، على أولاد عمه، على من حوله، يواسيهم، يمدهم بالمساعدة، فهذا فالذي يصل رحمه، بالزيارة، والتوجيه، وإنفاق المال، هذا يزيد رزّقه، بشكل أو بآخر، أنت عندما تنفق من مالك، ويجعل الله رزق غيرك عندك، فإذا أردت أن تنفق يأتيك رزق الآخرين إليك لأجل أن تنفق، فالذي ينفق يزداد رزقه، أنْفِق بلالاً ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً، وعبدي أنْفِق أُنْفِق عليك، ويوجد ثمانية آياتٍ حصْراً وعد الله المُنْفقَ بالخُلف والتّعويض، قال تعالى:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[سورة سبأ]

وهذه حقيقة ثابتة في القرآن الكريم.

قلة الرزق مع توافر شروط زيادة الرزق تُعزى إلى حكمة الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام، الرّزق أحد أكبر الموضوعات التي تشغل الإنسان بعد وُجوده، فإذا كان موجوداً فالموضوع الأوّل الذي يشْغلهُ هو الرّزق، وقد ورد أنّ كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً، كلمة الحق لا تقطع رزقًا ولا تقرّب أجلاً، والله سبحانه وتعالى هو الرزاق.

ولكن هناك سؤال ؛ فقد يقول أحدكم ؛ فلانٌ مستقيم، والاستقامة أحد أسباب زيادة الرّزق، وفلان متصدّق، ومستغفر، ومتقن، ويصل رحمه، وذو أمانة، ويصلي، ويأمر أهله بالصلاة، ومع كلّ هذه الشروط نجد رزقه قليلاً ! فما تفسير ذلك ؟ التّفسير أنّه إذا توافرَت كلّ هذه الشروط، ولم يكن الرّزق

وفيراً، فهذه الحالة النادرة الخاصّة تُعزى إلى حِكمة الله تعالى، وإنّ مِن عبادي من لا يُصلِحُه إلا الفقر، فإذا أغْنَيْتُهُ أفْسَدتُ عليه دينه، ولأنّ الله تعالى عَلِم ما كان، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون استسلم، وإنّ الله ليَحْمي صفيّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، وإنّ الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا، كما يحمي الراعي الشّفيق غنمه من مراتع الهلكة، وليس في الإمكان أبدع مما كان، وليس في إمكاني أبْدعُ ممّا أعطاني.

أيها الأخوة الكرام، إنّ مِن عبادي من لا يُصلِحُه إلا الفقر، فإذا أغْنَيْتُهُ أفْسَدتُ عليه دينه، إنّ مِن عبادي من لا يُصلِحُه إلا الغنى، فإذا أفقرته أفْسَدتُ عليه دينه، وهذه متى تعرفها ؟ يوم القيامة، يوم يكشف عن ساق، حينها يكشف لك عن حكمة أفعال الله معك، لا تملِك إلا أن تقول: الحمد لله رب العالمين، قال تعالى:

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللّهُمّ وَتَحِيّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة يونس]

الرزق الوفير لا ينفع الإنسان إن حُجب عن رحمة الله:

بقي في هذا الموضوع موضوع دقيق، وهو أنّ الرّزق المادي قد يتوافر وتُحْجب عنك رحمة الله، فإذا هذا المال الوفير هو أكبر عدوّ لك، هو سبب طلاق زوجتك، وسبب انحراف أولادك، وسبب عداوتهم لك، وسبب انْشِغالك إلى قمّة رأسك بالمال، وربما كان هذا المال الوفير سبب الشقاء في الدنيا، لذلك أُطْلب من الله رحمته أوّلاً، فإذا جاءك المال وحُجِبَت عنك رحمة الله كان المال وبالاً عليك، وكان المال أكبر عدوّ لك، وربّما قُتِل الإنسان من أجل ماله، وربّما انتَهَتْ حياتُهُ طمعاً بمَاله، وربّما قتله أقرب الناس إليه، لذلك إذا جاءك المال الوفير، وحُجِبَت عنك رحمة الله كالرزق أكبر أعدائك، وأما إذا أعْطيت رحمة الله عز وجل وكان مالكً قليلاً كان هذا المال القليل فيه بركة، ففي الآلة الحاسبة هناك تسعة أرقام وصفر، فيه زائد، ناقص، فيه جذر، وفيه ذاكرة، وأزرار أخرى ولكن لا يوجد زرّ البركة إطلاقاً، لكنّ البركة حقيقيّة مع المؤمن، فقد يعطيك الله رزقًا قليلاً ويُبارك لك فيه، تأكل وتشْرب وتستمتع، وتُعطي من حولك، شيء عجيب، وقد يُؤتيك الرّزق الكثير فَتُنْفقُه على صحّتك، وتنفقهُ في أصعب الظروف ولأتفه الأسباب تدفع مئة ألف، ومئتي ألف، وأربعة الملايين لغلطة صغيرة تستوجب عشرين عاماً من السّجن، تدفعها لتنجو من السجن، المؤمن المستقيم الله جلّ جلاله يُبارك له في رزقه القليل، لذا إن كان رزقك كفافًا، يكفيك من دون زيادة، فقد أصابتْك دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، لا تخف من هذه الدعوة، وافْرَح لها:

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنّعَهُ اللّهُ بِمَا آتَاهُ))

[رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

المال الوفير للمؤمن الحقيقي أحد مفاتيح الجنة:

وإذا أعطاك الله الرّزق الوفير، وكنت مؤمناً، فاسْجُد لله تعالى، لماذا ؟ لأنّ الله سبحانه وتعالى يُمَكِّنك بهذا المال الوفير أن تصل إلى أعلى الدرجات في الجنّة، بإنفاق المال، دع الأمر له، استسلم له، إن جعلك ذا دخل محدود، وقد عافاك في إيمانك، وفي صحتك، وفي أهلك، وأولادك، فهذه دعوة النبي لك، اللهم من أحبني، فاجعل رزقه كفافاً، وإذا أعطاك المال الوفير على إيمان كبير، كان هذا المال الوفير، أحد مفاتيح الجنة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول وهو لا ينطق عن الهوى:

((لا حَسَدَ إلاّ في اثْنَتَيْن: رَجلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ منهُ آنَاءَ اللّيْلِ وآنَاءَ النّهَار، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَار))

[البخاري عن أبي هريرة]

في مستوى واحد.

لذلك خُذْ من الدنيا ما شئت وخُذ بقَدَرِها همًّا، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه، أخذ من حتْفه وهو لا يشعر.

الحكمة أعظم أنواع الرزق:

أيها الأخوة، ليس كلّ رزق يكون حتماً ماديّاً، فأحيانًا تعد الحِكمة أعظم أنواع الرزق، والدليل قوله تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة]

ومن يؤتى الحكمة، فإذا آتاك الله تعالى الحكمة فعرفت الله سبحانه فقد أوتيتَ خيراً لا يعلمه إلا الله، ماذا أعطى الله الأنبياء الذين أحبوه ؟ هل في الكون كلّه مخلوقات أحبّ إلى الله تعالى من أنبيائِه ورسُله ؟ هل جعلهم أغنياء جميعاً ؟ كان عليه الصلاة والسلام إذا دخَل بيته يقول:

((يَا عَائِشَةُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ؟ قالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قالَ فَإِنّي صَائِمٌ، قالَتْ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيّةٌ أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ، قالَتْ: فَلَمّا رَجَعَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ أُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيّةٌ أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ وَقَدْ خَبَأْتُ لَكَ شَيْئًا، قالَ: مَا هُوَ ؟ قُلْتُ: حَيْسٌ، قالَ: هَاتِيهِ فَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَ، ثُمّ قالَ قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا، قالَ طَلْحَةُ فَحَدّثْتُ

مُجَاهِدًا بِهَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ ذَاكَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يُخْرِجُ الصَّدَقَةَ مِنْ مَالِهِ فَإِنْ شَاءَ أَمْضَاهَا وَإِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا))

[رواه مسلم عن عائشة]

الرزق القليل أحياناً يكون دافعاً إلى الله عز وجل:

سيّد الخلق، وحبيب الحق، وكان إذا أراد أن يصلّي الليل تنحّي السيدة عائشة رضي الله عنها بعض جسمها ليصلّي، لأنّ الغرفة لا تتسع لصلاته ونومه، أربعمئة متر، ثلاث جبهات مفتوحة، كاشف الشام كله، فالنبي عليه الصلاة والسلام ما كان هكذا بيته، بيته متواضع، ورزقه محدود، وامتحنه الله بالفقر فصبر وبالغنى فشَكر، وامتحنه بالنّصر فتواضع، لما دخل مكة فاتحاً، كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره، ولما امتحنه بالقهر في الطائف، قال إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي.

اِسْع أيها الأخ الكريم سَعْياً حثيثاً، وحيثما انتهى بك السّعي، فقل الحمد لله رب العالمين، أنا لا أرضى لأحدكم أن يقعد، و يقول: هكذا أراد الله لي، هذا توكّل، ولا يتّفق مع الإيمان إطلاقاً ولكن إذا سَعَيت سعياً حثيثاً، وانتهى بك السّعي إلى هذا الرّزق فقُل: الحمد لله رب العالمين هذا الذي أراد الله لي، وربما أعطاك فَمَنَعَك، وربّما منعَكَ فأعطاك، وقد يكون الرّزق القليل أحياناً دافِعاً إلى الله عز وجل.

أحد أكبر أسباب السعادة أن يرضى الإنسان بما قسمه الله له:

أيها الأخوة الكرام، حقيقة أقولها لكم ؛ الدنيا العريضة، والأموال الطائلة، والبيوت الفاخرة، والمركبات الفارهة، والرزق الوفير، والتّمتع بمباهج الدنيا، في البلاد الغنية، جعلت بينهم وبين الله تعالى حِجاباً، والفقر أحياناً، والحاجة أحياناً، والشدّة أحياناً دافِعٌ لنا إلى باب الله تعالى، فربما أعطاك فَمَنَعَك، بالتعبير العامي خذها وانمحي، وربّما منعَكَ فأعطاك، أعطاك العلم الغزير، وأعطاك الحِكمة، وأعطاك معرفته، و أعطاك سُبل الجنّة وأعطاك سعادة الدنيا والآخرة، لذا قُل: يا رب لك الحمد، لا تعترض على رزق الله عز وجل، فأحد أكبر أسباب السّعادة أن ترضى بما قسَمَهُ الله لك، الله قسم لك هذا الدخل، قسم لك هذه الزوجة التي فيها ألف علة، الله قسم لك إياها، ارضَ بها، دارها تعش بها، قسم لك هذا البيت، أخي صغير، ماشي الحال، مأوى، معك مفتاح بيت، كان عليه الصلاة والسلام يقول إذا دخل بيته: الحمد لله الذي آواني، وكم ممن لا مأوى له، معك مفتاح بيت.

الغنى الحقيقي أن يكون الإنسان معافى في جسده:

والغِنى الحقيقي أن تكون مُعافىً في جسدك، كلية واقفة، ثمانمئة ألف، دسام خمسمئة ألف، فأنت إن أردْت أن تحْسب ثمن أجهزتك السليمة، مئة مليون حقها، التي في الجسم لوجدتها لا تُحسب بالمال، فشَل كلوي بالأسبوعين غسيل كلوي، تقف بالدور ثمان ساعات، الجلسة ست ساعات، بقول لك تبخش بدني، لم يعد هناك محل، يبقى بالمئة عشرون من حمض البول، يجعلك إنساناً عصبياً، لا تحتمل أحداً، شيء غير معقول، الذي كليته سليمة، وقلبه سليم، والدسامات سليمة، والشريان التاجي مفتوح، يستطيع المشي، ينام، يقف، يقدر أن يفرغ مثانته من دون مشكلة، هذا غنى كبير:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[رواه ابن ماجه عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْأَنْصَارِيِّ]

هذا كلام النبي، كلام رسول الله، الذي لا ينطق عن الهوى:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

وكان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من نومه يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي))

أيْ أنّ الله سمح لي أن تعيشَ يوماً جديداً، ويقول:

((الحمد لله الذي عافاني في بدني))

يقف، بصر سليم، سمع سليم، حركة سليمة، قضى حاجة، ما فيه مشكلة، الطرق سالكة كلها، انتهى ثم يقول:

((والحمد لله الذي أذن لي بذكره))

موضوع الرزق من أكبر الموضوعات بعد وجود الإنسان:

إخواننا الكرام، موضوع الرّزق من أكبر الموضوعات بعد وجود الإنسان، لذلك أن تعرف أسبابه، أن تعرف وحكمته، وأن تعرف أسباب زيادته و أسباب نقصانه، وكيف تنفقه، هذا جزء من الإيمان، وآية اليوم، قوله تعالى:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))

[سورة الذاريات]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 24-46 ، المؤمن المستقيم يعلم أن الله يراقبه في كل أعماله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-07-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الذاريات، ومع الآية الرابعة والعشرين.

من دلائل نبوة الرسول الكريم إخباره بأخبار الأمم السابقة:

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة الذاريات]

هل حرف استفهام، والاستفهام هنا استفهام إنكاري، أيْ لم يأتك، فَمِن أين جئتَ بهذه الأخبار ؟ إنَّه من دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام، هناك في القرآن الكريم أنواع ثلاثة من الأخبار ؛ غَيبُ الماضي، وغيبُ الحاضر، وغيب المستقبل، وهذه القصّة من غيب الماضي، وهي من دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام، يعني أنت نشأت في الصحراء، وأنت أُمِّيٌّ قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

[سورة العنكبوت]

أمية النبي عليه الصلاة و السلام كمال فيه و ليست نقصاً:

أُمِّيَّة النبي عليه الصلاة والسلام كمال فيه لأنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي علَّمَهُ، قال تعالى:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7))

[سورة النجم]

ولو أنَّ النبي صلى الله عليه وسلّم تلقّى من ثقافة عصره الشيء الكثير، ثمَّ جاءه الوحي العظيم، لكان هناك سؤالٌ لا يبْرح أذهان أصحابه ؛ فكلّما قال شيئاً يُقال له: أهذا وَحْيٌ أم مِن ثقافتك ؟ أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون كلّ نُطق النبي عليه الصلاة والسلام وحياً يوحى، فهو معصوم عن الخطأ في أقواله وأفعاله وإقراره وصفاته، و علّمه الله جلّ جلاله، وقطعه الله عن ثقافة عصره فهو أُمِيّ لا يقرأ ولا يكتب، قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

[سورة العنكبوت]

فهل أتاك أي لم تأتِكَ يا محمّد قبل هذا تلك الأخبار، إنّها من عند الله عز وجل الذي يعلم السرّ وأخفى، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

قدوم الملائكة إلى سيدنا إبراهيم على شكل ضيوف كرام:

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة الذاريات]

ضيف إبراهيم هم الملائكة عليهم السلام، جاؤوا هذا النبي العظيم، جاؤوا أبا الأنبياء، على شكل ضيوف، ومن شيمة الأنبياء الكرم، فهم مُكرمون:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

قال علماء التفسير: إما أنّ إبراهيم عليه السلام بالغ في إكرامهم فصاروا مكرمين أو أنّهم من طهارتهم واستقامتهم مُكَرّمون.

استقامة الإنسان و أعماله الطيبة تجعله مكرماً عند الله و عند الناس:

الإنسان باسْتِقامته، وترفّعه عن السّفاسف، وتعلّقه بالكمالات، وباتّصاله بالله عز وجل يُكرّم عند الله، وعند الناس، فَفُلانٌ من الناس مُكرَّم باسْتِقامته ومكرم بإكرام الناس له، وكِلا المعنيَيْن يصِحّ في هذه الآية يمكن أن تستقيم، و أن تلتزمَ الصِّدق، وأن تؤدِّي الأمانة إلى أهلها، وأن تفي بالوعد، وأن تنجز الوعد، عندئذ أنت مكرَّم عند الناس وعند الله تعالى، فأعمالك الطيّبة تنتزع تكريم الناس لك، واستقامتك تلفت النّظر، وعِفّتك تلفت النّظر، وإقبالك على الله يلفت النّظر، فأنت بإمكانك أن تكرّم نفسَك بتَرفُّعها عن الدّنايا، وحينما تكرّم نفسَك بالتّرفّع عن الدنايا يُكَرّمك الله عز وجل عن طريق تكريم الخلق لك، قال تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

[سورة طه]

أيْ ألْقَيْتُ حُبّك في قلوب الخلق، وما أخْلص عبدٌ لله عز وجل إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودّة والرّحمة، وأثمن ثرْوةٍ، وأعظم رأسِمالٍ تملِكُهُ ثِقة الناس بك، ومحبّتهم لك.

التواضع، العفة، الصدق، و الإخلاص كمالات ترفع الإنسان عند ربه:

إذاً وقفة دقيقة، فأنت باستِقامتك، وعِفّتك، وطهارتك، وصِدقك، ووفائِكَ بِعَهدك، وإنجازك لِوَعدكَ، وترفُّعِكَ عن الدّنايا تتكرّم في ذاتك والناس يُكَرّمونك، فإذا فعَلْتَ هذا كرّمَكَ الله تعالى جزاءً، وألقى حُبّك في قلوب الخلق، وألقى مهابَتَك في قلوب الخلق، وجعل قلوب الخلق تميل إليك، فإذا أردْت عِزّاً بلا سلطان، و إذا أردت رِفْعةً بين الناس فَكُنْ مع الله، وأخْلِص لله، واستَقِم على أمر الله، وأقْبِل على الله تعالى، وإذا أحبّ الله عبداً ألقى حُبّه في قلوب الخلق ، قال:

يُنادى له في الكون أنّا نُحِبُّه فيسْمَعُ من في الكون أمر مُحِبّنا

* * *

والشيء الآخر، أنّ الكمال محبوب، والعِفّة مُعظّمة، والصِّدْق مُبجّل، والكرم يُمال إليه، فالكريم، والصادِق، والعفيف، والمتواضع، والمخلص، والوفي، هذه الكمالات هي التي ترفع الإنسان عند الله، بِرَبّكم، النبي عليه الصلاة والسلام أليس خطيباً من أعظم الخطباء ؟ بلى، أليس عالماً من أجلّ العلماء ؟ بلى، أليس قائداً سياسيّاً مُحنّكاً ؟ بلى، أليس أباً كاملاً ؟ بلى، أليس زوجاً ناجحاً ؟ بلى، أليس أخًا وفيّاً ؟ بلى، أليس خطيباً مفوهاً ؟ بلى، أليس حكيماً ؟ بلى لمّا أراد الله أن يمْدحَهُ ؛ بماذا مَدَحَهُ ؟ قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

ما الذي يُعْتمد عند الله ؟ الخُلق العظيم، **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.**

الْمُكْرَمِينَ: كلمة لها عدة معان منها:

فلذلك قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة الذاريات]

1 ـ إبراهيم عليه السلام بالغ في إكرام الملائكة:

المعنى الأوّل أنّ إبراهيم عليه السلام بالغَ في إكرامهم فَهُم مُكْرمون.

2 ـ الملائكة لطهارتهم صاروا مكرمين:

والمعنى الثاني أنّ الملائكة لِطهارتهم، وإقبالهم، وتعلّقهم بالله عز وجل صاروا مُكَرّمين.

3 ـ المعنى العملي بأن الله إذا أحب إنساناً مستقيماً أكرمه:

الآن المعنى العملي، أيُّ واحدٍ من المؤمنين إذا جَهدَ في ضَبط نفسِهِ، و ضبط أعضائِهِ وجوارحه، وضَبط دَخْله وإنفاقه، وضبط بيته وعمله، وكلّ شؤون حياته وفق منهج الله، الناس يُكَرّمونه بشكل عفوي، فالناس يُحِبُّون الصادق، ويُحِبُّون المنْصِف، ويُحِبُّون المتواضِع، ويُحِبُّون العفيف، ويُحِبُّون الأمين، ويُحِبُّون المستقيم، لذلك أنت تُكرّم نفسك بالاسْتِقامة، فيُكَرّمك الله تعالى بإلقاء حُبّه في قلوب العباد، ألم يقل تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

[سورة طه]

فإذا أحبَّك الله عز وجل وصَلتَ إلى كلّ شيء، والله أيها الأخوة، ما من عطاءٍ، ولا كسْب، ولا إنجاز، ولا تفوّق، ولا نجاح، ولا نصر، ولا فوْزٍ أعظم من أن يُحِبَّك الله تعالى، لذلك إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبُهُم، أبتليهم بالمَصائِب لأُطَهّرهم من الذنوب والمعايب، والحسنة عندي بعشرة أمثالِها وأزيدُ، والسيّئة بمِثْلها وأعْفو وأنا أرْأف بعَبدي من الأمّ بوَلدها.

السعادة المادية المحضة تحتاج إلى وقت و مال و صحة:

أيها الأخوة الكرام، لو أنّ الإنسان ترك الآخرة، وترك التَّوَجُّه نحو الله عز وجل، وأراد الدنيا، الدنيا بين يديه، الشيء الملموس من المال والنِّساء و المناصِب والمُتَع والبيوت والحدائق والطعام والشراب، لو أنّه أراد الدنيا ماذا ينتظرهُ ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَو الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَو السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة]

ماذا ينتظر العبد المعرض عن الله غير هذه الأشياء ؟! ثمّ إنّ الناس يعلمون أنّ الرجل إذا ترك الآخرة، وترك ربّه، وأدار ظهره للدِّين، وأراد السَّعادة المادِّية المَحضة لا تُتِمُّ له، لأنّ السعادة المادية المحضة تحتاج إلى وقت، وإلى مال، وإلى صِحَّة، ففي بدايته ليس هناك مال والصحَّة متوافرة والوقت متوافر، وفي منتصف حياته الصحّة موجودة والمال موجود والوقت غير موجود، وفي آخر حياته الصحَّة غير موجودة والمال والوقت موجودان !! فدائماً يوجد عنصر ناقص، والله عز وجل جعَلَ الحياة هكذا كي لا نرْكن إليها، ولكنّ الإنسان إذا عرف الله عز وجل يسْعد بقُربِهِ، ويسْعد في تحقيق هدفه.

على الإنسان ألا يعلق أهمية كبيرة على معرفة الناس له المهم أن يعرفه الله:

ثمّ قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25))

[سورة الذاريات]

لكنّه ما عرفهم ؛ قَومٌ مُنْكرون !! سيّدنا عمر جاءهُ رسولٌ مِن إحدى المعارك في شرق آسيا فسأله ما الذي حدث ؟ فقال الرسول:

((ماتَ خلْقٌ كثير))

فقال له عمر: **أذْكُر لي أسماءهم**، فَذَكَر له بعض أسمائهم، فقال: أيضاً ؟ فقال الرسول:

((ومات آخرون وأنت لا تعرفهم))

فبكى عمر رضي الله عنه وقال:**وما ضرّهم أنّي لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم**، أي لا تُعَلِّق أهَمِيَّة كبيرة على أن يعرفَك الناس، فالله يعْرِفُك، قال تعالى:

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ)

[سورة يونس: الآية 61]

وقال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء]

المؤمن الحق يراقب الله و يعلم أن الله يراقبه:

قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218))

[سورة الشعراء]

حالُ المُراقبة، فالمؤمن الكامل دائِماً يُراقب الله تعالى، ويُراقبُ أنّ الله يُراقبُهُ، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء]

تعليم الله الإنسان آداب الضيافة وهي:

لكنّ هؤلاء الملائكة الذين في صُورة البشَر ما عرفهم إبراهيم عليه السلام، قال تعالى:

(فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

[سورة الذاريات]

الآن الله جلّ جلاله في كلماتٍ عِدّة يُعلِّمنا آداب الضّيافة.

1 ـ إكرام الضيف دون سؤاله:

قال تعالى: فراغ إلى أهله، معنى راغَ أيْ انْسلّ خُفْيَةً ! دون أن يُعْلِمَ الضّيف، ومن أدب الضّيافة أنّك إن أردْت أن تُكْرِمَ الضّيف فلا ينبغي أن تسألهُ، إنّك إن سألْتَهُ أحْرجتهُ، وإنّك إن سألْتَهُ تَمَنّع وقال: لسْتُ بحاجة إلى الطّعام، ربما أحرج، وربّما استْحيى، فمن أدب الضّيافة ألا تسألهُ.

2 ـ على الإنسان أن ينسل خفية لجلب الطعام:

ألا تخرج من البيت أمامه وكأنّك ذاهبٌ إلى جلب الطّعام، فراغ خفية، انسل، قال تعالى:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[سورة الذاريات]

هذه الفاء تُفيد الترتيب على التعقيب أيْ ما إن خَرَج من عند الضُّيوف إلا وأحضر لهم الطعام.

3 ـ عدم التأخر في إحضار الطعام:

ومن أدب الطّعام ألا يتأخّر، فالتّأخّر الشديد في إحضار الطّعام يُتْعِبُ الضّيف، ويجعلهُ يتضجّر، فالأدب الثاني أنّه عاد بالطّعام سريعاً، معنى ذلك أنّه مُسْتعِدّ، والكرماء دائماً يسْتَعِدُّون، وعندهم أكلات كثيرةٌ جاهزة، فما أن يأتي الضّيف إلا والطّعام بين يدَيه، وهذا من شِيَم الكرماء، وإطعام الطّعام من السنّة، قال تعالى:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[سورة الذاريات]

مشْويّ، وورد في الحديث:

((أنّ المؤمن كالنّحلة لا يأكل إلا طيّباً، ولا يُطْعِمُ إلا طيباً.))

قال تعالى:

(قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً)

[سورة الكهف]

4 ـ تقريب الطعام إلى الضيف و دعوته إلى الأكل:

(فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[سورة الذاريات]

بعد أن جاء بهذا العِجل السَّمين الطيّب الشهيّ المَشْويّ قرَّبَهُ إليهم، فمعنى ذلك أنَّ المُضيف ينْبغي أن يُلاحِظ أنَّ هذا الطَّبَقَ بعيدٌ عن الضَّيف، وينبغي أن تُقَرِّبَهُ إليه، وقرّب إليه الماء، والخبز، هذا الطبق يحبه، فقربه إليهم، وأحيانًا يضَعُ المضيف الطعام أمام الضَّيف، ويشْغَلُ بحَديثٍ طويل، وينسى أن يقول له: تفضل كُلْ، والضَّيف يستحي أن يبْدأ بالطَّعام قبل أن يُدعى، إذا من أدب الضيافة أيضاً، أن تقرب الطعام إلى الضيف، وأن تدعوه إلى الأكل، قال تعالى:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27))

[سورة الذاريات]

خوف سيدنا إبراهيم من الضيوف عندما لم يأكلوا:

لكنهم ما أكلوا، فحينما لم يأكلوا أوْجسَ منهم خيفةً، قال تعالى:

(فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)

[سورة الذاريات]

إما لأنَّهم لم يأكلوا، أو إما لأنَّ عدم الأكل دليل عداوةٍ أو حِقدٍ، قال تعالى

(فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)

[سورة الذاريات]

أعظم فضل على الأب أن يكرمه الله بابن مستقيم مهذب:

بشّروا هذا النبي الكريم بغُلامٍ عليم، والله عز وجل إذا أكْرم الإنسان بغُلامٍ نجيب، وبغُلامٍ مُستقيمٍ، وبغُلامٍ مؤمن، وبغُلامٍ مُحِبّ لله عز وجل، وبغُلامٍ يسْعى مع أبيه فهذا مِن أعظم الفضل على الأب، فالآباء الذين يَهَبُهم الله عز وجل أولاداً نُجَباء، خلوقين، ومُنيبين، ومُستقيمين ؛ هذه ثَرْوَة لا يُمكن أن

تُقدَّر بثَمن، لِقَول النبي عليه الصلاة والسلام: خيرُ كَسب الرّجل ولدُه، لكنّ شيئًا لا يكون من لا شيء، فأنْ تُنْجِب الأولاد، وأن تدعهم للطريق، ولِرُفقاء السُوء، وأن تُهْمِل تربيَتَهم،وأن تهمل تهذيبهم، وتعليمهم، وتوجيههم، فإذا شَبُّوا انْحرفوا، وانساقو وراء شَهَواتهم، ومع أصدقائهم السيّئين ؛ عندئذ تندب حظّك، أنت هو المقصِّر، فالطِفل الصّغير ينبغي أن يرعى في وقت مُبكِّر، وأبوه مَسؤول عنه، وعليه أن يُلْقِنَهُ العِلم، والأدَب، والخُلُق، وحُبَّ رسول الله، وحُبَّ أصْحابه، وأن يُعَلِّمه القرآن، ويُفقِهَهُ بالفقه، ويعلّمه السيرة والمغازي.

استغراب امرأة إبراهيم بأن تنجب طفلاً و هي عجوز عقيم:

قال تعالى:

(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

[سورة الذاريات]

لا أقول ضربَتْ وجْهها ولكن صكّته، كأن تقول: ردَدْتُهُ على ظهره قال تعالى:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18))

[سورة طه]

أهشّ بها لا يعني أنّه يضرب بها غنمهُ، ولكن يضَع العصا على غنمه، فكذلك صكّت وجهها تَعَجُّباً ! أيُعْقَلُ أن أُنْجِبَ وأنا في هذه السنّ ؟! أيُعْقَلُ أن أُنْجِبَ وأنا عَجوز عقيم ؟

قدرة الله عز وجل في تغيير الأسباب و تعطيلها:

لذلك قال تعالى:

(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكَ)

[سورة الذاريات]

أي محجبة، صكت وجهها، وقالت عجوز عقيم، قالوا كذلك، وأنت عجوز عقيم، أي سوف تَلِدين غُلاماً عليماً، والمعجزة ليْسَتْ مُستحيلة عقلاً، ولكنّها بعيدةٌ عادةً ! وفرْقٌ كبير، لأنّ الله الذي خلق الأسباب قادِرٌ دائماً على أن يُعَطِّلها، وأن يلغيها، وأن يخلق نتيجةً من دون سبب قال تعالى:

(فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30))

[سورة الذاريات]

سؤال سيدنا إبراهيم الملائكة عن مهمتهم التي جاؤوا من أجلها:

ثمّ قال تعالى:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

[سورة الذاريات]

أيْ ما هي المهمّة التي أتَيْتُم من أجلها ؟! وما الذي بعثكم إلى المجيء إليّ ؟

إخبار الملائكة سيدنا إبراهيم عن المهمة التي كلفوا بها:

قال تعالى:

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34))

[سورة الذاريات]

أما معنى مُسَوَّمة أنّ كُلّ حَجَرٍ عليه اسم الذي سيَقْتُلُه، ولا يوجد شيء عند الله اسمه شظية طائشة، الشظية الطائشة سوء فهْمٍ من عندنا، أما عند الله فَكُلّ شيءٍ مُسَوَّم، ولكلّ شيء حقيقة وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يَكن لِيُخطئَهُ، وأنّ ما أخطأهُ لم يكن لِيُصيبَهُ:

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34))

[سورة الذاريات]

المجرم من يخسر الدار الآخرة:

مجرم الذي يعصي الله تعالى مُجرم، قال تعالى:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

[سورة القلم]

ما الذي يُقابل المسلم ؟ المُجرم، أجْرَمَ بحَقّ من ؟ بحق نفسِهِ، فلمّا الإنسان يخْسر الدار الآخرة، هو يخسَرُ نفسه، لا يزكيها، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

[سورة الشمس]

حينما يخسر نفسَهُ فهو في حَقِّها مُجْرِم، فالذي يخسر أهْله هو في حَقِّهم مُجْرِم، وحينما يخسر أولاده فهو في حقِّهم مجرم، وهذا الذي لا يدلّ زوجته على الله يخْسرها، وهذا الذي لا يزكِّي نفسه يخسرها، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الزمر]

من يخسر نفسه يخسر كل شيء:

أنت لا تملك إلا نفسك فإذا خسرتها خَسِرْت كلّ شيء، لذلك قالوا: يا رب ماذا فقدَ من وجَدَك ؟ وماذا وجد مَن فقَدَكَ ؟

ابن آدم أطلبني تَجِدني، فإذا وَجَدتني وجدْت كلّ شيء، وإن فِتْكَ فاتَكَ كلّ شيء، وأنا أحبّ إليك من كل شيء.

قال تعالى:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32))

[سورة الذاريات]

لا تتوهَّم الإجرام أن يدخل شخص إلى بيتٍ فيقتل إنسانًا، هذا في عُرْف مجتمعاتنا، أما المُجرم هو الذي لم يعرف الله تعالى، فأكل المال الحرام، واعْتدى على الأعراض، وتفلّت من منهج الله تعالى، وما عرف سِرّ وُجوده وغاية وجوده، وما عرف الدنيا، وما عرف من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ عاشَ كالناقة حبسها أهلها ثمّ أطلقوها، فلا هي عرفت لما حُبِسَت، ولا لِما أُطْلِقَت، وجعله الله صحيح الجِسم، وما عرف هذه النِّعمة، وأمرضه الله فما عرف حِكمة المرض، ومن لم تُحدث المصيبة في نفسِهِ موعظة فمُصيبتُهُ في نفسه أكبر، وما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدَّمَتْ أيديكم، وما يعْفو الله أكثر، وهذا الذي ما عرف حقيقة الدنيا، وما عرف حقيقة مُهمّته في الدنيا، وما عرف لماذا خلقه الله ؟ وماذا بعد الموت ؟ فهذا مجرم في حقّ نفسه.

الشارد عن الله حين يأتيه الموت يصاب بألم لا حد له:

لو أنّه مكتوب على عمود الكهرباء: لا تقترب خطر الموت ! فإذا اقترب الإنسان وأمسَكَ بالتّيار، ومات، لا أحد يُحاسبهُ، لكنّ التيار هو الذي حاسبه، ولو أنّ صاحب شاحنة كان يحمِل خمسة أطنان من السِّلعة، ووصَل إلى جِسر مكتوب عليه ؛ الحدّ الأقصى ثلاثة طنّ فإذا سأل هذا السائل: هل هناك شرطي مرور حتّى أجْتاز الجِسر ؟!!! ليس هذا هو الموضوع، إذا مشيْت فوق الجِسر وقعت الشاحنة

في النّهر، فأحياناً تكون أنت مجرمٌ بحقّ نفسك، ولا أحد يُحاسبك، فلمّا وصَلتَ إلى الأربعين والخمسين ولا زلتَ لا تعرف الله تعالى، ولا تعرف ماذا ينتظِرُكَ بعد الموت، حينما يأتي الموت فجأةً يُصيبُ الإنسان من الألم ما لا يُطاق، والله لو كشَفْت على إنسانٍ شاردٍ، وضالٍ مُضلّ جاءه الموت فجأةً، يدخل على قلبه من الألم والنّدَم والحزن ما لو وُزّع على أهل الأرض لكفاهم، قال تعالى:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف]

الإنسان حينما يأتيه ملك الموت وليس معه شيء، قال تعالى:

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة آل عمران]

عدم طلب العلم و إتباع الهوى أكبر جريمة يرتكبها الإنسان بحق نفسه:

قال تعالى:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34))

[سورة الذاريات]

فَكَلمة مُجرم في القرآن لا تعني أنّه قاتِل، بل تعني أنّه إنسانٌ ما عرف الله وحمّل نفسه ما لا تُطيق، ودسا نفسه وما زكّاها، وأبقاها جاهلة ومُنحرفَة، وسَمَح لها أن تفعل ما تشاء، وأطلقها لِشَهَواتها، وجعلها كالدابة السائمة، هذا هو المجرم، والدليل قوله تعالى:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

[سورة القلم]

فإن لم تكن مسلماً فأنت مجرم بِحَقّ نفسك، فإذا إنسان معه شيك بِمَبلغ خيالي (ألف مليون) ولم يعرف قيمته فاستَعمله كَوَرقة مسْودّة، حينما يعلم الحقيقة ؛ ماذا يحصل له ؟ هذا مجرم بحقّ نفسه، لذا أكبر جريمة أن لا تطلب العلم، وتتّبع الهوى، وأن تكون إمّعة، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[رواه الترمذي عن حذيفة]

كل إنسان مسؤول عن عمله:

إذا قلتَ: كلّ الناس هكذا، والله يعفو علينا، هذا الكلام لا يُنجيك، وهذا الكلام لا معنى له، والدليل قوله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة: الآية 286]

أنت تستطيع أن تستقيم.

قال تعالى:

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33))

[سورة الذاريات]

إذا أطلق الإنسان لابنتِه العنان، وقال: أنا أريد أن تعيش وقتها، وأنت تعيش شبابها، وأن تنطلق في الحياة كي تَقْوى شَخْصِيَّتها، وقال لها: اِذْهبي حيث تشائين، وارْتدي أيّ الثياب تريدين، وأنا أُحبُّك أن تكوني متألِّقة في المجتمع، هذه يوم القيامة تقول: يا رب، أنا لا أدخل النار حتّى أُدْخل أبي قبلي، لأنّ هذا الأب في حقِّها مجرم.

المجرم يخطئ في حقّ نفسه و ليس في حق المجتمع:

قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

[سورة التكوير]

هذه التي قُتِلت إلى أين مصيرها ؟ إلى الجنّة، أما هذه التي أُفْسِدَت وأُطلق لها العنان إلى أين مصيرها؟ إلى النار، فهؤلاء الفتيات اللواتي يتنزّهن في الطرقات والأسواق بأبْهى زينة، كاسياتٍ عارياتٍ ؛ أليس لهنّ آباء ؟ أليس لهنّ أزواج ؟ أليْس لهنّ إخوة ؟ هؤلاء سيُحاسبون عنهنّ، وقفْتُ هذه الوقفة عند كلمة مُجرم، لأنّك إن لم تكن مُسلماً فأنت مجرمٌ، لا في حقّ المجتمع ولكن في حقّ نفسك، فأقْرب مثل ؛ لو أنّ الأب ترك ابنه من دون توجيه ولا تعليم، ومن دون رِعايةٍ، وضَبط، هذا الابن انطلق مُتفلِّتاً وشارداً ومنغَمِساً في المعاصي، ودخل في عصابة، فأُلْقِيَ القبض عليه وأودِعَ السِّجن، من الذي فعل به ذلك ؟ الأب، ومن الذي أهملهُ ؟ الأب لذا نقول: هذا الأب في حقّ ابنه مجرمٌ.

الإنسان العاصي سمي مسرفاً لأنه خرج عن مسار منهج الله تعالى:

قال: هذه الحجارة من الطِّين مسوَّمة عند ربّك للمسرفين، الذين أسْرفوا على أنفسهم، والله عز وجل قال:

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

[سورة هود]

النِّساء كُثُر، فمن التي بقِيَتْ لك حلالاً ؟ زوجتك، هذه هي بقيّة الله، والمال كثير، ولكن ما الذي يُسْمحُ لك منه ؟ المشروع، أما غيره محرَّم، فكلّ شيءٍ بقي لك من الشّهوات التي أوْدَعها الله في الإنسان هي بقيّة الله تعالى، فما من شهوةٍ أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة تسري فيها فالله تعالى رحيم، فأوْدع فينا حبّ النِّساء، ولكن فتح باب الزواج، وأودع لنا حب المال، ولكن فتح الكسب المشروع، فما من حاجة أو مَيلٍ إلا وله قناةً نظيفة، فالعاصي الذي خرج عن مسار منهج الله تعالى، فالشّهوات لها قنوات نظيفة، ولها انحرافات خطيرة، لهذا سُمِّيَ العاصي مسرفاً لكنّ عدالة الله عز وجل تلفت النّظر.

الله عز وجل إذا أراد حفظ عبد أبعده عن الخطر قبل وقوعه:

قال تعالى:

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36)

[سورة الذاريات]

حدّثني أخٌ كان ببَلدٍ غربي، حدث انفِجار وقبل دقائق من الحدث الله تعالى أودع فيه حاجة إلى الخروج من البناية، وبعد أن خرج بدقائق انفجر البناء، فالله عز وجل إذا أراد حِفظ عبده يُبعِدُه عن الخطر قبل وقوعه بوقت قصير، وهذا شيء يقع دائماً قال تعالى:

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36))

[سورة الذاريات]

قبل أن تأتي الملائكة بالحِجارة لِتَدمير قوم لوط، أخرجنا فيها من كان من المؤمنين ولم يكن هناك إلا سيّدنا لوط وبنتاه فقط، أما زوجته فمع قومها ومن هَويَ الكفرة حُشِر معهم.

طريق الإنسان إلى الله غير سالك إن لم يكفر بالكفار:

الإنسان أحياناً يذهب إلى بلاد الغرب ولما يعود تجده يشكرهم ليلاً نهاراً، أفلا رأيت الانحلال الخلقي، وتفسّخ الأسر، وتبادل الزوجات، واللِّواط، وما رأيت هذا الشّقاء الذين يعيشونه ؟ نظرت فقط إلى البنايات، والسيارات، وحدائقهم، كُنْ مَوْضوعِيًّا، أذْكُر ما لهم وما عليهم، فأنت إن لم تكفر بالكُفر فالطريق إلى الله تعالى غير سالك، أين هي حقوق الإنسان في العالم ؟ يَقضون على شَعبٍ بأكملِهِ، وقد قيل:

قتْلُ امرئ في غابةٍ جريمة لا تُغْتَفر وقتلُ شَعب آمنٍ مسألة فيها نظر

* * *

فالذي يجري في أوروبا ليس بعيداً عنكم ؛ أين هي رحمتهم ؟ وأين حقوق الإنسان فيهم ؟ وأين حرصهم على الإنسان ؟ أحقادهم ظاهرة، فهؤلاء الكفار إن لم نكفر بهم فالطريق إلى الله تعالى غير سالك، وأكبر إنجازٍ حصل، أنّ كلّ إنسان يرى بعَينِهِ جريمة هؤلاء الكفار، ففي الخمسينات كان هناك من يمْدحهم، ولكنّهم الآن في الوَحل والحمد لله، ممكن أن يكون الطريق إلى الله تعالى سالك لأنّ التكريم انتهى.

العقاب و الثواب الحقيقيين يوم القيامة:

قال تعالى:

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37))

[سورة الذاريات]

فالله عز وجل أحيانًا يُعاقب بعض المنحرفين عقاباً رَدْعِيًّا لِبَقِيَّة المنحرفين، ويكافئ بعض المحسنين مكافأةً تشْجيعيَّةً لِبَقِيَّة المحسنين، ولكنّ الحساب الدقيق، والرصيد يوم القيامة قال تعالى:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران]

ففي الدنيا المُحسِن قد يُثاب تشجيعاً لبَقِيَّة المحسنين، وقد يُعاقب المُسيء ولكن ليس هذا قاعدةً عامّة، إذْ العقاب والثواب الحقيقيّيْن يوم القيامة.

معجزات الأنبياء فوق طاقة السحرة:

قال تعالى:

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37))

[سورة الذاريات]

بالمعجزات، نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، وألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، هذا فوق طاقة السحرة، قال تعالى

(وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(39))

[سورة الذاريات]

قال بعض المفسِّرين: الرُّكن هنا جَيْشُهُ وبعضهم قال: تولّى بجانبه أي لم يُعط للحق أُذُناً صاغيَة، ولم يلْتفِت إلى هذا النبي الكريم، ولم يعبأ به، ولم يعْقِل مقالة سيّدنا موسى، وتولّى عنه جانباً، وأدار ظهره إليه.

المعنى الثاني، أنّ رُكن الإنسان جماعته، فهو قوي وطاغِيَة، فاعْتَمَد على قوّته، ولم يعبأ بهذا النبي الضعيف، قال تعالى:

(فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[سورة الذاريات]

تثبيت التهم الباطلة التي أتهم بها النبي ليكون أسوة للناس:

بالمناسبة، الله عز وجل ذكر التُّهم الباطلة التي ألقاها الكفار على أنبيائه الكرام، وهذا القرآن يُتلى إلى يوم القيامة، لو اقتربنا من النبي عليه الصلاة والسلام: قالوا عنه ساحِر، وقد ذُكِر هذا في القرآن الكريم، وقالوا عنه مجنون، وقد نفى الله عنه الجنون، قال تعالى:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[سورة القلم]

وقالوا عنه كاهن، وقالوا شاعر، وكلّ هذه التُّهَم أثبتها الله في القرآن الكريم ليكون النبي عليه الصلاة والسلام أُسْوةً حسنةً لِكُلّ داعية إلى يوم القيامة، فالإنسان إذا دعا إلى الله، وكان له خُصوم وحُسّاد، أو أُناس يطعنون في علمه أو نواياه الطيّبة، فلا ينبغي أن يحْزن أو ييْأس فهذا شأن الحق والباطل إلى يوم القيامة، ومعركة الحق والباطل معركة أزليّة، ولا تنقضي.

خيار الإيمان خيار وقت فقط:

قال تعالى:

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

[سورة الذاريات]

أين قوّته ؟ الله عز وجل دَفَعَهُ إلى أن يتّبع موسى، سيّدنا موسى ضَرب البحر بعصاه فإذا هو طريق يابس، ودخل معه المؤمنون، ولما خرج من الضفّة الثانية تبعَهُ فرعون، ولما أصبح فرعون وجنوده وسْط اليمّ عاد الطريق اليبسُ بحراً، فغرقوا، وفي أثناء غرقه قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس]

معنى ذلك أنّ خيار الإيمان خيار وقت، فهذا أكفر أهل الأرض الذي قال: ما أرى لكم من إلهٍ غيري، والذي قال: أنا ربّكم الأعلى، ومع ذلك حينما أدركَهُ الغرق قال: آمنتُ، فإما أن تؤمن وأنت صحيح مُعافى، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، فكلّ هؤلاء المتفلِّتين، والعصاة، والشاردين لَيْسُوا كَفِرعون، فرعون آمن، فالإيمان لا بدّ منه، وخيارنا معه خيار وقت فإما أن نؤمن، أو لا بدّ من أن نؤمن، أما إذا آمنّا فلنا كلّ شيء ولنا جنّتان ؛ في الدنيا وفي الآخرة، أما الإيمان بعد فوات الأوان ما هو إلا حسرة وندَم.

لوم الإنسان الشديد لنفسه عندما يعلم أنه مخطئ:

قال تعالى:

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

[سورة الذاريات]

معنى ذلك أنّه لامَ نفسه، والإنسان حينما تنهار مَعْنويّاته، و حينما ينهار داخِلِيّاً عندها يعلم كم كان مخطئًا، قال لي أحدهم: النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ))

[مسلم عن معمر بن عبد الله]

من دون تشديد، فليس في الأمر خطأ شديد، فقلتُ له: الله عز وجل وصف فرعون وهامان بهذا، قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

[سورة القصص]

فكلمة خاطئ كلمة كبيرة جدّاً.

غضب الله عز وجل يعجز العالم كله عن رده:

ثمّ قال تعالى:

(وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42))

[سورة الذاريات]

هذه العواصف، والأعاصير التي تزيد سرعتها عن ثمانمئة كيلو متر في الساعة، مئتان كيلو متر تهدم الجدران، ومئة وخمسين تقتلعُ الأشجار فكيف إذا كانت ثمانمئة، أحد الأعاصير في أمريكا دمّر ما قيمته ثلاثون مليار دولار بساعات !! فلا أبنية، ولا جُسور، ولا مزارع، كلّ شيء يُدمّر من خلال هذه الإعصار، فالله عز وجل بالأمطار يُدمِّر، وبالرّياح يدمّر، وبالصّواعق، والزلازل، وبالإيدز يُدَمّر، وهناك الآن سبعة عشر مليون إنسان مُصاب به !! وأضعف فيروس هو فيروس الإيدز، والعالم كلّه عاجزٌ عن مُكافحته.

قال تعالى:

(وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45))

[سورة الذاريات]

تمتع الكافر في الدنيا لا يعني أن الله يحبه:

دعاء سيدنا إبراهيم كما قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة]

فَتَمَتُّع الكافر في الدنيا لا يعني أنّه على حق أو أنّ الله تعالى يحبُّه، قال تعالى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

[سورة آل عمران]

قال تعالى:

(وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45))

[سورة الذاريات]

لذا في دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((أعوذ بك يا رب من فجأة نقمتك))

[أبو داود عن ابن عمر]

ابتعاد الإنسان عن غضب الله و سخطه:

يفقِدُ الإنسان بصرَهُ فجأةً، ويفقِدُ قوّته في لحظة، وخثرة بالدِّماغ، نقطة دم تجمَّدَت في الدِّماغ، فكلّ مكانة الإنسان، وكلّ قوّته، ورصيده المالي لا قيمة له، فهذا أحدهم درس ببلاد الغرب، وأخذ أعلى منْصِب فقَدَ بصرَهُ فجأةً، قال لِصديقي: أتمنّى إن أجلس على الرصيف أتكفّف الناس ولا أملك إلا هذا المعطف ويُردّ إليّ بصري، لذا:

((أعوذ بك يا رب من فجأة نقمتك، و تحول عافيتك، و جميع سخطك، و لك العتبى حتى ترضى))

[أبو داود عن ابن عمر]

فالله تعالى قال:

(وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45))

[سورة الذاريات]

ثمّ يقول تعالى:

(وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (46) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47))

[سورة الذاريات]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 47-51 ، كل شيء في الكون آية تدل على عظمة الخالق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-07-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس السادس من سورة الذاريات.

الكون آية من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51))

[سورة الذاريات]

عَودة إلى معرض الكون، فالكون هو معرض أسماء الله الحسنى، فإذا أردت أن تعرف الله فالكون أمامك بِسَماواته وأرضه، وبِمَخلوقاته ونباتاته، وبِخَلْق الإنسان، فالله جلّ جلاله في هذه الآية يلْفت نظرنا إلى الكون.

اكتشاف النذر اليسير من الكون فقط:

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

كلمة بِأَيْدٍ أي بِقُوّةٍ، الله جلّ جلاله يتجلّى باسم القويّ فتكون الجبال الشامخات، ويتجلّى باسم الجميل فتكون الزهرة الفواحة، وفي كلّ خَلْقٍ من مخلوقاته اسم يتجلّى أكثر ما يتجلّى فيه، فالسماوات بِمَجراتها، وكازراتها، ومُذنّباتها، وبِكَواكبها، وبِنُجومها، ومسافاتها الواسِعَة فالكون ينطوي على قريب مليون مليون مجرّة، والتي عرفت حتّى الآن، قال تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء]

وقال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة]

التواضع صفة العالم و الكبر صفة الجاهل:

سُئِلَ أحد كبار العلماء والذي جاء بالنَّظَرِيَّة النِّسْبِيَّة، وهي من أعظم النَّظَرِيَّات في الفيزياء في هذا العصر، وقد اكْتشَف النَّظَرِيَّة النِّسْبِيَة والتي تؤكِّد أن هناك بُعداً رابعاً هو بُعد الزَّمَن، فالأشياء الماديَّة رُباعِيَة الأبعاد طولٌ وعرض وارتِفاعٌ وزمن، هذا العالم يقول لما سئِلَ عن العِلم قال: طفلٌ صغير دخل إلى مكتبة، وكلّ جدرانها كتب حتَّى السَّقف، وقف بُرْهة ونظر إلى الكتب وخرج، فماذا أخذ من العلوم ؟ هذا هو العلم الحديث كلّه، فهذا جواب أعلم العلماء في فنّ الفيزياء يقول هذا الكلام، وهذا عالمٌ آخر يقول: لم تبتلّ أقدامنا بَعْدُ ببَحر المعرفة، ولازلنا على الشاطئ وهذا هو معنى قوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء]

لذا مِن علامة العالم التواضع، ومن علامة الجاهل الكِبْر، وقد ورَد أنَّه يظلّ المرء عالماً ما طلب العِلم، فإذا ظنّ أنَّه قد عَلِم فقد جَهِل، ففي اللحظة التي تتوهَّم فيها أنّك عالم فأنت جاهل !! لذلك الإنسان يطأطئ رأسه لِخالقه، قال تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء]

نصف العالِم هو أخطر إنسان على المجتمع:

أحيانًا تقرأ أموراً تُحيّر، فهذه الغدّة الثَّدْيِيَة في الحيوانات اللبونة، عبارة عن قُبَّة فوق أوْعِيَةٍ دَمَوِيَّة، تختار من الدَّم المواد الطاهرة النَّقِيَّة التي تُناسبها، وتصْنَعُهُ حليباً، والتعليق الذي يلفت النَّظر أنَّه حتَّى الآن لا أحد يعلم كيف تعمل هذه الخليَّة ؛ تأخذ دماً فتَجْعلُهُ حليباً ! وأنت إذا قرأت كتباً علميَّة منصِفة تجد هذه العبارة كثيراً، فلا أحد يعلم كيف يصبح الحليب حليباً وكيف يتم ذلك ؟

الآن العلماء انصرفوا لا إلى كُنهِ الأشياء، ولكن إلى ظواهرها، فالكهرباء مثلاً لا أحد يعلم كُنْهها ولكن نعلم ظواهرها فعلامة العالم التواضع، وعلامة الجاهل الكِبْر، وأخطر إنسان هو نصف العالم ؛ لا هو عالم فهو يُفيد من علمِهِ، ولا هو جاهل فيتعلّم، والإمام علي كرّم الله وجهه يقول: قِوام الدِّين والدنيا

أربعة رجال ؛ عالم مُستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم، وغنيّ لا يبْخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدُنياه، ثمّ يقول هذا الإمام الجليل: **فإذا ضيّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدُنيا غيره.**

أصل الدين معرفة الله عز وجل:

أيها الأخوة، المؤمن مهما ازداد علمه يزداد تواضعه، والإمام الشافعي يقول:**كلّما ازْددْتُ علماً ازْددْتُ عِلماً بجَهلي**، والإمام مالك رحمه الله، وهو سيّد علماء عصره جاءَه وفد من بلاد الأندلس، ومعه ثلاثون سؤالاً فأجاب عن سبعة عشر سؤالاً، أما الأسئلة الباقية فلم يُجب عنها، فقالوا له: أنت إمام، وقد أتيناك من طرف الدنيا، ثمّ تقول: لا أدري ؟ فقال لهم بملء فمِهِ:**قولوا لهم الإمام مالك لا يدري**، نصف العلم لا أدري، فإن لم تكن تعلم فقل: لا أعلم، ولا تتحرّج، فهذا الذي يظنّ أنّه يعلم كلّ شيء هو لا يعلم شيئًا.

هذه المقدّمة، كلّما تأمّلت في الكون شَعَرت أنّ خالقه لا نهاية له في كماله، ولا نهاية لِقُدرته، ولا نهاية لِعِمله وخِبرته، لذا معرفة الله أصل الدّين فحينما نتّجه إلى جزئيات الدّين دون معرفة الأصول نقع في متاهة كبيرة، لماذا بقي أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ثلاثة عشر عاماً يتعرّفون إلى الكون.

الآيات الكونية موضوعات هامة للتفكر:

اِقرأ السور المكيّة، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

[سورة الطارق]

وقال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس]

وقال تعالى:

(وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2))

[سورة الفجر]

فأنت لا تجد في القرآن الكريم في قسمه المكيّ إلا سورًا تتحدّث عن الكون، فهذه العبادة العظيمة التي هي سبب معرفة الله تعالى ؛ كيف أُهْمِلَت ؟ وكيف تجاوزْناها إلى جزئيات الدّين ؟ جزئيات الدين لا يمكن أن تعرفها إلا إذا عرفت كليّات الدِّين، الدّين بناء شامخ له أصول وله فروع، لذلك تقرأ القرآن

الكريم فتعجب، ففيه آيات لا تُعَدّ ولا تحصى تتحدّث عن الكون فهذه ما موقفك منها ؟ ولماذا أنزلها الله على النبي عليه الصلاة والسلام ؟ ومن أجل ماذا ؟ من أجل أن تكون هذه الآيات موضوعات للتفكّر، ومن أجل أن تتعرّف إلى الله تعالى مِن خلالها.

الآيات الدالة على عظمة الله:

الآية الأولى: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ:

هذه السماء التي فوقنا ؛ هل فكّرنا فيها ؟ وهل فكّرنا في الشمس والقمر، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

[سورة البروج]

الأبراج: نمرّ على كلّ شهر بِبُرج، ومن هذه الأبراج، ومن بعض نجومه قلب العقرب، يسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، وهل فكّرتَ في قِوى التّجاذب بين الكواكب والنجوم ؟ وهل فكّرتَ في المسافات الكونيّة ؟ خمسين مليون عام، ونسير بالساعة مئة كيلو متر كي نصل إلى أقرب نجم ملتهب، والمرأة المسلسلة مليون سنة ضوئيّة، وبعض المجرّات أربعة وعشرون مليون ألف سنة ضوئيّة، فهذه المجرّة التي تبعد عنّا أربعة وعشرين مليون ألف سنة ضوئيّة كانت في مكانها حتّى وصل ضوءها إلينا فالضّوء استغرق أربعة وعشرون مليون ألف سنة ضوئيّة حتى وصل إلينا مع أنّ الضوء يقطع في الثانية الواحد ثلاثمئة كيلو متر، وسرعة الضوء ثلاثمئة كيلومتر بالثانية، وأين هي الآن ؟ لا يعلم إلا الله أين هي ؟

الآية الثانية: بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ:

قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة]

دقق في هذا الاعتِراض ؛ وإنّه لقسَم لو تعلمون عظيم، معنى ذلك كما قال تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

[سورة فاطر]

هذه الشمس ؛ هل مِنّا من لا يراها ؟ هي أكبر من الأرض بمِليون وثلاثمئة ألف مرّة، فَجَوف الشمس يتّسع لهذا العدد من الأراضين ؟ فهذه القارات الخمس تساوي خمس الأرض، والأربعة الأخرى بحر،

والأرض كوكب في المجموعة الشمسيّة، والمجموعة الشمسيّة نقطة في مجرة درب التبانة، أرسلوا مركبة قبل بضعة سنوات إلى المشتري وهي أسرع مركبة اخترعها الإنسان ؛ أربعين ألف ميل في الساعة، كم احتاج إلى وصولها إلى المشتري ؟ سِتُّ سَنَوات، فهذه التجربة اثنا عشر سنة ذهاباً وإيّاباً، ولا زلنا في المجموعة الشمسيّة التي هي نقطة على درب التبانة، ومجرّتنا مجرة متواضعة وصغيرة ومعتدلة، هذا هو الكون وهذا هو خلق الله تعالى، فأروني ماذا خلق من دونه ؟

على الإنسان أن يعرف الآمر قبل الأمر ليطبق منهجه:

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

[سورة الزمر: الآية 67]

فالمشكلة في الدين أن تعرف الله فإذا عرفتهُ اندَفَعتَ إلى تطبيق أمره بشَكل عجيب أما إن لم تعرفْهُ تفنَّن عقلكُ في الاحْتِيال للخروج من منهجه، واختِراع الأساليب الملتَوِيَة كي لا يُطبِّق أمره، أما إذا عرفه يندَفِعُ إلى تطبيق أمره بشَكل عجيب، لذا عليه الصلاة والسلام من حكمته بدأ بالتَّعريف بالله تعالى لأصحابه، والآمر قبل الأمر، فإذا عرفْتَ الأمر قبل أن تعرف الآمر تفنَّنت في مخالفته، أما إذا عرفت الآمر قبل الأمر تنطلق إلى تطبيق أمره.

العاصي يجب أن يُفكِّر قبل أن يعْصي ربّه هو من سيعصي ؟

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

هناك في الفضاء الخارجي مقابر لمجرّات، ولقد سمّوها الثُّقوب السَّوداء منطقة ضَغط مذْهلة، ولو أنَّ الأرض دخَلت إلى هذا الثقب الأسود لأصبحت بِحَجم بيضة الدَّجاجة، وبِوَزنها نفْسِهِ، كم وزن الأرض ؟ جبل قاسيون ؛ كم وزنه ؟ وجبال هيمالايا كم وزنها ؟! أعلى جبال في العالم، وجبال الألب وطولوس، فكم وزن الأرض كلّها ؟ كلّ هذه الكرة لو دَخلت في هذا الثقب الأسوَد لأصْبحت بحجم البيْضة بالوزن نفسه، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

موسعون أي مسافاتها شاسعة جدّاً، والإنسان حتى الآن لم يصِل إلى حدود الكون، فكيف بخالق الكون؟!! فالكون حادث، وسبقه عدم، وينتهي إلى عدم، ومع ذلك لا نهاية له، والإنسان حتّى الآن لا يعرف حُدود الكون.

أنت بهذه العَين المجرّدة ترى نجوماً تزيد عن عشرة آلاف نجمة، أما بالمراصد العملاقة فهناك مليون مليون مجرّة، وبكلّ مجرّة فيها مليون مليون، هذا هو العدد الذي عرفه الإنسان حتّى الآن، فالإنسان لمّا يتّجه إلى معصيَة الله يجب أن يُفكِّر قبل أن يعْصي ربَّه هو سيَعْصي مَن ؟ فأنت بالمعسكر لا تستطيع أن تعصي أمر القائد، فكيف بالإله ؟ هذا المثَل منتزع من حياتنا، أتعصي من إذا قال للشيء كُن فَكُن قال تعالى في الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إِلّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

الشقي من غفل عن آيات الله و نسيها:

أحيانًا يشْتدّ الحرّ، يقول لك المكيّف ثمنه مئة ألف ليرة، ومصروفه رقم كبيرة فإذا هبَّتْ نسْمة عليلة تُلغي كلّ المكيّفات، أحيانًا في الشتاء يأتي يومٌ دافئ يُنْعِشُ الناس، فالله عز وجل خالق كلّ شيء، والمؤمن لا يغيب عنه ربُّه، والله جلّ جلاله في كلّ شيء خلق له آية تدلّ عليه، ولكن من هو التعيسُ والشقيّ ؟ هو الذي غفل عن آيات الله، فالله تعالى قال:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

لِسان اللّهب الذي يخرج من الشمس، يقترب من مليون كيلومتر، فحرارة الشمس فوق سطحها سِتّة آلاف درجة، وفي مركزها عشرين مليون درجة، ولو أن الأرض أُلْقِيَت فيها لتبخَّرَت في ثانيَة واحِدَة، فالأرض كلّها بصُخورها، وجبالها، وقاراتها، تتبخّر في ثانية واحدة، فهذه الشّمس التي تتّقِد منذ خمسة آلاف سنة، والعلماء قالوا: سوف يستمرّ اتِّقادها لِخمسة آلاف مليون سنة قادمة، الطاقة مِن أين ؟ أن

تُشْعِلُ مدفأةً، وبعد خمسة ساعات الخزان يصبحُ فارغاً، لا يوجد شيء يعطيك حرارة إلا ويحتاج إلى طاقة فالشمس تُعطي الضّياء والدِّفء ومصدر الطاقة في الأرض من أين جاءتْ ِهذه الطاقة ؟ ومن الذي يُمِدُّها بهذه الطاقة ؟ فلو أنّ الشمس انطفأت لأصْبحت الأرض قبراً جليدِيًّا، ولانتَهَتْ الحياة، وتصبح حرارة الأرض مئتان وسبعون تحت الصِّفر، وهو الصِّفْرُ المُطْلق الذي تنْعَدِمُ فيه حركة الذرّة.

إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا: فزوال الكون:

1 - زوال انحراف:

الذرّة الكتروناتها حول النواة، فلو أنّ الذرّة بلغَت الصِّفر المطلق انعدَمتْ حركتها، وإذا انْعَدَمَت حركتها زال كلّ شيء، لذلك قال الله تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

[سورة فاطر]

هذه الآية من أدقّ الآيات فلو أنّ الأرض زالتْ ؛ فما معنى وقت الزّوال ؟ أي وقت الظّهيرة، حينما تزول الشّمس عن كبِد السماء، أيْ حينما تنحرف فالزّوال الانحراف هذا هو المعنى الأوّل.

2 - زوال تلاشي:

الأرض تسير حول الشمس في مسار، فلو أنّ الأرض خرجَت من مسارها فابْتَعَدت عن الشمس، لأصْبَحت قبراً جليديًّا، ولوصَلت إلى الصفر المطلق، وتوقّفَت ذراتها عن الحركة وانعدم وُجودها، فهناك زوال الكون زوال الانحراف، و زوال التلاشي، ولو أنّ الأرض توقّفت عن الحركة لكانت حرارة السطح المُقابل للشمس ثلاثمئة وخمسون درجة، هل نستطيع العَيش ؟ والوجه الآخر مئتان وسبعون تحت الصِّفْر.

قدرة الله عز وجل في جعل الأرض لا تنحرف عن مسارها أبداً:

الآن لو فرضنا أنّ الأرض خرجت عن مسارها، وأردنا أن نُعيدها إلى مسارها، لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي، وقطر الحبل خمسة أمتار، وقوّة شدّ الحبل مليونين طنّ، كلّ هذه القوى من أجل أن تنحرف الأرض ثلاثة ميليمتر كلّ ثانية، بكل مسار إهليلجي حول الشمس، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

[سورة فاطر]

كل ما في الكون آية تدل على الله:

قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

[سورة القصص]

لو كان الليل مستمِرّاً كيف تكون الحياة ؟ فَدَوران الأرض آية، ومَيْلُ مِحورها آية، حجمها آية، وحجم الماء عليها آية، ولولا الماء لانعدمت الحياة، ولانعدم النبات والحيوان، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

الأهرامات يندهش الإنسان أمامها، فَمَن بنى هذه السماء ؟ قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

الله عز وجل بناها واسِعَةً، وبناها وهي تتّسِع، وهناك نظريّة الآن حديثة جدّاً، وهي أنّ الكون يتّسِع، وهي تتوافق مع هذه الآية، ونحن كما يرى علماء المسلمين لا ينبغي أن نجرّ الآية إلى الحقيقة العلميّة، أما إذا كان هناك تطابق عفوي لكان هذا شيئاً رائِعاً، وعلى كلٍّ حقائق الفلك بين أيدي الناس، فكلّ من أراد أن يعرف عن الكون شيئًا، هناك آلاف الكتب والموسوعات العلميّة، شيء يُصدّق وشيء لا يُصدّق.

ثبات حركة الأرض من ملايين السنين إلى يوم القيامة:

قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة]

ثمّ إنّ الكواكب والمجرّات تسير بشدِة متناهيَة بدليل أنّ هناك تقاسيم هي بين أيديكم، تفتح التقويم تجد أنّ الشروق يوم كذا على الساعة كذا، معنى ذلك أنّ حركة الأرض ثابتة من ملايين السِّنين، وبالدقائق. يقولون: شِدّة القرب حِجاب، فإذا فتحت التقويم على الشهر كذا في اليوم كذا، ووجدت أنّ الشمس تُشرق

على الساعة كذا وبالدقيقة كذا، هل فكرت أنّ الشمس تتحرّك على مستوى مِعشار الثانية ؟ من يستطيع أن يضبط سيْر القطار ضبطًا تامًّا ؟ فالأرض تسير ألوف الملايين من الكيلومترات، ولا تتأخّر ولا ثانيَة، فهذه الدقة المتناهية في الحركة ؛ مِن صُنع مَن ؟

على الإنسان التفكر في ملكوت السماوات و الأرض:

الشيء الآخر، لو جئتَ بكُتلتين مغناطيسيَّتَين، وبحَجمين متساويَيْن، ضَعهما على طاولة، وائتِ بكُرةٍ معدنيَّة، واجعلهما بين الكتلتين، بحيث لا تنجذب لا إلى هذه ولا إلى هذه، هذا شيء مستحيل، أن تجعل الضبط تامًّا، فكيف إذا كانت ثلاثة كتل ؟ فكيف إذا اختلفَت الكُتَل ؟ فكيف إذا كانت هذه الكتل في الفراغ ؟ فكيف إذا تحرّكَت هذه الكتل ؟ كلّ هذا موجود في الكون من كواكب ونجوم، وكلها متحرّكة، وهي فراغ، والمحصِّلة استِقرار، وهذه هي قوى التجاذب، وهذا هو معنى قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

[سورة الرعد]

أي بعَمدٍ لا ترونها، هل يمكن أن تُقيم بناءً يبدأ من خمسة أمتار فوق الأرض ؛ بين السماء والأرض ؟ وهذا الهواء الذي هو بيننا، ولا يحجب الرؤية، ولطيف، وينقل الصوت، هذا الهواء يحمل الطائرة ؛ بعض الطائرات وزنها ثلاثمئة وخمسون طنًّا، وهذا الماء إذا اندَفع لا توجد قوةٌ توقفه، وأحدث طريقة لِتفكيك الصخور هي حفْر الحفر وحقنها بالماء ثمّ تجميد الماء، فالماء آية، والهواء آية.

تذليل الأرض للإنسان:

لذا هذا الفِكر لا بدّ أن يجول في ملكوت الله تعالى، من هو الذي خلقك ؟ ومن هو الذي نهاك ؟ ومن هو الذي أمرك ؟ لما يقول الله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

[سورة النور]

وقال تعالى:

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)

[سورة النساء]

قال تعالى:

(وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

[سورة الذاريات]

ماذا نفعل لو كانت الأرض كلّها صخور ؟ لا يمكن أن نعيش عليها، فمن خلق التربة الناعمة، والأنهار، فمن فجّر ينابيع هذه الأنهار ؟ أحيانًا تجد نهر التايْمز بِلندن كلّ أمطار بريطانيا لا تكفي لهذا النّهر، والعلماء يقولون: مستودعاته بأوروبا في جبال الألب، كلّ أخ درس الفيزياء والكيمياء يؤمن يقينِيًّا أنّ هذا النّبع مستودعاته في جبل آخر أعلى منه، وقد سار تحت الوادي، هناك جزر مثل إندونيسيا أربعمئة جزيرة، وما منها إلا ولها نبْعٌ يتكافأ مع سكّانها وحجمها، هذه الجزر كلّها مستودعاتها في اليابسة، فمن فجّر الأرض ينابيع ؟ الله جلّ جلاله، فالإنسان إذا شرب كأس الماء، وأكل الخبز، وأكل خروفاً، من جعل هذا الخروف مذلّلاً ؟

من نعم الله الكبرى على الإنسان:

1 ـ الهواء:

الله عز وجل يقول:

(وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

[سورة الذاريات]

فالله وصف الأرض كلّها فراش، فيها ماء وهواء، فلو أنّ موجة حرّ داهمتنا لمتنا، كما حدث في أمريكا، فالإنسان تحت رحمة خالقه، والهواء يتجدّد دائماً، النبات يأخذ غاز الفحم ويطرح الأكسجين، وأنت بالعكس فهذه الغابات العِملاقة تأخذ غاز الفحم، وتعطيك الأكسجين، وهذه من آيات الله الدالة على عظمة الله تعالى.

2 ـ الماء:

فأحد أسباب الحياة على وجه الأرض هذه الظاهرة، وهي أنّ الماء يزداد حجمه إذا برّدته عند هذه الدرجة زائد أربعة، من قال ذلك ؟ الله جل جلاله، وهناك نقطة مهمّة جدًّا فأنت أحيانًا تشرب كأس الماء، وتستنشق الهواء، وتجلس على كرسي خشب، هناك أشياء سائلة، وأخرى صلبة، وأخرى غازيّة، وهذه في نفس الوقت، فهل انتبَهت لهذا ؟ لو أنّ درجة انْصِهار العناصر في الكون درجة واحدة لوجدت الكون إما صلباً أو مائعاً أو غازيًّا، أما هذا التفاوُت هو من نعم الله الكبرى.

3 ـ ثبات خصائص الأشياء:

الشيء الآخر ثبات الخصائص، فالحديد حديد، والذّهب ذهب، فكيف بك إذا اشْتريت ذهباً، وبعد مدّة صار حديداً ؟! فالخصائص ذابت، وهذه نِعمة لا يعلمها أحد، هناك معادن كالحديد بكَميّات كبيرة، وهناك معادن نادرة كالذّهب، وهناك معادن لها استعمالات خاصّة، وأخرى سريعة الانصهار، فالمعادن وحدها لا يعلمها إلا الله، ومخلوقات كثيرة لا يعلمها إلا الله، فهناك أنواع كثيرة من الطيور ومن الأسماك، وكم نوع من اللّحوم ؟ وكم نوعاً من الخضر والفواكه ؟ لو سألت المهندسين الزّراعيّين عن أنواع الفواكه لَدُهِشْت، وكلّ نوع متفاوتة في الشكل والذّوق والاستعمال ؛ أنواع منوّعة، وخصائص لا يعلمها، وليس في الإمكان أن أذكر كلّ شيء، قال تعالى:

(وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

[سورة الذاريات]

كلّ شيء في الكون مكوّن من زوْجَين اثنين:

وقال تعالى:

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[سورة الذاريات]

وقتَ نزول الرّسالة المحمّديّة، أُناسٌ كثيرون لا يعلمون أنّ الحيوانات أزواج، والآن ثبت أنّ كلّ شيء مكوّن من زوْجَين حتّى الذرّة فيها شَحنات موجبة، وأخرى سالبة، وهذا الشيء عُرف حديثاً، فالجسم الصُّلب الذي تتوهَّمُهُ نوعاً واحِداً هو ذكر وأنثى، فالنواة لها شحنة والكهارب لها شحنة، وهذا موضوع طويل لا مجال للخوض في تفاصيل، قال تعالى:

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[سورة الذاريات]

طبعاً علماء التفسير في العصور السابقة قالوا: سماء وأرض، ونور وظلام، جبل ووادي، المُحَصِّلة والنتيجة.

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ: آية لها عدة معان:

1 ـ تحرّر أيها الإنسان مِن قُيود الأرض و شهواتها:

قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات]

تركيب رائِع، الدنيا تشدُّك إليها، مالها وطعامها وشرابها ونساؤها، أن تفرّ منها إلى الله، وإلا كما قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الأعراف]

معنى فِرُّوا، أوّلاً تحرّروا مِن قُيود الأرض، ومن شَهوات و نزوات الأرض، ومن مطالب الجسد، ومن مصالحكم الماديّة، هذه كلّها تشدّ إلى الأرض، فالفِرار يحتاج إلى انْعِتاق، ثمّ انطلقوا بسُرعة إلى الله تعالى فالمعنى الأوّل التحرّر من كلّ قيْد أرضي، وكلمة فرّ منه يعني وجود شيء مُخيف، وقويّ، فهذه الشّهوات و الغرائز، والأرض بمالها ونسائها، هذه كلّها عوائق، ففِرُّوا إلى الله.

2 ـ انطلق أيها المؤمن بسرعة إلى الله:

والمعنى الثاني السرعة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران]

فالمؤمن ينطلق إلى الله تعالى بسرعة كبيرة، لأنّ الوقت أثمن شيء، وهو كالسَّيف إن لم تقطعْهُ قطعَك.

التوحيد أساس الدين:

قال تعالى:

(وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات]

التوحيد هو الدِّين كلّه، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، أما مع الشِّرك فلا شيء ينحلّ، لذلك قال تعالى:

(وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات]

قال تعالى:

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[سورة الذاريات]

وفي الدرس القادم نقف مع هذه الآيات وقفة متأنِّية.

محصِّلة هذا التَّأمل في الكون ففِرُّوا إلى الله، وأن تفرّ من قُيود الأرض ومن شهواتها إلى الله تعالى، فأنت بحاجة إلى التفلّت، وإلى سرعة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (7-7): تفسيرالآيات 50-60 ، علة وجود الإنسان في الأرض عبادة الخالق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-08-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع و الأخير إن شاء الله تعالى من دروس تفسير سورة الذاريات، ومع الآية الخمسين و الواحدة و الخمسين.

تذكير بالسابق وربط باللاحق:

أيها الأخوة، في الدرس الماضي كانت الآياتُ و هي قوله تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51))

[سورة الذاريات]

معناه أن هناك علاقة بين الآيات الثلاثة الأولى و بين الآية الرابعة، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات]

التفكر في آيات الله تؤدي إلى معرفة الله عز وجل:

الإنسان لا سبيل له لمعرفة الله إلا عن طريق معرفة آياته، و أيُّ توهُّمٍ أنه يمكن أن تعرف الله من دون التفكّر في آياته، فهذا الإنسان يمشي في طريق مسدود، السبب أن الله يقول:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

[سورة المرسلات]

أي ليس هناك حديث يقرّب الناسَ من معرفة الله إلا التفكّر في آياته، و قد كان الدرس الماضي في مجمله حول آيات الله في السماء، و حول آيات الله في الأرض، و حول أن الله سبحانه و تعالى خلق من كلّ شيءٍ زوجين اثنين، هذه الآيات كافيةٌ كي تؤمن أن لهذا الكون خالقاً و مربياً و مسيّراً و أن لهذا الكون إلهاً موجوداً و واحداً و كاملاً، و أن أسماء الله تعالى كلّها حسنى و أن صفاته كلّها فُضلى، و أنك إذا عرفته زهدت فيما سواه.

الإسراع إلى الله و إتباع منهجه ثمن معرفته:

أيها الأخوة الكرام، المحصِّلة و النتيجة و الشيء الذي يلزم هذه المعرفة أن تفِرَّ إلى الله، و أقف الآن هنا قليلاً، المعلومات و الأفكار و الدروس و الخطب و المطالعات، هذه القوة الإدراكية التي أودعها الله فيك، و هذه المُدرَكات التي ملأتَ بها ذاكرتك ما الجدوى منها ؟ و ما فائدتها إن لم تتحوّل إلى عمل ؛ و إن لم تتحول إلى سلوك ؟ فالإنسان كاد يموت عطشاً يبحث عن الماء، ثم عرف الماءَ، إن لم يتجّه إليه ما قيمة هذه المعرفة ؟ إن لم يتحرك إلى الماء ما قيمة هذه المعرفة ؟ رغم أنها معرفةٌ مصيرية، لكن ما قيمتها إن لم تتحرك نحو الماء ؟ دقِّقوا في قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف]

انفصال الفكر عن السلوك أخطر مرض أصاب المسلمين في العصر الحديث:

نحن الآن عندنا مرضٌ خطير يصيب المسلمين هو انفصال الفكر عن السلوك، يألف أن يستمع و أن يحضر مجالس العلم و أن يستمع إلى الخطباء و أن يقرأ المقالات و الكتب، هذا كلُّه ألِفه، و صار من عاداته اليومية لكن تجد حياته في وادٍ و فكرَه في وادٍ آخر، هذا الانفصال خطير جدًّا يصيب شخصية الإنسان، و انفصال الفكر عن السلوك هذا أخطر فتجد المسلمين يعيشون في ثقافة إسلامية و مشاعر إسلامية، إذا دخلتَ إلى بيوتهم فلن تجد إسلاماً، و إذا نظرتَ إلى أهلهم فلن تجد إسلاماً، و إذا دخلت في أعمالهم فلن تجد إسلاماً، لذلك هان أمرُ الله عليهم، فهانوا على الله، و ربُّنا سبحانه و تعالى يقول:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء]

فما قولكم أن للكفار على المؤمنين ألف سبيل و سبيل، معنى ذلك صار هناك انفصام في الدين، و مرض الانفصام في الدين أخطر من مرض انفصام الشخصية، الفكر في وادٍ و السلوك في وادٍ، لذلك الحلّ كما قال عليه الصلاة و السلام:

((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

و لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها فكيف صلح أوّلها ؟ بطاعة الله عز وجل.

لا يرقى الدين إلا بإنسان يخشى الله في الغيب:

نحن لسنا بحاجة إلى متكلِّمين و لا إلى متفقهين و إلى متنطِّعين و لا إلى متقعِّرين في الكلام، و لا إلى خطب رنّانة و لا إلى كلام بليغ و لا إلى مؤلّفات، نحن بحاجة إلى تطبيق، سيدنا عمر رأى راعياً يرعى شِياهاً، قال له:**لمن هذه الشياه ؟ قال ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب، أو خذْ ثمنها، قال: و اللهِ إني بحاجة إلى ثمنها و لو قلتُ لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدّقني و إني عنده صادق أمين، و لكن أين الله ؟** هذا الأعرابي وضع يدَه على وجه الدين، و لو أن المعلومات الدينية قليلة جدّاً فهو كبير عند الله، لأنه خشِيه، وهو كبير عند الله لأنه استقام على أمره و أنه خافه بالغيب، نحن نريد مثلَ هذا الراعي، هذا الذي يعجن العجين في الليل و دخل إلى دورة المياه و خرج و آثار النجاسة على يديه، أيتابع عملَه و يقول: لا أحد يراني، أم يخاف على غذاء المسلمين ؟

نريد إنساناً يخشى اللهَ بالغيب، نريد إنساناً يخشى الله من دون أن يكون مُداناً في الأرض، بهذا الإنسان تصلح الأمة و ينتشر الدينُ، و بهذا الإنسان يدخل الناس في دين الله أفواجاً، بهذا الإنسان يرقى الدينُ.

أصل الدين أن يكون طاهراً نقياً لا حرفة أو صنعة:

كنتُ اليوم قبل أن آتيَ إليكم في عقد قران، أخٌ كريم تقدّم فخطب قبلي، و تكلّم كلاماً طيّباً و جيّداً و رائعاً إلا أنه قال: إذا رأيت داعيةً لم تجد سلوكه مطابقاً لقوله فلا تعبأ بذلك، خُذ قولَه و دعْ سلوكَه، فلما جاء دوري في إلقاء الكلمة قلتُ: المدعو إن رأى المرء الذي يدعوه لا يطبّق منهج الله هناك سؤالان خطيران ؛ أوّل سؤال: هذا المنهج يبدو أنه غير واقعي لأن الذي يتحدّث عنه لا يصدِّقه، و إذا كان واقعياً المتحدِّث مقصِّر، و في كلا الحالين سقطتْ الدعوة، لا يمكن أن تصغي إلى إنسان لا يطبّق كلامه، ومثل هذا الإنسان لا شأن لك عنده إطلاقًا، وهذا الإنسان لا يستأهل أن تُصغي له، ولا أن تأتي بيته، ولا أن تأتي مسجده، لأنّه يُتاجِرُ بالدِّين والإمام الشافعي يقول: لأن أرْتزق بالرّقص، أهْونُ مِن أن أرتزق بالدّين، فلا تجعل الدِّين حرفة أو صنعة أو مهنةً، ولكن دَع الدِّين نقيًّا طاهراً في السماء.

تطبيق آيات القرآن الكريم سبب ارتقاء الإنسان عند ربه:

فيا أيها الأخوة ؛ هذا كلام مفيد، وكلام مُلخّص، إذا أردْت أن ترقى، فَدَعْك من القيل والقال، والخِلافيّات، ودَعْك من الحِوارات، وطبّق آية تعرفها، فهذا رسول الله لما قال له ذاك الأعرابي عظِني وأوْجِز تلا عليه النبي عليه الصلاة والسلام آيتين، وهو قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

[سورة الزلزلة]

و القرآن ستّمئة صفحة من آيات، وأحكام، ووعد ووعيد، وأمر، ونهي، وغيب الحاضر، وغيب الماضي، وقصص السابقين، ولكنّ هذا الأعرابي اكتفى بآيتين فقط، وقال الأعرابي: كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

والله الذي لا إله إلا هو، لا نحتاج إلا إلى آية واحدة ؛ إقبال على معلومات كثيفة وغزيرة، وتنوّع وخِلافيات وموازنات، ورأي الفقهاء والمفسّرين، ورأي الشافعيّة والمالكيّة والحنابلة والحنفيّة، ورأي الصوفيّة والسّلفيّة، وهذا الأعرابي اكتفى بهذه الآيتين.

التوبة أساس الإيمان:

أيها الأخوة، نحن بحاجة إلى إنسان مسلم، وإلى بيت مسلم، وإلى عمل مسلم، وإلى حِرفة إسلاميّة، وإلى تربية إسلاميّة ؛ هذا الذي نحن بحاجة إليه، أما التّخمة بالكلام، فلِذلك الله عز وجل:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[سورة الذاريات]

النتيجة الحتمِيّة هي التوبة إلى الله.

فرّوا: كلمة لها عدة معان:

والآن نقف عند كلمة فِرُّوا:

1 ـ فرار الإنسان من الشيء المخيف:

الإنسان يفرّ مِن الشيء المُخيف، ويفرّ من الوحش، ومن المرض، ومن الفقر، ومن الذلّ، ومن الهَول.

2 ـ الفرار من الشهوات:

المعنى الجديد اليوم، فأنا قد ذكرتُ لكم في الدرس الماضي فِرُّوا من شَهوات الدنيا، ومن الشّهوات الأرضيّة، ومن الشّهوات المنْحطّة، ومن قيود الأرض، ومن كلاليب الأرض.

3 ـ الفرار من عقاب الله إلى طاعته:

ولكن هناك معنى آخر ؛ وهو فرُّوا من عِقابه إلى طاعته، ومن عِقابه إلى ثوابه، ومن معْصِيَتِهِ إلى طاعته، ومن الشِّرْك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الخوف إلى الورع، فِرُّوا من التوكّل على غيره إلى التوكّل به فهناك شيئان: فِرارٌ من شيء، و فرار إلى الشيء:

((إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا بَلَغْتُ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، قُلْتُ وَرَسُولِكَ قَالَ لَا وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ))

[رواه البخاري عن البراء بن عازب]

هو واحدٌ إن عَصَيْتَهُ ينتظرك عقابه، فإن فررْت من معصيتِه إلى طاعته نجَوْت من عقابه وأصبحت في رحمته، إن عصَيْتَهُ ينتظركَ عِقابه، فإن فررْتَ من معْصيَتِهِ والتَجَأت من طاعته، نجَوْت من عقابه، ودخلْت في رحمته هذا هو المعنى، اللّهمّ أنا بكَ وإليك، فالإيمان واحد ؛ عنده عِقاب، وعنده ثواب، وعنده توفيق، وعنده تَعسير، وعنده صِحّة، وعنده مرض، وعنده عِزّ، وعنده ذلّ، وعنده غِنَى، وعنده فقر، وعنده راحة نفْسيَّة، وعنده ضيقٌ نفسي فالذين ينتحِرون كيف يَنْتَحِرون ؟ بلغَ ضيقهم النفسي مرتبة لا تُحْتمَل، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه]

فَمَعنى فِرُّوا إلى الله تعالى ؛ فِرُّوا مِن معْصِيَته إلى طاعته، وفِرُّوا من الإشراك به إلى الإيمان به، و فرُّوا من عِقابه إلى طاعته، ومن عِقابه إلى ثوابه، ومن معْصِيَتِهِ إلى طاعته، ومن الخوف إلى الورع، فِرُّوا من التوكّل على غيره إلى التوكّل عليه.

طاعة الله عز و جل حصن الإنسان من عذاب الله:

قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام]

هذه فِطرة الإنسان، والله أيها الأخوة لو أنّك أحْبَبْتَ ذاتَكَ وحْدها، وبالغْتَ في حُبّ ذاتك، ولو أنّك كنتَ كما يقول: أنانِيًّا، والتركيب غلط، وهو شائع، لأنّ أنا و غير لا يؤخذ منها مصدر، والصواب الأثرة و

المؤاثرة، فبالتعبير المألوف عندكم: لو كنت أنانيًّا عليك بطاعة الله لأنّ طاعة الله حِصنٌ لك وأساس التوفيق.

لذا المؤمن يبحث عن أمر الله، وعن منهجه، وعمّا يُرضيه، وعن الحُكم الشّرعي في كلّ شيء، فَبَعْدَ أن تعرف الله ليس هناك موضوع أخْطر من أن تعرف أمرَهُ كي تُطيعهُ، لأنّ إذا عرفْتَهُ شَعَرتَ بدافعٍ لا يوصَف إلى التّقرّب إليه عن طريق طاعته، أين أمرهُ ؟ عليك أن تحضر مجالس العِلم.

لكل حسنة ثواب و لكل سيئة عقاب:

الخُطب أيُّها الأخوة تقريباً كالبضاعة المعروضة على واجِهة المحلّ، وهذه البضاعة هي من أجل أن تجلب إلى الدخول إلى المحلّ، فإن لم تدخل فما اسْتفَدْت شيئًا، والخُطبة مهمّتها أن تُقْنِعَك بِأحَقّيَة الدّين، وبِطاعة الله، وبالعمل للآخرة، ولكنّك إذا اقْتَنَعْتَ تريد التّفصيلات، وتريد مجلس عِلم، هناك منهج مُفصّل، مجلس عِلْم لِمَعرفة الحديث الشريف، وآخر للتّفقه، ومجلس للتفسير والسيرة، فأنت إن اقْتَنَعْت بالدّين وأردْت أن تصْطلِحَ مع الله فالآن تحتاج إلى تفصيلات.

لذا الخطبة لا يُستغنى بها عن دروس العلم، فهي تُقْنِعُك بالدّين، أما دروس العِلم ففيها تفصيلات الشرع، وتفصيلات كتاب الله تعالى، وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، لذا فَفِرُّوا إلى الله، وهذه الكلمة لو أنّ شخصاً خائفاً من شيء، المعْصِيَة من لوازمها العِقاب، وإنّ لكلّ حسنة ثواباً، وإنّ لكلّ سيّئة عِقاباً.

الشيء الآخر إن عرفْت أو لم تعْرف، إنّ عرفتَ أنّ لكلّ حسنة ثواباً، وأنّ لكلّ سيّئة عِقاباً، أو لم تعرف، للحسنة ثوابها، وللسيّئة عِقابها، قال: يا رب، عصيْتُ ولم تُعاقبني، فقال الله:

((يا عبدي عاقبْتُك ولم تدْر))

فأنت إن عرفْت أو لم تعرف فالعِقاب حاصِل، ولو دقّقت لوجدت أنّ أفعال الله كلّها حِكمةٌ ما بعدها حِكمة، وعَدل ما بعدها عدل، ورحمة ما بعدها رحمة، فإما أن تعرف وإما أن تجْهل ولكنّك إن جَهلت فليس معنى هذا أنّ الحسنة ليس لها ثواب، وأنّ السيّئة ليس لها عِقاب، فالعِقاب واقِع، والثّواب واقِع، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات]

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

مرّة أخرى أيها الأخوة ؛ أُعيذ هذه الفِكرة مئات المرات خِيارُك مع الإيمان ليس خِيار قَبول أو رفض، ولكن خِيار وقت فقط، الشيء الذي لا تعرفه، أو الشيء الذي عرفته وأنكرتهُ، أو الشيء الذي صَدَدْت عنه، لا بدّ أن تؤمن به عند لِقاء الله عز وجل، والدليل أنّ أكفر كُفّار الأرض حينما قال: أنا ربكم الأعلى، لمّا غرق قال كما حكي عنه تعالى:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس]

فإما أن تؤمن، وأنت في بَحبوحة، وفي صِحّتك، وشاب، وغنيّ، وإما أن تؤمن بعد فَوات الأوان، فليس المقولة تؤمن أو لا تؤمن، لا، لا بدّ من أن تؤمن، ولكن حينما تؤمن بعد فوات الأوان تندم أشدّ النَّدَم، فالآن نحن في بَحبوحة، وباب الصّلح مع الله تعالى مفتوح، وباب التوبة والاستغفار مفتوح، وباب إصلاح الأخطاء الماضيّة مفتوح، وباب أداء الحقوق مفتوح، وباب الاستِسْماح مِمَّن اغْتَبْته مفتوح، الأبواب الآن كلّها مفتوحة، ولكن حينما يأتي ملك الموت الأبواب كلّها تغلق، قال تعالى:

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة المؤمنون]

باب التوبة مفتوح أمام الإنسان مادام في الدنيا:

قال تعالى:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

[سورة المؤمنون]

فنحن الآن في بحبوحة، فلا تقل: غداً، وورد في الأثر أنْ هلكَ المُسَوّفون فلا تقل حتى أفعل كذا، وسوف أفعل، فهذه مِن سِلاح إبليس، فإبليس يستخدم سوف، فالله تعالى:

(فَفِرُّوا)

[سورة الذاريات]

الآن وما مضى فات والمؤمّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، ونحن لا نملْك إلا هذه الساعة، فهؤلاء الذين يموتون فجأةً في ذِهْنهم سيَعيشون عشرين عاماً قادِماً، فإذا بهم بعد ساعة ينتهون، أحدهم كان جالساً مع أصدِقائه، فقال: أنا لن أموت، فسأله أحدهم لماذا ؟ فقال: أنا رشيق، وصحّتي جيّدة، ولا أُدخِّن، تكلّم بهذا الكلام يوم السبت، وفي السبت القادم كان تحت التراب، سبعة أيام فقط، فلا أحَدَ يملك المستقبل، ما مضى فات والمؤمّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، اِعْقِد العزمَ على التوبة الآن

وإصْلاح ما مضى، والآن ممكن أن تُحلّ المشكلات بالأموال، ولكن بعد الموت لا ينفع إلا العمل الصالح.

حقوق العباد مبنية على المشاححة و حقوق الله مبنية على المسامحة:

في الدنيا كلّ شيء يُحلّ، وكلّ شيء له حلّ، لكنّ المشكلات مع الله تعالى هي المعاصي، ولأنّ الله تعالى يقول:

(إِنّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

[سورة النساء]

فهذا ذنب لا يُغفر، وهناك ذنب لا يُتْرك وهو ما كان بينك وبين العباد، تصوّر إنسانًا خاض معركة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أشرف معركة، مات شهيداً في الأرض المعركة، ولما دُعِيَ النبي عليه الصلاة والسلام لِيُصَلِّيَ عليه قال:

((هل عليه دَين ؟))

فقالوا: نعم، فقال:

((صَلُّوا على صاحبكم))

((يُغْفَرُ لِلشّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلّا الدّيْنَ))

[رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

قدّم روحه، لماذا ؟ لأنّ حقوق العباد مَبْنيّة على المُشاححة، بينما حقوق الله تعالى مَبْنِيّة على المُسامحة.

عدم قبول الله أي عمل للإنسان إذا أشرك معه إلهاً آخر:

أيها الأخوة الكرام، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(51))

[سورة الذاريات]

لأنّ الله سبحانه وتعالى إن أشْركتَ به لا يقبل عملكَ كُلّه، والله تعالى يقول في الحديث القدسي:

((قَالَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

فالعمل المُشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقبلُ عليه، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذّبِينَ)

[سورة الشعراء]

الاعتماد على غير الله ذل و ضلال:

إذا أرادْت عذاب الدنيا فادْعوا مع الله إلهاً آخر فالإنسان أوّلاً ضعيف، وثانياً عِلمهُ مَحدود، وثالثاً قد لا يُحِبّك، قال تعالى:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر]

كُن مع الذي يسْمعُ دعاءك في أيّ مكان، قد يُعيك رقم هاتفه، ولكنّ الهاتف مقطوع، وأنت بأمسّ الحاجة إليه، فَكن مع الذي إن دَعَوتهُ أجابك، وإن سألْتهُ أعطاك، وإن استغفرته غفر لك، وإن تبتَ إليه تاب عليك، وكُن مع الذي لا يغيب علمه عنك إطلاقًا، وربنا عز وجل غَيور، فإن جَعَلتَ معه إلهاً آخر لا بدّ أن يُخيّب ظنّك فيه، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذّبِينَ)

[سورة الشعراء]

فلا تعتمد لا على ابنك، حبّهُ في الله، وأكرمهُ، وأحِبَّ زوجتك لله ولا تعتمد عليها، ولا تعتمد على شريك، ولا على أخ، ولا على زوجة، ولا على ابن:

((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي وَقَدِ اتَّخَذَ اللَّهُ عَزّ وَجَلّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا))

[رواه مسلم عن أبي الأحوص]

اِعْتَمِد على الله تعالى، يا رب ماذا فقَدَ من وجدَك ؟ وماذا وجد من فقدَكَ ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ إنسانٌ حصّل ثروة طائلة، وكانت له زوجة جيّدة جدّاً وكان اعتِمادُه عليها، أُصيب بِشَلل فلم تحْتَمِلهُ إلا أيّاماً معدودة، وكان في البناء قَبو جعلتْهُ في الطابق السفلي، وكلّما طلب زوجته تأتيه بعد أيام، وبكَلماتٍ قاسيَة وبازْدِراء، ثمّ نقلتْهُ إلى بناءٍ آخر بعيد كي تستريح منه، فَمَن اعْتَمَد على غير الله تعالى ذلّ وضلّ.

على الإنسان أن يكون مع الله لأن كل شيء بيد الخالق:

هذا الحسن البصري كان عند والي البصرة فجاء توجيه من يزيد بن معاوية، ويبْدو أنّ هذا التوجيه لا يُرضي الله تعالى، فقال لِهذا الإمام:**ماذا أفعل ؟ إنّي إن نقدْتُ هذا التوجيه أغْضبْتُ الله عز وجل، وإن لم أنقِدْهُ أغْضَبتُ الخليفة، فماذا أفعَل ؟ فقال هذا الإمام: إنّ الله يمْنَعُكَ مِن يزيد ولكنّ يزيداً لا يمنَعُك من الله**، مهما كان الإنسان قويًّا، وضغط عليك فقُل إنّ الله تعالى يمْنَعُهُ مِنّي ولكنّه لا يمْنعني من الله تعالى، فالله تعالى بيَدِهِ قلبك، وبيَدِه الكبد، وفشَل كلوي، والنجاح بالمئة خمسين، وأورام من دون سبب ؛ مرّة بالجِلد ومرّة بالأحشاء، ومرّة بالدِّماغ، فصِحّتك بيَدِ الله تعالى، وأجهزتك كلها بيَدِهِ، وكلّ من حَولك بيَدِهِ، ورزقُكَ بيَدِهِ، وزوجتك بيَدِهِ، فأحيانًا يُلهمها أن تكون ألطف زوجة وأحيانًا يُلهمها أن تكون أشرس زوجة، حتّى قال الإمام الشعراني: أعرف مقامي عند ربّي من أخلاق زوجتي، فالزوجة هي هي، لذا قال أحد الأنبياء كما قال تعالى:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُون)

[سورة هود]

أيها الأخوة، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(51))

[سورة الذاريات]

المؤمن يصبر في سبيل الدعوة إلى الله أسوة برسول الله:

ثمّ يقول تعالى:

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[سورة الذاريات]

كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مِلّة الكفر واحدة))

فمواقف الكفار منذ خلق الله الأرض ومن عليها وإلى يوم القيامة واحدة، انْتِقاداتهم واحدة، وطَعنهم واحِد، وادِّعاؤُهم واحِد، وقد يسأل سائل ويقول: يا رب، هذه التُّهَم الباطلة التي قالها الكفار على أنبيائِك الكِرام لماذا أثبتَّها في كتابك وجعلتها قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة ؟! ليَكون الأنبياء جميعًا أُسْوةً لنا، فالأنبياء قالوا عنهم ما قالوا، فالنبي عليه الصلاة والسلام قالوا عنه: سَاحر، ومجنون وشاعر.

لذا إن قيل عنك شيءٌ فاصْبر، فقد قيل لِمن هو أفضل منك، لذا جعل الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام، والنبي تحمّل ما تحمّل في سبيل الدّعوة، ولاقى في جَنب الله تعالى ما لاقى، وأوذِيَ ولم يُؤْذ أحد وخاف، وجاع في سبيل الله تعالى، وكانت حياته كلّها متاعب، ومشقّة، وطريق كلّه أشواك، إلى أن بلّغَ الرّسالة، وأدّى الامانة، ونصَح الأمّة، وكشف الغمّة، وجاهد في الله حق الجهاد، وهدى العباد إلى سبيل الرشاد، ولاقى وجْه ربّه وهو في أعلى عِلِيّين، وهذه هي الحياة، وكلّ شيء في الحياة يُمَلّ.

الحياة من دون رسالة و قيم لا معنى لها:

هناك حقيقة في الحياة دقيقة جدّاً، فأنت ما دُمْتَ في أوّل الطريق فكلّ شيء له بريق فالإنسان يكون بالابتِدائي، فيرى تلامذة الإعدادي، والثانوي، وبعد أن يصل إلى الثانوي يأخذ البكالوريا، وبعدها الجامعة، ثمّ يتخرّج، وبعدها يشغل منصِباً ثمّ يتزوّج، وبعد الزواج يُنْجب، وبعدها يُزوّج أولاده، وبعدها يكتشف تفاهة الحياة.

لذا الحياة من دون رسالة لا تُعاش، ومن دون قِيَم لا تُعاش، ومن دون هدف لا تُعاش، لذا غير المؤمن يضْجر، ويسْأم، ويَمَلّ، أما المؤمن فهو في شباب دائم، ولأنّ هدفه كبير، إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، فالمؤمن لا يشيخ، الجِسم يتراجع ولكن نفْسِيّته نفْسيّة شابّ، وله آمال لا تكفيها مئة عام، هذا هو المؤمن يعيش حياةً سعيدةً، أما الإنسان حينما يكون هدفه مادّي، ويصل بعدها إلى أهدافه يرى تفاهتها، ومَحْدودِيّتها، وصغارها، وعندئذٍ يسأم ويضْجر، وأنت سعيد، لذا أنت موهوم بالسعادة قبل أن تصل إلى أهدافك، فإذا بلغْتها كلّها، وكانت مادّيّةً تشْعر بتَفاهة الحياة، أما إذا عرفْت الله مِن بدايات الحياة فأنت في شباب دائم، وفي سعادة دائمة.

أسعد الناس بالدنيا أرْغبهم عنها:

َمِن باب الطُرفة وهي أنّ الفرنْسِيُّون لهم حقيقة، أنا أرْويها فقط لأهل الدنيا لا للمؤمنين وهي: أنّ الحياة تحتاج إلى ثلاثة أشياء كي تكون سعيداً بها: تحتاج إلى صِحّة، وإلى وقت، وإلى مال، والإنسان يمرّ بحياته بثَلاثة مراحل ودائماً تنقصُه واحِدَة، ففي أوّل حياته شابّ كالحِصان، ولكن لا يوجد مال، وفي المرحلة الثانيَة يؤسِّس عملاً، فالمال موجود، والصحّة موجودة، ولكن لا يوجد وقت، وبالثالثة المال موجود، والوقت موجود، ولكن لا توجد صِحّة.

فدائماً ينقصك شيء، هذا الكلام أقوله لأهل الدنيا، لأنّ أسعد الناس بالدنيا أرْغبهم عنها، وأشْقاهم فيها أرغبهم فيها، أما المؤمنون ؛ منذ أن عرَفَ الله دَخَل في السّعادة، لأنّ هدفه أن يتعرّف إلى الله، وإلى أن

يستقيم على أمره، وهدفهُ أن يدْعو إليه، وأن يهْدي خلقه، وأن ينال رِضْوانه، وان يكون جُنْدِيًا للحق، وهدفه أن يهْديَ الناس إلى طريق الحق فالمؤمن أهدافه كبيرة جدًا، فدُنياهُ يراها آخرة.

طغيان الكفار جعلهم يقفون موقفاً موحّداً من الأنبياء:

قال تعالى:

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَاصَوْا بِهِ)

[سورة الذاريات]

هل اتّفقوا ؟ اتّفقَ الكفار في كلّ مكان وزمان على اتّهام الأنبياء باتّهام واحد ساحر أو مجنون، والعجيب أنّه في كلّ زمان لو أصْغَيتَ إلى الكافر لرأيْت اتّقاده يُشبهُ انتِقاد إنسان آخر عاش قبل ألف وخمسمئة عام، يقول لك: دجّال، وهذا له مصلْحة، ويقول لك: هو لا يطبّق ذلك، قال تعالى:

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَاصَوْا بِهِ)

[سورة الذاريات]

كيف جاءَتْ انتِقاداتهم وتُهَمُهم واحدة ؟ قال تعالى:

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[سورة الذاريات]

طُغيانهم جعلهم مُتشابِهين، وجعلهم يقفون موقفاً موحّداً من الأنبياء والمرسلين.

من عرف نفسه ما ضرّتْهُ مقالة الناس به:

قال تعالى:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

[سورة الذاريات]

أنت أرقى من ذلك، فالله تعالى كرّم الإنسان بمَعرفته، وبطاعته، وبالدّعوة إليه، فلا يلْتَفتُ إلى الحُسّاد، وضيّقي الأفق، وصِغار النُّفوس، وصِغار القلوب ؛ هؤلاء دَعْهُم ولا تلتفِت إليهم، فأنت أرقى من ذلك، ووقْتُكَ أرقى مِن أن تُضيّعَه معهم، نجاحك أثمن من أن تلتفت إليهم، القافلة تسير والكِلاب تَعوي، ما ضرّ السّحاب في السماء نَبْح الكلاب في الأرض، وما ضرّ البحر العظيم أن قذف الغلام فيه بالحجر، هذا لا يُساوي شيئًا قال تعالى:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)

[سورة الذاريات]

لا عندنا، ولا عند المؤمنين، ولا عند نفْسِك، ومن عرف نفسه ما ضرّتْهُ مقالة الناس به.

الذكرى تنفع المؤمنين:

قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

[سورة الأنعام]

ثمّ يقول تعالى:

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الذاريات]

المؤمن فيه حياة في قلبهِ، المؤمن اتَّخَذ قراراً حقيقياً ومصيريا

وهو طلب الحقيقة، ومعرفة الله وطاعته، فهذا المؤمن ذكِّرْه، والذِّكْرى تنفعُ المؤمن.

خلق الله الإنسان ليعرفه فيطيعه فيسعد في الدنيا و الآخرة:

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

و الله أيها الأخوة كنتُ أتمنّى أن أقف عند هذه الآية وقفة طويلة، لأنّها أخطر آية في كتاب الله ولأنها تُبيّن لماذا أنت في الدنيا ؟ خلقهم لِيَعرفوه فَيُطيعوه فيسْعَدون، هناك جانب معرفي، وجانب سُلوكي، وجانب جمالي، فالجانب الجمالي هو الهدف الجمالي، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[سورة هود]

ثمن هذا الهدف الجمالي طاعته في الدنيا، وسبب الطاعة معرفته، تعرفُهُ فَتُطيعُهُ فَتَسْعَدُ بِقُربهِ في الدنيا والآخرة، هذه عِلّة وُجودنا على وجه الأرض.

علة وجود الإنسان في الأرض عبادة الخالق سبحانه:

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

فالإنسان إن لم يعرف سبب وُجوده في الدنيا هذا إنسان جاهل أشدّ الجهل، فهل يوجد من يُسافر إلى بلد، ويدخل فندقاً و ينام، ويستيقظ، ثمّ لا يعرف لماذا هو في هذا البلد ؟! إن كنتَ طالباً فعليك بالجامعة،

وإن كنتَ تاجراً فالأسواق، أو سائحاً فالمتاحف، وكذلك السؤال نفسه ؛ لماذا أنا في الدنيا ؟! هل من أجل الأكل والشرب ؟ الحيوان يأكل ويشرب، من أجل أن تتباهى ؟ فهناك حيوانات تتباهى كالطاووس، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُون)

[سورة الذاريات]

لِيَتَعَرّفوا إليّ فَيُطيعوني ويسْعَدوا بقُربي، وهذه الآية تُبيّن عِلّة وُجودنا على وجه الأرض، لا كما يقول الشاعر:

جئتُ ولا أدري من أين لكنّي أتَيْتُ لماذا أتَيْتُ لسْتُ أدري ولماذا

لستُ أدري لستُ أدري

هو وحده لا يدري، لكنّ الله عز وجل أعلمَنا أنّه خلقنا لِنَعبدَهُ.

من طلب العلم تكفّل الله برزقه:

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُون (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون (57))

[سورة الذاريات]

لا تحتجّ بالرّزق، من طلب العلم تكفّل الله له برزقه، فالرّزق مضمون وموجود ومَقسوم، وكلمة الحق لا تقطع رزقًا ولا تقرّبُ أجلاً، والرّزق بيَد الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات]

الرزق بيد الله سبحانه و تعالى:

من ابتغى أمراً بِمَعصِيَةٍ كان أبْعَدَ مِمّا رجا وأقرب مِمّا اتّقى، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات]

إياك أن تقول: إن أطَعْتُ الله أخْسَرُ عملي، هذا كلام الجُهّال، وكلام مشرك، وكلام من أُفُقُه ضيّق، فهذا التوهّم من الشيطان، قال تعالى:

(إِنّمَا ذَلِكُمُ الشّيْطَانُ يُخَوّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُون إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

الظالم له عِقاب أليم في الدنيا والآخرة مثل عِقاب الأمَم السابقة:

قال تعالى:

(فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ)

[سورة الذاريات]

الذّنوب هنا هي الحظ أي هؤلاء الذين ظلموا يا محمد صلى الله عليه وسلم وهم معك، لهم عِقاب أليم في الدنيا والآخرة مثل عِقاب الأمَم السابقة الذين ذكرهم الله في كتابه الكريم، فهذه القِصص رَدْعِيَّة، كيف أهلك الله عاداً وثمود وفرعون وقوم لوط ؟ هؤلاء الأقوام الأقوياء الأشِدّاء والظالمين كيف دمَّرهم الله عز وجل.

الفيضانات، الزلازل، الحروب، كلها بلاء من الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

[سورة ص]

ونحن عندنا عَيّنات في الحياة المُعاصرة، تجد زلزال أتى على كلّ شيء و إعصارات في شرق أمريكا كلّفت ثلاثون ملياراً، وهذه فيضانات وصواعق، وحروب أهليّة، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

[سورة الأنعام]

فهذه الآية تشمل الزلازل والإعصارات والفيضانات والصواعق والحروب أهليّة، هذه كلّها بلاء من الله عز وجل.

توعد الله الكافر بويل عظيم يوم القيامة:

قال تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الذاريات]

الوَيل هو الهلاك، ونحن الآن في بَحبوحة، ولكن لمّا يصل إلى طريق مَسدود يُصيبُهُ ألمٌ وضيقٌ لو وُزّعَ على أهل بلدٍ لكفاهم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطور 052 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-16، عدم إيمان الكافر بالوعيد الإلهي رغم آيات الله الدالة على عظمته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-08-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون مع الدرس الأول من سورة الطور.

قسم الله عز وجل يدل على أن المقسم به شيءٌ عظيم:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8))

هذه الصيغة صيغة قسم:

(وَالطُّورِ)

والقسم في القرآن يدل على أن المقسم به شيءٌ عظيم بالنسبة إلينا.

الله جل جلاله هو العظيم، ولا عظيم سواه، أما إذا جاءت واو القسم مع كلمات في فواتح السور، فهذه الكلمات تعني أنها أشياء يجب أن نفكر فيها.

معنى الطور:

1 - الجبل:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالطُّورِ)

والطور في أصل اللغة الجبل الأخضر، الجبل المشجر، إما أنه آية من آيات الله الدالة على عظمته، أو أنه الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام عنده، وإما أنه آية كونية، وإما أنه مكان مقدس.

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2))

(سورة التين: 1 - 2)

(وَطُورِ سِينِينَ)

(سورة التين)

هو الجبل بمدين الذي كلم الله موسى عنده تكليماً.

الهدف من وجود الجبال:

نحن مخيرون بين أن نفهم الطور كآية كونية دالة على عظمة الله إذْ الجبلُ من الآيات التي أشار القرآن إليها، هذا الجبل الذي نراه بأعيننا ثلثه فوق الأرض، وثلثاه تحت الأرض، وهذه الجبال تارة وصفها القرآن بأنها أوتاد، وتارة رواسٍ، وتارة مستودعات للمياه، وتارة تزيد مساحة الأرض وتلطف الجو، هناك أهداف كثيرة جداً، وحكم بالغة من خلق الجبال لا يعلمها إلا الله، ويعلم بعضها المتخصصون، أوتاد تربط طبقات الأرض بعضها ببعض، ورواسٍ تعين على ثبات حركة الأرض، لأن الأرض من دون هذه الجبال تضطرب في دورانها، فجعلها رواسيَ ممّا يجعل دورانها مستقراً، والجبال مستودعات ضخمة للمياه، فالأنهار التي تزيد كثافتها عن ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية أين مستودعاتها ؟ فالجبال مستودعات، والجبال أوتاد، والجبال رواسٍ، والجبال تلطف الأجواء في الأرض، الجبل متنفس بالصيف، والجبل يزيد مساحة الأرض، والجبل يعد مَصَداً للرياح، فهناك أهداف كبيرة من وجود الجبال، فمناخات الأرض تتحدد بحسب الجبال، اذهب إلى الشمال تجد في حمص رياحاً عاتية تنفذ إليها من فتحة نحو البحر، أما قبل حمص وبعد حمص فهناك سلاسل جبلية تمنع حركة الهواء الحادة إلى الداخل، حكم خلق الجبال لا يعلمها إلا الله، ولكن الجبل يعد آية من آيات الله الدالة على عظمته.

الجبال من آيات الله الدالة على عظمته:

الجبال كتلٌ من الصخور، فأحياناً ترى مقالع أحجار من الجبال منذ خمسين عاماً، ولم يتأثر شكل الجبل، فكم في هذا الجبل من صخور وكم فيه من الرمال، وكم فيه من كتل صخرية لا يعلم حجمها إلا الله عز وجل.

(وَالطُّور)

هذا معنى أول إذا أخذنا الطور على أنه جبل أخضر، وعلى أنه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

2 ـ المكان المقدس:

أما إذا أخذناه مكاناً مقدساً، كلم الله عنده موسى عليه السلام، فهذا معنى آخر، فمن آيات الله الدالة على عظمته أيضاً أنه أوحى إلى أنبيائه، أنه لم يدع الناس بلا رسالة، لم يدعهم بلا تنبيه، بلا إرشاد، بلا تحذير، بلا توضيح، من رحمة الله عز وجل أنه خلق الخلق وأرشدهم إليه، كما يشق الطريق وتوضع

العلامات على جانبيه، فهنا منزلق خطر، هنا منعطف حاد، هنا جسر، هنا طريق رئيسي، هنا تقاطع خطر، هذه الإشارات بعد شق الطرقات مفيدة جداً، فالله سبحانه وتعالى خلق الأرض ونوّرها، نوّرها بالوحي، فأنت تعلم لماذا أنت مخلوق، ما الهدف من وجودك ؟ ماذا بعد الموت ؟ لماذا المرض ؟ لماذا الخوف ؟ لماذا الفقر ؟ لماذا الدنيا قصيرة ؟ لماذا الآخرة أبدية ؟ فالله سبحانه وتعالى نوّر الأرض بالوحي، ووضّح لعباده سر وجودهم وغاية وجودهم، فكأن الجبل يدل على الله، لكن الوحي يدلنا على طريقة عبادته، بالجبل نتعرف إليه، وبالوحي نتعرف إلى منهجه، بالجبل نعرفه وبالوحي نطيعه، بالجبل نعرفه وبالوحي نعبده، فإذا أردت الجبل كآية تدل على عظمته، وإن أردت الجبل كمكان مقدس عنده كلّم اللهُ موسى تكليماً.

معنى ذلك أن رحمة الله عز وجل تقتضي أن ينزل على أنبيائه كتباً، وأن يوحي إلى صفوة خلقه، وأن يبلِّغهم ماذا ينبغي أن يبلغوه للناس.

يعني ما مِن أب في قلبه ذرة رحمة إلا ويملأ أذن ابنه نصائح وتوجيهات، وتحذيرات، وبيانًا، وتفصيلاً، وإعلاماً، وتحذيراً، وتبشيراً فالأب الكامل، فضلاً عن أنه هيأ لابنه بيتاً، وغرفةً، ومدرسين ووفّر له نفقاته، كما وفّر له كل حاجاته، وأهم من كل هذا توجيهات الأب ونصحه، وتعليمه، هذا أهم من الأشياء المادية.

الجبل رمز لمعرفة الله أو عبادته:

فالجبل إما أنه آية تدل على عظمة الله، وإما أنه مكان يشير إلى نزول الوحي من السماء، وإلى أن الخالق العظيم لا يدع خلقه بلا أمرٍ ولا نهيٍ، بلا بيانٍ، بلا تحذيرٍ، بلا تبشيرٍ، بلا تعريفٍ، والقرآن الكريم يدور كله حول التعريف بخالق هذا الكون ؛ إنه موجود، وهو واحد لا شريك له، وهو كامل، والتعريف بقصص الأنبياء السابقين والتعريف بالمنهج التفصيلي، والتعريف بمصير البشرية، بحال الإنسان بعد الموت، فبالكون نعرفه و بالشرع نعبده، والجبل رمز إلى معرفة الله أو إلى عبادته، إذا قلنا الجبل الأخضر آية دالة على عظمة الله، إذا قلنا مكان مخاطبة الله عز وجل لسيدنا موسى دليل الوحي، وأن الله لرحمته بخلقه، وحرصه على هداهم، والأخذ بيدهم إلى سعادة الدارين، أوحى إلى أنبيائه ليبلغوا الناس.

وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ: للكتاب عدة معان منها:

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2))

هذا الكتاب إما أنه الألواح التي تلقاها سيدنا موسى عليه السلام، وإما أنه القرآن الكريم الذي أنزله على سيد المرسلين، وإما أنه مطلق الكتاب، أيّ كتاب سماوي.

منهج الله لعباده في الأرض:

على كلٍ هناك طور، وهناك:

(وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3))

منهج، أنت إذا دخلت إلى بناء جامعة، قد تستنبط أن هذه الأقواس رائعة، فالمهندس على مستوى رفيع، وأنّ القاعات فيها واسعة، وهناك وحدة صوتية جيدة، وأن الحدائق غناء، وأنّ بيوت الطلبة مجهزة بكل وسائل الراحة، لك أن تستنبط من البناء، المخابر، وقاعات التدريس، والحدائق، وبيوت الطلبة، أشياء كثيرة جداً، لكن لو تأملت مئة عام في بناء الجامعة فهل يمكن أن تعرف نظامها الداخلي ؟ وهل يمكن أن تعرف عدد الكليات ومنهج كل كلية وأسماء المدرسين، لن تعرف ذلك إلا إذا قرأت الكتيب الخاص بالجامعة، ففيه شيء يُستنبط، وفيه شيء يقرأ، فالكون يدل على الله، أما القرآن فيه تفاصيل الأمر والنهي، والله عز وجل يقول:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام: 1)

وفي آية ثانية يقول عنه:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: 1)

كأن الكون كله في كفة، وكتاب الله في كفة، يعني كما أنه خلق فقد أوحى، خلق وأرشد، وخلق ونوّر، خلق وبيّن، خلق ووضّح.

الكتاب هو المصدر الأول في الدين الإسلامي:

الله سبحانه وتعالى قال:

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3))

فالكتاب المصدر الأول في الدين الإسلامي، كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، غنى لا فقر بعده، غنىً لا غنىً فوقه.

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلّمَ الْقُرْآنَ وَعَلّمَهُ))

[أخرجه البخاري عن عثمان]

خير جهاد تجاهده أن تتعلّم القرآن وأن تعلِّمه، والدليل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان: 52)

منهج خالق السماوات والأرض، كل كلمة قاعدة، كل حرف نظام أحياناً، الحركة لها معنى، الحرف له معنى في كتاب الله، هذا ليس كلام بشر، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، هذا هو الكتاب المقرر، طالب على مشارف الامتحان، وبالامتحان يتخرج، والشهادة عليا، ويعلق هذا الطالب على تخرجه آمالاً عظاماً وبقي للامتحان ساعات، أيقرأ غير الكتاب المقرر ؟ يكون أحمق عندئذٍ، فهناك ألفُ كتاب وكتاب، ما يطبع في اليوم من كتب في العالم، لا يمكن أن تقرأه في مئة عام، هذه كلها كتب كتبها أشخاص فيها الخطأ والصواب، فيها الحقائق والأوهام، فيها الحق والباطل.

القرآن الكريم كتاب محكم من عند الخالق:

الكتاب الذي لا باطل فيه، ولا وهم فيه، ولا ظن فيه، هو القرآن، وكله محكم من عند الله عز وجل:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)

(سورة هود: 1)

هو كلام الله، هذا كتابنا المقرر، يجب أن نقرأه صباحاً ومساء ليلاً ونهاراً، يجب أن نفهم أبعاده، مراميه، محكمه، متشابهه، ناسخه ومنسوخه، حلاله وحرامه، أمره ونهيه، وعده ووعيده، غيبه الماضي، غيبه الحاضر، غيبه المستقبل، هذا كتابنا المقرر، كلام الله عز وجل، والله لا أعجب إلا من إنسان قرأ كتاب الله ثم استهواه شيء آخر، لك أن تقرأ أي شيء، ما دام هذا الشيء يقربك من كتاب الله، لك أن تقرأ بحثاً علمياً يوضح لك آية كونية، لك أن تقرأ بحثاً فقهياً يوضح لك آية فقهية في كتاب الله، تقرأ له ومن أجله، ومن أجل معرفته.

الْبَيْتِ الْمَعْمُور هو:

1 ـ الكعبة المشرفة:

(وَالطُّور (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُور (4))

قالوا: الكعبة المشرفة، البيت المعمور بالحجاج.

2 ـ أو بيت على سمت الكعبة في السماء:

وقد ورد في بعض الأحاديث أن البيت المعمور هو بيت على سمت الكعبة في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك.

3 ـ أو الأرض:

وقالوا البيت المعمور هي الأرض لأن فيها كل شيء، كل حاجات الإنسان في الأرض موجودة.

4 ـ أو الحرم المكي الذي نزل فيه جبريل على سيدنا محمد:

لك أن تفهم البيت المعمور ؛ هو هذا البيت المقدس الذي نزل فيه الوحي، كيف أن الطور هو الجبل الذي كلم الله عنده موسى تكليماً، وكأن هذا المكان المقدس إشارة إلى هذا الوحي العظيم، كذلك البيت المعمور هو الكعبة المشرفة، أو الحرم المكي الذي نزل فيه جبريل الأمين على قلب سيدنا محمد سيد المرسلين بهذا القرآن العظيم، هذا هو البيت المعمور، وإما أنه بيت تدخله الملائكة في السماء ليعبدوا الله فيه، وقد ورد هذا في بعض الأحاديث، وإما أنه بيت الله الحرام يؤمُّه الحجاج، معمور بالحجاج، وإما أنه مطلق الأرض، لأن فيها كل شيء، والبيت المعمور.

السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ هو السماء التي خلقها تعالى:

لا زلنا في مفردات القسم:

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ(5))

هذه السماء.

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً)

(سورة الأنبياء: 32)

ورد في تفسير هذه الكلمة بأنها هي السماء، السماء بناء، وفي السماء مليون مليون مجرة، وفي المجرة الواحدة مليون مليون كوكب ونجم، وهذه الكواكب والنجوم، كلها في حركة دائمة، في مسار مغلق بعضها حول بعض، أحجامها متفاوتة، مساراتها متفاوتة جاذبيتها متفاوتة، كتلها متفاوتة، أبعادها متفاوتة، ومع ذلك هناك استقرار عام ؛ التوازن الحركي، الحركة المتوازنة، هي استقرار، دليل علم الله عز وجل:

(وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6))

السماء من آيات الله الدالة على عظمته:

أليست السماء آية ؟ انظر إلى السماء وهي زرقاء اللون، صافية في النهار متلألئة في الليل، فمن بناها؟

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس: 1 - 8)

السماء أيضاً من الآيات الدالة على عظمة الله، لو توقفت حركة النجوم، لأصبح الكون كله كتلة واحدة، انجذب بعضه إلى بعضه، هناك نظام تجاذب عجيب، لكن حركات النجوم كلها تخلق (إن صح التعبير) حركة نابذة قوة نابذة تكافئ القوى الجاذبة، القضية في منتهى الدقة والروعة ؛ أن القوى الجاذبة تعادلها قوى نابذة، فالمحصلة استقرار.

الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ: المسجور إما:

1 ـ الممتلئ:

(وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6))

كيف أن السماء زرقاء اللون، البحر أزرق اللون، البحر المسجور، من معاني المسجور الممتلئ.

2 ـ أو المشتعل:

من معاني المسجور المشتعل، البحر الآن ليس مشتعلاً، بل هو الآن ممتلئ، حسنًا فكم متراً مكعباً من المياه في البحر ؟ وإذا كان أربعةُ أخماس الأرض بحراً، القارات الخمس، آسيا وأوروبا وأفريقيا وأمريكا والقطبان الشمالي والجنوبي، إذا كانت هذه القارات الخمس كلها لا تشكل عشرين بالمئة من مساحة سطح الأرض وثمانون بالمئة، أو تسعة وسبعون بالمئة، هي بحار ومحيطات، وأعمق نقطة 12 كيلو مترًا، 43 ألف قدم تقريباً، تقع في المحيط الهادي في خليج مريانا، أكرّر كم متراً مكعباً ماءً في البحر ؟ البحر المسجور الآن يعني الممتلئ، وسيكون البحر المسجور يومًا مشتعلاً، أما الشيء العجيب أن هذا الماء الذي تُطفأ به النيران، مؤلف من أوكسجين وهيدروجين، والهيدروجين غاز مشتعل،

والأوكسجين غاز يعين على الاشتعال، يعني مؤلف من عنصرين غازيين الأول شديد الاشتعال والثاني يعين على الاشتعال، يشكلان ماءً تطفأ به النيران.

البحار يوم القيامة تصبح لهيباً لا ينطفئ:

الله عز وجل قد أشار إلى يوم القيامة أنّ تعديلاً طفيفاً تصبح معه البحار كلها لهيباً لا ينطفئ، ونحن إذا احترق بئر نفط فقد تمضي خمسون يوماً أو مئة يوم مثلاً وهو مشتعل، وقد تتعاون دول من أقصى الدنيا، مع خبرات عالية جداً، مع تكنولوجيا تفوق حد الخيال، لإطفاء البئر بعد شهر أو شهرين مثلاً، فكيف لو اشتعلت البحار:

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

إما أنه الممتلئ وإما أنه المشتعل.

البحر آية من آيات الله الدالة على عظمته:

ولا زلنا في الحديث عن القَسم الذي تصدَّر السورة.

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6))

البحر آية من آيات الله الدالة على عظمته، الكائنات البحرية لا تقل عن مليون نوع، أجل مليون نوع أو نحوها تعداد الكائنات البحرية، تنوع الأسماك عجيب جداً، تبدأ من سمك صغير، سمك زينة، إلى حيتان عملاقة، وزن الحوت 150طناً، 50 طناً لحماً، و50 طناً شحماً، 90 برميلاً زيت كبدِ الحوت، أرقام الحيتان وأحجامها، وأشكالها، وأنواعها، لا يعلمها إلا الله، وهي حيوانات تتنفس الهواء، ولولا الهواء لتكاثرت وأهلكت مَن في البحر، لكنها عندما تتنفس تطفو فيصطادها الإنسان.

أنثى الحوت تُرضع وليدها ثلاثمئة كيلو، ثلاثمئة كيلو في الرضعة الواحدة، ثلاث راضعات تعادل طناً حليباً، إذا جاع الحوت وأراد أن يأكل يفتح فمه ويسير فيلتقم أربعة أطنان من الأسماك، يعني شطيرة قبل الطعام، أحياناً الحوت يجر سفينة، فقد جرّ مرة سفينة 48 ساعة بينما كانت محركاتها تعمل بعكس اتجاه الحوت، من حيوان عملاق إلى أسماك زينة رائعة جداً، بعضها شفاف، بعضها فسفوري، وفي البحر مخلوقات لا يعلمها إلا الله، القنديل نوع من كائنات البحر الحية، المرجان الأصداف، المحار، اللؤلؤ، هذا اللؤلؤ، هو المحار: حيوان إذا شعر أن في داخله جسماً غريباً ولو أنها ذرة رمل، أفرز

عليها مادة كلسية فسفورية، إلى أن تصبح لؤلؤة، اللؤلؤ وسيلة من وسائل دفاع هذا الحيوان عن نفسه، فاللؤلؤ وُجِد من أجل الإنسان، إذًا فالكائنات البحرية شيء لا يوصف، وقد يعجز الإنسان عن حصرها.

محاسبة الله للإنسان يوم القيامة:

قرأت مقالة عنها يوماً فإذا هي تزيد عن مليون نوع، هذا

(البحر المسجور)

(والسقف المرفوع)

حدِّث ولا حرج، جاء الجواب:

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ)

كان النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ هذه السورة في الصلاة، وقد صلى عمر بن الخطاب خلف النبي أعداداً من الصلوات لا يعلمها إلا الله، واستمع لهذه السورة، لكنه كان يتجول في المدينة، فسمع أحد الصحابة يقرؤها في الصلاة، نزل من على دابته وأسند ظهره للحائط واستمع إليها وهو يبكي، إذ كانت نفسه حينئذ منفتحة، وقلبه مشرقًا:

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6))

جواب القسم:

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ)

الإنسان مسؤول عن كل عمل يقوم به:

أفتعتقد بعد كل ذلك أنّ هذا الذي خلق الكون لن يحاسبك ؟.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة: 36)

أفتظن أنّ هذا الذي خلق الكون لن يسألك أبداً ؟

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد: 6 - 8)

أفيعتقد الإنسان أنّ الذي خلق العينين لا يبصر ؟

(وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (16))

(سورة البلد: 9 - 16)

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

فليس معقولاً أنّ الله تعالى خلق الإنسانَ سدًى ولن يحاسبه، جامعة تكلف ألف مليون، وفيها حدائق غناء، وفيها أطباء بمعدل كل خمسة طلاب لهم دكتور، مخابر، قاعات تدريس مكتبات، ملاعب، أفلا يكون امتحان آخر السنة ؟ يأتي الطلاب ويدرسون ويخرجون، وليس هناك امتحان:

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

على الإنسان أن يحاسب نفسه حساباً عسيراً قبل لقاء ربه:

الإنسان مسؤول، الذي خلق الكون سيسأله، وسيحاسبه، عن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيمَ أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل به ؟ وعن شبابه فيمَ أبلاه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ))

[أخرجه الترمذي عن أبي بزرة الأسلمي]

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

يعني هناك مسؤولية.

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر: 92 - 93)

إخواننا الكرام ؛ أحيانًا نقرأ الآيات ولا نعيشها، لما ربنا عز وجل يقول:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة: 7 - 8)

هذا كلام مَن ؟ كلام خالقنا، كلام رب العالمين:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة: 7 - 8)

العاجز من يتعامل مع الله بالتمنيات:

يجب أن نحاسب أنفسنا حساباً عسيراً، حتى يكون حسابنا يوم القيامة يسيراً انظر إلى قول النبي:

((الكيس (يعني العاقل) من دان نفسه (ضبط، ضبط بيته، ضبط عمله ضبط دخله، ضبط إنفاقه، ضبط جوارحه) من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

هذا عاجز، أحمق، هذا الذي يتعامل مع الله بالتمنيات، والتمنيات بضائع الحمقى.

نفي الظلم عن الله عز وجل:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء: 19)

لم يقل سبحانه: وسعى لها فقط، لو قال: وسعى لها وانتهت الآية، لكان أيُّ سعي مقبولاً، قال:

(وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء: 19)

لها سعياً خالصاً، لا يقبل دونه سعيٌ:

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ)

خالقنا، ربنا، الذي بيده كل شيء، يقول هذا الكون يدل على إلهٍ بيده كل شيء، لم يخلقنا سدى، لم يخلقنا عبثاً، سيحاسبنا، وسيسألنا عن كل شيء، ولن نظلم عنده، لا فتيلاً، ولا نقيراً، ولا قطميراً.

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر: 17)

الإنسان يوم القيامة يأتي ربه فرداً:

هذه قواعد الدين الكبرى:

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8))

بالأرض يصدر حكم قضائي لا ينفّذ أحياناً، يكون المحكوم قوياً، فأحياناً هناك من يدافع عنك، هناك من يخلصك، هناك من يشفع لك، هناك من يجمد هذا الحكم، هناك من يطوي هذه الضريبة، هذا في الدنيا.

أما عند الله عز وجل:

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8))

يعني تأتي ربّك يوم القيامة فرداً، في الحياة الدنيا تجمعات، وجماعات وأحزاب، وهناك طوائف، وملل، ونحل، وشعوب، هناك تجمع أوربي، يضمّ 12 دولة، عملة واحدة، وجمارك واحدة، وهناك تجمع شرقي، وأحلاف، هذا في الدنيا، أما في الآخرة تأتي ربّك فرداً، لا أحد يخلصك، ولا أحد يدافع عنك، ولا أحد يمنعك من أن تأخذ نصيبك من العذاب:

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8))

العمل الصالح ثمن الجنة:

هذا جواب القسم يا أيّها الإخوة، الكون خلق بديع وعظيم، وهذه العظمة ؛ هل تعني أن الإنسان خلق سدى ؟ الإنسان بصورة عامة ينضج في الأربعين، ثم يموت في الستين وسطياً، فبين نضجه وبين موته ثلث حياته فقط.

فلولا الآخرة لكانت الحياة مدتها غير معقولة، لولا أن الله سبحانه وتعالى خلقنا لجنّة عرضها السماوات والأرض، ونحن في دار إعداد، في دارٍ دنيا هي إعدّاد لدارٍ عليا، لولا هذه الغاية لم يكن للحياة معنى إطلاقاً، ولذلك فالإنسان من دون دين في ضائع، هناك عنده ألف سؤال وسؤال بلا جواب، هذا يسبب اللامبالاة، سؤال لا جواب له، وسؤال لا جواب له، وسؤال لا جواب له، يجعل الإنسان في ضياع، وفي تيه، ثم ينتقل هذا إلى وضع لا مبالاة، إذ ليس عنده جواب، لكن ربنا عز وجل بيّن أنّ هذه حياة إعدادية لحياة أبدية، والعمل الصالح هو ثمن الجنة، قال سبحانه:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل: 32)

نظام الدنيا نظام عمل و نظام الآخرة نظام إكرام:

نظام الحياة الدنيا نظام كدح، لكن نظام الحياة الآخرة نظام إكرام.

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ)

(سورة الفرقان: 16)

هنا:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق: 6)

في الدنيا:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

(سورة النجم: 39)

أما في الآخرة:

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

(سورة الصافات: 42)

أيُّ خاطر يراود مخيلتك ترَ ترجمته أمامك، هذا هو منتهى الإكرام.

النية خلف أي عمل يقوم به الإنسان:

لذلك:

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

يعني أنّ الذي خلق الكون لن يدع الخلق سدى ولم يخلقهم عبثاً، سيحاسبهم على أعمالهم كلها، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، ظاهرها وباطنها، علانيتها وإسرارها، كل شيء له حساب دقيق، وكأن أعمال الإنسان يوم القيامة تعرض عليه عرضاً، وبعد ؛ فإذا كان الإنسان الآن مراقباً ثم شاهد حركاته وسكناته مصورةً في فيلم ؛ وقيل له: لماذا ذهبت إلى هذا المكان ؟ ولماذا أخذت من فلان ؟ و لماذا أعطيت فلانًا ؟ يُصعق، أما أنت يوم القيامة، وكلنا جميعاً سوف تعرض علينا أعمالنا واحداً واحداً، العمل وخلفيته نيته، أنت أردت كذا، قاتلت ليقال عنك شجاع، وقد قيل فخذوه إلى النار، فهذا إذًا معنى، جواب القسم:

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

يعني هذا الكون مخلوق من أجل أن تعرف الله وهذا الكتاب من أجل أن تقرأه، وأن تفهمه، وأن تعمل به، وهذه الشهوات من أجل أن تضبطها، وهذه الحرية من أجل أن تثمن بها عملك، وهذا الشرع من أجل أن تعيشه، وهذا الكون من أجل أن تفكر فيه، وهذا العقل من أجل أن تُعمله، وتلك الفطرة من أجل أن تحافظ عليها.

عذاب الله يكون عند:

1 ـ اضطراب السماوات والأرض:

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8))

متى هذا العذاب ؟ قال:

(يَوْمَ تَمُورُ السّمَاءُ مَوْراً)

تنظر إلى السماء فتجدها وديعة، ليلُ الصيف مقمر، وبعض لياليه غير مقمرة، تتلألأ النجوم، وتتألق، لكن ما قولك لو رأيت النجوم تتهاوى ويصطدم بعضها ببعض، وأصوات لا تحتمل، وصوت الرعد يصم الآذان، وصواعق مخيفة جداً، إنّه يوم القيامة:

(يَوْمَ تَمُورُ السّمَاءُ مَوْراً)

اضطراب السماوات والأرض، كواكب تصطدم، كواكب تتحطم، حركات عشوائية، موراً يعني اضطراباً.

2 ـ سير الجبال:

(يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً (10))

الجبال تسير، جبل بأكمله، يجري وكأنه ريشة في مهب الريح.

الدنيا دار عمل و كد و الآخرة دار جزاء:

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

نحن في الدنيا في بحبوحة، كالطلاب في العام الدراسي، كلهم يرتدي ثياباً خاصة، ويأتي إلى المدرسة، لكن بعضهم يدرس، وبعضهم لا يدرس، بعضهم يمضي وقته من غير جدوى، بعضهم ينتبه، بعضهم لا ينتبه، بعضهم يكتب، بعضهم لا يكتب، لكن عند الامتحان ويلٌ للكسالى، ونحن الآن في بحبوحة، الناس كلهم يأكلون ويشربون، وإن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، حالُ المؤمن الآن لا يبدو صارخاً، واحد من هؤلاء الناس، يسكنُ بيتًا مستوراً، لكنّ حوله أناساً متفلتين، وربما كان حوله أناس عصاة، وأناس جاحدون، وأناس يقترفون الآثام ويأكلون المال الحرام، ويتحدون السماء وخالقها، ومع ذلك فالله يرزقهم.

وعزتي وجلالي ؛ عبدي خلقت لك السماوات والأرض، و لم أعيَ بخلقهن أفيعنيني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق فإذا خالفتني في فريضتي، لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

النجاة الحقيقية أن ينجو الإنسان من عذاب الله:

لذلك:

(يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11))

البطولة أن تنجو من هذا اليوم، قد يتهرّب إنسان من ضريبة، ويحسب نفسه بطلاً، وينجو من مشكلة، ينجو من مؤاخذة، ينجو من شيء مخيف، لكنّ النجاة الحقيقية أن تنجو من عذاب الله، والغنى الحقيقي

بعد العرض على الله، الغنى والفقر بعد العرض على الله، الدنيا لا قيمة لها، عَرض زائل يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملِك عادل.

النار عاقبة المتفلت من منهج الله عز وجل:

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

هذا الذي أمضى حياته في غفلة عن الله، وفي تفلت من منهج الله، وفي إساءة للخلق، وفي ضياع، وفي انغماس في الملذات، هذا الإنسان تماماً كإنسان يركب مركبة في منحدر شديد، بسرعة عالية، والهواء العليل يلطف جو المركبة، و في نهاية هذا الطريق منعطف حاد، وليس معه مكابح وهو يضحك، ولا يعلم ماذا ينتظره بعد دقائق، بعد دقائق سيكون جثة هامدة، يقول الويل لنا، لقد متنا، المكبح معطّل، والمنعطف حاد والمنحدر شديد، وهو منطلق ويغني، ويضحك، أما الذي يعلم أن هذه المركبة بلا مكبح يعرف نتيجته الحتمية.

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12))

خوضُ مخاضةٍ، هذا يعني تصوراتهم عن الكون سخيفةٌ جداً، أحد الشعراء الجاهليين قال:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

* * *

يعني دعهُ ينطلق معَ فلسفته للحياة بأن يستمتع بشهواتها إلى أقصى حد.

هموم أهل الدنيا شهوانية مادية:

لو جلست مع أهل الدنيا، مع أهل الغفلة، مع أهل الجهل لوجدت في أفكارهم العجب العجاب، تصور سخيف للحياة، تصور سخيف للكون، تصور سخيف للإنسان، تصورٌ سخيف للجزاء والعقاب، واللهُ عز وجل سمى هذه التصورات خوضاً، مخاضة، وَحَل يعني: كلام لطيف جداً، معبر، أفكاره، معتقداته، تصوراته، مبادئه، قيمه كالوَحَل، مبدؤه المصلحة، يتلون ألف لون ولون بيوم واحد، من أجل مصلحته، ليس عنده شيء مقدس أبداً، يقدّس ذاته فقط، يقدّس المال ويعبده من دون الله، مستعد أن يقول أي شيء من أجل أن يبقى في مكانه وفي عمله، وفي دخله الكبير، هذا خوض، ليس عنده مبدأ، ولا قيمة ثابتة، لا يعادي ولا يسالم، يسالم لنفسه، ويعادي لنفسه فقط، هذا الله عز وجل سماه خوضًا، مخاضة، وحَلاً، تصوراته كالوحل الآن اهتماماته كالوحل، ما عنده همّ مقدس، كل همومه أرضية، هُمه ملذاته، همه طعامه وشرابه، بيته، همُه رفاهه واستمتاعه بالحياة، همه استعلاؤه على الناس، همه افتخاره بما عنده،

همه أن يكون مسيطرًا مثلاً، وأن يكون مستمتعًا، همومه كلها صغيرة، هموم مادية، هموم شهوانية، هموم مصلحية.

هموم أهل الآخرة مقدسة:

أما المؤمن الذي عرف الله عز وجل همومه مقدسة، يسعى لهداية الناس، يسعى لنشر الحق، يسعى لخدمة الخلق يسعى لمرضاة الله عز وجل، يسعى لجنة عرضها السماوات والأرض يسعى لحياة أبدية، يسعى ليكون:

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر: 55)

همومه مقدسة، لأن معتقداته مقدسة، عالية، لو عرضت أفكار غير الإسلاميين على محك البحث لوجدت فيهم الشيء الذي لا يصدق فالله عز وجل سمى معتقدات هؤلاء، أو تصورات هؤلاء، أو مبادئ هؤلاء سماها خوضاً، وهم يلعبون فيها كالصغار، وسمى اهتماماتهم التي تشغلهم، والتي تنصب عليها همهم، وأن كل ما يعنيهم، سماها خوضاً أيضاً.

اهتمامات و معتقدات الكافر ما هي إلا خوض في وحل:

رجل جلس إلى شخص في بلد غربي، حدثه عن الإسلام، بعد حديث ممتع، دقيق، عميق، مدعم بالأدلة والشواهد، الحسية والعقلية، والواقعية، والفطرية، أخرج هذا الشخص الآخر من جيبه دولارًا و قال: هذا ربي أعبده من دون ربك.

ولقد التقيت مرة مع شخص مندوب شركة ؛ قال لي بالحرف الواحد بعد أنْ حدثته عن الله قليلاً، قال: هذا الموضوع لا يعنيني، ولا أهتم به، ولا ألتفت إليه، يعنيني بيت، وامرأة، وسيارة فقط، هذا خوض، في الوحل يعيشون، وفي الحمأة غارقون.

فالكافر اهتماماته سخيفة، ومعتقداته سخيفة، الله سمى هذه الاعتقادات والاهتمامات وأمثالها سماها خوضًا في وحل:

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12))

الفرق بين اللهو و اللعب:

اللعب عمل لا جدوى منه أولاً، لعب، ثم لهو، واللهو أخطر، لأنّ اللهو أن تشتغل بالخسيس عن النفيس، أن تشتغل بالأصداف عن اللآلئ، أن تشتغل بالقشور عن اللباب، هذا هو اللهو، أما اللعب عمل بلا جدوى، ليس له أي أثر مستقبلي، يعني شخص لعب النرد حتى الساعة السابعة صباحاً فماذا قدم للأمة ؟ لو قرأ كتاباً لاستفاد منه وأفاد، لو نام لأراح واستراح، لو أكل لتَقَوّى على طاعة الله، لو جلس إلى أخ يحدثه عن الله عز وجل لأفاده، لو وجه أولاده لأفادهم فاللعب عمل بلا طائل، وكلما ابتعدت عنه رأيته حقيراً، ألا تنظر إلى طفل صغير يأخذ بعلبة يتوهمها سيارة ويحركها على الطاولة ويعطي صوتاً معها، هذا لو صورته صورةً متحركة ملونة وأرأيته إياها بعد أن يصير طبيباً، أو مهندساً، ألا يستصغر اهتمامه، وسخافة تعلقه بهذه العلبة ؟ اللعب من شأنه إذا ابتعدت عنه رأيته صغيراً تافهاً، اللعب يتناقص لا يتنامى، اللعب ليس له أي أثر مستقبلي.

دفع الكافر بإهانة يوم القيامة لمعتقداته السخيفة:

الله عز وجل بكلام موجز بليغ سمى معتقدات الكفار، واهتماماتهم خوضاً، وحركتهم في هذا المجال أنهم يلعبون، حركة عشوائية بلا هدف، العمل الذي لا جدوى منه العمل الذي لا طائل منه، العمل الذي ليس له أثر مستقبلي، هذا هو اللعب، أمّا الويل ؛ فهو الهلاك.

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا(13))

دَعَّه ؛ أي دفعه على ظهره، بقسوة، وإهانة

(يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا(13))

طبعاً لأنهم كانوا في خوض، وكانوا يلعبون، واعتقدوا اعتقادات سخيفة، واهتموا بأشياء أسخف منها، هذه السخافة في معتقداتهم، وفي نشاطاتهم في الدنيا يناسبها أن يهانوا يوم القيامة، وشتّان بينهم وبين المؤمنين في ذلك اليوم، يوم توفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون.

المؤمنون يذهبون إلى الرحمن و المجرمون يُحشرون إلى جهنم:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر: 73)

المؤمنون يذهبون إلى الرحمن وفداً، أما المجرمون فيُحشرون إلى جهنم وردا، إذا كان الشخصُ متهماً بجريمة قتل مثلاً، فإذا طُرِق بابُه وأُلقي القبضُ عليه، فمن باب البيت إلى السيارة يرحبون به دعًا وركلاً ويتقاذفونه فيما بينهم على طريقتهم الخاصة، فهو إنسان مجرم طبعاً، ويساق ليحاكم، وكذلك الكافر لأنه كان تائهًا، وكان شاردًا، وكان مؤذيًا، وكان شهوانيًا، وكان منحط الأخلاق، فإنه يلقى المعاملة نفسها، ومن ثَم جهنم وبئس المصير.

(يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14))

بربكم لنأخذ مئة شخص، عيّنة عشوائية، كم واحدًا منهم يصدِّق بجهنم ؟ ويتقيها فعلاً ؟ فهي ليست داخلة في حسابات الناس بتاتاً، ولو كانوا مسلمين، يصلون لكن يأكلون المال الحرام، يأخذون الأموال الحرام بالملايين ولا يعبئون، يحسب أحدهم نفسه شاطراً ويبادر إلى توكيل محامٍ، ثم إذا نجحت قضيتُه يحسب أن المال صار في حوزته حلالاً، أما المؤمن فإنه يخشى درهماً حراماً أو ليرة أو أدنى من ذلك.

تحذير الله عز وجل لعباده من نار جهنم:

الإمام أبو حنيفة رَضِي اللّه عَنْه كان واقفاً في ظل بيت مرهونٍ عنده، فتحول إلى الشمس، لماذا ؟ فللبيت ظل، قال لمن معه: هذا البيت مرهون عندي، وأنا أكره أن أنتفع بظله، هذه جهنم من الذي أدخلها في حسابه اليومي ؟ من ترك مبلغاً من المال خوفاً من النار ؟ من الذي ترك نظرة إلى امرأة خوفاً من النار ؟ من الذي ترك سهرة خوفاً من النار ؟ ما أُدخلت في حسابات الناس، بشكل واقعي، بشكل جاد، الإله يقول لك: هناك نار جهنم لا تحتمل:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

أنا أريد أن أتوقف قليلاً، أرجو من الله عز وجل أنْ أحسن البيان والإيضاح، هذا كلام خالق الكون، إنه كلام الله سبحانه.أحيانا يصدر تصريح، من وزير الاقتصاد، يسمح بموجبه باستيراد سيارات فيهبط سعر السيارات خمسمئة ألف، بمجرد أربع كلمات في الجريدة مثلاً.

إلهنا وربنا، وخالقنا، وهذا كلامه، ويحذرنا من النار، ولا نتقيها ؟ واللهِ هناك أناس حمقى، وحمقهم شديد، ولكن إنما يتذكر أولو الألباب.

عدم إيمان الكافر بالوعيد الإلهي:

واللهِ إني لأخشى نار جهنم:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

تسلّلْ ساعة أو يوماً إلى حياة الناس، ادخل إلى قصر العدل، بأي فرع من فروع القضاء آلاف الدعاوى وأكثرها افتراء، أكثرها دعاوى كيدية، هناك أكل للمال الحرام، هكذا بصراحة، أين الخوف من الله ؟ أين هذا المؤمن الوقاف عند كتاب الله ؟ أين هذا المؤمن الذي يخشى الله ؟ الذي يخشى أن يأكل مالاً حراماً، أن يعتدي على أعراض الناس، أن يعتدي على سمعتهم:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

بصراحة أيها الإخوة: التكذيبُ نوعان، التكذيب بالقول ليس خطيراً جدًّا، فخطره محدود، فقد يعني أنك تناقشه، أما الخطر بالتكذيب العملي، فقد لا تقول بلسانك: أنا لا أؤمن بالنار لكن الأعمال كلها تؤكد أنك لست مؤمناً بها، فأعمالك، مثلاً قد توحي أنك لا تهتم بطريقة كسب المال ؛ من أين تأخذه ؟ هذا يعني أنك لا تؤمن بهذا الوعيد الإلهي.

كلام الله و كتابه هل هو سحر أم حقيقة ؟

لذلك يوم القيامة يقال لهؤلاء العصاة:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15))

أحدُ القضاة طُرق باب بيته، جاءه الغلام فقال: إن بالباب رجلاً أعطاني طبقاً من الرطب، وكان القاضي معروفاً في المدينة، بأنه يحب الرطب في بواكيرها، قال من قدمه لك ؟ قال رجل، قال: صفه لي، قال: صفته كيت وكيت، فعرفه أنه أحد المتخاصمين عنده، قال له أعطه الطبق وردّه إليه، بعد أيام قابل الخليفة ليعتذر من منصب القضاء، قال له: و لمَ وأنت من القضاة النزيهين ؟ قال ولقد قُدم لي طبق رطب من أحد المتخاصمين ورددته، وفي اليوم التالي وقد وقفا بين يدي تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق مع أني لم آخذه فكيف لو أخذته، هكذا كان ورعهم، لأنهم آمنوا أن هناك ناراً حامية، وإذا عصى الإنسان ربه سيدخلها:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15))

فهل كان الكلام سحرًا، أم قرآناً ؟ وهذه نتائجه.

اتهام الكفار للنبي الكريم بأن ما أُنزل إليه ما هو إلا سحر:

ثم إن الكفار بمنطقهم الأعوج:

(قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

(سورة الذاريات: 52)

كلامه سحر.

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

(سورة الشعراء: 49)

فهذا القرآن الذي وصف النار، وأنتم في الدنيا:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

فهل كان كلامي وكتابي لكم سحراً، أم حقيقة ؟ هذا هو المعنى المستفاد.

الصبر على تحمل العقاب لا معنى له إطلاقاً:

(أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16))

هنا سؤال دقيق يطرح نفسه: كيف سَوّى الله بين الصبر وعدمه، مع أن الصبر مفيد وثوابه كبير ؟

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر: 10)

ما جواب ذلك ؟ الصبر في الدنيا مفيد، أما الصبر بعد إيقاع العقاب لا يفيد، تصبر أو لا تصبر سيان. يعني إذا ارتكب إنسان جريمة وحكم بالإعدام، وصُدق الحكم وسيق إلى المشنقة، يُحب أن يضحك، فليضحك، يحب أن يبكي فليبكِ لابد من تنفيذ الحكم، بعد صدور الحكم لا معنى للصبر، الصبر على تحمل العقاب لا معنى له إطلاقاً:

(فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وصف الكفار لكلام الله بأنه سحر:

الآية دقيقة جداً:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15))

كلام الله وصفتموه يوم كنتم في الدنيا بأنه سحر، هل كان سحراً أم حقيقة ؟

(اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وأختم قولي بما قال تعالى:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ)

(سورة النور: 63)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطور 052 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 17-28 ، عطاء الله للإنسان في الجنة لا يقدر بثمن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-08-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثاني من سورة الطور، ومع الآية السابع عشرة.

التوازن أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله:

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

من حكمة الله جل جلاله في كتابه الكريم، أنه إذا تحدث عن أهل النار، تحدث عن أهل الجنة، من أجل ماذا ؟ من أجل التوازن، يعني أنذر وبشر، خوّف، وافتح باب الرجاء ولا تقنِّط يسر ولا تعسر، رغِّب ولا تُرهِّب، سدد وقارب، هذا أسلوب في الدعوة إلى الله، خلاصته التوازن، إن وصفت أهل النار فصِف أهل الجنة، من أجل أن يندفع الإنسان إلى السعي للجنة، كما يندفع في البعد عن النار، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(16))

سورة مخيفة، تحذِّر من حال أهل النار.

المتقي من حرص على مرضاة الله و دخول الجنة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

المتقين، هؤلاء الذين اتقوا أن يعصوا ربهم، هذا النموذج، يقول لا أفعل هذا، فهو حرام، لا يجوز، معاذ الله، يعني لو قطعتني إرباً إرباً لا أعصي الله، هذا المتقي، الذي يتقي أن يعصي الله، الذي يتقي أن يغضب الله، الذي يتقي أن يسخط عليه الله الذي يتقي أن يبتعد عن رحمة الله، الذي يتقي أن يخرج من دائرة عناية الله، والمنافق كما قال بعضهم، يبقى في حالة واحدة أربعين عاماً، و المؤمن يتقلب في اليوم الواحد في أربعين حالاً بين الخوف، والرجاء، والرحمة، بين الاستعطاف وطلب الرحمة، بين الاستغفار

والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، بين أنْ يكون خائفًا و بين أنْ يكون راجيًا، بين وَجَلٍ وبين طمأنينة، يعني شدة خوفه من الله، وحرصه على مرضاة الله وطلبه للجنة يجعله في هذا الحال الذي خلاصته الخوف من الله.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ)

يعني هناك إنسانان، إنسان يقول لك لا تدقق، كما يقول العامة، "من هنا ليوم الله يفرجها الله"، وإنسان آخر يقول: لا أفعل هذا أبداً، هذا حرام، هذا لا يجوز، هذا الذي يسأل عن الحكم الشرعي دائماً، هل هذا حلال، حرام، مباح، مكروه، مندوب، فرض، سنة، واجب يسأل، وذاك الذي لا يسأل، ولا يعبأ، ولا يفكر في الحلال والحرام ولا في الخير والشر، ولا فيما يرضي الله، وما لا يرضي الله، فذاك الإنسان ليس معنياً بهذه الآية.

الإنسان الذي يحرص على اتصاله بالله يحرص على طاعته:

أما المعنيون بهذه الآية أولئك المتقون:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

فانظر أين أنت من هذه الآية، أعندك تساهل ؟ أعندك تسيب ؟ وهل أنت ممن لا يعبأ بالمعصية ؟ ولا تعبأ بالدخل الحرام، ولا تعبأ إنْ صليت أمْ لم تصلّ، لا تعبأ بما فرضه الله عليك من أوراد، ومن أذكار، ومن أدعية، لا تعبأ بهذه الصلة مع الله عز وجل، ولا تحرص عليها، فالذي يحرص على اتصاله بالله يحرص على طاعته، إذا أردت أن تعرف مالك عند الله فانظر ما لله عندك، حريص على طاعة الله، إذاً أنت ممن تعنيهم هذه الآية، حريص على أن يكون دخلك حلالاً، أنت ممن تعنيهم هذه الآية، حريص على هذه الجوارح ألا تقترف معصية، أنت ممن تنطبق عليه هذه الآية:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ)

يعني يتقي، (اتقى) فعل خماسي مزيد، من (وقى) والوقاية من الخطر، وأكبر خطر أن تعصي الله عز وجل.

عن علي بن أبي طالب قال: **عليكم بخمس، لو رحلتم فيهن المطي لأنضيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن: لا يرجو عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه.**

أكبر خطر أن ينتقل الإنسان من الدنيا إلى الآخرة وهو لا يعرف الله:

أكبر خطر أن تخسر نفسك يوم القيامة، أكبر خطر أن يأتيك الموت وأنت صفر اليدين من العمل الصالح، أكبر خطر أن تنتقل من الدنيا إلى الآخرة وأنت لا تعرف الله، أكبر خطر أن تصل إلى الحياة الأبدية وليس معك ثمنها.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل: 32)

المتقي هو الذي يتقي أن يعصي الله، الذي يتقي أن يسخط الله، الذي يتقي غضب الله، الذي يتقي البعد عن الله، الذي يتقي النار التي توعّد الله بها العصاة المذنبين، كلمة جامعة مانعة، إما أن تكون حريصاً على طاعة الله فأنت من المتقين، أو لا تعبأ لا بطاعته ولا بمعصيته هناك نماذج، شاردة عن الله، ليست حريصة على مرضاة الله، فهي لا ترجو الله واليوم الآخر، بل ترجو الدنيا، ترجو مالها، ترجو شهواتها.

أكبر شيء في الجنة رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

والجنة هنا جنات، صيغة جمع، يعني جنة فيها الطعام والشراب، جنة فيها الحور العين، جنةُ الأنهار التي وصفها الله تعالى في القرآن الكريم، أنهار من عسل مصفى، وأنهار من لبن، لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، فواكه وهم مكرمون، ولدان مخلدون، حور عين، وفيها نظر إلى وجه الله الكريم، فيها رضوان من الله، أكبر شيء في الجنة رضوان الله، والنظر إلى وجهه الكريم.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: 26)

فهذه جنات، جنات منوعة، يعني كلما استغرقت في جنة رأيت جنة أخرى، أجمل منها، كلما تأملت في جنة واستمتعت بها، رأيت نعيماً آخر.

قضية الدين قضية مصيرية إما إلى جنة أو إلى نار:

وبعد، إخواننا الكرام: لو أيقن الناسُ يقيناً قطعياً بما أعد الله للعصاة من عذاب مقيم، لم يعصِه أحد، ولو أيقن الناس ما أعد الله للطائعين لأقبل الناس جميعاً على طاعة الله عز وجل، قضية يقين، أنت حينما تعلم علم اليقين أنك إذا تفوهت بكلمة تحاسب عليها، وسوف تلقى عذابًا لا يحتمل، لذلك تضبط لسانك،

أحد أسباب ضبط اللسان، اليقين أن هذه الكلمة لها حساب عسير، إذا أيقنت أن نقل هذا المال إلى بلد آخر يوجب عقوبة مؤلمة ضاغطة قد تدوم عشرين عامًا في السجن، لأقلعتَ عن مخالفة القوانين، لأنك أيقنتَ أن هناك عقاباً أليماً لمن يعصي هذه القوانين، أنت مع مخلوق تتقي أن تعصيه، فكيف مع خالق الكون؟ وعقاب الإنسان قد يكون أو لا يكون، وإذا كان ففي وقت محدود، لكن عقاب الله عز وجل جهنم إلى أبد الآبدين، فقضية الدين قضية مصيرية.

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60))

(سورة النجم: 59 - 60)

قضية الدين أكبر بكثير من أننا سمعنا الدرس وانتهينا إلى أن نقول: والله لطيف، الأمر دقيق واضح، عميق، القضية أكبر من هذا بكثير، قضية مصيرك الأبدي إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفذ عذابها.

العاقل من تقيد بمنهج الله و نفذ أوامره:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ)

فعليك أن تراقب نفسك كتطبيق عملي لهذه الآية، يعني راقِب حركتك اليومية، طعامك، شرابك، خروجك من البيت، رؤيتك للنساء الغاديات الرائحات في الطريق، ما الموقف منهن، غض البصر، أو إطلاق البصر، لك لقاءات مختلطة، لك أوقات تمضيها متسيّبًا وراء جهاز لا يرضي الله عز وجل، لك ألعاب تقتل فيها الوقت بلا طائل، ولا ترضي الله فيها، أين أنت من هذه الآية ؟ يا ترى دخلك كيف ؟ إنفاقك كيف ؟ جوارحك الخمس كيف ؟ بيتك كيف ؟ زوجتك، بناتك، أولادك ؛ فهل ربّيت أولادك التربية الإسلامية، أقمت الفرائض، أديت ما عليك من زكاة، ضبطت مَن حولك، أطعت ربك، تقربت إليه، هل اتقيت أن تعصيه ؟ هل اتقيت أن تسخطه ؟ هل اتقيت أن تغضبه ؟ هل اتقيت ناره ؟ هل اتقيت البعد عنه أم رجوت طاعته ؟ ورجوت القرب منه، ورجوت مودته، ورجوت محبته، ورجوت الإقبال عليه.

الوَرِع هو الإنسان الذي يقف عند الشبهات:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ)

هذا المتقي، يعني هناك أناس شاردون، تائهون، عصاة يسخرون من الذين آمنوا، لِمَ أنت خائف، كن هادئًا، ضعها في رقبتي، كلام سخيف، وهراء يقود إلى بحر من الضلال والهلاك، الكافر أحياناً يُظهر

بطولته في التفلت من منهج الله، لا ! كلما تقيدت بمنهج الله فأنت العاقل، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، كلما تقيدت، كلما وقفت عند الصغائر، كلما تورعت عن قرش حرام فتلك العقلانية، لو رأيتم حال الورعين لصغرت أنفسكم أمامكم، الورع هو الذي يقف عند الشبهات، يدع الشبهات استبراءً لدينه وعرضه، هذا هو الورع، ورع في دخله، في إنفاقه، ورع في المباحات، يأخذ منها القدر الذي سمح الله به، حتى تكون في جنات ونعيم:

(إِنّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ)

الإنسان في الجنة مسرور من الداخل و الخارج:

وصف ربنا عز وجل دقيق:

(في جنات)

هذه الجنات جاءت جمعاً لأنّه فيها مناظر جميلة، وأنهارًا، وأشجارًا، ورياحين، وأطيارًا، وولدانًا مخلدين، وحورًا عينًا، وفواكه وهم مكرمون، الله عز وجل وصف أوصافًا مختصرةً، وفي جنة القرب من الله، وفي جنةٍ مشاهدةُ وجهِ الله الكريم، هذه جنات جاءت جمع:

(إِنّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّاتٍ)

وكذلك:

(وَنَعِيمٍ)

نعيم نفسي.

أحيانًا لو كان الإنسان في مكان جميل، خضرة وأنهارًا وأشجارًا وجاءه خبرٌ سيئ، لمَا انشرح نفسًا، و لما داخله سرور ولما ابتسم أبداً، ضعه في أجمل مكان، في أجمل إطلالة على منظر جميل، أطعمه أطيب الطعام، إذا كان ابنه مريضًا، تسمعه يقول: لستُ مرتاحًا، فربنا عز وجل وصف الوصف الكامل:

(فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ)

حالته الداخلية نعيم، والحالة الخارجية في جنات، يعني مسرور من الداخل والخارج.

الكمال أن تكون من الداخل مسروراً و من الخارج محاط بالجنات:

قد يكون الإنسان ساكنًا في بيت صغير، طعامه خشن، لكنه مسرور بالله عز وجل، وقد يكون شخص آخر ساكنًا في بيت ثمنه أربعون مليونًا، ولكنّ البيت قطعة من الجحيم، أما أن يجمع بينهما فيكون في أجمل بيت، وفي أنعمِ حالة نفسية، هذا حال أهل الجنة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

نعيم داخلي، طمأنينة، سرور، استقرار، رضاء، وطعام وشراب، وفواكه مما يشتهون، وحور عين، وغلمان مخلّدون، وكل شيء أجمله:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ)

في الجنة غلمان مخلدون وحور عين:

أحياناً طفل صغير في البيت يملأ البيت فرحة، يملؤه أنساً، تتخاطفه الأيدي، لأنّ الطفل بريء، واللهُ عز وجل يصبغ عليه من اسمه الجميل، فتجده لطيفًا، وديعًا، ذكياً، ليس عنده خبث، وليس لديه احتيال، سريع الرضا، سريع الغضب، فالطفل من متع الحياة الدنيا، وهو من عطاء الله لك:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

فيها غلمان مخلدون، وحور عين، قال لها: اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهن على أهل الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك.

أي إذا كان مثلاً بالعبارة البسيطة: (زواج وسط)، وعنده متاعب، فالقضية مؤقتة هي تنتهي ذات يوم، فإذا كان مؤمنًا إيمانًا كاملاً، ومستقيمًا استقامة كاملة، ويسعى لمرضاة الله، فله عند الله الحور العين التي وعده الله بهنّ، فالإنسان الذي تزوج زوجة ولم يحسن اختيارها يبقى لديه أمل بما عند الله، في الجنة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

الكمال أن تكون من الداخل مسروراً، وأن تكون محاطاً بأجمل الأشياء، فجمال من الداخل وهو النعيم، ومن الخارج وهي الجنات.

فاكهين لها عدة معان منها:

1 - هم الذين يأكلون الفاكهة ويتفكهون بها:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ)

جاء في التفاسير:

(فاكهين)

هم الذين يأكلون الفاكهة، ويتفكهون بها.

2 - فرحين و سعداء:

وبعضهم قالوا والمعنى أقرب:

(فاكهين)

بمعنى فرحين، سعداء، فلان فكه يعني مرح، قد تجلس مع إنسان ذي دعابة، طيب النفس مبتسم الوجه، عذب اللسان، يملأ المجلس أُنساً بمرحه، ودعابته، ولطفه، وتواضعه، وإيناسه، وبشاشة وجهه، الإنسان متى يُؤنس ومتى يُسعد ؟ ومتى تنطلق سريرته وتكون كعلانيته ؟ متى تشعر بالقرب منه ؟ إذا هو بالأساس سعيد، طيب هؤلاء قال الله فيهم:

(فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

تلاحظ إنسانًا تلقى نبأ نجاحه بالشهادة، فخلال يومين أو ثلاثة تراه متألقًا، عيناه زئبقيتان، ابتسامته لا تفارق ثغره، يصبح ذا دعابة، يلقي الطُرف، يبتسم، يضحك، يبادر إلى خدمة من حوله، هذا الوضع فيه إيناس، وخدمة، ولطف، ومرح، كلّ هذا بسبب تلقيه نبأ النجاح والنجاح محبب في كل مجال، نجاح في الدراسة، نجاح في التجارة نجاح في الصناعة، نجاح في الزراعة، نجاح في ارتقاء المناصب، نجاح في إنجاز الكتب وتأليفها، فأيُّ عمل ذو قيمة يدخل على صاحبه السرور، والشعور بالإنجاز، هذا نجاح محدود.

أكبر نجاح يحققه الإنسان أن يصل إلى الجنة:

تصور أنّ إنسانًا نجا من عذاب النار، واستحق جنة ربه، هذا أكبر نجاح على الإطلاق، أكبر نجاح يحققه الإنسان أن يصل إلى الجنة.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران: 185)

قد يقول لك: أنا اشتريت هذا البيت وثمنه ثمانية ملايين، يعطيها نغمة خاصة، بطرٌ وفرحٌ هذه الأرض تضاعفت مئة ضعف، أنا وكيل حصري للشركة الفلانية، باب البيع على مصراعيه، نجاح في الدنيا، نجاح في التجارة، في الصناعة، في الزراعة، في ارتقاء المناصب، في نيل الشاهدات، نجاح في الصحة، ذو شكل، وقوة، وبنية، نجاح في الزواج أحياناً، نجاح في اختيار بيت مناسب، له إطلالة جميلة واسع، راتب ضخم، كل هذه النجاحات سوف تفقدها عند الموت، أليس كذلك ؟ لكن هناك نجاح يدوم أثرُه هو أن تعرف الله ؟ وأن تكون طائعاً له ؟ وأن تكون مستقيماً على أمره ؟ لا تبتعد كثيراً، كم نعوة في دمشق يومياً، أكثر من خمسين نعوة، تقريباً، طيب ؛ هؤلاء الذين أصبحوا في القبور، أين كانوا

البارحة ؟ في البيوت، أليس لهم أسرّة نظيفة ؟ غرف استقبال، غرف طعام، غرف لاستقبال الضيوف، ليس لهم مركبات ؟ ألم يذهبوا إلى الأماكن الجميلة ؟ ألم يأكلوا أطيب الطعام ؟ ألم يسهروا ؟ ألم يسافروا؟ أين هذا كله ؟ هم الآن تحت أطباق الثرى، فلذلك لا يمكن أن يسمى عطاء الدنيا عطاءً، لأنه لا يدوم، أبداً.

حظوظ الدنيا ليست عطاءً إنما هي ابتلاء:

((النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: أتاني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس))

[أخرجه السيوطي في الجامع الصغير عن جابر]

من الغباء، والسخف، وضيق الأفق أن تظن أن الدنيا عطاءً لذلك فالله عز وجل كما يقول علماء اللغة ردَعَ هذا الذي يقول:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16))

(سورة الفجر: 15- 16)

لا، قال له ربه كلا، ليس هذا إكراماً، إنه ابتلاء، فإن أنفقت هذا المال في طاعة الله كان نعمة، و أما إذا أنفقته في المعاصي والآثام هو نقمة، وهذا المال الذي ظننته عطاءً، وإكراماً هو ابتلاء وسبب الشقاء الأبدي، حظوظ الدنيا ليست عطاءً، إنما هي ابتلاء، انظرْ كيف توظفها ؟ إذا كان المرءُ ذكيًا فهذا الذكاء كيف وظّفه ؟ في نشر الحق أم في ترويج الباطل ؟ كل هذا ممكن، هذه القوة التي منحك الله إياها كيف تستغلها ؟ في نصرة الضعيف، أم في تثبيت مركزك، ولو على حساب أنقاض الآخرين ؟ القوة ابتلاء، الوسامة ابتلاء، المال ابتلاء، الغنى ابتلاء

عطاء الله للإنسان حيادي:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

ليس هذا هو الإكرام، الإكرام أن توظف هذه الحظوظ في طاعة الله، إنّ الله أكرمك، أكرمك بمال فأنفقته في طاعته، أكرمك بعلم فبذلته في سبيله، أكرمك بقوة فنصرتَ بها الضعيف، أكرمك بلسان طلق

فوضّحت به الحق أكرمك بأهل فدللتهم على الله، فهذا إكرام فعلاً، أما مطلق المال ليس إكراماً، مطلق الأهل ليس إكراماً، مطلق العلم ليس إكراماً:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16) كَلَّا)

(سورة الفجر)

أداة ردع ونفي، كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إنما عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، وإذا الإنسان كانت بين يديه الدنيا فليحذر فهذه ليست نعمة، نعمة إذا وظفتها في الحق، نعمة إذا وظفت طلاقة لسانك في نشر الحق، نعمة إذا وظفت قوتك في نصرة الضعيف، هذه هي النعمة لذلك العطاء حيادي، كيف تستغله ؟ كيف تمارسه ؟ كيف توظفه ؟ من طريقة توظيفك إياه، يتحدد ما إذا كان العطاء نعمة أو نقمة.

الفوز العظيم أن تفوز بمرضاة الله:

قال:

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27))

(سورة الدخان: 25 - 27)

نعمة، فكانت عليهم نقمة ولو حملت اسمَ نعمة.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

يعني هم سعداء في هذا العطاء الأبدي السرمدي، هذا هو العطاء، لذلك:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات: 61)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين: 26)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: 58)

بهذا افرح، افرح بطاعة، افرح بعلم حصلته، افرح بقرب من الله، افرح إذا أويت إلى فراشك وخالقُ السماوات والأرض راضٍ عنك، لهذا افرح، هذا هو الكسب الحقيقي، إنّ هذا لَهُوَ الإنجاز العظيم، هذا هو الفوز العظيم، قل لي: ما الذي يفرحك أقلْ لك من أنت، قل لي ما الذي تعده فوزاً أقلْ لك من أنت، الفوز العظيم أن تفوز بمرضاة الله رب العالمين.

فرح الإنسان في الجنة لا يزول:

(فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

أي إذا الإنسان صحته طيبة في الدنيا، ودخله كبير، وأهله يحبهم ويحبونه، وأولاده أبرار، ومنزله واسع، مركبته أمام بيته، وهذا كله شيء خيالي لا يتحقق إلاّ للقليل، وقد تجده فرضاً مرحًا، فمِن أين جاءه المرح والفرح والإشراق والتألق و الدعابة والإناس والكلام العذب ؟ من هذه النجاحات التي حققها، هذه النجاحات كونت هذا النموذج الفرح، المرح، طبعاً في الدنيا هي أعراض لا تدوم و سرعان ما تزول، أما في الجنة قال سبحانه:

(فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

يعني أهل الجنة سعداء جداً.

(بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

السعادة سعادتان: إيجابية و سلبية:

إذا سمع الإنسان قصة انهيار إنسان، أو إنسان فقد ملكاته وقدراته العقلية، وهو المستمع بأعلى درجات الفهم، ألا يفرح ؟ نعم يفرح وفرحُه حقيقي، إنسانٌ له سلّم الله له جسمه من العاهات، ومن الأمراض، سلّم له أهله من المشكلات، سلم له دخله من الحرام، يعيش في طمأنينة، والسعادة سعادتان: سعادة إيجابية، وسعادة سلبية، نجاتك من عذابات الدنيا، وعذابات الآخرة، هذه سعادة، لكنها سعادة سلبية، فأنت عندك سعادتان، سعادة النجاة من عذاب النار، وعذاب الجحيم، والخزي يوم الدين، وسعادة الفوز بمرضاة الله رب العالمين، والفوز بالجنة، والآية الكريمة:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران: 185)

إخواننا الكرام: يجب أن تكون الآخرة أمام أعينكم ماثلةً، يجب أن نعمل لها.

ما أكثر ما أذكر هذه القصة، ولا بأس من أنْ أكرّرها الآن: سألوا طالبًا أحرز الدرجة الأولى في امتحان الشهادة الثانوية، بمَ نلت هذا المجموع العالي ؟ قال هذا الطالب كلمة دقيقة جداً، قال: لأنّ لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي إطلاقاً طيلة فترة الدراسة.

ونحن إن شاء الله لا نفوز إلا إذا بقيت الآخرة أمام أعيننا، قبل أن تعطي، قبل أن تأخذ، قبل أن تنظر، قبل أن تملأ عينك من محاسن هذه المرأة، قبل أن تأكل مالاً لا يحق لك أن تأكله، قبل أن تتلفظ بكلمة لا يحق لك أن تقولها، دقق كيف سيكون موقفك من الله يوم القيامة، عندئذٍ تكون من المتقين.

هَنِيئًا: كلمة لها عدة معان منها:

1 ـ عدم وجود الحزن و القلق في الجنة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19))

معنى:

(هنيئاً)

يعني في الجنة لا نغص، ولا كدر، ولا حزن ولا قلق، ومن المؤكّد أنّ الإنسان في الدنيا في أعماقه قلق، وهذا القلق سببه أن الدنيا سوف تنتهي فمهما كان الإنسان فهو لا يخلو من قلق عميق، إذْ لعل هذا الدخل لا يستمر، ولعلّ هذا الجسم لا يسلم من آفة أو مرض، فلذلك لديه قلق، وقلق آخر خوفُه من زوال النعمة، قلق من زوال الصحة، قلق من زوال المركز، قلق من تنكّر الناس له، إذًا هناك قلق مستمر، لذلك أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، لكن بالآخرة ما في شيء من هذا.

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً)

هذا الطعام والشراب وهذه الجنة لا نغص فيها، ولا كدر، ولا حزن، ولا قلق، هذا معنى أوّل.

2 ـ حلالاً طيباً:

المعنى الثاني:

(هنيئا)

أي حلالاً طيباً، إذا الإنسان استمتع بشيء حرام ففي أعماقه نغص وقلق.

3 ـ عدم تحول أو زوال الإنسان و الأشياء التي حوله في الجنة:

المعنى الثالث: هو أقوى المعاني:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً)

الإنسان إذا كان في نعمة، ويخاف أن تزول، أو كان في صحة ويخاف أن تزول، لم يعُدْ كلُّ شيء هنيئاً في حياته، لكنّ الجنة مبرأة من هذا الشعور، فالإنسان بعد الخمسين، احتمال بروستات، احتمال ماء

زرقاء، وأشباح أمراض كثيرة تحوم، أليس كذلك ؟ يعني عنده بعد الخمسين قلق، يا ترى هل أفاجأ بمرض ؟ هل أفاجأ بخلل في أحد أعضائي ؟ هذا الشعور ينتابُ الإنسان بعد الخمسين، أو بعد الستين، يساوره قلق مستمر على صحته، وقلق على دخله، وقلق على مصير أولاده من بعده، في الجنة هذه المشاعر كلها غير موجودة:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً)

يعني لا أنتم تزولون، وتتحوّلون، ولا الأشياء التي حولكم تزول أو تتحوّل.

عيشة الإنسان في الجنة راضية لا يفارقها و لا تفارقه:

واللهُ قال:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

(سورة الحاقة: 21)

العجيب أنه بحسب اللغة ينبغي كما نتوهم أن تكون العيشة مرضية، الإنسان راضٍ عنها، في القرآن بالعكس، قال:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة: 21 - 24)

معنى راضية، أيْ أنّ الإنسان في صحة طيبة، أو مع أهله على ما يرام، وأولاده أبرار، هذه عيشة مرضيٌ عنها، لكنها حينما تزول، هذا المعنى أنها لم ترضَ عنك فتركتْكَ، زوالها يعني أنها ليست راضية عنك، لذلك تركتْكَ، فإذا الإنسان ضمن عيشة مرضية عنها ربما يقلق لأنها سوف تزول عنه، أما هذه العيشة راضية عنك بمعنى أنها لا تفارقك، فربنا عبر عن نعيم أهل الجنة:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

(سورة الحاقة: 21)

أي أنت راضٍ عنها، فلا تتركها، وهي راضية عنك فلا تغيب عنك، هذا المعنى.

حساب الله للإنسان في الآخرة دقيق جداً:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

هذه باء السببية، يعني الله عز وجل حسابه دقيق.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل: 32)

هي بالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، بإنفاق المال، بالأمر بالمعروف، وبالنهي عن المنكر، بتربية الأولاد، أن تأخذ بيد أهلك إلى الله ورسوله، أن تدعو إلى الله، أن تصبر على بلاء الله، أن تصبر عن الشهوات، أن تصبر على قضاء الله وقدره، أن ترجو الله والدار الآخرة:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل: 32)

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ(20))

الدنيا أساسها العمل، والجنة أساسها الإكرام.

أساس الدنيا العمل و أساس الآخرة الإكرام:

قد تكون عند الإنسان أعمال كثيرة، عنده متجر، عنده مكتب، عنده سلع كثيرة، عنده وظيفة، عنده دراسة، فهو دائمًا منهمك، يقرأ، يدرس، يبحث، يذهب، ينطلق أساس الحياة هو الكسب، والتعب، والكدح، والكد، وقد يرغب يومًا أنْ يقوم بنزهة، والأصل في النزهة الراحة، فلا يعمل شيئاً، ينام، ويأكل ويستمتع بالمناظر، ويسبح، و يلعب، الأصل في الاستجمام الاستمتاع بالدنيا، والأصل في الأعمال بذل الجهد، وبعدُ وبشكل مكبر فالآخرة كلها الأصل فيها الإكرام، لذلك لهم ما يشاءون، أي شيء خطر في بالك تجده أمامك.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

(سورة ق: 35)

فأنت الآن في دنيا أساسها العمل، أساسها الكدح، أساسها بذل الجهد، أساسها الصبر، أساسها التحمل، أساسها بذل الطاقة لنيل مكسب صغير، الآخرة بالعكس، الحياة الآخرة كلها أساسها النعيم المقيم أساسها الإكرام، أساسها أن كل متاعب الدنيا منزهةٌ عنها الدارُ الآخرة.

ثم إنّ الإنسان يكبر بالسن، يقول لك كبرت، قال لي شخص: سبحان الله أنا قبل خمسين سنة كنتُ أنشط من الآن، طبعاً، تضعف قوته، يضعف بصره، يضعف سمعه أحياناً، يشعر بوهن بجسمه، همته تضعف، لديه قلق لتقدم سِنِّه، وقلق لقلّة الدخل، وقلق لتفرُّق الأهل، وقلق المرض، في الآخرة لا يوجَد شيء من هذا، كل أنواع القلق مبرأ منها الإنسان في الآخرة.

الجمال في الآخرة جمال مطلق:

(مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

تحار في جمالهن الأعين، عيناء ؛ واسعة العينين، بيضاء اللون:

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

طبعاً هذا وصف موجز لكن ربنا عز وجل في هذا الإيجاز يعبر عن كل شيء، يعني جمال مطلق، في الدنيا لا يوجد جمال مطلق، يعني في تفوق من جهة، وتخلف من جهة أخرى ورحمة بنا، لكن الجمال في الآخرة مطلق:

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

أكبر كسب للإنسان أعمال ذريته الصالحة إلى يوم القيامة:

أما هذه الآية، الآية الحادية والعشرين.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

هذه الآية إخواننا الكرام: أكبر كسب على الإطلاق تناله في الدنيا أن تنشئ أولادك تنشئة إيمانية، إنك إن ربيت أولادك على طاعة الله ومحبته، وعلى طاعة رسول الله ومحبته، وعلى حب آل بيت رسول الله، وعلى قراءة القرآن، وعلى ضبط الجوارح، والأعضاء، وعلى أكل المال الحلال، وعلى العمل الصالح، إن هؤلاء الذرية الذين ربيتهم، هذه التربية كل أعمالهم إلى يوم القيامة في صحيفتك:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ)

يعني أنت آمنت، وربيت أولادك حتى اتبعوك في إيمانك، ربيتهم إلى أن ساروا على نهجك، ربيتهم إلى أن أحبوك، ربيتهم إلى أن قدسوا اتجاهك وعظّموه في نفوسهم.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

أعمال ذريتهم بمجملها، بأكملها، كل الذرية، يعني أولادهم، وأولاد أولادهم، وأولاد أولاد أولادهم، وأحفادهم، وأحفاد أحفادهم، إلى يوم القيامة، قد يموت الإنسان بعد أنْ يخلف خمسة أولاد، فحتى يوم القيامة قد يكون عددهم خمسمئة مليون، هذا جائز، كل هؤلاء في صحيفتك.

ما من عمل على وجه الأرض أربح من أن تُخلّف ذرية صالحة:

أنا أقول لكم كلاماً دقيقاً، والله أيها الأخوة: ما من عمل على وجه الأرض أخطر، وأربح، وأنجح، وأثمن، من أن تخلف ذرية صالحة شباباً وشابات، وأن هذه الذرية أعمالها كلها في صحيفتك إلى يوم القيامة.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ)

لماذا اتبعتهم ؟ لأن الأب كان كاملاً، كان أخلاقيًا، كان قدوة حسنة، بتوجيهه، بسلوكه، بحياته الخاصة، بحياته العامة، بكسبه للمال، الأب لما كان مثاليًا اتبعه أولاده، أما إذا لم يكن الأب مثاليًا، فقد تجد الابن يحترمه احترامًا ظاهريًا، ومع أصدقائه يقول: أبي بخيل، إذًا فالابن قد يكشفُ خطأ والده ولا يتبعه أما علامة الأب الكامل، الكامل في علمه، الكامل في أخلاقه، الكامل في عطائه، الكامل في عطفه، نتائج هذا الكمال في الأب أن يتبعه ابنه، هي إشارة لطيفة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ)

طبعاً عن إيمان لا عن خوف، يعني آمنوا كما آمن، عرفوا الله كما عرف، أحبوا اللهَ كما أحبّ الأب، وبتوجيهه، وبتعليمه، وبإكرامه، وصبره.

الإنسان رهين عمله:

(بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(ألتناهم)

أي أنقصناهم يعني عمل الأبناء، ألم يجعل كله في صحيفة الآباء ؟ نعم، من دون أن ينقص من أجر الأبناء، هذا من عطاء الله الكريم، فأنت إذا قلت لشخص مثلاً ضع مالك في هذا المعمل والمتجر، فوضع خمسة ملايين، أفيُعقل أنّ هذا المعمل أو المتجر يعطيك خمسة ملايين نظير أنك أرشدتهم إليه ؟ ليس معقولاً، لكن عند الله هذا واقع لا محالة أنى تجد كل أعمالَ أولادك، وأولاد أولادك، وأولاد أولاد أولادك، إلى يوم القيامة، كلُّها أعمال صالحة، و سيكون لك الحجم نفسه أيضاً.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

مرهون بعمله يعني في الدنيا هذا مودع في السجن على ذمة القضية الفلانية، فقد حريته، لأنه ارتكب عملاً ما، فكل إنسان رهين عمله، فلو تصورنا إنسانًا مستقيماً طليقًا، فهو يذهب، ويسافر، ويخرج من بلده، ثم يرجع، ليس عنده مشكلة إطلاقاً، أما إذا ارتكب إنسان معصية، أو مخالفة للقوانين يقول لك: ليس بمقدوري أن أسافر، أو كان مرتكباً ما هو أكبر من ذلك فليس بمقدوره أن يدخل القطر مثلا، هذا الإنسان مرهون بقضيته، وهذا مثل بسيط، والإنسان رهن عمله عند ربه.

قال له: يا قييس إن لك قريناً تدفن معه وهو حي، ويدفن معك وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، و إن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك، فأنت إذًا رهين عملك فاحذر.

الحجاب بين المرء و ربه لا يهتك إلا بالعمل الصالح و التوبة:

مرة كنت عند صديق وهو قاضي تحقيق، وكان يحقق مع شخص يُتاجر بالمخدرات، فكان هذا الإنسان وهو يجيب عن أسئلة القاضي نظره في الأرض، دخل شاب طليق الوجه، مبتسم، قلت هذا الذي دخل ليس متهماً، طلاقته تدلُ عليه، وهو قريب للقاضي، فإذا كان المرء طليقًا بريئًا من أيّ تهمة أو ذنب تجده جريئًا، مرحاً، وجهه متألق، أما إذا كان مذنبًا كان ممن ينطبق عليه قوله تعالى:

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ(42))

(سورة عبس: 40 -42)

الوجه صفحة النفس، إذاً:

(كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

أنت حجمك عند الله بحجم عملك، بعدك عن الله لا سمح الله بقدر إساءتك هناك حجاب كثيف، وهناك حجاب رقيق، كل معصية تشكِل حجابًا فإذا كانتا معصيتين شكلتا حجابين، والحجاب بين المرء وبين الله يهتكه سريعاً بالتوبة، يهتكه بالعمل الصالح، لذلك: وأتبع السيئة الحسنة تمحُها وخالق الناس بخلق حسن.

نعيم الجنة باق لا ينفد:

(وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ)

أحيانًا الأكل لا يكفي، أما في الجنة فكُلْ ما شئت، مائدة مفتوحة بالتعبير المعاصر، كلْ ما شئت.

(وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23))

خمرةُ الدنيا، إذا شربها الإنسان يفقد عقله، يتكلم كلمات غير معقول أن يتكلمها وهو في صحوه، والإنسان إذا شرب الخمرة يصبح أحمقَ في سلوكه وفي كلامه، ينشر فضائح، يتكلم من عقله الباطن، إنسان له مكانة رفيعة في المجتمع هو موجه تربوي لمادة معينة، فلما شرب الخمر تكلم بكلمات لا يعقل أن تصدر منه، فهذا هو اللغو والتأثيم. فلما شرب الخمر وقع في المحرمات وقد في ساحة من يلوذ به، أما خمرة الآخرة:

(لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ)

فخمرة الآخرة من نوع آخر وصناعة أخرى.

(يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ(23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ)

من جمالهم.

حال أهل الجنة و هم في الجنة يتنعمون:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

يعني أهل الجنة يتحدثون، يتحدثون عن الدنيا، كيف تعبوا ليصلوا إلى معرفة الله، كيف جاهدوا أنفسهم وأهواءهم، كيف التقوا مع من يحبون، كيف اهتدوا إلى الله:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

أحياناً تجد الإنسان لما ينجح في الحياة، يجلس في مجلس، وقد يتصدره ويزهو قائلاً، أنا قدمت امتحانًا في اليوم الفلاني، وكان ضمن الأسئلة سؤال صعب، تعجيزي وأنا تذكرت، وكتبت، وأجبت، وكلما كان يواجه عقبة كان يتحدث كيف أنه انتصر عليها، وكيف تجاوزها، وكيف نجح، وكيف تفوق، وبعد النجاح غالبا ما يكون الحديث عن المتاعب حديثًا ممتعًا جداً، وكذلك نجح إذا الإنسان في عمله التجاري، وفي عمله العلمي، وفي عمله المنوع ووصل لقمة المجد في عمله، فإذا تحدث تحدَّث عن متاعبه السابقة وكيف انتصر عليها، وكيف تحداها، وكيف تجاوزها، وكيف سخر منها، وكذلك حال أهل الجنة، وهم في الجنة يتنعمون، وقد وصلوا إلى أعظم الغايات.

حديث المؤمن عن خوفه من عذاب ربه:

قال تعالى:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26))

نحن كنا خائفين، ونعيش في قلق، يعني مثلاً لو أنّ طالبًا شكا همه لصديق، وقال له: أنا عندي وظائف، والأساتذة قساة، والواجبات كبيرة وكثيرة جداً، وعليّ أنْ أكتب موضوعًا، وأنْ أؤلف أطروحة، وأنْ أتقدّم لفحوص شفهية، وأدرس الدروس وأحضِّرها، وهذا شيء لا يحتمل، فيقول له صديقه: أنا ليس لديّ مشكلة، فأنا أنام إلى الظهر، لما شكا الأول الصعوبات التي يلاقيها في حياته الدراسية، بينما الثاني من أولاد الأزقة، قال له أنا لا أحس بأيّ تعب من مثل هذا، أنا أنام حتى أشبع النوم، آكل كلّ ما أشتهي، أذهب إلى أي مكان يحلو لي، بينما أنت محروم من كلّ هذا، لا ! ثم لا فهذا في تيهٍ وضياع، وهذا ليس له مكان في المجتمع، أما هذا يعد ليكون إنسانًا متألقًا بالحياة.

(قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ(28))

جزاء المتقين يوم القيامة:

الله عز وجل حدثنا عن المتقين:

(جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20))

وعن تربية أولادهم، وأنهم وصلوا إلى غايتهم عند الله عز وجل، وأنّ أعمال أولادهم كانت في صحائفهم:

(وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28))

يتوجهون إلى الله بدعاء، والتجاء إليه، وضراعة، يستغرقون في مناجاة، وفي استرحام، وفي استغفار، وتسبيح، وتحميد، وتكبير، وشُغلُهم في ليالي اعتكاف وصلاة بما فيها التراويح، وبعدها درس إرشاد ووعظ، وفي صلاة الفجر تجليات وضراعة، هذا هو المؤمن، من عمل إلى عمل، ومن مسجد إلى مسجد، ومن خدمة إلى خدمة، ومن فهم إلى تطبيق، ومن إنفاق إلى إنفاق.

(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28) فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ(29))

وبعدُ ؛ فهذه الآية وما بعدها نرجئها إلى الدرس القادم إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطور 052 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 29-49 ، الدعوة إلى الله فرض على كل مسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-08-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام مع الدرس الثالث والأخير من سورة الطور، ومع الآية التاسعة والعشرين.

أمر الله عز وجل للنبي الكريم بتذكير الناس مهما استخفوا بدعوته:

قال تعالى:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(31))

أولاً فذكِّر: أمرٌ من الله عز وجل للنبي صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما مسوّغ هذا الأمر ؟ أي مهما أساءوا إليك، ومهما استخفوا بدعوتك، ومهما عارضوك، ومهما كذبوك، أنت عليك أن تُذكِّر.

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية: 21 - 22)

أنت لا تملكهم، لكن ذكِّرهم، ذكِّر، أيْ: فعل أمر موجه للنبي صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يمكن أن ينسحب إلى المؤمنين، وأنت أيها المؤمن فذكِّر، ذكِّر مَن حولك، الإنسان مهيأ للهدى، مهما رأيته متلبساً بمعصية، عليك أن تذكره، لا تدري لعل كلمة تقع موقِعاً حسناً في قلبه، لعل قضية تعالجها تفعل فيه فعل السحر

(فذكر)

المؤمن يذكر لذلك:

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو]

التدين فطرةٌ في الإنسان يحتاج إلى تذكرة:

ذكرتُ اليوم أن الدعوة إلى الله تكون تارة فرض عين، وتارة فرض كفاية، فرض العين فيما أنت تعلم، في حدود ما تعرف، دون أن تزيد، ما من إنسان مسلم إلا ويحضر خطبة الجمعة، لأنها فرضٌ عيني على كل مسلم.

((من ترك الجمعة ثلاث مرات، تهاوناً بها، طبع على قلبه))

[أخرجه ابن ماجه عن عبيدة بْن سفيان الحضرمي]

إذًا لا بد من أن تلتزم خطبة الجمعة، طيب ؛ في هذه الخطبة أليس فيها آية ؟ حديث ؟ حُكم ؟ موعظة ؟ لا بدّ أن يكون شيءٌ من ذلك، لو أنك حفظت تفسير آية، أو شرح حديث، أو موقف صحابي، وفي خلال الأسبوع في أي لقاء، في أي اجتماع، في سهرة، في ندوة، في سفر، إن كنتَ في وليمة فذكر، يريد القرآن الكريم أن يكون في حياتنا دعوة، فالله عز وجل وجّه النبي عليه الصلاة والسلام أن يذكِّر، لكن كلمة (ذكر) ماذا تعني ؟ فأنت إذا رأيت منظراً، ثم ذكّرت به، ما معنى ذكرت به ؟ رأيته من قبل، وهذا الكلام هو تذكرة، يذكرك بشيءٍ رأيته، وأغلب الظن أن التدين فطرةٌ مودعة في الإنسان، يحتاج إلى تذكرة، النفس مصممة على الإيمان، مصممة على أن تعرف الله، تحتاج إلى تذكير.

صلح الإنسان مع الله أساسه كلمة طيبة:

صدقوني أيها الإخوة: أن هناك حالات الاستجابة لدعوة من الإيمان والتوبة تلفت النظر، إنسان غارق في كل المعاصي، كلمة صادقة من إنسان صادق قلبته رأساً على عقب، حملته على التوبة، فلو استمعت إلى أيّ أخ كيف تعرف إلى الله، كيف تاب إلى الله، كيف اصطلح مع الله، فلا تعجب إنْ علمتَ أنّ صلحه مع الله كان أساسه كلمة طيبة، كلمة طيبة صادقة، مخلصة، قال لك: ذكِّر، لك ابن ذكِّره، لك أخ ذكِّره، لك جار ذكِّره، لك شريك ذكِّره، صديق سفر ذكِّره:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

(سورة الغاشية)

الله سبحانه يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يذكِّر، وأنت يجب أن تقتدي بالنبي عليه الصلاة والسلام وتذكر، نحن في شهر المولد، والشام كلها احتفالات في عيد المولد، شيء جميل جداً، لكن الأجمل من ذلك أن تقتدي برسول الله، وأن تقتفي أثره، لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل إدعاء حبه إلا بطاعة رسوله، فالاحتمال بالمولد يعني اقتفاء أثره في دعوته وتجديد معانيها.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: 31)

من أراد بعمله وجه الله امتد أثر عمله لما بعد الموت:

من اتباع النبي عليه الصلاة والسلام أن تذكِّر، أن يكون لك لسان صدق، طبعاً ما من إنسان إلاّ له أخ، أو ابن، أو جار، أو قريب، أو صاحب، أو شريك، إلاّ وله صاحبٌ عابر في سفر، كل إنسان له اجتماع،

وسهرة، ندوة، ونزهة، ووليمة، وحفلة، لك أقرباء، ولك أصدقاء، وهناك مناسبات كثيرة، فحتّى لا يكون الحديث عن الدنيا، فذكِّر، فالنبي عليه الصلاة والسلام أمر أن يذكِّر، وأنت كمؤمن أمرت أن تذكر، لكن لما تذكِّر، يجري اللهُ عز وجل على يديك الخير، ويقدر على يديك هداية إنسان، وهذه تجارة رابحة، هذا معنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ)

(سورة الصف: 10 - 11)

يعني دائماً هناك مواقف حسّاسة ؛ اجعل الموت هو الحد الفاصل، أي عمل يستمر إلى ما بعد الموت، هذا العمل العظيم، هذا العمل الرابح، هذا العمل المجدي، هذا العمل الذي تسعد به، هذا العمل الذي يدل على عقل راجح، هذا العمل الذي ترقى به، هذا العمل الذي تطمئن به و تطمئنّ إليه، وأيّ عمل ينتهي عند الموت فهو للدنيا، فلو أراد الإنسان بعمله المهني وجه الله، وخدمة المسلمين، وكفاية نفسه، لامتد أثره إلى ما بعد الموت.

النية محصلة إيمان الإنسان:

أما النية فقضية معقدة جداً، النيةُ محصلة إيمانك، النية محصلة توحيدك، النية محصلة جهودك التي بذلتها في طريق الإيمان، كلما كنت متفوقاً في الإيمان، ارتقت نواياك، إذا ارتقت نواياك، صارت المباحات عند المؤمن عبادات، صار عمله عبادة، ظروف حياته مع أهله عبادة، لقاؤه مع إخوانه عبادة:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

(سورة الغاشية)

الله عز وجل قال:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة: 152)

((قال الله عز وجل: لا يذكرني أحد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى))

[أخرجه الطبراني عن معاذ بن جبل]

إذاً: إذا قال الله عز وجل يا أيها النبي اتق الله، أيْ ؛ أيها المؤمن اتق الله، إذا قال الله عز وجل: وتوكل على الله، أي ؛ أيها المؤمن توكل على الله، وإذا قال الله عز وجل: فذكر يا محمد، أنت أيضا أيها المؤمن ذكِّر، فأنت يجب أن تذكر كفرض عين، في حدود ما تعلم.

كل إنسان يحتاج إلى تذكرة صادقة مخلصة:

والله عز وجل قال:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران: 104)

هذا فرض كفائي، الأمة بحاجة إلى دعاة كبار، إلى متخصصين، إلى متبحرين، هذا فرض كفاية، أما فرض العين، في حدود ما تعلم، يجب أن تذكر في حدود ما تعلم، دون أن تزيد على ما تعلم، ذكِّر، والإنسان إذا ذكّر، وعُلِم الله منه الصدق، فليس بعيداً أن يجري الله على يده الخير، وكلمة (ذكّر) تعني أن الإنسان بفطرته وبأصل تكوينه مؤمن بالله، لا يحتاج إلا إلى تذكرة.

فمثلاً إذا رأى إنسانٌ مدينة معينة، كان قد سافر إليها، ثم غاب عنها وأريناه صورتها، لقال: نعم، نعم زرتها وأعرفها، فالإنسان يحتاج إلى تذكرة صادقة، مخلصة منيبة.

دعوة الله النبي الكريم بأن يُذكّر الناس رغم الاتهامات التي اتهموه بها:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

(الكاهن)

هو الذي يتلقى عن الجن، والشياطين أحياناً يؤذون الإنس، فيصابون بالجنون، الشيطان في هاتين الكلمتين قاسم مشترك، إما أن الكاهن يتلقى عن الجن، وإما أن شياطين الجن تؤذي هذا الإنسان فيصبح مجنوناً، فالله سبحانه وتعالى يسلِّي رسوله أنْ يا محمد لو أنهم قالوا لك أنت كاهن فلا تيأس وذكِّر، ولو قالوا: إنك لمجنون، ذكِّر، ولو قالوا: شاعر، ذكِّر، ولو قالوا: ساحر، ذكِّر، لذلك فالمؤمن لا تلين قناته، ولا يغير مواقفه، لأن هدفه الله عز وجل:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

لقد ضربت مثلاً، لو كان معك خمسة كيلوات ذهب خالص، والناس قالوا: هذا ليس بذهب، هذا معدن خسيس، فمن الرابح ؟ أنت الرابح، ولو قالوا عن هذا المعدن ما قالوا، أنت عندك خمسة كيلوات من الذهب الخالص، هم يدّعون أنه معدن خسيس، كلامهم لا يجعله خسيساً، كلامهم لا يبدل ولا يغير الحقيقة، لو كنت تملك المعدن الخسيس وبذكاء بارع أوهمت الناس أنه معدن نفيس، فأنت الخاسر الوحيد، يعني أنت الرابح إذا كان معك الذهب الخالص، وأنت الخاسر إذا كان معك المعدن الخسيس، لا إقناعك للناس بأن ما عندك من الذهب الخالص، يجعله ذهباً خالصاً ولا اتهام الناس لك بأن ما عندك من معدن هو معدن خسيس يجعله خسيساً، أنت الرابح، وأنت الخاسر.

لا يقطف الإنسان ثمار الدين إلا إذا طبقه كله:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

فمثلاً إذا كان الإنسان يسكن في بيتٍ مريح جداً، وقال أحدهم: هذا البيت صغير، وهو في الحقيقة كبير، فكلمة صغير تجعله صغيراً، ولو كنتَ تأكل أطيب الطعام، وقيل: لك هذا الطعام طعمه غير مستساغ، هل هذه الكلمة تجعل الطعام غير مستساغ ؟ لا. فالكلام لا يصنع شيئاً، الكلام يعبر عن حقيقة، أو عن وهم، الكلام الخبري، يقال لصاحبه صادق أو كاذب، فأنت حينما أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن تذكِّر فعليك أن تذكر:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

في الحقيقة إنّ الإنسان إذا قطف ثمار الدين، لا يتأثر بأقوال الناس إطلاقاً، لكن متى يتأثر ؟ يتأثر بتصغير الناس لشأنه، يتأثر بتشكيك الناس في صدقه، يتأثر بطعن الناس فيه، إذاً لو يُوفّق لقطف ثمار الدين، وهذا يعني وجود خلل، فمن خصائص هذا الدين أنه ينبغي أن تأخذه كله، حتى تقطف ثماره، إن أخذت بعضه، قد لا تستفيد، فلذلك: خذ بعضه وأتمم بعضه الآخر، لا نقول لمن يأخذ بعض الدين: دع هذا البعض، هذا كلام غير شرعي إطلاقاً، بل نقول: أتمم أتمّ الله عليك.

اتهام الناس النبي الكريم بأنه كاهن أو مجنون أو شاعر:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ)

شاعر أيضاً، في التصور الجاهلي له شيطان يوحي إليه، ومن أقوال الأدباء: إنّ شياطين الشعر توحي للشعراء، والشعراء حينما يبدعون تارة، ويهبطون تارة أخرى، فهذا الإبداع والتدني والهبوط سببه فيما يظنون ويتوهمون أن الشاعر جاءه شيطانه فأبدع، فلما غاب عنه شيطانه أسفٌ وهبط، فعند الشعراء وكل أصحاب الأعمال الفنية ساعة إبداع، وساعة قصور، والعرب بالجاهلية تصوروا أنّ لكل شاعر شيطانًا، فإذا كان معه أبدع، وإذا غاب عنه قصر:

(أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ)

يعني يطاله الموتُ ويريحنا منه، فجاء الجواب الإلهي:

(قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)

وأنا أتربص بكم، وسوف ترون لمن العاقبة، ولمن المستقبل.

من نشأ في طاعة الله تألق في آخر عمره:

والله عز وجل يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف: 128)

((إنما الأعمال بالخواتيم))

[أخرجه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير والدار قطني في الأفراد]

والعبرة لمن يضحك أخيراً، والعاقل من يهتم بخريف عمره، لا بمقتبل عمره، قد يستوي الناس جميعاً في شبابهم، أما التفاوت الكبير في خريف حياتهم، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، من لم ينشأ في طاعة الله ويشكل حياته تشكيلاً إسلامياً، ربما تعب كثيراً في خريف عمره، وأفضل شيء لدى الإنسان أنْ يطبّق أوامر الله في سن مبكرة، وعندئذ في الأعم الأغلب، سيختار زوجة مسلمة صالحة، وسيختار عملاً شريفاً، فلو جاء إيمانه وصلحه مع الله متأخراً، وقد شكل حياته تشكيلاً غير إسلامي، فهناك يلقى متاعب لا تحصى، لذلك هنيئًا لمن نشأ في طاعة الله، فهذا له خريف عمر متألق.

العاقبة للمتقين:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31))

لو درسنا تاريخ الإسلام في بدايته، أصحاب النبي الذين آزروه، ونصروه وأيدوه، وقاتلوا معه، ووضعوا أرواحهم على أكفهم، نصراً له، فما مقامهم في ذاكرة التاريخ ؟ والذين عارضوه، وكذبوه، وائتمروا على قتله، وإخراجه، والتنكيل بأصحابه، أين هؤلاء الذين عارضوه وكذبوه ؟ أين مقاماتهم التي تزار ؟ فهل رأى أحد منكم مقاماً لأبي جهل بمكة ؟ إنّهم في مزبلة التاريخ، أما أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الذين نصروه، وأيدوه، في أعلى عليين، في مقام رفيع، فالعبرة للخاتمة، العبرة لمن يضحك آخراً، العاقبة للمتقين دائماً الإنسان عليه أن يضم الآخرة إلى الدنيا، أو عليه أن يضم نهاية الحياة مع بدايتها، أما إذا نظر إلى البداية قد يتوهم أن المتفلت أسعد من المنضبط، وأن الغني الذي جعل غناه من مال حرام أسعد من الفقير الذي تورع عن المال الحرام، أما إذا ضممت آخر الدنيا إلى أولها، أو ضممت الآخرة إلى الدنيا اختلفت الموازين.

الخطأ الكبير الذي يرتكبه الناس موازنة حياة الكافر مع حياة المؤمن:

ذكرت مرة أن راكب دراجة يسير على طريق مستوٍ، واجه طريقين، طريقاً نازلاً، معبداً، تحفه الأشجار والورود، والرياحين، وطريقاً صاعداً وعراً، فيه الصخور والأكمات، وفيه المتاعب، طبعاً راكب الدراجة يختار الطريق النازل، ويبتعد عن الطريق الصاعد لو كان في نهاية الطريق الصاعد قصرٌ منيفٌ، هو مِلكٌ لمَن يصله أوّلاً، وفي نهاية الطريق النازلة حفرة سحيقة قد يدرك الموتُ مَن يصل إليها، والآن نقول لك: اختر، فالأمر مختلفٌ كلية، إذا ضممت الحفرة إلى الطريق المريحة، وضممت القصر إلى الطريق الصاعد، تختار الطريق الصاعد، وهكذا الدنيا، وهذه حقيقتها.

الخطأ الكبير الذي يرتكبه بعض الناس أنّهم يوازنون حياة الكفار مع حياة المؤمنين، والحقيقة أنه ينبغي أن تضم إلى حياة الكفار مصيرهم، وينبغي أن تضم إلى حياة المؤمنين مصيرهم الذي وعدهم الله به، نظريا طبعاً، لا على شخص معين، إنسان انضبط، خاف من الله، تعرف إليه، رجا قربه، رجا ثواب طاعته، ضبط دخله، ضبط إنفاقه، ضبط جوارحه، ضبط أولاده، زوجته، وكان في الدنيا قليلَ ذاتِ اليد كما يقولون، والذي تفلت فأصبح غنياً، لا توازن هذا بهذا، إن أردت أن توازن، ضُمَّ الآخرة إلى الدنيا ووازن، ضم آخرة المنضبط إلى دنياه ووازن، وضم آخرة المتفلت إلى دنياه ووازن، لذلك قال سيدنا علي: **الغنى والفقر بعد العرض على الله:**

(أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31))

المؤمن خطه البياني صاعد:

لذلك فالله عز وجل أمر المؤمنين أن يقولوا للكافرين:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة: 51)

هل في الآية بشارة ؟ نعم البشارة من كلمة

(لنا)

(لنا)

تفيد التملك، والشيء الثمين هو الذي يملك، لكن تجد إنسانًا يملك عقرباً، فيقول: أنا عندي خمسة عقارب، الشيء الثمينُ هو الذي يملك، تملك الذهب، تملك الفضة، تملك الجواهر، اللآلئ، الله عز وجل قال:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: 286)

الشيء الثمين، الخير، الجيد لنفسك، والوزر، والإثم، والعقاب عليها، فحينما قال الله عز وجل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة: 51)

يعنى أنّ المؤمن خطه البياني صاعد، ولو اقتضى التأجيل أحياناً، أو اقتضت عوامل التربية أن ينزل هذا الخط، لكن المحصلة النهائية أنّه صاعد، ينزل ثم يصعد، يتابع صعوده.

إذا أحب الله عبداً ضيق عليه ليحاسب نفسه على كل خطأ:

المؤمن مفتون ومبتلى، والله عز وجل يحاسبه، وربما حاسبه حساباً عسيراً، لأنه مظنة صلاح، الإنسان يحاسب المتفوق على خطأ طفيف.

((إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه))

[أخرجه الديلمي عن علي]

((إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا))

[أخرجه الترمذي والحاكم عن أنس]

((إذا أراد الله بعبد خيرا عاتبه في منامه))

[أخرجه الديلمي عن أنس]

إذا أحب الله عبداً ضيق عليه.

((قال النبي صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنزل الله جبريل في أحسن ما كان يأتيني في صورة فقال: إن الله تعالى يقرئك السلام يا محمد، ويقول لك: إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرري وتكدري وتضيقي وتشددي على أوليائي كي يحبوا لقائي))

[أخرجه البيهقي عن قتادة بن النعمان]

أنت مخلوق للآخرة ؛ فإذا كنت في الدنيا مرتاحاً راحة تامة كرهت لقاء الله عز وجل، الحكمة تظهر لك بعد حين:

(قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)

الإنسان حينما يطغى لن يستجيب للحق:

لا تنتظر أن يأتي العقاب لمؤمن، انتظر أن يأتي العقاب لغير المؤمن، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية: 21)

العرب أو قريش بالذات مشهورة في جاهليتها أن زعماءها كانوا أصحاب عقول راجحة، فبيَّنَ الله عز وجل أنّ هذا التكذيب، وذلك الرد، وهذا الاتهام بأن النبي ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون، فهذا الاتهام كلّه من صنع عقولهم الراجحة، أهكذا تأمرهم عقولهم ؟ قال سبحانه:

(أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

هل تستنبطون من هذه الآية شيئاً ؟ لماذا لم تأمرهم أحلامهم أن يؤمنوا ؟ أن يصدقوا ؟ أن يستسلموا ؟ أن يخضعوا ؟ قال:

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

(سورة الذاريات: 53)

الطاغي يأبى عقله أن يعترف بالحق:

الإنسان إذا طغى، اختلّ توازنه النفسي، فإذا اختلّ توازنه النفسي، لا يستطيع أن يعيد هذا التوازن إلا برد الحق وعدم قبوله، ولو قبل الحق وكان مخالفاً لتعليمات الحق، يزداد اختلال توازنه، أما حينما يتهم أهل الحق بالكذب، أو بالجنون، أو بالغيبيات، هذا الاتهام يحقق له توازنه لذلك فالإنسان حينما يطغى، فلن يستجيب للحق.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: 50)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2)م)

(سورة الماعون: 1 - 2)

هو نفسه.

لذلك لو أنهم لم يكونوا قوماً طاغين لأمرتهم أحلامهم بالإيمان بالله ورسوله، لكن لأنهم قوم طاغون، عقولهم أبت أن تعترف بالحق:

(أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

اتهام الكفار بأن القرآن الكريم ليس من عند الله بل هو كلام النبي:

وبعدُ، فالله عز وجل خاطب الفطرة خطاباً رائعاً، وافترض كلّ الافتراضات ورد عليها:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ)

أيْ أنهم قالوا: هذا الكلام ليس كلام الله، النبي جاء به من عنده، افتراه على الله، القرآن من صنع النبي عليه الصلاة والسلام، كان عبقرياً فذاً فكتب كلاماً، استحوذ على قلوب الناس به:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ)

يعني أنّي لم أجد مثلاً أوضح لهذه الآية مما لو أطلعت إنسانًا على قطعة ماس من أعلى مستوى، ثم قال لك: هذه بلور، كيف يقول عن الماس إنه بلور ؟ لأنه لا خبرة له إطلاقاً بهذا الموضوع، ما قال هذه الكلمة إلا لأنه عديم الخبرة، لو كان خبيراً، لما قال عن هذا الماس الناصع إنّه بلور.

التوضيح، التبيين، والتنوير، من لوازم الإله الكامل:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ)

أي اقرءوا القرآن ؟ لو وقفوا عند صياغته، ونظمه، وإعجازه، ودقة أحكامه، وتوافق أحكامه مع طبيعة النفس، لو تأملوا هذا الكتاب، لما قالوا تَقَوّل، ما من شيء في الإنسان أقبح من أن يمزق رسالة قبل أن يقرأها، إنه موقف قبيح وغبي، أن تمزق رسالة قبل أن تقرأها، فهذا الذي يقول إنّ هذا الكلامَ كلامُ محمدٍ، هل قرأ القرآن ؟ هل تدبر آياته ؟ هل شاهد إعجازه ؟ إعجازه العلمي، والتشريعي، والتاريخي، والبلاغي، واللغوي، والحسابي، هل وضع يده على إعجاز القرآن الكريم ؟ ثم يقول تقَوّل:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لأنهم ما آمنوا بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً، ولا يمكن يدع الناس من دون هدى.

فمثلاً هل تجد أباً يبقى ساكتًا، وأولاده يتحركون بغير منهج، ولا خطة، ثمّ لا يتدخل، أب يجلس ويرى ابنه الصغير يقترب من المدفأة، ألا يتحرّك ؟ أيبقى ساكتًا، يعني أنّ التوضيح، والتبيين، والتنوير، كلٌ هذا من لوازم الإله الكامل، الإله الكامل الذي خلق، فأبدع، لا بد أنه نوّر الناس وهداهم إلى طريقة سعادتهم، فلذلك ترى الإنسان حينما لا يؤمن، ينكر أن يكون هذا الكلام كلام الله، أما إذا آمن يرى أن هذا الكلام من لوازم الخالق، ومن لوازم كمال الخالق أن ينذر، وأن يحذر، وأن يبين، وأن يضع منهجاً لخلقه يهتدون بهديه.

تحدي الله عز وجل للناس جميعاً:

و هأنذا أضرب مثلاً ؛ شركة محترمة تصنع آلة بالغة التعقيد، النشرة التي ترافق الآلة من أخطر ما يجب أنْ يُلازَم، طريقة التشغيل والصيانة، كيفية أداءِ الآلةِ عملها بأعلى مستوى، وأن تأخذ منها أعلى مردود، فالشركة المحترمة لا ترسل الآلة إلا معها تعليمات، أحياناً تلاحظ كثيراً من الآلات لها تعليمات

بالغة الدقة و الوضوح، فمأخذ الكهرباء مغلق، ومختوم، ومكتوب عليه 220، أو 110، لئلا تقع في غلط، فكلما كان رقيٌ في الصناعة، كلما ارتقى التوجيه، وكلما ارتفع مستوى الصناعة ارتفع مستوى التعليمات، تعليمات دقيقة جداً، مرة قال لي أخ أنّ هناك برنامج كمبيوتر عادي مؤلّف، 1100 صفحة، كتاب تعليماته 1100 صفحة، أيُعقل ذلك ؟ برنامج تعليماته وطرق تشغيله وميزاته بهذا الحجم، فكلما ارتقت الصناعة، ارتقتْ معها التعليمات، فالله عز وجل هو الخالق المبدع، من لوازم كماله أن ينزل على أنبيائه كتباً، ومنهجاً، ودستوراً، وتوجيهاً، إذاً:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34))

ولعل هذا أكبر دليل قطعيّ على أن هذا كلام الله هو إعجاز وَاللّهُ عز وجل تحدى الناس جميعاً.

القرآن معجزة مستمرة إلى يوم القيامة:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء: 88)

هذا الإعجاز، يعني إذا قلت لي ما الدليل على أن هذا القرآن كلام الله ؟ أقول لك إعجازه، والإعجاز يحتاج إلى تأمل، وإلى تدبر طبعاً، والمجال لا يتسع الآن لبيان ضروب الإعجاز، ففيه إعجاز إخباري من غيب الماضي، وإعجاز من غيب الحاضر، وإعجاز من غيب المستقبل، وفيه إعجاز علمي.

في القرآن الكريم إشارات و إيماءات عن طبيعة مستوى عصر النبي لا يمكن أن يصل إليها إلا بعد ألف عام أو أكثر، وبعد قرونٍ طويلة، وبعد مئات السنين بعد 1500 عام ظهرت حقائق العلم التي تكشف إعجاز القرآن، لذلك القرآن معجزة مستمرة، إذا كانت معجزات الأنبياء حسية فهي كعود الثقاب تألقت مرة واحدة وانطفأت، وأصبحت خبراً، يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه، لكنّ إعجاز القرآن مستمر إلى يوم القيامة، كلما تقدم العلم كشف جانباً من إعجازه.

كل شيءٍ خلقه الله من زوجين:

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)

(سورة الذاريات: 49)

من كل شيء، ما كان أحد يعرف أن الجماد فيه ذرات، وشحنتها موجبة تارة، وسالبة تارة أخرى، حتى الجماد تجد أنّ بين النواة وبين الكهارب تبايناً في الشحنات، هناك شحنات موجبة، وشحنات سالبة، حتى النبات، كله ذكر وأنثى، والحيوان كذلك، والإنسان كذلك:

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)

(سورة الذاريات: 49)

الله عز وجل قال:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس: 40)

كل شيءٍ خلقه الله يَسْبَح في فلك، بدءاً من الذرة وانتهاء بالمجرة، نظام الكون قائم على ذرة تدور حول أخرى في مسار مغلق، هذه الدورة ينتج عنها قوة نابذة تكافئ القوى الجاذبة، ولولا ذلك لاجتمع الكون كله في كتلة واحدة، هذه آية ثانية:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

(سورة النجم: 45 - 46)

الآن وبعد خمسة عشر قرناً أثبت العلم أنّ كون المولود ذكراً أو أنثى لا يتعلق بالبويضة إطلاقاً، يتعلق بالحوين فقط، يعني يتحدد جنس المولد من خصائص الحوين فقط:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

(سورة النجم: 45 - 46)

القرآن الكريم إعجاز علمي و تربوي و بلاغي:

كذلك:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

(سورة الحج: 27)

لِمَا لمْ يقل الله عز وجل من كل فج بعيد، بل قال: من كل فج عميق ؟ لأننا نحن على كرة، وكلما ابتعدنا عن إحدى نقاطها نشأ مع المسافة بعد ثالث، عمق:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

(سورة الحج: 27)

لم يكنْ في عهد النبي ما يسمى بأشعة الليزر التي تقاس بها المسافات بدقة بالغة، لكنهم قاسوا البُعْدَ بين الأرض والقمر على مستوى المليمترات بأشعة الليزر، هذا طيب ومطمئن، والآن ثبت أنّ أخفض نقطة في الأرض على الإطلاق غور فلسطين والمعركة التي جرت بين الفرس والروم كانت بحسب التاريخ في غور فلسطين قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3))

(سورة الروم: 2 - 3)

(في أدنى)

يعني في أدنى مكان من الأرض، ما كان أحد يعرف هذه الحقيقة، إذًا إعجاز علمي، وإعجاز فلكي، وإعجاز تاريخي، و إعجاز بلاغي، وإعجاز تربوي، فلذلك:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33)فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

كل شيءٍ في الكون يحتاج إلى مُحدث:

الآن:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

طبعاً ؛ هذه الآية فسَّرها علماء العقيدة ؛ أنّ هناك في الكون واجبَ الوجودِ وهو اللهُ، وممكنُ الوجود وهو الكونُ، ومستحيلُ الوجود، فأمّا ممكن الوجود فلا يمكن أن يكون إلا بمحدث، كل شيءٍ حديث يحتاج إلى محدث قديم، الشيء الذي لم يكن قديماً يحتاج إلى من يوجده:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ)

العقل لا يقبل، والفطرة تأبى:

(أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

كيف خلقوا أنفسهم ؟ يعني كانوا قبل أن يخلقوا، كذلك لا يقبل العقلُ ذلك.

عدم قبول العقل بأن الإنسان خلق نفسه:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

طبعاً هذه الآية تشير إلى واجب الوجود، وإلى ممكن الوجود، وإلى مستحيل الوجود، فوجود الإنسان كم حالة وكم افتراض يفترض لوجوده ؟ إما أنه خلق من غير شيء، وهذا يرفضه العقل لأنه شيء حادث، والحادث سبقه عدم، وكل شيء سبقه عدم يحتاج إلى محدِث، إذًا فذاك الافتراضُ مرفوضٌ:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

وإذا كان قد خلق نفسه، فهو مخلوق قبل نفسه، فكيف خُلق ؟ ثم خلق نفسه ؟! أيضاً العقل لا يقبل هذا.

عدم قدرة الإنسان على امتلاك خزائن السماء:

(أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

هل يستطيع أحد الآن في عصر الكفر، والإلحاد، والتفلت، والضلالات، هل هناك جهة في الأرض تدّعي أنّها خلقت الشمس، أو القمر ؟ لا أحد يقول هذا، من يستطيع أن يدعي أنه خلق السماوات والأرض ؟

(أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (36)أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ)

يعني إذا كانت السماء شحت بالأمطار فهل يمكن لأكبر لجنة في الأرض أنْ تعقد اجتماعاً هامًّا وتتخذ قراراً بإنزال مطر، وهو قرار موقع من الجميع، ولا يطعن فيه أحدٌ، لا تقدر، هل عند الناس خزائن السماء ؟

الله تعالى وحده المسيطر على كل شيء:

الله عز وجل سلط على الناس الآن فيروس الإيدز، العالم كله في حيرة، 17مليون إنسان مصاب بالإيدز، والسلسلة ليست هندسية بل انفجارية، والعلم يعجز عن وضع مصلٍ لهذا الفيروس، ثم اكتشفوا أن له سلالات، إذا صرفوا ألوف الملايين لوضع مصل لهذا الفيروس هناك سلالة أخرى تحتاج إلى ألوف أخرى، فلذلك على أي شيء يسيطر الإنسان، هل يملك الإنسان أن يضمن عدم اهتزاز الأرض، بسبع درجات على مقياس رختر حيث يصير كلُّ ما على الأرض أنقاضًا، مثلاً: 5 رختر، بناء 14 طابقاً صار أنقاضاً، والزلازل موجودة في الأرض، في آسيا، وأوربا، وإفريقيا، والمغرب، مدينة أغادير على الساحل الأطلسي بثوانٍ معدودة أصبحت تحت الأرض كلها، فندق من30 طابقًا، بقي منه الطابق الأخير، وكأن هذا الطابق الأخير الذي عليه اسم الفندق صار شاهدة لهذا القبر.

(أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ)

أكبر محطة بترول في بحر الشمال، قالوا عنها: إنّها مدينة، مدينة أنشئوها في البحر، مهبط طائرات، ومكاتب، حطّمها موجٌ عاتٍ، وناقلة نفط تحمل مليون طن قد يأتي موج كالجبال فيشطرها شطرين، وباخرة (تيتانيك) قالوا عنها: إن القدر لا يستطيع أن يغرقها، غرقت في أول رحلة لها، ولها قصة مثيرة جداً.

الله سبحانه بيده تصريف كل شيء:

(أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ)

الآن في المغرب يوجد جفاف كبير جداً، وجفاف قبل سنوات في أوربا، وكذلك قبل سنوات كان عندنا جفاف، وفي العالم مثلاً منطقة تموت من العطش، أين المطر ؟ ليتّخذوا قرارًا بإنزال المطر، منطقة تموت من الفيضانات:

(أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ)

تملك الرياح، إعصار واحد يدمر كل شيء هناك أعاصير في أمريكا، لا تبقي ولا تذر، لقد كان هنا مدينة ثم تحوّلت كلها إلى أنقاض، لا أشجار ولا أبنية ولا شيء بقي منها، هل نملك تحريكَ الرياح أو تسكينها ؟

هبّت عاصفة رياح واحدة قلعت 130 بيتًا زراعيًا في الساحل، عاصفة واحدة وفي وقت قصير، وأحياناً صقيع يتلف النبات كله، فهل نملك في تصريف الحرارة شيئًا ؟ قبل أعوام على الساحل بلغ سُمكُ الثلج ثمانية سنتيمترات، والدرجة 9 تحت الصفر، عند سطح البحر، إننا لا نملك أن نفعل شيئاً إزاءَ ذلك، وليس لنا سلطان لا على الحرارة، ولا على البرودة، موجة حر واحدة مات بسببها 380 شخصًا ألمّت بأمريكا قبل أسابيع، فالذي يملك الزمام والذي بيده تصريف كل ذلك هو الله سبحانه.

(أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ)

قد تأتي حشرة تقضي على كل المحصول، ذبابة أحياناً، قد تعجز كل الفئات العلمية أن تكافحها، كالذبابة البيضاء، فالإنسان ضعيف، إذا اعترف بضعفه صار قوياً.

عدم قدرة الإنسان الاستماع إلى وحي السماء:

(أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

أأنتم تفرضون هذا الوحي ؟ هل عندكم طريقة لأخذ خبر السماء من غير هذا الطريق، هل عندكم من يستمع إلى وحي السماء ؟

(فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

ادعاء العرب في الجاهلية أن الملائكة هن بنات الله:

ثم إن العرب كانت تحتقر البنات في جاهليتهم ألم يقل الله عز وجل:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير: 8 - 9)

فكان العرب في جاهليتهم ينسبون الملائكة، ويتوهمون أنهم بنات الله.

(أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ)

ثم إن هذه الدعوة، هل طالبَ الأنبياءُ بأجر عليها ؟ فالإنسان عند طبيب ينقد الأجر، وقد يؤدِّيه مسبقًا، كذلك عند المحامي والمهندس، ولا يجرؤ إنسان أن يدخل محلاً تجارياً أو عيادةَ طبيب، أو مكتبَ محامٍ، إلا ومعه المال المخصص لأدائه وإلاّ رُفِض، لكنه يدخل المسجد من دون رسم دخول، ومن دون رسم شهري، ومن دون رسم اشتراك، وليس على المحاضرة أجرةٌ مقابلةٌ، لا شيء من هذا أبداً.

الإسلام لا يطالب الإنسان بشيء إلا بحسن العاقبة:

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)

بينما الإنسان حين يعصي الله يؤدّي الكثير من النقود، فمثلاً ليلة رأس السنة الميلادية على الشخص 1500 ليرة سورية لدخول الفندق، ولا بدّ مِن أجر باهظ ليسمع لهو الحديث، أجر باهظ بأرقام كلها خيالية، فأجرة المغني خمسون ألف دولار، وأثوابه من بلد أجنبي مثلاً، لكن الإسلام لا يطالبك بشيء من هذا إطلاقاً، وكلّه من غير مقابل مع حُسن العاقبة.

الغيب بيد الله وحده:

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41))

هل مِن جهة أرضية تستطيع أن تكشف الغيب ؟ هذا الذي حصل في شرق العالم، انهيار دول عظمى، مَن كان يتنبأ بهذا ؟ والله لو تنبأ أحدٌ بهذا لأُدخل إلى مستشفى الأمراض العقلية، لكن بعد حين هذه القلعة الشامخة من قلاع الكفر أصبحت كبيت العنكبوت، من يتنبأ بهذا؟

(أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42))

الكافر في قبضة الله لا يتحرك إلا بإذنه:

الكافر لا يصنع الكيد، يقع عليه الكيد، هو موضوع الكيد ليس صانع الكيد، الله جل جلاله هو الذي يدبر، أما الإنسان يُدبّر له:

(أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ)

أي الكافر في قبضة الله، أيْ إذا أراد أن يتحرك فبإذن الله، لأنّ الله سمح له أن يتحرك، وفي أية لحظة يمكن أنْ يقعَ في قبضة الله، ولا يَلْوي على شيء.

(أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43))

سورة الطور الآية الوحيدة التي تطرح كل الشبهات و ترد عليها:

لا أعتقد أنّ في كتاب الله مجموعة آيات متتابعة تطرح كل الشبهات وترد عليها كلها مجتمعة كما جاء في هذه الآيات التي ضمّتها سورة الطور:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43))

العاقل من يعدّ العدة ليوم القيامة:

(وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ)

قد يكون هذا الكسف الساقط بلاء كبير، قالوا بسذاجة: سحاب مركوم.

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

دقق نظرك في هذه الآية:

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

العاقل يتهيأ لهذا اليوم، يعد العدة له، يعد له استقامة، يعد له طاعة، يعد له إنفاقاً، يعد له شوقاً، يعد له حباً، هذا شأن العاقل، لكنّ الإنسان إذا أنغمس في الدنيا، وأعرض عن ذكر الله عز وجل حينما يأتي ملك الموت معلناً قرب أجله، يصعق !.

اهتمام الكافر بالدنيا لا ينفعه عندما يأتي ملك الموت:

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46))

كل تدبيرهم، واهتمامهم بالدنيا، وعنايتهم بها، والعناية ببيوتهم وأعمالهم، وضبط أمورهم، وتأمين أرصدة كبيرة جداً، للمفاجآت، كل هذا الذي أعدوه لشيخوختهم لا ينفعهم شيئاً عندما يأتي ملك الموت.

(يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47))

هو عذاب في الدنيا، أجل: لهم عذاب بالدنيا، وعذاب بالآخرة.

المؤمن الحق في أعلى درجات العناية و الحفظ و التأييد:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

هذه الآية خاصة بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولكل مؤمنٍ نصيبٌ منها على قدر إيمانه، وعلى قدر استقامته، وإخلاصه، فالله عز وجل قال لسيدنا موسى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

(سورة طه)

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(سورة طه)

وقال للنبي عليه الصلاة والسلام:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

يعني في أعلى درجات العناية، أعلى درجات الحفظ، والرعاية، والتأييد، والتوفيق وكل مؤمن مستقيم، محب لله عز وجل، يشعر أن الله معه، وهو في محنته، يشعر أن الله معه، ولن يخيب ظنه، ولن يسلمه لأحد، ولا يتخلى عنه.

طاعة الله ثمنها التأييد و الرعاية و الحفظ:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

قدم الطاعة فقط، وانتهى الأمر، قدم الطاعة وانتظر أن ينطبق مضمونُ هذه الآية أو بعضها عليك:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

برعايتنا هذا معنى قول الله عز وجل:

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

قال العلماء: **هذه معية خاص**ة، معية بالتأييد، والنصر، والحفظ، والتوفيق:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

فالحكم غيرُ واضحٍ، إذْ لو كان واضحاً لمَا احتاج إلى صبر.

امتحان الله لعبودية الإنسان ليعرف صدقه و استسلامه له:

قد يجلس المريضُ على كرسي طبيب الأسنان، ويعلم علم اليقين أنّ هناك إبرة بنج، وسوف تغرز لثة أسنانه، وهناك ألم محقق، لأنه يعلم حقيقة ما سيجري، والحكمة مما يجري، لا يقال لهذا: اصبر، لكنْ يقال لإنسان: اصبر إذا كان الحكُم غيرَ واضحٍ، فاللّهُ أحياناً يمتحن عبوديتنا له بقدر غير واضح، ولأنه غير واضح تظهر عبوديتنا واستسلامنا له وصدقنا في محبته، لذلك قال سيدنا علي: الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

هذه مشيئة الله، هكذا أراد الله، هذا قرار الإله، هذا حكم الله، فالمؤمن الذي يعرف حكمة الله ويعرف أن كل أفعاله سبحانه حكيمة يصبر.

على الإنسان أن يسبح ربه بكرة و أصيلاً:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49))

يعني إذا قمت من فراشك، فسبّح بحمد ربك، وإذا قمت إلى عمل فسبّح بحمد ربك، وإذا أويت إلى الفراش فسبّح بحمد ربك:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ)

وإذا استيقظت إلى صلاة الفجر فسبحه، يعني سبحه ليلاً ونهاراً:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1-4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-09-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الأول من سورة النجم:

على الإنسان ألا يعبد النجم من دون الله لأنه يتلاشى يوم القيمة:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)

النَجم مُطْلَقُ النجمِ، ليس نجماً بعينه، هذا النجم الذي في السماء حينما يهوي، أي حينما ينزل وراء الأفق بحكم دورة الأرض حول نفسها، أو حينما يغيب، أو حينما ينتثر.

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2))

(سورة التكوير)

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2))

(سورة الانفطار)

حينما يغيب عن الأنظار، أو حينما ينزل وراء الأفق، أو حينما ينتثر، هذا النجم لا ينبغي أن يُعبَد من دون الله لأنه يغيب، لأنه يسقط، لأنه يتلاشى يوم القيامة.

الله رب كل شيء في الكون:

المعبود ينبغي أن يكون أزلياً أبدياً، لا أول له ولا آخر له، وقد قال بعض المفسرين: **" إن النجم يقصد به نجم الشِعرَى "**. هذا النجم كان يُعبَد من دون الله في الجاهلية، لذلك قال تعالى:

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

(سورة النجم)

الشعرى ليس رباً، الله ربه، فأي شيءٍ دون الله عزّ وجل إذا عُبدَ من دون الله فهو سيتلاشى، وسيغيب.

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً)

(سورة الأنعام)

معنى هذا أن أيَّ شيءٍ في الكون مهما بدا لنا عظيماً فالله ربه، والفناء مآله، إذاً لا ينبغي أن يُعبَد من دون الله، هذه نقطة.

إرسال الله عز وجل الرسول الكريم لهداية الخلق:

النقطة الثانية:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2))

الواو واو القسم، فإذا أقسم الله بالنجم فلِيُلفتَ النظر إلى عظمة هذه الآية التي تُجَسِّد أسماء الله الحسنى ؛ القوة والعلم والقدرة، هذا كلُّه يتضح من خلقه، فإذا تجاوزنا أن النجم إذا هوى أي إذا سقط، أو إذا غاب عن الأنظار، أو إذا انتثر يوم القيامة، فهذا لا ينبغي أن يُعبَد من دون الله، وكأن القرآن الكريم أشار إلى الشِعْرَى بكلمة (والنجم)، وقبل نهاية السورة قال سبحانه:

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

أما المعنى الثاني: أن هناك علاقةً بين هذا الرسول الكريم الذي جاءكم بهذا الكتاب الكريم، وبين خالق السماوات والأرض الذي خلق النجم حينما يهوي هو الذي أرسل هذا الرسول، شرفُ الرسالة من شرف المرسِل.

رسول الله الذي بعثه الله للعالمين ينبغي ألا تتهموه بالضلال أو الغواية:

أنت أحياناً تقرأ آلاف الكتب، مئات الكتب لكيلا أبالغ فكل هذه الكتب من تأليف البشر، لكن هذا القرآن له شأنٌ آخر، هذا كلام خالق البشر، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، شتَّانَ بين من يقرأ كلام البشر وبين من يقرأ كلام خالق البشر، فالذي خلق الكون كامل، ومن لوازم كماله أن يبيّن، أن يرسِل، أن ينزّل الكتاب، فإرساله للرسل، وإنزاله للكتب دليل رحمته، ودليل حرصه على هداية خلقه، ودليل إرادته أن يسعدهم في الدنيا والآخرة.

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2))

هذا الذي أمامكم هو رسولي، والذي بين يديه كتابي، فينبغي أن تصغوا إليه وأن تقرؤوا كلامي، لا ينبغي أن تتهموه بالضلال، ولا بالغواية.

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى: آية لها عدة معان:

1 ـ الشيء مهما كان عظيماً لا ينبغي أن يُعبَدَ من دون الله:

المعنى الأول: أنّ شيئاً مهما كان عظيماً لا ينبغي أن يُعبَدَ من دون الله، المعبود ينبغي أن يكون باقياً على الدوام، هو الحيُّ الباقي، ليس من شأن الفاني أن يُعبَد، إنك إن ربطت مصيرك به فحينما يفنى، وحينما يغيب أين أنت إذاً ؟ ومن معبودك إذا اضمحلّ أو غاب ؟

2 ـ النجم آية من آيات الله الدالة على عظمته ينبغي ألا يعبد:

المعنى الثاني:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)

آيةٌ من آياته الدالة على عظمته، قد ترى نجماً بعيداً صغيراً، هذا النجم قد يتّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرّة، وبين الشمس والأرض مئة وستةٌ وخمسون مليون كيلو متر، وهذا نجم العقرب (قلب العقرب). النجم الصغير الأحمر المتألِّق يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، هذه النجوم بعضها يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، بعضها كنجم القطب يبعد عنّا أربعة آلاف سنة ضوئية، بعضها مليون سنة ضوئية، وبعضها يبعد أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية.

لفت الله عز وجل أنظار الناس إلى آياته الدالة على قدرته:

المعنى الأول: لا ينبغي لشيءٍ في الكون مهما بدا لكم عظيماً أن يُعبَد لأن مصيره إلى الفناء، المعبود الحق هو الحيُّ الباقي على الدوام.

المعنى الثاني: أن النجم آية من آيات الله، فالواو واو القسم ؛ إذا أقسم سبحانه فبالنسبة إلينا، وإن لم يقسِم فبالنسبة إليه.

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ(18))

(سورة التكوير)

إن لم يقسم فبالنسبة إليه، وإن أقسم فبالنسبة إلينا، وإن أقسم يخرج هذا القسم عن معناه الأصلي إلى معنىً آخر، هو أن الله سبحانه وتعالى يلفت نظرنا إلى آياته التي يمكن أن تكون دليلاً على عظمته، ودليلاً على قدرته، وعلى علمه، وعلى رحمته.

معرفة قريش لصدق النبي الكريم و أمانته:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ)

لماذا قال صاحبكم ؟ أي لأنكم تعرفونه، تعرفون صدقه، وتعرفون أمانته، وتعرفونه أنه ما كذب قط في حياته، قالوا: ما جرّبنا عليه كذباً قط، أجل: تعرفون نسبه، وتعرفون صدقه، وتعرفون أمانته، وتعرفون عفافه، وهكذا قال سيدنا جعفر بن أبي طالب، قال:

((كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ))

(أحمد عن أم سلمة)

تعرفونه، هو بين أظهركم، نشأ بينكم، ما جرّبتم عليه كذباً قط، ما وجدتم منه فاحشة ولا زلّة قدمٍ، هذا صاحبكم تعرفونه ما ضلّ وما غوى، ما ضلّ عقله ولا انحرف سلوكه، وفي هذا تعريضٌ بقريش، أي أنتم ضللتم وغويتم، أنتم ضللتم وانحرفتم، أنتم ضللتم واعتديتم، هو ما ضلّ وما غوى.

الإنسان إذا سار على منهج الله لا يضل عقله:

تعلمون أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

أيْ أنت عقلٌ يدرك، وقلبٌ يحبّ، فإذا سرت على منهج الله لا يضل عقلك، ولا تشقى نفسك بانحرافك.

نعمة العلم أعظم نعمةٍ لأنها تؤدي إلى الصلاح:

أولى ثمار الإيمان إخوانا الكرام أن يستنير عقلك، المؤمن يتمتّع بنعمة لا يعلمها إلا الله، ما هذه النعمة؟ أن الأمور واضحة في ذهنه، يعرف سرّ وجوده، يعرف غاية وجوده، يعرف حقيقة الدنيا، يعرف

الحلال والحرام، يعرف الحقّ من الباطل، يعرف ما ينبغي وما لا ينبغي، يعرف الحكمة من كل شيء، نعمة العلم لا تعدلها نعمة، رتبة العلم أعلى الرُتب، أن تعرف: لماذا أنت في الدنيا ؟ وأن تعرف أثمن ما فيها.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

(سورة الكهف)

العمل الصالح أثمن شيء في الحياة الدنيا:

أن تعرف أن العمل الصالح هو أثمن شيءٍ في الدنيا، نعمة العلم أعظم نعمةٍ على الإطلاق لأنها تؤدّي إلى عبادة الله حقًا وإلى التقوى والصلاح.

((اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك))

(رواه الطبراني عن أبي بكرة)

((اغْدُ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا وَلَا خَيْرَ فِيمَا سِوَاهُمَا))

(أخرجه الدارمي عن عبد الله بن مسعود)

يقول سيدنا علي كرّم الله وجهه: **الناس ثلاثة ؛ عالمٌ ربّاني، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركنٍ وثيق**، فاحذر يا كميل أن تكون منهم:

((اغْدُ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا وَلَا خَيْرَ فِيمَا سِوَاهُمَا))

لا يؤكِّد في الإنسان إنسانيته إلا طلب العلم، لا يرفعك عند الله إلا العلم.

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: آية " 11 ")

ثمرات الإيمان هي:

إنارة العقل و سعادة النفس:

أيُّ حظٍّ من حظوظ الدنيا الذي يعظِّمه الناس لا قيمة له عند الله، فالله جلّ جلاله في كتابه الكريم لم يعتمد أية قيمةٍ من قيم الناس، لا قيمة المال، ولا قيمة الذكاء، ولا قيمة القوّة، ولا قيمة الجمال، لم يعتمد إلا قيمة العلم والعمل.

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: آية 19)

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف: آية " 19 ")

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة: آية " 105 ")

أيها الإخوة الكرام: أولى ثمار الإيمان أن يستنير عقلك وأن تسعد نفسك.

ضلال عقل الإنسان من أكبر مساوئ البعد عن الله:

أكبر مساوئ البعد عن الله أن يضلّ عقلك، وأن تشقى نفسك.

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

الإنسان إذا تصوّر تصوُّراً خاطئاً وسار في طريقٍ مسدود، ثم اكتشف الحقيقة بعد فوات الأوان أنه كان مخطئاً، فماذا يحصل له ؟ حدّثني أخ كان في فرنسا، رجل من وجهاء الشعب الفرنسي، شغِل منصب رئيس وزراء سابقاً، من أرقى الأسَر، غني، انتحر وهو في السبعين من عمره، وحار الصحفيون في تحليل انتحاره، صحفي واحدٌ اهتدى ولعلّه أصاب، بأنه اعتنق مبدأ لا أصل له سبعين عاماً، فلّما اكتشف أن هذا المبدأ باطل، وأنه لا أصل له، وأنه قائمٌ على أوهامٍ لا على حقائق احتقر نفسه، وأنت لو طلبت العلم الصحيح لن تجد عندك مفاجأة إطلاقاً في حياتك، لن تأتي الأيام بمفاجأةٍ تنقض ما اعتقدته، مُضِيُّ الأيام لا يزيدك إلا يقيناً، كل الحوادث تؤكِّد صحّة ما تعتقد، إن كان اعتقادك نابعاً من كلام الله وسنّة رسول الله، هذا كلام الله عزّ وجل، أنت حينما تقرأ القرآن، وحينما تأخذ منه عقيدتك، وحينما تأخذ منه منهجك فأنت تأخذ من الجهة الصانعة، من الجهة الخبيرة، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

تعريض الله عز وجل بقريش بأنهم هم من غووا و ضلوا:

لذلك:

(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

فكأن الله سبحانه وتعالى يعرّض بقريش ؛ أنتم الذين ضللتم، أنتم الذين غويتم، أنتم الذين جهلتم، أنتم الذين انحرفتم، أنتم الذين شقيتم.

(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

تعريضٌ بقريش بضلالها وبغوايتها، وانحرافها وعدوانها، نبيٌّ كريم عقله مستنير، ونفسه صافيةٌ سعيدةٌ بلقاء الله عزّ وجل، أكبر نعمةٍ على الإطلاق أن يكون عقلك مستنيراً بالحق، وأن تكون نفسك مطمئنّةً بصلتها بالله عزّ وجل، كلام طيّب، فالإنسان عقل وقلب، العقل يدرك والقلب يطمئن، قال تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

لحظة الموت أسعد لحظات المؤمن:

هل هناك من شعور يفوق شعور المؤمن بأن الله راضٍ عنه ؟ وأن الله يحبُّه ؟ وأنه على الطريق السوي ؟ وأن الطريق ينتهي بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض ؟ وأن مضي الزمن لصالحه ؟ وأن خطّه البياني صاعدٌ صعوداً مستمرّاً ؟ وأن الموت عرس المؤمن ؟ وأن لحظة الموت أسعد لحظات المؤمن ؟ هذا الموت عند الناس أكبر مصيبة، يقولون لك: مسكين ؛ إنه مات، لا، ليس مسكين إذا كان مؤمناً، النبي رأى جنازة فقال:

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ...))

(متفق عليه عن أبي قتادة الأنصاري)

عام دراسي مثقل بالمتاعب والدراسة، والتحضير والتأليف، والمذاكرات الشفهية والتحريرية، والوظائف والدوام المرهق، والساعات الطويلة إلى أن أدّى الامتحان فنال الدرجة الأولى فاستحقّ أعلى درجة تكريم، ساعة الامتحان ساعة سعادة، ورد في الحديث الصحيح:

((تحفة المؤمن الموت))

(أخرجه الطبراني، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عمر)

والموت عُرْسُ المؤمن الإنسان أحياناً يسعى ثلاثين عاماً من أجل أنْ يشتري بيتًا، ويخطب ويتزوج، فيوم عرسه بحسب مفاهيم الناس أجمل أيام حياته، أما المؤمن عرسه ساعة لقاء الله عزّ وجل، بكت ابنة سيدنا بلال وقالت: **"واكربتاه يا أبت** (وهو على فراش الموت)، قال: **لا كربَ على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبّة محمداً وصحبه "**، شتّان بين من يرى الموت أكبر مصيبة، وبين من يرى الموت أنه ساعة اللقاء بالله عز وجل، ولقاء الأحبة في رحاب رحمة الله.

فرح المؤمن و ندم الكافر عند الموت:

أيها الإخوة: لو قرأتم سِيَرَ صحابة رسول الله، فهي سير مختلفة، ومواقف مختلفة متباينة، لكنّ فيها موقفاً متشابهاً: كان أصحاب النبي يرون أسعد لحظات حياتهم وهم على فراش الموت، سيدنا رسول الله تفقّد أحد أصحابه فلم يجده فقال:

((ابحثوا عنه في أرض المعركة))

ذهبوا إلى هناك، فرأوه يَئِن (اسمه سعد بن الربيع)، قيل له: يا سعد أمرنا رسول الله أن نتفقّد شأنك، هل أنت بين الأحياء أم بين الأموات ؟ أيْ أنت ما وضعك ؟ قال: بين الأموات (انتهيت) ولكن بلغوا عني رسول الله: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبياً عن أمّتهِ، أي أنه مُمْتَن برسول الله الذي دَلّه على الله حتى عَرَفَهُ، وبلِّغ أصحابه أنه لا عذر لكم إذا خُلِصَ إلى نبيُّكم وفيكم عينٌ تطرف، أي يعني إذا العدو وصل إلى النبي وبقي منكم واحد لا عذر له.

(مَا ضَلّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

أنت مؤمن، أنت عرفت الله، عقلك مستنير، عرفت سرّ الكون، هذا الكون خُلِق لتعرف الله من خلاله، عرفت سرّ الحياة إنها إعدادٌ لسعادةٍ أبدية، لحياةٍ أبدية، والدليل أنّ الإنسان عند الموت يقول:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26))

(سورة الفجر)

على المؤمن أن يطمئن قلبه بذكر الله:

أيها الإخوة: كلمة:

(مَا ضَلّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

أكرّر أنّ هذا تعريضٌ بأهل الكفر، أي أنتم ضللتم، وأنتم غويتم، وانحرفتم، واعتديتم، وظلمتم، لكن هذا النبي الكريم ما تكلّم كلمةً باطلة، ما ضلّ أبداً، ولا زل، ولا اختل، ولا غوى، ولا انحرف، وصاحبكم تعرفونه، ما الحكمةُ في أنّ النبي ولد في قريش ؟ لو جاء من الشام لا يعرفون ماضيه، يشكّون، بل إنه تربّى بينكم، ونشأ بين ظهرانيكم، فرأيتم صدقه وأمانته وعفافه، وعرفتم نسبه، حينما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام من مكّة إلى المدينة، فالكفّار المشركون كانت أماناتهم وأموالهم ودائعَ عند النبي لأنهم يثقون به، لذلك أبقى سيدنا علياً كرّم الله وجهه ليردّ الودائع إلى أصحابها.

(مَا ضَلّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

المعنى المعاكس (والمعنى المخالف) هو: أي أنتم أيها المؤمنون ينبغي أن تستنير عقولكم وأن تطمئنّ قلوبكم.

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

من خصائص المؤمن قول الحق:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

أيضاً في هذه الآية تعريضٌ بالكفّار، أنتم إذا تكلّمتم تكلّمتم بأهوائكم، لو أنّ الإنسان راقب نفسه (طبعاً الإنسان غير المنضبط، غير الملتزم، المتفلِّت) تسعة أعشار كلامه غير موضوعي، يتكلم عن هوى، يتكلّم كلاماً لمصلحته، إذا كانت البضاعة بضاعته يُثني عليها ثناءً لا حدود له، أما إذا كانت بضاعة جاره فيسكت ولا يتكلّم ولو كلمة، ولكنه يحوقل إشارة إلى أنها كأنها لا تعجبه، هذا شأنه ينطق عن هوى، ويسكت عن هوى، والإنسان قد يتكلّم لصالحه، يمدح ما عنده، يذم ما عند غيره، يُحسِّن الشيء إذا كان يملكه، يُبَخِّس الشيء الذي لا يملكه، فتسعة أعشار كلام الناس كلامٌ غير موضوعي، غير حقيقي، ليس فيه دقّة ولا فيه إنصاف، أما النبي:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

حقًا إنّ الإنسان غير المؤمن ينطق عن الهوى، تجد أن الناس في زماننا كفروا بالكلمة، لماذا ؟ لا توجد كلمة صادقة، كل الكلام ينطلق من مصالح ويتّجه نحو مصالح، فالموضوعية شبه نادرة بين الناس، فقل الحقّ ولو كان مرّاً، وقل الحقّ ولو كنت أنت المعنيّ به، وهذا شيء من خصائص المؤمن، إنه يتكلّم الحقيقة.

عدل و حكمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

كان سيدنا عمر بين أصحابه، فأحد أصحابه تكلّم ولا أدري لماذا قال هذا الكلام، نظر إلى عمر، فقال: **" والله يا أمير المؤمنين ما رأينا أفضل منك بعد رسول الله "** وظنّ أنه قال صواباً، فنظر عمر إليه وأحدّ فيه البصر فارتبك وتكهرب الجو، إلى أن قال أحدهم: لا والله يا أمير المؤمنين لقد رأينا خيراً منك، قال: ومن هو ؟ قال: الصدّيق، فقال سيدنا عمر: **لقد صدق هذا وكذبتم جميعاً** (عدّ سكوتهم كذباً)، قال سيدنا عمر: **والله كنت أضلّ من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك ".**

يوم كنت أضل من بعيري كان أبو بكر أطيب من ريح المسك كلام موضوعي، لم يتكلّم عن الهوى، أراد القائل لنفسه الرفعة فأثنى عليه، قال له: **" ما رأينا رجلاً أفضل منك بعد رسول الله** (إنه كلام طيّب يرفع شأنه) فقال لهم: **كذبتم جميعاً، لكن هذا الذي قال: لا والله لقد رأينا من هو خيرٌ منك، قال: كذبتم جميعاً وصدق، والله كنت أضلّ من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك.**

صعِد المنبر ليخطب أول خطبةٍ بعد توليه الخلافة، وقف على الدرجة العُليا ثم نزل درجة، تعجَّب أصحابه !! قال: **"ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر ".** هذه الدرجة لأبي بكر وأنا أنزل درجة، لكن سيدنا عثمان ما نزل درجة ولحكمةٍ أرادها، فأحد خلفاء بني أمية سأل وزيره قال له: **" لمَ لم ينزل عثمان درجة ؟ قال: والله لو فعلها لكنت في قعر بئر ".** فمن غير المعقول أنّ كل واحد ينزل درجة، لاحتجنا إذاً أن نحفر الأرض، سيدنا عمر نزل درجة تواضعاً وإعلاءً لمقام سيدنا الصديق، وسيدنا عثمان لم ينزل لأنه لو فعل لكانت سنّة ولانتهت هذه السنّة إلى أعماق الأرض.

شدة و رحمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

سيدنا عمر هاب الناس شدّته، فقال: **"كنت مع رسول الله خادمه وجلوازَه وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي عني وهو عني راضٍ، الحمد لله على هذا كثيراً وأنا به أسعد (أنا أسعد الناس أن النبي توفي وهو عني راض). ثم كنت خادم أبي بكر وجلوازه وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء (كنت قوة بيده) "**، عندما توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام قال سيدنا الصديق لسيدنا عمر: **" يا عمر مدّ يدك لأبايعك، قال: معاذ الله أنت أفضل مني، فقال له: أنت أقوى مني، فقال له: قوتي إلى فضلك "**، أنا خادم لك، أنت صاحب الفضل وأنا وإن كنت كما قلت: إنني قوي ؛ فقوتي لك.

قال: **" وكنت خادم الصديق وجلوازه وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي وهو عني راضٍ والحمد لله وأنا به أسعد، ثم صارت الأمور إليّ، واعلموا أيها الناس أن تلك الشدّة قد أضعِفت، أنا عندما كنت شديداً كان سيدنا رسول الله رحيماً، تجتمع رحمته مع شدّتي فيتعادلان، لما كنت شديداً كان الصديق حليماً، أما الآن آلت الأمور إلي فاعلموا أن تلك الشدّة قد أضعِفت وإنما تكون على أهل البغي والعدوان، أما أهل التقوى والعفاف فإنني أضع خدّي لهم ليطئوه، ثم قال: أيها الناس خذوا عني خمس خصال خذوني بهن (أيْ حاسبوني عليهن) لن آخذ من أموالهم شيئاً إلا بحقِّه، ولن أنفقه إلا بحقِّه، ولن أجمِّركم في البعوث (أيْ في الجهاد) ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى، فإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا.**

قال له سيدنا أبو ذر: **" إن الناس خافوا شدَّتك، قال: والله يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى ".**

المؤمن الصادق لا ينطق عن الهوى:

كان مرّةً مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف في المدينة يجوبان طرقها فرأيا قافلةً قد استراحت في ظاهر المدينة، فقال: **"تعالَ نحرسها، ولم يلبث أنْ سمع بكاء طفلٍ، فذهب عمرٌ إلى أمه وقال: أرضعيه، فأرضعته، ثم بكى فقال: أرضعيه، فأرضعته، ثم بكى فقال لها: أرضعيه يا أمة السوء، قالت: وما شأنك بنا ؟ إنني أفطمه، قال: ولمَ ؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلاّ بعد الفطام، فأمسك بيده وضرب رأسه وقال: كم قتلت من أطفال المسلمين يا عمر، ثم صلى صلاة الفجر ولم يستطع أصحابه أن يستمعوا إلى قراءته من شدّة بكائه، ودعا وقال: ربي هل قبلت توبتي ؟ ".**

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

لقد وقفت عند هذه الآية طويلاً، حياتنا كلها تفيض بالكلام الجزاف يومياً ؛ في البيع والشراء، واللقاءات والزيارات، قد تمدح إنساناً فتجعله ولياً، وإذا أساء إليك تجعله في الحضيض، لا الكلام الأول صحيح ولا الثاني صحيح، فليس هناك إنصاف، المؤمن الصادق لا ينطق عن الهوى إنه موضوعي.

على الإنسان إنصاف الآخرين و لو كانوا خصومه:

سيدنا رسول الله رأى صِهرَه بين الأسرى، ما معنى أن يرى النبي صهره بين الأسرى ؟ أي أنه جاء يحارب النبي، ولو تمكّن لقتله، رآه بين الأسرى فنظر إليه وقال عليه الصلاة والسلام:

((والله ما ذممناه صهراً))

هذا صهر ممتاز، ما هذه الموضوعية ؟! الآن إذا الإنسان خطب ولسبب أو لآخر لم تتم الخطبة، تجد الأسرتين يتكلّمون على بعضهم كلاماً ما أنزل الله به من سلطان، فكلٌ تكيل التهم للأخرى من غير إنصاف، والنبي قال:

((أحْبِبْ حبيبَك هَوْنا مّا، عسى أن يكونَ بَغِيضَكَ يوماً مّا، وأبْغِضْ بغيضَك هَوْنا مَا عسى أن يكونَ حبيبَك يوماً ما))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

أنصف، قل الحقّ ولو كان مُرّاً، قل الحق ولو كان على نفسك، فالله عزّ وجل قال:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

(سورة المائدة: آية " 8 ")

أخطر شي ء على الإنسان الشرك الخفي:

عندك إمكانية أن تنصف عدوك، لك في العائلة خصم وورد ذكره في مجلس، وأنت تعرفه مُتقناً لعمله، تعرفه صادقاً في كلامه، وعندك جرأة أن تتحدّث بموضوعية عن صفاته النبيلة فافعل وزد عنه، فهذا المؤمن، أما لم تكن لنا مصلحه ذممناه، وإن كانت لنا مصلحة مدحناه، فهذا الإنسان ليس له قيمة عند الله عزّ وجل، وغير موضوعي ينطق عن الهوى، النبي الكريم قال:

((الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحبّ على جور وأن تبغض على عدل))

أي أن تحبّ شخصاً منحرفاً لأن لك مصلحة معه، فهذا شرك بالله، إنسان آخر نصحك نصيحة بأدب، ومعه الدليل، هذه الآية وهذا الحديث، ثم قال: هذا العمل غلط يا أخي، أنت أخ كريم ومؤمن، فإن تألّمت من كلامه، فلمجرّد أنك تألّمت من نصيحةٍ مخلصةٍ عادلةٍ فأنت مشرك، طبعاً شرك ليس جلياً ولكنّه خفي:

((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي))

(رواه البزار عن أبي صالح)

الإنسان من دون إيمان عبد لمصالحه:

لذلك:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

هل تستطيع أن تعاهد نفسك على ألاّ تتكلّم كلمة إلا أن تكون حقًا ؟ فالنبي قال: عامل الناس كما تحبُّ أن يعاملوك.

هل تستطيع أن تعامل زوجة ابنك كما تعامل ابنتك ؟ إذا كنت مؤمناً هكذا يجب أن تعاملها، لكن الابنة مهما أخطأت تتلقّى خطأها بصبر وحلم وطول بال، وإذا أخطأت زوجة ابنك خطأ صغيراً تقيم عليها النكير، هل هذا هو الإنصاف ؟ هل تعامل الذي في محلِّك التجاري في سنّ ابنك كما تعامل ابنك ؟

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

هذه آية دقيقة جداً، قبل أن تنطق فكِّر مليًّا، هل ستقول الحق أم الباطل ؟ هل تبالغ ؟ هل تقلل من شأنه لأنه خصم ؟ هل تكبّر في حجمه لأنه محبٌ لك ؟ لأنه يمدحك، يعطيك، الإنسان من دون إيمان عبد مصالحه، فالجهة التي فيها مصلحته يضخِّم ويمدح ويثني، الجهة التي ليس له فيها مصلحة يصغِّر من شأنها، هذا كلّه صادر عن الهوى ولا قيمة له.

الحق عظيم من دون تضخيم والباطل أحقر من أن تصغِّره:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

هل من الممكن أن تتكلّم كلاماً صحيحاً وأنت متهم ؟ إذا كنت متلبّساً بمعصية وسألك شخص ما حكم هذا الشيء فماذا تقول له ؟ هل تحاول أن تبرّر وتسوغ ؟ لا، يجب أن تقول: هذا الحكم هكذا وأنا مقصِّر، لا تبرّر، لا تغطِّ، لا تجُرّ الحق لصالحك، الحق أكبر وأعظم أن تكذب له، أكبر وأعظم من أن تكذب عليه، لا تكذب له ولا تكذب عليه، الحق أكبر من أن يحتاج إلى تضخيم، فهو عظيم من دون تضخيم، والباطل أحقر من أن تصغِّره، صوّرْه بحجمه لأنه صغير.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

أي كن موضوعياً، لا تبالغ، لا تقلل، لا تطمس، لا تبرز، لا تعتِّم، تكلّم بالحق وقل الحقّ فالحقُّ قويٌّ، والحقُّ لا يحتاج أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، ولا أن تُضَخِّمه، ولا أن تقلل خصمه، فخصمُه قليل ضئيل زاهق، خصمُه الباطل:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

و:

(الْحَقّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ)

(سورة يونس: آية " 35 ")

عامل الناس كما تحب أن يعاملوك:

لقد وقفت عند هذه الكلمة:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

راقب نفسك، ضمن البيت إذا أخطأت فاعترف بخطئك، فكما تريد أن يعترف الطرف الآخر بخطئه اعترف بخطئك، والحقيقة أنّ هناك مقياساً دقيقاً جداً، وهذا المقياس ميزان لا يخطئ وهو عامل الناس كما تحب أن يعاملوك دائماً: فاعكس الصورة، أنت وراء الطاولة (موظّف) وأمامك مراجع فاعكس الحالة، لو كنتَ مكانه ما الذي يرضيك أن تُعامل به ؟ أنت عندك زوجة ابن في البيت، لو أن ابنتك في بيتٍ آخر كم تتمنى أن تُعامل بالإحسان واللطف والعطف، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، من أجل أن تكون موضوعياً.

النبي الكريم معصوم في أفعاله و أقواله و إقراره:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(هو)

تَعُودُ على مَن ؟ قال: تعود على القرآن في بعض التفاسير، وعلى نطق النبي في بعض التفاسير، إذا أعدنا

(إن هو)

على نطق النبي يعدُّ كلام النبي وَحْيَاً، لذلك علماء الأصول يقولون: **" الوحي وحيان وحيٌ متلوٌ ووحيٌ غير متلوٍّ، الكتاب والسنّة "** الكتاب حقٌّ كله، والسنّة حقٌّ كلها، لكن الكتاب قطعي الثبوت كله، أما السُنّة بعضها قطعي الثبوت وبعضها ظنّي الثبوت، أي هناك حديث ضعيف، وهناك حديث موضوع، أما السنّة الصحيحة فكأنها وحيٌ إلهي.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

إن أعدنا

(هو)

إلى القرآن فالقرآن وحيٌ يوحى، إن أعدنا

(هو)

إلى نطق النبي فإن نطقه وحيٌ يوحى، لكن الشيء الثابت أن النبي معصوم في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، وفي صفاته، لأن الله أمرنا أن نتبعه، لو لم يكن معصوماً لكان أمرُ الله لنا أمرٌ بالمعصية، لذلك قال له أحد أصحابه: **" أنكتب عنك يا رسول الله في غضبك ؟ "** قال:

((والذي نفسي بيده هذا اللسان لا ينطق إلا بالحق في الغضب والرضا))

أناسٌ كثيرون في حالة الغضب ينطقون بالباطل، يبالغون، يتهجّمون، يسيئون، لكنّ النبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ في كل أقواله، وفي كل أفعاله، وفي إقراره، وفي صفاته.

نزول الوحي على النبي الكريم و هو في أعلى درجات اليقظة:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ)

فما معنى كلمة:

(يُوحَى)

أحياناً الكلمات لها مجاز، أي أنّ الوحي فعلاً وحيٌ حقّاً ؟ قال:

(وَحْيٌ يُوحَى)

مثلاً هذا طعام، أكلٌ يؤكل، هذا كتاب، كتابٌ يُدْرَس، كلمة يوحى تفيد دفع توهُم المجاز، وحي حقيقي، لذلك عندما جاء الوحيُ إلى النبي صلى الله عليه وسلّم، فإنّ جبريل ضمّه ضمّةً اختلفت معها أضلاعه، لماذا ؟ أيْ أنّ هذا الوحي لم يجئه في الرؤيا وهو نائم، لا بل جاءه يقظة وإنه ضمّه ضمّةً اختلفت معها أضلاعه ثم أرسله، ثم ضمّه، ثم أرسله، ثم ضمّه وقال: اقرأ، قال: **ما أنا بقارئ ؟ قال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ ؟ قال:**

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2))

(سورة العلق)

إذًا فالوحي جاءه وهو صاحٍ، في أعلى درجات اليقظة، وهذه الضَمّة حكمتها أنه كان يقظاً وكان صاحياً بكامل وعيه.

الوحي كيان مستقلّ عن كيان النبي:

فالقضية:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

والدليل أنّ الوحي انقطع فترة عن النبي الكريم ثم نزل قولُه تعالى:

(وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3))

(سورة الضحى)

فالنبي ظنّ أن الله قد ودّعه وقلاه، فقال له: لا.

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

لكن تأخُّر الوحي له معنى عميق جداً، لو كان الوحي كما يتوهّم المتوهمون من فعل النبي لما انقطع أبداً، الوحي كيان مستقلٌ عن كيان النبي، لا يملك له جلباً ولا دفعاً.

دين الإسلام أساسه الوحي من الله تعالى:

لمّا قال المرجفون في المدينة ما قالوا عن السيدة عائشة، واتهموها، وافتروا عليها، انقطع الوحي شهراً، فماذا يفعل النبي ؟ إنه لا حيلة له، ولو كان الوحي ادِّعاءً من عند النبي لأتت بعد ثانية آيةٌ بتبرئتها، لكنه بقي ثلاثين يوماً وقيل: أربعين يوماً، والنبيُّ لا يملك دليلَ إثباتٍ ولا دليلَ نفي، لماذا تأخّر الوحي ؟ ليعرف الناس قاطبةً أن الوحي لا يملكه النبي أبداً، الوحي مستقلّ عن النبي لا يملك جلبه ولا دفعه.

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

دينا أساسه الوحي، إذاً نقف عند قوله تعالى:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

الوحي أصل من أصول الدين و السنة فرع له:

إخوانا الكرام: يجب أن نعلم علم اليقين أن هذا الدين العظيم في الأصل هو وحي، الدين نقل، والعقل لفهم النقل، الركن الركين أنّ الله جلّ جلاله أنزل هذا القرآن، والنبي بيّن هذا الدين، الله أنزل والنبي بيّن، ونحن دورنا دور التلقي فقط، إنما أن متبع ولست بمبتدع.

عقلنا لا ينبغي أن يشرّع، عقلنا يفهم، العقل يتأكّد من صحّة النقل ويفهم فقط، ولذلك فالوحي يُعدُّ أصلاً من أصول هذا الدين، الوحي أصل، والسنّة فرع له، السنّة وحي غير متلو، القرآن وحي متلو، قال عليه الصلاة و السلام:

((تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي))

(أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة)

على الإنسان أن يرد أي خلاف إلى القرآن و السنة:

لذلك فالله عزّ وجل قال:

(أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

أي بينكم وبين أمرائكم، أو بينكم وبين علمائكم.

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرّسُولِ)

(سورة النساء: آية " 59 ")

أيْ إلى القرآن وإلى السُنّة، والله عزّ وجل قال:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

ومعنى:

(وأنت فيهم)

أيْ أن سنّتك في حياتهم مطبّقة، ما داموا مطبقين لمنهج الله عزّ وجل فهم في بحبوحةٍ من أن يُعذّبوا.

على الإنسان أن يكون موضوعياً في كل أمر:

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع تفسير الآيات التالية:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(11))

لكننا الآن لا بدّ من العودة إلى مطلع السورة لاستخلاص العبرة منها:

و التطبيق العملي لهذه الآية: احرص على ألاّ تنطق بالهوى، بل قل الحقيقة، قل الحق ولو كان مُرّاً، الحق يرفعك، والكذب يرديك ويهوي بك، لا تمدح شيئاً بما ليس فيه، كن موضوعياً، العلم الوصف المطابق للواقع مع الدليل، لا ينهضُنا إلا الموضوعية، لا يخلِّصنا مما نحن فيه إلا الصدق، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام كل كلمةٍ قالها كانت حقّاً، لا مجال لا إلى التضخيم ولا إلى التقليل، كن موضوعياً تكن مُطبّقاً لهذه الكلمة، وكن منصفاً أبداً، ولو كنت في خصومة مع غيرك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 5-18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-09-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الثاني من سورة النجم، ومع الآية الخامسة:

الأمية في حق النبي الكريم كمال له:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5))

(سورة النجم)

أيْ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أميٌّ، والأمية في حقه كمال، وفي حقنا نقص، أميٌّ حُجِزَ عن ثقافة عصره، لم يطّلِع على ثقافة عصره ؛ كانت هناك ثقافة إغريقية، وثقافة يونانية، حُجب عن ثقافة عصره كي يكون كلامه كله وحياً من الله عزّ وجل، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام لو اطّلع على ثقافة عصره، وتكلم بعد نزول الوحي لكان هناك سؤالٌ يلقى عليه كل دقيقة: هل هذا الكلام من ثقافتك أم من وحي السماء ؟ فالكمال في حقه صلى الله عليه وسلم أن يحجز عن ثقافة عصره فجعله الله أمياً..

(مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ)

(سورة الشورى: آية " 52 ")

تعلم النبي الكريم عن طريق جبريل الذي علّمه الله:

الآية الكريمة: ما الذي حل محل أميته ؟ أن الله جلّ جلاله عن طريق جبريل علّمه.

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

المفسرون على مذاهب في تفسير هذه الآية، بعضهم قال: علّمه جبريل، ومَن علّم جبريل ؟ الله جلّ جلاله، وبعضهم قال: علّمه الله جلّ جلاله.

(شَدِيدُ الْقُوَى)

عند بعض المفسرين الله جلّ جلاله، وعند جمهور المفسرين جبريل عليه السلام، لكنّ الله علّمه عن طريق جبريل، بهذا الكلام نجمع بين التفاسير كلها.

العلم الذي تعلمه النبي الكريم علم محكم لا خلل فيه:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6))

(ذُو مِرَّةٍ)

أي ذو إحكامٍ، أيْ أنّ العلم الذي تعلّمه النبي صلى الله عليه وسلم علمٌ مُحْكَم، العلم المحكم لا خلل فيه، لا تناقض، لا اضطراب، لا ضعف، لا ضعف في المعالجة، لا ضعف في التفسير، لا ضعف في التأويل، علمٌ محكمٌ، مكينٌ، قويٌ، متماسكٌ، معللٌ بالدليل، مؤيدٌ بالواقع.

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6))

الحبل يُفْتَل، ويفتل، ويفتل حتى لا يمكن فَكُّه، نقول: هذا الحبل ذو مرة، هنا استعير هذا التعبير للتأكيد على أن العلم الذي تعلمه النبي صلى الله عليه وسلم علمٌ متين، علمٌ محكم، علم ينطبق على الواقع والفطرة والحقيقة مئة بالمئة، علمٌ هو في الحقيقة وحيٌ من السماء، فلو جمعت كل معلمي الأرض لقصروا عن الغاية، فالله جلّ جلاله هو الذي علّم النبي صلى الله عليه وسلم.

علمُ رسول الله ما هو إلا وحيٌ من السماء:

الإنسان أحياناً يتباهى بأستاذه، يقول لك: أنا خريّج بالجامعة الفلانية، وقد علمنا البروفسور فلان، نوع من التباهي، يتباهى الإنسان بجامعته وبأستاذه، فإذاً حُقّ للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتباهى بعلمه، فهو يتباهى بأن الله جلّ جلاله هو الذي علمه، لذلك علمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيٌ من السماء.

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6))

وبينت لكم قبل قليل أن رأيَ بعضِ المفسرين أنّ الذي علّمه هو الله جلّ جلاله، وأن بعضهم الآخر بل وجمهورهم على أن الذي علّمه هو جبريل عليه السلام، والقضية تحصيل حاصل، علمه الله عن طريق جبريل، أو أنّ الله جلّ جلاله علّم جبريل، وجبريل علّم النبيّ صلّى الله عليه وسلم.

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6))

الفرق بين التشريع الإلهي و التشريع الأرضي:

لذلك الشرع الإسلامي أساسه وحي، والوحي أساسه من عند الله عزّ وجل، من عند الخالق، فينبغي أن نعلم علم اليقين أن هناك فرقاً نوعياً بين كل تشريعات الأرض وبين تشريع الله عزّ وجل، هذا شرع

الخالق، وذاك شرع المخلوق، فمن الممكن أن نُصدر قراراً نقول فيه: لأية امرأةٍ مطلقة الحق في نصف أملاك زوجها، فما الذي يحصل ؟ يعزف الرجالُ عن الزواج كلياً، يعيش معها وينجب من غير زواج، هذا الشرط يستعصي تطبيقه، ففي بعض البلاد العربية التي أرادت أن تقلِّد الغرب في الأحوال الشخصية أيضاً ألزمت الزوج إذا طلّق زوجته أن يعطيها نصف ممتلكاته كلها، فما الذي حصل ؟ أن الآباء يقدِّمون لخاطبي فتياتهم سندات أمانة بأرقام فلكية، يقولون: تُبرزُها إذا طالبناك بنصف أملاكك، لأن سوق الزواج بارت.

في الصين أرادوا أن يلزموا كل أسرةٍ بمولودٍ واحد، فما الذي حصل ؟ صارت الأسرة الصينية إن أنجبت بنتاً خنقتها، إلى أن تنجب المولود الذكر فتسجله، ولا زالوا كذلك حتى نشأت عصابات لخطف الفتيات اللاتي في سن الزواج، والآن يقدر في عام ألفين أنّ هناك خمسين مليون صيني من غير امرأة، هذا تشريع الأرض، فينبغي أن نميّز بين التشريع الإلهي الذي هو من عند الخبير، الذي خلق الإنسان، وبين التشريع الأرضي الذي هو من الإنسان الذي لا يعلم، وإذا علم يحابي نفسه.

الإنسان مهما علا ليس مؤهلاً أن يشرع:

الإنسان أي إنسان مهما علا ليس مؤهلاً أن يشرع، لأنه لا يخلو من جهلٍ، أو من محدوديةٍ، أو من هوىً، الذي يرضيه في تشريعه جهله أو هواه، وكلاهما يجعلان التشريع تشريعاً غير محكمٍ، وغير واقعي، وغير منصفٍ.

فأنتم إذا قرأتم القرآن، وإذا قرأتم سنة النبي العدنان، فأنتم مع وحي السماء، أنتم مع تشريع الخالق، أنتم مع المطلق، فالقرآن الكريم كلام الله، صحته مطلقة، ثبوته مطلق، خيريته مطلقة، عدالته مطلقة، رحمته مطلقة، لذلك قال بعض العلماء: **" الشريعة عدلٌ كلها، رحمة كلها، مصلحة كلها، وأية قضيةٍ خرجت من المصلحة إلى المفسدة، ومن العدل إلى الجَوْر، ومن الرحمة إلى القسوة فليست من الشريعة ولو أدخلتَ عليها ألفَ تأويلٍ وتأويل ".**

أنتم إذا قرأتم القرآن أو قرأتم سُنَّة النبي عليه الصلاة والسلام فأنتم مع وحي السماء، أنتم مع كلام الخبير، لذلك لا يمكن أن تطيع الله في منهجه، وفي قرآنه، وفي سنة نبيه وتشعر بالندم، تقطف الثمار يانعة، ثمار نفسية، اجتماعية، روحية، أخلاقية، صحية، جسمية، مالية:

((استقيموا ولن تحصوا))

(أخرجه ابن ماجه عن ثوبان)

كلام خالق الكون لا يأتيه الباطل أبداً:

فبالتقريب أنت مع تعليمات الصانع، فإذا طبّقْتَ تعليمات الصانع عند صيانة آلةٍ وتشغيلها قطفت الثمار يانعةً، وأخذت منها أعلى مردود بأقل كلفة، فالإنسان إذا انطلق من حبه لذاته، من حرصه على سلامته، وسلامة وجوده، ينبغي أن يطيع الله عزّ وجل، كلمة:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

أنت إذا قرأت حديثاً شريفاً صحيحاً، أو قرأت آيةً وتفسيرها وفهمتَ مدلولاتها، فأنت مع المعلِّم الأول، أنت مع الخالق، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

الفوز كل الفوز، والنجاح كل النجاح، والفلاح كل الفلاح، والتفوق كل التفوق في طاعة الله عزّ وجل، أنت بمكتبة فيها ألف كتاب، فيها خمسة آلاف كتاب، فيها مليون كتاب، ينبغي أن تضع القرآن في كفة، هذا كلام خالق الكون الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكل الكتب الأخرى هي كتبٌ من تأليف بشر، والبشر يصيبون ويخطئون.

السنة وحي إلهي:

ما من كتابٍ أُلِّف إلا وظهر فيه خللٌ بعد حين، هذا شيء ثابت، أما كتاب الله عزّ وجل فقد مضى على نزوله ألفٌ وخمسمئة عام، وليس في العالم كله حقيقة تصدم آياته أبداً، لأنه كتاب خالق الكون، لذلك إذا اتبعت السُنَّة، فقد اتبعت وحي السماء، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ))

(أخرجه أبو داود عن المقدام بن معدي كرب)

هي السنة.

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة البقرة: آية " 129 ")

و من هنا قال العلماء: كل إنسان يؤخذ منه ويرَدُّ عليه إلاّ صاحب هذه القُبَّةِ الخضراء، كل إنسانٍ يؤخذ منه ويرد عليه، أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم معصومةٌ بمجموعها، لكن النبي صلى الله عليه وسلم معصومٌ بمفرده، كلمة (وحي) كلمة كبيرة جداً، خالق الكون يوحي إلى رسول الله، ونحن نأخذ هذا الوحي عن رسول الله.

أوامر خالق الكون على كل إنسان أن يتبعها:

لو فرضنا: عندك جهاز بالغ التعقيد، جهاز حاسوب من أعلى مستوى، وإلى جانب بيتك عشرون محلاً تجارياً، بائع خضار، بائع أقمشة...إلخ، كل هؤلاء على أخلاقهم الرَضِيَّة ليسوا مُؤَهَّلين أن يصونوا لك هذا الجهاز، إلا أن يأتي مندوب الشركة، فهو الخبير، لذلك قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

فأنت مع شيء نوعي، أنت إذا قرأت القرآن ورأيت فيه توجيهاً، أو حكماً، أو أمراً، أو نهياً، أمراً بغض البصر، أمراً بأداء الأمانة، أمراً بالتوكل على الله، أمراً بالنظافة، هذه أوامر خالق الكون.

تعليم الله عز وجل الرسول الكريم عن طريق جبريل:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6))

الآن إذا فسرنا أن الذي علّمه شديد القوى هو الله عزّ وجل، فاستوى بمعنى استوى على العرش، والاستواء معلوم والكيف مجهول، أما إذا فسرنا أن الذي علمه شديد القوى هو جبريل عليه السلام.

(ذُو مِرَّةٍ)

أي أنّه ذو علمٍ محكم، ذو علمٍ متين.

(فَاسْتَوَى)

في الأفق، فحينما كان النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء رأى جبريل عليه السلام فيما ترويه الروايات الصحيحة، رآه وقد سدّ الأفق كله، رآه على الصورة التي صوره الله بها، ملأ الأفق كله شرقه وغربه.

اقتراب جبريل من النبي الكريم في البداية بصورته الحقيقية:

(ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا دَنَا)

جبريل عليه السلام، بصورته الحقيقية التي تملأ أفق السماء شرقاً وغرباً، ثم دنا من محمد عليه السلام شيئاً فشيئاً فشيئاً ثم تدلى له، حتى كان على شكل دُحية الكلبي وهو من أحب الناس إلى النبي عليه والصلاة والسلام ومن أجملهم صورة.

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)

أو ثم تدلى فدنا، كلاهما بمعنى واحد، تدلى أي نزل إليه شيئاً فشيئاً، واقترب منه شيئاً فشيئاً، ثم أصبح بصورة إنسانٍ من بني البشر محببٍ إلى النبي عليه الصلاة والسلام جميل الصورة اسمه دحية الكلبي.

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9))

العرب كانوا إذا اصطلحوا بعد نزاع و خصومة يجعلون القَوسين قوساً واحداً ويرمون بهما معاً رمياً واحداً، فالقوسان هنا تلامسا، حتى اتحدا وصارا شيئاً واحداً.

نزول جبريل بصورة دحية الكلبي كان بداية الوحي:

(فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)

أيْ أنّه نزل من السماء، تدلّى من السماء، واقترب شيئاً فشيئاً، إلى أن أصبح قريباً من النبي كقرب القوس من القوس، و أصبحت صورته صورة دِحية الكلبي أحب الناس إلى رسول الله وأجملهم صورة.

(فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)

عندئذٍ

(فَأَوْحَى)

جبريل..

(إِلَى عَبْدِهِ)

محمدٍ صلى الله عليه وسلم..

(مَا أَوْحَى)

قال له: اقرأ، قال له: لست بقارئ، قال له: اقرأ قال: لست بقارئ، قال:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2))

(سورة العلق)

كأن هذه الآيات ترينا بداية الوحي، أي أن هذا القرآن من وحي السماء، من عند خالق الأكوان، من عند مدبّر الأرض والسماوات.

آفاق الأنبياء مقدسة و هدفها إسعاد البشر:

أما إذا فَسَّرنا أن الذي علمه شديد القوى هو الله جلّ جلاله.

(ذُو مِرَّةٍ)

ذو قوةٍ وعلمٍ، فاستوى على العرش، وهو بالأفق الأعلى، عندئذٍ نفسر (هو) بأنّها تعود على النبي صلى الله عليه وسلم، هو في أعلى الآفاق، كل إنسان له أفق، إنسان يعيش في الوحول، إنسان يعيش مع القاذورات، إنسان يعيش مع سفاسف الأمور، إنسان يعيش مع المُلِهيات، إنسان يعيش مع الجنس، إنسان يعيش مع المال، إنسان يعيش مع المباهج المادية التي لا تبقى ولا تستمر، وإنسان يعيش مع المبادئ، يعيش مع الخُلق، يعيش مع القيم، فهناك إنسان هدفه إمتاع جسمه، وهناك إنسان هدفه إسعاد الخلق، إذًا آفاق، الأنبياء لهم آفاق خاصة، آفاقهم مقدسة، آفاقهم علوية، آفاقهم هداية البشرية.

سؤال كل إنسان نفسه في أي أفق هو ؟

كل إنسان منا له أفق، فلان أفقه لا يتمنى على الله إلا أن يتزوج فقط، فإذا تزوج وصل إلى كل أهدافه، وإنسان آخرُ هدفه أكبر من الزواج، يتمنى على الله أن يصل إليه، أن يتعرف إليه، أن يكون جندياً للحق، أن يكون في خدمة الخلق، يتمنى على الله أن يكون داعيةً إلى الله، هادياً مهدياً، يتمنى على الله أن يقدِّر على يديه كل خير، فلذلك كل إنسان له أفق، فالسؤال الآن: أنت في أي أفق ؟ فالإنسان حينما يصحو صباحاً على أي شيءٍ يصحو ؟ من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة.

لذلك فعلى الإنسان أنْ يتأمل، في أي أفقٍ يعيش، يعيش في أُفق إصلاح ذات البين، يعيش في أفق معرفة الله، يعيش في العمل الصالح، يعيش في فهم كتاب الله، يعيش في فهم حديث رسول الله، يعيش في فهم سيرة رسول الله، يعيش ليخدم الخلق، يعيش ليهدي الخلق إلى الله عزّ وجل، هذا أفق، وهناك إنسان آخر يعيش ليأكل، يعيش ليتزوج، يعيش ليشتري بيتاً، يعيش ليستمتع بالحياة، يعيش ليسافر، فكل إنسان له أفق، وهناك من الناس مَنْ يعيش ليؤذي الناس، ليأكل أموالهم بالباطل، ليوقع فيهم الرُعب، يعيش ليتلذذ بإيقاع الأذى بآخرين، هذا مستوى أيضاً، هذا المستوى تحت الأرض.

اقتراب الإنسان من الله بالعمل الصالح:

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

فالنبي عليه الصلاة والسلام استحق أن يوحي الله إليه، وأن يعلمه العلم المتين، لأنه بالأفق الأعلى، ثم إذا فسرنا أن الذي علمه هو الله عزّ وجل، وهو الذي استوى على العرش، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بالأفق الأعلى.

(ثُمّ دَنَا)

ثم دنا النبي من الله عزّ وجل، والإنسان يدنو من الله دنواً حكمياً، العمل الصالح يقربك من الله، أنت في بيتك، وفي غرفة نومك، وفي غرفة جلوسك، وفي مكتبك، وفي معملك، وفي متجرك، وفي الطريق، العمل الصالح يجعلك أقرب إلى الله من أي وقتٍ آخر، فكلما عملت عملاً صالحاً اقتربت من الله، فلذلك:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: آية " 110 ")

النبي الكريم بالأفق الأعلى لأن همه هداية الخلق:

العمل الصالح يرفع الإنسان، فالنبي صلى الله عليه وسلم لأنه بالأفق الأعلى، لأن همومه مقدسة، همومه تزيد عن حاجاته، فالإنسان قد تكون همومه مطابقة لحاجاته، فإذا حُقِّقَت حاجاته انتهت همومه، أما الأنبياء والمرسلون، همومهم تفوق كل حاجاتهم، تفوق كل متطلباتهم، همومهم هداية الخلق، لذلك:

((لو تعلمون ما أعلم ولضحكتم قليلاً و لبكيتم كثيراً))

(أخرجه مسلم عن أنس بن مالك)

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث:

((الحزانى في كنف الله))

(ورد في الأثر)

((إن الله يحب كل قلبٍ حزي))

(حديث صحيح عن أبي الدرداء)

أي حزنٍ هذا ؟ الحزن المقدس، تنظر إلى الناس تراهم ضائعين، تائهين، شاردين، بيوتهم جحيم، أعمالهم ربوية، مالهم حرام، ملاهيهم تجعلهم في الوحول، هذا الذي يسهر إلى الفجر ويتابع مشاهدة أجهزة اللهو الفضائية، في أي مكان هو ؟ في قنوات المجاري لا في قنوات الفضاء، في أي مستوى يعيش ؟ هذا الذي يطلِّق امرأته بعد ثلاثين عاماً لأنها لا تروق له بالموازنة مع ما يراه في هذه المحطات الفضائية، أي إنسانٍ هذا ؟ في أي دركٍ يعيش ؟ في أيّ قنوات المجاري يعيش ؟ أمّا رسول الله صلى الله عليه و سلم كما وصفه ربُّه:

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

معنى آخر.

نزول الوحي عن طريق جبريل عليه السلام:

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(11))

فلكم أن تفهموا هذه الآيات على نحوين، إن فهمناها مع جمهور العلماء على أنه جبريل عليه السلام.

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7))

ملأ الأفق.

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9))

فأصبح في صورة دِحْيَة الكلبي.

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

وقد نفهمها فهماً آخر: علمه الله جلّ جلاله، وهذا قول الإمام الحسن، علمه الله جلّ جلاله..

اجتماع العلم و القوة في الخالق سبحانه:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ)

أي قوة وعلم، قد تجد العلم ولا تجد القوة، العلم يصغر في نظرك، وقد تجد القوة ولا تجد العلم فالقوة تصغر في نظرك، إنسان قوي بكل معاني القوة لكنه جاهل، وإنسان عالم ولكنه ضعيف، أما أن يجتمع العلم والقوة شيءٌ مدهش، إنهما تجتمعان في الله عزّ وجل، قويٌ ولا حد لقوته، عليمٌ ولا حد لعلمه، يعني قوته متعلقةٌ بكل ممكن وعلمه متعلقٌ بكل ممكن، قوته مطلقة وعلمه مطلق.

استواء المعاني المقدسة في صدر النبي الكريم:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6))

استوى على العرش، وقال بعض المفسرين: استوى القرآن في صدره، استوت هذه المعاني المقدّسة في صدر النبي عليه الصلاة والسلام، أو استوت في صدر جبريل.

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

لماذا علّمه ؟ لأنه بالأفق الأعلى، قد يرى أبٌ من ابنه تفتحاً وتطلعاً إلى العلم، ونهماً له، ورغبةً فيه، فعندئذٍ يضع الأب كل إمكاناته من أجل أن يصل ابنه إلى ما يصبو إليه، هذا إن رأى منه تفتحاً، وتشوقاً، وتلهفاً، وتعلقاً، وألمعيةً، ورغبةً صادقةً ملحةً، عندئذٍ يقدم له كل ما يملك من أجل أن يتعلم.

اقتراب الإنسان من الله إذا كان بالأفق الأعلى:

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8))

إذاً: هنا لدينا معنى آخر: تدنو من الله إذا كنت بالأفق الأعلى، وتبتعد عنه إذا كنت بالأفق الأدنى، إذا كنت في الأرض، الأرض تمثل الشهوات..

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

(سورة الأعراف: آية " 176 ")

و السماء تمثل المَكْرُمات..

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(11))

هناك تطابق بين رؤية القلب ورؤية العين.

مطابقة رؤية قلب النبي لرؤية عينه:

أحياناً ترى بعينك شيئاً لا تصدقه، فالقلب ينكر عليك ذلك، بعض السحرة المهرة، ترى عندهم شيئاً بعينك لكن قلبك لا يصدقه، أمّا هنا.

(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)

رأى بعينه ورأى بقلبه، فجاءت رؤية قلبه مطابقةً لرؤية عينه.

(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12))

وهذه مشكلة كل مؤمنٍ في آخر الزمان، يرى أن الله هو كلُّ شيء، يرى أن الدين هو كل شيء، يرى أن طاعة الله هي كل شيء، يرى أن المعصية هلاك، يرى أن الانحراف عن الطريق الصحيح شقاء، يرى أن الكسب الحرام متلفةٌ للمال، يرى أن أشقى الأشقياء من عصى رب الأرباب، هذه رؤيته، وحوله أناسٌ يرون غير هذه الرؤية، يرون الدنيا كل شيء، المال كل شيء، الشهوات هي كل شيء.

العبرة في النهاية نجاة الإنسان من عذاب الله الأبدي:

دائماً يوجد مشادة بين أهل الإيمان وبين أهل الإعراض، أنت إما أن تقبل وإما أن تعرض، إما أن تستقيم وإما أن تنحرف، إما أن تُخْلِص وإما أن تخون، إما أن ترقى وإما أن تسفل، إما أن تنصف وإما أن تجحد، فلذلك:

(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12))

هو يرى، لذلك قال سبحانه:

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2))

(سورة القلم)

أنت لست مجنوناً، أنت عاقل، والحقيقةُ أنّ العبرة في النهاية، العبرة في العاقبة، العبرة من يضحك أخيراً، العبرة حينما يأتي الموت ويرى المؤمن أنه قد نجا من عذابٍ أبدي، عندئذٍ يصيح ويقول: لم أرَ شراً قط.

لقاء الله عز وجل أسعد لحظات المؤمن:

إخوانا الكرام: ورد في الأحاديث:

((تحفة المؤمن الموت))

(أخرجه الطبراني، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عمر)

أن الموت عرس المؤمن، وأن المؤمن أسعد لحظات حياته حينما يلقى الله عزّ وجل، لماذا ؟ لأنه لا يعرف حقيقة فوزه وحقيقة نجاحه إلا عندما يرى مقامه في الجنة، هو في الدنيا مع الناس، قد لا يتميز عنهم كثيراً، يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وكما يلعبون، وكما يتنزّهون، ويتزوجون، ويطلقون، ويتاجرون، ويكسبون المال وهو واحدٌ منهم في هذا، لكن المؤمن ينفرد من بين هؤلاء بطاعة الله، وابتغاء مرضاته، فإذا جاء الموت فرز الناس، طبعاً..

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يس)

ابتعدوا عنهم، حقيقة الفوز لا يعلمها الإنسان إلا حينما يلقى الواحد الديان.

رؤية النبي الكريم لجبريل عليه السلام مرة أخرى في رحلة المعراج:

(أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13))

النبي عليه الصلاة والسلام رأى جبريل مرةً أخرى..

(عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)

حينما كان في رحلة المعراج، وحينما وصل إلى درجة لم يصلها نبيٌ قبله.

(سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)

في المعنى الدقيق أعلى مرتبة وصلها إنسان، حتى إن سدرة المنتهى في رأي بعض المفسرين هي المكان الذي وقف عنده جبريل ولم يستطع أن يجاوزه، وجاوزه النبي، لذلك نحن أتباعٌ لسيد الأنبياء والمرسلين، لسيد ولد آدم ولا فخر، للإنسان الأول الذي أقسم الله بعمره الثمين، قال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

(عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى)

حقيقة الجنة القرب من الله عزّ وجل.

السلامة و السعادة مطلبان لكل إنسان لا يتحققان إلا بالقرب من الله:

إخوانا الكرام: حقيقة أقولها لكم متواضعة: إذا اعتقدت لثانيةٍ واحدة أن شيئاً في الأرض مهما كبر ومهما علا يمكن أن يسعدك فأنت جاهل، لا تسعد إلا بالله، فأيُّ شيءٍ في الأرض ؛ سواء أكان المال الوفير، الصحة القوية، الجمال الفَتَّان، المنصب الرفيع، القصر المنيف، المركبة الفارهة، العز التليد، إذا اعتقدت أن شيئاً في الأرض مهما علا يمكن أن يسعدك سعادةً متنامية فأنت واهم، لا تسعد إلا بالله.

(عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى)

فهل هناك من إخواننا الحاضرين وغير الحاضرين، أو من بني البشر قاطبةً من بين خمسة آلاف مليون لا يتمنى السعادة والسلامة ؟! هذا مطلبٌ ثابت، بل إن السعادة والسلامة مطلبان ثابتان لدى كل إنسان، هذان المطلبان لا يتحققان إلا بالقرب من الله عزّ وجل، والقرب من الله أساسه الاستقامة والعمل الصالح، والاستقامة والعمل الصالح أساسهما معرفة الله، لذلك حينما تبادر لتتعرف إلى الله تفعل أخطر عملٍ في حياتك، تفعل أجل عملٍ في حياتك.

الاستقامة و العمل الصالح أساسهما معرفة الله:

طالب المدرسة، أو الطالب الجامعي، ما هو أجل عمل في حياته ؟ أن يحضر محاضرة الأستاذ، وأن يقرأ البحث، ويؤدي الامتحان، أما لون قميصه فليس له علاقة باختصاصه، مكان بيته، نوع الطعام الذي أكله، فهذه أشياء كلها ثانوية، الشيء الأساسي أن يحضر الدرس، وأن يستوعب، وأن يقرأ فيفهم، وأن يؤدي الامتحان فينجح، هذا أهم ما في الجامعة، وما سوى ذلك ؛ كألوان الألبسة، وألوان الأطعمة، ومواقع البيوت، ونوع القلم، يا ترى قلم سيَّال، قلم حبر، قلم جاف، أشياء كلها لا تقدم ولا تؤخر، وفي التجارة أهم شيء الربح، فإن لم تربح فلست تاجراً، الإنسان حينما يأتي إلى الدنيا أخطر شيءٍ في حياته

أن يعرف الله، لذلك: طلب العلم فريضة على كل مسلم، إن عرفته وعرفت أمره ونهيه، وطبّقت أمره ونهيه، سعدت بقربه في الدنيا والآخرة، هذا ملخص الملخص.

رحمة الله محيطة بالنبي الكريم من كل جانب:

(عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16))

النبي عليه الصلاة والسلام جاءه من الله عزّ وجل من الرحمات ما لا يوصف، الشيء العجيب أن هذا النبي الكريم لو أتيح لواحدٍ منا (وهذا من الحلم) أن يلتقي به حينما كان حياً يجد ما لا يصدق فلديه أنوار من الله، وتحوطه رحمات من الله، ولديه قوة تأثير، وسعادة لا توصف، كان أحد أصحابه سيدنا ربيعة يخدمه، فإذا أذِن له النبيُّ أن ينصرف لا ينصرف، بل يبقى على عتبة البيت إلى صلاة الفجر، فبماذا يشعر ؟ وهو ينام على عتبة البيت من الخارج بماذا يشعر ؟ يشعر بشوق وحنين لا يوصف، وهذا أثر من آثار القرب من رسول الله، والقرب من الله، فإذا كان الإنسان قريباً من الله يسْعَد، فهو موصول بمصدر النور، بمصدر السكينة، بمصدر الطمأنينة، بمصدر الإشراق، بمصدر الكمال، تجد المؤمن الموصول كامل السعادة، عفيفاً، عفيفَ اللسان، عفيف اليد، حيياً، كريماً، شجاعاً، ذا مروءة، منصفاً، هذه الصفات الإنسانية العالية مع الوجهة الصادقة إلى الله، مع السكينة التي في قلب الإنسان، هذه تجذب الناس إليه، فمؤمن صغير صغير صغير في آخر الزمان إذا نظرت إليه ذكرت الله عزّ وجل، أولياء أمتي إذا رأوا ذُكر الله بهم، إذا نظرت إليه ذكرت الله، إذا نظرت إليه اطمأن قلبك، ارتاح قلبك، اطمأنت نفسك، فما عند هذا المؤمن الصغير مما عند النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم ؟!

تجلي الله على قلب المؤمن بالرحمة و المودة:

لذلك:

(عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16))

تسميها رحمات، تسميها تجليات، تسمها قُرُبَات، تسميها سكينة، تسميها حالاً، أنا لا أعرف، سمِّها ما شئت، أما إذا عملت عملاً صالحاً اقتربت من الله، إن اقتربت منه تجلّى على قلبك، هذا الشهر يعرفه كل مؤمن، وبينما كان سيدنا الصديق يمشي في الطريق رأى صحابياً اسمه حنظلة، ونَدّعُه يقصُّ علينا خبرَه، فعَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَيِّدِيِّ قَالَ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا

مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللّهِ إنّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنّارِ وَالْجَنّةِ حَتّى كَأَنّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ؛ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرّاتٍ))

(رواه مسلم عن حنظلة الأسدي)

علامة إخلاص المؤمن ارتياد المساجد و هو في كامل فرحته:

إخوانا الكرام: علامة إخلاصك، وعلامة صدقك، وعلامة محبتك أنك إذا دخلت المسجد فأنت في الجنة، هذا بيت الله، وأنت في ضيافة الله، هذا بيت الله وأنت لم تأت إلى فلان أو علان، أبداً، أنت لم تأت إليه، أتيت إلى بيت الله عزّ وجل، والله هو الذي يكرمك، فإنسان ترك بيته، ترك المقعد الوثير، ترك الطعام الطيّب، ترك الجلوس مع أهله وأولاده، وركب مركبة، هي أول مركبة، قد يكون ركب مركبتين إلى أن وصل إلى بيت الله، أفلا يجد شيئًا ؟ فهل هذا معقول ؟ ألاّ يجد شيئًا أبداً ؟!! هل تجد بيتًا تدخل إليه ولا يقدم لك فنجان قهوة، أو حتى سكرة، أو كأس ماء.

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوّارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني، وحُقّ على المزور أن يكرم الزائر))

وأنت في بيت الله في ضيافة الله، أنت في رحمات الله، فلذلك قال حنظلة: **"نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين.. فإذا عافسنا الأهل ننسي "**، نأتي إلى البيت فلا نجد الأكل جاهزاً، نغضب، وشُطّنا غضباً، راح الحال، أين هذا الحال ؟ فسيدنا الصديق لطيف وأديب ومتواضع قال له: **" أنا كذلك يا أخي، انطلق بنا إلى رسول الله "**. فحدثاه.. قال عليه الصلاة والسلام:

((الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم))

(أخرجه البخاري عن أنس بن مالك)

أساس الدين الإسلامي الصلة بالله عز وجل:

الأنبياء في اتصال مستمر، لكن المؤمنين على قدر إيمانهم يكون فتورهم، المؤمن لا يوجد عنده حال معصية وطاعة، انتبهوا، إياكم أن تفهموا هذا لا يوجد عنده طاعة ومعصية، عنده إقبال وفتور، كلما

اتسع وقت إقباله ارتقت مرتبته، وكلما قلّت مدّةُ فتوره ارتقت مرتبته، أما إذا اتسع وقت فتوره وقَلّ وقت إقباله هبطت مرتبته، قال لهما:

" أما أنتم يا أخي فساعةً وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم ".

فأنا من أنصار التعلم، من أنصار التفقه في الدين، لكن دين، علم، وفقه، من دون حال، من دون اتصال بالله عزّ وجل، من دون ذكر، من دون أن يعمر القلب بذكر الله، يصبح الدين ثقافةً، والحركات التعبُّدية تصبح طقوساً، فلماذا يتراجع المسلمون ؟ لأنهم أفرغوه من مضمونه الأساسي، أساس الدين هذه الصلة بالله..

الصلاة هي أول ما يحاسب العبد عليه يوم القيامة:

"لا خير في دينٍ لا صلاة فيه ".. " الصلاة معراج المؤمن ".. "الصلاة نور المؤمن ".. " الصلاة طهور ".. الصلاة مناجاة.. الصلاة قُرْب.

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

الصلاة ذكر..

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت: آية " 45 ")

الدين كله صلاة، وأول ما يحاسب العبد يوم القيامة عن صلاته، فجوهر الدين هذا الاتصال، أما المعلومات مفيدة، لكنها ثقافة، والحركات والسكنات طقوس، أما إذا وجدتَ استقامة، وكان اتصال بالله عزّ وجل، وصار عندك حال، وغمرتك سكينةٌ وطمأنينةٌ فاض عندك نور يشع منك، وهذا يسمى قوة التأثير، لذلك: ما أخلص عبدٌ لله عزّ وجل إلا وجعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة.

أساس الصلاة طاعة الله عز وجل:

(عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16))

هذه العبارة عند البُلَغَاء اسمها إيجازٌ غني.

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)

ما يغشاها من الرحمة، من العلم، من السكينة، من السعادة، من الرُقيّ، من السمو

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)

والإنسان عندما يكون له اتصال بالله عزّ وجل تشمله حالةُ تجلٍّ متنوع، فترى رؤيا صحيحة، وتجد نفساً مطمئنة، وقلباً قوياً، حكمة، قدرة على اتخاذ قرار في الوقت المناسب، هذه الحكمة مع الرؤيا الصحيحة مع السكينة مع الطمأنينة هذه من آثار الصلاة، أساس الدين هو الصلاة، الصلاة أساسها طاعة الله عزّ وجل، والطاعة معرفة، معرفة طاعة صلاة سعادة.

الأدب و الثبات و قوة الشخصية صفات امتاز بها النبي الكريم:

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

زاغ نظر يمنةً أو يسرة، طغى نظر إلى ما لا يحق له أن ينظر، فكان في أعلى درجات الأدب والثبات، أحياناً الإنسان يجمع بين الأدب والثبات، بين قوة الشخصية والأدب.

سيدنا عمر كان يمشي في الطريق رأى غلماناً، لما رأوه وكان صاحب هيبة شديدة تفرقوا، إلا واحداً منهم بقي واقفًا بأدب، فلما وصل إليه قال: **"يا غلام لما لم تهرب مع من هرب ؟ قال: أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك "**، طبعاً بقي ثابتاً، ما غَيَّر، وما هرب، ولما سُئل أجاب، وقد جمع بين الثبات والأدب، لكن هناك ثبات مع وقاحة، و أدب مع خوف.

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

ما زاغ من خوفه ولا تجاوز الحد من أدبه، هنا الآن في أعلى مقام، فليس من مقام وصله نبيٌّ كما وصل نبينا الكريم هذا المقام، لذلك قال:

((سلوا لي الوسيلة))

(أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

نحن إذا سمعنا الأذان، فالمسلمون بعد الأذان يقولون، ونحن قبل الصلاة نقول:

((اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً (صلى الله عليه وسلم) الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه اللهم مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة))

(أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله)

هذا الدعاء أساسه أن النبي الكريم قال:

((سلوا لي الوسيلة (اطلبوها لي) فإنها مقام لا ينبغي إلا لواحدٍ من خلقه، وأرجو أن أكون أنا))

إطلاع الله عز وجل النبي الكريم على كل شيء:

لذلك:

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)

قيل: إن الله سبحانه وتعالى أطلعه على كل شيء، حتى على نهاية العالم، حتى على أهل الجنة وأهل النار، فالذي نؤمن به نحن بالخبر الصادق فقد رآه النبيُّ رأيَ العين، لذلك فالنبي وحده إذا حدثنا عن اليوم الآخر، وعن نعيم أهل الجنة، وعن عذاب أهل النار، وحده، حديثه عن رؤيةٍ وشهود لا عن تصديقٍ وإقرار، نحن نؤمن بالجنة والنار والصراط المستقيم، والسؤال، والحساب، والعذاب، والثواب، والعقاب، نؤمن به مصدقين لأن هذا ورد في كتاب الله الكريم، أما النبي.

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)

أطلعه الله على ما كان وعلى ما يكون وعلى ما سيكون، لذلك أحاديث النبي عن آخر الزمان وعن قيام الساعة، وعن علاماتها الصغرى والكبرى من هذا القبيل، مثلاً حديث النبي:

((رأيت عامة أهل النار من النساء))

(ورد في الأثر)

النبي رأى رأي العين من يعذّب في النار، رأى المرابين، رأى الزناة، رأى المنحرفين، رأى آكلي أموال الناس بالباطل، رأى آكلي أموال اليتامى، كل هذا رآه رأي العين، أي أنه رأى ملكوت السماوات والأرض.

عطاء الله للإنسان لا يتناهى:

(وَكَذَلِكَ نُري إبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأنعام: آية " 75 ")

رأى ملكوت السماوات والأرض في أعلى درجة.

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)

فالإنسان على قدر استقامته، وعلى قدر إخلاصه، وعلى قدر معرفته ينال من هذا العطاء الذي لا يتناهى، والشقي كل الشقي هو الذي غابت عنه هذه الحقائق وعاش في أوحالِ مادة، لذلك من الأدعية المأثورة:

((اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، أخرجنا من وحول الشهوات إلى جنّات القُرُبات))

الثمار اليانعة التي يقطفها المسلم من الإقبال على الله:

أحياناً يكون البيتُ قطعةً من الجنة، فيه صلاة، وذكر، وتلاوة قرآن، ودعوة إلى الله، وسهرة اجتمعوا فيها عليه وتفرقوا عليه، بذل الطعام للفقراء خدمة لعباد الله، جو مقدس، وقد تجد بيتاً فيه قنوات لا يعلمها إلا الله، يقول لك: عندي ثمان وسبعون قناة، يتباهى بها، فهذا بيت آخر، أهلُه في الوحول غارقون، لأن الشيء استشرى وكبر جداً، وغدتْ حالات الطلاق كثيرة من وراء هذه الأجهزة، حالات انحراف مادي خطير، حالات انحلال، فالمؤمن يعيش في جنات القربات، يطلب من الله أن ينجيه من وحول الشهوات إلى جنّات القربات.

على كلٍ في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات ورغبتي الملحّة أنْ أضع أمامكم كل التفسيرات، فملخّصها ؛ إنْ فسّرت:

(علّمَه)

الله جلّ جلاله فالآيات تأخذ منحى معيّناً، وإن فسرت:

(علّمه شديد القوى)

هو جبريل تأخذ الآيات منحى آخر، على كلٍ هذه الآيات بتفسيريها تشير إلى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى شدة قربه من الله، وإلى الثمار اليانعة التي قطفها حينما تعرف إلى الله وأقبل عليه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 19-23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-09-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الثالث من سورة النجم، ومع الآية التاسعة عشرة وهي قوله تعالى:

الأصنام التي كانت تُعبد من دون الله:

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (23))

أيها الأخوة الكرام: قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام كان في الجزيرة العربية أصنامٌ كثيرة، من أشهرها:

(اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20))

هذه الأصنام كان لها شأنٌ كبير، فالناس كانوا يحجُّون إليها، ويطوفون حولها، ويذبحون قرابينهم إليها، واحدةٌ في الطائف وهي اللات، وقالوا: اللات مؤنث لفظ الجلالة، جلّ جلاله وتعالى عما يقولون علوًّا كبيراً، والعزّى مؤنّث العزيز، والمناة أيْ التي تحقق للإنسان أمانيه، هناك وجهات نظرٍ كثيرةٍ جداً حول أسباب التسمية، لكن الذي يعنينا أن هذه الأصنام الثلاثة التي كانت تُعبَدُ من دون الله كانت لها أبنيةٌ كبيرة وكان الناس يحجّون إليها، ويطوفون حولها، ويذبحون الذبائح تقرُّباً إليها، وكانوا يعبدونها من دون الله

دعوة الله الإنسان للتفكر في الأصنام التي نحتها بيده:

الذي يعنينا من هذا أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَفَرَأَيْتُمُ)

إنه يدعونا إلى التأمُّل في هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، أحجار لا تقدِّم ولا تؤخِّر، لا تملك الحياة، ولا تملك الموت، ولا تملك الرزق، ولا تعطي ولا تأخذ، ولا ترفع ولا تخفض، ولا تملك شيئاً..

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)

(سورة الصافات)

تنحتونها أنتم وتعبدونها من دون الله !! هذا الكلام قد يضيق وقد يتسع، قد يضيق حينما نرى صنماً في عهد رسول الله قبل البعثة يُعْبَدُ من دون الله، أما حينما يعبد الإنسان شهوته هذا شرك مَوسَّع.

معاني الشرك:

الشرك له معانٍ كثيرة، ومن معانيه الضيقة أن تتخذ إلهاً من دون الله تعبده مع الله، لكنْ من معانيه الواسعة أن تعتمد على مخلوقٍ مثلك، أن تعقد الآمال على مخلوقٍ مثلك ضعيف لا ينفع ولا يضر، فالشرك الجلي انتهى مع بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، بقي الشرك الخفي، الرياء شرك خفي:

((من علق تميمة فقد أشرك))

(أخرجه أحمد عن عقبة بن عامر الجهني)

أي علّق شيئاً يتوهَّم أنه يمنعه من الموت، فهذا الذي يعلِّق حذوة فرسٍ مثلاً ماذا يقصد بها ؟

((من علق تميمة فقد أشرك))

حينما تتجه إلى شيءٍ من دون الله تعظِّمه، وتعقد عليه الآمال، وتجعله أساساً لرفعتك أو تخاف أن يخفضك، هذا الشيء هو الشرك بعينه، لكن الشرك الجلي انتهى، بقي الشرك الخفي، والرياء من الشرك الخفي، والنفاق من الشرك الخفي، وأن تعتمد على جهةٍ غير الله من الشرك الخفي، وأن ترتجف، وأن تخاف، وأن تعتمد، وأن تثق، وأن تعلِّق الآمال، وأن تفعل شيئاً يغضب الله من أجل أن ترضي ما سوى الله فهذا هو الشرك أيضاً، فلذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أتخوف على أمّتي الإشراك بالله، أما إني لستُ أقولُ يعبدون شمساً و لا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوةٌ خفيّة))

(أخرجه ابن ماجه عن شداد بن أوس)

الإشراك هو اعتماد الإنسان على جهة غير الله اعتماداً كلياً:

أيها الأخوة الكرام: كما قلت قبل قليل: ولّى زمن الشرك الجلي، ونحن كمسلمين لا نؤخذ إلا من الشرك الخفي، أحياناً إنسان يعلِّق آماله على ابنه، يعقد عليه كل الآمال ؛ غداً يكبر ويعمل، ويكون له دخل كبير وأنا أستريح، إذا اعتمد على ابنه فقد أشرك، قد يسخِّر الله له عدوّاً يخدمه، أما إذا اعتمد على جهةٍ غير الله اعتماداً كلِّياً ونسي الله فقد أشرك، فكيف إذا عصى الله من أجل هذه الجهة ؟ هذا أبلغ، إن اعتمدت على جهةٍ غير الله فقد أشركت، أما إذا عصيت الذي خلقك من أجل أن ترضي جهةً غير الله هذا هو الشرك الذي رافقته المعصية، لذلك:

((من أرضى الناس بسخط الله سخِط عليه الله وأسخط عليه الناس، ومن أرضى الله بسخط الناس رضي عنه الله وأرضى عنه الناس))

(ورد في الأثر)

الدين هو عبادة و توحيد:

أيها الأخوة: الإنسان كما يتمنّى أحياناً الشرح والتفصيل، يتمنّى أحياناً الإيجاز، يعني إذا أردت أن تضغط الدين كلّه بكلمتين، فنظرة سريعة إلى المؤلّفات في مكتباتنا، ترينا أنّ هناك عشرات الألوف، بل مئات الألوف، بل ألوف الألوف من المؤلّفات في الإسلام، فإذا أردنا أن نضغط كل هذه المؤلّفات بكلمتين أنا أقول لك: التوحيد والعبادة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

العقيدة: التوحيد، والعبادة: عمل، وأنت بين عقيدةٍ وبين عمل، العقيدة وحدها شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، والعمل وحده شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، ولابدّ من أن تعتقد التوحيد وأن تنصاع إلى هذا الإله العظيم، إنْ وحدّته وعبدته فقد حققت المراد من وجودك، هذا هو الإيجاز.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف: آية " 110 ")

الله تعالى بيده كل شيء:

هذا كلام إدراكه سهل، كلمة لا يوجد إلا الله، هذه المقولة إدراكها سهل لكن شتّان بين أن تدركها وبين أن تعيشها، أنت في حياتك أشخاص أقوياء، تريك عينك هذه أنهم يفعلون ما يريدون، يقرّبون ويبعدون، يعطون ويمنعون، يرفعون ويخفضون، يغضبون ويرضون، وأن الدنيا بيدهم أحياناً، هذه العين تريك أن هناك أشخاصاً بيدهم الأمر، لكنك إذا تعمّقت في فهم الدين، وتعمّقت في التأمّل في ملكوت السماوات والأرض لا ترى إلا الله.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية " 84 ")

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية " 123 ")

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

جو التوحيد لا يعيشه إلا من ذاقه:

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود: آية " 56 ")

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: آية " 2 ")

هذه الحقائق إذا أدركتها عشت في جوٍ آخر، جو التوحيد لا يعرفه إلا من ذاقه، أكثر الأمراض النفسية أسبابها ضعف التوحيد، الخوف المرضي ضعف توحيد، القلق ضعف توحيد، النفاق ضعف توحيد، الرياء ضعف توحيد، الوساوس المتسلِّطة ضعف توحيد، إنك إن وحّدت الله عزّ وجل، ورأيت أن بيده كل شيء، وأنه القوي، وأنه الغني، وأنه العادل، وأنه الرحيم، وأنه المعطي.. أي..

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة الصافات: آية " 35 ")

هو المعطي، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعز، هو المذل، هو الذي يقرّب، هو الذي يبعد، هو الذي يوفق..

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود: آية " 88 ")

المؤمن الناجي من عذاب الله هو المؤمن الموحد:

لا يتحقّق هدفٌ على وجه الأرض صغيراً كان أو كبيراً إلا بتوفيق الله..

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

هذا هو التوحيد، هذا هو الدين، لذلك المؤمن عزيز، من أين جاءت عزّته ؟ من توحيده، المؤمن شجاع، من أين جاءت شجاعته ؟ من توحيده لأنه يعلم أن أمره كلّه بيد الله، وأنه مطيعٌ لله، وأن الله لا يضيّعه، ولا يسلمه، ولا يخذله، ولا يتخلّى عنه، ولا يعاقبه إلا بذنبٍ ارتكبه لقوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: آية " 147 ")

لا داعيَ للعذاب إنْ آمنتم، هذه المعاني أيها الأخوة إذا تعمّق فيها الإنسان صار مؤمناً، الحقيقة الإيمان دائرة تتسع فتتسع وتتسع وتتسع إلى أن تشمل كل إنسانٍ قال: لهذا الكون إله، وتضيق وتضيق حتى يعدُّ المؤمن الناجي هو الموحِّد.. من مات غير مشركٍ أصابته شفاعة رسول الله.. ومرّةً ثانية أكرّر:

((أخوف ما أتخوف على أمّتي الإشراك بالله، أما إني لستُ أقولُ يعبدون شمساً و لا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوةٌ خفيّة))

(أخرجه ابن ماجه عن شداد بن أوس)

المسافة الكبيرة بين إدراك عقيدة التوحيد و بين تطبيقها:

لا شكّ أنك إذا قرأت أن اللات والعزّى آلهة تعبد من دون الله، تسخر وتستسخف بهؤلاء الذين فعلوا ذلك، لأن عهد الشرك الجلي قد انقضى، وإن كان هناك شركٌ جلي فهو في بقاعٍ شتّى من الأرض عند غير المسلمين، بوذا يُعبَد من دون الله، الهندوس، والسيخ، واليابانيون، وكل شعبٍ تائهٍ ضالٍ شارد يعبد إلهاً من دون الله، لكن الله سبحانه وتعالى تفضّل علينا بعقيدة التوحيد، عقيدة التوحيد كفكرة سهلٌ إدراكها، أما أن تعيشها، مسافةٌ كبيرةٌ جداً وبونٌ شاسعٌ بين أن تدرك عقيدة التوحيد وبين أن تعيشها، إن عشت عقيدة التوحيد صرت إنساناً آخر، الدليل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

التوحيد يريح، والشرك يعذِّب، المشرك معذّب دائماً لأنه يخاف من قِوى كثيرة، هذه القوى لا تحبُّه ولا تتمنّى له الخير، ويراها قويةً جداً، أمره بيدها، مصيره بيدها، رزقه بيدها، نماؤه بيدها، تراجعه بيدها، فإذا أدركت أن إنساناً من بني جلدتك أمرك بيده وهو لا يحبُّك هذا أكبر مصدر عذاب ينوبُ الإنسان..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215))

(سورة الشعراء)

تكريم الله تعالى للإنسان بدين الإسلام:

لذلك:

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى)

فهل من المعقول أنْ ينحت إنسانٌ من الحجر صنماً يعبده ويُؤَلِهَهُ ويقدِّسه ويرجو رضاه ويخاف نقمته ؟ هذا إنسان عقله معطّل.. مرّة شاعر جاهلي رأى صنماً قد بال عليه الثعلب، فقال:

أربٌ يبول الثعلبانُ برأسه !! لقد ضلّ من بالت عليه الثعالبُ

***

أمعقول ؟!! قبيلة اسمها (ودٌ) صنعت إلهاً من تمر، فلمّا جاعت أكلته، أهذا إلهٌ ؟! الإله يؤكل ؟ وإذا ذهبت إلى شعوب الأرض شرقاً وغرباً لرأيت ما لا يصدّق، فسبعمئة وخمسون مليوناً يعبدون البقر من دون الله، وأكبر قطيع بقرٍ في العالم في الهند، والبقرة في الهند مقدّسة، يوضع روثها في غرف البيوت في الأعياد، يُتعطّر ببولها، إن دخلتْ إلى بقّالٍ وأكلت من الفاكهة ما لذّ وطاب فهو من أسعد الناس، لأن الإله دخل إليه وأكل من عنده، هذه شعوب كثيرة، منها السيخ، والهندوس، وهناك شعوبٌ تعبد ذكر الرجل، وهناك شعوب تعبد الجُرْذان، وهناك شعوب تعبد موج البحر، الله جلّ جلاله كرّمنا بالإسلام، وكرّمنا بعبادة الواحد الديّان، وكرّمنا بالحقيقة.

المؤمن الحق من يؤمن بأن الله تعالى فعّال لما يريد:

طبعاً نحن على مستوى العالم الإسلامي بخير، عقيدة الشرك الجلي لا وجود لها إطلاقاً والحمد لله، لكن يشكو بعض المسلمين، أو يقع بعض المسلمين وهم لا يشعرون بالشرك الخفي، الشرك الخفي قال النبي عليه الصلاة والسلام ما معناه: الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحبّ على جور، وأن تبغِضَ على عدل.

أيْ إذا أحببت إنساناً وهو ليس على الحق، بل هو جائر، حبُّك له أنّك أشركته مع الله، وإذا تألّمت من إنسان قدّم لك النصيحة الصادقة، فألمك من هذا الإنسان دليل أنك أشركت نفسك وأبيت أن تعترف بذنبك، فأن تتألّم من نصيحةٍ مخلصة، وأن تُوادد إنساناً منحرفاً هذا من الشرك الخفي.

فلذلك إخواننا الكرام: إنّ الفكرة دقيقة الدلالة جداً: أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً فهذا يؤمن به عامّة الناس، ما من إنسانٍ إلا قلّة قليلة جداً عطّلت عقلها، ما من إنسانٍ فيه ذرّة عقلٍ إلا ويقول: هذا الكون له خالقٌ عظيم، حتى إن عُبّاد الأوثان يقولون:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية " 3 ")

معنى ذلك أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً هذا شيء مفروغ منه، حتى إن الشيطان الذي أبعده الله ولعنه قال: ربي..

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص: آية " 82 ")

لكن المطلوب ليس أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً، المطلوب أن تؤمن أن هذا الخالق العظيم هو فَعّال، هو الإله، بيده كل شيء، لا يعذب عنه شيء..

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة البروج)

هذا هو الإيمان.

من أساسيات الدين معرفة أسماء الله الحسنى و صفاته الفضلى:

لذلك أن تعرف أسماء الله الحُسنى وصفاته الفُضلى هذا شيء من أساسيات الإيمان، ما معنى أن الله إلهٌ فعّال بيده كل شيء ؟ فأساساً الآية:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: آية " 123 ")

قال لك: كلّه، الأمر معرّفة، تعريف استغراق..

(الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20))

هذه الآلهة كما ترون، الله جلّ جلاله، وعزّ نواله، وتعالى عما يقولون علوّاً كبيرا، اللاّت مؤنّث الله، أي أن هذا الصنم الذي يعبدونه الذي كان في الطائف صخرةٌ بيضاء منقوشة، وحولها بناءٌ كبير ويحجُّ إليها الناس، ويذبحون تقرُّباً إليها، ويطوفون حولها هذه جاءت مؤنّث، والعزّى مؤنث عزيز..

استئثار الكفار بالذكر و نسب الأنثى إلى الله عز وجل:

(وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21))

أنتم تكرهون الإناث وتحبّون الذكور وتنسبون إلى الملائكة أنهم بنات الله..

(أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى)

جعلوا هذه الآلهة إناثاً، وجعلوا هذه الآلهة التي هي إناثٌ بنات الله عزّ وجل..

(تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى)

فأنت تكره شيئاً فتنسبه إلى خالق الكون، وتحبُّ شيئاً فتؤثره على نفسك، أو تستأثر به، تحب الذكر فتستأثر به، وتكره الأنثى فتنسبها إلى الله عزّ وجل ؟..

(تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى)

تسمية كل صنم باسمه بعد نحته و جعله إلهاً:

أما الجواب الدقيق:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة النجم: آية " 23 ")

في لغتنا العربية شيء: اسمه اسم ومسمًّى، طبعاً هذه مسجّلة لها وزن، لها حجم، لها طول، لها عرض، لها بعد ثالث، لها آلية معيّنة، اسمها مسجّلة، الاسم كلمات، مقاطع صوتية ؛ ميم، سين، جيم، لام، تاء مربوطة، أي إنها مقاطع صوتية، هذا هو الاسم، لكن هذا الاسم يقابله شيء وهو المُسَمّى، فكل اسم له مسمًّى، وكل مسمًّى له اسم، أما هذه الحجارة (اللات) التي نحتوها بأيديهم وعبدوها من دون الله وجعلوها آلهةً، قال الله في حقِّها:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ)

من غير مسمّيات، لا أصل لها، لا يقابلها شيء في الواقع، فإذا شخص مثلاً وليكُنْ طالباً في الصف التاسع قال: أنا وزير التربية، وعمل بطاقة وطبع عليها وزير التربية، فهل صار وزير تربية ؟ مثلاً فإذا كتب على بطاقة أنه وزير التربية، وهو لا يحمل كفاءة وعمره اثنتا عشرة سنة، فالكلمة التي طبعها على بطاقته هل تجعله وزيراً للتربية ؟ هذا اسم من غير مسمًّى، ولا وجود، ولا واقع، ولا أصل، فأحياناً تجد المسمًّى وله اسم، أحياناً تنطق بالاسم وله مسمًّى، إذا قلت: جبل، يوجد جبل كتلة كبيرة جداً، جبال هملايا ارتفاعها اثنا عشر ألف متر، إذا قلت: بحر، فإن أربعة أخماس الأرض بحر، إذا قلت مثلاً: فيل، فإن الفيل حيوان ضخم، وإذا قلت: الحوت الأزرق، فإن هذا اسم ولكن يقابله مسمًّى، يوجد حوت وزنه مئة وخمسون طنًا، إذا قلت: زلزال، كلمة لها دلالتها، فمدينة أبيدت عن آخرها بخمس ثوان بزلزال، كلمة زلزال يقابلها زلزال أتلف كل شيء، إن قلت: إعصار، فإن هناك إعصار إذا أتى على مدينةٍ جعلها قاعاً صفصفاً..

عدم فائدة هذه الأصنام التي لا تضر و لا تنفع:

(لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)

(سورة طه)

كلمة إعصار اسم وله مسمًّى، زلزال اسم له مسمًّى، إذا قلت مثلاً: صاعقة، تجد أنها أحرقت مركبة ضخمة، هذه كلِّها أسماء لها مسمّيات، أما إذا قلت: اللاّت فهل خلقت اللاّت شيئاً ؟ هل أوجدت ؟ هل

حرّكت الأفلاك ؟ هل أخرجت النبات من تحت الأرض ؟ هل أنزلت المياه من السماء ؟ ماذا فعلت هذه؟..

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ)

هذه شأنها كالذي يكتب على بطاقته: وزير تربية، بينما هو طفل صغير لا يتجاوز سنّه العشر سنوات، لا يفقه شيئاً من أمور الدنيا وكتب ما كتب على بطاقته..

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

نحن أحياناً نتوهّم أن فلاناً (موظّف في دائرة)، وهناك إنسان أعلى منه مرتبة، يراه يفعل كل شيء ويرى نفسه ليس بشيء، هو أسبغ عليه هذه الهالة العظيمة، هو الذي يسعد إذا ابتسم في وجهه ويتألّم أشدّ الألم إذا عبس في وجهه، هذا الشخص هو الذي أعطاه هذه الهالة، هو في الحقيقة لا شيء، عبدٌ فقير.

قيل لأحد الخلفاء من خلفاء بني العبّاس وأظنّه هارون الرشيد، وقد طلب كأس ماء فقال له أحد الحكماء: **" بكم تشتري هذه الكأس إذا مُنِعت منك ؟ قال: بنصف ملكي، قال: فإذا مُنِع إخراجها ؟ قال: بنصف ملكي الآخر ".** فالإنسان مفتقر لكأس ماء، مفتقر إلى شربه ومفتقر إلى إخراجه.

الإنسان مهما كان قوياً أمره بيد خالقه العظيم:

الإنسان مهما بدا عظيماً، مهما بدا قويّاً، مهما بدا حكيماً، مهما بدا ذكياً يحمل شهادة بورد مثلاً، يملك كذا، حجمه المالي فلكي، يقول لك: أرقام كلها فلكية، بيته من أفخم البيوت، مركبته من أحدث المركبات، كل هذه المكانة وهذا العطاء خثرة دمٍ لا تزيد عن حجم رأس دبوس إذا تجمّدت في أحد عروق الدماغ تجعله مشلولاً، أو تجعله أعمىً، أو يفقد ذاكرته، أو يفقد توازنه، فما هذا الإنسان ؟! كل قيمة الإنسان تتوقف على خثرة دم مجمّدة في رأسه، شيء مخيف إذا قال لك الطبيب: خثرة في الدماغ، أي أنه انتهى، إنها تنتقل من مكانٍ إلى آخر، مكان الذاكرة، مكان الحركة، مكان الإدراك، مكان التصوُّر، مكان الرؤية، مكان السمع، مكان الشم، أي مكان مدمِّر، خثرة دم، إذا انسد شريان عند إنسان يحتاج إلى فتح قلب، وإلى عملية قلب مفتوح، وإلى أخذ شريان من ساقه، وجراحة تكلِّف الملايين، فما هو هذا الإنسان ؟ يقول لك: أنا، فمن أنتَ ؟

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

أي أنت الذي أعطيت هذه الهالة ورسمتها حول نفسك أو غيرك، فأحياناً: ابن يرى أباه كل شيء، وهذا الأب الغني والقوي مفتقر إلى كأس ماء يشربه، إلى هواء يتنفّسه، إلى سيولة دمه.

الأصنام ليس عندها حجّة ولا تملك قوّة:

حدّثني طبيب يجري عملية قلب مفتوح: المريض يأخذ الأسبرين وهو لا يقول، لم يذكر ذلك للطبيب، العملية بعد أن نجحت والدم مائع فمات بهذه الطريقة. فالإنسان حبّةٌ من الأسبرين تنهي حياته إذ لم ينته عنه قبل العميلة بأسبوعين، حبّة أسبرين، أنت لو تعرف أن انتقال الإنسان من دار البقاء إلى دار الفناء مرهون بأسبابٍ قد تكون صغيرةً جداً، والله عزّ وجل جلّت حكمته قد يمهل المريض فتمضي سنوات تلو السنوات وهو طريح الفِرَاش، وأحياناً يُخْطَف خطفاً، وهو في أعلى درجات نشاطه وذكائه ونجاحه يقول لك: سكتة دماغية، ما هذا الإنسان ؟..

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

ليس لها قوّة تتحرك بها، وليس لها قوّة إقناع، فأحياناً ترى إنساناً قوياً أمامك، قوته المادية تغنيك عن أسباب إدراك قوته، وأحياناً يتمتّع بحجّة قوية، فالحجّة سلطان، والقوة سلطان، فالله عزّ وجل قال:

(مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

ليس عندها حجّة ولا تملك قوّة، صنم جامد، والإنسان إخواننا الكرام يحتاج إلى أن يراجع حساباته، أن يراجع مفهوماته، تصوّراته، مدركاته، عقيدته..

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

الإشراك هو إضفاء صفة القوة و العطاء على غير الله:

قد تجد الابن يعبد أباه من دون الله وهو لا يدري، طمعاً بعطاء أبيه يعصي الله إرضاءً لأبيه، هذا الإنسان يُؤَلِّه أباه ويعبده من دون الله، وإنسان آخر يعبد زوجته من دون الله إرضاءً لها، يفعل كل شيء من أجل أن ترضى، أو من أجل أن ترضى عنه، هو يعصي الله، إذاً الإنسان عندما يضفي على المخلوقين صفة القوّة، وصفة الديمومة والعطاء يكون أشرك وهو لا يدري..

(تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

مثلاً: هذه الدراجة التي لها ثلاث عجلات لو وضعنا عليها إشارة أضخم شركة في الأرض فهل تصبح من صناعة تلك الشركة ؟ هذه كلمة، اكتب ما شئت، أنت الآن لو تحمل شهادة إعدادية تكتب دكتوراه في الفيزياء النووية ؟ هل تصير عالمَ فيزياء نووية ؟ لا، إذًا أريد أن أبين لكم أن الكلمات لا تفعل شيئاً، الوصف لا يفعل شيئاً، اكتب مثلاً على آلة سيئة جداً " هذه أفضل آلة في العالم "، فهل تغدو أفضل آلة في العالم ؟ لا، وصفك لا يقدّم ولا يؤخّر، وصفك للشيء بأكبر مما هو فيه لا يجعله كبيراً، فلذلك أنا أضرب مثلاً دائماً: الذي معه كيلو معدن إن استطاع بذكاءٍ كبير أن يوهم الناس أنه ذهب وهو ليس ذهباً

فإنه هو الخاسر، وإن ظنّه الناس معدناً خسيساً وهو ذهبٌ خالص فهو الرابح، لا اتهام الناس لك يفقدك ما عندك، ولا إيهامك الناس أنه عندك شيءٌ ثمين يمنحك ما تفقد..

على الإنسان ألا يفرح بالمديح الكاذب لأنه لا يقدم شيئاً:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ)

هناك معنى آخر: الآن لو قالوا عنك: العالم الجليل، المُحسن الكبير، فريد عصره، وحيد زمانه، لو أضفى الناس عليك كل صفات العلم والتقوى والصلاح ولم تكن كذلك هل تجعلك هذه الصفات كذلك ؟ لا. أبداً فلن تجعلك، فمثلاً النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النّارِ))

(البخاري عن أم سلمة)

لو استطعت أن تقنع النبي وهو سيدُ الخلق وحبيبُ الحقّ، لو أمكنتك حجّتك القوية، وطلاقة لسانك، وروعة بيانك أن تنتزع من فم النبي حكماً لصالحك ولم تكن محقًا فإنك لن تنجوَ من عذاب الله، فإذاً:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

لو قلت عن إنسان: تقيٌ نقيٌ ورع، وهو ليس تقياً ولا نقياً ولا ورعاً، هذه الأوصاف لن تفيد شيئاً، لذلك الإنسان لا يفرح بالمديح الكاذب ولا يعبأ به لأنه لا يقدِّم، بل قد يؤخِّر وينعكس سلباً.

اقتفاء نهج رسول الله و آثاره ترفع الإنسان عند ربه:

يروى أنه حين كان زعيم المنافقين يحتضر طلب وهو على فِراش الموت قميص رسول الله، فأعطاه قميصه، وقال عليه الصلاة والسلام:

((الآن استقرّ في جهنّم حجرٌ كان يهوي به سبعين خريفاً))

وهو يرتدي قميص رسول الله، وماذا يفعل قميص رسول الله مع إنسانٍ منافق ؟ الإنسان الذي لا يعتقد عقيدة التوحيد، فيتمسّح، إذا تمسّحت بثوب الكعبة ولم تكن مستقيماً فإن هذا لا ينفعك شيئاً، ذات مرّة قلت لكم: إنني في إحدى الزيارات للمدينة المنورة صليت في محراب رسول الله، ثم خطر في بالي أن عالماً كبيراً جليلاً له عشرات المؤلّفات فلو كان عنده آذن وقفز هذا الآذن وجلس في مكانه في غيبته وراء مكتبه هل يصبح عالماً ؟ لا، هذا الآذن لو درس كتاباً، أو لو أخذ الكفاءة لسار على طريق العلم، هذا أفضل من أن يجلس في مكانه، طبعاً الذي يرفعك عند الله أن تقتفي أثر رسول الله لا أن تصلي مكان

صلاته، ولا أن تتمسّح بقبره، العبرة أن تقتفي أثره، أن تجعله قدوةً لك، أن تجعله أسوةً لك، فالذي يرفعك عند الله اقتفاؤك نهج النبي وآثاره لا تمسُّحك بأشياء ماديّة لا تقدِّم ولا تؤخِّر.. أعطاه قميصه وقال:

((الآن استقرّ في جهنّم حجرٌ كان يهوي به سبعين خريفاً))

لكنّ صحابيًا آخرَ طلب قميص رسول الله وهو على فِراش الموت، صحابيٌّ جليل، قالوا: **"ولِمَ ؟ قال: إذا جاءني الملكان وسألاني: من ربك ؟ أقول: الله ربي، من نبيك ؟ أقول: هذا قميصه ".** هذا موضوع ثانٍ، فهذا صلاح وهناك نفاق.

على الإنسان التمسك بما وافق القرآن و السنة:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

وبعدُ ؛ فهل تتبع الحقيقة أم تتبع الظن ؟.. ما قولك أن معظم الذي يعتقده الناس ظنون لا أصل لها، ولا علاقة لها بالواقع إطلاقاً ؟ أي أما آن الأوان أن تعمل جرداً لمعتقداتك، لأفكارك، لتصوراتك، ما وافق الكتاب والسُنَّة فتمسّك به، وما خالف الكتاب والسنَّة فانبذه ولا تلوِ على شيء غيرهما، فالإنسان لا يليق به أن يعتقد الباطل، أن يعتقد خرافات تؤخِّر مسيرة الحياة الإيمانية و العقدية، فالناس يعيشون في خرافات لا يعلمها إلا الله (صبُّوا له ماء وملحاً)، خصومته مع زوجته سببها يدّعي أنهم صبُّوا له ماء و ملحاً، هكذا يدّعي، أنت السيئ مع زوجتك ومعاملتك سيئة، هذا سبب الخلاف، أُسَر تعيش على الخرافات والتنجيم، فهناك منجّمون، وهناك كُهّان، وهناك عرّافون، وفكوا له السحر، ولف له لفة خضراء وفك السحر، وطلب منه خروفًا كبيراً لونه كذا وفيه لطخة سوداء، هذا كلّه كلام فارغ أجوف، هذه كلِّها دجل (زعبرة)..

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

لا يليق بالإنسان و هو المخلوق الأول أن يعتقد بالخرافات:

نحن بحاجة إلى علم، بحاجة إلى منهج، هذا هو منهجنا، هذا هو كتابنا، هذه سنَّة نبينا عليه الصلاة والسلام، هذا الكتاب لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، الحق فيه مُطلَق لأنه كلام خالق الكون، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، فالإنسان لا يليق به وقد كرّمه الله وشرّفه

وجعله المخلوق الأول، لا يليق به أن يعتقد بالخرافات، والتُرهات، والأباطيل، والأوهام، والله أنا أستمع إلى أناس يرتادون المساجد ويحملون أفكاراً لا أصل لها في الدين، يعتقدون بالسحر:

((من أتى كاهناً فصدقة بما يقول فقد كفر))

(رواه البزار عن جابر بن عبد الله)

من أتى ساحراً فلم يصدِّقه لم تُقبَل له صلاة أربعين صباحاً، فكيف إذا صدّقه ؟! القضية سهلة ؟ يدّعي أنّه يتسلّى ؟ الله عزّ وجل يقول:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة النمل: آية " 65 ")

تأخذ أرقاماً، ما هو اسمك ؟ اسمي سعيد، السين خمسة عشر، العين ثلاثة عشر، معنى هذا: لك مستقبل مظلم، ما هذا الكلام، هذه كلها خرافات..

(مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

هذه اركلها بقدمك، كنا بصدد أن نبيع بيعة فدخل شخص فقَسَت البيعة، قدومه سوء، قدوم هذا الشخص ليس له علاقة، هناك أناس يكرهون يوماً معيّنًا، رقماً معيّناً، شخصاً معيّناً، كلِّها معتقدات لا أصل لها، الله الموفِّق..

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود: آية " 88 ")

الإنسان الموفق من آمن بالله و عمل أعمالاً صالحة:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

قانون التيسير..

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

هذا القرآن الكريم..

(أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ)

آمن واتقى وعمِل أعمالاً صالحة فهو موفّق، أموره ميسّرة، اللهمّ لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، هكذا النبي علّمنا، لكن لم يعلِّمنا أن نتشاءم من شخص، أو أنْ نتشاءم من طير طار عن شمالنا..

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ)

(سورة يس: آية " 19 ")

على الإنسان التمسك بالأفكار التي توافق القرآن و السنة:

أي أنت خيرك منك، من استقامتك، وشرّك من معصيتك فقط ليس من أحد آخر..

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: آية " 164 ")

هذا الحق.

أيها الأخوة: إذاً فالإنسان بحاجة إلى مراجعة تصوّراته، مراجعة أفكاره، أفكاره التي توافق القرآن الكريم وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ليتمسّكْ بها ويعتمدها دون غيرها، قال تعالى:

(لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة النمل: آية " 65 ")

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

(سورة الأعراف: آية " 188 ")

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

سلوك الإنسان غير المبني على آية أو حديث سلوك خاطئ:

إخواننا الكرام: بإمكانك أن تركل بقدمك كلّ الخرافات التي فحواها أن فلاناً يعلم الغيب، هذا هو الإيمان، لأن خالق الكون يقول لك هو:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

الأحاديث الصحيحة عن أمارة قيام الساعة كثيرة، وعن علامات آخر الزمان أيضاً، وهذه ما عرفها النبي بذاته بل أعلمه الله بها، وما سوى النبي لا نعبأ بكلامه إطلاقاً، فأنت حينما تقرأ القرآن وتعرف معرفة يقينية أن أحداً في الكون لا يعلم الغيب ألا ترتاح من آلاف القصص، ومن آلاف الخزعبلات، والترّهات، والدجل ؟ هذه ليست لها معنى في حياتك، إذا علمت أن خيرك من طاعتك لله، وأن الشر من المعصية فعندها لا تفعل شيئًا ليس له معنى، مثلاً إذا علّقت حذوة فرس على سيّارتك أفلا يكون هناك حادث ؟ لا، لأن الوقاية من الحادث بطاعتك لله، بدفع الصدقة ليس في تعليق هذه الحذوة، هذه ليس لها معنى إطلاقاً، كل سلوك الإنسان غير المبني على آية أو حديث أو سنّة نبويّة هو سلوك خاطئ غير صحيح، فالآن آن الأوان أن تراجع معتقداتك، تراجع تصوراتك وأفكارك.

العاقل من لا يقبل إلا الحق:

أحياناً أسمع أخباراً لوقائع ليس لها أصل، وفحواها ظلم شديد، واللهُ يقول:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت: آية " 40 ")

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر: آية " 17 ")

في الظاهر هناك ظلم، أما في الحقيقة فلا ظلم أبداً، إذاً الإنسان بحاجة إلى أن يراجع حساباته، يراجع معتقداته، يراجع تصوّراته لأنه:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

لذلك الخشية كل الخشية أن تتبع الظن، أن تتبع الوهم، الدعاء الشريف:

((اللهمّ أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم))

الأوهام ظلمات بعضها فوق بعض، واللهِ هناك أُسر تشقى بالأوهام، وشركات تنفصل بالأوهام والسوسة، وساوس متسلِّطة، أوهام، أقوال كلها غير صحيحة، فالإنسان العاقل هو الذي لا يقبل إلا الحق، والحق من كتاب الله ومن سنّة رسوله..

العقيدة الإسلامية لا تقبل تقليداً بل تحقيقاً:

(إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ)

(سورة يس: آية " 18 ")

أي تشاءمنا، قال:

(طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة النمل: آية " 47 ")

أنت خيرك من طاعتك لله، وشرّك من معصيتك لله فقط وأي عامل آخر غير صحيح، لا تصدِّقه..

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

قال بعض العلماء: **" لا تُقبَل العقيدة إلا تحقيقاً ".** هناك جمهور من العلماء يرفض أن يعتقد الإنسان تقليداً لأنه ظن..

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

الله تعالى لا يعذر إنساناً يتبع إنساناً غير مستقيم:

يجب أن تُحقِق، يجب أن تدقِق، إذاً العقيدة لا تُقبل إلا تحقيقاً ولا تُقبَل تقليداً، ولو قُبلت تقليداً لكان كل الذين انحرفوا في عقيدتهم عند الله ليسوا مؤاخذين، يا رب فلان قال لنا هكذا فسمعنا كلامه، فهذا كلام مرفوض ؛

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

وبعد ؛ كل إنسان إذا كان قد نشأ مع جماعة ولهم رأس وتكلّم رأسهم كلاماً غير صحيح وأسقط الصلاة وأسقط غيرها من التكاليف، يا رب إننا لا نعلم..

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

لذلك لا تُقبَل العقيدة إلا تحقيقاً، لا تُقبَل إلاّ تصديقاً، لا تقبل تقليداً، أنت يُمكن أنْ تقلد في حكم شرعي، تقلِّد في حكم فقهي، يا أخي أنا حنفي ورأي الإمام أبي حنيفة هكذا، هذا في العبادات أما في العقائد لا يقبل إلا أن تتحقق، لأن الله لا يعذرك إذا اتبعت إنساناً غير مستقيم..

((ابن عمر، دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذا عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

(العلل لابن أبي حاتم)

الظن، الوهم، الهوى، مفاهيم تتبع من دون الله:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

عندنا مفاهيم منها: الظن، والوهم، والهوى، قال:

(وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

أحياناً شهوة تتخَذ إلهاً يُعبَد من دون الله، أحياناً الإنسان يقول لك: الاختلاط ليس فيه حرج أبداً بل بالعكس إنه يهذِّب المشاعر، فهذا ماذا يتبع الآن ؟ إنه لا يتبع الوهم، بل يتبع ما تهوى الأنفس، أحياناً تتبع وهماً، يقول لك: إنّ الآلهة اليوم ساخطة عليك لأنك لم تقرّب لها القرابين، كانوا يختارون أجمل فتاة في مصر ويلقونها في النيل لماذا ؟ استرضاءً للنيل، شعوب تُقدِّم الفتاة الجميلة وتُلقَى في النيل، وتموت غرقاً من أجل أن يرضى عنهم نهر النيل، فهذا وهم، أما عندما يروج الإنسان المعصية ويفلسفها، ويعمل لها غطاء فكرياً، ويقول لك: الاختلاط يهذِّب المشاعر، هذا لا كلام ثانٍ، هذا هو ما تهوى الأنفس، فالإنسان إما أن يتبع الظن أو أن يتبع ما تهوى الأنفس..

الهدى أساس القضاء على الوهم و الهوى:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)

وبعدُ ؛ فالوهم قُضي عليه بالهدى، والهوى الموهوم قُضي عليه بالهدى، انتهت الحجّة، ولكن قبل نزول هذه الرسالة العظيمة كان هناك الوهم والهوى، ولكن بعد أن بيّن الله كل شيء وأنزل على عبده الكتاب، وجعله نوراً، وجعله إماماً، وجعله حبلاً متيناً، فبعد أن أرسل الله أنبياءه ورسوله انتهت الضلالات، وانتهت الأهواء، قال:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)

العبرة بالمضمون لا بالأسماء الفارغة التي لا تقدم و لا تؤخر:

محور درسنا اليوم..

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

ائت بسيارة صُنِعَت عام أربعين وهي لا تقوى على السير، وعلِّق عليها ماركة أعلى سيارة في العالم، فإنها تبقي كما هي قديمة مستهلكة، هذه الكلمة لا تقدِّم ولا تؤخِّر، هذا معنى واضح جليّ:

(أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ)

فالإنسان لا يتعلّق بالأسماء، يتعلّق بماذا ؟ بالمسمّيات، لا يقبل اسماً بلا مسمًّى، بعضهم قال: **"كان التصوّف مسمىً بلا اسم في عهد أصحاب رسول الله، فأصبح اسماً بلا مسمى فيما بعد ".** العبرة بالمسمى، بالمضمون، بالجوهر لا بالأسماء الفارغة، فالأسماء الفارغة لا تقدِّم ولا تؤخِّر، وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع تفسير الآيات:

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 24-28
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-09-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الرابع من سورة النجم، ومع الآية الرابعة والعشرين:

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25))

(سورة النجم)

عدم نجاة الإنسان من عذاب الله إلا بطاعته:

الإنسان يتمنى، يخطط، يرسم ملامح المستقبل، يستخدم طاقاته، إمكاناته، علمه، خبرته، لبلوغ هدفٍ معين، فلو أنه ظن أن قدراته الذاتية كافيةٌ لتحقيق أهدافه فقد أشرك.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

الأمر كله بيد الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالإنسان إذا تصور أنه قادرٌ على أن يفعل ما يريد، أو يحقق ما يتمنى، أو أن يصل إلى ما يصبو إليه فقد أشرك نفسه مع الله وهو واهمٌ، وهذا عين الجهل، القضية ليست بتمنيات الإنسان، ولا بتخطيطه، ولا بنزواته، ولا بسعيه، ولكن بفعل الله ومشيئته، أضرب لكم مثلاً:

هناك قوانين قننها الله عزّ وجل، فأنت إن لم تتأدب معها فهذه القوانين من شأنها أن تسحق الإنسان، من هذه القوانين قانون السقوط، سقوط الأجسام سقوطاً حراً، أنت إن لم تتأدب مع هذا القانون وتستخدم مظلةً تجعل للهواء مقاومة تهبط رويداً رويداً، إن لم تعبأ بهذا القانون وألقيت نفسك من الطائرة هلكت، هذا مثل، السقوط له قانون، من أجل أن تصل سالماً تحتاج إلى مظلة، هذه المظلة تقاوم الهواء، هذه المقاومة تجعل السرعة معتدلة، ثابتة، إلى أن تصل بها إلى الأرض، فالله عزّ وجل سَنّ سنناً، وقنن قوانينَ، فأنت لا تنجو من عذاب الله إلا بطاعته، لا تنجو من عذاب الله إلا بإتباع سنة نبيه، الأمر ليس بتمنياتك، ولكن الأمر بقانونٍ قننه الله، مثلاً:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس)

قانون..

الجاهل من لم يتبع القوانين التي سنها الله عز وجل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

قانون، لو أنك تتبعت القوانين التي قننها الله في القرآن الكريم لوجدت أنك إن لم تتبعها فأنت جاهل. إخوانا الكرام: الإنسان إذا تمنى، وخطط، ورسم هدفاً، واستخدم طاقاته، وقدراته، وخبراته، وإمكاناته لتحقيق هذا الهدف ولم يكن مطيعاً لله عزّ وجل، ولم يكن متبعاً لمنهجه، فهذا الهدف لا يتحقق، وإذا تحقق يكون هذا مُناقضاً لوجود الله عزّ وجل، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً سهلا))

الآية الكريمة تؤكِّد أن شيئاً لا يحدث في الكون إلا بتوفيق الله، وما توفيقي إلا بالله، هذه الحقيقة حينما تغيب عن الإنسان يؤلِّه الأسباب، ويعبدها من دون الله، ويتوهمها كافيةً لتحقيق النتائج والأمر ليس كذلك.

السعادة، التوفيق، النجاح أشياء مرتبطة بطاعة الله:

بعض العارفين يقول: **" عرفت الله من نقض العزائم "**، تخطط، وتدبر، وتهيّئ، وتتخذ الأسباب، وتجعل الطاقات كلها مركزةً في هدفٍ معين، ثم لسببٍ تافهٍ تافه يُحْبَطُ عملك، ويخيب ظنك، ويفشل مسعاك.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

فكم من إنسان، وكم من فئة، وكم من جهة، وكم من شعب، وكم من أمة تمنَّت فلم تحقق أمنياتها، الأمر ليس بتمنياتك، الإنسان أحياناً يخطط، سأفعل كذا، سأكون كذا، بعد كذا سأكون كذا، يفاجأ أن الموت قضى على كل آماله، أو أن مرضاً عُضالاً أذهب كل تمنياته، أو أن خطأً آخر جرَّه إليه ففقد كل آماله، فأنت إذا أردت السعادة في الدنيا، أو أردت التوفيق، أو أردت النجاح، فالأمر ليس بتمنياتك، ولكن بتوفيق الله لك، وتوفيق الله لك منوطٌ بطاعتك له، القضية دقيقة.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

أيُّ شيء تتمناه يكون ؟ فهذا شأن الخالق.

مشيئة الله فوق كل شيء في الكون:

الله عزّ وجل يصف نفسه فيقول:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة البروج)

هذا شأن الخال لا شأن المخلوق، المخلوق لا يفعل ما يريد، كم يريد ولكن ما أكثر ما ألاّ يتحقق ما يريد.

((أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، إن سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

فالآية دقيق جداً معناها: اعتقد اعتقاداً جازماً أن شيئاً في الكون لا يقع إلا بمشيئة الله، وأنت لا تستطيع أن تحقق أمنياتك إلا بتوفيق الله، وتوفيق الله ثمنه طاعته، فإن أردت أمراً بمعصيةٍ كان هذا الأمر أبعد مما ترجو وأقرب مما تحذر، من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى.

الجاهل من لا يدخل في حساباته توفيق الله عز وجل:

لذلك فالإنسان الجاهل يخطط لتحقيق أمنياته ولا يدخل في حساباته توفيق الله عزّ وجل، ولا يعبأ بوحدانية الله، وأنّ الله يفعل ما يريد، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كم من حدث، آلاف الأحداث التي تجري تحت سمعنا وبصرنا مفادها أن الإنسان إذا أراد تحقيق ما يريد بمعزلٍ عن مشيئة الله فهذا الشيء لا يتحقق، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة يحبط بسببٍ تافهٍ تافه، إذا أراد الله عزّ وجل إظهار آياته نصر المؤمنين بسببٍ صغير، فرياحٌ عاتية هبت على الأحزاب في موقعة الأحزاب فأطفأت نيرانهم، واقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، فحملوا أمتعتهم وغادروا.

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب)

(وَكَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب: آية " 25 ")

هم ماذا أرادوا ؟ أراد كفار قريش ومن لف لفهم ومن ناصرهم ومن حالفهم أرادوا أن يَسْتأصِلوا شأفة المسلمين، أرادوا أن يبيدوهم عن آخرهم، فجاءهم جيش مؤلفٌ من عشرة آلاف مقاتل، ولم يجتمع جيشٌ في الجزيرة من قلُ بهذا العدد، ثم إن اليهود كعادتهم نقضوا عهدهم معهم، فالمسلمون كُشفوا، وأصبح القضاء عليهم قضية وقت، أصبح استئصالهم لسويعاتٍ قليلة..

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلّا غُرُوراً (12))

(سورة الأحزاب)

نصر الله عز وجل للمؤمنين الصادقين:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

الله عزّ وجل ساق لهم الرياح قلبت قدورهم واقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم، وجعل النصر المؤزّر على يدِ صحابي جليل هو نعيم بن مسعود أسلم حديثاً ولم يعلم بإسلامه أحد فقال للنبي عليه الصلاة والسلام: **" مرني ماذا أصنع ؟ "** قال: **" خذل عنا ما استطعت "**، فذهب إلى جموع المشركين وحدّثهم بحديث، وذهب إلى اليهود وحدثهم بحديث، أوقع بينهم، وهبت الرياح، معركةٌ كان القصد منها استئصال شأفة المسلمين، لكنهم لم يفلحوا، و ردّهم بغيظهم لم ينالوا خيراً.

فالذي أريده من هذه الآية أن كل ما يتمناه الإنسان لا يقع إلا إذا شاء الله له أن يقع.

أعظم الشرك من يعتقد أنه سينتصر دون مشيئة الله:

بمعنى آخر أن خطة الله عزّ وجل تستوعب خطة الإنسان، لا يقع من خطة الإنسان إلا ما شاء الله منها أن يقع، أما أن تظن أن في الأرض جهة مستقلة بمشيئتها عن الله، أما أن تظن أن جهة في الأرض مهما قويت شوكتها ومهما عظم شأنها تستطيع أن تفعل ما تريد، فهذا هو عين الشرك، لذلك:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة يونس)

الأخذ بالأسباب من تمام التوكل:

حينما كان النبي عليه الصلاة والسلام وصاحبه الصديق في غار ثور، فالنبي عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب كلها، اتجه بمن معه مساحلاً، وهيّأ من يمحو آثار سيرهم، وهيّأ من يأتيه بالأخبار، ومن يأتيه بالزاد، واستأجر خبيراً متمكناً من خبايا الطريق، وآثر الخبرة على الولاء، ومع كل هذه الاحتياطات،

ومع كل هذه الأسباب، ومع كل هذه الأساليب وصل المشركون إلى غار ثور، فقال الصديق: **"يا رسول الله لو أن أحداً نظر إلى موطئ قدمه لرآنا "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((يَا أبا بَكْرٍ مَا ظَنّكَ باثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا))

(متفق عليه)

أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ثم تروي كتب السيرة أن سيدنا الصديق قال للنبي عليه الصلاة والسلام: **" يا رسول الله لقد رأونا "**، فقال عليه الصلاة والسلام: **يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:**

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

الله تعالى فعّال لما يريد:

و في طريق الهجرة ألم يأتِ سراقة وهو من كبار الفرسان ليأخذ النبي، وليأتي به حياً أو ميتاً لينال مئتي ناقة جائزة خصِّصت لكل من يأتي به حياً أو ميتاً ؟ ماذا قال عليه الصلاة والسلام لسراقة ؟:

((يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى))

كلكم قرأتم هذه الفقرة لكن قلما يقف عندها، النبي ملاحق وقد هدر دمه، ووضعت مئتا ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ويقول لسراقة:

((يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى))

أي أنا سأصل إلى المدينة، وسأنشئ مجتمعاً إسلامياً، وسنحارب الكفار، وسننتصر عليهم، وسنأتي بتاج كسرى وسواريه من غنائمنا، ويا سراقة أنت سوف تلبس سواري كسرى، هذه ثقة النبي بالله عزّ وجل، يجب أن نؤمن أنه لا فعال إلا الله، وأن كل الذين ترى أعينكم أدواتٌ بيد الله يحركها كيف يشاء، لذلك لخص هذه الحقيقة أحد الأنبياء الكرام فقال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُون (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

((قلوب العباد بين أصبعي الرحمن إنه إذا أراد أن يقلِّب قلب عبد قلبه))

(أخرجه أحمد عن عائشة)

أساس الدين التوحيد:

أنت الآن تقف أمام إنسان أقوى منك، ما الذي يدور في خلده ؟ الله يعلم، من الذي ألقى في رُوعه أن يسامحك ؟ الله، من الذي ألقى في روعه أن يحاسبك ؟ الله، من الذي عَطَفَهُ عليك ؟ الله، من الذي قسّا قلبه عليك ؟ الله، فأنت علاقتك مع الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، بيده الخلق، بيده الأمر، بيده مرجع كل شيء، بيده ملكوت كل شيء، إليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه.

(مَا يَفْتَحِ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: آية " 2 ")

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية " 84 ")

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

هكذا الدين، الدين توحيد، الدين ألاّ ترى مع الله أحداً.

تعلق إرادة الله المطلقة بحكمته المطلقة:

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنّى)

فالكافر يظن نفسه أنه يسبق الله عزّ وجل، يتوهّمُ ذلك حينما يظنُّ أن بإمكانه أن يفعل ما يريد، لا والله، الله وحده الفعال لما يريد، أما أنت لا تستطيع أن تفعل إلا ما أراده الله لك أن تفعل، اختر ما شئت وافعل ما شئت لكنه لا يقع إلا ما أراده الله، يجب أن نعلم علم اليقين أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن كل شيءٍ أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنّى)

المؤمن الحقيقي من يثق بأمر الله و وجوده:

لو أن إنساناً قوياً تمنى شيئاً لا يرضي الله، وسخّر كل طاقاته و إمكاناته لتحقيقه وتحقق، هذا يتناقض مع وجود الله، لذلك الإنسان لا ينبغي أن يضفي على الكفرة الفجار القوى الأسطورية، لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً إلا أن يأذن الله، الأمر بيده، بيده وحده.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

هكذا الإيمان..

عين الشرك من يعتقد أن جهة ما مستقلة عن الله في أفعالها:

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

أي إذا توهّمتَ أن جهةً في الأرض مهما قويت، ومهما علا شأنها أنها مستقلةٌ في إرادتها وفي أفعالها عن الله، فهذا هو عين الشرك، وهذا هو الشرك الذي لا يقبله الله عزّ وجل، شأنك مع الله، علاقتك بالله، فمثلاً: لو أن أحداً عاش في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت له قضيةٌ مع إنسانٍ آخر، ورُفِعَت القضية إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كلٌّ أدلى بدلوه، واحدٌ منهم بحجةٍ ناصعة وبيانٍ طليق، ولسانٍ ذرب استطاع أن ينتزع من فم النبي حكماً لصالحه ولم يكن محقاً لا ينجو من عذاب الله.

((وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النّارِ))

(البخاري عن أم سلمة)

علاقتك مع الله وحده وهو يراك حين تقوم، يرى تقلُّبك في الساجدين، يرى نواياك، يرى مبتغاك، يرى ما تصبو إليه، يرى ما يعتلج في صدرك، يرى كل دقائق حياتك، يرى كل ثنيات شخصيتك، أنت مكشوفٌ أمامه، لذلك تعامل مع الله وحده، ولا تبالِ بأحد، فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك، ما معك أحد، أقرب الناس إليك يتنكر لك، وإذا كان الله معك عدوك اللدود يخدمك، شاءت حكمة الله أن يسخِّر لك عدواً يخدمك إن توكّلت عليه، وأن يتنكر أقرب الناس إليك إن اعتززت بنفسك.

من يشرك نفسه مع الله يتخلى الله عنه:

يا أيها الأخوة الكرام: هذا الموضوع متصل بهذه الآية، أنت في حياتك الدنيا، أنت في كل يومٍ بين حالين، حال التولّي، وحال التخلِّي، إما أن يتولاك الله فيكفيك كل مؤْنَة، وإما أن يتخلّى عنك فيقوى عليك كل صغير، إذا كنت معه موحداً، منيباً إليه، مفتقراً لعونه، يتولاك، عندئذٍ أنت أقوى الناس، وأنت أغنى الناس، وأنت أكرم الناس، أما إذا قلت: أنا، واعتدَدت بنفسك، وأشركت نفسك مع الله، يتخلّى عنك، وإذا

تخلّى عنك لا ينفعك أحد، وليس هذا بدعاً من القول، الصحابة الكرام، ومعهم سيد الأنام في معركة حنين هزمهم الله عزّ وجل..

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

الإنسان المفتقر إلى الله يتولاه الله برحمته و رعايته:

لكن في معركة بدر قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلّةٌ)

(سورة آل عمران: آية " 123 ")

أي مفتقرون، فأنت على علمك، واختصاصك، وخبرتك، ومالك، وموقعك، وشأنك في المجتمع، مهما علا شأنك إذا قلت: أنا، تخلّى الله عنك، إذا قلت: الله، تولاّك، فأنت بين التخلِّي والتولِّي، إن شئت أن يتولاّك الله وهو خير ولي فكن مفتقراً إليه، وإن شئت أن يتخلّى عنك كان لك ذلك، وإذا تخلّى عنك وَكَلَكَ إلى نفسك وأنت ضعيفٌ صغير، عندها يتجرّأ عليك أضعف الخلق وأحقر الخلق.

أيها الأخوة: كما في الدعاء الشريف:

((اللهم صُنْ وجوهنا باليسار ولا تبذلها بالإقتار فنسأل شر خلقك ونبتلى بحمد من أعطى وذم من منع، وأنت من فوقهم ولي العطاء وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء))

ليس للإنسان ما يتمنى إنما ما يقدره الله له:

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنّى)

هذا استفهام إنكاري، ليس له ما يتمنى، الآية الكريمة:

(لَيْسَ بِأَمَانِيّكُمْ وَلَا أَمَانِيّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء: آية " 123 ")

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنّةَ إِلّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة البقرة)

القضية بالسَعْي، القضية بالعمل، القضية بإتباع منهج الله، القضية بطاعة الله.

طاعة الله عز وجل أصل كل خير يقدره للإنسان:

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

استفهام إنكاري، أي ليس له ما يتمنّى، ليس له إلا ما يقدِّرُهُ الله له، والله يقدر كل خير بناءً على طاعتك له، الأصل أن تطيعه:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

لا منجى منه إلا إليه:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنـــا

و لذ بحمانا واحتـم بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقـنـا

و عن ذكرنا لا يشغلنك شاغل و أخلص لنا تلقى المسرة و الـهنا

و سلم إلينا الأمر في كل ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنـــا

***

سعادة الدنيا والآخرة مرتبطة بطاعة أمر الله:

أيها الأخوة: طاعة الله عزّ وجل هي سبيل الفوز العظيم، طاعة الله عزّ وجل هي سبيل النجاح، سبيل التوفيق، سبيل الطمأنينة، سبيل سعادة الدنيا والآخرة، سبيل استحقاق نصر الله، سبيل استحقاق تأييده، سبيل استحقاق حفظه، سبيل استحقاق عفوه، سبيل استحقاق سعادة الدنيا والآخرة.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

الجواب: ليس له ما تمنى..

الآخرة بيد الله لا بيد الأصنام:

(فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

(لله الآخرة)

فالأبدية بيد الله، فإن ظننتم يا كفار قريش أنكم تعبدون اللاّت والعُزّى كي تتقربوا بها إلى الله زلفى، الآخرة بيد الله لا بيد اللات والعزى، هذا معنى الآية:

(فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

حينما قالوا:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية " 3 ")

قال الله لهم:

(فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

الأمر ليس بيد هذه الأصنام، ولا بيد الملائكة الذين اعتقدتم أنهم أناسٌ وهم بنات الله بزعمكم.

تقديم الآخرة على الأولى لأنها الحياة الحقيقية للإنسان:

(فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

وقد قُدِّمَتْ الآخرة على الأولى تقديم أهمية، لأن الآخرة هي الحياة الحقيقية، ألم يقل الإنسان إذا جاءه الموت:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

أيَّةُ حياةٍ كان يحياها، هذه حياةٌ دنيا، حياةٌ كلها متاعب، حياةٌ قصيرة، حياةٌ متعبة..

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق)

حياةٌ أساسها بذل الجهد، حياةٌ مشحونةٌ بالمتاعب، لا تصفو لأحد، مصممةٌ على ألاّ تصفو لأحد، **" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي ".**

الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف:

الدنيا مصممة على أنها لا تصفو لإنسان، لا راحة لمؤمنٍ إلا بلقاء وجه ربه، ولحكمةٍ بالغةٍ جعلها الله عزّ وجل مشحونةً بالمتاعب لئلا نركن إليها، إنها مدرسة وليست نزهة، الإنسان في المدرسة لا ينبغي أن يكون المقعد مريحاً جداً، إذاً ينام، إذا شاء لمدرسةٍ أن تكون المقاعد فيها وثيرةً ومريحةً، والغرفة مكيفة تكييفًا رائعاً، والطعام أمامه، والشراب أمامه، والمجلات أمامه، فأين المحاضرة ؟ فهذه ليست مدرسة، إننا في مدرسة، إننا في مزرعةٍ للآخرة، إننا في دار عمل لا في دار جزاء، في دار

سعي لا في دار نعيم، في دار تكليفٍ لا دار تشريف، الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، فإذا فهمنا الدنيا دار جزاء أو دار راحة وقعنا في مطبٍ كبير، وقعنا في خطأٍ قاتل.

إنك هنا في الدنيا من أجل أن تعرف الله، ومن أجل أن تطيعه، ومن أجل أن تعمل العمل الصالح الذي تستحق به دخول الجنة، قد تتنعم إذا شاء الله لك أن تتنعم، أما أن تجعل النعيم هدفاً، أما أن تجعل الراحة هدفاً فقد أخطأت سواء السبيل:

((إيّاكَ وَالتّنَعُّمَ فَإنّ عِبَادَ اللّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

(مسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل)

(وَعِبَادُ الرّحْمَنِ الّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

مهمة الإنسان الأساسية في الدنيا معرفة الله:

سيدنا عمر كان إذا سار أسرع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وإذا قال أسمع، لا يمشي هوناً، والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا سار كأنه يَنْحَطُّ من صَبَبْ، أي يسرع، ما معنى الآية إذاً ؟ معنى الآية أن المؤمن لا يسمح لشيءٍ أن يلغي وجوده، ولا يسمح لعملٍ أن يلغي معرفته بربه، لا يسمح لشيء أن يستهلكه، يمشي هوناً، يقتطع من وقته وقتاً لمعرفة الله، يقتطع من وقته وقتاً لمعرفة منهجه، يقتطع من وقته وقتاً للعمل الصالح، يقتطع من وقته وقتاً للأمر بالمعروف، وهو مخلوقٌ لمعرفة الله، فإذا غابت عنك مهمتك الأساسية فهذا ضياع شديد.

شاب سافر إلى بلد لينال الدكتوراه، فلما وصل إلى هذا البلد، نسي مهمته، فكان ينتقل من مسرحٍ إلى مسرح، ومن نادٍ إلى نادٍ، ومن متحفٍ إلى متحف، حتى انقضت المدة وعاد إلى بلده صفر اليدين، نقول: هذا ما عرف الهدف الذي من أجله سافر إلى ذاك البلد، لو عرف الهدف لَجَمَّعَ طاقاته كلها في الدراسة.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26))

يأذن الله لمن يشاء أن يشفع، ويرضى لمن شُفِعَ له أن يُشْفَعُ له.

على الإنسان الاتكال على الله لا على أحد من خلقه:

لذلك:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ)

(سورة الزمر: آية " 19 ")

يا محمد..

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ)

(تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19))

((يا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعملي لله خيراً فإني لا أغني عنك من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب يا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعمل لله خيراً فإني لا أغني عنك يوم القيامة من الله شيئاً))

(رواه البزار عن حذيفة)

((وَمَنْ يُبْطِئْ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

(أخرجه أحمد عن أبي هريرة)

لا تتكل على أحدٍ من خلق الله، النبي عليه الصلاة والسلام حينما يرى أمته يوم القيامة تُساق إلى العذاب يقول:

((أَصْحَابِي، أَصْحَابِي، فَقِيلَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، قَالَ: فَأَقُولُ: بُعْدًا، بُعْدًا، أَوْ قَالَ: سُحْقًا، سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

(أحمد عن أبي سعيد الخدري)

تقسيم أمة سيدنا محمد إلى:

لذلك فالعلماء قَسَّموا أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم إلى أمتين، أمة التبليغ، وأمة الاستجابة:

1 ـ أمة التبليغ:

أي كل إنسان ولد من أبوين مسلمين وسمع من خُطب الجمعة مبادئ الإسلام فهو من أمة التبليغ، وليس لهذا الإنسان أية مَيّزةٍ على الإطلاق..

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: آية " 18 ")

أيْ إذا قال المسلمون قياساً على هذه الآية: نحن أمة محمدٍ، يقال لهم:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

هذه أمة التبليغ.

2 ـ أمة الاستجابة:

أما الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وطبقوا منهج الله في بيوتهم وفي أعمالهم، واستلهموا هَدْيَ القرآن الكريم، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، هذه أمة الاستجابة، هؤلاء أمة محمدٍ المرحومة، هؤلاء الذين لهم عند الله مكانةٌ كبيرة، هؤلاء الذي ينطبق عليهم قوله تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاس)

(سورة آل عمران: آية " 110 ")

كنتم ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام وبإتباعكم لمنهجه خير أمةٍ أخرجت للناس، بهذا: والعِلّة..

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)

(سورة آل عمران: آية " 110 ")

ظن المشركين أن الملائكة إناث و هن بنات الله عز وجل:

إذاً:

(وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26) إِنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27))

توهّموا وظنّوا وجهلوا أن الملائكة إناثٌ وأنهن بنات الله، قال:

(إِنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتّبِعُونَ إِلّا الظّنّ وَإِنّ الظّنّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقّ شَيْئاً (28))

لذلك قد تعشعش في ذهن الإنسان أوهامٌ ما أنزل الله بها من سلطان، ضعْ لأعمالك جرداً، فهذا وَهْمٌ دعه، وهذا حقٌ فاتّبعه واجعل الحقيقة هي التي تصبو إليها نفسُك.

(إِنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتّبِعُونَ إِلّا الظّنّ وَإِنّ الظّنّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقّ شَيْئاً (28))

الطاعة لا تكون إلا بمعروف:

أيها الأخوة الكرام: احرصوا حرصاً بالغاً على ألاّ تعتقدوا إلا العقيدة الصحيحة التي توافق الكتاب والسنة، أما أن يمتلئ عقل الإنسان بالضلالات، وبالخرافات، وبالتُرّهات، فهذا من شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة، فالإنسان مكرمٌ عند الله عزّ وجل، وهو أعظم وأجل من أن يكون ضحية خرافةٍ أو فِرْيَةٍ

أو إفكٍ أو قضيةٍ مبنيةٍ على الوهم والظن، فالإنسان عليه أن يتحرّى، ولا يقبل شيئًا إلاّ بدليل، وبتعليل وعلى بصيرة، والله سبحانه وتعالى علّمنا من خلال سنة النبي أشياء كثيرة، هؤلاء الذين بعثهم النبي في سريةٍ وأمّر عليهم أنصارياً وقال هذا الأنصاري: **" أضرموا ناراً واقتحموها، فقال بعض أصحاب النبي: كيف نقتحمها وقد آمنا بالله فراراً منها ؟ "**. فلما رُفِعَ الأمر للنبي قال عليه الصلاة والسلام:

((لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في معروف))

(أخرجه البخاري عن علي)

علامة المُتبع للنبي الكريم أنه يدعو على بصيرة:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة يوسف)

فنحن على بصيرةٍ ؛ أنا ومن اتبعني، فعلامة المُتبع للنبي أنه يدعو على بصيرة، يدعو بالدليل، يدعو بالبرهان، يدعو بالحجة، ولا يأتي بشيء من عنده، أنما أنا متبع ولست بمبتدع فلذلك:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلّا الظّنّ)

اطلب الدليل، لا تقبل أية فكرة، لا تكن ضحيةً لفكرةٍ غير صحيحة، لا تكن تابعاً لوهمٍ لا أساس له..

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلّا الظّنّ)

ولو استخرجنا ما في عقولنا وعرضناه على مِحَكِّ الواقع، ومحك الكتاب والسنة، ومحك العلم، لوجدنا أربعة أخماس ما نعتقده وهمٌ بوهمٍ وخرافةٌ بخرافة، فيجب أن تحرر العقول من كل الأوهام، وما أكثر الأوهام في حياتنا.

الحق ما وافق العقل والنقل والفطرة والواقع:

لذلك:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلّا الظّنّ وَإِنّ الظّنّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقّ شَيْئاً)

نحرص حرصاً بالغاً على أن نعتقد الحقيقة، على أن نعتقد ما جاء به القرآن الكريم، ما جاءت به السنة النبوية، على أن نعتقد ما وافق الواقع الإسلامي، على أن نعتقد ما وافق الفطرة، على أن نعتقد ما وافق العقل، على أن نعتقد ما وافق النقل، هذا هو الحق، يوافق النقل الذي هو وحي السماء، يوافق العقل الذي هو مقياسٌ أودعه الله فينا، يوافق الفطرة التي هي مقياسٌ نفسيٌ لا يخطئ، يوافق الواقع، وكل ما خالف الواقع، أو خالف الفطرة، أو خالف العقل، أو خالف النقل، فهو ليس من الحق، مقياس الحق دائرةٌ يمرُّ فيها أربعة خطوط، خط العقل والنقل والفطرة والواقع، فيجب على كل منا أن يستخرج ما عشعش في

ذهنه، من اعتقادات لا أصل لها، من خرافات لا يقبلها العقل السليم، من ظنون لا أساس لها، أن ننبذها وأن نعتقد ما جاء به القرآن والسنة الصحيحة.

كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه:

إذا قلنا مثلاً: لا يعلم الغيب إلا الله، كم قصةٍ يمكن أن تركلها بقدمك وفق هذه الآية ؟ كم ادعاء يّدعيه الشُذّاذ والأفّاكون ؟ كم ادعاء يدّعيه المنحرفون ؟ فقد يدعون أنهم يعلمون الغيب مثلاً، آية واحدة يمكن أن تجعلك تركل ألف قصةٍ بقدمك، يجب أن تعتقد ما في القرآن الكريم، الآن العالم كله يتوهّم أن الإنسان أصله قرد، هكذا قال داروين، فالقرآن ماذا يقول ؟

(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

(سورة السجدة)

فلو اعتقدت أن هذا كلام الله وأنه كلامٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا تعبأ بأية نظريةٍ من صنع أناسٍ حقدوا على الدين وأرادوا أن يصدموا الدين في جذوره وفي أصوله.

الحقيقة علاقة مقطوعٌ بصحتها توافق الواقع:

لذلك:

(إ إِنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلّا الظّنّ)

هنا الظن بمعنى الوهم، وطبعاً كما تعلمون مقياس الحقيقة علاقةٌ مقطوعٌ بصحّتها، فإنْ لم تكن مقطوعاً بصحتها كان الوهم، أو كان الشك، أو كان الظن، فنسبة الوهم ثلاثون بالمئة، الشك خمسون، الظن ثمانون أو سبعون، أما الحقيقة فمقطوعٌ بصحتها مئة بالمئة، علاقةٌ مقطوعٌ بصحتها توافق الواقع وعليها دليل، لو ألغينا الدليل لكان التقليد، لو ألغينا الواقع لكان الجهل، لو ألغينا القطع لكان الوهم والظن والشك، فالحقيقة ليست وهماً ولا شكاً ولا ظناً ولا تقليداً ولا جهلاً، الجهل هو مخالفة الواقع، فمن دون دليل تقليد، ومن دون قطع مئة بالمئة شكٌ أو وهمٌ أو ظن.

معرفة الحقيقة توصل إلى الله:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلّا الظّنّ)

أي الوهم، لذلك فالدعاء في مثل هذه المناسبة:

" اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القُربات ".

(وَإِنّ الظّنّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقّ شَيْئاً)

إخوانا الكرام: ما من شيء أهم في حياة الإنسان من معرفة الحقيقة، إنك إن عرفتها سعدت بها في الدنيا والآخرة، إن عرفت الحقيقة عرفت سر وجودك، عرفت غاية وجودك، إن عرفت الحقيقة تتبعت منهجها، إن عرفت الحقيقة وصلت إلى الله لأنه هو الحق لذلك لا نشاط في الحياة الدنيا يعلو على أن تعرف الحقيقة، لا نشاط في الحياة الدنيا يعلو في أهميته على أن تعرف الحقيقة..

تطبيق آيات القرآن الكريم سبب سعادة الإنسان في الدنيا و الآخرة:

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

أيها الأخوة: هذا كتاب الله، هذا وحي السماء للأرض، هذه تعليمات الصانع، هذا الكتاب يهدي للتي هي أقوم، من أمسك به فقد أمسك حبل الله، ومن أمسك حبل الله نجا من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة. فلذلك يا أيها الأخوة: هذا الكتاب علينا أن نقرأه، أن نتلوه حق تلاوته، ومن تلاوته حق تلاوته أن نتلوه وفق أحكام التجويد، وأن نتلوه فنفهم آياته، وأن نتلوه فنتدبّرها، وأن نتلوه فنطبّقها، إن تلوته حق تلاوته، وإن فهمت آياته، وإن تدبرتها، وإن طبقتها سعدت به في الدنيا والآخرة، هذا كتابنا المقرر، وهذا الكتاب الذي نحاسب عليه.

(وَلَقَدْ يَسّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدّكِرٍ)

(سورة القمر)

تريده مسموعاً فهو متوفر، أو مطبوعاً فهو في متناول يدك، أو مقروءاً فما أكثره، وكذلك مفسراً، فالملاحظ أن هذا الكتاب الكريم قد تولّى الله جلّ جلاله في عليائه حفظه، وتولى تيسيرَهُ للناس، تسمعه صباحاً ومساءً، فلا تجد بيتاً إلا وفيه أكثر من نسخة للمصحف وتفاسير، ودروس علم، والأبواب مُفَتَّحَةٌ على مصاريعها، من غير رسم دخول، ولا ضريبة، ولا أيّة عقبة، تعالَ واستمع وطبّق واسعد في الدنيا والآخرة.

القرآن الكريم ربيع القلوب:

فيا أيها الأخوة الكرام: القرآن ربيع القلوب وهو روح الروح، ما معنى روح الروح ؟ أي جسمك يحتاج إلى غذاء، وروحك تحتاج إلى غذاء، غذاء روحك هذا القرآن، إذاً هو روح روحك.

أيها الأخوة: إذا قرأته وتدبّرته وجدت حلاً لكل مشكلاتك، ما من سؤال عويص إلا وترى فيه حلاً في القرآن الكريم، لذلك لا يحزن قارئ القرآن، وهذه بشارة: من تعلّم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، اقرأه صباحاً ومساءً، أناء الليل وأطراف النهار، احضر دروس التفسير، اعمل به، طبّقه يكن لك ذخراً وسعادةً في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 29-31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-09-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الخامس من سورة النجم، ومع الآية الكريمة الآيةِ التاسعةِ والعشرين، وهي قوله تعالى:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (30))

أمر الله عز وجل للنبي الكريم بأن يُعرض عمن تولى عن ذكره:

أيها الأخوة الكرام: النبي صلى الله عليه وسلّم يتلقّى أمراً من الله عزّ وجل بأن يعرض عمّن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، هناك نموذج: إنسانٌ أعرض عن ذكر الله، أدار ظهره للحق، لم يعبأ بكل الآيات الكونية والتكوينية والقرآنية، لم يعبأ بكل العِبَر، ولا بكل المواعظ، ولا بكل ما يُتْلى عليه.

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى)

تولّى أدار ظهره لذكرنا.

(وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

لم يرد إلا و(إلاّ) هنا تفيد القصر، أي لا يعرف من الدنيا إلا مالها، لا يعرف من الدنيا إلا نساءها، لا يريد إلا الدنيا، فإرادته محصورةٌ في الدنيا، قَصَر طلبَه، ورغبَته، واتجاهَه، وإقبالَه على الدنيا.

الإقبال على الدنيا فقط ضرر بالآخرة:

طبعاً لو كانت نقطتان وأنت واقف بينهما، كلّما اقتربت من إحدى النقطتين ابتعدت حكماً عن الثانية، لذلك من أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته، ومن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، فالله عزّ وجل يبيّن للنبي عليه الصلاة والسلام وهو السيد الكريم، وهو الرحيم الحريص على هداية أمّته، قال: هؤلاء الذين أداروا ظهورهم لذكرنا، لآياتنا، لوعدنا، لوعيدنا، لأمرنا، لنهينا، لآياتنا الكونية، والتكوينية، والقرآنية، هؤلاء الذين لم يعبئوا، ولم يهتمُّوا، ولم يخافوا، ولم يصغوا، ولم يلقوا السمع ما أرادوا إلا الدنيا، إلا المال، إلا اللذّة، إلا الشهوة، إلا العلو، هذا النموذج الذي أعرض عن ذكر الله وأقبل على الدنيا، أعرض فأقبل، أقبل فأعرض، كما قلت قبل قليل: نقطتان وأنت بينهما، إذا اتجهت إلى إحدى النقطتين ابتعدت حكماً عن

الثانية، قال العلماء: هذا النموذج الذي يُقْبِلُ على الدنيا بكلّيتِه، بطاقاته، بإمكاناته، بتصوّراته، بخواطره، بنومه، بيقظته، بحضره، بسفره، هذا الذي يُقبل على الدنيا وحدها لو أن الله عزّ وجل قال: وأراد الحياة الدنيا هذا لا ينفي أن يريد شيئاً آخر، لكن:

(وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

فرقٌ كبيرٌ بين المعنيين، أي أعرض عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا:

(تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

الإعراض عن الإنسان الذي لا يعبأ بالوعد و الوعيد:

قال العلماء: إنّ هذا النموذج لا خير فيه، فأنت في وادٍ يا محمد وهو في واد، أنت في طريق وهو في طريق، تصوُّراته لا تتفق مع إيمان المؤمن، أهدافه لا تنطلق من إيمان مؤمن بل تنطلق من شهوة منحرف، من شهوة معرض.

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

فإذا كان عليه الصلاة والسلام أُمِرَ أن يعرض عن هذا النموذج، وأبناء أمّته أيضاً مأمورون بالتبعية أن يعرضوا عن مثل هؤلاء الأشخاص، فإنسان لا يُدخِل الآخرة في حساباته إطلاقاً، لا يدخل عقاب الله في كل حساباته أبداً، لا يعبأ بكل الوعد والوعيد الذي ورد في كتاب الله، لا يعبأ بكل الآيات الدالّة على عظمة الله، هذا الذي أعرض عن ذكر الله ولم يرد إلا الحياة الدنيا، يريد المال بأية طريقة، بأية وسيلة، من أي مصدر، بأي صفة، من طريقٍ حرام، من طريقٍ حلال، بشكلٍ مشروع، غير مشروع، معقول، غير معقول، بشكل مقبول، غير مقبول..

(وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

هذا النموذج لا خير فيه، لا تضع وقتك معه لأنك أنت في وادٍ وهو في واد، أنت في طريق وهو في طريق.

الإنسان المعرض عن الآخرة إنسان ميت لا خير فيه:

إنسان ينطلق باتجاه الشرق وإنسان باتجاه الغرب فإنهما لا يلتقيان، ولا يجتمعان، ولا يترافقان، ولا يتناصحان، هذا في طريق والآخر في طريق معاكس، فالذي ينطلق من حبِّ الدنيا، وينطلق من إهمال الحق والإعراض عنه، هذا لا يمكن أن يصغي لأهل الحق، ولا أن يؤمن بما يؤمنون، ولا أن يخاف ما يخافون، ولا أن يرجو ما يرجون، ولا أن ينضبط كما ينضبطون، ولا أن يسمو كما يسمون إطلاقاً،

فالإنسان كي يوفِّر وقته، كي يكون عمله مع أهل الحق، مع أهل الخير، مع أهل الصلاح، مع من يُظَنُّ فيه الخير، عليه بكتاب الله وسنة نبيّه، قال تعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام مبيّناً أن هؤلاء الأشخاص الذين أعرضوا، والذين انكبّوا على الدنيا حتى انغمسوا فيها إلى قمّة رؤوسهم، هؤلاء مقبورون بشهواتهم، هؤلاء موتى وليسوا أحياء.

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

من لا يخاف الله لا خير فيه:

هؤلاء في آذانهم وقرٌ، وعلى عيونهم غشاوة، هؤلاء:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

(سورة البقرة)

هؤلاء لا يعرفون الحق، ولا يألفونه، ولا يحبّونه.

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

لذلك من تكلّم بالحكمة لغير أهلها فقد ظلمها، ومن منعها أهلها فقد ظلمهم، فالمؤمن يتوسّم الخير فيمن يدعوهم إلى الله، يستشف ما ينطوون عليه من خوف، من إيمان، من حياء، من خجل، لكن: إذا لم تستح فاصنع ما تشاء الذي لا يستحي لا خير فيه، الذي لا يخاف الله لا خير فيه، الذي لا يرجو ما عند الله لا خير فيه، الذي لا يسأل عن الحلال والحرام لا خير فيه، الذي لا يخاف من وعيد الله لا خير فيه، الذي لا يرجو جنّة الله لا خير فيه.

ابتعاد الإنسان عمن يفضّل المتع الرخيصة:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا)

أي أنه مستعد أن يحدِّثك لفترة خمس ساعات واقفاً في الطريق، وليس مستعداً أن يستمع إلى حقيقة دينية ولا لخمس دقائق، ويمكن أن يمضي وقتاً طويلاً في كلامٍ فارغ، وفي متعةٍ رخيصة، وفي عملٍ فنيّ ساقط، وليس مستعدّاً أن يجلس في بيتٍ من بيوت الله ليستمع إلى الحكمة والموعظة الحسنة أبداً، قال العلماء: هذا النموذج لا خير فيه، فأنت في وادٍ وهو في واد، أنت في طريقٍ وهو في طريق معاكس، أنت في السماء وهو في الوحل، أنت تحت الضياء وهو في الظلام، أنت مبصر وهو أعمى.

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

أيها الأخوة الكرام: هذا النموذج كثير، وهو في كل مكان، وفي كل زمان، إنسان أراد الدنيا، أراد المال من أي طريق، وبأي أسلوب، لا يعنيه حلالاً أو حراماً، مشروعاً أو غير مشروع، معقولاً أو غير معقول.

صمم آذان أهل الدنيا عن الحق:

(وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

يريد اللذّة الرخيصة المحرّمة، لا يؤْتمَنُ على امرأة ولا حتى فضيلة، لا بدّ من أن يكون مثل هذا الإنسان قد أصمّ أذنيه عن الحق، فالنبي عليه الصلاة والسلام يأتيه توجيهٌ إلهيٌ لطيف: أن يا محمد هذه النماذج لا تتعِب نفسك معهم، هؤلاء لا خير فيهم، هؤلاء يتناقضون معك، هؤلاء لا ينطلقون مما تنطلق، ولا يخافون ما تخاف، ولا يرجون ما ترجو، ولا يحبون ما تحبّ، هؤلاء بعيدون كل البعد عن الحق، هؤلاء في الوحول وأنت في العلياء..

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

هذا كل علمهم، قال سبحانه:

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

وصف أهل الدنيا:

الله عزّ وجل وصف أهل الدنيا بآيةٍ كريمة فقال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم: آية " 7 ")

الله جلّ جلاله ما أثبت لهم من العلم شيئاً ولا بحقيقة الدنيا، علموا ظاهرها، فلو تعلّموا، لو كان لهم اختصاص، ولو تمرّسوا بشيء، ولو تراكمت خبراتهم، هذا العلم لا قيمة له عند الله لأنه علمٌ للدنيا، والدنيا زائلة وفانية ولا قيمة لها، هناك علمٌ لا يُنَجّي صاحبه كما قال عليه الصلاة والسلام:

((اللّهُمّ إِنّي أعُوذُ بكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا))

(مسلم عن زيد بن أرقم)

أيها الأخوة: العلم في الدنيا حرفةٌ من الحرف، إنسان يرتزق من يده، من مهنةٍ، من حرفةٍ، إنسان يرتزق من اختصاصٍ فكري.

أنواع العلم ثلاثة:

وبعدُ، ها نحن ندخل في موضوع صغير لكنّه خطير، هناك علمٌ لله، وعلمٌ بخلقه، وعلمٌ بأمره.

1 ـ العلم بخلقه:

العلم بخلقه أن تدرس الفلك، أو الرياضيات، أو الفيزياء، أو الكيمياء، أو أن تدرس علم النفس، أو علم النفس الاجتماعي، أو علم الاجتماع، أو التاريخ والجغرافيا، أو أن تدرس بعض التطبيقات العملية، كأن تكون مهندسَ ميكانيك، هذا اختصاص ترتزق منه ولا يسمو بنفسك، هذا علمٌ بخلق الله.

2 ـ العلم بأمره:

وهناك علمٌ بأمره ؛ معلومات دقيقة، علاقات، أدلّة، براهين، مقدّمات، نتائج، كتب، هذه ينبغي أن تُحفَظ، وأن تُدرس، وأن تُراجَع، وأن تفهم، وأن يُذاكر بها، وأن يؤدّى بها امتحان، و أن تنال الشهادات، العلم بخلق الله والعلم بأمره علمان يحتاجان إلى مُدارسة، إلى قراءة، إلى فكر، إلى مراجعة، إلى السؤال، إلى جواب، إلى كتابة، إلى تدريب، هذه العلوم علومٌ مادّية، العلم بخلقة والعلم بأمره، وتحتاج هذه العلوم إلى مدارسة، هي عمل فكري محض، ولا علاقة لها بسمّو النفس إطلاقاً، وهذه العلوم حِرْفَةٌ من الحرَف، وحينما ينتهي أجل الإنسان تنتهي قيمة هذه العلوم، وليس لها أثر بعد الموت.

3 ـ العلم بالله:

لكن العلم بالله أن تتعرّف إلى الله من خلال آياته الكونية، أو من خلال آياته التكوينية، أو من خلال آياته القرآنية، وأن تجاهد نفسك وهواك، هذا العلم أساسه المجاهدة لا المدارسة، العلم بخلق الله والعلم بأمره أساسه المدارسة، بينما العلم بذاته، العلم بالله أساسه المجاهدة، هذا العلم ثمنه باهظ لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّك، لن تنال منه شيئاً إلا إذا جاهدت نفسك وهواك، إلا إذا حملتها على طاعة الله عندئذٍ هذا العلم يسمو بك.

فحينما ترد كلمة العلم في الكتاب والسنّة فهي تحمل مدلولاً معيّناً، فالإمام الغزالي رحمه الله تعالى يرجّح أن كلمة العلم إذا وردت في الكتاب والسنّة فإنما تعني العلم بالله، العلم الذي يحملك على طاعة الله، العلم الذي يسمو بك إلى الله، العلم الذي يهذّب جوارحك، العلم الذي يثقل وجدانك، هذا هو العلم.

هناك علم هو عين الجهل وهو عدم تحكيم منهج الله في حياتنا:

لذلك:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

أنّ هناك علماً هو عين الجهل، مثلاً: بلدةٌ فيها نهرٌ ملوث، أُصيب سكّانها بأمراضٍ وبيلة، بلدية هذه البلدة أرسلت الأطبّاء ليتخصّصوا، واستقدمت الأجهزة، والمخابر، وأنشأت المستشفيات، وهي تعمل ليل نهار لتكافح هذه الأمراض، لكنها لو منعت هذه المياه الملوّثة أولاً لامتنعت كل هذه الأمراض، لذلك يبيحون للإنسان المعاصر كل شيء، نبيح له المحرّمات، فالمدنية المعاصرة في بلاد الغرب تبيح له كل الرذائل و الموبقات، وبعد ذلك يئنون من وطأة الأمراض الوبيلة، يقول لك: الإيدز أدّى إلى عشرين مليون إصابة في العالم، وما قرأت مقالةً حول هذا الموضوع تنطلق من ضبط الشهوات، ولا من تحكيم منهج الله أبداً، ما قرأت عن هذا المرض إلا رغبةً ملّحةً في البحث عن مصلٍ لهذا الفيروس فقط.

انحراف الناس سببه إطلاق العنان للشهوات:

الخلاصة لو أننا ضبطنا أنفسنا لما وقعنا في شرّ أعمالنا، نثير الشهوات إلى أقصى درجة ثم نضع أيدينا على رؤوسنا من كثرة الجرائم، وكثرة حالات الزنا، وكثرة دور الدعارة، حينما نطلِق للشهوات العنان فالنتيجة الطبيعية أن ينحرف الناس، فأي علمٍ هذا ؟ فدرهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج، هناك علمٌ هو عين الجهل.

لو أن الإنسان أدمن على شرب الخمر وتشمّع كبده، وقال: أنا سوف أذهب إلى فرنسا لأزرع كبداً جديدة وقد تكلِفني سبعة ملايين، فبدورنا نقول له: لو لم تشرب الخمر لما كان ما كان، فهذه المخالفة الصريحة لمنهج الله أعطبت الكبد، عندئذٍ نحتاج إلى عمل جراحي، وإلى زرع كبد، وإلى دراسات، وإلى تحليل، وإلى زُمَر نسيجية، وإلى انتظار إنسان كبده سليمة، فالمرء يشعر أن هناك علماً متفوقاً جداً، لكن هذا العلم احتجنا إليه لانحرافنا عن طريق الحق.

أصل المرض خروجٌ عن منهج الله عزّ وجل:

أيها الأخوة: ما أردت أن أقلِل من قيمة العلوم الحديثة، ولا من قيمة علم الطب، ولكن إذا أطلقنا للشهوات العنان وخرجنا عن منهج الله، فطبيعيٌ جداً أن تنشأ أمراضٌ لا حصر لها، فالعلوم المتقدّمة في

مكافحة هذه الأمراض نحن في غنًى عنها لو تتبّعنا منهج الله عزّ وجل، واللهُ عزّ وجل يقول على لسان سيدنا إبراهيم:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

خلقني، هو الخالق..

(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

ثم يقول:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

فلم يقل: والذي إذا أمرضني هو يشفين، المرض عُزِيَ إلى الإنسان لأن أصل المرض خروجٌ عن منهج الله عزّ وجل، فحينما لا نتقيّد بفطرة الله عزّ وجل ولا بمنهجه ونخرج عن هذا المنهج فهناك طبعاً مشكلات لا حصر لها، لها أول وليس لها آخر، هذه تحتاج إلى حلول، نحتاج إلى تقدُّم علمي، وإلى تقدُّم في الصناعة، وإلى تقدم في صناعة الأدوية، كل هذا بسبب خروجنا عن منهج الله عزّ وجل.

الإنسان فريسة الخروج عن منهج الخالق:

الإنسان حينما لا يعبأ بمنهج الله، لا يعبأ بالأمر والنهي، لا يعبأ بأن تُحكّم في حياتنا الشريعة الغرّاء، فعندئذ لا بدّ من انحرافات تقتضي المعالجات، تقتضي الدراسات، كل هذا كان من الممكن أن نستغني عنه لو سرنا على منهج الله عزّ وجل.

فعن طريق الربا مثلاً ينمو المال نمواً سريعاً، في الربا المال يلد المال، فإذا ولد المالُ المالَ أصبحت الكتلة النقدية بأيدٍ قليلة حُرِمت منها الكثرة الكثيرة، وصار هناك فجوة كبيرة بين الناس، أناسٌ يملكون كل شيء وأناسٌ لا يملكون شيئاً.

عُقِد مؤتمر وأعتقد أنه في أوروبا حول دول الشمال والجنوب، فمن نتائج هذا المؤتمر أن خمس سكّان العالم يملكون أربعة أخماس ثروة الأرض، الخمس يملكون أربعة أخماس، طبعاً هذا وقع عندما سمحنا بكسب المال غير المشروع، وعندما سمحنا أن يلد المالُ المال فماذا نشأ ؟ نشأت فجوة بين الناس، والله عزّ وجل أراد أن يكون المال متداولاً بين الناس جميعاً.

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

(سورة الحشر: آية "7 ")

فإنْ خرجنا عن منهج الله في كسب الأموال، وسمحنا أن ينمو المال نمواً ربوياً، وأن يلد المالُ المال، وإذا خرجنا في علاقاتنا بالمرأة عن منهج الله وسمحنا لها أن تتبدّل، وأن ترتاد الأماكن غير المقبولة،

وأن تكون سلعةً من السلع، وأقبل الشباب منحرفين، وأُصيبوا بأمراضٍ وبيلة، فهذه مشكلة عضوضة فريستها الإنسان.

الوقاية أرقى من العلاج:

أيها الأخوة الأكارم: الله عزّ وجل يقول:

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

درهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج، لو أن الناس اتبعوا منهج الله لكانوا في غنىً عن نفقاتٍ لا يعلمها إلا الله، إنّ كل ما تربحه شركات التبغ في العالم، في العالم كلِّه، هذه إحصائية دقيقة قبل سنة، أقل مما تنفقه هذه الدول على معالجة الأمراض الناتجة عن التدخين، إن كل ما تربحه شركات الدخّان في العالم أقل من المبلغ الذي تنفقه الدول على الأمراض الناتجة عن التدخين، فهذه البحوث المتعلِّقة بسرطان الرئة مثلاً، وبموات الأعضاء، وبأمراض الأوعية هذه كلها نتيجة مرة للتدخين.

أخ طبيب في أمراض القلب جرّاح حدّثني فقال لي: والله منذ ست سنوات وأنا أجري كل يومٍ أو كل يومين عملية قلب مفتوح، قال لي بالحرف الواحد: الشيء الثابت عندي أنه ما من مريضٍ أجريت له عمليةٍ في قلبه إلا وهو يدخِّن. نحتاج إلى جراحة قلب مفتوح، ونحتاج إلى أجهزة، وإلى وإلى، وكان من الممكن أن نتلافى كل هذا إذا تركنا ما يؤذينا.

ذكرت هذه الأمثلة: إنْ في كسب المال، أو في العلاقة بالنساء، أو في العادات الصحية الضارّة من أجل أن نعلم أن الوقاية أرقى من العلاج، وأنك إذا توقيّت أن تقع في المعاصي فأنت في غنىً عن علومٍ لا حصر لها.

الإنسان المعرض هو الإنسان البعيد عن رحمة الله:

قال تعالى:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

علمهم محدود، متعلِّقٌ بالمادة، متعلقٌ بالمال، متعلقٌ بالملذّات، أما أن يتعرّفوا إلى الله، أن يتعرّفوا إلى منهج الله، أن يتعرّفوا إلى طريقة الاتصال بالله عزّ وجل والإقبال عليه، والتقلّب برحمته، فإنهم بعيدون جداً عن هذا، قال سبحانه:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

الإعراض له عدة معان منها:

1 ـ عدم تعليق الأهمية على هؤلاء الناس:

وبعد فنحن الآن بصدد معنى آخر، فالإعراض هنا له معنىً ذو دلالة أخرى هي أن هؤلاء يا محمد لا شأن لهم، ولا قيمة لهم، وفي ميزان الحياة الإنسانية ليسوا بشيء، والعاقبة للمؤمنين، وهم سوف يَهْلِكون، وسوف يقبعون في مزابل التاريخ، ولا أحد يلتفت إليهم، أعرض عنهم، ففي المعنى الأول: أي لا تعلِّق أهميةً عليهم، لا تعلِّق آمالك بهم، أنت في وادٍ وهم في واد، أنت في طريقٍ وهم في طريق.

2 ـ ليس لهؤلاء الناس شأن في المجتمع:

المعنى الثاني: هؤلاء لا تلق لهم بالاً، فليس لهم شأنٌ في ميزان المجتمع، لا يقدِّمون ولا يؤخِّرون، أسقطهم من حساباتك اليومية..

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

شعور المؤمن بفضل الله عليه عند جلوسه مع إنسان من أهل الدنيا:

أيها الأخُ الكريم: ألم تجلس يوماً إلى شخصٍ جاهل بعيدٍ عن الدين، بعيدٍ عن الآخرة، بعيدٍ عن معرفة الله، بعيدٍ عن طاعته ؟ ألم تشعر أن بينك وبينه مسافةً كبيرة ؟ وأنك في وادٍ وهو في واد ؟ أنت في طريقٍ وهو في طريق ؟ أنت في العلياء وهو في الوحول ؟ أنت في الطاعات وهو في الحماقات ؟ شيء واضح جداً، فالإنسان إذا جلس إلى أهل الدنيا المُعْرِضين الغافلين وعرف قيمة إيمانه، وقيمة معرفته، وقيمة إقباله، وقيمة اتصاله بالله عزّ وجل، والله جلّ جلاله من هذا اللقاء العابر يشعرك بفضله عليك، وإذا قرأت قوله تعالى:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيما)

(سورة النساء)

يقشعرُّ جلدك..

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً)

(سورة النور: آية " 21 ")

العلم هو الخطوة الأولى لارتقاء الإنسان:

الإنسان حينما يعرف سرّ وجوده، وغاية وجوده، ويعرف الله عزّ وجل وهو على أمره ملتزمٌ ولجنّته طالبٌ، ومن جهنّم خائفٌ، هذا إنسان قطع أربعة أخماس الطريق، أما الذي وهو في الستين لا يصلي، وهو في السبعين يبحث عن الشهوة المحرّمة، وهو في خريف العمر لا يعنيه إلا كسب المال، أين هو ؟ وماذا ينتظره ؟ الإنسان إذا مات وكان غافلاً وجاهلاً رفرفت روحه فوق النعش تقول: **"يا أهلي يا ولدي، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حَلّ وحرُم، فأنفقته في حِلِه وفي غير حلِه، فالهناء لكم والتبعة علي ".**

أيها الأخوة: ورد في الأثر:

((إن أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنّة ودخل هو بماله النار))

فلذلك:

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

العلم أساس الحياة، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، العلم هو الخطوة الأولى إلى كل ارتقاء، العلم هو طريق النجاح وطريق الفلاح.

أعظم عمل على الإطلاق طلب العلم:

ألا يكفينا قوله تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: آية " 9 ")

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: آية " 11 ")

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: آية " 132 ")

لذلك طلبك للعلم أعظم عمل على الإطلاق، لك فطرة سليمة، أنت مفطور على حب وجودك، وعلى سلامة وجودك، وعلى كمال وجودك، وعلى استمرار وجودك، هذه الفطرة الراقية لو عرفت الحقيقة لاتّبعتها، لو عرفت الخير لأقبلت عليه، لو عرفت الخطر لابتعدت عنه، إذًا هي أزمةُ معرفةٍ فقط.

الجهل هو أعدى أعداء الإنسان:

أقول لكم دائماً: الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، هذا مثل أضربه: مزارع اشترى سماداً من أغلى أنواع السماد، أُعطي تعليمات دقيقة أن ضع في البرميل كيلو من هذا السماد، وأذبه واسق به الحقل، عنده محصول ثمنه مئتا ألف ليرة، فوضع ضعف الكمّية من أجل أن ينمو الزرع أكثر، فهذه الكمية المُضاعفة من السماد أتلفت محصوله كله وأحرقته، ما الذي أضرَّه ؟ عدوه ؟ لا، خصمه ؟ لا، ما الذي أتلف كل هذا المحصول ؟ جهله، يجب أن تؤمن أن أعدى أعدائك هو الجهل في كل شيء.

فالإنسان لو أراد أن يتاجر ولم يتبع منهج الله قد يفلِس، أو قد يكسب مالاً حراماً يستحقُّ الإفلاس، وقد لا يفلِح، أما إذا اتبع منهج الله في كسب المال نما المال، إذا اتبع منهج الله في زواجه سَعِد بزوجته، إذا اتبع منهج الله في أي شيء قطف كل الثمار اليانعة، فلذلك العلمَ العلمَ، هؤلاء الذين أعرضوا عن ذكر الله وأقبلوا على الدنيا لماذا كانوا كذلك ؟ لأنهم لم يتعلّموا، ظنّوا أن الدنيا هي كل شيء، قال الشاعر الجاهلي.

فإن كنت لا تستطيعُ دفع منيّتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

***

العلم أساس معرفة الله و الانضباط بمنهجه:

المؤمن ينكبُّ على الحق ويبذل من أجله الغالي والرخيص والنفس والنفيس، والجاهل ينكبُّ على الدنيا، لكن مع هذا الانكباب مفاجأة، مفاجأة صاعقة، حينما يقترب أجله وهو صفر اليدين، فأول ليلة في القبر من أصعب الليالي، يقول الله عزّ وجل:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

هذا المنغمس في الشهوات، في الموبقات، في المعاصي، في كسب الأموال، في الانغماس في الملذّات، هذا حينما يصحو على مرضٍ عُضال وقد شارف على ترك الحياة، والله يصيبه من الآلام ما ينسيه الحليب الذي رضعه من ثدي أمّه، فالعلم، لابدّ من طلب العلم، لابدّ من معرفة الله، لابدّ من معرفة منهج الله.

(ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

معنى ذلك أنهم لو علموا لما كانوا كذلك، لو عرفوا كما عرفتم لما كانوا كما كانوا بل كانوا كما كنتم..

الحياة الدنيا من دون أمل في الآخرة مغامرة ومقامرة:

(إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى)

إذاً المعنيان، الأول: هؤلاء لا خير فيهم، المعنى الثاني: هؤلاء ليس لهم وزنٌ إطلاقاً في ميزان الحياة، هؤلاء سقطوا، هؤلاء ينساهم الناس، هؤلاء الذين أعرضوا عن ذكر الله وأرادوا الحياة الدنيا حينما تذوي دنياهم يسقطون معها، فإذا كان الإنسان (والفكرة دقيقة) كلُّ مكتسباته هي الدنيا، هذه الدنيا تنصرف عنه في ثانيةٍ واحدة حينما يقف قلبه، فهناك حادث مفاجئ أحياناً ينهي حياة الإنسان، أو موت مفاجئ، أو مرض مفاجئ، أو موت طبيعي ولكن مبكِّر، فأين مكتسباته ؟ فالمال تركه، المكانة تخلّى عنها، اللذّائذ فاتته، بيته سُلِبه، ثم أُودِعَ في القبر، فلذلك الحياة الدنيا من دون أمل في الآخرة مغامرة ومقامرة، كل مكتسباتك ما دام القلب ينبض، لو توقّف لم يبق هناك شيء، وصار نعوةً في ورقة على الجدران، والأموال كلِّها انتقلت إلى الورثة، إذاً العلم هو الذي يجعلك تعمل للآخرة، العلم هو الذي يجعل الدنيا مَطِيَّة وليست غاية، يجعلها ممرّاً وليست مقرّاً، يجعلها دار تكليف لا دار تشريف: **" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي ".**

العلم أساس السعادة في الدنيا و الآخرة:

أنا عند قوله تعالى:

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

سرُّ شقائهم، سرُّ تولِّيهم عن الحق، سر انكبابهم على الملذّات أنهم لا يعرفون، ولو عرفوا لما فعلوا، إذاً طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم، طلب الفقه حتمٌ واجبٌ على كل مسلم، الدنيا أساسها العلم، والآخرة أساسها العلم، وهما معاً أساسهما العلم، والعلم أساس النجاح، وأساس التفوّق، وأساس السعادة في الدارين، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد))

(رواه البيهقي عن أبي هريرة)

((فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر سائر الكواكب))

(أخرجه أبو نعيم في الحلية عن معاذ)

((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم))

(أخرجه الترمذي عن أبي أمامة)

تقييم العباد من شأن ربِّ العباد:

(إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى)

أي كلٌ يدّعي وصلاً بليلى، كلٌ يقول: أنا على حقّ، أنا منطقي، أنا أفعل الشيء الصحيح، هذا ادِّعاء، لكن الله وحده يعلم من هو على الحق ومن هو على الباطل، وأنت كمؤمن إن رأيت هذا الإنسان يتحرّك وفق منهج الله فإنك تحكم عليه حكماً أولياً أنه على حق، وإن رأيته يعصي الله تحكم عليه حكماً أولياً أنه يعصي، أما الخاتمة لا يعلمها إلا الله، لعلّه يتوب، أو لعلّهَ يبقى على انحرافه، إذاً:

(إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى)

هذه الآية يُستنبط منها أن تقييم العباد من شأن ربِّ العباد، إيّاك أن تتورّط وأن تقييم الناس، ليس هذا من شأن البشر إن هذا من شأن خالق البشر، أنت قل: هذا العمل معصية أرجو الله أن يتوب على صاحب هذه المعصية، وهذا العمل طاعة أرجو الله أن يقبله.

العمل لا يقبل إلا بشرطين خالصاً و صواباً:

الله سبحانه وتعالى ذكّرنا من خلال الكتاب والسنّة كما بيّن بعض العلماء كالفضيل ابن عياض أن العمل لا يقبل إلا بشرطين: إلا إذا كان خالصاً وكان صواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السُنّة، فكن كما قال الفُضيل وقد أُخِذ هذا من قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

(سورة النمل: آية " 19 ")

وفِّقني ل

(أن أعمل صالحاً)

أي أعمل وفق منهجك يا رب،

(ترضاه)

أي أكون مخلصاً بهذا العمل، وأكرّر للفائدة: فيجب أن تعلم علم اليقين أن العمل لا يُقبَل إلا بشرطين: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق سنة رسول الله، فنحن كما قال الله عزّ وجل:

(إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى)

الله يعلم ما إذا كان عملك مطابقاً أو غير مطابق، وإذا كان مطابقاً فالله يعلم ما إذا كنت مخلصاً أو غير مخلص، من أجل أن يُقبَل العمل لابدّ من أن يطابق السنّة، ولابدّ من أن يكون خالصاً لله عزّ وجل،

فمدى مطابقته للسنّة يعلمه الله، وقد يعلمه بعض الناس، لكن مدى إخلاص صاحبه به، فهذا مما يعلمه الله وحده، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((نحن نحكم بالظاهر والله يتولّى السرائ))

الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً:

(إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (30) وَلِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

طبعاً لله هذه لام المُلْك، والله سبحانه وتعالى يملك كل شيء، يملكها خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً، والإنسان أحياناً يملك ولا ينتفع كمن يملك بيتاً مؤجَّراً ولا يسكنه، وأحياناً ينتفع ولا يملك كالمستأجر، وأحياناً يملك وينتفع لكن المصير ليس له، أي يصدر قرار استملاك يأخذ منه البيت، فهذه أمثلة: يملك ولا ينتفع، ينتفع ولا يملك، يملك وينتفع وليس له المصير، لكن الله سبحانه وتعالى يملك خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً.

الجزاء من لوازم أن الله خلق للسماء و الأرض:

(وَلِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

فمن لوازم أن الله خلق السماوات والأرض أنه لابدّ من الجزاء، ألا تقرؤوا في الفاتحة كل يوم، وفي كل صلاةٍ وفي كل ركعةٍ:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

ما يوم الدين ؟ أي يوم الدينونة، يوم الجزاء، يوم أن يُجْزَى كل إنسانٍ بما يسعى، لذلك كل شيءٍ نعمله سوف نُحاسب عليه، كل حركةٍ وكل سكنةٍ، وكل صلةٍ وكل قطيعةٍ، وكل غضبٍ وكل رضاً، وكل ابتسامةٍ، وكل كسبٍ، وكل إنفاقٍ، كل هذه الأعمال سوف نحاسب عنها، فالإنسان المؤمن قبل أن يتحرّك يدقق، يتأمّل، يتفحّص النية، يتفحّص العمل.

عين الجهل من يظن أنه تفلت من عقاب الله:

(وَلِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

أيها الأخوة الكرام: الإنسان إذا ظنّ أن إنساناً عمل عملاً سيئاً وتفلّت من عقاب الله عزّ وجل فهو لا يعرف الله، طبعاً إلا أن يتوب ويستغفر ويُصلِح، أما إذا ظنّ أن الأمور سائبة، وأن الإنسان يُترَك سُدَى، وأن للإنسان ما تمنى، وأن الإنسان خُلِق عبثاً فهو في بوار وخسار.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

(سورة النجم)

إذا ظنّ الكافر أنه سبق الله عزّ وجل أي تفلّت من عقابه، أو فعل شيئاً ما أراده، فهذا هو عين الجهل، لذلك الله عزّ وجل قال:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا)

العلم: أنْ تعلم أنّ كل شيء تفعله تُحاسَبُ عليه:

يجب أن نوقن جميعاً أن لكل حسنةٍ ثواباً وأن لكل سيئةٍ عقاباً، الإنسان لا ينجو إلا أن يتوب، أما إذا فعل السيئات ولم يتب فإن لكل سيئةٍ عقاباً، هذه هي عدالة الله في الأرض، فالإنسان يكون أحمقَ إذا فعل السيئات وظنّ أنه مفلحٌ بهذا العمل، يكون أحمقَ إذا أكل أموال الناس بالباطل وظنّ أن هذا ذكاء، يكون أحمقَ إذا اعتدى على أعراض الناس وظنّ أن هذا من شطارته، يكون غافلاً إذا قَصّر فيما عليه من حقوق وظنّ أن الأمور مسيَّبة وليس هناك محاسبة، الإله العظيم يقول:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

هذا هو العلم، العلم أنْ تعلم أنّ كل شيء تفعله تُحاسَبُ عليه، الإنسان إذا أدرك أنه محاسب لا يفعل سوءاً، فبحكم فطرتك، وبحكم بُنْيَتِكَ إذا أيقنت أنك محاسب فلن تعصيَه، وأنت بهذا تتعامل مع إنسان مثلك، مع إنسان قوي إذا علِمت أنك لن تفلت من عقابه، ولن تنجوَ من هيمنته فإنك لا تعصيه أبداً، فهذا إنسان قد لا تحبّه لكنه أقوى منك، فكيف بالواحد الديّان ؟ يقول الله عزّ وجل:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

إدراك الإنسان حقيقة اليوم الآخر سبب نجاته من النار:

فيا إخواننا الكرام: إذا الإنسان لم يدرك حقيقة اليوم الآخر، ولم يؤمن إيماناً حقيقياً كإيمانه بوجوده أن هناك يوماً يحاسب فيه الإنسان عن كل صغيرةٍ وكبيرة، عن كل موقف، وعن كل عطاء وكل منع، وعن كل صلة وكل قطع، وعن كل غضب وكل رضا..

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا)

أقول مرّة ثانية: أنت مع إنسان لا يمكن أن تخالف أمره إذا أيقنت أن علمه يطولك وأن قدرته تطولك، والله يخبّرنا أنّ أعمالكم كلّها محصاةٌ عليكم، أعمالكم كلها سوف تحاسبون عنها، سوف تقفون موقفاً صعباً يوم القيامة، لماذا فعلت كذا ؟ سوف تُعْرَضُ أعمالنا علينا عملاً عملاً في الوقت المناسب، والزمان المناسب..

آيات القرآن الكريم دليل على محاسبة الإنسان الدقيقة:

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه الآية وحدها تكفي عظة و عبرة، ألم يقل ذاك الأعرابي، وقد قال للنبيّ الكريم: **" عظني ولا تُطِل "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

ذاك الأعرابي البسيط، غير المثقف، لم يقرأ ولم يطلع، ولم يحضر محاضرات، وليس عنده مكتبة ضخمة تملأ أربعة جدران، وليست عنده مكتبة أشرطة، ولا هو مشترك في المجلات والدوريات، هذا الأعرابي البسيط أدرك معنى الآية..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

قال: **"كُفِيت "**، فقد اكتفى بآية واحدة، القرآن الكريم ستمئة صفحة، وكل صفحة فيها ثلاثون أو عشرون آية، القرآن الكريم فيه آيات كثيرة جداً، أعرابي بسيط اكتفى بآية واحدة

التفكير هو الأساس قبل الإقدام على أي عمل:

واللهِ هناك عشرات الآيات وكل واحدة تكفي، قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(سورة النساء)

ألا تكفي ؟..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سورة فصلت: آية " 46 ")

ألا تكفي ؟..

(إِنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

ألا تكفي ؟..

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً)

(سورة الزخرف: آية " 79 ")

هكذا انتهت إليه مفاهيمكم ؟..

(فَإِنّا مُبْرِمُونَ)

فهذا ردٌّ له، هناك آلاف الآيات وكل آيةٍ تكفي، فلذلك هذه الآية:

(وَلِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

أي قبل أنْ تعمل أيَّ عمل سيئ عُدَّ للمليون، فكِّر إذا كنت في القبر وسألك الله عزَّ وجل: لماذا فعلت كذا ؟ فكِّر إذا كنت يوم القيامة وعُرض عملك على الله عزَّ وجل لماذا فعلت كذا ؟

الإنسان البطل من يهيئ جواباً لكل سؤال يوم القيامة:

شخص قال للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله إني نؤوم، فقال عمر: **"ويحك فضحت نفسك "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((دعه يا عمر، فضوح الدنيا خيرٌ من فضوح الآخرة))

حينما تقف أمام الناس جميعاً من آدم إلى يوم القيامة وتسأل عن أعمالك كلِّها: لماذا فعلت كذا ؟ لماذا منعت ؟ لماذا أعطيت ؟ لماذا أسأت ؟ لماذا اعتديت ؟ ما جوابك ؟

لذلك أيها الأخوة: الإنسان البطل الذي يهيئ لله جواباً عن كل تصرُّف، الإنسان أحياناً يعبد الله ستين عاماً ثم يضرُّ بالوصية فتجب له النار، يصلي، يصوم، وحاجج ثلاث حجج، وثلاث عشرة عمرة، وحَرَمَ البنات قبل أنْ يموت، تجب له النار، فأين تذهبون ؟ الناس يتحركون بأهوائهم لا بمنهج ربّهم، فلا يقيمون قيمة لمنهج الله، الله يقول لك: افعل ولا تفعل، فيكون جوابه: فلان يحزن، أبي يلومني و يعنِّفني، أين معرفة الله عزَّ وجل ؟ هذه الآية دقيقة جداً وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تترجم إلى سلوك، فالعمل الصالح، والعمل السيئ محاسب عليهما محاسبةً دقيقة..

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

المؤمن الصادق هو من لا ينسى اليوم الآخر أبداً:

إخواننا الكرام: هذه نقطة هامة جداً: قد يعاقب الله بعض المسيئين في الدنيا عقاباً ردعياً تنبيهًا لبقية المسيئين، فلا تقولوا: فلان ماله حرام ولم يحدث له شيء، وقد يُكافِئ بعض المحسنين مكافأةً تشجيعيةً تعليماً لبقية المحسنين، ولكن يوم القيامة هو اليوم الفصل الذي لابدَّ من أن يُحاسَب الإنسان فيه على كل أعماله..

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: آية " 185 ")

إخواننا الكرام: المؤمن الصادق هو الذي لا يغيب عن ذهنه اليوم الآخر أبداً، أبداً أبداً، اليوم الآخر، أن نقف بين يدي الله عزّ وجل، لماذا تكلّمت ؟ لماذا ابتسمت ابتسامةً ساخرة ؟ لماذا فعلت ؟ لماذا لم تفعل ؟ هكذا.. لماذا، لماذا، لماذا، مصداقاً لقوله تعالى:

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ)

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع تفسير الآيات:

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 31-38
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-10-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس السادس من سورة النجم، ومع الآية الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

(سورة النجم)

الجزاء أساس الاستقامة:

أيها الأخوة الكِرام: مما تقتضيه ألوهية الله عزّ وجل الذي يملك السماوات والأرض، وشؤون السماوات والأرض، وملكوت السماوات والأرض، أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، والإنسان أيها الأخوة حينما يوقِن أن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً يستقيم، ففكرة الجزاء هي أساس الاستقامة، أمّا حينما تؤمن بعبثية الخلق فالأمر ضلال و ضياع، وإنّ عندنا حالتين هما: إما أن تؤمن بعبثية الخلق.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

وإما أن تؤمن بالجزاء.

الإنسان العاصي ينطلق من عبثية الخلق:

فكرةٌ أساسيةٌ في الدين، أساسيةٌ في العقيدة، أساسيةٌ في فلسفة الحياة، أن تؤمن بالجزاء، فإنسانٌ يسيء لن يفلت من يد الله عزّ وجل وعقابه.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

أيها الأخوة الأكارم: الإنسان الذي يعصي والذي يسيء والذي يعتدي، والذي يأخذ ما ليس له، والذي يطغى، والذي يبغي، إنسان حتماً ينطلق من عبثية الخلق، هكذا، بلا ضابط، بلا حساب، بلا مسؤولية، بلا جزاء، بلا جنة، بلا نار، بلا ثواب، بلا عقاب.

عدم استواء المحسن و المسيء يوم القيامة:

أنت إذًا أمام خيارين ؛ إن آمنت بالجزاء استقمت على أمر الله، وإن لم تؤمن بالجزاء وتوهّمت العبثية، فعندئذٍ تنحرف، وعندئذٍ تعد الذكاءَ أن تأخذ ما ليس لك، وعندئذٍ تعد الذكاءَ أن تبغي على حقوق الآخرين، وأن تظلم، وأن تستغل، وأن تحتكر، وأن تسيء، كل أنواع التفلّت، كل أنواع المعاصي أساسها توهُّم العبثية، توهُّمُ أن الإنسان سيترك بلا حساب.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

فهل يستوي مسيءٌ ومحسنٌ في النهاية ؟! وهل يستوي كافر ومؤمن في النهاية ؟! وهل يستوي مسلم ومجرم في النهاية ؟!

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

(سورة ص)

هذا مستحيل.

عدم نجاة أي مخلوق من قبضة الله يوم القيامة:

فأين تذهبون ؟

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية " 21 ")

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: آية " 61 ")

أنت بين إيمانين إما أن تؤمن بالجزاء، وإما أن تؤمن بالعبثية، إن توهّمت العبثية عندئذٍ لن تستقيم، قد تعدُّ نفسك عاقلاً وشاطراً بالتعبير الدارج إذا أخذت ما ليس لك، أما إذا آمنت بالجزاء فلن يفلت مخلوقٌ من قبضة الله، لن يفلت مخلوقٌ من عقاب الله في الدنيا والآخرة، هنا مَحَطُّ الشاهد، هنا بيت القصيد، هنا محط الرحال، لن يفلت من عقاب الله.

من أبرز العقائد الصحيحة الإيمان بالجزاء:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

" لو أن شاةً في الفرات تعثّرت لحاسبني الله عنها، لمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر " ؟ عمرُ آمن بالجزاء، فكلامه نتيجة طبيعية لإيمانه، وهذا أعرابي راعي غنم، قال له عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **"بعني هذه الشاة وخذ ثمنها قال: ليست لي، قال له: قل لصاحبها إنها ماتت، قال له: ليست لي، قل له: أكلها الذئب، قال: ليست لي، خذ ثمنها، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟ ".**

الموضوع يتلخّص في فكرة واحدة: إن آمنت بالجزاء استقمت على أمر الله، ووقفت عند الحد الذي حدّه الله، تقنع بمالك ولا تأخذ ما ليس لك، العقيدة مهمة جداً، فالإنسان حينما يعتقد خطأً يرتكب آلاف الأخطاء ولا يتوب منها، أما حينما يعتقد اعتقاداً صحيحاً فالخطأ يقع و لكن لا يتكرر، سريعاً ما يتوب منه، فأهمّ شيء في حياتك أن تعتقد اعتقاداً صحيحاً، من أبرز العقائد الصحيحة الإيمان بالجزاء، لن يفلت مسيءٌ من قبضة الله، لن يفلت ظالمٌ من قبضة الله ومن عقاب الله، لن يفلت منحرفٌ من سؤال الله، والجزاء على ما قدمت يداه.

صعوبة الاستقامة إذا توهم الإنسان الفوضوية في الخلق:

الآية الكريمة ربطت..

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ)

أي أن علة ملك السماوات والأرض لله أنه:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

إنه يؤمن بالجزاء تجد نفسك مستقيماً وأنت لا تشعر، عندئذٍ تغدو الاستقامة سهلةً، متى تغدو صعبةً ؟ إذا توهّمت العبثية، إذا توهّمت الفوضوية، إذا توهمت أنك خُلِقتَ سُدى، هكذا بلا سبب، بلا هدف، أما

إذا أيقنت أن الذي خلقك سيسألك، وأن الذي أبدعك سيحاسبك، وأن الذي أوجدك سيجازيك على عملك إنْ خيراً فخير وشراً فشر، عندئذٍ تستقيم على أمر الله سبحانه.

العلم أساس النجاح في الدنيا و الآخرة:

لذلك أيها الأخوة: دائماً دقِق الفكر و النظر، فلما الإنسان يأخذ ما ليس له فإنه يفتخر أحياناً، وحينما يفتخر فهو يؤمن بالعبثية وهو لا يشعر، إذا افتخر بإساءةٍ أو بعدوانٍ أو بظلمٍ أو بطغيانٍ أو ببغيٍ ينطلق من توهُمِهِ العبثية وهو لا يشعر، أما إذا أيقنت بالجزاء، فمثل ذلك شخص بضاعة يستورد بضاعة فتذهب صورة من مستورداته إلى المالية، فإذا لم يصرح عن هذا المستورَد يعاقب بتضْعيف الضريبة، فتجد كل من يستورد يقدِّم بيانات صحيحة. لماذا ؟ لأنه موقن بمضاعفة الجزاء لو قدم بياناً فيه خطأٌ، أنت مع إنسان، إنسان من جلدتك من بني جنسك لأنه يطولك علمه وتطولك قدرته فتستقيم على أمره، فكيف بالواحد الديان ؟

إخواننا الكرام: إنّ الإنسان إذا لم يستقم فهناك خلل في بعقيدته، لذلك فالعلم ضروري.

((طلب العلم فريضة على كل مسلم))

(أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك)

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، إذا أردت النجاح في عملك فعليك بالعلم، والعلم يعطيك المنهج، يبيّن الحصن الذي تجد الأمن فيه.

المفهوم الدقيق و المفهوم الساذج للشفاعة:

هذه الآية دقيقة الدلالة جداً، وطبعاً الآن عُرِضَتْ من زاويةٍ أخرى، فالإنسان حينما يؤمن بالجزاء يستقيم على أمر الله، وحينما يتوهّم العبثية والفوضوية، وأنه يترك سدى فعندئذٍ ينحرف حتماً، فالإنسان العاقل حكيم نفسه، ويفسر دائماً ما يفعله بأسلوبٍ علمي، فمتىُ َتِّقصر ؟ متى تعصي ؟ متى تأكل ما ليس لك ؟ متى تطغى ؟ متى تبغي ؟ إذا أيقنت أو توهّمت أنك لن تحاسب، فكل ذلك تمارسه بلا مبالاة. فمثلاً لو توهم واحدٌ منا أن أمة النبي صلى الله عليه وسلم سوف تدخل الجنة بغير حساب، والنبي عليه الصلاة والسلام سوف يشفع لها:

((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))

(أخرجه الترمذي عن أنس)

لكن هذا الفهم الساذج للشفاعة التي هي حق، ولها مفهومٌ دقيق في الكتاب والسنة، فإذا فهم إنسان الشفاعة هذا الفهم السقيم الساذج فلا يمكن أن يستقيم، ماذا نفعل بقول الله عزّ وجل:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ)

يا محمد..

(تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

ماذا نفعل بقول النبي عليه الصلاة والسلام حينما يقول يوم القيامة:

((أَصْحَابِي، أَصْحَابِي، فَقِيلَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، قَالَ: فَأَقُولُ: بُعْدًا، بُعْدًا، أَوْ قَالَ: سُحْقًا، سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

(أحمد عن أبي سعيد الخدري)

ماذا نفعل بقول النبي صلى الله عليه وسلم ؟

((يا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعملي لله خيراً فإني لا أغني عنك من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب يا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعمل لله خيراً فإني لا أغني عنك يوم القيامة من الله شيئاً))

(رواه البزار عن حذيفة)

((وَمَنْ يُبْطِئْ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

(أخرجه أحمد عن أبي هريرة)

الاعتقاد الخاطئ أخطر شيء في حياة الإنسان:

لو فرضنا أنك آمنت بالله، وآمنت مع إيمانك بالله بمفهومٍ ساذجٍ غير صحيح للشفاعة فلن تستقيم على أمر الله أبداً، وإذا آمنت أن الإنسان مجبورٌ على فعل السوء، مقهور..

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء.

***

وأن أعمالنا الصالحة والسيئة مكتوبةٌ علينا قبل أن نُخْلَق، ولا سبيل إلى تغييرها، وأن الله سبحانه وتعالى خلق الكافر كافراً ووضعه في النار ولا ذنب له، إن اعتقدت عقيدة الجبر التي هي مخالفةٌ لعقيدة أهل السنة والجماعة فلن تستقيم على أمر الله، وهاأنذا أضرب لكم أمثلة: أية عقيدة فاسدةٍ من نتائجها التفلّت من منهج الله، أية عقيدةٍ فاسدة سواءً توهّمت العبثية في أصل الخلق، أو توهّمت شفاعة النبي بمفهومها الساذج، أو توهّمت مفهوم الجبر في العقيدة، إن توهمت الجبر أو الشفاعة بمفهومها الساذج أو توهمت عبثية الخلق فلن تستقيم على أمر الله، والإنسان كلما انحرفت عقيدته كلما انحرف سلوكه، وكلما

استقامت عقيدته استقام سلوكه، ولأن السلوك انعكاسٌ طبيعيٌ جداً لما تعتقد، ولأنه كذلك أصبحت العقيدة خطيرةً جداً، لو توهمنا أنه يمكن أن تعتقد عقيدةً فاسدة من دون أن تتأثر بها سلوكياً، عندئذٍ اعتقد ما شئت، لو كان هناك فصلٌ بين العقيدة والسلوك، لو لم يكن السلوك انعكاساً للعقيدة لقلنا لك: اعتقد ما شئت ولا تثريب عليك، لا، لأن كل سلوك الإنسان صورةٌ لعقيدته، منعكسٌ لعقيدته، تجسيدٌ لعقيدته، لذلك نقول: أخطر شيءٍ في حياة الإنسان أن يعتقد اعتقاداً خاطئاً.

سلوك الإنسان ما هو إلا انعكاس لما يعتقد:

تصور ميزاناً دقيقًا جداً وضعنا تحت كفته اليمنى مئة غرام، واستخدمناه طويلاً وزنًا به ألف وزنة، الألف وزنة كلُّها غلط، لأن هناك مئة غرام في أسفل كفته اليمنى، فالخطأ في الميزان خطأ مدمِّر، خطأ في كل الوزنات من دون استثناء، أما لو كان الميزان دقيقاً و حساساً وصحيحاً وقرأنا الكيلو كيليين مرة من المرات، فهذا الخطأ لن يتكرر، وقع مرة واحدة، لذلك قالوا: هناك خطأٌ في الوزن وخطأٌ في الميزان، الخطأ في الوزن سهل جداً قد لا يتكرر، لكن الخطأ في الميزان نتائجه فاحشة، فالخطأ بالعقيدة خطأ في الميزان لا في الوزن، الإنسان قد يرتكب بعض الأخطاء، وإذا عرفها يتوب منها فوراً، أما الذي يخطئ في الميزان، فإذا كان في ميزانه خطأ فهذا لن يستقيم على أمر الله أبداً.

يا أيها الأخوة: اعتقدوا اعتقاداً جازماً أن كل أنواع السلوك إن هي إلا انعكاساتٌ لما تعتقد، وأن أخطر شيءٌ في حياة الإنسان عقيدته إن صحَّت صح عمله، وإن فسدت فسد عمله، لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ابن عمر، دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذا عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

(العلل لابن أبي حاتم)

خذ عن الذي استقاموا في عقيدتهم وفي سلوكهم، ولا تأخذ عن الذي مالوا.

نتائج عقيدة الجزاء و وهم العبثية:

نحن اليوم بين عقيدةٍ ووهمٍ، عقيدة الجزاء ووهم العبثية، عقيدة الجزاء نتائجها الاستقامة، وعقيدة العبثية نتائجها التفلُّت، لكن أريد أن أؤكِّد لكم حقيقةً خطيرة، قانون السقوط، هذا قانون نافذ، في كل مكانٍ وزمان، أنت إن آمنت به أو إن لم تؤمن، تأدبت معه أو لم تتأدب، اعتقدت به أو لم تعتقد، نافذٌ فيك، فعدم إيمانك بحتمية هذا القانون لا يُعَطِّله دقِّقوا، والدليل: لو أن إنساناً ألقى بنفسه من طائرة، ولم يعبأ بهذا القانون ولا بحيثياته ولا بتفاصيله لتحطَّم فوراً أمّا لو نزل بمظلة يكون قد تأدَّب مع هذا

القانون، وقد درس هذا القانون، وصمم هذه المظلة وفق هذا القانون، بحسب وزنه وبحسب مقاومة الهواء، وبحسب اتساع المظلة، وبحسب نوع القماش الذي صنعت منه المظلة، نوع القماش ومساحة القماش مدروستان دراسةً دقيقةً مع قانون السقوط، فهذا القانون نافذ، شئت أم أبيت، أعجبك أم لم يعجبك، آمنت به أم كفرت، تأدبت معه أم لم تتأدب، أيقنت به أم كفرت به، سيّان، القانون نافذ، وقانون الجزاء نافذ في الدنيا والآخرة، آمنت أم لم تؤمن، صدقت أم لم تصدق، اعتقدت أو لو تعتقد، نافذ.

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

خيار الإنسان خيار وقت فقط:

لكن المشكلة أنّ الكافر المتفلِّت العاصي بعد أن يدفع الثمن باهظاً يقول: إي واللهِ لقد كنت مخطئاً، إذً فالقضية أنّ الخيار خيار وقت، خيار وقت يا إخواننا، أيْ أنّهُ لابد من أن تؤمن بحتمية هذا القانون، لكن بدل أن تؤمن بحتميته وقد كنت أنت الضحية، وقد دفعت الثمن باهظاً لتؤمن من دون تبعة عليك، فمثلاً الله عزّ وجل قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

جملة محدودة من ثلاث كلمات في كتاب الله، الذي يحتوي على ستمئة صفحة قال لك:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

فيأتي إنسان نما ماله بالربا، يشتري أجمل البيوت، وأجمل المركبات، ويرى أن الربا هو أفضل طريقة لنمو المال، بلا تعب، بلا نَصَبْ، بلا مسؤولية، بلا كَد، بلا قلق، بلا خوف، إذاً هو الآن آمن. لا. إنّ هذا الشعور آنِيٌّ، وإنّ هذا الكلام غير واقعي، وحينما يُتْلِفُ الله ماله كله يؤمن، فمتى آمن ؟ بعد أن كان هو الضحية، بعد أن دفع الثمن باهظاً.

الله تعالى سيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته:

إخواننا الكرام: إيماننا بحتمية الجزاء لا بد كائن، وهذا الإيمان أنت مخير فيه. خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، النقطة دقيقة، أعجبك أم لم يعجبك، آمنت به أم لم تؤمن، تأدَّبت معه أم لم تتأدب، نافذٌ فيك، رغم أنف كل الناس، كقانون السقوط، فلو أنّ إنسانًا أنكر هذا القانون ولم يعبأ به وألقى بنفسه من الطائرة لنزل ميتاً، عدم إيمانه بهذا القانون لا يلغي فعل القانون، فأثره نافذ فيه، فالجزاء نافذ، أما إذا

آمنا بالجزاء منذ البدء فإننا نستقيم على أمر الله، فنسعد في الدنيا والآخرة، وإن لم نؤمن بالجزاء وآمنا بالعبثية انحرفنا، وإذا انحرفنا طُبِّق علينا قانون الجزاء الذي لم نؤمن به، ونفذت الأحكامُ فينا.

وهذا مثل أوضح، أنت مع قانون السير، فإذا صدرت تعليمات بحجز المركبة، وإيداع السائق السجنَ شهراً، وأنت لم تبال، ولم تقرأ القانون ولا اتعظت به، فإذا خالفت وقعت في قبضة القانون شئت أم أبيت، فالقضية كلها وما فيها: إما أن تؤمن بالجزاء وإما أن تؤمن بالعبثية، الذي لا يستقيم على أمر الله يتوهَّم العبثية، والمستقيم على أمر الله يؤمن بالجزاء، الآية الكريمة:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

الذي يملك السماوات والأرض هو الذي سيجازي، الذي يملك السماوات والأرض، الكون كله، هو الذي سيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

التائب من الذنب كمن لا ذنب له:

من هم الذي أحسنوا ؟ قال سبحانه:

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ)

قال بعض العلماء: **الفاحشةُ فرعٌ من الإثم**، الإثم الكبير، المعصية الكبيرة التي تحجب عن الله وتبعد عن الله، الإثم الكبير الذي ورد فيه لعنٌ لمن يفعله، أو وعيدٌ في النار لمن يقترفه، الإثم الكبير هو الذنب الذي يحجب عن الله عزّ وجل، والفواحش ؛ الإثم المتعلِّق بالعلاقات الاجتماعية، الذي يفشو بين الناس بأقبح الصور، وأقبح السُمَع.

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ)

وكذلك قال العلماء:

(اللمم)

مَن فعل إثماً وتاب منه توبةً نصوحاً، هذا صار لممًا، ألمّ به وتاب منه، فكل شيءٍ فعله الإنسان قبل أن يتوب، فعله في جاهليته، فعله قبل أن يصطلح مع الله، فعله من قبل وتاب منه فهو لمم، وبعضهم قال: اللمم كل شيءٍ حدّثتك نفسك بفعله ولم تفعله فهو من اللمم، وكرم الله سبحانه وتعالى يقتضي ألاّ يحاسب المرء إلا على العمل، فمن حدّث نفسه بمعصيةٍ ولم يفعلها خوفاً من الله عزّ وجل لا يحاسب عليها، لكن

ننصحه أن يوقف هذه الخواطر، لأنه إذا تابعها واستمرأها ربما انقلبت إلى أعمال، فاللمم هو الذنب الذي اقترفه الإنسان وتاب منه، أو حديث النفس بالمعصية دون أن يفعلها.

مغفرة الله عز وجل وسعت كل الذنوب:

(إِنّ رَبّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنّةٌ فِي بُطُونِ أُمّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتّقَى)

(إِنّ رَبّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ)

أيْ أنّ مغفرته وسعت كل الذنوب.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ)

(سورة الزمر: آية " 53 ")

كل الذنوب، أما قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة النساء: آية " 48 ")

فهذه الآية حملها كل المفسّرين على أنه إذا مات دون أن يتوب مما اقترفت يداه، فإن تاب غفر له، وحتى إذا كان مشركاً وتاب غفر الله له هذا الذنب، لقوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً)

(سورة الزمر: آية " 53 ")

بعد التوبة.

باب التوبة مفتوح على مصراعيه:

(إِنّ رَبّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ)

وسعت رحمته كل شيء وأنت شيء، وسعت مغفرته كل الذنوب، مهما عظم الذنب تتسع له مغفرة الله عزّ وجل، تصوّروا العكس لو أن الله سبحانه وتعالى لا يتوب على عباده المؤمنين ماذا يفعلون ؟ إلى أين يلتجئون ؟ أصغر ذنبٍ يتفاقم إلى أكبر ذنب، يقول لك: لا توجد مغفرة، فأفعل إذاً ما أشاء، فالإنسان عندئذ يسترسل في المعصية، لكن رحمة الله واسعة، ومغفرته مرتجاة، مما يدفعه إلى التوبة وإلى أن يقلع عن كل سيّئة.

((لو جئتني يا عبدي بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

والصُلْحَة بلمحة:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فقد اصطلح مع الله))

(ورد في الأثر)

سبحان الله أشد العجب أن باب التوبة مفتوحٌ على مصراعيه، وأن الناس يترددون في التوبة، الإسلام يجب ما كان قبله، الإسلام يهدم ما كان قبله:

((إذا تاب العبد توبة نصوحًا، أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

(ورد في الأثر)

والله سبحانه وتعالى يريد أن يتوب عليكم، وما أمركم بالتوبة إلا ليتوب عليكم، وما أمركم بالاستغفار إلا ليغفر لكم، وما أمركم بالصلح معه إلا ليكرمكم.

إكرام الله للعبد بالتوبة إذا رجع عن ذنبه:

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الّذِينَ يَتّبِعُونَ الشّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

(سورة النساء)

أهل الدنيا يريدون أن تميلوا مع الشهوات، وأهل الدين يريدون لكم أن تتوبوا، لذلك:

(وَلِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلّا اللّمَمَ)

(سورة النجم)

قال تعالى:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

(سورة النساء)

الإنسان إذا ترك الكبائر غفر الله له الصغائر، فالصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والعمرة إلى العمرة تكفِّر ما بينها، صليت الظهر، ثم ندّت منك كلمة أزعجتك وأوقعتك في الإثم، فعند العصر يغفرها الله لك، ما بين الصلاتين، وبين الجمعتين، وبين رمضانين، وبين العمرتين..

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

(سورة النساء)

الفرق بين النبي و الولي:

السيئات التي يمكن أن تصدر من المؤمن عن غير قصدٍ، وقد تصدر عنه صغائر كثيرة، ولكنه يستغفر ويسعى إلى طاعة الله، والفرق بين النبي والولي هو أن النبي لا يعصي الله أبداً، فهو معصومٌ من أن يعصي الله، بينما الولي لا تضره معصية بمعنى بأنه يتوب منها سريعاً، ويستغفر ويتوب ويؤمن، والمؤمن مذنبٌ توّاب، شديد التوبة، يُحْدِثُ عند كل ذنبٍ توبةً، فالآية الكريمة..

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ)

ذنبٌ ارتكبه ثم تاب منه، أو نفسه حدّثته بعملٍ ولم يفعله هذا هو اللمم، شيءٌ وقع وتاب منه، أو شيءٌ لم يقع لكن جرى بينه و بين نفسه حديث ملامة بسببه.

اتهام النفس من علامات الإيمان:

(إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

فالتوجيه الإلهي هنا لا تقل: أنا، امرأةٌ قالت لصحابيٍ جليل توفاه الله عزّ وجل وكان النبي يزوره، يزوره بعد وفاته، قالت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-:

((وما يدريك أن الله أكرمَهُ ؟ فقلت: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، فمن يكرمه الله ؟ فقال: أمّا هو فقد جاءه اليقين. والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يُفعَلُ بي ؟))

(أخرجه البخاري عن خارجة بن زيد)

فالمؤمن لا يزكي نفسه، سيدنا عمر قال **": ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيماً "**، سيدنا حذيفة كانت معه قائمةٌ بأسماء المنافقين، قال له عمر: **"بربك اسمي بينهم ؟ "** وهو **عملاق الإسلام**، المؤمن لشدة ورعه وشدة خوفه من الله يتهم نفسه دائماً، وقد روى بعض التابعين أنه التقى بأربعين صحابياً، ما منهم واحدٌ إلا وهو يظن نفسه منافقاً، فاتهام النفس من علامات الإيمان، لكن الطمأنينة لخطرات النفس، وتزكيتها، ومدحها من علامات النفاق.

تقييم الإنسان من شأن الله وحده:

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

أيضاً ولا تُزكِّ على الله أحداً، لا تقل: فلان تقي، نقي، ورع، قل: أظنه كذلك ولا أزكي على الله أحداً، زكِّه وقل: والله أعلم، زكِّه وقل: ولا أزكي على الله أحداً، سيدنا الصديق حينما استخلف سيدنا عمر، بعض من حوله قالوا له: **" كيف تولي عمر وهو شديدٌ جداً ألا تخشى أن يعاتبك الله ؟ قال: أتخوفونني بالله، أقول: يا رب لقد ولّيت عليهم أرحمهم (معنى ذلك أنه زكّاه) ثم قال: هذا علمي به، فإن بدّل وغيّر فلا علم لي بالغيب".** لا تتورط بتزكية إنسان تزكية مطلقة، قل: أحسبه مؤمناً ولا أزكي على الله أحداً، قل: أحسبه صادقاً ولا أزكي على الله أحداً، قل: أحسبه أميناً ولا أزكي على الله أحداً، قل: أحسبه صالحاً فإن بدّل وغيّر فلا علم لي بالغيب، هذا موقف علمي، موقف فيه تحفُّظ، موقف فيه أدب مع الله عزّ وجل، لأن الله وحده يعلم حقيقة الإنسان، لأن تقييم الإنسان من شأن الله وحده، وتزكية الإنسان من شأن الله وحده.

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء)

وحده يعلم، لذلك لا تزكِّ على الله أحداً، إن زكيت تحفَّظ، قل: هذا علمي به، ولا علم لي بالغيب، أحسبه أميناً ولا أزكي على الله أحداً، تنفيذاً لهذه الآية الكريمة..

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

على الإنسان ألا يتورط في مديح إنسان لا يعرفه:

سيدنا الصديق مرةً مدحه المادحون فبكى وقال: **" يا رب أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون ".**

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

فأحياناً يعدُّ المدح كالذبح، لا تمدح أخاك فقد ذبحته، أحياناً يصدق الممدوح أنه كذلك، سيدنا عمر مرةً كان مع أصحابه قال بعضهم: **"والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله". أحدّ فيهم النظر، و قسا في نظرته إليهم إلى أن قال أحدهم: "** لا والله لقد رأينا من هو خيرٌ منك، قال: ومن هو ؟ قال: الصدِّيق، فقال لهذا الذي قال: رأينا من هو خيرٌ منك. قال: **"لقد كذبتم جميعاً وصدق هذا "**، ماذا فعل عمر ؟ عدّ سكوتهم كذباً، قال: **" لقد كذبتم جميعاً وصدق، والله كنت أضل من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك ".** هذا الإيمان.

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

أحياناً تجد أن المديح يكال جزافاً، في حفلات عقد القران يصفون الأسرتين المتصاهرتين بالتقى والورع إلى درجة، وليس من هذا شيء، الإنسان إذا كثر مديحه اتهم بعقله، اتهم بورعه، لا تزكو

أنفسكم، حدثنا عن الله فقط، ولا تحدثنا عن عباد الله لأن عباد الله تقييمهم من شأن الله لا من شأن العباد، الإنسان لا يتورط في مديح إنسان لا يعرفه، وليس متأكداً من دينه، ولا من استقامته، ولا من ورعه، دائماً يُكال المدح جزافاً في كل عقود القِران بشكل غير مقبول، هذا مرض اجتماعي، نحن بحاجة إلى عمل لا إلى المدح.

الإنسان الذي يبحث عن المدح والثناء ليس مخلصاً:

قال الصديق للسيدة عائشة ابنته بعد أن برّأها الله من حديث الإفك: **" قومي إلى رسول الله فاشكريه، قالت: والله لا أقوم إلا لله "**، فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

((عرفت الحق لأهله))

النبي عليه الصلاة والسلام لعلو مقامه عند الله ما كان يعنيه أن يمدحه المادحون، دخل عليه رجل، أصابته رعْدَة قال:

((هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأةٍ تأكل القديد))

(أخرجه ابن ماجه عن أبي مسعود)

عَرّف نفسه بأنه ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد، وانتهى الأمر، كان الأعرابي إذا دخل على النبي يقول: **"أيُّكُم محمد ؟ "** لا يعرفه، لا توجد له أي ميزة، أيكم محمد ؟ يقول: **"قد أصبت "** أنا، وأحياناً يقول له أحد الصحابة: **" هذا الوضئ الذي أمامك، هو محمد ".** فالذي يبحث عن المدح ورفعة القدر والثناء هذا ليس مخلصاً بما فيه الكفاية.

الإنسان الذي تولّى عن الحق لا يستحق أن تصغي له:

(هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33))

تولّى عن الحق، هذا الذي تولى دقق نظرك في عمله، دقق وتأمّل في أمانته، دقق في صدقه، ثم دقق في عفافه، فلا صدق ولا أمانة ولا عفاف، ماذا قال سيدنا جعفر ؟ قال:**"كنا قوماً أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه".**

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

في الآية توجيه دقيق جداً، فأنت قبل أن تصغي إلى كلامه دقق في أعماله، فهو قد يكون غير مستقيم، غير أمين، غير صادق، غير عفيف، لا استقامة، ولا أمانة، ولا صدق، ولا عفاف، إذاً لا تلق إلى كلامه بالاً إطلاقاً، لا يستحق أن تصغي له، كلامه مهدور، كلامه كذب، كلامه نفاق.

الإنسان الذي يمنع مصيره بيد خالقه لا بيده:

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى (34))

أي منع:

(أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى)

هذا الذي تولّى عن الحق، وأدار ظهره للدين، وقال: الدين أفيون الشعوب، غيبيّات، أوهام، شعور الإنسان الضعيف أمام قوى الطبيعة القاهرة، هذا الدين، الدين سحر، الدين خرافات، الدين تُرّهات، الدين لا يعتنقه إلا الضِعاف، ومرضى النفُوس، هذا كلام أعداء الدين.

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35))

فهذا الذي يمنع هل يعلم أنه سيسعد في دنياه وأخراه أم يشقى ؟ وهل يرى أن مصيره بيد نفسه ؟

الإنسان يؤخذ بذنبه لا بذنب غيره:

(أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37))

وفىّ ما عليه، وفىّ شكر النعمة.

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

هذا مبدأ أساسي، مبدأ خطير..

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

الإنسان يؤخذ بذنبه لا بذنب غيره، امرأة فرعون زوجة إنسان ادّعى الإلوهية وقال:أنا ربكم الأعلى، قال الله تعالى على لسانها:

(قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة التحريم)

هذا المبدأ الأساسي..

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

كل إنسان مسؤول عن عمله يوم القيامة:

قد ينجب الأب ابناً ضالاً، منحرفاً، فاسقاً، ربّاهُ أعلى تربية لكنه آثر الانحراف.

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

قد يأتي الابن صالحاً من أبٍ فاسق..

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

قد تأتي ابنةٌ متدينةٌ من امرأةٍ فاسقة..

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

الوازرة الحاملة، الوزر الحمل، لا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

عدم محاسبة إنسان عن آخر إن آثر هو الانحراف:

أيها الأخوة الكرام:

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

مبدأٌ في الحياة، كل إنسانٍ محاسبٌ على فعله فقط، ولا يؤخذ بجريرة غيره، مثلاً: سيدنا نوح نبيٌّ كريم أنجب ابناً عاصياً لا يحاسب عليه، إذا ربّاه التربية المُثلى، ثم إذا آثر هذا الابن الانحراف لا يحاسب الأب عنه، امرأة لوطٍ لم تؤمن بلوط..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)

(سورة التحريم: آية " 10 ")

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة التحريم)

أب كافر وابنه نبي، سيدنا إبراهيم، أب مؤمن وابنه كافر، سيدنا نوح، زوج كافر وزوجته صديقة، فرعون، زوجة صالحة وزوجها كافر، آسية امرأة فرعون، فكل الحالات موجودة على صعيد الواقع، وسيدنا رسول الله عمُّه أبو لهب.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5))

(سورة المسد)

عدم محاسبة الإنسان على بيئته بل على عمله:

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

كل إنسان محاسب بفعله، فقد يسعى لهداية نفسه وقد يسعى لهداية أقربائه أيضاً، أما أنْ يقول: أنا هكذا نشأت، هكذا أبي ربانا، هكذا علمنا، ظروفي صعبة، بيئتي صعبة، كلام غير مقبول عند الله عزّ وجل، يمكن أن تستقيم وفق بيئةٍ فاسدة، وأن تطلب العلم وفق بيئةٍ جاهلة، وأن تصبح مؤمناً وفق بيئةٍ كافرة.

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

لا تحاسب على بيئتك التي لا تعجبك، تحاسب على عملك وحدك، هذه الآية مبدأ أساسي في الحياة، وإلا كان ذاك الحساب ظلماً.

حُرْمَة المال لا تأتي من عين المال بل من طريقة كسبه:

بائع جاءته امرأةٌ تشتري منه ثوباً فأعطاها الثوب المناسب بالسعر المناسب، ولا يدري أن هذا الثمن أخذته المرأةٌ من الفاحشة، نجيبه إذا سأل:

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

حُرْمَة المال لا تأتي من عين المال بل تأتي من طريقة كسبه، فهذا المبدأ مريح جداً يَبُثُّ الطمأنينة في النفوس.

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

الابن الراشد محاسب عن نفسه، والأب محاسب، والزوجة محاسبة، والجار محاسب، أما أنْ يدّعي إنسان أن بيئتي كذا، ونشأت في هذه الأسرة، هكذا تربينا، هكذا علّمنا والدنا، هذا الكلام مرفوضٌ من أصله.

أحكام الشريعة كلها ضمن طاقة الإنسان:

الله منحنا عقلاً، وأعطانا فطرة، وأنزل لنا شرعاً، فكل إنسان يعزو أخطاءه إلى البيئة والعادات والتقاليد وفساد الزمان، يقول لك: أخي لا أستطيع أن أستقيم، لماذا ؟ يقول لك: الاستقامة فوق طاقتي، معنى ذلك أنك تكذِّب كلام الله، ألم يقل الله عزّ وجل:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

أنت إذا قلت: لا أستطيع الاستقامة، تؤكد أن الله كلفنا ما لا نطيق، حينما تقول: الاستقامة صعبة ومستحيلة وهذه فوق طاقة البشر أنت لا تدري أنّك تكذِّب آيةً في كتاب الله، حينما قال الله عزّ وجل:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

وُسعُ النفس يعلمه الله وحده ولا تعلمه أنت، ولولا أن أحكام الشريعة كلها ضمن وُسع النفس لما كُلِّفنا بها، فالإنسان قبل أن يتكلّم ينبغي أن يعلم، وينبغي أن يدقق، ويحقق، فما كل كلمةٍ تُلقَى على عواهنها ينجو بها صاحبُها من عذاب الله.

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41))

هذه الآيات إن شاء الله لنا عودةٌ إليها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 39-41
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-10-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس السابع من سورة النَجم، ومع الآية التاسعة والثلاثين.

مكانة الإنسان عند ربه بحجم عمله الصالح:

قال تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

هذه الآية أيها الأخوة أصلٌ من أصول الدين، أي أن الإنسان لا يمكن أن ينالَ ثواب عملٍ لم يفعله، كما أنه لا يمكن أن يُنتقص من عمله عملٌ فعله، فلا إضافة تضاف إلى عمله و لا ينقص من عمله شيء، ولو أن الله سبحانه وتعالى (فرضاً) قال: وللإنسان ما سعى، فقد نفهم من هذا الكلام أن له ما سعى، وله ما لم يسعَ، أما حينما جاءت هذه الآية بصيغة القصر..

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

فهذا يعني أنه لا يمكن أن يناله شيءٌ من ثواب الآخرين ولا من أعمال الآخرين، كما أنه لا يُنتَقَص لا من عمله ولا من ثوابه، بل عمله وحده يُحاسَب عليه، ومكانته عند الله بحجم عمله الصالح، ليس له إلا ما سعى.

فعل الخيرات صدقة جارية بعد موت الإنسان:

لذلك فالإمام الشافعي رحمه الله تعالى استنبط من هذه الآية أن **الميّت لا يصله إلا ثواب عملٍ عمله في حياته**، وحينما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مُسْلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقطعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح عند ابن خزيمة عن أبي هريرة)

والثلاثة من سعيه قبل أن يموت، صدقةٍ جارية، أنشأ مَيْتَماً مثلاً، أو أنشأ معهداً شرعياً، أو أنشأ مستشفى خيرياً، أو أنشأ وقفًا، أو أنشأ بناء لحلّ مشكلات الناس، الأوقاف التي كانت من قبل دليل رغبة الناس الصادقة في فعل الخيرات، فهذه هي الصدقة الجارية، ساهم في بناء مسجد، أو في بناء

مستوصف خيري، أو في بناء مستشفى خيري، أو في بناء جمعية خيرية، أسس مشروعاً خيرياً، أسّس عملاً خيرياً،

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ))

شقّ نهراً، أقام جسراً، أنشأ مدرسة..

((وعلمٍ يُنْتَفَعُ به))

تعلّم وعلّم وترك أثراً، فألّف تفسيراً، أو كتاباً في الحديث، الإمام النووي ترك آثاراً طيّبة جداً، العلماء الكبار، هؤلاء المجتهدون الأربعة وسواهم، المفسّرون، المحدّثون، علماء الحديث، علماء الفقه، علماء التفسير، علماء العقيدة، حتى علماء الفرائض، وعلماء التجويد، كل هؤلاء تركوا علماً يُنْتَفَع به.

العمل الصالح، الصدقة الجارية، الولد الصالح: من سعي الإنسان قبل أن يموت:

الإمام الغزالي مثلاً ترك كتاب الإحياء، كان يضمُّ درسه أربعمئة عمامة، فلّما توفي انفضّ المجلس، فماذا بقي من الغزالي ؟ بقي كتاب الإحياء، مضى عليه ألف عامٍ ينتفع به المسلمون والعلماء، والخطباء والمعلِّمون، فإذا تركت أثراً علمياً ؛ كتابَ تفسيرٍ، كتاباً في الحديث، كتاباً في الفقه، كتاباً في العقيدة، كتاباً في السيرة انتفع الناس به، قرؤوه في كل الأقطار والأمصار، هذا من الصدقة الجارية، علمٍ يُنتَفع به، أو ربّيت ولداً وهيأته ليكون داعيةً إلى الله عزّ وجل، علّمته العلم الشرعي، لكن الآباء الآن يضنون بأبنائهم أن يعلِّموهم العلم الشرعي، يريده طبيباً، ولو كُشِفَ له الغِطاء أن هذا الابن إذا علّمته العلم الشرعي وهيّأته ليكون داعيةً فكل هؤلاء الذين يهتدون على يديه في صحيفة الأب، لكن هذه الحقيقة تغيب عن كثيرٍ من الآباء، حبّذا لو أنّ كل أب اختار من أولاده النجيب المتفوّق الألمعي وعلّمه العلم الشرعي، وسلّكه طريق الإيمان ليكون داعيةً، فكل أعماله في صحيفة الأب، فهذا الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم يقول:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح عند ابن خزيمة عن أبي هريرة)

هذه الثلاثة من سعي الإنسان قبل أن يموت، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

كل إنسان ينال جزاء عمله يوم القيامة:

إياك أن تتوهَّم أنه يمكن أن ينالك من سعي الآخرين شيءٌ، حتى إن الأب (دققوا فيما سأقول) إذا كان على غير المنهج القويم ولم يعمل لآخرته إطلاقاً، وجاءه ولدٌ صالحٌ، وكان هذا الأب على خلافٍ معه طوال حياته، وكان يمنعه من طلب العلم الشرعي، وكان لا يرضى عن سلوكه، فلو أن هذا الابن أصبح أكبر داعيةٍ في الأرض فلن ينال الأب منه شيئًا، لماذا ؟ لأنه ما أراده كذلك، ولم يُسهم في تكوينه كذلك، فالقضية دقيقة الدلالة جداً.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

لا يُضاف لك شيء لم تفعله، كما أنه لا يُحذف شيءٌ مما فعلته، عملك تنال جزاءه جزاءً وفاقًا، وفاقَ النية الطيبة وحجم العمل.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

كل عملٍ للميت نصيب فيه قبل موته يصل إليه:

إلا أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال:

((أسرع الدعاء إجابةً دعوة أخ لأخيه بظهر الغيب))

وتوجد رواية ثانية:

((دعوة الأخُ لأخيه بظهر الغيب لا تُرد))

كيف ؟ أيضاً هذه الدعوة من سعي الإنسان، فلو أنك كنت محسناً لأخيك وغمرته بإحسانك، فلمَّا غبت عنه وألمّ بك مكروه دعا لك، لماذا دعا لك ؟ لأنه تذكّر إحسانك إليه فدعا لك، حتى حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

((دعوة الأخُ لأخيه بظهر الغيب لا تُرد))

علّله بعض العلماء: أن الإنسان لا يتذكّر أخاه إلا إذا كان محسناً له، فإذا أحسنت إلى أخيك، وألمّ بك مكروه، ودعا لك بظهر الغيب فإن دعوته لا تُرد، وهذه الدعوة ثمرة من ثمار عملك الصالح. كما أن الصدقة تصل إلى الميت بعد موته لأن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن هذا ووضّحه، ولولا أن هذا الميّت ترك أثراً طيّباً في تربية أولاده، وفي معاونة إخوانه، وفي مواساة أحبابه لما تذكّروه بعد موته وأنفقوا هذه الصدقة على روحه، فالصدقات تصل، والدعاء يصل، وكل عملٍ للميت نصيب فيه قبل موته يصل إليه، وهذا ينطلق من قوله تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

تربية الأولاد التربية الصالحة من أعظم الأعمال عند الله:

أيها الأخوة الأكارم: هذا حديثٌ دقيق المعنى، من أدقّ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، اعمل عملاً يستمّر أثره بعد الموت، هذا العمل لا ينقطع ثوابه، والإنسان في قبره تأتيه الخيرات، هذا الولد الذي ربّيته، الذي سهرت في تربيته، الذي جعلته معك رفيقاً، الذي أخذته إلى المسجد، علّمته القرآن، جَهدتَ في تربيته وتوجيهه، بذلت من مالك من أجل إكرامه، زوّجته، هذا الابن الذي ساهمت في تكوينه وتكوين إيمانه ذخرٌ لك من بعدك، لذلك تربية الأولاد التربية الصالحة تُعدُّ من أعظم الأعمال عند الله عزّ وجل، لماذا ؟ لأن ثوابها لا ينقطع بالموت، أيّ عملٍ صالح إذا فعلته ينتهي عند الموت إلا تربية الأولاد.

((من كن له ثلاث بنات فعالهن وآواهن وكفهن، وجبت له الجنة. قلنا: وبنتين ؟ قال: ' وبنتين '. قلنا: وواحدة ؟ قال: ' وواحدة))

(أخرجه الطبراني عن أبي هريرة)

أي: إذا إنسان رزقه اللهُ فتاةً فربّاها تربيةً إسلامية، عرّفها أمر دينها، عرّفها بكتاب الله، جعلها زوجةً صالحةً تقيةً ورعةً مطواعةً لزوجها، اختار لها الزوج المؤمن الذي يحفظ لها دينها، هذه الفتاة تأخذ بيد أبيها إلى الجنّة، هؤلاء الفتيات ذكرهنّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام فقال:

((إنهنّ المؤنسات الغاليات))

(رواه أحمد و الطبراني عن عقبة بن عامر)

لماذا ؟ لأن كل فتاةٍ في البيت (دققوا فيما سأقول) يمكن أن تكون سبباً في دخولك الجنّة، كل فتاةً إن ربّيتها تربيةً إسلامية، إن ربيتها على العفاف، إن ربيتها على طاعة الله، إن حجبت مفاتنها عن الأجنبي وبقيت للمحارم، إن اخترت لها زوجاً مؤمناً يحفظ لها دينها، يتابع طريق إيمانها، هذه الفتاة سببٌ لدخولك الجنّة.

العلم أثره باق و ثمرته لا تنقطع:

أيها الأخوة: تربية الأولاد والعلم الذي يُنتفع به، أثرُهما باقٍ، وثمرهما لا ينقطع أبداً إن شاء الله، مرّةً قرأت تفسير آيةٍ في كتاب تفسير ألّفه صاحبه قبل ألف عام، لفت نظري دقّة هذا التفسير فجعلته موضوع خطبةٍ وألقيتها على الإخوة الكرام، شعرت أن أثراً كبيراً تركته في الناس، تذكّرت هذا المفسِّر الذي كتب هذا التفسير قبل ألف عام، فمن هذه الخطبة جاءه الخير، وذُكر بالخير، لا تجد إنساناً يترك أثراً علمياً ؛ كتاب تفسير مثلاً، أو كتاب حديث، أو كتاب فقه، أو كتاباً في العقيدة، أو كتاباً في فروع

الدين، أو كتاباً في الآيات الكونية، لا يوجد إنسان يترك أثراً علمياً ويموت، إلا وكلُّ مَن قرأ هذا الكتاب، وكل من انتفع بهذا الكتاب، وكل من اقتبس من هذا الكتاب، وكل من ضمَّن في دعوته وفي خطبه مما في هذا الكتاب فهو في صحيفة المؤلِف إلى يوم القيامة.

فالإنسان إذا كان عاقلاً يبحث عن عملٍ يدوم، يبحث عن عملٍ كأني أقول يلغي موته، سيدنا علي يقول: **"يا بني العلم خير من المال، لأنّ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقِصُه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني مات خُزّانِ المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".** يجب أن تحدِّث نفسك بطلب العلم، ويجب أن تُعَلِّم بعد أن تحصِّل العلم، لأن خيركم كما قال النبي الكريم:

((خيركم من تعلم القرآن و علمه))

(البخاري عن عثمان)

الصدقة الجارية في صحيفة الإنسان إلى يوم القيامة:

ينبغي أن تدع أثراً، ولو رسالة صغيرة، ولو بحثاً صغيراً، ولو تركت أثراً في أولادك، أحياناً ألتقي مع بعض الأخوة الطيّبين، كلّما ذكر أباه ترحّم عليه، ويقول: أبي علّمنا أن نصلي الفجر في المسجد، أبي علّمنا ألاّ نكذب، أبي علّمنا أن نتواءم بعد وفاته، أبي علمنا أن نحسن للناس، أبي علمنا أن نكون صادقين، كل أعمال هذا الابن في صحيفة أبيه، أنت أمام أبواب لا يعلم إلا الله خيراتها ؛ تربية الأولاد، وطلب العلم، وتعليم العلم، وترك أثراً علمياً، وصدقةٍ جارية، بناء مسجد.

أنا كنت أقول حينما تأتيني لجان من المساجد الأخرى للتبرُّع، أقول: كل من صلى في هذا المسجد، وكل درس يعقد في هذا المسجد، وكل دمعةٍ تنهمر من عين مصلٍ في هذا المسجد، وكل توبةٍ تعقد في هذا المسجد في صحيفة من بناه إلى يوم القيامة، فالصدقة الجارية، أحياناً مسجد، وأحياناً معهد شرعي، هناك معاهد شرعية الآن تعدُّ مفخرة، تضم آلاف الطُلاّب، ماذا يُعَلّمون ؟ يُعَلّمون الكتاب والسنّة، والفقه والتفسير، والآداب الإسلامية والعقيدة الصحيحة، فإذا الإنسان ساهم ببناء مسجد، أو بترميم مسجد، أو بتأمين مرافق المسجد ؛ من نحو: تكبير الصوت، الإضاءة، التدفئة، التكيّيف، الفرش، ساهم بالتدريس في المسجد، ساهم بدعم هذا المسجد، كل هؤلاء لهم عند الله أجرهم، هذه الصدقة الجارية ؛ مسجد، مستشفى خيري، مستوصف خيري، معهد شرعي، مرفق عام مفيد جداً.

على الإنسان أن يترك أثراً من عمل الصالح ينفعه بعد موته:

هؤلاء الأجداد المرجة في دمشق هذه أرضٌ وقفية، أوقفها أصحابها للدوّاب المريضة كي ترعى وتستريح، هناك أوقاف في الشام لا يعلمها إلا الله كلها تنطلق من أعمال الخير، العصر ونية هي وقف، فكل طفلٍ أو خادمٍ انكسر معه إناءٌ وله سيدٌ قاسٍ يأتي إلى هذا المكان فيأخذ الإناء الجديد ويعطيهم أثراً من القديم، كم مشكلة حُلت بهذه الطريقة ؟ وكانت هناك بمارستانات قديماً، مستوصفات خيرية مجّانية، طعام مجاني للفقراء، سبحان الله كان السلف الصالح همُّهم الوحيد خدمة الخلق، والتقرُّب إلى الله عزّ وجل، الآن همّه الفيلا ومسبح فيها، ومركبة فاخرة، وقضاء إجازة في أنحاء العالم، همه المتعة فيموت صفر اليدين، كان الأجداد همهم العمل الصالح، همهم تركُ أثر، والأبواب مفتوحة أيها الأخوة، بإمكانك أن تطلب العلم، بإمكانك أن تحفظ كتاب الله، بإمكانك أن تتعلّم علم التجويد، بإمكانك أن تعلِّم التجويد، بإمكانك أن تعلِّم ما علّمك الله، وهكذا تكون قد تركت أثراً علمياً، ألِّف كتاباً صغيراً إذا كنت من أهل التأليف، اترك أثراً علميًّا، اترك أثراً فكريًّا، اترك أثراً اقتصادياً، أثراً من عمل الصالح ترجو ثوابه عند الله سبحانه.

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح عند ابن خزيمة عن أبي هريرة)

أعظم عملٍ على الإطلاق الاستقامة و الدعوة إلى الله:

هل بيننا شخص ليس له ابن ؟ فهذا الابن يجب أن تفكر تفكيراً ملياً أن تجعله داعيةً، وعلى الله رزقه، وتأتي الدنيا وهي راغمة، حينما جُعِلَ الصف العاشر في التعليم الشرعي خاص بالمتفوقين أعرض الناس عنه ووضعوا أولادهم في التعليم العام، فلماذا لا تجعل ابنك يدرس العلم الشرعي ؟ لمَ لا تجعله داعيةً ينفع الناس بعلمه، لمَ لا تجعل كل دعوته في صحيفتك ؟ هذا هو العمل العظيم، فالأعمال كثيرة جداً، وربنا عزّ وجل قال:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

خالق الكون يقول لك: إن أعظم عملٍ عندي على الإطلاق أن تستقيم على أمري وأن تدعو لي. أكرّر قوله تعالى ثانية علّه ينفذ أثره إلى قلوب الآباء:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

عدم وصول الإنسان إلى الجنة إلا بعمله الصالح:

يحب أن تفكِّر جديّاً، فهذه المساجد من يتولّى أمرها ؟ كيف ينقرض العلم ؟ بموت العلماء، والشيء المؤلم أنه كلّما توفي عالم ليس هناك من يخلفه، فبموته انهدم ركنٌ من أركان الأمّة، فلابدّ من أن نهيئ دعاة إلى الله يخلفون السلف، وفي القطر أربعة آلاف مسجد، فمن لهذه المسجد ؟ كلها تحتاج لخطباء صحيحة عقيدتهم، مستقيمي السلوك، نيري الذهن، مثقّفين ثقافة عالية لكي يتركوا أثراً في الناس، فلذلك لابدّ لكل إنسان أن يفكر تفكيراً جديّاً: كيف أدعو إلى الله ؟ إما من خلالك شخصياً أو من خلال أولادك، فلماذا لا تتمنّى إلا أن يكون ابنك طبيباً ؟ آلافٌ مؤلّفةٌ يحلّون محلّ ابنك في هذه الحرفة، لماذا لا تتمنّى ابنك إلا أن يكون مهندساً ؟ لمَاذا لا تتمنى أن يكون ابنك داعيةً إلى الله عزّ وجل ؟ لِمَ لَمْ تهيئه منذ صغره ليكون عالماً ؟ وهذا كله في صحيفتك، فلذلك إما أن تدعو أنت مباشرةً، أو من خلال أولادك، أو أن تدعم إنسانًا يدعو إلى الله عزّ وجل، وهذا بإمكاناتك، لأن الحياة تحتاج إلى دعم في مختلف مناحيها، فلذلك:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

فهذه الآية أصل من أصول العقيدة، فكثير من الأفكار والقصص الخرافية توهم أن الإنسان بكلمة أو بدفعة من عالِم صار من أهل جنة، هذا كله كلام لا معنى له، لن تصل إلى الجنة إلا بعملك الصالح.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح..

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف: آية " 19 ")

الداعية إلى الله عمله في صحيفة أبيه إن رباه على ذلك:

فيا أيها الأخوة الكرام: هذا الحديث الشريف هو محور هذا الدرس:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ))

(صحيح عند ابن خزيمة عن أبي هريرة)

اختر من بين أولادك النجيب المتفوق، الألمعي وقل: هذا سيكون داعيةً إن شاء الله، أدخله المعاهد الشرعية، والحمد لله عندنا معاهد شرعية كثيرة، والشهادة التي ينالها طالب المعهد الشرعي تعادل الشهادة العامّة تماماً، الذي يحمل ثانوية شرعية يدخل أي فرع في الجامعة، طبعاً الفرع الأدبي، فهناك تعادل الشهادات والحمد لله، وهناك دعم للتعليم الشرعي وهذا من فضل الله عزّ وجل، فرصة، فكل

واحد يفكر أن يعلِّم ابنه التعليم الشرعي، أن يجعله عالِماً، أن يجعله داعيةً، هذه المساجد تحتاج إلى خطباء، تحتاج إلى علماء، تحتاج إلى مدرّسين، فعندما يفكر الإنسان تفكيراً جيداً بأن يجعل ابنه داعية إلى الله عزّ وجل وفق المنهج الصحيح، وفق العقيدة الصحيحة، وفق الأسلوب التربوي الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلّم فهو عندئذٍ يكون ممن تنطبق عليه هذه الآية:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

النية وراء كل عمل صالح:

ذكرت فكرة وسأعيدها مرّة ثانية: لو أنّ أباً أنجب ولداً وهذا الابن تديّن تديّناً صحيحاً ولم يكن الأب راضياً عن تديّنه، يريده أن يكون في عمل آخر وله شأن آخر، لو أن هذا الابن أصبح أعلم العُلماء، وأكبر الدعاة لا ينال الأبَ من ابنه شيء، لأنه لم ينو ولم يردْ منه ذلك، أراده إنسانًا متفلِّتًا، فالعبرة هي النية:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))

(متفق عليه عن عمر بن الخطاب)

إذا دخل الوالدُ إلى بيته ورأى أولاده وبناته وقلّب النظر فيهم، فإن كان الولد ذكراً فإنه يمكن أن يكون أحد أكبر أسباب سعادتك الأبدية إذا عرّفته بالله، وإذا حملته على طاعة الله، وإذا هيّأته ليكون عالماً، أو ليكون داعيةً، أو ليكون عضواً نافعاً في المجتمع، ثم هناك أبوابٌ لا تعدُّ ولا تُحصى للصدقة الجارية، وإن كان الولد بنتاً و أحسنتَ تربيتها كانت من المؤنسات الغاليات و أخذت بيدك إلى الجنة.

هذه المساجد التي تفتخر بها دمشق من بناها ؟ من ساهم في بنائها ؟ من ساهم في تأسيسها ؟ من عَمَرَها بالصلاة وبالتدريس والخطبة ؟ فهؤلاء جميعاً شركاء في الأجر، والولد الصالح الذي يدعو لك من بعدك، والصدقة الجارية، والعلم الذي يُنتَفع به كل أولئك في صحيفتك إن شاء الله.

الحد الأدنى أن تدعو إلى الله في حدود ما تعلم:

الإنسان أحياناً ولا أبالغ فيما أقول: فأنت إن حضرت مجلس علم والدرس ساعة أليس في الدرس آية تركت أثراً في نفسك ؟ حضرت خطبة، وإنك تحضر الدروس والخطب من عشرين سنة، ولكن ألم تجد آية واحدة تركت أثراً عميقاً في نفسك ؟ ألا يوجد حديث شريف هزّ أعماقك ؟ ألا توجد قصّة لصحابي جليل غيّرت مجرى حياتك ؟ ألا تستطيع أن تنقل هذه الآية، أو ذاك الحديث، أو تلك القصّة إلى الآخرين؟ بأسلوبك المتواضع، ولو بلغتك العامّية، لمن حولك، هل هناك إنسان ليس حوله أشخاص ؟

هل تجد إنسانًا لا يلتقي مع أقربائه في الأسبوع عدة مرّات ؟ في سهرة، أو خِطبة، أو لقاء عائلي، أو عقد قِران، وأحياناً مواساة في حزن، وعيادة مريض، أو وليمة، أو سفر، أو نزهة، فكل إنسان يعيش في مجتمع من الأهل والأصدقاء والجوار، في هذه اللقاءات ماذا تقول وبِمَ تتحدث ؟ عن أي شيء تتكلّم في هذه اللقاءات ؟ ألا ينبغي أن تحدِّثهم عما فهمته من كتاب الله ؟ ألا ينبغي أن تحدثهم عما فهمته من كلام رسول الله ؟ ألا ينبغي أن تحدثهم عن بعض مواقف الصحابة وما أكثرها و ما أجلّها ؟ فأنت داعية بهذه الطريقة، أنا لا أكلِّفك أن تكون العالِم الوحيد، وحيد عصره، ووحيد زمانه، في حدود ما تعلم أنت داعية، قد لا يصل الأمر إلى أن تكون من العلماء الكبار اللامعين، أنت سمعت آية واحدة، حديثاً واحداً، قصّة واحدة، أليس بالإمكان أن تعيدها لمن حولك ؟ لأقربائك، لأولادك، لإخوانك، لزملائك، لمن معك في العمل، لشركائك، لأولاد أخوتك، أنت عايش مع الناس، لمَاذا لا تجعل كل لقاءاتك مع الآخرين لقاءات دعوة إلى الله ؟ لقاءات تذكير، لقاءات تعريف بالله عزّ وجل، أنت طالب علم، أنت معدودٌ على أهلك أنك طالب علم فأين علمك ؟ وأين حديثك عن الله عزّ وجل ؟

أبواب الجنة مفتحة أمام الإنسان:

ولعلّك أنْ تنقل تفسير آيةٍ واحدةٍ تنقذ بها إنساناً، هذا الإنسان هو وأهله، وأولاده، وذرّيّته إلى يوم القيامة في صحيفتك، ما قولك الملاحظ أنّ هناك إخوانًا يتوهّمون أن حضور الدرس هو كل شيء، والله حضور الدرس وحده ليس بشيء، إلا في حالة واحدة وهي أن تنطلق منه إلى فعل كل شيء، حضور الدرس من أجل أن تخرج للعمل، فالنبيُّ عليه الصلاة والسلام يعلّمنا أنّ أحدنا إذا دخل بيت الله عليه أنْ يدعو فيقول:

((اللهمّ إني أسألك أن تفتح لي أبواب رحمتك))

فإذا جلست بعد ذلك في مجلس علم تشعر بالتجلّي، تشعر بالسكينة، بالراحة النفسية، بالغذاء الروحي، وكان عليه الصلاة والسلام إذا خرج من المسجد قال:

((اللهمّ افتح لي أبواب فضلِك))

إنه يريد عملاً يجسّد هذا الفهم، يريد عملاً صالحاً يجسّد هذا الفهم لكتاب الله، فالإنسان مفتّحةٌ أمامه أبوابٌ كثيرةٌ، ابنتك باب للجنّة، وبنتان فلكَ بابان، ثلاث بنات، هل راقبت أهلك في الصلاة في البيت ؟ أين قوله تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

(سورة طه)

على الإنسان أن يحدّث نفسه بالأعمال الصالحة التي تستمر بعد موته:

خروج بناتك هل راقبته ؟ راقب صلاة بناتك، راقب تصرفات بناتك عند خروجهن أو في البيت، هل هو خروج شرعي أم هناك مفاتن ظاهرة ؟ وأنت مسؤول، شيء ثالث: هل راقبت حديث بناتك ؟ فيه غيبة، فيه نميمة، فيه كِبْر، فيه استعلاء، فيه كلام فارغ، فيه حديث لا يرضي الله عزّ وجل، يجب أن تلاحظ الحديث، وأن تلاحظ الصلاة، وأن تلاحظ الخروج، فإذا ربيت ابنتك تربيةً إسلامية، ثم جاءها الخُطّاب فاخترت من بينهم المؤمن، فإن هذه الفتاة في صحيفتك إلى يوم القيامة، وهي أحد أسباب دخولك الجنة.

كذلك ابنك إذا علّمته، إذا كان معك في المسجد، إذا نشأ على حضور مجالس العلم، إذا نشأ يألف بيوت الله عزّ وجل دائماً، إذا جلست معه الساعات الطِوال تسأله وتجيبه، وتعلِّمه وتوجِّهه، هذا ابن، إذا خرج مؤمناً صادقاً كان حقّاً قرة عين، إذاً البنت باب، والابن باب، فإذا حضرت مجلس علم وسجّلت بعض النِقاط وجعلتها منهجك طوال الأسبوع فهذا نهج حميد، فمثلاً في هذه الجمعة فسّرنا قوله تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

ألا يمكن أن تعيد جزءاً من معانيها ؟ بلقاء، باثنين، بثلاثة، بعملك، بسهرتك مع أحد إخوانك، في سهرةٍ، في عشاءٍ، في وليمةٍ، في لقاءٍ مع الجيران، في عقد قِران، ألا يمكنك إعادته ؟ صرت داعية، فالإنسان يجب أن يُحَدِّث نفسه بالعمل الصالح الذي يستمر بعد موته.

أعظم الأعمال هي الأعمال التي تستمر بعد الموت:

بالمناسبة فإن أعظم الأعمال هي الأعمال التي تستمر بعد الموت، وأفدحُ الأعمال شناعة هي الأعمال التي يموت صاحبها ولا ينتهي الإثم الذي تركه، أسّس ملهى تُقام فيه كل المعاصي والآثام وبعد الافتتاح بجمعة مات، هذه ليست صدقة جارية بل هو إثمٌ جارٍ إلى يوم القيامة، فالعبرة أن تعمل عملاً يُخَلِّد ذكرك بعد الموت، الآن نحن الحاضرين، في الأعم الأغلب بعد مئة سنة لن يكون واحد على قيد الحياة، وهناك طقم بشري ثانٍ يأتي، في الأسواق، في البيوت، الله جعلنا خلائف يخلف بعضنا بعضاً، معنى هذا نحن زائلون، فماذا يبقى ؟ العمل الصالح هو الذي يبقى، هو الذي يرفعنا عند الله عزّ وجل، لكن ماذا أكلنا ؟ ماذا شربنا ؟ أين سكنّا ؟ كم هي مساحة البيت ؟ تزيين البيت، هذا كله زائل، فالعلماء الكبار، والمصلحون الكبار، والقادة الكبار تركوا بصمات واضحة في الحياة.

العلماء والقادة الكبار تركوا بصمات واضحة في الحياة:

مَن منّا لا يذكر سيدنا صلاح الدين الأيوبي ؟ كيف ردّ أوروبا بأكملها، وحرّر هذه البلاد من الغزاة الأجانب ؟ مَن منّا لا يذكر سيدنا عمر بن الخطّاب ؟ وهؤلاء الصحابة الكرام، هؤلاء الذين تركوا بصمات واضحة في المجتمعات، فكل إنسان بحسب إمكاناته يمكن أن يدع بصمة، ذات مرّة قال لي أخ: أنا أستيقظ قبل الفجر دائماً، وقال: إنّ والدي عوّدني على ذلك، فكان يأخذني معه إلى المسجد قبل الفجر لنصلي قيام الليل ونصلي الفجر حاضراً، واستمر هذا ديدنه وشأنه حتى سن متأخّرة، وكان يترحّم على والده، فأنت من الممكن أن تعمل عملاً طيّباً يبقى ذكره لك إلى يوم القيامة.

من يطلب العلم و لو مشافهة يترك علماً نافعاً يجازى عليه:

ملخّص هذه الآية: قد يتوهّم أحدكم أنه لا ينجو أو لا يرقى عند الله إلا إذا كان من أعلام العلماء، لا، أبداً، إذا حضرت مجلس علم وفهمت آية ونقلتها للآخرين نقلاً صحيحًا، وهؤلاء الآخرون استفادوا منها وغيّروا سلوكهم فأنت ممن تنطبق عليه هذه الآية، تركت علماً نافعاً يُنتَفع به، فالأمور تكبر وتصغر، تتوسّع وتضيق، فالحد الأدنى أن تدعو إلى الله في حدود ما تعلم، ومَن تعرف فلن تجد أحداً إلاّ وحوله أقارب، أقرباؤك الخُلّص، إخوانك، أصدقاؤك، جيرانك، زملاؤك، فأنت حينما تطلب العلم مشافهةً وتنقله مشافهةً في حدود ما تعلم، وفي حدود من تعرف، فقد تركت علماً نافعاً، وقد يقول الذي نقلت له هذه الآية يوماً وهو يقصدك بقوله: جزاه الله خيراً، فبسبب هذه الآية أقلعتُ عن تلك المعصية، بسبب هذه الآية بدأتُ أصلي في الجماعة، بسبب هذه الآية فعلت كذا وكذا، فهذه واحدة ولكنها ترجح كفة الميزان.

على كل إنسان أن يبحث عن عمل صالح ينفعه بعد موته:

أحياناً الإنسان لا يُحسِن النقل ولكنه يعطي شريطًا، وهذا الشريط فيه خير كبير، وبهذه الطريقة أيضاً أنت نقلت العلم، وانتُفِعَ به وفي صحيفتك، ولك أجرٌ كبير، فنشر العلم النافع باب واسع جداً، بإمكان كل مَن حضر هذا الدرس أنْ يكون له نصيب منه

((و علمٍ يُنتَفَعُ به))

إنسان ساهم بتنظيف مسجد وهو فقير وليس معه شيء، لنا إخوان (جزاهم الله خيراً) نظّفوا هذا السجاد، واشتغلوا فيه شهراً حتى صار نظيفاً، فخدمة بيت الله خدمة عظيمة جداً، فالإنسان يقدر أنْ يساهم بتنظيف المسجد مثلاً، أو بتأمين مرافق المسجد أحياناً، أو تصليح كهربائه، وتأمين التدفئة،

وتأمين التهوية، وتكبير الصوت، فهذه صدقة جارية في صحيفتك، أجرينا توسعة فساهمت فيها فهذا في صحيفتك، فابحث عن عمل ينفعك بعد الموت.

أو:

((ولدٍ صالح))

الذي عنده ابن، الذي عنده أخ صغير أخذه معه إلى المسجد، قدّم له هدية، حبّب إليه المسجد، عامله معاملة خاصة فقرّبه مِن ربّه، فعندما يحضر الطفل إلى بيت الله المرة تلو الأخرى فإنه يألف بيوت الله، ويألف الحق، ويألف تطبيق الحق، فهذا شيء رائع جداً، وأعود فأكرر هذا الحديث محور درسنا، وهو حديث صحيح رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقطعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح عند ابن خزيمة عن أبي هريرة)

هذا هو العمل الطيّب.

مجالات الصدقة الجارية واسعة جداً:

مثلاً: الكهرباء انقطعت فجأةً فبعض الأخوة هيئوا لنا مولِّدة وعلى الفور اشتغلت واتصل التيار، فهذا في صحيفته إلى يوم القيامة، والدرس قائم فنحن نحتاج إلى تكبير صوت وإلى إضاءة، فالذي ساهم بتأمين مولِّدة له أجر، وهذه صدقة جارية، والذي ساهم بفرش المسجد، والذي ساهم بالتدفئة المركزية، والذي ساهم ببعض الأشياء الأساسية في المسجد، فكم شخصٍ صلّى تحت هذه الخيم، الشمس حادّة، والذي ساهم فيها له أجر.

أيها الأخوة: الصدقة الجارية مجالاتها رحبة واسعة جداً، فبإمكان كل واحد منّا أن تكون له صدقة جارية، وكذلك الولد الصالح ففي كلّ تقريبا فيه أولاد وبنات، ولِيعلِّمْ كل واحد منّا ابنته وابنه صلاحهما، ويضبط سلوكهما وخروجهما، وحديثهما، يربيهما تربية صالحة وبذلك يكون قد ساهم بولدٍ صالحٍ أو ابنة صالحة يدعوان له، وكذلك العلم يُنتَفع به فتعلّمْ وعلِّمْه..

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

وقوف الإنسان يوم القيامة ليرى عمله أمام جميع الخلائق:

إيّاك أن تتوهّم أن شيئاً تناله من دون أن تفعله، أو أنّ شيئاً من عملك يُنتَقَصُ منه، أبداً، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، لكن الإنسان أحياناً في الدنيا يكون في عمل عظيم فنُعَتِّم عليه، وفي عمل صغير ننفخ فيه، شأن بعض الناس يتصنّف بحسب أهوائه، مثل قريب جداً: أحياناً تكون امرأة لها ابنة ومتزوّجة، فأعمال ابنتها الصغيرة تُضَخَّم، وتُضخَّم، وتُضَخَّم، وتثني عليها في المحافل وعلى ذكائها، وعلى كونها زوجة صالحة، وعلى تربيتها لأولادها، وأعمال زوجة ابنها أحياناً في التعتيم، مهما فعلت يُعتَّم عليها، وهذا مثل مأخوذ من واقعنا الاجتماعي، فالإنسان في الدنيا بحسب أهوائه يبرز أو يعتِّم، لكن الله سبحانه وتعالى لعدله ولكرمه يبيّن أنّ هذا السعي سوف يُرى..

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

هذا السعي سوف يشهده الناس جميعاً، سوف يقف الإنسان يوم القيامة ليُرى عمله أمام الخلق قاطبةً، في هذا الوقت يعدُّ العمل الصالح مفخرةً لصاحبه، ويعدُّ العمل السيئ وصمة عارٍ على جبين صاحبه..

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران: آية " 106 ")

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

(سورة الصافات)

العمل الصالح مفخرة لصاحبه والعمل السيئ عار على صاحبه:

لذلك الآية الثانية متمِّمة..

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

ليس هناك تعتيم، ولا تضخيم، عملك الصالح بحجمه الحقيقي، بنواياه الطيّبة سوف يبرز للخلق قاطبةً، لذلك مرّة قام أحد من حول النبي عليه الصلاة والسلام فقال: **"يا رسول الله إني نؤوم "** (أنام عن الصلاة) فسيدنا عمر غضب وقال: **" ويحك لقد فضحت نفسك "**، فقال النبي الكريم:

((مه يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة))

(رواه الطبراني عن الفضل بن عباس)

فإذا أخطأ الإنسان بين خمسة أشخاص أهون مِن أن يخطئ بين ألف شخص، أو بين مليون شخص، وأحياناً الإنسان يغلط في حديثه لأجهزة الإعلام غلطة فيتناقلها الناس في كل بقاع الأرض، فكيف يوم القيامة إذا أخطأ خطأً عرض على الخلق قاطبةً ؟

(وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)

سيقف الأنبياء، سيقف العلماء، سيقف الدُعاة، سيقف المدّعون، سيقف المجرمون، كلٌ بحسب عمله..

(وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)

العدل المطلق يوم القيامة:

الإنسان أحياناً بذكاءٍ وطلاقة لسانٍ وقوّة بيان يقلب الحقّ إلى باطل والباطل إلى حقّ، لكنه يوم القيامة كيف يكون شأنه، يقول الله عزّ وجل ؟:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس: آية " 65 ")

فالآية الثانية خطيرة جداً..

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

المرحلة الثالثة:

(ثُمّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)

عدلٌ مطلق..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

(ثُمّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)

المؤمن حقه عند الله محفوظ يوم القيامة:

الحركات والسكنات والنيات والتطلعات والصراعات كلّها مسجّلة، لذلك فالإنسان إذا أيقن من خلال هذه الآيات الثلاث أن الأحوال كلها مكشوفة وهو مجزيٌّ بها فإنه يحتاط لنفسه.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41))

إذًا: فاعلم أنّ هذه الآيات الثلاث أصل من أصول الدين، فلا تتوهّم أن يأتيك ثواب عمل لم تفعله، ولا تخف أن يُنتقص من عملك الصالح الذي تبتغي به وجه الله عزّ وجل، وأن هذا العمل بحجمه الحقيقي وبخلفيته الصحيحة (النية التي وراءه) سوف يبدو للملأ قاطبةً يوم القيامة، والمرحلة الثالثة: سوف تنال جزاءه كاملاً دون نقصٍ ودون ظلمٍ، فالمؤمن حقّه عند الله محفوظ، فإذا كان الله هو الذي يسجّل عليك، وهو الذي سيُظهر عملك، وهو الذي سيكافئك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فماذا نفعل ؟ إذاً لابدّ من عملٍ صالحٍ يبقى بعد الموت، لابدّ من صدقةٍ جارية، لابدّ من علمٍ يُنتَفعُ به، لابدّ من ولدٍ صالحٍ يدعو له.

الوقت و المال أثمن شيء يملكه الإنسان في حياته:

كل بيت فيه أولاد، وكل إنسان بإمكانه أن يسمع الدرس ويبلِّغه، وكل إنسان يقدر أن يترك أثراً في مسجد، أو في مشروع خيري، لو بجهده مثلاً، فأحياناً يقدِّم خدمة فيقول لك: أنا سوف أنظِّف المسجد في الجهة الفلانية، هذا قدَّم شيئًا، هذه صدقة جارية، فالإنسان عليه ألاّ يضن بوقته ولا بماله لأن هذا الذي يبقى، والذي نستمتع به في حياتنا هو الذي يذهب، هذا الذي يبقى وذاك الذي يذهب.

كان موضوع درسنا اليوم ثلاث آيات، هي:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41))

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 42-49
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-10-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثامن من سورة النجم، ومع الآية الثانية والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)

محاسبة الله كل إنسان على عمله:

نهاية العباد، ومصيرهم، ومرجعهم، ومآلهم إلى الله، وسوف يحاسبهم، فلو أن الإنسان آمن بالله، فسينتهي إليه، وسيكافئه على إيمانه واستقامته وعمله الصالح، ولو أنه كفر بالله وأساء إلى الخلق فسينتهي إليه وسيحاسبه على كفره وإساءته وتفلته، ولو أنه فعل ما فعل من إيذاء الخلق فسينتهي إلى الله وسيحاسبه، ولو أنه أحسن فسينتهي إلى الله وسيحاسبه، لو اتصل بالله وعرفه حقًا فسينتهي إليه وسيكافئه، لو ترك الصلاة فسينتهي إليه وسيعاقبه.

تصور ساحة فيها عشرات بل مئات الطرق، وهذه الطرق تبدو متباعدة، لكن في النهاية كلها تصب في شارع عريض واحد، افعل ما شئت، لك أن تؤمن، ولك ألاّ تؤمن، لك أن تشكر، ولك أن تكفر، لك أن تستقيم، ولك ألاّ تستقيم، لك أن تحسن، ولك أن تسيء، لك أن تخلص، ولك أن تخون، لك أن تعفو، ولك أن تنتقم، لك أن تنفع، ولك أن تؤذي، افعل ما شئت، اعملوا ما شئتم، لابدّ من أن تنتهي إلى الله، فليس من طريق آخر، كل الطرق تنتهي إلى الله، والله سيحاسب كل إنسانٍ على عمله.

كل الطرق تنتهي إلى المولى سبحانه:

فيا أيها الأخوة الأكارم: لو أن الإنسان عرف هذه الحقيقة في بداية حياته لشكل حياته على نسق خاص، ولضبط سلوكه وفق هذه الفكرة الخطيرة، فإذا سافر الإنسان إلى أي مكانٍ فإنه سوف يعود به إلى بلده وسيحاسب عن كل كلمةٍ قالها، لو أيقن هذا فلن يتكلم كلمة خلاف الأصول، فالمؤمن، والكافر، والمُلحد، والفاجر، والفاسق كلٌ إلينا راجعون، آمنت أو لم تؤمن، قلت: الدين لا علاقة له بالحقيقة، قل ما شئت فلابدّ من أن تنتهي إلى الله وأن يحاسبك الله على كل أقوالك وأفعالك.

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)

تحرّك، ربنا عزّ وجل قال:

(إِنّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة القلم)

الإنسان في قبضة الله ولو ذهب إلى أي مكان:

المتانة صفة تؤكد مقاومة قوى الشد، أما القساوة تؤكد قوى الضغط، الألماس قاسٍ جداً، أما الفولاذ المضفور أمتن معدن في الأرض، لذلك: المركبات التي تمشي على أسلاك يستخدمون لسيرها الفولاذ المضفور، فالفولاذ المضفور أمتن معدن، والألماس أقسى عنصر، فقوى الضغط تقابلها القساوة، وقوى الشد تقابلها المتانة، فربنا عزّ وجل قال:

(إِنّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة القلم)

فالإنسان مربوط وفي أية لحظةٍ هو في قبضة الله، اذهب إلى أي مكانٍ شئت.

لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفس وإن تمنّعت بالحجاب والحرس

فما تزال سهام الموت نافذة في جنب مدّرع منها و متّرس

أراك لست بوقافٍ ولا حذر كالحاطب الخابط الأعواد في الغلس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

***

إلى أيّة مكانةٍ ارتقيت، وفي أي مكانٍ كنت يأتي بك الله عزّ وجل، والآية الكريمة:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

معرفة الإنسان بأن مرجعه إلى الله دليل استقامته:

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

اذهب يميناً، يساراً، شمالاً، جنوباً، اركب الطائرة، كن وسط أعماق البحار، اصعد إلى القمر، أسس شركات، اجمع الأموال، افعل ما تشاء.

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

سوف تحاسب على كل كلمةٍ، وعلى كل همسةٍ، وعلى كل سكنةٍ، وعلى كل تصرفٍ صغيراً كان أو كبيراً.

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

هذه الحقيقة لو أيقن بها لكانت حياتنا غير هذه الحياة، ولاستقام الجميع على أمر الله، لسلكوا منهج الله، لطبّقوا شرع الله، لخافوا من الله، إذ هناك حساب دقيق، الإنسان في الدنيا أحياناً يحسب حساباً لكل كلمة يقولها، لأنه يعلم أنه سيحاسب، فكيف برب العالمين الذي يقول:

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

لا مفر للإنسان من الله إلا إلى الله:

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

إليه ينتهي كل الخلق على اختلاف أعمالهم، ينتهي إليه أهل الجنة، وأهل النار، والكفار، والمؤمنون، والملحدون، والعصاة، والطائعون، والفجّار، الناس جميعاً، كل الخلق ينتهون إلى الله، هذه هي الحقيقة، هذه الآية وحدها لو أيقنا بها لاستقمنا على أمر الله، إلى أين تفرُّون ؟ اعملوا ما شئتم، فأنتم إلى الله راجعون، وإليه تنتهون.

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

هذا هو معنى الآية، فيا أيها الإنسان أين تفرُّ ؟ لا مفر من الله إلا إلى الله، ولا ملجأ منه إلا إليه.

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

على الإنسان أن يعلم أن كل شيء محاسب عليه قبل فوات الأوان:

ساحة عامة فيها مئة طريق، يمين، يسار، شمال، جنوب، طريق مزدان بالأزهار، طريق مليء بالأشواك، افعل ما شئت، اسلك أيّ طريقٍ شئت، كل هذه الطرق سوف تلتقي في نقطةٍ واحدة عند هذه النقطة تحاسب على كل أعمالك، أنت الآن مخير، لكن بعد أن يأتي يوم الدين، يوم الدينونة والجزاء، يوم الحساب، تحاسب على كل شيء، هذه الحقيقة لابدّ من أن ندركها، لكن قد ندركها بعد فوات الأوان، بعد أن نصل إلى الله، وبعد أن ننتهي إليه، ثم نَلْقَى الحساب الدقيق، وقد علِمنا علم اليقين أن كل صغيرةٍ

وكبيرةٍ محاسبون عليها، والإدراك في هذه اللحظة لا جدوى منه، إدراكٌ جاء متأخراً، جاء بعد فوات الأوان، العبرة أن تعرف الحقيقة في الوقت المناسب، من أجل أن تستفيد منها، وقد أنبأنا الله بهذه الحقيقة في وقت مبكِّر، وقبل فوات الأوان.

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

النهاية إلى الله لا محالة، تجد شاباً وافاهُ الموت وهو في ريعان شبابه، إلى أين سيذهب ؟ إلى الله، إنسان مُعَمّر وافته المنيةُ فإلى أين سيذهب ؟ إلى الله، هذه الجنائز التي ترونها كل يوم إلى أين تصير ؟ إلى القبر، وماذا في القبر ؟ حسابٌ دقيق، مَن ربك ؟ ما دينك ؟ مَن نبيك ؟ لمَ فعلت ؟ لمَ لم تفعل ؟ هذا بعض الحساب.عدلٌ من الله، واستسلام مع العبد.

مصير الإنسان متعلق بإخلاصه في عمله:

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

دققوا، فالإنسان قد يسافر، يركب طائرات، ينتقل من قارة إلى قارة، ثم يموت، قد يعود إلى مسقط رأسه وقد لا يعود، على كلٍ:

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

فما دام المصير إلى الله والمنتهى إليه فلا بدّ من الصلح معه في الوقت المناسب، إذا كان المصير إلى الله، فالعاقل هو الذي يتوافق مع هذه الحقيقة ويعمل لها، مِن تعريف الذكاء: التلاؤم، القدرة على التكيُّف، فإذا أيقنت أن المصير إلى الله، وأن المنتهى إلى الله، وأن المرجع إلى الله، وأن المآل إلى الله بالقبر فأخلص العمل، قد يعيش المرء في أفخر بيت، فيُلَفُّ في أرخص أنواع الأقمشة، يلف ويوضع في حفرةٍ، لا ضوء، ولا نور، ولا ماء، ولا شيء من هذا القبيل، فالحفرة من تراب والمهاد من تراب، ويغلق عليه القبر وينتهي الأمر **"عبدي رجعوا وتركوك "** رجعوا وتقاسموا الإرث **"وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت ".**

العاقل من يتكيف مع لقاء الله عز وجل:

أيها الأخوة الأكارم: مِن أدق الحقائق هذه الحقيقة.

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

تاجر أسس معملاً فاغتنى، وجَمَّع ثروة هائلة، ثم اشترى أفخر بيت في المدينة، كما اشترى أفخر بيت في المصيف، ركب أفخر سيارة، قام برحلات بعيدة جداً، نزل بأفخر الفنادق، ثم ماذا ؟ لابدَّ من الموت، أو دعا إلى الله، بذل جهداً جهيداً في خدمة الخلق، طلب العلم، علّم العلم ثم ماذا ؟ لابدَّ من اللقاء مع الله عزّ وجل، هذا هو اللقاء الحَتْمِيّ، فالعاقل هو الذي يتكيَّف مع هذا اللقاء، يتكيف معه بالاستقامة، يتكيف معه بالعمل الصالح.

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

ما من طريق سالك لغير الله عزّ وجل، لو كان هناك طريق آخر لاجتازه فلان، أو قل: نفد فلان، بالتعبير العامي: (دَبَّر حاله)، لكن ليس من طريق آخر، وليس من مصير آخر ؟ وليس من إله آخر تلجأ له ؟ في الدنيا قد يعتبر لاجئًا، أحياناً الإنسان يضغط عليه فيلجأ إلى بلد آخر، يقبلونه لاجئًا، ويكرمونه، لكن هل من إله آخر تلجأ له ؟

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

الموت و الحساب نهاية الخلق:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

في أي مكانٍ كنت، وفي أية مكانةٍ كنت، الملوك يموتون، والأنبياء يموتون، والأغنياء يموتون، والفقراء يموتون، والأصِحّاء يموتون، والمرضى يموتون، طبيب ألف كتاباً جمع فيه مقالات متناثرة في عشرات المجالات ؛ فوائد هذا الغذاء، كيف يجب أن تنام، كم ساعة ينبغي أن تنام، نصائح لا تعد ولا تحصى، في الحياة اليومية، في تناول الأغذية، في الرياضة، ثم يفاجأ الإنسان أن هذا الطبيب الذي قدّم مئات النصائح، بل آلاف النصائح مات، فالأطباء إذًا يموتون، وأطباء القلب يموتون، وأطباء الجهاز الهضمي يموتون بأمراض هضمية أحياناً.

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

فيا أيها الأخوة: هذه حقيقة، مهما أنكرناها فهي واقعةٌ بنا ونحن إليها مآلنا، وهناك نقطة مهمة جداً، فمثلاً: إنكارك للشيء لا يُلْغي فاعليته، إذا أنكرنا هذه الحقيقة فالحقيقة باقية، الآية مطبقة علينا، اعترفت بها أو لم تعترف، آمنت بها أو لم تؤمن.

وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى: آية لها عدة معان:

1 ـ المصير و المرجع و الحساب إلى الله تعالى:

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

المصير إلى الله، المرجع إليه، المآب إليه، النهاية إليه، عنده الحساب، وعنده الجزاء، وعنده جنةٌ، وعنده نار، والجنة لمن أطاعه، والنار لمن عصاه، وهذا الكلام علينا أن نعرفه في الوقت المناسب ونحن أحياء، وفي حياتنا بقية، وقلبنا ينبض، ونحن أصحاء فتنتفع به، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي عن ابن عباس، أحمد عن عمرو بن ميمون)

إذاً العقل كل العقل، والذكاء كل الذكاء، والفلاح كل الفلاح، والفوز كل الفوز، في التكيّف مع هذه الآية..

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

هذا معنى أوّل.

2 ـ على الإنسان ألا يفكر في ذات الله سبحانه:

وهناك معنى آخر للآية، النبي عليه الصلاة والسلام تلا هذه الآية وقال فيما يروى عنه: **" لا فكرة في الرب "**. أنت يمكن أن تفكر في مخلوقاته، فكر ما شئت، كلما فكرت في خلق الله ازددت معرفةً به، وازددت تعظيماً له، وخشيةً له، لكنك إذا وصلت إلى الخالق فلا ينبغي أن تفكر في ذاته، عندئذٍ تهلك، لأنهم: وَلاَ يُحِيطُونَ بِهَ عِلْماً، وقال أيضاً:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: آية " 255 ")

مستحيل أن تحيط بالله عزّ وجل، لك أن تفكر في خلقه، وليس لك أن تفكر في ذاته، لأنك لن تصل إليه، فلا تعمل عقلك في ذاته لأن هذا مهلكةٌ لك.

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)

الهلاك مصير التفكير في ذات الله:

إذا ركبت مركبة، هذه المركبة ممكن أن تصل بك إلى ساحل البحر، لكن هذه المركبة ليست مائية لتمخر بها عباب الموج، إذًا تغرق، مركبة أرضية تنقلك إلى الساحل، وليست مجهّزة أن تخوض بها أعماق البحر، فالإنسان يفكِّر في مخلوقات الله، لكن لا ينبغي أن يفكر في ذاته فيهلك، وكل إنسان فكر في ذات الله أهلكه الله، لأن هذا شيء غير معقول، فتصور ورقة دخينة، وهو يصنع من أرق الورق، ألقيتها في فرن لصهر الحديد، تقول: ما مصيرها ؟ من الوهج تلاشت، تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا، لذلك **" لا فكرة في الرب "** فلن تصل إلى شيء، ومثلك كما قال الشاعر:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فما وهنت وأوهى قرنه الوعلُ

***

من خصائص العقل الإيمان بالله و رسله و كتبه:

قالوا: **العقل حصانٌ ينقلك إلى قصر السلطان**، فإذا دخلت القصر تركت الحصان خارج القصر، بالمناسبة ما دام الموضوع قد طرحناه، فعقلك مهيأ أن تصل به إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً، إلهاً كاملاً موجوداً، وعقلك مهيّأ أن تصل به إلى أن هذا الخالق العظيم لا يمكن أن يدع خلقه من دون توجيهٍ كريم، لابدّ من كتاب أنزله، وعقلك قادرٌ على أن يصل إلى أن هذا الإنسان الذي جاء به هو رسول مِن عند الله، فالإيمان بالله وبرسوله وبكتابه، من خصائص العقل، لكن بعد أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وأن هذا كلامه، وأن هذا الإنسان رسوله، الآن عليك أن تتلقى، بحثت فوصلت، بقي عليك أن تتلقى عن الله ما جاء في كتابه.

إخبار الله للإنسان لا يمكن أن يكون عقله حكماً عليه:

أما إذا أعملت عقلك في ذات الله، أو في كلامه اعتراضاً ورفضاً، أو في كلام النبي تساؤلاً واستخفافاً، فأنت إذًا قد هلكت، كإنسان مصاب بآلام حادة في المعدة، بحث عن أفضل طبيب، طبيب اختصاصي، نزيه، مُخْلِص، صادق، أمين، له خبرات واسعة، له يد طويلة في شفاء المرضى، فلما فكر هذا المريض وفكر وفكر وسأل وبحث ودرس دُلّ على طبيب تتوافر فيه هذه الصفات، دخل إلى العيادة انتهى دور العقل، الآن ينبغي أن يأخذ عن هذا الطبيب، لو أنه اعترض عليه معنى ذلك أن بحثه كان غير صحيح،

ما دام البحث صحيحاً، فالآن دور التلقِي، كنت تبحث، والآن تتلقى، فإذا آمنت بالله الإيمان الصحيح، وآمنت بكتابه الإيمان الصحيح، وآمنت برسوله الإيمان الصحيح، فالآن دورك دور التلقِي، الذي أخبرك الله به لا يمكن أن يكون عقلك حكماً على ما أخبرك الله به، فلذلك الله جلّ جلاله يقول:

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)

مصيرنا إليه وهو سيحاسبنا.

الله تعالى وهب الإنسان خاصة الضحك و البكاء:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

مَن خلق في الإنسان خاصة الضحك ؟ الله جلّ جلاله، وخاصة البكاء ؟ الله جلّ جلاله، يروي بعض العلماء أن القِرد وحده هو الذي يضحك من بين الحيوانات ولكن لا يبكي، وأن الجمل وحده يبكي ولا يضحك، وما سوى ذلك لا يبكي ولا يضحك، أما الإنسان يضحك ويبكي، فمن خلق في الإنسان خاصة الضحك ؟ ومن خلق في الإنسان خاصة البكاء ؟ الله جلّ جلاله، ثم من خلق أسباب الضحك، وأسباب البكاء ؟ يرزق الإنسان فيضحك، إذا أقام الإنسانُ ميزانية ووجد أن ربحه كبيراً، تجده في وضع متميّز، تألّق، عيناه زئبقيّتان، تورّد خده، شعر بنشوة، فالنجاح مسعد، أخذ شهادة، نجح بدرجة ممتازة، يظل شهر متألِّقاً، واختلف كلامه، واختلف تعامله، وتغيَّرت مشيته، وتغيَّرت أناقته، فالنجاح مسعد، من الذي أعطاك أسباب الضحك ؟ الله جلّ جلاله، من الذي سمح لك أن تضحك ؟ الله جلّ جلاله.

الله عزّ وجل خلق أسباب الضحك و أسباب البكاء:

إنسان متزوج زوجته مخلصة، جلس مع أهله وأولاده، جرى حديثاً لطيفاً فضحك، هذا الضحك سببه أن لك أهلاً ولك أولاداً، وبينكما مودة ومحبة، ولا عداء، ولا دعاوى في المحاكم، بل إخلاص ومحبة، من يسَّر لك أسباب الضحك ؟ هو الله عزّ وجل، الصحة طيبة، فلو جاء في أي تقرير أنك مصاب بورم، ما أحسنتَ ضحكاً على الإطلاق، انتهى، فشل كلوي مثلاً، فلن تضحك أبداً، تشمع كبد فلن تعرف سبيلاً للضحك، وكذلك إذا كانت خثرة بالدماغ فلن تضحك البتة، أليس كذلك ؟ ما دام هناك معافاة في الصحة، معنى ذلك أنّ الضحك موجود، يضحك الإنسان، وتجده مرحاً، إذا كان آمناً في سربه، معافىً في جسمه، عنده قوت يومه، يضحك، إذا ذكرت طرفة مضحكة يضحك من أعماقه، فالله عزّ وجل خلق أسباب الضحك، خلق خاصة الضحك، وأضحك أناساً، وأبكى أناساً.

الآن حدثٌ شخصاً يضحك منه إنسان ويبكي منه إنسان، قابلة دخلت إلى بيتٍ لتولِد امرأةً فجاءها مولودٌ ذكر فصاح الجميع بالبكاء، عندها سبع ذكور وهي تنتظر أنثى، فذهبت إلى بيتٍ آخر في اليوم نفسه وجاء المولود ذكراً فضج البيت بالفرح والضحك، عندهم سبع بنات فجاءهم ذكر، فالمولودان ذكران، في بيت خيَّم الحزن، وفي البيت الأخ شاع الفرح، إذاً شيء واحد يضحك ويبكي، أحياناً إنسان يتعيَّن في منصب، تجد البيت قاعة استقبال وتهانٍ، وإنسان فَقَدَ نفس المنصب تجد البيت غمره حزنٌ وكآبة، يضحك أناس ويبكي أناس، أحياناً تضحك من شيءٍ بكيت منه بالأمس، فالمتصرف هو الله، أحياناً قد تواجهك مشكلات ظاهرها مشكلة معقّدة، لكن باطنها نعمة، فالله عزّ وجل قال:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

الضحك الحقيقي للإنسان أن يصل إلى الجنة:

الذي أبكاك بالأمس أضحكك اليوم، والذي أضحكك بالأمس أبكاك اليوم، فيمكن للحدث الواحد أن يضحك منه إنسان ويبكي منه إنسان آخر، ويمكن أن تضحك مما بكيت منه، ويمكن أن تبكي مما ضحكت منه، والمؤمن يضحك في الجنة الضحك الحقيقي، والعبرة: مَن يضحك آخراً، الضحك الحقيقي، الفرح الحقيقي، الفوز الحقيقي، النجاح الحقيقي، الفلاح الحقيقي، أن تصل إلى الجنة، لذلك:

(لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة يونس)

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر)

فالضحك الحقيقي أن تصل إلى الجنة.

البكاء الحقيقي خسران الإنسان لآخرته:

البكاء الحقيقي أن يخسر الإنسان آخرته، هذا الحزن المطلق، والضحك المطلق، وربنا عزّ وجل قال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

لكن الذي كفروا في الدنيا يضحكون من المؤمنين، يتهمونهم بالسذاجة، والخوف غير المعقول.. إذاً:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

الضحك نعمة على الإنسان أن يذوب حباً لله على هذه النعمة:

صدقوني أيها الأخوة لمّا أرى إنسانًا يضحك أقول: لو عرف نعمة الله عليه حتى جعله يضحك لذاب حباً لله عزّ وجل، الضحك نعمة، وليس من السهل أن تضحك، مرة كنا مدعوّين في بستان، دخل صاحب البستان ولم يسلم على الحاضرين إطلاقاً، فسألت قريبه: ما شأن هذا ؟ قال: كان في غسيل كليته، لا يرى أمامه أحداً، الإنسان لمّا يأتيه شيء عُضال ينتهي الضحك من حياته كلياً، إذا كان الإنسان في صحة طيبة، أجهزته سليمة، أعضاؤه صحيحة، حواسه في عافية، له مأوى، وله زوجة، وله أهل، وله دخل محدود يغطي حاجاته، فسهر سهرةً وضحك، يجب أنْ يسجد لله شاكراً: يا رب لك الحمد فأنت أضحكتني، سمحت لي أن أضحك، هناك إنسان يبكي، والله عزّ وجل قادر على أن يبكَيّ الرجال الأشداء الأقوياء، فالله جبار وقهار، فلا تخدعنّ أحدًا صحّتُه أو قوّتُه.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

من استقام و اتبع سنة النبي يضحك في الدنيا و الآخرة:

قال لي رجل: أعاني من مرضين: في المعدة والقلب، أدوية المرض الأول تؤذي المرض الثاني، وأدوية المرض الثاني تؤذي المرض الأول، فهو إذا مستسلم بلا دواء، أحياناً تُجرى للإنسان عملية بلا مخدِّر، قلبه لا يحتمل المخدر، الآلام لا تطاق، فالله عزّ وجل أضحك وأبكى، فإذا الإنسان استقام على أمره، واتبع سنة نبيه، وتقرب إليه بالعمل الصالح، فأغلب الظن أنّ الله يضحكه في الدنيا، له في الدنيا جنةٌ خاصة..

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

الله عزّ وجل يضحك ويبكي، إذا ضحك أحد فلا يظن أنه ضحك بذكائِهِ، لا، بل الله سمح له أن يضحك، وإذا بكي فلعلّ البكاء فيه رحمة.

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

الضحك المطلق والفرح المطلق لا يكون إلا في الجنة:

بعضهم قال: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر، بعضهم قال: أضحك الشجرة بالزهر، شجرة الربيع ضاحكة، في الشتاء باكية، الأرض أحياناً كلها أزهار ونباتات، وكأنها عروس ترتدي أجمل ثيابها، طبعاً هذه معانٍ مجازية، لكن المعنى الأساسي أن الضحك الحقيقي والمطلق يكون في الجنة، فبعد دخول الجنة لا يوجد قلق، ولا خوف، ولا شقاء، في الدنيا لو ضحك الإنسان فقد ينتظره شيء يُبكيه، لا يدري ما سيأتي، أما الضحك المطلق والفرح المطلق في الوصول إلى الجنة، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: آية " 58 ")

ينبغي أن تفرح بفضل الله لأنك عرفت الله، لأنك استقمت على أمره، لأنك عملت الصالحات، لأن الله سمح لك أن تذكره، سمح لك أن تعرفه، قدّر على يديك الخير، اصطفاك من بين العصاة، هذا الذي ينبغي أن نفرح له.

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

الله وحده الذي يضحك الإنسان و الذي يبكيه:

لو أن الله عزّ وجل قال: وأنه أضحك وأبكى، لاختلف المعنى، معنى ذلك أن هناك إله آخر يضحك ويبكي، أما حينما قال الله عزّ وجل:

(وأنه هو أضحك وأبكى)

أي وحده، الله وحده الذي يضحك، ووحده الذي يبكي، ولا إله آخر، هو وحده يضحك أو يبكي، تجد أحياناً إنسانًا بغير الضحك والبكاء يشعر بانقباض، وأحياناً بانشراح أيضاً:

((كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: اللّهُمّ ثَبّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللّهِ تَخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنّا بِكَ وَصَدّقْنَاكَ بِمَا جِئْتَ بِهِ ؟ فَقَالَ إنّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرّحْمَنِ عَزّ وَجَلّ يُقَلّبُهَا وَأَشَارَ الْأَعْمَشُ بِإصْبَعَيْهِ))

(أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك)

أحياناً يحس بانقباض لا يدري له تفسيراً، وأحياناً يحس براحة وبانطلاقة وببشر، وهو لا يدري لها تفسيراً، فقلب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن.

العبرة بخواتيم الأمور لا ببداياتها:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

خلق خاصة الضحك والبكاء، ثم خلق أسباب الضحك وأسباب البكاء، ثم جعل ما تضحك منه اليوم تبكي منه غداً، وما تبكي منه اليوم تضحك منه غداً، والعبرة: الضحك الأخير، أحياناً تقبل الدنيا فتجد شخصاً من شدة فرحه اختل توازنه، يا ترى: أهذا الضحك بعده بكاء ؟ قد يكون بعده بكاء شديد، فالعبرة بخواتيم الأمور، العبرة للنهايات، العبرة لختام العمر، **"اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاك وأنت راضٍ عنا ".**

الله عز وجل خلق الموت و الحياة:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

طبعاً حينما ينفخ الله في النطفة من روحه تحيا، صار مولوداً، يتكلم، يضحك، يبكي، يأكل، يشرب، ينمو، وقد يموت هذا المولود، فالذي خلق الموت والحياة هو الله، والعلماء أضافوا لهذا المعنى: أن الإنسان يموت قلبه بالبعد عن الله، ويحيا بالاتصال به، والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

وقال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

وصف الكافر بالموت و المؤمن بالحياة:

قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: آية " 21)

فالله عزّ وجل وصف الكافر بالموت، ووصف المؤمن بالحياة، فهناك حياتان حياة الجسد وحياة القلب، وهناك موتان موت الجسد وموت القلب، الكفار وهم في أوج حياتهم موتى، **"يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء "**، بينما الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات وهم في قبورهم أحياء.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران)

فالإنسان يحيا ويموت، يحيا جسمه ويموت جسمه، ويحيا قلبه ويموت قلبه.

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

لذلك **"كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تُقرّب أجلاً ".**

تحديد جنس المولود متعلق بالنطفة لا بالبويضة:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

هذه الآية فيها إعجاز علمي، طبعاً بعد تقدُّم العلوم الطبية تبيَّن أن جنس المولد ذكراً كان أو أنثى لا تحدده البويضة بل تحدده النطفة، ولهذا البحث تفصيلات طويلة، هناك في العُرى الملونة عروة شكلها إكس، وعروة شكلها وأي، فالنطفة وحدها تحدد ما إذا كان المولود ذكراً أو أنثى، فهذا الذي يغضب من زوجته إذا أنجبت له الأنثى جاهل، جاهل لا يفقه شيئاً، الذكر منه والأنثى منه.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

والأصح من ذلك:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50))

(سورة الشورى)

أن يكون الأولاد كلهم ذكوراً من الله، أن يكون الأولاد كلهم إناثاً من الله، أن يكونوا ذكوراً وإناثاً من الله، أن يكون الإنسان عقيماً من الله، هذا كلام الله عزّ وجل.

عظمة خلق الله عز وجل:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

في اللقاء الواحد بين الزوجين خمسمئة مليون حوين تختار البويضة أقوى هذه الحوينات، والحوين عليه خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، هذا اسمه علم الوراثة الآن، وهو الآن العلم الأول في العالم، فالمعلومة مبرمجة، وكذلك البويضة، وحينما تلقّح البويضة يبدأ الانقسام، في طريق البويضة من المبيض إلى الرحم تنقسم هذه الخلية الملقّحة إلى عشرة آلاف قسم دون أن يزيد حجمها، والموضوع طويل، وعلم الأجنة يقدِّم لنا حقائق مذهلة عن عظمة الخلق.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47))

سيعاد خلقنا من جديد، وسينفخ في بقية أجسامنا التي في القبور، وسوف يعاد خلقنا لنحاسب على أعمالنا كلها.

إعادة خلق الإنسان من جديد لمحاسبته:

(وَأَنّ عَلَيْهِ)

الله عزّ وجل إذا جاءت على متعلقة بذاته جلّ جلاله يقولون: تفيد الإلزام الذاتي.

(وَأَنّ عَلَيْهِ النّشْأَةَ الْأُخْرَى)

سوف يعاد خلقنا مرةً ثانية لنحاسب على أعمالنا كلها.

(وَأَنّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنّهُ خَلَقَ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنّ عَلَيْهِ النّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى(48))

هو الذي يغني، هناك أذكياء جداً، كل ذكائهم لم ينفعهم في أن يغتنوا..

ولو كانت الأرزاق تجري مع الحجا هلكنَ إذاً من جهلهن البهائم

الله يغني ويفقر.

أَغْنَى وَأَقْنَى: آية لها عدة معان:

(وَأَنّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى)

بعض العلماء قالوا: َأقْنَى أفقر، أي أغنى وأفقر، أضحك وأبكى، أمات وأحيا، وبعضهم قال: َأقْنَى من القُنْيَة أي أعطاه أشياء ثمينة، ملّكه أشياء، بعضهم قال: َأقْنَى أخْدَمَ، أغناك وجعل قلوب الخلق تميل إليك هذا من فضل الله عزّ وجل، بعضهم قال: َأقْنَى أخدم وأرضى، أحياناً الله يعطي إنسانًا مالاً كثيراً وهذا الإنسان لا يرضَى عن الله، تجد رجلاً أعطاه شيئًا قليلاً وهو راضٍ عن الله، فالعبرة أن ترضى عنه لا أن يرضى عنك، العبرة أن ترضى عنه أنت أولاً، أن ترضى عنه هو سر الإيمان به، هذا رجل يطوف حول الكعبة يقول: **"يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ "** ووراءه الإمام الشافعي قال له: **"يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى هو يرضى عنك ؟ "** قال: **"يا سبحان الله من أنت يرحمك الله ؟ "** قال: **"أنا الشافعي محمد بن إدريس "**، قال: **"كيف أرضى عنه وأنا أتمنّى رضاه ؟ "** قال: **"يا هذا إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ".**

فبعضهم قال: **"أغنى أي جعلك غنياً "** وبعضهم وسّع هذه الآية قال: أغناك بالعلم، أغناك بالحكمة، أغناك بالرضا، أغناك بالعمل الصالح، أغناك بمعرفته، أغناك بالجنة، فهذه الآيةواسعة سعة كبيرة، قد يغنيك بالمال، وقد يغنيك براحة البال

(فيهديهم ويصلح بالهم)

راحة البال ثمينة جداً، وقد يغنيك بالسمعة الطيبة، وقد يغنيك بالحكمة، وقد يغنيك بالعلم، وقد يغنيك بمحبة الخلق، وقد يغنيك بالعمل الصالح، يجري على يديك أعمالاً كبيرة جداً.

كل المسلمين في صحيفة النبي الكريم إلى يوم القيامة:

عدد المسلمين هذه الأيام يبلغ مليار ومئتي مليون مسلم، وكلُّ هؤلاء في صحيفة النبي عليه الصلاة والسلام، إلى أيّ مكان ذهبت في العالم فكلُّ المسلمين في صحيفة النبي، في خلال ربع قرن غَيَّر وجه الأرض، سيدنا عمر قال: **"أنا ؛ ما أنا إلا حسنة من حسنات أبي بكر "**، أنا كلِّي، عملاق الإسلام حسنة من حسنات أبي بكر.

مرة قال له واحد: **"ما رأينا أفضل منك بعد رسول الله "**، فأحدّ فيهم النظر، فخافوا فقال أحدهم: قال له: **"من هو ؟ "** قال: **"أبو بكر "**، قال: **"لقد كذبتم جميعاً وصدق هذا، فعَدّ سكوتهم كذباً. قال: والله كنت أضل من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك "**، ولما وقف على المنبر نزل درجة، تعجبوا !! قال عمر رضي الله عنه: **"ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر "**، سيدنا عثمان لم ينزل درجة، ولحكمةٍ بالغة، فلما سئل بعض خلفاء بني أمية عن السبب: **"لما لمْ ينزل عثمان درجة ؟ "** قال:**"والله لو فعلها لكنت الآن في قعر بئر "**، هذه أيضاً حكمة فلو نزل عثمان درجة أخرى، وسيدنا علي لو نزل درجة لصار مقامه على الأرض، فالذي بعده تُحفر له الأرض لينزل درجة، فانظر لو تتابعت سُنة عمر في نزوله درجة !!

مجالات الإغناء:

العبرة أن الله سبحانه وتعالى (أغنى): سنعدِّد مجالات هذا الإغناء: أغناك بالمال، أغناك بالعلم، أغناك بالحكمة، أغناك براحة البال، أغناك بالسمعة الطيبة، أغناك بأولاد أبرار، أغناك بزوجةٍ صالحة، أغناك بعملٍ صالحٍ كبير، أغناك بالجنة، هذا معنى:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى)

مجالات الإقناء:

أمّا: (أقنَى)، أولاً أرضاك بما أعطاك، السعادة هي: لا أن تأخذ الكثير بل أن ترضى بالقليل، أحد أسباب السعادة الرضا، أغنى وأقنى أرضى، أغنى وأقنى: فهناك شيء غير الغنى المادي، فإذا كان الخلق قد تعلقوا بك وأحبوك هذه ثروة كبيرة جداً، فالإنسان كان محبوباً فهذه ثروة كبيرة جداً، وإذا الإنسان كان محبوباً فهذا عطاء إلهي كبير، يعيش بين أحباب، الكل يتمنى أن يلتقي معه، الكل يتمنى أن يخدمه، هذا من فضل الله علينا، لمّا مُدِحَ سيدنا الصديق قال: **"يا رب أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون".**

الجنة أوسع شيء في الغنى:

الله أحياناً يعطيك محبة الناس، يعطيك ثقة الناس، هذا عطاء كبير جداً، أحياناً يملِكك الرقاب، والناس لا يحبونك، أحياناً يملكك القلوب وهذا هو العطاء الحقيقي، الأقوياء ملكوا الرقاب لكن الأنبياء ملكوا القلوب، وفرقٌ كبير بين أن تملك الرقاب وأن تملك القلوب، أغنى وأقنى، المحبة، الرضا، الخدمة، وبعضهم قال: أفقرَ، فأغنى وأقنى: أغنى وأفقر، والغنى أوسع شيء فيه الجنة.

تنبيه الله عز وجل للعرب بأن الشعرى مربوباً و ليس رباً:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49))

قال: الشِعْرَى أبعد من الشمس بمليون ضعف، بعد الشمس عن الأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر اضربها بمليون، يعطيك بالكيلومترات بُعدَ نجم الشعرى عن الأرض، وقال: قوة إضاءته خمسون ضعفًا، وكتلته عشرون ضعفًا عن الشمس، والعرب كانوا يعبدونه من دون الله، فربنا نَبَّهُهم بأنّ هذا النجم الذي تعبدونه مربوب وليس رباً، قال سبحانه:

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

ثم يقول الله عزّ وجل:

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى(55))

الله رب كل شيء و إليه يرجع كل شيء:

كان درسنا اليوم:

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

بمعنيين..

(وَأَنّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنّهُ خَلَقَ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنّ عَلَيْهِ النّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنّهُ هُوَ رَبُّ الشّعْرَى(49))

وهناك درس أخير إن شاء الله، فإنْ أحْيانا الله سنتابع تفسير الآيات المتبقية، وبه تنتهي سورة النجم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 50-62
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-10-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس التاسع والأخير من سورة النجم ومع الآية الخمسين:

إهلاك الله قوم ثمود إهلاك استئصال:

وهي قوله تعالى:

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51))

هناك إهلاك استئصال، وهناك إهلاك ضعف..

(وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى)

أهلكها إهلاك استئصال، فلم يبقِ منهم أحداً إلا نبيَّ الله صالحاً ومن آمن معه، فقد نجاهم الله.

قوم نوح و طغيانهم الكبير:

(وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى)

أي أنهم كانوا أشدّ ظلماً وأشدّ طغياناً، لأن نبيهم الكريم نوحاً عليه السلام لبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، وخلال هذه المدّة الطويلة لم يهتدوا إلى الله، ولم يرجعوا عن كفرهم.

إهلاك الله قوم لوط بأن جعل عالي الأرض سافلها:

(وَالْمُؤْتَفِكَةَ)

أي قوم لوطٍ..

(أَهْوَى)

أي جعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارةً فساء مطر المنذَرين، و صاروا جميعا هلكى.

(وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54))

الموعظة أساس تذكير الله الإنسان بمصير الأقوام السابقة:

ماذا نستفيد من تعداد هؤلاء الأقوام وكيف أهلكهم الله عزّ وجل ؟ لا شكّ أن العلماء يتحدّثون عن شيءٍ اسمه الاستقراء، فمثلاً إنْ أتينا بمعدن وسخّنّاه فتمدّد، ثم أتينا بمعدنٍ آخر وسخنّاه فتمدّد، ثم أتينا بمعدنٍ ثالث سخّناه فتمدّد، بعد استقراء عدّة تجارب نستنتج ونقول: المعادن كلها تتمدّد بالحرارة، هذا قانون، فلمّا ربنا عزّ وجل ذكر كيف..

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54))

أقوامٌ كثيرون أهلكهم الله عزّ وجل، فما المقصود ؟ ونحن أيضاً إن خرجنا عن منهج الله، وإن عصينا، وإن شردنا، وإن تفلّتنا لابدّ من أن يصيبنا ما أصاب هؤلاء لأنه قانون إلهي، ألم أقل لكم قبل قليل: هناك استقراء..

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54))

كل إنسان ينحرف عن سواء السبيل يستحقّ الهلاك:

أحد نشاطات العقل هو الاستقراء، حادثة وثانية، ثالثة ورابعة، خامسة وسادسة، سابعة وثامنة يُستنبَط قاسم مشترك بين كل هذه الحوادث، هذا القاسم المشترك هو القانون، بعدئذٍ نعمِّم، نستقرئ ثم نعمِّم، الحديد تمدّد بالحرارة، والذهب تمدّد بالحرارة، والفضة تمددت بالحرارة، والنحاس تمدد بالحرارة، إذاً كلُّ المعادن تتمدّد بالحرارة، فإذا فهمنا هذه الآية بطريقة الاستقراء نستنبط منها قانوناً هو أن كل قومٍ انحرفوا عن سواء السبيل استحقّوا الهلاك، فإذا أردنا أن نسحب هذا القانون على حياتنا نجد أن كل منحرفٍ على مستوى فردي وعلى مستوى جماعي هالك لا محالة.

ظلم الإنسان لأخيه يتناقض مع عدالة الله عز وجل:

أقول لكم هذا الكلام، والكلام دقيقٌ جداً في معانيه وغاياته: إنّ الإنسان إذا انحرف إن في كسبه للمال، أو في إنفاقه، أو في معاملته لمن حوله ؛ لأقرب الناس إليه، لمن هم أدنى منه، لمن هم تحت إمرته، إذا انحرف في معاملتهم، فظلمهم، وبغى عليهم، وطغى عليهم وهو أقوى منهم قدرةً ومالاً، والأمور سارت

على ما يرام هذا الظالم إلى ما شاء الله، فهذه الحوادث تتناقض مع وجود الله، تتناقض مع عدالته، تتناقض مع تربيته..

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ(149))

(سورة الشعراء)

معالجة الله للإنسان تكون بأربعة أساليب:

1 ـ الدعوة البيانية:

الإنسان لا يُترك من دون معالجة، ولا تنبيه، وقد ذكرت لكم سابقاً: أن هناك أساليب أربعة يطبّقها اللهُ جلّ جلاله على عباده.

أول أسلوب: الدعوة البيانية، كلام، أنتم الآن وأنا معكم نتلقّى دعوة بيانية من كتاب الله عزّ وجل ؛ تحضر درس علمٍ، خطبة جمعةٍ، تقرأ القرآن، تستمع إلى شريط، تقرأ كتاباً، هذه دعوةٌ بيانية، وأكمل حالةٍ في الدعوة البيانية أن تستجيب لها، أن تأتمر بما أُمِرت، وأن تنتهي عما نُهيت، وأن تفعل ما ينبغي أن تفعل، وأن تدع ما لا ينبغي أن تفعل، الاستجابة للدعوة البيانية هي أكمل حالةٍ معها.

لذلك قال الله عزّ وجل ودققوا في هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

إجابة الإنسان لله و للرسول ثمنها الحياة الطيبة:

الله سبحانه وتعالى وعدنا بحياةٍ إذا استجبنا لأمره، ولا يُعقَل أن يكون أي منهجٍ أرضي يحقق حياةً أكمل من الحياة التي وعدنا الله بها، لا يُعقَل أبداً، هل يُعقَل أن منهجاً أرضياً ؛ طريقةً في الحياة، مبدأً وضعياً، أسلوباً في المعيشة، ينقلك إلى حياةٍ بكل جوانبها أكمل من الحياة التي وعدنا الله بها، خالق الكون يقول: يا عبادي لمجرّد أن تستجيبوا لي ولرسولي فأنا أعدكم بحياةٍ طيّبة..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

لما فيه حياة أجسامكم، وحياة قلوبكم، وحياة نفوسكم، وحياة مجتمعكم، لذلك أيها الأخوة، حينما يقرأ الإنسانُ كلامَ الله عزّ وجل يجب أن يعلم ماذا يقرأ، إنه يقرأ كلام خالق الكون، إنه يقرأ كلاماً هو قانونٌ يحكم كلّ حركاته وسكناته، يقول الله لنا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

المؤمن يحيا حياةً طيّبة، والكافر يحيا لكن حياته ليست طيّبة..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

أسعد الناس من انصاع لأمر الله سبحانه:

أيها الأخوة الكرام: الله سبحانه وتعالى أورد هذه القصص كي نستفيد منها، هناك دعوةٌ بيانية، كمال الاستجابة لها أن تستجيب لها مؤتمِراً بما أُمرت، منتهياً عما نُهيت، وهؤلاء هم أسعد الناس، أسعد الناس الذين إن استمعوا إلى كلمة الحق بادروا إلى الانصياع لها، لذلك:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

هذا أمر الله على العين والرأس، هذه سنّة رسول الله على العين والرأس..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

2 ـ مرحلة التأديب:

لو أن إنساناً لم يستجب فادّعى قائلاً، يا أخي لا نستطيع، نسأل اللهَ أنْ يغفر لنا ويرحمنا، هذا كلام بعض المسلمين، ماذا سيكون ؟ ستكون المرحلة الثانية وهي مرحلة التأديب، تضييق، شدّة ؛ نفسية، مادّية، اجتماعية، خوف، حزن، نقصٌ في المال، نقصٌ في الأولاد، علاقات عملٍ سيئة، حياةٌ زوجيةٌ مزعجة، علاقةٌ مع الأولاد لا ترضي، الله عزّ وجل هو الخبير وهو الحكيم، وهو الذي يعلم كيف يُعَالِج هذا العبد، حينما لا تجدي الدعوة البيانية، أو حينما لا يستجيب المرء للدعوة البيانية يأتي التأديب التربوي، ماذا ينبغي أن نفعل إذا جاء التأديب التربوي ؟ ينبغي أن نتضرّع إلى الله تائبين، منيبين، عائدين.

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فقد اصطلح مع الله))

(ورد في الأثر)

((إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

(ورد في الأثر)

فالإنسان إذا كان في طور الدعوة البيانية، إذا كان في مسجدٍ يستمع إلى درس علمٍ، وفي هذا الدرس أمرٌ ونهيٌ، وحلالٌ وحرامٌ، وحقٌ وباطل، هذا هو الحق فاتّبعه، وذاك هو الباطل فاجتنبه، أنت في طور الدعوة البيانية، وأكمل شيءٍ في هذا الطور أن تستجيب، فإن استجبت فلك الحياة الطيبة، لك الحياة التي لا تعلو عليها حياة، لك الطمأنينة التي لا تعلو فوقها طمأنينة، لك البِشر الذي لا يعلو فوقه بِشر، لك السعادة التي لا تعلوها سعادة.. وهكذا..

3 - الإكرام الاستدراجي:

فإنْ لم يوفّق الإنسان إلى أن يستجب للدعوة البيانية دخل في طور التأديب، إننا نجد بينَ الأطبّاء من يقول لك: هذا المرض يُشفى بالأدوية الخارجية، بحبوب، بحُقَن، وأحياناً يقول لك الطبيب: لابدَّ من عمليةٍ جراحية، هذا التأديب التربوي، فإذا دخل الإنسان مع الله طور التأديب التربوي فعليه أن يتضرّع، وأن يلجأ، وأن يتوب، وأن يُقلِع، وأن يستقيم على أمر الله، إن فعل ذلك فقد فعل أكمل شيءٍ في هذه الحالة، فإن لم يستجب، ولم يتضرّع، ولم يتُب، ولم ينْصَع إلى أمر الله، الله عزّ وجل ينقله إلى طورٍ ثالث وهو الإكرام الاستدراجي..

4 - القصم:

يعطيه الدنيا كما يريد، هذا الضيق يزيحه عنه ويجعل له منه مخرجاً، هذه الشدّة يكشفها عنه، هذا الخوف يزيله من قلبه، ما هو أكمل رد فعلٍ على طور الإكرام الاستدراجي ؟ أن تشكره، فإن لم تجدِ الدعوة البيانية استجابةً، وإن لم يجدِ التأديب التربوي تضرُّعاً، وإن لم ينفع الإكرام الاستدراجي شكراً فعندئذٍ يأتي القصم..

(أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

السعيد من طبق منهج الله عز وجل:

لذلك أيها الأخوة: مَن هو السعيد ؟ هو الذي يتمتّع بصحّته، وبقوته، وبشبابه، وبأهله، ويُدْعى إلى الله، فعليه أن يستجيب، والعبرة لا بكثرة الحاضرين بل العبرة بالمطبّقين، لأن واحداً كألف وألفٌ كأف،

واحد مطبّق وملتزم يقول: أين الله ؟ هو أفضل عند الله من ألف مستمعٍ لا يطبّق، لماذا كان أصحاب النبي عليهم رضوان الله سبعين ألفاً وتمكّنوا أن يفتحوا العالم شرقاً وغرباً ؟ ولماذا المسلمون اليوم يزيدون عن مليار ومئتي مليون وليست كلمتهم هي العُليا ؟ لأن مطبّقاً واحداً أفضل عند الله من ألف مستمع..

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

(الجامع الصغير عن أنس)

من لم يكن له ورعٌ يصدّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله.

الموعظة من ذكر الأقوام السابقة:

فيا أيها الأخوة...

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى(55))

الآلاء أي النِعم، هذه دروس وُضِعت بين أيدينا، هذه وقائع ينبغي أن نستقرئها، هذه أخبار ينبغي أن نتّعظ بها..

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى)

إذاً كيف أننا في الفيزياء نأتي بتجربة وثانية، وثالثة ورابعة، وخامسة ثم نستنبط القانون ونعمِّم فنقول: كل المعادن تتمدّد بالحرارة، كذلك قوم عادٍ أهلكهم الله، وقوم ثمودٍ أهلكهم الله، وقوم نوحٍ أهلكهم الله، وقوم لوطٍ أهلكهم الله لكفرهم، فإذا فعلنا فعلهم، وشردنا عن منهج الله كان لنا مثل مصيرهم.

لابد من عقاب ينتظر الإنسان إذا انحرف عن منهج الله:

ذكرت اليوم في خطبة الجمعة: أنه بعد خمس سنين يمكن أن يكون عدد المصابين بمرض الإيدز مئة وعشرين مليون، وأن من المفارقات التي تلفت النظر أن البعوضة لمجرّد أن تلدغ إنساناً مصاباً بمرض الطاعون مثلاً وتأتي إلى إنسانٍ سليم فتلدغه ينتقل المرض من المريض إلى السليم، أما في هذا المرض (طاعون العصر) فالبعوضة لو غرست خرطومها في دم إنسانٍ مصابٍ بالإيدز ثم انتقلت إلى سليمٍ، واختلط الدمان لا يعدى الثاني بالأول، لأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون هذا المرض عقاباً للمنحرفين فقط، هذا المرض لا يصيب إلا المنحرفين لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

إذاً هؤلاء الأقوام ضلّوا وانحرفوا فأهلكهم الله عزّ وجل، ونحن على المستوى الفردي أو الجماعي إذ انحرفنا وضللنا لابدّ من عقابٍ ينتظرنا.

تأديب الله في الدنيا نعمةٌ لأن هذا عذابٌ أدنى من عذاب الآخرة:

هذا العقاب نعمة، لماذا ؟ لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

لأن المفارقة..

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى(55))

أي أن تأديب الله في الدنيا نعمةٌ لأن هذا عذابٌ أدنى ربّما كان أقلّ من العذاب الأكبر، إلا إذا جاء التأديب إهلاكاً عندئذٍ هو عقابٌ وليس تأديباً..

الكون، العقل، الفطرة، أشياء تدل على الله:

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56))

تتمارى أي تجادل، من هو النذير ؟ قال بعض العلماء: **"النبي صلى الله عليه وسلّم هو النذير ".**

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (46))

(سورة الأحزاب)

فالنبي نذير، والكون وحده يدل على الله، وعقلك أداةٌ لمعرفة الله، وفطرتك وحدها تدلّك على خطئك، بإمكانك من خلال عقلك أن تعرف الله، ومن خلال عقلك أن تتعرّف إلى كلامه، وأن القرآن كلامه، ومن خلال عقلك تصل إلى أن هذا الذي جاء بهذا الكلام هو نبيّه، وفطرتك تدلّك على خطئك، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء والمرسلين، لماذا ؟ ليكون هؤلاء الرجال العِظام الذين هم قِمَمُ البشرية في معرفة الله ومحبّته والإقبال عليه، ليكونوا منذرين للأمم والشعوب..

هَذَا نَذِيرٌ: اختلف العلماء في كلمة نذير فمنهم من قال هو:

1 - النبي الكريم:

(هَذَا نَذِيرٌ)

النبي جاء نذيراً..

(مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى)

كيف أن كل قومٍ أهلكهم الله عزّ وجل، وقبل أن يهلكهم أرسل إليهم نبياً ورسولاً لينذرهم وليحذِّرهم ؟ كذلك النبي عليه الصلاة والسلام هو النذير..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (46))

(سورة الأحزاب)

2 - القرآن الكريم:

وبعض العلماء قالوا: **"النذير هو القرآن الكريم لأنه عرَضَ صوراً لمصير الإنسان في الجنّة أو النار "**، ونحن في الدنيا وقبل أن ينقضي الأجل، وقبل أن يُختَم العمل أرانا الله عزّ وجل من خلال كتابه الكريم مصير المؤمن في الجنّة، ومصير الكافر في النار، وأصحاب النبي رضوان الله تعالى عليهم أُلهموا في بصيرتهم رؤيةً صادقة.. فالنبي خاطب أحد أصحابه فقال:

((كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: إن لكل إيمان حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ ' قال:..... وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها وكأني بأهل النار في النار يعذبون. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أصبت فالزم مؤمن نور الله قلبه))

(رواه البزار عن أنس بن مالك)

فقد كان أصحاب النبي يرون الحقائق، تفتّحت بصائرهم، ألم يقل عليٌّ رضي الله عنه وكرّم الله وجهه: **"والله لو كُشِف الغطاء ما ازددت يقيناً ؟ "**. ويقول صحابيٌّ جليل: **"والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي. "** لشدّة التفوّق والإقبال على الله عزّ وجل.

3 - سن الأربعين:

فالنذير هو النبي عليه الصلاة والسلام، وهو القرآن الكريم، وفي رأي الإمام القرطبي النذير أيضاً هو سنُّ الأربعين، هذا سنُّ النُضْج:

((من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شرّه فليتجهّز إلى النار))

(ورد في الأثر)

من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، من دخل الأربعين أغلب الظن أن ما بقي له من عمره أقلُّ مما مضى، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مُعْتَرَكُ المنايا ما بين الستين إلى السبعين))

(رواها رزين)

فإذا بلغ الأربعين معنى ذلك أن الذي بقي أقلّ من الذي مضى، كيف مضى الذي مضى ؟ كلمح البصر، إذاً ما بقي يمضي أيضاً كلمح البصر، نحن مع بعضنا، في السبعينات حينما يأتي عام الثمانين دخلنا في الثمانين، واحد وثمانون، اثنين وثمانون ثم دخلنا في التسعين، الآن نقول: سنة ألفين، والأيام تمضي، هكذا، لذلك فالوقت من خصائصه سرعة انقضائه، وأن ما مضى منه لا يعود، وأنت بين أيامٍ ثلاثة ؛ ما مضى فات، والمؤمّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، إذاً سنّ الأربعين نذير..

إلى متى أنت باللذّات مشغولُ وأنت عن كلِّ ما قدّمت مسؤوّل

***

تعصي الإله وأنت تُظهر حبّه هذا لعمري في المقال شنيعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعتـه إن المحبّ لمن يحبُّ يطيع

***

النذير سنّ الأربعين، أبَعْدَ الأربعين لا يصلي ؟ أعوذ بالله، أبَعْدَ الأربعين يمضي وقته في لعب النرد حتى الساعة الثانية فجراً ؟ أعوذ بالله، ماذا ينتظر ؟ أبَعدَ الأربعين يُطلِق بصره في الحرام ؟ معاذ الله، أبَعدَ الأربعين يسهر وراء المُلهيات حتى آذان الفجر وهو يقوم الليل في قنوات المجاري ؟ أبَعدَ الأربعين؟ فالأربعون نذير .

4 - سن الستين:

وقال بعض العلماء: **"الستّون هو النذير ".**

5 - الشيب:

قال بعضهم: **"الشيب هو النذير ".**

((عبدي كبرت سنّك، وانحنى ظهرك، وضعُف بصرُك، وشاب شعرك، فاستحْي مني فأنا أستحي منك))

العاقل من يستعد للقاء ربه و هو على أفضل حال:

أيها الأخوة: كان من الممكن أن يبقى الإنسان شاباً إلى حين وفاته، ويُقصَم قصماً، لماذا يضعُفُ بصره فيضع نظارات ؟ ولماذا تضعف همّته ؟ ولماذا يشيب شعره ؟ ولماذا يشعر بأعراض لم تكن من قبل ؟ يقول لك: مناقير في الركب، أسيد أوريك في الدم، لا يوجد إنسان إلا و يعاني من علّتين أو ثلاث، هذه العلل لحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعلها الله تنبيهاتٍ لطيفة، أن يا عبدي لقد اقترب اللقاء فهل أنت مستعدٌ له ؟ اقترب اللقاء فخذوا حذركم وانفروا فارّين إلى الله.

بعض القرى التي فيها مولِّدات كهربائية خاصة بها، فهذا المولِّد يتوقف الساعة الثانية عشرة ليلاً، قبل عشر دقائق تُطفأ الكهرباء لثانيتين فقط، إشعاراً أنه بقي عشر دقائق لإطفاء الأنوار فاستعد، لذلك فالشيب، وضعف البصر، وضعف السمع أحياناً، وأعراض المفاصل، بعض أمراض الدم، وهنُ القِوى، وانحناء الظهر هذه كلها إشاراتٌ لطيفةٌ لطيفة أن يا عبدي قد اقترب اللقاء فهل أنت مستعدٌ له ؟ والعاقل والذكي والمتفوق هو الذي يستعدُ لهذا اللقاء من أول حياته.

على الإنسان ألا ينسى لحظة اللقاء مع الله عز وجل:

قلت لكم مرّاتٍ عديدة: أن طالباً نال الدرجة الأولى على القطر في الثانوية العامة، سُئل مرّةً هذا السؤال: ما الذي حملك على أن تنال هذه الدرجة ؟ فأجاب إجابةً أعجبتني أردت أن أطبّقها على الدين، قال هذا الطالب: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيّلتي ولا لثانيةٍ واحدةٍ. وكذلك نحن فلحظة مغادرة الدنيا، لحظة اللقاء مع الله، لحظة الحساب تُقبلها دائمًا، وهيّئ لله جواباً عن كل فعل، عن كل تصرُّف، عن كل صلة، عن كل قطيعة، عن كل قرار، عن كل عطاء، عن كل منع، عن كل غضب، عن كل رضا، هيئ لله عزّ وجل جواباً.

6 ـ المصائب:

فيا أيها الأخوة أعود فألخِّص: النذير هو القرآن الكريم، والنذير هو النبي عليه أتم الصلاة والتسليم، والنذير هو سن الأربعين، والنذير هو سن الستين، والنذير هو الشيب، والنذير المصائب، وأحياناً فالإنسان على مستوى البيان لا ينتبه، فهو سارح في المعاصي، غافل عن الله، فهذا لا توقظه خطبةٌ تلقى على مسامعه، وقد لا يوقظه درس علمٍ لأنه لا يحضره، وقد لا توقظه موعظةٌ لأنه لا يعبأ بها، فما الذي يوقظه ؟ أحيانًا مصيبةٌ تقضّ مضجعه، طارئٌ يطرأ على حياته، نقصٌ في ماله، نقصٌ في صحته،

نقصٌ في أولاده، لذلك فالمصائب أحياناً هي النذير، ومن أبلغ النذر كما قال الإمام القرطبي: موت الأقارب، فإنسانٌ مِلْءُ السمع والبصر تحبه ويحبك، تزوره ويزورك، تعامله ويعاملك، في لمح البصر صار خبراً بعد أن كان رجلاً، أين هو ؟ وقد أستمع أحياناً إلى بعض الأخوة الكرام من الشباب يقول: فلان توفي وهو في مثل سني، وفلان توفي وهو في مثل سني، وفلان جاءه الموت وهو في مثل سني، يقول: لم يبق غيري من بين أترابي، فموت الأقارب الذين في مثل سنه يعني أنّ احتمال الموت بحسب قانون الاحتمالات تطرّق إليه، وإن كان ليس هناك سنٌ يستعصي على الموت..

النذر من دلائل رحمة الله بخلقه:

(هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى)

وما أكثر النذر، بل إن النذر من دلائل رحمة الله بخلقه، الله عزّ وجل لا يأخذنا بغتة، ينذرنا، ويحذرنا، ويلفت نظرنا، من خلال الكون تارةً، من خلال أفعاله التكوينية تارةً ثانية، من خلال آياته الكونية تارةً أخرى، من خلال قرآنه تارةً، من خلال كلام نبيه تارةً، من خلال بعض الأحداث التي تلم بنا تارةً، من خلال ملامح شبح بعض المصائب تارةً، فالله سبحانه وتعالى يعالجنا، ويحذرنا، وينذرنا، فحينما لا نستجيب نقع في شر عملنا، والعياذ بالله.

مجالس العلم دعوة من الله:

إخواننا الكرام: من أبلغ الآيات قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

و ما مجالس العلم التي يُتلى فيها كلام الله عزّ وجل وتُبيَّن فيها آياته تفسيراً واستخلاص عبرٍ إلا دعوةٌ من الله عزّ وجل.

(هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى)

فالنذير موجود، شعرك نذير، ضعف بصرك نذير، انحناء ظهرك نذير، بعض الأعراض التي لم تكن من قبل والتي طرأت على صحتك نذير، موت الأقارب نذير، بعض المصائب نذير، سن الأربعين نذير، سن الستين نذير، القرآن الكريم هو النذير، النبي هو النذير.

استهلاك عمر الإنسان من خلال مرور الزمن:

(هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57))

هناك واقع زمني تألفونه جميعاً، ينتهي رمضان فتقول في نفسك: أين رمضان التالي، أين ؟ هناك أشهر عديدة، وأنت لا تدري جاء شهرٌ ومضى شهرٌ فإذا أنت مرةً ثانية تحت مظلة رمضان جديد، يأتي العيد ويمضي وتقول: بيننا وبين العيد الثاني سنةٌ بأكملها، ثم تفاجأ بأن العيد الثاني قد حطّ رحاله، وللطلاب كذلك يبدأ العام الدراسي، فيمضي كلمح البصر، فإذا هم أمام الامتحان وجهاً لوجه، كل شيء متوقع آت، وكل آتٍ قريب، فمادام للزمن حركة، وقطارُهُ منطلق فلابدّ من أن يصل، هذه المركبة انطلقت فلابدّ من أن تصل، أنت مع الزمن تمضي شئت أم أبيت، الزمن لا يقف، الزمن يمضي، وما دام الزمن يمضي فهو يستهلك عمر الإنسان..

(أَزِفَتِ الْآزِفَةُ)

الأعمال الصالحة أفضل عمل للإنسان في الليل و النهار:

كلنا جميعاً كنا أطفالاً، وكنا صغاراً، وكنا في التعليم الابتدائي، وفي التعليم الإعدادي، وفي التعليم الثانوي، وكان كثيرٌ منا طلاباً في الجامعة، وتخرّجنا، وعملنا، وتزوجنا، كيف مضت هذه المراحل كلها، الآية الكريمة:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

(سورة الانشقاق)

قال بعض المفسرين: هناك ممرٌ إجباري، ومراحل لابدّ منها، هناك فترةٌ في حياة الإنسان شغله الشاغل في دراسته، في جو الامتحانات، والأساتذة، والأسئلة، والتوقّعات، والأبحاث، فإذا نال الشهادة العليا يدخل في مرحلة ثانية، العمل، والوظيفة، والعمل الحر، إلخ، فإذا دخل في هذه المرحلة وخرج منها يطالعه موضوع الزواج، واختيار الزوجة، فإذا دخل مخدع الزوجية دخل في موضوع شراء البيت وتأثيثه، ثم إنجاب الأولاد، ثم تربية الأولاد، ثم انتقل إلى تزويج الأولاد، ثم يدخل في شؤون صحته، يعتني بصحته، ويرى أنه كان مقصراً في صحته، ثم تكتب نعوته على الجدران، سلوكٌ لابد منه، الزمن يمضي ويستهلك الإنسانَ، وأبلغُ كلمة قالها سيدنا عمر بن عبد العزيز: **"الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما ".** وأوضح شاهد صورةٌ لك قبل عشرين عاماً، فرقٌ كبير حينما كنت شاباً أو طفلاً ولك وجهٌ كالبدر ثم تتالت الأعوام والسنون فرسمت هذه الخطوط، وهذه التجاعيد، فهذا من فعل الزمن، الليل والنهار يعملان فيك، فلئلا تسمح لليل والنهار أن يعملا فيك فاعمل فيهما الأعمال الصالحة.

عدم استطاعة أي جهة في الأرض كشف وقت الساعة:

(أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58))

إنها الساعة ؛ ليس من دون الله جهةٌ تستطيع أن تقرّبها أو تبعدها، ولا أن تكشف وقتها، ولا أن تلغي عملها، ولا أن تزيح التَبِعات التي تنطوي عليها، فأحياناً هناك مدرس حازم يعيّن يوماً للمذاكرة، لكن الطلاّب يطلبون تأخير المذاكرة، فأبداً لا تقدم، ولا تؤخر، ولا يزال الخطر الكامن فيها.

(أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59))

تعجبون عجب التكذيب.

كل إنسان مدعو إلى حياةٍ لا موت فيها:

(وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

إخواننا الكرام: هذا الكلام متعلِّق بمصير الإنسان إلى أبد الآبدين، مرة ذكرت أني كنت في جامع العثمان وأمامي كتاب قدّرت طوله بخمسة وعشرين سم، قلت: لو أن رقم واحدٍ في طرف الكتاب وبعد كل سنتيمتر وضع صفر، معنى ذلك أنه صار لدينا خمسة وعشرون صفراً، رقم واحد وأمامه خمسة وعشرون صفراً، كم هذا الرقم ؟ إذا كانت الستة أصفار مليونًا، التسعة أصفار ألف مليون، الاثنا عشر صفراً ألف ألف مليون.. أي مليون مليون.. فالخمسة والعشرون صفرًا كم تشكِّل ؟؟ ذكرت هذا كله ثم قلت: لو أن الأصفار امتدّت من هنا حيث كنت أجلس في المحراب إلى باب المسجد.. كم هذا الرقم ؟ فإلى ساحة شمدين بحي ركن الدين ؟ إلى القطيفة ؟ إلى النبك ؟ إلى حمص ؟ كل ميلي صفر، إلى حماة؟ حلب ؟ أنقرة ؟ موسكو ؟ القطب الشمالي ؟ لففنا حول الأرض إلى القطب الجنوبي ؟ إلى مكة المكرمة ؟ إلى عمان ؟ إلى درعا ؟ إلى دمشق ؟ أي أربعين ألف كيلو متر وهو محيط الكرة الأرضية، فنحن مع رقم خمسة وعشرين صفراً لم نتحمله، واحد أمامه أربعون ألف كيلو متر من الأصفار، كم هذا الرقم ؟ هذا الرقم إذا قسته إلى اللا نهاية فهو صفر، لا شيء، فأنتم مدعوون إلى الحياة الأبدية، إلى حياةٍ لا موت فيها إلى اللانهاية.

الدنيا ما هي إلا إعدادٌ لحياة أخرى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(سورة الزخرف)

هذه الحياة الدنيا ليست بشيء إطلاقاً، لا شيء، حقًا إنها إعدادٌ لحياة أخرى.

فيا أيها الأخوة الكرام:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60))

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

أي عجيب في نظر الكافرين أنّ الإنسان في الدنيا له رسالة !! عجيب إذا علموا أن هذه الدنيا المحدودة هي دار عمل وليست دار نعيم !! هو شيء غير معقول عندهم أن نأتي إلى حياةٍ إعداديةٍ لحياة أبدية هو لديهم عجيب !! أعجيب أن يكون لهذا الكون خالقٌ عظيمٌ !! أعجيب أن يكون لإلهنا العظيم منهجٌ ينبغي أن نسير عليه ؟! هذا هو الأصل وهو الحق و الصواب، العجيب خلافُه وعكسه، العجيب الفوضى، العجيب العبثية، العجيب أن يخلق الإنسان سُدَى..

تعجب الكافر أن الإنسان في الدنيا له رسالة:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

العجيب أن نخلق عبثاً. هذا هو العجيب الغريب، أما أن يكون لهذا الكون إلهٌ عظيمٌ، موجودٌ، كاملٌ، واحدٌ ؟!! فهذا هو الأصل، أعجيب أن يكون لهذا الإله منهجٌ ينبغي أن نسير عليه ؟! لا ليس عجيباً، أعجيب أن تنظم علاقاتنا وفق تعليمات الخبير الصانع ؟! لا ليس ذلك عجيباً ؟ العجيب خلاف ذلك، فليس عجيباً أن هذه الشهوات التي أودعها الله فينا ينبغي أن نتحرك فيها وفق منهج دقيق، أعجيب أن نكون أمناء ؟! أن نكون صادقين ؟! أن نكون أعِفّة ؟! هذا المنهج الدقيق ليس عجيباً، بل هذه هي الحقيقة.

كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، ويأكل القوي منا الضعيف هذا هو الأصل في حياتهم الجاهلية، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحِّدَهُ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، و صلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، فأيهما هو العجيب ؟ إنسان متفلِّت أم إنسان منضبط ؟ إنسان مسيء أم محسن ؟ مخلص أم خائن ؟ كاذب أو صادق؟ فإذا الله عزّ وجل أنزل على نبيه منهجاً ودستوراً يهدي للتي هي أقوم، أفيكون هذا عجيباً ؟

تعجب الكافر أن بعد الموت حياةٌ أبدية لا نهاية لها:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

هل عجيب أن تسير على مبدأ ؟ وأن تسير وفق منهج ؟ وتنطلق وفق خطة عمل دقيقة ؟ عجيب أن تكون نظيفًا في العلاقات الجنسية ؟ ليس لك إلا زوجتك ؟ أهذا هو العجيب ؟! حقًا، إنها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور.

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

أعجيب أن يكون بعد الموت حياةٌ أبدية لا نهاية لها ؟ وهذا هو الأصل، والدنيا وحدها تثير ألف سؤال، أيعقل أن يعد الإنسان نفسه أربعين عاماً ليعيش عشر سنوات ؟ ليسن ثَمّة تناسب، إلا أن تكون هذه الحياة الدنيا حياةً إعدادية لحياةٍ أبدية، هذا هو العجيب ؟!

استهزاء المنافق بالمؤمن الصالح:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ)

فلان تمشيخ، يستهزئون، يقولون: فلان متزمت، أفقه ضيق، لا يعرف إلا الله، مباهج الدنيا لا يعرفها، صلب لا يوجد عنده مرونة، يقصدون بالمرونة النفاق، يقصدون بالمرونة المعاصي، متزمِّت، متحجِّر، يقول لك: عقله متكلِّس.

(وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

قال:

(وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

المعنى الواسع لـ (سامدون): لاهون، المعنى الضيق: تُغَنُّون، إذا أصبح الغناء يغطي كل أوقاتنا فهذه مصيبة، دقق في معاني الغناء ؛ معانيه تافهة، معانيه سخيفة أحياناً كثيرة.

عدم اجتماع القرآن و الغناء في قلب الإنسان:

اقرأ القرآن:

((ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن))

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة)

لا يجتمع في قلب الإنسان قرآنٌ وغناء، الغناء ينبت النفاق، من استمع إلى صوت قينةٍ، كما ورد في الأثر:

((من قعد إلى قينة يستمع منها صب الله في أذنيه الآنك يوم القيامة))

(الآنك: هو الرصاص الأبيض).

(كنز العمال عن أنس)

فحينما نغرق في الغناء، يقول لك: عنده ثلاثمئة شريط، أربعمئة، خمسمئة، له هوايات متعددة، استريو، هاي فاي.

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61))

علة وجود الإنسان أن يعبد الله:

إذًا ما الذي ينبغي أن تفعلوه ؟

(فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا)

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ واخضعوا له، واطلبوا العون منه، واعبدوه..

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

يجب أن نعلم أيها الأخوة الكرام أن علة وجودنا أن نعبد الله.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

عبادة الإنسان تقتضي معرفة و سلوكاً و جزاءً:

العبادة تقتضي معرفة، وتقتضي سلوكاً، وتقتضي جزاءً، فالهدف أن تسعد بقربه، هدف جمالي، والثمن أن تطيعه، والسبب أن تعرفه، أن تعرفه فهذا هو الجانب الفكري في الإسلام، فتستقيم على أمره وهذا هو الجانب السلوكي، فتسعد بقربه هذا هو الجانب الجمالي، وفي الإسلام كُلِّيَّات ثلاث ؛ جانب معرفي، جانب سلوكي، جانب جمالي، الجمالي هو الهدف.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

والثمن طاعة الله عزّ وجل..

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

والسبب معرفته، إذاً إذا أردت أن تسعد فعليك بالعلم، العلم ثم العلم ثم العلم، بالعلم تستقيم على أمره، وبالعلم تتقي نواهيه، وبالعلم تسعى لقربه فتسعد، وبالعلم تتقرب بالأعمال الصالحة، لذلك: **"إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ".**

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: آية " 9 ")

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: آية " 132 ")

السجود من أبرز عبادات الله:

وبعدُ، أيها الأخوة: فالمُلَخَّص والموقف العملي أن نعبد الله، ومن أبرز عبادته السجود لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ ساجِدٌ))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

الصلاةُ فيها قيام وركوع وسجود، أنت في أقرب حالاتك إلى الله وأنت ساجد، فلذلك الأصل أن تعبده، أن تعبده بأداء العبادات التي فرضها عليك ؛ من صلاة، وصوم، وحج، وزكاة، ونطق بالشهادتين، وأن تعبده بالمنهج التفصيلي ؛ أحكام الفقه، أحكام البيوع، أحكام الزواج، وأن تعبده بالآداب الإسلامية، وأن تعبده بالتعرف إليه، كُلُّها عبادة، فالعبادة هي الأصل حسب منهج الله لتتحقق عبودية الإنسان لخالقه، و عندها تبدو معاني الألوهية لديه مشرقة واضحة.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

على الإنسان أن يقتطع من وقته وقتاً للتأمل و معرفة الله:

طاعةٌ طوعية ممزوجةٌ بمحبةٍ قلبية أساسها معرفةٌ يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية، الإنسان بحاجة ماسة إلى فلسفة صحيحة، إلى تصور صحيح لحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة ذاته، من عرف نفسه عرف ربه، فلذلك الإنسان قد ينشغل باللهو والغناء، والترُّهات والأباطيل، ولابد من صحوة، لابد من يقظة، لابد من تأمل، ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

ما معنى هوناً ؟ أي يقتطعون من وقتهم وقتاً للتأمُّل، لمعرفة ربهم، لطلب العلم، لفهم كلام الله، لفهم سنة رسول الله، لا يسمحون للدنيا أن تطغى عليهم، ولا أن تستهلكهم، لا يسمحون لمشاغلهم أن تلغي وجودهم، لا يسمحون لشيءٍ مهما كان عظيماً أن يصرفهم عن هدفهم الكبير.

أيها الأخوة الكرام: هذه سورة النجم ولقد كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها كثيراً، وقد أمضينا فيها تسعة دروس، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بها، وأن تكون الآية الأخيرة هي الباعث الدقيق للنجاة من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-11-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الأول من سورة القمر.

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وَانْشَقّ الْقَمَرُ)

أحد أشراط الساعة بعثة النبي الكريم:

الساعة يوم القيامة، واقتربت أي اقترب مجيئها، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((بعثتُ أنا والساعة كهاتين))

(رواه الطبراني عن سهل بن سعد)

أي أن بعثة النبي عليه الصلاة والسلام أحد أشراط الساعة، وقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام عن أشراط الساعة الشيء الكثير بعضها وقع وبعضها لمّا يقع.

استعداد الناس لساعة الفراق :

أيها الأخوة:

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

أي يا أيها العباد هيؤوا أنفسكم لهذه الساعة، ويمكن أن نفهم نحن من هذه الآية أن لكلٍ منّا ساعة قد تأتي قبل يوم القيامة، فالأوْلى أن يستعدّ الإنسان لساعته، ساعة فِراق الدنيا، وساعة لقاء ربّه، وأن يستعد لهذه الساعة بمعرفة الله، ومعرفة كتابه، ومعرفة سنّة النبي، وبالتوبة، والعمل الصالح، والبذل، والتضحية، كأن يقول إنسان ناصح لطلابه: اقترب الامتحان، فما معنى اقترب الامتحان ؟ أي ينبغي أن نستعدّ له بالدراسة، وإتقانها، وبالحفظ، واستغلال الوقت، وعدم تضييعه، وبالتعمُّق، والمذاكرة، والتدريب من أجل أن ننجح في الامتحان، فاقتراب الامتحان أي ادرسوا، واقتراب الساعة يوم القيامة أي استعدُّوا لهذا اليوم، يوم الدين، أو يوم الدينونة، أو الجزاء، أو الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويوم الحق، ويوم الفصل، وأن يأخذ كل ذي حقٍّ حقّه، و أن تنكشف الحقائق، وتصبح واضحة كالشمس، أي يوم تقع الواقعة:

(لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

ومن لوازم وجود الإله وهو الحقّ أن يقيم الحق، وأن تسوّى كل الحسابات، وأن تؤدّى كل الحقوق، وتُدفَع كل الغرامات، ويُحاسَب الإنسان عن كل أعماله، هذا هو يوم الدين.

الاستقامة سبب الإيمان بالحساب:

أيها الأخوة: ذكرت هذا قبل درسين سابقين: وفرقٌ كبير بين أن تؤمن بالحساب وبين أن تتوهم العبثية، إن توهّمت العبثية فلن تستقيم على أمر الله، أما إن آمنت بالحساب فلابدّ من أن تستقيم، والله عزّ وجل كل أسمائه محقّقةٌ في الدنيا إلا اسم العَدل فلا تراه واضحاً جليّاً إلا يوم القيامة، فالله سبحانه وتعالى يبدأ الخلق وقد بدأه، ثم يعيده لماذا ؟

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

(سورة طه)

تسجيل حركات الإنسان و سكناته يؤدي إلى انضباطه:

مرّة ركبت مع صديقٍ لي في مركبته، وقد وضع صورةً لها وقد التُقِطَت من جهاز الرادار، وأُرسِلَت له إلى البيت، أي هذا أنت، في التاريخ، والساعة، والدقيقة، والسرعة كانت كذا، وصورة المركبة ولوحتها، وهذا الشيء مُسكِت، فلا يستطيع أن يقول كلمة، ولا حرفًا، لم أكن أو كنت، في الوقت، والتاريخ، واليوم، والمكان، والسرعة، وصورة المركبة مع لوحتها، فإذا كانت كل أعمالنا عند الله هكذا، وهي أعمالنا مسجّلة بدقائقها، وتفاصيلها، ووقتها، ومكانها، وزمانها، ويوم القيامة تُعرَض علينا.

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف)

فإذا توهّم الإنسان أن جهازه الهاتفي مراقب فكيف يتكلّم ؟ وإذا راقب إنسان إنسانًا، أي مخلوق راقب مخلوقًا فإنه ينضبط أشدّ الانضباط، فكيف إذا أيقن أن على كتفيه ملكين يسجّلان عليه كل حركاته وسكناته، وكل أعماله خيرها وشرّها، صالحها وطالحها ؟

استعداد الإنسان ليوم القيامة بالتوبة:

كأن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ)

أي يا عبادي استعدّوا، استعدوا لها بالتوبة، حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، فملك الموت تخطّاكم إلى غيركم وسيتخّطى غيركم إليكم فخذوا حذركم.

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

فإذا أردت أن تفهم الساعة على أنها يوم القيامة وهذا هو الأصل، ولكن الشيء الواقعي والقريب منّا أنه لكل منّا ساعته التي لابدّ منها، وقد تأتي قبل يوم القيامة، والزمن يمضي، والإنسان في خسر لأن الزمن يستهلكه، وكلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

المؤشرات التي تدل الإنسان على اقتراب ساعته:

أحياناً الإنسان يشيب شعره، ويضعف بصره، وسمعه، وتسقط أسنانه، وينحني ظهره، ويتألّم في مفاصله، وتضطرب نسب دمه، وتزداد الحموض، والمواد الدسمة، فهذه المؤشّرات تدل على أن الساعة قد اقتربت، يا عبدي لقد اقترب اللقاء فهل أنت مستعد ؟

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في الـمقال شنيع

لـو كان حبك صادقا لأطعته إن المـــحب لمن يحب يطيع

***

إذاً الآية الكريمة:

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

أي استعدّوا لها بالتوبة:

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

(أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة)

أبواب التوبة مفتوحة لكل الناس:

الشيء لا يُصدّق أن الماضي كلّه يُلغى بثانية، من تاب من ذنبه كمن لا ذنب له وإذا ذهب الإنسان إلى بيت الله الحرام تائباً منيباً مخلصاً عاد من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وإذا جاءه رمضان وصام صوماً صحيحاً، صام نهاره وقام ليله وعبد ربّه خرج من رمضان كيوم ولدته أمّه وأعتقه الله من النار، وإذا

تاب العبد، وصام، وحجّ، وصلّى الجمعة وتاب في أثنائها كفّر الله كل سيئاته التي كانت قبلها، فأبواب التوبة مفتّحةٌ على مصارعها، والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتوب، والدليل:

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: آية " 27")

و ما فتح لكم باب التوبة إلا ليتوب عليكم، وما فتح لكم باب الاستغفار إلا ليغفر لكم، وما فتح لكم باب الدعاء إلا ليستجيب لكم، قال لكم:

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: آية " 60 ")

استغفروني أغفر لكم، توبوا إلي أتب عليكم، فماذا بقي ؟ وهذا معنى:

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

العاقل من كسب وقته و لم يضيعه في أشياء تافهة:

كأن تقول لطالبٍ في نهاية العام الدراسي: اقترب الامتحان، أي اذهب إلى النزهات ؟ أو نم إلى منتصف النهار ؟ أو تسلى بأشياء سخيفة ؟ فهل يُعقَل هذا ؟ ماذا نقصد من قولنا لطالبٍ على وشك الامتحان: اقترب الامتحان ؟ أي انتبه، و استنفر، وشَمِّر، واكسب وقتك، وإياك أن تضيعه، هذا معنى:

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

فالساعة أي يوم القيامة، والساعة ساعتنا كلُّنا، ساعتنا ساعة مغادرة الدنيا:

(وَانْشَقّ الْقَمَرُ)

الكون أكبر معجزة للإنسان:

الله عزّ وجل كما ورد في سورة الإسراء في قوله تعالى، الله جلّ جلاله ذكر في هذه السورة الكريمة حديثاً:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً (93))

(سورة الإسراء)

أي أن كفّار قريش طالبوا النبي بمعجزاتٍ حسّية، وهذه الآيات التي تلوتها عليكم تؤكِّد هذه الحقيقة، طالبوه بمعجزاتٍ حسّية، وغاب عنهم أن القمر أعظم من انشقاقه، وأن الشمس أعظم من انطماسها، وأن نظام الكون على ما هو عليه أعظم من خرقه، ولكن الكافر يتعنّت، و يطمس ما يوصله إلى الحقيقة، وقد ورد في الأثر: أن حسبكم الكون معجزة، الكون وحده.

خلق الإنسان معجزة من معجزات الرحمن:

ابنك الذي أمامك كيف خُلِق من نقطةٍ لا ترى بالعين ؟ و الخمسمئة مليون نطفة تشكِّل اثنين سنتيمتر مكعَّب، أو سنتيمتراً مكعَّبًا، والطفل خُلِق من نطفةٍ واحدة لقّحت بويضة، وانقسمت إلى عشرة آلاف قسم، وتشكلّ الدماغ، مئة وأربعون مليار خلية استنادية لم تُعرَف وظيفتها بعد، أربع عشرة مليار خلية سمراء فيها النشاط الفكري، والمحاكمة، والتصور، والتذكّر، وأعصاب لا يعلم عددها إلا الله، مئة وخمسون ألف كليو متر من الأوعية الدموية في جسم الإنسان، ثلاثمئة ألف شعرة ولكل شعرة وريدٌ، وشريانٌ، وعصبٌ، وعضلةٌ، وغدّةٌ دهنيةٌ، وغدّةٌ صبغيةٌ، ومئة وثلاثون مليون عصيّة ومخروط في شبكية العين لالتقاط الصور، والقلب يضخ ثمانية أمتار مكعَّبة في اليوم الواحد، والأسرة قد تستهلك في السنة بأكملها مترًا مكعبًا وقوداً سائلاً، أما القلب ففي اليوم الواحد يضخ ثمانية أمتار مكعبة دون كللٍ ولا مللٍ، بدسّامات، وبطينين، وأذينين، وشريان أبهر، والشرايين قلوب، فالشريان مرن، يأخذ دور القلب فإذا نبض القلب اتسع الشريان، لأنه مرن وإذا عاد إلى وضعه الطبيعي ضخّ الدم وبالتالي، فكل شريانٍ مضخّةٌ تعين القلب، وحينما تتصلّب الشرايين يضعف القلب، وقد قالوا: عمر الإنسان من عمر شرايينه.

كل شيء في الكون يدل على الله:

اكتشفوا الآن أن زيت الزيتون وحده هو الذي يقي من تصلّب الشرايين، فالإنسان بوضعه الراهن، أي بعضلاته، وأعضائه، وعظامه، وأعصابه، وجهاز الدوران، وجهاز الهضم، وجهاز التصفية والإخراج فالإنسان وحده معجزة، والتفّاحة معجزة، والقمح معجزة، ونزول هذه الأمطار معجزة، وهل يوجد عندنا شيء يتحرّك بلا صوت، بربكم ؟ فطائرة تحمل خمسمئة راكب تملأ الدنيا ضجيجاً.

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السّحَابِ)

(سورة النمل: 88)

بلا صوت:

(صُنْعَ اللّهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: آية " 88 ")

فالحقيقة الإنسان إذا نما عقله يرى أن كل شيءٍ في الكون يدّل على الله، وعلى وجوده، وعلى وحدانيته، وعلى كماله، أما الذين يطلبون خرق النواميس فهؤلاء ما عرفوا حقيقة الكون، ولو عرفوها لذابوا إعظاماً لله عزّ وجل، لا على خرقه للنواميس بل على خلقه المتقن وصنعته المتقنة:

(صُنْعَ اللّهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ)

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4))

(سورة الملك)

وَانْشَقّ الْقَمَرُ: آية لها عدة تفسيرات:

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وَانْشَقّ الْقَمَرُ)

كلمة انشقّ القمر العلماء فسّروها تفسيرات عديدة، منهم من قال: " القمر انشق حقيقةً مرّتين في عهد النبي، وانشقاق القمر من معجزاته الحسّية "، إذْ علّق كفّار مكة إيمانهم على آيةٍ حسيّة فقد جاءت هذه الآية الحسيّة وانشقّ القمر، وبعضهم قال: **" اقتربت الساعة واقترب انشقاق القمر "**، واقتربت الساعة تُشْبِهُها آيةٌ كريمة وهي:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: آية " 1 ")

ومعنى هذا أنه لم يأت، ولكن الإله إذا قرّر شيئاً فكأنه وقع.

الله تعالى وحده يستخدم الفعل الماضي ليعبر عن المستقبل:

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتّخِذُونِي وَأُمّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبّي وَرَبّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117))

(سورة المائدة)

هذا الشيء لم يقع بعد، فلماذا عبّر الله عنه بالفعل الماضي ؟ قالوا: هذا الماضي الذي عبّر الله به عن المستقبل لتحقُّق الوقوع، والإنسان مهما كان قوياً، ومهما كان متمكِّناً فإنه يقول لك: سأفعل كذا بعد أسبوع، وقد يموت قبل أن يفعل، ولا توجد جهة في الكون تستطيع أن تجزم بفعلِ شيءٍ قبل وقوعه إلا الله، ولذلك فربّنا وحده إن عبّر عن المستقبل يستخدم الفعل الماضي.

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

(أَتَى أَمْرُ اللّه)

إنه لم يأتْ بعد، والدليل:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

فالله جلّ جلاله إذا وعد بشيء وقع.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

انشقاق القمر من المعجزات الحسية للنبي الكريم:

إما أن نفهم الآية على أن القمر انشقّ حقيقةً، وهو من المعجزات الحسيّة للنبي عليه الصلاة والسلام، كما قال كفّار قريش: يجب أن تأتينا بالملائكة قبيلاً، وأن تفجر الأرض ينبوعاً.. إلخ، فكانت هذه الآية إجابةً لطلبهم كي يؤمنوا، وبعضهم قال: **" انشقاق القمر لم يقع بعد** لقوله تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

(سورة الرحمن)

والقمر من السماء، فإما أن نعتقد أن القمر لم ينشقّ بعدُ، وإما أن نعتقد كما قال بعض المفسِّرين: إنه انشق.

انغماس الكفار في شهواتهم و عدم إصغائهم إلى الحق:

على كلٍ العبرة فيما يلي:

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2))

وهؤلاء الكفّار الذين انغمسوا في شهواتهم إلى قمّة رؤوسهم، وأرادوا الدنيا، وأرادوا مالها، ونساءها، وزينتها، ومباهجها، و متعَها الرخيصة، فهؤلاء لا يستطيعون أن يصغوا إلى الحق لأنهم إن أصغوا إليه قيّدهم وألجمهم، وحدّد حركتهم، فالذين ينغمسون في ملذّاتهم إلى قمّة رؤوسهم، فهؤلاء الذين يردّون الحق، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الكبرُ بطرُ الحقّ، وغمطُ الناس))

(أخرجه مسلم و الترمذي عن عبد الله بن مسعود)

بطر الحقّ أي ردُّ الحق، تأتيه آيةٌ كالشمس في رابعة النهار، فيركب رأسه وينكرها، ويأتي زلزال واضح جداً فيقول لك: اضطرابٌ في القشرة الأرضية، ولا يقبل أن تُفسّر الأشياء تفسيراً سماوياً، ولا يقبل إلا التفسير الأرضي:

(وَإِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

(سورة الزمر: آية " 45 ")

أما إذا فسّرت الأمور تفسيرًا أرضيًا شركيًا فيقبلونه.

الآيات الكونية و التكوينية و القرآنية تدل على الله:

إذاً:

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً)

آيةً كونيةً، وما أكثر الآيات الكونية، فالله عزّ وجل ونحن تحت سمعنا وبصرنا نرى بلاداً أصابها الجفاف سنواتٍ عِجافاً أكلت الأخضر واليابس، ونرى بلاداً أصابتها أعاصير فدمّرت كل شيء، وبلاداً أُهلِكَت بالفيضانات، وبلاداً أُهلِكَت بحروبٍ أهلية، فالله جلّ جلاله يقول:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

إنه شيء مخيف، فالآيات تتلى، وهي بين أيدينا، نصغي إليها صباحاً ومساءً فمركبةٌ فضائية سمّوها المتحدّية احترقت بعد سبعين ثانية وعليها سبعة روّاد فضاء وفيهم امرأة، يتحدّون من ؟ أحياناً توضع الثقة كلّها بشيءٍ فيأتي إعصارٌ يدمّره، أو زلزالٌ يهدمه، فهذه آيات، والذي فعله الله بالأقوام السابقة آيات، وهناك آياتٌ كونية، فالشمس والقمر آيتان، الليل والنهار آيتان، والسماوات والأرض آياتٌ تدل على عظمة الله عزّ وجل، فخلق الإنسان آية، وطعامه وشرابه، والأسماك، و الأطيار، والهواء، والماء، هذه آياته الكونية تدل عليه، وكتابه آياتٌ قرآنية، وأفعاله آياتٌ تكوينية، فأنت بين آياتٍ ثلاث: بين آياته الكونية، وآياته التكوينية، وآياته القرآنية، فالكون خلقه، والقرآن كلامه، والأحداث أفعاله، وكل هذا يدلّ عليه.

معاني كلمة مستمر:

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ)

سُحِرنا.

(مُسْتَمِرٌّ)

فهي معانٍ ثلاثة، مستمر أي محكم، و متقن، ودائم، فكثيراً ما يأتي الناس بمثل هذه الأقوال، سحر دائم، أو ذاهب لا قيمة له وسوف ينقضي، فهو إما ذاهب، أو مستمر، أو محكم.

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)

فهم كالنعامة تماماً حينما تواجه الحقيقة تغرس رأسها في الرمل وتتوهّم الحمقاء أنها نجت، لكنها لم تنجُ، أن تغمس النعامة رأسها في الرمل متوهِّمةً أنها ناجيةٌ من الخطر القريب منها فهو منتهى الحمق والغباء، ولذلك فبعض الكفّار كالنعامة يغرسون رؤوسهم في الرمال ويتعامون عن الحقائق الدينية الباهرة على توهّم أنهم سينجون.

لن تكون في مأمن من عذاب الله إلا إذا كنت على منهجه:

النقطة الدقيقة جداً التي أُلِحُّ عليها في هذه المناسبة، أنه إذ لم تؤمن أنت بقانون فلا تستطيع أن تمنع وقوعه، فقانون السقوط إن لم تعبأ به ونزلت من طائرةٍ بلا مظلّة فإنك لا تنجو من أن تقع مكسَّر الأضلاع، لأن القانون قائم وواقع آمنت به أو لم تؤمن، قدّسته أو لم تقدِّسه، قَبِلْتَهُ أو لم تقبله، فالقانون واقع، فسنّة الله ساريةٌ في عباده انتَبهوا إليها أو لم ينتبهوا، وأيقنوا أو لم يوقنوا، فلا يمنعك من الله إلا أن تكون على منهجه في أمره ونهيه.

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا)

دقِّقوا:

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

العلاقة بين إتباع الهوى و التكذيب:

لماذا كذّبوا ؟ لأنهم اتبعوا أهواءهم، ولماذا اتبعوا أهواءهم ؟ لأنهم كذّبوا، ماذا نقول في العلاقة بين الكلمتين ؟ نقول هناك علاقةٌ ترابطية، لأن الإنسان حينما يكذِّب بالآخرة فالشيء الطبيعي جداً أن يتبع هواه باعتقاده لا توجد آخرة، ولا حساب، ولا مسؤولية، والقضية عنده عبث، والإنسان يُترَك سُدى، والخلق خَلْقُ عبث أي لا غاية له، فلو آمنت هكذا فيجب أن تتبع الهوى، وهذا شيء طبيعي، أما إذا آمنت أن الإنسان لن يُترَك سدى، وأن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثاً، وأننا سوف نُسأل وسنُحاسَب، وسوف يُقتصُّ منّا واحداً واحداً، وسوف تسوّى الحسابات، وتؤخذ الظلمَات، ويدفع الثمن أصحابها غاليا، وعندئذٍ يستقيم على أمر الله.

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

وهذا المعنى تؤكِّده آيةٌ أخرى، فالله عزّ وجل قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

العلاقة بين إضاعة الصلاة و إتباع الشهوات:

قد يسأل سائل ما الوضع ؟ نحن أين موقعنا من هذه الآية ؟ موقعنا هو قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

لماذا أضاعوا الصلوات ؟ لأنهم اتبعوا الشهوات، ولماذا اتبعوا الشهوات ؟ لأنهم أضاعوا الصلوات، علاقةٌ ترابطية بين إضاعة الصلاة وإتباع الشهوات.

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

آيةٌ ثالثة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

الاستقرار على الحق أساس كل شيء:

أما الآية الدقيقة:

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

الأمور تستقرُّ على الصحيح، فالباغي تدور الدوائر عليه، والمُخادِع يخدع نفسه، والذي يمكر لا يمكر إلا بنفسه، والذي يستهزئ، يستهزئ بنفسه، فالإنسان مهما تحرّك فالأمور تستقر على الحق، فتصوّر كرة وألصق في جدارها الداخلي قطعة رصاص ودحرجها فإنها لا تستقر إلا والرصاصة على الأرض.

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

الاستقرار على الحق، فالله عزّ وجل يدمِّر الظالم، وينصر المستقيم، ويرفع مكانة الأمين، ويفضح الخائن، ويدعم الصادق، و يفضح الكاذب، وكل أمرٍ مستقر.

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

سنة الله في خلقه:

((البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل كما شئت، كما تدين تدان))

(أخرجه عبد الرزاق في الجامع عن أبى قلابة)

لأن الله موجود، ولأن الأمر كله بيده، ولأنه الفعّال لما يريد، والقاهر فوق عباده، وهو على كل شيءٍ وكيل، فالبرُّ لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديّان لا يموت، والمستقيم له معاملة، وله مصير رسمه الله له، في تأييد ونصر وحفظ، فالمنحرف له معاملة، فينكشف انحرافه ويلقى جزاء عمله، والغاشّ للمسلمين له معاملة، إذ يفضحه الله ويخسر المال الذي جمعه من غِشِّه، فيفضحه الله على رؤوس الأشهاد ويخسر المال بل أضعاف المال الذي جمعه من الغِشّ، والنصوح يرفع الله اسمه ويدعم عمله.

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

والرحيم يتجلّى الله عزّ وجل على قلبه:

((الراحمون يرحمهم الله))

(أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

فكل أمرٍ مستقر، والغاش يُكشَف غشّه، والمنافق يُكشَف نفاقه، والمُحتال يُكشَف احتياله، والأمور لا تستمر على وضعها غير الصحيح، وهذه سنّة الله في خلقه، فإنسان يحتال على الناس، لابدّ من أن يفضحه الله، وإنسان يكذب، لابدّ من أن يُكشَف كذبه، والأمور لا تستقر، فالحائط لا يستقر إلا إذا بني على شاقول، فإذا بني من دون شاقول أصبح مائلاً ولابدّ من أن يقع، ووقوع البناء دليل أنه لم يكن صحيحاً، وثبات البناء دليل أنه بني صحيحاً.

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

زوجان بَنَيا زواجهما على طاعة الله، فهذا الزواج يستقر ويتنامى، وزوجان بنيا زواجهما على معصية الله، فهذا الزواج يتصدّع وينهار.

الأمور التي يفعلها الله تعالى مبنية على علم منه:

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

يوجد معنى آخر لهذه الآية: فالأمور التي يفعلها الله عزّ وجل مبنيةٌ على علم، واستقرار الشيء دليل إتقان صنعته، فأحياناً تكون المنضدة قد صُنِعَت بشكلٍ سريع غير متقن، فهي غير مستقرّة، بل تتحرّك، أما إذا كانت مستقرّة فمعنى هذا أنها متماسكة، ومتوازنة، ومدروسة، فالاستقرار معناه إتقان الصنعة، وكل أمرٍ خلقه الله عزّ وجل مستقرٌ على علمٍ، و حكمةٍ، وعدلٍ، ورحمةٍ، وعدالةٍ، وهذا المعنى الثاني.

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ(4))

قصص الأقوام السابقة زجر للمنحرفين:

هذا كتاب الله فيه قصص الأقوام السابقين ؛ قوم عادٍ وثمود، وقوم تبّع، وأصحاب الأيكة، وقوم نوح، ولوط، وإبراهيم كيف أنهم كذّبوا فأهلكهم الله عزّ وجل، هؤلاء.

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6))

(سورة المطففين)

هؤلاء يحاسَبون، فالقرآن فيه قصص الأقوام السابقة، أليست هذه مزدجراً للمنحرفين ؟ ففي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

أليست هذه الأنباء كافيةً كي تزجر المنحرفين ؟ ففيه قصص الأنبياء السابقين، أو أقوامهم المكذّبين، وفيه آيات الحلال والحرام، والحقّ والباطل، والخير والشر، ومشاهد يوم القيامة وما يتعذّب فيه الكفّار في النار، وما يتنعّم فيه المؤمنون في الجنة.

عدم نفع النذر عند تعطيل العقل:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ)

في هذا الكتاب.

(مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)

ومع ذلك لم يزدجروا، فقد يأتيك طبيب بإحصاءات مذهلة أن نسب الذين يصابون بأمراض القلب من بين المدخّنين عشرة أمثال، فطبيبٌ جرّاح للقلبٍ قال لي بالحرف الواحد: والله أنا أجري عمليات قلب مفتوح منذ سبع سنوات في هذه البلدة، وما دخل إلى غرفة العمليات مريضٌ واحد إلا وهو يدخّن، تعطيه أمثلة، وشواهد، وأدلّة، وأقوال، وورماً خبيثاً في الرئة، والحنجرة، واللسان، واحتمال الغرغرين.. ومرض الموات. وتصلّب الشرايين، وضعف القلب، وتسرّعه، والجلطة، وإنك تعطيه الأدلّة الكافية ومع ذلك يدخّن، الأمر عجيب:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5))

فالإنسان إذا عطّل عقله فالنذُر لا تنفعه.

الإنسان يملك باعثين: العقل و الشهوة:

الإنسان له باعثان: باعث العقل، وباعث الشهوة، فإن استجاب لباعث الشهوة فإنه يمشي في طريق الهلاك، أما إذا استجاب لباعث العقل فهو في طريق النجاة، وإن استجاب لباعث إرضاء الله فهو في طريق السعادة، أما إذا استجاب لباعث إرضاء الذّات فهو في طريق الشقاء، إن استجاب لباعث العمل للآخرة كسِبَ الدنيا والآخرة، وإن استجاب لباعث العمل للدنيا خسِر الدنيا والآخرة، فيوجد باعثان وليس هناك باعثٌ ثالث، بل حتميّة الباعثين.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

الإنسان إن لم يعرف الله و يطلب الحقيقة لا ينفعه شيء:

لذلك:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)

فالإنسان أحياناً يجب أن يقف موقفًا جريئًا، فهذا كلام الله، وهل هناك شك ؟ لا، فالله عزّ وجل يَعِد العصاة بالنار، فما موقفك ؟ وهل أنت مصدِّقٌ لهذا الوعيد أم لست مصدِّقاً له ؟ فالطبيبُ إذا منعك أكلةً تحبُّها فإنك تمتنع عنها، وأنت تحبها جداً، أيكون وعيد الطبيب أشدّ من وعيد الله ؟ أتصدِّق الطبيب دون أن تصدِّق الله عزّ وجل ؟ فالإنسان حينما يعصي الله فهو محاصر، وموضوع في زاوية ضيّقة، ومتّهم بالغباء، وبالكُفْرَان.

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5))

أي أن الإنسان إن لم يتخذ قراراً بمعرفة الله وطلب الحقيقة من أعماق أعماقه فلا ينفعه شيء، ولو أنّ الآيات حوله من كل جانب، لو أنّ الأحداث كلّها تؤكِّد حقيقة الدين فلا ينتفع بها، أما إذا أراد أن يعرف الله فإن كل شيءٍ في الكون يدلّه على الله، كونه، وأفعاله، وكلامه.

اختيار الإنسان لطريق الحق أو الباطل:

(حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ)

إن الإنسان مخيّر، وإذا أراد أن يهتدي تعرّف إلى الله من خلال عقله، أو فطرته، أو الأحداث التي حوله، أو كتابه، أما إذا أراد أن يتّبع شهوته فلو أنّ الأمور كلها تنطق بحقائق الدين ما استمع إليها.

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

دعهم لي، هذا كلام فيه تهديد، دعهم يا محمد لقد أصمّوا آذانهم، حبهم للدنيا أعماهم وأصمّهم، دعهم لي، إن لم يستجيبوا لك فتولّ عنهم.

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

ليومٍ عسير:

(يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)")

خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط:

إخوانا الكرام: الحقيقة خطيرة جداً، أنت خيارك مع الإيمان خيار وقت **(دققوا فيما سأقول)**، إن لم تؤمن الآن وأنت صحيحٌ، قويٌ، غنيٌ، حي، فهذا أخذته من قول النبي الكريم

((اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس، و أحمد عن عمرو بن ميمون)

فإن لم تؤمن وأنت شاب، صحيح، غني، فارغ، حَيّ، فلابدّ من أن تؤمن بعد فوات الأوان، ففرعون قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: آية " 90 ")

قيل له:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس: آية " 91 ")

ما نَفْعُ إيمانك الآن ؟ نحن مع الإيمان ليس خيارنا خيار قبول أو رفض، بل خيار وقت فقط.

الحقائق التي يعرضها القرآن ستراها إن لم تؤمن بعد مغادرة الدنيا:

ذكرت هذا في الأسبوع الماضي: أن الفرق بين المصاب بالإيدز والحامل لهذا الفيروس ليس فرقاً في النوع لكنه فرقٌ في الوقت فقط، فالمصاب ظهرت عليه أعراض الإيدز المرعبة، وأما الحامل أعراض

الإيدز المرعبة ففي طريقها إلى الظهور، إنها لم تظهر بعد، فالقضية قضية وقت بينهما، وليس هناك فرقٌ نوعي بل فرق زمن، ونحن إن لم نؤمن فلابدّ من أن نؤمن، وجميع الحقائق التي يعرضها القرآن الكريم سوف ترونها رأي العين عند مغادرة الحياة.

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

غير الذي كنت أعمل، وغير الذي كنّا نعمل.

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

يوجد نذير.

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29))

(سورة الفرقان)

أهوال يوم القيامة:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

هذه كلمة مخيفة جداً، أي إن لم يستجيبوا لك يا محمد دعهم لي، دعهم ليومٍ تشيب فيه الولدان، وليومٍ لا يُنْسَى فيه شيء إنه يوم الهول الأعظم، قال عليه الصلاة والسلام:

((يحشر الناس يوم القيامة حفاةً، عراةً، غرلاً))

(مُتَّفَقٌ عَلَيْه عن عائشة)

أي بغير ختان، فقالت يا رسول الله: هكذا يرى بعضنا بعضاً بلا ثياب ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((يا أمّ المؤمنين الأمر أفظع من أن يعنيهم ذلك))

لشدّة الهول لا يعنيهم ذلك، فأحياناً تقول الأم لابنها وقد وقعت عينها على عينه يوم القيامة، تقول: **" يا ولدي لقد كان بطني لك وعاءً، وصدري سقاءً، وحجري وطاءً، فهل من حسنةٍ يعود عليّ خيرها اليوم؟ قال: ليتني أستطيع ذلك يا أماه إنني أشكو مما أنتِ منه تشكين "**، هذا هو يوم القيامة، كل شيء فعله الإنسان سيُحاسَب عليه، فإذا لم تستجب الآن ونحن أصحّاء، أشدّاء، أحياء، وعندنا وقت فراغ، إن لم نستجب الآن يقول الله لنبيّه:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8))

محاسبة النفس قبل فوات الأوان :

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

دقِّقوا أيها الأخوة وتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان، واصطلحوا مع الله قبل أن يأتي يومٌ لا نستطيع ذلك، فعالجوا أنفسكم، وحاسِبوها قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، فهذه الآيات أيها الأخوة في درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع تفسيرها مبتدئين بقوله تعالى:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 9-16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-11-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة القمر، ومع الآية التاسعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

القرآن الكريم أحياناً آياته تفسِّر آياته.

عدم اجتماع الهوى مع الحق:

قال تعالى:

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القمر: آية " 3 ")

أي كذبوا لأنهم اتبعوا أهواءهم، أو كذبوا لأن حالتهم إتباع الهوى، فالهوى والحق لا يجتمعان، ولقد قلت لكم من قبل إن وراء كل عملٍ يفعله الإنسان أحد باعثين العقل أو الشهوة، إرضاء الذات، أو إرضاء الله عزّ وجل، الإحسان أو الإساءة، القِيَم أو الحاجات، العمل للدنيا أو العمل للآخرة، وهذان الباعثان لا ثالث لهما، فإن لم تكن بالباعث الأول فأنت بالباعث الثاني، فالآية الثالثة وهي قوله تعالى:

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

عدم الاستقامة تؤدي إلى عدم التقيُّد بأوامر الشرع:

أيها الإخوة: حينما قال الله عزّ وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

فإن لم تجد الاستخلاف، ولا التمكين، ولا التطمين، فلا استخلاف ولا تمكين ولا تطمين، فكيف تفسر هذه الآية ؟ هذا الوضع تفسره آيةٌ ثانية:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

أما إضاعة الصلاة فلا تعني أنهم تركوا الصلاة، ولكن أضاعوا قيمتها بعدم الاستقامة، فالإنسان إذا استقام فإنه يتّصل، وإن لم يستقم قلا يتصل، وكل إنسانٍ بإمكانه أن يتوضأ، وأن يقف، وأن يقرأ، ويركع، ويسجد، ولكن ليس بإمكانه أن يتصل إن لم يكن مستقيماً، فمن إضاعة الصلاة عدم الاستقامة، ومن إضاعة الصلاة أكل المال الحرام، ومن إضاعة الصلاة عدم التقيُّد بأوامر الشرع، ومن إضاعة الصلاة التفلُّت في العلاقات النسائية، لذلك التكذيب يرافقه إتباع الهوى.

التكذيب: ألا يأتي عملك مطابقاً لمعتقدك:

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

ولكن أيها الإخوة: أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني إلى توضيح عميق لمعنى التكذيب، وأحياناً الإنسان يصدِّقُ بلسانه وهذا شأن عامة المسلمين، ما من مسلمٍ في العالم الإسلامي يمكن أن يقول: أنا لا أعتقد بالآخرة، ولست مؤمناً بها، وهذا الكلام لا يقع ما دام الإنسان نشأ من أبوين مسلمين في عالمٍ إسلامي، فالجو العام جو فيه آخرة، وفيه جنة، وفيه نار، وحساب، وعذاب، وصلاة، وصوم، وحج، وزكاة، فليس هذا هو التكذيب العميق، فالتكذيب العميق ألا يأتي عملك مطابقاً لمعتقدك.

فالإنسان حينما يرتكب الحرام، أو يأكل المال الحرام، أو يتفلّت من منهج الله، وهو مقيمٌ على هذه المعصية، وليس في رغبته أن يقلع عنها، وهو يقرأ القرآن ويحضر خطب الجمعة، فهذا مكذبٌ بعمله لا بلسانه.

التكذيب نوعان:

1- التكذيب باللسان:

التكذيب بالعمل أبلغ من التكذيب بالقول، لأن الذي يكذِّب بلسانه تناقشه، وتحاوره، وتجيبه، وتوضِّح له، وتؤكِّد له، وتقنعه، وتقيم عليه الحجة والبرهان.

2 - التكذيب بالعمل:

الذي يكذب بعمله فهذا قد يقول بلسانه: أنا مؤمن، والآخرة حق، والجنة حق، والنار حق، ولكن لا ترى في عمله أثراً للإيمان بالآخرة.

التكذيب العملي أخطر من التكذيب النظري:

الامتحان محدد في شهر حزيران، والطالب لا تراه إطلاقاً يفتح كتاباً، ولا يعكف على دراسةٍ، ولا يسأل سؤالاً، ولا يؤدي واجباً، فهذا عدم الاهتمام بالقراءة والمطالعة والحفظ والمراجعة وأداء الواجبات وهو يعلم علم اليقين أن الامتحان في حزيران فنقول: إنه يكذب بالامتحان لا بلسانه ولكن بعمله، فحذار أن يقع الإنسان في هذا المأزق، فتنفصل عقيدته عن سلوكه، ويعتقد أن الإسلام حق ودين عظيم، والآخرة حق، والجنة حق، والنار حق، وهناك حساب، وعذاب، وما شاكل ذلك، فإذا دخلت بيته أو زرته في عمله فلا تجده منضبطاً ولا على طريق الاستقامة قائماً، ولا تجد دخله حلالاً ولا إنفاقه حلالاً، فكيف نوفِّق بين هذا الوضع ؟ لا شك أن يكون هناك ما يسمى بالتكذيب العملي، والتكذيب العملي أخطر بكثير من التكذيب النظري.

والمؤمن الصادق دائماً وأبداً يطابق بين سلوكه ومعتقده، وبين سلوكه ومنهجه، بين سلوكه والحلال والحرام، وقوام الدين بعد معرفة الله الحلال والحرام:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

(رواه الطبراني عن ابن عباس)

التكذيب قديم و مستمر:

الإنسان حينما يكذب يكون متبعاً للهوى، اتبع الهوى فكذب، أو كذب فاتَّبع الهوى.

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

فلذلك:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)

أي أن التكذيب قديم، والتكذيب مستمر، والإنسان حينما يقرأ كلام الله عزّ وجل يشعر أن هناك سُنَنَاً ثابتةً في الحياة، فالحق قديم، والحق يعاديه الباطل من القِدَم، وهناك معركةٌ بين الحق والباطل، كانت ولا تزال وستبقى، فإنسان متفلت إن كان له أخ في البيت ملتزم دائماً يحاسبه حساباً عسيراً، ودائماً يضعه تحت الأضواء الكاشفة، ودائماً يكبِّر أغلاطه ليثبت أنه على حق وأن أخاه على الباطل.

عاقبة الإنسان الهلاك إن خالف الدين و اتبع هواه:

أيها الإخوة الكرام:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)

الحقيقة أن هذه القصص حينما يبيّن الله لنا جلّ جلاله أن هؤلاء الأقوام كذّبوا فأهلكهم، أريد بعد حين بعد أن نأتي على كل قصص هذه السورة، وأريد آية أساسية في هذه السورة وهي قوله تعالى:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46))

(سورة القمر)

هذه الآية هي مغزى تلك القصص، إذا أهلك الله قوم نوحٍ بأنهم كذبوا واتبعوا أهواءهم، وأهلك قوم عادٍ وقوم ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم شُعيبٍ، فمن نحن ؟ إن أهلك هؤلاء الأقوام، فلابد من أن نهلك إن خالفنا واتبعنا أهواءنا، هذا هو المغزى، وقد يقول الأب لابنه أحياناً: انظر إلى فلان وفلان لقد انحرفا فدمرا نفسيهما، أي لا تنحرف لئلا تدمر كما دمر غيرك، ولا تأكل مالاً حراماً لئلا يتلف مالك كما أتلف مال غيرك، ولا تنحرف أخلاقياً تُصَب بالمرض نفسه، فالإنسان العاقل يستنبط من التاريخ أجَلّ المواعظ.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)

(سورة القمر)

عدم الإيمان بالآخرة من أكبر المصائب:

والذي أريد أن أؤكِّد عليه أن التكذيب الخطير هو التكذيب العملي، والتكذيب العملي ألا يأتي السلوك مطابقاً لما تعتقد، وحينما لا تجد في حياة الإنسان ما يؤكد أنه مؤمنٌ بالآخرة فهذه من أكبر المصائب.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا)

أما عبدنا، العبد هو سيدنا نوح وأما هذه (نا) ضمير الدال على الجماعة، أُضيف هذا الإنسان إلى ذات الله عزّ وجل، كما قال العلماء: **إضافة تكريمٍ وتشريف.**

تسخير السماوات و الأرض للإنسان تسخير تعريف و تكريم:

حينما يقول الله عزّ وجل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الزمر: آية " 53 ")

فحينما يقول الله عزّ وجل:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الحجر)

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)

(سورة الإسراء: آية " 53 ")

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر: آية " 42 ")

هل تشعر أن هذا العبد إذا أضيف إلى ذات الله عزّ وجل فهذه إضافة تكريمٍ وإضافة تشريف، أيليق بالإنسان وهو الذي سخرت له السماوات والأرض تسخير تعريف وتكريمٍ أن يكون غافلاً عن الله في حين أن كل المخلوقات تسبح بحمد الله وتقدّس له.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: آية " 44 ")

استمرار وجود الإنسان منوط بإتباع تعليمات الخالق:

حينما يأتي الإنسان ليستمع إلى تفسير آياتٍ من كتاب الله، فهل هناك عمل أجل وأخطر وأنفع من أن تتعرف إلى منهجك في الحياة ؟ فإذا اشتريت آلةً غالية الثمن، غاليةً جداً، ولها أرباح طائلة، وجعلتها قِوام عملك، فهل من عملٍ أخطر وأنفع وأجدى من أن تعكف إلى تعليمات الصانع فتدرسها، فالذي عنده آلة ثمنها ثلاثون مليونًا، آلة إلكترونية، ويعلق عليها آمالاً كبيرة، وهي مصدر رزقه الوحيد، فهل من عملٍ أجل وأخطر من أن يعكف على تعليمات الصانع فيترجمها ويفهمها، ويستعملها ؟ وأنتم ؟ ألا تحبون أنفسكم ؟ فالإنسان يحب ذاته، ويحب وجوده، و كمال وجوده، واستمرار وسلامة وجوده، فسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك منوطٌ بإتباع تعليمات الصانع، فالإنسان حينما ينطلق من حبه لذاته في تطبيق تعاليم الله عزّ وجل فهذا من أعظم النعم.

طلب العلم أساس في معرفة الله:

ذكرت اليوم لمن فاته استماع هذه الحقيقة أن مركبةً فضائيةً أرسلت إلى الفضاء الخارجي قبل أربع سنوات، وهي تقطع في الساعة أربعين ألف ميل، والميل كيلو ونصف تقريباً، وقبل يومين أرسلت إشارةً إلى وجود مجرةٍ تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، أُذيعت هذه الحقائق في إذاعة عالمية، فالمجرة التي اكتشفت حديثاً جداً تبعد عن الأرض ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، ومعنى ذلك أن هذه المجرة كانت في هذا المكان قبل ثلاثمئة ألف بليون سنة وهي تمشي بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، وأين هي الآن ؟ ألم يقل الله عزّ وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

أهذا الإله العظيم يعصى ؟ أهذا الإله العظيم ألا يخطب وده ؟ أينسى ؟ أم يغفل عنه ؟ فالإنسان العاقل يطلب العلم ليتعرّف إلى الله عزّ وجل، وليتعرف إلى منهجه، ويملك كما يقولون عزيمة قوية تحمله على تطبيق الأمر والنهي، فهذا هو الفلاح، والنجاح، وهذا هو الفوز والتفوق.

الاعتراف بفضل الله عبودية له:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا)

عبدنا، هل أنت عبدٌ لله ؟ وهل تشعر بافتقارك إلى الله ؟ فالعبودية لله عزّ وجل ليست تأدُّباً ولكن حقيقة، وأحياناً الإنسان يتواضع وهو يعلم أنه كبير، وأنه قوي، وقادر، وغني ولكنه يتواضع، إلا أن العبودية لله شيءٌ آخر، وكلما ازددت معرفةً بذاتك تواضعت لله، وافتقرت إليه، وأقبلت عليه، والإنسان لا شيء، إنه قويٌ بالله، وعالمٌ به، غنيٌ بالله، ومعافى بفضله، إذ يتحرّك بفضل الله، ويفكر بفضله، والإنسان مُعَرَّض في أية ثانيةٍ إلى فقد أحد أعضائه أو أحد أجهزته، أو إلى خللٍ خطيرٍ يصيب أجهزته، فعندئذٍ تصبح حياته جحيماً، فالذي يعترف بهذه الحقيقة هو عبدٌ لله.

وحينما تشعر أن هذه الآلة كل ميزاتها لا تقوم إلا إذا وصلتها بالتيار الكهربائي، فتشعر أنها مفتقرة إليه، فلو انقطع عنها سكتت، وتعطّلت وأصبحت عبئاً عليك، وليست في خدمتك، فالاعتراف بالحقيقة عبودية لله عزّ وجل، فالإنسان حينما يفتقر يرقى، وحينما يستغنى يسقط.

طغيان الإنسان سببه الاستغناء عن الله:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

متى.

(أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

إذا استغنى عن الله يطغى، أما إذا افتقر إلى الله يستقيم على أمره، فإذا شعرت أنك عبدٌ وأن الله هو كل شيء، وأن هذا منهجه، إذاً عليك بطاعته، أما إذا شعرت أنك مستغنٍ عنه فهذه هي الطّامة الكبرى.

خُلق الإنسان ضعيفاً ليفتقر في ضعفه:

وبالمناسبة أيها الإخوة: ذكرت مرةً أن هذه المنضدة مثلاً موضوع عليها هذا المصحف، وهذه الآلات، وهذا الكأس، لكن هي تتحمل أوزانًا أكبر من هذا بكثير، بمعنى أن هناك احتياطاتٍ كثيرةً أودعت فيها، فيمكن أن يقف عليها إنسان، ويمكن أن تتحمّل إنسانين، وقلّما تصاب بالعطب لأن احتياطها كبير، وكان من الممكن أن يكون الإنسان على شاكلة هذه الطاولة، بكل عضو من أعضائه، بكل جهاز من أجهزته احتياط كبير، بحيث لا يمرض أبداً، بل يعيش شاباً إلى أن يأتيه الأجل، فيموت فجأةً، كان من الممكن أن يكون الإنسان كذلك، لكن شاءت حكمة الله أن يخلق الإنسان ضعيفاً، لماذا ؟ ليفتقر في ضعفه، وليرى ضعفه.

ولعل من حكم الصيام أن الإنسان القوي الشديد، العتيد حينما يدع الشراب والطعام في أيام الصيف الحارة يرى أنه ذاب كما تذوب الشمعة، وذبل كما تذبل الورقة، وتتوقف نشاطاته على كأس ماء، ولعله في الصيام يعرف حجمه، وضعفه، وافتقاره.

يتولى الله الإنسان بالرعاية إذا افتقر إليه:

أيها الإخوة: يفتقر الإنسان إلى أن يكون عبداً لله، فالعبودية أن تعرف الله، ولا أبالغ إذا قلت: إن الدرس اليومي الذي نمتحن به مقدار افتقارنا إلى الله ومقدار اعتزازنا بأنفسنا، ففي اللحظة التي نفتقر إلى الله يتولانا الله بالرعاية والعناية، وفي اللحظة التي نعتد فيها بأنفسنا يتخلى الله عنا، ولذلك فمن دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين لا إله إلا أنت))

(أخرجه أبو داود عن ابن أبي بكرة)

فالقانون أنك تفتقر فيتولاك، وتستغني فيتخلى عنك، فأنت بين الافتقار وبين الاستغناء، الاستغناء جهل، والافتقار علم، الاستغناء ضعفٌ في الأخلاق، أما الافتقار قمة الأخلاق، ولا تنسوا أن أصحاب النبي رضوان الله عليهم وهم قمم البشرية حينما قالوا: لن نغلب من قلة تخلى الله عنهم.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

يوم حنين أعجبتكم كثرتكم، وفي بدرٍ افتقرتم:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: آية " 123 ")

العبودية لله أعلى مرتبة من مراتب الإيمان:

صدقوني أن هذا الامتحان يصيب كل مؤمن في اليوم عشرات المرات، إذا خطر بباله أنه متمَكِّن، وأن خبرته عميقة، وأن ماله وفير، أنه بالدراهم يحل كل مشكلة، فقد اعتز بماله، واعتز بقوته، وبعلمه، و بخبراته، فيتخلى الله عنه، ويلقِنه درساً لا ينسى، تأتيه المشكلة من حيث لا يحتسب، من مكان طمأنينته، ومأمنه، إذ يؤتي الحذر من مأمنه، فأنا هذا الكلام تعليق على قوله تعالى:

(فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا)

فأنت في شؤون العلم تبدأ بإتمام مرحلة ابتدائية، فإعدادية، فثانوية، فإجازة أو ليسانس أو بكالوريوس، ثم دبلوم عام، ودبلوم خاص، وماجستير، ودكتوراه، ثم بورد إذا كان بالطب مثلاً، أكريجيه، إف آر إس، كيف الشهادات مسلسة هكذا، صدقوني أن مراتب الإيمان مسلسلة إلى أن تنتهي في أعلى مستوياتها في العبودية لله عزّ وجل، وحينما بلغ النبي سدرة المنتهى، ماذا قال الله عزّ وجل:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

أي أنك في أعلى مستوياتك حينما تشعر بعبوديتك لله عزّ وجل، وأنت في أعلى درجات رقيك حينما تشعر أنك مفتقرٌ إلى الله، وكلما ازددت إدراكاً لعبوديتك لله ازددت رفعةً عند الله وعند الناس، وأمدك الله بقوةٍ منه، وبعلمٍ منه، وغنًى، فأنت غنيٌ بالله فقيرٌ بذاتك، وأنت قويٌ بالله ضعيفٌ بذاتك، وعالمٌ بالله جاهلٌ بذاتك.

إكرام الله للإنسان إذ خلقه بأحسن صورة:

لذلك أيها الإخوة كان الأنبياء عُبّاداً لله عزّ وجل، والمؤمن يعرف هذه العبودية، ولذلك حينما يعقل الإنسان هذه الحقيقة لا تجد على لسانه فلتةً تشير إلى شِرْكِهِ، فدائماً يقول: إن شاء الله، لقد أكرمني الله، لقد منّ الله علي بفضله فأعطاني كذا، فلا يرى أن الذي حصله بجهده، ولا بكسبه، ولا بذكائه، فماذا قال قارون ؟

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ)

(سورة القصص: آية " 78 ")

فأهلكه الله:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: آية " 81 ")

وماذا قال إبليس ؟

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة ص: آية " 76 ")

فأهلكه الله عزّ وجل، وماذا قال قوم بلقيس:

(قالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)

(سورة النمل)

هذا هو الشرك، والمؤمن يرى أن الله سبحانه وتعالى أكرمه، أكرمه إذ خلقه.

المؤمن من ينسب النعمة إلى المُنعم:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

أنعم عليه بنعمة الوجود، والإمداد، والإرشاد، ولذلك فالمؤمن دائماً ينسب النعمة إلى المُنْعِم، والكافر يقف عند النعمة، والمؤمن يعزوها إلى المُنْعِم، أما الكافر فيقف عندها ويستمتع فيها بلؤمٍ شديد.

مَجْنُونٌ: كلمة لها عدة تفسيرات:

1 ـ المجنون من عصى الله:

إذاً:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

و الحقيقة إن المجنون من عصى الله، وقد مَرَّ النبي عليه الصلاة والسلام برجل مجنون (في اصطلاح الناس)، فسأل عنه سؤال العارف فقالوا: هذا مجنون يا رسول الله، قال:

((ليس هذا المجنون، المجنون من عصى الله هذا مبتلى))

هذا مريض، مرضٌ أصاب دماغه، أما المجنون من عصى الله، ولذلك:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ)

(سورة هود: آية " 28 ")

2 ـ المجنون من عُميت عليه رحمة الله:

من هو المجنون ؟ الذي عُمِّيَت عليه رحمة الله، ففي مقتبل العمر يرى المال كل شيء، وفي أوسطه يراه شيئاً وليس كل شيء، وإذا على شفير القبر يراه لا شيء:

((يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي))

(ورد في الأثر)

فالمؤمن يرى طاعة الله هي كل شيء، يُصَدِّق الله عزّ وجل.

التعليم عن طريق اللغة يليق بالإنسان:

هناك نقطة دقيقة جداً ذكرتها اليوم في الخطبة: كان من الممكن أن نأتي جميعاً إلى الدنيا دفعةً واحدة، وأن نغادرها دفعةً واحدة، ولكن شاءت حكمة الله أن نأتيها تباعاً، فلماذا ؟ لأنه يمكن لأحدنا أن يُعَلِّم الآخر، فالإنسان الذي عمره خمسون سنة قد تراكمت عنده الخبرات، والحقائق والتجارب، والمعارف، وعرف الله، فيُلَخِّص كل هذا العمر وكل هذه التجارب لمن كان صغيراً بكلمات، فسر التعليم أنك تأخذ خبرات الأجيال، فهذا كتاب الله عزّ وجل، حينما تستمع إلى تفسيره، فهذا عمل خطير جداً لأنه منهجك في الحياة، فالتعليم عن طريق اللغة شيء راقٍ جداً، وهذا الشيء يليق بالإنسان، لأن الله عزّ وجل قال:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

فأنت مكرم بالبيان، والبيان شفهي، وهناك بيان كتابي، والكتابي أرقى وأسمى لأنه ينقل المعارف من جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أمة، ومن قارة إلى قارة.

من علامات آخر الزمان تصديق الكاذب و تكذيب الصادق:

فلذلك:

(فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

فإذا أمسك إنسان بكيلو من الذهب الخالص، وقال له آخر: هذا ليس بذهب، بل هو معدن رخيص، فهل هذا الاتهام يجعل هذا المعدن رخيصاً ؟ أبداً، فتقييمك لا يغيّر حقائق الأشياء، فلو قالوا عنه:

(مجنون وازدجر)

هو عند الله نبيٌ مرسل، فالمؤمن الصادق لا يلقي بالاً لأقوال الناس، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به، ازدجر أي زجرته الجن، أي أصابته لوثةٌ عقلية، فهذا من عمل الجن، والحقيقة حينما يتخلف المجتمع وتفشو فيه المادة ويصبح المؤمن غريباً، قال عليه الصلاة والسلام:

((بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

((طوبى للغرباء فقيل من الغرباء قال أناسٌ صالحون في أناس سوءٍ كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم))

(أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

فالإنسان إذا أقام شرع الله وترك كل الموبقات، وترك كل الملهيات، وضبط لسانه، يتهم عند الناس بأنه مجنون، وأنه لا يعرف كيف يعيش، وأن الذين أكلوا المال الحرام هم الأذكياء والأقوياء، فهذا حال المجتمع في آخر الزمان، يكذّب الصادق، ويصدّق الكاذب، ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين، فهذا من علامات آخر الزمان التي أشار إليها النبي عليه الصلاة والسلام.

الأنبياء قدوة للناس:

(فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

ومعنى ذلك هناك سؤال دقيق الآن، أي أن هذه التهمة التي اتهم بها هذا النبي الكريم سيدنا نوح عليه السلام، ألا يسأل أحدكم هذا السؤال: لماذا أثبتها الله في القرآن الكريم ؟ تهمة طرحت، والنبي عليه الصلاة والسلام قالوا عنه: ساحرٌ ومجنون، وكاهن، وشاعر، فلماذا أثبت الله هذه التهم المفتراة على أنبيائه في قرآنه الكريم الذي يتلى إلى يوم الدين ؟ الجواب بسيط جداً: أي من أنت إذا كان نبيٌ كريم قد اتهم بالجنون، وأثبتت هذا التهمة في القرآن الكريم لتتلى إلى يوم الدين، ومن أنت إذا انتقدك منتقد أو انتقص من قدرك إنسانٌ جاهل ؟ لا تعبأ فربنا عزّ وجل جعل الأنبياء قدوةً لنا.

الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء:

(وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10))

فالله عزّ وجل ما كان بالإمكان أن يخلق النبي وأصحابه المحبّين في عصرٍ دون أن يخلق معهم إنساناً كافراً ولا مكذباً ولا مفترياً، فيعيش النبي مع أصحابه حياةً هنيئة وادعةً، كلها مودة، ومحبة، وخدمة، ومؤاثرة، والإسلام ينتشر هكذا بيسر، من دون جهد، وحروب، و غزوات، دون أن يوجد رجل كافر ينتقد النبي، ولا شاعر يهجوه، ولا كفار يخرجونه من بلده، ولا أشخاص يتّبعونه في طريق الهجرة، ولا

أشخاص يؤذونه في الطائف، ولا آخرون يأتمرون عليه في الخندق، ألم يكن هذا ممكناً ؟ ممكناً، إنه ممكن، ولكن كيف يظهر كمال النبي ؟ شاءت حكمة الله أن يجعل الحياة الدنيا دار ابتلاء، وامتحان، والإنسان بالابتلاء والامتحان يظهر معدنه، فما كان لنا أن نعرف قدر النبي لولا هؤلاء الكفار الذين نَكَّلوا، واتهموا، وأخرجوا، وكذبوا، وفعلوا الأفاعيل، وقد صبر النبي وصبر حتى أكرمه الله عزّ وجل.

أنا أقول لكم هذا الكلام: الإنسان إذا اتبع الحق فربما أصابته بعض المتاعب، وأحياناً من أقرب الناس إليه، وأحياناً من زوجته، وأولاده، و إخوته، و جيرانه، فوطِّن نفسك على أن الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، ووطِّن نفسك على أنك مبتلى، وممتحن، و أن الله لن يمكنك قبل أن يبتليك، ولن يعطيك قبل أن يجعلك تجاهد في سبيله، فلذلك هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

أعلى مرتبة ينالها الإنسان أن يكون عبداً لله:

أثبت لنا هذه التهمة الباطلة المفتراة على نبي كريم كي يكون لنا قدوةً في تحمل الشدائد، وذكر:

(فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا)

و الله جلّ جلاله جعل أعلى مرتبةٍ ينالها الإنسان أن يكون عبداً لله، وكلما ازداد افتقاراً لله ومعرفةً بقدره وضعفه ازداد قرباً ورفعةً وقوةً وعلماً وغنى، ولذلك فالنقطة الدقيقة جداً أن الله خلقك ضعيفاً لتفتقر في ضعفك فتسعد في افتقارك، ولم يخلقك قوياً لأنه إذا فعل ذلك استغنيت بقوتك فشقيت باستغنائك، إذن استغنيت فشقيت، وافتقرت فسعدت.

الدعاء هو العبادة:

(فَدَعَا رَبَّهُ)

إخوانا الكرام: والله الذي لا إله إلا هو يكاد الدين كله في النهاية يكون دعاءً صادقاً لله عزّ وجل، وما أحسن هذه الأدعية التي دعا بها النبي، وأصل الدعاء من أرقى أنواع العبادة، فالدعاء هو العبادة، والدعاء هو افتقار، فالإنسان لما يكون مؤمنًا بالدعاء، فربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ)

(سورة الفرقان: آية " 77 ")

أي أن الله عزّ وجل يعبأ بنا إذا دعونا، ويحبنا، ويكرمنا إذا دعوناه، ويستجيب لنا، وينصرنا، وينقذنا، ويحمينا، ويوفقنا إذا دعوناه، فلماذا ؟

من أسباب دعاء الله عز وجل:

أولاً: لأن الإنسان لا يدعو إلا من يؤمن بوجوده، وهل يمكن لك أن تدخل إلى بيت فارغ لا يوجد فيه إنسان وتخاطب واحداً موهوماً ؟ إنه غير معقول، أنت لا تدعو إلا إنساناً مؤمناً بوجوده.

ثانياً: وأنت لا تدعو إنساناً لا يسمع، بل تدعو إنسانًا أمامك تراه رأي العين وهو مستمعٌ إليك، فإذا كان لا يسمع فإنك لا تدعوه.

ثالثاً: وإنسان موجود ويسمعك، لا تدعو عدوّك، بل تدعو من يحبك.

رابعاً: الإنسان لا يدعو إلا إنسانًا مؤمنًا بوجوده، يستمع إليه، محباً له، قادراً على إنقاذه مما هو فيه، فأنت حينما تدعو الله حقيقةً فأنت مؤمنٌ بوجوده، ومؤمنٌ بأنه يسمعك، ويحبك، وأنه قادر على إنقاذك مما أنت فيه، لذلك يعبأ بك، والدعاء معناه معرفة، وأنت لا تدعو الله إلا إذا عرفته لذلك:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

وراء كل مصيبة للإنسان المستقيم قفزتان:

شيء آخر:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)

(سورة النمل: آية " 62 ")

فالمضطر من له غير الله ؟

إخوانا الكرام: يجب أن تعلموا علم اليقين أن الإنسان إذا ألمّت به مصيبة وكان مستقيماً على أمر الله، فعليه أن يعلم العلم القطعي أن هذه المصيبة التي شاءها الله له وهو على استقامةٍ على أمر الله سوف ترفعه مرّتين، وسوف ترفع مستوى معرفته بالله، وسوف ترفع مستوى محبّته لله، وهناك قفزتان وراء كل مصيبة للمؤمن المستقيم.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

إن الله يحب الملحين في الدعاء:

أيها الإخوة:

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)

إن الله يحب الملحين في الدعاء، من لا يدعُني أغضب عليه، إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها، إن الله يجب من عبده أن يسأله ملح عجينه:

((ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا نقطع))

(أخرجه الترمذي عن ثابت بن أنس)

ادع الله:

((إنّ اللّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللّيْلِ الْأَوّلُ نَزَلَ إلَى السّمَاءِ الدّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ حَتّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

فيجب أن تجعل الدعاء أساس حياتك، إذا كان هناك مشكلة، وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمرٌ بادر إلى الصلاة، فيكون لك صلاة الحاجة، والنبي شَرَعَ لنا صلاة الحاجة، لك مشكلة صلّ صلاة الحاجة.

الدعاء سبب قوة الإنسان و غناه:

(فَكَذّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبّهُ أَنّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10))

لدينك يا رب، يقولون: إن نور الدين الشهيد (هكذا قرأت والله أعلم)، حينما أراد أن يدفع الفرنجة عن هذه البلاد وكانت هناك معركةٌ حاسمة فسجد وقال: " يا رب من هو نور الدين حتى تنصره ؟ انصر دينك "، وأيضاً أنت ادعُ الله عزّ وجل، وربنا عزّ وجل إذا ساق لك شبح مصيبةٍ من أجل أن يسمع صوتك، ومن أجل أن يسمع دعاءك، وأن تستيقظ لقيام الليل، وأن يسمع تهجُّدك، وأن يكرمك، وبعد كل مصيبة هناك شَدَةٌ إلى الله، وكل شِدَةٍ وراءها شَدّة، وكل محنةٍ وراءها مِنْحة، هذا هو المعنى.

(فَدَعَا رَبّهُ أَنّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً)

أنت بالدعاء تصبح أقوى الناس، لأن الله أقوى من كل قوي، وأنت بالدعاء تصبح أغنى الناس لأن الله أغنى من كل غني، فالدعاء، ملخّص الدين كله أي أن تكون مع الله بالدعاء، وإذا قال الله عزّ وجل:

(الّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

(سورة المعارج)

أي يدعون الله دائماً في كل أحوالهم.

الدعاء في أي لحظة و بأي لغة دعاء مقبول:

والدعاء كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الدعاء مُخّ العبادة))

(أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك)

ومن لا يدعوني أغضب عليه، والدعاء هو العبادة، والشيء الدقيق أن الإنسان بالدعاء يقفز قفزةً نوعيةً في معرفته بالله، وفي محبته له، وإذا أردت أن تحدث الله فادعوه، وإذا أردت أن يحدثك الله عزّ وجل فاقرأ كلامه، فهل هناك أمتع من أن تناجي الله عزّ وجل ؟ ولذلك احفظ أدعية النبي عليه الصلاة والسلام، أدعيةٌ جامعةٌ مانعةٌ محكمة، واجعل كتاب دعاءٍ في جيبك، الإنسان ميّت أحياناً، فيركب مركبة عامة أحياناً، ويسافر، ويمشي في الطريق، فإذا كان معه كتيّب دعاء، وقرأ أدعية النبي وحفظها وأصبحت ملكه، فهو قادر على أن يدعو الله في كل لحظة، وإن كان بأي لغة، وبأية طريقة، وبأي أسلوب فالدعاء مقبول.

أدعية النبي الكريم:

تجد أن دعاء النبي جامع مانع، مثلاً:

((اللهم اهدنا فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت وتولنا فيمن توليت، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت))

(رواه الترمذي عن الحسن بن علي)

اللهم اهدنا فيمن هديت (بعد الهدى العافية)، وعافنا فيمن عافيت (بعد المعافاة يتولاك)، وتولنا فيمن توليت، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت، فأحياناً يخلق الله من الشيء القليل شيئًا كثيرًا، وهنا دعاء جامع.

((اللهم إنك عفوٌ كريم تحب العفو فاعفُ عني))

(أخرجه الترمذي عن عائشة)

((اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا))

(رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري)

((اللهم اغفر ذنبي، وأقل عثرتي، وأمن حوائجي))

اقرأ الأدعية:

((اللّهُمّ إنّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيّ قَضَاؤُكَ))

(أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود)

((اللهم اهدنا بالهدى ونقنا بالتقوى))

((اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب))

(أخرجه الترمذي عن عبد الله بن يزيد)

((اللهم دلني عليك ودلني على من يدلني عليك))

أدعية جميلة جدا.

((اللهم نحن بك وإليك))

((اكفنا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، و أغنني بفضلك عمن سواك))

(أخرجه الترمذي عن علي)

دعاء سيدنا نوح عليه السلام:

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11))

سمعت مرة أنه في قرية من قرى إيطاليا نزل فيها أمطار في ليلة واحدة ثمانمئة ميليمتر، ونحن مستوى أمطار دمشق في العام كله مئتان وستة عشر، وهناك في ليلة واحد نزل ثمانمئة ميليمتر، فربنا عزّ وجل إذا فتح أبواب السماء يصبح الماء مصيبةً.

(فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ)

ماء السماء مع ماء العيون.

حفظ الله تعالى للمؤمنين و نجاتهم من الغرق:

(فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

أي أن هذا الأمر هو إهلاك هؤلاء القوم غرقاً، أما المؤمنون:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(وَحَمَلْنَاهُ)

سيدنا نوح ومن آمن معه.

(عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)

أي في سفينة مؤلّفة من ألواح ومن حبال مربّطة بها الألواح.

(وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)

أي بحفظنا، ورعايتنا.

نجاة المؤمن من الكرب عند نزول البلاء الشديد:

أحياناً الإنسان يتكلم كلمة لطيفة، فيقول لك: هذه الحاجة لزمتني في وقت الشدة فكأن ثمنها مليون ليرة، فالإنسان حينما تأتي مصيبةٌ كبيرة، يأتي كربٌ عظيم، ويكون مستقيماً سابقاً والله ينجيه، فيشعر بقيمة الإيمان، ففي الرخاء المؤمن غير واضح، إنه مؤمن مستقيم لكنه ضائع مع الناس، أما حينما يأتي الكرب العظيم والبلاء الشديد، فالله عزّ وجل يجعل الناس كأعجاز نخلٍ منقعر ترى هذا المؤمن قد حفظه الله عزّ وجل بحفظه الشديد، وهناك آلاف القصص، ولا مجال لذكرها هنا، آلاف القصص تؤكِّد أن المؤمن المستقيم ينجيه الله عزّ وجل، وأنا أقول لكم دائماً: أنه ما من مصيبةٍ أعظم من أن ترى نفسك فجأةً في البحر، في الليل، وأنت لا تحسن السباحة، في أعماق البحر، ثم يأتي حوتٌ فيلتقمك، فتصبح في بطنه، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وظلمة الليل البهيم.. فسيدنا يونس نادى في الظلمات:

(أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الأنبياء)

يجب أن توقن بهذه الآية، المؤمن ينجّيه الله من الكرب العظيم دائماً:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

قانون، هذا قانون.

عاقبة المكذبين بالدعوة إلى الله:

طبعاً:

(وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14))

دعا إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً، فنادى نوحٌ ربه:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (6))

(سورة نوح)

والله عزّ وجل قال:

(تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)

وحفظنا، ورعايتنا.

(جزاءً لمن كان كفر)

أي بهذا النبي الكريم الذي كفروا بدعوته.

(وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

إنذار الله تعالى للناس قبل عذابهم:

نحن يهمنا آخر آية التي هي مفصلية كما يقولون، هنا:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46))

وبالمناسبة في ساعة عامة وساعة خاصة، الإنسان إذا طغى وبغى له ساعةٌ خاصة ينتهي فيها، فالموت، والإنسان إذا استقام وعمل أعمالاً صالحة يكون الموت عرسه، وفرحته، وتحفته.

(وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

أي هل من متذكّر ؟

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

دائماً العذاب يأتي قبله إنذار، وهذه السور، وهذه القصص إنذار من الله عزّ وجل، فالإنسان العاقل يبادر إلى طاعة الله، والصلح معه، والإنابة إليه حتى ينجو من عذاب الله، والعذاب محقق ما دام هؤلاء الأقوام فعلوا فاحشة واحدة، أما في آخر الزمان فالفواحش كلها مرتكبة.

الاستقامة و التوبة ثمن النجاة من عذاب الله:

لذلك فالله عزّ وجل:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ)

إن من، أي ما من.

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

(سورة الإسراء)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

فنحن يجب علينا أن نُعِدّ الاستقامة والتوبة كي ينجو الإنسان إما من ساعةٍ خاصة أو من ساعةٍ عامة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (3-5): تفسير الآيات17-32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-11-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثالث من سورة القمر، ومع الآية الثامنة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

إلزام الله نفسه بهداية العباد:

الله عزّ وجل قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

هداية الإنسان، بيان الحقيقة، بيان سرّ الوجود، بيان غاية الوجود، بيان المنهج التفصيلي، بيان افعل ولا تفعل، بيان ملامح الطريق إلى الله عزّ وجل هذا على الله.

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

و حيثما وردت كلمة على مع لفظ الجلالة فتفيد أن الله سبحانه وتعالى منّةً منه وكرماً ألزم نفسه بهداية العباد، ولذلك قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام: آية " 1 ")

نعمة الإيجاد و الهداية:

الكون، كلمة السماوات والأرض مُصْطَلَحٌ قرآني يعني الكون، والكون يعني ما سوى الله.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

الآية الثانية:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: آية " 1 ")

فكما أنّ الله خلق، فقد نَوَّر، خلق وهدى، قال:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

فنعمة الهداية لا تقلّ عن نعمة الإيجاد، ونعمة الإيجاد لا تقلّ عن نعمة الهداية.

القرآن الكريم كتاب عربي معجز:

لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ)

كتابٌ، معجزٌ، عربيٌّ.

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

(سورة الشعراء)

فيه الأمر، وفيه النهي، والوعد، والوعيد، وفيه بيانٌ للباطل وبيانٌ للحق، وفيه تاريخ الأمم، والمستقبل البعيد، والمَثَل، والقصّة، و الحقائق المُجَرّدة.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ)

قد تأتي بعض آيات كتاب الله بشكلٍ مباشر، قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد: آية " 19 ")

وقد تأتي ممدّدةً بقصّةٍ مطولةٍ مغزاها لا إله إلا الله، ما مغزى قصة سيدنا يوسف عليه السلام ؟

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

توافق كتاب الله مع النفس البشرية:

ولذلك فربنا عزّ وجل جعل هذا الكتاب كتاب هداية، ولأنه كتاب هداية فإنه يتوافق مع طبيعة النفس، فمن أمرٍ، إلى نهيٍ، إلى قصّةٍ، إلى بيان مستقبلٍ، إلى وعدٍ، إلى وعيدٍ، إلى بيان موعظةٍ، إلى مَثَلٍ، إلى قصّةٍ، فالله عزّ وجل نوّع الأساليب في كتاب الله، أحياناً يستخدم ربنا عزّ وجل قصص الأقوام السابقة من أجل أن نستنبط العِبَر، ودائماً وأبداً أُؤكّد لكم أنّ أية قصةٍ في كتاب الله لا يمكن أن تكون قصّة بالمعنى الذي يفهمه عامّة الناس، لأن كلام الله عزّ وجل أجلّ وأعظم من أن يكون قصصاً تطلع عليها، أو تقرأها، أو تأخذ علماً بها.

فكتاب الله عزّ وجل أجلّ وأعظم من ذلك، وما من قصةٍ إلا وهي تعبيرٌ غير مباشرٍ عن حقيقة، فالسعيد من قرأ القرآن الكريم واستنبط منه المواعظ والعبر، والسعيد من تجاوز أبطال القصة، ووقائعها، وحوار أشخاصها، ووصل إلى مغزاها، أي إلى الهدف الكبير الذي من أجله ذكر الله هذه القصّة، فلذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

الله عز وجل يتولى حفظ كتابه و سنة نبيه بنفسه:

هذا كتاب الله تولّى الله بذاته حفظه، أليس الحديث الشريف (الصحيح طبعاً) تفسيراً لكلام الله ؟ السنة مُبَيّنة، كما أن الله جل جلاله تولّى بذاته حفظ كلامه، وتولّى أيضاً حفظ سنّة نبيّه، لأن من لوازم فهم كلامه فهمُ أقوال نبيّه عليه الصلاة والسلام، إذاً فالله عزّ وجل تولّى بذاته حفظ كتابه وحفظ سنّة نبيه، وهذا من قبيل:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ)

هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو نفسه الذي نزل به جبريل الأمين على قلب سيدنا محمد، فهذا الشيء معجز، كتابٌ مضى على نزوله من السماء خمسة عشر قرناً لا يوجد فيه حرف، ولا توجد حركة زيادة، هذا من حفظ الله له، تولّى الله حفظه، قال تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر)

فأنت أمام كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأمامك كتاب كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بين يديك ؛ آياته الكونية، وآياته التكوينية، ومواعظه، وعبره، وقصصه، وأمثاله، وأوامره، ونواهيه، وكل هذا بين يديك.

فإنسان بين يديه كلام خالقه أفلا يسعد به ؟!! النبي عليه الصلاة والسلام ورد عنه:

((ومن جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

(الجامع الصغير عن أنس)

طاعة الله عز وجل سبيلك للتمتع بعقلك و قدراتك:

لا يوجد شيء أصعب في الحياة من أرذل العمر، فأرذل العمر أن لا يعلم بعد علمٍ شيئًا، أي إنه خرف، ثم يردُّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علمٍ شيئاً، ومن جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، وهل هناك بشارةٌ أعظم من هذه البشارة ؟ أن تتنعّم بعقلك إلى آخر لحظةٍ في حياتك، ألم يدع النبي عليه الصلاة والسلام ويقول:

((ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا وعقولنا ما أحييتنا واجعله الوارث منّا))

(أخرجه الترمذي عن ابن عمر)

سبيلك للتمتّع بعقلك، وقدراتك، وحوّاسِّك الخمس طاعة الله عزّ وجل..

((يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله))

(أخرجه أحمد و الترمذي عن ابن عباس)

القرآن ميسّر ولا سيما في هذا الزمان، طبعات القرآن شيء يسعد العقول، من جميع القياسات، بأفخر ورق، وأجمل خط، وأوضح عبارة، وتفسير مفرداته، تفسير معانيه، إنها تفاسير تملأ كل مكان، القرآن متلو، مجوّد بصوت قرّاءٍ كبار، يمكن أن تسمعه مسجّلاً، وأن تقرأه مطبوعاً، وأن تقرأ تفسيره، وأن تحضر مجلس علم يُفسّر فيه القرآن.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

ندم الإنسان يكون بمعرفة كلام الله و عدم تطبيقه:

قالوا: **" ما أكثر المواعظ وما أقلّ المتعظين، وما أكثر العبر وأقلّ المعتبرين ".** والإنسان يندم أشدّ الندم حينما يكتشف بعد فوات الأوان أن كل سعادته بمعرفة كلام الله، وكان كلام الله عنده مهجوراً.

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً)

(سورة الفرقان)

أي بإمكانك أن تستمع إلى تفسير كلام الله في المساجد، وبإمكانك أن تقرأ التفاسير، وأن تقرأ القرآن، وأن تستمع إليه، وتسأل عن معانيه.

أيها الإخوة: حُرْقَةٌ في القلب إلى أبد الآبدين بسبب أن الإنسان يكتشف بعد فوات الأوان أن كل سعادته بمعرفة منهج ربّه، والقرآن منهج ربنا عزّ وجل، فهذا بين أيدينا ونحن أحياء.

((اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس أحمد، عن عمرو بن ميمون)

الإنسان العاقل من يتعظ بغيره:

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

عاد قومٌ جاءهم نبيٌّ كريم فكذّبوه، ولم يعبئوا بدعوته، ولا برسالته، وعصوا أمره، وكذّبوه تكذيباً قولياً وعملياً، يقول الله عزّ وجل:

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

كيف كان ؟ فالإنسان العاقل من اتعظ بغيره، والشقي من يتعظ بنفسه، نحن على مستوى الصحّة إذا رأيت إنساناً أسرف على نفسه في عادة غذائية سيئة، ثم أُصيب بمرض عُضال، ألا ينبغي لك أن تتخذ

درساً بليغاً من هذا الإنسان ؟ وسرُّ هذه الآيات وتلك القصص أن الله سبحانه وتعالى يبيّن أن هؤلاء فعلوا ما فعلوا فأصابهم سيئات ما عملوا.

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

على الإنسان فهم آيات الله فهماً توحيدياً:

دعك من الأقوام السابقة، نحن ألا نسمع بما حلّ في بعض الأقوام ؟ في عصورنا هناك الزلازل، والفيضانات، والحروب الأهلية.

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

هذه الآية ألم تتحقق في هذا العصر ؟ كم من قريةٍ كانت:

(كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)

فالآيات بيننا، وبين أيدينا وتحت سمعنا وبصرنا، ويمكن أن نطلع عليها، لكن العبر أن تفهم هذه الآيات فهماً توحيدياً لا فهماً أساسه الشِرْك.

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

فالزلزال حينما يقال لك: إن مدينةً بأكملها أصبحت أثراً بعد عين بعد ثلاث دقائق، فأين الأبنية ؟ وأين الطوابق ؟ وأين السُكّان ؟ هذا كله بين أظهُرنا وتحت سمعنا وبصرنا.

إنذار الله للعبد قبل عذابه:

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

والعذاب دائماً تسبقه النُذُر، فالله عزّ وجل رحمةً بالعباد لا يوقع العذاب إلا بعد الإنذار، ولعلّ القرآن الكريم هو النذير، لأن الإمام القرطبي عندما فسّر قوله تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

قال: **" النذير هو القرآن الكريم "**، بيّن لنا مصير الأقوام التي عَصَت الله، وبيّن لنا كيف أهلك الأقوام السابقين، وبيّن لنا مشاهد من الجنة ومشاهد من النار، هذا نذير، فأنت معك كتاب فيه وصفٌ لكل شيء؛ وصفٌ لما كان، ولما هو قائم، ولما سيكون.

عاقبة المؤمن و الكافر:

ألا يكفي أن الله عزّ وجل يقول لك في كتابه:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: آية " 97 ")

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

هذه آية.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية " 21 ")

أليست هذه آية ؟

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر)

عذابي شديد، وإنذاري واضحٌ بَيّن، ألا نرى ونسمع أن إنسانًا منع زكاة ماله فأتلف الله ماله ؟ وإنسان اعتدى على أعراض الآخرين فاعتُدي على عرضه، وإنسان أكل أموال الناس بالباطل فدمَّره الله عزّ وجل، وإنسان بغى وطغى ونسي المبتدى والمنتهى فوقع في شرّ عمله، فأهلكه الله عزّ وجل ؟

أثمن شيء يملكه الإنسان هو الوقت:

هناك آلاف القصص تجري تحت سمعنا وبصرنا، فالعبرة أن تتعظ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أمرني ربي بتسع: خشية الله في السرّ والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرةً))

دقق.. صمتي فكراً، نطقي ذكراً، نظري عبرةً.. فالمؤمن إن نظر يعتبر، وإن صمت يفكِّر، وإن نطق يَذْكُر، ويجب أن نعلم علم اليقين أن أثمن شيءٍ نملكه على الإطلاق هو الوقت، أنت وقت، وأنت بضعة أيام وكلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول:

((الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

(الترمذي عن أبي هريرة)

فيجب أن تعلم علم اليقين أنه إذا استيقظت فقد سمح الله لك أن تعيش يوماً جديداً.

عذاب قوم عاد:

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً)

صرصراً أي هي ريح لها صوتٌ مخيف، أي ريحٌ باردةٌ لها صوتٌ مخيف.

(فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ)

أي مستمرٌ هذا اليوم إلى أن يهلكهم، أحياناً تأتي ضربة غير قاضية، أما إذا أردت أن تجهز على هذه الحشرة فإنك تضربها حتى تموت.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً)

ريحاً باردةٌ لها صوتٌ مخيف إنها مستمرّةٌ حتى تستأصلهم من شأفتهم أو من جذورهم.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ(20))

مشهد من مشاهد آيات الله الدالة على عظمته:

حينما تأتي رياحٌ عاتية فإنها تقلع أشجار النخل من جذورها، ومن قعرها أي من أصولها، فالله عزّ وجل صوّر لنا مشهداً من مشاهد آياته الدالة على عظمته.

(تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21))

(كيف كان عذابي ونذر)

هذه الآية تتكرّر، أي انتبهوا يا عبادي، وأنا أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفِّقني لتوضيح هذه الحقيقة، أي ما من مصيبةٍ تقع على وجه الأرض إلا وينبغي لنا أن نفهمها فهماً توحيدياً لا فهماً أساسه الشِرْك، لا تقل: زيد وعبيد والجهة الفلانية والعلانية، قل: قدّر الله وما شاء فعل لأن.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

ولأن الله.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية " 84 ")

الله تعالى بيده الخلق و الأمر:

لأن الله يقول عن ذاته:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(هُوَ الْأَوّلُ وَالْآخِرُ وَالظّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)

(سورة الحديد: آية " 3 ")

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

(وَاللّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: آية " 41 ")

فأنت إذا فسَّرت الأحداث كلِّها تفسيراً أساسه التوحيد تسعد بهذا التفسير، أما إذا فسَّرت الأحداث تفسيراً أساسه الشرك فإنك تشقى بهذا التفسير، لأنه كما ورد عن النبي أنه قال:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

(أخرجه ابن عساكر عن البراء)

عقاب الإنسان الكافر في الدنيا و الآخرة:

فالإنسان العاقل يجعل من هذا الحديث القدسي نبراساً له.

((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني وأعطيت كل إنسان منهم ما سأل لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص البحر إن يغمس فيه المخيط غمسة واحدة، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحفظها عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))

هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة قال فيه الذهبي: هو في مسلم

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً)

(سورة الكهف)

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

أي يا عبادي أنا لا أجازي غير الكفور ؟ هذا كلام الله، فيجب أن تفسِّر ما يقع تفسيراً توحيدياً لتكون هذه الأحداث متصلة بهذه القصص.

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21))

طاعة الله تبعد الإنسان عن الخوف:

أحياناً يأتي العقاب جماعياً، وفي أحيان كثيرة يأتي العقاب فردياً، فعلى الإنسان ألاّ يغتر إذا كان الناس في بحبوحة، فقد يأتي العقاب فردياً له بالذّات، فالعاقل لا يطمئن إلا إلى طاعة الله، ولا ينجيك من الله إلا أن تطيعه.

((مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))

(ابن ماجه عن عبد الرحمن بن أبان)

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

فالإنسان يجب أن يخاف، والخوف من خصائص الإنسان.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

ينبغي لك أن تخاف، فإنك إن خفت من الله عزّ وجل اتقيت الخوف منه بطاعتك، إذ لا ملجأ منه إلا إليه.

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ(23))

عدم الإيمان بالآخرة يدل على تعطيل فكر الإنسان:

كما تحدّثت في دروسٍ سابقة: التكذيب الخطير هو التكذيب العملي، أن لا تجد في سلوك الإنسان ما يدل على أنه مؤمن بالآخرة، فالإنسان عندما يكون راكباً سيارة وسيجتاز حدود بلد آخر، فما دام مؤمناً أن هناك حواجز، وتفتيشاً دقيقًا، ويوجد تكليف برسوم جمركية، فتجده يهيئ أغراضه ويرتبها ترتيباً معيناً، حركته في ترتيب الأغراض يعني أن هناك حاجزاً سوف يسأله: فهذه من أين جئت بها ؟ وهذه ممنوع أن تدخل فعليها رسم، فكل إنسان ما دام مؤمناً أن هناك عند الحاجز سؤالاً فإنه يرتب الأغراض ترتيباً معيناً، أما إذا كان إنسان لم يبال إطلاقاً، ومعه أشياء كلها ممنوعة فمعنى هذا أن تفكيره معطّل.

إذاً:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)

التكذيب العملي، والنظري، والقولي، نحن بالمناسبة هناك كفرٌ اعتقادي، وهذا الكفر الاعتقادي يُخرج الإنسان من ملّة الإسلام، وهناك كفرٌ عملي، وكفرٌ قولي، وهذا الكفر هو دون الكفر الاعتقادي.

مضمون الدعوة لا الداعي يحدد مصير الإنسان:

(فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

هذه نقطة دقيقة جداً، وهي ثابتة على مدى الأزمان، فأحياناً الإنسان لا ينظر إلى فحوى الدعوة بل ينظر إلى الداعي، يقول: فلان صديقي أعرفه حينما كان صغيراً، وفلان أصبح كذا وكذا، إنه يتعامى عن مضمون الدعوة، ويتعامى أن مضمون الدعوة خطير جداً، وهو مضمون مصيري يحدد مصيره في الدنيا والآخرة، فلا يلتفت إلى مضمون الدعوة، ولا إلى الأمر والنهي، ولا إلى الموعظة، ولا إلى القصّة، ولا إلى العبرة، ولا إلى الآية الكونية، فقط يلتفت إلى هذا الذي يقول، من فلان ؟ ومتى صار داعيةً ؟ ومتى صار كذا وكذا ؟ فالذي يحجبه عن الحقيقة هو أنه ترك الفحوى ونظر إلى المتكلِّم، فهذه النظرة الشخصية المبنية على حسد أحياناً أو على شعور بالدّنية هذه النظرة تحجبه عن الحقيقة، خذ الحكمة ولا يهمُّك من أي مكانٍ خَرَجَت، العبرة أن تستفيد، فلذلك:

(فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ)

النبي الكريم صفوة الله من خلقه:

أيُعقَل أنّ أمّة بأكملها تتبع إنساناً واحداً، فهذا الإنسان نبيٌّ كريم، اصطفاه الله عليكم جميعاً.

(اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)

(سورة البقرة: آية " 247 ")

والنبي يعدُّ قمّة المجتمع:

((الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم))

(أخرجه البخاري عن انس بن مالك)

والنبيّ الكريم يقظٌ دائماً، متصلٌ بالله دائماً، صفوة الخلق، وحبيب الحق، وتوجد مستويات، فإذا كان هناك حجرة ماس تقليد بألفين، فالماس الحقيقي بخمسمئة ألف، إذ يوجد فرق كبير جداً، فهؤلاء الأنبياء إن الله جلّ جلاله اصطفاهم على الخلق.

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران: آية " 33 ")

و صفوة الله من خلقه، هؤلاء الأنبياء قمم في العلم، وفي الكمال، والخُلُق، والفصاحة، والبيان، والفطانة، والنقاء، والعِصمة، هم قمم، فإذا توهَّم الإنسان أن هذا النبي إنسان وهذا إنسان.. ردَّ الشاعر فقال:

محمّدٌ بشرٌ وليس كالبشَرِ لأنه جوهرةٌ والناسُ كالحجرِ

* * *

فالجوهرة حجر ولكنه حجر كريم، والجوهر فحم ولكن جاءه ضغطٌ شديد وحرارةٌ كبيرة فصار ماساً، وكل إنسان إذا ضُغِطَ عليه، وساقه الله إلى أبواب عبوديّته وأبواب رحمته فيصبح كالماس.

طلب الجنة من غير عمل ذنب عظيم:

الإنسان الذي يصل إلى مرتبة عالية فهذا تحمّل ضغوطًا لا يتحمّلها عامّة الناس، ودفع ثمن هذا المقام عند الله باهظاً، وترك الدنيا وزهد فيها وقال: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، ووضع المال تحت قدمه ولم يعبأ به، فلم تغره الدنيا ولا ما كان منها، فسلعة الله غالية، وطلب الجنّة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوب.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لمـا وليت عنا لغيـرنا
و لو سمعت أذناك حسن خطـابنا خلعت عنا ثياب العجب و جئتنا
و لو ذقت من طـعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
و لو نسمـت من قربنا لك نسمة تــركت جميع الكائنات لأجلنا
فما حبّنا سهلٌ وكل من ادّعـى سهولته.. قلنا له: قد جهلتنـا

* * *

فهناك إنسان خطب فتاة والدها عالِم فقال: كم تريد من المهر يا سيدي ؟ قال: أن تحضر مجالس العلم هذا هو المهر، فحضر المجلس، وثابر على ذلك، فانجذب إلى الحق، واستغرق في محبّة الله عزّ وجل، ونسي وصالاً، فلمّا عاتبته وقالت: **"أين الوعد "**. قال: **" يا وصال كنتِ سبب الاتصال ".**

الاتصال بالله سبب سعادة الإنسان و طمأنينته:

أحياناً الإنسان يكون سارحاً في الدنيا، ضائعاً، هائماً على وجهه، مبعثراً، مشتّتاً، كئيباً أحياناً، فإذا وصل إلى الله وجد السعادة، والطمأنينة، والرضا، والفوز والتفوّق، فالله عزّ وجل سلعته غالية وهو عزيز، فهل بأعمال بسيطة لا تكلِّفك شيئًا، بركعتين، أو بليرتين تدفعهما !! لا.. فالله أعظم من ذلك.

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران: آية " 92 ")

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت: آية " 69 ")

(أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

فإذا طلب الإنسان مرتبة عالية في الدنيا، بهذه السنين المحدودة لكي يجلس ويعاين مريضًا ربع ساعة ويأخذ ألف ليرة، يكون قد درس ثلاثة وثلاثين سنة قبلها، لا يقدر إنسان لم يدرس إطلاقاً أن يفتح عيادة ويستقبل مرضى وسيأخذ على كل مريض ألف ليرة، لا يقدر، أما ثلاثة وثلاثون سنة دراسة فممكن أن تستقبل مريضاً وتأخذ منه ألفاً خلال خمسة دقائق، ومعنى هذا أنه عنده علم، أنا أضرب مثلاً، فإنسان يصل إلى مراتب عُليا في الدين بلا تعب ؟ لا يوجد عنده وقت يحضر مجلس علم لأنه مشغول، ولا يوجد عنده وقت ليقرأ القرآن، ليس متفرغًا لأن يطبّق أحكام الله عزّ وجل، يقول لك: لا تدقق، نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، هذا المستوى المتفلِّت المقصِّر، فبالطبع هان الله عليهم فهانوا على الله، أو هان أمر الله عليهم فهانوا على الله.

الغرور يصيب الجاهل و يبعده عن سعادة الآخرة:

(كَذّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَراً مِنّا وَاحِداً نَتّبِعُهُ إِنّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24))

دقِّقوا في هذه الفكرة: تركوا فحوى الدعوة، والمضمون ونظروا إلى المتكلِّم، فأصابتهم الغيرة، وأكل قلوبهم الحسد، ورأوه واحداً منهم، وفكّروا لعلّهم أغنى منه، وأقوى، فمَنْ فلان ؟ فالإنسان أحياناً يُحجب عن سعادة الآخرة ببشرية المتكلِّم، لا تنظر إلى المتكلِّم بل انظر إلى فحوى دعوته، فإن كانت الفحوى خطيرة فتمسّك بالحق.

(فَقَالُوا أَبَشَراً مِنّا وَاحِداً نَتّبِعُهُ إِنّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

أي نحن جاهلون، وفي ضلال، وفي جحيم إذا اتبعنا إنساناً، فلو أن هذا الإنسان هداكم إلى الله، وإلى سعادتكم، وحملكم على طاعة الله، ودلّكم على سرّ وجودكم، وعلى طريق طمأنينتكم، وعلى طريق التوفيق، والتأييد، والنصر، والحفظ، ودلّكم على حقيقة ذاتكم، وعرّفكم بربّكم فيجب أن تقبلوا منه ذلك.

الإنسان السيئ من يسيء الظن بالآخرين:

(أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

قال العلماء: **" أشِر أي أراد الدنيا بالدين "** أراد بهذه الدعوة أن يجمع الناس حوله وأن يأخذ من أموالهم.

(بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

يكذب على الله ليسود على قومه، ويكذب على الله ليجمع الأموال من قومه، فدائماً الإنسان السيئ يسيء الظنّ بالآخرين، فإذا كان الإنسان مستواه منخفض جداً، فلا توجد عنده بخبرته السابقة حالة معرفة الله والمؤاثرة، فالبخيل يتهم الكريم بالجنون، بنيته وحرصه على المال ويجعله ينظر إلى الكريم من هذه الزاوية، ولذلك يتهم الكريم بالجنون، والجبان يتهم الشجاع بالتهوّر، والأحمق يتهم الحكيم بالحُمق أحياناً، فالإنسان من خطورة نظرته أنه ينظر إلى الكمال من زاوية نقصه، وهذا خطرٌ كبير، وإذا لم يتمكّن الإنسان أن ينظر إلى الأمور نظرة موضوعية، ولم يتمكّن أن ينحي ذاته جانباً لينظر إلى الحقيقة المجرّدة فهذا الإنسان ليس موفّقاً بحياته.

العبرة بخواتم الأمور و عاقبتها:

(أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

أي متى كان فلان ؟ فإذا قضَى الإنسان عمره في النوم، والسهر مع أصدقاء السوء، في الملاهي، وله صديقٌ درس دراسةً جديّةً حتى صار شخصيةً متألِقةً في الحياة، فهذا الذي يقول: متى صار فلان ؟ أين كنت أنت حينما كان يدرس ؟ وأين كنت حينما كان يسهر الليل ؟ وأينما كنت حينما كان يؤدّي الامتحانات ؟

(أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

أي أنه يكذب ليغتني، أو يكذب ليقوى، أو يكذب ليجمع الناس حوله، يقول الله عزّ وجل:

(سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ)

العبرة بخواتم الأمور، وبالنتائج، والعبرة بعاقبة الأمور، وبالنهايات، وبعد الممات.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

(سورة يس)

خسارة الإنسان الحقيقية أن يخسر نفسه و الآخرة:

العبرة أن الإنسان إذا جاءه ملك الموت ورأى مكانه في النار يقول: لم أر خيراً قط، وكل ألوان النعيم التي تنعّم بها في الدنيا لا يراها إطلاقاً، ولا يرى إلا العذاب، أما حينما يأتي مَلَك الموت إلى الإنسان ويُطْلِعُه على مقامه في الجنّة يقول كذلك: لم أر شرّاً قط، ومرّة امرأة أحد أصحاب رسول الله كلّفته بشيءٍ لا يطيقه، أو طلبت منه شيئاً لا يطيق شراءه فقال **" اعلمي يا فلانة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداها على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحّي بكِ من أجلهن أهون من أضحي بهنّ من أجلكِ "**، فالمؤمن موعود.

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

(أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة)

أي أن الإنسان إذا عاش مئة سنة يقول لك: ما شاء الله إنه معمِّر، الجنّة لا يوجد فيها عمر، فمليون مليون، ومليار مليار، ومليار مليار بليار إلى أبد الآبدين، الأبد شيء صعب على العقل أنْ يتصوّره، ولا يوجد رقم بالأبد، وأكبر رقم مقداره صفر إذا قسته للأبد، فالحقيقة أن الخسارة الحقيقية هي أن يخسر الإنسان هذه السعادة الأبدية، وأن يخسر الإنسان نفسه التي بين جنبيه.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر: آية " 15 ")

أخطر حدث في حياة الإنسان مغادرة الدنيا:

(سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ)

هذه السين فيها تهديد، غداً تعلم من هو الخاسر، الآن المشكلة أن هناك أشخاصاً كثيرين يتوهّمون أنهم ناجحون في الحياة، فيكون قد حصّل أموالاً طائلة، فاشترى أراضٍ بأسعار بخسة فارتفعت أسعارها مئة ضعف تقريباً، واشترى بيوتاً بالأسعار القليلة وارتفع سعرها، وأسس تجارة، ومعملاً، فشعر بقوّته المالية، والاقتصادية، وبالفوز، فهذا وهم، فالغنى والفقر بعد العرض على الله، وأخطر حدث في حياته ما أدخله في الحساب أبداً، حدث مغادرة الدنيا، وهناك إنسان ورث من قريب له سمعت سبعين أو

ثمانين مليوناً، من وقت موت قريبه وهو يعمل ليلاً ونهاراً في متابعة المعاملات المتعلِّقة بالإرث، وحَصْر الإرث، وقد دخل إلى الحمام ليتوضّأ (ولا أدري لماذا دخل) فوقع ميّتاً، ولم يقبض درهماً واحداً من الإرث، الموت يأتي بغتةً، والقبر صندوق العمل، كم من زوجٍ جاءه الموت قبل يوم العُرس، وكم من طالب علمٍ لم يستمتع باختصاصه ولا ساعة، بعد أن نال الدكتوراه وافته المنيّة، وكم من إنسانٍ شيَّد بيتاً بشكلٍ رائع ولم يسكنه، فالذي يضع كل البيض في سلّةٍ واحدة يخسر، اجعل للدنيا نصيباً وفق منهج الله، وللآخرة نصيباً وفق منهج الله عزّ وجل.

(سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذّابُ الْأَشِرُ)

من هو الذي يكذب على الناس ليأخذ أموالهم ؟ هؤلاء الأنبياء منزّهون، وهؤلاء صادقون، وأنقياء، ونظيفون، أما الكذّاب الأشر فليس ممن يتعلّق بهم الدين، فالدين أنقى وأجل وأعظم من أن يكون أتباعه كذّابين أشرين.

إقامة الحجة على قوم عاد:

(إِنّا مُرْسِلُو النّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ)

طلبوا ناقة تخرج من الجبل، فالله سبحانه وتعالى أعطاهم سؤلهم وخرجت الناقة من الجبل، طبعاً شيء غير معقول، جبل صخري، فأرسل الله لهم الناقة كي يقيم عليهم الحجّة.

(إِنّا مُرْسِلُو النّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ)

لكنّ هذه الناقة التي خرجت من الجبل بناءً على طلبهم.

(وَنَبِّئْهُمْ أَنّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ)

فالماء بينهم وبينها يحضرون يوماً فيشربون من ينابيع الماء، وتحضر الناقة يوماً فتشرب اليوم كله.

(وَنَبِّئْهُمْ أَنّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ)

أنواع الهلاك:

1 ـ هلاك ضعف:

لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام بشّره الله بأن أمّته لن تهلك هلاك استئصال كقوم عادٍ وثمود، بل هلاك ضعف.

2 ـ هلاك استئصال:

أما هلاك استئصال إذا جاءت المعجزة وكفر الناس بها استحقّوا الهلاك، لأن كل شيءٍ انتهى.

مراحل الدعوة إلى الله:

1 ـ الدعوة البيانية:

كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى يبدأ مع الإنسان بالدعوة البيانية، كلام، خطبة جمعة، ودرس تفسير، ونصيحة صادقة، والأولى أن يستجيب الإنسان لهذه الدعوة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

2 ـ التأديب التربوي:

فإن لم تجد معه هذه الدعوة البيانية يأتي التأديب التربوي، فتأتيه المصائب..

3 ـ الإكرام الاستدراجي:

الأولى بالإنسان أن يتضرّع إلى الله عزّ وجل فإن لم يتضرّع جاءت مرحلة ثالثة وهي الإكرام الاستدراجي..

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا)

(سورة الأعراف: آية " 95 ")

4 ـ القصم:

الأولى أن يشكر، فإن لم يستجب، وإن لم يتضرّع، وإن لم يشكر ما بقي إلا القصمُ.

المشاركة و الدعم و الإقرار مشاركة في الإثم:

طلبوا معجزة، فخرجت الناقة من الجبل، فعقروها، فاستحقّوا الهلاك، وانتهى الأمر، لذلك:

(وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ)

الذي عقرها.

(فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)

قال: ثَمِلَ حتى آخر قطرة وعقر الناقة.

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

والعلماء استنبطوا من ذلك أن الذي يرضى بفعلٍ ما هو شريكٌ مع الفاعل.

(وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ)

أي القوم يشربون يوماً من الماء، والناقة تشرب يوماً.

(مُحْتَضَرٌ)

يحضرون فيشربون.

(فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)

عقرها، الذي عقرها واحد لكن الله عاقب الجميع على هذه الجريمة، قالوا: لأنهم راضون بهذا العمل، ومتعاطفون معه فهم شركاء في الجريمة، ولذلك يقول سيدنا عمر: **" لو أنّ أهل بلدةٍ بأكملهم ائتمروا على قتل رجلٍ (طبعاً المنفِّذ واحد) لقتلتهم جميعاً به "**. لأن المشاركة، والدعم، والإقرار مشاركة في الإثم.

عقاب الله للكافر بكلمة واحدة كن فيكون:

(فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً)

كلمة واحدة لها معنى كبير، أي هؤلاء مهما كانوا أقوياء تكفيهم صيحةٌ واحدة، كأن تقول: هذه الحشرة الصغيرة لا تحتاج أكثر من ضربة واحدة فتموت، أما الوحش الكاسر فيحتاج إلى جهد كبير، ولذلك فكلمة واحدة أي لا شأن لهم عند الله، كن فيكون زُلْ فيزول.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)

المحتظر أي صاحب الحظيرة يأتي إلى أرضها بالأغصان اليابسة والأوراق كي تكون مهاداً لبعض الدوابّ، فهذه الأوراق المقطوعة اليابسة، وهذه الأغصان القصيرة، وهذا القش هذا هشيمِ المحتظر، فكانوا من التفاهة والضعف وقلّة الأهميّة كهشيمِ المحتظر.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32))

الهلاك و الدمار عاقبة المذنب و العاصي:

أيها الإخوة: ذكرت لكم في الدرس السابق: أن كل هذه القصص لها مفتاح، ومفتاحها في آخر السورة وهو:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46))

(سورة القمر)

فما ذكر الله لنا هذه القصص إلا لينبئنا أننا إذا فعلنا مثل أفعالهم استحقّ علينا الهلاك مثلهم، فإذا فعلنا مثل أفعالهم فنحن هالكون مثلهم، فانتبهوا، هؤلاء الأقوام فعلوا ذنباً واحداً فدمَّرهم الله عزّ وجل، فكيف بمجتمعٍ فيه كل المعاصي والآثام ؟ فالهلاك، لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

(سورة الإسراء)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 33-46
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-11-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الرابع من سورة القمر، ومع الآية الثالثة والثلاثين.

الاستقامة على أمر الله:

أيها الإخوة: قبل أن نمضي في الحديث عن الأقوام الذين كذبوا واستحقوا عذاب الله عزّ وجل، لابدّ من حقيقةٍ محورية في هذا الدرس وهي: أن كل قومٍ كذّبوا الحق، وانحرفوا، وعصوا، جاءهم الإنذار تلو الإنذار، فركبوا رؤوسهم واستكبروا، ثم جاءهم العذاب، والسؤال هنا: إذا تحقق الإنسان أن هذا الإنذار صادق ولا شك في مصداقيته أبداً، وأن هذا الذي وقع بعد الإنذار من عذاب استئصال لا يمكن لواحدٍ أن يتفلت منه، فإذا ثبت لديك مصداقية الإنذار وحتمية العقاب، فماذا يجب عليك أن تعمل ؟ أنت في تعاملك مع الدنيا، ومع من حولك، إذا ثبت لديك أن واحداً من الناس إذا قال فعل، وأنه إذا أراد أن يفعل لن تستطيع أن تتفلت من قبضته، فعليك أن تجد نفسك مستقيماً على أمر الله.

العذاب الأليم لمن كذب بدعوة الأنبياء:

العبرة من هذه القصص أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن أقوامٍ كثيرين، حدثنا عن قوم نوح، وعن قوم صالح، وعن عادٍ وثمود، وحدثنا عن قوم فرعون، وعن قوم لوط، وكيف أن هناك قاسماً مشتركاً بينهم جميعاً، كذبوا دعوة الأنبياء، وكذبوا وعيد الأنبياء، وانحرفوا، فجاءهم العذاب الأليم، وهذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

ومرةً ثانية أعود وأقول: إن كل القصص في كتاب الله، لا يمكن أن تكون قصة بمعنى أن أشخاصاً، ووقائع، وحوادث، وحواراً، ووصفًا، وبداية، وعقدة، ونهاية، نقرأها فنستمتع بها، أو نقرأها فنأخذ علماً بها، قصص كتاب الله عزّ وجل فوق هذا بكثير، إنها قوانين صيغت على شكل قصص، وإنها حقائق صيغت على شكل حوادث، وإنها سنن صيغت على شكل أشخاصٍ يتحاورون، فالذي يعنينا من هذه القصص، أن الإنذار صادق، وأن العقاب حَتْميّ، فإذا كان الإنذار صادقاً والعقاب حتمياً فماذا ينبغي لنا أن نعمل ؟ ينبغي لنا أن نستقيم على أمر الله، وأن نفر إليه، وأن نلجأ إليه.

الهلاك عاقبة من يخالف الحكم و الفطرة:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ)

قوم لوط الذين أرسل الله لوطاً إلى هدايتهم، هؤلاء كانوا منحرفين انحرافاً أخلاقياً، آثروا الرجال دون النساء، واليوم كما تعلمون في أمريكا وحدها كما تقول الإحصاءات سبعة عشر مليون شاذ، وما مرض الإيدز الذي هو وباء العصر إلا بسبب هذا الانحراف، فهؤلاء القوم انحرفوا عن الفطرة التي فطرهم الله عليها إلى طريقةٍ شاذةٍ في إشباع هذه الرغبة، والحقيقة أنّ ثمة فرقاً كبيراً بين الزاني وبين اللوطي، فالزاني خالف الحكم الشرعي، لكن الشاذ خالف الفطرة، إنه فرق كبير جداً، فالتصميم الإلهي.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

(سورة النجم)

فهناك المكان الطاهر، المكان الذي ينبت.

(نساؤكم حرثٌ لكم)

مكان إنجاب الأولاد، المكان الطبيعي الذي خلق للإنسان، فالذي أراد انحرافاً وشذوذاً لم يخالف الحكم الشرعي بل خالف الفطرة، ولذلك فهؤلاء القوم خالفوا الحكم والفطرة معاً، فاستحقوا الهلاك، لكن هذا على مستوى قوم، وعلى مستوى فردي فالإنسان إذا انحرف وخالف تعليمات الصانع فالعقاب حتمي، لكن رحمة الله عزّ وجل تقتضي أن يسبق عقابه إنذاره، ولذلك قال تعالى:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً)

البلاء العام لا يصيب المؤمنين الصالحين:

القصة في أماكن أخرى بشكل مفصل، أحياناً ربنا عزّ وجل يعرض القصة مفصلةً في مكان وموجزة في مكان آخر، بل إن بعض علماء التفسير قالوا: إن كل قصةٍ عرضت في كتاب الله عزّ وجل، عرضت من زاوية، فإذا رأيت قصة موسى عليه السلام.. مثلاً.. عرضت في أماكن عديدة جداً، ففي كل مكانٍ من كتاب الله عرضت القصة من زاويةٍ معينة، فاليوم في سورة القمر ليس هناك تفصيلات كثيرة حول هذه القصة.

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً)

رياحٌ فيها حجارة، أهلكتهم.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

من هم آل لوط ؟ الذين آمنوا معه، فالقاعدة الثانية أن الله سبحانه وتعالى إذا أنزل بلاءً عاماً وكان في هؤلاء القوم أناس مؤمنون، صالحون، مستقيمون، فالله جلّ جلاله ينجّيهم.

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر)

حقيقة الإيمان أن الأمور كلها بيد الله تعالى:

" لكل شيءٍ حقيقة وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه "، ليس هناك شيء طائش، شظية طائشة، أو قذيفة طائشة، أو رصاصة طائشة، كل هذه القذائف مسوّمة، أي عليها اسم صاحبها، هذا هو الإيمان، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

إن لم نؤمن أن الأمور عند الله محسوبة بأدق التفاصيل فالإيمان يحتاج إلى تجديد، فهؤلاء القوم الذي استحقوا الهلاك من الله عزّ وجل، لكن آل لوطٍ الذين آمنوا معه نجّيناهم بسحر، قال:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34))

(سورة الذاريات)

فاستبدل كلمة لا تقل: طائشة، بل قل: مسوّمة، وهذه قاعدة مطبقة في كل الحياة، كل شيء مسوم وما في الحياة شيء طائش أبداً، لأن الله عزّ وجل كماله مطلق، وكل شيء بيده.

نجاة المؤمن الصادق من الكرب العظيم:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

يمكن أن تستمع إلى آلاف القصص في حياتنا، كيف أن الله سبحانه وتعالى نجّا المؤمن المستقيم من كربٍ عظيم، ومن كارثةٍ كبيرة، ومن مصيبةٍ طاحنة، لسببٍ صغيرٍ صغير لم يلق له بالاً، لكن:

(وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

أن ينجي الله المؤمنين هذا أحد قوانين الله عزّ وجل، نجاة المؤمنين من الكرب العظيم إحدى سنن الله عزّ وجل.

طاعة الله أساس كل طمأنينة و ليس حذرك:

بالمقابل الإنسان مهما كان ذكياً، ومهما كان عاقلاً، وحكيماً، و أخذ الحيطة، والحذر، واستعدّ لكل الاحتمالات، وسد كل الثغرات، فقد يأتيه المُصاب من مأمنه، وقد قيل: يؤتى الحذِر من مأمنه، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لن ينفع حذرٌ من قدر ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل))

(أخرجه أحمد عن معاذ)

فالإنسان لو أنه لم يكن مستقيماً، وكان حكيماً، وذكياً، وعاقلاً، وسد الثغرات، وأخذ كل الاحتياطات، وتوقّع كل الاحتمالات، وأخذ بكل الأسباب، فالله جلّ جلاله يؤدبه من الجهة التي اطمأن إليها، ومن الجهة التي أغلقها، واعتمد عليها، ومن مكانٍ لا يتوقّعه، فما الذي ينفعك ؟ لا ينفعك حذرك، بل تنفعك استقامتك (دقق في هذا الكلام). لا ينفعك ذكاؤك ولا مالك، ولا حذرك، ولا أن تأخذ بالأسباب، ولا أن تسد الثغرات، ولا أن تتوقّع الاحتمالات، ولا أن تغطي المُشكلات، فلا ينفعك إلا أن تطيعه، فإن أطعته طمأنك، وحماك، وحفظك، وأيّدك، ونصرك.

الاعتماد على الأسباب وحدها توقع الإنسان بالعذاب الأليم:

الآن: الإنسان أحياناً يكون غارقًا في المعاصي ولكن يقول: هذه القضية أغلقتها، وهذه القضية أخذت الحيطة منها، لا، لا ينفع حذرٌ من قدر ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل، فلا يمنعك من الله إلا أن تكون على أمره ونهيه، والحذِر يؤتى من مأمنه، فمثلاً: أحياناً طبيب متفوق في اختصاصه، وقد أمضى ثلاثين عاماً في الدراسة فهذا المرض وأسباب الوقوع فيه، هو واثقٌ من نفسه إلى درجة أنه لن يصاب بهذا المرض لأنه عليمٌ بكل تفاصيله ودقائقه، فمثل هذا الإنسان الذي اعتمد على علمه وظن أن الأسباب وحدها تكفي، قد يصاب بهذا المرض تأديباً له على شركه، أو على اعتماده على الأسباب.

إذاً: ننطلق في بداية هذا الدرس من أن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا أقواماً كثيرين جاءتهم رسالة السماء فكذبوا بها، وأنذروا بعذابٍ إذا هم عصوا فلم يعبئوا بهذا الإنذار، فجاءهم العذاب الأليم فاستأصلهم، قال تعالى:

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

(سورة القمر)

المنطق و العقل و الفطرة تدعوك إلى طاعة الله:

إذا أيقنت بمصداقية الإنذار، وإذا أيقنت بحتمية العقاب، فالمنطق والعقل والفطرة تدعوك إلى طاعة الله عزّ وجل.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً)

أي رياحاً محملةً بالحجارة فأهلكتهم عن آخرهم.

(إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

وكل إنسان له معاملة خاصة إذا كان مطيعاً لله، فالقاعدة هناك من يقول: إن البلاء يعم. ولكن البلاء يعم بحالة واحدة، أن يسكت الإنسان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما الإنسان المستقيم الذي يذكر الله عزّ وجل ويذكِّر بالله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فمثل هذا الإنسان الله جلّ جلاله يأخذ الله بيده ويحفظه وينصره.

معية الله عز وجل خاصة و مشروطة:

الحقيقة التي تعرفونها جميعاً، هي أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

وفي آية أخرى:

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

وفي آية:

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة)

قالوا: هذه المعية الخاصة، معية النصر والتأييد والحفظ والتوفيق، لكن هذه المعية مشروطة، وهي خاصةٌ ومشروطة، مشروطةٌ حينما قال الله عزّ وجل:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة: آية " 12 ")

أنا معكم إن فعلتم كذا وكذا، فمعية الله عزّ وجل خاصةٌ ومشروطة، خاصةٌ بالمؤمنين، وبالمتقين، وبالصابرين، ومشروطة بطاعة الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك.

الصدق و الإخلاص علامة نجاة المؤمن من عذاب الله:

(نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا)

دققوا في هذه الآية.

(إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا)

النجاة نعمة كبيرة جداً، لكن لئلا تتوهم أن هذه قصة، وأن هذه وقعت ولم تقع بعد اليوم، دقق في قوله تعالى:

(كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)

إلى يوم القيامة، أرأيتم كيف أن الله سبحانه وتعالى لا يريدها قصةً ؟ بل يريدها قانوناً، ويريدها قاعدةً، وحقيقةً ثابتةً، ومتجددةً في كل زمانٍ ومكان، وأنت بعد ألفي عام، وبعد أربعة آلاف عام من هذه الحادثة، مؤمن يعيش في القرن العشرين، في مكان من بقاع الله الواسعة، لو أنه كان صادقاً مخلصاً وجاء كربٌ عظيم نجّيناهم بسحر.

قدرة الله في دفع البلاء عن المؤمن:

حدثني صديق قال لي: أحياناً يوجد كوارث عامة، وزلازل، وفيضانات، وصواعق، وأحياناً براكين، وربما وقع زلزال في بعض البلاد العربية وقع بكامله، ولم ينج منه أحد إلا إنسان خرج منه قبل دقائق، فأحياناً إذا أراد الله عزّ وجل أن ينجي إنساناً من كربٍ عظيم يخلق له حاجةً خارج هذا المكان فيخرج، طبعاً لا مجال لذكر تفاصيل القصة لكن هناك آلاف القصص، تشعر أن قوةً إلهيةً كبيرة دفعت هذا الإنسان عن هذا المكان.

(نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)

آيات نجاة الإنسان المؤمن من الكرب العظيم:

سأذكّركم ببعض الآيات المشابهة لهذه الآية:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

آية ثالثة:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر)

ثقة الإنسان برحمة الله و حفظه أساس إيمانه:

هذا كلام يُلقي في قلوبكم الطمأنينة، والبشرى، والثقة بعدالة الله، والثقة بحفظ الله، فالإنسان من دون إيمان يكون تحت أخطار كبيرة جداً، أخطار صحية، في أجهزته وأعضائه، وأخطار في السير، وأخطار حوادث، وقهر أحياناً، وفقر مدقع، فالإنسان بهذا الطريق.

طائرة قبل سنوات ارتطمت بالأرض لخطأٍ في قيادتها، وأحد الركاب الذين أراد الله أن ينجيه لم يستخدم حزام الأمان، وعدم استخدامه هو الذي أنقذه، حالة غريبة جداً، انشقت الطائرة بجانب مقعده، ولو كان مربوطًا لما خرج منها، ألقى بنفسه خارج الطائرة بعد أن وقعت على الأرض، وهناك حالات نجاة عجيبة جداً.. طائرة تطير فوق أوروبا احترقت في السماء، ووقع منها راكب على ارتفاع أربعين ألف قدم، نزلت على غابةٍ في جبال الألب مغطّاة بثلوج سماكتها خمسة أمتار، فخمسة الأمتار مع الأغصان المرنة امتصت هذه الصدمة ونزل على قدميه.. وقبل عامٍ أو أكثر هناك طائرة تطير من جدة إلى دلهي بالهند فيما أعتقد، فأصاب هذه الطائرة خلل في إحدى النوافذ، أمٌ تحمل طفلين صغيرين ولِدا حديثاً، توأمين، فالطائرة مضغوطة ثمانية أمثال، فحينما انفتحت النافذة فجأةً لخلل أصابها، فالطفلان خرجا من النافذة ووقعا في البحر على ارتفاع أربعين ألف قدم، وما بقي واحد إلا وهو أيقن بهلاكهما، وذهبت أمهما إلى بلدها في الهند، ثم جاءتها مذكرة أن ارجعي إلى الخليج لسببٍ ما، وقد ظنت أنها ستُعْطى التعويض، إذا بولديها أمامها، هذان الطفلان الصغيران نزلا إلى جنب صيَّاد سمك، فغاص وأنقذهما وأخذهما إلى المستشفى، طفلان، فالله عزّ وجل إذا أراد أن ينجي إنسانًا.

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهـن أمانُ

* * *

قانون الله في الأرض:

أنت يجب أن تثق برحمة الله، وبعدالته، ومحبته لك، فإذا كنت معه كان معك وأنقذك من كل شيءٍ تخافه، طبعاً هذه القصص حادة صارخة، ولكن يوجد آلاف القصص نعيشها جميعاً، فأحياناً شبح مصيبة ينزاح عنك، وأحياناً مشكلة تنجو منها، أو مطب كبير تتفلت منه، أو أحياناً مصاب كبير.

حدثني أخ يدفع زكاة ماله، ومحله مغلق، وقد شعر بضيقٍ شديد ألم به، واليوم يوم عطلة، فركب مركبته واتجه إلى المحل، أول احتراقه، بدأ يحترق الورق، صار في ماس كهربائي، فما الذي أشعره أن اذهب إلى محلك التجاري ؟ قال لي: أوشك كل شيء في المحل أن يحترق ولكن في أول المرحلة، تسمع قصصاً كثيرة جداً، هذه القصص نجاةٌ من الله، وإكرامٌ من الله.

(إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا)

لكن إيَّاك أن تتوهم أن هذه قصة، بل هذا قانون.

كشف الله تعالى للإنسان المنحرف و لو بعد حين:

(كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا)

أي سيدنا لوط، وأحياناً بسببٍ من معرفة الإنسان بقانون الله، فالمرابي قد يقال له: إن الله سبحانه وتعالى قد يدمِّر مالك كله، فقد يستهزئ، لكن أنت إذا عرفت قوانين الله عزّ وجل، لا أقول: تعلم الغيب.. حاشا لله.. ولكن أقول لك: يمكن أن تتنبَّأ بما سيكون من قبيل معرفة القوانين، فالذي يأكل مالاً حراماً، ربنا سبحانه وتعالى يدمر ماله، والذي يعتدي على أعراض الآخرين، فالآخرون يتعدون على عرضه، والذي يَعُقّ والديه في الأعم الأغلب يعقُّه أولادُه، فهناك قوانين ثابتة، وأنت بالقوانين الثابتة يمكن أن تعرف ما سيكون لا من قبيل معرفة الغيب ؟ لا والله ولكن من قبيل معرفة القوانين.

(كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا)

والله عزّ وجل لا يليق بكماله وهو رب العالمين أن يرى عبده منحرفاً وأن يمدَّه إلى آخر الطريق، هذا الشيء يتنافى مع ربوبية الله عزّ وجل، وإنسان قوي، وذكي، وظالم، ومنحرف، وكافر، وعاصٍ، وفاجر، وكل شيء بيده، وقد رتَّب أموره على نحوٍ يسعده في وهمه، فمثل هذا الإنسان لن تمضي خطته إلى نهايتها، من دون تدخل الإله العظيم فهذا يتناقض مع ربوبيته، ولذلك قال أحدهم: **"عرفت الله من نقض العزائم "**، تكون خطة محكمة جداً جداً، ومدروسة، ومدعمة، ومغطاة، فالله سبحانه وتعالى بسببٍ لم يخطر على بال من أحكمها تنكشف خطته، ويفتضح أمره، ويقع في شر عمله.

مثلاً: إنسان يأتي ببضاعة انتهى مفعولها وحقق أرباحاً طائلة، يضع لصاقة جديدة ويبيعها بشكل مغرٍ وبأسعار معقولة وبإيحاء أنها بضاعة جيدة جداً إلخ، فغش الناس كثيراً، وهو ذكيٌ جداً، فكيف انكشف أمره ؟ نسي في بعض العلب أن يضع اللصاقة الجديدة فوق القديمة، فانكشف أمره، وهذا في بلد آخر، على أثر الغش التجاري ظهر قانون كان فيه قسوة بالغة لأنه غطى انحراف المنحرفين، فإنسان يغش الناس، ويبتز أموالهم، ويبني مجده على أنقاض الآخرين، وحياته على موتهم، وغناه على فقرهم، وتمضي خطته إلى نهايتها !! فهذا يتناقض مع ربوبية الله عزّ وجل.

الإنسان المنحرف تفكيره هازل و ضعيف:

لذلك فالإنسان مهما كان حذراً، ومهما كان قوياً، وحكيماً، ويقظاً، ومستعداً، فمهما غَطّى الأمور، وسد الثغرات، وتوقع الاحتمالات، و أخذ بالأسباب، إن كان منحرفاً لابدَّ من أن يدمر لسببٍ تافه، فلو تتبعتم كيف ينهار الإنسان المنحرف تجدون شيئًا عجيباً، مرّ بمخاطر كبيرة جداً ونجا منها، وعند أتفه الأسباب فُضِحَ أمره، فهذا من فعل الله، وهذا بتقدير الله، وبحكمته عزّ وجل.

(وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ)

ومعنى تماروا أي لم يؤمنوا بهذه النذر، بل ناقشوها، وقلّبوها على وجوهها، فرفضوها، واستهزؤوا بها، وطالبوا بالدليل، والدليل لم يعجبهم، فالإنسان المنحرف يتسلى بالمنطق، ولا يفكر تفكيراً جاداً، بل يفكر تفكيراً هازلاً، فهذه المماراة.

أمر الله هو النافذ مهما اعتد الإنسان بنفسه:

(فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ)

فسيدنا لوط عنده ضيوف كرام، ملائكة بشكل شباب صباح الوجوه، فقوم لوط لما رأوا عنده هؤلاء الشباب صباح الوجوه راودوه عن ضيفه، بل إن بعض القصص المأثورة تروي أن امرأة لوط بلّغت قومها أنه عند زوجها شبابٌ مُرْد، فأقبلوا.

(وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ)

والله عزّ وجل قال:

(فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ)

لم يروا، والله عزّ وجل مهما كان الأمر عصيباً يوقف القلب أحياناً، يموت فجأةً، فمرة قاضٍ (والقصة قديمة قبل خمسين عاماً) متفق مع الخصم على حكم معين وعلى شهادة معينة، وقف على قوس القضاء

فجاءته نوبةٌ قلبية، وهو على القوس، فجاء قاضٍ مكانه فحكم وفق الحق، فالإنسان مهما اعتدّ بنفسه فربنا عزّ وجل أمره هو النافذ. ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)

وأحياناً الإنسان المُرَبّي إذا وعظ إنساناً آخر وتوعّده بعقابٍ إذا هو فعل كذا وكذا، ففعل ما نهاه عنه وجاء العقاب، فهناك كلمة لابدّ من أن يقولها: ألم أقل لك لا تفعل، ألم أنذرك هذا العقاب الأليم، هذا معنى قوله تعالى:

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

(سورة القمر)

أفعال الله عز وجل تؤيد أوامره:

(وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ)

هم في الليل راودوه عن ضيفه وفي الصباح أرسل الله عليهم حجارةً من السماء فدمرتهم.

(فجعلنا عاليها سافلها)

وليس هذا غريباً علينا، نحن في كل حين نستمع إلى براكين، وإلى زلازل، وإلى صواعق، وإلى فيضانات، وإلى حروب أهلية.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

(فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)

فكل إنسان انحرف فهذا الانحراف له ذلك العقاب، ولكن أحياناً يكون عقاباً جماعياً تتناقله الأفواه، وأحياناً كثيرة جداً يكون عقاباً فردياً، فالله عزّ وجل له أمر تكليفي وله أمر تكويني، ففي الأعم الأغلب الأمر التكويني هو ثمرة للأمر التكليفي، فربنا يأمر وينهى، له فعل تكويني هذا أمره التكليفي، وفعله التكويني يكافئ المحسن ويعاقب المسيء، ولو تتبعت الأمر ملياً لوجدت العجب العجاب، ولوجدت فعل الله يُفَسّر بحفظ المؤمن وتوفيقه والأخذ بيده ونصره، وإسعاده، وإلقاء السكينة على قلبه، وأن فعل الله نفسه ينصب على المنحرف شقاءً، وإخفاقاً، وابتلاءً ومصاباً، فأوامره واضحة وأما أفعاله فتؤيّد أوامره، ولذلك قال العلماء: تأويل الآية الحقيقي وقوع وعدها ووعيدها.

تأويل الآية الحقيقي وقوع وعدها ووعيدها:

لما ربنا عزّ وجل قال:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران: آية " 130 ")

ما تأويل هذه الآية ؟ حينما يدمر مال المرابي فتدمير ماله أدق تأويلٍ لهذه الآية، ولما يقول ربنا عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: آية " 97 ")

الحياة الطيبة أوضح تفسيرٍ لهذه الآية، فالحياة الطيبة التي يحياها المؤمن المستقيم هي نفسها تأويل قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً)

والمعيشة الضنك.. إن رأيت بيتًا فيه تفلت، من دون صلاة، ولا انضباط، وفيه اختلاط، ومال حرام، فإن وجدت في هذا البيت كل يوم مشكلة وخصومات عميقة، الزوج والزوجة متخاصمان، والأولاد مشتتون، فهذا البيت قطعة من الجحيم، وهو أوضح تأويل لقوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه: آية " 124 ")

ولو رأيت إنسانًا تصدّق ببعض ماله فنما ماله، فهذا أوضح تأويلٍ لقوله تعالى:

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

لو رأيت إنساناً نمّى ماله بشكلٍ غير مشروع فدمر الله ماله.

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

وهذا أوضح تأويلٍ لهذه الآية، فالتأويل الحقيقي وقوع الوعد والوعيد وهو أدق تأويلٍ وأفصحه وأوضحه.

أثر ورع الإنسان في الدنيا:

(فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)

والآن تستنبط مما سأقوله قاعدة يستأنس بها. سألت طبيب أسنان هل مر عليك إنسان ما قلع سنًا من أسنانه ؟ فذكر لي رجلاً كان من الورع بأنه لم يشرب كأس شايٍ مغلية على سخانةٍ في المدرسة، وعمره ست وثمانون، فالورع أحياناً له أثر كبير، والحياة الطيبة، والصحة الجيدة، والاستقامة، فهذه كلها لها آثار كبيرة، وقد قيل:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

(رواه الطبراني عن ابن عباس)

والعبد يقول:

((يَا رَبِّ، يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

من عاش تقياً عاش قوياً، ولذلك فأعظم تأويل لكتاب الله أن:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

انظر إلى شاب مؤمن مستقيم ورع، وانظر إلى مصيره، وانظر إلى تألقه في الحياة، وإلى التوفيق الذي يصيبه، وإلى سعادته البيتية، وأموره المنتظمة، وانظر إلى منحرف، تجده على النقيض فالمصائب تأتيه من كل جانب، لا يوفق، وليس هو سعيداً في بيته، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه: آية " 124 ")

القرآن الكريم كتاب هداية و منهج للناس جميعاً:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

القرآن مُيَسَّر، وذكرت مراراً أنك إذا أردت أن تفهم كلام الله فكل الناس في خدمتك، ويمكن أن تفهمه، وأن تقرأه، وأن تستمع إليه، و أن تستمع إلى تفسيره، فربنا عزّ وجل يسّره، لأنه كتاب هدايةٍ، ولأنه منهجنا، وطريقنا إلى السعادة، وكتابنا المقرر، وفيه نجاتنا.

جنود الله في الأرض:

(وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ)

والآن خرجنا من الجزيرة إلى إفريقيا، فكل هؤلاء الذين ذكرهم الله عزّ وجل عاشوا في جزيرة العرب، والآن خرجنا إلى قومٍ آخرين.

(وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42))

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(16))

(سورة البروج)

فمثلاً الناس كلهم قلقون إلى درجة غير معقولة من مرض الإيدز، تصور دولاً عظمى بكل إمكاناتها، وهيئاتها العلمية، والأموال ذات الحجوم الفلكية، يقول لك: ثمانمئة ألف كلها موظّفة في البحث العلمي للوصول إلى مادة مضادة لهذا الفيروس، فالعالم كله بخمس قاراته، وهيئاته، وأرقى جامعاته، وبكل إمكاناته، واقفٌ مكتوف اليدين أمام أضعف فيروس على الإطلاق، والإصابات بعد خمس سنوات مقدّرة بمئة وعشرين مليوناً، والآن الإصابات أربعة وثلاثون مليوناً، ويمكن أن توظف ألف مليون دولار، ولم يغير هذا الفيروس شكله، وكلها ذهبت أدراج الرياح، فهذا جندٌ من جنود الله عزّ وجل، والله عنده جنود كثيرة، الزلازل جند، وهذا الفيروس جند، وكل شيء يرسله الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة.

اليقين بحتمية وقوع الإنذار يؤدي إلى الاستقامة:

أيها الإخوة: انتهت القصص التي جاءت تباعاً والتي تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يرسل الأنبياء، وينذر، فإن لم يصدّق الأنبياء وإن لم يتبع منهجه ينزل عقابه الأليم، وذكرت في أول الدرس أن الإنسان العاقل يجب أن يتحرى مصداقية هذا الإنذار، وأن يتحرى حتمية وقوع العقاب، فإذا ثبت لديه مصداقية الإنذار وحتمية الوقوع فالعقل يأمره أن يستقيم على أمر الله وإلا أصابه ما أصاب هؤلاء، والآن هذا المعنى جاء بآيةٍ دقيقة، قال تعالى:

(أكفاركم)

يخاطب أهل مكة:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

هل معكم براءة ؟ أم معكم ضمانة ؟ أم معكم دليل على أنكم لن تعذبوا كما عذب هؤلاء ؟

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ)

أي هل أنت من نوع آخر ؟ فالكفر واحد، وملة الكفر واحدة، والمعصية واحدة، والفسق واحد، والفجور واحد، والتكذيب واحد، وفي أي مكان وفي أي زمان الكافر كافر، والمؤمن مؤمن، والمستقيم مستقيم، والمنحرف منحرف، فقال:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ)

فعلتم ما فعلوا، واقترفتم ما اقترفوا، وعصيتم كما عصوا، وانحرفتم كما انحرفوا، وبغيتم كما بغوا، وظلمتم كما ظلموا.

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

فهل معكم ضمانة ؟ أم معكم دليل ؟ أم معكم كتاب سابق نزل من السماء يضمن لكم عدم العذاب ؟

عذاب الدنيا ليس بشيء أمام عذاب الآخرة:

(أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

(بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

هذه الآية خطيرة جداً، فمعنى إهلاك قوم لوط بحجارة من السماء ليست بشيء أمام ما ينتظرهم من عذابٍ أبدي، وإهلاك قوم فرعون غرقاً ليس بشيء أمام ما ينتظرهم من عذابٍ أبدي، وإهلاك قوم صالح بالصيحة، هؤلاء الأقوام الذي كذبوا فأهلكهم الله عزّ وجل، فحتى هذا الهلاك، و هذا القصم، وهذا العذاب الأليم، وهذا البطش الشديد، إذا قيس بما ينتظرهم من عذابٍ أليمٍ ودائمٍ وأبديٍ ليس بشيء.

كثرة المنحرفين لا تقي من العذاب:

قال:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44))

والكافر إذا رأى حوله جمعاً غفيراً إذ رأى الناس كلهم كذلك، وكلهم غارقون في الملذّات، يشعر بطمأنينة ناتجة عن كثرة العصاة، ويقول لك: الناس كلهم هكذا، فهل من المعقول أن الكل على غلط ؟ فإذا انحرفوا في أخلاقهم، وبيعهم وشرائهم، وكذبوا، وأكلوا مالاً حراماً، وانغمسوا في الملذات، وتتبعوا البرامج المنحطة، فالكل عنده دش السطوح، فإذا كان المنحرفون قد أصبحوا كثيرين فهل هذا يعفينا من العقاب ؟

(أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ)

عذاب الآخرة إلى أبد الآبدين:

قال:

(بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ)

أدهى من كل ما ذكر، فهذا العذاب ينتهي، ساعة أو ساعتين انتهى، فإذا إنسان ارتكب جريمة قتل، أثناء إعدامه شنقاً فشيء مؤلم جداً، و لكن بربع ساعة ينتهي، فعذاب الاستئصال ينتهي أثره، أما عذاب الآخرة فهذا لا ينتهي.

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(سورة الزخرف)

إلى أبد الآبدين، هذا معنى قول الله عزّ وجل.

على الإنسان ألا يستأنس بكثرة المنحرفين و أدوات المعصية:

والنقطة الدقيقة الدقيقة إذا وجدت معظم الناس انحرفوا في كسب أموالهم، وعلاقاتهم، وانحرفوا في نزهاتهم واختلاطهم، واقترافهم المعاصي، وفي تتبعهم صرعات العصر، وعمّ هذا كل الناس، هل معنى هذا أنه حق ؟ الحق حق والباطل باطل.

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلّا الظّنّ)

(سورة الأنعام: آية " 116 ")

فعلى الإنسان ألاّ يستأنس بكثرة المنحرفين، ولا بكثرة أدوات المعصية وهي منتشرة وواسعة.

(أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ (46))

الموت آخر ألم للمؤمن و أقل ألم للكافر:

هذه الآيات القليلة هي مغزى السورة بكاملها، وكل هذه القصص من أجل هذه الآيات القليلة.

(أَكُفّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ (46))

فهذا كلام خالق البشر ولذلك قالوا: الموت للكافر أهون شيءٍ لما بعده، والموت للمؤمن أصعب شيءٍ لما بعده، وآخر ألم يتألّمه المؤمن ساعة النزاع وانتهى في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وحتى إن

القبر روضة من رياض الجنة، فآخر ألم يذوقه المؤمن ألم النزع، **" إن للموت سكرات "** وانتهى، أما أقل ألم يذوقه الكافر فألم النزع، لما بعده.

(بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

ثم يقول الله عزّ وجل في آياتٍ نؤجّله إلى الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(إِنّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسّ سَقَرَ (48))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 47-55
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-12-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الخامس والأخير من سورة القمر، ومع الآية الكريمة السابعة والأربعين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

الخاسر من خسر نفسه و انساق مع شهواته:

المجرم هو الذي أجرم بحق نفسه، والخاسر هو الذي خسر نفسه، والظالم هو الذي ظلم نفسه، وأشد أنواع الظلم أن تظلم نفسك، وأشد أنواع الإجرام أن تجرم بحق نفسك، وأشد أنواع الخسارة أن تخسر نفسك في الأبد الذي خلقك الله له، فهؤلاء المجرمون الذين ما عرفوا الله، وبالمقابل ما طبقوا أمره، ولا ائتمروا، ولا انتهوا، وابتعدوا، وانساقوا مع شهواتهم.

الكافر في ضلال أفكاره مشتتة و أقواله متناقضة:

هؤلاء المجرمون كما قال الله عنهم:

(فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

الضلال هنا والسعر هنا، عقولهم في ضلال، وأفكارهم مشتتة، وتصوراتهم غير صحيحة، وأقوالهم متناقضة، وهدفهم غير واضح، وسر وجودهم غير مُعَرَّف لديهم، يعيشون على هامش الحياة، ويتحركون حركةً عشوائية، في ضلالٍ، مذهبٌ يأخذهم ومذهب يجلبهم، ويتأرجحون، ويتذبذبون، ويتحركون حركةً عشوائية، في ضلال، المؤمن على خلاف ذلك ؛ عرف حقيقة الوجود، فعرف حقيقة الدنيا، وعرف حقيقة نفسه، فعرف سر وجوده، وعرف غاية وجوده، فعرف لماذا جاء الله به إلى الدنيا، عرف أين كان قبل أن يُخْلَق، وما يؤول حاله بعد الموت، وعرف الحكمة البالغة التي خلقه الله من أجلها الإنسان، وعرف الأمانة، والتكليف، والمنهج، والحلال والحرام، والحق والباطل، والخير والشر، وتفاصيل المنهج الإسلامي، في حياته الخاصة، وفي علاقته بزوجته، وعلاقته بجسده، وأهله وأولاده، وفي بيعه وشرائه، وفي كسب المال، و إنفاقه، وفي كل نشاطاته، في لهوه، وفرحه، وحزنه، وعرف الله، فعرف منهجه، فالكافر في ضلالٍ.

المؤمن لا يضل عقله و لا تشقى نفسه:

والمؤمن:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، أما الكافر..

(فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

الآن قلبه ملتهب، في حرقة، يعصره الألم والقلق، والضياع، إنه مشتت، مبعثر، قلق، متشائم، ممزق، فوصف ربنا عزّ وجل جامعٌ مانع.

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

حياة الكافر خطأ و تشرد و عقاب:

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

زواجه يشقيه، وبيته قطعة من جهنم، وعمله غير موفّق، وهو في علاقاته غير ناجح، لأنه انحرف عن منهج الله.

أيها الإخوة الكرام: لو أنه من الممكن أن تبتعد عن أصل الله وعن منهج الله عزّ وجل وأن تستقيم أمورك، إذاً لا حاجة إلى الدين، لكن كل إنسانٍ ما عرف الله وما عرف منهجه فلابد من أن ينحرف، ومن لوازم جهله وشروده أن يعتدي، ومن لوازم عدوانه أن يحاسب وأن يعاقب، ولذلك فحياة الإنسان خطأٌ وعقابٌ، وانحرافٌ وعقابٌ، وتشردٌ وعقابٌ.

(فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

صورة قدمتها الآية التالية لكنها رهيبة.

النار مثوى من لا يدخل الآخرة في حساباته:

الآن ائتِ بإنسان وقيّد يديه واربطه من رجليه واسحبه وراء مركبةٍ في أرضٍ وعرة على وجهه، لا يستطيع أن يتلقى الصدمات بيديه، يداه مقيدتان، وهو مربوطٌ من رجليه تسحبه مركبةٌ على أرضٍ وعرة فيها النتوءات، والصخور، والأشواك، والنباتات، فما حال هذا الإنسان ؟ قال:

(يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ)

هذه التي كذّبتم بها، وهذه التي استهزأتم بها، وهذه التي لم تدخلوها في حساباتكم إطلاقاً، دقق في أحوال الناس، يحسب حساباً لكل شيء، ويخطط لكل شيء، فهو يخطط لعشرين عاماً قادمة، ويخطط لأولاد أولاده، إذا بنى مسكناً، فهذا المسكن لا يستهلكه لا هو ولا عشرة أجيال من بعده، يخطط لكل شيء، إلا هذا الذي وعدنا الله به أو توعدنا به أخرجه من حساباته.

(ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ)

العاقل من استقام على أمر الله:

لذلك:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61))

(سورة النجم)

هذه الحقائق مصيرية متعلقةٌ بمصير كل إنسان، وبسعادته الأبدية، وباستحقاقه دخول الجنة أو دخول النار.

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

المؤمنون لا يضل عقلهم ولا تشقى نفوسهم.

(يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ)

فالأولى بالإنسان العاقل أن يأخذ موقفًا واضحاً من هذا الكلام، هذا كلام خالق الأكوان، أعندك شكٌ في أنه ليس كلام الخالق ؟ ائتِ بالدليل، إما أن تأتي بدليل إيجاب، أو بدليل سلب، إن أتيت بالدليل على أنه كلام خالق الكون فيجب ألا تنام الليل، وألا تركن إلى الدنيا، وأن تدقق في كل عملٍ تفعله، لأنّ الله سيحاسبك، إن كنت تعتقد أن الله موجود، ويعلم، وسيحاسب وإن لم تستقم على أمره فلابدّ أن في العقل خللاً.

(ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ)

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ: آية تدل على وجود الله و حكمته:

ثم يقول الله عزّ وجل حقيقة الكون كله ينطق بها، بل إن هذه الحقيقة تنتظم كل ما في الوجود، وهذه الحقيقة لو درست مئة عام، ولو قرأت كل كتاب، ولو انتسبت لكل الجامعات، لا تفي كل الدراسات بحق هذه الآية، يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

كلمة: بقدر دليل وجود الله، ودليل علمه، ودليل حكمته، فمثل بسيط، مفتاح الكهرباء يمكن أن يوضع في أعلى السقف، أو أعلى الحائط، ويمكن أن يوضع على مستوى الأرض، وأن يوضع على ارتفاع مترين ونصف، أو على ارتفاع متر، فإن رأيته في مكانٍ مناسب، في مستوى اليد ألا تستدل من هذا على أن هذا المكان المناسب مقدرٌ تقديراً حكيماً، وأن الذي وضعه في هذا المكان إنسان عاقل، ودرس حاجة المستعمل إليه، فلو جعله في أعلى الحائط لاضطررت إلى استعمال السلم لإطفاء المصباح، ولو جعلته على مستوى الأرض لاضطر صاحب البيت أن ينبطح كي يغلق المصباح، وهذا ليس حكمةً، أما حينما تراه في مكان مناسب، وفي تقدير دقيق، فمعنى ذلك أن الذي وضعه في هذا المكان حكيم، فإذا نظرت إلى ما حولك تجد أن كل شيءٍ خلقه الله بقدر، بقدرٍ معجز، أي أن الكون كله مصداقٌ لهذه الآية، وهذه الآية تنتظم الكون كله، وهي أكبر دليلٍ على وجود الله، وعلى حكمته، وعلى قدرته، وعلى خبرته، وعلى علمه.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

القدر دليل على كمال الله و وحدانيته:

أما كلمة:

(كُلَّ شَيْءٍ)

الشيء الصغير بقدر، والشيء الكبير بقدر، والشيء الصامت الجامد بقدر، والشيء المتحرّك، كالحيوان، بقدر، والشيء الذي ينمو، كالنبات، بقدر، والذي يفكر، أي إنسان، بقدر.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

فالساكن والمتحرك بقدر والصامت والناطق والصغير والكبير والحاضر والغائب والمعلوم والمجهول كلها بقدر.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

هذا القدر قدَّر حقيقته، وقدر صفته، وقدر مقداره، وقدر زمانه، ومكانه، وعلاقاته، وتأثّره، وتأثيره.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

ويكاد يكون هذا أكبر دليلٍ على وجود الله وعلى علمه وقدرته وحكمته وكماله ووحدانيته.

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ:

1 ـ حجم الأرض خلقه تعالى بقدر معين:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

أيها الإخوة: حجم الأرض بقدر، فلو زادت عن حجمها الحقيقي لأصبح وزن الأشياء عليها كبيراً جداً غير محتمل، ولو قل حجمها لكان وزن الأشياء عليها غير محتمل، والدليل أن الإنسان حينما صعد إلى القمر كانت حركته مزعجةً جداً، فأية قفزةٍ يرتفع خمسة أمتار، لأن وزنه هناك سدس وزنه على الأرض، ولو كان الإنسان على أرضٍ أكبر من أرضنا بضعفين لكان وزنه ضعفين.

إذاً: حجم الأرض بقدر، ودورتها حول نفسها بقدر، ولو أنها تدور كل ساعة، ساعة ليل، وساعة نهار، فشيء غير معقول وغير محتمل، ولو أن الأرض تدور حول نفسها كل شهرٍ مرةً، لصار النهار شهراً والليل شهراً، ولو أنها تدور حول الشمس كل ألف عامٍ مرةً فالإنسان يرى الربيع فقط، أو الخريف فقط، أو الشتاء فقط، أما دورتها حول نفسها بقدر، وحجمها بقدر، ودورتها حول الشمس بقدر، ومساحة اليابسة الخمس، والمسطحات المائية أربعة أخماس بقدر.

2 ـ الحرارة على الأرض:

الحرارة التي عليها بقدر، من عشر إلى أربعين يحتملها الإنسان، ولو أن الأرض توقفت عن الدوران لأصبح وجهها المقابل للشمس ثلاثمئة وخمسين درجة فوق الصفر، والذي على خلاف الشمس مئتين وسبعين تحت الصفر (أي الصفر المطلق). أما الحرارة فمعقولة، والمياه بقدر، والهواء بقدر، ولو أن الأوكسجين في الهواء زاد عن حده لاحترق كل شيء، فنسبة الأوكسجين بقدر، ويصبح الهواء نافعاً غير ضار.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

3 ـ دوران الأرض حول الشمس خلقه بقدر معين:

الآن دورتها حول الشمس بقدر، وتسير بمدار إهليلجي له قطران، قطر طويل وقطر قصير، فإذا وصلت إلى القطر القصير، فالمسافة قلّت بينها وبين الشمس، فهناك احتمال أن الشمس تجذبها، لذلك تزيد سرعتها زيادةً ينشأ عنها قوةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة بقدر، فإذا وصلت إلى القطر الأبعد وبقيت

على سرعتها العالية، فهناك احتمالٌ كبير أن تتفلت من جاذبية الشمس فتنطلق إلى الفضاء الخارجي، ولذلك تقل سرعتها هنا ليكون جذب الشمس كافياً لربطها بمداها.

4 ـ ارتفاع سرعة الأرض بقدر معين:

الآن: ارتفاع السرعة بقدر، فلو ارتفعت فجأةً لانهدم كل ما على الأرض، ولو انخفضت فجأةً لانهدم كل ما على الأرض.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

فمحور الأرض مائل بقدر، وهذا الميل نتج عنه الصيف والشتاء والخريف والربيع، ولو كان عمودياً على مستوي الدوران لأُلْغِيَت الفصول !، لكن بقدر.

5 ـ بعد الشمس عن الأرض بقدر:

الآن: الشمس بعدها عن الأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر بقدر، فلو اقتربت لاحترقت، ولو ابتعدت لهلك من عليها، بعدها عن الشمس بقدر، وعن القمر بقدر، وحجم القمر بقدر، والشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، بقدر.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

6 ـ الجبال موزعة بقدر معين:

الجبال موزّعةٌ في الأرض توزيعاً دقيقاً جداً حيث إن الجبال تغدو رواسي أن تميد بكم، لئلا تميد بكم، وكيف أنك تضع على العجلة خمسة غراماً أو عشرة غرامات من الرصاص في مكان دقيق جداً من أجل أن لا تميد أثناء الدوران السريع، كذلك الجبال كانت رواسي للأرض لئلا تميد بها.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

7 ـ المد و الجزر خلقه الله تعالى بقدر:

الآن: لو نزلنا إلى الأرض لرأينا الجُزُر في هذه الجزيرة لها مهمة أن تستقطب المنخفضات الجوية، وهذه الصحراء الحارة الهواء عليها ساخن، وإذا سخن الهواء تمدد، وإذا تمدد تخلخل، فالضغط منخفض هنا، والمنطقة القطبية باردة والهواء مكثّف، فالضغط مرتفع، ومن تباين الضغطين تنشأ الرياح من

القطبين إلى خط الاستواء، والأرض إذا دارت صارت الرياح مائلة من الغرب إلى الشرق، رياح غربية تسوق السحب.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

8 ـ المعصرات خلقها تعالى بقدر معين:

أما بخار الماء، فالهواء يحمله ولكن بقدر، وكل درجة حرارةٍ للهواء تتحمّل كميةً من بخار الماء، فإذا قلّت الحرارة تخلّى البخار عن الماء فكانت الأمطار، فهنا سحابة مشحونة ببخار الماء فإذا لامست سحابةً باردة انكمش بخار الماء وشكّل قطراتٍ تنعقد على ذرات الغُبار فتكون الأمطار.

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

(سورة النبأ)

سمّاها الله المعصرات، وكأن قماشاً غمسته في الماء فاحتمل ماءً كثيراً فإذا عصرته نزل منه الماء، وهذه حقيقة نزول الأمطار من السحب المحملة ببخار الماء ثم لامست جبهةً باردةً فتخلّت عن مائها، فانقلب بخار الماء إلى قطرات من الماء فكانت الأمطار.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

9 ـ النباتات:

أما الآن النباتات، فكل محصول له نظام، فالقمح ينمو في وقتٍ واحد، والمحاصيل تنمو في وقتٍ واحد، وأما الفواكه والثمار والخضار فتنمو في فتراتٍ بعيدة، فثلاثة أشهرٍ حقل البطيخ يعطيك البطيخ كل يوم، وأكثر الخضراوات والفواكه مؤقتة، فتنضج في فترة ما بين شهرٍ أو شهرين، وبإمكانك أن تقطع من ثمار هذه الشجرة لشهرين أو ثلاثة دون أن تصاب بأذى.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

10 ـ الحيوان:

هذا هو النبات، والبقرة من عالم الحيوان، تعطيك من الحليب أضعاف ما تأكل، فلو أنها تستهلك من الطعام ما يقابل ثمن الحليب لما ربّى أحد البقر أبداً، ولو أن الدجاجة تعطيك في الشهر بيضة واحدة فلا أحد يربي الدجاج، بل تعطيك كل يومٍ بيضة، ويجب أن يكون إنتاجها أكبر من مصروفها من أجل أن تقتنيها.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

وبعض الشواهد الأخرى من عالم الحيوان والنبات، الجوارح، فالطيور الجوارح التي تتغذّى بصغار الطير عددها قليل، لأنها قليلة التفريخ، تعيش في مواطن خاصة، ولكنها طويلة الأعمار، فلو أن هذه الطيور الجوارح كانت تبيض كثيراً وتفرّخ وتعيش في كل بقاع الأرض لأكلت كل الطيور، ولكن أعمارها طويلة، وأعدادها قليلة، وأماكنها محدودة، وبيضها محدود، وتفريخها محدود.

أما الذباب فيبيض ملايين البويضات لكنه يعيش أسبوعين فقط ويموت، فلو أن الذباب عاش شهرين أو سنتين أو عقدين لغُطِّيَت الأرض كلها بالذباب، فنمط التوالد أيضاً بقدر.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

11 - الميكروبات:

الميكروبات من أكثر مخلوقات الله عدداً، ومن أكثرها توالداً، لكن بالمقابل من أضعفها ؛ فالبرد يقتلها، والحر يقتلها، وحمض المعدة يقتلها، والمصول تقتلها، والهواء وحده يقتلها، فهي من أكثر المخلوقات عدداً ومن أشدها توالداً لكنها ضعيفةٌ جداً، فهناك تناسب.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

والحيّات الصغيرة سمها ناقع، زعاف، وسرعتها كبيرة وسلاحها في الهروب واللدغ، أما الثعابين الكبيرة فسلاحها بقوة عضلاتها، ضعيفة السُمِّيَة ولكن عضلاتها قوية.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

وهناك حيوان يدافع عن نفسه بالجري، وحيوان يدافع عن نفسه بالتلوُّن كالحرباء، وبعض الأسماك تطلق صعقةً كهربائية أحياناً أربعة آلاف فولط تقتل من حولها، وبعض الأسماك يطلق سحابة سوداء حوله فيغيب عن الأنظار، فكل حيوان له وسيلة للدفاع عن نفسه.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

12 - البويضة في الإنسان:

البويضة في الإنسان بعد أن تلقّح وتتجه نحو الرحم تأكل جدار الرحم، ففيها صفة آكلة اللحوم، وتنغرس في هذا الجدار، بينما تتهتك جدار الرحم في مكان انفصال البويضة، فتصبح وسط بركة من الدم هو غذاؤها.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

13 ـ طول الحبل السري:

الحبل السري للطفل طوله بحكمةٍ بالغة، ولو كان أكثر طولاً لفسد الغذاء في داخله، ولو كان أقل طولاً لكان الغذاء غير مناسبٍ للطفل، فحبله مناسب جداً.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

14 ـ تركيب حليب الأم:

وكلكم يعلم أيها الإخوة أن ثدي المرأة بعد الولادة يفرز سائلاً أبيضَ مائلاً إلى الصُفْرَة وفيه كل مناعة الأم، وفيه مادةٌ تذيب الشحم الذي داخل أمعاء الطفل، ولذلك هذه المادة تعطيه مناعة الأم وتذيب الشحوم التي داخل الجهاز الهضمي، وفي اليوم التالي يفرز اللبن.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

حليب الأم تتبدّل كميته من بضع كؤوس إلى لتر ونصف إذا نضج، فمن يحدد هذه الكمية.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

تركيب حليب الأم يتبدّل.. وقد تعجبون إنه يتبدل في الرضعة الواحدة، فلو أخذنا الحليب في أول الرضعة لكان ماؤه كثيراً، وفي آخرها قل ماؤه وتركزت فيه المواد الغذائية، فيتبدل تركيب الحليب في رضعةٍ واحدة، وكل يومٍ بحسب نمو الطفل.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

15 ـ الطحال خلقه الله له نشاطاً معيناً:

الطحال يأخذ الخلايا الكريات الحمراء التي ماتت، يأخذها فيحللها إلى عواملها الأولية، حديد، هيموغلوبين، الحديد يعاد سوقه إلى نقي العظام، ليعاد تصنيعه من جديد والهيموغلوبين يذهب إلى الكبد ليكون الصفراء، وفي الثانية الواحدة يموت اثنان ونصف مليون كرية حمراء، والطحال يأخذ هذه الكريات ويحللها فهو مقبرةٌ لها، والطحال معمل دم احتياطي، فلو تعطّلت مراكز تصنيع الكريات الحمراء في نقي العظام لعمل الطحال كمعملٍ لكريات الدم الحمراء، والطحال مستودع لكريات الدم الحمراء، أعرف شاباً جامعياً في كلية الطب انتهى أجله بسببٍ قد لا يصدّق، أن هذا الطحال عمل بنشاطٍ أكبر مما ينبغي، فصار يأخذ كريةً طيبةً فيقتلها، مات هذا الشاب بسببٍ مرضٍ اسمه فرط نشاط

الطحال، ومعنى ذلك أن كل واحد منا لو اختل توازن الطحال أو عمل أنشط مما ينبغي له لانتهت حياة الإنسان.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

16 ـ نسبة الملح في الدم لها قدر معين:

ونسب الملح في الدم من سبع إلى ثمان بالألف، فلو قلّت أو زادت لمات الإنسان، فتأتي الكلية لتعيّر الملح في الدم، فإن أكلت طعاماً مالحاً فالكلية تطرح الملح الزائد، ولو أكلت طعاماً من دون ملح، فالجسم يأخذ الملح حتى من الفواكه، فإن أكلت الملح الزائد طرحته الكلية لتبقى النسبة سبعة إلى ثمانية بالألف، وإن لم تأكل الملح اشتقّته الأجهزة من أي غذاءٍ آخر.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

17 ـ الغدد النخامية خلقها الله بقدر معين:

الغدة النخامية ملكة الغدد، تسيطر على كل الغدد الصمّاء في الجسم، وتفرز اثني عشر هرمونًا، وزنها نصف غرام، ولها إفراز لو تعطل لأمضى الإنسان الوقت كله إلى جانب الصنبور والمرحاض، ليشرب مئات اللترات من الماء وليفرغها في المرحاض، وهي مركز ضبط السوائل في الجسم، ومركز الحرارة في الجسم، ولما يكون الإنسان مضطجعاً ويريد أن ينهض، فلو لم تكن هناك شوارد في الدم تضيّق لمعات الشرايين فإذا وقف الإنسان يقف ويقع، لأنه كان مضطجعاً، فلما وقف بحكم الجاذبية نزل الدم إلى الأسفل، وحصل نقص تروية فأصيب بالدوار فوقع، فحينما يزمع الإنسان أن ينهض فهذه الشوارد تنبه الأوعية وتضيق لمعتها وتبقي الدم محبوساً في القسم الأعلى.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

18 ـ مطابقة العين:

العين، مطابقة العين أمرٌ عجيب، فلو أنك شاهدت سيارةً تجري في الطريق، و أنت تراها بشكلٍ دقيقٍ دقيق في كل أحوالها، والعدسة واحدة، والشبكية واحدة، ولوحة المحرق واحدة، فكيف ينطبع الخيال على المحرق الثابت على العدسة والشيء المرئي متحرك ؟ فمعنى ذلك هناك عضلات دقيقة جداً، وحساسة جداً، وعالمة جداً تضغط الجسم البلوري في العين ثلاثة ميكرون من أجل أن يبقى الخيال على الشبكية، فكيفما تحركت السيّارة، أو كيفما تحرّكت الكرة تراها أنت على الشبكية بشكلٍ دقيق، فالمطابقة

التي في العين يعجز عن فهمها الإنسان، بل إن الإنسان حينما يرى ما دون ستين متراً فالعين تجري أدق عملية مطابقة، ولو أنّ الله سبحانه وتعالى أوكل هذه العملية إلى الإنسان لما عرف ماذا يفعل، ولغابت عنه المشاهد والحقائق، فالعين تطابق وأنت لا تشعر.

19 ـ القلب:

والقلب له مطابقة، فلو أنّ الإنسان خُطِّط قلبه في العناية المشدّدة لرأيت أنّ الإنسان إذا حمل الوسادة ارتفعت نبضات قلبه، على مستوى كيلو، وعلى مستوى عشرين غراماً أحياناً، و مئتي غرام، ورأيت اللوحة تشير إلى التخطيط وعدد ضربات القلب لرأيت فرقاً واضحاً، فالإنسان يمشي، ويجري فترتفع نبضات قلبه، ويصعد الدرج فترتفع، ويبذل جهداً فترتفع، ما هذا المُحَرّك المتوافق مع الجهود ؟ ليس في عالم الميكانيك محرّك استطاعته متبدِّلة بحسب حمولته، فهذا الشيء غير موجود، لكن قلب الإنسان تتبدّل استطاعته بتبدُّل الجهد المفروض عليه.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

أيها الإخوة: عندما يشاهد الإنسان كما تعلمون شيئاً مخيفاً، كيف فالصورة تنتقل إلى العين، وإلى الدماغ، فالدماغ يأمر الغدّة النخامية الملكة بالتصرُّف، والغدّة النخامية تأمر الكَظر، والكظر يأمر القلب برفع نبضاته، ويأمر الأوعية بتضيّيق لمعتها، ويأمر الكبد بطرح سكّرٍ في الدم إضافي، ويأمر الكبد بطرح هرمون التجلّط، ويأمر الرئتين برفع وجيبهما، في ثوانٍ معدودة.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

20- الأذن:

كيف يمشي الإنسان في الطريق فيستمع إلى صوت بوق سيّارة فينحرف نحو اليمين وهو لا يشعر ماذا فعل ؟ كيف أنّ الصوت وصل إلى الأذنين معاً، فوصل إلى الأولى قبل الثانية بجزء من ألف ومئتين وستمئة وعشرين جزء من الثانية، وعرف الدماغ أن الصوت وصل إلى هنا قبل هنا إذا الصوت من جهة اليمين فيعطي أمراً إلى جهة اليسار.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

21 - اللعاب:

والإنسان أحياناً عند طبيب الأسنان إذا كان هناك عمل طويل يضع له أنبوباً يسحب لُعَابَه، لماذا ؟ لأن الإنسان لا يستطيع بلع ريقه إلا إذا أغلق فمه، فما دام الفم مفتوحاً فاللُعاب يتجمّع، ولكن في النوم كيف ينام الإنسان ثماني ساعات أحياناً وفمه مغلق ؟ أين اللُعاب ؟ أين يذهب ؟ كلّما تجمّع اللُعاب في فم النائم أعطى الجسم إشارةً إلى الدماغ، والدماغ يأمر البلعوم ولسان المزمار بفتح طريق المري وإغلاق طريق التنفُس فيبلع الإنسان لُعابَه وهو نائم، وهو لا يشعر.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

حكمة الله من تقلب الإنسان في نومه:

الإنسان وهو نائم هناك هيكل عظمي، وهناك عضلاتٌ تحت الهيكل العظمي، وعضلات فوقه، وزن الهيكل العظمي مع وزن العضلات التي فوق الهيكل العظمي تضغط على العضلات التي هي تحت الهيكل العظمي، فإذا ضغطت عليها فإن الأوعية الدموية تضيق لمعتها، فإذا ضاقت ضَعُفَت التروية، فإذا ضعفت التروية شعر الإنسان بالتنميل، وهو نائم وهناك مراكز ضغط في الجسم تتحسّس فتُبلِغ الدماغ، والدماغ يأمر العضلات بأن يقلب على الطرف الآخر، وأنت نائم، والإنسان النائم يتقلّب ثماني وثلاثين إلى أربعين مرّة، فلو صوّرنا إنساناً نائماً فإننا نراه يتقلّب من ثمانٍ وثلاثين إلى أربعين مرّة، والله عزّ وجل قال:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف: آية " 18 ")

ومن إعجاز القرآن العلمي، لو أنّ أهل الكهف لم يتقلّبوا لتفسّخوا بعد شهرٍ واحد، فبقوا في كهفهم ثلاثمئة وازدادوا تسعاً، إذاً هذا تقليب الإنسان.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

والله أيها الإخوة: لو أمضيت الوقت كلّه في تأمُل بديع صنع الله عزّ وجل، في جسمك فقط لما وصلت إلى نتيجة، ولما أحطت بهذه الآيات.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

التفكر و التأمل أساس معرفة الخالق:

قلت قبل قليل: إن هذه الآية تنتظم الكون كلّه، وإن الكون كلّه مصداقٌ لهذه الآية، وأي شيءٍ تراه عينك إنما هو من تقدير حكيم عليم، ولذلك إذا أردت أن تعرف الله فتأمّل في بديع صنعه، وإذا أردت أن تعرفه حقّ المعرفة فتفكّر في خلق السماوات والأرض، وانظر إلى طعامك، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25))

(سورة عبس)

انظر إلى أصلك ممَ خُلِق ؟

(خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

(سورة الطارق)

رحمة الله بالإنسان:

خمسمئة مليون حوين تحتاج البويضة إلى حوينٍ واحد، فلماذا تُفرَزُ الحوينات التي عند الرجل إلى آخر أيام حياته ؟ الرجل قد يُنْجِب وهو في الثمانين وفي التسعين، أما المرأة فبويضاتها محدودة فإذا انتهت دخلت في سنّ اليأس.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

و لو أنّ امرأةً في التسعين حملت فهذا شيء لا يُحتمَل، ولا يُعقَل، رحمةً بالمرأة، فبويضاتها معدودة تنتهي في الأربعين، أو في الخمسين، أو في السادسة والأربعين وتدخل سنّ اليأس، أما الرجل فغير محدودة.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

و الرجل قد يفقِدُ شعره كلّه، لكن المرأة يقلُّ شعرها ولكن لا تفقده كلِياً.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

أي أن هناك حِكَمًا بالغة يحتاج الإنسان أن يقف عندها، وعلى كلٍّ فالموضوع طويل، فالأطيار تحتاج إلى درس، والأسماك إلى درس، والجُزُر والخلجان والرؤوس، والأمطار والسُحُب، والرياح كل واحد يحتاج إلى درس، وكل مخلوقٍ لو تأمّلت صنعته ودقّته لعرفت أن الله سبحانه وتعالى.

(قَدَّرَ فَهَدَى)

(سورة الأعلى)

بين إرادة الله و أمره لا يوجد وقت أبداً:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

و لذلك فهذه الآية تعدُّ إحدى الآيات الجامعة في كتاب الله.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50))

هذا تقريبٌ لنا، لمح البصر يحتاج إلى وقت، أما الله عزّ وجل فالوقت من خلقه، وبين إرادته وأمره ليس هناك زمن إطلاقاً.

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ)

أي أن الله عزّ وجل يزلزل أعظم المدن في أربع ثوان، مدينة عريقة، كبيرة، فيها ناطحات سحاب، يمكن بسبع رختر أن تكون منتهية كلها، أكثر من مئة عام شُيِّدت فيها الأبنية فتسقط في أربع ثوان، وأغادير أربع ثوان انتهت كلها، فالله عزّ وجل رحيم، خمس وثلاث من عشر في الشام فهذه نعمة لأنه لم يحدث شيء، وفي العقبة سبع واثنتين، أكثر الأبنية فيها تضعضعت، وفي القاهرة ست وثلاث، أما سبع خالصة فعظّم الله أجركم، فما هذه الحياة ؟ كل منجزات الإنسان، وعماراته، وكل شيء بناه بسبع رختر يكون كل هذا منتهياً.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

إنذار الله تعالى للمنغمسين في الملهيات:

هذه الهزّات الخفيفة إنذار مبكِّر، إذا عَمَّ الفساد، وانغمس الناس في المُلهيات، وأكلوا الربا، واستباحوا المحرّمات فأقلقهم الله عزّ وجل.

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

مرّة ضربت مثلاً أيها الإخوة هناك رافعات ضخمة في المعامل تقوم على المغنطة، فإذا أُحيطت قطعة حديد كبيرة بوشيعة كهربائية تصبح مغناطيسية، ويمكن لهذه الرافعة أن تحمل عشرة أطنان، ولا يستطيع إنسان مهما كان قوياً أن ينزع منها شيئاً، لكن الذي يعمل على هذه الرافعة لو ضغط الزر الذي يقطع الكهرباء عن هذه الرافعة ربع الميلي فإن كل شيء يقع، فقطع الكهرباء يلغي عمل الرافعة، وهذا مثل تقريبي، فضغط بسيط، عشرة أطنان حديد محمولة ملتصقة بالرافعة، والإنسان مهما كان رياضياً لا يستطيع أن ينزع منها شيئاً، أما العامل الذي على هذه الرافعة فضغطة أقل من عشر الميلي لقطع الكهرباء كل شيء يقع، فكيف بخالق الكون؟

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

كن فيكون زُلْ فيزول.

إهلاك الأقوام السابقة بأفعالهم:

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ)

أي من كان على شاكلتكم، ومن شايعكم، ومن كان مثلكم.

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ)

من قبل، عاد وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب.

(فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52))

أي في الكتب مسجّل كل شيء فعلوه.

العاقل من يتوب قبل الموت و الحساب الدقيق:

الإنسان يوم القيامة يقول:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف: آية " 49 ")

و الآن يخالف السرعة فتُرسَل له إلى البيت صورة سيارته مع رقمها ملونة ومع التاريخ والسرعة، ويجعلونه يدفع الغرامة، والإنسان يمكنه أن يضبط الحركات، فيقول لك: الطريق مراقب بالرادار، الصالة مراقبة تلفزيونياً، والإنسان مراقب من قِبَل أخيه الإنسان فكيف من قِبَل الواحد الديّان ؟.

(وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ)

ما قولك أن يأتي الإنسان يوم القيامة وأن يشاهد أفعاله كلّها صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، بوقتها، وزمنها ومكانها، وملابساتها، ونياتها وكل ما يرافقها أن يراها أمامه معروضة وينادي الحقّ جلّ جلاله:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

(سورة الإسراء)

فالإنسان إذا أدخل في حسابه اليومي أن كل أعماله مُسَطّرةٌ عليه وسوف يحاسَب عنها لابدّ من أن يستقيم على أمر الله.

تسجيل أعمال الإنسان عليه:

(وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53))

مسجّل.

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

و الله قال:

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: آية " 181 ")

هذه سجّلت عليهم.

نسيان فضل الله على الإنسان كفر به:

هناك كلمات فيها كفر أحياناً، يقول:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

وأناسٌ كثيرون يقولون لك: هذا جهدي، وهذه خبرتي، وهذا كدّي وسَعْيي، وينسى فضل الله عزّ وجل، بدل أن يقول: هذا من توفيق الله، وهذا من فضل الله عليّ.

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

أحدهم في سهرة قال: أنا لن أموت قريباً، فسُئل ما الدليل ؟ قال: لأنني أمشي كثيراً، وآكل قليلاً، وأبذل جهداً، ولا أحمل همّاً، ولا أدّخِر، إنه قال هذا الكلام يوم السبت وفي السبت الذي يليه كان تحت الأرض، واجتمع أصدقاؤه ولم يكن بينهم، فعلى الإنسان ألا يتكلّم كلاماً أكبر من حجمه.

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: آية " 181 ")

التوحيد يخفف من المصائب:

طبعاً الإنسان يجب أن يأكل قليلاً، وأن لا يدخِّن وأن يبذل جهداً، ولا يتلقّى الأمور بهمٍّ شديد، فالله المدبّر، والتوحيد يخفِّف من وقع المصائب، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد ولكن أن تعتقد أن هذه الأشياء وحدها تطيل العمر فهنا الشرك.

(وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ)

إكرام المؤمنين يوم القيامة إما:

1 - إكرام مادي:

الآية بدأناها.

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

والآن الطرف الآخر (طرف المؤمنين) قال:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)

هؤلاء الذين اتقوا ربهم في الدنيا، وهؤلاء الذين التزموا أمر الله ونهيه، والذين تقرّبوا إليه، وتعرّفوا إليه، وأقبلوا عليه، وذكروه أناء الليل وأطراف النهار، واستقاموا على أمره، وخدموا خلقه، واتقوا أن يعصوه، أو أن يغضبوه، اتقوا سخط الله عزّ وجل.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)

هذا النعيم المادي.

2 - إكرام معنوي:

أما المعنوي:

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

فأحياناً الإنسان يُدْعَى إلى وليمة ويكون ضيف الشرف، فهناك إكرامان: إكرام مادي، وإكرام معنوي، ترحيب منقطع النظير، وتكريم، يوضَع في أفضل مكان، وتُقَدَّم له آيات الاحترام والتبجيل، فأحياناً الإنسان يجمع بين التكريم المادي والتكريم الأدبي.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)

ماديّاً، أما معنوياً:

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

مركز المؤمن عند الله كبير:

إن مركز المؤمن عند الله كبير، وقد كان النبي الكريم يدعو ويقول:

((اللهمّ اجعلني في عين نفسي صغيراً وفي عين الناس كبيراً))

وهناك أشخاص عند الله كبراء، وعند أنفسهم صغراء: أهلاً بمن خبَّرني جبريل بقدومه:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّهِ لَأَبَرّهُ))

(أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك)

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ)

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(إِنّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

اللهمّ اجعلنا من هؤلاء.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-12-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة الرحمن.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

خلق الله تعالى الإنسان ليرحمه و يسعده:

يا أيها الإخوة الكرام: خَلْقُ السماوات والأرض بُنِيَ على الرحمة، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

الله جلّ جلاله ما خلقنا إلا ليرحمنا، ما خلقنا إلا ليُسعدنا في الدنيا والآخرة، هكذا أراد الله عزّ وجل، الله جلّ جلاله رحمنٌ رحيم، وقد صُدِّرَت هذه السورة بهذا الاسم الكريم الذي يعد اسم الله الأعظم لقوله تعالى:

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء: آية " 110 ")

الرحمن اسم الله الأعظم:

الرحمن اسم الله الأعظم، كما أن الله عَلَمٌ على الذّات، الأسماء الحُسنى مجموعةٌ باسم الله فهو علمٌ على الذات واجبٌ الوجود، والرحمن اسمٌ من أسماء الله الحسنى بل هو اسم الله الأعظم في رأي بعض العلماء، فالله سبحانه وتعالى إنما صدّر هذه السورة لأنها في حقيقتها تعدادٌ لنعم الله في الدنيا والآخرة، فأساس هذه النعم رحمة الله جلّ جلاله، فخلقنا ليرحمنا، والآية التي تؤكِّد هذه الحقيقة:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا، خلقنا ليعطينا، أعطانا الوجود، أعطانا الإمداد، أعطانا الهدى والرشاد.

عبادة الله تعالى ثمن رحمته لنا:

أيها الإخوة الكرام: الله جلّ جلاله خلقنا لنعبده، خلقنا ليرحمنا، ولا يرحمنا إلا إذا عبدناه، العبادة ثَمَنُ الرحمة، إن عبدناه استحقينا رحمته، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ويقول:

((اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرت))

(أخرجه ابن ماجه عن ابن أبي أوفى)

خُلِقنا ليرحمنا الله عزّ وجل، متى يرحمنا ؟ إذا عبدناه، الدليل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُون)

(سورة الذاريات)

جوانب العبادة:

العبادة فيها جانب فكري، فيها جانب سلوكي، فيها جانب جمالي، الجانب الجمالي هو الهدف، والجانب السلوكي هو الثمن، والجانب العلمي هو السبب، تعرفه فتطيعه فيرحمك، الله جلّ جلاله رحمن رحيم، رحمنٌ في ذاته، رحيمٌ في أفعاله،

(كتب على نفسه الرحمة)

كتب على وحيث ما وردت على مع لفظ الجلالة فهي الإلزام الذاتي، كتب على نفسه الرحمة، وأرسل نبيه رحمةً مهداةً ونعمةً مُزجاةً، وجعل دينه رحمةً، هو رحمن رحيم، ونبيُّه رحمةٌ مزجاة، ودينه قائمٌ على الرحمة، قال بعض العلماء: **" الشريعة رحمة كلُّها، عدلٌ كلها، صلاحٌ كلها، فأية قضيةٍ خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن الصلاح إلى الفساد، ومن العدل إلى الجَور فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل ".**

الرحمة رقة في القلب تستلزم الإحسان:

الرحمة (درسنا اليوم محوره الرحمة) رقةٌ في القلب تستلزم الإحسان والعطاء، رقةٌ في القلب، الرحمة لها مظهر شُعوري، ولها مظهر سلوكي، نظرت إلى يتيم، نظرت إلى فقير، نظرت إلى مُصاب، نظرت إلى جريح، تولّد في قلبك شعورٌ بالعطف عليه، والشفقة عليه، والتأثّر له، هذا الجانب الشعوري، بادرت إلى معاونته، هذا الجانب العملي، فالرحمة إذا وصف بها الإنسان، نقول: رقةٌ في القلب تستلزم التفضّل والإحسان في حقّ العباد، أما إذا عُزِيَت إلى الله عزّ وجل فالله سبحانه وتعالى تعني رحمته أن يصرف عن عباده السوء وأن يجلب لهم الخير، الله جلّ جلاله في ذاته رحمن، وأفعاله رحيمة.

الرحمة تستدعي مرحوماً، تستدعي مخلوقاً يحتاج إلى الرحمة، والإنسان ضعيف وسر غناه في فقره، وسر قوته في ضعفه، وسر علمه في جهله، فالإنسان كلما افتقر إلى الله عزّ وجل نال من الله العطاء الأوفى، فأنت بافتقارك إلى الله تغدو أقوى الناس، وتغدو أغنى الناس، وتغدو أعلم الناس، وتغدو أحكم الناس، الرحمة تقتضي مرحوماً، والمرحوم لا يستحق الرحمة إلا إذا كان ضعيفاً.

خلق الله الإنسان ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره:

لذلك من حكمة الله جلّ جلاله أنه إذا ساق المصيبة للإنسان من أجل أن يأخذ بيده إليه، من أجل أن يدلّه عليه، من أجل أن يدفعه إلى بابه، من أجل أن يُذيقه طعم جنانه، من أجل أن يذيقه طعم القُرب، طعم الحُب، طعم الطُمأنينة، فالإنسان خُلِقَ ضعيفاً، ولو أنه خُلق قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، فحكمة الله عزّ وجل أن الله إذا أراد أن يعطينا وأن يرحمنا وأن يسعدنا لا بدّ من أن نفتقر إليه، لو خلقنا أقوياء لاستغنينا عنه، لذلك:

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

الإنسان مُصَمَّم أن يكون ضعيفاً، وهذا ضعفٌ خَلْقِي، وليس ضعفاً خُلُقِيّاً، أراده الله ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، أراده الله هلوعاً ليلجأ إلى باب الله عزّ وجل، أراده الله جزوعاً..

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

سعادة الإنسان بالإقبال على الله:

العبرة أن تُقبل عليه لأن كل السعادة بالإقبال عليه، والإنسان إذا توهّم أنه بإمكانه أن يَسْعَدَ وهو بعيدٌ عن الله فهو أجهل الجُهلاء..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

(سورة طه)

(من أعرض عن ذكري)

يستحيل أن تسعد وأنت بعيدٌ عن الله، يستحيل أن تسعد وأنت في معاصيه، يستحيل أن تسعد وأنت مُعْرِضٌ عنه، لذلك ربنا عزّ وجل جعل كل العطاء بالإقبال عليه، وجعل فقرك وضعفك وخوفك سبب إقبالك عليه من أجل أن تسعد، الرحمة التامّة قال: هي إفاضة الخير على المحتاجين، الخير التام.

الرحمة من الله إنعام و من الآدميين رقة:

أيها الإخوة الكرام: لعل الواحد منا يتوهّم أن الله إذا عافاه في صحته وهي نعمةٌ جليلة، وإذا يَسَّر له عملاً يرتزق منه، وإذا يَسَّر له أهلاً وأولاداً نال نِعَم الدنيا، أجلُّ نعمةٍ على الإطلاق هي نعمة الهداية، لأن الله سبحانه وتعالى يُعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، وأما الآخرة فهي وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل، لا يُعطي الآخرة إلا لمن يُحِب.

فلذلك الإنسان لا ينبغي أن يطمئن إذا نال من الدنيا ما نال، الاطمئنان لا يكون إلا بمعرفة الله وطاعته، لأن الدنيا عرضٌ زائل، عاريةٌ مستردّة، يأتي الموت فيأخذ كل شيء في ثانيةٍ واحدة، كل مكتسبات الإنسان التي حَصّلها في حياته كلها يستردُّها الموت منه في ثانية واحدة، قد يخرج الإنسان من بيته صباحاً ولا يعود إلا في نَعْش، الموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل.

أيها الإخوة الكرام: الرحمة من الله إنعامٌ وإفضال، ومن الآدميين رقةٌ وتَعَطُّف، أما الرحمن لا تُطلق إلا على الله وحده، فلا يوجد إنسان رحمن، لكن قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوب)

رحمة النبي الكريم أكبر رحمة على الإطلاق:

الرحيم (يوصف الله بالرحمة) وقد يوصف نبيٌّ كريم بأنه رحيم، ومع ذلك قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران: آية " 159 ")

كل هذه الرحمة.. تُعَدُّ رحمة النبي عليه الصلاة والسلام أكبر رحمةٍ في الأرض على الإطلاق، هو أرحم الخلق بالخلق من الخلق، أرحم الخلق بالخلق (رحمة النبي) ومع ذلك:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

لكن ربنا سبحانه وتعالى يقول عن ذاته:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف: آية " 58 ")

لكن الرحمن، هذا الاسم مختصٌ بالواحد الديان.

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

تناسب حجم الرحمة مع حجم الإيمان:

ما في إنسان رحمن، أما في إنسان رحيم، ومرةً أردت أن أضرب المثل، أحياناً تصنع طائرةٌ نموذجٌ صغير يلعب به الأطفال، على شكل طائرة كبيرة، هذه اسمها طائرة، والطائرة الكبيرة التي ثمنها ألفا مليون ليرة أيضاً طائرة، ليس بينهما تشابهٌ إلا الاسم فقط، الله عزّ وجل قال:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

رحمته وسعت كل شيء

(رحمتي وسعت كل شيء)

ومع ذلك فرحمة النبي هي أعلى رحمةٍ على الإطلاق، وأكاد أقول أيها الإخوة: إن حجم الرحمة التي في قلبك تتناسب مع حجم إيمانك، كلما ازداد إيمانك وإقبالك على الله ازدادت الرحمة في قلبك، ويكاد القانون ينطق بنفسه..

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ)

الرحمة التي في قلب الإنسان ؛ شفقته على الناس، حبه للخير، رحمته بالضعفاء، رحمته بالمساكين، رحمته بالأيتام، رحمته بالمنحرفين، رحمته بالعاصين، هذا الشعور الذي يَتَوَضَّعُ في قلب المؤمن سببه الاتصال بالله.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ)

الرحمة شعور في القلب و إحسان إلى الخلق:

هذا الشعور الرحيم شعور داخلي يتجسّد بلين مادي، في لين، في عطاء، في ابتسامة، في تسامح، في عفو، في رقة، فالرحمة، مشاعر داخلية وسلوك خارجي، فالمشاعر الداخلية الرحمة، أما الخارجية اللين..

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ)

لو لم يكن في قلبك هذه الرحمة، من لوازم قسوة القلب الغلظة وفظاظة القلب..

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

هذا قانون أيها الإخوة ينطبق على كل مؤمن، أنت رحيم بقدر اتصالك بالله، كلّما اتصلت بالله اتصالاً أوثق سرت إلى قلبك الرحمة، هذه الرحمة شعورٌ في القلب وسلوك إحسانٍ إلى الخلق، لذلك حينما تشعر بمشاعر إنسانية راقية تجاه الخَلق، وحينما تتحرك لخدمتهم يلتَفُّ الناس حولك، لنت لهم.

(فبما رحمة من الله لنت لهم)

فالتفَّ الناس من حولك.

غلظة القلب من لوازم القلب القاسي:

(ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)

إذاً من لوازم القلب القاسي المُعاملة الفَظّة، ومن لوازم غلظة القلب والمعاملة القاسية انفضاض الناس من حولك، من لوازم الرحمة التي تستقر في القلب لين الجانب، من نتائج لين الجانب التفاف الناس من حولك، هذا قانون يسع كل الناس وكل المؤمنين.

الله عز وجل رحمن في الدنيا رحيم في الآخرة:

أيها الإخوة الكرام: قال بعض العلماء: الله سبحانه وتعالى رحمنٌ في الدنيا رحيمٌ بالآخرة، لأن رحمته بالدنيا تشمل المؤمنين والكفار.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة)

أيها الإخوة: نحن في الدنيا الأوراق مختلطة، الناس كلهم يأكلون ويشربون، وينامون، ويستيقظون، ويعملون، ويلهون، ويمرَحون، ويتنزّهون، لكن المؤمن المستقيم على أمر الله هو الذي سيتميَّزُ بعد عرض الأعمال على الله عزّ وجل، فالإنسان لا يغتر أنه في الدنيا هو كبقية الناس، الناس في الدنيا نحن في دار ابتلاء، نحن في دار عمل، نحن في دار تكليف، لكن الآخرة دار تشريف.

أيها الإخوة: الرحمة في قلب الإنسان علامة اتصاله بالله، وقسوة القلب علامة الانقطاع عن الله، لأن الله رحمنٌ رحيم، وكل من اتصل به نال من هذه الرحمة، إذا نال من هذه الرحمة عامل الناس بالإحسان انطلاقاً من مشاعر الرحمة والرقة في قلبه إذا عاملهم بالإحسان أصبح المجتمع كالبنيان المرصوص يشُدُّ بعضه بعضاً، فإذا انقطعنا عن الله أصبح قلبنا قاسياً، من لوازم القسوة الغلظة والفظاظة، ومع الغلظة والفظاظة التفرُّق والضعف والتشردُم.

من رحمة الله بالعبد الغافل إرشاده إليه:

أيها الإخوة الكرام: صُدِّرَت هذه السورة بكلمة الرحمن لأن هذه السورة من أولها إلى آخرها تعدد ألوان النعم في الدنيا والآخرة، ولعل كلمة رحمة الله عزّ وجل هي أوسع كلمةٍ تشير إلى عطائه المطلق، قال تعالى:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

الإنسان إذا رحمه الله فدَلّه عليه، هداه إليه، نوّر قلبه، أعانه على طاعته، قَدَرَ على يده الخير، جعل هداية الناس مقدرةً على يديه، أعطاه ليُعطي، أكرمه ليُكرم، هذه أعظم نعمةٍ على الإطلاق، لكن الناس لضعف إيمانهم ولقصور مداركهم يتوهّمون أن العطاء الدنيوي هو رحمة الله عزّ وجل، لذلك نقف عند مشكلةٍ هي أن الإنسان إذا سها ولها ونسي المبتدى والمنتهى وغفل عن الله تقتضي رحمة الله لفته إلى الله، فقد يلتفت إليه بمصيبةٍ أو بحرمانٍ أو بجوعٍ أو بخوفٍ أو بموت ولد أو بتدمير مالٍ، الإنسان حينما يسهو ويلهو وينسى المبتدى والمنتهى ويغفل عن الله عزّ وجل تقتضي رحمة الله عزّ وجل أن ترشده إليه، قال تعالى:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

مصيبة الغافل عين العطاء ليقبل على الله:

هناك أشخاصٌ كثيرون قَسَت قلوبهم وانقطعوا عن ربّهم وانغمسوا في شهواتهم، فجاءت رحمة الله لهم على شكل مصيبةٍ استيقظت عقولهم بها وأقبلت نفوسهم على الله فسعدوا بالله أيّما سعادة فكانت هذه المصيبة هي عين العطاء، فلذلك ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك، الله عزّ جل يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام)

السماوات والأرض كلمة قرآنية أو مصطلح قرآني يشير إلى الكون كله..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

أول نعمة من الله على الإنسان القرآن الكريم:

في آيةٍ أخرى:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

(سورة الكهف)

فكما أنه خلق السماوات والأرض أنزل على عبده الكتاب، فالكتاب هو أعظم رحمةٍ على الإطلاق، الإنسان لو كان تائهاً وشارداً وضالاً وبعيداً عن الحق، لو أكل وشرب، لو أكل أطيب الطعام، ولبس أفخر الثياب، وسكن في أجمل القصور، وركِب أحلى المَركبات يأتي الموت فيأخذه من كل ذلك، إذاً ليست هذه النعمة، النعمة أن تعرف الله عزّ وجل، لذلك أول نعمةٍ على الإطلاق..

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

بل إن بعض المفسِّرين يتساءل: كيف يُعَلِّمُ الإنسان القرآن قبل أن يُخْلَق قال:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

الحقيقة تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان تقديمٌ رُتَبي لا تقديماً زمنياً، في تقديم زمني وتقديم رتبي، أي أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهجٍ يسير عليه، سر سعادة المؤمن هذا الكتاب الذي عرَّفَكَ بربك، وعرَّفك بسر وجودك، وعرفك بغاية وجودك، وعرفك بالمنهج التفصيلي افعل ولا تفعل، وعرَّفك طريق السعادة وطريق الشقاء، طريق الفوز وطريق الهلاك، طريق النجاة وطريق السقوط.

معرفة الله عز وجل مقدمة على خلق الإنسان:

لذلك:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

هذا القرآن الكريم من لوازم رحمة الله عزّ وجل، إنه مقدَّمٌ على خلق الإنسان، مقدمٌ على الماديَّات في حياة الإنسان، أنت تأكل وتشرب وتنام وبجيبك مال وعندك زوجة وأولاد، أن تعرف الله عزّ وجل هذا مقدمٌ على خَلق الإنسان، نعمة الهداية أعظم من أية نعمةٍ على الإطلاق، لذلك حينما قال الله عزّ وجل:

(وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة المائدة)

قالوا: تمام النعمة الهُدى، فالإنسان لا يُسَمِّي نفسه في نعمٍ كثيرة إلا إذا كان مهتدياً إلى الله، لذلك ورد في سورةٍ من سوَر القرآن **(سورة الفجر)**، قال تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

الجواب:

(كَلَّا)

الحظوظ التي ينالها الإنسان ابتلاءات موقوفة على طريقة توظيفها:

الإنسان أحياناً يتوهَّم أن الله إذا أعطاه المال والصِحَّة فهذا إكرام، أو أن الله عزَّ وجل إذا حرمه المال قَدَرَ عليه رزقه، أو جعله مريضاً فقد أهانه، الله عزَّ وجل قال:

(كَلَّا)

وكلا أداة ردعٍ ونفي، أي: أيها العباد أنتم واهمون، ليس عطائي إكراماً وليس حرماني إهانة، إنَّ عطائي هو ابتلاء وحرماني دواء، لذلك أيها الإخوة الحظوظ التي تنالها من الله ليست نعماً وليست نقماً إنها موقوفةٌ على طريقة التعامل معها، الحظوظ مطلقةً ؛ حظ المال، وحظ الوسامة، وحظ القوة، وحظ الذكاء، كل الحظوظ التي نلتها من الله هذه ليست نعماً وليست نقماً إنما هي ابتلاءاتٌ موقوفةٌ على طريقة توظيفها، فإذا وظِّفَت في الخير كانت نعماً، وإن وظِّفت في الشر كانت نقماً، فالإنسان المؤمن لا يهتم بمقدار الحظ بقدر ما يهتم بطريقة توظيفه، هذا المال ماذا فعلت به ؟ يمكن أن يرقى الإنسان بالمال إلى أعلى عليين ويمكن أن يسقط إلى أسفل سافلين.

أرقى أنواع الجهاد تعلم القرآن الكريم:

أيها الإخوة الكرام:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

من تعلَّم القرآن فقد نال خيراً كثيراً لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

(أخرجه البخاري عن عثمان)

وهل تصدقون أن الله سبحانه وتعالى جعل تعلُّم القرآن وتعليمه من أرقى أنواع الجهاد بدليل الآية الكريمة:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

حينما تعكف على فهم كلام الله، وحينما تَعكف على قراءة كلام الله، وحينما تعكف على حِفظ كلام الله، وحينما تتبصَّر بمدلولات كلام الله، وحينما تنقل هذه المعاني إلى الآخرين فأنت تجاهد أعظم جهادٍ ذكره الله عزّ وجل، لقد وصف الجهاد بأنه كبير.

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

تعلُّم القرآن يعفي المؤمن من الوقوع في الخرف:

هناك بشارةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ومن جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

(الجامع الصغير عن أنس)

فالله سبحانه وتعالى جعل تعلُّم القرآن وتعليمه ضماناً من الخرف الذي وصفه الله عزّ وجل في آياتٍ كثيرة قال:

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

(سورة النحل)

هذا الحال الخرف أو مرحلة أرذل العمر هذه لعل الله سبحانه وتعالى يُعفي المؤمن منها ويحفظه من الوقوع فيها.

نعم الله على الإنسان:

يوجد سؤال قد يتبادر في الذهن: لما لم يقل الله عزّ وجل:

(الرحمن علّم القرآن وخلق الإنسان وعلمه البيان)

لو أضفنا (الواوات) حروف العطف بين هذه الآيات لتوهّمنا أن كل هذه النعم نعمةٌ واحدة، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبيّن لنا أن كل واحدةٍ نعمةٌ قائمةٌ بذاتها، علّم القرآن أكبر نعمةٍ على الإطلاق أن يكون القرآن ربيع قلبك وجلاء هَمِّك، أن تَشْتَقّ عقيدتك من كتاب الله، أن تكون تصوراتك وفق كتاب الله، أن تكون موازينك وفق كتاب الله، أن يكون منهجك مستنبطٌ من كتاب الله، هذه أعظم نعمةٍ على الإطلاق، لذلك القرآن وحده أكبر نعمة، ثم وجودك نعمة، لماذا أمر الله سبحانه وتعالى الأبناء ببرّ الوالدين ؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الأب والأم سبب وجودك، فنعمة الإيجاد نعمةٌ كبيرة فالذي كان سبب هذا الوجود يجب أن يتلقّى منك رحمةً كثيرة..

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً)

نعمة البيان أجل نعمة على الإطلاق:

نعمة الخلق خَلَقَ الإنسان (أوجدك)، ونعمة الهداية هداك إليه، الإيجاد والهدى والرشاد وهناك نعمة ثالثة قلّما ينتبه إليها الناس نعمة البيان، البيان خصيصةٌ خَصَّ الله بها الإنسان، أنت بإمكانك أن تعبّر عن أفكارك، وعن مشاعرك، وعن حاجاتك، وعن طلباتك بكلماتٍ مقطعيةٍ تصنعها حبالك الصوتية اصطلح الناس على مفهوماتها، فاللغة أعظم خصيصةٍ من خصائص الإنسان.

تصور طفلاً يتألم من شيء، يبكي ساعاتٍ طويلة، دون أن يستطيع أن يعبّر عن سبب بكائه، تتوهَّم أمه أنه جائع تطعمه فيبكي، تتوهم أمه أنه يحتاج إلى تنظيف تنظفه ويبكي، ثم تكتشف أن دبوساً في طرف ثيابه قد انغرس في جنبه، أما الإنسان الراشد يقول لك: أشعر بشيء. فهذا التعبير عن الحاجة، التعبير عن أفكارك، عن مشاعرك، هذه نعمة البيان، من خلال البيان يمكن أن تتعرَّف إلى منهج الله، من خلال البيان يمكن أن تعرف قدر النبي عليه الصلاة والسلام، من خلال البيان يمكن أن تقف أمام بطولاتٍ فذّة في التاريخ الإسلامي، من خلال البيان يمكن أن تقف على علوم السابقين.

خصائص البيان:

البيان الذي عناه الله عزّ وجل له أربع خصائص ؛ بيانٌ مكتوب، وبيانٌ مقروء، وبيانٌ مسموع، وبيانٌ مقول، تقول ويسمع الآخرون، تكتب ويقرأ الآخرون، لو دققنا أيها الإخوة في كيفية أن الأجيال تتعلم من بعضها بعضاً، أن كل جيلٍ يُقَدِّمُ علومه كلها للجيل القادم، وأن كل أمةٍ تُعطي ثقافتها لبقية الأمَم، لولا البيان لما أمكن نقل هذه المعارف، البشرية الآن تنعم بعلوم متراكمة من آلاف السنين بفضل البيان، تصوَّر إنساناً بلا بيان لا يتكلّم أو لا يسمع أو لا يكتب أو لا يقرأ انقطع عن العلم صار كالبهيمة تماماً.

من نعم الله على الإنسان:

1 ـ نعمة الهداية:

الله عزّ وجل في مطلع هذه السورة أشار إلى ثلاث نعمٍ جليلة النعمة الأولى أنّه هداك إليه، هذه قُدِّمَت رتبةً على بقية النِعَم.

2 ـ نعمة الوجود:

والنعمة الثانية أنه أوجدك (أعطاك نعمة الوجود).

3 ـ نعمة البيان:

النعمة الثالثة أنه علّمك البيان، أنت بإمكانك أن تسأل وأن تأخذ الجواب، بإمكانك أن تتكلم وأن تنشر العلم، فهذه النعمة أجل نعمةٍ على الإطلاق، لكن الناس والمشكلة الكبيرة أن هذا البيان الذي جعله الله أساس سعادة الإنسان فبه يعرف الله، وبه يعرف منهجه، وبه يهتدي، وبه يهدي، هذا البيان قد يكون سُلّماً يهوي به إلى أسفل سافلين، فالإنسان بالغيبة، وبالنميمة، وبالسُخرية وبالكذب، يهوي بهذه الكلمات التي هي من البيان إلى أسفل سافلين، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوِي بِهَا فِي نَار جَهَنّمَ وَإِنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالا يَرْفَعُهُ اللّهُ بِهَا فِي الْجَنّةِ))

(من موطأ مالك عن أبي هريرة)

حرص الإنسان على لسانه لأن اللسان سبب الهلاك:

أكثر المسلمين اليوم يرون الكبائر في القتل و الزنا و شرب الخمر مع أن الغيبة من الكبائر، مع أن النميمة من الكبائر، فدققوا في موضوع أن كل شيء خلقه الله حيادي قابل للخير والشر، لأن الإنسان في الأساس مخيَّر، طبيعة الحياة الدنيا أساسها الاختيار، فالبيان أعظم نعمةٍ على الإطلاق بها تهتدي إلى الله، بها تتعرّف إليه، بها تعرف منهجه، بها تعرّف الناس بالله، بها تُلقي الحق، بها تنتقل الثقافات من أمةٍ إلى أمة، من جيلٍ إلى جيل، البيان المسموع والمقروء والمُلقى والمكتوب، هذا البيان هو نفسه يُمكن أن يكون سبب الهلاك، سبب الشقاء، سبب الترَدّي، فلذلك المؤمن يَحْرَصُ على سلامة لسانه حرصه على إيمانه، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

(مسند أحمد عن أنس بن مالك)

وحينما قالت السيدة عائشة عن أختها صفيَّة: إنها قصيرة، قال عليه الصلاة والسلام:

((يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

(أبو داود)

البيان سبب سعادة الإنسان أو شقائه:

أنا أُذكِّرُكُم بالجانب الآخر كيف أن البيان يرقى بك، به تسعد، وبه ترقى، وبه تعرف الله، وبه تهدي الناس، وبه تهتدي، هذا البيان الذي منحنا الله إياه يُمكن أن يكون في الوقت نفسه سبب شقائنا، وسبب تردِّينا، وسبب تمزُّقنا، فالغيبة، والنميمة، والبُهتان، والإفك، والكذب، والفجور، والسُخرية، هذه كلها من آفات اللسان، فطوبى لمن صان لسانه عن كلّ انحراف وجعل من البيان نعمةً كبرى، نحن في هذه الآيات الثلاث أمام أعظم نِعَم على الإطلاق، نعمة الهُدى، ونعمة الوجود، ونعمة العلم (النقل) تتعلّم وتُعَلِّم، تُلقي أفكارك وتأخذ أفكار الآخرين، تُلقي مشاعرك وتَطّلع على مشاعر الآخرين..

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

أيها الإخوة الكرام: الأساس الصامت في سلام، والمتكلِّم إما له وإما عليه، فالأصل أن تقول حقاً، أما السكوت عن قول الباطل هو الأولى، لكن الأصل أن ينطق اللسان بالحق، وأن تكون دالاً على الله مشيراً إليه، لكن حينما يكون الكلام غيبةً أو نميمةً فالأصل أن تسكت.

آياتِ الله الدالة على عظمته و وجوده:

1- الشمس و القمر:

أيها الإخوة الكرام: ثم يشير الله جلّ جلاله إلى آياتٍ دالةٍ على وجوده أيضاً قال:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

(سورة الرحمن)

أي أن الشمس والقمر آيتان دالّتان على عظمة الله، قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت: آية " 37 ")

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الشورى: آية " 29 ")

فالشمس من آيات الله الدالة على عظمته، تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، طول بعض ألسنة اللّهب فيها مليون كيلو متر، حرارتها على السطح ستة آلاف درجة، في مركزها عشرين مليون درجة، لو أن الأرض أُلقيت فيها لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة، تتسع الشمس لمليون وثلاثمئة ألف أرض في جوفها، وبين الأرض والشمس مئة وستةٌ وخمسون مليون كيلو متر يقطعها الضوء في ثماني دقائق.

2 - دوران الأرض حول نفسها:

لولا أن الأرض تدور حول نفسها لأهلكتنا هذه الشمس لكن الله هو اللطيف، فبدورتها حول نفسها تغدو الحرارة معقولةً، لو أن الأرض توقفت لكانت حرارة وجهها المقابل للشمس ثلاثمئة وخمسين درجة فوق الصفر، ولكانت حرارة الوجه الآخر مئتين وسبعين درجة تحت الصفر، لكن الأرض تدور فلو أنها تدور على محور يوازي مستوى دورانها لتوقفت، وأصبح الليل دائماً والنهار دائماً، لكنها تدور على محور مائل، وميل هذا المحور سبب الفصول الأربعة، هذا كله من آيات الله الدالة على عظمته، وقد ذكرت لكم كثيراً أن في بُرج العقرب نجماً أحمر اللون صغيراً متألقاً اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما.

3 - دوران الأرض حول الشمس:

ثم إن الشمس والأرض، الأرض تدور حول الشمس بمسارٍ إهليلجي، والمسار الإهليلجي أو الشكل البيضوي، له قطران قطر أصغر وقطر أكبر، الأرض إذا وصلت إلى القطر الأصغر اقتربت من الشمس، لئلا تجذبها الشمس فتنتهي الحياة من على سطحها تزيد الأرض من سرعتها زيادةً ينشأ عنها قوةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة، وحينما تصل الأرض إلى المسافة البعيدة إلى القطر الأعظم بينها وبين الشمس، تقِلُّ سرعتها فلو بقيت على سرعتها الكثيرة لتفلّتت من مسارها حول الشمس، فهنا تُسرع وهنا تُبطئ، وقال العلماء (علماء الرياضيات والفلك): إن تسارعها بطيء وتباطؤها بطيء، أي أن في زمنٍ طويل ترتفع سرعتها من درجة دُنيا إلى درجة عُليا، وفي زمنٍ طويل تنخفض سرعتها من درجة عليا إلى درجة دنيا، ولو أن هذه السرعة ارتفعت فجأةً أو انخفضت فجأةً لتحطم كل شيء على الأرض، كما لو وضعت عُلباً في سيّارة وأقلعت بسرعةٍ فيها، كل ما على السيارة من عُلب يقع، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

أي أن المسافات محسوبةٌ بدقة، الحجوم محسوبةٌ بدقة، سرعة الدوران للأرض حول نفسها محسوبةٌ بدقة، سرعة الدوران حول الشمس محسوبةٌ بدقة، جذب الشمس للأرض محسوبةٌ بدقة.

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

الكون أوسع وأقصر طريق لمعرفة الخالق:

أيها الإخوة الكرام: يكاد الكون يكون أوسع بابٍ لمعرفة الله وأقصر طريقٍ إليه، فكلّما تأمّلت في خلق السماوات والأرض ازددت معرفةً بالله ووقفت وجهاً لوجهٍ أمام عظمة الله، الآية الكريمة:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ)

(سورة آل عمران)

الآيات الكونية دليل لاهتداء الإنسان إلى الله:

أيها الإخوة الكرام: نحن أمام أربع نعمٍ جليلة ؛ نعمة الوجود، ونعمة المَنهج، ونعمة الاهتداء إلى المنهج.

(الرّحْمَنُ (1) عَلّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلّمَهُ الْبَيَانَ)

ثم إذا أردت أن تعرف الله فالكون كلّه يدلُّ عليه، والكون كله يجسِّد أسماء الله الحسنى وصفاته الفُضلى، والله سبحانه وتعالى مع أنه لا تدركه الأبصار لكن العقول تصل إليه وتتعرّف إليه، وحينما يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم آياتٍ كونيةً فالمراد منها أن نتفكّر بها وأن نتعَرّف إليها وأن تكون دليلاً إلى الله عزّ وجل نهتدي بها.

المخلوقات جميعها تفتقر في وجودها إلى الله:

في درسٍ آخر إن شاء الله تعالى يقول الله عزّ وجل:

(وَالنّجْمُ وَالشّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

النَجْم والشجر، النبات الصغير والنبات الكبير مفتقرٌ في وجوده وفي استمرار وجوده إلى الله، أدق المخلوقات وأعظم المخلوقات افتقاره إلى الله عزّ وجل واحد.

التوافق الكبير بين مبادئ الكون و مبادئ العقل:

(وَالسّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

قال بعض علماء التفسير: **الميزان هو العقل وهو أداة معرفة الله**، وهناك توافقٌ دقيق بين مبادئ الكون وبين مبادئ العقل، ففي الكون كل شيء له سبب والعقل لا يفهم شيئاً بلا سبب، وفي الكون كل شيءٍ له غاية ومن مبادئ العقل أنه لا يفهم شيئاً بلا غاية، والكون لا يقبل التناقض كما أن العقل لا يقبل التناقض، فهناك تناسبٌ وتوافقٌ بين خلق السماوات والأرض، وبين هذا العقل الذي أودعه الله فينا وجعله أداةً لمعرفة الله، لكنه ميزان إلا أن الشريعة ميزانٌ على الميزان، الحَسَنُ ما حَسَّنَهُ الشرع والقبيح ما قَبَّحَهُ الشرع، العقل قد يضل وقد يَزِل وقد ينحرف، الضابط له هو الشريعة، والفطرة قد تنطمس، الضابط لها هي الشريعة.

العاقل من يستعمل عقله كما أراد الله عز وجل:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

والخطأ الكبير أن يكون الخطأ في الميزان لا أن يكون الخطأ في الوَزن، وفرقٌ كبير بين الخطأ في الوزن وبين الخطأ في الميزان، الخطأ في الميزان يتكرَّر إلى أبد الآبدين، أما الخطأ في الوزن لا يتكرر، فالإنسان حينما يُعطيه الله عقلاً عليه أن يستعمله، والإنسان لا يندم ولا يفاجأ إلا لضعفٍ في عقله أو لعدم استعماله كما أراد الله عزّ وجل، هذه قاعدة، أنت لا تفاجأ ولا تندم في حالة استعمال العقل كما أراد الله عزّ وجل، لكن في حالة عدم استعمال العقل أو حالة ضعف العقل قد تفاجأ وقد تندم، والذكي والعاقل هو الذي لا يفاجأ ولا يندم، قال عليه الصلاة والسلام:

((الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني))

(أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم، عن شداد بن أوس)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (2-7): تفسير الآيات1-8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-12-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة الرحمن.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

سورة الرحمن حديث عن نعم الله العظمى:

ذكرت في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى أسماؤه حُسنى وصفاتُه فُضلى، والرحمن اسمٌ جامعٌ لمعظم أسماء الله تعالى، فهذا الكون خُلِقَ من أجل الرحمة، وخلق الله الإنسان ليرحمه، وخلقه لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، وإذا بدا للإنسان شيءٌ في توهُمه خلاف الرحمة فهو في الحقيقة رحمةٌ باطلة، لأن الله سبحانه وتعالى كلُّ أفعاله تنطلق من حرصه على سلامة الإنسان وعلى سعادته..

(الرَّحْمَنُ)

لأن هذه السورة في كل آياتها وتفاصيلها حديثٌ عن نعم الله العُظمى، فالرحمن مصدر كل خير ومصدر كل رحمة، وما من رحمةٍ في الأرض إلا مشتقةٌ من الله عزّ وجل، ولعل من أعظم هذه الرَحَمات هذا الكتاب الكريم الذي بين أيدينا.

نعمة الهداية من أعظم النعم التي وهبها الله للإنسان:

هذا الكتاب الكريم سبب سعادة الدنيا والآخرة، أما النعم المادية من طعامٍ وشراب هذه نعمٌ تنتهي عند الموت، أما هذا الكتاب إذا قرأناه وفهمنا مضمونه واتبعنا أحكامه فهو سبب سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فالنعمة التي تنقضي عند الموت نعمة، لكنها إذا قيست بنعمةٍ تبدأ بعد الموت وإلى أبد الآبدين فهذه النعمة العُظمى، لذلك تُعَدُّ نعمة الهداية أعظم النعم على الإطلاق، فأن نأكل، وأن نشرب، أن نتنفّس، وأن ننام، وأن نتزوّج، وأن ننجب الأولاد، وأن نستمتع بمباهج الدنيا هذه كلها نعمٌ ولا شك، ولكن هذه النعم تنتهي عند الموت تنقطع انقطاعاً حاداً، بينما إذا عرف الإنسان ربَّه من خلال هذا القرآن الكريم الذي هو وحي السماء إلى الأرض، الذي في هذا القرآن الكريم نواميس ربنا عزّ وجل (قوانينه)

فحينما تقرأ كتاب الله عزّ وجل ينوّر قلبك ويبصر عقلك، فلذلك ربنا عزّ وجل بدأ هذه السورة باسمه الرحمن.

أولى عطاءات الله للإنسان:

1 - القرآن الكريم:

من أولى عطاءاته التي هي سبب أساس رحمته هذا القرآن الكريم.

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

معنى علّمه أي أنزله بلسانٍ عربيّ مبين، معنى علّمه أي يَسَّرَ ذكره، معنى عَلّمه أي ألقى في روع رجالٍ كثيرين عَبْرَ العصور أن يقفوا على دراسته، وتلاوته، وتفسيره، وحفظه، والعناية به، فعلّمه أي يَسَّره للتعليم، علّمه أي بينه وجعله قطعي الثبوت، فالإنسان إذا قرأ القرآن يطمئن، هذا الذي أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم هو نفسه الذي بين أيدينا لأن الله جلّ جلاله تولّى في عليائه حفظ هذا القرآن، فأنت مطمئن لكنك مع أي كتابٍ آخر لست مطمئناً، لست متأكداً ما إذا كان هذا النَصُّ هو الأصلي أم أصابه تحريفٌ وتبديل، إن هذا القرآن الكريم قطعي الثبوت وقد نُقِلَ إلينا بالتواتر عن الجمع الغفير إلى الجمع الغفير إلى أيامنا هذه.

عَلَّمَ الْقُرْآنَ آية لها معاني عدة:

1 - إنزاله بلسان عربي مبين:

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

2 - حفظه من أي تحريف:

حفِظه.

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

3 ـ تيسير ذكره: يسره.

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

4 ـ جعل تعلمه و تعليمه من أعلى المراتب:

أثاب عليه.

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

أي جعل تعلُّمَه وتعليمه من أعلى المراتب البشرية لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

(من صحيح البخاري: عن " عثمان ")

علّم القرآن، لذلك هذا الكتاب هو الكتاب المقرر فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا، فيه الحلال، فيه الحرام، فيه الخير، فيه نهيٌ عن طريق الشر، فيه نبأ الأقوام السابقين، فيه مستقبل البشرية، فيه الماضي السحيق، فيه المستقبل البعيد، فيه وصفٌ للجنة والنار.

القرآن سر نجاح الإنسان في حياته :

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

القرآن كتابنا المُقَرر وهو غنىً لا فقر بعده ولا غنىً دونه، القرآن ربيع القلوب، القرآن منهج الحياة، القرآن سِرُّ نجاح الإنسان في حياته لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: آية " 9 ")

في أي مجالٍ طبّقته يهديك للتي هي أقوم، طبّقه على زواجك ينجح زواجك، طبّق أحكامه على تجارتك تنجح تجارتك، طبّق أحكامه على علاقاتك تنجح علاقاتك.

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

القرآن الكريم قانون الله في الأرض:

إن هذا القرآن إن قرأته وتدبّرته وعملت به لا يضل عقلك ولا تشقى نفسك، عقلك يستنير ونفسك تسعد.

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

هو أجلُ نعمةٌ على الإطلاق، الله سبحانه وتعالى من أسمائه العُظمى اسم الله الأعظم هو الرحمن ومن أجَلّ نعمه التي هي إحدى ثمرات رحمته هذا القرآن، أي أن الله عزّ وجل خلق ونوّر، خلق وأرشد، خلق وبيّن، وحي السماء إلى الأرض، ناموس الله عزّ وجل، قوانينه في هذا الكتاب:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

القرآن الكريم سر سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

أي علّمه، يسّره، بيّنه، وضّحه، أثاب عليه، رد الفعل أقبل عليه، أقبل عليه تلاوةً، أقبل عليه حفظاً، أقبل عليه فهماً، أقبل عليه تطبيقاً، حينما قال الله عزّ وجل، وصف المؤمنين بأنّهم:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

(سورة البقرة: آية " 121 ")

أي يتلونه وَفْقَ أحكامه الصحيحة، ويفهمون معانيه، ويعملون بأحكامه، وحينما تُطَبّقُ هذا القرآن تسعد به وهو سر نجاح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة.

2 ـ نعمة الوجود:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

(سورة الرحمن: آية " 3 ")

أي نحن بعقولنا ربما نوازن بين شيءٍ وشيء، بين بيتٍ وبيت، بين عملٍ وعمل، تجارةٍ وتجارة، صديقٍ وصديق، لكن عقولنا ليست مؤهلةً للموازنة بين الوجود والعدم، فالله سبحانه وتعالى امتنّ علينا بنعمة الوجود، نحن جميعاً موجودون، والدليل: أنه في وقتٍ مضى لم نكن شيئاً مذكوراً إطلاقاً.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

فهذه النعمة (نعمة الوجود) خلقَ الإنسان، امتن عليك بنعمة الوجود، خلق الإنسان وسخّر له الكون، منحه نعمة العقل، أعطاه فطرةً سليمة، أنزل على أنبيائه الشرائع، أنزل على نبيّه الكريم هذا القرآن الكريم، أعطاه حرية الاختيار، أودع فيه الشهوات، الإنسان موجود.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

وجود الإنسان لا معنى له بدون منهج يسير عليه:

أنت تتمتع بنعمة الوجود، أنت موجود، وهذه النعمة (نعمة الوجود) فرصةٌ كي تُثَمِّر هذا الوجود، أنت موجود، الله عزّ وجل شاء لك أن توجَد، شاء لك أن تكون على وجه الأرض، ماذا ينبغي أن تعمل ؟ أن تحقق وجودك وفق الهدف الذي خُلِقت من أجله، أنت موجود، هناك إنسان وجوده تافه ؛ يعيش ليأكل، يعيش لينغمس في الملذّات المحرّمة، يعيش على هامش الحياة، يعيش لا يعبأ به أحد ولا يلفت نظر أحد، إيّاك أيها الإنسان الكريم أن يكون وجودك تافهاً، أنت موجود، امتن الله عليك بنعمة الوجود، أعطاك هذا الوجود، حقق هذا الوجود، فكر لماذا أنت موجود ؟ ولماذا امتنّ الله عليك بنعمة الوجود ؟ ولماذا منحك نعمة العقل ونعمة السمع والبصر والفؤاد ؟ لماذا منحك هذا الكون ؟

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

ولا تنسوا أنني ذكرت في الدرس الماضي أن تعليم القرآن قُدِّم في هذه الآية على خلق الإنسان لبيان أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهجٍ يسير عليه، إن هذا المنهج مقدمٌ على وجودك، أما إذا كنت موجوداً وفهمت هذا المنهج فقد كمّلت وجودك، فأنت بالقرآن تكمِّل وجودك، بلا قرآن وجودك وجود بهيمي حيواني، دقق في حيوان ؛ يتحرك، يأكل، يشرب، ينام، يتناكح، يتناسل، يعمل، حياة الإنسان ؛ طعام وشراب، نوم وعمل، تكاثر، فهذه حياة بهيمية، ما الذي يعطيك وجودك الإنساني ؟ القرآن.

لا يتحقق كمال وجود الإنسان إلا بالتعرف إلى الله:

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

أنت إنسان، أنت أرقى من كل حيوان، أنت سَيّد المخلوقات، أنت المخلوق الأول..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

أنت المخلوق الأول، سيدنا رسول الله وجِدَ وتوفّاه الله عزّ وجل ولكن آثره (دقق في آثره) مِليار ومئتي مسلم، اذهب إلى المدينة المنوّرة وقِفْ أمام قبره الشريف، انظر هذه الملايين كيف تقف أمامه تبكي، هذا وجود، النبي وجِد لكن كمّل وجوده حينما تعرّف إلى ربه ونشر الحق.

أنواع الوجود:

إخوانا الكرام: هناك وجود، كل واحد منّا موجود، لكن هناك وجود هامشي، هناك وجود تافه، يوجد وجود شرير، يوجد وجود مخيف، فأحياناً يكون الأب بخيل جداً، أحياناً يكون شريك شحيح فيتمنى شريكه موته، فيوجد وجود شرير، ويوجد وجود تافه، يوجد وجود هامشي، لكن هناك وجود صارخ، فإيّاك أن تكون موجوداً وجوداً هامشياً، وجوداً تافهاً، وجوداً سَلْبياً، وجوداً منسحباً، لا.

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

نعم الله على الإنسان:

العقل ـ الفطرة ـ الاختيار ـ الشهوة ـ القوة:

أنت مخلوق وأنعم الله عليك بنعمٍ عظمى أولها نعمة العقل نعمة الفطرة، نعمة الاختيار، نعمة الشهوة بها ترقى إلى الله، نعمة القوة منحك قوة تحقق بها اختيارك. فهناك وجود بهيمي وهناك وجود إنساني، أنت بالقرآن موجودٌ إنساناً ومن دون قرآن كريم موجودٌ بهيمةً، لذلك:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

الآن من أجل تفاعلك مع هذا القرآن، من أجل أن تقرأه، من أجل أن تفهمه، من أجل أن تُقرأهُ، من أجل أن تكتب تفسيره، من أجل أن تقرأ تفسيره، من أجل أن تسعد به، علّمك البيان.

3 ـ نعمة البيان:

الأصل أن الله منحك نعمة الوجود، ثانياً: تفضّل عليك بأجلّ نعمةٍ وهي القرآن، أعطاك وسيلة فهمه، وسيلة تعليمه، وسيلة نشره، وسيلة الاستفادة منه وهي:

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

فالإنسان أحياناً النعم التي يألفُها قد لا ينتبه إليها، هذه نعمة البيان من أعظم النِعَم على الإنسان لكن لأنه يتكلم، ويفهم، ويسأل، ويجيب، ويعبّر عن حاجته وعن مشاعره، وقد يحضر مجلس علم، يحضر خطبة ويفهم الخطيب ماذا تكلّم، قد يقرأ كتاباً في الفقه، في التفسير، في الحديث، هذه النعمة العظمى (نعمة البيان) نعمةٌ لا تُقَدَّر بثمن، لذلك هذه السورة المباركة بدأت باسم الله الأعظم:

(الرَّحْمَنُ)

ثمّ بأجلّ نعمةٍ على الإطلاق:

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

ثمّ بنعمة الوجود، ثمّ بنعمة الواسِطة التي بها تتعرف إلى القرآن وتنشر القرآن (نعمة البيان).

على الإنسان أن يستخدم نعمة البيان لما خلقت له:

الإنسان كما قلت قبل قليل: لا ينبغي أن يكون وجوده تافهاً، وجوده ثانوياً، وجوده هامشياً، كذلك لا ينبغي أن يكون هذا البيان الذي أعطاه إياه بياناً مسخَّراً لتوافه الأمور:

((إن الله يحب معالي الأمور، ويكوه سفسافها و دنيها))

(الجامع الصغير)

إن الله يحبّك أن تستخدم البيان لمعرفة الواحد الديّان، يحبك أن تستخدم البيان لفهم قرآنه الكريم، يحب أن تستخدم البيان لنشر تعاليمه نبيّه صلى الله عليه وسلم، يحب أن تُلقي السمع إلى مجالس العلم، يحب أن تنطق بالحق، أن تذكر الله عزّ وجل، فهذه نعمة البيان أجلُّ نعمةٍ على الإطلاق أيضاً لا ينبغي أن تسخر لغير ما خُلِقت له، لذلك كما أن الوجود قد يكون تافهاً كذلك البيان قد يكون تافهاً.

((إنّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

(مسند أحمد عن أبي هريرة)

الكلمة الطيبة يعم خيرها البلاد والعباد:

كما أن اللسان به ترقى الأمم، الأنبياء بماذا جاءوا ؟ جاءوا بالكلمة فقط، الأنبياء العظام هل جاءوا بأسلحةٍ فتّاكة ؟ هل جاءوا بأجهزة متطورة جداً ؟ لا. جاءوا بكلمة، لذلك قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

(سورة إبراهيم)

فالكلمة إما أن تكون طيبة تنتشر في الآفاق ويعمُّ خيرها البلاد والعباد، وأما أن تكون كلمةً خبيثةً ضالةً مضلّةً تنتشر فتفسد، وتنتشر فتُشكك في القيم الثابتة، الكلمة الطيبة تنتشر والكلمة الخبيثة تنتشر. فلذلك: طوبى لمن سخّر هذا البيان لمعرفة الله وتعريف عباده به، والويل لمن سخّر هذا البيان لإفساد أخلاق الناس، أليس هناك كُتّاب قصةٍ يكتبون القصص ليثيروا الشهوات ؟ ليحركوا الجزء الأسفل من الإنسان ؟ أليس هناك كُتّابٌ كبار أيقظوا المشاعر النبيلة والأفكار السامية ؟

4 ـ الكون:

الآن: من النعم العُظمى القرآن من أجل هذه النعم، ووجود الإنسان هو النعمة الأولى بالنسبة للإنسان، والبيان به تتعرف إلى القرآن، قال: إن هناك نعمةٌ (نعمة الكون) هذا الكون المسخَّر للإنسان.

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ:آية لها معاني عدة:

1 ـ حساب الوقت:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

(سورة الرحمن)

تصوَّر ليس هناك شمسٌ ولا قمر، ولا أرضٌ تدور حول نفسها في اليوم دورة، ولا حول الشمس في السنة دورة، وليس هناك أبراجٌ نتعرَّفها أثناء انتقال الأرض من مكانٍ إلى مكان، وليس هناك قمرٌ نُحْصي به الأيام والشهور، فكيف نحسب أعمارنا ؟ كيف نحسب الوقت ؟ قال بعض علماء التفسير:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

كيف نعرف أن الوقت ضُحى ؟ الوقت الظهر، العصر، المغرب غابت الشمس، العشاء، عن طريق حركة الأرض حول الشمس.

2 ـ معرفة الفصول:

نحن الآن في فصل الشتاء أو قادمون على فصل الشتاء، نحن في الخريف، في الربيع، في الصيف، فكيف نعرف الفصول ؟ لولا حركة الأرض حول الشمس، ولولا ميل المحور، ولولا القمر الذي يدور حول الأرض، يبدأ هلالاً إلى أن يصبح بدراً، قال:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

هذا المعنى الثاني.

3 ـ حساب كل شيء من خلال القمر و الشمس:

المعنى الثالث: أنّك من خلال الشمس والقمر تحسب كل شيء، يقول لك: القرن العشرين، القرن التاسع عشر، القرن الثامن عشر، يقول لك ألف وتسعمئة وخمسة وتسعين، ستة وتسعين، أربعة وتسعين، هذه السنوات، الشهور، الأسابيع، الأيام، الساعات كيف نحسبها لولا نظام الشمس والقمر ؟

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

الشمس والقمروالآرض صنع خبير عليم:

4 ـ حركة

وفي معنى آخر ذكرته الدرس الماضي: أن هذه الشمس بحجمها وبلهيبها، وبحرارتها، وبضوئها، وببعدها عن الأرض، وأن هذه الأرض بحجمها، وبشكلها، وبنسبة السطوح المائية فيها، وبنسبة اليابسة فيها، وبدورتها، وسرعتها، وكل خصائصها بحسبانٍ دقيق من صنع عليمٍ قدير، حكيمٍ خبير.

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

الشمس والقمر آيتان من آيات الله الدالّة على عظمته، لكن الشعوب البدائية، الشعوب الجاهلة الشاردة عَبَدَت الشمس من دون الله.

(لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

(سورة فصّلت)

الآيات الدالة على وجود الله و عظمته:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

1 ـ الشمس و القمر:

يمكن أن تكون الشمس والقمر آيتان خالدتان تُشيران إلى وجود الله وإلى عظمته وإلى وحدانيته وإلى كماله، لذلك دقق: هذه الشمس إن أشرقت تستطيع أن تملِك النظر فيها، من صمّمها هذا التصميم ؟ إنك لا تستطيع أن تحدِّق في قرص الشمس في رابعة النهار، ومن حدّق في قرص الشمس في رابعة النهار ربما ضعف بصره وربما أصابه الانبهار، الشمس حينما تكون في قبة السماء فهي بعيدةٌ عن مستوى

النظر، لكنك إذا رأيتها تشرق أو تغيب تراها قرصاً برتقاليّ اللون، من صمّم هذا التصميم ؟ لو أنها تبقى متألقةً متوهجةً في أثناء الغروب أو عند الشروق إنها تُبهر الأبصار.

من جعل هذه الأشعة عند الغروب وعند الشروق مائلة ؟ ومعنى أنها مائلة أي أنها تقطع مسافاتٍ طويلة من طبقات الهواء، لذلك هذه الطبقات تخفف من شدة أشعتها فتبدو قرصاً أحمر اللون (برتقالي اللون) أما حينما تكون عمودية في كبد السماء تقلُّ الطبقة الهوائية التي بيننا وبينها عندئذٍ يبدو قرصها متوهجاً، من صمّم هذا التصميم ؟ قالوا: واحد من عشرين مليون جزء من أشعة الشمس يصلنا إلى الأرض، لو أنها أكثر ؟

2 - الأرض:

الآن وبسبب كثرة المركبات في الأرض، والمعامل، والآلات، بسبب حَرْق النفط في المعامل والسيارات وما إلى ذلك، غاز ثاني أكسيد الكربون ترتفع نسبته في الأرض ومع ارتفاع هذا الغاز تزداد الحرارة، الأرض الآن حرارتها أعلى من معدّلها بدرجتين، فلو ارتفعت الحرارة أكثر من ذلك، هناك خطر أن تذوب الكُتَل الثلجية في القطبين وإن ذابت ارتفعت البحار سبعين متراً، أي أن أكثر المدن الساحلية تُغمر بمياه البحر، دقة بالغة، هذه الشمس تأتينا الحرارة المناسبة، لو اقتربت الشمس أكثر من ذلك لارتفعت حرارة الأرض خمس درجات لم تبقَ مدينةٌ ساحليةٌ على الإطلاق في العالم كله، بحسبان، الأشعة بحسبان.

3 - طبقة الأوزون:

من خلق هذه الطبقة (طبقة الأوزون) الآن هي مخلخلة، والآن أمراض سرطان الجلد في العالم الغربي سبعين بالمئة زيادة عن ذي قبل، السبب أن هذه الطبقة (طبقة الأوزون) تمنع الجزء المؤذي من أشعة الشمس، من جعل هذا السقف المحفوظ ؟ الله جلّ جلاله، والآن البشرية في حيرة كيف تُرَمِّم هذه الطبقة؟ ليس هناك حلٌ حتى الآن، وهذا الخرق يتسع، وهذا التخلخل يتسع في طبقة الأوزون، من جعل السماء سقفاً محفوظاً ؟ الله جلّ جلاله، حينما غيّرنا خلق الله، حينما لوّثنا البيئة، حينما استخدمنا المواد استخداماً عشوائياً غير مقنَن، غير مدروس، الحقيقة إن الإسراف من أخطر تصرُّفات الإنسان في العصر الحديث، مجتمع الاستهلاك، مجتمع التنافس، هذا سبب استهلاك عنيف للمواد الأولية في الأرض، الاستهلاك العنيف رافقه حَرْق طاقة كبيرة جداً، هذا الحرق في الطاقة الكبيرة سبب خلخلة في

طبقة الأوزون وسبب ارتفاع الحرارة، الآن تغير الطقس، انعدام الأمطار، ارتباك الطقس سببه ازدياد غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو، فربنا عزّ وجل يقول:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ)

سجود الكائنات الحية لله تعالى:

النبات بلا ساق (النجم) في أوجه التفاسير:

(وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

النباتات كلُّها تسجد لله بمعنى أنها تستمد وجودها منه، من قرر أن النبات يستهلك قليل من الأوكسجين في النهار ويأخذ ثاني أكسيد الكربون ؟ نحن في النهار نستنشق الأوكسجين وفي الليل كذلك ونعطي غاز الفحم، لكن النبات يستنشق غاز الفحم ويعطي الأوكسجين، من صمَّم هذا التصميم ؟ لولا أن النبات متعاكس في احتياجاته مع الإنسان لما توازن الهواء، الهواء نسبه متوازنة وهذا من فضل الله على الإنسان.

(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

4 ـ ظاهرة النبات تدل على عظمة الله:

أيها الأخوة: تكاد تكون ظاهرة النبات أجلّ ظاهرةٍ تدل على عظمة الله، فنظام البذور أي أن الله عزّ وجل إذا أراد أن يخلق لنا الطعام والشراب بلا نظام بذور تصور هل يوجد نظام آخر ؟ أي هل يخلق لنا مليون طن بندورة ؟ فأين يضعهم، في أية قارّة ؟ مليار طن، مليار مليار طن قمح ؟ إنها تُستهلك ونجوع بعد ذلك وانتهى الأمر، من قرر نظام البذور ؟ النبات ينبت من خلال بذرة، والثمرة فيها بذرة، نظام البذور وحده أكبر نظام يدل على الله عزّ وجل، تصور نبات بلا بذور إنه ينقرض، الله خلق لنا مليار مليار مليار طن من القمح، بعد أن تستهلك هذه المليارات نموت من الجوع، أما هذا الذي نأكله إذا ألقيناه في الأرض أنبت، فهذا النبات (الرُشيم) بذرة فيها محفظة غذاء، وفيها كائن صغير اسمه رُشَيْم، فيها جُذير، فيها سويق، إذ1 أصابتها الرطوبة وأصابتها حرارة نبتت، هذا الرشيم يتغذى، كيف أن الطفل يتغذّى من حليب الأم إلى أن تقوى معدته وأسنانه، كذلك هذا الرشيم يتغذى من محفظة الغذاء في البذرة فإذا انتهت امتدت جذوره وأخذ غذاءه من التُربة، من صممم النبات ؟

روعة تصميم الخالق:

تجد الجذر له فرع ثم فرع إلى أن يصل إلى هدب تقريباً في رأسه توجد كرة اسمها القُلنسوة هذه تستطيع أن تذيب الصخر بحثاً عن الغذاء، بعض الأشجار تمتد جذورها ثلاثين متراً، الجذر يبحث عن الغذاء، قد يمتد عرضاً، قد يمتد عُمْقاً، وقد تصل الجذور إلى ثلاثين متراً من أجل أن تأخذ الغذاء، من صمم هذا النظام ؟ من صمم أن الشجرة إذا منعت عنها الماء تستهلك ماء أوراقها أولاً، فإذ1 جَفَّ ماء الأوراق تستهلك ماء أغصانها، فإذا جفّ ماء الأغصان تستهلك ماء فروعها، ثم تستهلك ماء جذعها، وآخر ماءٍ تستهلكه ماء الجذر، لو أن الله عكس الآية، لو أن الفلاح نسي سقي الشجرة مرةً واحدة لماتت، بالعكس حينما تَعْطش الشجرة تستهلك ماء الأوراق، وحينما تستهلك ماء الأوراق تذبل الأوراق كأنها تقول لك: اسقني أنا عطشى، النبات حينما يعطش تذبل أوراقه كأنه يخاطبك: اسقني أنا في حالة عطشٍ شديد، من صمم هذا التصميم ؟

5 ـ أنواع الخشب من الآيات الدالة على عظمة الله تعالى:

النبات غذاء، والنبات دواء، الآن الأدوية الراقية أساسها نباتي، والحقيقة حينما نعود إلى أدوية النبات تنتعش صحّتنا، أما حينما نستخدم الدواء الكيماوي تنتكس أجسامنا، فالدواء الراقي من النبات، الأصبغة من النبات، الأثاث من النبات، توجد أشجار خشبها للنوافذ فقط، هذا الخشب لا يتأثر بأشعة الشمس ولا بالبرد ولا بالرياح أي إنه لا يفسد، يوجد خشب للأثاث الداخلي، يوجد خشب للصناعة السريعة ليّن، يوجد خشب للزينة، أنواع الأخشاب تزيد عن مئة نوع، يوجد خشب للأساسات، يوجد خشب له منظر جمالي جداً، أنواع الخشب وحدها من آيات الله الدالّة على عظمته.

أوراق النبات أعظم معمل في الكون:

يوجد نبات تأكل جذره، يوجد نبات تأكل زهره، يوجد نبات تأكل أوراقه، يوجد نبات محاصيل تنمو في وقتٍ واحد، في نبات كالفواكه والخضراوات تنمو في مرحلةٍ طويلة، يوجد نبات موسمي، يوجد نبات دائم الخُضرة، يوجد نبات متساقط الأوراق.

انظر إلى شكل الأوراق (شيء لا ينقضي)، لا تنقضي عجائبه، الورقة وحدها تُعدُّ أعظم معمل في الكون، أعظم معملٍ صنعه الإنسان، هكذا قرأت في موسوعة علمية: أعظم معملٍ صنعه الإنسان على الإطلاق يغدو تافهاً أمام الورقة، كيف يصعد الماء إلى أعلى خلاف الجاذبية الأرضية ؟ الخاصّة

الشّعرية معقّدة جداً، كيف يصعد الماء نحو الأعلى ؟ يصعد معه المعادن المُذابة في التربة ؛ المنغنيز، والفوسفات، والفوسفور، والبوتاس، تصعد مذابةً في هذا الماء، بالورقة توجد مادة اليخضور و مادة الآزوت و الفوتانات، كيف تصنع الورقة ؟ تصنع مصلاً سائلاً (النسغ النازل وهذا السائل هو سائل موحد) تُصنع منه الجذور، والفروع، والأغصان، والأوراق، والأزهار، والثمار، هل يوجد في حياة الإنسان سائل واحد يصير حديداً، وخشباً، ونحاساً، وفضّة، وذهباً، وخشباً، ومادة ليّنة مرنة ؟ هذا النُسُغ النازل هو الذي يُسهم في صنع كل شيء ونحن لا ندري نلقي الحب وننام.

(أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

(سورة الواقعة)

ظاهرة النبات من ظواهر تكريم الله للإنسان:

فكِّر في النبات، فكّر في طِباع هذا النبات، أكثر من خمسة آلاف صنف من النبات مصمم خصيصاً داخل البيوت من أجل أن تُمْتِع عينك به (كنباتات الصالونات) فكم نبات الهدف منها فقط هو المنظر والرائحة، الأزهار كم نبات ؟ أليس هذا تكريماً للإنسان ؟ (هذه الشجرة)، توجد أشجار تُعمِّر آلاف الأعوام كالنخل تُعمِّر آلاف الأعوام، توجد شجرات تعمِّر مئات الأعوام مثل الزيتون، هناك نخلٌ على عهد رسول الله في المدينة وإلى الآن موجود، هذه التمرة فيها ستة وأربعين مادّة غذائية فهي صيدلية، هذه النخلة خصائصها، طباعها، ثمراتها، الزيتون.

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

(سورة التين)

التين، أنا لا أذكر أشياء على سبيل الاستقصاء بل على سبيل الاصطفاء، أنا أقول: ظاهرة النبات قفوا عندها، تأمّلوا فيها، دققوا وابحثوا، فهذه البطيخة كيف تنضج ؟ من يُشعِر جانيها أنها نضجت ؟ قال: حلزون إلى جانب قِمّتها، حلزون يُمسكه الجاني فإن كان يابساً فقد نضجت وإن كان طرياً لم تنضج بعد، من أعطاك العلامة ؟

ظاهرة النبات تدعو إلى التفكر والتأمل:

أيها الأخوة: ظاهرة النبات تستدعي النظر، تدعونا إلى التفكّر، ظاهرة النبات وحياتك كلّها نبات، انظر إلى الطعام ؛ الفجل، البصل، البقدونس، الكزبرة، الباذنجان، الكوسا، الملفوف، انظر كل نبات له شكل، له لون، له رائحة، له خصائص، له فوائد، قيل أن الملوخية ترمِم الغشاء المخاطي في الجهاز الهضمي (مرمّمة)، كل نبات يُغَطِّي حاجة من حاجات الجسم، فهو شيءٌ لا يُصدق، تجد هذا النبات يقول لك فيه:

حديد، ومنغنيز، وكالسيوم، وفيتامينات، وكل نبات يعطي أعلى درجة من الصيانة والترميم والغذاء للجسم، فلذلك:

(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

من الذي يصنع هذه الفواكه والثِمار ؟ الله جلّ جلاله، يقول لك: أخذت كيلو من التفاح، أنت لم تدفع ثمن التفّاح بل دفعت ثمن خدمته، الآن تأكلون هذه الحَمضيات من الذي صمّمها ؟ من صمم شكلها، وحجمها، وطعمها، سكّرها، أقسامها، قشرها، رائحتها العطرة من صممها ؟

حدود الكون لا يعلمها إلا الخالق تعالى:

(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا)

إلى أين ؟ ذكرت لكم قبل شهرٍ: أن مركبةً أُرسلت إلى المُشتري، أنا ذكرت من أربع سنوات بل هو من ست سنوات، هذه المركبة انطلقت قبل ست سنوات بسرعة أربعين ألف ميل في الساعة، وعليها مرصدٌ عملاق قطر عدسته ثمانية أمتار، واكتشف هذا المرصد وهي إلى جانب المشتري مجرّة بعدها عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية (المليون ستة أصفار، والبليون تسعة أصفار) ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، مع أنه مسافة أربع سنوات ضوئية تحتاج أن تقطعها بمركبةٍ أرضية إلى خمسين مليون عام، فكم تستغرق الرحلة إلى هذه المجرّة ؟ ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية.

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا)

(سورة الرحمن: آية " 7 ")

فأين حدود الكون ؟ لا أحد يعلمها، هذه أحدث مجرّة وأبعد مجرّة، ومعنى أبعد مجرة أنها كانت في هذا المكان الذي أصدرت منه أشعتها إلى المَرصد قبل ثلاثمئة ألف بليون سنة، أين هي الآن ؟ لا يعلم إلا الواحد الديّان.

القرآن الكريم هو الميزان الأصلي يوزن به كل شيء :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

قال بعض العلماء: **" الميزان هو القرآن يوزن به كل شيء ".** وقال بعضهم: **" الميزان هو العقل ".** وقال بعضهم: **" الميزان هي الفطرة ".** وقد تتسع هذه الكلمة لكل هذه المعاني، فالعقل ميزان، والفطرة ميزان، العقل ميزان علمي، والفطرة ميزان نفسي، يقول لك: مرتاح وغير مرتاح، متضايق، شعرت بانقباض، بعد هذا العمل شعرت بكآبة، هذا ميزان فطرة لأن الله عزّ وجل قال:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

هذا ميزان، الفطرة ميزان، والعقل ميزان، النبي قال:

((عامل الناس كما تحب أن يعاملوك))

فأنت لو لم تعرف الحكم الشرعي ضع نفسك مكان الطرف الثاني أترضى أن يفعل بك ما تفعلُ به ؟ فالعقل ميزان، والفطرة ميزان، أما العقل قد يضل، وقد يطغى، قد يزل، والفطرة قد تنطمس، فالله جعل الميزان الأصلي هو القرآن الكريم (الشرع)، الحَسَنُ ما حسَّنه الشرع والقبيح ما قبَّحه الشرع. فالشرع ميزان، العقل ميزان، والفطرة ميزان، والشرع ميزان، فكلها موازين والويل لمن لم يستخدم هذه الموازين.

الأحمق من لا يستخدم الشرع و العقل و الفطرة في الوصول إلى الصواب:

مشكلة الناس إن سأل أي عالم يعطيه الحكم الشرعي، إن قرأ القرآن الآيات الواضحة تسعين بالمئة، تسعين بالمئة من آيات القرآن الكريم واضحة لا تحتاج إلى مُفَسِّر، الحديث الشريف واضح جداً، لو حضر أي مجلس علم فإنه يسمع الحق، لو حَكَّم عقله فإنه يصل إلى الصواب.

أنا ذكر لي أخ كان في فرنسا، زار فرنسا من حوالي شهر تقريباً، أكثر المحطات الإعلامية كَفَّت عن عرض الأفلام المُنحطّة (بالعقل) الآن توجد دعوة في أوروبا وأمريكا إلى العفة، إلى تكريس القيم الأخلاقية، لأن المجتمع انتهى، فوصلوا بعقلهم إلى أن هذه الموبقات تُهَدِّمُ البُنيان الاجتماعي.

مرّة الدول الشرقية حرّمت الخمر، العقل ميزان، والفطرة ميزان، والشرع ميزان، والموازين موجودة فما الذي يمنعك أن تأخذ بها ؟

ممكن إنسان يبيع بيته برقم فلكي، ويقبض الثمن بالعملة الصعبة والثمن كلّه مزوّر، ومعه في جيبه ميزان (جهاز إلكتروني يكشف العملة المزورة) ألا يستخدمه ؟ أليس أحمقاً ؟! يوجد معك ميزان يكشف لك نوع هذه العملة ومدى زيفها من صحتها دون أن تستخدمه ؟ والعقل نفس الشيء.

الإنسان السعيد من يستخدم عقله استخداماً صحيحاً:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

لذلك قال بعض العلماء:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

بعضهم قال: **" العقل رسول ".** أعطاك عقلاً.

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

في الحقيقة الإنسان متى ينجح في حياته ؟ متى يُوفق ؟ إذا صحّت موازينه، مثلاً: كان ميزانه أنه كلّما كثر دخلك بأي أسلوب فأنت شاطر، هذا ميزان مختّل، يجب أن يكون دخلك مشروعاً، هذا الميزان الصحيح، لا تُسمى ذكياً ولا متفوقاً إن أخذت ما ليس لك لأن الله بالمِرصاد، فالإنسان يبحث عن موازينه كيف يزين الأمور ؟ كيف يزين دخله ؟ كيف يزين إنفاقه ؟ كيف يزين علاقاته مع الناس ؟ كيف يزين عطاءه ؟ يزين أخذه ؟ الميزان دقيق جداً، فلذلك الإنسان السعيد الذي يستخدم هذا الميزان، ورد في الأثر أن الله لما خلق العقل قال له:

((أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، قال: وعزّتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً أحبّ إليّ منك، بكَ أعطي وبك آخذ))

(ورد في الأثر)

تعطيل العقل حرمان من السعادة:

أعطي الإنسان كل السعادة إذا استخدمك، وأحرمه السعادة كلّها إذا عطّلك، لا تجد إنساناً سعيداً إلا واستخدم الميزان، لا تجد إنساناً شَقياً إلا عطّل الميزان، وأوضح شيء على ذلك المجرمين تجده يرتكب جريمة ويتوهم أنه سيعيش بهذا المبلغ إلى ما شاء الله، بعد ساعة يُلقى القبض عليه، يودع في السجن، يُحكم بالإعدام، أين عقله ؟ ظهر أنه جاهل وغبي، فبعلم النفس المجرم مصنّف مع الأغبياء، غبي لأنه وصل إلى طريق مسدود، فأنت تعجب أحياناً إنسان يقتل إنساناً وما وجد في السيارة إلا كاسيت ومئة ليرة فقط، وقع في جريمة قتل من أجل شريط ومئة ليرة، أزهق حياة وأُعْدِم بعد حين لأتفه الأسباب، فالإنسان يسعد إذا استخدم ميزانه، عندك ميزان عقلي في دماغك، عندك ميزان في نفسك، وعندك ميزان الشرع، والله عزّ وجل خلق وأعطى الميزان، لم يُخلق بلا ميزان.

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

الإعجاز في خلق الدماغ:

بعد ذلك لا تنسى التناسب بالعقل، خلق السماوات والأرض في كفّة والميزان في كفّة، هذا الميزان (الدماغ) مئة وأربعين مليار خليّة سمراء لم تُعرف وظيفتها بعد، أربع عشرة مليار خليّة قشرية، لا

يزال عمل الدماغ مُعجزاً، لا يزال الدماغ عاجزاًس عن فَهْم ذاته، الإنسان كيف يفكر ؟ كيف يحاكم ؟ كيف يستقري ؟ كيف يستنتج ؟ كيف يتخيّل ؟ كيف يقرر ؟ كيف يصدر حكماً ؟ كيف يستنبط ؟ كيف ؟

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

سورة الرحمن من السور الدالة على نعم الله تعالى:

أنا فاتني بكلمة:

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

نحن نتكلم بكلام لكن كأن هناك قوة تعيننا على الكلام، الحرف الواحد يحتاج إلى تحريك سبع عشرة عضلة، كلمة خمسة أحرف تحتاج لثمانين حركة، لو أن الإنسان هو الذي يتكلم بقوته الذاتية فإذا أراد أن يقول: سعيد، كم عضلة سأحركها ؟ نبدأ بالسين، السين وبعدها العين وبعدها الياء فما هذا الكلام ؟ تتكلم عن بلد لمدة ساعة وأنت غافل عن حركة اللسان، من جعل هذا اللسان ينطلق ؟ من جعل الهواء في الرئتين محبوس يمُر عبر الحنجرة وتوجد حبال صوتية ؟ من يغيّر الحبال الصوتية ؟ يقول لك: القاف، والدال، والحرف الصفيري والحرف الانفجاري، والحرف المهموس، والحرف من أقصى الحلق ومن الشفتين، ومن الخيشوم، من صمم الحرف هذه ؟ من علّم البيان ؟

فلذلك أيها الأخوة هذه سورة مباركة، وهذه سورة مسعدة، وهذه سورة فيها نِعَمُ الله عزّ وجل، لأن بعد قليل:

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

سورة الرحمن موجهة للمخلوقين المكرمين بالتكليف:

يا معشر الجن والإنس، فهذه السورة موجّهة للمخلوقين المكرمين بالتكليف، الله عزّ وجل كلّفنا حمل الأمانة، والأمانة نفسك التي بين جنبيك ملّكك إياها وجعلها طوع بنانك:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه السورة قال بعضهم: الكتاب أصحاب المستوى الرفيع تقرأ إنتاجهم فتبدأ متاعبك، وأما الكتّاب التافهون تقرأ إنتاجهم وتتثاءب وتنام بعدها، فالكاتب التافه لا يثير فيك أي مشكلة، أما كلام خالق الكون هذا لازم يضعنا أمام مسؤوليّاتنا، لازم يضعنا أمام مهمتنا في الحياة، لازم يحرّك

فينا كل مشاعر تعظيم الله عزّ وجل، كل مشاعر تأدية الرسالة، فنحن أمام كتاب الله هذا الكتاب المُعجز، هذا الكتاب الذي جعله الله دليل نبوة النبي إلى أبد الآبدين، لذلك في درسٍ إن شاء الله:

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 10-26
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-12-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الثالث من سورة الرحمن، ومع الآية العاشرة.

تسخير ما في السماوات و الأرض للإنسان:

قال تعالى:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

(سورة الرحمن)

أي أن الأرض التي نحن عليها بحجمها وشكلها وقوامها وتضاريسها ومُناخها وبرّها وبحرها ومائها وسمائها وهوائها وأنهارها ونباتاتها وحيواناتها وأطيارها وأسماكها ومعادنها وفِلْذاتها، وكل ما فيها مصممةٌ خصيصاً لمصلحة الإنسان، بل إن الله سبحانه وتعالى سخرّ ما في السماوات وما في الأرض جميعاً لهذا الإنسان.

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية: آية " 12 ")

تسخير الأرض لراحة الإنسان:

هذه الأرض حجمها مناسب، شكلها كُروي، الخطوط عليها مستمِرّة.

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

(سورة الرعد: آية " 3 ")

ليس في الأشكال الهندسية إلا شكلٌ واحد الخطوط تستمر عليه إلى ما لا نهاية، أما أي شكلٍ آخر له حروف، فالأرض كرةٌ وقوامها وحجمها ودورتها حول نفسها، ليلها ونهارها، سرعتها، ميل محورها، حركتها حول الشمس، فصولها الأربعة، كلّها مصممةٌ خصيصاً لراحة الإنسان، و لك أن تفصِّل في هذه الآية ما شئت، والسنوات تلو السنوات تنقضي ولا ينقضي شرح هذه الآية على وجه التفصيل.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

هل شكرت الله تعالى على نعمه التي لا تحصى ؟

هل شكرت الله عليها ؟ ماءٌ عذبٌ فُراتٌ تشربه من صفّاه لك ؟ هواءٌ مركبٌ وفق نسبٍ مناسبةٍ تماماً تستنشقه، من صممه لك ؟ من حافظ على توازنه، من جعل النبات يأخذ هذا الفحم ويطرح الأوكسجين ؟ ومن جعل جسمك يحتاج إلى أوكسجين ويطرح غاز الفحم ؟ من خلق البحار الشاسعة ؟ تلك المسطّحات المائية التي لولاها لما كانت الحياة على سطح الأرض.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

الأنام هم الناس.

أعز مكانٍ في الدُنا سَرج سابحٍ وخير جليسٍ في الأنام كتابُ

***

الأنام البشر، أي أن هذه الأرض بحرارتها، أي كوكب آخر حرارته ثلاثمئة وخمسين فوق الصفر، مئتين وسبعين تحت الصفر، الحياة مستحيلة على بعض الكواكب، أما الأرض معتدلة، تدور حول نفسها، بدورانها على محورٍ ليس متوازياً مع مستوي دورانها ينشأ الليل والنهار، ومع الليل والنهار تنشأ الحرارة المُعتدلة، فالأرض تمتص حرارة الشمس ثم تدفعها في الليل.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

كل شيء في الأرض ينطق بعلم الله و حكمته:

أيها الأخوة الكرام: ينبغي أن نعلم أن كل شيءٍ في الأرض مصممٌ خِصيصاً للإنسان.

مثلٌ بسيط: الحُجّاج والعُمّار وهم يطوفون حول الكعبة المشرّفة، إن الرخام الذي يسيرون عليه يظنه الإنسان مبرداً مكيفاً، والحقيقة أنه نوعٌ من الرخام خلقه الله عزّ وجل لا يمتص الحرارة أبداً، الشمس تسلّط على هذا الرخام سبع عشرة ساعة، ودرجة الحرارة خمسة وخمسين ومع ذلك تمشي عليه وهو مبرد، ليس هناك تكييفٌ إطلاقاً إنما هو نوعٌ من الرخام لا يتأثر بأشعة الشمس، من صممه ؟ الله جلّ جلاله.

قد تجد أن حجم الأمطار في مكان لا يكفي لغزارة هذا النبع، من وضع مستودعات هذا النبع ؟ الله جلّ جلاله، قد تجد في رؤوس الجبال ينابيع ماء لا بدّ من أن تكون مستودعاتها في جبالٍ أخرى أبعد منها وأعلى، من جعل هذه التمديدات من جبلٍ إلى جبل ؟ الله جلّ جلاله.

الحقيقة هذه الآية الحديث عنها يطول، والحديث عنها لا ينتهي، إن كل شيءٍ في الأرض ينطق بعلم الله وحكمته، من جعل هذا السقف المحفوظ ؟ هذه طبقة الأوزون التي تمنع الأشعة القاتلة ؟ وحينما

تخلخلت ارتفعت نسب سرطان الجلد إلى سبعين في المئة في بعض البلاد لأن الأشعة المؤذية وصلت إلى الأرض، وهذه الطبقة طبقة رقيقة جداً تمنع الأشعة المؤذية أن تخترقها إلى الأرض، من صممها ؟ من جعل الماء في الدرجة (+4) يتوسّع حجمه بخلاف كل عناصر الأرض ؟ ولولا هذه الظاهرة لما كانت حياةٌ على وجه الأرض.

أية آية في الأرض تدل على عظمة الخالق:

مرّةً أخرى: الأرض بحجمها، وشكلها، وقوامها، وكثافتها، وتضاريسها، وسطوحها، وبَرّها وبحرها، وجبالها ووديانها وسهولها، بأطيارها وأسماكها و حيواناتها، بكل شيءٍ فيها مصممٌ خصيصاً ليكون في مصلحة الإنسان، فأنت في أمس الحاجة إلى مادة تنقل لك الضوء ولا تنقل لك الهواء (البلور) من وضع في بعض الرمال هذه الخاصّة ؟ إذا مزجتها وأدخلتها في الفرن شكّلت هذا البلور الذي ينقل لك أشعة الشمس ويسمح لك أن ترى ولا يأتيك البرد ولا الحرُّ ولا الهواء منه، لا يظن أحدكم أن القضية هكذا صدفةً كُشِفَ هذا، هذا من تصميم الله ومن حكمته البالغة.

فالإنسان المؤمن أية آيةٍ وقعت يده عليها أو أدركها علمه ينبغي أن يعلم علم اليقين أن هذه الآية إنما هي من آيات الله الدالة على عظمته.

قيمة الإنسان عند الله عز وجل:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

لو أن الله سبحانه وتعالى قال: و وضع الأرض للأنام شيء وأن يقول الله عزّ وجل:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

فهذا قصرٌ في المعنى، إنها من أجل الإنسان، والإنسان إذا عرف هذه الحقائق شعر بقيمته عند الله عزّ وجل، شعر بأنه المخلوق الأول، وشعر بأنه المخلوق المُكَرّم، وشعر بأنه المخلوق المكلّف، وحينما يقرأ الإنسان قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: آية " 44 ")

يصغر أمام نفسه، كل شيءٍ حوله من الجمادات والحيوانات والنباتات تسبّح الله عزّ وجل، وكل هذه المخلوقات خلقت للإنسان خصيصاً، فالمخلوقات المسخّرة تُسَبّح وتذكر والإنسان المكرّم الأول المسخّر له يغفل ويسهو ويغفو ويعصي !!

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في الــمقال شنيع

لـو كان حبك صادقا لأطعته إن المـــحب لمن يحب يطيع

***

المؤمن الحق من لا يسمح للدنيا أن تستهلكه :

أيها الأخوة الكرام: نحن في الدنيا والدنيا مَشْغَلَة، والدنيا فيها مذلاّت، وفيها مُنْزَلَقات، وفيها شهوات مستعرة، وفيها فتن يقظة، وفيها نساءٌ كاسياتٌ عاريات، وفيها ذهبٌ وفضةٌ وأنواع النقود، الإنسان في زحمة الحياة، قد ينسى سرّ وجوده، وقد ينسى عظمة ربه، وقد ينسى منهج الله الذي بين يديه، فلذلك الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، لكن المؤمن هو في الدنيا يصحو ويعرف، يقتطع من وقته وقتاً لمعرفة الله، الله عزّ وجل قال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً)

(سورة الفرقان)

يمشون هوناً أي لا يسمحون للدنيا أن تستهلكهم، لا يسمحون للدنيا أن تُنهي رسالتهم، لا يسمحون للدنيا أن تصرفهم عن غايتهم ولا عن وجهتهم، أي يقتطعون من وقتهم وقتاً لمعرفة الله، يقتطعون من وقتهم وقتاً لمعرفة أمر الله ونهيه، يقتطعون من وقتهم وقتاً للعمل الصالح، لتربية أولادهم.

الحكمة وراء كل آية في القرآن:

هذه الآيات لماذا ذَكَّرَنا الله بها ؟ ما الحكمة من قول الله عزّ وجل:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

أي فَكِّر أيها الإنسان، فكر في هذا التكريم، فكر أنك المخلوق الأول، فكر أنك المخلوق المكلّف، فكر أن هذه الدنيا فانية، فكر أن الله خلقك لجنةٍ عرضها السماوات والأرض.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

ما ردُّ الفعل ؟ فإذا شخص قدّم لك هدية ماذا تقول له ؟ تبقى هكذا ؟ تنظر إليه لا تنطق بكلمة ؟ لا تقل له شكراً ؟ رد الفعل، الآن الآية واضحة طبعاً التفاصيل عنها لا تنتهي، وكل دروسنا السابقة يمكن أن تكون تفصيل لهذه الآية.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

ولكن المقصود رد الفعل، الله عزّ وجل خلق الأرض من أجلك، وسخَّرها لك.

المؤمن من يعرف نعم الله بدوامها لا بزوالها:

قد يقول أحدكم: أنا فقير، أنت لا تعرف نعم الله التي أنت فيها، نعمة استنشاق الهواء، نعمة خروج الماء، نعمة أن الطريق من الفم سالك، أن الأجهزة تعمل بانتظام، أنّك في بيتك آمن، هذه نعمٌ لا تعدُّ ولا تحصى، لا تعرف إلا إذا فُقِدَت، لكن المؤمن يعرف نعم الله بدوامها لا بزوالها، يعرفها وهي موجودة، قبل أن يعرفها وهي مفقودة، لذلك الإنسان لا ينبغي أن تستهلكه الحياة، لا ينبغي أن تأكله الهموم، ليفكر، أنت المخلوق الأول، الكون كله مسخرٌ من أجلك، الكون كله مصممٌ لراحتك، فحينما يكون ردُّ فعلك صحيحاً يقول الله عزّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

دقق في هذه الآية، الله عزّ وجل سخَّر هذا الكون، الآن دخلنا في موضوع دقيق.

تسخير الكون للإنسان:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

لنكتفي بالأرض، الأرض وحدها مسخرةٌ لهذا الإنسان تسخيرين، تسخير تعريف وتسخير تكريم.

1 ـ تسخير تعريف:

أي لقد أراد الله حينما سخر لك هذه الأرض أن يعرّفك بعلمه وبقدرته وبحكمته وبرحمته وبغناه وبرأفته، أراد أن يعرّفك بذاته من خلال الأرض.

2 ـ تسخير تكريم:

أراد الله أن تكون هذه الأرض لمصلحتك، لترتاح فيها.

هُناك مَعنيان، معنى تسخير التعريف ومعنى تسخير التكريم، وينبغي أن يكون هناك ردُّ فعلٍ لكل تسخير.

رد فعل تسخير التعريف:

رد فعل تسخير التعريف أن تؤمن به، أن تؤمن بوجوده، بوحدانيته، بكماله بأسمائه الحُسنى، بصفاته الفُضلى.

رد فعل تسخير التكريم:

رد فعل تسخير التكريم أن تشكره.

معنى ذلك أن الكون مصممٌ أو مسخرٌ لك تسخيرين تسخير تعريف وتسخير تكريم، تسخير التعريف يقتضي أن تؤمن به، وتسخير التكريم يقتضي أن تَشكره.

الإنسان بحاجة إلى العلاج إن وجد الإيمان و لم يوجد الشكر:

إذا آمنت بالله وشكرته حققت الهدف من وجودك، عندئذٍ يتوقف العلاج، الآية الكريمة:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

إن شكرتم وآمنتم فقد حققتم الهدف الذي خلقكم الله من أجله، عندئذٍ لا علاج، أما إذا وجدف الإيمان و لم يوجد الشكر معنى ذلك في علاج، في تأديب، في شدائد، في تخويف، يسوق الله للإنسان بعض الشدائد ليؤمن وليشكر، فإذا شكر وآمن تنتهي الشدائد لقول الله عزّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

ويقول الله عزّ وجل:

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

منهج الإنسان المؤمن الإيمان و الشكر:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

المعنى الذي ينبغي أن نقف عنده قليلاً رَدُّ فعلك أيُّها الإنسان، تلقَّيت هذه الأرض أنت عليها وهي مسخرةٌ لك، مسخرةٌ لك من أجل أن تعرف الله من خلالها، مسخرةٌ لك من أجل أن تشكر الله عليها، فلا بدَّ من رد فعلٍ من قِبَلك الإيمان والشكر، فإن لم تؤمن وإن لم تشكر فقد حِدْتَ عن المنهج الصحيح.

تكريم الله للإنسان من خلال نعمه التي لا تحصى:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ)

(سورة الرحمن)

الله عزّ وجل كان من الممكن أن يخلق لك القوتَ فقط، قمح، أرز هذا قوت، لكن لأنَّك مكرمٌ عليه، ولأنك المخلوق الأول، ولأن الله تحبب إليك بنعمه، ولأن الله سبحانه وتعالى ودودٌ إليك، يوجد فواكه، الفاكهة ليست قوتاً، للتفكُّه، للتنعم، الإنسان يأكل قمحاً، يأكل خبزاً فيملأ معدته، ولعل القمح كما قال العلماء: **غذاءٌ كامل**، ولكن تصوَّر أن بيتاً ليس فيه إلا القمح كلَّ يومٍ إلى ما شاء الله، أما أنت في الشتاء تأكل البرتقال وأنواع الفواكه الشتوية، وفي الربيع يوجد فواكه(كرز، تفاح، كُمثرى، دُرّاق، عنب، تمر).

التمر من آيات الله الدالة على عظمته:

هناك ما يزيد عن ثلاثمئة نوع من التمر، و هذا التمر فيه ستة وأربعين مادة غذائية، وأنه لا يقبل التلوّث، لأن تركيز السكر فيه يمتصُّ ماء أي جرثوم، وهذا التمر فيه مادة مليّنة، ومادة مهدِّئة، وهذا التمر فيه أعلى مستوى من السكر، ينتقل من الفم إلى الدم خلال عشرين دقيقة (ثلاثمئة نوع)، وأشجار النخيل معمِّرة، قال:

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)

(سورة الرحمن)

فنحن ليس في بلادنا تمرٌ غزير، لكن بلاد التمر تجد فيها أنواعاً لا يعلمها إلا الله، أنواع منوّعة، بالأشكال والأحجام والقِوام والطعم، وشيء لا يصدِّقه الإنسان، قال:

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)

الأكمام: الكؤوس التي فيها غُبارُ الطلع، والتي تُلقَّح فتكون منها الثمار، من صمم هذا التصميم ؟ من جعل من كل شيءٍ زوجين اثنين ؟ فهذا التمر وحده من آيات الله الدالة على عظمته، والإنسان كلما كان أقرب إلى التصميم الإلهي، وأقرب إلى الطبيعة التي أرادها الله عزّ وجل يقوى جسمه.

نظام التلقيح الذي أبدعه الخالق:

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)

أي أن نظام الزوجية في النبات، كيف أن النبات ذكر وأنثى، وكيف أن الأنثى تُلَقّح ؟ وأن التلقيح يتم عن طريق الرياح أحياناً ؟ الله جعل الرياح لواقح، ويتم عن طريق النحل أحياناً، فالنحل لها مهمة كبيرة جداً (ليست مهمة إخراج العسل من بطونها فقط، بل مهمة تلقيح النباتات أيضاً) فالنحل يلقِّح، والرياح تلقِّح، الله جعل الرياح لواقح وجعل النحل أيضاً أو الحشرات التي تنقل غبار الطلع من الذكر إلى الأنثى فيكون التلقيح، بل إن بعض حركات الرياح أحد عوامل التلقيح أيضاً.

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ)

(سورة الرحمن)

هذه المحاصيل، القمح، الشعير، الذرة، العدس، الحمص.

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

(سورة الرحمن)

فوائد القمح:

قرأت في كتاب نباتٍ كيف أن القمح مادة غذائية أولى في العالم، لأن القمح غذاء كامل ونحن لجهلنا نأخذ لُبّه النشوي وندع قشره الذي فيه الفيتامينات وفيه المعادن وفيه كل الخير، وأول بدعةٍ ابتدعها المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نَخْلُ الدقيق، وهذا الخبز الأبيض النقي والملح الأبيض والسكر الأبيض هذه سمومٌ ثلاثة، أما الله عزّ وجل حينما صمم هذه القمحة وجعل في قشرها المواد الفيتامينية والمعدنية وكيف أن قشر القمح يحرّك الأمعاء ويجعل الهضم جيداً، نحن نُلقي بقشر القمح ونأخذ لبه، وكيف أن القمح يعد غذاءً كاملاً للإنسان، ساق القمح الذي يسمى في النهاية تبناً يُعَدُّ الغذاء الكامل للحيوان، هي ساق، تظن أنه ساق السُنبلة، أما هذا الساق في تركيبه غذاءٌ كاملٌ للحيوان، لذلك التبن مادة أساسية جداً في علف الحيوان، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ)

أي ساقه التي تُعْصَف وتتكسر فتغدو غذاءً كاملاً للحيوان.

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

نضج الفواكه و الخضراوات تباعاً رحمة بالعباد:

هناك نباتاتٌ فوّاحة الرائحة، ذات رائحة (في الأرض تراب وماء) رائحة الكُمّثرى، ورائحة التفّاح، ورائحة الدُرّاق، لكل فاكهةٍ رائحة، كما أنه لكل وردةٍ رائحة، ولكل نباتٍ تزييني رائحة، من وضع هذه الروائح ؟ والعطورات التي تشترونها بأغلى الأثمان مأخوذةٌ من النباتات.

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

وقد يغفل الإنسان أن هذا الحَب ينضج في وقتٍ واحد، ولو كان كالفاكهة لحمل الإنسان مشقةً لا حدود لها، لو أن الإنسان مكلّف أن يمسك السُنبلة واحدةً واحدة ويتفحّصها فإذا كانت ناضجةً قطعها، وإن لم تكن ناضجة أبقاها لكان حصد القمح من الأشغال الشاقة، ولكن حكمة الله شاءت أن كل القمح ينضُج في يومٍ واحد، ما عليك إلا أن تحصده، لكن أنواع الفواكه والخضراوات تنضج تباعاً رحمةً بنا، يقول لك: هذا الحقل يُعطي هذا النبات على مدار ثلاثة شهور، أو على مدار أربعة شهور، أو على مدار شهرين، من صمم أن الحبوب تنضُج في وقتٍ واحد والفواكه والخضراوات تنضج تباعاً ؟ ولو أن الموضوع عالجناه منطقياً، لو جئت بزيت محمي وألقيت فيه بطاطا (لأن الظروف واحدة النضج يتم في وقت واحد) ظروف الأرض واحدة، السقي واحد، المواد المغذّية واحدة، المعادن واحدة، فما الذي جعل هذا المحصول ينضج تباعاً على فترة ثلاثة أشهر ؟ إنّها حكمة الله، لا ترجيح بلا مُرَجّح.

نضج الفواكه و الخضراوات مبرمج بقدرة الله تعالى:

من جعل هذه الفاكهة تنضج أولاً وبعدها هذه الفاكهة ؟ تصوّر حال صاحب بستان نضجت عنده كل الفواكه في يومٍ واحد، ماذا يفعل ؟ صاحب البستان يبدأ بالكرز، ويُتَبِّي بالدُرّاق، ثم بالأجاص، ثم بالتفاح، في برمجة، الكون مبرمج، أنواع الفواكه مبرمجة، نضجها مبرمج، قال:

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

حبٌ له ساقٌ يعد غذاءً للحيوان، وحبٌ آخر ونباتٌ آخر له رائحةٌ فوّاحة، ربنا عزّ وجل قال:

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

(سورة الرعد)

أحياناً لبعض الفواكه روائح فوّاحة، النباتات، الفواكه التي تسمد بسماد طبيعي، وهواؤها نقي، وماؤها نقي، لها رائحةٌ تأخذ بالألباب، لكن هذا التسميد الكيماوي كان نجاحاً في صفات الثمرة الفيزيائية على حساب صفاتها الكيماوية، لذلك الآن العالم يعود إلى السماد الطبيعي لتعود للفاكهة طعمُها الطيّب ومذاقها ورائحتها الفوّاحة.

صنعة الله المتقنة:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

أي هل هناك خلل ؟ هل هناك نقص ؟ هل هناك شيءٌ على غير ما يُرام ؟

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: آية " 3 ")

صنعته كلها مُتْقَنة.

(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

(سورة السجدة)

جني الثمار بسهولة من فضل الله على الإنسان:

لذلك تجد النبات في أبدع شيء، أشياء قد لا ننتبه إليها، عُنقود العنب، إن أردت أن تقطعه شداً نحو الأسفل، يُعْصَرُ في يدك ولا يُقطع، أما إن حرّكت عوده نحو الأعلى يصبح في يديك، من صممه بهذه الطريقة ؟ الله جلّ جلاله، فكل فاكهة لها طباع، لها طريقة جني، فهذه النخلة العالية جداً (الباسقة) كيف نصل إليها ؟ لها درج أوراقها حينما كانت تقطع بعد مسافةٍ من أصلها (من منبتها) هذا النخل له درج نصعد إليها، كل فاكهةٍ لها طريقةٌ في جنيها، هذا من تصميم الله لنا، البطيخ كبير، لو أن البطيخ معلقٌ في الأشجار ووقعت بطيخةٌ وزنها عشرين كيلو فوق إنسان لقتلته، البطيخ تجده على الأرض، الثمار الكبيرة أرضية، اليقطين في الأرض، البطيخ في الأرض، أما التفّاح معلقٌ بالأشجار، لكن هذه الأشجار أيضاً مصممة بشكل أن تجني ثمارها وأنت مرتاح.

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

تصميم النبات بشكل يقاوم عوامل الإهمال:

أما بعض النبات الذي أنت بأمسّ الحاجة إليه طعاماً لحيواناتك يجنى ست مرات، تزرع البرسيم، تجني البرسيم، تطعمه للدواب، ينبت مرة ثانية، تجنيه مرة ثانية، تطعمه للدواب، ينبت مرة ثالثة، تجنيه مرة ثالثة، ينبت مرة رابعة، تجنيه مرة رابعة، ينبت مرة خامسة، مرة سادسة، من صمم هذا الشكل ؟

فهذا النبات من صممه ؟ أنه إذا لم يرتوِ بالماء يستهلك ماء أوراقه أولاً، ثم ماء أغصانه ثانياً، ثم ماء فروعه ثالثاً، ثم ماء الجذع رابعاً، ثم ماء الجذور خامساً، وآخر ماءٍ يستهلكه النبات عند الضرورة ماء النُسُغ، لو أن الآية عُكِست لماتت الشجرة لأول غلطٍ في سُقياها، إذاً هي مصممة تصميماً يقاوم عوامل الإهمال، عوامل الجفاف.

خلق الإنسان من تراب و الجان من نار:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)

(سورة الرحمن)

اتفق العلماء على أن الإنسان هنا آدم عليه السلام، خلقه من صلصالٍ من طينٍ.

(كَالْفَخَّارِ)

أي له صوت إذا جففته وضربته يُصدر صوتاً من نوع الرنين.

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)

لذلك الإنسان يوجد في جسمه معادن كالأرض تماماً، يوجد منغنيز، حديد، نحاس، فوسفور، بوتاسيوم، يوجد معادن كثيرة، تقريباً المعادن التي أودعها الله في الأرض موجودةٌ في الإنسان، وما دم الإنسان الأحمر إلا لوجود الحديد فيه، الحديد طبعاً بشكل أملاح موجود في دمِ الإنسان:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ)

هذه آيةٌ إخبارية، أي أن الله عزّ وجل خلق الإنسان من تراب وخلق جنس الجن من النار.

إتقان الله لخلقه:

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

أي أية آيةٍ يُشَكُّ فيها، أي خلقٍ من خلق الله عزّ وجل فيه خلل أو خطأ أو زلل، فيه نقص ولا يوجد فيه إتقان ؟

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

أي يا معشر الجن والإنس الذين كُلِّفا حمل الأمانة.

دورة الأرض حول الشمس دائمة لا تحيد:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

بعضهم قال: **" رب شروق الشمس وشروق القمر، أو غروب الشمس وغروب القمر ".** الشمس تُشرق وتغيب، والقمر يُشرق ويغيب من صمم هذا الشروق ؟ طبعاً حركة الشمس ظاهرة أما الحقيقة هي أن الأرض تدور حول الشمس، تدور حول نفسها دورةً فيبدو لك أن الشمس تنتقل من المشرق إلى المغرب، ولكن الإنسان العاقل لو نظر نظرةً سريعة رأى أن الشمس تغيب هنا، وفي اليوم التالي تُشرق هناك، أين كانت في الليل ؟ تحت الأرض، الأرض إذاً في الفراغ، غابت من هنا وأشرقت من هنا، هذا إذا أخذنا الأمر على ظاهره، لكن الأرض تدور حول نفسها دورةً في كل أربعة وعشرين ساعة، الأرض تدور عند خط الاستواء بسرعة ألف ميل في الساعة، أي ألف وستمئة كيلو متر، وبسرعة ستين ألف ميل في الساعة حول الشمس، أي تسعين ألف كيلو متر، أي أن في الثانية الواحدة ثلاثين كيلو متر حول الشمس، العشرة دقائق تقطع بها مئة وثلاثة آلاف كيلو متر قال:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

هذه الدورة من جعلها دائمة أبداً لا تحيد ؟

نظام الشروق و الغروب نظام دقيق و مذهل:

تُمسك تقويماً يقول لك التقويم: في الخامس والعشرين من تشرين الأول الشمس تشرق في الخامسة وثلاث دقائق، هذا التقويم مصمم من خمسين سنة وصالح لمئة سنة قادمة ولألف سنة قادمة، معنى هذا أنه هناك نظام مذهل ودقيق جداً.

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ)

الشروق بنظامٍ دقيقٍ دقيق، والغروب كذلك.

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

يوجد رأي ثانٍ: أن الشمس لها نهايةٌ عُظمى في الصيف ونهايةٌ عُظمى في الشتاء، فإذا شخص له بيت باتجاه الشرق ومرتفع فإنه يلاحظ أنها تُشرق في الصيف من هذه الجهة، أما في الشتاء من هذه الجهة، فهناك مسافةٌ كبيرة بين أقصى مكان شروقٍ في الشتاء، وبين أقصى مكان شروقٍ في الصيف، وهذا يتأتّى من دورة الأرض حول الشمس ومن ميل محورها، فكأن هذا شرق وهذا شرق، شرق الصيف وشرق الشتاء، والأصح أن كل يومٍ بالتحديد هناك مكانٌ لشروق الشمس يغطِّي هذه الحقيقة قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)

(سورة المعارج)

من رحمة الله بالإنسان خلق الأرض كروية:

كل يوم يوجد شروق، وكل يوم يوجد غروب، لكن قد لا يبدو للعينين، أما يوجد تحرُّك، أما الذي يبدو لك أقصى شروق في الصيف نحو الشمال، وأقصى شروق في الشتاء نحو الجنوب، أو على البحر، فالذي له بيت على البحر غربي في بلادنا فإن هذه الحقيقة واضحةٌ تماماً أمامه، يرى مسافةً تكاد تكون أقل من رُبع دائرة بين الصيف وبين الشتاء، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

الشروق حركة، فالأرض تدور والشمس ثابتة، وأيضاً لأن هذه الأرض كرة يأتي الشروق بالتدريج، لو أنه كان مُكَعَّباً تأتي الشمس فجأةً، قال تعالى:

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ)

(سورة الزمر: آية " 5 ")

التكوير تداخل الضوء مع الظلام، والضوء والظلام لا يتداخلان إلا بحالةٍ واحدة وهو أن يكون الشكل كروياً فقط، أما أي شكل آخر ؛ موشور، مكعب، متوازي مستطيلات، شبه منحرف، مادام هناك أضلاع فهناك شروق مفاجئ وغروب مفاجئ، أما الأرض كرة، الله عزّ وجل لطيف، تغيب الشمس فالأرض مضيئة وهذا الضوء يقل بالتدريج شيئاً فشيئاً، وبعد ساعةٍ وربع يغيب الشفق الأحمر فيدخل وقت العشاء، وقت المغرب غياب قُرص الشمس، أما وقت العشاء غياب الشفق الأحمر، هذا بالتدريج.

الحكمة من تحرك الشمس:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

ولحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل: الشمس عند الشروق أشعتها لازَوَرْدِيَّة، نقول: شمس الأصيل عند الغروب أو شمس الشروق، العين تحتملها، تقبلها، تُحَدِّقُ بها ولا تتأثر بها أبداً، ولكن الشمس وهي في كَبَدِ السماء إن نظرت إليها بهرتك أيضاً هذه حكمةٌ بالغة.

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)

الْبَحْرَيْنِ: مطلق أي بحرين:

البحرين، العلماء قالوا: **" مُطلق أي بحرين ".** أي البحر الأحمر والبحر العربي، البحر الأحمر والمتوسِّط، المتوسط والأسود، الأبيض والأطلسي.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ)

أو البحار المالحة والأنهار العَذبة هذان بحران، أو بحرٌ مالحٌ وبحرٌ عذبٌ.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ)

الخط المتبدل في حركته بين أي بحرين يمنعهما من الاختلاط:

معنى مرج أي ترك، ترك ماء البحرين تضطربان لكن:

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)

(سورة الرحمن)

الذي قرأته عنه في هذا الموضوع أن هذه الآية حيَّرت العلماء، أين هذا البرزخ بين البحرين ؟ من خلال المراكب الفضائية، ومن خلال التصوير الفضائي اكتشف أن بين كل بحرين خطاً، هذا الخط متبدِّل في حركته، بمعنى أن مياه كل بحرٍ لا تختلط بمياه البحر الآخر ولا تطغى عليه، وطبيعة هذا البرزخ حتى الآن مجهولة، إلا أنَّه من الثابت أن كل بحرٍ له مكوناته وله ملوحته وله كثافته، ولا يمكن أن يختلط بمياه البحر الآخر مع أنهما متصلان.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الحكمة من وجود الحجر المحجور بيمن المياه العذبة و المالحة:

إن الأنهار الضخمة العملاقة التي تصبُّ في البحار بين مائها العذب وبين الماء المالح أيضاً حجراً محجور.

(هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً)

(سورة الفرقان)

البرزخ يمنع اختلاط كل مياهٍ بالمياه الأخرى، وأما الحجر المحجور فيمنع انتقال الأسماك التي تعيش في المياه العذبة إلى المياه المالحة والعكس، لذلك أكثر مكان تُصطاد فيها الأسماك هي مصبَّات الأنهار لأن أسماك الأنهار لا تنتقل إلى البحار لوجود هذا الحِجر المحجور بين المياه العذبة والمياه المالحة.

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً)

خلق اللؤلؤ ليكون زينة للمرأة:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

اللؤلؤ حيوانه اسمه المَحَار، وهو حيوان بحري هلامي رخو، غلافه هذا الصدف الذي ترونه، أي صفيحتان كلسيّتان قاسيتان جداً، ولهذا الحيوان طِباع وله أجهزة دقيقة جداً إلا أن هذا الحيوان لو دخلت حَبّة رملٍ إلى مملكته عنوةً لعالج هذا الخطر الداهم بإفراز مادةٍ كلسيةٍ فسفوريةٍ على هذه الحبة من الرمل، هذه المادة الفسفورية الكلسية التي يُفرزها على حبة الرمل هي اللؤلؤة، هو لا يدري بل إنه يدافع عن نفسه ويهاجم أعداءه ويصنع اللؤلؤ، واللؤلؤ خُلق خصيصاً ليكون زينةً للمرأة.

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

(سورة فاطر: آية " 12 ")

اللؤلؤ مصمم خصيصاً ليكون زينةً للمرأة، لذلك هذا المحار من خلقه ؟ ومن جعل طبعه أنه يُهاجم حبة الرمل بمادةٍ كلسيةٍ فسفورية ؟ الآن هناك لؤلؤ مزروع زراعة، يستخرجون المَحار ويضعون فيه حبة رمل ويعيدونه إلى البحار داخل صناديق خشبية مربوطة ببواخر، ويبقى المحار في البحر أشهراً طويلة ليُفرز مادةً كلسيةً على حبة الرمل الموضوعة فيه، ولكن هناك فرقاً بين اللؤلؤ الطبيعي وبين اللؤلؤ الزراعي، أما الصناعي فإنه مصبوب صب، يوجد عندنا لؤلؤ طبيعي، ولؤلؤ زراعي، ولؤلؤ صناعي، فرقٌ كبير في صفاء اللؤلؤة الطبيعية عن اللؤلؤة الزراعية.

اللؤلؤ و المرجان من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

وأما المرجان فهو حيوان يعيش في البحار، وقرأت عنه الشيء الكثير، شيءٌ لا يُصدق، هذا الحيوان يتوالد مع الاتصال، أي ذرّيته لا تنفصل عنه، لذلك نجد في أستراليا رصيف من المُرجان طوله أكثر من ألف وستمئة كيلو متر وعرضه خمسين كيلو متر، والبحر الأحمر كلّه مرجان، أي أن الصخور المرجانية أساسها حيوان صغير يتوالد بطريقةٍ خاصّة هو أن ذرّيته تبقى متصلة به فينمو، ولا مجال للتفاصيل فهناك دراسات حول المرجان، وله ألوان رائعة ؛ ألوان برتقالية، ألوان قُرمزية، ويعيش السمك بين المرجان، على كلٍ هاتان آيتان من آيات الله الدالة على عظمته.

تكرر آية اللؤلؤ و المرجان لإيقاظ العقول:

(يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

طبعاً هذه الآية التي تتكرر لتوقظ العقول، هل فكّرت في هذا ؟ اشتريت حبلاً من اللؤلؤ لزوجتك هل فكّرت من خلق هذا اللؤلؤ ؟ من صممه ؟ من جعله ليكون وسيلةً لِخَطْبِ ودِّ المرأة ؟

الحكمة من قوة تماسك الماء:

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

(سورة الرحمن)

أي من جعل في الماء قوة تماسك ؟ طبعاً كما تعلمون الجسم الصُلب له شكلٌ ثابت وله حجمٌ ثابت، أما الجسم المائع له حجمُ ثابت وشكلٌ متغيّر، أما الجسم الغازي له شكلٌ متغيّر وحجمٌ متغيّر، معنى هذا أن الماء وسط بين الغاز وبين الصلب، معنى هذا ما دام الماء حجمه ثابت إذاً هناك تماسك بين ذرّاته، هذا التماسك الذي بين ذرّته يرفض دخول جسم فيه، هذا الرفض أو هذا الدفع كما سمّاه أرخميدس هي القوة التي تدفع الأشياء نحو الأعلى في الماء، لذلك تجد الباخرة مدينة، الآن توجد ناقلات نفط تحمل مليون طن.

(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

الآن توجد بواخر تأخذ المواد الأولية من استراليا وتصنِّعها معادن وهي في الطريق، أي إنه معمل ضخم متنقِّل، لولا أن الماء متماسك، وأن الأجسام التي تُغمس فيه يدفعها نحو الأعلى بقانون أرخميدس لما كان هناك بواخر، وهذا البحر هو همزة وصلٍ لا همزة فصل، أي أن الآن الطريق المعبَّد يكلِّف ألوف الملايين، البحر كلُّه طُرُق، والناقلات عملاقة ممكن أن تنقل السيَّارات، والشاحنات، والمواد الأولية، والقمح، والقطن، كل شيء تنقله بكميَّات فَلَكِيَّة من قارةٍ إلى قارة.

تصميم البحر كالجبال:

قال:

(وَلَهُ الْجَوَارِ)

له أي هو الذي صمم البحر، هو الذي قنن هذا القانون.

(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

أي كالجبال.

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

أي أن الله عزّ وجل جعلنا شعوباً وقبائل لنتعارف، هنا يُزرع الشاي، هنا البن، هنا الموز، كل بلد له إنتاج زراعي يُعمم، هنا قصب السكر مثلاً في كوبا، الشاي في سيلان، الموز في إفريقيا فرضاً، والناس في حاجة إلى بعضها البعض فعن طريق البحار وعن طريق السفن تُنقل البضائع، وتنقل المحاصيل، وتنقل المعادن، والصناعات، والطاقة، وما إلى ذلك.

(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الفناء مصير كل شيء في الكون:

كل هذا الكون.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

(سورة الرحمن)

كل من في المسجد بعد مئة عام ولا واحد منا موجود (أخذت أقصى شيء)، ولا واحد موجود، وقبل مئة عام لم يكن ولا واحد موجود.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

يبقى العمل الصالح، اللذائذ تنقضي وتبقى الآثام، والمتاعب تنقضي ويبقى الأجر، هذه الآية:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

العمل الصالح أساس نجاة الإنسان يوم القيامة:

كل مخلوقٍ يدِبُّ على الأرض فان، هل استثني أحد ؟ أبداً، الأنبياء ماتوا، قال تعالى:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورةالزمر)

أي محكومٌ عليكم بالموت، فإذا الإنسان أيقن بالموت يستعد له بالعمل الصالح، بالإنفاق، بطلب العلم، بتعليم العلم، بخدمة الخَلق، بالأمر بالمعروف، بالنهيّ عن المنكر.

الجلال و الإكرام أعظم صفات الرحمن:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

كل صفات القوة مجموعةٌ في الجلال، وكل صفات الكمال مجموعةٌ بالإكرام، فالله سبحانه وتعالى:

(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

عظيمٌ عظيم عظيم، وكريمٌ كريمٌ كريم، بقدر ما تُحبه تُعظِّمه، وبقدر ما تُعظِّمه تحبه.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

الله عز وجل جعل الإنسان خليفة للإنسان في الأرض:

أوضح مثل: اذهب إلى أحد الأسواق القديمة كم طقم (جيل) تجّار استلموا هذه المحلات ؟ جيل بعد جيل، بعد جيل بعد جيل، الله جعلنا خلائف، كان بيت فلان فتوفي الأب، المحل تسلم، أخذه فلان أسسه وعمل فيه مشروع، كبر، مات، سلّمه المحل وهكذا والبيوت كذلك، الله جعلنا خلائف.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

هذه الآيات إن شاء الله نشرحها إن أحيانا الله في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 26-30
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-01-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الرابع من سورة الرحمن، ومع الآية التاسعة والعشرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله عزّ وجل في الآية السادسة والعشرين:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

ظن الملائكة بأن كل من على الأرض فان فقط:

ماذا نستفيد من هذه الآية ؟ ربنا سبحانه وتعالى يُعلِمُنا أن كل من على الأرض فان، لأن الله سبحانه وتعالى في مطلع السورة قال:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

فلما قال:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا)

الهاء هنا تعود على الأرض.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

فظن الملائكة أن كل من على الأرض فجاء قوله تعالى:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص: آية 88)

فوائد فناء الخلق:

1 - الخلق كلهم متساوون:

أيها الأخوة: يجب أن نقف وقفةً متأنيةً عند هذه الآية، فناء الخلق ماذا يفيدنا ؟ أول فائدةٍ تُستفاد من فناء الخلق أن الخلق كلّهم سوف يتساوون، فالموت يُلغي غِنى الغَني، ويلغي فقر الفقير، ويُلغي قوة القوي وضعف الضعيف، يلغي صحّة الصحيح ومرض المريض، يُلغي وسامة الوسيم ودمامة الدميم، كل

شيءٍ يُلغى في الموت، يعود الإنسان كأي إنسانٍ خلقه الله عزّ وجل ؛ العظماء، الكبراء، الأغنياء، الجبابرة، الملوك، الضعفاء، المَرضى، المقهورون، المستضعفون..

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

هذا هو المعنى الأول.

2 ـ فناء الخلق سبب لانتقالهم إلى الدار الآخرة:

المعنى الثاني أيها الأخوة: أن الإنسان حينما يفنى فناؤه سببٌ لانتقاله من دارٍ إلى دار، إن فناء الخَلق سببٌ لانتقالهم إلى الدار الآخرة، وشتّان بين الدارين، دارٌ دُنيا، ودارٌ عُليا، دارٌ أساسها الفناء، ودارٌ أساسها البقاء، دارٌ أساسها الهمّ والحزن، ودارٌ أساسها الطُمأنينة والأمل، دارٌ أساسها الكَدُّ والسَعْيُ، ودارٌ أساسها العطاء، دارٌ أساها التكليف ودارٌ أساسها التشريف، دارٌ أساسها العمل ودارٌ أساسها الجزاء، فلولا الفناء لما انتقلنا إلى الدار الآخرة.

والحقيقة: الدنيا إعدادٌ للآخرة لكن الحياة التي تُمثِّل كَرَمَ الله عزّ وجل وعطاءه الأبدي السرمدي هي الدار الآخرة، العظيم إذا أعطى لا يأخذ، لكن كل عطاء الدنيا سوف يؤْخَذ، هل يبقى شيء ؟ هل يبقى المال ؟ هل يبقى العزُّ والسلطان ؟ هل يبقى الشباب المتألِّق ؟ هل يبقى التمتُّع بملاذ الدنيا ؟ أتتناسب الدنيا مع كرم الله عزّ وجل ؟ الموت يُنهي كل شيء ؛ ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي صحة الصحيح، مرض المريض، وسامة الوسيم، دمامة الدميم، يُنهي كل شيء.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

الأحمق من يعلق آماله على الدنيا:

الشيء الأول الذي يُستفاد من فناء الخَلق أنهم سوف يتساوون مساواةً تامّة، ما الفرق بين أن يموت إنسانٌ فقيرٌ ضعيفٌ ويوضع في حفرةٍ، وبين أن يموت ملكٌ قوي ويوضع في حفرة وينتهي الأمر، وبعد حين تفنى الجُثتان ؟ استوى العظيم مع الصغير، استوى الغني مع الفقير، الموت يسوّي بيننا جميعاً، الموت سببٌ لانتقال الإنسان من دار العمل إلى دار الجزاء، من دار التكليف إلى دار التشريف، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار المتاعب إلى دار الطُمأنينة، النبي عليه الصلاة والسلام في إحدى خطبه يقول:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عُقبى))

الآخرة دار استواء و فرح، فالذي يلفت النظر أن الإنسان يعلِّق آماله الكبيرة على الدنيا وحياته منوطةٌ بسيولة دمه فإذا تجَمَّد بضعٌ من دمه في شرايينه يقول لك: أصابته جلطةٌ ومات، إذا تجمَّدت نقطة دمٍ في دماغه يقول لك: خثرة دماغية، شُل شللاً نصفياً، غاب عن الوعي، فقد نُطقه، فقد ذاكرته، فهذا الذي يُعَلِّق الآمال على الدنيا على أي شيءٍ يرتكز:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

الوقت أغلى شيء في حياة الإنسان:

أيها الأخوة: والله العقل كل العقل، والفلاح كل الفلاح، والذكاء كلُّ الذكاء، والتوفيق كل التوفيق، والتفوُّق كل التفوق في العمل للآخرة، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(من سنن الترمذي: عن شداد بن أوس)

نحن في هذا المسجد المتواضع كم أخ غادرنا في هذه السنوات العشرين ؟ كم أخ كان معنا ثم غادرنا ؟ هكذا الحياة الدنيا، من منا يضمن أن يعيش ساعةً بعد هذه الساعة ثانية ؟ الموت يأتي بغتةً، فلذلك عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

أي أن أيها الإنسان احرص على الوقت، الإنسان حينما يستيقظ معنى ذلك أن الله سمح له أن يعيش يوماً جديداً، ما من يومٍ ينشَقُّ فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد فتزوَّد مني.

العمل الصالح أساس النجاة من النار:

لو أن الإنسان حاسب نفسه كل يوم مساءً، ماذا فعلت من عملٍ ينفعني بعد الموت ؟ ماذا فعلت من عملٍ ينفعني في الدنيا ؟ فالإنسان في حركة دائمة، يتحرَّك دائماً لكسب المال، لتحقيق مصالحه في الدنيا، ولكن السؤال المُحْرِج هذا اليوم قد انقضى قبل أن ينام: ماذا فعلت فيه من عملٍ ينفعني بعد الموت ؟ هل طلبت علماً ؟ هل علَّمت علماً ؟ هل أمرت بمعروف ؟ هل نهيت عن منكر ؟ هل قرأت القرآن ؟ هل ذكرت الواحد الديَّان ؟ هل نصحت مسلماً ؟ هل أعنت فقيراً ؟ هل عُدت مريضاً ؟ هل شيَّعت جنازةً ؟

هل مسحت رأس يتيم ؟ هل اعتنيت بامرأةٍ أرملةٍ من أقربائك من محارمك، اعتنيت بها، أمّنت لها حاجاتها ؟ ماذا فعلت من عملٍ ينفعك بعد الموت ؟

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

المعاصي و الطاعات تنتهي و يبقى المسؤولية و الثواب:

توجد ملاحظة ثالثة أيها الأخوة: المعاصي إذا توهّم المتوهِّمون أن لها لذائذ فإن هذه اللذائذ تنقضي وتبقى المسؤولية.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

والطاعات إن كانت ذات كُلفة وذات مشقّة تنقضي المشقّة ويبقى الأجر والثواب، تماماً كما لو أن طالبين أحدهما أمضى العام الدراسي مع أصدقائه وفي نزهاتٍ وفي سهراتٍ باطلةٍ، ثم جاء الامتحان، والثاني أمضى العام الدراسي في جدٍ وتعبٍ واجتهاد وسهرٍ وكَد، الامتحان هو الفيصل الذي نجح بتفوق ينسى كل أتعابه وتبقى لذّة الفوز، والذي رسب ينسى كل لذائذه ويبقى خزيّ الرسوب.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

الفناء يسوّي بين الناس.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

الفناء سبب لنقلة الإنسان من دار الفناء إلى دار البقاء:

الفناء سببٌ لنقلة الإنسان من دار الفناء إلى دار البقاء، فالإنسان أحياناً يكون ساكناً في بيت صغير قميء مظلم، متألمٌ أشد الألم، ضيّق، فجأةً لسببٍ أو لآخر ينتقل لبيتٍ واسع مشرف له إطلالة وفيه كل حاجات الإنسان.

أيها الأخوة: هذا السبب الذي نقله من هذه الدار إلى تلك الدار سببٌ مؤلمٌ أم مفرح ؟ مفرح. لذلك المؤمن ينتقل من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، كيف أن المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، الدُنيا ضيّقة إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم (سبعمئة وخمسين سنتيمتر مكعب) إلى سعة الدنيا، يسافر إلى كندا، إلى اليابان، يركب الطائرات، يرى القارّات الخمس، يرى البحار، كان في الرحم، وكذلك المؤمن ينتقل من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، كذلك المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، فالفناء سبب الانتقال، والفناء سبب المساواة، والفناء يعني أن الوقت محدود.

الموت نهاية العمل الصالح:

تصور طالباً في الامتحان معه ثلاث ساعات (الآن ساعتين) وهذه مادة أساسية ويعلِّق آمالاً عريضة على نجاحه في هذه المادة، هل من الممكن في هاتين الساعتين أن يصلِّح ساعته ؟ أو أن يعبث بقلمه ؟ أو أن يُصلح ثوبه ؟ أو أن يمتنع عن الكتابة ؟!! الوقت محدود، ما دام هناك نهاية للوقت وهذا الوقت ثمين وفيه مهمة خطيرة، فلما ربنا عزّ وجل يقول لنا:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

يعني أيها الإنسان إنّك ميت وعندما يموت الإنسان يُختَم عمله، ليس هناك من عملٍ صالحٍ بعد الموت، لا توجد أعمال صالحة ؛ لا يوجد مال، لا يوجد وقت تصلِّي فيه، ولا في وقت تتعلم فيه، ولا في وقت تعلِّم فيه، ولا في وقت تنصح الناس، ولا في وقت تبذل مالك، ولا في وقت بالأساس تنفقه.

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة)

خُتِم العمل.

العاقل من يستعد للموت بالتوبة النصوح:

عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

أي أن الوقت ضيق، والحقيقة أيها الأخوة الكرام نحن زمن، نحن في حقيقتنا الأساسية زمن، ومُضِيُّ الزمن يستهلكنا، وكل واحد كلّما عاش يوماً قلّ عمره يوماً، تماماً كقطارٍ انطلق من محطةٍ وسيقف في المحطة التالية، فكل دقيقة تقرّبه من المحطة التالية، فالأولى بالإنسان أن يَعُدّ عمره عدّاً تنازُلياً، وكل واحد وصل إلى الأربعين هناك سؤال محرج وسؤال خطير، وهذا السؤال: هل بقي بقدر ما مضى ؟ فكلكم يعلم كلما مات رجل فاسألوا عن عمره، اثنين وستين، تسعة وخمسين، ثلاثة وخمسين، تسعة وأربعين، أربعة وسبعين، أما ثمانين قلائل جداً، النبي يقول: معترك المنايا بين الستين والسبعين. سيّد الخلق عاش ثلاثة وستين سنة، فإذا شخص بلغ الأربعين معنى هذا أن الذي بقي أقل مما مضى، والذي مضى فإنه مضى كلمح البصر، إذاً الذي بقي يمضي مثله، فهذا الموت آتٍ لا محالة، كلّما ازداد عقلك، وكلّما ازدادت بصيرتك تستعد له، لا أحد يستطيع أن يُلغي الموت، ولا أحد يمكن أن يُنكر الموت، لا إنكار ولا إلغاء، ولكن الإنسان يستعد للموت بالتوبة النصوح، بالعمل الصالح، بطلب العلم، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالدعوة إلى الله، بخدمة الخلق، بعملٍ تبتغي به وجه الله.

إشارات الله إلى الإنسان بأن اللقاء قد اقترب:

أيها الأخوة الكرام: بعض الأحاديث أكررها كثيراً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((بادروا بالإعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

هذه الدنيا لو تمتّعت بها ؛ بالمال، بالصحة، بالجاه، بالزوجة، بالأولاد، كل شيء على ما يُرام، سؤال واقعي: هل بإمكانك أن تعيش على هذه الحال إلى أبد الآبدين ؟ هل من الممكن أو هل في الإمكان أن تستيقظ كل يوم كاليوم السابق لا يوجد فيك شيء ؟ لا، فالذي أراه من خلال التجارب عندما الإنسان يدنو أجله يُصاب بعطب في أجهزته، قد يبدأ العَطب من كُليتيه، أو من كبده، أو من قلبه، أو من دماغه، أو من أعصابه، أو من جرثومٍ أصابه، أو من حادثٍ حدث له، فالموت لا بُدّ واقع وله مقدّمات، ولكن من رحمة الله جلّ جلاله علينا أن الإنسان بعد الأربعين خَطُّه البياني يهبط، يضطر إلى وضع نظارة على عينيه، يشيب شعره، ينحني ظهره، يشعر بألمٍ في مفاصله أحياناً، ما معنى ذلك ؟ كان من الممكن أن تبقى نشيطاً شاباً إلى ساعة الوفاة، لكن الله أراد للإنسان أن ينزل خَطُّه البياني لعلّه يتذكّر أنه سيلقى الله، فهذا ضعف البصر، وضعف السمع أحياناً، ووهن القِوى، وانحناء الظهر، وشيب الشعر، إشاراتٌ لطيفةٌ لطيفة من الله أن يا عبدي قد قَرُبَ اللقاء فماذا أعددت لهذا اللقاء ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة الحشر)

محاسبة الله للإنسان يوم القيامة:

ماذا أعددت للدار الآخرة ؟ ماذا أعددت ليوم القيامة ؟ ماذا أعددت وأنت واقفٌ بين يدي الله عزّ وجل ؟ يقول لك: يا عبدي منحتك الوجود، منحتك السمع والبصر والفؤاد، أعطيتك مالاً، أعطيتك زوجةً، رزقتك أولاداً، ماذا فعلت ؟

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

(سورة المدثر)

الناس ركّبوا صحون فركبنا صحناً، سهروا حتى الساعة الخامسة بعد الفجر ولم يصلوا وفعلنا مثلهم.

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

(سورة المدثر)

يقول الله عزّ وجل لعبدٍ أعطاه مالاً:

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله له: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم...))

(ورد في الأثر)

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

القلب ينبض فاغتنم القيام بالأعمال الصالحة:

لا أحد منّا سيبقى بعد مئة عام وربما بعد خمسين عاماً لا يبقى أحد، وقد أتى في الدهر يومٌ لم نكن نحن جميعاً شيئاً مذكوراً وسيأتي يومٌ ننتهي، كلنا تحت أطباق الثرى، ألا تقرءون التاريخ، أين الرومان ؟ أين الأقوام السابقة ؟ الآراميين، الكَلدانيين، الكَنعانيين، أين هؤلاء الذين كانوا في هذه البلاد طولاً وعرضاً ؟ طواهم الردى وأصبحوا خبراً، والله قال:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة المؤمنون: آية 44)

نحن الآن في حياة، القلب ينبض، فأنت الآن حر، أنت الآن تملك الوجود، أنت موجود وتملك حرية الاختيار، وتملك طلب العلم، وتملك معرفة الحقيقة، فماذا تصنع ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟

معرفة كتاب الله هدف لا يعلو عليه هدف:

أيها الأخوة الكرام: والله ما من عملٍ أخطر ولا أعظم من أن تعرف الحقيقة، أن تعرف من أنت ؟ أنت كائن لماذا خلقك الله عزّ وجل ؟ لماذا جاء بك إلى الدنيا ؟ فهل يوجد إنسان يسافر إلى بلد على وجه الأرض وينام في أحد الفنادق ويستيقظ ولا يدري لماذا هو في هذا البلد ؟ يوجد هدف كبير يقول لك: رحلة سياحية (سائح)، رحلة تجارية (تاجر) رحلة علمية، توجد كلمة واحدة، سافر إلى فرنسا ليدرس الطب في جامعة السوربون، من أول حركة ؛ إعداده لأوراقه، نشاطه، مخططه، هدفه طلب العلم، والثاني هدفه التجارة، والثالث هدفه السياحة، فإنسان في الأرض هو في الأرض ؛ يأكل، ويشرب، وينام، ويعمل، ولا يدري لماذا هو في هذه الدنيا ؟ هذا هو أجهل الجَهل، وهذا هو الجهل الخطير ألاّ تعرف لماذا أنت في الدنيا، هذا الذي يتحرّك بحكم أنه حيّ.

((مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين))

(رواه النسائي عن ابن عمر)

((مثل المنافق في الصيام كمثل الناقة حبسها أهلها فلا تدري لا لما حبست، ولا لما أطلقت))

يعيش على هامش الحياة، إنسان الله أودع فيه عقلاً، أعطاه حرية اختيار، أنزل له كتاباً من السماء فيه بيان كل شيء، هذا القرآن منهجنا، كتابنا، كتاب ربنا، بيَّن لك آياته، بيَّن لك تشريعه، بيَّن لك المصير، الماضي السحيق، المستقبل البعيد، آياته الكونية والتكوينية والتشريعية، بيَّن كل شيء، لذلك معرفة هذا الكتاب هدفٌ لا يعلو عليه هدف.

المؤمن الصادق من يطلب العلم:

أنا أرى أن المؤمن الصادق يشكِّل حياته وَفْقَ مجالس العِلم، الأصل مجالس العلم، ولا يحضر هذه المجالس على فراغه، لا، عندك ضيف أنا عندي مجلس علم إنني أعتذر، أحياناً الإنسان يرتِّب أوقاته كلّها ومواعيده كلّها على أساس أن هذه المجالس لا بدّ من أن يحضرها وأن يتابعها لأنها كلام ربنا عزّ وجل، هذه مائدة الله عزّ وجل، إذا أردت أن تعرف حقيقة الإنسان فاقرأ كتاب الله، قال لك:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

الدنيا محط رحال الكافر:

هذا الحديث الشريف:

((بادروا بالإعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

كل يوم كاليوم السابق ؟ لا، في يوم مفاجأة، يقول لك: استيقظت فلم أرَ بعيوني، استيقظت فإذا وجع في صدري، أبداً اسأل الناس، إنه يُفاجأ إما بألم في صدره، أو بخلل في بصره، أو في وهن في قوّته، أو في ضعف في حركته:

((فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

هذا الكلام موجَّه لغير المؤمنين، هذا الكلام موجَّه لمن أحبوا الدنيا، لمن ركنوا إليها، لمن جعلوها مَحَطّ رحالهم، لمن جعلوها غاية آمالهم، لمن جعلوها دَيْدَنهم، لمن جعلوا الدنيا كل شيء.

ماذا ينتظر الإنسان من الدنيا ؟

1 ـ فقراً منسياً:

قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا...))

(أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة)

أحياناً لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل يمحق الله المال.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة القلم)

أحياناً الإنسان يتعلّق بالمال فالعلاج عند الله فقد هذا المال، يكون عنده مزرعة يضمنها كل سنة بسبعمئة ألف، صقيع خلال دقائق يدَمِّر كل هذه المزرعة، أحياناً تجارة تخسر، مال يُصادَر، بيت يُستملك، مزرعة تحترق.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا))

ألا تعرفون رجلاً كان غنياً كبيراً فافتقر ؟ كان قوياً فأصبح ضعيفاً:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا.))

2 ـ غنى مطغياً:

وهل تصدِّقون أيها الأخوة أن النبي عليه الصلاة والسلام عدّ الغني المُطغي من أكبر المصائب، الإنسان حينما يغتني يتكبّر، وحينما يتكبّر يبحث عن الشهوات، يريد أن يستمتع بالشهوات المُحَرّمات، السبب هو الغنى، عندما كان فقيراً كان مستقيماً فلما اغتنى فَجَر، فهذا الغنى نعمةٌ أم مصيبة ؟ إنه مصيبة.

3 ـ مرضاً مفسداً:

قال:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا))

أحياناً مرض يجعل حياة الإنسان جحيماً، خلل في أجهزته الخطيرة، خلل في بعض حواسِّه يجعل الحياة جحيماً.

4 ـ هرماً مفنداً:

((أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أوْ هَرَمًا مُفْنِداً))

ثم يُرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علمٍ شيئاً، أليس هناك رجال بلغوا أرذل العمر فصاروا يعيدون القصة مئات المرّات، ويحشرون أنفهم في كل صغيرةٍ وكبيرة، أصبحوا عبئاً على أُسرهم وتمنى أهلهم خلاصهم ورحيلهم إلى الدار الآخرة.

((أوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أو الدّجّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أو السّاعَةَ فَالسّاعَةُ أدْهَى وَأَمَرُّ))

(أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة)

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

العاقل دائماً يعيش المستقبل، والأقل عقلاً يعيش الحاضر، والجاهل الغبي يعيش الماضي.

الموت لا يعرف كبيراً أو صغيراً:

أيها الأخوة: الموت له قاعدة ؟ أحياناً الإنسان يبقى في فراشه ثلاثين عاماً مشلولاً، وأحياناً يُخْطَفُ وهو في أوج قوته، أليس هناك شبابٌ ماتوا في الثلاثين، وفي الخامسة والعشرين، وفي العشرين، وفي السبعة عشر، الموت لا يعرف كبيراً ولا صغيراً، ولا إنسان عقد عقده ولم يدخل، و نال شهادته ولم يُعين بموجبها، الموت لا يعرف، لذلك يقول الله عزّ وجل في سورة الرحمن:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

مرّةً قرأت كتاب قِصَص العرب (أربعة أجزاء) قصص كلّها واقعية عن ملوكٍ، وعن وزراء، وعن قواد، وعن ضعفاء، وعن فقراء، وعن أغنياء، وعن أذكياء، وعن حمقى، وعن أُجَرَاء، إلخ، كتاب في أربعة أجزاء فيه قصص ما هبَّ ودبَّ، استفدت من قراءة هذا الكتاب حقيقةً واحدة: أن كل هؤلاء الذين قرأت عنهم ماتوا، وكلّهم تحت أطباق الثرى، وكلّهم انقلب إلى الدار الآخرة وسيلقى جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

تعليق المؤمن و الكافر يوم القيامة و جزاؤهما:

ماذا يقول من أوتي كتابه بشماله ؟ يقول:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ)

(سورة الحاقة)

يقول الله عزّ وجل:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

إلى آخر الآيات. لكن:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء:

كلمة:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

ينبغي أن نقف عندها مَلِياً، الموت يسوّي بين الناس لذلك الحظوظ في الدنيا ؛ المال حظ، الذكاء حظ، العلم حظ، القوة حظ، الصحة حظ، الزوجة الجيدة حظ، الأولاد حظ، الحظوظ موزّعة في الدنيا توزيع ابتلاء.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة الإسراء: آية 21)

يوجد أستاذ جامعة، ويوجد أستاذ معيّن في قرية، يوجد مستورد كبير، يوجد بائع متجول، يوجد طبيب جرّاح عمليته بأربعمئة وخمسين ألفاً، يوجد ممرّض يتقاضى راتباً لا يكفيه أياماً، يوجد رئيس أركان ويوجد مجنّد، يوجد صحيح ويوجد مريض، يوجد قوي ويوجد ضعيف.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

العبرة قربك من الله تعالى لا حجمك المالي في الدنيا:

إخوانا الكرام: فكرة دقيقة جداً ملازمة لهذه الفكرة، الحظوظ موزّعة في الدنيا توزيع ابتلاء وسوف توزّع بعد الموت في الآخرة توزيع جزاء، حظوظ الدنيا لا تعني شيئاً، قد يكون الفقير أقرب إلى الله من الغني، وقد يكون الضعيف أغلى على الله من القوي، وقد يكون المريض أكثر قُرباً من الله من الصحيح، وقد يكون الذكي مُستحقاً لغضب الله بينما الأقل ذكاءً مستحقاً لرضاه، الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء لكنها سوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، الحظوظ في الدنيا مؤقّتة ولا تعني شيئاً لكن الحظوظ في الآخرة أبدية وتعني كل شيء، أي أن الغنى هنا موَقّت، والقوة مؤقّتة، والذكاء موقّت، والجمال موقّت، كلّه موقت في الدنيا، أما توزيع الحظوظ في الآخرة أبدي سرمدي، فالعبرة لا أن يكون لك موقعٌ متميزٌ في الدنيا، العبرة أن يكون لك مقعد صدقٍ عند مليك مقتدرٍ في الآخرة، العبرة قربك من الله لا حجمك المالي، لذلك الآية الكريمة:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

صفات الجلال و الكمال تخص الخالق وحده:

وجه ربك أي ذاته.

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

(سورة الليل)

الوجه هنا الذات الكاملة.

(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

الجلال أي أن الله عزّ وجل قوي، غني، مهيمن، عزيز، جبّار، متكبّر، منتقم، والإكرام ؛ رحيم، لطيف، ودود، رؤوف، مُعطي، عفو، كريم، صفات الجلال وصفات الإكرام، كُلنا في الحياة الدنيا قد نُعْجَبُ بإنسانٍ ولا نحبُّه، ذكي، في اختصاصه متفوّق لكنه لئيم، وقد نحب إنساناً لا نعجب بذكائه، شخص له قريب طيب جداً لكن محدود، فأنت قد تجد إنساناً تعجب بذكائه ولا تحبُّه، وقد تحبُّه ولا تُعجب بذكائه، لكن البطولة أن تعرف الله لأن الله جلّ جلاله بِقَدْرِ ما له من صفات الجلال له من صفات الكمال، جليلٌ وكريم، قويٌ ورحيم، جبّارٌ وعفو، بطشه شديد ومغفرته واسعة، لذلك أسماء الله الحُسنى كله يمكن أنة تنضوي تحت زُمرتين: زمرة الجلال، وزمرة الكمال، فربنا سبحانه وتعالى:

(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

الإنسان عبد لله لا عبد لعبد لئيم:

بعضهم قال: **إنه مُكَرّمٌ عن أن يقع في نقص، مُكَرّمٌ عن أن يتصف بشيْ لا يليق به.** هذا معنى أورده بعض المفسرين، مكرمٌ عن أن يتصف بما لا يليق به لكن السياق يقتضي أن الله سبحانه وتعالى ذو الجلال وذو الإكرام فهل تنصرف عن الله إلى غيره ؟ هل يمكن أن تكون أنت مجيِّراً لإنسان، محسوباً على إنسان ؟ هل في الأرض كلّها إنسان يليق بك أن تكون تبعاً له ؟ أنت لله فلا يليق بك أن تكون لإنسان ينبغي أن تكون للواحد الديّان، لا تكون خطأ إنسان، لا تكون تابعاً لإنسان، لا تكون عبداً لعبد، بل كن عبداً للخالق، كن عبد الله لا تكن عبد عبدٍ لئيم، أنت أعظم وأكرم من أن تكون تبعاً لإنسان لأن هذا الإنسان لا ينفعك.

مرّة أحد الولاة سأل سيدنا عمر فقال له: إن أُناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم لست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسّهم بالعذاب فإن أذنت لي فعلت، فقال له عمر: **يا سبحان الله أتستأذنني في تعذيب بشر؟ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك يُنجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البينة فإن قامت فخذهم بالبينة، فإن لم تقم فادعوهم إلى الإقرار، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم، فإن لم يُقِرُّوا فادعوهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم، وَيْمُ الله لأن يلقوا الله بخيانتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم.** فلا يليق بك أن تكون لإنسان، أنت لله، كن حراً.

التوحيد عين الإيمان:

مرّة والي البصرة كان عنده التابعي الجليل الحسن البصري ويبدو أنه جاءه توجيه من يزيد لا يُرضي الله، فوقع هذا الوالي في حيرة وفي صراع ماذا يفعل ؟ أينفِّذ أمر الخليفة فيُغضب الله عزّ وجل، أم يمتنع عن تنفيذ أمر الخليفة فيغضب الخليفة ويعزله ؟ قال: يا إمام ماذا أفعل إلى جانبه الحسن البصري؟ قال: ماذا أفعل ؟ والله أجاب هذا الإمام التابعي الجليل إجابةً تُكتب بماء الذهب ويمكن أن يستخدمها الإنسان طوال حياته، قال له بإيجازٍ بليغ: **إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.** الذي أمرَك بمعصية فإن الله عزّ وجل يمنعه منك لكنك إذا أرضيته وعصيت الله لا يمنعك من الله، أي إذا الله عزّ وجل سمح لبعض الخلايا أن تنمو نمواً عشوائياً في منطقة حرجة من يمنعها ؟ يمنعك صديقك القوي الذي أعطاك رقم هاتفه لتتصل به عند الضرورة ؟! تقول له: والله ظهر نمو سرطاني (فدبره)، هذا الذي تعتز به هل يمنع خلايا الإنسان أن تنمو نمواً عشوائياً ؟ بلا سبب ساعة يقول لك: سرطان في الدماغ، ساعة في العظم، ساعة في الدم، ساعة في الأمعاء، ساعة في القولون، ساعة في

المعدة، أليس كذلك ؟ قال له: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله. هذا هو التوحيد **وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد.**

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الافتقار إلى الله عز وجل:

ثم يقول الله عزّ وجل في الآية التالية:

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

قال العلماء: **يسألونه بألسنتهم وأحياناً يسألونه بلسان حالهم.** ذكر لي أخٌ أنه قد بلغت كمية الأمطار قبل أسبوع ثلاثين ميليمتراً، في الفترة السابقة من العام الماضي بلغت مئة وثمانين ميليمتراً، ثلاثين من مئة وثمانين، في هذه الأيام الثلاثة نزل ثلاثين ميليمتراً كأمطار الموسم هذا كلِّه، فالله عزّ وجل نسأله، إما أن نسأله بألسنتنا: اللهمّ اسقنا الغيث، وإما أن يسأله الناس بلسان حالهم، وكل إنسان بحاجة إلى شيء فإن حاجته إلى الشيء نوعٌ من السؤال، لذلك الله جلّ جلاله يحتاجه كلُ شيء في كل شيء، فإما أن تسأله بلسانك، وإما أن تسأله بلسان حالك، وإما أن تكون محتاجاً إلى هذا الشيء، فالحاجة سؤال، والاستعداد لقبولها سؤال، فكل الخلق مفتقرون إلى الله عزّ وجل، يحتاجه كلُ شيء في كل شيء. الشجرة إذا قلّ ماؤها وذبُلت أوراقها كأنها تسأل الله المطر، الدابّة إذا جاعت تبحث عن الطعام فإن هذا البحث كأنها تسأل الله الطعام، الإنسان، الطفل يبكي، لماذا يبكي ؟ لأنه جائع، بكاؤه سؤال، فإما السؤال من عاقل، أو سؤال من نبات أحياناً، سؤال من حيوان أحياناً.

شأن الخالق مع كل مخلوق شأن في منتهى الحكمة و الكمال:

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

لكن كل يوم هو في شأن، أي أن شأنه مع المستقيم تمام، وشأنه مع العاصي المُعالجة، وشأنه مع الكريم الإعطاء، ومع البخيل الإتلاف، الله عزّ وجل حكيم له مع كل مخلوقٍ وفي كل وقتٍ شأن، شأن حكيم، له مع كل مخلوقٍ وفي أي وقتٍ بحسب حال المخلوق شأن.

فأنت أب لك ابن صحته طيبة ولا يشكو شيء تقول له: كُلْ يا بني، كل ما شئت، لكن أنت أب (أنت أنت)، والابن مريض معه التهاب أمعاء شأنك معه أن تمنعه من هذا الطعام، وأن تجعل له طعاماً خاصاً به، شأنك مع ابنك المتفوّق أن تُكرمه، ومع ابنك الكسول أن تؤدِّبه، شأنك مع ابنك الصادق أن تُثني عليه، ومع ابنك الكاذب أن تزجره وأن تعنِّفه، شأنك مع من يرضيك أن تُرضيه، وشأنك مع من

يعصيك أن تؤدِّبه، فالله عزّ وجل يغفر وينتقم، يرحم ويغضب ويرضى، يعطي ويمنع، يرفع ويخفض، يصل ويقطع، ويُعز ويُذل، الإعزاز شأن، والإذلال شأن، والإعطاء شأن، والمنع شأن، والقبض شأن، والبسط شأن، والإكرام شأن، وإلقاء التجلِّي في قلب المؤمن شأن، وحجبه عن هذا التجلِّي شأن، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، يُعز ويُذل، يقرّب ويبعد، يقطع ويصل، يتجلّى ويمنع تجليه، له نفحات تأتي إليك وقد يمنعها عنك (شأن) ربنا عزّ وجل حكيم وعليم وغني وقدير، شأنه مع كل مخلوقٍ شأنٌ في منتهى الحكمة والكمال.

(كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

شأن الله مع العباد شأن حكيم:

الآن تروي القصص أن سيدنا موسى دعا الله بالسُقيا (لا توجد أمطار) فأوحى الله إليه: **أن يا موسى إنّ فيكم عاصياً**، فقال موسى عليه السلام لمن حوله: **من كان عاصياً لله فليُغادرنا**، ما غادره أحد والأمطار هطلت، قال: **يا رب من هذا الذي يعصيك من بيننا ؟** قال: **عجبت لك يا موسى أستره وهو عاصٍ وأفضحه وهو تائب ؟!!**

فأحياناً يستر، وأحياناً يعطي، من لا شيء صار كل شيء، من الفقر صار غنياً، من الضعف صار قوياً، من البلادة صار ذكياً، شأنه مع العباد شأن حكيم.

(كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

فالآن طبيب (شيء من العلم) مرّ على المرضى في المستشفى فنظر وأمر هذا الضغط عالي أوقفوا عنه الملح، وللثاني الضغط منخفض أعطوه ملح زيادة، يوجد عنده انهدام بالخلايا أطعموه لحماً، هذا معه شحوم زائدة بالدم أوقفوا المواد الدسمة أعطوه خضراوات فقط، طبيب في بدايته كل مريض بحسب تحليل الدم يعطيه أمر، أوامر متناقضة، طبعاً الذي ضغطه عالي لا يعطيه ملحاً، ضغطه منخفض يعطيه ملحاً، الشحوم زائدة يعطيه خضراوات، البروتين ضعيف يعطيه لحوماً، مع كل مريض له شأن.

(وَلِلّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل: آية 60)

الإكرام عاقبة الشكر و القصم عاقبة الكفر:

(كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

إذا تبت له شأن معك، لم تتب له شأن معك، دعاك إليه بالبيان فإن استجبت له شأن وإن لم تستجب يوجد شأن ثانٍ، يوجد تأديب، تضرّعت له شأن، لم تتضرّع له شأن ثالث (إكرام إستدراجي) شكرت في شأن، لم تشكر في قصم.

(كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

أنفقت زكاة مالك شأنه معك أن يحفظ لك مالك، بخلت بزكاة المال شأنه معك أن يُتلِف المال، أقمت زواجك على طاعة الله شأنه معك أن يوفِّق بينك وبين زوجتك، أقمت الزواج على معصية الله شأنه معك أن يُفرّق بينكما، كسبت المال الحلال شأنه معك أن يبارك لك في هذا المال يكفيك هذا المال، درهم من حلال يكفي لأن فيه بركة، الله عزّ وجل من الشيء القليل يهب الشيء الكثير، بكسب المال هناك شبهة شأنه معك إتلاف المال، طبّقت الشريعة في طعامك وشرابك شأنه معك حفظ أجهزتك، خالفت الشريعة شأنه معك إتلاف الأجهزة.

عدل الله المطلق في كل شؤونه:

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

شأنه أن يغفر الذنب، وأن يقبل التوبة، وأن يعفو عما مضى، وأن يؤدِّب، وأن يُعاقب، وأن يُعالج، وأن يُغني وأن يُفقر، وأن يعطي وأن يمنع، وأن يرفع وأن يخفض، وأن يعز وأن يذل، هذا شأن الله لكن بالعدل المطلق، والحكمة المطلقة، والرحمة المطلقة.

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 31-36
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-01-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الخامس من سورة الرحمن، ومع الآية الثلاثين وهي قوله تعالى:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ: آية من أشد آيات الوعيد:

قال بعض العلماء: **إن هذه الآية من أشد آيات الوعيد**، وهي تشبه قوله تعالى:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ)

(سورة المدثر)

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً)

أي دعه لي يا محمد، أنا أُرَبِّيه، أنا أؤدِّبه، وهذه الآية وهي قوله تعالى:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

محاسبة الناس حساباً دقيقاً يوم القيامة:

فَرَغَ يَفْرُغُ كان مشغولاً ففرغ من شغله، وهذا المعنى لا يليق بالله إطلاقاً، لكن المعنى الآخر الذي ورد في اللغة والذي يليق بكمال الله: فرغ إلى الشيء، أي قصد إليه، أي سنقصد إلى محاسبتكم حساباً دقيقاً.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

الناس لجهلهم يتوهّمون أنك إذا أكلت مالاً حراماً باحتيالٍ أو بقوةٍ أو بقهرٍ فأنت ذكي، أنك إذا اعتديت على أعراض الناس فأنت فَحْل، إذا فعلت كذا وكذا فأنت شاطر، الله سبحانه وتعالى يُبَيِّن أن هناك حساباً دقيقاً دقيقاً:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

العاقل من يبحث عن جواب لربه عن كل سؤال يوم القيامة:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

(أخرجه ابن عساكر عن البراء)

سوف يفاجأ الإنسان يوم القيامة أن أعماله في الدنيا كلها صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، مسجلةٌ عليه بوقتها وزمانها وحجمها ونواياها وأهدافها وأن هذا الكتاب (كتاب الإنسان):

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف)

من هو العاقل ؟ العاقل هو الذي يبحث عن جوابٍ لربّه في كل لحظة من حياته، لماذا ابتسم لهذا الطفل ولم يبتسم لهذا ؟ لم يعدل بينهما، لماذا أعطى هذا ولم يعط هذا ؟ لماذا وصل هذا وقطع هذا ؟ كله في حسابٍ دقيق، إن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً.

محاسبة الإنسان لنفسه قبل حساب ربه له:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

سنقصد إلى محاسبتكم.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

حساباً دقيقاً على مستوى الذرات لقول الله عزّ وجل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

ابتسمت في وجه أخيك هو لك صدقة، أفرغت دلوك في دلو المستسقي هو لك صدقة، أمطت الأذى عن الطريق هو لك صدقة، أعنت رجلاً على حمله هو لك صدقة، دللت الضّال إلى مقصده هو لك صدقة، نزعت من المسجد قَشةً وضعتها في جيبك هو لك صدقة، كل الأعمال الصالحة مسجلةٌ لك، ابتسمت ابتسامة سُخريةٍ سوف تحاسب عليها، شددت نظرك إلى أبيك وكأنّك تُعاتبه تحاسب عليه، أغلقت الباب بعنفٍ تعبيراً عن غضبك تحاسب عليه، تحاسب على مستوى الذّرات، فكيف بالأخطاء الكبيرة ؟ فكيف بأكل أموال الناس بالباطل ؟ فكيف بانتهاك أعراض الناس ؟ فكيف بظلم الزوجة ؟ كيف بظلم الذي عندك يعمل ؟ لا تُعطه حقّه، الظلم ظلماتٌ يوم القيامة..

تهديد الله عز وجل للعباد لأنه يعلم السر و أخفى:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

من أشد آيات التهديد كقوله تعالى:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً)

(سنفرغ لكم)

سنقصد إلى محاسبتكم، وربنا عزّ وجل إذا حاسب يعلم السر وأخفى، يعلم الخبايا، يعلم النوايا، يعلم الأهداف، يعلم المقاصد، يعلم كل شيء، ويعلم ما أعلنته، ويعلم ما أسررته، ويعلم ما خفي عليك أنت، أنت مكشوفٌ أمام الله عزّ وجل.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

هذا تهديد، يشبه قوله تعالى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة فصلت: آية " 40 ")

الدنيا هدنة و امتحان للمؤمن و الكافر:

الله عزّ وجل حينما يهدد هو خالقنا، هو القوي.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

فإذا قال لك إنسان: شكوتك إلى الله، إذا كنت تعرف من هو الله ينبغي أن ترتعد فرائصك، ينبغي أن ينقصم الظهر إن قيل لك: شكوتك إلى الله، لأن الله بصير، وبيده كل شيء.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

فنحن في دار عمل، والآخرة دار حساب، نحن في دار تكليف، والآخرة دار تشريف، نحن في دار هدنةٍ، الأمور كلها مجمّدة، كالعام الدراسي كل الطلاب يدخلون إلى المدرسة، ويجلسون على مقاعد الدرس ويستمعون إلى المدرس، لكن الذي يدرس يجد هذا يوم الامتحان، والذي لا يدرس يجد هذا يوم الامتحان، الامتحان فرز للمجتهد والمقصِّر، والنتائج إعلان هؤلاء هم الناجحون وهؤلاء هم الراسبون، أما العام الدراسي هُدنة، كلهم طلاب عند الناس، كلهم يرتدون زياً واحداً، كلهم يستمعون إلى محاضراتٍ واحدة، يتلقّون عنايةً واحدة، يستخدمون أدواتٍ واحدة، لكن شتّانَ بين الطالب المجتهد والطالب الكسول، هذا سوف يكّرم وهذا سوف يخزى.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ: آية وعد للمؤمن و وعيد للكافر:

إذاً: لا يغتر الإنسان إنه في صحة، هو في بحبوحة، له مكانة، له منصب رفيع، له شأن بين أسرته، هذا كله مؤقت، لكن الغنى والفقر بعد العرض على الله.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

من أشد آيات الوعيد وبعضهم قال: **هي من آيات الوعيد وآيات الوَعد**، ولا يخفى عليكم أن الوعد للخير، والوعيد للعقاب، قال علماء التفسير: **هذه الآية آية وعدٍ ووعيد**، فالذي جاء إلى الدنيا وتعرّف إلى الله، وتعرّف إلى منهج الله، وطلب العلم، واختار امرأةً صالحة، وربّى بناته على طاعة الله، ونَشّأ أولاده تنشئةً إسلاميةً طيّبة، وكسب المال الحلال وأنفقه في طاعة الله، هذا الذي عرف الله واستقام على أمره وأحسن لخلقه وتقرّب إليه، هذا إذا فرغ الله له ليحاسبه ماذا يفعل به ؟ يدخله الجنة، إذاً هذه آية وعدٍ ووعيد، أي أنه حينما يقرع جرس الامتحان الطالب المجتهد الذي أمضى العام الدراسي كله في دراسةٍ دؤوبة يرقص قلبه فرحاً، لماذا ؟ كل هذا التعب وكل هذا الجهد سوف يأخذ نتائجه الآن، سيكتُب، سيجيب، فهذه الآية ليست آية وعيدٍ فحسب بل هي آية وعدٍ ووعيد.

محاسبة الخلق و تسوية الحساب يدعو العاقل إلى التفكر:

قال بعضهم: الحمد لله على وجود الله، في الحياة الدنيا الأوراق مختلطة، في أقوياء، في ضعفاء، في أغنياء، في فقراء، في أصحّاء، في مرضى، في مقهورين، في متجبرين، في أصحاب أعمار مديدة، في أصحاب أعمار قصيرة، في إنسان وسيم، في إنسان دميم، في إنسان موفّق في زواجه، في إنسان غير موفّق في زواجه، الأوراق مختلطة، لكن الله سبحانه وتعالى سيسوي كل الحسابات، وسيحاسب الخلائق كلها عن كل الهَنات، وسوف يفرغ كما قال الله عزّ وجل لمحاسبة الخلق، فإذا كان في حساب، البطولة في الاستقامة، لو فرضنا افتراضاً ليس هناك حساب وليس هناك آخرة والدنيا هي كل شيء، وليس هناك مبادئ ولا قِيَم، ولا رحمة في قلوب العباد، لكان القوي هو الذكي، ولكان الغني هو العاقل، ولكان الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين هو الشاطر، والذي يأخذ ما عند الناس ليستمتع به وحده هو المفلح، ولكن لأن هناك موتاً بعد الحياة، ولأن هناك حساباً دقيقاً بعد الموت، ولأن هناك جنةً إلى أبد الآبدين، وناراً إلى أبد الآبدين، ولأن هناك إلهاً يُحاسب على دقائق الأمور، ويحاسب على الذرّات، وكل شيءٍ عنده بمقدار.

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

العاقل من يمضي وقته في طاعة الله:

لأن هناك موتاً وبعثاً ونشوراً وحساباً وجنةً وناراً، وإلهاً يحصي على عباده كل حركاتهم وسكناتهم، إذاً العاقل هو المستقيم، العاقل هو الذي يكسب المال الحلال، العاقل هو الذي يمضي وقته في طاعة الله، في معرفة الله، في خدمة الخلق، في التقرُّب إلى الحق، هذا هو العاقل، لذلك قال العلماء: **ما كل ذكيٍ بعاقل.** قد تجد إنساناً أوتي قدرةً فكريةً فائقة تفوّق بها في دراسته أو في جمع المال، أو تفوّق بها فوصل إلى منصبٍ رفيع، ولكنه إن لم يعرف ربه، وإن لم يعرف أن هناك آخرةً بعد الدنيا وأن هناك حياةً أبدية سرمدية بعد الحياة الدنيا، وإن لم يستعد لهذه الحياة، وإن لم يستعد للحدث الذي لا بدّ منه، ألا وهو الموت فليس بعاقل لذلك قال تعالى:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ)

(سورة القلم)

أرجح الناس عقلاً أشدهم لله حباً :

رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً مجنوناً، فسأل سؤال العارف:

((من هذا ؟ قالوا: هو مجنون، قال: لا، إنه مبتلى، المجنون من عصى الله))

هذا هو المجنون لذلك:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

كلما نما عقل الإنسان اختار الله على خلقه، واختار ما عنده على ما عند خلقه، واختار الحياة الأبدية على الحياة الدنيا العابرة، ما هذه الحياة الدنيا ؟ إن كل مكتسباتك فيها منوطةٌ بضربات القلب، إن كل مكتسباتك فيها منوطةٌ بسيولة الدم، نقطةُ دمٍ إذا تجمّدت في رأس أي إنسان كائناً من كان ولو كان ملكاً يفقد منصبه، أليس كذلك ؟ الله جلّ جلاله هو مالك المُلك، ولا أحد يملك شيئاً في حياته، إذاً الآية الكريمة:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

سنقصد إلى محاسبتكم حساباً دقيقاً، لذلك النبي قال:

((حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، ومن حاسب نفسيه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً))

المؤمن يُلقي الله في قلبه السكينة و الطمأنينة:

الله عزّ وجل أثنى على نفسٍ إنسانية، قال:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

هذا الذي يجلس قبل أن ينام ماذا فعلت ؟ ماذا قلت ؟ كيف نظرت ؟ إلى ماذا استمعت ؟ هل صُنت سمعي عمّا حرّم الله ؟ هل صُنت بصري عمّا حرم الله ؟ هل ضبطت لساني ؟

((لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه))

(أحمد عن أنس بن مالك)

هل ضبطت جوارحي ؟ هل ضبطت بيتي ؟ هل ربّيت أولادي ؟ هل حفظت بناتي ؟ هل دللت زوجتي على الله ؟ هل أعطيت ما بذمّتي ؟ هل أدّيت واجبي ؟ هل أحسنت رعاية من استرعاني الله به؟ هذا المؤمن يسأل نفسه كل يوم:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)

(سورة الفجر)

إن كانت نفسه لوّامةً في الدنيا أصبحت نفسه مطمئِنّةً عند لقاء الله عزّ وجل، كلهم يخاف إلا المؤمن، يلقي الله في قلبه السكينة والطمأنينة.

خير أعمال المرء خواتمها:

أيها الإخوة الكرام: البطولة في خريف العمر، والبطولة عند لقاء الله، والبطولة في خواتم الأعمال، من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم اجعل خير عمرنا آخره، وخير أيامنا يوم لقاك، نلقاك وأنت راضٍ عن))

شتّانَ بين حياة المؤمن وحياة الكافر، ذكر لي أحد الإخوة يعمل في مستشفى طبياً، جاءهم مريض مصاب بورمٍ خبيث في أمعائه، لكن هذا المريض مؤمن، قال لي هذا الطبيب ؟ والله أمره لعجيب، ما دخل عليه أحدٌ إلا أشهده أنه راضٍ عن الله، يقول له: اشهد أنني راضٍ عن الله، يا رب لك الحمد، المرض خبيث ومؤلم، والآلام لا تُطاق، وما سُمِعَ له صوتٌ ولا أنين، وكان إذا قرع الجرس يتهافت الأطباء والممرضون على خدمته، وتفوح من غرفته رائحة المِسك، وتوفّاه الله عزّ وجل، وأراد الله أن يعطي هؤلاء من بالمستشفى درساً بليغاً، دخل إلى الغرفة نفسها، مريضٌ مصابٌ بورمٍ خبيثٍ في أمعائه، لم يدع نبياً إلا كال له السباب، كلامٌ، اعتراضٌ، سخطٌ على الله، كلامٌ بذيء وقاسٍ، ومات على

هذه الحالة على حالة الكفر، مرضٌ واحد، وآلامٌ واحدة، وشتّان بين المؤمن والكافر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنّ أَمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

(من صحيح مسلم: عن " صهيب ")

قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن:

المؤمن يرى أيدي الله فوق أيدي الناس، يرى يد الله تعمل في الخفاء، يرى الأفعال أفعال الله عزّ وجل، لا يشرك مع الله أحداً لا يرى غير الله، هذا التوحيد يريحه يُلقي في قلبه السكينة والطمأنينة، لا ينام مقهوراً لا ينام حاقداً، لا ينام في حيرةٍ من أمره، لا يرى في الأرض آلهةً تتحرك، لا يرى إلا إلهاً واحداً، هو في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، يرى أن الأمر كله يرجع إليه، وأن الله بيده كل شيء، وبيده مصير كلُ مخلوق، وأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء، علاقته مع الله، هذه الراحة النفسية، هذه الطُمأنينة هذه السكينة هي الصحة، ضغط الدم يأتي من ضغط الهَم، ضيق الشرايين، هناك ضيق للشرايين عصبي وليس وعائي، في أمراض للشرايين لا علاقة لها بتصلّبها ولكن بالشدة النفسية التي تنزل بصاحبها.

الشرك أساس الرعب و الخوف و الحقد:

أيها الإخوة: كلّما تقدّم الطب (وأنا أعني ما أقول) كلما تقدم الطب كشف أن أحد أسباب السلامة من الأمراض السكينة النفسية والطمأنينة، بل إن المرض الذي حَيّر العلماء وحتى هذه الساعة ليس له دواء (الورم الخبيث) في أحدث تفسيرات هذا المرض أن الإنسان إذا أصابته شدةً نفسية خاف، أو حَقَد، أو قُهر وهذا يأتي من الشرك، لقوله تعالى:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة الحشر: آية " 2")

الرُعب والخوف والقهر والحقد يأتي من الشرك، يقول العلماء: إن الشدّة النفسية تُضعف جهاز المناعة، وجهاز المناعة مكلّفٌ بضبط نمو الخلايا، فإذا ضعف جهاز المناعة تفلّتت الخلايا من عُقالها، وقد يعجب إنسانٌ أن هذه الأمراض الوبيلة تتفاقم بشكلٍ وبائي مع نقص الإيمان، ومع التعلّق بالدنيا، ومع الانغماس في المعاصي والآثام.

نفس الإنسان أمانة بين يديه:

أيها الإخوة الكرام كما قال الله عزّ وجل:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

من هم الثقلان ؟ في أوجه التفاسير: الإنس والجن، لأن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

(سورة الأنعام: آية " 130 ")

الله جلّ جلاله فيما يقول العلماء: **خلق الخلق في عالم الذّر**، وعرض عليهم الأمانة، عرض عليهم أن تكون أنفسهم أمانةً بين أيديهم، يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

النفس الزكية و النفس الآثمة:

نفسك أمانةٌ بين يديك، إن عرفتها بربّها وعرفتها بمنهج ربّها وحملتها على طاعة ربّها فقد أدّيت الأمانة، أديت الأمانة حينما زكّيت هذه النفس، وإذا زكيتها استحقت جنة ربها، فسعدت نفسك إلى أبد الآبدين، أما إذا أبقيتها جاهلةً جهلت ربها، وجهلت منهج ربها، وجهلت سبيل سعادتها، وتعلّقت بالدنيا وانغمست في ملذّاتها ثم جاءها الموت وهي صفر اليدين، وهي معتدية، وآثمة، ومرتكبة للمعاصي، هذه النفس تستحق النار إلى أبد الآبدين.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

معنى الثقلان:

1 - الثقلان من حملوا أمانة ثقيلة:

الله جلّ جلاله عرض الأمانة على السماوات والأرض أشفقت الخلائق منها وحملها الإنسان، حملها الإنس والجن، هؤلاء هما الثقلان، أما معنى الثقلين أي حملوا أمانةً ثقيلة.

2 ـ الثقلان سيتحمّلون عذاباً ثقيلاً إن هم خانوا الأمانة:

المعنى الثاني: سيتحمّلون عذاباً ثقيلاً إن هم خانوا الأمانة، كإنسان تعطيه مصروف يومه، لا له ولا عليه، لكن إنسان تُعِدُّه إعداداً ليكون في أعلى منصب، فإن لم ينجح في دراسته، تُحَمِّلُه أعباء لا يحتملها، الغرم بالغنم، فالإنسان لأنه قبل حمل الأمانة سخَّر الله السماوات والأرض تسخير تعريف وتكريم، فإن وفّى بما عاهد عليه الله سبق الخلائق كلها، رُكِّبَ الملك من عقلٍ بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوةٍ بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته كان فوق الملائكة، وإن سَمَت شهوته على عقله صار دون الحيوان، والإنسان إما أن يكون فوق الخلائق كلِّهم، أو دون الخلائق كلهم.

تسخير السماوات و الأرض لمن كُلف بحمل الأمانة:

الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

أي خير ما بَرَأ الله أما:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

أي الإنس والجن المخلوقات التي حملت الأمانة، ولأنها حملت الأمانة سُخِّرَت لها السماوات والأرض، وأنيطت بها مسؤولية جسيمة، وقد أُعْطِيَت سعادةً أبدية متنامية، فإذا وفّى الإنسان بما عاهد عليه الله فاز ونجح، وتفوّق وأفلح، وإن لم يوفِ بما عاهد عليه الله، كانت ذنوبه ثقيلة لا يحتملها، أي لا يوجد حل وسط مع الإنسان، إما أن يتفوّق فيسبق الملائكة المقرّبين، وإما أن يَسْفُل فيكون أحط مخلوقات الله قاطبةً.

انقطاع الإنسان عن الله سبب استحقاقه للنار:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

فإن لم يعرف الله:

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

(سورة التين)

قرأت مرة خبر في جريدة: في أستراليا تم إعدام عشرين مليون رأس غنم، وحُفِرَت لها الحُفَر ووضعت فيها للحفاظ على أسعار اللحوم في العالم، كم من شعبٍ يموت جوعاً ؟ أليست هذه وحشية ؟ كم شعبٍ يتلوّى من الجوع ؟ وكم شعبٍ يُعاني من الفقر ما يعاني ؟ عشرين مليون رأس غنم يتمُّ إعدامها في أستراليا حفاظاً على أسعار اللحم المرتفعة، ومحاصيل الحمضيات في أمريكا تُتْلَف حفاظاً على أسعارها المرتفعة، فلما بدأ الزنوج يتسللون إليها ليأكلوها سُمِمَت هذه المحاصيل في العام القادم ليحافظ أصحاب هذه المزارع على دخلهم المرتفع.

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

الحرب العالمية الثانية خَلّفت خمسين مليون قتيل.

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

فالإنسان إذا تعرّف إلى الله صار خيّراً، صار مصدر عطاء، مصدر أمن، مصدر إكرام، صار كوكباً دُرّياً، أما إذا انحرف عن طريق الحق صار وحشاً، الوحوش تأكل لتشبع، تفترس لتأكل فقط، لكن الإنسان يفعل ما لا يفعله وحشٌ على الإطلاق حينما ينقطع عن الله عزّ وجل.

استخلاف الإنسان في الأرض لإقامة العدل:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

أيها الإنس وأيها الجن، ألم يقل الله عزّ وجل:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا)

(سورة الزلزلة)

الإنسان مخلوق مهم، إنسان حمل الأمانة، أُنيط به إعمار الأرض، أُنيط به إقامة حدود الله في الأرض، أنيط به الاستخلاف في الأرض، الإنسان مستخلف، قال تعالى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: آية " 30 ")

أَمَرَنَا أن نعمر الأرض، وأن نقيم العدل، وأن نحسن، فأثقال الأرض، الإنس والجن.

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف و تكريم:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الآلاء النِعَمْ، وأحياناً الكون كما تعلمون سخَّره الله مرّتين، سخره الله للإنسان تسخير تعريف وسخَّره تسخير تكريم.

الجنة أكبر نعمة من نعم الله على الإنسان:

الآلاء هي الآيات الكونية الدالّة على عظمته وهي النعم العُظمى الدالة على كرمه، الآيات الدالة على عظمته، والنعم الدالة على كرمه.

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

فحتى:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ)

هذه من نعم الله، فالإنسان أحياناً يشعر أن حظه من الدنيا قليل، لكن طاعته لله كثيرة، مطمئن إلى ماذا هو مطمئن ؟ إلى عدالة الله، وإلى الآخرة، وإلى أن الله سوف يكرمه.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

(سورة الضحى)

هذه الدنيا فانية، عرضٌ حاضر يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل، ما الذي يجعلك مطمئنا راضياً وقد لا تملك قوت يومك، وقد لا تملك مأوى تأوي إليه ؟ لأن الله وعدك بجنةٍ عرضها السماوات والأرض.

مجازاة المحسن و معاقبة المسيء من رحمة الله بالعباد:

قد يقول قائل: ما العلاقة بين:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

وبين:

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

أن يفرغ الله لنا، أن يحاسبنا، أن يُجازي المحسن على إحسانه، أن يعاقب المسيء بإساءته هذه من النعم الدالة على رحمته وعلى عدالته لذلك:

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

فالفحص هل يعد وقتاً مزعجاً للمجتهد ؟ لا، بالعكس وقت مريح له، لأنه في هذا الوقت يظهر تفوُّقه، ويظهر جده في العام الدراسي، وينال الدرجات العُلا، ويكرَّم عن طريق الامتحان.

العقاب لمن عصى الله و رفض الدين:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

الآية دقيقة جداً:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

(سورة الرحمن)

أي أنتم في قبضة الله، إذا الإنسان عصى الله ورفض الدين وقال: الدين أفيون الشعوب، وقال: الدين غيبيّات، ونحن نحب الواقعية، ونريد أن نعالج مشكلات الواقع، ودعنا ما بعد الموت فمن مات وعاد إلينا فأخبرنا ؟ هذا ما يقوله الجهلة، الإنسان إذا رفض منهج الله، ورفض أصل الدين وانكب على الدنيا، انكب على جمع الدرهم والدينار، انكب على الانغماس بالملذات، انكب على العلو في الأرض، انكب على أن يبني مجداً على أنقاض الناس، نقول له: ثم ماذا ؟ ماذا بعد التفوُّق ؟ وماذا بعد الغنى ؟ وماذا بعد القوة ؟ وماذا بعد الصحة ؟ وماذا بعد السيطرة ؟ وماذا بعد الزواج ؟ ثم ماذا ؟

عدم استطاعة الإنسان الكافر التفلت من عقاب الله:

قال:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

أي إن عصيتموني، إن لم تطبقوا منهجي، إن لم تتعرَّفوا إلي، إن لم تؤمنوا بالآخرة، هل تستطيعون أن تتفلتوا من عقابي ؟ هل تستطيعون أن تتفلتوا من قبضتي ؟

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

تسخير أجهزة الإنسان لتتوازن مع الحياة الدنيا:

الإنسان إذا ارتفع عن الأرض (كما قرأت قبل حين) من مستوى البحر إلى عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر، أجهزته تحتمل هذا الارتفاع، أما إذا زاد عن عشرة آلاف قدم، فقد سخَّر الله له في جسمه أجهزةً

تتوازن مع هذا الضغط المنخفض ونقص الأوكسجين، لكن بعد الستة عشر ألف قدم يغيب عن الوعي، لضعف التروية، وتتمدد الغازات في جسمه فتتمزق رئتاه، وينفر الدم من أذنيه، ويشعر بآلامٍ في مفاصله وبآلامٍ في أمعائه لا تطاق (ستة عشر ألف قدم) فالطائرة الآن تطير على ارتفاع أربعين ألف قدم، أي عشرة كيلو متر، أو اثني عشر كيلو متر فقط.

أما القمر الذي وصلوا إليه وقالوا: غزونا الفضاء، قطعوا ثانيةً ضوئيةً واحدة، وقد كَلّفت المركبة التي وصلت إلى القمر ثمانية وأربعين ألف مليون دولار، رجلان وصلا إلى القمر بألبسةٍ خاصّة تقيهم انخفاض الضغط، وبأجهزة هي قِمّة العلم البشري من أجل أن يصل اثنان إلى القمر لثانيةٍ ضوئيةٍ واحدة، أما الشمس تبعد عنا ثماني دقائق ضوئية، المجموعة الشمسية ثلاث عشرة ساعة ضوئية، درب التبانة مجرتنا مئة وخمسين ألف سنة ضوئية، أما نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، والمرأة المسلسلة مليون سنة ضوئية، قبل أحدث مجرة أربع وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، أحدث مجرة ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، ماذا قطع الإنسان ؟ ثمانية وأربعين ألف مليون دولار كلّفوه ليقطع ثانيةً ضوئيةً واحدة، ومن شدة فظاظته يقول: غزونا الفضاء، ماذا غزوت من الفضاء ؟ انتقلت بمركبةٍ إلى القمر كَلّفت أموالاً لا تُحْصى ولا تُعَد، ثم عدت إلى الأرض، فإذا قلت:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا)

عدم استطاعة الإنسان الفرار من الموت:

أرسلوا مركبة بلا أشخاص من ستة أعوام وصلت إلى المشتري، تقطع في الساعة أربعين ألف ميل، وعليها مرصدٌ عملاق قُطر عدسته ثمانية أمتار، هذا المرصد رصد المجرة الحديثة التي تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، الإنسان إذا عصى الله، ورفض الدين، ورفض الإيمان بالآخرة، وانغمس في الدنيا، وانكب على جمع الأموال، وانكب على اقتناص الملذّات، يُقال له: أين المهرب ؟

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة: آية " 8 ")

تصور إنسان يعدو وقلبه منخلعٌ خوفاً من واحد يتبعه، كم هي المفاجأة إذا رآه أمامه.

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

تقديم الجن على الإنس لأنه يستطيع اختراق السماء و الأرض:

الله عزّ وجل قال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة)

أينما ذهبت ؟ إذا ذهبت إلى أقصى الدنيا، إذا ذهبت إلى أطراف الأرض يأتي بكم الله جميعاً.

(يَا مَعْشَرَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ)

قُدِّمَ الجن هنا تقديمَ أهمية لأن الجن أقدر من الإنس على خرق السماوات والأرض.

تقديم الإنس في بعض الآيات على الجن لأنه أقدر على البلاغة:

وحينما قال الله عزّ وجل:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء)

قَدَّمَ الإنس لأنه أقدر في البلاغة من الجن، تقديم دقيق.

الله تعالى علم الإنسان ما لم يعلم:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

من هو صاحب السلطان ؟ هو الله الواحد الديّان، حتى لو أن الإنسان وصل إلى القمر وصل للقمر بسلطان العلم، من علّمه ؟

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء: آية " 85 ")

المركبة الفضائية التي وصلت إلى القمر هذه مصنوعةٌ في الأرض من مواد خلقها الله، ومن حقائق كَشَفَها الله للإنسان، ولولا أن الله خلق المواد وكشف الحقائق ما وصل الإنسان إلى القمر.

السلطان هو العلم الذي سمح الله به للإنسان:

(لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

السلطان هو العلم، العلم الذي سمح الله لكم به، الإنسان إذا رأى الآن مثلاً طائرة تحمل ستمئة وخمسين راكباً، تحلِّق في أطباق الجو، هذا أحد منجزات العقل البشري، فمن خلق العقل البشري ؟ الله جلّ جلاله، إذاً الله عزّ وجل أعطانا أثمن جهاز على الإطلاق، الإنسان بهذا العقل صنع الطائرات، وأرسل الأقمار الصناعية، ونقل الصور، وخاطَبَ بالصورة، وغاص إلى أعماق البحار، وبنى البيوت، وصنع الأدوية، قد يقول الله له يوم القيامة: يا عبدي لو بذلت من هذا العقل أو هذا الذكاء واحد بالمليون لعرفتني، عرفت كل شيء، وصنعت كل شيء، وارتقيت إلى كل شيء، فمنجزات الحضارة الآن شيء لا يُستهان به، هذه ثمرة من ثمرات العقل البشري، فهذا العقل لو أعملته لما خلقه الله، لما خُلِقَ له، ماذا فعل بك ؟

العقل أثمن شيء في الكون:

هل من المعقول إنسان يشتري حاسوباً مثلاً ثمنه ثلاثين مليوناً يحل له مليون مشكلة ثم يستخدمه طاولة، معقول ؟ ألا يكون احتقره ؟ نقول له: هذا تستعمله لغير ما صنع له ؟ هذا يحل لك مليون مشكلة، يعطيك معلومات دقيقة، إنسان يستخدم حاسوب بثلاثين مليون طاولة معقول ؟ والذي يستخدم عقله بكسب المال فقط، للإيقاع بين الناس، للعلو في الأرض، وينسى ربَّه، فقد احتقر عقله.

أيها الإخوة مثل آخر: الآن في طابعات ملونة، إذا الإنسان استخدمها في اختصاص معين يحقق أرباحاً كبيرة جداً، لو استخدمها طاولة يكون قد خسرها، أما إذا استخدمها في تزوير العملة يدخل السجن (الآلة واحدة) يمكن أن تحقق أرباحاً طائلة، ويمكن أن تخسر قيمتها بتعطيلها واستخدامها لغير ما صُنعت له، ويمكن أن تكون هذه الآلة الغالية الثمينة سبباً لدخول السجن، أليس كذلك ؟ وهذا العقل، هذا العقل أثمن شيء في الكون على الإطلاق، أنت المخلوق الأول، وأثمن ما فيك العقل، لأن الجماد شيء، له طول، عرض، ارتفاع، وزن، يشغل حيّزاً، أما النبات شيء له وزن، ويشغل حيزاً لكنه ينمو، غير الجماد، الحيوان، يشغل حيزاً وينمو ويتحرّك، الإنسان يشغل حيزاً وينمو ويتحرك، ويفكِّر، فالإنسان إن لم يستخدم عقله لما خُلق له هبط إلى مستوى الحيوان، الحيوان لا يحاسب وليس مكلفاً ولا يشقى، الإنسان الذي أوتي العقل إن لم يستخدمه أو عطله أو أساء استخدامه يشقى به، فلذلك الله عزّ وجل أعطانا أثمن نعمة على الإطلاق ينبغي أن نستخدمها وفق منهج الله عزّ وجل.

علامة ذكاء المؤمن استقامته على أمر الله:

استخدم الأجانب العقل في أعلى مستوى، فالمنجزات شيء لا يصدق، ممكن جهاز حاسوب يقرأ أربعمئة وخمسين مليون معلومة بثانية واحدة، ثورة المعلومات ومع ذلك فالمجتمع البشري الآن شقي لأن هذا العقل ما نقله إلى الله، ولا عرّفه بمنهج الله، فالمجتمع الجريمة، مجتمع الانحطاط، مجتمع تبادل الزوجات، مجتمع زنا المحارم، مجتمع الشاذين جنسياً، مجتمع الانحلال، هذا إنسان استخدم عقله للمادة، صنع الطائرات، صنعوا المركبات الفضائية، نقلوا الصور الملونة، يقول لك: يلتقط مئتين محطة، هذه سهلة ؟ غير موضوع حرام أم حلال، سهلة تتحرك هذه الحركة الواسعة ؟

لذلك العقل البشري قد ورد عنه في بعض الآثار:

((أن الله لما خلق العقل قال: أقبل، فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك أعطي وبك آخذ))

من الممكن بتفكير صحيح، بساعة تأمل صحيحة، بنظرة مجرّدة يمكن أن تسعد إلى أبد الآبدين، والمجرم بساعة تفكير حَمْقاء يرتكب جريمة، إعدام، شنقاً حتى الموت، أين عقله ؟ فلما سيدنا خالد أسلم، ماذا يقول له النبي ؟ قال له: عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً. ما الذي أخّرك ؟ أنت عاقل، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، من علامة ذكائك من علامة رجاحة عقلك استقامتك على أمر الله، من علامة إعمال فكرك وفق ما أمر الله أنت تلتزم شرع الله، فتجد في علاقة بين التفوق العقلي وبين الالتزام الأخلاقي.

الأحمق ينظر أمامه و العاقل يعيش مستقبله:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

من عرف نهاية الكون ؟ فهذه أحدث مجرة ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، ماذا بعدها ؟ والأغرب من ذلك، أن هذه المركبة التي نقلت لنا صورة هذه المجرة، هذه المجرة كانت هنا قبل ثلاثمئة ألف بليون سنة، الآن وصل ضوءها إلينا، أين هي الآن ؟ هل تصدِّقون أن هذه المجرات تمشي بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر بالثانية، تقترب هذه المجرّات بسرعة الضوء، أين هي الآن ؟ هذا الكون فماذا عن خالق الكون ؟ أهذا الخالق العظيم لا نتعرّف إليه ؟ لا نقرأ كلامه ؟ لا نتبع منهجه ؟ لا نخاف منه ؟

الإمام الغزالي قال كلمة، قال: **" يا نفس لو أن طبيباً منعكِ أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين، يا نفسُ أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ "**. الله صادق لكن وعيد الطبيب أشد عنده من وعيد

الله، يقول لك: جلطة، أو ضغط يرتفع فيسبب خثرة في الدماغ (شلل) ثم يقول لها: **" أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله (من جهنّم) ؟ إذاً ما أجهلكِ ".** فالإمام الغزالي وصم نفسه بالكفر أو بالجهل إذا فكّر في معصية الله، والإنسان حينما يعصي الله مدموغ بالجهل، والكفر، والحمق، والغباء، ضيّق الأفق، ينظر إلى أمامه ولا ينظر إلى ما بعد الذي يراه، من هو العاقل ؟ هو الذي يصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه، العاقل يعيش مستقبله.

المؤمن في القبر أسعد منه في الدنيا:

أيها الإخوة: صدِّقوني أعقلكم من أدخل الموت في حساباته اليومية ؛ في كسب المال، في إنفاق المال، في إدارة البيت، في معاملة الزوجة، في تربية البنات، في تربية الأولاد، في إنفاق المال، هذا هو العاقل، الذي يُعِدُّ لساعة القبر حسابها.

شخص ساكن بغرفة، غرفة نوم، غرفة استقبال، غرفة طعام، مطبخ، بلاط، سجاد، تدفئة، حمام سيراميك مثلاً، ألم تتبع جنازة ؟ أين يوضع هذا ؟ على التراب، والله مرة كنت حاضراً دفن أخٍ كريم، الحفّار ترك فرجةً مفتوحةً في القبر، فلمّا أهال التراب على القبر قدَّرت أن كميةً كبيرةً جداً وقعت فوق الميت من التراب، الواحد وهو في الدنيا، كله ملمّع، كله نظيف، عنده حمام، عنده غرف نوم، عنده ملاءات نظيفة، أما إذا دخل القبر، هذا مصيرنا جميعاً من منا يستطيع أن يتفلّت من القبر ؟ لكن القبر صندوق العمل، القبر روضة من رياض الجنة، يتسع القبر للمؤمن حتى يكون مد بصره، وهو روضة من رياض الجنة، والمؤمن في القبر أسعد منه في الدنيا.

الكافر في القبر من أتعس الناس:

أما الكافر:

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

من ستة آلاف سنة، ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين ضرب اثنين الخير إلى الأمام.

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً)

هذا عذاب البرزخ.

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ)

الاستعداد للموت بالاستقامة و العمل الصالح:

إخوانا الكرام: الموت قريب جداً تعدُّ له بالعمل الصالح، بالاستقامة، بالإيمان، بطلب العِلم، فلو شخص معه ضغط مرتفع كيف يعالجه ؟ ليس له أعراض، لا تعالج هذا الضغط المرتفع إلا بقياس الضغط أولاً لكي تعرف أن معك ضغط مرتفع، إنسان جاهل يقول لك: ماذا أفعل ؟ يكون مرتكب ألف معصية يقول لك: ماذا أفعل ؟ هكذا الناس كلها، احضر مجلس علم تعرف نفسك، تعرف استقامتك، تعرف الحلال، الحرام، الخير، الشر، فالإنسان بلا علم جاهل، وهذه المجالس مباركة إن شاء الله، هذه مائدة الله، هذا كتاب الله، هذا الوحي الذي نزل على رسول الله، هذه معجزة مستمرّة إلى يوم القيامة، والله ما من عملٍ على وجه الأرض، أعظم من أن تتعرف إلى كلام الله، تعرف أبعاده.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

(سورة الرحمن)

الناس في قبضة الله يوم القيامة:

سمعت من يومين مقابلة مع إنسان له باع طويل بكتابة القصة، والقصة إذا حرّكت القسم الأسفل للإنسان هذه تحطِّم القارئ وقد تصرفه عن القيم العُليا، فسئل وهو في الثانية والثمانين ما مشاعرك وأنت في هذا السن ؟ قال: أخشى ذنوبي، كم شاب قرأ هذه القصة فانحرف، وكم شاب قرأ هذه القصة وزَلّت قدمه إلى الفاحشة، أين التفلّت ؟ الله عزّ وجل قال: أنتم في قبضتي يوم القيامة.

(لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

أيها الإخوة الكرام: أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً، من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يُمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح. صليت الفجر في جماعة في درس علم صغير، نحن مقدمون على رمضان، عندنا إن شاء الله في رمضان درس الفجر ودرس بعد العشاء، هذا رمضاء شهر القرب، شهر الطاعة، شهر التوبة، شهر الصلح مع الله، شهر الاستقامة، فإذا الإنسان صلّى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح، أنت بالفجر والعشاء تغطي اليوم بكامله والليل بكامله، أنت في ذمة الله، والطاعة جميلة، فالطائع لله والله يرقص فرحاً.

الإنسان المؤمن خفيف الوزن و المنحرف مثّقل بالذنوب:

قال له: ما هذا أكبرٌ ؟ قال له: أعوذ بالله هذا عِزُّ الطاعة، الإنسان النظيف، دخله حلال، إنفاقه حلال، بيته منضبط، زوجته مؤمنة، بناته منضبطات، أولاده رَبَّاهم تربية دينية صحيحة، ما في معصية ببيته، ما في معصية بدخله، هذا إنسان خفيف الوزن كأنه يطير في الهواء، أما الإنسان المنحرف مثقل بالذنوب، الذنوب معها هموم، معها خوف، معها قلق، معها تمزُّق، معها سوداوية، معها تشاؤم.

أيها الإخوة الكرام:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

استحالة التفلت من قبضة الله يوم القيامة:

فإن تفلّتُم من قبضة الله، وهذا الشيء مستحيل.

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

كشخص بأعلى درجة من العلم (الاقتصاد) يحمل دكتوراه من أمريكا، ويرأس شركة تأمين بأغنى بلاد العالم، ويركب أحدث سيارة، احترقت السيارة، ولحكمةٍ أرادها الله لم يستطع أن يخرج منها حتى أصبح فحمةً هو وزوجته، لكن مُؤَمن على حاله.

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

عاقبة المتفلت:

كلكم يرى لما الإنسان ينحرف ماذا يحل به ؟ في بصائر تحت سمعنا وبصرنا، في زلازل، في براكين، في حروب أهلية، في قهر، أليس كذلك ؟ في تشرُّد، في قحط، في فقر، في مجاعات.

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 37-45
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-01-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس السادس من سورة الرحمن، ومع الآية السابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

الكون مسير إلى أجل مسمى:

أيها الإخوة: آياتٌ كثيرةٌ جداً ولا سيما في الأجزاء الأخيرة من القرآن تبيّن أن هذا الكون على نظامه الدقيق وتكوينه البديع مسيرٌ إلى أجلٍ مسمى، وبعد هذا الأجل تكور الشمس وتنتثر الكواكب ويسَجَّر البحر وينتهي كل شيء.

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة يس)

فالكون له نهاية.

العاقل من يعدّ ليوم القيامة عدّته:

نحن الآن في أثناء العام الدراسي، في دنيا التكليف، وهذا الكون الذي نَصَبَهُ الله عزّ وجل دالاً عليه مشيراً إليه مجسِّداً لأسمائه الحُسنى مظهراً لكمالاته، فبعد أن تنتهي الحياة الدنيا ويأتي يوم الدين انتهت وظيفة الكون، فتقريباً كهذه الخرائط واللوحات والمجسَّمات التي تعَدُّ وسائل إيضاحٍ في العام الدراسي، فإذا انتهى العام الدراسي وبدأ الامتحان هذه الخرائط وتلك اللوحات وهذه المُجَسَّمات انتهت وظيفتها تطوى، وتودع في المستودعات، فنحن في الحياة الدنيا والكون مسخرٌ لهذا الإنسان تسخيرَ تعريفٍ وتكريم، فإذا انقضت الحياة الدنيا انتهت مهمّة الكون.

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

(سورة التكوير)

إلى آخر الآيات، لذلك أيها الإخوة هذا اليوم لا بدّ من أن يأتي، العاقل هو الذي يعدّ لهذا اليوم عدّته.

توازن الكون في الحياة الدنيا:

قال تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ)

(سورة الرحمن)

هذا الاستقرار، هذا التوازن الحَرَكي، كل كوكب يدور حول كوكب بمسار مُغلق، إهليلجي أو دائري، هذا الكون بمحصلة نظامه الدقيق يتحرّك مع التوازن فليس هناك ارتطام ولا انحرافٌ عن المسار لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

(سورة فاطر)

والزوال هو الانحراف، ولا شك في أن صلاة الظُهْر تقع بعد زوال الشمس عن كبد السماء، أي بعد انحرافها.

قدرة الله في مسك السماوات و الأرض:

ذكرت قبل أيام في ندوةٍ أن الأرض تنطلق حول الشمس في مسار مُغلق، ومسارٍ إهليلجي (بيضوي) له قطران أعظميٌ وأصغري، فحينما تقترب الأرض من القُطر الأصغر يزداد جذب الشمس لها، وحين جذب الشمس لها رُبّما تخرج عن مسارها وترتطم بالشمس، لذلك هذه الأرض الجامدة تزيد من سرعتها (والزيادة يسميها الرياضيون التسارع) تزيد من سرعتها زيادةً بطيئة لئلا ينهدم كلُّ ما عليها، تزيد من سرعتها لينشأ من هذه الزيادة قوةٌ جديدةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة، فحينما تصل الشمس إلى القُطر الأبعد (الأعظم) يُخْشى أن يضعف جذب الشمس لها فتنحرف عن مسارها و تغوصُ في أعماق الفضاء وتبتعد عن أشعة الشمس وتدخل في متاهات الفضاء فتبرد الأرض إلى درجة الصفر المطلق (مائتان وسبعون درجة تحت الصفر) وفي هذه الدرجة تتوقّف حركة الذرّات حول النترونات (حركة الإليكترونات حول النواة)، ومع توقف هذه الذرّات تنعدم المادة، فبلاغة القرآن الكريم:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

إن انحرفت عن مسارها زالت، غابت عن طاقة الشمس (الشمس تمدها بالطاقة) فإذا ابتردت إلى درجة الصفر المطلق تلاشت المادة:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

انتهاء مهمة النظام الكوني يوم القيامة:

طبعاً حينما يأتي يوم القيامة لا جدوى من بقاء الأرض ولا من بقاء الشمس ولا من بقاء النجوم، وكل هذا النظام الكَوني تتقوّض دعائمه وتنتهي مهمّته ويأتي عالمٌ جديد عالم الجنة والنار.

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ)

فكانت حمراء كالوردة، سائلةً كالدهان، والآن في باطن الأرض نواة الأرض سائلة وحارّة كالزيت المغلي، فربنا عزّ وجل بوصفٍ دقيقٍ موجزٍ بليغٍ جامعٍ مانعٍ يصوّر نهاية الكون، كتلٌ سائلةٌ ملتهبةٌ حمراء كلون الورد، سائلةٌ كالزيت.

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

عندئذٍ هل يستطيع الإنسان أن يكذِّب يوم الدين ؟ فحينما يكتب على السبورة مثلاً أن هناك مذاكرة رياضيات صباح الأحد، وبعض الطلاّب يُشَكِّك في هذا الإعلان على هذه السبورة، لعله بخط الأستاذ، لعله من خط طالبٍ أراد أن يُداعب الطلاب، يا ترى هل تجرى هذه المذاكرة ؟ يُشَكِّك، أما إذا دخل المدرس وقال: افتحوا الأوراق واكتبوا الأسئلة هل هناك مبرر للشك بهذا الوعد ؟

لذلك هذا الكلام أيها الإخوة ينقلنا إلى كلامٍ خطير أي أنّك مخيَّر ومع أي موضوع، ومع مليون موضوع مخيَّر خيار قبول أو رفض، لو عرضنا عليك بيتاً تشتري هذا البيت أو لا تشتريه، لو خطبت لك أمك فتاة تقبل بها أو لا تقبل بها، لو عرضنا عليك تجارةً توافق عليها أو لا توافق، لو جاءك سفرةٌ إلى بلدٍ آخر تدرس الدخل والإقامة والتعويضات، فتوافق أو لا توافق، أنت مع مليون موضوع مخيَّر تخيير قبول أو رفض، إلا مع الإيمان، خيارك خيار وقتٍ فقط، وهذه أخطر فكرة، فشئت أم أبيت لا بدّ من أن تؤمن.

الندم لمن يؤمن بعد فوات الأوان:

الذي رفض الإيمان قال:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

وقال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص)

والذي قال:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة القصص)

هل هناك كلامٌ أشد كفراً من هذا ؟ هذا فرعون نفسه حينما أدركه الغرق قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

فنحن لسنا مخيرين أن نؤمن أو لا نؤمن، أن نقبل أو لا نقبل، أن نعتقد أو لا نعتقد، نحن مخيرون متى نؤمن إما أن نؤمن في الدنيا فننتفع بإيماننا، وإما أن نؤمن بعد فوات الأوان، لا بدَّ من أن تعرف جواب هذا السؤال، فإما أن تعرفه قبل الامتحان فتنجح، وإما أن تعرفه بعد الامتحان فيزداد الندم، ولات ساعة مندم.

الإنسان العاقل من يعرف الله في شبابه:

أيها الإخوة:هذه الفكرة أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون واضحةً في أذهانكم: خيارك مع الإيمان ليس خيار قبولٍ أو رفض، خيار وقت.

وفي مثل أقرب تجد الشاب الشارد عن الله عزّ وجل، يعتقد اعتقادات فاسدة، يؤمن بنظريات لا أصل لها، يتحمّس إلى الدنيا ينكب عليها بكل طاقاته، فإذا بلغ الأربعين وتجاوز الخمسين اعتدل، شعر بدنو أجله، بدأ يُصَلِّي، فإذا ما صار الندم الشديد عند الموت هناك ندمٌ قبل الموت، فالبطولة أن تعرف الله في وقتٍ مُبَكِّر، أن تعرف الله قبل أن تتزوج كي تختار شريكة حياتك مؤمنةً تعينك على دينك، أن تعرف الله قبل أن تعمل كي تختار عملاً يتوافق مع مبادئك، أن تعرف الله قبل أن تقيم شبكةً من العلاقات حتى إذا عرفت الله رأيت نفسك مربوطاً مع هذه العلاقات، فالبطولة أن تعرف الله في الوقت المناسب، وأفضل وقت مناسب في شبابك، وهذا الحديث الجامع المانع الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم:

((اغتنم خمسا قبل خمس...))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس، أحمد عن عمرو بن ميمون)

الشاب الناجح من يستغل وقته في معرفة الله :

الإنسان في شبابه لا يشعر بشيء اسمه قلب، ولا ضغط، ولا ضيق شرايين، ولا شريان مسدود، ولا قسطرة، ولا تغيير دَسَّام يتحرّك كالحصان، وفي شبابه لا يوجد عنده ألم مفاصل ولا يوجد عنده ارتفاع نسب الأسيد أوريك، لا يُلقي بالاً إلى صحّته ولا إلى نسب تراكيب دمه ولا إلى عمل أجهزته، كتلة من الحيوية والنشاط، هذه المرحلة هذه استغلها في معرفة الله، والإقبال عليه، والأعمال الصالحة، وطلب العلم

((اغتنم خمسا قبل خمس...))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس، أحمد عن عمرو بن ميمون)

يأتي وقت المرض يغلب **شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك،** الإنسان إذا جاءه مرضٌ عُضال هذا المرض يُغَشّي على بصيرته ويعمي عينيه ولا يفكّر إلا به، فإذا كنت معافى وكنت شاباً، **وفراغك قبل شغلك** معك في بداية الحياة وقتٌ طويل، لكن بعد الزواج والأولاد، وتزويج البنات والأعمال، وتعقيب الأعمال تجد نفسك تعمل بشكلٍ إجباري، من عمل إلى عمل، من لقاء، لحل مشكلة، لمشكلة ابنتك، وابنك وأولادك، وعملك والديون، أعمال كلها متتابعة لا تجد وقتاً كافياً لمعرفة الل**ه فاغتنم فراغك قبل شغلك،** أحياناً تأتي الهموم والمشكلات على الإنسان لا يجد وقتاً ليفكّر في ربّه:

((اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس، أحمد عن عمرو بن ميمون)

ندم الإنسان بعد فوات الأوان لا يفيده شيئاً:

النبي عليه الصلاة والسلام كان من دعائه **أن يكون خير رزقه في آخر عمره،** أحياناً الإنسان وهو في بحبوحة في شبابه، المال بين يديه ينسى أن يتصدّق، ينسى أن يدفع زكاة ماله، ينسى أن يُنفق من هذا المال، فإذا عرف قيمة إنفاق المال قلّ المال بين يديه، هذا الدخل لا يكفي طعامه وشرابه، أنّى له أن ينفق، أنّى له أن يتصدّق، أنّى له أن يعاون، **فاغتنم غناك قبل فقرك، واغتنم حياتك قبل موتك.**

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا)

(سورة المؤمنون)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة الحشر)

فحينما قال الله عزّ وجل:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

في بعض البلدان إذا الإنسان خالف بعض التوجيهات كان يهدم بيته، فلو جاءه إنذار فهل يا ترى يفعلونها لا يفعلونها ؟ لو أنهم جاءوا وهدموا البيت، بعد هدم البيت أيستطيع صاحب البيت أن يشكك في هدم البيت، انهدم وانتهى.

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

من يدخل الآخرة في حساباته اليومية يلقى الله و هو عنه راض:

إخوانا الكرام: بصدقٍ صادق، الذي يتعامل مع الآخرة تعاملاً جدياً قلائل، الذي يُدخل الآخرة في حساباته اليومية، في كل كلمةٍ يقولها في كل نظرةٍ ينظرها، في كلِ كلمةٍ يسمعها، في كل حركةٍ يتحرّكها، في كل عطاءٍ، في كل أخذٍ، في كل غضبٍ، في كل رضا، في كل صلةٍ، في كل قطيعةٍ، هذا الذي يتعامل بوحي الآخرة، هذا النمط قليلٌ في المجتمع، النمط السائد يعيش لحظته، يعيش وقته، يعيش ليأكل و يشرب، أما البطل ليس من يقطع طُرقاً بطلاً إنما من يتّقي الله البطل، البطل الذي يقرأ هذا المنهج ويطبّق هذا المنهج على حياته اليومية، وعلى أخذه وعطائه وعمله ودخله وحركته، حتى يطمئن إلى أنّه مطيعٌ لله عزّ وجل، فإذا جاء الأجل بغتةً لقي الله وهو تائبٌ إليه.

الموت عرس المؤمن :

لو قيل لك: موعد إطلاق الطائرة بين الساعة الثامنة صباحاً والساعة الثامنة مساءً، وفي أية لحظةٍ نتصل بك عليك أن تخرج من بيتك فوراً وإلا ضاعت عليك هذه السفرة، فإذا كنت لا تعلم متى يتّصلون بك، ماذا تفعل ؟ تهيئ نفسك من أول الوقت، أسعد الناس من هو جاهزٌ للقاء الله عزّ وجل في أي وقت، كل شيء واضح، كل شيء مُبَيَّن، علاقاته واضحة، دخله حلال، إنفاقه حلال، بيته إسلامي، عمله إسلامي، ضبط جوارحه، ضبط دخله، ضبط إنفاقه، ضبط أجهزته وأعضاؤه، وبناته، وشبابه، وزوجته، ضبط كل شيء، فإذا جاء الأجل: مرحباً بلقاء الله عزّ وجل، ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن:

((تحفة المؤمن الموت))

(أخرجه الطبراني، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عمر)

الموت عُرْسَ المؤمن وأن المؤمن الصادق حينما يأتيه الأجل يدخل في سعادةٍ لا توصف، إنسان له زوجة ضغط عليه في أشياء شأنها كشأن كل الزوجات، قال لها:**اعلمي أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك.**

على الإنسان أن يقوم بأعمال يعود خيرها عليه بعد انقضاء الوقت:

إخوانا الكرام: إنَّك لا ترتاح حقيقةً إلا إذا نقلت اهتماماتك إلى الدار الآخرة، لأن الوقت، أنت وقت، أنت بضعة أيَّام (بأوضح التعاريف)، بأدق التعاريف بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، فأنت زمن، وهذا الزمن له إنفاقان، إنفاق استهلاكي وإنفاق استثماري، الإنفاق الاستهلاكي أن تمضيه في المباحات، دعك من المعاصي والآثام بالمباحات ؛ أكلت، وشربت، ونمت، وتنزّهت، وسهرت، وضحكت، إلى أن جاء الأجل تأتي يوم القيامة صفر اليدين، هذا الوقت ينبغي أن تنفقه استثماراً، أي ينبغي أن تفعل فيه عملاً يعود عليك خيره بعد انقضاء الوقت، لذلك أخطر شيء بسورة الفجر:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ)

(سورة الفجر)

على الإنسان أن ينتبه إلى نعم الله لأنها سبب سعادته أو شقائه:

أعطاه المال، أعطاه صحةً، أعطاه بيتاً، أعطاه زوجةً، أعطاه أولاداً، أكرمه ونعّمه، فيقول هو جهلاً:

(فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

لا هذا ليس إكراماً هذا ابتلاء، فنعمة المال كيف توظِّفها ؟ إن وظفتها في أعمالٍ صالحة فعلاً الأعمال نعمة لأنها سبب سعادتك في الجنة، الزوجة إن دللتها على الله وأخذت بيدها إلى الله فعلاً نعمة، لأنها سبب دخولك الجنة، وكم من زوجةٍ تُرضي زوجها أشدَّ الإرضاء وهي سبب دخوله النار، لذلك كانت بعض الصحابيات يودِّعن أزواجهن قبل أن يذهب إلى عمله تقول له: **" يا فلان اتق الله بنا فنحن بك وإليك، نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام ".** فكيف بامرأة لا تزال تُلِحُّ، ولا تزال تملأ سمع زوجها بطلباتها غير المتناهية إلى أن تحمله على كسب المال الحرام، فتكون سبباً في دخوله النار.

الرجال قوامون على النساء:

الإنسان إذا أساء لأهله، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

(سورة التحريم: آية " 6 ")

إن أساء إلى أهله فأبقاهم على جهلٍ، ما عرّفهم بربهم، ما أمرهم بالصلاة ولا حضّهم عليها، ولا سألهم عن فقههم ولا عن علمهم، قال: هؤلاء الأهل إذا شردوا وانحرفوا موقفهم يوم القيامة أن تقول البنت لربها: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي لأنه كان سبب شقائي، الأبوة مسؤولية، فكل إنسان في عنده ضمن بيته قبل أن يتطلّع إلى هداية الآخرين، كل إنسان لو اكتفى بهداية أولاده وبناته وزوجته لكنا في حالٍ غير هذا الحال، يغضب للدنيا ولا يغضب إن انتهكت حرمةٌ من حرمات الله، يغضب لأن الطعام غير جاهز، لكنه لا يغضب إذا رأى ابنته في وضعٍ لا يُرضي الله عزّ وجل، يقول: ماذا أفعل ؟ الله يصلحها، وهو الأب، وهو الذي جعله الله قَيُّوم هذه الأسرة، الرجال قوّامون على النساء.

من أكبر المصائب أن يغتني الإنسان على جهلٍ فيطْغى بهذا المال:

إذاً أيها الإخوة: حينما قال الله عزّ وجل:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

ذكرت قبل قليل أن المال لا يُسَمَّى نعمةً إلا إذا أنفق في طاعة الله، هو ابتلاءٌ، هو عطاءٌ موقوفٌ على نوع استخدامه، إن أنفق في طاعة الله سمي نعمةً، أما إذا أنفق في المعصية سمي نِقمةً ونَعْمَةً، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم عَدَّ الغنى المُطغي من أكبر المصائب، من أكبر المصائب أن تغتني على جهلٍ فتطْغى بهذا المال.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

إن رأى نفسه استغنى وأصبح قوي المركز لكثرة ماله، أو لكثرة من حوله من أعوان عندئذٍ يطغى.

سؤال الله الإنسان عن أدق أعماله:

قال:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

(سورة الرحمن)

طبعاً هذه الآية تضعنا في سؤالٍ كبير، كيف نوفّق بينها وبين قوله تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

(سورة الصافات)

آياتٌ كثيرة تبيّن أن الله سبحانه وتعالى يسأل عباده عن أدقّ أعمالهم، عن كل أعمالهم، والآيات كثيرة:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ: آية لها عدة معان:

المعنى الأول: عدم السؤال يكون أحد ألوان التعذيب:

كيف نوفِّقُ بين هذه الآية وبين تلك الآيات ؟ قال بعض العلماء: **أحياناً إذا أوقِفْ الإنسان وبقي أياماً دون أن يُسأل يزداد ألمه**، فعدم سؤاله وعدم معرفة سبب توقيفه هذا مما يزيد ألمه، فقال بعض العلماء: **هؤلاء الكفار ينتظرون وينتظرون و ينتظرون إلى أن يُلِحُّوا على ربهم أن يسألهم وأن يحاسبهم**، فهذا معنى، هذا معنى قاله أحد العلماء (ابن القيم).

المعنى الثاني: لمجَرّد أن يُسأل الإنسان يعطى فرصةً كي يعتذر:

وهناك معنى آخر: هو أن يوم القيامة مديد فيه مراحل مراحل، في مرحلة فيها سؤال، سؤال دقيق، وحساب دقيق، وفي مرحلة تنتهي المحاكمة ويصدر الحكم، فليس هناك سؤال، انتهى السؤال.

المعنى الثالث: الله سبحانه وتعالى حينما يسألهم كأنّه يسمح لهم أن يعتذروا:

يوجد معنى آخر، المعنى الثالث: هو أن الله سبحانه وتعالى حينما يسألهم كأنّه يسمح لهم أن يعتذروا، إنهم وصلوا مع الله إلى طريقٍ مسدود، أحياناً مجرّد السؤال، لماذا فعلت كذا ؟ كأنّك تسمح له أن يعتذر أما هذا الإنسان انتهى أمره وحكم عليه بالنار، فلا معنى لسؤاله، الإنسان حينما يرتكب جريمةً يَسأله القاضي عن الدوافع، وعن الملابسات وعن وعن، أما إذا اقتنع القاضي أنه قاتلٌ عمداً، وليس هناك أسباب مخففة، يصدر حكمه بالإعدام، وحينما تُدرس إضبارته في أعلى محكمة (محكمة النقض) ويرى أن القاضي الذي حكم هذا الحكم مصيبٌ في حكمه، يصدّق هذا الحكم، فإذا نقلت هذه الإضبارة إلى رئاسة الجمهورية وصدّق عليها، ثم انتقل هذا المجرم إلى تنفيذ حكم الإعدام، قبل أن يشنق هل يسأل لماذا فعلت هذا ؟ ولا سؤال، انتهى السؤال، السؤال أثناء المحاكمة، أما حينما اقتنع القاضي أنّه قاتلٌ

عمداً، واقتنع رئيس محكمة النقض أن حكم القاضي صحيح، وصُدِّقَ الحكم في أعلى مستوى وسيق للإعدام، فلا سؤال هنا، السؤال لا معنى له إطلاقا، فلأن يوم القيامة يومٌ مديد، في مرحلة فيها حساب، في سؤال، في مرحلة فيها حكم قطعي، في مرحلة انتهى الحكم، بقي التنفيذ.

سؤال الكفار يوم القيامة عن أعمالهم السابقة سؤال توبيخ لا سؤال استعلام:

إذاً المعنى الأوّل: عدم السؤال قد يكون أحد ألوان التعذيب، عدم السؤال، المعنى الثاني، أنه لمجَرَّد أن يُسأل يعطى فرصةً كي يعتذر (والقضية انتهت) ليس هناك اعتذار، لذلك قال بعض المفسرين: إن سأل الله العبد يوم القيامة عن أعماله السابقة فهذا السؤال سؤال توبيخ لا سؤال استعلام، فليس ماذا فعلت ؟ لماذا فعلت ؟ فرقٌ كبير، ماذا فعلت ؟ سؤال استعلام، لكن لماذا فعلت ؟ سؤال توبيخ، لما النبي عليه الصلاة والسلام أوحى الله إليه أن أحد أصحابه (حاطب بن بلتعة) أرسل كتاباً إلى قريش يقول فيه: **" إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم "**، وأرسل النبي عليه الصلاة و السلام سيدنا علي مع صاحبٍ آخر إلى مكانٍ اسمه الروضة بين مكة والمدينة، وأخذوا الكتاب من المرأة وجاءوا به إلى النبي، فقرأه النبي، استدعى حاطباً، الآن النبي عليه الصلاة والسلام سيسأل حاطب عما فعل أم لماذا فعل ؟ قال له: **يا حاطب ما حملك على ما فعلت** ؟ ما سأله سؤال استعلام فالوحي أعلمه، ولكن سأله سؤال توبيخ. فإذا قلنا:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

لا يُسأل لأنه لا مجال لتغيير الحكم.

النار مثوى الكافرين:

إذاً إذا قلنا:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

أي لا يُسأل لأنه لا مجال لتغيّر الحكم، لأنه لا يُعطى هذا الإنسان فرصةً ليعتذر، كل شيء تمّ بأدق مستويات العدالة، هذا معنى.

المعنى الثاني: هو أن عدم سؤاله نوعٌ من أنواع العقاب.

المعنى الثالث الذي ذكرته: أنه لا يُسأل بعد أن سُئل وصدر عليه الحكم بإدخاله النار.

المعنى الرابع: النار نهاية العاصي:

ويوجد معنى أخير قاله بعض العلماء: الإنسان حينما يرتكب جريمةً فظيعة يستحقُ بها الإعدام، وعليه ذنوبٌ كثيراتٌ صغيرات (كأن يكون عليه مخالفة سير) وهو محكوم بالإعدام أعتقد أنه لا يُحاسب على مخالفة السير لأنه سيُعدم بعد قليل، وهذا معنى أخير.

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

عرض أعمال الإنسان عليه يوم القيامة حركة حركة:

هناك شيءٌ آخر: أحياناً عندما يُخالف الإنسان الأنظمة، الآن توجد أجهزة حديثة جداً تلتقط له صور المُخالفة، فأحياناً تأتي ورقة إلى البيت أنك خالفت، فالشيء المألوف أنك تقول: لا أنا لم أُخالف، أنا لم أكن في هذا الوقت في هذا المكان وهذه مخالفة فيها افتراء (يصير هناك مناقشة) أما الأجهزة الحديثة تُقدِّم له صورة سيارته بسرعته المتجاوزة، ولون سيارته، والمكان والزمان والوقت تفضل هذه الصورة مُسْكِته لا يوجد معها سؤال، أحيانا يسألوه فيقول: لا كنت، لا لم أكن، لا تكلمت، لا لم أتكلم، أما إذا قُدِّمت لك الصور انتهى السؤال، هذه أدلّةٌ دامغة، لعلّ الله سبحانه وتعالى يعرض على الإنسان يوم القيامة أعماله كلّها كشريط منذ أن خلقه وحتّى توفّاه حركة حركة، فعل، ترك، اقترف الفاحشة، أكل المال الحرام، احتال على الناس، اعتدى على أعراضهم، على أموالهم.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

(سورة الإسراء)

كل مخلوق يموت و لا يبقى إلا ذو العزة و الجبروت:

مرّة سمعت بالحرب العالمية الثانية في بلد أوروبي العادة عندهم أن الإنسان تُعرض عليه ذنوبه ويُطلب منه أن يَحْكُم على نفسه، فعرضوا على ضابط خيانته، عُرضت عليه ذنوبه (هذه في ألمانيا) فقيل له: ماذا تحكم على نفسك ؟ أخرج مسدساً وأطلق على نفسه الرَصاص.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

لذلك:**إن العار ليلزمُ المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى،** وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب. فعندما تنحسر عن الإنسان شهواته، وتنحسر عنه أمواله، ومكانته، ورغباته، ويبقى مع ذنبه وجهاً إلى وجه فهذا شيء لا يُحتمل، فيجب على الإنسان من حينٍ إلى آخر أن يتبع جنازة، الموت لم يدخل إلى حياتنا بدقّة، هذا المتوفى إنسانٌ مثلنا كان قبل أيام بيننا، فُتِح النعش،

حُمِل الميت ووضِع في هذه الحفرة، أهيل عليه التراب وعاد أهله إلى البيت، هل يستطيع أحدٌ منّا أن ينجو من هذه الحادثة ؟ أبداً مهما اعتنى بالبيت فلا بدّ من أن يُغَسّل في أحد غرف البيت، إذا المطبخ واسع ففيه يغسِّلوه، إذا الحمام واسع ففي الحمام، لم يكن فيغسلوه في غرفة، وقد لا يُغَسّل في البيت، في المستشفى، وقد لا يوجد له أثر، إذا كان في طائرة واحترقت لا يوجد أثر مات جميع ركّابها، فهل يوجد أحد ينفد من الموت مهما علا شأنه ؟ كل مخلوقٌ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلــى القبور جنازة فــاعلم بأنك بعدها محمول

***

العاقل من يعدّ لساعة الحساب عدّتها:

والله الإنسان من علامة توفيقه أن يفكِّر في هذه الساعة تفكيراً ملياً ؛ يُعِد لها التوبة، يُعد لها العلم، طلب العلم، العمل الصالح، إنفاق الأموال، خدمة الخلق، الذكر، التسبيح، يُعِد لها الأعمال الصالحة لأن هذا يوم لا بدّ من أن يأتي.

فأنا لا أبتعد عن واقعنا كثيراً، في هذا المسجد المتواضع في خلال عشرين عاماً كم شخصاً من إخواننا غادرنا ؟ والله كل أسبوعين يوجد شخص تقريباً أليس كذلك ؟ فهل نحن مخلّدون ؟ لا والله، ملك الموت الآن تخطّانا إلى غيرنا وسيتخطّى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، يوجد أشخاص يشترون قبر في حياتهم، وأنا أفضل الواحد إذا اشترى قبراً أن يطلع إليه هنا المصير.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة الحشر)

على الإنسان أن يلقى الله بعمل صالح يقربه إليه:

لا يليق لإنسان من روّاد المساجد يقول: أنا لا أزني، لا أشرب خمر، أنا لا آكل مال حرام (هذه ابتدائي) أنت الآن في الجامعة السؤال هو: ماذا قدّمت لله ؟ بماذا خدمت المسلمين ؟ تعلّمت علماً ؟ ساهمت في بناء مسجد ؟ في بناء ميتَم ؟ في بناء دار رعاية ؟ في بناء مدرسة شرعية ؟ أنفقت على طالب علم ؟ عملت شيئاً تُقدِّمه لله عزّ وجل ؟ ماذا فعلت ؟ لا صدقة ولا جهاد فبما تلق الله إذاً ؟ إذاً:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

المجرم وجهه أسود يوم القيامة:

ومن تفسيرات قوله تعالى:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

أنه:

(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)

(سورة الرحمن)

المجرم ظاهر.

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران: آية " 101 ")

المؤمن وجهه متألق ينظر إلى الرحمن يوم القيامة :

المسلم المؤمن.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(سورة القيامة)

مُتَألِّق، وجهٌ أبيض متألق ينظر إلى الله عزّ وجل.

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)

(سورة عبس)

فالكافر وجهه أسود، أحياناً شخصان متشابهان يُقال لهما: من الناجح منكما ؟ أما إذا الناجح معه جلاءه ومكتوب بالقلم العريض ناجح فإن السؤال ليس له معنى.

المجرم و البريء يُعرفان يوم القيامة من قسامة وجههما:

من معاني قوله تعالى:

(لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ)

لأنه:

(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)

(سورة الرحمن)

مرّة كنت عند صديق لي (محقق بالقصر العدلي) يحقق في جريمة قتل، وهذا الذي يُحقق معه نظره إلى الأرض كالح الوجه، دخل فجأةً شابٌ متألِّق الوجه، فسأله وأخذه معه (هو قريب القاضي كلّفه

بعمل) قلت سبحان الله: البريء معروف، المتهم واضح من وجهه، من انكسار بصره، من قسامة وجهه، من الغبرة التي على وجهه، من اسوداد وجهه، و البريء وجهه متألق.

فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ : آية لها عدة معان :

1 ـ الكافر إما أن يُساق من شعر مقدّمَة رأسه:

(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ)

قال: هؤلاء المجرمون يؤْخَذون بالنواصي والأقدام، الناصية شعر مقدمة الرأس، والرأس مكان تكريم الإنسان، فإذا جرّ الإنسان من شعر رأسه فهذه إهانةٌ ما بعدها إهانة.

2 ـ أو يساق من قدميه:

أما إذا جرّ من قدميه على رأسه فهذه إهانة أشد.

3- أو يُجْمَع رأسه إلى قدميه ويُلقى في النار:

إما إن جُمِع رأسه إلى قدميه ورُبط وأُلقي في النار، العلماء لهم ثلاث آراء في تفسير هذه الآية: إما أن يُجْمَع رأسه إلى قدميه ويُلقى في النار، وإما أن يُساق من شعر مقدّمَة رأسه، وإما أن يُساق من قدميه.

(فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

جهنم يراها الكافر رأي العين:

الآن أكثر الناس أي حديث عن جهنّم، عن الآخرة، عن الموت، يَزْوَرُّون منه، يتأففون منه، دعك من هذا الحديث، حدّثه عن أسعار العملة، عن البيوت، عن المقاصف، فيلات، شركات مساهمة، تجارات، سياحة، رحلة، تجد أن لعابه يسيل، أما إذا حدّثته عن شيءٍ بعد الموت فإن قلبه يزداد انقباضاً، أما الذي يقول: أنا مؤمن بالآخرة لكن لا يعمل لها فإن هذا مكذب، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة الرحمن)

يرونها رأي العين.

المؤمنون يُطلون على النار دون أن يتأثروا لتزداد سعادتهم في الجنة:

إخوانا الكرام: أي شيءٍ قاله الأنبياء والرسل، أي شيءٍ ورد في هذا القرآن وفي سنة النبي العدنان فإن هذا الشيء سوف نراه جميعاً رأي العين، لذلك من بعض ما ورد من تفاسير حول قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

(سورة مريم)

حتى المؤمنون يُطلون على النار دون أن يتأثروا ولا بوهجها لتزداد سعادتهم في الجنة، أي يا أيها المؤمن لو لم تؤمن في الدنيا، لو لم تستقم لكان مكانك هنا، لأن المؤمن إذا رأى مكانه في النار لو لم يؤمن لتضاعفت سعادته في الجنة، فأنا أضرب مثلاً: شريكان اقترح أحدهما التعامل مع بضاعة ممنوع التعامل بها، فالأول رفض والثاني أصر، فَفُسِخَت الشركة، الثاني الذي أصر تعامل مع هذه البضاعة ثم ضبط بالجُرم المشهود، وأُلقي القبض عليه وأودع في السجن، فذهب الشريك الأول ليزوره في السجن، هو في الظاهر يزوره، أما في الباطن يشكرُ الله عزّ وجل على أنه اتخذ قراراً حكيماً برفضه هذه البضاعة وهو في السجن يزداد قناعةً بصواب قراره، ويزداد سعادةً بحسن تصرُّفه، أما في الظاهر يزوره في السجن، فعندما يرى الإنسان مكانه في النار لو لم يؤمن هذا معنى قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

ورود النار شيء و دخولها شيء آخر:

الورود شيء والدخول شيءٌ آخر، دخول النار عقاباً، أما ورودها ليس عقاباً ولكن اتعاظاً، وقد يرى هؤلاء الذين ظلموهم في الدنيا، أحياناً شريكان واحد لا يوجد عنده دين، ظالم، يرى عدل الله عزّ وجل، قال:

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

(سورة الصافات)

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)

الإنسان حينما يضجر من شدة الحر، ومن لهيب النار، ومن عذاب جلده المُحترق، يضجر فيستغيث فهؤلاء:

(يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)

(سورة الكهف)

هذا هو المعنى.

يطوف المجرم يوم القيامة بين جهنم و بين شراب كالزيت المغلي:

(يَطُوفُونَ بَيْنَهَا)

أي بين جهنّم وما فيها من شدة الحريق، وبين شرابٍ كالزيت المغلي.

(وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)

(سورة الرحمن)

في أعلى درجات حرارته.

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)

لذلك قال أحد الأئمة: عثرت على حديثٍ جمع علم الأوّلين والآخري هذا الحديث:

((اتق النار بقدر صبرك عليها، واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واتق الله بقدر حاجتك إليه))

(ورد في الأثر)

آمال الإنسان تنتهي بلحظة لأنه مملوك لا مالك:

لو فرضنا بلداً لها نظام خاص في الإيجار، في بعض البلاد مالك البيت لمجرّد أن يطلب من المُستأجر أن يخرج فعليه أن يخرج (ولا كلمة وبلا إنذار) لو فرضنا شخص مستأجر بيتاً، وله دخلٌ كبير، كل هذا الدخل أنفقه على تزيين بيته المستأجَر ؛ غيّر السقف، الجدران، الأبواب، التزيينات، ومالك البيت في أية لحظة يُعطيه أمراً بالخروج، لساكن هذا البيت دارٌ يملِكها ولكنها بعيدة، خربة ؛ بلا سقف، بلا نوافذ، بلا أبواب، بلا أرض، فهل من العقل أن يُنفق كل دخله على تزيين بيتٍ مستأجَرٍ يَغادره في أية لحظة وأن يُهمل بيته الأساسي الذي سيؤول إليه شاء أم أبى ؟ هذا ما يفعله الناس، كل مكتسباتهم في الدنيا، يريد فيلا ومسبح، يريد مكان على البحر، يريد أحدث مركبة ولكن إلى متى ؟ كل مكتسباته في هذه الأشياء، لا عرف الله ولا صلى، ولا استقام، ولا غضّ بصره، ولا حرّر دخله، وفي أي لحظة يقف قلبه فجأةً، أي إن كل آمال الإنسان أساسها سيولة الدم في الدماغ ولو كنت ملكاً، دمٌ تجمد في الدماغ انتهى كل شيء، فهل أنت مالكٌ أن مملوك ؟ إنك مملوك.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

(سورة الملك: آية " 1 ")

طاعة الله خير للإنسان من ذكائه و ماله:

لا تملك شيئاً، ولا تملك أن تبقى في مكانك ولا دقيقة، الإنسان يكون بعقله وبرأسه، حكى لي شخص عن رجل فقد عقله مؤقتاً، باع كل أمواله بثمنٍ بخس والآن لا يملك درهماً في الحياة (رجع إليه عقله) أي أن هذا المرض جاء وذهب، جاء فباع كل أملاكه ولا يعرف أحدٌ كيف أنفقها والآن لا يملك بيتاً يسكنه، ولا تملك عقلك، وإذا الإنسان فقد عقله أولاده يتوسطوا لدى أعلى مستوى بمحلٍ في مستشفى الأمراض العقيلة لأبوهم الذي اشترى البيت وجّهزه لهم، فأنت لا تملك شيئاً، لا تملك إلا أن يرحمك الله عزّ وجل، ومع الله عزّ وجل لا ينفعك ذكاؤك، ولا ينفعك مالك ولكن تنفعك طاعتك له.

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

و في الدرس القادم إن شاء الله نتابع..

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (7-7): تفسير الآية 46 إلى آخر السورة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-01-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس السابع من سورة الرحمن، ومع الآية السادسة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

الله موجود مع كل مخلوق :

مقام الله أنه يُشرف على خلقه.

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

(سورة الرعد: آية " 33 ")

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ)

(سورة هود: آية " 114 ")

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

(سورة الشعراء)

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

(سورة الرد: آية " 33 ")

الله موجود ومع كل مخلوق، ويكشف حقيقته، ونواياه، ومقاصده، وبواعثه وأهدافه وصراعاته.

مقام الله مقام الإشراق و السمو:

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

الله سبحانه وتعالى قيامنا به، والإمداد منه، وهو سميعٌ قريبٌ مجيب عليم، لو تكلمنا يسمعنا، وإن تحركنا يرانا، وإن سكتنا ووقفنا يعلم ما في أنفسنا، مقام الله عزّ وجل مقام الإشراق.

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

وهو معكم أينما كنتم، المتناجيان يعلّم الله نجواهما.

الشهوات طريق الإنسان إلى الارتقاء إلى الله:

قال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

(سورة الرحمن: آية " 46 ")

لما يخاف ؟ لأن الله أودع فيه الشهوات، وسمح له بطريق واحد، بقناة واحدة، بمسرب واحد، بطريقة واحدة لإنفاذ هذه الشهوات، فإذا تطلّعت نفسه إلى خلاف منهج الله عزّ وجل ذكر مقام الله أنّه معه، وأنّه يراقبه، وأفضل إيمان الرجل أن يعلم أن الله معه حيث كان، إذا ذكر مقام ربه، الأصل أن الله أودع فينا الشهوات.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

(سورة آل عمران)

في كل إنسان بما فيهم الأنبياء، شاءت حكمة الله أن يودع فينا الشهوات من أجل أن نرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، نرقى بها صابرين، ونرقى بها شاكرين، نرقى بها إذا غضضنا طرفنا، ونرقى بها إذا نظرنا، إذا نظرنا إلى من تحل لنا نرقى شاكرين، وإذا غضضنا عمن لا تحل لنا نرقى صابرين، إذا أخذنا المال الحلال نرقى شاكرين، فإذا كففنا عن المال الحرام نرقى صابرين، أودع الله فينا الشهوات لنرقى بها إلى رب الأرض والسماوات.

الإنسان بلا شهوة لا يرقى عند الله:

الإنسان بلا شهوة لا يرقى عند الله، كيف يرقى ؟ ماذا يعمل ؟ ماذا ينفق ؟ لكن أودع فيه حب النساء، وسمح له بالزواج وأمره بغض البصر، أودع فيه حب المال، سمح له بالكسب الحلال ومنعه عن الكسب الحرام، أودع فيه حب العلو في الأرض، سمح له أن يعلو بطاعته، ولم يسمح له أن يعلو بمعصيته، فالمؤمن الله عزّ وجل قال:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

ولكل مؤمنٍ من هذه الآية نصيب بقدر إيمانه وبقدر إخلاصه، المؤمن معزز، مكرم، مبجّل، محترم، الله عزّ وجل يرفع ذكره بين الناس لكن بالحق، بخدمة الخلق، بطلب العلم، بتعليم العلم، فهذه الشهوات

أودعها فينا، وعمل لنا أمراً ونهياً، قناة مسموح بها، قناة ممنوعة، أسلوب مسموح، أسلوب ممنوع، فالإنسان حينما تعرض له الشهوات وتحدِّثه نفسه أن يعصي الله، ويذكر مقام ربه الذي معه يراقبه.

أعظم شيء مخافة الله عز وجل في السر و الجهر:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال)

كل خواطر الإنسان عند الله معلومة، كل نواياه معلومة، كل دقائق نفسه معلومة، خبايا نفسه معلومة، أهدافه، لذلك هكذا قال الفقهاء (اسمحو لي أن أقول ما قال الفقهاء): قالوا: من حلف طلاقاً أنه إذا حدثته نفسه بمعصيةٍ وخاف مقام ربه فله الجنة، لا يطلق امرأته، لأن الله وعدنا وقال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

فأعظم شيء أن تشتهي شيئاً محرماً فتقول: إني أخاف الله رب العالمين، فما الذي يمنع إنسان جالس في غرفته وإلى جانبه بيوت كثيرة و ظهرت جارة له على الشرفة المقابلة متبذلة في ثيابها، ما الذي يمنعه أن ينظر إليها ؟ لا في قانون، ولا في توجيه حكومي، ولا في شيء يمنع ذلك، فإذا غض بصره عنها وأرخى الستار، لماذا غض بصره عنها ؟ لأنه خاف مقام ربه، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال له: ليست لي، قال له: قل لصاحبها ماتت (تُحَل المشكلة) قل له: أكلها الذئب، قال له: ليست لي، والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادقٌ أمين ولكن أين الله ؟

الجنة أعدها الله لمن خاف مقام ربه:

رجل لا أعرفه، أرسل لي ورقةً قبل عام تقريباً أو قبل عام ونصف، قال لي: والله أرجعت إلى جهةٍ عشرين مليون ليرة، إلى ورثة لا يعلمون عنها شيئاً، وليس في حوزتهم لا معلومات ولا إيصالات كان قد أودعها عندي أبوهم وتوفي فجأةً، لماذا أرجعها إليهم ؟ لأنه خاف مقام ربه، فلما الإنسان يدع الشيء خوفاً من الله له الجنة.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

شابٌ في مقتبل الحياة والغرائز في أشدِّها، والطريق مليء بالكاسيات العاريات المائلات المُميلات، ما الذي يمنعك أن تنظر ؟ ما الذي يمنعك أن تشاهد ؟ ما الذي يمنعك أن تقتني صحناً ترى فيه كل شيء لا يمكن أن تراه ؟

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

ما الذي يمنعك أن تأكل المال الحرام ؟ لأنك تخاف مقام الله عزّ وجل، ما الذي يحضُّك على أن تكون صادقاً ؟ لأنك تخاف مقام الله عزّ وجل، ما الذي يحملك على أن تكون أميناً ؟ لأنك تخاف مقام الله عزّ وجل.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان:

فقال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها أكلها الذئب أو ماتت لصدقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟

أخ (تكلمت هذه القصة البارحة) باع بيوتاً كثيرة قبل عشرين أو ثلاثين سنة، البيت ثمنه خمسة وثلاثين، لم يتمكن أن يسجلها (يطوب) عُرِضَ عليه كل بيت مليون، فوّت على نفسه مئة مليون لأنه لا وجهة لها، فلما أمكنه أن يسجل البيوت باسم أصحابها سجّلها بأسمائهم ولم يأخذ منهم شيئاً، قال لهم: أنا بعتكم وقتها بالثمن الصحيح وربحت عليكم وليس لي عندكم شيء، فلماذا امتنع عن أخذ مئة مليون ؟ لأنه خاف مقام ربه، فالله يجعلنا من هؤلاء، أن تقول: لا أفعل هذا لو قطّعتني إرباً إرباً، هذا مقام الله عزّ وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الحديد)

هو معك في سرّائك وضرّائك، وفي حضرك وفي سفرك، في لهوك، وفي بيتك، وفي عملك وفي الطريق، وفي السفر معك.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الحديد)

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)

(سورة الشعراء)

هذا هو مقام الله عزّ وجل، لذلك أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان.

مراقبة الله للإنسان تجبره أن يستحي منه:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

الإنسان ينبغي أن يستحي من الله، كلما ذكر أن الله معه وأنه يراقبه يستحي، بل إن الإنسان يستحي أحياناً من شخص، إذا كان زارك زائر ترتدي ثياباً معقولة، تتكلم كلمات مقبولة، تجلس جلسة معقولة، جلستك وحركتك وكلامك وثيابك مقبولة لأن في شخص يراقبك، فكيف إذا كان الله هو الذي يراقبك ؟

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

أما لماذا هم جنتان ؟

وصف الجنة بالمثنى لها عدة تفسيرات:

في سورة الواقعة ورد أن هناك:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

(سورة الواقعة)

وأن هناك:

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

(سورة الواقعة)

هذا تفسير، لكنه لا يستقيم لأنه:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

كل جنةٍ من هذه الجنتان وصفت بالمثنى.

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

(سورة الرحمن)

1 ـ الجنتان جنة للإنس وجنة للجن:

قال بعض المفسرين: **الجنتان جنة للإنس وجنة للجن، لأن الجن مكلّفون كالإنس.**

2 ـ الجنتان مضاعفة للثواب:

وقال بعضهم: **الجنتان مضاعفة للثواب**، يقول لك: الساعة الإضافية لها أجر مضاعف مثلاً، مكافأة مزدوجة، راتب مزدوج، من باب الإكرام مضاعفة الثواب.

3 ـ جنة لهم وجنة لأزواجهم:

وبعضهم قال: **جنة لهم، وجنة لأزواجهم.**

4 ـ جنتان إذا مكث في الأولى تاق إلى الثانية و العكس صحيح:

وبعضهم قال: جنتان إذا مكث في الأولى تاق إلى الثانية، فإذا مكث في الثانية تاق إلى الأولى، يقول لك: مقر صيفي، مقر على الساحل، أحياناً الإنسان يكون ببحبوحة يكون له بيت على الساحل، يكون له بيت في المصيف، يكون له بيت في المدينة، يكون له مزرعة، فالتنقل من مكان إلى مكان، مبالغة في الإكرام.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

الجنتان جنةٌ له، وجنةٌ لنسائه، جنةٌ له في مكان وجنة له في مكان آخر، أو مضاعفة للثواب، أو جنة لإنس وجنة للجن، قال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الجنتان في الآخرة آية في الحسن و الجمال:

هاتان الجنتان، كل جنتين لهما وصفٌ في كتاب الله، الجنتان الأوليان:

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

الأفنان أي أشجار، لها جذوع، ولها فروع، ولها أغصان وارفة مزدانة بالثمار، خضراء، ظلها كثيف، هذا معنى:

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

(سورة الرحمن)

العين تجري، فما أجمل الأشجار الملتفّة حول أغصانها والينابيع تجري من تحتها، أحياناً يكون بستان جميل جداً لكن لا يوجد فيه ماء جارٍ، وأيام ماء جارٍ بلا أشجار، أما إذا اجتمعت الأشجار مع الماء الذي يجري فهذا غايةٌ في الحسن والجمال، فهاتان الجنتان آيةٌ في الحسن والجمال، فهاتان الجنتان الأوليان للسابقين السابقين.

وصف الجنة في الآخرة:

في الدنيا يقول لك: خمس نجوم، أربعة نجوم، بريمو، درجة أولى، درجة ثانية، فهاتان الجنتان في الآخرة للسابقين السابقين جنتان ولأصحاب اليمين جنتان، الأوصاف مختلفة، الآن نبدأ بجنتي السابقين السابقين، الدرجة الأولى:

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

أشجار وارفة الظلال، نضرة الأغصان، متسعة الظل، كبيرةٌ كالدوحة.

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

نبعٌ من الماء كالرَقراق يسيل تحت هذه الأشجار:

(مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)

(سورة الرحمن)

الإستبرق من أرفع أنواع الأقمشة ذات الخَملة، هذه البطائن فكيف الظواهر ؟ جنة عرضها السماوات والأرض، فكم طولها ؟ إذا كان عرضها هكذا، فكم طولها ؟ إذا كانت هذه المتكئات بطائنها من استبرق أي من أرقى أنواع القماش المخملي الأخضر، فما نوع ظواهرها لأنه (طبعاً هذا وصف من الله للجنّة)، لأنه:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

(متفق عليه عن أبي هريرة)

ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم فقط:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ)

(سورة السجدة: آية " 17 ")

مرة شخص قرأ أمامي هذه الآية فقال: فلو تعلم فقلت له: لا ليس لو، لأن لو حرف امتناع للوجود، لو يمكن أن نعلم، أما الله عزّ وجل قال:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ)

لا يمكن أن نعلم، وليست في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم، مثلاً ضربت هذا المثل قبل حين: طائرة أكبر أنواع الطائرات، وأرقى أنواع الطائرات ثمنها ثلاثة آلاف مليون (775) وفي طائرة صغير للأطفال تشبهها، هذه اسمها طائرة ثلاثة آلاف مليون وهذه طائرة ثمنها اثني عشر ليرة، هل هناك ما يجمع بينهما ؟ ليس مما في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم فقط.

(فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

(سورة الرحمن)

من كل أنواع الفواكه زوجان، والفاكهة تعبير عن الإكرام.

(فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

فهذه الجنة يستغنى عنها من أجل سنواتٍ معدوداتٍ في الدنيا مشحونةٍ بالمشكلات ؟!! صدقوني سنوات معدودة، دققوا في الذين يتوفاهم الله، عمر المرحوم ثلاثة وستين، عمر المرحوم اثنين وخمسين، عمر المرحوم ثلاثة وأربعين، لنا صديق ثلاثة وأربعين، عمر المرحوم سبعة وخمسين، ثمانين ما شاء الله و هذا نادر، وصل للثمانين ما شاء الله، معناها أن معترك المنايا بين الستين والسبعين.. بربكم في أي سنٍ يمكن أن تستقر ؟ أليس قبل أربعين سنة، كم بقي ؟ عشرين سنة مع الاحتياط، عشرين أو عشر سنوات، فهذه السنوات العشر المشحونة بالمتاعب والهموم والمشكلات تستأهل أن نستغني عن الجنة بأكملها.

كل شيء في الجنة بمتناول يد الإنسان:

(مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)

(سورة الرحمن)

أحياناً ترى نخلة عليها تمر رائع، لكنها تتطلّب اختصاصيين يصعدون على النخل يربط نفسه بحبلة ويصعد على الدرج ثم ينزل، أما أحياناً ترى الشجرة في متناول يدك، شيء جميل جداً أن يكون الشيء أمامك، في متناول يدك:

(وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)

أي قريبٌ منك.

المرأة في الجنة تقصر طرفها على زوجها فقط:

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)

أي أن أجمل صفةٍ في المرأة ألا تنظر إلى غير زوجها، تقصر الطرف عليه، وأبشع صفةٍ في المرأة أن تحدّثه عن الرجال، فلان دخله، شكله، طوله، دائماً ينشأ بين الزوجين المتفلتين هو يذكر لها محاسن النساء الأخريات فيحرق قلبها، وهي تذكر له محاسن رجال آخريّن فتؤلمه، لكن المرأة في الجنة تقصر طرفها على زوجها.

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)

لذلك ممنوع في الإسلام أن تَصِفَ المرأة لزوجها نساءً أخريات وكأنه يراهن، الحجاب أصبح ليس له معنى، إذا وصفت له امرأةً أخرى وصفاً دقيقاً فكأنه ينظر إليها، وإذا وصف له رجلاً صديقه وصفاً

دقيقاً فكأنها تنظر إليه، فربما تحوّل عنها إلى غيرها، وربما تحوّلت عنه إلى غيره، عندئذٍ تنفصم العلاقة والمودّة والرحمة بين الزوجين، يعني بشكل مباشر أحد أسباب الوفاق الزوجي في الإسلام أن هذه المرأة ليس بإمكانها أن تتصل إلا مع زوجها، بحسب منهج الله عزّ وجل، وأن هذا الزوج لا يسمح له الشرع لا أن ينظر ولا أن يتكلّم ولا أن يقيم علاقة مع غير زوجته، لذلك هذا أحد أسباب السعادة.

أحد أسباب سعادة الإنسان أن يتقيد بشرع الله تعالى:

سمعنا عن رئيس جمهورية في بلد أوروبي متقدّم جداً وقيل: حضر الجنازة وزوجته وعشيقته (شيء طبيعي جداً) أما عندنا غير طبيعي، فهذه حالة مرضية، نحن لا يوجد عندنا إلا زوجاتنا.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)

أي أن هذه المرأة لم يعرفها أحدٌ غيرك، فلو شخص أخذ أرملة فدائماً تحدّثه عن: المرحوم، المرحوم، المرحوم، ينتخر عظمه بالمرحوم.

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

فصارت هذه الجنة الدرجة الأولى.

المرأة في الجنة كأنها الياقوت و المرجان:

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)

(سورة الرحمن)

كأنهن في حسنهن، في لونهن وفي قوامهن الياقوت والمرجان.

(كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

فلذلك امرأة من صحابيات رسول الله، طلبت من زوجها طلباتٍ لا يحتملها، فحسم الأمر بهذا الجواب، قال لها: **"اعلمي يا فلانة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها نور الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أضحي بهن من أجلكِ ".**

المرأة الصالحة في الدنيا تغدو في الجنة حور عين:

الآن العلماء قالوا: المرأة الصالحة في الدنيا التي عرفت ربها، واستقامت على أمره، وكانت مسلمةً مؤمنةً قانتةً تائبةً عابدةً ثيّبةً أو بكراً كما قال الله عزّ وجل هذه المرأة الصالحة تغدو في الجنة حوراً من حور الجنة، بعض آراء المفسرين:**أن الحور العين في الجنة هُنّ زوجات المؤمنين بالذات** ، لكن الله سبحانه وتعالى يعطيهن جمالاً فائقاً ليس لهن في الدنيا، وبعضهم قال: إن الحور العين، مخلوقات يخلقها الله في الجنة، وبعضهم يميّز أن الحور العين التي هي زوجةٌ لمؤمنٍ في الدنيا أرقى للمؤمن من حور عين الجنة التي لم تُخْلَق في الدنيا، لماذا ؟ لأن المرأة المؤمنة التي عرفت ربها في الدنيا، وابتعدت عن الحرام، وقصرت طرفها على زوجها، وأحسنت تبعُّل زوجها وأولادها، وصلّت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت نفسها وأطاعت زوجها، هذه امرأةٌ لها عند الله مكانةٌ كبرى، لها إقبالٌ على الله، لها اتصالٌ به غير التي يخلقها الله في الجنة بأروع شكل لكن ليس لها عمل صالح في الدنيا ترقى به.

هناك فرق بين دُمية وبين زوجة، لذلك يقولون: الحور العين الآتي في أعلى مستوى هي المرأة المؤمنة في الدنيا التي عرفت ربها، وخافت مقام ربها، واستقامت على أمره، وأحسنت تبعُّل زوجها وخدمة أولادها حتى ارتقت إلى الله عزّ وجل، فإذا دخلت الجنة كانت في أعلى مستوى.

للمرأة في الجنة زوج يسكن إليها:

لو فرضنا أتيح لشخص أن يجلس مع امرأة في أعلى مستوى، لو أن هذه المرأة مثلاً متعلِّمة دينياً، متفقِّهة في الدين، تحفظ كتاب الله، تعرف أوامر الله ونواهيه، الجلوس مع امرأة بأعلى مستوى من حيث الشكل مع علم أكمل بكثير، فكيف إذا كانت صدِّيقة مثلاً، إذا كانت مؤمنة عابدة طائعة لله ؟ فالحور العين إن كن زوجات المؤمنين في الدنيا هن في أعلى مستوى في الآخرة.

وقد يقول قائل دائماً: إذا كان للرجل حور عين فماذا للمرأة ؟ كيف أن المرأة في الدنيا كما أن الزوج يسكن إليها هي تسكن إليه بالمقابل، كذلك هذه المرأة التي آمنت في الدنيا واستقامت على أمر الله عزّ وجل وعرفت ربها وتقرّبت إليه ودخلت الجنة، كما أنها تغدو سكناً لزوجها في الجنة، يغدو زوجها لها سكناً في الجنة، إذا كان له الحور العين، هي لها الأزواج المؤمنين، هو له حور عين، هي لها زوجٌ مؤمن في الجنة.

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ: هذان النموذجان من الجنة للمحسنين:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

فُهم أن هاتين الجنتين اللتين في أعلى مستوى.

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

الفُرُش من استبرق.

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)

قال: هذا النموذج من الجنة، أو هذان النموذجان من الجنة للمحسنين.

من هم المحسنون ؟

هي مرتبةٌ تحدّث عنها النبي، هي فوق الإيمان، في إسلام، في إيمان، في إحسان، الإسلام أن تنقاد لله، تُسَلِّم أمرك إليه تطبيقاً وتنفيذاً، والإيمان أن تقبل عليه، والإحسان أن تعبده كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذه الإحسان أعلى مرتبة، قال: هل جزاء الإحسان الذين فعلوه في الدنيا إلا الإحسان في الجنة، الله عزّ وجل وفي وشكور ولا تضيع عنه الأعمال.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

الدرجة الثانية في الجنة هي درجة الإيمان:

الآن في درجة ثانية، أربع نجوم.

(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

لأصحاب اليمين، هذا دون الإحسان، هذا مرتبة الإيمان، أي أنه أطاع الله عزّ وجل واستغرق في المباحات، لم يعص الله، لكن يقول لك: ساعة لك وساعة لربك، هو استقام على أمره واتّبع منهجه لكن لم يبع نفسه له كلياً.

(وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ)

(سورة الواقعة)

كل وقته، نفسه، ماله، طاقاته، خبراته، كل إمكاناته وظّفها في الحق، قال له: كم الزكاة سيدي ؟ قال له: عندنا أم عندكم ؟ قال له: كم عندنا وكم عندكم، وما عندنا وما عندكم: قال له: عندكم اثنان ونصف بالمئة، أما عندنا العبد وماله لسيده.

(إِنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمُ الْجَنّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

الأشياء في الدرجة الثانية محدودة و ليست مفتوحة:

الآن الدرجة الثانية.

(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنّتَانِ (62) فَبِأَيّ آلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ (63) مُدْهَامّتَانِ)

(سورة الرحمن)

فيهم اللون الأخضر في هاتين الجنتين داكن، مائل إلى السواد.

(فَبِأَيّ آلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ (65) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضّاخَتَانِ)

(سورة الرحمن)

هناك عينان تجريان، هنا عينان نَضّاختان.

(فَبِأَيّ آلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ (67) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمّانٌ)

(سورة الرحمن)

هناك من كل فاكهةٍ زوجان، ألا تلاحظوا الفرق ؟

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

(فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمّانٌ)

(سورة الرحمن)

أي توجد وجبة محددة وليست مفتوحة.

في المرتبة الأدنى في الجنة حور عين و خيام و قصور:

(فَبِأَيّ آلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ (69) فِيهِنّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)

تفسير

(الخيرات الحِسَان)

قال:

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)

الخيرات الحِسَان:

(حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)

هناك قصور، هنا خيام.

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)

كحور السابقين السابقين.

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

معنى

(يطمثهنّ)

أي لم يمسّهُنّ.

(إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ)

أي بُسُط راقية جداً.

المرتبة الثانية في الجنة فيها بُسُط وثيرة كأنّها من صنع عبقر:

(خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)

هناك البطائن من إستبرق، هنا متكئين على بسطٍ ناعمةٍ كالرَفرَف ترفُّ بصاحبها أي وثيرة، يقول لك: تغوص القدم في هذا السجّاد.

(رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)

العبقر هو وادٍ في الجزيرة اسمه وادي عَبْقَر، كل شيء فائق الصنعة يُقال: هذا من وادي عبقر، لأن العرب كانوا يعتقدون في الجاهلية أن الجنّ تسكنه، فإذا إنسان تجاوز الحد الطبيعي يُقال له: عبقري أي من وادي عبقر، وادي تسكنه الجن، الآن إذا رأوا شخصاً ذكياً جداً يُقولوا عنه: مثل الجني، فوادي عبقر وادي في الجزيرة تسكنه الجن في زعم العرب في الجاهلية، فكلّما رأوا عملاً فائقاً في صنعته يُقال: هذا عمل عبقري هذا من صنع الجنّ، فهنا ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)

المُتكئ هو بُسُط وثيرة ناعمة لونها أخضر وكأنّها من صنع عبقر حسنة المنظر

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

العمل الصالح في الدنيا يقابله الجنة في الآخرة:

صار عندنا جنّتين، أول ما يخطر في بال الإنسان أنه:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

للإنس جنّة وللجنّ جنّة، أو مضاعفة للثواب، الراتب مُضاعف، أو جنّةٌ له وجنّةٌ لنسائه الحور العين، أو جنّةٌ له في مكان وجنّة في مكانٍ آخر يتنقل بينهما، ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

تبارك أي عظُمَ خيره، البركة أن يخلق الله من شيءٍ قليل شيءٍ كثير، كيف ؟ أي أنت جئت إلى الدنيا وعشت ستين سنة، مثلاً تبت في الأربعين، في الأربعين تبت إلى الله عزّ وجل، عشت عشرين سنة بالطاعة، والتوبة، والصلوات، والمساجد، والعمل الصالح، وغض البصر، وإنفاق المال، وحفظ القرآن، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتسبيح والتذكير... الخ، عشرين سنة طاعة يقابلهم أبد: مليار مليار مليار مليار، فما هذا الأبد ؟

الأبد و تعريفه:

مرّة في جامع العثمان ذكرت هذا المثل للتقريب: كتاب أمامي أقرأ منه، قدّرت طوله بخمسة وعشرين سنتيمتر، إذا كان كل ميلي فيه صفر فكم الرقم ؟ ذكرت البارحة في ندوة أن المجرّة الحديثة تبعد عنّا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، البليون يساوي مليون مليون. أي ستة × ستة يساوي اثني عشر صفراً، والألف ثلاثة أي خمسة عشر، والثلاثمئة صفرين أي سبعة عشر وثلاثة، أي ثلاثة أمامها سبعة عشر صفراً، والضوء سرعته بالثانية ثلاثمائة ألف كيلو متر × ستين × ستين × أربعة وعشرين × ثلاثمائة وخمسة وستين طلع ثمانية عشر صفر، قلت: رقم أمامه خمسة وثلاثين صفر، فما هذا الرقم ؟ يقول لك: هذا رقم فلكي، فإذا كتاب أمامي كل ميلي صفر معناه أن واحد وأمامه مائتين وخمسين صفر، ما هذا الرقم ؟ إذا أبعد مجرّة تبعد عنّا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية × السنة الضوئية الناتج واحد وأمامه خمسة وثلاثين صفراً، فكيف واحد أمامه مئتين وخمسين صفراً ؟

في جامع العثمان قلت: يا ترى من المحراب إلى الباب كم صفر ؟ كل ميلي صفر، فلو من الباب إلى ساحة شمدين كم صفر ؟ فلو إذا إلى النبك كم صفر ؟ إلى حمص، حماه، حلب، أنقرة، موسكو، القطب الشمالي، مررنا على المحيط الهادي، على القطب الجنوبي، أي واحد أمامه أربعين ألف كيلو متر

أصفار، ما هذا الرقم ؟ صدقوني أيها الإخوة أن هذا الرقم صفر أمام الأبد، لأن أكبر رقم إذا وضع صورةً لكسرٍ وكان في المخرج لانهاية ثمانية مسطحة فقيمته صفر، إذا نُسِب أكبر رقم إلى اللانهاية فقيمته صفر فما هو معنى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ)

عطاء الله في الآخرة أكبر بكثير من عمل الإنسان في الدنيا:

أنت عشت عشرين سنة بعد التوبة، عشرين سنة ؛ صلوات خمس، وصوم، وحج، وزكاة، وحضور مجالس علم، وغض بصر، وإنفاق مال، تستحق إلى الأبد جنة ؟

(تَبَارَكَ)

العطاء لا يتناسب مع العمل إنه أكبر بمليار مرّة، بمليار مليار مرّة.

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

بقدر ما هو عظيم بقدر ما هو كريم. أنا أذكر دائماً في هذه الآية أنه ممكن تعيش مع شخص تحترمه احتراماً كبيراً لكنك لا تحبه، متفوّق في اختصاصه، ممكن تعيش مع شخص تحبه حبّاً جمّاً لكنك لا تحترمه لأنه جاهل لكنه قريب لك، لكن أن تجمع بين الاحترام اللانهائي، والمحبة اللانهائية هذا شيء في الدنيا غير موجود، إنه نادر، ربنا جمع أسماءه الحُسنى كثيرة جداً، قسم من أسماؤه تحت اسم الجلال ؛ القوي، الجبّار، المتكبر، القهّار، المتين، ويوجد قسم ؛ الرحمن، الرحيم، اللطيف، الرؤوف، فكل أسماء الجلال وكل أسماء الجمال.

العاقل من يستغل كل إمكاناته في إعمار آخرته:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

أي أن هذه الجنّة لا نستغني عنها ولا ننصرف إلى غيرها لأن بعض العلماء يقول: **" وقع تحت يدي حديثٌ شريف استغنيت به عن علم الأولين والآخرين "**. وهذا الحديث:

((اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتقي النار بقدر صبرك عليها))

أعيد عليكم هذا المثل الصعب هل تقبل به (إلا أنه واقع): شخص يسكن في بيت مُستأجر ونظام الإيجار في هذا البلد مالك البيت يُخرج المستأجر من البيت في أي لحظة بلا سبب، وبلا إنذار، والمستأجر له دخلٌ كبير، هل يُعقل أن يضع كل دخله في تزيين هذا البيت المستأجر، وله بيتٌ بعيدٌ بعيد

خرب وهو يُهمل هذا البيت ؟ فالذي يعتني بدنياه دون أن يعتني بآخرته كمن يضع كل دخله في تزيين بيت لا يملكه (مُستأجر يُطرد منه في أية ثانية) أما إذا ذهب إلى بيته الحقيقي لا يوجد فيه أبواب، لا يوجد ماء، ولا توجد كهرباء، ولا يوجد شيء، فالعقل كل العقل أن تضع كل إمكاناتك في إعمار البيت الأساسي الذي تنتهي إليه، وبهذا تنتهي سورة الرحمن ونبدأ في درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى في سورة الواقعة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الواقعة 056 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-40
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-02-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة الواقعة، يقول الله عز وجل في هذه السورة:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1))

(سورة الواقعة)

يوم القيامة أت لا محال:

كلكم يعلم أن إذا أداة تفيد تحقق الوقوع، أي لابد أن تقع الواقعة، أما لو قيل إن وقعت الواقعة: تقع أو لا تقع، لذلك قال الله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللّهِ وَالْفَتْحُ (1))

(سورة الفتح: الآية 1)

وقال في آية أخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

(سورة الحجرات: الآية 6)

فالفاسق قد يأتي وقد لا يأتي لكن نصر الله لا محالة آت. وهذه أيضاً على تلك الشاكلة.

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1))

أشقى الناس من عد الدنيا دار أقامة :

الواقعة يوم القيامة. الحقيقة أركان الإيمان خمسة: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، والركنان المتلازمان دائماً هما الإيمان بالله واليوم الآخر، كل منهما يكمل الآخر، أنت إذا آمنت بوجود الله وأنه لن يحاسبك و لا يوجد إلا هذه الدنيا، لن تستقيم على أمره، إنك إن أيقنت أن الله موجود ويعلم وسيحاسب والجزاء أبدي إما في جهنم إلى الأبد وإما في نعيم مقيم إلى الأبد، عندئذ تستقيم.

فسورة الواقعة اليوم كلها حول اليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر لب الإيمان وما لم تنقل كل اهتماماتك وكل جهودك وكل مطامحك وكل أهدافك إلى الدار الآخرة فالدنيا تغدو دار شقاء، إن أشقى

الناس فيها أرغبهم فيها، إن عددتها دار إقامة، إن جعلتها محط الرحال، نهاية الآمال شقيت بها، وأما إن جعلتها طريقاً إلى الدار الآخرة تسعد بها.

معرفة الإنسان بأن إقامته في الدنيا مؤقتة تريحه:

فالإنسان حينما يقيم في بيت أشهراً ثلاثة في الصيف لا يعلق أهمية على بعض الخلل، شعوره بأن إقامته هنا مؤقتة تريحه، لكن لو رأى مثل هذا الخلل في بيته الأساسي، يتألم ! فالشعور أننا هنا ضيوف، أننا هنا عما قريب سنرتحل وسنغادر ولن نرجع، هذا الشعور يُسعد الإنسان، لذلك الآية الكريمة:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1))

ولهول وقوع الواقعة لم يذكر الجواب.

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2))

وجاء الفعل بالصيغة الماضية، إذا أخبرنا الله عن المستقبل. هو وحده يخبرنا بالفعل الماضي لتحقق الوقوع قال تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ)

(سورة النحل: الآية 1)

ولمّا يأت بعد:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: الآية 1)

لا تستعجلوه قرينة على أنه لم يأت، لكنه قال أتى.

إخبار الله للانسان يجب ان يقع:

إخبار الله لنا ينبغي أن يقع منا موقع الرؤية، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1))

(سورة الفيل)

إخبار الله لنا ينبغي أن يقع في قلوبنا موقع الرؤية، وأفعال الله المستقبلية ينبغي أن تقع في قلوبنا وكأنها وقعت في الماضي، المتكلم هو الله، هو خالق الكون:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً (122))

(سورة النساء: الآية 122)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ)

(سورة التوبة: الآية 111)

فإخبار الله لنا يجب أن يقع موقع الرؤية وحديث الله عن أفعاله المستقبلية ينبغي أن تقع فينا موقع أفعاله المتحققة.

المتكلم هو الله عز وجل و كلامه سيتحقق إن عاجلا ام اجلا:

لذلك قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117))

(سورة المائدة: الآيات 116-117)

هذا الكلام لم يقع بعد:

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى)

فإذا كان المتكلم هو الله فكلامه عن أفعاله المستقبلية يأتي بصيغة الماضي وكأنها وقعت وانتهت. وإذا أخبرنا الله عن شيء مضى لا يتاح لنا أن نراه ينبغي أن يقع هذا الخبر منا موقع الرؤية.

الشيء المحقق الوقوع والذي لا بد من أن يقع يوم القيامة:

الآية الكريمة:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2))

يعني في أشياء كثيرة جداً في حياتنا قد تقع وقد لا تقع لكن الشيء المحقق الوقوع والذي لابد من أن يقع، هو أن تقع الواقعة، أن يأتي يوم القيامة:

(لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2))

أوصاف يوم القيامة:

لكن أيها الأخوة من أدق وأبلغ أوصاف يوم القيامة هذا الوصف:

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

الحياة الدنيا درجات:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة الإسراء: الآية 21)

يعني أضرب لكم بعض الأمثلة معلم في قرية يحمل طعامه كل أسبوع والحياة خشنة جداً والمواصلات قليلة والطلاب في جهل كبير، والخدمات ضعيفة والإمكانات محدودة والمشقة بالغة كأستاذ في الجامعة ذو كرسي، مسافة كبيرة جداً، جندي غر كرئيس أركان، ممرض كطبيب جراح، بائع متجول كعضو غرفة تجارة، فرق كبير، الحياة فيها مقاييس، الحياة كلها مراتب، لكن ما قولكم أن هذا اليوم الذي لابد من أن يقع سيقلب كل المقاييس، إنسان يقيم عرساً لابنه كلفته 20 مليون وإنسان ليس معه ثمن رغيف خبز.

المؤمن يغدو يوم القيامة في أعلى مرتبة والمتفلت في الحضيض:

ما قولكم إذا وقعت الواقعة أن تنعكس الآية:

(لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

الذين كانوا في أوج الغنى أصبحوا في حضيض الفقر، والذين كانوا في أوج الصحة والتمكن أصبحوا في عذاب أبدي، والذين كانوا في الفقر المدقع وقد قبلوا من الله حكمه ورضوا بأفعاله ورضوا بقضائه وقدره وتعففوا وتجملوا، ما قولكم أن هؤلاء سيصبحون في نعيم مقيم إلى أبد الآبدين، فالعبرة ما تؤول إليه لا ما نحن فيه، فهذه الواقعة:

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

الدنيا مراتب، لكن المستقيم والمطيع سوف يغدو في أعلى مراتب الآخرة والمتفلت من منهج الله، الشارد عن ربه، المقيم على المعاصي، ولو كان في أعلى درجات المجتمع غنى وقدرة وتألقاً وشهرة سوف يغدو في الحضيض، فالعبرة لا فيما نحن عليه ولكن فيما سنكون عليه، فيما سنغدو عليه، لذلك قال تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة الأعراف)

((ألا يا رُبَ نَفْسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ في يوم القيامة، ألا يا رُبَ مُكْرِمٍ لنفسه وهو لها مُهين، ألا يا رُبَ مُهينٍ لنفسه وهو لها مُكرم، ألا يا رُبَ نَفْسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يومَ القيامةِ))

(ورد في الأثر)

العقل أساس التدبر:

لذلك الله سبحانه وتعالى أعطانا هذا العقل كي نتدبر أمورنا، كي نسعى لمستقبلنا، كي نسلك طريق سعادتنا، كي نصل إلى الجنة:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

وإذا الله عز وجل أكرم إنساناً في الدنيا ورفع شأنه، وكان مستقيماً، منضبطاً، ورعاً، منفقاً، محسناً، نِعَمُ الآخرة تتصل بنِعَمِ الدنيا، هو في الدنيا في نعيم وفي الآخرة في نعيم، إذا كان الإنسان منحه الله حظاً من حظوظ الدنيا وتعامل معه وفق منهج الله وشكر نعمة الله ولم يحجبه عن طاعة الله ؛ اتصلت نِعَمُ الدنيا بنِعَمِ الآخرة، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ويقول:

((اللهم اجعل نِعَمَ الآخرة متصلة بنعم الدنيا))

أما إذا الإنسان شرد وانحرف، وأغوته الدنيا وانصرف إليها، وجاءه الموت تنعكس الآية، يعني أبسط مثل: إذا ركبت بسيارة عامة بمكان فيه شمس وبعد دقيقة انعكس اتجاه المركبة، الحالة انعكست، من كان في الظل أصبح في الشمس ومن كان في الشمس أصبح في الظل.

من خصائص يوم القيامة قلب الموازين:

أحياناً يرتفع الإنسان فجأة أو يسقط فجأة لكن يوم القيامة من خصائصه أنه يقلب الموازين، موازين الأرض: الغنى، فالغني محترم في الأرض، القوة، فالأقوياء يرهب جانبهم، والأغنياء يطمع في مالهم ومن أوتوا حظا من الوسامة يتألقون في المجتمع وكذلك من أوتوا حظاً من طلاقة اللسان، هذه كلها حظوظ الدنيا فإذا جاءت الواقعة، انقلبت الموازين، من هو المحسن ؟ من هو المستقيم ؟ النبي عليه الصلاة والسلام مرّ مع أصحابه على قبر فقال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

(ورد في الأثر)

الدنيا فيها أموال، معامل، فنادق، شركات، متنزهات، أماكن جميلة، نساء فيها كل شيء، قال ركعتين نافلتين مما تحقرون من عبادتكم خير له من كل دنياكم:

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

ما يحدث في الدنيا ما هو الا نماذج مصغرة عن يوم القيامة:

ماذا سيكون:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1))

قال:

(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً (4))

الله عز وجل يعطينا نماذج مصغرة جداً في الدنيا، بعض الزلازل، صور الزلازل مخيفة، انهيار الأبنية، تصدع الجسور، التواء الطرق، انشقاق التربة، أن يدفن الناس تحت الأرض، هذا زلزال أرضي لمدة أربع ثواني مثلاً و ستة ريختر فعل ما فعل، فكيف:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً (5))

معنى بست أي فتت، جبال هملايا ارتفاعها ما يقارب 9000 م تصبح هباء منثوراً، رمل:

(وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً (5))

أي تفتت.

تفتت الجبال يوم القيامة لتصبح هباء منثوراً:

(فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً (6))

الهباء: إذا دخل ضوء الشمس في الشتاء وكنست أرض الغرفة ترى ذرات عالقة في ضوء الشمس في جو الغرفة هذا هو الهباء. فهذه الجبال الشامخة، الجبال العملاقة، هذه الجبال تغدو هباءً منثوراً:

(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً (6))

هباء منتشر في كل مكان، تصور من أربعين أو خمسين سنة يؤخذ من بعض الجبال رمل والجبل هُوَ هُوَ، في جبل بجنوب دمشق يؤخذ منه رمل أسود يعني من أربعين أو خمسين سنة يومياً تأخذ الشاحنات من هذا الجبل رمل أسود إذا نظرت إليه هُوَ هُوَ، لم يتغير شكله إطلاقاً، فكيف إذا أصبحت كل هذه الجبال هباء منبثاً ؟

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً (6))

ذرات عالقة في الجو، موزعة في كل مكان.

البشر على اختلاف أنواعهم ومللهم يوم القيامة ثلاثة أصناف :

(وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً (7))

نحن في الدنيا مِلَلْ ونِحَلْ وأعراق وشعوب، وطوائف وانكلو ساكسوني والشعوب السامية، والشعوب الإفريقية وشعوب متفوقة وأخرى متخلفة، شعوب منتجة وشعوب مستهلكة، شعوب راقية متمدنة وشعوب جاهلة، على مستوى البلد وعلى مستوى القرية وعلى مستوى الأسرة: ملل ونحل وجهات وأعراف وأنساب، هؤلاء البشر وعلى اختلاف أنواعهم وانتماءاتهم ومللهم ونحلهم في يوم القيامة ثلاثة أصناف:

(وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11))

1 - أصحاب اليمين:

أصحاب اليمين: هم المقتصدون الذين أخذوا بالمُبَاحات وأطاعوا الله عز وجل.

2 - أصحاب الشمال:

أصحاب الشمال: خرجوا عن منهج الله وانهمكوا في الملذات المحرمة، أصحاب اليمين طبقوا منهج الله واستعملوا المُبَاح، أصحاب الشمال خرجوا عن منهج الله وانغمسوا في الملذات المحرمة.

3 - السابقون السابقون:

لكن السابقين السابقين صنف آخر، هؤلاء باعوا أنفسهم في سبيل الله، هؤلاء وقتهم ومالهم وأهلهم وخبراتهم وعلمهم وذهابهم وغدوهم ورواحهم سفرهم وإقامتهم كلها في سبيل الله، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، لا يطؤون موطئاً يُغيظ الكفار إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح، لا ينالون من عدو نيلاً إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10))

السابقون هم المقربون من الله عز وجل:

ربنا عز وجل بدأ بوصف حال السابقين السابقين، هؤلاء المتفوقون، هؤلاء قمم المجتمع، عند الله لا عند الناس، هنالك قمم عند الناس، وقمم عند الله، هؤلاء السابقون السابقون قمم المجتمع عند الله، أول نعيم وأعظم نعيم وأجدر نعيم سعوا إليه أنهم مقربون، كلمة مقرب مقرب ممن ؟ من خالق الكون.

(إِنّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر: الآية54 - 55)

الإنسان أحياناً يتقرب من شخص قوي يزهو بهذا القرب، يُظْهِرُ للناس قربه منه، يذكر تفاصيل لقاءاته، تفاصيل ندواته، تفاصيل زياراته، يزهو يقول أنا قريب من فلان وأنا صديق فلان و أنا صديق حميم لفلان، أنا أدخل عليه بلا استئذان، أسهر عنده أسافر معه، إذا كان شخصاً من أشخاص الدنيا الأقوياء أو الأغنياء لك معه صلة تزهو بها أمام الناس، هؤلاء السابقون السابقون من الله مقربون:

(أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ (11))

ولا يخفى عليكم أن أصل الجمال هو الله عز وجل فإذا كنت مقرباً من الله فأنت أسعد الناس، ألسنا في صلاتنا على النبي نقول: اللهم صل على أسعدنا محمد، هو أسعد الخلق قاطبة فأكبر عطاء وأكبر فوز وأكبر نجاح أنهم مقربون من الله.

أعظم عقاب من الله هو حجب الإنسان عنه:

أكبر عقاب:

(كَلّا إِنّهُمْ عَنْ رَبّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين)

أعظم عطاء القرب وأعظم عقاب الحجب:

(وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ)

إخوانا الكرام: في الدنيا أشخاص كثيرون، لا تستطيع أن تتقرب منهم، الطريق مغلق، طريق مسدود، لا سبيل إلى التقرب منهم.

التقرب من الله لا يكون إلا بطاعته:

رب العزة، خالق الكون من بيده ملكوت السماوات والأرض، هو الخالق العظيم، إذا كان مجرة تبعد عنا 300 ألف بليون سنة ضوئية، مع هذه العظمة هو قريب منك:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة: الآية 186)

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: الآية 110)

(أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11))

مقربون ومعهم وسائل القرب من الله، مقربون وبإمكانهم أن يقتربوا، أنت تقترب من الله بطاعته:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: الآية 13)

((دخل على النبي الكريم رجل أشعث أغبر فقال: أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه قال: أوَمِثْلِي، قال: نعم يا أخي خامل في الأرض علم في السماء))

كلنا جميعاً طريق القرب من الله بأيدينا جميعاً، غني، فقير، خطير، مغمور، قوي، ضعيف، صحيح، مريض، ذكي، أقل ذكاء في أية حالة كنت باب القرب من الله بين يديك، أطعه يتجلى على قلبك، أطعه يقربك.

أسمى شعور على وجه الارض أن تشعر أن الله يحبك:

والله الذي لا إله إلا هو ما من مؤمن على وجه الأرض يعمل عملاً يبتغي به وجه الله إلا ويلقي الله في قلبه شعوراً أن الله يحبه، وما من شعور على وجه الأرض أسمى من أن تشعر أن الله يحبك:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: الآية 48)

وإذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان الله عليك فمن معك، ليس معك أحد، لذلك غني، فقير، قوي، ضعيف، شاب، فاتني أن أذكر في الندوة وقد ذكرتها لكم سابقاً أن إنساناً من صعيد مصر، جاهل أمي، لا يقرأ ولا يكتب تاقت نفسه أن يكون عالماً عمره خمسة وخمسون عاماً وقد كان فقيراً فقراً مدقعاً، ركب دابته واتجه إلى القاهرة ليطلب العلم في الأزهر فلما وصل إلى أطراف المدينة، سأل أين الأزعر ؟. لا يعرف اسم هذا الجامع فدلوه عليه، (القصة كما رواها لي أحد علماء دمشق) وبدأ يتعلم القراءة والكتابة، ثم بدأ يقرأ القرآن وما زال يطلب العلم حتى صار شيخ الأزهر، مات في السادسة والتسعين

واسمه زكريا الأنصاري، في السادسة والتسعين لم ينته به المطاف إلا وهو شيخ الأزهر، باب القرب مفتوح ومبذول، افتح كتاب الله، اقرأ كتاب الله، تعلم أحكام الشرع، وغض بصرك عن محارم الله، أنفق من مالك، الله هو الغني.

من طَلَبَ العلم وظفه الله عز وجل بالحق:

ذكرت في الخطبة حديثاً هو في الحقيقة حديثٌ خطيرٌ جداً:

((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فَأَدْرَكَهُ كَانَ لَهُ كِفْلانِ مِنَ الأَجْرِ فَإِنْ لَمْ يُدْرِكْهُ كَانَ لَهُ كِفْلٌ مِنَ الأَجْرِ))

(أخرجه الدارمي عن واثلة بن الأسقع)

ليس معنى هذا أن يدع العمل، لا، اعمل ولكن بين أن تعمل عملاً شاقاً طويلاً المدة قليل المردود وبين أن تعمل عملاً مريحاً قليل الدوام كثير المردود، إذا طلبت العلم، الله عز وجل يعطيك الوقت الكافي لطلب العلم، طلبت العلم يوظفك الله عز وجل، لا يوجد إنسان طلب العلم إلا وأنطقه الله عز وجل بالحق وسمح له أنْ يؤثر بالآخرين وجمع الناس حوله، العلم ثمين جداً.

أثمن عطاء للإنسان أن يكون مع الله:

أيها الأخوة: السابقون السابقون أولئك هم المقربون والقرب من الله بين يديك:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

(أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11))

ومع هذا القرب من الله:

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12))

أحياناً يكون هناك وليمة، الطعام نفيس جداً ولكن هناك شيئاً أهم من الطعام الترحيب، التكريم، التوقير، يوجد تقريب ويوجد إطعام، فكيف إذا اجتمع القرب مع الطعام:

(أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12))

يعني أثمن عطاء أن تكون مع الله، ومع هذه المعطيّة الطيبة أنت في جنات النعيم، أهذا القرب وذاك النعيم المقيم، يُزْهَدُ فيه من أجل الدنيا الفانية التي لا تسعد أحداً ؟

أصحاب النبي الكريم كانوا يُؤْثرون على أنفسهم كل شيء:

لكن هؤلاء السابقين السابقين وهؤلاء المقربون:

(ثُلّةٌ مِنَ الْأَوّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14))

قال بعض المفسرين **" إن الأمم التي سبقت أمة محمد صلى الله عليه وسلم بمجموعها هذه هي الثلة وأما الذين آمنوا برسول الله عليه الصلاة والسلام واتبعوا منهجه هذه هي القلة "**، لكن جمهور العلماء يقول **" إن الثلة هم أصحاب النبي الذين آمنوا به، والقلة هم المؤمنون الذين أتوا في آخر الزمان وهذا أقرب "**، فالنبي عاش معه أصحاب كثيرون، كل واحد كجبل، كل واحد كألف، شيء يدعو للاستغراب ! عشرة آلاف صحابي يفتحون العالم كله ونحن مليار ومئتي مليون مقهورون، مغلوبون على أمرنا ليست كلمتنا هي العليا، فرق كبير جداً مع أصحاب رسول الله، كانوا أبطالاً، كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، يخشون الله ولا يخشون أحداً مع الله يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة.

سيدنا عثمان جاءت قوافل تجارته ستمئة جمل محمل بأنفس أنواع البضاعة، الآن تقريبا ستمئة شاحنة بها أنفس أنواع البضاعة، جاء التجار ليشتروها منه دفعوا الضعف والضعفين، وكان يقول: **دُفِعَ لي أكثر، إن الله عز وجل وعدني بكل حسنة بعشر أمثالها**، هي للمسلمين، ستمئة شاحنة، بالمفهوم الحديث موسوقة بالبضاعة يقدمها هذا الصحابي الجليل للمسلمين.

(أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ (11) فِي جَنّاتِ النّعِيمِ (12) ثُلّةٌ مِنَ الْأَوّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14))

أي في العصور المتأخرة الصادقون قلة.

جزاء المقربين من الله عز وجل:

1 - يجلسون في الجنة على سرر متقابلين:

هؤلاء المقربون:

(عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15))

هذه السرر فيها معادن ثمينة، تجد أحياناً قطعة أثاث فيها ذهب وفضة:

(عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16))

في راحة نفسية، لا يوجد هموم وكل من في الجنة بأعلى مستوى والإنسان يسعد بقرنائه، يسعد بأنداده فأهل الجنة طيبون طاهرون، كلهم قمم، يجلسون في الجنة على سرر متقابلين.

2 ـ في الجنة يطوف عليهم ولدان مخلدون:

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17))

والذي له أولاد يعرف هذه الحقيقة، الطفل الصغير كالمَلَكْ، وجه صبوح، ونفس بريئة، وعفوية وذاتية، وقرب منك، الطفل الصغير محبب كثيراً، ففي الجنة أطفال صغار ولدان مخلدون.

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19))

3 ـ عدم إبعادهم عن الطعام:

صدعوا عنها: أي فرقوا عنها، لو فرضنا أن هناك طعاماً نفيساً وجاء أمر: تفرقوا، انتهى، انقطعت المتعة، أو الطعام انتهى، و أصحاب المائدة بنَفْسِهِمْ أن يأكلوا، انظر إلى هذا الوصف الدقيق:

(لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19))

لا الطعام ينتهي ولا هم يبعدون عنه:

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17))

الولدان لا يكبرون، أحياناً يكون الطفل ليس أجمل منه كلما كبر يتغالظ، يخشن صوته، وتصبح أعماله حمقاء، يتجاوز حدوده أحياناً، يتطاول على أهله أحياناً أخرى، يقول الناس عنه ليته بقي صغيراً، هؤلاء الولدان المخلدون:

(بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ(20))

4 ـ لهم أجمل أنواع الفاكهة:

أجمل أنواع الفاكهة:

(وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23))

حبة اللؤلؤ وهي في الصدفة لم تجرحها عين ولم تثقبها إبرة:

(كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24))

الأعمال الصالحة جزاؤها الجنة:

المجيء للمساجد وإنفاق مال كسبته بكدك وعرق جبينك تنفقه للفقراء والمساكين، أن تمشي مع أخ في حاجته، أن تعين ضعيفاً، أن تطعم فقيراً، أن تربي يتيماً، أن ترعى مسكيناً، أن تنصح أميراً، أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر، أن تقيم الحق أن تقرأ كتاب الله، أن تذكر الله، أن تعين إخوانك.

هذه الأفعال جزاؤها:

(وَفَاكِهَةٍ مِمّا يَتَخَيّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22))

5 - لهم حور عين كلون اللؤلؤ:

الحور العين أوصاف المرأة لا سبيل إلى التفاصيل ولكن الحور شدة بياض العين وشدة سوادها، عين واسعة، هناك مفارقة حادة في شدة بياض العين وسوادها، عِينْ: أي عينها واسعة، حور: بياض عينها ناصع وسواد حدقتها داكنة. وهذا مقياس جمالي عند العرب، من أعلى أنواع الجمال:

(كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23))

لون اللؤلؤ ألماسي وهو أجمل لون:

(جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24))

المستوى في الجنة راق جداً للمؤمن بالله:

بالحياة أحياناً تسمع مشادة في الطريق تنزعج، أحدهم يسب الآخر بكلام مقذع أحيانا تستحي منه أمام أولادك، لكن بالجنة لا يوجد كلمة نابية:

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً (25))

حتى الكلام الفارغ غير موجود، لا يوجد كلام فارغ ولا كلام محرم، أحياناً الغيبة، النميمة، السخرية، التطاول، المزح المنحرف الجنسي يخدش الحياء، في الجنة مستوى راقٍ جداً:

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً (25) إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً (26))

6 - لا يسمعون إلا أجمل و ألطف الألفاظ:

أجمل الكلمات وأحلى العبارات، وأعف الألفاظ، وأدق التفاصيل، هذا كلام أهل الجنة هؤلاء السابقون السابقون هم في أعلى درجات القرب، ومع هذا القرب نعيم مقيم.

الدرجة الثانية في الجنة لأصحاب اليمين:

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27))

هؤلاء في الدرجة الثانية، هؤلاء فعلوا المباحات، أطاعوا رب الأرض والسماوات، وفعلوا المباحات، أي أعطى جزءاً من وقته للدين، أما تجارته هي الأصل، أعماله، بيته، نعيمه، نزهاته هي الأصل، لكن يخاف الله ويرجو الدار الآخرة، صلى وصام وحج وزكى وانضبط لكن ما زاد على ذلك، يعني مقتصد وقوله المتكرر(ساعة لك وساعة لربك)، نحن قانعين وراء الباب بالجنة.

1 ـ في هذه الجنة سدر منزوع شوكه و موز مصفوف:

(فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28))

الأوصاف الآن من البادية، شجر السدر اسمه النبق له أشواك، مخضوض منزوع شوكه.

(وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29))

الطلح هو شجر الموز والمنضود مصفوف.

2 ـ ظل الجنة ممدود ومستمر غير مؤقت:

(وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30))

أحياناً يكون الإنسان عنده ظل في مزرعة ولكن يقول لك لساعتين فقط، بعدها تأتي الشمس، أما ظل الجنة ممدود ومستمر غير مؤقت.

3 ـ فيها ماء يجري و فاكهة كثيرة:

(وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31))

ماء يجري.

(وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33))

أحياناً ينتهي الموسم لو كنت غنياً، الفاكهة غير موجودة، أحيانا الفاكهة موجودة ولكن لا تملك ثمنها، في الدنيا الفاكهة إما مقطوعة أو ممنوعة، تأتي فاكهة غالية جداً وثمنها غير متوفر، لا مقطوعة ولا ممنوعة، ممنوعة لارتفاع ثمنها ومقطوعة لانتهاء موسمها، في الجنة الفواكه لا مقطوعة ولا ممنوعة، مستمرة، مبذولة، ولهم ما يشاءون فيها

4 ـ فيها أماكن للجلوس عالية و مشرفة:

(وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34))

أماكن الجلوس عالية ومشرفة، وارتفاع المكان شرف له.

(إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35))

الحور العين في الجنة نوعين :

الحور العين في الجنة نوعين: نوع ينشأ إنشاء ابتداء ونوع من مؤمنات أهل الدنيا يعاد خلقهن على أكمل صورة.

يعني مثلاً: قد تقول المرأة غير الجميلة بنفسها: لماذا خلقني الله هكذا ؟ أنتِ لو عرفتِ الله وأطعته تكوني بالجنة بأعلى مستوى بالمقاييس المطلقة، المؤمنة التي عرفت ربها واستقامت على أمره تدرك أن الدنيا مؤقتة، وأما الآخرة أبدية، إلى أبد الآبدين، فأية امرأة مؤمنة يوجد في قلبها تساؤل: لِمَ لَمْ أكن أنا كهؤلاء المتألقات ؟ أحياناً يكون لها وضع معين، أقل من أندادها، أية امرأة عرفت ربها في الدنيا يعاد خلقها يوم القيامة بأجمل ما تكون فالحور العين نوعان نوع يخلق في الجنة ابتداء ونوع يعاد خلقها حيث كانت في الدنيا امرأة مؤمنة.

مكرمة أصحاب اليمين زوجة من نفس سن الانسان تحبه وتعينه:

(إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (36) عُرُباً أَتْرَاباً (37))

معنى عرباً متحببات لأزاوجهن والحقيقة المرأة التي لا تُقبل على زوجها ولا تتحبب إليه، ولا تبذل له ما أراد إذا خلا بها، هذه امرأة لا يحبها رسول الله، من علامات المرأة المؤمنة أنها ستيرة، وإذا خلا بها زوجها بذلت له ما أراد منها، أتراباً أي من نفس السن، بوعي وعقل، أحياناً يتزوج أحدنا فتاة صغيرة تريد شوكولا لأن عقلها صغير وتريد لُعَباً، مشكلة فإذا كانت صغيرة يتعب من ضيق أفقها وعقلها الصغير، وأنا إن كانت كبيرة فيقول لك هي بسن أمي.

(عُرُباً أَتْرَاباً (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38))

أتراب فيه تماثل وعُرُبٍ فيه تحبب، وشيء مسعد جداً أن تكون زوجتك بمستواك الثقافي والاجتماعي تعينك على أمر دينك، إن هذه المكرمة لأصحاب اليمين.

سعادة و إكرام أصحاب اليمين:

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27))

أي ما أسعدهم، هذه ما التعجبية، ما أسعدهم، ما أكرمهم، ما أشرفهم عند الله:

(فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28))

في شجر منزوع الشوك:

(وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29))

الموز المصفوف:

(وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31))

جاري:

(وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (36) عُرُباً أَتْرَاباً (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38))

أصحاب اليمين كثر ولكن السابقين قلائل :

لكن أصحاب اليمين:

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40))

هم كثر ولكن السابقين قلائل، هذا ما يسمونه الخط العريض، الخط العريض ! (الناس كلها خير وبركة) أما هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله هؤلاء سابقون سابقون و الإنسان عليه أن يكون طموحاً في الآخرة:

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41))

هؤلاء للدرس القادم ولنبقى في هذا الدرس مع أهل الجنة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الواقعة 056 - الدرس (2-5): تفسير الآيات41-59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-02-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة الواقعة ومع الآية الواحدة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)

فرز الناس يوم القيامة إلى ثلاث زمر:

تحدثنا في الدرس الماضي عن أن الناس جميعاً يوم القيامة يفرزون إلى زمر ثلاث: إلى سابقين، وإلى أصحاب اليمين، وإلى أصحاب الشمال:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

هؤلاء الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله، وقتهم، وعلمهم، ومالهم، وطاقاتهم وإمكاناتهم كلها موظفة في سبيل الخير.

وأما أصحاب الشمال فهم المكذبون الضالون، هؤلاء لهم مصير أسود يوم القيامة، إنما أصحاب اليمين هم المقتصدون الذين طبقوا منهج الله عز وجل واستحقوا الجنة ولكن بمرتبة أقل من السابقين السابقين.

صورة من صور عذاب أصحاب الشمال يوم القيامة:

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)

أي رياح شديدة تصل إلى مسام جلودهم، وهذه الرياح حارة جداً تشوي جلودهم، قوة وحرارة:

(فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)

طبعاً الهواء ساخن يلفح الوجوه والماء يغلي الأمعاء والظل هو دخان النار، لونه أسود، وهو ظل ولكنه:

(وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ)

حار يلفح الوجوه أيضاً، فصورة مرعبة، رياح سموم تصل إلى مسام الجلد لشدتها، ورياح حارة تلفح الوجوه لحرارتها، والماء يغلي، والظل دخان النار الكثيف الأسود.

الظل يوم القيامة بالنسبة للكافر هو دخان النار الكثيف:

(لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

وهذا الظل لا يضفي على من استغله برداً، ولا سلاماً، ولا سكينة، ولا يشعر بنشاط وهو تحت الظل، الإنسان إذا شعر بالحر الشديد ضاقت نفسه، فإذا جلس في ظل شجرة ارتاحت نفسه وتنشطت، فهذا الظل:

(لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

أي حتى الظل هو من دخان أسود.

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

العذاب الشديد لمن انغمس بالملذات وابتعد عن منهج الله:

أيها الإخوة: هذا كلام الله:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

(سورة النساء: الآية 87)

هذا كلام الله ووعوده محققة، وكل إنسان شرد عن الله شرود البعير وانحرف في منهجه، هذا مصيره.

(إِنَّهُمْ)

هؤلاء الذين في سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم:

(كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)

المترف هو الذي ينغمس في الملذات إلى قمة رأسه، ينفق المال بغير حساب، همه شهوته، همهمتعته، همه بطنه، همه فرجه، همه أن يستمتع بالدنيا إلى أقصى درجة:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)

المترفون في القرآن الكريم قرنوا دائماً مع الكفار.

أشد أنواع الذنوب الشرك بالله:

(وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ)

الحنث هنا هو الذنب والذنب العظيم هو الشرك، الإنسان أحياناً يكون ضالاً فتلفت نظره يقول لك جزاك الله خيراً، أما الإنسان المعاند الذي يصر على ذنبه وعلى خطأه وعلى شكه، هذا له في الآخرة عذاب أليم:

(وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ)

الحنث العظيم هو الذنب العظيم وأشد أنواع الذنوب هي الشرك بالله:

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

(سورة لقمان: الآية 13)

المؤمن يوظف حظوظه في طاعة الله:

إذا وصل الإنسان إلى الإصرار هلك، المؤمن لا يصر على شيء، يرضى بقضاء الله وقدره.

((عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر وكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له))

(أخرجه مسلم في مسنده عن صهيب)

لو أن الله سبحانه وتعالى منعه شيئاً أو حرمه شيئاً أو زوى عنه شيئاً يرضى، وفي الدعاء الشريف:

((اللّهُمّ ارْزُقْنِي حُبّكَ وَحُبّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ اللّهُمّ مَا رَزَقْتَنِي مِمّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ اللّهُمّ وَمَا زَوَيْتَ عَنّي مِمّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

(الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطمي)

أي أنك بين حالين: إما شيئاً تريده وصلت إليه وإما أن شيئاً زوي عنك، فإن كان الذي وصلت إليه فينبغي أن يوظف في الخير، وفي خدمة الخلق والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، المؤمن أيها الإخوة (وأذكر هذا كثيراً) الحظوظ التي نالها من الله يوظفها في طاعته، يوظفها في الخير، يوظفها في الحق، وهذا مأخوذ من قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: الآية 77)

الكافر يوظف حظوظه في مصالحة الشخصية:

المؤمن الصادق يوظف اختصاصه، أو علمه، أو خبرته، أو ماله، أو جاهه، في خدمة الناس، والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، أما غير المؤمن هذه الحظوظ إما أن يوظفها لمصالحه الشخصية أو للعدوان على الآخرين.

(وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ)

والحنث العظيم هو الذنب العظيم الذي هو الشرك، وأذكر هذا كثيراً أن الله سبحانه وتعالى ما ألح في القرآن الكريم على أن الله هو الخالق، ألح على أن الله هو المسير، الأمر كله بيده، إليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، إنك إن أيقنت أن الأمر كله بيده أخلصت الوجهة إليه، أخلصت العبادة إليه، أقبلت عليه، خدمت عباده تقرباً إليه، والمؤمن الموحد أمره عجيب: لا يرجو ثواباً ولا مديحاً ولا ثناء، لا قليلاً و لا كثيراً، لا قريباً ولا بعيداً، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.

المؤمن الصادق من يرضى بقضاء الله و قدره:

النبي عودنا أننا إذا أردنا شيئاً علينا أن نستخير الله عز وجل، نصلي ركعتين وندعو الله في الركعتين: يا رب إن كنت تعلم أن في هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري فيسره لي، وإن كنت تعلم أن في هذا الأمر شر في ديني ودنياي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث شئت. فإذا الأمور تيسرت معنى ذلك أن الله يريد ذلك وإذا تعسرت فتعسير الأمور هو اختيار الله لك وتيسرها اختيار الله لك.

لذلك المؤمن لا يصر، يقول الحمد لله رب العالمين، ذكرت لكم من قبل أن إنساناً يطوف حول الكعبة قال يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ كان وراءه الإمام الشافعي، قال يا هذا هل أنت راض عن الله حتى يرضى عنك ؟ قال من أنت يرحمك الله ؟ قال أنا محمد بن إدريس، قال كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه ؟ قال **إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.**

رضا المؤمن بما قسمه الله له سبب كل خير يأتيه:

أي الإنسان لا يصر على شيء، اختار لك دخلاً محدود، هو عليم حكيم، توجد آية قرآنية إذا قرأها الإنسان بتمعن وعمق يقشعر لها جلده:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: الآية 216)

الله اختار لك شكلاً معيناً، قواماً معيناً، إمكانات معينة، جعلك من والدين فقيرين، هذا اختيار الله لك، اختار لك ذكوراً فقط، إناثاً فقط، إناثاً وذكوراً، جعلك عقيماً، اختار لك دخلاً غير محدود أو دخلاً محدوداً، اختار لك مهنة يدوية أو فكرية، لأن الإنسان لا يعلم ولكن الله يعلم، أنت مكلف فيما أنت مخير

به، فأما الذي فرض عليك وسيرت فيه أنت لست فيه مخيراً ولا مكلفاً، لكنه محض خير لك متعلق بالحكمة المطلقة، هذه فكرة أساسية، لذلك المؤمن دوماً راضٍ عن الله من أعماق أعماقه وهذا الرضا سبب لكل خير يأتيه.

الدنيا مزرعة الآخرة:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)

الترف إخوانا الكرام: الإنسان يسرف أو يبذر، قال العلماء: التبذير في المعاصي و الإسراف في المباحات، فمن أكل فوق ما ينبغي فقد أسرف، من لبس فوق ما ينبغي فقد أسرف، من استمتع بالحياة فوق ما ينبغي فقد أسرف، أما من ارتكب المعاصي وأسرف فيها فقد بذر، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

(سورة الإسراء: الآية 27)

(وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

أي أن هؤلاء أسقطوا من حساباتهم اليوم الآخر، رأوا أن الدنيا هي كل شيء، في الحقيقة أن الدنيا هي سبب للآخرة، مزرعة الآخرة، أما إذا جعلتها كل شيء تقع بإشكال كبير، إذا جعلتها كل شيء يقفز أمامك ألف سؤال وسؤال، في الدنيا قوي وضعيف، فقير وغني، وسيم ودميم، ذكي وغبي، يتيم وغير يتيم، إنسان يولد من أبوين فقيرين يذوق ألوان الفقر، إنسان يولد من أبوين غنيين ينغمس في ألوان النعيم.

عدل الله يتحقق كلياً يوم القيامة:

إذا كانت الدنيا كل شيء والموت نهاية كل شيء هناك ألف سؤال وسؤال يقفز إلى الذاكرة: يا رب لماذا متعت هذا متعة لا حدود لها وهذا حرمته كل شيء ؟ إن لم يكن هناك يوم آخر تسوى فيه الحسابات ويعوض فيه على المقصر ما فاته، الله عز وجل أسماؤه الحسنى كلها محققة في الدنيا إلا أن اسم العدل، هذا الاسم يتحقق كلياً في الآخرة، هناك مواقف كثيرة جداً تبدو فيها عدالة الله عز وجل، لكن الحساب الدقيق والحساب الرصيد:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: الآية 185)

(وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

الإنسان خلق من لا شيء، خلق من حوين صغير، هذا الحوين صار إنساناً سوياً، أليس الذي خلق هذا الحوين إنساناً سوياً بقادر على أن يعيد خلقه مرة ثانية:

أي كل بني آدم، من آدم إلى يوم القيامة سوف يجمعون إلى حساب دقيق.

على الإنسان أن يغتنم أبواب الخير قبل أنقطاع العمل:

أنت الآن في يوم مشهود وقد مضى اليوم المفقود، وسوف تواجه اليوم الموعود، وهناك يوم مورود وهناك يوم ممدود. بين يوم مفقود (الماضي)، ويوم مشهود ويوم موعود ويوم مورود ويوم ممدود، أخطر هذه الأيام هو اليوم المشهود، اليوم المشهود الذي تشهده، لأن اليوم المفقود لا جدوى من الحديث عنه، وأن اليوم الموعود والمورود والممدود متعلق باليوم المشهود.

لذلك الإنسان حينما يسمح له أن يعيش يوماً جديداً ما دام قلبه ينبض، مادام في الروح بقية فأبواب الخير كلها مفتحة أمامه، أبواب العمل الصالح، أبواب الصدقات، أبواب العبادات، أبواب الخير، أبواب معاونة الأيتام، وتفقد الأرامل، خدمة الخلق، إتقان العمل، النصح للناس، هذا كله مفتحة أبوابه في الدنيا، أما إذا جاء الأجل، انقطع العمل. عليه الصلاة والسلام (فيما أذكر) مرّ على قبر فقال إن صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من دنياكم كلها.

الدين أتصال بالخالق وإحسان للخلق:

في الدنيا أموال وشركات، دخول كبيرة، بيوت فخمة، مركبات فخمة. دنياكم كلها عند هذا الميت لا قيمة لها ولكن ركعتين نافلتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم، فالإنسان بعد أن يموت تختلف المقاييس والموازين.

الآن المال له قيمة وأما عند الموت لا المال ولا البيوت ولا يوجد لشيء قيمة، القيمة مقدار ما نفعت الناس بالدنيا، طبعاً كما قلت في الدرس السابق هنالك مقاييس كثيرة يقيس الناس بعضهم بعضاً، يقاس الإنسان بحجمه المالي أحياناً، يقاس بمدى ما يتمتع به من قوة، وقد تكون عضلية، يقاس أحيانا بمدى نَسَبِه، يقاس بوسامته، بذكائه، بمن حوله، هذه المقاييس مقاييس البشر، لكن مقياس خالق البشر معرفة الله ومقدار ما نفعت الخلق.

لذلك السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما قال الله على لسانه:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

(سورة مريم: الآية 31)

هذا الدين كله: اتصال بالخالق وإحسان للخلق، هذا هو الدين.

العبرة من سماع الحق تطبيقه:

(قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ)

هو ضال فإذا جاءه الهدى كذبه، قلت لكم قبل قليل أن الإنسان قد يضل ولكن يلقي الأذن صاغية إلى الحق، وبالمناسبة تقول الآية الكريمة:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: الآية 4)

وكذلك السماع إن لم ينتج عنه تطبيق سماع غير مقبول، الله عز وجل ذكر في بعض السور أنهم يستمعون إليك وأنهم لا يسمعون، يسمع ولا يسمع، فكأن الله أراد من السماع التطبيق، فمثلا إنسان يعاني من مرض عضال وقلت له بوضوح ما بعده وضوح: هذا الدواء يشفيك من مرضك وهو دواء ناجح والقائل طبيب فحينما لا يستخدم هذا الدواء معنى ذلك أنه لم يستمع إلى هذا الطبيب، العبرة من السماع التطبيق فإن لم يأخذ هذا الدواء معنى ذلك أنه ما استمع من الطبيب.

الضال والمكذب لا يرتاح لقبول الحق بل لرفضه:

(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ)

ضال وإذا جاءه الحق كذبه، الآية الدقيقة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: الآية 50)

لا يوجد تكذيب حقيقي، ولكن يوجد تكذيب تبريري، الإنسان حينما يصر أن يكون مع شهوته والحق دائماً يتناقض مع الشهوات، الحق فيه انضباط، الحق كله ضبط للأمور، النزوات والغرائز هذه كلها يضبطها الحق، إذا الإنسان التزم الحق يحاسب عن كل شيء يفعله، على نطقه، على سمعه، على بصره، على كسب ماله، على إنفاق ماله، فلذلك الذي يصر على شهوته لا يرتاح لقبول الحق، يرتاح لرفض الحق. هؤلاء كانوا ضالين والأشد من ذلك أنهم كانوا مكذبين، ضالون ومكذبون.

جوع الكافر الشديد يوم القيامة يحمله على أكل شجر الزقوم:

هؤلاء يوم القيامة من شدة الجوع الذي يعتريهم:

(لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ)

هذه غيبيات ذكرها الله لنا، ولا نستطيع أن نضيف عليها شيئاً، يوجد بجهنم شجرة هي شجرة الزقوم، ونحن قد مر معنا من قبل أنه هناك طلح منضود وهناك سدر مخضود نزع شوكه، وطلح هو الموز منضود أي مصفف، هذه الشجرة ينبغي أن تكون على عكس هذا الطعام شائكة، تزعج من يمسكها، فكيف من يبتلعها ؟ الحقيقة البلعوم حساس جدا، أحياناً شوكة صبارة قد لا ترى بالعين تحتاج إلى مجهر لو ثبتت في اللسان، يعاني الإنسان منها الشيء الكثير، فالشوك في الحلق لا يحتمل، لذلك هذه الشجرة شائكة، ومرة المذاق، وكثيرة الشوك، وهي تؤذي من يمسكها فكيف بمن يأكلها لكن الجوع الشديد الذي أكل أمعاءهم يحملهم على أن يأكلوا منها:

(فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

كلام الله حق و على الإنسان أن ينخلع قلبه خوفاً منه:

إخوانا الكرام هذا كلام خالق الكون، كلام الله، كلام خالق السماوات والأرض، فإذا لم يخف الإنسان حينها يكون بحاجة لطبيب نفسي، إدراكه سيء جداً، من لوازم هذه الآيات أن ينخلع القلب خوفاً، فالإنسان قبل أن يكذب، قبل أن يؤذي الناس، قبل أن يعتدي عليهم، قبل أن يأخذ ما ليس له، قبل أن يعتدي على أعراضهم، قبل أن يغشهم في البيع والشراء، قبل أن يحتال عليهم، قبل أن يعصي ربه، قبل أن يدع الصلاة، عليه أن يعد للملايين قبل أن يعصي، لأن هذا مصير العصاة.

(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

شدة عطش الكافر يوم القيامة تدعوه إلى شرب الماء المغلي:

أما إذا عطشوا وما أشد عطشهم في هذا الحر الشديد، ليس إلا ماء يغلي يسلق البطون:

(فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ)

أحياناً تكون كأس الشاي أحر مما ينبغي، تلدع اللسان، الإنسان يتألم أشد الألم، أحياناً الطعام يكون حار جداً، من القدر إلى الطبق مباشرة، فإذا أكل ملعقة واحدة لأنه غير منتبه على أن الطعام حار جداً،

يحترق اللسان، يبقى يومين أو أكثر متألماً، فكيف إذا كان ينبغي أن يأكل من شجر الزقوم وأن يشرب ماء حاراً يغلي.

مرض الاستسقاء من أخطر الأمراض التي تصيب الإنسان و الحيوان:

(فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ)

الهيم هي الإبل التي أصابها مرض الاستسقاء هذا مرض خطير، في الإنسان مركز يسمى مركز توازن السوائل، هذا المركز ينظم أخذ السوائل وطرحها، فالإنسان يأخذ 5 لتر شتاء مثلاً وبالصيف 10 لتر على سبيل المثال، أما كلما شرب ماء أكثر كان هذا الشرب صوناً لكليتيه فالكليتان صونهما بكثرة شرب الماء، وكل كلية فيها عشرة أمثال حاجة الإنسان من التصفية، فالكليتين فيهما عشرين ضعفاً، أي يكتفي الإنسان بعشر كلية واحدة للحياة، وهاتان الكليتان صونهما بشرب الماء الكثيف.

لذلك تشكل البحص في الكلية أحد أسبابها قلة شرب الماء، وفي رمضان ولاسيما المتقدمين في السن ينبغي أن يشربوا ماء كثيراً في السحور، فوق حاجتهم، الإنسان عادة يشرب حاجته أما في رمضان ينبغي عليه أن يشرب فوق حاجته ليكون زادا له طوال النهار، ومع أن الماء يغلي فشاربون عليه شرب الهيم، والهيم هي الإبل التي أصابها مرض الاستسقاء، ومرض الاستسقاء هو مرض يصيب جهاز توازن السوائل. الغدة النخامية وزنها نصف غرام تفرز عشرة هرمونات، أحد هذه الهرمونات ينظم السوائل فلو اختلت هذه الغدة وقد لا تصدقون ينبغي على الإنسان أن يجلس بين الصنبور والمرحاض لأنه سيشرب مئات الأمتار من الماء وسيطرحها ثانية، فالإبل التي أصيبت بمرض الاستسقاء تشرب ماء غير معقول.

الجنة ثمن من أطاع الله واتبع أمره:

(هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

وجنتهم من طراز رفيع، وأصحاب اليمين دخلوا الجنة ولهم جنة تساوي مقامهم عند الله عز وجل، لكن جنتهم أقل درجة من جنة السابقون السابقون.

مشهد الإنسان العاصي يوم القيامة:

وأما الضالون المكذبون، العصاة، الشاردون، المنحرفون، الذين يعتدون على الناس، هؤلاء هم أصحاب الشمال وهذا نصيبهم يوم القيامة:

(فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ(52)فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)

مشهد من مشاهد يوم القيامة، مشهد ينخلع القلب له، من الذي يرويه ؟ خالق السماوات والأرض.

العاقل من يعيش لمستقبله و يتكيف معه:

الإنسان قبل أن يعصي، قبل أن يؤذي أخاه الإنسان، قبل أن يعتدي عليه، عليه أن يحسب لهذا اليوم حساباً، الحقيقة العاقل هو الذي لا يندم لأنه عاش المستقبل فتكيف معه منذ الآن، والإنسان إذا نسي المستقبل وغفل عنه وعاش لحظته واستمتع بالدنيا من دون استقامة على أمر الله سيأتيه يوم يندم أشد الندم، لذلك ورد أن الإنسان العاصي إذا جاءه الأجل يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، يقول لم أر خيراً قط، وأن المؤمن إذا رأى مقامه في الجنة من شدة الفرح يقول: لم أر شراً قط مع كل المصائب التى ساقها الله له في الدنيا.

السلامة والسعادة لا تكون إلا بعد معرفة الله:

الآن دعوة إلى الإيمان، الآن في مقدمة مهمة جداً ذكرتها قبل يومين في درس الفجر هي أن كل إنسان على وجه الأرض كائناً من كان، خمسة آلاف مليون إنسان في الأرض، أنا أصر على أنهم جميعاً من دون استثناء لهم مطلبان ثابتان: السلامة والسعادة، مَنْ مِنَ البشر يتمنى مرضاً عضالاً ؟ مَنْ مِنَ البشر يتمنى ألماً لا يحتمل ؟ مَنْ مِنَ البشر يتمنى فقراً مدقعاً ؟ أو مرضاً مفسداً ؟ هذا الشيء مرفوض عند كل الناس، مَنْ مِنَا لا يتمنى أن يكون في بحبوحة وأن يكون صحيح الجسم، بهي الطلعة، وسيم القامة، له أولاد وأهل في أعلى مستوى، هذا شيء طبيعي وهذا شيء فطري، ما من إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى السلامة والسعادة. ولكن السلامة والسعادة لا تكون إلا بعد معرفة الله، ومعرفة منهجه، لأنه

الصانع والخالق، آلة صغيرة لا تعبأ بها لا يمكن أن تعمل بانتظام وأن تعطي أعلى مردود إلا إذا طبقت تعليمات الصانع، فأنت أعقد آلة في الكون ولك خالق، وهذا القرآن تعليماته.

معرفة الأمر قبل الأمر تؤدي إلى طاعته:

فلكي تطيعه لابد من أن تعرفه، السبب: لو أن الإنسان عرف الأمر ولم يعرف الآمر تفنن في التفلت من هذا الأمر.

الناس في العالم الإسلامي و بكل الأديان الأخرى الزنا معصية، السرقة معصية، إذاً لماذا يسرقون ؟ ويزنون ؟ الأمر معروف على مستوى العالم الإسلامي، هل هناك مسلم على وجه الأرض يجهل بأن الزنا معصية ؟ وأن الخمر معصية ؟ وأن السرقة معصية ؟ ومعصية كبيرة، إذاً لماذا يسرقون ؟ ولماذا يزنون ؟ ولماذا يشربون الخمر ؟ الإنسان إذا عرف الأمر ولم يعرف الآمر يتفنن من التفلت من الأمر، لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر، كلما ارتفع مستوى الآمر بادر المأمور إلى طاعته، أما إذا عرفت الآمر قبل الأمر تفانيت في طاعته، لذلك السلامة والسعادة لابد لها من طاعة الله عز وجل، وطاعة الله لا تكون إلا بمعرفته، والله سبحانه وتعالى يستحيل عليك أن تدركه بحواسك، لا تدركه الأبصار، يستحيل أن تعرف الله بحواسك الخمس، لا تعرفه إلا بعقلك ومن خلال خلقه.

السلامة والسعادة مطلب ثابت لكل مخلوق:

لذلك الآيات الكونية التي بثها الله في الكون جعلها وسائل لمعرفته، وسائل إيضاح، سماها آيات أي علامات تدل عليه، تدل على وجوده، وعلى كماله، وعلى وحدانيته الآن دققوا أول آية في كتاب الله تتحدث عن خلق السماوات والأرض، عن خلق الإنسان، عن خلق الحيوان، عن خلق النبات، عن الماء والهواء،عن الجبال، عن الصحارى، عن البحار، عن الأسماك، عن الأطيار، هذه الآيات من أجل أن نفكر فيها ومن أجل أن نعرف الله من خلالها، عن طريق عقولنا، فإذا عرفنا الله بحثنا عن منهجه، فإذا عرفنا منهجه أطعناه، فإذا أطعناه ضمنا السلامة والسعادة والتي هي مطلب ثابت لكل مخلوق، لذلك يقول الله عز وجل:

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ)

الله هو الخالق.

معجزة خلق الإنسان:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)

هذا المني الذي أودعه الله في الإنسان، إذا خرج يخرج منه خمسمئة مليون حوين في كل مرة يخرج تقريباً من ثلاثمئة مليون إلى خمسمئة مليون حوين، والحوين وحده لا يرى إلا بالمجهر، هذا الحوين هو خلية لكن هذه الخلية فيها نوية وفيها هيولا وفيها غشاء وفيها رأس مدبب وفيها عنق وفيها ذيل وتمشي، على النوية مورثات مجموع هذه المورثات خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة موضعة على نواة هذا الحوين، الآن أكبر علم هو علم الوراثة أي الهندسة الوراثية، هذا الحوين من مثله خمسمئة مليون حوين في اللقاء الزوجي الواحد، إذا خرج هذا الماء من الإنسان يخرج منه خمسمئة مليون حوين، الحوين له رأس مدبب وعلى هذا الرأس غشاء سريع التمزق تحت هذا الغشاء مادة نبيلة تذيب جدار البويضة، بعد هذا الرأس المدبب عنق، وبعد العنق ذيل، والذيل مهمته يتحرك ليمشي هذا الحوين، ليمشي بسرعة عشرة سم بالساعة، لأنه سينتقل إلى الرحم بداخل جسم المرأة، من يدفعه إلى هذا المكان ؟ حركته الذاتية.

وهناك صور ميكروسكوبية تنظيرية، شيء لا يصدق جيش يزحف ويتسابق والبويضة تحتاج إلى حوين واحد، تنتقي أقوى هذه الحوينات، أيها الأقوى ؟ هو الذي يصل مبكراً، فإذا وقف على جدار البويضة، تمزق غشاؤه الخارجي فظهرت المادة وأذابت جدار البويضة، يدخل هذا الحوين ويغلق الباب، وانتهى ! والبقية لم يبق لها محلات.

فإذا دخل هذا الحوين إلى تلك البويضة تسمى البويضة الملقحة، والبويضة الملقحة سوف تتجه عبر القناة التي بين المبيض والرحم، سوف تتجه وتمشي، في أثناء سيرها تنقسم البويضة إلى عشرة آلاف قسم ولكن هذا الانقسام المعجز لا يزيد من حجمها، لو زاد من حجمها وقفت في الطريق فالأنبوب ضيق جداً، لو أنها انقسمت وزاد حجمها وقفت، الانقسام من دون أن يزيد في حجمها، تصل إلى الرحم، تأكل بعض جداره، هذه الخلية إذا أكلته ظهر الدم غزيرا هي بحاجة إلى دم.

عمل البويضة الملقحة:

الآن هذه البويضة الملقحة يبدأ تشكل المخ، الأعضاء، صار الآن في نسيج يشكل الأعصاب، نسيج يشكل العضلات، نسيج للجلد، نسيج للعظم.. كالإنسان فالإنسان مجموعة أنسجة، الجلد نسيج والعضلات نسيج، الشحم نسيج، الأعصاب نسيج، الأوعية نسيج، الدماغ نسيج، الحواس نسيج، كل عضو أو حاسة أو منطقة في الجسم نسيج وحده، له صفات وخصائص فلو كانت القضية نمواً عشوائياً،

هذه البويضة الملقحة إن لم يكن لها خالق لِتنمو نمواً متجانساً، كانت خلية ملقحة فأصبحت قطعة لحم، أو عظم أو جلد، أما هذا التنوع: 140 مليار خلية في الدماغ و14 مليار خلية قشرية في الدماغ والعصب البصري 900 ألف عصب، وفي العين 130 مليون عصية ومخروط، وفي الرأس 300 ألف شعرة لكل شعرة وريد وشريان وعصب وعضلة وغدة دهنية وغدة صبغية، المعدة 35 مليون عصارة هاضمة والغدة النخامية 5ر0 غ تفرز 10 هرمونات، الغدة الدرقية، الكظر، الكليتان في كل كلية طريق طوله 100 كم يقطعه الدم في اليوم خمس مرات، في كل كلية مليون ميكرون مجموع هذه الميكرونات تساوي 100 كم، الدم يدور في الكليتين في اليوم 5 مرات، أي أن دمك يقطع مسافة 500 كم في اليوم وأنت لا تدري، كلية بلا صوت وبلا ضجيج، بلا حجم، لا يعرف الإنسان قيمة الكلية إلا إذا اضطر الإنسان لا سمح الله أن ينقي دمه في كلية صناعية، حجم، وزن طول وعرض وصوت، وأجهزة وتقطيع شرايين ووصل شرايين من أجل أن يصفى الدم في الأسبوع مرتين وإلا يموت الإنسان.

أيات الله الدالة على عظمته:

كليتين ورئتين ومعدة وأمعاء دقيقة وأمعاء غليظة، من الذي يصدق أن الأمعاء الدقيقة تتجدد تلقائيا كل 48 ساعة، إن أسرع خلية على الإطلاق في بناء ذاتها هي خلية الأمعاء الدقيقة، تموت في 48 ساعة أي أقصر عمر خلية في الجسم 48 ساعة وأطول عمر خمس سنوات، أنت كل خمس سنوات إنسان آخر، جلدك، عظامك، عضلاتك، عينك، شعرك، سمعك، بصرك، عدا القلب والدماغ، لو كان الدماغ كل خمس سنوات فالإنسان تنمحي كل معلوماته، أما كل شيء في الجسم يتبدل خلال خمس سنوات، شيء مبرمج، انظر إلى الطفل الصغير، فيه معلومة خشونة الصوت ما إن يصل لسن 14 سنة حتى يخشن صوته، كان صوته كالبنات فلما كبر خشن صوته، هذه معلومة مبرمجة، أي 5000 معلومة مبرمجة مودعة على نوية الحوين المنوي الذي لا يرى بالعين، هذا شيء معجز:

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ)

(سورة الواقعة: الآية 57)

صنع الله الذي أتقن كل شيء صنعه:

ماذا فعل الأب ؟ الأب وضع هذا الماء وانتهى الأمر، والأم ماذا فعلت ؟ لم تفعل شيئاً، من طور هذا الحوين وتلك البويضة ؟ وهذا الانقسام ؟ وهذا التشكل ؟ أيوجد أحد ليس عنده أولاد ؟ ابنك أمامك، كان

نقطة ماء، رأس ودماغ وتلافيف وبصلة سيسائية وعمود فقري، فقرات، غضاريف، أوعية، الشريان لوحده قلب، الشريان مرن فعندما يضغط القلب فيتوسع الشريان لمرونته وعندما يتوسع يعود لما كان عليه فإذا عاد إلى حجمه الطبيعي دفع الدم نحو الأمام فالشريان قلب آخر، القلب ينبض والشرايين تنبض وتضخ الدم بدورها إلى أطراف الجسم، ولحكمة أرادها الله عز وجل جعل الشرايين عميقة، والأوردة سطحية، لو الآية معكوسة وأصاب الإنسان سكيناً جرحت يده ينزف دمه كله في دقائق ويموت، أما الشرايين عميقة وكل شيء تحت الجلد أوردة، دم راجع بطيء.

ذكر لي طبيب قبل يومين قال: هناك في الأنف طبقة شرايين كثيفة جداً، إلا أن الذي يلفت النظر أن أغشيتها بالغة الرقة، وضعيفة جداً، فبمجرد أن يرتفع ضغط الدم هذه الجدر الرقيقة الهشة تتمزق فوراً فيكون الرعاف، ما هو الرعاف ؟ الرعاف إشارة إلى أن الضغط قد ارتفع، إشارة وعلاج ذاتي، فإذا عرف الإنسان وتخلى عن بعض دمه عاد الضغط طبيعياً.

إذا آلة غالية كثيراً يوضع لها فيوز حماية (وصلة سلك ضعيف جداً) فإذا ارتفع التيار عن حده يذوب السلك فوراً، ثمنه بسيط ولكن الآلة قيمتها كبيرة جداً، فإذا الإنسان ارتفع ضغطه هيأ الله منطقة في الأنف شرايين ذات جدر رقيقة جدا هشة تكاد تكون شفافة على أدنى زيادة في الضغط ينزل الدم، معناه يجب فحص الضغط، نزول الدم بالأنف بعض الأحيان دليل ارتفاع في الضغط.

الفرق الكبير بين من يصنع شيئاً و بين من يستخدمه:

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)

هذه الحوينات المنوية تقريبا بدرجة 38 تموت لذلك مكانها في الخصية والخصية خارج الجسم، هناك درجتان بين الجسم والخصية، فلو أن الحوينات مكانها داخل الجسم تموت كلها، وهذه الخصية لها وظيفة كبيرة، الحوين الذي يخرج لتوه مضى على تصنيعه 18 يوم، معمل الحوينات المنوية يمضي عليها 18 يوماً، لذلك قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

أحيانا الإنسان (بلا تشبيه) يستطيع تشغيل جهاز معقد جداً وقيمته بالملايين وذلك بكبسة زر فالذي شغله غير الذي صنعه، التشغيل سهل، ممكن تركب أحدث مركبة وأنت تجهل كل ما فيها إلا القيادة، ممكن تستخدم حاسوب من أعلى مستوى وتجهل ما فيه، ممكن تستخدم مكيف معقد جداً وبكبسة زر فقط، فشتان بين من يستخدمه وبين من صنعه.

الموت مصير كل حي:

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

طبعاً الموت مصير كل حي.

أيها الإخوة: نحن دخلنا في آيات كونية وكما قدمت لكم قبل قليل لن تطيعه إلا إذا عرفته، ولن تعرفه إلا بعقلك ومن خلال الكون، فالآيات الكونية هي طريق وحيد إلى معرفة الله عز وجل:

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الواقعة 056 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 63-67
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-02-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الثالث من سورة الواقعة ومع الآية الثالثة والستين:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ)

(سورة الواقعة)

كل شيء ينعم به الإنسان في الدنيا هو من خلق الله تعالى:

أيها الأخوة، قبل المضي في متابعة هذا الموضوع أريد أن أقف قليلاً عند حقيقة قد تغيب عن بعض الناس، الإنسان في هذا العصر والمتميز بالتقدم الحضاري والتقدم العلمي مأخوذ بالإنجازات العلمية الحديثة، لكن الحقيقة أن الإنسان لم يُضِفْ شيئاً جوهرياً بل أضاف شكليات، معنى هذا الكلام دقيق، فمثلاً الله عز وجل خلق الماء، فالإنسان بعلمه وتطور حياته وضعه في مستودعات في البيوت، أساله في أنابيب، وضعه في قوارير، فهل يكون الإنسان قد خلق الماء ؟ كل شيء ننعم به هو من خلق الله في الأصل، الإنسان أضاف شكليات وأضاف أساليب ووسائل ولكنه لم يُحْدِثْ شيئاً جديداً، فالطعام قد يوضع في مغلفات وقد يوضع في عبوات راقية، قد يطبع على المغلف أو على العبوة كلمات لطيفة، صور، أما لو أن الله عز وجل لم ينبت الثمر، ماذا نفعل ؟ لو أن الماء كان أجاجاً، ماذا نفعل ؟ فتصور أن كل إنجاز حضاري هو في الحقيقة إضافة بسيطة على الشكل لا على الجوهر، الماء ماء، الماء الذي شربه آدم عليه السلام هو الماء الذي نشربه. من خلق الأنعام لنأكل من لحمها ؟ من الممكن أن يكون اللحم في عبوات ومقطّع تقطيعاً معيناً، لكن اللحم لحم، تذوق الأجداد اللحم كما نتذوقه تماماً.

المؤمن يلفت نظره خلق الله و غير المؤمن يلفت نظره الشكليات:

فالإنسان المؤمن خَلْقُ اللهِ عز وجل هو الذي يَلْفِتُ نَظَرَهُ، لكن غير المؤمن الأشكال والأساليب وهذه الصرعات التي يراها الإنسان أحياناً قد تلفت نظره. هي إضافات لم تصب المضمون ولم تصب الجوهر، بقيت في الشكل، فالماء ماء، لو لم ينبت الله النبات ماذا نفعل ؟ هل عندك في خيالك طريقة لإطعام البشر غير النبات، لو أن الله تعالى خلق حاجات مليون إنسان، مليار، ثم تنقضي هذه الحاجات، كيف نحفظها ؟ لو خلق القمح لمرة واحدة، والقمح إما أن يَفْسُدَ وإما أنْ يُسْتَهْلَكَ ماذا نفعل بعد فساده أو

بعد استهلاكه، كيف نأكل ؟ من أبدع موضوع البذور ؟ أن كل ثمرة فيها بذرة، وهذه البذرة فيها قوةُ إنباتِ ثمرة مشابهة.

مبدأ التكاثر عن طريق البذور أبدعه الخالق سبحانه:

أحياناً (هذا الشيء من اختصاص بعض المهندسين الزراعيين) بذرة صغيرة يقول لك هذه البذرة ذات إنتاج مديد، ذات إنتاج مبكر، تقاوم البرد، مدة إنتاجها أربعة أشهر، إنتاجها يقاوم المرض الفلاني، تكلم الإنسان أكثر من مئة معلومة كلها في هذه البذرة فالبذرة فيها قوة الإنبات، فالبذرة فيها شجرة بالقوة وبالفعل هي بذرة، أما في مستقبلها هي شجرة، فنظام النبات لو أن الله سبحانه وتعالى خلق حاجات الإنسان لمرة واحدة، كيف تُحْفَظُ من الفساد ؟ وكيف تعوض بعد التلف ؟ لا يوجد طريقة ثانية. أمّا كل شيء تأكله فيه بذرة، تعوض عليك أضعافاً مضاعفة.

يعني بذرة البندورة تعطي مليون ضعف، نصف دونم يستهلك خمسة غرامات من البذور يعطي عشرة طن، يعطي مليوني ضعف، مبدأ النبات، مبدأ التكاثر عن طريق البذور، من صمم هذا المبدأ ؟ فأنت تزرع، تقطف الثمار، تأخذ البذور تزرعها مرة ثانية تنتج إلى أبد الآبدين.

الرشيم عنصر الإنبات في البذرة:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ)

هذه البذرة من وضع فيها الرشيم ؟ الرشيم كائن حي، بعض القمح الذي وجد في الأهرامات زُرِعَ فَنَبَتَ، يعني الرشيم مدة عمره أكثر من ستة آلاف عام، زُرِعَ فَنَبَتَ، النملة أحياناً إذا أرادت أن تخزن القمح في وكرها تأكل رشيم القمح لئلا تنبت، لو أنها خزنت هذا القمح في جحرها وجاءت رطوبة نَبَتَ القمحُ، لم تستفد منه، فلابد من أن تأكل الرشيم عنصر الإنبات في البذرة، فهذا الرشيم كائن حي، كائن حي بكل معاني الكلمة الدقيقة فالنملة تأكل هذا الرشيم لئلا تنبت القمحة.

بعض البذور لها رشيمان كالعدس، النملة تأكل الرشيمين معا لئلا تنبت، فالرشيم كائن حي، فيه حياة، معه محفظة غذاء مع خطة مبرمجة، فلمجرد أن تأتي الرطوبة والدفء والضوء ينبت الرشيم ويستهلك من مخزون البذرة، ومخزون البذرة يشكل له جذيراً و سويقاً، الجذير فيه خاصية مص الغذاء من التربة بعد أن تنتهي المحفظة.

وظيفة المعادن في النبات:

ائت ببذرة فاصولياء ضعها في قطن مبلل وبعد بضعة أيام تنبت فإذا مَسَكْتَ البذرة تجدها فارغة وتكون المادة النشوية قد أسْتُهْلِكَتْ في إنبات الرشيم وإنبات الجذر، هذا النبات يتجه نحو الضوء ونحو الأعلى ثم تأتي العمليات المعقدة، النبات يمتص ثمانية عشر معدناً في التربة، هذه المعادن على أنواع، لدينا معدن وملح معدن، جعل الله عز وجل المعادن تتأكسد بالأوكسجين، تأكسدها يجعلها أملاحاً، ويمكن للأملاح أن تذوب في الماء، فأملاح المعادن تذوب في الماء، فإذا ذابت صار هذا المائع الذي تمتصه الجذور ثمانية عشر معدناً مودعة في التربة، أحياناً تجد أن النبات قد اصفر يقول لك الفني فيه نقص حديد، النبات نما نمواً خضرياً على حساب النمو الثمري يقول لك فيه نقص بوتاس.

فالخبراء يقدمون معلومات مدهشة، فيه بوتاس، فيه منغنيز، فيه آزوت، فيه حديد، هذا كله موجود في التربة والماء يذيب أملاح هذه المعادن ويأتي هذا الجذر الذي تنتهي رؤوسه بكرة اسمها القلنسوة، هذه القلنسوة تفرز مادة تذيب الصخر، ألا ترى شجرة نبتت في جبل ؟ تتسلل فروع جذرها بين الصخور، فالقلنسوة مجهزة بمادة تذيب الصخر من أجل أن تصل إلى الماء.

تصميم أوعية النبات الصاعدة بمقويات حلزونية لوصول الماء للأعلى:

هناك أشجار جذورها تزيد عن ثلاثين متراً، وإن كان الماء بجهة اليمين تتجه الجذور إلى جهة اليمين وكأنها كائنات عاقلة، وإن كان الماء نحو اليسار تتجه نحو اليسار، وإذا كان الماء سطحياً تفرش دائرة سطحية وإذا كان الماء عميقاً تغوص في أعماق التربة ثلاثين متراً لتأخذ الماء وقد أُذيبت فيه أملاح المعادن، الآن هذا النسغ الصاعد يصعد نحو الأعلى، كيف ؟ النسغ سائل والسائل متغير الشكل ثابت الحجم كما تعلمون فما الذي جعله يصعد خلاف الجاذبية، هل بإمكانك أن تجعل الماء يصعد نحو الأعلى إلا بمضخة ؟ أما من دون مضخة كيف ؟ هذه خاصة شعرية ! هذه الخاصة رائعة جداً تجعل الماء يتحرك نحو الأعلى على خلاف مبدأ الجاذبية، وقد تجد شجر الحور مثلاً ارتفاعه ثلاثون متراً، ومع هذا آخر ورقة في الأعلى متألقة، خَضَارُها رائع، من أين جاء الخَضَار ؟ من الماء الذي تمتصه من أعماق التربة، فإذا كان العمق ثلاثين والارتفاع ثلاثين فهذا يعني أن هنالك حركة نحو الأعلى ستين متراً خلاف الجاذبية.

و قد ينمو هذا النبات عرْضَاً، وإذا نما عَرْضَاً ربما ضغط على الأوعية التي تحمل هذا النسغ الصاعد، ما الحل ؟ هذه الأوعية مقواة بألياف حلزونية لو ضغطت على جوانبها، لا تضيق لمعتها، من صمم هذه الأوعية بهذه الطريقة ؟ إذا وجد بمركبة الإنسان أنبوب منثني فينقطع الماء أثناء انثنائه يقوى براصور

داخلي لئلا ينثني وتضيق لمعة الأنبوب فربنا سبحانه وتعالى صمم هذه الأوعية الصاعدة بمقويات حلزونية ليفية لئلا تضيق لمعتها فينقطع وصول الماء إلى الأعلى.

حكمة الله من استهلاك النبات أولاً لماء الأغصان الأقل نمواً:

الآن لو أن البستاني نسي أن يسقي هذه الشجرة، يجب أن تموت فوراً، لكن حكمة الله الرائعة جعلت أن هذه الشجرة لا تستهلك من الماء إلا ماء أقل الأغصان نمواً، ثم تستهلك ماء الفروع، ثم تستهلك ماء الجذع، ثم تستهلك ماء الجذر، فآخر ماء تستهلكه هو ماء الجذر والمنطقي يجب أن تستهلك الشجرة أول ماء هو ماء الجذر ! إذاً من الذي عكس الآية ؟ جعل الماء المستهلك هو أبعد مكان عن الجذر، بالأطراف، لأن الماء إذا اُسْتِهلك في أطراف الشجرة ذبلت أوراقها فخاطبت صاحبها: إنني عطشى، يمدها بالماء، أما لو أن هذا النبات استهلك الماء القريب منه، ماء الجذر، لماتت الأشجار كلها إذا نسيها أصحابها يوماً أو يومين، أحياناً يسافر إلى الحج ينساها أشهراً تبقى الشجرة قائمة على حالها، هذا النبات ظاهرة.

حاجة الإنسان إلى النبات أساسية في الدنيا:

إخوانا الكرام: الشيء المحير هو أنه لا يوجد شيء من خَلْق الله يدور مع الإنسان حيث دار كالنبات، فالإنسان بحاجة إلى غذاء، غذاؤه من النبات، بحاجة إلى كساء، كساؤه من النبات، بحاجة إلى ما يُمْتِعُ عينه وأنفه، فالورود كلها نباتات، بحاجة إلى صناعات، الأخشاب التي هي أساس الصناعات نباتات، من صمم الخشب ؟ لنا أخ كريم يعمل في الميكانيك، فمعمل من المعامل اشترى اثني عشر آلة نسيج من أرقى الشركات وثُبِّتَتْ هذه الآلات على أرض المعمل بالإسمنت المسلح ثم شُغِّلَتْ الآلات، هناك قَطْعٌ في الخيطان في كل الآلات، بحثوا عن كل خبير إلى أن عثروا على هذا الخبير، ماذا فعل ؟ وضع تحت كل آلة قطعة من خشب التوت، لأن هذا الخشب ذو ألياف متينة ومرنة، فإذا وصل المكوك إلى طرف الآلة وضرب طرفها فخشب التوت يمتص هذه الصدمة ولا يقطع الخيط، فالتوت له وظيفة وخشب الزان له وظيفة والخشب الكندي له وظيفة والشوح له وظيفة ولو سألت إخوتنا النجارين لأفادوك بمعلومات تفصيلية كثيرة جداً.

أنواع الخشب:

للخشب وحده أنواع منوعة تزيد عن مئة نوع وكل نوع له استعمال ينفرد به، هذا الخشب. أنت بحاجة إلى طعام يأتيك من النبات، بحاجة إلى كساء يأتيك من النبات، بحاجة إلى ليفة تنظف بها جسمك، الليفة نبات، له وجهان خشن وناعم فالخشن له خشن والناعم له ناعم، بحاجة إلى شيء تنظف به أسنانك فخلق السواك، بحاجة إلى أن تنظف ما بين الأسنان فخلق الخُلّة، أنت بحاجة إلى نبات تزييني، خلق لك نباتات تزيينية، أنت بحاجة إلى نبات يكون كالمظلة، بحاجة إلى ورق، إذا تأملت نبات البردي تشعر مئة بالمئة أن الله ما خلقه إلا ليكون ورقاً، ورق كتابة، إلى جانب الأهرامات مؤسسات سياحية تصنع أمامك ورق البردي، يُوتى بالنبات ويُنقع بالماء، ويُضغط ليصبح ورقاً، فهذا النبات مصمم ليكون ورقاً. وهذه الشجرة مصممة لتكون ظلاً، ويوجد نبات مصمم ليكون غذاء للحيوانات، يحصد عشرات المرات، تحصد البرسيم كله، ينمو مرة ثانية ! تحصده، ينمو مرة ثالثة.

تنوع النبات بتنوع احتياجات الإنسان إليه:

أنت بحاجة إلى مسطح أخضر تُمَتِّعُ عينك به، خلق الله نباتاً ليس له أية وظيفة سوى أن يمتع عينك باللون الأخضر، هذا المرج، نوع ينبت في الصيف وآخر في الشتاء والثالث قي الربيع والرابع في الخريف، الآن يباع من هذا المرج الخلطات الرباعية من أجل أن ترى المرج أخضراً طوال العام، وإذا رأيته أخضراً طوال العام هنالك مغالطة، أنت ترى ربعه الذي ينمو في الفصل الذي أنت فيه، أنت بحاجة إلى ورود.

عدد أنواع الورود لا يعد ولا يحصى، أنواع النباتات التي تعيش في البيوت بالمئات، بعشرات المئات، أنواع الأبصال بعشرات الألوف، أنواع الأزهار، هذا نبات، لون ورائحة وألوان وجمال، من صمم هذا النبات ؟ أنت بحاجة إلى نبات يكون مادة مرنة، التعامل مع الأشياء المتينة القاسية صعب جداً، تحتاج إلى بلور في السيارة مركب على حديد لابد من مادة مطاطية، هناك نبات ينتج المطاط، تحتاج إلى عجلة (مادة مرنة بلا صوت وتمتص الصدمات وتتماسك مع الأرض)، تحتاج إلى مادة مطاطية، نبات يقدم لك هذه المادة المطاطية، تحتاج إلى مادة عازلة، الفلين نبات، تحتاج إلى أواني، هناك نبات يقدم لك الأواني كأنها أواني نحاسية، أواني كروية وأواني مستطيلة، تحتاج إلى أن تسبح الله، هناك نبات ثماره كرات مثقوبة.

شيء لا يصدق !! تحتاج إلى دواء يوجد دواء نبات، تحتاج إلى أصبغة الأصبغة نبات، الأدوية نبات، والروائح العطرة نباتات كلها:هذا عطر الياسمين، هذا عطر النرجس.

آية النبات لوحدها من أكبر الآيات الدالة على عظمة الله:

الطعام يمكن أن تأكل من جذر النبات: الجزر، البطاطا... يمكن أن تأكل ساق النبات، يمكن أن تأكل أوراقه: الملفوف، يمكن أن تأكل أزهاره: الزهرة، يمكن أن تأكل ثماره، يعني آية النبات لوحدها تعد من أكبر الآيات الدالة على عظمة الله.

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ)

ماذا فعل الفلاح ؟ ألقى هذه الحبة وانتهى الأمر وسقاها فقط، أما مَنْ نما الرشيم ؟ مَنْ أمد هذا الرشيم بالغذاء ؟ من أنبت لهذا الرشيم الجذور ؟ مَنْ جعل لهذه المعادن أملاحاً تتأكسد بالأوكسجين تصبح أملاحاً تذوب في الماء، أي يوجد بجسمك حديد يصنع بسماراً، ولكن ليس معدن الحديد بل أملاح الحديد، فأنت عندما تأكل تفاحة تقطعها وتدعها على الطاولة نصف ساعة، تسود ! لماذا اسودت ؟ لأن حديد التفاحة تأكسد مع الأوكسجين، تشرب حليباً، فيه كالسيوم، كلس مذاب في الحليب، موضوع النبات شيء لا يصدق، ظاهرة النبات لوحدها يمكن أن تعد أكبر دليل على وجود الله وعلى عظمته وعلى كماله.

علامات النبات:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ)

النبات له علامات: فما الذي يعلمك أن هذا العنب قد نضج ؟ كان أخضراً صار أصفراً، وما الذي يعلمك بأن هذا الحقل من البندورة أصبح ناضجاً ؟ كان أخضراً وأصبح أحمراً، العلامات قد تكون اللون وقد تكون الحجم وقد تكون الرائحة، القوام، ولحكمة بالغة بالغة جعل الله عز وجل البطيخ الأخضر ليس له علامات إطلاقاً يدل على نضجه، لا حجماً ولا لوناً، فالبطيخة التي بداخلها لون أبيض صرف خضراء، والبطيخة الناضجة التي بداخلها لون أحمر قان خضراء، فكيف يستطيع زارع البطيخ أن يجني الثمار الناضجة ؟ و لو أن حقول البطيخ نضجت في يوم واحد ماذا نفعل بالبطيخ ؟ لابد من أن نأكله على مدى ثلاثة أشهر، إذاً ينضج تباعاً.

نضوج النبات المتدرج أية عظيمة من أيات الله:

النضوج المتدرج آية من آيات الله، آية ضخمة، فأنت إذا أتيت بوعاء فيه زيت وغليته وألق فيه البطاطا، فمادامت الظروف متشابهة فالنضج متشابه، بعد دقائق ينضج الجميع، أما هل من الممكن أن

تلقي كمية بطاطا في مقلاية زيت وكل عشر دقائق ينضج قسم ؟ على مدى خمس ساعات ؟ مستحيلة ! أما الأرض فهي تربة واحدة، الأمطار واحدة، الحر واحد، البرد واحد، تجد النُضْجَ على مدى ثلاثة أشهر، كيف يكشف الفلاح أن هذه البطيخة قد نضجت ؟ لها حلزون في أعلاها فالفلاح يمسك الحلزون ويضغطه، إذا انكسر تكون قد نضجت، بقي طرياً تكون غير ناضجة، قال الله:

(وَعَلَامَاتٍ)

(سورة النحل: الآية 16)

الحكمة من نضج المحاصيل في يوم واحد والفواكه تباعاً:

ما من ثمرة إلا وجعل الله لها علامة، العنب محمول وإذا أردت أن تقطف العنب نحو الأسفل انعصر بين يديك ولم ينقطف، من أمتن الأغصان غصن العنب، أما عكس ذلك بسهولة يُقْطف، من صممه بهذا التصميم ؟ مَنْ برمج الفواكه تنضج تباعاً ؟ في الأول العوجة، ثم الكرز، بعدها الأجاص يليه الدراق بعد ذلك التفاح.

لو كانت كلها تنضج في وقت واحد، تفقد ثمنها، تنضج تباعاً، أما المحاصيل فتنضج في يوم واحد كالقمح والعدس والحمص، فلو كانت تنضج تباعاً يصبح الحصاد انتحاراً، تبحث في السنبلة واحدة واحدة وتترك التي لم تنضج وتقطع الناضجة، مستحيلة، انظر المحاصيل تنضج في يوم واحد أما الفواكه والثمار والخضراوات تنضج تباعاً.

إذاً هذا النبات مَنْ صممه ؟ الإله العظيم، الحكيم، الخلاّق، العليم، الخبير، هو مَنْ صممه.

تناسب حجم النبات ولونه وشكله ورائحته مع حجم الإنسان:

لندقق في هذه النقطة: تفاحة مثلاً فيها غِذاء متناسب مع جسمك، تحتاج إلى مادة سكرية أحادية سريعة الامتصاص، في التفاح موجودة، تحتاج إلى حديد (هيموغلوبين الدم)، في التفاح موجود، أنت بحاجة لمعادن، في التفاح موجودة، فالمواد التي تتكون منها التفاحة متناسبة مئة بالمئة مع جسمك، لو كان قوامه كقوام الصخر تحتاج إلى مكسرة، بينما قوامه يتناسب مع أسنانك، وحجمه متناسب، هل من المعقول التفاحة كحجم البطيخة ؟ تَقْسِمَها فَتَسْوَدْ، فلا تعود تؤكل، فالحجم واللون والقوام والشكل والرائحة، وهي مُشْتَهية ولها غلاف مجلتن، هذا الغلاف (القشرة) مادة حافظة.

التفكر في الظاهرة النباتية:

هنالك أشياء مدهشة بالفواكه، البطيخ مثلاً 97 بالمئة ماء، أنت هل بإمكانك أن تجمد ماء من دون براد؟ البطيخ ماء مجمد، ماء مجمد بأوعية هشة فإذا عصرت البطيخ 97 بالمئة ماء صرف، و 3 بالمئة مواد سكرية ومُنَكِّهة والبطيخ لو كان غلافه هشاً كان كله يتلف وهو في الطريق، تجد السيارة تحمل 5خمسة طن بطيخ والتي موجودة في الأسفل تحمل الجميع، شكلها مع قشرتها شيء رائع جداً.

انظر في الفواكه والثمار، الموز ثمرة تفيد الصغار تقشيرها سهل، الصبارة ليست كالموز تقشيرها أصعب بكثير، يوجد شيء له بذر كبير كالمنجا، وأشياء بذرها صغير، وأشياء بلا بذر، أي ما يخطر في بالك موجود ما يشبهه في الطبيعة، تحتاج أن تضع في الكاتو زبيب، يوجد نوع من الزبيب ليس له بذر، تجد نوع من الفاكهة ثلاثمئة شكل، لدينا مجمع بحوث زراعية في دوما لديه ثلاثمئة نوع من العنب هذه الفاكهة شيء للتصدير قوامها متين، شيء للعصير وشيء للاستهلاك وشيء للمائدة وشيء للطبخ، أنواع، لا يوجد فاكهة أو إنتاج زراعي إلا وله أنواع منوعة، هذه نسيجها اللحمي كثيف للمائدة، ماؤها كثيف للعصير، قوامها صلب للتصدير، أنواع منوعة فالظاهرة النباتية أيها الأخوة موضوع للتفكر، أنت أثناء أكلك، فَكِّرْ تتعرف إلى الله، تدخل عليه من باب عريض، وتصل إليه بطريق قصير، كل شيء أمامك.

خلق الله ينبغي على الإنسان أن يعرفه:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس: الآية 24)

أمر إلهي كأمر الصلاة.

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً)

(سورة عبس: الآية 25)

العنب، البرتقالة لو كانت كلها قوام واحد تقسمها نصفين اثنين، والثاني قسمها نصفين، تأكلها جزءاً جزءاً، وإذا تلوثت يداك لها محارم منها وفيها، مواد منعشة قشر البرتقال والقشر يصبح مرملاد مِنْ أرقى أنواع المرملاد، هذا خَلْقُ الله ينبغي أن نعرفه، ظاهرة النبات وحدها تلفت النظر، تأخذ بالألباب.

دور الإنسان في النبات شكلي جداً:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

أنت ماذا فعلت ؟ من باب الدعابة يقول لك: أنشأت مصنعاً لتعبئة المياه، ماذا فعلت أنت ؟ وضعت القارورة تحت الصنبور ثم أغلقتها، دور الإنسان شكلي جداً، حرثت الأرض وسمدتها وألقيت فيها الحبة وانتهى الأمر، أنت نائم، مَنْ فَعَلَ فِعْلَ الخَلْق في هذه البذرة ؟ الله جل جلاله، الإنسان غافل وجاهل ؛ والغفلة والجهل لا يولدان عملاً ذكياً رائعاً، ويقول لك هذه البذرة بذرة مشمش كلابي، والثانية مشمش فرنسي، والثالثة بلدية، العجمي كم نوع ؟ العجمي له طعم وله خصائص، الكلابي له خصائص، البلدي له خصائص، كله مشمش ولكن كل واحد بطعمة.

البندورة فيها نوع حامضي ذو نكهة جميلة جداً، ونوع ذو نكهة حلوة، أنواع منوعة.

رزق الله للإنسان لا يقدر بثمن:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ)

من هذه النباتات:

(أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

أنت حينما تشتري كيلو تفاح تكون قد دفعت ثمن خدمته فقط، أما هو بلا ثمن، هو بلا ثمن إطلاقاً، هو مِنْ رِزْق الله عز وجل.

مرة ثانية: المحاضرة اليوم في جامع صلاح الدين حول آيات الله عز وجل الدالة على خلقه، ولكن تستطيع تمضية شهر وشهرين وأكثر في ظاهرة النبات وحدها، في آية كريمة حول النبات بسورة المائدة على الأغلب نبات كُلّ شي، كل حاجات الإنسان النبات يغطي هذه الحاجات بَدْءاً من المأوى.

النبات من أكبر الموضوعات الدالة على الله وجوداً وكمالاً ووحدانية:

البيوت كلها بالدول الغربية من الخشب، الخشب أرقى مادة للبيوت، عزل ودفء وبرودة، شيء رائع جداً، ادخل لغرفة كلها خشب فالجلوس فيها ممتع جداً، فالخشب للسكن و للأثاث.

خشب البيوت من خشب الزان تجده معمِّر مئات السنين، يقول لك هذا من عهد لويس الثالث عشر، خشب زان، خشب النوافذ يقاوم الهواء والبرد، خشب الاستعمال الصناعي سهل لين، وتنجيره سهل، لكن على الإنسان أن يفكر

أيها الأخوة، أنا لم أقدم سوى نماذج مبسطة لطرائق التفكر في الله عز وجل وفي آيات الله الدالة على عظمته. على كلٍّ يمكن أن تُعَدّ ظاهرة النبات وحدها من أكبر الظواهر الدالة على عظمة الله، لا يوجد واحد منا إلا في بيته طعام مهما كان خشناً، ألا يوجد خسّة، فكر في الخس (أوراق)، فكِّر في بعض

الخضراوات والفواكه (خصائصها)، هذا شيء يأخذ بالألباب، فيمكن أن يعد موضوع النبات من أكبر الموضوعات الدالة على الله: وجوداً وكمالاً ووحدانيةً.

للنبات حياة نفسية خاصة به:

الله عز وجل جعل هذا النبات بين أيدينا، كائن حي،هنالك بحوث حديثة جداً تشير إلى أن النبات له حياة نفسية، أجريت تجربة نادرة جداً، هناك جهازٌ لكشف الكذب أساسه التعرق، عندما يكذب الإنسان يفرز جلده عرقاً بارداً، هناك أجهزة تحسس بالغة الدقة توضع على مِعْصم الإنسان ويُسأل فإذا كذب تحرك المؤشر،وُضِعَ هذا الجهاز على نبات وجاء إنسان ومزق نباتاً آخر أمام هذا النبات تحرك الجهاز، تألم، الأغرب من ذلك، بعد حين جاء الشخص نفسه الذي مزق النبات وقف أمام النبات فتحرك المؤشر، هكذا قرأت في بحث علمي أن هذه التجربة بدايةٌ متواضعةٌ لإثبات أن للنبات حياة نفسية.

أما أجدادنا فيعرفون هذه الحقيقة، نبتة تعيش في بيت لا تعيش في بيت آخر، ينشأ بينها وبين صاحبها مشاركة وجدانية.

سرور الإنسان مع النباتات أنها كائنات مسبحة:

النبات كائن حي يقول لك الإنسان أنا ذهبت في نزهة وسررت، لماذا سُرَّ ؟ لأنه عاش مع النبات والنباتات كائنات صافية موصولة بالله وغير مكلفة ليس لديها معاصي وآثام، أحد أسباب السرور مع النبات أنها كائنات مُسَبِّحَةٌ لقول الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: الآية 44)

فالنبات مُسَبِّحْ.

عجائب النبات:

فيا أيها الأخوة: أثناء طعامك وأنت جالس في غرفة الضيوف فكِّر في النبات، يوجد نبات مصمم لِيُمْتِعَ عينيك فقط، أما لو أكلته يُمِيتُ الإنسان فهو سام، أوراقه مخططة، لو أن طفلاً أكل منها لمات فوراً، لماذا مصمم ؟ للنظر فقط.

أما اليخنة فلا تميت، مصممة للأكل، اليبرق لايميت، أما هذا النبات مصمم ليمتع عينيك في البيت فقط و أما إذا أكلته فهو سام.

هناك نباتات تأكل اللحوم، نباتات تنصب فخاً أمام الحشرات فإذا وقعت فيها استهلكتها كغذاء، يوجد في النباتات عجائب لا تصدق، الشجرة التي خلقت لِيُسْتَفادَ من خشبها، جذورها ليفية قليلة ومجتمعة، قلعها سهل، أما الشجرة التي خلقت كي يستفاد من ثمرها جذورها بالغة الأعماق، إله حكيم، هذه زُرِعَتْ لتقطع في الأساس ليستفاد من خشبها إذاً جذورها ليفية أما الأخرى زرعت لتبقى ومن أجل أن تثمر فجذورها عميقة وتمتد في أعماق التربة، طبعاً أنا لم أذكر إلا أشياء بسيطة من النبات، هذه يمكن أن تكون نموذجاً لطرائق التفكر في خلق السماوات والأرض.

أيها الأخوة الكرام: إن شاء الله تعالى في الجمعة التي تلي العيد نتحدث عن موضوعات أخرى متعلقة بهذه الآية:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الواقعة 056 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 68-74
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: لازلنا في سورة الواقعة ومع الدرس الرابع من هذه السورة ومع الآية الثامنة والستين.

الحكمة من وراء هذه الأيات:

يقول الله عز وجل:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

المزن هي السحاب:

(لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

قبل أن نتابع الحديث عن هذه الآيات لابد من وقفة متأنية تلقي ضوءاً على حكمة هذه الآيات.

أيها الأخوة: في القرآن الكريم كمٌّ كبير من آيات تتحدث عن الكون وعن النفس وعن قدرة الله وعن حكمة الله وعن صنعة الله وعن علم الله وعن خبرة الله، هذه الآيات أيها الأخوة إن لم يكن لنا موقف منها، إن لم نستجب لها، فقد خسرنا.

اتهام الإنسان بالتقصير إن قرأ آيات الكون و لم يُعمل عقله بها:

أيها الأخوة: لو أن إنساناً أصدر تعليمات، بعض هذه التعليمات لم يُطبَّقْ، هناك احتمالان: إما أن تكون هذه التعليمات غير واقعية أو أنّ الذين أُلْقِيَتْ إليهم قصروا في تطبيقها.

على كلٍّ: تقصير الإنسان في تطبيق التعليمات فيه خسارة له كبيرة، أمّا إن لم تكن واقعية يقول أنا لا أستطيع أنْ أُطبِّقَها. إذا كان في كتاب الله كمٌّ كبير من آيات الكون، من آيات الآفاق، من آيات الأنْفُس، من إشاراتٍ إلى خَلْق الله، إلى خَلْق الله في التضاريس، في الجبال، في الوهَاد، في السهول، في الصحارى، في البحار، في النبات، في الحيوان، في الإنسان. هذا الكمُّ الكبير، لماذا ذكره الله في القرآن الكريم ؟ إنْ لمْ يكن لنا منه موقف، إنْ لم نتأثر به، إن لم نُعْمِلْ عقولنا في ثنياته ؛ فقد خسرنا. أمّا أن نقول هذه الإشارات وهذا الكمُّ الكبير من آيات الكون لا معنى لها، أو لا جدوى منها ؛ فقد كفرنا.

بقي أنّ الإنسان مقصرٌ إذا قرأ آيات الكون ولم يُعْمِلْ عقله بها، لماذا يقول الله عز وجل :

(أفرأيتم)

أي انظروا.

ما خلق الله شيئاً إلا و كان الإنسان بحاجة إليه:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

هذا الماء، الحقيقة أن هناك فكرة دقيقة، هي أنّ كلّ علوم البشر ما فعلت شيئاً إلا بالشكل أو بالمظهر، الماء: الله خلقه، خَلَقَه عذباً فراتاً، التكنولوجيا والعلم الحديث والتقدم الحضاري جرّ الماء إلى أماكن معينة، خَزَّنَهُ، أساله في الأنابيب، أوصله إلى البيوت، جعله في قوارير، لو لم يكن هناك ماء، ما قيمة هذا العلم كله..؟!!

يعني إنسان يأكل من طبق الطعام مباشرة وبشكل بدائي، إنسان آخر يضع أطباقاً وملاعق و أدوات وزهور، كل هذه الأدوات، وكل هذا الكمّ الكبير من الأطباق والملاعق والأواني المنوعة، إن لم يكن هناك طعام، ما قيمتها !؟ لا قيمة لها إطلاقاً، فالله عز وجل خلق الماء العذب الزلال، فكل ما فعله البشر أنّهم خزّنوه، وضعوه في قوارير، نقلوه إلى البيوت ؛ أمّا أنهم خلقوا ماءً عذباً فراتاً، هذا من خَلْق الله، فالذي خلقه الله الإنسان في أمسّ الحاجة إليه، وكلما تقدم العلم ازدادت حاجة الإنسان إليه.

لذلك يقولون أنّ الحرب الآن هي حرب ماء، كانت الحروب حروب بترول ثم أصبحت حروب قمح، والآن هي حرب مياه بين الدول.

ظاهرة السحاب من آيات الله الدالة على عظمته:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ)

أي موضوع السحاب، موضوع أنّ الهواء من خصائصه أنّه يحمل بخار الماء، والماء من خصائصه أنّه على شكل سائل، وعلى شكل غاز، وعلى شكلٍ صُلب، إذا بَرَّدْته أصبح صلباً، وإذا كان بين درجتين معقولتين أصبح سائلاً، فإذا غليته أصبح بخاراً، طبيعة الهواء أنّها تحمل البخار، ولكن هذه الطبيعة أنّ الهواء يحمل البخار بحسب الحرارة، فكلّما سخن الهواء ازداد تَشَبُّعُهُ ببخار الماء، فإذا قلّت حرارة الهواء تخلى عن الماء الذي يحمله، وهذا أصل المطر.

الشمس مُسَلّطةٌ على مسطحات مائية واسعة جداً تزيد عن أربعة أخماس الكون، هذه الشمس تُبَخِّر الماء، تقلبه من سائل إلى غاز، هذا الغاز يتخلل في الهواء، فإذا ازدادت كثافته صار سحاباً، والله

سبحانه وتعالى يسوق السحاب من مكان إلى مكان، فإذا التقى هذا السحاب بجبهة باردة، تخلى هذا الهواء المشبع ببخار الماء عن مائه وانعقد الماء على ذرات من الهباب أو الغبار، لابد من أن تنعقد عليها، وأصبح مطراً، فكأنك إذا عصرت الهواء بَرَّدته وعصرته تخلى عن بعض مائه فكان المطر:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

خصائص الماء:

ظاهرة الماء وحدها من أدق الظواهر الدالة على عظمة الله عز وجل، ظاهرة الماء وحدها، هذا الماء، لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، سريع التبخر، يتبخر بدرجة 14، هذا الماء فيه خاصة لولاها لم نكن في هذا المسجد، ولما وُجِدَتْ حياةٌ على سطح الأرض، أن الماء إذا برّدته إلى درجة +4 تنعكس الآية فبدل أن ينكمش يزداد حجمه، ومع ازدياد حجم الماء إذا بردته تبقى سطوح البحار متجمدة بينما أعماقها سائلة، لو لم تكن هذه الظاهرة كذلك لتجمدت البحار كلها حتى أعمق أعماقها ولانْعَدَمَ التبخر ولانْعَدَمَ المطر ولمات النبات، ومات الحيوان وتبعه الإنسان، مَنْ صمم هذه الظاهرة ؟ وإذا أردت أن تفهم تكتيك هذه الظاهرة، شيءٌ لا يعقل.

قرأت مرة مقالة مترجمة كيف أن الماء إذا بردتَهُ في الدرجة +4 تنعكس الخاصة فيتمدد بدل أنْ ينكمش، شيء من المدهشات ! هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

على الإنسان أن يشكر الله عز وجل على نعمة الماء:

هل منا واحد إلا ويشرب عشرات الكؤوس من الماء، لماذا يقول بسم الله الرحمن الرحيم ؟ يقول بسم الله الرحمن الرحيم ليذكر أنّ هذه نعمة الله عز وجل، الله خلقها وقدّرها بحكمته وعلمه ورحمته، وليذكر أنّ هذا الماء ينبغي أنْ نشكر الله عليه وينبغي أنْ نشربه وفق السنة، قال عليه الصلاة والسلام:

((مُصُّوا الماء مصّاً ولاتعبُّوه عبّاً، فإن الكباد من العب))

(ورد في الأثر)

مرض الكبد يتأتى من عبِّ الماء عبّاً، والأمر النبوي مصُّوا الماء مصّاً والتوجيه النبوي أنْ تشربه وأنتَ قاعد، والتوجيه النبوي أنّكَ إذا شربت الماء اشربه على ثلاث دفعات، والتوجيه النبوي أنّه بين الشربتين يجب أنْ تبعد الإناء من فيك، والتوجيه النبوي ألا تشرب من إناء مسلول لأن فيه الجراثيم، فإذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم، يعني هذا الماء صنعه الله وينبغي أن تشكره عليه، وينبغي أنْ تشربه

وفق منهج الله، كلُّ كلمةٍ أو كلُّ شيءٍ لا يبدأ بسم الله فهو أبتر، فإذا أكلت، وإذا شربت، وإذا نمت، وإذا استيقظت، وإذا تزوجت، وإذا سافرت، وإذا عملت، وإذا ألقيت درساً، وإذا عالجت مريضاً ينبغي أن تقول بسم الله الرحمن الرحيم.

لا قيمة لحياة الإنسان دون ماء:

أيها الأخوة: يقول الله عز وجل:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ)

أنتم حفرتم الآبار، أنتم ضخَخْتُم الماء إلى الأعلى، أنتم نقلتموه في أنابيب، أنتم خزنتموه، أنتم تاجرتم فيه، بِعْتُوهُ في قوارير ولكنكم أنتم أنزلتموه من المزن ؟ حينما يشاء الله أنْ تنحبس الأمطار عن بلدٍ سنين عديدة، لو أنَّ أهل الأرض اجتمعوا وقرروا إنزال المطر، ما قيمة هذا القرار ؟ كلكم يعلم أنَّنا قبل الشهر الأول معدل ما نزل في دمشق 30 مم، في حين أنَّ معدلها السنوي أكثر من 212 مم، ماذا كنا نعمل لو استمر الجفاف حتى الآن ؟ ماذا نفعل بالينابيع التي جفَّت، وبالأشجار التي يبست، وبالحيوانات التي ماتت عطشاً، ماذا نفعل ؟ ما قيمة دمشق ؟ ما قيمة أبنيتها الشاهقة ؟ ما قيمة الحياة فيها ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة المُلك: الآية 30)

الله جل جلاله.

عبادة التفكر في خلق الله من أرقى العبادات:

أيها الأخوة الكرام: إن لم تفكر في هذه الآيات فقد عطلتها، وإن ادعيت أنَّها لا تقدم ولا تؤخر اتهمت الله عز وجل أنَّ كلامه ليس له معنى، إله عظيم يقول لك:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

(سورة الغاشية: الآية 17)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس: الآية 24)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق: الآية 5)

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

معنى ذلك أنَّ عبادة التفكر هي أرقى عبادة على الإطلاق، لأن هذه العبادة تجعلك تقدر الله حق قدره.

عبادة التفكر تجعل الإنسان يعرف الله و يقبل عليه:

قال الله عز وجل:

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ)

(سورة الزُمر: الآية 67)

وهذا معنى أنّ:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

(سورة القدر: الآية 3)

إذا قدّرت الله عز وجل وعرفته، أقبلت عليه وسعدت بقربه في الدنيا والآخرة.

فضل الله على الإنسان بأن جعل له الماء عذباً فراتاً:

(لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

من جعل البحار مالحة ؟ الإنسان قد يركب البحر وقد يموت عطشاً، يركب فوق أكبر كَمْ مائي في الأرض، ما معنى المحيط الهادي ؟ يعني قارة أوروبا بأكملها وآسيا بأكملها وإفريقيا بأكملها و أوقيانوسيا بأكملها وأمريكا الشمالية والجنوبية، القارات الخمس والقارتان القطب الشمالي والجنوبي، القارات السبع لا تساوي خُمْسَ الأرض وأربعة أخماس الأرض بحار، بعض الأعماق يصل إلى 12000 م (خليج ميريانا في المحيط الهادي) قد تركب البحر وقد يموت الإنسان عطشاً، فلو أنّ الله سبحانه وتعالى جعل الماء ملحاً أجاجاً شيء فوق طاقة البشر، وحتى هذه المحطات، محطات التحلية، لولا الدخل الفلكي من النفط لمَا أمكن أن تُنْفَقَ هذه الأموال الطائلة على تحلية المياه، تحلية اللتر يزيد عن ثمن لتر البنزين.

ءأنتم جعلتموه هكذا عذباً فراتاً، موضوع التقطير، هي عملية تقطير، ولكن هذا التقطير على مستوى البحار، على مستوى الأرض، شمسٌ ساطعة، بحرٌ ذو مساحات شاسعة، بخارٌ يتصاعد، بخارٌ يتجمع، سحبٌ تنتقل، احتكاكٌ بين جبهةٍ باردةٍ وجبهةٍ ساخنة، مبدأ الهواء يحمل بخار الماء، مبدأ أن هذا التحميل متعلق بالحرارة، تتبدل هذه الحرارة فينعقد الماء على بعض الذرات ويكوّن قطراتٍ هي قطرات المطر، ظاهرة المطر وظاهرة الماء.

مخزون الماء في الجبال يسيل بقدر حكيم بقدرة الخالق:

هذا البحر الكبير أُخذت منه هذه الأبخرة وأصبحت مياهاً مخزنة في آبار، الله عز وجل قال:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر: الآية 22)

تجد كل بلدة لها ينبوع يسيل على مدار العام، من جعله مخزوناً ؟ من أسَاله بشكل معقول ؟ أحياناً يتهدم السد فيقضي على كل شيء أمامه، الكم المودع في الجبال أكبر من أكبر سد في العالم، لكنه يسيل بشكل حكيم على مدار العام.

أيها الأخوة الكرام: ظاهرة الماء من الظواهر التي ينبغي أن نقف عندها، خصائص الماء، تبخر الماء، الماء لا يُضْغَط، الماء إذا توسع فتت الصخور، بل إنّ تَصَدُّع الصخور وتحويلها إلى تربة خصبة من أحد آثار الماء.

النار أساس كل أداة بين يدي الإنسان:

(لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

هذه النار قال علماء التاريخ **" الحضارة بدأت مع النار "**، هل من أداةٍ بين يديك مصنوعة إلا بتدخل النار ؟ سكين تستعملها لولا النار لما كانت هذه السكين، لأنّ هذه السكين أصلها حديد، والحديد أصله فلزات، والفلزات يعني ذرات حديد مع التراب، ولولا أنّ الله عز وجل جعل هذا الحديد على شكل فلزات لما أمكن أن نستفيد منها، لو جعل ربنا عز وجل الحديد صرفاً كتل في أعماق الأرض لا يستطيع إنسان استخراجها، أما جعل الحديد مع التراب، فلزات الحديد مع التراب، تنقل إلى الفرن العالي، هناك تُصْهَرُ هذه الفلزات ويؤخذ الحديد، لولا النار لما أمكنك أن ترى قطعة حديد في الأرض، إذا دققت فيما تستعمله من أدوات، اجعل هذا محور اهتمامك هذا الأسبوع، أية أداة مهما ظننت أنّها بدائية ؛ النار داخلة بها، هذا الأثاث الذي تجلس عليه ؛ كان أشجاراً، كيف صنع أثاثاً جميلاً لولا الحديد، والحديد أساسه النار.

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

تورون أي تشعلون، أورى النار أي أشعلها، تعطيك الضوء، تعطيك الدفء، تُنْضِج لك الطعام والطعام بلا نار لا يؤكل.

فوائد الأشجار:

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)

من جعل لهذه الأشجار خاصية الاحتراق ؟ يوجد أشياء لا تحترق، وأشياء تحترق ولكن بدرجات غير معقولة، الحديد يحترق ولكن بدرجة 1500، الصخر البازلتي يصبح بخاراً إذا شئت بدرجة 3000، فوق طاقة البشر !! لكن من جعل أشياء تحترق بدرجة مئة ؟ لذلك:

(أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)

هذه الأشجار تعطيك الفواكه والثمار، فإذا يبست أصبحت وقوداً لك. لكن في آية أخرى في سورة يس تشير إلى البترول:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

(سورة يس: الآية 80)

كل شيء خلقه الله يمكن أن تستفيد منه الإنسان حتى آخره:

لولا العصور المطيرة في الأرض التي أنشأت نباتات عملاقة ولولا الزلازل التي جعلت هذه النباتات في باطن الأرض ومضى عليها آلاف السنين لما كان هذا الوقود السائل.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

إذاً هذه الطاقة التي خلقها الله عز وجل أصبحت رمزاً للعصر، يقول لك العصر عصر بترول، كل شيء يُصْنَع من البترول حتى الثياب، حتى الخيوط، أربعة أخماس أدواتنا من البترول، هذا الكم الكبير الذي أودعه الله في الأرض، صُنْعُ مَنْ ؟ مَنْ جعل تحت البترول ماءً مالحاً لئلا يغور في الأرض ؟ من جعل لهذا البترول ضغطاً غازياً كي يصعد بلا مضخات ؟ موضوع طويل لا ينتهي !.

(أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)

يعني ربنا عز وجل لحكمة أرادها، يخلق الشيء، تنتفع به ثمراً، تنتفع به خشباً، تنتفع به رماداً، كل شيء خلقه الله عز وجل يمكن أن تستفيد منه حتى آخره.

كل كلمة ما لم يكن لها مضمون واقعي لا معنى لها:

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً)

الكلمات أيها الأخوة ما لم يكن لها مضمون واقعي لا معنى لها، لو فرضنا أنّ إنساناً لم ير البحر ولا صورة البحر إطلاقاً، لو قلت له بحر ألف مرة لا يفهم منه شيئاً، أما إذا ركب البحر ورأى أمواج

البحر، ورأى اتساع البحر، ورأى عمق البحر، ورأى ملوحة البحر، ورأى جمال البحر، ورأى شدة البحر، ورأى هياج البحر ؛ الآن إذا قلت له بحر، هذه الكلمة تثير عنده كل الخبرات، يضربون على هذا مثلاً درسناه في الجامعة: كلمة مشجب يعلق عليها كل إنسان حاجاته، فلو أنّ أستاذاً في الجامعة لم يُتَحْ له أنْ يكون أستاذاً ذا كرسي وسمع بكلمة كرسي يسبح خياله ساعات طويلة في متى يصبح أستاذاً بكرسي ؟ ولماذا لم يُتَحْ له أنْ يكون في هذا المنصب ؟ والذي في الكرسي ليس أفضل منه لا علماً ولا فهماً ولا خبرةً، كل هذه المعاني وهذه الموازنات وهذه الخواطر أثارتها كلمة كرسي، بينما يسمع هذه الكلمة إنسان يعمل في حلاقة الشعر ويحتاج إلى كرسي آخر، يخاف أن ترتفع الضريبة عليه، وألا يجد موظفاً يليق بالمحل، يسبح بخاطره ساعات طويلة في موضوع آخر، وقد يسمع هذه الكلمة إنسان مُتْعَب، يقول أتمنى كرسياً أجلس عليه، فالكلمة تثير خبرات.

إثارة آيات الجنة للإنسان عندما وصفها الله عز وجل:

لولا أنّ الله سبحانه وتعالى (دققوا الآن) جعل في الجنة جمالاً وفي الأرض جمالاً، جعل فيها جبالاً خضراء، وبحاراً زرقاء، وأطفالاً ذوي وجوه جميلة، تجد الطفل الصغير كالبدر أحياناً، لولا هذا الجمال لمَا أثارتك آيات الجنة:

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة البقرة: الآية 25)

فكل شيء وعدنا الله به أو عدنا منه، في الدنيا منه شيء نقيسه به، فربنا عز وجل يقول:

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً)

هذه النار لِمَنْ ؟ للعصاة. ائتِ بشمعة، ائت بعود ثقاب، اشعله وضعه على إصبعك، هل تحتمله ؟ كيف يحتمل الإنسان نار جهنم ؟

فوائد النار:

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

المقوين: المسافرين، الإقواء: السفر، مكان قواء: أي فارغ لا شيء فيه. فلان أصحر: أي دخل في الصحراء، أقوى: دخل في الفلاة، في المفازة، في الصحراء، فالمسافر يستمتع في النار.

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

ولو ذهبت أيها الأخ الكريم تعدد فوائد النار، كيف أنك تنضج عليه الطعام، وكيف أنها تشيع الدفء في المنزل، أي منزل في الشتاء بلا نار لا يحتمل، النار فاكهة الشتاء، غرفة دافئة أثناء البرد الشديد هي أثمن عندك من كل شيء، ما الذي يعطي هذه الحرارة ؟ النار إذا اشتعلت، وكذلك التدفئة المركزية أساسها نار مشتعلة، كل شيء تراه مريحاً أساسه النار، الطعام الطيب أساسه النار التي أنضجته، اللحم لا يستسيغه الإنسان إلا بعد شيّهِ، دقق في كل شيء تستعمله، في كل شيء تأكله، كيف أنّ النار داخلة فيه !.

حاجة الإنسان إلى النار:

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

طبعاً النار نار، أمّا في قداحات إلكترونية وفي أشياء حديثة، تطور الشكل فقط وأمّا المضمون هُوَ هُوَ، لو أشعلت النار بالطريقة البدائية، بحجر الصوان، أو باحتكاك أغصان الأشجار، أو شعلتها بآلة حديثة أو بكبسة زر، النار نار، الله خلقها، وأنت في أمس الحاجة إليها.

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

النار مصممة أن تكون كذلك، أحياناً لا تتضح الأمور للإنسان، فمثلاً يقول لك: هذا البلور اخترعه الإنسان ! جاء بالرمل وصهره فأصبح على هذا الشكل الشفاف، الجواب بالعكس، الله سبحانه وتعالى عَلِمَ بحاجتنا إلى جسم يمنع دخول الهواء ويسمح بدخول الضوء، فصمم الرمل بهذه الخواص التي يمكن أن يصنع منه هذا البلور، المرأة بحاجة إلى شيء تتزين به، جعل المحار. الأصل أنّ هذا المحار وفيه اللؤلؤ خُلِقَ خصيصاً ليكون زينةً للمرأة، وهكذا ذكر القرآن، وأنت حين تفهم الأشياء على هذا النحو، هذه الأشياء مصممة خصيصاً كي تنتفع بها.

النار،الماء،الحيوان خلقوا خصيصاً تكريماً للإنسان:

الخروف مذلل وبشكل واضح خصيصاً ليكون نافعاً لك، وكذلك الجمل والبقرة أما العقرب غير مذلل، وكذلك الأفعى، الضبع، الوحوش الكاسرة، كلها غير مذللة، أما الغنم مذللة، فالإنسان حين يرى حيواناً مذللاً ؛ ينبغي أن ينتبه إلى أن هذه الخاصة في الحيوان خُلِقَت خصيصاً تكريماً للإنسان. فهذه النار خُلِقَت خصيصاً، أصل النار خُلِقَ خصيصاً، هذا الماء العذب الفرات خلق خصيصاً.

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

المقوين: المسافرين.

التسبيح الحقيقي أن تعاين نعم الله عز وجل و تشكره عليها:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

معنى سبحان الله هناك من يفهمها على هذا النحو: أمسك بالسبّحة وقل سبحان الله، سبحان الله، هذا تسبيح لفظي، ولكن التسبيح الحقيقي أن تجول في نعم الله عز وجل، فكلما وصلت إلى نعمة قلت سبحان الله، سبحان الله العظيم وبحمده، سبحان الله العظيم، التسبيح الحقيقي أنْ تعاين نِعَمَ الله عز وجل، أنْ تتأملها، أنْ تشكر الله عليها، أنْ تستعظم صانعها وواهبها، أنْ تعيش في معنى الحمد والشكر، هذا هو التسبيح، التسبيح هو التمجيد والتنزيه، سبحان الله العظيم وبحمده سبحان الله العظيم:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

أنت أحياناً ترى آية من آيات الله الدالة على عظمته بعد أن تتأملها، بعد أن تعاينها، بعد أن تحللها، بعد أن تشعر بافتقارك إليها، بعد أن ترى فضل الله عليك، نعمة الله لك، تقول وقد امتلأت إعجاباً: سبحان الله ! سبحان الله تقولها بعد تأمل، وبعد بحث ودرس:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

على الإنسان أن يسبح ربه بعد تفكره و استعظامه لنعم الله:

الآن دققوا أيها الأخوة: متى قال الله عز وجل:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

بعدما قال:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)

إن رأيتم ما تمنون وعلمتم أنكم لا تخلقونه بل نحن الخالقون ثم حينما قال الله عز وجل:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

ثم قال الله عز وجل:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

ثم حينما قال الله عز وجل:

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

التسبيح أساسه التفكر في آلاء ونعم الله:

إن رأيتم ونظرتم وتفكرتم ودرستم وحللتم واستعظمتم وكبّرتم عندئذ قولوا:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

معنى ذلك أنّ التسبيح أساسه التفكر في النعم، أساسه التفكر في آلاء الله عز وجل، في آياته الكونية والتكوينية، وفي آياته القرآنية.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ:أية من أيات الله الدالة على عظمته:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

المسافات في الأرض مثلاً دمشق - حلب /360 كم/، دمشق - جدة /1100كم/، مثلاً دمشق - لندن /5000 كم/ يعني أبعد نقطة في الأرض /20000 كم/ لأن محيط الأرض /40000/، أما إذا دخلنا في الفضاء الخارجي من الأرض إلى القمر /000 360كم/ يقطعها الضوء في ثانية واحدة، إذا قلت ثانية فضائية تعني / 000 360 كم/، الأرض والشمس / 156 مليون كم / يقطعها الضوء في ثماني دقائق، والمجموعة الشمسية والتي هي الأرض والمريخ والمشتري وزحل ونبتون وبلوتو وعطارد والزهرة، هذه المجموعة الشمسية أقصى قطر لها /16 ساعة ضوئية/، الشمس 8 دقائق، القمر 1 ثانية.

أقرب نجم ملتهب للأرض / 4 سنوات ضوئية / معنى أربع سنوات أي لو وجدَ طريق لهذا النجم ولديك سيارة حديثة تسير بسرعة مئة تحتاج إلى 50مليون سنة لتصل له فقط، إذاً بعد أقرب نجم ملتهب هو 4 سنوات ضوئية، أمّا أحدث مجرة /000 300 بليون سنة ضوئية /، بإحدى محطات الأخبار العالمية قبل ستة أشهر تقريباً قالوا بأن مركبة قد أرسلت وبقيت تطير في الفضاء الخارجي ست سنوات بسرعة /000 40 ميل/ ووصلت للمشتري والذي هو ضمن المجموعة الشمسية (ضمن 13 ساعة ضوئية) وعليها مرصد عملاق، هذا المرصد التقط صورة مجرة تبعد عنا /000 300 بليون سنة ضوئية/.

الكون غير محدود فكيف خالق الكون ؟

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

لو تعلمون:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: 28)

هذا الإله العظيم يعصى !؟ الذي خلق الكون وهذه بعض أبعاده، وهذه الأبعاد إلى الآن وصلنا إليها، وما أدراكم أنّ هناك مجرات تكتشف بعد حين، تبعد عنا أضعاف مضاعفة، عن أبعد مجرة اُكْتُشِفَتْ، هذا الكون غير محدود فكيف خالق الكون ؟

(وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

جواب القسم:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

القرآن العظيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

الذي خلق هذا الكون، أنزل هذا القرآن، الكون كله في كفة والقرآن في كفة.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام: الآية 1)

الكون كله:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: الآية 1)

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

لذلك هذا كتابنا، هذا منهجنا، هذا كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا كتابنا المقرر، هذا الكتاب الذي ينبغي أن نقرأه كل يوم، أنْ نقف عند آياته آية آية، كلمة كلمة، حرفاً حرفاً، هذا الكتاب الذي كلما زدته فكراً زادك معنىً، هذا الكتاب الذي لا غنىً فوقه، ولا غنىً دونه، هو الغنى، منهج.

وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه:

كنت مرة ذكرت لو تصورنا آلة معقدة جدا قيمتها 30 مليون، يوجد الآن آلات كومبيوترية تحلل الدم بثواني، تعطيه نقطة دم يعطيك 27 تحليل دقيق بثانية ومطبوعة، لو أن هذا الجهاز ثمنه 30 مليون وهذه أسعار بعض الأجهزة الغالية واشتريت هذا الجهاز بهذا المبلغ الضخم، ولم ترسل لك الشركة كتاب تعليمات التشغيل والصيانة، أنت الآن في مشكلة، إن شغّلت هذا الجهاز الغالي جداً بلا تعليمات أصبته بالخلل، أعطبته، وإن خفت أن يصاب بالخلل لم تستعمله، جَمَّدْت ثمنه، بربك أليست تعليمات الصانع لا تقل قيمةً عن هذا الجهاز هذا هو القرآن الكريم، أنت من دون قرآن في شقاء، الدليل: أنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن: الآيات 1-4)

كيف يعلم الله الإنسان قبل أن يخلقه، هذا ليس ترتيباً زمنياً، بل هو ترتيب رتبي، يعني وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه، فمثلاً هل من الممكن أن تقود طائرة بدون علم ؟ تقع رأساً، لابد من أن تكون فاهماً لدقائق الطائرة ولأسلوب قيادتها وللتصرفات المناسبة في الوقت المناسب، فالعلم أساسي في قيادة الطائرة وإلا سقوط حتمي.

القرآن الكريم قرآن نقي من كل شائبة:

يقول الله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

نقي من كل شائبة، تقول حجر كريم يعني ألماس، نقاء مطلق، لا يوجد كتاب من تأليف بشر إلا وفيه نقص، فيه خلل، فيه فكرة غير واضحة، فيه معالجة غير عميقة، فيه فكرة غلط، فيه فكرة بلا دليل، لكنك مع القرآن، مع كتاب خالق الكون.

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

قرآن كريم: نقي من كل شائبة، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

من أسباب فهم كتاب الله أن تكون قريباً من الله، طاهر النفس:

لو أمضينا العمر كله في قراءة القرآن وفهم آياته والعمل بها، لمَا كان لهذا من بُدّ، هذا هو المنهج، قال لكن:

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

كتاب عزيز، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء: الآية 82)

وهو عمىً عليهم. وذكر أنّ أولئك الذين لا يفهمون كتاب الله يُنَادَوْنَ من مكانٍ بعيد، وهذه الآية تشير إلى أنّ من أسباب فهم كتاب الله، أن تكون قريباً من الله، طاهر النفس، لأنّ هذا الكتاب:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

الإنسان الذي يرتكب المنكرات لا يزيده القرآن إلا خسارة:

طبعاً المطهر هو الطاهر، وهذا اللفظ من المشترك اللفظي بمعنى أنّ الذي يقرأ في المصحف ينبغي أن يكون متوضئاً، طاهراً من الحدث الأكبر والأصغر، والمعنى يصل إلى أنّ الذي يريد أن يفهمه يجب أن يكون طاهر النفس، لأن الذي يفعل المنكرات لا يزيده القرآن إلا خسارة:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء: الآية 82)

تزداد خسارته وهو عمى عليهم، ويقرأه ولا يفهم، يُنَادى من مكانٍ بعيد.

من عوامل فهم القرآن:

1 ـ طهارة النفس:

إذاً من عوامل فهم القرآن: طهارة النفس:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

محفوظاً، ليس مبتذلاً.

2 ـ القرب من الله عز وجل:

فيه آيات لا تُفهمُ إلا بقربك من الله عز وجل، فيه آيات تأخذها على ظاهرها، تقول غير معقول ! وفيه آيات أخرى تفسر بعض الآيات، وفيه آيات محكمات، وآيات متشابهات:

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)

(سورة آل عمران: الآية 7)

فيه آيات تقرؤها ولا تفهمها، وربّما فهمتها فهماً معكوساً.

المعاني في القرآن تحتاج إلى دراسة و إعمال فكر:

لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

يعني محفوظ، ليس من البساطة أن تفهمه سريعاً هكذا، النص الراقي يعطيك فرصة كي تتأمله، المعاني في القرآن لا تؤخذ سريعاً، تحتاج إلى دراسة، إلى إعمال فكر، إلى طهارة نفس، إلى إخلاص، إلى إقبال، جزء من شروط فهم القرآن الكريم طهارة النفس، هذا معنى قوله تعالى:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

:هذه

(لا)

لا النافية وليست لا الناهية، لو كان لا يمسَسْهُ إلا المطهرون لانصرفت إلى الوضوء فقط، أمّا لأنّ الله ينفي ولا ينهى، ينفي من أفعاله التكوينية ولكن ينهى من أوامره التكليفية، فهو ينفي أن يمسه إنسان غير طاهر، فالخبيث والفاسق والشهواني والمنحرف والوصولي، صاحب المصلحة، المتعلق في الدنيا، هذا يقرأ فلا يفهم، أما المخلص الطاهر المستقيم، الذي تحرى الحلال يقرأ فيفهم.

لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ:أية محكمة ينبغي الوقوف عندها ملياً:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

أيها الأخوة: هذه الآية نحتاج إلى أن نعود إليها مرة ثانية لأنها أساسية جداً في فهم القرآن وهي من الآيات المحكمة التي ينبغي أن نقف عندها ملياً، نحن وصلنا إلى قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

ولنا عودة إلى هذه الآيات في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الواقعة 056 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 75-96

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الخامس والأخير من سورة الواقعة ومع الآية السابعة والسبعين.

حقيقة الكون يعرفها العلماء فيطيعون خالقهم:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

وقد يكون من بعض معاني هذه الآية تلك المسافات الشاسعة بين النجوم:

(وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

إنما يخشى الله من عباده العلماء الذين يعلمون حقيقة الكون، هم الذين يخشون الله عز وجل ويؤمنون به ويطيعونه، جواب القسم:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

الذي خلق السماوات والأرض، والذي خلق هذا الكون العظيم، هو الذي أنزل هذا القرآن الكريم. لذلك شرف الأمر من شرف الآمر، شرف الرسالة من شرف المرسل، عظمة هذا القرآن من عظمة الذي أنزله.

حفظ القرآن الكريم من الإضافة عليه أو الحذف منه:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

ومعنى كريم: نقي من كل شائبة:

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

محفوظ، محفوظ من أنْ يُبَدَّل، محفوظ من أنْ يُغَيَّر، محفوظ من أنْ يُضَاف عليه، محفوظ من أنْ يحذف منه.

الله تعالى تولى بنفسه حفظ القرآن الكريم:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر: الآية 9)

الله سبحانه وتعالى تولى بذاته حفظ كتابه، فهذا الذي تقرؤونه هو نفسه الذي أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وإن النبي عليه الصلاة والسلام يُؤَكِّدُ أنّ الذي أُنزل عليه هو آيةٌ مستمرة إلى يوم القيامة، هو خاتم النبيين، والآية التي أُنزلت عليه قائمة إلى يوم القيامة، كل معجزات الأنبياء وقعت وانتهت وأصبحت خبراً، يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه، إلا القرآن الكريم، فهي المعجزة الدائمة الخالدة، وكلما تقدم العلم، كشف عن جانبٍ من إعجاز القرآن الكريم، معنى:

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

أي محفوظ، لا يمكن للشياطين أن تصل إليه، ولا يمكن لأهل الكفر أن ينالوا منه، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

معاني المطهرين:

1 ـ الملائكة:

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

بيّنت لكم في الدرس الماضي: المطهرين من معاني هذه الكلمة الملائكة، الملائكة الذين أكرمهم الله عز وجل بالإقبال عليه، هم مطهرون من كل دَنَس، بمعنى أن الشياطين لم تصل إليه، وما تنزلت به، الذين حملوا هذا الكتاب ونزلوه إلى النبي عليه الصلاة والسلام هم الملائكة المطهرون، إذاً:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

هذا هو المعنى الأول.

2 ـ الأتقياء الذين تطهروا من الشرك والشك:

(لا يمسه إلا المطهرون)

أي هم الأتقياء الذين تطهروا من الشرك والشك، ولا يمسه إلا المطهرون أي هم الذين لم يكونوا مُحدثين حدثاً أصغر ولا أكبر، يعني إما أن تفسَّر المطهرين بأنها طهارة البدن والثوب فالذي أحدث حدثاً أصغر أي هو غير متوضئ، لا ينبغي أن يمسه، كذلك الذي أحدث حدثاً أكبر أي هو جنب، لا ينبغي أن يمسه، كذلك الذي على ثوبه نجاسة لا ينبغي أن يمسه، هذا المعنى المادي. ثم إنّ الذي فيه شيء من الشكِّ والشرك والظلم والانحراف لا يستطيع أن يمسه، ثم إنّ الشيطان لا يستطيع أن يمسه،

الملائكة هم المطهرون وليسوا الشياطين، والتقي المنيب المستقيم الطاهر هو الذي يفهم معانيه، وليس المنحرف الفاسق الفاجر الكافر لأنه هو عمى عليهم، لأنه كما قال الله عز وجل:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء: الآية 82)

وكذلك الذي كان متوضئاً، طاهراً من الحدث الأصغر والأكبر هو الذي يمكن أن يقرأه.

تعظيم القرآن هو تعظيم لله عز وجل:

لذلك ورد في هذا الموضوع بعض الآيات الكريمة وبعض الأحاديث الشريفة، عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقْرِئُنَا القرآنَ على كل حال، ما لم يكن جُنُباً. العلماء أجمعوا على أنّ الجُنُبْ لا ينبغي لا أنْ يقرأ القرآن ولا أنْ يمسّ القرآن، شيءٌ مقطوعٌ به، الجُنُبْ لا يقرأُ القرآن ولا يمسُّ القرآن، وقالَ عليٌّ رضي الله عنه وقال أبو عيسى: حديث علي رضي الله عنه حديث حسن صحيح.

لذلك قضية أنْ تقرأ القرآنَ متوضئاً أو غير متوضئ قضية خلافية، أما إذا كان الإنسان جُنُباً لا ينبغي أنْ يقرأهُ ولا ينبغي أنْ يمسّه على الإطلاق، تعظيماً له، وإجلالاً لقدره وتعظيم القرآن هو تعظيم لله عز وجل.

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج: الآية 32)

المؤمن متوضئ أو غير متوضئ لا ينجس أبداً:

قال التابعون: يقرأ الرجل القرآن على غير وضوء، لك أن تقرأه غير متوضئ، تركب سيارة عامة، تمشي في الطريق، لك أن تقرأ القرآن دون أن تكون متوضئاً، ولا يقرأ في المصحف إلا من هو طاهر، لدينا القراءة غير المس، لك أن تقرأه طاهراً، متوضئاً أو غير متوضئ، أما المؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ حُذَيْفَةَ أَنّ النّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ فَأَهْوَى إلَيْهِ قالَ قُلْتُ إنّي جُنُبٌ قالَ إنّ الْمُؤْمِنَ لا يَنْجُسُ))

(أخرجه أحمد عن حذيفة)

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

(سورة التوبة: الآية 28)

المشرك هو نجس:

(فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة: الآية 28)

أمّا المؤمن متوضئ، غير متوضئ، جُنُب، غير جنب ؛ لا ينجس أبداً.

عدم مس الإنسان للقرآن الكريم إلا و هو طاهر تعظيماً للخالق:

لذلك العلماء والتابعون فرّقوا بين قراءة القرآن وبين مسِّهِ، لك أن تقرأ القرآن متوضئاً أو غير متوضئ، لكن ليس لك أن تمسَّه إلا وأنت طاهر تعظيماً لقدره وتعظيماً لمن أنزله:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج: الآية 32)

في كتابٍ كتبه النبي صلى الله عليه وسلم لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، قال في هذا الكتاب (من جملة هذا الكتاب):

((أَنْ لا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إلا طَاهِرٌ))

(أخرجه مالك عن عبد الله بن حزم)

المس شيء والقراءة شيء.

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ: الأحكام المتعلقة بهذه الآية:

1 - القرآن نقي من كل شائبة:

هذه بعض الأحكام المتعلقة بهذه الآية:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

نقي من كل شائبة، مطلق !، أيُّ كتابٍ ألفه بني البشر، فيه صواب وفيه خطأ، فيه عمق وفيه سطحية، فيه صحة وفيه أغلوطة، أما كتاب الله عز وجل، لا ريب فيه، فضل كلام الله على كلام خلقه، كفضل الله على خلقه.

2 - القرآن الكريم كالحجر الكريم:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

كالحجر الكريم، قطعة ألماس صافية صفاءً عجيباً، حينما قلدوا الألماس هذا المُقَلَّدُ ينطفئ بريقه على الاستعمال، إذاً ليس كريماً، أما الألماس حجر كريم، نقي وَهَّاج، وكذلك القرآن، قرآن كريم.

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

شيء نفيس، ليس مبتذلاً، أول معنى في كتاب مكنون أنّ الله حفظه من أنْ يُبَدَّل، ومن أن يغير، ومن أنْ يضاف عليه، ومن أنْ يُحذف منه، وفوق أنّه حفظه، الإنسان العاصي الفاسق الشارد المنحرف الفاجر يقرأه فلا يفهم منه شيئاً، هو عمى عليه، لا يزيده إلا ضلالاً.

من شروط فهم القرآن الكريم أن تكون قريباً من الله، وهذا تؤكده آيات كثيرة:

(أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

(سورة فُصِلت: الآية 44)

أما المؤمن يُنَادى بالقرآن من مكان قريب، فأحد أسباب فهم كتاب الله تعالى فهماً صحيحاً أن تكون قريباً من الله، وأنت الآن إذا كنت قريباً من إنسان تفهم كلامه، أمّا إذا ابتعدت عنه لا تفهم كلامه.

معنى أعمق: إذا كنت قريباً في المستوى الفكري والعقلي والثقافي من إنسان تفهم أبعاد كلامه، أمّا إذا كنت بعيداً عنه لا تفهم من كلامه شيئاً، فحينما تقترب من الله في الطهارة والكمال والاستقامة والإخلاص يفتح الله على قلبك مغاليق القلب، إذاً:

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

لا يصل إلى القرآن الكريم إلا الملائكة وحدهم:

الملائكة وحدهم هم الذين يصلوا إليه وليس الشياطين وما تنزلت به الشياطين:

(إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)

(سورة الشعراء: الآية 212)

شيء آخر المطهرون هم الملائكة وليسوا الشياطين، المطهرون الأتقياء لا العصاة، المطهرون من الحدث الأصغر أو الأكبر وليس الذي وقع في جنابة أو في حدث أصغر، والمطهرون كلمة قال عنها علماء الأصول إنّها من المشترك اللفظي، والمشترك اللفظي إذا ورد في كتاب الله عز وجل فالله يريد كل المعاني المحكمة له، يعني كن طاهراً طهارة بدن، كن طاهراً طهارة ثوبٍ، كن طاهراً طهارة قلبٍ، من أجل أن تقف على معانيه الدقيقة، من أجل أن تبرُقَ أمامك معانيه الرائقة.

القرآن الكريم كتاب مطلق في بيانه و كماله:

أيها الأخوة:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

لماذا ؟ لأنه:

(تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

مرة ثانية وثالثة ورابعة أقول لكم، لمّا قال سيدنا سعد: ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس، ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً إلا علمت أنّه حقٌ من الله تعالى، يقاس على هذا الكلام أنّه ينبغي للمؤمن أن يشعر أنّه مع كتابٍ لا كأيّ كتاب، مع كتابٍ من خالق الكون، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مع كتابٍ لا ريب فيه، مع كتابٍ مطلقٍ في كمالهِ، مطلقٍ في بيانهِ، مطلقٍ في إعجازهِ، مطلقٍ في تشريعهِ، مطلقٍ في أخبارهِ، مطلقٍ في آياتهِ الكونية.

(تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

أي هذا الكتاب أيها الأخوة، كتابنا المقرر، كتاب الحياة الدنيا، منهجنا، دستورنا:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: الآية 9)

إنْ وضعناه أمامنا سَلِمْنَا وسعدنا، وإنْ نبذناه وراء ظهورنا شقينا في الدنيا والآخرة، إنّه سرُّ سعادتنا، سرُّ سلامتنا، سرُّ تفوقنا، سرُّ انتصارنا، سرُّ قهرنا لأعدائنا.

على الإنسان ألا يداهن لأن المداهنة من صفات المنافقين:

هذا القرآن:

(تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

معنى مدهن من المداهنة والمداهنة: الملاينة، إنْ جعلت دهناً على شيءٍ أصبح ليناً، المداهنة هنا يعني أن تجامل الكفار، أنْ تجري معهم قليلاً، أنْ توافقهم على مقولتهم، إنْ طعنوا في هذا الدين، تقول معك الحق، كيف تقول معك الحق ؟ داهنتهم، والله سبحانه وتعالى طهّر النبي صلى الله عليه وسلم عن أنْ يداهن:

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

(سورة القلم: الآية 9)

لم تداهن أبداً، المداهنة من صفات المنافقين، فإذا إنسان طعن في أحقية هذا الكتاب، وتملك الحجة على أنْ ترد عليه، وبقيت ساكتاً، فقد داهنته، إنسان انتقص من دينك، وتملك أنت الجواب، فَسَكَتِّ، يعني اتقاء للمشكلة، وطلباً للسلامة قد داهنته.

الحياة الدنيا لا تحتمل التقصير فكيف بخالق السماوات ؟

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

قال علماء التفسير: **" إنكم إنْ جاملتم أو إن لاينتم أعداء الدين حينما يطعنون بهذا الكتاب أو بأحقيته"**، يعني إذا قال لك شخص من الناس: إن النظام الاقتصادي في القرآن الكريم لا يكفي لمعالجة مشكلات المجتمع الحديث ؟ تجيب: والله معك حق، معنى ذلك داهنته، أنت إمّا أنْ تعلم، وإمّا ألا تعلم، إنْ لم تعلم فأنت مقصر، وإنْ علمت الجواب وسكتّ، فأنت مداهن، فالحياة لا تحتمل التقصير، هذا كتاب الله، كتاب الله بين أيدينا، كما أنّ الإنسان لا يقبل منه أنْ يكون جاهلاً، والقانون لا يحمي المغفلين، ولا جهل في القانون، قانونٌ وضعه بني البشر، لا يقبل واضع القانون أن تكون جاهلاً فيه، لا يقبل واضع القانون أنْ تكون مغفّلاً، لا يحميك القانون إذا كنت مغفّلاً، فكيف بالذي خلق السماوات والأرض:

إنْ كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

* * *

الفرق بين المداراة و المداهنة:

المداهنة أحياناً من المسلمين، أي إنسان يزعم أنّ الكتاب لا يتناسب مع روح العصر، فالمسلم لو سكت، وهو لا يدري ماذا يجيبه معناه مقصّر في العلم، وإذا كان يعلم الجواب وسكت مداهنةً فيكون قد ارتكب ذنباً أكبر، لذلك إذا أردت الآخرة عليك بالعلم.

إذاً: المداهنة ليست من صفات المؤمن، لكن المؤمن يداري، والمداراة شيء والمداهنة شيء آخر، قال عليه الصلاة والسلام:

((بُعِثْتُ بمداراة الناس))

والباء هنا للاستعانة، أي أنا أستعين على هدايتهم بمداراتهم، أنا أداريهم ولا أداهنهم، أُداريهم: أبذل من دنياي من أجل دينهم ولا أداهنهم: أي لا أبذل من ديني من أجل دنياهم، إن بذلت الدين من أجل الدنيا فأنت مداهن، أمّا إذا بذلت الدنيا من أجل الدين فأنت مداري، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نداري الناس.

وقوع المسلم في معصية كبيرة إن سقط عن الحق:

رأس الحكمة بعد الإيمان بالله مداراة الناس، ابذل لهم من مالك، ابذل لهم من وقتك، ابذل لهم من خبرتك، ابذل لهم من وقت راحتك، فلعلك تأخذ بيدهم إلى الله، اصفح عنهم، لا تنتقم منهم، أَعْفُ عنهم، أَعْطِهِم ولا تحرمهم، صِلْهُمْ ولا تقطعهم، أَنْصِفْهُمْ ولا تظلمهم، ابذل لهم من دنياك، من أجل دينهم، فأنت تتبع سنة النبي، أمّا إن بذلت من دينك من أجل دنياهم فأنت تداهنهم، وهذه كبيرة من أكبر الكبائر، لأنك إذا داهنت المنافق والفاجر شك الناس في كلامك وسقطت دعوتك، إن داهنت الكافر والمنافق وَجَّهْتَ الناس إليه وصدقوك.

إنّ الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق، شيءٌ خطير، إن داهنت الفاجر، إنْ داهنت الفاسق، العاصي، إن داهنت الذين يكيدون للدين، إن داهنتهم، وأثنيت عليهم، ومدحتهم، إن صَدَّقَكَ الناس ؛ أَوْقَعْتَهُمْ في الضلال، وإنْ كَذَّبوك سقطت من أعينهم، بين مصدِّقٍ لك ومُكَذِّب، الذين صدَّقوك اعتقدوا عقيدة مغلوطة، والذين كذَّبوك سقطت من أعينهم، لذلك لا تداهن، داري ولا تداهن.

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

أي إذا كنت قادراً على إيضاح الحقيقة وسكتّ طلباً للسلامة أنت داهنت، سكوت المسلم عن الحق يوقعه في معصية كبيرة.

أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ : من معاني هذه الآية أن :

الطعْنَ في الدين لم يكن من قبلك بل كان من قبل آخرين ووافقتهم فقد داهنتهم:

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

من معاني هذه الآية، هو أنّ الطعْنَ في الدين أو في القرآن لم يكن من قبلك، بل كان من قبل آخرين، ووافقتهم على ذلك، أو طيَّبتَ كلامهم، أو هزَزْت برأسك إقراراً، أو سكتّ خوفاً ؛ فأنت قد داهنتهم وأنت لا تدري إلا إنْ كان الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر يسبب فتنة أشد من المنكر الذي تنكره لا عليك إن سكتّ، هذا حكم شرعي، فمثلاً ابن أخوك تكلم كلمةً في كتاب الله غير صحيحة، لا تبقى ساكتاً هذا ابن أخوك، أقنعه وخذ بيده، ائتِ به إلى مجلس علمٍ، اجمعه مع عالمٍ، أسمعه شريطاً، ليقرأ كتاباً، فإذا وضَّحْتَ الحقيقة لمن تمون عليه، لمن تثق به، لمن لك كلمة عنده، هذا واجب، أمّا لو أنّك أنكرت منكراً نتج عنه فتنة أشد من المنكر الذي تنكره عندئذ أنت معذور، عندئذ تقول اللهم هذا منكر لا أرضى به والقاعدة التي تقول: لا يقبل الله منك أن تنكر منكراً بلسانك وأنت قادر على أنْ تنكره بيدك، كما أنّ

الله سبحانه وتعالى لا يقبل منك أنْ تنكر منكراً بقلبك وأنت قادر على أنْ تنكره بلسانك، هذا على موضوع ودُّوا لو تدهنوا فيدهنون.

الرزق سبب الشكر:

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

أيها الأخوة: هذه آية دقيقة يجب أنْ نقف عندها قليلاً، تجعلون رزقكم أنّكم تكذبون، الرزق مطلق العطاء: الله عز وجل يعطي، يعطي الصحة هذا رزق، يعطي العقل في الرأس هذا رزق، المجنون محروم العقل، يعطي الحركة هذا رزق، يوجد إنسان مشلول يعطي البصر، يوجد إنسان أعمى، يعطي السمع، يوجد إنسان أصم، يعطي الحكمة يوجد إنسان أحمق، يعطي الزوجة يوجد إنسان لا زوجة له، يعطي الأولاد رزق، يعطي الطمأنينة، يعطي السكينة، يعطي السعادة، يعطي الرضا، يعطي الجنة، الرزق مطلق العطاء، الرزق سببه الشكر، الدليل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: الآية 147)

حرمان الإنسان من نعم الله إن كذب به:

هذا الكون الذي سخره الله لك تسخيرين اثنين، تسخير تعريف من أجل أن تؤمن، وتسخير تكريم من أجل أن تشكر، إنّك إنْ آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، إنّك إنْ آمنت وشكرت كان إيمانك وشكرك سبباً في كل خير، في الخير المطلق، في الدنيا أنت في خير، وفي سلام، وفي طمأنينة، وفي سعادة، وفي رضا، وفي رقي، وفي تألّق، وفي فوز، وفي نجاح، فإذا جاء الأجل انقلبت إلى جنة عرضها السماوات والأرض، اتصلت نِعَمُ الدنيا بنعَمِ الآخرة، هذا الرزق الكريم سببه الشكر، أمّا الذي يكذب بوجود الله، يكذب بأسمائه الحسنى، يكذب بوحدانيته، يكذب عدالته، يكذب رحمته، يكذب منهجه، مطلق التكذيب، أي هو حرم نفسه كل عطاء بسبب هذا التكذيب.

مثلاً: جامعة لك أن تدخلها مجاناً وأنْ تنال وأنت طالبٌ فيها مرتباً خيالياً، وأنْ تتلقى مسكناً فخماً، ومركبة فارهة، ومنصباً رفيعاً، ودرجةً علمية، كلُّ هذا إذا اعترفت بوجود هذه الجامعة ودخلت إلى رحابها، وتلقيت العلم فيها، فكانت هذه الجامعة مثلاً سبب سعادتك كلها في الدنيا، أمّا إذا أنكرت أن تكون هذه الجامعة معطاءة، أنكرت أنْ يكون فيها علم، أنكرت أن ينال فيها الإنسان ثمرةً، إنكارك لهذا العطاء منعك من نيله، الكافر مسكين، هو في الأصل خُلِقَ ليرحمه الله، نصيبه من الله أنّه كذب بالله،

كذّب بوجوده (الإلحاد) أو كذب بأسمائه، أو كذب برحمته، أو بعدالته، أو بمنهجه، أو كذب برسوله، أو كذب بأحقية كتابه، أو كذب بالآخرة، أو كذّب بقضائه وقدره، وتجعلون نصيبكم من الله أنّكم كذّبتم به، أي حرمتم أنفسكم نصيبكم العظيم لأنكم كذّبتم به.

أطيب ما في الدنيا معرفة الله عز وجل:

أيها الأخوة: مسكين هذا الذي جاء الدنيا وغادرها ولم يذق أطيب ما فيها، إنّها معرفة الله، مسكين هذا الذي أتى إلى الدنيا وغادرها ولم يتعرف إلى أولياء الله، لم يتعرف إلى منهج الله، لم يتعرف إلى سعادة سببها الاتصال بالله، لم يتعرف إلى أجمل ما في الحياة الدنيا: العمل الصالح، لم يتعرف إلى سرّ وجوده، لم يتعرف إلى غاية وجوده:

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

ابن عباس رضي الله عنه قال: تجعلون رزقكم أي شكركم، أي بدل أن تشكروا فيأتيكم الرزق من كل جانب، كذبتم وكفرتم فحرمتم، هؤلاء في الدنيا كذبوا في هذا الدين، كذبوا هذا القرآن، كذبوا ذاك المنهج، كذبوا أحقية الدين، ماذا هم صانعون إذا جاء ملك الموت ؟

الموت مصير كل كائن حي:

الآن دققوا أيها الأخوة:

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

بلغت الحلقوم هي النفس، أي جاء ملك الموت وانسحبت النفس من الأطراف وانتقلت إلى الحلقوم قبيل النزع الأخير، أيها الأخوة هذه ساعة ما نجا منها أحدٌ على وجه الأرض، ولا الأنبياء، ساعة الموت، ساعة النزاع، والله سبحانه وتعالى قهرنا بالموت، مهما كنت عظيماً، مهما كنت قوياً، مهما كنت صحيحاً، مهما كنت عالِماً، كن في أية مكانة شئت، وفي أي مكان شئت، لابُدّ من أنْ تلقى الواحد الديان، لابُدّ من أنْ تموت، كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت:

و الليل مهما طال فلا بد من طلوع من الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبـر

***

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامته يومـاً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبـور جنــازة فاعلم بأنك بعدهــا محمول

***

القبر هو المثوى الأخير للإنسان:

أنا والله لا أرى مانعاً من أنْ يشتري إنسان قبراً في حياته، هذا القبر في حياته يعطيه مواعظ لا حدود لها، هذا هو المصير، اذهب إليه من حينٍ إلى آخر، هنا المصير، هنا الحساب، لا زوجة، لا ولد، لا تجارة، لا مكتب، لا مقصف، لا بيت في المصيف، لا مركبة فارهة، لا شأن ولا مكانة، لا عز لا سلطان، كل مخلوق يموت، بل إنّ بعض الصالحين كانوا يضجعون في قبرهم، وهم أحياء، ويقرؤون قوله تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون: الآية 99-100)

يقول لنفسه قومي يا نفس لقد أرجعناك.

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

الإنسان يسافر ويتاجر ويؤسس شركة، يشتري بيتاً، يتزوج، ينال دكتوراه:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق: الآيات 6-7)

ولكن لا مندوحة من أنْ ينزل في هذا القبر، يشتري بيتاً أربعمئة متر وآخرته 1م × 2م، يشتري بيتاً أربع طوابق و آخرته 1م × 2م، يشتري بيتاً قبو آخرته 1م × 2م، أي بيت، كبير أو صغير، عالي أو منخفض، مُلك أو أجرة، المسألة نفسها، هذا مسكن مؤقت، أمّا المثوى الأخير بباب الصغير، المثوى الأخير غير المثوى المؤقت.

على الإنسان أن يحضّر جواباً لكل سؤال قبل أن يلقى ربه:

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

أيأتي يوم لا يوجد فيه أكثر من خمسين نعوة ؟ أنا سألت أحد الأخوة الكرام يعمل في مكتب دفن الموتى، أخبرني بأنه بدمشق لوحدها أكثر من خمسين ميتة، أيمر يوم بدون نعوات جديدة، تاجر، طبيب، محامي، فقير، غني، وزير سابق، محافظ سابق، أيمر يوم لا يوجد نعوات على الجدران ؟ اعلموا أنّ ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، ماذا تجيب الله عز وجل إذا سألك لماذا فعلت كذا ؟

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

(سورة المؤمنون: الآيات 105-108)

ماذا تقول إذا قال الله لك: لِمَ حَرَمت البنات وأعطيت الذكور ؟ لِمَ خالفتَ الشرع ؟ ماذا تقول إذا قال لك: لماذا طلقت هذه المرأة ؟ ما الذنب الذي ارتكبته بحقك ؟ لماذا شردتها وقطعتها وكسرتها ؟ لماذا اغتصبت هذا المحل التجاري وأخرجت منه شريكك ؟ ماذا تجيب ؟

بطولة المؤمن أن يفكر في الموت بكل لحظة :

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

كل بطولتنا وكل ذكائنا وكل تفوقنا وكل فلاحنا وكل نجاحنا، أن نفكر في هذه اللحظة، طبعاً نشاهد بأعيننا، من أين تبدأ ؟ من القلب، أو من الكليتين، أو من الكبد، أو من الدماغ، يقول لك خثرة بالدماغ، بدأت من هنا، أو من القلب، أو من الكليتين، أو من الكبد، أو حادث، إثر حادثٍ مؤلم.

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

هذه الساعة التي لابد منها، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، كل مخلوق يموت.

الله عز وجل قهر عباده بالموت:

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ)

أولاده، زوجته، إخوته، أخواته، أبناء إخوته، أبناء أخواته، أبناء أبنائه، أعمامه، أخواله، كلهم متحلقون حوله، هذا يضع يده على جبينه، وهذا يقيس حرارته، وهذا يقيس نبضه، والطبيب بينهم لا يدري ماذا يفعل:

(وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ)

قال بعض العلماء: " الله جل جلاله أقرب إليه بعلمه وقدرته "، وسبحان من قهر عباده بالموت.

مشكلة الإنسان ليس في الموت و إنما بما بعد الموت:

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ)

أي أكبر مصيبة تصيب الإنسان أن يموت، والله سبحانه وتعالى سمّى الموت في القرآن مصيبة، لأن الحقيقة أنت تنمو، كنت طالباً وأخذت شهادة عليا وتعينت، جمعت من رواتبك إن كفّت، اشتريت بيتاً صغيراً وسّعته وفرشته وتزوجت وأنجبت أولاد، وبسن الخامسة و الأربعين أخذت مركبة صغيرة موديل 1948، تنمو شيئاً فشيئاً، يأتي الموت يأخذ منك كل شيء في ثانية واحدة.

إذا وجد سن من ذهب يسحبونه من فمك، الحي أولى، لم يعد لك شيء، لا بيت ولا زوجة ولا ولد ولا مركبة ولا مكتبة، أبداً والكفن لا يوجد فيه جيبة، دفتر شيكات لا يوجد لتأخذه، فلذلك ربنا عز وجل يقول:

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أي لو أنّ الإنسان يصنع مصيره، لينجو من الموت، ليرد مَلَكَ الموت، ليرفض أن يموت، ارفض أنْ تموت، قل أنا لا أموت، ارفض أن تموت، مهما علا الإنسان ومهما كبر، مهما قوي، مقهور بالموت، والمشكلة ما بعد الموت.

النزاع أخف مرحلة من مراحل الموت:

الحقيقة أنّ أخف مراحل الموت هو النزاع، لكن الشيء الصعب، ما بعد الموت، الحساب:

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

فهذا الذي يقول الإنسان الإله، بأوروبا يقولون أنّ الله خلاّق ولكن ليس فعّالاً، هم فعّالون، هم بيدهم مصير العالم.

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً)

(سورة يونس: الآية 24)

هذا الذي يزعم أنّه بيده مقاليد الأمور ويفعل ما يشاء ولا راد لحكمه، هو مشرك.

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

لكنكم لا تستطيعون أن ترجعوها، هذا الميت وقد فاضت روحه إلى ربها.

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

الذي أمضى حياته في طاعة الله، في معرفة الله، في خدمة الخلق، كان وقّافاً عند كلام الله، لم يأخذ ما ليس له، لم يستخفه الفرح في الدنيا، فيعصي ربّه، لم يفْجُر، هذا الذي طبق أمر الله عز وجل وعرفه وأقبل عليه وسعد بقربه، ووضع كل طاقاته في خدمة الحق، وقته وماله وصحته وقدرته.

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)

روح: سعادة لا توصف، وريحان: نعيم لا يوصف، في جنة نعيم:

(فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)

الإنسان أحياناً يكون في مكان جميل جداً، أمّا في انقباض، يقول لك أنا متألم ألماً لو وزع على أهل بلدٍ لكفاهم، وهو يرفل في أثواب الخز والحرير ويسكن في أجمل مكان، ويركب أجمل مركبة، وإنسان آخر هو سعيد، لكن حياته خشنة، أمّا في الآخرة روح وريحان، معنوياً ومادياً، نفسياً وجسمياً، وجنة نعيم.

أصحاب اليمين في الجنة لكن بمرتبة أدنى:

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

هذا لم يعصِ الله في الدنيا، لكن كان مقتصداً، نجح، مقبول، يوجد امتياز وجيد جداً و جيد و مقبول، على الحدود:

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

هذا الإنسان ناجي، في سلام، في الجنة، لكن بمرتبة أقل.

الضال من يعدّ أن الطاعات تعيق النفس عن تحقيق ذاتها:

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ)

كذّب بالدين، كذّب بالقرآن، قال الدين تعبير عن ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

(سورة المدثر: الآيات 18-19)

يَعُدُّ أنّ كل الطاعات تعيق النَفْس عن تحقيق ذاتها.

أحياناً يكون طبيب نفسي درس بأوروبا، يأتيه مريض، ألَكَ صاحبة ؟ يقول لا، يجيبه: عليك بصاحبة، الصحة النفسية أن يكون له صاحبة، يوجد جهل.

النار مصير أهل التكذيب و الضلال:

(فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ)

أي مكان ملتهب:

(وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ)

هذا مصير أهل التكذيب، أهل الضلال، هذا مصير أهل الفسق والفجور، هذا مصير من أصغى إلى الدنيا، وأصم أذنه عن الآخرة، هذا مصير من ارتاد دور الملاهي وترك المساجد، هذا مصير من أطلق لشهوته العنان، هذا مصير من قال أنا ربكم الأعلى، هذا مصير من طغى وبغى ونسي المبتدا والمنتهى، هذا مصير من قال إنما أوتيته على علم من عندي، كقارون، هذا مصير من آثر الدنيا على الآخرة، من آثر الشهوة على العقل، من آثر المعصية على الطاعة، من آثر سخط الله على رضوانه، هذا مصير من أرضى الناس بسخط الله، هذا مصير من قال عش لحظتك، تُقَال هذه المقولة ؟ كن واقعياً، عش لحظتك، هذه الجوارح يجب أن تنتهي من الشهوات، مصيره.

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هَذَا)

القرآن و حقيقة النار و الجنة هي عين اليقين:

هذا القرآن، أو إنّ هذه الحقائق:

(لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ)

عندنا علم اليقين، وعندنا عين اليقين، وعندنا حق اليقين، علم اليقين: الاستدلال، وحق اليقين أنْ يُحَقَّق الاستدلال، أمّا عين اليقين أن تعاين الاستدلال، يعني دخان وراء جدار تقول لا دخان بلا نار هذا علم يقين، سِرْت وراء الجدار فرأيت النار بعينك هذا حق اليقين، اقتربت من النار فشعرت بوهجها هذا عين اليقين:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ)

ماذا عليك أن تفعل ؟

العاقل من يفكر في ملكوت السماوات و الأرض:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

طبعاً أن تقول سبحان الله من التسبيح، أمّا الأعمق من ذلك أن يجول فكرك في ملكوت السماوات والأرض، أن تفكر في خلقك، في طعامك، في شرابك، في أصلك، في نهايتك، أن تفكر في كل شيء أمامك.

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

هذا هو الحل، إذاً يمكن أن نلخص الآيات الأخيرة بسورة الواقعة بأنّ الإنسان لابد من أن يموت، وأنّ كل بطولته تتحقق إذا كان مهيئاً للموت.

تفاوت الناس في الاستعداد للموت:

إخوانا الكرام: لا يوجد إنسان على وجه الأرض يمكن أن ينكر بأن حدث الموت واقع، لكن الناس يتفاوتون لا في الإنكار وعدم الإنكار، لا، بل يتفاوتون في الاستعداد للموت، والموت يُسْتَعَدُّ له بالتوبة، يُسْتَعَدُّ له بالطاعة، يُسْتَعَدُّ له بطلب العلم، يُسْتَعَدُّ له بتعليم العلم، يستعد له بالدعوة إلى الله، يستعد له بإقامة الإسلام في بيتك، وفي عملك، يستعد له بالصلة بالله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام والله الذي لا إله إلا هو أعرف رجلاً كان من مشاهير التجار، وكان على مستوىً رفيعٍ جداً في حياته، في بيته، في مركبته، في إنفاقه، في طعامه، في شرابه، في الثامنة والثلاثين أصيب بمرض عضال، في أول الأمر لم يدر حقيقة المرض، أخفى عليه الأطباء حقيقة المرض، ثم بعد حين كُشِفت له الحقيقة، مرض خبيث، حدثني ابن عمه وهو صديق لي قال لي والله تأتيه نوبات هستريا كأنّه دجاجة، يرتجف، يضطرب، يصرخ ويقول لا أريد أن أموت، حين جاءه ملك الموت وفاضت روحه يُحَدث جيرانه (في البناء أربعة طوابق) يقسم بالله العظيم أحد جيرانه وهو في الطابق الرابع صاح هذا الذي يموت صيحة ما بقي في البناء إنسان إلا وسمع صيحته، لهول الصدمة،

أكبر خسارة تصيب الإنسان أن يخسر آخرته :

لذلك الإنسان حينما يرى مكانه في النار أو حينما يرى مكانه في العذاب يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، سنأخذ مثالاً بسيطاً: إذا باع شخص بيته، وباع مركبته، وباع معمله، وباع بيت في حاليا، وكل ثروته، اشترى بها عملة أجنبية وكانت مزورة، وسيحاسب على اقتناء هذه العملة، لم يعد عنده شيء، لم يعد يملك ولا قيمة شطيرة طعام ليأكلها، هذا الخبر في الدنيا ألا يصيبه بمرض عضال ؟ يوجد أشياء في الدنيا تصعق، فكيف إذا أيقن الإنسان أنّه خسر الآخرة ؛ ولم يعد يوجد شيء ؟ الإنسان أحياناً يفلِس، يعود ويغتني، يبدأ من الصفر ثانية ويستدين ويتاجر ويوفي دينه، وتعود ثروته للنمو ويصبح غنياً ثانية، أمّا إذا جاء ملك الموت والإنسان كافر، والإنسان عاصٍ، والإنسان فاسق، لهذا قال الله عز وجل:

(قُلْ إِنّ الْخَاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزُمر: الآية 15)

أكبر خسارة أن تخسر الآخرة، فلذلك المؤمن على ضعفه، على خشونة حياته، يوجد أمل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص: الآيات 61)

لا يستويان.

مصير الإنسان الأبدي مرتبط بمعرفته بمنهج الله و طاعته له:

إخوانا الكرام: لا القضية هي قضية مجلس عِلم ممتع، ولا القضية يقول لك هذا المسجد فيه روحانية، لا، القضية أخطر من ذلك، القضية مصيرك الأبدي، هذا مرتبط بمعرفتك بالله ومعرفتك منهج الله وطاعتك له، وأنْ تعرف لماذا أنت في الدنيا، أنت في الدنيا من أجل العمل الصالح.

يعني إنسان سافر إلى فرنسا ليأخذ دكتوراه، يوجد ألف موضوع يصرفه عن دراسته، أمّا إذا كان واعياً الهدف الذي جاء من أجله لا يغيب عنه ولا لحظة، يدرس، فإذا عاد بالدكتوراه إلى بلده نال خير الدنيا، بحسب مقاييس العصر، والمؤمن لا يغيب عن ذهنه لثانية واحدة لماذا هو في الدنيا ؟ فإذا تزوج فلله، تاجر لله، كسب المال لله، أنفقه لله، أعطى لله، منع لله، وصل لله، قطع لله، غضب لله، رضي لله، أبداً:

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

(سورة الليل: الآيات 19-21)

العمل الصالح أساس الجنة:

الإنسان يحتاج لأن يعرف الله، وخير البلاد مساجدها، وشرُّها أسواقها، الزم المسجد، احضر دروس العلم، تعلم، هذه الدروس هي مأدبة الله عز وجل، ماذا نقرأ ؟ كتاب الله، آيات كتاب الله، القرآن كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: مأدبة الله، أنت مدعو لوليمة، طبعاً لا يوجد طعام مادي، ولكن يوجد حقائق، هذه الحقائق تسهم في إيمانك، وفي استقامتك، وفي الحكمة التي هي أفضل شيء يكسبه الإنسان، فأنت تسعد إذا عرفت الله، والمسجد المكان المناسب لمعرفة الله، والحقائق تتراكم، بعد حين تجد نفسك تحب الحق وتكره الباطل، تجد نفسك تستقيم ولا تنحرف، تصدق ولا تكذب، تكون أميناً ولا تخون، تخلص ولا تخون، وأنت لا تشعر، فالقناعات إذا تراكمت ولّدَت السلوك الحسن، والجنة أساسها العمل الصالح.

فيا أيها الأخوة الكرام: أرجو الله سبحانه وتعالى أنْ ينفعنا بهذا القرآن الكريم، فهو ربيع القلوب، وهو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الحجرات 049 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1-5..... 1

سورة الحجرات 049 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 6-7..... 17

سورة الحجرات 049 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 8-10..... 33

سورة الحجرات 049 - الدرس (4-6): تفسير الآية 11..... 50

سورة الحجرات 049 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 12-13..... 67

سورة الحجرات 049 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 14-18..... 85

سورة ق 050 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-10..... 103

سورة ق 050 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 12-29..... 125

سورة ق 050 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 30-45..... 146

سورة الذاريات 051 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-20 168

سورة الذاريات 051 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 15-19 192

سورة الذاريات 051 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 20-21 213

سورة الذاريات 051 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 22-23 232

سورة الذاريات 051 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 24-46 248

سورة الذاريات 051 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 47-51 266

سورة الذاريات 051 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 50-60 279

سورة الطور 052 - الدرس (3-1): تفسير الآيات 1-16..... 294
سورة الطور 052 - الدرس (3-2): تفسير الآيات 17-28..... 314
سورة الطور 052 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 29-49..... 332
سورة النجم 053 - الدرس (9-1): تفسير الآيات 1-4..... 351
سورة النجم 053 - الدرس (9-2): تفسير الآيات 5-18..... 368
سورة النجم 053 - الدرس (9-3): تفسير الآيات 19-23..... 386
سورة النجم 053 - الدرس (9-4): تفسير الآيات 24-28..... 403
سورة النجم 053 - الدرس (9-5): تفسير الآيات 29-31..... 420
سورة النجم 053 - الدرس (9-6): تفسير الآيات 31-38..... 438
سورة النجم 053 - الدرس (9-7): تفسير الآيات 39-41..... 455
سورة النجم 053 - الدرس (9-8): تفسير الآيات 42-49..... 470
سورة النجم 053 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 50-62..... 487
سورة القمر 054 - الدرس (5-1): تفسير الآيات 1-8..... 505
سورة القمر 054 - الدرس (5-2): تفسير الآيات 9-16..... 521
سورة القمر 054 - الدرس (5-3): تفسير الآيات 17-32..... 539
سورة القمر 054 - الدرس (5-4): تفسير الآيات 33-46..... 557
سورة القمر 054 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 47-55..... 573
سورة الرحمن 055 - الدرس (7-1): تفسير الآيات 1-9..... 591

سورة الرحمن 055 - الدرس (7-2): تفسير الآيات 1-8..... 607
سورة الرحمن 055 - الدرس (7-3): تفسير الآيات 10-26..... 625
سورة الرحمن 055 - الدرس (7-4): تفسير الآيات 26-30..... 643
سورة الرحمن 055 - الدرس (7-5): تفسير الآيات 31-36..... 659
سورة الرحمن 055 - الدرس (7-6): تفسير الآيات 37-45..... 678
سورة الرحمن 055 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 46الى آخر السورة..... 695
سورة الواقعة 056 - الدرس (5-1): تفسير الآيات 1-40..... 711
سورة الواقعة 056 - الدرس (5-2): تفسير الآيات 41-59..... 727
سورة الواقعة 056 - الدرس (5-3): تفسير الآيات 63-67..... 742
سورة الواقعة 056 - الدرس (5-4): تفسير الآيات 68-74..... 753
سورة الواقعة 056 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 75-96..... 768
الفهرس..... 785

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

التفسير الإسلامي

تفسير من سورة الحديد حتى التحريم

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (1-8): تفسير الآية 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-15

بسم الله الرحمن الرحيم

صفتا الله عز وجل (العزيز، الحكيم)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأوّل من سورة الحديد، قال تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحديد]

سبَّح ؛أيْ: مجَّدَ، و نزّه، و يرى ابن عبَّاسٍ أنّ سبّح تعني: صلّى.

أيها الإخوة: إن في الكون حقيقة وحيدة ؛ هي الله، فهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، فَكلّ السعادة في القرب منه، وكل الشّقاء في البعد عنه، و كلّ الخير عنده، وكلّ الشرّ في مَعْصِيَتِهِ، وكلّ الفوز في طاعتهِ، وكلّ الهلاك في الخُروج عن أمره، و ما من شيءٍ يُقَرِّبنا إلى الله تعالى إلا وقد أُمِرنا به، وما من شيءٍ يُبْعِدُنا عنه إلا وقد نُهينا عنه، وذلك عن طريق كتاب الله عز وجل، وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلّم، لذا ورد في الحديث الشريف أنْ ما بقِيَ شيءٌ يُرّبكم إلى الله تعالى إلا وأمرتكم به، وما بقيَ شيءٌ يُبعدكم عن الله إلا نَهَيتكم عنه ! فلو قال قائل: كيف تعتقدون أن الله ما فرّط في هذا الكتاب (القرآن) من شيء، وهناك مليون موضوع لم يشر إليه القرآن ! فالجواب هنا: أنّ كلّ شيءٍ يُقَرِّب إلى الله ذُكِرَ في الكتاب والسنّة مأموراً به، كما أن كلّ شيءٍ يُبْعِد عن الله ذكر أيضاً ولكن َمنهياً عنه، و معنى ذلك أنّ الذي سَكَتَ عنه القرآن لا علاقة له بالقرب من الله أو البعد عنه، فهناك موضوعات كثيرة سَكَت عنها القرآن، و هذه الموضوعات فعلها وتركها سواء...

قال الله عز وجل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(3))

[سورة المائدة]

فهذا الكِتابِ من عند خالق الكون، والله عز وجل لم يترك قضيَّة تزيدك قربًا منه - مهما بَدَت لك صغيرة - إلا أمرك بها، كما أنه لم يترك قضيَّة تُبعِدُك عنه - مهما بَدَت صغيرة - إلا نهاك عنها، والأمر والنهي إما في كتاب الله، أوفي بيان كتاب الله وهو سنة النبي عليه الصلاة والسلام، فالله عز وجل هو بالنسبة لنا كلّ شيء، والقرب منه هو الفوز العظيم، والبعْد عنه هو الهلاك الحقيقيّ، لذلك

وجب عليك أن تعرفَهُ، ومعرفته تأتي إما من خِلال خلقه جميعاً، أو من خلال أفعاله، أو من خلال كلامه.

التسبيح:

قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(44))

[سورة الإسراء]

يقول بعض العلماء: إنّ هذا التّسبيح تسبيح دلالة، فالقِطعة المتقنَة لِسانُ حالها ينبئ أنّ صانعها عليم، وأنّ صاحبها على مستوى عالٍ من الذّوق، لكنّ الله سبحانه وتعالى أثبَتَ لِخَلقِهِ جميعًا تَسبيحَين ؛ تسبيح الدلالة، وتسبيح القول، والدليل القطعي على ذلك قوله تعالى:

(و َإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

[سورة الإسراء]

فهذا دليل على أنّ التسبيح تسبيح قول، فإذا كان كلّ خَلْق الله تعالى مِن جمادٍ وحيوان ونبات يُسَبّح الله تسبيحَ قَوْل، فما أشدّ خسارة الإنسان حينما يغْفَلُ عن الواحد الدّيان، ويكتشف أنّه هو المخلوق الأوّل المكرّم، ثم يهبَط بعد ذلك بغَفْلَتِهِ إلى أدْنى المخلوقات.

أيها الإخوة: إنّ الإنسان بإمكانه أن يفوق الملائكة المقرّبين بطاعته، أما إن خانَ أمانتهُ، ونسيَ عهْدَهُ والتكليف الذي جاء مِن أجْلِهِ، وغَفَل عن ربّه، وأساء إلى خلْقِهِ، فإنه لا يهْبِطُ إلى أحْقر الحيوانات وحسب، بل يهبط إلى أسفل سافلين، والدليل قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ(7))

[سورة البينة]

أي: إنهم خَير ما برأ الله على الإطلاق، أما الطرف الآخر فقد قال الله تعالى قال فيهم:

(أُوْلَئِكَ هُم شرّ الْبَرِيَّةِ(7))

[سورة البينة]

فالمَلَكُ رُكِّبَ مِن عقْل دون شَهوة، والحيوان رُكِّبَ من شَهوة دون عَقل، أما الإنسان فقد رُكِّبَ مِن كِلَيهما، فإن سما عقلُهُ على شَهوتِهِ أصْبح فوق الملائكة وإن سَمَت شَهوته على عقله أصبَحَ دون الحيوان، قال تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد]

سبح تسبيحاً: نزّه تنزيهًا،وهنا: نزّه الله عن كلّ ما لا يليق به؛ كالظّلم مثلاً،قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

[سورة النساء]

و إنك لا تستطيع أن تُثبِتَ عدالة الله تعالى بعَقلِكَ المحدود، فذلك غير ممكن إلا في حالة واحدة وهي أن يكون لك عِلمٌ كَعِلم الله، وهذا مستحيل ! لكن يمكنك أن تعرف الله مِن خِلال الكون، كما يمكنك أن تعرفه من خلال كلامه، وأفعاله، وقد أنبأكَ تعالى في القرآن أنّه لا يظلِمُ أحدًا، فقد قال تعالى:

(يَابُنَيّ إِنّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16))

[سورة لقمان]

وقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

[سورة الزلزلة]

الفتيل: خيط بين فلقتي النواة، والنقير: أحد رؤوس النواة المدبّب، والقطمير: هو الغلاف الرقيق الذي يُغلِف النواة، فالناس لا يظلمون قدر قطمير ولا نقير، ولا فتيل، ولا حبّة من خردل، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرّمْتُ الظّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرّمًا فَلَا تَظَالَمُوا))

[رواه مسلم]

الفرق بين قدرة الله تعالى ورحمته:

قد يقول لك أحدهم: إن الله على كلّ شيءٍ قدير، ونحن في ملكِهِ، فله أن يضَعَ الطائِعَ في جهنّم، وله أن يضَع العاصي في الجنّة فهل نستطيع أن نسأله ؟ الجواب: لا، قال تعالى:

(لَا يُسْأَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ(23))

[سورة الأنبياء]

و هذا من حيث القدرة، أما من حيث الكمال فهذا يُنافي كمالهُ سبحانه، فأين قوله تعالى:

(إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

[سورة هود]

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(17))

[سورة غافر]

(يَابُنَيّ إِنّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16))

[سورة لقمان]

فلا بدّ من التّفريق بين قدرتِهِ تعالى وبين رحمته سبحانه، فلو فرضْنا أنّ أبًا لا يُنجِب ثم أنْجبَ غلامًا بعد وقت طويلٍ، فبإمكان هذا الأب بقدرته العضلية أن يذبح ولده، ولكن هل من الممكن أن يفْعل هذا ؟! على الإنسان أن يُفَرّق بين طلاقة قدْرتهِ تعالى، وعظمة رحْمتِهِ، فرحمته سبحانه وسعت كل شيء، وقد جاء في الحديث القدسي:

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وترْك معاصيهم لتقطّعَتْ أوصالهم مِن حُبّي ولماتوا شَوقًا إليّ، فإذا كانت هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف إرادتي بالمقبلين ؟! أهْلُ ذِكري أهلُ مودّتي، وأهل شُكري أهْلُ زيادتي، وأهل معصِيَتي لا أقنّطُهم مِن رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبْتَليهم بالمصائب لأُطهّرهم من الذنوب والمعايب))

مرّ النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه الكرام على امرأة تخبز في التنور وقد كان طفلها يجلس على طرف التنور، وكانت تضَعُ الرغيف وتُقبّلُهُ في كلّ مرّة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أتُلقي هذه بولَدها إلى النار ؟))

قالوا: معاذ الله، فقال:

((والذي نفسُ محمّد بيَدِهِ للّه أرحم بعَبدِهِ من هذه بولَدها !))

فقد تكون الأم مُتْعبةً تعبًا طويلاً ثمّ تأوي إلى فراشها، ولكنها تعاكس حاجة جِسمها إذا بكى وليدها، فتستيقِظ من أجله، فهناك دافِعُ النوم، ودافع خِدمة هذا الطِّفل الصّغير، فأيُّهما أقوى ؟! الأقوى هو دافِعُ الرّحمة، لذلك تتغلّب الأم على دافِع النوم، و هذا يعني أنّ الرحمة شيء إيجابي، والدليل أنّ بعض الحيوانات في مرحلةٍ من مراحل تربيَة أولادها تُنْزعُ منها الرحمة فتأكل أولادها، وهذا درسٌ لنا، فإن رأيْتَ أُمًّا تعطف على أولادها، فتجوع لِيَأكل ابنها، وتسْهر لِيَنام، وتمرض لِيَصِحّ، فهذه رحمة أوْدَعها الله في قلوب الأمّهات، وفي قلوب الآباء، فكيف هي رحمتُهُ تعالى بنا ؟ لقد وردَ في الأحاديث الصحيحة أنّ كلّ الخلق يتراحمون بجزءٍ من مائة جزءٍ من رحمة الله عز وجل، والدليل قوله تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159))

[سورة آل عمران]

وفي آية أخرى قال تعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا(58))

[سورة الكهف]

و النبي عليه الصلاة والسلام هو أرْحَم الخلق بالخلْق، وهذه الرحمة جزءٌ لا يُذْكر من رحمة الله تعالى، والدليل أنّ الإنسان قد يكون له خَصْم فيقول لك: أتمنّى أن أقطِّعه ! وإنما يقول هذا الكلام من جرّاء اعتِداء أو تنافس، أما النبي عليه الصلاة والسلام حينما ذَهَب إلى الطائف فردَّهُ أهلها وكذّبوه وسَخِروا منه، وأغْرَوا صِبيانه بضَرْبِهِ، جاءهُ جبريل وقال:**"إن شئْتَ لأطْبقتُ عليهم الجَبَلَيْن"**، فقال:

((اللهمّ اِهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون، لعلّ الله يُخرج من أصلابهم من يوحِّدُه !))

فإذا كانت هذه رحمة النبي عليه الصلاة والسلام فكيف برَحمة الله تعالى ؟ فيا أيها الإخوة: يمكنني أن أقول لكم بشَكلٍ دقيق: إن الإنسان حينما يُقصِّر مع الله، ويتقاعس عن تطبيق أمره ونَهْيِهِ، فلا يلتفِتُ إليه الالتِفات الكافي، تكون معرفته بالله ناقصة، و هناك عمل لا يعْلُو عليه عمل، وهو أن تعرف الله، فالله تعالى لا يُعْرفُ بحَواسِّك الخمس، ولكن بعَقْلِكَ من خلال خلقه، لذا كان التّفكُّر في خلق السماوات والأرض أعلى عِبادة على الإطلاق، قال تعالى:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

[سورة آل عمران]

لذلك كانت هناك دَعوة إلى معرفة الله تعالى، مِن خِلال خَلقِهِ، أو مِن خلال أفعاله، أو من خلال كلامه، فلا بدّ من معرفَتِهِ كي تُطيعَهُ، فحجْم طاعتِكَ له تتناسب مع حجم معرفتِك إيّاه، فإذا رأيْتَ الطاعة أقلّ مِمّا ينبغي فمعنى ذلك أنّ المعرفة أقلّ مِمّا ينبغي، فكلّما ارْتَقَت المعرفة ارْتَقَت معها الطاعة، والخَلقُ جميعًا بما فيهم الجمادات يُسبّحون الله تعالى، قال تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحديد]

إن الكون هو كلّ ما سِوى الله، فالذات الكاملة واجبة الوجود، وما سِواه هو الخلق وهو ممكن الوُجود،فإذا كتبت مثلاً كلمة: بَحر، ووضَعتها في جَيْبك ! هل يبْتلّ جَيْبُكَ ؟! أما البحر الحقيقي فهو أربعة أخماس اليابسة.

ورود البحر في القرآن:

لقد كُنتُ أُجري إحصاءً دقيقًا قبل يومين حول كلمة البحر، فقد وردَت هذه الكلمة في القرآن بشكل عام ثمانٍ وثلاثين مرّة، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(41))

[سورة الروم]

ووردَت بشَكل تَسخير البحر للإنسان، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا(70))

[سورة الإسراء]

وورَدَت في معرض تنوّع مِياه البحر، قال تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19))

[سورة الرحمن]

و قد ورد البحر وحده، كما ورد (البحر المسجور)، فمن مِنكم يُصَدِّق أنّ الماء مؤلّف من أكسجين وهيدروجين، و الهيدروجين من أشدّ العناصر اشْتِعالاً والأكسجين مِن أشدِّ العناصر المُعينة على الاشْتِعال، والماء من الأكسجين والهيدروجين قال تعالى:

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ(6))

[سورة الطور]

فبأمرٍ من الله صبح البحر نارًا، و قد وردَت كلمة البحر في القرآن ثمانٍ وثلاثين مرّة، كما وردت كلمة البرّ واليابسة ثلاث عشرة مرّة، وعلى الأرض خمسٌ وعشرون قارة، وخمسة وسبعون بحراً، فَنِسبة عدد كلمات البرّ إلى كلمات البحر يُساوي تمامًا نسْبة اليابسة إلى البحر ! هذا كلام الله، و الله سبحانه وتعالى يقول:

(سَبَّحَ لِلَّهِ)

[سورة الحديد]

هل هذا إخبار أم أمر ؟؟

لو أنّ أباً قال لابنه: إن ابن عمّك فلان يدرس ليل نهار !! فما القصد من هذا الكلام ؟! هل يريد الأب هنا أن يخبر ابنه بهذه الحقيقة أم أنه يدْعوه إلى الدِّراسة ؟ فهناك خبرٌ يُراد به الإنشاء، فالقرآن مثلاً يُخبرنا أنّ من شأن الأمّ أن ترضِع ابنها حولين كاملين، فقد قال تعالى:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ)

[سورة البقرةد]

فهذا كلام خبر، لكن المراد منه الإنشاء (الطلب)، والكلام إما خبر أو إنشاء، فإما أن يكون المراد: (إنِّي أُعلمكم)، فهذا خبر، وإما أن يكون (إنِّي أطلب منكم)، وهذا إنشاء، فالأمر والنّهي والتمني والحضّ والنِّداء إنشاء، والقرآن الكريم من إعجازه البلاغي أنّه يأتي بالخبر ويريدُ به الإنشاء، قال تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

حليب الأم:

بالمناسبة أيها الإخوة، لقد أخبرني أخٌ كريم حضَر مِن بلاد الغرب - وهو طبيب ناجحٌ جدًا- أنّ أحْدث بحثٍ في شأن حليب الأمّ يقول: إنّ أسباب القصور العقلي إنما هو حليب القوارير، وقد ذكر على ذلك أدِلّة قويّة جدًا، و القرآن الكريم قال:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنّ حَوْلَيْن كَامِلَيْن لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمّ الرّضَاعَة)

[سورة البقرة]

فالشيء الذي لا يُصدّق أنّ حليب الأم يتبدّل في الرّضْعة الواحدة ! فأربعة أخماس الحليب من الماء، و كميّة المواد الدسمة والبروتينيّة والحموض والشحوم والدهون في حليب الأم يتناسب يوميًا مع أجهزة هضم الولد، أما حليب القوارير، وحليب البقر فهو مهيّأ للراشدين، وهذا الحليب فيه أربعة أمثال طاقة الهضم عند الصغير، لذا قالوا: إن بعض أمراض القلب، وبعض أمراض الأوْعيَة، وضَعف الذكاء، والقصور العقلي إنما يكون بِسَبب الرضاع الصناعي، والأم التي لا تُرْضِع ابنها من حليب ثدْيها مجرمَةٌ في حقِه ! كما أنّه أحد أسباب سرطان الثّدي هو امتناع الأم عن إرضاع وليدها ! فنسبة الإصابة بسرطان الثدي تتضاعف مع النساء اللواتي لا يرْضِعن أولادهنّ حِفاظًا على شَكْلِهنّ.

أيها الإخوة... كلّما تقدّم العِلم، اقتربَ مِن حقائق الإسلام، و كلّ شركات الحليب بالعالم الآن مُلزمةٌ أن تكتب على عبوات الحليب لا شيء يَعدِلُ حليب الأم.

نعود إلى الآية.. وهي قوله تعالى:

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض)

[سورة الحديد]

فالقرآن الكريم قد يذكر خبراً ويريد به الإنشاء، فـ(سبّحَ) هنا ؛ أي: يا أيها الإنسان سبّحْ، و(الوالدات يرضعن أولادهن) ؛ أي: يا أيّتها الوالدات أرْضِعن أولادكنّ، ومن هذا الله قوله:

(وَالطّيّبُونَ لِلطّيّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرّءُونَ مِمّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(26))

[سورة النور]

أي: يا أيها الآباء والأمّهات اِحْرصوا على أن يكون الطّيّبون للطّيّبات، وقوله تعالى:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنّ اللّهَ غَنِيّ عَنْ الْعَالَمِينَ(97))

[سورة آل عمران]

أيْ: يا مَن تسلّمتُم أمْر بيتِ الله الحرام اِحْرصوا على أن يكون آمنًا، فهذا خبر أريد به الإنشاء، فالله سبحانه وتعالى يذكر لنا أنّ المخلوقات كلّها تُسبّحُهُ، والحِكمة من هذا أن يأمُرنا الله تعالى أن نسبحه

بأسلوبٍ لطيف وترْبوي، كمن يقول لابنه: يا بُني، ابنُ عمّك يدرس ليل نهار، ولا يدع الكتاب من بيد يَدَيه ألا تغار؟ أي: اُدْرُس، قال تعالى:

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ)

[سورة الحديد]

العزيز:

إذا وصَفنا معدنًا أنّه عزيز فمعنى ذلك أنه نادر الوُجود، فالحديد غير اليورانيوم، والبلاتين غير الذّهب، فالعزيز هو ما ندَر وُجوده، والعزيز الذي تشْتدُّ الحاجة إليه، والعزيز هو الذي يصْعُب الوُصول إليه، فإذا كان الله عزيزًا ؛ أي: هو واحد، ليس له ثانٍ، ولا شريك، ولا مُشابه ولا نِدّ، ولا كفء، وهو الذي يحتاجهُ كلّ شيء، ويستحيل أن تُحيط به شيء، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(255))

[سورة البقرة]

فالله تعالى حينما قال:

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(34))

[سورة لقمان]

فهو لم يقل: (مَنْ)، ولكن قال: (ما)، فلو قال: (مَن) لكان المعنى: يعلم المولود ؛ هل هو ذكر أم أنثى **!** ولكنه قال: ما، فالحُوَين المنوي عليه خمسة آلاف مليون معلومة مُبرمجة، فهل استطاع العلم أن يعرف هذه المعلومات ؟ إن هذه المعلومات مُركّزة في نُويّة الحُوين المنوي كما أنها مُركّزة على نُويّة البويْضة، و إن خمسة آلاف المليون معلومة هذه تسْهم في تشكيل الجنين، فالإنسان إذا قرأ مقالةً كان عليه أن يفرّق بدِقّة بالغة بين البحث العلمي و المقالة العِلْميّة، فقد قال العلماء: **المقالة انْطِباع**، فالإنسان فيها يتخيّل ويتوقّع، أما البحث العلمي فهو شيءٌ قَطعي، فالصحافة في العالم تبحث عن خبرٍ طريف وجديد، من أجل أن يرتفع عدد المبيعات، فهذه المعلومات فيها سبْق صحافي لا سبْق عِلْمي، فلذلك كان الله هو العزيز الحكيم، والواحد الأحد الفرْد الصّمَد، فهو الذي يحتاجُهُ كلّ شيءٍ في كلّ شيء، و هو الذي يصْعُب أن تُحيط به، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(255))

[سورة البقرة]

حدود العقل:

لو وقفت نملة في جبال همالايا، فهي بحجمها الصغير وبإدراكها الذي لا يزيد عن سنتمترات، لا يمكن لها أن تُحيط بوَزن هذا الجبل وعُمقِهِ في الأرض، وحَجم كُتلته وارتفاعه وخصائصه، هذا مستحيل، والإنسان إذا آمَنَ أنّ قدراته محدودة عرف الله تعالى، وقد قال أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه كلمة رائِعة،وهي: **(العَجْز عن الإدراك إدراك !)** فإن وقفْت على ساحل البحر المتوسِّط وسألك سائلٌ، كم يحوي هذا البحر من لِتر ؟ وأجبْتَهُ بِرَقم !! لكان هذا دليل الجهل، أما إن قلتَ: لا أدري، فهذا دليل العِلم، فيجب عليك أن تؤمن أنّ العقل هو أعظم شيءٍ خلقهُ الله، وأن الإنسان أعْقد مَخلوق على وجْه الأرض، وأعْقدُ ما فيه عَقْلُهُ، وأن العَقل له مهمّة محدودة، فالله تعالى أعطاك عقلاً يؤدِّي مهمّته على أتمّ وجه، فيجب أن تستعمله كما أراد الله، أما لو أردْتَ أن تعرف بهذا العقل ذات الله تعالى لهَلَكْتَ، لأنّك تكون قد اسْتَعملتَهُ لِغَير ما صُنِعَ له، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((تفكّروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

لأنّ هذا شيءٌ فوق طاقتك، و سأضربُ لكم بعض الأمثلة على ذلك ؛ لو فرضنا أن هناك بقالية فيها عشرة آلاف صِنف، و أن أقلّ وزن فيها خمسون غراماً، وأعلى وزن خمسة كيلو غرامات، وكان لديك ميزان حساس، إن اسْتعملته بين الغرام وخمسة كيلو الغرام أعطاك وزنًا دقيقًا ومُذْهلاً، فإن وزنت به سيّارة انكسر، فلا تقل: هذا الميزان سيئ، ولكن قل: طريقة الاستخدام هي السيئة، فأنت حينما تأخذ قضيَّة متعلِّقة بذات الله ثم تريد أن تفْهمها بِعَقلِك، نقول لك: لا، فالشيء الذي يعْجزُ عقلك عنه أخبرك الله به، وسوء استخدام العقل ينتج عنه الخطأ، و مُفادُ قولي أنه لا ينبغي أن تأخذ قضيَّة إخباريَّة وتُحكِّم عقْلك فيها، فما أخبرَكَ الله به حكَمٌ على عقلك، وليس عقْلُكَ حكماً عليه. قال تعالى:

(وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(11))

[سورة التغابن]

فإذا قال لك: أنت مُخيَّر فهذا يعني أنّك مُخيَّر، قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

[سورة الأنعام]

فعَقلك يدلّك على الله، والله جلّ جلاله يدلّك على ذاته، و َعَقلُك كالحِصان الذي تركبه وتذهب به إلى القصر، فإذا وصلت إلى القصْر دخلْتَ وتركتَ الحِصان في الخارج، أما لو أدْخلْتَ الحصان معك لكان هذا من سوء الأدب، فلا ينبغي لك أن تُحكِّم عقْلك فيما أخبرك الله به فالله أخبرنا مثلاً أنّ في الجنّة حور

عين، فلا تكثر السؤال عن صفاتهنّ، فما سكَت عنه القرآن ينبغي أن نسْكت عنه، فليس من العقل أن تسْتخدم العقل فيما لم يُخلق له، وكلّما تأمّلت في الكون زادك العقل معرفةً بالله، وفي هذا المجال: فكِّر ولا حرج ! فمهما بالغْتَ في التّفكير فأنت على صواب وهذا أمر يرْقى بك، فكلّ شيء يجب أن يوضع في مكانه فيستخدم لما خُلق له، وهذا موضوع دقيق جدًّا، فلو أنّك حاولْت مثلاً أن تهدِمَ بِسيّارتك بناءً، أو أردت أن تتنزّه ب(التراكس) الذي يحرث الأرض لخالفت العقل، فعندما يُستخدم العقل للمهمّة المحدودة ينجح، أما إذا أستخدم للمطلق فإنّه سيعجَز.

قال تعالى:

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحديد]

حكمة الله تعالى أعظم دليل على وجوده:

حكمة الله أحدُ أدلّة كمال وُجوده، وحكمة الله تعني: أنّ الله تعالى يضَع الشيء المناسب في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب، و هذا دليل من أقوى الأدلّة على وُجود الله سبحانه وتعالى..

فلماذا يوجد مثلاً شَعر في الأنف ولا يوجد شَعر في الفم ؟! أليس في هذا حكمة بالغة ؟

ولماذا خلق الله عَينين لا عيناً واحدة ؟ من أجل البُعد الثالث..

ولماذا خلق أُذُنين ؟ من أجل أن تعرف جِهة الصّوت..

ولماذا لم يجعل للشّعر أعصابًا حِسِيّة ؟ لو كان الأمر كذلك لاحتَجنا إلى عمليّات جِراحِيّة عند حَلق الشّعر !

ولماذا جعل في الأسنان أعصاب حس ؟؟ لو لم يكن في الأسنان أعصاب حِسّ لفَقَدَ الإنسان أسنانه في وقت مبكر، أما هذا الألم فهو عبارة عن أجهزة إنذار مُبكِّرة.

ولماذا جعل محور الأرض مائلاً ؟؟ لو كان عموديًا لما كانت هناك فصول، فالنهار مناسب، والليل مناسب، والدوران مناسب، والحر والبرد مناسبان، فإذا برّدْت الماء في الدرجة زائِد أربعة(+4) لازْداد حجْمُهُ، ولولا هذه الظاهرة لما كانت حياة ! ولأصبحت البحار متجمِّدة !! فوفق هذا المنهج في التفسير تستطيع أن تعرف الله، فهذه بلدة (فايرلندا) درجة البرودة فيها سبعون تحت الصِّفر !! فالإنسان فيها يلبس الصوف والواقِيَة والجوارب، ويمكن له أن يُغطِّي كلّ شيءٍ في جسمه إلا العَين، فتبقى ملامسة للهواء الخارجي دون أن تتجمّد، لأن العين فيها ماء، وقد أوْدَعَ الله تعالى في ماء العَين مادّة مُضادّة للتّجَمُّد، ولو ذلك لفقد الإنسان بصره في المناطق الباردة.

أيها الإخوة.. إن دليل الحِكمة هو أعظم دليل وُجود الله تعالى، و مجال التفكّر في آيات الله تَكشف عن حكمته الواسعة، فهو يضَعُك أمام عظمة الله وجهًا لِوَجه، وقد قال الله تعالى:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا(18))

[سورة الكهف]

خَلق الإنسان دليل على قِدَم الله تعالى:

إنّ لعضلات الإنسان وهيكله العظمي وزن كبير، و هيكلهُ العظمي وعضلاته يضْغطان على العضلات التي تحت الهيكل العظمي وهو نائِم، وهذه العضلات فيها أوْعِيَة، وهذه الأوْعِيَة تضيقُ لمْعتها فتقلّ الترويَة، فيتقلّب الإنسان في نومه ! فعلينا أن نفكِّر في خلق الإنسان الكامل، فلو قارن الإنسان بين سيارة من سنة السبعين، وأخرى حديثة، لاستنبط أنّ خِبرة الإنسان حادِثَة ! أما الإنسان فهل طرأ على خلقه تعديل ؟! هل هناك موديلات للإنسان، هذا دليل قِدم خبرة الله تعالى، والله تعالى لا يخلق شيئاً عديم الفائدة، فقد قيل: إن الزائدة الدودية لا فائدة منها، وهذا غير صحيح، فهي تشكل خط دفاع في الجسم، ولذلك كان لي اعتراض على قولهم (الزائدة الدوديَّة)، و الصواب هو (الذائدة الدوديَّة)، لأنها خط دِفاع، و الله تعالى لا يخلق شيئًا زائِداً في الإنسان.

فالله تعالى في هذه الآية يأمرنا بشَكل تربويّ لطيف أن نتعرّف إليه كي نُنَزِّهَهُ ونُمَجِّدَه ونتّصِل به، وقد قال ابن عباس: سبِّح ؛ أي: صلِّى، فالمعرفة لها منهج، قال تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(103))

[سورة الأنعام]

فأنت لا تعرف الله جلّ جلاله إلا من خلال عقلك عن طريق الكون، فلذلك كان التفكّر في خلق السماوات والأرض فرضٌ من أجل معرفة الله تعالى، فأنت تعرَفُهُ فَتُطيعُهُ، وتُطيعُهُ فَتَسْعدُ بِقُربِهِ، وعندئذ تُوَفّق وتنْجح وترْقى، وتكسبُ الدنيا والآخرة معًا، أما إن عصيته خْسرتهما معًا، لأن من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معًا، وهذا القرآن الكريم مأدُبة الله، فإذا فَهِمت كتاب الله، وتراكم هذا الفهْم شيئًا فشيئًا جعلك هذا الفهم مستقيماً على منهج الله بعد حينٌ من الوقت وأنت لا تشعر بذلك، وهذا مطْلبٌ لكلّ إنسان، والله غنيّ عن العالمين، فعَنْ أبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي

إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم]

وفي درس قادم نتابع الحديث.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 2-6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-22

بسم الله الرحمن الرحيم

مظاهر قدرة الله

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الحديد، يقول الله تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحديد]

بيَّنتُ لكم في الدرس الماضي أنّ (سبَّح) فيها ثلاثة معانٍ ؛ نزّه و مجّد و صلّى، ورأينا أن كلّ مخلوق في السماوات والأرض يُسبّح الله تعالى لا تسبيح دلالة وحسب، بل تسبيح قَول، ولا شكّ أنّ كلّ شيءٍ يُسَبّح الله تسبيح دلالة، فإتقان الصّنعة، ودِقّة الخَلق يُشيران إلى عظمة الخالق، وهناك معنى آخر، وهو أنّ هذه المخلوقات تُسبّح بلسانها، ولكِنّنا - بني البشر- لا نفْقَهُ هذا التّسبيح، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(44))

[سورة الإسراء]

ثمّ إنّي بيّنتُ لكم في الدرس الماضي أنّ التأمّل في خلق السماوات والأرض يجعلك تُواجهُ عظمة الخالق، وهذا يعدُّ أقصر طريق إلى الله عز وجل وأوْسَعَ بابٍ تدخل منه عليه، فهو العزيز الحكيم المتفرّد الذي لا يُنال جانبُه، وهو الحكيم بمعنى أنه يضع كلّ شيء في مكانه الصحيح، وفي وقته الصحيح، وفي حجمه ونوعه الصحيحين.

ثمّ يقول الله تعالى:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة الحديد]

قدرة الله المطلقة:

أيها الإخوة.. المُلْكِيَّة كلها لله عز وجل، ومُلكِيَّة الله مُلكِيَّة مطلقة، أما مُلكِيَّة الإنسان فهي مُلكِيَّة نِسْبيَّة، فقد تمْلِكُ بيتًا ولا تنتفِعُ به، وقد تنتفِعُ به ولا تمتَلِكُه، وقد يكون لك النفع والملكية معاً، ولكنّ المصير ليس لك ! أما مُلكيَّة الله جلّ جلاله فهي ملكيَّة مطلقة، وكلّ شيءٍ يمكن أن يُملَك إنما هو لله تعالى، والإنسان في الحقيقة لا يملك شيئاً، فمن يملك سمْعه؟ ومن يملكُ بصره؟ ومن يملك نموّ خلاياه ؟ لا أحد، فقد تتفلّت الخلايا من عِقالها فلا يدري أحد كيف يفقدُ الإنسان قوّته، إذًا لله ملك السماوات والأرض، وكلّ من فيها مُلكٌ له خلقًا وتصرُّفًا ومصيرًا، و إذا أيْقَنَ الإنسان أنّه في قبضة الله استحيى من معصيته، وإذا

أيقن أنّه ملكٌ لله عز وجل استحيى أن يخرج عن منهجه، فالله سبحانه وتعالى يُبَيّن أنّه يملكُ ما في السماوات وما في الأرض، فهو الذي يَهَبُ الحياة وحْده، وهو الذي يُميتُ، والحياة والموت هما أخطر ما يشغل الإنسان، وهما بيد الله عز وجل، فلا يمكن لإنسان أن يصل إليهما، ولو بدا لنا في الظاهر أنّ فلانًا قتَل فلانًا ! إلا أن الإنسان لا يموت إلا بأجله، ولو أنه قُتِلَ قتلاً، وكم مِن زوجَين شابّين سليمين لكنهما عقيمان، وكم مِن إنسانٍ مريض مكّنَهُ الله مِن إنجاب الأولاد فهو تعالى الذي يحيي ويُميتُ، والحقيقة أن كلمة الحق لا تقطع رزقًا، ولا تُقرّب أجلاً، فالذي يُحيي هو الله، والذي يُميتُ هو الله، و إن فزَع الإنسان وألمه واخْتِلال توازنِهِ حينما يموت له أحد أقربائِهِ من أدِلّة ضَعف إيمانه، والنبي عليه الصلاة والسلام تُوفِّيَ ابنهُ إبراهيم فَدَمِعَتْ عَيناه، فلمّا سئِلَ قال:

((إنّ العين لتَدمَع، وإنّ القلب ليَخْشع، ولا نقول إلا ما يُرضي الربّ، وإنا عليك يا إبراهيم لَمَحزونون))

فالإنسان المؤمن متوازن حَتّى في أحزانه ؛ لأنّه يرى أنّ الموت قرار إلهي، والله حكيم في أفعاله حكمةً مطلقة، ولو لم يكن لله حكمة مطلقة لكان الله سبحانه مَلومًا في أفعاله، ولكان ذلك نقص في حكمة الله، و لو كُشف لك الغطاء عن كلّ شيء حدث لوجَدْتَ أنّ الذي حدث هو أحكمُ ما حدث، ولكننا دائمًا وأبدًا نقول: الإنسان أُعْطِي حريَّة الاختيار في أشياء، وقد أوْدَعَ الله فيه الشّهوات فإذا خرج عن منهج الله استَوْجِبُ المعالجة، وهي غير مُحَبّبة، كما أنها ليْسَتْ خيرًا مطلقاً، لكنها تحمل خيرًا نسبيًا، وهو خير المآل، فالأب الذي يقسو على ابنه يتألّم ابنه أشدّ الألم، أما حينما يرى نفسَهُ مِن عِلْية القوم بِفَضل تربيَةِ والده الشديدة يعلم عندها أنّ هذه التربيَة الشديدة كانت في ظاهرها شرًا له، أما باطنها ففيه الخير.

أيها الإخوة.. لا يوجد في الكون شرّ مطلق، والخير المطلق نِسبي، ومن الخير النِّسبي أن يُعالِج الله إنسانًا مُقصّرًا أو شاردًا أو عاصِيًا بالشدائد في الظاهر، لكن هذه الشدائد تنتهي إلى الخير، فما مِن إنسانٍ وصَلَ إلى الله، واستقام على أمره، في الأعمّ الأغلب إلا بعد شِدّة ساقها الله إليه، وهذا معنى قَول الله عز وجل:

(ثُمّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنّ اللّهَ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ(118))

[سورة التوبة]

أي ساق لهم مِن الشّدائد ما حملهم بها على التوبة، فهذه الشِدّة تبدو للإنسان الأعمى شرًا، و ّما هي إلا مَحضُ خيرٍ، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ(21))

[سورة السجدة]

وهناك آيات كثيرة جدًا تُشير إلى هذا المعنى، قال تعالى:

(وَلَوْ بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(27))

[سورة الشورى]

فأحيانًا تكون قِلّة الرِّزق أحد الكوابح التي تكبح الإنسان عن معصيَة الله عز وجل قال تعالى:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة الحديد]

وأيُّ شيءٍ مهما بدا لك مُستحيلاً فالله جلّ جلاله قادرٌ عليه، فهذا الذي يتوجّه إلى الله عز وجل ويُقْبِلُ عليه ويشْعُر أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير لايعاني من قلق، أو خوف، أو حزن أو يأس، أو قنوط، فالحُزن والقلق والخوف لا يتأتّى إلا مِن إنسانٍ ضَعُف إيمانُهُ، أما إن قَوِيَ إيمان الإنسان فلا شيء يقلقه، فالله موجود، وهو على كلّ شيءٍ قدير، وهو ذو أسماءٍ حُسنى، وصفات فضلى، والأمر كلّه بيدِه و يعود إليه، وهو الذات الكاملة، و من هنا كان عليه الصلاة والسلام إذا أصابهُ مكروه قال:

((لا إله إلا هو العظيم الكريم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم))

فالأمر كلّه بيَدِهِ، فأحيانًا يقول لك إنسان: أتمنّى كذا وكذا ولكنّ الأمر ليس بيَدِي ! أما إذا أيْقَنْتَ أنّ الأمر كلّه بيَدِ الله تعالى، وأنّ أمرَهُ هو النافذ، وأنّه إذا حكم لا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ، وأنّه له الخلق والأمر، وهو على كلّ شيء قدير، وهو الرحمن الرحيم، والسميع البصير، وهو الغنيّ، فلا يمكن لأي قلقٍ أو خوفٍ أو همٍّ أو حزنٍ، أن يدخل إلى قلبك، فالإنسان يحْزن، ويهتَمّ، ويخاف، ويقلق على قَدْر ضَعف إيمانه، فكلّما قَوِي إيمانه ازْداد ثِقَةً بالله عز وجل، وازْداد تفاؤُلاً بعَطائِهِ، ولكن أيها الإخوة، لقد خلقنا الله في هذه الحياة الدنيا، وما أرادنا أن نرْكن إليها، فإذا ركَنّا إليها، جاءَتْ المنغِّصات فسبحانه وتعالى أرادنا أن نعْمل للآخرة، فالإنسان حينما يجعل الآخرة أكبر همِّه يرتاح مِن عَناء الدنيا، وإنّ أسْعَدَ الناس في الدنيا أرْغبهم عنها، وإنّ أشقاهم فيها أرغبهم فيها، فالإنسان متى ينجو من عذاب الله في الدنيا ؟ إذا كان وفق الطريق المستقيم، ونحو الهدف الصحيح، فالأب لا يُعقل أن يضرب ابنه وهو متفوّق في دراسته، ومُحسنٌ إلى إخوته، ومنضبطٌ بتَعليمات والِدِه، هذا مستحيل، ولأنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

[سورة النساء]

فالشّدائد سببها خروج الإنسان المُخيّر عن منهج الله تعالى، ومن رحمة الله به أن يُعيدَهُ إلى الطريق الصحيح، فهذه الشّدائد التي يسوقها الله للإنسان في ظاهرها شرّ، أما في حقيقتها فهي خير، و سوف نُسمّيها الخير النِّسْبي، أيْ المصير فيها إلى خير، فهذا صاحب السّفينة الذي ركِبَ معه سيّدنا الخضِر قد خَرَق له السفينة،وخرْق السفينة شر في ظاهره ؟ قال تعالى:

(وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا(79))

[سورة الكهف]

وكان وراءهم ملك يُصادر كلّ سفينة فلمّا رآها مخروقة تركها، وبعد حين أصلحها صاحب السفينة فعادَت مِلْكًا له، إذًا ما الذي نجّاهُ من المُصادرة ؟ إنه خرْق السفينة، فهل كان خرقُ السفينة خيراً أم شراً؟؟ هو شرّ في ظاهره، أما في مآله فهو خير، و حينما يفْهم المؤمن المصائب في الدنيا كلّها على هذه الشاكلة يسْعدُ مع ربّه، ويرْضى بِقَضاء الله وقدرِهِ، وحالة الرّضا من أرقى الحالات التي يُحصِّلها المؤمن، والآية الكريمة تقول:

(رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(119))

[سورة المائدة]

إنك لا ترضى عنه إلا إذا عرفت كمالهُ وحِكمَتَهُ، فالإنسان أحيانًا قد تُلِمُّ المشكلة به ؛ فيتألق من خلال هذه المشكلة، وقد قال العلماء: الحُزن خلاّق ! فالرّخاء والنّعيم والبَحبوحة والمال المتوافر لا يصْنعُ وطنًا، بل يصنع ُإنسانًا متكبّرًا تافهًا، ولكنّ الفقر أحيانًا يصنعُ المبادئ والقِيَم، فيتألّق الإنسان من خِلال هذه المشاكل والمتاعب، بل إنّ الأنبياء صلوات الله عليهم أشدّ الناس بلاءً، والنبي عليه الصلاة والسلام أشدُّ الأنبياء بلاءً، والبلاء الذي يُصيب الأنبياء إنها يكون من أجل أن يصدِر كمالهم، فهناك كمال لا يبدو في الأحوال العاديّة، فلو أننا رأينا زوجين متفاهمين ومخلصين، فنحن لا ندري هل إخلاص هذا الزّوج لِزَوجته، بسبب كون زوجته في مستوى طُموحه وبسبب الخدمات الكبيرة التي تقدمها له، لا ندري ! أما حينما تمْرض مرضًا طويل الأمد فلا يتأفّف الزوج بل يعكِفُ على خِدمتها ويرْعى أولاده دون تبرّم عندئذٍ نقول: هذا زوجٌ مخلص، فالذي أظهر إخلاصه هو مرض زوْجته فلو لم تمرض لما ظهر إخلاصه، فبدا كأنّه زوجٌ أنانيّ، يحبها لأنّه تحقق له مطالبه، أما حينما يعتني بها عند المرض يظهر كماله، وإخلاصه، فمعنى ذلك أنّ الإنسان قد لا يتألّق ولا يظهر كماله ولا حقيقة محبّتِه ولا شوْقِهِ إلا بالشّدائد، فالشدائد مِحَكُّ الرّجال، والإنسان لا ينكشف على حقيقته إلا عند الشّدّة، فلذلك كان الله تعالى يُحيي ويُميت، ويبسُط الرّزق لمن يشاء ويقدر، فأنت قد تصْحب إنسانًا قويًّا في نظر الناس، ثم تستعين به في ِقَضيّة ما فيقول لك: هذا فوق طاقتي ! فقُدرته محدودة، فيكون قد خيّب ظنّك، أما إذا كنت مع الله عز وجل فهو على كلّ شيٍ قدير، وهناك قِصص لولا أنّها وقَعَت وأني أعرف أشْخاصها لصَعُبَ عليّ تصديقها، فهذا مريض فُحِص من طرف خمسة أطباء بريطانيّين فقالوا له: إنّ السرطان في درجته الخامسة، ولا سبيل للشِّفاء، فدعا الله تعالى من قلبه فشفي، فمهما كان المرض عُضالاً، فإن الله تعالى قد يخلق من الضّعف قوّة، ومن المرض شِفاءً، ومن الفقر غِنًى، ومن الخفاء ظهورًا، ومن العَجز تفوُّقًا، فإن اعتَمَد الإنسان على الله فهو أقوى الناس، وإن توكّل عليه فهو أغنى الناس، وكلمة (وهو على كلّ شيءٍ قدير) لها مدلول كبير لدى لمؤمن، فالطِّفل الصغير الذي له أب غنيّ، لا يشعر بالضّيق لأنّ كلّ

شيء مُأمَّن له، قال العلماء: هو غنيٌّ بِغِنَى والدِه، والمؤمن قِياسًا على هذه القاعدة فقير، ومسْتَعَف، ولكنّه غنيّ بإقباله على الله تعالى..

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

وما لي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددْت فأيّ باب أقرعُ

ومن الذي أدعو فأهتف باسمه إن كان فضلك عن فقيرك يُمْنَعُ

قال تعالى:

(يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد]

حقيقتا الزمان والمكان:

إن في الكون حقيقتان ؛ هما: الزّمان والمكان.

الزّمان:

إن كل شيء في هذا الكون مهما أوْغل في القِدَم لا بد أن يكون قبله شيء آخر هو أصل له، وهكذا إلى أن تصل إلى شيء بدأ الله به الكون، فتسأل: ماذا قبلهُ ؟! إن الذي قبله هو الله، وإنك إذا تابَعتَ النّظر بعد المستقبل رأيت أن كلّ شيء لا بد أن يكون بعدهُ شيء، إلى أن تصل إلى شيء فتقول: ماذا بعده ؟ إن ما بعده هو الله، فهو الأوّل والآخر وهو المحيط بالزّمن بدءاً وانتهاءً، فكلّ شيء له بداية و نِهاية، والأصحّ هو أنّ الله سبحانه وتعالى هو واجب الوجود، وما سِواه ممكن الوجود لأنه حادث وسبقَهُ عدم، وينتهي إلى عدم، إلا الله تعالى فهو الأوّل فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، وهو المُحيط بالزّمن، وهو الظاهر والباطن وهذا وجه إحاطته بالمكان أيضاً، قال تعالى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد]

المكان:

إن كلّ شيء ظهر لك ؛ الله هو الذي أظهرهُ، وكلّ شيءٍ خَفِيَ عليك الله هو الذي أخفاه عنك، و الله فوق الإنسان مهما بدا هذا الإنسان لك عالياً في مقامه، والله وراءه مهما بدا لك خفيًا، فقد تمر بك حوادث فيُقال لك: فلان هو الذي حرّكَها ! فمَن حرّكَ الذي حرّكها ؟! الله عز وجل، وقد تجد إنساناً خالي الذّهن، فيُلْقى في ذِهنه أن سَلوا فلانًا عن الوثيقة الفلانيّة، فإذا سألوه وجدوها مزوّرة ! فيوضع المزوّر في السّجن، فمَن ألقى في ذِهن هذا الموظّف هذا السُّؤال ؟! الله عز وجل، والإنسان، و كلّما تعمّق في التّوحيد خفتت مشاعر حقده، لأنه يرى أنّ الله وراء كلّ شيء، وأن يدُ الله تعمل في الخفاء، فإذا رأى

شيئاً ظاهر علم أن الله أمامه، وإذا رأى شيئًا يتحرّك بذكاء بالغ علم أن الله تعالى وراءه، لأنه يعلم أن الله سبحانه تعالى هو الظاهر والباطن، قال تعالى:

(هُوَ الْأَوّلُ وَالْآخِرُ وَالظّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد]

علم الله مطلق:

(عليم): كلمة مطلقة، فهو بِكُلّ شيءٍ عليم، ولا يمكن لعلمه أن يُحدّ، فعلمه تعالى عِلمُ كَشفٍ لا عِلم جبْرٍ! علم ما كان وعلِمَ ما يكون،وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ! وعِلمُ الله مطلق، فلو أنّ قاضٍ أصْدر مائة حُكم وتفوّق في تسعة وتسعين حكمًا وظلم في واحد فقط لأعتبر هذا القاضي عادِلاً عند الناس !! لأنّ الأحكام البشريّة نِسبيّة، وليس هناك من إنسان لا يُخطئ، فإن لِكُل جواد كَبوةً، ولِكل حُسام نبْوَة، ولِكلّ عالم هفْوَة، فإذا قلتَ: فلانٌ عالم، فليس المعنى أنّه لا يخطئ ! ولكنّ المعنى أن خطأهُ قليل، فإطلاق الأحكام على بني البشر إطلاق نِسبيٌ، أما إن قلنا: الله تعالى عادل، فَعَدل الله تعالى عدل مُطلق، ورحمتهُ مطلقة، فلو أنّ إنسانًا واحدًا مِن عند آدم إلى يوم القيامة ظُلِم لما كان الله تعالى عادلاً بالمعنى المطلق، فكل صفات الله عز وجل من عدْل ورحمة وحِكمة هي صفات مطلقة، فهذه النُقطة دقيقة، فلا وجود للنِّسْبيّات مع الله تعالى، قال تعالى:

(هُوَ الْأَوّلُ وَالْآخِرُ وَالظّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(هُوَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتّةِ أيّامٍ)

[سورة الحديد]

في ستة أيام:

الآية واضِحة، فلعلّ (ستة أيام) تعني سِتّ مراحل، مرت بالأرض إلى أن أصبحت صالحةً للحياة، ولعلّ المراد أن السماوات والأرض صُممت على نظام ليل ونهار، وصَيفٍ وشِتاء، وخريف وربيع، فالآية واضِحة في معانيها، أما المعنى الحقيقي فالله أعلم به.

فقد قال الله تعالى:

(هُوَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتّةِ أيّامٍ ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

[سورة الحديد]

قال الإمام مالك: **" الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة "**، وقال بعض المفسّرين: الاسْتِواء هو الهَيْمَنَة، و أوضح مثل على ذلك أن الطائرة أو المركبة أو السفينة عندما تُباع ويقْبضَ

ثمنها، يصبح أمرها بيَدِ من اشتراها، ولكنّ الله تعالى- ولله المثل الأعلى- مُهَيْمِن على كلّ شيءٍ خلقهُ.

ما يلج في الأرض وما يخرج منها:

ثمّ قال تعالى:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة الحديد]

فالمُزارع مثلاً قد يوْدَعَ في الأرض الحب، فكَمْ عدد الحبوب التي بذرها ؟ وما مصير هذه الحبوب ؟ هل ستُنبت أم لا ؟ هذا من علم الله، فكلّ شيءٍ دخل في الأرض يعلمهُ الله، وكلّ شيءٍ خرج منها يعلمه أيضاً، ففي أحد الأعوام كان مجموع إنتاج القمح في بِلَدنا مائتان وخمسة وستّين طنًا، ثم أصبح في عام آخر ثلاثة ملايين طنّ !! هذا على الرغم من أن المساحة والطرق و السُّقيا بقيت كما هي، فالمحاصيل الزّراعيَّة ليس لها قاعدة، فأحيانًا تأتي بكَمّيات مذهلة، وأحيانًا تأتي بالقليل، ومن هنا ورد في الحديث:

عَنْ أَنَسٍ قَالَ غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ سَعِّرْ لَنَا فَقَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّزَّاقُ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ))

[رواه الترمذي]

والمعروف أنّ السواحل دائمًا دافئة وقلّما تصاب بالصّقيع، وفي بعض الأعوام هبطت الحرارة في الساحل إلى تسع درجات تحت الصِّفر، فقال القاطنين هناك: ما مرّ معنا صقيع كهذا من خمسين سنة مضت، وهذا يُتلف مزارع بمِئات الملايين ! كما يتلف ثروة زراعيَّة ثمينة، فكلّ شيءٍ يدخل الأرض أو يَخرج منها يعلمهُ الله تعالى.

ما ينزل من السماء وما يعرج فيها:

قال تعالى:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ)

[سورة الحديد]

كمّيات الأمطار:

إذا قرأت النّشرات الجَويّة رأيت العجَب العُجاب ! ففي هذه المنطقة هطل ستّين مليمتر، وفي هذه المنطقة هطل مليمتر واحد !! وهنا لم يهطل شيء، فتوزّع الأمطار شيءٌ عجيب، فكل توقُّعات البشر، من أنّ الأرض تميل نحو الجفاف، وأن حروباً ستقام من أجل المياه إنما هي من أجل بثّ اليأس والقنوط، والله عز وجل هو الرزاق ذو القوّة المتين، فبَعد أنْ مرّتْ دمشق بسبع سنوات عِجاف، التي كان فيها مُعدّل الأمطار يقِلّ عن مائة وخمسون مليمتر، وبعد أن أيْقن العلماء أنّ خطّ المطر انتقل عن

دِمشق وأنها أصبحَت مع المنطقة الجافّة، فوجئنا قبل سنوات ثلاث بثَلاث مائة وخمسين مليمتر !! وقد قرأتُ أنّ بعض الينابيع التي جفّت من ثلاثين عام قد تفجّرت إثر هذه الأمطار الغزيرة! فكيف حصَل هذا ؟! قال تعالى:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

[سورة الجن]

قال تعالى:

(وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ)

[سورة الحديد]

إذا رأى الإنسان المؤمن منخفضًا جويًا قادمًا نحو البلد ؛ قال هذه رحمة الله قد أتَتْ، لأنّ أصل الرّزق هو الماء، قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

فالله تعالى مع المؤمن في كل زمان ومكان، قال تعالى:

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا)

[سورة يونس]

وقال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213)وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(216)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(217)الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218)وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ(219)إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(220)هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(221)تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(222))

[سورة الشعراء]

فهذه الآيات المتتابعة تصف ذات الله عز وجل، ونحن نقرأ هذه الآيات ونتدبّرها، ونقف عند مَدلولاتها دون أن نُحاول أن نغوص في معنى بعض الآيات إلى درجة نصل فيها إلى ذات الله، فهذا فوق طاقتنا ! لكنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

" وهو معكم أينما كنتم ":

فهو معكم بعِلمه، ومعكم حقيقةً، قال تعالى:

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة الحديد]

فأنت إن سكت علم، وإن تكلّمت سمع، وإن تحرّكت رأى !

" وإلى الله ترجع الأمور ":

قال تعالى:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

[سورة الحديد]

فالأمور في النِّهاية بيَد الله عز وجل، وهو الذي يُحي ويُميت، ويوسع الرزق، ويقلِّلهُ، وهو الذي يرفع ويخفض، فإليه الأمور ترجع.

قال تعالى:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

[سورة الحديد]

هذه الآية تبثّ في قلب المؤمن الراحة، فالأمر كله بيَدِ الله تعالى، فإذا كانت لك خُصومة مع إنسان، ثم رُفِع الأمر إلى قاض عادِل، وكنت واثِقاً بعَدالته ونزاهتِهِ، كما أنك كنت على حق، فهل تقلق عندئذ ؟؟ فالإنسان المؤمن حينما يقرأ هذه الآية يطمئنّ، ولا يخشى أحدًا إلا الله تعالى، كذلك يشعر المستقيم بطمأنينة عندما يتلو قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30))

[سورة فصلت]

فإذا كان الله وليّك فهل تخاف أحدًا ؟! و القضية هي أن تستحقّ أن يتولّى الله أمرك، والذي يجعلُكَ مُستحِقًا لهذا أن تكون قائماً على طاعته، ومن هنا قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

[سورة الحجرات]

فالتّفرقة بين العباد إنما هي بالطاعة فقط، فالعباد يتفاضلون فيما بينهم بطاعتهم لله عز وجل، فإذا أطعْتَ الله فأنت في ظِلِّه، وتستحقّ عند ذلك أن ينْصرك ويثبّت خُطاك، ويُلقي على قلبَك السكينة، كما تستحق أن يُوفِّقَك، و يحْفظك، و يمدّك بمنٍّ من عنده، وهذا كله من أجل طاعتك له، فالله يطلب منك الاستقامة وأنت تحقّ لك بالاستقامة الكرامة !

ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل:

قال تعالى:

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

[سورة الحديد]

أوْلَجَ بِمَعنى: أدخل، و هذه الآية تُشير إلى كُرويَّة الأرض، فالكرة إذا دارتْ أمام منْبع ضَوئي تداخل الضّوء والظّلام بِشَكل لطيف، أما إذا كان الشكل مكعّبًا، فإن الضّوء يأتي فجأة فيحدث الظلام فجأةً، وإن أيّ شَكْلٍ هندسي آخر له أضلاع يمنع تداخل الليل في النهار، قال الله عز وجل:

(يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ وَيُولِجُ النّهَارَ فِي اللّيْلِ)

[سورة الحديد]

فالذي خلق الأرض وحرّكها في دورةٍ حول نفسها وحول الشّمس، يعلمُ ما في نفسك، والإله الذي تعبدُه وتُصلّي له وتُطيعُه هو الذي يُحرّك الأرض، فالأرض تدور حول نفسها ألفاً وستمائة كيلو متر في الساعة، و تدور حول الشمس ثلاثين كيلو متر في الثانية، والأرض في حركتها حول نفسها وحول الشمس إنما هي بيد الله عز و جل، فهو الذي يحركها، وهو الذي يعلم ما في نفسك، لذا كان علم الله عز وجل علماً مطلقاً، كما أن كماله مطلق، وقدرته مطلقة، وغناه مطلق.

قال تعالى:

(يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ وَيُولِجُ النّهَارَ فِي اللّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصّدُورِ)

[سورة الحديد]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 7-10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-29

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنفاق برهان الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث من سورة الحديد، ومع الآية السابعة، وهي قوله تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

الإيمان درجات:

الخِطاب هنا مُوجَّه إلى الذين آمنوا، والواو واوُ الجماعة ، وهي تعود على الذين آمنوا، والإيمان درجات، و الوصول إلى بعض درجاته لا يكفي، فلا يمكنك أن تقطف ثمار الإيمان إلا إذا حملك على طاعة الله تعالى، فإن لم يَحْمِلك على طاعة الله كان إيمانك غير كافٍ، وهذا النوع من الإيمان لا يُنَجّي صاحبه، وأوْضحُ مثلٍ على ذلك، أنّ إبليس قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

[سورة ص]

فإبليس آمن بالله تعالى ربّاً ولم ينجّه إيمانه، فليس كلّ إيمانٍ يُنَجّي صاحبه، قال تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ(38))

[سورة الزمر]

لذلك لم يحفل القرآن الكريم كثيرًا بإيمانك بوُجود الله تعالى وبأنه خالق السماوات والأرض، ولكنّه ألحّ كثيرًا على إيمانك بوَحدانيّته، فلو سألت كلّ الناس في الأرض حتى عُبّاد الأصنام منهم - باستثناء قلّة قليلة ركِبَتْ رأسها - لقالوا: الله الذي خلق السماوات والأرض، ولكنّ الإيمان الذي ألحّ عليه القرآن هو أن تؤمن بأن الله إلهٌ واحد، وأنّ الأمر كلّه راجعٌ إليه، وأنّ مقاليد السماوات والأرض بيدِهِ، وأنّه في السماء إله وفي الأرض إله، وأنّه يحكم لا معقِّب لِحُكمه، وأن له الخلق والأمر، فالإيمان المطلوب هو أن تؤمن بوَحدانيّتِه، وأن تؤمن بأنّه إله بيَدِهِ كلّ شيء، ففي اللّحظة التي تؤمن فيها بوَحْدانيّتِهِ يجعلك هذا الإيمان تستقيم على أمره، فتصبح كلّ شؤونك متعلِّقة به، فإذا عرفْت هذه الحقيقة أقْبلت عليه ورَجَوتَ منه الخير وأخلصْت له وحده، وأفْردته بالعبوديّة والإنابة، فالطالبُ الذي تعلّم القراءة والكتابة ؛ يمكننا

أن نقول له: ادرس ، ولكن هذه الدراسة تكون حسب مستواه العلمي الذي وصل إليه (ابتدائي، إعدادي، ثانوي، جامعي)، فليس كل من تعلّم القراءة والكتابة ملماً بكل شيء، و الإيمان أيضاً له درجات، وفيه درجات عالية جدًا، قال تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

وفي آية أخرى، قال تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(136))

[سورة النساء]

فهناك من يقْنع بمُستوى إيماني بسيط لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، ولا يحْملهُ على طاعة الله، وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا المعنى، فعن أَبَي هُرَيْرَةَ رَضِي اللّه عَنْهم أنه قَال: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

(أمِرْتُ أنْ أقاتِلَ النّاسَ حَتّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلّا اللّهُ فَمَنْ قالَ لَا إلَهَ إلّا اللّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إلّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللّهِ)

[رواه البخاري]

قاعدة: إذا كان هناك معْصِيَة، فمعنى ذلك أنّ هناك ضَعفًا في الإيمان فقد قال تعالى في آية تتحدث عن اليوم الآخر:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنْ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(74))

[سورة المؤمنون]

و(الصراط) هنا: الصِّراط المستقيم، فمن الذي ينحرف عن هذا الصِّراط ؟ من لا يؤمن بالآخرة، ومعنى ذلك أنّ أي انحراف في السلوك يُقابله انحراف في العقيدة، فالإنسان مَدعُوٌّ إلى أن يؤمن على الرغم من كونه مؤمناً، كما أنه مَدعوّ إلى أن يزداد إيمانًا لأنّ الإيمان يزيد وينقص، والدليل قوله تعالى:

(فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

[سورة الكهف]

والإنسان أحيانًا يُمسي مؤمنًا ويُصبحُ كافرًا، فالإيمان يذهب بالمعصيَة ويتقوّى بالعمل الصالح، فهو في عقيدة أهل السنّة والجماعة يزيد وينقص، فمهما كنتَ مؤمنًا فهناك درجة أعلى في الإيمان، ومهما أوْغَلْتَ في أعماق الإيمان فهناك مستوى أعمق.

أيها الإخوة الكرام، يقول تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة الحديد]

إن الإيمان باليوم الآخر مِن لوازم الإيمان بالله تعالى، وقد ذَكَرْتُ هذا في خطبة اليوم، لأنّ الذي لا يؤمن بالآخرة لا يستقيم على أمر الله، قال تعالى:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنْ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(74))

[سورة المؤمنون]

فالإيمان الذي لا يحْمِلُك على طاعة الله والإخلاص له، ولا يدفعُك إلى بابه سبحانه هو إيمان غير كافٍ، فنحن لا ننكر أنّ فلانًا من الناس مؤمن، لكن إيمانه غير كاف ما دام مصراً على المعاصي، ولا يتّبع المنهج كاملاً، فالإنسان يحتاج إلى تجديد الإيمان و تقْوِيَتِهِ، والإيمان ما وقَر في القلب، وأقرّه اللِّسان، وصدّقَهُ العمل.

أنا مضْطرّ أن أقول كلمة في هذه المناسبة وهي: أن العِبرة ليست في القول، فالقَول لا يقدِّم ولا يؤخِّر، وقد ضربت على ذلك مثلاً فقلت: يمكن للطالب أن يقول: أنا مهتمّ أشدّ الاهتمام بالنّجاح، بل إني أُعلِّق على النّجاح آمالاً عريضة، فالنجاح هدفي الأكبر ؛ و هذا كله كلام، فإن هو لم يفتح الكتاب أبداً، ولم يعْكف على الدروس، ولم يُداوِم، كان كلامه مرفوضاً، بل إن عملهُ يكذِّبه، و الإنسان أحيانًا يقول لك: الله عز وجل عظيم، والجنّة والنار حق، ونسأل الله أن يجعلنا مؤمنين، فما لنا إلا عفْوه وكرمه، فتنظر إلى سلوكه فتجده يتعامل مع النّاس بطَريقة سيئة، وكأنّ الحياة الدنيا بالنسبة له هي كلّ شيء، وكأنّ ما بعد الموت لا شيء، فعلى الإنسان أن يكسب وقتهُ وعمْره، والعمر قصير، والمسؤوليّة كبيرة، والسُّؤال دقيق، والناقِد بصير، والبحر عميق، وما علينا إلا تَجديد السّفينة، وعلينا أن نُكثر الزاد فإنّ السّفر بعيد !

الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم:

عليك أن تؤمن بالله تعالى خالقًا، ومُربّيا، ومُسيّرًا، وموجودًا، وكاملاً، وواحدًا، كما عليك أن تؤمن بأنّ هذا الذي أرسلَهُ الله تعالى إلينا وأنزل عليه الكتاب هو رسوله صلى الله عليه وسلّم، و هو مُشرّع لا ينطق عن الهوى. سألني أخٌ مُداعباً فقال: هل يمكن للنبي عليه الصلاة والسلام أن يأتي في هذا العصْر، ويتحدّث عن طريق الإعلام والإذاعة والأقمار الصّناعيّة ؟؟ فقلتُ له: إنّ الأُمّيّة في حق النبي عليه الصلاة والسلام كمال، والأُمّيّة فينا نقص، لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام مُهيّأ لِتَلَقِّي الوحي من السّماء، فينبغي أن يكون الوعاءُ نظيفًا وخاليًا وفارغًا ليكون مؤهلاً لهذا التلقي. قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(48))

[سورة العنكبوت]

فلو أنّ النبي عليه الصلاة والسلام تلقّى مِن ثقافات العَصر، واطّلَعَ على ثقافات الشُّعوب، وقرأ ودرسَ ثمّ جاءَهُ الوحي لاخْتلطت علينا الأمور، فكلّما حدّثنا بحديث شريف نقول له: يا رسول الله ! هذا من الوحي أم مِن ثقافتك ؟! قال تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3))

[سورة النجم]

فالكمال أن يتنزّل هذا الكتاب على النبي الأمّيّ، وأن يكون الوحي في أعماق الصّحراء فلو نزل الوحي في مُلتقى الحضارات والثقافات وأماكن التبادل، لكان هذا المُعْترك لا يُناسب نقاوة الدّعوة وصفاءها، فقد نزل الوحي في مكّة والمدينة وفي عصْر كانت فيه الأمور بسيطة، ويغلب على الناس الصِّدق والصّراحة، أما عندما تتعقّد الحياة، وتتداخل المفهومات تسقط الكلمة، والكلمة في عَصرنا الحالي لا قيمة لها لأنّها مُزوّرة، والكلام الآن يتناقض مع الأحوال، فالواقع شيء، والكلام شيء آخر! فالرّسالة السماويّة نزلت في وقتٍ كان للكلام فيه قُدْسيّة، لذلك قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24))

[سورة إبراهيم]

فيجب أن تؤمن أنّ الله سبحانه وتعالى أنزَلَ على عبْدِهِ الكتاب، وأنّ النبي عليه الصلاة والسلام بيّنَهُ أوْسَعَ بيان، وأنّك إذا استَغْنَيتَ عن السنّة خالفْت نصّ القرآن، و الآن هناك دَعَوات إلى نبْذ السنّة والاكتِفاء بالقرآن، وقد قلتُ لأحدهم: منْ يَدعُ إلى ترْك السنّة والتّمسُّك بِكِتاب الله وحده فقد خالف كِتاب الله تعالى ! لأنّ الله تعالى يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(7))

[سورة الحشر]

فالنبي مُشرّع ومُبيّن، ومُفصِّل، ومحبّتك للنبي عَينُ محبّتِك لله تعالى، وأخْذك عن النبي عَين أخذك عن الله تعالى لأنّ الله سبحانه وتعالى اصطفاه وعصَمَهُ، وأوحى إليه،و كمّلَهُ، فهو القدوة والمثل والمُشرّع والمُبيّن، قال تعالى:

(آمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

فإن فرّقت بين الله ورسوله كنت مبتدعاً، وجئتَ في الدِّين ما ليس منه، لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام معصوم من أن يخطئ في أقواله وأفعاله و إخباره، والله هو الذي عصَمَهُ، و الإيمان داخلي ما هو إلا قناعة ومشاعر ووجهة إلى الله عز وجل، ولكنّ البطولة أن تؤكّد هذا الإيمان بعَمل، وما الذي يُؤكِّد إيمانك ؟ إن ما يؤكد إيمانك هو إنفاقُك، والسّبب في ذلك أنّ الإنفاق يتناقض مع طَبع الإنسان، فإذا أنْفقَ فمعنى ذلك أنّ إيمانه صحيح، وأنّ يقينهُ كبير، وعدم الإنفاق يدلّ على عدم الإيمان ؛ و هذا لِمَن وجد سعةً طبعًا، فالإيمان شُعور وقناعة وشيء داخلي لا يطّلِعُ عليه أحد، لكنه يتجسّد بالعمل الصالح و حيثما وردَت: (الذين آمنوا) جاءَ بعدها: (وعملوا الصالحات).

والحقيقة أن الإنفاق في هذه الآية شامل، و يُطلق على إطلاقه، فلك أن تنْفق مِن مالك، ولك أن تنفقَ من وقتِك، ولك أن تنفقَ من عضلاتك، ولك أن تنفق مِن خِبرتِك، ولك أن تنفق من عِلْمِك، وجاهِكَ، وحِرفَتِك، و دراسَتِك، وممَّا جعلك الله فيه قائمًا، قال تعالى:

(وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)

[سورة الحديد]

معاني (مستخلفين فيه):

وكلمة ممَّا جعلكم مستخلفين فيه تُفيد معانٍ كثيرة:

1- التمكين: وهو أولى المعاني:

كيف أعطاك الله تعالى المال ؟؟ لقد أعطاك المال عن طريق خِبْرةٍ مكَّنَكَ مِنها أو حِرفَةٍ جعلك تتْقِنها، أو عِلْمٍ مكنك من تحصيله، فَعِلْمُكَ بيَدِ الله عز وجل، والله عز وجل حينما علَّمَكَ و أغناك و قوّاك و سمَحَ لك أن تُتْقِنَ حرفَةً استَخلفكَ، فالإنسان هو خليفة الله في الأرض.

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(30))

[سورة البقرة]

فالإنسان خليفة الله في الأرض، وسوف يُحاسبُهُ الله على ما صنع، لذلك كان الإنفاق دليلاً على الإيمان، فهل يتردّد التاجر ثانيَة في شِراء بِضاعة جيّدة جدّاً و ذات سعر معتدل، ومطلوبة بِشَكل كبير، ؟ إنه قد يسْتقرض ثمنها ! و الإنسان حينما يوقن أنّ الآخرة هي محطّ الرّحال و نِهاية الآمال، وأنّ التّعامل مع الله يحتاج إلى عمل، وأنّ هذه الآخرة ثمنها العمل الصالح، وهو مُتاح في الحياة الدنيا يُقدم على الإنفاق، و الإنسان لا ينفق إلا إذا عرف الله تعالى.

2- التوارث:

إن هذا البيت أو هذا المحل التِّجاري قد ورثه ابن عن أبيه، وهذا المنصب في الجامعة قد ورثه أستاذ ناشئ عن آخر متقاعِد، فالناس أفواج وأفواج، فأفواجٌ منهم ينسحِبون من الحياة، وأفواج يدخلون، ونحن مُسْتخلفون في هذه الأرض، فقبل مائة عام مثلاً كان كل من في هذه المدينة غير الذين هم فيها الآن، ومرة وقفْتُ في أحد أسواق دمشق الشّهيرة، فنظرْت وقلتُ: إن كل هذه المحلاّت التِّجاريّة كان أصحابها غير الذين هم الآن ! وبعد خمسين عام آخر سيتبدّل (الطّقم).

3- الوكالة:

إذا كنت مستخلفاً فهذا يعني أنك وكيل، و أن يدك على المال يد الأمانة، فالله سبحانه وتعالى مكّنَكَ وراقبَك، وسوف يُحاسبك، فحينما تعتقد أنّ هذا المال مالك تكون واهماً ! بل هو مال الله، و قد خاطب أحد الأعراب النبي عليه الصلاة والسلام بِغِلظةٍ و فظاظة وهو سيّد الخلق، وقال له: أعْطِني مِن مال الله! ؛ أي: إذا كان بيَدك مال فهذا مال الله، وكذا إن كانت لك خِبرة، فهذه خبرة أعطاك الله إياها، فإن منعْتها فالله تعالى عنده عقوبات كفقْد ذاكرة مثلاً، وقد سَمعتُ أنّ هناك فقْد تدريجيٌّ لخلايا الذاكرة، أي أن تموت خلايا الذاكرة شيئًا فشيئًا ! فينسى الإنسان عند ذلك بعض خِبراته، ثم ينسى أولاده، إلى أن ينسى نفْسه، فكلّ خِبراتك موجودة في ِذاكرتك، وقد تفْقدُها وأنت لا تدري، و كذلك حال مالك، فقد تفقده فجأةً، والله تعالى إذا أعطى أدْهش، وإذا سلبَ أدْهش، فهناك أناسٌ يملكون ملايين مُمَلَيَنة، ثم يأتي عليهم زمان لا يجدون فيه ثمن رغيف خبزٍ !

4- المعنى الرابع:

ومن معاني الاستخلاف أنّ الإنسان هو المخلوق الأوّل الذي جعله الله خليفة في الأرض لِيَحكم بالعَدل، ويرحم الخلق، ويُعطي، ومعنى مستخلف: أنّ يد الإنسان على ما بين يديه يدُ الأمانة، وقد سئِلَ أعرابيّ بيَدِهِ قطيعٌ من الإبل، لِمَن هذه الإبل ؟ قال: لله في يدي ! وقد قالوا: لقد أجاب أبلغ إجابة في اللُّغة العربيَّة، فهي لله وهي الآن في يدي.

فحِرفتُكَ و مالك ما هما إلا تمكين لك من الله، فهذا ليْس ملكك، بل أنت مستخلف على ما في يدك، والله سبحانه وتعالى ناظرٌ ماذا تصْنع، لذا ورد في بعض الأحاديث أنّ الله سبحانه وتعالى اختَصّ أناسًا بِنِعَم، يُقِرُّهم عليها ما بدلوها فإذا منعوها سلبها منهم، وحوّلها إلى غيرهم ! فإذا مكّنك الله من شيء كالمال أو العلم أو الجاه أو القوّة أو اختِصاص أو حِرفة، وجعلك تقرأ أو تكتب فلا بدّ لك من أن تبذل هذا الاختصاص لِوَجه الله لا أن تمْنعَهُ والدليل قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(77))

[سورة القصص]

قال تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

الارتباط الوثيق بين الإيمان والإنفاق:

هناك ترابط وثيق بين (آمَنَ) و(أنْفق)، فالإنفاق دليل الإيمان، والإنفاق يؤكِّد الإيمان ويحقِّقه ويُجسِّده ويُشير إليه، لذا لا يوجد مؤمن على وجه الأرض يسْتقرّ الإيمان فيه لحْظةً إلا وينطلق إلى العمل الصالح، وإنْ صحَّ التَّعبير أقول: إنَّ بُنْية المؤمن أساسها العطاء، وإنَّهُ يُعْطي لِيَأخذ من الله تعالى، لأنه يُتاجرُ مع الله، قال تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10))

[سورة الصف]

فالكافر أساس حياته الأخذ، أما المؤمن فأساس حياته العطاء، فهو يُعطي مِن ماله وخِبرتِهِ ووقْتِهِ لأنَّه يرجو بذلك رحمة الله، فيقرض الله قرضًا حسنًا لِيَنال رضْوان الله، ويدخل جنَّة ربِّه، فالمؤمن طَموح جدًّا، وقد يبْدو للناس أنّ المؤمن بسيط، ومحدود الطُّموح! لا والله، لن تجد في الحياة الدنيا كلِّها إنسانًا أشدّ طُموحًا من المؤمن، فأهل الدنيا يطْمِحون في الدنيا وهي ذات أمد قصير، كما أنها مَشحونة بالمتاعب والهموم، فلا تصفو لإنسان قط، وأساسها التَّبدّل والتَّغيّر، ولا شيء يدوم فيها، فالمؤمن العاقل يختار الآخرة، وهي العطاء الأبديّ السَّرمدي ؛ فلا همّ فيها ولا حزن ولا قلق ولا خوف ولا خصومة، وكلّ متاعب الدنيا لا تجدها في الجنَّة أبدًا، فَمن هو الزاهد الحقيقي ؟ الزاهد الذي زَهِد فيما عند الله تعالى.

قال تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

فإذا قال لك طفل صغير: أنا معي مبلغ كبير ! فماذا يعني هذا ؟ ربما يكون معه خمس وعشرون ليرة!! أما لو قال لك أكبر غنيّ بالبلد: معي ثروة كبيرة جدًّا ! فقد تكون معه الملايين، فكلمة (كبير) تكون حسب قدر القائل، وربنا عز وجل يقول:

(فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

والله - أيها الإخوة – إني لم أجِد في الناس من هو أشدّ حمقًا من الذي يزْهد في الآخرة ويُقْبِلُ على الدنيا، على الرغم من أن كلّ ما يملكه في الدنيا مرهون بنَبض القلب، وقد يتوقف هذا القلب من دون سبب ! فإذا توقَّف القلب يقال: كان رجلاً فصار خبراً، وقد يكون شَخصًا ملء السَّمع والبصر فيصير بعد ذلك كلمةً على الجدران، وقد يكون ذا حضور في البيت فيغيب عنه، و قد يكون له قرار في تجارته ومكتبته و توزيع أمواله، فيفَقَدَ هذه الصلاحيَّة، ويصبح المال لِوَرَثَتِهِ، فالموت يأتي ويأخذ معه كلّ

شيء.

أيها الإخوة الكرام، ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الحديد]

كأنّ الله هنا يَعْجب ! فالإله لا تُدركهُ الأبصار، والكون يدلّ عليه، وقد أعطاك أكثر ممّا تستحقّ، فقد أرسل لك إنسانًا من بني جلدتك، يتكلّم فتسْمعه، ويتحرّك فتراه، وتتعامل معه فَتُحِبُّه، من هو ؟ هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، فَمِن رحمة الله بنا أن جَعَل بشراً من بني جِنسنا يُحدِّثنا عن ربّنا ! فعلى الإنسان أن يستنبط هذا المعاني، فقد أكرمه الله تعالى بعقْل، وكون ينطق بعظمة الله، ثم أكرمه إكرامًا لا حدود له حينما جعل رسوله بشرًا مثله، قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

[سورة التوبة]

يتكلّم ويتزوّج، ويأكل و يشرب وينام، ويتحرّك وينطق، و تجري عليه كلّ خصائص البشر، لكنه كان سيّد البشر لأنّه انتصر على بشَريّتِهِ.

قال تعالى:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الحديد]

العلماء ورثة الأنبياء:

و قياساً على ذلك، لا بد من ذكر شيء آخر، وهو أنّ كلّ إنسان لديه لقاءات في حِرفتِهِ ومصلحته وبيئته، ولكن كلام الناس في الأعمّ الأغلب متعلِّق بالدنيا، فأصحاب الحرفة الواحدة يتكلّمون عن حرفتهم، والأهل يتحدّثون عن بناتهم وأولادهم وأزواجهم وأعمالهم ومستقبلهم، ولكنّ الله تعالى خلق أُناسًا ينوبون عن الأنبياء في إبلاغ الحق للناس، وذلك لِحِكمة بالغةٍ بالغة، و قد وزّع هؤلاء على كلّ بقاع الأرض تَوزيعا جغرافيًا ومكانيًا محكماً، فما من مكان إلا وفيه إنسان أو أكثر يدعو إلى الله، و هذا أيضًا من نِعم الله تعالى، فالتعرف على الله متاح في المسجد مثلاً، فإنك إن دخلته سمعت فيه الحق، ففيه يُتلى كلام الله تعالى، وتقام دروس العلم، فإذا حضرت درس حديث مثلاً، عرفت ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، ومن خلال هذا تعرفُ مُراد الله من خلقه، فكما امْتنّ الله سبحانه وتعالى على خلقه بالرُسل والأنبياء، جعل هناك من ينوب عن هؤلاء القِمَم الشامخة في تعريف الناس بالله، فقوّاهم ووفّقهم إلى نقل الحق، وهذه نِعمة من نِعم الله عز وجل، وإذا أردْت أن تعرف من أنت ؟ ولماذا كنت ؟ وماذا بعد الموت ؟ ولماذا خلق السماوات والأرض ؟ ولماذا أوْدع الله فيك الشهوات ؟ وما معنى هذا الكتاب الكريم ؟ وإلى أيّ مدىً تسير فيه ؟ فما عليك إلا حضور مجالس العِلم. يقول الله عز وجل:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الحديد]

فلو أنّ هناك إنسانًا يكاد يموت من الجوع، وكان أمامه طعام منوّع ونفيس، وكان هذا الطعام من دون ثمن، فقال له صاحب الدّعوة: ما لك لا تأكل ؟! الطعام نفيس وأنت جائع ! فإن أكل كان هذا شيئاً طبيعياً، أما إن لم يأكل فهذا هو غير الطبيعي، وهذا هو الوضع الشاذّ، فكأنّ الله تعالى يقول:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ)

[سورة الحديد]

فالله أنزل كتابًا، وأرسل رسولاً فصيحًا بليغًا لطيفًا كاملاً، فهو كامل بفصاحته وبيانه وأُنسه وإقباله، والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق إلا بالحق، وهناك من ينوب عنه في هذه الدّعوة، فما الذي يمنعُك أن تؤمن ؟ قال تعالى:

(وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الحديد]

كل شيء في الوجود يدعو إلى الله:

إن كلّ شيء خلقه الله يدعو إليه، فالسماوات والأرض تُشيران إلى الله تعالى، وطبيعة النّفس البشريّة تُشير إلى الله كذلك، فنفسُك البشريّة إن لم تستقِم على أمْره تعذّبَت، وعلماء النّفس يتحدّثون عن الكآبة، فما هي الكآبة ؟ هي حالةٌ نفسية صَعبة جدًا تأتي بعد الانْحِراف، فالإنسان إذا خالف منهج ربّه شعر بالكآبة، ولو لم يكن هذا الإنسان يعرف شيئًا عن منهج الله، فقد سَمِعْتُ من أحد الأصدقاء في بلاد الغرب قصة تقول: أنّ رجل دين كان يقرأ الكتاب المقدّس، وحوله هالةٌ من نور، فمرّتْ فتاة متبذّلة فنظر إليها فسقط هذا النور مِن فوق رأسه وفقَدَ كلّ ميزاته !! أنا لا يعنيني مؤدّى هذه القصة، ولكن يعنيني أنّ هؤلاء يعرفون أنّ الإنسان إذا كان مطبّقًا لشرع الله اتّصِل به، وأنه إذا عصاه انقَطَع عنه هذا النور، وهذه فطرة البشر جميعًا، فالله تعالى قال:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الحديد]

إن كلّ ما في هذا الوجود من طّعام وشّراب وجماد ونبات ونفوس بشرية، كلٌ ذلك يشير إلى الله تعالى، لذلك لا يمكن للإنسان أن يرتاح إلا إذا استقام على أمر الله، فإذا فعل انزاحت عنه هموم كالجبال.

قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة الحديد]

الظلمات: جمع، والنور:مفرد، قال تعالى:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(257))

[سورة البقرة]

وقال:

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(126))

[سورة الأنعام]

فهذا يعني أنّ واحِد الحق لا يتعدّد، أما الباطل فيتعدّد كثيرًا.

آيات الله البينات:

قال تعالى:

(هُوَ الّذِي يُنَزّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيّنَاتٍ)

[سورة الحديد]

إن آيات الله تعالى _ أيها الإخوة _ لا تنقطع، فقد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القرآن وهو من آيات الله، لكنْ أفعال الله تشير دائماً إلى وحدانيته، فأحيانا قد يعاقب الله الإنسان عقاباً شديداً، فيعرف الإنسان أنّ هذا العقاب عادل، و أنه آيةٌ من آيات الله، وآياتُ الله قائمة تشير إليه، كالزلازل و البراكين و الفيضانات و القحط المستمر، فلله أفعالٌ تشير إليه، وعرفتُ اللهَ من نقض العزائم، وأحيانا قد يتمتّع الإنسان بقوّةٍ شديدة و ذكاء حادٍّ، فيخطِّط لمستقبله تخطيطا رائعًا، ولكنّه يكون قد بنى مَجْدهُ على أنقاض الآخرين، فلا بدّ من أن يُحْبِط الله عمله، فيفاجأ بأنّ الله موجود، وأنّه لا إله إلا الله.

أيها الإخوة، قال تعالى:

(هُوَ الّذِي يُنَزّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة الحديد]

إن كتاب الله مليء بالآياتٌ التي تدلّ عليه وتُشير إلى المنهج القويم الذي ينبغي أن نتّبعَه، ويبيّن لنا تاريخ الشُعوب السابقة ومستقبل الحياة وحقيقة الدنيا والكون المنهجَ القويم الذي ينبغي أن نتّبعه، والإنسان يكون قبل قراءته القرآن في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، أما إذا قرأ القرآن وعقلهُ وتدبّر آياته أخرجه القرآن من الظلمات إلى النور، فيخرجه من ظلمات الجهل إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن ظلمات الشكّ إلى أنوار اليقين، ومن ظلمات التّيه والضّياع إلى أنوار الوجدان، ومن ظلمات التردُّد إلى أنوار اليقين، ومن ظلمات التعسّف في حركة الحياة إلى أنوار منهج واضحٍ يسير عليه، فالظلمات كثيرة، فمن قرأ القرآن وتدبّرهُ وعَمِلَ به، أخرجهُ من الظلمات إلى النور، وأحيانًا قد يدْعم الله عز وجل هذا الكتاب الذي هو كلامه بأفعاله، فإذا قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(276))

[سورة البقرة]

محقَ المُرابي، وإن كلّ شيء وعد به القرآن أو توعَّد به كائن لا محالة، و أفعال الله جلّ جلاله تؤكِّد وعْدهُ ووعيده، فهناك آيتان ؛ آية قرآنيّة وأخرى تكْوينيَّة، وعلى الرغم من ذلك لا يزال الإنسان مُقصِّراً، قال تعالى:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

فما لكم لا تؤمنون ؟ وما لكم لا تنفقون ؟ فالمال مال الله، وإنك إن أنْفقتهُ أخلفهُ الله عليك، وأتاك مقابله بالأضعاف المضاعفة (أنْفِق بلالاً، ولا تخْشَ من ذي العرش إقلالاً)، قال تعالى:

(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد]

فالمال لن يبقى لك حتى وإن لم تنْفقه، بل سيكون تركَةً لِوَرَثَتِك، فقد سألوا مرَّةً شابًا مات أبوه من وقت قريب، إلى أين أنت ذاهب ؟ فقال بالحرف الواحد وباللغة الدارجة: (أريد أن أسْكرَ على روح أبي!!)، فلماذا يبخل الإنسان بمال لا يدري كيف سيَتَصَرَّف الورثة فيه بعد موته ؟ إن درهماً تنفقه في حياتك خير لك من مائة ألف درهم ينفَق بعد مماتك، وقد اطّلعْتُ على عشرين أو ثلاثين وصيَّة أوصى أصحابها أن يُنفقَ مالهم على أرواحهم في الخير، وقد كنت شاهداً على هذه الوصايا، بيد أنها لم تُنفَّذ منها واحدة، لقد بخل أهله عليه بعشرة آلاف ليرة، مع أنه قد ترك لهم أموالاً طائلة ! فالله تعالى قال:

(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد]

فهذا المال إن أنفقت منه نجحْت وفُزْت، وإن لم تنفقه أُخِذ منك، وعندئذ تخْسر خسرانًا مبينًا.

تلخيص:

لقد تحدث الدرس اليوم عن الإيمان والإنفاق، والإنفاق في الآية مطلق، وله أبواب كثيرة، فيمكن للطبيب أن يُعالج الفقراء مجّاناً، كما يمكن للمحامي أن يتوكّل قضيَّة لإنسانٍ فقير ومظلوم، ويمكن لِصاحب المحل المواد الغذائيَّة أن يوزّع منها مجّانًا، فيمكن لك أن تتصدّق من كلّ شيء تملكه ؛ مِن عِلمٍ إلى مال إلى خِبْرةٍ إلى متاع إلى بِضاعةٍ إلى غذاءٍ، قال تعالى:

(فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

وقال تعالى:

(آمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا)

[سورة الحديد]

فالآيات كلّها تتحدث عن الإيمان والإنفاق، والإنفاق يؤكِّد الإيمان ويُحَقِّقه ويثبِّتُهُ ويُجسِّدُهُ لذا قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133))

[سورة آل عمران]

فأوّل صِفة من صفات المتّقين هي كما قال تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاء)

[سورة آل عمران]

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الصّدقة برهان))

فهي برهان على إيمانك، والصِّدق هو مطابقة العمل للقول، فمن أنفق من ماله دلّ إنفاقه على إيمانه.

و التّوجيه الأخير هو قوله عليه الصلاة والسلام:

((إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم..))

فيمكنك أن تنفق من أيّ شيء آتاك الله إياه، قال تعالى:

(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا)

[سورة الحديد]

لقد كان الإسلام في بادئ الأمر ضعيفًا، و كان عِبئًا على المسلمين، فلما نصره الله صار ميزة، لكن الذي أنفق في الضّراء وفي زمن الشّدة كان له الأجر الأعظم، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((اللهَ الله في أصحابي لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغتم مُدّ أحدهم ولا نصيفه !))

فالذي آمن قبل الفتح كان له درجة أعظم، فقد كان الإيمان في ذلك الوقت صعباً وفيه شِدّة، وهذا يحدث في كُلّ عصر، فالذي يمنع من ممارسة شعائر دينه، ويمارس عليه ضَغطٌ شديد يُضاعف الله عز و جل له أجره، و هناك فرق كبير بين كونك حراً تتحرّك كيف تشاء، وبين أن تكون مقيداً تحْسِب حِساباً لِكلّ شيء، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((يَأْتِي عَلَى النَّاس زَمَانٌ الصّابرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابض عَلَى الْجَمْر))

[رواه الترمذي]

وأعجب المؤمنين إيمانًا هؤلاء الذين جاؤوا بعدي ولم يروني ! هكذا قال عليه الصلاة والسلام، فالإنسان إذا استقام على أمر الله كان من أحبابه، قال تعالى:

(لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى)

[سورة الحديد]

كما قال عليه الصلاة والسلام:عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[رواه مسلم]

فالكل (على العين والرأس)، وهذا ينطبق على الذي آمن قبل الفتح، والذي آمن بعد الفتح، والذي آمن في الشدّة، والذي آمن في الرّخاء، و كُلاً وعد الله الحسنى، قال تعالى:

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

فالله تعالى يعرف عملك و أبعادك وبواعثك وإخلاصك، و ليس من شأن البشر تقييم بعضهم بل إن هذا من شأن خالق البشر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 11-15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-04-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الإخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة الحديد، ومع الآية الكريمة الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

آيتان تتحدثان عن التدبر:

أيها الإخوة الكرام، قبل أن أبدأ بشَرح هذه الآيات بتَوفيق الله عز وجل، أُحِبُّ أن أقف معكم عند آيتين من كتاب الله تعالى، و هاتان الآيتان تتحدّثان عن تدبّر القرآن الكريم ؛ والآية الأولى هي قوله تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

[سورة محمد]

والآية الثانية:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(82))

[سورة النساء]

فالله سبحانه وتعالى يدعونا في قوله (أفلا) إلى تدبّر القرآن، فمن غير المعقول أن يقف الإنسان من كتاب الله تعالى موقفًا سلبياً (موقف اللامُبالاة)، أو أن يقرأ القرآن من دون تدبّر ولا وعي ؛ من غير أن يصل إلى أبعاد الآيات ومدلولاتها، وما تنطوي عليه من أوامر، ونواهٍ وحِكَم، ثم يتوهّم بعد ذلك أنّه تبارك بهذه القراءة، فهذا لا يليق بالإنسان.

أيها الإخوة: ما مِن نصّ على وجه الأرض أجْدر أن يُقرأه بالعناية والفهم من القرآن الكريم ؛ لماذا ؟ لأنّه كلام الله، وفضل كلام الله على كلام خلقه كَفضل الله على خلقه، فأنت مأمور من خلال هاتين الآيتين أن تقرأ القرآن متدبّراً.

التدبّر: مصدر من تدبَّر، وهو مزيد، مجرَّده: (دَبَر)، فيجب عليك أن تقرأ الآية ثمّ تفكِّر فيما وراءها من أمْر ونهي و وَعْد ووعيد، والإنسان أحياناً قد يقرأ مادّة من قانون صدر حديثًا، فيقول: إن أنا بلّغتُ عن حجمي المالي ترتبت عليّ ضريبة، وإن ما بلّغت كان عليّ سِجن ! وتراه لا ينام الليل إلى أن يتم قراءة هذه المادّة وفهمها، وهذه المادة ما هي إلا قانون بشري، فكيف بكلام خالق الكون الذي يقول:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)

[سورة محمد]

مانعا التدبر:

الآية الأولى تقول:

(أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

والآية الثانية تقول:

(لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً (82))

فكأنّ هناك مانِعين يَمْنَعانِكَ من تدبّر النصّ الذي أمامك، المانع الأوّل هو أنت، والمانع الثاني هو النّص، فلو كان هذا النص من صُنع إنسان ومن صِياغَتِهِ لما انشدّ الإنسان إليه ولا وجد رغبةً جامحة في فهمه وفهم مدلولاته،لأنّ كلام البشر فيه الخطأ وفيه الصّواب، وفيه البعد عن الله تعالى أحياناً، فما هو إلا معالجة سريعة للأمور، كما قد يكون فيه عدم توازن، و قد تجد فيه بعض الأفكار من دون دليل لأنه كلام البشر، ولكن إذا كان الكلام كلام الله فلن تجد فيه تناقضًا ولا اختلافًا، ولا ضَعفًا، ولا معالجةً سريعةً ؛ إنّه كلام خالق الكون، قال تعالى:

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(82))

[سورة النساء]

أيها الإخوة، أقول لكم وأعني ما أقول: إنه ما مِن كتاب على وجه الأرض يُؤلّف، ويُطرحُ في الأسواق، إلا و يُكتشف بعد حين أنّ فيه نقصاً أو خللاً أو بُعداً عن الواقع أو تناقضاً مع حقيقة عِلْمِيَّة،فالزّمن وحدهُ يكفي لِكَشْف خلل كلّ كتاب، ما خلا القرآن الكريم، فقد مضى على نزوله خمسة عشر قرنًا، وقد انتقلَ العلم خلال هذه الحِقَب إلى قفزاتٍ مذْهلة، ومع ذلك لا نجد حتّى الآن في كتاب الله شيئًا يتناقض مع العلم، بل إننا لا نجد العلم الصحيح إلا إذا تطابق مع القرآن الكريم.

أيها الإخوة الكرام، الآية الثانية، وهي قوله تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

[سورة محمد]

فهذا مانعٌ آخر، وهو أنت، فما هو القِفل ؟ و القفل هو حُبّ الدنيا ! وحبُّ الدنيا يُعمي ويُصِمّ، وهو رأس كلّ خطيئة، و الإنسان الذي لا يفهم القرآن، إما منغمس في الدنيا، أو أنّه يقرأ نصّاً ليس بقرآن.

فيا أيها الإخوة.. هاتان الآيتان في كتاب الله تحضّان الإنسان على تدبّر القرآن الكريم ومعنى التدبّر أن تتدبَّر فيما وراء هذه الآية، فالله عز وجل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور]

فلو أنّني خالفت هذه الآية مثلاً فلن أسْعدَ في زواجي، ولن أتفرّغ لِدِراستي، ولن أرقى عند ربّي، كذلك لمّا قال الله عز وجل:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(276))

[سورة البقرة]

إن خالق الكون هنا يقول لك:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا)

و معنى ذلك: أنه مهما بدا لك المُرابي ذكِيًا فهو أحمقٌ غَبيّ، لأنّ خالق الكون يتوعّدُهُ بالدّمار !

و التّدبُّر هو أن تكتشف ما وراء هذه الآية من أمر، ونهي، ووعد ووعيد، وسعادة وشقاء، فكلام الإنسان قد تجده أحياناً يستحق أن تُفكِّر فيه، وأن تقف موقفًا منه، فكيف بكلام خالق البشر ؟!

أيها الإخوة الكرام.. إذا توهَّمَ الإنسان أنّه إذا قرأ القرآن كُفِيَ ؛ سواء كانت هذه القراءة بفهم ووعي أو من دون ذلك، يكون بتوهمه هذا مُناقضاً للآيتين الكريمتين السابقتين. قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

[سورة محمد]

أي إن لم تتدبَّر كان قلبك مُغلقاً بِحُبّ الدنيا،فكأن النّص في نظرك ليس من عند الله تعالى، لأنّه لو كان من عند الله لما وجدْت فيه اختلافًا ولا انحِرافًا، ولا تناقضًا ولا ضَعفًا، ولا خللاً، فالمسلم الصادق يُسارِعُ إلى تطبيق كلام الله عز وجل فيتدبَّر، لقد ورد أن الإمام الغزالي خاطَبَ نفسَهُ قائلاً: **" يا نفسُ، لو أنّ طبيبًا منعَكِ مِن أكلةٍ تُحِبّينها، فلا شكّ أنّك تمْتنِعين، يا نفْسُ أيَكُون الطبيب أصْدق عندك من الله؟!"** ؛ إنك قد تسكن شقّة في الطابق الرابع فتمضي سنوات عديدة في تزيينها، فإذا بالطبيب يقول لك: عليك أن تسكنَ بناءً أرضِيًا لأنّ مُصاب بمرض القلب !! فيتغيَّر كلّ شيء بين عشيّة وضُحاها! وهذا من أجل قلب فقط، وكذا الأمر إذا قال لك الطبيب: دَعْ هذا العمل، أو تخلّ عن هذا السفر، فإنك تسارع إلى تركه، يقول الإمام: **" إذًا ما أكْفركِ ! "**، وما أشدّ كفر الإنسان عندما يُطيعُ إنساناً خوفاً منه ويعصي الإله، أو عندما يثق بنَصيحة إنسان فيستجيب لها، ولا يثق بنَصيحة الله عز وجل، فما أشدّ كفرهُ عندئذ، ثمّ يقول هذا الإمام: **" أيّتها النّفس، أيكون وعيدُ الطبيب أشدّ عندك من وعيد الله، إذًا فما أجْهلكِ ! "**، صدِّقوني أيُّها الإخوة أنّه ما من إنسانٍ يعصي الله عز وجل إلا وهو مَدْموغٌ بالكفر أو الجَهل،ولا يُسمّى الإنسان عاقلاً إلا إذا عرف الله تعالى، فقد يتفوّق في اختِصاصه، وفي حرفتِهِ، وفي دراسته، وفي مهنتهِ، وهذا ذكاءٌ فقط، ولكنّ العَقل شيءٌ آخر، لأنّ العقل أن تعرف الذي خلقَك، وأن تَدرُس المنهَج الذي وُضِعَ لك، وأن تبْحث عن أسئلةٍ كبيرة مثل: من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟

أيها الإخوة الكرام، إن تدبّر كتاب الله عز وجل فرْض عَيْنٍ على كلّ مسلم،قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

[سورة سبأ]

فهل تحترمون إنسانًا جاءتْهُ رسالةٌ فمزّقها قبل أن يقرأها ؟ و القرآن وَحيُ السماء إلى الأرض أفلا ينبغي أن نستوعِبَ ما فيه، وأن نقف عند حُدوده، وعند حلاله و حرامه لأنّه كلام خالق الكون ؟.

إقراض الله !!

ننتقل إلى الآية الحادية عشرة من سورة الحديد، وهي قوله تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

إن مركز الثِقل في هذا الآية هو كلمة: (يُقرِضُ)، فما هو الشيء الذي تثق في رجوعه إليك ؟ إنه القرض، فهناك هِبة، وهناك هدِيَّة، وهناك غِبن، و هناك أشياء كثيرة ولكنّ شيئاً واحِداً عَوْدتُهُ إليك مُؤكّدة، وهو القرض، و ربُّنا سبحانه وتعالى يدْعونا هنا إلى أن نُقرِضَهُ، أيْ: إنّ الله سبحانه وتعالى قد خلقنا لِنَعملَ صالحاً، ليُكافئنا عليه في جنّة عرضها السماوات والأرض، وإن أيّ عمل صالح مادِياً كان أم معنوياً، صغيراً أو كبيراً، فعلياً أو قولياً، كإنفاق مال أو تعليم، أو أمر بمَعروف و نهي عن المنكر، أو مُعاونة لأحد أو صدقة، أو إتقان أو توجيه أو نصيحة لأيّ مخلوق، إنساناً كان أم حيواناً أم نباتاً، مسلماً أو كافراً، قريباً أو بعيداً، و سواء كان العمل جليلاً أم صغيراً، فهو يسمى عند الله تعالى (قرض حسَن)، فتصوَّر أنّ ملكاً كان بيَدِهِ أمر البلد كلّه، ثم قال لإنسان: أقرضْني مائة ليرة ! فهل هو بحاجة إلى مائة الليرة هذه ؟ أم أنّه يريد أن يُكافئَك بما هو أكثر.

أيها الإخوة الكرام، لو تدبّرنا هذه الآية وحدها، لَنِدْمنا أشدّ ندمٍ على كلّ ساعة مرّت دون عمل صالح، لأنّ كلّ عمل مهما كان صغيرًا مُسَجّل عند الله، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

[سورة الزلزلة]

فمهما بدا لك العمل قليلاً فهو عند الله كثير، فلو أنّك أكرمْتَ شيخًا لأكرمك الله على فعلك هذا، يقال: **" ما أكرم أحد شيخًا لِكِبر سِنِّه إلا سخّر الله له من يخدُمُه عند كبره ! "** ولو كنتَ ولدًا بارًّا لكافأك الله في الدنيا والآخرة بأولادٍ أبرار، ولو أطعمت الفقير لصانَ الله وجْهك عن أن تسأل أحدًا مِن خلقِه، فاللهمّ صُن وجوهنا باليَسار ولا تبْذِلها بالإقتار.

أيها الإخوة الكرام، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ)

[سورة الحديد]

فأيّ إنسانٍ طرَقَ باب المؤمن أو دخل مَحَلِّه، وسألهُ حاجةً وهو صادق، وكان المؤمن قادِراً على أن يعْطِيَهُ فأعطاه، كان عمله هذا قرْضاً لله تعالى على وجه اليقين، فإذا بَخِل الإنسان كان هذا مُنتهى الحُمق والغباء، لأن معنى فعله هو: أنّ الله يسألَه قرضًا حسنًا فيبْخَل، قال تعالى:

(و مَـنْ يَبْخَلْ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ(38))

(سورة محمد)

وقد فَهِم اليهود هذه الآية فهْماً معكوساً، فقالوا: إذا كان الله يقترض من عباده فهو فقير إذًا ! قال تعالى:

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(181))

[سورة آل عمران]

فهو تعالى ما طلب القرض إلا لِيُكافِئنا به.

وكل أعمال الخير قرض لله، فلو سألك إنسان عن الطريق مثلاً فوقفْتَ وأجبْتَهُ بهُدوء ووُضوح وصراحة، ووضّحتَ له الطريق وذَهَبتُ معه كان فعلك هذا قرضاً لله تعالى، وإن سَقَيْتَ هِرَّة عطشى أو أطْعمت كلباً جائعاً كان هذا قرضاً لله تعالى أيضاً، كذلك إن أقرضت إنساناً قرضَ مالٍ...إلخ، فحينما تفْهم أنّ القرض هو لله تعالى تُبادِر إلى إقراض الله عز وجل، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

أي: يا عبادي من منكم يُقرض في سبيلي حتّى أكافئه ؟ والله هو الغنيّ ونحن الفقراء.

أيها الإخوة الكرام.. ما مِنّا واحد إلا وهو مفتقر إلى الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى مثلاً أسبغ على الإنسان صِحّة، فماذا يفعَل هذا الإنسان لو تعطّلت كليته ؟ أو ضاقَت دسّامات قلبه ؟ أو تعطّلت وظائف كبده ؟ أو ازْدادت حساسيّة أعصابه ؟ أو لم تسْتَجِب عضلاته للأوامر الحِسِيّة وأُصيبَتْ بالشّلل ؟ لو حدث ذلك لضاقت به الحياة، ولأصبحت حياته جحيماً! ألا ترضى أنّ يكافئك الله سبحانه وتعالى بحَياةٍ طيّبَة في الدنيا قبل الآخرة؟ قال الله عز وجل:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(40))

[سورة غافر]

و الحياة الطيّبة فيها رِضىً وصِحّة وسمعة طيّبة و غِنَى.

أيها الإخوة الأكارم: استقيموا على أمر الله، فكلّ الخير في طاعة الله تعالى، وكلّ الغِنَى النّفسي في طاعة الله، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

وقوله: (يُضاعفه له): مطلق، والمُطلق يبقى على إطلاقه ؛ فقد يضاعفه له أضعافًا كثيرة، وإن أقلّ عطاء من مُلوك الأرض هو بيت أو مركبة ! فكيف بمَلِكِ الملوك ؟! ما هو حجم عطائه إذا أقرضه عبده؟؟ وهو الذي قال لك: يا عبدي أقرضني ! يقول الله تعالى في الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ! قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي! قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي ! قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

[رواه مسلم]

فما من إنسان يلتقي بالمؤمن الصادق إلا يراهُ هديَّة من الله، فهو يُرْشِدُهُ ويُعطيه ويُعاونُهُ وينفِقُ عليه، لعلَّ الله يرضى عنه بذلك، فأساس حياة المؤمن العطاء، وهو ذكِيّ جداً، وعاقلٌ جدًا ؛ لأنهّ يبتغي بهذا العطاء وجه الله، أما الجاهل فأساس حياته الأخذ، فلا يتحرّك حركةً، ولا يتكلّم كلمةً إلا وهو ينتظر العطاء من وراءها، وهذا هو نصيبُهُ من الله تعالى! أما المؤمن فيبتغي بعطائه وجه الله، فهذا سيّدنا عثمان بن عفان كان له سِتّمائة بعير مُثقلة بالبضائع الرائِجة _ وهي اليوم تعادل سِتُّمائة شاحنة _ فجاءه التُّجار وأخذوا يضاعفون له ثمنها، إلى أن وصلوا إلى ثمانيَة أضعاف الثمن، وهو يقول: دُفِعَ لي أكثر ؛ هِيَ لِوَجه الله عز وجل !! ووزّعها على فقراء المدينة، فكلّما زادت معرفة الإنسان بالله كان عطاؤُه أكبر، فهو يُعطي وقتَهُ وماله وخِبرَتَهُ قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

شروط القرض الحسن:

ما معنى (حسنًا) ؟ إن أوْسَعُ معاني القرْض - كما قلتُ قبل قليل - العمل الصالح المادّي والمعنوي، من إرشاد، ودعوة، وتعليم، وإنفاق مال، ورعاية يتيم أو أرملة،أو دلالة إنسان على طريقه، فأيّ عملٍ صالحٍ على الإطلاق هو قرض لله عز وجل، فما هو القرض الحسن إذًا ؟ القرض الحسن ما كان موافقاً لشروط ثلاثة، وهي:

1- أن يكون العمل مُتْقنًا.

2- وأن يكون الذي تفْعلُهُ معهُ مُسْتحِقًا له.

3- وأن تكون بهذا العمل مخْلِصاً.

فهناك شَيءٌ مُتَعَلِّق بالعمل، وشيءٌ متعلِّق بمن يستحقّ العمل وشيء متعلّق بك، قال تعالى:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا(9))

[سورة الإنسان]

و قال:

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى(19))

[سورة الليل]

فالشرط الأوّل: الإخلاص، والشرط الثاني: الإتقان ؛ أي: أن تعْطِي شيئًا ثمينًا تُحِبُّه، فلا تقدّم شيئًا تعافُهُ نفْسُك وتكرهُهُ، لأنّك تُقدِّم هذا العمل هَدِيَّة لله تعالى، فكلّما كان العمل الصالحُ مُتقنًا أو طيّباً أو كثيراً أو محبوباً ارتقى أجرهُ عند الله، فلا تصدّق مِمّا تكره بل أعْطِ شيئاً ثميناً، وهذا العطاء الثمين دليل إخلاصك لله تعالى، كما يجب عليك أن تِبْحَث عن من يسْتحقّ هذا العطاء، وابْدأ بالمؤمنين الأعفّة الصادقين، قال تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ(273))

[سورة البقرة]

ابْدأ بالصائِم المصلِّي، فهذا ينبغي أن ينال من عطْفكَ و إحْسانِكَ الشيء الكثير، وهذا معنى قوله تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

وأحيانًا تكون هناك مساعدات فيما لا يُرضي الله عز وجل، و هذا ليس قرضاً حسناً، فلا بدّ أن يكون القرض الحسن مشروعاً في الأصل خارجاً من إنسان مخلص، وأن يكون الشيء المُتَصدّق به مُحَبّباً ومُتْقناً، كما يجب أن يكون الذي تُعطيه إيّاه مستحقاً، فلا يُعطى لِمَن يعصي الإله، لأن القرض يجب أن يُعين على طاعة الله تعالى، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

فالجنّة أجر كريم من كلّ شائبة.

نور المؤمنين يوم القيامة:

ثم يقول الله تعالى واصفاً المؤمنين يوم القيامة:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)

[سورة الحديد]

إن الأوراق الآن مختلطة ! فالناس جميعًا يأكلون ويشْربون، ويتنزّهون ويكسبون المال وينفقونه، ويتزوّجون ويُنْجِبون، ويُزوّجون أولادهم، أما يوم القيامة فيُفْرز فيه الناس، قال تعالى:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(59))

[سورة يس]

في يوم القيامة يكون المؤمنون في مكان، والمجرمون في مكان، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، هؤلاء في أعلى عِلِّيِّين، وهؤلاء في أسفل السافلين، هؤلاء تلفح وجوههم النار، وهؤلاء وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة ! فهناك فرْقٌ كبير، فلا يستوي هؤلاء أبداً.

النساء شقائق الرجال:

قال تعالى:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الحديد]

لو ذكر الله تعالى المؤمنين فقط لفُهِمَ معها والمؤمنات ! ولكنّ الله تعالى أراد أن يذكر المؤمنين والمؤمنات لِيُبيّن أنّ المرأة كالرّجل تماماً من حيث التكليفُ و التشريف والمسؤوليّة، فهي ترقى كما يرقى الرجل، وتؤمن كما يؤمن، وتحبّ الله كما يحبّ، ويتفضّل الله عليها كما يتفضّل الله على الرجل، ولها عند الله مقام عليّ كما للرجل، و كلّما اقترب الإنسان من كتاب الله شعر أنّ المرأة صِنوُ الرّجل، فالنِّساء شقائق الرّجال، تؤمن وترقى بإيمانها، لذا كان عليه الصلاة والسلام إذا قَدِمت عليه فاطمة وقفَ لها ! والمرأة يمكن أن تصل إلى أعلى الدرجات و أقصى الغايات إذا عرفَتْ ربَّها وأطاعته، لذا الله تعالى قال:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ(193)رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(194)فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة آل عمران]

فالمساواة الحقيقية بين المرأة والرّجل إنما هي في التكليف والتّشريف والمسؤوليّة، ولكنّها ليْسَت كالرجل في بِنْيَتِها الفيزيولوجيّة والنّفسيّة والاجتماعيّة، و إن كلّ خصائصها كمالٌ فيها، وكلّ خصائص الرجل كمال فيه، وهما متكاملان، فقد جعل الله كلّ منهما سكَناً للآخر، وهذه حِكمة الله، أما إذا غيّرنا خلْق الله عز وجل، ودفعنا المرأة إلى التّشبّه بالرّجال فإننا نكون بذلك قد شوّهنا أُنوثَتَها، وهذا بحث

آخر.

أيها الإخوة... قال تعالى:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الحديد]

هذا النور هو نور الطاعة و الهداية، والإنسان أحيانًا قد يكون له عمل طيّب فيشفع له، فلو كان لإنسان مثلاً ولد أثيرٌ عنده يُحِبُّه حُبًا جمًا، فوَقَعَ هذا الولد الصغير في نهْرٍ، وأشْرف على الغرق، فرأى موظّف عند والد هذا الطِفل ابن سيّده في النّهر قد أشرف على الغرق، فألقى بِنَفْسِهِ وأنْقذَهُ، فعملُه الطيب هذا يمكّنه من اقتحام الباب على سيده في أي وقت شاء، ولو كان لهذا الأب حُجّاب وموظّفون، فإذا أتى يقول فقط: قلْ له إن فلاناً بالباب، فيدخل، فما الذي جَعَلَهُ يدخُل من دون استِئذان ؟ إنه عملهُ الطّيّب، و هذا العمل هو الذي رَفَعَهُ عند سيّده، وكذا حال الإنسان في الدنيا مع الله، فإيمانه بالله واستِقامته على أمرهِ وعمله الصالح، يكون نوراً أمامه يهْديه السّبيل، وكلّ إنسان تقرّب إلى الله بعَملٍ صالح كان هذا العمل نوراً يسوقهُ إلى الله تعالى، فلو كنت تمشي في ظلمات بعضها فوق بعض، وكان أمامك ضوء يتحرّك، وكنت وراء هذا النور لاستطعت أن تمشي لأن الطريق واضح ؛ فأنت تستضيء بهذا النور، وكذا يكون الإيمان بالله والاستقامة نوراً للمؤمن يوم القيامة يسوقهُ إلى الجنّة، وقد يقول لك الإنسان أحيانًا: أنا ناجح، أنا معي استثناء ! أو معي بطاقة ! أو معي جواز سفر ديبلوماسي فمكانتهُ في بلدِهِ جَعَلَتْ له تسهيلاً حينما يُسافر، كما أن عمل المؤمنين يكون له نوراً يوم القيامة، قال تعالى:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الحديد]

(أيْمانهم): هي أعمالهم الصالحة، قال تعالى:

(بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة الحديد]

هذا هو الفوز الحقيقي، فليس الفوز أن يكثُر مالُكَ في الدنيا، ثم تُغادرها ولا تأخذ منها شيئًا، قال تعالى:

(كم تركوا من جنّاتٍ وعُيون (25) و زروع ومقام كريم(26))

[سورة الدخان]

ثم قال:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ(29))

[سورة الدخان]

فالقضيّة هي أن تؤمن بالله و تعمل صالحاً في هذه الدنيا، فلعلّ هذا الإيمان وذاك العمل يكون نورًا لك في جنّة عرضها السماوات والأرض، وذلك هو الفوز العظيم، فالدنيا الآن فيها الكثير المعاصي، ففيها

الفنادق والحفلات المختلطة، كما فيها المساجد، وهي بيوت الله، فهناك باطل ودجل، وهناك حق، ففي الدنيا يوجد كلّ شيء، والمؤمن يختار رضوان الله عز وجل وطاعته عمّا سِواه.

حوار بين المؤمنين والمنافقين:

والآن ندخل في موضوع دقيق جدّاً، قال تعالى:

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ)

[سورة الحديد]

لو أن طالباً يدرس ليلاً نهاراً طيلة السّنة الدراسية، فإنه سيَكتُب في الامتِحان بطلاقة عجيبة، وبراحةٍ نفْسيَّة مُدْهِشَة، وبتَفاؤُلٍ شديد، وربما كان إلى جانبِهِ طالبٌ أمضى عامهُ الدِّراسي بالكسَل والتَّواني والانحرافات، فقال له: اِعْطني ورقتَك لأُجيب، فهذا لا يجوز لأنَّها خِيانة، و الله تعالى قال عن المنافقين والمنافقات في قوله تعالى:

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ)

[سورة الحديد]

هذا النور اكْتسبْناهُ في الدنيا، حين آمنَّا بالله تعالى و أطعناه، وطلبنا العِلم، وتقرَّبنا إلى الله، وكنَّا مع المؤمنين لا مع الكافرين، وكنَّا مع الحق لا مع الباطل، وآثرنا ما يبقى على ما يفنى، وتركنا مباهج الدنيا، لقد أحدهم لِطَبيب: أنا أطلب منك فقط أن تعلمني كيف أكتُب الوصْفة الطِّبيَّة ؟ فقال له الطبيب: هذه محصِّلة دراسة ثلاث وثلاثين سنة ! فَمِن السَّذاجة أن يطلب إنسانٌ غارق في النعيم والشَّهوات والمباهج المنحطّة من مؤمن أمْضى حياته كلّها في معرفة الله وطلب العلم، أن يعطيه مِمَّا أعطاه الله تعالى، قال تعالى:

(قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ)

[سورة الحديد]

باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره من قِبَلِه الذي يلي الكافرين والمنافقين العذاب، فالله عز وجل أدخل المؤمنين الجنَّة، وأدخل الكافرين والمنافقين النار، وبين الجنَّة والنار سور، جانبه الذي يلي الكفار فيه العذاب والحرّ، وجانبه الذي يلي المؤمن فيه **" عين جارية "**، وفيه كما قال تعالى:

(وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ(15))

[سورة الغاشية]

الآن جرى نِقاش دقيق جداً، قال تعالى:

(يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ)

[سورة الحديد]

يقولون لهم: ألم نك نسكن ببلدٍ واحدٍ، وبنايةٍ واحدة ؟ كما كُنّا معكم في المسجد، نعم لقد كانوا معهم، لكنهم لم يكن لديهم استقامة، فهناك أناس في المسجد يتمتّعون بِسَماع دروس العلم ويفتخرون بها **!** فهذه المعيّة الجِسميَّة لا قيمة لها، و العبرة بالمعية القلبية، وهي أن تكون على منهج الله، و أن يراك الله حيث أمرك، و يفتقدك حيث نهاك.

صفات المنافقين:

قال تعالى:

(أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

[سورة الحديد]

لقد كنا في بلدة واحدة و حيّ واحد و بناء واحد و وظيفة واحدة و سلك واحد، و لكنّ المؤمن في وادٍ، والمنافق في وادٍ، فالمؤمن كان يتحرىّ الحلال و ذاك كان يأكل الحرام، والمؤمن كان يعِفُ عن محارم الله، و ذاك كان واقعاً فيها، المؤمن يرجو رحمة الله و ذاك يرجو عطاء أهل الدنيا، و المؤمن راضٍ بما قسمه الله له و المنافق ساخطٌ لما أعطاه الله، فالشكل واحد، و المكان واحد و الثياب واحدة،حتى الطقوس واحدة، لكن البَوْنُ شاسع، فهناك الإنسان عنده مسبَح مختلط، أقام فيه مولداً و دعا الناسَ و المنشدين و بعض العلماء فألقوا فيه كلمات ولكن.... قال تعالى:

(أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

[سورة الحديد]

هذا صحيح و لكن عملكم الذي تعملونه، ورزقكم الذي ترتزقون منه حرام، قال تعالى:

(أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ)

[سورة الحديد]

أي: إنكم أحببتم الدنيا و الشهوات المحرمة و المال الحرام، وأحببتم أهل الدنيا و العصاة و الكافرين،و أحببتم زينة الدنيا، وأعرضتم عمّا عند الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا(27))

[سورة الإنسان]

قال تعالى:

(وَلَكِنّكُمْ فُتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبّصْتُمْ)

[سورة الحديد]

أي: تربصتم بالمؤمنين وانتظرتم أن تحلّ بهم المحنُ و كانت كل تمنّياتكم أن تدور عليهم الدوائر، و توقعتم أن ينهاروا، قال تعالى:

(أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنّكُمْ فُتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتّى جَاءَ أَمْرُ اللّهِ وَغَرّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ)

[سورة الحديد]

أي: لقد كنتم معنا بأجسادكم في مكان واحد، ولم تكونوا معنا بأرواحكم، لقد كنتم في واد وكنا في واد آخر، كنتم معنا في المصالح لا في المتاعب، و ذلك لم يكلِّفكم شيئًا، أما حينما تصادمت مصالحكم مع أحكام الدِّين تركم الدِّين، ومعظم الناس الآن إذا أيقن بحاسّته السادسة أنّ قضيّته تنْحلّ عند المشايخ يقول لك: أنا أريد الشّرع ! وأنا خاضِع للشرع ! أما إذا كانت قضيّتهُ تنْحلّ بالمحاكم يقول لك: أنا مع القانون، فمع الشرع يريد الشرع، ومع القانون يريد القانون، قال تعالى:

(وَلَكِنّكُمْ فُتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبّصْتُمْ)

[سورة الحديد]

فالمنافق يكره المؤمن ويتمنّى دماره، قال تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلّوا وَهُمْ فَرِحُونَ(50))

[سورة التوبة]

(تربصتم): توقعتم دمار المؤمنين، و (ارتبْتُم) ؛ أي: لم تعبؤوا بوَعد الله ووعيده، فقد فتنتم أنفسكم بِحُبِّ الدنيا، وتربّصتم بالمؤمنين أن يُصابوا وأن يفْقِدوا مكانتهم، وارْتَبتم في وعد الله ووعيده، قال تعالى:

(وَغَرّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ)

[سورة الحديد]

فما من إنسانٍ بعيد عن الحق إلا والدنيا معْقِدُ آماله، لقد حدّثني شخص عن خِطّته التي تحتاج عشرين سنة ! وفي اليوم نفسه توفّاه الله !! فأخطر شيء في الحياة طول الأمل، فقد تكون أكفان المرء قد نُسَجت وهو لا يدري، والشيطان يَعِدُ الناس ويمَنّيهم، ويُلقي بينهم العداوة والبغضاء، ويُخوّفهم، قال تعالى:

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

[سورة آل عمران]

فهو يَعِدُك الفقر إذا أنفقتَ مالك، والدّمار إن حضَرْتَ مجالس العِلم ! فالله موجود يا عبد الله، وهو الذي يَحميك، قال تعالى:

(وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة الحديد]

فهذا النِّقاش يجري بين المنافقين والمؤمنين.

أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا(145))

[سورة النساء]

لأنّهم عرفوا وانْحرفوا، وسَمِعوا وعَصَوا، وأدْركوا فما استفادوا، واشْتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً، وأرادوا مصالحهم من خِلال تَدَيّنهم الظاهر، فهؤلاء هم المنافقون، قال تعالى:

(وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة الحديد]

عَودٌ على بدْء...

مرّة أخرى أيها الإخوة أقول:

إن تدبُّر القرآن فرضُ عَين على كل المسلمين، وما من كتاب أجْدر أن تعقل معانيه، وتعرف مدلولاته كالقرآن الكريم، فهو منهجنا، وحبل الله المتين.

أيها الإخوة الكرام، في الدرس القادم نبدأ بقوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة الحديد]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 17-20
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-04-12

بسم الله الرحمن الرحيم

عتاب المؤمنين و حقيقة الدنيا

أيُّها الإخوة الكرام، مع الدرس الخامس من سورة الحديد، ومع الآية السادسة عشرة وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

(سورة الحديد)

عتاب رقيق:

يُخاطِبُ ربنا سبحانه وتعالى عَقل الإنسان في كثير من الأحيان، كما أنه يُخاطِبُ قلبه أحياناً، و في هذه الآية خِطابٌ لِقلبهِ، فالله جلّ جلاله يُعاتِبُ هذا الإنسان المُقصِّر الذي لم يخْشَع قلبهُ لِذِكر الله، ولم يسْتجب لأمر الله تعالى، ولم يلْتزِم منهج الله عز وجل، فيا أيها الإنسان إلى متى أنت غافل ؟ وإلى متى أنت ساهٍ؟ إلى متى أنت مُقصِّر ؟ وإلى متى أنت مغلوب على أمرك؟ قال أحدهم:

إلى متى أنت باللّذات مَشغول وأنت عن كلّ ما قدّمتَ مسؤول

وقال آخر:

تعْصي الإله وأنت تُظهر حُبّه هذا لَعَمري في المقال شَنيع
لو كان حُبُّك صادِقًا لأطعْتهُ إنّ المحبّ لِمَن يحبّ مطيع

فماذا بعد هذا الإهمال ؟ قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

قال تعالى:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(21))

[سورة الحشر]

فما بال هذا الإنسان يقرأ القرآن فلا يتأثر، وما باله يقرؤُه فلا يقْشَعِرُّ جلدُه، قال تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37))

[سورة فاطر]

إن من دخل الأربعين دخل أسواق الآخرة ! ماذا ينتظر إذاً ؟! فلو أنّك ذَهَبتَ في رحلة لِعَشرة أيام، للاحظت نفْسَكَ تتّجِه اتِّجاهاً آخر في اليوم السابع، فتبدأ بالبحث عن بطاقات العَودة، وعن الهدايا وجمْع الحاجات، فالإنسان إذا دخل في الأربعين دخل أسواق الآخرة، قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

هناك من يقول لك: إنني أسمعُ خطباً ودروساً من عشر سنوات، و أنا ملتَزِمٌ بمَسجد ؛ و هذا شيء جميل، ولكنّ هذه الدروس والخطب يجب أن تنعكس على سُلوكه في بيته و عمله وعلاقاته، فقيمة الإنسان عند الله تكون حسب استِقامته وعَمله الصالح قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(19))

[سورة الأحقاف]

فلو قرأه مؤمن مُقَصِّر هذه لانْهَمَرَت عَيناهُ بالدُموع ولوَجِلَ قلبهُ وخشَع، ثم قال: يا رب لقد آن الأوان !! فالإنسان أحيانًا يستمِع ويسْتمع ثمّ يتألّق فجأةً، وهذا التّألق هو المقصود، فإذا كنت مقيماً على المعاصي والمُخالفات، فلا تؤدي الحقوق، وتقصر في الواجبات، فهناك إذًا حِجاب خفيف، قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

خشوع القلب:

ومعنى (أنْ تخْشَعَ قلوبهم) ؛ أيْ: أن تسْتقيم على أمر الله تعالى، وأن ينقاد الإنسان لأوامر الله، والحقيقة أن هذا المِقياس مقياس دقيق يضعك على المحكّ، فتكلّم ما شئت، وتحدّث عن نفسك ما شئت، وأعْطِ نفْسِكَ أيّ حجمٍ، وفي النِّهاية: أنت لسْتَ بالحجم الذي تدّعيه ما لم تلتزم بالأمر والنّهي، فَخشوع القلب كما قال المفسّرون: هو انقياد القلب لِطاعة الله تعالى، فالخُشوع هو شُعور، ولكنّ هذا الشُعور يُجَسَّد بانقياد النّفس إلى طاعة الله تعالى، فالحركة الظاهرة دائمًا أساسها حال نفسي، و الحال النفسي خُشوع لله، والحال الظاهري انْقِيادٌ لأمر الله تعالى، فإن لم يكُن لديك انْقِياد لأمر الله فأنت لسْتَ خاشعاً بقلبِكَ، لأنّ القلب لم يأخذ من الفِكر الأدلّة على عظمة الله، والإنسان إذا فكّر بعَظمة الله خشع قلبه وانقادت جوارحه، و انْقِيادُ الجوارح يسْبِقُهُ خُشوع القلب، وخُشوع القلب يسْبِقهُ تفكّر في السماوات والأرض، فلو الْتَقيْتَ بإنسان لا تعرف عنه شيئًا فإنك تُعاملُهُ معاملةً عاديّة، أما إذا بلغكَ أنّه أعلم علماء الأرض في اخْتِصاص معيّن، أو أنه من أقوى الأقوياء و أغنى الأغنياء، ثم الْتَقيْتَ به ثانيَةً فإنّك تحترمُهُ وتُوقِّرُهُ، وهذا يكون بِحَجم عِلمهِ أو قوّته أو ماله، و الفِكر إذا جال في ملكوت السماوات والأرض وعاد بنَتيجة تُؤكِّد عظمة الله عز وجل جعل القلب يخْشع لله، فإذا خشَع القلب انْقادَت الجوارح.

أيها الإخوة الكرام: هناك كلامٌ جامِعٌ مانِع موجَز يقول: إذا لم يحْمِلْك إيمانُك على طاعة الله تعالى فهذا الإيمان لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، وإن شئت سمِّ هذا الإيمان بالإيمان الإبليسي، لأنَّ إبليس قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

[سورة ص]

فالإيمان الحقيقي هو الذي يَحْمِلُكَ على طاعة الله عز وجل، والله عز وجل يقول:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

أنواع الخطاب الإلهي للإنسان:

1- خطاب العقل: فالله تعالى يُخاطب العَقل البشري،كما في قوله تعالى:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25)ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا(26)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(27)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(28)وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(29)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(30)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(31)مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(32))

[سورة عبس]

2- خطاب القلب: أحيانًا يُخاطب القلب كقوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

3- خطاب القلب والعقل معاً: وأحيانًا يُخاطب الله القلب والعقل معًا، كما في قوله تعالى:

(يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(6))

[سورة الانفطار]

نتابع في هذه الآية.. وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

(ألَمْ يَأْن)؛ أيْ: ألَمْ يَحِن الوقت المناسب ؟ وإلى متى أنت في غفْلة ؟ وإلى متى أنت في التقصير والمخالفات ؟ فهؤلاء آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، أو آمنوا ولم يَحْمِلهم إيمانهم على طاعة الله إيمانهم لا يكفي.

(أنْ تَخْشَعَ قلوبهم) ؛ أيْ: أن يستشْعِروا عظمة الله عز وجل، فإن أنت اسْتَشْعَرَت عظمة الله عز وجل انقادَت جوارحك إلى طاعة الله وذكره.

ذكر الله تعالى:

إن ذِكْر الله تعالى باب مِن أوْسَع الأبواب، فأيُّ شيءٍ يُقرِّبُكَ من الله هو من الذِّكْر الحكيم، فلو عُرِضَتْ عليك آية من آيات الله تعالى الدالة على عظمته ؛ لكانت هذه الآية من ذِكْر الله عز وجل، ولو عُرِضَ

عليك حدثٌ هو مِن فِعْل الله تعالى لكان مِن ذِكْر الله، ولو عُرِضَت عليك آية مفصّلة تفصيلاً رائعاً فهي من ذِكْر الله تعالى أيضاً، وقراءة شيء من سنّة رسول الله مِن ذِكر الله تعالى، فأيُّ شيءٍ يُذَكِّرُك بالله عز وجل هو من ذِكر الله، قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)

(سورة الحديد)

ما نزل من الحق :

أيْ: القرآن الكريم، قال تعالى:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(21))

[سورة الحشر]

فإذا قرأ الإنسان القرآن ولم يخْشَع قلبُه فهذا مُؤشِّرٌ خطير ! لأنّ المؤمن إذا تُلِيَتْ عليه آيات الله ازْداد إيماناً، واقْشعرّ جِلْدُهُ، ووجِلَ قلبهُ، فإذا تُلِيَتْ عليه آيات الله ولم يشْعُر بشَيءٍ كان هذا دليلاً على صدأ قلبه، قال تعالى:

(ألا بذِكر الله تطمئنّ القلوب)

[سورة الشعراء]

الأغذية الثلاثة:

إن عقلك يحتاج إلى غِذاء وغذاؤه العِلم، و قلبكَ أيضاً يحتاج إلى غِذاءٍ وهو الذِّكر فالعَقل غِذاؤُهُ العِلم، والقلب غِذاؤُهُ الذِّكر، والجسم غِذاؤُهُ الطّعام والشّراب،فأنت بحاجة ماسّة إلى أغْذِيَةٍ ثلاثة ؛ إلى عِلمٍ يُغذّي عَقلكَ، وإلى ذِكْر يُغذّي قلبكَ، وإلى طعامٍ يُغذّي جِسمك.

وأنت تتأثر بآيات الله بِقَدْر استقامتك على أمر الله تعالى، و إن المؤمن يُنادَى من مكانٍ قريب لأنّه قريب أصلاً، أما العاصي فيُنادَى من مكانٍ بعيد لأنّه بعيد عن الله تعالى، فالمؤمن يَجِلُ قلبهُ ويقْشَعِرُّ جلدهُ، وتضْطربُ أعضاؤُه إذا ذكَر الله عز وجل، أو قرأ آياته بينما لا يتأثّر المنافق، فقد كانوا يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم:

(ماذا قال آنفًا)

[سورة محمد]

مرض خطير:

يعرض الله تعالى علينا هنا مرضاً خطيراً مِن أمراض أهل الكتاب، وما عرضَ علينا هذا المرض إلا لأنّ المسلمين مهيؤون لأن يُصابوا بمِثْل هذا المرض قال تعالى:

(وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

(سورة الحديد)

فهم قد أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد، فإذا وقَعَ الإنسان في مخالفة وجب عليه أن يتوب من قريب، أما إن أخّر التوبة، واستمرأ المعْصِيَة ورضِيَ بها وألِفَها، حتى أصْبحَت جزءاً من حياته نقول عنه: إنه طال عليه الأمد بهذه المعْصيَة، والإنسان حسّاس جدًا، فإذا ظل مُتلبّساً بمَعصيَة، ومخالفاً لِشَرع ومقصِّراً في حقّ الله قسا قلبه، فتحْجُبه هذه المعاصي عن الله تعالى، قال تعالى:

(فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ)

(سورة الحديد)

وإذا قسا القلب فسقَ الإنسان، وإذا خشَع القلب أطاع الإنسان ربّه قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)

(سورة الحديد)

إن خشَع القلب انْقادت الجوارح، وإن قسا القلب تفلّتَتْ الجوارح، فالفسق أساسه قَسوة القلب، والطاعة أساسها خَشية القلب، وخَشْيَة القلب أساسها التّفكّر في خلق السماوات والأرض، أما قسْوَةُ القلب فأساسها تأخير التوبة والاسْتمرّار عليها، وإنّ أخطر ما يحيق بالمسلم أن يستمْرأ بعض المعاصي والمخالفات إلى أمدٍ طويل فيقْسُوَ قلبهُ، وتغْدو العبادات عنده طقوسًا لا معنى لها !! فيُؤَدِّي الصلاة و الزكاة و الحجّ وهو غافل، وقد أراد الله تعالى أن يكون في هذه العبادات خشوع وقُرب وتألّق، ولو لم يرد ذلك لكانت العبادات طُقوساً وأقوالاً تؤدّى بغَير معنى، فالذي يألَف أحياناً مسجداً أو دَعوةً قد يُصيبُهُ الملل والسّأم، فلا تجد في صلاته روحانيّة لأنّه استَمرأ الغفلة،فالله عز وجل خاطَب النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159))

[سورة آل عمران]

فهناك قلب للجسم، وقلبُ للنّفس، قال تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(179))

[سورة الأعراف]

فالقلب الذي هو مركز النّفس إما أن يكون موصولاً أو أن يكون مقطوعاً، فإذا كان موصولاً كانت هناك رحمة، أما إذا كان مقطوعًا كانت القَسْوَة، وأنت بين هاتين الدرجتين ؛ فإما أن تنْطَوِيَ على قلبٍ موصول بالله تعالى ومفعمٍ بالرّحمة، أو أن تنْطَوِي على قلبٍ مقطوع من الله تعالى موصومٍ بالقسْوة، فيخرجُ من هذا الإنسان كل الخير بِسَبب قلبه المملوء بالرحمة، كما تصدر عنه كلّ الشرور والآثام بِسَبب القَسْوة التي في قلبه، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159))

(سورة آل عمران)

و معنى ذلك أنّ الإنسان حينما يتّصِل بالله يمتلأ قلبهُ رحمةً ويُلْهمُ الحِكمة والرّحمة واللُّطْف والأدَب والخَشْيَة والإنفاق، ويلتفّ الناس حوله، فإذا ابْتعَد عن الله عز وجل وقسا قلبُهُ انفضّ الناس من حوله، فاللّيونة سببها الرحمة ! فلو كان للإيمان مؤشّر لكانت الرّحمة مؤشّرًا له، و لو كان للشر مؤشر لكانت القسْوة مؤشّرًا عليها ! و المسلم مُعرّض لِمَرضٍ خطير أصاب أهل الكتاب، وهو أن تغْدو عباداته طُقوساً، ويغْدو الكتاب المنزّل عنده كلاماً أجْوفَ من المضمون، يقرؤُهُ فلا يتأثّر، ثم يعبد عن الله فلا يتأثّر، فقد قسا قلبهُ وجوارحه، وطال عليه الأمد.

يحيي الأرض بعد موتها:

أيها الإخوة الكرام: لكي لا يقع الإنسان في اليأس، وحتى لا يسْتغلّ الشيطان هذه الحالة المَرَضِيَّة التي تُصيبُ المؤمن أحيانًا، يقول الله جلّ جلاله:

(اعْلَمُوا أَنّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيّنّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(سورة الحديد)

فهذه الأرض الجرداء القاحلة فيها أشجار كأنّها الخشب من قسوتها، فتأتي أمطار السماء عليها فتهْتزّ الأرض، وتنمو بالعُشب الأخضر، والأزهار والرّياحين، وتورق الأشجار وتُثمر، فهذا المطر الذي نزل على هذه الأرض هو الذي جعلها كذلك، فالله عز وجل طرَحَ آيةً من آياته الكَوْنيّة لِتَكون هذه الآية مِعْوانًا للإنسان على الانصِراف إلى طاعة الله عز وجل، فلِمُجَرّد أن يتوب الإنسان إلى الله عز وجل يعود قلبُهُ حياً متألِّقاً ومُفعماً بالمحبّة والرّحمة، حتى وإن قسا قلبهُ وطال عليه الأمد، قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيّنّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(سورة الحديد)

قال بعض المفسّرين: هذه الآية فيها تهديد، وبعضهم قال: بل فيها تَشْجيع ! بمعنى أنّه إذا مات قلب الإنسان مات الإنسان نفسه بعده، ثم يُعاد خلقهُ من جديد، وسوف يقِفُ بين يدي الله عز وجل لِيُحاسبَ على أعماله كلِّها !

أجر المصّدقين والمصّدقات:

ثمّ يقول الله عز وجل:

(إِنّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

(سورة الحديد)

(المُصدِّقين)؛أيْ: المتصدِّقين، و(المُصدِّقات) ؛أيْ: المُتَصَدِّقات، والصَّدقة كما قال عليه الصلاة والسلام برهان، فأنت حينما تتصدَّق تُعطي برهانًا على إيمانك ! لأنَّ الصدقة بذْل، وأنت حينما تتصدَّق يدلّ فعلك هذا على محبَّتِك لله، وأنّ المال لا قيمة له في نظَرك، ولكنّ الله سبحانه وتعالى يقول إنَّك بهذا العمل لا تُقدِّم الخير لإنسان فقط، بل إنَّك في حقيقة الأمر تقْرض الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنّ الْمُصّدِّقِينَ وَالْمُصّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

(سورة الحديد)

فعلى المؤمن أن يعلم أنه يُقرضُ الله قرضاً حسناً حينما يتصدَّق، فهو يقرض الغني الحميد، ومَن بيَدِهِ ملكوت كلّ شيء، لذا يجب على المؤمن ألا يعْبأ برُدود الفِعل إذا تصدَّق، فهناك مَن يتصدَّق فلا يجِدُ في الذي تصدَّق عليه استِجابة حسنة أو شُكراً، فيقول حينها: لن أفعل الخير أبداً ! و هذا من ضَعف توحيدِه، ومن ضَعف إخلاصه، أما لو كان تَوحيده وإخلاصه راسخين لما اكترث برُدود الفِعل، لأنه حينما يتصدَّق إنَّما يقرضُ الله قرضاً حسناً، فهؤلاء كما قال تعالى:

(يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(69))

[سورة الفرقان]

أما المؤمنون الذين يقرضون الله قرضاً حسناً فيُضاعف لهم هذا القرض وتلك الصَّدقة، كما أن لهم أجراً كريماً نقياً من كلّ شائبة، فالإنسان إذا وضَع اللُّقمة في فيّ زوجته كُتبت له صدقة، وقد يتصدّق الإنسان باللُّقمة فيراها يوم القيامة كجَبل أُحُد.

و (الأجر الكريم): هو الأجر النقيّ من كلّ شائبة، فيُضاعف لهم أضعافًا كثيرة، وهو دليل حبّهم الله عز وجل.

الصديقون:

قال تعالى:

(وَالّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ)

(سورة الحديد)

و هذه مرتبة تلي مرتبة الأنبياء، فهناك الرُّسل، وهناك سيّد الرُّسل وهو نبيُّنا عليه الصلاة والسلام، وبعدها يأتي الأنبياء، و بعد الأنبياء الصدِّيقون، وهم الذين يخلفون الأنبياء في تبليغ الناس الدَّعوة إلى الله، فهؤلاء على منهج الأنبياء وسنتهم، وهم يقتفون أثر الأنبياء، ولا يحيدون عن منهجهم، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويُبلِّغون رسالات الله، ولا يخْشَون أحدًا إلا الله، ويشهدون أن لا إله إلا الله، كما قال تعالى:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(18))

[سورة آل عمران]

فالصِّديقون ينوبون عن الأنبياء في تبليغ رسالات الله تعالى،فهم على سُننِهم، ويقتفون أثرهم، ولا يخشون أحدًا إلا الله، وهم المخلصون المُوحِّدون، الذين لا يتقاضَوْن أجراً على دعوتهم، قال تعالى:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20))

[سورة يس]

وهؤلاء الصِّديقون ابتلاهم الله عز وجل فصَبروا، قال تعالى:

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(124))

[سورة البقرة]

وقال تعالى:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ(41))

[سورة القصص]

فالصِّديقون هم الأتِّباع الصابرونَ، الذين يخافون الله تعالى، و لا تأخذهم في الله لومة لائم فهؤلاء هم الذين قال تعالى فيهم:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ)

(سورة الحديد)

الشهداء:

أما الشُّهداء فهم الذين ضَحَّوْا بأنفسهم في سبيل الله، والصدِّيقون أعلى من الشُّهداء، فمرتبة الصدِّيقيَّة أعلى من مرتبة الشّهادة، فالسيّدة مريم كانت صِدِّيقة فقد قال تعالى عنها:

(وأمُّه صدِّيقة)

و قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن أبي بكر رضي الله عنه:

((ما طلعت شمي على نبي أفضل من أبي بكر))

وقال:

((لو وُزن إيمان الخلق مع إيمان أبي بكر لرجَح !))

ولو قرأتم سيرة أبي بكر الصِّديق لوَجَدتم العَجَب العُجاب، ولوجدتم الإخلاص والحبّ، فلا يوجد إنسان أحبَّ إنسانًا كَحُبِّ أبي بكر لرسول الله عليه الصلاة والسلام ! وليس هناك إنسان بذَل كلّ ما يمْلِك من أجل إنسانٍ كما بذل الصدِّيق لِرَسول الله صلى الله عليه وسلّم قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)

(سورة الحديد)

فالأجر في الدنيا والآخرة، والإنسان حينما يُطيع الله عز وجل يُلقي الله تعالى في قلبه نوراً، فقرار المؤمن حكيم، وتصرُّفه سليم وكلامه مُحْكَم،وذلك لأنّ الله عز وجل نوّر قلبه، فالنور يكشف لك الخبايا إن كنت في طريق مظلم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)

(سورة الحديد)

وقد جاء في آية أخرى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)

(سورة الحديد)

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

(سورة الحديد)

فالذين آمنوا بالله ورسوله هم الصدّيقون والشُّهداء عند ربّهم لهم أجرهم و نورهم، والذين كفروا و كذّبوا وأعرضوا لهم جحيم في الدنيا وجحيم في الآخرة، كما لهم جحيم نفسي وجحيم جسدي.

حقيقة الدنيا:

ثمّ يقول الله عز وجل: لعلّ هذه الدنيا هي التي تصْرفكم عن طاعة الله تعالى فسأصفها لكم، قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

هذه الآية من أجمل الآيات التي تُعرّف المؤمن بالحياة الدنيا، فاللّعِب عمل لا طائل منه ولا جدوى، فلو لعب الإنسان النَّرْد في إحدى السهرات حتّى الساعة الثانية ليلاً ماذا يكْسب ؟ لا شيء، أما لو قرأ كتابًا لاستفاد من معلوماته، ولو حدّث أخاه لأقْنعَهُ ببَعض الحقائق، ولو آوى إلى فراشِه لاسْتراح جِسمُهُ، أما حينما يلعب لعباً لا طائل منه ؛ ماذا يستفيد ؟! اللّعِب سُلوك غير الهادف، فالدُّنيا كما قال تعالى لَعِب، ومهما وصَلتَ إلى مراتبها العلِيَّة يأتيك الموت فيأخذ كلّ شيء ! فالذي تُحصِّلُهُ في عمر مديد تخْسرُه في ثانية واحدة ! وهذه القِصص أمامكم ؛ فالإنسان الذي يشاد بيتاً، ويزخرفه بأثمن الزخرف، يأتيه الموت بغتة فيخسر بيته وكل شيء يملكه

((عِشْ ما شئْتَ فإنّك ميّت، وأحْبب من شئت فإنّك مُفارقُه، واعْمل ما شئتَ فإنّك مَجْزيٌّ به))

فالله تعالى يقول:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

أما اللّهو فهو أخْطر، واللّهْوُ: أن تلْهُوَ بالخسيس عن النّفيس ! فلو قرأ إنسان قصّة ذات مستوىً دنيء لما استفاد من هذه القصّة شيئًا ؛ فهي ما قدّمَتْ له حقيقة ولا موقف، فإذا كان لهذا الإنسان امتِحان مصيري يُعلِّق عليه الإنسان آمالاً عريضة، فقرأ القصّة وترك الامتحان لما كان هذا لعباً بل هو لهو، وهو أخطر ! فالله سبحانه وتعالى أرسل الإنسان إلى الدنيا لِيَتَعرّف إليه، ويعْبُدَهُ، فإذا انْشَغَل بشيء آخر فقد لها.

قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

فتجد الإنسان يسعى للزّينة والرّفاهية والمركبة الفاخرة والمزرعة الجميلة،والله تعالى يقول:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ)

(سورة الحديد)

مصير الدنيا وزخرفها:

لقد ورد في آية أخرى، قوله تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(24))

[سورة يونس]

فكلّ شيء كان مرفهاً و مُهيَّأً لِمُتْعة العين، من حدائق وطرقات و فنادق الفخمة، وقد رافقَ هذه الزّينة وهذا الزُّخرف شُعور يقول: إنّ الإنسان سيّد الموقف وسيّد العصر، ففي عصرنا تجد الإنسان يفتخر ويقول لك: معي هاتف خلوي !! وعنده أجهزة كهربائيّة، فهناك شعور بالسّيطرة يرافق هذه الزّينة، قال تعالى

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(24))

[سورة يونس]

فإنجلترا هي أكبر دولة في العالم لِتَصدير البقر، وقد ظنّ أهلها أنّهم قادرون عليه، فجاءهم جنون البقر،فاضْطرُوا إلى أن يُتلفوا ويعْدموا أحد عشر مليون رأس قيمتها ثلاثة وثلاثون مليون جُنَيه إسترليني !! لقد قُهروا !! ولمّا ظنّ الإنسان أنّ الجِنس شيءٌ طبيعي، وأن على كلّ إنسان أن يُمارسَهُ! جاءه الإيدْز، فإذا شَعَر الإنسان أنّه قويّ ومتمكِّن، وأن العلم وكلّ شيءٍ بيَدِهِ أتاه أمر الله، وهذا الأمر مستمرّ ؛ فكلّما ادّعى الإنسان أنّه قويّ، وله سيْطرة على الطبيعة جاءه الأمر، يقول أصحاب الحضارة الغربيّة أنهم سَيْطروا على الطبيعة ! وغاب عنهم أنّ الله لهم بالمرصاد، فالأمراض الوبيلة التي تفتك بالبشريّة لا تُعدّ ولا تُحصى ! و كلّ تغيير في خلق الله تُرافقهُ مصائب لا تعدّ ولا تُحصى، فالله تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)

(سورة الحديد)

وهناك مِن أهل الدنيا مَن يتنافس مع أقرانه من أجل المال، ويقول: أنا رصيدي كذا وكذا، وقد يتباهى بالأولاد ولو لم يكونوا مستقيمين ! وإنما يعنيه من أولاده أن يكونوا متألِّقين فهذا وصفٌ من ربّنا جامعٌ مانِعٌ لحال الدنيا وأهلها، قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

ثمّ يقول تعالى:

(كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(يهيج) ؛ أي:ييْبَسُ، فإذا ألْقيْتَ البذرة في الأرض نمَتْ هذه النّبْتَةُ، وتألّقت واصفرّت، وبعدها تُصبحُ حطاماً، و حال الإنسان كحال النبات، قال تعالى:

(وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

إن الإنسان يولدُ فيَفْرحُ أهلهُ ويُعْلِنون عن هذا الفرح ويدْعون الأصدقاء، ويعتني أهل هذا الطِّفل به إلى أن يكْبُر، فيدخل المدرسة و يدرس المراحل، وبعدها يتزوّج، ثم تأتي مرحلة العمل، ومرحلة تزويج أولاده، وفي آخر مرحلة توضَع (نعْوتُهُ) في الطرقات، وبعد مائة سنة لن يكون ذكره موجوداً، فهذه الدنيا مرحلة عابرة، وهنيئاً لِمَن طال عمره وحسُن عمله، فحالنا كَحَال النبتة التي ذبلتْ، والتي ضرب الله بها مثلا في القرآن، فالدنيا زائلة، وكلّ مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت، قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

(الكفار) هنا هم الزُّراع، والكَفر: هو الغطاء، و(يهيج) ؛ أي: ييْبَس، قال عليه السلام:

((فوالذي نفس محمّد بيَدِه ما بعد الدنيا من دار إلا الجنّة أو النار !))

فهؤلاء الخلق جميعًا مصيرهم إما إلى جنّة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفذ عذابها، قال تعالى:

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

فالدنيا فيها متاع، أما الآخرة ففيها السعادة، ومتاع الدنيا غرور، فالإنسان في البدايات يرى الدنيا فوق حجمها الحقيقي، فهو يرى المال شيئًا كبيراً، والمرأة شيئاً أكبر، لكنك كلّما كبُرتَ عند الله صغُرت الدنيا في عَينَيك، وكلّما صغُرت عند الله كبرت الدنيا في عَينَيك، فالدنيا زائلة، وطلاّبها كلابها، وهي دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له! فهي عارية مستردّة، أمدها قصير، وشأنها حقير، ما أرادها الله عقاباً لأعدائِهِ، ولا مكافأةً لأوليائِه، فلينظر الناظر بِعَقْلِهِ هل أكرم الله محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ و هو سيّد ولد آدم، وسيّد الأنبياء والمرسلين، وكان إذا صلّى الليل لا تسعه بيته للصلاة ! يقول عليه الصلاة والسلام: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّم:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[رواه الترمذي]

قال تعالى:

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

فهي تبدو للجاهل بحَجم كبير، فيبيع دينه بعَرض منها قليل، وما هي إلا غرور، والسعادة كلّ السعادة في جنّة الرّضوان، فكم من سعادة في الدنيا تأتي بعدها الكآبة والملل، فالدنيا تضرّ وتمرّ وتغرّ، وفي درس قادم إن شاء الله تعالى نتابع درسنا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 21-26
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-04-16

بسم الله الرحمن الرحيم

السباق إلى الجنة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الإخوة الكرام، مع الدرس السادس من سورة الحديد، ومع الآية الحادية والعشرين، وهي قوله تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

الإنسان زمن :

إن كلمتا (سابقوا) و (سارعوا) تُشْعران أنّ الإنسان في أصْله زمن، وأنّ الزّمن يمْضي، فلو كان الإنسان مُخلّداً لما احتاج أن يُقال له: سابق أو سارع ! ولكن الإنسان ذو عُمُر محدود، والزّمن يمضي، ومُضيّ الزّمن يستهلك الإنسان، فهو في كلّ ثانية يقترب من نهايته، لذلك قال تعالى في هذه الآية: (سابقوا)، و قال في آيات أخرى: (سارعوا)، والإنسان في حقيقته زمن، فهو بضْعة أيّام، كلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، وإنّ أثْمَنَ شيءٍ تملِكُهُ على الإطلاق هو الزّمن، لأنّ كلّ شيءٍ لا معنى له من دون زمن، فإذا انتهى الزّمن بطلت قيمة كل الإنجازات و لم يعد للمال معنى، فأنت زمن، ورأس مالك زمن، و أثمنَ شيء تملكُهُ هو الزّمن.

نوعا إنفاق الزمن: استهلاكي و استثماري:

وهذا الزّمن- أيها الإخوة -هو أخطر شيء على الإطلاق، فإما أن تنفقه اسْتِهلاكاً،أو أن تنفقَهُ اسْتِثمارًا، فالإنفاق الاستهلاكي للزّمن يعني أنْ تفعَل كلّ المباحات التي لا علاقة لها باليوم الآخر، أما الإنفاق الاستثماري فهو أن تعمل عملاً في هذا الزّمن ينفَعُكَ بعد انقضاء الزّمن ! فالإيمان بالله تعالى ومعرفة منهجه، وطاعته، والعمل الصالح، والدّعوة إلى الله، و كلّ نشاط بشري يستمرّ أجرُه وفائدته بعد انْقِضاء الحياة يُعدّ استثماراً للزّمن، فلو أنّ الإنسان تنبّه إلى خطورة الزّمن لما نام الليل، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أنّ أبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّه عَنْهما قال: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا))

[رواه البخاري]

والإنسان دائماً يعدّ حياته بالطريقة التّصاعديّة، فيقول مثلاً: عمري خمسون عاماً، فلو أنّه قال: بقيَ لي عشر سنوات لانْخلعَ قلبهُ ! فكيف مضَتْ هذه الخمسون؟ وكيف مضَت الأربعون ؟ عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((أعْمَارُ أُمّتِي مَا بَيْنَ السّتّينَ إلَى السّبْعِينَ وَأقَلّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذلك))

[رواه الترمذي]

فكلّ إنسان عاقل يعدّ عمرهُ عدّاً تنازلياً، لا عدّاً تصاعديّاً، فيسأل هل بقِيَ بِقَدْر ما مضى ؟ فإذا أنت لم تدخل ساعة مغادرة الدنيا في حِساباتك اليوميّة فإنك لن تنجو لا من عذاب الدنيا ولا من عذاب الآخرة ! لقد ذكرتُ أنّ مرةً طالباً نال الدّرجة الأولى، فقيل له: بِمَ نِلْتَ هذا ؟ فقال: لأنّ لحظة الامتحان لم تُغادِر مخيّلتي ساعةً واحدة !!! والإنسان المؤمن لا تُغادر ذِهنَه إطلاقاً لحظةُ مُغادرته الدنيا، ووقُوفه بين يدي الله، وسؤاله عن كلّ أعماله، فهو دائِماً يسعى للآخرة، قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19))

[سورة الإسراء]

تصوّر مثلاً أنّ هناك شريطاً يمشي الناس عليه، وقد كنت تمشي على هذا الشريط، فلو نزلت لحظة لسبقك كلّ من عليه ! لأنّ الحركة مستمرّة، فينبغي عليك أن تتحرّك وأنت فوق هذا الشريط، لذا قال: (سابقوا) و(سارعوا): وهذا يعني أنّ الإنسان له عمر محدود، وهذا العمر ينقضي، فهناك حركة الليل والنهار، و حركة الأسابيع، والأعوام، وفجأةً يُغادر الإنسان الدنيا، فالزّمَن يمضي و مُضِيُّ الزّمن يستهلك الإنسان.

هناك آية أخرى تُفيدنا في فهْم هذه الآية، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللّهُ جَمِيعًا إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(148))

(سورة البقرة)

فأنت في الدنيا تتمتّع بمَا يُسَمّى الآن بحُريّة الاختيار، فالدنيا دار عمل ودار توبة ومغفرة، واصطلاح مع الله، وعمل صالح، أما إذا انقضَت فكلّ هذه الفُرَص أُغْلِقَت، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللّهُ جَمِيعًا إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(148))

[سورة البقرة]

أي: أينما تكونوا يلحقكم الموت !

قال تعالى:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا(78))

[سورة النساء]

الإنسان نقطة متحركة إلى هدف ثابت...

النِّهاية محدّدة، وأنت الآن مُتحرّك، أيْ: هناك نقطة تتحرك إلى هدف ثابت ! ومُضيّ الزّمن يُقرّب المسافة، فلو أنّ الإنسان ركب سيارته واتّجَهَ بها إلى حمص و نظر إلى حركة عقرب الثواني في ساعته لرأى أن كلّ حركة تدلّ على الاقتراب من حِمص ! فالنِّهاية ثابتة، ولكل إنسان أجل مسمّى لا يزيد ولا ينقص، والمسافة تتناقص إلى أن تصل إلى الصِّفر.

هناك وَهمٌ يدخل على بعض الشباب، فيقول: أنا لا زلتُ شابًا !! فنقول رداً عليه: هناك من يموت في الثلاثين أو في الخامسة والثلاثين، وهناك من يموت في العشرين، والأجل إذا جاء لا يعرف شابًا ولا طِفلاً ولا وليداً ولا شيخاً، قال تعالى:

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ(61))

[سورة النحل]

ويقول الله عز وجل:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(102))

[سورة آل عمران]

قد تقول: كيف يُخاطبني الله عز وجل ويقول لي: لا تمُت إلا وأنت مسلم ؟! الموت ليس بيدي ! إنه بيد الله عز وجل ! و الإجابة عن ذلك أنّ الموت ليس بيَدِ الإنسان، فهو يأتي فجأةً، فاحرَص على أن لا يأتِيَك الموت إلا وأنت مسلم، وكُن مستعِداً دائِماً لِلقاء الله عز وجل، فإذا جاء الموت فجأةً كنتَ مسلماً لله خاضِعاً لأمرِهِ، ومنقاداً لِمَنهجه.

فالسِّباق يعني أنّ هناك هدفاً ثابت يتحرك إليه الإنسان، لكن الناس اليوم يتسابقون لا إلى مغفرة و جنّة، لكنهم يتسابقون إلى الدنيا، وإلى جمع الدِّرْهم والدِّينار، قال تعالى:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

[سورة الزخرف]

يظل الإنسان يفكر في النموّ ومضاعفة الأرباح، ويظن هذا سِباقاً، ولكنه يُفاجأ بأنه سيخسر هذه الدنيا التي اكتسبها بجُهدٍ جهيد في ثانية واحدة، فالذي يضع آماله كلّها في الدنيا يُعدُّ مُقامِراً ! لأن الموت ينسف كلّ هذه الآمال، أما إذا تعامل مع الله وكان كسبه عملاً صالحاً، عندها تبدأ سعادته عند الموت،

والشيء الذي يبدأ بعد الموت هو الشيء الثّمين النفيس، أما الشيء الذي ينتهي مع الموت فهو الشيء التافه الخسيس، والعاقل من يعمل لما بعد الموت، و كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث))

فعندما تحدث عما بعد الموت غيّر الحديث عن مضيّ الزّمن والمسارعة والمسابقة، يقول الإمام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: **"الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما!"** فالإنسان عندما ينظر إلى صوره القديمة يرى الفرق واضِحاً في خطوط وجهه، وفي شَكل ملامِحِه، فمعنى ذلك أنّ الليل والنهار عملا فيك، فمن أجل أن لا تكون ضَحِيَّة مُضِيّ الزّمَن فاعْمَل فيهما العمل الصالح الذي ينفعُك بعد مضيّ الزّمن ! و هذا كلُّه في قوله تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

المغفرة والجنة هدفا الإنسان المؤمن:

إن الأهداف المشروعة التي أرادها الله لنا هي المغفرة والجنّة، فالمغفرة هي أن يشفى الإنسان من أمراضه الدُنيَويّة، فالإنسان رُكِّبَت فيه الشّهوات فإذا بَعُد عن منهج الله، وكان ضعيف الاتّصال به ولدت هذه الشّهوات عنده أمراضاً تحْجُبه عن الله تعالى، فالمؤمن يُسارع ويُسابق لِيَشفى منها، وهذه الأمراض لا تشفى إلا بطاعة الله تعالى والإقبال عليه، فالهدف الأوّل هو المغفرة، فالجنّة طيّبة لا يدخلها إلا طيّب، والله سبحانه وتعالى طيّب لا يقبل إلا طيّبًا، فأوّل عمليّة في الصُلح مع الله تعالى أن تشفى هذه النّفس من أمراضها، فهذا هو الهدف الكبير الذي ينبغي أن نسعى إليه، قال تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

فالمغفرة شِفاء وتَطهير، فهي تعالج كلّ الأمراض النّفسيّة التي تحجب الإنسان عن الله عز وجل وتجعله خاسراً بعد الموت.

أيها الإخوة الكرام.. إن أمراض الجسد تنتهي عند الموت، وأمراض النفس تبدأ بعد الموت، فمهما كان المرض عُضالاً فإنه ينتهي إذا مات صاحبه ! ولكنّ أمراض النّفس تبدأ عند الموت، فإذا كان الإنسان مستقيمًا ووقّافًا عند حدود الله تعالى يسعدُ سعادةً أبديّة، ومن كان عاصياً ومنافقاً، بدأ حسابه بعد الموت، لذا قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

[سورة الشعراء]

و قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133))

[سورة آل عمران]

"عرضها كعرض السماوات والأرض":

من أجل أن تعرف ماذا يعني قوله تعالى:

(عرضها كعرض السماء والأرض)

عليك أن تعلم أن المسافة بيننا و بين القمر تعدل ثانية ضَوْئيَّة واحدة ؛ أي: ثلاثمائة وستُّون ألف كيلومتر، و أن بيننا وبين الشّمس ثماني دقائق ؛ أي: مائة وستّة وخمسون كيلومتر، كما أن بيننا وبين نجم القطب أربعة آلاف سنة ضَوْئيَّة، وبيننا وبين مجرَّة المرأة المسلسلة مليون سنة ضوئيَّة، وبيننا وبين بعض المجرَّات أربعة وعشرين مليون سنة ضوْئيَّة، هذا كله و نحن لازلنا في الكون، والله تعالى قد قال:

(عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

و قال:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا(20))

[سورة الإنسان]

فهل يمكن لأحد أن يزهد في ِجَنَّة عرضها كعرض السماء والأرض ؟ ويجب على الإنسان أن يعرف أن هذه الجنَّة هي أعظم عطاءٍ على الإطلاق، فهي العطاء الأبدي السرْمدي، قال تعالى:

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48))

[سورة الحجر]

فقد يكون الإنسان في حالة جيّدة، ويقال عنه: إنه في قلق عميق ! فلا بد له من أن يترك هذا البيت ! ولا بدّ لأحد غيره أن يأخذه هذا المكتب الفخم ! أما هذه المركبة الفارغة فإنه لن يستطيع أن يتمتَّع بها إلى ما لانهاية، فكلّ شيء في هذه الدنيا مؤقّت، لذا نجد عند الإنسان قلق عميق، ناتج عن خوف الفناء لكنّ الإنسان إذا دخل لم يخرج منها الجنَّة، فقد قال الله تعالى:

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48))

[سورة الحجر]

فالبقاء في الجنَّة أبدي والسعادة فيه متنامية...

ثمن الجنة:

قال تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

وثمن هذه الجنّة يملكُهُ كلّ إنسان، فأنت إن آمنْتَ بالله تعالى خالقًا، ومُربّيًا، ومُسيّراً، وآمنتَ برُسله، وبما جاؤوا به من منهَج قويم ملكت ثمن الجنة، قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62))

[سورة يونس]

فالإيمان بالله والاستقامة على منهج، هما ثمن الجنّة، قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا(20))

[سورة الإنسان]

لقد زار أحد أصدقائي بلداً صِناعياً، فدعاهُ مُدير شرّكة هناك إلى بيته، فقال هذا الصديق: إن بيْتُهُ كان قصْراً في غابة، وهو ذو مساحته لا تُقدّر، وحوله بساتين، فإن كان الأمر هكذا في الدنيا فما بال الجنّة إذاً ؟! لقد أعدّ الله لنا ما عين رأتْ ولا أُذن سَمِعت، ولا خطر على قلب بشر، وهذه الجنّة العظيمة لا يزْهد بها إلا أحمق وغبيّ مُعطّل القلب، وهي ليْسَت لِفئةٍ محدودة، ولا لطبقة محدودة ولا لأناس لهم صفات محدودة، إنما أُعدّت كما قال تعالى:

(أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

(من يشاء): تُشير إلى الاختيار، فمن أراد الآخرة وسَعى لها سَعيَها وطلب رضاء الله ودفع ثمنه نال الجنة، و الله يؤتي فضل الله من يشاء ؛ أيّ: من يشاء الجنّة، وإن من تعرّف إلى الله عز وجل، وتعرّف إلى كتابه وسار على منهج الله تعالى وصَل إلى الجنّة، فَمِن رحمة هذا الدِّين أنه مَيسّر، فهو باستطاعة كل إنسان، والإنسان أحياناً قد يمضي وقته في كلام فارغ ولقاءات سخيفة، أفلا تستدعيه الجنّة ليحضر مجالس العلم كي تعرّف فيها إلى الله و كتابه وسنّة نبيّه، ويتعرف فيها إلى سِرّ وُجوده والحكمة منه، وإلى أثمن شيءٍ ينبغي أن يفعَلَهُ في هذا الوُجود، فَثَمَن الجنّة هو أن تعرف الله وأن تُطيعهُ، و كلنا يستطيع أن يكون صادقاً وأميًا، وعفيفاً، لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة]

كما أنه بإمكانك أن لا تشتري كثيراً من الأشياء التي تُبعِدُك عن الله تعالى، فهناك أشياء اقتنيتها جعلتك تسَهر إلى ما بعد منتصف الليل وأنت في المعاصي، أليس بإمكانك أن تمتنع عن المعصيَة ؟ فالجنّة ثمنها طاعة الله والاستقامة على أمره، وأن تتقرّب إليه بالعمل الصالح، وهذا مُتاحٌ لِكُلّ إنسان.

عدالة الله:

لولا أنّ الجنّة مُتاحة لكل إنسان لما كان الله تعالى عادِلاً ! قال تعالى:

(ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

قال عليه الصلاة والسلام:

((الناس سواسية كأسنان المشط! والخلق كلهم عِيال الله))

وهذه المبادئ تُلغي كلّ التّمييز الطّبقي والعنصري والفِئوي والعشائري، وهذا كلها تقسيمات شيطانيّة ما أنزل الله بها من سلطان.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَطبَ النّاسَ يَوْمَ فَتْح مَكّة فقَالَ:

((يَا أيُّهَا النّاسُ إنّ اللّهَ قدْ أذْهَبَ عَنْكُمْ عُبّيّة الْجَاهِلِيّةِ وَتَعَاظُمَهَا بآبَائِهَا فالنّاسُ رَجُلَان بَرّ تَقِيّ كَرِيمٌ عَلَى اللّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيّ هَيّنٌ عَلَى اللّهِ، وَالنّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، قالَ اللّهُ(يَا أيُّهَا النّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقَاكُمْ إنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))

[رواه الترمذي]

فهناك إنسان عرفَ الله ومنهجه، واستقام على منهج فاتّصَل به واكتسب الكمالات فسَعِد بما فعل، وآخر جهل هذه الحقيقة وانقطع عن الله عز وجل وأساء لِخَلق الله تعالى، وسقط من عَين الله ومن عين الناس، فشَقِيَ في الدنيا والآخرة، وهذا هو التقسيم الطبيعي.

((النّاسُ رَجُلَانِ بَرّ تَقِيّ كَرِيمٌ عَلَى اللّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيّ هَيّنٌ عَلَى اللّهِ وَالنّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ قالَ اللّهُ(يَا أيُّهَا النّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقَاكُمْ إنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)))

[رواه الترمذي]

والتقسيم القرآني تقسيم آخر، ففيه إنسان آمن بالله ورسله وأطاع الله تعالى، وإنسان كفر وتفلّت من منهج، و هناك إنسان رحماني، وآخر شيطاني، وإنسان مؤمن وآخر غير مؤمن، وإنسان مسيء، وآخر مُحسن، وإنسان مستقيم وآخر منحرف، وإنسان صادق وآخر كاذب، وهكذا...قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133))

[سورة آل عمران]

فالله يقول عن نفسه أنّه عظيم، وهذه الكلمة لا يمكن أن نعرف أبعادها إلا إذا تفضّل الله على إنسان ودخل الجنّة، قال تعالى:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(74))

[سورة الزمر]

فإذا أذن الله للمؤمن بدُخول الجنّة نشأت في نفسه من مشاعر الامتنان والحمد ما لا يوصَف، فلو كانت حياته كلّها عذاب لقال: لم أر شرًا قطّ ! أما الذي دخل النار فلو كانت حياته كلّها نعيم لقال: لم أر خيرًا قطّ ! فالخير الذي بعده النار ليس بخَير، والشرّ الذي بعده الجنّة ليس بشَرّ، وكلّ نعيم دون الجنّة حقير، وكلّ بلاء دون النار عافيَة، وإنّ أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وإنّ أشقاهم أرغبهم فيها !

حقيقة المصائب:

يقول الله عز وجل:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

المصيبة دائماً هي عِلاج إلهي، فما سُمِّيَت المصيبة مصيبةً إلا لأنّها تُصيب الهدف، فالذل مصيبة وهو إهانة للكِبر، و الإفقار مصيبة وهو إهانة للإسراف، و الخروج عن منهج الله مُصيبته هي دَفْعُ الثَّمَن الرادِع.

أيها الإخوة الأكارم، لا وُجود في الكون لشرّ مطلق، وكلّ ما يُسمّيه الإنسان شراً إنما هو شَرٌّ نِسْبيّ هَدَفُه المُعالجة.

قصة أصحاب الجنة:

أصحاب الجنّة الذين ورَدَتْ قِصّتهم في القرآن الكريم في سورة القلم، كان عندهم بساتين وثِمار يانعة وإنتاج وفير، فاتّفقوا على أن لا يُعطوا منها مسكيناً ولا فقيراً قال تعالى:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19))

[سورة القلم]

فلمّا انطلقوا لِيَحصدوا هذه الثِمار ويقطفوها قالوا: (إنّا لضالون)، فهذه ليْسَت بساتيننا ! ثمّ تأكّدوا منها فقالوا: (بل نحن محرومون !!) لقد أقسموا ليْصرمُنّها مصبحين، ولا يستثنون أحداً في العطاء، فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون، قال تعالى:

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(26)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(27)قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(28))

[سورة القلم]

أوسطهم ؛ أي: أقربهم لله تعالى، فقال: لو اتّصلتم بالله لشُفيتم من مرض الشحّ والبخل، ولأنفقتم بعض هذه الثِّمار للفقراء والمساكين، ولما تلفت هذه الثِّمار، قال تعالى:

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(29))

[سورة القلم]

و القصّة معروفة في كتاب الله ولكني ذكرتُها لكم لذكر هذه الآية:

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ(30)قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ(31)عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ(32)كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(33))

[سورة القلم]

أي كلّ أنواع العذابات في الدنيا من هذا النوع، فهناك مُصيبة تكون مُعالجة رادعة وهناك مصيبة كاشفة، كما أن هناك مصيبة رافعة، لذا قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

المصيبة هنا جاءت نكرة، وهذا التّنكير تنكير شُمول، وكلمة (مِن): تُفيد استغراق أفراد النّوع،أي: إن أيّة مصيبة ؛ صغيرة كانت أو كبيرة،جليلة أو حقيرة، مادّيّة أو معنويّة، جِسْمِيّة أو نفسيّة، ماليّة أو بدنيّة، ومهما يكن حجمها أو نوعها، ومهما تكن شِدّتها، هي علاج من الله تعالى، فالله تعالى قال:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

فإذا جفّت الينابيع مثلاً و ماتَتْ النباتات، و انْقرَضَت الحيوانات، و جفّت الأنهار، حدث الوباء، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(65))

[سورة الأنعام]

(من فوقكم): كالبراكين و الصواريخ، (من تحت أرجلكم): كالزلازل، (يلبسنا شيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض): إن وُحوش الأرض كلّها لا تُساوي وحْشيّة البشر، فوُحوش الأرض تفترس لِتَشْبع فإذا شبعَت كفّتْ عن الافتِراس، أما الإنسان فإذا كان جبّاراً في الأرض وبطّاشًا فإنه لا يرْتوي إلا بالدِّماء، لذا قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

أيُّ كتابٍ هذا ؟ قالوا: هذا كتاب العمل، و مِن باب التقريب والتّوضيح أود أن أضرب هذا المثل: إذا كان هناك طبيب وقف على سرير مريض فقرأ لائحة المرض، فرأى فيها أن الضّغط مرتفع جداً، فقرّر منْعَ نفسه عن المِلح، وربما رأى أن الضّغط منخفض جداً فيتناول ملحاً زائداً، و هذا القرار مَبنيّ على لائحة المرض، فكلّ إنسان له عند الله تعالى كتاب أعماله، فإذا كان هناك انحراف كانت هناك مصيبة رادِعة، وإذا كانت هناك استقامة كانت هناك مكافأة، وإذا كان هناك علوّ تأتي المصيبة لتُهين المتعالي، وإذا كان إسراف تأتي المصيبة لِتُفقِرَ المسرف... فيا أيها الإخوة، إن لكل شيء حقيقة، ولا يبلغ الإنسان حقيقة الإيمان حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه، فَكُلّ مصيبة تُصيبُ الإنسان لا بدّ أن تصيبهُ، فلا يوجد عند الله تعالى فجأة أو طيش أو خطأ، و أخطاء البشر تُوظّف في القضاء والقدر، قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

فقوله:

(نَبْرَأَهَا)

يعني أن هناك تقديراً حكيماً يسبق مجيء المصيبة، والإيمان بالقدر نِظام التوحيد كما أنه يُذْهب الهمّ والحزن، فالعشوائية غير موجودة، فسواء كانت المصيبة صغيرة أو كبيرة فلا بد أنها موجودة في كتاب أعمالنا، كما أنها متعلِّقة بأعمالنا، والإنسان أحياناً يكون جاهلياً فيقول: تطيّرنا ! فما هو التّطيّر ؟ هو أن تتشاءم من طَيرٍ طار على شِمالك، أو أن تتفاءَل من طائرٍ طار عن يمينك !! و هذه خرافة، إنّما طائركم عند الله ! فالإنسان يتشاءم إذا كان عمله سيّئاً، ويتفاءَل إذا كان عملهُ طيّباً، فمَبْعث التشاؤم التفاؤُل هو سوء العمل، أو حُسن العمل ! قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(51))

[سورة التوبة]

وقال تعالى:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(179))

[سورة آل عمران]

لذا قال تعالى

(إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

أي نخلقها، قال تعالى:

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

إنزال المصيبة أمر يسير على رحمة الله:

ونحن نؤمن قطعاً أن كل شيء يسير على الله، لكن المعنى هنا: أن إنزال هذه المصيبة شيء يسير على رحمة الله عز وجل ! فالأب الطبيب يُوافق على إجراء العمليّة الخطيرة مباشرةً، ولا يتردّد في ذلك، فأحياناً يُوافق على بتر يد ابنه في أقصر وقت، فالرّحمة مع العِلم تقتضي المُعالجة، أما الرحمة من دون علم فتقتضي الشّفقَة الحمقاء ! فلو ترك الله الشارد اللاهي المنغمس في المحرّمات على شروده لهلك ودخل النار، فيُنْزل ربُنا به عقوبة رادعة، وقد تكون قويّة طاحنة ومؤلمة، فتحدث هذه المصيبة له من أجل أن يرجع إلى الله ويستقيم على أمره و ينتهي عن اقْتِراف الذُنوب والآثام والمعاصي، لذا قال تعالى:

(لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[سورة الحديد]

لا تقل: لو، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تقل: لو أنني فعلت كذا وكذا))

واستثنى العلماء لو الإيجابيّة كأن تقول: لو لم آكل هذا المال الحرام ما تلف مالي ! أو تقول: لو لم أنحرف عن منهج الله لما خسرتُ كذا وكذا ! فالمؤمن يؤمن أنّ كلّ شيء بقَضاء وقدر من الله عز وجل، فلا ييئَس على ما فات، ولا يفرح بما هو آت ! لأنّ الذي فات لا بدّ أن يفوت عند الموت، أما الذي هو آت فلن يستمرّ إلا إلى حين، لهذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((من عرفها لم يفرح لِرَخاء، ولم يحْزن لِشَقاء))

فكلاهما مؤقّت، فالموت يُنهي كلّ شيء، فهو يُنهي غِنى الغنيّ وفقر الفقير، وقوّة القويّ، وضَعف الضعيف، وصِحّة الصحيح ومرض المريض، لذا قال تعالى:

(لا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)

وشُعور الإنسان أن الدنيا ستَمضي، وأن العبرة في الآخرة شُعور مُريح يمْتصّ كلّ متاعب الحياة، فقد حدّثني صديق لي يعمل قاضياً فقال: هناك عشرات الدّعاوى بل مئات تُشْطب لِمَوت أحد الخصْمين !!

المختال الفخور:

قال تعالى:

(وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[سورة الحديد]

فالمختال جاهل، والمفتخر بما ليس له أجْهل، والمختال هو الذي يزْهو بمَا عنده، وينسى فضل الله عليه، فعلى الإنسان أن يحمد الله على النِّعمة، والمؤمن دائماً ينتقل من النِّعمة إلى المنْعِم، أما غيره فيقف عند النِّعمة ويزْهو ويفتخر بها على الناس، قال تعالى:

(وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[سورة الحديد]

فهؤلاء المختالون يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، وإن نفسُ المؤمن مَبنيَّة على العطاء، والبخل يتناقض مع الإيمان، وهما لا يجتمعان في الإنسان إطلاقاً، فهذا الذي يبْخل لا يعرف ما عند الله تعالى من خَيرات، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21))

[سورة الحجر]

كمية الحديد في الأرض:

في الدرس القادم إن شاء الله سنَصِل إلى موضوع متعلِّق بالحديد، ولكني سأتعجل في ذكر أمر حول موضوع الحديد، ففي عام ألف وتسعمائة وعشرة عُقِدَ مؤتمر لِدِراسة مخزون الحديد في الأرض، فَشُكِّلَت لِجانٌ، ودرسَت كلّ أماكن التّعدين في الأرض خِلال أشهر، فصدر تَقرير من المؤتمر يقول: إن مخزون الحديد في الأرض يكفي سِتِّين عاماً ! ثمّ اكْتُشِفَ أنّ كميَّة الحديد في الأرض تُساوي خمساً بالمائة من وزْن القِشرة الأرضِيَّة ؛ أي: خمسة وسبعين ألف مليون مليون طنّ !! قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21))

[سورة الحجر]

فالكلام عن نفاذ المعادن أو غيرها كلام مضحِك، فالله تعالى عنده تقنين تأديب، أما الإنسان فعنده تقنين نقص، قال تعالى:

(وَلَوْ بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(27))

[سورة الشورى]

فالإنسان إذا قنّن كان تقنينه تقنين عَجز، و الذين يبخلون لا يرَون ما عند الله من خيرات قال لي شَخص مرة: نحن على وشَك جفاف مهْلك في حوض دمشق ! و في العام التالي هطل ثلاثمائة وخمسون مليمتراً من الأمطار!! فالمؤتمرات واللِّجان كلّها كلام ! وليس كل ما يُقال يُصَدّق، فالذي خلق هذا الإنسان خلق له طعام، والأصل طاعة الله تعالى، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

[سورة الأعراف]

والإنسان إذا أقبل على الله تعالى كان هذا الإقبال لِصالحه، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ(46))

[سورة فصلت]

في درس قادم نتابع الآيات، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إنّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحديد]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 25-27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-05-03

بسم الله الرحمن الرحيم

شرائع الرسل، ومنافع الحديد

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الحديد، ومع الآية الخامسة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحديد]

البينات:

أيها الإخوة الكرام.. إن الحديث عن رُسل الله صَلَوات الله عليهم، جاء بصِيغة الجمع، وصيغة الجمع تعني أنّ هؤلاء الرُسل الكرام على اخْتِلاف عُصورهم واختلاف أقوامهم يأتون برِسالة واحدة، قال تعالى:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا)

[سورة الحديد]

فمِن حق العباد على ربهم أن يُنَبِّهَهُم و يُحذِّرهم و يُرْشِدهم، فالله سبحانه وتعالى أرْسَل الأنبياء والمرسلين لِيَكونوا هداةً إلى الله عز وجل، ولا شكّ أنّ الدِّين السَّماوي فيه منهَج وفيه أمر ونهي، والإنسان قد يَعْجب من كثرة أتباع هذه الأديان الوَضْعِيَّة التي هي مِن صُنع البشَر، فهناك أُناسٌ يعبدون البقر! وأناس يعبدون الموج ! وأُناس يعبدون الشمس ! وآخرون يعبدون القمر والنار !! فما سِرُّ كَثْرة أتباع هذه الأديان ؟ السرّ بسيط جداً، وهو أنّ هذه الدِّيانات ليس لها منهَج، بل فيها: اِفْعَل ما شئْت ! ولكن أعْلِن ولاءك لهذا الدِّين، وانتهى الأمر بعد ذلك، فلا يوجد لديهم تكاليف، لكنّ الأنبياء والرُسُل حينما يأتون برِسالة من عند الله ؛ فإن مِن لوازم هذه الرّسالة التكاليف، وكلمة تكليف تعني أنّه شيءٌ ذو كُلفة، فهناك أمر بالصِّدْق والأمانة والاستقامة، والوفاء بالعَهد، وإنجازهُ، وأمر بحُسن الجِوار، والكف عن المحارم والدِّماء، فقد قال سيّدنا جعفر: **" كنا قوما أهل جاهلية....حتّى بعث الله فينا...."** فحينما يُرسل رسول من عند الله تعالى يأتي ومعه منهج ؛ و هذا المنهج فيه أمْرٌ ونَهْي، وهذا الأمر والنّهي يُقيّدُ حُريَّة الإنسان، وهو ضمانٌ لِسَلامته، ولكنّ الكافر لا يرى هذه السّلامة، بل يرى في الأمر الإلهي تَقييدًا لِحُريّتِهِ، لذلك كان ردّ الفِعل الطبيعي للإنسان المُتفلِّت الشّهواني المُقيم على مباهج الدنيا إذا جاءَتْهُ رِسالة سَمَاوِيَّة أن يقول لهذا الذي جاءهُ: أنت كاذِب !!.

ولا بدَّ مِن أن يؤيّد الله رُسلَهُ بالبيّنات، فحينما يقول موسى عليه السّلام لقومه: **أنا رسول الله**، كَذّبوه، فأعطاه الله معجزات، منها أنه إذا أمْسَكَ بالعصا كانت ثعباناً ! كما أنه كان يُخرج يده من تحت إبطِهِ فإذا بيضاء للناظرين ! أما سيدنا عيسى فقد كان يحْيي الموتى بإذن الله، ويبْرأ الأكمَه والأبرص بإذْن الله، وسيّدنا إبراهيم ألقِيَ في النار فكانت برْداً وسلاماً عليه !! و البيّنات هي المعجزات، وهي شيء خارقٌ للعادات، لا يستطيعهُ إلا ربّ الأرض والسماوات، فإذا قال إنسان: أنا رسول الله، فالأصل أن تكون لديه معجزة، إلا أنّ معجزات الأنبياء السابقين كانت مُعْجزات حِسيَّة، فهي كَعُود الثِقاب يشتعل فيتألق ثمّ ينطفئ !! ثم يُصبح خبراً يُصَدِّقُهُ مَن يُصدِّقه، ويُكَذِّبُهُ من يُكَذِّبُه، إلا أنّ معجزة النبي عليه الصلاة والسلام معجزةٌ عَقليّة بيانيّة، فليس لها عُمر، وهي قائمة إلى يوم القيامة، فكّما تقدّم العِلم كشَف عن جانب من جوانب هذا القرآن العظيم، لذا كان معنى قوله تعالى:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ)

[سورة الحديد]

إعجاز القرآن:

(البينات): هي المعجزات التي تُبيّن للناس أنّ هذا الإنسان رسول الله، والنبي عليه الصلاة والسلام جاء بكتابٍ تحدّى الله به العرب جميعاً، فما استطاعوا أن يأتوا بمِثله ولا بسُورة منه ولا بعَشر آيات فقط! فالبرهان القوي على أنّ هذا القرآن هو كلام الله هو إعجازه، ففيه الإعجاز العلمي، والإعجاز التربوي، والإعجاز البياني والتشريعي والإخباري، ومثال الإعجاز الإخباري هو قول الله تعالى:

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3))

[سورة الروم]

والإعجاز الإخباري أنواع ثلاثة: إخبار الماضي وإخبار الحاضر وإخبار المستقبل، وهذا موضوع طويل ولا مجال للتّوسُّع فيه، قال تعالى:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ)

[سورة الحديد]

البيّنات: هي الأدلّة الواضحة على أنّ هؤلاء رُسُل من عند الله عز وجل، قال تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(39))

[سورة يونس]

لقد قال العلماء قولاً رائعاً في تفسيرهم لكلمة (التأويل)، وهو: أن تأويل القرآن الكريم إنما هو وُقوعُ وَعْدِه ووعيده، والله عز وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل]

فالشاب المؤمن الذي يصطلح مع الله يستقيم على أمره يذوق الحياة الطيّبة، فالحياة الطيّبة هي بيّنة من الله عز وجل لهذا المؤمن تثبت له أنّ هذا القرآن كلامه، أما حينما يُعرض الإنسان عن الله عز وجل إعراضاً شديداً، ويتفلّت من منهجه، فإن له المعيشة الضّنك، وهذا أيضاً هو بيّنة من الله لهذا الإنسان على أنّ هذا القرآن كلامه، فلو أنّ طالباً دخل إلى قاعة التّدريس فرأى جملة مكتوبة على السبورة تقول: يوجد في الساعة الأولى من يوم الأحد مذاكرة ! فيتساءل: يا تُرى هل هذا الكلام هو كلام الأستاذ أم أن طالباً كتبه ؟! وما الذي يؤكِّد أنّ هذا الكلام كلام أستاذ الرياضيات ؟ فإذا جاء يوم الأحد و دخل أستاذ الرياضيات في الساعة الأولى وقال: افتحوا أوراق الامتحان كما ذُكِر ! فهذا يؤكِّد أنّ هذا الذي كتب العبارة على السبورة هو أستاذ المادة، كذلك كانت كلّ للأحداث الواقعة مطابقة لما في كتاب الله تعالى، فلو أنّ أحداً سأل نفسَه: ما الذي يؤكِّد لي أنّ هذا القرآن كلام الله ؟ نقول له: تحرّك في الحياة كيفما تريد، تجدْ أنّ أحكام الله وأفعاله تزيدك إيمانًا بهذا القرآن الكريم، فلو أنّ أحدهم تتبّع سلوك إنسان مؤمن، وسلوك شاب آخر متفلِّت، لوجد المؤمن موفّقاً وسعيداً ومتوازناً ومطمئناً وراضِياً بما قسمه الله له، فالمؤمن يُدافع عنه الله تعالى، فله منه التأييد والنصْر والتطمين ؛ و هذا كلّه يلمسُهُ المؤمن لمْس اليد، فهو حينما يقرأ الآية الكريمة يصدِّقها، لأنّ الله سبحانه وتعالى بيّن لهذا الإنسان أنّ القرآن كلامه، فالله تعالى قد توعّد المرابي مثلاً بالمحق، فقال:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(276))

(سورة البقرة)

فتَدمير مال المُرابي هو بيّنة من عند الله عز وجل لقارئ القرآن تثبت أنّ هذا القرآن كلام الله تعالى، وهناك نقطة مهمّة جداً، وهي أنّ كلّ أفعال الله تُطابِقُ كلامه، ومطابقة أفعال الله لِكَلام الله تعالى هو أكبر دليل على أنّ هذا القرآن كلام الله عز وجل، فالله تعالى يقول:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ)

[سورة الحديد]

والبيّنات مستمرّة، فالأنبياء السابقون جاؤوا بالمعجزات الحِسيَّة، والنبي عليه الصلاة والسلام جاء بهذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أمثلة من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

لقد قال الإمام عليّ كرّم الله وجهه:**إن في القرآن آياتٍ لمّا تُؤوّل بعد !**

" والسماء ذات الرجع ":

لقد اتّضَح الآن أنّ الكون كلّه عبارة عن مجرّات فيها كواكب ونجوم تدور حول بعضها، وربُّنا عز وجل قد قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11))

[سورة الطارق]

لقد أُحْدث تفسير لِهذه الآية يقول: إنّ كلّ كوكب في الكون يدور في مسار مُغلق بحيث يرْجع إلى مكان انْطِلاقه ! وقد اتَّضَح أنّ كلّ شيءٍ في الكون مؤلّف من ذرات، وهذه الذرات تحوي كهارب تدور حول نويّات بدءاً من الذرّة وانتهاء بالمجرّة !! قال تعالى:

(كلّ في فلك يسبحون)

[سورة يس]

النطفة هي التي تحدد نوع الجنين:

وقال:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

[سورة النجم]

لقد اتَّضَح الآن أنّ نوع الجنين لا تُحدِّدُهُ البُوَيْضة بل يُحدِّدُه الحُوَين المنَوي ! ولو أنك تتبَّعْت آيات القرآن الكريم لوجَدت أن كلّ هذه الآيات تتوافقُ توافقاً رائِعاً مع مُعطيات العِلم، على الرغم من أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن فيه هذا التَّفوّق العلمي.

الذبح الإسلامي:

لقد ذكرتُ مرّة أنّ النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نذبَح الذّبيحة من أوداجها فقط دون قطْع رأسها!! وعصْرُ النبي عليه الصلاة والسلام لايسْمح بِتَفسير هذا الحديث !! فماذا يحدث لو أننا قَطَعنا رأس الدابة كما تفعل بعض المسالخ في البلاد الأوروبيّة،حيث تُعلّق الدواب وتُقْطعُ رؤوسها كليًا ؟! لقد اكْتُشِفَ الآن أنّ القلب يتلقّى أمر ضَرباته النِّظاميَّة من مراكز كهربائيّة في القلب ذاته، والله عز وجل أوْدَعَ في القلب ثلاثة مراكز كهربائيّة وذلك لِحِكْمةٍ بالغة، فلو تعطّل الأوّل لَعمِل الثاني ولو تعطّل الثاني لَعَمِل الثالث ! إلا أنّ هذه المراكز لا تعطي الأمر إلا بالضربات النِّظاميَّة، وهناك ثمانون ضربة في الدقيقة، فإذا واجَهَ الإنسان عَدُواً أو بذل جُهداً لاحتاج إلى دم أكثر يجري في عضلاته، فهذه المِضَّخة تعمل بشكل أكبر في هذه الحالة، فعندئذٍ يأتي أمر إلى القلب عن طريق الدِّماغ برَفْع ضرباته إلى المائة والثمانين ضربة ! وهذه الضربات السَّريعة يمكن أن تُفْرِغَ الدم كلّه من الذّبيحة، فالإنسان إذا قَطَع رأس الذبيحة عطّل هذا الأمر الاستثنائي، فضربات القلب النِّظاميَّة لا تكفي لإخراج دم الذّبيحة إلى خارج الذّبيحة، أما إذا أبقى رأسَهاً مُعَلّقًا فإن هناك أمراً استثنائياً يأتي فيرفع النَّبضات إلى مائة وثمانين ضربة، بحيث تكون مهمّة القلب بعد الذّبح إخراج الدّم كلّه إلى خارج الذّبيحة ! يقول الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ

يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(3))

[سورة المائدة]

وحينما أطعموا الأبقار في بريطانيا لُحوم الجِيَف والدِّماء المُجَفَّفة، أُصيب البقر هناك بمَرض جنون البقر، وهذا المرض اقتضى منهم أن يقتلوا أحد عشر مليون بقرة قيمتها ثلاثة وثلاثون مليار جُنَيه إسترليني ! وذلك لأنَّهم خالفوا منهَج الله عز وجل فقط، فهذه تعليمات الصانع فلا يجوز مخالفتها.

العلاقة بين الأمر الإلهي ونتائجه علاقة علمية:

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يُمَكِّنني من توضيح هذه الفِكرة التي تقول...

إن العلاقة بين الأمر الإلهي ونتائجه علاقة عِلميَّة، وهي علاقة سبب بنَتيجة، فأحياناً يقول الأب لابنه: اِجْلس هنا ! فيجلس الابن لِسَبب أو لآخر في مكان آخر فيبدو متحدياً لوالده، فيؤدِّب الأب هذا الابن فيضْرِبُهُ، فهل هناك من علاقة بين الضَّرب الذي تلقَّاهُ وبين مقعدٍ صُنِعَ لِيُجْلسَ عليه ! إن العلاقة وضعها الأب، ونقول: هناك علاقة وَضْعِيَّة، فالأب رأى أنَّ هذا السُّلوك يُنافي أدَب الابن مع أبيه فضَرَبَهُ، وفي الحقيقة لا توجد هناك علاقة بين الجلوس والضَّرب ! فالعلاقة ليْسَت عِلمِيَّة ولكن هي وَضْعِيَّة، أما إذا قال الأب لابنه: لا تلْمِس المدفأة وهي مشْتعلة ! فلمسها هذا الابن فاحْترقَتْ يدُهُ، فهنا نقول: هناك علاقة عِلمِيَّة بين نَهي الأب والنتيجة التي آل إليها الابن، فالعلاقة بين اللَّمس والاحتراق علاقة عِلمِيَّة.

أيها الإخوة، حينما نؤمن أنَّ العلاقة بين أمْر الله ونتائِجِه علاقة عِلمِيَّة نكون قد فقهْنا وفهمنا أن الدِّين ضمان لِسَلامتنا، وليس حدًّا لِحُريَّتنا، فحينما يحمل عمود كهربائي تياراً كهربائيّاً عالي التَّوتر يُكتب عليه: ممنوع الاقتراب، فثمة خطر ! فإذا قال المواطن: سأصعد هذا العمود بشرط أن لا يراني أحد، كي لا تُكتب عليّ مخالفة !! نقول له: أنت لا تفقه شيئاً، فالتيار نفسُه هو الذي يصعقك ! فهذه علاقة عِلمِيَّة، وأنت حينما تقْتَنِع أنَّ هناك علاقة بين المعصِيَة ونتائجها لا ترى الدِّين تقييدًا لِحُريَّتِك و انطِلاقك، بل تراه ضمانًا لِسَلامتك، فالإنسان حينما يفْقهُ هذا الدِّين ينطلق إلى تطبيقه بدافِعٍ مِن حُبِّه لِذاته، فَمَن مِنَّا يتمنَّى الهلاك ؟ و الشَّقاء والمرض والذلّ ؟ إن الإنسان مفطور على حُبِّ ذاته، ووُجودِهِ، وسلامة وُجودِهِ، واستمرار وُجوده وكمال وُجوده، وهذا لا يتحقَّق إلا بطاعة الله عز وجل، لأنَّه هو الخبير، فهناك أمراض كثيرة يُعاني منها المُجتمع الدَّولي ؛ كمرض الإيدْز مثلاً، ففي كلّ عشرة ثوان يموت إنسان بالإيدز، فما هو هذا المرض ؟ إنه عِقابٌ إلهي على مُخالفة منهَجِهِ، فالله عز وجل خلَقَ الذَّكَر والأنثى، وجَعَل الأنثى مُهيَّأة للذَّكَر، وجَعَل الذَّكر مُتكامِلاً مع الأنثى، فالإنسان حينما اتَّجَهَ إلى جِنْسٍ مثْلِهِ، مُخالفاً بذلك الفِطرة التي فُطِر الإنسان بها كان مرض الإيدز عقوبةً له ! فالله تعالى يقول:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ)

[سورة الحديد]

إن العقل يبحث عن الخالق، وهذه هِيَ مُهِمَّة العَقل، يقول الله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(4))

(سورة السجدة)

ويقول العقل لك لماذا خُلِقنا، فيقول الله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56))

[سورة الذاريات]

ويقول لك: ماذا بعد الموت ؟ فيقول تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83))

[سورة القصص]

فالكتاب يُوضِّح تصوُّرات دقيقة عن الكون الإنسان و الحياة، ويبين لك مَّا ينفعك وما يضرّك، ومَّا يُسْعِدُك وما يُشْقيك، ومَّا يضْمنُ سلامتك، و هذا الكتاب هو القرآن الكريم، وقد أرسل الله الرُّسل، ومعهم أدِلَّة على رسالتهم وهي المعجزات والبيّنات، قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ)

[سورة الحديد]

لماذا أنزل الله الميزان ؟؟

إن الناس حين يتحرّكون ويتعايشُون، تتداخَلُ مصالِحُهم، فحتى لا يختَصِموا ويتنازعوا، و يعتدي بعضهم على بعض أنزل الله مع الكتاب الميزان، والميزان هو الشّرع، والشّرع يعني أن كلّ يقف إنسانٍ عند حدِّه، فقد قال بعض العلماء: **"الشريعة عَدلٌ كلُّها، ورحمة كلُّها ومصلحة كلّها "**، فمصالحك كلها تتحقق بتَطبيق الشريعة، فهي ميزان وقوانين، وذلك كأحكام الزّواج والطلاق، وأحكام البيع والشّراء والإيجار والوديعة و الأمانة والعارية، وأحكام القرض والمضاربة والمزارعة، فكلّ نشاطات الإنسان مقننة في الشّرْع، فلو طُبّق الشّرْع لأغلقَت المحاكم أبوابها ! فما من قضيّة تُرْفع إلى القضاء إلا بسبب مخالفة منهج الله عز وجل، فالإنسان الذي يأخذ ما ليس له يحتاج إلى أن يُشتكى عليه، أما الوقّاف عند حُدود الله تعالى فلا يحتاج إلى أن يُشتكى عليه،لأنّه يعرف ما له وما عليه، والله تعالى قال:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)

[سورة الحديد]

فإذا خطبَ الشاب فتاةً و جرى عَقدٌ بينهما ثم فُسخ هذا العقد، فإن كان الرجل هو الذي أراد أن يفْسَخَ هذا العقد فعليه نصف المهر إن لم يدخل، كما أن عليه كامل المهر إن دخَل، أما إن كانت هي من أراد

فسخ هذا الزواج فليس لها شيء، كما له أن يسْتردّ كلّ شيء قدّمه لها، وهناك تفاصيل يُسمُّونها كتُب الفروع وهي دقيقة جداً، فلمّا وصل نابليون إلى مصْر أخذ الفقه الحنفي وترْجمه إلى الفرنْسيّة، فأصبح القانون الفرنسي مأخوذاً في معظَمِهِ من الفقه الحنفي !! فالشّرع ميزان بين الزّوجين، وميزان بين الجارين، وميزان بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والطبيب والمريض، والبائع والشاري، فالإنسان إن ترك هذا الميزان هلكَ، وإن طبّق شريعة الله عز وجل فهو في سَلام وأمان، قال تعالى:

(يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

[سورة المائدة]

فهؤلاء الرُّسل جميعًا أُرسلوا بالبيّنات وبما يؤكِّد أنّهم أنبياء ورسل، وأنزل الله معهم الكتاب الذي يُوضِّح حقيقة الوُجود، وغاية الإنسان، وحقيقة الدنيا والآخرة، وسبب السعادة، و هذا كلّه لِيَقوم الناس بالقِسط.

" وأنزلنا الحديد ":

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ)

[سورة الحديد]

ما علاقة الحديد بالميزان ؟

إن الإنسان إذا رأى نبيَّ الله، أو استمعُ إلى حديثه الذي جاء فيه بالبيّنات، أو قرأ كتاب الله عز وجل – وكتاب الله فيه سِرُّ الوجود وغاية الوُجود وطريق السعادة والسلامة فإنه سيطبق الميزان و الشريعة الإلهية في حركته اليومية مع بني جِنسِهِ، فإن لم يخْضَع لهذا الأمر الإلهي ولم يرْتَدِع به، كان لا بد من وجود من يرْدعُهُ (إنّ الله ينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن!).

أما الحديد: فقد ذَكَرْتُ لكم في الدرس الماضي أنّ مؤتمراً لِدِراسة مخزون الحديد في الأرض عُقِدَ في عام ألف وتسعمائة وعشرة، فَشُكِّلَت لِجانٌ لذلك، فدرسَت كلّ أماكن التّعدين في الأرض خِلال أشهر، وعادت بِتَقرير إلى هذا المؤتمر يقول: إن مخزون الحديد في الأرض يكفي سِتِّين عاماً ! ثمّ اكْتُشِفَ أنّ كميّة الحديد في الأرض تُساوي خمساً بالمائة من وزْن القِشرة الأرضِيّة ؛ أي: خمساً وسبعين ألف مليون مليون طنّ !! قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21))

[سورة الحجر]

فيجب علينا ألا نُصدِّق كل شيء يُقال لنا ! فهناك من يقول: سوف يحدث الجفاف، فإذا بالمطر ينهمر فيُفجِّر الينابيع، و أنا أذكر أنّ الله أكرمنا في بلدنا هذا بِثَلاثة ملايين طن قمحاً، واستهلاكنا منه مليون طن فقط، فَنَظرِيَّة الانفجار السُّكاني وقِلّة الموارد، وقلّة المياه ؛ هي نظريّات ما أنزل الله بها من

سلطان، ولكنّ الله تعالى يُقنِّن، وتقنين الله تقنين تأديب، ولكنّ الإنسان إذا قنَّن فإنَّه يُقَنِّن تقنين عَجْز، وشتان بين التَّقنينَين.

الحديد مادة أساسية في الحياة:

الحديد في جسم الإنسان..

يحوي جسم الإنسان ثلاثة غرامات من الحديد، وهي تساوي خمساً من مائة ألف مِن وزنه ! ولولا هذه الغرامات الثلاثة لَهَلك الإنسان، وهذا الحديد طبعاً يدخل في الهيموغلوبين ! والهيموغلوبين موجود في الكريَّة الحمراء، وهي المادَّة التي تحمل الأكسجين من الرّئتين إلى الخلايا، ولولاها لمات الإنسان، و تُنْتِجُ معامل الكريات الدَّم الحمراء اثنين ونصف مليون كريَّة في الثانية الواحدة، كما يموت في الثانية الواحدة العدد نفسه، و هذه الكريات تموت لِحِكمة بالغةٍ أرادها الله تعالى، فهي لا تُطرَحُ خارج الجسم بل يُذْهب بها إلى مقبرة، وهذه المقبرة هي الطِّحال ! فهي تُحلِّل، ثم يؤخَذُ الحديد منها، ويُرْسَلُ إلى نقي العِظام وهو معمِل الكريات الحمراء، بينما يُنقل الهيموغلوبين إلى الكبد لِيُكَوِّن الصفراء، فالصَّفراء من كريات الدَّم الميّتة، والإنسان من دون حديد يموت، و أعراض نقص الحديد عند الإنسان هي التَّعَب والإرهاق والإنهاك والأوجاع في الرأس.

الحديد في يخضور النباتات ودماء الحيوانات:

أيها الإخوة.. النباتات كلُّها تحوي الحديد، فإذا اصْفرَّ النبات دلّ ذلك على نقص الحديد فيه، والحديد يدخل في المادَّة الخضراء (اليَخضور)، وهي المادة الأساسيَّة في الورقة، فلا يوجد مُزارِع إلا وهو في أمسّ الحاجة لإعطاء نباته مركَّبات الحديد، وإن لم يفعل اصْفرّ النبات ومات، كما أن الحديد يدخل في تركيب دماء الحيوان أيضاً، فهناك من الديدان ما له دَمُ أخْضر، ورغم ذلك يوجد فيه الحديد، و هناك من الأسماك ما هو شفَّاف كالماء، ومع ذلك يوجد فيه حديد، فالحديد يدخل في تركيب الدِّماء كلِّها، وفي تركيب الأوراق كلِّها، فهو مادَّة أساسيَّة في الحياة.

وإن أكثر الخضراوات يحوي الحديد، والتُّفاح غنيّ بالحديد كذلك، فلو قَطَعتَ تُفاحَّة ثم تركتها في الهواء لاسودّت ؛ وذلك بسبب تأكْسَدَ حديدها مع الهواء، والحديد في الآية مقْصود منه السِّلاح ! و الله عز وجل ينَزَعُ بالسُّلطان ما لا ينزعُهُ بالقرآن، قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة الحديد]

منافع الحديد:

أما المنافع فهي كثيرة،فلا يكاد يوجد حِرفة ولا مصلحة في الأرض إلا وأدواتها مصنوعة من الحديد ؛ بدءاً بأدوات المزارع الذي يحفر الأرض، وانتهاء بأدوات جرّاح القلب، قال الله تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة الحديد]

استخدام الحديد:

يستخدم الحديد بِنِسبة: ستّ وتسعين بالمائة من استخدام المعادن ! و هناك نباتات بحْريَّة تستْهلِكُ من الحديد ما يوازي تقريبًا نصف مليار طنّ ! وهو يعادل ما تنتجه مناجم الحديد في العالم، لذلك تُعد العوالق البحريَّة أسمِدةً رائعة للنباتات !

النيازك والحديد:

إن تسعين بالمائة من وزن النيازك التي تنزل على الأرض هو من الحديد، ولعلّ هذا النزول من السماء إلى الأرض أُشير إليه في هذه الآية، قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة الحديد]

يقال: إن هناك نيزكاً نزل منه سِتّون طنّاً من الحديد، وقد ترك هذا النيزك حفرة قطرها ألف ومائتان متر، وعُمقها مائتان متر !! فلعلّ الإنزال المُشار إليه في هذه الآية هو بهذا المعنى ! لكن.. دون أن نقطع بهذا المعنى !! فالحديد كما قلنا هو السِّلاح والإنسان حينما يأبى أن يخضع لِمنهج الله، فإنّ الله ينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن، والحديد فيه منافع للناس كذلك.

نصرة الله ورسوله:

قال تعالى:

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحديد]

حينما دعا النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه إلى معركة بدر ومعركة أحُد انطلق أكثرهم مع رسول الله، و كان هناك من تقاعس وتقاعد، فامتحنهم الله سبحانه وتعالى لِيَعلم الذين نصروا رسوله والذين خذلوه، و الحقيقة أنّ الله تعالى لا يحتاج إلى من ينصره، ولكنّك إن نصَرْت دينه أيّدك الله ونصرَك وحَفظك، وأنت حينما تُطبّق منهج الله عز وجل تكون ناصراً لله، وحينما تأتَمِر بما أمرَ الله تعالى وتنتهي عمّا نهى عنه تنصره أيضاً، فَنُصْرة الله تأتي من تطبيق الدِّين، فلو طبّق التُّجار منهج الله في البيع والشِّراء لَكُنّا في حالٍ غير هذا الحال، ولو أنّهم قَنِعوا وأخلصوا، ونصحوا، وابتَعَدوا عن الغشّ، لكانت أفعالهم هذه نصْرٌ لِدِين الله، فقد ورد أنّ أطْيَب الكَسْب كسب التُّجار الذين إذا حدّثوا لم يَكذبوا، وإذا وعَدوا لم يُخلفوا، وإذا ائتُمنوا لم يخونوا، وإذا اشْتروَا لم يذُمُّوا، وإذا باعوا لم يُطروا، وإذا كان لهم لم يُعسِّروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا ! فالإنسان بِتَطبيق منهج الله تعالى ينصر الله تعالى، والله ليس بحاجة إلى أن تنصره، ولكن الحق يتَّسِعُ بِنُصرة الدِّين، وإذا اتسَع الحق عاشت الإنسان حياة سعيدة، فإن

أنت نصرت الحق انْكمَشَ الباطل، وكنت أوّل الرابحين فتسعد بذلك، ونحن الآن نُلاحظ في دِمشق ملاحظة غريبة، وهي أن هناك محلاّت تِجاريّة كثيرة يذهب أصحابها إلى الصلاة دون أن تُغلق أبوابها أثناء الصلاة، وهذا من آثار الدِّين، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81))

[سورة الأنعام]

فلو ربّى الإنسان أولاده تربيَةً صالحة لقطف ثِمار هذه التربية، ولو أنك أحسنت لِجارِكَ لقَطَفْت ثِمار هذا الإحسان، ولو اخترْتَ زوْجةً صالحة لقطَفْتَ ثِمار اختيارك، ولو ابتعدت عن الربا وأدّيت الزكاة لحصّنت مالك ! قال تعالى:

(إِنْ تَنصُرُوا اللّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(7))

[سورة محمد]

و نصر الله يكون بتطبيق منهجه وشريعته، وأنت الرابح من تطبيق لِدِين الله.

كتب لي أحدهم _لا أدري من هو_ رسالة يقول فيها: إنّي أدّيْتُ لِوَرثةٍ مبلغاً فلكياً، وهؤلاء الورثة ليس عندهم أيّ دليل على إرثهم، ولا حتى ورقة إثبات ! وهذا من آثار الدِّين أيضاً، فحين يُطبّق الدين يفوز المؤمنون ويسعدون، قال تعالى:

(وَلِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحديد]

وبمُجرّد تأدية الصلاة تكون قد نصرت الدِّين، وإذا كنت صادقاً أمام أولادك رسّختَ فيهم خصلة الصِّدق، والأب مسؤول وكذا الأم، قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة الحديد]

لقد أرسل ربنا عز وجل نوحاً وإبراهيم، وجعل الله في ذريّتهما النبوّة والكتاب فمنهم المهتدي ومنهم الفاسق، قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلّا الظَّنّ وَإِنْ هُمْ إِلّا يَخْرُصُونَ(116))

[سورة الانعام]

فالإنسان ينبغي أن يكون مع الحق ولو كان قليلاً، وينبغي أن يبتعد عن الفساد ولو كان كثيراً، فالحق والباطل لا علاقة لهما بالقلّة والكثرة !

قال تعالى:

(ثُمّ قفّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ برُسُلِنَا وَقفّيْنَا بعِيسَى ابْن مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الّذِينَ اتّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

[سورة الحديد]

علامة المُتبّع لهذا النبي العظيم أن يكون قلبه منطوياً على الرأفة والرحمة.

" ورهبانية ابتدعوها ":

ثمّ يقول تعالى:

(وَرَهْبَانِيّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)

[سورة الحديد]

فالله عز وجل جعل هذا الدّين دين الفِطرة، وركّب في كيان الإنسان الحاجة إلى المرأة، وجعل الزّواج من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام:

((أنا أتقاكم إلى الله ولكني أتزوج النساء وأصوم وأفطر))

فهم الذين حمّلوا أنفسهم ما لا يُطيقون، وقد أرادوا من ذلك طاعة الله، فقد ابتدعوا الرهبانية، و ما كتبها الله عليهم، ولأنها فوق طاقتهم، قال الله فيهم:

(فَآتَيْنَا الّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة الحديد]

أيها الإخوة، في درس قادم نتابع تفسير هذه السورة، و قد بقيت الآية الأخيرة وهي:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ وَآمِنُوا برَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ)

[سورة الحديد]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (8-8): تفسير الآيتان 28-29
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-05-10

بسم الله الرحمن الرحيم

جزاء المؤمنين في الدنيا والآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثامن والأخير من سورة الحديد، ومع الآية الثامنة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

تقسيم الناس عند الله تعالى:

يُخاطب الله سبحانه وتعالى عامّة الناس بأُصول الدّين، بينما يُخاطب المؤمنين بفُروع الدِّين، فالله تعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

[سورة البقرة]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(183))

[سورة البقرة]

و الإيمان هو أعلى مرتبة يمكن أن ينالها الإنسان، فالناس رجلان ؛ مؤمن وغير مؤمن، وقد يكون الإنسان كافراً أو ملحداً أو مشركاً أو منافقاً، لكن الأصحّ أن نقول: هناك مؤمن وغير مؤمن، وهناك تقسيمات كثيرة يمكن أن يقسم الناس بها، فهناك الانتِماء والانتِساب والأعراف والأجناس والملَل والنِحَل والمذاهب والطوائف و المكانة والإنتاج والاسْتِهلاك والغِنى والفقر والأعِراق، فهناك العرق الأبيَض والعِرق الملوّن، وهناك أهل الجنوب وأهل الشرق، وهذه التقسيمات كلُّها ما أنزل الله بها من سلطان،و التقسيمان الحقيقيان هما: (المؤمن وغير المؤمن !) ولن تجد تقسيماً ثالثاً، فالمؤمن عرف الله، وبحث عن منهجه، وطبّقه وتقرّب إليه واتّصل به، وأحْسَنَ إلى خلقِهِ، فسَعِدَ في الدنيا والآخرة، وغير المؤمن غفَلَ عن الله، وتفلّت من منهجه، وأساء إلى خلقِهِ، وانقطع عن الله فَشَقِيَ في الدنيا والآخرة، ويؤكِّد هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((فَالنَّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ))

[رواه الترمذي]

فإذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

فهو يُخاطب ِمن خَلْقه مَن عرفهُ فآمن بوُجوده ووحْدانِيّته وكماله و سِرّ وُجوده، وغاية وُجوده، فهذا الذي عرف الله هو المَعْنِيُّ بالخِطاب، ولذلك أود أن أُزجي نصيحةً لإخوتنا المؤمنين فأقول لهم: قبل أن تُعرّفوا الناس بأمر الله ؛ عرّفوهُم بالآمر، وقبل أن تُعرّفوهم بتَفاصيل الدِّين،عرّفوهم بأُصول الدِّين، لأنّ تفاصيل الدِّين لا معنى لها إن لم نؤمن بأصول الدِّين، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

التّقوى: مِن وقى، والوِقاية لا تكون إلا من شيء مُخيف، فيا من آمنتم.. إن إيمانكم لا معنى له إن لم تتّقوا الله، و هو لا يُجدي و لا ينفع إن لم تُطيعوا الله وتستقيموا على أمره، وإيمانكم لا يقدِّم ولا يؤخّر إن لم تعتمدوا منهج الله في حياتكم، فهناك أربعة ملايين من الناس يطوفون حول الكعبة كل عام، و هذا شيء جميل، ولكنّ النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((عَن ابْن عَبّاسٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ: خَيْرُ الصّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَلَا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلّةٍ))

[رواه الترمذي]

علاقة جدلية:

يقول الله تعالى:

(وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم)

[سورة النور]

هناك علاقة جدليّة بين الإيمان والاستخلاف ؛ فإن كنت مؤمناً كما أراد الله تعالى استَخْلَفَكَ الله في الأرض، وهذا ليس نادراً، بل هي سنّة الله و قانونه في خلقه، فإن لم تُستخلف ولم تكن كلمتنا هي العليا، فمعنى ذلك أنّ في إيماننا خلل وخطأ، كما يعني أننا لسنا في المستوى الذي ينبغي أن نكون عليه، فالقضيّة دقيقة أيها الإخوة، وقد يسأل سائل فيقول: ألم يقل الله عز وجل في كتابه الكريم:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

كما أنه قال:

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلْ الْمُؤْمِنُونَ(160))

[سورة آل عمران]

وقال:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم)

[سورة النور]

الإيمان الحقيقي:

أريد هنا أن أقول لكم كلمة مختصرة: إن الإيمان الذي لا يَحْمِلُكَ على طاعة الله والخوف منه، ولا يجعلك تقف على الحلال والحرام، لا جَدوى منه إطلاقاً، فإقرارك بأنّ الله خلق الكون قد أقرّهُ إبليس من قبل، كما أن إقرارك بأنّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق قد أقرّ به كلّ الكفار، فهم عبدوا الأصنام وقالوا كما في قوله تعالى:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلّا لِيُقَرّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلْفَى إِنّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ(3))

[سورة الزمر]

فالعِبرة أن تضعَ يَدَك على جَوْهر الدِّين، وأن تؤمن الإيمان الذي ينبغي أن يكون، فإن آمنْتَ الإيمان الصحيح قطفت ثِمارَهُ، و لمستَ نتائجهُ.

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا)

[سورة الحديد]

أي: أطيعوه... و إني أريد أن أقفُ هُنَيْهةً عند هذه الآية..

لقد قال: **" اتّقوا الله !"**، فكيف تطيع الله إن لم تعْرِفْهُ ؟ و كيف تُطيعه إن لم تعرف أمرَهُ ؟ فمن أجل أن تتّقي معْصِيَتَه وغضبَهُ و سَخَطه و نارَهُ ينبغي عليك أن تُطيعه، و إنك لن تُطيعهُ قبل أن تعرفَهُ، فسَلْ نفْسَكَ هذا السُّؤال: كم من الوقتٍ تخصص من الصَّباح حتّى المساء لِمَعرفة الله ؟! إنّك إن حضرْت مجلسَ العِلم وأصْغَيْت فيه إلى الآيات فراجعتها و دقّقت فيها وتأمّلْتها انْعَكَسَ هذا على سُلوكك طاعةً لله تعالى، فهذه المعرفة تجعلك تضَبط جوارحك وبيتك وعلاقاتك، فلا شكّ أنّ هذه المعرفة أثمرت طاعة، والإنسان يَقُرّ عَيْنًا بهذه الطاعة، أما إن لم تكن هناك طاعة،وكان هناك كسبٌ حرام وعلاقات اجْتِماعيّة غير منضبطة أو كان هناك انْحِرافات وتعلّق بالشّهوات، فلن يؤتي الإيمان ثماره، و الله تعالى قال:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا)

[سورة الحديد]

فلا ينبغي أن يكون للمؤمن همٌّ أكبر من أن يعرف الله تعالى، ويعرف منهجه، فهذا الأمر لا يعلو عليه أمر آخر مهما بدا لك مهمّاً، **" يا ابن عمر دينَكَ دينَكَ إنّه لحمكَ ودَمُك، وخُذْ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا ! "** وإنّك ما لم تأخذ موقفًا عمليًّا لم تكن مؤمنًا، قال أحدهم:

وعالم بعِمله لم يعْملنْ مُعبّد من قبل عُبّاد الوثن

فإذا لم تُحرّر دخْلك من الحرام و لم تُقِم الإسلام في بيتك و لم تجعل علاقاتك إسلاميّة ؛ فتلتزم بالصدق والأمانة وإنجاز الوعد وصيانة العهد والحكمة والكرم، إن لم تفعل كل هذا لم تكن مؤمنًا، لأنّ الخُلق ذهَب بكُلّ الخير، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقاً .

مكانة السنة المطهرة في التشريع الإسلامي:

إن في القرآن الكريم أمْرٌ ونهْيٌ، و قد جاءت السنّة مطهّرة بشيء من التفصيل، والله تعالى يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(7))

[سورة الحشر]

فيجب علينا أن نبحث عن الأمر التّفصيليّ في سنّة النبي عليه الصلاة والسلام، فالقرآن الكريم فيه أوامر إجْماليّة، كـ (أقيموا الصلاة)، ولكن القرآن لم يفصّل كيفية الصلاة وأوقاتِها وعددَ ركعاتها وفرائضَها وواجباتِها وسننَها ومكروهاتِها ونواقضَها!! وهذا كلّه موجود في سنّة النبي عليه الصلاة والسلام، كما نجد في السنة المطهرة كيفية البيع والشراء والتجارة، فقد جاء فيها أن أطْيَب الكسب كسْبُ التُّجار، الذين إذا حدّثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يُخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشْتروا لم يذُمُّوا، وإذا باعوا لم يُطروا، وإذا كان لهم لم يُعسِّروا، وإذا كان لهم لم يُمطِلوا.. فالقرآن الكريم فيه مبادئ كُبرى، فقد أمرك الله تعالى في القرآن أن تؤتي الزّكاة، لكنه لم يبين نِصاب الزّكاة، و زكاة الذّهب والفضّة، وزكاة عروض التِّجارة، وزكاة الإبل، وزكاة البقر وزكاة الحليّ، وزكاة العسل، وزكاة الإنتاج الزراعي، فمِن أين سنأخذ تفاصيل هذه الأحكام ؟! من السنة النبوية الشريفة، فمن يقول لك: أنا أكتفي بكِتاب الله فقط يكون مُخالفاً لكتاب الله تعالى نفسه، لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(7))

[سورة الحشر]

فأنت مُكَلّف أن تأخذ ما آتاك الرسول صلى الله عليه وسلم.

و القرآن أيها الإخوة، قَطْعِيُّ الثُّبوت، وقطعيّ الدلالة وظَنِيُّها، أما الحديث الشريف فهو ظنيّ الثبوت، وظنيّ الدلالة وقَطْعِيُّها، فالقرآن الكريم كلّه ثابت عن الله عز وجل، أما السنّة فهي تحتاج إلى تدقيق في صِحّتها، فهناك الحديث المتواتر، والحديث الصحيح والحسن والضعيف، وهناك الحديث الموضوع، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النّبيّ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ أنه قالَ: تَسَمّوْا باسْمِي وَلَا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي وَمَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإنّ الشّيْطَانَ لَا يَتَمَثّلُ فِي صُورَتِي وَمَنْ كَذَبَ عَلَيّ مُتَعَمّدًا فَلْيَتَبَوّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ))

طلب العلم فريضة:

إن الله تعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

لا بدّ لي من معرفة منهج اله حتى أتمكن من تقوى الله بمعرفة أوامره ونواهيه، ومن هنا كان طلب العلم حتماً و فريضة واجبة، فإنك إن أطَعْت الله فُزْتَ فوزاً عظيماً، وإن لم تُطِعْهُ خَسِرْت خسارةً عظيمة، و مِن لوازم طاعة أمر الله عز وجل أن تتعرّف إلى الأمر، فمَجلس العلم فرض عيْنٍ على كلّ مسلم، ومن خلاله يمكنك التعرف إلى أحكام الإسلام، كأحكام الزّواج، والطلاق، وأحكام البيع والشّراء والمساقاة والمزارعة والمضاربة، والأمانة والهبة والقرض والدّين والحوالة والوصيّة، و هناك آلافٌ وآلاف من الموضوعات في العلاقات المالية والاجتماعية ؛ و هذه كلها لها أحكام تفصيليّة، فإن لم تعرف هذه الأحكام لم تستطع أن تتّقي الله تعالى، وإن مِن لوازم هذا الأمر أن تعرف منهج الله، وأن تعرف الحلال والحرام، فما من شيءٍ في الحياة الدنيا إلا وتُسْحَبُ عليه أحكام خمسة ؛ فرض وواجب، وسنة مؤكّدة، و سنة غير مؤكدّة، ومباح، ومكروه، وحرام، فأيّ نشاط إنساني يتراوح بين الفرضيّة والحُرْمة، وبينهما الواجب والسنة والمكروه والمباح والحرام، فينبغي عليك أن تسأل: ما حُكم هذا الشيء؟ وما حُكم هذا البيع ؟ وما حُكم هذا الطلاق ؟ وما حكم هذا الزّواج ؟ وما حُكم هذه الزّيارة ؟ وما حكم هذه النُّزْهة ؟ وما حكم تلبيَة هذه الدّعوة ؟ وما حكم التِّجارة بهذه البضاعة ؟ فَمِن علامة إيمانك أن تبْحث عن أمر الله تعالى، لأنّ هناك قاعدة تقول: (ما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب)، فقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

وإن من لوازم هذا الأمر أن تعرف أمر الله، فأنت مأمور أن تُطيع الله تعالى، فالذي يريد أن يتقي الله وهو لا يعرف الحلال والحرام لديه مشكلة كبيرة، فعليك قبل أن تأكل أن تعرف ماذا تأكل، كما يحب عليك قبل أن تتكلّم أن تعرف ماذا تتكلّم، فلا تتكلم كلاماً فيه غيبة و نميمة و اسْتِعلاء و كِبر وعُجب، ومن هنا كان طلب العلم حتماً لازماً على كلّ مسلم، فِحُضور مجالس العلم ينير القلب، ويُجنّب الإنسان كل ما لا يُسْعِده، فإذا كان الإنسان لا يعرف أصول القيادة، ثم ركب في سيارة واقفاً أو مستريحاً على وسادة فليست لديه مشكلة، أما إن كان وراء المِقْوَد، وكانت المركبة مُتحرّكة بسُرعة فائقة، وهو لا يعرف كيف يوقفها، ولا كيف ينحرفُ بها يَمنةً ويسْرةً، فإنه يكون بفعله هذا منْتحِراً، فمعرفة قِيادة المركبة وإيقافها وتحريكها والانعطاف بها يَمنةً ويسْرةً من الأشياء المفروضة على قائد المركبة، وإلا كان الهلاك مصيره، والإنسان كائنٌ متحرّك أودِعَت فيه الشهوات من حبّ المال والنِّساء، والعلو في

الأرض، فإذا كان عندك زوجة وأولاد، فربما كان لزوجتك طلبات مخالفة للشّرع أو موافقة له، فلا بدّ لك من معرفة الله لتستقيم على منهجه في كل تفاصيل حياتك، فتخالفها في كل ما يخالف الشرع، فهناك إنسان حجّ بيت الله الحرام، فرأى ازدحاماً غير معقول، فقد كان هناك أربعة ملايين، فنزل في أحد الأيام لِيطوف فلم يَجِد أحداً !! فقال: يا الله، أين الناس ؟ لمَ لم يأتوا لِيَطوفوا معي في هذا الوقت المُريح، فإذا باليوم هو يوم عرفات، وهو لا يعرف ذلك !! فهذا مثَل لِواقِع الناس اليوم، فمن الناس من يكون بيته متفلتاً، وزوجته وبناته سافرات، وأهل بيته يفعلون المعاصي ليل نهار، ثمّ يقول لك: أنا مسلم ! فأين منهج الله تعالى ؟ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

هذا أمر إلهي معناه: اتّق يا عبدي غضبي وسَخطي ومعصيَتي وناري، لأنّ هذه الأشياء خطيرة، وعليك أن تتّقِيَها، فإذا لم تعرف هذا الأمر والنهي فكيف تتّقيه ؟! فَمن لوازم الأمر بِتَقوى الله عز وجل أن تتعرّف إلى أمر الله ونهْيه، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ)

[سورة الحديد]

إن الإنسان يستطيع بِعَقله أن يصل إلى الله تعالى، وذلك عن طريق التّفكّر بالكون، لكنه لا يستطيع أن يُحيط بالله، بل يصل إليه فقط، فأن تصل إليه شيء، وأن تُحيط به شيء آخر، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(255))

[سورة البقرة]

فيُمكن لعقلك أن يوصِلك إلى الله تعالى، عن طريق الكون الذي هو مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، فإذا عرفت أنّ لهذا الكون خالقاً عظيماً فعليك أن تعلم أيضاً أن من لوازم الخالق أن لا يضَعَ عباده في غفْلة عنه، فلا بدّ من إنزال الكتب، ولا بدّ من إرسال الرسل، وإن أيّ رسول يرسه الله لِبني البشر يُعطى بيّنةً تؤكِد أنّه رسول، وهذا شيء ثابت، وهذه البينة إما أن تكون معجزة حِسيّة ؛ كأن يصبح البحر طريقا يبساً، أو أن تصبح العصا ثعباناً مبيناً، أو أن يحيي البشر الموتى كما فعل سيّدنا عيسى، أو أن تخرج الناقة كما في معجزة سيدنا صالح، فهذه الأشياء لا يستطيعها البشر، بل هي من فعل خالق البشر، والله سبحانه وتعالى يُجري على هذا الإنسان المعجزات التي تدل أنّه رسول الله، فمن خلال المعجزة تؤمن أنّه رسول، و نبيُّنا عليه الصلاة والسلام معجزته القرآن الكريم، و إعجاز هذا الكتاب هو أحد أكبر الدلائل التي تثبت أنّه من عند الله تعالى، ومن مظاهر هذا الإعجاز، إعجازه البياني، وإعجازُهُ التشريعي، وإعجازه التربوي، وإعجازهُ الإخباري.

" وما ينطق عن الهوى ":

والآن دخلنا في النقطة الثانية في الدرس وهي أنّ حديث رسول الله تَشريع، فإذا نطق، أو فعَل، أو أقرّ كان كل نطقه وفعله وإقراره تشريعاً، والنبي عليه الصلاة والسلام مشرّع، فالنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، وأقواله وأفعاله وإقراره وصِفاته لها حكم الأمر والنّهي، ومن هنا جاء قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ)

[سورة الحديد]

إن آمنتَ أنّ هذا رسول الله، فيجب عليك أن نؤمن أن الله عصَمَهُ من الخطأ في أقواله وأفعاله وإقراراته وصِفاته، وأنه لا ينطق إلا بالحقّ، ومن هنا قال سيّدنا سَعد بن أبي وقّاص: **(ثلاثة أنا فيهنّ رجل، وفيما سِوى ذلك فأنا واحِدٌ من الناس، ما سمِعتُ حديثاً من رسول الله عليه الصلاة والسلام إلا أيْقنتُ أنّه وحي من الله تعالى وحق، وما صلّيْتُ صلاة فشُغِلت نفسي بغيرها حتّى أنْصرف منها، ولا سِرْتُ في جنازةٍ فحدّثتُ نفسي بغير ما تقول حتّى أنْصرف منها).**

فهذا رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول:

((مُصُّوا الماء مصاً ولا تعبُّوه عبّاً..))

وقد اتّضِح بعد ألف وخمسمائة عام أنّ هناك عصباً اسمه العصب الحائر أو العصب المبهم، وهو بين القلب والرّئتين والمعدة، التأثير الشديد جِدًا قد ينتقل هذا إلى القلب نهْيًا عن نبْضِهِ، فمن شَرِب الماء عَبّاً -مرّةً واحدة من دون تمهّل- عَرّض نفسَهُ لأخطار، وقد اكتشفوا ذلك في أيامنا هذه، فكلام النبي حقّ من الله تعالى، فهو الذي لا ينطق عن الهوى، و هناك آلاف الأحاديث التي فيها من الحقائق العِلْمِيَّة ما لا يمكن لعصر النبي، ولا لمن عاصر النبي، ولا للحضارات التي عاصَرت النبي، ولا الحضارات التي جاءت بعد ألف وأربعمائة عام أن تَفسرها، و مُعظم أحاديث رسول الله تدلّ على أنّه نبي، فإن آمنتَ بالله خالقاً ومُربّياً ومُسيّراً وموجداً وواحداً وكاملاً، وآمنتَ أنّه لا بد من إرسال الرُسل وإنزال الكتب وأن ذلك من كمال الله، و آمنت أنّ هذا الكتاب كلامه، وعَلِمتَ أنّ الذي جاء بهذا الكتاب هو رسول الله، عندئذ تؤمن أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم تشريع، يقول الله تعالى:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(7))

[سورة الحشر]

وقال تعالى:

(وما ينطق عن الهوى)

[سورة النجم]

فقد عصمه الله في كلّ أقواله وأفعاله، و السؤال الآن: أين أمرُ الله ونهْيُه ؟ إن أمْرُ الله ونَهيه هو سنّة النبي عليه الصلاة والسلام، والدليل الأقوى قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(31))

[سورة آل عمران]

لذلك كانت طاعة النبي صلى الله عليه وسلّم عَيْنَ طاعة الله تعالى، فهي مُتطابقة مع طاعة الله تطابقًا تامّاً ومن هنا قال الله عز وجل:

(وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ(62))

[سورة التوبة]

بضَمير المفرد، لأنّ إرضاء رسول الله عين إرضاء الله تعالى.

مظاهر رحمة الله:

ثمّ يقول الله تعالى:

(يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

و هذا هو الجزاء، و (الرحمة): كلمة واسعة ينضَوي تحتها عطاء الله كلِّه ! والرحمة شيء مُريح للإنسان، ولها مظاهر كثيرة، فالصِّحة، والكفاية، والزّوجة الصالحة، والأولاد الأبرار، و سلامة الجسم، و دِقّة الفهم، و السُّمعة الطيّبة والتجلي و السكينة اللذان ينزلان على قلب المؤمن، وحِفظ الله وتوفيقه وتأييد ونصره، وإكرامه للعبد كل هذا من رحمة الله تعالى بنا.

قال تعالى:

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

ننتقل إلى فكرة أخرى، أسأل الله عز وجل أن يوفِّقني إلى توضيحها..

أريد أن أسألك: هل تتصور أنّ المؤمن الذي عرف الله، وعرف منهجه، وتقرّب إليه، واستقام على أمرِهِ وطلب رِضاه يمكن أن يُعامله الله تعالى كإنسان عادي ؛ و هل يُعامل المُتفلِّت والجاهل والمنحرف العاصي كالمؤمن المستقيم، إذا توهمت هذا فأنت لا تعرف الله أبداً، لأنّ الله تعالى يقول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

[سورة الجاثية]

فحياة المؤمن تختلف عن حياة الآخرين، فبيته غير بيتهم، وسعادته غير ملذّاتهم، وأعماله غير أعمالهم، وإذا لم يكن هناك تميّز صارخ بين حياة المؤمن وحياة غيره، كان الإيمان لا جَدوى منه.

(الكِفْلين): هما النّصيبان ؛ فهناك نصيب في الدنيا، ونصيب في الآخرة ؛ ففي الدنيا هناك نصيب مُعجّل تشجيعي، و في الآخرة هناك نصيب مؤجّل تقديري، والحقيقة أنّ الذي يشدُّنا إلى الدِّين و الإيمان و

طاعة النبي عليه الصلاة والسلام، هو أنّ حياة المؤمن شيء نفيسٌ جدّاً، فالإيمان مرتبة أخلاقيّة عِلْمِيَّة وجماليّة، وذوق المؤمن يختلف عن أذواق الآخرين،فحياته وزواجه وبيته وأولاده، ومبادئه وتصرّفاته حتّى لهْوُهُ كل هذا بريء ونظيف وعفيف ومنضَبط، فأفراحه فيها الطاعات و الدعوة إلى الله، و أتْراحُهُ فيها الصبر والإنابة، فإن لم يكن المؤمن صارخًا في أخلاقه وعلاقاته ومبادئِهِ وقِيَمِهِ، فما قيمة إيمانه إذاً؟؟ إن المؤمن الذي يعرف الله ذو قلب رحيم وعقل ناضِج وعلاقات واضِحَة، وإن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم مجرى الدم... لكن المؤمن يوضّح أفعاله، فحظوظه الدنيوية كلها تحت قَدَمه، فهذا سيّدنا الصِّدِيق رضي الله عنه الذي يحمل المرتبة الأولى بعد النبوّة، والذي قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما طلعت شمس بعد نبيّ أفضل من أبي بكر))

لمّا توفيّ النبي عليه الصلاة والسلام، واجتَمَع أصحاب النبي في السقيفة، وقف أبو بكر رضي الله عنه، وقال لِعُمر: **يا عمر، مُدّ يَدَك لأبايعَك!** فصُعِقَ عمر وقال: **أنت أفضل مِنّي !** فهذا تواضع وإنصاف وأدَب وتعاوُن، فقال أبو بكر: **بل أنت أقوى مِنّي**، فما كان من عمر إلا أن قال: **قوّتي مع فضلك وأنا تحت جناحك، وأنا وزير لك**، وقال عمر: **لا أطيق أن أكون أميراً على قوم فيهم أبو بكر**، فهذا هو الإيمان ؛ لا يوجد فيه طعن ولا تنافس، فقوله:

(يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

يعني أن لك رحمة عند الله، ولا تنس هذه الآية:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

[سورة الزخرف]

فرحمة الله خير من ملايين الأرض، فهي الله خير مِمّا يجمعون، وإن القبر صندوق العمل، ومصيرنا جميعاً إلى القبر، وهناك ينعدم التّمييز، فالموت يُنهي غِنى الغنيّ، وفقرْ الفقير، ويُلغي قوّة القويّ وضَعف الضّعيف، ويُلغي وسامة الوسيم، ودمامة الدميم، ويُلغي صِحّة الصحيح ومرض المريض فالموت يجمع الناس فيكونون سواءً.

قال تعالى

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

فأنت محفوظ و مكفول و موفّق ومنصور من الله عز وجل، والله جلّ جلاله -خالق الأكوان- يُدافع عنك، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنْ الّذِينَ آمَنُوا إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ(38))

[سورة الحج]

ألا تتمنّى هذه المرتبة ؟ ألا تتمنّى أن تكون كقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30))

[سورة فصلت]

ألا تتمنّى أن يُلقي الله في قلبك الرضا والسرور ؟ ألا تتمنّى أن تكون لك هَيبة ؟ لقد قلتُ لكم مرةً أنّ الحجاج أراد قتل الحسن البصري فاستدعاه، فدخل الحسن على الحجاج، وكان السياف واقفاً، فتكلّم بكَلمات لم تُفْهم ! فما كان من الحجاج إلا أن وقف له واستَقبلهُ وأجْلسَهُ إلى جانبه على السرير وقال له: يا أبا سعيد أنت سيّد العلماء ثم استفتاه في قضيّة، وطلب الدعاء منه، وعطّرهُ وشيّعهُ إلى باب القصر، فصُعِق السيّاف وكذا الحاجب، فلحِقاه، وقالا له: لقد أُتِي بكَ لِغير ما فُعِل بك، فماذا قلتَ لِربّك ؟ قال قلتُ: **يا ملاذي عند كربتي، ويا مؤنسي في وحشتي، اِجعل نقمته عليّ بردْاً وسلاماً كما جعلت النار بردْاً وسلاماً على إبراهيم**، فهذه هي هَيبَة المؤمن لك، ومن اتّقى الله هابَه كلّ شيء، ومن لم يتّقه خاف من كلّ شيء، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81))

(سورة الأنعام)

والله أيها الإخوة، لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكَفت، فالله عز وجل يَمْنحُكَ فيها نِعمة الأمن، لتكون واثقاً من دون خوف، فلا ترتعِدُ فرائصك من فلان وفلان، لأنك مع الله، وإذا كان الله معك فَمَن عليك وإذا كان عليك فمن معك ؟!

يا رب، ماذا وجد من فقَدَكَ ؟ وماذا فقَدَ من وجَدَك ؟؟؟

هذا كلام خالق الكون، وإن زوال الكون أهون على الله من أن لا يؤتِيَك كِفلين إذا كنت مؤمناً، فالعِبرة في أن تكون مؤمنًا، وأن تنفِّذ ما أمرك الله أن تنفِّذَهُ، فضلاً عن هذه الرحمة التي تملأ قلبك رضىً ورحمة وسعادةً وثِقةً بالمستقبل، قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(51))

[سورة التوبة]

أيُّها الإخوة... إن مستقبل الإنسان من دون إيمان مخيف، فهناك أمراض عضالة كالأورام الخبيثة، وهناك قهر وفقر، أما المؤمن فهو واثق من حفظ الله له، لقد كان هناك شيخ مؤمن في السادسة والتِّسعين من العمر، لكنه منتصِب القامة، حادّ البصر، نشيط، وأسنانه في فمه، فقيل له: يا سيّدي ما هذه الصِّحة التي متّعَك الله بها ؟ فقال: حَفظناها في الصِّغر فحَفظها الله لنا في الكِبر !

إن من عاش تقيًّا عاش قويّاً، والله تعالى يمتِّع المؤمن بالصِّحة والأولاد الأبرار والزوجة الصالحة وبدَخل يكفيه، وكلّ وُعود الله ثمنها أن تؤمن وأن تُطيعه فقط.

الرؤية الصحيحة:

ثم قال تعالى:

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

هناك شيء آخر الدِّين غير الراحة والطمأنينة، وهو الرؤية الصحيحة ؛ فإذا كنت مؤمناً أعطاك الله هذه الرؤية الصحيحة، فإذا كان الناس في غفلة، كنت في صَحو، وإذا كانوا في عمى كنت مُبصِراً، وإذا كانوا في متاهة كنت على محجَّة واضِحة، وإذا كانوا في قلق، كنت في طمأنينة، فالطريق واضِح أماك، والهدف واضح كذلك، والدنيا ليْسَت مقرّاً، لكنها ممرّ، فهي حياة دنيا إعداديَّة لِحياة عليا أبديَّة، فمركز الثِّقَل عند المؤمن في الآخرة، واهتِماماته وحِرصُه كله منصب على الآخرة.

أيها الإخوة الكرام، قال تعالى:

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

فالمؤمن يرى ما لا يراه الآخرون، ويسمع ملا يسمعون، فلو دقَّقتِ في كلّ إنسانٍ يرتكب هذه الحماقة وتساءلت لماذا يرتكبها ؟ السبب أنه يرى أن هذه الحماقة لِصالِحِه، فيرى أن الكذب مثلاً يجلب له المال، وهو أحمق في هذا، ويرى أنّ هذا العمل يجلب له السرور، وهو أحمق في هذا أيضاً، و هذا كلّه لأنّه أعمى، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

[سورة طه]

هناك خمسة آلاف مليون إنسان على وجه الأرض، فإذا كان هناك واحد معرضاً عن ذِكر الله وهو ليس في عيشة ضنك لكانت هذه الآية ليْسَت من كلام الله تعالى ! فهؤلاء الذين بلغوا قِمَم النّجاح في المال هم أشقى الناس، كذلك الذين بلغوا المراتب العليا وهم معرضون هم أشقى الناس أيضاً، أما المؤمن فهو يتمتّع برؤية سليمة، فهو يرى النِّهايات والعواقب، ويرى الأهداف لأنه يمشي على هدى، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ(108))

[سورة يوسف]

و النور المذكور في الآية هو نور الصلاة، والمصلي الحقيقي هو الذي يلقي الله في قلبه الطمأنينة والرؤية الصحيحة، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

[سورة المعارج]

فهذا مستثنى.

قال تعالى:

(وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

فالماضي كلّه مغطّى بالمغفرة، فما عليك إلا أن تصطلح مع الله، وتتوب إليه توبة نصوحة، فأنت إن عرفت الله وآمنت به واتَّقَيْت أن تعْصِيَهُ كانت النتيجة أن يؤتيك كِفلين من رحمته في الدنيا والآخرة، ويجعل لك نوراً تمشي به وهذا النور هو الرؤية الصحيحة، وإن أكثر حماقات الناس من جهلهم وعماهم عن الدِّين، فالإنسان إذا مشى في طريق مظلم ووعر كان الوُقوع في حقه حَتمياً، أما الآخر الذي يمشي في نفس المكان ولكن معه مِصباح متألِق يكشف له كلّ شيء فهو في مأمن من الوقوع والزلل، فأنت إن اتَّصلت بالله ألقى الله في قلبك نورًا... ثمّ يقول تعالى:

(وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

الفضل بيد الله:

الآية الأخيرة، قوله تعالى:

(لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

فهذا الفضل مُتاحٌ لِكُلّ إنسان كائنًا من كان، وفضل الله عظيم، وهو ليس لِفئة ولا لأمة، ولا لِجيل، قلتُ لأخٍ: إن دينُ الله كالهواء للناس، لا يستطيع أحدٌ أن يحتكرهُ، لا جماعة ولا فئة ولا إقليم، فدين الله لكل الناس، وهذا هو معنى قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

ففضل الله ليس بيَدِ أهل الكتاب بل هو بيَدِ الله تعالى، والجنّة بيد الله وليس بيَدهم، وكلّنا عبيد، قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني عبدك وابن عبد...ناصيتي...))

فأهل الكتاب لا يقدرون على شيء من فضل الله، وفضل الله ليس بيدهم بل بيد الله، قال تعالى:

(وَأَنّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المجادِلة 058 - الدرس (1-4): تفسير الآيات 1-7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-05-17

بسم الله الرحمن الرحيم

حدود الله، وحرمة التّعدي عليها

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة المجادلة، قال تعالى:

(قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللّهِ وَاللّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

توضيح لبعض الحقائق:

أيها الأخوة الكرام...أريد أن أوضح بين يدي هذه السورة بعض الحقائق...

1- الحقيقة الأولى: (مراحل الدعوة الإسلامية):

لقد مرت الدعوة الإسلامية في طورَين؛ طور مكي إيماني، وطور مدني تشريعي، وإذا لم يسلك الدعاة إلى الله هذا المنهج في ترسيخ الإيمان أولاً، و توضيح الشرع ثانياً فلن يفلحوا في دعوتهم، فالإيمان والشرع كل منهما شرط لازم غير كافٍ، فإن أنت بينت حكماً شرعياً ولم تعرّف بالله عز وجل من خلال خلقه فلن يطبّق هذا الحكم، فالذي يعرف الأمر ولا يعرف الآمر لا يمكنه أن يتقرب إليه، بل إنه يتفنن في التفلت من أحكامه، أما الذي يعرف الأمر بعد أن يعرف الآمر فهو يتفانى في تطبيق أحكامه، والإنسان يعرف الله عن طريق الكون، لكنه يعبده عن طريق الشرع، فيجب أن يكون عمل الداعية على خطين: خط يعمل فيه على تعريف الناس بالله، وخط يعمل فيه على تعريفهم بأمر الله، لأن الإنسان إذا عرف الله تقرب إليه عن طريق تطبيق أمره،فالدعوة إلى الله لها جناحان: جناح العلم بالله وجناح العلم بأمره، فنحن نطيع الله فيما شرع لنا لأننا نعرفه من خلال الكون، وهذه السورة جاءت في المرحلة المدنية التي اختصت في الأغلب بأمور التشريع، أما الشيء الأدق من ذلك فهو أن هذا القرآن العظيم - كلام رب العالمين و الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله - يحوي على الكثير من المواضيع التي تهم الإنسان في حياته، فبعد أن تحدث مثلاً عن الكون و الشمس والقمر والكواكب والجبال والرياح ودعانا إلى النظر فيها، وصل إلى أدّق العلاقات بين المرء وزوجه، فهو شرع كامل ومنهج تفصيلي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

2- الحقيقة الثانية: (الإسلام منهج متكامل):

إن هذا الإسلام منهج متكامل لحياة الإنسان، لكن بعض الناس يفهم الإسلام على أنه صلاة وصيام وحج وزكاة فقط، وهو ليس كذلك، بل هو منهج تفصيلي، و حينما فهم المسلمون الإسلام على أنه عبادات لا

أكثر، ابتعدوا عن حقيقة دينهم وصاروا في مؤخرة الأمم، فالإسلام منهج تفصيلي يصل إلى أدّق نواحي حياتك، فهل هناك علاقة أشدّ خصوصية من علاقة الرجل بزوجته ؟ وعلى الرغم من ذلك وصل الإسلام إلى هذه العلاقة وشرّع لها، وهذه هي الحقيقة الثانية.

3- الحقيقة الثالثة: (اهتمام الإسلام بالأسرة):

إن من بالغ حكمة الله عز وجل أنه جعل قوة المجتمع المسلم في قوة أصغر وحدة فيه، فالمجتمع الإسلامي يتألف من أسر، والأسرة تتألف من زوج وزوجة وأولاد، و قوة المجتمع الإسلامي تكمن في تماسك أسره، فالإسلام حريص على قوة المسلمين و رقيهم وتألقهم، كما أنه حريص أيضاً على أصغر وحدة في مجتمعهم، كحرصه مثلاً على علاقة الزوج بزوجته، والحقيقة -أيها الأخوة- أن الإسلام يلح أشدّ الإلحاح على تماسك الأسر، كما أنه يعتبر أي تصرف أو أية فكرة أو عقيدة تباعد الزوج عن زوجته من فعل الشيطان، لأن غاية أفعال الشيطان هي أن يفرق بين الرجل وزوجه، وكل تشريع الله عز وجل بدءاً من غض البصر ومروراً بالمعاشرة بالمعروف ثم الإحسان إلى الزوجة.. كل هذه التشريعات المتعلقة بالزوجين إنما شُرعت من أجل تماسك هذه الأسرة.

فالأسرة إذا تماسكت نشأ الأطفال فيها نشأة صحيحة، فتبدأ هذه الأسرة بقذف عناصر طيبة متوازنة ذات تربية عالية للمجتمع، أما إذا تداعت أركان الأسرة من داخلها و نشأ فيها الشقاق والخلاف والتقاطع بين الزوجين، فإن الأولاد سيكونون أول ضحية لهذا الخلاف، وإذا كان البيت شقياً فيه الفوضى والعداء والبغضاء تخلخلت فيه هذه الوحدة الاجتماعية الصغيرة، فينعكس ذلك على قوة المجتمع بأكمله، لقد تحدث أحد رؤساء الدول الكبرى أن أمريكا تواجه أربع تحديات، فالمتبادر إلى الذهن أن يقول: إن هذه التحديات هي الخطر الصيني مثلاً، أو خطر الاتحاد الأوربي أو اليابان، لكنه لم يقل ذلك، بل قال: (إن أمريكا تواجه أربع تحديات منها تفكك الأسرة)، فأكبر تحد تواجهه دولة عظمى تمسك بقياد العالم هو تفكك الأسرة وانحلال الأخلاق وشيوع المخدرات وشيوع الجريمة، لذلك كانت قوة المجتمع من قوة أسره.

و الشيء الغريب في هذه السورة أن الله سبحانه من فوق سبع سماوات، يشرع لعلاقة بين الزوجين، وذلك لتمتين هذه العلاقة، ليكون هذا التشريع عاملاً في تماسك الأسرة، وذلك من أجل ينشأ الأطفال في جو صحي، فينتهي المطاف بعد ذلك إلى قوة المجتمع. روايات قصة المجادِلة:

أيها الأخوة الكرام... إن المجادِلة هي امرأة اسمها (خولة بنت ثعلبة)، وهناك روايات كثيرة تروي قصتها مع النبي صلى الله عليه وسلم، من هذه الروايات أنها جاءت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقالت: يا رسول الله إن زوجي تزوجني وأنا شابة ذات أهل ومال وجمال، فلما كبرت سني ونثر بطني وتفرق أهلي وذهب مالي قال: أنت عليّ كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن

ضممتهم إليّ جاعوا، وقد ورد في بعض الروايات أن النبي بكى لما كان في قلبه من الرحمة.
وتروي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب -خليفة المسلمين وعملاق الإسلام- كان يركب دابة، فمرّ في أحد أسواق المدينة، فاستوقفته امرأة كبيرة في السن و قالت له يا عمر: كنت تدعى عميراً، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الموت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، فقالت كل ذلك و هو واقف في أدب، فقيل له: يا أمير المؤمنين ! أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟! فقال: **(والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ما زلت إلا للصلوات المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خولة بنت ثعلبة التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعها عمر).**

وقالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و تقول: يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية:

(قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللّهِ)

و يبدو أنها كانت تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم على استحياء فخفضت من صوتها وكانت السيدة عائشة في الغرفة نفسها فلم تسمع تفاصيل قصتها، وهناك رواية ثالثة لهذه القصة تقول: لقد جاءت المجادلة تشكو إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت لا أسمع ما تقول فأنزل الله عز جل:

(قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللّهِ)

وروى ابن عباس أن هذه المرأة هي خولة بنت خويلد الخزرجية، وكانت تحت أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وكانت حسنة الجسم فرآها زوجها، فطلبها فأبت فغضب عليها، وكان امرؤ به لمم فأصابه بعض اللمم، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي ؛ يعني حرمها على نفسه.

الإيلاء والظِهار:

الإيلاء والظهار من أنواع الطلاق في الجاهلية، والإيلاء: أن يحرّم الرجل زوجته عليه، والظهار: أن يقول أنت عليّ كظهر أمي، و يقول تعالى: إن هذه المرأة التي حبستها أيها الزوج ليست أمك بل هي زوجتك، فإذا بدلت في ذلك عن طريق الكلام، كان كلامك باطلاً و ما أنزل الله به من سلطان، فكيف تجعل من زوجك أماً لك ؟؟ هذا شيء غير منطقي وغير واقعي وفيه ظلم شديد، وقد كان الإيلاء والظهار من أنواع الطلاق في الجاهلية، فسألت هذه المرأة النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها:

((حرمت عليه))

فأفتاها بحسب ما هو شائع، ولم يكن الوحي قد نزل بعد في هذا الموضوع، فقالت: والله ما ذكر طلاقاً، ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي، فقال لها:

((حرمت عليه))

فما زالت تراجعه حتى نزلت هذه الآية.

أيها الأخوة...

(قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللّهِ)

و الشكوى إلى الله من أعظم أنواع الشكوى، ومنها قوله:

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(86))

(سورة يوسف)

وكل من يشكو الرحيم إلى من لا يرحم يعاب، أما هذه امرأة فقد اشتكت إلى الله فسمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، فإذا قال لك الطرف الآخر أو قال لك خصمك: أشكوك إلى الله وجب أن ترتعد أطرافك من الخوف لأن الله يسمع الشكوى من فوق سبع سماوات، وذلك طبعاً إن كنت تعرف الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ))

(مسند أحمد 12091)

فشكوى الإنسان إلى الله عز وجل شيء مخيف، وهذا الرجل اشتكت زوجته إلى الله.

(وَاللّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا)

إن الله عز وجل مع كل إنسان، قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد 4)

فهو مع كل إنسان بعلمه:

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا)

(سورة المجادلة7)

(إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

سميع: لك إذا دعوته، بصير: بك إذا تحركت، عليم: إذا خطر في بالك خاطر، فهو يراك إن تحركت، و يسمعك إن دعوته، و يعلم كل أفكارك، حتى وإن كنت تفكر في موضوع دقيق في باطنك، فهو يعلم السرّ وأخفى.

لذلك ينبغي على الإنسان أن يتقي الله في زوجته، وينبغي على الزوجة أن تتقي الله في زوجها، لأن الله معهما يسمع ويرى، ويعلم المخطئ والمصيب، والظالم و المظلوم.

(وَاللّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

وإن أعظم درجة في الإيمان أن تعلم أن الله معك يراك ويسمع قولك ويعلم باطنك، وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه أينما كان، وأنت إذا كنت تعلم أن هناك شهيد يشهد عليك فلا بدّ أن تنضبط، فكيف إذا كان الشهيد هو الله عز وجل !

(الّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ)

تحريم التلاعب في الألفاظ:

ظاهر من امرأته ؛ أي قال لها: أنت عليّ كظهر أمي ؛ أي: ابتعد عنها ولم يؤد لها حقها الزوجي، فهي محبوسة له بمنهج الله عز وجل، فإذا قصّر في حقها فقد أوقعها في العنت وقوى فيها جانب المعصية، فالزوج محاسب أشدّ الحساب إذا قصّر في حق زوجته، فما لبّى حاجاتها التي أودعها الله فيها.

(الّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنّ أُمّهَاتِهِمْ)

هذا لعب في الألفاظ لا يرضي الله عز وجل، فالزوجة زوجة، والأم أم، والأخت أخت، والخالة خالة، والعمة وعمة، والأجنبية أجنبية، أما أن تخلط بين هذه الهويات فهذا لا يرضي الله سبحانه، فقد يقول لك قائل: هذه الأجنبية مثل أختي، وهذه مثل أمي، فهذا كله لعب في دين الله ما أنزل الله به من سلطان، لأن هذا الشرع العظيم مبني على قواعد عظيمة، فلو جعل الإنسان زوجته كأمه فابتعد عنها لأوجد خللاً في الأسرة، ولو أنه جعل امرأة أجنبية كزوجته أو أخته لأوجد خللاً أيضاً، فكل إنسان له طبيعة، وهذا شرع الله عز وجل فيجب أن نأخذ به بدقائقه، قال:

(الّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ)

(أنت عليّ كظهر أمي): تعبير مفاده أن هذا الرجل ابتعد عن زوجته كما لو أنها أمه، وفي هذا ظلم شديد للزوجة، وفي المقابل فإن المرأة إذا امتنعت عن زوجها باتت والله غاضب عليها، و إن أي زوج ابتعد عن زوجته سهواً أو تقصيراً يحاسبه الله أشدّ الحساب.

قال هؤلاء النساء اللاتي هنّ أزواج الرجال:

(مَا هُنّ أُمّهَاتِهِمْ إِنْ أُمّهَاتُهُمْ إِلّا اللّائِي وَلَدْنَهُمْ)

فالأمور واضحة الأم أم، والزوجة زوجة... فقولك لزوجتك: أنت كأمي ظلم لها، وقولك لامرأة وهي أجنبية: أنت كأختي غير صحيح أيضاً، فربما وقعتَ في الفاحشة معها وأنت لا تدري، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ما خلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما))

وكم من مأساة حدثت في المجتمع المسلم من جراء الاختلاط، حيث تقع المنكرات والخيانات، فيسقط الإنسان في الوحول لأنه خالف منهج الله عز وجل.

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

إن الإنسان محاسب على كل كلمة ينطق بها، فهذا كلام منكر لا يقبله الشرع ولا العقل ولا الفطرة ولا الواقع، لأن الزوجة زوجة، والأم أم، واللعب بهذه الأوراق لعب خطير، لأنه لعب بدين الله و سلامة الحياة.

(وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً)

الكلام المنكر هو الكلام الذي تنكره الفطرة السليمة و العقل الراجح والواقع.

(وزوراً) ؛ أي: الكذب والتزوير للحقيقة.

عفو الله وغفرانه:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

لكن الله سبحانه وتعالى يعفو عما مضى، ومعنى (غفور) ؛ أي: أنه يسامحك في هذا الذنب فلا يعاقبك عليه، أما العفو: فهو الذي ينسيك ذاك الذنب، فالله عفو غفور ؛ أي: يسامحك ولا يعاقبك، وهذا من تمام إكرامه لك، فهو ينسيك ذاك الذنب، فباب التوبة مفتوح مادام في الإنسان قلب ينبض و بقية من رمق الحياة، وهذا الباب المفتوح من أعظم النعم على المؤمنين، فكلما أخطأ الإنسان و زلت قدمه وجد الله تواباً رحيماً، **"لله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من الضّال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد ".**

كفارة الظِّهار:

(وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا)

فهذا الذي ظاهر من زوجته وقال لها: أنت عليّ كظهر أمي وابتعد عنها وحرّمها على نفسه لا يمكن له في تشريع الله عز وجل أن يعود إلى مقاربتها إلا بشروط صعبة، وقد أرادها الله صعبة كي يعرف الإنسان للزوجة حقها، و يعرف أن هذا العقد الذي أبرمه مع الزوجة من أقدس العقود في حياته.

(وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا)

فعليه أن يعتق عبداً، وقالوا: كمال هذا العبد أن يكون مسلماً.

(ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

وهذه الكفارات على الترتيب: أولاً: عليه أن يعتق رقبة، وقد أشار العلماء في هذه الآية إلى أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أن العبودية سوف تختفي و تنتهي وذلك لعلمه الغيب، بدليل قوله تعالى:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ)

أي: عليه أن يصوم ستين يوماً.

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً)

وقال: يجب أن تطعم هذا المسكين مُدّين من القمح.

(ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

فالإنسان له منهج يجب أن يسير عليه، فحتى في أخص علاقاته مع زوجته لا بدّ له من أن يقيم منهج الله عز وجل، فمن لغا وقال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، كان كلامه هذا كبيراً و خطيراً، فيقتضي ذلك منه أن يعتق رقبة، أو أن يصوم ستين يوماً، أو أن يطعم ستين مسكيناً.

فلما أنزل الله هذه الآية الكريمة قال النبي عليه الصلاة والسلام لخولة بنت ثعلبة:

((قولي لزوجك أن يعتق رقبة))

فقال: لا أجد، فقال له:

((صم شهرين متتابعين))

قال: لا أستطيع، فقال له:

((أطعم ستين مسكيناً))

قال: فأعنّي، فأعانه النبي صلى الله عليه وسلم بشيء، كما أن زوجته خولة أعانته بشيء حتى أدى هذه الكفارة وعاد إلى زوجته.

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

أي: لتؤمنوا بمنهج الله عز وجل، و الله عز وجل خالق وله منهج، كما أن رسوله له سنة، فبعد أن يؤمن الإنسان بالله ورسوله عليه أن يتبع منهج الله في كتابه ومنهج النبي في سنته، (نتابع).... و لتؤمنوا به خالقاً ومربياً ومسيراً ومشرعاً، فما معنى أن تؤمن بالله دون أن تؤمن بشرعه ؟ و ما معنى أن تؤمن بوجوده ثم لا تأتمر بما أمر ولا تنتهي عما نهى عنه وزجر ؟

حدود الله وعقوبة المعتدي عليها:

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)

فهناك آيات قيل فيها: هذه حدود الله عز وجل (فلا تعتدوها)، وهناك آيات قيل فيها: (فلا تقربوها)، وسيدنا عمر رضي الله عنه كان وقافاً عند حدود الله، و قد قال أحد العارفين بالله:**(ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء ولا الذي يطير في الهواء، ولكن الولي الذي تجده وقافاً عند الحلال والحرام)**، أي: أن يجدك الله حيث أمرك وأن يفتقد حيث نهاك.

(وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

من هم الكافرون هنا ؟ إنهم الذين كفروا بحدود الله، فلم يعبؤوا بمنهجه،هؤلاء الكافرون لهم عذاب أليم مطلق في الدنيا والآخرة، والقضية مصيرية بالنسبة لك، فإما أن تختار طاعة الله ورسوله لتكون في سلام:

(يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

(سورة المائدة16)

أي: سلام مع نفسك و ربك ومع من حولك، أو أن تكون في عذاب، و طاعة الله تعني السلامة، ومعصيته تعني العذاب، فهذه حدود الله، وللكافرين بهذا التشريع وهذا المنهج وهذا الأمر وهذه الحدود عذابٌ أليم، ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ)

معنى **(يحادون الله ورسوله)** ؛ أي: يشاقون الله ورسوله و يعادونهما، ويعرضون عنهما، وهناك معنى آخر لـ**(يحادون الله)** وهو: أنهم لا يقفون عند حدوده فلا يقيمون لها وزناً و يستخفون بها، وإن علامة المؤمن أنه إذا فعل ذنباً كان هذا الذنب كالجبل الجاثم على صدره، وعلامة المنافق أنه إذا فعل ذنباً كان هذا الذنب بالنسبة له كأنه ذبابة دفعها بيده، فذنب المنافق كالذبابة، وذنب المؤمن كالجبل الأصم.

أيها الأخوة الكرام... في هذه الآية بشارة عظيمة يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ)

إن هؤلاء الذين يعادونه و لا يعبؤون بحدوده ومنهجه وحلاله وحرامه، ولا يعتقدون أن هذا المنهج قويم و صالح لهذا الزمان، هم يتفلتون من منهج الله عز وجل إما تقصيراً أو كفراً، مع أن هناك فرقاً كبيراً بينهما، فهناك من لا يطبق منهج الله كفراً بهذا المنهج، وهذا كفر حقيقي عملي، وهناك من لا يطبق منهج الله تقصيراً، فهذا الذي يخرج عن منهج الله إنكاراً أو تقصيراً له عذاب أليم.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا)

(كبتوا) ؛ أي: قبروا وغلبوا وسحقوا، فالشيء الذي تكبته هو الشيء الذي تقهره وتضعفه وتهلكه، وقد جاء هذا الفعل في الآية بصيغة الماضي، لكنك قد تجد كافراً كبيراً قوياً له يد طولى في المجتمع، فكيف يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا)

والإجابة عن ذلك: أن هذا الفعل جاء بصيغة الماضي بشارة للمؤمنين، وهذا يعني أن الإنسان حينما يكون في معصية الله فهو مغلوب وهالك عند الله، فسيكبته الله ويسحقه ويعاقبه، فالفعل الماضي هو البشارة.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا)

أي: كبتوا مع وقف التنفيذ، فالإنسان إذا كان دخله حرام، أو كان متفلتاً في حياته و علاقاته و حركته و نشاطه، فهذا التفلت معناه أنه لن ينتصر ولن يعلو ولن يرتفع، وإن كان قوياً في الظاهر، فقوته هذه قوة آنية، ولسوف يكبت بعد حين.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

إن الذي يعادي الله عز وجل في كل الأزمان والعصور، وفي كل الحقب قديماً كان أم حديثاً، لا بدّ له من أن يهزم و يكبت، والتاريخ بين أيديكم، فأين هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين عزروه ونصروه وافتدوه بأرواحهم وأموالهم وكانوا معه ولم يتخلوا عنه الآن ؟ إنهم في أعلى عليين، أما الذين ناصبوه العداء وأخرجوه من دياره وقاتلوه ونكلوا بأصحابه فأين هم الآن ؟ إنهم في مزبلة التاريخ وهذا التاريخ بين أيدينا والتاريخ يعيد نفسه.

فالإنسان إذا كان في خندق الحق فهو مع الحق، وإن الحق سيؤيده و سينصره، وإذا كان في خندق معادٍ لأهل الحق فمهما كان يبدو قوياً إلى حين لكن الله سبحانه وتعالى لا بدّ أن ينتقم منه، لهذا قال الله عز وجل:

(أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78) وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79)وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا(80)وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

فالباطل من خصائصه الوجودية أنه زاهق، فهو زاهق اعتقادياً، وسلوكياً، و إن أي شيء يكون خلافاً لمنهج الله زاهقٌ عاجلاً أو آجلاً.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا)

وإن أكبر نعمة أنعمها الله عليك أن تكون مع الحق، وأن تكون مؤيداً للحق و ناصراً له، وأن تكون مع أهل الحق، وأن تكون جندياً للحق، وأن تكون داعياً للحق، وأن تكون صابراً من أجل الحق، فهذه أعلى مرتبة في الحياة، أما أحط مرتبة في الحياة فهي أن تكون مع الباطل داعياً ومؤيداً ومناصراً. وقد قيل:**(كفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله)**، فلمجرد أن تكون في طاعة الله ويكون عدوك في معصية الله فأنت منتصر عليه لا محالة.

(وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

و الله عز وجل قبل أن يعاقب يبين، وهذا أسلوب الحكيم، فهؤلاء الكافرون سوف يكبتون، لكن الله بين لهم قبل أن يُكبتوا آياتِه الكلامية ؛ وهي القرآن، وآياته التكوينية ؛ وهي أفعاله، وآياته الكونية، وهو خلقه، فآياته الكونية و التكوينية دالة عليه ومشية إليه، وآياته القرآنية مبينة لما عنده من نعيم وعذاب.

(إِنّ الّذِينَ يُحَادُّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

هذه سنة الله في خلقه، فالله مع المؤمنين: ينصرهم ويؤيدهم ويحفظهم ويوفقهم، وهذا من أصل المنهج، كما أن الله يكبت أعداءه ويخزيهم ويعذبهم عذاباً أليماً في الدنيا الآخرة، ولهم جهنم وبئس المصير، والخيار واضح جداً فإما أن تكون مع الحق أو أن تكون مع الباطل، وليس بين الحق والباطل موقف ثالث، فإن لم تكن مع الحق فأنت مع الباطل، و إن لم تكن على منهج الله فأنت على منهج أعدائه، والدليل قوله تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنّمَا يَتّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص50)

الجزاء الأخروي:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً)

الدنيا دار عمل لا جزاء، والآخرة دار جزاء لا عمل، فنحن الآن في دار عمل، وقد أعطي في الدنيا الإنسان حرية الحركة، فلك الآن أن تصلي ولك أن لا تصلي، و لك أن تصوم ولك أن لا تصوم، ولك أن تحج ولك أن لا تحج، ولك أن تزكي ولك أن لا تزكي، كما أن لك أن تستقيم ولك أن تنحرف، و لك أن تصدق ولك أن تكذب، و لك أن تقبل ولك أن تعرض، ولك أن تخلص ولك أن تخون، فأنت الآن في حرية حركة وفي دار عمل، وكل شيء له حسابه المسجل، قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

أيها الأخوة... حينما يكافئ الله بعض عباده المؤمنين على بعض أعمالهم الصالحة تكون مكافأته هذه تشجيعاً لبقية المؤمنين، وحينما يعاقب الله إنساناً على بعض الأعمال المنحرفة، يكون عقابه هذا ردعاً لبقية المسيئين، لكن الحساب الأوفى والجزاء الكامل الرصين إنما يكون يوم القيامة.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنّمَا تُوَفّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران 185)

و قال الله عز وجل:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللّهُ وَنَسُوهُ)

فسينبئهم بأدقّ المخالفات.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا(13)اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14)مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا(15))

(سورة الإسراء)

كلام الله عز و جل كلام واضح كالشمس، يبين لنا أن هناك منهجاً بين أيدينا، كما أن هناك رباً كريماً عليماً حكيماً مطلعاً، يعاقب ويكافئ فإن أحسنت فلك وإن أسأت فعليك.

يعني هنا لما قال الله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

فكل الخلق سيأتون فراداً كما خلقهم الله أول مرة.

(فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ)

فالإنسان سيحاسب على أدقّ التصرفات، لماذا غضب ؟ لماذا أعطى ؟ لماذا منع ؟ لماذا وصل ؟ لماذا قطع ؟ لماذا مدح ؟ لماذا ذمّ ؟ لماذا أقبل ؟ لماذا أدبر ؟ فكل المواقف والتصرفات يحصيها الله عز وجل، ولسوف يُنَبَّأ بها الإنسان يوم القيامة، و قد قدّم لله عز وجل الحجة على ذلك.

الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

قال الله عز وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

هناك حقيقتان: الأولى: هي أن تعلم أن الله يعلم، أما الثانية: فهي أن تعلم أن الله قدير، فعلمه يطولك وقدرته تطولك كذلك، فإذا أيقنت أن الله يعلم ويحاسب و يعاقب استقمت على أمره، وإن الذي يفرق بين الإيمان والكفر، والسعادة والشقاء، والنجاة والهلاك هو علمك أن الله يعلم وأنه سيحاسب وسيعاقب.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

أيها الأخوة... إذا أدخل كل إنسان في حساباته أن الله مطلع عليه وأنه يعلم سرّه وجهره وأنه سوف يحاسبه ويعاقبه كفّ عن أفعال السوء، لكن أخطر مرض يصيب الإنسان هو الغفلة عن الله.

فمعظم الناس الآن يأكلون المال الحرام وفي توهمتهم أن الله لن يحاسبهم، والحقيقة أنه يعلم وسيحاسب ويعاقب.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

(ألم تر): تعني: أن الله يرينا من آياته، فهو يرينا كيف يقصم الإنسان الظالم، كما يرينا كيف يرفع الإنسان المستقيم، و يرينا إنسان كيف يغني الأمين، وكيف يفقر غير الأمين، فهناك أحداث نراها بأعيننا، وهذا القرآن فيه كل شيء، فالأحداث كلها تنطق بما يوجد في القرآن الكريم، بل إن الأحداث أو أفعال الله عز وجل هي في حقيقتها تأويل القرآن الكريم، و تأويلها هو وقوع وعده ووعيده.

كلمة **(ألم تر)**: تعني أن الأحداث أمامك، فإذا رأيت شاباً مؤمناً مستقيماً على أمر الله يعمل صالحاً ويطلب الحلال، علمت أن هذا الشاب لن يعامل كالشاب المتفلت الذي اكتسب المال الحرام وفعل الموبقات.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

فكلمة **(ألم تر):** تعني أن الأمر واقع أمام عينيك، فهناك وقائع شتى تؤكد أن الله مع المؤمن يؤيده وينصره ويحفظه ويوفقه، أما الكافر فإن الله يخذله ويعاقبه ويفضحه... هكذا.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

لقد جلس صفوان بن أمية مع عمير بن وهب في مكان خالٍ لا يراهم ولا يسمعهم فيه أحد، فقال عمير لصفوان: لولا أطفال صغار أخاف عليهم العنت، ولولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، لذهبت إلى محمد فقتلته وأرحتكم منه، فاستحلها صفوان فقال: أما ديونك فهي علي بالغة ما بلغت، وأما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر، فانطلق لما تريد، فأمر عمير بن وهب أن يسقى سيفُه سماً، وأن تجهز راحلته، ثم ركبها وعلق سيفه على ظهره وذهب إلى المدينة ليقتل محمداً صلى الله عليه وسلم، وكان هذا بعد موقعة بدر، وقد كان لعمير ابناً وقع أسيراً، فقرر في نفسه أنه إذا سئل: لماذا أنت هنا ؟ أن يقول: جئت لأفدي ابني، فلقيه عمر بن الخطاب في الطريق، فقال: هذا عدو الله جاء يريد شراً فقيده بحمالة سيفه وقاده إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي الكريم: **"يا عمر أطلقْه "** فأطلقَه، قال: **"يا عمر ابتعد عنه"** فابتعد، قال: **"يا عمير ادنُ مني فدنا منه "**، قال: **"اجلس، ما الذي جاء بك إلينا؟ "** قال: جئت أفدي ابني، فقال النبي: **"وهذا السيف الذي على عاتقك ؟؟ "** قال: قاتلها الله من سيوف،

وهل نفعتنا يوم بدر، فقال النبي: **"ألم تقل لصفوان لولا ديون ركبتني ما أطيق لها سداداً، وأطفال أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه "**، فوقف وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسول الله.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

فأسلم عمير، أما صفوان فطار قلبه فرحاً، وكان يقول لمن حوله: انتظروا أخباراً سارة بقتل محمد، فانتظر أياماً طويلة وأسابيع مديدة، فكان يخرج كل يوم إلى ظاهر مكة فينتظر القوافل لعلها تأتي بخبر مقتل محمد عليه الصلاة والسلام، ثم فوجئ بأن عميراً قد أسلم.

فإن أي حديث تتكلمه مع أخيك الله يعلمه، حتى الخاطرة التي تفكر بها، وحتى الشيء الذي يغيب عنك يعلمه الله، فهو يعلم ما كان ويعلم ما يكون ويعلم ما سيكون ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام... إن مع كل إنسان ملكان يكتبان حسناته وسيئاته، بل إن الأبلغ من هذا أن الله معه يسمع أقواله ويرى أفعاله، فكلما قوي إيمان الإنسان قوي شعوره بأن الله معه يسمع ويرى، يقول تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذّبِينَ(213)وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنّي بَرِيءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ(216)وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ(217)الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218)وَتَقَلّبَكَ فِي السّاجِدِينَ(219))

(سورة الشعراء)

فهو معك وأنت في بيتك مع أهلك وأولادك، كما أنه معك في عملك، و في مركبتك، و في سفرك، فهو معك في أي مكان، يراك ويسمعك ويعلم حالك، وإنك كلما شعرت بوجود الله عز وجل وأنه قريب منك وأنه سميع بصير كنت أكثر انضباطاً.

وهذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، فالمؤمن يعلم أن الله يعلم، أما الكافر فلا يعلم شيئاً من هذا القبيل، وفي درس قادم إن شاء الله ننتقل إلى الآيات الباقية:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ نُهُوا عَنِ النّجْوَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المجادِلة 058 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 8-10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-05-24

بسم الله الرحمن الرحيم

مراقبة الله، وآداب النجوى

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة المجادلة، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة... إن هذه الآية تبدأ بقوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

فكيف نرى أن الله يعلم ؟؟ إن هناك معنىً مركباً يقول: إنك حين ترى بعينك مصير الظالم الذي يدمره الله عز وجل، و ترى مصير آكل المال الحرام كيف يُذهب الله ماله، وترى كيف ينتقم الله من المعتدي، كما ترى بعينك أن المستقيم يوفّق وينصَر ويحفَظ ويؤيّد، فهذه الأحداث كلها وقعت تحت سمعك وبصرك، و معنى ذلك أن الله يعلم، لأن الله سبحانه وتعالى يجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

أيها الأخوة... إن الإنسان حين يعلم أن الله يعلم يكون قد قطع أربعة أخماس الطريق إلى الله عز وجل.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

يعني: ألا ترى أفعاله.. ألا ترى توفيقه للمؤمنين وعقابه للكافرين.. ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى ينمّي المال الحلال ويبارك فيه ويمحق المال الحرام ويذهبه.. ألم تر أن المؤمن المستقيم يحيى حياة طيبة، وأن المعرض عن الله يعيش معيشة ضنك، هذه الحوادث بين يديك وتحت سمعك وبصرك، فإذا كان الله يجزي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته فمعنى ذلك أن الله يعلم، و هذا ردع للإنسان عن أن يرتكب معصية وهو يعلم أن الله يعلم، فأفعال الله تعالى تدل عليه، كما أن خلقه وكلامه يدلان عليه، فهذه الآية تشير إلى أفعال الله عز وجل، فإذا تتبع الإنسان أحوال الناس رأى أن الله مع المستقيم مؤيداً وناصراً وحافظاً وموفقاً، كما أنه يعاقب المنحرف إما بإتلاف ماله أو بإلقاء الخوف في قلبه أو بمشكلة تجعل حياته جحيماً.

إذاً: الله يعلم، فإذا علمت أن الله يعلم انحلت مشكلاتك مع الله، لأن الله سبحانه وتعالى جعل معرفته علة وجودك على وجه الأرض، قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

وكما قلت في درس سابق: إذا للإنسان كان جهة قوية تضبط حركاته وسكناته، وتحاسبه حساباً عسيراً على أفعاله، وهي تعلم كل شيء عنه، فإنه سيستقيم على أمرها مرغماً، لأن حركته مسجلة عليه، فكيف إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم ؟

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

إن علم الله ليس قاصراً على حركاتك وسكناتك، بل إن كل ما في الكون خاضع لعلم الله، فعلم الله يتعلق بكل ممكن في الكون، و الله سبحانه يعلم السرّ وأخفى، فهو يعلم ما تعلن ويعلم ما تخفي ويعلم ما خفي عنك، وإذا علمت أن الله يعلم فلا بدّ لك من أن تضبط سلوكك.

الله يعلم السرّ وأخفى...

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

فإذا كان هناك ثلاثة أشخاص جالسون في مجلس، وكان فيهم رجل موظف من قبل جهة قوية بيدها زمام الأمور، فالكلام عندها سيكون منضبطاً إلى أقصى درجة، فكيف إذا علمت أن الله موجود مع كل واحد أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة.. أو أدنى من ذلك أو أكثر ؟؟!

النجوى: هي الكلام غير الصالح للنشر ؛ أي: كلام مؤامرة، وقد ذكرت في الدرس الماضي أن عمير بن وهب قال لصفوان بن أمية: لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، فهذه نجوى؛ أي: مؤامرة وكلام غير معلن يكون بين شخصين أو أكثر على انفراد، في مكان آمن، لا يستمع فيه أحد إليهم، والأبواب مغلقة، وربما يكونون في مكان بعيد، أو في فلاة أو قمة جبل، فالله سبحانه مع هؤلاء يعلم ما يقولون.

(مَا يَكُونُ مِنْ نّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

أي: إنه معهم يستمع إليهم ويعلم نواياهم ويعلم خبثهم وسوء طويتهم، وسوف يحاسبهم أشدّ الحساب، أيها الأخوة: لو علم هؤلاء الثلاثة الذين يتناجون بما يسخط الله أن الله معهم وسيحاسبهم هل كانوا سيتناجون ؟ إطلاقاً... لو أن كل من يعصي الله علم أن الله معه فهل يعصي ربه ؟ هذا مستحيل... و لو علم كل من أراد أن يقترف معصية أن الله ناظر إليه لما اقترفها... إذاً: ألا ترون معي أنك إذا علمت أن الله يعلم استقمت على أمره، وأن الذي لا يستقيم على أمره لا يعلم أن الله يعلم.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

لذلك ورد في الحديث القدسي

((: يا موسى أتحب أن أكون جليسك، قال: كيف ذلك يا رب ؟ قال: أما علمت أني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني ؟؟))

فيجب عليك أن تعلم أن الله معك حتى وإن كنت وحدك، **"اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "**

التطبيق العملي لهذه الآية:

إن التطبيق العملي لهذه الآية هو أن الإنسان إذا كان مع أصدقائه أو إخوانه أو جيرانه أو أقربائه أو مع من يلوذ به في مكان مغلق، لا أحد يستمع فيه إليه، وكان يتكلم كلاماً لا يرضي الله وجب عليه أن يعلم أن الله معه، فكم من مجلس يغتاب فيه المسلمون، ولو علم هؤلاء المغتابون أن الله يعلم ما يقولون لما اغتابوا، لو علم الأفاكون أن الله يعلم ما يأفكون ما أفكوا، و لو يعلم العصاة أن الله معهم لما عصوه، و إذا علم الإنسان العادي أن الله يعلم انضبط أشد الانضباط، فإذا زارك أحد علية القوم مثلاً، وكان إنساناً وقوراً قوياً استحييت أن ترتدي ثياباً مبتذلة أمامه، كما استحييت أن تسب ابنك، أو أن ترفع صوتك أو أن تنطق بكلمة سوء أو أن تفعل فعلاً شنيعاً أمامه، وهو إنسان من علية القوم، فكيف إذا علمت أن الله معك ؟ لذلك كان أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه أينما كان، **"اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "**

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا)

قد يقول قائل: لماذا ذُكر العدد لثلاثة و العدد خمسة ؟لماذا لم يذكر الاثنين أو الأربعة، إن قوله تعالى:

(وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ)

يعني: أقل من ثلاثة، وقوله:

(وَلَا أَكْثَرَ)

يعني ولا أكثر من أربعة أو خمسة أو ستة، وقد قال بعض المفسرين: إن بعض المنافقين كانوا ثلاثة فتآمروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قد كان منهم خمسة تآمروا عليه، فأراد الله أن ينوه بهم وبمؤامرتهم وبنجواهم التي تسخط الله عز وجل.

إن ملخص هذه الآية يقول: إذا علمت أن الله يعلم فلا بدّ من أن تستقيم على أمره، فاجهد أن تعلم أن الله معك يراقبك، وهناك الكثير من الآيات التي تدلك على هذا المعنى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

(إِنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

(الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218)وَتَقَلّبَكَ فِي السّاجِدِينَ(219))

(سورة الشعراء)

فعلمك أن الله معك له وزن كبير في حسابات الإيمان، فكيف إذا علمت أيضاً أن الله يعلم ما تقول ؟ وأنه سوف يحاسبك على ما تقول ؟ و أنك سوف تلقى الله رؤوس الأشهاد يوم القيامة بهذه النجوى التي كانت بينك وبين زيد أو عبيد على انفراد في غرفة مغلقة من دون أن يشعر بكم أحد، فالإنسان أحياناً قد يتكلم بكلمة لا ينبغي له أن يقولها، فإذا هي تنشر في الصحف فيقرؤها الناس جميعاً، و الخبر إذا أذيع أو نشر في محطات إعلامية استمع إليه العالم كله، لاسيما إذا كان خبراً شائناً أو فضيحة أو خيانة.. فإذا ضبط الإنسان بالخيانة أو التجسس، ثم أذيع اسمه في شتى بقاع الأرض لكان هذا مما يندى له الجبين، كذلك هو حال النجوى التي كانت بينك وبين فلان على انفراد، وقد كنت تظن أن أحداً لا يراكما، إنك سوف تلقى الله بها على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وما أعظمها من فضيحة !! فليس هناك فضيحة أكبر من أن يكون هناك كلاماً غير معد للنشر ولا للإعلان ثم يصبح معروضاً على رؤوس الأشهاد يوم القيامة.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

قال لي أحد الأصدقاء أنه كان قد وضع جهاز (الأنترفون) في بيته بين غرفة الضيوف والمطبخ، و زاره يوماً بعض الضيوف، وأطالوا الجلوس، وكان هذا الجهاز مفتوحاً وهو لا يشعر، فدخل إلى المطبخ وقال لزوجته: هؤلاء الثقلاء لم يذهبوا إلى الآن، فماذا حصل بعدها ؟ قال: لقد بقيت سنوات وأنا أخجل أن أنظر إليهم، لأن هذا الكلام نقل إليهم عبر هذا الجهاز، فقد يتكلم الإنسان أحياناً بكلمة شائنة أو قذرة أو فيها خسة نفس أو مؤامرة أو عدوان، فما هو موقف الإنسان يوم القيامة إذا أعلنت هذه الكلمة على رؤوس الأشهاد ؟ هذه هي الفضيحة الحقة.

وضوح المؤمن:

إن من عظمة إيمان المؤمن أن يكون سرّه كعلانيته وعلانيته كسرّه، وأن تكون خلوته كجلوته وبالعكس، قال عليه الصلاة والسلام:

((تركتكم على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا ضال))

فالمؤمن واضح ليس عنده أسرار أو شيء لا يقال، و ليس عنده موقف حقيقي وموقف معلن، فليس ثمة شيء يفعله في السرّ و يستحيي أن يفعله في العلن، فأموره واضحة لأنه يطبق منهج الله، فهو يسمح بكل ما سمح الله به و لا يستحيي منه، فالله تعالى سمح بالزواج مثلاً، فترى الناس يطلقون أبواق السيارات يوم العرس، وهم لا يستحون من ذلك لأنه شيء مسموح به، كما أن لمؤمن يحرم ما حرمه الله تعالى، و إن أجمل ما في المؤمن هو الوضوح، أما غير المؤمن فهو مخيف، لأن مظهره غير مخبره، و ظاهره غير علانيته، كما أن باطنه غير سريرته،فهو يقول شيئاً أما بعض الناس، ثم يغيره أمام آخرين، قال تعالى:

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(14)اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)

(سورة البقرة)

فذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً، وإن أجمل ما في حياة المؤمن الوضوح، فهو لا يقول شيئاً يستحيي أن ينقل عنه، أو شيئاً يرجو السامع ألا يتكلم به لأنه يتكلم الحق، والحق لا يخشى أن يُبحَث فيه أبداً، فالحق حق والباطل باطل، فقد يكون الإنسان أحياناً أسير كلمة قالها، قال أحدهم:.

احفظ لسانك أيها الإنسانُ لا يلدغنّك إنه ثعبانُ

كم في المقابر من قتيلِ لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقد يتكلم الإنسان حياناً كلمة ترديه وتشقيه و تبعده، وكلكم يعلم الحديث الصحيح الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام:

((إنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللّهِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا))

فحينما تعلم أن كلامك من عملك، وأنك محاسب على هذا العمل عليه تنجو.

الكلام من العمل !!!

(ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

و هذا أقوى شاهد على أن كلام الإنسان من عمله، دققوا في هذه الآية:

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

لم يقل: بما قالوا، بل: بما عملوا، فمعنى ذلك أن نجواهم عمل، فقد جاء الأنبياء بالكلمة، كما كفر الكفار بالكلمة، والزواج الشرعي يتم بالكلمة، والزنى يتم بالكلمة، فالكلمة لها دور خطير جداً، إنك قد ترقى و تعلو بكلمة و قد تسقط و تهلك بكلمة.

فلو كان العمل شيئاً غير الكلام لقال الله عز وجل: ثم ينبئهم بما قالوا، والنجوى كلام.

(ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

ولعل النبي عليه الصلاة والسلام قد استنبط هذا المعنى الدقيق في حديثه السابق من هذه الآية، فكلام الإنسان من عمله، وإذا عدّ الإنسان كلامه من عمله استقام على أمر الله وضبط لسانه، ومن صفات المؤمن ضبط اللسان، فهو يفكر ملياً قبل أن يتكلم.

كان عمر بن الخطاب _ وهو عملاق الإسلام _ يتمنى لو أن له رقبة كرقبة الجمل، لأنه يفكر بالكلمة ملياً قبل أن يلقيها، فقد يكون هناك كلمة تفرق بين زوجين أو شريكين، أو بين أم وابنها، فالشر كله كلمات تلقى.

نجوى المنافقين:

ثم يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى)

و يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد نهى المنافقين عن هذه اللقاءات الجانبية والمؤامرات الخفية و الدسائس و العمل الخسيس الذي لا يُرضي الله، لأن الإنسان الواضح يعمل تحت ضوء الشمس أما الإنسان غير المستقيم فهو يعمل في الظلام بعيداً عن الظهور.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى)

لقد كان هؤلاء المنافقون الذين يجلسون مع اليهود ويتآمرون على النبي صلى الله عليه وسلم يظهرون أمام النبي الولاء، ويبطنون له العداء، ويظهرون هذا العداء أمام اليهود عندما يختلون، فهم أصحاب موقف ازدواجي، والمنافق _كما قلت في درس سابق_ هو شخص قَبِل انفصام الشخصية، فهو يتقن أدواراً متباينة، فيتقن دور المؤمن المسلم المعظم للنبي صلى الله عليه وسلم، كما يتقن دور الكافر العدو اللئيم، فإذا التقى بالنبي عليه الصلاة والسلام أظهر له الولاء وإذا خلا بمن معه أظهر العداء، و هذا شأن المنافق.

نهيُ النبي صلى الله عليه وسلم تشريعٌ:

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ)

وهذه الآية تعني نهي النبي تشريع، و أذكر مرة أن امرأة ضاقت ذرعاً بزوجها فشكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأرادت أن تخلعه، فقال عليه الصلاة والسلام لها:

((لو تراجعينه))

أي: لو تقبلين به، فقالت هذه المرأة العاقلة: يا رسول الله أتأمرني ؟ فقال:

((لا إنما أنا شفيع))

فلو أنه أمرها وعصت لكانت عاصية لله، فيجب أن نعلم علم اليقين أن طاعة رسول الله هي عين طاعة الله، وأن إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللّهَ وَالرّسُولَ لَعَلّكُمْ تُرْحَمُونَ(132))

(سورة آل عمران)

وقال:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر 7)

إن هؤلاء الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه قد وقعوا في معصية الله عز وجل، فهناك إنسان واحد إذا عصيته عصية الله وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الإثم والعدوان:

(وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرّسُولِ)

(الإثم): المنكرات، فقد يتحدث أحدهم عن مغامراته مع النساء، أو عن بعض الأشخاص الذين وقعوا في المعاصي والآثام و الفحشاء والمنكر، فالحديث عن المعصية وأساليبها ومسبباتها ونتائجها إثم، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة تجرح عدالة الإنسان، فالعدالة والضبط صفتان في المؤمن، فالضبط صفة عقلية والعدالة صفة نفسية، وقد تسقط العدالة أو تجرح باختلال أحد هاتين الصفتين، فمن عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوّته وحرمت غيبته، فإنك إن ظلمت الناس أو كذبتهم أو أخلفت ما وعدتهم سقطت عدالتك، **"ألا لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له "**

فهناك أشياء ثلاثة تُسقط العدالة: الظلم والإخلاف والكذب، و هناك أشياء كثيرة تجرحها، كالتنزه في الطرقات المليئة بالكاسيات العاريات مثلاً، أو الحديث عن النساء في المجالس الخاصة، كقول أحدهم: فلانة شكلها كذا وطولها كذا، أو صحبة الأراذل،أو البول في الطريق، أو الأكل فيه، أو أن يمشي الإنسان حافياً في الطريق، أو التطفيف بتمرة في الميزان، أو أكل لقمة من حرام، أو علوّ الصياح في البيت، أو قيادة الكلب العقور ليتباهى به، أو إطلاق العنان للفرس، ومن هذا القبيل من يسرع في سيارته في الطرقات الآن، فهذه الأمور كلها تجرح عدالة الإنسان، فالمؤمن كامل، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ نُهُوا عَنِ النّجْوَى ثُمّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

الإثم: كالحديث عن المعاصي ودور اللهو والأفلام والمسرحيات والممثلات والزناة والمنحرفين و الانحراف الجنسي، أو سلب أموال الناس بغير حق والمؤامرة على أملاكهم وغصب حقوقهم، كأن يأخذ

أحدهم محل ثم يلقي بشريكه في الطريق، أو أن يغتصب بيتاً، أو يأكل مالاً محرماً، أو يحوز على هذه المركبة ليست له، أو أن يماطل في وفاء الدين، فهذا كله من العدوان.

(وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ)

إن الأوامر الموجودة في القرآن الكريم هي أوامر الله، وقد يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأوامر آنية تنظيمية، فلو أن النبي أعطى أمراً، ثم خولف هذا الأمر لكانت هذه المخالفة معصية للرسول، ومن عصى الرسول فقد عصى الله.

تحية اليهود النبيَّ عليه الصلاة والسلام:

ثم يقول تعالى:

(وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ)

كان اليهود إذا أرادوا أن يحيّوا النبي عليه الصلاة و السلام يقولون: السّام عليكم، والسّام هو الموت، فكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((وعليكم))

الله تعالى يمهل ولا يهمل:

قال تعالى:

(وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ)

أي: يقولون لو كان هذا رسول الله كما يدعي لعذبنا الله بما نقول، فنحن حينما نقول السّام عليك يا محمد نستهزئ به وندعو عليه بالموت، فلو أن هذا نبي حق لعذبنا الله بما نقول و قد غاب عنهم أن الله يمهل ولا يهمل، وهناك الكثير من الأشخاص الذين ينطقون بكلمة الكفر فيقول أحدهم: أين الله ؟ وقد غاب عنه أنه في دار عمل لا في دار جزاء، وأن الله سبحانه وتعالى قد يعاقب فوراً وقد لا يعاقب وذلك لحكمة يريدها، يقول الله عز وجل:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

وفي آية أخرى يقول:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ(69))

(سورة النمل)

فـ (الفاء) لها معنى، و (ثم) لها معنى، (الفاء): تعني أن تأتي عاقبة المكذبين عقب تكذيبهم،وهناك آلاف الحوادث من هذا القبيل، كإنسان يحلف يميناً غموساً كاذبة فيصاب بالشلل لتوه، وقد يكون هناك إنسان يحلف يميناً غموساً كاذبة ثم يحيا عشرين عاماً من دون مصيبة، وذلك لحكمة أرادها الله، فالله عز وجل

عليم بكل شيء، وأفعاله كلها لحكمة، ولكننا لا نعلم الحكمة، فقد يأتي العقاب سريعاً وقد يتأخر، لكن العقاب إذا تأخر فلا ذلك يعني أن الله غافل، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

لماذا يحسب الإنسان الله غافلاً ؟ لأنه لا يرى العقاب السريع، والله أحياناً قد يؤخر العقاب، وإذا أخره كان ذلك لحكمة بالغة، و ليس معنى ذلك أنه لم يقع، فلا بد له من أن يقع، ثم يقول الله عز وجل:

(لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

يعني ذلك أن العقاب الحقيقي يكون يوم القيامة في النار، قال تعالى:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران 185)

ثم يقول:

(حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

و إذا عاقب الله عز وجل الإنسان في الدنيا كان ذلك أفضل بمليون مرة من أن يؤخر عقابه إلى الآخر، فهو إذا عاقبه في الدنيا كان معنى ذلك أنه أعطاه فرصة للإصلاح والتغيير، وإذا أحب الله عبده عجّل له بالعقوبة، فإذا جاءك العقاب بعد الذنب فاعلم بأن هذه علامة طيبة، فقد أعطاك الله فرصة لتتوب، أما إذا ركب الإنسان رأسه واقترف المعاصي والآثام ثم لم يأته العقاب فمعنى ذلك أن عقابه أُخِّر ليوم القيامة، وهذا شيء خطير جداً.

التناجي بالبر والتقوى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ)

ليس هناك من إنسان ليس له أصدقاء و إخوان وأصحاب، فإذا أراد أن يتناجى معهم في سهرة أو حفلة أو نزهة أو سفر، فليتحدث عن أعمال البر، كإصلاح ذات البين،أو الدعوة إلى الله، أو الذكر، أو خدمة الشباب المؤمن، وهذا حديث يفتخر به كل إنسان، يقول تعالى: أيها المؤمنون، إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كما فعل المنافقون وتناجوا بالبر والتقوى، والحقيقة أن هاتين الكلمتين جامعتان، فالبر يشمل صلاح الدنيا، فهناك آلاف الهموم التي تشغل المسلمين اليوم، فإذا ناجيت أخاك فناجه في أمر من أمور المسلمين، أو ناجه في أمر من أعمال البر، كمشكلة توفير مساكن للشباب وتزويج الشباب مثلاً، أو مشكلة صيانة الأعراض، أو مشاكل المرأة المسلمة، أو مشكلة نشر الثقافة الإسلامية، أو مشكلة دعوة الناس إلى الله، أو مشكلة أن يكون كتاب الله بين المسلمين هادياً ومرشداً، فإذا ناجيت أخوك فناجه في أعمال البر التي تعود على المسلمين بالخير.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ)

كما فعل اليهود والمنافقون.

(وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

فلو أن هذا اللقاء مسجل خفية عنك مثلاً، فلا ينبغي عليك _إذا كنت مؤمناً_ أن تتكلم كلمة تستحيي منها، لأن المؤمن الصادق واضح كالشمس، فإذا تكلم في بيته أو في خلوته مع أصدقائه وجيرانه فهو لا يتكلم إلا في خير المسلمين، فهو يعنيه ما يعني المسلمين، ويؤلمه ما يؤلمهم، و يفرحه ما يفرح المؤمنين، فكلامه لا يمكن أن يكون مأخذاً عليه، لأنه يعمل لله ويعمل تحت ضوء الشمس، على بيضاء نقية ليلها كنهارها.

فيا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فتناجوا بالبر والتقوى وبطاعة الله، كأن تتناجوا بكيفية الدعوة إلى الله، أو كيفية إقناع الناس بأحقية هذا الدين، أو طرق تعليم كتاب الله، وأساليب جذب الناس إلى بيوت الله و حملهم على الاستقامة، فمناجاة المؤمنين تكون إما بالبر وهو صلاح أمر المسلمين، أو بالتقوى وهي صلاح دينهم، وقد جاء في الدعاء الشريف:

((اللهم اصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا))

فإذا اكتفى المسلمون في بلادهم ذاتياً، فأكلوا ما يزرعون، و لبسوا ما ينسجون واستعملوا الآلات التي يصنعون، فما كانوا عالة على أحد، فهذه نعمة كبيرة، كذلك إذا أُمِّنت المياه للبيوت جميعها، وعبّدت الطرقات، وأشيدت المستشفيات والجامعات، وحوفِظ على الانضباط الأخلاقي كان كل هذا من البرّ، فالمجتمع المسلم يحتاج إلى طبابة جيدة وإلى تجارة رابحة وإلى تصنيع مُتْقَن، فهناك أعمال كثيرة تعود بالخير على المسلمين، و تمنعهم من أن يكونوا تحت رحمة أمم أخرى، لقد ذكرت لكم مرةً أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يزور بلدة إسلامية من رعاياه، فلفت نظره أن كل الفعاليات الاقتصادية في يد غير المسلمين فآلمه ذلك، فلما سألهم اعتذروا، فقال رضي الله عنه:**كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً** عندهم؟؟ فقد أدرك هذا الخليفة الراشد أن الإنسان إما منتج أو مستهلك، فالمنتج قوي ومتحكم، أما المستهلك فهو ضعيف، و نحن مثلاً قد نبيع الصوف فيرجع إلينا قماشاً مصنوعاً بألف ضعف، والإحصاء في ذلك بسيط، فسعر الرطل من صوفنا سبع عشرة ليرة، فيعود هذا الصوف مصنعاً منسوجاً إلينا بألف و سبعمائة ليرة، فلو أننا صنعنا إنتاجنا من القطن بأيدينا، و استثمرنا بترولنا بأيدنا لكان أولى بنا.

فلذلك كان هذا البرّ صلاحاً للمسلمين، فالمسلم يحتاج إلى مدرسة وطبيب وطريق ومستشفى و بيت يسكنه، فكل مشروع من أجل المسلمين ومن أجل حاجياتهم ومن أجل مستقبل أولادهم هو عمل طيب.

(وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

فالضمان صحي مثلاً، يرعى في صندوق العمليات التي تكلف مئات الألوف للناس الفقراء الذين يحتاجون لعمليات من هذا النوع، فهذا عمل طيب، كذلك هو عمل الجمعيات الخيرية التي تلبي حاجات الفقراء والمساكين، كجمعية دار الأيتام، فإذا كان هناك إنسان فقد والديه فإنه يجد في المجتمع داراً تؤويه، وتعطف عليه وتطعمه أطيب الطعام و تلبسه أجمل الكساء، و هذا مشروع شيء جيد جداً.

وهناك من عندنا أعمال البرّ ما لا يُعد ولا يُحصى، فإذا ناجيت أخوك فناجه بالبرّ، وحدثه عن طموحاتك و ما تنوي أن تفعل في خدمة المسلمين فهذا هو البرّ.

والتقوى تكون في الدعوة إلى الله وتطبيق شريعة الله والأخذ بيد الناس إلى الله.

(وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

أي إن النهاية إلى الله.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

كما قلت في درس سابق إن الإنسان حينما يوضع في قبره يقول له الله عز وجل:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

(وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

فمهما كانت مظاهر الموت فخمة فلا بدّ من وقفة مع الله عز وجل، فهذه الآية تقول: أطيعوا الله الذي إليه مآلكم ومصيركم.

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ)

و هذا هو الكلام الخسيس و المؤامرات والدسائس والغيبة والنميمة والإفك والبهتان والسخرية والعداء الخفي.

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ)

فهذا من وسوسته ومن فعله، وهذه النجوى يفرح بها الشيطان لأنها توقع بين المؤمنين، وإن هدف الشيطان الأول هو أن يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين، فهو يحرش بينهم، و يستفز بعضهم على بعض، فإذا كان بهم بقية جاهلية استجابوا لاستفزازه ووقعت بينهم العداوة والبغضاء، لذلك ورد في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إياكم وفساد ذات البين، فإن فساد ذات البين الحالقة، لا أقول حالقة الشعر وإنما حالقة الدين))

فالخلافات العالقة بين إنسانين من شأنها أن تفسد دينهما، **"يا ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك "**، فمن الممكن أ يحدث خطأ في أساس البيت فيهدم البيت عندئذ ويستغني عنه صاحبه، كما يمكن أن يحدث في العمل فيؤسس الإنسان عملاً جديداً، أما الخطأ الذي يصيب الدين فهو أمر خطير، فـ

((إياكم وفساد ذات البين، فإن فساد ذات البين الحالقة، لا أقول حالقة الشعر وإنما حالقة الدين))

وإن الشيطان حينما يئس أن يُعبد في جزيرة العرب رضي بالتحريش بين المؤمنين، لذلك كان كل خلاف بين المسلمين أساسه من الشيطان، فإذا وقع بينهم العداوة والبغضاء فهذا من عمل الشيطان.

للآية معنيان:

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا)

هذه الآية لها معنيان.

1- لو فرضنا أن مؤمناً _لا سمح الله وقدر_ زلت قدمه وانزلق لسانه في مجلس وتكلم بكلمة لا ينبغي له أن يقولها، فإن هذه النجوى التي انزلق بها المؤمن تحزنه، لأن الإنسان الذي يتكلم بما يسخط الله محجوب عن الله.

2- أن المنافقين إذا تكلموا في مجالسهم الخاصة كادوا للمؤمنين، وإذا بلغ المؤمنين هذا الكلام حزنوا، فإذا تأمر إنسان عليك مثلاً فطعن بك أو طعن بعلمك وكال لك الصاع صاعين، فهذا فعل الشيطان، ولكن الله طمأننا فقال:

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

إنهم مهما تكلموا و تآمروا، فإن فعلهم هذا ليس بضار المؤمنين شيئاً إلا بإذن الله.

التوكل على الله من صفات المؤمن:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

أي إذا كنت مؤمناً كان فاستقم على أمر الله وتوكل عليه، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32))

(سورة فصلت)

الله ولي المؤمنين،يدافع عنهم و ينصرهم ويؤيدهم و يحفظهم و يكرمهم ويعطيهم، ولا يستجيب لمن من يعاديهم، فهذه بشارة من الله:

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

فإذا كنت مؤمناً حقاً فتوكل على الله، وإذا توكلت على الله فأنت أقوى الناس، وإن قنعت بما أعطاك الله فأنت أغنى الناس، وإن أطعت الله فأنت أكرم الناس، و من توكل على الله فهو أقوى الناس، لأن أقوى قوة معك، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك من معك ؟ ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

نبدأ بهذه الآية في الدرس القادم إن شاء الله، لنشير إلى أدب المجلس فمجلس العلم أساسي في حياة المسلم، ولهذا المجلس آداب نوه بها القرآن الكريم تارة، ونوه بها النبي عليه الصلاة والسلام في مواطن كثيرة، والإنسان إذا حضر مجلس علم عليه أن يعرف آداب هذا المجلس، فالإنسان أحياناً قد يسيء وهو لا يشعر، فكم من مخالفات تُرتَكب فـ (تشوّش) على الجالسين درسهم، وهذا الذي (يشوّش)لا يدري ماذا يفعل، فحبذا لو تعلمنا جميعنا آداب مجالس العلم، وكيفية الحضور والإنصات، وللمجالس آداب كثيرة. وسأشير إلى هذه الآية بشكل موجز.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ)

ففي أيام زحام قد يأتي إنسان فلا يجد مكاناً فيستحيي، فهناك رجل جاء إلى مجلس النبي عليه الصلاة والسلام فآوى إلى الله فأواه الله، وهناك رجل آخر ما وجد مكاناً فأعرض، فأعرض الله عنه، فإذا جاء أخ مسلم فلم يجد مكاناً، فأعطاه أحد الأخوة مكاناً لكان هذا أمراً جيداً، وهو من صفات المؤمنين، وقد يكون هناك إنسان جالس في مكان مريح لوحده، بينما يكون أخوه غير مرتاح، وقد قال تعالى:

(إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ)

والجزاء من نفس العمل، يعني إذا فسحت لأخيك فسح الله لك من رحمته، و إذا أعنت أخاك أعانك الله، و إذا نفست غن أخيك كربة دنيوية نفس الله عنك كربة من كرب يوم القيامة، فمن أساليب ربنا عز وجل أنه يجازي على الإحسان إحساناً مشابهاً له.

(وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

والدرجات عند الله هي درجات العلم والعمل وهذه الآية من أوضح الآيات.

(وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المجادِلة 058 - الدرس (3-4): تفسير الآيات11-13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-05-31

بسم الله الرحمن الرحيم

آداب المجلس في القرآن والسنة

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث من سورة المجادلة ومع الآية الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الله سبحانه وتعالى يخاطب عامة الناس بأصول الدين، و يخاطب المؤمنين بفروع الدين، وهذه الآية تتحدث عن أدب المجلس، فالمؤمن لا بدّ له من أن يحضر خطبة جمعة أو مجلس علم، ولهذا المجلس آداب، وتعد هذه الآية مع الأحاديث الشريفة الصحيحة بمجملها من آداب مجالس العلم التي أقرها القرآن الكريم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا)

حرص أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على مجالسه:

لقد كان أصحاب النبي رضوان الله عليهم شديدي التعلق به، كما أنهم كانوا حريصين على مجالسه أشدّ الحرص، فكانوا يجلسون في مقدمة الصفوف حول النبي صلى الله عليه وسلم طلباً للقرب من الله عز وجل، لكن هذا الحرص الشديد من أصحاب النبي على أن يكونوا مع النبي في الصفوف الأولى نشأت منه مشكلة الازدحام.

سبب نزول الآية:

يروي بعض المفسرين أن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً بين أصحابه، فجاء قوم من أهل بدر من الأنصار والمهاجرين، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف للناس مكانتهم وينزلهم منازلهم، فهؤلاء الأصحاب الذين سبقوا بقية المؤمنين كانوا قد عاونوا النبي صلى الله عليه وسلم وخاضوا غمار الحرب في موقعة بدر مع النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام حريصاً على مكانتهم، فجاء هؤلاء وسلموا ولم يتزحزح أحد لهم، ولم يكن هذا الفعل انتقاصاً لأصحاب رسول الله، ولكن الصحابة كانوا يحرصون حرصاً شديداً على مكانهم إلى جنب النبي في الصف الأول، فسلّم هؤلاء فلم يستجب أحد لهم، فتألم النبي عليه السلام، وعُرف ذلك من وجهه فنزلت هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا)

آداب المجالس:

قال العلماء: **إن هذه الآية متعلقة بمجالس العلم، كما أنها متعلقة بمقاعد القتال أيضاً**، فقد كان بذل النفس عند أصحاب النبي رضوان الله عليهم من أحبّ الأشياء إليهم، وقد كانوا يتزاحمون على الصف الأول من القتال، ولا يسمحون لأحد أن يزاحمهم هذا المكان، و سبب ذلك إنما هو تنافس الصحابة على القرب من الخير الذي جعله رسول الله هدفاً لهم، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة إلى بعض هذه الآداب، فقال عليه الصلاة والسلام:

((من سبق إلى ما لم يُسبق إليه فهو أحق به))

وهذا الحديث يمثل نظام مجلس العلم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن هناك توجيهاً نبوياً في حديث آخر يقول: **" لَا يُقِيمُ الرّجُلُ الرّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمّ يَجْلِسُ فِيهِ"**، فلا يجوز للمؤمن أن يومئ إلى إنسان ليقوم من مجلسه ويجلس فيه، لأن المؤمنين عند الله سواسية، و مقامك ليس في مكانك بل في مكانتك، وقد نهى النبي في أحاديث كثيرة جداً بلغت درجة التواتر إلى عدم جواز قيام الرجل للرجل من مجلسه ليجلس فيه، فلا ينبغي للقادم الجديد أن يقيم أحد من مجلسه ليجلس فيه، لكن هذا الشأن مختلف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو أن النبي عليه الصلاة والسلام طلب من أحد أصحابه _لمصلحة راجحة وحكمة بالغة_ أن يقوم من مجلسه، لوجب على هذا الصحابي أن يبادر إلى طاعة رسول الله.

و إذا قام الإنسان طواعية من نفسه كان ذلك جائزاً، فقد كان سيدنا علي كرم الله وجهه يجلس إلى جنب النبي عليه الصلاة والسلام، فيدخل سيدنا الصديق وهو صاحب رسول الله و سيد أصحابه، فما كان من سيدنا علي كرم الله وجهه إلا أن يقوم من مجلسه إكراماً لسيدنا الصديق ثم يجلسه مكانه، فإذا بادرت بالقيام لأخ كريم كبير في السن أو لإنسان يتفوق عليك بالعلم تكريماً له لما يحمل من علم، أو لحافظ كتاب الله، أو لمن له فضل عليك، كان هذا من أدبك وعلمك و فقهك و كمالك، أما أن تقيم أحداً من مكانه لتجلس فيه، فهذا مما نهى عنه النبي أشد النهي، فهناك فرق كبير بين أن يقوم أحدهم لك إكراماً لعلمك أو مكانتك أو سنك، وبين أن تقيم أحداً لتجلس مكانه، فهذا مما نهى عنه النبي أشد النهي.

أيها الأخوة الكرام... لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا علياً كرم الله وجهه يقوم طواعية لسيدنا الصديق تأثر أشد التأثر و قال: " لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل "، فإذا قمت من مجلسك لإنسان كبير في السن، أو إنسان يحمل كتاب الله عز وجل، فهذا العمل من مقتضيات أدبك مع الله و معرفتك بسنة رسول الله، أما أن تقيم أحداً لتجلس مكانه، فهذا لا يجوز أبداً لأنه

((من سبق إلى مكان فهو أحق به))

كما قال عليه الصلاة والسلام، لكنك لو قمت لإنسان من مكان، ثم خرجت من المجلس إكراماً له لكان فعلك هذا منهياً عنه، لأنه لا إيثار في الخير، فلك أن تقوم من مكان إلى مكان أقل منه، أما أن تلغي مجلس العلم من أجل أن تكرم أخاً فهذا ليس وارداً إطلاقاً، لأن الخير كله في الإيثار، ولا إيثار في الخير، فلا ينبغي لك أن تؤثر أحداً كائناً من كان على نصيبك من الله.

إن للنبي عليه الصلاة والسلام حديثين: يقول في الأول لأصحابه الأنصار:

((قوموا لسيدكم سعد))

وفي حديث آخر يقول:

((من أحب أن يتمثل الناس له قياماً فليتبوأ مقعده من النار))

فإن من أراد السيادة والاستعلاء وإخضاع الناس وقيامهم له تعظيماً لذاته، فليتبوأ مقعده من النار، أما إذا قام الأصحاب لسيدهم فهذا جائز. قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا)

فقد أمرك الله عز وجل أن تفسح للناس في المجلس لا أن تقوم له، من هنا جاء قولهم: تزاحموا تراحموا، لأن التفسّح غير القيام.

(إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ)

أي وسع فرجة لأخيك ليجلس فيها، و هذا هو معنى تفسحوا.

معاني (يفسح الله لكم):

(يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ)

وإن من بلاغة القرآن أن يكون الجزاء من جنس العمل، قال بعض العلماء في تفسير هذه الآية: يفسح الله لكم في قبوركم ويصبح القبر مدّ البصر، وقال بعضهم: يفسح الله لكم في مكانتكم يوم القيامة، وقال بعضهم: يفسح لكم في قلوبكم فيتجلى الله على هذا القلب ؛ فإذا أنت أفسحت لأخيك كافأك الله عز وجل بما يتجلى به على قلبك من طمأنينة وسكينة، و هذا أعظم عطاء إلهي، ولكنه لا يعرفه إلا من ذاقه، فهناك فرق كبير بين أن يكون قلبك ممتلئاً بالسكينة التي أنزلها الله عليه، وبين أن يكون منقلباً كئيباً، وإن العالم الآن يعاني من كآبة ما بعدها كآبة، فحين آثر الناس أنفسهم ومصالحهم وذواتهم على إرضاء الله عز وجل ابتلاهم الله بالكآبة، أما إذا آثرت أخاك فسح الله لك قلبك وملأه نوراً وسكينةً وتجلياً.

1- المعنى الأول: أن الله يفسح لكم في قبوركم حيث يغدو القبر روضة من رياض الجنة.

2- المعنى الثاني: يفسح الله لكم في قلوبكم فتغدو مهبطاً لنور الله وتجلياته وسكينته، وإن في القلب شيئاً ثميناً جداً لا يعرفه إلا المؤمن، فقد تملك المال الوفير، والبيت الجميل والمركبة الفارهة، لكن الانقباض يعصر قلبك، وهذا ما قال عنه الله عز وجل:

(و مَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

(سورة طه 124)

وقد يقول قائل: فما بال الملوك والأغنياء؟ أية معيشة ضنك يعيشونها ؟ إن المال كله بأيديهم، فلهم أن يأكلوا ما يشاؤون، وأن يسكنوا في أي مكان يشاؤون، وقد فسر العلماء المعيشة الضنك التي يبتلي الله بها الأغنياء والملوك بضيق القلب، فالمعرضون عن الله لهم في قلوبهم من الضيق ما لو وزع على أهل بلدة لكفاهم، هذا معنى قول الله تعالى:

(وَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى(126))

3- المعنى الثالث: أن الله سبحانه وتعالى يوسع عليكم في الدنيا والآخرة.

فليس من المقبول إذن أن تزاحم وتدفع بيدك وتكون فظاً غليظ القلب، وذلك غير جائز لا في مجلس العلم ولا في غيره، كالطواف في الحج أو العمرة مثلاً،لأنك تكون بهذا قد تخليت عن هوية المؤمن، فالمؤمن لطيف يحب الآخرين.

(يَا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللّهُ لَكُمْ وَإذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا)

فإذا كلفكم النبي صلى الله عليه وسلم بعمل كالجهاد أو التعاون مثلاً فقوموا إلى هذا العمل سريعاً، و يجب عليكم أن تقوموا أيضاً إذا هو أنهى المجلس.

(وَإذَا قِيلَ انْشُزُوا)

أي: اذهبوا أو ارتفعوا، و الشيء النشاز هو العالي من الأرض، يقول الله عز وجل:

(يَرْفَعِ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام... إن الآية في مطلعها تبين أدب المجلس وأدب الانصراف، وقد كان كل صحابي يحرص أن يكون آخر رجل يبقى مع رسول الله، فكان يأتي الأمر بالانصراف فيبقى هو ليختلي برسول الله، وذلك ليحظى بما يعتقد أنه مغنم كبير، لكن هذا كان يؤذي النبي فيستحيي من أصحابه، فوقت النبي صلى الله عليه وسلم لكل المؤمنين و ليس لواحد فقط، والله سبحانه وتعالى يعلمنا في هذه الآية أدب الجلوس في المجلس والانصراف منه، ولكنه يبين لنا في مقطعها الأخير حقيقة خطيرة جداً: وهي أن مكانة الإنسان عند الله لا تأتي من مكانه في المجلس، وإنما تأتي من استقامته وورعه و علمه و عمله.

معاني (يرفع):

يقول الله سبحانه وتعالى:

(يَرْفَعِ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

1- يرفع الله الذين آمنوا عن الذين لم يؤمنوا درجات، فشتان بين المؤمن وغير المؤمن.

2- والمعنى الثاني يرفع الله الذين أوتوا العلم عن الذين لم يؤتوا العلم درجات.

3- وهناك معنى آخر يقول: يرفع الله الذين آمنوا وأوتُوا العلم عن الذين آمنوا ولم يُؤتَوا العلم.

فضل العالم على العابد:

قال عليه الصلاة والسلام:

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

(سنن الترمذي 2609)

وقال:

((فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكواكب))

(سنن أبي داود 3157)

فالمسافة بين العابد وبين العالم كبيرة جداً، فهي كالمسافة بين النبي صلى الله عليه وسلم - وهو سيد الخلق وحبيب الحق - وبين آخر مؤمن في الأرض، إنها مسافة بعيدة !! وذلك لأن العالم ينفع الأمة، أما العابد فلا يستطيع أن ينفع إلا نفسه، فالعالم معه سلاح خطير وهو العلم، بينما لا يملك العابد هذا السلاح، فأدنى شبهة تزحزحه، و أدنى ضغط يخرجه عن الاستقامة، و أدنى إغراء يحول بينه وبين طاعة الله عز وجل، ومقاومة العابد مقاومة هشة سريع الفتنة، فامرأة جميلة أو صفقة رابحة مثلاً تغير مجرى حياته وتقلبه رأساً على عقب، لقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يصلي في أوقات العمل، ولم يكن الوقت وقت صلاة، فقال له:

((من يطعمك ؟))

قال: أخي، قال:

((أخوك أعبد منك))

وقد أثنى الصحابة مرة على رجل عابد فقال عليه الصلاة والسلام:

((من يعيله ؟))

قالوا: كلنا نعيله، فقال:

((كلكم خير منه))

ولكن نجد أن الأمر يختلف مع طالب العلم، فحينما شكا شريكٌ شريكَه طالبَ العلم إلى رسول الله قال عليه الصلاة والسلام:

((لعلك ترزق به))

لأن طالب العلم يتعلم لغيره، بينما يعبد العابد لنفسه، و طالب العلم معه سلاح خطير وهو العلم، أما العابد فلا يملك السلاح، فيدخل عليه الشيطان من ألف باب وباب، فهو يُفْتَن لأي إغراء و يَفسد لأي ضغط، ويُصرف عن الطريق لأي شبهة تعترضه، فهناك فرق كبير إذا بين العابد والعالم.

وقال بعض المفسرين: في هذه الآية فيها توجيه لطيف، لأنها جاءت تتمة لأدب المجلس وهذا التوجيه يقول: أيها المؤمن إذا رأيت من يفوقك في العلم فأكرمته كان هذا من أدبك مع الله، و من أكرم أخاه فكأنما أكرم الله، فإذا أكرمت أولي العلم و الفضل و الإيمان كنت بهذا من أهل الفضل لأنك عرفت أهل الفضل.

قيمة الإنسان بمكانته لا بمكانه:

و أريد هنا أن ألفت النظر إلى مثل يوضح حقيقة:

إذا كان هناك حاجب عند أستاذ من أساتذة الجامعة، وكان لهذا الأستاذ مكتب وكرسي، فهذا الحاجب يستطيع في غيبة الأستاذ أن يجلس على كرسيه وراء المكتب، فجلوس هذا الحاجب على كرسي سيده وراء المكتب لا يرفع قدره في العلم درجة واحدة، أما لو تلقى هذا الحاجب العلم، فأخذ شهادة إعدادية، ثم ارتقى فنال الشهادة الثانوية، ثم ارتقى أكثر فدخل الجامعة، لرفعه علمه هذا، فالذي يرفع هذا الحاجب ليس أن يجلس مكان أستاذه وراء المكتب، فالإنسان قيمته ليست بمكانه بل بمكانته، وهناك فرق كبير بين المكان والمكانة، فبإمكانك مثلاً أن تذهب إلى العمرة وأن تصلي في المكان الذي صلى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن تقبّل الحجر الذي قبّله النبي عليه الصلاة والسلام، لكن.. هل هذا يرفع من مقامك عند الله ؟ لا، بل إن الذي يرفع مكانك عند الله هو أن تتبع رسول الله وتطبق سنته وتقتفي أثره، فحينما قال ربنا سبحانه وتعالى: تفسّحوا يفسح الله لكم، أراد من طرْف خفي أن يذكر أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أن مكانتهم عند الله لا علاقة لها بمكانهم عند رسول الله، فهل تصدقون أن رئيس المنافقين في عهد النبي كان يجلس إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام، فلما مات أعطاه النبي قميصه ليُكَفّن به، وقال:

((ما يغني عنه من الله شيئاً الآن استقر في جهنم حجر كان يهوي به سبعين خريفا))

فالمنافق إذاً يمكنه أن يجلس في مكان قريب من رسول الله، قال تعالى:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا)

(سورة التوبة 81)

فقيمتك ليس بمكانتك بل هي في إيمانك وعملك، لذلك قال الله عز وجل:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

فهو عليم بأعمالكم خبير بها، والخبرة أبلغ من العلم، خبير بأعمالكم ؛ أي: يعلم خلفية أعمالكم، من نوايا ومقاصد، وملابسات الحياة، وحجم العمل والتضحية.

فمكانتك إذاً متعلقة بإيمانك وعلمك وعملك، و هذه الأشياء الثلاثة تحدد مكانتك عند الله، فليس هناك مانع من أن تكون في الصفوف الأخيرة، مع أن السبْق إلى الصفوف الأولى مندوب إليه في الإسلام، أما إذا تخلفت عن الصف الأول لسبب قاهر، فليس معنى ذلك أنك تراجعت، لأن العبرة في أن تكون قريباً من الله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام... إن سيدنا عمر بن الخطاب قدّم مرة سيدنا ابن عباس رضي الله عنهم، وكان فتىً صغيراً، فتضايق بعض أصحاب النبي من هذا التصرف وظهر ذلك في وجوههم، فسأله أمامهم عن معنى الآية:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3))

(سورة النصر)

وكان قد سأل بعض أصحاب رسول الله فأجابوه إجابة عادية، فقال ابن عباس رضي الله عنه: هذه السورة فيها نعي النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني أن إدراكه لكتاب الله كان عميقاً جداً، لذلك كان عمر بن الخطاب يقدمه في المجلس على من هو أكبر منه، وقد ورد في التاريخ أيضاً أن سيدنا عمر ولّى إنساناً من الموالي على بعض المناطق، فلما تضجر بعض الناس من ولايته قال عمر بن الخطاب القول الشهير: **(إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين).**

و تروي الكتب أن أبا سفيان وقف مرة بباب عمر بن الخطاب ساعات طويلة فلم يؤذن له، وقد كان بلال وصهيب يدخلان عليه بلا استئذان، فلما دخل عاتب عمرَ بن الخطاب فقال: شيخ قريش (سيد قريش) يقف ببابك ساعات طويلة دون أن تأذن له، وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان ؟ فقال عمر:**هل أنت مثلهما ؟؟**

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

فقيمة الإنسان في صدق إسلامه.. وكثرة تضحياته.. وعلو إيمانه.. وأعماله الطيبة التي قدمها في سبيل مرضاة الله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام... هذه الآية أصل في أدب المجلس.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

آداب المجلس في السنة المطهرة:

ننتقل الآن إلى بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة المتعلقة بهذه الآية:

عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يُقام الرجل من مجلسه وأن يجلس فيه آخر ولكن تفسحوا وتوسعوا.

وجاء في حديث آخر:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا قَامَ الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ))

(سنن أبي داود 4212)

و هذا أدب ثانٍ من أصول السنة في آداب المجلس.

ومنه أيضاً ما رواه عبد الله ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما))

و يروي كتّاب السيرة أن نفراً ثلاثة قدموا مجلس النبي عليه الصلاة والسلام، فأقبل اثنان منهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام وذهب واحد، فلما وقفا على مجلس النبي عليه الصلاة والسلام سلما، فأما أحدهما فوجد فرجة في المجلس فجلس فيها وأما الآخر فاستحيى، فجلس خلف الصفوف، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيى فاستحيى الله منه، وأما الآخر فأعرضَ فأعرض الله عنه))

وعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أننا إذا فرغنا من مجلس أو لقاء أو سهرة وأردنا القيام، أن ندعوَ بهذا الدعاء:

((سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك))

فيجب أن نُنهي كل مجلس بهذا الدعاء لأنه من تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لنا.

وقد علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً أن ندعو بالدعاء بهذا الدعاء عند انفضاض مجلس، وهو:

((اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا بها الجنة، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا))

وهناك الكثير من الآداب النبوية في الجلوس مع الأصحاب في مجالس العلم أو خطب الجمعة أو اللقاءات الودّية، ومنها ما قاله عليه الصلاة والسلام:

((إذا لقي الرجلُ الرجلَ فكلمه لم يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذي ينصرف، وصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزعها ولم ير متقدماً بركبتيه جليساً له قط))

وما رُئي عليه الصلاة والسلام ماداً رجليه قط أدباً مع الله عز وجل وأدباً مع أصحابه ، – و من آداب المجلس ما قاله عليه الصلاة والسلام:

((إذا جلس أحدكم أو استلقى، لا يضع رجليه إحداهما على الأخرى))

لأن هذا الجلوس فيه كبر اجلس في أدب، ومن أدب المؤمن لا يضع رجلاً على رجل إذا جلس في مكان.

ومن أدب المجلس قوله:

((إذا نعس أحدكم فليتحول عن مجلسه ليقم وليغسل وجهه))

لأن الإنسان إذا اقترب من النوم فإنه يعدي بنومه هذا بعض من في المجلس، وهذا مما لا يليق بمجلس العلم.

الصدقة بين يدي نجوى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ثم يقول تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)

لقد كثر طلب الصحابة الكرام من أجل لقاء رسول الله، كما أن معظم المنافقين كانوا يتمنون أن يلتقي بهم رسول الله لغاية في نفس يعقوب، و وقت النبي عليه الصلاة والسلام ثمين جداً، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يميز بين المؤمنين والمنافقين، فجعل لهذا اللقاء ثمناً، وهذا الثمن صدقة، وهي ليست لرسول الله إطلاقاً، فهناك من يفهم هذه الآية على غير ما أرادها الله عز وجل، فالمعنى: قدم صدقة بين يدي لقائك مع رسول الله، لأن هذه الصدقة التي أمرنا الله بها تفرز الناس قسمين: المنافق لا يدفع، أما المؤمن فيدفع ويلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)

أهداف هذا الصدقة:

1- إن الفقراء سينتفعون بهذه الصدقة.

2- هي دليل يظهر صدق المؤمنين ونفاق المنافقين.

3- من خلالها يصبح اللقاء معقولاً، فلا يمكن أن يكون لقاء رسول الله لكل من أراد من المسلمين بلا ثمن مبذول، فبهذه الطريقة قد يخرج اللقاء عن غرضه الأساسي، فإذا استأثر مثلاً أحدهم بهذا اللقاء وأطال الجلوس، ثم طلب الآخر لقاءً ليفوز على الأول، لخرج الموضوع عن هدفه.

وسأضرب على ذلك مثلاً _ولله المثل الأعلى_: إن أي إنسان يقدِّم طلباً يدفع رسم هذا الطلب قبل تقديمه، فلو كانت طلبات الشهادة العامة مثلاً بلا رصيد لتقدم خمسمائة ألف طلب، وكل هؤلاء ليسوا جادّين في تقديم الشهادة، و بعد تقدم الطلبات يجب أن تُعَد لهؤلاء المتقدمين المراكز والمقاعد والأسئلة وما إلى ذلك، ثم تُفاجأ الوزارة أن معظم الذين تقدموا للامتحان لم يأتوا إلى الامتحان، فما الحل ؟ الحل أن تضع الوزارة رسماً مع الطلب، فالجاد في تقديم الامتحان يدفع الرسم، فالرسم له فائدة وفائدته أنه يفرز الجاد عن الهازل، فإذا كانت النجوى بلا ثمن لالتقى أي إنسان مع النبي عليه الصلاة والسلام، وقد يكون هذا الشخص منافقاً أو عدواً للرسول عليه الصلاة والسلام، فجاء هذا التوجيه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)

فالصدقة تُظهر إيمان المؤمنين و حرصهم على هذا اللقاء، كما أنها ينتفع بها الفقراء بهذا، فالمنافق لن يدفع صدقة للفقراء، فهذا فرز دقيق، والشيء الثالث والأهم هو أن الصدقة ليست للنبي لأن الأنبياء لا يأخذون الصدقة، فقد قرأت قصة لا أدري مدى صحتها أن النبي عليه الصلاة والسلام قطع عنه الوحي أسبوعين أو أكثر فقال: يا عائشة لعلها تمرة أكلتُها من تمر الصدقة خطأً، و كان قد رأى تمرة على السرير فأكلها، فقد كان عليه الصلاة والسلام يتعفف عن مال الصدقة، فهذه الصدقة ليست له، إنما هي للفقراء.

فإذا أردت أن تحضر درس علم مثلاً، فمن المستحب أن تقدم هدية لله، ليجعل جلوسَك في هذا المجلس متألقاً، فما هذه الهدية ؟ الهدية مثلاً أن تكرم أخاً لك، فهناك طلبة العلم وهناك الكثير من المحتاجين، وربما يكون المسجد بحاجة إلى أشياء، فإذا قدمت شيئاً ثم حضرت مجلس علم تكون قد قدمت هدية لله، فلا يوجد شيء بلا ثمن، و إذا أردنا أن نتوسع في مفهوم هذه الآية نقول: إن عملك الصالح الذي تعمله قبل أن تأتي إلى مجلس العلم يجعلك أكثر فائدة واستفادة من هذا المجلس..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)

فالنجوى هنا هي اللقاء الخاص، أما اللقاء العام فهو شيء آخر.

(ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ)

فالعمل الطيب يعود عليك بالخير،و طهارة النفس.

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قال العلماء: هذا الأمر على مستوى الندب لا الفرض، فأنت بإمكانك أن تخدم إنساناً فقيراً بأن تساعده وتؤمن له بعض الحاجات، أو أن تقدم شيئاً للمسجد، فهذا العمل الطيب ربما أعانك على الطهارة النفسية وجلب لك الخير العميم، و هذا هو فحوى الآية وعلاقتها بواقعنا، قال:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ)

أأشفقت أن تقدم جزءاً من مالك إلى إخوانك الفقراء المحتاجين المساكين ؟؟ إن حياتك الدنيا كلها يجب أن تكون من أجل العمل الصالح.

(فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

فالمقصود هو أن لا تأتي إلى مجلس العلم مستمعاً فقط، بل متفاعلاً مع هذا الدين، فهناك إخوان كثيرون يطرحون عليّ هذا السؤال: ما بالنا ننكر قلوبنا ؟ والإجابة: أن الإنسان إذا قل عمله الصالح أنكر قلبه وشعر بسآمة في صلاته، فهو يقرأ القرآن لا يتأثر ولا يخشع قلبه لا يقشعر جلده، يصلي فلا يشعر بالقرب من الله عز وجل، و لا تذوب نفسه في الصلاة، فما الحل إذاً ؟ الحل هو العمل الصالح ولو كان قليلاً، والدليل، قوله تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110))

(سورة الكهف)

الاستقامة تمهد الطريق إلى الله:

إن الأمر ثمين جداً والحقائق واضحة وناصعة أمام الإنسان، وإنك إذا استقمت على أمر الله زللتّ كل العقبات التي تكون في طريقك إليه، فالمعصية و المخالفة والتقصير حجاب بينك وبين الله، فإذا حجبت عن الله عز وجل فماذا بقي من الدين ؟ يبقى أفكار.. ثقافة.. طقوس مملة.. عادات وتقاليد، وهذا هو سبب انصراف الناس عن العبادات، فالعبادات عندهم حركات جوفاء لا معنى لها، لأنهم لما قصروا ولم يفعلوا الخيرات، وفعلوا بعض المنكرات حجبوا عن الله عز وجل، ولما حجبوا عن الله أصبحت العبادات عندهم جوفاء لا تقدم ولا تؤخر، وسأضع الآن يدي على شيء دقيق في حياة كل مؤمن...

إنك إن استقمت على أمر الله تماماً كان كل شيء تقوم به عملاً صالحاً تبتغي به وجه الله، وكل إنسان عنده من إمكانيات ما يمكن أن يكون عملاً صالحاً، فالطبيب إذا عالج المرضى الفقراء كان هذا عملاً صالحاً، و المحامي إذا دافع عن إنسان مظلوم كان هذا عملاً صالحاً أيضاً، كذلك المدرس إذا درس طالباً ضعيفاً وفقيراً.... فكل شيء تقدمه من علمك أو من خبرتك من مالك من جاهك هو عمل صالح إن ابتغيت به وجه الله:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا(9))

فإذا أضيف هذا العمل إلى طاعتك لله فإنه يجعلك تتألق، فإذا لم يمتلك الإنسان حاسة يشعر من خلالها بانقطاعه عن الله وقربه منه فهذه مشكلة كبيرة جداً، فالإنسان الموصول يعرف أنه موصول بطاعته لله واستقامته على أمره وتأديته لواجباتك الدينية وعمله الصالح الذي يصله بالله عز وجل، فإذا اتصلت بالله وصلت إلى كل شيء وما فاتك شيء من الدنيا.

والشيء الذي أريد أن أقوله هو أن الاستقامة تمهد الطريق، لكن العمل الصالح هو الذي يدفعك على هذا الطريق، فمهما ارتقت ثقافة الإنسان الإسلامية، ومهما كثر حضوره لمجالس العلم، ومهما تزين بزينة الإسلام، فإن لم تكن مستقيماً وله عمل صالح يبتغي به وجه الله فإنه لن يتألق ولن يتصل ولن يسمح الله لقلبه أن يتشبع بالسكينة والتجلي.

فيا أيها الأخوة الكرام... هذه آيات دقيقة أرجو من الله أن تكون نبراساً لنا في طريقنا إلى الله، والإسلام منهج متكامل، يتطرق إلى كل شيء في حياة المؤمن، فشرب الماء و تناول لطعام مثلاً ينبغي أن يكونا وفقاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، كذلك الحال مع كل ما يتعلق بحياة الإنسان من بيع وشراء و أداء للحرفة، فهناك مشكلة يعاني منها المسلمون وهي أن المسلم قد يكون ملتزماً من رواد المسجد،لكنك إذا بعته أو اشتريت منه، أو احتككت معه بالدرهم والدينار وجدت بوناً شاسعاً بين تمسكه و تعامله، فهو لا يتقي الله في صنعته، والدين الحقيقي إنما يكون في دكانك و مصنعك ومكتبك، و بيعك وفي شرائك، و خلوتك و جلوتك وفي كل نشاطاتك.

أيها الأخوة... إننا إن لم نستقم على أمر الله كان طريقنا إلى الله غير سالك، و عندئذ يغدو الإيمان ثقافة، ويغدو الإسلام عادات وتقاليد، كما تغدو العبادات طقوساً لا تقدم ولا تؤخر، فالوصول إلى الله شيء ثمين جداً، ولكن الله عز وجل إذا نظر إلى قلبك وألقى فيه السكينة فإن الدنيا كلها لا تعدل شيئاً أمام هذا الشعور، و هذا هو الذي ينبغي أن نحرص عليه، فقد وصل أصحاب النبي -على قلتهم- إلى أقاصي الأرض، وفُتحت أمامهم المشارق والمغارب، و حينما ترك المسلمون دقائق دينهم وتخلوا عن استقامتهم وأعمالهم الطيبة، أصبح الدين عنده انتماءات تاريخية ليس غير، وهذا الانتماء التاريخي سبب لهم مشاكل لا حصر لها.

آداب أخرى من آداب المجلس:

أيها الأخوة... هناك بعض من آداب المجلس أضعه بين أيديكم:

من أدب المجلس: (أنه إذا سئل أحدكم عما يعلم فليقل به)، ونريد هنا أن نوسع الدائرة قليلاً، فلو جلست في مجلس مع إخوانك، فإن من الأدب فيه أنه إذا سئل أحدكم عما يعلم فليقل به، وإذا سئل عما لا يعلم فليقل: الله أعلم، و أنت أحياناً قد تتورط في مجلس فتتكلم عما لا تعلم، وإذا تكلمت فيما لا تعلم وقعت في

إثم كبير، يقال: **(فإن من علم الرجل إذا سئل عما لا يعلم قال لا أعلم والله أعلم)**، وذلك كأن أن تقول على الله بغير علم، فتفسر آية بغير علم مثلاً، وهذا مما يتناقض مع أدب المجلس، فاحفظ أمانة العلم، فإن سئلت عما تعلم فقل، فإن لم تكن تعلم فقل: لا أعلم، فهذا من نَصَف العلم، واقتدِ في ذلك بـ(مالك) إمام دار الهجرة، الذي جاءه وفد من أقاصي المغرب من الأندلس، وكان سفرهم قد استغرق أشهر، و كان معهم ثلاثون سؤالاً، فأجاب عن سبعة عشر سؤالاً، فلما قيل: أين إجابات الأسئلة الباقية ؟ قال: **لا أعلم**، فقالوا: الإمام مالك لا يعلم، فقال: **"قولوا لمن أرسلكم إن الإمام مالك ابن أنس لا يعلم "** و هذا من أدب المجلس.

هناك أدب آخر، فعن أبي عبيدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص،كان الرجل فيهم يرى أخاه على الذنب فينهاه، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رآه منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم قرآناً))

فقد يجلس أحياناً بعضنا مع بعض، ويجامل بعضنا الآخر، وقد نرى منكرات كثيرة فنسكت، فنكون بذلك قد استحيينا من أن نجهر بأمر الله، فسكتنا عن منكرات المجلس فقال الله عز وجل:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ(78)كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(79)تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ(80)وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(81))

(سورة المائدة)

فإذا كنت في مجلس علم أو في لقاء خاص فسُئلت، فإن كنت تعلم فقل ما تعلم، وإن كنت لا تعلم فقل: لا أعلم، وإن رأيت منكراً فأنكره بيدك كأن يكون الفاعل ابنك مثلاً، أو أنكره بلسانك إن كان فاعله صديقك، أو أنكره بقلبك إن كنت لا تستطيع أن تجهر بالإنكار وذلك أضعف الإيمان.

أيها الأخوة... لا بدّ لنا من أن نتناصح، لأن التناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة بعد الفرائض الخمسة، والله سبحانه وتعالى جعل التواصي بالحق أحد أركان النجاة فقال:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة العصر)

وقال تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(104))

(سورة آل عمران)

أما إذا تركت أمةُ النبي صلى الله عليه وسلم الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر انتقلت من أمة الاستجابة إلى أمة التبليغ، وأمة التبليغ ليس لها عند الله أي ميزة.

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(80))

(سورة البقرة)

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(سورة المائدة 18)

وإذا قال المسلمون: نحن أولياء الله فالجواب: فلم يعذبنا الله بذنوبنا ؟ فعندئذ نكون بشراً ممن خلق الله عز وجل ليس لنا ميزة واحدة، أما إذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر كانت لنا الميزات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المجادِلة 058 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 14-22
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-06-07

بسم الله الرحمن الرحيم

صفات النافقين، وضرورة التزام الجماعة المؤمنة

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع والأخير من سورة المجادلة ومع الآية الرابعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

تولّي غير المؤمنين:

الحديث هنا عن المنافقين، وقد ذكرت لكم أن النفاق لا يأمنه إلا منافق ولا يخافه إلا مؤمن، و النفاق يسري بين المؤمنين كالنار في الهشيم، فإذا لم يكن المؤمن يقظاً واعياً حريصاً على سلامة إيمانه فإن النفاق يسري إلى قلبه وهو لا يشعر، لكن هذا النفاق ليس نفاق الكفر، إنما نفاق المعصية، فحينما يخضع المؤمن إلى ضغوط أو مغريات أو شبهات فإنه قد ينحرف في داخله، بينما يكون محافظاً على ظاهره، وهذا النوع من النفاق خطير جداً، إلا أن شفاءه محقق، لذلك يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

هؤلاء المنافقون هم الذين والوا، و الإيمان في حقيقته ولاء لله ورسوله والمؤمنين، وما الكفر والنفاق إلا العداء والبغضاء لهم، فمن أحب الله ورسوله والمؤمنين فهو-ورب الكعبة- مؤمن، ومن أبغض المؤمنين كان بغضه هذا أحد أنواع النفاق، فإذا أردت أن تطمئن على قلبك فانظر إليه، أيحب المؤمنين أم يبغضهم ؟.

هؤلاء المنافقون الذين تحدث الله عنهم تولوا هم اليهود، قال الله عز وجل:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(7))

(الفاتحة)

فالناس ثلاثة: رجل عرف الله فأطاعه، فهو من الذين أنعم الله عليهم وهداهم طريق الاستقامة وقربهم وتجلى على قلوبهم وأسعدهم في الدنيا والآخرة.

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)

المغضوب عليهم ؛ أي: الذين عرفوا وانحرفوا، وقال بعض المفسرين: هم اليهود، والذين لم يعرفوا ثم انحرفوا هم الضالون، يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

الانتماء إلى جماعة المؤمنين:

أيها الأخوة... أذكر لكم بالمناسبة أن الإيمان إنما هو انتماء المؤمن إلى جماعة المؤمنين، فهو يشعر أنه أحد أفراد المؤمنين، كما يشعر أنه لصيق بهم، فيؤلمه ما يؤلمهم ويسعده ما يسعدهم، و يرضى لهم ما يرضى لنفسه، و يتمنى رفعتهم ورقيهم وفوزهم، فإذا فازوا شعر أن هذا الفوز له، أما الذي يتولى أهل الكفر والعصيان وينتمي وينضم إليهم ويدافع عنهم فهو منهم، فقد ورد في الحديث الشريف:

((أنه من هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

فهناك من الناس من يذهب إلى بلاد الغرب، فيعود ويتحدث عن فضائل الغربيين، أما سقطاتهم وانحرافاتهم وانحلال أسرهم وتفلت أخلاقهم وسوء عقيدتهم فيكتمه، فهو إذاً ولي لهم لكن المؤن الصادق يتولى المؤمنين.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

والانتماء الحقيقي أيها الأخوة إنما يكون إلى مجموع المؤمنين، فلا تنتم إلى جماعة صغيرة بل إلى مجموع المؤمنين، لتحس بعد ذلك أن أي مؤمن على وجه الأرض قريب منك ولو تباعدت الأجسام واختلفت البلاد، وذلك لأن انتماءك إلى مجموع المؤمنين يجعلك أقرب إليهم.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ)

فهؤلاء المنافقون ليسوا من المؤمنين، فهم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ثمرة الدين:

إخوانا الكرام... هناك نقطة هامة جداً أريد أن أشير إليها، وهي أن هذا الدين له ثمرة واحدة هي الاتصال بالله، فهدف التجارة مثلاً هو تحقيق الربح، وإن كل النشاطات التجارية من اختيار المحل وتزيينه وملئه بالآلات... إلخ،إنما هي من أجل أن تحقق الربح، فإن لم تحقق ربحاً كانت هذه التجارة لا معنى لها، كما أن الدين كلّه، بعقيدته و عباداته، كطلب العلم وتعليمه، وغير ذلك، كل ذلك يكون من أجل أن تتصل بالله فتسعد بهذا الاتصال، فإن لم يكن لك اتصال بالله كان كل ما فعلته ليس بشيء، فهؤلاء المنافقون لم يقطفوا ثمار الدين، لأنهم لم يستقيموا على أمر الله، فكان انتماؤهم انتماء شكلياً، كما أنهم ليسوا مع الكفار، إنهم لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فهم لم يأخذوا ميزات المؤمنين، ولا تفلت الكافرين، وإنك قد ترى عندهم انضباطاً، وذلك إرضاءَ للمؤمنين لا إرضاء لله عز وجل، أما باطنهم فهو مع الكافرين، فهم ليسوا مع الكفار أحراراً فيما يتحركون، ولا هم مع المؤمنين يقطفون ثمار الدين، فأنت مثلاً محسوب عند جيرانك وأقربائك من المؤمنين، فإن لم تقطف ثمار الإيمان ضيعت هذه وتلك،

فثمرة الإيمان هي الاتصال بالله عز وجل، وحسن العلاقة به، و الإقبال على الله دوام ذكره، و السعادة بالقرب منه.

إن هذه العلاقة تحتاج إلى وسائل، فالمركبة لا تمشي إلا إذا استُكملت جميع أجزائها، من محرك ووقود و مكبح... إلخ، أما لو كان عندك قطع من سيارة فهي لا تسير، وقد يكون لهذا القطع ثمن، لكنها لا تسير، فأنت لا تستطيع أن تسير إلى الله ولا أن تتصل به لتقطف ثمار الإيمان من القرب والسعادة إلا بطاعتك لله، فإن لم تفعل هذه الطاعة خسرت ثمار الدين وبقي انتماؤك إلى الدين شكلياً، فلا أنت مع أهل الدنيا المتفلتين ولا مع أهل الإيمان، وهذه هي المشكلة، قال:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ)

الولاء للمؤمنين:

إنك قد تعامل إنساناً غضب الله عليه بعلاقة عمل، فهنا لا شيء عليك، أما الحب والانتماء فهذا هو الولاء، فالذي يوالي إنساناً يدافع عنه، و يصوب عمله، و يميل قلبك إليه، فيسترشده ويصغي إلى نصائحه، و يكبره ويعظمه....

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

إن المنافق يعلم أنه منافق كاذب، لذلك تراه دائماً يلجأ الأيمان المغلظة ليستر نفسه،إلى فإذا رأيت إنساناً يكثر حلف الأيمان بسبب وبغير سبب فاعلم أن فيه [خصلة] من النفاق.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(ألم تر) ؛ أي: انظر إلى حال هؤلاء، وما فيهم من وضاعة الشكل، و ازدواج الشخصية والبعد عن الله، واعلم أن الله سيفضحهم، يقول الله عز وجل:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران 179)

وقال:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

فهناك من الناس من يظهر خلاف ما يبطن، لكنه لا يمكن أن يستمر بهذا إلى ما لا نهاية، فلا بدّ من أن يفضحه الله عز وجل، فيكشف حقيقته و يظهر ما يضمر، و هؤلاء الذين يقول الله عنهم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

كان هؤلاء المنافقون يجلسون إلى اليهود والكفار، وينقلون إليهم كل ما قال النبي للمسلمين من خطط وأخبار، فقد كانوا يخونون الله ورسوله.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

علاقتنا بهذه الآية:

قد يقول قائل: ما علاقتي بهذه الآية ؟ فنقول: إنك إذا واليت إنساناً من أهل الدنيا والمعاصي، وكان هذا الإنسان بعيداً عن الله عز وجل ومقطوعاً عنه، ثم أحببته ونقلت له كل شيء عن المؤمنين، فإنك تكون بذلك تنتمي إليه ولا تنتمي إلى المؤمنين، فتنطبق عليك هذه الآية، لأن هؤلاء المذكورين في الآية هم الذين يوالون أعداء الله، فيدافعون عنهم وينسجمون معهم ويمدحونهم، فقل لي من توالي أقل لك من أنت، والمؤمن يوالي المؤمنين.

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

إن لم يعامل الإنسان الله عز وجل ساء عمله وحبط، فإذا كان لديك عمل فافحص عملك واعرضه على كتاب الله، ثم انظر هل هو وفق المنهج ؟ و هذا هو الشرط أول، وهل ابتغيت به وجه الله ؟ وهذا هو الشرط الثاني، ثم افعل هذا مع مجمل عملك، في بيتك ومكتبك و حرفتك و طريقك و علاقاتك المالية والاجتماعية، وحركتك في الدنيا، فاعرض كل هذا على كتاب الله، فإن كانت موافقاً للمنهج وتبتغي بها وجه الله فهنيئاً لك وهنيئاً لمسعاك، أما إذا كان في العمل معصية أو خلل، أو كانت النوايا ليست طيبة فلا بدّ أن تصحو قبل فوات الأوان، وهناك فسحة للتوبة والإصلاح مادام القلب ينبض.

إن الله عز وجل ما جعل هذا الكلام وحياً يتلى إلى يوم القيامة، وما جعلنا متعبدين بتلاوته إلا ليكون درساً بليغاً لنا، فاسأل نفسك: هل أنت توالي المؤمنين أم توالي أهل المعصية والفجور؟ عمّن تدافع ؟ ومن تتمنى أن يرقى بك ؟ هؤلاء أم هؤلاء، هل يؤلمك ما يؤلم المؤمنين ؟ هل يقلقك ما يقلق المؤمنين ؟ هل يرضيك ما يرضيهم ؟ هل يسعدك ما يسعدهم ؟ فإذا كنت كذلك كان ولاؤك للمؤمنين، أما إذا واليت أهل الدنيا وأهل المعصية والفجور وانضممت إليهم وانتميت إلى فئتهم، وأعنتهم ودافعت عنهم ومحّضتَهم الحب كان ولاؤك لغير المؤمنين، والولاء قضية مهمة جداً، فقد جاء في الحديث أن العبد يقول يوم القيامة: يا رب لقد فعلت كذا وكذا، فيقول الله تعالى:

((أما جُهدك فقد تعجلت فيه الراحة لقلبك ولكن ماذا فعلت من أجلي يا عبدي ؟؟))

يقول: يا رب ماذا أفعل من أجلك ؟، يقول الله عز وجل:

((هل واليت فيّ ولياً ؟ هل عاديت فيّ عدواً ؟))

أي: هل واليت إنساناً لا تحبه إلا في الله ولم يكن لك عنده مصلحة أبداً، من علاقة مالية أو اجتماعية، أو قرابة... فكنت لا تحبه إلا لله لأنه مؤمن به، وكانت علاقتك به علاقة الإيمان، فإذا أحببت إنساناً لله فأنت مؤمن، أما إذا أحببت مَن لك مصلحة عنده فأنت من أهل الدنيا، لأن هذا الذي يبني علاقاته على أساس مصالحه، فيوالي الجهة التي يأتيه الخير منها ولو كان ذلك على معصية، ويعادي والجهة التي لا تنفعه ولا تضره ولو كان ذلك على طاعة، فهو منافق، لأن هذا أحد أنواع النفاق، فالمنافق حركته مع مصالحه، أما المؤمن الصادق فهو يحب أي مؤمن من دون علاقة مادية أو قرابة، لأنه لا يحبه إلا لله، فإذا كان في حياة أحدنا علاقات خالصة لله، فكان يحب مؤمناً لا يحبه إلا لله، ويبغض الكافر و الفاسق و المنافق و الفاجر لا يبغضهم إلا لله فهذا هو المؤمن ورب الكعبة، فالمؤمن يحب لله و يبغض لله ويعطي لله و يمنع لله و يغضب لله ويرضى لله، ويقيم علاقاته على أساس الإيمان.

فالآية تقول لك: يجب عليك أن توالي المؤمنين و تنتمي إليهم و تحبهم لله و تسترشدهم، كما يجب عليك أن تبغض الفاسق لله..

قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

فهؤلاء المنافقين الذين والوا اليهود ومحّضوهم النصح، ونقلوا إليهم أخبار النبي وأصحابه هؤلاء:

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أيها الأخوة... ما منا واحد إلا يحب السلامة لنفسه، فإذا علمت أن المنافق سيحاسب أشد الحساب في الدنيا والآخرة وجب عليك أن تبتعد عن النفاق، إلا أن الشيء الذي يلفت النظر أن الجزاء بعيد، أما المغانم فهي قريبة وهذا من ابتلاء الله للناس، فالأشياء المحسوسة قريبة، أما الجزاء فهو خبر جاء في كتاب الله أو في حديث رسول الله، فالمؤمن الصادق يصدق خبر الله عز وجل فيرتدع، أما غير الصادق فيتبع ما بين يديه من مكاسب مادية وشهوات، وينسى وعد الله ووعيد، ثم يندم أشد الندم حينما يأتي العقاب.

(إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فالعمل السيئ سوف يسوء صاحبه.

اليمين الفاجرة سلاح المنافق:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

إن سلاح المنافق هو اليمين الفاجرة، فالمؤمن أقوى من أن يؤكد كلامه بيمين، لأن كلام الإنسان الصادق واضح و حقيقي، فكلما رأيت إنساناً يكثر الحلف فاعلم أن فيه خصلة من النفاق، وقد قال الله عز وجل:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

(سورة المائدة 89)

فإن لم يصدقك الذي يستمع إليك فلا تلقِ عليه كلاماً أبداً، لأنك إنسان مؤمن، ومن أبرز خصائص المؤمن أنه صادق، فإذا سُئلت فأجب من غير أيمان، لكن المنافق يعلم أنه منافق وأنه يكذب على الناس، فهو يلجأ دائماً إلى حلف اليمين من أجل ألا يفتضح أمره.

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

(جُنّة) ؛ أي: ستراً أو ردْءاً يستترون به

جزاء المنافقين:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

إن عذاب الازدواجية عذاب مُهين، فقد يبطن الإنسان شيئاً ويظهر شيئاً، فإذا انكشف هذا الذي أبطنه أُهين الإنسان، وليس هناك شعور أشد على نفس البشرية من أن تفتضح، فإذا علم الناس حقيقة الإنسان وهو يحاول أن يستره نفسه كان هذا عذاباً مهيناً بالنسبة له، وإذا كان للإنسان مظهر معين ثم كشفت حقيقته كان هذا الكشف شيئاً مخيفاً، فمن الناس من له أسرار فاحشة ومنحرفة، لكن يملك مظهراً راقياً، فإذا كشفت أسراره وفضحت كان في عذاب مهين.

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

إن للمنافق مظهراً وله مخبراً، و ظاهراً و باطناً، كما أن له مواقف معلنة و مواقف حقيقية، فلو كشف إنسان ازدواجيته انصرف هذا المنافق عن طريق الدين كله، فيكون بذلك قد صدّ الناس عن الدين وهو لا يشعر، فإذا أنت عاملت الناس معاملة راقية، وكنت محسوباً بينهم على أنك مؤمن، لجذبت هذه المعاملة الراقية الناس إلى الدين، فإذا أسأت معاملتهم نفّرتهم من الدين، و كل إنسان عنده ازدواج في شخصيته، وله ظاهر و باطن يصد الناس عن سبيل الله وهو لا يشعر.

لماذا ينافق المنافق ؟؟

ولكن السؤال المُحير: لماذا ينافق المنافق ؟ لماذا يظهر ما لا يبطن ؟ لماذا يكذب ؟ لماذا يوالي أهل المعصية والفجور ؟ لماذا يوالي أهل الدنيا ؟ إنه يفعل ذلك من أجل الدرهم والدينار و المكاسب المالية، فلكل إنسان هدف معيّن في ذهنه، وإن هدف النفاق هو المكاسب المادية والدنيا، فقد نافق المنافقون من أجل الدرهم والدينار، لكن ربنا عز وجل طمأنهم أن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم من الله شيئاً، فهذا

الذي سعَوا في سبيله وضحوا من أجله بدينهم لن يغني عنهم من الله شيئاً، فمن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى... فعندما يعصي الإنسان ربه ويبيع دينه وعرضه أحياناً من أجل الدنيا لم تغن هذه الدنيا عنه من الله شيئاً، فقد لا ينتفع بها، وقد لا تمنعه من مصيبة تلم به، قال:

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

لقد أكثر الله عز وجل من ذكر أوصاف المنافقين كي نحذر الوقوع في طريقهم، وما ذكر الله أوصاف المنافقين إلا لنكون يقظين من أن تزل أقدامنا إلى سلوكهم.

ليسوا على شيء...

قال تعالى:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

إن المنافقين ليسوا على شيء، و المشكلة هي أن المنافق أحياناً قد يظن أنه على شيء رشيد، وأنه يفعل ما يفعل من أجل مصلحته، كي يرضي مطامعه ويرقى عند الناس ويكسب المال الوفير، قال تعالى:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً)

فسوف يكشف الله لهم حقيقتهم وكذبهم و نفاقهم و دجلهم، وأنهم ليسوا على شيء، فالإنسان لا يكون شيء إلا إذا عرف الله وأطاعه فكان مؤمناً مستقيماً.

(ليس على شيء): إذا كان الإنسان معتنقاً لعقيدة صحيحة يقال: هو على شيء، وإذا كان لفلان عمل طيب يرضي الله نقول: هو على شيء، وإذا كان فلان ينطوي على علم عميق نقول هو على شيء ؛ أي: على شيء حقيقي، أما إذا قال الله عز وجل: ليسوا على شيء فمعنى ذلك أنهم ما حققوا شيئاً وما كسبوا شيئاً و ما نالوا شيئاً وما وصلوا إلى شيء و ما نجحوا في شيء، فالمنافق لم يحقق من الدنيا شيئاً إلا أنه استحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

جهل المنافقين:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ)

إنهم من شدة جهلهم بالله يظنون أن الكذب الذي كانوا يكذبونه على المؤمنين ينطوي على الله عز وجل، وهناك من الناس مَن يسلك الحيل الشرعية وهو يظن أن هذه الحيل تنطوي على الله، وهؤلاء أيضاً ليسوا على شيء، فإذا أنت عاملت خالق الكون الذي يعلم السر وأخفى و لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء على أنه يمكن أن ينطلي عليه شيء، فأنت إذاً لا تعرفه، فقد أشار الله إلى جهلهم وإلى غفلتهم بهذه الآية:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ)

إن لك أن تقول كل شيء تريد، لكن أسألك بربك: ألا تعلم هل أنت صادق في قولك أم كاذب ؟؟ فقد تنصح الناس بأي شيء لكنك تعلم: هل هذا نصح لهم أم لا ! فلو كان عند البائع لون كاسد مثلاً، ثم طلب منه شخص أن ينصحه بلون جميل، فأشار عليه باللون الكاسد، ألا يعلم البائع من نفسه أنه يغشّ المشتري ؟؟ قال الله عز وجل:

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

فليس هناك من إنسان إلا هو علم بحقيقة نفسه، و قد بلغ النفاق بهؤلاء مبلغاً أرادوا فيه أن يغشّوا الله عز وجل قال تعالى:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

وقال:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

فيجب على الإنسان ألا يبرئ نفسه، فكلما بالغ في اتهامها نجح في الخلاص من النفاق، و كلما أكثر من حساب نفسه حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، فلا تراع نفسك ولا تجاملها ولا تتملقها، بل افحصها فحصاً جيداً.

لقد أعد الله لهؤلاء المنافقين عذاباً مهيناً في الدنيا، ولسوف يسوءهم عملهم ثانية في الآخرة، وذلك لأنهم يصدون عن سبيل الله وهم لا يشعرون، فهم منفرون من الله ورسوله، فلهم عذاب مهين حينما يفضحهم الله عز وجل.

إن هذا المال الذي جمعوه بسب نفاقهم وولائهم لأهل الدنيا لن يغني عنهم شيئاً، كذلك أولادهم الذين ضحوا بدينهم من أجلهم لن يغنوا عنهم شيئاً أيضاً، فقد يمنع الإنسان ابنه من أداء العبادات من أجل مستقبله القريب، وقد يضعه في مجالات تفسده من أجل أن يضمن له مستقبله القريب أيضاً..

فهذا المال الذي جمعوه بنفاقهم ودجلهم، وهؤلاء الأولاد الذين أقحموهم في مجالات الضلالة والشهوات من أجل مستقبلهم القريب، كل هؤلاء لن يغنوا عنهم من الله شيئاً.

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

سيُسألون:ما قولكم ؟ والله إنه شيء مخيف، إن أعمالهم سيئة وسوف تسوءهم، فقد صدوا عن سبيل الله، كما أنهم لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً، وهم فوق كل ذلك يحسبون أنهم على شيء وهم ليسوا

على شيء، ويوم القيامة سيحلفون لله كما يحلفون للمؤمنين في الدنيا، وذلك منتهى الجهل، لأن الإنسان حين يظن أن الله سبحانه وتعالى لا يعرف حقيقته فهو لا يعرفه إطلاقاً.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

إن الكذب شيء خطير، فإذا فشا الكذب في مجتمع فاقرأ عليه السلام، فالصدق أساس الرقي.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ)

استحوذ عليهم الشيطان ؛ أي: غلبهم وسيطر عليهم، وهيمن عليهم، وسخرهم لمآربه، فاستخدمهم لإضلال البشر.

(اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ)

لقد أنساهم ذكر الله وطاعته، فإما أنه جعلهم غافلين وإما أنه جعلهم عصاة، وفي كلا الحالتين استحوذ عليهم، فأنساهم ذكر الله، فما ذكروه اعتقاداً و ما ذكروه طاعة.

(أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

من كان له رغبة في قراءة التاريخ فليقرأ، ما مصير المنافقين والكافرين والعصاة الذين كادوا للمؤمنين عبر التاريخ كله ؟ إن مصيرهم في مزبلة التاريخ، إلى الهلاك والدمار و الندم الشديد، أما هؤلاء الذين وقفوا مع الحق ونصروه ووالوا المؤمنين ودعوا إلى الله عز وجل، فماذا كان مصيرهم ؟ لقد كان مصيرهم التألق في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

أقسام الناس:

الناس بين اثنين: إنسان يوالي الشيطان كالكافر والغافل عن الله والمتفلت، فهو شقي في الدنيا والآخرة، وهناك إنسان مؤمن منضبط يعرف الله، فهو موصول محسن سعيد في الدنيا والآخرة، فتقسيمات بني البشر لا تزيد الناس على تقسيمَين:إنسان مؤمن متّقٍ فهو كريم على الله، وآخر خب لئيم فهو هين على الله.

معاني (يحادون):

ثم يقول تعالى في الآية العشرين:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

1- المعنى الأول: إن الذي يحادِدُ الله ورسوله هو الذي لا يعبأ بحدوده ولا بأمره ولا بنهيه، فلا يقيم حدوده ولا يلقى لها بالاً ولا يعظمها، بل يخرقها.

2- المعنى الثاني: إن الذين يحادون الله ورسوله هم الذين يعادون الله ورسوله، فكيف يُعادى الله ؟ إن الله يعادى بالطعن في دينه، و السخرية من أوامره، كقول أحدهم: هذا الأمر لا يصلح لهذا الزمان، هذا الأمر شيء مضحك... فهو يتلذذ في انتهاك حرمات الله.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

فإما أنهم لا يعبؤون بحدود الله، أو أنهم يقفون موقف المعادي لله ورسوله.

مصير من يحادّ الله ورسوله:

قال تعالى:

(أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

كأن الله سبحانه وتعالى هنا يبين أن مصيرهم إلى الذل، وليس هناك من شيء يمكن أن يهز أركان النفس ويردها رداً أليماً كأن يذل الإنسان، والله أيها الأخوة لو قرأتم التاريخ كله لما وجدتم فيه إلا تأكيداً لهذه الحقيقة.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

فقد تجد أحياناً أخين في أسرة واحدة، أحدهما مؤمن مستقيم ورع، والآخر فاجر منحرف، فقد يكون الفاجر في البداية حرّاً طليقاً يفعل ما يريد، وله شعبية بين أهله، فإن كان أهله منحرفين فإنهم يكبرونه ويثنون عليه ويفتخرون به، أما هذا المؤمن المستقيم فيكون بينهم في تعتيم، ولكنك بعد حين ترى أن هذا المنحرف وقع في شر عمله، فإما أن يقع في مرض عضال أو فقر مدقع.. إلخ، أما هذا الشاب المستقيم فيرفعه الله في الدنيا قبل الآخرة.

الغلبة لله ورسوله:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

أفلا ترضى أن تكون مع القوي العزيز ؟ ألا ترضى أن يكون الله سبحانه وتعالى القوي العزيز ناصراً لك و مدافعاً عنك ؟ لقد كتب الله في اللوح المحفوظ أنه سينصر مَن ينصره، فهذا من كلمات الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً، وقد ذكر الله تعالى كلمة (كتب) من أجل أن يطمئننا إلى أنه شيء ثابت قطعي مكتوب عنده.

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)

إن الله سبحانه وتعالى قد يحرك الأشخاص ليمتحنهم، فهو أحياناً يحرك الكافر، فيبدو لك أنه أقوى من المؤمن، لكن العاقبة في النهاية الأمور لا تستقر إلا على نصرة المؤمن، فحينما قوي الكفار في عهد النبي وجاؤوا بجيش كبير في معركة الخندق، ثم نقض اليهود العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم،

وأصبح الإسلام على وشك الانهيار، لم تكن القضية عندئذ قضية انتصار أو هزيمة، بل كانت قضية نكون أو لا نكون، حتى قال أحدهم أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟؟ فقال تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا(11)وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا(12))

(سورة الأحزاب)

لكنه قال أيضاً:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23))

(سورة الأحزاب)

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

صدقني أيها الأخ الكريم أنه إذا استوى الكافر والمؤمن، والمستقيم والمنحرف، والمحسن والمسيء، و الذي يخاف الله والذي لا يخافه، والمطيع والعاصي، والعالم وغير العالم إذا استوى هؤلاء كان هذا متناقضاً مع وجود الله، و الدليل قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

فيجب عليك أن تثق بالله و تتفاءل و توقن أن العاقبة لك إذا كنت مع الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك.

كن مع الله ترى الله معك واترك الكل وحاذر طمعك
وإذا أعطاك من يمنعه؟ ثم من يعطي إذا ما منعك؟

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

وهذه القاعدة تنسحب على كل أمور الحياة، فإذا كان هناك رجلان في عمل مثلاً، وكان أحدهما يريد أن يبني تجارته على معصية الله ولا يعبأ بأوامر الدين، أما الآخر فكان يخاف الله عز وجل و يبني تجارته على طاعة الله، فقد تجد المتفلت في البدايات يغنى سريعاً، لكن الله عز وجل يقسمه بعد حين، أما الخائف من الله فيرفعه الله، فانظر دائماً إلى عواقب الأمور، لان العبرة بالعواقب لا بالبدايات

المحيرة، فلا بدّ من بدايات محيرة لكي يُمتحن الإنسان، لكن الأمر لا يستقر بعد ذلك إلا على إكرام المؤمن وإهلاك الكافر.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

لذلك جاء في دعاء القنوت **(سبحانك إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت)** فمن المستحيل أن تكون في صف أعداء الله ثم تكون عزيزاً، ومن مستحيل أن تكون في صف أولياء الله و تكون ذليلاً.

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

المؤمنون لا يوادّون من حادّ الله ورسوله:

ثم يبن الله عز وجل في هذه الآية الخطيرة أن الإنسان الذي يود من حاد الله ورسوله لا يمكن أن يكون مؤمناً، قال تعالى:

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

فهذا الذي يعادي الله ورسوله، و يهزأ بالدين ن و يطعن به، و يرى أن هذا الدين لا يصلح لهذا الزمان، و يسخر من أحاديث رسول الله هذا الإنسان لا يمكن أن يواليه مؤمن.

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)

فإذا كان هناك أب غير مستقيم، لكنه لا ينهى ابنه عن العمل الصالح، فهو لا تنطبق عليه الآية، وهذا الأب من الممكن أن يوالى، لأن الله سبحانه وتعالى سيأخذ بيده بعد حين إن شاء الله، أما الإنسان الذي يحارب الدين ويصد الناس عن سبيل الله ويهزأ بالدين فلا يجوز أن يوالى.

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

إن علاقات العمل شيء والعلاقات الحميمة شيء آخر، فمن الممكن أن تعامل إنساناً غير ملتزم معاملة جيدة في حدود العمل، فإذا كان على المؤمن واجبات فليؤدها، وإذا كان عليه مواقف فليقفها كما ينبغي، أما أن يقيم علاقة حميمة مع إنسان يحادد الله ورسوله فهو أمر من المستحيل أن يقبله مؤمن.

فالله سبحانه وتعالى يقول هنا: لا يمكن أن تجد في الأرض كلها مؤمناً واحداً يود من يحادد الله ورسوله.

فالحقيقة تقول: إن هناك شيئاً اسمه التناقض، كما أن هناك شيئاً اسمه التعاكس، فهذه الجدران فيها لون غامق ولون فاتح، فالألوان فيها متعاكسة لكنها موجودة، أما الضوء والظلام فهما متناقضان، فوجود الضوء ينقض وجود الظلام، و وجود الظلام ينقض وجود الضوء، ولا يمكن للمتناقضان أن يجتمعا، فدققوا فيما سأقول:

المؤمن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر حق الإيمان يتناقض مع إنسان كافر الذي لا يعبأ بأمر الله، فهما لا ينسجمان ولا يتوافقان و لا يتماشيان، فإذا تماشيا كان أحدهما ليس على الحق وقد وافقه الطرف الآخر.

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ)

إن هذه الآية تذكرنا بقوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24))

(سورة التوبة)

و هذه الآية خطيرة جداً، فهي تقول: إذا رأيت أن هذا المسكن المريح، أو أن هذه التجارة المشبوهة في طريقة معاملتها و نوع بضاعتها، أغلى عندك من الله ورسوله، فإن طريقك إلى الله في هذه الحال غير سالك، لأنك تؤثر أشياء على طاعة الله، وهذه الآية نفسها:

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ)

فالمؤمن قلبه ممتلئ بالإيمان، فهو مسدد و مؤيد و ملهم، وهو ذو كلام مؤثِّر، و عمل حكيم، لأنه يتولاه الله فيسدد خطاه ويلهمه الصواب ويدله على الخير ويعين عليه، و هذا هو معنى:

(أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ)

فإذا أيدك الله تعالى فعلت الشيء المستحيل، فأحياناً قد يتكلم الإنسان كلاماً مؤثراً، أو يتصرف تصرفاً حكيماً، فيكون هذا بتوفيق الله وتأييده، فتصور أن هناك آلة كهربائية لا تتحرك بسبب عدم وجود الكهرباء فيها، فإذا حركت المروحة بإصبعك فإنها تدور دورتين ثم تتوقف، أما إذا جاءت القوة الكهربائية فإنك لن ترى (الريش) من سرعتها، فإذا كان الإنسان بعيداً عن الله فهو كأنما يحرك المروحة بيده، فإذا استمد من الله العون والتوفيق فعل ما لا يفعله الآخرون، فهل تصدق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام الذين لا يزيدون عن بضعة آلاف قد وصلوا إلى أقاصي الأرض فاتحين، و أن هناك مليار ومائتي مليون مسلم معاصر وضعهم اليوم لا يرضي، ألم يخطر ببالك هذا السؤال؟ هذا السؤال دقيق، وجوابه سهل، وهو قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

لقد كتبَ الله في قلوبهم أولئك الإيمان، وأيدهم بروح منه، ألا تتمنى أن تكون مؤيّداً من الله عز وجل؟ألا تتمنى أن يكون الله معك دائماً يلهمك الصواب ويدلك على الخير ويعينك عليه ويعطي كلامك قوة تأثيرية ؟!

(وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

قال تعالى:

(وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة التوبة 72)

فأعلى مرتبة يمكن أن ينالها الإنسان هي أن يرضى الله عنه، فمن هو الذي يرضى عنه خالق الكون ؟؟ قد يكون المؤمن ذا حجمك صغير، فقد يكون موظفاً بسيطاً، أو صانعاً بمحل، لكن الله إذا كان راضياً عنه فهو ملك الملوك، وهو بذلك أسعد الناس، فالله معه ولا أحد في الكون يستطيع أن يصل إليه، **(إذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك ؟).**

أيها الأخوة الكرام... إن هذه مرتبة متاحة لكل إنسان بطاعة الله، فالمؤمن إذا عرضت عليه الدنيا بأكملها على أن يعصي الله فإنه لا يعصيه، فهو يستوي عنده التبر والتراب، و الناس يتوهمون أن الإيمان كلمة تُقال، بل إن الإيمان مرتبة راقية جداً.

وحينما يرضى الله عنه المؤمنين يتجلى على قلوبهم و يسعدهم، فإذا أسعدهم رضوا عنه.

(أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ)

كما أن هناك حزب الشيطان **(ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)**، وهنا قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحشر 059 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1- 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-06-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الحشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

1 - معنى التسبيح:

التسبيح هو التنزيه، والتسبيح التمجيد، التنزيه أن تنزّهَ الله جلّ جلاله عن كل ما لا يليق به، والتمجيد أن تجول في كماله، وأن تتحقق من أسمائه الحُسنى ومن صفاته الفُضلى، أن تنزهه، وأن تمجده.

2 - كلُّ المخلوقات تسبّح اللهَ:

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الأولى من سورة الحشر يبيّن أن كل المخلوقات من دون استثناء تسبح الله، ولكن لا نفقه تسبيحها، وكلمة لا نفقه تسبيحه هي قرينةٌ مانعةٌ من أن نفهم التسبيح إتقان صنعتها، الشيء المتقن كأنه يتقن، ويقول: سبحان الذي صنعني ! المعنى أعمق من ذلك، إن هذه المخلوقات من دون استثناء تسبح الله على نحوٍ لا نعرفه، فإذا كانت المخلوقات التي سخّرها الله للإنسان تسبّح وتنزه وتمجد بطريقةٍ لا نفقهها، فلأن نكون نحن المسبّحين من باب أولى حينما سخّر الله لنا الكون بأكمله:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: الآية 13)

نحن أولى بالتسبيح، ونحن أولى بالتنزيه، ونحن أولى بالتمجيد، فكيف إذا غفل هذا الإنسان المخلوق المكرم المكلف، وتنبّه الذين سُخروا له فسبحوا، ونَزّهوا ومجّدوا.

3 - وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أي عزيزٌ قويٌ، متفردٌ بالقوة، فَعّالٌ لما يريد، قاهرٌ، إرادته هي النافذة، وحكيمٌ في أفعاله، والحكمة من أولى ومن أبرز دلائل عظمته، فهو عزيزٌ لا يُنال جانبه، فإذا كنت مع العزيز فأنت العزيز، وإذا كنت مع القوي فأنت القوي، وإذا كنت مع الفعّال لما يريد ودعوتَه كان ما تريد، وأنت بالدعاء أقوى إنسان، فالدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[الترمذي عن أنس]

تلازمُ عزة الله مع الحكمة المطلقة:

هو عزيزٌ، ومع أنه عزيز هو حكيم، كل أفعاله فيها حكمةٌ مطلقة، لذلك قالوا: **" كل ما أراده الله وقع، وكل ما وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة "**، ومعنى الحكمة المطلقة أن الشيء الذي وقع إن لم يقع على النحو الذي وقع فهذا نقصٌ في حكمة الله، لأن حكمته مطلقةٌ، فكل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادته متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق.

(قُلْ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إنّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران)

لم يقل: بيدك الخير والشر، بل قال:

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ)

(تُعِزّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ)

قال:

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

معنى ذلك أن إيتاء الملك خير، ونزع الملك خير، الإعزاز خير، والإذلال خير، فالله سبحانه وتعالى نافعٌ وضار، لكن يضرُّ لينفع، ويخفض ليرفع، ويأخذ ليُعطي، ويبتلي ليجزي، وقال النبي الكريم في إحدى خطبه:

((وإن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح برخاء، ولم يحزن بشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقْبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

(سورة الحشر)

قصة إجلاء بني النضير من المدينة النبوية:

1 - إجلاء بني النضير كان في السنة الرابعة:

هذه الآية في سورة الحشر تشير إلى حدثٍ وقع في عهد النبي حينما أجلى النبي عليه الصلاة والسلام بني النضير، أجلاهم في السنة الرابعة للهجرة، وفي إجلائهم قصةٌ يحسن أن نتطلع عليها قبل أن نتابع تفسير الآية.

2 - سببُ إجلاء بني النضير:

ففي السنة الرابعة للهجرة بعد غزوة أُحد، وقبل غزوة الأحزاب (الخندق) يذكُرُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذهب مع عشرةٍ من كبار أصحابه، فيهم أبو بكرٍ وعمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين، ذهبوا إلى محلة بني النضير، يَطْلُبُ منهم المشاركة في أداء دية قتيلين، بحكم ما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم من عهدٍ في أول مدة مَقدَمِه إلى المدينة، النبي عليه الصلاة والسلام حينما هاجر إلى المدينة قبل أربع سنوات أبرم العهود مع جيرانه بني قريظة، وبني قينقاع، وبني النضير.

3 - يهود بني النضير يدبّرون لاغتيال النبي:

لما ذهب النبي مع كبار أصحابه إلى محلة بني النضير ليطالبهم بإنجاز العهد الذي بينه وبينهم المشاركة في أداء دية قتيلين، بحكم ما كان بينه وبينهم من عهدٍ في أول مقدمه إلى المدينة، فاستقبله يهود بني النضير بالبِشر والترحاب، ووعدوه بأداء ما عليهم، بينما كانوا يدبّرون أمراً لاغتيال النبي عليه الصلاة والسلام ومَن معه، وكان صلى الله عليه وسلم جالساً إلى جدارٍ من بيوتهم، فقال بعضهم لبعضٍ: **" إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله تلك.. أي أنها فرصة لا تعوض.. فمن رجل منكم يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرةً فيريحنا منه ؟ "**

فانتدبوا لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحد بني النضير فقال: " أنا لذلك "، فصعد ليلقي عليه الصخرة كما قال، فأُوحِي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بما يبيّت هؤلاء ضده، فقام كأنه ليقضي أمراً، فلما غاب، واستبطأه أصحابه خرجوا من المحلة يسألون عنه، فعلموا أنه دخل المدينة، جاءه الوحي، وأخبره بما تآمر عليه اليهود.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم للتهيُّؤ لحرب بني النضير لظهور الخيانة منهم ونقض عهد الأمان الذي بينه وبينهم، وكان قد سبق هذا إقذاع كعب بن الأشرف من بني النضير في هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأليبه الأعداء عليه، وما قيل من أن كعباً ورهطاً من بني النضير اتصلوا بكفار قريش اتصالَ تآمرٍ وتحالفٍ وكيدٍ ضد النبي صلى الله عليه وسلم، مع قيام ذلك العهد بينه وبينهم، مما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يأذن في قتل كعب بن الأشرف، فلما كان التبييت للغدر برسول الله في محلة بي النضير لم يبق مفرٌ من نبذ عهدهم إليهم، وفق الآية الكريمة:

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

(سورة الأنفال)

4 ـ المنافقون يوالون اليهود ويدافعون عنهم:

فتجهّز النبي صلى الله عليهم وسلم، وحاصر محلة بني النضير، وأمهلهم ثلاثة أيام، وقيل: عشرة، ليفارقوا جواره، وليذهبوا عن محلتهم، على أن يأخذوا أموالهم، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم، ولكن المنافقين في المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق أرسل إليهم يحرضهم على الرفض والمقاومة، وقالوا لهم: " أن اثبتوا، وتمنّعوا فإنا لم نسلمَكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتكم خرجنا معكم ". المنافقون الذين حول النبي تواطئوا مع بني النضير، وفي هذا يقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13))

(سورة الحشر)

تحصن اليهود في الحصون، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع نخيلهم وتحريق بعضها، فنادوا: **"أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بالك تقطع النخيل وتحرّقها ؟"**، وفي الرد عليهم قال الله تعالى:

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة الحشر)

5 - اليهود يزلون على حكم النبي عليه الصلاة والسلام:

ولما بلغ الحصار ستاً وعشرين ليلةً يئس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم، وقذف الله في قلوبهم الرُعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم، وأن يكف عن دمائهم، كما سبق أن جلى بني قينقاع، على أن لهم ما حَمَلَت الإبل من أموالهم، فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم، فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبةٍ من أجل أن يأخذها معه، أو يخربه حتى لا يقع في أيدي المسلمين، وكان المسلمون قد هدموا، وخربوا بعض الجدران التي اتخذت حصوناً في أيام الحصار.

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

يقول الله عزّ وجل:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

هو: أي أن الله عزّ وجل تولى إخراجهم بذاته، وأحياناً الله عزّ وجل يفعل فعله، لكن من خلال جهاتٍ أرضية، وأحياناً يتولى بذاته مباشرةً فعل أفعاله، فهذه الآية تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى تولّى أمر إخراجهم مباشرةً:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

هذه الآية أيها الإخوة تعطينا الشيء الكثير، الله بيده كل شيء، وكل الخلق بيده، وفي الأثر: **" إن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة "**، فالأمر كله بيد الله.

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

يبدو أن بني النضير كانوا بأعلى درجة من القوة والتَحَصُّن، فما كان يخطر في بال المسلمين أن هؤلاء يخرجون من حصونهم، وما كان يخطر ببالهم إطلاقاً أن هؤلاء يخربون بيوتهم بأيديهم، فالله عزّ وجل له آيات، أحياناً الإنسان يؤتى من داخله، قد يكون من خارجه قويًا جداً، ومحصنًا جداً، ولكن إذا قذف الله في قلبه الرعب يؤتى من داخله.

صراع الحق والباطل من حكمة الله:

هذه الآية تفيدنا أشياء كثيرة، مما تفيدنا به أن المؤمن لا يخشى إلا الله، لأن الخلق كلهم بيد الله، فإذا كان مع الله كان الله معه، وإذا كان الله معه فمن عليه ؟ وإن لم يكن مع الله لم يكن الله معه، وإذا لم يكن الله معه فإن أضعفَ الخلق يتطاول عليه، وأقرب الناس إليه يكيد له، فهذه الآية تعلمنا الشيء الكثير.

شاءت حكمة الله أن يكون في الأرض مؤمنون وكفار، أهل حقٍ وأهل باطل، مستقيمون منحرفون، محسنون ومسيئون، هذا من حكمة الله، وكان من الممكن أن يخلق الله المؤمنين في قارة والكفار في قارة، وبينهما بحارٌ شاسعة، ولكن اختلاط الكفار بالمؤمنين من حكمة الله العظيمة، أن هذا الاختلاط هو الذي يضاعف أجر المؤمنين، أي أن الطريق إلى الله ليست مفروشةً بالورود والرياحين، بل لابدَّ من أن تتحمل، لابدَّ من أن تصبر، هناك أعداءٌ للحق، هناك مناوئون للحق، هناك من يريد أن يطفئَ نور الله عزَّ وجل.

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

أليس بقدرة الله عزَّ وجل أن يخلق النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام الذين تفانوا في محبته وحدهم من دون أبو لهبٍ ومن دون أبو جهلٍ، ومن دون صفوان بن أمية، هذا شيء كان من الممكن أن يفعله الله، ولكن من أجل أن يظهر صدق النبي، أن يظهر حرصه على الحق.

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

أحياناً المناوئ، الطرف الآخر الذي يشوش عليك، والذي يزعجك، والذي يكيد لك، والذي يقف لك بالمرصاد، هذا من تقدير الله لك، وهذا مما يرفع قدر المؤمن، ويظهر صدقه، وإصراره، وثباته، فالحزن خلاّق، وحياة النبي عليه الصلاة والسلام مفعمةٌ بالمتاعب.

(طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

(سورة طه)

كان النبي ينتقل من غزوةٍ إلى غزوة، ومن سريةٍ إلى سرية، ومن مشكلةٍ إلى مشكلة، من أجل أن يظهر صدق النبي وثباته، وأن تظهر محبته لله عزَّ وجل، معنى ذلك أن المؤمن إذا عانى من بعض المتاعب ممن حوله، أحياناً من أسرته، من أولاده، ممن حوله، من جيرانه، هذه المتاعب مقدّرة، لتظهر صدق إيمانه، ولتظهر ثباته على مبدئه، ولتظهر محبته لله ورسوله.

أيها الإخوة:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

أحياناً تستمع إلى أقوياء وضعفاء، وأناس انتصروا، وأناس انهزموا، يجب أن تعلم علم اليقين أن الأمر بيد الله، هو مكّن هؤلاء من هؤلاء، هو سلّط هؤلاء على هؤلاء، هو قوّى هؤلاء على هؤلاء، الأمر بيده، يقوّي لحكمةٍ، ويضعِّف لحكمةٍ، وينصر لحكمة، ويقدِّر الهزيمة لحكمة، من أجل أن يكشف حقيقة عباده لأنفسهم ولمن حولهم، هو يعرفهم، فالأمر بيد الله، وهذا هو التوحيد.

الآية واضحة جداً:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

بحسب القواعد الدنيوية بنو النضير لن يخرجوا من المدينة أبدا:

أحياناً الإنسان بحسب القواعد، بحسب ما يبدو له من قوانين، يقول: فلان مستحيل أن يضعف، فإذا به يهوي كبيت العنكبوت، وهذه من آيات الله الدالة على عظمته، وقد قيل: **" عرفت الله من نقض العزائم".**

يبدو فيما يروي التاريخ أن بني النضير كانوا من أقوى الناس، لهم حصون منيعة، وأموال وفيرة، وبساتين غنّاء، كل شيء بيدهم، ما كان يصدِّق المؤمنون، وما كان يخطر في بالهم أن هؤلاء يخرجون من حصونهم، ما كان المؤمنون ليصدِّقوا أن هؤلاء يخربون بيوتهم بأيديهم، هذه الآية مطمئنة فلا تخف إلا الله، وأقوى قوى الأرض بيد الله، أقوى الأقوياء في قبضة الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك، وكنت أقوى من كل قوي، وإذا تخلّى الله عنك تطاول عليك كل ضعيف من أجل أن تثق بوحدانية الله، وبقدرة الله، وبنصر الله.

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ)

مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ

هؤلاء بنو النضير ظنوا أن هذه الحصون تمنعهم، وأحياناً الإنسان يظن أن ماله يمنعه من كل المسلمين، فيسوق الله له مشكلةً لا تحل بالمال، يظن أن الذي حوله يمنعونه، فيضعه الله في مأزقٍ لا يستطيع أن يعلم أحداً ممن حوله بما هو فيه، لله آياتٌ باهرات، آياتٌ جليّات، كل شيءٍ تتكئ عليه يخليه الله من تحت يدك، فإذا أنت على هواء، لذلك: **" ما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من**

نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطّعت أسباب السماء بين يديه، وما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت من بيد ذلك مخرجاً ".

هذا ما يجب أن تعتقده وتفعله:

العبرة من هذه الآية أن تعتصم بالله، وأن تثق بالله، وأن تتوكل على الله، وألا ترى مع الله أحداً، أن توحِّدَهُ، أن لا تشرك به، أن تؤمن أنه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، أن تؤمن أن الأمر كله بيده:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية " 123)

أن تؤمن أن يد الله فوق أيديهم، أن تؤمن أنه ما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى، أن تؤمن أنَّه:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

أن تؤمن أن الله يحكم، ولا معقِّب لحكمه، أن تؤمن أن الله خالق لكل شيء، وهو على كل شيءٍ وكيل، أن تؤمن أن الله له الخلق وله الأمر، أن تعبده، هو الفعال لما يريد، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، هذه كلمات الإيمان، هذه الكلمات التوحيدية تلقي في قلبك طمأنينة ما بعدها طمأنينة، تلقي في قلبك سكينة ما بعدها سكينة، تلقي في قلبك أمناً ما بعده أمن، لأن الله معك، أنت عبدٌ له تطيعه وتخطب وده، فماذا تنتظر منه ؟ كل الخير:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة: الآية 51)

إذا كنت تخطب ود الله عزّ وجل ؛ تتقرب إليه بالطاعات، بالأعمال الصالحة، بالتوبة النصوح، ماذا تنتظر منه ؟ كل خير، لذلك ربنا عزّ وجل طمأن المؤمنين.

علاقتنا بهذه الآية: إذا كان هناك خصوم أقوياء جداً فهؤلاء عند الله ضعفاء، فإذا كنا مع الله كان الله معنا، ونصرنا على أعدائنا، لذلك الله عزّ وجل ما كلّفنا أن نعد لأعدائنا القوة المكافئة، بل كلفنا أن نعد لهم القوة المتاحة، وهو يرمم ما بقي، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال: الآية 60)

المؤمن يجب أن لا يضعف أمام ما يقال، يقولون لك: تفوق، وتكنولوجية، وأقمار صناعية، يقولون لك مثلاً: سلاح ذكي، قنابل عنقودية، هذه كلها عند الله لا شيء، إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، لا تخف إلا الله، ولا تخش إلا الله، ولا تتكل إلا على الله، وهذه الآية:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا)

بحسب المُعطيات، بحسب ما يبدو لكم، بحسب القوانين المادية، هم أقوياء جداً، وأنتم ضعفاء، لكنهم خرجوا من بيوتهم، وخرّبوها بأيديهم.

(مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا)

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ)

وأنت ترى بأم عينك كلما ادعت قوةٌ أنها الأقوى في العالم تهاوت كبيت العنكبوت، والتاريخ القريب يؤكِّد هذه الحقيقة، قلعةٌ من قلاع الكفر تهاوت كبيت العنكبوت.

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ)

إذا أردتَ أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله:

أحياناً الإنسان يَتّكئ على ماله، فإذا المال لا شيء، يتكئ على مكانته، فإذا مكانته لا شيء، يتكئ على مَن حوله، فإذا مَن حوله لا شيء، يتكل على علمه، فإذا علمه لا شيء، يتكل على أعوانه، فإذا أعوانه لا شيء، كلما اتكلت على شيءٍ، وقد أشركت بالله عزّ وجل زلزل الأرض من تحت قدمك، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله.

غزوة بدرٍ وحُنينٍ درسان بليغان في حياة المسلمين:

لا تبتعدوا كثيراً، فهؤلاء أصحاب النبي، وهم صفوة الله من خلقه في بدرٍ قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة آل عمران)

هُم هم، في حنين قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

معنى ذلك أن في حياة كل مؤمنٍ يومين، يومَ بدرٍ ويوم حنين، في بدر إذا قلت: الله، وأنا لا شيء، تولاّك الله بالرعاية والحفظ والنصر، والتأييد والتوفيق، وفي حنين إذا قلت: أنا، ذكاء، علم، خبرة، قوة، إذا قلت هذا تخلّى الله عنك، فأنت بين أن يتولاّك الله وبين أن يتخلى عنك.

نحن بحاجةٍ ماسّةٍ إلى هذا الدرس، وكلكم يعلم أن المسلمين يواجهون أعداءً لهم في شتّى بقاع الأرض، فإذا آمن المسلمون أن الله وحده بيده كل شيء، وأنه مع المؤمنين، عندئذٍ لا تضعف عزائمهم، ولا تخور قواهم.

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا)

مِن مَأمَنه يُؤتَى الحذرُ: فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا

يؤتى الحذر من مَأمنه، يؤتى القوي من نقطة ضعفه، يؤتى الإنسان من داخله، أحياناً يلقي الله في قلبك الرُعب، فتخور قواك، وترتعد فرائسك، وتنهار من الداخل، وينتهي الأمر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[متفق عليه عن جابر]

فإذا عصت أمته ربها، أو خالفت سنة نبيها، ربما تخافُ، وتهزم بالرُعب، النبي في صدر الإسلام نصر بالرعب.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: الآية 55)

وعدُ الله يتحقق بتحقق شروطه:

هذا قانون ربنا عزّ وجل، والتاريخ يؤكِّد هذه الحقيقة، ففي بدر كان عددهم ثلاثمائة غلبوا ألفاً بإذن الله، كل معارف المسلمين، كانوا قلّة لكن قوتهم في إيمانهم، وفي اعتمادهم على ربهم، وفي تطبيقهم لمنهج ربهم، فإذا خالفوا منهج ربهم، وآثروا الشهوة على المبدأ عندئذٍ تخلّى الله عنهم، الله تخلى عن أصحاب رسوله في حنين، فمن نحن إذاً إذا تخلّى الله عن أصحاب رسوله ورسوله بين أظهرهم:

(إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

فمن نحن ؟

لذلك أيها الإخوة، نحن أقوياء بالله:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

أنت بإيمانك بالله تشعر أن الله معك، وإذا كان الله معك فلا أحد يجرؤ أن ينال منك.

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ)

فالله عزّ وجل يمكن أن يقوي خصمك، ويمكن أن يضعف خصمك، يمكن أن يضعفك من الداخل، فيصبح خصمك الضعيف أقوى منك إذا أضعفك من الداخل، لأن الأمر بيده، وقلبك بيده، وعزيمتك بيده، ورؤيتك بيده.

(إِذْ يُرِيكَهُمْ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ)

(سورة الأنفال: الآية 43)

أن ترى رؤيتك بيد الله، قلبك بيد الله، ثباتك بيد الله، كن مع الله، ولا تخشَ أحداً.

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

إلقاءُ الرعب في قلوب الكفار قانونٌ إلهي مطّرد في كل زمان ومكان:

إخواننا الكرام، هذا الرُعب الذي يقذف في قلب المشرك هو قانون، في آيةٍ أخرى:

(فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ)

(سورة آل عمران: الآية 151)

قال تعالى:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

الإنسان بمجرد أن يدعو مع الله إلهاً آخر يدخل في الخوف، فقانون الخوف متعلقٌ بالشرك، إن وَحَّدْت فلا تخف، وإن أشركت تخف.

(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

(سورة الحشر)

والإنسان قد يجد في حياته، أو في عصره، أو فيمن حوله الدلائل الكثيرة، الله عزّ وجل قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

الله عزّ وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

المؤمن أكبر ميزة يمتاز بها عمن سواه أن الله سبحانه وتعالى يلقي في قلبه الأمن، والسكينة، والطُمأنينة، والسعادة، والتوازن، والاستقرار، وأن المبتعد عن الله، الشارد عن منهجه، المنقطع عنه، المرتكب للمعاصي والآثام، أول ضعف يصيبه أن الله يلقي في قلبه الخَوْف، فنعمة الأمن خاصةٌ بالمؤمنين، ومشكلة الخوف من لوازم المشركين، فهؤلاء اليهود ألقى الله في قلوبهم الخوف، لذلك لا يقاتلون إلا في قرى محصنة، وبأسهم بينهم شديد.

(وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ)

(سورة الحشر: الآية 3)

معنى قوله: وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ

هذه الآية لها معنى دقيق: أي أن الله عزّ وجل كتب عليهم أن يخرجوا من ديارهم، كتب عليهم الجلاء، لو لم يفعل ذلك لعالجهم بطريقةٍ أخرى.

إن الإنسان أحياناً الله يسوق له مرض فيعالجه به، وهناك طريقة ثانية، تأتي مشكلة أخرى، المشكلة لابد من تعالج، فإن لم تعالج بهذا العلاج تعالج بعلاج آخر، فأنت في قبضة الله، وقد يقول لك قائلٌ: لو لم آكل هذه الأكلة لما أصابني هذا الجرثوم، لا، لا تقل هكذا، لا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، أي إن لم يقدر لك العلاج من هذا الطريق فعند الله ألف طريقٍ وطريق.

(وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ)

بطريقة أخرى، معنى ذلك أن هؤلاء لأنهم خانوا عهد رسول الله، و ائتمروا على قتله، وخانوا العهد الذي بينهم وبينه، استحقوا من الله العقاب، فكان من عقاب الله لهم أن أجلاهم عن بلادهم، ولو لم يكتب عليهم الجلاء لعذّبهم بطريقةٍ أخرى، فالله عنده من أنواع البلاء ما لا يعد ولا يحصى، والجسم البشري وحده فيه أمراض تصيب القلب، أمراض تصيب الرئتين، أمراض الأعصاب، العضلات، الدماغ، خثرة بالدماغ، خثرة بالقلب، أحياناً بالبصر، أحياناً بالسمع، أحياناً بالجلد، مليون طريق وطريق بجسمك فقط، بمالك، إذا نفذ الإنسانُ من شيء قد يقع في شيء آخر، الآية دقيقة جداً.

(وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ)

قد كان من تقدير الله أنه عاقبهم بأن أجلاهم عن بلادهم.

(وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا)

طرق المعالجة الربانية كثيرة متنوّعة:

بطريقةٍ أخرى، فإذا أخذ الإنسانُ الاحتياط، اعتنى بصحته اعتناء شديدا، ولم يكن مستقيما، يقول لك: أنا رياضي، وهو كذلك، إذا اعتنى بصحته أبلغ عناية، ولم يكن مستقيماً على أمر الله فهناك ألف طريق وطريق لمعالجته من طريق آخر، حَصَّن ماله، هناك طريق ثالث، حَصَّن حاجاته الأساسية، يقول لك: كل أمّنت عليه، يأتي من طريق رابع.

فهذه النقطة:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: الآية 11)

مهما تحّصنوا، إن حصنوا أموالهم من طريق آخر، إن حصنوا ممتلكاتهم من طريق آخر، إن حصنوا أنفسهم من طريق آخر.

(وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ(3) ذَلِكَ)

(سورة الحشر)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

لماذا عذّبهم ؟ لماذا أجلاهم من بلادهم ؟ لماذا أذلّهم ؟ لماذا أخزاهم على يد النبي عليه الصلاة والسلام لماذا ؟

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(سورة الحشر: الآية 4)

معنى مُشاقة الله ورسوله:

من أوجه المعاني هذه الآية: أنهم اتخذوا شقاً آخر غير شق الله، أي أنهم ناوؤوا الله، لم يكونوا مع الله، أرادوا أن يطعنوا في دينه، أرادوا أن يطفئوا نوره، أرادوا أن يفعلوا شيئاً يطفئ نور الله بأفواههم.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

إن الإنسان إذا كان من السُعداء لا يفكر إطلاقاً أن يقف ضد الحق، كن مع الحق، ولا تكن ضده، كن مع أهل الحق، ولا تكن ضدهم، كن مع إحقاق الحق، ولا تكن مع ترسيخ الباطل، وحينما يتخذ الإنسان له موقفاً يناوئ به أهل الحق يستحق عذاب الله عزّ وجل.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أحياناً يطرح الإنسان فكرا مناوئًا للدين، فيلقي الشبهات، يلقي في قلوب الناس التُرّهات، النقاط السلبية، الأشياء الخلافية، من أجل أن يزلزل ثقة الناس بالدين، هذا يشاقق الله ورسوله، أحياناً ينقِّب في السيرة عن أشياء، يقول لك: النبي تزوج تسع نساء، يريد أن يقول لك: إنه زير نساء.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أحياناً يقال لك: لماذا المرأة نصف الرجل ؟ هي تعمل مثله ؟ يريد أن يطعن في هذا الشرع العظيم، أو في التاريخ، أو في نبوة النبي، أو في عصمة النبي، أو في كمال أصحاب النبي، وحينما يقف الإنسان الموقف المعارض، الموقف المناوئ، الموقف الذي يطعن، ويربك، ويشوّش..

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

كن مع المؤمنين، كن دعماً لهم، كن مؤيّداً لهم، كن ناصراً لهم، كن مدافعاً عنهم، من أجل أن يدافع الله عنك، من أجل أن يرفعك الله عزّ وجل.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

هل تقوى على أن تقف في وجه خالق الكون ؟ أنت لا شيء، فحركتك بيد الله، سمعك وبصرك بيد الله، نقطة دم كرأس الدبوس لو تجمّدت في أحد شرايين الدماغ الفرعية يقول لك: خثرة دماغية، وانتهى الإنسان، إما أن يفقد حركته، وإما أن يفقد سمعه أو بصره، وإما أن يفقد ذاكرته، وإما أن يفقد عقله، من أجل نقطة دمٍ لا تزيد على رأس دبوس، تجمدت في أحد فروع شرايين الدماغ.

مَن أنت أيها الإنسان حتى تتعالى على الله:

من أنت ؟ كل من يقول: أنا، فهو جاهل، وقد قالها إبليس فأهلكه الله، قال:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف: الآية 12)

قالها فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: الآية 51)

فأهلكه الله.. قالها قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: الآية 78)

فأهلكه الله.

قالها بنو سبأ:

(قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل: الآية 33)

فأهلكهم الله، فكلما ارتقى علم الإنسان يتواضع، كلما ارتقى علمه يوحِّد، كلما ارتقى علمه يفتقر لله عزّ وجل، وإذا افتقر إلى الله نصره الله.

إن الله عزّ وجل علّمنا من خلال التاريخ أن المسلمين على ضعفهم كانوا سادة الدنيا، الإسلام جعل من رعاة الغنم رعاةً للأمم، جعل من سُكّان البوادي قادةً للأمم، بفضل طاعتهم لله عزّ وجل، والله موجود هو هوَ، والآن نحن المسلمين إذا أطعنا الله عزّ وجل، وأنبنا إليه، واصطلحنا معه أظهر لنا من آياته الدالة على عظمته وأيّدنا، ونحن والحمد لله نعيش في إكرام من الله عزّ وجل، الله عزّ وجل لن يضيّعنا، ولن يسلمنا، ولن يخذلنا، ما دمنا معه.

كن مع الله ترَ الله معك و اترك الكل وحاذر طمعك

و إذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا مـا منعك

***

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللّهَ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

الإنسان أحياناً يروّج فكرة باطلة، يلقي شبهة في النفوس، يزعزع ثقة الناس في أحكام الشرع، أحياناً يتّهم الدعاة إلى الله باتهامات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، يفتري عليهم، وهو يعلم علم اليقين أنهم بريئون من هذا، هذا كله يشاقق الله ورسوله..

(وَمَنْ يُشَاقِّ اللّهَ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

كمؤمن كن مع المؤمنين، كن مؤيّداً لهم، كن دعماً لهم، كن ناصراً لهم، كن مدافعاً عنهم، حتى يكرمك الله برحمته التي هي كل شيء.

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللّهِ

ثم يقول الله عزّ وجل:

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللّهِ)

(سورة الحشر: الآية 5)

النبي يقطع نخيل بني النضير:

النبي عليه الصلاة والسلام تحرّك بوحيٍ من الله، ما فعل شيئاً كما وصفه أعداؤه، وهذا النخل تعلّقت نفوسهم به، وقد أحرق بعضها، قالوا: ستة من النخيل فقط أحرقها النبي، فتزلزلوا، وخرجوا من حصونهم، ورضخوا لأمره، فنجاح الدعوة هو المقدم على كل شيء، قال:

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

العلماء استنبطوا من هذه الآية حكم: أن ممتلكات العدو إذا كان بإمكانك أن تستفيد منها، وأن تهزمه فدعها قائمةً، أما إذا كانت قوةً له، وهو يتقوّى بها عليك خرّبها عليه من أجل يضعضع.

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ

1 ـ غنائم المسلمين من بني النضير نوع من الفيء:

ثم ذكَر الله عزّ وجل أن هذه الغنائم التي غنمها المسلمون من بني النضير بعد أن أجلوهم عن ديارهم، هذه الغنائم لم تكن بعد حرب ضروس، إنما كانت من دون حرب، فالغنيمة التي يأخذها المسلمون من دون حرب هي فيء أفاء الله به عليهم، لذلك قال تعالى:

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ)

(سورة الحشر: الآية 6)

2 ـ معنى: مَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ

أوجف بمعنى أسرع، أي أنتم لم تتحملوا المشاق لنيل هذه الغنائم، هذه جاءتكم سائغةً، هم تضعضعوا، وانهاروا من داخلهم، وخرجوا من ديارهم، وحمّلوا متاعهم على جمالهم، وانتهى الأمر، أورثكم أرضهم وديارهم، هذه ليست غنائم كانت عقب حربٍ ضروس، إنما هي من الفيء الذي اختص الله به النبي عليه الصلاة والسلام، لهذا قال تعالى:

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الحشر)

الغنائم التي تأتي بعد حربٍ سِجَالٍ بين المسلمين وأعدائهم هذه خُمُسُها لله عزّ وجل ولرسوله وأربعة أخماسها للمقاتلين، أما الفيء فكله لله ورسوله يوزعه النبي عليه الصلاة والسلام بحكمةٍ من حكمه على الفقراء والمهاجرين، لذلك:

(مَا أَفَاءَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلّهِ وَلِلرّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

(سورة الحشر: الآية 7)

قاعدتان مهمتان مستنبطتان من الآية:

1 ـ قاعدة اقتصادية عظيمة: كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ

النبي عليه الصلاة والسلام خَصّ بهذا الفيء المهاجرين، لأنهم تركوا بلادهم وأوطانهم وأموالهم، وجاءوا إلى المدينة فقراء من كل شيء، مع أن الأنصار استقبلوهم، ورحّبوا بهم، وعرضوا عليهم نصف ممتلكاتهم، إلا أن التاريخ الإسلامي لم يسجّل أن مهاجراً أخذ نصف مال الأنصاري، كان أحدهم من الأنصار يقول للمهاجر: **" يا فلان، دونك نصف مالي فخذه، لي بستانان خذ أيهما شئت، لي داران خذ أيهما شئت "**، وكان هذا المهاجر العفيف يقول للأنصاري: **" بارك الله لك في مالك، ولكني دُلّني على السوق ".**

على كلٍ، هؤلاء المهاجرون تركوا بلادهم، وديارهم، وأموالهم، وتجارتهم، وأعوانهم، وجاءوا مع رسول الله ابتغاء وجه الله، لذلك النبي ارتأى أن تكون هذه الغنائم للمهاجرين وحدهم، والنبي عليه الصلاة والسلام انطلق من هذه القاعدة في كتاب الله:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

أي أن هذه الكتلة النقدية يجب أن تكون متداولةً بين أيدي الناس جميعاً، هذا هو الوضع الصحي الطبيعي، إذا تداول الناس المال جميعاً عاشوا في بحبوحة وفي كفايةٍ وعدل ؛ أما إذا تجمّعت الأموال بأيدٍ قليلة، وحرمت منها الكثرة الكثيرة اختل التوازن الاجتماعي، ومع اختلال هذا التوازن تنشأ المُشكلات، فلذلك يقول الله عزّ وجل:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

ففي هذه الآية قاعدتان أساسيتان في حياة المؤمنين، القاعدة الأولى أن المال يجب أن يكون متداولاً بين الجميع، إذاً الاحتكار حرام، والربا، المال يلد المال، الربا من خصائصه أن يجمّع الأموال في أيدٍ قليلة، المال يجب أن يتولّد من الأعمال لا من المال، إذا ولد المالُ المالَ تجمّع المال في أيدٍ قليلة، أما إذا ولدت الأعمال المال توزّعت بين الكثرة الكثيرة.

قم بفتح محل تجاري، تحتاج لتشغيل مئة إنسان، أو مئتي إنسان دون أن تشعر، أنت بحاجة إلى دفتر فواتير، تحتاج لورق، ومطبعة، وخطاطين، بحاجة إلى مستودع، بحاجة إلى وسائل نقل، وأنت لا تشعر اشتغل بسببك مئات عديدة، فإذا أردت أن تكسب المال من الأعمال فهذا المال توزّع.

أنشأت مزرعة، تحتاج إلى مهندس زراعي، تحتاج إلى معالجة بعض الأمراض، إلى خبرة معينة، فحينما تفكر أن تكسب المال من الأعمال فهذا المال يوزّع بين أكثر الأيادي، أما إذا أردت أن يلد المالُ المالَ تأخذ الفائدة، بهذه الطريقة الأموال تتجمد.

القاعدة الأولى: الله حرم الربا، حرم الاحتكار، حرم مثلاً الغش، حرم التدليس، كل شيء من شانه أن يجمّع الأموال في أيدي قليلة حرّمه الله عزّ وجل.

أيها الإخوة، إذاً هذه الآيات في سورة الحشر تبيّن أن الأمر بيدِ الله وحده، وأن الله وحده هو القوي، وأنك إذا كنت معه كان معك، وإذا كان معك انتصرت على أعدائك، والمسلمون الآن بحاجة ماسّة لهذه الآيات، هم بحاجة ماسّة بأن يصطلحوا مع الله، بحاجة ماسة بأن يثقوا بالله، بحاجة ماسة بأن ترتفع معنوياتهم.

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

وهذه الآيات تعلمنا أيضاً أن الإنسان في قبضة الله، فلمجرد أن يلقي الله في قلبه الرعب انهار من داخله وانتهى، فبين أن يلقي الله في قلبك الأمن والطمأنينة، وبين أن يلقي في قلبك الرعب، هذا ما بين التوحيد والشرك، المشرك يلقي الله في قلبه الرعب، أما المؤمن فيلقي الله في قلبه الثقة بالله عزّ وجل، والمسلمون بحاجةٍ ماسةٍ إلى أن يتعاونوا، وإلى أن يثقوا بعظمة دينهم، وإلى أن يثقوا بعظمة منهجهم، وإلى أن يعلموا أن الأمر بيد الله وحده، مهما تبجّح أعداؤهم، مهما تطاولوا، مهما تعجرفوا، مهما تبختروا، مهما استعلوا، فهم في قبضة الله..

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أخطر شيء أن يصاب الإنسان بالضعف من الداخل، بالخَوَر، بالخنوع، مهما تبجحوا، مهما ادعوا بتفوقهم، لا.. كن مع الله تر الله معك، نحن علينا أن نعدّ كل شيءٍ لأعدائنا الذين يتربّصون بنا الدوائر، ولكن نعد، ونتكل على الله، والله سبحانه وتعالى لا يضيعنا.

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

2 ـ قاعدة تشريعية عظيمة: وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

القاعدة الثانية، هناك قاعدة في التشريع: الله جلّ جلاله هو المُشَرّع من خلال قرآنه، ومن خلال سنة نبيه، ولا يوجد مصدر ثانٍ إطلاقاً.

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

هذه الآية تشمل ما أعطاكم من غنائم، أو إن لم يعطكم، والأوسع من ذلك ما آتاكم من أمر، وما نهاكم عن شيء، فالله سبحانه وتعالى من خلال قرآنه هو المُشَرّع، والنبي عليه الصلاة والسلام من خلال سنته المطهرة هو المُبَيّن والمُفَصِّل، فنحن كمؤمنين وكمسلمين ليس لنا إلا القرآن وسنة النبي عليه الصلاة والسلام مصدراً تشريعياً.

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

التحذير من مخالفة القواعد الإلهية:

فإن لم تفعلوا ذلك:

(وَاتَّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

هذا يسمونه المؤيّد القانوني، فالنظام يحتاج إلى مؤيّد قانوني، إلى ردع، فإن اتبعت منهج الله عزّ وجل ومنهج رسول الله المبين نجوت، وإلا فهناك عقابٌ من الله شديد.

إذًا عندنا قاعدتان، الأولى: أن المال يجب أن يكون متداولاً بين أيدي الجميع، فأي سلوكٍ يُجَمّعَ المال بأيدٍ قليلة، ويحرم منه الكثرة الكثيرة فهو يهدم أصول المجتمع، وهو محرّم في الإسلام.

القاعدة الثانية: المصدر التشريعي للمسلمين واحد، وهو الكتاب والسنة..

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحشر 059 - الدرس (2-5): تفسير الآيتان 6- 7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-06-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الحشر، ومع الآية السادسة، وهي قوله تعالى:

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الحشر)

بين الغنيمة والفيءِ:

أيها الإخوة، هناك الغنيمة وهناك الفيء، فالغنيمة ما تؤخذ من العدو عقب حربٍ سجالٍ بين المسلمين وأعدائهم، هذه الغنيمة شَرَّع الله طريقة توزيعها، فأربعة أخماسها للمقاتلين، وخُمُسُها مُقَسَّمٌ خمسة أخماس، لله وللرسول الخمس، ولذي القربى، قرابة النبي عليه الصلاة والسلام الخمُس، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ثلاثة أخماس، هذه هي الغنائم، لكن الفيء هو الذي يؤخذ من العدو من دون قتال، هذا الفيء كلّه لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ)

أي أن هذا الفيء ما كان بسبب قتالٍ مرير بينكم وبين أعدائكم، فبنوا النضير كانوا على مقربةٍ من المدينة، وأصحاب النبي عليهم رضوان الله ساروا إليهم مشياً على الأقدام، وقد ألقى الله في قلبهم الرعب، فتركوا ديارهم وأموالهم، وكان هذا المال فيئاً للنبي عليه الصلاة والسلام بيّن الله جلّ جلاله كيف يُوَزَّع هذا الفيء .

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ)

معنى: فَمَا أَوْجَفْتُمْ

معنى: فَمَا أَوْجَفْتُمْ، أي ما أسرعتم، وما ركبتم المَطايا إليهم، ولا تَجَشَّمتم المشاقّ إلى قتالهم، ولا لقيتم من قتالهم عنتاً ولا مشقّة، إنما ذهبتم إليهم مشياً على الأقدام، ولا استخدمتم البعير في الوصول إليهم.

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ)

فائدة جليلة مستفادة من الآية:

هنا وقفةٌ متأنّية، الله سبحانه وتعالى هو الفَعّال، لكن قد يفعل فعله عن طريق إنسان، وقد يفعل فعله مباشرةً، والله سبحانه وتعالى قادرٌ دائماً وأبداً أن يَمْحَقَ الكافرين بنفسه، ولكن أراد أن يمتحننا.

(وَلَوْ شَاءَ اللّهُ مَا اقْتَتَلُوا)

(سورة البقرة: الآية 253)

(وَلَوْ يَشَاءُ اللّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ)

(سورة محمد: الآية 4)

فالله عزّ وجل حينما يكلِّفنا أن ننشر هذا الدين، حينما يكلفنا أن ننشر الحق من أجل أن نرقى عنده سبحانه وتعالى، هو غنيٌّ عنّا، والحديث القدسي الصحيح:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إِلّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

لو أردنا أن نطبّق هذه القاعدة على حياتنا اليومية، لما دعي الكفّار على الإنفاق على الفقراء ماذا قالوا؟

(أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللّهُ أَطْعَمَهُ)

(سورة يس: الآية 47)

الله عزّ وجل قادر أن يطعم الفقير، وأن ينصر المظلوم، ولكن الإنسان جعله الله خليفته في الأرض ليرقى عنده بالعمل الصالح، فأفعال الله عزّ وجل يمكن أن يجريها عن طريق الخلق، ويمكن أن يجريها مباشرةً، فلذلك هنا:

(وَمَا أَفَاءَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنّ اللّهَ)

مع بني النضير اقتص منهم مباشرةً، فألقى في قلبهم الخوف، والمسلمون في معركة بدر قاتلوا المشركين، وكان القتال مريراً، وانتهى بانتصار المسلمين، إنّ الله هو الذي نصرهم، وهو الذي قوّاهم على عدوّهم، ولكن هذه المعركة انتهت بنصرٍ مؤزّرٍ من خلال حربٍ حقيقيةٍ والتحامٍ مرير، لكن في معركة الخندق المسلمون لم يقاتلوا، بل هبّت رياحٌ عاتية خربت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وقلبت قدورهم، وألقى الله بينهم وبين حلفائهم العداوة والبغضاء، قال تعالى:

(وَكَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب: الآية 25)

الله عزّ وجل يمكن أن ينتصر من أعدائه عن طريق المؤمنين، ويمكن أن ينتصر منهم مباشرةً.

(ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد: الآية 4)

أي حينما يكلِّفُنا ربنا ؛ إطعام الفقراء، ومعالجة المرضى، والعطف على المساكين، حينما يكلفنا ربنا أن ننشر هذا الدين إنما ليرقى بنا، إنما ليكسبنا عملاً صالحاً نسعد به إلى أبد الآبدين، فهذه الأعمال الصالحة التي يقوم بها المؤمنون هي في الحقيقة من فعل الله عزّ وجل، فإذا أراد ربك إظهار فضلك عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

كلنا ضعفاء أيها الإخوة، كلنا فقراء، كلنا لا نعلم، لكن من طلب من الله العلم علّمه الله، ومن طلب المال من الله لينفقه على الفقراء والمساكين أغناه الله، ومن طلب القوة ليقوّي بها الحق قوّاه الله، فنحن ضعاف وفقراء ولا نعلم، فإذا طلبنا من الله العلم علّمنا، وإذا طلبنا القوة قوّانا، وإذا طلبنا الغنى أغنانا من أجل أن نعمل صالحاً نرقى به عند ربنا..

وَلَكِنّ اللّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ

(وَلَكِنّ اللّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ)

(سورة المدثر: الآية 31)

الرعب والخوف من جنود الله:

أحياناً فيروسٌ لا يرى بالعين، من أضعف خلق الله قاطبةً.. هذا فيروس الإيدز أضعف فيروسٍ عرفه العلماء حتى الآن.. إن خرج في الهواء بعد ثوانٍ ويموت، هذا الفيروس الضعيف دولٌ عُظمى، وهيئات علميةٌ في أعلى درجات العلم، وأموالٌ فلكية، ألوف المليارات أنفقت من أجل أن نبحث عن مصلٍ مضادٍّ لهذا الفيروس، لم يصل العلم الآن إلى هذا المَصْل، والعالم كلّه مكتوف اليدين ينظر إلى خمسةٍ وثلاثين مليون مصاب بالإيدز، وفي كل عشر ثوانٍ يموت إنسانٌ بالإيدز في بعض البلاد الغربية فقط، هذا من جنود الله.

الطاعون من جنود الله، وإلقاء الخوف في قلوب الكفّار من جنود الله، والخوف أحد الجنود، وربنا عزّ وجل لا يعلم جنوده إلا هو، أن يلقي الله في قلب أعدائه الخوف هذا من جنود الله عزّ وجل، أن يبتليهم بالأوجاع التي لم تكن في أسلافهم من جند الله عزّ وجل.

الآن جنون البقر لم يعرف العلماء حتى الآن مسببات هذا المرض، لكنهم يرجّحون أن مسببات هذا المرض أقلّ من الفيروس، كائن حي، لكن لم يهتدوا إلى طبيعته، هذا الكائن الحي المسبب العامل الممرض سبّب كارثة لبلدٍ تعيش على بيع لحوم البقر، من أقصاها إلى أقصاها كلّها مراعٍ وتُربّى فيها البقر، وهم الآن يواجهون أزمةً اقتصاديةً لا حدود لها، لأن الله سبحانه وتعالى سلّط على أبقارهم مسبباً لهذا المرض أقلّ من الفيروس، هذا من جنود الله عزّ وجل، لأنهم خالفوا منهج الله، وأطعموا هذا البقر طحين لحم الجيَف، وطحين الدم المجفّف، والله سبحانه وتعالى حَرّم الميتة والدم ولحم الخنزير.

الآيات بين أيدينا، الآيات الدالة على صحّة هذا المنهج، وعلى أحقّيته، وعلى أنّ هذا الدين دين الله، وعلى أنّ هذا الدين شرع الله، وعلى أنّ هذا الدين هو الحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الأدلّة والآيات أكثر من أن تُحصى.

أيها الإخوة :

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ)

إن الإنسان محاط بمليارات جنود لله عزّ وجل، فإن لم يستقم على أمر الله يأتِه الجنود من حيث لا يشعر، تارةً من صحّته، وتارةً جرثوم، وتارةً فيروس، وتارةً مسبّب للمرض، وتارةً في ماله، أحياناً تُسَلّط ذبابةٍ على محصولٍ قيمته مئات الألوف، هذا المحصول يفنى، يصاب بمرض، وحتى الآن الذبابة البيضاء لا أحد يعرف كيف الخلاص منها، ذبابة تُسَلّط على الخضراوات في الصيف، هذا مرض، هناك أمراض تصيب النباتات، وهناك أمراض تصيب الحيوانات، هناك أمراض تصيب الإنسان، وهناك خوف يُلْقَى في قلب الإنسان، هذا كلّه من جنود الله..

(وَلَكِنّ اللّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

أَلا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

إنه لا ينجينا من الله إلا أن نطيعه، ولا ملجأ منه إلا إليه، ولا مَفَرّ منه إلا إليه، لذلك الله عزّ وجل قال:

(أَلا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد: آية " 28 ")

هو الذي خلق قلوبنا، هذا القلب البشري لا يطمئن إلا بذكر الله، ولا يسعد إلا بذكر الله.

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

لا يضلُّ عقله، ولا تشقى نفسه.

في الآية لفتة لطيفة، وهي أن الله سبحانه وتعالى قدّم الذكر على الاطمئنان فقال:

(ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

ولو أنه قال: تطمئن القلوب بذكر الله لكان المعنى أنها تطمئن بذكره وبغير ذكره، إذا قلت: نعبد إياك يا رب، أي نعبدك، وقد نعبد غيرك، أما إذا قال الله عزّ وجل:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

(سورة الفاتحة: الآية 5)

أي أنّه قدّم المفعول على الفعل، هذا تقديم الحصر والقصر، أي إن هذه الآية الواضحة الجليّة تبيّن أنه لا يمكن لمخلوقٍ أن يسعد إلا بذكر الله، بذكر عظمته، وذكر أمره، وذكر رحمته، وذكر فضله، والاستقامة على أمره ..

(وَلَكِنَّ اللّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هو قدير أن ينصرك على عدوّك، وقدير أن يكفَّ يد عدوّك عنك، لكن ابحث عن الذي يرفعك عند الله، ابحث عن الذي يرقيك عند الله عزّ وجل، أحياناً الحدث يقع على يد إنسان، وأحياناً يقع من قِبَل الله مباشرةً، وهذا ما يسمّيه الناس القضاء والقدر.

مثلاً: إذا وقع طفل من الشرفة فمات فهذا من قضاء الله وقدره، وأحياناً إنسان عن حيطةٍ وعن حذرٍ يدهس صبيّاً، مات الصغير بالقضاء والقدر المباشر، ومرّةً بالمقضي عن طريق إنسان، فكلّه فعل الله عزّ وجل، ولكن أحياناً يحقق الله أفعاله مباشرةً، وقد يحققها من خلال بعض الكائنات..

(وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أي أن الإنسان في قبضة الله.

هناك مثل ضربته قبل يومين: إن هذه اللعب بالسيارات الكهربائية.. لو أن عشر سيّارات اتجهت نحو سيارةٍ كي تجعلها في زاوية، والذي يملك قطع التيار عن هذه الساحة لو فعل هذه الحركة لعطّل كل الحركات، الأمر كلّه بيد الله عزّ وجل، أي إنها قضية تقوية، الله يقوي إنسانًا، ويضعِّف إنسانًا، فإذا كنت مع الله قوّاك الله، وإذا ابتعدت عنه ضعفت، فإذا كان الإنسان مع الله لا يخشى أحداً، وإن لم يكن مع الله خاف من كل شيء..

(مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

الحقيقة أنّ هذه قصّة جرت للنبي مع بني النضير، كيف أجلاهم ؟ وكيف خانوا العهد ؟ ثم كيف تآمروا على قتله ؟ ثم كيف أجلاهم، وأخذ منهم أموالهم على أنه فيءٌ أنعم الله به على المؤمنين ؟

قاعدتان مهمتان من قصة بني النضير:

ولكن من خلال هذه القصّة وردت قاعدتان، إن هاتين القاعدتين هما أصلان من أصول حياة المسلمين..

القاعدة التشريعية الأولى: كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

نقف عند هذه القاعدة قليلاً، هذا المال أيها الإخوة قِوام الحياة، جعله الله قِوام الحياة، هذا المال وضعه الطبيعي، وضعه السليم، وضعه الصحّي هو في خدمة الإنسان إذا كان متداولاً بين جميع الناس، أي إذا كان بين أيدي مجتمعٍ ما كتلة نقدية، هذه الكتلة النقدية ينبغي أن تكون متداولةً بين كل الناس، كل الناس يعيشون، ويأكلون، ويشربون، ويسكنون، ويتطبّبون، ويتنزّهون، ويلبسون.. إلخ، أما إذا تجمّع المال في أيدٍ قليلة وحُرِمت منه الكثرة الكثيرة اختل توازن المجتمع، لذلك تعدُّ هذه الآية على أنها جاءت عرضاً في سورة الحشر، وفي قصّة بني النضير، إلا أنّ هذه الآية لا يقلِّل من قيمتها ولا من شموليّتها أنها وردت في هذه القصّة، لأن القواعد القرآنية تتجاوز مناسباتها، ولعبرة لا بخصوص السبب، بل بعموم الحكم.

الوضع الصحي أن يلد المالُ المالَ:

مثلاً: حينما تلد الأعمال المال، المال يتولّد، من أين ؟ إما أن يتولّد المال من المال، أو أن يتولّد المال من الأعمال، فالوضع الصحيح، والصحّي، والسليم، والذي يعيد المال إلى كل الناس أن يتولّد المالُ من الأعمال، فحينما تزرع أرضاً فأنت بحاجة إلى مهندس زراعي، بحاجة إلى دواء لآفّة معينة، بحاجة إلى عمّال لجني المحصول، بحاجة إلى علب أو عبوات لتعبئة المحصول، بحاجة إلى وسائل لنقل المحصول، بحاجة إلى تاجرٍ يبيع لك هذا المحصول، أنت لا تشعر حينما تزرع أرضاً إلا ومئات الأشخاص قد شاركوك في هذا الربح، فالعمل حينما يكون هو الأصل فريعُ هذا العمل يوزّع بين أيدي

مئاتٍ بل ألوف، بهذه الطريقة فإن المال يتوزّع بين الجميع، ويكون متداولاً بين الجميع، ولو أنك زرعت حقلاً فأنت بحاجة إلى آلاف الأشخاص ؛ من عمّال، من صاحبِ ناقلات، من مهندسين.. إلخ.

إذا أسّست عملاً تجارياً، فإن ريع هذا العمل التجاري يوزّع بين ألوفٍ مؤلّفة، وأنت لا تشعر، إن كنت بحاجة إلى دفتر فواتير فأنت بحاجة إلى مطبعة، والمطبعة تحتاج إلى آلات، والآلات تحتاج إلى حبر وإلى موظّفين، وإلى عناصر كثيرة جداً من أجل أن تؤمّن لك دفتر الفواتير.

دققوا أيها الإخوة، الأعمال إذا ولدت المال كان المال متداولاً بين الجميع، لذلك الإسلام لا يسمح للمال أن ينمو إلا من خلال الأعمال، أما إذا سمحنا للمال أن يلد المال تجمّع المال في أيدٍ قليلة، وحُرِمت منه الكثرة الكثيرة، فاختلّ توازن المجتمع، وصار الواحد يملك مليونًا، ومليونٌ لا يملكون واحداً، ومن اختلال هذا التوازن نشأت الاضطرابات، نشأت أعمال العنف، اتسعت السرقات، الاغتصاب، الاحتيال، وكل أمراض المجتمع تنجم من اختلال توازن توزيع المال بين فئات المجتمع، لذلك هذه قاعدة أساسية.

أيها الإخوة الكرام، حياتنا الاقتصادية تشبه مخروطاً، هذا المخروط له ارتفاع، وله حلقات متناقصة في المساحة، فكلّما ارتفع السعر ضاقت الشريحة التي تستفيد من هذه السلعة، لتكن فاكهةً، لتكن لحماً، لتكن أي شيء، إذا ارتفع السعر ضاقت الشريحة، إذا انخفض السعر اتسعت الشريحة، وأوضح مثل هو الفواكه إذا رخصت اشتراها كل الناس، فإن غلت اشتراها بعض الناس.

أيها الإخوة، كل شيءٍ يؤدّي إلى رفع السعر حرّمه القرآن الكريم، حرّم الاحتكار، الاحتكار، ويمكن للمحتكر أن يربح أضعافاً مضاعفة، أن يربح بالمائة خمسمائة، لأن هذه البضاعة محصورةٌ فيه، وله أن يجعل سعرها كما يشاء، لذلك المحتكر خاطئ، كما قال عليه الصلاة والسلام فعَنْ مَعْمَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ))

[مسلم]

لأن الاحتكار يرفع السعر، وإذا ارتفع السعر ضاقت الشريحة المستفيدة من هذه السلعة، فإذا ضاقت تمتّع بها قلّةٌ قليلة ممن يملك المال، وحُرِمت منها كثرةٌ كثيرة ممن لا يملك المال، إذاً: الذي رفع السعر هو الاحتكار، الاحتكار محرّم، الذي رفع السعر هو الكذب والتدليس أحياناً، توهم الشاري أن هذه البضاعة من نوع مُعَيَّن فيُقبِل على شرائها، وهي ليست كذلك، فالاحتكار والكذب والتدليس والغش، وكل ما من شأنه أن يرفع الأسعار هو في الحقيقة يخلُّ بالتوازن بين أفراد المجتمع، فهذه القاعدة الذهبية التي وردت في هذه السورة:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

والآية التي تقابلها، والتي توضّحها:

(وَلا تَأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)

(سورة البقرة: آية " 188)

هذه الآية فيها روعة ما بعدها روعة، ذلك أن مال أخيك سَمَّاه الله مالك، لم يقل: لا تأكلوا أموال إخوانكم، لا تأكلوا أموال غيركم، لا تأكلوا أموال بعضكم، بل إنه قال:

(وَلا تَأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

أي أن هذا المال مال أخيك، هو من زاويةٍ واحدةٍ مالك، هذه الزاوية أي أنك مطالبٌ أن تحافظ عليه كما لو أنه مالك..

(وَلَا تَأكُلُوا أمْوَالَكُمْ)

مال أخيك مالك من زاوية أنك مطالبٌ أن تحافظ عليه، كيف أنك تحافظ على مالك ؟ كذلك تحافظ على مال أخيك.

إذا افتقر أخوك فأنت ملزمٌ به، فإذا حفظت ماله حفظت نفسك، وإن أخذت ماله ظُلماً أفقرته فضعُفت بضعفِه، قال تعالى:

(وَلا تَأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

وهذه إشارة لطيفة إلى أن المال يجب أن يكون بين الناس جميعاً، فلذلك سيدنا عمر رضي الله عنه كلّما التقى بأحد الولاة أول سؤالٍ يطرحه عليه: << **كيف الأسعار عندكم يا فلان ؟** >>، لأن الأسعار إذا تدنّت رحِمَ الله الناس بها، وإذا ارتفعت شقي الفقير، والإنسان أحياناً كما قال الإمام علي كرّم الله وجهه: << **كاد الفقر أن يكون كفراً** >>، والإنسان إذا افتقر لم يجد ما يأكل، لم يجد ما يلبس، لم يجد المال الكافي لزواجه أو لسكنه في مأوى، فاختلف وضعه، وأعرض عن الدين، وفكّر في الذي لا يرضاه الله عزّ وجل، فكل إنسان يُخِلُّ بهذا التوازن، أو يحرم الناس حقّهم الطبيعي هو ظالمٌ.

سيدنا عمر سأل أحد الولاة فقال: **<< ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، قال: فإن جاءني من رعيّتك من هو جائعٌ أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسدّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفِر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خُلِقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية >>.**

الربا من العبد مقابَلٌ بحربٍ من الله رسوله:

أيها الإخوة، المال يكون متداولاً بين الناس من خلال الأعمال، ويُجَمَّعُ المال في أيدٍ قليلة، وتُحرَم منه الكثرة الكثيرة إذا نما ذاتياً عن طريق الربا، لذلك أشدُّ المعاصي عند الله عزّ وجل الربا، لماذا ؟ لأنه يقضي على سلامة مجتمعٍ بأكمله، فإذا نَمّى الإنسانُ ماله عن طريق الربا حرم الكثرة الكثيرة من ماله، وجُمِّعت الأموال بأيدٍ قليلة، والله سبحانه وتعالى تَوَعَّد المرابين بحربٍ من الله ورسوله:

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ)

(سورة البقرة: الآية 279)

وإلا ..

(فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: الآية 279)

لأن المعصية تشتدّ خطورتها إذا اتسعت رقعتها، والإنسان قد يشرب الخمر وحده، مَن يضرُّ ؟ يضر نفسه فقط، أما إذا زنى فإنه أفسد فتاةً معه، وإذا أكل الربا أفسد مجتمعاً بأكمله، لأن المال قِوام الحياة، وقد جعل الله المال قِوام الحياة.

لو أن شابًا مثلاً أمّنت له عملا بدخل معقول، وأمّنت له مأوى فتزوّج، إذا تزوج انطلق إلى عمله نشيطاً، وأمّن فتاةً تبحث عن زوج، فتاة وشاب تزوجا في مأوى، وله عملٌ يعيش منه، هذه أسرة، هذه خلية من خلايا المجتمع صحيحة، فإذا بُني المجتمع على أساس صحّي نما وتقدّم، فلذلك القاعدة الأولى:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

أي متداولاً.

المال الحلال والعمل المشروع واجب شرعي:

هذا البحث يطول جداً، والمجتمع الإسلامي بأكمله مبنيٌ على هذه القاعدة: المال قِوام الحياة.. **" وحبّذا المال أصون به عرضي وأتقرّب به إلى ربي "..**

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى))

[متفق عليه]

وقد أمسك النبي عليه الصلاة والسلام بيد عبد الله بن مسعود، وكانت خشنة من العمل، أمسكها ورفعها وقال:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

وهناك عشرات الأحاديث الصحيحة تبين أن الإنسان حينما يعمل من أجل أن يكفي نفسه، ويكفي أهله، وأن يتقرَّب إلى ربه، وكان عمله مشروعاً، وسلك فيه الطُرُقَ المشروعة، ولم يشغله عن فريضةٍ أو واجبٍ ديني انقلب العمل إلى عبادة، والأدلّة على هذا كثيرة:

حينما سأل النبي عليه الصلاة والسلام شاباً يصلي في المسجد فقال له:

((من يطعمك ؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك))

[ورد في الأثر]

ومرَّةً أثنى الصحابة على رجل فقال:

((من يطعمه ؟ قالوا: كلّنا نطعمه، قال: كلكم أعبد منه))

[ورد في الأثر]

وقد التقى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ القرآن، فقال: **<< إنما أنزل هذا القرآن ليُعمَل به، أفاتخذت قراءته عملاً ؟ >>.**

المسلمون الآن يجب أن ينهضوا عن طريق العمل، والعمل في الإسلام مقدّس، وحينما يعمل الإنسان فإنه يتألّق، وحينما يعمل، ويكسب مالاً حلالاً، وينفقه لحلّ مشكلات الناس يرقى عند الله عزّ وجل.

إذاً القاعدة الأولى:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

أيّ سلوكٍ يُجَمِّع الأموال في أيدٍ قليلة فهو محرَّم، لو عُدتم إلى كتب الفقه لوجدتم أن مئاتٍ من التصرُّفات حرَّمها النبي عليه الصلاة والسلام لأنها تؤدي في النهاية إلى تجميع الأموال في أيدٍ قليلة، لذلك:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[الترغيب والترهيب عن ابن عباس، وسنده ضعيف]

ولا يكون مطعمك طيباً إلا إذا كنت صادقاً فيه، ومتقناً له، مخلصاً في أدائه، مطبقاً منهج الله في التعامل معه، عندئذٍ يكون الكسب حلالاً، فإن اشتريت بهذا المال طعاماً كان هذا الطعام طيباً، فإذا طاب مطعمك كنت مستجاب الدعوة، دققوا، هذا هو الدين، الدين أن ننطلق جميعاً إلى أعمالنا بإخلاص، بإتقان، بصدق، بأمانة ؛ دون كذب، دون تدليس، دون احتكار، دون استغلال، دون إخفاء عيوب، دون إيهام، وكل سلوكٍ من شأنه أن يضرَّ المشتري فهو محرَّم، كل سلوكٍ فيه إخفاء حقيقة عن المشتري فهو محرَّم، فإذا استقمنا في تجارتنا أكرمنا الله عزّ وجل بالرزق الحلال.

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: الآية 96)

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ))

[أبن ماجه، أحمد]

أيها الإخوة الكرام، لا يوجد أروع من إنسان أدّى صلواته الخمس، وانطلق إلى عمله ليثبت للناس أن الإسلام منهجٌ كامل، فيجب أن يكون المؤمن في عمله ملفتاً للنظر بصدقه، باستقامته، بأمانته، بعدم غشّه، والله عزّ وجل وحده هو الرزّاق ذو القوّة المتين.

هذه آية وردت في سورة الحشر، وفي معرض الحديث عن بني النضير، وكيف أن النبي صلى الله عليه وسلّم أخذ هذا المال، وأعطاه للمهاجرين دون الأنصار، الأنصار تبوءوا الدار والإيمان، وهم مقيمون في بلدهم، عندهم بساتينهم، عندهم منازلهم.

أما هؤلاء المهاجرون فقد أتوا من مكّة بلا مال، بلا ضياع، بلا بساتين، بلا بيوت، آثروا الله ورسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام استشار الأنصار، فكان جواب الأنصار ملفتاً للنظر، إما أن نعطيهم هذا الفيء، وأن ينزلوا لكم عن كل ما أعطيتموهم، وإما أن نُقَسِّمه بينكم سويّةً، فقالوا: **" بل يبقون عندنا كما كانوا، ونؤثرهم بهذا المال ".**

الحقيقة إذا كنّا نريد نموذجين من المؤمنين متعاونين إلى أقصى الدرجات فعلينا أن ندرس حياة الأنصار والمهاجرين، لذلك جاءت الآية الكريمة:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

القاعدة التشريعية الثانية: وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

هذا القرآن الكريم وحي الله إلى بني البشر، وحي السماء إلى الأرض، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام كل ما قاله موضحاً لهذا الكتاب يُعَدُّ مصدراً ثانياً من مصادر التشريع، فهناك وحي متلو هو القرآن الكريم، ووحيٌ غير متلو هو تشريع النبي عليه الصلاة والسلام، وإن ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام هو تبيّينٌ، وتفصيلٌ وتوضيحٌ لما جاء في كتاب الله، فلذلك كل من أراد أن يلغي سُنّة رسول الله يقع في مطبٍّ كبير، وهو يكذِّب القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

وذكرت هذا قبل قليل أن خصوصية السبب لا تُلغي عموم الحكم، لعلّ سياق هذه الآية: أن أيها الأنصار، أو أيها المهاجرون..

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ)

من غنائم فخذوه، وما لم يؤتكم فلا تعترضوا على ذلك، إنه لا ينطق عن الهوى.

إن الأنبياء وحدهم يتحرّكون وفق أمر الله لهم، حتى في تفاصيل سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ما تحرّك حركةً إلا بأمر الله، فلذلك هو في أقواله مشرّع، وفي أفعاله مشرّع، وفي إقراره مشرّع، وفي أحواله مشرّع ..

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

ولكن إذا تجاوزنا موضوع الغنائم والفيء إلى ما هو أوسع ؛ كل أقوال النبي تشريع، وكل نهي النبي تشريع، وكل إقرار النبي تشريع، وكل عدم إقرار النبي تشريع، وكل أحوال النبي تشريع، لذلك عَرّفوا سنّته بأنها: أقواله وأفعاله وإقراره وأحواله..

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

أعداء الدين متأكِّدون أنهم لن يستطيعوا أن يواجهوا هذا الدين إلا من بابٍ خفي، تارةً بإلغاء السنّة، وتارةً بتأويل القرآن تأويلاً لا يرضي الله عزّ وجل، فالمسلم يجب أن يكون يقظاً، وأية دعوةٍ إلى ترك السنّة هي دعوةٌ إلى مخالفة القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

فهاتان الآيتان اللتان وردتا في سورة الحشر في سياق إجلاء بني النضير هما قاعدتان أساسيتان في المجتمع الإسلامي، المصدر التشريعي الكتاب والسنّة، الكتاب وحي السماء إلى الأرض، والسنّة تبيين النبي عليه الصلاة والسلام.

والقاعدة الثانية: أن الإنسان بعد أن يُخلق، وبعد أن يهتدي إلى الله قِوام حياته المال، هذا المال في مبادئه العريضة يجب أن يكون موزّعاً بين كل الفئات، فلذلك الإنسان ترتاح نفسه إذا رأى الناس جميعاً في حالة سَمّاها النبي الكفاية، فعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا، وَقَنَعَ))

[الترمذي]

وَاتَّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

الكفاف لا يعني الفقر، كما أنه لا يعني الغنى، أي أن تجد ما تغطي به حاجاتك، أن يكون دخلك مقابلاً لنفقاتك المعقولة، لكن الناس يلهثون وراء الغنى، ووراء الترف، ووراء التبذير، قد يقول لك: أنا فقير، لأنه لا يجد ما ينفقه على ملاذِّه غير المشروعة، وكلكم يعلم أن الإنسان إذا أنفق مالاً على معصيةٍ سمِّي مبذِّراً، وأنه إذا أنفق مالاً في مباحٍ أكبر مما يجب سمِّي مسرفاً، وربنا عزّ وجل نهى عن الإسراف، ونهى عن التبذير، وقال بعضهم: من دَخَّن وهو غني عُدَّ مبذِّراً، ومن دخَّن وهو فقير ماذا نسميه ؟

سفيهاً، السفيه هو الذي ينفق ماله بغير حكمة، هذا مال أولاده، وقوت أولاده، وقِوام حياته أنفق نصفه على ما يؤذيه، فمن دخَّن وهو غني عُدَّ مبذِّراً، ومن دخَّن وهو فقير عُدَّ سفيهاً، فلذلك هنا:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللّهَ)

أي أطيعوه.

(إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

القضية أعمق من ذلك، هذا هو الحق، وهذا هو الباطل، يجب أن يكون المال متداولاً بين الناس، يجب أن يكون المصدر التشريعي القرآن والسنّة، إن أبيتم ذلك فهناك علاجٌ إلهي..

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(25))

(سورة الأنفال)

الإنسان بين تكريم الله له والتضييق عليه:

هذا ينقلنا إلى موضوع دقيق ؛ هو أن الله رب العالمين أمرَ ونهى، ولكنه يتابع ما تفعله أنت أيها الإنسان، إن اتخذت قراراً سليماً شجَّعك على ذلك، وشرح صدرك، وأكرمك وأعطاك، ورفع قدرك، وإن اتخذت قراراً سيئاً، اتبعت شهوتك، وآثرت الدنيا على الآخرة، ضيَّق صدرك..

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

(سورة الأنعام: الآية 125)

ثم عالجك.

النقطة الدقيقة هنا أن القضية أكبر من أنَّه أمر ونهى، لا، أنت افعل ما تريد، هو يتابعك لأنه ربك، وأنت يمكنك أن تقوم بتعيين موظف، وأن تقول له: هناك شهران للتدريب، فإما أن أقبلك بعد شهرين موظّفاً دائماً، وإما أن أصرفك، أنت بإمكانك أن تراقبه مراقبةً دقيقة، وأن تسجِّل عليه كل أخطائه، فإن كثرت هذه الأخطاء صرفته، واستغنيت عن خدماته، أنت بهذا لست مربياً، إنك صاحب عمل، لكنك

لست مربياً، أما لو أن هذا الإنسان المتمرّن كنت حريصاً عليه فإنك عند أول خطأٍ تنبّهه قائلا: هذا الخطأ لا تعِده، عند أول انحرافٍ تلفت نظره، تقوّم نفسه، موقف المربّي أكمل بكثير، وحينما تتخذ قراراً سليماً يشجعك رب العالمين، ويشرح صدرك، وهذه معاونةٌ منه لك، ويكافئك، ويرفع قدرك، أما حينما تتخذ قراراً خاطئاً فإنه يضيّق صدرك..

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

وهذا التضييق في الصدر معاونةٌ لك من أجل أن تترك هذا السلوك، أحياناً يسوق لك الشدائد، أحياناً يضيّق عليك، لذلك ربنا عزّ وجل شديد العقاب، أي يتابع الأمور، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا أحبّ الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن شكر اقتناه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة وابن مسعود]

((إذا أحبّ الله عبده عاتبه في منامه))

[الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف]

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِذَا أَرَادَ اللّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا))

[الترمذي]

((إذا أراد الله بعبده خيرًا جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه))

[الجامع الصغير عن أم سلمة بسند ضعيف]

إذا وجد الواحد منّا نفسه في متابعة من الله، وفي عنايةٍ مشدّدة فليحمد الله على هذا كثيراً، أما إذا وجد نفسه ينحرف، ولا يُحاسب ليعلم أن الله يمقته، وأنه أخرجه من دائرة العناية المشدّدة، فالذي نرقى به عند الله أن نكون في دائرة العناية المشدّدة..

(وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

إن الإنسان إما أن يأتي الله طائعاً، وإما أن يأتيه كرهاً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((عَجِبَ اللّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنّةَ فِي السّلَاسِلِ))

[البخاري]

سلاسل الامتحان والتأديب والتضييق.

على كلٍ، الإنسان إن وصل إلى الله بأية طريقة فهو من الفائزين، إما أنه يأتي الله طوعاً، أو يأتيه عقِب تضيقٍ أو تشديد .

هؤلاء هم المهاجرون:

1 - الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ

لِمَن الفيءُ ؟

لكن هذا الفيء لمن ؟ قال الله عزّ وجل:

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ)

(سورة الحشر: الآية 8)

إنسان مستقر في بلده ؛ له دكّان، له منزل، له بستان، له مركز، له أقرباء، ما ذنب هؤلاء المهاجرين ؟ لهم ذنبٌ واحد ؛ أنهم آمنوا بالله ورسوله، عندما آمنوا بالله ورسوله ضَيّق عليهم كفّار قريش، ونكّلوا بهم حتى حملوهم على الهجرة، قال تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ)

الفقر ليس وصمة عارٍ :

بالمناسبة، لا يمكن أن يكون الفقرُ وصمة عارٍ في حق الإنسان، وصمة العار هي المعصية.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّهِ لَأَبَرّهُ))

[الترمذي]

إن الإنسان لا ينبغي أن يستحي من الفقر بل ينبغي أن يستحي من المعصية، هؤلاء قِمَمٌ عند الله عزّ وجل وهم فقراء، والمهاجرون لأنهم آمنوا بالله ورسوله تركوا أموالهم، تركوا بيوتهم، تركوا تجارتهم، تركوا بساتينهم، تركوا أهلهم، ونصروا النبي عليه الصلاة والسلام، وجاءوا معه، ولو أن رجلاً منّا له بيت، ومتجر، وبيت في المصيف، ومركبة، فجأةً أُخِذ ووُضِع على رصيف في مدينة بعيدة، وليس في جيبه درهمٌ واحد، هذه هي الهجرة، اقتلاع من الجذور، إنسان متمكّن له دخل، له بيت، له مأوى، له متجر، له مكانة، يأتي إلى بلد آخر بعيد لا شيء معه إطلاقاً، فالفقر ليس وصمة عارٍ في حقّ الإنسان، بل بالعكس، كن مستقيماً واللهُ سبحانه وتعالى يغنيك، أما لو أنّ الإنسان عصى ربّه لو أنه غني فإنّ الله عزّ وجل يؤدّبَهُ على غنى..

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللّهِ وَرِضْوَانًا)

2 - يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللّهِ وَرِضْوَانًا

نحن ماذا نبتغي ؟ هل نبتغي طاعة الله ؟ هل نبتغي فضل الله العظيم ؟ هل نبتغي جنّته ؟ هل نبتغي محبّته ؟ هل نبتغي خدمة خلقه ؟ هل نبتغي نشر دينه ؟ هل نبتغي معونة الضعفاء والمساكين ؟ هل نبتغي عملاً صالحاً يقرّبنا إليه ؟ قال تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ)

3 - وَيَنْصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ

أنت أحياناً تنصر هذا الدين بالصدق، تنصره بالأمانة، تنصره بأداء العبادات، تنصره بحضور مجالس العلم، تنصره بتكثير سواد المسلمين، هناك مليون طريق يمكن من خلالها أن تنصر هذا الدين، إذا كنت صادقاً فهذا نصرٌ للدين، إذا كنت أميناً فهذا نصرٌ للدين، إذا كنت مخلصاً فهذا نصرٌ للدين، إذا كنت متقناً فهذا نصرٌ للدين، إذا كنت عفيفاً فهذا نصرٌ للدين، إذا كنت معطاءً فهذا نصرٌ للدين، هؤلاء المهاجرون الفقراء..

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصّادِقُونَ)

4 - أُوْلَئِكَ هُمْ الصّادِقُونَ

لماذا هم صادقون ؟ لأن أفعالهم أكّدت أقوالهم.

قال لك شخصٌ: لو أتيتني لأعطيتك ما تريد، طرقت بابه، وقلت له: أعطني فأعطاك، كلمته السابقة هل هو صادقٌ بها أم كاذب ؟ ما دام قد أعطاك فهو صادق، هؤلاء المهاجرون آمنوا بالله، وكلٌ منّا بإمكانه أن يَدّعي الإيمان بالله، لكنهم آمنوا وهاجروا، آمنوا وآثروا، آمنوا وأنفقوا، آمنوا وجاهدوا، آمنوا وضحوا بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، آمنوا فجاءت أفعالهم مؤيدةٌ لأقوالهم، هذا برهان، و النبي قال:

((وَالصّلَاةُ نُورٌ وَالصّدَقَةُ))

[الترمذي عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيّ]

المال محبّب، أما إذا أنفقته فإنك تؤكّد لنفسك ولمن حولك ولربك أنك صادق، غض البصر يؤكّد إخلاصك لله، ضبط اللسان يؤكّد إخلاصك لله، فهؤلاء المهاجرون..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ)

أما الأنصار.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(سورة الحشر: الآية 9)

هؤلاء هم الأنصار:

1 - الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ

هم في بلادهم، وبيوتهم، وبساتينهم، لكن الإيمان دخل إلى أعماق أعماقهم.

(تَبَوَّءُوا الدَّارَ)

وكانوا بإيمانهم مخلصين..

(يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

2 - يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

هذه علامة الإيمان، أن تحبَّ المؤمنين، أن لا ترى المؤمن عبئاً عليك، مؤمن أتاك تستقبله بالترحاب، تؤثره بما عندك.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

يحبونهم.

عنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ))

[متفق عليه]

وفيما بيننا أن يحب بعضكم بعضاً هذا من علامة إيمانكم، أما فلان أحقد عليه، فلان أغار منه، فلان أحسده، فلان أتمنّى دماره، فلان أتمنى أن لا ينجح لئلا يفوز عليّ، هذه علامة النفاق، حبُّ المؤمنين إيمان، وبغضهم نفاق..

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

هذا وصف الله لهم.

وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

3 - وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

لما آتاهم النبي فيء بني النضير.. آتى المهاجرين أمام أعين الأنصار، تحت سمعهم وبصرهم، وما شعروا بشيء، ما شعروا بالحرج، ما تألموا، ما اغتاظوا..

(يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

4 - وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

المؤمن ينطلق من الإيثار، يؤثرون على أنفسهم إخوتهم المؤمنين، مع أنهم في أشدِّ الحاجة إلى هذا المال.

قد تقول لإنسان: خذ هذه الحاجة، أنت لا حاجة لك بها، فائضة عن حاجتك، فتعطيها، هذا عطاء ولا شك، لكن قيمته تقلّ، أما حينما تكون في أمَسّ الحاجة إلى شيء وتعطيه أخاك المؤمن، حينها انطبقت عليك هذه الآية:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

والله أعرف إخوة مؤمنين استطاع أن يؤمّنوا بيتاً، فإنْ خطب أخاه، وليس له بيت آثره به، وقال له: أنا بعد حين أبحث عن بيت، خذه، والحقيقة أننا لا نرقى عند الله إلا بالمؤاثرة، والإنسان إذا عاش في مجتمع فيه مؤاثرة يصير المجتمع جنّة الله في الأرض..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ، فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ، فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي]

هذا وصف دقيق جداً، وهؤلاء نماذج يجب أن تكون متكررة، أنا لا أسمي مجتمع الإيمان مجتمعاً حقيقياً إلا إذا كان فيه أنصار ومهاجرون، انظر إلى هذا الوصف:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

على فَقْرِهِ، وعلى ضيق ذات يده، وعلى حاجته الماسَّة يُعطي أخاه المهاجر، خذ مالي، خذ نصف مالي، خذ هذه الدكان، خذ هذا البستان، والمهاجرون في أعلى درجات العِفّة، بارك الله لك في مالك، ولكن دلّني على السوق.

إن لم نعش حياة هؤلاء فلسنا مسلمين:

إخواننا الكرام، إن لم نعش حياة هؤلاء فلسنا مسلمين، يجب أن نعيش حياتهم، أن نعيش محبّتهم، أن نعيش مؤاثرتهم، أن نعيش تعاونهم، أن نعيش علاقتهم المتينة فيما بينهم، فلذلك يد الله مع الجماعة

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ))

[الترمذي]

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ))

[أحمد]

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

1 - الشح مرضٌ خطير:

هذه الآية إن شاء الله لنا عودة إليها في الدرس القادم لأنها مهمّة جداً، فيها تفصيلات دقيقة جداً، ولكن أخطر مرضٍ يصيب النفس هو الشُح، والشح أهلك من كان قبلنا، وإذا وقي الإنسان من شُحّ نفسه فقد أفلح ونجح، والشُحُّ أن تأخذ ما ليس لك، الشُحُّ أن تبيع دينك بعرضٍ من الدنيا قليل، الشح مرض الأمراض، كل الأعراض الخطيرة هي أعراض لمرض واحد وهو الشُح.

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

والله عزّ وجل هو الرزّاق ذو القوة المتين.

2 - هؤلاء بريئون من الشح:

أيها الإخوة، قال عليه الصلاة والسلام:

((برئ من الشح من أدّى زكاة ماله، وأعان على النائبة))

[الجامع الصغير عن خالد بن زيد حارثة، وفي سنده ضعف]

((برئ من الشح من أقرى الضيف))

[ورد في الأثر]

الذي يعين على النائبة برئ من الشح، والذي يقري الضيف برئ من الشح، والذي يؤدي زكاة ماله برئ من الشح، أما إذا قتّر على نفسه لحكمةٍ يراها ليس لك أن تسميه شحيحاً إطلاقاً، ومن أدى زكاة ماله، وأقرى الضيف، وأعان على النائبة فإنه ليس شحيحاً، وهذه قواعد قَعَّدها النبي عليه الصلاة والسلام:

((من حمل سلعتَه فقد برئ من الكبر))

[الجامع الصغير عن أبي أمامة، وسنده ضعيف]

((من أكثر من ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة، وفي سنده ضعف]

هذه الآية الأخيرة إن شاء الله تعالى، وإن أحيانا الله الأسبوع القادم فلنا عودة إليها تفصيلية إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحشر 059 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 8- 17
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-06-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الحشر، ومع الآية الثامنة، وهي قوله تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ)

المسلمون في العهد الأول فئتان: مهاجرون وأنصار:

ضرورة استمرار هذين النموذجين:

الله جلّ جلاله بينّ أنه في عهد الإسلام الأول، في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان المؤمنون فئتين؛ فئةٌ هاجرت لله ورسوله، وفئةٌ آوت ونصرت، وكأن الله يريدنا إلى نهاية الزمان أن يكون مؤمنٌ مؤاثر ومؤمنٌ مُكْرِم، فهذان نموذجان أساسيان: إنسان ترك الدنيا لله ؛ ترك ماله، ترك مكانته، ترك بلده، ترك موطنه، ترك أهله، ترك ممتلكاته في سبيل الله، وإنسانٌ آخر آوى ونصر ؛ استضاف هذا الإنسان المهاجر، أعطاه وأسكنه وآواه، أطعمه وسقاه.

أحياناً يخطر في بال إنسان مقيم في بلد متمكِن، له بيت، وعمل، وتجارة، ومكانة، قد يأتيك طالب علم، لو لم يطلب العلم لعاش بين أهله، وكان معززاً مكرماً، لكنه ترك بلده، وترك أهله، وترك مصادر قوته، وأتى يطلب العلم يريد رضوان الله عزّ وجل، أنت كإنسان مقيم ما واجبك تجاه هذا الإنسان المهاجر ؟

إن الله عزّ وجل ما أراد أن يحدثنا عن شيءٍ وقع، أراد أن يعطينا صورةً للمجتمع الإسلامي إلى نهاية الدوران، في المجتمع الإسلامي قوي وضعيف، القوي يجب أن يعين الضعيف، مقيم ومسافر، مُتَمَكِّن وطالب عِلْم، فالمهاجر والأنصاري هذان النموذجان ينبغي أن يستمرا إلى يوم القيامة، لا نفهم القرآن فهماً محدوداً على أن هناك في حياة النبي أناسٌ مهاجرون وأناسٌ أنصار، يجب أن تكون أنت في آخر الزمان أحد رجلين مهاجرٌ أو أنصاري، إنسان آثرت الله ورسوله على دنياك، وإنسان آخر آوى ونصر.

فقرُ المهاجرين كان بسبب دينهم واستقامتهم:

إن الله سبحانه وتعالى يصف المهاجرين بأنهم فقراء، هذا الفقر ليس مِن كسلهم، وليس من ضعف حيلتهم، ولكن بسبب انتمائهم إلى الدين، بسبب مؤاثرتهم رضوان الله عزّ وجل، وكم من إنسانٍ في حياتنا الدنيا يُصْبِحُ فقيراً لأنه مستقيم، وكم من إنسانٍ يكون غنياً لأنه غير مستقيم، لأن المؤمن مقيَّد بألفِ قيدٍ وقيد، أما غير المؤمن فمتفلِّت يأخذ المال من أية جهة، وبأي أسلوب، وبأي طريق، فلذلك هذا الفقر يعدُّ وسام شرفٍ في حقهم، لهم أهلٌ في مكة، لهم أرض، لهم ديار، لهم ممتلكات، لهم تجارة، لكنهم تركوا أرضهم، وديارهم، وأموالهم، وتجارتهم، وبيوتهم، وجاءوا إلى المدينة المنوّرة فقراء لا يملكون شيئاً، فهذا ليس فقر الكسل، إنما هو فقر الإيمان، ويمكن أن تنسحب هذه الحقيقة إلى نهاية الدوران.

قد يقول أحد الأشخاص: فلان صديقي معه الملايين، وأنا لا أملك شيئاً، لو رجعت إلى التفاصيل لعل الذي صار غنياً، لعل بعضهم لم يكن يهتم بمصدر دخله من طريقٍ مشروع أو من طريقٍ غير مشروع، ببيعٍ شرعي، أو ببيعٍ غير شرعي، ببضاعةٍ محللةٍ، أو بضاعةٍ محرمةٍ، العبرة أن يربح، فأحد أسباب الغنى أن هذا الغني لا يأبه بطريقة كسب المال، وأحد أسباب الفقر أن المؤمن مقيَّد، فلا يمكن أن يكذب، ولا يمكن أن يبيع بضاعةً محرمة، ولا أن يغش المسلمين، ولا أن يتعاون مع ظالم، فلذلك ربما وجدت المؤمن أقلَّ دخلاً من غير المؤمن، فالفقر إذا أضيف إلى المؤمن فلعله وسام شرف، لكم نتمنى أن نكون أقوياء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

[مسلم]

اسعَ أن تكون ذا مال لأن المال قوة، ولكن إذا خُيِّرْتَ بين مالٍ حرام، أو بين مالٍ تكسبه على حساب عقيدتك، أو على حساب دينك، أو على حساب مبادئك، فلا كان هذا المال، ولا كان هذا الغنى، والفقر أفضل منه.

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ)

ما ذنبُ المهاجرين حتى أخرجوا من ديارهم وأموالهم ؟

ما ذنبهم ؟ ما ذنبهم إلا أنهم قالوا: ربنا الله.

لا يخاف الفقرَ مَن اتبع رضوان الله:

إن الإنسان أحياناً يفقد كثيراً من حظوظه من الدنيا، لأنه انتمى إلى هذا الدين، لأنه انتمى إلى الحق، لأنه آثر مرضاة الله عزّ وجل، ألم يقل الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة: الآية 28)

ماذا قال الله بعدها ؟

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

(سورة التوبة: الآية 28)

حينما مُنِعوا من دخول بيت الله الحرام ربما تعانون من ضائقةٍ مالية.

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة: الآية 28)

حينما يتحرّك الإنسان إلى الله عزّ وجل فإنه لا يعبأ بالمال أتى أو لم يأتِ، الأصل هو المبدأ، لكن الذي ضحّى من أجل دينه لابد من أن الله سبحانه وتعالى سوف يغنيه من فضله استناداً إلى هذه الآية:

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

واقعةً محققة.

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

(سورة الحشر)

قصدُ ونيةُ المهاجرين في هجرتهم:

1- طلب رضوان الله وحده:

يبتغي رضوان الله، ولا يوجد إنسان أقدس ممّن يبتغي رضوان الله، والإنسان أحياناً يبتغي رضوان إنسان، يبتغي رضوان جهة، يبيع آخرته من أجلها، يبيع دينه من أجلها، وهو مغبونٌ في هذا الاختيار، لأن الله سبحانه وتعالى وحده أهلٌ أن تضحي من أجله، والله عزّ وجل وحده أهلٌ أن تبيعه شبابك، وأن تبيعه عمرك، وأن تبيعه حياتك، وأن تبيعه مالك.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: الآية 111)

لا توجد جهة في الكون أهلٌ أن تهبها حياتك، أو تهبها شبابك، أن تهبها عمرك، أن تهبها علمك، أن تهبها قدراتك، أن تهبها مالك إلا الله، وإذا وهبتَ هذه الأشياء لغير الله فأنت أكبر مغبون، إن وهبت شبابك، وعمرك، وطاقاتك، وذكاءك، ولسانك، وقلمك لغير الله فأنت أكبر مغبون، هؤلاء المهاجرون:

(يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللّهِ وَرِضْوَانًا)

هذه نيّتهم.

2- نصرةُ الله ورسوله:

أما عملهم:

(يَنْصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ)

في كل حركةٍ، وفي كل سكنةٍ، وفي كل كلمةٍ إنما هم ينصرون الله ورسوله، فإذا قمت لتصلي نصرت الله ورسوله، قد يقوم معك آخرون كانوا مترددين، وإذا امتنعت عن دخلٍ حرام نصرت الله ورسوله، وإذا أقمت الإسلام في بيتك نصرت الله ورسوله، أنت إذا أقمت الإسلام في عملك نصرت الله ورسوله، وذا امتنعت عن مصافحة المرأة الأجنبية، وقلت: هذا هو الدين، نصرت الله ورسوله، وإذا امتنعت عن حفلةٍ مختلطة وقلت: هذا يخالف الشرع، نصرت الله ورسوله، وإذا امتنعت عن علاقةٍ ربويةٍ، وبيّنت أنك لا تفعلها لأنها محرمةٌ في الدين، نصرت الله ورسوله، مع أنّ الله غنيٌّ عن أن تنصره، لكنك إذا نصرته بمعنى أنك نصرت دينه، وإذا نصرت دينه أي أقمت دينه، وإذا فعلت مؤكّداً أحقية هذا الدين تشجّع الآخرون.

هؤلاء المهاجرون افتقروا، لا لأنهم ضعيفو الحيلة، بل لأنهم آثروا الله ورسوله.

فقر المهاجرين ليس وصمة عار:

كم مِن إنسان إلى يوم القيامة بسبب انتمائه للدين، بسبب مبدئه، بسبب مواقفه المشرفة، بسبب أنه على الحق، يخسر حظوظ من الدنيا كثيرة ؟ وكم من إنسان بسب تخاذله، وانهزامه الداخلي، وبسبب ضعف إيمانه، وضعف يقينه بالآخرة يصبح غنياً ؟ فهذا الفقر ليس مما يعيب صاحبه، إنه وسام شرفٍ لصدر هذا المُهاجر.

أحياناً تضيع منك الدنيا، وتكسب رضوان الله، لذلك: يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ واللهِ لم يفقد شيئاً، والذي ضيّع الآخرة، وضيع رضوان الله، ونال الدنيا، يا رب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك؟

" ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء ".

إن اتصلت بالله وصلت إلى كل شيء، أنت الغني، أنت القوي، أنت السعيد، وإن فاتك حظك من الدين، وجاءتك الدنيا من أوسع أبوابها فما نلت شيئاً، هؤلاء الفقراء:

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

من الممكن أن تشارك إنسانًا في عمل مربح كثيرًا، له ربحٌ وفير، ويفرض عليك طريقةً تغضب الله عزّ وجل في كسب المال، فإذا انسحبت من هذه الشركة لأنها لا ترضي الله، وهذه الشركة بحكمةٍ بالغة نما مالها نماءً كثيراً، وصار شريكك الذي انسحبت منه من أكبر الأغنياء، وأنت لم تجد رزقاً وفيراً كما كنت معه، أليس هذا الفقر الطارئ وسام شرفٍ في صدرك ؟ يقول السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مقولةً رائعة: " ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان "، الإنسان يحيا بالمبادئ، يحيا بكرامته، يحيا برضوان الله عليه، يحيا بأمله بدخوله الجنة، فليست الحياة كلها مادةً.

هؤلاء المهاجرون الفقراء أُخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم إلا أنهم قالوا: ربنا الله، وكم من إنسان فاتته الدنيا لأنه قال: الله ربي، وكم من إنسان فاتته حظوظٌ كثيرة لأنه لم يجامل، لم ينافق، لم يُداهن، لم يمار، لم يضع مبدأه تحت قدمه، بل وضع مبدأه على رأسه، فَحُرِمَ من الدنيا، فهل هذا الفقر يعد نقيصةً في حقه ؟ إنه وسام شرف.

بعد الفقر يأتي فَضلُ الله العميم:

هؤلاء المهاجرون لهم أرض، ولهم ديار، ولهم تجارة، ولكنهم تركوا أرضهم وديارهم، ومساكنهم، وتجارتهم، ولجؤوا إلى الله ورسوله فكانوا فقراء، لكن فقرهم ليس دائماً، هذا فقر امتحان، فقد أغناهم الله من فضله.

سيدنا عمر حينما جاءت كنوز كسرى كان الرجلان يرفع كل منهما رمحه، والرجل الآخر في الطرف الثاني فلا يرى أحدهما رأس رمح زميله، لأن الغنائم أعلى من رمحيهما، كلُّها ذهب، وتيجان، وأساور، وممتلكات، لقد أغناهم الله من فضله، فهذا الفقر طارئ، فقر امتحان، ثم يأتي فضل الله العميم.

(يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

أما سلوكهم:

(وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الله عزّ وجل غنيٌ عن أن تنصره، لكن حينما تقيم الإسلام، حينما تطبّق تعاليم الإسلام، حينما تعتزّ بالإسلام، حينما تدافع عن الإسلام، حينما تؤيّد المسلمين، حينما تنصرهم، حينما تبغض أعداءهم، حينما يكون ولاؤك لهم وبغضك لأعدائهم فأنت بهذا نصرت المسلمين.

(أُوْلَئِكَ هُمْ الصّادِقُونَ)

(سورة الحشر)

أُوْلَئِكَ هُمْ الصّادِقُونَ

هذا مثلٌ من أضيق الأمثلة: شاب سمع من مجلس علم أنه لا يجوز إطلاق البصر إلا في المحارم، فإذا دخل إلى بيته وحوله أمه وأبوه وإخوته، وأراد أن لا ينظر إلى من لا تحلُّ له من قريباته، فأقام عليه النكير أمه وأبوه وإخوته وأعمامه وعمّاته، فإذا جاء مَن يؤيّده فهذا هو الحق، وهذا هو الشرع، هذا الذي دافع عن هذا الشاب المؤمن الذي أراد أن يستقيم على أمر الله، ماذا فعل هذا الإنسان ؟ لقد نصر الله ورسوله، ودافعَ عن موقف شرعي.

هذا الذي يمتنع عن أكل الربا، والناس مِن حوله يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، فإذا امتنع، واتُّهم بالغباء، وقام أحدٌ وقال: هذا هو الحق، وهذا الدخل حرام، ولا يجوز، إن هذه الكلمة التي تلقيها على مسمعٍ من الناس تنصر بها هذا المستقيم على أمر الله، إن هذا نصرٌ لدين الله، وتقوية الدين، أما إذا تساهلنا في نصرة المؤمنين، ووالينا أعداء المؤمنين، ولم نستجب لله ورسوله فقد خذلنا هذا الدين، وحينما يهون الدين علينا نهون على الله، وحينما يهون أمر الله علينا نهون على الله..

(أُوْلَئِكَ هُمْ الصّادِقُونَ)

(سورة الحشر)

الصدقُ دليلُ الإيمان:

الله عزّ وجل سمّاهم صادقين، لأن أفعالهم أيّدَت أقوالهم.

إنسان وعدك أن يعطيك مبلغاً من المال في الوقت الفلاني، فلما جئته وطالبته بالمبلغ نقده لك، هل هو صادقٌ في وعده ؟ بالطبع لأنه دفع لك المبلغ في الوقت المحدد الموعود فهو صادق، وكل مؤمن يطبّق أمر الله عزّ وجل يعد هذا تطبيق مصداقيةً في إيمانه، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَالصّدَقَةُ بُرْهَانٌ))

[الترمذي عَنْ أبي مَالِكٍ الأَشْعَرِيّ]

لأنها تؤكد صدق صاحبها، فهذا النموذج أنه إنسان يخسر شيئًا من الدنيا، أحياناً أب يكتب لأحد أولاده ظُلماً وعدواناً كل ماله، لأن هذا الابن من زوجته الأخيرة، وأولاده الآخرون من زوجةٍ قد طلّقها، ولا يحبها، فإذا كتب هذا المال كلّهُ لابنه من زوجته الجديدة، وحرم أولاده من زوجته المطلقة، فلو أن هذا الابن كان مؤمناً، وأراد أن يرحم أباه، وأن ينقذه من عذاب النار فوزّع هذه التركة بين إخوته جميعاً وفق ما أمر الله عزّ وجل، ألا يخسر ؟ يخسر طبعاً، هل يعدُّ فقره الطارئ ضعفَ حيلةٍ فيه ؟ لا، هذا فقر وسام شرف له.

أعرف عدداً كبيراً والله الأب أعطاهم كل شيء، بعد موت الأب وزّعوا هذا المال على إخوتهم وفق قواعد الشرع، فأنقذوا أباهم من عذاب النار، ورمموا العلاقة بينهم وبين إخوتهم، كانوا أعداء فأصبحوا أحباباً، فهذا الذي كان له خمسة وعشرون دنما بقي له دنمان من الأراضي، هل يعد هذا الفقر ضعفًا فيه؟ لا، هذا الفقر وسام شرف في حقه.

أما في فقر الكسل، إنسان مهمل، غير متقن، كسول، متوانٍ، ذهَب عمره فُرُطًا، مهمل أعماله، هذا فقر اسمه فقر الكسل، هذا وصمة عار، وهناك فقر يأتيك من مبادئك، فقر يأتيك من استقامتك، أحياناً الإنسان يرفض أن يدفع مبلغًا غير مشروع فيخسر صفقة كبيرة جداً، فيها شرط مسبق، شروط ليست في كتاب الله، في إنفاق من المال غير شرعي، فإذا امتنعت عن إنفاق هذا المال غير الشرعي خسرت صفقةً كبيرة، وليكن، ومرحباً بقضاء الله.

أنا أريد أن أركز على أنه ليس كل فقر يعد وصمة عار، هناك فقر يعد وسام شرف، هذا انتصار لمبادئك، الدنيا تحت قدمك، هذا نموذج، وهذا النموذج نموذج المهاجر الفقير، هذا نموذج مستمر إلى يوم القيامة، كل إنسان خسر شيئاً من الدنيا، أو خسر الدنيا من أجل مبدئه ومن أجل دينه، ومن أجل آخرته تنطبق عليه هذه الآية.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(سورة الحشر: الآية 9)

الأنصار وما أدراك ما الأنصار:

1 - وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ

هؤلاء الأنصار الذي أقاموا بالمدينة قبل أن يأتيها المهاجرون، وتبوءوا الإيمان، وهذه عبارةٌ رائعة، فكأن الإيمان مأوىً لهم، آووا إليه، أسكنوه، كأن الإيمان حصنٌ حصين، قلعةٌ شامخة تبوءوها، سكنوها، أووا إليها.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

هؤلاء الأنصار يحبون من هاجر إليهم، فأنت ساكن في دمشق، لك بيت، لك عمل، لك تجارة، لك وظيفة، عندك إمكانيّات معقولة، رأيت طالب علمٍ أتى هذا البلد لوجه الله، ليتعلّم العلم الشرعي، ليعود إلى بلده خطيباً أو داعيةً، إذا ساعدته، أسكنته غرفة، قدّمت له معونة، قدّمت له مأوى، قدّمت له بعض الأثاث، قدمت له بعض المساعدات، بعض الكتب، أنت كنت أنصاريًا الآن بالمعنى الموسّع، هناك أنصاري عاش مع النبي، وأنصاري مستمر إلى يوم القيامة، فكل إنسان عاون أخاه، كان أقوى منه مالاً، وسعةً، وعاون أخًا مهاجرًا، طالب علم، هذا أنصاري أيضاً، إذا فهمنا الدين فهماً موسّعاً فهذا الدين يتسع لكل العصور.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

2 - يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

أحياناً بعض البلاد الغنية في أوروبا يأتيها مهاجرون من دول فقيرة، هؤلاء المتعصبون يفتعلون الجرائم لقتلهم، كما جرى في ألمانيا، لا يحبُّون من هاجر إليهم مع أنهم يخدمونهم، فهؤلاء الذين يأتون إلى دول غنية يعملون في أعمال يترفّع عنها أهل البلاد، ومع ذلك يكرهونهم، هم في خدمتهم، وفي معونتهم، ويكرهونهم، هذا مجتمع الكفر، أما مجتمع الإيمان فإنهم:

(يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

3 - وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

وحينما أعطاهم النبي فيء بني النضير، أعطى المهاجرين الفقراء، وكان الأنصار في أعلى درجات الطيب والمؤاثرة، قال تعالى:

(وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)

مما أوتي هؤلاء، فما حسدوهم، وما وجدوا عليهم في أنفسهم، ولا تألموا، ولا اغتاظوا أبداً.

(وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)

إسقاط على حياتنا اليومية:

أنا أريد أن أنقل هذه الحقائق لعصرنا.. إذا أخذ أخوك دكتوراه هل تنزعج ؟ إذا أخذ أخوك منصبًا، إذا نال أخوك شهادة، أو اشترى بيتًا، أو تزوّج، أو استقر، أو أسس شركة، إذا تألّمت، واغتظت، وطعنت فيه فلست مؤمناً، أما علامة إيمانك أن تفرح له، وأن لا تتأثر، بل هناك موقف أرقى، وكأن هذا الخير أصابك أنت، أخوك ارتقى، الله أعطاه، فعلامة إيمانك أن تفرح لأخيك إذا نال من الله فضلاً، لا أن تحسده، لا أن تطعن في، لا أن تغار منه، لا أن تُسَقِّهه، لا أن تنال من عِرْضِهِ.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)

أحياناً يكون أخوان مؤمنان طيّبان رفيقان، بينهما علاقات حميمة، فإذا نال أحدُهما نال شيئًا، نال شهادة، نال منصبًا، تزوج، تجد الآخر بدأ بالطعن، والغمز، واللمز، والغيرة، والحسد، هذا نفاق، هذه أحوال المنافقين، أما إذا كنت مؤمنًا صادقا فإنك تفرح لأخيك، وكأن الذي ناله نالك، وكأن الذي أصابه من خير أصابك.

(وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)

4 - وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

وأبلغ من ذلك:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

حضرنا قبل يومين حفل تخريج معهد شرعي، فحدّث مدير المعهد أن ثمة جائزة بعشرة آلاف ليرة للأول، عنده طالبان نالا العلامات بالتمام والكمال، متشابهان، فالعشرة لمن ؟ الثاني له خمسة آلاف، بقي نصف ساعة في مكتب الإدارة وهو يقنع أحدهما أن يأخذ العشرة آلاف، كل منهما يؤثر أخاه بالمبلغ، وهما فقيران، وليسا من الأغنياء، يقول كل منهما: أعطها لزميلي، هذا هو الإيمان، والحقيقة أن ربنا عزّ وجل لا يرضى عنا إلا إذا كنا كذلك، قال تعالى:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

فهو قد يكون في أشد الحاجة إلى هذا المبلغ، لكنه يعطيه لأخيه.

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

إخواننا الكرام، الإيمان ليس كلاماً تردده، ولا حركاتٍ تؤدِّيها، ولا انتماءً تاريخياً تعتزُّ به، الإيمان سلوك، الإيمان مؤاثرة، الإيمان مواقف، والله عزّ وجل لا يرضى عنا، ولا يحبنا، ولا ينصرنا على أعدائنا، وما أكثرهم، إلا إذا كنا كذلك، فإذا كان المسلمون متحاسدين، متباغضين، كلٌّ يطعن في أخيه، كل يسقِّه حلقةً أخرى، يعتز بحلقته أو بجماعته، ويسقِّه الحلقات الأخرى، هذا إنسان لا ينتمي إلى مجموع المؤمنين، بل ينتمي إلى فقاعةٍ لا قيمة لها، لا تعظُم عند الله إلا إذا كان انتماؤك لمجموع المؤمنين.

سخاء الأنصار وعفة المهاجرين:

إذاً: هؤلاء الأنصار كان أحدهم يقول: " يا أخي، خذ هذا البستان فهو لك، خذ هذه الدار فهي لك، يرد عليه أخوه: << أن بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق >>، كما أن الأنصار كانوا أسخياء، كان المهاجرون أعِفّة أتقياء، السخاء من الأنصار، والعفة والتقى من المهاجرين.

إذاً:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

صورٌ ونماذج لإيثار الصحابة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ: لَا، إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَقَعَدُوا، وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ))

[متفق عليه]

آثر هذا الضيف على طعام أولاده.

كان الصحابة في سفر، وأصابهم جوعٌ شديد، الطعام قليل، فوضعوا هذا الطعام في طبق، وكان الوقت ليلاً، وكل واحدٍ أوهم الآخر أنه يأكل، فلما انتهوا من الطعام، وجدوا أن الطعام لم يؤكل إطلاقاً، كل واحد يؤثر أخاه فيما يأكل.

وأبلغ من ذلك الإنسان الجريح حاجته إلى المال خيالية، فلو قلت له: هل تشتري هذا الكأس بمليون ليرة؟ يقول لك: نعم، كأس ماء، ففي معركة اليرموك حينما طاف أحدهم بقربة ماءٍ على سيدنا عكرمة آثر بها أخاه، سمعه يئن فقال: أعطِ أخي، فلما جاء إلى أخيه سمع أخاً ثالثاً يئن فقال: أعطِ أخي. أول إنسان سمع أخاه يئن قال: أعط أخي، لعله أحوج مني، فانتقل هذا الساقي إلى الثاني فسمع أخاً يئن فقال: أعطِ أخي، فإنه أحوج مني، ذهب إلى الثالث فرآه قد مات، فاضت روحه، عاد إلى الثاني فرآه قد مات، عاد إلى الأول فرآه قد مات، ثلاثةٌ وهم في طور النزاع، وهم في أشد الحاجة إلى الماء، آثروا غيرَهم على أنفسهم، انظرْ إلينا، هل نحن في هذا المستوى ؟ تجد الإنسان يقتنص المغانم، وكأنه ليس في الدنيا إلا هو.

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

إخواننا الكرام، المؤمن الصادق يبني حياته على العطاء والمؤاثرة، والمنافق يبني حياته على الأخذ والأَثَرَة.

عندنا أثرة وعندنا مؤاثرة، الأثرة أن تأخذ كل شيء دون أن تعطي شيئاً، والمؤاثرة أن تعطي أخاك كل شيء ولا تعطي شيئاً، المؤمن الصادق يبني حياته على المؤاثرة والعطاء، والمنافق يبني حياته على الأثرة والأخذ.

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

بين البخل والشحّ:

الحقيقة أنّ البُخل أنْ تبخل بمالك، أما الشُح فأن تطمع في مال غيرك، أن تأخذ ما ليس لك، لذلك الإنسان الذي يأخذ ما ليس له هو عند الله شحيح، وهذا من أخطر الأمراض، لأن أكل المال الحرام مُدَمِّر، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله، وأعطى في النائبة، وأقرى الضيف))

[الجامع الصغير عن خالد بن زيد بن حارثة]

أدى زكاة ماله، وأقرى الضيف، وأعان على النائبة، هذا برئٌ من الشح، أما الذي يستأثر بكل شيء، ولا يعطي شيئاً فهو بخيل، أما إذا أخذ ما ليس له فهو شحيح.

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

من أكبر الأمراض المدمرة المهلكة في الإنسان أن يكون شحيحاً، أن يأخذ ما ليس له وأن يبخل بما في يديه، والإنسان كما قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

المصلي ليس جزوعاً ولا منوعاً.

((يا رسول الله، لمن هذا الوادي ؟ ـ وادٍ من غنم ـ قال: هو لك، قال: أتهزأ بي ؟ قال: "هو لك " قال: " أشهد أنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر))

[ورد في الأثر]

المال عند المؤمن في يديه، وليس في قلبه، سخيٌ من هذا الباب، فهو يرى أن هذا المال مال الله، وأن الله يؤتيه من يشاء، وأن الله يخلف كل ما تنفقه، لذلك كلما ازددت إنفاقاً ازداد الله لك عطاءً:

((أنفق بلالاً، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً))

[الطبراني عن أبي هريرة بسند صحيح]

((أَنْفِقْ أُنْفِقَ عليك))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

حدثني أخ كان له قريب توفّاه الله عزّ وجل، وقد وقف على تغسيله، فقال المغسِّل: أعليه دين ؟ كما هي العادة، قال أهله: نعم، فقال هذا القريب: عليّ دينه، قال لي: أنا لا أعرف كم مقدار المبلغ، في اليوم التالي فوجئ أن المبلغ كبير جداً، فما تراجع، ودفع الدين كله، أقسم بالله العظيم أنه في اليوم التالي باع بيعاً على خلاف المألوف من سنتين، حيث إن نصيبه من الربح يغطي هذا الذي دفعه لهذا القريب الفقير، أقسم بالله أن نصيبه في يومٍ واحد يغطي المبلغ الكبير الذي أنفقه وفاءً لدين قريبه المتوفّى،

((أنفق بلالاً، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً))

[الطبراني عن أبي هريرة بسند صحيح]

((أَنْفِقْ أُنْفِقَ عليك))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

وهناك قصص شهيرة جداً.

الفئة الثالثة بعد المهاجرين والأنصار:

1 - وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ

هناك فئة ثالثة، وهؤلاء الذين عشوا مع النبي مهاجر وأنصاري، إنسان ضحّى بالدنيا في سبيل الله، وإنسان بذل الدنيا في سبيل الله، أحدهم ضحّى، وأحدهم بذل، ونحن إلى يوم القيامة يجب أن يكون فينا أنصاري ومهاجر، المهاجر إنسان آثر رضوان الله على الدنيا، ضحّى بالدنيا في سبيل الله، والأنصاري بذل الدنيا في سبيل الله، والإنسان أحد رجلين: إنسان آثر، وإنسان بذل، الذي ضحّى هو المهاجر، والذي بذل هو الأنصاري، أما الفئة الثالثة هؤلاء الذي جاءوا بعد رسول الله، وبعد أصحاب رسول الله، وهم التابعون، وتابعو التابعين، وتابعو تابعي التابعين، ومن جاء بعدهم إلى يوم الدين، الله عزّ وجل وصفهم، فإن انطبق الوصف علينا فالحمد لله، وإلا فنحن لسنا على شيء، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ)

(سورة الحشر)

قال بعض المفسرين: " تنطبق هذه الآية على كل المسلمين الذين جاءوا بعد رسول الله إلى يوم القيامة"، وبعضهم قال: " على التابعين فقط "، أما الأصح والأرجح فإنها تنطبق على جميع الذين جاءوا بعد رسول الله إلى يوم القيامة:

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ)

2 - يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ

أمم الكفر كلما جاءت أمة منهم لعنت أختها، كلما جاء إنسان مكان إنسان لعن الذي قبله، هذه أمة الكفر والنفاق، أما أمة الإسلام فكلما جاءت أمةٌ أثنت على التي قبلها..

(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا)

يعني الأنصار والمهاجرين.

(الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ)

إياكم والطعنَ في الأمة الإسلامية:

فإذا طعن الإنسان في أمته، طعن في تاريخه، طعن في أصحاب النبي الكرام، طعن في هؤلاء الذين نقلوا لك هذا الدين فهذه علامة النفاق، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ))

[متفق عليه عن أنس]

أما الذي يطعن في أمته العربية فماذا يعني ذلك ؟ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَا سَلْمَانُ، لَا تُبْغِضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ أَبْغِضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ ؟ قَالَ: تُبْغِضُ الْعَرَبَ فَتُبْغِضُنِي))

[الترمذي]

أحياناً يذهب الإنسان إلى بلاد الغرب فيرجع، ويقول لك: نحن متخلفون، لا نفهم، كل صفات النقص يلصقها بأمته العربية، وكل صفات الكمال يلصقها بهؤلاء الذين يستبيحون دماء الشعوب..

قتل امرئٍ في غابةٍ جريمة لا تغتفر وقتل شعبٍ آمنٍ مسألةٌ فيها نظر

***

فالذي يُصْبِغُ على أهل الكفر والفساد والطغيان، والذي يعيشون على أنقاض الأمم كل الخير والفضيلة، والفهم، والحكمة، فهذا إنسان ليس فيه من الإيمان شيء، والذي يطعن في أمته التي أوصلت له هذا الدين فهو منافق أيضاً.

هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم يقولون:

(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ)

أما أهل الكفر فكلما جاءت أمةٌ لعنت أختها، أما أهل الإيمان، وعلى مستوى الدعاة إلى الله، فأنت واحد منهم يجب أن تنتبه إلى فضائلهم، إلى مكانتهم، إلى علمهم، إلى ورعهم، دون أن تطعن فيهم.

أحيانا يكون الطعن على مستوى المِهَن، فقد يزور الإنسان طبيبًا، فيقول الطبيب للمريض: من وصف لك هذه الوصفة ؟ رأساً يطعن في زميله، والمحامي يطعن في زميله، والمهندس يطعن في زميله، هذا الطعن والتسفيه والتحقير، وأن تبني مجدك على أنقاض الآخرين، على مستوى الحِرَف، على مستوى الدعوة إلى الله، على مستوى الأمم، هذا من صفات المنافقين، كلما جاءت أمةٌ لعنت أختها، أما هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم..

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ)

هذا دعاءهم للسابقين، وفيما بيننا:

(وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا)

3 - وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا

امتحن نفسك من هذين البندين، هل تدعو للصحابة الكرام الذين أوصلوا لك هذا الدين ؟ هل تدعو للتابعين، ولتابعي التابعين، وللعلماء العاملين، وللفقهاء والمحدثين والقُرّاء والمفسرين ؟ هل تدعو لهؤلاء جميعاً الذين حفظوا لك هذا الدين، وأوصلوه إليك، أم تطعن فيهم ؟ وتقول: هذا الشيخ الأكفر ! وهذا الجاهل ! هل هذا هو السلوك الصحيح ؟

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

ليس من المهم أن ننبُشَ الماضي، ليس من المهم أن نستخدم مشكلاتٍ قديمةً، وأن نجعل هذه المشكلات سبب عداوتنا.

(وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحشر)

فإذا كنت ممن تنطبق عليهم هذه الآية ؛ تترحَّم على السلف الصالح، وتقيم مودةً بينك وبين إخوانك، أو بينك وبين كل مسلم، أنا أرفض أن يكون انتماؤك إلى جماعةٍ محدودة، أنت تنتمي إلى مجموع المؤمنين، كل مسلمٍ أخوك في الله، يجب أن تنصره، وأن تحترمه، وأن تؤيّده، وأن تدافع عنه، وأحياناً بعض الجماعات الدينية إذا ترك الإنسان جماعة إلى أخرى يكفرونه، ويخرجونه من دينه، هل هذا هو الدين ؟ هل هكذا كان أصحاب رسول الله ؟

تخلّف رجلٌ عن الغزو مع رسول الله، وهناك إنسان طعن فيه، فقام أحد أصحاب رسول الله، قال:

((والله يا رسول الله لقد تخلّف عنك أناسٌ ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك "، النبي ابتسم وسُرّ))

[ورد في الأثر]

سيدنا الصديق قال لسيدنا عمر: " يا عمر.. أمام أصحاب رسول الله بعد وفاة النبي.. مُدّ يدك لأبايعك، قال: **<< أي أرضٍ تقلّني، أي سماءٍ تظلّني إذا كنت أميراً على قومٍ أبو بكرٍ فيهم.. أنا أكون أميراً عليك !! معاذ الله.. قال له: " أنت أقوى مني، فقال عمر: أنت أفضل مني، قوتي إلى فضلك >>**، أنا أعينك.

مرة قال: **<< كنت خادم رسول الله وجلواذه، وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي عني**

وهو عني راضٍ، وأنا بهذا أسعد، ثم جاء أبو بكر فكنت خادمه، وجلواذه، وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي عني وهو عني راضٍ، وأحمد الله على هذا كثيراً، وأنا به أسعد >>.

هكذا كان الصحابة بين بعضهم البعض في مودة، وفي حب، وفي إيثار بشكل غير معقول، فالله سبحانه وتعالى لا يرضى عنا إلا بهذا الود، وهذه المحبة، وهذه المؤاثرة.

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا)

يجب أن تترحَّم على السَلَف الصالح، الذين قدّموا لك هذا الدين، حفظوه من تأويل المتأولين، وتحريف المفسرين، أوصلوه إليك، لكن هناك شخص ليس لهم همٌ إلا أن يطعن بالمحدثين، بالمفسرين، بالعلماء، فهذا ليس من شأنك..

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

(وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا)

إذا أويت إلى فراشك، وليس في قلبك حقدٌ على أحد، ولا غلٌ على أحد، تحب الخير لكل المسلمين، ترجو رحمة الله لكل المسلمين، تفرح إن أصاب الخير المسلمين فأنت مؤمن، إما إذا كان لك عداوة، وحقدٌ، وتطعن وتنتقص، وتغمز وتهمز، فليس هذا من أخلاق المؤمنين.

(رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

الفئة الأولى: المهاجرون الذين تركوا الدنيا في سبيل الله، والأنصار الذين أعطوا الدنيا في سبيل الله، بعضهم تركها ليرضى الله عنه، و بعضهم أعطاها ليرضى الله عنه.

مرة أحد الرجال كان عند سيدنا عثمان، وجاء رجل وأعطاه عطاءً جزيلاً، فبكى هذا الرجل، قال له: ما يبكيك ؟ طبعاً هو بكاء كيدي، قال له: كنت عند عمر بن الخطاب، وجاءه هذا الرجل فلم يعطه، تغير الزمان، فقال عثمان رضي الله عنه: **<< لقد منع عمر لله، وأنا أعطي لله >>.**

مرة سيدنا عمر لما وقف على المنبر رأساً نزل درجة، قال: **<< ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر >>**، عثمان لم ينزل درجة، لماذا لم يفعلها عثمان ؟ بعض الخلفاء من بني أمية سأل وزيراً له، قال له: " لمَ لم يفعلها عثمان ؟ قال له: والله لو فعلها لكنت في قعر بئر "، فإذ نزل كل واحد درجة نحتاج إلى حفر بئر عميقةً لكي ننزل إلى الأسفل، فعلها عمر مرةً واحدة، وعثمان لم يفعلها، عمر فعلها لله، وعثمان لم يفعلها لله، لو كان فعلها لصارت سنة، كل واحد ينزل درجة، ولوصل الإنسان إلى الأرض، فيحفر، قال له: **" لكنت في قعر بئر ".**

الفئة الأولى: المهاجر الذي ترك الدنيا في سبيل الله، والفئة الثانية: الذين أعطوا الدنيا في سبيل الله، والذين جاءوا من بعدهم ترحّموا على من سبقهم، وأحبوا مَن حولهم، ترحموا على مَن سبقهم، واثنوا عليهم، وعزوا الفضل لأهله، وأثنوا، وأحبوا مَن حولهم، أما لو كان دأبُنا الطعنَ في السلف الصالح، وعادينا من حولنا، معنى ذلك أننا منافقون.

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحشر)

أما الفئة الأخرى فنعوذ بالله أن نكون منهم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ)

(سورة الحشر: الآية 11)

الفئة المريضة: المنافقون:

1 - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا

اليهود، الله سماهم: إِخْوَانهمْ، لأنهم على شاكلتهم.

(يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ)

(سورة الحشر: الآية 11)

يقولون لبني النضير: إيَّاكم أن تستسلموا لمحمد، إياكم أن تخضعوا له، إياكم أن تنزلوا على حكمه، نحن معكم، إن قاتلكم نقاتل معكم، إن أخرجكم نخرج معكم، حمّسوهم، انتظروا ثلاثة وعشرين يوماً فلم يجدوا حركة منهم على الإطلاق، عندئذٍ نزلوا على حكم النبي..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

نموذج المنافقين مستمر إلى قيام الساعة:

لو أن الإنسان لا يصلي، ولا عنده دين، وغارق في المعاصي، ووعدك، وقال بك: لا تخَف أنا معك، فلا تصدقه، بل ننصحك أن لا تصدقه، ولا تتورط معه إطلاقاً، لأنه كذّاب، سوف يخلف وعده، وسوف تحتاجه في أصعب الظروف فيختفي من وجهك، ويتنصل منك، هذا الكلام، وهذا النموذج مستمر إلى يوم القيامة..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(11)لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ)

2 - يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ

يقال: هؤلاء تورّطوا، ونحن نصحناهم فلم ينتصحوا..

3 - لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ

(وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ(12)لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ)

(سورة الحشر)

المنافق شديد الخَوْف، يبيعك كلاما فارغًا فقط، أما عند الموقف الحرج فيختفي من وجهك.

(لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

(سورة الحشر)

ثم إن الله جلّ جلاله يبين لعلمه بطبيعة هؤلاء المستمرة إلى يوم القيامة، يبيّن أن المنافق جبان، ومن علامات جبنه:

(لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ)

(سورة الحشر: الآية 14)

4 - لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ

المنافق أجبن وأضعف من أن يلتحم مع مؤمن، لكنه يحتمي بحصن، يحتمي بجدار، والآن قد يحتمي بمدرّعة، والحقيقة هذا وصفٌ مستمرٌ لهم، لا يقاتلون قتالاً مباشراً، لا يلتحمون أبداً مع عدوّهم، والحروب المبنية على الجبن تبدأ بالقصف الجوي، قد لا تجد التحاماً مباشراً إطلاقاً.

(لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر: الآية 14)

المؤمنون هم يدٌ على من سواهم، هم جميعاً حقاً.

5 ـ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى

أما المنافقون:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

هناك عداوات بين المنافقين، وشرخ، وبغضاء، وحقد لا يعلمه إلا الله، لأنهم ليسوا على حق، فالحق يجمع، لكن الدنيا تفرق، الدنيا مصالح، والمصالح تتضارب، فإذا تضاربت فَرّقت القلوب، أما المؤمن فهو صاحب مبدأ، والمبدأ يجمع، لذلك المؤمنون لأنهم أصحاب مبادئ يجتمعون، والمنافقون لأنهم أصحاب مصالح يتفرّقون.

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا)

في الظاهر.

(بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ)

(وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

إنّ الله عزّ وجل إذا غضب على أمةٍ جعل بأسها بينها، وإذا أحب أمةً جعل بأسها على أعدائها، وإذا كانت الأمة بأسُها فيما بينها، ولينها لعدوها فهذه أمةٌ تودّعَ منها، ومن علامة غضب الله على أمةٍ أن بأسها بينها، وأنها أمام عدوها ضعيفة، أما من علامة نصرة المؤمنين أنهم يتراحمون فيما بينهم، وهم يدٌ على من سواهم.

(بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

(سورة الحشر)

6 ـ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ

ما عرفوا الحق، ما عرفوا أن الله هو الناصر، ما عرفوا أن الدار الآخرة هي الأصل.

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(سورة الحشر: الآية 15)

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

النبي الكريم أجلى أولاً بني قينقاع، لما انتصر النبي عليه الصلاة والسلام في معركة بدر حسدوه على هذا النصر، فأسمعوه كلاماً في منتهى الجُرْأة، ومنتهى الوقاحة، وقالوا: أنت انتصرت على قومٍ لا

يعرفون القتال، ولو قاتلتنا لرأيتنا نحن الناس، وتحرشوا بامرأةٍ مسلمةٍ فكشفوا عن ثيابها، فنشأت فتنةٌ انتهت بهم إلى أن أجلى النبيُّ بني قينقاع قبل بني النضير، وبعدهم بنو قريظة.

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(15) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الحشر)

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

قال:

(فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

(سورة الحشر)

اليوم تبين في هذا الدرس أن هناك فئة عاصرت النبي ضحت بالدنيا في سبيل الله، وفئة أخرى أعطت الدنيا في سبيل الله، وفئة جاءت بعد الفئتين ترحّمت على مَن سبقها، وأخلصت فيما بينها، هؤلاء التابعون إلى يوم الدين، ونحن منهم إن شاء الله، نثني على السلف الصالح، ونقيم المودة فيما بيننا، أما المنافقون فولاؤهم لأعداء الله، وأعداء الله يمنونَهم كالشيطان، فإذا حق الحق تخلّوا عنهم، فهذا النموذج هو نموذج المهاجرين، والأنصار، والتابعين، والمنافقين، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون عند حسن ظن ربنا بنا، وأن نكون ممن استمعوا القول فاتبعوا أحسنه، وأن نقيم المودة والرحمة فيما بيننا، وأن نثني على من سبقنا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحشر 059 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 18-21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-07-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة الحشر، ومع الآية الثامنة عشرة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

1 ـ أهمية الخطاب بـ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

هذا خطاب الله للذين آمنوا، والمؤمن يُدرك أهميَّة هذا الخِطَاب، خالق السماوات والأرض الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرّمه أعظم تكريم يُخاطِبه فيقول: يا أيها المؤمن افعل كذا، ولا تفعل كذا..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

2 ـ اتَّقُوا اللَّهَ

اتقوا الله أي توبوا إليه، وأصلحوا ما مضى، وتقرّبوا إليه، اتقوا أن تغضِبوه، اتقوا عقابه، اتقوا ناره، اتقوا أن تعصوه، اتقى من وقى، والوقاية من الخطر، والعاصي في خطر، الذي لا يفكِّر في منهج الله وتطبيقه فهو في خطر، والذي لا يطبّق تعليمات الصانع هو في خطر، والذي لا يعرف لماذا خلقه الله هو في خطر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

3 ـ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

العاقل يعيش مستقبله:

الحقيقة أن الإنسان الجاهل يتغنّى بماضيه، والأقلُّ جهلا يبحث في حاضره، لكن العاقل هو الذي يعيش مستقبله، هو الذي يعيش غده، حياتنا كيف تسير ؟ هناك خطٌ إجباري نسير عليه ؛ نولد، نترعرع،

ندرس، نتعلّم، نتزوج، ننجِب، نُزَوّج، ثم لابدَّ من اللقاء مع الله، لابدَّ من مغادرة الدنيا، لابدَّ من أن نغادر دون أن نعود، ولكن هذه ساعة المغادرة ألا تستدعي أن نفكِّر فيها ؟ حينما ينتقل الإنسان من كل شيء إلى لا شيء.. فيما يبدو للعين.. من بيتٍ فخم إلى حفرةٍ تحت الأرض، من فراشٍ وثير إلى أرضٍ صلبة، من غرفٍ منوّرة إلى قبرٍ مظلم، من طعامٍ وشراب إلى حسابٍ وعقاب، هذه النقلة من الدنيا إلى الآخرة ؛ هذه إن لم نفكِّر فيها، إن لم ندخلها في حساباتنا اليومية، إن لم ندخلها في مواقفنا، في حركاتنا وسكناتنا فنحن في خطرٍ عظيم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

اتقوا أن تعصوه، اتقوا أن تغضبوه، اتقوا ناره.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

هل فكّرت في العمل الذي تلقى الله به:

أحيانا أيها الإخوة يُستَهْلَك الإنسان من قِبَلِ دنياه، مستهلَكٌ من عمل إلى عمل، من لقاء إلى لقاء، من موعد إلى موعد، من صفقة إلى صفقة، يأتيه ملك الموت فجأةً، وهو صفر اليدين من العمل الصالح، فلذلك من أفضل أو من أهمّ ما ينبغي أن تفعله أن تقف فجأةً في زحمة العمل، وفي زحمة القيل والقال، وفي زحمة المُشكلات، وهموم العمل، والمعاش والأسرة، أن تقتطع وقتاً ثميناً، وتتأمّل ماذا قدّمت لغدٍ ؟ إذا جئتُ الله عزّ وجل يوم القيامة، وطلب منّي أن يا عبدي بماذا أتيت ؟ ما العمل الذي جئت به ؟ بعثت بك إلى الدنيا من أجل أن تعرفني، من أجل أن تطيعني، من أجل أن تتقرّب إليّ، جعلتك خليفةً في الأرض، أعطيتك كل شيء، سَخّرت لك السماوات والأرض، بماذا أتيتني ؟ الحقيقة إنه سؤال خطير، وسؤال مهم جداً.

أنت أيها الأخُ الكريم الجالس في هذا المسجد، هل فكّرت في العمل الذي ينبغي أن تقدِّمه لله يوم القيامة؟ هل يعقل أن تمضي الحياة الدنيا في المُباحات ؟ أكلنا، وشربنا، ولهونا، وسافرنا، وعدنا، واستقبلنا الضيوف، وودّعنا، وتنزّهنا، وربحنا، وأنفقنا، وأقمنا الحفلات، يا عبدي ما العمل الذي تأتي به يوم القيامة ؟ هل واليت فيّ وليّاً ؟ هل عاديت فيّ عدوّاً ؟ هل أمرت بالمعروف ؟ هل نهيت عن المُنكر؟ هل علّمت القرآن ؟ هل نصحت لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامّتهم ؟ هل ربّيت أولادك ؟ هل دللت زوجتك على الله ؟ هل أقمت الإسلام في بيتك ؟ هل كسبت المال الحلال ؟ هل نفعت المسلمين في عملك وهل، نصحتهم ؟ هل دعوت إلى الله ؟ هل نشرت الحق ؟ هل نصرت دين الله ؟

ما العمل الذي يمكن أن تنطق به يوم القيامة ؟ هل وظّفت اختصاصك في الحق ؟ هل وظّفت عملك في خدمة المسلمين ؟ هل كنت في خندق الإيمان أم في الخندق المعادي ؟ مع من عملت ؟ من نصرت ؟ لمن سخّرتَ نفسك ؟ لمن وهبت عمرك ؟ لمن وهبت شبابك ؟ ما العمل الذي يمكن أن تقدِّمه بين يدي الله يوم القيامة ؟

إذا أرسل أب ابنه إلى بلدٍ غربي، وحوّل له كل شهر ألف دولار.. خمسين ألف ليرة.. بعد أربع سنوات ألا ينبغي أن يسأل الأبُ ابنه: ماذا فعلت يا بني ؟ أين الشهادة ؟ أين الوثيقة ؟ ماذا حصّلت ؟ هل نلت الدرجة الجامعية ؟ وبأي تقدير نلتها ؟ هل صدّقتها في الجهات الرسمية ؟ من أي جامعة أخذتها ؟ هذا الذي يُرسل إلى بلدٍ أجنبي، وتُدفَع له النفقات كاملةً ألا يُسأل عن عمله، ماذا فعلت ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

أنت أب أنجبت الأولاد فهل ربيتهم ؟ هل عرّفتهم بكتاب الله وبسنّة رسول الله ؟ هل أدّبتهم على حبِّ نبيِّ الله، وعلى حبِّ أصحابه الكرام ؟ هل أدبتهم بأدب الإسلام، أم تركتهم لأجهزة اللهو يستقون منها كل طيّبٍ وخبيث، وكل حقٍّ وباطل، وكل خيرٍ وشر ؟ هؤلاء الذين أنجبتهم مَن قدوتهم ؟ الملاكم الفلاني؟ أم لاعب الكرة الفلاني ؟ أم الصحابي الفلاني ؟ من قدوتهم ؟ هذه الزوجة التي في بيتك ماذا فعلت من أجلها ؟ هل دللتها على الله ؟ هل رحمتها ؟ هل أخذت بيدها إلى الله ؟

(اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

أي عبدي بمَ أتيتني ؟ ما العمل الذي يصلح أن تعرضه علي ؟ ما العمل الذي يمكن أن تقدِّمه بين يدي ربك ؟ يا رب فعلت كذا، كنت بارّاً بوالدي، هذا عمل جيد، يا رب، اخترت زوجةً مؤمنةً لأولادي، هذا عمل جيد، ربّيت أولادي على طاعتك وعلى حبِّ نبيك، أدبتهم بأدب الإسلام، هذا العمل جيد ومقبول، يا رب كانت لي حرفة فنصحت بها المسلمين، وما غششتهم، ما كذبت عليهم، ما ابتززت أموالهم، ما بخستُهم أموالهم بالباطل، يا رب كنت طبيباً نصحت المسلمين، ما كبّرت الوهم على المرضى، ما كلّفته ما لا يطيق، ما كلّفته من الأمور ما لا يحتمل، كنت نصوحاً له، هذا سؤال يجب أن تسأله كل يوم، لابدّ من ساعةٍ تخلو بها مع ربك.

أيها الإخوة الكرام، كلنا بحاجةٍ إلى مغارتين، أو إلى غارين، كلنا بحاجة إلى غار حِراء، ولكن مجزّأ لكل يوم خمس دقائق، أو عشر دقائق، وكلنا بحاجة إلى غار ثور، نحن بحاجة إلى غار حراء كي نتفكّر، ونحن بحاجة إلى غار ثور كي نلجأ إلى الله، كي نلوذ بحماه.

فيا أيها الإخوة الأكارم، هذه آية ينبغي أن تفعل فعلها في نفوس المؤمنين.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

اسأل تاجرًا فإنه يبيع ويشتري، ويحاسب، ويشحن البضاعة، ويستقدم بضاعة، ويقبض الثمن، هل فكّرت في أن هذه التجارة ترضي الله أم لا ترضي الله ؟ هل أدّيت زكاة مالك ؟ هل نصحت المسلمين في هذه التجارة ؟ هل استغللت حاجتهم إلى هذه البضاعة فرفعت السعر ؟ ماذا قدّمت لله عزّ وجل ؟

إذا ضاقت الأمور فابحث لك عن عمل صالح ادّخرتَه:

إخواننا الكرام، النبي عليه الصلاة والسلام علّمنا أن الإنسان إذا ضاقت به الأمور عليه أن يذكر صالح عمله، فلو كنت في أزمةٍ، أو في ملمّةٍ، أو في نازلةٍ لا سمح الله، وأردت أن تدعو الله بصالح عملك، ما العمل الصالح الذي تتذكّره ؟ أردت أن تدعو الله بصالح عملك، يا رب أنا فعلت هذا في سبيلك..

مرّة حدّثني أخ وهو من تجّار الغنم، كان في البادية، ومعه قطيع غنم كبير، وأصابهم عطش شديد، كاد يموت هو وغنمه، فناجى ربه، وقال: يا رب، إنك تعلم أنني ما عرفت الحرام في حياتي، ولا أكلت درهماً حراماً، إن كان هذا العمل عندك مقبولاً فَفَرّج عنّا.. النبي علّمنا إذا كنّا في ضائقة، في مشكلة، في أزمة أن نذكر صالح أعمالنا، وإذا سألت نفسك ما العمل الذي سأُقدِّمه لله يوم القيامة ؟ من خلال أسرتك، أنت ابن من بنوّتك، أنت أب من أبوّتك، أنت أخت مستمعة أم من أمومتها، الزوج من كونه زوجاً، إذا كانت زوجة هل أدّت حقّ زوجها ؟

((اعلمي أيتها المرأة وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعّل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[كنز العمال عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

لو أنّ الزوجة سألت نفسها: هل قمت بحقّ الزوج ؟ هل كنت زوجةً طيّعةً ؟ هل كنت زوجةً صالحةً ؟ هل جعلته يسكن إليّك أم كنت منفِّرةً له ؟ كنت عبئاً عليه ؟ أم كنت تبحثين عما يغيظه ؟ إن كنتِ زوجةً فاسألي نفسك هذا السؤال، وإن كنتَ زوجاً فاسأل نفسك هذا السؤال: هل رحمتها ؟ هل أدّيت حقّها ؟ هل دللتها على الله ؟ هل أكرمتها، وإن كنتَ ابناً فاسأل نفسك هذا السؤال: هل كنت بارّاً بوالديك ؟ وإن كنت جاراً فهل أديت حق الجار ؟ إن كنت صاحب معمل فهل أديت بضاعةً للمسلمين جيدة، بسعر معتدل ؟ أم وضعت مواد غير جيدة، مواد مسرطنة لأنها رخيصة ولا أحد يعلم ؟ هذه دقّة بالغة، والسؤال هو: ما العمل الذي قدّمته لله عزّ وجل: من خلال الأسرة، من خلال المهنة، من خلال العبادة، هل دعوت إلى الله ؟ هل كنت قدوةً ؟

هل كنت مرغِّباً في الدين أم منفِّراً منه ؟ هذا سؤال كبير، هل كنت واصلاً أم قاطعاً ؟ هناك من يقطع الناس عن سبيل الله، هل وصلتهم أم قطعتهم ؟ وعمل سيء واحد يقطعهم، قال بعضهم: **" إنّ ألف**

سلوكٍ ذكيّ يشد الناس إلى شيءٍ ما، وسلوكٍ أحمق واحد ينفّرهم منه "، وألف سلوكٍ ذكيّ صادقٍ ومخلصٍ يجذب الناس إلى مبدأٍ ما، وسلوكٌ أحمقٌ واحدٌ ينفّرهم منه.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

ماذا قدّمت ؟ هناك مدرّس، أو مهندس، أو طبيب، أو صانع، أو صاحب حرفة، يا ترى هل أتقن الحرفة ؟ هل تعلم أن إتقان العمل جزءٌ من الدين ؟ هل تعلم أن الناس لا يحترمون دينك إذا كنت مهملاً لعملك ؟ هل تعلم أنك تنتزع إعجاب الناس بدينك من خلال إعجابهم باستقامتك والتفوّق في عملك ؟ ماذا قدّمت ؟ هل استعملت المواد المُحَرّمة دولياً في تنمية النبات من أجل أن تربح، ولم تعبأ بصحّة الناس ؟ هؤلاء الذين يستخدمون الهرمونات في تنمية النبات عند العقد هؤلاء لا يبالون بصحّة الناس، هل استخدمت موادّ مضرّة من أجل أن تربح ؟

إخواننا الكرام، هناك مسؤولية كبيرة، وقد قالوا عن كاتب أدبه سخيف: **" إنك تقرأ قصّته وتتثاءب وتنام، بينما الكاتب الخطير تقرأ قصّته وتنتهي من قراءتها فتبدأ متاعبك مع نفسك ".**

هذا كلام خطير، هذا كلام ربِّ العالمين، هذا كلام خالق الأكوان، هذا كلام الذي سيسألنا وسيُحاسبنا.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

قال: قد كُفيت.. أعرابي سأل النبي الكريم قال: عِظني ولا تطل، فتلا عليه هذه الآية، فقال: قد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فُقْهَ الرجل))

[ورد في الأثر]

لم يقل: فَقِهَ، بل إنه قال: فُقْهَ، أي صار فقيهاً.

هذا سؤال كبير، لك بيت، لك زوجة، لك أولاد، لك عمل، لك حرفة، لك لقاءات، وسهرات، ونُزُهات، وعلاقات، وسفر، ماذا فعلت في السفر ؟ هل لأعمالك هدفٌ بعيد ترضي الله عزّ وجل به ؟

(اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

بالأمثلة البسيطة القريبة منا: الطالب في العام الدراسي: مَن هو الذي سيأخذ الدرجة الأولى على مستوى القطر ؟ هو الذي لم تغادر لحظة الامتحان مخيّلته ثانية واحدة، ماذا سأكتب في الامتحان ؟ لو جاءتنا مسألة ماذا سأجيب، وكيف سأحلّها ؟ هذا الذي يفكّر في ساعة الامتحان ينال الدرجة الأولى.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

لا أحدَ يضمن أن يعيش ساعة قادمة:

هل يستطيع أحد أن يُلغي الموت من حياته ؟ هل منّا واحد يستطيع أن يضمن حياةً لساعةٍ قادمة ؟ كنّا مرّةً في احتفال المولد في جامع قريب منّا، دخلت إلى المسجد، أحد أفراد الجمعية استقبلني، ورَحّب، وابتسم، فدخلت، وبعدما جلست بدقائق رأيت أن هناك حركة غير طبيعية في المسجد، فلم أعرف ما السبب، اضطراب، وعريف الحفلة اضطرب، ولكن الحفل استمر، ثم أُنبئت أن هذا الذي استقبلني ورَحّب بي توفي بعد دقائق، إنه كان قبل دقيقة واقفا يرتدي أجمل الثياب.. فمن منّا يضمن أن يعيش ساعة، **" من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ".**

هناك قصص كبيرة ومؤثِّرة جداً، فهذا السؤال إخواننا الكرام يجب أن نطرحه على أنفسنا، لأن الله أمرنا أن نطرحه على أنفسنا، إنه أمر إلهي.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

أحياناً أخ كريم شاب ابن ثمانية عشر عاما، أو عشرين، أو خمسة وعشرين يقول: أنا ما زلت صغيراً على الموت، هل يراعي الموت عمراً ؟ لا، أبداً، إن الشباب يموتون في سنٍ مبكر، وهناك جلطات في سن الثلاثين، والخمسة وعشرين، واثنين وثلاثين، الموت لا أحد يعلم متى يأتي.

أيها الإخوة الكرام، يجب أن تعدّ للآخرة عملاً صالحاً، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وصواباً، هكذا قال الفُضَيْل، خالصاً، أي ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة، فإذا اقتطعت من وقتك الثمين، من زحمة المشاغل، من الانهماك في الأعمال واللقاءات، والمواعيد والصفقات، إذا انتزعت من وقتك الثمين وقتاً من نوع غار حِراء، تقول فيه: من أنا ؟ لماذا خلقني الله عزّ وجل ؟ ماذا ينبغي عليّ أن أفعل في الدنيا ؟ ماذا بعد الموت ؟ اتخذ قرارا، هذا الذي لا يفكِّر، ويعيش على هامش الحياة إلى أن يأتيه الموت بغتةً هذا إنسان جاهل.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ)

مرة ثانية: وَاتَّقُوا اللَّهَ

بعض علماء التفسير قال: **" الأولى.. اتقوا الله في التوبة والإصلاح عن ما مضى.. والثانية للمستقبل"**، أي اعقدوا العزم على أن لا تعصوا الله أبداً في المستقبل، والأولى اعقدوا توبةً نصوحاً مع الله عزّ وجل.

احذروا فـ: إنّ اللّهَ خَبيرٌ بمَا تَعْمَلُونَ

لكن قد تقول أيها الأخ الكريم: أنا فعلت كذا، وفعلت كذا، وقدّمت كذا، ودفعت كذا، وتكلّمت كذا، وألقيت كلمة في الوقت الفلاني، لكن هذا العمل من يعرف حقيقته ؟ الله وحده.

(إنّ اللّهَ خَبيرٌ بمَا تَعْمَلُونَ)

((إنّمَا الأعْمَالُ بالنّيّاتِ))

[البخاري عن عمر]

احذر ألاّ يكون عملك خالصا وصوابًا:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((إنّ أوّلَ النّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتّى أُلْقِيَ فِي النّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلّمَ الْعِلْمَ، وَعَلّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ تَعَلّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتّى أُلْقِيَ فِي النّارِ، وَرَجُلٌ وَسّعَ اللّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إلّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمّ أُلْقِيَ فِي النّارِ))

[مسلم]

إنه شيءٌ مخيف، وإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً وصواباً.. خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة، امتحن دائماً عملك، هل هو وفق السنّة ؟ ماذا تبتغي منه ؟ أن تنتزع إعجاب الناس ؟ أن يقول الناس عنك: إنسان صالح ؟ إنسان كريم، محسن كبير ؟ رجل فقيه، رجل عالم؟ أم أنك تبتغي وجه الله عزّ وجل ؟ " إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً وصواباً "..

خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة.

(إنّ اللّهَ خَبيرٌ بمَا تَعْمَلُونَ)

حجم العمل، مؤدّى العمل، غاية العمل، بواعث العمل، خلفيات العمل، ملابسات العمل، حجم التضحية، كله محسوبٌ بدقّةٍ بالغةٍ عند الله عزّ وجل، هذا كله يعلمه الله عزّ وجل، لذلك اتّق الله أن تماري أحداً، اتّق الله أن تعرض عملك على الناس كي تنتزع إعجابهم.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

حينما تبيّن للخبير تكون إنسانا أحمق، أنت أمام خبير مثلاً بالماس، أو بالذهب، إن قلت له: هذا ذهب عيار أربعة وعشرين، هذا كلامٌ ليس له معنى إطلاقاً، لأن الخبير يعلم كل شيء، لذلك أنت أمام الخبير فعليك أن تلوذ بالصمت.

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أيها الإخوة الكرام.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

(سورة الحشر: الآية 19)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ

1 ـ نَسُوا اللَّهَ

وهذه آية من أدق الآيات، نسوا الله، نسي الإنسان ربَّه، ليس معنى نسي الله أنه أنكر وجوده، لا، لم ينكر وجوده.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

(سورة العنكبوت: الآية 61)

لكنه لم يُقبل عليه، لم يعبأ بأمره ونهيه، لم يتوجَّه إليه، لم يجعله هدفاً لأعماله، فهو قد سمع الناس يقولون شيئاً فقاله، عاش في مجتمع إسلامي، سمع خُطَب الجمعة، عرف أن لهذا الكون خالقاً هو الله، لكن أمره ونهيه لم يدخله في حساباته اليومية، لم يُقِم بيته على مبدأ الإسلام، لم يربِّ أولاده تربيةً إسلامية، لم يُقِم عمله على منهج الله عزّ وجل، إنه نسي الله، نسي أمره، ونسي نهيه، نسي منهجه، ونسي أنه هو الهدف، نسي أن الحياة الدنيا مؤقّتة، نسي الآخرة.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

2 ـ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ

نسيان الله أنساهم أنفسهم، حينما تنسى الله لا تعرف لماذا خلقك ؟ حينما لا تعرف أن الله خلق السماوات والأرض، وأن الله سبحانه وتعالى هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنّه إليه يرجع الأمر كله، بيده كل شيء، الله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: الآية 2)

حينما نسيت الله فنسيانك لله أنساك هويّتك، من أنت ؟ أنت المخلوق المكرّم، لم يعرف نفسه، أنت مخيَّر، لم يعرف نفسه، أنت مكلّف، لم يعرف نفسه، أنت في دنيا محدودة، الدنيا إعدادية لحياةٍ أبديةٍ عُليا، لم يعرف، جعل الدنيا أكبر همِّه، ومبلغ علمه، جعل الدنيا نهاية آماله، ومحطّ رحاله، حينما نسي الله، ونسي سرّ الخلق نسي نفسه، نسيانه لله عزّ وجل أنساه نفسه، لذلك الكافر نفسه هَينةٌ عليه، لا قيمة لنفسه عنده.

إخواننا الكرام، هناك أشياء ترفضها، لأنك تحتقرها، إلا أنك إذا رفضت الدين إنما تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلّةِ إبْرَاهِيمَ إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة: الآية 130)

أنت حينما ترفض دين الله عزّ وجل أن تعتنقه، ترفض منهج الله أن تطبقه، ترفض هذا الدين القويم أن تتمسّك به، ترفض هذا التفسير الدقيق المُطْلَق في صحّته أن تعتنقه فأنت تحتقر نفسك.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)

3 - أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ

كأنها سلسلة، حينما فسق عن أمر ربه حُجِب عن الله عزّ وجل فما عرفه، وحينما لم يعرف الله عزّ وجل لم يعرف من هو، القضية مترابطة، إن عرفت أن لهذا الكون خالقاً، خلقنا من أجل أن يسعدنا، من أجل أن يرحمنا، خلقنا لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، جاء بنا إلى الدنيا لتكون إعداداً للجنّة، أعطانا العقل، أعطانا الكون، أعطانا حرّية الاختيار، أودع فينا الشهوات، أعطانا قوّةً في ما يبدو كي نحقق اختيارنا، قلت: فيما يبدو، أعطانا المنهج الكتاب والسنّة، جعلنا المخلوق المكرّم، سخّرت لنا السماوات والأرض، كلّفنا بالأمر والنهي، أنت إن لم تعرف هذا فلا تعرف مَن أنت، فالقضية مترابطة..

(نَسُوا اللّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

لم يعرف نفسه، من أنت ؟ يقول لك: نحن نعيش، لماذا أنت تعيش ؟ مِن قلّة الموت، ماذا تفعل ؟ إننا نزاحم في الدنيا، والله شيء جميل، هذا كلام الناس، لماذا أنت عايش ؟ قال:

((كالناقة عقلها أهلها، فلا تدري لمَ عُقِلَت ؟ ولمَ أُطلِقت ؟))

[ورد في الأثر]

لماذا هناك موت ؟ إنه لا يعرف، لماذا هناك مصائب ؟ يقول لك: هكذا الله قدّر علينا، فما السبب ؟ أين قوله تعالى:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

وأين..

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: الآية 147)

لماذا لا يوجد رزق وفير ؟ لأن ثمة جفافا، الله عنده جفاف ؟ الإنسان يقنن تقنين عجز، أما هل الله يقنن تقنين عجز ؟ إنه يقنن تقنين تأديب.

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: الآية 96)

هذا كلام ربنا.

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10) يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا(13))

(سورة نوح)

اعرف الحقيقة قبل فوات الأوان:

فلذلك الآية الكريمة فيها سلسلة، حينما يفسق الإنسان يُحجَب بمعصيته عن الله، إن حُجِبَ عنه ما عرفه، وإن لم يعرف الله لم يعرف نفسه.

إن الإنسان إذا عرف أن هناك جامعة، وهذه جامعة من يتخرَّج منها ينال أعلى المرتبات.. مثلاً.. إذا عرف قيمة هذه الجامعة، وعرف أنها تعطي مرتبةً عُليا لمن ينجح في امتحاناتها، وأن مستقبله يصبح زاهراً، وهو طالبٌ فيها، متى عرف قيمته ؟ حينما عرف قيمة جامعته، متى عرف قيمته كطالب في هذه الجامعة ؟ حينما عرف قيمة جامعته، لو لم يعرف قدرها لم يعرف قدره، هذا مثل للتوضيح..

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ)

فاعل أنساهم: نسيان الله أنفسهم، فنسيان الله أنساهم أنفسهم.

(أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)

الفسق خطير، ومضاعفاته خطيرة، والإنسان يفسُق فيحجَب، ويحجَب فيجهل، ويجهل فيجهل نفسه، جهل نفسه فجهل حقيقته، جهل هويّته، جهل دوره، جهل تكليفه، جهل أمانته، جهل مصيره، يأتيه الموت فجأةً..

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور)

ماذا قولك عن رجلٍ.. للتقريب.. يبيع أرضه خمسمائة دنم، وبيته في حي المالكي، ومعمله، وفيلا راقية، وسيارته، ويقبض ثمنها عملة صعبة، ثم يكتشف فجأةً أن العملة كلّها مزوّرة، هذا الخبر كيف وقعه عليه ؟ كل شيء يملكه باعه بعملة صعبة، ثم اكتشف فجأةً أنها كلّها مزوّرة، هذا هو الصَعْق، عندما يأتي الإنسان يوم القيامة يجد أن كل شيءٍ فعله في الدنيا..

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان)

إخواننا الكرام... كل إنسان يندم فهذا يدلّ على وجود قصور في تفكيره، والعاقل ينبغي أن لا يندم، لأنه عرف الحقائق المستقبلية، وانسجم معها من الآن.

تصوّر طالبًا عرف خطورة الامتحان، واستعدّ له أعلى استعداد، فإذا جاء الامتحان والأسئلة واضحة، يعرف الأجوبة الكاملة، وهو يكتبها، فإنه في الامتحان هو في أسعد لحظات حياته، لأن الحقيقة المستقبلية انسجم معها من الحاضر، حتى إنهم يقولون في علم النفس: **" من أرقى الذكاء التكيُّف ".**

ساعة المغادرة:

أنت إنسان، أنت بضعة أيام، كلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، هل يوجد أحد ليس له عمر عندنا في الأرض ؟ ضع رقمًا كمثال: ثلاث وسبعون سنة، وخمسة أشهر، وأسبوع، وخمسة أيام، وثماني ساعات، وأربع دقائق، وثلاث ثوان، هذا هو عمره، كل ساعة بل كل ثانية تقرّبنا إلى الأجل، أنت كائن متحرّك لهدف ثابت، لملاقاته، كلّما تمضي ثانية في الساعة معنى هذا أنها ذهبت من عمرك، الإنسان بضعة أيام كلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، أما عندما يأتي مَلَك الموت فلا رجعة.

إذا كان الإنسان مقيمًا في دولة نفطية، ومعه إقامة، وكتبوا له: مغادرة بلا عودة، يمكن أن يصاب بجلطة، وكلنا سوف نغادر ولا نعود، فعندما يأتي ملك الموت تكون المغادرة بلا عودة، وإذا مات الإنسان، وشُيّع، ودفن، هل يقول أهله مساءً: لماذا لم يأت فلان ؟ لا، إنه لن يرجع، غرفته انتهت، وملابسه يوزّعونها، هذه الساعة الحرجة.. ساعة مغادرة الدنيا.. ينبغي أن نعرف خطورتها، ينبغي أن نستعدّ لها من الآن.

والله أيها الإخوة، إن الإنسان المؤمن الذي يستعدُّ لهذه الساعة بالتوبة والطاعة والاستقامة والعمل الصالح، والله حينما يأتي ملك الموت ليس في الأرض كلِّها إنسانٌ أسعد منه.. **<< وا كربتاه يا أبتا، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبّة محمّداً وصحبه >>..**

تصوّر لو أن طالبا يدرس في بلد أجنبي، يعمل في مطعم خادما يغسل الصحون، ويدرس، وهو ساكن في غرفة قميئة إلى أن نال الدكتوراه، إنه موعود في بلده بأعلى منصب، وأجمل بيت، وأجمل زوجة، وأجمل مركبة، أخذ الشهادة، وصَدّقها، ووضعها في حقيبته، وقطع تذكرة السفر، وصعد إلى الطائرة، وهو يصعد الطائرة هو في أسعد لحظات حياته.. كيف القدوم على الله يا أبا حازم ؟ قال: **" كالغريب عاد إلى أهله ".**

سيدنا رسول الله تفقّد أحد أصحابه اسمه سعد بن الربيع، بحث عنه أصحابه، فإذا هو بين الموت والحياة في ساحة المعركة، قيل له: **"يا سعد بن الربيع، إن النبي قد أمرنا أن نتفقّد حالك، هل أنت مع الأحياء أم مع الأموات ؟ أي هل هناك أمل ؟ فقال: بل أنا مع الأموات، ولكن بلِّغوا نبي الله مني السلام، وقولوا له ـ وهو في الرمق الأخير ـ: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيّاً عن أمّته، وقولوا لأصحابه: لا عُذْرَ لكم إذا خُلِص إلى نبيكم وفيكم عينٌ تطرف ".**

ما حالة هذا الإنسان ؟ حالة هذا الإنسان في أعلى درجات السعادة، لأنه أدّى ما عليه.

عندما نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه قبل أن يتوفّاه الله عزّ وجل لأول مرّة يبتسم حتى رأى الناس نواجذه، قال:

((علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[تخريج أحاديث الإحياء]

إنه أدّى الأمانة.. اللهمّ إني أديت الأمانة، وبلّغت الرسالة، ونصحت الأمة، هكذا أنت تقول أمام قبر النبي: **" نشهد أنك بلغت الرسالة، وأدّيت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغُمّة، وجاهدت في الله حقّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد ".**

إذا كان الرجلُ منّا الله خلقه في الدنيا، ثم كبر، وصار أبًا، تزوج امرأة صالحة، وأنجب أولادا، ربّاهم تربية إسلامية، له عمل ابتغى به خدمة المسلمين، له دعوة إلى الله، له سَمْتُه الحسن، له أعماله الصالحة، له إنفاقه، ثم جاء ملك الموت فإنه يقول له: أهلاً بك، الله يسلِّم عليه.

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

(سورة يس)

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي)

(سورة يس)

لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ

لا يستوي الصنفان:

لابد للإنسان أن يكون على منهج الله، ويعرف حقيقة هذا الدين..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

مَن عنده قطعة من الماس صغيرة، ثمنها ثمانية ملايين ليرة، وآخر عنده قطعة فحم كبيرة، هل هما مثل بعضهما ؟ قطعة الماس ثمنها ثمانية ملايين، وقطعة فحم للحم المشوي وكبيرة، ويفتخر بكبرها، إنه أحمق..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)

(سورة الحشر: الآية 20)

أين الثرى من الثُّريّا ؟ لا توجد نسبة، إنسان جاهل جهلا مطلقا، وإنسان يحمل أعلى شهادة في العالم، لو جلسا جنبًا جنب وتحدَّثا، فلا توجد نسبة.

أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه كان يدرّس، يبدو أن هناك ألما في رجله، وتلاميذه يحبونه.. مع أن النبي ما رئي ماداً رجليه قط.. يبدو أنه معذور فمدّ رجله، دخل إنسان طويل القامة، عظيم الهيئة، يرتدي عمامة وجبّة، فظنّه عالماً، فاستحيا، فرفع رجله، وجلس، وكان الدرس عن صلاة الفجر، بعد أن أتمّ الدرس سأله الرجل: وقال له: كيف نصلي الفجر إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ فقال له: عندئذٍ يمدُّ أبو حنيفة رجله.

شتّان بين العالم والجاهل، هناك عالم وهناك جاهل، هناك إنسان رحيم، وهناك إنسان قلبه كالصخر، شتان بين الرحمة والقسوة، وبين العدل والجَوْر، وبين الإحسان والإساءة، وبين الاستقامة والانحراف، وبين الصدق والكذب، وبين الإخلاص والخيانة، لا يوجد شيء يجمع بينهما، الدنيا فيها مراتب، هل بائع متجوّل يشبه أكبر مستورد ؟ إنسان يعمل بأعلى منصب في الجيش، هل هو مثل جندي غر ؟ هناك فرق كبير في كل شيء، هل الأستاذ في الجامعة كإنسان يحمل شهادة ابتدائية ؟ هناك فرق كبير جداً..

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)

لو أن قطعتين من اللحم، قطعة لحم مشوية، وهي من أجود الأنواع، وقطعة لحم متفسِّخة من خمسة أيام، وريحها تصل إلى ما بعد خمسين مترًا، إنّ هذه لحم، وهذه لحم، فهل يستويان ؟ والله البونُ شاسع بينهما، وأنا أعتقد أنه لا توجد رائحة على وجه الأرض أكثر إيذاء للإنسان من اللحم المتفسِّخ، وكلكم سافرتم، فإذا كان هناك حيوان ميت متفسِّخ من مئتي متر تجد أنك لا تتحمّل الرائحة، فتسد أنفك، وتضاعف السرعة لكي تتخلّص من هذه الرائحة، وهناك لحم مشوي، وكلاهما لحم..

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)

لا يستوي، المؤمن عالم.. ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ولو اتخذه لعلّمه.. الكافر جاهل، إنه كتلة جهل، وقد يكون يحمل أعلى شهادة، ولكن لأنه لم يعرف الله فهو جاهل، قد يكون في اختصاصه متفوّقا، هذا يسمى ذكيا ولا يسمى عاقلاً، بالمعاملة ؛ هذا مستقيم وهذا منحرف، هذا وفيّ وهذا خائن، هذا حيي وهذا وقح، هذا عفوّ وهذا منتقم، هذا صبور وهذا لجوج، هذا منصف وهذا ظالم، هذا سامٍ وهذا دنيء، هذا وديع وهذا فيه غلظة، هذا مؤنس وهذا موحش، لا يستويان، المؤمن متصل بالله فاشتقّ من كماله، وأي مؤمن إن اتصل بالله عزّ وجل اشتقّ من كماله، فتجد فيه الوداعة واللطف، والأدب والحياء، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والورع والخوف، والافتقار والتواضع ؛ وابتعد عن الكبر والغطرسة، والعنجهية والسيطرة، والدناءة والأنانية، والأثرة والقسوة والجحود..

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)

والله لو عشت مع مؤمنٍ، وعشت مع عاصٍ أو كافر لو لم ينطق كلاهما بكلمة لرأيت البون شاسعاً بينهما.

حدّثني طبيب يعمل في مستشفى قال لي: زارنا مريض معه ورم خبيث في أمعائه، وهو مؤمن، لكن العجب أنه كلّما دخلنا عليه استأنسنا به، كلّما دخل عليه إنسان يقول له: أتشهد أنني راضٍ عن الله ؟ اشهد على أنني راضٍ على ما ساقه الله لي، يا رب لك الحمد، قال لي: حينما يضغط على كبسة الجرس يتنافس الممرضون لخدمته، ويتنافس الأطبّاء لخدمته، واضطروا أن يفتحوا أمعاءه، وأن يخرج الغائط من طرف أمعائه، قال لي: والله.. وهو صادق.. إذا دخلنا لغرفته فهي برائحة المسك، وجه منير، تسبيح

وذكر وصبر، واعتراف بالفضل، ويا رب، إني راضٍ عن فعلك، فارض عني، ويُشهد كل الناس أنه راضٍ عن الله، ثم توفي هذا المريض، وانصرف إلى رحمة الله، قال لي: لحكمةٍ أرادها الله ولدرسٍ تأديبيّ لنا جاءنا مريض بالمرض نفسه، ورم خبيث في الأمعاء، قال لي: لا يوجد نبي لم يسبّه، رائحة الغرفة لا تطاق، كلّما قرع الجرس لا أحد يستجيب له، يتكلّم كلامًا غير معقول، نفس غليظة، اعتراض على حكم الله، يتكلّم بالكفر، انظر الشاهد:

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)

المرض نفسه، هذا تلقّاه بالصبر، والثاني بالضجر، هذا بالشكر، وهذا بالجحود، هذا بالهدوء، وهذا بالضجيج، هذا بالعرفان بالجميل، وهذا بإنكار الفضل.

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ

قد يفوز الكافر في الدنيا.

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران)

لابد من استخدام مقاييس القرآن للفوز:

ينبغي أن تستخدم مقاييس كتاب الله، أن تقيّم الناس لا بحجمهم المالي، ولا بقوّتهم، بل بطاعتهم لله..

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

هذا كلام ربنا.

(فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

أحياناً يقول لك أحدُهم: أخذنا أرضا الدنم بعشرين ألف ليرة، الآن بستة ملايين لا أبيع هذا الدنم، خير إن شاء الله ؟ يظن أنه فاز فوزاً عظيماً، اشترى بيتا بثلاثين ألفًا فأصبح ثمنه ثمانية ملايين، يظن نفسه فاز فوزاً عظيماً، وكيل شركة حصرية أرباحها طائلة، ومركزه مكين في الشركة، يظن أنه قد فاز فوزاً عظيماً، وصل إلى منصبٍ رفيع، يظن أنه قد فاز فوزاً عظيماً، لكن الله يقول:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ)

أي إن الإنسان إذا كان في طريق الجنّة فهذا من أسعد الناس، وفي الكون حقيقة: أن الله جلّ جلاله هو كل شيء، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأيّ شيء يقرّبك منه فهو الحق، وأيّ شيءٍ يبعدك عنه فهو الباطل، فلذلك:

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ)

هم الفائزون بنصّ القرآن الكريم، وهناك مليون نص آخر غير قرآني يبين أن الغني هو الفائز، القوي هو الفائز، الذكي هو الفائز، المنتمي إلى فئة معيّنة هو الفائز، لا..

(أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُون)

وأصحاب الجنّة هم الطائعون، الجنّة لكل الناس، لكن لها ثمن، سلعة الله غالية، وثمنها طاعة الله عزّ وجل.

(أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُون)

ثم يقول الله عزّ وجل:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

هذه الآية لها تفسيرات عدّة:

1 - معنى الآية:

أحد تفسيراتها: أن النبي صلى الله عليه وسلّم أنزل الله عليه القرآن، وكان ثابتاً..

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

(سورة النجم)

إذاً: النبي عليه الصلاة والسلام كان أشدّ رسوخاً من الجبال، وحي السماء ينزل على إنسان ويتحمّله !!

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

2 ـ كيف يخشع الجبل ولا يخشع الإنسانُ ؟!!

القرآن فيه الحق، فيه وعد خالق الكون، فيه وعيده، فيه حلالٌ وحرام، فيه أمر ونهي، فيه تاريخ البشرية، فيه مستقبل البشرية، فيه غيب الماضي، فيه غيب الحاضر، فيه غيب المستقبل، قرآن، إذا أنزل على جبلٍ، وكان لهذا الجبل عقلٍ لاستوعبه، وآمن به، وخشع له، فكيف إذا أُنزل على البشر العقلاء الذين وهبهم الله أعظم نعمةٍ على الإطلاق، نعمة العقل، ومع ذلك لا يتأثّرون، ولا يعبؤون به، ولا يلقون له بالاً، بل اتخذوه وراء ظهورهم، وأهملوه.

3 ـ القرآن مهجورٌ في حياة المسلمين:

الآن في حياة المسلمين، ادخلْ إلى بيت مسلم تجد أنه لا يطبّق منهج الله، طبعاً القرآن موجود، معلّق في غرفة، وتوجد لوحات كثيرة قرآنية، آية الكرسي في كل البيوت تقريباً، لكن العلاقات، اللقاءات، الاجتماعات، السهرات، الندوات، الحفلات، الكسب، الإنفاق، خروج الزوجة، خروج البنات، كله غير إسلامي، إذاً: هذا القرآن لا يحكّم في بيوتنا، ولا في أعمالنا، بل مكاسبنا ربوية، وهناك غش، وكذب ودجل، وإخفاء عيوب، وبيعة في بيعتين، آلاف المخالفات في أعمالنا، وفي بيوتنا، إذاً: هذا القرآن لا يحكِّم في حياتنا اليومية.

أيها الإخوة الكرام، هذا القرآن الكريم إذا أنزل على جبلٍ لرأيته:

(خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا)

أي متشقِّقاً..

(مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ)

4 ـ كتاب الله منهج للمسلمين:

فكيف إذا أُنزل على إنسان من لحمٍ ودم، له عقل وله نفس، وله قوةٌ إدراكية، وقد كُلِّف حمل الأمانة، واختاره الله على علم، وجعله سيد المخلوقات، وسخّر له الأرض والسماوات ؟ فهذا مثَلٌ يحثّنا على أن نتمسّك بهذا الكتاب، هذا منهج الله، هذه تعليمات الصانع، هذا حبل الله المتين، هذا ركنٌ ركين، هذا الملجأ، هذا المنهج، هذا الدستور، هذا الطريق القويم، هذا الصراط المستقيم، هذا كما يقول بعض الناس: المنهج الذي إن تمسّكنا به وصلنا إلى سعادتنا في الدنيا والآخرة، فعلينا أن نقرأه، علينا أن نفهمه، علينا أن نتدبّره، علينا أن نطبّقه..

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

إذا كان الإنسان مستقيما، وكان الخط مع الله سالكا، وهو قريبٌ من الله يلقي الله في قلبه من المعاني الدقيقة، ومن السرور في قراءة هذا الكتاب ما لا يوصف، أما حينما يبتعد عن الله بالمعاصي حُجِب عنه ذلك.

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)

(سورة الإسراء)

معنى هذا أنك إذا آمنت، واستقمت فإن هذا القرآن شفاءٌ لك، شفاءٌ لعقلك، شفاءٌ لنفسك، شفاءٌ لجسدك، شفاءٌ لمجتمعك، شفاءٌ في دنياك سعادةٌ في آخرتك، هذا الكتاب ينبغي للإنسان ألاّ يهجره، أن يعيشه ليلاً ونهاراً، صبحاً ومساءً.

في الدرس القادم إن شاء الله نتحدّث عن آيات الله الكريمة:

(اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ)

(سورة الحشر: الآية 22)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحشر 059 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 22- 24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-07-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الخامس والأخير من سورة الحشر، ومع الآية الكريمة، وهي قوله تعالى:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(22)هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(23)هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(24))

(سورة الحشر)

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

1 - هُوَ اللَّهُ

أيها الإخوة الكرام، قد تسأل إنساناً: من فلان ؟ يقول لك: هو زيد، هو مبتدأ، وزيدٌ خبر، سألته: من هو؟ فقال: هو فلان، أما في هذه الآية حينما يبدأ الله عزّ وجل تلك الآية بقوله تعالى:

(هُوَ اللَّهُ)

الله خالقُ الكون:

معنى ذلك أن هناك سؤالاً: إذا فكّر الإنسان في خلق السماوات والأرض رأى كوناً لا نهاية له، فآخر الإحصاءات أن في الكون ما يقترب من مليون مجرة، وأن في المجرة الواحدة ما يقترب من مليون نجم، وأن هذه النجوم متفاوتةٌ تفاوتاً كبيراً في حجومها، وفي عددها، وفي صفاتها، فلو أن واحداً سأل نفسه: مَن خلق هذا الكون ؟ هذا سؤال وجيه، من جعل هذا النظام البديع فيما بين الكواكب والمجرات ؟ هذا التوازن الحركي، قانون الجاذبية، هذه الكتل الهائلة من أين جاءت ؟ أين كانت قبل أن تخلق ؟ من أوجدها من العدم؟

إذا نزلنا إلى الأرض، مَن أعطاها حجمها المناسب ؟ مَن جعلها تدور حول نفسها بمحورٍ مائلٍ على مستوى دورانها حول الشمس ؟ ينشأ عن هذا الميل الفصول الأربعة، وعن هذا الدوران الليلُ والنهار، من جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ؟ من جعل الأرض مفتتةً من أجل أن تزرع.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12))

(سورة الطارق)

الأرض تتشقق عن النبات، والسماء تتشقق عن المطر، هذا عمل مَن ؟ عقل الإنسان أثمن شيءٍ فيه، عقل الإنسان جهازٌ قوة إدراكية لا تفهم ما حوله إلا وفق ثلاثة مبادئ، العقل البشري لا يفهم الواقع إلا وفق سبب، ولا يفهمه إلا من أجل غاية، ولا يقبل التناقض، فالإنسان ذو التفكير الحر، ذو العقل السليم، ذو الفطرة السليمة.

الله خالق الإنسان:

نحن فيما بيننا أيّ آلةٍ يجب أن تعتقد أن لهذه الآلة مصنعاً، وأن في هذا المصنع مصممين، ومهندسين، ومنفذين، ومواد أولية، وآلات متنوعة، ومراقبة، هذه آلةٌ صغيرة !! والإنسان أعقد آلةٍ في الكون، مَن خَلَقه ؟ مَن الذي أخرج من الرَّجُل خمسمئة مليون حوين ؟ واحدٌ من هذه الخمسمئة مليون يلقِّح البويضة، كيف أن بويضةً ملقحةً بعد تسعة أشهرٍ أصبحت طفلاً ؟ مئة وأربعون مليار خلية في الدماغ، وأربعة عشر مليار خلية قشرية، والعصب البصري تسعمئة ألف عصب.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

(سورة البلد)

مئة وثلاثون مليون عُصَيَّة ومخروط في شبكية العين، الشبكية عشر طبقات، العصب البصري تسعمئة ألف عصب، ولكل عصب ثلاثة أغمدة.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

هذه العين ترى الشيء بحجمه الحقيقي، وبألوانه، وتدركه إدراكاً فورياً دون تحميض، من صمم العين؟ من أجرى فيها المُطابقة أنك بعد دون ستين متراً الشيء المتحرك كأن جهةً ثالثة تقيس المسافة بينك وبينه، وتضغط على الجسم البلوري ضغطاً ميكرونياً كي يزداد احديداب العدسة، كي يقع الخيال على الشبكية، كي تدرك، يد من ؟ تصميم من ؟ تنفيذ من ؟ حكمة من ؟ روعة من ؟ هذا سؤال.

والسمع: أصواتٌ لا تعد ولا تحصى، كيف تأتي هذه الأصوات بلا أذنين ؟ لأن هناك أذنين تعرف جهة الصوت، ولأن الدماغ حينما يأتيه صوتٌ من الخارج يحسب حساباً دقيقاً تفاضلَ وصول الصوتين إلى

الدماغ، والتفاضل هو واحد على ألف وستمئة وعشرون جزءًا من الثانية، من حساب هذا التفاضل يعرف الإنسان جهة هذا الصوت، من صمم هذه الأذن.

من صمم هذا اللسان ؟ كل حرف تسهم فيه سبع عشرة عضلة ؟ مَن صمم اللسان ؟ من صمم الحبال الصوتية ؟ من صمم الرئتين ؟ من صمم القلب والرئتين ؟ الجواب: هو الله، مليون مليون مليون مليون سؤال يطرحه الإنسان على نفسه والجواب: هو الله.

الله خالق النباتات:

هذه الأزهار البديعة من أعطاها ألوانها، أشكالها، روائحها الفوّاحة ؟ هذا النبات الذي تأكله من صممه ؟ من صمم نظام البذور ؟ بعض البذور تعطي مليوني ضعف، الطماطم، من صمم البذور ؟ من جعل هذا الرشيم ؟ وهذا السويق ؟ وهذا الجذير، وهذه المحفظة الغذائية ؟ وهذه الخصائص التي لا تعد ولا تحصى ؟ كلها مبرمجة في النويّة ؟ شيء لا يصدق ؟ هو الله، كلما قرأت:

(هُوَ اللّهُ)

فهناك سؤال: من جعل الجميل جميلاً ؟ من جعل القوي قوياً ؟ من جعل هذا العلم العظيم ؟ من العالِم ؟ هو الله، من المصمم ؟ هو الله، من الموجد ؟ هو الله، من المنظِّم ؟ هو الله، من المسير ؟ هو الله، أنت تسأل والله يجيب.

(إِنَّنِي أَنَا اللّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

كأن الله سبحانه وتعالى يجيب كل سائل: أن هذا الكون وما فيه من عظمة الذي صممه، وخلقه، وأبدعه، وبرأه، وصوّره هو الله..

أيها الإخوة الكرام، لا سبيل إلى معرفة الله بالحواس، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام: آية 103)

ولكن العقل إذا أعملته في الكون عرف الله، والعقل أداة معرفة الله، وهو الأداة الإدراكية الذي كرّم الله به الإنسان، فالإنسان مدرك، وكأن العقل خُلِقَ كي يعرف الله، وأشقى الناس من استخدم عقله على خلاف ما خلق له.

أيها الإخوة، الله سبحانه وتعالى له أسماؤه الحسنى وصفاته الفضلى، أما كلمة (الله) فهي علَمٌ على الذات، الاسم الجامع من للأسماء الحسنى كلها وللصفات الفضلى كلها هو الله:

وفي كل شيءٌ له آيةٌ تدل على أنه واحد

أيها الإخوة، إن أسعد الناس هو الذي يُعمِل عقله فيما خَلَق الله عزّ وجل، والأمر لا يحتاج إلى تعقيد.

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24))

(سورة عبس)

الله خالق كل شيء:

عاهد نفسك أن تنظر في طعامك، فيما تأكل، تأكل أنواعًا منوّعة من الخضراوات، والفواكه، والمواد الدسمة، ومشتقّات الألبان، تشرب الماء الزلال الذي كان ملحاً أجاجاً، كأس الماء يدلك على الله، ورغيف الخبز يدلك على الله، وكأس الحليب يدلك على الله، والشيء الذي تُعَمِّقُ في التفكير به يوصلك إلى الله، وعدد الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

كأن كلمة: (هو الله) جواب لمليار مليار سؤال: من صمم ؟ من خلق ؟ من صوّر ؟ من أبدع ؟ من أعطى الشيء الجميل جماله ؟ من أعطى الشيء اللطيف لُطفه ؟ من أعطى الشيء القوي قوته ؟ ماذا أقول لكم ؟

الحوين الذي ذكرته قبل قليل هو خلية، أصغر خلية، والخلية لها غشاء خارجي، ولها هَيولى، ولها نواة، على النواة.. وأنا لا أقول رقماً لست متأكداً منه.. على النواة خمسة آلاف مليون معلومة مبرجمة، على نواة الحوين المنوي الذي يلقِح البويضة خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة تتحرك وفق برنامجٍ زمني، كل صفات الإنسان مكتوبٌ على هذه النويّة على شكل أوامر مبرمجة، فأنت أمام خلقٍ معجز.

إن نظرت إلى الشمس والقمر فهما شيءٌ لا يصدق، تبعد الشمس عن الأرض مئة وستةً وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، بينما هناك نجومٌ في بعض الأبراج تتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، هذه الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، أحدث مجرة كُشفت رصدتها مركبةٌ فضائية بقيت تطير في الفضاء الخارجي ستة سنوات، رصدت مجرةً تبعد عنا ثلاثة آلاف مليون سنة ضوئية، أرقام يصعب على العقل البشري أن يصدِّقُها.

أيها الإخوة الكرام، حينما تقرأ قوله تعالى:

(هُوَ اللَّهُ)

أي سؤالٍ تطرحه: من خلق ؟ من صمم ؟ من أوجد ؟ من صوّر ؟ من برأ ؟ ما هذا العلم ؟ ما هذه الدقة المحكمة ؟ فلو أن إنسانًا له عينان ذهب إلى القطب الشمالي حيث الحرارة سبعون تحت الصفر، كل شيءٍ جامد، بردٌ لا يحتمل، فالإنسان يغطي يديه، يغطي رجليه، يلبس ثياباً ثقيلة، يضع على رأسه صوفاً، أيستطيع أن يضع على عينيه شيئاً كي يقي عينيه من البرد والتجَمُّد، في العينين ماء، وهذا الماء مُعَرّض للتجمد، مَن وضع في ماء العين مادةً مضادةً للتجمد ؟ هو الله.

تطابق العينين، تطابق الأذنين، نطق اللسان، الإحساس باللمس، هذا الجلد الغلاف الرائع.

أيها الإخوة... لو ذهبنا نعدد آيات الله في خلقه لوجدنا العجب العجاب، هو الله، الشيء الدقيق في الآية أن الله لا إله إلا هو، لا توجد جهة ثانية تفعل فعلاً.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

2 ـ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

فالإله هو المعبود، تعبد من ؟ تعبد الذي يخلق، تعبد الذي يرزق، تعبد الذي يتصرَّف، تعبد الذي يحيي، تعبد الذي يميت، تعبد الذي يعطي، تعبد الذي يمنع، تعبد الذي يعز، تعبد الذي يذل، تعبد الذي بيده كل شيء، الإله لا معبود بحقٍ إلا الله، الإنسان بفطرته يعبد الذي خلقه.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: آية 21)

الإنسان بفطرته يعبد الذي يُحْيي، الإنسان بفطرته يعبد الذي يميت، الذي يرزق، الذي يعز، الذي يذل، الذي يرفع، الذي يخفض.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أما قولنا: (لا إله إلا الله)، فهذه كلمة الإسلام، هذا شعار التوحيد، الإسلام كله مضغوطٌ بهذه الكلمة، الإسلام كله في هذه الكلمة، لا إله إلا الله، لا مسيّر إلا الله، لا معطي إلا الله، لا مانع إلا الله، لا خافض إلا الله، لا رافع إلا الله، لا قابض إلا الله، لا باسط إلا الله، لا معز إلا الله، لا مذل إلا الله، لا مسعد إلا الله، لا مُشقي إلا الله، لا معطي إلا الله.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

التوحيد ينافي الشرك، والشرك ينافي التوحيد:

حينما نصل أيها الإخوة إلى الإيمان بلا إله إلا الله نصل إلى كل شيء، تنقطع كل آمالنا بالخلق، وترتبط بالحق، وحينما ييأس الإنسان من الخلق يتوجَّه إلى الحق، حينما ييأس من أهل الأرض يتوجه إلى السماء، حينما يقطع الأمل مما سوى الله يتوجه إلى الله، ما دام هناك شرك فالطريق إلى الله ليس سالكاً، وفي الحديث قدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ))

[مسلم]

العمل المشترك لا يقبله الله عزّ وجل، والقلب المشترك لا يقبل عليه، الله عزّ وجل لا يَقْبَل ولا يُقْبِل، لا يقبل عملاً مشتركاً، ولا يُقبل على قلبٍ مشترك، وما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه.

الحديث عن (لا إله إلا الله) حديثٌ يطول، لأنه الإسلام كله، بل لأن التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً من دون استثناء..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

حينما ترى أن رزقك بيد الله لا تعصيه إذاً، سلامة جسدك بيد الله، لا تعصه إذاً، نجاحك في الزواج بيد الله، فلا تعصه إذاً، نجاحك في العمل بيد الله، لا تعصه إذاً، سعادتك بيد الله، شقاءك بيد الله، رفعتك بيد الله، عزّتُكَ بيد الله، سلامتك بيد الله..

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

هو الذي خلق الكون، أبدع الوجود، هو الواحد، هو الموجود، هو الكامل..

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

3 ـ معنى: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

المعنى الأول:

الشهادة ما تراه عيوننا، والغيب ما لا نراه..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(39))

(سورة الحاقة)

الكون شيءٌ تبصره، وشيءٌ لا تبصره، كأس الماء ماذا ترى فيه ؟ ماءً صافياً، عذباً زلالاً، لو أخذت نقطة ماءٍ، ووضعتها تحت مجهر لرأيت من المخلوقات التي في الماء ما لا يعد ولا يحصى، فالماء الذي يبدو لك صافياً

(بِمَا تُبْصِرُونَ)

والذي تراه تحت المجهر

(مَا لَا تُبْصِرُونَ)

هذه الأذن لها عتبةٌ للسمع، الأذن تستمع من ست عشر اهتزازة في الثانية إلى عدد لا أذكره الآن، (عشرون ألف ذبذبة في الثانية)، بينهما عتبة السمع، هناك أصوات لا نسمعها، هذه ما لا نسمعها، دون وبعد، فللسمع عتبه، وللبصر في عتبه، للإحساس عتبة، فالكون بمجمله بعضه مدرك، بعضه غير

مدرك، بهذه العين ترى الأرض، هل ترى ما في الأرض ؟ ما في أعماق الأرض ؟ ما في نواة الأرض؟ ما في مركز الأرض ؟.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

هو عالم ما تشاهده، وعالم ما لا تشاهده.

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(39))

ما تراه عينك وما لا تراه عينك، ما تسمعه أذنك، وما لا تسمعه أذنك، ما يدركه عقلك، وما لا يدركه عقلك.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

الشهادة ما كان، الماضي، والغيب ما سيكون.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

ما كان وما سيكون، لا يعلم الغيب إلا الله.. **" علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون "..**

إذاً المعنى الأول: ما نراه، وما لا نراه، ما كان، وما سيكون.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

المعنى الثالث:

وبعضهم قال:

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

عالم الدنيا وعالم الآخرة، الآخرة عالم قائم بذاته، الله جل جلاله عليمٌ بما في الدنيا، عليمٌ بما سيكون في الآخرة، لكن هذا الإله العظيم ذو العلم المُطْلَق، علمه يتعلّق بكل ممكن، وبكل موجود، هذا الذي يعلم كل شيء، هل يمكن أن تعصيه، وأن تتفلت من قبضته ؟! الإنسان بفطرته الذي يراقبك لا يمكن أن تعصيه، هو معك في سرّك وجهرك، في خلوتك وجلوتك، في إقامتك وسفرك، في بيتك وخارج البيت.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

4 - هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

أحياناً الإنسان يرتكب مخالفة، يساق ليحقق معه، حينما يصل إلى المحقق، المحقق إنسان، لكن الموقف مخيف، أما إذا وصلت إلى أمك، ماذا تنتظر من أمك ؟ الرحمة، الحب، الحنان، العطاء، الطمأنينة، الأمن، فالعلاقة بين الله وعباده علاقة رحمة، علاقة عطاء لا علاقة تخويف.

أحياناً الأم تربي ابنها، أما الأصل أن الأم للرحمة، الله عزّ وجل ينزل مصائب، وهذا الكون بُنِيَ على الرحمة، تقول:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(1)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(3))

(سورة الفاتحة)

الإنسان خُلق للرحمة:

الأصل أن الإنسان خُلق ليرحمه الله، الأصل أن الإنسان خلق ليسعده الله، الأصل أن الإنسان خلق ليسلم من أي شقاء، الأصل هكذا، فمثلاً المركبة الأصل فيها أنها تسير، صممت من أجل أن تسير، أصل تصميمها من أجل أن تسير، تشتريها من أجل أن تسير، أي مركبةٍ فيها مكابح، المكابح تناقض عِلّةُ وجودها، علة وجود المركبة أن تسير، والمكابح تناقض علة وجودها من أجل سلامتها، فالأصل أن هذا الكون من أجل الرحمة..

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: الآية 119)

المصائب تأديبٌ من الله وتربية منه للعباد:

إذا رأيت في الكون مصائب، ومتاعب، وهموما، ونقصا في المواد أحياناً، هذا كله تأديبٌ من الله عزّ وجل.

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

(سورة نوح)

في الأثر:

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسوء أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

ذكرهم بآلائي، بآياتي العظيمة، ونعمائي بنعمي، وبلائي بالمصائب، ذكرهم بآلائي كي يعظموني، ذكرهم بنعمائي كي يحبوني، ذكرهم ببلائي كي يخافوني.

الأصل أن هذه المركبة صممت لتسير، وفيها مكابح من أجل سلامتها، الأصل أن هذا الخلق الذي خلقه الله عزّ وجل من أجل أن يسعد، وهناك أشياء تشقي حينما يخرج المخلوق عن منهج الخالق.

كلمة مختصرة: أنت مخلوقٌ كي تسعد في الدنيا والآخرة، وكل أنواع الشقاء بسبب شركٍ أو معصيةٍ.

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

أو معصيةٍ.

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

آيتان عظيمتان:

أما الآية التي ينبغي أن لا تنساها إطلاقاً فهي قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء)

هذا كلام الله، فاطمئن..

(إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ)

لماذا العذاب ؟

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

والله أيها الإخوة، لو لم يكن في كتاب الله إلا هاتان الآيتان لكفتا:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء)

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

(هُوَ اللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

في الفاتحة في الصلاة كل ركعة يجب أن تقرأ فيه الفاتحة، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ))

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(3))

[الفاتحة الآية: 2 - 3]

الأصل في علاقة الأم بابنها علاقة عطاء، علاقة إسعاد، لا يهدأ لها بال إلا إذا كان صحيحاً، لا يهدأ لها بال إلا إذا أكل، إلا إذا نام نوماً عميقاً، إلا إذا كان جسمه سليماً، إلا إن كانت نفسه مشرقةً، سعادة الأم من خلال سعادة ابنها، أصل العلاقة بين الأم وابنها علاقة رحمة، علاقة عطاء، علاقة إسعاد، ويجب أن تعلم علم اليقين ولله المثل الأعلى أن أصل العلاقة بين الله وخلقه أن يسعدهم، أن يسعدهم إلى أبد الآبدين، وما الحياة الدنيا إلا إعدادٌ لحياةٍ أبدية، الحياة الدنيا حياة محدودة، سنوات تنقضي، أما ثمن الطاعة في هذه السنوات المحدودة فسعادةٌ في جنةٌ عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين..

(هُوَ اللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(22)هُوَ اللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ)

هُوَ اللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ

الله هو الملِك إيجادًا وتصرفًا ومصيرا:

الملك، هناك من يملك ولا ينتفع، مثلاً: تملك بيتاً، ولا تنتفع به، مؤجر على النظام القديم، هناك من ينتفع ولا يملك، هناك من يملك وينتفع، ولكن ليس له النصيب، قد ينّظم هذا البيت، قد يستملك، قد يشق شارع فيهدم، لكن الله سبحانه وتعالى إذا قال:

(هُوَ الْمَلِك)

يملك كل شيء إيجاداً، وتصرُّفاً، ومصيراً، فإذا اشترى الإنسان بيتًا جاهزا فلا يكون مثلَ الذي عمّر بناء، وهو الذي اشترى الأرض، هو الذي بنى الأساسات، هو الذي أقام البناء، وهو الذي كساه، يملك إيجاداً وتصرفاً ومصيراً.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ)

الملكية الحقيقة لله عزّ وجل، الله عزّ وجل مالكٌ لِما مَلّكَنَا، أعطاك سمعًا، هو يملكه، وفي أي لحظةٍ يأخذه منك، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً، أعطاك عينًا هو الذي يملكها، وفي أية لحظةٍ تفقدها.. لا سمح الله..

هناك رجل يحمل أعلى شهادة فقَدَ بصره، يحتل أدق منصب، وبالطبع خلال شهر بدأ يوقِع المعاملات بالشرح، هذه المعاملة يقول صاحبها كذا وكذا، إذاً أوافق، بعد ذلك سُرّحَ من عمله، قال لصديقه: والله يا فلان، أتمنى أن أجلس على الرصيف أتكفف الناس، وليس على جسدي إلا هذا المِعْطف، وأن يرد لي بصري.

من منا يملك عينه ؟ الله هو مالكٌ لما ملّكنا.

من منا يملك عقله ؟

أحياناً يفقد الإنسان عقله، أقرب الناس إليه، وعن الطريق واسطة كبيرة جداً يرسلونه إلى مستشفى المجانين، أقرب الناس إليه، ابنه، زوجته، أنت مكانتك في البيت، لأن لك عقلا، فلو ذهب هذا العقل فليس عندك مكانة على الإطلاق، هو الذي يملك ما ملّكك به، أعطاك عقلا، أعطاك سمعا، أعطاك بصرا، أعطاك حركة، لو أن الذي ملك الحركة سلبها منك، أول أسبوع خدمة ممتازة، لأن هذا الشيء جديد، الثاني أقلّ، بعد شهر يتمنى أقرب الناس إليك أن تموت، تجد من يخدمه يقولون: الله يخفف عنه يا أخي، لا نقدر أن نتحمّله، لأنه سلب منك الحركة فقط، لكن الإنسان يقوم بنفسه ليقضي حاجته، يمشي بنفسه، هذه نعمةٌ لا يعلمها إلا الله، فهو مالكٌ لما مَلّكَنا، هذه الفكرة دقيقة.

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: الآية 26)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

(سورة الملك: الآية 1)

الله مالك، مالك السمع والبصر، مالك العقل، مالك الحركة، مالك العِلم، والإنسان أحياناً يفقد ذاكرته، فإذا كان طبيبا انتهى طبه، أو مهندس ذهبت شهادته، لأن كل المعلومات في الذاكرة، إذا فقد ذاكرته فقدَ كل شيء.

دققوا في هذه الكلمة: الله قادر في خلال أربع ثوانٍ أن يجعل أكبر بناء أنقاضاً فوق أصحابها.. هكذا حدث في زلزال القاهرة.. بناء من اثني عشر طابقاً، وفي ثوانٍ معدودة أصبح كوما من الأنقاض، هذه الطوابق، وما فيها من تحف، وأثاث، وممتلكات، وذهب، وسكّان، ومطابخ، وغرف استقبال، وغرف نوم، وستائر جميلة، ومرافق، في يد مالك الملك، الأرض مستقرة، مَن ملك استقرارها ؟ الله عزّ وجل.

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل: الآية 61)

هو الله، بحركة بسيطة يصبح لا شيء بزلزال، مدينة تصبح أثراً بعد عين، إعصار يتحرك نحو بلد لا يبقي ولا يذر، لا بيت، ولا شجرة، ولا معمل، ولا حقل، إذا كانت السرعة ثمانمئة فما فوق فلا يبقي ولا يذر، من المالك ؟ هو الله.

إنسان في أعلى قوته، نقطة دم كرأس الدُبوس تتجمد في أحد أوعية دماغه يفقد الحركة، يقول لك: خثرة دماغية، جلطة دماغية، انتهى، صار عبئاً على أسرته، فإذا تحرك الإنسان، وإذا كانت كليتاه تعملان بانتظام فمن يملك الكليتين ؟ الله عزّ وجل، اسأل الأطباء، الفشل الكلوي حتى الآن لا أحد يعرف سببه، الكليتان تكفّان عن العمل فجأةً، فإلى أن يموت هذا المريض يحتاج إلى غسيل كلية كل أسبوع مرتين، وكل مرة ثماني ساعات، هذا غير الأجر المادي، ثماني ساعات وهو جالس كي يصفى دمه، يغسل دمه بكليةٍ صناعية، ويبقى بالمئة عشرون من آثار البولة في الدم، من الذي يملك الكلية ؟ من الذي يملك دسّامات القلب ؟ من الذي يملك مرونة الشرايين ؟ من الذي يملك ضبط النمو بالخلايا، حتى الآن لا أحد يعلم ما أسباب المرض الخبيث ؟ لكل الأعمار، بالجلد، بالأحشاء، بالأعصاب، بالدم، حركة عشوائية في نمو الخلايا انتهى الإنسان.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ)

الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ

1 ـ الْقُدُّوسُ

فهو منزهٌ عن كل نقص.

(الْقُدُّوسُ السَّلَامُ)

أي منزهٌ عن كل نقص، ومقدّس، القدوس الذي لا يليق به نقصٌ إطلاقاً.

(الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ)

2 ـ السّلامُ

مدلولات اسم السلام:

لهذه الكلمة معانٍ عدة:

السلام هو الذي يمنح السلام، يمنح سلاماً لك مع نفسك، تجد المؤمن معنوياته عالية، أما الإنسان حينما يعصي الله يحتقر ذاته، ولا يحترمها، ولو استطعت أن تنزع إعجاب الناس، وهناك أعمال قذرة يفعلها الإنسان، يفقد احترامه لذاته، فلذلك يعيش مع نفسه في صراع، يقول لك: توبيخ الضمير، وخز الضمير، الشعور بالنقص، عقدة النقص، أما حينما تستقيم على منهج الله عزّ وجل يمنحك الله سلاماً مع نفسك، وسلاماً مع الخلق، لك سمعةٌ طيبة، ولك مكانةٌ متألِقة، ولك حبٌ في قلوب الخلق، وإذا أحب الله عبداً جعل قلوب الخلق تميلُ إليه.

السلام أي سلم من كل عَيْب، والسلام هو الذي سلم عباده من الظلم، والسلام هو الذي منحك السلام مع نفسك، ومع الخلق ومعه، ويهديهم سُبُلَ السلام، فالإنسان يحب أن تسلم حياته من كل نغص، ولن تسلم من كل نغص إلا إذا اصطلحت مع الله، إن اصطلحت معه سلّمك من كل نغص، من كل شقاء، من كل خوف، من كل قلق.

إذاً:

(هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السّلَامُ الْمُؤْمِنُ)

أي أن الله جل جلاله يهب الإيمان، قال في كتابه كلاما إذا طبقته، وإذا طبقت كلامه رأيت من أفعاله ما يحملك على مزيدٍ من الإيمان، فقال الله عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: الآية 97)

حينما تحيا حياةً طيبة يزداد إيمانك بهذه الآية، من الذي منحك الإيمان بهذه الآية ؟

3 ـ المُؤْمِنُ

المؤمن الذي وهبك الإيمان.

(يَوْمَ لا يُخْزِي اللّهُ النّبِيّ وَالّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

(سورة التحريم: الآية 8)

إذا اعتقدت بشيء، وطبّقته، ولم تقطف ثماره اهتزّت ثقتك بهذا الشيء، ولم تؤمن به، أما إذا طبقته، وجاءت الأحداث تؤكد النتائج التي وصفت من قبل تزداد يقيناً بهذا، هو مؤمنٌ بذاته، يمنح الإيمان لعباده، لا يخزيهم حينما يُنْجِزُ وعده معهم، حينما يقع وعده ووعيده.

(المُهَيْمِنُ)

4 - المُهَيْمِنُ

أي: المسيطر، كلمته هي العليا، حكمه هو النافذ، يحكم ولا مُعَقِّبَ لحكمه، الله جلّ جلاله ليس في الكون كله من يستطيع أن يُعَقِّبَ على حكمه، أما أكبر قاضٍ يحكم، وهناك قاضي النقض ينقض حكمه، و قاضي الاستئناف، والله يحكم لا معقب لحكمه.

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: الآية 54)

(اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

(هُوَ اللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ(22)هُوَ اللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ)

الله وحده المهيمن، فلا تبحث عن غيره:

أنت تحب أن تقيم علاقة متينة مع المهيمن في أي مجال، من القوي في هذه الدائرة ؟ تبحث عن علاقة إيجابية مع جهة قوية من أجل أن تركن إليها، أن تعتمد عليها، أن تحميك، أن تغطّيك، هذا هو منطق الناس، فإذا علمت علم اليقين أن الله وحده هو المهيمن، هو المسيطر، الآن الناس يتهافتون على الأقوياء ليأخذوا منهم أمناً وطمأنينةً، وتغطيةً، ودعماً، أما حينما تعلم أن الله هو المهيمن كلمته هي العليا.

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(16))

(سورة البروج)

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: الآية 54)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(هُوَ اللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ)

الْعَزِيزُ

معنى العزيز:

الشيء الذي يندر وجوده يسمى عزيزاً، وتشتد الحاجة إليه فيسمى عزيزاً، ويَصْعُبُ الوصول إليه فيسمى عزيزاً.

الله عزّ وجل واحدٌ لا شريك له، إذاً: هو عزيز، تشتد الحاجة إليه، ويحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، يستحيل أن تحيط به، لكن يمكن أن تصل إليه بمنهج، فالله هو العزيز، لا ينال جانبه.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ)

معنى الْجَبَّارُ

المعنى الأول:

يجبر الخواطر الكثيرة، ويُجْبِرُ الظالم.

والجبّار الشيء العالي نقول: نخلةٌ جبارة أي شامخة، عالية.

أحياناً يكون الإنسان مهيض الجناح، مظلوما، له أب قاسٍ، أعطى ولداً، ولم يعط آخر، فالذي لم يعطه فهو مكسور، يجبره الله، يعطيه ويكرمه، هذا من معاني الجبار.

الجبار يجبر الكسر، يجبر الضَعْف، يجبر التذلل، فالله سبحانه وتعالى جبار، بمعنى أن عبداً من عبيده أصابه ضعفٌ فيجبره، يخلق من الضعف قوةً، ومن الفقر غنى، ومن الحيرة وجداناً.

المعنى الثاني:

لكن الجبابرة من أهل الدنيا يقصمهم الجبار، وهو الذي ينهيهم بالموت، لأنه جبار.

الجبّار له معنيان: مهيض الجناح جبره بأن يقوّيه، والقوي الطاغي جبره بأن يقصمه، فهو جبارٌ لكلا الطرفين، جبارٌ للضعيف وللقوي.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ)

المتكبِّر:

التكبُّر في حق الله كمال، وفي حق الإنسان نقص:

التَكَبُّرُ في حق الله كمالٌ، وفي حق الإنسان نقصٌ، الإنسان بالأساس ضعيف، في الأصل الإنسان ضعيف، فإذا تكبَّر تَكبَّر بغير حق، أما ربنا عزّ وجل كبير، عطاؤه كبير، كماله عظيم، منحته لا حدود لها، فإذا ذَكَّرنا بعطائه الكبير فهذا كمالٌ فيه.

إذاً: المتكبر لا نهاية لعظمته، لا نهاية لكرمه، لا نهاية لجوده، لا نهاية لعطائه، في حق الله كمال، وفي حق العبيد نقص، لأنه تكبرٌ بغير حق.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

1 ـ سببُ ذكر الشرك بعد أسماء الله الحسنى:

إذا اعتقدت أن في الكون جباراً غير الله فقد أشركت، وإذا رأيت كبيراً غير الله فقد أشركت، أو مهيمناً غير الله فقد أشركت، أو عزيزاً غير الله فقد أشركت، أو ملكاً غير الله فقد أشركت، أو قُدُّوسا غير الله فقد أشركت.

(سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

الله عزّ وجل وحده.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ)

تنزهت أسماؤه.

(عَمَّا يُشْرِكُونَ)

2 ـ معنى التسبيح:

سبحان الله، التسبيح والتنزيه والتمجيد هو بعيدٌ عن أن يتمثّل بنقصٍ، ذاته منزهةٌ عن كل نقصٍ، وعن كل ضعفٍ، وكماله لا حدود له، فإذا قلت: سبحان الله، فأنت تنزهه وتبجّله.

آيةٌ ثالثة:

(هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ)

هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ

بين الخالق والبارئ:

أحياناً المهندس يصمم على الورق بناء، ثم ينفذ هذا البناء، فتراه أمامك بثلاثين طابقا، العلماء قالوا: الخالق هو الذي صمم، والبارئ هو الذي نَفّذ.

(الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ)

الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ

المصوّر: هو الذي أعطى كل شيءٍ صورته.

(هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ)

خلق أي صمّم، برأ أي نَفّذ، فهو مصوِّر أعطى لكل شيء صورة، المصور داخل في البارئ والخالق، وكل شيءٍ أوجده له صورة، الحصان له صورة، الجمل له صورة، الفواكه له صوَر، والإنسان له صورة.

(هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى

لو أن الله عزّ وجل قال: الأسماء الحسنى له، لما أفادت القصر، له وحده الأسماء الحسنى، أسماؤه كلها حسنى، لذلك أي تفسير لأسماء الله الحسنى لا يليق بكماله فهو تفسيرٌ باطل، لأن أسماءه حسنى، فكلمة: منتقم ينبغي ألا نفهمها بالمعنى الذي بين الناس، المنتقم هو الذي يُوقف المعتدي عند حده، هذا هو

المنتقم، المتكبّر هو الذي يظهر ما عنده من خير كي يطمع عباده به، فينبغي أن تفسَّر أسماء الله تعالى تفسيراً يتناسب مع هذه الآية.

(يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

كل ما خلق الله سبحانه وتعالى يسبّح له.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: الآية 44)

(يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أليس عاراً على الإنسان أن يغفل عن الله، وكل الكون يسبح له ويقدس له !! لذلك: **" ابن آدم، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني ".**

لمجرد أن تذكر الله فهذا أحد أنواع الشُكْر.

(يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

كل ما أراده الله وقع، وكل ما وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورةالممتحنة060 - الدرس(1-5): تفسيرالآيات 1-3 أسباب نزول سورة الممتحنة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-07-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

الأحداث التي وقعت في عهد النبي جعلها الله متَّكئاً للتشريع والتعليم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الممتحنة:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

يا أيها الأخوة الأكارم تندرج هذه السورة تحت ما يُسَمَّى بالتربية النفسية الاجتماعية للمؤمنين، فالله سبحانه وتعالى بعد أن آمن المؤمنون به يربِّيهم التربية النفسية والاجتماعية.

بادئ ذي بدء في صحيح البخاري قصَّة هذه الآية، أو أسباب نزول هذه الآية، كان عليه الصلاة والسلام حينما نقضت قريشٌ عهدها مع النبي صلى الله عليه وسلَّم- عهد صلح الحديبية- أزمع النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتوجَّه إلى مكَّة ليفتحها، وقد جاءت الأحداث التي تقع في عهد النبي مقصودةً لذاتها، الأحداث التي وقعت في عهد النبي لم تقع صدفةً، إنما قدَّرها الله تقديراً حكيماً، فحينما يكون الحَدَث، وتقع المشكلة، ويأتي التنزيل، ليعلِّم أصحابه الكرام الطريق القويم، فإن هذا تعليمٌ لا يُمْحى إنه راسخ، أيُّ شيءٍ تلقيه على الناس جزافاً بلا مشكلة، بلا تجربة، بلا قضية، قد يُنسى، أما حينما تلقي حقيقةً عقب مشكلةٍ، أو معاناةٍ، أو تجربةٍ فهذا هو التعليم العملي، فالله سبحانه وتعالى جعل من الأحداث التي وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلَّم أحداثاً مقصودةً لذاتها كي تكون متَّكئاً للتشريع، والتعليم، والتأديب.

أسباب نزول سورة الممتحنة :

النبي عليه الصلاة والسلام عقِب أن نقضت قريشٌ عهدها في صلح الحديبية أزمع أن يتوجَّه إلى مكَّة فاتحاً، وقد أسَرَّ بعزمه هذا إلى بعض أصحابه المُقَرَّبين ومنهم حاطب بن بلتعة، أسرَّ إليه أنه سيفتح

مكَّة، الذي حدث وقد يصعب تفسيره أن هذا الصحابي الذي كان موضع سِرِّ النبي أرسل كتاباً مع امرأةٍ مشركةٍ إلى زعماء قريش يخبرهم فيه بعزم النبي على فتح بلدهم، هذا الذي حدث، ولأن النبي عليه الصلاة والسلام كان مُسْتَجاب الدعوة، وكان من دعائه: اللهمَّ عمِّي عنهم أخبارنا. لذلك جاء الوحي النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وأخبره أن صاحبك فلاناً- حاطب بن بلتعة- قد أرسل كتاباً مع امرأةٍ مشركةٍ يُخْبِرُ فيها قريشاً أنك ستغزوهم، فما كان من النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن أُخْبِرَ من الوحي هذا الخبر أن طلب إلى عليٍّ كرَّم الله وجهه وصاحبٍ آخر أن يذهبا إلى موضعٍ بين مكَّة والمدينة اسمه الروضة، وأن يأخذا كتاباً من امرأةٍ مشركةٍ ويعودا به إلى النبي عليه الصلاة والسلام، توجَّه الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه وصاحبه الزبير- فيما أذكر- إلى موضع الرَوْضة ولقيا امرأةً تركب ناقةً، أوقفاها وأنزلاها عن ناقتها وطلبا منها الكتاب، فأنكرت، قالا: لتلقين الكتاب أو لنفعل كذا وكذا، فلمَّا رأت أنهما جادَّان في طلب الكتاب ألقت إليهما الكتاب، حملا الكتاب وأوصلاه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فُتِحَ الكتاب فإذا به: " من حاطب بن بلتعة إلى قريش، إنَّ مُحَمَّداً سيغزوكم فخذوا حذركم ".

عفو النبي عليه الصلاة والسلام عن حاطب بن بلتعة :

أيها الأخوة، هذه القصَّة فيها معاني كثيرة، بادئ ذي بدء هذه في عرف المجتمعات الإنسانية كلّها خيانةٌ عُظمى، هذه عقوبتها الإعدام في أي مجتمع، قديماً وحديثاً، إنها نقل أخبارٍ خطيرةٍ إلى العدو.

سيدنا عمر عملاق الإسلام ما كان منه إلا أن قال للنبي عليه الصلاة والسلام: " يا رسول الله دعني أضرب عُنُق هذا المنافق ". إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق استدعى حاطباً وقال: " يا حاطِبُ ما حملك على ما فعلت؟ " لمَ فعلت ما فعلت؟ فقال حاطِبُ: " والله يا رسول الله ما كفرت ولا ارتددت، و أنا لصيقٌ في قريش فأردت بهذا الكتاب أن تكون لي يدٌ عندهم أحمي بها أهلي ومالي، والله ما كفرت ولا ارتددت فاغفر لي ذلك يا رسول الله".

الذي وقع أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:" إنَّي صَدَّقته فَصَدِّقوه ولا تقولوا فيه إلا خيراً ".

أما كتَّب السيرة فقالوا: إن عمر وهو الشديد حينما نظر إلى هذا العمل رآه خيانةً عُظمى يقتضي أن يقتل صاحبه. أما النبي عليه الصلاة والسلام الرحمة المُهداة والنعمة المُزْجاة فرأى غير ذلك، رأى صحابياً شَهِدَ بدراً، فما أراد أن يهدر عمله، ولا أن يُضَيِّعه عليه، ورأى هذا العمل من زاويةٍ أخرى، رأى هذا العمل ضعفاً طارئاً أصاب حاطب، فبدل أن يسحقه أنهضه، بدل أن ينتقم منه عفا عنه، قال: "إني صدَّقته فصدِّقوه ولا تقولوا فيه إلا خيراً "، نهى أصحابه على أن يطاردوه بفعلته، منعهم أن يطاردوه، ألجمهم جميعاً عن ذلك.

ما يستفاد من هذه القصة :

1 ـ المؤمن لا يستطيع أن يتحرَّك أية حركة إلا وفق منهج الله

أيها الأخوة الكرام، هذه هي القصَّة، ماذا يُستفَاد منها؟ يُستفاد منها أن هذه الآية التي قرأتُها لكم في مطلع الدرس متعلّقةٌ بهذه القصَّة، لعلَّ خير سببٍ لنزول هذه القصَّة كما ورد في البخاري قصَّة حاطب بن بلتعة، إلا أن القاعدة الأصولية في فهم القرآن: أن العبرة لا بخصوص السبب بل بعموم اللفظ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبيّن للمؤمنين أن يكونوا ربَّانيين أولاً، إنسانيِّين ثانياً، معنى ربَّانيين ألا يستلهموا توجيهاتهم، ألا يتحرَّكوا إلا وفق ما يمليه عليهم دينهم، ومعتقدهم، وتعليمات خالقهم ومربّيهم، هذه معنى ربَّانيين، أي أن المؤمن لا يستطيع أن يتحرَّك أية حركة إلا وفق منهج الله، إنه ربَّاني.

2 ـ على المؤمن أن يكون إنسانياً يبني كل علاقاته وفق مبدأ الإيمان :

الشيء الثاني: أن يكونوا إنسانيّين، بمعنى أن الناس جميعاً أبيضهم وأسودهم، وأحمرهم وأصفرهم، غنيّهم وفقيرهم، عربيّهم وأعجمهم، كلُّهم عند الله سواسية، هناك عاملٌ واحدٌ يميِّز بينهم وهو الإيمان، لذلك كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ألغى كل العصبيَّات؛ العصبيّة إلى الأهل، العصبيّة إلى العشيرة، العصبيّة إلى القبيلة، إلى الأرض، إلى المكان، إلى الزمان، كل أنواع العصبيّة أُهْدِرَت في هذه الآية:

((الناس رجلان بَرٌّ تقي كريم على الله عزَّ وجل، وفاجر شقي هيِّن على الله))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

المؤمن من خلال هذه القصَّة يجب أن يكون ربَّانياً لا يتحرَّك إلا وفق أمر الله عزَّ وجل ونهيه، وأن يكون إنسانياً يبني كل علاقاته بين البشر لا على أساس عصبيّةٍ، ولا قرابةٍ، ولا مصلحةٍ، ولا لونٍ، ولا عرقٍ، ولا جنسٍ، ولا طائفةٍ، ولا مِلّةٍ، لا يبني علاقاته إلا وفق مبدأ الإيمان، فالناس على اختلاف مللهم ونحَلِهم وانتماءاتهم، وأجناسهم وأعراقهم وألوانهم، وثقافاتهم، وأصلهم، وخلفيّتهم إنما هم رجلان، رجلٌ عرف الله وعرف منهجه، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فاشتقَّ من الله الكمال، فسعِد بقربه في الدنيا والآخرة، ورجلٌ لم يعرف الله، لم يعرف منهجه، تفلَّت حكماً من منهجه، أساء إلى خلقه، شقي في الدنيا والآخرة، إن لم نُقِمْ هذه المقياس لن يرضى الله عنَّا، أنا جدُّ كل تقي ولو كان عبداً حبشياً:

((سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

((نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه))

[كنز العمال عن عمر]

سيدنا الصديق وضع يده تحت إبط بلالٍ رضي الله عنه وقال: "هذا أخي حقّاً". حينما قال أحدهم لصحابيٍّ ملوّن يا بن السوداء، قال عليه الصلاة والسلام:

((إنك امرؤٌ فيك جاهلية))

[متفق عليه عن المَعْرُور بْن سُوَيْدٍ]

المؤمن ربَّانيٌّ إنساني :

فأول نقطة في هذه السورة أن المؤمن ربَّانيٌّ إنساني، ربّاني لا يتحرَّك إلا وفق منهج الله والأمر والنهي، لا توجد عنده حركة من عنده، من شهوته، أو رغبته، أو غريزته، أو مصلحته، أو انتماءاته، أو عصبيّته، أو انحيازه هو الذي يُملي عليه حركته، لا يتحرَّك إلا وفق الأمر والنهي.

أما أنه إنساني، فالناس عنده رجلان، مؤمنٌ عرف الله يمحضه الود والتقدير ولو كان بعيداً قرابةً، وإنسانٌ آخر ما عرف الله لا يمكن أن يقيم معه مودَّةً على حسابِ دينه.

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ)

[سورة الممتحنة: 8]

أن يقيم مودَّة على حساب دينه فإن هذا لا يكون أبداً، يقيم مودَّة لعلَّه يتقرَّب إلى الله، يستجلبه بها، أما أن يقيم مودَّةً على حساب دينه فهذا لا يفعله إطلاقاً.

الله تعالى يُخاطِب عامَّة الناس بأصول الدين و يخاطب المؤمنين بفروع الدين :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أليس في هذا الخِطاب تحبُّباً إلى المؤمنين؟ يا من عرفتموني، يا من آمنتم بي ينبغي أن تفعلوا كذا وكذا، لأن الله كما تعلمون يُخاطِب عامَّة الناس بأصول الدين، بينما يخاطب المؤمنين بفروع الدين، وهذه السورة فيها تربيةٌ اجتماعيةٌ ونفسيّةٌ للمؤمنين، أنتم بعد أن آمنتم لا ينبغي لكم أن تقيموا علاقاتٍ حميمةً مع غير المؤمنين، وهذا الدرس لنا، إنني قلت في بادئ الدرس: العبرة لا بخصوص السبب بل بعموم اللفظ، وإن كانت هذه الآيات نزلت في سيدنا حاطِب إلا أن الله سبحانه وتعالى أرادها قانوناً.

فأنت الآن بعد أن آمنت بالله كيف تُقيم علاقاتك مع الناس؟ ينبغي أن تقيم علاقاتك مع الناس وفق مبدأ الإيمان، يمكن أن تقيم علاقة عملٍ مع إنسانٍ كافر، أما أن تقيم علاقة مودَّةٍ، علاقةً حميمةً مع إنسانٍ لا يعتقد بما تعتقد، يكفر بما تؤمن، يحتقر ما تقدِّس، فهذا لا يكون.

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

[سورة المائدة: 51]

العلم والعمل وحْدَهُما هما اللذان يرفعان الإنسان بين بني البشر :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي)

قد تقول: إنه أخٌ لي، إنه والدي، إنه صديقي، إنه جاري، كما قلت قبل قليل: المؤمن يبني كل علاقاته على مبدأين، هو ربَّاني يتحرَّك وفق توجيهات الله ورسوله، إنسانيّ الناس كلُّهم عنده سواء، يتمايّزون بالإيمان فقط، لذلك القيم التي يقدِّسها الناس، قيمة الغنى مقدَّسة عند الناس، الذكاء، القوّة، هذه القيم أهدرها القرآن الكريم، ما اعتمدها أبداً، ما اعتمدها في كل كتابه، ما اعتمد إلا قيمتين: قيمة الإيمان، وقيمة العمل، قال:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: 11]

وقال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: 132]

العلم والعمل وحْدَهُما هما اللذان يرفعان الإنسان بين بني البشر..

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ)

دققوا في هذا الكلام الرقيق، أي هذا الذي تمحضه ودَّك هو عدّو لك يا عبدي، وهو في الوقت نفسه عدّوٌ لي، فكيف تتخذ عدّوك الحقيقي وعدو الله صديقاً؟! كيف تمحضه ودَّك؟!

الولاء و البراء :

نحن جميعاً بعد ألف وخمسمئة عام في أمسِّ الحاجة إلى هذه الآية، أنت مؤمن ينبغي أن تحبَّ المؤمنين، ينبغي أن تواليهم، ينبغي أن تمحضهم ودَّك، ومحبَّتك، ونصيحتك، وإكرامك، أما أن تضع كل خبراتك في خدمة أهل الكفر، أي أنَّ هذا الذي يذهب إلى بلدٍ غربي ويتجنَّس ويعطي علمه لأعداء المسلمين ألا يفعل هذا؟ هذا قرآن، جُعِل قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة لأنه قانون لأي إنسان يوالي أهل الكفر، يحبُّهم، يعظِّمهم، يُقْدِرُهُمْ، يمحضهم علمه، يمحضهم نصيحته، يمحضهم إخلاصه، ويدير ظهره للمسلمين ولا يعبأ بهم، هذا ممن تنطبق عليه هذه الآية:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ)

الحمية الاجتماعية من لوازم الإيمان :

طبعاً ذكرت لكم قبل ذلك أن علاقات العمل لا غُبار عليها، كل إنسان أحياناً يشتري من إنسان غير مسلم، وغير مؤمن، علاقات العمل مستثناة، أما علاقات الولاء، علاقات الحُب، العلاقات الحميمة فإذا كانت بين المؤمنين وغير المؤمنين جَرَّت على المؤمن وبالاً كبيراً، فمن لوازم الإيمان الحمية الاجتماعية، وبصراحةٍ بالغة الإنسان إذا عرف الله، واصطلح معه، وتاب إليه، وسلك طريق الإيمان، لابدَّ له من أن يغيّر كل أصدقائه المتفلّتين، إذا بقي على صداقاتهم، وعلى لقاءاته معهم، وعلى سهراتهم إلى الفجر، لا يمكن أن يبقى على حاله، يجرُّوه، لابدَّ من أن تبحث عن أصدقاء جدد، ليس معنى هذا أن الذين كانوا أصدقاءك من قبل أن تُهملهم، عليك أن تقيم علاقاتٍ معهم بالقدر الذي تطمع في هدايتهم فقط، لو أنك أثَّرت فيهم كن معهم، فأنا أقول لكم: الأصدقاء السابقون، أصدقاء الجَهْل، أصدقاء ما قبل الإيمان، أصدقاء الجاهلية هؤلاء يحكمهم هذا القانون: قانون شَدِّ الحبل، إذا كان بإمكانك أن تشدَّهم إليك فاجلس معهم، لأن الله يسأل العبد عن صحبة ساعة، أما إذا شدُّوك إليهم فابتعد عنهم، هذا المقياس، إن جلست معهم وتمكَّنت أن تأخذ بيدهم إلى الله فاجلس معهم، لان الله سيسألك عنهم: أين الوفاء معهم؟ أما إذا جلست معهم ورأيت أنهم سيسحبونك إليهم عندئذٍ ابتعد عنهم، ولابدَّ من أن تبحث عن إخوةٍ جُدد من المؤمنين، المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحةٌ متوادّون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششةٌ متحاسدون ولو اقتربت منازلهم.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ)

ألا تشعرون أن في هذا الخطاب رقَّةً ما بعدها رقَّة؟ أي يا عبدي يا من آمنت بي ألم تؤمن بي؟ كيف تُبيح لنفسك أن تقيم علاقةً حميمةً مع عدوِّك وعدوِّي في وقتٍ واحد؟

المؤمن الغيّور على أمَّته لا يُظهر لغير المؤمنين إلا الوجه المشرق :

بالمناسبة حينما يأتي قوله تعالى:

(عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ)

أي أنت لا تستطيع أن تعادي إلا من كان عدواً لله وعدوّك في وقتٍ واحد، أما أن تعادي ولياً لله فأنت في خندقٍ آخر، في خندقٍ معادٍ للدين.

(تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)

قال بعض المفسِّرين: " تلقون إليهم أخبار المسلمين، أماكن ضعفهم، حالاتهم ". فالمؤمن الغيّور على أمَّته لا يُظهر لغير المؤمنين إلا الوجه المشرق، إذا كان هناك أغلاط هذه ينبغي أن يسترها لأن في هذا إضعافاً للمؤمنين..

(تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)

كأن الله يعجب، هذا الذي هو عدوٌ لك حقيقةً وعدوي في وقتٍ واحد تلقي إليه بالأخبار الخطيرة توددا إليه؟ الباء باء السببية.

(تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ)

أخبار المسلمين بسبب التودد إليهم، هذا المعنى الدقيق.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ)

لا تصاحب إلا مؤمناً :

لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما تراه، لا تصاحب إنساناً لا يعبأ بدينك، لا يعبأ بمقدّساتك، يسخر من الدين، يطعن بالمؤمنين ويسيء الظن بهم، هذا إن صحبته ضاقت نفسك، واسوّد العالم في نظرك، وشعرت أنك ضائعٌ عنده، دققوا في هذا القول: لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له، إن صاحبت مؤمناً خرجت من عنده وأنت سعيد، كأن الملائكة قد حفَّت هذا المجلس، شعرت كأن الله سبحانه وتعالى يرضى عن هذا المجلس، أما إذا دخلت على غنيٍّ فاسق، " من دخل على الأغنياء- طبعاً غير المؤمنين- خرج من عندهم وهو على الله ساخط ". لأن حديثهم كلَّه في الدنيا، وفي المال، وفي القيم المادية، وقد يستصغرونك إن كان مالك قليلاً، أما إذا دخلت على المؤمنين فيستعظمون إيمانك، يقّدرون فيك طاعتك لله، علمك الغزير، فإذا أردت أن تسعد لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي، وهذا حديث رسول الله:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

بربكم ألا تعلمون علم اليقين أنكم إذا سهرتم مع أناسٍ متفلّتين، ضائعين، شاردين، شعرتم بضيقٍ لا يوصف؟ أنت في وادٍ وهم في واد، ما تقدّسه لا يقدّسونه، ما تعظّمه لا يعظّمونه، ما تخافه لا يخافونه، ما تحتقره يفعلونه، ما تشمئز منه يبجِّلونه، الكلام الذي إن سمعته اصطبغ وجهك باللون الأحمر يلقونه جزافاً بلا حياء ولا خجل، إن أرادوا أن يتفكَّهوا في المجلس تفكَّهوا بالغيبة، إن أرادوا أن يمزحوا مزحوا بالجنس، إن أرادوا أن يلغموا الكلمات حمَّلوها معاني يستحي منها الإنسان، لا تجلس مع هؤلاء لأنك أرقى منهم، أنت أقدس وأرقى من أن تجلس مع هؤلاء.

المؤمن الصادق بعد أن يصطلح مع الله يجْرُدُ كل علاقاته و أصدقائه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)

هذه الآية نحن في أمسِّ الحاجة إليها، فمؤمن يصاحب أهل الدنيا غير المؤمنين، غير المستقيمين، غير المصلين، المتفلتين، المجاهرين بمعصيتهم، يصحبهم بعلاقاتٍ حميمة لابدَّ من أن يؤثّروا فيه، وأن يجرُّوه إلى طريقهم وانحرافهم، هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء، الولاية فيها حُب، فيها إكبار، فيها تعظيم، أحياناً يكون الواحد في عمله له شخص يحترمه لذكائه لكنه لا دين له، فهذه العلاقات الجاهلية التي قبل الإسلام ينبغي أن تُقَيّم تقييماً جديداً.

المؤمن الصادق أخواننا الكرام بعد أن اصطلح مع الله هناك جرد لكل علاقاته، ولكل أصدقائه، يجري عملية مسح دقيقة جداً، هذا الإنسان أصِلُهُ دون أن أقيم معه علاقةً حميمة، هذا الإنسان أقطعه لأنه يهاجم القِيَم الدينية، هذا الإنسان أزوره في الشهر مرَّةً واحدةً، يجب أن تقيم علاقاتٍ جديدة في ضوء إيمانك لأنك ربَّانيٌّ إنساني، ربَّاني لا تتحرَّك إلا وفق أمر الله ونهيه، إنساني الناس كلهم عندك سواسية، لا فرق بينهم إلا بالتقوى.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

[سورة الحجرات: 13]

مثلاً- ذكرت هذا كثيراً - عندما جاء عمير بن وهب ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام، سقى سيفه سُمَّاً، وركب ناقته وتوجَّه إلى المدينة، هو مغطًّى بأنه جاء يطلب فداء أخيه أو ابنه من الأسر، عندما وصل إلى المدينة رآه عمر بن الخطاب، فلا يوجد ترحيب؛ أهلاً وسهلاً، أين أنت؟ اشتقنا إليك، الآن تجد الناس مجاملات غير معقولة، عداوات غير معقولة، مجاملات غير معقولة، هذا الوجه المزدوج، قال: " هذا عدو الله جاء يريد شرّاً "، قيّده بحمَّالة سيفه وساقه إلى النبي، دخل على النبي فقال النبي: يا عمر أطلقه، فأطلقه، ابتعدْ عنه، فابتعد عنه، يا عمير ادنُ مني، فدنا منه، ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت أفدي ابني، قال له: وهذه السيف التي على عاتقك؟ قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر؟ قال: ألم تقل لصفوان: لولا ديون ركبتني لا أطيق سدادها، ولولا أطفالٌ صغار أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، فوقف على قدميه وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله وأنت رسوله. وأسلم.

موطن الشاهد أن عمر يقول: " دخل عميرٌ على رسول الله والخنزير أحبُّ إلي منه، وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أولادي ". الإسلام لا توجد فيه عداوة، المسلم يكره عمل الكافر فقط، أما لو

أنه عاد إلى الله لعاد إلى قلبه، هذا الإسلام، هذه عداوة مؤقّتة، ما دام مُقيماً على المعصية، ما دام يعادي الدين، يحتقر الدين، يجب أن أريه قسوةً..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

الابتعاد عن نقل الأخبار الخطيرة عن المسلمين للمشركين :

(تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ)

الأخبار الخطيرة عن المسلمين بسبب التودد إليهم!!

(وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ)

فهذا كفرهم، فما عملهم؟..

(يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ)

ألم يخرجوكم من مكَّة؟ ألم يعذّبوكم؟ ألم ينكّلوا بكم؟ ألم يأتمروا على قتلكم؟ ألم يأتمروا على قتل نبيّكم؟ عجيب تمحض ودّك لهذا الإنسان، تعطيه معلومات خطيرة عن أمَّتك من أجل أن تحمي مالك وأولادك، أيُعْقَلُ هذا؟ خطاب فيه رقَّة بالغة، ما ذنبكم؟ لماذا أخرجوكم؟ هل اقترفتم جريمةً؟ هل اغتصبتم أموالهم؟ لا.. لسببٍ لا يصدَّق، لأنكم آمنتم بالله فقط..

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

[سورة البروج:8]

من ضلّ سواء السبيل فقد وقع في خطر عظيم :

هنا:

(يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ)

بسبب..

(أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ)

هل هذا ذنب؟ فلماذا أخرج قريشٌ النبي وأصحابه من مكَّة؟ لماذا عذَّبوا عمَّار بن ياسر؟ هل ارتكب جريمة؟ لا، هل سرق؟ لا.. لأنه آمن بالله وحده، لماذا عذَّبوا بلالاً؟ وضعوا عليه الصخر وهو يقول: "أحدٌ أحد "، ماذا فعل؟ إنه آمن بالله فقط، وهذا إلى يوم القيامة، أحياناً لا ذنب لك إلا لأنك آمنت بالله فقط، ذنبك الوحيد أنك آمنت بالله ربَّاً، وبمحمّدٍ نبيّاً، وبهذا الإسلام منهجاً، هذا الذنب..

(أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

أي في خطر، خطر يصيب المؤمن أن يضلَّ سواء السبيل!

أكبر عقاب أن يضل الإنسان عن هدفه :

من الممكن أن تكون ذاهباً إلى حلب فأكبر خطر في هذا الذهاب أن تتجه إلى مكان آخر، هدفك حلب مثلاً، القبض من حلب، العلاقة في حلب، خرجت عن خط حلب إلى خطٍّ صحراوي وسرت فيه مئات الكيلو مترات في ضلال بعيد، أو ضلالٍ مبين، هذا أكبر عقاب أن تضل عن هدفك..

(وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

أي أنه خرج عن السير الصحيح، خرج عن الطريق المفضي إلى سعادته في الدنيا والآخرة، لو أن هذه الحادثة وقعت ولن تقع مرَّةً ثانية لما ذكرها الله في القرآن الكريم، بل ما ذكر هذه الآيات ذات الطابع العام المنطلقة من حادثٍ خاص إلا لأن هذا يمكن أن يقع في كل زمانٍ ومكان، يجب أن تحدِّد انتماءك، أنا مسلم، أنا مؤمن أُقدِّم عملاً متقناً للناس، أما وقت فراغي فلا أمضيه إلا مع من هم على شاكلتي، أقدِّم عملاً متقناً للناس من أجل أن أكسب رزقي، أما وقت فراغي فهذا لا أُضَيِّعُهُ إلا مع من هم على شاكلتي، لذلك جلوسك مع المؤمنين مسعدٌ لك ولهم، أن تنصح المؤمنين هذا يسعدك ويسعدهم، أما أن تنضمَّ إلى أعداء المؤمنين، أما أن تستمرئ الحديث معهم، الجلوس معهم، فإن هذا يشقيك وإيَّاهم.

على المؤمن أن يكون مع المؤمنين :

لكن ذكرت لكم في بادئ الدرس: علاقاتك مع غير المؤمنين من هم من أصدقاء الجاهلية يحكمها قانون شدِّ الحبل، إن كنت تستطيع أن تشدَّهم إليك صاحبهم، أما إن شَدُّوك إليهم فابتعد عنهم، هذه القاعدة..

((فمن هوي الكفر فهو مع الكفرة ولا ينفعه عمله شيئاً))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

فأنت لك ولاء، أنت مع من؟ أنت مؤمن ينبغي أن تكون مع المؤمنين، يوجد أناس يقول لك: إنه مرن، أي إنه منافق، بعض الصفات التي لا تليق تُعْزَى الى بعض المؤمنين، كقولهم: " أرْضِهم ما دمت في أرضهم ".. " دارهم ما دمت في دارهم ".. إنه يرضي جميع الناس، ومن استطاع أن يرضي الناس جميعاً فهو منافق، أنت لك هويَّة وهويّتك مؤمن، لا يمكن أن تجلس على مائدة يُشرَب فيها الخمر، سكوتك عن هذا الأمر احتقارٌ لمبدئك، لا يمكن أن تصاحب رجلاً يتَّهم دينك بأنه دينٌ خرافي، دينٌ

ضبابي، دينٌ غيبي، هذا العصر عصر علم، الدين انتهى، إنسان يعتقد هذا الاعتقاد وتمحضه ودَّك؟ وتحترمه؟ وتقدِّم له آيات الاحترام؟ هذا دليل ضعف إيمانك، أنت مؤمن، ففي الوقت الذي تقف كالطود شامخاً أمام أعداء الدين أنت ألين بالمؤمنين من أنفسهم.

على المؤمن أن يقيم العلاقات الحميمة مع المؤمنين لا مع الكافرين :

سيدنا عمر عندما تولَّى الخلافة بعضهم تخوَّفوا من ولايته لأنه كان شديداً، فقال رضي الله عنه: "إنكم قد تخوفتم من شدَّتي، كنت مع رسول الله سيفه وخادمه وجلواذه، كنت سيفه المسلول فكان يغمدني إذا شاء، توفي عني وهو عني راض، والحمد لله على هذا كثيراً، ثم كنت خادم أبي بكرٍ وجلواذه وسيفه المسلول فكان يغمدني إذا شاء، توفي عني وهو عني راض وأنا به أسعد، ثم آلت الأمور إلي، قال: اعلموا أن هذه الشدَّة قد أُضْعِفَت وإنما تكون على أهل البغي والعدوان، أما أهل العفاف والإيمان فأنا ألينُ لهم من أنفسهم ".

والله عزَّ وجل وصف المؤمنين فقال:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة : 54]

فكأن الله أراد من هذه السورة أن يربِّي المؤمنين، أي عليكم أن تعلنوا ولاءكم للمؤمنين، أن تقيموا العلاقات الحميمة مع المؤمنين لا مع الكافرين، أما عندما ينفتح الإنسان انفتاحاً عشوائياً، ويفتح قلبه لكل إنسان من دون تمحيص، فإنه قد يقع في شرِّ عمله..

(إِنْ يَثْقَفُوكُمْ)

ثَقِفَه أي لقيه..

(إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً)

أي يكنّون لكم العداوة والبغضاء، لن يرضوا عنكم حتى تتبعوا ملّتهم..

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى)

[سورة البقرة : 120]

لن يرضى عنك الطرف الآخر إلا إذا اتبعت ملّتهم، وينبغي أنت بالمقابل ألا ترضى عنهم إلا إذا اتبعوك، لن يرضوا عنك إلا إذا اتبعتهم، ولن ترضى عنهم إلا إذا اتبعوك.

الكفار إن لم ينالوا المؤمن بالأذى سلقوه بألسنةٍ حِداد بلا سبب :

(إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ)

شيئان، الشيء الأول أنهم ينطوون على عِداءٍ لكم شديد، الشيء الثاني أنهم يتحرَّكون لإيذائكم، ليتهم قبلوا أن يعادوكم بقلوبهم، إضافةً إلى العِداء المستحكم في قلوبهم تحرَّكوا لإيذائكم، يوجد عِداء قلبي وتوجد حركة عدوانية، قال:

(إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ)

كلام دقيق جداً، إن لم يستطيعوا أن ينالوكم بالأذى سلقوكم بألسنةٍ حِداد بلا سبب، بلا منهج، بلا دليل، بلا برهان، موقف عدائي وقح، موقف عدائي أرعن، موقف عدائي بلا دليل، بلا مبرّر، وهذه معاناة المؤمنين في كل زمانٍ ومكان، القرآن الكريم يصف حالة نموذجية متكرّرة؛ مؤمن وغير مؤمن، المؤمن صادق وهذا يكذب، المؤمن منصف وهذا لا يُنصِف، المؤمن ينفتح وهذا لا ينفتح – مغلق-، المؤمن يريد الخير وهذا يريد الشر، المؤمن مسالم وهذا معتد، لذلك من السذاجة وضيق الأفق أن تضع ثقتك في غير محلّها، أن تضع ثقتك بغير مؤمن ثم تفاجأ بعد حين أنه خانك، وأنه طعن بك، وأنه تَنَكَّرَ لك، وأنه قلب لك ظهر المِجَنْ، وأنه لم يكن في المستوى المطلوب، شيء طبيعي جداً، ماذا تنتظر من إنسان لا يعرف الله؟ الإنسان عندما لا يكون شاكراً لمن خلقه أيشكر عباده؟ إنسان لا خير فيه لأمِّه وأبيه أيكون لك فيه خير؟ مستحيل، وأيضاً من السذاجة وضيق الأفق والبساطة أن تمحض ودَّك لإنسانٍ يعاديك، ويتمنَّى لك السوء، ويتحرَّك للإيقاع بك، فإن لم يستطع سلقك بلسانٍ حاد بحقٍ وبغير حق، بشيءٍ وقع وبشيء لم يقع، بشيء معقول وبشيء غير معقول، هذا هو وضع غير المؤمن..

(إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً)

ينطوون على عداوةٍ كبيرة..

(وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ)

معتدين، فإن لم يستطيعوا..

(وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)

لا ترتاح نفوسهم إلا إذا كنتم على شاكلتهم، إلا إذا كفرتم بما جاءكم، إلا إذا داهنتموهم..

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[سورة القلم : 9]

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

ثم ربنا عزَّ وجل يبين لهؤلاء المؤمنين وهو يربيهم..

(لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

الآن ربنا سبحانه وتعالى يبيِّن للمؤمنين أن هؤلاء الذين ألقيتم إليهم بالمعلومات الخطيرة بسبب التودد إليهم هم أرحامكم، هم أولادكم، هم أخوانكم، هؤلاء لن ينفعوكم يوم القيامة.. السيدة عائشة تسأل النبي عليه الصلاة والسلام: أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة؟ قال: نعم يا أم المؤمنين إلا في ثلاثة مواضع: عند الصراط، وإذا الصُحِفُ نُشِرت، وفي موطن ثالث- لا أذكره الآن- وفيما سوى ذلك قد تقع عين الأم على ابنها فتقول له: يا ولدي جعلت لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحجري وطاءً، فهل من حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم؟ يقول هذا الابن الذي وقعت عليه عين أمِّه: ليتني أستطيع ذلك يا أماه إنما أشكو مما أنتِ منه تشكين، لا أم، ولا أب، ولا أخ، ولا صديق، ولا زوجة، لذلك:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

[سورة المؤمنين: 101]

قدِّم كل الخدمات لمن تعرف ولأهلك الأقربين، أما أن يحملوك على معصية الله فإنهم لن ينفعوك، لن ينفعوك أبداً.. أم سيدنا سعد بن أبي وقَّاص قالت له: " يا بني لا آكل الطعام حتى تكفر بمحمد "، قال لها: " يا أمي لو أن لك مئة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد، فكُلي إن شئتِ أو لا تأكلي ".. هذه قضايا غير خاضعةٍ للمناقشة، قدِّم لها كل شيء إلا أن تحملك على معصية، لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق..

(لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

إرضاء الأم و الأب و الزوجة ينبغي ألا يحمل الإنسان على معصية الله :

الآن أُناسٌ كثيرون يأكلون المال الحرام إرضاءً لزوجاتهم وأولادهم، سألوا شاباً بعد أن مات والده وخَلَّفَ له أموالاً طائلة، إلى أين أنت ذاهب؟ قال بعبارةٍ سوقيةٍ: " أنا ذاهبٌ لأشرب الخمر على روح والدي "، إن روح الميت ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلَّ وحرُم فأنفقته في حِلِّه وفي غير حلِّه، فالهناء لكم والتبعة علي.

هذه آية دقيقة..

(لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ)

من هنا قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

[سورة التغابن: 14]

(لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أنت تتخذ حجَّة، الآن الإنسان يغش في بيعه وشرائه ليكسب مالاً وفيراً ليرضي بها زوجته، أما الصحابية الجليلة فكانت تقول لزوجها: "يا فلان اتق الله فينا، نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام". لا يحملنَّك إرضاء زوجتك، ولا أمك، ولا أبيك، ولا إخوتك، ولا أولادك على معصية الله، لأنهم إن فعلت هذا لن ينفعوك أبداً، تُحاسب وحدك..

موقف سيدنا إبراهيم من قومه :

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)

ما دمتم هكذا فأنتم أعداؤنا إلى أن تؤمنوا بالله وحده..

(إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

سيدنا إبراهيم أيضاً وقف هذا الموقف من قومه..

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

[سورة الشعراء: 75-80]

هذا الكلام لا يعني أن تبدأ أنت بالعداء، لا أبداً، أما إذا دُفعت إلى معصية يجب أن تقول: لا بملء فمك، وليكن ما يكن، ما دام لا يوجد عدوان..

(لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

هذا شيء أساسي، أما حينما يُعْتَدَى عليك، يُعتدى على دينك فقل: لا بملء فمك، ولا تخشى في الله لومة لائم، ولا تعبأ بكل ما سيكون لأن الله معك.

استغفار إبراهيم لأبيه بسبب موعدةٍ وعدها إياه :

سيدنا إبراهيم وقف موقفاً إيمانياً من أبيه..

(وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أما استغفار إبراهيم لأبيه فبسبب موعدةٍ وعدها إياه، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه، إذا الإنسان قرَّب خطوة وفيه أمل تحرَّكْ نحوه خطوات، أما إذا لم يكن فيه أمل فأنت في مكانك وهو في مكانه..

(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نقف عند هذه الآية الخطيرة:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الممتحنة 060 - الدرس (2-5): تفسير الآيتان 4-5 الولاء و البراء.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-08-02

بسم الله الرحمن الرحيم

من أخصّ خصائص المؤمن أن يوالي أهل الإيمان و يتبرَّأ من أهل الكفر والعصيان :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الممتحنة، ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أيها الأخوة الكرام، الآية الرابعة في سورة الممتحنة تشيرُ إلى موضوعٍ خطيرٍ جداً في حياة المؤمن، موضوع الولاء والبراء، من أخص خصائص المؤمن أن يوالي أهل الإيمان وأن يتبرَّأ من أهل الكفر والعصيان، ما لم يوال وما لم يتبرَّأ تتداخل الأفكار، تتداخل المشارب، يختلط السلوك، دون أن يشعر يرى نفسه مع أهل الدنيا، مع المتفلّتين، فلابد من الوقاية، نبعٌ صافٍ، عذبٌ زلال، إن أردنا أن نحافظ على صفائه لا نسمح بالمصبات عليه، فإذا سمحنا بالمصبات عليه كانت مياهه مالحةً سوداء.

الولاء و البراء :

موضوع البراء والولاء، المؤمن يوالي أهل الإيمان، لا يقيم علاقةً حميمةً إلا مع أهل الإيمان، لا يرتاح إلا لأهل الإيمان، لا يتعامل إلا مع أهل الإيمان، لا يأكل طعامك إلا تقي، لا تُصاحب إلا مؤمناً، لأنك بأخيك تتقوى، عن طريق أخيك تزداد إيماناً، تزداد اطمئناناً، تزداد تألُّقاً، يطمئنك وتطمئنه، يشجعك وتشجعه، يدعمك وتدعمه، يُصَبِّرُكَ وتُصَبِّرُه، يكشف لك بعض الحقائق وتكشف له، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة:2]

لو أن مؤمناً صاحب أهل العِصيان، لمال إلى الدنيا، كره طاعة الله، استمرأ المعصية، غفل عن ذكر الله، شيئاً فشيئاً هو معهم وعلى شاكلتهم، يشقى بشقائهم، وينحرف بانحرافهم، ويقلق بقلقهم، فلذلك المؤمن لا يوالي إلا مؤمناً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ)

[سورة المجادلة: 14]

من صالح المؤمن أن يكون مع المؤمنين :

هنا في هذه الآية:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

[سورة الممتحنة: 6]

الأسوة هي القُدوة، هذه الأسوة في أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

(فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ)

[سورة الممتحنة: 6]

فنحن ما علاقتنا بهذه الآية؟ الإنسان إذا صاحب المؤمنين اقتبس من علمهم، إذا صاحب المؤمنين اقتبس من أخلاقهم، إذا صاحب المؤمنين قَرَّبوه إلى الله عزَّ وجل، حَسَّنوا له الحسن، قَبَّحوا له القبيح، شجَّعوه على الاقتراب من الجنة، أبعدوه عن الناس، نوَّروا عقله، طمأنوا قلبه، أعانوه على طاعة الله، ثَبَّطوا عزيمته على معصية الله، فلذلك من صالحك كمؤمن أن تكون مع المؤمنين، والدليل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

أمر إلهي، وكل أمرٍ في القرآن الكريم ما لم تكن قرينةٌ على عدم الوجوب هو واجب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

الحمية الاجتماعية من ألزم لوازم المؤمن :

أما لو جلست في أماكن أهل الفِسق والفجور، في متنزَّهاتهم، في مقاصفهم، لو قبلت سلوكهم، لو عذرتهم فيما هم فيه، لو أقمت علاقاتٍ حميمةً معهم، لو سافرت معهم، لو تعاملت معهم تعاملاً اندماجياً، لو شاركتهم، لرأيت نفسك شيئاً فشيئاً تميلُ إليهم، وشيئاً فشيئاً تبتعد عن دينك، لأن هناك نقطة دقيقة جداً، أنت نقطة هنا مكان وهنا مكان، فكلما اقتربت من هذه النقطة ابتعدت حكماً عن هذه النقطة، كلما اقتربت من أهل الفسق والفجور ابتعدت حكماً عن أهل الإيمان، كلما اقتربت من المعصية ابتعدت عن الطاعة، فلذلك من خصائص الإيمان، من ألزم لوازم المؤمن أن يوالي المؤمنين، وأن يبتعد عن أهل الكفر والفسوق.

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا)

[سورة الكهف: 16]

أي آوي إلى بيت الله، آوي إلى بيتك أحياناً، ابتعد عن مواطن الفِتَن، لا تصاحب إلا مؤمناً، لو صاحبت إنساناً متفلتاً لحدَّثك عن مغامراته وعن انحرافاته، ولعلك في ساعة ضعفٍ تتمنى أن تكون مكانه، لعلك في ساعة غفلةٍ تلتمس العُذْرَ بأن تكون معه، فلذلك الحمية الاجتماعية من ألزم لوازم المؤمن، هذا موضوعٌ فصَّل فيه العلماء اسمه: الولاء والبراء، أن توالي أهل الإيمان، وأن تتبرأ من أهل الكفر والعصيان.

خصومة المؤمن مع الكافر خصومة عقيدة و انحراف فقط :

أيها الأخوة الكرام، سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء، أنت في الصلاة تقول: اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آل سيدنا محمد كما صلَّيت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، الله عزَّ وجل جعل هذا النبي العظيم قدوةً لنا قال:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ)

لكن أيها الأخوة، هناك نقطة دقيقة جداً: لا يمكن أن تكره الكافر والعاصي والفاجر لذاته، إنما تكرهه لعمله، والدليل أنه في اللحظة التي يتوب إلى الله ويصطلح معه هو أقرب الناس إليك، إن كانت هناك عداوةٌ، عداوة عقيدة، عداوة انحراف لا عداوةٌ شخصية، لأن المؤمن حينما يصطلح خصمه المنحرف مع الله يصبح أقرب الناس إليه.

ذكرت في الدرس الماضي أن عمر بن الخطاب الخليفة العظيم، الصحابي الجليل، عملاق الإسلام لما رأى عمير بن وهب متوشحاً سيفه قال: هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً، قيَّده بحمالة سيفه، وساقه إلى النبي وقال: " هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً "- القصة تعرفونها وذكرتها كثيراً- يقول عمر: دخل عمير على رسول الله والخنزير أحبّ إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أولادي "، لا توجد في الإسلام عداوة دائماً، هناك عداوة مؤقَّتة، هناك عداوة أساسها الانحراف، أساسها الكفر، أساسها التقصير، فلذلك:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ)

لا تصاحب من لا ينهضك إلى الله حاله ولا يدلُّك على الله مقاله :

ليس شرطاً أن تقول لمن حولك من العصاة، والتائهين، والشاردين، والمنحرفين، والذي لا يصلون، ولا يأتمرون بأمر، ولا ينتهون عن نهي، ليس شرطاً أن تقول هذا الكلام ولكن انسحب، ابتعد عن

الفجور، عن أماكن الفجور، عمن يفجرون، عن المنحرفين، ابتعد واسلم بدينك، نحن في أمَسِّ الحاجة إلى حميةٍ اجتماعية من أجل أن نحافظ على سلامة عقيدتنا، وعلى صفائنا، وعلى استقامتنا، يجب أن تقيم علاقةً مع المؤمنين، يجب أن تصحب المؤمنين.

فكل أخ من أخواننا الكرام في جاهليته قبل أن يهتدي إلى الله، له أصدقاء، له معارف، هؤلاء إن استطاع أن يؤثر فيهم ليبقى معهم، ذكرت في الدرس الماضي أن الضابط في هذا الأمر لعبة شدّ الحبل، إن أمكنك أن تشدَّهُم إليك ابقَ معهم وخذ بيدهم إلى الله واحداً واحداً، لأن الله يسأل العبد عن صحبة ساعة، أما إن شعرت أنهم أقوى منك ويمكن أن يشدُّوك إليهم فعندئذٍ ابتعد عنهم ولُذ بالمؤمنين، ولا تصاحب من لا ينهضك إلى الله حاله، ولا يدلُّك على الله مقاله.

((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم عن عمر]

حرص المؤمن على مجالس العلم لأنها مجالس الرحمة :

أخوتنا الكرام، الإنسان حينما يأتي بيتاً من بيوت الله، يأتي بنية صافية، بنية أن يفتح الله عليه، بنية أن يرحمه، بنية أن يطمئنه، أن يثبِّته، أن ينوِّرَ قلبه، أن يزداد علماً، أن يزداد قرباً، إذا أتيت بيتاً من بيوت الله، وحينما دخلت هذا البيت قلت:

((اللَّهمَّ افْتح لي أبواب رحمتك))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي حميد وأبي أسيد]

فإن الله سبحانه وتعالى يستجيب لك، يطمئنك، يقول عليه الصلاة والسلام حينما سأله الصدِّيق رضي الله عنه ومعه حنظلة، سيدنا حنظلة صحابيٌ جليل رآه الصديق يبكي في الطريق قال: " مالك يا حنظلة؟ قال حنظلة: نافق حنظلة، قال: ولمَ يا أخي؟ قال: نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين فإذا عافسنا الأهل ننسى، قال: يا أخي أنا كذلك، انطلق بنا إلى رسول الله فلما انطلقا إلى رسول الله وحدَّثاه الحديث قال: أما أنتم يا أخي فساعةٌ وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ولزارتكم في بيوتكم".

معنى ذلك أنك وأنت في مجلس العلم تكون أقرب إلى الله من أي وقتٍ آخر، لذلك أنت بحاجة إلى شحن، حينما تأتي خطبة الجمعة، حينما تجلس في مجلس علم تشحن روحياً، تشحن فكرياً، تشحن نفسياً، تنطلق إلى عملٍ صالح، لو أن هذا الشحن لم يكن منتظماً لضعف مصباحك وتهت في طريقك، فلذلك حينما تأتي إلى بيت الله لا تريد إلا طلب العلم الملائكة تضع أجنحتها لك رضاً بما تصنع:

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه]

لذلك المؤمن يحرص على مجالس العلم لأنها مجالس الرحمة، لأن في هذه المجالس تتنزَّل رحمة الله عزَّ وجل، في هذه المجالس تَغْشَى الناس السكينة، في هذه المجالس تحف الناس الملائكة، فأنت بعد المسجد في حفظ الله.

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

[سورة الرعد: 11]

هذا الحفظ من أمر الله، بأمرٍ من الله يحفظونه، لأن الناس هم في مساجدهم والله في حوائجهم، " كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك - لا تكلف نفسك أن تقول لي ماذا تريد، أعرف ماذا تريد- كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد ".

ليس من الحكمة أن يندمج الإنسان مع أهل الكفر و العصيان :

لذلك هذه الآية:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ)

فهؤلاء المنحرفون، هؤلاء الفاسدون، هؤلاء التائهون، هؤلاء الشاردون، لو جلست معهم، وآنستهم، وأثنيت عليهم، وجاملتهم، لا يتوبون إلى الله، يقولون: فلان من أهل الإيمان هو معنا دائماً و لم يذكر شيئاً، أنت حينما تجلس معهم، وتقيم معهم علاقات حميمة، وتثني على ذكائهم، ولباقتهم، وفهمهم، وتتقرَّب إليهم نفاقاً، أنت تحول بهذا بينهم وبين أن يتوبوا إلى الله، أما حينما تقف موقفاً ذكياً، حينما تعتذر عن أن تجلس معهم، حينما تعتذر منهم، فهم يومئذ يبحثون عنك، فلذلك ليس من الحكمة أن تندمج مع أهل العصيان، أساساً لو أنَّك اندمجت معهم لجرّوك إليهم، إما باحتفالاتهم، أو بسهراتهم المختلطة، أو بما يشاهدونه من خلاعةٍ وانحطاط، تكون معهم، تمزح مزحهم، تأكل مما يأكلون، تختلط معهم، انسحبت إليهم وأنت لا تدري.

على الإنسان أن يقيم حاجزاً بينه وبين أهل الفسق والفجور :

لذلك:

(إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ)

ليس شرطاً أن تقولها بلسانك لا يوجد داع، انسحب، ابتعد.

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ)

[سورة الكهف: 16]

يجب أن تقيم حاجزاً بينك وبين أهل الفسق والفجور، أما إذا عادوا إلى الله، إذا تابوا إليه، إذا اصطلحوا معه، يجب أن تهبهم روحك، يجب أن تُعْطيهم كل ما عندك من ود، ومن صلة، ومن محبة، لأن كل عداوةٍ بين إنسانين عداوةٌ مؤقتة، لو أنهما اصطلحا مع الله لكانا أقرب إنسانين إلى بعضهما.

(إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ)

لأن أهل الكفر لا يعبدون الله، يعبدون ما دون الله، معبودهم شهوتهم، معبودهم هواهم، معبودهم الدِرهم والدينار، معبودهم فرجهم، معبودهم بطنهم:

((تَعِسَ عَبْدُ الخميصة))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

((تعِسَ عبدُ الدِّينار، وعَبْدُ الدِّرهم))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

يعبدون الشهوات، يخضعون لها، يذوبون أمامها، يؤلهونها، هي آلهتهم من دون الله عزَّ وجل.

(إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ)

تحرر المؤمن من أسر الشهوات يرفعه عند الله عز وجل :

لا شيء يرفع المؤمن كهذا التحرر من أسر الشهوة، الكافر، المنافق، العاصي، عبدٌ لشهوته، ذليلٌ أمامها، خاضعٌ لها، مثلاً ورد:

((من تزوَّج المرأة لجمالها أذلَّه الله، من تزوَّجها لمالها أفقره الله، من تزوَّجها لنسبها زاده الله دناءةً، فعليك بذات الدين تربت يداك))

[ورد في الأثر]

فالإنسان حينما يعبد شهوته من دون الله يسقط من عين الله، لهم صغارٌ عند الله.

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

[سورة الكهف: 105]

أما حينما يتحرر من شهوته، ما الذي جعل يوسف عليه السلام حينما دعته امرأةٌ - امرأة العزيز- ذات منصبٍ وجمال قال: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين.

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف: 23]

(إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ)

أي أن انسحابك من المجلس كأنك قلت:

(إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ)

دعوة مختلطة إن اعتذرت عنها، كأنك قلت:

(إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ)

دعوة إلى طعام يوزَّع فيه المشروب إن اعتذرت عن هذه الدعوة كأنك قلت:

(إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ)

دعوة إلى حفلة لا تُرْضي الله عزَّ وجل كأنك تقول:

(إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ)

فابتعادك عن مجلس فسقٍ، أو فجورٍ، أو انحرافٍ، أو كذبٍ، هذا الابتعاد هو نفسه كأنك تقول:

(إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ)

الكفر بالطاغوت أساس الإيمان بالله عز وجل :

لا يمكن أن تؤمن بالله إلا أن تكفر بالطاغوت.

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة: 256]

أي إذا كنت تعظم أهل الكفر، ترى ذكاءهم، إنجازاتهم، مخترعاتهم، مجتمعاتهم، أوضاعهم، رفاههم، بيوتهم، مركباتهم، تجارتهم، إذا كنت معجباً بها، ذائباً في تعظيمها، موالياً لهم، من هوي الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً، الإنسان أحياناً في غفلةٍ يعيش لحظته يقول لك: هذا البلد مريح، الأمور ميسَّرة، المركبات رخيصة، البيوت بالتقسيط، بلد كله أخضر مثلاً، وغفل عن الفسق والفجور، وعن أن أولاده لابد من أن ينحرفوا، وأنه لا يستطيع أن يردع ابنته عن صديقٍ لها ينام معها، ماذا يفعل؟ حينما تتقدم به العمر ويرى مصيره المشؤوم، يدخل على قلبه كآبة تنسيه الحليب الذي رضعه من ثدي أمه، إذا أردت إنفاذ أمرٍ فتدبر عاقبته، أخوةٌ كثيرون يحدِّثونني عن المآسي التي يعيشونها في بلاد الغرب، لا يستطيع أن يمنع ابنته من صديقٍ لها يعلم علم اليقين أنه يزني بها، فلا يقدر على ذلك، هكذا الحياة هناك، أما حينما تؤْثِرُ الله ورسوله، وتؤثر بلداً تقام فيه شعائر الدين، تؤثر بلداً تستطيع أن تقيم أمر الله فيه، فهذا هو العقل، وهذا هو الذكاء، من أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله.

من يعتقد أن الصلاح والكمال في جهةٍ كافرة فالطريق إلى الله مسدود :

أقول لكم هذه المقولة: لو أن إنساناً سافر إلى بلدٍ غربي وتزوج من هناك، هناك متاعب لا تُحْصَى سوف تنتظره؛ من تربية أولاده، من فسوق أولاده، من انحرافهم، والحقيقة الأساسية أن الإنسان مهما بلغ من نجاح الدنيا يشقى بشقاء أولاده، كن أغنى الناس، كن أرقى الناس، كن أعلم الناس، كن أقوى الناس، يشقى الإنسان بشقاء أولاده لأنهم امتداده، لأنهم منه، فإن شقوا شقي بشقائهم، ذكرت هذا لأن الذي يوالي أهل الكفر والعصيان، هم ملء سمعه وبصره، يثني عليهم، على ذكائهم، على تقدمهم، هم يبنون مجدهم على أنقاض الناس، يبنون حياتهم على موت الناس، يبنون غناهم على إفقار الناس، يبنون أمْنَهُم على إخافة الناس، هؤلاء وحوش، لذلك من نعم الله الكبرى أننا قبل خمسين عاماً أو قبل أربعين عاماً كان الغرب متألّقاً أمام عيون الناس، ولكنه الآن كشف على حقيقته، ظهرت وحشيَّته، ظهر حقده، ظهر تناقضه، هذا من نِعَم الله علينا أن حقيقة الغرب كشفت لنا تماماً، وما دمنا نعتقد الصلاح والكمال في جهةٍ كافرة فالطريق إلى الله مسدود.

الناس جميعاً كَشَفوا حقيقة الغرب وأزاحوا عن وجهه القناع الكاذب:

أما الآن:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة: 256]

فمئات الألوف يموتون ظلماً ولا أحد يتحرك، بضعة أشخاص يقتلون بحادث تجتمع الدول كلها من أجل أن تندد بهذا الحادث، هذا مكيالٌ واحد؟ يكال كل شيءٍ بمكيالين، هذا الحقد، هذا الانحياز يظهر جلياً، لذلك من الإيجابيات لما يجري أخيراً أن كل الناس كَشَفوا حقيقة الغرب، أزاحوا عن وجهه القناع الكاذب:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا)

[سورة البقرة: 256]

(كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)

هذا هو موقف المؤمن، ما دام هناك شرك، و نفاق، و انحراف..

على الإنسان أن يُبلّغ و على الله الباقي :

(وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

قال: هذا وضع استثنائي.

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

[سورة التوبة: 114]

تَوَهَّم إبراهيم عليه السلام أو ظن أن أباه سيسلم، سيؤمن معه:

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

[سورة التوبة: 114]

(إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

سيدنا إبراهيم سَلَّمَ الأمر لله، أي أنت عليك أن تُبَلِّغ وعلى الله الباقي:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة البقرة: 272]

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة القصص: 56]

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

مضمون الدعوة حق، أما أن يحمل النبي عبء هداية الناس فهذا فوق طاقته، إنك لا تستطيع أن تهديهم لأنهم مخيَّرون، ولست مسؤولاً عن عدم هدايتهم لأنهم محاسبون، أما أنت مكلفٌ أن تبلغهم، وحينما تبلغهم تنتهي مهمتك.

أكبر جريمةٍ يرتكبها المسلم أن يُقصِّر أو يكذب أو يخلف الوعد :

أيها الأخوة، أما أخطر آيةٍ في هذه السورة هي هذه الآية:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

فالمسلم معروف أنه مسلم، عند الناس مسلم، محسوبٌ على المسلمين، هذا المسلم إذا أساء، إذا كذب، إذا احتال، إذا لم يَصْدُقْ، إذا غَشَّ الناس، إذا أَخْلَفَ وعده، إذا لم ينجز عهده، ماذا يقول الكافر؟ الدين

باطل، الدين ليس له أصل، الدين خرافة، الدين أفيون الشعوب، الدين ضلالات، الدين غيبيَّات، الدين حالة ضعف للإنسان، لأن الكافر ما رأى ذلك الإنسان العظيم، رأى إنساناً تافهاً، كاذباً، مُتناقضاً، دَجَّالاً، فما الذي حمل الكافر على كفره؟ ما الذي جعله كافراً؟ ما الذي ثبت كفره؟ سلوك هذا المسلم المُقَصِّر، لذلك أكبر جريمةٍ يرتكبها المسلم أو المؤمن أن يُقَصِّر، أو أن يكذب، أو أن يخلف الوعد، أو أن يحتال، أو أن تكون له شخصية ازدواجية، لذلك يعطي الكافر حجة يتمسك بها، يقول لك الكافر: هذا هو الإسلام، هذا دَجَل.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

يا رب احفظنا عن أن نكون سبباً لكفر كافر، أنت محسوب على المسلمين، أنت مظنة صلاح، مظنة استقامة، مظنة صدق، مظنة وفاء، مظنة عَفاف، مظنة طُهر، هكذا المؤمن، فلو رأى الكافر كذباً أو انحرافاً أو احتيالاً أو غشاً يصدر من إنسان يصلي أعطيته الدليل على أن الدين باطل، أعطيته مستمسكاً، يقول: هذه حقيقة الأديان إنها خرافة.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم :

إذا دعوت إلى الله بمضمونٍ سطحي، خُرافي، منامات، كرامات، شطحات، كلام سطحي، غير متماسك، متناقض، بأسلوب غير علمي، غير تربوي، غير سليم، أو دعوت إلى الله بمضمونٍ عميق وأسلوبٍ علمي لكن هذا المدعو اكتشف أنك لست صادقاً فيما تقول، أنت في واد ودعوتك في واد، إنَّك لا تطبِّق ما تقول، إنك تمتهن الدين، إنك تجعل الدين مطية للدنيا، هذا المدعو إن رأى ضحالةً، أو سذاجةً، أو خرافةً، أو ضَعفاً، أو تناقضاً، أو رأى أسلوباً غير علمي وغير تربوي، أو رأى عدم مصداقيةٍ في الدعوة، فرفض هذه الدعوة وتفلت منها واحتقرها قال: هذا الكافر لا يكون عند الله مبلَّغاً، ويقع إثم تفلته من منهج الله على من دعاه بهذه الطريقة، وكان الذي دعاه بهذه الطريقة سبب فتنته، وسبب انحرافه، فقبل أن تكذب وأنت المسلم، وأنت مظنة الهُدى والصلاح، وأنت مظنة المنهج الإلهي، قبل أن تكذب عُد للمليون لأن الآخرين إذا ضبطوا عليك كذبةً لم يصدقوك في شيء، ما الذي جعل النبي صادقاً عند الناس حينما جاءه الوحي؟ لأنهم قبل الرسالة ما جرَّبوا عليه كذباً قط، فأنت أحياناً لا تنتبه، أنت مُصلّ، تصلي في البيت، طُرِقَ الباب، فتح ابنك، قال: يا بابا فلان، تقول له: يا بني قل له أن أبي ليس موجوداً. هل عرفت ماذا فعلت؟ ارتكبت جريمة، لأنك علمته الكذب، ولأن هذا الطفل ربط بين صلاتك والكذب، الذي يصلي يكذب، فإذا رأى إنساناً لا يكذب ولا يصلي عَظَّمَهُ واحتقرك، قبل أن

تكذب عُدَّ للمليون، قبل أن تحتال، قبل أن تغش في البضاعة، قبل أن تخلف وعد، أنت على ثغرةٍ من ثُغَرِ الإسلام فلا يؤتين من قبلك، إيَّاك كل الذي تقوله يسقط في الأرض، الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم، لو ألقيت ألف محاضرة في الصدق وكذبت مرةً واحدة أهْدَرت كل هذه المحاضرات، نحن الآن أيها الأخوة لا نحتاج إلى فكر، الفكر موجود، الكتب تملأ البيوت، بالأشرطة كل شيء موجود، نحتاج إلى إنسان ملتزم، إنسان تشتد إليه العيون، إنسان يطبق ما يقول، لا تأخذه في الله لومة لائم، هذه هي المشكلة..

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

على المؤمن ألا يعطي الكافر حجة أن الإسلام دين فوضى و عدم انضباط :

لم نكن نحن سبباً في كفر الناس، يجدون تخلفاً، و عدم نظام، وفوضى، تجد المسلم فوضى، مواعيده غير صحيحة، كلامه غير صحيح، ليس منضبطاً، حساباته كلها غلط، يقول لك: اتركها لسيدك، توكل ساذج، عدم انضباط، عدم إتقان العمل، أخطاء فاحشة، تجد إنساناً كافراً؛ مواعيده دقيقة، صادق، الكفَّار ما الذي جعلهم يقيمون على كفرهم؟ احتقارهم للمسلمين، ما الذي جعلهم يعتزُّون بكفرهم؟ انحراف المسلمين أمامهم، فهؤلاء الذي في الغرب حينما يأتي إنسان- وهذا معروف- من بلاد إسلامية ويبحث عن الزنا، وعن الانحراف الأخلاقي، وعن الخمر، يلهث وراء شهواته كالخنزير، وهو ينتمي إلى بلاد إسلامية، أتعتقد أن أهل أوربا يعظمون إسلامنا؟ إطلاقاً، الكذب، والفجور، والجنس، والانحراف، والخمور، والمخدرات، أما حينما يرون إنساناً مستقيماً، صاحب عقيدة صحيحة، قوي الحُجَّة، منضبطاً، عفيفاً، فهذا الذي يشدُّهم إلى الدين، هذه أخطر آية في الدرس:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

لا نعطي الكافر حجة أنك أنت على حق ونحن على باطل، لا نعطيه حجة أن الدين باطل، الدين غير صحيح، نظام غير صالح للحياة، فلذلك الناس لا يعبؤون بما في الكتب، يعبؤون بما في المجتمع، كم من إنسان أسلم في بلاد الغرب فلما جاء إلى بلادنا صُعِقْ، هذا هو الدين؟ كان يقول بعضهم: الحمد لله الذي أسلمنا قبل أن نراكم، لو رأيناكم لما أسلمنا بالطبع..

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

لا تَعْطي الكافر حُجَّة، لا تخلف وعدك، فالنبي عليه الصلاة والسلام رأى أماً توهم ابنها أن في يدها تمرة قالت: تعال هاك، فقال عليه الصلاة والسلام: " ماذا أردت أن تعطيه؟ قالت: تمرة هكذا، قال: أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليكِ كذبة "، المؤمن لا يكذب:

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب))

[أخرجه الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

إنه إن كذب أو خان لم يبق مؤمناً، يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة.

الإسلام لا ينمو بالكلام ينمو بالأعمال :

أخ كريم ذهب إلى بلاد الغرب في دورة تدريبية، الذي لفت نظر الناس ورعه، أمانته، استقامته، يقسم بالله العظيم وهو صادق: أن الأسرة التي سكن فيها أسلمت كلها. كنا مرة في الحج رأينا رجلاً من أوروبا الغربية يطوف حول الكعبة، سألنا عنه فإذا هو من ألمانيا الغربية، ما الذي جعله يسلم؟ شاب من هذا القطر سكن عنده في البيت، وفي البيت فتاةٌ جميلة، تمنى أن يلمح والد الفتاة هذا المستأجر الطالب ينظر إلى ابنته، أبداً، فما هذا الإنسان؟ من جبلّة أخرى؟ من طبيعة أخرى؟ ناقشه، حاوره حتى أسلم، هل تصدق أن غض بصر شاب كان سبب إسلام شخص ألماني، الإسلام لا ينمو بالكلام، ينمو بالأعمال، يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

لا تعطي الكافر حجة أن ديننا باطل، لا تكذب، لا تغش، لا تحتال، لا تكن لك شخصية مزدوجة، كن واضحاً، الوضوح أكمل بكثير من الأسلوب المنحني، فكن واضحاً.

المؤمن حينما يقصر أو تزلّ قدمه يستحق تأديب الله له :

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

هناك معنى ثان: يا رب لا نكن عصاةً لك فتسلّط علينا الكفار فيفتنون في تعذيبنا، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

فإذا جعل علينا لهم ألف سبيلٍ وسبيل فنحن إذاً مُقَصِّرون، فهؤلاء حينما يسيطرون على مؤمنين ضعاف ماذا يقولون؟ نحن على حق، ولو لم نكن كذلك لما كنا أقوى منكم، القوة تعطي وهم كبير جداً. المعنى الثاني لهذه الآية: أن المؤمن حينما يقصر، أو حينما يتأخَّر، أو حينما تزلُّ قدمه يستحق تأديب الله له، ماذا يكون؟ ربنا جلَّ جلاله يسلّط عليه كافراً يعذبه، أولاً: الكافر فتن في تعذيبه، فتن في النيل منه، والكافر حينما كان أقوى من المؤمن وقد سلّطه الله عليه يتوهم أنه على حق، يفتن الكافر مرتين،

المرة الأولى يتوهم أنه على حق بدليل أن الله سلّطه على المؤمن، لو كنت على حق لما كنت ضعيفاً أنا أقوى منك، لو كنت على حق لما مكنني الله منك، الإنسان حينما يُقَصِّر يستحق تأديب الله..

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً)

[سورة القصص: 4-5]

الكافر يعتقد أنه مادام أقوى من المؤمن، ما دام مُسَلَّطاً عليه، مادام متمكناً منه، فهو على حق والمؤمن على باطل، اعتقد الكافر خطأ مرتين أنه بهذا التسليط على حق، وأن هذا المؤمن أمامه ذليل، أمامه مُحْتاج، أمامه متضعضع، فلو كنت على حق لما كنت هكذا، أنت أوهمت الكافر أنت حينما قصرت، وحينما عصيت، وحينما زلت القدم وتمكن الكافر منك أوهمته أنك على باطل، بدليل سيطرته وضعفك أمامه، إذاً فُتِنَ بك، رآك ضعيفاً فتمكن منك، فتوهم أنه على حق واحتقر حقك أنت، هذه الفتنة الثانية.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

من استقام على أمر الله استحق نصره :

الأصل أن تستقيم على أمر الله حتى تستحق نصر الله، أن تستقيم على أمر الله حتى لا يستطيع كافرٌ أن يصل إليك، ولا أن يسلط عليك، ولا أن ينال منك، حتى يشعر أنه ضعيف أمامك، أنت قوي بطاعتك لله.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

هذا الموضوع الأخير له ذيل، أنا أعلم علم اليقين أن أُناساً كثيرين تركوا المساجد، تركوا حلقات العلم لإساءةٍ من صديقٍ لهم من روَّاد المسجد، يقول لك: هكذا فعل معي، كذب علي، خانني، غدر بي، هذا هو المسجد؟ هذا هو الحق؟ أُناسٌ كثيرون أعرفهم والله سبب تركهم للمساجد، ولحلقات العلم، ولجماعات المؤمنين أن واحداً أساء إليهم في تعامل تجاري، في قرض لا يؤَّدى، في وعد لا يوفي به، فقالوا: ما هذه التربية؟ هكذا الإسلام؟ رأى معه حُجَّة، ترك المسجد ترفعاً، من سبب له هذه القطيعة مع الله؟ المسيء، المسيء حينما يسيء يرتكب جريمة وهو لا يشعر.

الكذب عار و جريمة :

أخواننا الكرام، دققوا في هذه المقولة: ألف تصرُّف ذكي، مخلص، حكيم يشد إنساناً إلى الحق، تصرف واحد أحمق يقطعه عن الحق، ألف تصرف ذكي حكيم مخلص يشدونك إلى الدين ؛ تصرف أحمق واحد متناقض فيه احتيال، فيه كذب، فيه غدر يقطعك عن الله وعن الدين، شيء خطير، فلذلك:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

[سورة يس: 12]

أنت أسأت من أجل أن تربح مئة ليرة زيادة، حلفت يميناً كاذباً أمامه، وكان سعرك أعلى من السوق كله، فرأى إنساناً في المسجد يغدره بالسعر، يضحك عليه ويكذب عليه، فترك المسجد، عندما تركه أصبح معه حجة يقول: كلهم كاذبون، وكلهم دجالون، فبدأ ينحرف، وبدأ يتفلت، الآن تفلته ومعاصيه كلها في صحيفة الذي حمله على ترك المسجد، وأنت لا تدري، كلها في صحيفة الذي حمله على ترك المسجد، من أجل مئتي ليرة، أو من أجل خمسمئة ليرة، ضَحَّيْتَ بأخٍ لك، أما إذا كنت مؤمناً إيماناً حقيقياً لا تضحي بأخيك ولا بمليون ليرة، أنت تربح إنساناً مؤمناً أفضل من أن تربح الدنيا كلها، فلذلك تجد في هذه الأيام الإنسان يقول: هذا من أخواننا نرفع السعر، بعد يومين تسأل عن السعر يجد أنه دفع بالمئة ثلاثين زيادة، لأنه استسلم، هذا من أخواننا، من رواد المسجد، معقول يكذب عليه؟ كذب عليه، أخذ سعراً غير معقول، ما هذا؟ أهذا هو الدين؟ هؤلاء هم المؤمنون؟ هذه معاملتهم؟ هذا غدرهم؟ ترك ومعه أمام الله حجة يقول: كلهم كاذبون، هذه مشكلة كبيرة جداً.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

لا تسبب قطيعة إنسان عن الله، لا تسبب قطيعة لإنسان مع الله بسببك، لا تخيِّب ظن الناس بالدين، واحد من الصحابة أثناء الهجرة قبض المشركون عليه، فقال لهم: " والله لو أطلقتموني لن أحاربكم أبداً"، فصدقوه، وأطلقوا سراحه، ذكر هذا للنبي وسُرَّ سروراً عظيماً، بعد سنتين أو ثلاثة هناك غزوة فانخرط مع النبي، فلما رآه النبي قال له: "ارجع أنت عاهدتهم" الدين كله قيم، لو أن الصحابة الكرام فهموا الدين كما نفهمه نحن، نحن نفهمه لكن على أساس شعائر، صلوات، صوم، زينة، مولد، منشدين، طرَبْ، عزائم، ولائم، بطاقات دعوى، مكتبة فخمة، لكن لم نفهمه التزاماً، صدقاً، أمانة، عفة، الدنيا كلها تحت قدمك من أجل أن تَفي بوعدك، من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدَّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كمل مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته، هذا الذي نسعى إليه، فلذلك لا تُخَيِّب ظن إنسان بالإسلام بسبب معاملتك، لا تخيِّب ظن إنسان بالدين من معاملتك، لا تبع دينك بعرض من الدنيا قليل، لا تكذب مهما كلف الأمر، لا تقول: الكذب ملح الرجال، فهذا كلام الشيطان، الكذب عار، جريمة، النبي كان إذا كشف من أحدٍ كذباً قاطعه:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الممتحنة 060 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 6-9 الولاء والبراء والاتباع.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-08-09

بسم الله الرحمن الرحيم

إبراهيم عليه السلام والذين معه

أسوةٌ حسنة لمن يرجو الله و اليوم الآخر :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الممتحنة، ومع الآية السادسة وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

أيها الأخوة، هذه الآية تأكيدٌ لآيةٍ سابقة..

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

هذه الآيات، أو هذه الآية الطويلة التي أكَّدتها الآية التي بين أيدينا اليوم.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ)

في إبراهيم عليه السلام والذين معه أسوةٌ حسنة، أي قدوةٌ حسنة..

(لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

الولاء والبراء من لوازم الإيمان :

بيّنت لكم أيها الأخوة أن في حياة المؤمن شيئين أساسيَّين من لوازم الإيمان وهما: الولاء والبراء، فما لم يوالِ المؤمن المؤمنين، ما لم ينضم المؤمن إلى المؤمنين، ما لم يتعاون المؤمن مع المؤمنين، ما لم يحب المؤمن المؤمنين فلا ولاء له، وما لم يتبرَّأ من الكافرين، ما لم يبتعد عنهم، ما لم ينسلخ منهم، ما لم يُنْكِر عملهم فليس مؤمناً، لا تكون مؤمناً إلا بالولاء والبراء، أن توالي أولياء الله، وأن تبتعد عن أعداء الله.

لا أقول لك أن تكون هجومياً ولكن ابتعد عنهم، لماذا؟ لأن الماء الصافي العذب الزلال والماء الملوّث إذا اختلطا من المتضرر؟ الماء الصافي لأنه يتلوّث، أما الماء الملوّث فهو في الأصل ملوّث، يستفيد،

تخفُّ حدَّة تلوّثه، أما الخطورة على الماء الصافي، فالمؤمن ما لم يكن نقياً، بعيداً عن الشبهات، بعيداً عن مزالق الشهوات، ما لم يكن بعيداً عن مواطن المعصية، لا ينجو، لذلك لا مؤاثرة في الخير والخير كلُّه في المؤاثرة، أن تؤثر إنساناً لئلا يغضب، لئلا يحزن، على طاعة الله إنك لست مؤمناً، لا تؤثر أحداً في طاعة، أما حينما تكون مطيعاً لله فلك أن تؤثر الناس جميعاً بدنياك، إنَّك إن ضَحّيت بدنياك من أجل الآخرين فأنت تداريهم، والمداراة من أخلاق رسول الله، قال عليه الصلاة والسلام: "بُعِثت لمداراة الناس".

المداراة و المداهنة :

أما أن تبذل دينك من أجل الآخرين فأنت تداهنهم، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يُداهن..

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[سورة القلم: 9]

لا تداهن لكن دارِ، رأس الحكمة مداراة الناس، بُعِثت لمداراة الناس. فالولاء والبراء، أي ممكن أن تنضوي في أي عمل، وأن تكون علاقتك مع أصحاب العمل علاقةً محدودة بالعمل، أما العلاقات الحميمة، الزيارات المختلطة، الرحلات الطويلة، الشراكة الاندماجية مع أهل الدنيا فإنهم يلوِّثونك، فلذلك الولاء والبراء، لا بدَّ من أن توالي ولا بدَّ من أن تتبرَّأ، الولاء أن تعطي لله، وأن تمنع لله، وأن تصل لله، وأن تقطع لله، وأن تغضب لله، وأن ترضى لله، وأن تعفو لله، وأن تنتصر لله، هذا هو الولاء، والبراء أية جهةٍ متفلّتةٍ، غير منضبطةٍ، عاصيةٍ ينبغي أن تبتعد عنها لأنها تؤذيك من دون أن تؤذيها، هي لا تتأذّى، هكذا هي، أما هي فتؤذيك، إذا أخرجتك عن طاعتك حجبتك عن ربك، أنت كل قيمتك باتصالك بالله، كل ثمار الدين لا تقطفها إلا بالاتصال بالله، فإذا واليت أهل الدنيا وحملوك على معصيةٍ، أو على تقصيرٍ، أو على شبهةٍ، أو على مزلقٍ، إنهم حجبوك عن الله، حملوك على معصيةٍ فحجبوك عن الله، حينما تُحجَب عن الله فقدت كل ثمار الدين، هم في الأصل محجوبون، هم في الأصل منقطعون، لم يتأثّروا إطلاقاً، لكنهم جرَّوك إلى ما هم عليه، لذلك لابدَّ من البراء ولابدَّ من الولاء، لا يكمل إيمان عبدٍ حتى يحبّ لله، وحتى يبغض لله، وحتى يعطي لله، وحتى يمنع لله، فلذلك سيدنا إبراهيم موقفه سليم..

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء: 75-77]

الأسوة الحسنة هي الدليل القطعي على واقعية هذا الدين :

أخواننا الكرام، أكثر المتفلتين، أكثر الساهين، أكثر الغافلين، ولاؤهم مرتبطٌ بمصالحهم، وبراؤهم مرتبطٌ بمصالحهم، يوالون أهل الكفر إن كانت هناك مصلحةٌ بينهم وبينهم، ويتبرؤون من أهل الإيمان إن لم يكن منهم شيءٌ يعود عليهم بالخير، فلذلك أحد خصائص المؤمن أن يوالي وأن يتبرَّأ، أن يوالي المؤمنين وأن يتبرَّأ من الكافرين، الآية اليوم هي:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

الحقيقة الأسوة الحسنة هي الدليل القطعي على واقعية هذا الدين، لأن الدين أفكار، أما حينما ترى نبياً، إنساناً مثلك، بشراً مثلك، في أعلى مستوى أخلاقي فهو حجَّةٌ علينا، لأن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، إلا أن الناس اليوم ماذا يقولون؟ لمجرَّد أن تطلب منهم أن يقيموا شرع الله يقول لك: يا أخي أنا لست نبياً، من قال لك إنك نبيّ؟ ولا واحد بالمليار، ولا ذرَّة غبار على نعل أحد الأنبياء، من قال لك إنك نبيّ؟ ولكن حينما نقول: لابدَّ من أن نعطي حقنةً لمريض، إنَّ أعلى طبيبٍ في الأرض يجب أن يعقّمها، وإن أدنى ممرض في الأرض يجب أن يعقّمها، توجد أشياء ثابتة..

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود: 112]

فأمور الاستقامة ليس لها علاقة بالنبوّة أو غير النبوّة، إن أطلقت البصر سلكت طريق الزنا، لأن كل خطوةٍ تقود إلى أختها، أخي أنا لست نبياً، من قال لك إنك نبي؟ إنك مأمورٌ أن تفعل ما يفعله الأنبياء، الأنبياء قدوة لنا..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

[سورة الأحزاب: 21]

فالنبي أيها الأخوة الكرام، أقلُّ مهمَّةٍ جاء بها التبليغ، لكن أكبر مهمَّةٍ جاء بها الأسوة.

النبي عليه الصلاة والسلام قدوةٌ لنا وأسوة :

أنت أمام قُرآن متحرِّك، الكون قرآنٌ صامت، و القرآن كون ناطق، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقرآنٌ متحرِّك، فيجب أن نقتدي برسول الله، يجب أن نعرف سيرته، يجب أن نعرف سنَّته، لأن الله ما قَبِل أن ندَّعي حبَّه إلا بالدليل، والدليل اتباعه، نبينا عليه الصلاة والسلام قدوةٌ لنا وأسوة، وإبراهيم عليه السلام قدوةٌ لنا وأسوة..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ)

الخطاب لنا..

(فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

أجمل تعقيب هذا التعقيب..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

كل الناس؟ لا..

(لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

تجد أهل الدنيا إذا دخلوا على رؤساء الدنيا، أي كبار التجَّار، كبار الصناعيين، تجده انتهى، ذاب تعظيماً لهم، لأن هدفه الدنيا، فإن رأى إنساناً في الدنيا متفوّقاً يكون هو قدوته، يشرب الخمر ليست مشكلة، لا يصلّي، إنه يريد أن يكون مثلهم، أنت لا تتخذ أسوة من بني البشر إلا في نطاق طموحاتك، إنسان طموحاته تجارية من أسوته الحسنة؟ التاجر الفلاني، إنسان طموحاته صناعية من أسوته الحسنة؟ الصناعي الفلان، إنسان طموحاته علميَّة من أسوته؟ الدكتور الفلاني، إنه يحمل بورد، يحمل أعلى شهادة في العالم، له ثمانون مؤلَّفاً، له شهرة واسعة، فأنت قل لي من أسوتك أقل لك من أنت، أنت تسعى لتقليد من؟ من هو الذي أمامك دائماً؟ أنت لك شخصية هي أنت، لك شخصيةٌ تكونها، وشخصيةٌ تكره أن تكونها، وشخصيةٌ تتمنّى أن تكونها، الشخصية التي تتمنَّى أن تكونها من هي؟ إذا كانت هذه الشخصية من أهل الدنيا فأنت من أهل الدنيا، إن كانت من أهل الفن الرخيص فأنت من أهل الفن الرخيص، إن كانت هذه الشخصية لاعب كرة فأنت في هذا الحقل.

المؤمن شرُفت نفسه بمعرفة الله عز وجل :

الله عزَّ وجل قال عن النبي الكريم:

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

[سورة النجم: 7]

أنت في أي أُفُقْ؟ الأنبياء لهم أفق، المؤمنون لهم أفق، أولياء الله لهم أفق:

((إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها))

[أخرجه الطبراني عن حسين بن علي]

قل لي من قدوتك أقل لك من أنت، قل لي من أسوتك أقل لك من أنت، قد تجد إنساناً يركب سيارة فارهة يقدر ثمنها بأربعة وعشرين مليوناً، تجده ذاب، ليتني مثله، هكذا قال أهل الدنيا عندما خرج قارون بزينته..

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة القصص:79]

الآن يقولون: هنيئاً له، إنه فوق الريح، يده تطول كل شيء، يلعب بالمال لعباً، إنه لو طحن المال وأكله لا ينتهي، يتكلّم وهو ذائب، هذا من قدوته؟ أهل الدنيا..

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

[سورة القصص:79-80]

لن تكون مؤمناً إلا إذا كان الله ورسوله أحبَّ إليك مما سواهما :

إلى أين أنتم ذاهبون؟ صدِّقوني أيها الأخوة لن تكون مؤمناً إلا إذا كان الله ورسوله أحبَّ إليك مما سواهما، لن تكون مؤمناً إلا إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلَّم دائماً في مخيّلتك، كيف كان يعامل زوجاته؟ كيف كان يعامل أولاده؟ كيف كان يعامل إخوانَه؟ كيف كان يعامل جيرانه؟ كيف كان في بيته؟ كيف كان مع أصحابه؟ كيف كان يتنظَّف؟ كيف كان ينام؟ كان يضع يده تحت خدِّه الأيمن ويستلقي، كيف كان يدعو؟ كلَّما كنت مؤمناً جعلت النبي قدوةً لك، لذلك الآية دقيقة جداً، الأولى والثانية والثالثة، آية النبي:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

[سورة الأحزاب: 21]

إن كنت ترجو الدنيا وزينتها فلك قدوةٌ غير النبي عليه الصلاة والسلام، إن كنت ترجو مناصب الدنيا ورفعتَها لك قدوةٌ غير النبي عليه الصلاة والسلام، إن كنت ترجو ملاذّ الدنيا وشهواتها لك قدوةٌ غير قدوة النبي عليه الصلاة والسلام، تريد صحناً.. ساتلايت.. على الفور، أما إذا كان الله ورسوله أحبَّ إليك ممن سواهما، وكان النبي الكريم والصحابة الكرام وأولياء الله هم قدوتك فهنيئاً لك، لذلك الله عزَّ وجل يقرر ويقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

أي مثلاً دخلت إلى البيت فوجدت فيه مشكلة، عندما دخل النبي عليه الصلاة والسلام ورأى زوجته عائشة رضي الله عنها أصابها ما يُصيب النساء من الغيرة، فأمسكت طبقاً أرسلته السيدة صفية وكسرته، فقال عليه الصلاة والسلام: " غضِبَت أمكم غضِبَت أمكم"، لم يفعل شيئاً، هذه المشكلة امتصها، الآن أكثر الأزواج بعد أن يتزوّج يبحث عن العيوب التي في زوجته فيلقيها على مسامعها من أجل أن يهدم الحبَّ بينهما، ما هي العيوب في أقربائها يلقيها على مسامعها، النبي لم يفعل هذا، قالت له السيدة عائشة مرَّةً: كيف حبَّك لي؟ قال: " كعقدة الحبل ". عقدة متينة، فكانت تقول له من حينٍ لآخر:

كيف العقدة؟ فيقول: "على حالها ". أنت بإمكانك أن تقيم بيتك على أساس من الحب والوئام والود وأنت الرابح الأول، وبإمكانك بحمق وبسفه وبعدم حكمة أن تجعل بيتك جحيماً، هذا يقال وهذا يقال، فيمكنك الانتقاد لأتفه الأسباب، ويمكنك أن تتجاهل بعض الأخطاء فتعلو عند الله، فالقضية قضية قدوة.

من كان يرجو الله و اليوم الآخر فهو حكماً يقتدي برسول الله :

يجب أن تقرأ سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، النبي لم يتميز عن أصحابه أبداً، وإذا لم تتميز عمن حولك فأنت سيِّدهُم، وأنت أحبُّ الناس إليهم، نحن في شهر المولد فيجب أن نعرف سيرة النبي، ويجب أن نستنبط منها المواعظ والحكم، ويجب أن نجعله قدوة لنا وأسوة في كل شؤون حياته، لأنه الإنسان الكامل الذي حقَّق الكمال البشري كلَّه، يوجد إنسان واحد حقَّق الكمال البشري كلَّه وهو رسول الله، وما خلق الله بني البشر في الأصل إلا ليكونوا على شاكلة النبي، وليكون النبي قدوة لهم..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

[سورة الأحزاب: 21]

فأنت لا يمكن أن تتخذ النبي وصحابته الكِرام قدوة لك إلا إذا كنت ترجو الله واليوم الآخر، لا يمكن أن تتخذ النبي أسوةً حسنةً وقدوةً لك إلا بشرط أن ترجو الله واليوم الآخر، لذلك هناك علاقة اسمها علاقة ترابطيّة، إن كنت ترجو الله واليوم الآخر فأنت حُكْمَاً تقتدي برسول الله، وإن كنت تقتدي برسول الله دائماً فأنت حُكْمَاً ترجو الله واليوم الآخر، أنا أطمئنك، كل واحد منَّا يتَّبع النبي في أقواله وأفعاله، وفي حركاته وسكناته، وفي إقامته وسفره، وفي سروره وحزنه، كل واحد منَّا يفعل ما يفعله النبي فهو حُكْمَاً وقطعاً ممن يرجو الله واليوم الآخر، وإذا كنت ترجو الله واليوم الآخر فأنت قطعاً تتخذ النبي أسوة لك، وهذا شيء أساسي.

المؤمن الصادق إذا قرأ شيئاً عن رسول الله أو عن صحابته تذوب نفسه إعظاماً لهم:

أنا قلت أن هناك شيئين أساسيين وهما: البراء والولاء، والقدوة الآن، توجد موضوعات كُبرى في الدين، هذه ركائز الإيمان، فلان مؤمن، فأنت إذا قلت: فلان مهندس هل هو لا يعلم ما المثلَّث؟ لا يعلم ما الخط المستقيم؟ لا يعلم تحمُّل الإسمنت؟ مستحيل لأن هذه بديهيات الهندسة، إذا قلت: إنسان يحمل لسانس في اللغة العربية هل من الممكن ألا يعلم ما حركة الفاعل؟ إذاً هو كذَّاب، حركة الفاعل لا تعرفها؟ إنسان يحمل لسانس في الرياضيات لا يعرف الضرب والجمع والتقسيم والطرح؟ هذا مستحيل، هذه بديهيات، بديهيات المؤمن الولاء والبراء، بديهيات المؤمن الأسوة الحسنة، من أسوتك؟ من قدوتك؟

تقلّد من؟ تتجه أنظارك إلى من؟ تعظّم من؟ تذوب أمام من؟ المؤمن الصادق إذا قرأ شيئاً عن رسول الله أو عن صحابته الكِرام تذوب نفسه إعظاماً لهؤلاء الرجال، أما أهل الدنيا فتذوب أنفسهم على لاعب الكرة الفلاني، الممثل الفلاني، المغنّي الفلاني، ذائبون في حبِّهم، قل لي بمن تقتدي أقل لك من أنت، هذه الآية الأولى..

من يكفر بالله فالله غني عنه :

(وَمَنْ يَتَوَلَّ)

يتولّى عن أن يكون النبي قدوة له، يتولّى أن يدير ظهره لهذه السنَّة، ولهذه السيرة، ولهذا الإنسان العظيم..

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله غنيٌّ عنكم..

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

(وَمَنْ يَتَوَلَّ)

يتولّى عن أي شيء؟ يتولّى عن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلّم قدوةً له، الآية هنا يتولّى عن أن يكون إبراهيم عليه السلام ومن معه قدوة له في الولاء والبراء، إذاً يوالي الكفَّار ويبتعد عن المؤمنين، إنه تولّى عن أن يكون هذا النبي العظيم قدوةً له، خيراً إن شاء الله؟..

الله عز وجل غني عنا لكن لا يعاملنا إلا معاملة نحمده عليها :

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

غنيٌّ عنك وعن ولائك وعن برائك، وغنيٌّ عن طاعتك، وغنيٌّ عن عملك، ومع أنه غنيٌّ عنك لا يُعاملك إلا معاملةً تحمده عليها، هذا معنى غنيٌّ حميد، إذا كان هناك إنسان غني عن الآخر قد يسيء إليه، غنيٌّ عنك ولا يعاملك إلا معاملة تحمده عليها، ليس هو غنياً منتقماً، إنه غنيٌّ حميد، هو مستغن عنك، أحياناً الإنسان يخدمك لأن له علاقة معك، له مصلحة معك، أما إنسان يخدمك وليس له مصلحة معك أبداً فهذا موضوع كبير كثير، إنسان يقدِّم لك كل شيء وهو غنيٌّ عنك فإن هذه بطولة، أكثر الناس بالحاسَّة السادسة مصلحته مع فلان، تجد في تصرفاته معه احتراماً، و إكراماً، ومداراة، ومودَّة، أما

متى تكون المودَّة في أعلى مستوياتها، المودَّة والإكرام؟ إذا كنت غنياً عنه، غنياً عنه وتقدِّم له كل شيء، هذه أخلاق الله عزَّ وجل..

(وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

غنيٌّ لكن لا يعاملنا - وهو غنيٌّ عنَّا- إلا معاملة نحمده عليها.

عداوة المؤمن عداوةٌ طارئة لا عداوةٌ أصيلة :

أيها الأخوة، مرَّة ثانية وقد ذكرت هذا في الدرس الماضي أنَّ عداوة المؤمن عداوةٌ طارئة لا عداوةٌ أصيلة، المؤمن الصادق إنساني وربَّاني، ربَّاني يستمد كل توجيهاته من الله، لا يوجد عنده مصدر آخر آمر، لا توجد تقاليد، ولا عادات، ولا لباقة، ولا أدبيّات، ولا اجتماعيات، فهذه كلّها كلمات ما أنزل الله بها من سلطان، إنه يتحرَّك وفق توجيهات الله، لذلك في بعض الأحاديث:

((إذا لم تستح فاصنع ما شئت))

[أخرجه البخاري عن ابن مسعود]

هذا الحديث يُفهَم فهماً وله فهمٌ آخر، من بعض معاني هذا الحديث أي إذا كنت لا تستحي من الله في هذا العمل افعله ولا تعبأ بأحد، مثلاً لو إنسان له زوجة لا تُنجِب أو زوجة مريضة، وهو يستحي أن يتزوّج بأخرى، وهذا الشيء من حقَّه إلا أنه بدأ يمنة ويسرة، صار له علاقات، وصار له عشيقات، أما اجتماعياً فله زوجة واحدة، لا.. تزوج امرأةً ثانية وفق منهج الله وكن مستقيماً.

شيءٌ آخر: أي شيء إذا كان الله راضياً عنه افعله ولا تعبأ بأحد، إذا لم تستح من الله في هذا العمل إذا كان وفق منهج الله افعله ولا تعبأ بأحد، أما أن نعصي الله سرَّاً من أجل الحفاظ على مكانتنا أمام الناس فإن هذا شركٌ كبير، فلذلك ليس في حياة المؤمن عداوةٌ دائمة، عداوات المؤمن طارئة، المؤمن لا يكره أحداً، إن كره الكافر كره عمله فقط، فلا يوجد عنده حقد، فالحقد من صفات المقطوعين عن الله، الأحقاد الدفينة من صفات غير المؤمنين، الأحقاد الثابتة من صفات المتفلّتين، أما المؤمن فلا يحقد، أما النبي عليه الصلاة والسلام فيبكي لشقاء الكافرين:

((لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً))

[أخرجه الحاكم عن أبي الدرداء]

أي إذا أحد الأشخاص وَجَّه لك كلمةً قاسية، أو دفعك بصدرك، وأُتيح لك أن تنال منه، إنك قد تفعل فيه الأفاعيل، أما أن يذهب النبي إلى الطائف، وأن يُكذَّب، وأن يُسْخَر منه، وأن يُضرَب، ثم يأتي جبريل ليقول له: لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، فيقول:

((بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن عائشة]

دعا لهم واعتذر عنهم وتمنى أن ينجبوا أولاداً مؤمنين، هذه النبوة .

أنت عندك إمكانية أن تحبَّ الكافر؟ أن تحبَّه لأنه إنسان، وأن تكره عمله لأنه كافر، هذا حال المؤمن، لا يوجد عنده حقد..

المؤمن لا يحقد أبداً :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ*وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[سورة الشورى: 39-40]

إذا غلب على ظنِّك أن عفوك عنه يقرِّبه من الله، يعفو ويصفح ولا يحاسِب، لأن الحقد غير موجود، وهذا من أخصِّ خصائص المؤمنين. مثلاً إنسان يرتكب كل المعاصي جهاراً، رأيته في المسجد تائباً، إن لم تشعر إنه أقرب الناس إليك وأنك تتمنَّى أن تقدِّم له روحك فأنت لست مؤمناً، قبل يوم كان شارب خمر، منحرف الأخلاق، مغتصب أموالاً ليست له، فلمَّا رأيته تائباً منيباً إن لم تشعر أنه أقرب الناس إليك، إن لم تتمنّ أن تعطيه كل شيء فأنت لست مؤمناً، هكذا المؤمن، لهذا قال الله عزَّ وجل:

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

عِكْرِمَةُ بن أبي جهل من ألدِّ أعداء رسول الله، ناصبه العِداء عشرين عاماً، ولمَّا دخل النبي مكَّة أَهْدَرَ دمه ولو تعلَّق بأستار الكعبة، ثم إنه جاء تائباً مُسْلِمَاً، فصار أقرب الناس إلى النبي، وفي بعض المعارك نزل عن فرسه ودخل بين صفوف الكفَّار، فقال له سيدنا خالد:" ارأف بنا يا عكرمة، فقال له: دَعْك عنّي يا خالد لك مواقف مع رسول الله أنا أكفِّر عن ذنوبي السابقة ".

إنسان عنده من الحقد ما لا سبيل إلى وصفه ويقول: " آه لولا أطفالٌ صغار أخشى عليهم العَنَتْ، ولولا ديون ركبتني لا أُطيق سدادها لذهبت وقتلت محمَّداً وأرحتكم منه "، هذا نفسه حينما أسلم قال عنه عمر: " دخل عمير والخنزير أحبَّ إليَّ منه وخرج من عنده وهو أحبُّ إليَّ من بعض أولادي "، هذا هو المؤمن إنه لا يحقد أبداً، يتألَّم من عمل الكافر، يتألَّم من الكذب، يتألَّم من أكل المال بغير حق، يتألَّم من الكبر، أما حينما تؤمن فانتهى الأمر..

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً)

بناءً على هذه الآية لا تيئس من هداية أحد.

الصُلْحَة بلمحة :

والله أيها الأخوة أُنَاسٌ كثيرون في عُمرِ هذه الدعوة.. هذه الدعوة عمرها عشرون عاماً.. أناسٌ كثيرون أكثر من عشرين أو ثلاثين إنساناً يقول بعضهم لي: أستاذ ليس هناك معصيةٌ تعرفها إلا ارتكبتها؛ شرب خمر، على زنا، على قِمار، على ارتياد نواد ليلية، على إنكار، ثم لمَّا تاب إلى الله توبةً نصوحة صار كالملائكة، لا تيئس، لا تيئس من هداية أحد، المؤمن نفسه طويل، وحينما ترى إنساناً متفلّتاً بعيداً تائهاً شارداً قد عاد إلى صفِّ المؤمنين، وانضوى تحت لوائهم، وأحبَّهم وتاب إلى الله، يدخل على قلبك من السرور ما لا سبيل إلى وصفه، لا تيئس، عندي عشرات بل بضع عشرات من الحالات:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الزمر: 53]

إنسان مسرف على نفسه في المعصية، الصُلْحَة بلمحة:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

فأجمل شيء قاله النبي في هذا الموضوع، إنه قدَّم صورة إنسان يركب ناقته يقطع بها الصحارى، عليها زاده وشرابه، أراد أن يستريح قليلاً فجلس تحت ظلّ نخلةٍ ليستريح، فاستيقظ فلم ير الناقة، وهو في قلب الصحراء، أيقن بالهلاك، جلس يبكي ثم يبكي ثم يبكي إلى أن أدركه النُعاس فنام فأفاق فرأى الناقة، من شدَّة فرحه اختلَّ توازنه فقال: " يا رب أنا ربُّك وأنت عبدي "، الشاهد يقول عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

هذا وصف النبي.

كل إنسان مطلوب لرحمة الله عز وجل :

إذا قال العبد: يا ربِّ وهو راكع، قال: لبيك يا عبدي، إذا قال العبد: يا ربِّ وهو ساجد، قال: لبيك يا عبدي، أما إذا قال العبد: يا رب وهو عاصٍ، فقال الله له: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك، أي:

((....وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذا وصف النبي وهو حديثٌ صحيح، أي أن الله ينتظر منك بادرة، ينتظرك..

"يا داود لو يعلم المعرضون انتظاري لهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطَّعت أوصالهم من حبّي، ولماتوا شوقاً إليّ، يا داود هذه إرادتي بالمعرضين فكيف إرادتي بالمقبلين؟! ". أنت مطلوب، مطلوبٌ لرحمة الله، الله ينتظرك..

إلى متى وأنت في اللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

وجدناك مضطراً فقلنا لك ادعُنا نُجبك، فهل أنت حقاً دعوتنا؟

دعوناك للخيرات أعرضت نائياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا؟

فيا خجلي منه إذا هو قال لي أيا عبدنا ما قرأت كتابنا ؟

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى؟ أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا ؟

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

***

فهذه الآية الكريمة:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد: 16]

إلى متى؟! لمَ لا تتوبوا توبةً نصوحاً؟ لمَ لا تصطلحوا مع الله عزَّ وجل؟.

الحلم سيد الأخلاق :

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

كلمة والله قدير، الإنسان مُهَيَّأ للهدى، مصمَّم ليهتدي إلى الله، فطرته تدعوه إلى الهدى، عقله يدعوه إلى الهدى، واقعه يدعوه إلى الهدى، النقل الصحيح يدعوه إلى الهدى، أحياناً تنشأ مشكلة تضطرَّه إلى الهدى، فأنت لا تيئس مهما رأيت عداوةً،وانحرافاً، وبعداً وتفلُّتاً، واستخفافاً، واستهزاءً، كن حليماً، كاد الحليم أن يكونَ نبيَّاً، الحلم سيد الأخلاق.

على المؤمن ألا يفكِّر أن ينتقص من المؤمنين ولا أن يطعن بهم ولا أن يعاديهم :

يوجد شيءٌ آخر دقيق جداً..

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

فلو كان هناك إنسان غير ملتزم؛ لا يصلّي، لا يغضُّ بصره، لا يتحرَّى الحلال في دخله، لكنه لا يعادي المؤمنين، لا يُسَفِّههم، لا ينتقص منهم، لا يطعن فيهم، بل إنه يقول: والله أنتم أحسن منّي لكن أنا لا أقدر أن أمشي مثلكم، له موقف ود، موقف إكبار، موقف مسالم.. الحد الأدنى.. لا يفكّر أن ينتقص من المؤمنين ولا أن يطعن بهم، ولا أن يعاديهم قال: هذا لابدَّ من أن تُحسِن إليه، من أن تصله.

توجد نقطة دقيقة جداً: مجموعة ممن يعملون في فنٍّ رخيص في بلد عربي تابوا إلى الله واستقاموا على أمره وصلح أمرهم، زميل لهم طرق بابهم فاستقبلوه، عاش معهم فرأى من إخلاصهم، من استقامتهم، من طهرهم، الإنسان التائب إنسان آخر، الحقيقة عندما يتوب الإنسان توبة نصوحة بالتعبير الدارج- قلبَ مئة وثمانين درجة- كان له ميول، كان له اهتمامات، كان له أصحاب، صار إنساناً آخر، فأنت إن كان لك صديق قديم، أنت هداك الله وتاب عليك، وقرَّبك وأكرمك، وفتَّح لك قلبك، ونوَّر لك عقلك، وتجلَّى على قلبك وأسعدك ووفَّقك، وزارك صديق قديم متفلّت، إذا لم تستقبله، وتكرمه، وتطلعه على حالك الجديد كيف تغريه بالهدى؟ إنسان لا يعاديك قال:

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ)

لا قاتلك، ولا هاجمك، ولا انتقدك، ولا سَفَّهك، ولا حقد عليك بل بالعكس قال لك: أنت أحسن منّي، أنا مقصِّر، أنا ليس لدي إمكانية لأكون مثلك، أرجو أن يتوب الله عليَّ، طبعاً هذا الإنسان غير ملتزم، هذا يجب أن تصله، أن تكرمه، أن تعينه على الشيطان، أن تكون عوناً له على الشيطان لا أن تكون عَوْنَاً للشيطان عليه، إذا جافيته وابتعدت عنه، خاصمته، وهاجمته، انتقدته، وبَّخته، صغَّرته أمام الناس، قلبته إلى عدو، هذا غلط، أما إذا كان يعاديك فهذا موضوع ثان، أما هذا فلا يعاديك..

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ)

حاجة الدعوة إلى الله إلى حكمة بالغة :

أحياناً يكون في البيت أخوان، أخ ملتزم وأخ متفلّت، متفلّت ولسانه مضبوط، فإذا بالملتزم يقول لأخيه: أنت فاسق، أنت كافر، أنت كذا، إنك زدته كفراً وفسوقاً وعصياناً، إنه محترمك ولك هيبة عنده، أنت تغاضى عن بعض أغلاطه، أحسن إليه، اجلس معه وآنسه، بيّن له، اخدمه أحياناً فتملك قلبه، لن يُفتَح العقل قبل القلب، إن فتحت قلبه بإحسانك أصغى إليك، فتح عقله لبيانك، فالدعوة تحتاج إلى حكمة بالغة، إنسان مؤنس، عفو، لطيف، حكيم، لا يرفض الناس، لا يستعلي عليهم، ليس فوقهم، لا يملي إملاءً بل

إنه يحاور حواراً، الحوار فيه كرامة، الإملاء فيه استعلاء، وفيه موقف متغطرس، كثير من المؤمنين وأنا أعرف هذا كثيراً عندما تاب رأى نفسه فوق الناس، وبدأ يعمل نفسه وصياً على الناس، يوزِّع ألقاباً، هذا فاسق، وهذا آخرته إلى جهنَّم، من أنت؟ أنت عليك أن تكون أخاً كريماً لكل الناس، الآية دقيقة جداً، المسلمون لا يطبِّقونها، المسلمون أحياناً يعادون أناساً مؤمنين مثلهم لا لشيء إلا لأنهم من جماعاتٍ أخرى، فكم هم متخلِّفون؟ لا لشيء إلا لأنهم من جماعاتٍ أخرى، وكأن الإسلام جماعاتٍ جماعات..

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ)

أن تكونوا لهم بررة، أن تحسنوا إليهم، وتقسطوا إليهم، أن تكونوا منصفين معهم..

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

إنسان يخطِّط لإطفاء نور الله، يخطِّط للإفساد بين المؤمنين، يخطِّط لتفلت المؤمنين من دينهم، يخطِّط لإضعاف المسلمين، هذا لا ينبغي أن تعطيه ولاءك، الآن أكثر شبابنا يذهب إلى البلاد الغربية كل علمه وثقافته وذكائه واختصاصه يضعه على طبقٍ من ذهب ليقدِّمه لأعداء الأمَّة، أين ولاؤك للدين؟ فتغريه بعض الأمور، تغريه حياة راقية بمفهوم العصر، يقول لك: بيت رخيص، مركبة رخيصة، بلاد خضراء، كل شيء موجود، علاقات واضحة جداً، يضع كل خبرته، وكل علمه، وكل إمكاناته لخدمة أعداء المسلمين، هؤلاء الذين يقاتلوكم ويخرجوكم من دياركم ينبغي ألا تواليهم، وألا تكون في خدمتهم.

المجتمع ثلاثة أصناف :

من الملاحظ أننا في الولاء والبراء لم نخرج عنهما من أول آية وهي قوله تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً)

فالمؤمن إذا كان راقياً في معاملاته، برقيه، وذكائه، وحكمته، وطيب نفسه، وكرمه يجلب هؤلاء الحياديين، يوجد في المجتمع ثلاثة أصناف: مجتمع مؤمن، ومجتمع كافر، وهناك فئة حيادية لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء إنهم مع شهواتهم، لكن لا يوجد عنده موقف معاد للمؤمنين، ولا يوجد عنده موقف معاد للكافرين، فحكمة المؤمن وذكاؤه وإنصافه وإحسانه تجعل هذا الحيادي ينضم للمؤمنين، وأحياناً حمق الإنسان المقصِّر وعدم دقَّته في كلامه يجعل هذا الإنسان ينضم لهؤلاء.

يوجد شخص حيادي، كل حكمتك يجب أن تكون من أجل أن تضمَّه إليك، أما إذا قيّمته تقييماً سيئاً وقسوت عليه في القول ونبذته انضمَّ للآخرين، للطرف الآخر، يوجد طرف لا يغيّر، هناك طرفٌ الكفر مترسِّخ فيه، هذا لا يغيّر، ويوجد مؤمن، نحن جهودنا كلّها مع الطرف الحيادي، هذا الذي هو لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، هذا إذا كنت أنت حكيماً، كاملاً، منطقياً، عميقاً في تفكيرك، لطيفاً في معاملتك، سخيّاً في إنفاقك تستطيع أن تجلب هذا الطرف- هذا الإنسان الحيادي- إليك.

الأمر و النهي في القرآن الكريم :

إذاً هناك نهيٌّ وهناك عدم نهيٍّ.. لا ينهاكم، إنما ينهاكم..

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ)

(إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

ظالمون لأنفسهم، إذاً نَخْلُصُ من هذا الدرس إلى أن من أخصِّ خصائص المؤمن الولاء والبراء والاتباع، أن تتبع النبي الكريم في أوامره، وأن تتبع عما عنه نهى، وأن تقلّده في سيرته، وأن توالي المؤمنين، وأن تتبرَّأ من الكافرين، وألا تكون سبباً في فتنة كافر، ألا تعطي الكافر حجَّةً فيكفر بسببك..

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

وكل ما في القرآن الكريم يجب أن تبعده عن مناسبة وروده وأن تعمِّمه على كل العصور والأمصار، فهذه نماذج متكررة، أحياناً الإنسان يقرأ القرآن بعقلية خاصَّة أن هذا كتاب الله حدَّثنا بشيء وقع في عهد النبي وانتهى الأمر، إنه قلبه إلى كتاب تاريخ، هذا كتابٌ أمرنا الله أن نقرأه وأن نتعبَّده به، ويمثل كل حالات المجتمع؛ يوجد مؤمن ملتزم، كافر مترسِّخ في كفره، ويوجد حيادي، هذا الحيادي بذكاء المؤمنين وحكمتهم وإكرامهم له وتواضعهم وإنصافهم يضمُّونه إليهم، وبتصرُّفات غير ملتزمة، بكبر واستعلاء، بألفاظ قاسية يحملونه على أن ينضمَّ للطرف الآخر، فكل واحد يجب أن يسعى لتقريب هؤلاء الذين بينَ بين إليه، بإحسانه، وإكرامه، ومنطقه، وتسامحه حتى ينتشر هذا الحق بين كل الخلق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الممتحنة 060 - الدرس (4-5): تفسير الآية 10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-08-16

بسم الله الرحمن الرحيم

من لوازم معرفة الله أن تبحث عن أمره و نهيه و تخطب وده :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة الممتحنة، ومع الآية العاشرة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الله جلَّ جلاله كما ذكرت لكم من قبل يخاطب عامة الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروع الدين، أي يا من آمنتم بي، يا من أيقنتم بوجودي، أيقنتم بكمالي، أيقنتم بوحدانيتي، يا من عرفتم منهجي، افعلوا كذا وكذا، بعد أن تعرف الله ليس للمؤمن شغلٌ إلا أن يعرف أمره، عرفته عليك أن تتقرَّب إليه، الشيء العظيم يُقْصَد، يبتغى، يخطب وده، فمن لوازم أن تعرف الله أن تخطب وده، من لوازم أن تعرف الله أن تبحث عن أمره ونهيه، من لوازم أن تعرف الله أن تتقرب إليه، فالحركة الطبيعية أن تعرف الله أولاً ثم تتقرب إليه ثانياً، ما الشيء السريع الفَعَّال في التقرب إليه؟ أن تطيعه..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

طاعة الله أكبر شيء يقرب الإنسان من ربه :

إذاً أكبر شيءٍ يقربك إليه طاعته، من هنا قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 13]

أقربكم إلى الله أكرمكم عليه، أسعدكم به، أشدكم طاعةً له، لذلك أيها الأخوة لما سيدنا عمر قال لسيدنا سعد بن أبي وقاص: " يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له ".

وطاعة الله بين يديك مبذولة، من عظمة الله، ومن كرمه، ومن سعة فضله، أن كل إنسانٍ بإمكانه أن يتقرب إلى الله، لكن العظماء من بني البشر ما كل إنسانٍ بإمكانه أن يدخل عليهم، وهناك أشخاص لا يمكن أن يصلوا إليه، عظماء البشر، أما ربنا جلَّ جلاله فكل إنسانٍ بإمكانه أن يتقرَّب إليه، وأن يدخل

عليه، لأن العلاقة مع عباده الله جد، يا عبادي بطاعتي تتقربوا مني، فقط بالطاعة وحدها، والأمر معروف، فلا توجد أوامر غير معروفة لم يعط سرها لأحد.. لا..

((الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يدري كثير من الناس، أمن الحلال هي أم من الحرام، فمن تركها استبراءً لدينه وعرضه، فقد سلم، ومن واقع شيئاً منها يوشك أن يُواقع الحرام))

[رواه البخاري عن النعمان بن بشير]

المؤمن الصادق الذي عرف الله يَجِلُ قلبه ويقشعرُّ:

لذلك المؤمن الصادق الذي عرف الله، والذي عرف عظمته، والذي أيقن بكل خليةٍ في جسمه، وبكل قطرةٍ في دمه بوجوده، وكماله، ووحدانيته إذا قرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يَجِلُ قلبه، ويقشعرُّ جلده، ويقول: سمعاً وطاعةً يا رب، بل إن المؤمن في الصلاة حينما يقول:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة: 5-7]

يقرأ آياتٍ من كتاب الله، وكأن هذه الآيات هي الصراط المستقيم، هي الأمر الإلهي افعل ولا تفعل، معنى ذلك أن من لوازم معرفة الله أن تُسارع إلى طاعته، أن تبحث عن أمره ونهيه، أن تبحث عن شيءٍ يقرِّبُكَ إليه، طاعته أكبر شيءٍ يقربك إليه، الأعمال الصالحة ثاني أكبر شيءٍ يقربك إليه، دوام الوجهة إليه ثالث أكبر شيءٍ يقربك إليه، الإخلاص له، العمل على خدمة عباده، هذه كلها تقربك إلى الله عزَّ وجل، لذلك المؤمن ليستعد إذا قرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ربنا عزَّ وجل يقول: يا من آمنتم بي ألم تؤمنوا بي؟ يا من آمنتم بي هذا أمري، أي تقربوا إلي بطاعتي، هذا أمري.

من شعر أنه في ظل الله فقد سعد في الدنيا و الآخرة :

لذلك أخواننا الكرام إذا قرأت القرآن ينبغي أن تقف مَلِيًّا عند قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

[سورة التحريم: 8]

قولوا للناس حُسْنَاً، غضوا أبصاركم، كونوا صادقين، لا شيء يسعد القلب كأن يشعر الإنسان أنه في ظل الله، وأنه في رضاه، وأن الله وليه يدافع عنه، ويوفقه، وينصره، ويقربه.

الأعمال بالنيات :

الحقيقة أيها الأخوة، أن صلح الحديبية قد تحدثنا عنه في العام الماضي بشكلٍ مفصل حينما وردت أحداث هذا الصلح في سورة محمدٍ وسورة الفتح، وقد ذكرت لكم تفاصيل هذا الصلح، فمن بنود هذا الصلح أنه إذا جاء أحدٌ من المشركين إلى النبي عليه الصلاة والسلام ينبغي أن يردَّه النبي، أما إذا ذهب أحدٌ من المسلمين إلى المشركين فليس على قريش أن ترده إلى النبي، الصحابة الكرام رأوا في هذا الاتفاق ضعفاً في جانب المسلمين، لكن النبي أخبرهم أنه ينفّذ أمر الله، إلا أن هذا الأمر لا ينطبق على النساء، إذا جاء إنسانٌ أسلم من عند المشركين على النبي أن يرده، والحقيقة كانت هناك حكمة بالغة من أن النبي ردَّ كل من جاءه مسلماً من قِبَل المشركين، هؤلاء قطعوا الطريق على قريش وأقلقوها قلقاً شديداً، لذلك جاء وفدٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام يرجو رسول الله أن يقبلهم، والقصة طويلة ومعروفة عندكم، إلا أن هذا البند من اتفاقية محمد صلى الله عليه وسلم مع قريش لا ينطبق على المرأة، لأن المرأة تحت زوجها، هو يقودها، فإن لم يكن مسلماً قادها إلى النار، لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ)

قد تأتي امرأةٌ زوجها مشرك أو كافر إلى النبي عليه الصلاة والسلام، كان عليه الصلاة والسلام يستحلفُها: لعلها غاضبت زوجها فأرادت الهروب منه، لعلها أرادت المدينة، أرادت أرضاً بأرض، لعلها، لعلها، فإذا أقسمن بالله أنهُن ما جئن إلى المدينة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله فكان عليه الصلاة والسلام يقبل منهن ذلك، إلا أن هذه الآية تعلمنا الشيء الكثير، المسلم بحسب محبته للحق، بحسب غيرته على الدين، بحسب حرصه على هداية الناس جميعاً، لو جاء رجل غير مسلم وقال له: أنا أسلمت. هذا المسلم طبيعيٌ جداً أن يفرح فرحاً شديداً وأن يعطيه روحه، ولكن لا ينبغي للمسلم أن يكون ساذجاً، هذا الذي أسلم لعله أسلم من أجل امرأةٍ يتزوَّجها، لذلك كان هناك رجل اسمه مهاجر أم قيس- سماه المسلمون مهاجر أم قيس لأنه أحب امرأةً اسمها أم قيس- هذه المرأة التي أحبها اشترطت عليه ليتزوجها أن يهاجر إلى المدينة، فهاجر لا مرضاةً لله ورسوله ولكن هاجر من أجل أن يتزوَّجها، فكان اسمه عند المسلمين مُهاجر أم قيس، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه))

[متفق عليه عن عمر بن الخطاب]

العمل الكثير والقليل ينفع مع الإخلاص :

أحياناً ينضم إنسان إلى مسجد يقول لك: أنا لي مصلحة في هذا الانضمام، أنا يثق الأخوة بي، يشترون من عندي، تزداد مبيعاتي، أربح، هذا الذي انضم إلى المسجد لم ينضم لله ورسوله، انضم إليه لدنيا يصيبها، أو لامرأةٍ ينكحها، أو لمصلحةٍ يحققها، فالإخلاص الإخلاص أيها الأخوة المؤمنون، الإخلاص الإخلاص لأن العمل الكثير والقليل ينفع مع الإخلاص، ولأن العمل الكثير والقليل لا ينفع من دون إخلاص، فكلمة:

(فَامْتَحِنُوهُنَّ)

يقول لك: أنا أسلمت، اسأله لماذا أسلمت؟ لا يوجد جواب، هذا الذي ينتقل من دين إلى دين، لابد أن في الدين الجديد أشياء كبيرة جداً، مقنعة جداً، ثمينة جداً، أين هذه الأدلة؟ أين هذه البراهين؟ أين هذه الحجج؟ لذلك المؤمن كيس فطنٌ حذر، " المؤمن ليس بالخب ولا الخب يخدعه "، يقول الإمام الشافعي: ما خدعني أحدٌ مرتين، مؤمن ساذج، بسيط، محدود، يضحكون عليه، هذا لا يليق بالمؤمن، فالمؤمن أحياناً يقول لك: أسلمت، لماذا أسلمت؟ المسلمون ضعاف، ومظاهر التخلُّف متفشية في بلادهم، لماذا أسلمت؟ لابد من أن تقنعني.

المؤمن كيس فطن حذر :

كأن هذه الآية ننطلق منها إلى حقيقةٍ عامة: لا تقبل من إنسان أن ينضم إليك بسذاجة، بلا دليل، بلا مبرر، بلا مسوِّغ، إنسان من فرنسا أعلن إسلامه، وضَجَّت له الدنيا، واستضافه المسلمون في شتى بقاعهم، وأقاموا له الاحتفالات، ورحَّبوا به، ودعوه لإلقاء محاضرات في الجامعات، وأشادوا به، وكتبوا المقالات تلو المقالات، ثم يفاجئنا قبل حين بمقابلةٍ في مجلةٍ يقول: " أنا لا أصلي، صلاتي تأملٌ في خلق الله، أنا لا أصوم صيامي تركٌ للمنكر، أنا أحتقر الفقهاء جميعاً كلهم أغبياء، أنا وأنا "، مقالة، فهذا الذي ضحك على أكثر الناس الله جلَّ جلاله يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ)

وقد روي أنه كان يشرب الخمر وما تركها، بل قال: إنني لست مسلماً، وهذه الدعوات التي تلقَّاها، وهذه المحاضرات التي ألقاها، وتلك الكتب التي ألَّفها، وهذه الضجة التي أحدثها، هكذا ببساطة، المؤمن كيسٌ فطنٌ حذر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ)

أشخاص كثيرون جاؤوا من فرنسا وقالوا: نحن أسلمنا، فلما سألناه لا تجد جواباً، ثم تبين أنه ليس مسلماً، جاء لمصلحة، المؤمن كيس فطن حذر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء: 71]

سوء الظن عصمة :

الحزم سوء الظن، احترس من الناس بسوء الظن، سوء الظن عصمة، كان عليه الصلاة والسلام يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي بشره عن أحد، أنا أقول لك: كن لطيفاً، كن دمثاً، كن باشَّ الوجه، ولكن لا تكن ساذجاً، قد يأتي بمهمةٍ لا نعرفها نحن، قد يرسل بمهمة ليست في صالح المسلمين والعرب، لا تكن ساذجاً، قد يأتي مستطلعاً، قد يأتي ليكشف بعض الحقائق الخفيَّة، فلذلك أنا خرجت من هذه الآية المتعلقة بحدثٍ في حياة النبي إلى قاعدة عامة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ)

طبعاً يقول الله عزَّ وجل:

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ)

أي أن الله وحده ولا أحد سواه هو الذي يعلم الحقيقة، أنا أقول لكم هذه الحقيقة: إن تقييم الأشخاص من شأن الله تعالى، نحن لنا دلائل، نراه يصلي، نراه يغضُّ بصره، نراه لا يكذب، الصدق دليل، والصلاة دليل، وغض البصر دليل، هذه علامات، لكن الحقيقة الكاملة لا يعرفها إلا الله.

سيدنا الصديق لما ولى سيدنا عمر بعض الصحابة وَجِلوا، سيدنا عمر شديد، قالوا له: وليت علينا عمراً؟! فقال سيدنا الصديق: " أتخوفونني بالله، والله أقول له: يا رب لقد ولَّيت عليهم أرحمهم، قال: هذا علمي به فإن بدل وغيَّر فلا علم لي بالغيب ". انظر إلى التحفظ، هذا علمي به فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب.

الحقيقة الكاملة لا يعرفها إلا الله عز وجل فعلى الإنسان ألا ينخدع :

فأنا أردت من هذه الآية أن الإنسان لا ينخدع، فهناك حوادث كثيرة، إنسان جاء من بلد إلى بلد لا ليؤمن ولا ليسلم ولكن ليستطلع، ليكن عين قومٍ آخرين علينا، كن يقظاً، كل إنسان يجب أن يكون يقظاً على مصالح أمته، على مصالح وطنه، على مصالح المسلمين، أما هذه السذاجة والبساطة فلمجرَّد أن

قال: أنا مسلم. نصدقه! نرحب به أشد الترحيب!! نكشف له كل أوراقنا!! نطلعه على كل صغيرةٍ وكبيرة؟ لا..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ)

أنت لك الظاهر.

الفيصل والضابط بين أن يكون سوء الظن عصمة وبين أن يكون إثماً :

بالمناسبة متى يكون سوء الظن إثماً؟ قال تعالى:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

ومتى يكون سوء الظن عصمة؟ النبي يقول: سوء الظن عصمة، وربنا عزَّ وجل يقول:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

الفيصل بين المعنيين، أنه إذا كان هناك دلائل تثير الشك عندئذٍ يكون سوء الظن عصمة، دلائل تثير الشك، أما إذا كان هناك دلائل تثبت حسن النيَّة، فسوء الظن إثم، هناك دلائل تثبت حسن النية، لا يوجد أي شيء يثير الشك سوء الظن إثم..

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

أما هناك دلائل تثبت أن هذا الإسلام ليس صحيحاً، ما تكلم بشيءٍ يدعو أن يترك دينه لدينٍ آخر، إذا لم يكن هناك دلائل قوية يُعَدُّ سوء الظن عصمة، هذا هو الفيصل والضابط بين أن يكون سوء الظن عصمة، وبين أن يكون سوء الظن إثماً، قال تعالى:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

سوء الظن عصمة، والحزم سوء الظن، واحترس من الناس بسوء الظن، وقال تعالى:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

هناك دلائل مريبة: سوء الظن عصمة.. لا يوجد ولا دليل مريب سوء الظن إثم من الآثام..

المؤمن طفلٌ كبير يجمع بين طهر الأطفال و عقل الكبار :

(فَامْتَحِنُوهُنَّ)

أحياناً يأتي إلى المسجد لأول مرة وله طلبٌ كبير، تسأله: منذ متى أنت في المسجد؟ يقول لك: هذا أول درس. معنى ذلك أنه جاء لمصلحة، جاء لمساعدة، جاء لمكسب، هو في واد وأنت في واد، الدين كله في واد، وأنت في وادٍ آخر، لكنه جاء لمصلحة، فالمؤمن عليه أن يكون يقظاً حذراً، لا ساذجاً ولا بسيطاً من النوع الذي يمكن أن تنطلي عليه حركات أهل الدنيا، سيدنا عمر له هذه الكلمة الرائعة يقول: " لست بالخب ولا الخب يخدعني "، أي لست من الخبث بحيث أخدع، ولا من السذاجة بحيث أُخدع، هذا هو الموقف، ثم إن الإنسان لا يحترم في المجتمع إذا كان ساذجاً، بسيطاً، سهل المأخذ، سهل المَنال، يمكن أن تنطلي عليه الحقائق، يمكن أن يضلل، يمكن أن يقع في الإيهام، إذا وقع في الإيهام، وضُلل، وانطلت عليه الحقائق، وكان ساذجاً، وانطلت عليه بعض الأكاذيب لا يعد هذا الإنسان مَحَطَّ إعجابٍ وتكريمٍ من الناس، الناس يعجبون بالذكي، يعجبون من دون خبث، هناك ذكاء مع خبث، ذكاء شيطاني، ذكاء مع مخادعة، ذكاء مع أحابيل، نريد عقلاً مع الطيب، مع اليسر، مع الطهر، مع البساطة، هذا هو المؤمن، لذلك قالوا: المؤمن طفلٌ كبير، يجمع بين طهر الأطفال، وذاتية الأطفال، وبراءة الأطفال، وفطرة الأطفال وبين عقل الكبار، وإدراك الكبار، ويقظة الكبار، وحرص الكبار "، أما الحقيقة الساطعة:

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ)

وحده..

الحقيقة الكاملة لا يعرفها إلا الله :

الحقيقة الكاملة لا يعرفها إلا الله.. مثلاً: هذا شيء من السيرة مهم جداً، الوحي كما تعلمون جاء النبي عليه الصلاة والسلام مئات المرات، بل بضع مئات المرات لأمور صغيرةٍ جداً، فلما أرسل حاطب بن بلتعة كتاباً إلى قريش كيف علم النبي بذلك؟ الوحي، لما ذهب إلى خيبر ليفاوضهم وأزمعوا أن يقتلوه بصخرةٍ من أعلمه؟ الوحي، لما جاء عمير بن وهب قال لصفوان: " لولا ديون لا أطيق سدادها، وأطفالٌ أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه. قال: امض لما شئت، أولادك هم أولادي، وديونك علي بلغت ما بلغت "، من الذي أعلم النبي بمقولة عمير؟ الوحي، بالسيرة هناك مئات الأمثلة عن أن الوحي نزل إلى النبي الكريم ليُعْلِمَهُ عن قضيةٍ من قضايا الدعوة، إلا أن الوحي مرةً لم ينزل، جاء قومٌ من بئر معونة طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام سبعين قارئاً ليعلموا قومهم القرآن، والنبي صدَّقهم وأرسل معهم سبعين قارئاً وفي الطريق ذبحوهم، لماذا لم يُعلم الله عزّ وجل نبيه الكريم بهذا؟ ليكون هذا درس لألف عامٍ قادمة أن النبي عليه الصلاة والسلام بشر لا يعلم بذاته إلا أن يُعلمه الله

تعالى، ليكون هناك فرق بين مقام الألوهية ومقام النبوة، النبي بشر إن أعلمه الله علم، وإن لم يعلمه لا يعلم قال:

((إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك]

حديثٌ آخر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((.....وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[البخاري ومسلم عن أم سلمة]

معنى ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيع، قد يكون أحد الخصمين ألحن بالحجة فيقضي له والحق مع غيره قال: إذا فعلت هذا فإنما أقضي له بقطعة من النار، أراد النبي أن توَحِّد، أن تكون مخلصاً لله وحده، إذاً على وجه اليقين، الحقيقة الكاملة عند الله وحده.

نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر :

لذلك إذا كلف إنسان أن يزكي إنساناً ليقل: أعلمه تقياً، أعلمه ورعاً، أعلمه مؤدياً للصلوات، أعلمه دقيقاً في معاملته، نقياً في ذمَّته، والله أعلم، هذا علمي به والله أعلم، دائماً إذا أردت أن تقيِّم الأشخاص تحفظ، تحفظ بعبارة، قل: والله أعلم، فعلها الصديق مع عمر بن الخطاب، قال: " أتخوفونني بالله، أقول: يا رب لقد وليت عليهم أرحمهم، هذا علمي به فإذا بَدَّلَ وغَيَّر فلا علم لي بالغيب "، لذلك قال تعالى:

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ)

أنتم امتحنوهن بالدلائل الظاهرة، من هنا، نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، رأيته يصلي معنى هذا أنه مسلم، رأيته يعلن الشهادتين معنى هذا أنه مسلم، حج بيت الله الحرام معنى هذا أنه مسلم، يؤدي زكاة ماله معنى هذا أنه مسلم، زوجته محجبة معنى هذا أنه مسلم، ليس في بيته منكر معنى هذا أنه مسلم- هذا كله تمثيل- هذا ليس عملك، لو قال لك أحدهم: هذا كله تمثيل، نقول له: نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، إذا لم يكن هناك أدلة صار سوء ظن، وسوء الظن إثم، أما إذا كان هناك أدلة يصلي ودخله مشبوه، معنى هذا أن صلاته لغايةٍ في نفس يعقوب، قال:

(فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ)

لأن الرجل غير المرأة، الرجل آمر، مسيطر، الأمر بيده، له القوامة، فلو أن امرأته لم تكن كافرةً على شاكلته كانت مسلمة، ربما ضغط عليها، ربما أجبرها على معصية الله، لذلك لا يصح أن تكون مؤمنةٌ تحت كافر أبداً.

افتراق الدين يفرِّق بين الزوجين :

لذلك:

(فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ)

افتراق الدين يفرِّق بين الزوجين، ولا سيما إذا كانت امرأة لأنها مفقودة وليست قائدة، زوجها قيمٌ عليها، زوجها هو الذي يأمرها.

(لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا)

انظر إلى عدالة الإسلام، هذا الكافر الذي تزوَّج كافرةً ودفع لها مهراً، فإذا بهذه المرأة تسلم، ثم تنتقل إلى بلاد المسلمين، إلى دار الإسلام مهاجرةً وامتحنت فنجحت وانضمت إلى المسلمين، فهذا الكافر كافر لكنه أنفق على زوجته ثم فقد زوجته صار هناك ظلم.

الدين لا يقوم على الظلم أبداً :

أخواننا الكرام، بالمناسبة لا يمكن لدينٍ أن يقوم على ظلم أبداً، سيدنا رسول الله عندما أرسل عبد الله بن رواحة، أرسله ليأخذ من ثمار خيبر بحسب اتفاقٍ جرى بين النبي وبين أهل خيبر، أرادوا أن يرشوه، فتلطفوا معه- لو قدر المحصول بأقل من ثلاثين بالمئة أعطوه النصف فوفروا- فقال هذا الصحابي الجليل الشاعر عبد الله بن رواحة: " والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الخلق إلي، وأنا أكرهكم كما أكره القردة والخنازير، ومع ذلك لا أحكم إلا بالحق، ولن أظلمكم ".

قال رجل لسيدنا عمر: " أتحبني؟ قال: لا والله لا أحبك، فقال له: هل يمنعك بغضك لي بأن تعطيني حقي؟ قال: لا والله حقك إليك "، لا تخف، هذا هو الإيمان.

إنسان هاجر إلى المدينة، في الطريق نصب له كمين من المشركين عاهدهم ألا يقاتلهم فأطلقوه، فلما قدم إلى النبي قصّ عليه ما جرى، فرح له النبي، وبعد سنواتٍ أزمع النبي أن يغزو المشركين، نسي هذا الصحابي وخرج مع النبي، قال:ارجع أنت ألم تعاهدهم؟ هذا دين، أي يجب أن تعامل الكافر بالعدل، والدليل:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)

[سورة المائدة: 8]

أي يحملنكم:

(شَنَآنُ قَوْمٍ)

[سورة المائدة: 8]

الشنآن هو البغض.

الإسلام دين العدل و الإنصاف :

من هم أعداء المؤمنين التقليديّون؟ الكفار، المشركون، المنافقون..

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

[سورة المائدة: 8]

إياكم أن تظلموا الكفار..

(اعْدِلُوا)

[سورة المائدة: 8]

أمر إلهي، مع هؤلاء، قال:

(هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

إن عدلتم مع هؤلاء يزدادون قرباً مني، ويزدادون قرباً منكم، ويزدادون قرباً من الحق، إذا المسلم كان منصفاً مع الكافر، أعطاه حقه بالتمام والكمال، من أدراك لعل إعطاءه حقه بالتمام والكمال يكون سبب إيمانه، من أدراك؟ من أدراك أن هذا الكافر حينما يرى مسلماً وقّافاً عند الحق، فصل العداوة والبغضاء عن الحقوق، يقول عليه الصلاة والسلام:

((اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب))

[متفق عليه عن عبد الله بن عباس]

اتقوا دعوة المظلوم فإن دعوته تصعد إلى الله كالشرارة ، هذا هو الإيمان، نحن لا يوجد عندنا إنسان مسلم نقول: هذا لا يوجد فيه دين اظلمه، كُلْ من ماله، لا تعبأ بحقّه، هذا ضد الإسلام يا أخي؟ لا..

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

هذا هو الإسلام، فهذا الصحابي الذي قال: " والله لن أظلمكم " قال زعماء خيبر: بهذا غلبتمونا.

من حق الزوج الكافر أن يسترجع مهر زوجته التي تركها لإسلامها :

الله عزَّ وجل لا ينصر إلا أهل الحق، ولو أن أهل الحق انحرفوا عنهم لخذلهم.

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

[سورة الحاقة: 44-47]

يا رسول الله مَثِّل بهم كما مثَّلوا بعمك؟ قال: والله لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً، هذا هو الدين، هل عندك استعداد أن تكون وقَّافاً عند الأمر والنهي هكذا؟ لذلك هذا الكافر الذي كفر بالله وناصب المؤمنين العداء، زوجته هاجرت إلى دار الإسلام، هو تزوجها وأنفق عليها مهراً، الآن ظُلِم، لذلك قال تعالى:

(وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا)

[سورة الممتحنة: 10]

من حق هذا الزوج الكافر أن يسترجع مهر زوجته التي تركها.

من تركت زوجها الكافر وانتقلت إلى دار الإسلام يسمح لها أن تتزوج من مسلم :

(وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ)

[سورة الممتحنة: 10]

لك أن تتزوَّجها، هذه بلا زوج، تركت زوجها الكافر وانتقلت إلى دار الإسلام، نعوِّض على زوجها بالمهر الذي دفعه ليتزوج غيرها، ونسمح لها أن تتزوج من مسلم طبعاً:

(إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

[سورة الممتحنة: 10]

والأجر هنا ما معناه؟ المهر فقط، لا كما يستنبط أنه شيءٌ آخر، الأجر هنا هو المهر.

(إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

[سورة الممتحنة: 10]

من كفرت كفراً بواحاً على المسلم تطليقها :

الحكم الجديد الثاني:

(وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ)

[سورة الممتحنة: 10]

أي إذا امرأةٌ كفرت كفراً بواحاً، لا تمسك بعصمتها، لا تبقها عندك، لماذا؟ لأنها ستربِّي أولادك على الكفر، القضية لها مضاعفات، سوف تفسد عليك أسرتك.

(وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا)

[سورة الممتحنة: 10]

أي لك أن تطالب بتعويضٍ عما أنفقت على زوجتك الكافرة، وللزوج الكافر أن يطلب بتعويضٍ عما فقد من زوجته المؤمنة، هذا حق.

(ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة الممتحنة: 10]

الشريعة عدلٌ كلها رحمةٌ كلها مصلحةٌ كلها :

أيها الأخوة، يستنبط من هذه الآيات أن الولاء والبراء والإيمان والكفر شيء والحقوق المادية شيءٌ آخر، نوضح لكم ذلك: مؤمنة، كافرة، كافر، مؤمن شيء، وأن هذا الزوج الكافر الذي دفع مهر زوجته ثم تركته إلى ديار الإسلام يجب أن نعوِّضَ عليه ما أنفق على زوجته التي تركته، هذا هو حكم الله، من هنا قال بعض العلماء: " الشريعة عدلٌ كلها، الشريعة رحمةٌ كلها، الشريعة مصلحةٌ كلها، فأية قضيةٍ خرجت من العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الرحمة إلى خلافها، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل ".

الشريعة عدلٌ كلها، الشريعة رحمةٌ كلها، الشريعة مصلحةٌ كلها، زوج السيدة زينب صهر النبي عليه الصلاة والسلام بقي مشركاً، وجاء ليقاتل النبي وأصحابه، ووقع أسيراً، فلما رآه النبي قال: " والله ما ذممناه صهراً "، أما هنا فهو أسير، وهو في مجلسه يأتي أخوه من مكة المكرمة يحمل قلادةً أرسلتها السيدة زينب زوجته بنت النبي لتفدي زوجها من بين يدي النبي، فبكى النبي، وقال لأصحابه: " إن شئتم أطلقوا لها أسيرها "، انظر إلى هذا التواضع، وضع نفسه مع صحابته، إن شئتم أطلقتم لها أسيرها، أطلقه أصحاب النبي وعاد إلى زوجته، فلما نزلت هذه الآية، طلب منه أن يطلقها وأن يرسلها، وأرسلها إلى النبي..

(لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ)

ثم إن هذا الرجل تاجر بأموال قريش، ووقع أسيراً في الطريق إلى الشام بيد أصحاب النبي واقتادوه وبضاعته إلى المدينة، عرضوا عليه أن يسلم، فإذا أسلم كل هذه الأموال غنيمةٌ للمسلمين، ماذا قال أبو العاص؟ والله قال كلمة رائعة جداً، قال: " والله ما كنت لأبدأ إسلامي بهذا "، بيده أموال قريش، هو تاجر، ألقي القبض عليه، مشرك، وقع أسيراً، لو نطق بالشهادتين لصار مسلماً وهذه الأموال كلها غنائم قال: والله ما أبدأ إسلامي بهذا، ثم أمر النبي أن يطلق سراحه ثانيةً، وعاد إلى مكة، وأدَّى جميع الحقوق، وبعد ذلك أعلن إسلامه، وعاد إلى المدينة ليتزوَّج زينب ثانيةً، هذا هو الإسلام، أما أروع كلمة قالها: " والله ما كنت لأبدأ إسلامي بهذا "، بأكل أموال الناس..

الإسلام لا ينتشر إلا بالعدل :

لو أن أبا العاص حينما عرض عليه أصحاب النبي أن يسلم فأسلم وضم هذا المال كله إلى المسلمين، بربكم هؤلاء كفار مكة المشركون هل يصدِّقون أنه أسلم حباً لله أم يتهمونه أنه أسلم ليأكل أموالهم؟ قال: والله ما أبدأ إسلامي بهذا، لذلك هذه الشريعة لا تقوم إلا على العدل، والعدل مع غير المسلمين، لأن الإسلام لا ينتشر إلا بالعدل، فإذا بني على الظلم الإسلام لا ينتشر.

سيدنا خالد لما أخذ الجزية من أهل حمص، ثم ارتأى أن يتركها لحكمةٍ عسكرية ماذا فعل؟ ردّ لهم الجزية، قال: أنا أخذتها لأحميكم، أما وقد انسحبت من أرضكم فلابد من ردها.

أهل سمرقند فتحت بلادهم ودخلها المسلمون وحكموها، ثم نمي إليهم أن دخول جيش المسلمين لم يكن وفق قواعد الدين، فأرسلوا سراً وفداً إلى عمر بن عبد العزيز يعرضون عليه أن بلدهم لم تفتح وفق قواعد الدين، قواعد الدين تقول: لابد من عرض الإسلام على هؤلاء، فإن قبلوه فهم منا ونحن منا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، فإن رفضوه، يعرض عليهم دفع الجزية، أن يبقوا على دينهم السماوي وأن تؤخذ منهم الجزية نظير إعفائهم من الخدمة الإلزامية- بدل نقدي- لأن جيش المسلمين لا يمكن أن يكون فيه إنسان لا يؤمن بعقيدته، يبدو أن هذا الجيش الإسلامي قاتلهم مباشرةً دون أن يعرض عليهم هذا، هذا الوفد جاء سراً إلى عمر بن عبد العزيز وأطلعه على الخبر، هكذا تروي الكتب: أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب على قصاصة قصيرة لقائد الجيش " أن أخرج من سمرقند "، جيش عرمرم دخل مدينة، واحتلها، وأقام فيها، واستقر، وخضعت له بكل ما فيها، يمكن أن يخرج هذا الجيش بورقة صغيرة؟ لم يصدقوا ذلك، بل ظنوا أن هذا الخليفة العظيم يداعبهم، فلما وصلوا إلى قائد الجيش أعطوه الورقة، فَقَبَّلَهَا وأعطى أمراً بالانسحاب، قالوا: لا، لا ابق نحن أسلمنا. فهذا الدين الذي بورقةٍ قصيرة يأمر الخليفة جيشاً كبيراً أن ينسحب من بلدةٍ دخلها حرباً، أنتم على حق ونحن مسلمون حقاً وحقيقةً، هذا الدين، الدين يبنى على العدل، لا تنسوا هذه المقولة: " الشريعة عدلٌ كلها "، لو صليت مليون ركعة وتظلم الناس فلست مسلماً، لا الصلاة تنفعك، ولا الصيام ولا الصيام النفل، ولا ثماني عشرة عمرة، وثلاث عشرة حجة، لا يساوي شيئاً..

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

((ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حجة بعد حجةِ الإسلام))

[ورد في الأثر]

الدين منهج كامل :

لذلك أيها الأخوة، موضوع الدين موضوع كبير جداً، الدين منهج كامل، أهم ما فيه العدل، أهم ما فيه الرحمة، الإنصاف، أن تحل مشكلات الناس، لا أن تؤدي العبادات وأن تبني مجدك على أنقاضهم، لا أن تقوم بالعبادات وأن تخدعهم، لا أن تقومك بالعبادات وأن تضلّهم.. لا..

(وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

إذا نِلْتُم من غنائم الكفار ولكم عند الكفار مبلغ لكم أن تقتطعوه من الغنائم قبل التوزيع، هناك مسلم له زوجة كافرة تركها لأنها كافرة، له عندها مهر، يمكن أن يأخذ المهر قبل توزيع الغنائم، هذا معنى الآية:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)

هذه الآيات إن شاء الله نشرحها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الممتحنة 060 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 10-13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-08-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى لم يخاطب النبي باسمه إطلاقاً لأنه سيّد الأنبياء :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والأخير إن شاء الله تعالى من سورة الممتحنة، ومع الآية الحادية عشرة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، نقف عند كلمات هذه الآية كلمةً كلمة، فالله سبحانه وتعالى لم يخاطب النبي باسمه إطلاقاً لأنه سيّد الأنبياء، قال:

(بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ)

[سورة الحديد: 27]

قال:

(يَا يَحْيَى)

[سورة مريم: 12]

(يَا نُوحُ)

[سورة هود: 46]

وليس في القرآن الكريم كلُّه قوله: يا محمَّد، لم يخاطب الله النبي صلى الله عليه وسلَّم باسمه إطلاقاً، خاطبه بصيغتين:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

[سورة التحريم: 9]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

[سورة المائدة: 41]

أما ذكر اسمه خبراً، فقال:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)

[سورة الفتح: 26]

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

[سورة آل عمران: 144]

تعظيم النبي وتوقيره جزءٌ من الدين :

هذا مما يتميّز به النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا نستنبط منه؟ أن تعظيم النبي وتوقيره جزءٌ من الدين، وجزءٌ من ديننا أيضاً أن نعرف نبيّنا، وأن نعرف مكانته ومقامه عند الله، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلّم قوله:

((سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا))

[أخرجه مسلم عن ابن عمر]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أنا سيد ولد آدم ولا فخر))

[مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

ونحن أتباع النبي، نحن أتباع سيِّد الأنبياء والمرسلين، إلا أن العلماء لهم عند هذه التبعية رأيٌ دقيق هو أن الذين ينتمون إلى النبي عليه الصلاة والسلام ينتمون إليه على طريقتين؛ انتماء تبليغ، وانتماء استجابة، فكل إنسانٍ ولد من أبوين مسلمين بلغته السُنَّة، بلغه القرآن فهو من أمَّة التبليغ، أما الذي استجاب لله وللرسول إذا دعاه لما يحيه فهو من أمَّة الاستجابة، وكل الميزات التي ذكرها الله عزَّ وجل لأمَّة محمَّد إنما هي أمَّة الاستجابة لا أمَّة التبليغ، أي أن كل الميزات التي مُنِحَت لأمة النبي عليه الصلاة والسلام لمن يتَّبع النبي..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران: 31]

دليل محبة النبي الكريم اتباعه و تطبيق سنته :

دعوى المحبَّة لا تُقبَلُ إلا بالدليل، دليلها اتباع النبي عليه الصلاة والسلام، والإنسان دائماً يميل إلى الإعجاب بعقله وإيمانه ولا يرضى عن رزقه، هذا الإعجاب إعجاب موهوم، لا تظنَّن إنك على حق إن لم تُطبِّق سنَّة النبي، لا تتوهَّم أنك تحبُّ الله عزَّ وجل إن لم تتبع النبي، لا تظننَّ أنك من أمة محمدٍ عليه الصلاة والسلام ما لم تكن مستجيباً لأمر الله ونهيه، أما أمة التبليغ فمثلها مثل بقية الأمم..

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية : 18]

هذه دعوى، يا سعدَ بن أبي وقَّاص، إذا قلنا: " يا سعدُ- على أنه مفرد عَلَم- لا يغرَّنك أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلُّهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له "..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

الله تعالى خاطب النبي عليه الصلاة والسلام تشريفاً له بالنبوّة والرسالة :

حينما تعتقد أنه لا نسب، ولا عُزْوَةَ، ولا جماعة ترفعك إلى الله إلا طاعتك له عندئذٍ وضعت يدك على جوهر الدين، فلذلك هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

[سورة التحريم: 9]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ)

[سورة التحريم: 1]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 1]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ)

إذاً خاطب الله النبي عليه الصلاة والسلام تشريفاً له بالنبوّة والرسالة، ولم يخاطبه باسمه كما خاطب بقية الأنبياء.

آياتٌ كثيرة يخاطب الله بها الأنبياء بأسمائهم :

وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة يخاطب الله بها الأنبياء بأسمائهم..

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم: 12]

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ)

[سورة المائدة: 166]

إذا كان الله سبحانه وتعالى يرفع قدر النبي إلى هذا المستوى..

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 1-4]

إذا كان الله تعالى رفع مقام نبيّه إلى أعلى مقام، فنحن من باب أولى أن نعظّمه، وأن نوقّره، وأن نصلي عليه.. صعد المنبر عليه الصلاة والسلام فقال: " آمين "، فصعد الدرجة الثانية فقال: "آمين "، فصعد

الدرجة الثالثة فقال: " آمين " وخطب ونزل، فلمَّا نزل سأله أصحابه: " يا رسول الله علامَ أمَّنت؟ " قال:

((جاءني جبريل فقال لي: رغِم أنف عبدٍ أدرك رمضان فلم يُغفر له، إن لم يُغفر له فمتى؟ فقلت: آمين، وجاءني في الثانية فقال: رغِم أنف عبدٍ أدرك والديه فلم يُدخلاه الجنَّة، فقلت: آمين، وجاءني في الثالثة وقال لي: رغِم أنف عبدٌ ذُكِرت عنده فلم يصلِّ عليّ، فقلت: آمين))

[الترمذي عن أبي هريرة]

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

[سورة الأحزاب: 56]

جزءٌ من الدين أن نعرف النبي عليه الصلاة والسلام :

أي أن الله عزَّ وجل يتجلَّى على قلب النبي تجليّاً يفوق كل تجلّ، أنتم إذا أردتم تجلي الله عزَّ وجل فاذكروا النبي، اتصلوا به، إن قرأت سيرته ذكرته، وإن صلّيت عليه ذكرته، وإن ذكرت شمائله صليت عليه، العبرة أن نتعرَّف إلى هذا النبي الكريم، إن أخطر إنسانٍ في حياتنا هو رسول الله لأنه القدوة التي جعلها الله لنا أسوةً، إنه الإنسان المعصوم بمفرده من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره وأحواله، فلذلك ينبغي أن نخصِّص وقتاً من وقتنا لمعرفة رسول الله، وأن نربِّي أبناءنا على حبِّ رسول الله، لا ينبغي أن نقول لهم: حِبُّوا رسول الله. لأن هذا كلامٌ لا معنى له، ينبغي أن نعلّمهم شمائله، رحمته، وعدله، محبَّته، إنصافه، إخلاصه، تواضعه، إذاً جزءٌ من الدين هو أن نعرف النبي عليه الصلاة والسلام..

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)

[سورة المؤمنون: 69]

ينبغي أن نعرف الرسول، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

مقام النبي عدم الانقطاع عن الله إطلاقاً :

بالمناسبة النبوّة مقام والرسالة مقام، النبوة مقام معرفة، والرسالة مقام تبليغ، ما كل نبيٍّ برسول، أما كل رسولٍ فنبي، مرَّةً حينما مرَّ سيدنا الصدِّق في الطريق فرأى حنظلة يبكي فقال: " ما لك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة، قال: لمَ يا أخي؟ قال: لأننا نكون مع رسول الله ونحن والجنَّة كهاتين فإذا عافسنا

الأهل ننسى- سيدنا الصديق من شدَّة تواضعه قال: أنا كذلك يا أخي انطلق بنا إلى رسول الله "- كلَّماه، فقال عليه الصلاة والسلام.. الآن دققوا:

((أما نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم بها عندي، لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم))

[أخرجه مسلم عن حنظلة]

معنى ذلك أن مقام النبي عدم الانقطاع عن الله إطلاقاً، موصولٌ بالله دائماً، مقام المؤمنين ساعةٌ وساعة، الصِدّيقون ثلاث وعشرون ساعة اتصال وساعة فتور، كلَّما قلت ساعات الاتصال زادت ساعات الفتور، لا أقول ساعات المعصية لأن المؤمن مستقيم.. إلا أنه ساعة إقبال وساعة فتور، ساعةٌ وساعة، أما الأنبياء فاتصال دائم.

((أما نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم بها عندي، لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم))

[أخرجه مسلم عن حنظلة]

تنزل الرحمات على من كان في مجلس علم مع إخوةٍ مؤمنين :

يوجد استنباط آخر من هذا الحديث: أنك إذا كنت في مجلس علم مع إخوةٍ مؤمنين أطهار طيّبين مقبلين على الله عزَّ وجل فالرَّحمات تتنزَّل على المجلس لأنه:

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

حفَّتهم الملائكة أي وفِّقوا في أعمالهم، غشيتهم الرحمة أي شعروا بسعادةٍ لا توصف، نزلت عليهم السكينة أي الطمأنينة، سعادة، وطمأنينة، وتوفيق، هذا إذا جلست في بيتٍ من بيوت الله تدرس أو تتدارس كتاب الله، كما قال الله عزَّ وجل في الحديث القدسي:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحُق على المزُور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

العلم يحتاج إلى مداومة و مثابرة :

هناك ملاحظة أتمنَّى أن تكون واضحةً لديكم: هناك أناسٌ يتعلَّمون العلم بشكلٍ عشوائي على الصُدَف، أي إنه حضِر عقد قِران فيسمع كلمة من خطيب الحفل، هذه الكلمات وهذا الحضور المُتَقَطِّع هذا لا يصنع إيماناً، وأوضح مثل: لو أن إنساناً اقتنى مجلَّة طبيَّة، وقرأ مقالات طبيَّة، وله أصدقاء أطبَّاء هل يُصبحُ طبيباً؟ مستحيل، ما لم ينل الشهادة الثانوية بمجموع معيَّن، وما لم يدخل كليَّة الطب ويدرس في السنة الأولى علوم عامَّة؛ تشريح، وفيزيولوجيا، وعلم أمراض، وعلم أدوية، ثم يدرس سنتين أو ثلاثة تطبيقات عملية، لا يكون طبيباً، شهادة ثانوية بمجموع عال جداً، دراسة منهجية، كتب مقرَّرة، أساتذة كبار، امتحانات ليكون طبيباً، أما الثقافة العشوائية سمع خطبة في زمانه، حضر كتاباً فألقى الخطيب كلمة مؤثِّرة، حضر درس علم بزمانه، فهذا لا يصنع إيماناً، العلم يحتاج إلى مداومة، إلى مثابرة، إلى تراكم، القناعات إذا تراكمت ولَّدَتْ طاعات لله عزَّ وجل.

تقريباً ومن باب التوضيح افرض أن الشهوات وزنها خمسة كيلو- قوَّة- شهوة المرأة، شهوة المال، شهوة العلو في الأرض، هذه الشهوات قِوى فاعلة في الإنسان، وحضرت خطبة خمسة غرامات، الشهوات خمسة كيلو، خطبة ثانية عشرة غرامات، فليس من الممكن أن تستقيم حتى تصبح قناعاتك خمسة كيلو، تحرَّك الميزان، دخلت بصراع، أفعل لا أفعل، أفعل هذا، لا لن أفعل هذا، عندما تستوي قناعاتك مع شهواتك تدخل في الصراع الإيجابي، أما إذا كنت قد طلبت العلم طلباً كثيراً، وصار عندك قناعات عالية جداً، دخلت في الأعماق- أي لا تعصي الله لو قُطِّعْتَ إرباً إرباً، لا تعصي الله ولو أُعطيت كل شيء- لو كانت الدروس طارئة وغير منتظمة، لقاءات غير محدَّدة، استماع نصف إصغاء، فهذا لا يصنع إيماناً قوياً يقف أمام الشهوات، الشهوات قِوى كبيرة جداً، مثلاً صخرة وزنها عشرة طن تسقط من السماء ما الذي يوقِفُها؟ هل يوقفها طبق ورق؟ لا، إنها أقوى من ذلك، فالقناعات هشَّة، مقاومة هشَّة، إيمان ضعيف، عدم يقين، هذا لا يحجز الإنسان عن شهواته، فلذلك العلم يحتاج إلى مداومة، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظنَّ أنه قد علِم فقد جهل..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

النبوَّة مقام معرفة أما الرسالة فمقام تبليغ :

النبوَّة مقام معرفة، أما الرسالة فمقام تبليغ، والنبي عليه الصلاة والسلام نبيٌّ، ورسولٌ، وسيّد الأنبياء، وسيد المرسلين، وسيد ولد آدم، وسيد المخلوقات أجمعين..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ)

تعلمون أنَّ إذا تفيد تحقُّق الوقوع، أما إنْ فتفيد احتمال الوقوع، والدليل قال تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر: 1]

ما معنى إذا جاء نصر الله والفتح؟ أي أن نصر الله سيأتي لا محالة، مجيئه حَتْمِيٍّ، أما إذا قال الله عزَّ وجل:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ)

[سورة الحجرات: 6]

فقد يأتي وقد لا يأتي، إن تفيد احتمال الوقوع بينما إذا تفيد تحقُّق الوقوع..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ)

يجب أن توازن بين امرأةٍ تابعةٍ لزوجها ولو كان كافراً، ولو كان فاسقاً، ولو كان منحرفاً، تقول: هكذا يريد زوجي ماذا أصنع أنا؟ وبين هذه النساء المؤمنات الطاهرات، اللواتي تركن أزواجهن والتحقن بالنبي عليه الصلاة والسلام.

استقلال المرأة في دينها و إيمانها عن زوجها :

أخوتنا الكرام، ينبغي أن تعلموا أن المرأة مساويةٌ للرجل تماماً فيما يتعلَّق بالدين، وهي مستقلَّةٌ في إيمانها وفي دينها استقلالاً، وهي مساويةٌ فيما يتعلَّق بأمر إيمانها ودينها للرجل مساواة تامَّة، وهي مستقلَّةٌ في أمر دينها وإيمانها عن زوجها، وأكبر دليل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ)

[سورة التحريم 11]

الله جعل صدِّيقة عند أكفر كفَّر الأرض، قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

جعل زوجته صدِّيقة، وكان جبَّاراً طاغياً ومع ذلك لم يستطع أن يحملها على الكفر، لماذا أراد الله ذلك المثل؟ ليكون مثلاً للبشرية جمعاء، المرأة مستقلَّةٌ في أمر دينها وإيمانها عن زوجها- لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق- هؤلاء النساء اللواتي تركن أزواجهن المشركين الكفَّار والتحقن بالنبي عليه الصلاة والسلام، فالمرأة حينما تقول: هكذا يريد زوجي، هذا كلام غير مقبول، وكم من زوجٍ كانت هدايته على يدِ زوجته، كم من زوجةٍ وقفت موقفاً حازماً أمام انحراف زوجها وفي النهاية حملته على طاعة الله،

فيجب أن نقضي على هذه التفرقة أن هذه امرأة، هذه نظرة جاهلية لأن الإسلام لم يفعل هذا، الإسلام عدَّ المرأة صنع الرجل، شقيقة الرجل، النساء شقائق الرجال، لها مهمَّةٌ أخرى، بل إن امرأةً جاءت النبي عليه الصلاة والسلام قالت: " يا رسول الله ذهب الرجال بكل الخير، ماذا بقي لنا؟ قال عليه الصلاة والسلام: اعلمي أيتها المرأة - هذا كلام النبي ولا ينطق عن الهوى، ولا يجامل، ولا يحابي، إنه لا يتكلَّم إلا بالحق- قال: اعلمي أيتها المرأة وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعُّل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله ".

والجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام، أي إنَّ أعلى مرتبة في الإسلام الجهاد، والمرأة التي تُحسِنُ تبَعُّل زوجها كالمجاهدة في سبيل الله، هذا كلام النبي، وهذه امرأةٌ تركت زوجها لأنه كافر، ولأنه مشرك، والتحقت بالنبي عليه الصلاة والسلام، معنى ذلك أنها مستقلَّةٌ في أمر دينها عن زوجها.

لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق :

مرَّة امرأة سألت أحد رجال الدين: إن زوجي يجبرني على أن أذهب معه إلى البحر، وأن أكون مع أصدقائه، قال لها هذا العالم: لا تطيعيه لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

لا تجد امرأة تقول: هكذا يريد زوجي، إذا أمركِ بالمعروف فعلى العين والرأس، أما إذا أمركِ بمعصية؛ أن تستقبلي أصدقاءه، أن تخرجي أمامهم، أن تكوني معه في انحرافاته، فلا تُعفَى المرأة من الحساب والعقاب إذا أطاعت زوجها في معصية، لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، سحرة فرعون قال لهم فرعون:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

[سورة طه: 71]

إلى آخر الآية.

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

[سورة طه: 72-73]

فالإنسان ينبغي ألا تأخذه في الله لومة لائم، ينبغي ألا يطيع مخلوقاً ويعصي الخالق.

ذكرت لكم مرَّةً كيف أن والي البصرة كان عنده الحسن البصري، وهو من كبار التابعين، وقد جاءه توجيهٌ من يزيد- الخليفة- وهذا التوجيه ربما لو نفَّذه لأغضب الله عزَّ وجل ورضي عنه يزيد، قال: ماذا أصنع؟ أخاف إن عصيت الأمر أن يغضب عليَّ يزيد، وأخاف إن أطعته أن يغضب عليَّ الله عزَّ وجل،

أجابه الحسن البصري إجابةً تُكتَب بماء الذهب، قال: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.

وأنت قس على هذه القاعدة ألف موضوع، لا تُطِعْ مخلوقاً وتعصي الخالق، لأن الخالق يعصمك منه، لكن المخلوق لا يعصمك من الخالق، فما الذي يمنع الخلايا أن تنمو نمَّواً عشوائياً بلا سبب؟ شاب في مقتبل العمر في أي مكان في جسمه يمكن أن تنمو الخلايا نمّواً عشوائياً، هذا مرض ليس له دواء، ما الذي يمنع؟

مساواة المرأة للرجل في التكليف و التشريف و المسؤولية :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ)

المرأة مساويةٌ للرجل تماماً، مساويةٌ للرجل تماماً في التكليف وفي التشريف وفي المسؤولية، لكن المرأة لها خصائص نفسية وجسمية واجتماعية، وللرجل خصائص نفسية وجسمية واجتماعية وعقلية، كل طرفٍ خصائصه كمالٌ في حَقِّه، وقد ضربت على هذا أمثلة كثيرة ومنها: إن المركبة المُعَدَّة لنقل البضائع نقص مكان الركَّاب كمالٌ فيها لأنها معدَّةٌ في الأصل لنقل البضائع، والمركبة المُعدَّة لنقل الركَّاب نقص مكان البضائع كمالٌ فيها لأنها مُعدَّةٌ لنقل الركَّاب، فما كل نقصٍ نقص، النقص هو الكمال، فالمرأة صُمِّمَت لتكون زوجةً وأمَّاً ترعى أولادها، فقد أعطاها الله من العاطفة الشيء الكثير، أعطاها القلب الكبير، أعطاها المشاعر المرهفة، أعطاها الحُبْ، أعطاها العطف، أعطاها الاهتمام، والرجل لأنه خُلِق ليكسب الرزق أعطاه الله ضعفاً في عواطفه ونماءً في عقله وملكاته، فصفات الرجل العقلية والجسمية والنفسية والاجتماعية كمالٌ فيه ومعينةٌ على أداء مهمَّته، وصفات المرأة الجسمية والعقلية والاجتماعية والنفسية كمالٌ فيها ومعينةٌ على أداء مهمَّتها، المرأة مساوية للرجل وأية نظرةٍ أخرى نظرة جاهلية الإسلام منها بريء.

فامرأةٌ جاءت النبي وهي تكره زوجها، قال: " لو تراجعيه ؟ فقالت له، ودققوا في قولها: " أتأمرني "، لأنه النبي، لو أمرها لنفَّذت، قال: " لا إنما أنا شفيع "، قالت له: " لا حاجة لي به "، فتركها على حرِّيتها. المرأة لها مكانة كبيرة جداً، وكلَّما الإنسان ارتقى إيمانه يكرِّم المرأة، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام جعل الخيرية المطلقة في أن تكون خيّراً لأهلك، قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي))

[أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين]

لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دينَ لمن لا عهد له :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ)

إلا أن النبي كان يمتحنها لعلَّها جاءت النبي كراهيةً لزوجها، لعلَّها شاءت أن تنتقل من مكانٍ إلى مكان، لعلَّها ولعلَّها، أما إذا أرادت بهجرتها الله والرسول والدار الآخرة فقد قبلها النبي وأكرمها أيما إكرام.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ)

يبايع فعل مضارع من بايَعَ، بايع أي تعاهد على أداء ما عليه، بايعته على كذا أي واثقته وعاهدته.. " ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دينَ لمن لا عهد له "، فالعهد هنا، هؤلاء المؤمنات بايَعْنَ رسول الله من دون أن يصافحهن، تقول السيدة عائشة: " والله ما مَسَّت يد النبي يدَ امرأةٍ منهن "، " إني لا أصافح النساء "، فالنبي قدوة، وأبعد الناس عن التأثُّر بالنساء هو رسول الله ومع ذلك ما مسَّت يده يد امرأةٍ قط، المبايعة إبرام العهد، عقد العهد على طاعة الله عزَّ وجل..

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أركان الدين :

الشيء المُلفِتَ للنظر أن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ذكر أركان الدين، ركن إيجابي وأركان سلبيَّة، فالإيجابي:

(أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا)

لأن الدين كلَّه توحيد، والحقيقة أن الإنسان حينما يؤمن أن لهذا الكون خالقاً فهذا إيمان عادي جداً لا يقدِّم ولا يؤخِّر ولا يرفع، لو أن أهل الأرض جميعاً سألتهم إلا المكابرين، إلا قلَّة قليلة جداً جداً ممن ركبت رؤوسها، لو سألت أهل المشرق والمغرب: من خلق السموات والأرض؟ لقالوا: الله الذي خلقهن، حتى إن الذين يعبدون الأصنام يقولون:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

[سورة الزمر: 3]

فالإيمان بالله خالقاً هذا لا يقدِّم ولا يؤخِّر، هذا قاسم مشترك بين معظم البشر، ولكن الإيمان المعوّل عليه هو التوحيد، أن تؤمن أن الله خالق، هذا إيمان بالخالق، وفعَّال أي إله، أن تؤمن أنه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وأن الأمر كلَّه بيد الله..

(بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة يس: 83]

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

لن تستقيم على أمر الله إلا إذا آمنت به إلهاً فعَّالاً :

أن تؤمن أنه:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

أن تؤمن أن الله:

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

[سورة الرعد: 41]

أن تؤمن:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

[سورة الرعد: 11]

أن تؤمن أنه:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف: 54]

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

أنت لن تستقيم على أمره إلا إذا آمنت به إلهاً فعَّالاً، الأمور كلها بيده، أنت بشكل طبيعي في أي مكان أنت فيه تتجه وتعظِّم وتتقرَّب ممن تعتقد أن الأمر بيده، إنك تدخل إلى دائرة فيها مئة موظَّف، لا تبذل ماء وجهك ولا ترجو إلا لمن بيده حق التوقيع بالموافقة، مع الموافقة وقَّع لك، هذا الذي ترجوه، وهذا الذي تطرق بابه، وهذا الذي تسأله، وهذا الذي قد تتضعضع أمامه، أما أن تسأل حاجباً، أن تبذل ماء وجهك أمام موظَّف ليس في إمكانه أن يوقِّع لك فهذا نوع من الجنون، أنت إذا علمت أن الله بيده كل شيء، أدق شيء وأكبر شيء، سعة الشريان في قلبك بيد الله، يضيق ويتسع، فأي خلية في جسمك وأي قطرة في دمك بيد الله عزَّ وجل، ووسع الدائرة كل ما فوق ذلك ممن حولك، ممن فوقك، ممن تحتك،

الكون كله؛ السموات والأرض والمجرَّات، والأمطار والرياح، والرزق، والأقوياء والضعفاء كلُّهم بيد الله، إذا آمنت أن الله بيده الأمر كلُّه عندئذٍ تعبده وتتوكَّل عليه، فلذلك جاء في الآية أن أعظم شيء في الإيمان..

(أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا)

أنت بحاجة ماسَّة إلى طبيب، فإذا اتجهت إلى المستشفى وجدت الطبيب، أما إذا اتجهت إلى طريقٍ معاكس ففقدت الطبيب، فالإنسان لا يمكن أن يرحمه الله إلا إذا وَحَّده، إذا أشرك انتهى.

من يتجه إلى الله عز وجل فكل شيء يُحل :

كنت أضرب أمثلة كثيرة: أنه من الممكن لي أن أركب القطار المتجه إلى حلب، ولي فيها مبلغٌ ضخمٌ جداً، يمكن أن أرتكب مجموعة مخالفات في القطار، أما القطار فيتجه نحو حلب، وسأصلها في الوقت المناسب، وسأقبض المبلغ، قد أجلس في قاطرة أو مقطورة من الدرجة الثالثة وبطاقتي من الدرجة الأولى، هذا خطأ، وقد أجلس بعكس اتجاه القطار فأصاب بالدوار، هذا خطأ ثان، وقد أجلس مع شبابٍ غير منضبطين فأنزعج من صحبتهم، هذا خطأ ثالث، وقد أتلوّى جوعاً ولا علم لي أن في القطار مطعماً، هذا خطأ رابع، أما القطار فيسير باتجاه حلب وسأقبض المبلغ، أما الخطأ الذي لا يغتفر فأن أركب قطار درعا، هذا الشرك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء: 84]

أنت حينما تتوجَّه إلى الله كل شيءٍ يُحَل، أما حينما تتوجَّه إلى غيره فلا شيء يُحَل أبداً، انتهى كل شيء، الطريق مسدود، عبد فقير ضعيف لئيم جاهل تتجه إليه، تمحضه ودَّك، تمحضه اهتمامك، تبذل ماء وجهك أمامه وهو ضعيفٌ مثلك، هذه هي المشكلة.

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً :

لذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا)

وَحِّدن الله، لا معبود بحقٍّ إلا الله، لا إله إلا الله، لا معطي ولا مانع إلا الله، لا معزَّ ولا مذلَّ إلا الله، لا خافض ولا رافع الله، لا قابض ولا باسط إلا الله، لا رازق إلا الله، لا حافظ إلا الله، إذا آمنت هكذا فهذا هو الإيمان، لذلك التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً من دون استثناء.

الناس يؤخذون من مأخذين؛ المال و المرأة :

إذاً أول شيء بالإيمان عدم الشرك، التوحيد.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

(وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ)

شيء يلفت النظر السرقة والزنا، السرقة للمال، والزنا شهوة، شهوتان تُحَرِّكان العالم كله، شهوة المال، وشهوة المرأة، وحينما يعافى الإنسان من هاتين الشهوتين، وحينما يُحَصِّن نفسه من هاتين الشهوتين، فقد ملك تسعة أعشار دينه، نقطتا ضعفٍ في الإنسان هما: المال والمرأة، فإذا حصَّن نفسه منهما، يحصَّن موضوع المال بالكسب الحلال، ويحصَّن موضوع المرأة بغضِّ البصر والبعد عن كل المزالق؛ لا خلوة، ولا مشي في طريق موبوء، ولا صحبة الأراذل، ولا مطالعة أدب رخيص، ولا متابعة عمل فنّي رخيص، ولا إطلاق بصر، إذا حفظت نفسك من موضوع المال الحرام والمرأة الحرام أحرزت تسعة أعشار دينك، فالناس يؤخذون من مأخذين، الكبار الكُهول العريقون في جمع المال يؤخذون من كسب المال، والشباب يؤخذون من المرأة، فالشاب أكبر خطر عنده المرأة، والذي تزوّج وانتهى أمره وقَنِعَ بزوجته هذا عنده خطر ثان وهو كسب المال، لذلك لو أخذت مئة حكمٍ شرعي لا أبالغ إذا قلت إن تسعة أعشار الأحكام الشرعية متعلّقةٌ بالمال والنساء، اقرأ القرآن كلَّه، أحكام كسب المال وإنفاق المال، أحكام المرأة؛ زواج، طلاق، غض بصر، تسعة أعشار الأحكام الفقهية متعلقةٌ بالمال والنساء، هنا الآية:

(عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ)

أنواع الشرك :

قبل أن نتابع هذا الموضوع:

(عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا)

يوجد شرك جلي، وشرك خفي، الجلي اذهب إلى الهند تجدهم يعبدون بوذا من دون الله، إله صنم كبير في كل معابدهم، هذا اسمه شرك جلي، أما في بلاد المسلمين فلا تجد الشرك الجلي، لكن تجد الشرك الخفي، أخوف ما أخاف على أمَّتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً

ولكن شهوة خفيَّة وأعمالٌ لغير الله، الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحبَّ على جور، وأن تبغض على عدل.

إنسان مستقيم نصحك فغضبت منه، إنسان منحرف أعطاك مالاً كثيراً فأحببته، إن أحببت منحرفاً على ماله فقد أشركت، وإن أبغضت ناصحاً على صوابه فقد أشركت، في الحالة الأولى أشركت هذا الإنسان الذي أعطاك من ماله وهو منحرف فأحببته، في الحالة الثانية عندما رفضت النصيحة أشركت نفسك مع الله..

(عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا)

ولا شيء قليل أبداً، لهذا قال الله عزَّ وجل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

(وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ)

طبعاً العين تزني وزناها النظر، الزنا مستويات- ألا يسرقن- ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حجَّةً بعد الإسلام..

(وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ)

لا في بطونهن، ولا بعد ولادتهن.

الفتنة أشد من القتل :

هناك معنى آخر حينما قال الله عزَّ وجل:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

[سورة البقرة:191]

قد يقتل الطفل في بطن أمِّه بالإجهاض، وقد يقتل بعد الولادة بالوأدِ، وقد يُقتَل الطفل حينما نبعده عن طريق الحق وندفعه إلى الباطل لأن الفتنة أشد من القتل..

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير:8-9]

الموءودة تدخل الجنَّة لأنها قُتِلت قبل التكليف، أما الفتاة الشابَّة التي أطلق أبوها لها العِنان فخرجت كما تشاء، والتقت بمن تشاء، وسهرت مع من تشاء، وانحرفت كما تشاء، فهذه الفتاة التي أطلقها أبوها ولم يؤدِّبها بأدب الإسلام، ولم يحملها على طاعة الواحد الديَّان، هذا الأب تُدْخِله قبلها إلى النار..

(وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ)

القتل في البطن إجهاض، وبعد الولادة وأد، وحينما يكبر الابن أو البنت ولا يوجِّهُهُ الأبُ أو الأمُ فينحرف انحرافاً خطيراً هذا أشدُّ من القتل لقوله تعالى:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

[سورة البقرة:191]

(وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ)

المرأة في الجاهلية كانت تحمل ابناً وتنسبه لزوجها وهو ليس منه، تحمله بيديها.

(بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ)

أي الزنا.

معصية رسول الله مقيَّدة بالمعروف لأنه لا ينطق عن الهوى :

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

المعروف هو الشرع الإلهي، المعروف هو الدين، المعروف هو العمل الصالح، المعروف ما أقرَّته الفطرة، فالمعصية معصية رسول الله مقيَّدة بالمعروف لأنه.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم : 3-4]

أقواله تشريع، أفعاله تشريع، إقراره تشريع، أحواله تشريع.

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

المعصية في المعروف، أما لو أن النبي أكل طعاماً معيناً وأكل مؤمن طعاماً آخر فهذه ليست معصية في معروف، فقد تجد إنساناً قد يكون مزاجه أو جسمه لا يتناسب مع الطعام، قد لا يحتمل الدهن مثلاً، النبي أكل الدُهن، فإذا إنسان لم يأكل الدهن يكون قد عصى النبي؟ لا، المعصية هنا المقصود بها في معروف، فيما جاء به من الشرع الحكيم، فيما جاء به من السنَّة المطهَّرة، فيما جاء به من الإقرار، مما أقرَّه أصحابه عليه..

دين المرأة تابعٌ لها ومن اختيارها ومشيئتها مستقلّة عن مشيئة زوجها :

(فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أي أن المرأة:

((إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا : ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

طاعة زوجها ربع دينها، فهؤلاء المؤمنات بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أرأيتم إلى تكريمٍ يفوق هذا التكريم؟ أرأيتم إلى أن المرأة صنو الرجل ؟ أرأيتم إلى أن دين المرأة تابعٌ لها ومن اختيارها، ومشيئتها مستقلّةٌ عن مشيئة زوجها.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هذا اسمه في البلاغة رَدُّ العجْز على الصَدْر، الآية الأولى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ)

الفارق بين المؤمن و الكافر أن المؤمن يدخل الآخرة في حساباته و الكافر لا يدخلها :

يقول الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

لا تتولَّى إنساناً غضب الله عليه، لا تقم معه علاقة، لا تمحضه ودَّك، لا تقم معه علاقةً حميمة، لا تزوِّجه لأنه من نوع آخر، من طينة أخرى، لا تُخالطه مخالطةً حميمة.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أي أن الآخرة ليست في حساباتهم، الحقيقة يوجد فارق كبير جداً بين المؤمن والكافر، أبرز فارق بينهما أن المؤمن في كل حركةٍ وسكنةٍ، وعطاءٍ ومنعٍ، وغضبٍ ورضا، وصلةٍ وقطعٍ، في كل أحواله يُدخل الآخرة في حساباته، ماذا سأقول لله إن فعلت كذا؟ يسعى للآخرة، أما الكافر فالدنيا هي كل همِّه، مبلغ علمه، منتهى آماله، محطُّ رحاله، الدنيا هي كل شيء ولا شيء غير الدنيا.

يقين الكافر أن الذي يموت لا يعود :

لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ)

الآخرة ليست في حساباتهم، لا يريدونها، لا يرجون رحمة الله، لا يسعون إليها.

(كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)

الذي يموت هل يعود إلى الدنيا؟ مستحيل، فالكافر توجد عنده يقينيات وأحد يقينيات الكفَّار أنه إذا مات الواحد منهم لا يرجع، انتهى، فكما أن هذا الكافر موقن أن الذي يموت لا يعود، كذلك هؤلاء الذين:

(غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)

أن يرجعوا.

أيها الأخوة الكرام، هذه سورة الممتحنة فيها مبادئ كبيرة جداً متعلّقة بالإيمان، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بها، وأن نعمل من خلال أحكامها وتوجيهاتها، لأن القرآن ما لم يُعمل به فلا يرقىَ بالإنسان إلى الله عزَّ وجل..

((ورب تال للقرآن و القرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

((ما آمن بالقرآن من استحل محارمه))

[الترمذي عن صهيب]

وعلامة إيمانك أنك تسعى لتطبيق ما جاء في هذا الكتاب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصف 061 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1- 4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-08-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الصف.

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

1 - معنى التسبيح:

(سَبَّحَ) كما يقول العلماء: نَزَّهَ ومَجَّدَ، وبعض المفسرين يضيفون إلى التنزيه والتمجيد الخضوع، لأن الإنسان حينما يعظم الله عزّ وجل لابدّ من أن يخضع له، بل إن الخضوع له علامة تعظيمه، فمن عَظَّمَهُ بلسانه، ولم يخضع لأمره فما عظّمه حقيقةً، فمعنى سبّح أي نزّهه عن كل نقص، ومجده، ونسب له كل كمال، ثم خضع له، هذا معنى: سَبَّحَ بالمعنى الدقيق: نزه ومجد وخضع، بل إن الخضوع علامة التنزيه والتعظيم، فمن ادعى أنه يسبّح الله عزّ وجل، ولم يخضع لأمره ففي تسبيحه خلل، أو في تسبيحه كذب، لأن الله سبحانه وتعالى أهل التقوى وأهل المغفرة.

2 - مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أما السماوات والأرض فهو مصطلحٌ القرآني يعني الكون، والكون يعني ما سوى الله، وكل المخلوقات تُنَزِّهُ، وتمجد، وتخضع لله عزّ وجل، أما الإنسان فقد أُعطي حرية الاختيار:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: الآية 72)

الإنسان مخلوق مكرّم مخيّر:

الإنسان مخيَّر، لذلك يخضع أو لا يخضع، وبقية المخلوقات خاضعةٌ حكماً لله عزّ وجل، أما الإنسان فقد أعطي حرية الاختيار، فلما قبل حمل الأمانة كرّمه الله عزّ وجل:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: الآية 13)

فالإنسان مخلوقٌ، والإنسان مخلوقٌ مكرّم، والإنسان مخلوقٌ مكلّف، مخلوق أوّل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

المخلوق المُكَرَّم.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء)

إذا كان هناك ألف نوع من الورود والأزهار هذه لمن ؟ هذه لا تؤكل، ولكنها يستمتع بمنظرها وبرائحتها، لمَن خُلقت ؟ أنواع الفواكه التي لا تعد ولا تحصى لمن خُلقت ؟ هذه الأرض التي هي أمينةٌ على كل حاجاتنا لمن خُلقت ؟ هذا معنى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

والإنسان هو المخلوق المُكَلّف، لقوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

فكل ما في الكون بسماواته وأرضه يسبّح لله تسبيح تنزيه، وتسبيح تمجيد، وتسبيح خضوع إلا الإنسان، الذي هو سيّدُ المخلوقات، الذي سخرت له السماوات والأرض، هذا الإنسان أعطي حرية الاختيار، فإما أن يؤدي الأمانة التي حملها، وإما أن يخون الأمانة، وهو حينما قبل حمل الأمانة لم يكن ظلوما جهولا:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

هل كان ظلوما جهولا بحمل الأمانة ؟ الجواب: لا، أما حينما حملها وخانها:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

حينما قبلها لم يكن ظلوماً جهولاً، بل كان طموحاً، فلم خانها كان ظلوماً جهولاً.

أيها الإخوة الكرام، مما يلفت النظر في القرآن الكريم قوله تعالى:

(إِنْ هُمْ)

الكفار.

(إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان: الآية 44)

إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا

لقد حار المفسرون في معنى قوله تعالى:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

أي بهائم، يعيشون ليأكلوا، يأكلون ويتمتّعون كما تأكل الأنعام.

ما معنى قوله تعالى:

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

لأن أشد الوحوش شراسةً تنتهي وحشيته حينما يملأ بطنه، فإذا ملأ بطنه لا يعتدي على أحد، فقد تمر أمام الوحش الكاسر فيكون أضعف الحيوانات، حينما يكون شبعان لا يعتدي على أحد، أما الإنسان لو وفرت له كل حاجاته، حينما يبتعد عن الله عزّ وجل يستطيل على خلقه حتى يغدو الشر عنده هدفاً، فهذه القنبلة التي أُلقيت على هيروشيما، وقتلت ثلاثمئة ألف إنسان في أربع ثوانٍ، هذه وحشيةٌ ما بعدها وحشية، الأسلحة الجرثومية، الأسلحة الكيماوية، الأسلحة النووية، الآن هناك أسلحة إذا أُلقيت قنبلة على مدينة لا تقتل إلا البشر، وتبقى الأبنية كما هي، من أجل أن نأخذ المدينة غنيمةً كما هي دون هدمِها، فحينما يبتعد الإنسان عن الله عزّ وجل يغدو شرّ مخلوقٍ على وجه الأرض.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

لكن:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

فالإنسان إما أن يكون فوق الملائكة المقرّبين، وإما أن يكون في أسفل السافلين.

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

أي أن وحشية الإنسان تفوق أشدّ الوحوش شراسةً، هذا إذا ابتعد عن الله.

ومعنى:

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

أن الحيوان حينما يموت ينتهي عنده كل شيء، لا حساب ولا عذاب، ولكن الإنسان حينما يموت تبدأ متاعبه، فهو محاسبٌ عن كل كلمة، وعن كل حركة، وعن كل ابتسامة، وعن كل وصل، وعن كل قَطْع، وعن كل غضب، وعن كل رضا، وعن كل عطاء، وعن كل منع، أضل من الحيوانات لأنهم مكلّفون وسيحاسبون، أضل من الحيوانات لأن وحشية الإنسان تفوق حاجاته التي يحتاجها.

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

3 - وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

عزيزٌ ؛ لا يُنال جانبه، عزيزٌ فردٌ لا شريك له، عزيزٌ يستحيل أن تحيط به، عزيزٌ يحتاجه كل شيء في كل شيء، فردٌ لا شريك له، يحتاجه كل شيء في كل شيء، لا يحاطُ به، بعيدُ المَنال.

حكيم ؛ كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق.

ليس هناك شر مطلق:

أيها الإخوة، دققوا فيما سأقول: الشر المطلق ؛ أي أن الشر للشر لا وجود له في الكون، بل إن الشر المطلق يتناقض مع وجود الله، إما أن تؤمن بأن لهذا الكون إلهاً رحيماً، حكيماً، عادلاً، وإما أن تؤمن بالشر المُطْلَق، الشر موجود، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((وَالشّرّ لَيْسَ إلَيْكَ))

[مسلم عن علي]

الشر ليس إيجابياً، فحينما تضع مادة سُكّرِيّة في محرّك سيارة يصيبه الخلل، وتحتاج إلى أن إصلاحه من جديد، وأن تدفع ثلاثين ألف ليرة لكمية سكر وضعت في المحرك، السكر مادة أساسية، مادة مفيدة جداً، ونحن في أمسّ الحاجة إليها، والمحرك مادة أساسية في حياتنا، من أين جاء الشر ؟ من سوء الاستعمال، النفط مادة أساسية، ضع قطرتين منه في الطعام، انتهى الطعام، وتلقيه في القمامة، النفط مادة أساسية، والطعام مادة أساسية، فالشر لا وجود له إلا بشكلٍ طارئ من سوء الاستعمال، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((وَالشّرّ لَيْسَ إلَيْكَ))

إن مركبة صُنِعَتْ في أرقى معمل، وفيها كل وسائل الراحة، وفيها جمال، وفيها أناقة، فيها قوة ومتانة، أما حينما يقودها إنسان ثمل سكران، وينزل بها في الوادي، وتصبح بشكل لا يحتمل، هذا شر، مَن خلق

هذا الشر ؟ سوء استعمال، أن يقود إنسان سيارة وهو سكران، هذه هي النهاية، ولا يوجد معمل في الأرض يصنعها هكذا، المعامل تصنع سيارة جميلة متماسكة أنيقة.. أما حينما ترى السيارة قد تدهورت، ولها منظر لا يحتمل ليس هناك في العالم معمل صنعها بهذه الطريقة، حينما أسيء استخدامها كانت بهذا الشكل، فأصل الشر من مخالفة منهج الله، ومخالفة التعليمات.

أوضح مثلٍ: ثلاث مواد بيضاء مسحوقة، السكر والملح ومسحوق التنظيف، لو وضعت السُكّر في الطبخ فإنه لا يؤكل، لو وضعت الملح في الحلويات لم تُؤكل، لو وضعت مسحوق التنظيف فيهما فكلاهما لا يُؤكلان، هذه ثلاث مواد أساسية، إذاً من أين جاء الشر ؟ من سوء الاستعمال، من الجهل، وما من مصيبةٍ في الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، انتهى الأمر، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام منزّهاً ربَّه:

((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))

أما إذا قلت في عقائد المسلم: آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره و شره، معنى ذلك هذا هو الشر النسبي الذي نراه نحن شراً، وهو خيرٌ مطلق:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

(سورة النور: الآية 11)

الشَّرُّ مُوظَّفٌ للخير:

الحقيقة أن كل شرٍ تتصوره شراً هو خيرٌ مطلق، لكن شر بالنسبة لإنسان محدود الأُفُق، فلو ركِب مؤمنٌ مركبةً تدهورت به فأصيب بجرح عميق في وسط جسمه، وكسر في حوضه، الطبيب يجري عملية جراحية لترميم الوسط، وهو يفتح البطن وصل إلى الكُلية، فرأى فيها ورماً خبيثاً في بدايته، وهذا الورم الخبيث لا يأخذ أبعاده إلا بعد عشر سنوات، وهو قاتل، أما في بداياته فعلاجه سهلٌ جداً، لأن الكُلية لو استئصل نصفها لبقي الإنسان حيًّا، فيما يبدو أنه وقع حادث، أما حينما أردنا أن نضمِّدَ الجراح، وأن ننظف الجراح وصلنا إلى الكلية، فإذا فيها ورمٌ خبيث، استئصل، فنجا هذا الإنسان من هذا المرض القاتل، فهذا الحادث خير أم شر ؟ ظهر أنه خير، ويمكن أن تقيس هذا على كل المصائب، كإنسان عنده مزرعة يمكن أن يضمنها بخمسمئة ألف، أتاها يوم الحصاد فإذا هي خاويةٌ على عروشها:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

(سورة القلم)

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(26)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(27)قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(28)قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

قال تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم: الآية 33)

بسبب هذه الخسارة الكبيرة رجعوا إلى الله، وتابوا إليه، واصطلحوا معه، فلما اصطلحوا معه عوَّضهم عن خسارتهم أضعافاً مضاعفة، فهذا المحصول المدمِّر خير أم شر ؟ إنه خير، يجب أن نؤمن أن الشر الذي يفعله الإنسان يوظِّفُهُ الله عزّ وجل للخير المطلق.

ذهبت امرأة لتفحص صدرها في مستشفى، الموظّف أهمل، فأعطى قريبها نتيجة امرأة ثانية مصابة بالسل، أليس هذا خطأ كبيرا ؟ أن تقدِّم لإنسان صحيح ما يفيد أنه مريض بمرض عضال ؟ هذه المرأة بقيت تبكي، وتبكي إلى أن هُدِيَتْ إلى أن تصطلح مع الله، وأن تتوب إليه، وأن تعود إليه، وأن تؤدي الصلوات، وأن تتحجّب، ثم تبيَّن أن الخطأ من الموظف، وهي سليمة الصدر ليس فيها فيها شيء، فهذا الخطأ الذي فعله الموظّف خطأ وشر ؟ كيف وظفه الله عزّ وجل للخير ؟ كل أخطاء البشر توظّف للخير، لو سألتموني: ما الدليل ؟ قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص)

شرير..

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

هذا الشر ؛ شر فرعون وظفه الله عزّ وجل لخير المستضعفين:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ)

(سورة القصص)

فإذا رجعوا، واصطلحوا مكّناهم، وقوّيناهم على فرعون ليتوب ثانيةً على أيديهم.

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

هذه سنة الله في خلقه.

" إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني ".

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(129))

بشكلٍ ملّخص: الشر المطلق لا وجود له في الكون، بل إن الشر المطلق يتناقض مع وجود الله.

الشرُّ النسبي والشر المطلق:

ما الشر المطلق ؟ النسبي أن تأتي بالمبضع، وأن تفتح البطن، وأن يخرج الدم غزيراً، وأن تغلق هذه الأوعية والشرايين، وأن تصل إلى الزائدة فتستأصلها، لأنه لابدّ من استئصالها، إن آلامها لا تحتمل، وتصبح عندئذٍ خطراً على حياة الإنسان، فتح البطن، وانهمار الدم، واستئصال الزائدة، شرٌ مطلقٌ أم نسبي ؟ نسبي، أما لو جاء إنسان، وبقر بطن إنسان بلا سبب، نقول: هذا الشر مطلق، بالمعنى التوضيحي، فحينما أفتح البطن لأستأصل ورماً خبيثاً، أو لأستأصل زائدةً ملتهبة، فتح البطن لا يسمى شراً، يسمى شرًا نسبيًا موظفًا للخير، أما حينما أفعل الشر للشر فهذا اسمه الشر المطلق، وهذا لا وجود له في الكون، لأنه يتناقض مع وجود الله، هكذا الإيمان، لذلك:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران: الآية 154)

بعض المؤمنين يظن بالله غير الحق ظن الجاهلية، الله جلّ جلاله كماله مطلق:

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

هذا الكلام حول كلمة الحكيم، أي الشيء المناسب، في الوقت المناسب، بالقدر المناسب، بالأسلوب المناسب، ومعنى الحكيم: أن كل شيءٍ وقع لابدّ من أن يقع، ولو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، من هنا قال بعض الأئمة: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان "**، أو **" ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني "**، وحسن الظن بالله ثمن الجنة، ونحن في الدنيا، و فيها شر، وهذا الشر نسبي، وهذا الشر موظّف للخير، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

أيها الإخوة الكرام، لو أحصيت المؤمنين في الأرض، ولا أبالغ لوجدت تسعة أعشارهم اصطلحوا مع الله على إثر مصيبةٍ نزلت بهم، فهل تُعَدُّ المصيبة شراً ؟

أعرف رجلاً سمعت قصته في قطرٍ آخر، هو رجل متفلِت، منغمس في المعاصي كلها، لم يُدْخِل الآخرة في حساباته إطلاقاً، عنده بنتٌ صغيرة أخذت جزءًا من عقله من شدة حبه لها، أصيبت بمرضٍ خبيثٍ في دمها، انقلبت حياته جحيماً، لم يدَعْ طبيباً إلا وعالجها على يديه، لم يدع بلداً إلا وذهب إليه، إلى أن اضطر إلى بيع بيته، والسفر إلى بلدٍ أجنبي بُغْيَة معالجتها، فجأةً خطر في باله لعل الله يشفيها لهم إذا تاب هو وزوجته، فاتفق مع زوجته على التوبة لله عزّ وجل، بدءا يصليان، وحجّب زوجته، واصطلحا مع الله، وهذا المرض تراجع شيئاً فشيئاً إلى أن عوفيت ابنته تماماً، فهذا الإنسان كان متفلتاً، كان شارداً، كان في طريق جهنم، كان هالكاً في الدنيا والآخرة، هذا المرض العُضال الذي أصاب ابنته

أعاده إلى الله، وحمله على التوبة، وجعله يصطلح مع الله، وذاق طعم القُرب، فهل يعد هذا المرض شراً مطلقاً أم شراً نسبياً ؟ شر نسبي.

فيا أيها الإخوة، حينما قال الله عزّ وجل تعقيباً على قصة أصحاب الجنة:

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(28)قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة القلم)

قال تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم: الآية 33)

هذه طبيعته، وهذه بواعثه، وهذه أهدافه، العذاب من أجل الخير المُطْلَق، العذاب شرٌ نسبي من أجل الخير المطلق، لكن لو أن أبا شدّد على ابنه في سنيّ الدراسة، إلى أن نال أعلى الشهادات، وعاش حياةً كريمةً مريحةً ذات دخلٍ كبير، ألا يترحّم هذا الابن على أبيه ملايين المرات على أنه ضربه في سن الدراسة، وضيّق عليه، وألزمه البيت، وتابع دراسته، وهكذا، فلذلك الشر المطلق لا وجود له، والشر النسبي موظفٌ للخير المطلق، هذا معنى (حكيم).

إذاً:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الآن الخطاب للمؤمنين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ

1 - البيان من خصائص الإنسان:

ذكرت لكم من قبل أن الجماد شيء يشغل حَيّزاً له وزن، وله طول وعرض وارتفاع، أبعاد ثلاثة، وله وزن، ويشغل حيزاً، هذا هو الجماد، أما النبات فهو شيءٌ له أبعاد ثلاثة، ويشغل حيزاً، لكنه ينمو، هذا هو الفرق الأول، الحيوان شيءٌ له أبعاد ثلاثة ووزن، وينمو، ويتحرّك، الإنسان شيءٌ يشغل حيزاً، وله أبعادٌ ثلاثة، وله وزن، وينمو، ويتحرّك، ويفكر، ويَنْطِق، الله عزّ وجل اختص الإنسان بالبيان، قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

علّمه البيان.. ينطق، يعبر عن مشاعره، يعبر عن أفكاره، يعبر عن حاجاته، بلسانه أو بقلمه، ويستمع إلى أفكار الآخرين ومشاعرهم بأذنه، أو يبصرهم بعينه، يسمع أو يقرأ، ينطق أو يكتب، هذه هي اللغة.. القدرة على التعبير عن الأفكار والمشاعر تعبيراً شفهياً وكتابياً، والقدرة على فهم كلام الآخرين فهماً شفهياً وفهماً مكتوباً، هذه هي اللغة، هذه اللغة مما اختص الله بها بني البشر:

(الرَّحْمَنُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

تصوّر مجتمعا ليس فيه لغة، وأردنا أن نمنع التجول، كيف نوصِل لهم ذلك ؟ تحتاج لكل مواطن إلى شرطي يدفعه إلى البيت، أما البلاغ فيُلْقى في خمس ثوان لا تجد في البلاد إنساناً يمشي، أداة اتصال راقية جداً، أما اللغة المكتوبة فهي أرقى بكثير، اللغة المقروءة نستفيد منها في قراءاتنا، أما المكتوبة فتنقل الثقافة من جيل إلى جيل، فالإمام القُرْطُبي مات قبل ألف عام، وتفسيره بين أيدينا، والغزالي ألف كتابه إحياء علوم الدين، هو مات قبل أقلّ من ذلك، وكتابه الإحياء بين أيدنا، هؤلاء العلماء الكبار الذي تركوا آثارا كبيرة جداً، آثارهم بين أيدينا نستفيد منها، فبالكتابة تنتقل المعارف والثقافات من جيلٍ إلى جيل، وبالترجمة من تنتقل أمةٍ إلى أمة، وهناك كتب عالمية أُلِّفَت باللغة الإنكليزية مترجمة إلى معظم لغات العالم، وتدرّس في كل الجامعات، لذلك قال الله عزّ وجل:

(الرَّحْمَنُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

2 ـ قد تكون اللغة أداة تدمير:

من أخص خصائص الإنسان اللغة، فما أصل اللغة ؟ أن تعبّر بها عن واقع، فإن لم تعبر بها عن واقع فقد خنت هذه الأمانة، كما لو أوهمت إنساناً بشيءٍ لا وجود له، هذا هو الكذب، فكما أن اللغة من أخص خصائص الإنسان، ومن أرقى وسائل البيان، في الوقت نفسه تنقلب اللغة إلى أبشع أداةٍ للتضليل، والغُرْمِ بالغُنْمِ، كما أنها ميزةٌ رائعة لبني الإنسان يتواصلون بها في أفكارهم، ومشاعرهم، وفي ثقافاتهم، ومعارفهم، في الوقت نفسه حينما لا تفعل ما لا تقول تكون أكبر ضالٍ مضلٍ في بني البشر، تقول شيئاً وتفعل غيره.

3 ـ الأنبياء جاءوا بالكلمة:

بماذا جاء الأنبياء ؟ الأنبياء جاءوا بالكلمة، الآن هناك حضارات مادية، يقولون لك: صواريخ، وأقمار صناعية، وقنابل عنقودية، وقنابل ذكية، وأسلحة كيماوية، وأسلحة جرثومية، وقنبلة نووية، وحاملات

نفط تحمل مليون طن، فالحضارة المادية جاءت بمنجزات مُذهِلة، نقلوا الصورة، ونقلوا الرسالة، ونقلوا عبر الأقمار الصناعية، وصار العالم كلّه قرية صغيرة، وطائرات عملاقة تحمل ستمئة وخمسين راكبا، أو سبعمئة راكب، وصار شيئا لا يكاد يُصدّق.

الأنبياء الذين هم رُسُل الله عزّ وجل بماذا جاءوا ؟ جاءوا بالكلمة، كلمةٌ أسعدت الأمم، كلمة نقلت رعاة الغنم فصاروا قادة الأمم، وأساس الكلمة الصدق، أن تعبّر عن واقع، فإن لم تُعَبّر عن واقع فقد أصبحت الكلمة ضالّةً مضلّة، لذلك الآية دقيقة جداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

4 ـ الكذب يتناقض مع هويّة الإنسان:

إن قلت عن شيءٍ فعلته في الماضي، ولم تفعله فهذا كَذِب، وإن قلت عن شيءٍ ستفعله في المستقبل، ولم تفعله فهذا إخْلاف، فالكذب في الماضي، والإخلاف في المستقبل، إن قلت كلاماً ينطبق على الواقع فهذا صدق إخباري، وإن قلت كلاماً فعلته في المستقبل فهذا صدقٌ إخلاصي، أي أنت قلت: أفعل كذا وفعلت كذا، أنت مخلصٌ لكلمتك، إذاً موضوع:

(لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

كما قال عليه الصلاة والسلام:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

الكذب يتناقض مع هويّة الإنسان، كَرّمه باللغة، واللغة ينبغي أن تعبّر عن واقع، أن تعبّر عن واقعٍ ماضٍ أو مستقبلٍ، فإن لم تعبّر عن ذلك فهو الكذب، وهو من أسوأ خصائص الإنسان.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

لذلك في الأرض آلاف الكُتّاب الأخلاقيين، وآلاف المصلحين الاجتماعيين، وآلاف المربين، وفي الأرض أنبياء أرسلهم الله للأمم، لماذا فعل لأنبياء ما يُشْبِه المعجزات، ولم يفعل كل المصلحين ما فعله نبيٌّ واحد ؟ لأن النبي فعل ما قاله، ولا تجدُ مسافةً بين أقواله وأفعاله..

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ

1 ـ المقت:

المقت أيها الإخوة ليس هو البغضاء، إنه أشدُّ أنواع البغضاء، أي إذا لم يفعل الإنسان ما قاله بلسانه مَقَتَهُ الله أشد المقت، لأنه تعامل مع أوهام، كان من الممكن أن يتعامل مع وقائع، ومع أشياء دسمة، وأشياء نافعة، إنسان اكتفى أن يقول: أنا معي ألف مليون، وليس معه ثمن رغيف خبز، فرح بهذه الكلمات الفارغة، هذه لا تسمن ولا تغني من جوع، أما إذا عمل عملاً حقيقياً، وشَكّل ثروة كبيرة فإن هذا شيءٌ آخر، فالذي يتعامل مع الكلمات الفارغة الجوفاء الكاذبة المزوّرة، هذا إنسان وقع في وهمٍ كبير، وقع في وهمٍ أنه مؤمن، وهو ليس كذلك، هذا من أخطر ما يُصيب الإنسان ؛ أن يعيش في أفكار بعيدة عن الواقع، واقعه شيء وأفكاره شيءٌ آخر، وحينما يمتهن الإنسان الفِكر، ويتعامل مع القيم لفظاً، ويتعامل مع الخُلُق الكريم َعْرَضاً وبياناً، وهو ليس كذلك فإنه وقع في شرّ عمله، لذلك ربّنا عزّ وجل يَمْقُتُ هذا الإنسان أشدّ المقت..

(كَبُرَ)

من يقول هذا الكلام ؟ ربُّنا.

(كَبُرَ)

2 ـ كَبُرَ مَقْتًا

لا تنسوا أن العظيم إذا وصف شيئاً بأنه عظيم فهو من العظمة ممّا لا يُوصف، فإذا قال لك طفل: معي مبلغ كبير، فإنك تقدِّر أن معه مئة ليرة، أما إذا قال لك أحد أكبر أغنياء العالم: أنا عندي ثروة عظيمة، فتقدّرها بعشرات ألوف الملايين، طفل قال لك: معي مبلغ عظيم، وأحد أغنى أغنياء العالم قال لك: عندي ثروةٌ عظيمة، فإنك تفهم (العظيم) من طفل مئة ليرة، ومن هذا الثري بعشرات ألوف الملايين، فربنا عزّ وجل يقول:

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

" ابن آدم، عظ نفسك، فإن وعظتها فعظ غيرك، وإلا فاستح منّي ".

إيّاك أيها الداعية أن يخالف فعلُك قولك:

أحد الدعاة نصح شخصا فقال له: **" احذر أن يراك المدعو على خلاف ما تدعوه "**، لأن أيّة دعوةٍ إلى أية فكرةٍ لا تنجح إلا إذا كان فيها مصداقية، وإذا فقد الإنسان المصداقية انتهى، وسقط في الوحل وتحت الأقدام، وقد يكون فصيحاً، وطليق اللسان، ومنطقياً، وأفكاره جيدة جداً، وعرضه رائع، وأدلّته قوية، أما إذا كشف المدعو أن هذا المتكلِّم المتفقه الذي يعبّر عن أدقّ المشاعر والأفكار ليس في مستوى دعوته، لم يجد المصداقية في دعوته، سقط هذا المتكلم في الوحل، فكل إنسان يَدّعي الحق، لكن المحك هو العمل..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

إن الإنسان يحاسب نفسه، بل إن المؤمن قريب من الله عزّ وجل، وقد يشعر أحياناً إذا فعل شيئاً نهى عنه في حديث له، فكأن الله عزّ وجل يعاتبه ويقول: يا عبدي، هل أنت كذلك ؟! أنت الذي قلت للناس: افعلوا كذا وكذا، أنت كذلك ؟! ألا تستحي منّي ؟ لذلك يرى أهل النار يوم القيامة في النار إنساناً له شهرةٌ واسعة في حقل العلم، وقد بُقِرَ بطنه، وأخرجت أمعاؤه وأقتابه، فعن عثمان بن عفان قال سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ))

[متفق عليه]

أخطر شيء في الدعوة إلى الله أن تنقلب إلى حرفة مثل أية حرفة أخرى، هناك أساليب ومعلومات وأفكار، والإنسان يستقبل الناس، ويُقنِعهم، أما هو فبعيدٌ بعداً شديداً عما يدعو إليه، من هنا كان هذا الدعاء: **" اللهمّ إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علّمتني منّي، اللهمّ إني أعوذ بك أن أتزيّن للناس بشيءٍ يشينني عندك، اللهمّ إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سِواك، اللهمّ إني أعوذ بك أن أكون عبرةً لأحدٍ من خلقك ".**

لا أكون عبرة، لا أتزيّن للناس بشيء يشينني عندك، لا أتكلّم كلام فيه رضاك ألتمس به أحداً سِواك..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(2)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ(3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ(4))

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ

1 ـ نعم للوحدة لا للتفرقة:

نستنبط من هذه الآية أن الله يحبُّنا أن نكون متعاونين، متكاتفين، أن نكون صفًّا واحداً، ألاّ نكون متفرّقين متناحرين، متباغضين، متحاسدين، مختلفين، والشيء الذي يعصر القلب هو أن أعداءنا على خمسة بالمئة من القواسم المشتركة لكنهم يتعاونون، ونحن المسلمين على خمسة وتسعين بالمئة من القواسم المشتركة ولا نتعاون، وهذا أكبر ما يؤلم المسلمين، كتابنا واحد، نبيّنا واحد، سنّتنا واحدة، معتقداتنا واحدة، آلامنا واحدة، آمالنا واحدة، لغتنا واحدة، أهدافنا واحدة، مع ذلك لا نتعاون كما ينبغي، والأعداء الألِدّاء على خمسة بالمئة من نقاط الاشتراك ويتعاونون، والأمر الإلهي:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: آية 2)

والآن لا يصلح أمر هذه الأمّة إلا بالتعاون، والتضامن، والتكاتف والتآزُر، ورحم الله الإمام الشافعي فإنه يقول: **" نتعاون فيما اتفقنا ويعذر بعضنا بعضاً في ما اختلفنا ".**

سمعت تعليقا من أخ كريم على هذه المقولة، قال لي: أنا أقترح.. طبعاً ليست منه، ولكن قرأها لعالمٍ جليل.. أن نقول: " نتعاون فيما اتفقنا، وينصح بعضنا بعضاً فيما اختلفنا "، نتعاون، ونتناصح بالحكمة والموعظة الحسنة، هذه الآية الكريمة:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

2 ـ وجوب لزوم الجماعة:

يحبُّنا الله أن نكون متعاونين غير مختلفين، متعاونين بكل مشاعرنا وقلوبنا.

لذلك قال النبي الكريم: عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ))

[الترمذي]

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا فَقَالَ:

((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ))

[الترمذي]

وعَنْ مُعَاذِ بْن جَبَلٍ أَنَّ نَبيَّ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((إنّ الشّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنّاحِيَةَ، فَإِيّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَالْعَامّةِ وَالْمَسْجِدِ))

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَعْدِلُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ))

[مسلم]

عن جُنْدَب بْن عَبْدِ اللّهِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ صَلّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمّةِ اللّهِ))

[مسلم]

ليس من صلّى الفجر في وقته، بل في جماعة، في أقرب المساجد إليه.. فهو في ذمّة الله حتى يُمسي، ومن صلّى العشاء في جماعة فهو في ذمّة الله حتى يُصبح.

فما قولكم بالمؤمنين إذا كانوا في قتال، وفي خط المواجهة الأول، وفي ساعات الالتحام مع العدو، ودخل وقت الظهر، عليهم أن يصلّوا جماعةً، في القرآن تفصيل لصلاة الجماعة في أثناء الحرب، فإذا كنا في أثناء الحرب ينبغي أن نُصلّي جماعةً، فما القول في أيام السلم والطمأنينة ؟

الإنسان الذي لا يصلّي جماعة، وليس له جماعةٌ ينضمُّ إليها يتعاون معها، يستقي من علمها، يهتدي بفتواها، إنه إنسان ضائع، الإنسان قوي مع أخوه، الأجانب يقولون: واحد زائد واحد يساوي ثلاثة، أحياناً رجلان اثنان ينتج عنهما أفكار أكثر من عشرة..

(قُلْ إِنّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمّ تَتَفَكّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنّةٍ)

(سورة سبأ: آية 46)

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

3 - النبي بيّن لنا سبيل التعاون وحذّرنا من سبل التفرقة:

لذلك كل ما من شأنه أن يقوي هذه العلاقة فقد أمر به النبي عليه الصلاة والسلام، فأمر بإفشاء السلام، وأمر بتلبية الدعوة، وأمر بعيادة المريض، وأمر بالتهنئة إذا أصابه خير، أمر بالتعزية، أمر بتشيّيع الجنازة، أمر بالعطف والإحسان، أمر بإكرام اليتيم، فكل ما من شأنه أن يقوي العلاقة بين المؤمنين أمر النبي به، وكل ما من شأنه أن يُبعِد فيما بينهم نهى النبي عنه، فنهى عن الغيبة لأنها تُمزّق المجتمع، ونهى عن النميمة، ونهى عن السخرية، ونهى عن المحاكاة والتقليد، ونهى عن اللمز والغمز، وكل ما من شأنه أن يُضْعِفَ العلاقة بين المؤمنين نهى النبي عنه.

لو جمعنا بعض الأحاديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ، ثَلَاثَ مَرّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشّرّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ))

[مسلم]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ نَفّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفّسَ اللّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسّرَ اللّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))

[مسلم]

فهذه الأحاديث حوالي المائتين تقريباً، كل ما من شأنه أن يقوّي العلاقة بين المؤمنين أمر النبي به، كل ما من شأنه أن يضعِف العلاقة..

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

سيدنا عمر وسيدنا الصدّيق رضي الله عنهما بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام صار هناك خلاف حول الخلافة، سيدنا الصديق قال لعمر رضي الله عنه: **<< يا عمر، مُدّ يدك لأبايعك، أبو بكر أقوى، وأفضل، وأقدم، فيما أذكر يقول سيدنا عمر: أي أرضٍ تقلّني، وأيّ سماءٍ تظلّني إذا كنت أميراً على قومٍ فيهم أبو بكر >>**.. هذه فوق طاقتي، لا أحتملها.. فقال له الصديق: **<< أنت أقوى منّي يا عمر، فقال له عمر: أنت أفضل مني، عندئذٍ قال عمر: قوّتي إلى فضلك >>.**

الحقيقة أن التعاون حضارة، والتنافس همجية، وهذا كلما ارتقى الإنسان.. فعلى مستوى البيع والشراء إذا تنافس الباعة فلا يربح الكل، الكل يفلس.. التنافس هَمَجِيّة، أما التعاون فحضارة.

أيها الإخوة... حينما قال الله عزّ وجل:

(وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور)

فوائد اجتماعية:

ماذا نستفيد من كلمة (جميعا) ؟ أي حينما يتوب المؤمنون جميعاً نقطف ثمار الإيمان جماعةً، إذا كنت تعيش بين إخوة مؤمنين فيمكن أن تتعامل معهم كلهم براحة من دون خوف، وإذا لم يوجد فيهم إيمان واستقامة صار كل تعامل مع واحد منهم معركة، تخاف أن يقنصك، تخاف أن يغدر بك، كل شيء فيه لغْم، كل شيء قد ينفجر أمامك، حياة الإنسان مع أناس بعيدين عن الله عزّ وجل حياة مخيفة جداً، أما وأنت بين إخوانك المؤمنين فإنهم لا يكذِبون، فلا تجد كذبا ولا غدرا ولا خيانة ولا إيذاء.. والمسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه ولا يحقره ولا يؤذيه ولا يكذِبه.. ومالك حرامٌ عليه، عرضك حرامٌ عليه، دمك حرامٌ عليه.

أنت تعيش بين مؤمنين طيّبين، عندما يكون الإنسان مع جماعة مؤمنة يرتاح، حتى لو تعاملوا فيما بينهم مادّياً أحدهم لا يأخذ إلا حقّه، أما أهل الدنيا فيأخذون ما لهم، وما ليس لهم، الجماعة رحمة، كذلك أخوك المؤمن ينصحك وتنصحه، يأخذ بيدك وتأخذ بيده، يعطيك وتعطيه، إذا كان الجار العادي فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أتدرون ما حقّ الجار ؟ إذا استعان بك أعنته، وإذا استنصرك نصرته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا أصابه خيرٌ هَنّأته، وإذا أصابته مصيبة عَزّيته، وإذا مرضَ عدته، وإذا مات شيّعته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهدِ له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سرًا، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذِه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها))

[وردفي الأثر]

هذا الجار العادي، فحياة المؤمنين في سعادة كبيرة جداً، في تعاون، في صدق، في حب، أحياناً الإنسان يجلس مع إخوانه عشرة ساعات ولا يمل، توجد مليون نقطة مشتركة، أفكار مشتركة، مبادئ مشتركة، قِيَم مشتركة، أهداف مشتركة، أخلاق مشتركة، طُموحات مشتركة، آداب مشتركة، فلذلك قال النبي:

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أحمد عن النعمان بن بشير]

وهناك مجتمعات أخرى تعينك على المعصية، وتشدُّك إلى الدنيا.

نختم الدرس بقول النبي عليه الصلاة والسلام، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[الترمذي]

انضم للمؤمنين تَسْعَد بهم، وكن مع المؤمنين لأن الله عزّ وجل أمرك بأمر قطعي الدلالة فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

أي من أجل أن تستطيعوا أن تتقوا الله كونوا مع الصادقين، أنت بحاجة إلى بيئة مؤمنة، لأنه مهما تكن الأفكار دقيقة وعالية فإن البيئة لها أثر خطير جداً، فيجب أن تكون لك بيئة طيّبة، بيئة طاهرة، بيئة مؤمنة، بيئة راقية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف)

المؤمنون إذا ذهبوا في نُزهة فهي جنّة، يذكرون الله عزّ وجل، يتعاونون، لو جلسوا في جلسة حَفّتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله في من عنده.

والمؤمن إذا سهر مع إخوانه يسعد بهم، وإذا سافر معهم يسعد بهم، وإذا شاركهم يسعد بهم، فلذلك:

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أحمد عن النعمان بن بشير]

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

هذا كلّه مستنبط من قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

عندما كان النبي الكريم في غزوة من الغزوات سأل عن أحد الصحابة، فغمز أحدهم أنه سرّه النظر إلى عطفيه، وسرُّه بستانه، فهو في ظلٍّ ظليل.. أي إنه آثر مصالحه الدنيوية على أن يغزو معك.. النبي سكت، فجاء رجل وقال: " والله يا رسول الله ما علمنا عنه إلا خيرا، والله يا رسول الله لقد تخلّف عنك أناسٌ لو علموا أنك تلقى عدّواً ما تخلّفوا عنك، وما نحن بأشد حباً لك منهم "، فتبسّم النبي، وسُرّ من هذا الموقف.

دافع عن أخيك، ولا تكن عونا للشيطان عليه، كن عوناً له على الشيطان، إذا أخطأ أخوك فاستره، ودافع عنه، النبي قال:

((التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرّة))

[ورد في الأثر]

يروى عن قاضٍ من كِبار القضاة دخلت عليه امرأةٌ، يبدو أنه ظهر منها صوت بَشِع، فتألّمت ألماً شديداً، وقالت لأختها: إنه سمعنا، عندما وصلت إليه قال لها: ما اسمك يا أختي ؟ فقالت له اسمها، فقال لها: لم أسمع، ارفعي صوتك، فرفعت، فقال لها: لم أسمع لأنني ضعيف السمع، فقالت لها: انظري إنه لم يسمعنا.

إن الإنسان كلّما ارتقى لا يكون قنّاصا، عيّابا، همّازا، لمّازا، يبحث عن العيوب، المؤمن يبحث عن الكمال، فكل واحد فيه كمال وفيه نقص، المؤمن الراقي يبحث عن النواحي الإيجابية، لذلك النبي لم يواجه أحد بما يكره، كان يقول على المنبر:

((مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا))

[مسلم عن أنس]

يكون الواحد قد فعلها فلم يسمّ أسماء..

مرّة كان أصحابه مدعّوين، وهو معهم فظهرت رائحة، أذّن العصر، فقاموا إلى الصلاة، هم جميعاً صلّوا الظهر، والآن أذّن العصر، فقال عليه الصلاة والسلام:

((كل من أكل لحم جزور فليتوضأ))

[ورد في الأثر]

الأكل كان لحم جزور، فقالوا: كلّنا أكلنا، فقال: كلكم يتوضّأ ".. من أجل أن يضيع هذا الذي انتقض وضوءه، لا تحمّروا الوجوه، هذا معنى:

(اللّهَ يُحِبُّ الّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ)

الآن تجد خلافات على مستوى أسرة واحدة، الإخوة متحاربون، الأصهار متحاربون، أولاد العم متحاربون، الشركاء متحاربون، ما هذه الحياة ؟ الشيطان دخل فيها، أما المؤمنون فهم متعاونين، متآزرون، متكاتفون، متضامنون، متناصحون..

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادُون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ(3)إِنّ اللّهَ يُحِبُّ)

في آية واحدة أو في آيتين الله عزّ وجل أعلمنا من يكره ومن يحبّ، يكره الذي يقول ما لا يفعل، ويحب المتعاون مع إخوانه المؤمنين، الذي يلتمس لهم العذر:

((التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرّة))

إن شاء الله في درسٍ قادم نتابع الآيات:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصف 061 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 5- 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-09-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة الصف، ومع الآية الخامسة، وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

1 - تسلية الله للنبي بقصص الأنبياء السابقين:

أولاً: هذه الآية كما يقول بعض العلماء: فيها تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، فحينما آذى كفّر قريش النبي بتكذيبهم، وأعمالهم، وانحرافهم، وتأليب الناس عليه، والمكر عليه، وإخراجه من بلده، حينما بلغت قريشٌ في إيذاء النبي ما بلغت أراد الله سبحانه وتعالى أن يُسَلِّي النبي، وأن يخفِّف عنه حينما ذكر له أنّ موسى عليه السلام أوُذي كثيراً، وقد قال عليه الصلاة والسلام كما في حديث عَبْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَغَضِبَ حَتَّى رَأَيْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ))

[متفق عليه]

من حكمة الله اختلاط المؤمن مع غيره للابتلاء:

والإنسان أحياناً حينما يرى سنّة الله في خلقه تخفُ عليه الأمور، وحينما يرى أن الدنيا دار ابتلاء، وليست دار نعيم، وأن الآخرة دار نعيم، حينما يرى أن الدعاة إلى الله، وأنّ المؤمنين قد يبتليهم الله بمن يعارضهم، ومن يكذِبهم، ومن يُؤلِب الناس عليهم، ومن يريد أن يطفئ دعوتهم، حينما يستقرُ في ذهن المؤمن أن الإنسان مبتلى، ون المؤمن مبتلى ليرقى عند الله.

قد ذكرت لكم من قبل أنه كان من الممكن أن يكون المؤمنون في قارّة والكفّار في قارّة، عندئذٍ لا مشكلة ولا ابتلاء، ولا حرب ولا كيد، ولا إخراج ولا تكذيب، ولكن شاءت حكمة الله أن يختلط هؤلاء مع هؤلاء ليبلوَ هؤلاء بهؤلاء، وهؤلاء بهؤلاء، ليرقى هؤلاء المؤمنون عند الله عزّ وجل بصبرهم وثباتهم وإصرارهم، ولتُكشَف طويّة هؤلاء من تكذيبهم وانحرافهم، واتّباع شهواتهم.

هذه الآية فيها بادئ ذي بدء تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، أي إنك يا محمد لم تُكذّب وحدك، ولا لم تُؤذ وحدك، ولكنها سنّة الله في أنبيائه وفي رسله، والإنسان لا يرقى عند الله عزّ وجل إلا بقدر تحمُّلِه، وقد ذكرت لكم من قبل أن الحزن خلاّق، وأن الإنسان حينما يجهد في نشر الحق، وحينما يتحمّل في نشره الغالي والرخيص، والنفس والنفيس لعلّ الله سبحانه وتعالى يتجلّى على قلبه برحمةٍ يُنسيه كل هذه المتاعب.

لا يدوم شيء إلا ثواب الطاعة وتبعات المعصية:

أيها الإخوة الأكارم، الطاعات وما تنطوي عليه من مَشَقّات تذهب مشقّاتها، ويبقى ثوابها، والمعاصي وما تنطوي عليه من لذات ومَسَرّات تذهب لذاتها ومسرّاتها، وتبقى تبعاتها وجزاؤها، كل شيءٍ ماض، ولا يدوم على حالٍ لها شانُ..

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سرّه زمنُ ساءَته أزمانُ

وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

***

كل شيءٍ زائل، إلا أن الطاعة يزول جهدها ويبقى ثوابها، والمعصية تزول لذّتها ويبقى إثمها..

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي)

2 ـ أشدُّ أنواع إيذاء الأنبياء تكذيبهم:

الإيذاء أنواع، لكن أشدُّ أنواع الإيذاء للأنبياء تكذيبهم، قد نفهم أن هناك نوعاً من الأذى ماديا للأنبياء، والحقيقة أن الأنبياء معصومون، والأنبياء في حرزٍ حريز، ولكن الأذى الشديد الذي يمكن أن ينال النبي هو تكذيبه، وتسفيه دعوته، وعدم الالتفات إليه، و هناك أذى من نوع آخر، لعلّ هذا ورد في بعض كتب التفسير، لكن أشدّ أنواع الأذى هو الذي خلّصهم، هو الذي جَهدَ عليه الصلاة والسلام لتخليصهم من فرعون..

قصة موسى مع فرعون تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام:

(قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا)

(سورة الأعراف: الآية 129)

أي أنهم سفّهوا فضله، عندما أنجاهم من فرعون الذي كان يذبّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم قالوا:

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

(سورة الأعراف: الآية 138)

هذا فهم ثقيل، المفسّرون يوردون مواقف عديدة جداً.

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

(سورة المائدة: الآية 24)

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

(سورة طه)

هناك مواقف كثيرة لبني إسرائيل آذوا فيها النبي موسى عليه السلام، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي)

إنْ في التكذيب، و إنْ في جحود الفضل، و إنْ في طلب آلهةٍ تعبدونهم من دون الله، هذا كلُّه يؤذي النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

1 - بنو إسرائيل متيقِّنون من رسالة موسى عليه السلام:

(قد) حرف تحقيق، تعلمون علماً يقينياً أنني رسول الله، ومقتضى علمكم أن تعظِّموني وأن تطيعوني، فأنتم لا تعظِّموني ولا تطيعوني إذاً أنتم تؤذونني..

(وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

2 ـ شرف الرسول من شرف المُرسِل:

أي أن شرف الرسول من شرف المُرسِل.

إذا أهان الإنسان سفيرًا فكأنه أهان دولة، وقد تنشب حروب بسبب إهانة سفير، لأن هذا السفير يُمَثِّل أمّة، فإذا أُوذي النبي فهذا الأذى هو في الحقيقة أذًى لله ورسوله، أي يؤذون الله بإيذائهم لرسول الله، فلذلك الأنبياء يعظّمون و ينصرون..

قبيل معركة بدر عندما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

((ما ترون يا قوم ؟ قال سيدنا سعد بن معاذ: لعلّك تعنينا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال سيدنا سعد: لقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، فامض على بركة الله، وسر بنا فو الذي بعثك بالحق لو خضت بنا البحر لخضناه معك، ما تخلّف منّا واحدٌ منّا، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، ودع ما شئت، وسالم من شئت، وحارب من شئت، فو الذي بعثك بالحق.. مرّةً ثانية.. للذي تأخذه من أموالنا أحبُّ إلينا من الذي تتركه لنا، فامض على بركة الله))

[السيرة النبوية بسند صحيح]

هذا موقف عظيم.

إن الصحابة الكرام بلغوا قمم المجد بتأييدهم للنبي، وبمعاونتهم له، ولذلك المؤمنون أيضاً حينما يتعاونون، حينما يؤيّد بعضهم بعض، حينما يتكاتفون ويتضامنون، حينما يلتمس بعضهم لبعضٍ العذر، حينما لا يغمزون، ولا يلمزون فإنهم يرقون عند الله عزّ وجل، فهذه الآية:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

3 ـ تعظيم الرسول وطاعته تعظيم لله وطاعة له:

أي مقتضى علمكم أن تعظِّموني، وأن تؤمنوا بي، وأن تطيعوني لا أن تعارضوني، ولا أن تكذِّبوني، ولا أن تحيدوا عن أمري، لذلك هناك آيات كثيرة جداً تبيّن أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلّم هي عين طاعة الله، وأن إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم هو عين إرضاء الله..

(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

(سورة النساء: الآية 80)

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(سورة المجادلة: الآية 13)

إذاً: هذه الآية تسليةٌ للنبي صلى الله عليه وسلّم، وتخفيفٌ عنه، وهي دعوةٌ للمؤمنين بشكلٍ خفي ألا تؤذوا رسول الله، ألا تؤذوه بتكذيبكم له، أو بمخالفتكم لأمره، لأن هناك تكذيبًا قوليًا وتكذيبًا عمليًا، فحينما تسفِّهون قوله فقد آذيتموه، وحينما تحيدون عن أمره فقد آذيتموه.

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)

(سورة الشورى: الآية 23)

إلا أن تتودّدوا إلى الله مودَّةً تقرّبكم إليه، فالنبي الكريم يصل إلى منتهى آماله حينما يرى الناس مقبلين على الله، وعندما أطلّ على أصحابه قبل أن يموت رآهم في الصلاة خاشعين، ابتسم حتى بدت نواجذه، وقال:

((علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[تخريج أحاديث الإحياء]

هؤلاء العظماء ليس لهم من الدنيا شيء، لهم من الدنيا أن تُحقّق رسالتهم، وأن ينهضوا بالناس، أما التافهون فيعيشون ليأكلوا، والأقلّ تفاهةً يأكلون ليعيشوا، أما المؤمن فيعيشُ ليعرف الله عزّ وجل، فهؤلاء الأنبياء العِظام حينما ينتشر الحق بين أقوامهم يسعدون، وحينما يكذّبون، وحينما يُخالفون فإنهم يتألّمون، فالأذى هنا أن تكذِّب النبي، أو أن تحيد عن أمره.

الداعية المخلص لا يرجو من الناس عطاءً:

المعنى المُخالِف: إرضاء رسول الله لا أن تعطيه مالاً، بل أن تكون في مستوى دعوته، وإذا كان الدعاة صادقين في ما يدعون فلا يطلبون من الناس شيئاً، إلا أن ينتشر الحقُّ بين الناس، وأن يسعد الناس بالله عزّ وجل، وأن يرقوا إليه، وأن تسمو نفوسهم، وأن يكون الإسلام مطبّقاً في كل الأسر، لذلك الصادق لا يريد على دعوته شيئاً، لا يريد إلا أن يُسعِد الناس، فإن سعدوا سعِد بإسعادهم، وإذا أردت أن تسعد فأسعِد الآخرين.

القرآن الكريم كتاب تربوي، لأن النبي عليه الصلاة والسلام أُوتي الفِطنَة، فأحياناً يمكن أن أقدِّم لك الحقائق بشكل قصّةٍ تاريخية، هذه الحقائق إخبار وتوجيه في وقتٍ واحد، فالنبي يُكَذّب، والنبي يؤذى، فلمّا قال الله عزّ وجل:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

هذه تسليةٌ للنبي، وهذا توجيهٌ للمؤمنين ؛ أن أيها المؤمنون إيّاكم أن تؤذوا رسولكم، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام قال تعالى في حقه:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

أي إذا كانت سنّتك يا محمّد مطبّقةً في بيوتهم، وفي أعمالهم، وفي حياتهم ما كان الله ليعذِّبهم، هم في بحبوحةٍ من عذاب الله حينما يطبّقون سنّتك، والله سبحانه وتعالى لم يقبل دعوى محبّته إلا بالدليل، ودليل دعوى محَبّته أن يطاع رسول الله، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية 31)

4 ـ تكذيبُ النبي إيذاءٌ له:

فلذلك المعنى المخالِف: إنك إن كذّبت النبي وحِدّت عن أمره آذيته، وإنّك صدّقت النبي وطبّقت سنّته فقد أرضيته، وإرضاء النبي إرضاءٌ لله عزّ وجل، لأن النبي دعوته تَشِفُ عن الحقيقة الإلهية، ليس له ذاتٌ تحجبك عن الحقيقة الإلهية، كل أقواله وأفعاله وإقراره وأحواله إنما تبيّن كمال الله عزّ وجل، وما وعد به المؤمنين من جنّةٍ عرضها السماوات والأرض.

(لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ)

أحياناً لو أن أباً يربّي ابنه على الجدِّ في الدراسة، لو أن صديقاً لابنه صرفه عن الدراسة، وزَهّده فيها، وحمله على أن يغيب عن مدرسته، أليس في هذا السلوك إيذاءٌ للأبِ ؟ قد يقول الأب لهذا الصديق المنحرف: لمَ تؤذيني في ابني ؟ لأن الرحمة إذا ارتفع مستواها، الأذى الذي ينال الرحيم لا أن تنال من جسده، بل أن تنال من دعوته.

إياك أن تعارض الحق أو تكون في خندق الأعداء:

إذا أراد إنسان أن يُسَفِّه داعيةً، أو أراد أن يطعن في الداعي بلا سبب وبلا دليل أليس هذا إيذاء للحق ؟ شخصٌ يستفيد من إنسان، يعتقد فيه الصلاح، وهو مطبّقٌ للدين اعتقاداً منه أن هذا الذي يدعوه صادقٌ في ما يدعوه، ومستقيمٌ على أمر الله الذي يدعو إليه، فإذا أردت أن تكذب، وأن تسفِّه، وأن تطعن، وأن تقلل من قيمة هذه الدعوة، أليس في هذا التقليل، وهذا التسفيه، وهذا الطعن تجريحٌ للدعوة، وإيذاءٌ لصاحب الدعوة ؟ فالإنسان يكون مع الحق، وليحذر أن يكون في خندقٍ مناهضٍ للحق، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنّ اللّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم)

أي أيها الإنسان قبل أن تعارض الحق، وقبل أن تقف في خندقٍ يعاند الحق، وقبل أن تتمنّى إطفاء نور الله فكِّر ملياً أنك إذا فعلت هذا فإن الله سبحانه وتعالى وجبريل والملائكة والمؤمنين جميعاً سوف يكونون في مواجهتك، فالإنسان يحذر ألف مرّة أن يناهض الحق، لأن الحق ماضٍ إلى ما لا نهاية، الحق هو الله، فهل من الممكن لطفل صغير يجابه أكبر جيش في العالم ؟ إنه يُقتَل في ثانية، وهل يمكن لجيش صغير أن يجابه أكبر جيش ؟ فالإنسان عندما يفكِّر أن يعاند الحق، أو يطفئ نور الله عزّ وجل فهو يفعل المستحيل، لكنه لا يصيبه إلا سوء طَوِيَّتِهِ..

تُروى طرفة أن قوم إبراهيم عندما أضرموا ناراً عظيمة لإحراق هذا النبي الكريم، كانت ضفدعةٌ تملأ فمها بالماء، وتطفئ به الحريق، وحشرةٌ أخرى كانت تنفُخُ في النار، لا الحشرة زادت من إيقاد النار، ولا الضفدعة أطفأت النار، ولكن..

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

(سورة الإسراء: الآية 84)

إن الإنسان إذا عارض الحق فإن الحق ماضٍ، الحق لن يقف، وإذا أيَّد الإنسانُ الحقَّ فإن الحق ماضٍ لن يقف، إلا أن الذي أيّد يرقى عند الله، والذي عارض يسقط من عين الله، والحق هو الله، فلا تأييدك يزيد الحق تألّقاً وقوّةً، ولا المعارضة تضعفه، لأن الحق هو الله، فإنك إن أيّدت الحق ارتقيت عند الله، وإنك إن عارضته سقطت من عين الله.

هناك أشخاص.. سبحان الله ! يرى شابا مؤمنا، مستقيما، ورعا فيسقِّه له دينه، يقول له: هذا تزمُّت، يدعوه إلى التفلُّت، يدعوه إلى عدم التقية، يدعوه إلى الاختلاط، يدعوه إلى عدم الشدّة في تطبيق أحكام الدين، هذا هو الشيطان بعينه، إذا اقترب الإنسان من الله، وجهد في طاعة الله عليك أن تُشَجِّعه، عليك أن تنصره، عليك أن تعينه على ما يبتغي، لا أن تثبّط من عزيمته، لا أن تضعف همّته، إنك إن ثَبَّطت عزيمته أو أضعفت همّته كنت في خندقٍ مع الشيطان في آنٍ واحد..

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

1 - الفاسق لا يهتدي:

هذا قانون، الفاسق لا يهتدي، لأن معصيته حجابٌ بينه وبين الله، وقضية الدين قضية خطيرة، الدين ليس قضية كتاب تقرأه فتفهمه، أو تؤدي فيه امتحانا، وانتهى الأمر، الدين التزام، الدين مبدأ، الدين تطبيق لهذا المبدأ، الدين مكارم أخلاق، فإذا كان الإنسان فاسقاً ففسقه حجابٌ بينه وبين الله..

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

لأن جبلّة الإنسان إذا انحرف، وعصى الله عزّ وجل يخجل بمعصيته، فيحجب نفسه عن الله، هذا سمّاه العلماء: **" تحصيل حاصل "**، فإذا لم يذهب الإنسان إلى الماء ليشرب مات عطشاً، وموته عطشا تحصيل حاصل لرفضه أن يشرب الماء، فلا نقول: فلان أماته العطش، هو حينما صرف نفسه عن نبع الماء مات عطشاً، هذا اسمه في علم الكلام تحصيل حاصل..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

2 - الإضلال الجزائي مبنيٌ على ضلال اختياري:

الفاسق لا يهتدي إلى الله، لأن معصيته حجابٌ بينه وبين الله، وهذا حينما أزاغ قلبه عن الله.. إنسان مريض يتوجّه إلى المستشفى، فإذا غيّر جهته خَسِرَ العلاج.. هذا أيضاً تحصيل حاصل، لذلك أيُّ إضلالٍ جزائي، أيُّ إضلالٍ معزّوٍ إلى الله عزّ وجل فهو إضلالٌ جزائي مبنيٌ على ضلال اختياري، وأية إزاغةٍ معزوّةٍ إلى الله هي إزاغةٌ جزائيةٌ مبنيةٌ على زيغٍ اختياري.

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

أي إنسان رفض الجامعة، حينما رفض دخول الجامعة خسر كل شيء ؛ خسر الميّزات، الشهادة، الدرجة العلمية، المكتبة، الاستثناءات، الميزات، أحياناً يكون الراتب الشهري، وأحياناً مدينة جامعية، كل هذه الميزات خسرها باختياره، لأنه زاغ عن الجامعة، فزاغت عنه ميّزاتها، والإنسان مخيّر، وأعماله من اختياره، فلذلك:

(فَلَمَّا زَاغُوا)

فلمّا انصرفوا عن الله عزّ وجل صُرِفَت عنهم الخيرات التي كانت تنتظرهم، انصرف عن المستشفى فخسِر المعالجة، انصرف عن الجامعة فخسِر العلم، هذا تحصيل حاصل، زاغت نفسه عن الله فخسِر

كل ما في الهدى من خيرات، خسِر رضوان الله، خسر توفيق الله، خسر حفظ الله، خسر تطمين الله له، خسر الآخرة، خسر الدنيا..

(فَلَمَّا زَاغُوا)

3 - معنى الزيغ:

زاغ أي انحرف..

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

(سورة النجم)

ما زاغ أي ما انحرف..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

زاغوا حينما فسقوا، لمَّا فسقوا زاغوا.

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

هذا تحصيل حاصل.

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ)

(سورة الصف: الآية 6)

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ)

هو ليس منهم، ليس من قومهم، وهنا دقّة بالغة في الآيات، قال:

(إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

أحياناً أعداء الدين إذا أرادوا أن يجاملوا المؤمنين يضفون على الأنبياء العبقرية، والذكاء، والتفوّق، ويغفِلون النبوّة والوحي، وهذا شيء خطير جداً، هم يريدون النبي إنسانا متميزا، متفوقا، ذكيا جداً، عبقريا، أراد أن يوحِّد الأمّة، أراد أن يجمعها تحت لوائه، ويغفلون أنه نبيٌّ مرسل يوحى إليه، وأنه يتحرّك بأمر الله، هذا يغفلونه، فلذلك:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

4 - لكل نبي معجزة تثبت نبوته:

عندما يكون النبي إنسانا حينما يأتي بمنهجٍ دقيقٍ فإنه يحدُّ من شهوات الناس، والناس ماذا سيقولون حينما يأتيهم منهج يحدُّ من حركتهم العشوائية، ومن انغماسهم بالشهوات ؟ إن ردّ فعلهم الطبيعي أن

يكذِّبوه، ويقولون: أنت كاذب، لست رسول الله، ماذا ينبغي أن يفعل هذا الرسول حتى يؤكِّد لهم أنه رسول الله ؟ ينبغي أن يأتي بالمعجزات التي يعجز عنها كل البشر، وينبغي أن يأتي بالمعجزات التي تفوّق فيها البشر، فقوم موسى وعيسى لهم تفوقٌ في شيئين، تفوقوا وعجزوا، قوم سيدنا عيسى تفوقوا في الطب، فكانت معجزته إحياء الموتى، وهذا فوق طاقة الطب، سيدنا موسى قومه تفوقوا في السحر، فجاء هو بشيءٍ يفوق السحر، العصا تصبح ثعباناً مبيناً تلقف ما يأفكون، سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام قومه بُلَغَاء، فصحاء، شعراء، فجاءهم بكلامٍ معجز، إلا أن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام باقيةٌ إلى يوم القيامة، معجزة عقلية بيانية، كلّما تقدّم العلم كشف من إعجاز القرآن الشيء الكثير، معجزة باقية إلى يوم القيامة، بينما معجزات الأنبياء السابقين ظهرت لحين، وانتهت، وأصبحت خبراً يصدِّقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه..

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ)

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ

1 - الإنجيل يصدِّق التوراة:

أي أن الإنجيل يصدِّق التوراة.

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

2 - الإنجيل بشّر بالنبي عليه الصلاة والسلام:

هذا بحث طويل، ففي بعض الأناجيل ورد اسم النبي عليه الصلاة والسلام.. فرقليط.. أي أحمد، وهذا في بعض الأناجيل، وفي بعضها الآخر مُحِي.

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

3 - الفرق بين اسمي أحمد ومحمد:

الحقيقة أن أحمد ومحمدا بينهما فرقٌ دقيق:

أولاً: اسم فرقليط يشير إلى أحمد عندهم، وهذا من دقّة القرآن الكريم.

أما المعنى الثاني: أن أحمد اسم تفضيل، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام أكثر الناس حمداً لله عزّ وجل، فهو اسم يبين النوع، بينما محمَّد له معنيان، يبين كثرة حمده لله، ويبين أنه محمودٌ عند الله، وعند الخلق، وعند نفسه، فمحمد اسم فاعل مبالغ به مبالغة تكرار، ومبالغة كم، أو اسم مفعول مبالغ به مبالغة تكرار أو كمٍّ، أي محمد كثير الحمد، أو كثير المحمودية، أي يحمد الله كثيراً في كل أوقاته، في كل أحواله، في كل شؤونه.

الحمدُ يقابل النِّعم:

الحقيقة حينما تقرأ الفاتحة في القرآن الكريم، أو حينما تقرأ الفاتحة في الصلاة.. الحمد هذه أول كلمة.. الحمد يقابل النعم، والنعم بين يديكم ؛ نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة الشم، نعمة النُطق، نعمة الحركة، نعمة سلامة الأجهزة، القلب، والرئتين، والمعدة والأمعاء، والكليتين، نعمة العظام، نعمة العضلات، نعمة العقل، نعمة الأعصاب، نعمة الطعام والشراب، نعمة الزوجة، نعمة الأولاد، النعم لا تُعَدُّ ولا تُحصى، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة النحل: الآية 18)

النعمةُ واحدة، ولن تستطيعوا أن تعدّوا خيراتها ولا بركاتها، فإذا كنتم عاجزين عن أن تعدوا خيراتها وبركاتها، فلأن تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى.

لا يكون الحمد إلا لله:

لمن الحمد ؟ عند المؤمن الحمد لله، وغير المؤمن الحمد لزيد، أو الحمد لعُبيد، أو الحمد لفلان، أو الحمد لعلاّن، أو الحمد للمال الذي أحوزه، يقول لك: الدراهم مراهم، أو الحمد للذكاء، أو الحمد لعشيرتي، أو الحمد لجماعتي، هذا هو الشِرك، أما عند المؤمن فالحمد لله.

المشكلة ليس في إثبات الحمد أو عدم إثباته، المشكلة إلى مَن يُعْزَى الحمد ؟ الحمد لله، لذلك المؤمن ينتقل من النعمة إلى المُنْعِم، والكافر يبقى في النعمة، الكفّار غارقون في النعم، ويستغلّون نعم الله أعلى استغلال، إلا أنهم لم ينتقلوا من النعمة إلى المنعم، إنهم وقعوا في النعمة، وحُبسوا فيها، ولم يجاوزوها إلى المنعم..

لذلك (أحمد) أعظم الناس حمداً، والحامد الأول في الكون، لأن أساس الكون مسخَّر تسخيرين ؛ تسخير تعريف، وتسخير تكريم، تسخير التعريف ردُّ فعله الإيمان، تسخير التكريم ردّ فعله الشكر، لذلك:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: لآية 174)

وهذا أصل الدين، الله عزّ وجل منحك نعمة الوجود، أنت موجود، لك اسم، منحك نعمة الإمداد ؛ فأمدّك بالماء والهواء، والطعام والشراب، والزوجة والأولاد، أمدّك بنعمة الهدى فأنت كلّك نعمة، والنعمة تحتاج إلى شيئين، النعمة تحتاج إلى شكر، وحينما تعلم أن الذي خلقك هو إلهٌ عظيم فهذا يحتاج إلى إيمان، فإنك إن آمنت وشكرت حققت الهدف الذي من أجله خُلِقت، فإذا آمنت وشكرت توقّف العلاج..

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

فـ (أحمد) سيد الحامدين، وأحمد الحامدين، ولا يوجد مخلوق على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة حمد الله حمداً كحمده، ونحن جميعاً نتفاوت في الحمد، فكلّما رأيت فضل الله كنت له أكثر حمداً، إذاً: الحمد متعلِّق بالرؤية، فإن رأيت فضل الله عليك تحمده حمداً كثيراً، وإذا أردتم الشيء الدقيق فإن المؤمن يحمد الله حمداً دائماً، وكان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقّت، فكأس من الماء تشربه الطريق سالك، لأنه لو لم يكن سالكاً لكنت بين الأطبّاء، والمستشفيات تحتاج إلى تمييل، إلى فتح مجرى، إلى عملية جراحية، أحياناً تقف بحصة في الحالب فتجعل حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق، تحتاج إلى مستشفيات، وإلى تفتيت، وإلى تصوير، وإلى جراحة، فلذلك كانت تعظم عنده النعمة مهما دقّت.

إنسان يقضي حاجته بنفسه معزّزا مكرّما نظيفا، فإذا شُلّت أعضاؤه فإنّ أقرب الناس إليه يتمنّى موته، أولاده، زوجته، والدعاء الشهير هو: " الله يخفِّف عنه "، وإذا اختلّ عقل الإنسان فإن أقرب الناس إليه يسعى لإخراجه من البيت الذي اشتراه لهم، وإيداعه في مستشفى الأمراض العقلية.. وإذا افتقر الإنسان فقد ينقِّب في الحاويات ليأكل شيئاً لا يؤكل.

عندما يكون الإنسان مكتفيًا، أجهزته سليمة، والحقيقة أن الشيء المعجز ليس في الخلل، ولكن في السلامة، ففي خمسون مادّة، وكل مادّة لها نسب دقيقة، لو ارتفعت قليلاً اختل الجهاز الثاني، هذه الغدّة النخامية ملكة النظام الهرموني، وزنها نصف غرام، تفرز اثني عشر هرمونا، أحد الهرمونات يحقق توازن السوائل، لو اختل هذا الهرمون فإنك تحتاج إلى أن تشرب أكثر من مئة لتر في اليوم، وأن تطرحها، ولا يبقى لك عمل إلا أن تشرب، وأن تطرح، لو اختلّ هرمون واحد من اثني عشر هرموناً من غدّة وزنها نصف غرام نخامية، الإنسان خلقه معجز، فإذا استيقظ الإنسان صباحاً معافى، وكان

مطيعاً لله، فهذا نعمة لا تقدّر بثمن، لذلك عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي]

إذاً: (أحمد) سيّد الحامدين، ومحمود أي محمودٌ عند الله، وعند الخلق، وعند نفسه.

أحياناً يكون الإنسان ذكيا جداً، فيحمده الناس، أما هو فيحتقر نفسه، لأنه يكذب عليهم، لأنه يستغلّهم دون أن يشعروا، فالبطولة أن تشعر أنك محمودٌ عند الناس، ومحمودٌ عند الله، ومحمودٌ عند نفسك، واحترام النفس شيء مهم جداً، وبعض الأشخاص ساقطون من عين أنفسهم محترمون عند الناس لأنهم أذكياء، ويوهمون الناس أنهم يعطون، لكنهم يستغلّون، فيسقطون من عين أنفسهم بينما ينتزعون إعجاب الآخرين، وهناك أشخاصٌ يحمدهم الناس، وهم عند الله ساقطون، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، فكان عليه الصلاة والسلام محمّداً، أي كثير المحمودية، أو كثير الحمد، فالفرق بين أحمد وبين محمّد فرق بين النوع والكم، أحمد نوعاً، ومحمد كمّاً.

الإنسان أحياناً يحمد الله إذا اشترى بيتا، أو تزوج، أو نال شهادة عُليا، أو اشترى مركبة، أو حقّق نجاحا في عمله، وهو في مليون نعمة كل يوم، كل يوم أنت مغمور بملايين النعم، فلو كنت يقظاً، ولو كنت ذاكراً لفضل الله عزّ وجل، ولو كانت رؤيتك صحيحة لحمدت الله مع كل نفَس، والذي يحمد الله عزّ وجل يزيده الله من فضله..

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنّكُمْ)

(سورة إبراهيم: الآية 7)

أي أنّ هذه النعمة لو حمدت الله عليها فلن تزول، بل ستزداد، لأن الله يقول:

(فَلَمّا جَاءَهُمْ بِالْبَيّنَاتِ)

(سورة الصف: الآية 6)

فَلَمّا جَاءَهُمْ بِالْبَيّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ

الدّالة على أنه رسول، ومِن هذه البينات إحياء الموتى، إخبارهم بما في بيوتهم..

(قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ(6)وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ افْتَرَى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ

هذه (من أظلم) تقصم الظهر، أي أنه ليس في الأرض إنسانٌ أشدُّ ظلماً لنفسه ممن يُدعى إلى الحق، ثم يتهم الحق أنه باطل، وأنه سحر، وأنه كذب، وأنه دجل، وأنه غيبيّات، هذا الذي يُدعى إلى الحق، ثم يُسقِه الحق ليس في الأرض كلِّها إنسانٌ أشدُّ ظلماً لنفسه منه..

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

جاءك الحق فقلت: هذا كذِب.

(وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

هؤلاء ظلموا أنفسهم قبل كل شيء..

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

(سورة الصف: الآية 8)

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

1 - لا يمكن لأحد أن يطفئ نور الله:

الحقيقة: هل يمكن لإنسان أن يلغي نور الشمس مهما كان ذكياً ؟ هل يمكن أن يطفئ لهيب الشمس بفمه؟ إذا وقف رجل، ونفخ باتجاه الشمس هل تنطفئ ؟

(لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

الحق ماض، والإسلام شامخٌ كالجبال، وعندما ينصر الإنسانُ الإسلامَ فإنه يرتقي عند الله فقط، أما الإسلام فهو الإسلام، الإسلام منصور، لأنه دين الله.

2 - معنى: نور الله:

قال بعض العلماء: **" نور الله هنا أي محمدٌ عليه الصلاة والسلام ".**

لما انقطع عنه الوحي أربعين يوماً فرح الكفّار، وقالوا: لقد طُفئ نور الله.. انتهينا منه، وخلصنا منه.. ثم جاء الوحي مستمرا، فقال بعض العلماء: **" نور الله هو النبي عليه الصلاة والسلام ".**

وقال بعضهم: **" هو القرآن الكريم ".**

وقال بعضهم: **" هو الإسلام ".**

وقال بعضهم: **" هي الآيات الدّالة على عظمة الله ".**

لذلك إطفاء نور الله أي الطعن في القرآن، أو الطعن في النبي العدنان، يقولون لك: تزوّج تسع نسوة، ماذا يعني ذلك ؟ هذه لها بحث طويل، ولو قرأت هذا البحث لذابت نفسك تعظيماً لهذا النبي، فهناك من يطعن في النبي، يريد أن يُطفئ نور الله، هناك من يريد أن يطعن في القرآن فيقول لك: موضوعاته متنوعة ليس فيها منهجية، هناك من يقول ذلك، هناك من يطعن في الإسلام كمنهج وكنظام، هناك من يطعن في كل آيةٍ دالّةٍ على عظمة الله، وهناك من يحاول أن يُطفئ نور الشمس بفمه، وهذا مثل واضح جداً، لذلك " ما ضرّ السحاب وهي في السماء نبح الكلاب وهي في الأرض "، فلو تحوّل الناس جميعهاً إلى كنّاسين ليغبّروا على الإسلام ما غبّروا إلا على أنفسهم، لأن الإسلام دين الله، وما ضرّ البحر أن رماه غلامٌ بحجر، إذْ وقف طفل على ساحل البحر، وألقى حجر فيه، والبحر أربعة أخماس اليابسة، عمقه اثنا عشر كيلو متر، طفل ألقى فيه حجرا ماذا فعل ؟ ما فعل شيئاً، ما ضرّ السحاب نبح الكلاب، وما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلامٌ بحجر، ولو تحوّل الناس إلى كنّاسين ليغبّروا على الإسلام ما غبّروا إلا على أنفسهم، ولا يوجد دين كاد له الكائدون، وخطط له أعداؤه كهذا الدين العظيم، والشيء الغريب أن هذا الدين كلّما أردت أن تطفئ نوره ازداد تألّقاً، والذي يريد أن يطفئ نور الله كمن يريد أن يطفئ النار بالزيت، وكلّما ألقى عليها الزيت ازدادت اشتعالاً، لذلك الأصل أن تكون مع الحق لا أن تكون ضدّ الحق.

دركات مَن عارض الأنبياء ودرجات المؤمنين بهم:

حينما جاءت الدعوة إلى النبي الذي عارضه وكذّبه قومه، أين هم الآن ؟ في مزبلة التاريخ، حينما قُتلوا في بدر سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُنَادِي عَلَى قَلِيبِ بَدْرٍ:

((يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُنَادِي قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا ؟ قَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا))

[متفق عليه]

الذين نصروه أين هم ؟ لهم لوحات الشرف ؛ سيدنا الصدّيق، سيدنا عمر، سيدنا عثمان، سيدنا علي، سيدنا سعد، سيدنا معاذ..

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ:

((يَا مُعَاذُ، وَاللّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ))

[أبو داود]

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ جَمَعَ أَبَوَيْهِ لِأَحَدٍ إِلّا لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ:

((يَا سَعْدُ، ارْمِ فِدَاكَ أبي وَأُمِّي))

[متفق عليه]

وعَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:

((قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنّ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ مِنْهُمْ))

[مسلم]

((أبو بكرٍ ما ساءني قط، فاعرفوا له ذلك))

[ورد في الأثر]

الذين أيدوه ونصروه أين هم ؟ في روضات الجنّات، في أعلى عليّين، في سجل الخالدين، والذين كذّبوه، وآذوه أين هم الآن ؟

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

أي ستة آلاف سنة × ثلاثمائة وستين يومًا × اثنين، والخير إلى الأمام..

(غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

الذين كذّبوه النبي، ألف وأربعمائة وستة عشر سنة × اثنين × ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً × اثنين.

(غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

إنّ أصحابه أيّدوه ونصروه وافتدوه بأرواحهم..

امرأةٌ تبحث عن رسول الله، رأت زوجها قد قُتِل في ساحة المعركة، ثم رأت أخاها قد قِتِل، ثم رأت أباها، ثم رأت ابنها وهي تقول: " ما فعل رسول الله ؟ فلمّا رأته سليماً قالت: كل مصيبةٌ بعدك هينةٌ يا رسول الله ".. لا توجد مشكلة.. هكذا كانوا الصحابة.

النبي تفقّد أحد الصحابة فقال: أين فلان ؟ لم يعرفوا عنه شيئاً، وهو سعد بن الربيع، ذهبوا إلى ساحة المعركة فرأوه في النزاع الأخير، قال الذي أرسله النبي: يا سعد لقد أمرني النبي أن أتفقّدك فهل أنت مع الأحياء أم مع الأموات ؟ فقال له: " أنا مع الأموات.. أي انتهيت.. ولكن بلِّغ رسول الله مني السلام.. وهو في قمّة السعادة.. وقل له: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبياً عن أمّته، وقل لأصحابه: يقول لكم سعدُ: لا عذر لكم إذا خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عينٌ تطرف "، و كما قال أبو سفيان: **" ما رأيت أحداً يحبُّ**

محمداً كحبّ أصحاب محمدٍ محمداً "، فالله عزّ وجل رفع شأنهم وأعطاهم قوّة، وجعلهم في الخالدين.
وكل إنسان في أي عصر يستطيع أن يكون مؤمنا، ويعين أهل الحق، ويكون داعية إلى الله، وأهم شيء إذا طبّقت الدين تكون أكبر داعية وأنت ساكت، أنت اسكت، وطبق الدين فقط، كن صادقاً، كن أميناً، يمكن بأي حرفة تكون، بأي مصلحة إذا كنت مطبّقاً لأوامر الدين تغدو علماً، تغدو حجّةً، تغدو داعيةً وأنت صامت بعملك، الدين لا يحتاج إلى فلسفة كثيرة، بل يحتاج إلى تطبيق، يحتاج إلى تألّق في الدين لا من تشقيق المعاني، وتنميق الألفاظ، بل من صدق العمل، وصدق النيات، لذلك:

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

خاتمة:

اطمئنوا.

(وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ)

هذا دين الله فلا تقلقوا أبداً، مهما كَثر عليه أعداؤه، مهما أرادوا أن يطفئوه فإنه يزداد تألّقاً، فبعد سنواتٍ عدّة يصبح الإسلام الدين الثاني في أمريكا، وفي فرنسا قبل عام احتُفِل بتدشين الجامع رقم ألف، وهو الدين الثاني.

الحقيقة أن أناسا كثيرين بالملايين يدخلون في دين الله، لأنه لم يبق من الحق إلا دين الله عزّ وجل، كل شيء سقط وبقي هذا الدين شامخاً، فلذلك:

(وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ)

أي أن الإسلام ماضٍ، والدين حق، فإذا أعنت ودعيت، ونصرت وعاونت تكسب شرف، أما نصره لا يتعلّق بك، ولا على دعمك ولا تأييدك، الدين دين، والحق قائم، إنك إن نصرته اكتسبت شرف نصره، وإن لم تفعل كما كان الذين عارضوا الإسلام في مزبلة التاريخ، معروف مصير الإنسان أين هو لو عارض الدين..

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

تصوّر نور الشمس، نور الله أبلغ من نور الشمس، هذه الشمس التي تبعد عنّا مئة وستة وخمسين كيلو متر، بعض ألسنة اللهب فيها طوله مليون كيلو متر.. أي ألف ألف كيلو متر.. هل تستطيع وأنت على الأرض أن تتوجّه نحو الشمس، وتنفُخ فتنطفئ الشمس، فهذا المثل واضح جداً، الذي يحاول أن يطفئ نور الله بتخرُّصاته وكذبه كمن يحاول أن يطفئ نور الشمس بنَفَسِهِ، وهذا مستحيل، إلا أنك إذا نصرت

الحق ودعمته، وكنت عوناً لأهل الحق اكتسبت شرفاً عظيماً أنت بحاجة لهذا الشرف، أما الحق فماضٍ إلى نهاياته..

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصف 061 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 10- 14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-09-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث والأخير من سورة الصف، ومع الآية العاشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الصف)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

1 - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

الخطاب موجّه للمؤمنين، أي يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بي خالقاً، يا من آمنتم بي رباً، مسيراً، آمنتم بي موجوداً، كاملاً، واحداً، هذا هو المنهج، والارتباط دائماً هو أن الإنسان حينما يؤمن بالله يبحث عن طريقةٍ يتقرب فيها إليه، وما من شيءٍ يقربك من الله عزّ وجل إلا أن تطيعه.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

مَن هو الوليُ ؟

التقرُّب إلى الله بطاعته والتزام أمره، قال بعض العارفين بالله: **" ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء، ولا الذي يطير في الهواء، ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الأمر والنهي "، " أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك "..**

التعريف البسيط الواضح للولي:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

إن آمنت بالله، واتقيت أن تعصيه، إن آمنت به، وأطعته فأنت وليٌ لله عزّ وجل، وإذا كنت ولياً لله حقاً فلا خوف عليك، ولا أنت تحزن، لا خوف عليك مما سيأتي، ولا تحزن عما مضى، لأن خطك البياني

صاعد صعودا مستمرا، حتى لو أن الإنسان إذا أصابته الوفاة، فالوفاة نقطة على خطٍ صاعد، والصعود مستمر.

العلاقة بين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وبين ما بعد يا أيها الذين آمنوا: أنه إن كنت آمنت بالله فلا تبحث عن طريقةٍ تتقرب فيها إليه إلا بطاعته.

أحياناً أنت تؤمن بإنسان، فتتقرب إليه بطريقة لا ترضيه، بتمجيده دون أن تطيعه، بتعظيمه دون أن تطيعه، فإذا أردتم التقرُّب من الله عزَ وجل فلا سبيل إلى التقرُّب إليه إلا بطاعته، من هنا جاء قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

2 - هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ

إلا أن هذا الآية فيها شيء لطيف، هذه الآية فيها:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)

(سورة الصف: الآية 10)

أولاً:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ)

فيها استفهام، استفهام تشويقي، أتريد أن تكون في بحبوحة ؟ تقول له: نعم، أتريد أن تكون غنياً ؟ تقول له: نعم، وكلمة تجارة محببة، التجارة مظنة ربح، والتجارة مظنة غنى، والتجارة مظنة سعادة، والتجارة مظنة فَوز، والتاجر له رأس مال، وله أرباح، فالله سبحانه وتعالى استخدم العبارة المحببة إلى معظم الناس.

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)

شيء آخر، التجارة فيها رأس مال وفيها ربح، لكن التجارة المألوفة، الربح بالمائة عشرون أو ثلاثون، أربعون، خمسون، ستون، سبعون، لكن لا يوجد في الأرض تجارة تقدِّم فيها ليرة فتأخذ مليارا، هذه التجارة مع الله فقط، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)

النِّعم مِن رأس مال تجارة المسلم:

رأس المال حياتك، رأس المال الصحة، رأس المال الفراغ، رأس المال نعمة الأمن، رأس المال نعمة الكفاية، عندك ما يكفيك، ما يكفيك فقط، حاجاتك مُغَطّاة، وعندك صحة، وعندك فراغ، وعندك أمن، لذلك لما قال ربنا عزّ وجل:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

العلماء قالوا: النَّعِيم هو الغنى، والنعيم هو الفراغ، والنَّعِيم هو الأمن، والنَّعِيم هي الصحة، هذه النِعَم التي أعطانا الله إياها في الدنيا لتكون رأس مالٍ لنا نتاجر به مع الله، فأنت لا تشكو من شيء فلست مضطراً لإجراء تحليل، ولا تخطيط، ولا أشعة معينة، ولا شيء من هذا القبيل، ولا زرع كلية، ولا زرع دَسَّام، ولا تغيير شريان، ولا سفر إلى الخارج، فالأجهزة تعمل بانتظام، الأعضاء سليمة، فهذه الصحة التي تتمتع بها ماذا فعلت بها ؟ للنوم، للتسلية، للسهرات، للكلام الفارغ، للقاءٍ لا يُرضي الله، للغيبة والنميمة ؟

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر آية: 8)

رأس مالك الصحة، عندك فراغ، عندك عمل إلى الساعة الثانية ظهراً، تأكل طعام الغداء، وتنام قليلاً، ماذا تفعل بعد أن تستيقظ إلى الساعة الثانية عشرة ؟ هذا فراغ، يا ترى هل حضرت مجلس علم ؟ هل عُدتَ مريضاً ؟ هل زرت أخاً في الله ؟ هل رعيت يتيماً ؟ هل رعيت أرملة قريبة لك ؟ هل أمرت بالمعروف، نهيت عن المنكر ؟ هل درست باباً في الفقه ؟ هل تلوت القرآن ؟ هل تعلّمت تجويده ؟ هل تعلّمت معانيه ؟ هل علّمته للناس ؟ ماذا فعلت في وقت الفراغ، وفي الصحة، وفي الأمن، ولست ملاحقاً؟ فالملاحق لا ينام الليل، بل ينتقل من بيت إلى بيت، قلبه هواء، وأنت ليس عليك مذكرة بحث، ولست محكوما بجرم، بل أنت طليق آمن، عندك وقت فراغ، صحيح، عندك قوت يومك، هذه النعم الأربعة هي رأس مالك، كيف تاجرت بها ؟ لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

هذه الآية تُذَكِّرُنا بآية مشابهة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

(سورة التوبة: الآية 111)

الله اشترى منك.

(بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: آية 111)

والثمن هو الجنة، وهناك مشترٍ وهو الله جلّ جلاله، وبائع وهو أنت، وثمن وهو الجنة.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

أيها الإخوة الكرام، هذه آية دقيقة جداً، ينبغي أن تتاجر مع الله، لأن تجارة الأرض ربحها قليل، وأمدها قصير، والنتائج مُحْزِنَة أحياناً، يقول لك أحدُهم: ثلاث سنوات ولم أربح شيئاً، أو ربحنا ربحا لا يوازي حاجتنا، ثم ربحنا، ثم أخذت منا ضرائب كثيرة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)

أول ثمن، أو أول ربح.

(تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

3 - تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

لأن الحركة بلا منهج، الحركة بدافع الشهوات والغرائز، هذه الحركة تنتهي إلى عمل سيئ، والعمل السيئ ينتهي إلى عذاب، فأول ربح، أو أول دفعة من حساب الأرباح هي أن المؤمن الذي تاجر مع الله نجا من عذابٍ أليم.

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

الربح هو النجاة.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

كلُّ شيء يبدو جليًّا حين العرض على الله:

انظر إلى كلمة زحزح، الشيء ثقيل تزحزحه، أما الشيء الخفيف فتنقُلُهُ، النقل سهل، أما الطاولة الكبيرة والثقيلة جداً تزحزحها، لأن الزحزحة هذا فعل ثنائي مضعف، للشيء الثقيل.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

أيها الإخوة الكرام، في الدنيا الأوراق متداخلة، والآن في أي حي تجد أُناسًا كثيرين يسكنون البيوت، يأكلون ويشربون، ويتمتعون، وينامون، ويسافرون، ويتاجرون، ويربحون، ويقيمون الولائم والحفلات والأعراس، إلخ، بعضهم مؤمن، بعضهم منافق، بعضهم يعصي الله، بعضهم مؤمن بالآخرة، الأوراق متداخلة، أما حينما يُفْرَزُ الناس إلى فريقين مؤمنٍ وكافر، مستقيمٍ ومنحرف، طائعٍ وعاصٍ، محسن ومسيء، مخلص وخائن، حينما يفرزون، وحينما يتعذّب أهل النار بالنار، وحينما ينعم أهل الجنة بالجنة، قال عليه الصلاة والسلام لرجل:

((كيف أصبحت يا زيد ؟ قال: أصبحت مؤمناً ورب الكعبة، قال: إنّ لكل شيءٍ حقيقة، فما حقيقة إيمانك ؟ قال: أصبحت وكأني بأهل الجنة يتنعّمون، وبأهل النار يتصايحون، فقال عليه الصلاة والسلام: عبدٌ نور الله قلبه بالإيمان عرفت فالزم))

[ورد في الأثر]

إدراكه الدقيق والعميق نقله إلى المصير، فإذا رأيت إنسانا يسرق ويرتكب الجرائم، تقول: هذا نهايته إلى حبل المشنقة، هذا ليس علم غيب، ولكن علم بالقوانين، فهذا الصحابي الجليل رأى أهل الجنة في الجنة يتنعّمون، فشاب يحضر مجلس علم، يضبط جوارحه، يضبط عمله، ضبط لسانه، يصدق ولا يكذب، يتحرّى الحلال، ينفق ماله في طاعة الله، يبحث عن امرأةٍ صالحة ينجب منها أولاداً طيبين، هذا الشاب الذي يتحرّى الحلال هذا مصيره إلى الجنة، فكأني بأهل الجنة يتنعمون ؛ وإنسان من ملهى إلى ملهى، ومن معصية إلى معصية، ومن فجور إلى فجور، يأكل ما ليس له، يعتدي على الناس بلسانه، ينهش أعراضهم، هذا إلى النار مصيره، فلذلك ليست هناك تجارة على وجه الأرض تربح كالتجارة مع الله عزّ وجل.

إن الإنسان لما يطلب على عمله الصالح أجرا يكون قد أخذ أبخس الأجور، فإذا خدمت إنسانا، خدمت مؤمنا، علمته القرآن، علمته شيئا، وتقاضيت أجراً، هذا الأجر إذا قيس بما أعدّه الله لك فهو أبخس الأجر، فكلما كان إيمانك بالله أكثر تدخره عند الله عزّ وجل، فتجد المؤمن يبني حياته على العطاء، حياته كلها عطاء، لأنه يطمع برحمة الله، يرجو ما عند الله، المؤمنون يرجون رحمته، ويخافون عذابه.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: الآية 61)

لو لاحظت إنسانا إيمانه بالآخرة ضعيف، أو إيمانه بالآخرة معدوم، لا يتحرك حركة بلا أجر، لا ينطق بكلمة بلا نسبة، بلا عمولة، بلا مكسب، أما المؤمن فيخدم الناس جميعاً، ويبتغي بخدمتهم وجه الله عزّ وجل، ويبتغي بخدمتهم القُرب من الله عزّ وجل.

محور درس اليوم: التجارة مع الله، رأس مالك الصحة، والأمن، والفراغ، والكفاية، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

الدنيا بحذافيرها، ولا تندم على شيءٍ فاتك من الدنيا، لأنك إذا أردت الخير بحذافيره فكن مع الله.

" ابن آدم اطلبني تجدني،ىفإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء ".

العمل الذي ينتهي عند الموت لا قيمة له:

هذه التجارة مع الله رأس مالها معروف، بقي على الإنسان يتحرك برأس ماله حركة ينتج عنها ربح فائض على رأس المال، فما قولك بإنسان ينفق من رأس ماله !! كالذي معه مليون ليرة يمكن بتجارة معقولة لرأس مال ينتج له مئة ألف مثلاً، أما لو بدأ ينفق من رأس ماله إلى أن انتهى ؟! لكن هذه الحالة أن تنفق من رأس مالك كيف نفهمها ؟ فالإنسان يعيش، ويأكل، وينام، دخل إلى مركز عمله، حقق ربحا، اشترى طعاما، لبس الثياب، ذهب في نزهة، أقام وليمة، هذا الوقت يستهلكه، هذا الذي ينفق الوقت استهلاكاً هو يأكل من رأس ماله، لأن رأس مالك هو الوقت، والوقت محدود، والإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، فما هي إلا أيام تمضي، سنوات تمضي، عقود تمضي، فإذا نعيه على الجدران، انتهى رأس ماله، استهلك عمره استهلاكا رخيصا، يقول لك: أكلنا وشربنا ولبسنا، وسكنا، وعمّرنا، وتاجرنا، وربحنا، وزوجنا أولادنا، ثم انتهى، فماذا فعلت للآخرة ؟ فهذا الذي يمضي الوقت في المباحات، دعك من المعاصي والآثم، أنا أتحدّث عن المباحات، لم تقترف معصية، إلا أن هذا الوقت استخدمته، وأمضيته فيما لا يعود عليك خيره بعد الموت، فالموت حد، وأيّ حركة في الأرض إن عملتها تنتهي عند الموت فهذه من الدنيا، وأي حركة إن استمرّت بعد الموت هذه للآخرة.

لو تعلمت القرآن لِما بعد الموت، لو أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، لو علمت القرآن، لو ضبطت كل جوارحك، لما بعد الموت.

عندنا قاعدة: العمل الذي ينتهي عند الموت من الدنيا، ولا قيمة له مهما كان جليلاً، والعمل الذي يستمر أثره إلى ما بعد الموت هو من الآخرة، من هو الرابح ؟ هو الذي يعمل عملاً يستمر أثره إلى ما بعد الموت.

لذلك التجارة مع الله أن تنفق الوقت إنفاقاً استثمارياً، لا إنفاقاً استهلاكياً، أن تنفق الوقت بعملٍ يعود عليك خيره بعد انقضاء الزمن، وحينما يموت الإنسان ينتقل فجأةً من بيتٍ فخمٍ إلى حفرةٍ صغيرة، من

كل شيء إلى لا شيء، هذا لا شيء مبدئياً، أما ينتقل من كل شيء إلى المحاسبة على كل شيء، من هنا العلماء فرّقوا بين الرزق والكسب، الرزق ما انتفعت به فقط، والكسب ما كان في حوزتك، ولم تنتفع به، وسوف تحاسب عليه.

أيها الإخوة الكرام، لا تسمحوا للدنيا أن تستهلكم، لأن الله عزّ وجل قال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان: الآية 63)

أحياناً عمله يستهلكه، من عمل إلى عمل، من صفقة إلى صفقة، من تجارة إلى تجارة، جاءه خبر مؤلم جداً فأصابه بجلطة ومات، من تشعبت به الهموم لم يبال الله بأي أوديتها هلاك، تجده يموت بسبب تافه جداً، أما المؤمن الذي اقتطع من وقته الثمين وقتاً لمعرفة الله هو الذي يمشي على الأرض هوناً، لا يسمح للدنيا أن تستهلكه، لا يسمح لهموم المعاش أن تسحقه، لا يسمح لمتاعب الدنيا أن تصرفه عن الآخرة، إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار، فلذلك العبد المؤمن يمشي على الأرض هوناً، يتأمّل، يفكر، وتجد شخصا مسحوقا بالهموم، الهموم كابوس سحقته حتى العَظْم، أما المؤمن فيعرف الله عزّ وجل، يرضى من الدنيا بالقليل، لكن يطمع في الآخرة بالكثير، ما هي التجارة ؟

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)

رأس مالها عمركم، رأس مالها الوقت الذي أنتم فيه، ظرف أعمالكم، رأس مالها الصحة، رأس مالها الفراغ، رأس مالها الأمن، رأس مالها الكفاية، هذا رأس المال.

الربح الأولي:

(تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

هناك دفعة ثانية تأتي بعد قليل.

لكن ما هذه التجارة ؟ قال تعالى:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة الصف: الآية 11)

تُؤْمِنُونَ بِاللَّه

1 ـ الإيمان مرتبة عالية:

بربكم، الإنسان ما فكر لحظة في حياته أن يؤمن بالله ؟ هذا الشيء الذي يأتيك عفو الخاطر. كنت أحضر عقد قِران، وسمعت كلمة من خطيب: حضرت خطبة الجمعة، ولحقت بالركعة الأخيرة،

هذا السلوك لا يصنع إيماناً، هل هناك إنسان في الأرض صار طبيبا من دون جامعة، من دون دوام، من دون قراءة، من دون متابعة، من دون مذاكرة، هذا مستحيل، مرتبة الإيمان مرتبة عالية جداً، وهناك مَن يدرس ثلاثا وثلاثين أو أربعين سنة، حتى يضاف لاسمه حرف الدال، دكتور، أحياناً ينسون أن يضعوها فينزعج أشد الانزعاج، يقولون له: الأستاذ فلان، فيقول: أنا دكتور، وليس أستاذا، كأنهم أهانوه، ثلاث وثلاثون دراسة لكي يضاف إليه حرف الدال، وهذه تنتهي عند الموت، أما لكي تكون مؤمنا فهذه مرتبة إلهية، هذه تنفعك إلى أبد الآبدين، هذه مرتبة أخلاقية، هذه مرتبة علمية، مرتبة جمالية، المؤمن أسعد الناس، والمؤمن عالم، وما اتخذ الله ولياً جاهلاً، والمؤمن أخلاقي، فاسعَ من أجل أن تسعى إلى مرتبةٍ تنفعك إلى أبد الآبدين، أما مرتبة الدنيا فيقولون لك: ثلاث وثلاثون سنة، سبع سنوات الدكتوراه، الأطروحة في ألف صفحة، ناقشوني فيها بسنة، من أجل أن يقال لك في الدنيا: دكتور، وعند الموت ينتهي كل شيء، أما كلمة مؤمن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

فهذه مرتبة قرآنية، هذه مرتبة يمنحها الله لعباده الصالحين، هذه مرتبة تنفعك بعد الموت إلى أبد الآبدين، ألا تحتاج إلى وقت ؟

يقول لك بعضهم: ليس عندي وقت، إذاً عندك وقت لأي شيء ؟ إذا لم يكن عندك وقت تعرف ربك فيه، ما عندك وقت لكي تعرف كلامه، تعرف منهجه، تعرف سنة رسوله، تعرف سير رسوله، تعرف أحكام الفقه، إذا لا وقت عندك لكي تعرف دينك.

((ابن عمر، دِينك، دينك، إنه لحمك ودمك))

[كنز العمال عن ابن عمر]

2 - الإيمان يحتاج إلى علم وجهد ومذاكرة:

كيف تنجو من عذاب الله ؟ كيف تعرف الحق من الباطل والخير من الشر ؟ وما ينبغي، وما لا ينبغي ؟ هل يمكن لإنسان أن يتقن شيئًا من دون جهد ؟ هل يمكن لإنسان لكي يلقي كلمة أمام ألف شخص، أو مئة شخص، ولا يكون متقنا للغة العربية ؟ يقول لك: إلى أن أخذنا الليسانس كذا سنة، وما مِن إنسان يصل إلى شيء إلا وقد بذل جهدا كبيرا، كيف قنع الناس في الإيمان بالسماع، سماع عشوائي، حضور عشوائي، تلقي عشوائي بلا تركيز، بلا متابعة، بلا تدقيق، بلا تأمُّل، فالله عزّ وجل قال:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

هناك جلسات لابد أن تجلسها، جلسات تفكر، جلسات تأمل، جلسات مذاكرة، أن تجلس على ركبتيك في مجلس علم، أن تقرأ القرآن، أن تفهم القرآن، أن تعمل بالقرآن، أن تنطق بالقرآن، أن تفهم شرح النبي

الكريم لهذا القرآن، أن تعرف سنته، سيرته، أحكامه الشرعية، هذا وقت أساسي جداً، ولا شيء يعلو على هذا الهدف أبداً.

أحياناً إنسان مشغول جداً غارق في أعمال لا تنتهي، لا سمح الله ولا قدر يصاب بمرض، يحتاج إلى مداواة، إلى تصوير، إلى تحليل، إلى أن يستشير أطباء، أو إلى أن يسافر، تجده قد ترك كل أعماله، وجَمّد كل مواعيده، وألغى كل برامج أعماله، يقول لك: هذا جسم، عين، قلب، يترك كل أعماله من أجل الحفاظ على سلامة قلبه، أو على سلامة عينيه، أو على سلامة عضو من أعضائه الأساسية، فتجده قد ألغى كل مواعيده، ألغى كل برامج أعماله، ألغى كل لقاءاته، ومن أجل أن تحافظ على آخرتك التي لا تنقضي إلى أبد الآبدين ألا يحتاج أن تقتطع من وقتك وقتا لمعرفة الله ؟ فلا يكفي أن تحضر مجلس علم، يجب أن تتابع، يجب أن تذاكر الدرس.

الإنسان يتلقى أحياناً، وليس هناك امتحان، ولا مسؤولية، فينسى، أما لو أنك جلست بعد الدرس مع أهلك، مع أصدقائك، مع إخوانك، راجعت ماذا قيل في هذه الآيات حتى ترسخ، من أجل أن تملكها، أنت الآن لا تملكها، كل شيء تستمع إليه من دون جهد لا تملكه، وقد يحضر الإنسان ثلاثين سنة، ويسمع ثلاثين سنة دروسًا، يقول لك: والله لا أذكر شيئاً، والله دروس جميلة، وليس متذكرا منها شيئًا، لكن لو اضطر أن يتكلم كلمة، فليس عنده شيء ليقوله، أما لو راجع الدرس، يقرأ الآيات، يتذكر ماذا قيل في هذه الآيات، يكتب كلمتين، سمع حديثا كتبه، سمع آية كتبها، هذا عنده شيء يتكلم به، جلس في المجلس فتكلم كلاما أثر في الآخرين، شعر أنه عمل عملا، فالإيمان يحتاج إلى وقت، وإلى جهد، وإلى مركز علمي، وإلى منهل علمي، وإلى مصدر علمي، وإلى كتاب تقرأه، وإلى إنسان تذاكر معه، هذا معنى:

(تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)

تجده يؤمن بالله، وليس في سلوكه ما يشير إلى ذلك، وإبليس يؤمن بالله، قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

لكنه هو إبليس، أنا أريد إيماناً بالله يرقى بك إليه، إيماناً بالله يحملك على طاعته، إيماناً بالله يسعدك بقربه، إيماناً بالله يبعدك عن معصيته، هذا الإيمان مطلوب.

(تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ)

وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ

الآن هناك شيء ثان:

(وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

(سورة الصف: الآية 11)

1 ـ مواطن المجاهدة:

المجاهدة فيها بذل جهد، صلاة الفجر في جماعة، غض البصر والنساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، والنفس تشتهي أن تنظر، وضبط لسان، وضبط دخل، الدخل مضبوط، أحياناً يأتيك المال وفيراً من طريقٍ حرام فتقول: معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين، تؤْثر دخلاً قليلاً نظيفاً طاهراً حلالاً على دخلٍ كثيرٍ مشبوه، ففي هذا جهد، فالجنة لها ثمن باهظ، ولا تجد إنسانا ينام إلى الساعة الثانية عشرة فيستيقظ ومعه الدكتوراه، يقول لك: متنا، ولا يوجد إنسان يصبح تاجراً كبيراً وهو نائم، بل الناجحون في الحياة بذلوا جهدا كبير جداً، هذا في الدنيا، فكيف في الآخرة.

(تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ)

لابد من وقت لتطلب فيه العلم، تقتطع من وقتك وقتا ثمينا، والآن أكثر الناس يحضر درس علم إذا كان لديه وقت فراغ، والأصل وجود برنامج في الحياة، أما المؤمن فبالعكس، يبرمج حياته وفق مجالس العلم، هذا الوقت لله، درس الجمعة لله، درس الأحد لله، درس الاثنين لله، الخطبة، يبرمج حياته، مواعيده، لقاءاته، حتى نزهاته، يبرمجها وفق مجالس العلم، لأنه يطلب سلسلة، آية وراء آية، حديثا وراء حديث، موضوعا وراء موضوع.

أولاً:

(تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ)

هل عرفت رسول الله ؟ هل عرفت أمره ونهيه ؟ لما يقول ربنا لك:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: آية 7)

هل عرفت أمره ونهيه ؟ كيف تطبق هذه الآية إن لم تعرف أمره ونهيه ؟

(تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ)

يجب أن تؤمن بالله خالقاً، بالله رباً، بالله مسيّراً، بالله موجوداً، بالله واحداً، بالله كاملاً، أن تؤمن بأسمائه الحُسنى، وصفاته الفضلى.

هذه الآية دقيقة جداً إخواننا الكرام، تحتاج إلى وقت، إلى جهد، إلى مكان، إلى منهل علمي، إلى مصدر موثوق..

(تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة الصف: آية 11)

يجب أن تعرف الله، وأن تعرف رسول الله، لأنه أخبرك عن الله، وبيّن لك آيات الله، وبيّن لك أحكام الشرع، افعل ولا تفعل، والآن هناك جهد، وإيمان، وسماع، وتأمُّل، وتفكُّر، ودراسة، ومتابعة، ومذاكرة، ووقت، ومكان، ومعلِّم.

(تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ)

وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ

2 ـ المجاهدة حركة تكليفية منتقضة للطبع:

الآن هناك حركة..

(وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ)

(سورة الصف: الآية 11)

دفع زكاة، وغض بصر، وصدق، وضبط لسان، وضبط جوارح، هذه هي المجاهدة، وأحكام التكليف دائماً تتناقض مع طبع الإنسان، فالطبع يدعوك إلى أن تنام، والتكليف يأمرك أن تستيقظ كي تصلي، والطبع يدعوك إلى أن تنظر، والتكليف يأمرك أن تغض البصر، والطبع يأمرك أن تتحدث عن قصص الناس، والتكليف يأمرك أن تسكت، فكل التكاليف تتناقض مع الطبع، وهذا من أجل أن ترقى.

أحياناً التكليف يأمرك بأن تكسب الحلال، والحلال صعب وقليل، بينما الطبع يدعوك إلى أن تكسب الحرام الكثير، فجأةً تشتري بيتا فخما، ومركبة فخمة، وبيتا في المصيف، وتعمل، وتلبس أرقى اللبس، فتبدو أمام الناس عظيما، غنيا، لكن مِن دخل حرام، هذا الطبع يدعوك إلى ذلك، أما التكليف فيأمرك بتحري الحلال:

((من بات كالاً مِن طلب الحلال بات مغفوراً له))

[الجامع الصغير عن أنس، وفي سندع ضعف]

لما تخالف طبعك، وتتقي الله عزّ وجل فهذا السلوك يتوافق مع الفطرة، فترتاح، وتسعى.

الطبع بادئ ذي بدء يناقض التكليف، والتكليف يوافق الفطرة، فتجد المؤمن سعيدا، دخل الامتحان فنجح فيه، عندئذٍ يؤتيك الله الدنيا والآخرة معاً.

(وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

(سورة الصف: آية 11)

3 ـ الجمع بين المجاهدة بالمال والنفس:

أحياناً الإنسان يجاهد بماله، فيعطي مئة ألف للجامع الفلاني، ومئتي ألف للمحل الفلاني، وللميتم خمسمئة ألف، شيء جميل، بارك الله بك، وكَثَّرَ من أمثالك، ونفع بك، نقول له: الآن غض بصرك، يقول لك: هذه صعبة، والله لا أقدر عليها، هذه فوق طاقتي، معنى ذلك أنه ما جاهد بنفسه، لكنه جاهد بماله، ولم يجاهد بنفسه وهواه.

(وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

العمل الصالح مقبول، وله عند الله شأن كبير، لكن ما أجمل أن يجمع الإنسان بين بذل المال وطاعة الله في النفس، قال تعالى:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الصف)

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

إن رأيتم هذا هو الخير فأنتم علماء، وإلا فأنتم جُهَلاء، إن رأيتم التجارة مع الله هي أربح تجارة، إن رأيتم حمل النفس على طاعة الله هو العمل الصحيح، هو الخير المُطْلَق، إن رأيتم إن طاعة الله من يفعلها يفوز فوزاً عظيماً فهذا هو الذي يعلم، ومن رأى أن في معصية الله فوزاً فهو الذي يجهل، أنت بكل بساطة لو أن إنسانا يحمل أعلى شهادة في العالم يرى المغنم في المعصية فهو مدموغ بالغباء والجهل، وإنسان آخر يرى أن طاعة الله عزّ وجل هي الفوز العظيم، وأن القرش الحلال هو الشيء السليم، وأن ضبط الجوارح هو أعظم ما عند الله عزّ وجل، هذا هو العالم، لذلك:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

الآن ثمن آخر لهذه التجارة مع الله، أول ربح.

(تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

(سورة الصف: الآية 10)

التجارة:

من أثمان التجارة مع الله:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(11)يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة الصف)

إذاً: نجاةٌ من عذابٍ أليم، ومغفرةٌ للذنوب جميعاً، ودخول جنةٍ عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

شيء آخر في الدنيا قبل الآخرة..

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الصف)

فصار الثمن مؤَجّلا ومُعَجّلاً، فالنصر في الدنيا ثمن معجل، وفتحٌ قريب، وفي الآخرة نجاةٌ من عذابٍ أليم، ومغفرة الذنوب، ودخول جنةٍ عرضها السماوات والأرض، هذا إذا كنتم:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الصف)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ)

(سورة الصف: الآية 14)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ

معنى: نصرة الله:

الله عزّ وجل غنيٌ عن أن ننصره، لكن نصرة دينه نصرٌ له، أن تنصر دينه، إذا طبّقت أمره نصرت دينه، إذا أمرت بالمعروف نصرت دينه، إذا أقمت الإسلام في بيتك نصرت دينه، إذا أقمته في عملك نصرت دينه، إذا تواصيتم بالحق نصرتم دينه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ)

(سورة الصف: الآية 14)

فحسب السؤال:

(مَنْ أَنصَارِي)

ينبغي أن يكون الجواب: نحن أنصارك، لكم الله قال:

(نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ)

(سورة الصف: الآية 14)

لأنك إذا نصرت النبي نصرت الله، وإن خذلته وقعت في إثمٍ كبير، لأن الأنبياء والمرسلين والدعاة الصادقين ليس لهم نفسٌ يعملون لها، هم يبتغون وجه الله عزّ وجل، فلذلك:

(مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ)

فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ

آمنت طائفة بسيدنا عيسى عليه السلام ونصرته، وكفرت به طائفة.

فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ

(فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)

(سورة الصف)

محور الدرس:

إخواننا الكرام... محور هذا الدرس:

1 ـ المتاجرة مع الله:

أولاً: أن نتاجر مع الله، لأنها أربح تجارةٍ على الإطلاق، ورأس مالها بين أيدينا، والآن إذا قال لك واحد: هناك ربح طائل، ولكن لا يوجد معنا رأس مال، فأي مشروع يحتاج إلى خمسة أو ستة ملايين، عشرة ملايين، مئة مليون، فيه ربح، ولكن هل معك مئة مليون رأس مال ؟ لكن هنا يوجد رأس مال، ألا تعيش ؟ ألست سليماً معافى ؟ أليس لديك وقت فراغ ؟ هل أنت ملاحق ؟ لست ملاحقاً، بل تتمتع

بنعمة الأمن، ونعمة الصحة، ونعمة الفراغ، عندك قوت يومك فقط ؟ نعم، والصحة والفراغ، والأمن، هذا هو رأس مالك، وتعيش.

2 - الربح:

الربح: النجاة من عذابٍ أليم، ومغفرة الذنوب جميعاً، ودخول جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

هذا كلام ربنا، كلام خالق الكون.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللّهِ)

(سورة التوبة: الآية 111)

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

3 - نصرةُ الله:

شيء آخر، يجب أن تكون نصيراً لله عزّ وجل، فإن صلّيت نصرت الله، أذّنَ المؤذن فدخلت وصليت، شيء جميل جداً، كنت صادقاً، أمرت بالمعروف، نهيت عن المنكر.

توفي عالم في منطقة الزبداني، ولم يبق في كل هذه البلدة وما حولها إنسان إلا وخرج في جنازته، ماذا فعل ؟ هذا العالم أي إنسان أجرى عُرسا مختلطا يقاطعه مقاطعةً تامة، إلى أن ألغى هذه البدعة في المنطقة، ذكروا لي عنه أشياء لطيفة جداً، كان صادقا ومخلصا مع الله عزّ وجل، فأنت انصر الحق، لا تجامل إنسانا منحرفا منحلا أخلاقياً، ولا تعظمه أمام الناس، ولا تمدحه.

أحياناً يكون لأحدنا أخ بعيد عن الدين بعدا كبيرا، لا يزال يثني عليه، وعلى لطفه، وعلى ذكائه، وعلى غناه الشيء الكثير، ضاع الناس، " إن الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق "، انصر دين الله عزّ وجل، أقم حدود الله، أقم الإسلام في بيتك، وإذا نصرت رسول الله فقد نصرت الله..

(مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14))

خاتمة:

أيها الإخوة الكرام هذه السورة مباركة، ويمكن أن تحفظ، وأن تتلى في الصلاة، والإنسان دائماً يذكر هذه التجارة، وكل يوم يحاسب نفسه حسابا دقيقا، ماذا فعلتُ من تجارتي مع الله ؟ فالرأس المال معك موجود، الرأس المال معك تملكه، صحتك وفراغك، وأمنك وكفايتك، ماذا تفعل بهذا الوقت ؟ ماذا تفعل بهذه الصحة ؟ هل صلّيت بها ؟ هناك إنسان يسترخي، يتمتع، يفعل ما لا يرضي الله، يستخدم صحته، وفراغه، ونعمة الأمن، وكفايته فيما لا يرضي الله عزّ وجل، فلذلك الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، والإنسان زمن، والزمن إما أن ينفق استهلاكا، وإما أن ينفق استثمارا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجمعة 062 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1- 4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-09-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة الجمعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

1 ـ الفائدة من إيراد الجملة الفعلية: يُسَبِّحُ

أيها الإخوة التركيب نوعان، تركيبٌ اسمي، وتركيبٌ فعلي، التركيب الاسمي من خصائصه الثبات والاستمرار، والتركيب الفعلي من خصائصه الحدوث والانقطاع، إلا أن الفعل المضارع وحده يفيد الاستمرار، فقوله تعالى:

(يُسَبِّحُ)

أي تسبيحٌ دائم.

(يُسَبِّحُ)

2 ـ معنى التسبيح:

وقد تحدَّثنا في درسٍ سابق عن معنى التسبيح، له معانٍ ثلاثة في كلمةٍ واحدة:

التسبيح هو التنزيه، فيجب أن تنزّه الله عن كل ما لا يليق به، ويجب أن نسبّح الله بأن ننزّهه عن كل ما لا يليق به، ويجب أن نمجّده بأن نصفه بالكمال الذي يليق به، ويجب أن نخضع له، فما دام منزّهاً عن كل نقص، متصِّفاً بكل كمال فينبغي أن نخضع له، وعلامة صحّة التنزيه وصحّة التمجيد الخضوع، فإن لم نخضع فالتنزيه ليس صحيحاً، بل التنزيه شكلي، والتنزيه أجوف، غير صادق..

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

3 ـ الكون كله يسبح لله:

السماوات والأرض تعبيرٌ قرآنيٌ عن الكون، الكون كلُه يسبّح لله، إلا هذا الإنسان الغافل الذي سُخِّر الكون خصيصى له، الإنسان المخلوق المكرّم المكلّف الذي سخّر الله له الكون هو الغافل، لكن:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

(سورة الإسراء)

(الْمَلِكِ)

4 ـ الْمَلِكِ

المَلِك هو المالك، المالك هو الحاكم، المالك خلقاً، والمالك تصرُّفاً، والمالك مصيراً، هو الذي خلق والأمر بيده وإليه المصير، هذه أوسع أنواع المُلْك.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: الآية 26)

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

5 ـ الْقُدُّوس

من القداسة، ومن التنزيه، ولا يُقال للشيء: مقدّس إلا إذا كان كاملاً، لأن النقص يتناقض مع التقديس، وأنت لا تقدِّس إنساناً إلا إذا ظننت فيه الكمال، أما إذا ظننت فيه النقص فلا تقدِّسه، بل تحتقره، فالتقديس يساوي الاتصاف بالكمال.

ولماذا جاءت:

(الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ)

الحكمة من ورود اسمي الْمَلِكِ والْقُدُّوسِ معًا:

كم من مخلوقٍ يملك، وليس كاملاً، وكم من مخلوقٍ يتّصف بالكمال، لكنه لا يملك، ضعيف، فإما أن تجد مخلوقا كاملا، لكنّه ضعيف لا يقوى على فعل شيء، وإما أن تجد مخلوقا قويا يفعل كل شيء، ولكنّه ليس كاملاً، ولكن الله سبحانه وتعالى بقدر ما هو مالك، وقوي، وقاهر وجبّار، بقدر ما هو حليم، ورحيم، وكامل.

الحقيقة إن جمع صفات القوّة مع صفات الرحمة شيء من أروع ما يكون، فأنت مرتاح، الذي تعبده قوي، بيده كل شيء، بيده كل أعدائك، أحياناً الأعداء يتبجّحون بطائرات معينة، بوسائل حديثة جداً، إذا عبدت الله حقّ العبادة فالله مالك كل خلقه، ومَلِكْ، وإذا عبدّته حقّ العبادة فهو قدُوس، وله كمال مطلق، ورحمة، ورأفة، وشفقة، وعلم، ولُطف، وعفو، ومغفرة، وحلم، هذا هو الله عزّ وجل..

(الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ)

بقدر ما هو قوي، مالك لناصية الخلق بقدر ما هو كامل يُحسِن إليهم، ويعفو عنهم، أما المخلوقون فقد تجد القوي غير الكامل، وقد تجد الكامل غير القوي، وكلاهما لا يعجبانك، القوي غير الكامل تحتقر أخلاقه، قد تؤْخَذ بقوته، لكن تحتقر لؤمه، أحياناً هؤلاء الأقوياء في بلاد الغرب الذين يتبجّحون بقوّتهم، لكنك تحتقر تناقضهم، تحتقر جحودهم، تحتقر قسوة قلوبهم، تحتقر ازدواجية المعايير التي يكيلون بها، تحتقر أنانيتهم، هم لشعوبهم، يبنون أمجاد شعوبهم على حساب شعوب الأرض، هم أقوياء جداً، يتملّكون ناصية العالم، لكن تحتقر لؤمهم، وقسوتهم، وانحيازهم، وعنصريّتهم، وقد تجد أُناسًا طيّبين تحبُّ فيهم التواضع والأدب، والسماحة والعفو والكرم، لكنهم ضعفاء لا يفعلون شيئاً، فأنت لا ينتزع إعجابك إلا من جمع القوّة إلى الكمال..

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

6 - الْعَزِيزِ

الذي لا يُنال جانبه، العزيز الفرد لا مثيل له، العزيز الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء.

(الْحَكِيمِ)

7 - الْحَكِيمِ

المتقِن لا ترى في خلقه من تفاوت، حكمته مطلقة، كل شيءٍ وقع وَقع لحكمةٍ مطلقة، ولو لم يقع لكان عدم الوقوع نقصاً في حكمة الله، ولو وقع على نحوٍ آخر لكان نقصاً في حكمة الله، فالله عزّ وجل ذكر أربعة صفات في هذه الآية فقال:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

هذا هو الله المستحق للعبادة:

هذا هو ربنا، هذا الذي ينبغي أن نعبده، هذا الذي ينبغي أن نستعين به، هذا الذي ينبغي أن نفني العمر من أجله، هذا الذي ينبغي أن نمضي شبابنا في طاعته، هذا الذي ينبغي أن نضع إمكاناتنا ؛ عقلنا، ومالنا، وعضلاتنا، ووقتنا في خدمة عباده، هذا الذي ينبغي أن تكون له لا أن تكون لغيره، هذا الذي ينبغي أن تخلِصَ له، أن توحِّدَهُ، أن تعبده، أن تتفانى في خدمة عباده.

(يُسَبِّحُ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

الجماد يعرف قيمة النبي عليه الصلاة والسلام:

هناك أشياء وردت في السيرة نحن ننقلها كما جاءت، لكن لها معنىً عميق:

عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ:

((أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرّ إِلَيّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ النّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمّا رَأَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَنّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللّهِ، فَقَالَ: أَفَلَا تَتّقِي اللّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الّتِي مَلّكَكَ اللّهُ إِيّاهَا، فَإِنّهُ شَكَا إِلَيّ أَنّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[أبو داود]

كان يقف على شجرةٍ يخطب عليها، فلما صنع له أصحابه منبراً حَنَّت إليه الشجرة.. وهي جماد من خشب.. كان عليه الصلاة والسلام يضع يده عليها إكراماً لها في أثناء خطبته، وقف على المنبر وكان يضع يده على هذه الشجرة، فعن جَابِر بْن عَبْدِ اللّهِ يَقُولُ:

((كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِذَا خَطَبَ يَسْتَنِدُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَلَمّا صُنِعَ الْمِنْبَرُ، وَاسْتَوَى عَلَيْهِ اضْطَرَبَتْ تِلْكَ السّارِيَةُ كَحَنِينِ النّاقَةِ، حَتّى سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ، حَتّى نَزَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَاعْتَنَقَهَا فَسَكَنَتْ))

[أحمد]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكّةَ كَانَ يُسَلّمُ عَلَيّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ))

[مسلم]

الجمادات تعرف قيمة النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، الأشجار، الحيوانات، أما أتباعه فهم غافلون عنه، غافلون عن كماله، غافلون عن رسالته، يَعْتَدُون بزيدٍ أو عبيد، وفلان وعلان، وينسون نبيهّم عليه الصلاة والسلام، الذي هو سيد الخلق، وحبيب الحق.

هذه القصص ليست هي مناط كماله، كماله ليس له حد ؛ دعوته، شمائله، علمه، تربيته، أخلاقه، الوحي الذي جاء به، القدوة التي كان يجعلها نبراساً لنا، يجعل من هذا النبي هو المنقذ لأمته من بعده.

هذه الآية تتكرر في أكثر السور التي حولها، تسبيحٌ، تنزيهٌ، تمجيدٌ، خضوع، السماوات والأرض، الكون بأكمله لمن يسبّح ؟ لله.

(الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

الفساد يأتي من الإنسان وحده:

الملك عنوان القوّة، والقدُّوس عنوان الكمال، فهو قويٌ كامل، ذاتٌ كاملة، العزيز الذي لا يُنال جانبه، الحكيم المُتْقِن لصنعته، كل شيءٍ يقع في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، وبالقدر المناسب، وبالطريقة المناسبة، وليس في الإمكان أبدع مما كان.

إذا كان هناك تساؤلات عما يجري في الكون من مشكلات، من حروب، من تسيُّب، هذا كلُّه بسبب أن هناك مخلوقاً هو الإنسان أُعطي حرّية الحركة، أودِعَت فيه الشهوات، أُعطي منهجاً دقيقاً، فخرج عن المنهج بشهوته وهواه ومصلحته، فالفساد لا يكون إلا من مخلوقٍ مخيّرٍ يشتهي خَرَجَ عن منهج الله، هذا هو المثل، وكل مخلوقٍ آخر كالجماد والحيوان والمَلَك الذي خلقه الله وسيّره هذا لا يفسُد أبداً.

أكبر دليل: خلية النحل، فيها نظامٌ معجز، فيها دقّةٌ متناهية، فيها نظام اجتماعي ليس في الأرض كلِّها مجتمعٌ يرقى إلى مجتمع النحل ومجتمع النمل، السبب هو أن التكليف الاجتماعي الذي كلّفنا الله به تكليف، ومعنى تكليف أننا نفعل أو لا نفعل، أما النظام الاجتماعي في خلية النحل فهذا أمر تكويني، أي ألزمها به، عندما ألزم الله مجتمعا من الحشرات بنظام اجتماعي كان فيه الإعجاز..

(يُسَبِّحُ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(1)هُوَ)

هو الله..

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ)

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ

معنى الأميّين:

المعنى الأول:

الأميّون هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

والأميّون في نظر اليهود هم الأمم الأخرى، هم خير أمّة، هم شعب الله المختار بزعمهم، وما سواهم أميّون، أي أمَمِيُّون، من الأمم الأخرى، فالنسبة في اللغة العربية إلى أمة أمي..

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ)

المعنى الأول أصح، هذه الأمّة أميّة لا تقرأ ولا تكتب.

عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ))

[البخاري]

لماذا اختار الله مكة مهبطا القرآن ورسوله الأمي وعاء للوحي ؟

فلماذا اختار الله هذا المكان الذي هو الصحراء، وذاك الزمان، وهذه الأمّة لينزّل عليها كتاباً معجزاً إلى آخر الدوران ؟ هذا سؤال وجيه.

الأميّة فينا نقص، لكنها في رسول الله عين الكمال، لأن رسول الله سيوحى إليه، فإذا أُوحي إليه وهو على ثقافةٍ واسعة، وهو على اطلاعٍ واسع، وهو على هضمٍ لكل الثقافات المعاصرة، سوف يتكلّم، يا تُرى هل يتكلّم بما أُوحي إليه أم بما عنده من ثقافة عصره ؟ لتكون دعوته صافيةً صفاء الماء الطاهر العذب الزلال، لتكون دعوته بعيدةً عن كل مداخلاتٍ أرضية، لكن لحكمةٍ أرادها الله سبحانه وتعالى جعل النبي أميّاً:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة العنكبوت)

الله عزّ وجل اختار هذا الإنسان الكامل الأمّيّ ليكون أعلم علماء الأرض، أي عالمٍ يفتخر أن أستاذه فلان أو جامعته كذا، النبي يفتخر بأن الذي علّمه هو الله..

عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى كَلَامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[الدارمي]

نفس المثل: فضل كلام الله على كلام خلقه: ادخل إلى مكتبة كلّها كتب، كل هذه الكتب من تأليف بشر، فيها مصحف، هذا المصحف هو كلام خالق البشر، لذلك فضل هذا الكتاب.. المصحف على كل كتب الأرض كفضل الله على خلقه، وفضل علم النبي على علم علماء الأرض قاطبةً من آدم إلى يوم القيامة كفضل الله على خلقه، أي عالمٍ علّم، هو عالم من بني البشر، يُخطئ ويصيب، وعلمه محدود، وله أبعاد ينتهي عندها، أما علم الله عزّ وجل فلا ينتهي، فالنبي أمّي، إلا أن الذي علّمه خالق السماوات والأرض، إذاً فهو فاق بعلمه علوم الأرض، لذلك:

يا أيها الأمي حسبك رتبةً في العلم أن دانت لك العلماء

***

تجد إنسانا يقرأ مجموعة أحاديث، يشرحها، يحلِّلها، يكشف أبعادها، فيحمل لقب دكتور في الحديث، أطروحته في الحديث، فصاحب هذا الحديث ما مرتبته ؟ إذا كان الذي درس مجموعة أحاديث، وشرحها، وحلّلها نال لقب دكتور، وهي أعلى مرتبة علمية، فهذا الذي قال هذه الأحاديث في كل شؤون الحياة..

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

ما مرتبته العلمية ؟

يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء

***

فالأمّية فيه هي عين الكمال، كما إذا كنّا نريد أن ننشئ مركزا علميا راقيا جداً، نختار أرض فلاة صخرية نظيفة، أما لو اخترنا أسواق المدينة حيث الضجيج، والازدحام، والقاذورات، والخلافات، والمشاحنات، فهذا المكان لا يصح لبناء معهد علمي راقٍ، فالوحي نزل على قلب إنسانٍ طاهر نقي، ونزل في أرضٍ خالية، لا فيها حضارات، ولا فيها تداخل حضارات، ومع الحضارات تزوير وكذب وبهتان، وفيها مداخلات، وأشياء لا تُحمَد عُقباها، أرض خالية، حتى العرب في صحرائهم كانوا على صفاءٍ معيّن، طبيعة البيئة تفرض على أصحابها نوعا معيّنا من الصفاء، فالله اختار هذه الصحراء، واختار هذه الأمّة الأمّية، واختار هذا النبي الأمّي ليكون رسوله إلى آخر الزمان، وليتنزّل على قلبه

القرآن، ولتصبح هذه الأمّة البسيطة الأمّية التي رَعَتْ الغنم قادةً للأمم، ولتعود قادةً للأمم فهذا منوطٌ بعودتها إلى الله، واصطلاحِها معه، أما إذا..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

إذاً:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ)

أي في أمّةٍ أمّية، في بيئةٍ صافية، في بيئةٍ بعيدةٍ عن الحضارات، بعيدةٍ عن المُداخلات، بعيدةٍ عن تصادم الأفكار، في بيئةٍ صافية بعث فيها هذا النبي الأمّي.

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)

رَسُولًا مِنْهُمْ

من جبلّتهم، من طبيعتهم، من قومهم، من لغتهم، فلو أن النبي لم يكن منهم لم تقم الحجّة، لو أنه ليس من بني البشر لم تَقُم الحجّة، ولقلنا له: نحن بشر، يا رسول الله لو تعاني ما نعاني من شهوات لعذرتنا، نحن بشر لو تعاني ما نعاني من حاجات مادّية لعذرتنا، أنت لا تشعر بهذا، لكن النبي بشر، من بني البشر، يحسُّ بما نحس، يغضب ويرضى، يجوع ويعرق، ويخاف ويطمئن، لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيّد البشر..

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)

من طبيعتهم، من خصائصهم، من جبلّتهم..

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ)

(سورة الأعراف: الآية 179)

لولا أن النفس واحدة لما كان هناك تفاوت، ونحن متى نقول: فلان الأول في جامعته ؟ لو أن هذا الطالب أُعطي الأسئلة قبل الامتحان بأسبوع، وأجاب إجاباتٍ تامّة، ونال علامات كاملة، وأقمنا له حفلاً عظيماً، لأنه نال الدرجة الأولى على كل طُلاّب الجامعة، ألهذه الأولوية معنى ؟! هي شيء مضحك، لولا أنه طالب مثل جميع الطلاب، تجري عليه كل الأنظمة والقوانين، وفوجئ بالأسئلة، لكنّه أجاب عنها لأنه حَضّر جيداً لما سمحنا لأنفسنا أن نقول: هو الأول، كلمة هو الأول لأنه كغيره من الطلاب خضع لهذه المناهج، ولهذه الدراسات، وتلك الامتحانات، وتفوّق فيهما، أما لو أُعطي الأسئلة لم يعد الأول، صار النجاح نجاحًا مزوّرا، لم يعد الأول، لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر..

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)

فاتني أن أقول لكم: لو أن النبي عليه الصلاة والسلام استوعب ثقافات عصره، سافر إلى الشرق وإلى الغرب، وقرأ الكتب، ودخل معاهد، وتتلمذ على أساتذة، ثم جاءه الوحي، صار لديه ثقافة مكتسبة، ووحي سماوي، الآن هو تكلّم، فإنه مع كل كلمةٍ يجب أن يُسأل: هذه من الوحي أم من عندك، الله عزّ وجل طمأننا فقال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

كل كلامه في كل حياته وحيٌ يوحى، الوحي المتلو هو القرآن، وغير المتلو هو السُنَّة، فهو بين وحيين، وحيٍّ متلو ووحيٍّ غير متلو.

أما:

(الأُمِّيِّينَ)

مرّة ثانية.. أي أن الله عزّ وجل أعلمُ حيث يجعل رسالته، ويبدو أن هذا العصر ليس مناسباً لنزول الوحي، لأن الأمور متداخلة جداً، لا يوجد صفاء، والشهوات مستعرة، وكثر التزوير، والكذب، والنفاق، أما الزمن الذي عاش فيه النبي فهو زمن جاهلي فيه خصائص، وبُعْدُ هذه الجزيرة عن الحضارات جعلها على نوعٍ من الثقافة، وبُعد هذه الجزيرة عن تداخل الثقافات جعلها تُربةً نقيّةً لتلقي وحي السماء..

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ)

لحكمةٍ بالغة.

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

1 ـ ما هي الآيات ؟

الآيات جمع آية، وهي العلامة الدالة على عظمة الله، على وجوده، وعظمته، وكماله، ووحدانيته، والآيات أنواع ثلاثة: آياتٌ كونية، وآياتٌ تكوينية.. أفعال.. زلازل، فيضانات، حروب، جفاف، مطر، خيرات، هذه كلّها أفعال الله، آياته الكونية هي خلقه، آياته التكوينية أفعاله، آياته القرآنية كلامه، إلا أن المُرجّح هنا آياته الكونية..

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

من أجل أن يعرفوه، فإذا عرفوه واستقاموا على أمره اتصلوا به..

2 - وَيُزَكِّيهِمْ

(وَيُزَكِّيهِمْ)

فإذا تزكّوا..

3 - وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

الآيات القرآنية.

(وَالْحِكْمَةَ)

السنّة النبوية.

4 - وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

أيّة دعوةٍ إلى الله.. دققوا.. ينبغي أن تشتمل على التعريف بالله من خلال خلقه، وعلى تزكية النفس من خلال الاتصال به، وعلى معرفة كتابه.. كلامه.. وتفصيل أمره ونهيه.. السنّة.. فأية دعوةٍ إلى الله ينبغي أن تشتمل على آياته، والتزكية، والقرآن، والسنّة..

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

سرُّ مجيء التزكية قبل التعليم:

العلماء لفت نظرهم أن التزكية جاءت قبل تعليم الكتاب والحكمة، أي أن أول ثمرة من ثمار الإيمان التزكية، وهي إنسان كامل، إنسان لطيف، إنسان رحيم، إنسان مُنْصِف، إنسان ورع، إنسان عفيف النفس، هذه ثمار الإيمان، فما قيمة الإيمان كمعلومات ؟ مثله كمثل أي اختصاصٍ آخر، ماذا نستفيد من مؤمن مثقّف ثقافة عالية وهو مثلاً يكذب ؟ يأكل مالاً حراماً، يَتَكَبَّر، يحقد، أبطل كل صفات الإيمان، فالتزكية قبل:

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

التزكية، أوتينا الإيمان قبل القرآن.

إذاً:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

الدالة على عظمته.

(وَيُزَكِّيهِمْ)

معنى التزكية:

يطهّر نفوسهم.

التزكية فيها معنيان: معنى التطهير، ومعنى التحلية بالكمال.

يزكيهم أي يطهرهم من العداوة، والبغضاء، والأثرة، وحبّ الذات، والجحود، والإنكار، والطعن، والحقد، كل هذه الصفات الذميمة التي تُسْقِطُ الإنسان من عين الناس هذه بالتزكية يشفى منها..

(وَيُزَكِّيهِمْ)

ومع التزكية السلبية هناك تزكية إيجابية، يحلِّيهم بالكمال، فهذه النفس وعاء، كأن هناك مواد قذرة، مواد منفِّرة فنظّفنا هذا الوعاء، وملأناه شراباً مُعَطّراً، ملأناه شراباً مُمَسّكاً، ملأناه شيئاً نفيساً، عملية تطهير ثم تعطير، عملية تخلية ثم تحلية، عملية إزالة أدران ثم تزيين بالكمال.

كلمة يزكيهم أي أنه نجا من الحقد، من الكبر، من الجحود، من الحقد، من الدناءة.

(وَيُزَكِّيهِمْ)

حلّ محل الدناءة عفّة، حلّ محل الطمع تَرَفُّع، وتجمُّل، حلّ محل البخل كرم، حلّ محل الجبن شجاعة، حلّ محل التردد عزيمة قوية، هذا هو معنى يزكيهم، يطهرهم من صفاتهم الذميمة، ويحليهم بالكمال الإنساني، هذه أكبر ثمرة من ثمار الدين، وإذا لم يكن الإنسان مستقيمًا، وما كان منصفا، وما كان متواضعا، وما كان رحيما، وما كان أديبا، وما كان حييًا، وما كان عفُوا، ما كان مترفعًا عن الدنايا فما قيمة إيمانه ؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا))

[الترمذي]

هذا هو الإيمان كلّه، هذا تعريف جامع مانع.. الإيمان حسن الخُلُق..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))

[الترمذي]

الدعوة إلى الله تحتاج إلى تزكية للنفس وتعريفٍ بالله:

النبي عليه الصلاة والسلام أكبر مجتهد، أعظم قاضٍ، أعظم قائد، أعظم خطيب، أعلم عالم، لكن عندما أراد الله عزّ وجل أن يمدحه بماذا مدحه ؟ قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

كل البطولة بالأخلاق العالية، الأخلاق العالية هي نموذج من كمال الله عزّ وجل، هذا الإنسان موصول بالله معنى هذا أنه كامل، أو مقطوع عنه معنى هذا أنه ناقص..

أيها الإخوة... يزكيهم هذه شيء خطير جداً، لأن في القرآن الكريم على ما أظن أربع آيات.. آيتان أو ثلاث آيات:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

(سورة الأعلى)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

التزكية هي الهدف الأخير من خلق الإنسان، أي يزكي نفسه لتكون مؤهّلةً لجنّة الله.

ملخص الملخص: الإنسان في الدنيا يزكّي نفسه ليكون مؤهّلاً لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، التزكية ثمن الجنّة، لذلك أية دعوةٍ إلى الله تُهمِل التزكية فهي دعوة عرجاء، هذه الدعوة الكاملة:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

يعرّفهم بالله.

(وَيُزَكِّيهِمْ)

أي يطهّرهم، ثم:

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

أما إذا اقتصرنا على تعليم الكتاب والحكمة دون أن نعرف الله، ودون أن نزكّي أنفسنا ما أفلحنا، ليست هذه هي الدعوة، لأن الإنسان إذا عرف الكتاب والحكمة، ولم يعرف الله تفنّن في التَفَلُّت من منهج الله، يضع قطعة ثوم في جيبه، ويأكلها يوم الجمعة، إذاً هو معفى من صلاة الجمعة، عَن جَابِر بْن عَبْدِ اللّهِ زَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ قَالَ فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ))

[متفق عليه]

النبي نهانا، فإذا لم يعرف الإنسان الله عزّ وجل، وما زكت نفسه فإنه يتفنّن في التفلّت من منهج الله، ويضحي بأثمن شيء لأتفه شيء، يبيع دينه بعرَضٍ من الدنيا قليل، يبحث عن المال من أي طريق، من أي وجهة، بأي ثمن دون أن يكون ورعاً، فلذلك الدعوة إلى الله تحتاج إلى تعريف بالله، وإلى تزكية النفس، وبعدها:

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

أما إذا اقتصرنا على تعليم الكتاب والحكمة، ولم نزكِّ أنفسنا فإننا لسنا مؤهّلين لجنّة الله، ومتى لم نزكّ أنفسنا معنى ذلك أننا لم نعرف ربنا، هذه دعوة، هذا منهج، هذا مبدأ، ركائز الدعوة إلى الله التعريف بالله من خلال خلقه، أو من خلال أمره، أو من خلال أفعاله، ثم تزكية النفس عن طريق الاتصال به، تطهيراً وتحلية، ثم:

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ)

القرآن..

(وَالْحِكْمَةَ)

في أوجه التفاسير هي السنّة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام بعثه الله عزّ وجل ليبيّن للناس ما نزّل إليه، هذه الدعوة إلى الله، تعريفٌ بالله، تزكيةٌ للنفس، معرفةٌ بالمنهج، معرفةٌ بتفاصيل المنهج، المنهج كعقيدة، وكعبادة، وكمعاملات، وكآداب، تأتي السنّة لتبيّن، مائتا حديث في البيوع، القرآن ذكر البيوع في آيةٍ واحدة، أي مع التراضي..

(وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

(سورة البقرة: الآية 275)

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

1 ـ ضلال العرب في الجاهلية:

العرب قبل الإسلام كانوا في جاهلية.. قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: " كنّا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام.. يعبدون صنماً من تمر فلمّا جاعوا أكلوه.. ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف.. هذه هي الجاهلية:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب: الآية 33)

ماذا تفيد كلمة الأولى ؟ أي هناك ثانية، جاهلية ما قبل الإسلام، وجاهلية ما بعد الإسلام ؛ الشهوات، والكسب الحرام، والانغماس في الملذّات حتى قمّة الرأس، هذه جاهلية ثانية..

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

2 ـ الضَلَال عن الدين مُبين واضح:

ضلال واضح كالشمس، ولا تبتعد كثيراً، فأي أخ قبل أن يعرف الله، قبل أن يصطلح معه ينظر إلى حياته يجدها كلّها انحرافا، مزاحا رخيصا، نظرا إلى العورات، كذبا، كسب مال حرام، تناقضا وازدواجية، قلقا، دناءة، أما بعد أن عرف الله، وعرف منهجه طهُرَت نفسه، وزكا عقله، وسما قلبه، وأصبحت ميوله راقية جداً، وصار له منهج يمشي عليه، فهذه الآية واضحة جداً..

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

والدليل: التق مع أحد أصدقائك الذين لم يسلكوا سلوكك سابقاً، اجلس معه ربع ساعة، واستمع إليه تعرف من أنت، حديث متناقض عن النساء أحياناً، الدنيا تملأ همّه، تملأ قلبه، مستعد أن يفعل كل شيء من أجل أهدافه الدنيئة، تراه إنسانا مهزوزا، متناقضا، خسيسا، فيه دناءة، ليس عنده التزام، مصلحته فوق كل شيء، مبادئه متغيرة، قناعته متبدّلة، علاقاته كلّها مصلحية، قيمه مهزوزة، عش مع واحد تعرفه، ولم يسلك سلوكك..

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

نعمة العفّة، نعمة الورع، نعمة الاستقامة، نعمة وضوح الهدف، نعمة العقيدة الصحيحة، تعبد خالق الكون، هناك من يعبد بوذا، هناك من يعبد النار في آسيا، هناك من يعبد البقر، هناك من يعبد الجُرذان.. وعندي صور لمعابدهم، وفيها مئات الجرذان، يقدّسونهم، يحترمونهم، يأكلون معهم.. هناك من يعبد موج البحر، هناك من يعبد الأعضاء التناسلية للرجال والنساء، وأنت تعبد الله خالق الكون، وأنت على منهج الله، على منهجٍ مُعْجِز، مهما تطورت الحياة فلا يمكن أن يظهر شيء يناقض هذا المنهج، إنه من عند خالق الكون، من عند الصانع هذا المنهج، فلذلك:

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

منهج أساسه الاختلاط، هذا عينه على هذه، وهذه على هذا، وخلافات وطلاق، وتشتت أسر، لأنهم خالفوا منهج الله عزّ وجل.

أكاد أقول: أتحدّى أن تكون في الأرض مشكلةٌ كبيرة إلا ووراءها معصيةٌ كبيرة، وما من معصية إلا وراءها جهل، الجهل أعدى أعداء الإنسان.

فلذلك أيها الإخوة.

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ)

مدّ رجلٌ رجله وقال: من قال: أشرف منّي فليضربها، فقام إنسان وضربها، عشر سنوات من الحرب بين قبيلتين طحنت الأخضر واليابس بسبب ذلك، هذه هي الجاهلية..

بنت مثل الوردة يأخذها أبوها، ويحفر لها حفرة، ويضعها في الحفرة، وهي حيّة، ثم يردم عليها الرمل..

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير)

هذه هي الجاهلية، عشرة رجال على امرأة، تحمل فتختار أحدهم، وتقول: هذا الولد من هذا الرجل، فوضى جنسية غير معقولة..

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الحجر يعبدونه، فجاء ثعلب وبال عليه، فكّر أحدُهم وقال:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب

***

معقول ؟ إله من تمر، لمّا جاعت ودٌّ أكلت ربّها، هذه هي الجاهلية، حروب طائشة، سفك دماء، فخر أجوف، الشاعر المعروف الذي قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

الخيل والليل والبيداء تعرفني و السيف والرمح والقرطاسُ والقلمُ

* * *

هذا شعر، ولكن هذا ليس جاهلياً، خرج من بغداد إلى حلب، فظهر له أعداء في الطريق، فولّى هارباً، قال له غلامه: ألست القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

***

فقال له: قتلتني قتلك الله، فعاد وقاتل حتى قُتِل، ما هذه الجاهلية ؟

الإسلام رفع هذه الأمّة من رعاةٍ للغنم إلى قادةٍ للأمم، سيدنا عمر قال: **<< الحمد لله الذي أعزّنا بالإسلام، ومهما ابتغينا العزّة في غيره أذلّنا الله >>..**

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

ثم قال تعالى:

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ)

(سورة الجمعة: الآية 3)

معنى: وَآخَرِينَ مِنْهُمْ

وهذه الآية لها معنيان:

أي أمّةٌ لم تكن وقت نزول الوحي، جاءت بعدها، أو أمّةٌ غير هذه الأمّة، ما حولها، وهذه من بِشَارات القرآن الكريم أن الإسلام سَيَعُمُّ البُلدان وسيعمُّ الأزمان، أي اتسعت رقعته حتى شمل مليارا ومئتي مليون مسلم الآن، وحتى استمر ألف وأربعمائة عام، والإسلام يزداد شموخاً..

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ

إنّ الإنسان إذا آتاه الله عزّ وجل شيئًا من العلم، و شيئًا من الحكمة، وأعانه على نفسه في طاعته، وذكر الله بلسانه، ودعا إليه فهذا هو الفضل العظيم الذي لا يفنى إلى أبد الآبدين، هذا هو العطاء الحقيقي.

إن الله عزّ وجل أعطى المُلك لمن لا يحب، أعطاه لفرعون، وأعطاه لمن يحب، لسيدنا سليمان، أعطى المال لمن لا يحب، لقارون، وأعطاه لمن يحب، لسيدنا ابن عوف، ولكن الحكمة والعلم لم يعطهما إلا لمن يحبُّ حصراً..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

إذا سمح لك الله عزّ وجل أن تسمع الحق، وسمح لك أن تقتنع به، وسمح لك أن تطبّقه، وسمح لك أن تدعو إليه فإن هذا هو الفضل العظيم.

فَضْلُ الله أعظمُ من كل شيء في الدنيا:

لو كنت تملك أكبر شركة في العالم، وهناك شركات أرباحها تساوي ميزانيات دول، شركات ضخمة جداً، لو أنك تملك مثل هذه الشركات، وجاءك ملك الموت ليس لك منها شيء أبداً، أما إذا عرفت الله، وعرفت منهجه، وأطعته، ودعوت إليه، وسمح الله لك أن تكون سبباً في هداية خلقه فإن:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(72))

(سورة التوبة)

ذلك هو العطاء الكبير.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

دققوا في هذه الآية:

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ)

نرجو الله عزّ وجل أن نكون من هؤلاء الآخرين، الآخرين أي أمّة أخرى، أو جيل آخر، أليس هناك شعوب غير عربية مسلمة ؟ إندونيسيا وحدها مئة وخمسون مليونا، إندونيسيا تعادل الأمة العربية بأكملها، ولم يأتهم سيف إلا التجّار فقط، والهند فيها سبعمئة وخمسون مليونا، نصفهم مسلمين، الباكستان، الأتراك..

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ)

أمّة أخرى، أو جيل آخر، فنحن إن شاء الله نكون بالمعنى الثاني، من الجيل الآخر..

(لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

أنت تتعرّف إلى الله من آياته، وأن تزكي نفسك، تطهرها من أدرانها، تحلّيها بالكمال، تعلمها الكتاب والحكمة..

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)

فضله عميم، اختر هذا الفضل تنله، لكن له ثمن.

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

إذا استمع الإنسان إلى الحق.. دققوا أيها الإخوة لكم بِشَارة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: الآية 23)

إذا سمح الله لك أن تستمع إلى الحق فقد علم فيك خيراً، بقي أن تطبّقه، وبقي:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة)

مثلما تعلّمت علِم، استمعت إلى درس انقله إلى زوجتك، استمعت إلى خطبة انقلها إلى إخوانك، لا تكن ساكتاً، فعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

[البخاري]

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

وإذا ذكرك الله عزّ وجل نِلتَ كل شيء، ذِكْرُ الله لك أعظم بكثير من ذكرك له، ذكرك له تنتفع وتُحفَظ، لكن ذكره لك يرفعك إلى أعلى علِيين..

(ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

هذا هو الفضل العظيم، العظيم يقول لك: هذا هو الفضل العظيم، لا تزهد بدرس، لا تزهد بمعرفة كتاب الله، لا تزهد بمعرفة سنّة النبي، لا تزهد في عمل صالح، لا تزهد في الدعوة إلى الله، لا تؤثر مصالحك المادّية على ذكر الله عزّ وجل، لأنه من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أُعطي السائلين.. هم في مساجدهم والله في حوائجهم.. من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين. هناك أخ له عمل صالح، له دعوة إلى الله، يخدم في دعوته، وفي تعليمه للقرآن، الله عزّ وجل أكرمه إكراما قبل أسبوعين أو ثلاثة، شيء لا يُصدّق، مستحيل أن يصل إلى هذا عن طريق الوسائل والوساطات، الله عزّ وجل سميع، بصير، عليم، كُن حيث يرضى عنك، ولا تفكِّر في شيء، **" كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يُصلِحُك ".. أعلم ما يَصلِحُك، لا تكلِّف خاطرك، قل لي ماذا تريد، كن لي كما أريد.. " أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".**

قانون التيسير والتعسير:

هذا قانون التيسير والتعسير، ولا شيء أصعب من التعسير، كلّما سلكت طريق تجده مسدودا، كلّما بحثت عن سبب فهو مغلق، فلا شيء أصعب في الحياة من التعسير، وفي الحديث:

((اللهمّ لا سهلَ إلا ما جعلته سهلاً))

[ابن حبان والحاكم عن أنس]

في عملك، في دراستك، في وظيفتك، في سفرك، أحياناً سفر يصبح قطعة من الجحيم لأسباب تافهة، وأحياناً يكون قطعة من النعيم، ولا شيء أكثر راحةً للنفس من التيسير.

القانون:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل)

آمن، أعطى، واتقى أن يعصي الله، وصدّق بالحسنى، بهذا الدين، آمن واستقام وعمل صالحاً..

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

امتنع.

(وَاسْتَغْنَى)

عن طاعة الله.

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

لأن من تشعَّبت به الأمور لم يبالِ الله بأي أوديتها هلك، أي يذهب لسبب تافه، خبر مزعج يُحدِث له جلطة، فمات وانتهى، لسبب تافه جداً، في مكان تافه، بمناسبة تافهة، أما المؤمن فهو غالٍ على الله عزّ وجل، حياته مقدّسة، والنبي الكريم أقسم الله عزّ وجل بعمره فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

فالإنسان على قدر استقامته، وعلى قدر إخلاصه، على قدر محبّته، وعلى قدر معرفته، وعلى قدر دعوته إلى الله عزّ وجل يرتفع عند الله..

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

لابد للمؤمن أن يفرح بفضل الله عليه:

المؤمن كبير جداً عند الناس وعند الله، أما هو صغير جداً في نفسه، بنظر نفسه، إذاً:

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

هذا الفضل الحقيقي.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: الآية 58)

افرح بهذه..

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

أن تعرفه، وأن تزكي نفسك، وأن تعرف كتابه، وأن تعرف سنّة رسوله.

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)

من السابقين واللاحقين، العرب وغير العرب.

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

في درسٍ آخر من إن شاء الله نكمل تفسير الآية:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجمعة 062 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 5- 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-09-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة الجمعة، ومع الآية الخامسة، وهي قوله تعالى:

(سورة الجمعة)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

علاقة الآية بما قبلها:

قد يسأل سائل: ما علاقة هذه الآية بقوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(2)وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(4)مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الجمعة)

1 ـ الصحابة استجابوا لدعوة الرسول:

أيها الإخوة الكرام، حينما بُعِثَ النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمة نبياً ورسولاً، بشيراً ونذيراً، أصحابه الكرام استجابوا له، وفهموا حقيقة دعوته، وطبّقوها، وتألّقوا، ودانت لهم الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وخرجوا من جزيرتهم ونشروا الإسلام في الخافقين، هذه الدعوة المتألِّقة، هذه الدعوة السماوية، كيف يمكن أن تفرّغ من مضمونها ؟ كيف يمكن أن تتراجع ؟ كيف يمكن تزهو ؟

2 ـ موقف اليهود من دعوة الرسول كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا:

اليهود جاءتهم التوراة، حُمِّلوا التوراة، أي أُنْزِلَتْ على نبيّهم، نبيهم علمهم إيّاها، عرفوا أحكامها، ثم لم يحملوها، حُمِّلوها تعليماً وإرسالاً، ثم لم يحملوها تدبُّراً وتطبيقاً، فأكبر خطر ينتظر المسلمين هو أن يقرءوا النصوص، ولا يعملوا بها، أن يفهموا حقيقة الوحي ولا يطبّقوه، أن يكونوا أوعيةً لا وعاةً لهذا الدين العظيم، وهناك مفارقة عجيبة جداً هي أن الصحابة الكرام كانوا قلة لا يزيدون على عشرة آلاف

رجل، نُقِلَتْ دعوتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، بينما المسلمون اليوم يزيدون على مليون ومئتي مليون، ومع ذلك تروْنَهُم ليسوا كما ينبغي أن يكونوا.

في الحقيقة الخطر الكبير الذي ينتظر المسلمين هو أن يكون هذا الدين صورةً في حياتهم، ليس مطبقاً في حياتهم، الله جلّ جلاله يقول:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

أجمع العلماء على أن النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن يرتحل إلى ربّه عذاب أمته بمخالفة سُنَّته، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل علامة حبه اتباع سنة نبيه، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية 31)

أكبر خطر على المسلمين مشابهتهم لليهود أنهم حملوا التوراة، ثم لم يحملوها:

إذاً عندنا خطر كبير ؛ أن نقرأ القرآن ولا نعمل به، أن نقرأ السنة ونتزيَّن بها ولا نطبِّقُها، أن تكون حياتنا في وادٍ والنصوص التي نقرأها كل يومٍ قراءةً تعبُّدية في وادٍ آخر، أن لا يكون هذا الدين مطبَّقاً في حياتنا، أن نحيا حياةً على نمطٍ غربي، أن نُتاجِر على النمط الغربي، أن نقيم علاقتنا الاجتماعية على نمطٍ غربي، دون أن يكون للدين دخلٌ في حياتنا، لكن الدين في المسجد، نصلي في المسجد، ونقرأ القرآن في المسجد، ونقيم شَعائِرَهُ دون أن نسمح للدين أن يدخل إلى حياتنا اليومية، كما أن اليهود حُمِّلوا التوراة، أنزلت عليهم التوراة، نبيهم الكريم سيدنا موسى علّمهم إيّاها، إلى أنهم لم يحملوها، أي لم يطبّقوها، ماذا قالوا ؟

(قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

(سورة آل عمران: الآية 75)

أي هم أحرار في أن يسيئوا إلى الأقوام الآخرين، بل إن هذا يُعَدُّ جزءًا من دينهم.

(لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

كما ذكرت في الدرس الماضي، الأميون أي في الأُمَمِيين، الأمم الأخرى، هم يتوهمون أنهم شعب الله المختار، وليس عليهم أن يسيئوا أو أن يغتصبوا، أو أن ينكِّلوا في بقية الأمم، هذا جزءٌ من عقيدتهم الفاسدة، لذلك حملوا التوراة ثم لم يحملوها، أي لم يطبقوها، فلذلك محك الإنسان الحقيقي لا ما يقوله لك، بل ما يفعله، وقد تجد أناساً ألسنتهم أحلى من العسل، وفعلهم أمَرُّ من الأسل.. أي الصبر.. ولئلا يتوهَّم الإنسان أن بكلامه الذكي ينتزع إعجاب الآخرين، وينجو عند الله، لا ينفعنا إلا أن نكون على منهج الله،

لا ملجأ من الله إلا إليه، فالإنسان يتكلم، وبكلامه إذا ذكياً يقلب الحق إلى باطل، والباطل إلى حق، يعتدي ويتهم الذي اعتدى عليه أنه هو السبب، يتجاوز الحدود، يتناقض ويقنع الناس بلسانه الذَربْ أنه على حق، هذا عقابه يوم القيامة قوله تعالى:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ)

(سورة يس: الآية 65)

لأنهم كاذبون.

(وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس: الآية 65)

أخطر شيء يصيب الدين أن يبقى طقوساً، حركاتٍ لا معنى لها، عباداتٍ جَوْفاء، أن يوصف عند الآخرين بأنه تراث، ثقافة، فلكلور، عادات، تقاليد، نماذج، رواسب الأباء والأجداد، الدين منهج، الدين سبب سعادة المجتمع، سبب انضباطه، فأكبر خطر يتهدد المسلمين هو الخطر الذي أهْلَكَ اليهود أنهم حملوا التوراة، ثم لم يحملوها، القرآن بين أيدينا نقرأه صباح مساء، أحكامه واضحةٌ وضوح الشمس، ومع ذلك لا تجدُ معظم المسلمين في مستوى هذا الكتاب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((رُبّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((ما آمن بالقرآن من استحل محارمه))

[الطبراني في المعجم الكبير عن صهيب]

العبرة في تطبيق الدين:

العبرة لا أن تقرأ القرآن، العبرة أن تقرأه وأن تطبقه، العبرة لا أن تصلي في المسجد، العبرة أن يكون بيتك مسجداً، أن يكون بيتك منتظماً، ملتزماً، العبرة أن تربي أولادك وفق الشريعة الإسلامية، العبرة أن تأخذ بيد زوجتك إلى الله ورسوله، العبرة أن تتعامل مع الناس وفق منهج الله، العبرة أن يستوي عندك التِبْر والتراب في جنب الله عزّ وجل، والمال مهما عظم فهو تحت قدميك إذا كان سيحجبك عن الله عزّ وجل، هذا هو المؤمن.

النبي عليه الصلاة والسلام ربّى أصحاباً من هذا النموذج، لذلك كان الواحد منهم كألف، سيدنا عمر حينما أرسل إلى سيدنا سعدٍ دعماً.. استنجد به، أريد الإمداد، أريد جيشاً يَدْعَمُني.. أرسل له واحداً القعقاع بن عمرو، أيعقل أن يرسل الخليفة إلى قيادة جيشٍ في العراق دعماً رجلاً واحداً ؟!!

فيا أيها الإخوة الكرام، العلاقة بين هذه الآية وبين الآية التي سبقتها هو أن الله سبحانه وتعالى قال:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

وهذه الدعوة التي كانت محور الدرس الماضي، تلاوة الآيات الكونية، والاتصال بالله، والتزكية، التطهير من الأدران والتحلي بالكمال، ومعرفة الكتاب والسنة، هذه هي أركان الدعوة إلى الله، هذه الدعوة التي آتت أُكُلَها، وأيْنَعَت ثمارها في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، حتى استحق أصحابه أن يستخلفهم الله في الأرض، فاستخلفهم، وكانت كلمتهم هي العُليا، استخلفهم الله في الأرض، ومَكَّنَ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً، لأنهم عبدوه، فإذا جاء بعد قوم النبي قومٌ ما عبدوا الله، بل عبدوا شهواتهم لم يستخلفهم في الأرض.

اصعد إلى جبل قاسيون، وانظر إلى سطوح المنازل تفهم كل شيء، لا تنظر إلى أشياء أخرى، أنظر إلى سطوح المنازل ماذا عليها ؟ تعرف ماذا في هذا البيت، انظر إلى النوافذ متألِّقة حتى الساعة الخامسة صباحاً، ماذا يفعل هؤلاء في الليل ؟ ثم يَعْتَبَ الناس على ربّهم لماذا لا ينصرهم ؟!

المشكلة حينما تنفصل الحياة عن الدين فيصبح الدين ثقافة، تراثا، كتبا في المكتبة، يصبح الدين أفكارا لا تقدِّم ولا تؤَخِّر، يصبح الدين عادات، فأحياناً إكراماً لشهر رمضان المبارك تُقام الحفلة الفلانية الراقصة، والملهى الفلاني يقدم أشياء إكراماً لرمضان المبارك، لم يعد هناك دين، انفصلت الحياة عن الدين، لذلك:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

لن ينصرنا الله إلا إذا كنا كما يريد:

الإنسان أحياناً يستمع إلى ما يجري في العالم الإسلامي فيتألم أشد الألم، ولكن لو فتح القرآن ليفهم الحقيقة يرى قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: آية 11)

لنغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا، لنفتح القرآن ونقرأ:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: الآية 7)

فإن لم ننصر دينه في بيوتنا، إن لم ننصر دينه في أعمالنا، إن لم ننصر دينه في بناتنا، إن لم ننصر دينه في أولادنا، إن لم ننصر دينه في أفراحنا، إن لم ننصر دينه في أتراحنا فليس لنا عليه شيء.

دققوا في هذا الحديث الصحيح، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ:

((بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أُخْرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللّهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللّهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ ـ أراد الله أن يطمئننا، أراد الله أن ينشئ لنا حقاً عليه ـ قُلْتُ: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[متفق عليه]

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

الله عزّ وجل أنشأ هذا الحق على ذاته العَلِيَّة.

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء)

فإذا كان لهم على المؤمنين ألف سبيلٍ وسبيل، ماذا يعني ذلك ؟ إذا كان للكافرين على المؤمنين ألف سبيلٍ وسبيل، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[متفق عليه]

ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنهم تركوا دينهم، ولم ينصروا دينهم، ولم يطبّقوا شرع نبيهم، لذلك الله جلّ جلاله يعالجهم، ولعل في المعالجة خيراً لهم، لقوله تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

فلذلك المسلمون وقد تألّقت دعوة الإسلام في حياتهم، وقد قطفوا ثمارها في عهد النبي وعهد أصحابه الراشدين، ومن بعدهم التابعون، هذه الدعوة التي تألّقت أشد التألّق في صدر الإسلام، ما الخطر الذي ينتظرها ؟ الخطر الذي ينتظرها أن نُحَمِّل القرآن إنزالاً وتعليماً، ثم لا نحمله تدبراً وتطبيقاً، فنكون كهؤلاء الذين وصفهم الله عزّ وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

3 ـ معنى: أَسْفَارًا:

الأسفار جمع سِفْر، والسفر هو الكتاب، و السَفْرُ هو الكشف، سفرت العمامة عن الرأس أي كُشِفَت عن الرأس، سَفَرَ الحجاب عن الوجه أي كشف عن الوجه، فالسَفَر الكَشْف، أما السِفْر فهو الكتاب، به تكشف الحقائق.

لو أن دابةً حُمِّلت كتاباً في الفَلَك، وكتاباً في الرياضيات، وكتاباً في الفيزياء، وكتاباً في علم النفس، وكتاباً في علم الاجتماع، وكتاباً في التاريخ، وكتاباً في الجغرافيا، وكتاباً في الفلسفة، وسارت هذه الدابة وعلى ظهرها هذه الكتب مسافةً طويلة، ثم استوقفناها، وسألناها عن قانون التجاذب الحركي فإن الحمار يَنْهق.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

شيء زَرِيّ، شيءٌ لا يحتمل، إنسان يقرأ القرآن ولا يعمل به، يقرأ القرآن وبناته كاسياتٌ عاريات، مائلاتٌ مميلات، ملعوناتٌ أينما ذهبن ؟ يقرأ الجلُ القرآن ودخله حرام، يقرأ القرآن وحياته اختلاط، يقرأ القرآن هو في وادٍ، والدين في وادٍ آخر.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا)

4 ـ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا

حُمِّلوها أن القرآن أنزل على هذه الأمة، والنبي فصّله في سنته، سنته كلها تبيانٌ لما في هذا القرآن، معنا كتاب الله، ومعنا كتب السنة، تسعة كتبٍ صحيحة، السنة تزيد على ستمئة ألف حديث، الكتب الصحيحة التسعة تزيد على ستين ألف حديث، في هذه الأحاديث شرَحَ النبي القرآن، وهي متوافرةٌ بين أيدينا أينما ذهبت، الكتاب مع تفاسير مقروءة، وتفاسير مسموعة، وتفاسير مرئية، فالمكتبة الإسلامية عامرة إلى أقصى درجة، بل إنك لتجد أنه إذا أقيم معرض للكتاب الناس فيه زرافاتٍ ووحدانا، هناك إقبال على طلب العلم، فأين التطبيق ؟ أين الاستخلاف الذي وعدنا الله به ؟ أين التمكين الذي وعدنا الله به ؟ أين التطمين الذي وعدنا الله به ؟ أين النصر الذي وعدنا الله به ؟ أين معنى قوله تعالى:

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

أين قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

لأن المسلمين أصابهم ما أصاب اليهود:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا)

حُمِّلوا القرآن ثم لم يحملوه.

(كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

1 ـ المسلمون يكذِّبون القرآن بلسان حالِهم لا بلسان مقالهم:

أيها الإخوة الكرام، لا أعتقد أن في العالم الإسلامي رجلاً واحداً يقول لك: القرآن ليس كلام الله، هذا قَلّما تجد، حالات نادرة جداً، حالات تعد على أصابع اليدين، أن يقول لك قائل: هذا القرآن ليس كلام الله، لكنك تجد أن إنساناً يقرأ القرآن، ولا يعمل به، كيف تفسر إنسانا يقرأ القرآن ولا يعمل به ؟

2 ـ التكذيب العملي أخطر من التكذيب القولي:

إذا ذهبت إلى طبيب، وعالجك الطبيب، ووصف لك وصفة، وصافحت الطبيب، وأثنيت على علم الطبيب، وتشكرت الطبيب، ولم تشتر هذه الوصفة، وأنت متألم، ومعك مال، فعدم شرائك لهذه الوصفة تكذيبٌ لعلم الطبيب، تكذيبٌ ضمني، وهذا أعظم أنواع التكذيب، إنك إن كذبت بلسانك ناقشناك، وحاورناك، وأقنعناك، لكنك تقول: كلام الله، هذا القرآن تقول أنت: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا سبيل إلى محاورتك، أما إذا دخلت إلى بيتك لا تجد أثراً للقرآن في بيتك، ولا في خروج بناتك، ولا في تربية أولادك، ولا في كسب مالك، ولا في إنفاق مالك، إذاً: هذا الذي حصل..

(بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

فهذا الذي يطلق بصره في الحرام، يملأ عينيه من الحرام، ويقرأ قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: الآية 30)

ألا يكذب تكذيباً ضمنياً بهذه الآية ؟ إذًا:

(بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

هذا الذي يقرأ القرآن ؛ يقرأ قوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: الآية 276)

ويتعامل بالربا ألا يُكَذِّبُ هذه الآية ؟

هذا الذي يقرأ قوله تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)

(سورة البقرة: الآية 188)

ويأكل أموال الناس بالباطل اغتصاباً، واحتيالاً، وغشاً، وتلاعباً، وتدليساً، وإخفاء عيبٍ، وتزوير جهةٍ صانعةٍ، هذا الذي يأكل أموال الناس بالباطل، ويقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء: الآية 29)

ألا يكذِّب بهذه الآية ؟

إن أخطر أنواع التكذيب أن يكذِّبُ عملك لا أن يكذب لسانك، لأنه إن كَذَّبَ عملك فلا أحد يكشفك، فأنت فيما تعلن مسلم، مؤمن، صادق، طاهر، لكن حينما تكون مع المؤمنين تندس بينهم، لا يعرف ما إذا كنت معهم أو ضدهم، لذلك قال تعالى:

(وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ)

(سورة الأحزاب: الآية 20)

لو قال: لو كانوا معكم فهذا موضوع ثان..

(وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ)

اندمجوا معكم، يصلوّن كما تصلون، يسبّحون كما تسبحون، يأتون المساجد كما تأتون، لكنهم لا يطبّقون، فهذا الذي يحضر مجلس العلم، ولا يلتزم بأوامر الدين، كيف يفكر ؟ كيف ينام ؟ كيف يستلقي على جنبه مساءً ؟ سمع الحق، أو أسمعه الله الحق، ما حجته عند الله عزّ وجل ؟ لمَ لا تطبق ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

(سورة الصف)

هل يعقل أن يكون أصل العمل حراماً، وأصل كسب المال حراماً، وأصل هذه العلاقة محرّمة، ثم تتبرك بالعلماء، تدعوهم إلى بيتك لينطقوا بكلمات الحق وأنت تزهو بهم، أليس هذا نفاقاً ؟ أيها الإخوة الكرام، ليس من أشياء قليلة تَخَلّى الله عنا، هناك أسباب كبيرة جداً، ومع ذلك نحن نرجو رحمة الله، ونخشى عذابه، فالله عزّ وجل قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

الله جلّ جلاله إذا قَنن فلا يُقَنِّن عجزاً، لأنه:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: الآية 21)

إلا أن الله إذا قنن، إذا قنن الدخول، إذا قنن الأمطار، إذا قنن المكاسب، إنما يقنن تأديباً.

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

أصحاب الجنة الذين انطلقوا إليها يتبخترون من أجل أن يصرموها مصبحين، ولا يستثنون حق الفقراء..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(20)فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ(21)أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ(22)فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ(23)أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ(24)وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ(25)فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(26)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

(سورة القلم)

قصة أصحاب الجنة: دروس وعبر:

إنسان لا يؤدِّي زكاة ماله، عنده بستان يُضَمِّنُه كل عام بمليون ليرة، هَبَّتْ رياحٌ عاتية قبل أيام لم تبق له شيئاً، مَحَقَت الإنتاج كله، كله في الأرض، وبحجمٍ صغير، في منطقة مرتفعة، ولأنها مرتفعة يتأخر نمو التفاح فيها، يضمنه كل عام بمليون ليرة، ليس عنده شيء يُضَمِّنُهُ.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

والسرعة ثمانون كيلو متر، لو كانت مئة وعشرين فهذه نكبة ثانية، لو كانت مئتين، هناك أعاصير بسرعة ثمانمئة كيلو متر تقتلع المدينة من جذرها، بثمانين كيلو متر لا تبقى شيء، ربنا عزّ وجل بعد أن حدثنا عن قصة أصحاب الجنة، قال:

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(28)قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة القلم)

قال تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم)

أي يا عبادي كل أنواع العذاب الذي أسوقه لكم من هذا النوع، عذاب تأديب، عذاب معالجة.

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

المشكلة أن هذه الآية يُقاس عليها أن الذي حُمِّلوا القرآن ثم لم يحملوه.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

عدم تطبيق أوامر الله تكذيبٌ عملي بها:

معنى ذلك أن كل أمرٍ بين يديك لا تُطَبِّقُهُ هو تكذيبٌ به بنوعٍ أو بآخر، حينما لا تطبق أمر الله عزّ وجل أنت تكذبه، تكذيباً معلناً بلسانك، وهذا قلما يكون، أو تكذيباً سلوكياً ضِمْنِيّاً، وهذا أخطر أنواع التكذيب..

(بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

3 - وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وانحرفوا عن جادة الصواب، ولم يعملوا بكتاب ربهم ولا بسنة نبيهم هم ظالمون.

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ

ثم يقول الله عزّ وجل:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الجمعة: آية 6)

1 - الدعوى باللسان سهلة يسيرة:

الدعوى سهلة.

و كلٌ يدعي وصلاً بليلى

****

الدعوى سهلة، زعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: آية 18)

هذه دعواهم..

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

إخواننا الكرام، كل إنسان بإمكانه أن يدّعي ما يشاء، أنت لك أن تقول: هذه الشام كلها ملكي، بكل أحيائها، وأبنيتها، وبيوتها، وأسواقها، لكن أين الدليل ؟ نريد الدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، إذا أعفيتموني من الدليل أقول لكم: كل الشام ملكي، بكل بيوتها، وكل أبنيتها، وكل أسواقها التجارية، كلها ملكي، بلا دليل، لذلك القضية من دون دليل سهلة جداً، كلٌ يدعي أنه حبيب الله، وأنه مؤمن كبير، وأنه عالم جليل، هُناك أدِلّة.

لماذا ربنا عزّ وجل ما قبل من أي إنسان أن يدّعي حبه إلا بالدليل ؟ قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية31)

فهؤلاء الذين هادوا، قال تعالى لهم:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ)

إن زمتم أنكم أحباب الله، أحبابه، الحبيب يشتاق إلى حبيبه، هذه بديهية، فالإنسان إذا أحَبَّ فتاةً، ونوى أن يتزوّجها يتمنّى أن يلتقي بها، وهناك شيء بسيط جداً من أبسط مبادئ الحب ؛ أن تتمنى أن تكون مع محبوبك، فإن زعمتم أنكم أحباب الله:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

2 ـ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

الحقيقة موضوع تمنِّي الموت هذا كاشف دقيق جداً، فالذي يتمنى الموت هو الذي على صلةٍ طيبةٍ بربه، يتمنى لقاءه، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ))

[متفق عليه]

لو قرأتم تاريخ الصحابة الكرام لوجدتم أن في حياتهم قاسماً واحداً مشتركاً ؛ ألا وهو: أنه ما من صحابيٍ جليل إلا وكان في أسعد لحظات حياته عند دنوّ أجله.. واكربتاه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.. وهذه علامة صحة العمل.

إذا كان الإنسان لا يحتمل ذكر الموت، لا يحتمل منظر القبر، لا يحتمل مرضا خطيرا، لا يحتمل نعيًا، لا يحتمل أن يسمع قرآناً يُتْلى في تعزية، ينخلع قلبه، معنى هذا أن هذه مشكلة كبيرة جداً، وفي عمله

خلل كبير، هذا مصير كل حي، لذلك علامة صحّة العمل عدم الخوف من الموت، وعلامة سوء العمل الفزع من الموت، هذه آية قرآنية، ودليل قرآني:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

هناك بعض القواعد: مثلاً: ما الذي يفرحك ؟ أن تأخذ المال أم أن تعطيه ؟ إذا كان يفرحك أن تأخذ المال فأنت من أهل الدنيا، أما إذا كان يفرحك أن تعطيه في سبيل الله فأنت من أهل الآخرة، إذا كان الموت يَخْلَع قلب الإنسان، أو لوازم الموت، أو مقدّمات الموت، ولا يطيق سماعها، ولا النظر إليها فهذه علامة غير مرضية، معنى ذلك أن العمل سيئ، أما إذا كان لقاء الله محبباً إليك فهذه علامةٌ طيبةٌ جداً، هذا مقياس قرآني، فكل واحد يعرف نفسه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ))

يَعْنِي الْمَوْتَ.

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

الإنسان يتصور أنه إذا مات أين سيدفن ؟ أين سَيُغَسَّل ؟ ما مصير أهله بعده ؟ هذه خواطر مفيدة جداً، لأنها تضع الإنسان في حجمه الحقيقي، يا ترى دخله سليم ؟ كسبه سليم ؟ علاقاته سليمة ؟ إنفاقه سليم ؟ بيته إسلامي ؟ عمله إسلامي ؟ البضاعة التي يتعامل بها محرمة أم حلال، هذا كله يبدو بالموت، وفي التفكر في الموت:

وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الجمعة)

(يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ)

(سورة البقرة: الآية 96)

أعرف رجلا.. أو قرأت عنه أنه ما ركب طائرةً في حياته خشية الموت، ضبط طعامه وشرابه بشكل مذهل، وعاش عمراً مديداً، ثم مات، وهذا مصير كل حي، فلذلك موضوع الموت موضوع مركزي، وكلنا ميتون:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر)

لابد من الاستعداد للموت:

لا يستطيع أحدٌ أن ينكر الموت، إلا أن الناس يتفاوتون في الاستعداد له، الاستعداد له بالتوبة، الاستعداد له بالعمل الصالح، الاستعداد له بالدعوة إلى الله، الاستعداد له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الاستعداد له بإقامة الإسلام في البيت وفي العمل، بهذا نستعد للموت.

الموت أيها الإخوة له هدفان إيجابيان، لو أنك تركب مركبة على طريقٍ مستقيم، وعلى اليمين والشمال واديان سحيقان، ما الخطر الذي يتهدد هذه المركبة ؟ أن تنحرف إلى أحد الواديين، أو أن يحترق محركها فتقف، فإما الوقوف، وإما الانهيار، مهمة الموت في حياة المؤمن أنه يحول بينك وبين أن تعصي الله.. التفكر في الموت يحول بينك وبين أن تقف، يدفعك إلى الله، ويحميك من الانزلاق في المعاصي، لذلك النبي الكريم قال:

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللّذّاتِ))

يَعْنِي الْمَوْتَ.

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد عن أبي هريرة]

إن الإنسان المؤمن يتفكر في الموت، ولا يخشى الموت، لأنه مصير كل إنسان، فهذا الذي يخاف الموت، ويبتعد عن كل مسبباته، وعن كل لوازمه، ولا يطيق سماعه، ولا سماع أوصافه هذا كالنعامة تغرس رأسها في الرمل والعدو لاحقٌ بها، فلذلك البطولة لا أن أبتعد عن ذكر الموت أن أفكِّر في الموت كثيراً، وأن أستقيم على أمر الله كثيراً، لذلك:

(وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

(سورة الجمعة)

لأنهم ظالمون لا يتمنونه، ظلموا أنفسهم، وظلموا غيرهم.

أما هذه الآية:

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة: آية 8)

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ

الموت مصير كل حي:

تصوّر إنسانا يخاف من عدوٍ شرس، فهو يركض والعدو وراءه، وكل يقينه أنه وراءه، ثم فوجئ به أمامه !!

حدثني شخص عن رجل أصيب بأزمة قلبية، فرأى الموت يأتيه من قلبه، فاعتنى عناية تفوق حد الخيال، الطعام المقنن، والرياضة، والعناية، والراحة التامّة، والبعد عن المشكلات، حسب تعليمات الطبيب، وهو لا ينتظر الموت إلا من قلبه، جاء صهره من بلدٍ نفطي، ومعه سيارة فخمة، أخذه إلى نزهة إلى منطقة الزبداني، وفي طريق العودة وقع حادثٌ أليم أودى بحياته، هو ينتظر الموت من أين ؟ من قلبه، فإذا هو بحادث لم يكن يتوقّعه:

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

تظنه وراء ظهرك، وأنت هاربٌ منه قد تفاجأ أنه أمامك.

من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوّعت الأسباب والموت واحد

***

الموت مصير كل حي، الإنسان مهما أخذ الحيطة، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

***

كل ابن أنثى وإن طـالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت يوما إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها مــحمول

***

خواطر الموت مفيدة جداً، أن هذا البيت بعد أن أموت سيبيعونه أم لا ؟ هذا مصير كل حي، هذا المحل بعد وفاة الإنسان ماذا سيكون مصيره ؟ الإنسان يفكر في الموت حتى يخفف تعلقه بالدنيا.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ)

(سورة آل عمران: الآية 185)

الزحزحة أي شيء ثقيل جداً:

(وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران: الآية 185)

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة الجمعة)

ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

1 - لابد من التفكر فيما بعد الموت:

أي أن هذا الذي لا يفكر في الموت كما قلت قبل قليل: كالنعامة تماماً، فلابد من العودة إلى الله، ولابد من أن نحاسب على أعمالنا صغيرها وكبيرها..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

أين قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

هناك قصة رمزية: أن رجلا من كبار الأغنياء وافته المَنية، أولادهم من شدة خوفهم على مصيره في القبر دفعوا لأحد الفقراء المعدمين مبلغاً كبيراً جداً لينام معه أول ليلةٍ في قبره، لأنه قد ورد في بعض الأحاديث أن أصعب ليلة هي أول ليلة، يقول الله عزّ وجل لعبده:

" عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت "، فهذا الفقير المُعْدَم يرتدي كيسًا من الخيش، ورابطه بحبل حول وسطه، فنزل في القبر.. وهذه قصة رمزية.. جاء الملكان، فرأيا اثنين.. شيء جديد.. تحرك، فقالوا لبعضهما: لنبدأ بالحي، أجلسوه وسألوه: من أين هذا الحبل ؟ فأجاب: والله أخذتها من بستان، فسألوه: كيف دخلت إلى البستان ؟ ضربوه، كيف دخلت إلى البستان ؟ هل استأذنت صاحبه ؟ هذا صباحاً خرج وهو يصيح ويستريح، ويقول: الله يعين أباكم..

موضوع الموت أمر كبير جداً، فراقب، احضر تعزية في بيت فخم، وانظر إلى أين مصير صاحبه اليوم ؟ بيت بمساحة أربعمئة متر، ثمنه خمسون مليونًا، أين مصير صاحبه اليوم مساءً ؟ في المقبرة، ماذا يوجد داخل القبر ؟ ظلام دامس، وحساب دقيق عن كل كلمة.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

[الترمذي]

الآن أين هي كلمة قصيرة، يتكلمون في عرضها ولا يبالون، سهرة كلها غيبة ونميمة، أو مسلسلات منحطة، أو لعب بالنرد إلى الساعة الواحدة مساءً، وكسب مال حرام ونزهات مختلطة، المعاصي كلها موجودة، والموت مثل النعامة تماماً، لذلك: **" من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ".**

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

2 - إذا ذكر الموت في قليل إلا كثره، ولا في كثير إلا قلله:

لذلك النبي عَلّمنا أن نفكر بالموت كل يوم، ويا إخواننا الكرام الموت له ميزة، ما ذكر في كثيرٍ إلا قلله، واحد مات من مدة وترك ألفين مليون، في خلال ثانية صار خبرا على الجدران، انتهى، يا ترى في الكفن هل يوجد جيب ؟ هل يوضع دفتر شيكات في الكفن ؟ القبر خمس نجوم ؟ لا يوجد خمس نجوم، في الحياة خمس نجوم، فلذلك موضوع الموت أخطر ما فيه أن الإنسان بغفلة عنه أحياناً، أما إذا أكثر الإنسان من ذكره استقام على أمر الله.

الشيء الذي يلفت النظر أن الإنسان تنمو حياته درجة درجة، يقول لك: إلى أن أخذت هذا البيت خرجت عيوني بالطول والعرض، وبيت قبو، وشمالي، بعد ذلك قام بتوسعته، تنمو حياته درجة درجة، يأتي ملك الموت يخلِصه كل ما يملك في ثانية واحدة، انتهى كل شيء، حتى مقتنياته الشخصية تؤخذ، فلا يوجد أحد إلا ولديه درج خاص له يضع فيه أشياء ومقتنيات، هذا بعد الموت كله يفتح ويؤخذ ويستهلك، وينتهي الأمر.

يا أيها الإخوة... التفكر بالموت من العبادة، فالموت ما ذكر في كثيرٍ إلا قلله، بالعكس، وما ذكر في كثيرٍ، إذا كانت حياة الإنسان خشنة، دخله محدود، لكنه مستقيم على أمر الله، هذا مَلِك..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

خاتمة:

إذا كانت حياة الإنسان خشنة، وكان مستقيمًا، وذكر الموت كَثَّرَ الله أمله، وجعله في أعلى عليين، إذا كان في بحبوحة كبيرة جداً، لكن غير صحيحة، وذكر الموت هذا الشيء قل في عينه، فالفراعنة الموت كان مرعبًا بالنسبة لهم، يعتقدون وهماً أن حياة بعد الموت، فإذا ذهبت إلى أهراماتهم وجدت العجب العُجاب، مركبات، الآن هناك خبز في الأهرامات من ستة آلاف عام، وقطع لحم قديد من ستة آلاف عام، لأنهم يحبون الحياة، ويكرهون الموت اعتقدوا واهمين أن هناك حياةً بعد الموت، لذلك اعتنوا بها كثيراً، كل حضاراتهم في القبور موجودة، مركبات، الذهب الذي يزينون به أنفسهم بعد الموت لا يصدق، الفضة، التُحَف، المقتنيات، المركبات، الطعام، الشراب، الخبز، اللحم، الألبسة، الأحذية، كله موجود في القبر، لأن الإنسان يتمنى أن يعيش إلى أبد الآبدين، أما إذا عرف الله، وعرف منهجه كان الموت نقطة تحوّل من حياة إلى حياة.

تجد الطفل يعيش في رحم أمه تسعة أشهر، وحجم الرحم أعتقد سبعمئة وخمسون سنتيمترا، وبعد أن يولد يضعونه في غرفة كبيرة، ويأخذونه إلى حلب، واللاذقية، وإلى مصايف، وإلى أمريكا واليابان، و يصعد إلى القمر أيضاً، فالإنسان عندما يولد ينتقل من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، أما إذا مات المؤمن فينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، فلذلك عندما يعمل الإنسان للدار الآخرة يكون أعقل العقلاء، " أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً "، كل إنسان يحب، إلا أن المؤمن عرف كيف يختار من يحب، اختار الله، قال له: ماذا أبقيت يا أبا بكر ؟ أعطى كل ماله لرسول الله، ماذا أبقيت لك يا أبا بكر؟ قال: الله ورسوله.

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة الجمعة)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجمعة 062 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 9- 11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-10-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث والأخير من سورة الجمعة، ومع الآية التاسعة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ

1 ـ صلاة وخطبة الجمعة فرضٌ وواجب عيني:

هناك بلادٍ أيها الإخوة ابتعدت عن الدين سنواتٍ طويلة تزيد على سبعة عقود، هذه البلاد فيها من التجهيل ما لا يوصَف، ذكر لي أحد الخطباء ذهب إلى هناك ليلقي خطبة، واجتمع آلافٌ مؤلّفة، وأكثر هؤلاء المصلِّين يشربون الخمر ضمن المسجد، وهم يستمعون إلى الخطبة، السبب هو أن صلاة الجمعة التي هي العبادة التعليمية كانت مفقودةً لسنواتٍ طويلة، ولعقودٍ طويلة.

ذكرت هذه القصّة بادئ ذي بدء لألفت النظر إلى خطورة صلاة الجمعة، فصلاة الجمعة أهمُّ ما فيها خطبة الجمعة، لأنها عبادةٌ تعليمية.

2 ـ صلاة الجمعة عبادة تعليمية:

إن المسلم فُرِض عليه أن يصلي الجمعة، وأن يستمع إلى خطبةٍ ما، فأي خطبةٍ لابدّ لها من آيةٍ تُشرَح، وحديثٍ شريفٍ يُشرَح، فمع تتالي الأسابيع والأشهر والسنوات يتعلّم المسلم شيئاً من دينه كثيراً، فربنا سبحانه وتعالى شرع صلاة الجمعة لتكون العبادة التعليمية الأسبوعية، لتكون الشِحنَة الروحية، لتكون المدد النَوْبيّ لهذا الإنسان، فالخطاب موجّهٌ إلى الذين آمنوا..

إن القصة التي ذكرتها قبل قليل أخبرني بها الخطيب بنفسه فقال لي: والله آلاف مؤلّفة أمامي يستمعون إلى الخطبة، ويبكون، ويشربون من الخمر ما يشاءون، وهم في المسجد..

بماذا نفسِّر هذه الظاهرة ؟ إنهم لا يعلمون، مُنِعوا من صلاة الجمعة سبعين عاماً، فصلاة الجمعة حينما شَرَّعها الله عزّ وجل شرّعها لتكون عبادةً تعليمية، فأيّ خطيبٍ مهما قلّ شأنه لابدّ من شرح آية، شرح

حديث، حكمٍ فقهي، شيءٍ من سيرة رسول الله، ولا نعرف قيمة صلاة الجمعة لأننا نصليها والحمد لله، وبلادنا بلادٌ خَيِّرة، وبلادنا تُقام فيها شعائر الله عزّ وجل، ونحن مرتاحون جداً، هذه نعمةٌ لا يعرفها إلا مَن فقدها، ومن البديهيات أن الخمر محرّمة، والزنا محرّم، والقتل محرّم، هذه بديهيات عرفناها من صلاة الجمعة..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

الخطاب موجّه إلى الذين آمنوا.

(إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

اليهود ادّعوا أنهم أحباب الله، أبناء الله وأحبابه، فردّ عليهم الله عزّ وجل:

(فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الجمعة)

أسقط هذه الدعوى، وافتخروا بأنّ عندهم التوراة، فردّ الله عليهم بقوله:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة)

وافتخروا بيوم السبت، فجاءت سورة الجمعة لتجعل من هذا اليوم يوم عيدا للمسلمين، وهناك أحاديث كثيرة جداً تؤكِّد أن خطبة الجمعة هي المقصودة من ذكر الله.

(فَاسْعَوْا)

3 ـ معنى فَاسْعَوْا: الإسراع وقصدُ وجه الله:

معنى فاسعوا أي اقصدوا، والسعي هو القصد، والسعي هو العمل.. هذا المعنى الثاني.. أي اقصد وجه الله بمجيئك إلى المسجد، واسع إلى هذه الصلاة، وهيئ نفسك بالاغتسال، والتطيُّب، ولبس الجديد يوم الجمعة، معنى السعي القصد والعمل، ثم تعال إلى المسجد مُسْرِعاً.

من معاني السعي الإسراع، واقصد وجه الله بصلاة الجمعة، وهيئ نفسك لهذه الصلاة الأسبوعية ذات الطابع التعليمي، ثم اسع إلى المسجد بشَدَّة قدميك معبّراً عن اهتمامك لهذه العبادة، هذا معنى:

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

4 ـ ذِكْرِ اللَّهِ هو خطبة الجمعة:

العلماء رَجّحوا أن ذكر الله المعني به الخطبة، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمّ رَاحَ فَكَأَنّمَا قرّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السّاعَةِ الثّانِيَةِ فَكَأَنّمَا قرّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السّاعَةِ الثّالِثَةِ فَكَأَنّمَا قرّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السّاعَةِ الرّابعَةِ فَكَأَنّمَا قرّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنّمَا قرّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتْ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ))

[متفق عليه]

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللّهِ)

فالمقصود أن تأتي إلى المسجد مُبَكِّراً، وأن تهيّئ نفسك، وهناك أُناسٌ كثيرون يحمدون الله على أنه لحِق صلاة الجمعة، لحق بالركعة الأخيرة، مع أنه فاته الخير الكثير، فاتته خطبة الجمعة التي هي معقد الرجاء فيها، إذاً هنا:

((فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتْ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ))

قال تعالى:

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللّهِ)

في أكثر التفاسير رَجّح المفسرون أن ذكر الله هي الخطبة، وحينما تستمع إلى ذكر الله تذكر الله، والخطيب يُذكِّرك بالله، يذكِّرك بأمره ونهيه، يذكِّرك بحلاله وحرامه، يذكِّرك بما يرضيه وما لا يرضيه، يذكرك بالآخرة، يذكرك بحقيقة الحياة الدنيا، يذكرك بهويتك، بحقيقة الإنسان، الإنسان هو المخلوق المكلّف المكرّم، ويوَضّح لك حقيقة الحياة الدنيا التي جعلها الله:

((دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[كنز العمال، وقال: رواه الديلمي عن ابن عمر]

5 ـ يوم الجمعة عيد المسلمين:

وحينما افتخر اليهود بأنّ عيدهم يوم السبت جعل الله عزّ وجل هذا اليوم يوم عيد، فقد قال عليه الصلاة والسلام كما في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنّ هَذَا يَوْمُ عِيدٍ جَعَلَهُ اللّهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ جَاءَ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ، وَإِنْ كَانَ طِيبٌ فَلْيَمَسّ مِنْهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالسِّوَاكِ))

[ابن ماجه، مالك]

أي ابتعدوا في هذا اليوم عن كل شيءٍ يفوح منه رائحةٌ كريهة، هذا يوم عيد، يوم اغتسال، يوم تطيُّب، يوم لبس الجديد، يوم استماع الخطبة، يوم التقائك مع إخوتك المؤمنين، فبقدر إيمانك وتعظيمك لله عزّ وجل تعظِّم شعائره، ويوم الجمعة من شعائر الله.

لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمُ عِيدٍ، فَلَا تَجْعَلُوا يَوْمَ عِيدِكُمْ يَوْمَ صِيَامِكُمْ، إِلَّا أَنْ تَصُومُوا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ))

[أحمد]

النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن صيام الجمعة لأنه يوم عيد، يومٌ تلتقي فيه الأسرة، وتلتئم، تجتمع على ذكر الله، وأنا أعرف أسراً كثيرة كلُّ أمور البيت تُجْعَلُ قبل يوم الجمعة ؛ التنظيف والترتيب، لا ينبغي أن يكون هذا اليوم يوم ترتيب وتنظيف وغسيل، هذا يوم عيد، ينبغي أن يكون يوم عيدٍ لكل ما في هذه الكلمة من معنى، لأن النبي هكذا قال.

6 ـ يوم الجمعة فيه ساعة إجابة:

يا أيها الإخوة، النبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى يقول كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ:

((فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ))

[متفق عليه]

هذه ساعةٌ مباركة، في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يكون قائماً يصلِّي يدعو الله عزّ وجل بأيّ دعاء إلا استجاب الله له، فمن كانت له عند الله حاجة فليكثر من صلاة النافلة يوم الجمعة، لأنك إذا وافقت هذه الساعة غفر الله لك، واستجاب دعوتك.

7 ـ الجمعة إلى الجمعة كفارةٌ لما بينهما إذا اجتُنِبت الكبائر:

شيءٌ آخر رائعٌ جداً يثلِجُ القلب، هو أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

جئت إلى المسجد، وصلّيت الجمعة، إذا اجتنبت الكبائر فإن الصغائر تُغفَر لك فيما بين الجُمعتين، هذا من فضل الله وكرمه

((الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ))

لذلك ما قول الذين يصلون الجمعة فقط ؟ كيف نجيبهم ؟ نقول لهم: ترك الصلاة من أكبر الكبائر، ترك الصلوات الخمس من أكبر الكبائر، وصلاة يوم الجمعة وحدها لا تُكَفِّر الكبائر، يكفِّر الله بهنّ كل شيء ما لم تُجتنب الكبائر، إذا اجتنبَت الكبائر فهي تكفِّر، أما ترك الصلوات الخمس فمن أكبر الكبائر، بل إن من الكفر ترك الصلاة، دققوا في شدّة حِرْص النبي على أداء هذه الصلاة، فعن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال لقومٍ يتخلّفون عن الجمعة:

((لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُحَرِّقَ عَلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْ الْجُمُعَةِ بُيُوتَهُمْ))

[مسلم]

أي أنّ النبي همّ أن يحرق بيت الذي يتخلّف عن صلاة الجمعة، فمعنى ذلك أنه ترك أمراً عظيماً جداً، وارتكب كبيرةً كبيرة.

عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَتَطَهَّرَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، ثُمَّ ادَّهَنَ، أَوْ مَسَّ مِنْ طِيبٍ، ثُمَّ رَاحَ فَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَصَلَّى مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ إِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ أَنْصَتَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى))

[البخاري]

أي إذا جاء الإنسان إلى المسجد، وصلّى صلاة الجمعة مغتسلاً عليه السكينة والوقار، مُصْغِياً إلى الإمام وصلّى بخشوع، فإن هذه الصلاة تمحو له ما بين الجمعتين ما اجتَنَب المسلمُ الكبائر، فإذا اجتُنِبت الكبائر فهي كفّارةٌ من الجمعة إلى الجمعة.

وقال رجل من اليهود لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين لو نزلت علينا هذه الآية:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا)

(سورة المائدة: الآية 3)

لاتّخذناه عيداً، فقال له عمر رضي الله عنه: **<< إني أعلمُ أيّ يومٍ أنزلت هذه الآية، أنزلت يوم عرفة في يوم الجمعة >>.**

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، وَمَسَّ مِنْ طِيبٍ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَلَمْ يَتَخَطَّ أَعْنَاقَ النَّاسِ، ثُمَّ صَلَّى مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ صَلَاتِهِ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ جُمُعَتِهِ الَّتِي قَبْلَهَا))

[أبو داود]

عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يَحْضُرُ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ: رَجُلٌ حَضَرَهَا يَلْغُو، وَهُوَ حَظُّهُ مِنْهَا، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا يَدْعُو، فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللّهَ عَزّ وَجَلّ، إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ، وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَةَ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا فَهِيَ كَفَّارَةٌ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا))

[أبو داود]

تواعدوا يوم الجمعة أن يتقابلوا في الجامع، عندهم لقاء محاسبة، عقد صفقة، أين ؟ في الجامع يوم الجمعة، فهو إلى جانبه يتكلّم ويلغو، ويتحدّث في أمر الدنيا.. فقال:

((يَحْضُرُ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ: رَجُلٌ حَضَرَهَا يَلْغُو، وَهُوَ حَظُّهُ مِنْهَا، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا يَدْعُو، فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللّهَ عَزّ وَجَلّ، إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ، وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَةَ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا فَهِيَ كَفَّارَةٌ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا))

معنى ذلك ليس القصد أن تلغو في أمر الدنيا، ولا القصد أن تدعو الله والخطيب يخطب، قصده أن تُنْصِت إليه، أن تعي ما يقول، أن تعقل ما يقول، أن تستفيد مما يقول، أن تُطبّق ما يقول كي تكون هذه العبادة تعليمية كما أرادها الله عزّ وجل.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَحْسَنَ الْغُسْلَ، ثُمّ لَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمّ مَسّ مِنْ دُهْنِ بَيْتِهِ مَا كُتِبَ أَوْ مِنْ طِيبِهِ، ثُمّ لَمْ يُفَرّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ كَفَّرَ اللّهُ عَنْه مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ))

8 ـ الوعيد الشديد لتارك الجمعة:

عن ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ يُحَدِّثَانِ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ:

((لَيَنْتَهِيَنّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمْ الْجُمُعَاتِ ـ أي عن تركهم الجمعات ـ أَوْ لَيَخْتِمَنّ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَلَيَكُونُنّ مِنْ الْغَافِلِينَ))

من ترك الجمعة ثلاث مرّاتٍ من غير عذرٍ نكتت نكتةٌ سوداء في قلبه ثم يكون الرّان وتلى قوله تعالى:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة المطففين)

عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيّ، وَكَانَ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرّاتٍ تَهَاوُنًا بِهَا طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ))

[الترمذي، ابن ماجه]

أصبح قلبه غافلاً لا يعي على خير.

9 - التحذير من اللغو يوم الجمعة:

أيها الإخوة الكرام، ما من عبادةٍ ألحّ عليها النبي كصلاة الجمعة، وركّز عليها كهذه الصلاة، فعن أبي هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ))

قلت له: أنصت فإن هذه الكلمة تُعدُّ لغواً يوم الجمعة.

10 - استحباب لبس أحسن الثياب يوم الجمعة:

أيها الإخوة، فهذا شيءٍ قَلّ جدا، فكان الإنسان يأتي إلى الجمعة بثياب البيت، بثياب النوم أحياناً، وهذا الشيء ألغِي والحمد لله، كنت أرى أناساً كثيرين بثياب التبذّل يدخلون إلى المسجد، فعَنْ عَائِشَةَ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَطَبَ النّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ثِيَابَ النِّمَارِ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ))

[أبو داود، ابن ماجه]

ثياب العمل دعها، ثياب النوم دعها، وتعال بثيابٍ حسنة إلى المسجد فهو بيت الله، والجمعة يوم عيد، وإنك تلتقي بإخوانك.

11 - النهي عن تخطي الرقاب يوم الجمعة:

عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ بُسْرٍ صَاحِبِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يَتَخَطّى رِقَابَ النّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالنّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَخْطُبُ، فَقَالَ لَهُ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((اجْلِسْ، فَقَدْ آذَيْتَ))

[أبو داود]

كان عليه الصلاة والسلام يجلس حيث ينتهي به المجلس.

عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَمَسّ مِنْ طِيبِ امْرَأَتِهِ إِنْ كَانَ لَهَا، وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمّ لَمْ يَتَخَطّ رِقَابَ النّاسِ، وَلَمْ يَلْغُ عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ كَانَتْ كَفّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا، وَمَنْ لَغَا، وَتَخَطّى رِقَابَ النّاسِ كَانَتْ لَهُ ظُهْرًا))

[أبو داود]

يبدو أن لصلاة الجمعة أجرًا عند الله كبيرا.

12 - النهي عن كل ما يجلب النوم في أثناء الخطبة:

عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ:

((أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نَهَى عَنْ الْحِبْوَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ))

[الترمذي]

الإنسان يطوّق ركبتيه بيديه فيرتاح، ولكن من الممكن أن ينام، ويقاس عليها الاستناد إلى الحائط طبعاً من دون عذر، فلو كان بعذر فهذا موضوع ثانٍ، أما بلا عذر فإنها جلسة مريحة، فإذا نام ضيّع عليه خيراً كثيراً، فالنبي عليه الصلاة والسلام نهى عن الحُبْوَةِ يوم الجمعة.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((إذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَلْيَتَحَوّلْ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ))

[الترمذي]

إذا كانت جلسة مريحة وكدت أن تنام انتقل إلى مجلسٍ آخر

13 - النهي عن جلوس المسلم مكان غيره يوم الجمعة:

عَنْ جَابِرٍ عَنْ النّبِيّ قَالَ:

((لَا يُقِيمَنّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، ثُمّ لْيُخَالِفْ إلَى مَقْعَدِهِ فَيَقْعُدَ فِيهِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: افْسَحُوا))

[مسلم]

من آداب صلاة الجمعة أن لا تجلس في مكان أخيك..

عن أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ الثّقَفِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ غَسّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمّ بَكّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنْ الْإِمَامِ فَاسْتَمَعَ، وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا))

[أبو داود]

أيها الإخوة، في الصِحاح التسعة أكثر من مئة وتسعين حديثاً عن صلاة الجمعة، معنى هذا أنها عبادة عند الله عظيمة جداً، إنها العبادة التعليمية الوحيدة، والإنسان يُشْحَن في هذه الصلاة شِحنة روحية لعلّها تُمدُّه بنورٍ وطاقةٍ واندفاعٍ في أيام الأسبوع القادم..

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللّهِ)

ذكر الله.. الخطبة..

(وَذَرُوا الْبَيْعَ)

14 - وجوب ترك البيع وتوابعه ساعة الجمعة:

لا يوجد نشاط محبّب للإنسان كالبيع والربح، هناك آلاف الأنشطة ؛ زيارات، علاقات، حل مشكلات، شراء حاجات، أما البيع ففيه ربح، وأعلى نشاط يُدخِل على قلب الإنسان الفرح هو البيع بربح عال، وهذا يجب أن تدعه:

(إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ)

طبعاً القرآن فيه إيجاز، البيع معه شراء، أنت تبيع، وآخر يشتري، فإذا قال الله:

(وَذَرُوا الْبَيْعَ)

أي ذروا معه الشراء، أي أن علاقات التجارة ينبغي أن تتوقّف في أثناء صلاة الجمعة..

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

أي خيرٌ لكم من كسب المال الوفير، خيرٌ لكم من عقد صفقةٍ رابحة، خيرٌ لكم من بيعٍ مُرْبِح، إنك تعرف الله، تعرف حدوده، تعرف أمره ونهيه، تتقرّب إليه، لعلّ الله سبحانه وتعالى يتجلّى على قلبك في بيته وأنت في صلاة الجمعة، فلذلك المؤمن الصادق يحرص على صلاة الجمعة حرصاً لا حدود له، لأن النبي عليه الصلاة والسلام ألحّ على هذه الصلاة، وعلى حضور الخطبة، بل إنك إن أتيت إلى المسجد، وقد صعد الخطيب المنبر قعدت الملائكة يستمعون الخطبة، وكفّوا عن كتابة الأجر، فيجب أن تأتي في الساعة الأولى كأنك قرّبت بدنة، في الساعة الثانية بقرة، في الساعة الثالثة شاة، في الساعة الرابعة دجاجة، في الساعة الخامسة بيضة، فإذا صعد الخطيب المنبر، فما قولك بالذي يأتي مع الصلاة؟ أو يأتي في الركعة الثانية، ويقول: الحمد لله لقد صلّيت الجمعة، أدركت الركعة الأخيرة، الجمعة شُرِعَت من أجل أن تعرف الله عزّ وجل من خلال الخطبة، قال:

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة الجمعة: الآية 10)

فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ

1 ـ إباحة الانصراف إلى أمور الدنيا بعد صلاة الجمعة:

هذا أمر إباحة، والإنسان إذا دخل بيت الله يقول كما علّمنا النبي عليه الصلاة والسلام:

فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ أَوْ عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))

[مسلم]

العلماء وقفوا وقفةً متأنِّية عند هذه الآية..

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ)

2 ـ هل هناك صلاةٌ بعد صلاة الجمعة ؟

أي لا صلاة ظهرٍ بعد الجمعة، هذه قضية إشكالية تحتاج إلى شرح طويل، لأن صلاة الجمعة تُجزئ عن صلاة الظهر، أما لو فرضنا في قرية فيها ثلاثة مساجد، أحد هذه المساجد يتّسع لكل سُكّان القرية، ينبغي أن تُعقَد الجمعة في جامعٍ واحد من أجل وحدة الكلمة، ووحدة الصَف، أما إذا عُقِدت ثلاث صلوات فتقول: الجمعة لمن سبق، هذا حين يكون هناك جامعٌ يتّسِعُ لكل سكّان البلدة، أما دمشق فيها خمسة ملايين ونصف، وكل مساجدها لا تتسع لأكثر من خمسمائة ألف، إذاً: كل الصلوات في المدن الآن صحيحةٌ ومقبولة، ولا داعي أن يُصلّى الظهر بعد صلاة الجمعة، لقوله تعالى:

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ)

ليس هناك صلاة ثانية.

(فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ)

أي تفسّحوا، اخرجوا من المسجد، قال:

(وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)

وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ

معنى: فضل الله:

بعضهم قال: من فضل الله أن تعمل، أن تكسِب قوت يومك.. بعضهم قال: من فضل الله أن تعمل عملاً صالحاً.. فأغلب الظن زيارة الأقارب، صلة الأرحام، عيادة المريض، تهنئة الجار، كل هذه النشاطات الاجتماعية التي شرعها النبي عليه الصلاة والسلام يمكن أن تكون عَقِبَ صلاة الجمعة، أو يوم الجمعة بعد الصلاة..

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ)

فلك أن تفهم:

(وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ)

الفضل المادي: لك أن تعمل، ولك أن تكسب رزقك، ولك أن تعمل الأعمال الصالحة التي هي أيضاً من فضل الله عزّ وجل، فالإنسان يضع برنامجا لزيارة أقاربه، صلة الرحِم، عيادة المريض، تهنئة المتزوّج، تعزية المتوفّى، هناك أعمال النبي حضّ عليها، ورغّب فيها، منها تلبية دعوة، تلبية وليمة، هذا كلّه يكون يوم الجمعة..

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ وَاذْكُرُوا اللّهَ كَثِيرًا)

وَاذْكُرُوا اللّهَ كَثِيرًا

قال العلماء: الذكر الكثير هنا يعني أن تذكر الله في كل أحوالك، كل شيءٍ يصلك بالله عزّ وجل فهو من ذكر الله..

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا)

(سورة الجمعة)

وَاذْكُرُوا اللّهَ كَثِيرًا

سبب نزول هذه الآية:

ورد في السيرة أن بعضاً ممن حضر صلاة الجمعة مع رسول الله سمع قافلة محمّلة بأصناف البضائع، فخرج ليشتري، وترك النبي قائماً، فالله سبحانه وتعالى عاتب هؤلاء على هذا السلوك فقال:

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللّهِ)

هناك صلاة الجمعة، واستماع الخطبة، واتصال بالله، ومعرفة أحكامه وحدوده.

خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

(سورة الجمعة)

قُلْ مَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

هو الذي يرزق، فإذا خرجت كي تبيع أو تشتري، خرجت لقضاء حاجةٍ لك فهو الرزّاق، وهو الموفِّق، وهو الناصر، وهو المؤيّد، وهو الذي يعطيك كل شيء..

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا)

قدِّمت التجارة على اللهو، لأن التجارة أصلٌ في اللهو، أما الذي يدعُ صلاة الجمعة من أجل اللهو فإن إثمه كبيرٌ جداً مما لو تركها من أجل عملٍ يقتات منه، على كلٍ قُدِّمت التجارة على اللهو، ثم قدِّم اللهو على التجارة..

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المنافقون 063 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 1 - 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-10-11

بسم الله الرحمن الرحيم

النفاق أن تظهر شيئاً وأن تخفي شيئاً آخر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة المنافقون:

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

أيها الأخوة الكرام، النفاق أن تظهر شيئاً وأن تخفي شيئاً آخر، أن تقول ما لا تعتقد، وأن تُعَبِّر عما لا تشعر، الازدواجية في الإنسان، له شيء معلن، وشيء باطن، هذا منافق.

الحقيقة في بداية ظهور الإسلام لم يكن هناك منافقون، السبب أن الكفار يفعلون ما يشاؤون، ولا يخشون أحداً، يكفي أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما مرّ على عمَّار بن ياسر وهو يُعذب قال: " صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة ".

لم يستطع أن يفعل شيئاً، قالوا عنه: مجنون، وقالوا عنه: ساحر، وقالوا عنه: كذاب، وقالوا عنه: شاعر، وقالوا عنه: كاهن، فلك أن تقول عنه أي شيء وتنام مطمئناً في بيتك ولا شيء عليك، لذلك كان الذين آمنوا به قبل أن يهاجر إلى المدينة لهم عند الله شأنٌ كبير، هؤلاء آمنوا به صادقين، أما حينما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وصار للمؤمنين كِيان؛ فبإمكانهم أن يحاربوا، بإمكانهم أن يسالموا، بإمكانهم أن يعطوا، بإمكانهم أن يمنعوا، دخل أناسٌ كثرٌ في الإسلام خوفاً أو طمعاً، هذا الإيمان الشكلي المعلن الذي يخفي وراءه كفراً، هذا الوضع هو النفاق بعينه.

الكافر و المنافق :

ولكن الإنسان قد يكون كافراً في الأصل، قد يكون كافراً ابتداءً، ولمصلحته الدنيوية فقط أظهر الإسلام، وانضوى تحت لواء المسلمين، وصلى كما يصلون، وحَدَّثَ كما يحدثون، هذا عند الله كافر، بل هو أشد كفراً من الكافر، لهذا قال الله عزَّ وجل :

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّار)

[سورة المنافقون: 145]

هذا كافرٌ ابتداءً، ولا يقتنع بالدين، ولم يؤمن بالله ولا برسوله، ولم يؤمن بهذا الكتاب، إنما وَجد من مصلحته أن يُعْلِن إسلامه، وأن ينضوي تحت لواء المسلمين تحقيقاً لمصالحه، هذا أشد عند الله من الكافر، لأن الكافر تعرفه كافراً فلا تقلّدُهُ، أما هذا فإنه يصلي مع المسلمين، ويحضر مع المسلمين، ويفعل ما يفعله المسلمون، وهو من ألدِّ أعدائهم، فهذا خطره أشد، لذلك قد يكون الإسلام ورقةً رابحةً في أيدي بعض الناس، إذا كان الإسلام عندك ورقةً رابحة تستخدمها كما تشاء، فهذا نوعٌ من النفاق.

آية المنافق :

أيها الأخوة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

يُظهر ما لا يبطن، يقول ما لا يفعل، يتظاهر بما لا يعتقد، هذا النفاق خطرٌ على المسلمين، لأنهم معهم، لأن هؤلاء المنافقين مع المسلمين، في مساجدهم، في أسواقهم، وأذكياء جداً، فتحسبهم مؤمنين، وهم على خلاف ذلك، لذلك جاءت هذه السورة لتفضحهم، وخطورة المنافقين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أقل منها في عهودٍ بعده، لأن القرآن يفضحهم دائماً، مكشوفون، أما في عهودٍ بعدهم فقد تنطلي على إنسان حقيقة منافق ويظنه مؤمنًا، من هنا قال الله عزَّ وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام: أن يا محمد إذا جاءك المنافقون، أولاً: لا يستطيع أحدٌ أن يَطَّلِع على قلب إنسان و هذا من ستر الله عزَّ وجل، لكن الله يطلع، أما أن يطلع الإنسان بذاته على سرّ إنسانٍ فهذا مستحيل، هذا من سِتْرِ الله، والإنسان ما دام يخشى الله فهو في ستره، وفي حمايته، أما إذا أراد أن يؤذي المسلمين، وأن يوقع بينهم العداوة والبغضاء، وأن يكشف عوراتهم أمام أعدائهم، فعندئذٍ ربنا سبحانه وتعالى ينتقم منه أشد الانتقام، ويفضحه.

من أقرّ بحقيقة ولم يتخذ موقفاً بناءً على هذا الإقرار فهو لم يفعل شيئاً :

يقول الله عزَّ وجل مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم:

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ)

والحقيقة هو رسول الله، ماذا فعلوا؟ شَهِدَ هؤلاء المنافقون أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله، والله جلَّ جلاله يقول:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ)

فأنت حينما تقر بحقيقة، ولا تتخذ موقفاً بناءً على هذا الإقرار فأنت لم تفعل شيئاً، فلو أن إنسانًا في أشد حالات العطش، وهو على وشك الموت، عرف أن هناك نبع ماء، ولم يتحرك إلى هذا النبع، ماذا نفعته هذه المعرفة؟ لم تنفعه شيئًا إطلاقاً، هذا سماه علماء المنطق تحصيل حاصل، فإذا قلت: الشمس ساطعة، وهي ساطعة، ماذا فعلت؟ إن قلت: ساطعة، فهي ساطعة، وإن قلت: ليست بساطعة، فهي ساطعة، ففي كلا الحالين إن جاءت كلمتك موافقةً للحقيقة لم تفعل شيئاً، وإن جاءت مخالفةً للحقيقة سقطت من أعين الناس، أما حينما تكون في أشد الحاجة إلى أشِعَّتها وتقول: هي ساطعة، وتعرض جسمك لأشعتها، فتشفى من بعض أمراضك، الآن أخذت موقفاً، فالمنافقون قالوا:

(نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ)

قالوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم قال :

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

أنواع الصدق و الكذب :

لابدَّ من أن نقف وقفةً متأنِّية عند الكذب، أحياناً هناك واقع، إذا جاء الخبر عن هذا الواقع مطابقاً للواقع فأنت صادق، صادقٌ في أقوالك، وإذا جاء القول مخالفاً للواقع، جاء الخبر عن الواقع مخالفاً للواقع، فهذا قولٌ كاذب، صادق وكاذب، توافق الخبر مع الواقع صدق، عدم موافقة الخبر للواقع كذب، الآن أنت قلت شيئاً، فإذا جاء عملك مطابقاً لقولك فهذا صدق الأفعال، وإذا جاء مخالفاً لقولك فهذا كذب الأفعال، فهناك صدق الأقوال، وكذب الأقوال، وصدق الأفعال، وكذب الأفعال، بقي نوعان آخران، إذا قلت: إن هذا الإنسان هو رسول الله، فكلامك هذا صحيح مطابق للواقع، لكنك لا تعتقد أنه رسول الله، هذا كذب من نوع آخر، هذا كذب مع النفس، المنافق كاذبٌ مع نفسه، كل ما يقوله لا يعتقد به، كل ما يقوله لا يُصَدِّقُهُ، فإذا جاء خبرك مطابقاً للواقع فأنت صادق، إن لم يكن مطابقاً للواقع- لا سمح الله - فهو كاذب، إن جاء الفعل مطابقاً للقول كان هذا الفعل صادقاً، وإن جاء الفعل مخالفاً للقول كان الفعل كاذباً، لذلك الله عزَّ وجل يمدح الصادقين في القرآن الكريم بشيءٍ كثير، أي صدقٍ هذا؟ صدق الأفعال.

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

[سورة الأحزاب: 23]

جاءت أعمالهم مطابقةً لأقوالهم، جاءت أفعالهم مُصَدِّقةً لأقوالهم، إذاً هم صادقون، أما الذي جاءت أفعالهم مكذبةً لأقوالهم فقد قالوا في معركة الأحزاب:

(وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

[سورة الأحزاب: 12]

أما هذه الآية فمن نوع ثالث، الذي قالوه حق: إنه رسول الله، كلمة حق، لكنهم لا يعتقدون بها، هم كذبوا على أنفسهم، كاذبون فيما بينهم وبين أنفسهم، لذلك أحياناً - لا سمح الله - قد تقول كلاماً غير صحيح لكنك تعتقده، نقول: فلانٌ صادقٌ مع نفسه، أما علاقة هذا القول مع الواقع فغير صحيحة، هذا القول في علاقته مع الواقع كذب، أما في علاقته مع القائل فصدق، هذا صادقٌ مع نفسه، وقد تقول كلاماً صحيحاً مطابقاً للواقع، لكنك لا تعتقده، نقول: هذا كاذبٌ مع نفسه، فهناك صدقٌ في الأقوال وكذبٌ في الأقوال، أي علاقة الخبر بالواقع، وهناك صدقٌ في الأفعال وكذبٌ في الأفعال، أي علاقة الواقع مع الخبر، وهناك صدقٌ مع النفس وكذبٌ مع النفس، قد تقول قولاً غير صحيح لا علاقة له بالواقع، لكنك تعتقد ذلك، أنت صادقٌ مع نفسك، وقد تقول حقاً وأنت لا تعتقد هذا الحق، فأنت كاذبٌ مع نفسك، ستة أنواع للكذب والصدق.

الكذب ينقض الإيمان والإيمان ينقض الكذب :

والحقيقة لو جمعنا الآيات القرآنية التي ورد فيها الصدق والكذب لوجدناها كثيرةً جداً، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي))

مطلقاً، إذا كنت صادقاً في أي شيء، صدقك يهديك إلى الصواب.

((إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلَى الْبرِّ، وَإنَّ الْبرَّ يَهْدِي إلَى الْجَنَّةِ، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إلَى الْفُجُور، وَإنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إلَى النَّار، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

والمؤمن لا يكذب، لأن بين الكذب والإيمان تناقضاً، أي أن الكذب ينقض الإيمان، والإيمان ينقض الكذب، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

لمجرد أن يكذب المؤمن فليس مؤمناً.. انتهى.. المؤمن قد يقع في تقصيرات كثيرة لكنه لا يكذب، الكذب يتناقض مع إيمانه، لذلك تحترم إنسانًا صادقًا مُقَصِّرًا، ولا تحترم إنسانًا كاذبًا مُدَّعِيًّا.

المنافق كاذبٌ مع نفسه وكاذبٌ مع الخلق وكاذبٌ مع الله :

أيها الأخوة الكرام، أن يأتي خبرك مطابقًا للواقع قضية سهلة جداً، لو أن الحرارة خمس وثلاثون، لو قلت: خمس وثلاثون، هذا كلام صدق، جاء الخبر مطابقاً للواقع، لو أن الحرارة خمس وأربعون، وأنت قلت: ثمان وثلاثون، هذا كذب، جاء الخبر مخالفاً للواقع، أما حينما تقول: أنا مؤمن، أنا مستقيم، أنا ورع، فعند الإغراء لا تبدو ورعاً، وعندما يعرض عليك مبلغٌ كبير تأخذه، ولا تعبأ بطريقة كسبه، الآن بالعكس، جاء الفعل مخالفاً للإدعاء، هذا كذب أعمال، أما حينما تكون في أمَسِّ الحاجة إلى المال، ويأتيك مبلغٌ فيه شبهة فتقول: معاذ الله، الله الغني، نقول: جاء فعلك مطابقاً لقولك، صدق أقوالٍ، وكذب أقوال، وصدق أفعال، وكذب أفعال، أما حينما تقول كلاماً غير صحيح لكنك تعتقده فنقول: هذا صادقٌ مع نفسه، وحينما تقول كلاماً صحيحاً ولا تعتقده نقول: فلان كاذبٌ مع نفسه، والمنافق كاذبٌ مع نفسه، وكاذبٌ مع الخلق، وكاذبٌ مع الله.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء: 142]

يكذب على الله أو يكذب مع الله.

اتخاذ المنافق الأيمان الكاذبة ليتّقي بها العقاب :

حينما يحاول أن يخدع الله عزَّ وجل:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

[سورة البقرة: 9]

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

هؤلاء إذاً كاذبون مع أنفسهم، لأن كلامهم صحيح، منافق يقول للنبي: يا رسول الله، أشهد إنَّك رسول الله، على العين والرأس، كلام صحيح، لكنه لا يعتقد أنه رسول الله، يرضيه بهذا، يُحَقّق مصالحه، هو كاذبٌ مع نفسه..

(وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ*اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

يحلفون بالله أنهم صادقون، أنهم مؤمنون، أنهم أتقياء، أنهم ورعون، أنهم يحبون الله ورسوله، أنهم ما فعلوا هذا، ما قالوا هذا، يتخذون الإيمان درءًا لهم للعقوبة.

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

تترسوا بها، الجُنّة التِرْس، الإنسان أحياناً يستخدم الترس ليتقي الضربات، وهذا المنافق اتخذ الأيمان الكاذبة ليتّقي بها العقاب، يرتكب كلاماً في حقيقته كفر.

الإخلاص للمبدأ والتناصح :

مرةً أحد المنافقين المحسوب على رسول الله أنه من أصحابه، جاءت معركة تبوك، والصحابة الكرم بذلوا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وقدموا وأعدّوا، غلامٌ صغيرٌ مؤمنٌ كان هذا الرجل المنافق زوج أمه، فكل يوم يلقي الغلام على مسامع عمه ما فعله ابن عوفٍ، ما فعله سيدنا عثمان، ما فعله فلان من الصحابة في البذل والتضحية، فهذا لا يتحرك، ولا يقدم شيئاً، ولا يجهز نفسه للغزو، فلما ضَيَّقَ عليه ابن زوجته، قال هذا الرجل المحسوب من المؤمنين: والله لو كان محمد صادقاً فيما يقول لكنا شراً من الحُمُر، إذاً هو لا يعتقد أنه صادق، هذا الطفل الصغير نزلت عليه هذه الكلمة كالصاعقة تماماً، قال: والله يا عَمَّاه ما من رجلٍ أحب إلي بعد رسول الله منك، ولكنَّك قُلت الآن كلمة الكفر، وإني ذاهبٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام فتدبّرْ أمرك، قال للنبي ماذا قال عمه، استدعاه النبي:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

أقسم بالله العظيم إن هذا الغلام كاذب، وما قال هذا إطلاقاً، فنظر النبي إلى وجه الغلام، فإذا هو محتقن بالدماء، صار يبكي، سمعه بأذنه، ثم يكذِّبه أمام رسول الله، وما هي إلا لحظاتٌ حتى جاءه الوحي، فلما سُري عن النبي صلى الله عليه وسلم نزل قوله تعالى:

(وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ)

[سورة التوبة: 74]

فما كان من هذا الرجل المنافق إلا قال: لقد تبت يا رسول الله، لقد قلتها، وأنا أتوب إليك، وحسن إسلامه، وصار في عداد المؤمنين، أمسك النبي بأذن الغلام، وتبسَّم، وقال:

((يا غلام، صَدَّقَكَ ربك من فوق سبع سماوات))

فكانوا في عهد النبي يفتضحون.

الله عزَّ وجل لا تخفى عليه خافية :

إنسان آخر كان كافراً، وهو عُمير، وقد قال لصفوان بن أميَّة: والله لولا أطفالٌ أخشى عليهم العنت، وديون لا أطيق سدادها، لذهبت إلى محمدٍ وقتلته، وأرحتكم منه، فاتخذها صفوان مناسبةً، قال: أما

ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت، وأما أولادك فهم أولادي، فامض لما أردت، سقى سيفه سماً، وركب ناقته، وتوجَّه إلى المدينة، ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام، أما الغطاء الذي ذهب إلى المدينة من أجله فليفتدي أخاه، فلما رآه عمر في المدينة قال: هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً، قَيَّدَهُ بحَمَّالَة سيفه، وساقه إلى النبي، قال له النبي: دعه يا عمر، أطلقه، أطلقه، ابتعد عنه، فابتعد عنه، قال له: ادنُ مني يا عمير، فدنا منه، اجلس، جلس، قال له: عِمْتَ صباحاً يا محمد، قال له: قل: السلام عليكم، قال: لست بعيد عهدٍ بسلام الجاهلية، فهذا سلامنا، بغلظة، قال له: ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال له: جئت أفدي ابني فلانًا، قال له: وهذه السيف التي على عاتقك؟ قال: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر؟ قال: ألم تقل لصفوان: لولا ديون ركبتني لا أطيق سدادها، وأطفالٌ أخاف عليهم العنت من بعدي، لذهبت وقتلت محمداً، وأرحتكم منه؟ فهَبَّ واقفاً، وقال: أشهد إنك لرسول الله، لأن هذا الذي دار بيني وبين صفوان لا يعلمه أحدٌ إلا الله، وأنت رسوله، وأسلم، أما صفوان فصار يقول لأهل مكة: انتظروا أخباراً سارة، وكان يخرج كل يوم إلى ظاهر مكة لينتظر الرُكْبَان تأتيه بالخبر السار، قتل النبي عليه الصلاة والسلام، ثم جاء الخبر غير السار أن عُمَيْراً قد أسلم، وحسن إسلامه، أي أن الله عزَّ وجل لا تخفى عليه خافية.

الحَلْف الكثير يُلْقي الشك :

أخواننا الكرام، كلمة: الأمر كله بيد الله، ولا تخفى عليه خافية، فما جدوى الكذب؟ ما جدوى النفاق؟ الأمر كله بيد الله، ولا تخفى عليه خافية، الله جلَّ جلاله لا تستطيع أن تخدعه، ونفسك التي بين جنبيك لا تستطيع أن تخدعها:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ*انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)

[سورة الأنعام: 23-24]

لذلك:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

دائماً الحَلْف الكثير يُلْقي الشك، لمَ هذا الحلف؟

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

هم يظنون، اكذب، اكذب، إلى أن تُصَدَّق، هذا مع الله لا يصلح، ومع المؤمنين لا يصلح، اكذب، اكذب، اكذب، ولن تُصَدَّق، وسوف يفضحك الله عزَّ وجل.

مهمة المنافق أن يصدّ الناس عن سبيل الله :

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

صدّوا، فعل ماض، فاعله واو الجماعة، أين المفعول به؟ عندنا قاعدة في اللغة: أن الفعل إذا حذف مفعوله أطلق، العلماء قالوا في هذه الآية: صدوا أنفسهم عن سبيل الله بنفاقهم، أو صدوا غيرهم عن سبيل الله، المنافق دائماً يُشَكِّك، يطعن، يُزَيِّن المعصية، يُكَرِّه الطاعة، يخوّفك أن تطلب العلم، يخوفك أن تحضر مجلس علم، يخوفك أن تنفق مالك، يخوفك أن تلتزم، مهمة المنافق أن يصد الناس عن سبيل الله، لو كان مؤمناً لما صدهم عن سبيل الله، لأخذ بيدهم إلى الله ورسوله، لذلك الله عزَّ وجل قال:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

صدوا أنفسهم أي أبعدوها عن طريق سعادتها، صدوا أنفسهم، أو صدوا غيرهم، أو صدوا أنفسهم وغيرهم معاً، أي أبعدوها عن طريق الحق، وعن جادَّة الصواب، وعن سبيل الهُدى، وعن سبيل السلامة والسعادة:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

ترساً تترَّسوا بها..

(فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

الإنسان حينما يستخدم وسائل لصدِّ الناس عن سبيل الله لا يدري أن الله مع هذا الدين، وأن مخلوقاً كائناً من كان لا يستطيع أن يطفئ نور الله، وأن إطفاء نور الله كمن ينفخ على الشمس ليطفئها، وهو على الأرض، ليقف إنسان، وليتأمَّل في الشمس، ولينفخ عليها هل تنطفئ؟ محاولات المنافقين لإطفاء نور الله كمحاولة إنسان أحمق يطفئ لهيب الشمس بنفخةٍ من فمه .

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

المنافقون أناس أذكياء يعبِّرون عن إيمانهم وتقواهم فالإنسان يغترّ بهم :

هؤلاء المنافقون أذكياء، وأصِحَّاء، قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ)

يعتنون بصحتهم، وبهندامهم، وبحركاتهم، وسكناتهم، قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)

مثقَّفون، يتفلسفون، يشككون المعاني، يأتون بالأدلة، يعلّقون تعليقات لطيفة، يعبِّرون عن إيمانهم، وعن تقواهم، وعن ورعهم، وعن عقيدتهم، فالإنسان يغترّ بهم، قال سبحانه:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

لأنهم ما عقلوا الحقيقة، ولا التفتوا إلى الله، ولا استقاموا على أمره، معنى هذا أنهم لم يعقلوا شيئاً، كيف قلنا في الدرس الماضي: لو أن دابةً وضعت عليها كتاباً في الرياضيات، والكيمياء، والفيزياء، والفلسفة، ثم سألتها، لا تزيد على أن تنهق، هذا المنافق يبحث عن مصالحه، عن المغانم، عن المكاسب، همُّه الدرهم والدينار، همه المُتعة، همه النساء، لكنه رأى الإسلام ورقة رابحة بيده فاستخدمها، هناك أُناسٌ كثيرون يستخدمون الإسلام كورقةٍ رابحة في أيديهم، هذا صُنِّفَ في القرآن الكريم مع المنافقين.

المنافق حينما يخادع الناس يشعر بانهيار داخلي :

أحياناً إنسان مصلحته أن يصاحب أناسًا مؤمنين، يقول لك: أربح، أؤمِّن زبائن، يأتي إلى المسجد لا بنية طلب العلم، ولا بنية إرضاء الله عزَّ وجل، ولكن بنيةٍ محدودةٍ، وهي أن يُكَوِّن له من يشتري من عنده الحاجات، فهذا قصده مادي، المنافقون قال تعالى عنهم:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)

وصَفَهُمُ النبي في آخر الزمان بأن كلامهم أحلى من العسل، وأن فعلهم أمر من الصبر، فعل سيئ جداً، تكالب على المال، عداوةٌ وبغضاء، إيقاعٌ بين الناس، أنانيةٌ ما بعدها أنانية، ومع ذلك إذا أصغيت إلى أقوالهم تعجبك أقوالهم، قال:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ)

لا تعقل شيئاً، كما قال الله عزَّ وجل يصف المنافقين في مكانٍ آخر :

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

[سورة البقرة:18]

هم حينما أظهروا شيئاً وأخفوا شيئاً اختل توازنهم، صار قلبهم فارغًا، قال:

(يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ)

لأنه مكشوف، ولأنه اختل توازنه الداخلي، وحينما نافق أظهر شيئاً، وأخفى شيئاً، شعر بفطرته أن الله غاضبٌ عليه، الإنسان حينما يخادع الناس يشعر بانهيار داخلي، أو يشعر باختلال توازن، هذا الوضع الداخلي المضطرب القلق يجعله يظن كل صيحةٍ عليه، فإذا كان مرتكباً جريمة مختفيًا وقاعدًا في البيت، لو طرق الباب في الساعة الحادية عشرة مساءً ينخلع قلبه من الخوف، ويقول لك: جاؤوا، قد يكون

الجار يريد رغيفًا من الخبز، طرق الجار الباب، والثاني ظن في نفسه أنهم جاؤوا، فالذي يرتكب جريمة المتخفي عن الأنظار كل حركةٍ، كل سكنةٍ، كل سؤالٍ، كل اتصالٍ هاتفي يظن أنهم جاؤوا ليأخذوه، الله عزَّ وجل وصف حالتهم وصفاً دقيقاً فقال:

(يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ)

من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله ومن اشتكى إلى منافق فكأنما اشتكى على الله:

طبعاً هنا يوجد وقف:

(هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)

لأن الإنسان يرتاح إلى المؤمن، يطمئن له، يبوح له بمكنوناته، يشكو له همومه، يكشف له عن بعض عيوبه وتقصيراته، أما المنافق فقَنَّاص، إذا شكوت له اتخذ هذه الشكوى حجةً عليه، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام من توجيه الله له قال:

(هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)

من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، من اشتكى إلى منافقٍ أو كافرٍ فكأنما اشتكى على الله، قال:

(هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)

سوء الظن عصمة :

الحقيقة أن الإنسان لا يُعَدُّ كَيِّساً، فَطِناً، حَذِراً إلا إذا تجاوز الظاهر، الإنسان الذي يؤخذ بالظاهر هذا يكون سطحي التفكير، سطحي الإدراك، سطحي الانفعال، كل إنسان يؤخذ بالظواهر سطحي في تفكيره، وفي إدراكه، وفي انفعاله، أما الإنسان العميق فهو الذي يتجاوز الظاهر إلى الباطن، والمؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كيسٌ فطنٌ حذر))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس بسند لا يصح]

قال:

(يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء: 71]

أي أن مؤمنًا أموره مسيَّبة؟ ظنه حسن إلى درجة البلاهة؟ هناك ظن حسن يُعَبِّرُ أحياناً عن بلاهة الإنسان، كان عليه الصلاة والسلام يحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي بشره عن أحد، كان يقول:

((احترس من الناس بسوء الظن))

.. والحزم سوء الظن، وسوء الظن عصمة ، ولكن سوء الظن يكون مع الدليل، أما بلا دليل..

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

هناك ضابط، وكاشف، سوء الظن يعد إثماً إن لم يكن هناك دليلٌ عليه، ويعد حيطةً وحذراً وكَياسةً إذا كان هناك ما يدلُّ عليه، إنسان تناقضت أقواله، إنسان كذب، ما دام كذب وتناقضت أقواله إذاً سوء الظن به عصمة، ما دام هناك كذب، ومراوغة، واحتيال، وإظهار ما لا يبطن، فأنت كشفته ما دام هناك دليل على كذبه، واحتياله، ومراوغته، أنت الآن يجب أن تسيء الظن به، لأن سوء الظن عصمة، أما إذا لم يكن هناك دليل إطلاقاً وأسأت الظن به فهذا إثم، قال تعالى:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

المنافقون يرتكبون الكبائر و يصدون الناس عن سبيل الله عز وجل :

قال:

(هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

أي هؤلاء المنافقون يرتكبون الكبائر، يصدون الناس عن سبيل الله، يفعلون عكس الدُعاة، الداعية يقرب هو يُبَعِّد، الداعية يُحَبِّب هو يُنَفِّر، الداعية يقنع بالطاعة هو يقنع بالمعصية، المنافق ينفِّر ويُبَعِّد، ويقنع بالمعصية، أما المؤمن الداعية فيقرب ويحبِّب، ويقنع بالطاعة، وشتانَ بينهما.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

فهم لا يعبؤون لا برسول الله، ولا بمكانته عند الله، ولا بالنبوة، ولا بالرسالة، ولا بهذا الكتاب العظيم، يستخِّفون بالدين كله، بكل مظاهره، وكل أشكاله، وكل عناصره، وكل العاملين به، استخفافهم لا يخفونه.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

المعصية معصيتان؛ معصية ضعف ومعصية استكبار :

لذلك الإنسان حينما تغلبه نفسه، ويعصي الله، توبته سهلة، أما حينما يستكبر عن طاعة الله فتوبته صعبة جداً، المعصية معصيتان، معصية ضعف، ومعصية استكبار، وشتان بين المعصيتين، معصية الضعف صاحبها سريعاً ما يتوب، ويستغفر، ويؤوب، ويعود إلى الله، ويقبله الله، وينسي الملائكة والحفظة خطاياه وذنوبه، والصلحة بلمحة؛ أما الذي يعصي الله استكباراً فهذا بينه وبين التوبة مسافاتٌ شاسعة، والطريق إلى التوبة مغلق أو مسدود، لأنه عصى استكباراً، لأنه رَدَّ أمر الله عزَّ وجل، ولم تضعف نفسه، ضعف النفس شيء، ورد الأمر شيء، إبليس ردّ أمر الله، قال:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة ص: 76]

(قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

[سورة الحجر: 33]

هذا معصية ردّ، معصية كبر، استكبر أن يخضع لأمر الله، يقول الله عزَّ وجل هؤلاء المنافقون:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)

فلماذا؟ قال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

كلامٌ واضحٌ كالشمس، الإنسان الفاسق لا يؤمن، ولا يتوب، ولا يُقْبَل، ولا يُسْتَغْفَر له:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

هذه كلمةٌ من كلمات الله، قانون من قوانينه، سُنَّةٌ من سُنَنِهِ مع خلقه.

(وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

[سورة غافر: 6]

من أصرّ على معصيةٍ فقد أغلق الباب الذي يمكن أن ينفذ منه إلى الله :

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

أي إذا كان الإنسان مقيماً على معصية، ولا ينوي أن يتركها، وهي جزءٌ من حياته، ومقتنع بها، ولا يفكر في التوبة منها، ليعلم علم اليقين أن الطريق إلى الله مسدود، لأن الله لا يهدي القوم الفاسقين:

(وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

[سورة غافر: 6]

الإنسان قد يخطئ، لكن لا ينوي أن يبقى على خطئه، قد يخطئ ولكن لا يصر على خطئه، قد يخطئ لكنه يستغفر، قد يخطئ ولكنه يندم، قد يخطئ ولكنه يتوب، قد يخطئ ويتبع الخطأ بحسنة لتَمْحُوها، أما أن يصر على خطئه.. فيقول: يا أخي هكذا نشأنا، هكذا نريد، هكذا العصر، هكذا الحياة، لابدَّ أن نفعل هذا، ماذا نفعل؟ إذا أصر الإنسان على معصيةٍ فقد أغلق الباب الذي يمكن أن ينفذ منه إلى الله، لذلك:

((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فالذي يعصي الله أبى دخول الجنة، أبى رضوان الله، أبى هداية الله:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

وفي درسٍ آخر إن شاء الله نتابع هذه السورة، التي هي سورة المنافقون، وقد يقول أحدكم لمَ لمْ يقل: سورة المنافقين، لأنها مضاف إليه، أسماء السوَر تبقى على صيغتها، نقول: على الحِكايَة، أي تبقى المنافقون، سورة المؤمنون، سورة المنافقون، هذه على الحِكاية، لا تُبَدِّل الصيغة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المنافقون 063 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 9 -11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-10-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أنواع الصدق :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والأخير من سورة المنافقون، ومع الآية التاسعة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

بعد أن حدَّثنا ربنا جلَّ جلاله عن المنافقين الذين يشهدون أن محمداً صلى الله عليه وسلَّم رسول الله، والله سبحانه وتعالى يشهد إنهم لكاذبون بهذه الشهادة، وقد بيّنت لكم من قبل أن الإنسان يَصْدُقُ في مطابقة الخبر مع الواقع، ويصدق في أن يأتي الفعل مطابقاً للخبر، الأول صدق الأخبار، والثاني صدق الأفعال، والثالث الصدق مع النفس، قد يكون صادقاً مع نفسه غير مطابقٍ للواقع، فهو كاذبٌ مع الحقيقة، لكنه صادقٌ مع نفسه، وقد يكون كاذباً مع نفسه، أما أن تأتي شهادته مطابقةً للواقع، فهذا النوع السادس، يشهدون أن محمداً صلى الله عليه وسلَّم رسول الله، لكنهم كاذبون في هذه الشهادة مع أنفسهم، وإن جاءت هذه الشهادة مطابقةً للواقع.

المنافقون نافقوا لأن أموالهم وأولادهم شغلتهم عن ذكر الله :

بعد أن حدَّثنا الله جلَّ جلاله عن أحوال المنافقين، وعن مكرهم، وعن خِداعِهم، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ)

ماذا نستنبط من ذلك؟ نستنبط من ذلك أن المنافقين نافقوا، لأن أموالهم وأولادهم شغلتهم عن ذكر الله:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء : 142]

فكأن خِتام هذه السورة جاء مُطابقاً لمقدِّمتها، إذ كانت علَّة النفاق أنهم شُغِلوا بأموالهم وأولادهم عن ذكر الله فكذبوا، ونافقوا، وائتمروا، وانحرفوا.

الإنسان حينما يأتي إلى الدنيا له مهمَّة كبيرة فإذا شُغِل عنها فقد لهى بها :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

إن أردتم أن يرضى الله عنكم، إن أردتم أن تكونوا مؤمنين حقًّا، إن أردتم ألاّ تكونوا منافقين كهؤلاء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

أولاً: لا تلهكم، أي لا تشغلكم، الإنسان حينما يأتي إلى الدنيا له مهمَّة كبيرة، فإذا شُغِل عنها فقد لهى بها، في آياتٌ أخرى تأتي آياتٌ كنوع:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

[سورة محمد: 36]

اللعب كما تعلمون أن تشتغِل بشيء، وبعد حين تراه صغيراً، كيف أن الطفل الصغير يلهو بالدُمى، فإذا كَبر يحتقر نفسه كيف كان يبكي من أجل دُمية، فالدنيا كلُّها لعبٌ، ومن خصائص اللعب أيضاً أنه كلَّما انتقلت من مرحلةٍ إلى أخرى صغُرت في عينك المرحلة السابقة، يعجب الإنسان كيف أنه كان مهتمَّاً بهذا الموضوع، فمن خصائص الدنيا أنها لعب، هذا خارج موضوع درسنا.

اللهو من خصائص الدنيا :

لكن من خصائص الدنيا أنها لهوٌ..

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

[سورة محمد: 36]

اللهو أن تشتغل بالخسيس عن النفيس، أن تغوص في البحر لتخرج بالأصداف لا باللآلئ، أن تأتي إلى الدنيا، وأن تخرج منها دون أن تعرف سرَّ وجودك وغاية وجودك، فلذلك ورد في بعض الآثار القدسية: " أن عبدي خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقّي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك ".

الكافر مشغولٌ بما ضُمِن له و غافل عما كُلِف به :

أكثر ما يوضِّح هذه الآية مثل أنتزعه من واقع الحياة المدرسية: لو أن هناك مدرسة داخلية فيها مطبخٌ كبير، وفيها مهجعٌ مريح، وفيها مكتبة عامرة، وفيها قاعة مطالعات، و لهذا الطالب نظام دقيق جداً، يُمضي ساعاتٍ في سماع المحاضرات، وساعة في راحته، وساعاتٍ في المطالعة، والطَّعام يقدَّم له جاهزاً كاملاً دقيقاً في وقتٍ محدَّد، هو مكلَّفٌ أن يدرس، والكلُّ في خدمته، لو أن هذا الطالب ترك

الدراسة، ودخل إلى المطبخ ليطمئنَّ على صنع الطعام، وعن مراحل تهيئته، ماذا نقول عن هذا الطالب؟ إنه اشتغل عن مهمَّته الأساسية في هذه المدرسة الداخلية؛ في القراءة، والمذاكرة، والحفظ، وانتقل إلى ما لا يعنيه، وما ضمِن له، دائماً الكافر أو الذي تاه عن الله عزَّ وجل مشغولٌ بما ضُمِن له، غافل عما كُلِف به.. مثلاً ربنا عزَّ وجل يقول:

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الزخرف: 32]

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

[سورة الزمر: 36]

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

[سورة الذاريات: 23]

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

[سورة الذاريات: 22]

الله جلَّ جلاله ضَمِنَ لنا الرزق، وأمرنا أن نعبده، أكثر الناس شُغِلوا بالرزق، وأهملوا عبادته، فبحقِّي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك.

الله عز وجل ضمن للإنسان ما يريد مع السعي ومع أخذ الأسباب :

الله عزَّ وجل يقول:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

[سورة الكهف: 103-104]

كطالب أرسله أبوه إلى بلدٍ غربي ليدرس، طمأنه، الآية الكريمة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة الروم: 40]

فعل ماض:

(ثُمَّ رَزَقَكُمْ)

[سورة الروم: 40]

لم يقل: يرزقكم من أجل أن تطمئنّوا، لمجرَّد أن الله قد خلق الإنسان خلق له رزقه، وفي آيةٍ أخرى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

[سورة النجم: 39]

ليس لك إلا ما سعيت، فالسعي المطلوب يشْغَل عنه الإنسان التائه بالبحث عن الرزق المضمون، ضمن لك الرزق، ليس معنى هذا أن تمدَّ يدك صبيحة كلِّ يوم تحت الوسادة لتأخذ المال.. لا.. ضمن لك مع السعي، ومع أخذ الأسباب، أما أن تقلق، وأن تنسى ربَّك، وأن تنسى دينك، وأن تنسى آخرتك، وأن تقع في المعاصي والآثام من أجل الرزق، فهذا الذي لا يُرضي الله عزَّ وجل.

على الإنسان أن يسعى و على الله الباقي :

أيها الأخوة، كنت قد ضربتُ مثلاً يوضِّح هذه الآية: لو أنَّ بستاناً زُرِعَ فيه أشجار تفَّاح، بحسب النصوص الدينية هذه التفَّاحة التي على هذا الغُصن هي لفلان منذ أن خُلِقَت، إلا أنَّ فلاناً مخيّر في طريقة أخذها، إما أن يشتريها بماله، وهذا طريق، وإما أن يتسوّلها، وإما أن يسرقها، وإما أن تقدَّم له هديّةً، وإما أن تُقدَّم له ضيافةً، أما هي فله، وأنت عليك أن تختار الطريق الصحيح لأخذها:

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتّى تستوفيّ رزقها، فاتَّقوا الله عباد الله وأجمِلوا في الطلب، ولا يحملنَّكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية، إن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته))

[البزار عن حذيفة، والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح]

فليس معنى ذلك أن الرزق مضمون، أي لا تسعى، لا، اسع، إن الله كتب عليكم السعيّ فاسعوا.. إلا أن سعيك وحده لا يخلِق الرزق، الرزق بتوفيق الله، الرزق بإكرام الله، أنت عليك أن تسعى، هناك حدٌّ أدنى ضُمِنَ لك.

استخدام الله عز وجل الرزق كأداة تأديب :

الله سبحانه وتعالى يستخدم الرزق كأداةٍ لتربيتك- نقطة جديدة- يستخدم الرزق كأداةٍ للتربية، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ))

[ابن ماجه عن ثوبان]

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً)

[سورة طه:132]

فالبيت الذي تؤدَّى فيه الصلوات، والأبُ الذي يأمر أهله بالصلاة، ويصطبر عليها هذا بيتٌ مرزوق:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف :96]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: 66]

قِسْ على ذلك القرآن الكريم، لو أنهم أقاموا القرآن الكريم لأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم.

تقنين الله عز وجل تقنين تأديب لا تقنين عجز :

يجب أن نعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى حينما يُقَنِّنُ الأرزاق، لا يقنِّنها عجزاً، بل يقنِّنها تأديباً..

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[سورة الحجر: 21]

أما الإنسان إذا قُنِّن فتقنينه تقنين عجز، فالله سبحانه وتعالى حينما ضمِن الرزق ضمِنه من جهة، وجعله أداةً تأديبيةً من جهةٍ أخرى، فالأمانة غِنًى.

أسباب وفرة الرزق :

أحد أسباب وفرة الرزق أن تكون أميناً، وهناك مئات ألوف القصص عن أناسٍ تعفَّفوا عن الحرام فآتاهم الله من الحلال المال والوفير..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)

[سورة نوح:10-12]

فالاستغفار أحد أسباب وفرة الرزق، الأمانة أحد أسباب وفرة الرزق، الاستقامة على منهج الله أحد أسباب وفرة الرزق، صلة الرحم تزيد في الرزق، أن تَصِلَ رحِمَك، تتفقَّد أهلك، وترعى شؤونهم، توصلهم بمددٍ من عندك، تتفقَّد أحوالهم، تأخذ بيدهم إلى الله عزَّ وجل هذا من أسباب وفرة الرزق، صلة الرحم، الأمانة، الاستغفار، أن تأمر أهلك بالصلاة، إتقان العمل أحد أسباب وفرة الرزق..

((إن الله يحبُّ من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند صحيح]

الآن الصدقة أحد أسباب وفرة الرزق، استنزلوا الرزق بالصدقة.

الله سبحانه وتعالى ضمن للإنسان الرزق وحَرَّكه :

الله سبحانه وتعالى ضمن الرزق وحَرَّكه، ضمِنه من جهة من أجل ألاّ تقلق، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً، من أجل أن تطمئن أن حياتك ورزقك بيدِ الله عزَّ وجل، والله سبحانه وتعالى لا يُعْقَلُ أن يأمرك أن تعبده وقد أوكل أمر حياتك ورزقك إلى أناسٍ آخرين، هذا شيء مستحيل، قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود:123]

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك.

((وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[الترمذي، أحمد عن ابن عباس]

هذا قانون قنَّنه الله، وانتهى الأمر، رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصُحُف، فالرزق مضمون من جهة، مِن أجل ماذا ؟ ضمن من أجل ألاّ تعبد غير الله، من أجل ألاّ تُشرك به، من أجل ألاّ تنافق، ألاّ تخنع، ألاّ تخضع، ألاّ تخاف، الرزق من عند الله، ليس من فلان أو علاّن، لو أن أهل الأرض خمسة آلاف مليون إنسان اجتمعوا على أن يقطعوا رزق الإنسان فإنهم لن يستطيعوا، ولو أنَّ خمسة آلاف مليون أرادوا أن يجعلوك غنياً فإنهم لن يستطيعوا، الرزق بيدِ الله، ضمِنه لك من أجل ألاّ تعبد غيره، ضمِنه لك من أجل ألاّ تُشرك به شيئاً، ضمنه لك من أجل ألاّ تعصي الله من أجل الرزق، ضمنه لك من أجل ألاّ تنافِق، أن تظنَّ أن فلاناً يعطيك أو يمنعك، وحَرَّكَهُ من أجل أن يؤدِّبك، حَرَّكَهُ من أجل أن يكون حاثّاً لك على طاعة الله، مثلاً:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

المنافق ظنَّ أن المال هو كل شيء فأشرَك نفسه أو أشرك غيره مع الله في موضوع الرزق، فألهي بماله أو بأولاده عن ذكر الله، فالشيء الدقيق هو أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا حينما يدفع زكاة ماله ماذا ضَمِنْ؟ ضمن سلامة بقية المال، حينما يدفع زكاة ماله ضمن سلامة بقية المال.

((ما تلفَ مالٌ في برٍ أو بحرٍ إلا بحبس الزكاة))

[الجامع الصغير عن عمر، بسند ضعيف]

وحينما يؤدّي عبادة ربّه، حينما يؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها، وحينما يتقِن أداءها، وحينما يقتطع من وقته وقتاً لقراءة القرآن، وحينما يقتطع من وقته وقتاً لطلبِ العلم، وحينما يقتطع من وقته وقتاً

للأعمال الصالحة، للدعوة إلى الله، للأخذ بيد الناس إلى الله ورسوله هذا ماذا فعل؟ هذا أدَّى زكاة وقته، فإذا أدَّيت زكاة وقتك ضمن الله لك سلامة بقية وقتك، ليس هذا فحسب بل كما يقول العوام: طرح الله لك في وقتك البركة، ما معنى البركة؟ أنَّ الله سبحانه وتعالى يوفّقك إلى إنجازٍ كبير في وقتٍ قليل، وهذه أخصُّ خصائص المؤمن.

فإنك تعجب من هؤلاء الذين طلبوا العلم، وعلَّموا الناس، كيف يتعاملون مع وقتهم؟ هناك علماء جمعوا مؤلَّفاتهم، وقسَّموها على أيام حياتهم فإذا هم يكتبون في اليوم الواحد تسعين صفحة، هل بإمكانك أن تقرأ كل يوم عشر صفحات؟ تسعون صفحة كتابة، وهم شُغِلوا بأعمالٍ كثيرة.

أخَص خصائص المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يبارك له في وقته :

أخَصُّ خصائص المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يبارك له في وقته، فيسمح له أن يفعل الشيء الكثير في الوقت القليل، بينما ربنا عزَّ وجل يمكن أن يتلِف للإنسان وقته، يمكن أن يكلّفك بعملٍ شاق لا تنتفع منه إطلاقاً، يمكن أن يعمل التاجر سنةً بأكملها.

إنسان عنده مزارع تفَّاح في بعض المناطق في مدينة يبرود، ضَمانها في العام مليون ليرة، برياحٍ عاتيةٍ في ساعاتٍ قليلة أتلِف المحصول كلُّه، إنه لا يؤدّي زكاة ماله، ربنا عزَّ وجل من أساليبه التربوية أنك إذا ضننت بوقتك عن أن تبذله في ذكر الله، طبعاً ذكر الله عزَّ وجل العلماء قالوا: الصلاة، وقالوا: تلاوة القرآن، وقالوا: الحج، وقالوا: العبادات، وقالوا: الطاعات، أي كل شيءٍ يسبب قربك من الله يجب أن تفعله ولا تبالي بالوقت لأنه مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وفي الأثر: "ابن آدم.. كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".

بطولة الإنسان أن ينظم وقته :

العِبرة أيها الأخوة أن تنظِّم وقتك، الوقت الذي لله دعه لله، الوقت الذي للأهل دعه للأهل، الوقت الذي للعمل دعه للعمل، أما أن تجعل عملك يطغى على دينك، وعلى طاعتك، وعلى صلواتك، وعلى طلبك للعلم، وعلى حضور مجالس العلم، فهذا ليس من الحكمة في شيء، ومن فعل هذا وقعت عليه هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ)

لا تنشغِلوا بـــ:

(أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

عن صلواتكم، عن حجِّكم، عن صومكم، عن أداء زكاة أموالكم، عن طلبكم للعلم، أما أوسع معنى عن طاعة الله، أي إذا آثرت حظك من الدنيا على طاعة الله فقد انطبقت عليك هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

هم الخاسرون، فالإنسان مثلاً لو أنه رأى ورقةً بيضاء فاستعملها لكتابة كلماتٍ لا معنى لها، ثم مزَّقها، وألقاها في سلَّة المهملات، ثم اكتشف أن هذه في الوجه الآخر شيك بألف مليون، كان من الممكن أن يقبضه، وكان من الممكن أن يشتري به بيتاً فخماً، ومركبةً فارهةً، وأن يعيش حياةً هنيئة، هو غفل عن قيمتها، فاستعملها كورقة مسودَّة، ثم ألقاها في المهملات، هذه خسارة، جاء إلى الدنيا وغادرها، من أجل عشر سنوات استمتع بها بكسب الأموال الطائلة بطريقٍ مشروع أو غير مشروع، بالحلال أو الحرام، أكل، وشرب، وسافر، وتنزَّه، ثم جاءه ملك الموت، وهو صفر اليدين..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً :

أيها الأخوة الكرام، عاهد ربَّك أنه حينما تسمع صوت الآذان دع كل شيء، وقُمْ إلى الصلاة، من أجل ألاّ تنطبق عليك هذه الآية.

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

من تجارتكم، ذكر الله أكبر، أي أنك حينما تؤثر ما عند الله عزَّ وجل يجب أن تعلم علم اليقين أن الله سيمنحك الدنيا والآخرة، من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً.

(لَا تُلْهِكُمْ)

وقت مجلس العلم لا تؤثر عليه لقاء مع صديق، هذا وقت مجلس العلم، لا تؤثر عليه زيارةً تافهةً لإنسان، هذا وقت مجلس العلم.

(لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً :

أحياناً لأتفه الأسباب يَدَع مجلس العلم، لأتفه الأسباب يُقَصِّر في أداء الصلوات، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

أحياناً من أجل أن يضمن لأولاده مستقبلاً رائعاً يعصي الله، من أجل أن يضمن لأولاده مستقبلاً رائعاً يوقِعُهُم في الحرام، أو يقع هو في الحرام، لمجرَّد أن تؤثر المال أو الولد على طاعة الله، على معرفته، على التقرُّب إليه، فقد انطبقت عليك هذه الآية، وسبب نِفاق المنافقين، وانحراف المنافقين، وأن الله غضب عن المنافقين، أنهم آثروا دنياهم على آخرتهم، هكذا قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

[سورة الإنسان: 27]

يوم ثقيل.

الخسارة الكبرى أن يخسر الإنسان الآخرة :

نحن في أذهاننا أن الإنسان إذا فَقَدَ ثروته فقدْ خسر، إذا فَقَد ماله فقدْ خسر، إذا فَقَدَ بيته فقدْ خسر، أحياناً يكون البيت غالياً جداً، يقع تحت استملاكٍ، فيعطونه مبلغاً بسيطاً من المال لا يسمح له بشراء بيتٍ مقابلٍ له، أما الخسارة الحقيقية، الخسارة الكبرى فأن تخسر الآخرة، سيدنا عمر رضي الله عنه من أروع كلماته إذا أصابته مصيبةٌ: " الحمد لله-عجيب- الحمد لله إذ لم تكن في ديني- دينه سليم، المال يذهب ويأتي- الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ أُلهمت الصبر عليها .. الحل، قال تعالى:

(أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ)

[سورة البقرة: 254]

أي من قبل ذلك، الدنيا فيها أموال، وفيها أولاد، وفيها بيوت، وفيها مركبات، وفيها حدائق، وفيها بساتين، وفيها أماكن جميلة، وفيها متع، وفيها مباهج، والدنيا خضرةٌ نضرة، لكن لماذا أنت في الدنيا؟ الآية دقيقة، حينما يقول لك الله:

(لَا تُلْهِكُمْ)

اللهو كما تعلمون أن تشتغل بالخسيس عن النفيس، حينما قال الله عزَّ وجل:

(لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

ما النفيس في هذه الآية؟ ذكر الله، ما الخسيس؟ أن تلهو بالمال والأولاد.

المال إن لم يشغل الإنسان عن طاعة الله لم يعد شيئاً خسيساً :

الآن عندنا معنى ثالث، لو أن مالك لم يشغلك عن طاعة الله أبداً فإن هذا ليس من الخسيس، المال قِوام الحياة، المال يمكن أن تتقرَّب به إلى الله، إذا كانت عباداتك وطلبك للعلم والواجبات الدينية تؤدّيها

كاملةً، ولك أعمال جليلة تكسب بها المال، فحبَّذا المال، كما قال سيدنا أبو ذر: " حبذا المال أصون به عرضي وأتقرَّب به إلى ربّي "، حبَّذا المال، معنى ذلك متى يكون المال شيئاً خسيساً؟ إذا شغلك عن طاعة الله، أما إذا لم يشغلك، من هنا قالوا: قد يكون المال في القلب، وقد يكون في اليدين، المؤمن ماله بين يديه، لكن قلبه مع الله، إذاً إن لم تلهُ بالمال فاسع إليه، فإنه قِوام الحياة، به ترقى إلى الله، به تتقرَّب إلى الله، به تنفقه في سبيل الله، ليس معنى ذلك أن المؤمن انزوى وتقوقع، وانسحب من الحياة وانهزم، وعاش في صومعة، وصار عبئاً على الناس..

النبي الكريم سأل أحد أصحابه، أحد الشبَّان في المسجد يصلّي قال له: من يطعِمك؟ وقت عمل وليس وقت صلاة، من يطعِمك؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك. أمسك بيد ابن مسعود وقال: إن هذه اليد يحبّها الله ورسوله.

معنى ذلك إن لم تلهُ عن ذكر الله، الصلوات تحافظ عليها، دروس العلم تحافظ عليها، تؤدّي كل واجباتك، فامشِ في مناكب الأرض، كن إنساناً متفوّقاً، ليكن لك عمل؛ دراسة، مهنة، حرفة، تجارة، صناعة، زراعة، انفع المسلمين، أنت في الدنيا من أجل أن تنفعهم:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))

[مسلم و ابن ماجه و أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

من القوة أن تكسب المال الحلال، لا تكن عبئاً على أحد، ليكن الناس عبئاً عليك، اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى.

إذاً المعنى الثالث: لو أننا لم نشغل عن ذكر الله بالمال فإن المال لم يعد شيئاً خسيساً، صار قِوام الحياة، لو أننا ربّينا أولادنا ليكونوا صالحين من بعدنا، فإنه لم يعد شيئاً خسيساً، صارت تربية الأولاد من طاعة الله، العبرة ألا تنشغل بالخسيس عن النفيس، النفيس ذكر الله، فإن لم تُشغَل عنه حبَّذا تربية الأولاد، وحبَّذا إنجاب الأولاد، والولد الصالح أفضل كسب الرجل، أفضل كسب الرجل ولده، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ذكر الله أنفس ما في الدنيا :

المعنى الأول أن أنفس ما في الدنيا ذكر الله.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

لأن الصوم يسقُط بالمرض أو السفر، والحج يسقُط بالفقر، والشهادة تؤدَّى مرَّةً واحدة في العمر إذا أردت أن تكون كذلك، بقي ماذا؟ بقي الصلاة الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت:45]

والعلماء قالوا: " أوسع معنى لهذه الآية طاعة الله، إذا انشغلت بولدٍ أو بمالٍ عن طاعة الله فقد وقعت تحت هذه الآية:

(لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

من للتبعيض..

على الإنسان أن ينفق مما رزقه الله عز وجل :

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

لا تعني المال وحده، أوتيت علماً أنفقه، أوتيت مالاً أنفقه، أوتيت خبرةً أنفقها، أوتيت جاهاً أنفقه.. يقول لك محامٍ: إذا كان هناك أخ مظلوم لا يتحمَّل نفقة الوكالة، أنا أُدافع عنه، هذا ماذا فعل؟ هذا أنفق مما رزقه الله، مدرِّس رياضيات قال: أنا ممكن أن أدرِّس الطلاب الفقراء مجَّاناً لوجه الله، هذا أنفق مما رزقه الله، هذه قضية عامَّة، لا يوجد إنسان ليس لديه ميّزة في الأرض أبداً، لا يوجد واحد من الأخوة الحضور ليس لديه ميّزة، هذا بعلمه، إنسان يتقن تبليط الأرض، فيقول لك: أنا للمسجد جاهز، كثير من الأخوان قدَّموا خدمات أنا والله أشهد الله إنني أشكرهم عليها، قدَّموها لوجه الله، لبيت الله؛ هذا في الكهرباء، هذا في الطلاء، هذا في البلاط، يمكن للحرف كلّها أن تكون داخلة في هذه الآية:

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

آتاك جاهاً انصر الضعيف، آتاك علماً أنفقه، آتاك خبرة علّم الآخرين، آتاك مالاً أنفقه..

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

كان عليه الصلاة والسلام يمشي مع أصحابه، فرأوا قبراً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تَحْقِرون من تَنَفُّلِكُم))

[ورد في الأثر]

ركعتان سريعتان صلاَّهم الإنسان لا فرض ولا سنّة، هكذا دخل إلى مسجد فصلى تحية مسجد، قال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفُّلكم أحبُّ إليه من كل دنياكم))

الموت ينهي كل شيء :

ماذا يوجد في الدنيا؟ شركات أرباحها السنوية أكبر من ميزانيات دول، فيها قصور، فيها أماكن جميلة جداً، فيها نساء، فيها طعام طيِّب.. قال:

((هذا إلى ركعتين مما تحقرون من تنفُّلكم أحبُ إليه من كل دنياكم))

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف : 83]

الذي فيه يصعقون حينما تُكتشف الحقيقة، فهل يمكن للإنسان - للتقريب - أن يبيع بيته في المالكي، ومعمله، وسيارته، وكل ما يملك، ويشتري عملةً أجنبية ليعيش في بلدٍ أجنبي في بحبوحةٍ كبيرة؟ يعيش من فوائد هذا المبلغ؟ يقول لك: في الشهر خمسة ملايين فوائد، ثم يُفاجأ أن هذه العملة كلَّها مزوّرة، العملة التي باع بها بيته ومعمله ومركبته هذا خبر؟ يقول لك: جلطة، ويموت على الفور، فإنه لم يتحمَّل الخبر، هذه في الدنيا، إذا خسِر الإنسان كلَّ ماله في الدنيا قد يموت فجأةً، لأنه لا يتحمَّل، فكيف إذا اكتشف أنه خسِر الآخرة؟

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

أيها الأخوة، حقيقةٌ ذكرتها كثيراً، ولكنني والله مضطر أن أعيدها عليكم، القضية في الإيمان قضية وقت، كل الحقائق التي جاء بها الأنبياء سوف يعرفها كل الناس عند الموت، كل الحقائق التي جاء بها الأنبياء جميعاً سوف يعرفها الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، تقيُّهم وفاجرهم، حتى ملحدهم عند الموت، فالقضية قضية وقت، من هذه الآية يستنبط هذا المعنى:

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

عند الموت:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

فلو قال أستاذ: هناك امتحان آخر السنة، ولكن أحد الطلاَّب تشكك، أما حينما يأتي آخر العام، ويدخل الطلاب قاعة الدرس، وتُطرَح الأسئلة، ولا يُحسِن الإجابة، فإن هذا الطالب آمن بأن هناك امتحان، لكنه لم ينجح، لكنَّه عرف ذلك بعد فوات الأوان، لم تنفعه هذه المعرفة.

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

[سورة النساء: 18]

لذلك خيارنا مع الإيمان خيار وقت، إما أن نعرف الحقيقة في الوقت المناسب فننتفع منها، وإما أن نعرفها حقًّا في وقتٍ غير مناسب، فنندم على تفريطنا، أما المعرفة فحاصلة لا محالة، لكن البطولة أن تعرفها في الوقت المناسب، الطالب أحياناً يقرأ الكتاب فيدخل الامتحان، يأتي السؤال فيجيب، نجح، أما إذا لم ينجح فإنه يذهب إلى البيت، فيفتح الكتاب، ويقرأ الجواب الصحيح، عرف الجواب الصحيح، ولكن متى عرفه؟ عرفه بعد انقضاء الامتحان، هل ينجِّح؟ مستحيل أن ينجِّح، فسيقدم اعتراضاً، ويقول: الآن عرفت الجواب، يقدِّم طلباً للوزارة أنه الآن عرف الجواب، بعدما جاء السؤال، ولم يعرف أن يكتب كلمة، رجع إلى البيت، وفتح الكتاب، ففهم الموضوع، فأرسل اعتراضاً أنه يجب أن تنجِّحوني، لأنني عرفت الجواب، ولكن بعد الامتحان، فهذا يوضع في مستشفى المجانين، فلابدَّ من أن نعرف الحق، إما الآن، أو بعد فوات الأوان.

المعرفة التي جاء بها الأنبياء عرفها فرعون عند الموت

الآن هناك منفعة، الآن هناك نجاة، الآن هناك سعادة، ما دام القلب ينبض، ما دام في العمر بقية، ما دام في العمر فسحة، الآن كل شيء يُحلّ، لكن المعرفة التي جاء بها الأنبياء من عرفها عند الموت؟ فرعون، فرعون نفسه الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

عرف الحقيقة، فقيل له:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

[سورة يونس: 91]

ما قيمة هذه المعرفة ؟

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)

قدَّم طلباً أنه أنا عرفت الجواب..

(وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أي يعرف حقيقة العمل، حجم العمل، إخلاص العمل، مؤدَّى العمل، غاية العمل، مقدار التضحية في العمل، كلُّه يعلمه الله عزَّ وجل.

ضرورة معرفة الآية التالية لأنها أساسية في حياة كل إنسان :

هذه الآية أخواننا الكرام ينبغي أن تُحفَظ، وأن تُقرَأ، لأنها أساسية في حياتنا..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي)

أي أخِّرني...

(إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1-4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-11-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى التسبيح :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة التغابن:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

التسبيح أيها الأخوة هو التنزيه عن كل ما لا يليق بالله عز وجل، لذلك الذين يظنون بالله ظنّ السوء عليهم دائرة السوء.

حسن الظن بالله ثمن الجنة :

أخواننا الكرام، الآية الكريمة قوله تعالى:

(وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ)

[سورة فصلت:23]

إذا ظننتم بالله غير الحق ظنّ الجاهلية، هذا الظن قد يكون سبب الهلاك، إذا ظننت أن الله سبحانه وتعالى أجبر الإنسان على معاصيه، ثم سيحاسبه على هذه المعاصي فهذا ظنّ السوء، حسن الظن بالله ثمن الجنة.

فكلمة يسبح فيها تنزيه، يجب أن تنزّه الله عن كل ما لا يليق به، يجب أن تنزّهه عن الظلم، يجب أن تنزّهه عن الجهل، قال تعالى:

(يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ)

[سورة الأنعام: 3]

يجب أن تنزّهه عن المثلية، قال تعالى:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى: 11]

فأي صفة لا تليق بالله عز وجل يجب أن تنزّهه عنها، وهذا فحوى التسبيح، التسبيح هو التنزيه، كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك.

من معاني التسبيح فضلاً عن التنزيه التمجيد، أن ترى رحمته، أن ترى قدرته، أن ترى غناه، أن ترى أسماءه الحسنى، أن تعرف الله من خلال أسمائه الحسنى، هذا من التسبيح.

التسبيح بالمعنى الحقيقي أن تنزّه الله وأن تمجده وأن تخضع له :

لماذا قال الله تعالى:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

[سورة الكهف:46]

قال بعض المفسرين: الباقيات الصالحات هن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، التسبيح بالمعنى الحقيقي أن تنزّه الله، وأن تمجده، والمعنى اللازم أن تخضع له، أن تنزّهه، وأن تمجده، وأن تخضع له، إذا سبحته، وحمدته، ووحدته، وكبرته، فقد عرفته، وإذا عرفته عرفت كل شيء، وإذا عرفته وصلت إلى كل شيء، وإذا عرفته جمعت المجد من كل أطرافه، وإذا عرفته حققت الهدف من وجودك.

هذا الكلمات العظيمة أحياناً تفرغ من مضمونها.. سبحان الله.. هذا ذكر، لو عرفنا معنى التسبيح! التسبيح خير لك من الدنيا وما فيها، إنك إن عرفت الله عرفت كل شيء، لكن التسبيح جانب منه تنزيه.

أحياناً يتصور الإنسان أن الله عز وجل يمكن أن يضع إنساناً في النار بعد أن يفني عمره في طاعته، لماذا؟ لأنه لا يسأل عما يفعل، من قال هذا الكلام لم يسبح الله عز وجل، أن يفني الإنسان عمره في طاعة الله، أن يفني شبابه كله، ثم يضعه في النار، لا لشيء إلا أنه لا يسأل عما يفعل، من قال هذا الكلام ما سبح الله أبداً، ولا عرف الله أبداً.

العقائد الفاسدة التي تسربت إلى المسلمين تتناقض مع كلام الله ومع أسمائه الحسنى :

آلاف العقائد الفاسدة التي تسربت إلى المسلمين، وكل هذه العقائد تتناقض مع كلام الله، ومع أسمائه الحسنى، ومع صفاته الفضلى، لو فهمت الآية الكريمة وهي:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس الآيات: 8]

على أن الله خلق في الإنسان الفجور، أنت ما سبحت الله، ولا نزهته عما لا يليق به، لو توهمت أن على الإنسان أن يفعل كل المعاصي والآثام، ثم النبي عليه الصلاة والسلام يشفع له، بهذا المعنى الساذج معنى الوساطة لا معنى الرقي، هذا المعنى الساذج للشفاعة إذا ظننته وأيقنت به فأنت لا تعرف الله، قال تعالى:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

[سورة الزمر: 19]

((يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا))

[مسلم، والترمذي عن أبي هريرة، واللفظ له]

إذا فهمت الحديث الشريف أنها قبضة في الجنة، ولا أبالي، وقبضة في النار، ولا أبالي، هكذا بشكل عشوائي، قبضة في النار، وقبضة في الجنة، فأنت لم تسبح الله عز وجل، ما سبحته ولا عرفته، أين قوله تعالى:

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر: 17]

الآيات التالية تبين عدالة الله المطلقة :

أين قوله تعالى:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

أين قوله تعالى:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

أين قوله تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء:47]

كل هذه الآيات تبين عدالة مطلقة، تبين حساباً دقيقاً، فإذا توهمت غير ذلك فأنت لا تعرف الله، وأنت لم تسبح الله، ولم تنزّه الله عما لا يليق به، فلذلك حسن الظن بالله ثمن الجنة.

كل ذرة مخلوق يسبح الله عز وجل :

كلمة (يسبح) كلمة كبيرة جداً، تعني نزهته عما لا يليق به، ووصفته بكمالاته التي تليق به، ثم خضعت له.

ربنا عز وجل يخبرنا أن كل ما في السموات وما في الأرض-كلمة السموات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله- وكل ما سوى الله من خلائق كلها تسبح الله، يا ترى المخلوق على أي مستوى؟ في الأعم الأغلب على مستوى الذرة، السبب:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

[سورة الإسراء: 44]

إذاً الذرات تسبح بحمد الله، وقال تعالى:

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة فصلت: 21]

فحوى هذه الآية يشير إلى أن الجلد كائنات، معنى هذا أن الجلد خلايا، وأن كل خلية كائن يسبح الله، وسوف يشهد ، معنى ذلك أنه على مستوى] لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا [على الإنسان جلده كل ذرة كائن يسبح الله عز وجل، رأس الدبوس كم ذرة فيه؟ ألوف الملايين من الذرات، الكون كم ذرة؟ كل ذرة مخلوق يسبح الله، إذاً معنى قول الله تعالى:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ينزهه، ويمجده، ويخضع له إلا الإنسان.

الإنسان الذي سخر له ما في السموات و الأرض هو وحده الغافل و الشارد :

هذا الإنسان المخلوق الأول الذي سخّر الله له ما في السموات والأرض، والذي كرّمه الله، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

المخلوق الأول المكلف والمكرم، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

هذا المخلوق الذي سخرت له السموات والأرض، والذي كرمه الله، والذي جعله خليفة له، والذي أمره أن يعمر الأرض، هذا المخلوق الأول وحده الغافل، هو وحده الشارد، هو وحده الشاذ.

الإنسان إن لم يسبح فقد شذّ عن كل المخلوقات التي هي في الأصل دونه :

هناك معنى دقيق في الآية:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

طالب مثلاً- ولله المثل الأعلى- ولكن من باب التوضيح، طالب لم يؤدِّ واجبه الدراسي، قال له المعلم: كل الطلاب قد أدوا واجبهم إلا أنت، هذا توبيخ لهذا الطالب، كل الطلاب من دون استثناء قد أدّوا واجبهم المدرسي إلا أنت، في هذه الآية معنى أن الإنسان إن لم يسبح فقد شذّ عن كل المخلوقات التي هي في الأصل دونه.

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ما معنى كلمة ما في السموات؟ أنا ذكرت لكم قبل مدة أن مركبة فضائية أرسلت إلى المشتري، وسارت بأقصى سرعة اخترعها الإنسان، أربعون ألف ميل في الساعة، هذه المركبة بقيت تمشي في الفضاء الخارجي ست سنوات، إلى أن وصلت لقرب المشتري، وعليها مرصد عملاق التقط أبعد مجرة اكتشفت حتى الآن، هذه المجرة تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، هذا الخبر أذيع قبل عام أو أكثر من إحدى محطات الأخبار العالمية، لو أردت أن تصل إلى نجم ملتهب يبعد عنا أربع سنوات ضوئية لاحتجت إلى خمسين مليون عام، هذا هو الكون، هذه معرفتنا به حتى الآن، الكون غير محدود بالنسبة إلينا، ولكن بالنسبة إلى الله فمحدود.

أعلى أنواع التكريم أن الكون كله مسخر للإنسان بنص القرآن الكريم :

هذا الكون أيها الأخوة عبّر عنه القرآن الكريم بكلمة السموات والأرض، كم مجرة؟ بعضهم قال: قريبًا من مليون مَليون مجرة، المجرة كم نجم فيها؟ قريبًا من مليون مَليون نجم، درب التبانة مجرتنا مجرة متوسطة، شكلها مغزلي، المجموعة الشمسية نقطة في هذه المجرة، المجموعة الشمسية قطرها ثلاث عشرة ساعة ضوئية، الشمس ثماني دقائق، القمر ثانية، فكلمة غزو الفضاء تعني تخطوا ثانية ضوئية واحدة، أما أبعد مجرة فثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، ربنا عز وجل يقول:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

كل يسبح، وينزه، ويمجد، ويخضع، في الآية معنى أن الإنسان إن لم يكن كذلك فهو شاذ، أيعقل أن كل ذرة في السموات والأرض تسبح الله عز وجل، وأنت أيها الإنسان المخلوق الأول لا تسبح؟ الآية الكريمة التي تقول:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

أنت أيها المخلوق الأول، وأنت المخلوق المكرم في شكلك، وقوامك، وصورتك، وزواجك، وفي كل شيء، و أعلى أنواع التكريم أن الكون كله مسخر لك بنص القرآن الكريم:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

أيعقل أيها الإنسان أن يسبح الكون كله وأنت لا تسبح؟! أينزه الكون كله وأنت لا تنزّه؟! أيمجد الكون كله وأنت لا تمجد؟! أيخضع الكون كله وأنت لا تخضع؟! أيعقل هذا؟!

الله عز وجل له الملك وله الحمد :

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)

الملك واضح، والحمد واضح، لكن أحياناً أن تجمع الملك إلى الحمد، قد تجد من يملك ولا يحمد، وقد تجد من يحمد ولا يملك، الذي يملك ولا يحمد لا تحبه، لأنه ظالم، والذي يحمد ولا يملك لا ينفعك، لأنه ضعيف، أما الله عز وجل ففي الوقت نفسه له الملك وله الحمد، أنت لاحظ نفسك، لو أن دائرة تهملك لسألت من المدير؟ أول سؤال: من؟ الثاني: كيف هو؟ يهمك أولاً من هو، ثانياً ما أخلاقه، مستقيم ومنصف، تسأل من؟ ثم تسأل كيف؟.

لذلك قال بعضهم: الحمد لله على وجود الله، والحمد لله على ملك الله، والحمد لله على كمال الله، الإنسان إذا اعتقد لحظة واحدة أن أمره بغير يد الله فقد أشرك، إذا اعتقد للحظة واحدة أن حياته بغير يد الله فقد أشرك، إذا اعتقد أن رزقه بغير يد الله فقد أشرك، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده.

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)

ملكية الله مطلقة خلقاً وتصرفاً ومصيراً :

ذكرت من قبل إذا قلت: الله له الملك، أو مالك الملك، أو بيده ملكوت كل شيء، فهذه الملكية المطلقة، أحياناً تملك أنت شيئاً لكن لا تملك مصيره، وفي القرآن الكريم آية دقيقة جداً، وهي قوله تعالى:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة هود: 123]

فهو في عيشة مرضيّ عنها أم راضية؟ بعض المفسرين قال: الإنسان قد يرضى عن حياته، قد يرضى عن بيته، لأنه واسع، قد يرضى عن زوجته الصالحة، قد يرضى عن أولاده، هم أبرار، قد يرضى عن دخله هو كبير، قد يرضى عن مركبته هي حديثة، قد يرضى عمن حوله، لكن هل يستطيع أن يضمن

بقاء كل هؤلاء معه؟ إذا لم يضمن بقاء كل هؤلاء معه فهم إذاً بالتعبير المجازي ليسوا راضين عنه، أما الآية الكريمة فتعني أن هذه المعيشة في الجنة لن يخسرها، لن يغادرها إطلاقاً، ربنا عز وجل كنّى عن دوام حال أهل الجنة بأنهم في عيشة، هي راضية عنهم، وليس مرضي عنها فحسب.

في الدنيا الأمر خلاف ذلك، لأنه له الملك، لأن ملكية الله ملكية مطلقة، الله عز وجل يملك كل شيء خلقاً وتصرفاً ومصيراً، قد تمل، ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، وقد تملك وتنتفع، ولكن مصير هذا المملوك ليس في يدك، فإما أن تفارقه بالموت، وإما أن يفارقك بالموت، الآن زوجان محبان بأعلى درجات المودة، هل يضمن أحدهما أن يبقى معه الآخر إلى أبد الآبدين؟ الزوجة التي يهيم بها الإنسان إما أن يتركها بالموت، وإما أن تتركه بالموت، أو بالطلاق، افرض المحبة إلى أعلى درجة، والوفاء كذلك، أنت لا تملك هذه الزوجة، تملكها ما سمح الله لها أن تبقى معك، إذاً ملكية الله مطلقة خلقاً وتصرفاً، قد تملك رقبة الشيء ولا تملك منفعته، مثال البيت المؤجر، قد تملك منفعته كمستأجر ولا تملك رقبته، وقد تملك رقبته ومنفعته، أن تسكن فيه وهو ملكك ولا تملك مصيره، إذاً ملكية الإنسان ليست مطلقة، وليست كافية، بل ملكية ناقصة، الإنسان مالك جسمه، يتحرك، ولكن هل تملك القلب؟ لا، هل تملك انتظام دقات القلب؟ لا، هل تملك بقاء الشرايين مفتوحة؟ لا، هل تملك الخلايا التي في الجسم ألا تنمو نمواً عشوائياً؟ لا، هل تملك ألا يتجمد الدم في بعض الشرايين وخاصة في الدماغ؟ لا، هل تملك سيولة الدم دائماً؟ لا، قد تكون في أعلى درجة في المجتمع، بمجرد أن تتجمد نقطة دم في أحد شرايين الدماغ تصاب بالشلل، أو بالعمى، أو بفقد الذاكرة، إذاً الله عز وجل قال:

(لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)

مع أنه يملك ملكية مطلقة، لكنه لا يتصرف بما يملك إلا بما يحمد على تصرفه، مع أنه يملك ملكية مطلقة خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، إلا أن تحمده حمداً مطلقاً على جميع تصرفاته، قال تعالى:

(وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أنِ الحَمْدُ لِلَّه رَبّ العالَمِينَ)

[سورة يونس: 10]

الله عز وجل قدرته مطلقة :

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)

يسبح كلمة كبيرة جداً، إذا سبحت الله فقد عرفته، إن نفيت عنه ما لا يليق به أن يتصف به، إن مجدته، ونسبت إليه الكمال الذي يليق به، إن خضعت له، فقد سبحته.

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قدرته مطلقة، لذلك الإنسان أحياناً مع البشر أتمنى ولكن ليس عندي إمكانيات، إلى هنا تقف إمكانيتي، أما إذا عرفت الله فليس عنده شيء مستحيل، أعظم مرض يشفيه الله عز وجل، لكن أنت مع الأشخاص هناك حدود، هناك سقف، كل إنسان له سقف، فوق كل قوي أقوى، وكل عالم فوقه أعلم، أنت إذا تعاملت مع البشر فألف سقف فوقك، أما إذا تعاملت مع خالق البشر، وهو على كل شيء قدير، فقدير على أن يخلق من الضعف قوة، ومن الفقر غنىً، ومن الشقاء سعادة، ومن الضياع وجداناً، ومن التشتت اجتماعاً، وهو على كل شيء قدير.

لو فرضنا في جلسة أحد الحاضرين من أقوى الأشخاص، تجد الأنظار كلها متجهة نحوه، كلها تعقد أبصارها عليه، كلها تشرئب أعناقها إليه، كلها تثني عليه، الإنسان يحب القوي، القوي يركن إليه، القوي يحمي، فكيف إذا كان الله خالق السموات والأرض هو ملاذك؟ هو ربك وإلهك؟ هو الذي تعبده؟

يقولون: الإنسان يتقوى بمن يعتمد عليه، هل يجوز مثلاً أن نعطي الطفل الصغير زكاة المال؟ الجواب: لا يجوز، إذا كان الطفل له أب غني العلماء قالوا: هو غني بأبيه، لو قست هذه النقطة في الفقه، المؤمن الصادق قوي بالله، عالم بالله، غني بالله، مادام هو مع الله فالله قوي، هو قوي بقوة الله، غني بغنى الله، عليم بعلم الله، رحيم برحمة الله، تخلقوا بأخلاق الله، إذا كنت مع الله كنت مع القوي الرحيم، الغني العليم.

أساس كل شيء الاختيار والاختيار من لوازمه الحياد :

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ)

هل في هذه الآية ما يشير ولو واحد بالمئة أن الله عز وجل هو الذي خلق الكافر كافراً؟ لكن الله عز وجل خلق الإنسان بطبيعة وخاصية تتيح له أن يؤمن كما تتيح له أن يكفر، لأن الإنسان في الأصل مخير، إذاً بإمكانه أن يؤمن كما بإمكانه ألا يؤمن، مادام أصل الإنسان مخلوقًا أول، مكرمًا، مكلفًا حمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيه، فأساس الثواب والعقاب الاختيار، أساس الجنة والنار الاختيار، أساس كل شيء الاختيار.

والاختيار من لوازمه الحياد، أما إذا لم يستعمل شيئاً إلا في وظيفة واحدة فليس بالإمكان أن تكتب في التعليمات أنه يستعمل في وظائف عديدة، مصمم أن يقدم لك خدمة واحدة، وهناك آلات مصممة أن تعمل على تيارين إذاً فيها اختيار، آلة مئة وعشرة لا تعمل في أي مكان، تعمل على تيار واحد فليس فيها اختيار أبداً، أما إذا كان بالإمكان أن تعمل على التيارين، فإنه يوجد مكان، يقول لك: إن أردت أن

تعملها على هذا التيار فافعل كذا، وافعل كذا، مادام في الإمكان أن تعمل على تيارين فهناك اختيار، من لوازم الاختيار الحياد، مادام الإنسان مخيرًا فطبيعته النفسية قابلة أن تؤمن وقابلة أن تكفر.

الحكمة من تقديم الكفر على الإيمان :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ)

ولكن لماذا قدم الكفر على الإيمان؟ لأن الكفار أكثر، قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة الأنعام: 116]

هناك شيء آخر، هذه النفس البشرية فيها قابلية الإيمان كما أن فيها قابلية الكفر، لذلك الإنسان مخير، مخير لأن فيه قابلية الإيمان والكفر، هذه العلاقة ترابطية، مخير لأنه يملك قابلية الإيمان والكفر معاً، إذاً هو مخير.

شيء آخر هو أن الإنسان أودع الله فيه قوة إدراكية، وأعطاه ميزاناً، وأنزل عليه ميزاناً، جعله بقابلية مزدوجة، وأودع فيه قوة إدراكية، وأعطاه ميزاناً ذاتياً، وأنزل عليه ميزاناً ثابتاً، الشرع هو الميزان الثابت،.والعقل الميزان الخاص،.والقوة الإدراكية هي العقل،.والإنسان في بنيته حيادي،.يؤمن أو لا يؤمن،.هذا معنى قول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ)

أن تضرب لنفسك الأمثلة الكثيرة، أدوات كثيرة تستعملها لوظيفتين، مادام هناك وظيفتين فينبغي أن يكون فيها مكان يشير إذا أردت هذه الوظيفة فافعل كذا، أما آلة تعمل على تيار واحد فليس فيها اختيار أبداً، وأي آلة تعمل على تيارين ترى فيها مكان على اليمين مئة و عشرة ، على اليسار مئتان و عشرون، لأنها تعمل على تيارين، كان هناك اختيار طبعاً، هذا مثل من الآلات.

الإنسان مخير وله طبيعة ازدواجية وأعطاه الله قوة إدراكية وميزانًا :

للتبعيض، أي بعضكم آثر الدنيا، وكذب برسالات السماء، وأعرض عن الله، فكان كافراً.] فَمِنْكُمْ [و مِن في قوله:

إذاً مجمل هذه الآية هو أن الله عز وجل هو الذي خلقكم، الإنسان وحده مع الجنّ، مخلوقان متميزان، أولاً: مكلفان ومكرمان، الإنسان سرّ وجوده أنه يفعل أفعالاً اختيارية هي ثمن الجنة، لأن الاختيار سرّ ثمن الجنة، فجعله الله عز وجل في قابلية مزدوجة، يؤمن أو يكفر.. يستقيم أو ينحرف.. يصدق أو

يكذب.. يخلص أو يخون.. ينطلق بدافع الشهوة أو بدافع المبدأ.. يرجو الدنيا أو الآخرة.. يرحم أو يقسو.. الإنسان في طبيعة اثنينية، أي طبيعة مزدوجة، هذه الطبيعة الاثنينية هي سعادته الأبدية، بإمكانه أن يؤمن أو لا يؤمن.. بإمكانه أن يتصل بالله أو لا يتصل، بإمكانه أن يحسن، وبإمكانه أن يسيء، أولاً: مخير، وله طبيعة ازدواجية، وثانياً: أعطاه الله قوة إدراكية، وثالثاً: أعطاه ميزانًا، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

[سورة الرحمن : 7]

ولئلا يختل ميزانه أعطاه ميزانًا ثابتًا وهو الشرع، فهناك ميزان ثابت مركزي، وميزان مع كل إنسان، وقوة إدراكية، واختيار، وطبيعة ازدواجية، يصدق أو يكذب.. يخلص أو يخون.. يؤمن أو يكفر.. يعطي أو يمنع.. ينصف أو يظلم، هذه هي الطبيعة.

الناس رجلان برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله :

يبدو أن التقسيم القرآني لبني البشر ألغى الأعراق، والأنساب، وأصول الشعوب، كل هذه كلمات ما أنزل الله بها من سلطان، البشر سواسية كأسنان المشط، منكم مؤمن ومنكم كافر، فكل انتماءات البشر العرقية والمذهبية والانتماءات اللونية، الأصفر والأبيض، والغني، والدول الشمالية والغنية، والدول الفقيرة، كل هذه التقسيمات لم يعتمدها القرآن، قال:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ)

الناس رجلان، برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، منكم مؤمن ومنكم كافر، هذا هو التقسيم لذلك لا يضاف للمؤمن ولا كلمة، ولا يضاف إلى الكافر ولا كلمة، الكافر كافر من أي بلد، من أي عرق، من أي نسب، من أي مصر، الكافر هو الكافر، قبل خمسة آلاف سنة الكافر يشبه كافراً معاصراً، والمؤمن هو المؤمن، والمستقيم هو المستقيم، وأينما ذهبت، وأينما حللت، هذا هو التقسيم القرآني:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ)

بالعكس، أنت مؤمن، لو ذهبت إلى بلدٍ بعيد، والتقيت بأخ مؤمن تشعر إذا كنت صادقاً في إيمانك أنه أقرب إليك من أخيك النسبي من أبيك وأمك المتفلت، هذه أكبر علامة من علامات الإيمان قد تلتقي بإنسان في أقصى الدنيا، لكن عرف الله، واستقام على أمره، تجده أقرب إليك من أقرب الناس إليك نسباً، لأن الله عز وجل قال:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ)

تلتقي مع المؤمن بمليون قاسم مشترك، وأقرب الناس إليك من أم وأب، ومورّثات واحدة، وبيئة واحدة، وعادات وتقاليد، كل هذه القواسم المشتركة قد تجعل إنسانًا يؤمن، وإنسانًا يكفر، فإذا كفر الكافر، وآمن المؤمن، كان بينهما هوة كبيرة جداً، بينما تلتقي مع أخيك بطرف الدنيا، إذا عرف الله، واستقام على أمره، هذا هو تقسيم القرآن الكريم.

العمل لا يمكن أن يُعرف حق المعرفة إلا من قِبل الله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

يعرف حقيقة العمل، وحجمه، وهدفه، وتضحياته، إلى آخره، العمل لا يمكن أن يعرف حق المعرفة إلا من قبل الله عز وجل، لك الظاهر قد يبدو لك عملاً طيبًا، ولكن وراءه نية خبيثة، قد يبدو لك عملاً هزيلاً، ولكنه عند الله عظيم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والحقيقة، الله بما تعمل بصير، وأنت على نفسك بصير، لذلك لا يمكن أن تخدع الله، ولا أن تخدع نفسك، قال تعالى:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء: 142]

وقال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة: 14-15]

الإنسان خلق ليبقى إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفد عذابها :

ثم يقول الله عز وجل:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

هذه الآية وردت كثيراً في القرآن الكريم، الباء باء الملابسة، أي لابس خَلقها الحق، الحق الشيء الثابت المستقر، أما الباطل فالشيء الزائل.

أحيانا نبني جناحاً في معرض لأسبوعين فقط، قد يكون جداراً، أو قماشاً، أو كرتون، أو مواد رخيصة جداً، لأن هذا البناء بني ليهدم بعد أسبوعين، أما حينما تبني بناءً ليبقى إلى أبد الآبدين فإنك تعتني به

عناية كبيرة، من باب التقريب، كل شيء خلقه الله خلقه بالحق، أي خلق ليبقى إلى أبد الآبدين، لتبقى حقيقته، فأنت إنسان مخلوق بالحق، تذوق الموت ولا تموت:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف: 77]

خلقت لتبقى إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفد عذابها، لكن خلقت لتبقى، والكون خلق ليبقى، الحق الثبات، الديمومة، الاستقرار، ثم السمو لهدف نبيل، الدليل أن الله عز وجل قال:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 16]

واللعب هو العبث، فصار الحق نقيض الباطل، والعبث نقيض الاستقرار والدوام، ونقيض العبث الهدف النبيل، لأن العبث هدف غير نبيل.

الله عز وجل خلق البشر فأحسن صورهم :

إذاً خلق السموات والأرض بالحق، وأنتم يا بني البشر صوركم فأحسن صوركم، أنت منتصب القامة، أما غير مخلوق فيمشي على أربع، أنت تأكل اللب، ويأكل الحيوان القشر، طعامك منوع أنواعاً لا يعلم عددها إلا الله، أما الحيوان فطعامه واحد، أنت لك زوجة، وأولاد، وبيت تسكنه، أودع فيك العقل، فبالعقل ركبت الطائرة، وغصت في أعماق البحار، وارتديت أجمل الثياب، وسكنت في أفخر البيوت، أعطاك شيئًا ثمينًا هو أخطر ما في الكون، ألا وهو العقل، أعطاك العقل، وجعل لحياتك زوجة من نفسك على شاكلتك، إنسان تعلم كما تعلم، وتحب كما تحب، إذاً كرمك بالزوجة، والأولاد، والعقل، والطعام، والشراب، كم نوع من الأزهار في الأرض؟ مئات ألوف الأنواع، كلها تكريماً لك، إذاً:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

منتصب القامة، جعل هذا الجلد الجميل.. لولا هذا الجلد لكان الإنسان مخيفاً، أعطاك الحواس الخمسة، تسمع، وترى، وتلمس، وتنطق، أعطاك حاسة اللمس، والذوق، والسمع، والبصر، وهناك حواس أخرى.

(فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

هاتان الآيتان لنا عودة لهما إن شاء الله في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (2-6): تفسير الآيتان 5-6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-11-08

بسم الله الرحمن الرحيم

من تتبع أفعال الله في خلقه استنبط قوانينه :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة التغابن، ومع الآية الخامسة، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، قبل أن نقف عند دقائق هذه الآية لا بدّ من حقيقة نلقي الضوء عليها، هذه الحقيقة هي أننا في العلوم نبحث عن القانون، والقانون هو العلاقة الثابتة بين متغيرين، هذه العلاقة الثابتة تفيدنا في معرفة المستقبل، أوضح مثل على ذلك: أننا إذا جئنا بعشرات المعادن، وسخّناها، فتمددت، استنبطنا قانوناً: أن المعادن تتمدد بالحرارة، فإذا أردنا أن ننشئ جسراً نقيم فواصل تمددٍ لئلا يتصدع الجسر، القانون أفادنا للمستقبل، نحن استقرأنا أحوال معادن كثيرة فوجدناها جميعها تتمدد بالحرارة، فقلنا: المعادن تتمدد بالحرارة، هذا القانون هو العلاقة الثابتة بين متغيرين يفيدنا في التنبؤ للمستقبل، لا نقيم بناءً إلا مع فواصل التمدد، لا نقيم جسراً إلا مع فواصل التمدد.

أيها الأخوة، الآن الإنسان يرى فعل الله بالناس، يستطيع الإنسان من خلال فعل الله بالناس أن يكتشف قوانين، مثلاً المال الحرام يذهب من حيث أتى، هناك مليون قصة تؤكد هذه الحقيقة، الذي يعفّ قبل الزواج يسعد بعد الزواج، والذي ينحرف قبل الزواج يشقى في الزواج، أنت إذا تتبعت أفعال الله في خلقه استنبطتَ تلك القوانين، وأنت مأمور بذلك.

فائدة قوانين الله عز وجل :

قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: 11]

إن تتبعت أفعال الله في خلقه استنبطت عشرات القوانين، هذه القوانين ما فائدتها؟ أنها تفيدك في المستقبل، فإذا علمت أنه من أعرض عن ذكر الله فإن له معيشة ضنكاً، هناك آلاف القصص، كل إنسان أعرض عن ذكر الله سيذوق المعيشة الضنك، وكل إنسان آمن بالله، واستقام على أمره فله قانون، وهو قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

نحن نريد من هذه الآيات أن نعرف أنّ أيّ إنسان انحرف عن منهج الله.. كفر بالله.. كفر بكتابه.. لم يعبأ بمنهج الله، هذا الإنسان سوف يدفع الثمن باهظاً.

الإنسان إما أن يقرأ في كتاب الله أو ينظر في أفعاله :

إذا نظرنا في منهج الله كيف يعامل عباده لاستنبطنا قوانين، وإذا قرأت القرآن لوجدت هذه القوانين، إما أن تستنبطها من أفعال الله، وإما أن تعرفها من كلام الله:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

هذا قانون، تحب أن ترى المرابين ما مصيرهم؟ دقق، وابحث، وانظر، تحب أن ترى المتصدقين ما مصيرهم؟ سلامة، وسعادة، وغنًى، والذين يعملون في كسب المال حراماً هم في شقاء، ودمار، هم وأموالهم.

فأنت إما أن تنظر، وإما أن تقرأ، إما أن تقرأ في كلام الله القوانين التي يتعامل بها مع خلقه، وإما أن تنظر في أفعال الله فتستنبط هذه القوانين.

مثلاً: طالب جلس في الصف ما سمع أي تعليمات من أستاذه، لكنه رأى أن الأستاذ يعاقب كل من لم يكتب الوظيفة، والذي كتبها يكافئه، من خلال عشرين حالة يستنبط قانوناً أن هذا الأستاذ يحب المجتهد، ويكره الكسول، ثم يكافئ المجتهد، ويعاقب الكسول، فإنك إما أن تنظر في أفعال الله فتستنبط من معاملته لعباده قوانين تهديك في علاقتك مع الله، وإما أن تقرأ كلامه فتقرأ القوانين التي ذكرها في كتابه الكريم فتستفيد منها في علاقتك مع الله.

قوانين الله عز وجل تطبق على المجموع وعلى الأفراد :

هذه المقدمة تفسر قول الله عز وجل:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ)

يا كفار مكة، طبعاً قد تتجه الآية إلى أشخاص معينين، لكن خصوص المناسبة لا يلغي عموم اللفظ.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)

هذا التاريخ أمامك، اقرأ تاريخ الأمم والشعوب، هل هناك أمة تفلتت، وانحرفت، وطغت، وبغت، إلا وانتهت إلى الدمار، والتحلل، والتفكك، والانهيار الاجتماعي والاقتصادي؟ أبداً، هذا قانون لله عز وجل

يطبق على المجموع، وعلى الأفراد، فالإنسان الوحيد إذا انحرف عن منهج الله فلا بدّ من عقاب، ومن تربية، ومن تذكير، لا بدّ من صدمة كي يصحو بها، والمجموع إذا انحرفوا:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل الآية : 112]

الإنسان إما أن يؤمن بالله وعدالته وإما ألا يؤمن به :

إذاً الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أَمَرَنِي رَبِّي بِتِسْعٍ : خَشْيَةِ الله في السِّرِّ والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصِلَ مَنْ قطعَنِي، وأعطي مَنْ حَرَمَنِي، وأعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وأن يكون صَمْتي فِكْرا، ونُطْقِي ذِكْرا، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

انظر هل تفلت واحد من الناس من منهج الله ولم يعاقب؟ هل كسب واحد من الناس المال الحرام ولم يدمر؟ هل تفلت واحد من الناس في علاقته مع النساء ولم يشق في زواجه؟ أبداً، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

بل إنه يستحيل عند الله، إما أن تؤمن بالله وعدالته، وإما ألا تؤمن به، ولا بعدالته، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

الكفر موقف وسلوك :

الآن ربنا عز وجل يقول:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ)

معنى كفروا أيْ أعرضوا عن الله عز وجل، معنى كفروا كذبوا، إما أن توسع الدائرة أي كذبوا بوجود الله، أو كذبوا بأسمائه الحسنى، وكذبوا رحمته، وكذبوا عدله، وكذبوا تشريعه، أو كذبوا رسالة رسوله وبعثة الأنبياء، أو كذبوا قرآنه، هذا التكذيب يضيق ويتسع، يتسع حتى يشمل كل شيء، ويضيق حتى يبقى محدوداً بشيء، على كل حال كذبوا.

الحقيقة أن الكفر في شيئين، هناك موقف، وهناك سلوك، الموقف تكذيب، أما السلوك فإعراض عن الله عز وجل، أحياناً طالب في صف، الأستاذ أمامه ملء السمع والبصر، لكنه لا يعبأ بدرسه، يتشاغل بورق وألعاب لينشغل عن درس الأستاذ، هو لا يكفر بوجوده، بل يكفر بقيمة علمه، فالكفر أنواع، لمجرد أن ترد آية ربنا عز وجل حينما يقول:

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

[سورة البقرة: 221]

ويبحث إنسان عن امرأة جميلة لا يعبأ بدينها أبداً، هذا الإنسان كذب كلام الله، قال الله عز وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

لو أن إنساناً أكل الربا، ولم يعبأ بهذه الآية، معنى ذلك أنه كفر بهذه الآية وكذبها، فالتكذيب والكفر يلتقيان.

أخطر شيء في حياة الإنسان أن يكفر بالله عز وجل :

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)

كل إنسان كفر ذاق وبال أمره، الوبال التبعة.. الشيء الثقيل الذي يكون بسبب أمرٍ من الأمور، مثلاً إنسان خالف الأنظمة الاقتصادية، يحكم عليه بعشرين سنة، العشرون سنة وبال أمره، إنسان أهمل صحته، عانى من مرض عضال، المرض العضال وبال أمره، إنسان أهمل تربية أولاده، فانحرفوا، حينما كبروا ذاق وبال أمر انحرافهم، إنسان مدّ يده إلى الحرام، فكشف، وسيق إلى السجن، وأمضى فيه سنوات عدة، هذا ذاق وبال أمره.

الوبال الشيء الثقيل الذي هو بسبب انحراف خطير، هذا هو الوبال، وهل من شيء أخطر من أن يكفر الإنسان بالله عز وجل؟

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ)

إذاً هؤلاء الذين كذبوا كلام الله، وحاربوا النبي عليه الصلاة والسلام، أين هم الآن؟ أبو جهل، وأبو لهب، وصفوان بن أمية، أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ، أما الذين صدقوه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، فهم في أعلى عليين، وهذا التاريخ بين أيديكم، تاريخ الأمم والشعوب، أي فرد، أو أي جماعة، أو أي أمة استقامت على منهج الله وصلت إلى الخافقين.

ذهب إنسان إلى فيينا، ورأى في متحفها صورة زيتية لطيفة جداً، الجنود المسلمون الذين فتحوها يشترون العنب من فتيات فيينا، ويغضون أبصارهم عنهن، يدفعون الثمن ووجوههم إلى الجهة المقابلة،

هكذا فتحت فيينا من قِبَل المسلمين، والمسلمون حينما وصلوا قرب باريس باستقامتهم والتزامهم، أما حينما تفلتوا، وانصرفوا إلى اللهو والمجون والجواري والموشحات والخمور، قالت امرأة لأخرى حين خرجوا من الأندلس:

ابكِ مثل النساء ملكاً مُضاعاً ً لم تحافظ عليه مثل الرجال

***

من رحمة الله بنا أن الله يذيقنا وبال أمرنا :

الله عز وجل له قوانين، حينما استقمنا على أمر الله وصلنا إلى أطراف الدنيا، فلما تفلتنا من منهج الله عز وجل ضعفت كلمتنا، هذا الذي نريد أن نقرره، هناك قوانين يمكن أن نستنبطها، إما من أفعال الله، وإما من كلام الله، وسيان بين أن تستنبط آلاف القوانين من أفعال الله بالتأمل و التتبع والبحث والدرس، أو لك أن تأخذها جاهزة من كلام الله عز وجل.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)

وإنّ لكل سيئة عقاباً، لما قال ربنا عز وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم: 41]

الحقيقة من رحمة الله لنا أن الله يذيقنا وبال أمرنا، لماذا؟ كي نتوب، وكي نرجع قبل فوات الأوان، لو أن الله سبحانه وتعالى لا يذيقنا وبال أمرنا نسترسل في المعاصي والآثام، إلى أن يأتينا ملك الموت، ونحن هلكى، لكن هذه المتابعات، وهذه الشدائد، وهذا الوبال إلى الآن العالم يعاني من مرض الإيدز، هذا الموضوع عالجته مرات عديدة، كلما عدت إلى موضوع سابق وجدت الرقم مضحكاً، أول ما عالجته كان بالألوف، آخر معالجة كانت خمساً وثلاثين مليون مصاب، في عام ألفين كان هناك مئة وعشرين مليون مصاب، والعدد يتفاقم بسلسلة، كانوا يقولون: بسلسلة حسابية، وهناك سلسلة هندسية، والآن بسلسلة انفجارية:

(فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)

طبعاً هناك تراجع للفساد، شيء ثابت في العالم كله، في بلدٍ من البلاد ثلاث عشرة محطة إباحية، الآن ثلاث فقط، لأنهم ذاقوا وبال أمرهم، فتراجعوا، من حكمة الله البالغة، ومن نعمه الباطنة غير الظاهرة أنه يذيق الإنسان وبال أمره ليتوب، يأكل مالاً حراماً فيدمر بعض ماله، فيتوب، فيستقيم على أمر الله، فينجو، لولا أن الله أذاقه وبال أمره لما استقام على أمر الله، ولما تاب.

من ذاق وبال أمره و لم يتب إلى الله انتهى أمره :

إذاً كما قال الله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

الظاهرة الخيرات التي نراها، والباطنة المصائب التي تعد سبب رجوعنا إلى الله عز وجل، فالآية الكريمة:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)

إذا ذاقوا وبال أمرهم ولم يتوبوا انتهى الأمر:

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

في الآخرة، ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا، ولهم عذاب أليم في الآخرة، أما إذا استقمت على أمر الله أذاقك الله نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وجعل نعم الآخرة متصلة بنعم الدنيا، ليس على الله بعزيز أن تذوق نعم الدنيا مع نعم الآخرة، أن تعيش حياة هانئة، ويأتي الموت فتنتقل إلى جنة عرضها السموات والأرض، ليس ذلك على الله بعزيز، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

الله عز وجل لا ينتفع بعذابنا، بل يعذبنا ليرحمنا.

الخسارة الحقيقية أن تخسر الآخرة :

لذلك النقطة الدقيقة أن علماء التوحيد رفضوا أن تقول: الله ضّار، هو ضّار لكنه الضّار النافع، يضّر لينفع، الله عز وجل يذل، لكن لا ينبغي أن تقول: هو المذل، تقول: يذل ليعزّ، الله جل جلاله يخفض، لكن ليرفع، يقبض ليبسط، يأخذ ليعطي، لذلك الإنسان يجب أن يفقه حقيقة أفعال الله حتى يحبّه، وحتى يتعامل معه بصدق وإخلاص:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

إن لم يتوبوا، هناك إنسان مستقيم في الدنيا مطمئن بها، يأتيه ملك الموت، ينتقل إلى عالم البرزخ، وقبره كأنه روضة من رياض الجنة، فإذا جاء يوم القيامة دخل الجنة، فحياته سلسلة مسرات، وهناك إنسان يعاني شقاء الدنيا والآخرة، شقاء الدنيا، وعذاب القبر، ولهيب النار، لأنه تاه عن الله عز وجل،

وخرج عن منهجه، هذا الموضوع خطير، موضوع سعادة الأبد، هناك قضايا لو خسرتها تعوض، أو لا تعبأ بفقدانها، لكن ثمة أشياء أساسية، لذلك قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الزمر: 15]

الخسارة الحقيقية أن تخسر الآخرة، الشيء الدقيق سوف أضعه بين أيديكم لو أنك تريد أن تسافر من دمشق إلى حلب، هناك عدة سيارات، اخترت أسوأ سيارة، تتألم ألماً شديداً وقت السفر، أما حينما تصل فينتهي الموضوع، فأنت لا تندم على شيء طارئ فاتك، بعد أن وصلت انتهت المشكلة، انزعجت أم لم تنزعج، القضية انتهت، ووصلت إلى حلب، أما حينما يفوتك شيء أبدي فهذا هو الذي يسحق الإنسان، الشيء الطارئ لا قيمة له.

الدنيا كلها هي أصغر من أن تكون عطاء لله :

بالمناسبة الدنيا كلها بكل ما فيها من خيرات، وبأموالها الطائلة، بعزها، بجاهها، ببيوتها الفخمة، بمركباتها الفارهة، بأراضيها، بمزارعها، بكل ما فيها من جمال، من نساء وأولاد، من الأموال الطائلة، الدنيا كلها هي أصغر من أن تكون عطاء لله، السبب: لأنها مؤقتة، هي أصغر وأحقر من أن تكون عطاء لله، وهي أصغر وأحقر أن تكون عقاباً للكافرين، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

بكى عمر بن الخطاب يوماً لأنه يرى النبي عليه الصلاة والسلام ينام على الحصير، وقد أثر في خده الشريف، سيد العالمين.. سيد ولد آدم.. حبيب الله.. سيد الرسل بلا وسادة، ولا فراش مريح، قال عمر:

((رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير؟! قال: يا عمر أفي شك أنت؟ إنما هي نبوة، وليست ملكاً، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة))

[الأدب المفرد للبخاري، والجامع الصغير للسيوطي عن عمر بسند صحيح]

هذا نبي الله غرفته صغيرة، وبيته صغير، حياته خشنة، وكان يقول كما في الحديث عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيناً، وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[الترمذي عَنْ أَنَسٍ ابن ماجه بإسناد صحيح]

كان عليه الصلاة والسلام متواضعاً، كان إذا دخل عليه الغريب قال: أيّكم محمد؟ ليس له مقعد خاص، ولا جلسة معينة، كان مع أصحابه، أيّكم محمد؟ مرة قال له صحابي: ذلك الوضيء، ومرة قال له النبي: أنا، قد أصبت، ليس له شيء متميز، قال:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيناً، وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

بشارات ذكرها النبي الكريم لعدي بن حاتم :

جاءه عدي بن حاتم، وكان ملكاً، التقى به، ورحب به، وأخذه إلى بيته، يقول عدي ابن حاتم: أنا أعلم أنه ملك فلما استوقفته امرأة ضعيفة وقف معها طويلاً يكلمها في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك، ما هكذا شأن الملوك، ثم دخلت إلى بيته، فقذف إليّ وسادة من أدم جلد محشوة ليفاً، قال: اجلس عليها، قلت: بل أنت، قال: بل أنت، قال: فجلست عليها، وجلس هو على الأرض، ليس له وسادتان، عنده واحدة، في بعض البيوت عشرة أطقم أرائك، أربعمئة متر، كل غرفة نوع، هذه شرقي، وهذه غربي، هذه مدّ عربي، هذا أمريكي، ليس عنده غير وسادة واحدة من أدم محشوة ليفاً، فقلت: والله ما هذا بأمر ملك، قال: إيه يا عدي ابن حاتم.

ذكر له أشياء كثيرة، ولكن استوقفني في هذه القصة ثلاث عبارات، قال: أولاً: لعله يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم.. أصحابي فقراء.. وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، تأتي الدنيا وهي راغمة، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه.

ثانياً: ولعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، المسلمون ضعفاء فقراء ومستضعفين، قال تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

[سورة القصص: 5]

قد لا يكون لك شأن عند الناس، شخص عادي جداً، بوظيفة عادية جداً، ودكان صغيرة، بدخل صغير، وبيت خشن ضيق، وقد تكون عند الله كبيراً، وقد تكون عَلماً في السماء، وقد قال عليه الصلاة والسلام لأحد أصحابه الفقراء: "أهلاً بمن خبرني بقدومه جبريل، قال: أو مثلي، قال: نعم يا أخي، في الأرض خامل، لكنك في السماء علم"، ولعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، المسلمون فقراء، وضعاف، والله ليوشكن أن تسمع القصور البابلية قد فتحت لهم.

ثالثاً: ولعله يا عدي إنما منعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، العالم كله ضد الإسلام أينما ذهبت، وايم الله لتوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج هذا البيت على بعيرها لا تخاف، ولقد عاش عدي حتى رأى كل هذا البشارات بعينه.

ما من حدث من أحداث الحياة إلا وله دلالة كبيرة :

إذا مشيت أنت مع الله عز وجل فالله كبير، كل شيء بيده، لكن يريد أن يمتحن صِدقك، يريدك أن تطيعه دون أن تطمع بنواله في الدنيا، أطعه وكفى، لا تنظر إلى نواله في الدنيا، اجعل همك أن تطيعه، والله عز وجل هو يتولى أمرك، إذاً:

(فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أخواننا الكرام، لا تمر على الأحداث مرور الكرام، ما من حدث وإلا له معنى كبير ومعنى خطير، ما من حدث من أحداث الحياة، ما من فعل من أفعال الله إلا وله دلالة كبيرة، تأمل، تبصر، كما تدين تدان، البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، فالإنسان عندما يتعظ من أفعال الله- هذا إذا كان ينظر- أو يتعظ من قوانينه في القرآن ينجو، أما من لا يقرأ القرآن، ولا يتعظ، ولا ينظر إلى أفعال الله، فأنى له أن يفهم؟!

قرية على الساحل الأطلسي، كل أنواع المعاصي والآثام المقبولة وغير المقبولة، طبعاً كلها غير مقبولة، لكن هناك شيء غير معقول، ترتكب في هذه المدينة، وهي من أجمل المدن على الساحل الأطلسي، وفيها فنادق من أرقى مستوى، أصابها زلزال دمرت على آخرها خلال ثلاث دقائق، أكبر فندق كانت تجري فيه المعاصي والآثام، هذا الفندق ثلاثون طابقاً، غاص كله في الأرض، وبقي الطابق الأخير، ولوحته الشهيرة، وكأن هذه اللوحة شاهدة دفنه، الحدث هذا يفسر تفسيراً أرضياً، أن هناك زلزال، أي القشرة الأرضية اهتزت، واضطربت، وهناك تفسير إلهي، أنهم ذاقوا وبال أمرهم.

مرض الإيدز، هذا أليس وبال الفسق والفجور؟ قد لا تصدقون أن هناك ألوف المليارات تنفق على البحث عن مصل مضادٍ له.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

من نِعم الله الكبرى أن تفهم على الله أفعاله :

الآن هذا العذاب الأليم بلا تعليل لا ينفعنا، لو أن أباً ضرب ابنه، ولم يهمس ببنت شفة، الابن لا يعلم، لماذا ضربتني؟ ماذا فعلت؟ لكن ربنا عز وجل برحمته وحكمته وربوبيته إذا ساق عذاباً لإنسان يعلمه بشكل أو بآخر، أحياناً يسوق العذاب موافقاً للذنب، فالمسرف يدمر الله له ماله، والذي يعتدي على أعراض الآخرين يُعتدَى على عرضه، والمتكبر يهان، هناك نماذج كثيرة جداً لمصائب جاءت موافقة للذنوب، فهذا تعريف من الله.

أذكر إنساناً زكاة ماله تقدر بإحدى عشرة ألفاً و ثلاثمئة و خمسين، زوجته ضغطت عليه، على أن ينفق هذا المبلغ في إصلاح البيت، وتجديد أثاثه، فيبدو أنه استجاب لها، ولم يعبأ بدفع الزكاة، عنده مركبة

أصيبت بحادث، كانت كلفة التصليح إحدى عشرة ألفاً و ثلاثمئة و خمسين بالضبط، توافق المبلغين رسالة من الله.

شخص يمضي أغلب أوقاته في الصيف في التجول بالطرقات المزدحمة بالنساء، هذه متعته الوحيدة، عنده خمس بنات متزوجات، متعته الوحيدة أن يغدو في الطرقات المزدحمة ليمتع عينيه بالنساء الكاسيات العاريات، أصيب بمرض نادر جداً، اسمه ارتخاء الجفون، لا يستطيع أن يرى إلا إذا أمسك جفنه بيده وفتحه، هذا واضح وضوحاً شديداً أن هذا المرض بسبب هذه المعصية، والشرح يطول، وفهمكم يكفي .

كل ذنب له عقاب من جنسه، إنسان أصيب بمرض خبيث في العضو الذي عصى الله به.

فالحالة الأولى أن الله سبحانه وتعالى إذا ساق مصيبة يسوقها من جنس الذنب الذي اقترفه الإنسان، فهذا شرح من الله عز وجل لهذا الإنسان، هذه حالة .

الحالة الثانية: أن الله يلقي في روعه، قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

[سورة التغابن: 11]

إلى حكمتها، لعلتها، فالإنسان يشعر دون جهد أن هذه المصيبة من أجل كذا، يقول: فهمت.

أحد الأخوة الأكارم جاءه شخص ليشتري حاجة من حاجات معمله، هو يبيع بأعداد هائلة، رأى أن هذه الصفقة مزرية، فقال له: لا أبيع مفرقاً، فخرج هذا المشتري كسيف القلب، يقول لي هذا الأخ: ما دخل ثلاثين يوماً زبون إلى محلي، فهم على الله، هذه مقابل هذه، من نِعم الله الكبرى أن تفهم على الله أفعاله، فإما أن تفهم على الله أفعاله، وإما أن يأتي العقاب مشابهاً للذنب، وإما أن يلقي الله في روعك، وإما أن يسخر من يخبرك أن هذا الذنب عقابه كذا.

الرسول من بني البشر تجري عليه كل خصائص البشر ليكون حجة على البشر :

الآن ربنا قال:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

ذنبه هؤلاء قال :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

الأنبياء معهم الكتب، والأدلة، والبراهين، والعلامات الدالة على وجود الله، وعلى عظمته .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا)

كفروا بنبوة الأنبياء، توهموا أنه لا يليق بإنسان أن يكون رسولاً، لكن لو جاءك ملك رسول، وقال لك: غض بصرك عن النساء، تقول: هذا ملك، ونحن بشر، يجب أن يكون الرسول من بني البشر تجري عليه كل خصائص البشر، وليكون حجة على البشر، لا يمكن إلا أن يكون النبي والرسول بشراً من أجل أن يرسخ المبادئ التي جاء بها، أنت كمبادئ نظرية سهلة، لكن ما الذي يمنعك من تطبيقها؟ الدوافع الكامنة في نفسك، فإذا رأيت بشراً مثلك يطبقها فهو حجة عليك، لذلك قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا)

كفروا بنبوة الأنبياء، وكفروا برسالة الرسل:

(وَتَوَلَّوْا)

الله عز وجل غني عن عباده كلهم :

طبعاً الكفر تكذيب وإعراض، لم يعبأ بالصلاة، ولا بالزكاة، ولا بالحج، و لا بالصيام، ولم يعبأ بتعلم العلم ولا تعليمه، ولا بالقرآن وتفسيره، ولا بالحديث:

(وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ)

الله عز وجل غني عن عباده كلهم:

((... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً...))

[رواه سلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

غني عنّا، لكن لا يعاملنا إلا بما يحمد عليه، قد تستغني عن إنسان فتهمله، قد تستغني عنه فلا تنصحه، قد تستغني عنه فلا تؤدبه، قد تستغني عنه فلا تعطيه، لكن الله سبحانه وتعالى مع أنه غني عنّا فلا يعاملنا إلا بما نحمد عليه، لذلك ورد في الأثر: "يا داود، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إليّ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين؟".

لذلك قالوا: " إذا قال العبد: يا رب وهو راكع قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو ساجد قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو عاصٍ قال: لبيك.. لبيك.. لبيك".

الله عز وجل مع أنه استغنى عن الناس لا ينساهم بل يؤدبهم ويعالجهم :

ربنا ينتظرنا، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى مناد في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، وأنت حينما تتوب إلى الله يفرح الله، والدليل:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

وحينما تتوب إلى الله، وتصطلح معه، كيف أن البدوي الذي فقد ناقته، فأيقن بالهلاك، فجلس يبكي حتى أدركه النعاس، فاستيقظ فرأى الناقة أمامه، من شدة فرحه اختل توازنه قال: يا رب، أنت عبدي وأنا ربك، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((للَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ))

[متفق عليه واللفظ لمسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه]

أما إذا أصرّ الإنسان:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ)

ولكن الله مع أنه استغنى عنهم لا ينساهم، بل يؤدبهم، ويعالجهم، ويسوق إليهم الشدائد:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ)

غني عنّا، ويحمد على أفعاله كلها، وفي درس آخر نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (3-6): تفسير الآيتان7-8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-11-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث من سورة التغابن، ومع الآية السابعة وهي قوله تعالى:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام، أحد أكبر وأهم أركان الإيمان الإيمانُ باليوم الآخر، والله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة قرن الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر، فحينما يعتقد الإنسان أن الدنيا هي كل شيء، وأن السعيد فيها من كان غنياً، وصحيح الجسم، وعالي الشأن، وأن من فقد هذه المقومات عاش في شقاء، وأن الموت نهاية كل شيء، ولا شيء بعد الموت، فهذا المنطق يقتضي أن تنكب على الشهوات فتعبّ منها، هذا المنطق يقتضي أن تؤمِّن المال من أي طريق، لأنه مادة الشهوات، هذا المنطق يقتضي أن تفعل كل شيء بغير حساب، ودون تأمل، وتبصر.

لذلك ربنا سبحانه وتعالى يبين لنا أن الكفر وما يتبعه من انحراف خطير بسبب أن الكافر توهم أنه لن يبعث، فمادام الإنسان يعمل عملاً، ولا يسأل عنه، لا على نتائجه الإيجابية، ولا السلبية، فمستحيل أن ينضبط، إن رأيت إنساناً لا ينضبط فاعلم علم اليقين أن اليوم الآخر لم يدخله في حساباته إطلاقاً، وترى أناساً كثيرين لهم انتماء إلى الإسلام بشكل أو بآخر، يرون أنهم إذا كسبوا مالاً حراماً فقد حققوا شيئاً ثميناً، ويغيب عنهم أن الله سيحاسبهم، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

من لم يدخل مراقبة الله في حساباته فقد كفر باليوم الآخر :

هؤلاء الذين كفروا.. كفروا بماذا؟ كفروا باليوم الآخر، الدنيا كلها أكبر همهم ومبلغ علمهم، الدنيا هي كسبهم الوحيد، لذلك معهم الحق، انطلاقاً من تصوراتهم الموهومة أن ينكبوا على الدنيا بكل ما أوتوا من قوة، بحسب تصوراتهم عليهم أن ينغمسوا في كل الملذات، لأنها جنتهم الوحيدة، الإنسان حينما ينحرف، ويتحرك حركة عشوائية، وحينما يبحث عن المال بأي طريق، وحينما لا يعبأ بمنهج، ولا دستور، ولا نظام، ولا قانون، وحينما لا يدخل مراقبة الله في حساباته يكون قد كفر باليوم الآخر.

لا يمكن أن تجد إنساناً يؤمن باليوم الآخر ثم ينحرف، حساب دقيق، فكلمة زعم هذه مطية الكذب، كلمة زعم قبل أن نقرأ ما بعدها تعني الكذب:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا)

هل معهم الدليل؟ الإنسان أحياناً يؤمن بأفكار دون دليل، لكنها تطمئنه طمأنة ظاهرية، إذا اعتقد أنه ليس هناك بعثاً، ولا نشوراً، ولا حساباً، ولا عذاباً، يتحرك حركة عشوائية كما يحلو له، أما إذا أيقن أن هناك حساباً دقيقاً فلا يمكن أن يتحرك هكذا.

إذاً... هؤلاء الذين كفروا، أو كذبوا، إما أن الكفر كفر بكل شيء، أو ببعض الأشياء، إلا أن معظم أهل الأرض لو سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن: الله، هم يعتقدون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض، ولكن لا يعتقدون أنه معهم، أنه في السماء إله، وفي الأرض إله، لا يعتقدون أنه مسير لشؤونهم كلها، أنه سيحاسبهم على أعمالهم كلها.

من يعلم أن الله يعلم ويحاسب ويعاقب يجد نفسه مستقيماً على أمره :

أيها الأخوة، من المناسب هنا أن نذكر آية لها علاقة مسيسة بهذه الآية، وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

ربنا سبحانه وتعالى اختار من أسمائه اسمين، اسم العليم والقدير، أنت متى تستقيم؟ إذا أيقنت أنه يعلم ما تفعل، وأنك بقبضته، وسوف يحاسبك، وهو قادر على أن يحاسبك أشد الحساب، لو أردنا أن نكون واقعيين، أنت مع إنسان أقوى منك لا تستطيع أن تتفلت من ضبطه، ولا من علمه، ولا من عقابه، لا بدّ من أن تطيعه، تطيع إنساناً من جلدتك، لكنه أقوى منك، بإمكانه أن يضبط حركتك، وبإمكانه أن يعاقبك، إذاً تطيعه.

فالنقطة هنا متى يعصي الإنسان ربه؟ الإنسان يعصي ربه إذا ظنّ أن علم الله لا يطوله، أو ظنّ أن قدرة الله لا تطوله، أما يكفي أن تؤمن بثلاث كلمات: إنه يعلم، وسيحاسب، ويعاقب، وهو قدير على أن يفعل بك كل شيء، لمجرد أن تؤمن أنه يعلم، ويحاسب، ويعاقب، وأنك في قبضته تجد نفسك مستقيماً على أمره.

من كان عمله موافقاً للمنهج الإلهي فلا يعبأ بالناس :

فيا أيها الأخوة الكرام، هذا سؤال دقيق، إن رأيت انحرافاً في سلوكك - لا قدّر الله- أو تهاوناً في كسب مالك، أو تهاوناً في إنفاق المال، أو عدم انضباط في علاقاتك الاجتماعية، فاعلم علم اليقين أن هذا من نقص إيمانك، إما بعلم الله أو بقدرته، أما إذا أيقنت أن الله قدير، وأنه سيحاسب، ويعاقب لا يمكن أن تتفلت من قبضته، لذلك يقول الله عز وجل:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا)

كلمة (زعم) تعني أن هذا ادعاء كاذب، وأنهم لن يبعثوا، وأن هذه حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وهل تصدقون أن أربعة أخماس أهل الأرض يعتقدون ذلك جميعاً، ولا شيء غيره، لذلك يعملون فيها عمل الجبابرة من أجل أن يستمتعوا بها، لأنها جنتهم الوحيدة، والموت عندهم نهاية كل شيء، اذهب إلى قارات الأرض الخمسة تجد معظم الناس هذه عقيدتهم، لذلك يتفلتون، فتأتيهم الأمراض، والانحرافات، والجرائم، واغتصاب الأموال، والعدوان على قدم وساق، لأنهم لا يعتقدون أن هناك إله سيحاسبهم، أما المؤمن - والله الذي لا إله إلا هو - قبل أن ينطق بكلمة، وقبل أن يقف موقفاً، وقبل أن يصل إنساناً، وقبل أن يقطع إنساناً، وقبل أن يعطي إنساناً، وقبل أن يمنع إنساناً، وقبل أن يغضب، وقبل أن يرضى، وقبل أن يتحرك، وقبل أن يسافر، وقبل أن يتاجر، وقبل أن يسكن، وقبل أن يتزوج يطرح على نفسه هذا السؤال: ماذا أجيب الله يوم القيامة عن هذا التصرف؟ هيئْ لله جواباً، وافعل ما تشاء، إذا لم تستح من الله فافعل ما تشاء، إذا كان عملك موافقاً للمنهج الإلهي، إذا كان عملك يرضي الله عز وجل، فلا تعبأ بالناس، لا يعبأ بالناس إلا ضعاف العقول والدهماء من الناس، لكن العباقرة المؤمنين لا يعبؤون إلا بخالقهم، فقد يقفون موقفاً يسبب لهم متاعب كثيرة، لكن أرضوا بذلك خالقهم.

المؤمن الصادق لا يشغله شيء إلا أن يتعرف إلى منهج الله :

إذاً:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي)

يقول الله عز وجل: يا محمد، قل لهم، وأقسم لهم بربك، طبعاً الإنسان متى يقسم؟ لو أن إنساناً قال لك: كم الساعة الآن؟ هل يعقل أن تقول: والله العظيم الساعة السابعة، هو ما كذبك؟ تقسم له إذا كذبك، إذا سألك إنسان سؤالاً طبيعيّاً فليس من البلاغة أن تقسم له، أما حينما تقسم له فمعنى ذلك أنك تكذب، فهؤلاء لأنهم يكذبون اليوم الآخر، وأن الله سيبعثهم من قبورهم، وأنه سيحاسبهم حساباً دقيقاً، فقد أقسموا.

تروي بعض الآثار أن الأغنياء يحشرون يوم القيامة أربع فرق، فريقاً جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، يقال: خذوه إلى النار، حسابه سريع جداً، وفريقاً جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام، يقال: خذوه إلى النار، وفريقاً جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال، يقال: خذوه إلى النار، أما الذي جمع ماله من حلال، وأنفقه في حلال فيسأل: هل تاه بماله على عباد الله؟ هل ترك فرض صلاة؟ هل قصّر في طاعة الله؟ هل قال جيرانه: يا رب أغنيته وهو بين ظهرانينا فقصّر في حقنا؟ ومن بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: تركته ومازال يسأل ويسأل.

أخواننا الكرام... لو أن الواحد منّا قبل أن يفعل شيئاً تصور أنه بين يدي الله عز وجل، لماذا فعلت كذا؟ لماذا اغتصبت هذا المال؟ لماذا أخرجت شريكك من هذه الشركة؟ لماذا طلقت فلانة؟ إذا تصورت أن الله سيسألك عن كل شيء هيئ الجواب، وافعل فعلاً مغطًّى بجواب يقبله الله، فلذلك المؤمن في مثل هذا الموضوع وقاف عند كتاب الله، المؤمن الصادق لا يشغله شيء إلا أن يتعرف إلى منهج الله، إلى الأمر والنهي، ماذا يرضي الله وماذا يغضبه؟ ما الحلال والحرام؟ ما الحق وما الباطل؟ ما الخير وما الشر؟ ماذا يمكن أن يكون وما لا يمكن أن يكون؟ بعد أن يعرف المؤمن ربه لا شيء يشغله إلا معرفة الأمر والنهي، لأنه الآن سيتحرك.

الإيمان الكامل إيمان يتبعه طاعة لأوامر الله عز وجل :

هناك نقطة مهمة جداً الله جل جلاله ذكرها كثيراً، أنت حينما تؤمن بالله تظن أن هذا الإيمان هو نهاية المطاف، تأتي بآيات قرآنية، تأتي بأحاديث، تأتي بحوادث كونية تؤكد أنك مؤمن، لا، هذا ليس نهاية المطاف، إنه بداية المطاف، بعد أن آمنت بالله ماذا فعلت؟ لأن الله عز وجل يقول:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

[سورة الكهف: 110]

الآن أنت إذا آمنت أن الله إله واحد، ماذا عليك أن تفعل؟ لو أنك آمنتَ أن الله موجود، هو موجود، لو أنك آمنت أن الله واحد، هو واحد، لو أنك آمنت أن الله كامل، هو كامل، لو أنك آمنت أن القرآن كلامه، هو كلامه، لو أنك آمنت أن الإسلام حق، الإسلام حق فعلاً، أي شيء آمنت به، ولم يتبع هذا الإيمان حركة وموقفاً وانصياعاً وطاعة فلا قيمة له، لأن إبليس قال:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: 82]

(أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

يصلون، وينفقون، وهم عند الله كافرون، إذاً هذه النقطة الأساسية أن الإنسان قد يقرأ كثيراً، قد يستمع إلى أشرطة، قد يستمع إلى دروس علم، إذا كان في بيته هوَ هو، في عمله هو هُو، في علاقاته، وفي كسبه للمال وإنفاقه، في أوقات فراغه، في أفراحه وأتراحه، في علاقاته الاجتماعية لا يأتمر بما أمر الله، ولا ينتهي عما نهى الله عنه، لكنه مغرم بدروس العلم، ومعرفة الحق، هذا الإيمان سماه بعض العلماء إيماناً إبليسيّاً، لا يقدم ولا يؤخر.

التطبيق هو الذي يصل الإنسان بالله و يجعله يتألق :

من أجل أن تكسبوا أوقاتكم، من أجل أن تتحركوا حركة صحيحة لا بدّ من أن تطبقوا، فلذلك قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 110]

آمنت أن الله موجود، ألا تحب أن تلتقي به؟ ألا تحب أن تصل إليه؟ ألا تحب أن تكسب رضاه؟ ألا تحب أن يحبك الله؟ ألا تحب أن يشملك الله برحمته وعنايته وتوفيقه؟ ألا تحب أن تسعد بقربه؟ عليك أن تطيعه، من هنا كانت الطاعة هي الفوز، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

لا تقيّم نفسك لا في ضوء أفكارك، ولا في ضوء كتبك، ولا في ضوء طلاقة لسانك في الإسلام، لا تقيّم نفسك إلا من خلال مدى تطبيقك لما جاء في الكتاب والسنة، التطبيق هو الذي يرفعك.. التطبيق هو الذي يصلك بالله.. التطبيق هو الذي ينعشك.. التطبيق هو الذي يجعلك تتألق، إذاً:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 110]

القلب معقد الآمال :

قال لي كثيرٌ من الأخوة: أشكو من فتور في قلبي، أشكو من ضعف في صلاتي، أشكو من جفوة في قراءتي للقرآن، أقرأ فلا أشعر بشيء، أصلي فلا أشعر بشيء، أذكر الله فلا أشعر بشيء، إن لم تشعر بشيء لا في صلاتك، ولا في ذكرك، ولا في تلاوتك، فهناك مشكلة كبيرة، معنى ذلك أن هناك حجاب

بينك وبين الله، هذا الحجاب بسبب معصية، أو مخالفة، أو سوء ظن بالله، أو انحراف، أو تعلق بالدنيا، فالإنسان يجب أن يكون حكيم نفسه، وطبيب قلبه، والقلب هو معقد الآمال، لقول الله عز وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

بطولة الإنسان أن يتعامل مع الواقع :

إذاً:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا)

هذا زعمهم، إذا نفى إنسان الامتحان فهل نفي الامتحان يلغي الامتحان؟ لا، في العلوم شيء دقيق هو قانون السقوط، سقوط الأجسام له قانون، لو أن الإنسان أراد أن يهبط من الطائرة، إما أن يحترم قانون السقوط، فيتخذ مظلة يهبط بها، فيغدو سالماً في الأرض، وإما أن يحتقر هذا القانون، فلا يستخدم هذه المظلة، فيلقي بجسمه من الطائرة فيأتي ميتاً، وحين لم يحترم هذا القانون، أو كذب به، فهل معنى ذلك أن هذا القانون توقفت قواعده؟ لا، القانون مطبق تطبيقاً حتمياً، أعجبك أم لم يعجبك، آمنت به أم لم تؤمن، فرحت به أم لم تفرح، القانون مطبق.

إذا زعم إنسان أن ليس هناك جنة ولا نار هل بهذا الزعم ألغى الجنة والنار؟ لا والله، الجنة موجودة، والنار موجودة.

أعرف رجلاً أسرف على نفسه بالشهوات إسرافاً غير معقول، وكان في الثامنة والثلاثين من عمره، أصيب بمرض خبيث في دمه، حينما جاءه المرض ظنه عارضاً، وهو مرح جداً، ويستقدم إلى بيته ما لا يرضي الله عز وجل، فحينما علم أنه مصاب بهذا المرض الخبيث، وأن بينه وبين الموت زمناً قصيراً بدأ يصاب بنوبات هستيرية، يقول: لا أريد أن أموت، فلما جاءه ملك الموت صرخ بصوت ما بقي في البناء كله إنسان إلا وسمع الصوت.

إذا أنكر إنسان الآخرة هل معنى ذلك أنه ألغى الآخرة؟ إذا أنكر الموت هل معنى ذلك أنه ألغى الموت؟ شيء مستحيل، فالبطولة أن تتعامل مع الواقع.. أن تتعامل مع قوانين الله، البطولة ألا تندم، لأن الندم تفسيره أنك لم تُعمِل عقلك، فالإنسان عندما يتحرك حركة خاطئة سيندم، وهذا الندم دليل أنه لم يستخدم عقله، إذاً يقول الله عز وجل:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ)

الموت ليس نهاية الحي لأن حياة الإنسان أبدية :

نحن جميعاً سوف نموت، شئنا أم أبينا، وسوف ندخل القبر، وسوف نبعث من القبور، لأن الموت ليس نهاية الحي، حياة الإنسان أبدية، والقبر ليس آخر بيوته، القبر يزوره زيارة، والدليل أن الله عز وجل يقول:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ)

[سورة التكاثر: 1-2]

لماذا قال:

(زُرْتُمُ)

؟ لأن الإنسان يزور القبر، ثم يخرج منه ليبعث حياً، ليحاسب عن كل أعماله صغيرها وكبيرها، أحياناً يطلق الإنسان لابنته العنان، تتحرك كما تشاء، وترتدي أي ثياب، لا يمنعها إن أبدت مفاتنها للناس، بل يطرب لذلك، قد تأتي يوم القيامة تقول: يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي.

إذا أيقن الإنسان أنه سيحاسب، والله لخرج من جلده خوفاً، لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت لما أكلتم طعاماً عن شهوة، ولا دخلتم بيتاً تستظلون به، ولذهبتم إلى الصعدات تبكون على أنفسكم.

أحياناً يقال لإنسان: تعال الخميس راجعنا، لا ينام الليل، لأنه يتوقع ألف سؤال وألف مشكلة، فكيف إذا دعاك الله عز وجل الواحد الديان ليسألك عن كل شيء؟

الذكي من أطاع الله عز وجل :

أخواننا الكرام، لا أتمنى على الله من هذا الدرس إلا فكرة واحدة، أنه قبل أن تتحرك، وتصل وتقطع، وقبل أن تعمل أي شيء، فكر بماذا تجيب الله يوم القيامة عن هذا العمل؟ إذا أخطأ إنسان معك في الحساب، هل تفرح؟ إن فرحت فلا تعرف الله، يجب أن تؤدي له الحساب، أناس كثيرون يرون أن كسب المال الحرام ذكاء، إنسان بموقع دقيق يبتز أموال الناس، يرى نفسه ذكياً، عاش في بحبوحة، وأتى لأهله بأطيب الطعام، وبأجمل اللباس، سكن أجمل بيت، لأنه قوي، واستطاع بقوته أن يبتز أموال الناس، وأن يخيفهم، يظن نفسه أنه ذكي، وأنه عاقل.. لا، ما دام هناك بعث ونشور، وحساب وعذاب، وجنة ونار، الذكي من أطاع الله، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله.

من اليسير على الله أن يسجل على الإنسان كل أعماله وحركاته وسكناته :

(قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ)

تبعثنّ من قبوركم:

(قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

[سورة يس: 123]

(ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

شيء يحير، الإنسان الآن وصل إلى أشياء مذهلة بعقله، يمكن أن يضع خمسين ألف كتاب في قرص، ويقرأ مليوني حرف في ثانية، من اليسير على الله أن يسجل عليك كل أعمالك وحركاتك وسكناتك:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء: 14]

الله عز وجل قدراته مطلقة ليس له حدود :

أنت في الدنيا لك سرّ وعلانية، لك باطن ولك ظاهر، لك خلوة ولك جلوة، لك بيت تأوي إليه، تفعل ما تشاء، أما إذا خرجت من البيت فتظهر بأجمل مظهر، لكن الله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية لا في السموات ولا في الأرض، فهذا النبأ هو عملك الحقيقي، خلفيته، أهدافه، بواعثه، حجمه، نواياه المنطوية تحته، هذا كله عند الله عز وجل:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

[سورة الإسراء :17]

يمكن أن تعمل عملاً صالحاً، وهو عند الله ليس بصالح، يمكن أن تعمل عملاً صالحاً في ظاهره، وفي نيتك أن تنتزع إعجاب الآخرين:

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ، لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

فعلت كذا بنية كذا، بالباعث الفلاني، بالهدف الفلاني، بالحجم الفلاني، بالخلفية الفلانية، تحليل دقيق جداً لعمل الإنسان.

(ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

الله عز وجل قال عن نفسه: إنه سريع الحساب، أحيانا يمكن أن يقرأ الإنسان في بعض الحواسيب المركزية أربعمئة مليون حرف في ثانية، إذا كانت هذه سرعة حاسب الإنسان فكيف بالله عز وجل؟ لا يوجد زمن إطلاقاً، كن فيكون، لأن الله عز وجل قدراته مطلقة، مطلق في قدرته، مطلق في علمه، ليس له حدود، الإنسان له حدود.

الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحمل الإنسان على طاعة الله :

إذاً:

(وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

آمن بالله الإيمان الصحيح، الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله لا فائدة منه، هذا إيمان إبليس، الإيمان الذي يجعلك تغض بصرك عن محارم الله هو الإيمان الذي أراده الله، الإيمان الذي يجعلك تقول: أين الله؟ قال: بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال: والله إني لأشد الحاجة لثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟

الإيمان الذي ينجيك هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، هذا كلام مختصر ودقيق:

((من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل وما حقها؟ قال: أن تحجبه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم]

(وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

آمنوا بالله من خلال آياته الكونية.. من خلال آياته القرآنية.. من خلال آياته التكوينية، وآمنوا برسوله من خلال سنته القولية، والفعلية، والإقرارية، إذا آمنت بالله من خلال كتابه، وآمنت بالله من خلال خلقه، وآمنت بالله من خلال أفعاله، وآمنت بالنبي عليه الصلاة والسلام من خلال سنته القولية والعملية والإقرارية، وحملك هذا الإيمان على طاعة الله فهذا هو الإيمان الذي يريده الله عز وجل.

الله عز وجل خلق الكون و نوره بالقرآن :

(وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا)

أي بهذا الكتاب، لأن الله عز وجل قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

إذاً

(وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا)

أي هذا القرآن:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: 1]

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

[سورة الكهف: 1]

الكتاب يعادل الكون، الكون خلقه وهذا كلامه، خلق الكون، ونوّره بهذا النور..

معرفة حقيقة الدنيا و حقيقة الإنسان :

بهذا الكتاب الذي فيه إيضاح لكل شيء، في هذا الكتاب فلسفة الوجود.. في هذا الكتاب فلسفة الحياة وحقيقتها.. في هذا الكتاب فلسفة الإنسان، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 19]

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

[سورة النجم:39]

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر: 2]

ينبغي أن تعرف حقيقة الإنسان من خلال هذا الكتاب، لأنه نور، وأن تعرف حقيقة الدنيا:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ)

[سورة الحديد: 20]

الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف :

إن الحياة دار ابتلاء، الحياة دار انقطاع، الحياة دار تكليف، الحياة دار عمل، الحياة دار سعي، الحياة دار معرفة الله، الحياة مكان للعمل الصالح، هذه حقيقة الحياة، أكثر الناس يتوهمون أن الحياة شيء آخر، لا بد أن تعيش في بحبوحة، تتنعم، تأكل، تشرب، تستعلي على الناس، تعيش بأجمل بيت، تركب أفخم سيارة، هذا هدف الناس، لأنهم ما عرفوا حقيقة الحياة الدنيا.

إذا جلس طالب في الامتحان، أو جلس في مدرسته، همه مكان قريب من النافذة ليتسلى، همه مجلة يتسلى بها أثناء إلقاء الدرس، همه طعام يأكله أثناء إلقاء الدرس، همه أن يضطجع لينام في أثناء إلقاء الدرس، هل عرف حقيقة المدرسة؟ ما فهم حقيقة المدرسة، دخل الامتحان يكتب خطوطاً للتسلية على ورق الامتحان، دون أن يقرأ الأسئلة، معنى ذلك أنه ما عرف حقيقة الامتحان.

فالمشكلة أن الناس يجعلون الدنيا دار نعيم لا دار عمل، الدنيا دار عمل، والآخرة دار نعيم ودار جزاء، الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف، الدنيا دار سعي، والآخرة دار مكافأة.

الخبرة أعمق من العلم :

أنت من خلال النور تعرف حقيقة الكون:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

تعرف حقيقة الإنسان، تعرف حقيقة الحياة الدنيا، هذا الذي سماه الله نوراً.

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

هنا:

(بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

الخبرة أعمق من العلم، يعلم الله ما كان، وما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لأنه خبير.

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

معنى التغابن :

أيها الأخوة، هذه السورة سميت سورة التغابن، لأن أحد أسماء يوم القيامة هو التغابن، الإنسان يكتشف أنه مغبون، إذا باع الإنسان بيتاً؛ قيمته ثلاثون مليوناً، باعه بثلاثة ملايين، كان مسافراً عشر سنوات، وعاد، ودخل عليه إنسان، عرض عليه ثلاثة ملايين، وجده مبلغاً كبيراً، فباعه، وكتب عقداً، وطوّب، ثم اكتشف أن البيت ثمنه ثلاثون مليوناً، ألا يتألم أشدّ الألم؟ في الدنيا هذا اسمه الغبن، أن تعطي شيئاً ثميناً بشيء بخس، أو أن تشتري شيئاً سخيفاً بثمن باهظ، البائع قد يكون مغبوناً، والمشتري مغبون.

ربنا عز وجل أراد الدنيا قضية مبادلة و معاوضة، فالإنسان ضحى بالدنيا من أجل الآخرة.. آثر الآخرة على الدنيا، اشتروا الضلالة بالهدى، فالكافر اشترى الدنيا، وباع الآخرة، أما المؤمن فضحى بالدنيا، وسعى للآخرة، فهذا اليوم يوم التغابن كل الناس يحسون بالغبن، إلا أن الكافر يحس بغبن كبير، أما المؤمن فيتمنى لو لم ينفق من عمره ساعة إلا في ذكر الله، وطاعته، والعمل الصالح، الغبن أن تكون في غرفة، وبإمكانك أن تأخذ منها كل شيء ثمين، وأخذت الشيء الخسيس:

(ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

أي الناس يغبن بعضهم بعضاً، المؤمن يشعر بالغبن، لأنه ضاع من وقته بعض الوقت لم يكن في ذكر الله، ولا في طاعته، مع أنه نجا، ودخل الجنة، لكن لا يندم المؤمن على شيء فاته من الدنيا إلا ساعة مرت عليه لم يذكر الله فيها، هذا أكبر ندمه، الكافر ضيع الآخرة من أجل الدنيا.

الغبن أن تبيع الشيء الثمين بالسعر البخس :

والحقيقة أن الغبن لا يحتمل، من أشد أنواع الشعور الممتد أن تشعر أنك مغبون، أحيانا الزوج يشعر أنه مغبون مع هذه الزوجة، كان بإمكانه أن يأخذ أفضل منها بكثير، والزوجة تشعر أنها مغبونة مع زوجها، و أحياناً التاجر يشعر أنه مغبون مع شريكه، والبائع كذلك، والشاري كذلك، فالغبن هو أن تبيع الشيء الثمين بالسعر البخس، أو أن تشتري الشيء الخسيس بالثمن الباهظ، والآخرة تجارة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

[سورة الصف: 10-11]

من أنفق ماله و صحته و حياته و فراغه في طاعة الله فقد ربح الدنيا و الآخرة :

رأسمالك حياتك، وفراغك، وصحتك، ومالك، فإذا أنفقت المال والحياة والصحة والفراغ في طاعة الله كسبت السلامة في الدنيا، والجنة في الآخرة، هذه هي التجارة الرابحة، قال تعالى:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هذا طريق النجاة، ومن يؤمن بالله الإيمان الصحيح، ويعمل صالحاً، مؤكداً إيمانه الصحيح يكفِّر عنه سيئاته، أي أن ماضيه مغطًّى بالمغفرة:

(وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

الفوز العظيم أن تؤمن إيماناً صحيحاً وأن تعمل صالحاً كي تفوز بالجنة :

بعد هذا البيان الإلهي وهو:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

مقياس الفوز عندك ماذا؟ لو سألت آلاف الأشخاص: ما مقياس الفوز عندكم؟ قد يقول لك الحقيقة: المال.. الغنى.. الصحة..العلو في الأرض، لكن الله في هذا القرآن الكريم يقول: الفوز العظيم أن تؤمن إيماناً صحيحاً، وأن تعمل صالحاً كي تفوز بالجنة.

(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة البقرة: 39]

أصبح هناك وضوحاً تاماً، يوم التغابن يوم الحساب، ما من إنسان إلا ويصاب بالغبن، حتى المؤمن يتمنى لو لم يتهاون ثانية من عمره، أما غبن الكافر فكبير، لأنه في النار، المؤمن في الجنة، لكن يتمنى أن يكون في أرقى درجاتها، كيف ضيع هذه السهرة؟ كيف ضيع هذا الوقت؟ كيف أنه لم يحافظ على ما أمره الله تماماً، يشعر بالغبن أحياناً، أما الكافر فيشعر بغبن شديد جداً.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 9-13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-11-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الدنيا ساعة من جعلها طاعة كسب الأبد :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة التغابن، ومع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

ذكرت في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

[سورة الصف : 10-11]

فربنا سبحانه وتعالى عدّ الإيمان به وطاعته والتقرب إليه كل هذا تجارة رابحة، لكن الربح كبير جداً، فرأسمالك حياتك وشبابك وفراغك، هذا الذي أعطاك عمراً وقوة وشباباً وفراغاً وطمأنينةً، هذه رأسمالك، فإذا وظفت هذا الرأسمال في طاعة الله ومعرفته والعمل له كسبت سلامة الدنيا وسعادتها، وسعادة الأبد إلى أبد الآبدين.

فالربح كبير جداً، نحن في الدنيا الربح بالمئة عشرة أو عشرون، أما ثلاثمئة فلا يصدق هذا الربح، والله لا أبالغ لو قلت: ربح الإنسان مع الله وحده من رأسماله يعادل مليارات، لأن الله عز وجل يقول:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة: 17]

الدنيا محدودة، والعمر محدود، وفي النهاية الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، الدنيا ساعة لو جعلها طاعة لكسب الأبد.

من تاجر مع الله كسب الدنيا و الآخرة :

الذي يتاجر مع الله يقدم رأسماله في طاعة الله فيكسب الدنيا والآخرة، هذا المعنى نفسه ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة أخرى قال:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة المائدة: 111]

يمكن أن تدفع ليرة وتأخذ ملياراً، يمكن أن تدفع ليرة وتأخذ مليون مليار.. مليار مَليار شيء لا يصدق، أما الكفار والمنافقون:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

[سورة البقرة: 16]

فما ربحت تجارتهم، كأن الله سبحانه وتعالى يجعل علاقتك به نوعاً من التجارة تقدم له شيئاً ويعطيك أشياء:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

أيّ عمل صالح في الأرض هو إقراض لله عز وجل :

أيّ عمل صالح في الأرض هو إقراض لله عز وجل، وسوف تكافأ عليه يوم القيامة، وفي الحديث قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

فلأنّ أهل مكة كانوا تجاراً فالله سبحانه وتعالى يخاطبهم على قدر عقولهم، أي أيها المؤمن إذا تاجرت مع الله تربح ربحاً مجزياً، وإن أردت الدنيا وضيعت الآخرة، إن اشتريت الضلالة بالهدى تشتري العذاب بالمغفرة، إن اشتريت الدنيا وبعت الآخرة اخترت الخسيس وتركت النفيس، فربنا عز وجل يقول:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

هذا الذي آثر الدنيا على الآخرة.. آثر القليل على الكثير.. وآثر الخسيس على النفيس.. وآثر الذي يفنى على الذي يبقى.. وآثر دنيا محدودة مشغولة بالمتاعب على جنة كلها مسرات وسعادة، فالإنسان كلما رجح عقله ازداد حبه لله عز وجل، أرجحكم عقلاً أشدكم حباً لله.

من آثر الدنيا على الآخرة فعقله ضعيف :

قلت لكم مرة: لو أن إنسانًا خُيِّر بين ثلاثة أشياء، بين قطعة ألماس ثمنها خمسة ملايين، وكأس فضي ثمنه ألف ليرة، وقارورة زجاج وطنية ثمنها عشرون ليرة، قلنا لك: اختر من هذه الأشياء واحدة، فالذي

يختار أكبر حجم وأبخس ثمن هناك ضعف في عقله، أنا أقول: أنا أعرف من اختيارك رجاحة عقلك، فالذي آثر الدنيا عقله ضعيف، آيات كثيرة تشير إلى هذا المعنى ربنا عز وجل يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً* نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

[سورة الإنسان: 27 - 28]

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف: 83]

هذا قرار خطير، تختار الدنيا أم تختار الآخرة؟ هذا قرار مصيري، لا بدّ من أن تتخذ موقفاً واضحاً، ربنا عز وجل يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط إذا غمس في البحر مِن مائه))

[الجامع الصغير عن المستورد بن شداد بسند صحيح]

ليس في الدنيا تغابن بل التغابن في الآخرة :

آيات كثيرة وأحاديث كثيرة تفيد في أن علاقتك مع الله بشكل أو بآخر هي علاقة تجارية، تقدم شيئاً وتأخذ أشياء كثيرة، فمن آثر الدنيا على الآخرة فقد وقع في خسارة محققة، هذه الخسارة سمّاها الله يوم القيامة التغابن، غبن، كما لو أنك بعت بيتاً قيمته عشرة ملايين بمليون واحد، يتألم البائع أشد الألم، كما أنك لو اشتريت شيئاً بعشرة ملايين وثمنه مليوناً، هذا هو الغبن، الشعور بالخسارة الكبيرة، فربنا عز وجل يقول:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

قال بعض العلماء: التغابن ليس في أمور الدنيا، فالذي نال مالاً كثيراً، والذي نال مالاً قليلاً، والذي عاش بصحة عالية، والذي عاش بصحة متدنية، والذي عاش بحظ كثير أو قليل سواء، لأن الدنيا فانية فالتغابن فيها لا يقع.

مثلاً: إنسان مات في سن مبكرة، نقول نحن: مسكين، لم يعش طويلاً، لكن لو عشت عمراً مديداً سوف تموت، ألقيت قنبلة على هيروشيما قتلت ثلاثة آلاف شخص في ثوان معدودة، إذاً بعد مئة عام لو لم تُلق هذه القنبلة هل بقي أحد من هؤلاء يعيش؟ لا..

فأجمل ما في هذه الآية أن العلماء يقولون: ليس هناك تغابن في الدنيا، إنسان سكن أفخم البيوت، والثاني سكن كوخًا، الموت ينهي غنى الغني وفقر الفقير، يلغي قوة القوي وضعف الضعيف، يلغي صحة الصحيح ومرض المريض، يلغي ذكاء الذكي وغباء الغبي، يلغي كل شيء، فليس هناك معنى إطلاقاً أن يكون التغابن في الدنيا، التغابن في الآخرة، مع أن التغابن في الدنيا مؤلم أشد الألم، فرضاً يقول لك إنسان: هذه الأرض بعتها بعشرة آلاف ليرة، الآن ثمنها اثنا عشر مليونًا، يتألم أشد الألم. مثلاً باع بيتًا بثمن خسيس، ثم فوجئ أن سعره عشرون ضعفاً، زهد في أرض أمامها طريق، فارتفع سعرها أضعافاً، يتألم، مع أن هذا الألم مؤقت، ومع أن المكسب مؤقت، وهناك ألم، فكيف لو ضاعت الآخرة كلها؟ قال تعالى:

(ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

من غفل عن الله عز وجل غبن نفسه أشد الغبن :

الإنسان يجد نفسه مغبونًا أشد الغبن حينما يغفل عن الله عز وجل، هناك حقيقة ثانية، هكذا قال بعض العلماء نقلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن الله سبحانه وتعالى يطلع المؤمن على مكانه في النار لو لم يؤمن فتزداد سعادته في الجنة، ويطلع الكافر على مكانه في الجنة فتزداد حسرته في الآخرة، الإنسان يساق إلى النار، أيها الإنسان لو أنك عرفت الله في الدنيا، وآمنت به، وأطعت أمره، وتقربت إليه، وعبدته فهذا مكانك في الجنة، فتزداد حسرته .

والثاني: المؤمن يرى مكانه في النار لو لم يؤمن، وأوضح مثلٍ: شريكان يعملان معاً، أحدهما اقترح على الآخر أن يعملا في تجارة محرمة، لأن أرباحها كبيرة جداً، الشريك الثاني رفض هذا الاقتراح، فلما رفض هذا الاقتراح فضت الشركة، وذهب كل إلى حال سبيله، هذا الذي اختار الطريق الممنوع ربح أرباحاً طائلةً، ثم وقع في قبضة العدالة، وسيق إلى السجن، وحكم عليه بالسجن مدة ثلاثين عاماً، لو فرضنا في قضية المخدرات، الذي لم يختر الطريق الوعر ذهب ليزوره، رأى مكانه في السجن، ونوع طعامه، وضعفه، فهذا الذي زاره في السجن يزداد شعوراً بالسعادة حينما يفخر بقراره المصيري، وهذا الذي هو في السجن يرى شريكه طليقاً حراً يعمل بطلاقة بين أهله وأولاده فيزداد حسرة. فحينما يرى المؤمن مكانه في النار لو لم يؤمن، وحينما يرى الكافر مكانه في الجنة لو آمن، الكافر يزداد حسرة، ويشعر بالغبن الفادح، والمؤمن تزداد سعادته، ويشعر بالرضا، إلا أن المؤمن لو دخل الجنة يتمنى لو أنه في الدنيا لم يضيع دقيقة واحدة، ولو أن كل دقيقة عاشها في الدنيا استغلها في طاعة الله، وفي العمل الصالح، وفي الدعوة إلى الله، لكانت سعادته أكبر.

أحياناً يعمل الإنسان في تجارة رابحة جداً، يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، استوردنا مئة طن فربحنا أرباحاً طائلة، لو استوردنا مئتي طن فالسوق تطلب كميات كبيرة جداً، والاستيراد سهل، والأرباح طائلة، فالذي ربح أرباحًا طائلة يتمنى لو أنه ضاعف الكمية ليزداد ربحه.

فالله سبحانه وتعالى سمى ذلك اليوم يومَ التغابن، أي كلٌّ يغبن نفسه، إلا أن الكافر غبنه شديد جداً، والمسافة بين الشقاء الأبدي والسعادة الأبدية مسافة كبيرة، أما المؤمن المقتصد فيشعر بالغبن، ليتني كنت من السابقين.. ليتني أنفقت كل مالي في سبيل الله، هو أنفق الزكاة فقط.. ليتني أنفقت فوق الزكاة أضعافًا مضاعفة.. ليتني حفظت كتاب الله كله، ودرسته كله.. ليتني أنفقت مالاً على مشروعات خيرية تكون لي ذخراً يوم القيامة.

التغابن في الدنيا لا يحتمل فكيف بخسارة الآخرة ؟؟

إذاً يقول الله عز وجل:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

أخواننا الكرام، كلكم يعلم هذه الحقيقة، الشعور بالغبن مملٌّ جداً، كإنسان يبيع بيتاً بعشر ثمنه، تستغل سذاجته، ويوقع، ويفرغ البيت، وينتهي الأمر، ولا عودة من هذا القرار، يتألم أشد الألم، وهناك قصص كثيرة، هناك أشخاص كثيرون أصابتهم أزمة قلبية، وفقدوا حياتهم لشعورهم بالغبن الفادح، أحيانا خسارة مؤلمة فيموت فوراً، مئات القصص سمعتها عن إنسان مات فجأة بسكتة قلبية، لأنه تلقى نبأ لا يحتمله، نبأ خسارة، احترق المعمل فمات، كلفوه ضريبة فوق طاقته فمات فوراً، فلذلك التغابن في الدنيا لا يحتمل، فكيف أن يخسر الإنسان حياة الأبد؟ جنة عرضها السموات والأرض ؟!

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها :

التغابن فيه معنى المشاركة، أي كل يشعر بغبن الآخر، أما أهل الإيمان فيتمنون أن يكونوا في أعلى مستوى، أو لعل هذا التمني في أول الحساب، فإذا دخلوا إلى الجنة، واستقروا فيها سعدوا سعادة لا يعرفها الذين معهم:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا)

دائماً كتاب الله عز وجل يطمئن، أيها المؤمن لا تفكر في الماضي.

سأل أستاذ علم نفس في جامعة طلابه: هل جربتم نشر الخشب؟ قالوا: نعم، ثم سأل: هل جربتم نشر النشارة؟ قالوا: لا.. مستحيل، النشارة لا تنشر، قال: كذلك الذي يفكر في الماضي، الماضي مضيعة للوقت، ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، الماضي مضى فاطو الصفحة.. أغلق هذا الملف، كأن لم يكن، لأن الحديث عن الماضي لا يجدي أبداً، امدح ماضيك أو ذمّه، الساعة التي مضت لا تعود، وختم بها العمل، والمستقبل لا تملكه، إذاً لك الساعة التي أنت فيها، هذا الإنسان العملي، وهناك إنسان حالم، يعيش في مستقبل موهوم، هذا الذي اضطجع تحت قدر عسل، وقال: سوف أبيع هذا العسل، وسوف أشتري الأنعام، وسوف أصبح غنياً، وسوف أتزوج، وسوف أنجب، وسوف أؤدب أطفالي، ورفع عصاه، وضرب القدر، فانكسر القدر، وسال العسل، وضاعت كل أحلامه.

هناك إنسان حالم، يعيش مستقبلا فارغاً، وهناك إنسان يجتر الماضي، يحدثك عشرين ساعة عن الماضي، الماضي مضى، الآن قل: البيت كان بثلاثة آلاف، هل ينفع هذا الكلام؟ ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، فالحديث عن الماضي مضيعة للوقت، والأحلام الفارغة قد لا تصلها، إنسان توفي أحد أقربائه، هذا القريب ترك ألف مليون، نصيبه وحده تسعون مليونًا، ترك دكانه، وانطلق ليتابع إجراءات الإرث، ستة أشهر وهو يبحث من دائرة إلى دائرة، إلى براءة الذمة، إلى حصر الإرث، وافته المنية، وهو في الحمام قبل أن يقبض قرشاً واحداً، المؤمل غيب، ماذا تملك؟ لك الساعة التي أنت فيها، في هذه الساعة تب إلى الله.. في هذه الساعة اعمل صالحاً.. في هذه الساعة اتّق الله.. في هذه الساعة تعلم القرآن.. في هذه الساعة مر بالمعروف و انهَ عن المنكر، لك الساعة التي أنت فيها، أنت لا تملك إلا هذه الساعة.

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا)

الماضي مغطى بالمغفرة :

الماضي مغطى بالمغفرة، لا تجعل الماضي عقبة، وفي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

الصلحة بلمحة، لو أنك تعرف أن الله يفرح بتوبتك.. لو عرفت أن الله سبحانه وتعالى ينتظر توبتك.. لو عرفت أنك عند الله سبحانه وتعالى مطلوب، مهما يكن هذا الإنسان هو مطلوب عند الله برحمته:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف: 156]

أحد الصالحين قال: يا رب نحن شيء ورحمتك وسعت كل شيء فارحمنا.

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

المتفوق من يبحث عن رحمة الله في مكانها لا في الدنيا وزخارفها :

العجب العجاب من إنسان متردد، من إنسان لم ينطلق، من إنسان حائر، من إنسان يستهلك الوقت استهلاكاً رخيصاً، من إنسان لم يعرف سرّ وجوده، ولا غاية وجوده، هذا شيء يدعو إلى العجب. كل إنسان يحب التفوق، يحب الفوز والفلاح والنجاح، المشكلة كما قلت في الخطبة اليوم: الإنسان حينما يبحث عن اللؤلؤ في الصحراء هو يبحث عن كنز، لكن هذا الكنز الذي هو اللؤلؤ لن تجده في الصحراء، هو في البحار، فينبغي أن تبحث عن رحمة الله في مكانها، لا في الدنيا وزخارفها، بل في حقيقتها، وهي أن تعرف الله فيها .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

الناس رجلان؛ برّ تقي وفاجر شقي :

في النهاية نحن نعد تقسيمات كبيرة جداً بحسب ألواننا، وأعراقنا، وأجناسنا، وبيئتنا، وثقافتنا، بحسب دخلنا، وأعمالنا، آلاف مؤلفة، كل إنسان نسيج وحده، لكن مصير البشرية جمعاء إلى صنفين، مؤمن وكافر، الناس رجلان، برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيّن على الله، فالإنسان إن لم يكن مع الحق فهو مع الباطل، وهذه حقيقة خطيرة، أحياناً الإنسان يتساهل، الآية الكريمة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

هناك خطان لا ثالث لهما، إن لم تكن على أحدهما فأنت على الثاني قطعاً، والحق لا يتعدد، لأنه لا يوجد حقان، إن لم تكن على الحق فأنت على الباطل:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، في الحياة الدنيا أصحاب الدخل الكبير، وأصحاب الدخل القليل، وهناك ما بينهما، في الحياة وسط.. هناك غنى، وفقر، و وسط، هناك مرض

عضال، و هناك صحة تامة، و هناك أمراض خفيفة محتملة، معه سكر، الحمية تفيده، هذا في الدنيا، أيها الأخوة، أما الآخرة فلا يوجد فيها شيء من هذا، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، إن لم نكن على الحق فنحن على الباطل، إن لم تكن مستقيماً فأنت منحرف، إن لم يكن دخلك حلالاً فهو حرام، إن لم تكن مع الله فأنت مع الشيطان.

من فهم حكمة المصيبة قبلها :

الآن الآية الكريمة:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

الحقيقة أن الحياة الدنيا مشحونة بالمصائب لحكمة بالغة أرادها الله، المشكلة ليست في المصيبة، المشكلة في تفصيل هذه المصيبة، فعندما يجلس إنسان عند طبيب أسنان، وهذا الطبيب قد لا يناسب المريض أن يعطيه مخدراً لأسباب صحية، فحينما يحفر ضرسه، وفيه عصب حساس جداً يتألم ألماً لا يحتمل لماذا يصبر المريض؟ لأنه يعلم أن هذا لصالحه.

فإذا فهم الإنسان حكمة المصيبة قبلها، أما إذا لم يفهم حكمتها فسحقته المصيبة، فهناك مصائب لكن بين أن تفهمها علاجاً، وبين أن تفهمها انتقاماً، بين أن تفهمها يداً عادلة حكيمة، وبين أن تفهم المصائب خبط عشواء تصيب أو لا تصيب، بين أن تفهم عن الله عدالته، وبين أن تتوهم أن هناك حظوظاً بلا مبررات، فربنا عز وجل يطمئننا فيقول:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

ذكرت هذا كثيراً جداً، كلمة:

(مِنْ مُصِيبَةٍ)

هذه (من) تفيد في اللغة العربية استغراق أفراد النوع مهما دقت، فإذا قال لك شخص: هل عندك رغبة أن نعمل عملاً تجارياً معاً؟ تقول له: ما المشروع؟ يقول لك: نفتح مثلاً معهداً تعليميًّا، أو تجارة، أو استيراداً، تقول: كم يكلف هذا المشروع؟ يقول لك: خمسة ملايين، أنت معك مليون واحد، يريد النصف، تقول: ما عندي مال لهذا المشروع، هذه الكلمة تعني أنه ليس معك ثلاثة ملايين، نصف التكلفة، لكن معك مليوناً، كلمة ما عندي مال لا تعني أنك لا تملك مليونًا، لكن تعني أنك لا تملك المال الكافي لهذا المشروع، الآن دقق، لو قلت لهذا الذي عرض عليك المشروع: ما عندي من مال، أي ليس معك ولا ليرة واحدة، لأن من تفيد استغراق أفراد النوع.

أيّ مصيبة مهما كانت في جميع شؤون الحياة لا تكون إلا بإذن الله :

الآن طبق هذه القاعدة - (من) لاستغراق أفراد النوع - في هذه الآية:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ)

مسمار في باب لم تنتبه إليه، فخدش جلدك خدشًا بسيطًا، هذه مصيبة، إنسان سمع بوق سيارة فجأة، ارتعب ثانية، وانتهى الأمر، ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر،

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ)

أيّ مصيبة مهما كانت، في جميع شؤون الحياة:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(بِإِذْنِ اللَّهِ)

أي أذن الله أن تكون، ومعنى أذن أن تكون هذه المصيبة المؤلمة ما الذي سمح لها أن تصل إليك؟ تصور إنسانًا يمسك بيده زمام وحش، وإنسانًا يقف في مكان ما، فإذا أرخينا زمام هذا الوحش وصل إلى ذاك الإنسان، وإذا شددنا الزمام ابتعد عنه.

ما معنى أن يأذن الله لمصيبة أن تقع؟ أي سمح لها أن تصل إليك، إذاً من الذي سمح لها؟ رب كريم.. خالق عظيم.. عليم حكيم كريم.. عادل.

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

من تنكشف له الحكمة من المصيبة تنقلب المصيبة عنده إلى نعمة :

الله عز وجل حينما يأذن أي سمح للسبب أن يفعل فعله، لو فرضنا ناراً، الله عز وجل أودع فيها قوة الإحراق.. متى يأذن الله للنار أن تحرق؟ عندما يجمع بين هذا الشيء الذي أذن له أن يحرق وبين النار، الجمع هو الإذن، أحياناً النار لا تؤثر كما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه السلام الله، لم يأذن لها أن تحرق.

الله جل جلاله أذن لهذا الدواء أن يفعل فعله، أو لم يأذن، لم يأذن الله له أن يفعل فعله، فالمريض لم يشف، أحياناً أذن الله لهذه الشظية أن تصل إلى فلان، فأصيب بجراح، أو لم يأذن له، أذن لهذه النقطة من الدم المتجمدة أن تصل إلى مركز الذاكرة في الدماغ ففقد ذاكرته، هذه مصيبة.. من أذن لهذه الخثرة أن تصل إلى الدماغ؟ الله جل جلاله.

فأنت لمجرد أن توقن أن كل مصيبة وقعت أذن الله بها، وأن الله عز وجل كريم، ورحيم، وعادل، وغني، ومربٍّ، إذا انكشفت لك الحكمة في المصيبة انقلبت المصيبة إلى نعمة.

شخص يسير في السوق، تلقى ضرباً على رقبته شديداً، فغلى دمه، والتفت ليبطش بالضارب، فإذا عقرب على الأرض، كان هذا الإنسان قد نفضه عن رقبته.. كيف في ثانية واحدة ينقلب حمقه إلى رضاً وشكراً! وهناك أمثلة كثيرة، يتبدل ضيق الإنسان وألمه في ثانية إلى شكر.

وأنا أعتقد أن في حياة كل واحد من أخواننا الكرام شيئًا ظاهره مؤلم جداً، بعد حين تكشف عن خير كبير، فشكر الله.

مرة قلت لكم: لي قريبة فحصت نفسها في مستشفى، فكانت النتيجة مؤلمة جداً، مرض في الصدر خبيث، فانزوت في غرفتها، وجعلت تبكي، المرض مُعدٍ، عزلت عن أخواتها، وأكلت وحدها، اسودت الدنيا في عينيها، وتألمت أشد الألم، ويئست أشد اليأس، ثم خطر لها أن تتوب إلى الله، فتابت، وصلّت، وتحجبت، وقرأت القرآن، واتجهت إلى الله، ثم فوجئت أن هذه النتيجة لم تكن لها، أعطيت لها بالخطأ، إذاً هذه الأيام المؤلمة التي أمضتها هذه الفتاة تحت شبح هذا المرض الخطير، بهذا الشبح الخطير نقلها الله عز وجل من التفلت إلى التوبة، ومن الجهل إلى العلم، ومن الضياع إلى الوجدان، بعد حين حينما ترقى في معرفة الله، وتتصل بالله، ألا تشكر الله على هذه الأزمة التي ألمت بها؟

من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر :

صدقوني أيها الأخوة، كل واحد منا صادق مع الله حينما يكشف الله له حكمة المصيبة التي ألمت به يذوب مثل الشمعة شكراً لله على هذه المصيبة، لعله في أولها يتألم، لعله وهو فيها يتألم، أما حينما يعرف نتائجها فيشكر الله عليها.

أعرف شخصًا متفلتاً هو وزوجته أشد التفلت.. عقيدته فاسدة أشد الفساد.. ليس عنده شيء اسمه حلال ولا حرام، ولا آخرة، يعيش لحظته، له فتاة يموت في حبها، أصيبت بمرض عضال في جسمها، لم يدَع طبيباً حتى اضطر إلى أن يبيع بيته، ثم جاءه إلهام الملك أن أيها الإنسان تب إلى الله أنت وزوجتك، لعل الله يشفيها فتاب، وبعد حين تراجع المرض شيئاً فشيئاً، ودعيتُ إلى إلقاء كلمة في عقد قران هذه الفتاة، قلت له: هيَ هِي، فقال لي: هي هِي، عاد هو وزوجته إلى الله، وتابا، وأقبلا، وصلح إيمانهما، وسعدا في الدنيا، وهذا المرض جاء كالضيف، ثم خرج، جاء وهما متفلتان، وخرج وهما تائبان، فإذا تذكرا هذا المرض ألا يشكران الله على أن ساق لابنتهما هذا المرض؟ والبنت شفيت، وتزوجت، وهي الآن قرة عين أبيها، هكذا أفعال الله.

أيها الأخوة الكرام، المصيبة الحقيقية ألا تؤثر المصيبة في الإنسان، هذه أكبر مصيبة، حينما يصاب الإنسان بمصيبة، ولا يتأثر بها، ولا يفسرها تفسيراً تربوياً إلهياً فهو في أكبر مصيبة، من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر.

المصيبة عدل ورحمة وحكمة :

إلا أن النقطة الرئيسة في هذه الآية:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

والله لو وقفت عند هذه الكلمة:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

أي أن الله سمح بها، العليم سمح.. الرب الحكيم سمح.. العادل سمح، معنى ذلك أن المصيبة فيها عدل ورحمة وحكمة، هكذا المعنى، إذا قلت: فلان الطبيب وصف الدواء، معنى ذلك أنه دواء مناسب جداً، إذا قلت: أستاذ الرياضيات في الجامعة قال كذا، يعني أن كلامه صحيح، فحينما يقول الله عز وجل:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

أي أن أسماء الله الحسنى كلها في هذه المصبية، وربنا عز وجل ذكر في القرآن الكريم قصة أصحاب السفينة التي خرقت سفينتهم، شيء مؤلم جداً، سفينة جديدة تخرق، فلما علم بعد حين أنها نجت من المصادرة انقلبت من مصيبة إلى عمل طيب.

وأصحاب الجنة الذين أقسموا ألا يعطوا الفقير، فلما طاف على جنتهم طائف أذهب محصولهم، تألموا ألماً شديداً، فلما كانت هذه المصيبة سبب هدايتهم عندئذ سعدوا أعظم السعادة، ربنا عز وجل علّق على هذه القصة في سورة القلم قال:

(كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة القلم: 33]

أي يا عبادي، كل أنواع العذاب الذي أسوقه لعبادي في الدنيا من هذا النوع، اجعل هذه القصة مثلاً وقس عليها كل قصة:

كن عن همومك معرضاً و كِلِ الأمور إلى القضا
و أبشر بخير عاجـل تنسى به ما قد مضـى
ولرُبّ أمر مسخط لـك في عواقبه رضـــا
ولربما ضاق المضـيق ولربما اتسع الفضـــا
الله يفعل ما يشـــاء فلا تكن معترضـــا

الله عودك الجمـــيل فقس على ما قد مـضى

***

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ)

المصائب هي النعم الباطنة :

الآن:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ)

أي أن الذي ساق المصيبة هو إله رحيم، ورب كريم، وأحكم الحاكمين، وهو إله عادل، يربينا، عنده خزائن كل شيء، يفقر الإنسان، لا لأن الله لا يستطيع أن يطعمه، لكن ليؤدبه:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

إلى حكمة هذه المصيبة، وإذا ظهرت الحكمة انقلبت المصيبة إلى رحمة.. انقلبت إلى نعمة، قال تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

المصائب هي النعم الباطنة، إذا انكشفت لك حكمة المصيبة انقلبت إلى رحمة، أو إلى نعمة.

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

المصيبة إن كانت تأديباً يترك الإنسان الذنب وإن كانت ترقية يصبر :

هناك معنى ثانٍ، وهو ثمين جداً، أن من يستقيم على أمر الله لماذا المصيبة؟ قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

أي إن أردت ألا تكون مصيبة فآمن بالله، واستقم على أمره، واهتدِ إلى رضوانه، إذا آمنت أن الله رب العالمين، وهو أرحم الراحمين، وهو أحكم الحاكمين، هداك إلى حكمتها، فإذا هداك إلى حكمتها انقلبت هذه المصيبة إلى رحمة، نعمة باطنة، أما لو أن هذه المصيبة مصيبة ردع فتبت، واستقمت على الأمر، وانتهى كل شيء، فإما أن يكشف لك أنها ترقى بك، أو أنها تأديب لك، إن كانت تأديباً تركت الذنب، وإن كانت ترقية صبرت.

المعنى الثاني:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

إلى طاعته، وإلى الفوز برضوانه، وإلى العمل بشرعه، عندئذ لا يستحق المصيبة، ولا يحتاجها إطلاقاً:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

المؤمن يفهم المصيبة أنها نعمة باطنة وتأديب وابتلاء :

أيها الأخوة، مرة ثالثة، ورابعة، وخامسة: فلسفة المصائب جزء من عقيدة المسلم، الكافر كالناقة عقَلَها أهلُها، لا تدري لم عُقِلتْ؟ ولا لم أُطلقت؟ الآن أكثر الناس يفسرون المصائب بأن الدهر يوم لك ويوم عليك، فلان ليس له حظ.. فلان القدر له بالمرصاد، كلام ليس له معنى.. كلام فيه كفر.. كلام فيه نقض لرحمة الله، أما المؤمن فيفهم المصيبة على النحو الذي أراد الله عز وجل.. يفهمها نعمة باطنةً.. يفهمها تأديباً.. يفهمها ابتلاءً.. يفهمها ترقيةً.. يفهمها محبةً.

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 12-14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-11-29

بسم الله الرحمن الرحيم

طاعة رسول الله عين طاعة الله وطاعة الله عين طاعة رسول الله :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس وربما الأخير، ومع الآية الثانية عشرة، يقول الله عز وجل:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

الحقيقة أن هذه الآية تعد أصلاً في وجوب طاعة رسول الله مع طاعة الله، لأن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يبيّن، ويفصّل، قال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

فمن استنكف عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو يستنكف عن طاعة الله، ويقول الله عز وجل:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

[سورة النساء: 80]

طاعة رسول الله عين طاعة الله، وطاعة الله عين طاعة رسول الله، وإرضاء رسول الله عين إرضاء الله، وإرضاء الله عين إرضاء رسول الله:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

[سورة التوبة: 62]

بضمير المفرد الغائب:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

[سورة ا النساء: 65]

(فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة ا النور: 63]

إذاً الله جل جلاله أمرنا أن نطيع رسوله، وطاعة رسول الله طاعة لله عز وجل.

النبي الكريم عصمه الله عز وجل من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره :

وفي آية أخرى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

[سورة ا النساء: 59]

أولي الأمر هم العلماء والأمراء، فإن تنازعتم في شيء مع علمائكم وأمرائكم فردوه إلى الله في كتابه، وإلى الرسول في سنته، قال عليه الصلاة والسلام:

((تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ))

[الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ...))

[أحمد عَن العِرْبَاض بْن سَارِيَة]

النبي صلى الله عليه وسلم عصمه الله عز وجل من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وأحواله، وأمرنا أن نطيعه، ولولا أنه معصوم لكان في أمر الله لطاعته أمراً بمعصية، لكن الله عز وجل عصمه، وأمرنا أن نطيعه، لأنه معصوم ولأنه يوحى إليه.

أي دعوة إلى نبذ السنة هي دعوة إلى نبذ الدين :

إذاً.. هناك دعوة للاكتفاء بالقرآن الكريم، و نبذ السنة، وعدّ السنة فهماً مرحلياً فهمه النبي صلى الله عليه وسلم، وانتهت هذه المرحلة، ينبغي أن نفهم القرآن فهماً آخر، هذه دعوة مغرضة، لأنهم لم يستطيعوا مواجهة الإسلام مواجهة صريحة، فسلكوا طرائق ملتوية لتفجير الإسلام من داخله، فأي دعوة إلى نبذ السنة هي دعوة إلى نبذ الدين، لأن الله عز وجل يقول:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

يجب أن تطيع الله في قرآنه، وأن تطيع النبي في سنته، السنة مبينة ومفصلة، تقيد المطلق، وتخصص العام، توضح المجمل وتفصّله، فالسنة مصدرٍ ثانٍ للشريعة الإسلامية، وعلماء الأصول قالوا: "هناك وحي متلو هو القرآن الكريم، ووحي غير متلو هو السنة المطهرة"، بل إن الله جلّ جلاله أراد أن يثبت محبته بطاعة رسوله قال:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

إذاً الدعوة التي تقوم على الاكتفاء بالقرآن الكريم هذه دعوة باطلة مخالفة لنص القرآن الكريم، لأن الله يأمرنا أن نأخذ ما أمرنا الرسول، وأن نترك ما نهانا فقال:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

بعضهم فهم هذه الآية على أن ما أتاكم من غنائم فخذوها، كلمة نهاكم تشعر أن الإيتاء هو الأمر، وليس الغنيمة، أمركم ونهاكم، أتاكم وأمركم:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

بل إن الذين يخالفون عن أمره توعدهم الله عز وجل بعذاب في الآخرة، بل إن طاعة رسول الله هي عين طاعة الله.

النبي حجم مهمته كقدوة أكبر بكثير من حجم مهمته كمبلّغ :

النبي عليه الصلاة والسلام فضلاً عن أنه مبلغ هو قدوة، بل إن حجم مهمته كقدوة أكبر بكثير من حجم مهمته كمبلغ، لأن الإنسان لا يقبل منهجاً إلا بمَثَلٍ مطبق لهذا المنهج .

أنت يمكن أن تذهب إلى طبيب، وتعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الطبيب ليس مستقيماً على أمر الله، بل إنه متفلت منه، لكن اختصاصه من أعلى مستوى، أنت تسلّمه نفسك، ولا تلقي بالاً إلى فسقه أو فجوره، هذا يمكن أن يكون في الطب، أو الهندسة، إلا في الدين، لا يمكن أن تقبل عالماً غير مطبق لما يقول، حينما لا يطبق ما يقول تسقط قيمة علمه، وتسقط أسوته، فالنبي عليه الصلاة والسلام حجة على الناس جميعاً، لأنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر، انتصر على نفسه، وكان سيد البشر:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أوامر النبي ونواهيه ليست من خبراته و لا من تجاربه إنما هي وحي يوحى :

أيها الأخوة، حينما تعتقد أن النبي إنسان عبقري، وإنسان ذكي جداً، وإنسان استوعب ثقافة عصره، واستطاع أن يجمع العرب، وأن يوجههم لهدف واحد فأنت بهذا لا تدري أنك تتابع المستشرقين الذين ينفون عن النبي نبوته ووحيه، أوامره ونواهيه ليست من خبراته، وليست من ذكائه، وليست حصيلة تجاربه، إنما هي وحي يوحى.

قضية دقيقة، أعداء الإسلام ينفدون إلى الإسلام من باب أن النبي عبقري، وأنه أكبر مصلح اجتماعي استوعب معطيات العصر، وجمع الناس، واستمال قلوبهم، ووجههم إلى هدف واحد، هذا كلام مرفوض، النبي عليه الصلاة والسلام نبي مرسل، ويوحى إليه، وما نطق كلمة من ثقافته، ولا من معطياته، ولا من خبرته، فالذي قاله النبي حق لا محالة فيه، حتى في شؤون الدنيا، وكلما تقدم العلم التقى مع أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، فلذلك ليحذر أحدنا أن ينساق وراء من يمجدون النبي، ويضفون عليه العبقرية والقوة في شخصيته، هؤلاء لا يريدون أنه نبي، هو نبي مرسل، يبلغ الناس ما أوحي إليه، يعطي ما يأخذه من ربه، كلامه تشريع.. أعماله تشريع.. إقراره تشريع.. أحواله تشريع.. صفاته تشريع، عصمه الله من أن يخطئ في أقواله وأفعاله، وإقراره وصفاته، أمرنا أن نأخذ عنه كل أوامره، وأن ننتهي عمّا نهانا، جعله الله لنا قدوة وأسوة، فقال:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

[سورة الأحزاب: 21]

فالنبي عليه الصلاة والسلام له مهمتان: مهمة التبليغ، ومهمة القدوة والأسوة، بل إن قوة تأثيره صلى الله عليه وسلم في المؤمنين لا لأنه بلغهم بل لأنه كان أسوة لهم، ما قال شيئاً إلا طبقه.

النبي الكريم انتزع إعجاب أصحابه من خلال تطبيقه لما يأمرهم به :

النبي عليه الصلاة والسلام انتزع إعجاب أصحابه من خلال تطبيقه لما يأمرهم به، كان إذا أمرهم بأمر كان أولّ من ائتمر به، وإذا نهاهم عن أمر كان أولّ من ينتهي، كان قدوة كاملة.

مرة جاءه صحابي جليل مهاجر، استطاع هذا الصحابي أن يَعِدَ الذين اعترضوا على هجرته ألاّ يقاتلهم، وانضم هذا الصحابي إلى النبي، وعاش في المدينة، وبعد حين كانت غزوة بين المسلمين والكفار، فإذا بهذا الصحابي الجليل يندفع ليغزو مع رسول الله، يقول له النبي عليه الصلاة والسلام: ارجع، ألم تعاهدهم؟

الشيء الذي يلفت النظر، والشيء الذي ينتزع الإعجاب أن أصحابه الكرام رأوا كل فضائله رأيّ العين، رأوا تواضعه، وورعه، وجهده، ورحمته، تعلقوا به لا لأن أقواله مقنعة فحسب، بل لأنهم رأوا قرآناً يمشي، السيدة عائشة رضي الله عنها سئلت عن خلق النبي عليه الصلاة والسلام قالت:

((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ))

[مسلم عن عائشة]

بعضهم قال: القرآن كون ناطق، والكون قرآن صامت، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي. كان مع أصحابه، وأرادوا أن يعالجوا شاة، قال بعضهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال

الثالث: عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: عليّ جمع الحطب، واختار أصعب مهمة، قيل له: يا رسول الله نكفيك هذه المهمة؟ فقال: أعلم أنكم تكفونني ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً عن خَلْقه .

((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ، قَالَ: فَجَلَسْتُ، فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَقَرَظٍ فِي نَاحِيَةٍ فِي الْغُرْفَةِ، وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَالِي لَا أَبْكِي، وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَلِكَ كِسْرَى وَقَيْصَرُ فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ؟ قَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟ قُلْتُ: بَلَى))

[ابن ماجه عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ]

كان يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد.

النبي عليه الصلاة والسلام أسوة لنا ذاق طعم :

1 ـ القهر :

كان عليه الصلاة والسلام قدوة وأسوة، ذاق القهر في الطائف فقال:

((إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى لكن عافيتك لي أوسع))

[الجامع الصغير عن عبد الله بن جعفر بسند ضعيف]

2 ـ النصر :

وذاق النصر في مكة، فحنى رأسه تواضعاً لله عز وجل، حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله، وشكراً على نعمة الفتح.

ذاق ألم الجوع، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[الترمذي وابن ماجه عَنْ أَنَسٍ]

3 - الجوع :

ذاق طعم الجوع، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ:

((يَا عَائِشَةُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟ قالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ...))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

4 - الغنى :

وذاق الغنى، فقيل له: لمن هذا الوادي؟.. واد من غنم.. قال: هو لك، قال: أتهزأ بي؟ قال: لا والله، إنما هو لك، قال: أشهد أنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

5 - موت الولد :

ذاق موت الولد، وموت الولد صعب جداً ذرفت عيناه قيل له: أتبكي يا رسول الله؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[البخاري عن أنس]

6 - الانتزاع من بلده :

ذاق الانتزاع من بلده، والإنسان قوي في بلده، في بيته، في عمله، انتزع من وسط مكة، فقال: "اللهم إني خرجت من أحبّ البلاد إليّ فأسكني أحبّ البلاد إليك".

دخل إلى المدينة غريباً، سكنها، وأحبّ الأنصار وأحبّوه، ذاق الهجرة، ذاق موت الولد، ذاق أن يقال عن زوجته السيدة عائشة ما قيل في حديث الإفك، ومع ذلك كان صابراً، وانتظر الوحي أربعين يوماً حتى نزلت براءة السيدة عائشة، وفي هذه الأيام كيف كان حاله؟ ماذا يقول والناس كلهم يتحدثون عن زوجته أنها قد زلت قدمها ويعرفها طاهرة عفيفة؟ هذه محنة ذاقها النبي عليه الصلاة والسلام، ذاق محنة تزويج البنات، زوج ابنته زينب لأبي العاصي، رآه أسيراً مع الأسرى، جاء ليقاتله، وهو صهره، فأثنى عليه أنه صهر ممتاز، وقال: والله ما ذممناه صهراً.

لأنه ذاق كل شيء جعله الله أسوة لنا، لو أنه ذاق الغنى، ولم يذق الفقر، وأمَرَ الفقراء بالصبر لما صدقه الفقراء، ولكن جاع مثلهم، وتمنى المال مثلهم، هذا هو النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

ثقة النبي الكريم بالله عز وجل :

سار النبي صلى الله عليه وسلم في مضائق صعبة جداً، حينما ائتمروا على قتله في مكة، حينما أخرجوه من مكة، حينما أهدر دمه، حينما وضعوا مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، محنة الهجرة محنة عصيبة، إنسان مهدور دمه، وملاحق، أي إنسان ألقى القبض عليه نال مئة ناقة، تبعه سراقة، وغاصت قدما الخيل في الرمال مرة أو مرتين أو ثلاثاً، حتى شعر أن هذا الإنسان ممنوع منه، فقال الرسول: كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟ ما هذه الثقة بالله عز وجل؟ يا رسول الله، أنت ملاحق ومهدور الدم تَعِدُ سراقة بأن يلبس سواري كسرى؟! ما هذه الثقة بنصر الله لك؟! معنى ذلك أنه سيصل إلى المدينة سالماً، وسيؤسس دولة عظمى، وستحارب الفرس والروم، وسيأتي قواده من بعده بتاج كسرى، وسيلبس سراقة سواري كسرى، في عهد عمر جاءت الغنائم، فإذا فيها تاج كسرى وقميصه وسواريه، قال سيدنا عمر: أين سراقة؟ استدعى سراقة، وألبسه سواري كسرى، وقال: بخ بَخ، أعرابي من بني مدلج يلبس سواري كسرى، تحققت النبوة .

التقى بعَدِيّ فقال: لعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم؟ - الصحابة كانوا فقراء جداً - فو الذي نفس محمد بيده ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، سيدنا سعد فيما أذكر، أو سيدنا معاذ أرسله عمر رضي الله عنهم إلى اليمن، فبعث إليه بنصف الزكاة، وقال: والله ما وجدت أحداً في الأعوام القادمة بعث إليّ الزكاة؟ قال: والله ما وجدت أحداً يأخذها مني. ولعل إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف .

ولعل إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، كما هي الحال الآن، فو الذي نفس محمد بيده ليوشك أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم.

دليل محبتنا لله هو طاعتنا لرسوله :

أيها الأخوة، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، لأن خلاصنا بطاعة رسولنا، وبالصلح مع ربنا، خلاصنا بالسير على منهج الله ومنهج رسوله، بل يجب أن نعلم علم اليقين أن دليل محبتنا لله هو طاعتنا لرسوله:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران: 31]

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ)

الإنسان مخير، بإمكانه أن يطيع الله ورسوله وبإمكانه أن يعصيهما، هو مخير.

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

الله عز وجل قال له:

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

[سورة الغاشية: 22]

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة البقرة: 272]

الإنسان مخير :

الإنسان مخير، الذي يشاء الهدى يهتدي، والذي يشاء الضلالة يضل، فلست مسؤولاً عن هدايتهم، وإنما عليك أن تبلغ فقط، وانتهت مهمتك، لكنهم مخيرون، إما أن يستجيبوا، وإما ألا يستجيبوا، والآية الكريمة تقول:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

أليس في هذه الآية تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إنهم إذا استجابوا لك استجابوا لله، إن طاعتهم لك طاعة لي.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

الإنسان مبلَّغ، وأقيمت عليه الحجة بهذا الإبلاغ، بقي أن يستجيب.

مراحل السير إلى الله عز وجل :

ذكرت لكم في دروس سابقة أن الإنسان يمر بثلاث مراحل في سيره إلى الله، الإنسان يدعى إلى الله دعوة بيانية بالكلام، يسمع خطبة أو درساً أو شريطًا، أو يقرأ كتاباً، هذه دعوة بيانية، ينبغي أن يستجيب لله وللرسول، فإن لم يستجب يدخل في مرحلة أخرى، مرحلة التأديب التربوي، تساق إليه الشدائد من أجل أن يصطلح مع الله.. من أجل أن يساق إلى باب الله.. من أجل أن يصحو من غفلته.. من أجل أن يردع نفسه عن سهوته، الأولى إذا دخل في مرحلة التأديب التربوي أن يتوب إلى الله، فإن لم يتب دخل في المرحلة الثالثة قبل الأخيرة، المرحلة الثالثة يكرم إكراماً استدراجياً:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام: 44]

الأولى مع هذا التأديب الاستدراجي أن يتوب ويشكر، الأولى مع الدعوة البيانية أن يستجيب ويؤمن، ومع التأديب التربوي أن يتوب ويؤمن، ومع الإكرام الاستدراجي أن يشكر ويؤمن، فإن لم يؤمن لا بالدعوة البيانية ولا بالتأديب التربوي ولا بالإكرام الاستدراجي فلا بدّ من القصم، عندئذ يقصمه الله عز وجل، وينتهي الأمر:

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

من دعي إلى الخير و استجاب لله فهو الرابح الأول :

إذا دعي الإنسان إلى الخير، وتولى مَن يضر؟ يضر نفسه، إذا صنعت الأم طعاماً نفيساً جداً ودعت أولادها ليأكلوا من هذا الطعام، وأحد أولادها ركب رأسه فاستنكف عن تناول الطعام أضرّ من؟ أضرّ نفسه:

(فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

[سورة يونس: 108]

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

[سورة محمد: 38]

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

[سورة الحجرات: 17]

إذا أصغيت إلى الحق وإن استجبت له فأنت الرابح الأول، لا تمنّ على الله هذا الإسلام، بل الله يمنّ عليك أن أسمعك الحق:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال: 23]

هذه بشارة لنا جميعاً.

من أسمعه الله الحق فهو من المهتدين و المقربين :

إذا استمعنا إلى الحق فلعل الله علم فينا خيراً، هناك مئات الملايين يعبدون البقر، هناك من يعبد الجرذان، هناك من يعبد موج البحر، هناك من يعبد النار، هناك من يعبد الشمس، هناك من يعبد آلهة من بني البشر، يعبدونهم من دون الله، إذا أسمعك الله الحق، وأذن لك أن تعبده فأنت من المهتدين، وأنت من المقربين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

لأنه يحبكم، ولأنه يربيكم، ولأنه رحيم بكم، ولأنه حريص على سعادتكم:

(إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا)

[سورة التوبة: 39]

الله مع الإنسان في كل مكان يعلم ما يفعل :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

الله لا إله إلا هو، أينما ذهبتم لو أطعتم غير الله كان مصيركم إليه، وأمركم بيده، ورزقكم بيده، وحياتكم بيده، وشؤون حياتكم كلها بيده، لا مسيّر، ولا خافض ولا رافع، ولا معطي ولا مانع، ولا معين إلا الله، إذا تولى إنسان عن الله إلى أين سيذهب؟ الله معك في كل مكان يعلم ما تفعل.

الإنسان أحياناً يترك بلداً، ويذهب إلى بلد آخر، القائمون في البلد الذي تركه لا سلطان لهم على البلد الثاني، لذلك يسمونه لاجئًا، يحتمي بالبلد الثاني، أما أنت فمع الله، هل تستطيع أن تفر من ملكه؟ لا ملجأ منه إلا إليه.

سأل رجل أحد العارفين بالله، قال: أريد أن أعصي الله، قال: اعصه إذا توافرت خمس خصال، قال: ما هي؟ قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، قال: وأين أسكن إذاً؟ قال: تسكن أرضه وتعصيه؟! قال: هات الثانية، قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه، قال: آكل ماذا؟ قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه؟! قال له هات الثالثة، قال: إذا أردت أن تعصيه فاعصه في مكان لا يراك فيه، قال: هو معي أينما ذهبت، قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه، وهو يراك؟! عجبت لك، قال: هات الرابعة، قال: إذا أردت أن تعصيه وجاء ملك الموت فلا تذهب معه، قال: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه، وهو يراك، ولا تستطيع أن تعارض ملك الموت إذا جاء ليأخذك؟! قال: هات الخامسة، قال: إذا جاءك الزبانية ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم، قال: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه، وهو يراك، ولن تستطيع أن تمتنع لا عن ملك الموت ولا عن زبانية جهنم، وتبقى تعصيه؟! فقال الرجل: كفيت.

ليس هناك جهة تنتقل من مكان إلى مكان من دون أن يراك، أنت في قبضته، لو أنك توليت عنه فرزقك وصحتك وقلبك وكل شيء في يده، هل تملك أن هذه الخلايا لا تورم ورمًا خبيثًا؟ من منّا يملك ذلك .

من ازداد توحيداً ازداد إيماناً وثقة بالله عز وجل :

الله لا إله إلا هو، هذا هو التوحيد، الدين كله توحيد، ألا ترى مع الله أحداً، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، حياتك، ورزقك، وأهلك، وتوفيقك، وإخفاقك بيده، وكلما ازددت توحيداً ازددت إيماناً وثقة بالله عز وجل.

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ)

إلى أين أنتم ذاهبون؟ أنتم في قبضة الله، هل تستطيعون أن تتفلتوا من قبضته؟ هل تستطيعون أن تتلافوا قضاءه وقدره؟ هل تستطيعون أن تنجوا من عقابه؟

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

ومادام الله هو كل شيء، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، هو السميع البصير، العزيز المتين، إذًا:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

ما من عبد يعتصم بي من دون عبادي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السموات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، شتان بين من يعتصم بالله، ومن يعتصم بأحد من خَلقه.. وشتان بين من يجعل كل همّه إرضاء الله عز وجل و بين من يجعل كل همّه إرضاء فلان أو علان، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

أنواع الخوف :

مرّ بنا اليوم في الخطبة أن هناك خوفان: خوف إيجابي وخوف سلبي، الخوف الإيجابي أن تخاف من الله، فإذا خفت من الله وحده أمّنك، تخاف لتأمن، والخوف السلبي أن تخاف من غير الله، فإذا خفت من غير الله اضطربت، وانقلبت حياتك إلى شقاء.

الله لا إله إلا هو، بيده كل شيء، فالأولى لكم:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

لكن غير المؤمن لا يستطيع أن يتوكل على الله، أما المؤمن فبإيمانه واستقامته وطلب رضوان الله عز وجل بإمكانه أن يتوكل على الله، يا أبا الدرداء احترق محلك؟ قال: ما كان الله ليفعل، قالوا: احترق

محلك، قال: اذهبوا وتأكدوا لم يحترق محلي، فلما ذهبوا إلى محله وجدوا دكان جاره قد احترقت، فلما عادوا إليه قال: أعلم ذلك.

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

من كان مع الله كان الله معه :

الحسن البصري، وقد ذكرت ذلك في الخطبة اليوم أدى أمانة العلم، فأغضب الحجاج، فأمر بقتله، فجيء بالسياف، ومدّ النطع - رداء ليحفظ المكان من دماء المقتول - واستدعي الحسن البصري ليقتل، فلما دخل عرف ماذا ينتظره، فحرك شفتيه بكلمات لم يفهمها أحد، فما كان من الحجاج إلا أن وقف له، واستقبله، وقربه من سريره، وأجلسه على سريره، وقال: يا أبا سعيد، أنت سيد العلماء، وعطره، واستفتاه، وأكرمه، وودعه، أما الرجلان اللذان لم يفهما ما حصل فهما السياف الذي استدعي ليقتله، والحاجب، تبعه الحاجب فقال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت قبل أن تدخل؟ قال: قلت يا مؤنسي في وحشتي.. يا ملاذي عند كربتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

أنت بيد الله عز وجل، والحجاج بيد الله، وكل شيء بيد الله، فإذا كنت مع الله فمن عليك؟ وإذا لم تكن مع الله فمن معك ؟

عموم القصد في الآية التالية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

طبعاً (مِن) للتبعيض أي إن بعض أزواجكم، وإن بعض أولادكم عدوٌّ لكم، قال بعض العلماء: ليست عداوة حال، وإنما عداوة مآل.

فرضاً أنت لك شريك أشار عليك أن تتاجر ببضاعة ممنوعة قانونياً، وأغراك بربح وفير، ومنّاك الأماني العريضة، فصدقته، وأحببته، وسمعت نصيحته، فلما وقعت في قبضة العدالة رأيته عدواً لك، متى رأيته عدواً لك؟ بعد أن وقعت في قبضة العدالة.

فالإنسان يحب زوجته، ويحب أولاده، ولكن حينما تقول البنت يوم القيامة: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه ما علمني، وما حفظني، وما عرفني بك، أطلق لي العنان، خرجت كما أريد، زلت قدمي فلم يحاسبني، لم يعترض على خروجي، ولا على طريقة خروجي، ولا على ثيابي، ولا على صلاتي، ولا على ديني، طبعاً هو في الدنيا عليه ضغط من زوجته ليغير هذا البيت، ويطليه، إلى آخره،

وليس معه دخل، فاضطر إلى كسب المال الحرام ليرضي زوجته، يوم القيامة حينما يرى أنه في قبضة الله، وسيواجه عذاب النار يرى أن أعدى أعدائه زوجته التي استجاب لها، وعصى الله من أجلها، لذلك كانت الصحابية الجليلة تقول: يا فلان، اتق الله بنا، نحن بك، إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام.

المرأة المسلمة لا تحمل زوجها فوق ما يطيق، لا تكلفه ما لا يطيق، المرأة من شأنها أنها تحب المظاهر، فإذا دفعت زوجها لكسب مال حرام كانت عدوة له:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ)

هذا عموم القصد في الآية.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

أما خصوص السبب فكان بعض المؤمنين في مكة المكرمة أرادوا أن يهاجروا مع رسول الله، لكن أزواجهم وأولادهم حالوا بينهم وبين الهجرة، أين ستتركنا؟ عندك هنا بيت وتجارة، فهؤلاء الأزواج والأولاد حملوا أزواجهم على ترك الهجرة مع رسول الله، فخسروا خسارة كبيرة جداً، فهؤلاء يوم القيامة تتضح عداوتهم، إنما هي عداوة مآل، وليست عداوة حال، فكل زوج يطيع زوجته ويعصي الله.. يرضي زوجته بسخط الله.. يعطيها رغباتها على حساب طاعته لله.. أو يرضي أولاده على حساب طاعته لله فسيرى زوجته وأولاده أعداء ألداء له يوم القيامة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

قالت له: يا فلان أعطني.. افعل كذا، افعل كما يفعل فلان، قال: يا أمَة، إن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك، هكذا وقف أحد الصحابة.

صحابي آخر قالت له أمه: إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت، قال يا أمي: لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة وَاحدة ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئت أو لا تأكلي.

الحق ليس فيه مساومة، الحق ليس فيه رضا وغضب، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان: 15]

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

[سورة الكهف:28]

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

أحيانا الإنسان يجد معارضة من بيته، من زوجته، من أولاده، من أقرب الناس إليه، المؤمن الصادق لا يعبأ:

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

[سورة الأنعام: 91]

حياة المؤمن مبادئ وقيم ومُثل عليه أن يحافظ عليها :

الله ربي.. الله قصدي، لا إله سواه، المؤمن عنده مواقف قوية.. عنده مواقف مبدئية.. عنده قضايا لا تقبل المساومة، ماذا يريد فتًى من فتيان قريش؟ لو أردت ملكاً لملكناك علينا، لو أردت الجمال لزوجناك أجمل نسائنا، لو أردت المال لجعلناك أغنانا، قال:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية لابن هشام]

يوجد في حياة المؤمن مبادئ وقيم ومُثل، والأهم منهج، يناور بما هو مباح، يتساهل بما هو مقبول ومشروع، ولكن عنده خطوط حمر لا يتجاوزها.

المؤمن كيّس فطن حذر :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

دقة الآية بكلمة (من)، ليس كل الزوجات أعداء لأزواجهم، (إن من) أي بعض الزوجات المتعلقات بالدنيا.. الراغبات في المظاهر، هؤلاء يدفعن أزواجهن إلى أن يعطيهن شيئاً من الدنيا تفوق طاقته، يحملنه على معصية الله، يدفعنه إلى أكل المال الحرام.

أنا أعرف رجلا شابًّا في مقتبل الحياة يعمل في محل جملة، فاكتشف صاحب المحل نقصاً في الغلة والبضاعة، أرسل له في غيبته من يشتري منه حاجة، وسأل هذا الموظف حينما قدِم هل جاء أحد؟ فقال: لا، أمر هذا الذي اشترى الحاجة أن يرجعها بوجوده، فلما أرجعها كشفت خيانته، ففصله من عمله، فصار يتوسل إليه أن يبقيه في عمله، واعتذر بأن زوجته طلباتها كثيرة لا يقوى على تلبيتها، فسلك هذا السلوك.. خسر سمعته وعمله لأنه استجاب لزوجته.

الله جل جلاله ما كلف المؤمن ما لا يطيق، أمرك النبي عليه الصلاة والسلام أن تطعم أهلك مما تأكل، وأن تلبسهم مما تلبس فقط، ما كلفك ما لا تطيق، لذلك الطلبات التي لا تستطيعها، والتي لا تتحقق إلا بالدخل الحرام اركلها بقدمك، ولا تعبأ، واللهُ في عون العبد إذا كان مع الله عز وجل.

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

المؤمن كيّس فطن حذر، قال تعالى:

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا)

أي طلبتْ شيئًا لا تقوى على تأمينه، لا ينبغي أن تحقد عليها، هي أرادت أن تسرك في الدنيا، لكن هذا لا يتيسر إلا بدخل حرام، فلا تعبأ بطلبها.

على الإنسان أن يكون صريحاً حتى لا يتحمل من الأعباء ما لا يطيق :

الحقيقة أن الآية لها خصوص سبب وعموم قصد، خصوص السبب بعض نساء المؤمنين في مكة منعن أزواجهن من الهجرة مع رسول الله، وفوّتن عليهم خيراً كثيراً، فلما علم أزواجهن ما ناله أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الذين هاجروا معه تألموا ألماً شديداً، وحقدوا على أهليهم وأولادهم، فقال الله عز وجل:

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أنت مادمتَ لم تنفذ فلا تعبأ بهذه الأقوال، طبعاً هذه المشكلة يعاني منها أكثر المسلمين، المرأة تظن الرجل على كل شيء قدير، هو لا يملك شيئاً، قد يدبر مصروفه بصعوبة بالغة جداً، تظن أن معه الشيء الكثير، والإنسان إذا صارح أهله بإمكاناته أولى من أن يخفي عليهم حجمه المالي، تظن أن معه المال الوفير، وهو ليس معه، فالأولى أن يكون صريحاً حتى لا يتحمل من الأعباء ما لا يطيق.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

من يمنعك من العمل الصالح لا ينفعك يوم القيامة :

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

[سورة الكهف: 46]

الباقيات الصالحات الأعمال الصالحة، النبي عليه الصلاة والسلام جاءته شاة فوزع معظمها، ولم يبقَ إلا كتفها:

((أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

كتفها الذي سنأكله هو الذي لم يبقَ، فلذلك الإنسان يجب أن يعمل صالحاً، ولا يلتفت إلى أحد، ولا يستأذن أحداً، ولا يطلب رضاء أحد، لأن الذي يمنعك من العمل الصالح لا ينفعك يوم القيامة.

شاب عليه زكاة مال محدد، فزوجته عملت على إقناعه بعدم دفع الزكاة، وأن تنفق على إصلاح البيت، بعد ضغط شديد استجاب لها، ولم يدفع زكاة ماله، وأنفق هذا المال على طلاء البيت، ثم فوجئ أن سيارته ضربت، الشيء اللطيف أنّ إصلاحها كلف تماماً ما يساوي الزكاة التي لم يدفعها، حق الله أحق أن يؤدى، افعل الخير ولا تعبأ بأحد.

كل شيء تنفقه في سبيل الله يخلفه الله عز وجل :

ثماني آيات في كتاب الله عز وجل تؤكد أن كل شيء تنفقه في سبيل الله يخلفه الله عز وجل، وأن كل شيء تنفقه يعلمه الله، أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، عبدي أنفق أُنفق عليك.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)

الإنسان يمتحن بالمال، قد يقول قائل: والله لو أن الله أغناني لأنفقنّ على الفقراء والمساكين، وسأبني مسجداً، وميتماً، ومستوصفاً، وسوف أدخل الفرحة على قلوب الناس، فإذا اغتنى أراد أن ينفق المال على متاعه، وعلى رفاهته، وعلى مآربه الدنيوية، هذا المال كان فتنة له فرسب.

أما الذي يؤتيه الله مالاً فينجح فهو الفائز، قال لي أحدهم: أنهيت الخدمة الإلزامية، ولا أملك من الدنيا قرشاً واحداً، أخذت من أختي ثمن سوارها، واشتريت بها بطاقة طائرة إلى الخليج- هذه قصة قديمة جداً- قال لي: والله وأنا في الطائرة خطر لي ولم أهمس ببنت شفه أن الله إذا أكرمني سأبني له مسجداً، بعد عشرين عاماً عاد إلى بلده، وبنى مسجداً، وصليت في المسجد، وذكر لي صاحبه هذا قصته مع الله عز وجل.

هناك إنسان يطلب المال من الله، الله يعطيه مالاً، ويحقق هو كل وعوده لله، بعضهم سأل النبي الغنى، وهي رواية ضعيفة فقال: "قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تؤدي شكره، ألح عليه فدعا الله له بالغنى فاغتنى، أرسل له من يأخذ زكاة ماله فقال: قل لصاحبك ليس في الإسلام زكاة، لم تقل: قل لرسول الله،

بل قل لصاحبك، هؤلاء الذين وعدوا الله أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله، ثم أخلفوا ما وعدوا الله عز وجل، فأخلفهم، وأعقبهم في قلوبهم نفاقاً إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)

امتحان الإنسان بالولد و المال :

أحياناً الإنسان يقول لك: هذا الابن سأخرجه عالماً، يأخذ مجموعاً عاليًا كبيرًا، لا نريد، الطب أحسن، كنت تريده عالماً داعياً إلى الله عز وجل، وبإمكانه أن يدخل المعاهد الشرعية والكليات، أراده طبيباً، ولم يرده عالماً.. أراده لوجاهته، ولم يرده لدعوة الله عز وجل، إذا لم يربِّ الإنسان أولاده أن يكونوا دعاة ماذا يفعل؟ قال تعالى:

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

لو أنك أنفقت مالك في سبيل الله.. لو قدمت مالك أمامك لسرك اللحاق به، أما إذا أنفقته على مباهج الدنيا ثم جاء ملك الموت فوالله إن نزع الروح أمر صعب جداً.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)

أي تمتحنون بهما، أنت ممتحن بالمال إن أوتيته، وبالمال إن حرمته، ممتحن بالولد إن رُزقته، وبالولد إن حرمته.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 15-18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-12-06

بسم الله الرحمن الرحيم

الشهوات دوافع حيادية يمكن أن توظف في الخير كما يمكن أن توظف في الشر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والأخير من سورة التغابن، ومع الآية الخامسة عشرة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

من أجل أن نفهم معنى هذه الآية لا بدّ من مقدمة، هذه المقدمة هي أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان الشهوات، الشهوات سلّم نرقى بها، أو دركات نهوي بها، فهي حيادية، يمكن أن ترقى بك إلى الله، لأنك تشتهي النساء، ولأنك تشتهي المال، ولأنك تشتهي العلو في الأرض، ويمكن أن تكون هذه الشهوات نفسها دركات تهوي بها إلى النار، إنها دوافع حيادية، يمكن أن توظف في الخير كما يمكن أن توظف في الشر .

لذلك خلق الله الإنسان لجنة عرضها السموات والأرض.. خلق الله الإنسان ليسعد إلى أبد الآبدين في جنة يدوم نعيمها، وما هذه الحياة الدنيا إلا إعداد لهذه الجنة.. كيف يكون الإعداد؟ يكون الإعداد بأن الله سبحانه وتعالى أودع فينا الشهوات، ورسم لهذه الشهوات قنوات نظيفة تتحرك خلالها، فإن سلكنا في هذه الشهوات تلك القنوات سعدنا في الدنيا والآخرة، وإن مارسنا هذه الشهوات بعيداً عن تلك القنوات خارج المنهج الإلهي شقينا في الدنيا بهذه الشهوات، وكانت هذه الشهوات سبب في شقائنا الأبدي يوم القيامة.

إذاً أصل الحياة الدنيا أن الله امتحنك بشهوات، وجعل لها قنوات نظيفة، وجعل لك منهجاً تسير عليه، من هنا قال الله عز وجل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

البشر عند الله زمرتان لا ثالث لهما :

الشيء الطبيعي أن تشتهي، والشيء الكامل جداً أن تضبط هذه الشهوة، يكاد البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، ينقسمون إلى زمرتين لا ثالث لهما: إنسان عرف الله،

وعرف منهجه، وانضبط بهذا المنهج، وأحسن إلى الخلق، فسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان غفل عن ربه، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة، إذاً أصل الحياة الدنيا أنك ممتحن فيها بشهوات.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ *وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت: 2-3]

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

[سورة الكهف: 7]

طبيعة الحياة الدنيا قائمة على الابتلاء :

الإنسان بماذا يفتن؟ بالذي يحبه، لا أحد يفتن بحاوية، لكنه يفتن بامرأة، لا أحد يفتن بتراب الأرض، ولكن يفتن بمال الأرض، لا أحد يفتن بالعذاب، ولكن يفتن بالرخاء، فيجب أن نعلم علم اليقين أننا في الحياة الدنيا ممتحنون، طبيعة الحياة الدنيا قائمة على الابتلاء، تفتن بالمال، والصحة، والقوة، والأولاد، والزوجة، هل أخذت بيدها إلى الله أم قضيت وطرك منها وتركتها وشأنها تعيث فساداً في الأرض؟ تفتن بالأولاد، هل عرفتهم بربهم؟ هل حملتهم على طاعته؟ هل راقبتهم أم تركتهم فكانوا سبب الشقاء؟ تفتن بالمال، هل كسبته من حلال وأنفقته في حلال؟ وهل أعانك على طاعة الله؟ هل كفيت به نفسك وأهلك وأقرباءك؟ هل تقربت به إلى الله وكان أداة معرفة الله؟ تفتن بالصحة، هل استخدمت هذه الصحة الطيبة في الاسترخاء والاستجمام واللعب أم استخدمتها في طاعة الله ونشر الحق؟ تفتن بالقوة، هل استعملت هذه القوة لإنصاف الضعيف أم للعلو في الأرض وإرهاب الناس أم جعلتها قوة في سبيل الخير؟

أيها الأخوة الكرام، لأن الله سبحانه وتعالى أودع فينا:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

لأن هذه الأشياء في الأصل حببت إلى قلوبنا، أودعت فينا، ورثت في كياننا، وهي سبب سعادتنا في الآخرة.

الشهوات حيادية :

تصور مخلوقًا لا يشتهي، ولا يحب، ولا يكره.. لا يأكل، ولا يشرب، ولا يقترب من امرأة، هذا الإنسان كيف يرقى إلى الله؟ لا سبيل له، هذه الطاولة لا تتحرك، ولا تشتكي، ولا تجوع، ولا تتألم، ولا تشتهي أنثاها، فكيف ترقى إلى الله؟

الإنسان أودع فيه الشهوات.. الإنسان ركّب من عقل وشهوة، ركّب الملك من عقل بلا شهوة، وركّب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته كان فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله كان دون الحيوان.

إذاً لو لا هذه الشهوات لما ارتقينا إلى رب السموات والأرض، هي وقود في المركبة، فما قيمة المركبة بلا وقود؟ لا تتحرك.. لا تؤدي وظيفتها.. لا تنقلك من مكان إلى مكان، لكن هذا الوقود سائل فيه قوة الانفجار، لو أن هذا السائل وضع في خزان محكم، وسال في أنبوب محكم، وانفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، ولدّ حركة مناسبة نقلتك أنت وأهلك إلى بلد جميل، أو نقلت البضاعة إلى مبتغاها، أمّا إذا خرج هذا الوقود السائل عن مساره، واحترق أحرق أصحابه.

الشهوات حيادية، سلّم أو دركات نسعد بها أو نشقى بها، المرء يمكن أن يتزوج من امرأة صالحة، تسرك إذا نظرت إليها، وتطيعك إن أمرتها، وتحفظك إن غبت عنها، يمكن أن تؤسس أسرة تسعد بها طوال حياتك، ويكون بيتك سكناً ترتاح فيه.. تستعيد نشاطك في اليوم التالي، ويمكن أن تنجب ذرية صالحة تكون لك صدقة جارية إلى يوم القيامة، قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

ويمكن أن ينحرف الإنسان، فيقضي وطره بطريق محرم، فيشقى في الدنيا، ويشقى في الآخرة، والذي يشغل العالم اليوم هو هذا المرض الفتاك الذي يفتك بسبعة وثلاثين مليوناً، وفي عام ألفين سوف يفتك بمئة وعشرين مليوناً، وسوف يكون هذا المرض أكبر مصيبة تصيب البشرية الآن، لأنها انحرفت عن جادة الصواب.

أصل الجنة أن تخاف مقام ربك فيما أودعه فيك من شهوات :

أيها الأخوة الكرام، العالم الآن عاد مقهوراً إلى الإسلام، لا تعبداً، ولكن قهراً، وشتان بين من يدع الزنى خوفاً من الله وابتغاء مرضاته وطلباً للجنة، وبين من يدع الزنى خوف مرض الإيدز، فرق كبير جداً بين الاثنين، فلذلك أصل الجنة أن تخاف مقام ربك فيما أودعه فيك من شهوات:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

الأصل أن هناك دوافع وشهوات تضبطها، لذلك الحديث الصحيح قال عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عن شداد بن أوس]

فالله سبحانه وتعالى قال:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

[سورة الكهف:46]

أجمل ما في الدنيا المال والبنون، إذاً نحن ممتحنون بالمال والبنين.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

الإنسان ممتحن في العطاء و الحرمان :

معنى (فتنة) أنكم تمتحنون بها، والحقيقة أن الإنسان يمتحن في الدنيا، فما هي مواد امتحانه؟ كل الحظوظ التي آتاه الله إياها، أنت ممتحن فيما أعطاك الله، وممتحن فيما حرمك الله، هناك امتحان إيجابي، وامتحان سلبي، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطمي]

أنت ممتحن إن جاءك المال، وممتحن إن حرمت المال، أنت ممتحن إذا كنت متزوجاً، وممتحن إذا كنت عازباً، الزواج له تفاصيل امتحان، والعزوبية لها تفاصيل امتحان، أنت ممتحن إذا رزقت أولاداً، وأنت ممتحن إذا حرمت الأولاد، إن رزقت شيئاً فليكن موظفاً في طاعة الله، وإن حرمت شيئاً فليكن الفراغ الذي سيخلفه من حرمانه موظفاً في طاعة الله.

الإنسان حينما يقلّ ماله ينشأ عنده وقت فراغ كبير، أما حينما يكون المال وفيراً ينشغل بهذا المال، لأن إدارة المال تحتاج إلى شغل كبير، إن فقدت المال فالفراغ الذي يخلفه فقد المال يجب أن يوظف في طاعة الله.

من يستجيب لنداء أهله وأولاده وأمواله ويقعد مع القاعدين يفوته خير كثير :

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(إنما) أداة قصر، بالمال تفتن، وبالأولاد تفتن، هذه الآية لها خصوصية مناسبة، ولها عموم لفظ، عمومية لفظها هي تدور مع الإنسان أينما دار إلى نهاية الدوران، أما خصوصية السبب فإن بعض أصحاب رسول الله هاجر معه، وسعد في هجرته، وبعض الأصحاب حملهم أهلهم على عدم الهجرة، ففاتهم خير كثير من صحبة النبي عليه الصلاة والسلام، هناك صحابي كان يرعى غنيمات له خارج المدينة، وكان حريصاً على غنيماته حرصاً شديداً، وكان يؤثر أن يبقى إلى جانب غنيماته، وأن يسمع من أصحابه إلى أقوال النبي عليه الصلاة والسلام، ثم حدثته نفسه يوماً أن يتابع النبي، وأن يهاجر إليه، فكان هذا الصحابي أعلم الصحابة بالقراءات، وكان فاتحاً لدمشق ومصر، وفاتحاً لبعض الجزر في المتوسط، وقد ترك عطاء لا يقدر بثمن، لو أنه لزم غنيماته أين كان؟ وحينما لزم النبي عليه الصلاة والسلام أين صار؟

أحيانا الأهل يعيقون حركة الإنسان إلى الله، لهم مطالب كثيرة.. لهم رغبات كثيرة، ويثبطون عزيمة الرجل أحياناً، فالذي يستجيب لنداء أهله وأولاده وأمواله، ويقعد مع القاعدين يفوته خير كثير، والذي ينطلق إلى الله ورسوله عندئذ يكافئه الله عز وجل، لأن الذين عارضوه في هذه الانطلاقة سيلقون ثمارها أول ما يلقون، وسوف يشجعونه بعد حين، فمن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى الله الناس عنه، ومن أسخط الله برضى الناس سخط الله عنه، وأسخط عنه الناس.

دائماً وأبداً هذه المقولة: من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً.

أول ما يسأل عنه المرء يوم القيامة الصلاة ثم يحاسب عن ماله :

(إنما) أداة قصر وحصر، قلت لكم من قبل: ورد في الأثر أن الأغنياء يوم القيامة يجمعون أربع فرق، فريقًا جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريقًا جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريقًا جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، بقي الذي جمعه من حلال، وأنفقه في حلال، هذا الذي سيحاسب، قال: قفوه، فسألوه: هل تاه بماله

على خلق الله؟ هل قصّر فيمن حوله؟ فقالوا: يا رب أغنيته فقصّر في حقنا؟ يقول عليه الصلاة والسلام: فما زال يسأل ويسأل.

لذلك أول ما يسأل عنه المرء يوم القيامة الصلاة، ثم يحاسب عن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ وَضَعَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟))

[الترمذي عن أبي برزة، والدارمي عن معاذ]

ثلاث فقرات عليها سؤال واحد إلا المال فعليه سؤالان، من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟

الكسب و الرزق :

وفي هذه المناسبة يجب أن نفرق دائماً بين الكسب وبين الرزق، المال الذي لا تنتفع به، ولكن تحاسب عليه هو كسب لا رزق، أما المال الذي تنتفع به، وتستهلكه مباشرة فهو الرزق، الطعام الذي أكلته فقط هو الرزق، والثوب الذي لبسته فقط هو الرزق، والبيت الذي تسكنه فقط هو الرزق، والفراش الذي تنام عليه هو الرزق، ولكن الكسب هو الذي لا تنتفع به، أما إذا أنفقت من الكسب في سبيل الله فهذا أعلى درجات الانتفاع، لذلك عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ألْهَاكُمْ[صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ:، قَالَ:]التَّكَاثُرُ

((يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ؟ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ؟ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟))

[مسلم عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ]

المال قسمان: قسم لك ما له (ما مصدرية)، وقسم ليس لك ما له (ما نافية)، قسم لك، وقسم ليس لك، فالذي لك صنفان، صنف يزول ويفنى، وصنف يبقى، الذي يبقى هو العمل الصالح والمال الذي تنفقه في سبيل الله، والذي يفنى هو الذي أكلته فأفنيته، ولبسته فأبليته، أما القسم الباقي فهو الذي تصدقت به فأبقيته:

((أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

من آثر مرضاة الله على حظوظ نفسه فله أجر عظيم :

إذا آثر الإنسان مرضاة الله على حظوظ نفسه.. إذا استجاب لله، ولم يستجب للمعوقين، ولم يستجب للمثبطين من أهله.. إذا استجاب لله ولم يستجب للضغوط الداخلية التي تحول بينه وبين التقدم والعمل الصالح قال تعالى:

(وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

لذلك قال بعض أصحاب رسول الله لزوجته التي تريد أن تحمله فوق طاقته: " اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الدنيا لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أفضل من أضحي بهن من أجلك".

لا ينبغي للإنسان أن يستجيب لغير الله لأن الله عز وجل يقول:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

[سورة الكهف: 28]

أي لو تحملت الضغوط، وأنفقت في سبيل الله.. لو تحملت الضغوط، ووجهت الأولاد الوجهة الصحيحة، هناك وجهة غير صحيحة، هناك وجهة يريد الأب أن يرفع رأسه في المجتمع من أجل أولاده، قد لا يعنى بأخلاقهم، ولا بدينهم، ولا باستقامتهم، ولا بآخرتهم، لكن يعنيه أن يقول: ابني فلان كذا.. حجمه المالي كذا.. شهاداته كذا وكذا، آباء كثيرون مسلمون لا يعتنون كثيراً بدين أولادهم، يحرصون على دنيا أبنائهم حرصاً شديداً، بينما لا يحرصون على دين أولادهم الحرص الحقيقي، فلذلك الابن كما جاء في الحديث عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، وَقَالَ:

((إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ))

[ابن ماجه عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ]

من يؤثر طاعة الله على هوى نفسه وعلى مرضاة أهله فله أجر عظيم :

النبي عليه الصلاة والسلام تزوج وله أولاد، لكنه وفق منهج الله، فليس معنى ذلك أن تكون بلا زوجة ولا ولد، المعنى أن تتزوج، وتنجب أولاداً، وأن تبقى وفق منهج الله عز وجل:

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

تفتنون بها، لهذه الكلمة معنيان: الأول: أنها أداة امتحان لكم، فإما أن تنجحوا، وإما أن ترسبوا، إما أن تنجحوا وتنتصروا على أنفسكم، وتنتصروا لدينكم، وإما أن تضعفوا، وتسقطوا، فتنهزموا أمام أنفسكم،

لهذا الذي يرضي زوجته في معصية الله، وهذا الذي يرضي أولاده في معاصي الله، هذا سقط في الامتحان، لأنه آثر سلامته في البيت على إقامة الحق، هذا الذي يثأر ويغضب أشد الغضب إن لم تلبّ حاجاته في البيت، بينما لا يتحرك له شعور إن رأى ابنته تتبذل في ثيابها، وهي خارج البيت، إن لم تلبّ حاجاته أقام الدنيا ولم يقعدها، ولا يتأثر أبداً إن رأى ابنته تثير الفتن في الطرقات، بل لعله يعجبه ذلك، هذه هي المشكلة، فالذي لا يستجيب للضغوط، ويؤثر طاعة الله على هوى نفسه وعلى مرضاة أهله فله أجر عظيم، قال تعالى:

(وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

على الإنسان أن يطيع الله فلا يعصيه ويشكره فلا يكفره :

طبعاً كما قال الله تعالى:

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

[سورة الفرقان: 52]

أن تتعلم القرآن، وتعلمه، وأن تحمل الناس على التمسك به هذا من أعظم الجهاد:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

مادامت الأموال والأولاد فتنة، ومادام الإنسان ممتحناً في الدنيا، وما دامت الدنيا فانية، وهي إعداد للآخرة، إذاً ماذا ينبغي أن نفعل؟

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

وفي آية أخرى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

كيف نجمع بين الآيتين؟ اتقوا الله حق تقاته أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تشكره فلا تكفره، وأن تخلص له إخلاصاً شديداً، وأن تذكره فلا تنساه، هذا معنى قول الله عز وجل:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

كل شيء فيه ترك حدّي وكل شيء فيه بذل نسبي :

وأما قول الله:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

هنا معنى دقيق جداً، في الإسلام تكاليف، بعضها تأمر أن تدع، وبعضها تأمر أن تعطي، في مجال الاستقامةِ الاستقامةُ حدية، لا تحتمل التفاوت، نقول لك: أعطِ ما تستطيع، فهذا يعطي ألفاً، وهذا يعطي ألفين، وهذا يعطي مليونًا، اتق النار ولو بشق تمرة، الترك حدي، ليس فيه حالة وسط، هناك أمور لا بد من أن تنتهي عنها، وإلا فأنت محجوب، وهناك أوامر للبذل والعطاء، وخدمة الناس، هذه وفق استطاعتك، فالشيء المتعلق بالترك حدي، الوضع لا يحتمل تفاوتاً، مثلاً: مستودع فيه إحكام، وفيه إملاء، الإحكام حدي، إذا قلت: هذا المستودع محكم، أي أنه محكم، لو وضعت فيه كذا لتراً من الماء، أو من الوقود السائل تبقى هذه الكمية ثابتة دون أن تنقص، الإحكام ليس فيه حل وسط، أما إملاؤه فقد تضع فيه مئة لتر أو خمسمئة لتر حسب إمكانيتك، إملاء المستودع نسبي متفاوت، أما إحكامه فحدّي، فالاستقامة لا تحتمل النسبية:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود: 112]

إن الله أمر المسلمين بما أمر به المرسلين هذا في الاستقامة، أمركم بأشياء ونهاكم عن أشياء، فالذي نهاكم عنه فدعوه، والذي أمركم به فافعلوا منه ما استطعتم، في العطاء، وإنفاق المال ما استطعتم، في بذل الجهد ما استطعتم، في إنفاق العلم ما استطعتم:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

أما في ترك المنكر.. ترك الكذب.. ترك الخيانة.. ترك أكل المال الحرام، كل شيء فيه ترك حدّي، وكل شيء فيه بذل نسبي، إذاً:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تشكره فلا تكفره، وأن تذكره فلا تنساه، أما:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

فأيّ إنسان له دخل أنفق من هذا الدخل على أهله وأولاده، ومن حوله، وفاض عنده بقية فأنفقها في سبيل الله، فالإنفاق نسبي بحسب الوسع والإمكان والطاقة، وبحسب الاندفاع إلى الله، فلذلك نوفق بين الآيتين بالشكل التالي: اتقوا الله حق تقاته فيما يتعلق بالنهي، واتقوا الله ما استطعتم فيما يتعلق بالعطاء، أنت تتقي النار بشيئين، بترك المعاصي، وفعل الخيرات، ترك المعاصي حدي، فعل الخيرات نسبي.

أعظم شيء الاستقامة على أمر الله عز وجل :

لذلك أصحاب النبي كما قال عليه الصلاة والسلام: لو تركوا العشرة لهلكوا في العطاء، والذين يأتون في آخر الزمان القابض على دينه كالقابض على الجمر، لو تركوا العشرة لنجوا، لأن هذا الذي روت عنه الكتب، والله أعلم بصحة الرواية سيدنا عبد الله بن رواحة حينما تردد في القتال ثلاثين ثانية، قال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صَلِيت

إن تفعلي فعلهما رضيت و إن توليت فقد شقيــتِ

***

قال النبي عليه الصلاة والسلام: ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه، لأنه تردد، لو تركتم عشر العشر لهلكتم، هذا في العطاء، لأن معهم رسول الله، والوحي بين ظهرانيهم، وقد رأوا المعجزات، وأحبابه الذين يأتون في آخر الزمان، أعظم شيء أن تستقيم على أمر الله، فإن استقاموا نجوا، وبعد الاستقامة مهما أعطوا يرقى بهم هذا العطاء، فالنسبية في العطاء لا في الاستقامة، الاستقامة حدية، والعطاء نسبي.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

هذا المعنى الأول.

على الإنسان أن يبذل كل جهده لا بعضه :

والمعنى الثاني: أي ابذلوا كل الجهد المتاح:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

لعل نبرة الكلمة توضح المعنى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

أو فرق كبير بين المعنيين، المعنى الأول: بذل بعض الجهد، والمعنى الثاني: بذل كل الجهد، كل شيء متاح أمامكم افعلوه، أغلب الظن أن الآية تحتمل المعنى الثاني، لا تشير الآية إلى بذل بعض الجهد، بل إلى كل الجهد.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

أي ما وسعتكم الاستقامة، إنسان نقول له: امش ما استطعت، يمشي، ويستريح؟ لا.. ولكن يمشي حتى يدركه الإعياء إلى أن يقع، هذا معنى ما استطعتم، إنسان مشى أمتاراً، وقال: هذه استطاعتي، هذا لم

يفهم معنى الكلمة، امش ما استطعت، مشى خمسة أمتار، وارتاح، أما القصد أن تقع مغشياً عليك، من هنا قال بعض أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم: " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي ".

يجب أن تضبط الوقت، يجب أن تعد الوقت أثمن شيء تملكه، يجب أن تعد نفسك وقتاً، أنت بضعة أيام، ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد.

ورد في الأثر: ألا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قرباً.

لو حققت نجاحات كبيرة في الحياة، النجاح الحقيقي أن تزداد مع الأيام معرفة بالله، وأن تزداد مع الأيام قرباً منه.

العلم هو أثمن شيء في حياة المؤمن :

لذلك:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا)

أي تفهموا، لذلك العلم هو أثمن شيء في حياة المؤمن، أنت حينما تتعلم كلام الله عز وجل، أو تفهم كلام الله فأنت تحقق ذاتك في أعلى درجة، أنت مخلوق كي تعلم:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ)

[سورة الطلاق: 12]

الله عز وزجل ميزّ الإنسان بالقوة الإدراكية، فإذا عطّلها هبط إلى مستوى الحيوان:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

العلم أعظم نشاط يليق بالإنسان :

العلم أعظم نشاط يليق بالإنسان، الإنسان له حاجات عليا، وله حاجات سفلى، الحاجات السفلى أن يأكل، ويشرب، ويتزوج، وحاجاته العليا أن يعلم، فالذي يؤكد في الإنسان إنسانيته طلبه للعلم، أنت حينما تأتي إلى بيت من بيوت الله لتعرف كلام الله فأنت تلبي حاجاتك العليا، وتفكيرك المرتفع، أنت تحقق إنسانيتك.. أنت تؤكد ذاتك في الطريق الصحيح:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

[سورة ق : 37]

لماذا هنا (أو)؟ للتخيير، أي إما أن تتعرف إلى الحق سماعاً، وإما أن تتعرف إليه تأملاً، إما أن تأكل طعاماً جاهزاً، وإما أن تطبخ طعاماً بيديك، فإما أن تتفكر، وإما أن تستمع، والاستماع أغلب الظن مضمون، تأكل الطعام جاهزاً من طبّاخ ماهر، أما حينما تطبخ فأنت من غير رقيب، ومن غير موازين فقد تخطئ، وقد تصيب، لذلك يجب على الإنسان أن يتلقى العلم ممن يثق بدينه وورعه، والإمام الشاطبي في كتاب الموافقات في بعض المقدمات يؤكد أن العلم لا يطلب إلا من الرجال، ومن لم يأخذ هذا العلم من الرجال فهو ينتقل من محال إلى محال، لأن من دون رجال تكون مزلة الأقدام، قد يقع تحت يديك كتاب فيه خلط كبير، وفيه باطل شديد، أين الميزان الذي يكشف لك الخطأ من الصواب؟

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا)

على الإنسان أن يكون مع جماعة المؤمنين :

أيها الأخوة، وفي الآية الأخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

أي لا تستطيعوا أن تتقوا الله إلا إذا كنتم مع الصادقين.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

[سورة الكهف: 28]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أحمد عن النعمان بن بشير]

وقال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

[سورة المائدة: 35]

من الوسائل أن تطلب العلم، من الوسائل أن تكون مع جماعة المؤمنين .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا)

الله جل جلاله أعطى السمع بمعنى التطبيق :

اليهود سمعوا وعصوا، وقالوا:

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

[سورة البقرة: 93]

لذلك من لم يطع لم يسمع، الله جل جلاله أعطى السمع بمعنى التطبيق، واسمعوا وأطيعوا، الطاعة فيما أمر، والإنفاق هو البذل.

(وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ)

فاتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا، واعقلوا، وتفهموا، واطلبوا العلم، وتعرّفوا إلى الحق، دققوا في كلام الله، تدبّروا في آياته، وانظروا عجيب خَلقه، انظروا في أفعال الله عز وجل، واسمعوا وأطيعوا.. اقلبوا معرفتكم إلى تطبيق، ترجموا فهمكم إلى عمل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الصف: 2-3]

العمل الصالح طابعه حركي أما الاستقامة فطابعها سلبي :

أيها الأخوة الكرام،

(وَأَنْفِقُوا)

الاستقامة تزيل كل العقبات التي أمامك في طريقك إلى الله، بقيت الحركة، الطريق سالك، لأن باستقامتك أزلت كل العقبات، وبعملك الصالح وصلت إلى رب السموات والأرض، فالعمل الصالح طابعه حركي، أما الاستقامة فطابعها تمهيد الطريق، طابعها سلبي، ما كذبت، ولا غششت، ولا أكلت مالاً حراماً، فأنت مستقيم، إذاً الطريق إلى الله سالك، بقي أن تتحرك على هذا الطريق بالعمل الصالح.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

من ينفق في سبيل الله يضاعفه الله له أضعافاً كثيرة :

الحقيقة شح النفس مرض، الإنسان حينما يضنّ على نفسه بتعريفها بربها.. يضنّ على نفسه بحملها على طاعته.. يضنّ على نفسه أن تفعل الخيرات.. يبقيها جاهلة عاصية بخيلة، هذا الذي يوق شح نفسه مِن أفلح الفالحين، أما الذي يقع ضحية شح نفسه فهو من الهالكين.

شر الناس من يعيش فقيراً ليموت غنياً، شحيح يحرم نفسه كل خير، أندم الناس غني دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار، جمع مالاً وفيراً، وورثه لأولاده، فاستقاموا على أمر الله بهذا المال، فدخلوا الجنة، ودخل هو النار بكسبه.

وقد سئل أحد الشباب، وقد ذهب إلى ملهى: إلى أين أنت ذاهب؟ فقال: لأشرب الخمر على روح والدي، خلّف له ثروة طائلة، ولم يعرفه بالله عز وجل، فأندم الناس من دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار، ورد في بعض الأثر أن: "روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، وأنفقته في الحلّ وغيره، فالهناء لكم، والتبعة عليّ ".

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

حينما ينفق الإنسان الله جل جلاله يضاعفه له أضعافاً كثيرة، وهذه الحقيقة يعرفها المنفقون.

أخ كريم ذكر لي أنه دفع لقريب له وهو على المغسَل دَينه، وقد زاد على مئة وثلاثين ألف ليرة، وفي اليوم التالي حقق ربحاً في يوم واحد ما يعادل هذا المبلغ على غير العادة والمألوف.

من يسعد بالأخذ فهو من أهل الدنيا و من يسعد بالعطاء فهو من أهل الآخرة :

الله عز وجل إذا أحبّ عبداً خلق الفضل، ونسبه إليه، الله عز وجل يعوض المال أضعافاً مضاعفة، أنفق بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، أنفق أُنفق عليك .

حدثني أخ في جيبه مبلغ من المال، سأله سائل، وهذا المال يلبي حاجته، تردد، وقع في قلبه: متى قطعناك من المال؟

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

ذلك الكرماء شيء والأريحيون شيء آخر، من هو الأريحي؟ هو الذي يسعده العطاء، بل إن بعض العلماء يقول: إذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يسعدك، أن تأخذ أم أن تعطي؟ فالذي يسعد بالأخذ فهو من أهل الدنيا، والذي يسعد بالإعطاء فهو من أهل الآخرة، إلا أن فريقاً من أهل الآخرة يسعدون بالأخذ ليعطوا، فسعادتهم بالأخذ سبب لعطائهم، هم إذاً من أهل الآخرة.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أيّ عمل صالح مهما كبر أو صغر إقراض لله عز وجل :

الآن أيها الأخوة، هذه الآية الأخيرة لو تدبرناها لاقشعرت جلودنا، الله جل جلاله الغني الكريم، الذي إذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون.. عنده خزائن الأرض، هو يطلب إليك أن تقرضه، أي عمل صالح تقدمه لمخلوق من مخلوقاته، ولو أن تصغي الإناء لهرة.. لو أنقذت نملة من الغرق.. لو أطعمت حيواناً أعجماً.. لو أنقذت إنساناً من ورطة.. لو أعطيت فقيراً.. لو أعنت إنساناً على حمل حوائجه على دابته، أيّ عمل صالح مهما كبر أو صغر فهو في حقيقته إقراض لله عز وجل.

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ)

لذلك الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، المؤمن دائماً يقف إذا سأل.. إذا عرض عليه عمل صالح.. إذا طلب منه أن يقدم شيئاً من خبرة، من مال، من علم، من جهد، من أي شيء، لا يرى السائل، بل يرى الله يسأله.

و اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ)

إذا عملت عملاً لوجه الله فالله عز وجل سيعطيك عليه أضعافاً مضاعفة، يجب أن تعد أيها المؤمن أن كل عمل صالح مهما كان نوعه، ومهما كانت جهته، ومهما تكن طبيعته، إنما هو إقراض لله عز وجل.

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

الله جل جلاله يسترضى بالعمل الصالح :

رب العزة في سمائه، ورب العالمين، وخالق السموات والأرض يقول لك: يا عبدي أقرضني لأكافئك أضعافاً مضاعفة، اتّجر مع كي تربح عليّ، اتّجر مع الله.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ*تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ*يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ*وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الصف: 10-13]

صنائع المعروف تقي مصارع السوء، الله جل جلاله يسترضى بالعمل الصالح، صدقة السرّ تطفي غضب الرب، باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها.

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ)

الإنسان كلما ارتقى إيمانه يصبح مصدر خير وأمن وعطاء :

إذا أعطيت قطعة سكر لطفل مع أبيه فهذه الهدية في حقيقتها لمن؟ والله ليست للطفل، ولكن للأب، أنت تقربت للأب عن طريق الطفل، وبإمكانك أن تتقرب إلى الله بخدمة عباده، قلت مرة: إنّ الطبيب المؤمن لا يوصّى، كيف يوصّى؟ بين يديه عبد من عباد الله، هل يبتز ماله أو يكبر عليه الوهم؟ لا يستطيع، لأن بين يديه عبدًا من عباد الله، والإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، إذا أخفت إنسانًا بغير حق، أو أكلت ماله بغير حق فأنت ملعون عند الله عز وجل.

فالإنسان كلما ارتقى إيمانه يصبح مصدر خير، ومصدر أمن، ومصدر عطاء.

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ)

تقدم لإنسان معروفًا، أو تخدم له ابنه يشكرك شكراً تعجز عن وصفه، ويقول لك: لا أنساه حتى الموت، لأنك خدمتَ ابنه.

الله عز وجل كل شيء غاب عنك يعلمه وكل شيء حاضر يعلمه :

أخواننا الكرام يعلمون أولادنا الصغار، أحد الأباء دعاهم مرتين تعبيراً عن شكره، إنسان يكّرم معلّم ابنه، فربنا سبحانه وتعالى الذي يخدم خلقه، ويبث فيهم الخيرات والفضائل، ويعرفهم بربهم، ويحملهم على طاعته، ويحل مشكلاتهم، يعطي فقيرهم، ويأخذ بيد أخرقهم، هذا ماذا يقدم اللهُ سبحانه وتعالى له يوم القيامة؟

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ* عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

كل شيء غاب عنك يعلمه، وكل شيء حاضر يعلمه، العزيز المتفرد في تصرفه، الذي لا ينال جانبه، الحكيم، أي أن كل أفعاله تتعلق بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة تعني أن الشيء الذي وقع لو وقع على خلاف ما وقع لكان نقصاً في الحكمة، ولكان الله ملوماً على ذلك.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (1-6): تفسير الآية 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-12-13

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة التالية تتحدث عن أمر الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة الطلاق:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

أيها الأخوة، الدين عقائد وعبادات، معرفة بالله، ومعرفة بأمره، فهذه السورة تتحدث عن أمر الله عزَّ وجل، هناك سورٍ كثيرة وآياتٍ كثيرة تتحدث عن الله، عن عظمته، عن خلقه، عن قوته، عن غِناه، عن رحمته، وهذه السورة تتحدث عن أمره، فأنت بالكون تعرفه، وبأمره تعبده، كيف تعبده إن لم تعرف أمره؟ والقرآن الكريم في الأعم الأغلب مكيٌ ومدني، فالمكي يعرفنا بالله، والمدني يعرفنا بأمره.

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة و المكلف و المكرم :

الإنسان كما تعلمون كائنٌ مخيَّر، مكلَّف:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

مكرَّم، أما أنه مكلف:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

أما وأنه هو المخلوق المكلف الأول:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية : 72]

هو المخلوق الأول رتبة، كُلِّفَ أن يزكي نفسه، وأن يؤهِّلها لجنة ربه إلى أبد الآبدين.

لوازم التكليف :

وفي الدنيا من لوازم التكليف أن الله منحه الكون، وسخره له:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

ومن لوازم التكليف أنه أودع فيه الشهوات:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

ومن لوازم التكليف أنه منحه حرية الاختيار:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

[سورة الإنسان : 3]

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

[سورة فصلت: 17]

من لوازم التكليف أن الله سخَّر للإنسان الشيء، وأودع فيه الشهوات ليرقى بها، ومنحه حرية الاختيار، ووهبه العقل ليكون أداةً لمعرفة الله، ثم إن الله سبحانه وتعالى أنزل عليه الشرع، أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم هذا القرآن، وهو الشرع الحكيم، إذاً: لأن الله خلقنا لجنةٍ عرضها السموات والأرض، ولأننا بالكون نعرفه وبالشرع نعبده، ولأنه أودع فينا الشهوات، لنرقى بها شاكرين وصابرين إلى رب الأرض والسموات كانت هذه السورة.

الشهوات الكبرى ثلاث :

الشهوات الكبرى ثلاث؛ إنك تشتهي الطعام من أجل أن تبقى حياً، من أجل بقاء الفرد، وقد تشتهي المرأة من أجل أن يبقى الجنس، الجنس البشري، وقد تشتهي العلو في الأرض من أجل بقاء الذِكر، ثلاثة دوافع أساسيَّة ؛ دافع الطعام، ودافع الجنس، ودافع العلو في الأرض، لدافع الطعام آياتٌ كثيرةٌ جداً وأحاديث كثيرةٌ جداً بيَّن الله عز وجل وبيّن النبي عليه الصلاة والسلام من خلال فهمه لكتاب الله كيف نكسب الرزق، كيف يكون الطعام طيِّباً: " يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة "، كيف يكون الكسب الحلال؟ كيف يكون الكسب المشروع؟

ومن خلال آيات النساء، كيف تتزوج، كيف تطلق، كيف تعامل بالمعروف، كيف تغض البصر، تفاصيل كثيرة جداً، في علاقة الإنسان بالمال، وفي علاقة الإنسان بالمرأة، وفي علاقة الإنسان بالآخرين، حرَّم الغيبة، وحرَّم النميمة، وحرم السخرية، وحرم المحاكاة، وأمرك أن تلبِّي الدعوة، وأن تعود المريض، وأن تعين الضعيف، فأحكام متعلقة بكسب المال، وأحكام متعلقة بالمرأة- أحكام الطلاق- وأحكام متعلقة بحسن علاقتك مع من حولك.

لكرامة النبي على الله لم يخاطبه باسمه بل خاطبه بمقام النبوة أو مقام الرسالة :

درس اليوم متعلق بأحكام تعبدية في موضوع المرأة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

وكما تعلمون النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق، وحبيب الحق، وله عند الله شأنٌ كبير، فلذلك لم يخاطبه باسمه إطلاقاً في القرآن الكريم، مع أنه خاطب غيره من الأنبياء فقال:

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم: 12]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي)

[سورة الأعراف: 144]

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

[سورة المائدة: 116]

لكن الله سبحانه وتعالى لم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام إلا بصيغتين:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

و:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

[سورة المائدة: 41]

فلكرامة النبي عليه الصلاة والسلام على الله، ولأنه سيد الخلق، وحبيب الحق يخاطبه بمقام النبوة، أو مقام الرسالة..

الخطاب موجهٌ للنبي لأنه هو المبلِّغ وهو سيد الخلق :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ)

أي إذا أراد أصحابك وأتباعك، إذا أراد المؤمنون بك، إذا أراد المسلمون إلى يوم القيامة أن يطلّقوا النساء فليفعلوا ذلك، الخطاب موجهٌ للنبي لأنه هو المبلّغ، وهو سيد الخلق، وهو أرحم بنا من أنفسنا:

(إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ)

شرائع الزواج :

الزواج في الإسلام له شرائعُ دقيقة، أولاً: الله جلَّ جلاله قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

فالمرأة جعلها الله سكناً للزوج، لأنه يكمل فيها نقصه، والزوج جعله الله سكناً للمرأة، لأنها تكمل فيه نقصها، الرجل له خصائص عقليةٌ وجسمية، واجتماعية ونفسية، هي كمالٌ فيه، وكمالٌ في مهمته التي أنيطت به، والمرأة لها خصائص جسمية وعقلية، ونفسية واجتماعية، هي كمالٌ فيها، لعل جانب العاطفة يرجح عند المرأة، ولعل جانب العقل يرجح عند الرجل، فالرجل يكمِّل بزوجته نقصه، فيسكن إليها، يجد في دفء عاطفتها الشيء الكثير، وهي تجد في عقله وبعد نظره وحزمه وقوّته الشيء الكثير، لذلك ومن آياته الدالة على عظمته:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الروم: 22]

المودة والرحمة كلمتان دقيقتان :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

المودة هذا السلوك المحبَّب الذي يشفُّ عن الحب العميق، أما الرحمة فهذا السلوك الأخلاقي، لو أن الإنسان انقطعت مصلحته من زوجته، إذا ذهب الود تبقى الرحمة، ولو أن امرأةً انقطعت أسباب مصلحتها من زوجها لكبرٍ أصابه، أو لفقرٍ طارئٍ ألمّ به، ماذا يبقى؟ الرحمة، فكلمة المودة والرحمة كلمتان دقيقتان.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة الروم: 21]

((إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ))

[الترمذي عن عائشة]

تعرف الله كما تعرف، وتحبه كما تحب، وترضيه كما تُرضيه، وتتقرب إليه كما تتقرب أنت إليه، وترقى عند الله كما أنت ترقى عنده، ولا فرق إطلاقاً بين المرأة والرجل في شؤون الإسلام والإيمان والدين، بل إنها مكلفةٌ بالإيمان كما هو مكلف، ومكلفةٌ بأركان الإسلام كما هو مكلف، مكلفةٌ بالإيمان، ومكلفةٌ بالإسلام، ومسؤولةٌ عن كل تصرفاتها.

استقلال المرأة في شأن دينها عن زوجها :

وأريد أن أضع بين أيديكم هذه الحقيقة: المرأة مستقلةٌ في شأن دينها عن زوجها، ولا تقبل حُجَّتها يوم القيامة أن هذا الذي فعلته يرضي زوجي، أو أمرني به زوجي، لأن الله جعل مثلاً صارخاً، جعل امرأة فرعون صِدِّيقَة النساء، زوجة أكفر كُفَّار الأرض، ولم يستطع أن يثنيها عن دينها:

(إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم : 11]

فأية امرأةٍ تقول إلى يوم القيامة: أنا أفعل هذه المعصية تنفيذاً لأمر زوجي، هكذا يريد، في رقبته إن شاء الله، هذا كلامٌ غير مسموع، فعَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أحمد عن عَلِيٍّ]

والمؤمن يقول كلمة (لا) بملء فمه، لأنه كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ، وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ))

[الترمذي عن عائشة]

إذاً المرأة صنو الرجل، والنساء شقائق الرجال، والمرأة مساويةٌ للرجل تماماً في التكليف، والتشريف، والمسؤولية.

للمرأة خصائص عقلية وجسمية ونفسية واجتماعية تختلف عن الرجل :

لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

لها خصائص عقلية وجسمية، ونفسية واجتماعية، هي كمالٌ فيها، وله خصائص جسمية وعقلية، ونفسية واجتماعية هي كمالٌ فيه، فما زاد من عاطفتها، وقلَّ من بعد إدراكها، وحزم تصرفاتها كمالٌ فيها، وما زاد من عقله، وبعد إدراكه، واهتمامه بالقضايا الكبرى، وما نقص من عاطفته وأحاسيسه كمالٌ فيه.

جاءت امرأةٌ تشكو إلى رسول الله، قد سمعها الله من فوق سبع سموات، فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ[حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ:))]قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ

[ابن ماجه عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ]

هناك أدوار رسمها الله عزَّ وجل للرجال والنساء، فإذا تشبَّهت المرأة بالرجل، أو تشبه الرجل بالمرأة فقد فسدت الحياة .

العلاقة بين الزوجين هي أقدس علاقةٍ على الإطلاق :

الآن هذه العلاقة بين الزوجين هي أقدس علاقةٍ على الإطلاق، قال تعالى:

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

[سورة النساء : 21]

الميثاق الغليظ الخطير المُقَدَّس هو عقد الزواج، أقدس عقدٍ تبرمه في حياتك هو عقد زواجك مع امرأةٍ، جعلتها شريكة حياتك، ينبغي أن نسير عليه، ليس في الإسلام سفاحٌ إطلاقاً، ليس فيه إلا زواج، الله جلَّ جلاله يقول:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

أي أنه ينبغي أن يكون الطيِّبون للطيبات، أي يا عبادي احرصوا أن يكون الطيبون للطيبات، هذا أمرٌ تكليفي، وليس أمراً تكوينياً، أي ينبغي، أي احرصوا، أي اجعلوا همَّكم أن يكون الطيبون للطيبات، وهذه مسؤولية الأب والأم، ومسؤولية الفتاة، ومسؤولية أبيها وأمها، الأب والأم للزوج، والأب والأم للزوجة مسؤوليتهم جميعاً أن يكون الطيبون للطيبات، لأن هذه شركةٌ عميقةٌ جداً، وهي دائمةٌ مدى الحياة، فإن

لم يكن هناك توافقاً عقلياً، وثقافياً، واجتماعياً، وخلقياً، ودينياً، أصبحت الحياة جحيماً لا يطاق، لذلك الأصل أن الإنسان يتزوج ليبقى مع زوجته إلى نهاية الحياة، هذا هو الأصل.

الطلاق بالنسبة للحياة الزوجية صَمَّام الأمان :

لو حصل خطأ في اختيار الزوج، أو لو حصل خطأ في اختيار الزوجة، أو لو حصل تباين في الطباع، أو تناقض في المصالح، أو لو حصل شيء أدَّى إلى فساد العلاقة بينهما، حينما تستحيل هذه العلاقة فتكون جحيماً لا يطاق شُرِعَ الطلاق، هذا الإناء، هذا الوعاء من البخار المحكم الإغلاق، هذا الوعاء له متنفَّس، فإذا ارتفع الضغط إلى درجة كاد الوعاء أن ينفجر فهناك صمام أمام، هذا الصمام يسيخ، ويخرج البخار، ونتلافى انفجار هذا الوعاء، الطلاق بالنسبة للحياة الزوجية صَمَّام الأمان، فهو أهون الشرَّين، لو أن الزوج بقي مع زوجته في جحيمٍ لا يطاق، هو في وادٍ، وهي في واد، هو في طريق، وهي في طريق، لا يحبها ولا تحبه، كلٌ منهما عدوٌ للآخر، نقول: هذا الزواج انحلاله أفضل من استمراره، لذلك يُعَدُّ الطلاق صمام أمان، فأكاد أقول: أنت في دائرة لو أنها كانت محكمة الإغلاق لشعرت بالضيق، فلو كانت مفتوحة فهناك متنفس، لكنك لو أردت أن تخرج من هذا المتنفس لرأيته مغلقاً ثانية، من هنا أَبْغَضُ الحَلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ، ولكن إذا كان ضرورةً لابدَّ منها، قلت لكم: لماذا نطلّق؟ لأن الله عزَّ وجل أمرنا أن نجمع بين الطيبين والطيبات..

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

فلو أن الأب لجهله طمع بمال خاطب ابنته، فزوجه إياها ثم اكتشف أن المال لا يسعد ابنته، بل إن المال كان وبالاً عليه وعليها، والحياة أصبحت لا تُطاق، والطريق مسدود، فلابد من الطلاق، فحينما يسيء الإنسان اختيار زوج ابنته، أو حينما تسيء الفتاة اختيار زوجها، توافق أو لا توافق، يكون الطلاق هو صمام الأمان، هذا شرع الله عزَّ وجل، هذا الشرع ليس لواحدٍ لا يفكر بالطلاق، هذا الشرع يتَّسع لعامة المسلمين، هناك حالات كثيرة جداً، الحياة مستحيلةٌ بين هذين الزوجين، والشر الناتج عن استمرارها أكبر بكثير من انحلال هذه العلاقة، لذلك شرع الله الطلاق، لكن كما قلت: صمام أمان لوعاءٍ بخاري، لولا هذا الصمام لكان هناك الانفجار.

أخطر مؤسسة في الشرع هي الأسرة :

لذلك في بعض الأديان التي لا تجيز الطلاق تجد أن للزوج عشرات العشيقات، هو في بيت، وهي في بيت، ولا يلتقيان، فلما سُمِحَ بالطلاق تقدم في يومٍ واحد أكثر من مليون طلب لفك العلاقة الزوجية غير الناجحة بين الأزواج، هذا الإسلام نظام الله عزَّ وجل، شرع الله، شرع فيه الطلاق ليكون صمام أمان لهذه المؤسسة، أخطر مؤسسة في الشرع هي الأسرة، لأن الأسرة هي الخلية، ومن هذه الخلايا يتكون المجتمع، فإذا كانت سليمةً سلم المجتمع، وإن كانت منهارةً انهار المجتمع، لذلك المجتمعات الراقية متماسكة، لأن أسرها متماسكة، والمجتمعات المنهارة أُلْغِيَتْ فيها الأسرة، لذلك أحد رؤساء الجمهوريات في أمريكا الحالي الذي انتخب مرتين، يقول: إن أربعة أخطار تهدد مجتمعنا، أحد هذه الأخطار: تفكك الأسرة، وانحلال الأخلاق، والمخدرات، والجريمة.

انحلال الأسرة أو تفككها شيءٌ خطيرٌ جداً، يصيب المجتمع بالشلل، لذلك لا تعجب إن رأيت سورةً بأكملها عن الطلاق، إن رأيت أطول سورةٍ في القرآن الكريم جُلُّها في موضوع الطلاق، لأن الإنسان كما قلت لكم: أودعت فيه الشهوات، حب المال منظمٌ بأحكام، كسبه، وإنفاقه، وتملُّكه، وحب النساء منظمٌ بأحكام الخطبة والزواج، والنكاح والطلاق، والرغبة الثالثة العلو في الأرض، هذه الرغبة منظمة أيضاً بأحكام الغيبة والنميمة، والتواضع والإحسان، والعدل والإنصاف، وما شاكل ذلك.

خط الدرس اليوم في العبادات التعاملية :

إذاً خط الدرس اليوم ليس في العقائد، بل في العبادات، وليس في العبادات الشعائرية، بل في العبادات التعاملية، وأخص هذه العبادات كيف تعامل زوجتك؟ طبعاً كيف تختارها؟ هذا موضوع آخر، كيف تختارها؟ من تزوج المرأة لجمالها فقط أذله الله، ومن تزوجها لمالها أفقرها الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةً، فعليك بذات الدين تربت يداك، عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ ؟ قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[الترمذي عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ]

و من ترك التزويج مخافة العالة فليس منا، وما شكا أحدٌ إلى النبي ضيق ذات يده إلا قال له: اذهب فتزوج، لأن الذي يُزمع الزواج مرزوقٌ من قِبل الله عزَّ وجل، وما من حديثٍ تقشعر له الأبدان كقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ، الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

من طلب العفاف أعانه الله عز وجل على ذلك :

اسمعوا أيها الشباب: حق المسلم على الله، أنشأ الله لك حقاً عليه، أنك إذا أردت العفاف، أردت ألا تقع في الفاحشة، أردت شرع الله وسنة نبيه فحق الله أن يعينك إذا طلبتَ العفاف، الآن لابدَّ من الطلاق، كيف نطلق؟

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

هذا كله تقديم لأحكام الطلاق :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ)

فقد ينشأ بين الزوجين اختلاف وجهات نظر حاد، قد يكون الزوج في وادٍ والزوجة في وادٍ، قد تستحيل الحياة بين الزوجين، قد تجد المرأة أنها لو طُلِّقَتْ لسعدت، وقد يجد الزوج أنه لو طَلَّقَ زوجته لسعد بفراقها.

شخص قال.. هكذا يروى: إن رجلاً له زوجة سيِّئة جداً، فقيل له: طلقها، كان ورعاً إلى درجة أنه قال: والله لا أطلقها فأغش بها المسلمين، قد تستحيل الحياة بين الزوجين، قال الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

أي هناك أحكام للطلاق.

لا يجوز أن تطلق المرأة في حيض لأسبابٍ نفسية :

الآن أقف وقفة متأنية قبل أن أتابع هذه الأحكام، الإنسان أحياناً يتخذ قرارًا مبنيًّا على حقائق، والحقائق ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، لكن في الأعم الأغلب يتخذ الإنسان قراراً مبنيًّا على شعور، والشعور متقلِّب، الشعور متبدِّل، الشعور متناقص، أو أن الشعور متنامٍ، الحال يتبدل، سُمِّي الحال حالاً لأنه يحول، لا يثبت، لو أن إنساناً طلق امرأته ليس بناءً على قناعةٍ ثابتة، أو حسابٍ دقيق، أو حقائق ساطعة، بل بناءٍ على ساعة غضبٍ شديد، أو على موجة كراهيةٍ طارئة، كيف يعلمنا ربنا جلَّ جلاله أن هذا القرار غير صحيح؟ هذا القرار متسرِّع، هذه شريكة حياتك، هذه أم أولادك، هذه إن تركتها ضاع الأولاد، لذلك علَّمنا أنك إذا أردت أن تطلق فطلق في حالين، إياك أن تطلق في حيض، فالطلاق في الحيض عند

بعض العلماء لا يقع يعلمنا، وعند بعضهم يقع يعلمنا، ولكنه طلاقٌ بدْعيّ مخالفٌ للسنة، وإذا طلقت فطلقها في طُهْرٍ لم تلامسها فيه، لم تقاربها فيه، فكلمة:

(لِعِدَّتِهِنَّ)

هذه اللام تعني:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ)

[سورة الحشر: 2]

أي في أول الحشر، هذه اللام تعني في اللغة (في)، أي: يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم النساء فطلقوهن في عدتهن، أي مستقبلات عِدَّتَهُن، أي لا يجوز أن تطلق المرأة في حيض لأسبابٍ نفسية، لعلك كرهتها في هذه الفترة بالذات، ولا يجوز أن تطلقها في طهرٍ لامستها فيه، أو اتصلت بها فيه، فلأن هذا الطهر صار مظنة حمل، فننتظر إلى أن تحيض مرةً ثانية فتطول العدة.

الإنسان يطلق امرأته في طهرٍ لم يمسها فيه وتبقى في بيته ولها أن تتزيَّن :

لذلك:

(لِعِدَّتِهِنَّ)

أي في وقتٍ تستقبل فيه عِدَّتَهُن، هذا هو أول معنى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

أي في عدة، الإنسان يطلق امرأته في طهرٍ لم يمسها فيه، وتبقى في بيته، ولها أن تتزيَّن، ولها أن تبدو أمامه بأجمل زينة، وتأكل معه، وتفعل كل شيء، إلا أنه لا يقاربها، فإذا كان القرار مبنيًّا على ساعة كراهية، على كراهية طارئة، قرار غير مدروس، غير معقول، الشعور من خصائصه التناقص، فاليوم كنتَ في غضبٍ كالمِرجل، إذا كانت الحرارة مئة فثاني يوم الحرارة تقدر بتسعين، ثمانين، سبعين، عشرة أيام صارت الحرارة صفرًا، صار هادئاً، فلو أنه طلَّقها طلاقاً مبتوتاً فيه، لو أنه طلقها ثلاث تطليقات مرةً واحدة، طلقها طلاقاً بدعياً مخالفاً للسنة، عندئذٍ لا سبيل له لإرجاعها، أما إذا طلقها وفق منهج الله، طلقها في طهرٍ لم يقاربها فيه، وبقيت في بيته ثلاثة قروء، أي ثلاثة أطهار، فالمرأة يمر عليها وقتٌ هي طاهرةٌ من الحيض، ووقتٌ هي حائضة، الطهر يسمى قُرءاً، والحيض يسمى قُرءاً، هنا القرء هو الطهر.

(فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

تنتظر أول طهر، قد تكون مدته اثنتين وعشرين ليلةً، على كلٍّ، أول طهر، ثم حاضت، ثم طَهُرَتْ، ثاني طهر، ثم حاضت، ثم طهرت، الثالث، أكبر قضية بين الزوجين إن لم تكن عميقة تتلاشى بعد أيام،

فكأن الله سبحانه وتعالى أراد لهذا الطلاق المتسرع، غير المبني على حقيقة، غير المبني على دراسة، في ساعة غضب، في ساعة كراهية، بسبب طارئ أراد أن ينتهي هذا الطلاق إلى رجعة، لذلك إذا طلَّق الزوج زوجته في طهرٍ لم يقاربها فيه فله أن يراجعها بكلمةٍ ينطق به فمه، أو بلمسةٍ بيده، وانتهى الأمر، عادت إليه كما كانت، ولا شيء عليها، لا مهر، ولا عقد، ولا شيء من هذا القبيل.

من طلق زوجته و لم يعيدها قبل انقضاء العدة ملكت نفسها وبإمكانه ثانيةً أن يعقد عليها :

لو أن العدة مضت، مضت الأطهار الثلاث، ولم يراجعها ملكت نفسها، لكن بإمكانه أن يعود خاطباً من جديد، أن يعقد عليها عقداً، وتعود إليه زوجةً، وكأن شيئاً لم يكن، ولكن حسبت طلقة، أي أنه استنفد فرصة من فرص الطلاق .

لو أنه طلقها مرةً ثانية نعود إلى الترتيب السابق، تبقى في بيته، وتتزين له، ويأكل معها، وتأكل معه، ولا شيءٍ يمنع بينهما إلا اللقاء الزوجي، فإن كان هذا الموضوع صغيراً تلاشى، وتلاشى حتى انتهى إلى المراجعة، يراجعها قولاً أو عملاً، وانتهى الأمر، فإن لم يراجعها، ومضت هذه الأطهار الثلاث ملكت نفسها، وبإمكانه ثانيةً أن يعقد عليها عقداً ثانياً، من دون أن يحتاج إلى شيء، وتعود زوجته كما كانت، الله جلَّ جلاله يقول:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)

[سورة البقرة: 229]

أول مرة ثلاثة قروء، والمرة الثانية ثلاثة قروء، فإذا طلَّقها ثالثةً في طهرٍ لم يجامعها فيه ملكت نفسها، وبانت عنه بينونةً كبرى، ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً طبيعياً عادياً على التأبيد، فإذا طلقها الزوج الثاني طلاقاً طبيعياً فله أن يتزوجها مرةً ثالثة.

التشريع الإلهي للطلاق :

أيها الأخوة، إن كانت العلة بها الزوج الثاني سيطلقها، عندها تدرك أن العلَّة منها لا منه، لعلها ترجع إليه خاضعةً طائعة، وإن كانت العلَّة منه، الزوج الثاني لم يطلقها خسرها نهائياً، هذا هو التشريع الإلهي، تصور إنسانًا لمشكلة واحدة انتظر تقريباً ستة أشهر، ستة أشهر وهي في بيته، ومتزينة، وبإمكانه أن يقترب منها، وما اقترب، معنى ذلك أن ثمة مشكلة كبيرة جداً، إذا طلَّق الإنسان امرأةً وهي في بيته، وبإمكانها أن تتزين له، وهو في حاجةٍ إليها، ولم يقترب منها في كل هذه الفترة، في ستة أشهر، معنى ذلك أن هذا القرار مبني على دراسة، على حقائق، لا على مشاعر، المشكلة أن هذا القرار

أساسه حقائق أم مشاعر؟ بالحقائق يستمر الزواج، يطلق، ويستمر، أول قرء، والثاني، والثالث، وطلاق ثان، وأول قرء، والثاني، والثالث، وطلاق ثالث، وبينونة كُبرى، لو أنها تزوَّجت، والزوج طلقها، ولم تكن في نفسه لا يتزوجها، هذا هو النظام الإلهي، هذا هو التشريع.

فلو طُبِّق هذا التشريع، صدقوني أيها الأخوة أن بين كل مئة حالة طلاق لا تنعقد حالة واحدة، أما من أول كلمة الطلاق بالثلاث، يقول لها: كلما حللك شيخ يحرمك عشرة، ما هذا؟ أيرتكب أحدكم أحموقته، ويقول: يا بن عباس، يا بن عباس، هذه أحموقة، هذه أم أولادك، هذه شريكة حياتك، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

[مسلم عن أبي هريرة]

وأنت لست كاملاً إن توهَّمت أنها ليست كاملة، وأنت لست كاملاً، طرق أحدهم باب سيدنا عمر ليشكو إليه زوجته، فسمع صياحاً في بيت عمر، فولَّى هارباً، فلما طُرِقَ الباب، وفتح سيدنا عمر لم يجد أحداً، ثم رأى إنسانًا يعدو، قال له: يا أخا العرب، تعال، ما الذي أقدمك؟ قال له: جئتك أشكو مما أنت منه تشكو، قال له: يا أخا العرب، إنها أم أولادنا، تطهو لنا الطعام، تغسل لنا الثياب، لنترَفَّقْ بها، إذاً الله جلَّ جلاله لا يحبُّ الطلاق، هو أبغض الحلال إلى الله.

الطلاق أخطر قرار يتخذه الإنسان :

المقدمة أن هذا القرار الخطير، وهذا أخطر قرار، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن المرأة خُلِقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها و بها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسْرها طلاقها))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

وفي رواية:

((فدَارها تعشْ بها))

[الجامع الصغير عن سمرة]

الحياة لا تحتمل هذه المشاحنة، فلذلك هذه طريقة الإسلام في الطلاق، أول قرء، ثاني قرء، ثالث قرء، طلقة واحدة، أول قرء، ثاني قرء، ثالث قرء، طلقة ثانية، الطلقة الثالثة بينونة كبرى، فإن تزوَّجت زواجاً طبيعياً على التأبيد، ثم طُلِّقَت فلك الحق أن تُرْجِعُها، لذلك تكاد تكون تسعون بالمئة من حالات الطلاق بين المسلمين طلاقًا بدعيًّا غير شرعي، ولو طبق المسلمون هذا النظام، وهذا المنهج الدقيق لما

انتهى طلاقٌ إلى فراق أبداً، لالتأمت البيوت، وعاد الأزواج إلى سابق عهدهم، ولكن الشيطان أحياناً ينفُخ في الزوج، فيطلق امرأته في ساعة غضب، فيهدم بيده بنيانه.

على الإنسان أن يبحث ملياً عن زوجةٍ صالحة لئلا يحتاج إلى تطليقها :

أيها الأخوة الكرام، أما ما ورد في السُنَّة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن حديث ابن عمر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق))

[أبو داود عن ابن عمر]

وعن علي كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: تزوجوا، ولا تطلقوا، فكيف نوفّق بين هذا الحديث الذي رواه سيدنا علي رضي الله عنه وبين قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ)

القرآن أباح الطلاق، زوجوا، ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتزُّ منه العرش، بعض العلماء فسر هذا الحديث ووفقه مع القرآن الكريم، أي ابحث ملياً عن زوجةٍ صالحة، تزوج امرأةً بعد بحثٍ طويل لئلا تحتاج إلى تطليقها، تزوج امرأةً لا تحتاج إلى تطليقها، هذا هو معنى الحديث، أي ابتعد عن أسباب الطلاق، لو كان الزواج متسرعاً فقد تحتاج إلى أن تطلق، لو كان الزواج مبنيًّا على مصلحة لا على رغبة صادقة فقد تحتاج إلى أن تطلق، لو أن الزواج مبني على طمع فقد تحتاج إلى أن تطلق، لو كان الزواج مبنيًّا على حب للدنيا من أجل أن ترقى عند أبيها، ولم تجد هذا فقد تحتاج إلى أن تطلق، فأيُّ زواجٍ لا يكون صافياً خالصاً لله عزَّ وجل قد تحتاج إلى أن تطلق، تزوجوا، ولا تطلقوا، أي لا تتزوج امرأةً يمكن أن تحتاج إلى تطليقها، أي ابحث ملياً..

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

أمر تكليفي.. مرة ثانية.. لو فهمناه أمراً تكويناً سنجد عندنا إشكالاً كبيرًا، ألا تجد إنساناً صالحاً عنده زوجة سيئة؟ ألا تجد امرأةً وليّة عندها زوج سيئ؟ ممكن، الآية ليست حكماً، ولكنها تكليف، أي ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات، فلذلك:

((تزوجوا، ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتز منه العرش))

[الديلمي عن علي]

الله عزَّ وجل لا يحب الذوَّاقين ولا الذوَّاقات :

لا تطلّقوا النساء إلا من ريبة، شككت في إخلاصها لك، شعرت أنها تخونك، عندها تطلق، لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، فإن الله عزَّ وجل لا يحب الذوَّاقين ولا الذوَّاقات، لا تشكو من أخلاقها، ولا من حسن إدارة بيتها، ولا من تربية أولادها، يقول لك: كبرت علي، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات، لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، فإن الله عزَّ وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات، هذه شريكة العمر، وليست متعة آنية، أما الحديث الذي ينبغي أن يكون واضحاً عندكم فهو عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((ما حلف بالطلاق مؤمن ولا استحلف به إلا منافق))

[ابن عساكر وابن النجار عن أنس]

وتقريباً: إذا سئل العالم ألف سؤال، فتسعمئة سؤال عن الطلاق، طلق لجهل، لأتفه الأسباب، طلاق مزاجي، طلاق عشوائي، طلاق مبني على ساعة غضب، بلا دراسة، بلا دقة، بعد أن يطلّق الآن عليه أي يتسكَّع على أبواب المُفتين، بيْنَ مفتٍ يجيز له أن يراجعها، و مفتٍ آخر يمنعه أن يراجعها، مفتٍ يطرده، و مفتٍ يستقبله، مفتٍ يتساهل، و مفتٍ يتشدد، أنت كنت في غنى عن كل هذا، والأصح من ذلك أن الطلاق بيدك وأنت السيِّد، وأنت المُقَرر، فإذا قلت لها: إن ذهبت إلى بيت أختك فأنت طالق، أصبح بيدها الطلاق، انتزعت منك هذه السلطة، وبدأت تهددك: سأذهب، أصبح الأمر بيدها، كان أمرها بيدك فصار أمرك بيدها، فلذلك:

((ما حلف بالطلاق مؤمن ولا استحلف به إلا منافق))

[ابن عساكر وابن النجار عن أنس]

لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، أي في أمر يمسّ سمعة الأسرة، في أمر يمسّ تربية الأولاد، لأن هذه المرأة التي توفي زوجها، وهي شابة، قال عنها النبي عليه الصلاة والسلام:

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأةٌ تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل ؟ قال: هي امرأةٌ مات زوجها، وترك لها أولاداً، فأبت الزواج من أجلهن))

[ورد في الأثر]

أقدس عملٍ على الإطلاق تربية الأولاد :

لو كان هناك مشكلة بين الزوجين من أجل الأولاد فيجب أن يضع الزوج حظوظه من الدنيا تحت قدمه، ويجب أن تضع الزوجة حظوظها من الدنيا تحت قدمها من أجل تربية الأولاد، لأن أقدس عملٍ على الإطلاق تربية الأولاد، فالطلاق ماذا يؤدي؟ إلى تشتت الأولاد، وإلى تشردهم، أنا أعرف رجلاً

طلّق امرأته، ثم اكتشف أن ابنته الصغيرة التي أودعها في بيت جدها سقطت في الرذيلة، ما شعور هذا الأب وقد خسر ابنته، وابنه الثاني هرب، ولا يعلم أين هو؟ فالإنسان حينما يتزوج، لو نشأ خلاف بين الزوجين فيجب أن يضع حظوظ نفسه تحت قدمه رعايةً لأولاده، لأن هذه التي في البيت هي أمهم، مهما كانت سيئة فهي أمهم، وهي أفضل ألف مرة من امرأةٍ غريبة تقسو عليهم.

الحديث الآخر:

((يا معاذ، ما خلق الله شيئاً على وجه الأرض أحب إليه من العتاق، ولا خلق الله شيئاً على وجه الأرض أبغض من الطلاق، فإذا قال الرجل لمملوكه: أنت حرٌ إن شاء الله، فهو حرٌ، ولا استثناء، وإذا قال الرجل لامرأته: أنت طالقٌ إن شاء الله، فله استثناؤه، ولا طلاق عليه))

[الدار قطني عن معاذ]

لأن الطلاق لا يحبه الله، والعتاق يحبه الله عزَّ وجل.

الطلاق على أربعة أوجه :

شيءٌ آخر، عن ابن عباسٌ قال:

((الطلاق على أربعة أوجه، وجهان حلالان، ووجهان حرامان، فأما الحلال أن يطلقها طاهراً عن غير جماع، وأن يطلقها حاملاً مستبيناً حملها، وأما الطلاق الحرام فأن يطلقها وهي حائض، أو أن يطلقها حين يجامعها، لا تدري أشتمل الرحم على ولدٍ أم لا))

[الدار قطني عن ابن عباس]

وقال بعض العلماء: من طلق في طهرٍ لم يجامع فيه نفذ طلاقه، وأصاب السنة، وإن طلّقها حائضاً نفذ طلاقه، وأخطأ السنة، أما سعيد بن المسيِّب فيقول: "لا يقع الطلاق في الحيض، لأنه خلاف السنة".

وعَنْ سَالِمٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ:

((أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَغَيَّظَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: لِيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ))

[متفق عليه عَنْ سَالِمٍ]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

أي طلقوهن في طهرٍ لم تجامعهُن فيه.

(وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)

الأمر موجَّه للأزواج حتى يعرف متى تنتهي العدة، متى يدفع النفقة، متى يمسك، متى يخرج.. إلخ، وفي درسٍ قادم إن شاء الله نتابع هذا الموضوع .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (2-6): تفسير الآية 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-12-20

بسم الله الرحمن الرحيم

التقيد بمنهج الله في علاقة الإنسان بزوجته :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة الطلاق، ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

أما قوله تعالى في هذه الآية:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ)

أي اتقوا أن تعصوه، واتقوا أن تخالفوا أمره، واتقوا أن تقعوا تحت سخطه، واتقوا ألاّ تأخذوا بهذا المنهج القويم في علاقتكم بأزواجكم.

أي خلافٍ بين الزوجين إذا انتهى إلى طلاقٍ رجعي فبقاء الزوجة في بيت زوجها أفضل :

من دقائق هذا التوجيه الإلهي:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

من حقّها عليك ألاّ تخرجها من البيت إذا طلّقتها، ومن حقك عليها ألاّ تخرج من دون إذنك بعد الطلاق، من حقها عليك ألاّ تخرجها، ومن حقك عليها ألاّ تخرج، وهذا تشريع الحكيم الخبير، لأن أي خلافٍ بين الزوجين إذا انتهى إلى طلاقٍ رجعي فبقاء الزوجة في بيت زوجها مما يقلل من قيمة هذا الخلاف، ومما يجعله يتضاءل إلى أن ينعدم، والرجعة ميسورة، وبيد الزوج لفظاً أو سلوكاً، أما إذا خرجت من بيت زوجها فإن أي خلافٍ مهما بدا لك صغيراً يتفاقم، السبب أنها وهي عند بيت أهلها تأتيها المُغَذِّيات، تأتيها التوجيهات، تأتيها التحدِّيات من أخواتها، من أمها، من أبيها، من خالاتها، ومن عمَّاتها، هُنّ لا يعشن مشكلتها، يشرن عليها أن تعانده، يشرن عليها أن تستكبر عليه، يُشرن عليها ألاّ تعبأ به، بل يشرن عليها أن تربِّيه، فيكبر رأسها، ويزداد انحرافها، وهو حينما يراها لا تتصِّل به، ولا تعبأ به، ولا تعود إلى البيت، وتهمل أمره، هو أيضاً يحقد عليها، فلمجرَّد أن تخرجها من البيت أو أن تخرج، إن أخرجتها

فقد تجاوزت حقوقها، من حقّها ألاّ تخرجها، وإن خرجت فمن حقك ألاّ تخرج، إن خرجت فقد أساءت، وضيَّعت حق زوجها وأولادها، وإن أخرجتها فقد أسأت إليها، وأضعت حقها في بقائها في بيتها، هذا التوجيه الإلهي رافقه تشديد، ما هو هذا التشديد؟ هو قوله تعالى:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)

هذه النون نون النسوة، أضيفت إلى البيوت التي تسكن فيها النساء، وكأن البيت الذي تسكنه الزوجة أضيف إليها لا إضافة تملّكٍ، بل إضافة تشبُّث، أي أيتها المرأة تشبَّثي في بيتك، ولا تخرجي منه، إن خرجت منه أسأتِ إلى زوجك، إن خرجتِ منه تفاقم الأمر، بالتعبير الجديد.. تفجَّر الأمر.. مشكلة إما أن تحاصرها، وإما أن تحتويها، وإما أن تصغِّرها وتحجِّمها، وإما أن تتفاقم، وأن تكبر إلى أن تنفجر.

من طبق التوجيهات الإلهية في الزواج تضاءلت المشكلات الزوجية إلى العُشر :

أيها الأخوة الكرام، يستنبط من هذا التوجيه الحكيم أن المرأة إذا خرجت من بيتها إلى بيت أهلها من دون إذن زوجها عقب طلاقٍ رجعي، إذا خرجت فقد ضيّعت حقّ زوجها وأولادها، وقد عَصَتْ ربَّها، وقد أساءت إلى أسرتها، وعقابها أن هذه المشكلة التي بينها وبين زوجها تتفاقم، تزيد إلى أن تنتهي بالطلاق الحقيقي، وكم من امرأةٍ خرجت من بيت زوجها إلى بيت أهلها، ولم ترجع أبداً، جاء دور الشيطان ينفخ فيها، وينفخ فيه، يقول لها: لم يتّصل بك، لم يأت لزيارتكِ، لم يسأل عنكِ، ويقول له: لم تتصل بك، ولم تعُد إلى البيت، ولم تعبأ بك، حينما تخرج الزوجة من بيت زوجها إلى بيت أهلها عقب طلاقٍ رجعي من دون إذن زوجها أساءت، وفجَّرت الموقف بيدها، وإن أخرجها من بيته عنوةً، وقسوةً، وإكراهاً أيضاً فقد حملها على أن تزيد المشكلة سوءاً، لو أن الأزواج والزوجات طبَّقوا جميعاً هذا التوجيه الإلهي الكريم لتضاءلت قضايا المشكلات الزوجية إلى العُشر، هذا كلام خالق الكون، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يحملها على البقاء في البيت، وكأنه بيتك..

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ)

لم يقل: من البيوت، لم يقل: لا تخرجوهن من بيوتكم، البيت للزوج، وهو مسجلٌ باسم الزوج، وهو مالكه، هو الذي يبيعه، والقرآن الكريم نسبه إلى الزوجة فقال:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)

أي أيها الزوج، وإن كان البيت لكَ في السجلاّت الرسمية هو لها في حق التشبّث به، ويا أيتها الزوجة، ولو أنكِ لا تملكين هذا البيت فإنما هو بيتك في نص القرآن الكريم لا نسبة ملكية، بل نسبة تشبُّث،

الخلاصة أن كل خلافٍ زوجي يتضاءل إذا بقيت المرأة في بيت زوجها، وإن كل خلافٍ زوجي يتفاقم إذا خرجت من بيت زوجها.

قرار الطلاق قلَّما يبنى على محاكمة منطقية :

وقد ذكرت لكم من قبل أن قرار الطلاق قلَّما يبنى على محاكمة منطقية، قلَّما يبنى على ضرورة، أغلب ما يبنى على انفعال، والانفعال مؤقت، الانفعال لا يدوم، الانفعال يتناقص، الانفعال يتلاشى بعد حين، فالله سبحانه وتعالى لئلا يكون فرقة بين الزوجين، لئلا يُشَرَّد الأولاد، لئلا تنهدم الأسرة، لئلا تُدمَّر الحياة في هذا البيت جعل الطلاق بهذه الطريقة.

إذاً روعة تنفيذ أمر الله في هذه الفقرة، طلقتها طلاقاً سُنِّياً، تطليقةً واحدةً في طهرٍ لم تمسَّها فيه، هذا الطلاق السُنِّي، طبعاً لو طلقتها في حيض فهذا طلاقٌ بدعي، لو طلقتها في طهرٍ مسستها فيه فهذا طلاقٌ بدعي، لو طلقتها طلاقاً سنياً وفق السنة الشريفة في طهرٍ لم تمسها فيه، إلا أنك أخرجتها من بيتك إلى بيت أهلها من أجل أن تبتعد عنك فأنت عَطَّلْتَ حكمة أمر الله عزَّ وجل، أرادها الله أن تبقى إلى جانبك، أراد الله أن تنسى بعد يومين أو ثلاثة هذه المشكلة، أرادها أن تتضاءل، وأنت حينما أخرجتها من بيت أهلها أردتها أن تتفاقم.

نسبة البيت إلى الزوجة ليس نسبة تملُّك بل نسبة تشبُّث :

أعيد وأكرِّر: أي خلافٍ بين الزوجين مهما كان كبيراً يتضاءل، ويتلاشى بعد حين إذا بقيت الزوجة في بيت زوجها، وأي خلافٍ بين الزوجين مهما كان صغيراً يتفاقم، وقد ينتهي إلى الطلاق إذا خرجت من بيت زوجها إلى بيت أهلها، خروجها من بيت زوجها إلى بيت أهلها من دون إذن زوجها تَضْيِيعٌ لحق زوجها، وإخراجها من بيت زوجها إلى بيت أهلها مكرهةً تضييعٌ لحقّها، من حقّها أن تبقى في بيت زوجها، ومن حقّه أن تبقى له، وهي مطلَّقة، لأن هذا الطلاق في الأعمِّ الأغلب ينتهي إلى المراجعة لو طُبِّقَت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، هذا كلامٌ ليس للاستمتاع، ولا لأخذ العلم، ولكن للتطبيق.

فكثيراً ما يأتي أخوةٌ كرام طلَّقوا زوجاتهم طلاقاً وَفْقَ السنَّة، ولكن طردوهنّ إلى بيت أهلهن، وبهذا الطرد يتفاقم الأمر، وقد ينتهي إلى الطلاق، هذا توجيه الله عزَّ وجل، ولا أدل على هذا التوجيه القويم من أن هذا البيت ينبغي أن تتشبَّث به الزوجة، وكأنه بيتها، وهذا البيت الذي هو لك أيها الزوج ينبغي أن تتحرَّج أن تخرجها منه، ولو كان بيتك، إنه في كتاب الله بيتها، وإنه في كتاب الله منسوبٌ إليها، لا أقول: نسبة تملُّك بل أقول: نسبة تشبُّث.

المرأة تؤكد ذاتها وتظهر عبقريتها و كفاءتها في بيتها :

هناك معنى آخر، وهو أنه حينما نسب الله هذا البيت الذي تسكنه أنت وزوجتك إلى زوجتك، أضافه إليها مِنْ[، بعض العلماء استنبط أن الزواج عند الرجل أحد فصول حياته،]بُيُوتِهِنَّ له فصلٌ في علاقته مع ربِّه، وله فصلٌ في علاقته مع من حوله، وله فصلٌ في عمله، وله فصلٌ في تأكيد ذاته، وأحد فصول حياته زواجه، فإن لم تظهر كفاءة الزوج، ولم تظهر عبقرية الزوج في بيته ظهرت خارج البيت، إن لم تظهر في بيته ظهرت في عمله، إن لم تظهر في بيته ظهرت في إنجازه، في قوة شخصيته، في دقَّة صنعته، في براعة حرفته، في رواج تجارته، في نماء مزروعاته، الرجل يستطيع أن يؤكّد ذاته في حقولٍ كثيرة، أحدها عمله، أحدها علاقاته، أحدها علاقته مع ربِّه، أما الزوجة يعَدُّ الزواج بالنسبة إليها كل فصول حياتها، فإذا نجحت في أن يتزوَّجها رجلٌ كفء لها فقد نجحت في الحياة، وإن لم تنجح فقد أخفقت، لذلك في أي مكانٍ تؤكد الزوجة ذاتها، وتظهر عبقريتها، وتظهر كفاءتها، وتظهر قوة شخصيتها، وتظهر براعتها، وتظهر حسن تدبيرها؟ في بيتها، فإذا منعها الزوج من حقّها الطبيعي في أن تكون مسؤولةً عن بيت زوجها فقد حرمها كل فصول حياتها، لذلك هذا معنى آخر ذكره بعض العلماء في عِلّة نسبة البيت إلى الزوجة، فأنت حقق شخصيتك وكفاءتك خارج البيت، ودعها هي لتحقق إمكاناتها، وحسن إدارتها، وذوقها داخل البيت، طبعاً في حدود المستطاع، لأنكِ أيتها الزوجة إن أردتِ أن تطاعي فائمري بما يُستطاع، وهذه حكمةٌ بليغة: " إذا أردت إن تُطاع فائمر بما يُستطاع ".

من لم يطبق الآية التالية فقد عطّل حكمة الطلاق :

إذاً أول نسبةٍ للبيت إلى الزوجة نسبة تشبُّث، لا تخرج، ارفضي أن تخرجي، وأنت أيها الزوج لا تخرجها، إياك أن تخرجها كي تعود إليك، ولا تخرجي كي تعودي إليه، لا تخرجها كي تعود إليك، ولا تخرجي أيتها الزوجة كي يعود إليكِ، أما إذا خرجتِ أو أخرجتها فإن أصغر قضيةٍ بينك وبينها تتفاقم، وتتفجَّر، وتنتهي إلى الطلاق، أما إذا بقيت في بيت زوجها فإن أكبر مشكلةٍ بينك وبينها تتلاشى، وتنتهي إلى الوفاق.

إذاً أيها الأخوة، هذا كلامٌ للتطبيق، لا لأخذ العلم، ولا للمتعة المجرَّدة، ولا للترنّم بكتاب الله، هذا توجيه ربنا لنا، حافظ على تطبيق هذه الآية، بل إن الزوج.. كما قلت قبل قليل.. لو طلَّقَ امرأته طلاقاً سنياً راعى فيه كل الشروط، ولم يطبِّق هذا البند من هذه الآية، في قوله تعالى:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

فقد عطَّل حكمة الطلاق، ولم يكن الطلاق عندئذٍ سنّياً، بل كان بدعياً، وهذه الحقيقة لها ألف شاهدٍ وشاهد، ولها ألف دليلٍ ودليل، وعليها ألف قصّةٍ وقصّة، عمَّتها من جهة، وخالتُها من جهة، وأختها من جهة، وأخوها من جهة، وأبوها من جهة، وأمها من جهة، كلُّهم من جهة يوغرن صدرها على زوجها، وبالمقابل أمه وأبوه، وإخوته وأخواته، وعمَّاته وخالاته يوغرن صدره على زوجته، هم يعودون إلى بيوتهم مطمئنين، والنساء يعدن إلى أزواجهن مطمئنات، وتبقي أنت وحدك في البيت تتلوّى، وتبقى هي وحدها تتلوّى، وهؤلاء الذين أوغروا صدوركما، وما نفعوكما، لذلك اقبل نصيحة الله عزَّ وجل، لا تخرجها من البيت، ويا أيتها الزوجة لا تخرجي من البيت..

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

لا يحلف بالطلاق إلا من استخفَّ بهذا العقد الغليظ :

أنا أشعر بألمٍ شديد حينما أجد إنساناً يطلب العلم، يحضر الدروس، يرتاد المساجد، محسوبٌ على المسلمين، محسوبٌ على الأتقياء، يُخالف أمر الله في علاقته بزوجته.. كما قلت لكم: عن ابن عبَّاسٍ جاءه رجل، وقد حلف يمين طلاقٍ، قال: " أيرتكب أحدكم أحموقته، ويقول: يا بن عبَّاس، يا بن عبَّاس!!".

أي لو أن غضباً شديداً بين الزوجين افعل كل شيءٍ إلا الطلاق، لو فعلت كل شيءٍ بيدك إصلاحه، أما إذا وقعت منك كلمة الطلاق فالآن صار هناك قواعد شرعية لا يجوز أن تخالفها، وإلا كان الزنا بينك وبينها، القضية كبيرةٌ جداً، لذلك لا يحلف بالطلاق، ولا يستحلف به إلا منافق، لا يحلف بالطلاق إلا من لم يعرف حقَّ الزوجة، ولا حقَّ الزوج، إلا من استخفَّ بهذا العقد الغليظ، بهذا الميثاق الغليظ الذي كان بين الزوجين، وأنا لا أكتمكم في أن أقول: إن أوثق ميثاقٍ بين شخصين على الإطلاق هو عقد الزواج، هذا العقد يبيح لك من المرأة ما لا يستطيع أبوها، ولا أخوها، ولا عمُّها، ولا خالها، ولا أمُّها أن ترى منها شيئاً، وهذا العقد يبيح للزوجة أن ترى منه ما لا يستطيع أحدٌ أن يرى منه..

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

[سورة النساء: 21]

هذا الميثاق الغليظ هو عقد الزواج.

الفاحشة هي الخيانة والبذاءة والسرقة وهذه حالات نادرة :

أيها الأخوة الكرام:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا)

هناك استثناء..

(إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ)

إلا أن تقع الفاحشة في البيت، إلا أن تقع الخيانة في البيت، هكذا فسَّر بعض العلماء الفاحشة، وفسروها أيضاً ببذاءة اللسان، لو أن هذه الزوجة سليطة اللسان، تُصيب بلسانها المقذع كل من في البيت، ولعلَّ هذا اللسان المقذع ينتهي إلى مشاجراتٍ، وإلى تفجُّراتٍ، في هذه الحالة ينبغي أن تخرجها من البيت حسماً للشر، وحسماً لتفاقمه .

(إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ)

أو أن تأخذ من البيت ما ليس لها، وقعت الخصومة، وبدأت تأخذ ما ليس لها سرقةً، أو بذاءةً، أو خيانةً، فُسِّرت الفاحشة بالخيانة، وبالبذاءة، وبالسرقة، وهذه حالات نادرة جداً، أي قلَّما ترافق حالة طلاق، لكن الاستثناء له حكمه.

الطائع في ظل الله ومشمولٌ برعايته :

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)

ما دمت لم تتعدَّ حدود الله فأنت في ظلِّ الله، ما دمت لم تتعدَّ حدود الله فأنت مشمول برعاية الله. أيها الأخوة، الطائع في ظل الله، مشمولٌ برعاية الله، وحفظ الله، وتوفيق الله، الله يسدد خُطاه، ينير له الطريق، يوفّقه، يحفظه، يدافع عنه، أنت حينما تقيم حدود الله يوفق الله بينك وبين زوجتك.

أكبر مهمَّات الشيطان التفرقة بين المرء وزوجته :

دائماً أيها الأخوة القاعدة: أن الشيطان من أولى مهمَّاته أن يفرِّق بين المرء وأهله، أي إن أحد أكبر مهمَّات الشيطان أن يفرِّق بين المرء وزوجته، فالشيطان ماذا يفعل؟ إنه يوسوس للزوج أن يخرج عن منهج الله، ويوسوس للزوجة أن تخرج عن منهج الله، وحينما يبنى زواجٌ على معصية الله عندئذٍ تنشأ الكراهية والحقد والبغضاء، المودة أساسها أن تقيم منهج الله في بيتك، ما من بيتٍ يُبنى على طاعة الله

إلا ويتولَّى الله التوفيق بين الزوجين، وما من بيتٍ يبنى على معصية الله إلا ويتولَّى الشيطان التفريق بينهما..

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)

كيف أن تياراً كهربائياً شدَّته ثمانية آلاف فولط، لو أن الإنسان اقترب منه إلى أقلّ من ستة أمتار يجذبه التيار، ويجعله قطعةً من الفحم في ثوانٍ معدودات، ماذا نقول للمواطنين حيال هذا التيار؟ نقول: احذروا أن تمسَّوه أم احذروا أن تقتربوا منه؟ احذروا أن تقتربوا منه، وكلَّما كنت ورعاً جعلت بينك وبين حدود الله هامش أمان، لذلك المؤمن لا يستخدم الطلاق، ولا حرف الطاء، ولا حرف اللام، ولا حرف القاف إلا في حالات نادرة جداً، لا تُطلَّق المرأة إلا من ريبة، أما أن تجعل من الطلاق سلاحاً مشهوراً على الزوجة، يُذهِب عنها طمأنينتها ويقلقها، وتكون في دوامةٍ من الفراق فهذا ليس من تشريع الله عزَّ وجل..

على الإنسان أن يجعل هامش أمان بينه و بين حدود الله :

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)

حدود الله لا تقترب منها، اجعل بينك وبينها هامش أمان، حدود الله إذا تجاوزتها خرجت من مظلَّة الله عزَّ وجل، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((سَبعة يظلّهم الله تحت ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظلّه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

أنا يهمني من هذا الحديث:

((يظلّهم الله تحت ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظلّه))

أنت إذا كنت في طاعة الله فأنت تحت ظلِّ الله، ومعنى ظل الله أي رعايته، وتوفيقه، وتأييده، وحفظه، ونصره، والدفاع عنك ما دمت في طاعة الله، وهذا أمر الزواج أمرٌ خطير، فهو أخطر حدثٍ في حياتك، بل إن أخطر علاقةٍ على الإطلاق هي علاقتك بزوجتك، فإذا كنت مع الله تولَّى الله هذه العلاقة بالنماء، تولاَّها بالرعاية، تولاَّها بالحفظ.

من طبق التوجيهات الإلهية كان الطلاق في طريقه إلى المراجعة :

لذلك..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

ومن آياته أنك تسكن إليها، وتسكن إليك..

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)

لا تطلّق وأنت غضبان، لا تطلّق وهي حائض، لا تطلّق في طهرٍ مسستها فيه، لا تطلّق إلا من ريبة، لا تطلّق وتُخْرِج، لا تخرجي أيتها الزوجة إذا طلّقك زوجك بل تشبّثي ببيتكِ، هذه كلّها ضمانات لكي يكون الطلاق في طريقه إلى المراجعة، إذا طبّقت هذه التوجيهات الإلهية كان الطلاق في طريقه إلى المراجعة، وإلى التلاشي، أما إذا خالفت هذه التوجيهات فعندئذٍ يتفاقم الأمر..

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)

من يَتَعَدَّ حُدودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ :

فالله عزَّ وجل كما يقول في الحديث القدسي الصحيح:

((... يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

[سورة الروم: 44]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

[سورة الجاثية: 15]

(وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)

أحياناً تجد زوجاً عنده زوجة صالحة، تدير أمر بيته، عنده منها خمسة أولاد، وهي راضيةٌ به، وهو راضٍ بها، ولسببٍ تافهٍ تافه، وفي ساعة غضبٍ طارئ يطلّقها طلقاتٍ ثلاثة، ويخرجها إلى بيت أهلها، الأمر يتفاقم، أهلها يتشبثون بها، يحرمونها منه، ويحرمونه منها، يأتي إلى البيت فإذا هو بيتٌ لا امرأة فيه، لا زوجة فيه، بيتٌ موحش، المرأة وجودها في البيت مؤنس، وحركتها في البيت مؤنسة.. فهي تُقَدِّم خدمات كثيرة لزوجها وأولادها.. أولاده جياع، الطعام غير موجود، البيت غير نظيف، الثياب غير

جيدة، هو حائر، هو مضطرب، أنت الذي ظلمت نفسك، كانت هي عندك، وكانت في خدمتك، وكانت طَوْعَ إرادتك فكفرت بهذه النعمة.

نعمة الزواج من نعم الله الكبرى :

أيها الأخوة، نعمة الزواج من نعم الله الكبرى، أنا أقول هذا الكلام للأزواج والزوجات: يا أيها الزوج لا تكفر بنعمة الزوجة فتطلقها لأتفه سبب، أو تبعدها عن بيتك لأتفه نزوة، ويا أيتها الزوجة لا تكفري بنعمة الزوج، كم من النساء يتمنَّين أن يكن زوجات وعندهن أولاد؟ هذا الشيء لم يتح لهم، فيا أيها الزوج لا تكفر بنعمة الزوجة فتُحرَم منها، ويا أيتها الزوجة لا تكفُري بنعمة الزوج فتُحرَمي منه، فعَنْ ثَوْبَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

[الترمذي عن ثوبان]

هذه أيها الأخوة بعض ما في هذه الآية من حقائق.

ليس من السنَّة أن تطلّق المرأة تطليقاتٍ ثلاثة في مجلسٍ واحدٍ :

الله عزَّ وجل حينما قال:

(لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

قال بعض العلماء: هذه الكلمات في هذه الآية هي دليل أنه ليس من السنَّة أن تطلّق المرأة تطليقاتٍ ثلاثة في مجلسٍ واحدٍ، هذه الآية أصبحت لا معنى لها.

(يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

إن طلقتها تطليقةً واحدة، إذاً تُراجِعُها، يحنُّ قلبك إليها، تنسى ما أغضبك منها، تنسى خطأها، تنسى انفعالها، أما إذا طلقتها بالثلاث طلاقاً بائناً بينونةً كبرى فإن هذا الكلام لا معنى له، وهذه الفِقَرات في هذه الآية أكبر حجَّة على أن الطلاق السُنِّي هو ما كان تطليقةً واحدة في كل طهر، في كل طهر تطليقة واحدة، طهر وثلاثة أقراء، طهر وثلاثة أقراء، طهر وبينونة كبرى.

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)

[سورة البقرة: 229]

الثالثة :

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

مشكلاتنا سببها خروج عن منهج الله وكل خروج سببه الجهل :

والله أيها الأخوة، ترتكب حماقات، وترتكب مخالفات في شأن الطلاق بين شباب المسلمين وشابَّات المسلمين فيما لا يُحصى، هذا دليل جهل، هذا دليل بعد المسلمين عن مجالس العلم.

مرَّةً.. أذكر هذه القصَّة، لأنها حدثت قبل عشرين عاماً فيما أذكر.. في أول عهدي بالخطابة، سألني أخٌ فقال لي: إن امرأتي تخونني منذ ثلاث سنوات، قلت له: مع من؟ قال لي: مع جاري، قلت له: وكيف عرفت أنها مع جارك؟ قال: زارنا مرَّةً فقلت لزوجتي: تعالي اجلسي معنا، إنه مثل أخيكِ، قلت له: لو حضرت مجلس علمٍ واحد، وعرفت حكم الله في شأن الاختلاط لما فعلت هذا، فيجب أن نعلم علم اليقين أن كل مشكلاتنا على الإطلاق سببها خروجٌ عن منهج الله، وأن كل خروجٍ عن منهج الله سببه الجهل، وأن الجهل هو أعدى أعداء الإنسان، وأن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوّه أن يفعله به، وإنني والله أستمع إلى مآسي بيوتات المسلمين، أحياناً يكون الزوج ضحيةً، وأحياناً تكون الزوجة هي الضحية، وأحياناً يكون الزوجان معاً هما الضحية بسبب الجهل، لذلك حينما تأتي إلى بيتٍ من بيوت الله لتتعرَّف إلى حكم الله في أخصِّ خصوصياتك.. في زواجك.. فأنت في هذا الوقت تستثمر الوقت لا تستهلكه، أنا لا أجد كلمة أشد جهلاً بصاحبها من الذي يقول: أنا لا يوجد عندي وقت لحضور مجلس علم، فإذا قلنا لإنسان: تعال وتعلَّم قيادة السيارة، يقول لك: أنا لا يوجد عندي وقت لتعلُّم القيادة لكن سأقود السيارة، إذا أردت أن تقودها بلا تَعَلُّم فالحادث حتمي، الحادث قد يكون مميتًا، فأنت شئت أم أبيت تقود سيارة، هي هذه الزوجة، أو هذا البيت تقوده أنت، فإن لم تتعلَّم فنّ القيادة، وإن لم تعلَّم حدود الله، وإن لم تتعلَّم ما ينبغي، وما لا ينبغي، ما يجب وما لا يجب، ما يجوز وما لا يجوز، ما هو ممكن وما ليس بممكن، فالحادث حتمي، فهل من الممكن لإنسان مهما كان ألمعياً وذكيا أن أجعله وراء المقود أول مرَّةٍ في حياته من دون أن يعرف عن هذه المركبة شيئاً، وأجعله ينطلق بسرعة مئة، كم تظن احتمال الحادث؟ الحادث بالمئة مئة، وأي إنسان لا يتعلَّم، لا يعرف حكم الله في الزواج، ولا في الزوجة، ولا في أصول معاملتها، ولا في أصول تربية الأولاد سيخفق في بيته حتماً، وسيدفع الثمن باهظاً.

تعلُّم الشرع من أولويات الدين :

إذاً تعلُّم الشرع من أولويات الدين، تعلُّم أحكام الشرع يأتي في الدرجة الثانية بعد معرفة الله عزَّ وجل، فالوقت الذي تُمْضِيه في حضور مجلس علمٍ تتعرَّف فيه إلى كلام الله، وإلى سنَّة رسوله، هذا استثمارٌ للوقت، وليس استهلاكاً له، لذلك لو عندك وقتٌ طويل تحلل فيه بعض المشكلات الزوجية لوجدت أن الجهل هو السبب، جهل الزوج بأحكام الله في الزواج، أو جهل الزوجة بأحكام الله في الزواج.

مرَّة فيما أذكر امرأةٌ وقفت عند بائعٍ لتشتري، ألانت له القول من أجل أن يخفض لها السعر فقط، هو ظنَّ شيئاً آخر.. وهي تسكن قريباً منه.. ظنَّ شيئاً آخر فتبعها، فلمَّا فُتِحَ الباب اقتحمه، نادت إلى ابنها ليستنجد بزوجها، زوجها قريب، له عمل قريب، فجاء الزوج وقفل الباب، وجاء بالشرطة، وفُضِحَ الأمر، واتُهمت بالخيانة، وطُلِّقت، والسبب فيما أعلم أنها بريئة إلا أنها جاهلة، قال تعالى:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

[سورة الأحزاب: 32]

المرأة حينما تلين القول مع الأجانب قد يفهمون شيئًا آخر، طُلِقت، وفُضِحَت لماذا؟ لأنها ألانت القول، فلذلك لو حلَّلت ما يجري في البيوت من مآسي، ومن فِراق، ومن طلاق، لوجدت أن معظمه يعود إلى الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والعلم هو العلاج، ولابدَّ للمسلم من مجلس علمٍ ينضمُّ إليه، لابدَّ من منهلٍ علمي يستقي منه، لابدَّ من مرجعٍ يسأله، أما أن يبقى الإنسان هكذا يتحرَّك حركةً عشوائية بلا علم، بلا حكم، بلا فهم، بلا حكمة فهذا شأن عامَّة الناس.

حكمة الطلاق كلّه في الآيات التالية :

ثم قال تعالى:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

أي:

(لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

أي إن حكمة الطلاق كلّه في هذه الكلمات، أي طلقها وليست حائضة، في طهرٍ لم تلامسها فيه، طلّقها تطليقةً واحدة، أبقها في بيتك، لها أن تتزين، ولها أن تأكل معك، ولها أن تفعل كل شيء، انتظر أن تطهر أول شهر، وثاني طهر، وثالث طهر، فإن لم تراجعها ملكت نفسها، وإن ملكت نفسها بإمكانك أن تعيدها بعقدٍ جديد، ولا شيء عليك، فإن راجعتها عادت الأمور إلى مجاريها، نشأت مشكلة ثانية فلك أن تطلقها تطلقيةً واحدة في طهرٍ لم تلامسها فيه، وتبقى في بيتك أول شهر، ثاني شهر، ثلاثة أشهر، ففي الأعم الأغلب تسعة وتسعون بالمئة من الطلاق ناشئ عن غضب، ناشئ عن تحدٍّ، ناشئ عن انفعال، هذا الانفعال إلى تلاشٍ، هذا الغضب إلى تلاشٍ، أي إن الله وضع ثلاثة أشهر وثلاثة أشهر، أي ستة أشهر، أنا أعتقد أحياناً أن القضية تحلّ في ثلاثة أيام، يومين، جمعة، في خلال أسبوعين، وانتهى الأمر، فإذا أخرجتها من بيتك فقد عطَّلت حكمة الله في شرعه، وإذا خرجتِ أيتها الزوجة عطَّلتِ حكمة الله في شرعه..

الله عز وجل قد يُحدِث بعد الخصومة وفاقاً و بعد الحقد تسامحاً :

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

من أجل ماذا؟ استمعوا بدقَّةٍ إلى حكمة هذا التشريع:

(لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

لعل الله يُحدِث بعد الخصومة وفاقاً، بعد الغضب هدوءاً، بعد الحقد تسامحاً، بعد النفرة ميلاً، هذا شأن الزوج، وشأن الزوجة، والله هو الخالق، هو الذي يعرف ماذا يخلق.

(لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

اتخذ بعض العلماء من هذه الآية دليلاً على أن طلاق الثلاث في مجلسٍ واحد، وفي موضوعٍ واحد لا يقع، وبعضهم قال: " يقع، ولكن هذا الطلاق خلاف السنَّة، السنَّة أن تطلّق في كل طهرٍ لم تلامسها فيه تطليقةً واحدة، وتنتظر ثلاثة قروء ".

أي زوجة لها حقوق على الزوج أن ينفق عليها ويرعى أمرها ويحفظ غيبتها :

قال تعالى:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

قال العلماء:

(بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

أي قاربن على انتهاء العدَّة.. لا يوجد غير حلَّين:

(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

أي زوجة لها حقوق الزوجة، تنفق عليها، وترعى أمرها، وتحفظ غيبتها، وتبالغ في مودَّتها، وفي إكرامها، وتجلس إلى جانبها بالعدل، هذا هو الزواج.

(أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

أي انتظر حتى تنتهي عدَّتها، ثم أعطها مهرها المُعَجَّل والمؤخَّر، ومتعتها، وفارقها بإحسان، هذه المرأة التي قالت: " يا أبا أمية، لقد كان لك من نساء قومك من هي كفءٌ لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجةً على كتاب الله وسنة رسوله، فاتَّقِ الله فيَّ "، وامتثل قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

هذا كلام الله، هناك من يُمسِك زوجةً بغير المعروف، لا يأتي إلى البيت، لا يُنفق عليها.

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

وإلا.. فالله سبحانه وتعالى ينتقم أشد الانتقام، وإلا.. فالله سبحانه وتعالى يدمِّر.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج : 12]

المرأة التي تحسن تَبَعُّل زوجها كالمجاهدة في سبيل الله :

إياك أن تظلم امرأةً ضعيفةً لا تملك من أمرها شيئاً، كم من زوجٍ ظلم زوجته فذاق وبال أمره؟ كم من زوجةٍ ظلمت زوجها فذاقت وبال أمرها؟ المؤمن يُعامل زوجته من خلال الله عزَّ وجل، أي لا يظلمها، ولا يُقَصِّر في حقِّها كي يرحمه الله عزَّ وجل، وهي كذلك لا تظلمه، ولا تقصّر في حقِّه كي يرحمها الله عزَّ وجل، بل إن المؤمن يغض البصر عن سلبيَّات زوجته، ويؤدِّي ما عليه من حقوقٍ لها تقرَّباً إلى الله، والمؤمنة تغضُّ النظر عن سلبيات زوجها وتؤدِّي ما عليها من حقوقٍ تقرُّباً إلى الله، فإذا كان الزوجان يتقرَّبان إلى الله بخدمة بعضهما بعضاً فكم سعيد هذا البيت؟.. هكذا.. هي تتقرَّب إلى الله بخدمة زوجها، والقيام بحقوقه، والنبي عليه الصلاة والسلام وعد بأن المرأة التي تحسن تَبَعُّل زوجها كالمجاهدة في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام..

(وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

معرفة حقوق الزوجة و حقوق الزوج معرفة واجبة على الطرفين :

أيها الأخوة... الزوجة لها حقوق، والزوج له حقوق، لابدَّ أن يعرف الزوج حقوق زوجته، ولابدَّ من أن تعرف الزوجة حقوق زوجها، هذا من أجل أن نُطبق هذه الآية:

(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

أي وفق الشرع، فكيف تمسكها بمعروف، ولا يعرف بعض الأزواج حقوق الزوجة؟ أحياناً يُهملُها، أحياناً لا يأتي إلى البيت، عنده زوجة ثانية، يعيش مع الثانية أسابيع وأسابيع تلو الأسابيع، ويُهمل الأولى، ومع إهمال الأولى قد تنحرف، لذلك كيف تعامل الزوجة بالمعروف إن لم تعرف حدود هذا المعروف؟

(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

لذلك قالوا: العلم علمان، علمٌ فرض عين، وعلمٌ فرض كفاية، العلم الذي هو فرض عين ما ينبغي أن يُعلَم بالضرورة؛ أحكام الزواج، وحقوق الزوجة، وحقوق الزوج، علمٌ ينبغي أن يُعلم بالضرورة لكلٍ من الزوجة والزوج، لابد من أن تجلس في مجلس علم، أو أن تقرأ، أو أن تستمع إلى شريط.

أنا فيما أذكر كان قبل سنواتٍ عدَّة دروس يوم الأحد عن حقوق الزوجة و حقوق الزوج، فحقوق الزوجة شريطان، وحقوق الزوج أيضاً شريطان، وحقوق الآباء على أولادهم أربعة أشرطة، وحقوق الأولاد على آبائهم شريطان، أي إن المجموع عشرة، هذه المجموعة تبين حقوق الأزواج والزوجات، والآباء والأبناء، هذه أشياء دقيقة شرعية لابدَّ من أن تعرفها لكي لا يخالف الإنسان الشرع، فإذا خالف دفع الثمن باهظاً، نظام دقيق..

أضرب لكم مثلاً: قانون السقوط، هذا قانون، إن أردت ألاّ تعبأ به، إن احتقرته، إن لم تكترث به، وألقيت بنفسك من الطائرة من دون أن تراعي هذا القانون، القانون حينما لا تعبأ به يُطبَّق عليك وقد يُهلِكك، أما إذا عَبَأت به نزلت بالمظلّة.. أي إن القوانين والسنن لا تُلغى إن لم تعترف بها، إذا لم تعترف بها لا تُلغى، إن اعترفت بها أو لم تعترف، آمنت بها أو لم تؤمن، وَّقرَّتها أو لم توَقِّرها فهي نافذة، فهناك نظام دقيق جداً، فإن عرفته تكيَّفت معه، وإن لم تعرفه دفعت ثمنه.

السعادة الزوجية في البيوت مهمَّة جداً وهي أساس نجاح الإنسان خارج البيت :

لذلك:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

كيف يُمسِكُها بمعروف؟ قال العلماء:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء: 19]

فسَّروا المعروف لا أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، إذا وَطَّن الزوج نفسه أن يحتمل الأذى من زوجته، والزوجة إذا وَطَّنت نفسها أن تحتمل الأذى من زوجها، لم يعد هناك أية مشكلة، انتهت المُشكلات، إذا عرفت حقوقه، وعرف حقوقها، إذا عرفت حدودها، وعرف حدوده، إذا عرف ما له وما عليه، وعرفت ما لها وما عليها، انتهت المشكلة، إن سعدت البيوت سعِد المجتمع، إن اطمأنّ الإنسان في بيته أنتج في عمله، وضاعف إنتاجه، فقضية السعادة الزوجية في البيوت مهمَّة جداً هي أساس نجاحك خارج البيت، والأوامر معروفة، اطلب العلم، تعلَّم.

النبي عليه الصلاة و السلام قدوة لنا في أحواله كلّها :

كان عليه الصلاة والسلام قدوةً لنا في زواجه، في أحواله كلّها، في معاملته لزوجاته.. فقد جاء طبقٌ من الطعام من السيدة صفية إلى بيت عائشة، فأصابتها الغيرة، أمسكت بالطبق وكَسَّرته، ماذا بإمكان النبي أن يفعل؟ بإمكانه أن يفعل كل شيء، ماذا قال؟ عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتْ الَّتِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهَا يَدَ الْخَادِمِ فَسَقَطَتْ الصَّحْفَةُ، فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: غَارَتْ أُمُّكُمْ، ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ))

[البخاري عن أنس]

أي إنه امتص هذا الغضب، غضبت أمكم غضبت أمكم، هو قدوةٌ لنا، طبعاً لا نسمح لهن بتكسير الأطباق، ولكن نقتدي برسول الله بحلمه، برحمته، بامتصاص غضبها، بعطفه عليها، فنحن يجب أن نقرأ سيرة النبي كي نعرف كيف كان النبي زوجاً ناجحاً.. تسأله من حينٍ لآخر أتحبُّني؟ يقول عليه الصلاة والسلام: كعقدة الحبل، تقول له: كيف العقدة؟ يقول: على حالها.. كان زوجاً ناجحاً. ورد في بعض السير أنه حينما فتح مكَّة قال: انصبوا لي خيمةً عند قبر خديجة، وفاءً لها، فالإنسان أحياناً يتزوج زوجة ثانية بعد وفاة زوجته الأولى فيتقرَّب للثانية بذم الأولى دائماً... لكن النبي عليه الصلاة والسلام كلَّما ذكر خديجة أثنى عليها، مرَّةً قالت له عائشة: ألم يبدلك الله خيراً منها؟ قال: لا والله، لا والله، لا والله، وفاؤه لزوجاته عجيب، حلمه عليهن عجيب، رحمته بهن عجيب، لطفه لهن عجيب، كان إذا دخل بيته بسَّاماً ضحَّاكاً، كان يقول: أكرموا النساء، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحبُّ أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً، كان يقول: إنهن المؤنسات الغاليات.

المساواة بين الرجل و المرأة في التكليف والتشريف والمسؤولية :

في الإسلام لا توجد عندنا تفرقة، الزوجان متكافئان في التكليف والتشريف والمسؤولية، والنساء شقائق الرجال، والآيات القرآنية كلَّها موجَّهة للنساء أيضاً، وأبلغ آية:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

[سورة الأحزاب: 35]

يريد الله عزَّ وجل أن يؤكِّد:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة آل عمران: 195]

مساواةٌ تامَّة بين الزوجين، قال تعالى:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

[سورة الطلاق: 6]

فهذا حكم الله في الزواج، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تُتَرْجَم هذه الآيات إلى سلوك، أن تنتهي هذه الآيات إلى بيوت سعيدة.

السعادة أيها الأخوة لا تنبع من مساحة البيت، ولا من موقعه، ولا من ثمنه، ولا من مركبةٍ، ولا من دخلٍ كبير، تنبُع من داخل الزوجين إذا عرفا ربَّهما، وأقبلا عليه كان بيتهما قطعةً من الجنَّة، فإذا ابتعدا عن الله عزَّ وجل كان البيت قطعةً من الجحيم.

سِرُّ السعادة في الوفاق و سرّ الوفاق في طاعة الله :

أيها الأخوة الكرام، ما أردت من هذا الدرس أن يكون درس تفسير بقدر ما أردته أن يكون تطبيقًا عمليًّا، أن يكون هذا الدرس سبباً لسعادتكم في بيوتكم، المرأة تصبر على كل شيء، لكن لا تصبر على أن تُهان، أو أن تُجرَح كرامتها، قد تأكل أخشن الطعام، وقد ترتدي أخشن الثياب، وقد تقبع في بيتٍ لا يُسكَن إذا كان زوجها يحبُّها، وهي راضيةٌ عنه وراضٍ عنها، فَسِرُّ السعادة في الوفاق، سر الوفاق في طاعة الله، فأنت حينما تطيع الله عزَّ وجل كأنك تقول: يا رب، وفق بيننا، نحن من عبادك الصالحين وفق بيننا، أما إذا خالفت منهج الله عزَّ وجل فكأنك تقول: يا أيها الشيطان، تعال فرِّق بيننا، إذا بني الزواج على طاعة الله تولَّى الله التوفيق بين الزوجين، بني على المعصية، كأن يكون فيه اختلاط، وأجهزة لهو.. الآن بعد قليل أقرأ لكم ما جاءني.. عندئذٍ يدخل الشيطان، ويفرِّق بين الزوجين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (3-6): تفسير الآيتان2-3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-12-27

بسم الله الرحمن الرحيم

الطلاق السُنِّي هو طلقة واحدة في طهرٍ لم تمسَّ الزوجة فيه :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الطلاق، ومع الآية الثانية وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

أيها الأخوة، كلمة:

(فَإِذَا بَلَغْنَ)

أي فإذا اقترب، اقتربت نهاية العِدَّة، ألم يقل الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

أي طلقوهن مستقبلاتٍ عِدَّتَهُن.

(وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ)

الله جلَّ جلاله يقول:

(لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

أي أن هذا الغضب الشديد، وهذا القرار العاطفي بعد أيامٍ عدة، أو بعد أسابيع عدة، أو بعد شهرٍ، أو شهرين، أو ثلاثة، ربما ثلاثة وعادت الأمور إلى مجاريها، فإذاً الطلاق السُنِّي هو طلقةٌ واحدة في طهرٍ لم تمسَّ فيه، لعل الزوج يراجع نفسه، لعله يراجعها قولاً أو عملاً، أو لعلها تملك نفسها، ويعود خاطباً لها من جديد، فيعقد عليها العقد ثانيةً بموافقتها وبمهرٍ جديد، الله عزَّ وجل ما أراد الطلاق أن يوقع إلا مرةً واحدة، وإلا خالف السُنَّة.

الله سبحانه وتعالى عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام وصَّانا بالنساء خيراً :

ثم قال تعالى:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

أي قربت نهاية العدة، هنا

(بَلَغْنَ)

بمعنى اقتربت نهاية العدة، أما لو بلغن فانقضت العدة انتهى الأمر، صار الفراق:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

أي قبل أيامٍ من نهاية العدة أنت مخيَّر، إما أن تمسك بمعروف، وإما أن تطلّق بإحسان، إمساكٌ بإحسان أو تفريقٌ بمعروف، وذكرت في الدرس الماضي أن الزوجة ينبغي أن تكون زوجة بكل معنى الكلمة، لها حقوق، لها حق أن تنفق عليها، ولها حق أن تسكنها، وأن تطعمها إذا أكلت، وأنت تلبسها إذا لبست، وألا تعنِّفها، وألا تضربها، وهذا من حقها.

(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

أما الذي يمسك زوجته ضراراً ليعتدي عليها فهذا يرتكب أكبر معصيةٍ، لأن الله سبحانه وتعالى عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام وصَّانا بالنساء خيراً.

الطلاق ينبغي أن يثبت والإرجاع ينبغي أن يثبت :

في الآية شيء جديد، هو أنك إذا أمسكتها راجعتها، أو فارقتها، يجب أن تُشْهِدَ شهوداً، السبب لو أن إنسانًا يملك ثروة طائلة، وطلّق زوجته، وبانت منه، وتوفي، ولم يخبر أحداً، ولم يشهد على التفريق أحداً، ثم ادعت أنه راجعها، لها نصيبٌ من الثروة كبير، لئلا يقع التجاحُد والإنكار، لعله يقع ضياع الحقوق، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

أشهد على أنك أرجعتها كي تثبت الزوجية، وتنال حقها منك، وأشهد إذا فارقتها كي يثبت الطلاق، فالطلاق ينبغي أن يثبت، والإرجاع ينبغي أن يثبت، لذلك:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

على المراجعة أو على الفِراق، وهذا الأمر فيه خلاف بين الفقهاء حول وجوب الإشهاد، أو أنه مندوب، بين أنه واجب، وبين أن يكون مندوباً، على كلٍّ الأمر واضح.

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

الفرق كبير بين أن يراجع الزوج زوجته خلال العدة أو بعدها :

لكن الشيء الدقيق في موضوع الطلاق، أنك إذا أرجعتها خلال العِدَّة فليس لها خيار، لا خيار لها، لا تستطيع أن ترفض، لو أن الزوج طلق زوجته طلاقاً سُنِّياً، طلقها طلقةً في طهرٍ ما مسها فيه، ثم أراد أن يراجعها إما بقوله أو بسلوكه، ليس لها أن تتأبى، وليس لها أن ترفض، وليس لها خيار، أما حينما تنقضي عدتها، ويمضي القُرْء الأول والثاني والثالث، ويأتيها الحيض في القرء الثالث، ثم تطهر من الحيض فعندئذٍ ملكت نفسها، بإمكانك أن تعيد العقد عليها، بإمكانك أن تتزوج منها مرةً ثانية، ولكن بشرط أن توافق، المراجعة ليس لها خيار، وافقت أو لم توافق، لا اختيار لها، أما حينما تمضي القُروء الثلاث، حينما تنقضي عدتها أصبحت مخيرة، بإمكانها أن ترجع، وبإمكانها أن تمتنع، وإذا امتنعت فلا سلطان لك عليها، إذاً هناك فرق واضح بين أن تراجعها في خلال العدة، وبين أن تعقد عقداً عليها بعد انقضاء العدة، في الحالة الأولى ليس لها خيار، وليس لها ألا توافق، أما في الحالة الثانية فبيدها الأمر، توافق أو لا توافق.

العدالة صفة نفسية والضبط صفة عقلية :

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

دائماً لا يستطيع الإنسان أن ينكر شيئاً إذا شهد عليه شهودٌ عدول، وكلمة عدل هذا موضوع دقيق جداً، ينقلنا إلى موضوع العدالة في الإسلام، العدالة صفةٌ نفسيةٌ، والضبط صفةٌ عقلية، راوي الحديث ينبغي أن يكون ضبطاً عدلاً، ذاكرته قوية، يؤدِّي الحديث بنصه الحرفي دون زيادةٍ أو نقصان، ودون حذفٍ أو تبديل، هذه صفة الضبط، أما صفة العدل فأن يكون مخلصاً، صادقاً، لا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، لا يكذب، لا يدلِّس، لا يوهم، لا ينتفع براوية، ولا يعبأ بصحتها، فالعدالة من صفات المؤمن، وقد ذَكرتُ في دروسٍ سابقة فيما أذكر أن العدالة قد تسقط ؛ فحينما تظلم الناس تسقط عدالتك، وحينما تكذب على الناس تسقط عدالتك، وحينما تخون الأمانة تسقط عدالتك، وحينما تُخْلِفُ الوعد تسقط عدالتك، فمن عامل الناس فلم يظلمهم، وحدَّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كَمُلَتْ مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوَّته، وحرمت غيبته.

بعض المواقف التي تجرح فيها عدالة الإنسان :

وذكرت لكم أيضاً أن الإنسان حينما يأكل في الطريق تجرح عدالته، وحينما يمشي حافياً تجرح عدالته، وحينما يبول في الطريق تجرح عدالته، وحينما يتنزَّه في الطريق تجرح عدالته، وحينما يتحدث عن النساء عن شكلهن تجرح عدالته، وحينما يصاحب الأراذل تجرح عدالته، وحينما يأكل لقمةً من حرام تجرح عدالته، وحينما يطفف بتمرةٍ تجرح عدالته، وحينما يعلو صياحه في البيت تجرح عدالته، وحينما يقود برزوناً يخيف الناس به تجرح عدالته، وحينما يطلق لفرسه العِنان.. أي يقود مركبته بسرعةٍ عالية.. تجرح عدالته، هذه بعض المواقف التي تجرح فيها عدالة الإنسان.

الإنسان حينما يُشْهِد الآخرين يتوقى أن ينكر الطرف الآخر عمله :

ثم قال ربنا جلَّ جلاله:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

والإنسان حينما يُشْهِد الآخرين، على عقد بيع، أو زواج، أو أشياء نفيسة، إن أشهدت عليها شهوداً عدولاً فقد تَوَقَّيْت أن ينكر الطرف الآخر توقيعه، الآن كاتب عدل، أنت حينما تبرم عقداً، أو تبيع بيتًا، أو تهب شيئًا، وتأتي بكاتب العدل فيصدق ذلك، تقر أمامه وتوقّع أمامه، لا يستطيع الطرف الآخر أن يرفع دعوى بإنكار توقيعك لأنه وَّقع أمام كاتب العدل، وكاتب العدل هذه من القرآن:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

أي خدمة كبيرة جداً، أحياناً هناك قضاياً ترفع إلى المحاكم ثماني سنوات لإنكار توقيع، يأتون بشهود، ويأتون بخبراء تواقيع، الدعوى إنكار توقيع، قد يكون هناك هبة، قد يكون هناك بيعاً بمبلغ كبير جداً، فيحتال الذي أبرم العقد فيدَّعي أن هذا ليس توقيعه، وهذا الموضوع قد يبقى في المحاكم ثماني سنوات من أجل إنكار توقيع، يأتون بخبير، ثم بخبيرين، ثم بثلاثة خبراء، إلى أن يأتي بخمسة خبراء للتحقق من صحة التوقيع، أما إذا أشهدت كاتب العدل فقد ألغيت كل هذا الطريق الوعر، لا يستطيع إنسان وَقَّع أمام كاتب العدل، وفي حضرته أن ينكر توقيعه.

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

من حصَّن أخاه بعقد موثق فقد قطع عليه طريق الشيطان :

قد ننتقل بالمناسبة إلى موضوع فرعي هو أنك إذا حصَّنت أخاك بعقد موثق فقد قطعت عليه طريق الشيطان، لو لم تحصن أخاك بعقدٍ موثق لجعلت للشيطان عليه سبيلاً، قد يأتيه الشيطان ويقول له: دعك من هذا العقد، وأنكر توقيعك، دعك من هذا العقد، البيت باسمك، ضمن شراكة البيت، دخل في البيت شراكة، فإذا لم توقِّع، ولم تنجز عقداً موثقاً، ولم يسجل العقد في محكمة البداية، ولم يشهد عليه كاتب العدل ربما أعنت أخاك على أن يأكل حراماً، لذلك أنا أقول لكم: الاتفاقات التي تتم بينكم وثِّقوها بعقد، والعقد وثِّقوه بكاتب العدل، أو بمحكمة البداية، بهذه الطريقة لا يستطيع الشيطان أن يدخل على أحد الأطراف أبداً .

يبدو أن الإنسان إذا أكل المال الحرام يحاسب عند الله أشد الحساب، ولكن قد يغيب عن أذهانكم أنك إذا مَكَّنْتَ إنساناً من أن يأكل المال الحرام فأنت شريكه في الإثم، إن سَيَّبْتَ أمورك، أهملت العقود، أهملت الإيصالات، أهملت التسجيل، أهملت التوثيق، فرأى الناس أنه بالإمكان أن ينكروا استلام هذه البضاعة، إن استلمت بضاعة، ولم تعُدَّها تجعل الذي سلمك إياها يفكر أن يأخذ من حجمها شيئاً له .

حَدَّثني صديق مع أنه يبيع بيعاً غير معقول، في النهاية لا يربح، بل إنه يخسر، ثم اكتشف أنه كلما أُرْسِل له مواد أولية لمعمله يقول: ضعها هنا، وقد استلمتها، فشعر الذي يسلمه إيَّاها أنه لا يدقق، فصار يسلمه نصف الكمية، ويوقع على كامل الكمية، حصل الخلل، الإنسان يجب أن يضبط أموره، قد تفلّس من عدم استلام المواد الأولية، قد تفقد مالاً كثيراً من عدم ضبط القيود والسجلاَّت، انظر الآية ما أدقها:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

إعجاز القرآن الكريم :

طبعاً القرآن الكريم فيه شيء رائع جداً، هذا الشيء هو أن الآية وهي في سياقها لها معنى، فإذا نزعتها من سياقها وقرأتها وحدها فلها معنى آخر، وهذا من إعجاز القرآن، كل آيةٍ إن انتظمت مع أخواتها تؤَدِّي معنى محدداً، أما حينما تنزع من سياقها فتؤدي معنى شموليًّا كبيرًا جداً، وسوف يتضح هذا جلياً في قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

في سياق الآيات لها معنى، فإذا نزعت من سياق الآيات فلها معنى آخر:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

طبعاً في موضوع القضاء الذي بُحِثَ من قبل أنك إذا أتيت بشاهدين عَدْلين فهذا دليلٌ قويٌ جداً على أنك على حق.

أداء الشهادة من الأعمال الصالحة الجليلة :

ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ)

أخواننا الكرام، الشهادة عمل صالح في أعلى الدرجات، قد تركب في مركبة، ووقعتَ في حادث، والحادث فادح، والمبلغ كبير جداً، أنت شاهد من هو الذي أخطأ في قيادة المركبة، قد تجد أنه من عدم الحكمة أن تذهب، وتُدلي بشهادتك، ولا يوجد عندك وقت، الوقت قليل، والقضية شائكة، تقول: أنا ليس لي علاقة، هل تعلم أنك عصيت الله عزَّ وجل حينما لم تؤدِّ هذه الشهادة؟ إنك إذا أديت الشهادة حفظت الحقوق، وإنك إن امتنعت عن الإدلاء بالشهادة ضَيَّعت الحقوق، وعدل ساعةٍ يعدل عند الله أن تعبده ثمانين عاماً، طبعاً وإن كان الإدلاء بالشهادة يكلّف الإنسان وقتاً وجهداً، وأن يذهب إلى قصر العدل، وأن يبحث عن المحكمة، وأن ينتظر دوره في الإدلاء بالشهادة، وأن يكون متوضِّئاً، وأن يقسم على القرآن الكريم، وأن تكتب إفادته، وقد ينتظر يومين أو ثلاثة، ولكن أداء الشهادة من الأعمال الصالحة الجليلة، لذلك يقول الله عزَّ وجل:

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ)

يجب أن تشهد، فلا تكن سلبياً، لا تقل: أنا ليس لي علاقة، وقتي ضيِّق، إن قلت أنت: وقتي ضيق، وقال الآخر: وقتي ضيق، والثالث تهرَّب، والرابع قال: أنا ليس لي علاقة، فالقاضي إذاً كيف يعرف الحقيقة؟ يجب أن تعين القاضي على معرفة الحقيقة، فلعل الخصم ألحن بحجته من الآخر، أما الشاهد فيقيم الدليل.

أداء الشهادة جزءٌ من الدين :

إذاً يجب أن نعلم أيها الأخوة أن أداء الشهادة جزءٌ من الدين، بل من أجلّ الأعمال الصالحة، لأن الله حق، ويحب إحقاق الحق، ولأن عدل ساعةٍ يعدل عند الله ثمانين عاماً تعبده خالصاً لوجه الله.

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ)

والحقيقة كلمة شهادة، تقول: أنا شهدت، أي رأيت بأمِّ عينك، علمت علم اليقين، لا تشهد إلا على مثل الشمس في وضح النهار، على مثل هذا فاشهد، لا تكن شاهداً لأنه عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ، وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فالشيء الذي يؤسَفُ له أنه حول المحاكم هناك مئات الشهود ينتظرون أن تَدفع لهم مبلغاً من المال ليشهدوا معك في أي شيء، مع أن الشاهد لا يكون شاهداً إلا إذا كان شاهداً، شَهِدَ الحقيقة بأم عينه.

الإنسان لا يستجيب لأمر الله إلا إذا عرف الله :

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

هذه الآية دقيقة جداً، الإنسان لا يستجيب لأمر الله إلا إذا عرف الله، لا يتقي أن يعصيه إلا إذا عرفه، لا يعمل للجنة إلا إذا عرفها، لا يتقي النار إلا إذا عرف لهيبها وحريقها، لذلك قال بعض العلماء: قرأت حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم استغنيت به عن علم الأولين والآخرين، هذا الحديث رواه الشِبْلي قال: "اعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للجنة بقدر مقامك فيها، واتَّق النار بقدر صبرك عليها".

الجنة للأبد، اعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واتّق النار بقدر صبرك عليها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، الدنيا محدودة، والآخرة ممدودة، والله سبحانه وتعالى يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء.

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ)

هذا التوجيه:

(يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

فروع الدين لأهل الإيمان أما أصول الدين فلمخاطبة أهل الإنكار والإلحاد :

لذلك في الدين أصول، وفي الدين فروع، لا تحاول أن تخاطب منكري الدين بفروع الدين، فروع الدين ليست لأهل الكُفر والإلحاد، فروع الدين لأهل الإيمان، أما أصول الدين فخاطب بها أهل الإنكار والإلحاد، لذلك أن تشهد، اعرض هذا الموضوع على إنسان من أهل الدنيا، يقول لك: ضيَّعت عقلي

حتى أضيّع يومين من أجل أن أدلي بشهادة سير، ضيعت عقلي، لا يرضى، أما المؤمن فيرى في الإدلاء بالشهادة عمل صالح، فيرى أن في الإدلاء بالشهادة عملاً صالحاً يتقرَّب به إلى الله عزَّ وجل، فالإنسان ليس سلبياً، المؤمن ينبغي أن يكون إيجابياً، يجب أن يُسْهم في إحقاق الحق، يجب أن يسهم في رفع الظلم عن إنسان، كم من حادث يتَّهم فيه إنسان، وهو بريء، لكن لا يوجد شهود، لو جاء الشهود وأدلوا بشهاداتهم، وحلفوا على كتاب الله أنهم رأوا بأم أعينهم هذا، لكان الأمر غير الذي يوقع.

من طلق زوجته وفق السنة يجد مخرجاً إلى استرجاعها :

(يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

أخواننا الكرام، هذه الآية وردت في سورة الطلاق، معناها السياقي: أي أن من يتق الله في تطليق زوجته؛ يطلقها وفق السنة، يطلقها لعدتها، يطلقها في طهرٍ ما مسها فيه، يطلقها وهو اعتقد أن الله لعله يحدث بعد ذلك أمراً، من طلق زوجته وفق منهج الله عزَّ وجل، ووفق سنة النبي عليه الصلاة والسلام، طلقها لعدتها، وأحصى العدة، يجعل الله مخرجاً إلى الرجوع إليها، لو أنه ندم القضية سهلة جداً، لو أنه ندم بإمكانه أن يُرْجِعَها، لو أنه تأثَّر لفراقها بإمكانه أن يرجعها، فالآية بمعناها السياقي:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

لاسترجاعها، الإنسان مهما كان غاضباً، مهما كان حانقاً، مهما كان حاقداً، مهما كان متألّماً، مهما شعر أنه لا يمكن أن يعيش مع هذه الزوجة، طلّقْها وفق السنة، طلقها تطليقةً واحدة، وانتظر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، لعلك تنسى هذه المشكلة، لعل قلبك يميل إلى إرجاعها، لعلك تمتلئ عَطفاً عليها، لعلك تحتاج إليها، طلقها وفق السنة، تجد مخرجاً إلى استرجاعها، هذه الآية معناها السياقي هكذا.

حكمة الله البالغة في تربية عباده :

هناك نقطة دقيقة في الآية معنى استنباطي:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

ماذا تفيد كلمة (مخرجاً)؟ يجعل الله له مخرجاً، لم يكن هناك مخرجاً، أي أن القضية محيطة، حلقات مغلقة، لو كان هناك مخرجاً لا يوجد حاجة لكي تبحث عن مخرج، لو أن الباب مفتوح لا تبحث عن مخرج، لكن متى تبحث عن مخرج؟ إن رأيت الأبواب كلها موصدة، وضاقت نفسك، إذاً الإنسان أحياناً يوضع في ظرف صعب، يوضع في ظرف يتوهَّم أن كل الأبواب موصدة، يوضع في ظرف يتوهَّم أن

مشكلته ليس لها حل؛ أن دخله لن يزيد، أنه لن يجد عملاً، أنه لن يوفق إلى زواج، أنه لن يشتري بيتاً، أنه لن يصبح كغيره من الناس، كلمة:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

كلمة (مخرجًا) تفيد أنه لم يكن هناك مخرجاً، ما دام يجعل الله له مخرجاً، لم يكن هناك مخرجاً..

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظن أنه لا تفرج

***

وهذا من حكمة الله البالغة في تربية عباده.

من يتق الله في الحرام يجعل الله له مخرجاً :

أحياناً يضعك في ظرف كل أبواب الحلال مغلقة، وكل الأبواب المشروعة مغلقة، وكل الطرق الآمنة مغلقة، وكل الأسباب التي رسمها الله عزَّ وجل مغلقة، ثم يفتح الله لك باب الحرام، باب المعصية، باب النفاق، باب الكذب، ويمتحنك، المؤمن يقول: والله لن أعصي الله ما حييت، ولن أتساهل في منهج الله قيد أنملة، أنا أعرف رجلاً أراد أن يشتري بيتاً، عرض عليه بيت بأقل من سعره، بعشرة آلاف ليرة، البيت ثمنه خمس وعشرون، عُرض للبيع، والقصة قبل عشرين عاماً تقريباً، أما هو فقيمته تقدر بخمسة وثلاثين ألفًا، فهو معروض بسبب السفر بسعر مغرٍ.. معه مبلغ لا يكفي لثمنه، عنده سندات بإمكانه أن يحسمها في مصرف، فذهب ليحسمها، مدير المصرف ألهمه الله أن ينصحه، قال له: يا فلان، أنت رجل مسلم، وهذا حرامٌ في دينك، تلقَّى هذه الموعظة ممن يعمل في هذه الدائرة، قال لي: استحييت من الله أن أتلقى النصيحة بهذا الشكل، فرجعت إلى دُكَّاني وقلت: حسبي الله ونعم الوكيل، وعاهدت الله عزَّ وجل أن أصرف النظر عن هذا البيت، لأن في حسم هذه السندات ما يسميه العلماء رباً معكوساً، يقسم بالله العظيم أنه ما إن وصل إلى دُكَّانه حتى وجد صديقاً له ينتظره، قال له: أنا هنا من نصف ساعة أنتظرك، قال له: ليس هناك موعداً بيننا، قال له: أنا مسافر إلى الخليج، ومعي مبلغ من المال أريد أن يكون عندك، وأنشدك الله أن تستعمله، أنا سأغيب سنتين، أعطاه مئة ألف، هو بحاجة إلى عشرة آلاف، وأنشدك الله أن تستعمله في غيبتي، أنا سأعود بعد سنتين، فهو لما نصح قال: معاذ الله، أن أعصي الله عزَّ وجل، مثل هذه القصة لها مثيلات بالآلاف.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

فيا أيها الأخوة الكرام، الذي يطلق زوجته وفق السُنَّة يجعل الله له مخرجاً إلى استرجاعها، إذا ندم فتكون جاهزة، بكلمة تسترجعها، بتصرف تسترجعها، لو وضعت يدك على يدها كما قال العلماء

تسترجعها، ولا خيار لها، لك أن تسترجعها في خلال ثلاثة أشهر، من ثاني يوم يمكنك استرجاعها، بعد أسبوع، أسبوعين، ثلاثة، أربعة، شهر، شهرين، في الشهر الثالث، لذلك:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

لو نزعنا هذه الآية من سياقها يُكتب عليها مجلَّدات، من يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من تطليقها .

الآية الكريمة وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا إذا نزعت من سياقها أصبحت قاعدة :

من تزوج المرأة لجمالها أذلَّه الله.. لجمالها فقط.. ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةً، فعليك بذات الدين تربت يداك .

إن تزوجتها ذات دينٍ وخلق يجعل الله لك مخرجاً من تطليقها، لا تحتاج إلى تطليقها، لأنها تعرف الله، الآن من رَبَّى أولاده تربيةً إسلاميةً جعل الله مخرجاً من عقوق الأولاد، من كسب المال وفق السُنَّة بالطريق المشروع جعل الله له مخرجاً من إتلاف المال وضياعه، من اتقى الله في أداء زكاة ماله يجعل الله له مخرجاً من ضياع الأموال وإتلافها، من اتقى الله في معرفته يجعل الله له مخرجاً من المعاصي التي ترتكب بسبب الجهل بالله عزَّ وجل، يمكن أن تطبق هذه الآية على آلاف الموضوعات، من اتقى الله في معاملة زوجته، الله عزَّ وجل قال:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء: 19]

من اتقى الله في أصول معاملة الزوجة يجعل الله له مخرجاً من النَكَدِ الزوجي، والشقاء الزوجي، والخصومة الزوجية، والزوجان المتباغضان هذه مشكلة:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

من يتق الله في اختيار البيت المناسب، اختاره في حي محافظ، بعيد عن الشُبُهات، بعيد عن التفلُّت يجعل الله له مخرجاً من انحراف الأولاد، من اتقى الله ولم يجلب إلى بيته هذه البدع وتلك الصحون يجعل الله له مخرجاً من انحراف الأولاد الخطير الذي لا يُحْتَمَل، هذه الآية يمكن أن تطبق على مليون حالة، إذا نزعت من سياقها أصبحت قاعدة:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

والآية تشير بشكل أو بآخر إلى أنه قبل أن يخلق الله المخرج لم يكن هناك مخرجاً، يبدو أن الأمر مستعصٍ، الأمر مغلق، الأمر لا يوجد فيه فرج.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

كلّ إنسان يتقي الله يفرِّج الله عنه ويخلق له فرجاً لم يكن في حسبانه:

أما لو أردنا أن ندلل على هذه الآية بالأدلة الكثيرة من واقع الحياة فهناك قصصٌ لا تعد ولا تحصى، بل إن كل واحد منكم إذا نظر إلى ما ساقه الله له يجد أن فعل الله عزَّ وجل يأخذ بالألباب، كل إنسان يتقي الله ربنا جلَّ جلاله يفرِّج عنه، ويخلق له فرجاً لم يكن في حسبانه:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

أي أن الله عزَّ وجل خلق الإنسان، وأمده بالرزق، موضوعان خطيران جداً، موضوع الحياة، وموضوع الرزق، فلو أن الإنسان توكّل على الله حق توكُّلِهِ لكفاه الله أمر مؤونته، يرزقه من حيث لا يحتسب، الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين، لذلك ورد:

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب))

[البزار عن حذيفة]

أجملوا في الطلب لأن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها.

من اتقى الله عزَّ وجل جاءه رزقٌ وفير من حيث لا يحتسب :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

فهذه الآية دقيقة، أحياناً تعرض عليك الدنيا من طريقٍ غير مشروع، قد يأتيك رزق وفير من معصية، من عملٍ مشبوه، من إنجاز عملٍ لا يرضي الله، من طريقةٍ لا ترضي الله، هذا المال الوفير الذي يأتيك من هذا الطريق لا بركة فيه، وقد يذهب، ويُذهب معه صاحبه، لكنك إذا اتقيت الله عزَّ وجل جاءك رزقٌ وفير من حيث لا تحتسب.

فأخٌ كريم سألني مرةً عن دخلٍ فيه شبهة، والشبهة واضحة، بضاعة لا ترضي الله يتعامل بها، قلت له: والله لا ينبغي أن تفعل هذا، قال: لي البديل أن أبقى على راتبي المحدود الذي لا يكفيني يومين، قلت له: هذا هو الحكم الشرعي، وافعل ما تريد، ترك هذه البضاعة التي لا ترضي الله بالتعامل بها، وبقي على دخلٍ محدودٍ جداً لا يكفيه يومين أو ثلاثة، ومضى شهرٌ وشهران وثلاثة أشهر، قلت له: أنت حينما ترضى بهذا الدخل المحدود جداً، والذي لا يكفيك لأنه حلال، وترفض الحرام، أنا لا أضمن لك أن يأتيك رزقٌ وفير بعد حين، أنت عليك أن تطيع الله وكفى، هو حكيم يرزق أو يؤَخِّر، فإذا جاء الرزق الوفير متأخراً أكد هذا صدقك مع الله، وصبرك على أمره، وبالحقيقة مضى شهران أو ثلاثة أرسل لي استفهاماً مع بعض أصدقائه، وقال لي: الامتحان هل سيطول؟ أصبحت طويلة، هبط دخله إلى العُشر،

هذه بضاعة محرم بيعها وشراؤها، لكنها تدر عليه رزقاً وفيراً، ثم فجأةً جاء الفرج من الله عزَّ وجل، فصار له دخل كبير، صديق صاحب معمل وثق فيه:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

لكن لا تطالب الله بالوقت، الوقت له حكمته، أنت عليك أن تعبد الله، الآية دقيقة، وهذه نقطة مهمة جداً.

لابد من ضيق ليظهر صدق الإنسان مع الله و بعد ذلك يأتي فرج الله :

لما ربنا عزَّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

[سورة التوبة: 28]

فهذه السياحة قديمة، حينما يأتي هؤلاء إلى المسجد الحرام يشترون الطعام والشراب، يسكنون في البيوت، ينفقون أموالاً كثيرة جداً، والآن تكاد تكون صناعة السياحة أروج صناعةٍ في كل البلاد، وتحقق أكبر دخلٍ من العملات الصعبة، فربنا عزَّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

[سورة التوبة: 28]

ما قال: نجسون، قال:

(نَجَسٌ)

أي هم عين النجاسة:

(فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

[سورة التوبة: 28]

طبعاً من لوازم هذا المنع انخفاض الدخل، طبيعي، قال :

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

[سورة التوبة: 28]

أي فقراً.

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

[سورة التوبة: 28]

لكن لم يقل: يغنيكم، قال:

(فَسَوْفَ)

[سورة التوبة: 28]

أي أنه لابد من مرحلة من أجل أن يظهر صدقكم مع الله، من أجل أن يظهر ثباتكم على الحق، من أجل أن تظهر مؤاثرتكم، أي يا رب، رضاك أغلى عندنا من كل شيء، قال تعالى:

(فَسَوْفَ)

[سورة التوبة: 28]

وبعد حين يأتي فرج الله عزَّ وجل، هذه الآية قانون، أي إنسان إذا اتقى الله عزَّ وجل، وصرف نفسه عن دخل كبير فيه شبهة، وقنع بالقليل الذي لا يكفيه لأنه حلال، قد يعاني بعض الوقت ليدفع ثمن هذا القرار الحكيم، ليدفع ثمن هذه الطاعة، وبعد حين يرزقه من حيث لا يحتسب، فالإنسان لا يستعجل، فمن كان يريد لقاء الله فإن أجل الله آت.

الإنسان في امتحان دائم :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

والله الذي لا إله إلا هو آلاف القصص حول هذه الآية يمكن أن تذكر، وأنا أعتقد أنه لا يوجد أخ من أخواننا من دون استثناء إلا وله مع هذه الآية خبرة عملية:

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

أيها الأخوة الكرام، أعيد عليكم نص الحديث الشريف:

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

طبيعة الدرس لا تسمح برواية القصص الكثيرة، لكن ما من عبدٍ يقول: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين، لا أفعل هذا، ولا أغضب الله، وأنا أرضى بالقليل الذي يرضي الله، وأؤثر عليه الكثير الذي لا يرضي الله، إلا رزقه الله الرزق الوفير بعد حين، إذاً:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

أنت في امتحان دائم، وطبيعة الحياة الدنيا فيها معصية، وفيها طاعة، فيها حرام، وفيها حلال، فيها شيء مشبوه، وشيء واضح، فيها شيء يرضي، وشيء لا يرضي، أما إذا اتقيت الله أن تعصيه، اتقيت أن تعصي الله عزَّ وجل فلك مخرجٌ من كل ضيق ورزقٌ وفير.

التوكل جُزء من الدين :

ولكن بعد حين.

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

أي أنه يكفيه، فالإنسان أحياناً يوكّل محامياً لامعاً، وله صلات وثيقة مع القضاة، يشعر بطمأنينة، يقول لك: وكّلنا فلانًا، أما إذا وكلت الله عزَّ وجل الذي بيده كل شيء، فكل شيء بيده، ولا يعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض، أكبر أعدائك في قبضته، كل المتغيرات بيده، كل الظروف المحيطة بك بيده.

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

فالتوكل جُزء من الدين.

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة المائدة: 23]

فإن لم تتوكلوا فلستم بالمؤمنين.

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا)

[سورة المائدة: 23]

ما من عبد يعتصم بالله إلا جعل الله له مخرجاً من كل شيء :

الإنسان يمكن أن يلاحقه عدو قوته تزيد عن قوته بمئة ضعف، سيدنا موسى مع أصحابه، من وراءهم؟ فرعون، وما أدراكم ما فرعون، فرعون بجيشه، وقوته، وجبروته، وغطرسته، وقهره، واستعلائه، وهؤلاء سيدنا موسى وأصحابه شرذمةٌ قليلون..

(وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ)

[سورة الشعراء: 55]

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ)

[سورة الشعراء: 55]

البحر أمامهم، وفرعون وراءهم احتمال الهلاك بالمئة كم؟ بالمئة مئة، البحر من أمامهم، وفرعون من ورائهم، بقوةٍ تفوق قوتهم بمئات المرَّات، فلا يوجد أمل..

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ* قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 61-62]

سيدنا النبي في الغار مع سيدنا الصديق، سيدنا أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ:

((لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟))

[متفق عليه عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما من عبدٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السموات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبدٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيَّته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقَطَّعْت أسباب السماء بين يديه .

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة المائدة: 23]

الإنسان لا يستطيع أن يتوكل على الله إلا إذا كنت مطيعاً له واثقاً من رحمته :

ضعف الإيمان يسبب أشياء مقلقة كثيرة جداً، فهناك ألف سيف مُسَلَّط على رأس كلٍ منا، سيوف المرض، أحياناً حادث، أنت تمشي نظاميًّا على اليمين بسرعة معتدلة، وإنسان نائم، الإنسان تحت آلاف الأخطار، ما الذي يطمئنك؟ أن تتوكل على الله، لكنك لن تستطيع أن تتوكل عليه إلا إذا كنت في مرضاته، لن تستطيع أن تتوكل عليه إلا إذا كنت مطيعاً له، واثقاً من رحمته، وحكمته، واثقاً من عدالته، واثقاً من ربوبيَّته.

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

يكفيه..

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ)

أي أن أمر الله هو النافذ .

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

[سورة الرعد: 11]

ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ)

من تعجَّل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه :

الإنسان أحياناً يخطط، ولا يستطيع أن يصل إلى هدفه، أما ربنا عزَّ وجل فأمره هو النافذ.

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

أي أن كل شيء يأتي في وقته المناسب، وفي القدر المناسب، وهذه حكمة الله عزَّ وجل.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

[سورة الشورى: 27]

فالقدر مناسب، والوقت مناسب، من تعجَّل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، حكمة الله تتجلى في أن هذا الشيء يناسبك منه بهذا القدر، وأن يأتيك بهذا الوقت، لو جاء قبل وقته لفُتِنْت، ولو جاء بأكثر من قدره لفُتنت، ولو جاء بأقل من قدره لفتنت، ولو جاء بعد وقته لفتنت، قبل الوقت، وبعد الوقت، وأكبر، وأصغر تُفْتَن، لكن يأتي بقدرٍ مناسب، وفي الوقت المناسب، ما كل ما يعلم يقال- كما قال سيدنا علي- وما كل ما يقال له رجال، ولا إذا وجد الرجال آن الأوان، هناك شيء لا يقال، وشيء يقال، والذي يقال لا يقال لكل الناس، يقال لبعضهم، وهذا الذي يقال لبعضهم لا يقال لهم في كل الأوقات، يقال لهم في بعض الأوقات، هذه الحكمة:

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

على الإنسان أن يطيع الله و على الله الباقي :

النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة مطارد، مئتا ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، ينظر إلى سراقة الذي تبعه ليأخذ الجائزة، غاصت قدما فرسه في الرمل، أول مرة، وثاني مرة، فعلم أن هذا الإنسان ممنوعٌ منه، فرجا النبي أن يعفو عنه، قال له: كيف بك يا سُراقة إذا لبست سواري كسرى؟ الله جعل لكل شيء قدراً، أن يلبس سراقة سواري كسرى، عند الله يكون بعد رسول الله، وبعده سيدنا الصديق، فيكون في عهد عمر، في عهد عمر قال: أين سراقة، فجاؤوا بسراقة، فألبسه تاج كسرى وسواره وقميصه، وقال: بخٍ بخٍ، أُعَيْرَابيٌ من بني مُدْلِج يلبس سواري كسرى، لقد تحققت نبوءة النبي عليه الصلاة والسلام، وكل واحد منا لا يجد فتاة مناسبة..

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

هناك وقت مناسب لتتزوَّج، ووقت مناسب لإيجاد عمل، ووقت مناسب لتأمين سكن، ووقت مناسب للتألُّق، أنت عليك أن تطيع الله:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

أطعه وكفى، وعلى الله الباقي.

من أطاع الله تولى الله أمره :

إذاً:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

ملخَّص الدرس أنك إذا أطعت الله عزَّ وجل تولى أمرك، أنت في ظله .

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: 48]

وأنك في حفظه، والحكمة البالغة أن يأتيك الشيء بالقدر المناسب، وفي الوقت المناسب، عليك أن تطيعه وكفى، وعلى الله الباقي.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبـنا فإنا منحنا بالرضا من أحبـنا
و لذ بحمانا واحتمي بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنـا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغـل وأخلص لنا تلقى المسرة و الهنا
وسلم إلينا الأمر في كل ما يكـن فما القرب و الإبعاد إلا بأمـرنا
ينادى له في الكون أنا نحبـــه فيسمع من في الكون أمر محبنا
فيكسى جلابيب الوقار لأنـــه أقام بإذلالٍ على باب عــزِّنا
وجدناك مضطراً فقلنا لـــك ادعنا نجبك فهل أنت حقاً دعوتنا
دعوناك للخيرات أعرضت ناءٍ ياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا؟
فيا خجلي منه إذا هو قال لـي أيا عبدنا ما قرأت كتابـــنا؟
أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا
أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعـــدنا ؟

***

فالملخص: علينا أن نطيع الله وكفى، والله جلَّ جلاله يتولى أمورنا.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

اجعل همك طاعة الله، وعلى الله الباقي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (4-6): تفسير الآيتان 4-5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-01-03

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين عقيدةٌ وعبادة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة الطلاق، ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

أيها الأخوة الكرام، لابدَّ من بعض الحقائق أضعها بين أيديكم ونحن في صدد شرح آيات التشريع. الدين عقيدةٌ وعبادة، الدين حقائق نؤمن بها، وأوامر ونواهٍ نعمل بها، فكل من غلَّب جانباً على جانبِ آخر ضلَّ سواء السبيل، الإنسان بالكون يعرف الله، لكنه بهذا القرآن يعبده، فربنا عزَّ وجل يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: 1]

الكون يدُّل على الله، لكن بعد أن عرفت الله، بعد أن آمنت بوجوده، بعد أن آمنت بوحدانيته، بعد أن آمنت بأنه لا إله إلا هو، كيف تتقرَّب إليه؟ بطاعته، كيف تطيعه؟ أول شيءٍ في طاعته أن تعرف أمره، لذلك وردت تفاصيل دقيقة جداً في شأن الزواج والطلاق، وكسب المال وإنفاق المال، فالذي لا يعبأ بهذه التفاصيل فإن شطراً من إيمانه قد ضاع منه، إيمانك يقتضي أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وأن تعمل بأمره ونهيه، فلذلك أخوةٌ من المؤمنين ينشدُّون إلى آيات التكوين.. الآيات الكونية.. ولا يكترثون كثيراً بالآيات التشريعية، الآيات التشريعية لا تقلّ في دلالتها على عظمة الله عن الآيات التكوينية..

مصادر معرفة الله عز وجل :

الآن سؤال يطرح نفسه علينا: هذا الذي يعيش مع زوجته في تفاهم ووئام، يمحضها ودَّه، وتمحضه ودَّها، وليس بحاجةٍ إطلاقاً إلى أن يطلّقها، لماذا تعنيه آية الطلاق؟ الجواب: أن الله سبحانه وتعالى تعرفه مِن خَلقه..

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران : 190-191]

ثانياً: وتعرفه من فعله، الحوادث التي تجري إنما هي من أفعال الله .

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: 11]

يمكن أن تعرفه من خَلقه عن طريق التفكُّر، ويمكن أن تعرفه من أفعاله عن طريق النظر، ويمكن أن تعرفه من كلامه عن طريق التدبُّر..

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

[سورة محمد: 24]

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)

[سورة النساء: 82]

إذاً ثلاثة مصادر لمعرفة الله: خَلْقه الكون، أفعاله الحوادث، كلامه القرآن الكريم، لو أن الإنسان على وفاقٍ تام مع زوجته، ولا يفكّر إطلاقاً أن يطلّقها، إذا تأمَّل في آيات الطلاق يجد عظمة الخالق في تشريعه، عظمة الخالق في أمره ونهيه، عظمة الخالق في رحمته، عظمة الخالق في عدله، فالإنسان ينبغي أن يُمْعِن النظر في هذه الآيات التشريعية.

البيت أضيف إلى المرأة إضافة تشبُّث أو إضافة إشراف أو إضافة استقلال :

أيها الأخوة الكرام، في الدرس الماضي بيّنت لكم أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)

كيف أن هذا البيت أُضيف إلى المرأة، قلت لكم في الدرس الماضي أو قبل الماضي: إنه أضيف إضافة تشبُّث، أو إنه أضيف إضافة إشراف، وهناك معنى ثالث لهذه الآية وهو أنه أضيف إضافة استقلال، أي كمال الزواج لا يتحقق إلا ببيتٍ مستقلّ تنفرد فيه الزوجة والزوج وأولادهما، فهذا من الإشارات اللطيفة التي تَشِفُّ عن هذه الآية الكريمة، هذا البيت بيتك، وفي السجلات الرسمية هو باسمك، لكنه في هذه الآية هو بيتها، أي عليها أن تتشبَّث به، فلا تخرج منه، وهو في الآية القرآنية بيتها من حقّها أن تشرف عليه تأكيداً لشخصيتها.

والمعنى الثالث: أنه بيتها على وجه الاستقلال من أجل أن يسعد الزوجان، هناك أنواعٌ كثيرة من الزواج تُخْفِق للاختلاط والمداخلات بين الأسر وبين الزوجين، على كلٍّ هذا استنباط ظنّي.

المرأة التي لا تحيض كيف تُحسَب عدَّتها ؟

نعود إلى الآية الكريمة:

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ)

بعد أن حدَّثنا ربنا جلَّ جلاله عن عِدَّة المرأة التي تحيض، طلاقها، وإرجاعها، وفراقها، وعدَّتها، في الآيات السابقة، الآن لابدَّ من معرفة المرأة التي لا تحيض كيف تُحسَب عدَّتها؟ يقول الله عزَّ وجل:

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ)

أي أن المرأة بعد ردحٍ من الزمن ينقطع عنها الحيض فتُسمَّى الآيسة من الحيض، هذا من حكمة الله جلَّ جلاله، ففي مبيض المرأة عددٌ محدود من البويضات، فإذا انطلقت آخر بويضةٍ من المِبيض إلى الرحم عندئذٍ تدخل المرأة في سنِّ اليأس، وهي بخلاف الرجل، فبإمكانه أن يُنجِب في أي عمرٍ كان، ولو كان في التسعين، ولو كان في المئة، بينما المرأة لا تحمل إلا إذا كان في مبيضها بويضة، أما إذا انطلقت كل البويضات من المِبْيَض تنقطع عنها الدورة، وينتهي الحيض، وتدخل سنَّ اليأس.

وفي هذا أيها الأخوة حكمةٌ بالغة، تصوَّر امرأةٌ عمرها مئة عام تحمل، إنه شيء غير معقول إطلاقاً، حكمة ربنا في خَلقه لا حدود لها، الرجل ينجب، لكنه لا يحمل، أما التي تحمل فلا يستطيع جسمها تَحَمُّل هذا الحمل، ولا إمداده بحاجات الوليد، لذلك جعل الله في مبيض المرأة عدداً محدوداً من البويضات، فإذا انطلقت هذه البويضات في الأربعين، في الخامسة والأربعين، في الخمسين وانتهت، دخلت سنَّ اليأس وانقطع حيضها، وأصبح لها في الشرع حكمٌ آخر.

المرأة التي لا تحيض عدَّتها أن تُمْضي ثلاثة أشهر :

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ)

ما عدَّتهن؟ قال:

(إِنِ ارْتَبْتُمْ)

أي إن شككتم في عدَّة هذه المرأة التي يئست من المحيض، فما عدَّتها؟

(إِنِ ارْتَبْتُمْ)

أي إن شككتم، والعلماء يقولون:

(إِنِ ارْتَبْتُمْ)

أي إن تيقَّنْتُم، هذه من ألفاظ التضاد، كأن تقول: شرى أي باع، واشترى:

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ)

[سورة يوسف:20]

أي باعوه بثمنٍ بخس، كأن تقول: المولى، المولى هو السيّد، والمولى هو العَبد، هي من ألفاظ التضاد، كأن تقول: الجول وهو الأبيض والأسود، وفي اللغة العربية بعض ألفاظ التضاد التي تعني معنيين متعاكسين في وقتٍ واحد، فظنَّ بمعنى حَسِبَ، وبمعنى أيقن..

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

[سورة البقرة:46]

أيقنوا.

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

بمعنى حَسِبَ، أيضاً ارتبتم بمعنى تَيَقَّنْتُم، أو شككتم، هنا لا تعرفون حكم المرأة التي انقطع عنها الحيض، فما عدَّتها؟..

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ)

قال تعالى:

(فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ)

خرجن من عدة القُرء الطهر أو الحيض إلى عدَّة الزمن، فاللاتي يئست من المحيض دخلت في سنِّ اليأس، وانقطع حيضها، ولم تعد من النوع الذي تأتيه الدورة، فإن هذه المرأة عدَّتها أن تُمْضي ثلاثة أشهر.

الله عز وجل أمر المرأة أن تعتدَّ من طلاقٍ أو من وفاة :

هناك حالة ثانية: امرأةٌ بلغت سنَّ اليأس، أي انقطع حيضها فعدَّتها ثلاثة أشهر، امرأةٌ لا تدري ما إذا كان هذا الدم دم استحاضةٍ أم دم حيضٍ، هذه أيضاً عدَّتها ثلاثة أشهر..

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ)

لأن النبي عليه الصلاة والسلام حين يروى عنه يقول:

((لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ...))

[أحمد عَنْ رُوَيْفِع بْن ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ]

بلاغةٌ نبويةٌ رائعة، ليس المقصود أن النبي عليه الصلاة والسلام يمنعنا أن نسقي أرض جيراننا بمائنا، ليس هذا هو المقصود، لكن القضية دقيقة جداً وخطيرة ومتعلّقة بالأنساب، لماذا أمر الله المرأة أن تعتدَّ

من طلاقٍ أو من وفاة؟ لأن هذا الرحم قد يكون فيه من ماء الزوج المتوفَّى، أو من ماء الزوج المُطلِّق، فإن لم نراع أحكام العدَّة دخل ماءٌ على ماء، واختلطت الأنساب، فقد تنجب ولداً من زوجها الأول، وتُلحِقُه بالزوج الثاني، وكلكم يعلم ما في أخطار زواج الأقارب من التحريم ومن الضرر، فلو أن المرأة لم تهتم بهذه القضايا لاختلط ماء الرجلين، الرجل المُطلِّق والرجل المتزوّج، فلذلك هناك دقَّةٌ بالغة في أحكام الطلاق، ولاسيما في أحكام العدَّة، لئلا يسقي الرجل ماءه زرع غيره..

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ)

أي امرأة تجاوزت سنَّ اليأس، أو امرأة اختلط عليها نوع الدم، أهو دم حيضٍ أم دم استحاضة؟ إنها على مشارف سنِّ اليأس، فإن هذه المرأة عدَّتها ثلاثة أشهر ..

(وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ)

المرأة الحامل إن طُلِّقت فعدَّتها أن تضع حملها :

الفتيات الصغيرات اللواتي تزوَّجن وطُلِقن ولم يحضن، قال تعالى:

(وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)

أي إن المرأة الحامل لو أنها طُلِّقت فعدَّتها أن تضع حملها، المرأة التي تجاوزت سنَّ اليأس، والتي لم تبلغ سِنَّ الحيض هذه عدَّتها ثلاثة أشهر، أما اللاتي حملت فعدَّتها أن تضع حملها.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

أي حينما تهتم اهتماماً بالغاً بهذه القضايا فإن الأنساب لا تختلط، وماء الرجل الأول لا يسقي زرع غيره.

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

من يتوهَّم أن لا مخرج له فعليه بطاعة الله :

بيّنت لكم في درسٍ سابق أن قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

والآية الثانية:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

والآية الثالثة:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

هذه الآيات الثلاثة أيها الأخوة دقيقةٌ جداً في هذه السورة بالذَّات، حينما تضيق الأمور، وحينما تتوهَّم أنه لا مخرج عليك بطاعة الله، عندئذٍ يفتح الله لك مخرجاً واسعاً..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

وبيّنت لكم في درسٍ سابق أن مثل هذه الآية يمكن أن تنزعها من سياقها، يُكتَبُ حولها مجلَّدات، ويمكن أن تبقى في سياقها فتفيد أنه من يتق الله في تطليق زوجته يجعل الله له مخرجاً إلى استرجاعها، طلَّقها طلاقاً سُنِّياً، ولم يطلّقها طلاقاً بدعياً، إذاً بإمكانه أن يسترجعها.

الآية الثانية:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

أي أن الله عزَّ وجل جعل للتيسير والتعسير قوانين.

من آمن بأحقّية هذا الدين و اتقى أن يعصي الله فله الجنة :

ينقلنا هذا إلى آيةٍ أخرى توضِّح هذه الحقيقة أشدَّ إيضاحاً:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل: 5-7]

هذا الذي آمن بأحقّية هذا الدين، وأنه خيرٌ مطلق، وأن هذا الدين يفضي بنا إلى الجنَّة- الجنة هي الحُسنى- لقوله تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس: 26]

الله عزَّ وجل عَبَّر عن الجنَّة بالحُسنى، وأنت خُلِقت من أجل الجنَّة:

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:5-6]

أي أنه آمن بأحقّية هذا الدين الذي ينتهي بالإنسان إلى الجنَّة، الإنسان خُلِقَ للجنَّة، ثم أعطى، واتقى أن يعصي الله عزَّ وجل، اتقى أن يُغضِبَه، اتقى أن يسخطه، اتقى أن يقع في مُحَرَّم، اتقى أن يقع في شُبهة، اتقى أن يكسب مالاً حراماً، اتقى أن يحيد عن منهج الله، ثم أعطى، جعل قربَته إلى الله في العطاء..

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:5-6]

هذا كلام خالق الكون.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

وليس من شعورٍ أحبُّ إلى النفس من التيسير:

((اللهمَّ لا سَهْلَ إلا ما جعلتَه سهلاً))

[ابن حبان عن أنس]

والإنسان حينما تيسَّر أموره يشعر وكأن الله راضٍ عنه، التيسير له ثمن، ادفع الثمن ودونك التيسير، ثمنه أن تؤمن بالله، أن تصدِّق بكتابه وبنبيّه، وأن تصدِّق باليوم الآخر، ثم من ثمنه أن تستقيم على أمره، ومن ثمنه أن تُنفق ما آتاك الله في سبيله..

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:5-6]

من كان صادقاً في محبَّته للنبي الكريم فلابدَّ من أن يُنفِق ماله :

أحدهم قال للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله، والله إني لأُحِبُّك.. كلام طيّب.. قال: انظر ما تقول؟ قال: والله إني لأُحِبُّك، قال: انظر ما تقول؟ قال: والله إني لأُحِبُّك، فقال عليه الصلاة والسلام للمرَّة الثالثة: انظر ما تقول؟ قال: والله يا رسول الله أنا أحِبُّك، قال: إن كنت صادقاً فيما تقول للفقر أقرب إليك من شرك نعليك.

وقف بعض الناس أمام هذا الحديث وقفةً متأنّية، كيف؟ هل يكون الفقر جزاء من أحبَّ رسول الله؟ مستحيل، فأين الآية التي تقول:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل:5-7]

لكن شُرَّاح الحديث قالوا: إن كنت صادقاً في محبَّتك للنبي فلابدَّ من أن تُنفِق مالك، هذا الفقر الذي يصنعه ، هذا الذيءالإنسان بيده حينما يُنفِق، هذا هو الفقر الذي ذكره النبي يَكْنِزُ المال ولا يُنفِقه، هذا الذي يستأثر به ولا يبذله، هذا لا يحبُّ رسول الله، لأنه إن كان صادقاً فيما يقول فلابدَّ من أن يُنفِق ماله في سبيل الله، عندئذٍ يبدو فقيراً بمعنى من المعاني، لم يعد يوجد تكديس أموال، صار هناك إنفاقاً، وأساساً إن أردت أن تعرف ما إن كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يسعدك أن تأخذ المال أم أن تنفقه؟ لذلك قال له النبي: انظر ما تقول.. المرَّة الأولى.. والثانية: انظر ما تقول؟ والثالثة: انظر ما تقول؟ قال: والله إني لأحِبُّك، قال: إن كنت صادقاً فيما تقول للفقر أقرب إليك من شرك نعليك، إنك إن أحببتني اتبعت سنَّتي، ومن سنَّتي إطعام الطعام، ومن سنَّتي الإنفاق، وبعضهم يتوهَّم ونحن على أبواب رمضان أن الإنفاق متعلّق بالزكاة فقط، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((في المال حقٌّ سوى الزكاة))

[الطبري عن فاطمة بنت قيس]

انظروا إلى قوله تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

[سورة البقرة: 177]

إما على حبِّ المال، يحبّه فأنفق منه، وبذلك يرقى، أو آتى المال على حبِّ الله عزَّ وجل، محبَّةً لله .

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ)

[سورة البقرة: 177]

الزكاة شيء مفروض، وإيتاء المال على حُبِّ الله شيءٌ مندوب، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((في المال حقٌّ سوى الزكاة))

[الطبري عن فاطمة بنت قيس]

من آمن بالدنيا استغنى عن طاعة الله وبنى حياته على الأخذ :

نعود:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل:5-7]

بالمقابل:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

[سورة الليل:8]

لم يُنفِق لا من وقته، ولا من جهده، ولا من ماله، ولا من خبرته، ولا من علمه، استأثر بكل شيء، يُنْفِق بأجرٍ باهظ، أما أن ينفق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله.

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

[سورة الليل:8]

عن طاعة الله..

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:9]

لم يعبأ بأحكام هذا الدين، ولم يعبأ بالجنَّة التي وعد الله بها المتقين، قال تعالى :

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل:10]

التيسير أحبّ شعور إلى الإنسان :

ذكرت هذه الآية التفصيلية تعقيباً على قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

وما من شعورٍ أحبُّ إلى الرجل أو إلى الإنسان من التيسير، الأمور ميسَّرة، من هنا كان عليه الصلاة والسلام يدعو فيقول:

((اللهمَّ لا سَهْلَ إلا ما جعلتَه سهلاً))

[ابن حبان عن أنس]

أحياناً الإنسان تيسَّر له سبل عمله، عمله ميسَّر، زواجه ميسَّر، بيته ميسَّر، رزقه ميسَّر، هذه من علامات الرضا:

((اللهمَّ لا سَهْلَ إلا ما جعلتَه سهلاً))

[ابن حبان عن أنس]

وحينما تتعقَّد الأمور، وحينما توصد الأبواب، وحينما تسدُّ السُبُل، وحينما تأتي الأمور على غير ما تشتهي، لعلَّ هناك خلل، لعلَّ هناك تقصير، لعلَّ هنالك عدوان، لعلَّ هناك ظُلم، لعلَّ هناك انحراف، هذا قانون التيسير والتعسير.

إن تتق الله يجعل لك مخرجاً :

لكن هنا:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

والله أيها الأخوة لو لم يكن في كتاب الله عزَّ وجل إلا هذه الآية لكَفَتْ..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

قبلها:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

التي بعدها:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ)

ثلاث آيات.. إن تتق الله يجعل الله لك مخرجاً.. والحقيقة أن من حكمة الله عزَّ وجل أن الإنسان أحياناً يُضيّق عليه، الحلقات تتحكَّم به، استحكمت الحلقات حوله، الشدائد سيقت إليه من كل جانب، هذه مرحلةٌ لابدَّ منها يُمتَحَنُ فيها الرجل، فإن بقي على استقامةٍ وعلى حسن ظنٍّ بالله نجح في الامتحان، عندئذٍ

يفرِّج الله عنه كربه، وييسِّر أمره، ويحلّ عقدته، ويوفّقه، وينصره، ويحفظه، ويُظهرَه على أعدائه، أما حينما تضيق به الأمور فيكفُر، تضيق به الأمور فيعصي، نحن ممتَحنون، ما منَّا واحدٌ إلا والله يمتحنه كلّ يوم..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت: 2-3]

نحن مفتونون، نحن ممتحنون، نحن في دار ابتلاء.. إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء.. نحن في دار امتحان:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

المؤمن الصادق ما من شيءٍ يحرص عليه بعد معرفة الله كأن يستقيم على أمره :

لكن هل بإمكاننا أن نفعل كما فعلنا في الآية السابقة وأن ننزعها من سياقها؟ وأن ندرس شمولها؟ في عملك التجاري لو اتقيت الله عزَّ وجل في شرائك وبيعك، وألزمت نفسك المنهج الصحيح؛ لم تكذب، ولم تدلّس، ولم تغش، ولم تحتكر، ولم تفعل شيئاً مخالفاً لمنهج الله في البيع والشراء يجعل الله لك من أمرك يسراً، تيسِّر أمورك، أما الإنسان إذا بنى تجارته على الكذب، أو على الغش، أو على الاحتكار، أو على العمل الذي لا يُرضي الله عزَّ وجل، أو كانت البضاعة التي يتعامل معها ليست مباحة في التعامل، أو أن الطريقة التي سلكها ليست صحيحة، عندئذٍ سيجد الإفلاسات، والمصادرات، والشيء لا يتحمَّله..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

في كل جوانب الحياة، إن اتقيت الله في تربية أولادك جعل الله لك من أمرك يسراً في قطف ثمار البنّوة الصالحة، في أي مجالٍ أنت مع هذه الآية.

أيها الأخوة الكرام، مرَّة ثانية، الفرج محبَّب، والتيسير محبَّب، وتكفير السيئات محبَّب، وثمن تكفير السيئات، وثمن الفرج، وثمن التيسير أن تتقي الله عزَّ وجل، لذلك المؤمن الصادق ما من شيءٍ يحرص عليه بعد معرفة الله كأن يستقيم على أمره، ما من شيءٍ يحرص عليه بعد معرفة الله إلا أن يستقيم على أمره:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

هنا نقطة دقيقة، الناس يفعلون كل المعاصي، والمؤمن يستقيم، وقد يبدو أمامهم ضَيّق الأفق، ما الذي حصل؟ نحن نفعل هكذا، نفعل ما نريد، أنت تضيّق على نفسك، لكن هذا كلّه في حساب.

للإنسان منهجٌ يحكم تصرُّفاته :

أيها الأخوة الكرام، أقُول لكم الآن كلمة: الدين كلّه قيود، فيه محرَّمات، فيه منهيات، فيه قيود، فيه حدود، فيه سدود.. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أبو داود وأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أنت لست مخيّراً أن تفعل ما تريد، هناك منهجٌ يحكم تصرُّفاتك، لذلك هذه القيود، وهذه الحدود، وهذه السدود التي تراها في بداية الطريق عبئاً عيك وتقييداً لحرِّيتك هي ثمنٌ لحرِّيتك التي تنالها بعد هذا التقيد.

الآن دققوا، مثل موضَّح جداً قريب وهو بين أيديكم: إنسان لم يخالف القوانين ولا الأنظمة، فهو حُر، له أن يذهب إلى أي مكان، وله أن يسكن في أي بيت، وله أن يسافر إلى أي بلد، وله أن يفعل ما يشاء، يتمتَّع بحرّيته، لأنه مطبقٌ للقوانين والأنظمة، لو أن إنسانًا ارتكب جريمة هل يملك حرّيته؟ هو فعلها بداعٍ أنه حر، فلمَّا خالف المنهج فقد حرّيته، دائماً التقييد يؤدِّي إلى الطلاقة، والطلاقة في البداية تؤدّي إلى القيد، من هنا قال الله عزَّ وجل:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

الهدى رَفَعَهُم وأعلى شأنهم، وأعلى مقامهم، وحقق أهدافهم وأمانيّهم.

الضلال كلّه تفلُّت وتحرُّر :

أما:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الأحقاف: 32]

هناك شيء ضمن شيء، الضلال كلُّه تفلُّت، وكلُّه تحرُّر، وكلُّه حرّية، هذا الانطلاق العشوائي في الحركة أوصله إلى كآبةٍ، وإلى مرضٍ نفسي، أو إلى سجنٍ، وإلى فقدِ حرِّية..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

قيمة الأمر من قيمة الآمر :

الحياة أحياناً أيها الأخوة تنقلب إلى جحيم، لا تغترَّ بالصور الظاهرة، لا تغترَّ ببيتٍ فخم قد يكون جحيماً لأهله، لا تغترَّ بدخلٍ كبير قد يكون وبالاً على أصحابه، لا تغترَّ بقامةٍ مديدة قد تكون مغموسةً في الأوحال، العبرة بطاعة الله، فأنت إن اتقيت الله عزَّ وجل يجعل الله لك من أمرك يسراً..

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ)

هذا أمر خالق الكون، والحقيقة لا تعرف قيمة أمر الله إلا إذا عرفت الله، لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر، وقيمة المُرْسَل من قيمة المُرْسِل، قيمة الأمر من قيمة الآمر، فكلَّما كنت أعلى معرفةً بالآمر كان تعظيمك للأمر أكبر، من هنا قال الله عزَّ وجل:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج : 32]

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ)

لهذا قالوا: " لا تنظر إلى صِغَرِ الذنب ولكن انظر على من اجترأت "، وإذا عرفت الآمر وعرفت الأمر تفانيت في تطبيق الأمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفنَّنت في التفلُّت من الأمر، لذلك الدعوات الإسلامية لا تنجح إلا إذا سارت في خطَّين متوازيين، التعريف بالخالق والتعريف بأمره، فلو اكتفينا بأمره نتفلت من هذا الأمر، لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر، فقبل أن - لا سمح الله ولا قدَّر - يفكِّر الإنسان في مخالفة أمر الله فليعُدَّ للمليون..

تعصي الإله وأنت تظهر حبَّه ذاك لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعتهُ إن المحبَّ لمن يحبُّ يطيعُ

***

من يطبِّق أمر الله فيما هو قادرٌ عليه كفاه الله ما ليس قادراً عليه :

والحقيقة أيها الأخوة نحن بحاجةٍ ماسَّة إلى حسابٍ دقيق، لنحاسِب أنفسنا، أي أن الله عزَّ وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

الإنسان محاط بقوى كبيرة لا قِبَل له بها، وتوجد منطقة في حياته تحت إمرته، دائرة يملكها، ودائرة لا يملكها، أنت إذا أقمت أمر الله في الذي تَقْدِرُ عليه كفاك ما لا تقدر عليه، هذه قاعدة أساسية، ولو عرفها المسلمون اليوم لكانوا في حالٍ غير هذا الحال، الواحد منَّا ألا يملك بيته؟ إذا دخلت إلى بيتك، وأغلقت

الباب من يملك أمر هذا البيت غيرك؟ ألا تستطيع أن تقيم أمر الله في بيتك؟ ألا تستطيع أن تأمر أهلك بالصلاة وأن تصطبر عليهم؟ ألا تستطيع أن تلزم بناتك اللاتي هنّ من صلبك أن يقمن أمر الله في خروجهن؟ وفي سلوكهن؟ ألا تستطيع أن تُطعم أهل البيت اللقمة الحلال؟ هذا كلّه في إمكانك، ألا تستطيع أن تمنع كل نافذةٍ يأتي منها الفساد؟ تستطيع لأن هذا في إمكانك، أنت إن فعلت هذا، إن طبَّقت أمر الله فيما أنت قادرٌ عليه كفاك الله ما لست قادراً عليه، وهذه الآية من أدقِّ الآيات:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ)

[سورة الرعد: 11]

هذه الدائرة الكبيرة التي فيها قوى لا تستطيع أن تقابلها، هذه الدائرة الكبيرة التي فيها قوىً لا تستطيع أن تجابهها، أنت حينما تطبِّق أمر الله فيما أنت قادرٌ عليه كفاك الله في ما لست قادراً عليه..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

هذه الآية يجب أن تكون واضحةً لكل المسلمين:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

من عظّم الله عظّم أمره :

أيها الأخوة:

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ)

أنت تعظِّم أمر الله بقدر ما تعظِّم الله، فكلَّما كان الله عظيماً عندك عظَّمت أمره، أما هذا الذي لا يعبأ، ولا يدقّق، ولا ينتبه للمعاصي والآثام التي يرتكبها فهو بالتأكيد لا يعظِّم أمر الله، وهو بالتأكيد لا يعرف الله..

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ)

دائماً وأبداً هذه الآيات تطمئن التائب، الماضي ليس مشكلةً، الماضي يكفَّر عنه، الماضي تغفَر ذنوبه، الماضي صفحةٌ وطويَت..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

أرأيتم إلى هذا العَرض المُغري؟ أي ما عليك إلا أن تتوب والماضي يُغفَر كلُّه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر: 53]

بل إن الله سبحانه وتعالى أشدُّ فرحاً حينما يتوب عبدُه إليه من الضالّ الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد.

كثرة التوبة من الخصائص اللصيقة بالمؤمن :

إذاً المؤمن من خصائصه اللصيقة به كثرة توبته إلى الله..

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة الزمر: 21]

كثير الإياب إلى الله، يرجع إليه كثيراً، كلَّما زلَّت قدمه، كلَّما غفل، كلَّما انحرف سريعاً ما يعود إلى الله، الخطورة أيها الأخوة أن يطول عليك الأمد، فإن طال عليك الأمد قسا قلبك..

(فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة الحديد: 16]

والتوبة التي يُرجى خيرها هي التوبة التي بينها وبين الذنب وقتٌ قصير..

(ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

[سورة النساء: 17]

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنعام: 54]

التوبة من قريب، أي بين الذنب وبين التوبة يجب أن يكون الوقت قليلاً، تُبْ إلى الله من تَوِّك..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ)

المصائب التي تصيب المؤمن هي تكفيرٌ له من ذنوبه السابقة :

تكفير السيِّئات له أنواعٌ كثيرة، قد يصاب الإنسان بمحنة، قد يصاب ببلاء، قد يصاب بمصيبة.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة: 155]

كل أنواع المصائب التي تصيب المؤمن هي تكفيرٌ له من ذنوبه السابقة:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ، أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ: مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ، أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟ قَالَتْ: الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا، فَقَالَ: لَا تَسُبِّي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ))

[مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

المصائب مكفِّرة، وعزَّتي وجلالي، لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُّ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدَّدت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه، أنت حينما تدخل في حَيِّز الإيمان فاعلم علم اليقين أن المصائب تغدو مكفِّرةً لك، ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدَّمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ)

مرحلة التكريم تأتي بعد مرحلة التكفير :

بعد أن تتوب إلى الله، ويمحو الله عنك كل الخطايا والآثام فهناك مرحلة تكفير، ثم تأتي مرحلة التكريم:

(وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

إذاً نحن كما ترون لسنا مخيّرين أمام هذا العطاء الكبير، اتّق الله يجعل لك مخرجاً، اتّق الله يجعل لك من أمرك يسراً، اتق الله يكفِّر عنك سيئاتك، معناها أن الأبواب الموصدة تُفتَح، والطرق المسدودة تُفتَح، والشيء المُعَسَّر يُيَسَّر، والضيق يصبح فرجاً، هذا إذا اتقيت الله، ثم إن الله سبحانه وتعالى يسعدك بالتيسير، إن الله عزَّ وجل كيف يشعر عبده المخلص المؤمن الصادق أنه يحبَّه؟ عن طريق التيسير، كيف يشعر عبده المنيب الراجع التائب أنه قبله؟ عن طريق التيسير، وعن طريق تفريج الهموم، وعن طريق التوفيق في الأعمال.

المعية العامة و المعية الخاصة :

لذلك العلماء قالوا في قوله تعالى:

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة: 123]

أي معهم بالتوفيق والتأييد، والنصر والحفظ، هذه المعية الخاصَّة، معهم بالتوفيق، ومعهم بالتأيّيد، ومعهم بالحفظ، ومعهم بالنصر، أما إذا قال الله عزَّ وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

هذه معية العلم، وهذه عامَّة لكل الناس، حتى ولو كان كافراً..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

معكم بعلمه، أما:

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة: 153]

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال: 19]

أي معهم حفظاً وتأييداً، ونصراً وتسديداً .

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (5-6): تفسير الآيتان 6-7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-01-10

بسم الله الرحمن الرحيم

مستوى السُكنى للزوجة يجب أن يكون في مستوى السكنى للزوج :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من سورة الطلاق، ومع الآية السادسة، وهي قوله تعالى:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ)

أي أن مستوى السُكنى للزوجة هو مستوى السكنى للزوج:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

يجب أن يطعمها مما يأكل، وأن يلبسها مما يلبس، وأن يسكنها في بيتٍ يسكنه، أما أن يكلّف ما لا يطيق في السكنى أو في الإنفاق فهذا ظلمٌ للزوج.

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ)

لست مؤاخذاً أبداً أن تسوِّيها بنفسك، أما أن تتفضل عليها؛ أن تسكن أنت في مكانٍ فخمٍ، أو أن تسكن زوجتك الأولى في مكانٍ فخمٍ جداً، والثانية في مكانٍ قميء فهذا ظلم.

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ)

حظوظ الدنيا موزَّعةٌ بين الخلق توزيعاً مؤدَّاه واحد :

الله عزَّ وجل لحكمةٍ بالغةٍ جعل بين الناس فروقاً، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

هذه الآية لها معنى دقيق جداً، فمن هم بعضهم؟ كلنا بعضهم، وكلنا الآخر بعض، لولا هذا التفضيل لما انطلقت الحياة، ولما حصل الانسجام، هناك أناس يحبُّون الأعمال اليدوية، فضَّله الله عليك بهذا الاختصاص، هناك أناس يحبون الأعمال العلمية، فضله الله عليك بهذا الاختصاص، هناك إنسان يعمل بعقله، هناك من يعمل بيديه، هناك من يعمل بمشاعره، هناك من يقدِّم خدمات، هناك من يبيع، هناك من يشتري.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

هذه الآية تشير في النهاية إلى أن المجموع ثابت، لو أمكن أن نعطي لكل حظٍ من حظوظ الدنيا علامات؛ فالزوجة الناجحة الصالحة لها علامة، والابن البار له علامة، والصحة لها علامة، والرزق الوفير له علامة، وراحة البال لها علامة، والوسامة لها علامة، لو أعطينا لكل حظوظ الدنيا علامات لفوجئنا أن المجموع ثابت، يعطي المال ويأخذ الصحة، يعطي الصحة ويأخذ المال، يعطي الصحة والمال ويأخذ الأولاد، يعطي الأولاد ويقلّ المال، لو أردت أن تبحث بشكلٍ موضوعي لوجدت أن حظوظ الدنيا موزَّعةٌ بين الخلق توزيعاً مؤدَّاه واحد، خُذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً، كل إنسان عنده ميزات يقابل هذه الميزات مشكلات، كل إنسان عنده مغانم يقابلها مغارم، كل إنسان عنده دنيا واسعة تقابلها هموم واسعة، فمبدئياً:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

الله عز وجل يسّر لكل إنسان عملاً يتفوق به :

ألا تجد الذي يملك الملايين يقف أمام إنسان خبير لإصلاح المركبة يقف أمامه متأدِّباً ولا يعرف كيف يشكره إذا أصلحها له؟

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

يعطي المال بدرجات، يعطي القوة بدرجات، يعطي الصحة بدرجات، يعطي الوجاهة بدرجات، يعطي الوسامة بدرجات، يعطي طلاقة اللسان بدرجات.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

هناك خدمات لا يمكن أن تفعلها أنت، لأنك لا تحسنها، أو لا ترضى بها، هناك إنسان يحب أن يعملها، وهي ضمن رغبته وطموحه، فكيف وزَّع الله الاختصاصات والقدرات والملكات والإمكانات؟ وكيف ألهم كل إنسانٍ أن يتقن عمله؟ سبحان الله! كلما اطلعت على عمل يقوم به إنسان في غاية التعقيد، صعب أحياناً، أو فيه مخاطرة، أو فيه منظر دماء، فالجراح مثلاً؛ قد يفتح البطن، وقد يفتح الصدر، وقد يخرج القلب، وهو طبيعي جداً، أنا أقول: كلما رأيت إنساناً يتقن عمله، وعمله يبدو لنا جميعاً أنه فوق المستطاع، أقول: سبحان من يَسَّرَ لكل إنسانٍ عمله! هذا يعمل في بناء الأبنية، هذا يعمل في تأمين الطعام للناس، هذا يعمل في صُنع الألبسة، هذا يعمل في التعليم، هذا يعمل في القضاء، وكل حرفة لها

ملابساتها، ولها دقائقها، ولها خصائصها، وكل إنسان بالممارسة يتقن عمله يصبح متفوقاً فيه، يصبح مُفَضَّلاً فيه:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

مراتب الدنيا لا تعني شيئاً :

لعلي في هذا الدرس مَهَّدت هذا التمهيد لكلمة:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ)

فممكن أن تشتري بيتًا بمئتين وخمسين ألفًا في أطراف دمشق، وهناك صنبور ثمنه يقدر بمئتين وخمسين ألفًا، يفتح على الضوء، ومُعَيَّر.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

لكن أيها الأخوة:

(وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

[سورة الإسراء: 21]

أريد أن أقف وقفةً متأنيةً لعلها ضعيفة الصلة بالآيات، مراتب الدنيا لا تعني شيئاً.

ثانياً: مؤقَّتة، فمرتبة المال، قارون من أغنى الأغنياء، هل كان الله يحبه؟ لا، فرعون هل أحبه الله؟ لا.. سيدنا سليمان كان ملكاً، وأحبه الله، سيدنا عبد الرحمن بن عوف كان غنياً، وأحبه الله، مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، فالله يحب إنسانًا غنيًّا، ويكره إنسانًا غنيًّا، معنى ذلك أن المحبة والكراهية لا علاقة لها بالغنى، ما دام يحب عبد الرحمن بن عوف الغني الذي أنفق ماله، يحب سيدنا عثمان بن عفان الغني الذي أنفق ماله، ويبغض قارون الذي تاه بماله على الناس:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

[سورة القصص: 79]

إذا كان الله يحب غنياً، ويبغض غنياً، ألا ينبغي أن نستنبط أن الغنى لا علاقة له بالحب والكراهية، يحب ملكاً كسليمان الحكيم، ويكره فرعوناً، لأنه طغى، وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى، إذاً حظوظ الدنيا في الدنيا لا تعني شيئاً..

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

[سورة الدخان: 25-29]

ليس عطاء الله إكراماً ولا منعه حرماناً :

إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، لأنها مؤقتة، هي مؤقتة ولا تعني شيئاً، أما أنها مؤقتة، فالموت ينهي الغنى، ينهي غنى الغني، لا يوجد قبر خمس نجوم، القبر قبر، ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي صحة الصحيح، ينهي مرض المريض، ينهي وسامة الوسيم، ينهي دمامة الدميم، ينهي فصاحة الفصيح، ينهي عَي العَي، الموت ينهي كل شيء، المراتب مؤقتة، أولاً.

وثانياً: لا تعني أن من تفوَّق في هذا يحبه الله، الله يحب المؤمن فقيراً كان أو غنياً، قوياً كان أو ضعيفاً، صحيحاً كان أم سقيماً، وسيماً كان أم دميماً، كان عليه الصلاة والسلام يضع أسامه بن زيد على فخذه ويقول: "اللهم إني أحبه فأحبه"، وكان يسمَّى عند أصحاب النبي حبَّ رسول الله، وكان أسود اللون، أفطس الأنف، فهذه قضية دقيقة جداً، مراتب الدنيا وحظوظها لا تعني شيئاً، لا تعني أن الله يحبّك، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: 15]

هذه هي مقولته..

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا)

[سورة الفجر: 16 -17]

أي أنتم واهمون يا عبادي، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء، فالإنسان الذي لا يجد المال الكافي، الصحة الكافية، أحياناً حظه من بعض المجالات قليل، لا ينبغي أن يشعر أنه مهان عند الله، لا:

((يا محمد أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره))

[شرح السنة للبغوي قريبا من هذا اللفظ]

حظوظ الدنيا متفاوتة :

إذاً وصلنا إلى أن حظوظ الدنيا متفاوتة، أول حقيقة هي في المجموع واحدة، في المجموع، أما في التفاصيل فليست واحدة، قد يوفق الإنسان إلى زوجة صالحة جداً نعطيه تسعة، وإلى أولاد غير أبرار

نعطيه واحداً، مجموعهم عشرة، عنده زوجة صالحة جداً، أولاد غير جيدين، أو أولاد تسعة وزوجة واحدة، أو أولاد خمسة وزوجة اثنان، ومال ثلاثة، بالنهاية مجموع واحد .

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ *وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا)

[سورة الفجر: 15 -17]

- كَلا -، أداة نفي وردع، أي يا عبادي، أنتم واهمون، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء.

العبرة بالنتائج :

أيها الأخوة الكرام... كلامٌ دقيقٌ دقيقٌ أسوقه لكم، بيدك مال، لا تقل: هذا نعمة، ولا تقل: هذا نقمة، متزوج، لا تقل: الزواج نعمة، ولا الزواج نقمة، لك شأن، لا تقل: هذا الشأن نعمة أم نقمة؟ هذا المال إذا وظَّفته في طاعة الله فهو نعمة، فإن أنفقته في المعاصي والآثام فهو نقمة، هذه الزوجة إن دللتها على الله فهي نعمة، أما إن تركتها جاهلةً وعاثت في الأرض فساداً فهي نقمة، هذا الشأن العالي إن وظَّفته في إحقاق الحق وإزهاق الباطل نعمة، أما إن لم توظفه في الحق فهو نقمة.

لا تسمِّ العطاء نعمةً إلا إذا وظَّف في طاعة الله، لا تسمِّ الذكاء نعمةً إلا إذا وِّظف الذكاء في طاعة الله، لا تسمِّ طلاقة اللسان نعمةً إلا إذا وظَّفت في طاعة الله، لا تسمِّ المال نعمةً إلا إذا أنفق في طاعة الله، إيَّاك أن تسمّيَ حظوظ الدنيا نعماً إن استهلكتها في المعاصي والآثام، وَّإياك أن تسميَ الحرمان نقماً إن كان الحرمان سبب رجوعك إلى الله عزَّ وجل، فإذا انكشفت لك عين حكمة المنع انقلب المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.

أحياناً تجد في بعض البلاد دنيا عريضة- شيئًا لا يوصف- مالاً وفيراً، بيوتاً جميلة، منطقة جميلة خضراء، دخلاً كبيرًا، أموراً ميسَّرة، تأمينًا صحيًّا كاملاً، الإنسان يُجري أي عملية مجاناً، هناك تعويضات مجزية له ولأولاده، الذي لا يعمل له ثمانون بالمئة من معاشه، وهو يعمل، هذه الدنيا العريضة قد تكون حجاباً بين هؤلاء وبين الله، وأحياناً الشدائد تدفعهم إلى باب الله، فالعبرة بالنتائج، الله عزَّ وجل قال:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

زوج فقير قد يكون أعلى عند الله ألف مرة من زوجٍ غني، وإنسان يسكن بيتاً واسعاً قد يكون أقلّ شأناً عند الله من إنسان يسكن بيتًا صغيراً، لا اتساع البيت يعني شيئاً ولا ضيقه، النبي عليه الصلاة والسلام

كانت غرفته لا تتسع لصلاته ونوم زوجته، وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، فالعبرة بالمؤدَّى، العبرة بالنهاية، أنت إنسان مجموعة أيام، بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، مفهوم الزمن عند الناس غير واضح، أنت بين يومٍ مضى لا تملكه، وبين يومٍ سيأتي لا تملكه، ولا تملك إلا الساعة التي أنت فيها، فلذلك: "ما مضى فات والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها".

من حملت زوجها على معصية الله فهي أكبر عدوةٍ له يوم القيامة :

أردت هذا التمهيد، قد لا يعبأ الناس بإنسان دخله محدود لجهلهم، ولضعف إيمانهم، فأحياناً حاجب في فندق مستقيم فرضاً، يقرأ القرآن، قد يكون أقرب إلى الله من نزلاء الفندق الأغنياء، لا تعرف مقام الناس عند الله إلا عرضت أعمالهم على كتاب الله وسُنَّة رسوله، لذلك هل نكلف زوجاً فقيراً أن يسرق من أن أجل أن يسكن زوجته منزلاً واسعًا؟ هل نكلف زوجاً أن يقبل الدخل الحرام من أجل أن يطعم زوجته طعاماً نفيساً؟ أن يلبسها ثياباً فخمة؟ أبداً، لا أحد يحتج أنه يوجد عنده ضغط من الداخل، هذا وضعي، وهذا دخلي، وهذا مستوى معيشتي، فإن شئتِ أن تعيشي معي بهذا أهلاً وسهلاً، ولك صدر البيت.. كما يقولون.. أما إن ضغطت عليه لتحمله على كسبٍ حرام أو على معصيةٍ، فهذه الزوجة ينبغي ألا تطاع، فلو أطعتها كانت أكبر أعدائك يوم القيامة..

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ)

[سورة التغابن: 14]

إن حملتك الزوجة على معصية الله فهي أكبر عدوةٍ لك يوم القيامة، لأن شقاء الإنسان يراه بسبب هذه الزوجة التي دفعته إلى معصية الله، كانت الصحابيَّات الجليلات يقفن يودِّعْنَ أزواجهن قبل الذهاب إلى العمل ويقُلن لهم: يا فلان، اتق الله فينا، فنحن بك، إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام.

الآن لسان حال النساء المتفلتات يدفعن أزواجهن إلى توسيع البيت، إلى تغيير الأثاث، إلى شراء الألبسة الفاخرة، إلى تأمين الطعام الطيِّب، ولا يعبأن من أين يجيء هذا الزوج بهذا المال الكثير، دخله محدود، من أين جاء بهذا المال الكثير؟ هي تعبأ أن تأكل، وأن تشرب، وأن تلبس، وأن تسكن، ولا تعبأ بدين زوجها، فلذلك: " اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الدنيا لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أضحي بهن من أجلك ".

الإنسان السوي لا يسعده إلا أن يرى أهله وأولاده في حالة طيِّبة :

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ)

هذا المسكن الذي أستطيع أن أسكنه، تسكنين معي.

(مِنْ وُجْدِكُمْ)

ما تجدون.

(وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ)

الإنسان أحياناً يقيم الشرع في بيته، وأحياناً يستخدم مواد الشرع للتضييق على زوجته، من يعلم هذا؟ لا يعلم هذا إلا الله، الله وحده يعلم ما إذا كنت تضيِّق عليها، قد تدعي أنك لا تملك، والله يعلم أنك تملك، قد تدعي أنك لا تجد، والله يعلم أنك تجد:

((لذلك ليس منا من وسَّع الله عليه ثم قتر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم بسند ضعيف]

والبخيل إنسان شاذ، إنسان مريض، والأب السوي لا يسعده إلا أن يرى أهله وأولاده في حالة طيِّبة، لذلك:

((إنك يا سعد، لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى إلا أجرت عليها، حتى اللقمة تجعلها فِي فيّ امرأتك))

[متفق عليه عن سعد]

طلب الحلال فريضة بعد الفريضة :

لذلك هذا الذي رآه النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه يستيقظ باكراً إلى عمله، فقال بعض الأصحاب: ليته كان هذا في سبيل الله، فتعجب النبي عليه الصلاة والسلام، وقال:

((إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان))

[الجامع الصغير عن كعب بن عجرة]

إذا خرج الإنسان من بيته ليعمل فيأتي بمال ليسعد زوجته وأولاده فهو في سبيل الله، الإنسان عمله من عبادته، وإن الله عزّ وجل جعل طلب الحلال فريضةً بعد الفريضة، هذا الكلام كله:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام استوصى بالنساء خيراً :

الزوجة المؤمنة العاقلة لا تحمِّل زوجها ما لا يطيق، لا تطالبه إلا بما يجد، لذلك ورد في بعض الأحاديث أن من بركة المرأة قلة مؤونتها:

((أعظم النساء بركةً أيسرهن مؤونةً))

[الجامع الصغير عن عائشة]

((أعظم النساء بركةً أقلهن مهراً))

[الجامع الصغير عن عائشة]

هذه المرأة حينما تقيس نفسها بحجم مهرها لا تعرف شيئاً، المرأة لا تقدَّر بثمن، المهر تعبير رمزي، ولكن ليس تعبيراً حقيقياً، فإذا حَمَّلتْ المرأة زوجها ما لا يطيق فقد عصت الله ورسوله.

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ)

أحياناً هناك تقنين هدفه الإضرار، أحياناً هناك تضييق هدفه إيقاع الأذى بالمرأة، وليس من شِيَم المؤمن أن يوقع الأذى بزوجته، لأن النبي عليه الصلاة والسلام استوصى بالنساء خيراً قال:

((أكرموهن، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهم كل لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

وقال:

((إنهن المؤنسات الغاليات))

[الجامع الصغير عن عقبة بن عامر]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((خيركم خَيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي))

[الترمذي عن عائشة، وابن ماجه عن ابن عباس]

المرأة العاقلة لا تُحمّل زوجها ما لا يطيق :

أما الآية الثانية:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم: 4]

المرأة إذا طالبت بحقها فلا شيء عليها، إنما إذا أرادت أن تَحْمِلَ زوجها على ما لا يطيق، وأن تكلفه ما لا يستطيع، وأن ترهقه، وأن تجعل حياته نكداً، ومعيشته ضنكاً، فهذه امرأةٌ لا تعرف الله، ولا ترقى عند الله.

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ)

بعض علماء التفسير قال: كيف تضاروهن؟ يطلقها، هو ينوي أن يفارقها نهائياً، يطلقها طلقةً أولى في طهرٍ لم يمسَّها فيه، فإذا انقضى أول قرءٍ شهر، وثاني قرء شهر، وثالث قرء شهر، قبل يومين يراجعها، فتعود إليه، وبعد أن تطهر يطلّقها، هدفه إزعاجها، هدفه إبقاءها في بيته مُهانة بعيدة عنه، وبعيد عنها، وهذا نوعٌ من أنواع التضييق، فإمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان.

يا أبا أمية، إنني امرأةٌ غريبة، لا أعرف ما تحب ولا ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه وما تكره حتى أجتنبه؟ ويا أبا أمية قد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجةً على كتاب الله وسُنَّة رسوله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فاتق الله فيَّ، وامتثل قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

هذا كلام ربنا عزَّ وجل، إما أن تمسكها كزوجة، أو أن تسرِّحها سراحاً جميلاً، فأنا لا أتكلم من هراء، أتكلم من شكاوى كثيرة، لا هي زوجة، ولا هي مطلقة، ولا هي معلَّقة، لكن فمن هي؟ زوجة، فلما لا تأتي إلى بيتها، هجرها، يسكن مع زوجة أخرى، زوجة يأتيها، ويؤتي نصيبها من اللقاء، فلمَ تعطي تلك المبالغ الطائلة وهذه تحرمها؟

على الزوج أن ينفق على زوجته الحامل و إن كانت مطلقة :

(وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)

أي أن المطلَّقة إذا كانت حاملاً تبقى في بيت زوجها فعلى زوجها أن ينفق عليها حتى تضع حملها، لأن المرأة تحمل الغلام وَهْنَاً، حملته وهناً، ووضعته كرهاً، قال:

(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

هذه بعد أن طلقتها طلاقاً مبتوتاً، بعد أن بانت منك البينونة الكُبرى، إن كانت حاملاً فيجب أن تنفق عليها، وإن كانت غير حامل فيجب أن تُمْضي العدة في بيتك دون أن يكون هناك لقاء إطلاقاً، أو نظر.

(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

كلمة [معروف]دقيقة جداً، هناك معروف في كل مجتمع، وهناك عمل شاذ وعمل بالمعروف، أنا سمعت عن امرأة توفي عنها زوجها، تسكن في بيت زوجها، زوجها متزوِّج من زوجة سابقة، وكانت قد توفيت، وله منها أولاد، ماذا فعل الأولاد بزوجة أبيهم؟ أول شيء هذا الزوج ترك مالاً في البيت، أول شيء أعطوها نصيبها من هذا المال حباً وكرامة، دون أن يخفوا شيئاً، قالت لهم: إن زوجي وعدني بالمال الفلاني الذي عند فلان أنه لكِ، كلاماً شفهياً، قالوا: هو لكِ إذاً، أعطوها تنازلاً، ثم جاؤوا بمهرها، مبلغ عشرة آلاف ليرة، بعد أن أعطوها المهر عادوا عليها بعد يومين أعطوها تسعين ألفًا، قالت: لمَ؟ قالوا: لأننا سألنا العلماء فقالوا: هذا المهر بعملة قيمتها قديماً تساوي شيئاً ثميناً، أما الآن فلا تساوي شيئاً، فحسبوها على الذهب، هذا هو المعروف.

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

التُهَم التي تلقى إذا وُجِد خلاف زوجي كلها من الشيطان :

نحن إذا كان هناك خلافاً يوكلون المحامين، وكل طرف يحاول أن ينَكّل بالطرف الثاني، يحاول أن يتفنن بإيقاع العذاب والخسارة بالطرف الثاني، ألا يمكن أن نتفارق بالمعروف؟ ألا يمكن أن نطلق بالمعروف؟ ألا يمكن أن نعطي حقوق الزوجة بالمعروف؟ ألا يمكن أن نضبط ألسنتنا؟ قل: لا يوجد نصيب، إذا صار الطلاق تنشر الفضائح، وينشر الغسيل القذر على السطوح، وفي الشرفات، فلا يوجد نصيب، المسلم بحاجة إلى كمال، فإذا كان الوفاق كان المديح غير معقول، أيضاً إن صار خلاف كان الذم غير معقول، فيكون الزوج ولي من أولياء الله الصالحين، ثم بعد ذلك يقولون عنه: إنه يقع بالساعة، الحمد لله، خلصنا الله منه، رأساً يتهمونه بصحته، يتهمونه بشرفه، أو بالعكس، هذا كله من الجاهلية، هذه التُهَم التي تلقى إذا وُجِد عدم وفاق زوجي، أو صار الطلاق، هذا كله من الشيطان.

(يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ)

[سورة المائدة: 91]

مهمات الشيطان :

أخواننا الكرام، الشيطان له مهمات وضحها لنا ربنا، أول مهمة: التفريق بين المرء وزوجه، وصدقوني أيها الأخوة، إن الله لا يرضى عن الزوجين إلا إذا كانا متفاهمين، وإلا إذا كانا متعاونين، وإلا إذا كانا متضامنين، وإلا إذا كانا متسامحين، وإلا إذا كان متباذلين، هو يبذل، وهي تبذل، هو يسامح، وهي تسامح، مهمة الشيطان عكس ما يرضي الله عزَّ وجل، الخصومة، والكلمة القاسية، والنظرة القاسية،

والعبارة النابية لها ولأهلها، والعبارة النابية له ولأهله، هذا من عمل الشيطان، كل إنسان يمتحن إيمانه في بيته، هل هو مطواع؟ هل هو سلس القِياد؟ رحيم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((خيركم خَيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي))

[الترمذي عن عائشة، وابن ماجه عن ابن عباس]

من يرفض أن تنصحه زوجته إنسان جاهل :

الآن طلق:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

هناك عُرف، والعُرف مأخوذ من الفطرة، في بعض البلاد الأجنبية شيء في القضاء اسمه المحلَّفين، خمسون شخصاً من قارعة الطريق تعرض عليهم قضية بحسب إدراكهم السليم وفطرتهم السليمة يعطون رأياً صحيحاً، العُرف قلما يخطئ، ربنا عزَّ وجل يقول:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

- وَأْتَمِرُوا - فيها معنى المشاركة، أي هذا الذي يرفض أن تنصحه زوجته إنسان جاهل:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

أي عليك أن تأمرها بالمعروف، وعليها أن تأمرك بالمعروف، ائمرها بالمعروف واقبل أمرها بالمعروف.. أحياناً عندنا فكرة جاهلية، أن الحق دائماً مع الرجل، لا، أحياناً يكون الحق مع المرأة، فكما أنه يجب أن تصغي إلى أمرك بالمعروف، الله عزَّ وجل يأمرك أن تصغي إلى أمرها بالمعروف، هناك امرأة مظلومة، والمرأة المظلومة قد يستمع الله إلى شكواها من فوق سبع سموات، إيَّاك أن تستضعف مخلوقاً، إيَّاك أن تقل: هذه الزوجة أهلها مسافرون، والدها متوفى، أخوها مسافر، ليس لها من يحميها، أنا أتحكم فيها، هذا كلام الجاهلية، كلام إنسان جاهل، الله ربها، وهو يدافع عنها، وقد يسوق الله الشدائد تلو الشدائد لمن يظلم زوجته.

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

أي مرها بالمعروف، فرضاً الزوج ضعفت صَلاته، إن نصحته زوجته هل عليه أن يغضب؟ نصحته أن يصلي الفجر في وقته، فقال لها: جزاك الله خيراً، هذه من أعظم النعم، أن تكون لك زوجة تأمرك بالمعروف، إن رأت دخلاً غير مشروع فسألتك: من أين هذا الدخل؟ أنا لا أرضى أن تكسب الحرام، هذه زوجة عظيمة، كما أنه مأمورٌ أن يأمرها بالمعروف، ومأمورٌ أيضاً أن يصغي إلى أمرها بالمعروف إن كانت صاحبة حق، لا تكن جاهلياً، كن رحمانياً، لا تكن مستبداً، كن خَيرِيَّاً.

القرآن الكريم جعل بديل حليب الأم مرضعة :

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ)

أي لو أن المرأة المطلقة التي أنجبت مولوداً جاء من يخطبها إلى بلدٍ بعيد، هل يستطيع الزوج أن يمنعها من الزواج والسفر؟ لا يستطيع، قال:

(وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

لا توجد مشكلة، أما هنا فهناك مشكلة الآن، والشيء العجيب أن القرآن الكريم جعل بديل حليب الأم مرضعة، الآن في العالم كله بديل حليب الأم الإرضاع الاصطناعي.

لا شيء يعادل حليب الأم و هو أروع هدية من الرحمن :

أحدث بحث اطلعت عليه وهو بحث مترجم، هناك علاقةٌ وشيجةٌ جداً بين الذكاء والإرضاع الطبيعي، هذا البحث كلَّف سنوات، أخذت عيِّنات من الأطفال من شتى بقاع العالم، وفي بلد، وهو جزيرة في المحيط الهادي وجد أن نسبة الذكاء بين أطفالها أعلى نسبة في العالم، أمريكا التي تدعي أنها في قمة المجتمع البشري، ترتيبها سبعة عشر في الذكاء، الأطباء عزوا ذلك إلى الإرضاع الطبيعي، لأن حليب القوارير هو حليب البقر أو الغنم، فيه مواد بروتينية لا تستطيع أجهزة الطفل تحمُّلها إطلاقاً، لا تستهلك منها إلا الخمس، والأربعة أخماس لا تستهلك، هذه المواد البروتينية، والأحماض الأمينية، تصبح عبئاً على جهاز الهضم والدوران في الطفل الصغير، بينما حليب الأم.. ودققوا فيما أقول: يتبدل تركيبه في أثناء الرضعة الواحدة، في أول الإرضاع نسب الماء ستون بالمئة، في نهاية الإرضاع أربعون بالمئة، حليب الأم يتبدَّل كل رضعة، وفي أثناء الرضعة الواحدة، وفيه مواد تمنع التصاق الجراثيم بالأمعاء، وفيه مناعة الأم كلها، وفيه مواد تعين على الهضم، وقد ثبت أن بعض الآفات القلبية والوعائية والكلوية في مستقبل حياة الإنسان تُرَدُّ إلى أنه رضع من حليبٍ صناعي، ولم يرضع من ثدي أمه.

أنا أقول لكم حقيقة: لو أن أماً طلقت، وأنجبت ولداً، وسافرت مع زوجها الجديد، ماذا نفعل؟ البديل ما هو؟ البديل مرضعة أخرى، بهذا أمر القرآن، هذا كلام الله عزَّ وجل، لأن لا شيء يعادل حليب الأم، وفي بعض البلاد الأجنبية، بل في أكثرها كل شركات حليب الأطفال أُمِرَتْ أن تكتب: " لا شيء يعادل حليب الأم "، في الدرجة الأولى، بل إن بعض أمراض الثدي، ومنها الأمراض الخبيثة.. الورم الخبيث.. سببه عدم الإرضاع، فالأم التي لا تُرضع طفلها لتحافظ على شكلها قد يتسبب ذلك في إصابتها بسرطان الثدي، لأن هذا من حق ابنها..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد: 8-10]

هذه هدية الله، هذا الحليب حليب الثديين يجده الطفل الصغير جاهزاً، معقماً، بارداً صيفاً، ساخناً شتاءً، متوازناً، متعادلاً، متدرجاً في نسبه، فأروع هدية لهذا الطفل الصغير حليب الأم.

منعكس المص من آيات الله الدالة على عظمته :

رأيت في بحث علمي مصوَّر أن بعض الحيوانات ولدت مولوداً صغيراً، بعد ثانيتين التقم حلمة الثدي ورضع منها، من علَّمه ذلك؟ هناك شيء لا يغيب عن أذهانكم أن في الإنسان ما يسمى منعكسَ المَص، هذا المنعكس لولاه لما كنا في هذا المسجد، تصور مولوداً جديداً لا يستطيع أن يأكل إلا الحليب، ولا يعرف كيف يمص ثدي أمه، يموت، لا توجد طريقة، قد يقول أحدكم: نعلمه، الآن هو ولد، نقول له: انتبه أيها الطفل، ضع فمك على حلمة ثدي أمك، وأحكم الإغلاق، واسحب الهواء، مستحيل، هذا المنعكس منعكس المص يولد مع الإنسان، فقضية الحليب، وقضية منعكس المص، شيء لا يكاد يصدق، يقال لك: الآلة بشحمها، فالطفل حينما يولد الله جلَّ جلاله لحكمٍ بالغة يجعل في كل جهازه الهضمي مواد شحميّة لتمنع التصاق الأوعية ببعضها، فالمواد الشحمية لابدَّ من أن تزول قبل أن يأكل، فالأربع والعشرين ساعة في أول إرضاع الطفل الصغير لا يرضع حليباً، يرضع مواد مذيبة شَفَّافة صفراء، أول أربع وعشرين ساعة يخرج منه شيء أسود هو الشحم الذي كان في الجهاز الهضمي، تخطيط من؟ صُنع من؟ صنع الله عزَّ وجل، فلذلك:

(وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

معنى ذلك أن إرضاع الإنسان من قِبل أمه أو من قبل مرضعة.

ليس منا من كلّف نفسه ما لا يطيق :

ثم يقول الله عزَّ وجل:

(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ)

لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[مسند الشهاب للقضاعي عن عائشة]

بالمقابل، ليس منا من كلّف نفسه ما لا يطيق، أي أكل مالاً حراماً ليوسع على عياله، الله لم يأمرك بهذا، وما كلفك ما لا تطيق.

(وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ)

المظاهر لا قيمة لها إطلاقاً :

أحياناً تجد عرساً.. طبعاً أنا لا أقول هذا لأنني موافق عليه.. كلف ستين مليونًا، وتجد عرساً فوق سطح منزل، وفيه تجلٍّ، وفائدة، ووفاق زوجي، و سعادة كبيرة.

في الحياة جوهر، وفيها ظواهر، المظاهر لا تقدِّم ولا تؤخِّر، قلنا لكم مرة: فندق من الفنادق الكبيرة في دمشق التي تجرى فيها عقود القران، والمبالغ بالملايين، عشرون، ثلاثون، إلى الستين، أعلى رقم: ستون مليونًا، أراد هذا الفندق أن يجمع الذين أجروا عقداً فيه خلال ستة أشهر كي يكافئهم، أجري إحصاء، كانت العقود ستة عشر عقداً، فدعوا أصحاب العقود ليقيموا لهم حفلاً تكريمياً، ففوجئوا أن ثلاثة عشر عقداً من هذه العقود قد آلت إلى الطلاق، فلذلك المظاهر لا قيمة لها، العبرة بالمخبر.

أحياناً تجد حفلاً فخماً يكلف الملايين، لكن لا يوجد فيه وفاق زوجي، وأحياناً تجد وفاقًا زوجيًّاً في حفل متواضع جداً لم يكلف شيئاً، واللهِ سمعت أن بعض المساجد تجري فيها عقود القران، فيها تجلٍّ و سرور، وإلقاء كلمات، ومديح لرسول الله، وتوزَّع ضيافة، بكل بساطة، إذاً:

(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

لا أحد يتشاءم.

أحد أنواع التربية الإلهية أن يضيِّق على الإنسان ثم ييسر له :

(سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

العسر مقصود، والعسر تربوي، والعسر يهذِّب المشاعر، إذا اغتنى إنسان بعد افتقار تجده متواضعاً، ويعرف قيمة الناس، وقيمة الفقراء، وقيمة الأخلاقيين، الملاحظ أن الإنسان إذا اغتنى بعد فقر عنده تواضع شديد، إنسان ويعرف قيمة المال، ويعرف قيمة المحرومين، بالعكس إنسان قد يكون من أسخى الناس، أما الذي ينشأ في الغنى، ولم يذق طعم الفقر فهذا قد لا يحتمل، فأحد أنواع التربية الإلهية أن يضيِّق إنسان ثم يفتح.

(سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

بطولة الإنسان أن يتزوج امرأةً لا يحتاج إلى تطليقها :

أيها الأخوة هذا منهج الله في العلاقة الزوجية، لكن كما قلت في بداية أول هذه السورة: تزوجوا ولا تطلقوا، فالبطولة أن تتزوج امرأةً لا تحتاج إلى تطليقها، ألم أقل لكم مرةً: إن سيدنا معاوية سأل سيدنا عمرو بن العاص: ما بلغ من دهائك؟ قال له: والله ما دخلت مُدْخَلاً إلا أحسنت الخروج منه، قال له: لست بداهية، أما أنا والله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه.

الإنسان يوفق بزوجة صالحة، فلا يحتاج إلى تطليقها، أما إذا كانت الدراسة سريعة، والقرار تمّ على عجل، دون تمحيص، في الأحيان الكثيرة يحتاج الإنسان إلى أن يطلق زوجته، أما البطولة فأن تتزوج ولا تطلق، أي أن تدرس الأمر دراسة متأنية، وأن تبحث ملياً عن الأسرة، وعن أخلاقها، وعن مستواها، وعن دينها، وعن علاقاتها الاجتماعية، وعن طيبها، وعن دخلها، حتى يكون الاختيار صحيحاً.

وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نتحدث كيف أن الله بعد هذه الآيات التشريعية هناك آيات ردعية، أو فيما يسمى في القوانين المؤَيِّد القانون الذي يحمل الناس على طاعة الله..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا*فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 8- 12
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-01-17

بسم الله الرحمن الرحيم

العقوبة تحجِّم الإنسان وتدفعه إلى تطبيق القانون :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس من سورة الطلاق، ومع الآية الثامنة، وهي قوله تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا*فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

أيها الأخوة الكرام، لا يخفى عليكم أن أي قانونٍ يصدر لا معنى له من دون عقوبات، لأن العقوبة تحجِّم الإنسان، وتدفعه إلى تطبيق القانون، هذا في حياتنا الدنيا، ربنا سبحانه وتعالى هو ربُّ العالمين، خلقنا، ولكنه يربينا، كيف يربينا؟ يضع لنا منهجاً نسير عليه، فلو حِدْنا عن هذا المنهج أدَّبنا، وهذا التأديب لصالحنا، لذلك بعد أن حدَّثنا ربّنا عن أحكام الطلاق، أحياناً الزوج يطلّق طلاقاً تعسُّفياً، يقول: هذه ضعيفة، لا أهل لها، أنا أفعل بها ما أريد، ربنا عزَّ وجل يُذكِّر الأزواج، بعد أن حدَّثنا عن أحكام الطلاق، وعن الطلاق اِلبدعي والسنّي، وعن الطلاق الذي يجوز، والذي لا يجوز، قال:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا)

العقاب ردع لبقية الناس :

لماذا أمر الله أن يُقتَل القاتل؟ وأن يُقتَل على مرأى من جمهور المسلمين عقب صلاة الجمعة؟ لماذا أمر أن تُقطع يدُ السارق؟ وأن تقطع أمام الملأ؟

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

[سورة النور: 2]

لماذا؟ من أجل أن يكون هذا العقاب ردعاً لبقية الناس، فربنا عزَّ وجل يبين أنه - كَأين - أي كم، كم لها معنيان في اللغة: كم استفهامية، وكم تكثيرية، أي تعجُّبية، أنا أسألك: كم كتاباً عندك؟ تقول لي: ثلاثون كتاباً، أقول لك مرَّةً ثانية: كم كتابٍ عندي، أنا لا أسألك، ولكن أُكثِّر من الكتب التي عندي، فالعلماء قالوا: كم استفهامية، وكم تكثيرية، وكأيِّن تساوي كم..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا)

عتت أي خرجت، واستكبرت أن تطيع الله عزَّ وجل، العتو الاستكبار، فكم من قريةٍ خرجت عن أمر الله عزَّ وجل، والآن ماذا يحصل؟ هناك قُرَى تصاب بزلازل، قرى تصاب بمجاعات، قرى تصاب بأمراض وبيلة، قرى تُهَجَّر من أماكنها، أبناء القرى يهجَّرون من أماكنهم، يُشَرَّدون في الآفاق، وأحياناً فيضانات، أحياناً كوارث طبيعية، أحياناً زلازل، أحياناً أمطار، أحياناً صقيع، كما تسمعون الآن سبعون تحت الصفر، يموت الناس بالعشرات من شدَّة البرد..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا)

أي إما أن تطيع الله عزَّ وجل، وإلا فتحمَّل..

التربية رحمة :

جاء أعرابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: "يا رسول الله عظني ولا تطل، فقال عليه الصلاة والسلام: قل آمنت بالله ثم استقم، قال هذا الأعرابي: أريد أخفَّ من ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: إذاً فاستعدَّ للبلاء".

أي أنك لست مخيّراً، مخيّر أن تطيع، أو ألا تطيع، أما إذا عصيت فليس لك الخيار أن تتحمَّل العقاب، أو أن ترفضه، خيارك في الطاعة أو المعصية، أما مع المعصية فلم يعد هناك خيار، وهذا شيء بديهي، شخص يقود مركبة، والإشارة حمراء، فهو مخير أن يقف متأدِّباً مع النظام، أو أن يخرق قواعد النظام، أما إذا خرق قواعد النظام فليس باختياره أن يقبل العقاب، أو أن يرفضه، كما قلت من قبل:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ))

[متفق عليه عن أبي هُرَيْرَةَ]

أي مدركٌ نصيبه من عقوبة الزنا لا محالة حينما يزني، فالعبرة أن الله رب العالمين، ومعنى رب أي مربٍّ، ومعنى مربٍّ أي ممدّ، ومعنى ربّ أي مؤدِّب، فالإنسان حينما لا ينفِّذ أمر الله عزَّ وجل فرحمة به -كان من الممكن أن يُخلَق الإنسان، وأن يترك سدى- يوجد منهج، ويوجد رسل، ويوجد كتب، وانتهى الأمر، ولكن لا يوجد تأديب، الآن كم من إنسان يأتي طائعاً بعقله فقط؟ الآن في المدارس هناك عقوبات، هناك حرمان، هناك فصل، هناك حرمان من ستَّ دورات في الامتحان، هذه العقوبات تدفع الطالب إلى الالتزام، فربنا عزَّ وجل لو لم يؤدِّبنا، لو خلقنا، وأبلغنا رسالته عن طريق الأنبياء وتركنا، ولا توجد مصائب، ولا توجد أمراض، ولا توجد مخاوف، ولا توجد زلازل، أحياناً يقول: زلزلة من يومين شدتها أربعة رختر، هذا أسلوب تلويح العصا، أي انتبهوا، يا أيها العصاة انتبهوا، كأن لسان حال الذَّات الإلهية هكذا، فالتربية رحمة..

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

العقاب ظاهره أليم لكن نتائجه مرضية جداً :

الإنسان حينما يُجْرِم يحتاج إلى رحمة الله، ورحمة الله هي التأديب، كم من شابٍّ استقام على أمر الله عَقِبَ مشكلة؟ كم من زوجٍ استقام على أمر الله عقب مشكلة؟ آلاف مؤلَّفة، بل إنَّ تسعين بالمئة من الذين اصطلحوا مع الله كان اصطلاحهم مع الله عقب مشكلة، عقب مشكلة مادِّية أو معنوية، خوف، أو فقر، أو نقص في الأموال والأولاد، فهذه المصائب صَمّامات أمان، هذه المصائب كالمكابح في السيارة، لابدَّ منها لضمان حسن سيرها، ولضمان سلامتها.

إذاً.. الحقيقة العقاب ظاهره سيئ، لكن له نتائج مرضية، لو أن أباً متشدِّد في تربية أولاده، شدَّته البالغة، وحرصه البالغ، وتأديبه الشديد، ومتابعته، انتهت بالأولاد إلى مركز راقٍ، إلى شهادة عُليا، أو إلى عمل جيِّد، أو إلى انضباط، أو إلى تديُّن، هذا الأب يصبح قرير العَين، وهذا الابن يذوب محبَّةً بوالده الشديد الذي حمله على أن يكون متفوّقاً في الدنيا، فالعقاب ظاهره أليم، لكن نتائجه مرضيةٌ جداً، والأب الذي يُسَيّب أولاده يبدو له أنه يريحهم، ولكن في الحقيقة هو يدمِّرهم، فدائماً وأبداً الشدَّة من الله رحمة، رحمة بالغة، لو أن الله عزَّ وجل تركنا هملاً لما كنَّا كما نحن عليه الآن، لا يوجد إنسان إلا وخضع للتربية الإلهية، الله عزَّ وجل عنده أدوية كثيرة لا تعدّ ولا تحصى، خوف، وهم، مرض، فقر، أحياناً إنسان قوي يُخيف، فأنت من أجل ألاّ تقع تحت قسوة هذا القاسي تتوب إلى الله، وتصطلح معه.

الآيات التالية تبيِّن أن الشدَّة التي قد تبدو من معاملة ربنا إنما هي شدَّةٌ لصالحنا :

هذه الآية قد يقول أحدنا: ما علاقتها بالطلاق؟ السورة كلّها للطلاق، أحياناً الإنسان يتوهَّم أنه زوج، وهو قوي، والطلاق بيدّه، وهذه امرأة وضعيفة وبإمكانه أن يطلّقها، بإمكانه أن يعِّذبها، بإمكانه أن يدعها بلا طعام وشراب، بإمكانه أن يأكل حقوقها، الله عزَّ وجل يقول:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا*فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا)

أي عاقبة أمرها..

(وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

في الدنيا، وجحيماً في الآخرة، إذاً هذه الآيات تبيِّن أيها الأخوة أن الشدَّة التي قد تبدو من معاملة ربنا عزَّ وجل، إنما هي شدَّةٌ لصالحنا.

عقاب الله لعباده العُصاة له أهداف كثيرة :

بالمناسبة، هذه الشدَّة لها وظائف عديدة، لما قطعنا يد السارق، وعلَّقناها على باب المسجد على مرأى من المصلِّين، الطفل الصغير حينما يرى يداً معلَّقة يُغرَس في أعماق أعماقه أن السرقة شيءٌ مخيف، وهذه نهاية السارق، حينما يُقتَل القاتل على مرأى من الناس، الآن يوجد إجراء لطيف، أي جريمة وقعت يُعدَم فيها المجرمون في مكان الجريمة، فأحياناً تقع جريمة مروّعة، محكمة سريعة جداً تحاكم هؤلاء المجرمين، وتعدمهم في ساحة الجريمة نفسها، هذه مما يجعل في النفوس ردعاً كبيراً، فالردع مهم جداً، فعقاب الله لعباده العُصاة له أهداف كثيرة، وأحد هذه الأهداف: أنه يؤدِّب هذا العاصي، وثاني هذه الأهداف أن الناس جميعاً يتَّعظون بهذه العقوبة الصارخة..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ)

ألم يقل الله عزَّ وجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

ألم يقل الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ *يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج : 1-2]

هذه الشدَّة رحمة بالعباد.

الشدَّة نعمة باطنة لا يعرف الإنسان حقيقتها إلا في نهاية المطاف :

لذلك فالشدَّة نعمةٌ باطنة:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

ظاهرة الصحَّة، باطنة المرض، ظاهرة المال، باطنة الفقر، ظاهرة السلامة، باطنة بعض العيوب في الخلق، هذه نعمٌ باطنة لا يعرف الإنسان حقيقتها إلا في نهاية المطاف..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا)

خرجت عن أمر الله استكباراً، وعدواناً:

(وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا)

قال أحدهم: يا رب، لقد عصيتك ولم تعاقبني؟ قال: وقع في قلبه: أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر. الإنسان لا يبالي بكسب المال، يكسبه حراماً، ثم يفاجأ بمصادرة، بضرائب لا تُحتمل، يفاجأ أحياناً بتلف المال، بهلاكه، بسرقته، هذا تأديب الله لهذا الإنسان، كل ذنب له طريقة في التأديب، فكسب المال الحرام لعلَّ من عقوبته إتلاف هذا المال، العدوان على أعراض الآخرين لعلَّ من عقوبته ألاّ تطمئن إلى أهلك، حينما تتجاوز الحدود يتجاوز غيرك الحدود، هذه:

(فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا)

(فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا*فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

الشقي من خسر الدنيا و الآخرة معاً :

الحقيقة أن الشيء الذي لا يُحتمل أن يخسر الإنسان الدنيا والآخرة معاً، الدنيا مشحونة بالمتاعب، يأتي ملك الموت فيواجه الإنسان شقاءً أبدياً، لأنه خالف منهج الله عزَّ وجل، والشيء اللطيف أنك إذا أطعت الله عزَّ وجل فُزت فوزاً عظيماً، كسبت الدنيا والآخرة..

(وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

[سورة يونس: 98]

في الدنيا مكرَّم، وفي الآخرة لك الجنَّة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لذلك من الحُمْق الشديد أن تعصي الله، من الغَبْن الشديد أن تخرج عن منهج الله، من الكفر أن تعصي من خلقك، ومن أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد..

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

يا أصحاب العقول، الإنسان قيمته بعقله، يخاطب الله العقل فيقول: "وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبَّ إليَّ منك، بك أعطي، وبك آخذ".

التوبة أحكم قرار يتخذه الإنسان لأنه سبب رخائه في الدنيا والآخرة :

أخواننا الكرام، الإنسان يسعد بمحاكمة منطقية، أحياناً الإنسان يستمع إلى موعظة، إلى تفسير آية، إلى تفسير حديث، فيتفاعل تفاعلاً شديداً، يجري محاكمة دقيقة فيتَّخذ قرار التوبة، هذا أحكم قرار تتخذه في حياتك، لأنه سبب الرخاء في الدنيا والآخرة..

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

(إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة: 222]

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا)

إن لم يتوبوا.

من ازداد علماً ازداد معرفة بحقيقته :

لذلك:

(يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

يا أصحاب العقول .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

أي إن الله خلق الكون، لكن نوره بالقرآن الكريم، بين لك ما ينبغي أن تفعل، وما لا ينبغي، بيّن الحلال والحرام، الخير والشر، طريق الهداية وطريق الغواية، طريق الحق وطريق الباطل، لكن الله عزَّ وجل قال لك أيضاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة : 119]

كن مع الصادقين، كن مع المؤمنين، في أنس، في نور، في توجيه صحيح، القرآن مائدة الله عزَّ وجل، لا تعرف أين موقعك من هذا الدين إلا إذا استمعت إلى تفسير القرآن، أين أنت؟ الواحد قلقٌ على نفسه، هل هو مؤمن أم غير مؤمن؟ مقصِّر؟ منافق؟ من هو؟ إن فهمت كتاب الله تعلم أين موقعك من هذا الدين العظيم، يا ترى مقتصد؟سابق؟ مقصِّر؟ متلبِّس بمعصية؟ المعصية في البيت؟ في العمل؟ في العلاقات الاجتماعية؟ فكلَّما ازددت علماً ازددت معرفةً بحقيقتك، أين أنت من الدين؟

السماء ذكَّرت الأرض في هذا القرآن الذي أنزل على النبي العدنان :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

أي السماء ذكَّرت الأرض، أناسٌ تائهون، شاردون، ضالّون، يتخبَّطون في المال الحرام، في الخمور، في الزنا، هذه هي الجاهلية، المرأة كانت تتقلَّب بين عشرة رجال، عشرة رجال على المرأة الواحدة، فوضى جنسية لا تُعَدُّ ولا تحصى في الجاهلية، خمور، ربا بأعلى نسب، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وبيّن الحق، بيّن الباطل، بيّن الخير، بيّن الشر، بيّن المنهج، فالسماء ذكَّرت الأرض في هذا القرآن الذي أُنزل على النبي العدنان..

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

الرسول تذكير السماء لأهل الأرض :

ما هو هذا الذكر؟

(رَسُولًا)

الرسول تذكير السماء لأهل الأرض، طبعاً أعطاه معجزة، أعطاه كتاباً، أعطاه معجزة ليصدِّقه الناس أنه رسول الله، أعطاه كتاباً ليكون منهجاً لهم تفصيلياً..

(رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ)

يشير إلى خلق الله، إلى السموات، إلى الأرض.

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

[سورة الغاشية: : 17-20]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا)

[سورة عبس : 24-25]

إلى شرابه، إلى أكله، إلى النباتات، إلى الحيوانات، إلى ابنه الصغير، هو يعلم علم اليقين ما سبب هذا الابن الصغير؟ حوينٌ واحد من خمسمئة مليون حوين دخل البويضة ولقَّحها، وتكاثرت هذه البويضة في تسعة أشهرٍ، فأصبحت طفلاً له رأس، له دماغ، له جمجمة، له خلايا عصبية، له عينان، له أذنان، له أنف، له فم، له لسان، له مريء، له معدة، له أمعاء، له كبد، له بنكرياس، له كُلية، عظام وعضلات، شرايين وأوردة، خلايا نخامية تزن نصف غرام، وتنتج اثني عشر هرمونًا، الهرمون الواحد فيه آلاف مؤلَّفة من الحموض الأمينية، هذا خلق الإنسان.

تذكير ببعض آيات الله الدالة على عظمته :

والله عزَّ وجل قال:

(رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ)

خَلْقك آية، ابنك آية، زوجتك آية، طعامك الذي تأكله آية، شرابك آية، هذا الحليب الذي نشربه آية من آيات الله، أي من آيات الله الدالة على عظمته، بقرةٌ عجماء لا تفقه، تأكل هذا الحشيش، فيها غدَّة ثدييّة ترشح الحليب، والعلماء حتى الآن في حيرةٍ من طريقة صنع الحليب، حول هذه الغدَّة الثدييّة التي هي كالقبَّة شبكة أوعية دموية كثيفة جداً، الغذاء يجري في هذه الأوعية.. أي الدم.. الخلية الثدييّة تنتقي من هذا الدم حاجتها، تأخذ البروتين، تأخذ الكلس، تأخذ مواد دسمة، ومواد أمنية، فيتامينات ومعادن،

تصنعها حليباً، وترشح هذه الخلية إلى جوفٍ هو ضرع البقرة، فالحليب وحده آية، ومشتقَّات الحليب لا تعُّد ولا تحصى، فطعامك آية، هذه الفواكه التي تأكلها آية، هذا الجو اللطيف آية، المطر آية، السحاب آية..

(رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

الشهوات ظلمات، المطامع المادِّية ظلمات، ظلمة المعصية، المعصية لها ظلمة، والشهوة لها ظلمة، والباطل له ظلمة، والأفكار الوضعية لها ظلمة..

(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

إلى نور واحد، إلى نور الله.

الحياة الدنيا إعداد لحياة أبدية :

الحقيقة نحن شيء نألفه، ولأننا نألفه قد لا نعرف قيمته الكبرى، أنت تعرف أن لك ربًّا كريماً، إلهاً عظيماً، أنت في دنيا مؤقَّتة إعدادٌ لحياةٍ أبدية، فهذه الحقائق هي نور، المؤمن مرتاح، عنده تفسير دقيق للكون، هذا الكون خلقه الله عزَّ وجل، خلقه ليكون دالاً على وجود الله، وعلى كماله، وعلى وحدانيته، خلقه ليكون مجسِّماً لأسماء الله الحُسنى، وصفاته الفضلى، خلقه ليكون آيةً لكل مؤمن، والحياة الدنيا إعداد، مرحلة مؤقَّتة تبدأ بالولادة، وتنتهي بالوفاة، إعداد لحياة أبدية، والإنسان هو المخلوق المكرم، فهذه كلُّها حقائق.

(رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

هذا كلام الله، وهذا وعد الله، والإنسان المؤمن يصدِّق وعد الله ووعيده، فينطلق إلى الجنَّة بكل طاقته، لأنها دار القرار، دار السلام..

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر: 48]

المتاعب المخيفة غير موجودة في الجنَّة :

في الحياة الدنيا قلق عميق، الإنسان إذا بلغ مرتبةً من الغنى، سكن في بيتٍ مريح، له زوجة وله أولاد، ما القلق العميق؟ قد تتراجع صحَّته، قد يصاب بمرضٍ مفاجئ، قد يفقد ماله، قد يمرض ابنه، الحياة مشحونة بالمتاعب، أما في الجنَّة ...

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر: 48]

فلا يوجد هرم، لا توجد أمراض، لا يوجد فقر، لا يوجد خصوم، لا يوجد أعداء، لا يوجد موت، كل هذه المتاعب المخيفة غير موجودة في الجنَّة.

اختلاف نظام الدنيا عن نظام الآخرة :

لذلك...

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)

فكلمة جنَّات كل شيء ترونه في الدنيا جميل، إذا كان في الجنَّة ليس بينهما من علاقةٍ إلا الاسم فقط، فالفواكه.. في الدنيا فاكهة، لكن فاكهة الآخرة ليست كفاكهة الدنيا، ليس بينهما من علاقةٍ إلا الاسم.. فيها من الحور العين.. قال بعض الصحابة لزوجته: " اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلَّت إحداهن على الأرض لغلب ضوء وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أن أُضحّي بهن من أجلكِ.. "، كل شيء يوجد في الجنَّة، غير هذا أن الجنَّة نظامها من دون سعي..

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ)

[سورة ق: 35]

أي شيءٍ يخطر في بالك تجده أمامك، هذه الجنَّة..

(لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

من ظلمات الشهوات إلى أنوار الطاعات، من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، من ظلمات البُعد إلى نور القُرب، من ظلمات الدنايا إلى نور الفضائل، فالفضيلة نور...

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

اقتران العمل الصالح بالإيمان بالله :

في أكثر آيات كتاب الله الإيمان يجب أن يقترن بالعمل الصالح، لأنه لا معنى له من دون عمل..

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا)

الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، أنت آمنت بأن الله موجود، ماذا فعلت؟ هو موجود، وأنت لم تفعل شيئاً، هذا اسمه تحصيل حاصل، إن لم تؤمن بوجوده فاتَّهم الناس عقلك، المقصود هو ماذا فعلت من أجل الله؟ ماذا قدَّمت لله من عمل؟ ماذا قدَّمت لآخرتك من إنفاق؟ هذا هو المقصود.

الله عز وجل جعل الدنيا مشحونة بالمتاعب لنعمل للآخرة :

إذاً:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)

رزق الدنيا يأتي، وينقطع، يزيد وينقص، أحياناً الإنسان يكون رزقه وفيراً، لكن صحَّته معلولة لا ينتفع برزقه، أي أن الله عزَّ وجل أراد أن يكون الدنيا مشحونةً بالمتاعب كي نعمل للآخرة، الحقيقة.

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

[سورة يونس: 7]

هؤلاء مغبونون، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، آثروا شيئاً سيمُرُّ عابراً على حياةٍ أبديةٍ مستقرَّة.

النظام الدقيق الذي يحكم النجوم كلَّها هو نفسه يحكم الأرض :

ثم يقول الله عزَّ وجل في نهاية هذه السورة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)

الحقيقة ليس هناك سبع أراض إطلاقاً، لأنه لم يرد في كتاب الله كلِّه، لم ترد الأرض مجموعة، أراضين لا يوجد في القرآن، في كل القرآن الكريم السموات جمع، والأرض مفرد، السموات والأرض، لذلك توهَّم بعضهم أن هناك سبع أراضين، القرآن لم يذكر إلا الأرض مفردةً، لذلك قالوا: هذه لعلَّها زائدة..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ)

أي والأرض مثلهن على نظامٍ واحد، الكواكب تدور حول بعضها، تتجاذب مع بعضها، قد تتعرَّض لنور بعضها، هذه سنَّة الله في خلقه، والأرض مثل الكواكب، أي أن هذه الأرض التي أنت عليها مثل أي كوكب جرمٌ يدور في مسارٍ مغلق حول جرمٍ آخر، يتجاذب معه بقوّةٍ تتناسب مع كتلته ومع مسافته، وهذا الكوكب بعضه منطفئ، وبعضه ملتهب، الملتهب منبع ضوئي، المنطفئ يتلقَّى هذا الضوء بحسب دورته، فهذا النظام الدقيق الذي يحكم النجوم كلَّها هو نفسه يحكم الأرض..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ)

أي خلقها مثل السموات السبع، وبعضهم قال: [من]ليست زائدة، إنها حرف جرٍّ أصلي..

(وَمِنَ الْأَرْضِ)

مثل هذه السموات، وبعضهم فسَّر هذه السبع بأنها سبع طبقاتٍ في الأرض، وبعضهم قال: السبع لا تعني العدد، بل تعني الكثرة، أي كما أن السماء طبقات والأرض كذلك طبقات ؛ القشرة، توجد طبقة بازلتية، ثم الطبقة السائلة المائعة، فلعلَّ هذه الطبقات، لكن هذه الآية سواءً عرفنا تفسيرها الدقيق أو لم نعرف، هذا لا يتعلَّق بالتكليف، فلو أن الإنسان جلس في قبره ليسأله الملكان: من ربُّك؟ ما دينك؟ من نبيّك؟ لو أن إنساناً توفَّاه الله عزَّ وجل، ولا يعرف حقيقة الأرض، أهي سبع أراضين، أم أرضٌ واحدةٌ بسبع طبقات، أو أن هذه الأرض مثل السموات السبع، لا شيء عليه، الشيء الذي تُحاسب عليه هو التكليف، لكن هذه الآيات جعلها الله نماذج دالَّة على عظمته من دون أن تكون مكلَّفاً أن تعرف حقيقتها..

كلَّما تقدَّم العلم كشف جانباً من آيات الله الكونية :

النبي عليه الصلاة والسلام فصَّل كثيراً في الأحكام التشريعية، إلا أنه في الآيات القرآنية المُتَعَلِّقة بالكونيات أحجم عن تفسيرها، لماذا؟ النبي أوتي العلم الكثير، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام فسَّرها وفق ما وصلنا إليه نحن لأنكر عليه من كان معه في عصره، ولو فسَّرها تفسيراً بسيطاً لأنكرنا عليه نحن، هذه الآيات الكونية تُركت لتطور العلم، فكلَّما تقدَّم العلم كشف جانباً من عظمة هذا الكون، فلما ربنا قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

بعضهم فهم أن البحار تتبخَّر، وتعود أمطاراً، ترجع السماء بخار الماء مطراً، وبعضهم قال: هذه الموجات الصادرة عن الأرض ما الذي يرجعها إلى الأرض؟ طبقة اسمها الأثير..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

وبعضهم قال: إن كل كوكبٍ في السماء يدور حول كوكبٍ آخر في مسارٍ مغلق، فلا بدَّ من أن يرجع إلى مكان انطلاقه، هذا تفسير ثانٍ، فالعلم مفتوح، كلَّما تقدَّم العلم كشف جانباً من آيات الله الكونية من دون أن يكون أحد هذه التفاسير صحيحاً مئة في المئة، لأن خلق الله عزَّ وجل معجز، كلَّما تقدَّم العلم كشف جانباً من خلق الله عزَّ وجل.

علَّة خلق السموات والأرض أن نعلم :

الله الذي خلق سبع سموات..

(وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)

أي والأرض خلقها مثلهن، أي مثل السموات السبع بنظامٍ واحد، وحركةٍ واحدة، وجاذبيةٍ واحدة، والتهابٍ واحد، وانطفاءٍ واحد، القوانين التي تسري على السموات السبع تسري على الأرض أيضاً، أو جعل من الأرض أرضاً مثلهن، إذا اعتبرنا [من]حرف جر أصلي ، وجعل من الأرض أرضاً مثل هذه الكواكب العديدة، أو أن من الأرض طبقاتٍ كطبقات السماء.. مثلهن.. هذه المعاني التي يمكن أن تتداول حول هذه الآية، ولعلَّ السبعة لا تعني العدد.. الكم.. تعني الكثرة، العرب تستخدم السبعة ومضاعفاتها للتكثير، لكن الشيء الذي يعنينا..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

علَّة خلق السموات والأرض أن نعلم، وهذه من أخطر الآيات، علَّة خلق السموات والأرض أن نعلم، فهل معقول الله عزَّ وجل يعمل لك وسائل إيضاح فيها مجرَّات؟ معقول، مجرَّة تبعد عنَّا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية من أجل أن تعرف عظمة الله، واتساع ملكه، وقدرته اللامتناهية، وحكمته اللامتناهية، وعلمه اللامتناهي؟ قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

علَّة الخلق العلم، فالذي يعطِّل عقله، أو يستخدمه لغير ما خُلِق له فإنه يهبط عن مستواه الإنساني إلى مستوى آخر لا يليق به.

من يعلم أن الله موجود ويعلم وسيُحاسِب فلابدَّ من أن يستقيم على أمره :

ماذا لنعلم؟ قال:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

سميع، هو يعلم، وهو قادر، هو طبعاً موجود، معنى هذا أنه موجود، يعلم، وقادر، هذه الأسماء الثلاث إذا تحقَّقنا منها استقمنا لأمر الله، لو عرضت على خمسة آلاف مليون إنسان هذه الحادثة: إنسان قوي أصدر تعليمات، ولا تستطيع أن تغيب عن علمه، فمثلاً: إذا كان هناك حاجزاً وطريقاً بين دولتين، وبغير الطريق صعب المسير؛ جبال ووديان، نتوءات ووهاد، لابدَّ من هذا الطريق المعبَّد، ولكن في هذا الطريق حاجزاً لابدَّ من إبراز الموافقة، وهذا الذي على الحاجز لا يتساهل أبداً، أنت إذا علمت أن الله موجود، ويعلم، وسيُحاسِب فلابدَّ من أن تستقيم على أمره، كن أي إنسان، لأنك تفعل هذا مع إنسان،

يقول لك: حاجز، لا يوجد طريق إلا أن تكون على هذا الطريق، وأن تقف أمام هذا الحاجز، ولن يُسْمَح لك بالمغادرة إلا بالموافقة، ماذا تفعل؟ تبحث عن موافقة، مع إنسان قوي لا تغيب عن علمه، ولا تتفلَّت من قدرته، تطيع أمره قسراً، فلعلَّ الله سبحانه وتعالى جعل هذه الآية بهذا المعنى الدقيق..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أن الله موجود..

(وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

العلم قيد :

أخواننا، إنها ثلاث كلمات فقط، الله موجود، ويعلم، وسيُحاسب، تفضل واعص، إنك لا تقدر أبداً، صار هناك قيداً، العلم أيها الأخوة قيد، أحياناً الإنسان يقول له طبيب: هذا الدرج يُتلِف قلبك، وأنت معرَّض إلى أزمة، فتجده من اليوم الثاني يبيع البيت، يكون باذل جهدٍ كبيرٍ بشرائه وتزيينه وتنظيمه، فيبيعه.. كما قال الغزالي: " لو أنَّ طبيباً نهانا عن أكلةٍ نحبُّها لا شكَّ أننا نمتنع، أيكون الطبيب أصدق عندنا من الله؟ إذاً ما أكفرنا، أيكون وعيد الطبيب أشدَّ من وعيد الله؟ إذاً ما أجهلنا".

هذه الآية تكفينا، وكما قال هذا الأعرابي: "كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فَقُهَ الرجل".

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

يعلم كل شيء، وقدير على كل شيء، وموجود، وهو يراقبك فكيف تعصيه؟ المعصية صارت مستحيلة.

من كان عقله راجحاً بادر إلى طاعة الله لينجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة :

أيها الأخوة الكرام، الآيات الأخيرة من سورة الطلاق تفيد أنه إما أن تطيع الله عزَّ وجل، وإما أن يأتي التأديب الإلهي.. مرَّة سألني أخ كريم فقال لي: هل على العسل زكاة؟ قلت: نعم، قال: فإن لم ندفع؟ قلت له: القُرَّاض جاهز.. هذه آفَة تصيب النحل.. الله جعل روادع، وكل معصية وكل أمر إلهي إن لم تفعله فهناك روادع، تمتنع عن إتلاف المال فهناك ألف طريق لإتلاف المال، تمتنع عن غضّ البصر فهناك ألف طريق للشقاء الزوجي، تمتنع عن نصح المسلمين فهناك ألف طريق كي تُغَش، أي إنه موجود، ويعلم، وسيُحاسِب في الدنيا والآخرة، فكلَّما كان عقل الإنسان راجحاً فإنه يبادر إلى طاعة الله لينجو من

عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، والأكمل من ذلك أن تأتيه طائعاً مباشرةً، أن تحبَّه، إن خفت منه فهذا جيد، وإن أحببته فجيد، كلا الحالين جيد، كلا الحالين يفضيان بك إلى الجنَّة، لابدَّ من أن تخافه..

ثلاثة مشاعر يجب أن يشعر بها الإنسان؛ شعور الحُبّ و الخوف والتعظيم :

قال: يا رب أي عبادك أحبُّ إليك حتى أحبَّه بحبِّك؟ قال: أحبُّ عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبَّني، وأحبَّ من أحبَّني، وحبِّبني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أنني أحبُّك، وأحبّ من يحبُّك، فكيف أحبِّبك إلى خلقك؟ قال: ذكِّرهم بآلائي ونعمائي وبلائي ".

ثلاثة مشاعر يجب أن تشعر بها: شعور الحُبّ من خلال النِعَم، شعور الخوف من خلال المصائب، شعور الخوف والحُبّ والتعظيم من خلال الآيات.. ذكِّرهم بآلائي ونعمائي وبلائي.. فالنعماء تُحبِّب، والبلايا تخوّف، والآلاء تُعَظِّم، فالله عزَّ وجل خلق سبع سموات، إذا كان هناك مجرَّة تبعد عنَّا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، إذا كان في عينك مئة وثلاثون مليون عصيّة ومخروط ، وفي بالدماغ مئة وأربعون مليار خليّة لم تُعرَف وظيفتها بعد، هذه الآلاء، أما النعماء؛ فوجودك نعمة، سمعك نعمة، بصرك نعمة، أن تمشي على رجلين نعمة، بيتك نعمة، أهلك نعمة، أولادك نعمة، عقلك نعمة، صحَّتك نعمة، النعم تُحبِّب، وتوجد أمراض خبيثة، وتوجد أمراض وبيلة، وتوجد أمراض عضالة، ويوجد فقر، ويوجد قهر، ويوجد ذل، وتوجد متاعب، فالبلايا تخوّف، والنعم تحبِّب، والآلاء تعظِّم، فلابدَّ من أن يجتمع في قلبك تعظيمٌ لله من خلال آياته، وخوفٌ منه من خلال بلائه، ومحبَّةٌ له من خلال نعمائه.

علة وجود الإنسان أن يعرف الله عز وجل :

أخواننا الكرام، آخر آية من الآيات الأساسية، علَّة وجود الكون أن تعرف الله من خلاله، علَّة وجودك أن تعرف الله وإلا هبطت عن مستوى إنسانيتك، هذه اللام ليست لاماً قالها إنسان، هذه اللام قالها خالق الكون..

(لِتَعْلَمُوا)

أي يا عبادي، خلقتكم لتعرفوني، وإذا عرفتموني أطعتموني، وإن أطعتموني سعدتم بقربي، خلقتكم لتعرفوني فتطيعوني فتسعدوا بقربي.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون)

[سورة الذاريات: 56]

العبادة طاعة أساسها معرفة تنتهي بسعادة، العبادة هي الأساس، المعرفة هي السبب، السعادة هي النتيجة، تعرفه، تطيعه، تسعد به في الدنيا والآخرة، هذه الآية يجب أن نحفظها، وأن تكون في قلوبنا، وفي أذهاننا دائماً وأبداً، مخلوقٌ من أجل أن تعرفه، ثم تطيعه، ثم تسعد بقربه، الله موجود ويعلم وسيُحاسِب.

من يعصي الله مدموغ بالغباء و بالحُمق و بالجهل :

والله الذي لا إله إلا هو، إنسان واحد قوي، عنده إمكان أن يكشف الأخطاء كلَّها، ولم يسامح أحداً، فإنك لا تجد واحداً يعصيه، وهذه المجتمعات أمامك أينما ذهبت، إنسان واحد قوي، عنده وسائل يكشف معصيتك، وسائل.. مثلاً الطريق مراقب..

كنت مرَّة في الخليج، السرعة فوق السرعة المقرَّرة، اثنان وتسعون، خمسمئة درهم، أي سبعة آلاف ليرة، تجد السيارات كلَّها تسير دون الثمانين، لأن واضع القانون وضع جهازاً يكشف السرعات الزائدة، ويسجِّلها، والضريبة بالغة، سبعة آلاف ليرة للمخالفة.. مثلاً.. فإنك تجد طريقًا طويلاً بين دبي ورأس الخيمة، وكل الناس متقيّدون بالسرعة النظامية، ذلك لأن واضع القانون يوجد عنده جهاز يكشف المخالفة، ولا يرحم، وليس هناك إعفاء، حينما تُصوَر السيارة أنها متجاوزة السرعة يجب عليه أن يدفع خمسمئة درهم، لا يوجد شك أبداً، هذا مثل بسيط، إنسان عادي لكنه قوي، وضع أجهزة حديثة لكشف المخالفات، وإنه لن يعفي أحداً، فانتهت العملية، مع إنسان قوي يضبط أخطاءك، ولن يعفيك من العقاب تطيعه أشدَّ الطاعة، والذي وجودك بيده، واستمرار وجودك بيده، وسمعك بيده، وبصرك بيده، وكل إمكاناتك بيده، وهو يعلم السر وأخفى، وبيده كل شيء، وسيُعاقِب، وتوجد عنده جهنَّم، ونعصيه؟..

تعصي الإله وأنت تُظهرُ حبَّهُ ذاك لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعت ه إن المحبَّ لمن يحبَّ يطيعُ

***

أخواننا الكرام، الذي يعصي الله مدموغ بالغباء، مدموغ بالحُمق، مدموغ بالجهل، لأنك تعصي من لا يغفل عنك، وكل أمرك بيده، مالك بيده، صحَّتك بيده، أعداؤك بيده، أصدقاؤك بيده، زوجتك بيده، أولادك بيده، نجاح عملك بيده، كل شيءٍ بيده.

درسنا كان في ثلاث كلمات، الله موجود، ويعلم، وسيُحَاسِب، تفضل واعص، أنت مع إنسان لا تفعل هذا، فكيف مع الواحد الديَّان؟

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التحريم 066 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1 - 4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-01-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة التحريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

1 - ليس في القرآن خطاب للنبي باسم محمد:

النبي كما تعلمون صلى الله عليه وسلّم سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم، وهو حبيب الله وخليله، ما خاطبه الله في القرآن كلّه باسمه مباشرةً كما خاطب بقية الأنبياء، قال:

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

(سورة المائدة: الآية 110)

وقال:

(يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم: الآية 12)

وقال:

(يَا زَكَرِيَّا)

(سورة مريم: الآية 7)

ولم يقل يا محمد، بل إنه قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

وقال:

(يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة: الآية 67)

2 ـ سببُ نزول هذه الآية تحريمُ النبي مارية القبطية على نفسِه:

النبي عليه الصلاة والسلام في أوجه الروايات والتفاسير حرّم على نفسه ماريّة القبطيّة التي أهداها إليه المقوقس حاكم مصر إرضاءً لزوجاته، لأن الضرائر كما تعلمون هنّ الضرائر في كل مكانٍ وفي كل زمان، والمرأة هي المرأة، تسمو إلى أعلى الدرجات، ولكن لا تتخلى عن طبيعتها.. الغَيورة.. الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

وكأن الله عزّ وجل يلخِّص للنبي عليه الصلاة والسلام الزواج بمارية القبطية، ولا ينبغي أن يجعل إرضاء زوجاته ما يحرّم عليه الذي أحلّ الله له..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أي إن منهج الإسلام منهج متوازن ومتكامل، والإسلام يلبي حاجات الجسد كما يلبي حاجات الروح، يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي))

[مسلم]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[متفق عليه]

النبي عليه الصلاة والسلام ابتغاء مرضاة زوجاته حرّم على نفسه ماريّة القبطيّة، فالله سبحانه وتعالى يبيّن له لا ينبغي أن تفعل هذا، الحق حق، والباطل باطل..

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ)

(سورة التحريم: الآية 2)

3 ـ التحلُّل من اليمين: قَدْ فَرَضَ اللّهُ لَكُمْ تَحِلّةَ أَيْمَانِكُمْ

هذه الآية يحتاجها كل إنسان، في أكثر الأحيان يتألّم الإنسان من موضوعٍ ما فيُقسِم يميناً مغلّظةً أن لا يزور فلاناً.. أخته.. أو أن لا يفعل خيراً، أو أن لا يُعطي أمّه... إلخ، الله سبحانه وتعالى رحمةً بنا شرع لنا كفّارة اليمين أو تحلّة اليمين، تحلّة اليمين تكون قبل الحنث باليمين، أما كفّارة اليمين فتكون بعد الحَنث باليمين، الحنث باليمين أن تفعل خلاف القصد، فلو أن الإنسان قال: والله لا أزور أختي، فإما أن يدفع كفّارة اليمين قبل أن يزور أخته، عندئذٍ تسمى هذه الكفّارة تحلّةً، وإما أن يدفع الكفّارة بعد أن يزور أخته، عندئذٍ تسمى التحلّة كفّارةً، فالتحلّة قبل الحنث باليمين، والكفّارة بعد الحنث باليمين، ولكن الشيء الثابت أن الإنسان إذا حلف يميناً، ورأى الخير في الحنث باليمين فعليه أن يحنث بيمينه، وأن يبتغي الخير، وأن يكفِّر عن يمينه.

لا حرج إطلاقاً، الإنسان في ساعة غضب حلف يميناً أن لا يفعل خيراً، أن لا يزور مريضاً، أن لا يمشي في جنازة، أن لا يعود مريضاً، أن لا يساعد إنساناً، واليمين منعقدة، هناك يمينٌ اللغو، وهناك يمين الغموس، وهناك اليمين المنعقدة، اليمين الغموس أن تحلف يميناً لتقتطع بها حقّ امرئٍ مسلم، هذه اليمين لا كفّارة لها، بل هي تُخرِج الإنسان من الدين، وتغمسه في النار، لذلك من حلف يميناً غموساً ليقتطع به حقّ امرئٍ مسلم أمام القاضي فعليه أن يعيد النطق بالشهادتين، لأن هذه اليمين تُخرجه من الإسلام، وتغمسه في النار، والإنسان قبل أن يحلف يميناً غموساً ينبغي أن يَعُدّ للمليون، وفي بعض الآيات الكريمة فرق دقيق بين ألفاظها:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة النحل)

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

قد يأتي ردّ الإله العظيم على اليمين الغموس فوراً، فيُصاب الإنسان بمرض عضال أو بشلل، أو يأتي متأخراً، إذا كان في الإنسان بقية خير.

على كلِ اليمين الغموس أعاذنا الله منه، اخسر أي شيء، وإياك أن تحلف يميناً غموساً، اليمين الغموس لتغطي الماضي، أما الأيْمان الأخرى فللمستقبل، والله لا أفعل هذا، والله لا أزور فلانا، هذه للمستقبل، أما الغموس فللماضي..

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ النَّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ مَصْبُورَةٍ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوّأْ بِوَجْهِهِ مَقْعَدَهُ مِنْ النّارِ))

[أحمد]

التحلل أو الكفارة إذا رأى المسلمُ الخيرَ في غير ما حلف عليه:

اليمين المنعقدة: هي أن تعقد العزم موثقاً بقسم أن لا تفعل هذا الشيء، فإن كان هذا الشيء خيراً فينبغي أن تكفِّر عن يمينك، أو أن تتحلّل من يمينك، وأن تفعل هذا الشيء، هذا حكمٌ شرعي، ينبغي أن تتحلّل من يمينك أو أن تكفِّر عن يمينك، وأن تفعل الشيء الذي تراه صحيحاً، وتراه خَيراً، ولم يكن ربنا جلّ جلاله يريد أن يكون بينك وبين الخير، فلو حلفت بذاته، لو أقسمت يميناً معظّمةً أن لا تفعل خيراً، احنث بيمينك، وكفِّر عنها أو تحلّل منها، وافعل الخير، هذا أساس كبير في أسس الأيمان.

أما إذا اليمين المنعقدة فأيضاً افعل الخير، ولا تلتزم بيمين تحرمك الخير الذي أراده الله لك، لكن العلماء قالوا: حينما تستثني لا تحنث بيمينك، فإذا قلت: إن شاء الله لن أزور أختي، فإن هذه يمين معها استثناء لا يقع به الحَنْث، فأنت تحفّظ دائماً بكلمة إن شاء الله، والله لا أفعل هذا إن شاء الله، ما دام استثنيت بالمشيئة فإن الحنث باليمين لا يقع في هذا الكلام..

(قَدْ فَرَضَ اللّهُ لَكُمْ تَحِلّةَ أَيْمَانِكُمْ)

ورد في بعض الأحاديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا عَنْ النَّبِيِّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ))

وأنا أقول هذه القاعدة: لأن كثرة الأيمان بين الناس علامة ضعف إيمانهم، فأكثر ساعات الغضب تنتهي بيمين تَحْرِم صاحبها الخير، فالله سبحانه وتعالى لا يريد أن يكون اسمه الكريم حجاباً بينك وبين الخير، فافعل الخير دائماً، وكفِّر عن يمينك، أو تحلّل منها..

(قَدْ فَرَضَ اللّهُ لَكُمْ تَحِلّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

4 ـ وَاللّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

من لنا إلا الله ؟ الإنسان دائماً مرجعه هو الله، وقد وصف المؤمن بأنه أوّاب، أي كثير الأوبة، فكلّما زلّت قدمه يؤوب إلى الله، وكلّما غفل عنه يؤوب إلى الله، هذا من شأن العبد أن يقع في التقصير، أو أن يقع في مزلّة الأقدام، وليس له إلا الله ليتوب إليه..

(وَإِذْ أَسَرّ النّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمّا نَبّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللّهُ عَلَيْهِ عَرّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ)

(سورة التحريم: الآية 3)

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا

1 ـ الحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه هو عدم زواجه بمارية:

أي أن المجالس بالأمانة، النبي عليه الصلاة والسلام أسرّ إلى بعض أزواجه عزمه على أن لا يتزوج بمارية القبطية، هي مباشرةً أنبأت به أخواتها.. أزواج النبي عليه الصلاة والسلام..

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ)

2 ـ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ

أخبره الله عن طريق جبريل أنها نبّأت بهذا الحديث..

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ)

أي عاتب بعضهن، وذكر بعض الذي قُلْنَهُ، وأعرض عن بعضه الأخَر، وأعرض عن ذكر بعض بقية الحديث.

لا تحرجوا الناسَ بأخطائهم:

يُستنبط من هذا: إنسان تحرّج أمامك، واجهته بخطئه فتحرّج، فأنت اكتفِ بحدٍ معقول، لا تبالغ، هناك خطأ، واعترف بخطئه، فلا تقل له: هناك خطأ ثانٍ، ما دام قد تراجع، ما دام قد استحى، ما دام قد خجل، ما دام قد اعتذر، فأنت عرّفه ببعض أخطائه، وتجاوز عن بعض أخطائه الأخرى، هذا من خُلُق النبي عليه الصلاة والسلام، وقد قال:

((لا تحمِّروا الوجوه))

[ورد في الأثر]

لا تخجِّل إنسانا، لا تحرج إنسانا، إياك أن تضع إنسانا في زاوية ضيقة، إيَّاك أن تدفع إنسانا إلى أن يكذب، لأن شدّة التضييق تدفع إلى الكذب، هذا من أدب النبي عليه الصلاة والسلام.

كلُّكم يعلم القصة التي تروى عن رسول الله، وقد فسرها المفسرون تفسيراتٍ شتَّى: حينما كان مع أصحابه الكرام، وقد أكلوا لحم جزور، ثم ظهرت رائحةٌ غير طيّبة في المجلس، ثم أراد النبي أن يصلي العصر بأصحابه فقال عليه الصلاة والسلام:

((كل من أكل لحم جزور فليتوضّأ، قالوا: كلّنا أكلنا هذا اللحم، فقال عليه الصلاة والسلام: كلّكم فليتوضّأ))

[ورد في الأثر]

وأراد بهذا التوجيه أن يستر حال هذا الذي انتقض وضوءه، ولم يدر، هذا من أخلاق النبي، فإياك أن تحمِّر الوجوه..

سيدنا يوسف حينما التقى بإخوته، وكان عزيز مصر، وبإمكانه أن يحرجهم، وأن يوبِّخهم، وأن يعنِّفهم، وبإمكانه أن يذكِّرهم بجريمتهم، قال سيدنا يوسف:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ)

(سورة يوسف: الآية 100)

ولم يقل: من الجبّ، والحقيقة أن الجبّ أخطر من السجن، في السجن يكون السجين مضمونةٌ حياته ورزقه، أما الجبّ فهو معرّض للموت، لكن لئلا يذكِّر إخوته بفعلتهم.

إذاً..

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ)

3 - عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ

أي إذا لم يتكلّم الإنسان، لم يواجه الناس بأخطائهم، لم يحرج الناس، ليس معنى هذا أنه لا يعلم، أحياناً التغابي يكون قمّة الذكاء، حتى إن بعضهم قال:

لَيسَ الغَبيُّ بسَيّدٍ في قومِهِ لكِنّ سَيّدَ قومِهِ المُتَغابي

***

التجاهل وعدم السمع.

يُروى عن عالمٍ جليل في هذه البلدة عاش قبل خمسين عاماً تقريباً، وكان قاضياً، جاءته امرأةٌ من أطراف المدينة، وفي أثناء صعودها إلى مكان المحاكمة صدر منها صوتٌ غير طيّب، فاحمرّ وجهها خجلاً وحياءً، وتألّمت أشدّ الألم، فلمّا وصلت إليه قال: ما اسمك يا أختي ؟ قالت: فلانة، فقال: لم أسمع ارفعي صوتك، فقالت: فلانة، قال: لم أسمع، لأن سمعي ضعيف، قالت لأختها: الحمد لله، معنى ذلك أنه لم يسمعنا.. فالإنسان كلّما كان كاملاً يتجنّب إحراج الناس، يتجنّب التدقيق، يتجنب أن تضعهم في زاوية ضيّقة، ويلتمس لهم العذر، ويتعامى عن أخطائهم.

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)

4 ـ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ

فكان الوحي يأتيه بتفاصيل دقيقة جداً، وكانت هذه التفاصيل التي عاشها أصحاب النبي أحد أسباب إيمانهم بالوحي..

الإنباء أحد دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام:

سيدنا عُمَيْر التقى مع صفوان بن أمية، وقال: والله يا صفوان لولا ديون ركبتني، وأطفالٌ صغار أخشى عليهم العنَتَ من بعدي لذهبت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، صفوان استغلّها، وقال: أما أولادك فهم أولادي ما امتدت بهم الحياة، وأما ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت، أنا ذو مالٍ كثير فامض لما أردتَ، عندما عمير بن وهب دخل على النبي مقيّداً بحمّالة سيفه قال عمر: هذا عدو الله جاء يريد شرّاً، قال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يا عمير، ألم تقل لصفوان بن أمية: لولا ديون ركبتني.. إلخ ؟ فوقف، وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحدٌ إلا الله، وأنت رسوله.. فهذا الإنباء أحد أدلّة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، اليهود أرادوا قتله كان عندهم، فأتمروا أن يصعد أحدهم إلى الحائط ويلقي عليه صخرةً، جاءه الوحي وبلّغه ذلك..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: الآية 4)

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا

1 ـ معنى: صَغَتْ

صغت أي مالت، كان عليه الصلاة والسلام يُصغي الإناء للهرّة، أي يميّل الإناء للهرّة، فالإصغاء هو المَيل، والإنسان إذا استمع إلى كلامٍ رائع فإنه يصغي، أي يميل إلى هذا الكلام الرائع فيعطيه أذنه.

2 ـ علامة إصغاء القلب التوبةُ إلى الله:

إذاً: علامة المَيل التوبة، علامة الصدق التوبة، علامة الفهم التوبة، علامة السماع التوبة..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

لو صغنا المعنى صياغة أخرى: تُصغي قلوبكما إلى الحق حينما تتوبا إلى الله، لا تُعَدّ مصغياً للحق، مائلاً إليه معجباً به إلا إذا تُبْتَ إلى الله، وإلا ما تدّعيه من إعجابٍ بهذا الكلام، واهتمامٍ بهذا المضمون، وأنك مشدوهٌ بهذه الخطبة، وأنك مأخوذٌ بهذه القصّة، هذا شيء لا قيمة له، فما لم تطبّق ما سمعت فكل هذا الكلام لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، ولا تكون مصغياً حق الإصغاء، مائلاً حق الميل، معجباً غاية الإعجاب إلا إذا تُبْتَ إلى الله..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

مثلاً: إنسان معه مرض خطير، وله ثقة بإنسان عالم بالطب، وأنبأه عن دواء ناجح ومجرَّب، لمجرَّد أن هذا المريض الذي يعاني من مرضه لا يذهب ليشتري الدواء فوراً فهو لم يصغ إلى الطبيب، أو لم يعبأ بعلمه، أو لا يهتمّ بكلامه، ولا يُسمِّى مصغياً مقدِّراً محترماً إلا إذا اشترى الدواء، فعلامة إصغائه، وعلامة تقديره، وعلامة إكباره، وعلامة إعجابه المبادرة إلى شراء الدواء، أما الإعجاب الجدلي، والمديح الكاذب، والنتيجة أنه لا يشتري الدواء فهذا لا يقدِّم ولا يؤخِّر.

هذه الآية دقيقة جداً:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

الإصغاء الميل، لا تكون مائلاً للحق، لا تكون مُنيباً إلى الحق، لا تكون معجباً بالحق، لا تكون مُكْبراً للحق إلا إذا طبَّقت الحق..

لا سمح الله إنسان مريض، ومرضه خطير، والدواء ناجح ورخيص، وميسور ومبذول، والمتكلِّم عندك صادق، إن لم تبادر إلى شراء الدواء فأنت لم تستمع، ولم تعقل، ولم تقدِّر، قل ما شئت.. فالمِحَكْ التطبيق..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ)

هذه الآية عجيبة جداً.. فالموضوع امرأتان فقط..

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ

فهل هاتان المرأتان الضعيفتان تحتاجان إلى هذا التضافر:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

1 ـ كلُّ إنسانٍ يقف ضد الحق فإن الله وجبريل والمؤمنين جميعهم ضده:

قال بعض العلماء: **" ليس المقصود أن هاتين المرأتين تحتاجان إلى كل هذا، ولكن المقصود أن أيّ إنسانٍ يفكِّر أن يُطفئ نور الله عزّ وجل، أو أن يعارض الحق، أو أن يقف أمام الحق يجب أن يعلم أن الله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة جميعهم ضدّه "**، ولكي تعرف أنه قبل أن تقف أمام الحق معارضاً الطرف الآخر.

أحياناً تقام مناورات في بعض الدول، يقولون لك: الأسطول الفلاني قام بمناورة في الخليج الفلاني، لكي تعلم الجهة الثانية مَن هو الطرف الآخر، ما حجمه.

العِبرة من هذه الآية: أن كل إنسان أراد أن يقف أمام الحق مناهضاً، أراد أن يُبطِل الحق، أراد أن يطعن في أهل الحق، أراد أن يُسَفِّه الحق، أراد أن يقلِّل من شأن الحق يجب أن يعلم سلفاً مَن هو الطرف الآخر..

(فَإِنَّ اللَّهَ)

خالق الأكوان..

(هُوَ مَوْلَاهُ)

طبعاً معه رسول الله..

(وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

مثلاً: إنسان عنده ألف جندي، وعنده مركبتان آليتان، وعنده عشر بنادق، هذا الإنسان مع عشر بنادق والمركبتين الآليتين هل يقدر أن يعلن الحرب على أكبر دولة في العالم ؟ عندنا قنابل تبيد الأرض خمس مرّات، هل هذا ممكن ؟

ما هو القصد في هذه الآية ؟ أن أي إنسان أراد أن يقف أمام الحق مَن هو الطرف الآخر ؟ الطرف الآخر هو خالق الكون، فعندما تريد أن تطعن في الدين، أو أن تطعن في أحقِّية القرآن، أو أن تطعن في النبي عليه الصلاة والسلام، أو أن تسفِّه التشريع، أو أن تقلِّل من قيمة هذا الإنسان يجب أن تعلم أنك تحارب الكون كلّه، تحارب خالق الكون، وتحارب رسول الله، وتحارب جبريل، وتحارب الملائكة جميعاً، فقبل أن تتحرّك خطوةً نحو هذا الموقف اعرف من هو الطرف الآخر، اعرف مَن هو الحق، لذلك أية معركةٍ بين باطلٍ وحق لا تدوم أبداً، لأن الله مع الحق، أية معركةٍ بين حقّين لا تكون، وأية معركةٍ بين باطلين لا تنتهي، وبين حقٍ وباطل لا تطول..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

2 ـ اعلمْ مَن هو الطرف الآخر:

الآن كل الناس تقريباً إذا كان في علاقاتهم خلافات يقولون لك: خصمي لا أقدر عليه، الكلام البسيط خصمي لست كفئًا له، فلان معه، وفلان معه، وفلان معه، وفلان معه، ويده طائلة، وليس لي مصلحة أن أخاصمه، وهذا من باب ما يجري بين الناس دائماً، فإذا كنت مع إنسان قوي تتحاشى أن تقف في وجهه، أيعقل أن تقف في وجه الحق ؟ أيعقل أن تحاول أن تُسَفِّه الدين ؟

الذين سفّهوا الدين أين هم الآن ؟ في مزابل التاريخ، هذا الكيان الذي ناهض الدين سبعين عاماً ما مصيره اليوم ؟ في الأوحال، لا يوجد مجتمع متمزّق، متفكِّك، ضعيف، فقير، فيه كل أنواع الانحرافات، كل أنواع الجرائم كهذا المجتمع الذي ناهض الدين سبعين عاماً، وهذا شيء بديهي.

هذه الآية دقيقة، دائماً فكِّر في الطرف الآخر ؛ مَن تحارب ؟ من تنتقد ؟ من تسفِّه ؟ فيمن تطعن ؟ من تقلل من قيمته ؟ الطرف الثاني هو الحق، الله هو الحق، الله بيده كل شيء..

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)

هذه الآية إن شاء الله تعالى نرجعها إلى الدرس القادم لأنني في الدرس الماضي غَفَلْتُ عن الوقت، وقد أخرّتكم كثيراً، فأنا أعتذر إليكم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التحريم 066 - الدرس (2-5): تفسير الآيتان 4 - 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-01-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة التحريم، ومع الآية الخامسة، وهي قوله تعالى:

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)

(سورة التحريم)

تذكيرٌ بالسابق:

قد ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

1 - معنى الإصغاء:

صغت بمعنى مالت، وميل السمع أي الإصغاء.

2 - من لازم الإصغاء التوبة إلى الله:

والإصغاء عند الله عزّ وجل أي التوبة، فكل إنسانٍ أعطى أذنه للحق، وأظهر استماعا راقياً وأدباً جماً، ولم يطبق الذي سمعه فهو عند الله ليس مصغياً، الإصغاء في نص هذه الآية أي التطبيق.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

أصغى الإناء أي أماله، صغى: أي مالَ.

إن الإنسان حينما يستمع إلى حديث مهم جداً يتحرّك، ويمدُّ عنقه، ويضع يده هكذا، ويقرّب رأسه من المتكلم، هذا هو الإصغاء، فالإصغاء عند الله عزّ وجل أي التطبيق، فلو مارست طقوس الإصغاء، وكنت في أعلى درجات الأدب كمستمع، ولم تعبأ بالذي قيل، ولم تتحرك، ولم تطبق، فأنت عند الله لست مُصغياً، إنما كنتَ لاهياً.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

تعد عند الله مصغياً إن أعقب هذا الإصغاء توبة، ولا نريد أن نقف طويلاً عند خصوصية السبب في الآية، بل نريد عموم المعنى، فالذي يصغي إلى مجلس علم، ويذهب إلى البيت ليقيم الإسلام في البيت، يذهب إلى عمله ليقيم الإسلام في عمله، يقف عند حدود الله ولا يتعدّاها، يعطي ما عليه، يؤدي ما عليه، هذا الذي يتحرّك نحو طاعة الله، يُشَكِّل حياته وفق منهج الله، هذا يعد عند الله مصغياً.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنّ اللّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

3 ـ الله تعالى وجبريل والمؤمنون يقفون جميعا ضد من يقف في وجه الحق:

قد بينت لكم أيضاً في الدرس الماضي، أيعقل أن الله جلّ جلاله خالق الأكوان، ورسوله، وجبريل، وصالح المؤمنين، كل هؤلاء ليقفوا جميعاً أمام امرأةٍ تظاهرتا على رسول الله ؟ المقصود ليس كذلك، المقصود أن أيّ إنسان كائناً من كان أراد أن يقف أمام الحق، أراد أن يقلّل من قيمة الدين، أراد أن يقلّل من قيمة آيةٍ كونية، أراد أن يَطعن ببعض أصحاب رسول الله، أراد أن يطعن بمصداقية الدين، كل إنسان أراد أن يقلّل من شأن الدين، أو أن يقف في خندقٍ معادٍ له، فليعرف يقف أمام مَن ؟ مَن هو الخصم الذي سيخاصمه ؟ الله ورسوله وجبريل وصالح المؤمنين، فعُدّ للمليون قبل أن تفكر أن تعتدي على الدين، أو تعتدي على أفكار الدين بالتسفيه، أو تعتدي على مَن أوكلهم الله عزّ وجل بنقل هذا العلم للناس، أو تعتدي على مقام الأنبياء، أو تعتدي على مقام رسول الله، أو تجترئ على الله ورسوله، قبل أن تتحرك لتنال من الدين عُدّ للمليون، وفكِّر أمام مَن تقف ؟

4 ـ إيّاك أن يكونَ الله خصمَك:

لو أن إنسانًا أعزل من السلاح لا يملك شيئاً، إنسانا مستضعفا يقف أمام أقوى جيش في العالم متعدياً، ثمنه بحركة ينتهي وجوده، فالإنسان قلبه بيد الله، أوعيته بيد الله، أعصابه بيد الله، رزقه بيد الله، سلامة جسمه بيد الله، أجهزته، أعضاءه، أهله، أولاده، مَن حوله، مَن هم أعلى منه، مَن هم أدنى منه، كلهم بيد الله، وتفكِّر أن تعتدي على دين الله ؟ أن تسفه إنساناً يدعو إلى الله عزّ وجل بلا سبب، بلا مبرر، من أجل أن تظهر عليه ؟ فقبل أن تحارب الدين اعرف مَن هو خصمك ؟ خصمك الله:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: الآية 279)

ما قولك في حربٍ بين الله وأحدِ عبيده، هل هناك أمل في المليار واحد أن ينجح العبد ؟

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

آية دقيقة جداً.. أحياناً الإنسان بلا سبب يحب أن يسفه الدعاة، يحب أن يبحث عن النقائص ليزعزع ثقة الناس بالدين، أنا لا أقول: إن الدعاة معصومون، ولكن ليس من صالح الدعوة إلى الله أن تبحث عن العيوب، أن تكون قَنَّاصاً، هذا له تهمة، وهذا له تهمة، وهذا له تهمة، أي أن الدين باطل، وأن الدين ليس له منهج صحيح، سبحان الله ! لا يحلو لأهل الدنيا إلا أن يطعنوا في أهل الدين، يبحثون عن نقائصهم تحت مُكَبّر، يسلِّطون عليهم الأضواء من أجل أن يثبتوا للناس أن الدين باطل، ومنهج غير عملي غير صحيح.

أحياناً تجلس مع إنسان ينتقي من بين ألف قصةٍ قصةً لا تحتمل، أن هذا الرجل الديّن أخلاقه سيئة، يكذب، يحتال على الناس، يتظاهر بالتدين، وهذا الذي لا يصلي فيه الصدق، والأمانة، والاستقامة، إلى هذه الدرجة !!! هو في الحقيقة يطعن في الدين، ولا يطعن في شخص أبداً، يريد أن يثبت لك أن الدين منهج غير صحيح، منهج غير عملي، لا يصلح لهذا الزمان، قبل أن تفكِّر أن تزعزع ثقة الناس بالدين إنْ من خلال انتقاد بعض أفكار الدين، أو انتقاد بعض من يمثلون الدين، أو الطعن بلا سبب في أهل الحق، يجب أن تعلم يا أخي مَن هو خصمك ؟ خصمك الله، ورسوله، وجبريل، وصالح المؤمنين، ليس القصد أبداً أن يقف هؤلاء جميعاً أمام امرأتين ضعيفتين، ولكن القصد أن تعرف مَن هو خصمك.

دائماً الإنسان العاقل قبل أن يفتح نار معركة مع طرف آخر يعلم مَن هو خصمه، هذا من بديهيّات القتال، ولما دعي عليه الصلاة والسلام أن يحارب الكفار في مكة قال: أنتم قليل، أي لا يوجد تناسب إطلاقاً، أما في المدينة فصارت مواجهات، وكان للمسلمين مركز قوة، وأرض، وبلد، وصاروا كُثُرا، فلذلك اعرف مَن هو الطرف الآخر.

إن أردت أن تنال من الدين، وما أكثر الذين ينالون من الدين، حتى الإنسان لو تتبع عورات المؤمنين، تتبع الله عورته حتى يفضحه في عقر بيته، وهناك أشخاص نموذج القنص، همّه الوحيد أن يبحث في عيوب الناس، أن يدقق، أن يتوصّل إلى نقاط ضعفهم، أن يسجّلها، أن يرتبها، أن يبرمجها، كي يملك سلاحاً بيده، وإذا كانت هذه الأمور موجهةً لأشخاصٍ عاديين فالحرب سجال، أما إذا كان هذا الأمرُ موجّهاً لأهل الحق فالله سبحانه وتعالى يدافع عنهم.

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: الآية 257)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

[البخاري]

التعرُّضُ لأهل الحق بالباطل زعزعة لثقة الناس في الدين وأهلِه:

أنا لا أقول: إن الدعاة معصومون.. أبداً.. فالعصمة لرسول الله وحده، لكن هناك أشياء تغتفر، وأشياء ينبغي أن لا ندقق بها، وأشياء وقعت، ولن تقع مرة ثانية، ليس من مصلحة الدعوة أن تزعزع ثقة المسلمين في رجال الدين.

أحياناً يلتقي إنسان مع علماء كثيرين، هناك بعض الأخطاء، لكن هذه نغفلها حفاظاً على مكانة الدين، إذا سُئلنا نبحث عن عذر، التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة، إن كنت تعلم التأويل فلا مانع.

أردت من هذه الوقفة أن الإنسان لا يخاطر بالتعرض لأهل الحق، لا لشيء إلا ليزعزع ثقة الناس بالدين، هذا موقف عِدائي، هذا موقفٌ اسمه عدوانٌ على الدين، فكلما أثبت لنا أن المؤمنين سيئون، والكفار جيدون، ففي النهاية ماذا تريد أن تقول ؟

تسمع أحياناً طوال السهرة طعنا في أهل الحق، تسفيها لآرائهم، لاستقامتهم، لمواعيدهم، لحديثهم، وإخلاصهم، واستشهادا بأهل الباطل، أنا أقول لمثل هذا الإنسان: أنت يا أخي الكريم، ماذا تريد أن تقول؟ قل صراحةً: إنك تريد أن تقول: الدين منهج باطل، والإنسان إذا حدثته نفسه أن يصل إلى هذا المستوى ليعلم مَن هو خصمه ؟

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلْ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ))

[الترمذي، أبو داود]

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[الجامع الصغير عن أنس، وفي سنده ضعف]

يتناقل الناس أحياناً أن فلانا يشرب الخمر، وأنه له مظهرا دينيا، هذا كلام باطل وغير صحيح، وهذا الكلام هدفه أن يوضع منهج الله عزّ وجل في الوحل.

بالمناسبة ورد في الأثر أن:

((قذف محصنة يهدم عمل مائة سنة))

[الطبراني والبزار عن حذيفة، وفي إسناده ضعف]

هناك أشخاص لا يحلو لهم إلا أن يكشفوا أن هؤلاء المحجّبات أكثرهن منحرفات، ثم يثني على هذه السافرة بأنها شريفة، وأنها جادّة، الهدف مدح السافرات وذم المحجّبات، هذا عدوان على الدين، إنك تريد أن تقول: أحكام الدين ليست صحيحة، النموذج الإسلامي غير مقبول، هذا طموح أهل الدنيا، والحقيقة أن التفسير النفسي لهذا الأمر سهل، فحينما يخرج الإنسان عن منهج الله عزّ وجل يختل

توازنه، ويشعر بخلل داخلي، ويتوهَّم أن ترميم الخلل يأتي لا من أن يكون صالحاً، بل في أن يطعن بالصالحين، فلو أن إنسانا في مستوى راقٍ، وإنسان في مستوى أدنى، إذا كانت المسافة الكبيرة بينهما فعندنا حلاّن ؛ أن يصعد هذا الأدنى إلى هذا المستوى، والحل الثاني أن ينزل هذا إلى الأسفل بكلامه طبعاً فيرتاح، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النور)

تمني الشر للمسلمين وقوعٌ في خندق المنافقين:

ما فعل شيئاً، ما تكلم ولا كلمة، ولا حرفا، بل إنما أراد، وتَبَنَّى، أتصدقون أن الله عزّ وجل يعذِّب هؤلاء عذاباً أليماً في الدنيا دون أن يرتكبوا معصية، لأنهم تمنَّوا أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، هذا الكلام دقيق، ليس في الأرض كلها أمٌ تتمنى فضيحة ابنتها، إلا في حالة واحدة أن تكون هذه الفتاة ليست ابنتها، فإذا تمنَّت امرأةٌ فضيحة ابنتها فهناك استنباط دقيق أن هذه الفتاة ليست ابنتها، ولما يتمنى الإنسان أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا معنى ذلك هو ليس مؤمناً، هو مع المنافقين، ولمجرَّد أن تتمنى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا معنى ذلك أنك في خندق المنافقين، لقوله تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

(سورة التوبة: الآية 50)

بالمناسبة إخواننا الكرام، يمكن أن تمتحن إيمانك من شعورك بالراحة والسرور إذا اغتنى أخوك، أو إذا حقق إنجازا في الدنيا، تزوَّج، اشترى منزلا، تسلَّم منصبا، نال شهادة عليا، أخذ دكتوراه، تقول: اشتراها شراء، لا يتحمل، أما المؤمن فيفرح، ويقول لك: صار عندنا خمسة دكاترة، يعد نفسه مع المؤمنين أسرة واحدة، وكيف أن الأب يعمل ويتعب من أجل أولاده، وإذا كان الأب أُمِّيًا وابنه أخذ الدكتوراه هل يغار منه ؟ بالعكس يقول: ابني يحمل الدكتوراه، فالمنافق:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

لمجرد أن تتمنى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فقد وضعت نفسك مع المنافقين، وأنت لا تدري، لذلك هذه السورة القصد منها أن الإنسان حينما يشرد عن الله، وحينما يضيع، وحينما يضل سواء السبيل، فعنده حلاّن ؛ إما أن يرتفع إلى مستوى المسلمين فيتوب إلى الله، ويستدرك ما فاته، وإما أن يطعن في هؤلاء كي يكونوا في مستواه، هذا الحل الثاني حل شيطاني، لذلك هذا معنى قوله تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ)

أي تتعاونا..

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ

إخواننا الكرام، الذي قرأ منكم التاريخ، هل في تاريخ البشرية معركةٌ وقعت بين المؤمنين وغير المؤمنين، ولم يكن النصر إلى جانب المؤمنين ؟ إلهٌ يقول:

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر: الآية 51)

هذا كلام الله، كما قلت من قبل: كل الكتب المؤلّفة ضعها في مكان، وكتاب الله وحده في مكان آخر، والفرق بين كتاب الله وكتب البشر كالمسافة بين الله وبين البشر.

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ

حتى التي اصطفاها الله عزّ وجل لتكون زوجة رسول الله إن أساءت، وإن لم تكن في المستوى المطلوب الله جلّ جلاله يبدّله خيراً منها، فالإنسان كما قال الله عزّ وجل:

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

(سورة محمد)

الله تعالى غنيٌّ عن المخلوقات:

إياك أن تَمُنَّ على الله، إياك أن تظن أنك في موقع لا يستطيع أحدٌ أن يقف فيه، مهما كنت ذا شأن، مهما تكن لك أعمالٌ عظيمة وجليلة حينما تغتر، وحينما تستغني عن الله، وحينما تستعلي، هناك من يحل محلك، فيجب أن تعلم أنك إذا عملت عملاً صالحاً نلت شرفاً، وهذا الدين دينُ الله عزّ وجل، وهذا القرآن كتابه، وهو قادرٌ على أن ينصر دينه وكتابه دون أن يكون لك أي نصيب، لكن أراد الله أن يكسبك شرف نصرة دينه.

قد تجد شخصًا يعمل عملا صالح يقول لك: أنا فعلت، لولاي لما كان هذا، هذا كلام مضحك، هذا كلام فيه شرك، إذا سمح لك الله عزّ وجل أن تعمل عملا صالحا، إذا قَدَّر الله على يدك الخير فهذا فضلٌ من الله عزّ وجل، سمح لك أن تدافع عن دينه، لأن الله عزّ وجل كما قال الله عزّ وجل:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد: الآية 4)

الله عزّ وجل في غزوة الأحزاب انتصر منهم مباشرةً، أرسل عليهم ريحاً قلبت قدورهم، وخربت خيامهم، وأثارت الغبار في عيونهم، فارتحلوا.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب: الآية 25)

إذاً: الله قادر على كل شيء، إن دعاك إلى فعل الخير من أجل أن يكسبك شرف هذا العمل.

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ)

أي إن تظاهرتُنَّ عليه..

(وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ)

فبعض المفسرين قال: يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشةٍ مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، هل يعقل أن تأتي امرأة النبي عليه الصلاة والسلام بفاحشة ؟ الزنا !! قال بعض المفسرين جزاهم الله كل الخير: المرأة التي عند النبي لو أنها أتعبته قليلاً، لو أنها طالبته بما لا يستطيع أن يؤديه لها، كأنها أتت بفاحشة، أي أن المرأة التي اصطفاها الله لتكون امرأة رسول، المفروض أن تكون في خدمته، أن تعينه على الدعوة، فإذا كانت عبئاً عليه كأنها أتت بفاحشة، كيف أن الفاحشة كبيرة جداً، لو أن امرأةً أتعبت النبي عليه الصلاة والسلام حَمَّلته ما لا يطيق، أي ضعضعت ثقة الناس ببيته، قال: هذه المرأة يضاعف لها العذاب ضعفين، لأنها أتت بعملٍ بمنزلة الفاحشة عند بقية النساء.

فإذا قَدَّرك الله عزّ وجل أن تخدم الناس فاخدم الذين يدعون إلى الله، كن عوناً لهم، ولا تكن عبئاً عليهم، وهناك شخص يَحمِل، وشخص يُحمَل، إنسان ينهض معك، يعينك، وإنسان هو عبءٌ عليك يجب أن تحمله، فكن حاملاً.. طبعاً بالمعنى اللغوي.. ولا تكن محمولاً.

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ)

إسقاط على الواقع:

أحياناً هذه الآية نفهمها في واقعنا، أحياناً زوجة إنسان ميسور الحال، أخلاقه عالية، مؤمن، تشعر بقيمتها، تتعنَّت، ترفض أي عمل صالح، فتجده يريد أن يطلقها، وهناك قصص كثيرة، تأخذ موقفا بلا

مبرر، موقفا غير ذكي، غير عاقل، وكأنه لا يمكن أن يعيش من دونها، تُطلّق، وتأتيه امرأةٌ، الوفاء مطلوب، وأحياناً تتجاوز المرأة الحد المعقول، تعتدُّ بشخصيتها، وتفرض آراءها بشكل غير مقبول، عندئذٍ يضطر زوجها إلى أن يستغني عنها.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنّ اللّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4)عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلّقَكُنّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنّ)

ويا أيتها النساء الفاضلات اسمعن صفات المرأة المؤمنة:

(مُسْلِمَاتٍ)

صفات المرأة الربّانية:

1 ـ مسلمات:

أي مستسلماتٍ لأمر الله، أي طائعاتٍ لله، أي مطبقاتٍ لمنهج الله.

(مُؤْمِنَاتٍ)

2 ـ مُؤْمِنَات:

هناك مسلمة لها زوج أجبرها على الحِجاب، وأجبرها على عدم الاختلاط، لكنها في الحقيقة ليست قانعة بذلك، لكن تسايره لمصلحتها.

(مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ)

مسلمةٌ ومؤمنةٌ، فأعظم شيء في المرأة أن تكون دَيِّنَةً عن قناعة لا عن قمع، وهناك امرأة متدينة عن قمع ؛ زوجها صارمٌ في معاملته، أبوها شديد، إخوتها أشداء، فتستقيم، لكن لو أتيح لها لخرجت سافرة، لو أتيح لها لارتادت أماكن اللهو، لو أتيح لها لصاحبت شباباً، لكن بيتها صارمٌ جداً، هذه نقول لها: مسلمة، لكنها غير مؤمنة، والمطلوب مسلمة مؤمنة، تطبق أمر الله عن قناعة لا عن ضغطٍ وإكراه.

(مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ)

3 ـ قَانِتَات:

أي منقطعاتٍ لله، ورد في بعض الأثر النبوي:

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأةٌ تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، فقلت: من هذه يا جبريل ؟ قال: هي امرأةٌ مات زوجها، وترك لها أولاداً، فأبت الزواج من أجلهن))

[ورد في الأثر]

إذا قنتت امرأة لله عزّ وجل، وأحسنت رعاية زوجها وأولادها فلها الجنة، بل لها أرقى مكان في الجنة، بل إنها مجاهدة في سبيل الله.

(تَائِبَاتٍ)

4 ـ تَائِبَات:

معنى ذلك أن ثمة خطأ، والمؤمن مذنب توّاب، أخطأتْ فتابت، وأخطأ فتاب، والتوبة صفة مستمرة في الإنسان، لأن الإنسان خلق ضعيفاً، وإذا أخطأ يتوب رأساً.

(تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ)

5 ـ عَابِدَاتٍ:

أي تُطبّق منهج الله عزّ وجل، وتعلم سر وجودها، وغاية وجودها.

(سَائِحَاتٍ)

6 ـ سَائِحَاتٍ:

بعضهم قال: صائماتٍ، أما الكلام الأوجه: السائحات اللواتي رافقن أزواجهن حينما هاجروا إلى المدينة، هذا في الأصل، أحياناً صحابة كرام لسببٍ شديدٍ جداً من ضغط زوجاتهم لم يهاجروا مع رسول الله، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال: الآية 72)

أما المرأة التي تعين زوجها، أحياناً يضطر أن يسافر فلا تسافر، السفر لمصلحة الأسرة، وهي لا تسافر، السفر في سبيل الله سمّاه الله سياحة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنّ سِيَاحَةَ أمّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّهِ تَعَالَى))

[أبو داود عن أبي أمامة]

السياحة هنا بعيدة جداً عن المفهوم المعاصر، السياحة المعاصرة كلها موبقات، حتى حدث هناك اصطلاح جديد والعياذ بالله بدأ يتداول على الألسنة " السياحة الجنسية "، يسافر لكي يزني، ليرتكب

الموبقات، مفهوم السياحة المعاصر هذا مفهوم بعيد جداً عن هذه السياحة، السياحة هنا الجهاد في سبيل الله، السياحة أن تسافر فراراً بدينك، والسياحة أن تسافر طلباً للعلم، والسياحة أن تسافر طلباً للرزق، فأحياناً تكون المرأة متمكنة إلى جانب أهلها تقتضي مصلحة الأسرة أن تسافر، ولا تُعارض.

(قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)

7 ـ ثَيِّبَات وَأَبْكَارًا:

الثَّيِّب هي التي مات زوجها، إذاً: تثوب إلى بيت أهلها، تعود إلى بيت أهلها، أو طلقها زوجٌ فثابت إلى آخر، عادت إليه، أما البكر على أصل خلقها لم يمسّها بشر، إذاً: مسلمةٌ، مؤمنةٌ، قانتةٌ، تائبةٌ، عابدةٌ، سائحةٌ، ثيبةٌ وبكرٌ، هذه صفات المرأة المسلمة.

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ)

عسى تفيد الاحتمال، لكن لأنه لم يطلقكن معنى ذلك أنهُنَّ.

(خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ)

هذا تهديد، إن لم تكن كذلك طُلقتُن، واستغنى عنكم رسول الله، لأن الله عزّ وجل قال في آية أخرى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

(سورة الأحزاب)

(لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)

خاتمة:

قال بعض العلماء: **" إن الله عزّ وجل تولى بنفسه تطهير أهل بيت النبي**، لماذا ؟ لأن أهل بيت النبي جزءٌ من الدعوة إلى الله، فأنت لا تقنع بعالم أو داعية هو يدعو إلى الله وبيته ليس كذلك، لا تقتنع، ولك سؤال كبير: إن كنت تقول حقاً فلمَ لا تطبقه ؟ إن قلت: لا أستطيع ؟ إذاً:لست أهلاً أن تعظ الناس، وإن قلت: لا أقدر، وهذا شيء فوق طاقتي، معنى ذلك أن مذهبك أو دعوتك غير واقعية، إما أننا نتّهم دعوتك، أو أن نتهمك أنت، إن كان أهل بيت الداعية ليسوا على ما ينبغي، لذلك:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)

تولى الله تطهير أهل بيت النبي لأنه جزءٌ من الدعوة إلى الله، وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه السورة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التحريم 066 - الدرس (3-5): تفسير الآيتان 6 - 7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-02-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث من سورة التحريم، ومع الآية السادسة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

أيها الإخوة الكرام.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا)

1 - قُوا

هذا فعل أمر من وقى، هناك يومٌ آخر، وهناك حسابٌ دقيق، وهناك جزاءٌ، وهناك مصيرٌ ؛ إما إلى جنةٍ يدوم نعيمها أو إلى نارٍ لا ينفد عذابها، فالنار التي ذكرها الله في القرآن الكريم حق، وكل إنسانٍ شرد عن الله، وعصاه، وأوقع الأذى في عباده فلابدّ من أن يدخل النار، فلذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

أي إياكم أن تفعلوا فعلاً يوجب لكم النار.

القضية خطيرة جداً، الإنسان وهو في الدنيا يعيش مع الأفكار وكأنها أفكارٌ ليس غير، لكنه يوم القيامة هذه الأفكار تنقلب إلى حقائق، هذا الذي قرأه في القرآن الكريم يراه واقعاً أمامه، فلذلك علامة الندم بادية على وجوه الذين شردوا عن الله عزّ وجل، الله جلّ جلاله يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

لابد من يوم تُسَوّى فيه الحسابات:

يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بوجودي، يا من آمنتم بوحدانيتي، يا من آمنتم بكمالي، بعدالتي، بربوبيتي، أنتم في حياةٍ دنيا، أنتم في دار ابتلاء، أنتم في دار امتحان، لابدّ من يومٍ آخر، هذا اليوم تسوّى فيه

الحسابات، يؤخذ للمظلوم من الظالم، يؤخذ من القوي للضعيف، يدفع الإنسان ثمن انحرافه، وثمن خطئه، وثمن شروده، وثمن معصيته..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

الحقيقة مركز الثقل في الآية عند كلمة:

(وَأَهْلِيكُمْ)

2- أَهْلِيكُمْ

الأهل الزوجة، والأولاد، ومن يلوذ بك، ومن تنفق عليه، ومن تتولّى أمره، هؤلاء أهلك..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

كيف تقي نفسَك وأهلكَ النارَ ؟

العلماء لهم عند هذه الآية وقفةٌ متأنِّية، قوا أنفسكم بالطاعة، وقوا أهليكم بالنصيحة، بالأمر والنهي، أولادك أهلك، زوجتك أهلك، أخواتك اللواتي في بيتك أهلك، والدتك أهلك، والدك أهلك..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

أنت لا تستطيع أن تكون وصيّاً على الآخرين، لأن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق قال الله تعالى له:

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

(سورة ق: الآية 45)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الزمر)

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة: الآية 272)

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

(سورة الرعد)

ومع ذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمر عشيرته الأقربين، يقول الله عزّ وجل:

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

لابد من الدعوة إلى الله بين الأهل والأقارب:

أنا لا أصدِّق أن مؤمناً أنار الله قلبه، وعرّفه الحقيقة، وكان على بيّنةٍ من أمره، وآتاه الله رحمةً من عنده ثم يسكت، يرى مَن حوله في شرود وهو ساكت، يرى مَن حوله في انحراف وهو ساكت، يرى أقرب الناس إليه يقيم على معصية الله وهو ساكت، يرى زوجته تخرج بطريقةٍ لا ترضي الله وهو ساكت، يرى بناته شارداتٍ عن الله وهو ساكت، يرى أولاده لا يصلّون وهو ساكت، هذا الشيء مستحيل لا يتناسب مع الإيمان إطلاقا، لا يمكن أن يُقبَل من مؤمن أودع الله في قلبه الإيمان، ونوّر قلبه وبصيرته أنه لا يأمر أقرب الناس إليه ؛ زوجته، أولاده، أخواته البنات، إخوته الذكور، والده إذا كان يقبل النصيحة، والدته، هؤلاء أهلك..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

أيها الإخوة الكرام، الإمام مجاهد يقول: **" قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم ".**

ماذا تملك مع أختك إلا أن تنصحها ؟ إلا أن تبيّن لها ؟ إلا أن تقنعها ؟ إلا أن تسمعها الحق ؟ إلا أن ترشدها إلى سواء السبيل ؟ إلا أن تقدِّم لها خدمةً في دنياها من أجل أن تستميل قلبها ؟ هكذا افعلوا مع أخواتكم، ومع إخوتكم، ومع أولادكم، ومع زوجاتكم، ومع آبائكم، ومع أمّهاتكم، هؤلاء الذين هم حولك أوكلك الله بهم، هذا معنى:

((فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ الْعَوَامّ))

فلا يوجد واحد منّا إلا و له أم، له أب، له زوجة، له أخ، له أخت، له ابن أخ، ابن أخت، جار، قريب، صديق، زميل، هؤلاء الذين حولك لا ينبغي أن تنساهم من الهدى الذي أكرمك الله به، كيف كنت شارداً، تائهاً، بعيداً عن الحق، منغمساً في المعاصي والآثام، وجاء رجل، وأحسن الظن بك، ودلّك على الله، وأخذ بيدك إليه، وعاونك على طاعته، زارك مرّةً، وأقنعك مرّةً، وقدّم لك هديةً مرّةً، واستمال قلبك مرّةً، وتلطّف معك مرّةً إلى أن ملت إلى الحق ؟ كيف فُعِل بك افعل مع الآخرين ؟

(كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنّ اللّهُ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: الآية 94)

أيها الإخوة الكرام، الحقيقة أن المؤمن الصادق شُغْلُه الشاغل من يلوذ به ؛ إخوته، أخواته، والإنسان عبد الإحسان..

" يا داود، ذكِّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جُبلت على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها ".

بإمكانك أن تستعبد الأحرار بإحسانك، بإمكانك أن تستعبدهم، بمعنى أن تجعلهم يميلون إليك، بإحسانك، لماذا أنت مكتوف اليدين ؟ ماذا تنتظر ؟ زوجتك أحسن إليها بالكلمة الطيّبة، والحركة الطيّبة، والإيناس، والتلطّف، أولادك إن رأوك حريصاً عليهم، على مستقبلهم، على مكانتهم، على عملهم، على دنياهم، على زواجهم، على استقرارهم يميلون إليك، و لن تستطيع أن تهدي الناس وأنت قاس، لن تستطيع أن تهدي الناس وأنت عليهم.. كما يقولون: جبّار، لن تستطيع أن تهديهم إلا إذا فتحت قلوبهم، لذلك الإحسان قبل البيان، والقدوة قبل الدعوة، والأصول قبل الفروع، والتربية لا التعرية، هذا كلّها من مبادئ الدعوة إلى الله.

أيها الإخوة الكرام، صَدِّقوا والله شهيدٌ على ما أقول: ما من عملٍ أعظم بعد أن تؤمن بالله عزّ وجل من الدعوة إليه، ما من عملٍ أعظم بعد أن شرّف الله قلبك بالهدى، وملأ قلبك إيماناً ونوراً، وعرّفك بذاته وبمنهجه، ما من عملٍ أعظم من أن تشكر الله بهداية خلقه إليه، كيف أن الله سبحانه وتعالى حَلُم عليك، وانتظرك، وأرسل لك من يبلِّغك، ومن يهديك، ومن يبين لك، واستجبت مرّةً، ولم تستجب مرّةً، قصّرت وتَعَسَّرت، قمت وقعدت، والله سبحانه وتعالى حليمٌ عليك ؟ كيف عاملك الله عزّ وجل ؟ أنت مكلّفٌ أن تعامل عباده الشاردين كما عاملك يوم كنت شارداً، من هم أقرب الناس إليك ؟ أهلك، وأولادك، أيعقل أن يظهر خيرك في الآخرين، وأقرب الناس إليك محرومٌ من هذا الخير ؟!!

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

أنا لا أتصوّر مؤمنًا قد هداه الله وحده وهو يهمل أولاده، وزوجته، وأصدقاءه، بل إن إخوةً كثيرين جزاهم الله عنّا خيراً، أصحابهم في الجاهلية يأخذون بيدهم واحداً واحدا إلى طريق الحق، زملاءهم في العمل، جيرانهم، أصدقاءهم، كلّما ازداد الإيمان في قلبك توَسّعت دائرة نشاطك، فمن زوجتك وأولادك إلى إخوتك وأخواتك، إلى عمّاتك وخالاتك، إلى أولاد عمّك وبنات عمّك، إلى جيرانك، إلى زملائك، إلى أصدقائك، إلى الأصدقاء السابقين، هؤلاء كما منّ الله عليك بالهدى، كما أنعم الله عليك بنعمة الهدى، كما نوّر الله قلبك بالهدى، كما عرّفك بذاته وبمنهجه، كما حملك على طاعته، كما عرّفك بأهل الحق، لماذا أنت مكتوف اليدين ؟ ماذا تنتظر ؟ تحرّك، قم بزيارةٍ لهذا الصديق، أسمعه الحق، اذكر له ما سمعت في درسٍ معيّن، اذكر له ملخّص خطبةٍ سمعتها، أعطه شريطًا، تفقّده من حينٍ إلى آخر، جاء العيد قدِّم له هدية، جاءه مولود بارك له بهذا المولود، قدِّم له هديةً لتستميل قلبه شيئاً فشيئاً، فإذا أنعم الله عليك بأن جعل هداه على يديك فهذه أعظم تجارةٍ على الإطلاق، ماذا أقول لكم والنبي عليه الصلاة والسلام يقول لعلي رضي الله عنه:

((فَوَ اللّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[متفق عليه]

((خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس))

((خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

إن أيّ عطاءٍ تأخذه من الله في الدنيا ينتهي عند الموت، لو كنت أغنى أغنياء الأرض، لو سكنت في أجمل بيتٍ في الأرض، لو كانت عندك أجمل زوجةٍ على الإطلاق، لو أنك ارتقيت إلى أعلى منصبٍ في الأرض، يأتي الموت فيأخذ كل هذا منك في ثانيةٍ واحدة، أما العمل الذي عملته لهداية الخلق فهذا الذي يُرافقك إلى أبد الآبدين، هذا الذي تسعد به يوم الدين، هذا الذي ترقى به عند رب العالمين، هذا الذي يرفعك إلى أعلى عليّين، لذلك المؤمن الصادق شغله الشاغل هداية من حوله، فمن أقرب الناس إليه ؟ زوجته، أولاده، إخوته وأخواته، عمّاته وخالاته، جيرانه وأصدقاءه، زملاءه، كلمة طيّبة، كلمة مؤنسة، زيارة خالصة لوجه الله، حديث طيّب، تفسير آية، تفسير حديث، شريط، افعل شيئاً، تحرّك، اخرج من ذاتك..

ذكرت من قبل أن الإنسان حينما يتيه عن منهج ربه ينتمي إلى ذاته فقط، لا يعنيه إلا أمر نفسه، لا تعنيه إلا ذاته، لا يعنيه إلا بيته، هذا يعيش لذاته، هذا ليس له عند الله أدنى قيمة، لأنه شرد عن منهج الله، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة المائدة)

حينما ترى أن بضعة أشخاصٍ اصطلحوا مع الله على يديك، وتابوا إلى الله بجهدٍ منك، وأقاموا أمر الله في بيوتهم بتوجيهٍ منك، واستطاعوا أن يستقيموا كما تريد، وأن يلتفتوا إلى الله كما تتمنّى، ما شعورك وأنت قد رددت خلق الله إلى الله ؟

الأب الذي له ولدٌ شاردٌ عنه، إذا جاءه رجل صديق فعثر على ابنه شارداً، فعلّمه وهذّبه، وأقنعه بوالده، وأطعمه وسقاه، وردّه إلى أبيه، ماذا يقول الأبُ لهذا الصديق ؟ يقول له: فعلت معي معروفاً لا أنساه حتى الموت، الله يُحبُّ خلقه جميعاً، هو الذي خلقك، محبّتنا كلّها مُسْتَقاةٌ من محبة الله لعباده، هو خلقهم، هو أرحم بهم من أنفسهم.

حينما تتبرّع أيها الأخُ الكريم فتأخذ بيد إنسانٍ إلى طريق الحق، تُقنِعه بأن يستقيم على أمر الله، تدلّه على الله، تُعينه على الإقبال على الله، تبيّن له طريق الجنّة والسعادة فالله سبحانه وتعالى سيشكرك، وإذا شكرك الله فحدّث ولا حرج، خالق الكون يَشْكُرك على عملك، خالق الكون قدّمت له عبداً تائهاً فصار مطيعاً منيباً إليه..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

أنا وسّعت الدائرة قليلاً، الآية هي:

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

أقرب الناس إليك أهلك الذين هم في بيتك، أولادك، بناتك.

أيها الإخوة، من يصدِّق أن معظم البيوت فيها بنات، البيت الذي فيه بنتٌ واحدة يمكن أن تكون ضمانةً لدخول الجنّة لأبويها..

عَن عُقْبَةَ بْن عَامِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنّ، وَأَطْعَمَهُنّ، وَسَقَاهُنّ، وَكَسَاهُنّ مِنْ جِدَتِهِ كُنّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النّار يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أحمد]

البيت موضع لأعمال صالحة كثيرة:

بنت واحدة ألا تستطيع أن تستميل قلبها ؟ ألا تستطيع أن تقدِّم لها شيئاً يسرّها ؟ ألا تستطيع أن تحملها على طاعة الله ؟ ألا تستطيع أن تأمرها بالصلاة ؟ ألا تستطيع أن تُحَجِّبها ؟ ألا تستطيع أن تعلِّمها أحكام دينها ؟ ألا تستطيع أن تكون ليّناً معها ؟ أن تميل إليك، وأن تميل إلى اتجاهك وإلى سلوكك !! بنتك الوحيدة في البيت يمكن أن تكون طريقاً إلى الجنة، أبواك اللذان هم في البيت ببرّهما يمكن أن تكسب الجنة بسببهما.

أيها الإخوة الكرام، هذه آيةٌ دقيقةٌ جداً، يخاطبنا ربنا عزّ وجل فيقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

أنت مكلّفٌ أن تهديهم إلى الله، مكلّفٌ أن تحببهم بالله عزّ وجل، ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((يا رب، أيّ عبادك أحبُّ إليك حتى أحبّه بحبّك ؟ قال: أحبّ عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبّني، وأحبّ من أحبّني، وحبّبني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أني أحبُّك، وأحبُّ من يحبّك، فكيف أحبّبك إلى خلقك ؟ قال: ذكّرهم بآلائي ونَعْمائي وبلائي))

ادخل إلى بيتك تجد هناك آلاف الأعمال الصالحة ؛ أولادك، بناتك، الكلمة الطيّبة، الكلمة المؤنسة، الابتسامة، الهدية، الشيء الذي يفرحهم إن فعلته استملت قلوبَهم، ودللتهم على الله، أهلك زادك إلى الجنة، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((خير كسب الرجل ولده))

[الجامع الصغير عن أبي بردة]

أهلُ الرجل قرةُ عينه:

على الإطلاق خير كسب الرجل ولده، بل إن هداية الأهل لها جزاءٌ معجّلٌ في الدنيا قبل الآخرة، فما جزاؤها في الدنيا ؟ أن يكون الأولاد قرّة عينٍ لآبائهم، والآباء يعلمون هذه الحقيقة، فشعور الأب حينما يرى ابنه يُصَلِّي، ويغضّ بصره، ويتكلّم الحق، شعور الأب وهو يرى زوجته تصلّي مثله، وتحبّ الله مثله، وترعى حقوق دينها مثله، حينما يرى الزوج زوجته حريصةً على صلاتها وصيامها وزكاتها وطاعتها لله عزّ وجل، وهي تعينه على أمر دينه فإن قلبه يمتلئُ سكينةً لا توصف، وهذا ما ذكرته الآية الكريمة:

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)

(سورة الفرقان)

حينما تصل إلى الدار الآخرة تُسأل: ماذا فعلت بأولادك ؟ جعلك الله قيماً عليهم، جعل الإنفاق عليهم بيدك، جعل أمرهم إليك، جعلهم أبناءك فماذا فعلت بهم ؟ هل قصّرت في حقّهم ؟

لابد من رعاية تامة ومراقبة صارمة للبيت:

أيها الإخوة، أنا أدعوكم لتكون بيوتكم جنّةً بتوجيه أولادكم، أما إذا كان في البيت ملهيات فإنهم لا يرونك إطلاقاً، فمن أنت ؟ يتابعون هذا المُسَلسَل، كن أنت مَحَطّ أنظارهم، كن أنت الموجّه لهم، اجعل بيتك بيتاً فيه القرآن يُتلى، اجعل بيتك بيتاً فيه الصلوات تؤدّى، اجعل بيتك مسجداً، ولا تجعله ملهى، وهذا باختيارك أنت، فإذا قلت: هكذا الأمر، فماذا نفعل ؟ هذا لا يُقبل عند الله عزّ وجل..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

أجمل قول في هذه الآية قول الإمام مجاهد: **" قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيّتكم ".**

ينبغي أنى لا تسكت، ينبغي أن تتكلّم، ينبغي أن تأمر، وأن تنهى، ينبغي أن تتغاضب أحياناً، ينبغي أن تغضب، ينبغي أن يَرَوْكَ ليناً في أمر الدنيا شديداً في أمر الآخرة، ليناً جداً في أمر الدنيا شديداً جداً في أمر الآخرة، لكن بعض الآباء بالعكس، هم أشدّاء جداً في أمر الدنيا، ليّنون جداً في أمر الآخرة، إذا انتهكت حرمات الله عزّ وجل لا يبالون، لا يدقِّقون، تخرج ابنته إلى الشرفة بثيابٍ فاضحة فلا يتكلّم ولا كلمة، أما إذا كُسِرَ طبقٌ من الصحون تقوم الدنيا ولا تقعد، لن تستطيع أن تربيهم إلا إذا كنت عكس ذلك، ليناً متسامحاً في أمور الدنيا، شديداً شدّةً كبيرةً في أمور الآخرة، إذاً: **" قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيّتكم ".**

كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[متفق عليه عن ابن عمر]

أسوق هذه الكلمة للآباء: إنّ فساد الزمان لا يُعفي الآباء من المسؤولية، أنت تقول: الزمان فاسد ماذا أفعل ؟ أنت مسؤولٌ عن أولادك شئت أم أبيت، في أي ظرفٍ، وفي أي عصرٍ، وفي أي مصرٍ، وفي أي بيئةٍ، أنت مسؤول، بإمكانك أن تفعل المستحيل لو أردت، لذلك:

((يَقُولُ كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

هناك نمط جديد، الأب في المسجد وفي الصف الأول، وابنته تنطلق سافرةً بأبهى زينةٍ، وهو لا يتكلّم كلمة، لو سألته ماذا يقول ؟ يقول: والله نصحتها ولم تنتصح، انتهى أمرك ؟ نصحتها مرّةً، ثم سكتت، وانتهى الأمر ؟ أليس هناك أساليب كثيرة ومحاولات متكرّرة ؟ تضييق أحياناً، ترغيب أحياناً، أن تكون معها دائماً، أن تقنعها كثيراً، الإمام الحسن يقول:

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

من معاني: قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

" يأمرهم وينهاهم ".

وقال بعض العلماء: **" قوا أنفسكم دخل فيه الأولاد، لأن الولد بعضٌ من الإنسان، وجزءٌ منه "**، فالزوجة أهل، والأولاد في الدرجة الأولى، الزوجة والأولاد في الدرجة الأولى، ثم الإخوة والأخوات، ثم الأب والأم، ثم العمّات والخالات، ثم الجيران، ثم الأقارب، ثم الأصدقاء، ثم الزملاء، هؤلاء الذين هم حولك، وقد نوّرك الله بالهدى، هؤلاء الذين تتعامل معهم كل يوم، هؤلاء الذين تلتقي بهم، هؤلاء الذين مكّنك الله من أن تكون مشرفاً عليهم، هؤلاء الذين أناط الله أمرهم إليك، هؤلاء من أهلك.

الآية الكريمة:

(وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ)

(سورة النور)

بيوت أولادكم سمّاها الله بيوتكم، فلأن تكون أنت مكلّفًا بهداية الابن من باب أولى، لك أن تأكل من طعامه من دون إذنه، فكيف بهدايته إلى الله عزّ وجل ؟ ما معنى:

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

قال: يُعَلِّمه الحلال والحرام، ويجنِّبه المعاصي والآثام إلى غير ذلك من الأحكام، وقال عليه الصلاة والسلام:

((حق الولد على الوالد أن يُحسِن اسمه، وأن يعلِّمه الكتابة، وأن يزوّجه إذا بلغ))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة، وفي سنده ضعف]

هذا من حق الولد على الوالد، هؤلاء الآباء الذين يقولون: أنا كنت عِصامياً يا بني، ولتكن أنت كذلك، قد يأتي زمانٌ هذا الكلام لا يصح فيه، لا يستطيع الابن الآن أن يكون عصامياً لأن الحياة معقدةٌ جداً، لا يستطيع أن يبني ذاته بذاته من دون دعمٍ خارجي، فإن زلّت قدمه وانحرفت أخلاقه فالأب مسؤولٌ عنه، وكل أبٍ وأنا أعني ما أقول: كل أبٍ إذا كان بإمكانه أن يزوّج ابنه، وأن يُحَصِّنه ولم يفعل، وزلّت قدم الابن فالأب مسؤولٌ عن زلّة ابنه، إلى درجة أنه يوم القيامة قد يقول الابن لأبيه، أو قد يقول البنت لأبيها: **" يا رب لا أدخل النار حتى أدخِل أبي قبلي ".**

حصِّنوا أولادكم بالزواج:

أيها الإخوة، بعض الآيات التي قد يَحارُ فيها الإنسان:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

(سورة النور: الآية 33)

بربكم أيعقل أن تجدوا في الأرض كلّها مؤمناً واحداً يجبر ابنته على الزنا من أجل أن يكسب منها ؟ أنا لا أُصدِّق أن يوجد في الأرض كلّها، في شتّى بِقاعها، في كل قارّاتها مؤمنٌ واحد يجبر ابنته على الزنا من أجل أن يكسب منها مالاً، فما معنى الآية، والآية موجّهةٌ للمؤمنين ؟

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)

إذا جاء خاطب فلا تضع العراقيل أمامه، لا تبحث عن إنسانٍ يسدّ حاجاتك، يحلّ مشكلاتك، ابحث عن إنسانٍ كُفء لابنتك، وانتهى الأمر، هذه نقطة دقيقة جداً، إنك إن رددت الخاطبين بلا سببٍ وجيه فكأنك قوّيت فيها الشهوة، فإن زلّت قدمها فأنت المسؤول، أنت لا ترضى ولا ترغب، ولا يعقل أن تفكِّر في هذا الاتجاه، ولكن تعنُّتك وإعضال ابنتك، ووضع العراقيل أمام خُطّابها من أجل أن تصل إلى مستوىً يدغدغ طموحك فإن هذا وحده ربّما كان إكراهاً لابنتك على الانحراف، وأنا أعرف إنساناً كلّما جاء خاطب بحث عن أحسن، إلى أن هربت ابنته مع صديق، وتزوّجها كرهاً وقهراً عن أبيها، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)

أي إن وضعتم العراقيل، وضعتم الشروط التعجيزية أمام خطّاب بناتكم فربّما أدّى ذلك إلى أن ينحرفن، وأن تزل أقدامهن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((حق الولد على الوالد أن يُحسِن اسمه، ويعلّمه الكتابة، ويزوجه إذا بلغ))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة، وفي سنده ضعف]

حينما تزوجه تحصِّنه، ومن تزوج فقد ملك نصف دينه، فليتق الله في النصف الآخر، لذلك أي أب بإمكانه أن يزوج أولاده ولا يفعل فهو عند الله آثم.

وأقول لكم كلمة أخرى، واسمحوا لي أن أقولها: أيّ أبٍ إذا وَهَبَ لابنته بيتاً صغيراً يأتيه أفضل خاطبٌ لها، إذا كان زواج ابنته متوقفاً على أن يؤمِّن لها بيتاً يختار من بين الخطّاب ما يشاء، البيت مشكلة كبيرة جداً، فأن تهب لها بيتاً في حياتك، وأن يكون هذا البيت سبباً في زواجها فإن هذا عملٌ طيّبٌ جداً، والعبرة أن لا تغادر الدنيا إلا وقد قرّت عينك بأولادك ذكوراً وإناثاً، وحينما تزوج ابنك قطعت عليه تسعة أعشار طريق الانحراف.. **" من تزوج فقد ملك نصف دينه فليتقي الله في النصف الآخر "**.. هذا تعلقي على قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وليزوجه إذا بلغ))

أنا الآن أقول لكم: أنا من أنصار الزواج المُبَكِّر، لأن وضع العالم فسادٌ عريض، نساءٌ كاسياتٌ عاريات، مائلاتٌ مميلات.. فلابدَّ من أن تحصِّنوا شبابكم بالزواج، لابدَّ من أن نفكِّر تفكيراً جمعياً بتأمين بيتٍ صغير، غرفةٍ ومنافعها، يجب أن نفكِّر تفكيرا جديا في تأمين البيوت للشباب، أنا والله كلّما أرى أباً باع بيتاً في دمشق، وسكن هو وأولاده خارج دمشق من أجل أن يزوّجَهُم، أنا أراه بطلاً، أعرف أناساً كثيرين يسكن في أرقى أحياء دمشق، باع بيته واشترى أربعة بيوت بثمن بيته، وزوّج أولاده، هذا عند الله بطل، لأنه أحصنهم جميعاً، هؤلاء الأولاد حينما يرون أباهم حريصاً هذا الحرص يحترمونه احتراماً لا حدود له، أما إذا تنعّم الأبُ بيتٍ واسع، وأكل أطيّب الطعام، وشرب أطيّب الشراب، وارتدى أجمل الثياب، وأولاده يحتاجون إلى غرفة يتزوجون فيها، ولا يعنيه أمرهم فهؤلاء الأبناء يتمنون موت أبيهم، إذا جاء الطبيب إليه، وقال لهم: قضيته بسيطة جداً عرضية، فإنهم يتألّمون ويقولون: ليتها كانت غير عرضية..

(يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ)

(سورة الحاقة)

لذلك إن أردت أن يحبك أولادك، وأن يتمنّوا بقاءك فوقهم فكن محسناً إليهم، هذه مسؤولية الآباء.. أقول لكم هذه الكلمة أيها الإخوة: لو لم يكن لك من عملٍ على الإطلاق إلا أنك ربّيت أولادك، وحصّنتهم بالزواج، والله الذي لا إله إلا هو هذا العمل وحده كافٍ لدخولك الجنّة، ليس لك عملٌ آخر إلا أن أولادك ذكوراً وإناثاً رَبّيتهم، وعرّفتهم بربهم، وحصّنتهم بالزواج، ثم غادرت الدنيا، فإن هذا العمل ليس له جزاءٌ إلا الجنة.. انتبهوا.. إن دخلت البيت فهناك ألف طريقٍ يوصلك إلى الله وأنت في بيتك، قبل أن تخرج إلى السوق وأنت في البيت، الإنسان جنّته بيته، وأهله أولاده وزوجته، فإذا كان حريصاً على دينهم، على استقامتهم، على صلاتهم، على تفقيههم أمر دينهم، على تعليمهم القرآن، على حملهم على طاعة الواحد الديّان، إذا كان كذلك فالطريق إلى الله سالك.

تربية الأولاد على الدين:

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ))

[الترمذي عن عمرو بن سعيد بن العاص، وهو مرسَل]

هذا كلّه ينطوي تحت قوله تعالى:

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

أي آن الأوان أن تخرج من ذاتك إلى خدمة الخَلق، ومن أقرب الناس إليك ؟ أهلك الذين في البيت، أقول لكم هذه الكلمة: الآخرون أنت لهم وغيرك لهم، أما أهلك وأولادك فمن لهم غيرك ؟ الآخرون أنت لهم وغيرُك لهم، فإن لم تتقدّم أنت تقدّم غيرك، إن لم تعاون أنت عاوَن غيرك، أما هؤلاء الذين في البيت فمن لهم غيرك ؟ من يعرفهم إلا أنت ؟..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

لا يُقبَل منك أن تنجو بنفسك من النار، وهذا ليس من الوفاء أن تعاشر امرأةً أربعين عاماً، قد اهتديت إلى الله، وأدّيت الصلوات الخمس، وأقبلت على الله، ولم تبال بدينها، لا تصلي، أيعقل أن تراها لا تصلي وأنت ساكت ؟ أيعقل أن تراها متبذّلةً وأنت ساكت ؟ أيعقل أنها تُقيمُ على معصيةٍ أمامك وأنت ساكت ؟ أهذا وفاءٌ مع زوجتك ؟ هذه التي عاشت معك أربعين عاماً تدعها إلى النار ؟ لذلك الأمر الإلهي:

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

نريد بيوتا مسلمة، أنا أقول لك هذه الكلمة: أنت في دائرتين ملِكٌ فيهما ؛ بيتك وعملك، لو أن كل مسلمٍ أقام الإسلام في بيته وفي عمله لكنّا في حالٍ غير هذا الحال، بيتك وعملك أقم فيهما الإسلام، وتنتهي

مهمتك، ولست مكلّفاً أكثر من ذلك، هؤلاء الذين جعلهم الله تحت يدك، وتحت توجيهك، هؤلاء الذين أناطهم الله بك، وجعل إنفاقهم عليك، هؤلاء الذين أهلك وخاصّتك..

((فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ الْعَوَامّ))

ورد في الحديث الشريف:

((حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ الْعَوَامّ))

[الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني]

من هم خاصّة نفسك ؟ أهلك وأولادك، وإخوتك وأخواتك، وأبوك وأمك، وعمّاتك وخالاتك، وجيرانك وأقرباؤك، وأصدقاؤك وزملاؤك، هؤلاء خاصّة نفسك، لذلك الدعوة إلى الله فرض عين على من ؟ فرض عينٍ على كل مسلم من دون استثناء، الدليل:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ)

(سورة العصر)

التواصي بالحق أحد أركان النجاة، لا تنجو من الخسارة المحقّقة إلا بالتواصي بالحق، إنك إن تواصيت بالحق وَسَّعْتَ دوائر الحق، وضَيَّقْتَ دوائر الباطل، أما إذا سكتت نما الباطل، وضيّق على الحق. شيءٌ آخر.

(هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتّبَعَنِي)

(سورة يوسف: الآية 108)

إن كنت متبعاً لرسول الله فإنك تدعوا إلى الله على بصيرة، الدعوة المتاحة الآن لك خاصّة نفسك.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

[أبو داود] يا الله، هذا كلامٌ مختصرٌ مفيد..

((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

وفي حديثٍ آخر عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الرّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مُرُوا الصّبِيّ بِالصّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ، وَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا))

لذلك:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتّقْوَى)

البيت بين نسمات الرزق والرحمة وأخطبوط الخيانات والفتن:

ما علاقة الأمر بالصلاة والرزق ؟ العلماء استنبطوا أن البيت الذي يُصلي أهله مرزوق، وأن البيت الذي يؤْمَر أهله بالصلاة مرزوق، وأن البيت الذي تقام فيه شعائر الدين مرزوق، وأن البيت تكون فيه الأعمال الصالحة مرزوق، وأن الأب إذا انشغل بالأمر بالصلاة لأولاده فإن الله يتكفّل له برزقه، هذه بشارة:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ)

والله سمعت عن أسرة نرجو الله أن نكون مثلها، يستيقظون قبل الفجر جميعاً يصلون قيام الليل، ثم يؤذِّن الفجر فيصلون الفجر جماعةً، ثم لهم أورادٌ يذكرون الله فيها، وبعدها ينطلق كلٌ إلى عمله، البيت ينتهي الساعة السابعة تنظيفاً وترتيباً، الطعام يُعَد الساعة السابعة والنصف ينطلق كل أفراد الأسرة.. طبعاً الذكور.. إلى أعمالهم، وقد أدوا ما عليهم من قيام الليل، ومن صلاة الفجر، ومن الذكر، ومن الأعمال الطيّبة، مثل هذا البيت ماذا تتوقّع أن يكون فيه ؟ جنّة، بيتٌ تؤدّى فيه الصلوات، أما إلى الساعة الثانية مسلسلات، فهذا صار شيئا آخر، ودخلنا في عالمٍ آخر..

قال لي مرّة أحدهم: هناك مسلسل واحد فيه ثلاثة عشر خيانة زوجية، ماذا يتعلّم الناس من هذه المسلسلات ؟ الخيانات، الانحراف، الاختلاط، التبدُّل، لذلك البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن، ولا تؤدّى فيه الصلوات هذا بيتٌ خرب، هذا بيتٌ عشعش فيه الشيطان، لذلك بلا سبب مبرر ترى مشكلات في البيت لا تنتهي ؛ خصومات، تصرُّفات قاسية جداً، دائماً المشاحنات، البغضاء، الخصومة، لأتفه سبب تُطلّق المرأة، لأتفه سبب تُضرَب المرأة، الزوج في واد، والزوجة في واد، والأولاد في واد، هذا بيتٌ يسكنه الشيطان، لا تؤدّى فيه الصلوات، لا يُتلى فيه القرآن، اجعل بيتك مسجداً، اقرأ القرآن، أذكر الله عزّ وجل..

أنا أذكر أنّ بعض الإخوة المؤمنين يأتون إلى بيوتهم كما يقولون: دخولهم إلى البيت عيد، والتفاف أولادهم حولهم عيد، والوفاق الذي بينهم وبين زوجاتهم عيد، هذا هو العيد، أن تسعد بأهلك، أنا أركِّز على هذا..

آية اليوم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

معنى: وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

لها معانٍ كثيرة..

أن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله.. في الجاهلية يوم جاء النبي عليه الصلاة والسلام بالإسلام فرأى قومه يعكفون على أصنامٍ لهم.. قال:

((هذه النار وقودها الناس والحجارة، هذه الأصنام في النار))

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

(سورة الأنبياء)

أراد الله جلَّ جلاله أن يبيّن لنا شدّة النار، كلكم يعلم أن الأفران كلّها تُصنَع من حجر أسود، أرض الفرن حجر أسود، فما قولك بهذا الحجر إذا ذاب من شدّة الحر ؟ إذاً: ما حرارة هذه النار ؟ أنا سمعت أن الرصاص يذوب في درجة مائة، أما الحديد فلا يذوب إلا في درجة ألف وخمسمائة، أما حجر البازلت الأسود فلا يذوب إلا في ثلاثة آلاف درجة، هل تصدّق أن ترى حجراً أسوداً يسيل كالماء من شدّة الحر ؟ هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

أنا أريد أن يقف الإنسان موقفاً واضحاً، هذا كلام الله، إذا كنت مصدِّقاً لما فيه كيف تعصي الله ؟ هذا كلام حقيقي أم تخويف ؟ قف موقفاً واضحاً، هذا الكلام حقيقي أم تخويف ؟ هل يليق بالله أن يخوّفنا دون أن يفعل شيئاً ؟ هذا لا يليق بمقام الله عزّ وجل، هذا كلام الله، هذا مصير كل عاصٍ أو كل كافرٍ..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

حقيقة مهمة:

أيها الإخوة الكرام... هذه المشاهد.. مشاهد يوم القيامة.. لها حكمةٌ بالغة، الذي سيكون وَضّحُهُ الله لنا قبل أن يكون لنكون على بينةٍ من أمرنا، هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة.

أختم هذا الدرس بهذه الحقيقة وأنا ذكرتها مئات المرّات: مهما بلغت من درجات العلو في الدنيا، فما هي الأشياء المستحيلة ؟ أن تكون أغنى أغنياء العالم ؟ أن تكون أقوى أقوياء العالم ؟ أن تحتلّ أرفع منصبٍ في العالم ؟ صَدِّق أو لا تصدِّق إن كان أولادك أشقياء تشقى بشقائهم، ولو بلغت قمّة المجد في العالم،

ولن تسعد إلا بأولادٍ أتقياء أطهار، وهذا يحتاج إلى جهدٍ كبير، ليكن ابنك معك دائماً، ائت به إلى المسجد، راقب أصدقاءه، راقب أين يذهب، ومن يصاحب، ممن تعلّم هذه القصّة، أين سهر هذه الليلة، لابدّ من أن تراقبه لأن إثمه متعلِّقٌ بك، لذلك تسعد بسعادة أولادك، تشقى بشقائهم، وهذا الكلام دقيق جداً، وأنا أقوله كثيراً، لأنه جزء أساسي من إيمانك تربية أولادك، ليكونوا امتداداً لك، ليكونوا استمراراً لك، فالأولاد أفلاذ الأكباد، فإن شقوا شقي الآباء بشقائهم.

أيها الإخوة... تكفينا هذه الآية، ولتكن منهجاً لنا في حياتنا، ليلتفت كلٌ منّا إلى بيته، إلى زوجته، إلى أولاده، ليُقِم الإسلام في بيته، وفي عمله، وعلى الله الباقي، لا نطالبكم إلا بهذا، أقم الإسلام في بيتك، ودع عنك أمر العامّة، أقمه في عملك، ودع عنك أمر العامّة، لو فعلنا هذا لكنّا في حالٍ غير هذا الحال إن شاء الله تعالى، وبإمكانك أن تصل إلى الجنة من خلال بيتك، من بيتك فقط بإمكانك أن تصل إلى أعلى مراتب الجنّة إذا كنت أباً صالحاً، أو زوجةً وفيةً مخلصةً، أو ابناً بارّاً، أو أخاً يعين إخوته على طاعة الله عزّ جل.

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة التحريم: الآية 7)

خاتمة:

حينما أرى إخوتنا الكرام معهم أولادهم الصغار أشعر بسعادةٍ لا توصف، ابنك يجب أن يكون معك، يجب أن يألف المساجد، وهو في سنٍّ صغيرة، يجب أن يرى في المسجد كل تكريم، أنا أتألّم أشدّ الألم إذا وقف صبيٌّ في صفٍ من الصفوف، وأرجعه أحدٌ إلى الوراء، أتألّم أشدّ الألم، في أيّ صفٍّ وقف يجب أن يبقى في مكانه، ورد عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قُدِّم له شراب، وكان عن يمينه غلامٌ صغير، وعن شماله شيخٌ كبير، فقال:

((يا غلام، أتأذن لي أن أسقي الشيخ الذي عن شمالي ؟ فقال: لا والله، لا أأذن له إنه حقّي))

[ورد في الأثر]

أرأيتم إلى هذه التربية ؟ غلامٌ يجلس إلى جنب رسول الله من حقِه أن يشرب بعده، لم يتنازل عن حقِه لغيره، الطفل ينبغي أن يكون في المسجد مُعَزّزا مكرّما، يجب أن يحبُّ المسجد، يجب أن يأتيه طوعاً، فلو أن الأب كافأه على ذهابه إلى المسجد بهديةٍ أو بشيءٍ محبّبٍ يكون قد ساهم في هدايته وهو لا يدري، يجب أن تكرّمه إذا كان في المسجد.

أنا أعلم أُناساً كثيرين إذا جاء ابنهم إلى المسجد يقيمون عليه النكير، أما إذا ذهب إلى الملاهي، وفعل الموبقات فلا شيء عليه، يقولون: هو يعيش وقته، أما إذا عرف الله في المسجد خافوا عليه عندئذٍ، خافوا عليه أن يستقيم، ولم يخافوا عليه أن ينحرف.

بالمناسبة هذا كلام خطير: الأب الذي يظهر من أولاده صلاحٌ وهداية، وليس راضياً عن هدايتهم وصلاحهم فليس له أجرٌ إطلاقاً في صلاحهم، لأنه ما أراده لهم، أراد عكس ذلك، وليس للإنسان إلا ما سعى، يقال له: أنت لم تسع إلى هذا، أنت رفضت هذا الاتجاه، وما كل أبٍ يثاب على تربية أولاده، فإذا نشأ الابن على طاعة الله، ولم يرض أبوه هذا الاتجاه فليس له أجر إطلاقاً، أما إذا حرص الأب على هداية ابنه، واهتدى ابنه إلى الله فله كل الأجر..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

(سورة الطور: الآية 21)

أي إن أعمال ذريّاتهم ألحقناها بهم.

(وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

(سورة الطور: الآية 21)

نحن أمامنا أبوابٌ واسعةٌ جداً مفتّحةٌ في بيوتنا إلى الجنة، اعتنوا بأهليكم وأولادكم ومن يلوذ بكم، وليكن شعار كل واحدٍ منّا أن يكون في المسجد مع أولاده، مع إخوته وأخواته، مع جيرانه وأقربائه، مع شركائه، مع زملائه، مع أصدقائه، كما هداه الله عزّ وجل فليأخذ بيدهم إلى الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التحريم 066 - الدرس (4-5): تفسير الآية 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-02-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الرابع من سورة التحريم، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التحريم)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا

1 - التوبة النصوح بعد كل ذنبٍ:

أيها الإخوة الكرام، الذين آمنوا بالله، وآمنوا بكماله، وآمنوا بوحدانيته، وعرفوا سر وجودهم وغاية وجودهم، وعرفوا أنّهم خلقوا لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، هؤلاء الذين آمنوا يأمرهم الله عزّ وجل أن يتوبوا إليه كلما انحرفوا عن طريق الحق.

بشكلٍ أو بآخر، بشكلٍ بسيط مركبةٌ مصممةٌ لطريقٍ مُعَبّد كل ما فيها يعمل بانتظامٍ إذا كانت على هذا الطريق المعبد، مريحة، تنقلك من مكانٍ إلى مكان، فإن خرجت عن الطريق المُعَبّد إلى طريقٍ وعر تكسرت، وأصابها العطب، وليس هناك من حل إلا أن تعيدها إلى الطريق المعبد، فالتوبة تعني الرجوع إلى الله عزّ وجل.

2 - التوبة رجوع إلى أصل الفطرة:

أنت مصمم ومفطور، وجبلّتك تقتضي أن تكون مع الله، أن تكون مطبقًا لتعليمات الصانع، هذه النفس الإنسانية، وهذا الجسم الذي هو وعاء النفس لا تستقيم أجهزته، كما أن النفس لا يستقيم أمرها إلا إذا كانت وفق منهج ربها..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ)

الإنسان مخيَّر، والإنسان فيه شهوات، وهو مخلوقٌ مكلَّف، مخلوقٌ مكرم، أعطاه الله العقل، جبله جبلةً عالية، فطرةً سليمة، منحه حرية الاختيار، أودع فيه الشهوات، جعل له منهجاً يسير عليه، إذا غلبته شهوته فخرج عن منهج ربه اختل توازنه، نقول له: ارجع إلى ما كنت عليه، عُدْ إلى طريق الله، عد إلى باب الله، عد إلى فطرتك، عد إلى أصل عقلك، عد إلى منهج ربك.

بشكلٍ مبسط: شيء مصمم على أن يكون على هذا الطريق، كل ما في هذه المركبة من أجهزة لا تعمل بانتظام إلا إذا كانت على طريقٍ معبد، فإذا خرجت عن هذا الطريق المعبد إلى طريقٍ وعر اضطربت وأصابها الخلل وتكسرت، أول عمل حقيقي أن نعيدها إلى الطريق الصحيح، فأصل التوبة أن مخلوقاً أعطاه الله عقلاً، وفطره فطرةً عاليةً، أودع فيه الشهوات، جعله مخيراً، أعطاه منهجاً، خلقه ليعرف ربه، وليحمل نفسه على طاعة ربه، لكن في ساعة غفلة زلت قدمه خرج عن منهج الله، استخدم الشهوات لغير ما خلقت له، ماذا نقول له ؟ لابدَّ من أن تعود إلى الله، لابدَّ من أن تلجأ إليه، التوبة عودة كالقطار المصمم ليمشي على سكة، فتصميم القطار أن يمشي على سكة، فإذا خرج عن سِكَّتِهِ فينبغي أن نعيده إلى هذه السكة، هذا كل ما في الأمر، التوبة الرجوع إلى الله عزّ وجل.

3 ـ فرحُ الله بتوبة العبد:

أيها الإخوة الكرام، الله جلّ جلاله في نصوص كثيرة ذكر أنه يفرح إذا تاب العبد إليه توبةً نصوحاً:

((لله أفرح بتوبة عبده، من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[كنز العمال عن أبي هريرة]

النبي عليه الصلاة والسلام وصف أعرابياً على ناقته، وعليها طعامه وشرابه، يقطع بها الصحارى، جلس ليستريح فاستيقظ فلم يجد الناقة، فأيقن بالهلاك، فجلس يبكي ثم يبكي حتى أدركه التعب فأخذته سنةٌ من النوم، استيقظ فرأى الناقة أمامه، من شدة فرحه اختل توازنه فعن أَنَس بْنِ مَالِكٍ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((للّهُ أَشَدُ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمّ قَالَ مِنْ شِدّةِ الْفَرَحِ: اللّهُمّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم]

أنت لا تعلم أيها المؤمن حينما تعود إلى الله أن الله يفرح بك، فإذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

الحقيقة أيها الإخوة لا تستحق أن يقال لك: هنيئاً، وأن يشد على يدك إلا إذا اصطلحت مع الله، فلو أنك اشتريت بيتاً فخماً فهذا البيت سوف تتركه، لو أنك اقتنيت مركبةً فخمةً لابدَّ من أن تتركها، لو أنك تسلمت منصباً رفيعاً لابدَّ من أن تتركه، فالتهنئة الحقيقية حينما تصطلح مع الله، لأن التائب عاد إلى أصل عقله، عاد إلى أصل فطرته، عاد إلى منهج ربه، عاد إلى طريق سعادته، عاد إلى طريق سلامته، فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

أوصافُ التوبة النصوح:

1 ـ التي لا رجعة فيها إلى الذنب:

أيها الإخوة الكرام... التوبة النصوح وصفها العلماء بأوصافٍ كثيرةٍ جداً، من هذه الأوصاف كما قال الإمام القُرطبي: **" التوبة النصوح هي التوبة التي لا رجعة فيها "**، هل يُعْقَل أن يعود الحليب إلى الضرع ؟ كما أنه لا يعقل أن يعود الحليب إلى الضرع، لا يعقل أن يرجع التائب عن ذنبه، لابدَّ من أن يعود التائب إلى الله عزّ وجل دون أن ينقض توبته.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

التوبة النصوح هي التوبة التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضَرع، طفلٌ خرج من بطن أمه هل يعود إليه ؟ التوبة النصوح أن تترك الذنب، وأن لا تعود إليه كما لا يعود الطفل إلى رحم أمه، وكما لا يعود الحليب إلى ضرع البقرة، هذا معنى التوبة النصوح، هذا هو أول معنى.

2 ـ الصادقة الناصحة الخالصة:

المعنى الثاني: التوبة النصوح التوبة الصادقة الناصحة الخالصة، أي أنه أقلع عن هذا الذنب كُلِّياً دون أن تراوده نفسه أن يعود إليه.

3 ـ بغض الذنب الذي عصى ربه به:

التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبَّه، وأن يستغفر منه ربه، فإذا كان الذنب محببا للإنسان فتوبته ليست نصوحا، ما دام الذنب محبباً له فالتوبة ليست نصوحةً كما قال الله عزّ وجل، أن يبغض الذنب الذي عصى ربه به أن يبغضه بعد أن كان أحبه من قبل.

4 ـ الخوف من عدم قبول التوبة:

التوبة النصوح من شدة خوف العبد من الله يتوب من الذنب، وهو يخاف ألا يقبل الله توبته، فهو على وَجَل، من شدة معرفته بالله، من شدة خوفه من الله يتوب من هذا الذنب، ويخاف ألا تقبل توبته.

5 ـ عدم الحاجة إلى توبة أخرى:

وقيل: التوبة النصوح هي التي لا يحتاج معها إلى توبةٍ أخرى، ما دام تبت من هذا الذنب، اضطررت بعد حين أن تتوب منه ثانيةً، هذه إذاً ليست توبةً نصوحًا، التوبة النصوح هي التوبة التي لا تحتاج بعدها إلى توبةٍ أخرى، أي أقلعت عن الذنب إقلاعاً كلياً ،

وقيل: التوبة النصوح هي الندم بالقلب.

أركان التوبة: علمٌ وحالٌ وسلوكٌ:

إخواننا الكرام، التوبة فيها أركان ثلاثة فيها علم، وفيها حال وفيها سلوك، علمٌ وحالٌ وسلوك.

1 ـ العلمُ:

لماذا ينبغي أن تحضر مجالس العلم ؟ هناك إنسان ضغطه مرتفع فكيف يُخَفِّضُهُ ؟ كيف يذهب إلى الطبيب ؟ كيف يتناول العقاقير المناسبة ؟ كيف يُطبّق تعليمات الطبيب إن لم يعرف أن ضغطه مرتفع ؟ فلابدّ من أن تعرف أنك مذنب، كيف تعرف أنّك مذنب ؟ إذا عرفت أمر الله ونهيه، إذا عرفت الحلال والحرام، إذا عرفت الخير والشر، إذا عرفت ما ينبغي وما لا ينبغي، إذا عرفت الحق من الباطل، لا يمكن أن تتحرك نحو الله قبل أن تعرف الله، لذلك التوبة أول أركانها العِلم، والعلم فريضة، فإنّك بالعلم تعرف موقعك من الدين، فهؤلاء الذين لا يطلبون العلم يرتكبون أكبر المعاصي، فإن سألتهم يقولون لك: ماذا فعلنا ؟ لم نفعل شيئاً، كإنسان لم يتعلم اللغة العربية إطلاقاً، وقرأ نصًا، وارتكب مع كل كلمة غلطة،

يقول لك: هل تجد أروع من هذه القراءة ؟ لأنه لا يعرف اللغة العربية كل كلمةٍ قرأها قراءةً غير صحيحة، ومع ذلك يظن أنه يقرأ قراءة صحيحة، أما لو طلب العلم، وتعلم قواعد اللغة لحاسب نفسه على حركة واحدة في نص طويل.

إذاً: إنك لن تتوب إلا إذا عرفت موقعك من الدين، ولم تعرف موقعك من الدين إلا إذا طلبت العلم، وحينما يكون الإنسان مع الجماعة المؤمنة يعرف الحلال والحرام، الخير والشر، ما ينبغي وما لا ينبغي، أما إذا شرد وحده فإنه يفتي لنفسه، ويتصوّر لنفسه تصورات ما أنزل الله بها من سلطان، يقول لك: ماذا نعمل ؟ أنا ألتقي مع أناسٍ كثيرين، أنا أعلم علم اليقين أنهم غارقون في أكثر المعاصي، يقولون لك: نحن مستقيمون، لأنه ما طلب العلم، ولم يعرف موقعه من الدين، ولا عرف الحلال والحرام، ولا الخير والشر، ولا ما ينبغي، وما لا ينبغي.

لذلك التوبة النصوح من أركانها أن تتعلم، إن تعلمت عرفت أنك مذنب أو غير مذنب، عرفت أنك على حق أو على باطل، عرفت أنك على المنهج الصحيح أو المنهج غير الصحيح، عرفت ما إذا كان دخلك حلالاً أو حراماً، عرفت ما إذا كان إنفاقك حلالاً أو حراماً، هذا لا تعرفه إلا إذا طلبت العلم.

2 ـ الحال والعمل:

الشيء الثاني أن الإنسان إذا علم أنه على غلط، وأنه في طريق غير صحيح يتألّم لحرصه على نفسه، ولحبه لوجوده، وحبه لسلامة وجوده، وحبه لكمال وجوده، وحبه لاستمرار وجوده يتألم، إذا لم يكن هناك تألم لم تكن هناك توبة، لأن العلم يورث حالاً، والحال يورث عملاً.

بشكل مبسّط: رجل يمشي في بستان فرأى أفعى، إن تصورتها قضيباً فإنك لا تخاف، ولا ينشأ عندك حال، أما لو رأيت هذا القضيب يتلوّى ـ أعوذ بالله ـ معنى ذلك أنها أفعى، فإن علمت أنها أفعى اضطربت، والاضطراب دليل سلامة الإدراك، فإن كان الإدراك صحيحاً صار عندك حال، وخوف، واضطراب، ووجل، وإذا كان الاضطراب صحيحا والحال صحيحا كان هناك حركة، فإما أن تقتلها، وإما أن تولي هارباً منها، هذا قانون: إذا صح الإدراك، صح الانفعال، صح السلوك، تدرك، تنفعل، تتحرك، هذه أركان التوبة، علمٌ، وحالٌ، وعمل.

طالب العلم فضله عظيم:

أيها الإخوة، لابدّ من أن تطلب العلم، لابدّ من أن تعكف على طلب العلم، لابدّ من أن تجلس على ركبتيك لتعرف منهج ربك، وما من إنسانٍ أكثر تقديساً في الدين من طالب العلم، فعَن أبي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنّةِ، وَإِنّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنّمَا وَرّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

[الترمذي]

إذا خرجت من بيتك تبتغي أن تعرف الحق، أن تعرف أمر الله ونهيه، هذا الطريق ينتهي بك إلى الجنة إن شاء الله، فإن طالب العلم عند الله كبير، وعند الناس كبير، لأن رتبة العلم أعلى الرتب، إذاً العلم هو الذي يعرّفك بموقعك من الدين، هناك خطأ وصواب، دخل حرام ودخل حلال، يا ترى العين اتقيت بها الله، هناك إطلاق بصر وغض بصر، وسماع غناء وكف عن سماع الغناء، تتغنى بالقرآن، تتغنى بغير القرآن، البيت إسلامي، غير إسلامي، الدخل، العمل، إنفاق المال، كسب المال، كيف تعرف أنك على حق إن لم تطلب العمل ؟ العلم الصحيح يعقبه حال صحيح، وندم.

الندم على ارتكاب الذنب توبة:

قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((النّدَمُ تَوْبَةٌ))

[ابن ماجه]

فهذا الحال الندم، والندم توبة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، فلو أن إنسانًا ارتكب معصية فسببت له أوائل مرض عُضال، ندم أشد الندم على أن مرضاً أصابه، فتاب عن هذا الشرب مثلاً، هل يقال لهذا: تائب ؟ لا، لم يتب من هذا الذنب على أنه معصية، بل تاب منه لأنه أضر بجسمه، فليس كل ندم توبة، الندم إذا كان على شيءٍ تفعله على أنه معصية هذا هو الندم، ندمت على أنك عصيت الله فقط، أما الذي يفعل شيئاً يسبب له ألماً في جسمه، أو قرحةً في معدته، أو ورماً في جلده، ثم يقلع عن هذه المعصية لأنه أصيب بمرض عضال، يقال: هذا ندم على شيءٍ فعله لا لأنه معصية، بل لأنه أضر بجسمه، ينبغي أن يكون الندم على معصيةٍ حصراً.

الشيء الآخر.. أحياناً الإنسان يرتكب المعاصي إلى أن يمل منها، فالذي يدَع المعصية ملاً ليس هو التائب، وهناك أشخاص كثيرون يفعلون الموبقات إلى أن يملوا، ثم يقلعون عن هذه الموبقات لا لأنهم عرفوا الله وخافوا منهم، بل للملل، فليس من ترك المعصية ملاً هو التائب، وليس من ترك المعصية لأنها أضرّت بجسمه هو التائب، الذي يدعُ المعصية ويندم عليها أشد الندم لأنه عصى الله فقط هو التائب، هذه ناحية مهمة جداً.

التوبة الأولى سهلة، وتكرارها صعب:

الحقيقة.. حقيقة أقولها لكم: أهون توبةٍ أن تتوب أول مرة، الصلح بلمحة، فإذا كان الإنسان مرتكبا المعاصي، وقال: يا رب، لقد تبت إليك، يشعر أن الله قبل توبته، وأنا يا عبدي قد قبلت، إلا أن المشكلة أن الذي يتوب مرة ثانية من ذنبٍ واحد يشعر بضعفٍ أمام الله عزّ وجل، فإذا تكرر صارت التوبة عليه أصعب من نحت جبلٍ بإبرة، فالتوبة أول مرة سهلة جداً، مهما يكن الذنب كبيراً.

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: الآية 53)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ قَالَ:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ مَا كَانَ فِيكَ، ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تَلْقَانِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً بَعْدَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تُذْنِبْ حَتَّى يَبْلُغَ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَسْتَغْفِرُنِي أَغْفِرْ لَكَ وَلَا أُبَالِي))

[أحمد]

أما المرة الثانية فأصعب بكثير، المرة الثانية أصعب وأصعب، فالإنسان لا يقيس على أول توبة، أول توبة سهلة، هو مقيم على معصية، تاب منها، في ثانية شعر أن كابوساً قد أزيح عن صدره، وشعر كأن جبالاً أُزيحت عن صدره، وشعر براحة، وبخفّة، وبسرور، وبطمأنينة، والله يتجلى على قلبه، هذه أول مرة، إذا كنت صادقاً في التوبة فليس بينك وبين الله حجاب، أما المرة الثانية إذا عاد الإنسان إلى الذنب مرةً ثانية يشعر أن التوبة الآن أصبحت أصعب من ذي قبل، فكلما كرر الذنب كانت التوبة أصعب، هذه قاعدة.

لو فرضنا إنسانا وقع في الذنب، وتاب منه، ثم اقترفه مرة ثانية، ماذا نقول له: وأتبع السيئة الحسنة تمحها، لم يعد يكفيه أن يقول: يا رب تبت إليك، يجب أن تتوب إلى الله، وأن تعمل عملاً يرمم هذا الذنب، هذه قاعدة: إذا وقعت في ذنبٍ مرّتين في المرة الثانية لا تحتاج إلى أن تتوب فقط، تحتاج إلى

عملٍ صالح، إلى صدقةٍ، إلى برٍ، إلى إنفاقٍ، إلى إحسانٍ، إلى صيامٍ، من أجل أن يكون هذا الذنب الذي فعلته ثانيةً قد رمم وقد محي.

العلماء قالوا: لو أن إنسانا تاب عن معصيةٍ، وفي النوم رأى نفسه يفعلها وهو مسرور، نقول له: هذه التوبة ليست نصوحا، لأنها لم تتغلغل في أعماق النفس، فهو بعقله باطل يتمنى أن يفعل هذه المعصية، التوبة قُبِلَتْ، ولكن التائب ضعيف.

إذا ندم الإنسان على شيءٍ سبب له مرضا، فهذا الندم ليس توبةً، وإذا ترك الإنسان المعصية مللاً، هذا الترك ليس توبةً، وإذا وقع الإنسان في الذنب مرتين صارت التوبة أصعب من الأولى، ماذا بقي علينا ؟ بقي علينا أنك إذا خِفْتَ من الله عزّ وجل، وكَبُرَ عليك أن تعصيه، وأقلعت عن الذنب، وندمت عليه بعد أن علمت أنك لست على حق، هذه هي التوبة التي أرادها الله عزّ وجل.

أيها الإخوة الكرام، إن الإنسان إذا وقع في الذنب، وتاب منه فوراً فالتوبة سهلة جداً، أما إذا طال عليه الأمد وقسا قلبه قد يصعب أن يتوب، الإنسان لا يقول بسذاجة: أنا في أيّ لحظة أتوب، لا، أهون توبةٍ أن تكون بعد وقوع الذنب مباشرةً، فكلما أخّرت التوبة صار الإقلاع عن الذنب أصعب، ويصبح الذنب جزءًا من سلوكك، وربما صعب عليك أن تدع الذنب، فلذلك قال تعالى:

(ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

(سورة النساء: الآية 17)

الجهل بالذنب يسهّل التوبة:

مما يسهل التوبة أن تكون جاهلاً بأن هذا الذي فعلته ذنباً:

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الأنعام)

مما يسهل التوبة أن تجهل أن هذا الذي فعلته هو ذنب.

التوبة واجبة على الفور:

أيها الإخوة الكرام، التوبة واجبةٌ على الفور، فمن وقع في ذنبٍ ولم يتب منه وقع في ذنبين، الذنب الأول هو الذنب الذي ارتكبه، والذنب الثاني لأنه لم يتب من قريب، فوقع في ذنبٍ أضافه إلى الذنب.

من أوصاف التوبة النصوح:

أيها الإخوة الكرام، نعود إلى موضوع التوبة النصوح:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

1 ـ هي التوبة المقبولة من الله:

قال بعض العلماء: التوبة النصوح هي التوبة المقبولة من قبل الله عزّ وجل، وقال بعض العلماء أيضاً: التوبة النصوح هو خوف ألا تقبل، إذا خفت ألا تقبل توبتك فهذه توبةٌ نصوح، وأن ترجو أن تقبل، أن تجمع بين الخوف والرجاء، وأن تدمن على الطاعة، أن تخاف ألا تقبل، وأن ترجو أن تقبل، وأن تدمن على الطاعات، هذه هي التوبة النصوح التي أرادها الله بهذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

2 ـ نصحُ النفس بالتوبة:

وقال الإمام سعيد بن المسَيّب: **" التوبة النصوح هي التوبة التي تنصحون بها أنفسكم "**، فلا يوجد إنسان يتوب إلا وقد نصح نفسه، التوبة النصوح هي التوبة التي تنصحون بها أنفسكم.

3 ـ الابتعاد عن رفقة السوء:

قال بعض العلماء: ويجمعها أربعة أشياء: **" الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان**، أي أن تعقد العزم على ألا تعود إليه، والشيء الرابع: مهاجرة سيئ الخُلاّن، أن تبتعد عن هؤلاء السيئين.

ذهب أحدهم إلى الحج، وأقلع عن شرب الخمر، وتاب إلى الله توبةً لا أقول: نصوحا، لأنه عاد إلى أصدقائه الذين شرب معهم الخمر، قال لي مرةً وقد التقيت به عرضاً.. قال له أحد أصدقائه: كم كلّفتك هذه الحجة ؟ قال له: خمسون ألفا، قال له: خذها واشرب الخمر، لمَ لمْ تكن توبةً نصوحاً ؟ لأنه لم يقلع عن هؤلاء الخُلاّن السيّئين، علامة التوبة النصوح هؤلاء الذين مارست معهم المعصية ينبغي أن تتبرأ منهم، أن تبتعد عنهم، أن تنضم إلى المؤمنين، أن تعيش في بيئةٍ صحيحة بمجتمعٍ سليم، التوبة النصوح الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وضمان ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الخُلاّن، هذه هي التوبة النصوح.

4 ـ استحضار الذنب:

وقال بعض العلماء: التوبة النصوح أن يكون الذنب بين عيني المذنب، دائماً ذنبه أمامه يخشى ألا تقبل توبته، فلا يزال كأنه ينظر إليه.

والتوبة النصوح كما قال بعض العلماء: أن تنقض الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينيك، وتستعد للقاء الله، وأنت بريء منه.

هناك إنسان يفعل كل الذنوب ويقول: ماذا فعلت ؟ أما المؤمن فالذنب عنده كجبلٍ جاثمٍ على صدره، والمنافق ذنبه كذبابةٍ طارت أمام وجهه فأطارها.

5 ـ ضيق الأرض على المذنب:

التوبة النصوح أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، وأن تضيق عليك نفسك، بعدها تتوب توبةً نصوحا، فكلما كان الألم الذي يسببه الذنب شديداً كلما كانت التوبة منه نصوحاً.

ومما يقلل قيمة التوبة، أن الذي يتوب من ذنبٍ ضيّع عليه بعض رفاهية الدنيا تركه ليعود إلى رفاهية الآخرة، هذا مما يقلل قيمة التوبة، التوبة الخالصة، لأنك عصيت الله تستحي منه، أقلعت عن الذنب لأنه معصية فقط، لا لأنه فوّت عليك مباهج الدنيا، أو ربما فوّت عليك مباهج الآخرة.

6 ـ ردُّ المظالم:

وقال بعض العلماء: التوبة النصوح هي ردُّ المظالم، فلو أن إنسانا أكل مالا حراما، مغتصبا شيئًا، يذهب إلى الحج، ويطوف حول كعبة الله، ويقول: يا رب، تبت إليك، اغفر لي ذنبي.. هذا دجل.. لا يقبل الذنب المتعلق بحقوق العباد إلا بالأداء والمسامحة، ومن توهَّم أن الإنسان إذا حج بيت الله الحرام عاد من ذنوبه كيوم ولدته أمه دون أن يؤدِّي الحقوق لأصحابها، أو أن يستسمح منهم فهذا إنسانٌ جاهل، اذهب إلى الحج متى تشاء، في أي سنة تشاء، لن تغفر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد إلا بالأداء والمسامحة، لكن الذنوب التي بينك وبين الله وحدها هي التي تُغْفَر بالحج، فالإنسان قبل أن يحج بيت الله الحرام ينبغي أن يتوب من حقوق العباد، يجب أن يؤدِّيها، أو أن يستسمح منهم عنها، لذلك قالوا: التوبة النصوح هي رَدُّ المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان الطاعات، هذه هي التوبة النصوح.

7 ـ قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام:

وقال بعض العلماء: علامة التوبة النصوح، قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، أي أنه دخل في مجال القرب من الله عزّ وجل، شغله القرب من الله عن كل شيء، فقلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام.

8 ـ كثرة اللوم:

والتوبة النصوح أن يكثر الإنسان التائب الملامة على نفسه، دائماً يتّهم نفسه بالتقصير.

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(1)وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

هذه من علامة التوبة النصوح.

9 ـ نصحُ المؤمنين:

التوبة النصوح لا تصح إلا بنصْح المؤمنين، فأنت تبت، واستقمت، والله قبلك، وأنت ساكت لا تنصح الناس بالتوبة ؟! التوبة النصوح تنصح بها نفسك وإخوانك المؤمنين، فعلامة أنك تبت من هذا الذنب تتجه إلى خاصة نفسك، إلى من حولك، تنصحهم بالتوبة، تنصح بها نفسك وإخوانك المؤمنين، هذا من علامات التوبة النصوح.

لازلنا في التوبة النصوح التي قال الله عنها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

10 ـ البكاء ومخالفة الأهواء:

قال بعض العلماء: التوبة النصوح أن يكون لصاحبها دمعٌ مسفوح، وقلبٌ عن المعاصي جموح.

وقال بعضهم: علامتها ثلاث: مخالفة الهوى، وكثرة البكاء، ومكابدة الجوع والظمأ في الصوم..

11 ـ التوبة بالرجوع عن البدعة إلى السنة:

وقال بعضهم، وهذا من أخطر ما يقال في هذا الدرس: التوبة النصوح هي التوبة لأهل السنة والجماعة، لأن المبتدع لا توبة له، المشكلة أنك إذا أخطأت خطأً من أحد الأخطاء هذا الخطأ يغفر بالتوبة، أما إذا اعتقدت أنك على صواب وأنت مخطئ، فهذا لا يغفر.

أثرُ فساد الاعتقاد في التوبة:

عندنا ميزان، أن تخطئ في الوزن فالقضية سهلة، هذا الخطأ لا يتكرر، أما أن يكون الميزان خطأ فهذا الخطأ لا يصحح، لذلك أخطر من الذنب أن تكون مبتدعاً، أن تعتقد اعتقادا فاسداً، أن تزعم أنك على حق ولست على ذلك، الذنب إذا وقعت فيه، وعرفت أنه ذنب فالقضية سهلة جداً، تتوب منه، هذا الذنب لا يتكرر، أما إذا ظننت أنك على حق، وأنت على باطل، إذا اعتقدت اعتقادا فاسداً، إذا تعلقت بفتوى غير صحيحة، وأقمت على ذنب فمن المستحيل أن تتوب منه، فالخطورة لا في الذنب، بل الخطورة في عدم التوبة من الذنب، إذا صَحَّت عقيدتك سهل التوبة من الذنب، أما إذا فسدت العقيدة صار من الصعب أن تتوب من الذنب.

مثلاً: لو قرأت الحديث الشريف الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

[مسلم]

إن فهمت هذا الحديث وحدك من دون مَن تسأله، وظننت أنه لابدَّ من أن ترتكب الذنب حتى ينقلب هذا الذنب يوم القيامة إلى عملٍ عظيم، فالذي يفهم هذا الفهم لن يتوب من ذنبه، إذا ظننت أن النبي عليه الصلاة والسلام لن يدخل الجنة إلا إذا أدخل أمّته كلّهم إلى الجنة، مطيعهم وعاصيهم، لن تتوب من الذنب، تتعلّق بشفاعةٍ ليست هي التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام، وليست التي أرادها الله عزّ وجل، بشفاعةٍ ساذجةٍ، فالمشكلة أنك حينما تخطئ في العقيدة لن تتوب من الذنب.

إذا اعتقدت مثلاً:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران: الآية 130)

أن الله نهانا عن الأضعاف المضاعفة، لكن لم ينهنا عن الأضعاف غير المضاعفة، تأكل الربا، ولن تتوب من هذا الذنب، لأنك فهمت الآية فهماً مغلوطاً، فلذلك لمن التوبة ؟ لمن صَحَّت عقيدته، لمن التوبة؟ لمن فهم كلام الله على النحو الذي أراد الله ؟ لمن التوبة ؟ لمن فهم حديث رسول الله على النحو الذي أراد النبي الكريم، أما إذا أخطأت في العقيدة فسدت عقيدتك، فسد فهمك لكتاب الله، لسنّة النبي، عندئذٍ لن تتوب من الذنب، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته))

[الطبراني عن أنس بإسناد صحيح]

تقول له: هذا غلط، هذه معصية كبيرة، يقول لك: هذا ظل وليس حقيقةً، هذا خيال، فإذا كان الإنسان واقفا في شرفة ومرآة أمامه فوق المغسلة، ونظر إلى المرآة فرأى جارته في البناء المقابل بشكلٍ لا

يرضي الله، فملأ عينيه من المرآة لا من جارته مباشرة، يقول لك: هذا خيال، أنت إذاً لن تتوب من الذنب، لن تتوب منه إطلاقاً، فالخطورة ليس في أن تقع بالذنب، أن تتوهم أن هذا الذي تفعله ليس ذنباً، إذا لن تتوب منه، لذلك الحديث خطير، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته))

إذا فهمت القرآن فهما فيه ابتداع ليس كما أراد الله عزّ وجل، إذا فهمت آية الربا:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

النهي عن الأضعاف المُضاعفة، إذاً: لن تتوب من الربا، إذا فهمت أنك إذا نظرت إلى الظل، وإلى الخيال، ولم تنظر إلى الحقيقة، هذه على الشاشة، هذه ليست حقيقة، هذه صورة، فقد تفعل الصورة أضعاف ما تفعله الحقيقة أحياناً، فحينما تفهم الذنب فهماً مغلوطاً لن تتوب منه، فكل صاحب بدعةٍ لن يتوب من بدعته، هذه هي الخطورة، أما إذا صحت عقيدتك، وصح فهمك لكتاب الله ولحديث رسول الله تبت من الذنب.

مثلاً: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى، وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))

[مسلم]

يقول لك: ليس هذا بيدي، الله كتب علينا الزنا، فيفعل ذلك وهو مرتاح، هكذا النبي قال:

((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ))

يقول لك: ليس باليد حيلة، كاسات معدودة بأماكن محدودة، يقول لك: هذا ترتيب سيدك، أما لو فهمت الحديث كما ينبغي: كتب على ابن آدم أن ينال نصيبه من عقوبة الزنا مدركٌ ذلك لا محالة، فلن يزني، العين تزني وزناها النظر، الأذن تزني وزناها السمع، اليد تزني، اللسان يزني أحياناً.

حينما تفسد عقيدة الإنسان، وحينما يفسد فهمه لكلام الله، وحينما يخطئ في فهم حديث رسول الله، يقع في أكبر الذنوب ولا يتوب منها، وهنا المشكلة، أما إذا صحّت عقيدتك، وعرفت أنك مذنب تتوب من هذا الذنب، لذلك هذا الحديث أخطر ما يقال في هذا الدرس، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته))

المشكلة لا أن تذنب، المشكلة أن تذنب، وأن تتوهم بأنك لست بمذنب، فأخطر ما في الأمر أن تقع في أكبر الذنوب، وأن تتوهم معها أنك لست مذنباً، هذه الذنوب لا يمكن أن تتوب منها، لأنك قانعٌ أنها ليست ذنوباً، وعلى هذا أمور كثيرة جداً، الشيطان ماذا يفعل ؟ إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم، أي

مستحيل، أن يعبد صنمٌ في بلاد المسلمين، مستحيل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ مِنْكُمْ بِمَا تَحْقِرُونَ))

[أحمد]

لذلك: **" لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار ".**

العبرة أن تصح عقيدتك، وأن يصح ميزانك، وأن يصح منهجك، ويصح فهمك لكلام الله وسنة رسول الله، عندئذٍ قد ترتكب ذنباً، أما هذا الذنب فمعروفٌ عندك أنه ذنب، ويمكن أن تتوب منه سريعاً، أما الخطورة فأن تقع في أكبر الذنوب، وأن تقول: ماذا فعلت ؟ من الناس من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا شيطانٌ فاحذروه، لذلك أبى الله أن يجعل لصاحب توبة بدعة:

((إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته))

ويقول بعض العلماء: بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب، ثم يعود فيه، والعائد من توبته كالمستهزئ بربّه.

معنى كلمة: النصوح:

أصل التوبة النصوح قال: الخلوص، نقول: هذا عسلٌ ناصح أي لا شمع فيه، عسل مُصَفّى، عسلٌ ناصح أي لا شائبة فيه من شمعٍ أو غير ذلك أي عسل مصفى، تاب الإنسان من هذا الذنب تركه كليةً، إجمالاً وتفصيلاً بقَضِّه وقضيضه، تركه كلياً، وقال: التوبة النصوح مأخوذة من النصاحة، وهي الخياطة، كيف أن الخيّاط يجمع بين قطعتي الثوب، ويخيطهما محكماً إيّاهما، كذلك المؤمن بالتوبة يلتقي مع الطاعة ومع إخوانه المؤمنين.

وأجمل ما قيل في هذه الآية: التوبة النصوح هي التوبة التي تنصحون بها أنفسكم، أي أن ما أعظمَ قرار حكيم تتخذه في حياتك كأن تتوب إلى الله، ولا تنسوا أيها الإخوة أن الله يحب التوابين.

باب التوبة مفتوح:

هناك نقطة مهمة جداً: تصور أنه لا توبة، الناس يذنبون، ارتكب الإنسان ذنبا انتهى، طُرِد من رحمة الله، يفعل كل ذنب عندئذٍ، من أصغر الذنوب إلى أكبرها، لكن ربنا عزّ وجل جعل باب التوبة مفتوحٌ على مصراعيه دائماً.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

في الأثر:

((إذا قال العبد: يا رب وهو راكع، قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو ساجد، قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد: لبيك وهو عاصٍ قال الله: لبيك ثم لبيك ثم لبيك))

أي أن باب التوبة مفتوح:

((ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تُذْنِبْ حَتَّى يَبْلُغَ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَسْتَغْفِرْنِي أَغْفِرْ لَكَ وَلَا أُبَالِي))

[أحمد عن أبي ذر]

بل إن الله يفرح بك إذا تبت إليه كما يفرح العقيم الوالد، والضال الواجد، والظمآن الوارد.

أيها الإخوة... باب التوبة مفتوحٌ على مصراعيه، وما علينا إلا أن نتوب، والإنسان عليه أن يتوب إلى الله دائماً، والمؤمن مذنبٌ توّاب، أما حينما يتوب من كل ذنب، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ))

[ابن ماجه]

هناك آية كريمة تقول:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور)

وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

لما يتوب الإنسان، وحده والمجتمع كله متفلِت لا يقطف ثمار التوبة، أما إذا مان كل المجتمع منضبطا يقول لك: الحياة جميلة جداً، الناس جميعاً مؤمنون، أتقياء، أمناء، صادقون، نساؤهم مُحَجَّبات، الحياة مريحة جداً، فثمار التوبة اليانعة لا تقطف إلا إذا تبنا جميعاً ،

مثلاً: إنسان عنده هاتف في بيته، وله مئة صديق ليس عندهم هاتف، الهاتف أصبح بغير طعم و لا فائدة، أما إذا كان عند المئة صديق هواتف قطفت ثمار اتصال الهواتف، الكل عندهم هواتف، هذه كلمة جميعاً لها معنى جديد، نحن قد لا نقطف ثمار التوبة إلا إذا تبنا إلى الله جميعاً، كلنا منضبطون، كلنا صادقون، كلنا أُمناء، كلنا نستحي، كلنا أِعَّفة، عندئذٍ تعيش مجتمعاً هو جنة الله في الأرض، وفي الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، جنة الله في الأرض مجتمع المؤمنين، أنت مرتاح، أنت

مطمئن، كل من حولك يحبّونك، صادقون معك، أمناء، لا يغشونك، لا يخادعونك، لا يحتالون عليك، فلذلك التوبة لا تُقطفُ ثمارها إلا إذا كانت مجتمعة.

(وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعًا)

إذا لم يتمكن الإنسان أن يصلح المجتمع كله، فإذا كان في جماعة مؤمنة في مسجد، وكل إخوانه مؤمنون، صادقون، مستقيمون، محبون، الحياة مع هؤلاء المؤمنين جنة الله في الأرض.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التحريم 066 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 9 - 12

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-02-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الخامس ولعلّه الأخير من سورة التحريم، ومع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

1 - ينبغي إيقاظ همّة الكافر والمذنب ليرجعا إلى الله:

لو أن الإنسان داهن الكافر أو جامله أو أثنى عليه، هذا الكافر والمنافق يبقى على حاله، ولا يتحرّك نحو الأحسن، لا يتحرّك نحو التوبة، لابدّ من أن توقظ عقله، فأي أسلوبٍ من شأنه أن يوقظه، أن يبصّره بكفره أو بنفاقه، أن يدعوه إلى باب الله عزّ وجل، أن يدعوه إلى التأمُّل في الكون، إلى معرفة سرّ وجوده، إلى معرفة غاية وجوده هو الأسلوب الذي يرضى الله عنه، أما أن ترضي الناس جميعاً، أما أن تثني عليهم جميعاً، أما أن تكون مجاملاً لهم لدرجة أن أحداً من هؤلاء المنحرفين في عقيدتهم أو في سلوكهم لا ينتبه أنه على خطأ، فالعبرة أن تنقذه من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فإذا كانت القسوة، والمقاطعة أحياناً، وإيقاظ العقول، وإيقاظ الهمم سبيلاً إلى هداه فينبغي أن تفعل هذا.

فماذا نستفيد من هذه الآية ؟ لو أنّ إنساناً صديقاً، أو أخاً في أسرة انحرف أشدّ الانحراف، وبقي إخوته يثنون عليه، ويرحبّون به ويودّونه، هذا الإنسان كيف يهتدي إلى أنه على خطأ ؟ أما إذا وجد إعراضاً من أمّه وأبيه، إعراضاً من إخوته وأخواته، إذا وجد نفسه منبوذاً لعلّه يستيقظ، لعلّه يهتدي..

قال لي بعض الإخوة الكرام: إن سبب إيماني وتوبتي إلى الله سائق سيارة، ركبت معه، ومعي مشروبٌ كحولي، فلّما رآه طردني من السيّارة، وقفت ساعةً، ولم أجد مركبةً أخرى تُقِلّني إلى بيتي، فتألّمت أشدّ الألم، وشعرت بصَغارٍ ما بعده صَغار، وكان هذا الموقف القاسي من هذا السائق سبب توبتي..

أحياناً إنسان منحرف لا ينبغي أن نضحك في وجهه، لا ينبغي أن نحترمه، لا ينبغي أن نَشُدّ على يده في أثناء المصافحة، ينبغي أن يشعر أنه منحرف عقيدةً أو سلوكاً، طبعاً هذا لا يقودنا إلى أن نعادي الناس، ولكن هذه الابتسامة الرقيقة، وهذا الود البالغ هذا لا يكون إلا للمؤمن، أما غير المؤمن فيجب أن يرى منك إعراضاً، أو تأنيباً، أو موقفاً يشعره أنه على باطل لا على حق، لعلّ هذا يكون سبباً في

هدايته.

إن الإنسان اجتماعي بالطبع، فإذا وجد نفسه أنه منبوذٌ في مجتمعٍ ما، بعيدٌ عن ودِّهم، عن ملاطفتهم لعلّه يستيقظ، لعلّ في هذا تذكرةً أو تنبيهاً إلى خطئه.

العبرة أن قلب المؤمن يتّسع للناس جميعاً، فإذا كانت الحكمة أن يصلُهم وصلهم، إن كانت الحكمة أن يقطعهم قطعهم، إن كانت الحكمة أن يعطيهم أعطاهم، إن كانت الحكمة أن يمنع عنهم منع عنهم، عطاؤه ومنعه، وصلته وقطعه، وغضبه وابتسامته موظّفةٌ كلّها في سبيل الله، موظّفةٌ كلّها في رد الناس إلى باب الله، وفي دعوتهم إلى الله.

قد يكون من الحكمة أن تكون لطيفاً في موقف، قد يكون هذا أقوى منك، فإن رأى منك مودّةً، وحسن صلةٍ لعلّ قلبه يميل، وإن كنت أقوى منه، ورأى منك إعراضاً وصدّاً لعلّه يتوب إلى الله عزّ وجل.

2 ـ الحكمةُ في استعمال الشدة واللين كلّ في موضعه المناسب:

ليس هناك قاعدة ثابتة، القاعدة الثابتة أن تجتهد في أن هذا الأسلوب يردُّه إلى الله، في أن هذا الأسلوب يُعينه على نفسه.

سيدنا عمر عندما بلغه أن أحد أصدقائه قد سافر إلى الشام، وانغمس في الملاهي، والمجون، والخمر، كتب له كتاباً رقيقاً يقول فيه: **<< أما بعد، فإني أحمد الله إليك، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب ذي الطول >>**، وذكر له عن رحمة الله وعن حكمة الله الشيء الكثير، فبكى هذا الإنسان، وحمله بكاؤه على التوبة..

ينبغي أن تجتهد، لعلّ في هذا الأسلوب إيقاظاً له، لعلّ في هذا الموقف، في هذا الوصل، في هذا القطع، في هذا العطاء، في هذا المنع، في هذا التغاضب، أو هذا التلاطف، لعلّ في أحد هذه الأساليب ما يردّه إلى الله عزّ وجل، أنت هدفك الأكبر أن تدفع الناس إلى باب الله.

أحياناً المؤمن يبالغ في مودّته، وغير المؤمن قد تجد من الحكمة أن تقاطعه، أو أن لا تجامله، أو أن لا تداهنه، تجد من الحكمة أن تكون جافّاً في معاملتك معه، أو غير ملاطفٍ له إلى درجةٍ يتوهّم أنه على حق، هذا يعود إلى حكمة المؤمن، ولكل زمانٍ أساليبه، وكل زمن هناك ظروف، وهناك أساليب تكون فعّالةً في تحقيق الأهداف، وهذه الأساليب الناجحة لا يعدَمُها المؤمن، لأن الإنسان حينما يصدق مع الله سبحانه وتعالى في هداية الخلق يلهمه الأسلوب المناسب والطريقة المثلى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

أريد من هذه الآية أن يتضح لكم أن المؤمن ليس معنياً أن يُرضي الناس جميعاً، ليس معنياً أن يحبّه الناس جميعاً، لا بدّ للمؤمن من خصوم، خصوم عقيدة، خصوم سلوك، فأنت كن على حق، ولا يعنيك أمر الآخرين إلا بالقدر الذي تأخذ بيدهم إلى الله عزّ وجل.

أيها الإخوة الكرام، نحن أمام آيات قد يتوهمها الإنسان بسيطة، ولكن هي من أخطر آيات هذه السورة، يقول الله عزّ وجل:

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا لِلّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ)

(سورة التحريم: الآية 10)

ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا لِلّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ

1 ـ لا ينفعك مصاحبةُ النبي إن لم تستفد منه:

الإنسان أحياناً يكون مع نبيّ عظيم، لو أنه جلس إلى جنب النبي، ولامست كتفه كتف النبي، ولم يكن على منهج النبي فإنه لا يستفيد شيئاً، الذي جلس إلى جنب النبي، وكان رئيس المنافقين قبيل وفاته قال: **" أعطوني قميص النبي عليه الصلاة والسلام "**، وفيما قرأت من السيرة أن النبي ألبسه قميصه بيده، ثم مات، فلمّا مات قال عليه الصلاة والسلام:

((الآن استقرّ في جهنم حجرٌ كان يهوي به سبعين خريفاً))

[ورد في الأثر]

لا ينفعك أن تكون قريباً من النبي، ولا أن تعامل النبي، ولا أن تجالسه بل ينفعك أن تكون على منهجه، الإنسان أحياناً يطمئن لفتوى قالها إنسان يعمل في الحقل الديني.

أيها الأخ الكريم: لو أن النبي عليه الصلاة والسلام أفتى لك، لا أقول لك: عالمٌ جليل، أو مفتٍ عظيم، أو مجتهدٌ كبير، لا.. لو أن النبي صلى الله عليه وسلّم التقيت به، وعرضت عليه قضيةً، وأفتى لك، أو لو أنك اتجهت مع خصمٍ لك إلى النبي، وحكم النبي عليه الصلاة والسلام بينكما، وكان الحكم لصالحك.. الآن دقق فيما سأقول.. ولم تكن محقاً فإنك لا تنجو من عذاب الله، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول كما في حديث أُمّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((قَالَ إِنّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيّ، وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه]

هل من علاقةٍ بين شخصين على وجه الأرض أمْتَن وأعمق وأكثر التحاماً من زوجين ؟ سيدنا نوح ألم ينجب من امرأته ابنه ؟ إن أشد علاقةٍ بين شخصين هي علاقة الزواج، وهي أكثر العلاقات عُمْقاً واتصالاً، ومع ذلك:

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا لِلّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللّهِ شَيْئًا)

2 ـ معنى خيانة امرأة نوح وامرأة لوط لزوجيهما:

امرأة نوح كانت تصف زوجها بأنه مجنون، وامرأة لوط كانت تشعل النيران لتدل قومها على ضيوفه إنهم منحرفون أخلاقياً، لا امرأة نوحٍ استطاعت أن تنجو من عذاب النار لأنها زوجة نبيّ عظيم، ولا امرأة لوطٍ استطاعت أن تنجو من عذاب النار لأنها زوجة نبيّ عظيم، هل من علاقةٍ أكثر التصاقاً ومتانةً، وعمقاً واستمراريةً من علاقة الزوج بزوجته ؟ ومع ذلك لم تنجو امرأة نوحٍ ولا امرأة لوطٍ من عذاب النار.

أيها الإخوة الكرام، هذا مثلٌ.. أحياناً إنسان يدعو بعض العلماء، ويفرح بوجودهم، ويتبارك بوجودهم، يلقون الكلمات في حفلته ويطمئن، القضية انتهت، لا لم ينته شيء، إن لم تطبّق أمر الله، وإن لم تنتهِ عمّا نهى الله فإنك لا تستفيد من واحدٍ منهم شيئاً، والدليل: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لابنته فاطمة، وهي أحبُّ الناس إليه:

((يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه]

يا أيها الإخوة الكرام... ينبغي أن تعلموا علم اليقين أن خيانة زوجة نوحٍ وزوجة لوطٍ لم تكن خيانة فِراش، ولا يمكن لامرأة نبيّ أن تخونه في الفِراش، هذا مستحيل، لكنها خانته خيانة دعوة، لم تؤمن بدعوته، وصفته بأنه مجنون كما تروي كتب التفسير، أو دلّت قومها على ضيوفه كما رَوَت أيضاً كتب التفسير، أي لم تؤمن به، وخانت دعوته، لذلك كان مصير امرأة نوحٍ، ومصير امرأة لوطٍ النار..

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا لِلّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ)

3 ـ لا ينفعك إلا عملك الصالح، ولا أحد من الناس يملك ضرا ولا نفعا:

مرّةً كنت في العمرة فرأيت أناساً يصلون مكان في المكان الذي صلّى النبي عليه الصلاة والسلام فيه، وهم يبكون، وأنا صلّيت والله، وبكيت كثيراً، ولكن جاءني خاطر أن أستاذاً كبيراً جداً يحمل أعلى

الشهادات له أكثر من مئة مؤلّف، لو أنّ خادمه أو حاجبه في غيبته جلس على كرسيّه هل يرقى شيئاً ؟ لو أنه قرأ كتاباً واحداً فإنه سار في طريق أستاذه، فلا ينجي الإنسان أن يقلِّد، بل ينجيه أن يتبع سنّة النبي، أن يطبّق منهجه، أن يطلب العلم، أما إذا جلس في مكان النبي، أو صلّى مكان النبي فهذا شيء طيّب، ويُدخِل على القلب السرور، ولكن لا ينجي من المسؤولية إذا كان الإنسان منحرفاً، القضية ليست بالتقليد، ولا بالتبرُّك، القضية بالمتابعة.

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: الآية 108)

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود: الآية 112)

الإنسان العاقل يتعلّق بالثوابت، لا يتعلّق بغير الثوابت، الثوابت طاعة الله، وهي كل شيء، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

لك أن تجلس مع الصالحين، وترتاح إلى مجلسهم، وتستفيد من علمهم، وتستفيد من أحوالهم، ولكن إن لم تسر على منهج الله فلا تنفعك هذه المجالسة، لك أن تتبرّك بالصالحين، أما أن ينفعك هؤلاء.. لا.. لماذا ؟ لأن الله عزّ وجل يخاطب نبيّه الحبيب يقول له:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(سورة الجن)

وفي آيةٍ أخرى:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

(سورة الأعراف: الآية 188)

فلأن لا أملك لكم من باب أولى.

آية ثالثة:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام)

(وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

(سورة الأعراف: الآية 188)

آية رابعة:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

4 - لا نَسَب يوم القيامة ولا خلّة:

أيها الإخوة، لا تقبلوا مني إلا القرآن الكريم وسنّة النبي الصحيحة، هذه ثوابت الدين، فإذا كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((قَالَ إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه]

هل تنفعك شفاعة العلماء ؟ لا، لكنك تستفيد من علمهم، ومن أحوالهم، وإن لم تطبق منهج الله عزّ وجل فإنك لا تنجو من عذاب الله، وهذه الآية تؤكِّد هذه الحقيقة، فكل إنسان على صلة مع رجل صالح، مع مؤمن، فإن هذه الصلة، وتلك المجاملة، وهذه الزيارة، وهذه الدعوة، هذه إن لم تكن مستقيماً على أمر الله عزّ وجل فلا تنتفع منها إطلاقاً، والإنسان لا ينجو بتقليده، بل ينجو باستقامته، ينجو بطاعته لله عزّ وجل..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلّم أن السيدة عائشة سألته: يا رسول الله أيعرفُ بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ قال:

((نعم يا أمّ المؤمنين إلا في ثلاثة مواطن: إذا الصحف نشرت وعند الميزان وفي موطنٍ ثالث، وفيما سوى هذه المواطن قد تقع عين الأم على ابنها، أو قد تقع عين الابن على أمه))

هكذا يقول عليه الصلاة والسلام

((تقول الأم: يا بني، لقد جعلت لك صدري سقاءً، وحجري وطاءً، وبطني وعاءً، فهل من حسنةٍ يعود عليّ خيرها اليوم ؟ يجيبها ابنها يوم القيامة: ليتني أستطيع ذلك يا أمّاه، إنني أشكو مما أنت منه تشكين))

[ورد في الأثر]

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

فإذا كانت زوجة نبي دخلت النار فكيف بزوجة رجلٍ يدعو إلى الله ؟ لم تلتزم، أو لم تأتمر، لا تنجو أبداً، فلا تتوهّم أن هذه العلاقات الطيّبة مع أهل الإيمان تشفع لك يوم القيامة، لا يشفع لك إلا طاعتك لله،

واستقامتك على أمره، وهذا كلام دقيق، كلام مأخوذٌ من كتاب الله ومن سنة رسول الله، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي))

[البخاري]

فكل إنسانٍ تعلّق بصلةٍ، بعلاقةٍ طيّبةٍ، بزيارةٍ، بدعوةٍ، بقرابةٍ، مع رجل صالح، وهو يفعل ما يشاء، وهو مرتاح، يقول لك: أنا فلان، جدي فلان، جدي العالم الفلاني، عمي العالم الفلاني، هذه القرابات لا تقدّم ولا تؤخّر.

فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ

ذكرت لكم في مطلع الدرس ما من علاقةٍ على وجه الأرض أشدُّ عمقاً، ومتانةً، واستمراريةٍ من علاقة الزوج بزوجته، أنجب منها ابناً، ومع ذلك:

(فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

لا أحدَ يحمل وزرَ أحدٍ:

الشيء الأساسي، وهذا شيء مريح جداً أنه:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: الآية 164)

كلٌ محاسبٌ بعمله، لا تُحاسَبُ عن غيرك، ولا يُحَاسَب غيرك عنك..

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: الآية 286)

إن الإنسان بهذه المعاني يكون واقعياً، وموضوعياً، وعلميّاً، يتعامل مع الله مباشرةً، لا ينجيه نَسَبٌ ولا صلةٌ، ولا مودّةٌ، ولا قرابةٌ، وإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول لابنته فاطمة:

((يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه]

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا)

أذكِّركم مرَّةً ثانية بأنه لا يمكن لامرأة نبيٍّ أن تكون بغِيًّا، ولا أن تخونه في الفِراش، إلا أن الخيانة هنا خيانة دعوة، أي لم تؤمن بدعوته، الأولى اتهمته بالجنون أمام قومها، والثانية دَلّت قومها على ضيوفه ليفعلوا معهم الفاحشة، وهذه من أفظع الخيانات..

(وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ)

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ

1 ـ المرأة مستقلة في دينها:

الآن هذه الآية موجّهةٌ إلى النساء جميعاً، المرأة مستقلةٌ بدينها، فأية امرأةٍ تقول: هكذا زوجي، هكذا يريد ماذا أفعل ؟ يطلقني، هذا كلامٌ مرفوض، المرأة إنسان مكرّمةٌ، مسؤولةٌ محاسبةٌ، مكلّفةٌ بالإيمان والإسلام، محاسبةٌ عن أفعالها محاسبةً دقيقة، ولا ينجيها من محاسبتها أن زوجها يأمرها أن تفعل كذا وكذا، المرأة مستقلّةٌ في دينها، وإيمانها، واستقامتها، ومسئوليتها عن زوجها، لذلك المرأة العالمة الفقيهة إذا أمرها زوجها بمعصية تقول: لا أفعل، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، ولو هدّدها، افعل ما بدا لك، فإن الله لا يضيعني، ولا يتركني، وسينصرني، وسيكرمني، أما هذه المرأة التي تقول: هكذا زوجي، هكذا يريد، هكذا يحب، ماذا أفعل معه ؟ هو المسؤول، هذه الآية تنفي هذا الكلام كلّه:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ)

2 ـ امرأة فرعون إحدى النساء الكاملات:

شاءت حكمة الله أن تكون السيدة آسية امرأة فرعون إحدى أربع نساءٍ كاملاتٍ في الأرض، قال عليه الصلاة والسلام:

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

[البخاري]

هذه السيدة إحدى أربع نساء في الأرض كَمُلَتْ، وجعلها الله عزّ وجل زوجةً لأكبر طاغيةٍ كافرٍ جبّار، وفيما تروي الكتب اضطهدها، وعذّبها لأنها عبدت غيره.. عبدت ربّها.. وكانت قد آمنت بسيدنا موسى..

(إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ)

(سورة التحريم: الآية 11)

إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ

تروي بعض الكتب أنه كان يعذِّبها أشد العذاب، وهي تضحك، فعجب، وقال: لعلّها جُنّت، لقد أراها الله قصرَها في الجنّة، فكانت تضحك..

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

هذا يقودنا إلى قوله تعالى:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

(سورة النور: الآية 26)

وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ

هذه الآية ليست أمراً تكوينياً، بل هي أمرٌ تكليفيٌ، لو أن هذه الآية أمرٌ تكويني لوجب أن تكون كل زوجةٍ على شاكلة زوجها..

(وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

وما دمنا نجد نساءً كثيرات طاهرات عفيفات، مؤمناتٍ مسلمات، صائماتٍ مصلِّيات، ولهن أزواجٌ منحرفون، فاسدون، جبّارون، عصاة، والعكس أيضا، قد نجد رجلاً صالحاً، مؤمناً، مستقيماً وله زوجةٌ فاجرة، ماذا نفعل بقوله تعالى:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

العلماء قالوا: **" هذه الآية هي أمرٌ تكليفي وليست أمراً تكوينياً "**، فإذا كانت أمراً تكليفياً فإنهم يُقَدِّرون هذه الكلمة معها، أي: ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات، ويا عبادي إذا زوّجتم بناتكم، أو زوّجتم شبابكم فابحثوا عن الطيبين للطيبات، هذا أمر تكليفي، فإذا خالف الناس هذا الأمر فقد نجد طيبةً تحت إنسانٍ سيئ، أو طيبا مع امرأة خبيثة، فإذا كان كذلك فلا بدّ من أن يُحاسب كل امرئٍ عن نفسه، فالزوجة لا يعفيها من مسئوليتها أن زوجها منحرف، وأن زوجها يأمرها بأن تعصي الله عزّ وجل، هذا لا ينجيها من مسئوليتها أبداً.

أيها الإخوة الكرام...

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا لِلّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنّةِ وَنَجّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ)

حظوظ الدنيا موزّعة في الدنيا توزيع ابتلاء، وفي الآخرة توزيع جزاء:

أضع بين أيديكم هذه الحقيقة: حظوظ الدنيا موزّعةٌ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، فالمرأةُ زوجها مِن قدرها، والرجلُ زوجته مِن قدره، أولادُها من قدرها، وأولاده من قدر الله عزّ وجل، كلُّ إمكانات الإنسان وقدراته وحظوظه من الدنيا امتُحِن بها في الدنيا، لكن هذه الحظوظ سوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، وإنّ أيَّ امرأة صالحة، طيبة مؤمنة، مسلمة تقية، عفيفة طائعة، صائمة عابدة، ذاكرة مصلّية.. إلخ، لو أن زوجها كان سيئ الأخلاق، فَظّ الطباع، بعيداً عن منهج الله، ماذا نقول لها ؟ الدنيا محدودة، إذا نجحتِ في هذا الامتحان، وصبرتِ عليه، وأدّيتِ الذي عليكِ، وطلبتِ من الله الذي لكِ، وحظّك من الزواج لم يكن وافياً، لكن الآخرة المديدة هذه سوف تنعمين بها في جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، ونقول لرجل له زوجةٌ على غير ما يريد، ليست صالحة، أتعبته كثيراً، نقول له: اصبر عليها، فهذه مِن قدرك، فإذا صبرت عليها فلعلّ الله سبحانه وتعالى يدخلك جنةً عرضها السماوات والأرض، وفيها من الحور العين كما وصف النبي عليه الصلاة والسلام، فالدنيا دار ابتلاء، والآخرة دار جزاء، الدنيا دار عمل، والآخرة تشريف.

الآية الأخيرة:

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ)

كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كَمَلَ مِنْ الرّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النّسَاءِ إلّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النّسَاءِ كَفَضْلِ الثّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطّعَامِ))

[البخاري]

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا)

1 ـ من صفات المؤمن والمؤمنة إحصانُ الفرج:

فمن أولى صفات المؤمن أنه يحصن فرجه، ومن أولى صفات المؤمنة أنها تحصن فرجها، ماذا قال سيدنا جعفر للنجاشي ؟

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ))

[أحمد عن أم سلمة]

أربع صفات: صدقه وأمانته وعفافه ونسبه. فأحد أكبر صفات المؤمن عفته عما حرم الله عليه.

من إحصان الفرج الإحصانُ من مقدِّماته:

فهذه امرأة عمران أحصنت فرجها، والحقيقة قضية إحصان الفرج تحتاج إلى مُقَدِّمات كثيرة، فغض البصر من إحصان الفرج، لأن الله عزّ وجل يقول:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: الآية 30)

جاءت هذه الآية قبل الثانية لتشير أن حفظ الفرج أساسه غض البصر، فالمرأة من إحصان فرجها غض بصرها، والرجل من إحصان فرجه غض بصره، عدم الخَلوة من إحصان الفرج، عدم التعامل مع أُناس ساقطين من إحصان الفرج.

ذكرت لكم من قبل أن ثلاثاً وثلاثين صفةً تجرح عدالة الإنسان، وكلكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كَمُلَت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوّته، وحرمت غيبته))

[ورد في الأثر]

أي ظهرت عدالته، فعدالة الإنسان إحدى صفتين أساسيتين في المؤمن، الضبط صفةٌ عقلية، والعدالة صفةٌ نفسية، هذه العدالة تَسْقُط إذا كذب الإنسان، وتسقط إذا ظلم الإنسان، وتسقط إذا أخلف وعده، لكنها تُجْرَح، وجرحها شيء، وسقوطها شيءٌ آخر، تجرح بأن يمشي الإنسان في الطريق حافياً، أو أن يبول في الطريق، أو أن يأكل في الطريق، أو أن يتنزّه في الطريق، أو أن يصحب الأراذل، أو أن يأكل لقمةً من حرام، أو أن يُطفِف بتمرة، أو أن يتحدث عن النساء، أو أن يقود برذوناً يخيف الناس به، أو أن يطلق لفرسه العِنان، أو أن يعلو صوته في البيت، هذا كلّه مما يجرح العدالة..

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا)

من إحصان الفَرج غض البصر، من إحصان الفرج عدم الخلوة بأجنبي، من إحصان الفرج ألا تَصْحَب الأراذل، إن صحبتهم جرحوا عدالتك، من إحصان الفرج ألا تتحرك خطوةً نحو شيءٍ لا يرضي الله عزّ وجل، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)

(سورة الإسراء)

ينبغي أن تبقي بينك وبين المعصية هامش أمان.

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: الآية 187)

أبقوا بينكم وبينها هامش أمان.

فهذه مريم ابنة عمران أحصنت فرجها، فإذا طَبَّق الإنسان وسائل حفظ الفرج حفظه الله عزّ وجل، وما من إنسان يقع في الفاحشة إلا بسبب أنه لم يأخذ بأسباب حفظ الفرج، ،

أضرب لكم هذا المثل: صخرةٌ مُتَمَكِّنَةٌ في قمة جبل، أنت أمام أحد الخيارين ؛ إما أن تبقيها في مكانها المنيع، وإما أن تدفعها، إن دفعتها فلن تستقر إلا في قاع الوادي، هناك من يَزْعُم أنه يدفعها لتقطع متراً واحداً، إن دفعتها من قمة الجبل فلن تستقر إلا في قعر الوادي، وكذلك الشهوة، إما أن تضبطها كما أراد الله عزّ وجل، فإن لم تضبطها فالأمر لا ينتهي إلا إلى قاع الوادي.

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا)

(سورة التحريم)

2 ـ معنى: أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا

بالمناسبة في البلاغة شيء اسمه الاستخدام، يضربون على هذا الضرب من البلاغة.

مثلاً: تقول لإنسان: أقر الله عين الأمير.. أيْ عينه هذه، وأجرى له ماءها.. عين الماء.. ووقاه الله شرّها.. عين الحسود.. أنت ماذا فعلت ؟ ذكرت العين على حقيقتها، ثم أعدت عليها ضميراً إلى معنىً مجازيٍ لها، ثم أعدت ضميراً ثالثاً إلى معنى مجازي لها، فالفرج فتحة القميص، هي أحصنت فرجها.

(أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا)

3 ـ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا

هذه الهاء تعود على معنىً آخر من معاني الفرج، وهي فتحة القميص، جيب الرداء.

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا)

أي أنها جاءت بسيدنا عيسى من دون أب، وهذه معجزة.

(وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ)

4 ـ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ

الإيمان تصديق، المؤمن هو الذي يصدِّق بكلام الله، يصدق وعد الله، يصدق وَعيد الله، يصدق منهج الله.

(وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ)

المنقطعين لله.

هذه آيةٌ ثالثة.

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ)

لذلك لما ربنا عزّ وجل قال:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ)

(سورة المؤمنون)

ملخص القول:

الذي يبتغي وراء زوجته بقية الله خير لكم، ماذا بقي لك من النساء ؟ زوجتك، لا تثريب عليك، ما سوى الزوجة محاسبٌ أشد المحاسبة.

1 ـ علاقة المعصية بنتائجها الحتمية:

وشيءٌ آخر أيها الإخوة أذكره لكم، الإنسان إذا سلك منهج الله عزّ وجل، فغض بصره عما سوى زوجته أكرمه الله بمودةٍ بالغةٍ بينه وبين زوجته، أما إذا أطلق بصره دَفَعَ الثمن باهظاً في بيته، وكلّ شيء له ثمن، وإنّ كل طاعةٍ لله فيها بذور نتائجها، فلو أن إنسانا لمس مدفأة مشتعلة فاحترقت يده، نقول: لمس المدفأة سببٌ علميٌ لاحتراق اليد، فإن كل طاعةٍ هي سببٌ علميٌ لنتائجها، وإن كل معصيةٍ

هي سببٌ علميٌ لنتائجها، فلذلك هناك علاقةٌ علمية بين المعاصي ونتائجها وبين الطاعات ونتائجها، فهذه السيدة الكريمة الصدّيقة:

(الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ)

2 ـ يعنينا من القصة الدروس والعبر لا الأحداث:

أيها الإخوة الأكارم... لا يعنينا قصةٌ وقعت قبل ألفي عام، الذي يعنينا من هذه القصة الحقيقة التي تَشُعُّ منها، الذي يعنينا من هذه القصة القاعدة التي قَعَّدَها الله في هذه القصة، الذي يعنينا من هذه القصة السنة التي بينها الله عزّ وجل من خلالها:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة فاطر: الآية 18)

كلٌ محاسبٌ بعمله.

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: الآية 286)

لا يطمع الإنسان أن يصل إلى الجنة إلا إذا كان على صلةٍ طيبةٍ بأهل الإيمان، لا يصل إلى الجنة إلا إذا كان مستقيماً على منهج الواحد الديان، والذي يخرج عن منهج الله بضغطٍ من قريبٍ منه، فهذا القريب لا ينفعه، لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

3 ـ المرأة مستقلة في دينها، وهي مسؤولة عن عملها:

فأول شيءٍ أتمنى أن يكون واضحاً في هذا الدرس أن المرأة مستقلةٌ في دينها، وفي إيمانها عن زوجها، وأكبرُ مثلٍ امرأة فرعون، صدِّيقة تحت يدي كافرٍ طاغٍ، ومع ذلك لم يستطع أن يحملها على أن تعبده، ولم تخضع له، وأطاعت ربها، وهذا الذي أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون واضحاً لديكم، لا تعتذر بعذرٍ رفضه الله عزّ وجل، لا تقل امرأةٌ: لا أستطيع، هكذا زوجي يريد، المرأة الصالحة ترضي الله عزّ وجل، وترضي زوجها في حدود منهج الله، أما أن تستجيب له في معصية فعندئذٍ لا تنجو من عذاب الله، لأنها مسؤولةٌ مسؤوليةً تامة عن عملها.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الحديد 057 - الدرس (1-8): تفسير الآية 1 1

سورة الحديد 057 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 2-6 13

سورة الحديد 057 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 7-10 23

سورة الحديد 057 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 11-15 36

سورة الحديد 057 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 17-20 49

سورة الحديد 057 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 21-26 61

سورة الحديد 057 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 25-27 74

سورة الحديد 057 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 28-29 85

سورة المجادِلة 058 - الدرس (1-4): تفسير الآيات 1-7 98

سورة المجادِلة 058 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 8-10 111

سورة المجادِلة 058 - الدرس (3-4): تفسير الآيات 11-13 124

سورة المجادِلة 058 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 14-22 138

سورة الحشر 059 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1- 5 152

سورة الحشر 059 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 6- 7 171

سورة الحشر 059 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 8- 17 191

سورة الحشر 059 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 18- 21 211

سورة الحشر 059 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 22- 24..... 229
سورةالممتحنة060 - الدرس(1-5): تفسيرالآيات 1-5..... 247
سورةالممتحنة060 - الدرس(2-5): تفسيرالآيات 4-5..... 262
سورةالممتحنة060 - الدرس(3-5): تفسيرالآيات 6-9..... 276
سورةالممتحنة060 - الدرس(4-5): تفسيرالآية 10..... 290
سورةالممتحنة060 - الدرس(5-5): تفسيرالآيات 10-13..... 304
سورة الصف 061 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1- 4..... 321
سورة الصف 061 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 5- 9..... 340
سورة الصف 061 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 10- 14..... 358
سورة الجمعة 062 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1- 4..... 374
سورة الجمعة 062 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 5- 8..... 394
سورة الجمعة 062 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 9- 11..... 411
سورة المنافقون 063 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 1 - 8..... 423
سورة المنافقون 063 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 9 - 11..... 436
سورة التغابن 064 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1-4..... 450
سورة التغابن 064 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 5-6..... 462
سورة التغابن 064 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 7-8..... 474
سورة التغابن 064 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 9-13..... 487

سورة التغابن 064 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 12-14..... 500

سورة التغابن 064 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 15-18..... 517

سورة الطلاق 065 - الدرس (1-6): تفسير الآية 1..... 534

سورة الطلاق 065 - الدرس (2-6): تفسير الآية 1..... 550

سورة الطلاق 065 - الدرس (3-6): تفسير الآيتان2-3..... 566

سورة الطلاق 065 - الدرس (4-6): تفسير الآيتان4-5..... 583

سورة الطلاق 065 - الدرس (5-6): تفسير الآيتان 6-7..... 599

سورة الطلاق 065 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 8- 12..... 614

سورة التحريم 066 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1 - 4..... 629

سورة التحريم 066 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 4 - 5..... 639

سورة التحريم 066 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 6 - 7..... 649

سورة التحريم 066 - الدرس (4-5): تفسير الآية 8..... 665

سورة التحريم 066 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 9 - 12..... 681

الفهرس..... 695

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

القرآن الكريم

تفسير سور جزء تبارك 2

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-2 قدرة الله المطلقة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-03-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة المُلك..

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الملك)

قال عليه الصلاة والسلام منوّهاً إلى فضل هذه السورة:

((وددتُ أن تبارك الذي بيده الملك في قلب كل مؤمن))

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((سورة الملك من قرأها في ليلةٍ فقد أكثر وأطيب))

وروي عنه أيضاً أنه:

((من قرأها في ليلةٍ لم يضرّه الفتّان " أي: الشيطان))

فكلمة تبارك تعني: تعاظم خيره، فربنا عزّ وجل يبيّن لنا أن خيره عظيم، وقدرته لا حدود لها، وأنه خلقنا ليُسعدنا، وخلقنا لجنةٍ عرضُها السماوات والأرض.

الكون في الأصل مبنيٌ على إسعاد الإنسان، مبنيٌ على العطاء، فلذلك كانت تبارك تعني أن الله سبحانه وتعالى خيره كثير وعطاؤه بلا حدود، وهو العاطي الذي لا يُسأل، وإذا أعطى الإنسان أدهشه، وما طالبك إلا بطاعته في عمرٍ محدود في هذه الدنيا و لك مقابل ذلك جنةٌ عَرْضُها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين، وطاعته متوافقةٌ مع فطرتك وطبيعتك وهي طاعة مستطاعة:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

و طاعته مُسْعِدَة و تحفظ الإنسان من كل سوء، وهي ميسرة له ضمن استطاعته، وهي السبب في عطاءٍ أبديٍ إلى يوم القيامة، لذلك قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

أراد أن يبين هنا شيئاً آخر.. وهو أن المُلك بيد الله، وهذه كلمةٌ لها ما وراءها.

فإذا كان الملك بيد الله فلا تخشَ أحداً إلا الله، و لا ترجو غيره، ولا تضعضع لسواه، و لا تبذل ماء وجهك أمام إنسانٍ ضعيفٍ مثلك..

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

فهو ملِك كل شيء، من أدَقّ الأشياء إلى أكبرها، و من أقربها إلى أبعدها، ومن أخطرها إلى أجَلِّها، فكل شيءٍ بيده خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً، فهو الذي خلق..

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

ما من دابّةٍ مهما بدت لك عاتية قوية إلا هو آخذ بناصيتها.

أيها الإخوة الكرام... لو تعلمنا حقيقة التوحيد لكنا في حالٍ أخرى غير هذه الحال، فالتوحيد شيء وأن تؤمن بالله خالقاً شيء آخر، فالإيمان بالله خالقاً هو حدٌ مشتركٌ بين كل الخلائق إلا قلة قليلة جداً عاندت الحق وجَحَدَت ما هو واضحٌ كالشمس، ويوم القيامة تقول:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

يقول الله عزّ وجل:

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأنعام)

فإيمانك بالله خالقاً شيء، و إيمانك به فعّالاً و أن الأمر كله راجعٌ إليه شيءٌ آخر...

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

فأنت حينما تتأكد أن الأمر بيده وحده لا تتجه إلى سواه، ولا ترجو سواه، ولا تخاف من سواه، ولا تَعْقِدُ الأمل على غيره، ولا تتكل إلا عليه، ولا تَسعد إلا بقربه.

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا: من أدق الأشياء حركة الإنسان، فهل أحدنا يملك حركته ؟ فإذا تجمدت نقطة دمٍ صغيرة مثلاً في أحد أوعية الدماغ فَقَدَ الإنسان الحركة، فالحركة بيد من ؟ بيد الله عزّ

وجل، وحينما يفقد الإنسان حركته يتمنّى موته أقرب الناس إليه، ويعبّر الناس عن هذا بأدعية كثيرة من مثل: **" الله يخفف عنا ".**

و حينما يفقد الإنسان بصره أو سمعه، أو عندما يختل عقله، يتوسط له أقرب الناس إليه (أولاده) ليضعوه في مستشفى المجانين.

فأنت الآن عقلك في رأسك، و ترى بعينيك، و تسمع بأذنك، و تنطق بلسانك، كل هذه الأشياء أنت لا تملكها لكن الله يملكها، لكنك إن غضضت عينك عن محارم الله، أو إن بكت عينك من خشية الله، فإنك ترجو الله سبحانه وتعالى ألا يصيبك بها.

فعين بكت من خشية الله، وعينٌ غضت عن محارم الله، و لسانٌ نطق بذكر الله، وأذنٌ ما استمعت إلا إلى كتاب الله، و رجلٌ لم تمش إلا لقضاء حاجة الناس و لخدمة الخلق، و يدٌ لم تستعمل إلا في العطاء، فهذه الحواس وتلك الأجهزة والأعضاء إذا وظِّفت في طاعة الله عزّ وجل، فنرجو من الله عزّ وجل أن يحفظها للمؤمن طيلة حياته، وهذا معنى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا))

(من سنن الترمذي: عن " ابن عمر ")

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

نعمة الأهل والأولاد والبيت:

أهلك الذين هم في البيت بيد من ؟ بيد الله عزّ وجل، إما أن يسلس لك قيادهم وإما أن تستعصي عليك.

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

أولادك ! إما أن يكونوا قُرّة عين، وإما أن يكونوا أحد أكبر مصائب الدنيا، فمن علامات آخر الزمان أن يكون الولد غيظاً لأبويه، والمطر قيظاً، ويفيض اللئام فيضاً ويغيض الكرام غيضاً.

فهذا البيت الذي تسكنه بيد من ؟ بيد الله عزّ وجل، والدليل على ذلك: أن خمس درجات من زلزال يقلب المدينة رأساً على عقب، فتتهدم الأبنية ويبدؤون بالبحث عن الضحايا، وهذا كله يحدث في ثوانٍ.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: آية " 61 ")

الله جلّ جلاله هو الذي جعلها مستقرة ولو شاء لزلزلها فجعل عاليها سافلها.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

الصواعق، البراكين، القذائف.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

الزلازل، الألغام..

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

لأن الإنسان إذا بطشَ بطش جباراً.

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

تبارك ؛ أي: تعاظم خيره.

الملك والملكوت:

بيده الملك ؛ أي: بيده كل شيء.

إلا أن بعض العلماء قال: إن الملك شيء والمَلكوت شيءٌ آخر.

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة يس)

وهنا:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

فالملك: للأشياء المادية، والملكوت: للأشياء النفسية.

فربنا سبحانه وتعالى تنزّه عن كل ما لا يليق به في معاملة النفوس، وعظم خيره وعظمت قدرته في تدبير الأجسام.

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

معاني (تبارك):

1- تبارك، أي: تعاظم خيره.

2- وقال بعض العلماء، وهو الإمام الحسن: تبارك أي تقدّس، والتقديس هو التنزيه، والتنزيه هو التسبيح.. فسَبّحَ الله ؛ أي: نزّهه عن كل ما لا يليق به، ومَجّده وخضع له.

3- و بعض علماء التفسير حمل معنى تبارك على التسبيح لقول الله عزّ و جل:

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة يس)

و..

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

4- وبعضهم قال: تبارك أي دام، فهو الأوّل بلا بداية والآخر بلا نهاية، و هو الأول ولا أول قبله، وهو الآخر ولا آخر بعده .

(الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

تجليات الملك في الكون:

فالمُلك تشمل الكون كله، فهو الذي بيده السماوات والأرض، و قد ذكرت لكم من قبل أن مركبةً أُرسلت إلى المُشْتَري قبل سبعة أعوام بالتحديد، وصلت إلى المشتري قبل عامٍ وقد
بقيت تمخر عُباب الفضاء ست سنوات بأعلى سرعةٍ وصلها الإنسان.. وهي أربعون ألف ميل في الساعة.. وعلى هذه المركبة مرصدٌ عملاق وهو قُرْبَ المشتري، هذا المرصد رصد أبعد مجرةٍ اكتشفت حتى الآن.. تبعد ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، وإن أقرب نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض يبعُد عنا أربع سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية ثلاثمائة ألف كيلو متر، فكم يقطع في الدقيقة ؟ وكم يقطع في الساعة ؟ وكم يقطع في اليوم ؟ وكم يقطع في العام ؟ وكم يقطع في أربعة أعوام ؟ بإمكان كل منكم في البيت اليوم أن يمسك آلةً حاسبة وأن يضرب ثلاثمائة ألف بستين، ثم بستين، ثم بأربعة وعشرين ثم بثلاثمائة وخمسة وستين ثم بأربعة، عندها سيعرف كم يبعد عنا هذا النجم الملتهب الذي هو أقرب نجمٍ على الإطلاق إلى الأرض، و تصوّر أن لهذا النجم طريق معبّدة وقد ركبت سيّارةً واتجهت إليه بسرعة مائة، ثم قَسِّم هذا الرقم الذي حصلت عليه على مائة، الجواب هو كم ساعة تحتاج إلى أن تصل إليه، ثم قسم على أربعة وعشرين، فستعرف كم يوم يتطلب الوصول إليه ؟ ثم قسم على ثلاثمائة وخمسة وستين، فستجد الرقم قريباً من خمسين مليون عام ؟ أي إن أردت أن تصل إلى هذا الكوكب بمركبةٍ أرضية تحتاج إلى خمسين مليون عام، و بعده عنا أربعة سنوات ضوئية، و هذه المجرة الحديثة التي تبعد عنا ثلاثمائة ألف بليون.. والبليون ألف مليون..و ثلاثمائة ألف بليون أي ثلاثمائة ألف ألفِ مليون.. أي ثلاثمائة و أمامها اثنا عشر صفراً.. فكم بعد هذا النجم ؟ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

فهو يملك هذه المجرة وكل مجرّة، وأقرب دراسة فلكية تقول أن هناك من يقدّر أن في الكون قريباً من مليون مليون مجرة، وأن في كل مجرةٍ قريباً من مليون مليون نجم، وأن بعض نجوم برج العَقرب و اسمه (قلب العقرب) يتّسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، وهناك نجوم حجمها يزيد عن حجم شمسنا بمليون ضعف، وشمسنا تتسع لمليون وثلاثمائة ألف أرض، أي أن شمسنا تكبر أرضنا بمليون وثلاثمائة ألف مرة، وبينهما مسافة قدرها مائة وستة وخمسين مليون كيلو متر،ونجم قلب العقرب في برج العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما..

أهذا الإله يُعصى ؟!

أهذا الإله لا يرجى عطاؤه ؟! لا تُرجى جنّته ؟! لا تُخشى ناره ؟!

أتؤْثر عليه زوجةً تطيعها وتعصيه ؟!!

تؤثر عليه شريكاً تطيعه وتعصيه ؟!!

تؤثر عليه دراهم معدودات تبيع دينك من أجلها ؟!!

تؤثر عليها دنيا محدودة سريعاً ما تنقضي ؟!!

تؤثر دنياك على آخرتك ؟!!!

و ربنا عزّ وجل يقول:

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسّماوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ)

(سورة الزمر)

(تَبَارَكَ الّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

بيده الملك كله، من أدق الأشياء إلى أكبر الأشياء.

من أكبر الأشياء إلى أدق الأشياء:

الحُوَين مثلاً لا يُرى بالعين، يخرج من الإنسان في اللقاء خمسمائة مليون حُوَين، كل حُوَين يتوضع على نواته (و الحُوَين هو خلية لها غلاف و هيولة و نواة) على النواة هناك ما يزيد عن مليون من الأوامر والمعلومات المبرمجة،، وحديث العالم كله اليوم عن هذه الهندسة الوراثية والنسخة المُطابقة (الاستنساخ)، وعن هذا الذي لا يُرى بالعين و الذي يسهم في تشكيل الإنسان وفي تكوين خصائصه وشكله ودمه وأعضائه وأجهزته واستعداداته وقدراته.

فإن ذهبت إلى الكِبَرْ فالكون لا ينتهي فهولا حدود له، وإن ذهبت إلى الصِغَرْ شيء لا يُصدّق.

(تَبَارَكَ الّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

ملك كل شيء، من أدق ذرةٍ إلى أكبر مجرة والنظام واحد، فنظام الذرّات يشبه نظام المجرّات، والذرات عالمٌ قائمٌ بذاته قال تعالى:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

كل ذرةٍ فيها كهارب تسبح حول النواة بنظامٍ مدهش وبسرعاتٍ خيالية.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 28 ")

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟

عظيمات السمع:

إن أصغر عظام الجسم البشري عُظيمات السمع وهي ثلاث عُظيمات مربوطة بغشاء الطبل، فما مهمّتها ؟ مهمتها تكبير الصوت عشرين ضعفاً، فالإنسان يتلقّى موجات صوتية من صيوان أذنه، تدخل هذه الموجات عبر قناة الأذن إلى غشاء الطبل، و غشاء الطبل مربوط بهذه العُظيمات، هذه العُظيمات تكبّر الصوت عشرين ضعفاً، لها مهمةٌ ثانية أيضاً، فلو جاء صوتٌ يمكن أن يخرق غشاء الطبل هذه العُظيمات تخفِّضه، تكبّر وتخَفِّض، ونحن لا يوجد عندنا أجهزة كهربائية تكبّر وتخفِّض في آن واحد، وهذه العظيمات تُكَبّر الصوت الضعيف وتُضْعِف الصوت القوي حفاظاً على سلامة الإنسان، الأذن وحدها آيةٌ من آيات الله، حتى الآن لا أحد يعلم كيف يفرّق الإنسان بين النَغَم والضَجيج، فالنغم ممتع أما الضجيج فهو مزعج، و كلاهما أصوات.

العين:

العين قال: هذا الدمع الذي يسيل هو مادة مطهّرة و مُذيبة و مغذِّية و زلقة، وهو ينطلق من غدد بمقدار يحتاج معه إلى قناة تصريف و هي قناة الدمع، قناة الدمع تنقلب في الأنف إلى أداة ترطيب، وللأنف سطوح متداخلة، يمُرُّ الهواء عَبرها، فكل الأجسام الغريبة تتوضّع على هذه السطوح اللزجة المرّطبة بقناة الدمع، والحديث عن العين يطول، الحديث عن شبكية العين يطول أيضاً، فهناك مائة وثلاثين عصية ومخروط في شبكية العين، قسمٌ من هذه المخاريط من أجل اللون الأخضر، وقسمٌ للون الأزرق، وقسمٌ للون الأحمر، وقد تتداخل هذه الألوان وتُرْسَل إشارة إلى الدماغ، فهذا الضوء إذا وقع على هذه المخاريط والعصيّات يجري تفاعلاً على هذه المخاريط والعصيات، و من هذه التفاعل ينشأ تيّار كهربائي يُرسل إلى الدماغ لقراءة الصور، و الحديث عن العين يطول، كما الحديث عن الأذن و الأنف

يطول أيضاً، فربنا سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، أما الآن فهم يريدون أن يغيّروا خلق الله، ولسوف يدفعون ثمن هذا التغيير باهظاً، وأغلب الظن أن العقل البشري حينما يبتعد عن وَحي السماء فإنه يدمِّر نفسه، وما تعانيه البشرية اليوم من أمراضٍ لا دواء لها كالإيدز إنما هو من تفككٍ للأسرة و انهيار الأخلاق، ومن شيوع المخدِّرات و انتشار الجريمة، هذه هي حركة العقل من دون وَحْي السماء و منهج الله عزّ وجل..

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أي: يُعِزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء، فما من إنسان على وجه الأرض -فيما أعلم، وهذا هو الحق -أعزّه الله كرسول الله، ويذل من يشاء.. يحيي ويميت، يغني ويفقر، يعطي ويمنع، وهذا معنى:

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

فأنت تريد الحياة، تريد العِز، تريد الغِنى، ترين الأمن والطمأنينة، و هذا بيد الله.

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1))

لا تبحث عن سعادةٍ بعيداً عن منهج الله، لن تصل إليها، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد: آية " 28 ")

أي أنها لا تطمئن إلا بذكر الله حصراً.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

فلمجرد أن ترى إنساناً معرضاً ذكر الله و تتوهَّم أنت أنه سعيدٌ، فأنت في هذه الحالة تكذِّب هذه الآية.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

5- وقال بعض العلماء:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

أي: مُلك النبوة، فالله هو الذي أعطى النبوة لهذا النبي العظيم، والله سبحانه وتعالى يُعِزُّ من اتبعه، ويذل من عارضه، وهذا هو الدين أمامكم، فأنت تقرأ في صلاة الفجر في دعاء القنوت ؟ **" سبحانه إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت "**

فأعداء الله في الأذلِّين..

(كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي إِنّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(سورة المجادلة)

(وَلَا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

فربنا عزّ وجل هو العزيز...

اجعل لربّك كل عز زك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزك ميت

* * *

أيها الإخوة الكرام... كل شيء يُمَلّك بيد الله، بدءاً من أدق خليةٍ في جسمك إلى أكبر خلية، فمن يملك ضَبْط نمو الخلايا ؟ الله جلّ جلاله، و قد اكتشفوا في الهندسة الوراثية أن هناك جينةً -إن صح التعبير- مسؤولةً عن السرطان في الإنسان، تُجَمّد أو تُفَعّل، فكل إنسان عنده إمكانية هذا المرض من دون استثناء، فإما أن تُعقل وإما أن تُطلق، و بيد من هي ؟ بيد الله عزّ وجل، حتى الآن ليس هناك دواءٌ لهذا المرض، و الحديث عن المورّثات يطول، كما أن الحديث عن الهندسة الوراثية أطول، لكن الذي يبدو للعلماء أن هذه الأوامر -التي هي بيد الله- مسؤولة عن هذه الموضوع، فمن يطلقها من عقالها ؟ و من يحجزها ؟ الله جلّ جلاله..

(الّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

(سورة الملك: آية " 2 ")

فهو الذي خلق الموت، فنحن نحيا لنموت ونموت لنحيا، نحيا في الدنيا، والموت مصير كل إنسان، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت..

فالليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

يوماً على آلةٍ حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازةً

فاعلم بأنك بعدها محمول

* * *

من هو العاقل ؟ العاقل هو الذي يُعِدُّ لهذه الساعة عدتها، فلا بدّ لك من يومٍ تخرج فيه من بيتك ولا تعود إليه إطلاقاً، تخرج لكن ليس على قدميك ولكنك ستخرج محمولاً، ولا أحد مستثنى من هذا الحكم أبداً، فهذه الساعة التي لا ريب فيها ولا بدّ من منها، من يعد لها ؟ أعِدُّوا لهذه الساعة العمل الصالح و طاعة الله و الإكثار من ذكر الله.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

نحيا لنموت ونموت لنحيا حياةً أبدية، هذا هو المعنى الأول.

لماذا قدم الله عز وجل الموت على الحياة ؟؟

1 - قال بعض العلماء: ربنا جلّ جلاله قدم الموت على الحياة، لأن الموت من أوضح مظاهر القهر، فسبحان من قهر عباده بالموت، فالإنسان يكبر ويكبر، و لكن لا بدّ من ساعةٍ يغادر فيها الدنيا، لأن مظهر القهر في الموت أشَد، الإنسان يُقْهَرُ بالموت، والموت من نعم الله الكبرى، و الموت أحياناً يكون ستراً للإنسان ونعمةً له، لكن دعاء النبي كان:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي))

(من صحيح البخاري: عن " أنس بن مالك ")

فالإنسان يفوّض أمره إلى الله، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((خيركم من طال عمره وحسن عمله))

فقد أثنى النبي على إنسانٍ عاش حياةً مديدةً بعملٍ صالحٍ كبير، فأول معنى: أنه قدّم الموت على الحياة لأن في الموت قهراً للإنسان، فالحياة لا يوجد فيها قهر، فإذا ولد طفل فليس هناك قهر، بل إنه يكون قد أقبل على الدنيا، أما في الموت فيخسر فيه الإنسان الذي جَمَّعُه في عمرٍ مديد يخسره في ثانيةٍ واحدة، ثم لا يملك بعدها شيئاً، ولا حتى سِنَّه الذي صنع من الذهب ولا قطعة من أساس بيته ولا مقتنياته كلها تؤخذ منه، يقال لك: الحي أفضل، ثم يذهب إلى القبر بلا شيء، و يُخَلِّفُ ماله وراءه.

2 - وقد قدّم الموت على الحياة لأن الإنسان إذا عاش أمامه خيارات كثيرة، أما حينما يموت

((فوالذي نفس محمدٍ بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

صار لديه خيار صعب، إما نجاةٌ وإما هلاك، هذا المعنى الثاني.

3 - المعنى الثالث: قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله تعالى أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياةٍ ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاءٍ ثم دار بقاء))

حياة وموت، جزاء وبقاء، لذلك ورد أن:

((اعمل لدنياك بقدر بقائك فيها، واعمل لآخرتك بقدر مُقامك فيها، واتق النار بقدر صبرك عليها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه))

ماهو الموت ؟؟

أيها الإخوة الكرام... الموت ليس عدماً مُطلقاً وليس عدماً نسبياً لكنه انفصال الجسم عن النفس وعن الروح، و الإنسان جسمه وعاءٌ له، و نفسُه هي ذاته، وفيه قوةٌ محرّكة هي الروح، فالنفس تذوق الموت؛ أي تخلع عنها هذا الوعاء الذي كانت بداخله، فالموت ليس عدماً لكن انتقال من حالٍ إلى حال والدليل هو الشهيد المضرج بدمائه ماذا يقول الله عنه ؟

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران)

فحينما انتهت معركة بَدر وانتصر فيها النبي وأصحابه الكرام على كفار قريش، خاطب النبي الكريم القَتلى واحداً واحداً بأسمائهم فقال:

((يا فلان، ويا فلان، ويا فلان بأسمائهم واحداً واحد، أوجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي، حقاً لقد كذّبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس. قالوا: يا رسول الله أتخاطب قوماً جَيّفوا ؟!! قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبوا إليّ))

فالموت ليس نهاية الحياة، الموت بداية الحياة الأبدية والدليل قول الله عزّ وجل

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26))

(سورة الفجر)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

نحيا لنموت ونموت لنحيا، الحياة الدنيا تنتهي بالموت، والحياة الآخرة تنتهي بالأبد، بالبقاء، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، الدنيا محدود والآخرة طليقة، وما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر، وإن المؤمن حينما يموت ينطلق من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينطلق الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، هو:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ)

ليمتحنكم، إن عِلّة وجودنا في الأرض الامتحان والابتلاء، والدليل:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

كل شيءٍ تنطوي عليه نفسك سوف ينقلب إلى عمل، و سوف يُجَسَّد ويظهر، فالكريم يظهر كرمه، واللئيم يظهر لُؤمه، والبخيل يظهر بخله، والسخي يظهر سخاؤه، والمستقيم تبدو استقامته، والمنحرف يظهر انحرافه، والصادق يظهر صدقه، والكاذب يظهر كذبه.

أيها الإخوة الكرام... الحياة تُظْهِر ما في الناس، وفي هذا ابتلاء..

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

العمل الصالح سر وجودك، والناس معادن:

هناك استنباط رائع جداً، وهو أن الإنسان خُلِقَ للعمل الصالح، لأن العمل الصالح ثمن الجنة، لذلك الإنسان حينما يموت لا يندم إلا على شيءٍ واحد تقصيره في العمل الصالح:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

والنقطة الدقيقة هي أن سرُّ وجودك وعِلّته أن تعمل عملاً صالحاً يصلح للعرض على الله كي يكون سبباً لدخوله الجنة:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

الإنسان يبدو معدنه.. فيوجد لدينا ذهب أربعة وعشرين، وهناك ذهب واحد وعشرين و ثمانية عشر، و ستة عشر، و إحدى عشر، وهناك نحاس مغطّى بالذهب، و نحاس مُلَمَّع، كما أن هناك معدناً خسيساً، والناس معادن.. لقد رأيت جوهرة في متحف قيل: أن ثمنها مائة وأربعين مليون دولار.. أكبر جوهرة في العالم وهي موجودة في استنبول.. والجوهرة أساسها فحم، فلو أتيت بقطعة فحمٍ مماثلة وازنت بينهما، لوجدت أن كليهما من أصلٍ فَحْمِيّ، لكن هذه جوهرة وهذه فحمة، والناس كذلك، فهناك إنسان كالجوهرة بأخلاقه وعدله، وإنصافه، وورعه، ورحمته، وحبّه للخير، فهو مصدر عطاء، و مصدر أمن للناس، وهناك إنسان يعيش كالطحالب على أنقاض الناس، يبني غناه على إفقارهم،و يبني حياته على موتهم، فالناس معادن..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

فهناك إنسان يتزوّج فيزداد قرباً من الله، وهناك إنسان يتزوج فيفسق، هناك إنسان يسافر فيتفلت، وإنسان يسافر فيزداد قرباً من الله، كما قال الإمام الشافعي: " السفر يزيد التقي تقىً والفاجر فجوراً ". هناك إنسان يغتني فيتفلّت، وإنسان يغتني فيزداد عملاً صالحاً، هناك إنسان يفقر فيكفر، و إنسان آخر يفقر يصبر، فأنت مُمْتَحن كل دقيقة، ممتحن فيما أعطاك وفيما حرمك، فالذي أعطيته أنت ممتحن به، و

مادة امتحانك مع الله، فإن أُعطيت الغنى أنت ممتحنٌ بالغنى، قدّر الله أن تكون فقيراً، أنت ممتحنٌ بالفقر، أُعطيت وسامةً ممتحن بالوسامة، لم تعط الوسامة، ممتحن بعدم الوسامة، أعطيت طلاقة لسانٍ ممتحن بطلاقة اللسان، لم تعط هذه الطلاقة أنت ممتحن بعملك، فإذا كان هناك إنسان غير طليق اللسان لكن عمله طيب فقد نجح.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

أعطيت زوجةً تمتحن بها، هل تضبطها ؟ هل تأخذ بيدها إلى الله أم تطلق لها العنان ما دامت ترضيك؟ أنت ممتحن بالأولاد، ممتحن في كل ثانية، في كل حركة وسكنة.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

فالآية دقيقة جداً، لذلك كان النبي كما قلت في أول الدرس يتمنى عليه الصلاة والسلام أن تكون تبارك الذي بيده الملك في قلب كل مؤمن.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

أنت ممتَحن..

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

أنت مراقَب.

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(سورة النساء)

لينظر كيف تعملون ؟ كيف تعامل زوجتك ؟ كيف تعامل والديك ؟ كيف تعامل أولادك؟ كيف تعامل إنساناً جاهلاً جاء لعندك يستنصحك وأنت موثوق عنده، أتنصحه أم تغُشُّه ؟ أتنصح له أم تبتز ماله ؟، من يعرف ذلك ؟ الله وحده يعرف ذلك، أنت ممتحن، في كل حركة، في كل سكنة، في كل عطاء، في كل منع، في كل صلة، في كل قطيعة، في كل غضب، في كل رضا، أنت ممتحن.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

فمثلاً إذا طرق بابك إنسان صاحب حاجة في وقت غير مناسب، أتطرده أم تشتمه أم تُلبّي حاجته وترى أن الله ساقه إليك ؟ أنت ممتحن فهل تعطيه أم تمنعه ؟ وَطِّن نفسك على أنك ممتحن في كل لحظة، في كل ثانية، في كل ظرف، في كل مكان، في كل زمان، وإذا مشت أمامك امرأة متفلتة فأنت ممتحن بها أتملأ عينيك منها أم تغض بصرك عن محارم الله لتذوق حلاوةً إلى يوم تلاقاه ؟ فالحياة الدنيا خضرةٌ

نضرة، والفتن يقظة، وأنت ممتحنٌ فيها فهنيئاً لمن نجح بالامتحان، هنيئاً لمن وصل إلى الله من خلال طاعته..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

ولعل الله سبحانه وتعالى يتيح لي في درسٍ قادم أن أتباع الحديث في هذه الآية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 2-4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-03-21

بسم الله الرحمن الرحيم

إتقان الله عز وجل في خلقه

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من سورة الملك، ومع الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4))

مقدمة:

ما هي مشكلة المسلمين اليوم ؟؟ولماذا لم تتحقق وعود الله تعالى لهم ؟؟

أيها الإخوة الكرام... لا بدّ من كلمةٍ بين يديّ هذه الآية وهي أن المسلمين اليوم يقرُّون بأن الله خلق السماوات والأرض، وبأن الجنّة حق والنار حق، لكن المشكلة الكبيرة أنهم لا يُطبّقون أمر الله عزّ وجل، ولا شك أن هذه الظاهرة هي ظاهرة مرضية عندهم، أي إن ملياراً ومائتي مليون مسلم –وهم خمس سكان الأرض-وعود الله لهم غير محققة، فأين قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 ")

وأين قول الله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(سورة النور: من آية " 55 ")

هناك وعود كثيرة للمسمين اليوم هي غير محققة، ولا نعني هنا أن الله سبحانه وتعالى يمكن أن لا يحقق وعده، لكن ينبغي علينا أن نشُكّ في مصداقية إيماننا، وإني أحاول أن أضع يدي على مشكلة خطيرة، وهي أن أعداداً غفيرة، ملايين مُملينة لم تتحقق فيهم وعود الله عزّ وجل، والله عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

(من سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة: من آية " 111 ")

وهذا يعني أن هناك مشكلة لديهم، وهذه المشكلة هي عدم الالتزام بالأمر والنهي، فالمسلم يقتنع ويعتقد أن الله خالق السماوات والأرض، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول الله، وأن هذا القرآن كتاب الله، ويؤمن بالجنة والنار بعد الموت، كما يؤمن بالملائكةً التي تكتب الحسنات والسيّئات، و هذه عقيدة كل المسلمين، فأين المشكلة ؟ المشكلة تكمن في عدم التطبيق..

السؤال الثاني: ما السبب الذي يجعل هذا المسلم لا يُطبّق ؟ أنا أقول لكم السبب ببساطة أنه لا يعرف الله، من عرف أمر الله ولم يعرف الله عزّ وجل يتفنّن في التفلّت من أمره، ويتعلّق بأضعف فتوى، وقد يتعلّق بعادات المجتمع وتقاليده، وربما يتعلق بالمنحرفين، يَدّعي أنه لا يعلم وأن الله غفورٌ رحيم، والسبب في دعواه أنه لا يعرف الله، لا يعرف من هو الآمر، وماذا عنده إذا هو أطاعه، وماذا ينتظره إذا عصاه، إذاً فالمشكلة تكمن في أن وعود الله ليست محققة في هذه الأعداد الكبيرة جداً من المسلمين، و الصحابة الكرام رغم قلة عددهم الذي لا يزيدُ عن عشرة آلاف صحابي وصلت راياتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، فكان ذلك هو النصر المؤزّر، قال تعالى:

(وَيَنْصُرَكَ اللّهُ نَصْراً عَزِيزاً)

(من سورة الفتح)

عزيزاً..

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: من آية " 160 ")

السبب إذن هو عدم الالتزام، و سبب عدم الالتزام هو عدم معرفة الواحد الديّان، فالله عزّ وجل في هذه الآيات التي بين أيدينا يبيّن أنك إذا أردت أن تعرف الله فيجب عليك أن تتأمل في مخلوقاته.

مثال على ذلك:

وأنا أضرب لك هذا المثل البسيط: أنت أمام غرفتَي نوم، لم تقع عينك على صانعَي هاتين الغرفتين، أفلا تستطيع أن تعرف من هو الأكثر إتقاناً والأعلى ذوقاً والأنصح عملاً من صنعة هذين النجّارَين ؟

(وَلِلّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل: من آية " 60 ")

فربنا عزّ وجل يقول:

(تَبَارَكَ الّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الّذِي)

الآية الأولى شُرِحت في الدرس الماضي..

(الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من آية " 101 ")

لماذا ينبغي علينا أن ننظر في السماوات والأرض؟؟

انظروا.. فعل أمر، وقال علماء الأصول: " كل أمرٍ في القرآن الكريم يقتضي الوجوب". نحن فهمنا أن الأوامر إنما هي خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج،، لذلك كان الدين عندنا في تراجع، أما الصحيح فهو أن نعتقد أنّ أي أمرٍ في هذا القرآن يقتضي الوجوب، لماذا يقول الله عزّ وجل:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

من أجل أن نعرفه، ولماذا ينبغي أن نعرفه ؟ من أجل أن نطيعه، ولماذا1 ينبغي أن نطيعه ؟ من أجل أن نسلم و نسعد، ففي النهاية كل واحدٍ منّا شئتم أم أبيتم يبحث عن سلامته وسعادته، فأنت تعرفه من أجل أن تطيعه، وتطيعه من أجل أن تَسْلَمَ وتسعد، هذا ملخصُ ملخصِ الملخص، إذاً:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ)

آيات كونية:

الشمس والقمر مثلاً آية من آيات الله، فكل شيءٍ علاك فهو سماء، والشمس والقمر من السماء، والنجوم من السماء كذلك، يقول الله عزّ وجل:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً)

قال بعض علماء التفسير: " هذه الكواكب التي تدور حول الشمس.. المجموعة الشمسية..

(سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً)

السماوات الطباق:

أي إن السماء هنا طبقة، فالطبقة التي فيها القمر هي هذه سماء، والطبقة التي فيها المريخ هي سماء أيضاً، كذلك عُطارد و المُشتري و زُحل، هذه النجوم السيّارة حول الشمس هي سماوات،و الطبقات التي بعدها سماوات، وكلمة (سبعة) عند بعض علماء اللُّغة تدلُّ على التَكثير لا على العدد، أي تفيد السبعة ومضاعفاتها التكثير، أي أن هناك طبقات من السماء لا يعلمها إلا الله، فإلى أين هي تمتد ؟ ذكرت هذا

كثيراً: إن أقرب نجم يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، القمر يبعد ثانية ضوئية.. ثلاثمائة وخمسة وستين ألف كيلو متر.. ذَهَبَتْ مركبة إلى القمر مرة فكلّفت أربعة وعشرين ألف مليون دولار، قطعت من الفضاء الخارجي ثانيةً واحدة، فالشمس ثماني دقائق،و المجموعة الشمسية ثلاثة عشر ساعة.. إن أردنا أن نقيس المجموعة الشمسية من أقصاها إلى أقصاها فهي تبلغ ثلاثة عشر ساعة، الشمس تبلغ ثماني دقائق، القمر ثانية.. و أقرب نجم إلى المجموعة الشمسية مُلتهب، والكوكب والنجم يختلفان، الكوكب منطفئ.. الأرض كوكب والقمر كوكب، أما الشمس نجم وهي أقرب نجم ملتهب إلى المجموعة الشمسية، وهو يختلف عن الشمس و بعده عنّا أربع سنوات ضوئية، لو تخيّلنا طريقاً إلى هذا النجم المُلتهب لاحتجنا إلى خمسين مليون عام كي نصل إليه، توجد المرأة المسلسلة وهي مليون سنة ضوئية، توجد بعض المجرّات وهي أربعة وعشرين ألف مليون، أما أحدث مجرّة فهي ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، هذه اكتُشفت منذ سنة بمرصد عِملاق على مركبة فضائية أُرسِلت إلى المشتري، بقيت تسير في الفضاء ست سنوات ورصدت أبعد مجرّة ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، أنت فقط قل لي: أربع سنوات ضوئية يقابلها خمسين مليون سنة، فكيف بثلاثمائة ألف مليون سنة ضوئية ؟ هذه السماء كم مجرّة فيها؟ رقم تقريبي مثلاً هو مليونُ مليون مجرّة، المجرّة كم نجم ؟ مليونُ مليون نجم، وكل نجم له حجم، وله سرعة، وله مسار مُغلق، ويدور حول نجمٍ آخر بنظامٍ من التجاذب عجيب..

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد:من آية " 2 ")

رفع السماء..

(وَالسّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ)

(من سورة الذاريات)

فالسماء مرفوعة بغير عَمَد، ما هذه العَمَد ؟ العمد هو قِوى التجاذب، الأرض تدور حول الشمس، ما الذي يربطها حول الشمس ؟ قوة جذب الشمس لها، هذه القوة غير مادية، فأنت أحياناً تُمسِك بمغناطيس تضعه أمام مسمار فإذا فعلت ذلك فإن المسمار يتحرّك، وبينهما مسافة فارغة، معنى هذا أنه توجد قوى جذب غير مادّية سموها.. ساحة مغنطيسية.. هذه السماوات التي هي مليونُ مليون مجرّة، وفي كل مجرّة مليون مليون نجم، كل نجم يتحرّك حول نجم آخر، وكل نجم له حجم، وله سرعة، وله كثافة، وله نظام، مجموع هذه الحركات تُشَكِّل هذا الكون، فلو أن هذا الكون توقّف عن الحركة، ما الذي يحصل ؟ سيصبح الكون كلّه كتلةً واحدة، لأن الأكبر يجذب الأصغر، أما بالحركة ينشأ عن الحركة قوى نابذة وقوى جاذبة، من هذه الحركة تكون القوى النابذة تُكافِئ القوى الجاذبة، فأصبح هناك توازن حركي، و التوازن الحركي شيء رهيب، أوضِّح لكم الحقيقة: لو أن الأرض تفلّتت من جاذبية الشمس وسارت في

مسارٍ مستقيم في الفضاء ما الذي يحصل ؟ يموت كل كائنٍ على وجه الأرض لأن البرودة تصل إلى مائتين وسبعين تحت الصفر.. هو الصفر المُطلق الذي تقف معه الحياة، بل الذي تقف معه حركة الذرّات.. لذلك:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا)

(سورة فاطر:من آية " 41 ")

زالتا: أُهلِكتا، فالأرض تدور حول الشمس بمسار مغلق، وهذه الدورات تستغرق ثلاثمائة وخمسة وستين يوم وربع، فلو أنها تفلّتت من جاذبيتها حول الشمس وأردنا أن نُرجِعها بكوابل أو بحبال- وهذا خيال علمي مَحض - إذن لاحتجنا إلى مليون مليون حبل من الفولاذ المضفور وقطر كل حبلٍ خمسة أمتار، كل حبل يملك قوة جذب تساوي مليونين طن، أي الأرض مربوطة بقوة جذب إلى الشمس هي مليون مليون ضرب(×) مليوني طن، فإذا أردنا أن نزرع هذه الحبال على سطح الأرض المقابل للشمس لفوجئنا أن كثافة هذه الحبال على الشكل التالي: نجد أن الحبل قطره خمسة متر وبين كل حبلين مسافة حبلٍ واحد، فنصبح أمام غابة من الحبال تُعيق الحركة والبناء والزراعة الصناعة والسفر.

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد:من آية " 2 ")

أي بعمدٍ لا ترونها، فهل يوجد لدينا في الأرض كلّها مهندس يبني بناء من الطابق الثالث من دون دعامات، هل هذا ممكن ؟ هل من الممكن بناء عشرة طوابق تبدأ من الطابق الثالث أما من الأسفل فلا يوجد شيء إطلاقاً، أي من الممكن أن تمشي تحته، تتحرك حركة كاملة، يبدأ من الطابق الثالث و يمتد إلى فوق، هذا شيء مستحيل، أما الكون فهو هكذا..

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

ولكن هذه القوة، وهي مليون مليون طن ضرب (×) اثنين مليون كانتمن أجل أن تحرف الأرض ثلاثة ميليمترات كل ثانية ليتشكّل مسار مغلق حول الشمس، فتصور أن مليونَ مليون ضرب (×) اثنين مليون طن هي قوة جذب الشمس للأرض من أجل أن تدور حولها، ومع ذلك أيها الإخوة الكرام... الأرض مسارها إهليلجي وليس كروياً، الإهليلج له قطر أصغر وقطر أطول، و الأرض في القطر الأصغر ترفع سرعتها، فلو لم ترفع سرعتها لزادت قوة جذب الشمس لها فترتطم عند ذلك بالشمس، هي ترفع السرعة لينشأ قوة نابذة تُبعدها عن الشمس، أما حينما تصل إلى القطر الأطول تخفض سرعتها، أما لو بقيت سريعة لتفلّتت من جاذبية الشمس..

الشيء الثالث: إنها ترفع سرعتها بالتدريج وهذا من لطف الله لنا، وتخفض سرعتها بالتدريج وهذا من لطف الله لنا أيضاً، الرفع بالتدريج تسارع بطيء وتباطؤ بطيء، وإلا لانهدم كل ما على الأرض من أبنية، فلو رفعت السرعة يُهدم فجأةً كلُّ شيءٍ على الأرض، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من آية " 101 ")

فيجب عليك أن تنظر في السماوات والأرض من أجل أن تعرف من هو الله ؟ من هو الذي أنزل هذا القرآن ؟ من هو الذي أرسل هذا النبي الكريم ؟ ما معنى افعل ولا تفعل ؟ ما معنى المنهج الذي أمرت أن تسير عليه ؟ وإنما أردت من هذه المقدمة أن أبين لكم: أنك لن تطيع الله إلا إذا عرفته، وأي منهجٍ يُلغي معرفة الله ويؤكِّد على معرفة أمره فإنّ هذا منهجٌ أعرج، هذا منهجٌ غير صحيح، لا بدّ من أن تعرف الله، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية:

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقيٌ القلب نقيٌ اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسوء أحبّني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

إخواننا الكرام... لو جلست لتتحدّث عن الله عزّ وجل ينبغي أن تتحدّث في هذه الموضوعات الثلاث: في آيات الله الدالّة على عظمته من أجل أن نُعَظِّمه ومن أجل أن نعظِّم أمره بالتالي، ويجب أن تتحدث عن نعم الله من أجل أن نحبه، ويجب أن تتحدث عن بعض البلاء الذي يسوقه الله لبعض عباده من أجل أن تخافه، فلا بدّ من أن تعظِّمه، ولا بدّ من أن تحبّه، ولا بدّ من أن تخافه، لذلك:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً)

سماءٌ فوق سماء، و هناك بحوث طويلة لا تنتهي حول كل سماء، مثلاً: نكون نحن في أيام الصيف الحارّة في درجة ستة وثلاثين أو ثمانية وثلاثين أو اثنين وأربعين أحياناً، وربما خمسة وأربعين، شيء لا يُطاق،فإذا ركبت طائرة حديثة مثلاً، تلاحظ على شاشةٍ أمامك الحرارة التي هي خارج الطائرة، فتفاجأ أنه على ارتفاع واحد وأربعين ألف قدم الحرارة هي خمسين تحت الصفر.. وأنت في فصل الصيف في الأرض درجة الحرارة خمس وأربعين فوق الصفر، أما على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم فهي خمسين تحت الصفر.. معنى ذلك أن هذه السماء غير هذه السماء، هذه السماء فيها ضغط جوّي مُرتاح، أما فوق فالطائرة تحقن ثمانية أمثال حجمها من الهواء من أجل أن ينشأ ضغطٌ جويٌ في الطائرة مساوٍ لضغط الأرض الجوي، وإلا لخرج الدم من الآذان، و لضاق الصدر، إذاً كلّما صعدت إلى السماء وجدت العجب العُجاب.

حدود العقل:

العبرة من هذه الآيات هي أن ينطلق الفكر لمعرفة الله عزّ وجل من خلال صنعته، هذا الطريق هو طريق آمن أيها الإخوة، الفكر حينما ينطلق لتُعمله في ذات الله تَهْلك، هناك أناسٌ لا يحلو لهم إلا الخوض في ذات الله، في أفعال الله، هذه متاهات لا تنتهي، يجب أن تبقى في مخلوقات الله لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

مثال بسيط:

كنت أضرب هذا المثل دائماً: أن بقّالية تحتاج إلى ميزان دقيق جداً، هذا الميزان من أرقى أنواع الموازين وهو غالٍ جداً إلا أن مهمّته محدودة، وحساسيته من خمسة غرامات إلى خمسة كيلوغرامات فقط، إنك تؤمن بهذه الحقيقة، وهي أن هذا الميزان لا يمكن أن يَزِن لك كل شيء، بل يزن لك ضمن حدود معينة، و العقل هو ميزان أيضاً.

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(من سورة الرحمن)

أعطاك ميزاناً، ولكن هذا الميزان ينبغي أن لا تستخدمه إلا في مخلوقات الله، أما إذا أردت أن تُعْمِلَهُ في غير ما خُلِق أعطاك نتائج مضحكة، ونتائج عجيبة، وقد يتحطّم، كمن يحاول أن يزين سيارته بميزان البقالية إنه يحطمه، فكيف لك أن نأخذ الميزان ؟ كيف نزن هذه السيارة ؟ نسأل المعمل عن وزنها، فكل شيءٍ عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الوحيُ به، فهناك دور للعقل ودور للتلقي، فالعقل يفكِّر في مخلوقات الله فيصل إلى الله، والعقل مركبة.. سيّارة.. يمكن أن توصلك إلى ساحل البحر، أما هذه السيارة مهما كانت رقية، أو كانت أغلى أنواع السيّارات في العالم فهي لا تستطيع أن تخوض عُباب البحر هذامستحيل، هذه المركبة قد تصل بك إلى ساحل البحر ولن تستطيع أن تخوض بها عُباب الماء، والعقل يصل بك إلى الله ولن يستطيع أن يخوض في ذات الله، لذلك دائماً وأبداً اعلم هذه الحقيقة، هناك دائرة المحسوسات و أدواتها الحواس الخمس، و هناك دائرة المعقولات وأداتها العقل، هناك دائرة المغيّبات و أداتها الخبر الصادق، فإياك أن تنقُل قضيةً من المغيّبات إلى المعقولات عندئذٍ تكلِّف العقل ما لا يطيق، فمهمة العقل التفكّر في خلق السماوات والأرض..

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ)

ما هو التفاوت المقصود ؟؟

هناك تفاوت.. بربكم أليست النملة تتفاوت مع الفيل ؟ نملة والفيل، هناك سمك زينة طوله ميلي أو اثنين ميليمتر وهو فوسفوري شفّاف، أليست هذه السمكة الصغيرة تتفاوت مع الحوت الأزرق الذي يزن مائة وخمسين طن ؟ فوجبة طعامه المعتدلة أربعة طن، و إرضاع أُنثاه ثلاثمائة كيلو، ثلاث رضعات تبلغ طن حليب كل يوم، فهذا الحوت الأزرق ألا يتفاوت مع سمكةٍ صغيرةٍ جداً ؟ التفاوت هنا بمعنى آخر: أي إنك لن تجد في صنعة الله تفاوتاً، كل صنعة الله متقنة..

(صُنْعَ اللّهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ)

(من سورة النمل: من آية " 88 ")

التفاوت لا في الحجم، فالحجوم متفاوتة، وليس في التعقيد لأن التعقيدات متفاوتة كذلك، فهناك حيوان وحيد الخلية (كائن وحيد الخلية) كالمتحول الزحاري، أما الإنسان فهو من أعقد المخلوقات فيوجد بدماغه مائة وأربعين مليار خلية، فيقشرة دماغه فقط هناك أربعة عشر مليار خلية، في رأسه يوجد ثلاثمائة ألف شعرة، والآن هناك موضوعات كثيرة حول الهندسة الوراثية والاستنساخ، وهي شيء معقد جداً، فالإنسان من أعقد المخلوقات، إذاً هناك تفاوت ؛ تفاوت بالحجم، تفاوت بالحواس، فهناك حواس العقدة العصبية، كحاسة البصر.. عقدة عصبية.. وهناك العين فيها بالشبكية مائة وثلاثين مليون مخروط وعُصيّة، وهي تفَرّق بين درجتين من ثمانمائة ألف درجة، هناك جهاز نطق، و جهاز شم، و جهاز سمع، فالكلب يشم مليون ضعف الإنسان، و الصقر يرى ثماني أمثال الإنسان، و بالحجم يوجد تفاوت، و بالشكل يوجد تفاوت أيضاً، وكذلك بالألوان هناك تفاوت، وبالحواس الخمس تفاوت، كما يوجد تفاوت بالقيمة، فيوجد حيوان ثمنه مليون وهو غال جداً، ويوجد حيوان قتله يحتاج إلى مليون، هناك تفاوت لكن الآية تقول:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

أي: في الصنعة، فهناك شركات الآن تنتج نوعين من البضاعة: نوع للاستعمال المنزلي، ونوع للاستعمال الصناعي، فالآلة صناعية تعمل باستمرار،وهي متقنة جداً، ومتينة جداً، وهناك آلة تستعمل في المنزل مرّة في الأسبوع من المواد البلاستيكية فتكون ضعيفة، بحسب استعمالها، فهذا المصنع يصنع تارةً آلة منزلية بسيطة غير معقّدة، غير متينة، وغير مقاومة، وتارةً يصنع آلة من أقسى المعادن، مقاومة، متينة، فيها احتياطات بالغة، هذا المصنع صنعته متفاوتة من حيث الإتقان، لكن الله سبحانه وتعالى صنعته غير متفاوتة.

البعوضة:

فلو أخذنا أحقر مخلوق تراه عينك.. بعوضة.. ما البعوضة ؟ جناحاها يرفّان أربعة آلاف رفّة في الثانية، لها ثلاثة قلوب: قلب مركزي، وقلب لكل جناح، وعندها جهاز رادار، وجهاز تحليل، وجهاز تخدير، وجهاز تمييع، تبحث عن ضحيتها بالرادار والضوء مُطفأ، وتأخذ من دمه شيئاً فتحلّله فإن وافقها مصّت من دمه، و من أجل أن يعبر الدم خرطومها لا بدّ من تمييع الدم، ومن أجل ألا تُقتل وهي تمتص الدم يجب أن تُخَدِّر، تخدر وتميع تمتص الدم وتحلل وتأتي بالرادار، إذا كان السطح ثقيلاً فلها محاجم تثبت على الضغط، وإذا كان السطح خشناً فلها مخالب، وهذه البعوضة الشيء العجيب فيها هو أن الإنسان يتعامل معها بطريقةٍ عجيبةٍ جداً..

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

الآية الكريمة واضحة جداً:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة:من آية " 26 ")

فالبعوضة فيها تعقيد لا يعلمه إلا الله، هذه التي لا قيمة لها عندك إطلاقاً، تقتلها وأنت مرتاح، إذاً:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)

ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ؛أي: من تباين في الصنعة

(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3))

أي هل ترى من خلل في الصنعة ؟

ماء العين:

ذكرت لكم من قبل: أن الإنسان قد يذهب إلى القُطب وقد تنخفض الحرارة هناك إلى سبعين تحت الصفر، وقد يستخدم كل شيء يقيه البرد ؛ من ألبسة داخلية صوفية، إلى أحذية فيها فرو، إلى معاطف سميكة جداً، إلى قُبّعات من الفرو، إلى قطع من الصوف يلفُّها على وجهه، بإمكانه أن يستُر كل أعضائه عدا العينين، لأنه يريد أن يمشي، فالعين تلامس الهواء الخارجي والهواء الخارجي سبعين تحت الصفر، والعين فيها ماء والماء يتجمّد في الدرجة صفر، فينبغي أن يفقد كل من يسكن هذه المناطق أبصارهم، والله عزّ وجل أودع في ماء العين مادّةً مضادّةً للتجَمُّد، هذه من آيات الله الدالة على عظمة الله، هذا الماء شأنه شأن أي عنصر في الأرض كلّما برّدته انكمش، كلّما سخنتّه تمدّد، إلا أن هذا الماء ينفرد بخاصة من بين مكل العناصر أنك إذا بردّته ينكمش وينكمش و ينكمش إلى الدرجة (+) أربعة

وبعدها يتمدّد، لولا هذه الخاصة لما كنّا هنا في هذا المسجد،و لما وجدنا على الأرض حياةً، الماء يتجمّد، فيزيد حجمه، و تقل كثافته، فيطفو على السطح، ويبقى ماء البحر دافئاً والحياة فيه جيّدة، فلو انكمش الماء عند التجمُّد لزادت الكثافة فغاص إلى أعماق البحار، بعد حين تتجمد كل المحيطات وينعدم التبخُّر وتنعدم الأمطار، ويموت النبات ويموت الحيوان ويموت الإنسان، هذا شيء مُتقن جداً..

(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)

فرخ الطير:

الصوص (فرخ الطير) يحتاج إلى أن يخرج من البيضة، فينشأ على منقاره نتوء مؤنّف كالإبرة تماماً يكسر به البيضة، و بعد حين يَضْمُر هذا النتوء وتنتهي مهمّته، هذه صنعةٌ متقنةٌ ما بعدها صنعة.

حقل البطيخ:

أنت أمام حقل بطيخ كلّه أخضر فكيف تختار التي نضجت ؟ ليست هناك طريقة، أيعقل أن تنبطح إلى جانبها وأن تستخدم يدك وأذنك كما يفعل شاري البطيخ ؟ مستحيل لأن الحقل كبير جداً، فالله جعل لها خيط حلزوني يمسكه الفلاح، فإن انكسر بين يديه فالبطيخة ناضجة وإن بقي طرياً فالبطيخة غير ناضجة، فجعل لهذا الإنسان علامة دقيقة جداً..

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)

هل ترى من خلل ؟..

(ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ)

كرتين أي: مرّتين، ابحث عن خلل.

الزائدة الدودية والغدة الصنوبرية:

يقولون:الزائدة الدودية لا فائدة منها، هذا غلط.. الزائدة الدودية هي الذائدة المُدافعة، قلت لكم في الخطبة اليوم: أن عالماً كبيراً من علماء أمريكا في علم التشريح قال لطلابه قبل ثلاثين عام: أن الغُدة الصنوبرية غدةٌ لا فائدة منها ولا تعني شيئاً، هي غدة في وسط الدماغ حجمها كحجم حبّة الذرة الصفراء تنتج هرموناً، الآن اكتُشِف أن هذه الغدة من أخطر الغُدَد، و مفرزاتها موجودة في كل كائن حي حتى النبات، النبات والحيوان والإنسان، حتى في المخلوقات البسيطة كوحيدة الخلية الهرمون فيها هوَ هو، و لها علاقة بصيانة القلب، لها علاقة بالنوم، لها علاقة بالنشاط والحركة، بمكافحة الأمراض والجراثيم، فالآن يوجد ثلاثمائة بحث علمي حول هذه الغدة في عام خمسة وتسعين، فليس كل شيء

تقرأه يكون هو الصواب، يقول هذا العالِم: إن هذه الغدة لا فائدة منها، أي ليس لها أي دور في حياة الإنسان، وهذا غير صحيح، فلا يوجد شيء زائد في الكون أبداً..

(ثُمّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً)

معنى خسئ فلان أي: أخطأ في مسعاه، فالبصر يبحث عن خلل فلا يجده ولن يجده، ليس في الأرض أدنى خلل.

عدسة العين:

أنت حينما تراقب حركة سير، السيّارات تبتعد وتقترب أمامك في طريق مزدحم، كيف ترى هذه المركبات بشكلٍ دقيق ؟ معنى ذلك أن خيال هذه المركبات تقع على الشبكية دائماً، والبعد بين العدسة والشبكية ثابت والأجسام بعدها متفاوت، إذاً فالعدسة التي في العين عدسة مرنة يزداد احتدابها ويقل من أجل أن يقع الخيال على الشبكية دائماً، هذا الشيء لا يُصدق..

(ثُمّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)

جهاز في الدماغ يكشف اتجاه الصوت:

إنسان يمشي في الطريق فسمع صوت بوق مركبة وهو لا يشعر به، فبعمل غير إرادي يتجه نحو اليمين، فنسأله لما لم تتجه نحو اليسار ؟ يقول لك: لأن الصوت من اليسار، ولكن كيف عرفت ؟ لا أعلم كيف عرفت، إذا سمع الإنسان صوت بوق يعرف جهة الصوت، ولكن كيف يعرف ؟ يوجد جهاز معقد جداً، هناك جهاز بالدماغ يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين.. فهناك أذنان بينهما اثني عشر سانتيمتر، والصوت سرعته ثلاثمائة وثلاثين متر في الثانية، معنى هذا أن التفاوت بين الاثني عشر سانتيمتر هو واحد على ألف وستمائة وعشرين جزء من الثانية، أي إن جهاز الدماغ يقيس متى وصل الصوت إلى هذه أولاً أم إلى هذه أولاً ؟ والدماغ يعرف جهة الصوت، ويتحرّك وفق جهة الصوت، فإذا ركبت مركبتك وسّرت في طريق، و كان أمامك قطيع غنم فأطلقت بوق السيارة فستجد أن الغنم يتجه إلى عكس مركبتك، فهذا الجهاز ليس عندك فقط بل إنه عند بقية المخلوقات كذلك، فهذا شيء دقيق جداً في صنعة الله عزّ وجل، لذلك:

(ثُمّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)

خاسئاً ؛ أي:أخفق في مسعاه ليصل إلى الخلل، فلا يوجد خلل أبداً، أعد النظر آلاف المرّات لن تجد خللاً، خسئ ؛ أي: خاب وخسر..

(وَهُوَ حَسِيرٌ)

وهو متضائل، صغير قميء، لذلك فإن هذا الذي يبحث عن عيبٍ في الخلق سوف يرتد بصره..

(خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)

أما إذا كان هناك فساد في الأرض.. فهذا الكلام دقيق.. إذن يوجد فساد قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم: من آية " 41 ")

فمن الممكن أن تضع الملح في الحلويات.. فعندئذ لا تستطيع أن تأكل الحلويات، ومن ممكن أن تضع السكر في الطبخ فلن تستطيع أن تأكله بعد ذلك، السكر مادة ثمينة جداً، والملح مادة ثمينة، أما سوء الاستخدام فهو الذي يسبب التلف، فما هو الفساد ؟ هو سوء الاستخدام، لذلك فالشر المطلق ليس له وجود في الكون، أما الفساد فمن إنسان..

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

أما في أصل الصنعة فلا يوجد فساد أبداً.

مثال على ذلك:

إذا قاد الإنسان مركبة من أحدث المركبات وهو يشرب الخمر فإن هذه المركبة ستتدهور، وبعد التدهور سيصبح لها منظر قبيح جداً، فهل نقول: أي مصنعٍ صنعها ؟ لا، لأن المصنع ليس سبباً في هذا المنظر البشع، وإنما أصبحت بهذه الهيئة لأنها استُخدمت استخداماً غير صحيح، ولأن الذي قادَها قادها وهو ثَمِل، فحدث لها ما حدث، أما إذا رأيتها كاملةً تقول: من الذي صنعها ؟ من أي مصنع هي ؟ إذن: هناك فساد سببه أن الإنسان مخَيَّر ولم يستخدم منهج الله في حياته.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 5 - 14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-03-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

مصير المكذبين بالغيب

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة الملك، ومع الآية الخامسة وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

(سورة الملك من الآية-5-)

جمال الدنيا نموذج مصغر عن جمال الجنة:

أيها الإخوة الكرام..لقد وضع الله في الأرض الكثير من المناحي الجمالية ؛ فهناك سماءٌ مزدانةٌ بالنجوم، و جبالٌ خضراء، وبساتين غَنَّاء، وبحارٌ صافية، هذه المسحةٌ الجمالية التي أودعها الله في الكون لها مهمةٌ خطيرة، و هذه المهمة هي أن الله سبحانه وتعالى إذا حدَّثنا عن جمال الجنة ولم يكن في الأرض مواطن جمالية فإننا لن نفهم هذا الحديث إطلاقاً، لأن اللُّغة تثير صوراً وتجارب في نفس الإنسان، قل لإنسان مثلاً كلمة: بحر، لقد قلت ثلاث حروف: الباء، والحاء، والراء، لكن هذه الكلمة أثارت عند السامع صورة البحر، جمال البحر، مَوْج البحر، عمق البحر، اتساع البحر، أثارت في نفس السامع كل هذه الصور، فلولا أن السامع ذهب إلى البحر، وركب البحر، وسبح في البحر، ورأى اتساع البحر، وعمق البحر لما فهم شيئاً مما تقول، اللُّغة تثير في الإنسان خبراتٍ سابقة، أو صوراً سابقة، فلو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُحَبِّبنا بالجنة فوصفها ولم يكن في الأرض شيءٌ جميل نُعَلِّق عليه كلمات الجنة، لن نفقه عندئذٍ شيئاً عن الجنة، فالمواطن الجمالية في الأرض من جبالٍ خضراء، إلى بساتين غنَّاء، إلى جداول رقراقة، إلى بحرٍ جميل، إلى طفلٍ جميل، هذه الصور الجميلة من أجل أن يكون لوصف الجنة مرتكز من واقع الحياة.

زينة السماء الدنيا:

ربنا سبحانه وتعالى زَيَّن السماء الدنيا بمصابيح، وقد كان فيما سمعت أن الذين عَدُّوا نجوم السماء بأعينهم رأوا أن هذه النجوم لا تزيد عن عشرة آلاف نَجْم، وهي النجوم التي نراها بأعيننا، لكن تقدير

علماء الفلك يقول أن هناك مليونَ مليون مجرة، وفي كل مجرةٍ مليون مليون نجم، فهذه النجوم التي نراها بأعيننا هي سماء الدنيا، قال تعالى:

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)

المعنى الآخر من التزيين:

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(من الآية-7- سورة الكهف)

الشيء الدقيق هو أن الأرض فيها أشياء جميلة، والأشياء الجميلة محسوسة ملموسة بحواسنا الخمس، بعيوننا، بآذاننا، فهناك صور جميلة، و أصوات جميلة، و طعوم طيّبة ومباهج، فالدنيا محسوسة والآخرة خَبَر، من هنا نرقى، فالآخرة خبر، و الجنة وصف، وصف في القرآن، شرح من بيان النبي عليه الصلاة والسلام، لأن الجنة خبر، والدنيا محسوسة فالذي يؤثر الآخرة يرقى عند الله، فلو أن الآخرة محسوسة كالدنيا لما ارتقينا إلى الله أبداً، قال تعالى:

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

ركبت في الإنسان نوازع و غرائز و شهوات و ميول، وهناك أشياء جميلة بدءاً من النساء إلى الطعوم، إلى القصور، إلى البساتين، إلى الممتلكات، إلى مُتَع الحياة، لكن هناك آخرة جاءت في كتاب الله، فالذي يتعلّق بما هو جميل في الدنيا ولا يعبأ بالمصير هو الذي يسقُط عند الله عزّ وجل، والذي يصدّق الله عزّ وجل ويؤمن بما وعد الله به المؤمنين ولا يأخذ من الدنيا إلا ما سُمِحَ له مما وافق منهج الله عزّ وجل هذا الذي يرقى إلى الله عزّ وجل.

فالشيء الجميل له وظيفتان:

1- وظيفةٌ بيانية.

2- ووظيفةٌ ابتلائية، به تُبْتَلى، وبه تعرف الآخرة.

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ)

(سورة الملك: من آية " 5 ")

وظائف النجوم:

قال العلماء:

هذه النجوم لها ثلاث وظائف حصراً وما سوى ذلك ظنٌ ووهم:

الوظيفة الأولى أنها مصابيح.

الوظيفة الثانية أنها رجومٌ للشياطين.

الوظيفة الثالثة أنها علاماتٌ نهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، فالنجوم نهتدي بها، وهي مصابيح للدنيا، و رجومٌ للشياطين.

قال تعالى:

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ)

طبعاً لدينا آيات أخرى تُفَسِّرُ هذا، فالشيطان كان يصعد إلى السماء ليسترق السمع، وعندئذٍ كان يتبعه شهابٌ راصد، فيُرْجَم الشيطان بشهابٍ من هذا النجم، فليس النجم هو الذي يُلْقى على الشيطان كلياً، بل جزءٌ من النجم، شهابٌ من النجم يلقى على الشيطان فيحرقه.

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ)

لماذا لم يفسر النبي صلى الله عليه وسلم الآيات الكونية؟؟

ربنا جلّ جلاله أعطانا من الآيات الكونية الشيء الذي تفهمه عقولنا، فقد أشار سبحانه في القرآن إلى أصول العلوم ولم يأت بتفاصيل، لماذا ؟؟ لأن الإنسان مكلّف(افعل ولا تفعل)، فإذا فعل ما أُمر أن يفعل وامتنع عما مُنْع وصل إلى جنة ربه، أما آيات الكون فكلما تقدّم العلم كشف جانباً من عظمتها، لذلك فالقرآن الكريم معجزة المسلمين إلى يوم القيامة، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام _ كما بيّنت لكم من قبل_ قد أوحى الله سبحانه وتعالى إليه ألا يبين ويفصِّل في آيات الكون، وهذه حكمةٌ بالغةٌ منه، فإنه إن شرحها شرحاً مُبَسطاً جداً يفهمه عقول من حوله لأنكر عليه هؤلاء الذي أتوا بعد آلاف السنين وقد تطوّر العلم تطوراً كبيراً، و إن شرحها شرحاً مفصلاً تعجز عقول من حوله عن إدراكه وقع هؤلاء في مشكلة وهؤلاء في مشكلة، إما أن ينكر عليه الذين حوله إذا بيّن وفصّل، وإما أن ننكر نحن الذي جئنا بعد آلاف السنين وقد توصّل العلم إلى كشف حقائق الكون، لذلك فصّل النبي عليه الصلاة والسلام وبيّن في التكاليف، أما في الآيات الكونية فترك كل عصرٍ يكشف جانباً من عظمة هذا الكون، لذلك يُعَدُّ القرآن الكريم مُعجزة المسلمين المستمرّة، وهذا يؤكِّده قول الإمام علي كرم الله وجهه: **" في القرآن آياتٌ لَمّا تُفسّر بعد "**

أمثلة على ذلك:

برزخ بين البحرين !!

أضرب على هذا بعض الأمثلة: الآية التي وردت في القرآن وهي قوله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(:الآية 19-20-21 سورة الرحمن)

هذه الآية وقف عندها المفسّرون طويلاً ولم يستطيعوا أن يُعطوا تفسيراً قاطعاً لها، أين هذا هو البرزخ؟

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20))

الآن بعد ألفٍ وأربعمائة عام صوّرت سفن الفضاء خطوطاً عند تلاقي البحار، هذه الخطوط خطوط تباين، فلما عَكفوا على دراسة مياه البحار وجدوا أن كل بحرٍ له مكوّناته، وله خصائصه، وله كثافته، وله ملوحته، وأن مياه أي بحرٍ لا يمكن أن تختلط بمياه البحر الآخر، وقد رأوا من خلال سفن الفضاء هذا الخَط بين البحرين، في باب المندب، وبين البحرين الأبيض والأحمر، وبين الأبيض والأسود، وبين الأبيض والأطلسي،هذه الخطوط المتباينة فَسّرَت بها الآية الكريمة:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

لذلك انطلق بعض العلماء الذين اختصوا بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم إلى معظم بقاع العالم، والتقوا مع قمم العلوم في شَتّى بقاع الأرض، وكلما عرضوا عليهم حقيقةً قُرآنية في اختصاصهم خضعوا وقالوا: هذا لا يمكن أن يكون من عند بشر، لأن مُحَصِّلة العلوم البشرية وصلت بنا إلى هذه الحقيقة، أما أن يأتي بها إنسانٌ قبل ألفٍ وأربعمائة عام ويعرض هذه الحقائق فهذا يعني أنه رسول الله.

ومثل آخر....

ذبح الشاة بقطع أوداجها دون رأسها:

أوضح لكم هذه الحقيقة بمثل آخر: النبي عليه الصلاة والسلام-وهذا من دلائل نبوته- أمرنا أن نذبح الشاة بقطع أوداجها فقط دون أن نقطع رأسها، فلا في عصر النبي ولا بعد عصر النبي، ولا في بيئة النبي ولا في مراكز الحضارة في عهد النبي، ولا بعد ألفٍ وأربعمائة عام يمكن للعلم أن يُفَسِّرَ هذا الأمر النبوي:

((اقطع أوداج الدّابة دون أن تقطع رأسها))

ثم عُرِفَ أخيراً أن القلب يتلقّى أمراً بالنبض مِنه ذاتياً، من مركزٍ كهربائيٍ ذاتي، فإن تعطّل هذا المركز تلقّاه من مركزٍ بديل في القلب نفسه، فإن تعطل الثاني تلقّاه من مركزٍ ثالث، إلا أن هذه المراكز الثلاثة تعطي أمراً بالضربات النظامية.. ثمانون ضربة في الدقيقة.. مهمة القلب بعد الذبح إخراج الدم خارج الدابة، فلو أننا قطعنا رأس الدّابة لتعطّل أمرٌ استثنائي و لرُفعت الضربات من ثمانين إلى مائة وثمانين، فالقلب البشري يَنْبض مائة وثمانين نبضة في حالات استثنائية، في الجهد، أو في الخوف، فقلب هذه الدابة يأخذ أمراً بثمانين ضربة من القلب نفسه، ويأخذ أمراً استثنائياً بمائة وثمانين ضربة من الدماغ،

فلو قُطِعَ رأس الدابة لعجز القلب عن إفراغ الدم من الذبيحة، و كلام النبي ليس عن خبرةٍ ولا عن تجربةٍ ولا عن ثقافةٍ، ولا عن معطيات أرضية، كلام النبي عليه الصلاة والسلام وحيٌ يوحى، وهذا من دلائل نبوة النبي، إذاً:

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

(الآية-5- سورة الملك)

أما هؤلاء الشياطين الذين شَطَّ بهم السير عن منهج الله عزّ وجل، وأرادوا إغواء البشر، فإذا أرادوا أن يسترقوا السمع كانت هذه النجوم رجوماً لهم، ومصيرهم في الآخرة إلى عذاب جهنم وبئس المصير.ويقول بعض علماء التفسير: (يقول الله عزّ وجل استطراداً):

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة الملك:الآية-6-)

فالشياطين إلى جهنم وبئس المصير..

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا)

فإذا أُلقي هؤلاء الكفار في النار، أو إذا أُلقي الجن الذي خرجوا عن منهج الله في النار..

(سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ)

(سورة الملك: من الآية-7-)

فشهيق الدّابة إذا رأت الشَعير،أي: تطلّع الدابة إلى غذاءٍ تأكله، وشهيق النار أي أنها تنتظرهم، وهذه صورة من صور النار.

وبعضهم قال: شهيق الكفار حينما يلقون في النار..

(سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ)

تفور: أي تغلي، تغلي النار من شدة غيظها على أولئك الذين غفلوا عن ربهم في الحياة الدنيا وأساؤوا إلى خَلقه.

(إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ)

تَمَيَّزُ:أي؛ تتفرق، أي تتقطع من شدة غيظها، فالحقيقة الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، والإنسان قد ينشغل بدنياه، قد ينشغل بعمله، قد ينشغل بشهواته، بمكاسبه، بملذّاته، قد ينغمس في حمأة الشهوة، فهو في غفلةٍ عن ربه، أما حينما يصحو و يأتيه مَلَك الموت وتنقطع عنه شهواته عندئذٍ يتمزّق ندماً لما فعل، هو وكل من حوله، تصور أباً يغدق على ابنه كل شيء من أجل أن يدرس، لكنه يدرس، بل يُسيء إلى والده، فحينما يصحو ويرى فعل أبيه معه، ثم يرى لُؤْمَه، وينتبه إلى أنه ردّ المعروف منكراً على أبيه، حينما يصحو ويستيقظ ضميره يتمزق ويتألم أشد الألم، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

(الآية-10- سورة غافر)

حينما كان الله يدعوكم إلى أن تؤمنوا به، يدعوكم إلى أن تتعرفوا إلى منهجه، يدعوكم إلى أن تطيعوه، إلى أن تسجدوا له لتسعدوا بقربه، حينما كان يدعوكم كنتم تستنكفون وتستكبرون، لقد كان الله يَمْقُتكم أكبر من مقتكم الآن لأنفسكم..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

(سورة غافر:الآية-10-)

(تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ)

وكأن النار هنا نفسٌ مدركةٌ تغتاظ من هذا الكافر الذي جَحَدَ نِعَمَ الله عزّ وجل، الذي سُخِّر له ما في السماوات وما في الأرض، فكان وحده الغافل، وقد قال الله عزّ وجل:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

(الآية-44- سورة الإسراء)

أيُعْقل أن يكون المسخَّر لك صاحٍ وأنت الذي سُخِّرت لك كل ما في السماوات والأرض الغافل ؟ فهذا الكافر يرتكب في حق نفسه جريمةً، نحن لا نستبعد ذلك كثيراً، ففي بعض الأيام يقتل بعض المجرمين أباه، و بعضهم يقتل أمّه، بعضهم يقتل أولاده،فنرى الناس جميعاً يحتقرون، يتميّزون من شدة الغضب..

(تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

(: الآية-8- سورة الملك)

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

(سورة الإسراء:من الآية-15-)

قال بعضهم: العقل هو الرسول.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

الله جلّ جلاله يقول:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ)

(الآية-23- سورةالأنفال)

((وعلى الله قصد السبيل))، قال بعض العلماء: على الله، على تفيد الإلزام، فإذا جاءت على مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام، وعلى الله قصد السبيل، أي وعلى الله بيان سبيل القصد، وعلى الله بيان طريق الحق، بيان طريق السلامة، بيان طريق السعادة، وعلى الله الهدى، فقد قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل من الآية-12-)

فربنا عزّ وجل تولّى أن يهدينا، تولى أن يسمعنا الحق، تولى أن يوصل إلينا الهدى، هذا على الله، علينا الاستجابة فقط، علينا أن نستجيب..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال:الآية- 24-)

فالإنسان قبل أن يعرف الله في حكم المَيّت، ماتت نفسه وتحركت أعضاؤه، أما حينما يعرف الله عزّ وجل كان ميتاً يحييه الله بالهدى، فهناك حياة الجسد وهناك حياة القلب،و حياة القلب بمعرفة الله وذكره.

(إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ)

تفور: أي؛ تغلي.. تكاد تتقطع وتتمايز أجزاؤها من الغيظ..

(تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

ما النذير ؟؟

الحقيقة في آيات كثيرة جداً تبيّن معنى النذير، قال تعالى يعاتب الكفار:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

(سورة فاطر: الآية-37-)

قالوا: النذير:

1- كتاب الله هو النذير:

لأن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا الكتاب بيّن فيه الحلال والحرام، الخير والشر، الحق والباطل، أمر فيه ونهى، و بّين أحوال الأمم السابقة ومصير الأمم اللاحقة، بين فيها أحوال أهل النار، وأحوال أهل الجنة، فهذا الكتاب هو النذير، كتابٌ من عند الله، ففي التعامل اليومي أحياناً يوجه للموظف إنذار خطي، وهذا القرآن الكريم الذي بين أيدينا نذير، نذير لأنه ينهانا ويحذّرُنا ويخوّفنا ويعدنا بعذابٍ أليم في الآخرة.

وقال بعض العلماء:

2- النذير هو النبي عليه الصلاة والسلام، لقول الله عزّ وجل:

(ي يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (46))

(الآية-45-46 سورة الأحزاب)

كما قال بعض العلماء:

3- هو الشَيْب..

((عبدي كبرت سنك، وشاب شعرك، وضعف بصرك، وانحنى ظهرك فاستحي مني فأنا أستحي منك))

إلى متى أنت باللذّات مشغولُ وأنت عن كل ما قدّمت مسؤولُ

فالنذير هنا هو الشيب.

وبعضهم قال:

4- النذير هو سن الأربعين:

الإنسان إذا بلغ الأربعين، بلغ النضج و اكتمل عقله وتوازنت انفعالاته و أدرك الحقائق، لذلك الأربَعون هي النذير.

وقال بعضهم:

5- الستون هي النذير:

القرآن هو النذير، والنبي عليه الصلاة والسلام هو النذير، والشيب هو النذير، والأربعون هي النذير، والستون هي النذير أيضاً.

وقال بعضهم:

6- المصائب هي النذير:

لأن الله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يبقي الإنسان قوياً صحيحاً، معافىً، غنياً وسيماً، متألِّقاً إلى أن يأتيه الموت في ثانيةٍ واحدة، لكن بهذه الطريقة لا يتوب إلى الله عزّ وجلّ، بل يبقى في بغيه وعدوانه وانحرافه، ولكن تأتي المصائب فتلفت نظر الإنسان إلى الله، وبقدر الانحراف تأتي المُصيبة، انحراف بسيط مصيبةٌ خفيفة، و كلما ازداد الانحراف ازدادت شدة المُصيبة من أجل أن تُصيب الهدف وأن تعيده إلى الصواب، لذلك قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(الآية-41- سورة الروم)

من نعم الله على الإنسان أنه إذا انحرف أذاقه نتائج انحرافه، كان من الممكن ألا يذوق نتائج انحرافه، ولكن شاءت حكمة الله أن الإنسان إذا انحرف فإن الله يذيقه نتائج انحرافه، من أجل ماذا ؟ من أجل أن يرجع إلى الله.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

فالمصائب هي النذير، وموت الأقارب هو النذير كان من الممكن أن نأتي إلى الدنيا دفعةً واحدة، وأن نغادرها دفعةً واحدة، عندئذٍ لا يتعظ بعضنا ببعض، عندئذٍ لا نعرف ما هو الموت، لكن هذا الموت التدريجي، أناسٌ يموتون، وأناسٌ يَتَّعِظون، كما قال سيدنا عمر: **"واعلموا أن ملك الموت قد تخطّانا إلى غيرنا وسيتخَطّى غيرنا إلينا فلنتخذ حِذرنا، الكَيّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني "**

النذير هو القرآن الكريم، والنذير هو النبي عليه الصلاة والسلام، والنذير هو الشيب، والنذير هو سن الأربعين، والنذير هو سن الستين، والنذير هي المصائب، والنذير موت الأقارب، النذير موجود، ولله آياتٌ في كل عصر، آيات الله صارخة، وواضحة، وبيّنة، وهذه تنذر.

(تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

أي: ما الذي جاء بكم إلى هنا ؟ أين عقلكم ؟ ألم يأتكم نذير ينذركم؟

إخواننا الكرام... نحن أحياء، نحن الآن نتلقّى النذير، الإنسان إذا وصل إليه الحق صار مُداناً، نحن الآن نستمع إلى كلام الله، ما دام القلب ينبض فنحن في بحبوحة أن نعود إلى الله، أن نتوب إليه، أن نستجيب له، أن نصطلح معه، أن نستقيم على أمره..

(قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا)

أقوال الكفار إذا دعوا إلى الله:

فالآن استمع إلى أقوال الكفار إذا دُعوا إلى الله يقول لك أحدهم: هذه دعوات غيبية و نحن واقعيّون، يقول لك: هذا الذي يدعوك إلى الله له حظوظ، وله نوايا، وله مطامع في الدنيا، و إما أن يطعن بالذي يدعوه، فقد قالوا عن النبي إنه مجنون، وقالوا عنه ساحر، وقالوا عنه كاهن، وقالوا عنه شاعر، وأهل الكفر دائماً يطعنون بمن يدعوهم إلى الله عزّ وجل ويطعنون بدعوتهم و يسفّهون شخصيتهم.

(قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

(الآية-9- سورة الملك)

الحكمة من ختم الرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم:

فقد تسأل: ما الحكمة التي أرادها الله من أن الله ختم بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام الرسالات ؟ تصوّر لو أن نبياً جاء في هذا العصر، إذن لسمعت عنه العجب العجاب، لقد قرأت تحليلات من علماء نفس،و تحليلات من بعض الدارسين للتاريخ، لقد كانوا يفهمونه على أية طريقةٍ إلا أنه نبي، فالكفر أحياناً يفلسف،والإنسان الكافر حينما أعرض عن الله عزّ وجل كان معه جهاز خطير وهو الفكر، فالفكر عند الكافر يستخدمه لرد الحق، ويستخدمه لفلسفة الشر، ولتزيين الباطل، ولتغطية الانحراف، فكر تبريري، لذلك:

(قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا)

فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما جاء قومه ألم يروا صدقه وأمانته وعفافه ونسبه ؟ ألم يقرؤوا هذا القرآن الكريم الذي جاء به ؟ هل في هذا القرآن مأخذٌ ؟ هل فيه ريبٌ؟ هل فيه خللٌ ؟ ألم يروا كماله ؟ ألم يروا عفافه ؟ ألم يروا علمه ؟ ألم يروا رحمته ؟ ومع ذلك كذّبوه

(فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

(سورة الملك:الآية-9-)

وقالوا.. هذه مقولة الكفار في النار:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(:الآية10- سورة الملك)

دليلا الوصول إلى الله: عقلي وإخباري.....

نسمع أو نعقل.. دققوا.. نسمع هذا الدليل الإخباري، ونعقل الدليل العقلي، والإنسان لا يصل إلى الله إلا بدليلين، دليل عقلي، ودليل إخباري، من خلال التأمُّل في الكون تتعرف إلى خالق الكون، هذا دليل عقلي، أما في الدين فهناك حقائق لا يمكن لعقلك أن يصل إليها إلا أن تأتيه عن طريق الوحي، لذلك يأتي السمع للإخبار الإلهي، والعقل للدليل الاستنباطي، فأنت تتعرف إلى الله من خلال الكون، هذا العقل الذي أودعه الله فيك يحكم أن لهذا الكون خالقاً، وأن لهذا الكون مُربياً، وأن لهذا الكون مُسيراً، وأن هذا الخالق والرَّب والمُسَيِّر، موجودٌ وواحدٌ وكامل.

لكن هذا الفكر لا يستطيع عن طريق التأمُّل أن يعرف لماذا خلقنا الله عزّ وجل ؟ هذا يجب أن يعلمك الله به، هذا الفكر من خلال التأمُّل لا يمكن أن يعرف عن الماضي السحيق شيئاً.. عن أصل الوجود.. ولا عن المستقبل البعيد شيئاً، هذا العقل الذي أمدَّك الله به لا يمكن أن يعرف عن ذات الله شيئاً، فكل شيءٍ عجز العقل عن إدراكه أخبرك الوحي به، صار عندك دليل عقلي تصل به إلى الله، ودليل نقلي يُخبرك عن الله، هؤلاء الكفار ما استخدموا عقولهم كي تصل بهم إلى الله، ولا أصغوا السمع ليتعرَّفوا إلى الله من خلال ما يُلقى عليهم، هم بعيدون عن إعمال عقولهم، وعن إصغاء السمع للدليل الذي جاءهم الوحي به...

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

أيها الإخوة الكرام... خطأ كبير جداً أن تنقل قضيةً من دائرة المسموعات إلى دائرة المعقولات، فالعقل البشري إن استخدمته فيما خُلِقَ له يعطيك أروع النتائج، أما إذا استخدمته لغير ما خلق له.. فإذا جئت بقضيةٍ غيبيةٍ أوحاها الله إلى نبيّه فجعلتها تحت بساط البحث العقلي، العقل عندئذٍ لا يستطيع أن يعطيك نتيجةً إطلاقاً.. لأنك سخَّرته لغير ما خلق له، أنت بالكون تعرفه وبالوحي يكشف لك كل ما عجز العقل عن إدراكه.

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11))

عودٌ على بدء.

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)

حقائق الغيب:

الآخرة غيب،و الجنة غيب،و النار غيب، أما بهذه العين نرى كل الأشياء المحسوسة، فالدنيا محسوسة، ملموسة، مرئية، مسموعة، مشاهدة، والآخرة غيب، فالإنسان إما أن يخاف بعينه، وإما أن يخاف بعقله، وكلما هبط مستواه يخاف بعينه، وكلما ارتقى مستواه يخاف بعقله، فهذا الذي تعرّف إلى الله من خلال الكون، وتعرف إلى منهجه وخاف منه قبل أن يأتي الموت، خاف منه قبل أن يصل إلى النار هذا إنسان خشي الله بالغيب، وهذا مما يليق بالإنسان أن يخشاه غيباً، أما شهوداً فما من إنسانٍ على وجه الأرض إذا رأى العذاب إلا ويؤمن والدليل فرعون..

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(:الآية90 سورة يونس)

فكل إنسان كافراً كان أو غير كافر إن جاء الموت كُشِفَت له الحقائق..

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق:الآية-22-)

فالبطولة أن تكشف الحقائق قبل الموت، لذلك الإنسان مع أي شيء خياره خيار قبول أو رفض إلا مع الإيمان خياره خيار وقت، فإما أن يؤمن في الوقت المناسب، وإما أن يؤمن بعد فوات الأوان، وإيمانه بعد فوات الأوان لا قيمة له إطلاقاً.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

(سورة النساء:من الآية18)

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

(:الآية-158- سورة الأنعام)

والبطولة أن تؤمن قبل فوات الأوان، أن تؤمن بالله غيباً، فهو الذي لا تدركه الأبصار ولكن كل شيءٍ في الكون يدل عليه، فجهنم مثلاً لا نراها ولكن الله أخبرنا بها، و إيمانك بها إيمانٌ بالغيب،و الجنة كذلك لا نراها ولكن الله أخبرنا بها، و يوم الحساب لا نراه ولكن الله أخبرنا به.

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

هذا الذي يليق بالإنسان، هذا الذي يرفعه إلى المستوى الذي يليق به..

فأنت مكشوف عند الله، يعلم سرّك ونجواك، يعلم سرك وما يخفى عنك.

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14))

ألا يعلم من خلق.. هو الخالق.. فأحياناً وجود الإنسان معك يزعجك، أما الله فهو لطيف، هو معكم أينما كنتم، من دون أن تشعر أنه معك، خواطرك يعرفها، نواياك يعرفها، تفكيرك مكشوف عنده، نوازعك، بواعثك، أهدافك، تصرُّفاتك، كل شيء يعتلج في نفسك الله عزّ وجل متطلعٌ عليه لكنَّه لطيف، الإنسان أحياناً وجوده معك ثقيل، يُزْعِجك يربكك، الله عزّ وجل قال:

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 12-14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-04-04

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان بالغيب وحدود العقل

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الرابع من دروس تفسير سورة المُلك، ومع الآية الثانية عشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(سورة الملك: الآية12)

أيها الإخوة... إن أهم ما يميز الإنسان هو أن الله سبحانه وتعالى أعطاه عقلاً، و بهذا العقل يستطيع أن يعرف حقيقةً غائبةً عن حواسِّه، فالحيوان أعطاه الله حواسّ إلا أنه يرى بهذه الحواس محيطه فقط، أما الإنسان فقد أعطاه الله حواسّ يرى بها محيطه، وأعطاه عقلاً يكْشِفُ له ما غيَّبه عن حواسِّه، و هذه ميزةٌ كبيرةٌ للإنسان، فالله سبحانه وتعالى لا تُدركه الأبصار، ولكن العقل الذي أودعه الله في الإنسان يمكن أن يعرف الله دون أن يراه، يمكن أن يعرفه من أثره، فالعقل يعرف المؤثِّر من الأثر، كما يعرف الخالق من المخلُوق، والمنظِّم من النظام، والمسيّر من التسيير، والحكيم من الحكمة، والقوي من القوة، والغني من الغنى، فأنت تملك عقلاً يكشِفُ لك شيئاً مغيَّباً عنك من خلال آثاره، وقد شاءت حكمة الله جلّ جلاله أن يغيب عن أبصارنا و تراه عقولنا، فالذي يعطّل عقله لا يصل إلى الله، كذلك الذي يُسيء استخدام عقله، فيستخدمه لغير ما خُلِق له فإنه يشقى في الدنيا والآخرة، فالذي يرى الله بعقله من خلال خلقه هو الذي خشي الله بالغيب..

وكنت أقول لكم دائماً: إن الإنسان كلّما ارتقى خاف بعقله، وكلّما هبط مستواه خاف بحواسِّه، فالإنسان حينما يرى الخطر أمامه بعينه يخافه، أما الإنسان العاقل هو الذي يُدرك الخطر البعيد فيخشاه في الوقت المناسب، و ربنا عزّ وجل يقول في أول سورةٍ في القرآن:

(الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(:الآيات1-2 سورة البقرة)

فعينه لم تر ربَّه ولكن عقله رآه، فعرفه واستقام على أمره، فبهذا استحق الجنَّة، لأن حواسَّه لم تر الله عزّ وجل لكن عقله عرف الله من خلال خلقه..

وأنت أيها الأخ الكريم... القضية لديك دقيقة جداً، فالدين كلّه هو أن تعرف الله وأن تطيعه، فتعرفه بآياته الكونية والتكوينية والقرآنية، وتطيعه بمنهجه و بتشريعه، فإن تعرّفت إليه وتعرّفت منهجه وأطعته سعدت بقربه في الدنيا والآخرة، و أهم شيء في حياة المؤمن هو أن يعرف الله، فإذا عرفه كان أكثر شيء يشغله هو أن يطيعه، فهو يتفكّر في خلق السماوات والأرض..

(إِنّ فِي خَلْق السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَار لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْق السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّار (191))

(سورة آل عمران الآيات190-191)

فخلقه نتفكّر فيه، وأفعاله ننظر فيها..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْض ثُمّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ)

(سورة الأنعام الآية11)

وكلامه نتدبّره..

(أَفَلَا يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

(الآية24 سورة محمد)

بهذا يمكن أن تعرفه فإن عرفته ابحث عن شرعه، ابحث عن أحكامه، ابحث عن أوامره ونواهيه، فإن طبقتّها حققت المراد من وجودك، وحققت غاية وجودك، وتكون قد حققت الهدف الذي من أجله خُلِقت..

(إِنّ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ بِالْغَيْبِ)

(سورة لملك: الآية " 12 ")

أما لو أمكن حواسّك أن ترى الله.. فأنت إذن في الآخرة..

((إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر))

ترون ربكم بأعينكم، و هكذا شاءت حكمة الله..

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

فلو أنّنا أتيح لنا أن نراه بحواسّنا لما كان هناك جنّة، فكيف يمكن لنا أن نرقى؟ الشهوات محسوسة لكن حقيقة الدين مُخْبَر عنها في القرآن فقط، فالجنة خبر والنار خبر، وذات الله خبر.. لكن الدنيا محسوسة، فأنت تمشي في الطريق فترى أمامك امرأة، وقد تنظر إلى مركبة فارهة و بيت فخم، قد ترى طعاماً لذيذاً، هذه كلها محسوسات أمامك، تدركها بحواسّك الخمس ؛ بعينك وأذنك، وسمعك وبصرك، ولكن حقائق الدين تحتاج إلى إعمال عقلي، تحتاج إلى قراءة قرآن و تفكّر و نظر، فإذا آمنت بشيءٍ مغيّبٍ

عنك ارتقيت عند الله عزّ وجل، فلذلك كانت المُشاهدات بالحواس، والمُغَيَّبات بالعقول، وبقيت هناك حقيقةٌ لا يستطيع عقلك أن يدركها ولا حواسّك أن تراها، هذه الحقيقة أخبرك الله بها..

أيها الإخوة الكرام... هناك حقيقةٌ أكررها كثيراً: أنت أمام ثلاث مستويات في البحث، وثلاث أدوات بحث.

مستويات البحث:

1- المستوى الأدنى:

وهو للأشياء المحسوسة الملموسة، التي تراها وتسمعها و تشمها وتلمسها، و تدرك حرارتها وبرودتها، خشونتها ونعومتها، شكلها ولونها، حجمها وصوتها، هذه كلها أشياء محسوسة، وهذا المستوى الأول يتعلق بدائرة المحسوسات، وأدواتها الحواس الخمس، ونحن وبقية المخلوقات سواء في هذا المستوى، فإذا وضعت يدك أمام نملةٍ تتحرّك وقفت لأنها رأت حاجزاً جعلها تقف، وإذا رأت دابة حفرةً وقفت أيضاً، والإنسان كذلك حينما يرى حفرةً يبتعد عنها، لأنه يكون قد رأى خطراً فخاف فلم يقع في الحفرة صوناً لسلامته، فنحن لا ترتقي بالمحسوسات، بل إننا وبقية المخلوقات سواء فيها وذلك بدافع حب البقاء واستمراره وكماله، وبدافع حب السلامة، فلا يمكن لنا أن نتحرك حركةً نهلك بها بحواسّنا، فنحن حينما نتعامل مع المحيط الخارجي نتعامل من أجل أن نسلم، فنحن لا نقترب من النار لأن وهجها يبعدنا عنها، كما أننا لا نأكل الطعم الكريه، ولا نقترب من الأشياء المؤلمة، كالكهرباء مثلاً فلا نمسك بالتيار الذي فيه خطر الموت، كل هذه الأشياء تقع تحت سمعنا وأبصارنا وإحساسنا، فنبتعد عن الأشياء المؤلمة والخطرة بدافع من طبعنا وفطرتنا، و هذا مستوى يشترك فيه الإنسان وغير الإنسان.

2- المستوى الأعلى (الدائرة الأعلى):

وهو شيءٌ غابت عنك ذاته وبقيت آثاره، فالإنسان في المستوى الأول كأي حيوان يرى حفرةً أو حاجزاً فيقف، أما إذا رأى الثُّريا والمصابيح متألقة، ورأى هذا الجهاز الذي يكبّر الصوت فإنه يقول: لا بدّ من تيارٍ كهربائي في هذا المسجد، إنه لا ترى التيار الكهربائي بعينه ولكنه يحكم بوجوده بعقلك.. **" الأقدام تدل على المسير، والبعر يدل على البعير، والماء يدل على الغدير، أفسماءٌ ذات أبراج وأرضٌ ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير؟ ".**

هذه هي ميزة العقل، فالعقل يمكن أن يرى دُخاناً فيقول: لا دخان بلا نار، و العقل يحكم على وجود النار من خلال الدخان، ويحكم على وجود التيّار من خلال المصابيح و تكبير الصوت، ويحكم أن هناك مركبةً مرّت من آثار عجلاتها، ويحكم بوجود التهابٍ من ارتفاع الحرارة، هذا هو العقل له مهمة استدلالية على شيءٌ غابت عينه وبقيت آثاره، فمن خلال آثاره تتعرف إليه، هذا هو الإيمان بالغيب، فأنت لم تر النار لكنك رأيت الدخان فحكمت بأنه لا دخان بلا نار فقلت: لا بدّ من وجود النار..

أقول هذا الكلام بدقةٍ بالغة: العقل البشري في هذا المستوى يُبْدِع ويحقق أعلى الغايات، فحينما تفكر في الأثر وتستخدم العقل ترى من خلاله المؤثِر، و حينما تفكر في النظام ترى المُنَظِم، و حينما تفكر في الخلق ترى الخالق، و حينما تفكر في التسيير ترى المسيّر، كذلك حينما تفكر في الحكمة ترى الحكيم، و حينما تفكر في القوة ترى القوي، هذا هو مجال العقل.

إخواننا الكرام... أريد أن أضيف لكم حقيقة أخرى وهي أن العقل محدود الإمكانيات، بمعنى أن العقل لا يستطيع أن يبحث عن شيءٍ غابت عينه وآثاره هذا مستحيل بالنسبة له، لذلك كان من أكبر الضلالات وأعظم المتاهات، وأكبر المُنزلقات أن تأتي بعقلك وتُسَلِّطه على موضوعٍ غيبيّ ذاتاً وآثاراً، فعقلك لا يمكن أن يصل إلى معرفة الجن مثلاً لأن الجن لا تمكن رؤيتهم.

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: آية " 27 ")

الملائكة كذلك.. لن تستطيع أن تؤمن بهم بعقلك، لأنهم ليس لهم آثار، كذلك اليوم الآخر، والماضي السحيق، و نشأة العالم، وغير ذلك الكثير من الأشياء التي غابت آثارها، فلا يستطيع العقل أن يفعل شيئاً إزاءها، لذلك قد تزل قدم الإنسان ويضل حينما يأخذ قضيةً غيبيةً مطلقة، أي غيبية ذاتاً وآثاراً ويعرضها على العقل فالعقل هنا ينحرف ويتخبّط ويأتي بأفكار مضحكة..

مثال توضيحي:

كنت أضرب هذا المثل دائماً:

بقالية فيها عشرة آلاف صنف ولديك ميزانٌ دقيقٌ حساسٌ جداً، هذا الميزان قدرته على الوزن تتراوح بين خمس غرامات إلى خمسة كيلو غرامات فإذا استعملته وفق هذين الحدين أعطاك نتائج دقيقة جداً.. وهو ميزان غالٍ جداً.. أما إذا فكرت أن تزن بهذا الميزان سيارتك، فإنك تضعه على الأرض وتمشي فوقه من أجل أن تزن هذه السيارة وعندئذ سيتحطم الميزان، فإذا اتهمت صانع الميزان قال لك: اتهم نفسك أنت من استخدمه لغير ما خُلِق له وخلافاً لتعليمات الصانع، أنت الذي لم يعبأ بالحدود القصوى والدنيا لاستعماله. لذلك فإننا نعرف بالحواس الأشياء المادّية التي ظهرت عينها وآثارها، و نعرف بالعقل كلّ شيءٍ غابت عنك عينه وبقيت آثاره، لأن العقل يتعامل مع المحسوسات والدليل:

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ)

(سورة الإسراء: من الآية " 36 ")

الفؤاد هو العقل، و العقل يتعامل مع المحسوسات، و السمع نافذة للعقل، والبصر نافذة ثانية، الآن:

2- المستوى الثالث (الدائرة الثالثة):

وهي دائرة الإخباريات.. فالدائرة الأولى هي دائرة المحسوسات، والثانية دائرة المعقولات، والثالثة دائرة الإخباريات..

فإذا كان هناك شيءٌ غابت عنك عينه وغابت عنك آثاره فلا سبيل لعقلك أن يعرفه، فإذا فكّرت فيه كفرت، و دخلت في متاهاتٍ لا تنتهي، لذلك الدائرة الأولى أدواتها الحواسُ الخمس، والدائرة الثانية أداتها العقل، والدائرة الثالثة أداتها الخبر الصادق، كل شيءٍ عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، فأنت أمام شيءٍ محسوس تدركه بعينك، وشيءٍ غابتٍ عنك عينه فتعرفه بآثاره عن طريق عقلك، وشيءٍ غابت عنك عينه وآثاره فتتلقاه بالخبر الصادق، لذلك قالت الآية الكريمة:

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ)

(سورة الملك: آية " 10 ")

العقل للأشياء التي لها آثار، والسماع للأشياء التي ليس لها آثار، فأنت تسمع أو تعقل..

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

تلخيص:

هناك ثلاثة مستوياتٍ للبحث العلمي:

دائرة المحسوسات وأداتها الحواس الخمس.

دائرة المعقولات وأداتها العقل.

دائرة الإخباريات وأداتها الخبر الصادق.

وطِّن نفسك على أن تصنف أية قضيةٍ تعرض عليك في بابها.. هذه مع المحسوسات، هذه مع المعقولات، هذه مع الإخباريات.. لذلك لا تحاول أن تقنع إنساناً ملحداً بوجود الجن، إنك لن تستطيع أن تقنعه، ولن تستطيع أن تقنع إنساناً ملحداً بالملائكة، ولا بأصل العالم وأنه من آدم وحواء، هذه كلّها أخبار أخبرنا الله بها، فأنت إذا وضعت كل قضية في الدين في مكانها الصحيح فإنك ستفهمها فهماً دقيقاً، أما إذا وضعت قضية في مكان غير صحيح فإنك ستضل، فلو أردت أن تثبت لي بعقلك عن وجود الجن فلن تستطيع، ستتخبط،ولسوف ينتقصك الذي يناقشك، لأنك ليس معك دليل، فقضية الجن والملائكة، وقضية الحساب والعذاب، والجنة والنار، والصراط والميزان، والحوض، هذه قضايا إخبارية الله أخبرنا بها.

الآن التسلسل: أنت حينما تؤمن بالله من خلال آثاره، وتؤمن بالقرآن من خلال إعجازه، وتؤمن بالنبي من خلال كتابه، والقرآن أخبرك أن هناك يوماً آخر، فإن إيمانك باليوم الآخر إيمان إخباري، والقرآن أخبرك:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة محمد: من الآية " 12 ")

والله أخبرك أن الكافر سيُلقى في النار خالداً فيها مخلّداً، فكل قضية حدد هويّتها واستخدم الأداة المناسبة لها، فنحن في الإيمان بالله نعتمد على العقل والأثر، فإذا وجد أثر فاستخدم العقل، وإذا لم يوجد أثر فاستخدم الخبر، ففي الشيء المحسوس مثلاً تستخدم العين وانتهى الأمر، و الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يغيب عن أبصارنا، وأن تعجز حواسُّنا الخمس أن تدركه لذلك تحتاج معرفته إلى جهد عقلي، فالذي آمن بالله بالغيب، كيف آمن بالغيب ؟ نظر في الخلق فعرف الخالق، ونظر في النظام فعرف المنظِّم، نظر في الحِكَم فعرف الحكيم، كلمة آمن بالغيب هل تعني كلمة ألقاها ؟ لا.. بل إنها بحث دقيق توصّل إليه.. الآية مرّة ثانية..

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

يتفكّرون فعل مضارع أي باستمرار..

(رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ)

(آل عمران: الآيات 190-191 سورة)

فيا أيها الإخوة الأكارم... دققوا في هذه الحقيقة.. مستوى المحسوسات أدواتها الحواس الخمس، مستوى المعقولات أداتها العقل، مستوى الإخباريات أداتها الخبر الصادق، وقبل أن تبحث في موضوعات الدين أولاً حدد هوية القضية ؛هل هي محسوسة أم معقولة أم إخبارية، فإن حددت هويتها استخدمت الأداة المناسبة لها.

أمثلة موضحة:

لو كنت أمام كأس ماء فلن تحتاج إلى عقل لتعرف ما هذا، ولكن هذه تحتاج إلى حاسة البصر فعن طريق العين تعرف هل الماء صافٍ أم لا.

أما في المسجد فإن نظرت إلى الثريات وجدتها متألقة ووجدت الصوت مكبّراً، إذاً يوجد كهرباء، هنا نحتاج إلى عقل.

أما إذا سألت يا ترى ماذا يوجد فوق هذا السقف ؟ فاسأل المهندس لأن هذا إخبار، لأن العين لا ترى ماذا فوق السقف، يوجد سقف قرميد ويوجد سقف تقليدي أي خشبي و بينهما فراغ ؟ لا نعلم لأن هذا شيءٌ مغيَّبٌ عن حواسنا وبالتالي عن عقولنا، إذاً لا بدّ فيه من خبرٍ صادق، فلو دخلت إلى بيت مثلاً فوجدت غرفة مغلقة، فسألت صاحب البيت ماذا في هذه الغرفة ؟ يقول لك: هذه غرفة نوم، هذا خبر، أما إذا كان أمامك أداة، كنبة أومسجّلة أو مُكيّف مثلاً فلا يوجد داعٍ لأن تسأل لأن عينك تراه.. كل هذا الكلام من أجل كلمةٍ واحدة:

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)

فمعنى آمن بالغيب أي: أعمل عقله حتى توصّل إلى حقيقةٍ ثابتة، أي إنه بذل جهداً، لذلك كانت أول آية كما قلت قبل قليل:

(الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة)

غابت ذات الله عن حواسِّهم فأدركته عقولهم، والعوام بكلمةٍ بسيطةٍ متداولةٍ يقولون:

"الله ما انشاف بالعقل انعرف "، الله لا يُرى بالعين لكن العقل يدركه، لذلك فإن آيات العقل والعلم تزيد عن ألف آيةٍ في القرآن الكريم..

(أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

(سورة يس)

أفلا يتفكرون ؟ أفلا يتذكرون ؟

(أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

(سورة الغاشية: آية " 17 ")

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(سورة الملك)

عمل الجنة حزْن بربوة، وعمل النار سهل بسهوة:

لو أن أحد الأشخاص ركب دراجة وكان يمشي في طريق مستوية، وفجأةً رأى هناك طريقين: طريق نازلة وطريق صاعدة - الطريق تُذكر وتؤنّث.- فركب الدراجة ليرتاح في النزول، ولكن الصعود يصعب عليه، فالشيء المحسوس هو أن الطريق نازلة وهذه صاعدة، لكن هذه الحركة على هذه الطريق بالدراجة ممتعة جداً وهذه الحركة متعبة جداً، فلو أن لوحةً كُتبت عند مفترق الطرق: هذا الطريق النازل ينتهي بحفرةٍ سحيقةٍ ما لها من قرار، فيها وحوشٌ مفترسةٌ كاسرة تلتهم كل من يقع فيها، وهذه الطريق الصاعدة تنتهي بقصرٍ مُنيف فيه كل شيء.. فإذا اعتمد الإنسان على حواسه اختار الطريق النازلة، أما إذا قرأ اللوحة واعتمد على عقله فإنه سيسلك الطريق الصاعدة.. لذلك:

((إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ثَلاثًا أَلا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

(مسند أحمد رواه: ابن عباس)

لذلك..

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

(صحيح مسلم رواه أنس بن مالك)

فإذا عطّل الإنسان عقله ؛ فإنه ينظر إلى النساء، يشرب أي شراب، يسهر في أي مكان، يحكي أي قصة، إذا عطّل عقله فإنه سينساق مع شهواته، أما إذا فكّر في أن هذه لا تُرضي الله، وأن هذه محرّمة.

فهذان الطريقان أمامك،فبحسب طبيعة جسمك والدراجة التي لا يوجد فيها محرّك النزول أكثر راحة لك،أما الصعود فهو صعب جداً.

ولكن إذا قرأت اللوحة، صار القصر خبراً والحفرة السحيقة خبراً، أما النزول المحسوس والصعود المحسوس فهما سهلان بالنسبة للحواس، فالذي لا يُعمل عقله ويتعامل مع حواسه يختار الطريق النازلة، والذي يُعمل عقله و قرأ اللوحة فعرف أن وراء النزول هلاكاً ووراء الصعود نعيماً يختار الصعود..

هذا الذي يفعله الناس إذا رأوا مؤمناً يخشى الله، يضبط لسانه، يتحرّى الحلال، يؤثر دخلاً قليلاً حلالاً على دخل كبير حرام، فإنه يُتّهم عند الناس بالجنون وهو العاقل وحده لأنه قرأ اللوحة واختار الطلعة.

هذا القصر المنيف فيه كل شيء، مع أنّ الصعود إليه صعب جداً بالدراجة، ويتطلب جهداً، وقد يضطر الصاعد أحياناً إلى أن يحمل الدراجة، والطريق الصاعد فيه عقبات، فيه صخور وغبار و أكمات، ولكن من وصل إليه سينال قصراً منيفاً، أما الطريق النازل فهو طريق معبّد محفوف بالرياحين والورود والدراجة ترتاح بالنزول لكنه ينتهي بهذه الحفرة، هكذا الحديث:

((إِنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ثَلاثًا ألا إِنّ عَمَلَ النّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

(مسند أحمد رواه: ابن عباس)

فالقضية كلّها هي أن تُحَكِّم عقلك.

ومثل آخر..

سأضرب مثلاً آخر وقد ذكرته مئات المرّات:

أحد باصات المهاجرين مثلاً كان يقف في ساحة المَرْجَة باتجاه غرب شرق، يصعد الركّاب إليه، على اليمين كان هناك شمس وعلى اليسار ظل، والوقت صيف والحرارة أربعين، يصعد الراكب إلى هذا الباص، فإذا حكّم عقله فإنه سيجلس في الشمس، والذي لا يُحكّم عقله، بحكم فطرته وجسمه فإنه سيجلس في الظل، يتحرك الباص ويدور حول المرجة وخلال دقيقة تنعكس الآية، فالذي اختار الظل تنعّم في دقيقة وتحمّل الشمس نصف ساعة، فأنا كنت أصعد إلى هذه الحافلة لأمتحن الرُكاب.. فأجد أن هذا جلس في الظل وهذا في الشمس كل حسب تفكيره وإعماله لعقله، هذا المثل على بساطته هو الدنيا كلّها.

فإذا أردت الدنيا..

فإن مرت امرأة جميلة في الطريق، فنظرت إليها وملأت عينيك منها تكون بذلك قد انقطعت عن الله عزّ وجل.

وإذا كان لديك دخل كبير ولكنه مشبوه، فقلت: لا.. معاذ الله.. أنا قارئ اللوحة واخترت الصعود..

هذا المثل ضعوه في أذهانكم اقرؤوا اللوحة واختاروا الصعود، أو اختاروا الشمس واتركوا الظل، الشمس دقيقة ولكن الظل ليس نصف ساعة إنه إلى أبد الآبدين، والذي اختار الظل دقيقة تحمّل جهنم إلى الأبد، هذه هي القصة كلّها..

(إِنّ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

مغفرة تَمحي عنك كل السيّئات، و الماضي مطوي بمغفرة، كل الماضي بكلمة واحدة، فلا تيأس..

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

فالقضية كلّها قضية تحكيم عقل، تفكّر في خلق السماوات والأرض، تدبُّر القرآن، وانظر في أفعال الله، و ابحث عن أمر الله وتطبيقه تكن من أسعد الناس، أما إذا عطّل الإنسان عقله فإنه سيتعامل بالحواس مع أشياء مادّية، فكل شيء موجود في الطريق، إذا أطلق بصره وأطلق سمعه فسمع الأغاني المحبّبة، وأطلق عينه فملأها من جمال الحسناوات في الطريق، وأكل ما يشتهي، وجلس مع من يشتهي، وقبض المال الكبير من شبهة أو من غير شبهة، فإن هذا لم يقرأ اللوحة واختار النزول و ينتظره الهلاك..

(إِنّ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

أيها الإخوة... نستفيد من هذه الآية أن الإنسان الذي لا يؤمن بالله غيباً لا يخشاه، الناس يتوهمون أن معنى الإيمان به غيباً كلمة واحدة.. لا إنها جلسات تفكّر طويلة، تدقيق، استنباط، تمحيص، أي أنك ستعمل عقلك في الكون حتى تعرف مكونه فتخاف من خالقه، وترغب في مرضاته، وتبحث عن أمره ونهيه فتطبقه، هذا هو معنى الآية.

وهو اللطيف الخبير:

الآن:

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصّدُورِ)

(سورة الملك)

أي أنت مكشوف..

(يَعْلَمُ السِّرّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

يعلم جهرك وعلانيّتك، ما تعلنه وما تقوله، وما تبديه، ويعلم الذي تخفيه عن الناس، يعلم سرّك ونجواك، ويعلم الذي لا تعلمه أنت، عَلِم ما كان وعلِم ما سيكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، علم جهرك، وعلم سرّك، وعلم ما يَخْفى عنك..

(يَعْلَمُ السِّرّ وَأَخْفَى)

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

(سورة الملك)

أي لا تتخذ موقفاً تمثيلياً مع الله أبداً، فإذا وقفت موقفاً تمثيلياً مع الله عزّ وجل فإنك لا تفهم شيئاً لأن الله يكشف كل شيء..

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15))

(سورة البقرة)

إياك أن تتخذ مع الله موقفاً تمثيلياً، إياك أن تتخذ موقفاً مزدوجاً لأن الله كاشفٌ كل حقيقة..

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14))

بلى هو الذي خلقك، هو المكوّن، هو الخالق، هو الرب، هو الحكيم، هو العليم، أنت بين يديه..

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

(سورة الأنفال: من الآية24)

(مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

(سورة المجادلة: من الآية7)

لذلك متى ستنجو أنت ؟ إن علِمت أن الله يعلم، و أن الله معك، والله متطّلِعٌ عليك..

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(من سورة النساء)

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية " 4 ")

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)

(سورة الإسراء)

بعد هذا توجد آية أخرى تقول:

(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)

(سورة الشعراء)

يرى تقلُّبَك في الساجدين، يرى صلاتك، يرى ذِكْرَك، يرى إقبالك، يعلم مضمون كلامك، كلّه في علمه..

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14))

فما مناسبة اللطيف الخبير ؟ هو خبير بك وهو ومعك، ولكن وجوده معك غير مُحْرِج إنه لطيف، فإذا رافقك إنسان ساعتين مثلاً تقول لك: والله بقد مللت وجوده.. أما آن له أن يذهب، أما الله فهو دائماً معك دون أن تشعر، ودون أن تُرهَق..

(لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحج)

أي هو معك بلطف، خبير بكل أعمالك دون أن تشعر، فلذلك أحد أكبر دوافع المؤمن إلى طاعة الله أن الله معه، وأن الله يراقبه، وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، و أنه مُطّلِع عليه، أي كلمة تنطق بها يعلم الله صحتها من كذبها، إخلاصها من خيانتها، صوابها من خطئها، أي تصرُّف، أي نظرة، أي حركة، أي موقف..

(لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

خبير بما تفعل لكن دون أن تشعر، دون أن يكون هذا عبئاً عليك..

(لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14))

(سورة الملك)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 15 –19
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-04-11

بسم الله الرحمن الرحيم

تسخير الكون وعقوبة الغافلين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الخامس من سورة المُلك، ومع الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

هو أي الله جلّ جلاله:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً)

آيات الأرض:

ومعنى أن الأرض ذلول ؛ أي: مُيسّرة، فلو أن تربتها صخرية كيف يمكن لنا أن نزرعها ؟ و لو أنها مضطربة كيف سنستقرُّ عليها ؟ و كيف سنبني ؟ لو أن الماء كان غائراً فكيف سنستخرجه ؟ أو أن الحَر لا يُطاق فكيف سنعيش على سطح الأرض ؟ فجو الأرض مناسب لنا، و الهواء مناسب كذلك، نسب الأوكسجين إلى الآزوت هي نسب متوازنة، وقد أودع الله في الأرض الينابيع وأجرى الأنهار، فتت التُربة و جعلها صالحةً للزرع، خلق البذور و أرشد الإنسان إلى زرع النبات وإلى جني ثماره، أودع في الأرض فلذّات المعادن فلو أن الحديد الذي يستخدمه الناس في كل شؤون حياتهم كان حديداً صرفاً فكيف نستخرجه ؟ لكنه جعله مخلوطاً بالتراب نستخرجه فلذّات ثم نعالجه ونستفيد منه ونجعله حديداً صرفاً.

فلو درست حجم الأرض و دورة الأرض حول نفسها وحول الشمس، ولو درست مَيل محورها، و بعدها عن الشمس و حرارتها، لو درست قانون الجاذبية فيها و طبيعة تربتها، و طبيعة تضاريسها، و هواءها وماءها، و أنواع المخلوقات فيها ؛ من حيواناتٍ برّية، و بحرية، وحيوانات تحلق في الجو (الطيور)، لو درست نظام الحياة فيها ونظام الفصول و نظام الليل والنهار، و نظام الشمس والقمر، لو درست الأرض لوجدّتها مهيّأةً بشكلٍ كامل للإنسان، فالله جعلها ذلولاً..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً)

فأي شيءٍ متحركٍ صنعه الإنسان يضطرب، و لو أن الأرض تضطرب فمن الصعب أن نبني عليها بناء، فالأرض مستقرّة وحينما تُزَلْزَل يصبح عاليها سافلها، وتفقد استقرارها واستقرار الأشياء عليها، وهي بحجمٍ يتناسب مع وزن الإنسان، فوزن الإنسان على القمر هو سُدس وزنه على الأرض، فمن يزن ستين كيلو غراماً وزنه على القمر عشرة كيلو غرام، إذاً جعلها بحجمها وكثافتها وشكلها و دورانها حول نفسها وحول الشمس، وتوزُّع اليابسة والماء فيها، وتنوع اليابسة من جبالٍ، إلى هضابٍ، إلى سهولٍ، إلى صحارى، إلى أغوار و كذلك التنوّع في التضاريس، و التنوع في الجو و المُناخ، كل ذلك جعل الأرض مهيأة للإنسان:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

(سورة الرحمن)

أي وضعها خصيصاً لهذا الإنسان..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

(سورة الملك: آية " 15 ")

أيها الإخوة بعض الأماكن في الأرض صخرية كاللّجاة عندنا، هي أرضٌ صخريةٌ لا يُنتفع بها، فهي لا تُزرع، ولا تُغِلُّ المحاصيل، ولا تقبل أن تستفيد منها بشيء، تصوَّر أن الأرض كلّها صحارى أو صخور بازلتية، و تصور أن الأرض كلّها منحدرات قاسية فكيف نستفيد منها ؟ تصور أن الأرض بحجمٍ أكبر و بدورةٍ أسرع، أو بليلٍ أقصر، و نهارٍ أطول فكيف نستفيد منها، إذاً هذه الآية معها مجالٌ رَحْب، يمكن أن تفكر في كل شيء على أن الله خلقه وسوّاه، فهو الذي:

(خَلَقَ فَسَوَّى)

(سورة الأعلى)

آيات النبات:

فالنبات مذلل، تقطفه وأنت مرتاح، فإذا كانت الثمرة كبيرة جداً جعلها على الشجر، كما أنه جعل الشجر متناسباً مع طول الإنسان، وجعل الفواكه تنضج في أوقات متتابعة، وجعل الفاكهة الواحدة تنضج في شهرٍ أو شهرين لأنها لا تُخزّن، فهذه آيةٌ واسعةٌ جداً:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً)

آيات الحيوان:

ضرب لكم مثلاً ذكرته كثيراً: هذه البقرة من ذللها ؟ الله جلّ جلاله، فحينما جُنّت في بريطانيا اضطروا إلى إعدامها، أو إلى حرقها، و البقرة هيَ هي، فمع أنها تقدِّم للإنسان خدماتٍ لا تقدَّر بثمن، لكنها حينما تتوحّش لا يستطيع الإنسان إلا أن يقتلها، وقد ذكرت لكم من قبل: أنّ أخاً عنده بقرة توحّشت فقتلت رجلين وهمّت بقتل الثالث، فما كان من صاحبها إلا أن أطلق عليها النار، فحينما ترى بقرةً مذللة وجملاً

مذللاً و غنمةً ذليلة، فاسأل نفسك، من ذللها ؟ هب أن الله ركّب طباع الحيوانات المفترسة في الحيوانات الأليفة فكيف سننتفع بها ؟ فلو ركّب طباع الضبع في الغنم فلن تتمكن من أن نستفيد منه.

الماء الفرات:

لو أن هذا الماء الذي نشربه كان ملحاً أُجاجاً فكيف نشربه ؟ كم يكلِّف تحلية اللتر منه ؟ إنه يكلف أغلى من ثمن البنزين.

(عَذْبٌ فُرَاتٌ)

(سورة فاطر: آية " 12 من)

فمن يحلِّيه لنا ؟ الله جلّ جلاله، إن أصل هذه الأمطار من البحار والبحار ملحٌ أجاج، يموت الإنسان على سطح البحر عطشاً، فكم من باخرةٍ غرقت وركب بعض ركّابها بقارب النجاة، وكم من إنسانٍ على قارب النجاة مات عطشاً وهو على سطح البحر، فالماء الملحٌ الأجاج على اتساع مساحته، وعلى عمقه لا ينتفع منه في الشُربِ فلا بدّ من أن يُحَلّى،و لا بدّ من أن يُقَطّر، فمن جعله عذباً فراتاً ؟ الله جلّ جلاله، من أودعه في الينابيع ؟ الله جلّ جلاله، ونحن حينما أردنا أن نُنشئ مستودعاً للماء قُلْدنا فعل ربنا تقليداً فجعلناه تحت الأرض بأربع مائة متر، ومستودعات مياه عين الفيجة تتصل من منبعها إلى قريبٍ من حمص، ومن سِيْف البادية إلى منتصف لبنان، حوض هذا النبع الذي يروي هذه البلدة الطيبة، من الذي صمم مستودعه ؟ ومن جعله يعطينا كل ثانيةٍ ستة عشر متراً مكعباً من الماء ليروي هذه المدينة بأكملها؟

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر: آية " 22 ")

الهواء مُسَخَّر ومذلل تستنشقه أينما ذهبت بنسبٍ دقيقةٍ جداً، فلو أن نسبة الأوكسجين في الهواء ارتفعت لاحترق كل ما على الأرض لأقل شرارة، لكن نسبة الأوكسجين إلى الآزوت نسب متوازنة في الهواء، والماء مُقَطّر، لكن الماء المقطر تقطيراً كاملاً لا يصلح للشرب لا بدّ من بعض المعادن التي تُذاب في الماء بنسبٍ دقيقةٍ جداً، فمن الذي جعل هذه النسب ؟ في بعض البلاد التي تُحَلّى فيها مياه البحر لا تصلح فيها هذه المياه المحلاّة للشرب إلا إذا خُلطت بمياه الآبار المعدنية، فالماء المقطّر كلياً لا يَصلِح للشرب أبداً، تقول: مياه معدنية فيها كالسيوم، فيها يود ومغانيزيوم وفوسفور، فمن صمّم هذه المياه ؟ و من أودعها في هذه المستودعات التي لا تفسُد فيها ؟ كم من مستودعٍ للماء صنعه الإنسان يُسهم في إفساد هذا الماء، النتيجة هي أن كل شيءٍ مذللٌ لك.

القمح:

هذا القمح الذي تأكله من جعله ينضج في يومٍ واحد ؟ لو أنه ينضج كما تنضج الفاكهة تباعاً فكيف

نحصده ؟ لكان حصاده أمراً شاقاً، فالمحاصيل تنضج في يومٍ واحد، و الفواكه تنضج تباعاً وكل نوعٍ من الفواكه ينضج أيضا على مدار شهرٍ أو شهرين، فمن صمَّم هذا ؟ الله جلَّ جلاله..

(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

هذا أمر إباحة، وتعلمون أن الأمر في القرآن الكريم إما أن يكون أمر وجوب..

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

(سورة المدثر: آية " 20 من)

وإما أن يكون أمر ندبٍ..

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

(سورة النور: آية " 32 من)

وإما أن يكون أمر إباحةٍ..

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

(سورة البقرة: آية " 187 من)

وإما أن يكون أمر تهديدٍ..

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا)

(من سورة الإسراء: آية " 107 ")

فيوجد إذاً أمر للوجوب و أمر للإباحة و أمر للندب و أمر للتهديد، أما هذا الأمر فهو للإباحة:

(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

معاني هذه الآية:

أي تحرَّكوا، فالأرض مذللة وما عليكم إلا أن تسعوا في مناكبها.. و مناكبها أي جبالها و جوانبها.. قال العلماء في معنى هذه الآية:

(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

1-أي امشوا في جبالِها.

2-وقيل: في طرقها وفجاجها.

3-وقيل: امشوا حيث أردتم فقد جعلتها لكم مذللةً لا تمتنع، فلكم أن تزرعوا فيها، ولكم أن تبنوا، ولكم أن تنشئوا البيوت، ولكم أن تحفروا الآبار، ولكم أن تنشئوا الجسور،

(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

4- تحرَّكوا.

5- وبعضهم قال: " امشوا في مناكبها دون أن تغوصوا فيها " أي خذ من الدنيا ما يكفيك، و لا تطلب ما يُطغيك خذ ما يكفيك، عش في الدنيا كأنك مسافرٌ أو عابر سبيل، و لا تجعل الدنيا أكبر هَمِّك ولا مبلغ علمك..

(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

إما أن تحركوا أينما شئتم فقد ذُلِّلت لكم، هذا معنى، أو امشوا في جوانبها دون أن تغوصوا فيها..

(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)

الله خلقكم ثم رَزَقَكُم، فالفعل جاء ماضياً، والفعل الماضي له معنى دقيق ؛ أي: حينما خلقكم و رزقكم، لا تقلقوا من أجل الرزق..

(أَلَيْسَ اللّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

(سورة الزمر: آية " 36 من)

بلى، الله جلّ جلاله جعل أجل الإنسان ورزقه متعلِّقاً به وحده، فلا يستطيع إنسانٌ كائناً من كان أن يقرر أجلك ولا رزقك على وجه التحقيق هكذا، أما على وجه الوهم قد تتوهَّم أن زيداً أو عُبيداً بيده أجلك وبيده رزقك، والحقيقة أن الأجل والرزق بيدِ الله عزّ وجل، من هنا كانت كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً..

(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)

أي أنّ الله عزّ وجل هو الرَزّاق، هو الذي صمَّم البذار التي تُنبت الثمار، و لولا هذا التصميم لم وجد ما نأكل، فهو الذي صمَّم أشعة الشمس تُبَخِّر البحار وتعود سحباً وأمطاراً في أماكن متعددة، و لولا أن الله شقّ السماء بالماء وشقّ الأرض بالنبات لما كان هناك مخلوقٌ على وجه الأرض..

(وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)

آيات النبات:

البذور:

و موضوع البذور موضوع من أدق الموضوعات، بل هو من أدق آيات الله الدالة على عظمته، فالرُشَيْم كائن حي له جُذَير، وله سويق، وله محفظة غذاء، فإن جاءته الرطوبة والدفء تحرّك هذا الرُشيم، لقد أخرجوا من الأهرامات قمحاً زرع فنبت، هذا القمح عمره ستة آلاف عام، والرشيم كائن حي، أي لو أن هذا الرشيم مات فالقمح فلن ينبُت فهو كائن حي، فمن صمَّم هذا الرشيم ؟ من صمَّم له محفظة الغذاء ؟ و من جعل جذيره يخرق الصخر أحياناً ؟ ربنا جلّ جلاله جعل في نهاية الجُذير مادةً تذيب الصخر، ترى أحياناً الجذر ينفذ إلى شِقٍ في الصخر ليأخذ الماء، و نظام النبات نظامٌ عجيب، لقد

قرأت في موسوعةٍ علميَّة أنَّ أعظم معملٍ صنعه الإنسان على الإطلاق يبدو تافهاً أمام الورقةِ الخضراء التي فيها من التعقيد، وفيها من الدقة، وفيها من الإعجاز الشيء الكثير.

الخاصة الشعرية:

هذا الماء الذي يأخذه النبات من الأرض فيه ما يزيد عن ثمانية عشر معدناً مذاباً فيه، فالماء وسيط تُذاب فيه المعادن ويَصعد إلى أعلى النبات، فما هي القوة التي تجعله يصعد نحو الأعلى بعكس الجاذبية الأرضية ؟ قالوا: إنها الخاصة الشعرية.. وشرحها يطول.. فشجرةٌ عملاقة طولها ثلاثون متراً تأخذ ماءها من الأرض، والماء يصعد إلى أقصى ورقةٍ فيها، هذا الماء أُذيبت فيه المعادن التي في التربة ؛ الحديد، و البوتاس والفوسفور، فهناك معادن كثيرة جداً على شكل أملاح مُذابةٌ في التربة، يحلّها الماء ويصعد بها عن طريق خاصةٍ شعريةٍ دقيقةٍ جداً، يقال: إن هذه الشعريات التي يصعد فيها الماء إلى أعلى النبات مصمَّمة بدسّامات تسمح للماء أن يذهب نحو الأعلى دون أن يَرجع نحو الأسفل، فمن صمَّم هذه الدَسّامات في أقنية هذا النُسُغ الصاعد ؟ الله جلَّ جلاله.

النسغ النازل:

هناك الورقة اليخضور و ورقة الآزوت، في الورقة تتم عملياتٌ كيميائيةٌ بالغة الدقة، فالماء المُذاب فيه بعض المعادن، وهذه الطاقة الشمسية التي تُختزن في الورقة (الفوتون) وهذه المادة الخضراء (اليخضور) هذه كلها تتفاعل جميعاً وتصنع ما يسمَّى بالنُسُغ النازل، فالشجرة تنمو عرضاً، ولو أنها نَمَتْ عرضاً لضاقت لمعة الأوعية، لذلك كانت الأوعية مجهَّزة بألياف حلزونية تمنع ضيق لمعتها، تصميم من هذا ؟

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً)

و هذا النُسُغُ النازل شيءٌ عجيب فهو سائلٌ موحَّد يصنع الورقة، ويصنع الجذر، ويصنع الجذع، ويصنع الفروع والأغصان، والأوراق والأزهار والثمار، هل عندنا في الأرض سائلٌ واحد يصنع كل شيء ؟ تَصُبُّه فيكون تارةً خشباً، وتارةً مطاطاً، وتارةً حديداً، وتارةً نُحاساً ؟ هذا شيء مستحيل، آية النبات آيةٌ دالةٌ على عظمة الله عزَّ وجل، من النبات تأكل، وتصنع الأثاث، و تصنع الدواء، و تصنع الأصبغة، و تصنع الأدوية، والأصبغة وأكثر الحاجات تُصنع من النبات..

كما تعلمون أيها الإخوة... هناك نباتٌ مهمّته تقديم الخشب، مائة نوعٍ من أنواع الخشب نستعملها، فهناك نوعٌ للنوافذ تتحمل المطر والبرد والحر وتقلب الحرارة والبرودة، و نوعٌ نستخدمه للأثاث، و نوعٌ نستخدمه للصناعة، و نوعٌ جماليٌ جداً نستخدمه للقصور والأبْهاء، وهناك نوعٌ نستخدمه للأثاث، و نوعٌ نستخدمه للآلات.

حدثني رجلٌ قال: استخدمت آلاتٌ نسيجية وضِعت على قواعد أسمنتية فلم أنجح في استعمالها، جيء بخبيرٍ نزع القواعد الأسمنتية ووضع لها قواعد من شجر التوت، هذا الشجر أليافه الخشبية متينة ومرنة فإذا تحرّك المَكّوك في أثناء الآلة وارتطم بالطرف الأول امتص هذا الشجر أو هذا الخشب الصدمة فلم ينقطع الخيط، فهناك شجرٌ مصمّمٌ للآلات، و شجر مصمم للأثاث، و شجر مصمم للصناعات الخشبية، أنواعٌ منوعة، حتى بعض الأبنية أساسها من الخشب إذا جاءه الماء توسّع الخشب فكان متيناً، آيات الله لا تنتهي.

إذاً الأرض مصممة، فمثلاً: حجاج بيت الله الحرام يطوفون في البيت الحرام، على أي شيءٍ يطوفون ؟ على رخام، وهذا الرخام حجر يمتصُّ أشعة الشمس المحرقة.. ستة وخمسين، ثمانية وخمسين، أربعة وخمسين.. فالرخام الذي في الحرم سابقاً لو وَضَعْتَ أصبعك عليه وقد بللتها بلعابك لسمعت صوتاً كصوت المِكواة تماماً، كيف يطوف الناس على هذا الرخام ؟ هناك رخامٌ في الأرض من أندر أنواع الرخام لا يمتصُّ الحرارة، تطوف على هذا الرخام وهو إلى البرودة أقرب والشمس فوقه مسلطةٌ عليه.. ستة وخمسين درجة.. فمن صمم هذا الرخام ؟ من الذي جعله مذللاً ؟ الله جلّ جلاله، إذاً كل شيءٍ أنت بحاجةٍ إليه.

فإذا أردت أن تضع حديداً على حجر فما الطريقة ؟ هناك معدن اسمه الرصاص ينصهر في الدرجة مائة فقط على موقد بسيط ينصهر هذا المعدن، هذا المعدن إذا صهرته ثم برد فإنه يتمدد، يكفي أن تحفر حفرة في الحجر وأن تضع الحديد عليه وأن تصب الرصاص، ليس هناك من قوةٍ يمكن أن تنزع الحديد من الحجر، فمن سخَّر هذا المعدن لتثبيت المعادن بالأحجار ؟ الله جلّ جلاله.

المعادن (الحديد والذهب والألماس):

أنواع المعادن التي بين أيدينا لا تعد ولا تحصى، فكل معدن له خاصة، هناك معدن قويٌ جداً خفيفٌ جداً لصنع الطائرات، هناك معدنٌ مرن لصنع النوابض، هناك معدنٌ يتأكسد لصنع أملاح المَعدن، و لولا أن الحديد يتأكسد لما كان هناك كائن حي على وجه الأرض، لأن الحديد مادةٌ أساسيةٌ جداً في خُضاب الدم، ولولا أن الحديد يتأكسد بالأوكسجين فيكون أملاح الحديد لما أمكن استخدامه، يوجد في كل إنسان منّا حديد ما يكفي لصنع مسمار كبير.. ستة عشر ميلي.. و إذا كان الإنسان يعاني من فقر دم يعطى الحديد، وبعض الأدوية تنطوي على حديد، والنبات يحتاج إلى حديد، فمن جعل هذا الحديد يتأكسد ؟

أما الذهب فإنه لا يتأكسد، فقد جعله الله معدناً يُستخدم كقيمة للتعامل.

لقد نظرت إلى مقالة في مجلة تقول أن باخرة غرقت قبل مائة وخمسين عاماً وعليها خمسة أطنان من سبائك الذهب، وقد كان هذا الذهب قد استخرج قبل عامٍ أو أكثر وغسِل، فكان بلمعته كأنه قد سُكِب

الآن، على الرغم من مضي مائة وخمسون عاماً عليه وهو في قاع البحر، هذا هو الذهب إنه لا يتأثر لا بالأحماض ولا بأي عامل من عوامل التأثير.

أما الألماس، فإنهم قد حاولوا أن يصنعوا ألماساً مشابهاً تقليدياً لكن هذا الألماس الاصطناعي بعد الاستعمال ينطفئ وهجه، بينما الألماس الطبيعي له وهجٌ يفوق حدّ الخيال، فمن أعطاه هذه الخاصة ؟

بالمناسبة: الألماس فحم، لكن تحمّل ضغطاً كبيراً وحرارةً عاليةً جداً فصار ألماساً، وهذا مثل يفيدنا، فإذا كان الإنسان جاءه ضغوط كثيرة وتحمّلها، وجاءته مواقف صعبة جداً وتحمّلها صار نادراً كالألماس، الله عزّ وجل يسوق الشدائد لعباده لكن هذه الشدائد رحمةً بهم من أجل أن تجعلهم أناساً متفوّقين..

(وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

أي أن الله الذي خلق لكم الأرض ذلولاً قادراً على أن يعيدكم إليه ليُحاسبكم، هذا المعنى أي هو الذي خلق لكم..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

الله الذي سخّر لكم كل الأرض، وكل ما في السماوات من أجلكم قادرٌ على أن يعيدكم خلقاً آخر ثم يحاسبكم عن كل صغيرةٍ وكبيرة، ثم يقول الله عزّ وجل:

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

(سورة الملك: آية " 16 ")

الزلازل:

حينما يعصي الإنسان الله عزّ وجل فعلى أي شيءٍ يكون معتمداً ؟ كلكم سمع أخبار بعض الزلازل، بلدةٌ مستقرةٌ تعيش في بحبوحة، أبنية شاهقة، شوارع عريضة، أجهزة اتصال، خدمات رائعة، خمس درجات من الاهتزازات تجعل هذه المدينة قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، إذاً هذا الذي يأمن مكر الله إنسانٌ مغفّل، فبأية لحظةٍ يمكن أن يصيب الزلزال أرضاً ما أو بلدةً ما فتكون خربةً كأن لم تغن بالأمس..

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

أي تضطرب، فقد توجد أجهزة إنذار مبكّر أحياناً، يقال: زلزلة أربعة ريختر، لا يحصل شيء به، فليس هناك خسائر ولكنه لفت للنظر، وهؤلاء الناس الذين غرقوا في المعاصي والآثام من يضمن لهم أن تبقى بيوتهم هيَ هي ؟

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ)

هذا قارون الذي قال:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

قال تعالى:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: آية " 81 ")

وهذا درسٌ بليغٌ لنا، فإياك أن تعزو الأشياء إليك بل يجب أن تعزوها إلى الله عزّ وجل، إلى فضل الله، إلى رحمة الله، لا تقل: لقد أخذت احتياطاتٍ بالغة، فلا ينفع ذكاءٌ مع الله عزّ وجل، ولا احتياطاتٌ لأن الحذر يؤتى من مأمنه.

معاني (من في السماء):

أما كلمة من في السماء فإنها تحتاج إلى شرح دقيق..

(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

1- قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته، هذا معنى.

(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

2- قيل: خصّت السماء لا لأن الله في السماء وحدها، فهو في كل مكان، بل لأن الناس يعظِّمون أهل الدنيا في الأرض فكان لفت نظرهم إلى السماء.. هذا معنىً ثاني..

3- المعنى الثالث:

(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

أي الملائكة الذين أوكل الله إليهم إنزال العذاب بالخلق أحياناً.

4- وقيل:

(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

أي سيدنا جبريل وهو الملك الموكّل بالعذاب أحياناً.. هذا معنى رابع..

(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

أي أمنتك خالق من في السماء..

(أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ)

كما خسفها بقارون..

(فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

أيضاً..

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

5- أي بمعنى من هو فوق السماء علواً وقهراً، الآية الكريمة:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة التوبة: آية " 2 ")

أي سيحوا على الأرض، وعلى تفيد الاستعلاء لا تفيد المَكانية بل تفيد القهر والسيطرة..

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

6- المعنى أيضاً أن الله سبحانه وتعالى منزّهٌ عن التحتِ وعن السُفْل تعظيماً لله عزّ وجل، وقد وصِف الله بالعلو وبالعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود لأنها صفات الأجسام، وإنما تُرفع الأيدي دائماً إلى الله نحو السماء، و السماء مهبط الوحي، ومنزل القَطْر، ومحل القدس، ومعدن المطهّرين من الملائكة..

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

7- إلى السماء تُرفع أعمال العباد، هذا أيضاً من معنى من في السماء، وفوق السماء عرشه وجنّته، كما جعل الله الكعبة قبلةً للدعاء والصلاة، هذه بعض المعاني التي ترد في التفاسير حول قوله تعالى:

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

أي أن المؤمن لا يأمن مكر الله، و لا يأمن مكر الله إلا القوم الكافرون، و المؤمن يرى أنه في قبضة الله دائماً، يرى أن صِحّته و حركته وأجهزته و رزقه وسلامته بيد الله عزّ وجل، فهو خاضعٌ له دائماً مفتقرٌ إليه، تائبٌ إليه، منيبٌ إليه، عندئذٍ يحفظه الله عزّ وجل، الإنسان أحياناً يجهل ويتوهّم أنه مَلَكَ كل شيء، وفي أية لحظةٍ يمكن أن يجعل الله حياته جحيماً، فيجب أن تعرف مكانك.. " رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده ".. فأنت لست بشيء والله كل شيء، فإذا كنت معه كان معك، إن استعنت به أعانك، إن استنصرته نصرك، إن تقوّيت به قوّاك، إن اعتمدت عليه لبّاك، إن لجأت إليه ألجأك، إن خضعت له حماك..

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

وأخبار الزلازل كثيرة.. فهناك زلازل ذهب ضحيتها مائتا ألف إنسان في ثوانٍ معدودات..

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ)

هناك فندق في مدينة في المغرب عدد طوابقه ثلاثون، أصاب هذه المدينة.. وهي مدينة أغادير.. زلزال فسقط هذا الفندق بطوابقه الثلاثين في الأرض ولم يبق منه إلا الطابق الأخير الذي كُتب عليه اسم الفندق وكأن هذا الاسم شاهدةٌ على قبر هذا الفندق..

(أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

وعندي صور لبعض الزلازل شيء لا يُصدّق ؛ مدن، أبنية شامخة أصبحت على الأرض في ثوانٍ معدودات، بناءٌ في القاهرة شامخ خلال ثوان أصبح كتلةً من الرُكام بمن فيه ؛ بأشخاصه، بأساسه، بكل ما فيه..

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

أي إن هذه الزلازل تحت سمعنا وبصرنا، فما يمضي يوم إلا وهناك خبر عن زلازل في بعض بلاد العالم، وأحياناً تأتي الزلازل بنسب مضعّفة، ليس هناك أضرار مادّية ولكنها لفت نظر.. يا عبادي انتبهوا، هذا أسلوب تحريك العصا..

(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

(سورة الملك: آية " 17 ")

قد تُمطِر السماء حجارةً..

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4))

(سورة الفيل)

أهلك الله أبْرَهَة الذي أراد أن يهدم الكعبة..

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4))

وإذا لم توجد حجارة الآن فقد وجدت الصواريخ، ووجدت القنابل، و وجد القصف الجوّي، ووجدت الطائرات المخيفة، ووجدت القنابل التي تركب أشعة الليزر، وتوجد طائرات لها أسماءٌ محيرة، وتوجد قنابل ذكية و قنابل عنقودية و قنابل تعمل على الرادار، أنواع لا تعد ولا تُحصى، هذا كلّه من:

(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً)

أي حجارةً أو ريحاً فيها حجارةٌ، وقيل: سحابٌ فيها حجارةٌ..

(فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

النذير: هو المنذر وهو النبي صلى الله عليه وسلم، فالإنسان أحياناً يتلقّى دعوة الأنبياء دون أن يبالي بها، يقرأ القرآن دون أن يقف عند أمره ونهيه وعند حلاله و حرامه، أما حينما تأتي المصائب يعرف أن الله سبحانه وتعالى كان قد أنذره ولم يستجب، الحقيقة أن دعوة الأنبياء أحياناً تُصدّق بعد أن يُحقق وعيدُ الله عزّ وجل، لكن البطولة أن تؤمن بها قبل أن يأتي وعيد الله عزّ وجل، الوعيد وَرَد لكن تحقيق الوعيد هو يحمل الإنسان على أن يؤمن بهذا الكتاب، فالبطولة أن تؤمن به قبل وقوع الوعيد، أما بعد وقوع الوعيد فالإيمان حتمي، ففرعون وهو يرى قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91))

(سورة يونس)

من السهل أن تقرأ وعيداً في القرآن..

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: آية " 279 ")

هذا وعيد للمرابين لكن الإنسان قد يقرأ هذه الآية ولا يستجيب لله عزّ وجل، أما حينما يُدمِّر ماله كلّه يؤمن يقيناً أن هذا الوعيد قد وقع لكن الإيمان ساعتئذ لا قيمة له، فالبطولة لا أن تنتظر الوعيد حتى يقع البطولة أن تستجيب قبل أن يقع الوعيد.. هذه نقطة مهمة جداً.. فحينما يقع الوعيد كل الناس يؤمن من دون استثناء، وهذا الإيمان لا قيمة له ولا يُنجي صاحبه أبداً، أما هذا الذي يؤمن بالغيب، يؤمن بالوعيد قبل أن يقع..

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

يستجيب لله قبل أن تأتي حرب الله عزّ وجل، نتابع الآية الكريمة:

(وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

(سورة الملك)

طبعاً الإنسان يستفيد من دروس الأمم السابقة، فالله سبحانه وتعالى كلّما أرسل رسولاً لأمةٍ فكذّبوا هذا الرسول أذاقهم العذاب الأليم، ينبغي أن نستنبط قانون أن الله سبحانه وتعالى إذا أنذر أعذر، فانظر إلى قوم عادٍ كيف أهلكهم الله عزّ وجل، وإلى قوم ثمودٍ، وإلى قوم تُبّع، وإلى فرعون، كل هذه الأمم التي كذّبت أنبياءها استحقّت الهلاك، ثم يُشير الله جلّ جلاله إلى آيةٍ دقيقةٍ جداً وهي قوله تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

(سورة الملك: آية " 19 ")

طيران الطير من أعظم الآيات:

كما جعل الله سبحانه وتعالى الأرض ذلولاً نمشي في مناكبها، فإنه جعل الجو مذللاً للطير يطير في أجوائه كيفما شاء، وطيران الطير آيةٌ عظمّى من آيات الله.. عندي موسوعةٌ علميّةٌ عن الطيران، في مقدمة هذه الموسوعة كُتِبت ملاحظةٌ تثير الدهشة، قال: إن أعظم طائرةٍ صنعها الإنسان حتى الآن، تزيد سرعتها عن سرعة الصوت، و هناك طائرات تحمل ستمائة وخمسين راكباً يأكلون و ويشربون ويستمتعون، و هناك طائرات بأحجام كأنها مدينة تطير، والطيران معقدٌ جداً بل هو خلاصة علم الإنسان، فستمائة وخمسين راكب يركبون في مكان واحد ويجلسون على مقاعد وثيرة، تأتيهم الأطعمة الطازجة، يستمتعون بكل شيء وهم على ارتفاع أربعين ألف قدم في الجو، هناك علمٌ كبيرٌ جداً، لأن ضغط الجو في الطائرة لا يسمح للإنسان أن يستنشق الهواء لا بدّ من أن تُحقَن الطائرة ثمانية أحجامها من الهواء كي يكون الضغط على هذا الارتفاع العالي مساوياً لضغط الأرض، فالأمور معقدة جداً.. كُتب على هذه الموسوعة: إنّ أعظم طائرةٍ صنعها الإنسان تبدو ساذجةً وسخيفةً أمام الطائر.. طائر

يطير سبعة عشر ساعة من دون توقُف !! طائر يطير أكثر من اثنتين وعشرين ألف كيلو متر من الشمال إلى الجنوب !! الشيء الذي يحيّر حتى الآن وليس له جواب، فقد جهد العلماء خلال مئات السنين ليعرفوا أن هذا الطائر الذي يطير كيف يهتدي إلى هدفه ؟ هل عن طريق التضاريس ؟ فوجدوا أنه يطير على سطح البحر من دون تضاريس، أم عن طريق أشعة الشمس ؟ فوجدوا كذلك أنه يهتدي إلى هدفه من دون أشعة الشمس ليلاً، فما من نظريةٍ طُرِحَت إلا وثبت بطلانها، لذلك يقول العلماء: هناك قوةٌ خفيةٌ توحي لهذا الطائر بخطةِ سيره، لأن الطائر يقطع من سبعة عشر ألف كيلو متر إلى عشرين ألف كيلو متر، فلو أنه انحرف في طيرانه درجة واحدة.. فمثلاً إذا كان عشُّه في الشام ذهب إلى مصر، فلو انحرف نحو اليسار لذهب في العراق، درجة واحدة.. طبعاً هو يذهب من الشام مثلاً إلى جنوب إفريقيا ويعود في الشتاء إلى عشّه، أو في الصيف إلى عشِّه، فهذا لو انحرف في طيرانه درجة واحدة يمشي فوق يابسة، فوق بحار، فوق بحيرات، فوق جبال، في الليل في النهار، البحوث عن الطيران شيء لا يُصدق، و هذا الطائر حينما يستنشق الهواء آلة تعمل باستمرار لا بدّ لها من تبريد، لذلك الهواء الذي يستنشقه يتغلغل إلى كل أنحاء جسمه ليبرّد عضلاته لأنه يطير باستمرار، فمن أودع في هذا الطائرة قوة إبصار تزيد ثمانية أضعاف عن قوة إبصار الإنسان ؟ السبب ؟ لأنه يريد أن يأكل، فلو أن بصره قاصر ينزل ليأكل فلا يجد طعاماً فيعود، لا ينزل إلى الأرض ليأكل إلا وقد رأى طعامه على الأرض من فوق مسافاتٍ شاسعة في الجو، لذلك العلماء قالوا: "ليس هناك أي نظرية ثبتت عندنا في موضوع حركة الطائر في السماء إلا أن تكون هناك قوةٌ خفيةٌ تُلهم الطائر ". فطائر ولِد حديثاً أُخِذ إلى شرق الأرض إلى استراليا فلمّا كبر عاد إلى بريطانيا، إذا قلنا أن حركته جنوب شمال الآن أصبحت حركته شرق غَرب، فما من فرضيةٍ وضعت لطيران الطائر إلا وثبت عكسها، لذلك الآن استسلم العلماء، الجواب هو هذه الآية:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ)

أي أجنحتها..

(وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)

أحياناً يأتي فعل الله بواسطة، أحياناً الإنسان يموت بحادث وأحياناً يموت مباشرةً بلا سبب ظاهر، أحياناً أفعال الله عزّ وجل تبدو لنا عن طريق سبب، وأحياناً تبدو أفعل الله بلا سبب، فطيران الطائر وتحليقه في الأجواء، وانتقاله من قارةٍ إلى قارة، ومن شمال الأرض إلى جنوبها، ومن جنوبها إلى شمالها بلا بوصلة ولا توجيه.. أما الطيار فكيف يطير ؟ هناك محطّات أرض تبثُّ للطائرات أماكن طيرانها.. و الطيار دائماً يعرف أين هو على سطح الأرض، في أي مكان في العالم محطات أرضية تَبُث، هذه المحطة تقع على خط طول كذا وخط عرض كذا، فالطيار عن طريق بعض الأجهزة يعرف

أين هو دائماً، فلا توجد طريقة ثانية، محطاتٌ أرضية تبث للطائرات أماكن طيرانها فلهذا الطيار يهتدي في الليل لأن معه رادار، معه أجهزة إنذار، معه أجهزة تحكم، أما هذا الطائر هل يتلقى من أجهزة أرضية أين هو في السماء ؟ من يدلُّه على طريقه ؟ لذلك هذه الآية تفسِّر هذا اللُغز المحيّر الذي حار فيه العلماء..

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

أيها الإخوة الأكارم... آية الطيران وحدها من آيات الله الدالة على عظمته.

آية الأسماك:

آية الأسماك لا تَقلّ عن آية الطيور، فسمك السلمون ينتقل من شواطئ أوروبا إلى رؤوس الأنهار في أمريكا، ينتقل السمك من شواطئ أوربا باتجاه الغرب، أيضاً لو انحرف درجة واحدة لجاء في أمريكا الشمالية، لو انحرف درجتين نحو الجنوب جاء في أمريكا الجنوبية، هذا السمك الذي انطلق من رأس النهر في أمريكا يعود إلى النهر ذاته ليموت هناك ويلد هناك.. أما سمك السلمون فله قصّة.. إنه حينما يدخل إلى النهر الذي خرج منه يعكس أو يعاكِس تيار النهر، أحياناً يصعد في الشلال من تحت إلى أعلى ليصل إلى هدفه.

و هناك سمك كالأفعى ينطلق من ينابيع النيل ليصل إلى البحر المتوسط فيتجه غرباً إلى مضيق جبل طارق وشمالاً ليُحاذي إسبانيا ثم يدخل مضيق المانش.. بحر المانش.. ليموت في بحر الشمال، هذه رحلةٌ يعجز عنها أكبر ربّان سفينة، من منابع النيل إلى بحر الشمال، من يهديه إلى طريقه ؟

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

هذه هداية الله للحيوان، وأما هداية الله للإنسان أودع فيه هذا العقل الذي جعله أكرم مخلوقٍ على الله عزّ وجل، أعطاه عقلاً هو أداة معرفة الله، وهو مناط التكليف.

في الدرس القادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

(سورة الملك)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 20-26
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-04-25

بسم الله الرحمن الرحيم

غرور الكافرين وهداية المؤمنين

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس من سورة الملك، ومع الآية العشرين:

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21))

أيّها الإخوة الكرام... آيات القرآن الكريم مُترابطة، وهذا معنى قوله تعالى:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)

(سورة هود: آية " 1 ")

فالإحكام هو الترابط، فربنا سبحانه وتعالى حينما قال:

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

(سورة الملك: آية " 16 ")

عذاب الله غير مأمون:

قد يأتي بالعذاب من تحت أرجلنا..

(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

وقد يأتي العذاب من فوق رؤوسنا، وهناك آيةٌ تؤكِّد هذا المعنى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

فقد يأتي العذاب من السماء حاصباً، وقد يأتي من تحت الأرض خسفاً، وقد يأتي لُعْماً، أو قصفاً، و كل من أنواع العذاب..

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ)

فإن كنتم قد أمنتم عذاب الله، فلعلّكم تعتمدون على جندٍ لكم يحمونكم من هذا العذاب، فمَنْ هؤلاء الجند الذين يحمونكم ؟ هذا هو أصل الآية..

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُور)

أي تضطربُ من تحت أرجلكم..

(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِير (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِير(18))

لقد أهلكنا المكذبين ودَمَّرناهم، أما الآن فإن هذا الذي يعصي الله وهو مطمئن ثم لا يفكِّر في أن يرجع إليه تائباً، يقترف المعاصي والآثام دون أن يعبأ بالمستقبل، فعلى أي شيءٍ يعتمد ؟ حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَو الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَو السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي: عن أبي هريرة)

فهذا الذي لا يعبأ بمنهج الله و لا يلتزم به،و لا يفكِّر حينما يتحرّك أهو على صواب أم على خطأ ؟ يفعل ما يجوز و ما لا يجوز، لا يأبه بكون ربه راضٍ عنه أو ساخط ؟ يتحرّك حركةً عشوائية و همُّه أن يستمتع بالحياة الدنيا دون أن يعبأ بخالقٍ خَلَقَ، وأمر، ونهى، ولا يعبأ بمنهجٍ قويم أرسله الله هدايةً للعالمين، يَعْصي الله ولا يعبأ بقصص الأنبياء السابقة، ولا بهلاك الأمم السابقة هذا ما موقفه ؟ لعله يعتمد على جندٍ إذا جاء عذاب الله عزّ وجل يمنعون عنه هذا العذاب !! فهل الأمر كذلك ؟

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ)

أنت في قبضة الله:

أي: أنت في قبضة الله ونحن جميعاً في قبضة الله، ولو كنت مع أقوى الأقوياء، فماذا يستطيع أن يفعل هذا القوي لو أن نقطةً من الدم تجمّدت في عروق الدماغ فشكّلت خثرةً دماغية فأصابته بالشلل أو بالعمى أو بالصمم أو بفقد الذاكرة ؟ فنقطة دمٍ إذا تجمّدت في أحد فروع شرايين الدماغ تجعل حياة الإنسان جحيماً، حتى و إن كنت في الدنيا مع أقوى الأقوياء مُلازماً له، لو كنت كَظِلِّه، فماذا يستطيع أن يفعل هذا القوي من أجلك ؟

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي)

هذا اسمه استفهام إنكاري، ليس لكم جندٌ يحمونكم من عذاب الله..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

((مَا شَاءَ اللّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُن))

(سنن أبي داود)

(مَا يَفْتَحِ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

((اعْلَمْ أنّ الأُمّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَك))

(سنن الترمذي: عن ابن عباس)

هذا هو التوحيد، فالإنسان حينما يوحِّد يرتاح قلبه، كأن الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا قائلاً: أيها الإنسان المُغْتَر الواهم الجاهل أنت حينما تعصي و تقترف الآثام على ماذا تعتمد ؟ أتعتمد على جندٍ يحمونك من عذاب الله ؟ أتعتمد على قوةٍ تحول بينك وبين قضاء الله وقدره ؟ إنك في قبضة الله..

(قُلِ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: آية " 26 ")

من يملك السمع والأبصار والأفئدة ؟ من يملك الحركة ؟ من يملك العقل في الرأس ؟ إن الذي يفقد عقله يتوسط له أقرب الناس ليجعلوه في مستشفى الأمراض العقلية، فأنت لا تملك عقلك، ولا حركتك، ولا سمعك، ولا بصرك، ولا من حولك، ولا ما حولك..

(أَمّنْ هَذَا الّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرّحْمَنِ)

إنك حين تُخَاصم قوياً وتعتمد على قويٍ ندٍ له فالأمر معقول، فإن أراد أن يصل إليك احتميت بالقوي الذي تعتمد عليه، هذا هو المنطق، أما إذا كنت تجترئ على الله عزّ وجل فمن هي الجهة في الأرض التي تستطيع أن تمنع عنك عذاب الله ؟ من هي الجهة في الأرض التي تستطيع أن تحول بينك وبين أمر الله..

(أَمّنْ هَذَا الّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ)

إنك حينما تعصي لعلك تعتمدُ على جهةٍ تحميك من الله عزّ وجل ؟! و إن هذا لمنتهى الجهل و والغباء و الجنون..

(وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدّ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

حدّثني أحد المرضى وهو مصابٌ بمرضٍ خطيرٍ في القلب و مرض خطير في المعدة قال لي: إنّ أدوية مرض القلب تؤذي المعدة، وأدوية المعدة تؤذي القلب، فماذا أفعل؟ ؟

إننا في قبضة الله، نحن لا نحتمل أي أذى حتى ولو كان مَسّاً، فهناك آلامٌ لا تُحْتَمل، و هناك آلامٌ تُخرج الإنسان عن طوره.

أيها الإخوة الأكارم...الآيةُ دقيقة، الإنسان حينما يعصي الله على ماذا يعتمد ؟ أيحميه ماله ؟.. مرّة كنت عند طبيب، فجاءه اتصالٌ هاتفي وقد سمعت بأذني ما يقوله المتصل، لقد كان يقول: أي مكانٍ في العالم أذهب إليه، وأي مبلغٍ أدفعه، فقال له: والله لا يوجد أمل فالمرض الخبيث للدرجة الخامسة.. فماذا يفعل المال ؟ لا يفعل شيئاً، فلو أنك معتمدٌ على قوي، فالقوي يتخلّى عنك في الوقت الحرج أحياناً..

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ)

فالإنسان بالمنطق السليم حينما يخاصم قوياً ينبغي أن يعتمد على قويٍّ ندٍ له، أما إذا أراد أن يخاصم الله عزّ وجل وأن يعصيه جهاراً، وأن ينتهك حُرماته ويؤذي مخلوقاته و يتطاول عليهم و يأخذ أموالهم، و ينتهك أعراضهم ولهم ربٌ كبير، فعلام يعتمد في فعله هذا ؟ إنه ضعيف، و الإنسان في قوته، وطغيانه، وجبروته كل حياته متوقفةٌ على نبضات قلبه، فلو توقّف القلب فجأةً لانتهى الإنسان.

نريد أيها الإخوة أن نأخذ هذه الآية ونطبّقها تطبيقاً عملياً، كل واحد منّا إذا خرج عن منهج الله فما الذي يحميه من عذاب الله ؟ ما الذي يحميه من قضاء الله ؟ ما الذي يحميه من حكم الله ؟ لا شيء، أي أن الله عزّ وجل له علينا مليون سبيل وسبيل، فكل مكانٍ في الجسم مُعَرَّضٌ لورمٍ خبيث، بل إن أحدث الأبحاث الآن تشير إلى أن في الإنسان مورّثاً متعلِّقاً بالورم الخبيث، و هذا المورّث إما أن يُجَمِّد وإما أن يُفعِّل، ففي أي مكان تنتهي حياة الإنسان عندئذ ؟ إنها قد تنتهي بعد سنواتٍ طويلة يذوق العذاب فيها والشقاء و الإنسان ضعيف، فعلام يعتمد ؟

على ماله ؟ قد تنشأ مشكلةٌ لا يحلها المال.

على من حوله ؟ قد تأتي مصيبةٌ لا يحلها من حوله، فأنت حينما تعصي على ماذا تعتمد ؟.. هنا السؤال..

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ)

إذا جاء قضاء الله وقدره ما الذي يحميك ؟

(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر: آية " 22 ")

أي قبل أن تخالف منهج الله و تخترق خطّ الاستقامة، قبل أن تصل مع الله إلى معصية فكِّر هل هناك جهةٌ تحميك من عذابه ؟ وعذاباته لا تُعَدُّ ولا تُحصى، فالذي نسمع عنه أن الإنسان بأجهزته المعقدة، وأعضائه المعقّدة، وتركيبه المعقد، هناك مليون خطر ينتظره في جسمه، مليون خطر ينتظره في بيته، في عمله، في سفره، في إقامته، فإن لم يكن على منهج الله، و لم يكن مطيعاً لله، و لم يحتمِ بحمى الله، و لم يستظل بظل الله و لم يفتقر إلى الله فمن الذي ينجده ؟ من الذي ينقذه ؟ من الذي يحميه ؟

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ)

أيها الإخوة الكرام...

(إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

(سورة الملك)

غرور الكافرين:

الغرور هو أن تتوهم شيئاً لا أصل له، لا أساس له، فالإنسان أحياناً قد يرى عُلْبَةً ثمينة فيظن أن بها شيئاً ثميناً فإذا فتحها لم يجد فيها شيئاً، فنقول: إنه قد اغتر بها، كما أنه قد يُعطي بعض الأشياء حجماً كبيراً فإذا تعمّق فيها لم يجدها شيئاً، فالمال مثلاً، الإنسان يظنه شيئاً عظيماً في أول حياته، أما في منتصف حياته يظنه شيئاً ولكن ليس كل شيء، ثم حينما تنكشف الحقيقة يراه ليس بشيء، وهكذا كل حظوظ الدنيا..

(إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

أي أن الكافر لا يوجد لديه إلا حلٌ واحد، فإما أن تعرف الحقيقة أو أن تجهلها، فإن عرفت الحقيقة تأدَّبت مع الله و التزمت أمر الله و بادرت إلى طاعة الله و كنت مستسلماً لله، واعتمدت عليه وحده، فالمؤمن لا يعتمد لا على ماله ولا قوته ولا على ذكائه، لقد قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

فإن عرفت الحقيقة اعتمدت على الله وحده وافتقرت إليه ولُذت بحماه، وكان الله ملجأً وحصناً وقوةً لك.

أيها الإخوة الكرام... أيُّ شيءٍ نعتمد عليه سوى الله يزيحه الله من تحتنا من أجل أن نتَّعظ، وهذا من محبة الله و تربيته لنا، وذلك من أجل أن نقبّل عليه و لا نغتر، يقول الله عزّ وجل:

(إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

معنى ذلك أن الكافر الذي استغنى عن طاعة الله مغرور، فمثلاً: إذا كان هناك شخص معه شيك بمائة ألف، ولكن الشيك مزوّر وليس هناك رصيد، هو واهم أنه شيكٌ صحيح و مليء.. و كل إحساسه بالقوة مبني على اعتقاده أنه صحيح، فلو اكتشف أنه مزوّر أو أنه لا رصيد له انهار.. فالكافر على شيء من الغرور، فكل من اعتمد على غير الله فهو مغرور، فقد تعتمد على شخصٍ قوي يتخلى عنك في أحرج الأوقات و أصعبها لأنك كنت مُغْتَرّاً به..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

(سورة فاطر)

قد تعطي الدنيا حجماً أكبر من حجمها بكثير فأنت مغترٌ بها، وقد يأتي الشيطان فيوسوس فتصدِّق فكان الشيطان هو الغَرور، أي هو الذي أغرَّ الإنسان و غرَّر به، يقول الله عزّ وجل..

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

الكافر حينما يعتمد على جهةٍ غير الله عزّ وجل يكون مغترٌ بها، أي إنه أعطاها حجماً غير صحيح، توهّم شيئاً لا أصل له، هذا فيما يتعلق بالوجود.

البقاء والرزق بيد الله وحده:

أما فيما يتعلق بالرزق، فالإنسان حريصٌ على شيئين: على بقائه وعلى رزقه، أما بالنسبة لبقائك فأنت حيٌ تُرزق لأن الله شاء لك أن تبقى حيّاً، فإذا أراد الله شيئاً وقع، و كل شيءٍ أراده الله وقع، وكل شيءٍ وقع أراده الله، و أما الرزق..

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ)

(سورة الملك: آية " 21 ")

فالرزق أصله عند الله عزّ وجل، فبعض البلاد في إفريقيا أصابها الجفاف سبع سنواتٍ متتاليات فهلك كل شيءٍ، فيقال لك: صقيع بسيط أصاب الغوطتين أتلف المحاصيل، فثمن الفواكه التي تلفت في صقيعٍ بسيط قبل أسابيع مائة مليون، فكانت الخسارة مائة مليون.. أحياناً يصل صقيع إلى محصول أساسي فتبلغ الخسارة ألف مليون، أو ثلاثة آلاف مليون، فالله هو الرزّاق، فلو أن الأمطار جاءت موزعةً توزيعاً مناسباً لرأيت الخيرات ولأكل الناس من فوقهم ومن تحت أرجلهم..

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وقس على ذلك القرآن الكريم..

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعرف: آية " 96 ")

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ)

إذا أقلعت السماء عن أن تمطر فماذا نفعل ؟ إننا سنفقد عندئذ معظم المحاصيل، لقد أنتجت بلادنا مرةً -بفضل الله ورحمته- ثلاثة ملايين طن من القمح، واحتياجاتنا القصوى مليون طن فقط، وأحياناً تنتج مائتين ألف طن، فلو أن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت فماذا نأكل ؟ فهناك كوارث في بعض البلاد تجعل المحاصيل كلّها تالفة، عندئذ ينبغي علينا أن نستورد كل شيء، فترتفع الأسعار إلى درجةٍ جنونية..

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ)

هنا توجد نقطة دقيقة: كل واحد منا له عمل، فهو في عمله مادام يملك هذه الإمكانات.. إمكانات العمل.. فلو فقد عقله فجأةً انتهى عمله، و كل واحد الله عزّ وجل يسّر له عمل لأن عنده قدرات و إمكانات، فهذا عمل في التعليم، و هذا عمل في طب، و هذا في الهندسة، هذا في الصناعة، هذا في التجارة، هذا في

الزراعة، هذا في الخدمات، و لولا أن الله سبحانه وتعالى أعطاك بعض القدرات التي توظِّفُها في كسب الرزق، و وَفَّقَك بعد ذلك لما أتقنت شيئاً، و كل واحد منا له مكان يأوي إليه، له طعامٌ يأكله، له بيتٌ يدخله مساءً، فلولا أن الله تفضّل علينا لما أمكننا أن نكسب أرزاقنا، إذاً رزق الله عزّ وجل يبدأ بماء السماء، يبدأ بالسماء تُمطِر، و الأرض تُنبت.

شيء آخر: لو أن الإمكانات التي أودعها الله في الإنسان سلبت، فلو كان هناك إنسان يحتل مكانة رفيعة وعمل جيد ففقد بصره فجأةً، طبعاً إنه سيسُرّح من عمله ثم يقول لأحد أصدقائه: والله أتمنى أن لا أملك من الدنيا إلا معطفاً أتسول به على الطريق وأن يُردَّ إليَّ بصري، فهناك مصالح أساسها البصر، ومصالح أساسها اليد، يقول الله عزّ وجل:

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)

العتو: العِناد، لجوا: ضجروا، فالإنسان المؤمن يتلقّى أمر الله عزّ وجل بالرضا والقبول، أما الكافر يرفض أمر الله عزّ وجل، لذلك قال العلماء: " هناك معصيةٌ أساسها الكِبر "، فالكافر الذي يُعانِد الحق يستكبر عن أن يطيع الله عزّ وجل.

(بَلْ لَجُّوا)

أي اضطربوا..

في إصرارٍ ونفور: أي ؛ نفوسهم ابتعدت عن منهج الله عزّ وجل، فهناك من يحب أمر الله، و يحب طاعة الله، و يحب أن يقوم بشعائر الله عزّ وجل، وهناك من يرفض هذا كلّه. ثم يقول الله عزّ وجل:

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم)

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة العنكبوت)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

لا يستوي الأحياء ولا الأموات، لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور..

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

هنا:

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ)

طريق الإيمان وطريق الضلال:

معاني (مكباً):

1- الطريق غير الصحيح طريق وعر فيه مرتفعات و منخفضات وأشواك و حُفَر و أكمات، فطريق الباطل طريقٌ وعر فيه ألغامٌ كثيرةٌ جداً، و كل معصية فيها بذور نتائجها، فالمعصية عدوان، عدوان على حق الله، عدوان على الناس، فالإنسان إذا تفلّت من منهج الله يكون كمركبةٍ خرجت عن الطريق المعبّد إلى طريقٍ كلّها أحجار وصخور وحفر وأوحال، فالذي يمشي على غير منهج الله عزّ وجل يمشي مُكِبّاً أي يمشي في طريقٍ وعرةٍ تستلزم أن يقع. و هذا معنى.

2- المعنى الثاني: إذا أغمض الإنسان عينيه وقع، وإذا مشى في طريقٍ وعرةٍ وقع، و حينما ينقطع الإنسان عن الله عزّ وجل يفقد رؤيته الصحيحة، فما دُمت متصلاً بالله فهناك رؤيةٌ صحيحة تهديك إلى سواء السبيل، و هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ أرنا الحقّ حقّاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

هناك من يرى الحقَ باطلاً، وهناك من يرى الباطل حقاً..

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ)

يمشي في طريقٍ وعر، هذا الطريق الوعر من لوازمه أن الذي يمشي فيه يقع على وجهه، والإنسان إذا وقع على وجهه تَشَوّه، أو أن المنقطع عن الله عزّ وجل أعمى لا يرى، والإنسان يمشي على طريق معبّدة وفيها منعطفات فلو أطفأ أنوار مركبته فلا بدّ من حادث الإنسان ما دام موصولاً بالله عزّ وجل فهناك نورٌ يقذفه الله في قلبه..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحديد)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

(سورة الأنفال: آية " 29 ")

الإنسان قبل أن يتحرّكَ يتحرّك برؤية، فإما أن تكون هذه رؤية صحيحة أو رؤية غير صحيحة، فالمؤمن موصول، إذاً نوره في قلبه و رؤيته صحيحة و عمله طيّب..

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لم يقل الله عزّ وجل: أفمن يمشي مكباً على صراطٍ غير مستقيم.. لا.. لأن هذا الذي يتحرّك بلا منهج يتحرّك بعيداً عن أي طريق، لا سيما الطريق المرسومة المعبّدة المسهّلة الممهدة، أما الإنسان إذا خرج عن منهج الله لا يُسمى هذا الخروج طريقاً، فقد صار في أرض وعرة ليست طريقاً.. فالآية دقيقة..

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمّنْ يَمْشِي سَوِيّاً)

فرافع الرأس أولاً يرى، والطريق ممهد.. إذاً يوجد هنا شيئان، فعوامل التعثّر إما العمى وإما وعورة الطريق...

(يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

المؤمن يحيا على بصيرة:

جمال حياة المؤمن أيها الإخوة وروعتها هي أنّ كل شيءٍ في حياته له حكمٌ شرعي ؛ هذا يجوز وهذا لا يجوز، هذا يفعله وهذا لا يفعله، فالأحكام الشرعية كما تعلمون تبدأ بالفرض، ثم بالواجب، ثم بالمندوب، ثم الإباحة، ثم الكراهة التنزيهية، فالكراهة التحريمية، فالحرام، فأيُّ شيءٍ في حياته إما مباح، أو محرّم، أو فرض، أو واجب، أو سنّة، أو مستحب، أو مندوب، أو مكروه كراهة تنزيهية أو تحريمية، أو حرام، فهو يمشي على منهج، ومنهج الله عزّ وجل دقيقٌ جداً يُغَطِّي كل أحواله من دون استثناء، في أخصّ خصوصيّاته، في أخصّ العلاقة بينه وبين أهله،بينه وبين أولاده، بينه وبين جيرانه مع من فوقه، مع من دونه، مع من هم في مستواه، في عمله وفي الطريق، في السفر وفي الحضر، في العلاقات العامة، في العلاقات الدولية، فهو شرعٌ كامل..

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة: آية " 3 ")

فالإنسان أيها الإخوة حينما يعرف الله المعرفة التي تحمله على طاعته، فهناك معرفةٌ لله عزّ وجل لا تكفي لطاعته.. فمن قال: **" لا إله إلا الله بحقِّها دخل الجنّة، قيل: وما حقِّها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله ".**

فهل كل إنسان قال: لهذا الكون إلهٌ عظيم يكون مؤمناً ؟ هذا الإيمان لا يكفي، فإبليس اللعين قال:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

هذا إيمان ولكن هذا الإيمان لا يكفي، هذا إيمان إبليسي، لذلك الإنسان حينما يبلغ في الإيمان درجةً تحمِله على طاعته، فلا شيء أحْوَج إليه من أن يعرف منهجه..

أهمية المنهج:

أيها الإخوة... الإنسان قبل أن يفكّر في طاعة الله قد لا يحتاج إلى منهج الله فسواءٌ عليه عرفه أو لم يعرفه فإنه لن يطبقه، أما حينما تتنامى قناعاته وينمو إيمانه إلى درجة يعزم على طاعة الله فهو الآن في أمسّ الحاجة إلى منهج الله، الآن يكون قد دخل في المرحلة المدنية، فأصحاب النبي عليهم رضوان الله عاشوا في مكة مرحلةً مكّية فلّما انتقلوا إلى المدينة دخلوا في مرحلة التشريع.

فيتفكر في الكون، يتفكّر في السماوات والأرض، يتفكر في خلق الإنسان، يتفكر في طعامه وشرابه، في خلقه، مما خُلِق ؟ إلى أن يقول: لهذا الكون إلهٌ عظيم لا بدّ من طاعته، و الآن بعد أن يحمِلك إيمانك على طاعة الله، و بعد أن تعقد العزمّ على طاعة الله ليس هناك شيءٌ أنت في أمسّ الحاجة إليه إلا أن تعرف منهج الله، لذلك معرفة الأحكام الشرعية جزءٌ أساسيٌ من الدين، لأنك بالكون تعرفه لكن بالشرع تعبده، ألم يقل الله عزّ وجل:

(أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

(سورة البقرة: آية " 21 ")

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

فكيف أعبده ؟ علّة وجودنا على هذه الأرض أن نعبده، فلا بدّ من معرفة أمره، لذلك كل إنسان لا بد من أن يعرف منهج الله في حياته، فالتاجر يجب أن يعرف أحكام البيوع، و كل إنسان في بيته يجب أن يعرف أحكام الزواج، حقوق الزوجة، حقوق الزوج، تربية الأولاد، حقوق الوالدين، حقوق الجيران، البيع و الشراء، صحّة البيع، الإنسان في بيته وفي عمله يجب أن يتقن الأحكام الفقهية المتعلقة في بيته وعمله من أجل أن يعبد الله..

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

فالعبادة علة وجودنا، فلذلك كان في الدين فيه شيئان أساسيان: معرفة الله وطاعته، فإن فعلت ذلك فإنك تسعد بقربه، فمن الممكن أن ينضغط الدين كله إلى كليات ثلاثة: جانب معرفي، جانب سلوكي، جانب جَمالي، فالمعرفي هو السبب، والسلوكي هو الأصل، والجمالي هو الثمرة، إذاً لا بدّ من أن نعرف منهج الله..

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

فالمنهج الإلهي مفصل إلى درجة أنه لا يجوز لك أن تسوق غنمتين للذبح معاً.. رأى النبي أحد أصحابه يذبح شاةً أمام أختها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هلا حجبتها عن أختها أتريد أن تميتها مرتين))

رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يسحب شاةً من رجلها ليذبحها قال:

((قُدْها إلى الموت برفق))

فمنهج الله عزّ وجل يصل إلى ذبح الحيوان، يصل إلى أدق تفاصيل الحياة، فلا بدّ من أن نعرف منهج الله، معنى ذلك أن شغل المؤمن الشاغل بعد أن يعرف الله المعرفة التي تحمِلُه على طاعته، فالمعرفة المطلقة لا توجد، فلا يعرف الله المعرفة الكاملة إلا الله، وأعظم البشر عرفوا جانباً من كمالات الله، و أنا أقول: حينما تعرف الله معرفةً تكفي أن تعقد العزم على طاعته عندها أنت في أمسّ الحاجة إلى منهجه، لذلك المؤمن عرف الله وعرف منهجه، فلم يعد هناك صراعات، و لم يعد هناك تردد..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

فإذا كانت القضية فيها أمر إلهي قطعي أو أمر نبوي قطعي فلا بد من طاعة هذا الأمر أما حينما تأخذ هذا الموضوع وتضعه على بساط البحث وتدرسه، تأخذ به أو لا تأخذ به، فإن قَنِعْتَ به تأخذه، فاطمئن عندئذ أنت لست مؤمناً، فحينما تأخذ أمراً إلهياً، أمراً قرآنياً، أو أمراً نبوياً وتُخضعه للدراسة العقلية تأخذ به إذا قنعت به، ولا تأخذ به إن لم تقنع به فصف نفسك بأنك لست مؤمناً والدليل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

الحرامُ حرام، والمُباح مباح، والفرض فرض، والمندوب مندوب، والمستحب مستحب، المكروه مكروه، والمحرّم محرّم، هذا هو المؤمن، وهذه العبادة لله عزّ وجل، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((ثَلاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمَانِ أنْ يَكُونَ اللّه (أي أمر الله) وَرَسُولُهُ (أي أمر رسوله) أ حَبّ إلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا))

(صحيح البخاري: عن أنس بن مالك)

قد تتألّقُ الدنيا أمامك لكن الطريق الذي تسلكه إليها طريق غير صحيح، هذه الدنيا تركُلها بقدمك لأنك مؤمن، فالدنيا كلّها تحت قدمك أمام طاعة الله عزّ وجل، و هذا هو الحق فالأمر الإلهي لا تُخضعه لعقلك وتفكِّر فيه أأفعله أم لا؟ فإن فعلت ذلك فاطمئن إلى أنك لست مؤمناً حقيقياً...

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لذلك رتبة العلم أعلى الرُتب، فكان الوقت الذي تُمضيه في معرفة الله ومعرفة أمره ونهيه هو أخطر وقتٍ في حياتك، فليس هناك شيءٌ في الحياة الدنيا يعلو على أن تعرف الله وتعرف أمره ونهيه لأنك تسعد بطاعة الله وتشقى بمعصيته، وما من مشكلةٍ على وجه الأرض وفي كل الأزمان إلا بسبب معصيةٍ لله، وما من معصيةٍ لله إلا بسبب جهلٍ بأمره ونهيه.

فالإنسان إذا ركب طائرة خاصّة وهو لا يعرف كيف يحرّكها، فكم هي نسبة وقوع الحادث بالمائة ؟ النسبة هي مائة بالمائة، فأنت تركب طائرة لا تعرف كيف تحرّكها ؟! كيف تحلق بها ؟! كيف تهوي بها؟ كيف تخفف سرعتها ؟ معنى هذا أن الحادث محقق، والإنسان في حياته توجد مطبات كثيرة و مغريات كثيرة، فالفتن يقظة، و الشهوات مستعرة، و هناك ضغوط كثيرة ومغريات كثيرة، فلن تستطيع أن تنجو من هذا كلّه إلا بمعرفة منهج الله، لذلك المؤمن الصادق يطبّق منهج الله ولا يعبأ بأحد.. قل الله ثم ذرهم في غيّهم يعمهون

وهذا هو المؤمن.

لا يستوون .

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمّنْ يَمْشِي سَوِيّاً)

فالمؤمن رافع الرأس، صحيح الرؤية والطريق أمامه معبّد ؟ أوضح لكم مثلاً: اركب مركبةٍ جديدةٍ على طريقٍ معبّدٍ جيد، إنك لا تسمع لها صوتاً، لكن هذه المركبة لو نزلت بها إلى طريقٍ وعر لكسّرتها، لأن هذه المركبة ليست لهذا الطريق بل لطريقٍ معبّد، وإن بُنْيتك، ونفسيتك، وفطرتك، وجسمك، وكل إمكاناتك مصممة بمنهج الله، فالإنسان عندما يتزوّج، وعندما يؤدي العبادات، يضبط لسانه، يضبط سمعه، يضبط بصره، يضبط يده، يضبط رجله، يتحرك وفق منهج الله، يسعد، فالحياة جميلة جداً في طاعة الله، والحياة مريرة في معصية الله، والدليل الله عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه: آية " 124 ")

مَنْ: اسم شرط جازم تفيد معنى الشرط، والشرط في الأساس حَدَثان لا يقع الثاني إلا إذا وقع الأول، يوجد ترابط حتمي بينهما، فإذا قرأت في القرآن جملة شرطية مُصَدَّرة بمَنْ الشرطية فمعنى هذا أنه قانون..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

والله أيها الإخوة... لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفَت، إذا وجد شخص واحد في الخمس قارّات أعرض عن ذكر الله ويحيا حياةً طيبة فإن هذا الكلام يصبح ليس كلام الله.. مستحيل.. لأن الله عزّ وجل مُطلق، كلامه مطلق، كلامه قانون..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

قال له: **" يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني ؟ قال: عبدي قد عاقبتك ولم تدري ".** من مصيبة إلى مصيبة، من مشكلة إلى مشكلة.. شيءٌ ثان:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

اطمئنوا أيها الإخوة..

(فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: آية " 97 ")

رغم أنف كل الظروف، رغم أنف كل العقبات، رغم أنف كل المُشكلات..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

آيةٌ ثالثة.. والله أيها الإخوة لو أرددها مليون مرّة لا أشبع منها، وهذه الآية تقول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية " 21 ")

تقول: هذا في الآخرة، لا في الدنيا..

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

الآخرة مضمونة.. أما الدنيا..

(وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

هذا كلام ربنا، هذا كلام خالق الكون، جربه، لا يمكن لإنسان محسن أن يُعامل كالمسيء، فالشاب مستقيم لا يمكن أن يُعامل كالمنحرف، و الإنسان أمين لا يُعامل كالخائن، إنسان صادق لا يُعامل كالكاذب، إنسان مخلص لا يُعامل كالمنافق، إنسان رحيم لا يُعامل كالقاسي.. مستحيل.. كل شيء بثمنه والثمن باهظ.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

شاب مستقيم يغض بصره، يصدق في لسانه، يقيم منهج الله في بيته وفي عمله، يرجو رحمة الله، الملائكة تحوطه من كل جانب، موفقٌ في عمله، سعيدٌ في بيته، هذا قرآن كريم، هذا كلام رب العالمين..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

إنسان صادق هل هو كالكاذب ؟ هل الأمين كالخائن ؟ هل المخلص كالمنافق ؟ هل المحسن كالمسيء ؟ هل المتكبر كالمتواضع ؟ هل الرحيم كالقاسي ؟

أقول لكم أيها الإخوة: وعلى مستوى المسلمين كذلك، فعندما يرون أعداءهم بغطرسة واستعلاء وانحراف فلا بدّ من أن يُظْهِر الله آياته فاطمئنوا، مهما تغطرس العدو، مهما تكبَّر فلا بدّ لله عزّ وجل من أن يظهر آياته الدالة على عظمته..

(قُلْ هُوَ)

(سورة الملك: آية " 23 ")

أي أطيعوا الله الذي يستحق الطاعة، وسيروا على منهجه القويم فهو المنهج الصحيح..

(قُلْ هُوَ)

هناك طاعات لغير الله، وتوجد مناهج غير منهج الله..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ)

أي أطيعوا الذي خلقكم، سيروا على منهج من فطركم..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

الفؤاد إذا جاء مع السمع والبصر يعني العقل، أي أعطاك سمعاً تتعلّم به الحق، وعيناً ترى بها الآيات، وعقلاً يُحاكِم ويصل للحقيقة، فأنت من الممكن أن تؤمن بالله من خلال عينيك.. ترى بهما آياته الظاهرة.. وتعرف منهجه من خلال أذنيك، وتُصدِر أحكاماً صحيحة من خلال عقلك، أي أن الله أعطاك قوة إدراكية، فأنت مخلوق تدرك، فهذه الطاولة.. الخشب فيها خلقه الله عزّ وجل.. ولكن الخشب لا يُدرك، الحجر لا يُدرك، الحديد لا يُدرك، الحيوان لا يُدرك، مَيَّزَكَ الله على كل المخلوقات بأن جعلك مدركاً..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ)

أي أطع الذي أنشأك وسر على منهجه..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

كيف نشكر نعمة السمع، ونعمة البصر، ونعمة العقل ؟ قال: نشكر نعمة السمع بأن نوظِّفه فيما خُلِق له، أي أن نستمع بالأذن إلى الحق لا أن نستمع إلى الغناء، كيف نشكر نعمة العين ؟ أن نرى بها الآيات لا العورات من خلال الصحون، كيف نشكر نعمة العقل ؟ أن نُعْمِلَهُ فيما خُلِق له بالتفكّر في خلق السماوات والأرض..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

أي لعلّ الإنسان يوم القيامة يرى نفسه في النار يتلوّى في لهيبها، لعل الله عزّ وجل يعاتبه، يقول: أنت وصلت إلى القمر، ووصلت إلى قاع المحيطات، ونقلت الصورة الملوّنة عبر القارّات الخمس، وفعلت المستحيل، وصنعت الهاتف الفضائي، ونقلت كل شيء، ولو بذلت من هذه الإمكانات التي أعطيتك إيّاها واحد بالمليون لعرفتني.. هناك منجزات في العصر مذهلة، فهناك أشياء مألوفة ولكنها في الواقع مذهلة.. تكتب رسالة وترسلها عن طريق جهاز فتصل في الوقت نفسه إلى أمريكا ؟ هذا شيء منظور للناس جميعاً، هناك أجهزة تقرأ أربعمائة وخمسين مليون حرفاً في ثانية واحدة ؟ و الآن توجد مؤتمرات صحفية تتم عبر خمس قارّات بالأقمار الصناعية.. وهذا إنجاز كبير جداً، فلو بذل الإنسان واحد

بالمليون من هذه الطاقات الفكرية لعرف الله و لسعد به، وقد ورد في بعض الأحاديث في الجامع الصغير.. قال:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

الندم لا يُحتمل، إنسان يخسر الآخرة، يخسر الأبد من أجل سنواتٍ معدودة أمضاها في المعاصي والآثام ؟!!

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24))

سوف تعودون للحساب، كل حركةٍ، وكل سكنةٍ، وكل عطاءٍ، وكل منعٍ، وكل غضبٍ، وكل رضاً، وكل ابتسامةٍ، وكل عَبوسٍ مسجّلٌ عليك لماذا فعلت ؟ البطل هو الذي يُهيئ لله إجابة عن كل شيءٍ يفعله الآن..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

لماذا فعلت، لماذا عبست ؟ لماذا ابتسمت ؟ لماذا نظرت ؟ لماذا غضبت ؟ لماذا ظلمت، كل شيء في حسابه..

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة الملك)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الملك)

استهزاءً..

(قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الملك)

أي: أنا أنذركم هذا اليوم أما متى يأتي ؟ فهذا علمه عند الله، قال الإمام مالك - فيما أذكر- أنه رأى في المنام ملك الموت فقال له: يا ملك الموت كم بقي لي من حياتي ؟ أشار له ملك الموت بهذه الإشارة.. خمسة.. فلما استيقظ قلق، يا ترى خمس سنوات ؟ أم خمس شهور ؟ خمس أسابيع؟ خمسة أيام ؟ خمس ساعات، فسأل الإمام ابن سيرين فقال له: يا إمام ما تفسير هذه الرؤيا ؟ قال له: يقول لك ملك الموت: إن هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله..

(قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

إخواننا الكرام... هذه الآيات دقيقة جداً، فالذي يعصي الله عزّ وجل على أي شيء يعتمد ؟ هل يضمن سلامة أجهزته لساعة واحدة ؟! من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ إني أعوذ بك من فجأة نقمتك وتحول عافيتك وجميع سخطك))

أحياناً يأتي المرض فجأةً.. فيصيب الإنسان بشلل.

((إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي ولك العُتبى حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي))

تلخيص الأفكار:

1- أول فكرة: هذا الذي يعصي الله على ماذا يعتمد ؟ هل عنده جندٌ يمنعونه من أمر الله ؟

2- الشيء الثاني: إنسان يعرف الله وله رؤية صحيحة ويمشي على طريق مستقيم كإنسان أعمى يمشي في طريق وعر من مطبٍ إلى آخر، هل يستويان ؟

3 - الشيء الثالث: الله عزّ وجل أعطانا السمع كي نستمع إلى الحق، والبصر كي نرى الآيات، والفكر كي نحاكم الأمور ونأتي بقرارٍ صحيح، فإن عطّلنا وسمعنا وأبصارنا وأفئدتنا كنا كالبهائم.. أي هبطنا عن مستوى الإنسانية.. ثم إن الله سبحانه وتعالى يُنذِرنا:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 23-30
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-05-02

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم الله على عباده

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس السابع والأخير من سورة المُلك، ومع الآية الثالثة والعشرين وهي قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(24))

أيها الإخوة الكرام... الله جلّ جلاله هو الذي خلقنا، إذاً هو الذي يستحق أن نعبده وأن لا نعبد سواه..

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعْبَدُ غيري، أرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرُّهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغّضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر شيءٍ إليّ، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودّتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنِّطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهِّرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد والسيّئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدِها))

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ)

إذاً هو الذي يستحق أن تعبدوه و تحبوه و تخلِصوا له و تطيعوه، و هو الذي يستحق أن تعلقوا عليه الآمال، و هو الذي يستحق أن تتوكلوا عليه..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ)

أنشأكم وشَقّ لكم الطريق إليه بأن أعطاكم قدرةً تَعَرُّفية (إدراكيّة) من أجل أن تعرفوه و هذه القوة الإدراكية هي السمع والبصر والفكر.

الأذن:

أيها الإخوة الكرام... إن حاسة السمع من أدقّ الحواس، وحتى هذه اللحظة لا نعرف كيف يستطيع الإنسان أن يفرق بين النغم والضجيج، فكلاهما صوت، و كلاهما موجاتٌ صوتية و تبدلاتٌ في الوسط المَرِن الذي هو الهواء، فلولا الهواء لما كان هناك صوت.. و روّاد الفضاء وهم على سطح القمر يتخاطبون باللاسلكي، فليس هناك صوت بسبب عدم وجود الهواء على سطح القمر، فمن خلق الهواء ؟

إن هذا الوسط المرن إذا أحدثت فيه اضطراباً انتقل هذا الاضطراب إلى أذنك ؟ ومن نعم الله علينا أن هذا الاضطراب يتخامَد، ولولا أنه يتخامد لسمعت هنا في الشام كل أصوات الأرض، كل هَيَجان البحار، كل ضجيج المعامل، كل أصوات الرعود في الأرض، فلولا أنّ الموجة الصوتية تتخامد لكانت حياتنا جحيماً لا يطاق، وقد جعل الله الصوت ينشأ عن إحداث اضطراب في هذا الوسط المرن، فإنك إذا ألقيت حجراً في ماءٍ راكد رأيت أنّ حلقاتٍ تتباعد، فقد حدث اضطراباً في هذا الوسط المرن فانتقلت أمواج الماء متناميةً.. كذلك الصوت في الهواء، فمن الذي خلق هذين الصيوانين بتعاريجهما واتجاه سطوحهما، واختلاف أشكالهما، إنهما المسؤولان عن التقاط الصوت من كل الجهات، و هذا الصيوان من أبدع ما صنع الله عزّ وجل، فحينما يلتقط هذا الصيوان الأصوات من كل الجهات يسوقها إلى قناة الأذن حيث تصطدم بغشاء الطبل و هذا الغشاء المرن -غشاء الطبل - ترتبطٌ به عُظيمات السمع، و عظيمات السمع تكبّر الصوت عشرين مرّة، فإذا كان الصوت فوق الحد المعقول تخفّضه عشرين مرّة و نحن لا نعلم في عالم الآلات آلةً واحدة تكبّر وتخفّض في آنٍ واحد، ثم ينتقل هذا الصوت في دهاليز حلزونية فيها أربعون ألف قوس سمعي، هذه الأقواس مرتبطة بالعصب السمعي، إلى أن تصل إلى القنوات وإلى الأذن الداخلية وعندئذٍ يقف العلم عاجزاً عن فهم كيف أننا نَطْرَبُ للنغم ونضجر من الضجيج وكلاهما صوت.

ثمّ إنّ هذه الأذن تنقل هذا الإدراك إلى الدماغ، والدماغ يفسّر ويدرك، و هناك ذاكرةً سمعية، فهذه الأذن هي الحاسّة الأولى التي نعتمد عليها في الليل، فالإنسان يرى بعينه إلى أن يأتي حاجز يمنع الرؤية، فإذا كنت في غرفة فإنك ترى ما في الغرفة، و إذا كنت قابعاً في البيت فإن أذنك تُغَطِّي كل البيت، فأي حركةٍ وقعت في غرفةٍ أخرى أو خارج البيت تصل إلى أذنك، فأنت بالعين تغطي المكان الذي أنت فيه، و بالأذن تغطي المكان الأوسع ولو كان هناك حواجز تمنع وصل الصورة..

أيها الإخوة الكرام.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

(سورة القصص)

جعل الله السمع الحاسّة الأولى في الليل..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة القصص)

فهذه الأذن تتلقف فيها الأصوات، فلو فرضنا إنساناً يقبع في بيت و عينه تغطِّي غرفة الجلوس، وأذنه تغطي كل البيت بالأصوات، فلو أنّ حشرةً ماتت وتفسّخت لما كشفتها العين ولا سمعتها الأذن فما الذي يكشفها ؟ إنها حاسّة الشم، فأنت بهذه الحواس تتصل مع العالم الخارجي، و من أجل التوافق والتكيّف مع المحيط جعل الله لك السمع والبصر، ولكن السمع له هدف أكبر وأجلّ و هو أن تستمع إلى الحق، فاللغة أرقى أداة اتصال بين أفراد النوع، فإذا كان هناك إنسان يتكلّم ومجموعٌ كبير يُصغي، فهناك اتصال بينه وبينهم وهذا الاتصال أداته اللغة، واللغة مقاطع صوتية يعبِّر بمقتضاها عن الفكر وعن الشعور، قال ربنا عزّ وجل عن اللغة:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

فالبيان من أخصّ خصائص الإنسان، فبالبيان تفهم الكلام المسموع، وبالكلام تفهم النصّ المقروء، وبالكلام تعبّر عن أفكارك وعن مشاعرك مشافهةً، وبالبيان تعبِّر عن أفكارك ومشاعرك كتابةً، فهناك أربعة نشاطات ؛ قراءةٌ وسماع، وكتابةٌ ونُطْق، أما بالكتابة تنتقل المعارف من جيلٍ إلى جيل، وبالترجمة من أمةٍ إلى أمة، فمعارف البشر متراكمة، لذلك قال بعضهم: " ثقافة أية أمّة هي بمثابة عسلٍ استخلِص من زهرات مختلف الشعوب على مرّ الأجيال ". فبالترجمة و اللغة تنتقل المعارف من جيل إلى جيل ومن أمّة إلى أمّة فإذا معارف البشر متراكمة.

إذاً هذه الأذن أداة السمع، أداة سماع الحق، أداة سماع الخبر الصادق، أداة سماع الوحي..

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

العين:

أما العين فقد حارَ فيها الأطباء، فالعين فيها قرنية، والقرنية غلاف شفاف سَمّاه الأطباء (غلافاً نبيلاً)، بمعنى أن الغلاف النبيل لا تعترضه أوعيةٌ دموية، فلو أن القرنية تتغذى كبقية خلايا الجسم لرأيت الأشياء من وراء شبكة ولكانت الرؤية غير صحيحة (مغبّشة)، فلا بدّ من شبكة أوعيةٍ تغذي القرنية، لكن و لأن القرنية يجب أن تكون شفافةً مائة في المائة فإن الله قد جعل خلايا القرنية من النوع النبيل، فكل خليةٍ تأخذ الغذاء إلى أختها دون أن تُمَدد أوعيةٌ بين الخلايا، هذا بالنسبة للقرنية، بعدئذٍ تأتي القُزحية، وتأتي العدسة المرنة التي حار فيها الأطباء، لأن الشبكية هي المِحرق (محرق العدسة)، والشبكية ثابتة والمسافة ثابتة فكيف تقع الأشياء بحركتها العشوائية على الشبكية ؟ فلا بدّ من تحريك المِحرق أو لا بدّ من تغيير شكل العدسة، ففي العين العدسة يتغير شكلها من احتدابٍ شديد إلى احتدابٍ قليل، فمن الذي يُعطي الأمر أن يزداد الاحتداب واحد بالألف من المكرون كي يقع الخيال على الشبكية

أثناء مشاهدتك لكرة تتحرّك في ملعب أو سيارةً تنتطق من مكانٍ إلى آخر؟ وهذا ما يسميه العلماء (المطابقة) وهي شيءٌ تُحار به العقول، فشبكية العين مؤلفةٌ من عشر طبقات: الطبقة الأخيرة فيها مائة وثلاثين مليون مخروط وعُصيّة، هذه المخاريط والعصيّات تنتهي إلى العصب البصري الذي هو تسعمائة ألف عصب ينتقل إلى الدماغ كي تُقرأ الصورة.

أيها الإخوة الكرام العين من آيات الله الدالة على عظمته، فبالعين ترى الشيء بحجمه الحقيقي، وبألوانه الطبيعية، وأوضح دليل على ذلك: أنك إذا نظرت إلى مائة رجل ترى كل واحدٍ بلون، أما لو صوّرتهم بأرقى الأفلام تراهم جميعاً بلونٍ واحد، فالعين البشرية عندها القدرة على التمييز بين درجتين من ثمانمائة ألف درجة للون الواحد، العين السليمة تميز بين درجتين من ثمانمائة ألف درجة للون الواحد، فترى الأشياء بحجمها الحقيقي وبألوانها الدقيقة، وتراها مباشرةً من دون وقتٍ لإظهار الصورة.

أيها الإخوة الكرام هذه آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته، فالعين تميز بين درجتين من ثمانمائة ألف درجة للون الواحد، والشيء الذي يُحير العقول هو: لماذا جعل الله للإنسان عينين وجعل له أذنين ؟ لأن الله عزّ وجل لو خلق لك أذناً واحدة لما عرفت جهة الصوت، فلو كنت بأذن واحدة و سمعت بوق سيارة من خلف فتقترب منها وأنت تحاول الابتعاد عنها فتدهسك، لكن هناك جهازاً في الدماغ يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين والتفاضل بين الصوتين يقدّر بواحد على ألف وستمائة وعشرين جزء من الثانية، والدماغ يعرف عن طريق التفاضل جهة الصوت فيعطي أمراً إلى العضلات للتحرك بعكس جهة الصوت، فأنت بالأذنين تعرف مصدر الصوت، وبالعينين تدرك البعد الثالث، وبعينٍ واحدة ترى الأشياء مُسَطّحة، و إنك لن تستطيع بعينٍ واحدة أن تضع الخيط في الإبرة (في سمّ الخِياط)، قد تحاول هذا ولكنك لن تستطيع بسبب وجود عشرة سانتي بينهما، أما بالعينين فإنك ترى العمق، ترى البعد الثالث، فإن الصورة التي تراها العين الأولى تنطبع في مكان في الدماغ، وصورة العين الثانية تنطبع في مكان منزلق عنه، و هذا الانزلاق يشكّل البعد الثالث، فأنت ترى الطول والعرض والعمق بالعينين..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ(13))

(سورة البلد)

أن تُعْتِق رقبتك من أسر الشهوة، أن تتحرّر من الشهوات، قال عليه الصلاة والسلام:

((تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد البطن، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الفرج))

فإذا تحرّرت من أسر الشهوات انطلقت إلى رب الأرض والسماوات، إذاً أشياء كثيرة يمكن أن تُقال عن العين، ربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

فهو الذي خلق الأذن لا يسمعك ؟ هو الذي خلق العينين لا يراك ؟

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد)

أي هذا الذي خلق العينين يراك، وهذا الذي خلق لك الأذنين يسمعك، ويسمع صوت نفسك، يسمع خواطرك، يسمع ما تدور به أفكارك، أنت أمام الله مكشوف..

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ)

(سورة الملك: آية " 24 ")

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

الدماغ والذاكرة:

هذا الدماغ.. والله أيها الإخوة أقول ولا أبالغ: إن أعظم شيءٍ في الكون هو الدماغ، هناك مائة وأربعون مليار خلية استنادية في الدماغ، و في أحدثُ كتابٍ قرأته عن الدماغ جاء فيه أن هذه الخلايا لم تُعرَف وظيفتها بعد، فالدماغ عاجزٌ عن إدراك ذاته و كيف يعمل ؟ فهناك أربعة عشر مليار خلية قِشرية فيها التخيّل و التصوّر و المحاكمة والذاكرة، فما هي هذه الذاكرة ؟ ذاكرة إنسان يعيش ستين عاماً تقريباً فيها سبعين مليار صورة، ما بين الصور السمعية، والصور البصرية، والصور الشميّة، وهناك ذاكرة للأصوات، فأي إنسان يتصل بك بالهاتف يقول لك: أعرفتني ؟ تقول له: فلان، والشيء الذي يحيّر العقول أن كل إنسانٍ انفرد بنبرة صورةٍ خاصّة وذلك لكرامته على الله، ففي الأرض يوجد خمسة آلاف مليون إنسان، كما توجد خمسة آلاف مليون نبرة صوت، وتوجد خمسة آلاف مليون رائحة خاصّة بكل واحد منهم، فليس هناك إنسانً في الأرض يشبهك في الرائحة، وهذا أساس عمل الكلاب البوليسية، يُعطى قطعةً من لوازم المجرم فيبحث عنه بين مائة ألف رجل، فإذا اشتم الرائحة نفسها عرف أن هذا هو المجرم، فالإنسان ينفرد برائحة جلد خاصّة، وينفرد بنبرة صوتٍ خاصة، وينفرد بقُزحيةٍ لا يشركه فيها أحدٌ من البشر، لذلك الآن أحدث الأقفال أقفال تعمل على القُزحية، يضع صاحب القفل عينيه على الثقبين فيُفتح الباب، وأي إنسانٍ آخر لا يُفتح الباب له، وكذلك بصمة اليد، وبلازما الدم، وأحدث بحث في الزمر النسيجية أنه يوجد اثنين ونصف زمرة حتى الآن، ولا يُستبعد بعد حين أن يُكتشف أن لكل إنسانٍ زمرة نسيجية خاصّة به.

فالإنسان فرد، ولكرامته على الله جعله فرداً ؛ فرداً بشكله، وفرداً ببلازما دمه، وفرداً بقزحيته، وفرداً بنبرة صوته، وفرداً برائحة جلده، ثم سمح له أن يُشَرّع من الآيات الكُلِّية أحكاماً تفصيليّة، ثم سمح له أن يُبدع، ثم سمح له أن يختار، فالإنسان مريد والإرادة من صفات الله، والإنسان مُبدع والإبداع من صفات

الله، والإنسان يُشَرّع استنباطاً والتشريع من صفات الله عزّ وجل، والإنسان فَرْد والله سبحانه وتعالى فرد، وهذا كلّه لكرامته على الله..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

ما هي هذه الذاكرة ؟ إنسان في الخامسة والخمسين من عمره انطلق من معمله فلم يتعرّف إلى بيته، فبقي ساعاتٍ طويلة يقود سيّارته في شوارع الشام من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها غاب عنه بيته، هذا فقد جُزئي للذاكرة، ويوجد فقد كلي، فإن دخل عليه ابنه فقال له: من أنت ؟ فكل واحد منّا خبراته أساسها الذاكرة، كل إنسان صاحب حرفة، أو صاحب شهادة، صاحب اختصاص، طبيب، مهندس، محامي، تاجر، ما خبرته ؟ هي عبارة عن خبرات متراكمة كلها مودعة في الذاكرة، من أعطانا هذه الذاكرة ؟ ولا يزيد حجمها عن حبة العَدَس، فيها سبعين مليار صورة، وهذه الذاكرة بعضها شمي، وبعضها صوتي، وبعضها شَكْلي، وبعضها ألوان، أما الأعجب من هذا أن هذه الصور تُرتَّب في أماكن ثلاث: أماكن في متناول اليد، وأماكن متوسطة، وأماكن بعيدة، وأماكن مهملة، فأي أنت حينما تقتني جهاز هاتف وتُبَلّغ برقمه فإنك تحفظه فوراً، فهذا يوضع في أقرب مكان ؛ كذلك أسماء أولادك، مهنتك، خصائص حرفتك في أول مكان، أشياء تحتاجها في الشهر مرّة فإنها توضع في المكان المتوسط، أما ذهبت إلى بلد بعيد و أعطاك إنسان رقم هاتف أوعنوان، أو رأيت شكله واسمه فإنه يوضع في مكان بعيد، وهذه أشياء تُسْقطها من التسجيل، هذا كلّه تفعله الذاكرة من دون أن تشعر أنت، فهي تصنِّف هذه الصور، لكن ما دمنا في الحديث عن الذاكرة فلا بد من أن نذكر أن الاهتمام هو الذي يقوّي الذاكرة، فإذا كنت مهتماً بشيء نمت ذاكرتك وحفظته..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

أي أعطاك قوةً إدراكية، أنشأك وسمح لك أن تعرفه، أنشأك وأعطاك أجهزةً كي تعرفه، أنشأك ودلّك عليه، أنشأك وشقّ لك الطُرق إليه..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

كيف نشكر هذه النعم ؟؟

أيها الإخوة... ذكرت في الدرس الماضي: أن شكر هذه النعم ؛ نعمة السمع، ونعمة البصر، ونعمة الدماغ أن تعملها لما خلقت له، فهذه العين إذا نظرت بها إلى آيات الله وعظّمت الخالق فقد شكرت الله عليها، وهذه الأذن إذا استمعت بها إلى الحق وتأثرت به شكرت الله عليها، وهذا الدماغ إذا أعملته في التعرُّف إلى الله، وفي محاكمة القضايا المصيرية، وفي فهم القرآن وفي تعليمه فقد شكرت الله عليه.

وكم من إنسانٍ يستخدم هذه الحواسّ في المعاصي والآثام ؛ يطلق بصره في الحرام، يملأ عينيه من الحرام، يتتبع بهما عورات المسلمين، يستمع إلى اللهو الرخيص، إلى اللهو الذي يَصُدُّ عن سبيل الله، يقتني هذه الصحون ليبقى إلى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل يُتابع الفُحش والخنا، هذا كلّه بالعين، وقد يستمع إلى الأغاني الساقطة بهذه الأذن، ويفكر في المعصية بالدماغ، فشكر هذه النعم أن تعملها لما يرضي الله عزّ وجل..

((أمِرت أن يكون صمتي فكراً، ونُطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ)

ذرأكم ؛ أي: خلقكم ونَشَرَكُم، انظر إلى الطرقات في المدينة مليئةً بالأشخاص ذاهبين وآيّبين، ففي أحد البلدان مشينا أربعمائة كيلو متر ولم يكن هناك انقطاع في البُنيان إطلاقاً، لم يعد هناك مدن وقرى.. مكان واحد متصل، أبنية متصلة.. من ذرأ هؤلاء الناس في هذه البلاد ؟ في هذه السهول ؟ في هذه الجبال ؟ في هذه الوديان ؟ في هذه السواحل ؟ في هذه الصحارى ؟ فاركب طائرة وانظر كيف وزّعت هذه البلاد وكيف امتلأت بالناس..

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

العودة إليه..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

الإنسان حينما بعرف مصيره ينبغي أن يحسب حساباً لهذا المصير..

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

أي تحرّك كيفما تريد، افعل ما بدا لك، قل ما تريد، وكما قال الله عزّ وجل:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية " 40 ")

كله مسجلٌ عليك..

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: آية " 181 ")

كل حركات الإنسان وسكناته وتصرُّفاته، قطيعته ووصله، رضاه وغضبه، عطاؤه ومنعه، بشاشته وعبوسه، كل هذا مسجلٌ عليه، ومحاسبٌ عليه..

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

المصير إليه، فالإنسان حينما يُدفن تحت الأرض يُقال له:

((عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

فالمصير إلى الله وهو مطلعٌ علينا وسيحاسبنا على كل أعمالنا، لذلك فإن العاقل هو الذي يفكِّر في هذا اللقاء الذي لا بدَّ منه، والأحمق هو الذي يَغْفَل عن هذا اللقاء..

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

كل متوقَّعٍ آت وكل آتٍ قريب.. نحن في حياتنا الدنيا نكون في الصيف فإذا بالشتاء قد أتى، و نكون في الشتاء فإذا بالصيف قد حل، فبينما نحن نبحث عن التدفئة إذا نحن نبحث عن المراوح، نبحث عن ثيابٍ تقينا البرد فإذا بنا نبحث عن ثيابٍ خفيفة، إذاً البرد يأتي، والحر يأتي، والأشهر تتتابع، والسنوات تأتي خلف بعضها بعضاً، والفصول تأتي تباعاً، والدنيا ساعة اجعلها طاعة، بربكم أنتم جميعاً كيف مضت أعماركم ؟ كل واحد له عُمْر ؛ ثلاثين، أربعين، خمسين، خمسة وخمسين، ستين، كيف مضى هذا العُمْر ؟ كساعةٍ من نهار، وهكذا تمضي بقية الأعوام، والدنيا حلم.. " الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ". البطولة تكون عند الساعة التي يُقال لك: اذهب معنا، فتقول: إلى أين ؟ إلى الدار الآخرة، و الإنسان أحياناً ينخلع قلبه من هذه المغادرة، فإذا كان مرتاحاً في بلد ما و يحمل إقامة ثم أُعطي مغادرة بلا عودة، ينخلع قلبه، فكيف إذا كان الأمر مغادرة الدنيا بلا عودة وكل شيء سوف نحاسب عنه؟.. هكذا..

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26))

التوقيت عند الله، أما الحدث واقع لا محالة..

(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً)

أي قريباً منهم.

شاب نشأ في طاعة الله:

إخواننا الكرام... الإنسان وهو شاب يكون قوي الجسم، قوي البُنية، خفيف الحركة، نشيط، وتوجد عنده آمال كبيرة وعريضة و قد يغفل عن لقاء الله عزَّ وجل، لكن العمر قد يمتد فيصل إلى عمر قريب من المغادرة عندها يعود إلى الله.

ففي بعض الأحيان يكون هناك أربعون أو خمسون إنساناً بسن واحدة، جيران أو طلاّب مدرسة، أو زملاء في العمل، أو زملاء في الحِرفة، ثم يصلون جميعاً إلى السن الحرج، سن مغادرة الدنيا، فالبطولة أن تعرف الله وأنت شاب، وأنت في ريعان الشباب، وأنت صحيحٌ شحيح، وأنت معافىً في جسمك، و قويٌّ في بنيتك، هنا البطولة، ففي خريف العمر أكثر الناس يعودون إلى الله، فتجده يلزم المسجد ولكن أين أمضى شبابه ؟ أين أمضى فتوّته ؟ أين صرف قوته ؟ أين أنفق ماله ؟ كيف أمضى السهرات الطوال خلال خمسين عام مع من التقى ؟ إلى أين سافر ؟ ماذا فعل في السفر ؟ أما حينما يصل إلى

السن الحرج.. سن مغادرة الدنيا.. يلزم المساجد، ويؤوب إلى الله و هذا جيد، لكن هذا رجوعٌ فيه ضعفٌ شديد، لأن ريح الجنة في الشباب، فيجب عليك أن تكون مستقيماً وأنت شاب، وأنت في رَيْعان الشباب، أما:

(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً)

فأنا أقول كما قال هارون الرشيد عندما نظر إلى سحابة فقال: اذهبي أينما شئت يأتيني خراجك. والحقيقة أهل الدنيا مهما امتد بهم العمر، ومهما استمتعوا بالملذّات في النهاية إذا حكّموا عقولهم ثانيةً فإنهم سيعودون إلى الله، فقد يكون الإنسان مُلحداً فيصبح مصلياً، كان فاسقاً ثم بدأ يلتزم، كان لا يعرف أن يقرأ شيئاً من القرآن على الإطلاق فبدأ يتعلمه، كان يمضي السهرات الطوال في أماكن لا تُرضي الله والآن عاد إلى الله، لكن الذي لم تكن له بدايةٌ محرقة لم تكن له نهايةٌ مشرقة، أنا لا أغبط إلا شاباً نشأ في طاعة الله، بالبدايات.

إخواننا الكرام... يوجد أشخاص أنا والله أحترمهم، عرف الله في الخمسين، أو في الستين، ولكن بيته غير منضبط وغير إسلامي، فلم يستطع أن يضبط أهله ولا أولاده، الإنسان كلّما كان مبكراً في معرفة الله استطاع أن يشكّل حياته تشكيلاً إسلامياً، فأحياناً يختار حرفة لا ترضي الله فيضع كل خبراته فيها، كما يضع كل رأس ماله ولا توجد عنده غيرها، فيفعلها مضطراً، فكلّما كنت مبكراً في معرفة الله المعرفة الحقيقة شكّلت حياتك وفق منهج الله، و هذا معنى قوله تعالى:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة التوبة)

عملك جزء من بنيانك، فالمؤمن الصادق يختار عملاً شريفاً..

((إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب واستجملوا مِهَنَكُم))

فلذلك الإنسان حينما يؤمن بالله في الوقت المناسب في سنٍ مبكِّرة يُشَكِّل حياته تشكيلاً إسلامياً، فعملك جزء من بنيانك، وزواجك جزء من بنيانك، ومعارفك وأصدقاءك جزء من بنيانك، أحياناً ينشأ الإنسان في بيئة سيّئة فهؤلاء يشدونه إليهم فكلّما تاب توبةً نقضوها له، و كلّما عزم على طاعةٍ أفسدوا عليه طاعته، أما إذا آمن مؤمن في سنٍ مبكِّرة فسيكون كل أصدقاؤه مؤمنين على شاكلته، لأن هؤلاء يقوونه على الطاعة..

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

(مسند أحمد: عن النعمان بن بشير)

((فَإِنّ الشّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ))

(مسند أحمد: عن ابن ربيعة عن أبيه)

((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ))

(سنن الترمذي: عن أبي الدرداء)

فأنا أنصح إخوتنا الشباب وأخواتنا الشابّات أن يتعرّفوا على الله في سنٍ مبكرة كي يشكلوا حياتهم وفق منهج الله، فالإنسان أحياناً عندما يتقدم في السن يتكلّس عقله ؛ أي: يجمد وهذا التعبير يستخدمه الأطباء، فإذا كان إنسان صالحاً وثبت على شيء صالح فليست هناك مشكلة، فالإنسان إذا نشأ في طاعة الله وتمسّك بهذه الطاعة تكلّس، ولكنه تكلس تكلساً صحيحاً، أما حينما ينشأ على معصية، أي إذا أمضى حياته في لعب النرد فلا توجد قوة تصرفه عنها، عندها يقول لك: لا أقدر لأنني نشأت عليها، كأن يكون مثلاً قد أدمن التدخين، و توجد أشياء كثيرة إذا الإنسان استعملها تصبح جزءاً من حياته، فالبطولة أن تعرف الله في سنٍ مبكرة كي تشكل حياتك تشكيلاً إسلامياً بدءً من زواجك، إلى عملك، إلى أصدقائك، ومن سعادة المرء أن يعيش الإنسان مع من كان على شاكلته، بل إن العلماء يقولون: " إن من أكبر إكرام الله للنبي الكريم أنه اختار له أصحابه ". فإذا كان للإنسان جماعة مؤمنة، صالحة، مستقيمة، نظيفة، طاهرة فهذه من نِعَمِ الله الكُبرى، فليس هناك أجمل من أن يعيش الإنسان بين أصدقاء مؤمنين يحبهم ويحبونه، يخلص لهم ويخلصون له، ينصحهم وينصحونه، يأخذ بأيديهم ويأخذون بيديه إلى الله عزّ وجل..

(فَلَمّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدّعُونَ)

(سورة الملك)

أنا أعرف رجلاً أصيب بمرض خبيث ولم يُبلّغ بهذا المرض، كان في الثامنة والثلاثين من عمره، وكان تاجراً من أبرع التجّار، وكان منغمساً إلى قمة رأسه في الملذّات، فلّما علم الخبر اليقيني جاءته نوبات هستيرية فكان يقول: لن أموت، فلّما جاءه ملك الموت أقسم لي رجل يسكن في الطابق الأخير من نفس البناء، قال لي: صرخ صرخةً سمعها كل من في البناء. فالإنسان حينما يغادر الدنيا وهو متلبسٌ بمعصيةٍ يُصعق صعقةً لو سمعها أهل الأرض لصُعِقوا، الإنسان حينما يأتيه ملك الموت إما أن يرى مقامه في الجنة أو مكانه في النار، المؤمن يقول: لم أر شرّاً قط..و إن كانت حياته مفعمةً بالمتاعب يقول: لم أر شرّاً قط.. والفاسق وإن كانت حياته مفعمةً بالملذات يقول: لم أر خيراً قطّ..

(فَلَمّا رَأَوْهُ زُلْفَةً)

أي قريباً منهم..

(سِيئَتْ وُجُوهُ الّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدّعُونَ (27) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28))

لا يضركم من ضل إذا اهتديتم:

هذا المعنى دقيق جداً أيها الإخوة، إنك تجد همّ الناس الوحيد هو العالم الفلاني والعالم الفلاني، هذا غير فهمان وهذا فهمان، هذا اشترى وهذا فعل، فإذا كان صالحاً فله صلاحه وإن كان سيئاً فعليه إثمه، فلماذا تتدخّل أنت في الموضوع ؟ إنك محاسب على عملك، فإذا لم يعجبك كل العلماء فهل تنجو أنت من عذاب الله ؟ لا إنك لن تنجو، فكل إنسان محاسب عن عمله، قد تجد شخصاً عادياً جداً وهمه الوحيد هو أن يُقَيّم الناس، وأن يوزّع ألقاب المديح والذم كيفما اتفق وهو منغمس بآلاف المعاصي، فإذا أعجبك هذا الإنسان أو لم يعجبك فإن هذا لا يُقدم ولا يؤخر بالنسبة لك..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا)

فهؤلاء الكفّار امتلئوا غيظاً من رسول الله، فلو أن الله أهلك النبي وأصحابه فهل ينجو الكافر من عذاب الله ؟ و لو أن الله رَحِمَ النبي وأصحابه فهل ينجو من عذاب الله ؟ لا، فكل إنسان محاسب عن نفسه، فالنقطة الدقيقة: أنه لا علاقة لك بالآخرين، فلو أن الله شفى نفوس هؤلاء المؤمنين وأكرمهم، فإن الكفار معذّبون، ولو أن الكفار شفوا غيظهم من رسول الله فأهلكه فإنهم معذّبون أيضاً، فالإنسان لا ينبغي أن يمضي وقتاً في التقييم، وفي القيل والقال، فتقييم الناس من شأن الله.

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء)

فأنت أرح نفسك من تقييم الآخرين.. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس..

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيه))

(سنن الترمذي: عن أبي هريرة)

كلام دقيق واضح كالشمس.. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.. العبرة أن تكون أنت مستقيماً، يولد الإنسان كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، فإذا جاء ملك الموت كل من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً يضحك وحده، فاعمر قلبك بالإيمان، واجعل علاقتك بالله طيبة ولا تعبأ بأحد.. قل الله ثم ذرهم في غيّهم يعمهون.. فلو أن الله سبحانه وتعالى أهلك النبي وأصحابه فهل معنى ذلك أن هؤلاء الكفار لن يُعذّبوا ؟ أو أن الله رحم النبي وأصحابه فهل معنى ذلك أن هؤلاء لن يُعذّبوا أيضاً ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)

(سورة الملك)

التوكل على الله:

أيها الإخوة... من سعادة الإنسان في هذه الدنيا أن يتوكّل على الله..

(قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ)

(آمَنَّا بِهِ)

آمنا بوجوده، وآمنا بأسمائه الحسنى، وآمنا بصفاته الفُضلى، آمنا بكماله، آمنا بوحدانيته، آمنا أنه كل شيء، إليه يُرجَع كل شيء، وهو القاهر فوق كل شيء.

(قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)

فالتوكّل على الله مُريح، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس قاطبةً فتوكّل على الله، ولكن الناس يجعلون التواكل مكان التوكّل، التوكّل محلّه القلب، والسعي محلّه الأعضاء، فالناس يجعلون التوكل في الأعضاء أي يتكاسلون، لا يعملون.

تحدثت مرّةً عما يسمى بفقر الكَسَل، وفقر القَدَر، وفقر الإنفاق، وغنى البَطَر، وغنى الكِفاية، وذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن أحبّه بغنى الكفاية:

((اللهمّ من أحبّني فاجعل رزقه كفافاً))

غنى الكفاية، أما غنى البَطَر جعله النبي عليه الصلاة والسلام أحد أكبر المصائب، قال:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

ففقر الكسل مَذَمّة، وفقر القدر عُذر، وفقر الإنفاق وسام شَرَف..

((يا أبا بكر ماذا أبقيت لك))

قال: **الله ورسوله "**.. إذاً:

(قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)

فمن الصعب أن يحتاط لإنسان لكل شيء، فلا بدّ له من أن يتوكل، و بالتوكل ترتاح أعصابك.. فاليوم في الخطبة ذكرت: أن كتاباً عنوانه الشفاء الذاتي من أخطر كتب الطب، يؤكِّد فيه مؤلّفه أن ثلاثة أرباع الأمراض إما أن تُشفى ذاتياً، وإما أنه لا شفاء لها، وأن هناك أمراضاً مستعصيةً منذ أن عُرِف الطِب تشفى ذاتياً، وهذا شيءٌ يحار به الأطباء، ثم اُكتشف إن في جسم الإنسان جهاز مناعةٍ مُدْهِش، هذا الجهاز جوّال، وهو عبارة عن خلايا بيضاء تجوب في أنحاء الجسم، هذه الخلايا عددها كبير جداً، عند هجوم مرضٍ تتضاعف، وفي حالاتٍ نادرة تتضاعف خمسة أضعاف، وهذه الخلايا البيضاء (الكريات

البيضاء) يستطلع بعضها تركيب الجرثوم أو الخلية الهجينة ويأتي بشفرتها إلى العُقَد اللمفاوية، وفي العُقَد كريات بيضاء مهمتها تصنيع المصل المضاد (معامل سلاح) وتوجد كريات بيضاء مهمتها حمل هذه الأسلحة الفتّاكة والذهاب إلى ساحة المعركة ومقاتلة هذا الجرثوم، وتوجد خلايا بيضاء رابعة مهمتها تنظيف أرض المعركة من بقايا الجُثَث، فهناك خلايا استطلاعية وخلايا مصنِّعة، وخلايا مُقاتلة، وخلايا منظِّفة، ثم اكتشف في أواخر السبعينات أن هناك كريات بيضاء اسمها قاتلة بالفطرة، تستطيع أن تكتشف شذوذ الخلايا قبل أن تَشُدّ، أي جهاز الشفاء الذاتي، (وهذا متعلق بالأورام الخبيثة) فقبل أن تشدّ هذه الخلايا في نموّها تكتشفها وتقضي عليها.

ثم إن هناك خلايا لتنظيف الجسم، فالإنسان حينما يمتنع عن التدخين تذهب هذه الخلايا إلى قصباته الهوائية وتأكل ما علِق على هذه القصبات من آثار التدخين، أما أهم عملٍ لهذه الخلايا هو ضبط نمو الخلايا، لذلك أكثر المصابين بالإيدز يصابون بأورام خبيثة لأن هذا الجهاز يتعطّل، ففيروس الإيدز هو الذي يقضي على هذا الجهاز المناعي المُدهش،و أغرب ما في هذا الجهاز ذاكرته العجيبة، فإذا هاجم جرثوم، أو عرف تركيب جرثوم (شفرته الكيماوية) فإنه ينقلها إلى معامل تصنيع المصل المضاد، ويصنع مصلاً مضاداً، و هذا المصل المضاد يُحفَظ في ذاكرته عشرين سنة، فإذا جاء جرثوم مشابه بعد عشرين عام عرف نوع المصل المضاد فيصنعه ويهاجمه به، و لولا هذه الذاكرة العجيبة لهذا الجهاز لم يكن للتطعيم معنى إطلاقاً، ويقول مؤلف الكتاب: (أما أغرب ما في الأمر فهو أن لهذا الجهاز قيادة من خارج الجسم فلا يُعْرَف لهذا الجهاز قيادة داخلية)، ثم يقول: (إن الرضا، والهدوء، والتوازن والحب يقوّي جهاز المناعة، وإن القلق والحزن والخوف والألم يُضعِف جهاز المناعة، ولا شيء كالشرك يجعل حياة الإنسان جحيماً)، ولا شيء كالإيمان يجعل حياة الإنسان نعيماً، لذلك فإن الشرك يُضعِف جهاز المناعة ومع ضعف جهاز المناعة تنشأ الأمراض..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29))

السين للاستقبال، أي أن الأيام المستقبلة تكشف الحقائق..

(فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

يقول الله عزّ وجل في نهاية هذه السورة: هناك عذاب أقرب من الآخرة، فالآخرة عذابُها حق:

فما قيمة هذه البلدة بلا المياه ؟ إنها تُهجر، و ما قيمة هذه البساتين بلا مياه ؟ لقد سمعنا وقرأنا عن أقاليم في إفريقيا أصابها جفاف سبع سنوات فهجرها أهلها، تركوا بيوتهم، و تركوا مدنهم، فما قيمة الحياة بلا ماء ؟ قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأنبياء)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً)

والله في بعض الأيام يذيقنا بعض الجفاف، قد تأتي سنواتٌ عِجاف تجف المياه، يموت النبات، يموت الحيوان..

(فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

الله جلّ جلاله، أي هناك عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة، وعذاب الدنيا تذكيرٌ بعذاب الآخرة..

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-05-09

بسم الله الرحمن الرحيم

قيمة العلم وخطورة الجهل

أيها الإخوة الكرام.... مع الدرس الأول من سورة القلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

إن آخر آيةٍ في هذه السورة:

(وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)

فقد ختمت هذه السورة بوصف الكفّار للنبي بأنه مجنون، و الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

من العاقل ؟؟

أيها الإخوة الكرام... تروي كُتُب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلّم رأى مع أصحابه في الطريق مجنوناً، فسألهم سؤال العارف قال: من هذا ؟ قالوا: مجنون، قال:

((لا بل هذا مبتلى، المجنون من عصى الله. " ابن آدم أطع ربك تسمّ عاقلاً ولا تعصه فتسمّ جاهلاً "، " و كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه))

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

أيها الإخوة الكرام... يقول عليه الصلاة والسلام:

((أرجحكم عقلاً أشدّكم لله حبّاً))

لقد مرّةً ضربت هذا المثل: لو وضعنا أمام إنسان (قطرميز) من البلور ثمنه عشرون ليرة، وكأس كريستال ثمنها ألف ليرة، وقطعة ألماس ثمنها مليون ليرة، وقلنا له: خذ أياً شئت، فأخذ القطرميز لأنه كبير، ألا تحكمون على عقله من نوع اختياره ؟

أيها الإخوة... كل الناس يبحث عن سعادته، يبحث عن سلامته، يبحث عن علوه، وكبر شأنه وتفوقه، فكلّنا يحب التفوّق والفلاح، والنجاح، والفوز، والرُقي، ولكن المؤمن وحده هو الذي عرف كيف يختار ؛ إنه يختار الباقية على الفانية، يختار أصل الجمال وهو ربُّ العالمين، أما غير المؤمن فيختار من آتاه الله مسحةً من جمال فانية تنقلب وبالاً عمّا قريبٍ.

لذلك -أيها الإخوة – كان هناك علاقةٌ بين العقل و القلب (أرجحكم عقلاً أشدّكم لله حبًا) ً إن المؤمن وغير المؤمن على جبلة واحدة، لكن المؤمن عرف كيف يختار، فكل مخلوقٍ يبحث عن سلامته وسعادته، ويتمنّى التفوّق في كل مجال، أما المؤمن فإنه قد عرف أصل الجمال، وعرف أصل الكمال، وعرف أصل النوال فأحبّ الله، لذلك:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ)

(سورة البقرة: آية " 165 ")

المؤمن اختار الأصل

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء))

فالمؤمن جعل الهموم همّاً واحداً فكفاه الله الهمّوم كلّها، المؤمن عمل لوجهٍ واحد فكفاه الله الوجوه كلّها..

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

والعاقل هو الذي يعرف الله، ويعرف منهج الله، ويتقرّب إلى الله، والمجنون هو الذي غَرّته الحياة الدنيا وأضرّته **" فالدنيا تغرّ وتضُر وتمر ".** و الدنيا فانية.. **" الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ ولها يسعى من لا عقل له ".**

((الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ))

(مسند أحمد: عن السيدة عائشة)

الدنيا مطيّة.. نفق.. ممر، فهي وشيكة الزوال، سريعة الانتقال، هي دار بلاءٍ وانقطاع، و الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، و هي دار الجزاء والخلود، فالمجنون هو الذي يعصي الله، والعاقل هو الذي يطيع الله، وكفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله..

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

جواب القسَم:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

أيها الإخوة الكرام... لو أنّ كل من في الأرض كفروا، وانحرفوا، وفسقوا، فالمؤمن الصادق موقن أنّه على حقّ ولا يتأثّر ولا يغيّر ولا يبدّل، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يكن أحدكم إمّعة))

من هو الإمّعة ؟ هو الذي إذا أحسن الناس أحسنَ وإذا أساؤوا أساء، وطّن نفسك على أن تكون متيقّناً من الحق الذي تعتنقه ولا تبالي بأحد ولا تأخذك بالله لومة لائم.

المدرس أحياناً يمتحن الطالب فيسأله سؤالاً فيُعطي إجابةً صحيحة، فيقول المدرس: لا هذا خطأ، فعندما يكون الطالب غير المتأكد من علمه يتراجع فوراً، أما الواثق يقول له: لا يا أستاذ هذا هو الصواب، فالعبرة أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله حينما عاهدوا الله عزّ وجل عاهدوه على السمع والطاعة، متى ؟ قال: في السّراء والضراء، في المنشط والمكره، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في إقبال الدنيا وفي إدبارها، فأنت عندما تعاهد الله عزّ وجل فينبغي أن لا تغيّر، وأن لا تبدّل..

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

(ن)

هذا الحرف الذي هو أحد حروف اللغة العربية..

(وَالْقَلَمِ)

أهمية العلم:

الواو واو القسَم، والله سبحانه وتعالى أقسَم بالقلم، والقسم بالقلم له معنيان..

فالمعنى الأول: أن الله عزّ وجل يلفت نظرنا إلى عظمة القلم، و المعنى الثاني للقلم: هو العلم المكتوب الذي ينتقل من إنسان إلى إنسان، ومن بلد إلى بلد، ومن جيلٍ إلى جيل، ومن قارّةٍ إلى قارة، فلولا الكتابة لما انتقل العلم من إنسانٍ إلى آخر، ولا من جيلٍ إلى جيل، ولا من بلدٍ إلى بلد، ولا من قارّةٍ إلى قارّة، أي كأن الله سبحانه وتعالى يقول: العلم قِوام حياة الإنسان لأن الله جلّ جلاله في سورة الرحمن يقول:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

جاء تعليم القُرآن قبل خلق الإنسان، هذا الترتيب رُتَبي بمعنى أن وجود الإنسان من دون منهجٍ لا معنى له، ولا قيمة له إطلاقاً، فبربّكم لو أن أحدكم اشترى آلةً غالية الثمن عظيمة النفع ومعقّدةً جداً، استقدمها من بلد المنشأ ولم يُرْسَل إليه تعليمات التشغيل والصيانة، فإن أعملها بلا علمٍ أتلفها، وإن لم يُعملها جَمّد ثمنها، ففي مثل هذه الحالة النادرة أليست تعليمات الصانع أهمّ من هذه الآلة ؟ فماذا يفعل بها ؟ إنها

ستكون عبئاً عليه، فإن شغّلها بلا علمٍ أتلفها، و إن خاف على سلامتها عطّلها، لذلك كتاب التعليمات يعدّ أهمّ من الآلة نفسها، و من هنا قال الله عزّ وجل:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

فربنا سبحانه وتعالى يُقسِم بالقلم ليلفت نظرنا إلى قيمة العلم، و الإنسان له قوةٍ إدراكية هي سمعه، وبصره، وعقله..

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ)

(سورة الإسراء: آية " 36 ")

الفؤاد مع السمع والبصر هو العقل..

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً)

و الإنسان إذا لم يُعمل هذه القوى الإدراكية يكون دون الحيوان في المرتبة، فما من حيوانٍ إلا ويتفوّق على الإنسان ؛ إن في وزنه، أو في حجمه، أو في سرعة جريانه، أو في طيرانه، أو في قوة إبصاره، أو في قوة شمّة، أو في قوة سمعه، أو في حسن تملّصه، أو في قوة دفاعه، فلا يوجد إنسان إذا قُطِعَت يده تنمو له يدٌ جديدة، و هناك حيواناتٌ كثيرة إذا قطعت لها أحد أطرافها نما له طرفٌ جديد من دون جهد، فالنسر مثلاً يرى ثمانية أمثال الإنسان، و الكلب يشم مليون ضعف شمّ الإنسان، و هناك حيواناتُ تدرك الزلازل قبل أن تقع، و الإنسان إذا عطّل قِواه الإدراكية ولم يعملها في طاعة الله صار الحيوان أفضل منه، لذلك ربنا عزّ وجل أقسَم بالقلم لأنه أداة العلم (أداة العلم المنقول) و اللسان أداة العلم المسموع المشافه.

فمثلاً الإمام الغزالي على علو قدره كان يحضر درسه أربعمائة عمامة، وقد عاش حياته، فلمّا انتهت هذه الحياة انتهى درسه، فما الذي بقي من الغزالي ؟ لقد بقي إحياؤه، بقي ألف عام، و الإمام القرطبي كذلك كان له درسٌ في حياته ثم مات القرطبي وانتهى درسه، فماذا بقي ؟ تفسيره، و الإمام الشافعي مات فماذا بقي ؟ فقهه، إذاً ربنا عزّ وجل يلفت نظرنا إلى العلم المكتوب الذي ينتقل من جيلٍ إلى جيل، ومن أمّةٍ إلى أمّة، ومن قارّةٍ إلى قارّة، العلم.. فأول آية نزلت في كتاب الله:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5))

(سورة العلق)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ))

(صحيح البخاري)

فلذلك والله لا أبالغ إن قلت: إنّ أقدس أوقاتك هو وقتٌ تمضيه في طلب العلم لأن أعلى مرتبةٍ عند الله هي مرتبة العلم، و رتبة العلم أعلى الرُتَب، الله عالمٌ يحب كل عالم..

((لعالمٌ واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد))

((إنّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ))

(سنن أبي داود)

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أدْنَاكُم))

(سنن الترمذي)

هكذا قال عليه الصلاة والسلام، فلا يليق بالإنسان إلا أن يكون عالماً أو متعلماً..

قَالَ:

((النّاسُ عَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ وَلا خَيْرَ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ))

(سنن الترمذي رواه: أبي الدرداء)

((يا بني الناس رجلان عالمٌ ربّاني ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيؤوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق فاحذر يا كُمَيْل أن تكون منهم))

فالإنسان إذا لم يطلب العلم، ولا حدّثته نفسه بطلب العلم، ولم يكن عالماً، ولا متعلّماً، ولا مستمعاً، ولا محبّاً فهو هالكٌ لا محالة، (كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محبّاً ولا تكن الخامسة فتهلك)، و أبشع شيءٍ في حياة الإنسان أن يكون جاهلاً، وليس هُناك أبشع من الجهل لأن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوّه أن يفعله به، فالجهل أعدى أعداء الإنسان.

أيها الإخوة... والله لا أبالغ إن قلت: إنّ تسعين في المائة من مصائب الناس بسبب الجهل، وهذه فكرة دقيقة جداً سأضعها بين أيديكم: قوانين الله واقعةٌ لا محالة، إنك إن لم تؤمن بها، أو لم تعبأ بها، أو لم تتفهّمها، أو لم تحترمها فهي نافذةٌ فيك شئت أم أبيت، أي إن عدم إيمانك بقانون الله عزّ وجل و عدم احترامك له، عدم تقديسك إيّاه و عدم تفهّمك له لا يحول بينك وبين وقوعه، فهو واقعٌ لا محالة..

((إن لكل حسنةٍ ثواباً، ولكل سيئة عقاباً))

و منهج الله هو تعليمات الصانع، فالذي ينطلق من حبّه لذاته يطبّق تعليمات الصانع لأن العلاقة بين المقدّمات والنتائج في هذا المنهج علاقةٌ علمية، فكل سبب له نتيجة.

أيها الإخوة... لقد ورد في الأثر القُدسي أن الله عندما خلق العقل قال له:

((أقبل فأقبَل، ثم قال: أدبر فأدبَر، قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحَبّ إليّ منك، بك أعطي وبك آخذ))

فالإنسان في لحظة تفكير مقدارها ثوان ينقذ نفسه من النار.

قصة واقعية:

مرّة سمعت قصة قديمة جداً تقول: إن شاباً افتتح مكتبةً في بعض أحياء دمشق، و قد أُتيح له أن يحُج بيت الله الحرام في وقتٍ مبكِّر، عاد من الحَج وله دكّانٌ صغيرة يبيع فيه بعض الكتب والقرطاسية، جاءته فتاةٌ غمزت ولمزت، وألانت القول وكأنها تغريه أن يتبعها، وهو شابٌ في مقتبل الحياة، فأغلق محلّه وتبعها، و في منتصف الطريق فكّر.. أنا حججت بيت الله الحرام فإلى أين أنا ذاهب ؟ فعاد، عاد واستغفر الله و أقلع عن هذه النية، وهذا الرجل الحي يُرزق.. في اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي، وقد ألقى الله في روعه، وسأله: يا بني هل أنت متزوج ؟ فقال: لا، قال: عندي فتاةٌ مناسبةٌ لك، أرسل أهلك إلى بيتها، فظنّ هذا الشاب أنّ في هذه الفتاة علّةً منعت زواجها، فلمّا أخبرته أمّه بأنها من أفضل الفتيات وافق على الزواج منها، وجعله عمُّه شريكاً له في تجارة الزيت، وصار من التجّار المرموقين الذين عاشوا حياةً سعيدةً راقية، و كل هذا العطاء بسبب أنه فكّر لحظةً وعاد واستغفر الله عزّ وجل.

لما خلق الله العقل قال:

((أقبل فأقبَل، ثم قال: أدبر فأدبَر، قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحَبّ إليّ منك، بك أعطي وبك آخذ))

سيدنا نعيم بن مسعود كان في معسكر المشركين في الخندق، فكّر لماذا أنا هنا ؟ لماذا أحارب هذا الرجل ؟ أي رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه رجل يدعو إلى الله، يأمر بالمعروف، ينهى عن المنكر، فكيف أحاربه ؟ و يوجد حديث في السيرة رائع جداً عما دار بينه وبين نفسه من حوار ؟ أيُعقل أن أحارب رجل يقول: ربي الله ؟ يدعو إلى الخير ؟ يأمر بصلة الرحم ؟ فتسلل في جنح الظلام إلى رسول الله وأعلن إسلامه، وقال: يا رسول الله مرني ماذا أفعل ؟ قال:

((أنت واحد ماذا تفعل ؟ خذِل عنّا ما استطعت))

هذا الرجل الصحابي الذي مضى على إسلامه ربع ساعة ذهب إلى قريش ولم يعلموا بإسلامه، وقال لهم كلاماً ذكياً جداً، وذهب إلى اليهود ولم يعلموا بإسلامه وقال كلاماً ذكياً جداً، ووقع الشقاق بين قريشٍ و اليهود..

(وَكَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب: آية " 25 ")

وتفرّق الجمع، وولوا الدبر، و كان النصر في هذه المعارك على يد هذا الرجل الذي فكّر في دقائق معدودة، لماذا أنا أحارب هذا الرجل ؟ هذا رجل يدعو إلى الله.

أيها الإخوة... لو أن كلاً واحد منّا فكّر أنا لماذا أفعل هذا ؟ هذه معصية والأمر بيد الله، صحّتي بيده، أولادي بيده، زوجتي بيده، عملي بيده، رزقي بيده، مكانتي بيده، فكيف أعصيه ؟ كيف أعصيه وأطلب رحمته ؟ فكّرْ فقط، فإن لحظة تفكير تغنيك عن عملٍ كثير.

أيها الإخوة الكرام... قِوام حياتنا العلم، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً. **" يا بني العلم خيرٌ من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تُنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق ".**

وقصة أخرى...

سائق سيارة أشارت إليه امرأةٌ فوقف لها، فصعدت مركبته، فقال لها: إلى أين يا أختي ؟ قالت: إلى أين تحِب، إلى أين تريد أذهب معك، فَهِم وظنّ أن هذه غنيمة وفرصةٌ لا تتكرر، حقق مطلبه منها، وأعطته فوق ذلك رسالةً وظَرْفاً فيه خمسة آلاف دولار، بتعبير الجهلة.. شاف ليلة القدر.. هو (شاف) جهنم الحمراء، فتح الرسالة مكتوب عليها سطر واحد وهو: مرحباً بك في نادي الإيدز، وكان المبلغ مزوّراً فوُضع في السجن.

فلو كان لهذا درس علم، و لو أنه طلب العلم، فإنه لو قالت له:خذني إلى أين تريد فإنه يفتح الباب ويركلها بقدمه، ويحفظه الله عندئذٍ، فالعلم سلاح، و الوقت الذي تمضيه في طلب العلم هو استثمارٌ للوقت وليس هدراً له، أنا يشتدّ عجبي من إنسان تدعوه إلى مجلس علم فيقول لك: ليس عندي وقت فراغ، الجواب: عندك وقتٌ لأي شيء ؟ إذا لم يكن لديك وقت فراغٍ تعرف أصل دينك، وتعرف كلام ربك، وتعرف منهج رسولك، وتعرف سرّ وجودك وغاية وجودك، إذا لم يكن لديك وقتٌ تعرف الحلال والحرام، ما ينبغي وما لا ينبغي فماذا تفعل إذاً ((أم ماذا كنتم تعملون)) فمثلاً لو أن طبيباً أخذ بورد، وجاء لبلده وأسس عيادة، والعيادة بالدّين، وهو مختص، وكتب (المُراجعة بين الخامسة والثامنة مساءً)، وجاءه إنسان مريض فقال له: والله أنا مشغول، إنني أقرأ جريدة، فإنه يكون مجنوناً حينئذ، فهذا وقت العيادة وأنت عليك دَين، وأنت مختص وهذا عملك، فأعظم عملٍ تفعله في الدنيا أن تطلب العلم لأن العلم أساس صحة العمل، فلا يصح عملك إلا إذا صحّ علمك، يصح العلم فيصح العمل، و العمل أساس السعادة والشقاء.. فلذلك أقسَم الله بالقلم وبنتائج القلم..

(وَمَا يَسْطُرُونَ)

الملائكة، العلماء، هذا القلم هو أداة العلم، وهذا الكتاب هو مصدر العلم، القلم أداة والكتاب مصدر..

(ن)

من هذا الحرف، من هذه الحروف نُظِم القرآن، فهو كلام الله، فالحروف بين أيديكم فمثلاً البقرة تأكل الحشيش فتُعطي الحليب، والدجاجة تأكل كل شيء فتعطي بيضاً فيه زلال، و دسم و بروتين، و فيه أربعة عشر فيتامينا و معادن و أشباه معادن، فهل تستطيع أنت أن تحوّل الذي تأكله الدجاجة إلى بيض؟ هل بإمكانك أن تحول هذا الحشيش إلى حليب ؟ إلى لبن سائغ للشاربين ؟ هذه الحروف بين يديك ؛ ألف، باء، تاء، ثاء، جيم، حاء، خاء.. إلخ، الحروف بين أيدينا فهل يستطيع الإنسان أن يصوغ كلاماً ككلام الله عزّ وجل ؟

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

جواب القسَم:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

قد يبدو الإنسان أحياناً أبله عند البلهاء، أما عند العقلاء فهو عاقل، لذلك لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له، فصاحِب المؤمن الصادق،المخلص، الطالب للعلم، و لا تجالس الأغنياء الجاهلين لأن هؤلاء لا يقيمون لعلمك وزناً، ولا يعبئون إلا بالدِرهم والدينار، إنهم مادّيّون، يقيمون الناس في حجمهم المالي فقط، فصاحب العلماء، أو طلاب العلم، صاحب الأتقياء الأنقياء، صاحب المتواضعين، صاحب الذي يدلُّك على الله حاله، ويدلك على الله مقاله، صاحب المؤمنين لتقتبس من علمهم وأخلاقهم و أحوالهم، لذلك فإن طالب العلم عند المجانين مجنون، أما عند العقلاء فهو عاقل، الآن يوجد سؤال: هؤلاء الذين اتهموا النبي عليه الصلاة والسلام بالجنون، اتهموه في حياته، فلماذا أثبت ربنا جلّ جلاله هذه التهم في قرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة ؟ فلو أن واحداً تكلّم معك كلاماً لا يليق بك، فإنه يكون قد تكلّم وانتهت القضية وطويت، فلماذا أثبتها الله في كتابٍ يُتلى إلى يوم القيامة ؟؟

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

((يا أيها الذي نزّل عليك القرآن إنك لمجنون))، لماذ أثبت الله هذه التهَم في قرآنه الكريم الذي يُتلى إلى يوم الدين ؟ لأن النبي عله الصلاة والسلام أُسوتنا وقدوتنا، فكل من جاء بعد النبي ملتزماً الحق فعارضه أقرب الناس إليه و عارضه من حوله، و اتهموه بالسفه والجنون فإن له في رسول الله أسوةً حسنة، فيقول له: لا تستوحش، و لا تقلق، لأن سيّد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم قد اتُّهم بالجنون، فلا تعبأ، فمن عرف نفسه ما غرّته مقاله الناس به..

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الإنعام)

المؤمن واثق من نفسه، واثق من الحق الذي هو عليه، و واثق من أحقية منهجه، وحتمية النصر، و أن الله عزّ وجل لن يتخلّى عن المؤمنين، فمن ظن أو توهّم أن الله لا ينصر دينه، ولا ينصر رسله، ولا

ينصر المؤمنين أبداً، وأنه يقوي الكفرة والفجّار تقويةً دائمةً فهو لا يعرفه، فمن المستحيل أن يبدو إنسان منحرف قوياً جداً ثم ينجح إلى ما لا نهاية فلا بدّ من أن يُظهر الله آياته في الحياة الدنيا، فماذا يقول الله عزّ وجل ؟

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر: آية " 51 ")

كلام ربُّ العالمين، فأي إنسان قام إلى الله ليدعو إليه، يجب عليه أن يفرّ إلى الله..

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

(سورة الذاريات: آية " 50 ")

فاتجه إلى الله بإخلاص، وبعزيمة، وبصبر، وبيقين من نصر الله، فإن فعلت ذلك فلابدّ لك عندئذ من أن ترى نتائج عملك في الدنيا والآخرة...

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

لا تعبأ بكلام الناس، فالناس الآن يقولون.. متزمّت، متقوقع، بعيد عن واقع الحياة لا يعرف عن مباهج الدنيا شيئاً، من بيته إلى مسجده، همّه الكتاب والعلم، لا تعبأ بكلام الناس، فلو أنك تأكل أطيب طعام عرفته في حياتك وأحدهم يقول لك: هذا الطعام غير طيِّب، فمن تصدّق ؟ إنك أنت من يأكل ويتذوق ويتنعم، فالإنسان الذي يسعد بقربه من الله لو عارضه كل الناس لا يعبأ بكلامهم لأنه يذوق طعم القُرب من الله عزّ وجل..

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3))

غير منقطع بل هو مستمر..

((يا علي لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

والله أيها الإخوة... لو كُشِفَ لنا الغطاء لوجدت أقوى الناس في الدنيا يتمنّى أن يلقي كلمة حقٍ في أذن إنسان، كلمة حق واحدة، ((ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً)) فالدعوة إلى الله صنعة الأنبياء، ((الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً غير الله)) هؤلاء في أعلى مرتبةٍ عند الله عزّ وجل، لذلك لا تكن قنوعاً في شأن الآخرة، كن قنوعاً في الدنيا ولا تكن قنوعاً في الآخرة، اطلب الجنة في أعلى مراتبها..لقد قالت السيدة عائشة عن عبد الرحمن بن عوف: " أخشى أن يدخل الجنة حبواً، فقال: والله لأدخلنّها خبباً، وما عليّ إن كنت أنفق مائةً في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء ". لذلك إذا عرف الإنسان الله، وعرف سر الحياة كما قال سيدنا علي (ودققوا في هذه الكلمة) قال: " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي"، إنه منطلق بأقصى سرعة، هذا الوقت هو أثمن شيء تملكه، فبالوقت تطلب العلم، وبالوقت تصلي، وبالوقت تقرأ القرآن، وبالوقت تعلّم القرآن، وبالوقت تأمُر

بالمعروف، وبالوقت تنهى عن المنكر، وبالوقت تربّي أولادك، وبالوقت تهدي الناس، وبالوقت تعمل وتكسب قوت يومك، وبالوقت تسعد، فالوقت وعاء العمل، و الوقت رأس مالك الوحيد فاحرص عليه، لقد هلك المسوّفون، فلا تقل: غداً أتوب، غداً أفعل، افعل هذا اليوم..

(وَإِنّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ)

أجر مستمر..

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثَةٍ إلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح مسلم: عن أبي هريرة)

مرّة قرأت آيةً في تفسيرٍ وقد تأثّرت من تفسيرها تأثراً كبيراً فجعلتها موضوعاً للخطبة وكانت الخطبة ناجحةً جداً، و بعد يومين فكّرت فقلت: هذا الذي ألّف التفسير قبل ألف عام هو الآن تحت أطباق الثرى، لكن الخير الذي فعله انتقل من إنسان إلى آخر، إلى آخر، إلى مجموعة كبيرة، فاترك أثراً قبل أن تموت..

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثَةٍ إلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح مسلم رواه: أبي هريرة)

حدّثني أخ قال لي: في بعض الأماكن أسس أحدهم مسجداً على نفقته الخاصّة من أرض، وبناء وأثاث، قال لي: في أول جمعة فُتِحَ فيها المسجد اجتمع الناس فيه، وأُلقيت خطبةٌ، فجلس الشخص الذي أسسه على كرسيٍّ في نهاية المسجد وبكى بكاءً لا يوصَف من شدة فرحه أنّ كل من يصلي في هذا المسجد في صحيفته إلى يوم القيامة، فاترك أثراً قبل رحيلك، اعمل مثلاً عملاً في مسجد، أو عملاً في العلم، أو اترك أثراً علمياً، اترك دار عبادة، اترك دار أيتام، اعمل مشروعاً خيرياً، سُنّ سُنّةً حسنة ليكون لك أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، فما قيمة الحياة الدنيا ؟

انظر إلى هؤلاء الذين يموتون فجأةً على غير استعدادٍ للموت، هناك إنسان ترك ثلاثة آلاف مليون وهو من كبار التجّار، فمات بحادث، ففقد كل هذه الثروة في ثانيةٍ واحدة وسيُحَاسب عن أعماله كلّها خيرها وشرّها، فالإنسان أيها الإخوة حياته محدودة، و السيدة رابعة العدوية سئلت ما الإنسان؟ قالت: هو بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.. **" ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد، فتزوّد مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة "..**

(وَإِنّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ)

والله أيها الإخوة لو نعلم ماذا أعدّ الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من أجرٍ كبير لاستحيا الإنسان منا أن ينام، ورد في بعض الأحاديث:

((ما من يومٍ إلا وملك الموت يقف في البيت خمس مرّات فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله وانقطع رزقه ألقى عليه غمّ الموت فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والصارخة لويلها، والممزقة ثوبها، يقول ملك الموت: فيم الفرع ؟ ومم الجزع ؟ ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً ولا قرّبت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودةٌ ثم عودة حتى لا أبقي منكم أحداً، فوالذي نفس محمدٍ بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميّتهم ولبكوا على أنفسهم))

ثم يقول عليه الصلاة والسلام:

((لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه، ولذهبتم إلى الصُعُدات تبكون على أنفسكم))

الانتقال إلى الدار الآخرة سهل ؟ كل شيء في الدنيا إلى لا شيء، إلى قبر صغير ؟ هل هذا معقول ؟ فأعقل عقلاء الأرض هو الذي يعمل لساعة فراق الدنيا. كنت مرة في تعزيةٍ فألقيت كلمة فضربت هذا المثل: إنسان يسكن في بيت مستأجر، ونظام الإيجار في البلد الذي يسكنه أن مالك البيت يستطيع إخراجه من البيت بلا سبب، وبلا إنذار مُسبق، وكان لهذا المستأجر بيتٌ آخر على الهيكل، وله دخلٌ كبير، فهذا الدخل الكبير أين ينفقه ؟ في تزيين البيت المستأجر أم في إكساء البيت الذي على الهيكل الذي سينتهي مصيره إليه ؟ القضية تحتاج إلى عقل، فمعظم الناس كل دخلهم ينفقونه على هذا البيت الموقّت، والدليل: اقرؤوا كل النعوات (وسيشيع إلى مثواه الأخير)، معنى هذا أن المثوى الحاضر هو مثوى مؤقت، فلا نعرف في أي لحظة يصدُر الأمر بمغادرة البيت، سيخرج الإنسان عندها مكرهاً، وهذا الخروج من دون عودة، ففي الساعة الثانية عشرة مساء مثلاً لا يتساءل الأهل: أين فلان ؟ لمَ لم يحضر إلى الآن لقد تأخّر، لا يوجد تأخّر عندئذ إنه لن يرجع، انتهى إنه ذهب ولن يعود، فلا بدّ من أن ندخل المسجد أفقياً ليُصلّى علينا.

كنت مرّةً في بلدٍ في المغرب فرأيت لوحة صغيرة مكتوب عليها: صلّ قبل أن يُصلّى عليك.

أيها الإخوة...

(وَإِنّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ)

لذلك كان العقل في طاعة الله و في معرفة الله، فالعقل يقتضي أن تفهم كلام الله، و أن تعمل بكلام الله و أن تفهم سُنّة رسول الله، و أن تعمل بسُنّة رسول الله، و العقل يقتضي أن تفهم سيرة رسول الله فتتأسّى برسول الله، و العقل يقتضي أن تفهم أحكام الفِقه و أن تطبّقها، و العقل يقتضي أن تهب حياتك لله..

(وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ (11) فِي جَنّاتِ النّعِيمِ (12))

(سورة الواقعة)

العقل يقتضي أن تفكِّر في ملكوت الله، أن تعظِّم الله..

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبّه بحبّك ؟ قال: أحبّ عبادي إليّ تقي القلب، نقيّ اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبّني وأحبّ من أحبّني وحبّبني إلى خَلْقي، قال: يا ربِ إنك تعلم أنني أحبّك وأحب من يحبك، فكيف أحبّبك إلى خلقك ؟ قال: ذكِّرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

لابدَّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيمٌ لله من خلال النظر في آيات الله، ولابدَّ من أن يجتمع في قلب المؤمن محبَّةٌ لله من خلال التفكّر في نِعَمِ الله، ولا بدَّ من أن يجتمع في قلب المؤمن خوفٌ من الله من خلال التفكّر في بلاء الله.

امرأة أصيبت بمرضٍ خبيث في معيها الغليظ فاستؤصل،وكان هناك فتحةٌ خارجية، والكيس ثمنه ثلاثمائة ليرة وكلّما امتلأ بولاً وغائطاً كان لابدَّ لها من أن تستبدله بآخر، إنسان يغسل كل أسبوع مرّتين كليتيه، إنسان لابدَّ له من إجراء عملية تكلّف الملايين، وإنسان معافى..

((أَحِبُّوا اللّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ))

(سنن الترمذي: عن ابن عباس)

كان للنبي عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ صباحاً لصلاة الفجر أدعيةٌ رائعة، يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي))

لأنه قبل أن ينام قال:

((يا رب إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين))

و عندما استيقظ قال:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي))

فقد وقف بجاهزية تامة، حركته جيدة، سمعه وبصره، عقله في رأسه،

((الحمد لله الذي عافاني في بدني))

وصلّى الفجر

((الحمد لله الذي أذن لي بذكره))

هذا دعاء النبي يومياً..

(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

هذه إن شاء الله نشْرحُها في الدرس القادم إن أراد الله

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (2-7): تفسير الآية 4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-05-16

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثاني من دروس تفسير سورة القلم، ومع الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3))

(سورة القلم)

نعمة ربك:

قال بعض المفسرين:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)

هي: نعمة النبوة، ونعمة الرسالة و نعمة الهدى و نعمة القرآن، فإذا أراد المؤمن أن يقيس على هذا المعنى كانت هدايته إلى الله عزّ وجل من أجَلّ النِعَمْ، فهناك نعمة الوجود (نعمة الإيجاد)، ونعمة الإمداد، لكن نعمة الهُدى والرشاد من أجلّ النعم على الإطلاق، فنعمة الوجود تستمتع بها ما دُمت موجوداً في هذه الدنيا، ونعمة الإمداد تستمتع بها ما دمت موجوداً أيضاً، لكن نعمة الهدى هذه تستمر إلى أبد الآبدين، لذلك كانت نعمة الهدى أجل نعمةٍ على الإطلاق، فالله عزّ وجل قد أنعم على نبيّه الكريم بنعمة النبوة ونعمة الرسالة، ونعمة القرآن الكريم فإذا وصلتك هذه الرسالة وآمنت بها واستوعبتها و التزمتها، وسعدت بها، فهذه نعمةٌ من أجَلّ النعم، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

يقول الإمام علي رضي الله عنه: **" فلينظر ناظرٌ بعقله، هل أكرم الله محمداً أم أهانه حينما ذوى عنه الدنيا ؟ فمن قال: أهانه فقد كذب، ومن قال أكرمه فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا ".**

الهدى تمام النعمة:

و النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أراد أن يصلي قيام الليل لم تتسع غُرفته الصغيرة جداً لصلاته ونوم زوجته، فهو لم يؤتَ من الدنيا شيئاً، لقد جاء إلى الدنيا وغادرها ولم يترك شيئاً، لكن أجَلّ نعمةٍ على الإطلاق أنعم الله بها عليه أنه قد عرف الله، وكان نبياً و رسولاً وأوتي القرآن، لذلك فإن كل إنسانٍ اهتدى كان في صحيفته إلى يوم القيامة، لقد أرسله الله رحمةً للعالمين، فهو نعمةٌ مزجاة ورحمةٌ مهداة، فإذا أردت أن تفهم هذه الآية فهماً شخصياً و أن تطبّقها على نفسك، فاعلم بأن الله قد أكرمك بأنّك تعبد

خالق السماوات والأرض، فهناك شعوبٌ تعبد البقر، وهناك شعوبٌ تعبد النار، وهناك شعوبٌ تعبد الأعضاء الجنسية، وهناك شعوبٌ تعبد الجرذان..

نعمة الهدى أيها الإخوة هي أجل نعمةٍ على الإطلاق، قد لا يبدو لك حجم هذه النعمة وأنت في الدنيا، فهناك أناسٌ كثيرون كلُّهم يأكل ويشرب ويتحرك ويعمل، ويشتري البيت، ويتزوج، وينجب، أما حينما يقوم الناس لرب العالمين ويمتاز المجرمون عن المؤمنين، وتكون أنت في صف المؤمنين، عندئذٍ تعرف معنى نعمة الهدى، لذلك قالوا: (إن تمام النعمة الهدى)، فإذا أردنا أن نفهم ذلك بشكل توضيحي نقول: إذا فرضنا أنّ الصحة هي صفر إلى جانب الواحد، والزوجة صفر آخر إلى جانب الواحد (صار المجموع مائة)، والأولاد صفر ثالث، والدخل الكافي صفر رابع، والصحة صفر خامس، والمكانة صفر سادس، فالهدى هو الواحد، فإذا ألغيتَ الواحد فلن تجد شيئاً أبداً..

يا رب ماذا فقد من وجدك؟ إنه لم يفقد شيئاً، وماذا وجد من فقدك ؟ لم يجد شيئاً، و هذه الفكرة أيها الإخوة فكرة دقيقةٌ وخطيرة، فحينما تشعر أنك تملك أجَلّ نعمةٍ على الإطلاق ؛ - نعمة الهدى ونعمة الالتزام - اهتديت إلى الله، والتزمت شرعه، وما فاتك شيءٌ من الدنيا، ولم تأسَ على ما فات، يقال عن سيدنا الصديق رضي الله عنه أنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، فالإنسان أحياناً قد يفوته البيت المناسب و بيته صغير، وقد تفوته الزوجة التي كان يتمنى أن تكون له، وقد يفوته الأولاد النُجَباء، وقد يفوته الدخل الكبير كذلك، فيبقى طيلة حياته نادباً حظه، لكن المؤمن الحق حينما يعرف الله عزّ وجل لا يندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، فحينما تعرف الله حق المعرفة لا تندم على شيءٍ فاتك من الدنيا قط، تقول الآية الكريمة:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

إلا أن أهل الدنيا يقيسون الناس بالمادة، بالمال، بمُتَع الحياة الدنيا، بالبيت، بالمركبة، وإنّ من علامات آخر الزمان أن يكون قيمة الرجل متاعُه، أي أنه يستمد مكانته من موقع بيته، ومن مساحة بيته، ومن تزيينات بيته، ومن أثاث بيته، ومن نوع مركبته، ومن رقمٍ يضاف إلى نوع مركبته، فيستمد مكانته فقط من متاعه، بينما قيمة الرجل الحقيقية هي ما يُحْسِنُهُ، إذاً:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

من عرف الله وعرف منهجه ومكّنَهُ الله من طاعته لا ينبغي أن يندم على شيءٍ فاته من الدنيا، فكل ما في الدنيا عرضٌ زائل يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل، و كل ما في الدنيا إلى زوال ويبقى الواحد الديّان، يبقى الواحد القهّار، تبقى الجنة بنعيمها، و النار بعذابها.

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

مقام النبي عليه الصلاة والسلام:

أيها الإخوة.. إني أريد أن أقرّب هذه الآية إلى الواقع، فالآية تخاطب النبي عليه الصلاة والسلام ؛ أي: لقد قالوا عنك إنك مجنون لكنك سيد الخلق وسيد ولد آدم، وأنت الرابح الأول و الناجح الأعظم وأنت المفلح المتفوّق.

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)

وقد منحك الله النبوة.

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)

وقد جعلك الله رسولاً، و أقول لكم هذا الكلام الدقيق، إن الله يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، فقد أعطاه لقارون وأعطاه لعبد الرحمن بن العوف، و الله يعطي المُلك لمن يحب ولمن لا يحب، فقد أعطاه لسليمان وأعطاه لفرعون، لكن العلم والحكمة لا يعطيهما إلا لمن يحب..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

فإذا كان أحدكم أيها الإخوة على شيءٍ من الهُدى و معرفة الله و طاعته، وكان يرجو رحمته ويخشى عذابه و يعمل للجنة، فينبغي ألا يندم على شيءٍ فاته من الدنيا، لأن الدنيا تنطوي بكل ما فيها، و الإنسان حينما يموت ماذا تنفعه مساحة بيته ؟ أو موقع بيته ؟ أو حجم دخله ؟ أو مستوى زوجته ؟ أو مكانته الاجتماعية ؟ كله انتهى، و لا يبقى إلا العمل الصالح.

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

الممنون:الأجر المنقطع، مِن (مَنّ) بمعنى: قطع، و الآن دققوا أيها الإخوة: الدنيا كل ما فيها لا يعَدُّ عطاءً لأنه منقطع، فمهما كنت متعتعاً بصحةٍ عالية، فإن الموت سينهي صحة الصحيح، و مهما كنت متمتعاً بدخلٍ كبير، فإن الموت سينهي المال، و مهما كنت متمتعاً بمكانةٍ علية فإن الموت سينهي هذه المكانة، ومهما كنت متمتعاً بأسرةٍ راقية فإن الموت سينهي هذه الأسرة، إذاً فعطاء الدنيا ممنونٌ أي مقطوع، لكن عطاء الآخرة غير مقطوع..

(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ)

و الإنسان مفطور على حب وجوده وسلامة وجوده و كمال وجوده واستمرار وجوده، فكل عطاءٍ في الدنيا ينهيه الموت، لكن عطاء الآخرة عطاءٌ أبديٌ سرمدي، لذلك لا يليق بك ولا بعقلك الراجح أن تسمِّي عطاء الدنيا عطاء، فالعطاء الحقيقي عطاء الآخرة.

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3))

فكفار قريش نعيمهم ممنون مقطوع، انتهى بهم عند الموت، و النبي عليه الصلاة والسلام رأى قتلى بدرٍ من كفار قريش فخاطبهم بأسمائهم واحداً وَاحداً فقال لهم:

((يا فلان، يا فلان، يا فلان، يا فلان.. بأسمائهم.. هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، قالوا: أتخاطب قوماً جَيّفوا يا رسول الله ؟! قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم))

بطولتك عند هذه الساعة التي لابدَّ منها، فإما أن تكون من الفائزين، وإما أن يكون الإنسان الضّال من الخاسرين.

الآن الآية التي إن قرأتها مائة ألف مرة لا تشبع منها:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

أولاً ربنا جلَّ جلاله هو ذاتٌ كاملة في أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى فهو رحيمٌ، كريمٌ، عدلٌ، غفورٌ، قويٌ، عزيزٌ، لطيفٌ، فلا يستطيع مخلوقٌ أن يتقرّب إليه ويسعد بقربه إلا بالكمال، لذلك كان دين الله دين الكمال و دين الرحمة و دين العدل و دين المصلحة العامة و دين الإنصاف، فالله جلَّ جلاله ذاتٌ كاملة، ولا يتقرب إليه المتقربون إلا بكمالٍ هو وسيلتهم إليه، و أحكام الشريعة كلُّها عدلٌ و رحمةٌ و إنصافٌ و لطفٌ، فقد قال أحد العلماء: (الشريعة عدلٌ كلها، رحمةٌ كلها، مصلحةٌ كلها)، فكل قضيةٍ خرجت من العدل إلى الجَوْر، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الرحمة إلى القسوة فليست من الشريعة و لو أدخلت عليها ألف تأويلٍ وتأويل، فلو قرأت الفقه في أبوابه كلها و دققت في كل مسائله ؛ العامة والخاصة، الشخصية، والاجتماعية، والنفسية، والتعبدِّية، لوجدت أن كل هذه الأحكام ترشدك إلى الموقف الكامل، الموقف العدل، الموقف المنصف، الموقف الرحيم، الموقف اللطيف، إذاً فمنهج الله عزَّ وجل قائمٌ على الخُلُق، والنبي عليه الصلاة والسلام لو لم يكن في أعلى درجة أخلاقية، لما قنعت أنت بهذا المنهج، فالمنهج بشكل نظري لا يقنع إلا أن يجسد بسلوك، فلذلك كان للأنبياء مهمتان: مهمةٌ بيانية ومهمةٌ قيادية، فالمهمة البيانية أن يبيّن لك ما تفعل وما لا تفعل، لكن مهمة القدوة هي أن يكون كاملاً، لذلك يقول الله تعالى:

(وَإِنَّكَ)

يا محمد، و(إن): حرفٌ مشبهٌ بالفعل يفيد التوكيد..

(لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

و(اللام) لام التوكيد أيضاً، فاللام الواقعة في جواب إن هي لام التوكيد، (على): تفيد الاستعلاء، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام ليس ذا خُلُقٍ، بل هو على خلقٍ وشتانَ بين المعنيين، إذا قلت: النبي على خلقٍ أي متمكنٌ من مكارم الأخلاق، و الإنسان أحياناً قد يقع في صراع بين أخذٍ ورد، وإقدامٍ وإحجام، وإنفاذٍ ومنعٍ، ثم ينتصر على نفسه بعد شق النفس، هذا ذو خُلُق، لكن الذي (على خلقٍ عظيم) هو في أعماق الكمالات لأنه متمكنٌ من أخلاقه فلا يحتاج إلى أن يشعر بالصراع مع نفسه.

بيان الشيء إما وصفي أو كمي:

أيها الإخوة... أريد أن أضع بين أيديكم الحقيقة التالية: إن الشيء إما أن يبيَّن وصفياً أو كَمِّياً، فقد يقول لك أحدهم: أنا معي مائة ليرة، فكلمة مائة ليرة هذه هي مبلغ كمي، أما إذا قال لك أحدهم: أنا معي مبلغ كبير، فهذا بيان وصفي، فهناك بيان كمي و بيان وصفي، و قد يقول لك قائل: بيتي كبير و يقول لك آخر: بيتي مساحته ثلاثمائة متر، فثلاثمائة متر بيان كَمِّي، أما (كبير) فهي بيان وصفي، و ربنا عزّ وجل وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه على خلقٍ عظيم، فكلمة (عظيم) هل هي كَمِّية أم وصفية ؟ هي وصفية.

الآن نقطة ثانية: لو أن طفلاً صغيراً قال لك: أنا معي مبلغٌ كبير، فبكم تقيم هذا المبلغ ؟ طفل عمره ثلاث سنوات قال لك: أنا معي مبلغ كبير، قد يكون مبلغه الكبير خمس ليرات، وقد يكون عشر ليرات.. أما إذا قال لك أحد أكبر أغنياء العالم: أنا معي مبلغ كبير، فهل تشبه كلمة الصغير كلمة الغني، فالصغير قال: أنا معي مبلغ كبير، وهذا الثري قال: أنا معي مبلغ كبير، كلمة كبير من الصغير كم، وكلمة كبير من الكبير كم كذلك، فالله العظيم الذي خزائن الكمالات و مكارم الأخلاق كلها من عنده يقول للنبي عليه الصلاة والسلام:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

فكم تبلغ أخلاق النبي ؟ فالعظيم يَصِفُ النبي بأنه ذو خلقٍ عظيم، و قد كان للنبي عليه الصلاة والسلام صفات أخرى كان من الممكن أن يمدحه بها، فقد كان خطيباً من الطراز الأول، وكان القائد الأول وكان السياسي الأول، وكان أعلم العلماء و أنزه القُضاة و أعظم المجتهدين وكان ذا ذاكرةٍ قوية، فقد حفظ القرآن الكريم من دفّته إلى دفته وقد كان يتلى عليه مرةً واحدة، فكل الصفات التي يفتخر بها الناس كان عليه الصلاة والسلام قمةً فيها، فلماذا أهملها الله كلها، وحينما أراد أن يمدحه قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

لأن الإيمان هو الخُلُق، والذي يَفْضُلُكَ في الخلق يفضلك في الإيمان..

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

صور من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم:

وفاؤه للأنصار:

النبي عليه الصلاة والسلام بعد غزوة حُنَيْن، وبعد توزيع الغنائم جاءه سعد بن عبادة فقال له: يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم، قال:

((يا سعد أين أنت منهم))

أي هل أنت معهم ؟ قال: ما أنا إلا من قومي، فقال عليه الصلاة والسلام:

((اجمع لي قومك))

فجمعهم، وقام النبي عليه الصلاة والسلام فيهم خطيباً.. لكن قبل أن أتابع القصة أريد أن أسأل: متى كان هذا ؟ كان هذا بعد أن فتح النبي عليه الصلاة والسلام لمكة المكرمة التي ناصبته العداء عشرين عاماً، وبعد أن انتصر على هوازن في حنين و دانت له الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، وصار النبي صلى الله عليه وسلم سيّدَ الجزيرة كلها، وأصبحت بيده أقوى قوة، وجد عليه الأنصار في أنفسهم، قال:

((أين أنت منهم يا سعد))

قال له: ما أنا إلا من قومي، قال له:

((اجمع لي قومك))

فماذا فعل النبي ؟ لقد كان من الممكن أن يُلغي وجودهم كما يفعل الأقوياء، هذا احتمال ممكن، وكان من الممكن أن يهدِرَ كرامتهم، و إذا قال: هم منافقون، انتهوا إلى الأبد، وكان من الممكن أن يهملهم، وكان من الممكن أن يعاتبهم لصالحه، فماذا فعل ؟ لقد وقف فيهم خطيباً.. ودققوا فيما سأقول.. وذكَّرَهُم بفضلهم عليه، فقال:

((يا معشر الأنصار أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، و مخذولاً فنصرناك، و عائلاً فأغنيناك))

لو قلتم هذا لكنتم صادقين والناس يصدقونكم..

((يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضُلالاً فهداكم الله بي))

لم يقل: فهديتكم، فانظر إلى التواضع

((ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ؟ ألم تكونوا عالةً فأغناكم الله ؟ ألم تكونوا أعداء فألّف بين قلوبكم، يا معشر الأنصار أوجدتم عليّ في لعاعةٍ من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ لو سلك

الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شِعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار))

قال: فبكوا حتى أخضلوا لحاهم.

هذه وفاء للذين نصروه في بادئ الأمر فهو لم يتخلّ عنهم، و لم ينسَ فضلهم عليه، أكان هذا رحمة أم حكمة أم حسن سياسة أم تواضع ؟

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

رحمته بالأطفال:

كان عليه الصلاة والسلام يصلِّي صلاة الفجر وكان يطيل القراءة فيها وهذا من السنة، فسمع بكاء طفلٍ صغير ينادي أمه ببكائه فقرأ الإخلاص وسلم، قال:

((سمعت طفلاً يبكي فرحمت أمه))

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

تجاوزه عن المسيء:

ارتكب أحد أصحابه وهو حاطب بن أبي بلتعة ما يسمى بالخيانة العظمى في العُرف الحديث، فقد أرسل كتاباً إلى قريش قبيل فتح مكة قال فيه: " إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم " فهذا كتاب سري يذهب من صحابي اسمه حاطب بن أبي بلتعة إلى كفار قريش، أرسله مع امرأة وضعته في ضفيرة شعرها، فجاء النبيَ الوحيُ وأخبره بما حدث، فأرسل سيدنا علي إلى منتصف الطريق بين مكة والمدينة ليأخذ الكتاب من المرأة، وأخذه منها، وجاء به إلى النبي، فتحه وقرأه **" من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش: إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم "** فماذا قال سيدنا عمر ؟ قال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((لا يا عمر إنه شهد بدراً))

فما هذا الوفاء و ما هذه الرحمة ؟ قال:

((يا حاطب ما حملك على ما فعلت

((قال: والله يا رسول الله ما كفرت ولا ارتدت ولكني لصيقٌ في قريش ففعلت هذا لتكون لي عندهم يدٌ أحمي بها أهلي ومالي، فاغفر لي ذلك يا رسول، فماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((إني صدقته فصدقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً))

لقد أنهضه من كبوته، فقد رأى البعض الذنب خيانة عظمى فتمنى قتله، لكن النبي صلى الله عليه وسلم رأى صاحب الذنب، رأى منه زَلة قدم، ونكسة طارئة ألمّت به، فأنهضه، وبعد حينٍ جعله مندوباً شخصياً له عند بعض الملوك وذلك لينسى زلته السابقة.

خلق جديد

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يلهو مع الأطفال، فقال له أحدهم: تعال نلهُ، ولكنه حينما كان صغيراً دُعي إلى اللهو، فقال:

((أنا لم أخلق لهذا))

و حينما جاءته رسالة الهدى وحُمِّلَ أمانة التبليغ دعته زوجته السيدة خديجة لأخذ قسطٍ من الراحة، فقال لها:

((انقضى عهد النوم يا خديجة))

إنه شعور بثقل الرسالة وبعظم هذه المسؤولية.

عفوه عن أهل مكة:

لقد آذاه أهل مكة و أخرجوه منها، وائتمروا على قتله، ونكّلوا بأصحابه وعذبوهم، وهجوه بأشعارهم، وناصبوه العداء عشرين عاماً، ولكنه لما فتح مكة وجد عشرة آلاف سيفٍ تنتظر كلمةً منه، و كان بإمكانه أن يلغي وجود كفار قريش جميعاً، لكنه قال:

((ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟))

قالوا: أخٌ كريم وابن أخ كريم، قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

وحينما ذهب مكة فاتحاً كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزّ وجل.

لقد ذهب إلى الطائف مشياً على قدميه مع سيدنا زيد وعلق على هدايتهم الآمال فإذا هم يردون دعوته ويسفهونها، ويكذبونه، ويسخرون منه، بل أغروا سفهاءهم بضربه، وسال الدم من قدمه الشريفة، وألجؤوه إلى حائط إلى بستان، وجاءه جبريل وقال: يا محمد، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، فلو شئت لأطبقت عليهم الجبلين.. فقد مكّنه الله من أن ينتقم منهم، وأن يلغي وجودهم.. لكنه قال:

((لا يا أخي، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده))

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

صبره على أزواجه:

جاء السيدةَ عائشة مرة طبقُ طعامٍ من السيدة صفية، فأصابتها الغيرة فأمسكت الطبق ورمته أرضاً من شدة غيرتها، فماذا بإمكان النبي أن يفعل ؟ لقد كان بإمكانه أن يفعل كل شيء، لكنه قال:

((غضبت أمكم، غضبت أمكم))

و كان إذا دخل بيته بَسّاماً ضَحّاكاً، وكان يقول:

((أكرموا النساء فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

قال مرةً:

((أوذيت في الله وما أوذي أحدٌ مثلي، وخفت وما خاف أحدٌ مثلي، ومضى علي ثلاثون يوماً لم يدخل جوفي إلا ما يواريه إبط بلال))

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

دخل بيته مرةً فقال:

((هل عندكم من طعام))

قالوا: لا، قال:

((فإني صائم))

جوده عليه السلام:

حينما أكرمه الله بالمال سأله واحدٌ من الناس: لمن هذا الوادي من الغنم ؟ قال:

((هو لك))

قال: أتهزأ بي ؟ قال:

((هو لك))

قال: اشهد أنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

امتُحن بالنصر فكان كاملاً، و كان ذا خلقٍ عظيم، و امتُحن بالقهر في الطائف فكان ذا خلقٍ عظيم وقال:

((إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي))

امتُحن بالفقر فكان ذا خلقٍ عظيم، امتُحن بإشاعةٍ طارت في أرجاء المدينة بأن السيدة عائشة وقعت في الفاحشة، فمن منا يتحمّل هذا الخبر ؟ تأخر الوحي أربعين يوماً فماذا فعل ؟ كان صابراً.

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

تأثيره على من حوله:

جلس عمير بن وهب في مكة المكرمة مع صفوان بن أمية و قال: يا صفوان لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولادٌ صغار أخشى عليهم العَنَتْ لذهبت إلى محمد وقتلته وأرحتكم منه، فقال صفوان: أولادك أولادي ما امتدت بهم الحياة، وديونك علي بلغت ما بلغت فامضِ لما أردت، فسقى

سيفه سماً وحمله على عاتقه وتوجّه تلقاء المدينة، وصلها رآه عمر فقال: هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً، فقيّده بحمالة سيفه وقاده إلى النبي، قال له:

((يا عمر فك قيده"، فك قيده، قال: "يا عمر ابتعد عنه "، فابتعد عنه، قال: "يا عمير إدنُ مني " فدنا منه، قال: "ما الذي جاء بك إلينا يا عمير ؟ " قال: جئت لأفديَ ابني، قال له: "وهذه السيف التي على عاتقك ؟" قال: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال: " ألم تقل يا عمير لصفوان كذا وكذا وكذا))

فوقف وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحدٌ إلا الله، وأسلم، يقول سيدنا عمر: دخل عمير على النبي الكريم والخنزير أحب إلي منه، وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أبنائي، لا شك أن هناك شيئاً مؤثراً في النبي صلى الله عليه وسلم، فهذه قوة تأثير عجيبة، جعلت عميراً يتغير خلال دقائق، فهذه النورانية، وهذا الحُب الشديد، وهذه الصلة بالله عزّ وجل، أعطته قوة تأثير مذهلة، جعلت عدواً يقف أمامه، يقول له: والله يا محمد دخلت عليك وما على وجه الأرض أحدٌ أبغض إلي منك، والآن ما على وجه الأرض أحدٌ أحب إلي منك، فما هذا السر ؟

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

تفاضل المؤمنين بأخلاقهم:

إخواننا الكرام... المؤمنون يتفاضلون فيما بينهم بخلقهم، دققوا في هذه المقولة التي قالها أحد العلماء: من زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الإيمان، والإيمان بلا خلق شيءٌ لا قيمة له على الإطلاق، هو ثقافة، عادات، تقاليد، فلكلور، الدين بلا خُلُق يفقد قيمته، لذلك ترى قلةً قليلةً من أصحاب رسول الله وصلت راياتهم إلى أطراف الدنيا، وترى كثرةً كثيرةً من المسلمين يعُدُّون مليار ومائتين مليون ليست كلمتهم هي العليا، وللكفار عليهم ألف سبيلٍ وسبيل.

فمن منا يصدِّق أن سيدنا الصديق أرسل سيدنا خالداً إلى بلاد فارس على رأس جيشٍ قوامه ثلاثون ألفاً ليفتح بلاد فارس، فلما وصلها واجهه الفرس بجيشٍ قوامه مائة وعشرون ألفاً، فما كان من سيدنا خالد إلا أن أرسل رسولاً إلى الصدِّيق يطلب فيه المَدَد، فانتظر و انتظر، ثم جاءه المدد، فهل جاءه خمسون ألفاً ؟ ثلاثون ؟ لا، لقد جاءه رجل واحد، فسأله: من أنت ؟ قال أنا القعقاع بن عمرو، قال: فأين المدد ؟ قال له: أنا، قال له: معي كتاب، قال: افتح الكتاب... من عبد الله أبي بكرٍ إلى خالد بن الوليد أحمد الله إليك، لا تعجب يا خالد من القعقاع بن عمرو، والله الذي لا إله إلا هو إن جيشاً فيه القعقاع بن عمرو لا يمكن أن يهزمه أحد، وانتهت المعركة بالنصر، هكذا ربىَّ النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه.

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

أيها الإخوة، نحن الآن بحاجة إلى خلق عظيم، لا إلى معلومات كثيرة وسلوك منحرف لا... فهذا الخلق هو الذي ينفعنا عند الله، هو الذي يكون سبباً لاستحقاقنا النصر من الله عزّ وجل.

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

لذلك جاءت الآية الكريمة.

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

قصته مع عدي بن حاتم:

سيدنا عدي بن حاتم ملكٌ من ملوك الغساسنة، جاء إلى المدينة قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "من الرجل ؟ " قال: عدي بن حاتم، فرحّب بي أيما ترحيب وقام وانطلق بي إلى بيته، فهذا تكريمٌ له، ولم يكن عدي متأكداً من كون هذا الرجل ملكاً أم نبياً ؟ لأن أخته سفّانة قالت له: إن كان نبياً تسعد به، وإن كان ملكاً تأخذ منه، لقد اتضح الآن أنه نبيٌ، ففي الطريق.. استوقفته امرأة طويلاً فوقف معها يكلمها في حاجتها، فقال: والله ما هذا بأمر ملك، فلما دخل بيته قذف إلي وسادةٍ من أدمٍ محشوةً ليفاً ليس عنده غيرها، قال:

((اجلس عليها "، قلت: بل أنت، قال: " بل أنت "، فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض، قال:" إيهِ يا عدي بن حاتم ألم تكن ركوسياً " قلت: بلى، قال: "أو لم تسر بقومك بالمِرباع " قال: قلت: بلى، قال: فإن هذا لا يحل في دينك))

مناقشة دقيقة، أنت ركوسي، وتأخذ من قومك الربع، وهذا لا يحل لك في دينك، فكيف تفعل هذا ؟..

قال: فعلمت أنه نبيٌ مرسل يعلم ما يُجهل، قال:

((إيهِ يا عدي بن حاتم لعله إنما يمنعك من دخولِ في هذا الدين ما ترى من حاجته))

أي أن المسلمين فقراء..

((وايم الله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي أن يمنعك من دخولِ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوك، وايم الله ليوشك أن تسمع بالمرأة البابلية تحج هذا البيت على بعيرها لا تخاف، ولعله يمنعك من دخولِ في هذا الدين ما ترى من ضعفهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة لهم))

وعاش عدي بن حاتم ورأى كل هذا بعينه.

تواضعه الشديد:

كان إذا دخل أعرابيٌ على النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أيكم محمد ؟ ألم يكن له مقعد خاص ؟ لا، فقد كان يجلس مع أصحابه، و كان عليه الصلاة والسلام يجلس حيث ينتهي به المجلس.

قراءة السيرة فرض عين:

اقرؤوا سيرة النبي أيها الإخوة، اقرؤوها لأن قراءتها فرض عين، هل تصدِّقون ذلك؟؟ إن قراءة سيرة النبي فرض عين، طالبوني بالدليل إن شئتم، الدليل: أن هناك قاعدةً فقهية تقول: ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، فالصلاة فرض، والوضوء فرض، لأن الصلاة لا تتم إلا به، و ما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، لكن الله جلّ جلاله حينما أمرنا قال:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: آية " 21 ")

فكيف يكون النبي أسوةً حسنةً لك ؟ إن لم تعرف سيرته، إن لم تعرف أخلاقه، إن لم تعرف أخذه وعطاءه، إن لم تعرف رحمته، إن لم تعرف لطفه.

لطفه عليه الصلاة والسلام:

مرة كان في مجلس فصلى أصحابه الظهر ثم أكلوا لحم جزور، ثم دخل وقت العصر، ثم اشتموا رائحة لا ترضي، فمن الذي ينبغي أن يتوضأ ؟ هذا الذي انتقض وضوءه، فقدر النبي صلى الله عليه وسلم أنه سوف يخجل خجلاً شديداً، فقال:

((كل من أكل لحم جزول فليتوضأ قالوا : كلنا أكلنا، قال:كلكم فليتوضأ))

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُق عَظِيمٍ)

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تحمِّروا الوجوه))

لا تخجل إنساناً، وهذا من خُلُقه العظيم، فيجب علينا أن نقرأ سيرة النبي كي نقلِّده، لأن الله عزّ وجل لم يقبل دعوة محبته إلا باتباع سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: آية " 31 ")

في بيته، في ثيابه، في طعامه، كان عليه الصلاة والسلام يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد، قال:

((لو دُعيت إلى كراع بالغنيم لأجبت))

لو دعي إلى مؤدم خارج المدينة للبّى الدعوة، دخل مرة إلى أحد أصحابه فقدم له خلاً وخبزاً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((نعم الإدام الخل))

ما عاب طعاماً قط في حياته ولم يمدحه، فهناك كثير من الأشخاص يتحدث عن الطعام بطرقة تجعلك تشتهيه، أما هو عليه الصلاة والسلام فما عاب طعاماً قط ولا مدحه، وما رُئي ماداً رجليه قط بين أصحابه وهو سيد الخلق.

حلمه صلى الله عليه وسلم:

وعده شخص فانتظره ثلاثة أيام، فلما رآه قال:

((يا أخي لقد شققت علي))

أتعبتني، أما الآن فلو تأخر أحدهم عن الموعد ربع ساعة لقامت عليه الدنيا ولم تقعد، أما النبي عليه الصلاة والسلام فتأخَّر الرجل عليه ثلاثة أيام ما زاد عن أن قال:

((لقد شققت علي يا أخي))

أما في بيته كان يركب الحسن والحسين على ظهره ويقول:

((نعم الجمل جملكما ونعم الحِملان أنتما))

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

اقرؤوا سيرة النبي وقلِّدوه واقتفوا أثرها، واتبعوه كي نسعد في ديانا وأُخرانا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 4-9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-05-23

بسم الله الرحمن الرحيم

الالتزام بمنهج الله وضرورة البعد عن مداهنة الكافرين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة القلم، ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

بين الفطرة والكسب:

أيها الإخوة الكرام... هناك نقطةٌ دقيقةٌ جداً في موضوع ثناء الله عزّ وجل على نبيّه الكريم بأنه ذو خلقٍ عظيم لم تذكر في الدرس الماضي وهي: أن الإنسان لا يتقرّب إلى الله إلا بما هو كسبي، أما ما هو فطري فلا يتقرب به إلى الله عزّ وجل فمثلاً: لقد أودع الله في قلب كل أم محبّة أبنائها، فالأمّهات جميعاً في الأعمّ الأغلب يحببن أولادهُن، لكن الرحمة

التي تتقرّب بها إلى الله هي الرحمةُ العامّة ؛وهي أن ترحم جميع الخلق، أن ترحم كل الأولاد وكل الناس الذين من حولك، فالشيء الفطري لا يمكن أن تتقرّب به إلى الله لأنه من عند الله فلو أن هناك مخلوقاً مثلاً يرى ثمانية أضعاف الإنسان،فهل يعقل أن يكون هذا المخلوق أقرب إلى الله من الإنسان ؟ إن الله هو الذي أعطاه هذه القدرة على الرؤية، ولو أن هناك مخلوقاً له قدرة على الشم تفوق قدرة شمّ الإنسان بمليون ضعف، فهل يعدّ هذا أقرب إلى الله ؟ لا لقد أردت من هذين المثلين أن أنْفُذَ إلى السؤال الآتي: لماذا حين أراد ربنا جلّ جلاله أن يثني على النبي عليه الصلاة والسلام لم يثن على علمه، ولا على اجتهاده، ولا على خطابته ولا على قيادته، ولكنه أثنى على خُلُقه ؟

الخُلُق أيها الإخوة بتعريفٍ جامعٍ مانع هو ضبط الذّات، وأي أمرٍ إلهي يحتاج إلى الصبر، فالصلاة تحتاج إلى صبر لأن الاستلقاء (أريح) أكثر راحةً للجسم من الصلاة، فصلاة الفجر قبل الشمس تحتاج إلى صبر، و الصوم أيضاً يحتاج إلى صبر، و الحج يحتاج إلى صبر، كما أن غضّ البصر و ضبط اللسان و الأذن يحتاج إلى صبر، و البيع والشراء كذلك، فوقوع البيع والشراء وفق منهج الله عزّ وجل تماماً أمر يحتاج إلى صبر، و أن يكون احتفالك وفق منهج الله أمر يحتاج إلى صبر، فأساس الأخلاق ضبط الذّات، وأساس ضعف الأخلاق التفلّت من الضبط، فالضبط شيء كسبي، أي أن الله عزّ وجل أودع في الإنسان الشهوات، فهذا الإنسان حينما يخاف مقام ربّه ينهى نفسه عن شهواتها، فهذا شيء كسبي يُرقّي الإنسان ويقربه من الله، و هذا هو الخُلُق، فبالخُلُق نرقى إلى الله، أما الذي أُوتي قدرات معينة فتفوّق بها، فالتفوّق بهذه القدرات لا يقرّبه إلى الله.

والله عزّ وجل وزّع القدرات بين الناس بشكل عجيب، فهناك إنسان يملك ذاكرة قوية جداً، و إنسان يملك قوة محاكمة قوية جداً، و إنسان يملك طلاقة لسان كبيرة جداً،وإنسان يملك قوة شخصية،وإنسان يملك قوة إقناع، إنسان يملك ذكاءً اجتماعياً، فهذه القدرات العامّة والخاصّة التي أودعها الله في الإنسان إذا تفوّق بها لا يرقى بها عند الله لأنها ليست من كسبه إنما هي هبةٌ من الله عزّ وجل، فالله قد أعطى الفيل حجماً كبيراً، و أعطى الطاووس منظراً جميلاً، و أعطى الكلب حاسّة شمّ عالية جداً، و أعطى الصقر رؤية قوية جداً تبلغ ثمانية أضعاف رؤية الإنسان، و أعطى كل حيوان شيئاً، فهذا الشيء الفطري الوهبي، لا يرقى به إلى الله.

أما الشيء الكسبي فهو الذي يرقيك عند الله عز وجل، وإن من أعلى أنواع الكسب ضبط الذّات، فعلى الإنسان أن يضبط ذاته، فقد أُودِع في الإنسان مثلاً حُبُّ المرأة، فغضّ البصر ضبطٌ للذّات، و أوُدِعَ فيه حُبُّ الفضول، فضبط اللسان عن قِصَصِ الناس وعن سقطاتهم يحتاج إلى جهد، و من هنا كان التكليف، و التكليف ذو كلفة، فأنت بحاجة إلى كلفة، تتكلّفُها من أجل أن تصل إلى الله عزّ وجل، فلذلك يجب أن نأخذ من هذه الآية حقيقةً خطيرة وهي أن القدرات التي أودعها الله فيك، والتي تزهو بها على الناس أحياناً، أو تتفوّق بها لا تقرّبك إلى الله عزّ وجل، ولكن ضبط الذّات الناتج عن شعور بأن الله عظيم، وأن طاعته واجبة، وأنه ينبغي عليك أن تنهى نفسك عن الهوى، هو الذي يقربك من الله، لذلك كان غضّ البصر، وضبط اللسان، وحُسُن الخُلق، والمسامحة والعفو، والسخاء والكرم هو الذي يرقى بك إلى الله عزّ وجل، فحينما أراد الله أن يثني على النبي صلى الله عليه وسلمّ ما أثنى على كونه أعظم خطيبٍ في العالم، ولا على أنه أعظم قائدٍ في العالم، ولا على أنه يملك ذاكرةً مدهشة، رغم أنه عليه السلام قد حفظ القرآن الكريم من أول مرّةٍ أُنزِل، عليه، فمن يملك هذا ؟ فهناك قدرات عالية جداً أعطاها الله للنبي عليه الصلاة والسلام، أما حينما أراد مَدْحه مدَحه بأخلاقه.

وبالمقابل فلو أن الإنسان تفوّق في علمٍ شرعي ولم يكن ذا خلقٍ حسن فإنه لا يرقى عند الله على الرغم من أنه أتقن علماً من علوم الشريعة و تفوق فيه حتى أصبح مرجعاً، فإن لم يكن ذا خلُقٍ عظيم فإنه لا يرقى عند الله عزّ وجل.

فعندما سأل النجاشي سيدنا جعفر عن حقيقة الإسلام قال سيدنا جعفر: **" كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل المتيتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه فدعانا إلى الله لنعبده ونوحِّده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء ".**

فالإسلام ذو مضمونٍ أخلاقي، بل إن أحد العلماء الكبار يقول: " الإيمان حُسنُ الخلق فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الإيمان ". والخُلُق هو ضبط للذّات، وقد وصف النبي الكريم عليه الصلاة والسلام الإيمان في بعض الأحاديث الجامعة المانعة التي فقال:

((الإيمان الصبر والسماحة))

فذكر الصبر، و معنى هذا أنك في دار التكليف، والتكاليف كلّها في الأصل تتناقض مع الطبع وتتوافق مع الفطرة، وهذا كلام دقيق، فالطبع أقرب إلى الجسد، والفطرة أقرب إلى النفس، وأوضح مثل على ذلك أنه عندما ينام الإنسان الساعة الثانية ليلاً ويستمع إلى أذان الفجر في الساعة الرابعة يكون أمامه فراشٌ وثير، ونومٌ لذيذ، لكن المنادي يناديه لصلاة الفجر، فلو أن الإنسان استجاب لنداء جسده وبقي نائماً واستيقظ الساعة التاسعة، لشعر بانقباضٍ شديد. وسبب هذا الانقباض أن جسده مُرتاح لكن التكليف الذي تركه أزعج نفسه، أما حينما يزعج جسده ويستيقظ ويصلي ثم ينام فإن نفسه ترتاح، إذاً فالتكاليف تتناقض مع الطبع، والطبع مرتبط بالجسم، والتكاليف تتوافق مع الفطرة، والفطرة مرتبطة بالنفس.

فيا أيها الإخوة الأكارم... عندما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((بني الإسلام على خمس))

عنى بكلامه أن الإسلام شيء، والخمس شيء آخر، فالخمس هي أركان الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، و هذه أعمدة، أما الإسلام فهو بناء أخلاقي قائم على الصدق الأخلاقي، أما الصدق المبني على الذكاء وانتزاع إعجاب الآخرين فليس هذا هو المراد، فإنسان لا يصلي مثلاً لكنه لا يكذب و لا يغشّ الناس، هو ذو أخلاق ناتجة من ذكاء ومَصلحة، فمصلحته تقتضي أن لا يكذب، و ليست هذه الأخلاق هي التي أرادها الله عزّ وجل، لكن الأخلاق التي أرادها الله عزّ وجل هي أخلاقٌ اشتُقّت من اتصالك بالله، كالصدق الأصيل الذي لا تبتغي به إلا وجه الله، و الأمانة المذهلة التي لا تبتغي بها إلا وجه الله أيضاً، فالصدق، والأمانة، والإخلاص، والعدل، والإنصاف، هذه كلها هي القيم الأخلاقية التي اشتققتها من خلال اتصالك بالله و هي التي أرادها الله، أما التي تمارسها انطلاقاً من مصلحتك الدنيوية لتنتزع بها إعجاب الآخرين فلا ترقى بك عند الله عزّ وجل أبداً، فأخلاق المصلحة أخلاقٌ تنتهي مع الدنيا، أما أخلاق العبادة فتنفعك إلى أبد الآبدين.

الدين حسن الخلق:

إخواننا الكرام... إن الدين هو حسن الخُلُق، و إنّ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً، إنّ أفضل المسلمين إسلاماً أحسنهم أخلاقاً، و أفضل شيءٍ ترقى به عند الله هو حُسُن الخُلُق، والنبي عليه الصلاة والسلام وصفه الله عزّ وجل بأنه ذو خُلُقٍ عظيم، فالحقيقة التي سألخِصُها الآن هي أنّ القدرات الوهبية

الفطرية التي أودعها الله فيك ووهبك إيّاها لا تقرّبك إلى الله مهما تفوّقت بها على الناس، أما الذي يقرّبك إلى الله فهو ضبط الذّات، و ضبط الذّات يعني الأخلاق، فالأخلاق تعني أنك إذا أردت وجه الله و رضاه والقرب منه ضحيت بحظوظ نفسك، فلا بدّ لك من أن تضحي بشيء من أجل شيء وهذه سُنّة الله في خلقه، فهذه الدنيا خضرةٌ نضرة إن ضحيت بها من أجل أن ترضي الله عزّ وجل نلت رضاه، فلذلك جاء الحديث الشريف:

((ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما))

أي أن يكون تنفيذ أمر الله، وتنفيذ أمر رسوله أحبّ إليه من الدنيا وما فيها، فأحياناً قد يتعارض النصّ القرآني والنبوي مع مصلحتك، فقد يكون الإنسان مثلاً يسكن بيتاً فخماً جداً على قانون الإيجار القديم و أجرته في الشهر مائة ليرة والقانون في صالحه، فهو محميٌّ من أن يُخالف، لكن أحياناً يرى أن القرب من الله عزّ وجل أثمن عنده من هذا البيت فيضحي به ويُقدّمه لصاحبه من دون أن يأخذ شيئاً ليرقى عند الله عزّ وجل، فمعنى أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، أي من الدنيا وما فيها، فحينما تؤثر طاعة الله و تطبيق سنة رسول الله على حظٍّ من حظوظ الدنيا، و تؤثر أن تكون مع الله على أن تكون الدنيا بحوزتك فإنك عندئذٍ تذوق حلاوة الإيمان، والله عزّ وجل إذا أذاقك حلاوة القُرب منه أنساك الدنيا وما فيها..

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ
وليتك ترضى والأنامُ غضاب
ويا ليت الذي بيني وبينك عامرٌ
وبيني وبين العالمينَ خرابُ
وليت شرابي من ودادك سائغٌ
وشربي من ماء الفرات سرابُ
أقول لعذّالي مدى الدهر أقصروا
فكل الذي يهوى سواه يعاب

* * *

هذا القرب من الله لا يعلمه إلا من ذاقه فذاق حلاوة الإيمان

((ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما))

والحقيقة أنه لن يُفتَح لك باب السماء و لن تذوق حلاوة الإيمان إلا إذا استوى عندك التبْرُ والتراب.. لقد سأل رجل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: لمن هذا الوادي ؟ وكان وادياً من الغنم، فقال: "هو لك"، قال: أتهزأ بي ؟ قال: " لا والله هو لك "، فقال: أشهد أنك رسول الله تعطي عطاء من لا يخشى الفقر..

فإن قدّمت المال لإنسان لتقرّبه إلى الله كنت أنت الرابح الأكبر، وأحياناً قد تضحي بالدنيا من أجل هداية إنسان، والله عزّ وجل لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

أيها الإخوة..إن قضية الأخلاق من أهم القضايا، فبالأخلاق تستطيع أن تجذب الناس إليك، فلماذا يخرج الناس من دين الله أفواجاً ؟ لأن هناك شخص يصلي ويكذب، يصلي ويأخذ ما ليس له، يصلي ويحتال على الناس، يصلي وينغمس في ملذّاته ويغطيها بفتاوى ضعيفة، فهذا الإنسان الذي ليس أخلاقياً، لا يرقى عند الله ولا يستطيع أن يجذب الناس إليه ولو أدى العبادات كلها كما جاءت، أما حينما تؤثر طاعة الله على حظوظ نفسك لتكون أخلاقياً إلى أعلى درجة عندئذٍ يسمح الله لك أن تكون باباً له، و لا يسمح الله لك أن تكون باباً له حتى تدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

لذلك -أيها الإخوة- عندما مدح ربنا عزّ وجل نبيه صلى الله عليه وسلّم بأنه((ذو خُلُقٍ عظيم)) فمعنى ذلك أن الخُلُقَ العظيم هو الذي يقرّبك إلى الله عزّ وجل.

وهناك شيءٌ آخر أود ذكره: وهو أنه حينما سئلت السيدة عائشة عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلّم قالت: كان خلقه القرآن، إنه حلم ما بعد حلم، و لطف ما بعده لطف، ووفاء ما بعده وفاء، و تواضع ما بعده تواضع، و إنصاف ما بعده إنصاف.. قال عليه السلام:

((إنما أهلك بني إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))

هذا عدل ما بعده عدل، و رحمةٌ ما بعدها رحمة.. لقد كان يصلي بأصحابه صلاة الفجر فسمع بكاء طفلٍ صغير ينادي أمّه ببكائه فقرأ الإخلاص وسلّم، رحمةً بهذا الصغير.

وقد كان أصحابه أيضاً ذوي قلوبٌ مفعمة بالرحمة و العدل و الإخلاص و الحُب، أما الآن فإنك تجد ملياراً ومائتي مليون يصلّون، والمساجد عامرة والحمد لله، والأعداد غفيرة، وكل المساجد تحتاج إلى توسعة والحمد لله، لكن أين نصر الله ؟ أين وعد الله عزّ وجل.

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمُ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور55)

فأين الاستخلاف ؟ وأين التمكين ؟ وأين التطمين ؟ والسبب ما جاء في قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصّلَاةَ وَاتّبَعُوا الشّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

تأديب الله عز وجل لعباده المؤمنين:

أيها الإخوة الكرام... سئل عليه الصلاة والسلام: ما هذا الخُلُق العظيم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((أدّبني ربي فأحسَن تأديبي))

دققوا في إجابته، بماذا أجاب ؟ إن هناك خُلُقاً أساسه التفكير، فإذا كان الإنسان ذكياً جداً انتزع إعجاب الناس بصدقه و أمانته، وحقق مصالحه بإنصافه، فهذا الخُلُق هو خلق المصلحة، و خلق الذكاء لا يرقى بك إلى الله.

فهذا هو تأديب الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمؤمن أيها الإخوة له في النبي أسوةٌ حسنة، فالله هو من يؤدّبه، فأحياناً قد يتكلّم المؤمن كلمة فيها شطط فيحجبه الله.. قال له: يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذّة مناجاتي ؟.. فالله أحياناً يحجب، فإذا كان الإنسان غالياً على الله فكيف يؤدّبه ؟ معاذ الله أن يفضحه، معاذ الله أن يشمت به أعداءه، إنه يحجبه عنه، وهذا أحد أنواع التأديب (الحجاب)، يحجبك عنه فتبحث عن السبب، فلذلك قال:

((أدّبني ربي فأحسن تأديبي))

أحياناً قد يتكلم الإنسان كلمة تكون سبباً في حجابه.. لقد ذكر لي أخ كريم أنه تكلّم كلمة ينبغي أن لا يقولها فكانت السبب في فشله، و قد كان متفوقاً جداً في عمله، لقد قال: إن تصليح هذه الآلة يكلّف ساعة ساعتين، فمضى أول يوم و ثاني يوم ثم ثالث يوم ورابع يوم حتى مضى ثمانية أيام بالتمام والكمال والطريق أمامه مسدود، ثم راجع نفسه قائلاً: أين الخلل ؟ لقد تكلّم كلمة كان ينبغي أن لا يقولها مع صاحب المعمل فتاب منها، واعتذر إلى الله وأغلب الظن أنه تصدّق، و في اليوم التالي حُلّت القضية في ربع ساعة، فهذا من تأديب الله عز وجل، فالإنسان قد يتكلّم كلمة فيحجبه الله بها، أو يعامله معاملة خاصّة.. فما هذا الأدب ؟ قال:

((أدّبني ربي فأحسن تأديبي))

إخواننا الكرام... إذا كان ربنا عزّ وجل قد تولانا بالتأديب فهذا من فضل الله علينا، فمعنى ذلك أنه مازال فينا خير، فإذا أدب الله إنساناً فهذا يعني أن هذا الإنسان لازال فيه خير فالله لا يغضب عليه، وإذا أحب الله الإنسان أدّبه ؛ و حاسبه على الكلمة وعلى النظرة، وعلى الهمسة وعلى الخاطر، وكلّما أخطأ حجبه، ومعنى ذلك أن هذا الإنسان لديه إمكانيات عاليةٌ جداً، وقد تولاّه الله بالتربية والعناية، أما حينما يشرد الإنسان عن الله شرود البعير عندئذٍ:

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام44)

فكرة ثالثة:

(وَإِنّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

استمداد الأخلاق من القرآن:

وصفت السيدة عائشة خُلُق النبي عليه الصلاة والسلام فقالت:

((كان خُلُقه القرآن))

و معنى ذلك أنّ هذا الكتاب الذي بين أيدينا لو تلوناه حقّ تلاوته، ووقفنا عند أوامره و نواهيه، وعند آدابه لتخلّقنا به، فسيدنا يوسف عندما التقى بأخوته - انظروا إلى هذا الأدب - قال:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

(سورة يوسف100)

أيهما أخطر بربكم كونه في السجن وقد كانت حياته مضمونة فيه وطعامه وشرابه مضموناً كذلك ؟ أم كونه في الجُبّ وهو عرضةٌ للموت والهلاك جوعاً وعطشاً ؟ فلم لم يذكر الجُب ؟؟..

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

قيل: لم يذكر الجُب مع أنه أخطر لئلا يذكِّرَهُم بفعلتهم و خطيئتهم فيحمّر وجوههم، وهذا أدب من أدب الأنبياء، لذلك إذا قرأت القرآن واستوعبت أوامره ونواهيه و حلاله وحرامه، واستوعبت قصصه وعبره ومواعظه، واستوعبت قصص الأنبياء من قبل النبي صلى الله عليه وسلم، لتخلّقت بأخلاق القرآن، والنبي عليه الصلاة والسلام بتعريفٍ جامعٍ مانع قالت عنه السيدة عائشة:

((كان خُلُقه القرآن))

والقرآن بين أيدينا..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6))

(سورة المؤمنون)

أليس هذا من الخُلُق ؟

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9))

(سورة المؤمنون)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة)

لو تتبعت مكارم الأخلاق في القرآن لوجدت العجب العُجاب، فلذلك إن أردت أن تتقرّب إلى الله فإن التقرب إليه يكون بالخُلُق العظيم، وتطبيق آيات القرآن الكريم سبيلٌ لك إلى هذا الخُلُق العظيم..

(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5))

السين للاستقبال..

(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

أنواع الأدلة (عقلي، شهود، معاينة):

ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنك إذا كنت أمام وعد، فإن هذا الوعد له أدلّة، و من هذه الأدلة الدليل العقلي و الشهود، فأنت إذا رأيت جداراً ورأيت خلف الجدار دخاناً فالدماغ البشري يجري محاكمة، فيقول: لا دخان بلا نار، إذاً هناك نار وراء الجدار، و هذا يسمى استدلالاً عقلياً، أما حينما تذهب إلى خلف الجدار وترى بعينك النار فهذا يسمى شهوداً، أما إذا اقتربت من النار ولمست يدك وهجها فهذا اسمه معاينة، فأي إنسان حينما يرى الشيء بحواسّه الخمس يؤمن به، وهذا شيء بديهي، فكل البشر قاطبةً من دون استثناء حينما يأتيهم ملك الموت ينتقلون إلى عالم الشهود، لذلك فإن كل الحقائق التي جاء بها الأنبياء سيؤمن بها الناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم وملحدهم، وسيكون إيمانهم جميعاً سواء فالقضية إذاً قضية وقت..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق22)

معنى ذلك أن هناك غيبٌ وشهود، فالغيب أن تستنبط الحقائق من أدلّتها، أما الشهود فهو أن تُعاين هذه الحقائق، و النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال الله له:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ)

فنتائج إيمانك و إقبالك وأخلاقك و صدقك واتصالك بالله ملموسة في الدنيا..

(وَيُبْصِرُونَ)

كذلك حال نتائج انحرافهم وكفرهم، وعصيانهم وتفلّتهم، فمعنى ذلك أن هناك نتائج في الدنيا، فالنبي عليه الصلاة والسلام رفعه الله إلى أعلى عليّين، بينما أعداؤه الكفرة كانوا في أسفل السافلين في الدنيا، فحينما قتِلوا في بدر خاطبهم النبي واحداً إثر الآخر:

((يا فلان، يا فلان، لقد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ لقد كذبتموني وصدّقني الناس،أخرجتموني وآواني الناس، خذلتموني ونصرني الناس، قالوا:أتخاطب قوماً جيّفوا؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم))

كلمة:

(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

معنى ذلك أننا في عالم له آخرة.. فهناك قرآن، و الله ذكر الآخرة في القرآن الكريم، فهناك كونٌ عظيم ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله، و من لوازم الإيمان بالله أنه لن يدع خلقه بلا حساب، فلابدَّ من يومٍ آخر، وهناك دليل عقلي ودليل نقلي على اليوم الآخر، أما الإنسان فحينما يموت ويرى اليوم الآخر رأي

العين فإن إيمانه صار حتمياً، لكن هذا الإيمان لا فضل له به، و ليس له قيمة إطلاقاً، لقد صار إيماناً حسياً، لذلك قال الله عزّ وجل:

(فَسَتُبْصِرُ)

يا محمد في الدنيا كيف أن الله سينصُرُك، وسيُعلي قدرك، وسيخذل عدوّك ؛ ويا أيها الكفرة المشركون ستبصرون دناءة أخلاقكم، وسُقم تفكيركم، وانحراف سلوكم، وكيف أنكم في أسفل سافلين..

(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6))

فمن هو الذي فُتِن في الدنيا وكان ضحيةً لها أنتم أم النبي ؟ النبي ليس بمجنون !

أحياناً يكون الإنسان بين أصدقاؤه قبل أن يعرف الله، فإذا عرف الله واستقام على أمره نشأ بينه وبينهم نوع من المجادلات ؛ يقال له: أنت على حق، لا نحن على حق، لا أنت غلطان، و نحن لسنا على غلط... ثم تدور الأيام، فهذا الذي استقام على أمر الله وأخلص له وأطاعه، يرفع الله شأنه ويُعلي قدره، بينما هذا الذي انحرف وشرد عن طريق الحق يضعه الله عزّ وجل، فتجده خامل الذكر، بعيداً عن الأعمال الطيبة، مهموماً بمشكلات كبيرة جداً تسحقه، فهناك إذاً نتائج في الدنيا قبل الآخرة، لذلك:

(فَسَتُبْصِرُ)

يا محمد نتائج عملك..

(وَيُبْصِرُونَ)

مثال بسيط:

إذا كنت راكباً دراجة، والدراجة مريحة جداً في الانحدار، وهناك طريق صاعد، وهذا الطريق الصاعد ترابي فيه صخور وأكمات وغبار، والحر شديد، والطريق النازل معبّد وعلى جوانبه حدائق، وكنت راكباً دراجة فأي الطريقين تختار ؟ بالطبع ستختار الهابط لكن لو كُتِبَت لك لوحة عند مفترق الطرق تقول:إن هذا الطريق الهابط ينتهي بحفرةٍ سحيقةٍ ما لها من قرار فيها وحوشٌ مفترسة وجائعة لم تأكل شيئاً من سبعة أيام، وإن نهاية هذا الطريق إلى هذه الحفرة، وعلى الطريق الصاعد لوحةٌ أخرى تقول: هذا الطريق الوعر الصعب ينتهي بقصرٍ منيف وهو لمن يصل إليه، فالحقيقة هي أنك لم تر الوحوش الكاسرة ولم تر القصر المنيف لكنك رأيت اللوحة، وإذا أردت دليلاً أقوى فهناك منظار، فأصبح لديك لوحة ومنظار، فما مثل الكافر هنا ؟ إن مثله كمثل الذي لم يقرأ اللوحة ولم يستخدم المنظار وآثر الطريق السهل، فلما وصل إلى آخره رأى الحفرة السحيقة والوحوش الكاسرة فآمن الآن ولكنه متى ؟ بعد فوات الأوان، فهذا الإيمان لا قيمة له، لأن هذا الإيمان شهودي لمن شهد الحقيقة، ولكن جاء هذا الشهود بعد فوات الأوان، والذي وصل إلى القصر المنيف أيقن أن هذه اللوحة صحيحة، وأن المنظار سليم، وأنه كان موفّقاً في اختياره، وقد نسي هذا التعب فوراً، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن عمل الجنة حزْنٌ بربوةٍ وعمل النار سهلٌ بسهوةٍ))

(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6))

فالذي قرأ اللوحة واستخدم المنظار، ورأى ملامح الجنة، وملامح الحفرة السحيقة، واختار الطريق الصعب هو المؤمن، فقد تجد المؤمن في آخر الزمان ذا دخل قليل جداً، وقد يكون هناك أناس حوله معهم أموال لا تُحصى ولكنهم لا يعبؤون بمصدر رزقهم، حرام هو أم حلال، لأنهم منحرفون، و هذا المؤمن ليس له غير زوجته، أما هؤلاء فهم يذهبون

كل يوم إلى النوادي والملاهي مع النساء، فيبدو للإنسان أن هذا المؤمن قد اختار اختياراً صعباً، فقد اختار طاعة الله و رضوانه، اختار الجنة على ما بينه وبينها من أمدٍ بعيد، والذي اختار الشهوات العاجلة نسي الآخرة وعاش لحظته، وإذا نظرت الآن رأيت أن أكثر الناس يعيشون لحظتهم، فهم يأتون بأي شيء مستحدث دون أن يأبهوا لمخاطره، كالمستقبل الفضائي مثلاً، يقولون: (نحن نريد أن نعيش وقتنا، نريد أن نفهم ماذا يوجد في العالم، فقط نريد أن نرى الصلاة في الكعبة..)، هذا ما يدّعيه الناس اليوم وينسون أنهم يتابعون أشياء بذيئة لا تُذكر ولا تُتصور حتى الساعة الخامسة فجراً، فأين صلاتهم ؟ أين ذكرهم ؟ أين تلاوة القرآن ؟ أين علاقتهم بزوجتهم ؟ لقد انهارت لأنهم خرجوا عن منهج الله عزّ وجل

فلذلك كانت العبرة أن تقرأ اللوحة وأن تستفيد منها، أو أن تستخدم المنظار، أما إذا أعرضت عن اللوحة المرشدة والمنظار الذي يُريك الحقائق وعشت لحظتك التي تقول إن الطريق النازل أهون والصاعد أصعب كان في ذلك هلاكك، والآن ينام أكثر الناس كيفما يشاؤون، ويتكلّمون ما يريدون، لا يوجد عندهم ضابط، يغتابون، ينمون، يوقعون البلاء بين الناس وهم في ذلك مرتاحون، لا توجد لديهم مشكلة، يرتكبون كل الموبقات وبراءة الأطفال في عيونهم ويقولون لك: لم نفعل شيئاً، فهذا الذي يعيش لحظته هو المقصود في الآية:

(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6))

بأيكم قالوا: إن الباء زائدة.. تبصر ويبصرون أيكم المفتون.. أو في أيكم الفتون، من هو الذي وقع ضحية عمله وسوء فهمه ؟ لكن:

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة القلم)

الحكم على العباد بيد الله وحده:

إن تقييم الخلق من حيث صلاحُه وسوءُه من اختصاص الخالق، أما نحن فنحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، فإذا رأيت شخصاً يصلي في المسجد، و لم تسمع عنه معصيةً و لم تر منه شيئاً خلاف الشرع

فإنك تحكم بصلاحه، ولا تزكّيه على الله بل إني تقول: أنا أراه صالحاً والله أعلم ولا أزكّي على الله أحداً، هذا هو الموقف الإيماني الأديب، لقد قالت امرأة في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم لرجل متوفّى جاء النبي ليودِّعه: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، فلو أن النبي عيله الصلاة والسلام سكت لكان كلامُها صحيحاً، لكنه قال:

((ومن أدراكِ أن الله أكرمه ؟ قولي أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبيٌّ مرسل لا أدري ما يُفعَل بي ولا بكم))

إذاً ليس من شأن العبد أن يعرف المستقبل على وجه اليقين، إنه بذلك يصير إلهاً، لكن من شأن العبد أن يرجو رحمة الله وأن يخشى عذابه، أما أن يقول لك: أنا من أهل الجنة، فمن قال لك ذلك ؟ نحن في عقيدتنا عشرة رجال بشّرهم النبي بالجنة على وجه اليقين ومن سوى هؤلاء فنحن نرجو لهم دخول الجنة، قال لها:

((قولي أرجو الله أن يكرمه))

أما حينما قالت: لقد أكرمك الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((ومن أدراكِ أن الله أكرمه))

هذا تألٍّ على الله، لذلك:

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

الله وحده هو الذي يعلم على الوجه الصحيح، وعلى الوجه اليقيني من هو على الهدى ومن كان في ضلالٍ مبين، أما نحن فلنا دلائل ظاهرة، فإذا رأينا إنساناً يشرب نقول له:هذه معصية لعله يتوب، وله أن يتوب، وإذا تابَ تاب الله عليه، فنحن نحكم أن هذه معصية، أما أن تحكم على المستقبل فإن هذا ليس من شأن الإنسان.

فسيدنا خالد خاض عدة حروب ضد رسول الله ؛ بدراً، وأحداً، والخندق، وجاء إسلامه متأخِّراً، ولما أسلم قال له النبي الكريم:

((عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً))

وسيدنا خالد سمّاه النبي سيف الله المسلول، وخاض مائة معركةٍ أو زهاءها، وما في بدنه موضعٌ إلا وفيه ضربةٌ بسيف أو طعنةٌ برمح، فالذي يحكم على سيدنا خالد يوم كان يحارب النبي فحكمه غلط، لقد خُتم له بأعلى درجات الإيمان، وكان سيدنا خالد أحد كبار الصحابة مع أنه أسلم متأخّراً.

فأنا أحكم فقط على أن هذه معصية، وأن هذه طاعة، أما المستقبل فلا يعلمه إلا الله، لذلك إذا زكّيت قل: أعلمه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً..

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

وهذه الآية لها معنى آخر: أي ؛ إذا كنت أيها الإنسان عند الله مهتدياً فلو أن الناس جميعاً اتهموك بالضلال فلا تعبأ بذلك، و الآن يوجد الآن خمسة آلاف مليون من البشر، فلو أن خمسة آلاف مليون اتهموك بالضلال وأنت عند الله من المهتدين، فأنت مهتدٍ ورب الكعبة ولا تعبأ بأقوالهم جميعاً، لا تعبأ بأقوال الناس، فهؤلاء الشاردون عن الله عزّ وجل تقييّمهم باطل، تقييمهم لا يقدم ولا يؤخّر، لذلك:

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

من عرف نفسه ما ضرّته مقالة الناس به..

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ)

فاستنباطاً من هذه الآية الكريمة أنه لا ينبغي لك أن تستشير إنساناً شارداً في شأن حياتك، ولا في شأن تربية أولادك، ولا في شأن تزويج بناتك..

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

المداهنة:

فالمداهنة هي التليين، يقال لك: هذه مواقف متصلّبة و جريئة و يقينية، أما المداهنة فهي تليّن هذه المواقف، فلو أنك داهنت الكافر قليلاً لداهنك قليلاً، ولو أنك سرت معه إلى نصف الطريق لسار معك إلى نصف الطريق، ويصبح بينكما مصالح، أما الآن فتسمى المداهنة تقريباً وتوفيقاً، فعلى الرغم من وجود تناقضات جذرية، فإذا أردنا أن نوفّق أو أن نقارب بين المتناقضات فمعنى ذلك أننا نُلغي أفكارنا، فهناك جهة تؤمن بكذا، وجهة تؤمن بكذا، فكيف نوفّق بينهما ؟

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

أيها الإخوة... الإسلام حق، والحق لا يحتاج إلى مداهنة، والحق لا يُستحيا به، والحق لا يُخشى البحث فيه، والحق هو الله، والله مع الحق، والحق لا يحتاج إلى أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، و لا يحتاج إلى أن تقلل من خصومه، ولا أن تبالغ فيه، الحق حق، و الحق أقوى من أن تبالغ فيه، وهو أقوى من أن تكذب عليه أو أن تستحيي منه، الحق حق، والحق لا يتجزّأ، فنحن لا نستطيع أن نقول: إن هذه الجزئية من الإسلام يمكن أن نتساهل فيها، لأن الإسلام منهج كامل بتفاصيله وجزئياته، فإذا ألغينا جزئيةً فإن هذه الجزئية ستساهم في تقويض البناء كلّه، فتصور أن هناك بالوناً منفوخاً، وهو كبير قليلاً وسنقوم بتصغيره فنحضر دبوساً، ونثقبه قليلاً لكي نصغره فإذا فعلنا ذلك انتهى كله، فالحق لا يقبل أنصاف الحلول، الحق حق، لذلك:

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

الفرق بين المداهنة والمداراة:

توجد نقطة دقيقة وهي المداهنة والمداراة، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((بعثت بمداراة الناس))

فأنت مأمور أن تداري، ومحظورٌ عليك أن تداهن، و المداراة على حساب الدنيا، أما المداهنة فهي على حساب الدين، فالمدارة أن تبذل الدنيا من أجل الدين، أما المداهنة فهي أن تبذل الدين من أجل الدنيا، فأحياناً يقبل إنسان بمعصية أو يقبل بترك طاعة حتى يرضي الطرف الآخر فهذه مداهنة، وحينما تقبل بهذا سوف تُنقض عُرى الإسلام عروةً عروة، فإذا أنت قبلت بترك طاعة الله أو قبلت أن تعصي الله مداهنةً للطرف الآخر فتأكّد أنك سوف تتخلى عن دينك حلقةً حلقة إلى أن تغدو بلا دين، فلذلك لا يوجد أنصاف حلول في الحق، وحينما اختلط المسلمون بغيرهم وداهنوا انتهى دين بعضهم، وصارت عباداته جوفاء لا تقدم ولا تؤخر، فإذا أصبحت حياتنا وتجارتنا، وبيعنا وشراؤنا، ونزهاتنا، وأماكن إقامتنا، وأحزاننا وفقاً للتقاليد الغربية فنحن عندئذ نكون قد انتهينا..

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

فإذا كان هناك عرس مختلط، النساء فيه بأبهى زينة كاسيات عاريات، وعلى البطاقة الطيّبون للطيبات فهذه مداهنة..

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

أما المؤمن فيُداري، يبذل شيئاً من ماله و شيئاً من وقته و شيئاً من إمكاناته من أجل هداية الناس، وهذه مداراة، فنحن مأمورون بالمداراة، منهيون عن المداهنة، والمداهنة ينتقض بها الدين عروةٌ عروة بالتدريج، فإذا لم نصل اليوم، فإننا غداً لن نصوم، ثم نأكل الربا بعد ذلك، ثم نستحل ما حرّم الله، ولن تجد بعد ذلك فرقاً بين المسلمٍ وغير المسلم يقال لك: المسلم وغير المسلم، كلاهما يأكل الحرام، وكلاهما نساؤه كاسياتٌ عاريات، وكلاهما يتعامل بالربا، وكلاهما يبتعد عن طاعات الله عزّ وجل، فما هذا الانتماء الشكلي؟ هذا انتماء تعصب لا قيمة له إطلاقاً..

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

ضرورة التزام الجماعة المؤمنة:

أيها الإخوة... صار من الواجب أن يُقال: لابدّ لنا من مجتمع إسلامي نظيف، لابدّ من أن تكون مع جماعةٍ مؤمنة، فإذا كان الإنسان يعيش مع غير المؤمنين فإن ذلك يشكل أمامه صعوبات كبيرة جداً، ولو أن إنساناً مؤمناً شارك إنساناً غير مؤمن فإن ذلك قد يدفعه إلى مزالق خطيرة جداً، فتنشأ عن ذلك صعوبات لا تنتهي، فلو أنك صاحبت إنساناً غير مؤمن مثلاً فإنك عندما تدخل إلى بيته تأتيك زوجته وتقدّم لك الضيافة، ثم يدعوك إلى مشاهدة فيلم ما، فإذا خرج الإنسان عن نقائه وصفائه وصار لديه

اختلاط مع الطرف الآخر، وصار هناك مداهنة انتهى دينه، **" فدينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا "..**

مرّةً في بعض المساجد كنت ألقي درساً، فقام أحدهم في أثناء الدرس.. وهذا على غير المألوف.. قال لي: يا أستاذ نحن نستمع إلى الدرس فنشعر براحة كبيرة، فإذا ذهبنا إلى البيت نسينا كل هذا وعشنا حياتنا السابقة فما الحل ؟ قالها بحرقة وقالها وهو صادق، وخالف بها التقليد العام، فمن غير المعقول أن يقطع إنسان الدرس ويتكلّم(مداخلة) فألهمني الله عز وجل جواباً موجزاً فقلت له: (غيِّر الطقم)، إذا عندك أصدقاء متفلتين، غير مؤمنين، تسهر معهم، تلعب النرد معهم، حديثهم عن النساء، يدعونك إلى مشاهدة التلفاز، فهؤلاء يبعدونك عن دين الله..

ذهب رجل إلى الحج وكان يشرب الخمر، فعاد من الحج وهو تائب، سهر مع أصدقائه القدامى فدعوه إلى شرب الخمر، وهو تاجر من تجّار حلب، فامتنع، فقال له صديقه: كم كلفتك الحجة خمسين ألف ؟ هذه خمسين ألف واشرب، ثم أعد الحج، فشرب، فلابدّ من أن تتخلى عن أصدقاءك القدامى الذين تداهنهم ويداهنوك..

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

لابدّ من أن تنتقي إخوةً مؤمنين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 8-16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-05-30

بسم الله الرحمن الرحيم

التحذير من المداهنة وعاقبة المتكبرين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الرابع من سورة القلم، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

(سورة القلم)

لا مساومة في الدين:

أيها الإخوة الكرام... هذه الآية الكريمة تنفي مبدأ المساومة في الإسلام،وتنفي أنصاف الحلول، وترفض أن يمشي كل فريقٍ إلى منتصف الطريق، و أن يتخلّى المؤمن عن بعض مبادئه، فالمساومة تكون في التجارة ؛ فأنت قد تخفض السعر أو ترفعه وقد تضيف إلى المبيع مبيعاً، وهذا كله في عالم التجارة، أما في عالم العقيدة فلا مساومة على المبدأ، لأن المبدأ كلٌ لا يتجزّأ، صغيره ككبيره -وليس فيه صغير- أما التجارة فهي صفقةٌ تجزّأ، وسعرٌ يقسّط وخصائص قد تدنو أو تبتعد.

أيها الإخوة الكرام... الإسلام منهج الله عزّ وجل (منهج السماء) وهو منهجٌ رباني، لا يمكن أن يلتقي مع الجاهلية في منتصف الطريق، والأصح من هذا أنه لا يمكن أن يلتقي معها في طريق، لأن الإسلام في وادٍ، والجاهلية في وادٍ آخر، وإن منطلق المسلم هو طاعة الله عزّ وجل و العمل للآخرة وأن يضع كل شهواته تحت قدمه، فيصبح التِبْرَ عنده كالتُراب، فطاعة الله عنده هي كل شيء، أما غير المسلم فمنطلقه المال، فالدنيا عنده هي كل شيء، فيفعل ما يشاء من أجل أن يصل إلى هدفه، و الغاية عنده تبرر الواسطة، لذلك لم يكن من الممكن أن يلتقي الإسلام مع الجاهلية ؛ و تتساوى في ذلك الجاهلية القديمة والجاهلية المعاصرة وجاهلية الغد، فلا يمكن لأحدها أن يلتقي مع الإسلام في منتصف الطريق، بل إنه لا يمكن أن يجمع بينهما طريق، فهذا في وادٍ، وهذا في واد.

فهذا الحائط مثلاً فيه لونٌ أسود ولونٌ سُكّري فهما إذاً يجتمعان، و يمكن أن نقول: هذان اللونان متعاكسان، إلا أن الظلام والنور متناقضان، بمعنى أن أحدهما ينفي وجود الآخر، فإذا حل النور فلا ظلام، وإذا كان الظلام فلا ضياء، فيجب أن نعتقد أن منهج الله عزّ وجل متميّز، فهو منهج خالق الكون، فله خصائص علوية و له أهدافٌ رَبّانية و له وسائل شريفة، فلا يمكن أن يلتقي منهج الله مع منهج البشر، فكلاهما ينطلق من منطلق، وكلاهما يتّجه إلى هدف، و هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6))

(سورة الكافرون)

ثلاث صور تجسد هذه الآية:

أيها الإخوة... أضع بين أيديكم ثلاث صورٍ من سيرةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم تجسِّد هذه الآية.

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

1- ماذا فعلت قريش لما رأت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله و يسفِّه آلهتها وأحلامها، وأن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لها ؟ لقد مشى أشرافها: عُتبة، وشَيبة، وأبي سفيان، والعاص بن هشام وأبو جهل، والوليد بن مغيرة، مشى هؤلاء وهم علية القوم وأشراف قريش وزعماؤها إلى أبي طالب وقالوا له: إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفَّه أحلامنا وضَلَّلَ آباءنا، فإما أن تَكَفَّه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، و نحن نكفيكه فدعه لنا، فقال لهم أبو طالب كلاماً رقيقاً وردَّهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى عليه الصلاة والسلام على ما هو عليه ليظهر دين الله ويدعو إليه، ثم تفاقم الأمر بينه وبينهم، حتى تباعدوا وتضاغنوا فالتقوا مرة ثانية بأبي طالب و قالوا: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلاً فينا، و إنّا قد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، و إنّا والله لا نصبر على هذا الأمر من شتم آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آبائنا فكُفَّه عنا أو ننازله وإيَّاك، حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه، فحزن أبو طالب (لأنهم جعلوه طرفاً قي القضية)، و عظُم عليه فراقه لقومه وعداوتهم له، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خُذلانه.

قال ابن إسحاق: حدَّثني يعقوب بن عقبة بن المغيرة أنه حدَّث أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة، فبعث عندئذٍ أبي طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه وقال له: يا بن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبقِ علي وعلى نفسك ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق (وهنا أول بوادر التخلي)، قال: فظن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قد بدا لعمِّه فيه بداء (أي غير موقفه و اتخذ موقفاً جديداً و بدأ يتخلّى عنه)، وأنه خاذلُه و مسلمُه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال عليه الصلاة والسلام، هذه المقولة التي جِّسدت هذه الآية، قال:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

وبكى النبي عليه الصلاة والسلام ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب وقال له: أقبل يا بن أخي، فأقبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيءٍ أبداً.

فكان هذا موقفه، ففي الدين لا يوجد أنصاف حلول و لا توجد مداهنة ولا مشي إلى منتصف الطريق لأنه منهج الله عزّ وجل كامل كمالاً كمّياً وكمالاً نوعياً.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(المائدة: آية " 3 ")

و لا بد أن يكون هذا موقف كل مسلم صادق في أي عصر، فالمسلم قد يتساهل في كل شيء إلا في أمر عقيدته وعبادته وأمر الحلال والحرام، فيجب أن يكون له موقفٌ صُلب في أمر الحق والباطل، إنه قد يكون ليناً إلى أقصى درجة إلا في الحق فله فيه موقفٌ لا يتزعزع، فكلمة: لا، يقولها بملء فيه ولا يخشى لومة لائم، هذه صورة من صور مواقف النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال الله له:

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

أي لا يوجد في الإسلام أنصاف حلول، و لا يمكن أن يلتقي حقٌ وباطل لأنه لا يمكن التوفيق بينهما، كما لا يمكن أن نوفق بين النور والظلام، فإما نور وإما ظلام.

2- صورةٌ ثانية.. عتبة بن ربيعة كان سيداً من سادة قريش، قال يوماً وهو جالسٌ في نادي قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمدٍ فأكلِّمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويَكُفّ عنا، (وذلك حينما أسلم سيدنا حمزة، ورأوا أن أصحاب الرسول يزيدون ويكثرون)، فقالوا: يا أبا الوليد قُم إليه فكلمه (فلا يوجد لديهم مانع) فقام إليه عُتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا بن أخي إنك منا حيث علمت من السِطَةِ (أي بأعلى مكان) في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم فَرّقت بهم جماعتهم وسفّهت به أحلامهم، وعبت بهم آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك تقبل بعضها.

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

قال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((قل يا أبا الوليد أستمعْ إليك))

وكان عليه الصلاة والسلام في أعلى درجات الأدب، كما أنه محدِّثاً لبقاً و مستمعاً أديباً قال:

((يا أبا الوليد قل أستمع إليك))

قال: يا بن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً (سيادةً، رئاسة) سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رَدّه عن نفسك طلبنا لك الطب

وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئكَ منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه(أي إذا كان معك هوس، أو مرض، أو لوثة).

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(الآن هذه الشواهد أو هذه المشاهد تفسِّر هذه الآيات)، حتى إذا فرغ عُتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمِع إليه قال:

((أقد فرغت يا أبا الوليد))

(أي انتهيت) قال: نعم فقال:

((فاستمع مني))

قال: أفعل.. (أي تفضل).. فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم:

(حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6))

(سورة فصلت)

ثم مضى النبي صلى الله عليه وسلم يتلو عليه هذه السورة بأكملها، فلما انتهى إلى السجدة قام عليه الصلاة والسلام وسجد، ثم قال:

((سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ؟، أنت وذاك))

(هذا هو جوابي) جوابه أنه قرأ عليه هذه السورة، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به (تغيَّر وكأنه اقتنع بقول النبي) فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال: ورائي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قَطّ، والله ما هو بالشعر، ولا بالسِحر، ولا بالكِهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه،(أي دعوه وشأنه، دعوه يتكلّم، دعوه يبلِّغ هذه الرسالة)، فوالله ليكونن لِقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفِيتموه، وإن يظهر على العرب فملكه ملكُكم وعِزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به (أي إذا حاربته العرب كفتكم إيَّاه، وإن فازوا عليه فملكه ملككم)، قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد، لقد سحرك بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

وفي رواية ثانية: النبي تابع الآية..

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

(سورة فصلت)

فقام مذعوراً فوضع يده على فم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أُنْشِدَكَ الله والرحم يا محمد، (وذلك مخافة أن يقع النذير)، وقام إلى القوم فقال ما قال.

3- الصورة الثالثة: اعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالكعبة الأسود بن المُطّلِب، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنانٍ في قومهم (أي علية القوم) فقالوا: يا محمد هَلُمَّ فلنعبد ما تعبد (فنحن سنطيعك) وتعبد ما نعبد (نصف حل)، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه فأنزل الله تعالى قوله الكريم:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6))

(سورة الكافرون)

أيها الإخوة الأكارم... أردت من هذه القصص الثلاث، ومن تلك المقدّمة أن يعتقد المسلم أن إسلامه من عند الله، وأن منهج الله متميّز، وأنه لا يلتقي مع الجاهليّة، فليس في الإسلام أنصاف حلول، لأن الإسلام منهج كامل، فلا يمكن أن تأخذ منه ما يُعْجِبك وأن تدع ما لا يعجبك، و لا يمكن أن يلتقي منهج الله مع منهجٍ أرضي وضعه أناسٌ لهم حظوظٌ من الدنيا، إذاً فقوله تعالى:

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

وتحدّثت في الدرس الماضي عن المداهنة، و هي بذل الدين من أجل الدنيا، أما المداراة فهي بذل الدنيا من أجل الدين، فالمؤمن منهيٌ عن أن يُداهن، مأمورٌ بأن يداري، ورأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس، و أن تبذل شيئاً من دنياك من أجل أن تقنعهم بالدين، ثم يقول الله عزّ وجل:

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)

(سورة القلم)

الحلاف:

الحلاف: صيغة مبالغة أي كثير الحَلف، فلماذا يحلف كثيراً ؟ لأنه غير واثقٍ من نفسه أو لأنه يكذب، والكاذب يتوهَّم أن الناس يكذبونه ولا يصدقونه فيسارع إلى الحلف، وهذا الحلاّف الذي يكذب ويحلف كثيراً مُهانٌ عند نفسه، فالكاذب يحتقر نفسه ولا يحترمها، والصادق محمودٌ عند الله، وعند الخَلق وعند نفسه أيضاً.

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)

فالحَلف سبيله إلى إقناع الناس، فكأنه يتوهَّمُ مسبقاً أنه يكذب فيسارع إلى الحلف، فيحتقر نفسه، والإنسان أدرى بنفسه من غيره.

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

والإنسان أعرف الناس بنفسه، فحينما يكذب يستنجد بالحلف ليصدِّقَهُ الناس وما درى أنه بهذه الأيمان الكثيرة يضعضع مكانته، ويصبح مهاناً عند الله، وعند الناس، وعند نفسه..

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ)

الهماز النمام:

من هو الهمَّاز ؟ هو الذي يهمز الناس و يعيبهم بالقول والإشارة في حضورهم أو في غيبتهم، وخُلُقُ الهمز واللمز يكرهه الإسلام،

((المؤمن ليس بالطعّان واللعّان ولا الفاحش ولا البذيء))

فأهل الدنيا يطعنون في كل شيء و يعيبون كل شيء، قد يدخل أحدهم إلى بيت فيسألك عن مساحته ويقول: كيف تعيش في هذا البيت ؟ هذا البيت لا يعاش فيه، ثم يسأل عن دخلك ويقول: هذا الدخل قليل، هل يكفيك ؟ و يسألك عن زوجتك و أثاثك وأسفارك و رحلاتك، فهو دائماً يسأل ليطعن و يحتقر و يعيب و يُحْرِج و يصغِّر، فهذا هو شأن أهل الدنيا، لكن المؤمن ماذا يفعل ؟ المؤمن يُطيِّب قلب الناس بدنياهم و يثني عليهم.

فمرة دخلت إلى بعض بيوت إخوتنا الكرام، كان هناك غرفة الضيوف لا تزيد عن مترين في ثلاثة أمتار، ضيِّقة جداً لا تتسع للأثاث إطلاقاً، فهذا الأخ استحيا، فقلت: والله يا أخي إن سيد الخَلْق وحبيب الحق و سيد ولد آدم و حبيب الله عزَّ وجل و الإنسان الأول في الكون كانت غرفته لا تتسع لصلاته ونوم زوجته، فمن نحن ؟ هكذا كان عليه الصلاة والسلام، فهو الذي قال:

((والله لو دُعيت إلى كراع بالغنيم لأجبت))

لقد دعي عليه السلام إلى خل، فهل يوجد واحد من الحاضرين يُدعى إلى خبز وخل، لقد وضع له صحن من الخل ورغيف خبز، ليغمس و يأكل، فمن منا يرضى بهذا الغداء ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((نعم الإدام الخل))

فالمؤمن يطيِّب قلب الناس فلا يصغِّرهم و لا يزدريهم من أجل دنياهم المتواضعة بل بالعكس يثني عليهم، و قال عليه الصلاة والسلام:

((نعم الإدام الجوع))

فلم يقل اللحم بل قال: الجوع، فإذا كنت جائعاً رأيت كل طعامٍ طيباً، فالمؤمن ليست مهمته أن يضعضع ثقة الناس بأنفسهم، ولا أن يزدري أثاث بيتهم، ولا مساحته ولا دخلهم المتواضع، ولا صحتهم المتعبة، بل مهمته أن يرفع معنويات الناس، ويقنعهم بما هم فيه...

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ)

فلسانه دائماً ينتقد، ينتقد بيتك ودخلك و أولادك، ينتقد كل ما أنت فيه، فلا يوجد عنده إلا النقد، والتصغير، والاستعلاء، والكبر، والزهو، قال: هذا لا تستمع لكلامه.

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11))

يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يدخل الجنة قتّات))

فالنميمة من الكبائر التي تمنع من دخول الجنة، فما النميمة ؟ النميمة: أن تنقل لإنسان قولاً قاله فيه إنسان آخر، فتقول له:فلان قال عنك كذا وكذا، فماذا فعل النمام هنا ؟ إنه بقوله ذلك لم يفعل شيئاً ملموساً، فلم يقتل إنسان، ولم يزن، ولم يشرب الخمر، ولكنه قال كلمة فقط، لقد قال: فلان قال فيك: كذا وكذا، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يدخل الجنة قتات))

أي نمام، وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال عليه الصلاة والسلام:

((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة))

فهو يعذب في قبره، لأن النمّام يمزّق شمل المسلمين، يمزق شمل الأسرة الواحدة، يمزّق شمل الشركة، يمزّق شمل القبيلة، يوقد العداوات، و إنك إذا ذهبت اليوم إلى أي مكان وجدت إنساناً ضد إنسان، وذلك ضمن الأسرة الواحدة و المجتمع الواحد و الدائرة الواحدة و المدرسة الواحدة و المستشفى الواحدة، ففي أي دائرة كانت، هناك فلان ضد فلان، فلماذا يحدث ذلك ؟ لأنه يوجد بينهم مشّاء بنميم، يقول: فلان قال عنك كذا وكذا، ينمُّ له، وينم عليه، وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يبلّغني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر))

فلو أنّ إنساناً يحب إنساناً فلا تكن السبب في زعزعة العلاقة بينهما، لا تقل له: إنه تكلم عنك كذا وكذا بغيابك، و صَرّح أنه لا يحبك ولا يطيقك لكنه يجاملك فقط، لأنك بذلك تكون قد أقمت هوةً بينهما، فهذا الذي يكذِّب بالدين..

(حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11))

قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا أخبركم بخياركم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الذين إذا رُؤوا ذكر الله بهم))

فإذا حَلّوا بمجلس كان حديثهم عن الله و عن رسول الله و عن أصحاب رسول الله، وعن محبّة الله و طاعته وعن العمل الصالح، فالإنسان إذا رآهم يذكر الله بهم، وهكذا ورد في الحديث:

((أولياء أمتي إذا رُؤوا ذكر اللهم بهم))

((ألا أخبركم بخياركم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الذين إذا رُؤوا ذُكر الله عز وجل بهم، ثم قال: ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا: بلى. قال: المشّاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرءاء العيب))

فالنمام إذا جلس في مجلس قال: والله فلان (ما شاء الله عليه)، أخلاقه عالية، سمته حسن، مستقيم، أما فلان فهو دجّال كبير، لا تصدقه، و كلما شعر أن هناك إنساناً يحب إنساناً و يقدره يبدأ بالطعن به لأنه يغار، وقد يطعن وغير محق، وقد لا يوجد معه دليل على ما يقول، لكنه لا يحتمل أن يرى إنسانين متعاونين متحابّين متآخيين

((ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا: بلى قال: المشّاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرءاء العيب))

(مَنّاع لِلْخَيْر)

معاني (المناع للخير):

1- ينهى نفسه عن فعل الخير وينهى غيره، أي فاسد مفسد، ضال مضل، مانع نفسه، ومانع غيره، فإذا جلست مع إنسان من أهل الدنيا قال لك مثلاً: أتتصدق !! أمجنون أنت ؟ هذا المال أبقه ليومٍ أسود، وإنما يقول ذلك لأن أيامه في الأصل سود كلها، فهو يدعو للبخل، يأمر بالبخل، وينهى عن فعل الخير.

(مَنّاع لِلْخَيْر)

2- هناك معنى دقيق جداً: وهو أنك إذا فعلت معه معروفاً رد على معروفك بالإساءة، فمعظم الناس إذا رُدّ عليهم بالإساءة حلفوا ألا يفعلوا خيراً، فأحياناً قد تكون أنت وسيطاً بين اثنين، فتأتيك متاعب لا حصر لها، فالإنسان بحكم فطرته يبتعد عن هذه المشكلات، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((من خالط الناس وصبر على أذاهم، خيرٌ ممن لم يخالطهم ولم يصبر على أذاهم))

(مَنّاع لِلْخَيْر مُعْتَدٍ أثِيمٍ)

فإذا أقرض إنسانٌ آخرَ قرضاً ولم يؤدِّه إليه حلف هذا المُقرض ألا يفعل هذا مرةً ثانية مع أحد، فهذا الذي أخذ مال الناس ولم يؤده هو مناعٍ للخير، لأنه حمل هذا الإنسان على ألا يفعل خيراً، و إذا استعار إنسان حاجة من إنسان ولم يردّها إليه في الوقت المناسب يكون هو الذي يمنع الخير، وإذا سمح إنسان

لآخر أن يركب في مركبته وكان ذلك الشخص معه شيء ممنوع، وصودرت المركبة فإنه لن يدع إنساناً في الأرض يركب معه مرة أخرى، والآن تجد شخصاً راكباً لوحده في المركبة فيجد إنساناً فلا يقف لأنه يخاف، فربما يكون معه تهريبة أو معه شيء غير نظامي، فيتورط معه، فكل إنسان يُفْعَل معه خير ثم يقابل هذا الخير بالإساءة هو الذي يمنع الماعون.

كان هناك إنسان في الصحراء فرأى رجلاً يعتلي فرساً، فأشار إليه أنه متعبٌ جداً ويتمنى أن يركب خلفه، فَرقَّ له هذا الفارس لأن الحر شديد، فدعاه إلى ركوب الفرس خلفه، فما إن اعتلى هذا الإنسان ظهر الفرس حتى دفع صاحبها إلى الأرض وعدا بها لا يلوي على شيء، فماذا قال له صاحب الفرس ؟ قال: يا هذا لقد وهبت لك الفرس ولن أسأل عنها بعد اليوم ولكن إيَّاك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء، فتذهب منها المروءة، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها.

هناك خمسمائة ألف بيت في الشام مغلق بالمفتاح لا يؤَجَّر لأن آلاف المستأجرين قد دخلوا شهراً، فمكثوا في البيت اثني عشر سنة لا يخرجون منها، ويقول له: هذه المحاكم بيننا، فالمستأجر الذي لا يرعى عهداً ولا ذمةً هو الذي يمنع الخير، ونحن نعاني من أزمة إسكان لا أزمة سكن، فهناك خمسمائة ألف شقة في دمشق مغلقة ولا تؤَجَّر، فمن هو سبب هذه الحالة المستعصية المسدودة ؟ إن السبب في ذلك هم أولئك الذين استأجروا بيوتاً فلم ينفِّذوا ما وعدوا به، يقال: إذا أجرت هذا البيت فقد انتهى، وذهبت الشقة، وانتهى الأمر، فهذا هو منع الخير، فإذا أقرض إنسان آخر ولم يرد له ماله، فانتظر شهراً، وسنة، وخمس سنين، و المدين يقول له: هذه المحاكم اشتكِ علي لا يوجد معي لأعطيك، يقولها بقسوة، بلؤم، فتجده وديعاً لطيفاً عندما يطلب المبلغ، و بعد أن يتملك المبلغ لا يعبأ بك، ولا بتوسّلاتك، يستدين بضاعة و لا يعطيك الدَّين، يبيعها، يضع ثمنها في جيبه، يزوج أولاده، يرفِّه نفسه يقول لك: لا يوجد معي، فأين البضاعة ؟ بعناها، (وصرّفناها)، وهذا هو الحاضر، اشتك علي، هذا هو منع الخير، فيخشى أنه إذا باعك بضاعة بالدين أن لا تؤّدي ثمنها له، و إذا أقرضك أن لا تؤدي الثمن و إذا أجرك بيت أن لا تخرج منه، وإذا أركبك بالمركبة أن يكون معك بضاعة مهّربة.

وقد يرى الإنسان حادثاً، فيدفع من مروءته لينجد هذا الجريح، فيضعوه ثلاثة أيام في السجن، - طبعاً الآن القوانين تعدّلت والحمد لله،و لم يعد هناك مسؤولية، عليك فقط تبرز هويتك ثم يدعونك تذهب، وإلا لمات ناس كثر بسبب النزيف - فهذا الذي يشدد على من نقل هذا المُصاب فيضعه في السجن بلا عدل يسبب منع الخير، فلذلك كان المّنع للخير إما باللسان أو بالفعل، فكلما واجهتَ إنساناً له عمل طيب بالإساءة منعت الخير.

وقد انتشر هذا حتى صار الناس إذا رأوا إنساناً يفعل الخير يستغربون، يقولون: هذا مجنون، فأصبح الأصل ألا تفعل خير، وأصبح الأصل اللؤم و الإساءة، فصار الخير نادراً، حتى إذا فعل إنسان الخير

بدا وكأنه شاذ، وشَكَّ الناس فيه، وتجدهم يقولون: ما مقصده من ذلك ؟ ليس له مقصد، إنه يفعل الخير، و الآن أصبح لفعل الخير تفسير سيِّئ، فصار الأصل في المجتمع أنه منّاع للخير، ففي فرنسا أرادوا أن يمتحنوا الدافع الإنساني في المجتمع، فجاؤوا بسيارة إلى أكثف طريق بين مدينة باريس ومدينة ليون، ووضعوا سيارة كأنها مصابة بحادث، و جاؤوا بإنسان فصبغوه بحبر أحمر فأصبح كأنه جريح يستغيث، فمضت ست ساعات قبل أن تقف أول سيارة لتسأل ما به.

(مَنّاع لِلْخَيْر)

لي صديق كان في لندن قال لي: رأيت امرأةً قبل مائة متر وقعت على الأرض، وكان على الرصيف كثافة كبيرة جداً، فلم يخطر في بال واحدٍ من الناس أن ينهض هذه المرأة ليسأل ما لها، فلما وصل إليها أنهضها، فقالت له: أنت غريب عن هذه البلاد، فقد عرفت أنه غريب، لأنه أنهضها، وسأل عن حاجتها.

(مَنّاع لِلْخَيْر)

صفة المؤمن أنه فَعّال للخير ؛ والكافر مَنّاع للخير، يكبر عليه أن يتعاون الناس وأن يرحمهم و ينصحهم، فمرة جاء إنسان وقابلني، سألني عن دروس المسجد، وهو يحضر لدرجة دكتوراه في بلاد الغرب، و عنده موضوع فقال لي: ماذا يأتيك من هذه الدروس ؟ لماذا تفعل هذا كله ؟ فهو لم يفهم ولم يستوعب، فالإنسان الغربي لا يستوعب العمل الصالح فهو لا يتحرّك إلا بالمال، و مرةً عرض صديقٌ لي على مندوب شركة كلمة حق، فقال له: هذا الأمر لا يعنيني إطلاقاً، أنا تعنيني امرأة جميلة وسيارةٌ فارهة ومنزلٌ واسع فقط.

(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال)

كلمة:

(مَنّاع لِلْخَيْر)

كل إنسان يُسيء إلى من أحسن إليه فهو مَنّاع للخير، وما أكثر الأعمال الصالحة التي كانت في السلف الصالح، أما الآن فقد تضاءلت وتضاءلت إلى درجة أنك لا تجد إنساناً يفعل خيراً، يقال: - وهذه ليس آية ولا حديثاً إطلاقاً كما أنها ليست حكمة _: **" اتق شر من أحسنت إليه "** هذه كلمة يتذرّع بها الناس ليمتنعوا عن فعل الخير.

(مَنّاع لِلْخَيْر مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

فكل إنسان يعتدي على أموال الناس، أو على أعراض الناس، أو على قلوب الناس بالغَيْبَة والنميمة، أو ينظر إلى نسائهم، أو يأخذ أموالهم، فهو معتدٍ، فهذا الذي يرفع المِذياع إلى أعلى درجة أيام الامتحانات هو معتدٍ، وهذا الذي يطلق لأهوائه العنان دون أن يرعى حقاً لجار هو معتدٍ أيضاً، و هذا الذي يتأمّل

محاسن امرأة لا تحل له هو معتدٍ، و هذا الذي يدير حديثاً عذباً مع امرأةٍ أجنبية معتدٍ، و هذا الذي يحتال على الناس فيأخذ أموالهم ابتزازاً هو معتدٍ كذلك.

(مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

الأثيم:

الأثيم: المتلبّس بمعصية دائمة حتى صارت صفةً مشبهة له، و أثيم على وزن فعيل، فكل حركاته وسكناته إثم، فأينما جلس يبحث عن اللّذة المُحَرَّمة، و أينما حل يبحث عن معصيةٍ يعصي بها الله.

(مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

أي إن هذا الذي يرفض هذا الدين..

(حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13))

العُتُل:

هو الغليظ الجافي، والأكول الشروب، والشره المَنوع، الفظ في طبعه، اللئيم في نفسه، السّيّئ في معاملته، و هذا تعريف العُتُل.

(عُتُلٍّ)

الغليظ الجافي، فإذا قال له زوج أخته: أختك (تغلِبني)، قال له: طلقها، فهو غليظ جافٍ، وهو الأكول الشروب أيضاً، والشره المنوع، الفظ في طبعه، اللئيم في نفسه، السّيّئ معاملته.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

((العُتُل كل رغيد الجَوْف وثيق الخلق أكولٍ شروبٍ جموع للمال منوع له، شر الناس من يعيش فقيراً، ليموت غنياً))

يموت ويدع ثروةً طائلة لأولادٍ جُهّال، يقال لابنه: إلى أين أنت ذاهب ؟ قال: لأشرب الخمر على روح والدي، لقد جمع فأوعى ومنع فلما توفّي ورث هذا المال جهولٌ منحرفٌ شاذ، فأنفقه في المعاصي والآثام، وأندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، وأندم الناس من دخل بماله النار.

أيها الإخوة الكرام... هذه صفات أهل الدنيا، عتل: أي يأكل أطيب الطعام، ففي بعض البلاد النفطية تُجرى ولائم تكلِّف مئات الألوف، فيصنع جمل صغير محشي، فيأكل الضيف منه أوقية، أما الباقي فيرمى في القمامة، وهناك مئات ألوف الليرات والريالات يرمى في القمامة، فالعتل هو: الأكولٌ شروب، الفظٌ اللئيم، المنوع للخير، ثم يقول:

(عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ)

الزنيم:

هو الذي لا نَسَبَ له، فلا ينتمي إلى أمّته بل هو لصيقٌ بها فرغم أنه وُلد في بلاد المسلمين إلا أن فكره

غربي و عاداته أجنبية، و يرى أن الإسلام تخلّف، فهؤلاء يعيشون مع أولئك الذين يتبادلون الزوْجات ويرتكبون المحرّمات، فقد سمعت أن هناك وزير صحة بريطاني في الوزارة الجديدة، قال في مؤتمر صحفي: أنا شاذ جنسياً، وهو وزير صحة: فما هذا ؟ قال عليه السلام:

((من هوي الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً))

فهذا الزنيم لصيق ليس من هذه الأمة، ليس من تُراثها ولا من دينها، ولا يمت إلى أخلاقها و مروءتها بصلة، فهو زنيم، و عُرفَ الزنيم أيضاً بلؤمه، وخبثه، وكثرة شروره، والعوام تعّبر عن هذا الإنسان الشرير بقولهم: (ابن حرام) فهذا هو الزنيم، ثم يقول الله عزّ وجل:

(أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)

(سورة القلم)

فقد يكون غنياً، وقد يكون له أولاد، وله مكانة لكنه..

(حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(14))

فالمال لا يرفع صاحبه، و الله عزّ وجل أعطى المال لمن يحب و لمن لا يحب، فما دام قد أعطى المال لمن يحب ولمن لا يحب فالمال إذاً ليس مقياساً..

(أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)

أي أن الله عزّ وجل إذا أكرمه بالمال استعلى على عباد الله فعصى الله به، وأنفقه في المعصية.. و بالمناسبة أيها الإخوة كل الحظوظ التي يؤتيك الله إيّاها ليست نعماً و تأكّد من ذلك، كما أنها ليست نقماً فهي ابتلاء، فإذا أنفقت هذه الحظوظ في طاعة الله انقلبت إلى نعم، وإن أنفقتها في معصية الله انقلبت إلى نقم، فالمال ليس نعمةً، إنما هو نعمةٌ إذا أنفقته في طاعة الله، فسيدنا ابن عوف قالت عنه السيدة عائشة: " أخشى أن يدخل ابن عوفٍ الجنة حبواً **"، فلمّا بلغه هذا الكلام قال: "والله لأدخلنها خبباً، وما عليّ إذا كنت أنفق مائة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء".** فالمال إذا أنفقته في طاعة الله انقلب إلى نعمة، فطلاقة اللسان مثلاً إذا أنفقتها في ذكر الله وفي إقناع الناس بالخير، فهي نعمةٌ كبيرة، أما إذا كانت فصاحةً بالباطل فهذه نقمة، و الوسامة كذلك إذا كانت من أجل أن تجذب الناس إليك فهذه نعمة، أما إذا كانت من أجل أن توقع النساء في شباكك فهذه نقمة، فكل حظٍ من حظوظ الإنسان إن وظّفه في الحق كان نعمةً، وإن أنفقته في الباطل كان نقمةً، إذاً..

(أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15))

(سورة القلم)

قال: هذه غيبيّات، تخلّف، فكر مهزوز، غيبيّات لا تقدّم ولا تؤخّر، دعك من هذا، حدّثنا بالواقع، حدّثنا بالمال، بالبيوت، بالتجارات.

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هذا الذي كذّب بآيات الله وكان..

(حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15))

فمصيره هو:

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

أكرم شيء في الإنسان هو رأسه، وأجمل ما في رأسه وجهه، وأشرف مكان أنفه، وقيل: فلان عنده أَنَفة ٌ: أي عنده عزة، و فلان يَأْنَف أن يفعل هذا، و نقول: رغم أنفه، و أنفه راغمٌ في التراب، فالأنف أبرز شيء في الوجه وأشرف عضو، قال: هذا الأنف..

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

أي: سوف نذله، و نسمه ؛أي: بالوسم، فكأن هذا العبد له وسمة خاصة، فتحمّى أداة حديدية ويكوى بها وجهه، فهذا عبد قال الله فيه:

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

سوف يذل الإنسان حينما يستكبر على الحق، سيذله الله عزّ وجل ويضعه في أسفل سافلين، وهذا شيء دقيق جداً، وهو كائن في الدنيا قبل الآخرة على الذي يعادي أهل الحق فلما قال ربنا عزّ وجل مثلاً:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم)

فهل من المعقول أن يقول الله عزّ وجل من أجل امرأتين:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

أفمن أجل جندي تكلم كلمة تُستنفر خمس فرق، وسلاح الطيران، أيعقل هذا ؟ فمعنى الآية أيها الإخوة أن الإنسان إذا حدثته نفسه أن يقف في خندقٍ معادٍ للدين أو أن يطعن في الدين و بأنبياء الله الصالحين، أو أن يضعضع مركز الدين في المجتمع، فليعلم عندئذ من هو خصمه، إنّ خصمه الله ورسوله وصالح المؤمنين والملائكة، فأشقى الناس قاطبةً هو الذي يقف في خندقٍ معادٍ للدين، و هو الذي يريد أن يطفئ نور الله بفمه و يريد أن يمنع مساجد الله الذي أن يذكر فيها اسمه ويسعى في خرابها، فأي إنسان يقف في خندق معاد للدين فهذا أشقى الناس قاطبةً..

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

سوف نذله في الدنيا والآخرة و نمرّغ أنفه في الوحل، سوف يلقى عذاباً مهيناً، وهذا شيء ثابت، و أوضح دليل على ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام دعا إلى الله بإخلاصٍ شديد وتضحيةٍ بالغة هو وأصحابه فأين هم الآن ؟ كيف يذكر النبي في مجتمع يزيد حجمه عن مليار ومائتي مليون ؟ إنه يذكر بالتعظيم، فكلما ذكر النبي نقول: صلى الله عليه وسلم، سيدنا الصديق، سيدنا عمر، سيدنا عثمان، سيدنا بلال الحبشي، سيدنا زَيْد، وسيدنا زيد كان أسود اللون أفطس الأنف، و نقول سيدنا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ؛ أما هؤلاء الذين عارضوه وكفروا به، وائتمروا على قتله، وإخراجه، كأبي جهل، وأبي لهب، فقد لعنهم الله، فهم الآن في (مزبلة) التاريخ، فهذه أمثلة بين أيدينا، وكل من جاء بعد ذلك وقدم للإسلام شيئاً يذكر باحترام، فنقول: سيدنا صلاح الدين الأيوبي رد الكفرة، ومسيلمة الكذاب لعنه الله، فالذي يقف مع الدين يرفعه الله، والذي يقف مُعارضاً للدين يذله الله في الدنيا قبل الآخرة، و هناك إنسان ادّعى نبوة في الهند أو الباكستان، وكان هناك موجة كوليرا كبيرة جداً، فأراد أن يتخذ من هذا المرض أداة للتأكيد على أنه نبي، فقال: أنا لن أصاب بهذا المرض لأنني نبي، فمات بهذا المرض في المِرحاض..

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

فأشقى الناس قاطبةً هو الذي يقف في خندقٍ معادٍ للدين، فإيّاك، إياك أن تطعن في دين الله، إياك أن تطعن في كتاب الله، إياك أن تطعن في رسول الله، في أصحابه الكرام، إياك ثم إياك، لأنك إن فعلت هذا فالطرف الذي سيكون ضدك هو الله، ورسوله، وصالح المؤمنين والملائكة جميعاً.

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

وفي درسٍ آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 17-33
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-06-06

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة أصحاب الجنة

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الخامس من سورة القلم، ومع الآية الكريمة السابعة عشرة من هذه السورة، وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

أيها الإخوة الكرام... قبل أن نبدأ بشرح تفاصيل هذه القصّة لابدَّ لنا من الحديث عن محورها أو عن مغزاها، ومغزاها أو محورها يتّصل أشد الاتصال بحياة كل مسلم، لأنه ما من إنسانٍ إلا وساق الله له من الشدائد ما ساق، وهذه الشدائد واقعة و لا أحد يُنكرها، ولكن يوجد بونٌ شاسع بين فهم المؤمن وفهم الكافر لها، فالجاهل يراها تضييقاً من الله، أو إزعاجاً لهذا الإنسان، أما المؤمن فيراها محض رحمةٍ و لطفٍ و تربية من الله عز وجل، وهذه القصة _ كما ذكرت قبل قليل - لها مغزى أو محور،ومغزاها أو محورها يتّصل اتصالاً وثيقاً بحياة كل إنسان.

فبعد أن حدّثنا ربنا سبحانه وتعالى عن هؤلاء الذين كذّبوا رسول الله، واعتدّوا بمالهم ومكانتهم، ورأينا كيف سخروا من الحق وكذّبوه، يقول الله عزّ وجل:

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ(16))

فقد جاء بين يده هذه القصة قوله:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

معاني (بلوناهم):

1- بلوناهم: الأولى تعود على هؤلاء المكذِّبين، و معنى بلوناهم أي امتحنّاهم،ومعناها أيضاً: أصبناهم بالمصائب، فإما أن يكون البلاء امتحاناً وإما أن يكون عقاباً..

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ)

وقال بعض المفسرين: " البلاء لم يقع بعد ولكن الله إذا توعّد إنساناً فكأنه وقع". وسأضرب لكم مثلاً على ذلك: لو أنك تعلم علم اليقين أن هذه السيارة ليس فيها مِكْبَح، وأن راكبها (سائقها) ركبها وسيّرها

إلى طريقٍ هابطٍ وهذا الطريق الهابط ينتهي بمنعطفٍ حاد، وكان سائق هذه السيارة يبتسم ويضحك، وأنت تعلم علم اليقين أن مكبح السيارة معطّل، وأن الحادث حتمي، فتقول: لقد هلك صاحب هذه السيارة، و هو لم يهلك بعد، فهذا الكلام يعني أن المنحرفين والكفار والفاسدين والضالين و العصاة ينتظرهم عقابٌ أليم، وهذا العقاب الذي توعّده الله في الدنيا أو في الآخرة واقعٌ لا محالَ، وكأنه قد وقع، و يؤكِّد هذا المعنى قول الله عزّ وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: آية " 1 ")

لا تستعجلوه أي لم يأت بعدُ، وأتى: فعل ماضٍ..

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

وأنت أحياناً ترى مقدمة الأحداث فتحكم قطعاً بنتائجها، فتقريب النار من البارود يوقع انفجاراً لا محالة فكأنه قد انفجر ولو أنه لم ينفجر بعد، وإلقاء الماء في المنحدر يجعل الماء يسيل بشكل حتمي (وكأنه سال)، فهذا علمٌ بالقوانين، وإنّ أي إنسانٍ يكذِّب و يرفض الحق ويستكبر عليه ويكيد لأهل الإيمان ويستعلي بماله و مكانته وقوّته ويريد أن يطفئ نور الله عزّ وجل، فهو هالكٌ مع وقف التنفيذ ولابدّ من أن يأتي التنفيذ ولو بعد حين، فبإمكانك أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنه هالكٌ لا محالة، والمؤمن لشدة يقينه بكلام الله عزّ وجل يقول: هذا الإنسان المستقيم نرجو له التوفيق، وهذا المنحرف نخشى عليه من العقاب، فالسيدة خديجة رضي الله عنها حينما حدّثها النبي صلى الله عليه وسلم عن الوحي الذي جاءه قالت له:

((والله لا يخزيك الله أبداً، إنك تحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر))

فمن الذي علّم السيدة خديجة ذلك؟ إنها الفطرة.

وهذا الكلام أيها الإخوة مفيد لنا جميعاً، فلو أن شاباً تعرّف إلى الله، واستقام على أمره، وابتغى رضوانه، ورجا رحمته، وانضبط بالشرع، وحرر دخله، وضبط جوارحه فلك أن تقول له وأنت واثق: والله لا يخزيك الله أبداً، فالتوفيق حليفك، و الله سيرعاك ويؤيدك ويحفظك، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

هناك معيّةٌ عامّة ومعيّة خاصّة..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية " 4 ")

فالمعيّةُ عامّة (معية العلم) أما المعيةُ الخاصّة التي جاءت في قوله تعالى:

(أنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ)

فهذه للمؤمنين، فهو معهم مؤيداً وناصراً، وحافظاً وموفِّقاً، فلك أن تقول للمستقيم: لا تخش شيئاً فالله معك، أما المُكذِّب بالحق ؛ الذي يأكل المال الحرام و يبني ماله على إفقار الناس ويبني حرفته على إيذاء الناس و يعتدي على أعراضهم و أموالهم و يُضَلّلهم ويبني ثروةً على إفساد أخلاقهم ؛ فينشئ ملهىً أو يتاجر بأفلام لا تُرضي الله عزّ وجل فبإمكانك أن تتوقع له الدمار، وأنت لا تعلم الغيب ولكنها قوانين الله عزّ وجل، إذاً يجب أن تتلقّى وعد الله وكأنه وَقَع..

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتّخِذُونِي وَأُمّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ)

(سورة المائدة: آية " 116 ")

هل جرى هذا الحوار ؟ إنه لم يجر بعد، بل سيجري يوم القيامة، لكن لماذا عبر الله عزّ وجل بالماضي، فقال:

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

طبعاً عُبِّر عن هذا الحدث بالفعل الماضي لأنه محقق الوقوع، ولماذا قال الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

فمن منكم رأى ماذا فعل الله بأصحاب الفيل ؟ فمعنى ذلك أنه ينبغي أن تتلقى إخبار الله لك وكأنه شيءٌ تشاهده مشاهدة يقينية، وقد قال بعض العلماء:

(إِنّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنّهَا مُصْبِحِينَ)

أي: إن كفّار مكة و زعماءها و أغنياءها الذين عَتَوْا عن أمر ربهم، ورفضوا الحق وكذّبوا النبي واستعلوا، فهؤلاء سيقع بهم الهلاك لا محالة. لذلك قال بعض المفسرين:

(إِنّا بَلَوْنَاهُمْ)

أي سنبلوهم مع وقف التنفيذ، فأحياناً قد يبني إنسان مجده على المال الحرام، فيتيه بماله و بيته وما عنده، ولكن الله سيدمره، والأمر واقع لا محالة فكأنه دمّره و أهلكه..

(إِنّا بَلَوْنَاهُمْ)

فالحديث هنا هن أولئك الكفّار الذين يمثِّلهم الوليد بن المغيرة والذي ذكرت قصّته في الدرس الماضي..

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(17))

وقال بعض المفسريّن: لقد أصابت الشدة أهل مكة في بعض السنوات، وكأن هذه الشدّة تأديبٌ من الله عزّ وجل،أو عقابٌ لهم على كفرهم و تآمرهم على نبيهم صلى الله عليه وسلم.

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ)

أي امتحنّاهم، أو أصبناهم بالمصيبة..

(كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

2- وهناك معنى آخر يقول: إن أي شيءٍ بين يديك تتمتع به _ كالصحة مثلاً_هو ليس نعمةً ولا نقمةً، بل هو امتحان، فإذا أنفقت هذه الصحة في طاعة الله انقلبت إلى نعمة، وإذا أنفقتها في معصية الله انقلبت إلى نقمة، فالمالُ الوفير مثلاً هل هو نعمةٌ أم نقمةٌ ؟ ليس هذا ولا ذاك، بل هو مادة امتحان، فإن أنفقت هذا المال في طاعة الله كان سُلّماً ترقى به، وإن أنفقته في معصية الله كان دركاتٍ تهوي بها، والزوجة ليست نعمة ولا نقمة، إنها امتحان، فإن أخذت بيدها إلى الله ورسوله والدار الآخرة كانت نعمةً من أجَلّ النعم، أما إذا أفسدتها وأفسدت بها الآخرين كانت نقمةً من أعظم النقم، والأولاد كذلك هل هم نعمةٌ أم نقمة ؟ إذا نَشّأتَهُم على طاعة الله كانوا لك نعمةً وكانوا لك صدقةً جارية، وإن تركتهم وشأنهم فلم تؤدبهم ولم تعلمهم كانوا نقمةً عليك، و كل أعمالهم الخسيسة ستكون مكتوبة في صحيفة والدهم الذي لم يعتن بهم، فمعنى ذلك أن كل حظوظ الدنيا ليست نعماً ولا نقماً إنما هي ابتلاء، فإذا أُنفقت في طاعة الله كانت نِعَمَاً، وإن لم تنفق في طاعة الله كانت نِقَمَاً ويؤكِّد ذلك قول الله عزّ وجل:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا)

(سورة الفجر)

كلا: أداة ردعٍ ونفيٍّ ؛ أي: كلا ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً، فعطائي ابتلاء وحرماني دواء، و من السذاجة وضيق الأفق والغباء أن يتوهّم الإنسان أن المال الذي بين يديه نعمةٌ عُظمى، إنما هو نعمةٌ إذا أنفقته في طاعة الله، أما إذا أنفقته على المعاصي والآثام كان نقمةً وأية نقمة، و قس عليه الزوجة والأولاد والصحة وطلاقة اللسان، والقدرات العقلية، والاختصاص والمهن الراقية، فكل هذه الحظوظ ليست نعماً وليست نقماً، إنما هي سُلّمٌ ترقى به إن أنفقتها في طاعة الله، أو دركاتٌ تهوي بها إن أنفقتها في معصية الله..

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ)

أي: سنبتليهم و نعاقبهم، وكأننا عاقبناهم...

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ)

أي: جعلنا هذا المال الذي بين أيديهم مادة امتحان لهم، ألم يقل الله عزّ وجل:

(أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)

(سورة القلم)

3- إنّا بلوناهم بالمال والبنين، و هذا المعنى الثالث..

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

قصة أصحاب الجنة:

كان أصحاب الجنة - فيما تروي التفاسير- في اليمن بالقرب من صنعاء، وقد كان هناك رجلٌ صالح وله بستانٌ فيه من كل الثمرات، وكان هذا الرجل الصالح يؤدّي حق الله للفقراء والمساكين عند حصاد الثِمار وقِطافها، فتوفِّي هذا الرجل وخلفه عدّة أولاد.

وقبل أن أتابع القصة أود أن أُصَغِّرَها لكم في قصّةٍ قصيرة سمعتها: كان هناك شجرة ليمون في بيتٌ من بيوت الشام القديمة، تحمِلُ من الثمرات ما لا يُعَدّ ولا يُحصى، و يوجد في هذا البيت امرأةٌ صالحة، فكلّما طُرق باب هذا البيت وطُلِب منهم ثمرة من هذه الثمار قدمتها، وكأن هذه الشجرة وقفٌ لأهل الحيّ، فماتت هذه المرأة الصالحة وجاءت من بعدها زوجة ابنها الشابّة، فلمّا طُرِق الباب وطلب الطارق ثمرةً من هذه الثمار طردته ومنعته، وبعد حين يَبِسَت هذه الشجرة وماتت. فهذا تلخيص بسيط جداً لهذه القصة " إن لله عباداً أعطاهم من النعم الشيء الكثير يقرُّهم عليها ما بذلوها فإن منعوها حوّلها إلى غيرهم ". فإذا كان بيدك شيء ثمين ينفع الناس فإياك ثم إياك أن تمتنع عن نفعهم به، لأنه إن فعلت ذلك أُخِذَ منه وحُوِّل إلى غيرك.. نعود إلى القصة:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

لقد كان بستاناً جميلاً فيه من كل الثمرات، و صاحبه رجلٌ صالح يؤدي حق الله ويطعم الفقراء والمساكين، وكان من عادة هؤلاء الفقراء والمساكين أن يأتوا إلى هذا البستان يوم الحصاد أو يوم قطف الثمار فيأخذون حقّهم ونصيبهم طيبةً به نفوسهم، فتوفِّي هذا الرجل وترك أولاداً، وكان هؤلاء الأولاد من نوع آخر كما هي العادة..

(إِذْ أَقْسَمُوا)

فاجتمعوا ليلاً وتدارسوا الأمر، ورأوا أن لا يعطوا أحداً من المساكين، بل عليهم أن يقطفوا هذه الثمار دون أن يشعر بهم أحد، وأن يبيعوها و يقبضوا أثمانها دون أن يعطوا حقّ الله عزّ وجل..

(إِذْ أَقْسَمُوا)

أي: إن العمل كان مؤكّداً، فالإنسان أحياناً قد يفعل شيئاً عن غير قصد أو تصميم، أما هؤلاء فقد اجتمعوا وتدارسوا، وتناقشوا وتحاوروا، وقرّروا وأقسموا..

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

أي: أن يذهبوا بعد منتصف الليل قبل أن يأتي هؤلاء الفقراء، ليقطفوا الثمار، ويضعوها في الصناديق- إن صحّ التعبير – ثم يسوّقوها دون أن يعطوا هؤلاء الفقراء شيئاً..

(وَلَا يَسْتَثْنُونَ)

(سورة القلم)

معاني (ولا يستثنون):

1- قال بعضهم: " لا يستثنون من هذه الثمار الفقراء، فكلها للبيع ". لقد قرأت مرّةً أن زارعي البرتقال في أمريكا أرادوا إتلافه للحفاظ على الأسعار المرتفعة، فقد خافوا من هبوط الأسعار فأرادوا إتلاف هذا المحصول، فتسلل الزنوج الفقراء تحت الأسلاك الشائكة ليأكلوا هذا البرتقال الطيّب الذي أراد أصحابه إتلافه، و في العام القادم فعلوا الشيء نفسه ولكن مع تسميم هذا المحصول لئلا ينتفع منه إنسان، فهذا هو الكافر.. شحيح دائماً..

(مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ)

وفي أستراليا أيضاً قبل عدّة أعوامٍ تمّ إعدام عشرين مليون رأس غنم بالرصاص، وحُفرت الحفر ودُفِن هذا العدد الكبير للحفاظ على أسعارها المرتفعة.. بينما هناك شعوبٌ قد أهلكتها المجاعات، ولا يُستبعد أن يكون أصحاب الأغنام في أستراليا هم أنفسهم أصحاب البقر الذي جنّ في إنكلترا، لأن العقاب كان شديداً، فقد توجب إحراق ثلاثة عشر مليون بقرة قيمتها ثلاثة وثلاثون مليار جنية إسترليني، فهذا هو الكافر..

(مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ)

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18))

2- أي:لا يعطون أحداً، هذا معنى.

3- المعنى الثالث:

قد تقول مثلاً: أنا سأذهب إلى الجامعة غداً، فإن قلت: إن شاء الله تعالى، فإنك في هذه الحالة تكون قد استثنيت، وإنّ أيّ يمينٍ استُثني معه لا يُحنث فيه إطلاقاً إذا فُعل، فإذا قلت: لن أفعل هذا إن شاء الله فقد انتهى الأمر، لأن هذا يمين لا حِنْثَ فيه بسبب الاستثناء، والمؤمن الصادق لا يتكلّم كلمة إلا أن يقول:

إن شاء الله تعالى، وقد فهم بعض الناس هذا الاستثناء فهماً شيطانياً - والعياذ بالله -، فإن أراد أن يدفع يقول: سأدفع لك غداً، أما إن لم يرد أن يدفع يقول: أدفع غداً إن شاء الله، فهو يستثني إن لم يرد الدفع، لكن المؤمن وهو في أعلى درجات العَزْم والتصميم على أن يفعل يقول: إن شاء الله..

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الكهف)

فهناك إذاً (إن شاء الله) الإيمانية، و(إن شاء الله) النفاقية، فـ(إن شاء الله) الإيمانية مقترنة مع العزم على الفعل...

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18))

وماذا يعني أن يقول الإنسان: سأفعل ذلك غداً ثم لا يستثني ؟ قد يظن البعض أن القضية سهلة وهي ليست كذلك، لأن الذي قال: سأفعل ذلك غداً دون أن يستثني،معنى قوله أنه متأكدٌ من أنه سيعيش غداً، و متأكدٌ من أنه سيتمتع غداً بالصحة، و متأكدٌ من أن ماله سيكون بين يديه غداً، وهو لا يملك كل ذلك، لذلك قالوا: " من عَدَّ غداً من أجَله فقد أساء صُحْبَة الموت ". أي إن كل إنسان قال: سأفعل هذا غداً دون أن يكون قوله مقترناً بتصميمٍ وعزمٍ، ومن دون أن يستثني فهو مشرك لأنه يعتقد أنه مستقلٌ بإرادته وفعله عن الله، فأنت حينما تستثني تكون عبداً صالحاً وتكون مؤمناً وعالماً، فأصحاب الجنة هنا لا يستثنون جزءاً للفقراء من الثمار التي سيقطفونها، ولا يستثنون بقولهم فيقولون: إن شاء الله...

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18))

((أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، إن سلّمت لي في ما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي في ما أريد أتعبتك في ما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(سورة الزخرف)

أهكذا اجتمعتم و قرّرتم و تعاهدتم و أقسمتم و صمّمتم ؟.. إذاً:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

الشيء المألوف الآن أن موجة صقيع واحدة لبضع دقائق تتلف محاصيل بمئات الملايين، وهذا شيءٌ يعلمه كل من يعمل بالزراعة، لقد جاء صقيعٌ بالغوطة فأتلف كل محصول المشمش، فكان هذا طائفٌ من ربك، فكل إنسان يفكر أن يضمّن بمائتي ألف أوبخمسمائة ألف أو بمليون،جاءه طائفٌ من ربك، وكل إنسان يؤدي زكاة الزروع – و زكاة الزروع للأرض المسقية نصف العشر، و للأرض البعل العشر دون أن تُحسَب النفقات -، فمن أدّى زكاة مزروعاته حفظ الله له هذه المزروعات، وهذا من آيات الله الدالة على عظمته، وهناك أدلّةٌ كثيرة جداً على هذا، فقد يزرع مزارعان أرضين متجاورتين

يسقيهما نهرٌ واحد، والذي زرع هذه وتلك مزارعٌ واحد، ونوع البذار واحد، ونوع السماد واحد، والأمطار التي هطلت واحدة، ثم تجد أن هذا الحقل قد أعطى أضعافاً مضاعفة، وهذا الحقل أعطى شيئاً نزراً يسيراً، فما السبب ؟ لأن هذا نوى أن يؤدي زكاة مزروعاته، وهذا أراد أن يمنع حق المسكين.

سمعت قصةً قديمةً جداً، تقول: قبل خمسين عام جاءت موجة جرادٍ إلى هذه البلدة فلم تُبقِ شيئاً، أكلت الأخضر واليابس، وأهلكت كل المزارع والبساتين، إلا أن هناك بستاناً بقي يتمتّع بأعلى درجات النُضْرَة، فسألوا صاحبه: ما السر في أن الجراد لا يأتي إلى بستانك ؟ فقال: عندي دواء، قالوا: و ما هذا الدواء ؟ أتمنع الناس من هذا الدواء ؟ قال: تأدية الزكاة ! هذا هو الدواء، ويُقسِم أحدهم بالله أنه جاء بكيس جراد من الحقول المجاورة وألقاها في هذا البستان، فطارت كلها بعيداً، وفي أقل من دقيقة لم تبق في حقله جرادةٌ واحدة، وهذا لأنه يؤدي زكاة ماله.. سألني أحدهم مرّة: هل على العسل زكاة ؟ قلت له: نعم،قال: فإذا لم ندفع ؟ قلت له: القُرّاض جاهز، و هذه حشرة تأكل النحل وتتلف الخلايا، وقد جاءت موجة قُرّاض منذ أعوام فأتلفت معظم خلايا النحل، فإما أن تدفع الزكاة وإما العلاج جاهز، فهؤلاء..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

لك أن تفهم (الطائف) بأنه الصقيع، ولك أن تفهم -كما تَروي بعض التفاسير والله أعلم- أن ملائكةً اقتلعت هذه الأشجار كلّها ووضعتها في الطائف، وما يعنينا نحن أن هذا الثمر تَلِفْ بطريقةٍ أو بأخرى..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

وهذا الطائف موجود دائماً في كل عصر، فموجة الصقيع طائف، والفيضانات التي تُتلف المحاصيل طائف، و الرياحُ العاتية التي تقتلع البيوت البلاستيكية طائف.

فمرّة يكون الطائف فأر الحقل، و مرّة يكون الذبابة البيضاء، و عدد الحشرات التي تقضي على المزروعات لا تُعَدّ ولا تحصى، و من الحشرات، إلى الآفات، إلى الفيضانات، إلى الرياحِ العاتية، إلى الصواعق، إلى الصقيع، و هذا كلّه من الطائف..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

وهذا للمزارعين، أما للتجّار فتوجد الحرائق، فقد يحترق مستودع فيخسر صاحبه عشرين مليوناً، وهذا طائف أيضاً، فالحريق طائف، والمصادرة طائف، وتلف البضاعة طائف، وأن تشتري بضاعة فتأتيك أخرى غير التي اشتريتها فتخسر خسارة كبيرة طائف، أي: إن عدد الأدوية التي يعاقب بها الله هؤلاء الذين منعوا حقّ الفقير لا تعدُّ ولا تُحصى..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

لقد كانوا يحلمون بقطف الثمار، وجني المحاصيل، وبيع هذه الثمار، ووضع أثمانها في جيوبهم، ثم يرفلون بأثواب العز والغنى، فاجتمعوا وقرّروا، وأقسموا واتخذوا القرار، وتعاهدوا وهم يحلمون بالثروة طائلة..

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)↓(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ

كالصريم ؛ أي:كأنها مقطوعة، فإما أنها أرضٌ خلاء لا شيء فيها وقد اقتُلِعَت أشجارها، وإما أن هذه الثمار احترقت من الصقيع فأصبحت وكأنها قد قُطِعَت ثمارها..

(فَأَصْبَحَتْ كالصَّرِيمِ)

استيقظوا مبكِّرين بحسب ما اتفقوا..

(فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22))

(سورة القلم)

هيا قوموا إلى جني المحاصيل، وبيع الثمار، ومنع حق الفقير..

(أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23))

لم يشاؤوا أن يُشعِروا أحداً أنهم سيقطفون الثمار اليوم، لأن الفقراء من عادتهم أن يأتوا إلى البستان ليأخذوا حقّهم، فأرادوا أن يقطفوا الثمار في وقتٍ مبكرٍ جداً..

(فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24))

و نقف هنا قليلاً لندخل موضوعاً في العقيدة مهمٌ جداً، وهو تسيير الإنسان وتخييره...

هل الإنسان مسيّر أم مخيّر ؟؟

حينما خلقك الله عزّ وجل من أبٍ وأمٍ في بلدٍ معين، وزمنٍ معين، وبيئةٍ معينة، وإمكاناتٍ معينة، وخصائص وقدرات، وشكل وطول ولون.. إلخ، فهذه القدرات التي أودعها الله فيك نوعٌ من التسيير و هي قطعاً لصالحك، فإذا بلغ الإنسان رشده كلّفه الله ؛ فأصبح يأمره وينهاه، يأمره مثلاً أن يصلي ويصوم و يحج، و أن يضبط جوارحه و يغضّ بصره عن محارم الله، وأن يصون سمعه عن الذي لا يرضي الله، ثم أمره أن يقيم شرع الله في بيته وفي عمله.. إلخ، فالإنسان مكلّف و مخير، وهو مكلّفٌ ومخيرٌ فيما كُلّف، فإما أن يستقيم وإما أن ينحرف، و إما أن يستجيب وإما أن يتبع الهوى، و إما أن يُحسِن وإما أن يُسيء، و إما أن يصدُق وإما أن يكذب، وإما أن ينصف وإما أن يجحد، و الإنسان يختار شيئاً من هذين الشيئين، فإذا اختار الانحراف يتركه الله جلّ جلاله إلى أن يموت فيذهب إلى جهنّم، فماذا يفعل به رب العالمين هنا ؟ إنه يسيّره إلى دفع ثمن اختياره تربيةً وتعليماً.

ولو أن إنساناً مخيَّراً خُيّر في ما كُلِّف فاختار الاستقامة فإن الله يسيّره بعد اختياره ذلك توفيقاً، أي: يوفقه ويحفظه و يرعاه ويصونه و يؤيده، و لو أنه اختار المعصية لساق له من الشدائد ما يردعه، وذلك

حاصل عليه ولو كان ذكياً لأن الذكاء لا ينفع مع الله أبداً، " يؤتى الحذر من مأمنه ". " لا ينفع ذا الجد منك الجد ". " إذا أراد ربُّك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لُبَّه ". فالإنسان مخير في ما كُلِّف، و أمام الإنسان الخير والشر، الطاعة والمعصية، الصدق والكذب، الإحسان و الإساءة، الاستقامة و الانحراف، الإنصاف و الجحود، فإذا اختار شيئاً من هذين الشيئين اقتضت عند ذلك حكمة الله ورحمته وتربيته لنا أن يكافئ المحسن، ويعاقب المسيء، فيكون قد سيّره إلى دفع ثمن اختياره، فالمستقيم يُسَيَّر ليكافئه الله، ويلهمه الصواب، فيلهمه هذه الصفقة فيربحها، و يلهمه هذا العمل فيسعد به، أما المنحرف فيُسَيَّر لدفع ثمن اختياره السّيِّئ، فالإنسان إذا كُلِّف واختار الشيء السيِّئ يسيره الله لتربيته، وهذا الذي يحصل..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24))

تصميم واضح..

(وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26))

(سورة القلم)

الحَرْد: هو المَنْع، أي اعتقدوا أنهم قادرون على منع حقّ المساكين والفقراء..

(وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا)

لقد صُعِقوا، أين الثمار ؟ و أين الأشجار ؟ هذا ليس بستانهم لقد سلكوا له طريقاً خطأً..

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ)

ليس هذا هو البستان، لقد أخطأنا في الطريق، بستاننا مُثْقَل بالثمار والمحاصيل طيّبة، والأسعار فيه غالية، والثروة مقبلة..

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ)

ثم اكتشفوا أن هذا هو بستانهم، وأن الطريق هيَ هي، وأن المحاصيل قد تلفت، وأن الثمار قد أُحرِقَت، أو أن الأشجار قد اقتُلِعَت - وهذا على رأي بعض المفسرين-..

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27))

فهذا هو التأديب الإلهي، و هذه هي التربية الإلهية، و هذا هو التسيير الإلهي لدفع ثمن الاختيار، فلو أن الله سبحانه وتعالى أخَّر الثواب والعقاب إلى يوم القيامة لهلك معظم الناس، ولكن رحمة الله جلّ جلاله اقتضت أن يُتابَع الإنسان، فإن اختار اختياراً سيئاً أدّبه في الدنيا، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم: آية " 41 ")

أليس من الممكن أن يَظْهَر الفساد دون أن يذيق الله الناس بعض ما كسبوا ؟ أليس من الممكن أن تكون الإباحية على أشدِّها في العالم الغربي دون أن يظهر مرض الإيدز ؟ هذا ممكن، فلو أن الله لم يخلق هذا الفيروس في الأصل، لكانت الإباحية على قدمٍ وساق، فيغرق الناس في ملذّاتهم إلى أن يأتيهم الأجل إلى جهنّم وبئس المصير، لكن تربية الله تقتضي خلاف ذلك، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

لماذا يذيقهم بعض الذي عملوا ؟

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

تصوّر لو أن صاحب مؤسسة أعلن عن حاجته إلى موظف، وجاء موظّف وبيّن له أن هناك عدة أشهر للتدريب، فإما أن نقبلك وإما أن نرفضك، و كلّما أخطأ هذا الموظّف المدرَّب سجّل عليه المدير العام خطأه، فلما تراكمت أخطاؤه فصله واستغنى عن خدماته، فهذا أسلوب من الممكن أن يتبعه المدير.

أما الأسلوب الآخر فهو: أن يحاسبه كلّما أخطأ و يبيّن له الصواب، فإذا صار بعد حين موظّفاً متفوقاً أبقاه عنده، فأيهما أرحم ؟ وأيهما أحْكَم ؟ وأيهما أكمل؟ أن تحصي على الناس أخطاءهم ثم تهلكهم، أم أن تربيهم يوماً بيوم وساعةً بساعة ؟ و هذا ما يفعله الله عزّ وجل.. **" إذا أحَبّ الله عبده عجّل له بالعقاب ".. " إذا أحَب الله عبده ساق له بعض الشدائد".. "إذا أحبّ الله عبده حاسبه حساباً عسيراً "** أي: في الدنيا كي يرقى ويستقيم، و يبدو أن الله يحبّ أصحاب الجنة هؤلاء، فأتلف مزروعاتهم عندما غفلوا عن حق الفقير ليحذرهم، وهناك آلاف القصص حول هذا الموضوع.

فقد حدّثني صديق أنه حسب في رمضان ما عنده من مال، فكانت زكاة ماله إحدى عشر ألفاً وخمسمائة وستين ليرة، فدخل في خصامٍ مع زوجته، فقالت له: لا تدفع زكاة هذه السنة لكي تتمكن من دهن البيت، و ضغطت عليه إلى أن استجاب لها وألغى دفع الزكاة، قال: أُصيبت مركبتي بحادث فأخذتها للتصليح، فكانت مجموع الفاتورة الكاملة إحدى عشر ألف وستمائة وستين ليرة، فهذه هي التربية الإلهية،فكل إنسان يمتنع عن تطبيق أوامر الشريعة -كأداء الزكاة - يؤدّبه الله بالإتلاف، فأحياناً يتلف له بقدر الزكاة، و أحياناً يتلف ضعف الزكاة، وأحياناً أربعة أضعاف، وهذا بحسب الحكمة، و هذه قصّة متكررة لكنها نموذجية، فهي نموذج لإنسان ضنّ بماله فلم يزكِّ و آثر المال على تأدية حقّ الله فيه.

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ)

أي أقربهم إلى الله..

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

(سورة البقرة: آية " 143 ")

وسطاً ؛ أي: وسطاء بيني وبين عبادي، فأقرب هؤلاء الإخوة إلى الله أوسطهم..

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

معنى ذلك أنه عارضهم حينما اجتمعوا، وقرروا، واتفقوا، فلماذا أتْلفَ الله حصّته معهم ؟ لأنه في النهاية سايرهم، لقد عارضهم في بادئ الأمر فضغطوا عليه فاستجاب لهم فشمله عقاب الله عزّ وجل..

(أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ)

إذاً لا يكفي أن تقول ثم ترضخ، ولكن يجب عليك أن تقول و تفعل، لا أن تقول وترضى، فأحياناً يقول أحدهم: شريكي لم يدفع الزكاة وقد أقنعته كثيراً ولم يرض، فأقول له: لابدّ أن يصيبك ما يصيب صاحبك إن لم تُدفع الزكاة، فإذا كنت صادقاً فقل: لابدّ من دفع الزكاة، أنا سأدفع زكاة نصيبي و أنت لك الاختيار، أما الاعتراض اللطيف الذي يتلاشى مع الضغط شديد فهو غير مجدٍ.

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)

أي: هلّا سَبّحْتُم الله و نزّهتموه عن الشرك، لقد ظننتم أنكم قادرون على استيفاء ثمن محاصيلكم وثماركم ووضعها في جيوبكم من غير أن يكون لله عزّ وجل علاقة في ذلك، أنتم بفعلتكم هذه قد أشركتم، فلم تنزّهوا الله عزّ وجل عن الشريك، وهو الذي بيده كل شيء، إذاً:

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)

أي: لو نزّهتم الله عن الشريك ولم تشركوا أنفسكم معه في علم الغيب والمستقبل، لما حدث لكم ما حدث..

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29))

اعترفوا بذنبهم، وهذه نعمةٌ كُبرى، فالاعتراف بالخطأ والاسترجاع ومحاسبة النفس والعودة إلى الحق نعمةٌ كبرى و فضيلة من الفضائل..

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30))

أخذوا يتلاومون قائلين: الحق عليك، لا الحق عليك، أنت لم تصر عليّ، وأنت كذلك اتخذت موقفاً قاسياً.. فبدؤوا يتراشقون التُهَمْ..

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31))

طغينا، تجاوزنا الحد المعقول..

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31))

أيها الإخوة... مرّة ثانية.. إذا جاءتك مصيبة وعرفت سرّها وعُدّتَ إلى الله فهذه نعمةٌ كبرى قد منّ الله بها عليك..

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ)

((من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر))

(عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا)

سَمِعَتْ أم سلمة رضي الله عنها من رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه ينبغي على المؤمن إذا أصيب إنسان بمصيبة أن يدعو قائلاً:

((اللهمّ أؤجرني في مصيبتي وأبدلني خيراً منها))

فتوفي زوجها أبو سلمة، وكانت لا تعلم في الرجال من هو أفضل منه ؛ رجولةً، و مروءةً، وكرماً، وشهامةً، وطاعةً، وتفوقاً، وعلماً، و حين بدأت تدعو كما علّمها النبي قالت: هذا غير معقول ليس هناك أفضل من أبي سلمة، ثم فوجئت أن رسول الله قد خطبها لنفسه، لذلك:

(عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا)

أي إذا جاءتك مصيبة -لا سمح الله - وأتلفت المال، فاستفدت من هذه العقوبة، فأنت الرابح الأكبر لأن المال يُعوّض (ما ضاعت عَبرةٌ كانت لصاحبها عِبْرَة)، فلو ذهب نصف مالك وحملك هذا على طاعة الله فأنت الرابح الأكبر، و لو فقدت أثمن شيءٍ تملكه وحملك هذا الفقد على طاعة الله فأنت الرابح الأكبر، فلو فقدت وظيفتك العالية ومِلْتَ إلى الله وطاعته وطلب العلم فأنت الرابح الأكبر، و أي سببٍ يضيع منك إذا كان سبب هداك إلى الله أو سبب معرفتك بالله أنت الرابح الأكبر، فالمحاصيل تلفت لكنهم عادوا إلى الله و طاعته. فأنا أعرف رجلاً كان الدّين خارج حساباته، وكان يعيش لدنياه، فاتهم بتهمة وهو بريء منها، فسيقت له بذلك شدة قاسية جداً، فحملته هذه الشدة على التوبة وأداء الصلوات وطاعة الله، فهل هو رابحٌ أم خاسر ؟ إنه الرابح الأكبر..

(عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)

تَلَفُ هذه المحاصيل جعلهم يرغبون إلى الله ويعترفون أنهم طَغَوا وبَغَوا و ظلموا أنفسهم..

(إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)

كل هذه القصة مطويةٌ بكلمتين هي حكمتها، ومحورها، ومغزاها، وهما:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم: آية " 33 ")

أي: يا عبادي كل أنواع العذاب التي أسوقه لكم في الدنيا مِن همٍّ و خوف و نقصٌ في الأموال و الأنفس و الثمرات، و موت الأقارب، و الأمراض بشتّى أنواعها حتى العُضال منها كل هذه الشدائد التي أسوقها لعبادي إنما أصيبهم بها كي أُقَرِّبَهُم، كي أنقلهم إلى الهدى والطاعة و التوبة والإقبال على الله و الرغبة فيما عند الله..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

فهناك خياران ؛ إما عذابٌ أكبر يوم القيامة في جهنم، أو عذابٌ أصغر في الدنيا، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

إن هذه القصة تصوّرُ كل أنواع المصائب التي يسوقها الله للناس على اختلافها في الدنيا من أجل أن يقولوا:

(إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)

من أجل أن يقولوا:

(إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة القلم)

من أجل أن يقولوا:

(يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ)

(سورة القلم)

فالإنسان يجب أن يعلم علم اليقين أنه إذا كان في انحراف و تقصير وعدوان و أكل مال حرام، فهناك علاج و تأديب من الله ينتظره، وأن الله لن يدعه هكذا لأنه يحبّه، وقد قال الله عزّ وجل:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

فهذه القصّة مفتاحها و مغزاها وكلمة سرّها.. إن صحّ التعبير..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

فالشرّ للشر لا وجود له في موازين الله، بل هو يتناقض مع وجود الله، فإما أن تؤمن بوجود الله، وإما أن تؤمن بالشر للشر، بل الشرّ للخير، وقد يبدو لك الشر شراً وهو ليس شراً في الأصل..

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران)

أعرف رجلاً متعلقاً بابنته الجميلة تعلقاً لا حدود له، وقد كان متفلّتاً، فأُصيبت هذه الفتاة بمرضٍ خبيث، فجعل الأب والأم ينفقان كل ما يملكان لعلاجها، حتى إنهما اضطرا لبيع بيتهما، ثم خطر في بالهما خاطر، فقالا: ربما شفى الله ابنتنا لو أننا تُبنا إليه، فتابا إلى الله، والتزما أمره ونهيه وبعد حين شُفيت من مرضها، كان هذا المرض المخيف بالنسبة لهما كأنه ضيف أتى فدفعهما إلى طاعة الله ثم انسحب..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

فيجب أن تعلم علماً يقينياً أن العذاب إنما هو عقوبة عن ذنب مضى، أما الآن ما يحصل الآن فهو أننا نرى آلاف الحوادث أمامنا ؛ فهناك إنسان يصاب بمرض عُضال،وإنسان يفتقر فجأةً،وإنسان يُعذّب،

ونحن لا نعلم إلا الفصل الأخير، أما الفصول السابقة فلا نعرفها.. لكن يجب أن نعلم أنه ما من نتيجةٍ إلا وهي متطابقة مع المقدمات تطابقاً رائعاً، لكننا لا نعلم كل شيء، فيجب أن نستسلم..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

قس عليه كل شيء، كل أنواع الشدائد ؛ المادية، والمعنوية..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(157))

(سورة البقرة)

لذلك ورد في الحديث القدسي: **((وعزّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُّ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها ؛ سُقْمَاً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذَرْ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))**

إخواننا الكرام... مِفْتَاح هذه القصّة في كلمة:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

أي إن كل أنواع العذاب التي أسواقها لعبادي من هذا النوع، وعلى هذه الشاكلة، ثم قال:

(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

(سورة القلم)

فهل من الممكن أن يوافق أب على قطع يد ابنه ؟ طبعاً لا، لكن إذا كان الولد يعاني من مرض الغرغرينة فليس أمامه إلا أن يوافق على ذلك، فقد يأتي العذاب للإنسان في اليوم الأول من هذه الناحية، و في اليوم الثاني من ناحية أخرى، وهكذا.. و الإنسان العادي إذا أيقن أن هناك خطراً متفاقماً يحيق به يسارع إلى دفعه، و ربنا عزّ وجل يسوق الشدائد، لئلا يذوق صاحبها نار جهنم.

فملخص الآية أو القصة:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

في الدنيا لأنه:

(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

(سورة القلم)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 34-43
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-06-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أسس المنطق السليم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس السادس من سورة القلم، ومع الآية الرابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبّهِمْ جَنّاتِ النّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41))

(سورة القلم)

محور الآيات:

أيها الإخوة الكرام... إن المحور الذي تدور حوله هذه الآيات هو أن الله سبحانه وتعالى ينفي أن تكون معاملة المؤمن كمعاملة غير المؤمن، فهو سبحانه لا يعامل المسلم كالمجرم، ولا المستقيم كالمنحرف، ولا الصادق كالكاذب، ولا الأمين كالخائن.

فإما أن تؤمن أن لهذا الكون إلهاً قيُّوماً عادلاً، وإما أن تؤمن بالعبثية، والعبثية تتناقض مع وجود الله، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

ولأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

ما الذي يحمل الناس على معصية الله ؟

إن الذي يحملهم على معصيته هو توهُمهم أن العاصي سيكسب شيئاً من معصيته، وأن المؤمن باستقامته قد حُرِمَ من مباهج الدنيا، و هذا الوهم الخطير هو الذي يدفع الناس إلى مخالفة منهج الله، و لو أن الناس عَلِموا علم اليقين أن لكل معصيةٍ عقاباً، وأن كل خروجٍ عن منهج الله هو هلاكٌ وشقاءٌ في الدنيا والآخرة، لما خرج أحدهم عن منهج الله، إنها أزمة علمٍ، و الآية الكريمة تقول:

(إِنّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبّهِمْ جَنّاتِ النّعِيمِ)

(سورة القلم)

فهؤلاء الذين اتقوا ربهم قد عرفوا أمره ونهيه، فالإنسانُ يتقي اللهَ ويبتعد عن معصيته إذا عرف أمره ونهيه، فهؤلاء الذين طلبوا العلم، وبحثوا عن النظام الذي شرّعه هذا الإله العظيم، وبحثوا عن دستور الإنسان المؤمن، فقرؤوا القرآن، وتَفَهّموا آياته، وعرفوا حلاله وحرامه، وما ينبغي وما لا ينبغي، ثم اتقوا أن يعصوا ربهم، هؤلاء المتقون في جنات النعيم، و كل نعيم الدنيا ليس بشيءٍ أمام نعيم الآخرة، بل كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المَخيط إذا غمس في مياه البحر))

إذا غمست إبرةٌ صغيرة في مياه البحر ثم أخرجتها بماذا ترجع ؟ هذا الماء الذي رجعت به هو نسبة ما في الدنيا من نعيم إلى ما في الآخرة من نعيم، فقد سألت زوجة أحد الصحابة زوجها شيئاً من الدنيا فقال لها: اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلئن أضحي بكِ من أجلهن، أهون من أضحي بهن من أجلكِ.

موازين الآخرة..

إن محور هذه الآيات يقول: من المستحيل أن يتساوى المسلم و غير المسلم، والمؤمن غير المؤمن، والمستقيم وغير المستقيم، و الصادق والكاذب، وما يعتقده الناس من أن الإنسان المال يحُل كل المشكلات هو وهم باطل، يقول الله عزّ وجل:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

في الآية لفتةٌ دقيقةٌ جداً، فالله عزّ وجل لم يقل: أفنجعل المسلمين كغير المسلمين،بل قال:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

أي إما أن تكون مستسلماً لأمر الله، خاضعاً له، مطبّقاً لتعليماته، أو أن تكون مجرماً، وإجرامك يكون بحق نفسك أولاً لأنك أبقيتها في جهالةٍ جهلاء،وأطلقت شهواتها إلى أن تفلّتت فهلكتَ في الدنيا والآخرة، والإجرام يكون أيضاً في حق مَن حولك الذين لم تأخذ بيدهم إلى الله عزّ وجل، وبحق من تتعامل معه من الناس، إذا لم تطبق منهج الله عزّ وجل فيهم فأخذت ما ليس لك منهم واعتديت على أموالهم و أعراضهم، وظلمتهم.

أيها الإخوة الكرام...

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

وجنات النعيم التي وعد الله بها المؤمنين تختلف عن النعيم الذي يعيشه بعض المترفين في الدنيا، فالنعيمٌ الدنيوي مشوبٌ بالقلق و الحُزن و توقع المصيبة والخوف من المُستقبل والمجهول، فكل إنسان حاز الدنيا وملكها في أعماقه قلقٌ كبير، وخوفٌ عميق، وشعورٌ بالحيرة.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

أما نعيم أهل الجنة فهو نعيم لا يزول ولا يشوبه شيء.

أيها الإخوة.. إني أتمنى على كل أخ كريم ألا يسمح لنفسه أن توازن بين إنسانٍ مترفٍ متفلتٍ من أمر الله ونهيه، وبين إنسانٍ متعبٍ يعاني من شظف العيش لكنه يعرف الله ويستقيم على أمره، فلا تسمح لنفسك أن توازن بين إنسانين، ما لم تضُمَّ إلى دنيا كل منهما آخرته، وإنك لو ضممت آخرة المؤمن إلى دنياه، وضممت آخرة الكافر إلى دنياه، لوجدت أن المؤمن هو المفلح و الرابح والسعيد.

قصة:

يروى عن عبد الله بن المبارك – وهو أحد العلماء الأجلاء- أنه كان يمشي في ثُلّةٍ من أصحابه، وهو في أبهى حُلّة و أجمل حالة، فرآه رجلٌ غير مسلم كان يعيش معيشةً ضنكاً، فسأله هذا السؤال: يا إمام يقول نبيُّكم عليه السلام الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فأيُّ سجن أنت فيه وأي جنةٍ أنا فيها ؟ فأجاب هذا الإمام: " إنّ ما أنا فيه من النعيم إذا قيس إلى نعيم الجنة فأنا في سجن، وما أنت فيه إذا قيس إلى عذاب الآخرة فأنت في جنة "، فلا تسمح لنفسك أن توازن بين جهتين، سواء كانت هاتين الجهتين إنسانين أو أُمّتَيْن، ما لم تضم آخرتهما إلى دنياهما، فإذا ضممت الآخرة إلى الدنيا كان المؤمن منهما هو الأفضل والأكمل، فهو الذي عرف الحقيقة، فالدنيا ليست دار استقرار، إنما هي ممر، والآخرة هي المقر، و الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فالمؤمن الذي عرف الله واستقام على أمره ينتظره نعيمٌ مقيم، لذلك قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

و المؤمن في بعض حالات غفلته و فتوره، يشعر بأنه يعيش بعض المشكلات، وقد ينظر إلى رجلٍ من أهل الدنيا فيراه يتقلب في النعيم والمال الوفير والصحة الطيّبة و المكانة العليّة، ففي بعض حالات الفتور والغفلة قد يتوهّم أن هذا الإنسان هو المفلح الناجح، وأنصحه في هذه الحالة أن يعود إلى قول الله عزّ وجل:

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

فالمؤمن لا ينبغي أن يشعر بهوان..

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللّهُ يُحِبُّ الصّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

حقيقة الدنيا:

إذا كانت الدنيا خشنة و مفعمةً بالمشكلات وكنت فيها مستقيماً على أمر الله، ترجو رحمته وتخشى عذابه، فإنك فيها الرابح والمفلح والمتفوق و العاقل و الفائز.

(إِنّ لِلْمُتّقِينَ عِنْدَ رَبّهِمْ جَنّاتِ النّعِيمِ)

وهذه الدنيا ستمضي، ثم يأتي الموت فينهي كل شيء، فيموت إنسان وهو لا يملك من حُطام الدنيا شيئاً، ويموت آخر وهو يملك الملايين المملينة، فيكونان في القبر سواء، فكلاهما يموت وهو لا يملك شيئاً، فالموت يلغي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغنى الغني، وفقر الفقير، وقوة القوي، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وصحة الصحيح، ومرض المريض، لذلك -أيها الإخوة- لا يجوز ولا ينبغي أن نُسَمِّي العطاء الذي يناله الإنسان في الدنيا عطاءً بالمعنى الحقيقي، إنه ليس بعطاء بل هو ابتلاء، لأنه ينقطع بالموت، وإذا كان الشيء ينقطع بالموت لا يسمى عطاءً، فالعطاء لا يسمى عطاءً حقيقياً من قبل الله عزّ وجل إلا إذا كان متصلاً بالآخرة، وقد ورد بعض الأدعية عن السلف الصالح تقول: **" اللهم اجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة ".**

و الخط البياني للمؤمن - كما أقول دائماً - صاعد صعوداً مستمراً، بينما قد يصعد الخط البياني لغير المؤمن صعوداً حاداً ليسقط سقوطاً مريعاً، فالعبرة أن تكون في طاعة الله والدنيا لا تقدم ولا تؤخِّر، فأصحاب النبي رضوان الله عليهم، عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، و الغنى والفقر، و الصحة والمرض، و في إقبال الدنيا و إدبارها..

فبعد أن ذكر الله عزّ وجل أصحاب الجنة الذين تحدّثنا عن قصتهم في الدرس الماضي وكيف أنهم أرادوا أن يمنعوا حق الفقير، فأصاب الله سبحانه وتعالى محاصيلهم بالبوار وأتلفها، فندموا على ما فعلوه، بعد ذلك يحدثنا ربنا سبحانه وتعالى عن أهل الجنة قائلاً:

(إِنّ لِلْمُتّقِينَ عِنْدَ رَبّهِمْ جَنّاتِ النّعِيمِ)

فنعيم هذه الجنة خالد إلى أبد الآبدين، فهل يمكن لعاقل أن يُضحّي بها ويعرض عنها ؟ أيطمع الإنسان بسنواتٍ معدودة مشحونةٍ بالمتاعب، ويضحي بالآخرة الأبدية؟! هذا قول الله خالق الأكوان، فأنت - أيها الأخ الكريم – قد تصدّق إنساناً قوياً يفعل ما يقول، فتأتمر بأمره وتنتهي عما ينهى، أفلا تصدّق ربنا جلّ جلاله وهو خالق السماوات والأرض ؟ أفلا تصدقه وهو يقول إن بعد هذه الحياة حياة أبدية فإما جنةٍ يدوم نعيمها، أو نارٍ لا ينفد عذابها، لقد قال الإمام الغزالي حينما خاطب نفسه: **" يا نفس لو أن طبيباً**

منعكِ من أكلةٍ تحبينها فلا شك أنك تمتنعين ".. وكل واحدٍ منا لو شكا من بعض أعضائه وجعاً، فمنعه طبيب حاذق ورع من أكلةٍ معينة أو من شيءٍ كان يفعله، لتركه فوراً حفاظاً على صحّته.. وهنا يقول الإمام الغزال: يا نفس لو أن طبيباً منعكِ من أكلةٍ تحبينها فلا شك أنك تمتنعين.. دققوا في هذا القول: " أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً ما أكفرك !!".. أيعقل أن تصدق الطبيب وتأتمرُ بأمره وتنتهي عما نهاك عنه لأنه عندك صادقٌ أمين، ثم ينهاك خالق السماوات والأرض عن أشياء ويأمرك بأشياء، ويعدك بالجنة ويحذرك من النار ثم لا تأتمر ؟.. أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ فما أكفرك إذا فعلت ذلك، ثم يقول:" أيكون وعيد الطبيب أشد عندكِ من وعيد الله ؟ إذاً ما أجهلكِ ". فالإمام الغزالي يرى أن الذي يقترف معصيةً هو عند الله قطعاً كافرٌ وجاهل..

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

و معظم المسلمين اليوم يعيشون دنياهم، وأصبح للدنيا وجود قويٌ في حياتهم ؛ سواء في مالها أو تجارتها أو نسائها أو متاعها أو مباهجها أو بيوتها أو مركباتها، فالدنيا موجودة في حياتهم وجوداً صارخاً، أما الآخرة فهي ليست داخلةً في حساباتهم أبداً، بل قلما يذكرون الآخرة، على الرغم من أن الإيمان بالآخرة هو أحد أركان الإسلام، فالمؤمن -أيها الإخوة- لا يكون مؤمناً حقاً حتى يُدْخِلَ الآخرة في حساباته الساعية لا اليومية، يقول في نفسه: هذه الكلمة سوف أسأل عنها، و هذا المبلغ من المال سوف أحاسب عليه، و هذه النظرة سوف أعاتب عليها، و هذه الحركة سوف أدفع ثمنها، و هذا العطاء قد لا يرضي الله، وهذه القطيعة قد تغضب الله عزّ وجل، فهو يحاسب نفسه في كل كلمةٍ، وفي كل حركةٍ وسكنةٍ، ووقفةٍ وعطاءٍ ومنعٍ وابتسامةٍ، فيضبط كل مواقفه بمنهج الله عزّ وجل، فإذا لم تدخل الآخرة في حسابات الإنسان فلن ينجو من عذاب الله، فإذا كان في أحد الدوائر مدير قوي، وله عيون في كل غرفة، فإن وجود هذا المدير سيدخل في كل حسابات الموظّفين، فلا يجرؤ أحد على أن يتكلم كلمة يخشى أن تصل إليه فينتقم منه، والأمر في الآخرة كذلك أيها الإخوة... يقول الله عز وجل عن هذا اليوم العصيب..

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة المطففين)

فيجب علينا أن ندخل هذا اليوم في حساباتنا، و القضية عند المؤمن سهلةٌ جداً، فهو لا يأخذ ما ليس له، ويعطي الذي عليه، طلباً للنجاة من حساب الله عزّ وجل.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35))

فيا أيها الإخوة... والله الذي لا إله إلا هو إني لا أجد شيئاً يدفعنا إلى طاعة الله كاعتقادنا أنه لا يمكن للطائع أن يكون خاسراً، كما لا يمكن للعاصي أن يكون رابحاً، وإلا ساد العبث وغاب العدل، فلا يمكن

للمسيء المنحرف أن ينجو، كما لا يمكن للمحسن المستقيم أن يقع، فالصادق لا يقع، والكاذب لا ينجو، و الأمين لا يقع، والخائن لا ينجو، هذا هو اعتقادنا، والآيات في ذلك كثيرة جداً:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

في الحقيقة هناك فرقٌ كبيرٌ جداً بين المؤمنِ والفاسق، والمسلمِ والمجرم، فالمؤمن صادق أمين رحيم منصف محب متواضع عفو سخي لطيف ؛ أما غير المؤمن فهو وقح عنيد متكبّر مستعلٍ جاحد.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

و الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يتقوّلون على الله بغير علم، فقد كانوا في بحبوحة وغنى ولهم دنيا عريضة، فكانوا ينظرون إلى أصحاب رسول الله الفقراء الضعاف على أنهم في الدرجة الدنيا من المجتمع، فيقولون: ربنا يحبنا لذلك أعطانا، وإذا زعمتم أن هناك آخرة فنحن فيها كما نحن في الدنيا أغنياء وأقوياء ومكرّمون، هذه دعواهم لكنها دعوى بلا دليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، فإذا ألغي الدليل أقول لك: أنا أملك كل الشام، لكن هذا القول بلا دليل ولا مستندات، وقد رد ربنا عزّ وجل عليهم، فقال: هؤلاء الذي ترونهم صغاراً ضعافاً محتاجين، هؤلاء لهم الآخرة.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

وقد أشار النبي عليهم الصلاة والسلام إلى هذه الحقيقة الدقيقة حينما خاطب سيدنا عدي بن حاتم، هذا الملك الذي لقي النبي عليه الصلاة والسلام وهو يظن أنه سيلقى ملكاً، فلما دخل عليه قال: "من الرجل ؟ " قال: عدي بن حاتم، فرحّب به النبي عليه الصلاة والسلام وانطلق به إلى بيته تكريماً له، و في الطريق استوقفته امرأة ضعيفة فوقف معها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقال: والله ما هذا بأمر ملك، فلما دخل بيته، لم يجد فيه إلا وسادةً واحدة ألقاها النبي إليه وقال:

((اجلس عليها))

فقال عدي بن حاتم: بل أنت فاجلس عليها، قال: " بل أنت"، قال: فجلست عليها وجلس هو على الأرض، وهو سيد الخلق وحبيب الحق، قال:

((إيه يا عدي بن حاتم))

دققوا في هذا الكلام الذي يحتاجه كل مؤمن في هذه الأيام

(("لعله يا عدي بن حاتم إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجته.. فقراء.. وايم الله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي بن حاتم إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين أنك ترى أن المُلك والسُلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة البابلية

تحجُّ البيت على بعيرها لا تخاف، ولعله إنما يمنعك ياعدي من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم))

كما هي حال المسلمين اليوم..

((وايم الله يا عدي لتوشكَنّ أن تسمع بالقصور البابلية مفتحةً للمسملين))

وقد عاش عدي بن حاتم ورأى بعينه كل ما وعد به النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد نظر كفار قريش إلى المسلمين فرأوهم ضعافاً فقراء من الطبقة الدنيا في المجتمع، فقالوا: نحن على حق لأننا أغنياء و أقوياء، فالدنيا بين أيدينا، وإذا زعمتم أن بعد الموت حياةً أخرى فنحن في الجنة قبلكم، ولنا صَدْرُها، وهذا كلامٌ بلا دليل و لا أساس، فرد عليهم ربنا عزّ وجل فقال:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

لماذا يقوّي الله سبحتنه الكافرين أحياناً ؟؟

أيها الإخوة: إني أكاد أصل إلى الحقيقة الآتية: إن مساواة المسلمين بالمجرمين أمر يتناقض مع وجود الله، فإن شئت قل: بل هذا يتناقض مع عدله بديهةً، فالله موجود ومع وجوده لا يوجد عبثيةٌ على الإطلاق، أما قولهم إن المجرم هو الفائز والمسلم هو الخاسر فهذا القول هو العبثية بعينها، فهل من المعقول أن يكون المستقيم هو الخاسر والمنحرف هو الفائز !! و أن يكون الصادق هو الخاسر والكاذب هو الفائز!! و الأمين هو الخاسر والخائن هو الفائز !!.

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

هكذا تعتقدون و تتوهّمون و تحلمون..

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

فأين عقولكم ؟ أين منطقكم ؟ إنه إلهٌ كريم وكل الخلق عباده، وبيده كل شيء، فهل يمكن أن يقوّي الكافر، ويعلي قدره، ويعطيه المال الوفير والبنين، ويجعله سيّداً، يتحكم ببقية الناس إلى ما شاء الله ؟! قد يرفعه إلى حينٍ ليمتحنه.

قد يقع بعض الأشخاص في اليأس، لأن الأعداء أقوياء جداً، و يملكون أسلحة كثيرة ومتطورة جداً، ونحن ضعفاء ومتفرقون، وأريد أن أسأل: أية جهةٍ بَنَتْ مجدها على أنقاض الآخرين ثم نجحت خطتها إلى ما شاء الله ؟؟ إن نجاح خطتها هذا يتناقض مع وجود الله، لذلك قال أحدهم: **"عرفت الله من نقض العزائم "**، فالإنسان قد يعتدُّ بقوته فينهار لأتفه سبب، وقد يجعل الله تدميره في تدبيره.

إخوننا الكرام... أنا لا أجد شيئاً يدفعنا إلى طاعة الله، وإلى بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، كأن نعتقد اعتقاداً جازماً أنه يستحيل أن يكون المسلم كالمجرم، أو أن يكون المجرم كالمسلم، والآيات كثيرة، كثيرةٌ جداً.

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

لامنطقية الكفر:

أين المنطق ؟ أين العقل ؟ الأمر بيد الله عزّ وجل، حياتنا بيد الله، قوتنا بيد الله، مالنا بيد الله، مكانتنا بيد الله،فلماذا يقوي الله الكفار ؟ يقوّيهم تربيةً للمؤمنين.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص)

معنى ذلك الله عزّ وجل يُضَعِّف المؤمنين تأديباً لهم، ويقوي غير المؤمنين كشفاً لحقيقتهم، أما على المدى البعيد فإن الله ينصر الحق، ولا يتخلى عن المؤمنين.

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

بأي منطقٍ تحكمون ؟.

فقدان المرجعية:

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)

أعندكم كتابٌ تأتون منه بهذه الأفكار، فأي كتابٍ هذا ؟ إن الحق واحد لا يتعدد،وكتاب الله هو الحق.

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38))

الإنسان أحياناً حينما يعصي و يميل مع هواه وشهوته، يختل توازنه الداخلي بسبب فطرته، فكل إنسان له فطرة، و كل مولودٌ يولد على الفطرة السليمة.

أيها الإخوة... هناك نقطة دقيقة جداً، الإنسان له فطرة، و هذه الفطرة هي جِبِلّة تكشف له خطأه، فيقول لك: إني أشعر بضيق و كآبة وبوخز الضمير، و كل هذا الكلام صحيح، فالإنسان حينما يحيد عن منهج الله عن وعيٍ أو عن غير وعيٍ يختل توازنه الداخلي بسبب هذه الفطرة، وعلى هذا الأساس يحاسب الإنسان، فلو لم يأت رسول مبلغ أبداً، لكشفت فطرته خطأه، والدليل:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

هذه المعاذير التي يلقيها للناس هم في الحقيقة يكشفون أمرها تماماً، فالإنسان فطرته سليمة، فإذا انحرف و حاد و أكل ما ليس له و ظلم و استعلى و تحكّم بالناس وأخذ بعض ما في أيديهم قهراً وظلماً شعر باختلال توازن داخلي، و هذا الاختلال يجعله يتعلّق بأية فكرةٍ تطمئنُهُ، فهناك كتاب فيه ضلالات ودعوةٌ إلى الإباحية و قد غُطّي بتأويلات مضحكة لكتاب الله قد أقبل الناس عليه إقبالاً كبيراً، وقد طبع

منه الطبعة الخامسة، فما السبب ؟ السبب بسيط جداً، وهو أن الإنسان حينما ينحرف يختل توازنه فيتعلق بقشة، فأي فكرة ولو لم يكن لها أصل وكانت بلا دليل تطمئنه و يتعلّق بها، لذلك كانت الأفكار التي تُغَطِّي انحراف الإنسان يتمسك بها أناسٌ كثيرون، لا لأنها صحيحة ومعقولة و مدعّمة بالبراهين، أبداً، بل لأنها تدغدغ مشاعرهم، أو لأنها تحل مشكلات انهيارهم الداخلي، فقد كان كفار قريش، في بحبوحة و قوة و غنى، وكانوا يقولون ليغطوا انهيارهم الداخلي: الدين غير صحيح،و يجب عليهم أن نردّه، نحن أقوياء و أغنياء، وإذا متنا فلنا في الجنة ما لنا في الدنيا، فهذا كلام مريح بالنسبة لهم، لكن ما أصله ؟ و بأيِ منطقٍ يتقولون هذا الكلام ؟ ومن أي كتابٍ جاءوا به ؟؟؟؟

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيّرُونَ (38))

طبعاً هذا الكلام لا ينسجم مع منطقٍ سليم، كما أنه لا يستند إلى مرجعٍ قويم، وقد بقي لديكم حالة ثالثة.. فقدان المواثيق والوعود الإلهية:

(أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

أي كأنكم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى أقسم لكم أيماناً بالغة إلى أقصى الحدود أنه سيكرّمكم على كفركم يوم القيامة، وهذا غير صحيح، أرأيتم أيها الإخوة إلى منطق أهل الدنيا ؛ إنه منطق منهار متناقض، ليس فيه نص، ولا وعد من الله موثّق بأيمان بالغة، فلا يوجد لديهم منطق معقول ولا كتاب يزعمون أنهم يدرسونه.

(سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)

(سورة القلم)

فمن يتكفل لهم وعلى من يعتمدون ؟ يقول لك شخص: فلان أفتى بكذا وكذا، فهل يمكن لهذا الإنسان أن يتكفل لك بالجنة يوم القيامة ؟؟ قلت لكم البارحة أيها الإخوة: لو أنكم استطعتم أن تنتزعزا من فم النبي عليه الصلاة والسلام حكماً لستم محقين فيه لحوسبتم عليه يوم القيامة، فالنبي بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، لذلك قال:

((لعل أحدكم ألحن بحجته من الآخر، فإذا قضيت له بشيء فإنما أقضي له بقطعةٍ من النار))

أي أن لو أن النبي عليه الصلاة والسلام أفتى لك ولم تكن محقاً فلن تنجو من عذاب الله.

(سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)

من الذي يستطيع أن يجادل عنك يوم القيامة ؟ من الذي يستطيع أن يدافع عنك ؟.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ)

(سورة الأنعام: آية " 94 ")

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا)

(سورة النحل: آية " 111 ")

الآية الكريمة:

(لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً)

(سورة الإنفطار: آية " 19 ")

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

(لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً)

(سورة الإنفطار: آية " 19 ")

لا تجادل النفس إلا عن نفسها، و هذا يوم القيامة. لذلك:

(سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)

فقدان الكفالة:

من هو المتكفِّل لهم أن يكونوا يوم القيامة في أعظم حال ؛ في مركز الصدارة والوجاهة والغنى والترف كما هم في الدنيا ؟.

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

(سورة القلم)

أي هل معهم شركاء يدعمونهم و يدافعون عنهم ؟، انظروا كيف يحاور ربنا جلّ جلاله هؤلاء، إنه يحاورهم نقطة، نقطة، فيقول لهم: هذا كلام غير منطقي، و بأي منطقٍ تحكمونُ بهذا ؟ و منطقكم الذي يقول أنّ الكافر والمجرم والمنحرف والمعتدي والظالم والغارق في شهواته له السيطرة حتى يوم القيامة هو منطق فيه ظلم، و هو منطق ساقط.

ثم يقول لهم: هل عندكم كتابٌ تأتون بهذا الكلام منه ؟ ليس هناك كتاب، أم هل لكم علينا أيمانٌ بالغة أنكم ستكونون في الآخرة من الفائزين ؟ أم هل هناك من يتكفّل لكم هذا المكان في الجنة ؟ هل لهم شركاء يدعمونكم و يدافعون عنكم ؟ لا شركاء، ولا كفيل، ولا أيْمان، ولا كتاب، ولا منطق، فعلى أي شيءٍ تعتمدون إذاً ؟ فالإنسان العاقل لا يتكلم كلمة اعتراض أو نقد إلا إذا كان عنده شيء يعتمد عليه، أما إذا لم يكن عنده ما يعتمد عليه فلا يوجد منطق لكلامه، ثم يبين ربنا عزّ وجل قائلاً:

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43))

(سورة القلم)

مصير المكذّبين يوم القيامة:

معاني (يكشف عن ساق):

لقد وقف العلماء وقفةً متأنِّيةً عند هذه الآية:

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)

هذا يوم القيامة.

(يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)

1- فهذه عبارة تُفيد أنه يوم الهَوْلُ الشديد، وقد بينت هذه الصورة ذلك الهول، فالإنسان مثلاً إذا رأى عدواً مفترساً يكشف عن ساقه ويعدو لا يلوي على شيء، و إذا رأى زلزالاً فإنه يكشف عن ساقه ويهرُب، وإذا رأى حريقاً كذلك، فالإنسان في الدنيا ؛، يكشف عن ساقه ولا يُبالي بهندامه ولا بمظهره ويعدو لا يلوي على شيء إذا رأى زلزالاً أو حريقاً أو فيضاناً أو عدواً مخيفاً، أو ناراً مُلتهبة، فأراد ربنا عزّ وجل أن يصف يوم القيامة بهذا الوصف.

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)

2- وهناك معنى آخر وهو أن ساق الشيء أصله، وساق الشجرة مثلاً هو أصلها، وحقائق الأشياء ستكتشف في هذا اليوم:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق: آية " 22 ")

فسيكشف عن حقيقة الدنيا، فهي دار عمل وليست دار متعة ونعيم، وسيكشف عن حقيقة الإنسان، و يكشف عن حقيقة الدار الآخرة، و يكشف عن حقيقة الأنبياء والمرسلين، و يكشف عن حقيقة المؤمنين، فالحقائق ستكون باديةً للعيان يوم القيامة.

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

فأعمالهم حالت بينهم وبين السجود، فأراد الله عزّ وجل أن يبين أن أعمالهم السيئة ؛ من كفر و ظلم وجحود و إيذاء للناس واستعلاء على خلق الله ورد للحق، هذه كلها حُجُبٌ حجبت عنهم حقيقة العبادة..

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

فهؤلاء الكبراء، المستعلون، المتغطرسون، المتباهون، الذين يتيهون كِبْراً و يميلون أعطافهم علواً، هؤلاء:

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

فهذا مصيرهم يوم القيامة، فالعبرة لمن يضحك أخيراً و ينجو آخر الأمر.

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

ونحن الآن نُدعى إلى السجود و ندعى إلى معرفة الله و طاعته ونحن سالمون، والقلب فينا لا زال ينبض، ولا زال في العُمر بقية و فُسحة الصحوة.

فيا أيها الإخوة... الدنيا وقت المعرفة و الطاعة و الإنابة و الإقبال.

(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

الإنسان أحياناً يتألم أشد الألم إذا أدرك الحقيقة بعد فوات الأوان، و إدراك الحقيقة بعد فوات الأوان شيءٌ لا يحتمل.

(وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43))

لذلك قالوا: " ألا يا رُبَّ نفسٍ جائعة عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة، ألا يا رب نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة، ألا يا رب مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهينٍ لنفسه وهو لها مكرم ". فالإنسان يولد كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، و حينما يموت يبكي كل من حوله، والفائز من يضحك وحده، فهذا هو يوم الفوز العظيم، لذلك:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

نحن في بحبوحتين...

أيها الإخوة... نحن في بحبوحتين، البحبوحة الأولى إذا طبّقنا سنة النبي عليه الصلاة والسلام، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال)

فالإنسان إذا طبّقَ سنة النبي كان في بحبوحة، وإذا وقع في خطأ واستغفر فهو في بحبوحةٍ أخرى، والآن هو وقت السجود و وقت المعرفة و طلب العلم و إنفاق المال، هذا وقت أن تجلس على رُكبتيك في المسجد لتفهم كلام الله، هذا وقت مساعدة الضعفاء وإطعام المساكين و تعلُّم القرآن، فنحن الآن في بحبوحة، أما حينما تدرك الحقيقة...

وما أصعب أن تدركها بعد فوات الأوان..

(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

لذلك يقول النبي الكريم:

((اغتنم خمساً قبل خمس ؛ شبابك قبل هرمك))

فمع الهرم هناك أدوية وأطباء، وتحاليل، وقسطرة، فتكون عندها مهموماً بصحتك، أما الآن فأنت مفرّغ من أمور صحتك

((اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك))

و الإنسان قبل الزواج لديه وقت فارغ، أما بعد الزواج فيكون لديه زوجة و أولاد وهموم، فهو قبل الزواج في فراغ، أما بعد الزواج فهناك مشاغل، وهو في ربيع العمر أفضل، أما في الخريف فهناك مشكلات

((اغتنم خمساً قبل خمس))

(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

أيها الإخوة الكرام... إن الشيء الذي يتناقض مع وجود الله عزّ وجل هو أن يستوي المحسن والمسيء، المسلم و غير المسلم، المؤمن وغير المؤمن، الأخلاقي وغير الأخلاقي إن الاعتقاد اليقيني بهذا هو الذي يدفعنا إلى طاعة الله وإلى نَيْلِ رضوانه والفوز بما عنده، فالإنسان حينما يثق بأن المستقبل لصالح المؤمن يندفع، لذلك لا عبرة للماضي، بل العبرة في المستقبل، فالناس في شبابهم متشابهون، لكنهم في خريف أعمارهم متفاوتون، وهذا التفاوت مُتَعَلِّقٌ بما مضى من أعمارهم.

تلخيص:

أيها الإخوة... ينبغي علينا أن نعقل هذه الآيات وأن ننطلق إلى طاعة الله من خلالها، ففي هذه الآيات نقد الله عزّ وجل خمسة أشياء، وهذه الأشياء تنطلق من أفكار، والآيات تطالب بأصل الأفكار، فمن أين جئت بأفكارك ؟ هل هي في كتاب مقدّس من عند الله ؟ وهل ينتظمها منطقٌ سليم ؟ هل هي منطلقة من وعدٍ إلهي ؟ وهل معك من يكفل لك تلك الأفكار ؟ فربنا عز وجل يعوّدنا المنطق السليم من خلال هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (7-7): تفسير الآية 42-52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-06-20

بسم الله الرحمن الرحيم

مشاق الدعوة إلى الله ووجوب تحلي الداعية بالصبر

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس السابع والأخير من سورة القلم، ومع الآية الثانية والأربعين وهي قوله تعالى:

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

قال بعض علماء التفسير: يُدعون إلى السجود؛ أي: إلى الصلاة لأن الصلاة عماد الدين، فقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون في الدنيا، وإن أول ما يُحَاسب العبد عليه هو صلاته فإن صحَّت سعد ونجح، وإن لم تصح خاب وخسر.

و (يوم يُكشف عن ساقٍ): مُصطلح يعني: يوم الشدة البالغة، ويوم النقاش العسير، ويوم الحساب الدقيق..

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)

فهذا اليوم العصيب هو يوم الدينونة و الجزاء، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيأتي فيه الناس ربَّهم فُرادى فليس هناك تجمعات أبداً..

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً)

(سورة النفطار: آية " 19 ")

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

ففي هذا اليوم..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

هذا اليوم هو يوم الحساب والجزاء، وهو يوم شديدٌ جداً على الكافرين، ففيه تُسَوّى الحقوق والحسابات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، ومن القوي للضعيف، ومن الفقير للغني.

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)

يقال: كشفت الحرب عن ساقها ؛أي: حمي فيها الوطيس، و كشف اليوم عن ساقه ؛ أي: كان يوماً عسيراً عصيباً..

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

فما الذي يمنعهم من السجود ؟ إنها أعمالهم السيّئة التي أقامت حجاباً بينهم وبين ربّهم.

فأنت _ أيها الأخ الكرم _ بإمكانك اليوم أن تقف وتتوضأ و تتجه نحو القبلة، و بإمكانك أن تكبر تكبيرة الإحرام، و تضع يداً فوق الأخرى، و تقرأ الفاتحة وسورة، بإمكانك أن تركع وأن تسجد، وأن تقعد القعود الأخير ولكن العمل السيئ قد يحول بينك وبين الله، فالأعمال السيّئة والانحراف في الدنيا، يمنع الإنسان من أن يصلي..

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

قانون الذُل والعز:

الإنسان المستقيم عزيز النفس رافع الرأس، أما المنحرف فهو خافض الطَرْف ذليلٌ، وعلاقة الذل بالانحراف علاقة واضحة، كما أن علاقة العِز بالاستقامة علاقة واضحة أيضاً، فإن أردت أن تكون عزيزاً فاستقم كما أُمرت، وإن أردت أن تقف موقفاً مهيناً ذليلاً فتحرّك في الدنيا كما تشاء، و أوضح مثل على ذلك: هذا الذي يسرق، ويقتل، وينهب، وحينما يقع في قبضة العدالة تراه في أشدِّ حالات الذل، لقد كان يدّعي ويتبجّح ويتحرّك وينهب الأموال وينفقها على المعاصي والآثام،أما حينما يقع في قبضة العدالة فتراه ذليلاً بائساً حقيراً.

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

الآن لا يستطيعون السجود، لقد وصلوا مع الله إلى طريقٍ مسدود...

(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

(سورة القلم)

فالآذان هو دعوةٌ إلى السجود، ف (حي على الصلاة حي على الفلاح)، ما هي إلا دعوةٌ إلى السجود، دعوةٌ إلى أن تعبد الله وتخضع له و تعترف بعبوديتك له..

(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

فالإنسان إذا كان معافىً في صحته فهو سالم، و إذا كان معه قوت يومه فهو سالم، وإذا كان أهله بخير فهو سالم أيضاً، و إذا كان عقله في رأسه فهو سالم، و إذا كانت أعضاؤه تامّة وأجهزته سليمة فهو سالم، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اغتنم خمساً قبل خمس ؛ شبابك قبل هَرمك، وفراغك قبل شغلك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك))

والإنسان أيها الأخوة إذا بكّر في معرفة الله استطاع أن يُشَكِّلَ حياته تشكيلاً إسلامياً ؛ فيستطيع عند ذلك اختيار الزوجة الصالحة و الحِرفة الجيدة، وألصق شيءٍ في الإنسان زوجته وحرفته، فإذا آمن بالله في وقتٍ مبكِّر اختار الزوجة الصالحة والحرفة الصالحة، وعندئذٍ لا يجد حجاباً بينه وبين الله، فكثيراً ما

تقف الزوجة المنحرفة حجاباً بين زوجها وربه، كما أن الحرفةُ التي لا ترضي الله عزّ وجل هي حجاب بين العبد وبين الله عزّ وجل.

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

نحن -إن شاء الله – من الذين تنطبق عليهم هذه الآية، فنحن الآن سالمون في بحبوحة التوبة والاستغفار والصُلْح مع الله و العودة إليه، فما دام القلب ينبض وما دام في العمر بقية فنحن سالمون، فكأن الله سبحانه وتعالى هنا ينقل لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة ونحن لا زلنا في الدنيا..

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43))

نحن الآن حينما يؤذِّن المؤذِّن نُدْعَى إلى السجود ؛ أي: إلى الصلاة، وأحبُّ الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها، ومن أخَّر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمر، وتأديتك الصلاة هي تأدية لحق الله عزّ وجل وإظهار لعبوديتك له، فتطمئن نفسك عندئذٍ ويرتاح قلبك، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أرحنا بها يا بلال))

دققوا أيها الإخوة هنا... إنك حينما تسمع النداء وتتجه لتصلي، وتصلي صلاةً كما أراد الله عزّ وجل تشعر براحةٍ كبيرة، راحة تشعرك أنك عبدٌ مطيعٌ لله.

أيها الإخوة الكرام... الآيات التالية دقيقةٌ جداً:

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ)

(سورة القلم: آية " 44 ")

ربنا عزّ وجل يخاطب نبيه الكريم، فيقول له:

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ)

إن هؤلاء الذين دعوتَهم فلم يستجيبوا، و ألقيت عليهم الحق فلم يأخذوه، و أمرتهم أن يؤمنوا فلم يؤمنوا بل كذّبوا و أعرضوا و سَخِروا، هؤلاء دعهم لي، فكأن النبي عليه الصلاة والسلام إذا دعاهم إلى الله واستجابوا له، كان طريق الهداية بالنسبة لهم هو الطريق الطبيعي والسليم، لأن الأعراض المرضية في الجسم تُعالج بأدوية، فحينما يرفض المريض المعالجة يقتضي أن نجري له عمليةً جراحية..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

فالذي لا يستجيب للرسول صلى الله عليه وسلم لا يستجيب لله عزّ وجل في حقيقة الأمر، و هذا الذي لا يصدق الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن رأى المعجزات النَيّرات الباهرات و لا يعبأ بوحيٍ أُنزل على رسول الله علاجه عند الله هو..

(فَذَرْنِي)

هذا تهديد، بل هو من أشد أنواع التهديد، أي: إن لم يستجب لك بالدعوة البيانية فلا بدَّ من سلوكٍ تأديبي.

مراحل استجابة الإنسان لله تعالى:

هناك أربع مراحل يمر بها الإنسان في استجابته لله تعالى:

1- مرحلة الدعوة البيانية: وهي أول مرحلة وأسلم مرحلة ؛ وهي أن تستجيب مثلاً لإنسان دعاك إلى الله، أو لخطبةٌ ألقيت على مسامعك دعاك فيها الخطيب إلى التوبة و طاعة الله وكسب المال الحلال وضبط الجوارح والأعضاء وإقامة الإسلام في بيتك، فهذه دعوة بيانية، وهي أول مرحلة، و الكمال في هذه المرحلة أن تستجيب..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

(يحييكم) هنا تعني: الحياة الحقيقية، حياة القلب و النفس، الحياة التي تليق بك أيها الإنسان لتتصل بالله، و تتعرف عليه، و تتقرَّب إليه، فهذه هي الحياة الحقيقية..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

2- مرحلة التأديب التربوي: وهو المرحلة الثانية: فإن لم تستجب بالدعوة البيانية فلا بدَّ من التأديب التربوي، و الله عزَّ وجل - كما تعلمون - قد يسوق بعض الشدائد، و هذه الشدائد مرَّت بنا قبل درسين في قوله تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم: آية " 33 ")

فقد أتلف الله لهم محاصيلهم، فقالوا:

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة القلم: آية " 29 ")

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

فإن لم يستجب الإنسان بالدعوة البيانية فهناك التأديب التربوي، والله عزَّ وجل عنده أدويةٌ تربويةٌ لا تُعد ولا تُحصى، ففي جسمك وحده آلاف الأساليب التربوية، وفي أولاد الإنسان و أهله وتجارته وعمله و علاقته مع من حوله سواء من هم دونه أو من هم فوقه، هناك آلافُ آلاف الأدوية التي يمكن أن تُعَالج بها أيها الإنسان، و حينما تدخل مرحلة التأديب التربوي فالوضع الصحيح هو أن تتوب إلى الله، فإن لم تَتُب فهناك مرحلة ثالثة...

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: آية " 44 ")

3- مرحلة الإكرام الاستدراجي: قد يأتي الإنسان الإكرام، لكن هذا ليس إكراماً بالمعنى الذي نفهمه نحن بل هو استدراجٌ من قِبَل الله عزّ وجل، فهذا الإنسان لم يُعمل عقله فيتوب إلى الله، ولم يستجب للتأديب الإلهي فيرْعوي، كما أن الإحسان لم يؤثِّر فيه.

و إذا دخل الإنسان المرحلة الثالثة فالكمال فيها أن يشكر الله على هذا الإكرام وأن يعود إليه تائباً، وإلا لم يبق له إلا القصم، ويؤكد هذا آياتٌ كريمة في كتاب الله عزّ وجل..

(فَذَرْنِي)

يقول الله عز وجل: ما دام هذا الإنسان لم يستجب في المرحلة الثانية، فلم يصدِّق ولم يَتُبْ و لم ينصرف إلى الحق فدعه لي يا محمد، لأنك مكلّف أن تبيّن له فقط، أما ربنا عزّ وجل فيعالجه بالشدّة، فالبيان على عاتق النبي عليه الصلاة والسلام، والتأديب التربوي من فعل الله عزّ وجل، و ربنا عزّ وجل هو الذي يسوق الشدائد لهذا الإنسان المُعْرِض..

(فَذَرْنِي)

و يجب على الإنسان الذي لا يستجيب لله عزّ وجل أن ينخلع قلبه لهذه الكلمة..

(فَذَرْنِي)

فإذا نصحت أُمّ ابنها آلاف المرّات فلم يرعو، قال لها الأب: دعيه لي، أنا سأقوم بتأديبه.

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ)

أنواع التكذيب بالقرآن:

قال العلماء: الحديث: هو القرآن الكريم.

التكذيب إما أن يكون اعتقادياً، أوقولياً أو سلوكياً.

1- التكذيب الاعتقادي: لو اعتقد الإنسان أن هذا الكلام هو كلام محمد عليه الصلاة والسلام، فهذا التكذيب هو تكذيب اعتقادي، وهو كفر، فعلى الرغم من أن هذا الإنسان لم ينبس ببنت شفه و ظل ساكتاً، إلا أنه لا يعتقد أن هذا كلام الله، فهذا كفر اعتقادي، و قلّما نجد هذا النوع من التكذيب في عالم المسلمين إلا ما نَدَر.

2- التكذيب القولي: يوجد عندنا تكذيب آخر وهو التكذيب اللفظي، كأن يقول بلسانه، أو بقلمه في كتابٍ يؤلّفه، أو مقالةٍ يدبّجها: إني لا أعتقد أن هذا القرآن كلام الله.. وقد مرّ معنا مرّةً في كتابٍ في النقد أن الأديب الفُلاني قال: يقال أن محمداً عليه الصلاة والسلام أخذ القرآن الكريم عن فلان الفُلاني، ثم يقول هذا الأديب: ولا أدري مبلغ هذا القول من الصحّة، لعله كذلك.. فهذا نطق وشكّك في أن هذا القرآن كلام الله، وهذا كُفر قَوْلي، و قلّما نجد هذا في عالم المسلمين، فهو قليلٌ جداً.

3- التكذيب السلوكي: (وهو أخطر أنواع التكذيب) وهو أن يسلك الإنسان سلوكاً مخالفاً لتوجيهات الله، فهذا التكذيب سلوكي عملي، و هذا التكذيبُ شائعٌ ومنتشر، فحينما يقول الله عزّ وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 221 ")

قد يأتي الأب المسلم فيختار لابنته الإنسان الغني دون أن يلتفت إلى دينه، فماذا يفعل هنا؟ إنه يكذّب القرآن الكريم لا باعتقاده ولا بلسانه و قلمه ولكن كذّبه بفعله وسلوكه، وهذا أخطر أنواع التكذيب، فالتكذيب السلوكي: أن تسلك طريقاً مخالفاً لما تسمع.

فمثلاً: لو أنك زرت طبيباً في عيادته ففحصك فحصاً دقيقاً، ووصف لك الدواء الذي يراه مناسباً، فبالغتَ في شكر الطبيب والثناء على علمه واختصاصه، لكنك لم تشترِ الدواء لأنك لست مقتنعاً بجودة هذه الوصفة، فعدم شراء الدواء تكذيبٌ بعلم الطبيب، فمع أنك أثنيت على علمه وشكرته وبجّلته واحترمته، لكن عدم شراء الدواء نوعٌ من أنواع التكذيب بل هو أخطر أنواع التكذيب، فالإنسان حينما يجد في القرآن الكريم آيةً تقول:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: آية " 279 ")

فإذا ارتكب معصية الربا بعد هذه الآية، يكون قد كذّب تكذيباً عملياً بها، لذلك يقول الله عزّ وجل:

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ)

وهذا حتى لا يظن أحدنا أنه لم يكذِّب كلام الله سابقاً، ولم ينطق بكلمةٍ واحدة تبيّن أنه لا يصدق كلام الله، كما أنه لا يعتقد بذلك، نقول له: هناك تكذيبٌ أخطر، فأنت لا تعتقد أن هذا ليس كلام الله، كما أنك لم تصرّح أن هذا ليس كلام الله، لكنك حينما يقول لك خالق الكون: افعل، وأنت لا تفعل، أو يقول لك خالق الكون: لا تفعل، وأنت تفعل، فما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنه تكذيبٌ عمليٌ لكلام الله عزّ وجل..

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ)

نستدرجهُم ؛ أي: نسوقهم درجةً درجةً إلى هلاكهم، فمهما كان الإنسان ذا عقلٍ راجح وفكرٍ ثاقب فإنه إذا ارتكب ما يستوجب الاستدراج فإن الله سوف يستدرجه خُطْوَةً خُطْوَةً، وحركةً حركةً، و درجةً درجةً..

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

ففجأةً يقع هذا الإنسان في قبضة الله فيُدَمَّر ويهلك و يفقد كل شيء،و يقع في حجابٍ شديد.

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ)

ننقلهم درجةً إثر درجة إلى هلاكهم دون أن يشعر..

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

(سورة القلم: آية " 45 ")

أي أُمْهِلُهم..

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

أمدهم بالقوة، والصحة، والمال، إلى درجة يتوهَّمون فيها أنهم أقوياء وأغنياء، فيقولون: إن الله يحبّنا وعلامة محبّته لنا أنه أعطانا ؛ أعطانا المال الوفير، والسلطان الكبير وأعطانا كل شيء، فهذا اسمه استدراج.

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45))

الكيد: هو التدبير، ومعنى (الكيد المتين): لن يستطيع الإنسان إطلاقاً أن يتفلّت من تدبير الله عزّ وجل، و كُلُّكم يعلم أيها الإخوة أن(القساوة والمتانة) صفتان تلصقان بالمادة، فمقاومة قِوى الشد تعني المتانة، ومقاومة قِوى الضغط تعني القساوة، فكأن تدبير الله عزّ وجل شبكةٌ وقع فيها الإنسان، فمهما أبدى من حركاتٍ قوية فلن يستطيع أن يتفلّت منه..

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

و أحياناً إذا دخل الإنسان حراماً قد يُستدرج إلى عقد صفقةٍ يُفلسُ بها، أو يُستدرج إلى مصاحبة إنسانٍ يدمِّره، أو يُستدرج إلى سفرةٍ يُدَمَّر بها، أو إلى ركوب باخرةٍ يصيبها الهلاك، فالاستدراج من الله مُخيف، لأنه يأتي عندما يكون الإنسان في أعلى درجات الذكاء و أعلى درجات الحيطة والحَذَر و أعلى درجات خبرته المتراكمة، وعندما يكون حاملاً لأعلى شهادة ومالكاً لأكبر قوة..

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45))

إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لبّه، فالإنسان إذا عصى الله، وكان الله جلّ جلاله يمدّه بالقوة فليحذره لأن هذا استدراج، فالنعم إذا رافقت الطاعات كانت إكراماً، أما إذا رافقت المعاصي فهي استدراج، و الفرق بين الإنعام والاستدراج واضح، فالنِعَمْ مع الطاعات إكرام، وهي مع المعاصي استدراج، فلا تفرح بالاستدراج لأن عاقبته وخيمة..

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ)

ما دام هذا الإنسان قد أعرض عن ذكر الله، ولم يستجب لدعوة الأنبياء، ولا لدعوة الدعاة..

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ)

فالتكذيب النظري قلّما نجده في العالم الإسلامي إلا ما ندر، فهناك كتّابٌ قليلون جداً يُصَرّحون في كتبهم بعدم قناعتهم بأن هذا كلام الله، و هذا تكذيبٌ بالقرآن، أما التكذيب الشائع فهو التكذيب العملي، فعندما تدخل إلى بيوت المسلمين فلا تجد فيها الإسلام مطبّقاً، وكذلك عندما تدخل إلى محلاّتهم التجارية

و معاملهم و حقولهم و علاقاتهم و أفراحهم وأتراحهم، فلا تجد الإسلام مطبّقاً في كل مناحي حياتهم، فماذا نُسَمِّي هذا ؟ هذا تكذيب عملي، وهذا التكذيب العملي شائعٌ وخطير، فحينما يُقيم الإنسان حفلة مختلطة، وعُرساً مختلطاً، ويأتي بالتصوير ويفضح أعراض الناس وهو من أسرةٍ مسلمة، ويسمح أو يعين على علاقاتٍ غير مرضيةٍ لله عزّ وجل، إنه يكذِّب بفعله ذلك، فهناك آلاف المعاصي والآثام يرتكبها المسلمون وهم يصلون وهم يصومون، و هذا نوعٌ من التكذيب..

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

يُستدرج دون أن يشعر..

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

أُعطيهم فرصة ؛ من صحة طيّبة و دخل كبير ومكانة جيدة و شعور بالاستعلاء، وعجرفة، و عُنْجُهيَّة..

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

لكن هؤلاء ينتظرهم مطبٌ كبير و عقابٌ أليم و حسابٌ عسير و هلاكٌ محقق..

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

لا تستطيع قوةٌ على وجه الأرض مهما بَدَت قويةً أن تتفلّت من قبضة الله عزّ وجل..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(25))

(سورة يونس)

إخواننا الكرام... مرّةً ثانية وحرصاً على سلامتنا جميعاً يجب عليك أن تنظر: إذا كان الله يغدق نعمه عليك وأنت تعصيه ولا تقيم منهجه ولا تطبق ما في كتاب الله وسنة رسوله فاحذره عند ذلك، لأن هذا استدراج، إذاً: اعلم أن النعم مع الطاعات إكرام، وأن النعم مع المعاصي استدراج، والاستدراج عاقبته وخيمة..

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ)

أملي لهم ؛ أي: أفسح لهم مهلةً، وأعطيهم من المال والصحة والأهل والأولاد..

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

لا يستطيع أحدٌ أن ينجو من عقاب الله ولا من تأديب الله، وكما قلت قبل قليل: إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍّ لبَّه.

فربنا عزّ وجل يبيّن لنا ما الذي يحول بين هذا الإنسان وبين طاعة الله:

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)

(سورة القلم)

لا يستطيع أي إنسان منا أن يدخل إلى عيادة طبيب أو مكتب محامٍ أو مكتب مهندس أو محل البيع والشراء إلا إذا كان في جيبه أجور لهؤلاء، فكل شيء له ثمن، لكن بإمكانك أن تدخل إلى بيوت الله عزّ وجل مجّاناً فلا يوجد رسم اشتراك، ولا رسم دخول ولا ضريبة ولا مغرم..

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)

لعلك كلّفتهم ما لا يطيقون ؟ لعلك ألزمتهم بدفع مبالغ طائلة عندئذٍ أحجموا عن تلبية دعوتك حفاظاً على ثروتهم أو على مالهم ؟

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47))

معنى عندهم الغيب ؛ أي:هل عندهم مفاتيح القضاء والقدر ؟ هل عندهم ضماناتٌ لمستقبلهم ؟ أهم يعرفون ماذا كُتِبَ في اللوح المحفوظ ؟..

(أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

فيأخذون منه ضماناً لمصالحهم ؟

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة القلم: آية " 48 ")

أوامر الله تكليفية وتكوينية:

1- أمره التكليفي: الحقيقة أنّ المؤمن مكلّف أن يصبر عن الشهوات المحرّمة، ومكلّفٌ أن يصبر على الطاعات، ومكلّفٌ أن يصبر على القضاء والقدر، و مكلّفٌ أن يصبر على حكم الله، و الله عزّ وجل يُعطي كل إنسان حظوظاً متفاوتة، فأنت حَكَمَ الله لك بأن تنجب بنات فقط فهذا حَكَمَ الله، وحكم الله لإنسان آخر أن يجعله عقيماً، وحكم لإنسان ثالث أن يكون ذا دخلٍ كبير، ولإنسان رابع ذا دخلٍ محدود، ولإنسان خامس أن يؤدّب بهذه الطريقة، فهذا كلّه حُكْمُ الله، و الله عزّ وجل له أمر تكليفي، وله أمر تكوين.

2- أمره التكويني: (أفعاله) مثلاً: إذا كان هناك خصمان يتخاصمان فقد يربح أحدهما الدعوة على أخيه ولكنه قد يكون ظالماً، وقد يكون أخوه مظلوماً، فحكم الله هنا يأتي مُعاكِساً لحكم القاضي، فقد يعوّض المظلوم و يبطش بالظالم، فهذا حكم الله، و أفعال الله هي حكمه، فقد يطلق الزوج زوجته مثلاً، و تكون الزوجة مظلومة في هذا، لذلك كانت حكمة ربنا عزّ وجل مع الزوجة المظلومة أن يكافئها بزوجٍ يكرّمها، وحكم الله مع الزوج الظالم أن يعاقبه بزوجةٍ تَكيل له الصاع صاعين، فهذا حكم الله،

فحكم الله عزّ وجل هو أفعاله، فأحياناً يُكرم و يُعلي و يعز، وأحياناً يهين و يذل، وقد يُعطي و يمنع و يشفي ويعافي و يرفع ويخفض ويقبض و يبسط، فهذا هو حكم الله..

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة القلم: آية " 48 ")

معاني (فاصبر):

1- أي: إذا كان عندك إكرام فاشكر، وإذا كان هناك شيء مخالف لرغبتك فاصبر..

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

2- أي: فاصبر للأمر والنهي، فالأمر والنهي يحتاجان إلى صبر، فهما تكليف، والتكليف ذو كُلفَة، و يقول الله في سياق الآية التي يخاطب بها النبي عليه الصلاة والسلام مسلياً له: اصبر على هؤلاء الذين يكذِّبونك، ويجحدون دعوتك، ويسخرون منك، ويأتون بشيءٍ يؤلمك.

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ)

قصة يونس عليه السلام:

لقد قال الله تعالى لسيدنا يونس عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام..

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)

و الحقيقة أن ربنا عزّ وجل ذكر لنا قصة سيدنا يونس، هذا النبي الكريم الذي أرسله الله إلى قومه فدعاهم ليلاً ونهاراً فلم يستجيبوا له، فضاق بهم ذرعاً، وشعر بضَجَرٍ وتركهم وولّى إلى جهةٍ أخرى، فهام على وجهه ضجراً من تكذيبهم وإعراضهم وجحودهم، فقال الله له:

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى)

دعا الله أن يُهْلِكَهُم لأنه لا خير فيهم..

(إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49))

تَرْوي الأخبار أن سيدنا يونس حين ضَجِرَ من قومه و يئس من هدايتهم بعد أن أصرّوا على تكذيبه وعدم الاستجابة له هام على وجهه ودعا الله عليهم بالهلاك، واتجه إلى شَطِّ نهرٍ أو بحرٍ، وركب سفينةً، و تروي الأخبار أن رُكّاب السفينة كانوا أكثر من قدرة السفينة على التحمل، فأشرفت السفينة على الغرق وكان لا بدّ من تخفيف وزنها، فأجروا قرعةً فوقعت على سيدنا يونس، فكان لابدّ من أن يُلقَى في الماء، فأُلقي في الماء والتقمه الحوت.

أيها الإخوة...ما من مصيبةٍ يمكن أن تصيب إنساناً أكبر من أن يجد نفسه فجأةً في بطن حوت، في ظلمة الليل، و ظلمة البحر..

(فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)

(سورة الزمر: آية " 6 ")

هناك ثلاث ظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، فهل هناك أمل ؟ هذا الإنسان قد أصبح لقمةً في بطن الحوت، و الحوت وزنه مائة وخمسين طناً، و لقمة الحوت المعتدلة من السمك تبلغ أربعة أطنان، فالحوت يفتح فمه ويمشي فيطبق على أربعة أطنان، و هذه وجبة خفيفة بالنسبة له، فبكم تُقَدِّر الأحماض التي تفرزها معدته ؟ لقد دخل سيدنا يونس وهو النبيٌّ الكريم في بطن الحوت، فماذا يفعل ؟

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

(سورة الأنبياء: آية " 87 ")

من يسمعه الآن ؟ وهو في ظلمة بطن الحوت، و ظلمة البحر، وظلمة الليل، هل يوجد معه مكبّرات صوت ؟ هل يوجد معه تليفون خلوي ؟ من يسمعه ؟

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

قال العلماء: **" إذا أثنى الإنسان على الله فثناؤه دعاء "**

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)

لقد قال: هذا الفعل فعلك يا رب وأنا أستحقّ ذلك لأنني ضجرت من قومي، ويئست منهم، وهمت على وجهي، ودعوت عليهم بالهلاك..

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)

فمعنى هذا أن ثناءه دعاء..

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

لكن أجمل ما في هذه القصّة، وهو ما يعنينا منها قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

وهذا يحدث في أي زمن و مكان، وفي أي حال و وضع، وفي أي عصر ومصر..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

من كل المصائب ؛ من مرضٍ عُضال، أو ضائقةٍ مالية، أو عدوٍ شرس، أو همٍّ ساحق، أو قلقٍ مخيف، فلا شيء أصعب من أن يكون الإنسان في بطن حوت وفي ظلماتٍ ثلاث، فربنا عزّ وجل قد ذكر لنا أصعب مصيبةٍ يمكن أن تصيب إنسان، ومع ذلك نجّاه الله منها، لقد نجّاه ثم قلب هذه القصّة إلى قانون فقال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

فهل يوجد يأس مع الله عزّ وجل ؟ الآن أقول لكل إخواننا الحاضرين: هل من الممكن أن يصاب أحدنا بمصيبة أشد من هذه المصيبة ؟ لقد نجّى ربنا عزّ وجل يونس منها وقال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

لقد سَبّح، ووحّد، واستغفر..

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء: آية " 87 ")

هذا دعاء..

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)

(سورة القلم: آية " 48 ")

والحقيقة أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن كصاحب الحوت، فعندما ذهب عليه الصلاة والسلام إلى الطائف ودعا أهلها إلى الله عزّ وجل كذّبوه، وسخروا منه، وضربوه، فأراد الله عز وجل أن يُظهر كماله ليستحق أن يكون سيد الأنبياء والمرسلين، فأرسل له ملكاً، فقال له:

((يا محمد أمرني ربي أن أكون طوْعَ إرادتك لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين))

أي: إن الأمر لك، أعطني إشارة فقط لأجعل سكان الطائف يبادون عن آخرهم، فماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((اللهمّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون))

فلم يتخلّ عنهم، بل دعا لهم، واعتذر عنهم وتأمّل أن يكون أولادهم صالحين..

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ)

فمعنى ذلك أن الله قَبِل توبته، فإذا وقع الإنسان في ذنب ماذا يفعل ؟ عليه أن يتوب،كما فعل يونس عليه السلام، و قوله (تداركه نعمة من ربه)؛ أي: إن الله قَبِل اعتذاره وتوبته و استغفاره، وعفا عنه وأنقذه..

(لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)

(سورة القلم)

لقد لَفَظَهُ الحوت إلى اليابسة بأمرٍ من الله عزّ وجل، و لولا أن الله غفر له لكان شقيّاً إلى أبد الآبدين، لكن الله رحيم..

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

(سورة القلم)

أيها الإخوة الكرام... لا يجتمع اليأسُ و القنوط و الحُزْنُ و القهرُ و الخوفُ مع الإيمانِ بالله، فإن آمنت بالله علمت أن كل شيء بيد الله عزّ وجل، فاجعل هذه القصّة دائماً نُصْبَ عينيك، وكلّ مهمّة ألمّت بك

هي أقلّ بكثير من مصيبة صاحب الحوت، سواء كانت مشكلتك مشكلة دخل قليل، أو غير ذلك، فتذكر أن ذلك النبي الكريم دخل إلى بطن الحوت..

(لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)

مذمومٌ: من قِبَل الله، فلولا أن الله عَفا عنه وقَبِل توبته ورحمه لكان مذموماً من قِبَل الخالق، ومن قِبَل المخلوقين، ومن قِبَل نفسه..

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ)

أي تاب عليه وقَبِله..

(فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

وعاد إلى قومه، وآمنوا معه جميعاً، وأكرمه الله بهم.

هذه الآية تُعَدُّ مثلاً أعلى للدُعاة، فالداعية قد يحتمل التكذِيب و الطعن، والسخرية، والاستخفاف، والمعارضات، فهناك دائماً من يكيد له و يُشَكِّك فيه، فيجب أن يكون هذا النبي الكريم قُدْوَةً لكل داعيةٍ على الإطلاق..

(وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ)

(سورة القلم: آية " 51 ")

أي: من شدّة عداوتهم و حقدهم وغيظهم كانوا ينظرون إلى النبي عليه الصلاة والسلام نظرة الحقد والحَسَد، وكأن هذه النظرات من شدّة قسوتها تَحْمِلُ النبي على أن يَقَعْ..

(وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ)

ولا سيما..

(لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ)

فهناك معركةٌ أزليةٌ أبديةٌ بين الحقّ والباطل، فكل من دعا إلى الله له من يُعارضه، ويَسَفِّهُهُ و يقف أمامه ويشكك فيه، فبدت هذه الآية واضحةً عند النبي عليه الصلاة والسلام، فهؤلاء الذين كفروا كرهوا دعوة النبي، وحقدوا، وبغضوا، وتألّموا فكانوا إذا نظروا إليه وهو يقرأ القرآن تمتلئ قلوبهم حقداً، وغيظاً، وحسداً..

(لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)

والحقيقة أن المجنون من عصى الله..

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2))

(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6))

وقد ذكر ربنا عزّ وجل هذه التهمة التي أتهم بها النبي عله الصلاة والسلام ظُلماً، في قرآن يُتلى إلى أبد الآبدين، ليجعل ذلك تسلية للمؤمنين، فقد أتُهم سيد الخلق وحبيب الحق بأنه مجنون، فمن أنت ؟ أنت إنسان أقل من ذلك.

أيها الإخوة الكرام... ذكرت مرّةً أن النبي عليه الصلاة والسلام كان مع أصحابه فرأوا إنساناً مجنوناً في الطريق فسألهم سؤال العارف:

" من هذا ؟ فقالوا: هذا مجنون، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا هذا مبتلى، المجنون من عصى الله))

لذلك يجب علينا أن نعتقد أن المجنون هو الذي يعصي الله.. قال رجل لأحد الصالحين (لسيدنا جعفر الصادق): إن جاري ظلمني، فقال له: اصبر، فقال له: أخاف أن أكون ذليلاً، فقال هذا الإمام العظيم: " الذليل من عصى الله، والذليل من ظلم الناس "؛ أي: هو ذليل في المآل، أما إذا كنت في طاعة الله فأنت العزيز..

(وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ)

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران: آية " 119 ")

فالمؤمن سليم الصدر طيّب..

(وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

(سورة القلم)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحاقة 069 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-06-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

عاقبة المكذبين

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الأول من سورة الحاقة.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَاقَةُ (1) مَا الْحَاقَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10))

أيها الإخوة الكرام... ورد في بعض التفاسير: أنه من قرأ إحدى عشرة آية من سورة الحاقة أُجيِر من فتنة الدجّال، وأن من قرأها كانت له نوراً يوم القيامة.

الحاقّة: القيامة، وإن أخطر شيءٍ في حياة الإنسان هو هذا اليوم الذي يُحاسب فيه عن كلّ أعماله، فيُعطى حقّه كاملاً.

أسباب تسمية يوم القيامة بالحاقة:

وقد سُمِّيَ هذا اليوم بالحاقّة لأسبابٍ كثيرة:

1- السبب الأول:

سمي يوم القيامة بالحاقة لأن الأمور تَحِقُّ في هذا اليوم ؛ أي: تستقر، فهناك أشياء باطلة و كاذبة ومزوَّرة وطاغية، فكل شيءٍ في هذا اليوم يعود إلى وضعه الطبيعي، ويستقرّ على حجمه الطبيعي و قيمته الحقيقية ؛ فهناك من يعلو، وهناك من يخفض، و هناك من يَقْوى، و هناك من يضعف، و هناك من يغتني، و هناك من يفتقر، فتستقر حركة الناس التي كانت في الحياة الدنيا استقراراً دقيقاً، و كل إنسانٍ منهم يُعطى حجمه الحقيقي، و يُقيّم عمله تقييماً صحيحاً، و سُمِّيَت الحاقة لأن الأمور تَحِقُّ فيها، أي تستقر..

لقد ضربت مُرّةً لكم مثلاً فقلت: هناك كرةٌ في بعض جوانب جدرانها قطعةٌ من الرصاص، فمهما دحرجت هذه الكرة لا تستقر إلا إذا كانت قطعة الرصاص في الأسفل، لأن هذا هو الوضع الطبيعي، والإنسان كذلك قد يعلو بغير حق، و قد يغتني و يَقْوَى بغير حق، كما قد يضعُف من دون سبب، وقد يفتقر لأنه أطاع الله عزّ وجل، فالدنيا دار ابتلاء، و عمل وامتحان و تكليف، و ربنا عزّ وجل يقول:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة الإسراء: آية " 21 ")

قد تجد إنساناً في الدنيا يملك ألوف الملايين، وقد تجد مائة مليون إنسان لا يملكون درهماً واحداً، كما قد تجد في الدنيا إنساناً قوياً جداً، يستطيع بحركةٍ وإشارةٍ منه أن يفدي آلافاً مؤلّفة، وقد تجد إنساناً ضعيفاً لا يستطيع أن يغضّ بصره أو أن يحدّ النظر في شيء، ففي الدنيا يوجد القوي و الضعيف، و الغني و الفقير، و الوسيم و الدميم، والصحيح والمريض، وذلك لأن الحظوظ موزّعة توزيع ابتلاء..

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

أيها الأخ الكريم... أنت ممتحنٌ في الدنيا، وأنت ممتحنٌ مرّتين ؛ والامتحان الأول هو فيما أعطاك، والثاني هو فيما سلب منك، فأنت ممتحنٌ إذا كنت قوياً، وممتحنٌ إذا كنت ضعيفاً، و ممتحنٌ إذا كنت غنياً، وممتحنٌ إذا كنت فقيراً..

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

الفرق بين مراتب الدنيا ومراتب الآخرة:

و في الدنيا مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، فقد لا يكون الغني القوي الصحيح مكرّماً عند الله، وقد يكون الفقير المريض الضعيف هو الولي المكرّم، فمراتب الدنيا لا تعني شيئاً وهي مؤقّتة، وقد تعني عكس ظاهرها، بينما تعني مراتب الآخرة كل شيء، وهي مستقرّة، الحاقة ؛ أي: يَحِقُّ في هذا اليوم الحق، فقد يكون الإنسان غنياً في الدنيا، لكن الغنى في الجنة يكون باستحقاقٍ وجدارة مع رضا الله عزّ وجل، وإذا كان في الدار الآخرة محروماً فهذا الحرمان هو استحقاقٍ دقيق ناتج عدلٍ مطلق، فمراتب الدنيا لا تعني شيئاً إذاً، وهي مؤقتةٌ، وقد تعني عكسَ ظاهرها ؛ بينما مراتب الآخرة تعني كل شيء، وهي متوافقةٌ مع عمل صاحبها، كما أنها أبديةٌ لا نهاية لها، لذلك كان السعيد من تحرّك إلى مراتب الآخرة، و طَمِحَ إلى مقعد صدقٍ عند مَليكٍ مقتدر، و طمح إلى الغنى بعد العرض على الله، كما قال سيدنا علي رضي الله عنه: **" الغنى والفقر بعد العرض على الله ".**

فأول معنى من معاني الحاقّة هو: اليوم الذي تحقُّ فيه الأمور ؛ أي تستقر على وضعها الطبيعي و تُعطى حجمها الحقيقي وقيمتها الحقيقية، فالحق حق والباطل باطل، والخير خير والشر شر، و المعروف معروف، والمنكر منكر ؛ أما في عالم الدنيا فقد يغدو المنكر معروفاً، وقد يغدو المعروف منكراً، و قد يُصدّق الكاذب وقد يُكذّب الصادق، وقد يخوّن الأمين وقد يؤتمن الخائن، كما قد تكون المَراتب ليست وفق أعمال اجتهادهم أصحابها بل وفق نفوذهم وانتمائهم، هكذا هي أمور الدنيا، أما أمور الآخرة فهي مستقرة على وضعها الصحيح و قيمتها الصحيحة وحجمها الصحيح، لذلك هنيئاً لمن كان متفوّقاً بمقياس الآخرة، والويل لمن ظنّ التفوق بمقياس الدنيا، لأن الدنيا تذهب من بين يدي الإنسان

في ثانيةٍ واحدة، فكل ما جمّعه الإنسان في عمرٍ مديد يخسره في ثانيةٍ واحدة إذا توقّف قلبه، أو تجلّط دمه، فإذا حدث ذلك انتهى، أما المؤمن فتراه ينطلق إلى حياةٍ أبديةٍ كلُّها خيرٌ وهناء.. فقد سميت الحاقة حاقةً لأن الأمور تَحِقُّ فيها، أي تستقر على وضعها الطبيعي، و تأخذ حجمها الحقيقي و تُعْطَى حجمها الصحيح و تُقَيَّم تقيماً مطلقاً، فرب الكائنات هو الذي يحكم، و رب الوجود هو الذي يفصل، و خالق الأكوان هو الذي يعطي أو يمنع..

2- السبب الثاني:

قيل: سُمِّيَت الحاقّة حاقّةً لأنها محققة الوقوع، فما من حدثٍ في حياة الإنسان أشد واقعيةً وتحقُّقاً من هذا اليوم، فإذا ضربنا الجامعة مثلاً وسألنا: ما أخطر يومٍ في الجامعة ؟ إنه يوم الامتحان، فإن لم تنجح في هذا اليوم فلا قيمة لكل هذا العام الدراسي، و لا قيمة لكل الدوام، و لا قيمة للمصاريف التي دفعتها ولا الكُتب التي اقتنيتها ولا الدروس التي حضرتها، ولا الوظائف التي أدَّيْتَها، لأن الامتحان حسم كل ذلك وأنهاه، فأخطر يومٍ في العام الدراسي هو يوم الامتحان، وما من يومٍ محقق الوقوع كيوم الامتحان، فأي طالبٍ غفل عن هذا اليوم فهو أحمق..

سُئِلَ مرّةً أحد الطلاب الذين نالوا الدرجة الأولى على طُلاّب القطر: بم نلت هذه الدرجة العالية ؟ فأجاب إجابةً أعجبتني، قال: لأن يوم الامتحان ما غاب عن ذهني ولا ساعةً واحدة طوال العام الدراسي. وكل واحد من المؤمنين إذا جعل هذا اليوم (الحاقة) أمام عينيه وأدخله في كل حساباته ؛ في تجارته، و بيعه، و شرائه، و حديثه، و نظره، وسمعه، و بطشه، و سيره، و شؤون بيته، و شؤون عمله، و شؤون أفراحه و أتراحه، إذا أدْخَلْتَ هذا اليوم المحقق الوقوع، و الذي يكون فيه الحساب دقيقاً والعمل مقيَّماً فقد نجحت وفزت، أما إذا غفلت عن هذا اليوم المصيري فقد وقعت في خطلٍ وخطأٍ كبيرين.

(الْحَاقَةُ)

فالأمور تَحِقُّ فيها، أي: تستقر على وضعها الصحيح،و تقيمها الدقيق و حجمها الحقيقي، وذلك بميزان خالق السماوات والأرض.

والسبب الثاني لهذه التسمية هو أن هذا اليوم مُحَقِّق الوقوع، فلا يمكن إلا أن يقع، لأنه حتمي الوقوع، فالإنسان أحياناً يتوقّع أن هذا الشيء قد يقع أو لا يقع، وهو في شكٍ منه، فَسَمَّى الله يوم القيامة:

(الْحَاقَةُ)

لأنها محققة الوقوع..

(وَأَنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا)

(سورة الحج: آية " 7 ")

(فَاصْفَحِ الصّفْحَ الْجَمِيلَ)

(سورة الحجر)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

(سورة الصافات)

من العاقل الذكي الفائز الفالح الناجح المتفوّق ؟ إنه ذلك الذي أدخل هذا اليوم في دقائق حياته ؛ في نظرته و كلمته و حركته و سكنته، و منعه و عطائه و ابتسامته و عبوسه وغضبه و رضاه و عمله في بيته و تجارته وكسبه للمال و إنفاقه له..

(الْحَاقَّةُ)

فالحساب فيه دقيق، وأعمال الإنسان ستُعْرَض عليه بكل تفاصيلها ؛ صغيرها وكبيرها..

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف)

السبب الثالث:

سُمِّيَ هذا اليوم (يوم القيامة) بالحاقّة لأن هذا اليوم يُعْطى فيه كلّ صاحب حقٍ حَقّه، فكم من مظلومٍ في عالم الدنيا، و كم من خاسرٍ يستحق أن يكون رابحاً، و كم من رابحٍ يستحق أن يكون خاسراً، و كم من قويٍ ينبغي أن يكون ضعيفاً، وكم من ضعيفٍ ينبغي أن يكون قوياً، و كم من متطاولٍ حقه أن يُتطاول عليه، فالدنيا دار ابتلاء..

" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرحٍ فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبة، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي ".

و سُمِّيَ يوم القيامة بالحاقّة لأن كل إنسانٍ يُعْطى حقّه كاملاً غير منقوص..

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: آية " 185 ")

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

(سورة الفرقان)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

(سورة الطور)

(مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة الحاقة)

سُمِّيَ يوم القيامة بالحاقّة لأنه في هذا اليوم يُعْطَى كل ذي حقٍ حقّه كاملاً، فلا يُمكن لأحد أن يقول: أنا مظلوم، لم آخذ حقي، لقد هُضِمَ حقي، و لم يعرف الناس قيمتي، و لم يعطوني استحقاقي، فهذا يقال في الدنيا، أما الآخرة، فقد قال تعالى عنها:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

(كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(سورة الزمر)

أيها الإخوة الكرام... هذا هو السبب الثالث لتسمية يوم القيامة بالحاقّة ؛ لأن هذا اليوم يُعْطَى فيه كل ذي حقٍ حَقّه.

4- السبب الرابع:

سمي يوم القيامة بيوم الحاقة لأنه يوم الغلبة للباطل، يقولون في اللُّغة: حاققته فحققته ؛ أي: غالبته فغلبته، فأعداء الدين الذين يُريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم فيقعون في الخندق الآخر، و يَسْعَوَن جاهدين في حياتهم الدنيا لإعلاء كلمة الباطل و إطفاء نور الله عزّ وجل، هؤلاء سوف يُغلبون..قال تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية " 36 ")

في هذا اليوم يُقْهَرُ الباطل بكل فِرَقِه و جماعاته و قِواه، فقد تجد الباطل الآن قوياً جداً، كما قد تجد للباطل قِلاعاً و مكانة كبيرة في عالم الدُنيا، وقد يكون الباطل بيده مقاليد الأمور، فهناك من يدّعي أن العالم كلّه في قبضته، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس: آية " 24)

فإذا رأيت للباطل جولةً، إذا رأيت لأهل الكفر والضلال قيمةً وقوةً، وهيمنةً، واستطالةً، وسيطرةً، وتحكّماً، وتغطرساً، إن رأيت لهؤلاء شأناً في الحياة الدنيا يجب أن تعلم علم اليقين أنهم مغلوبون في يوم القيامة لأن هذا اليوم يملكُه الله وحده..

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

(سورة الفاتحة)

حاققته فحققته ؛ أي: غالبته فغلبته، وسُمِّيَ هذا اليوم بالحاقة ؛ لأن الباطل في هذا اليوم يُدْحَر ويُغلَب، فقد يكون في الدنيا شأن للباطل..

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: آية " 94 ")

إن هذه التجمُّعات في الدنيا لا قيمة لها في الآخرة، و هذا التعاضد على الباطل والتكاتف من أجل إطفاء نور الله سيتلاشى يوم القيامة والله وحده هو الذي يحكم بين الناس.

والحاقّة والحقّة والحق: لغاتٌ ثلاث بمعنى واحد، فالحق هو الله، والآية الكريمة تقول:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

(سورة الأحقاف: آية " 3 ")

أي: إن الحق لابسَ خَلْقَ السماوات والأرض، وإن أردنا أن نعرف معنى الحق في هذه الآية، فإننا نعرفه بالقرآن الكريم نفسه، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

فالحق يتناقض مع اللّعِبْ، وقد خلق الله السماوات والأرض بالحق..

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

و الحق نقيض اللّعب..

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

و الحق نقيض الباطل، فالباطل هو الشيء الزائل، والحق هو الشيء الثابت، والباطل اللِّعب والعبث، والحق هو الشيء الهادف، فالحق من خصائصه الثبوت والسمو، فإذا قلت: خلق الله السماوات والأرض بالحق ؛ أي: خُلِقت لتبقى من أجل الهدفٍ كبير، وقد كان خلق الإنسان بالحق ؛أي: إنه خُلِقَ ليسعد إلى أبد الآبدين، فالحق يعني الثبات والسمو، و هذا اليوم يُعْطَى كُلُّ ذي حقٍ حقّه، ويعلم الذين كفروا أي منقلبٍ ينقلبون، و في هذا اليوم يعرف الإنسان الشارد أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعاً ليُسْعِدَهُم و يرحمهم..

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط !!

أيها الإخوة... هناك نقطة دقيقة جداً: وهي أن خيارك مع الإيمان ليس خيار قَبولٍ أو رفض، فهناك أشياء كثيرة خيارك معها خيار قَبولٍ أو رَفْض، فقد يُعرض عليك بيت فترفضه لصغر مساحته أو وضاعة مكانه أو بعده عن الشمس، وقد يُعرض عليك عمل فترفضه لأن الراتب قليل، وقد تُعرض عليك تجارة فترفضها لأن فيها مُخاطَرَة، فهناك أشياء كثيرة خيارك معها خيار قبول أو رفض، غير أن خيارك مع الحق هو خيار وقت فقط، فلابدَّ من أن تؤمن بما جاء به الأنبياء شئت أم أَبَيْت، ولكن يكون هذا الإيمان قد يكون بعد فوات الأوان ن في الوقت غير المناسب، و بعد أن تخسر الآخرة، فالخيار مع الإيمان خيار وقتٍ لا خيار قبولٍ أو رفضٍ، فلذلك:

(الْحَاقَّةُ)

هذا اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين..

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية " 56 ")

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان: آية " 27 ")

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي)

(سورة الفرقان)

فنحن خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط، فإن آمنا في الوقت المناسب سَعِدنا ونجحنا، وإن آمنا بعد فوات الأوان خِبْنا وخسرنا.

(الْحَاقَّةُ)

فالحاقة إذاً لها أربعة معاني..

(الْحَاقَّةُ)

ما: اسم استفهام ؛ أي:ما هي الحاقّة ؟ و هذا أسلوبٌ قرآنيٌّ معجز للفت النظر إلى خطورتها و قيمتها و هَوْلِها، وإلى العدل المُطْلَق الذي يكون فيها، لأن أخطر أيام الإنسان هو هذا اليوم الذي يقف فيه بين يدي الله عزّ وجل ليُحَاسب عن كل أعماله..

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

(سورة الصافات)

ورد في الأثر:

((أن الأغنياء يُحشرون أربع فرقٍ يوم القيامة ؛ فريقٌ جمع المال من حلال وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار.. حسابه سريع.. وفريقٌ جمع المال من حرام وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار.. حسابه سريع.. وفريقٌ جمع المال من حرامٍ وأنفقه في حرام.. حسابه أسرع.. فيقال: خذوه إلى النار.. بقي الفريق الرابع الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال هذا يقال له: قفوه فاسألوه هل تاه بماله على عباد الله؟ هل قصّر في أداء فريضةٍ أو صلاة ؟ هل قال جيرانه من حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصّر في حَقِّنا ؟ فيقول عليه الصلاة والسلام: تركته ومازال يُسأل ويُسأل))

الحاقة أخطر يوم في حياتنا، ففي الدنيا لك أن تقول ما شئت، و لك أن تدّعي ما شئت، و لك أن تستعلي على خلق الله، و لك أن تبذِّر المال، و لك أن تجمع المال من أي طريقٍ شئت، و لك أن تنفقه في الحلال والحرام، و لك أن تقول كلاماً غير صحيح، لكن هذا اليوم تَحِقُّ فيه الحقائق، وتستقر فيه الأمور، ويُعطى كل ذي حقٍ حقه هو محقق الوقوع، وهو اليوم الذي لا شك فيه..

(مَا الْحَاقَّةُ)

أسلوب للتهويل، والتعظيم، وبيان خطورة هذا اليوم..

(مَا الْحَاقَّةُ)

هل أنبأك أحدٌ عنها ؟ هل عَرَفْتَ خطورتها ؟ هل عرفت مصير الناس فيها ؟ هل عرفت أنها يوم الفصل، أنه يوم العدل، أنه يوم الدين، أنها يوم الدينونة ؟ ثم قال:

(ا وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

قال العلماء:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

أي: لأن أحداً لم يُعْلِمْكَ من قبل ما الحاقة، و ذلك من أجل أن يكون هذا المعنى قوياً في نفوسنا.

الفرق بين (أدراك)، و(يدريك):

ما قال العلماء: لقد قال الله تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ)

أي: إن الله لم يعلم النبي عنها لكن سيعلمه، وقد الآن أعلمه عن الحاقة عن طريق هذه الآيات، أما إذا قال: وما يدريك، أي أنه لن يُعْلِمَهُ، لأن هذا من شأن الله عزّ وجل..

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)

(سورة الشورى: آية " 17 ")

إذا قرأت القرآن ورأيت فيه (وما أدراك)، فاعلم الله عزّ وجل سيخبر نبيه بذلك، أما إذا قرأت في القرآن قوله تعالى:

(وَمَا يُدْرِيكَ)

فاعلم أن الله عزّ وجل لن يخبر نبيه بذلك، وأن هذا من شأن الله وحده، لذلك قال العلماء: " حينما قال الله عزّ وجل:

(وَمَا أَدْرَاكَ)

فالمعنى هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم يدري وصفها ولكن لم يعاينها ". وشتّان ما بين الوصف والمعاينة، فليس الخبر كالعيان، و قد تقول: لا دخان بلا نار، وتكون بذلك قد استعملت العقل، واستنبطت استنباطاً يقينياً أنه لا دخان بلا نار، فلو رأيت دخاناً علمت أن وراء الجدار نار، وقد تأتي خلف الجدار وترى النار بعينك، فتكون بذلك قد دخلت في علم اليقين، وقد تقترب من النار فتشعر بوهْجِها، أما حينما تضع يدك فوقها فهذا يكون شيئاً آخر، لأن هذا العيان، و ليس الخبر كالعيان، و الله سبحانه وتعالى أخبر النبي عن هذه الحاقّة ولكن النبي لم يعاينها، ونحن في حياتنا نعرف أن وصف الألم شيء وأن تذوق الألم شيءٌ آخر، وأن وصف الفقر شيء وأن تذوق الفقر شيءٌ آخر..

(وَمَا أَدْرَاكَ)

أي لم تعاينها، فليس الخبر كالعيان، ومهما وصفنا يوم القيامة وصفاً دقيقاً فإننا لا نكون كمن يعاينها، فقد تقرأ أحياناً عن زلزال، أو عن طائرةً سقطت فمات جميع ركّابها، فلو كان هناك إنسان في طائرة فاضطربت وشعر أن هناك خطراً ما، ثم اضطربت واضطرب طاقم الطائرة، و صار هناك إنذار، فإن قلب الإنسان عندئذ يكاد ينخلع، فإذا احترقت في الجو وأتيح لإنسان أن ينجو، ثم قيل له: صف ماذا حدث، فهذا الوصف شيء وقراءتك الخبر عن طائرةً سقطت ومات جميع ركابها هو شيءٌ آخر، فالخبر شيء والمعاينة شيء، فهذا اليوم ينسى فيه الإنسان كل شيء، و قد تقع عين الأم على ابنها يوم القيامة فتقول: يا بني جعلت لك في الدنيا صدري سقاءً، وحجري وطاءً، وبطني وعاءً فهل من صدقةٍ يعود علي خيرها اليوم ؟ يقول لها ابنها: ليتني أستطيع ذلك يا أماه إنما أشكو مما أنتِ منه تشكين..

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11))

(سورة القارعة)

قال بعض العلماء: " بلغني أن كل شيءٍ في القرآن.. وما أدراك.. قد أدراه إياه وعلّمه ". إذا قال الله:

(وَمَا أَدْرَاكَ)

لقد أدرى ربنا نبيّه وعلّمه، وكل شيءٍ في القرآن جاء بلفظ.. وما يدريك.. فهو مما لم يعلمه ولن يعلمه، أي: إن مضمون (وما يدريك) متعلقٌ بذات الله، فهو من شأن الله عزّ وجل، أما الذي قال الله عنه:

(وَمَا أَدْرَاكَ)

أي أن الله جلّ جلاله أدرى نبيّه بعد ذلك، وقال أحد العلماء أيضاً: **" كل شيءٍ قال الله فيه: وما أدراك فإنه أخبر نبيه به، وكل شيءٍ قال الله فيه: وما يدريك فإنه لن يخبر نبيه به "..**

(الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4))

بها أي أنظر إلى هؤلاء الذين كذّبوا بهذا اليوم ما مصيرهم ؟ الآن يوجد درس عملي..

معاني القارعة:

(الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4))

القارعة من أسماء يوم القيامة، وسميت بالقارعة لأنها تَقْرَعُ الناس بأهوالها، وتقول العرب: نعوذ بالله من قوارع فلان ونوازعه وقوارص لسانه، وتقول: العبد يقرَع بالعصا، أي: بالضرب القاسي، و الخبر المفزع، و الشيء الصاعق هي القارعة.. فقد تقرأ أخباراً كثيرة في الصحف عن عالم التجارة فلا تعيرها اهتماماً، أما الخبر الذي يقول إن كل المستودعات أو إن كل هذا المال صودر احترقت أو إن كل التجارة أخفقت فهو ليس بخبر عادي، فالتاجر قد يقف أمام هذا الخبر وقد يضرب التاجر جبهته بعد سماعه، كما أنه قد يقع مغمياً عليه، و قد يُصاب بجلطة، فتوجد أخبار في الدنيا صاعقة.. والدنيا مؤقتة، أما الخبر الذي يشيب له الولدان فهو: القارعة، فال تعالى:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ)

سميت القارعة قارعةً لأنها تقرع الناس بأهوالها، وقيل إن قوارع القرآن هي الآيات التي يقرأها الإنسان إذا فزع من الجنّ أو الإنس ؛ كآية الكُرسي، و سورة الفَلَق، وسورة النّاس، فإذا خاف الإنسان قرأها لتهدأ نفسه، وبعضهم قال: " القارعة مأخوذةٌ من القُرْعَة أي القرعة ترفع قوماً وتخفض آخرين، تعطي وتمنع ". أي يوجد في الآخرة ميزان آخر، وهذا معنى قوله تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

إنك قد تجد إنساناً في أعلى درجات الغنى، لكنه يوم القيامة مع الفقراء المحرومين، وقد تجد إنساناً فقيراً جداً في الدنيا، و هو يوم القيامة مع الأغنياء المرموقين..

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا رب نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة، ألا يا ربُ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة، ألا يا ربّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين، ألا يا ربّ مهينٍ لنفسه وهو لها مكرم))

و هذه القارعة..

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

من القُرعة، فقد تسحب قرعة فإذا بها ينالها فلاناً ويخسرها فلاناً.

يوجد معنى آخر: القارعة هي العذاب الذي ينزل في الدنيا، فثمود في بعض معاني هذه الآية كذّبت بالقارعة ؛أي: كذّبت بوعيد الأنبياء..

(وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

(سورة الجن)

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: آية " 279 ")

فالذين يتعاملون بالربا كذّبوا هذه الآية، ولم يعبؤوا بوعيد الله عزّ وجل.

إذاً يمكن أن تكون القارعة يوم القيامة لأنها تقرع الناس بأهوالها، ويمكن أن تكون القارعة العذاب الذي تَوَعّد الله به العصاة في الدنيا، وهناك من الناس من هو عاص منحرف متلبّس بالمال الحرام، تذكّره بوعيد الله فلا يأبه بل يسخر، فهذا يمكنك أن تقول له:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ)

أي كذّبوا بالعذاب الذي نزل بهم في الدنيا..

(اكَذَّبَتْ ثَمُودُ)

ثمود هم قوم صالح، وعادٌ قوم هود..

الطاغية:

(افَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)

(سورة الحاقة)

أي بالفعلة الطاغية، أو بالصيحة الطاغية المجاوزة للحد، وما هي إلا صيحة واحدة جعلتهم صَرعى كهشيمِ المحتظر، و الآية تقول:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

(سورة يس)

فلو أنك لو وجدت حشرة صغيرة جداً حجمها أقل من حجم النملة فإنك لا تحتاج معها إلا إلى ضربةٍ واحدة، و لا تحتاج ضربتين، و مهما كان الإنسان قوياً فهو ضعيفٌ ضعيفٌ ضعيف أمام عظمة الله عزّ وجل..

((أنا ملك الملوك ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخطة والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسَبِّ الملوك وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

إذاً:

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)

أي: بفعل الله، بفعلة الله الطاغية التي طغت عليهم فسحقتهم، أو بالصيحة الطاغية، ومعنى الطاغية ؛ أي: المجاوزة للحد الطبيعي.. فالشام شهدت عشرات الزلازل في هذا العام ؛ منها ثلاث درجات على مقياس ريختر ومنها أربع، أما لو كانت سبع درجات لأصبحت الأرض أثراً بعد عين..

(قَاعاً صَفْصَفاً (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً (107))

(سورة طه)

فهناك حد، و سرعة الرياح الطبيعية مائة وخمسون كيلو متر، فماذا يحدث لو أصبحت سبعمائة ؟ إنك لن تجد بيتاً قائماً، ولو كان الصقيع عشرين درجة تحت الصفر فإنك لن تجد ثمرة في الصيف تأكلها..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة القلم)

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)

أي: بعقاب تجاوز الحد الطبيعي ؛ فهناك برد مقبول، و رياح مقبولة، و زلزال مقبول ؛ يبلغ درجتين أو ثلاث، أما إذا بلغ سبعاً أو ثمانية لكان هذا دماراً كاملاً، و هناك رياح عاتية مقبولة، أما إذا جاوزت الحد لكان الدمار الكامل، وهناك صقيع مقبول، أما إن أصبحت درجة الحرارة سبعين تحت الصفر لكان هذا دماراً كاملاً..

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)

أي: بالصيحة المجاوزة للحد، والآية المؤكِّدة لهذا المعنى هي:

(أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)

(سورة القمر)

أي كانوا كالهشيم وهو شيء مُبَعْثَر، وقالوا: الطاغية: الصاعقة، وقال مجاهد وهو أحد العلماء:

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)

أي: بسبب طغيانهم ومجاوزتهم للحد ". وقال بعضهم: " بطغيانهم وكفرهم " وقال بعضهم الآخر:

(فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)

" أي بعاقر الناقة " و عاقر الناقة واحد فما ذنب الباقين ؟ قال: لأنهم أقرّوا ذلك وشجّعوه على عمله، وأيّدوه بفعلته فاستحقّوا جميعاً الهلاك..

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

الريح الصرصر:

هي الريح الباردة التي تُحرق ببردها، فإذا أمسك الإنسان أداة معدنية حرارتها عشرين تحت الصفر فإن جلده يلصق بها، وتحترق يده من شدة البرد، فاليد تحترق من شدة الحر ومن شدة البرد، و قد تسقط بعض أعضاء الإنسان في بعض المناطق القطبية، فريحٍ صرصرٍ ؛أي: باردةٍ تُحْرِقُ الناس، وكلمة صرصرٍ مأخوذةٍ من الصَر وهو البرد الشديد، أو ريحٍ ذات الصوت الشديد، والرياح إذا هبّت عاتيةً لها صوتٌ مخيف..

(بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

أو شديدة السموم، عاتية ؛ أي: عتت على خُزّانها فلم تطعهم.. وهذا معنى جديد.. تفلّتت؛ أي: تفلّتت من السيطرة، كأن الملك موكلٌ بهذه الريح، فقد تتفلّت هذه الريح أحياناً من سيطرة الملك، و ورد في الحديث الشريف أنّه:

((ما أرسل الله من نسمةٍ من ريحٍ إلا بمكيالٍ، ولا قطرةٍ من ماءٍ إلا بمكيالٍ إلا يوم عادٍ ويوم نوحٍ، فإن الماء يوم نوحٍ طغى على الخُزّان فلم يكون لهم عليه سبيل))

ثم قرأ قوله تعالى:

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

(سورة الحاقة)

والريح لمّا كان يوم عادٍ عتت على الخُزّان فلم عليها سبيل، ثم قرأ:

(بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ)

أي أرسلها وسلّطها، والتسخير استعمال الشيء بالاقتدار..

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)

متتابعة..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ((2)

(سورة الحج)

أنتم تقرؤون عن بعض المصائب التي وقعت في بعض البلاد، فيقال: هناك إعصار دمَّر ما قيمته ثلاثين مليار دولار، وهناك صقيع أتلف مئات الملايين من المحاصيل، و نحن في حياتنا الدنيا نسمع أخباراً كثيرة عن مصائب، وكوارث، وزلازل، وأشياء ينخلع لها القلب ونحن لم نزل في الدنيا قبل الآخرة، الآية الكريمة:

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)

أي: متتابعة، فإذا طالت موجة الحر لبعض الوقت فإن الناس يضجرون، وإذا كالت موجة البرد طالت يضجر الناس أيضاً، فهناك مشكلات لا يحتملها الناس إن استمرت..

حسوماً...

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

معنى حسوماً ؛ أي: متتابعات، ومعنى حسوماً ؛ أي: حسمتهم و استأصلتهم من شأفتهم.. وانتهوا.. فهناك معالجة، و تأديب، و مصيبة، و قصم، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

فالإنسان في قبضة الله دائماً وكأنه مربوطٌ بحبلٌ مرخى، و في أية لحظة يُشَد الحبل فإذا هو في قبضة الله، يقال: حُسِمَ الأمر ؛أي: انتهى، فإذا ارتكب إنسان جريمة فأُعدِم فإن إعدامه حسم، أما إن سُجِنَ فقط فهناك أمل في أن يخرج، وذلك بإصدار العفو عنه، وهناك أمل أن يهرب مادام مسجوناً، أما إذا أُعدِم فقد انتهى الأمر ؛ أي: حُسِمَ..

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)

الحسمُ هو الاستئصال، ويسمى السيف حُسَاماً لأنك به تستأصل المشكلة، فإذا ضربته بالسيف فقطعت رأسه انتهى الأمر، ولذلك سمِّي الحُسام حساماً، وحسمتهم ؛أي: قطعتهم وأذهبتهم، و لم أُبق منهم أحداً، و الحُسُوم: الشُؤم، فهذه الرياح تحسم الخير عن أهلها، فقد تجد أحياناً بعض الرياح التي تتلفت كل المحاصيل، كما أن هناك صقيعاً يحرق كل الثمار، و الحسم الشؤم أيضاً، وفي آيةٍ أخرى قال تعالى:

(فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ)

(سورة فصلت: آية " 16 ")

من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ إنا نعوذ بك من فجأة نقمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك))

فجأةً ينصبّ العذاب صبّاً، فيفقد الإنسان بصره، ويفقد حركته، وعند الله مصائب لا تُعَدُ ولا تُحصى.. نسأل الله السلامة " لكن عافيتك أوسع لنا يا رب "، فالإنسان لا ينبغي أن يصل له إلى طريقٍ مسدود، وقد كنت أضرب هذا المثل:

إذا ارتكب إنسان جريمة قتل فحُكِم بالإعدام، و صُدِّق الحكم، و سيق إلى حبل المشنقة، وهو على حبل المشنقة فقد وصل إلى طريقٍ مسدود، فإن أراد أن يبكي فليبكِ لأنه لابدَّ من أن يُشنَق، و إن أراد أن يضحك فليضحك، و إن أراد أن يستعطف فليستعطف، و إن أراد أن يبقى جلداً فليبق جَلداً، فأي شيءٍ يفعله لابدَّ من الشنق بعده، فهذا الحسم، والبطولة أن تبقي لك مع الله صلة، و ترجع إليه، وتستغفره، و تتوب إليه، و تصطلح معه ؛ لا أن تركب رأسك و تبالغ في الطغيان لأن الله عزّ وجل جبّار..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

وحسوماً ؛ أي: رياحاً أفنتهم عن آخرهم، حسوماً: استأصلتهم من شأفتهم، والله عزّ وجل يوجد عنده عذاب استئصال وهلاك..

(فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى)

والآن قد تسمع في بعض الأخبار عن خمسمائة ألف قتيل في جنوب أفريقيا خلال يومين، و مائة ألف في مقبرة جماعية.. وهذا الشيء يتكرر..

(فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

صرعى جمع صريع ؛ أي: موتى من الريح..

(فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)

لا يوجد أحد، هل ترى لهم من فرقةٍ باقية ؟ من نفسٍ باقية ؟ هل ترى لهم من بقية ؟ من بقاء ؟ كانوا سبع ليالٍ وثمانية أيام أحياء في عذاب الله من الريح، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم، والآن توجد قنبلة حديثة جداً إن ألقيت على مدينة لا تؤذي بناءً، ولا طريقاً، ولا جسراً بل تقتل الإنسان فقط وهي القنبلة (النيترونية).

أيها الإخوة... لابدَّ من الصُلح مع الله، و لابدَّ من طاعته، و لابدَّ من معرفته قبل فوات الأوان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحاقة 069 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 9-36
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-07-04

بسم الله الرحمن الرحيم

مصير المؤمنين ومصير الكافرين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة الحاقة، ومع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ)

(سورة الحاقة)

إن الإنسان يوم القيامة رَهين عمله، وإنما تكون نجاته أو هلاكه بحسب عمله، فالدنيا دار ابتلاء، بينما الآخرة دار جزاء، ففي الدنيا قد تستطيع أن تتحرّك حركةً لا تتأثر بعملك السابق، أما في الآخرة فيكون عملك الذي يتلبّسك هو سبب فوزك أو هلاكك، ففرعون كان فرعون مصر عندما كان في الدنيا، لكنه في الآخرة جاء بعمله متلبساً وسوف يلقى جزاء عمله تاماً وَفْقَ أدق موازين العدل.

مصير فرعون ومن قبله..

(وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ)

من قبله ؛ أي: من تقدّمه من القرون الخالية والأمم الماضية ؛ أي: جاء فرعون ومن تقدمه من الأمم الخالية والقرون الماضية..

انحراف قوم لوط..

(وَالْمُؤْتَفِكَاتُ)

هم قوم لوط الذين انحرفوا عن سواء السبيل، و ذكرت لكم من قبل أن الله سبحانه وتعالى خلق الذكر والأنثى، والحكم الشرعي لعلاقتهما هو الزواج، وليس من علاقةٍ بين الذكَر والأنثى إلا علاقة الزواج، فمن خرج عن هذا المنهج فقد خالف حكماً شرعياً ووقع في جريمة الزنى المخالفة للحكم الشرعي، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المعارج)

لكن عمل قوم لوط عملٌ ليس مخالفاً للحكم الشرعي فَحَسْب، بل هو مخالفٌ أيضاً للفطرة السويّة أيضاً، و مخالفة الفطرة شيءٌ أكبر من مخالفة الحكم الشرعي، لذلك أهْلَكَ ربنا عزّ زجل قرية لوطٍ فجعل عاليها سافلها، فأرسل عليهم حجارةً أهلكتهم، لأنهم خالفوا الحكم الشرعي و الفطرة الإنسانية، والذي يلفت النظر أنّه في هذا العصر الأخير، فَشَت الفاحشة إلى درجة شيوع ذلك المرض الخطير الذي أعيى

الجامعات ومراكز البحوث والعلماء أن يجدوا مصلاً مضاداً له، و هو بسبب الشذوذ، والشذوذ هي مخالفة الفطرة السليمة والحكم الشرعي معاً، فربنا عزّ وجل سَمّى قوم لوطٍ:

(وَالْمُؤْتَفِكَاتُ)

و الله جعل عاليهم سافلهم، وأرسل عليهم حجارةً فأهلكتهم، وقد استنبط العلماء أن الذي يرتكب جريمة قوم لوط يستحقُ القتل أو أن يُلْقَى من شاهق، و لا يعاقب بالجلد ولا الرجم، لأنه يخالف الفطرة ويخالف الحكم الشرعي ويعمل على إفساد المجتمع، وقد لفت نظري قبل أسابيع، أو قبل شهر تقريباً، أن هناك وزيرَ صحةٍ في أحد بلاد الغرب يحمل دكتوراه في العلوم الإنسانية، يعقد مؤتمراً صحفياً ويصرح بملء فمه أنه شاذٌ جنسياً، قلت: سبحان الله في أي عصر نحن!! يقول عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف))

وفيما أعلم أن هناك منظّمات في العالم الغربي تنظِّم هؤلاء الشاذين، وتعطيهم بطاقات، تدافع عن حقوقهم، و تدعو إلى دخلوهم الجيش في أمريكا، كما تدعو إلى رد اعتبارهم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ما ظهرت الفاحشة في قومٍ))

دققوا في هذا الحديث الذي يعدُّ من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما ظهرت الفاحشة في قومٍ حتى يعلنوا بها إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم))

انظروا إلى هذه الأمراض الجنسية الجديدة، هناك مرض الأكَلَة يالذي قضي على الإنسان في أربع وعشرين ساعة، فتتفتت أنسجته العضلية تفتُّتاً، وهناك أمراضٌ جنسيةٌ لا تعد ولا تحصى، إلا أن أبرزها وأشرها مرض الإيدز.

أيها الإخوة الكرام... قد يبذل العالم ألف مليون من العملة الصعبة لقيادة بحوثٍ تكتشف مصلاً مضاداً لهذا المرض، وما إن يتوصلوا جدلاً إلى مصلٍ مضاد لهذا الفيروس إلا يغيّر الفيروس شكله فتذهب كل هذه الأموال سدى، والحقيقة أن أضعف فيروس على الإطلاق يتحدى أقوى الحكومات، و يتحدى أقوى الجامعات و أقوى بحوث العلماء، و كل العالم مكتوف اليدين أمام هذا المرض، وجاء في أحد إحصاءات الأمريكية قبل سنةٍ أو أكثر أنه في كل عشر ثوانٍ يموت إنسان بهذا المرض، والشيء الذي لا يصدّق أن بعوضةً تقف على جسم مصاب فتغرز خرطومها في جسمه وتمتص من دم المصاب وتقف على جسم صحيح فتغرز خرطومها الملوث بهذا الفيروس فلا تنتقل العدوى من هذا إلى هذا، وذلك الله جلّ جلاله أراده عقاباً للانحراف ولم يريده مرضاً كبقية الأمراض يبتلى به الإنسان، إذاً:

(وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ)

أي بالمعصية والكفر، و الإنسان حينما يكفر يعصي، و حينما يؤمن يُطيع، فالكفر تكذيبٌ وإعراضٌ وانحراف ؛ والإيمان تصديقٌ وإقبالٌ وانضباط.

(وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً(10))

من هو رسول ربهم ؟

1- قال علماء التفسير: هو سيدنا لوط، لقد عصوه وأبوا إلا أن يحققوا شهواتهم وفق انحرافهم لا وفق منهج الله عزّ وجل، قال:

(يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)

(سورة هود: آية " 78 ")

هذه المرأة خلقها الله لتكون زوجةً، وهذا الذي تبحث عنه يجب أن يُروى من خلال امرأة واحدة فقط، وهي الزوجة..

(فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ)

(سورة الحاقة)

2- وقال بعض المفسِّرين: الرسول هنا هو سيدنا موسى، وفرعون هو الذي عصى أمره، أما سيدنا لوط فقد عصى قومه أمره.

(فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً)

أي: أخذةً زائدةً عن الحد المعقول، لأن ربنا عزّ وجل يقول:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ((2)

(سورة الحج)

(رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً)

أي أخذةً عاليةً زائدةً على العذاب الذي يتقبّله الإنسان، ثم يقول الله عزّ وجل:

مصير قوم نوح..

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

(سورة الحاقة)

فكيف يخاطب الله قريشاً ؟ إنه يقول:

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ)

ولو أنه قال: حملناهم لكان المقصود قوم نوح، لكن لمّا قال:

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ)

استنبط العلماء أن الذين عاشوا على وجه الأرض هم من نسل سيدنا نوح ومن نجا معه من السفينة، لأن الله سبحانه وتعالى أهلك كل من عاصر هذا النبي الكريم إلا من رَكّب السفينة..

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

(سورة هود)

فربنا عزّ وجل لم ينجّ إلا ركاب السفينة، و البشرية كلها انحدرت من نسل هذا النبي الكريم وهو سيدنا نوح، و نحن من أبنائه.

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

قال بعض العلماء: طغا الماء ؛ أي: طغى على خُزّانِه من الملائكة غضباً لربه، وكأن هذا الماء أُعطي ما يسمى بالتشخيص، أو أعطي نفساً مدركةً، فلم يحتمل كُفر هؤلاء، فكأنّه تفلت من ضبط خزانه الملائكة.

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ)

يروى أن الإمام علياً كرم الله وجهه قال: **" طغى على خُزّانِه من الملائكة غضباً لربه، فلم يقدروا على حبسه ".**

لذلك حينما فار التنّور نبع هذا الماء من كل مكان وشكّل بحراً هائجاً، ولم ينج من سكان الأرض إلا من ركب سكان نوح، وقال بعضهم: ليس من الماء قطرةٌ تتنزّل قبله، ولا بعده إلا بكيلٍ معلومٍ غير ذلك اليوم، فالأمور دقيقة جداً، إلا أنه في هذا اليوم فار الماء من كل ينبوع وملأ الأرض وطغى حتى أهلك كل من كفر بهذا النبي الكريم.

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

الجارية: السفينة، كلما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه، في النهاية لم ينج إلا ركّاب السفينة..

مراحل الدعوة الإلهية:

(لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ)

(سورة الحاقة)

قال بعض المفسرين: أراد الله سبحانه وتعالى أن يبقي ألواح السفينة على جبلٍ هو الجودِيّ، لتكون آثار هذه السفينة عبرةً للناس من بعد نوحٍ عليه السلام، وقال بعضهم: إن إغراق قوم نوحٍ الذين كذّبوه هو الموعظة الباقية التي ينبغي أن نتّعظ بها وأن نتخذها درساً بليغاً في حياتنا، أي أن ربنا عزّ وجل يدعونا

دعوةً بيانية، فإن استجبنا وسلمنا سعدنا، وإن لم نستجب دخلنا في مرحلةٍ جديدة من مراحل الدعوة إلى الله، وهي مرحلة التأديب التربَوي، فإن استجبنا وتبنا إلى الله عزّ وجل نجونا وسلمنا وسعدنا، وإن لم نستجب دخلنا في مرحلةٍ ثالثة وهي الإكرام الإستدراجي، فإن تُبنا وشكرنا نجونا وسلمنا، وإن لم نفعل قصمنا الله عزّ وجل، و هذه هي سياسة ربنا جلّ جلاله، مع عباده، يدعوهم دعوةٌ بيانية، ثم يربّيهم تربيةٌ تأديبية، ثم يكرمهم إكراماً استدراجياً، فإن لم يستجيبوا ولم يتوبوا ولم يشكروا أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر.

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (12))

السماع استجابة!!

الحقيقة أن ربنا عزّ وجل حينما تحدّث عن السماع وصف السماع بأنه استجابة..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

فعلامة السماع الصحيح هو الاستجابة، من هنا قال الله عزّ وجل:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: آية " 4 ")

لا يسمّى سماعاً ولا إصغاءً إلا إذا تاب الإنسان إلى الله عزّ وجل، أما أن يُلْقِي الإنسان سمعه ويستوعب الكلام ثم لا يتحرك ولا يأخذ موقف، و لا يحاسب نفسه، و لا يدع مُنكراً ولا معصيةً، فهذا السماع لا قيمة له، فهذا الذي يسمع ولا يستجيب هو في حكم الذي لا يسمع.

أيها الإخوة...

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (12))

الأُذُنُ الواعية هي التي تعي الوقت، فما دام الإنسان في بحبوحة و صحة و شباب، وغنى و فراغ و قوّة و فُسحة من عمره، فيجب أن يستجيب إلى الحق وأن يصغي إليه، وأن يستوعبه، وأن يأخذ موقفاً عملياً، أما إذا أَلْقَى السمع ولم يفعل شيئاً، فهذا يؤكِّد أنه لم يستمع، فأنت إذا قلت لإنسان: على ظهرك عقرب. فبقي هادئاً جداً والتفت إليك وقال: إنني أشكر منك هذه الملاحظة، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكّنني أن أكافئك عليها، فهل يكون قد فهم ما قلت له ؟ بالتأكيد لا، فلو أنه فهم أن على كتفه عقرب لقفز وصاح وخرج من جلده خوفاً وفرقاً، لكنه حينما بقي هادئاً، ثم انتبه إلى هذه الملاحظة وشكرك عليها وتبسّم فمعنى ذلك أنه ما سمع ما قلت له، فالذي لا يستجيب كأنه ما سمع.

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ)

(سورة الحاقة)

قال العلماء: هذه النفخة هي النفخة الأولى لقيام الساعة التي لا تبقي أحداً على قيد الحياة..

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14))

الأرض والجبال حُمِلَتَا وارتطمتا ودُكّتا وسويتا، الآية الكريمة:

(وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة يونس)

(وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)

(سورة الحاقة)

أي: سوّيتا ببعضيهما ؛ جبال شاهقة، ووديان ساحقة، تلال، أكَمَات، وهاد، أرض وعرة، أرض مستوية، سواحل، أغوار، كل هذه التضاريس أُلْغِيَت، فدكت دكةً واحدة وأصبحت مستويةً مع بعضها بعضاً..

أهوال يوم القيامة:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15))

(سورة الحاقة)

والواقعة هي التي لابدّ من أن تقع.

(وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)

فوقوعها محقق، لذلك تأخذ أكثر الكلمات التي يعبّر عنها في القرآن عن المستقبل الكريم صيغة الفعل الماضي لتحقق الوقوع..

(فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16))

(سورة الحاقة)

أي إن السماء انشقت و أصبحت ضعيفة، فتفكك هذا التماسك وهذا النظام التجاذبي الحركي، و تخلخل نظام هذا الكون المبني أقوى البناء، وتفتت الأرض، وتبعثرت الكواكب وأصبحت السماء واهية.

(وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ)

أي: ضعيفة...

(وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا)

أي: على أطرافها..

(وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ)

(سورة الحاقة)

قال العلماء: ثمانية أصنافٍ من الملائكة، أو ثمانية أزواجٍ من الملائكة.

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

(سورة الحاقة)

بيت القصيد:

دخلنا الآن في بيت القصيد..

يومئذٍ تعرضون على الله عزّ وجل ؛ فكل إنسان مخبوء بين ثوبين يعرض عمله و نيّته و مطامحه، و أفعاله، و حركاته، و سكناته، و نشاطاته، و مواقفه، و عطاؤه، و منعه، و غضبه، و رضاه، و وصله، و قطعه، و رحمته، و قسوته، و عنايته، و إهماله، وإخلاصه، و تفلّتُهُ، و استقامته، و انحرافه..

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ)

تربية أولاده، و معاملة زوجته، و معاملة جيرانه، و معاملة شركائه، و معاملة زبائنه، و معاملة من فوقه، و معاملة من تحته، و معاملة من عاصره، في لهوه، في جِدِّهِ، في فرحه، في ترحه، في سفره، في إقامته، في أتراحه.

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

أي: كأنك تشاهد شريطاً فيه كل تفاصيل حياتك، و كل دقائقها، فكل ما فعلته في الدنيا معروضٌ عليك بأدق التفاصيل والجزئيّات !!

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

(سورة الإسراء)

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

لا تستطيع أن تخفي عن الله شيئاً، فأنت بإمكانك الآن أن تُخفي عن معظم الناس أشياء كثيرة، و قد توهم أُناساً كثيرين أنك في وضع وأنت في خلافه، كما قد توهم أناساً كثيرين إلى أمدٍ طويل أنك في حال وأنت في خلافه، لأن الإنسان في الطرف الآخر علمه محدود، و نافذته كلامك وتصريحك، لكن الله سبحانه وتعالى مُطّلعٌ على ما في النفوس، مطلعٌ على ما في القلوب.

الله مطّلع على الخواطر:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ)

إخواننا الكرام... إن أكبر دافع لطاعة الله أن تعلم أن الله يعلم، وأنه مطلعٌ عليك ومحيطٌ بك، ولا تخفى عليه خافية، وأن تعلم أن الله يحول بينك وبين قلبك، وأن خواطرك في علم الله، و أن تدرك أن خاطراً بسيطاً يمر في ذهنك يعلمه الله ويحاسب عليه، والدليل: هناك من الناس من ينوي نيّة فيرى نيّته أمامه، فإن كانت طيبة رأى التوفيق والفوز، وإن كانت سيّئة رأى الدمار، هذا أكبر دليل على أن الله مطلعٌ على خواطرك الداخلية، وإن آلاف القصص تؤكِّد هذه الحقيقة.

قصة:

أخٌ كريم قال لي: إنه انتهى من خدمته الإلزامية ولا يملك من الدنيا شيئاً، أعطته أخته سوارة من حليّها، واشترى بها تذكرة طائرةٍ إلى الخليج، قال لي: وأنا في الطائرة نويت نية في قلبي، ووالله ما حرّكت شفتاي، إلا أنني قلت في نفسي: إن أكرمني الله فسأبني له بيتاً في منطقتي، وغاب سنواتٍ عِدّة وأكرمه الله، لكن الله عزّ وجل كان عالماً بخاطره فأكرمه وأعطاه، فجاء ليقيم هذا المسجد، وهناك إجراءات لابدّ منها لبناء المسجد، فرأى من التسهيلات ما لا يوصف، وبنى المسجد، وقد صليت بهذا المسجد، وهذا يعني أن أي خاطرٍ يخطر في بالك، و أي نيةٍ تنعقد في نفسك، و أي طموحٍ تتمنّاه هو في علم الله عزّ وجل..

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

هنيئاً لمن كانت سريرته كعلانيته، وسره كجهره، وباطنه كظاهره، لأنه عند الله مكشوف، فقد تخدع أناساً كثيرين إلى أمدٍ طويل، وقد تخدع أناساً قليلين إلى أمدٍ طويل، أما أن تخدع الله عزّ وجل فهذا مستحيل..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: آية " 142 ")

كما أنك لن تستطيع أن تخدع نفسك، فتُعْطِيها قيمةً لا تستحقُّها هذا مستحيل، فقد قال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

فموطن الثقل في هذا الدرس، هو هذه الآية:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ)

إن الله يعلم خيانة الإنسان وكذبه،

((كفى بها خيانةً أن تحدِّث أخاك بحديث هو لك به مصدِّق وأنت له به كاذب))

فخيانة الإنسان، وظلم الإنسان، و الكذب، و النفاق، والدَجَل، و الإيهام، و الاحتيال، و التدليس، هذا كله في علم الله عزّ وجل.

الناس يوم القيامة نوعان:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

نحن في الدنيا لنا تقسيمات لا تُعَدُّ ولا تحصى، فهناك شرقٌ وغرب، شمالٌ وجنوب، و جهةٌ تؤمن بالفرد على حساب المجتمع، وجهةٌ تؤمن بالمجتمع على حساب الفرد، وهناك أناس من أعراقٍ مختلفة؛

أعراق سامية، أعراق آرية، أعراق أوروبية، كما أن هناك لغات مختلفة، وعادات و تقاليد و عقلية و مشارب و أنماط و أصول مختلفة، أما يوم القيامة فالناس نوعان:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ)

(سورة الحاقة)

إيتاء الكتاب باليمين دليل الفوز والنجاة، فالعرب كانت تتبارك باليمين، بل إن هناك بعض التقاليد الجاهلية ترى أنه إذا طار طائرٌ عن يمين إنسان تفاءل، وإن طار عن شماله تشاءم، وهذا لا أصل له، لكن ورد في القرآن الكريم..

فرحة الفوز !!

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ)

فهو دليل فوزه ونجاته..

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)

اقرؤوا كتابي، فالإنسان حينما ينجح ويتفوّق، يعطي جلاءه لكل من حوله ؛ ويقول: انظروا إلى الدرجات و المكافئات و التقدير و الامتياز و الثناء، فالإنسان يزهو بنجاحه وتفوّقه، ونجاح الآخرة هو النجاح الذي يبعث على الفرح، فقد تجد أحياناً إنساناً يفرح بالدنيا، و فرحه بالدنيا ناتج عن ضيق أفقه، فهذه الدنيا من عرفها لم يفرح برخائها، وقد عَزّى أحد إخوتنا الكرام بيتاً من بيوت دمشق، فقال لي: البيت مساحته سبعمائة متر، و فيه من التزينات ما لا يصدقه العقل، و كل شيءٍ في البيت من أعلى مستوى، فهو مزودٌ بكل ما يطرب له الإنسان، قال: وأنا في التعزية قلت: أين صاحب البيت ؟؟ لقد مضى.. فهذا الذي يؤخذ منك عند الموت ليس عطاءً، لذلك وصفت الدنيا بأنها..

((من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبة، فجعل الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

يقول الإمام عليٌ رضي الله عنه: **" الغنى والفقر بعد العرض على الله "**

يجب أن تعتقد أن الذي أنت فيه في الدنيا لا يسمى عطاءً،

((لو أن الدنيا تَعْدِلُ عند الله جناح بعوضة ما سقا الكافر منها شربة ماء))

و الله عزّ وجل يقول:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ(20))

(سورة الحاقة)

كلمة: (ظن) إذا قالها مؤمن فهي اليقين، وإذا قالها الكافر فهي الشك.

(إِنِّي ظَنَنْتُ)

أي: أيقنت.

(أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ)

أيها الإخوة... وقفة متأنّية، هذه الآية تشير إلى أن الذي ينجو من عذاب الله هو الذي يخافه فقط، لا تقل: ضمير، ما معنى الضمير؟ لا تقل: رادع، قل: الذي يخاف الله عزّ وجل هو الذي ينجو من عذابه في الدنيا والآخرة، و ما سبب نجاة هذا الإنسان الذي أوتي كتابيه بيمينه ؟.

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)

سبب النجاة أنه قال:

(إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ)

إن أردت قاعدةً ذهبية تُعينك على طاعة الله، وعلى ضبط أمورك، فتمثّل هذه القاعدة: قبل أن تقول كلمة، وقبل أن تُعطي أو تأخذ، قبل أن تبتسم أو تتجَهَّم، قبل أن تغضب أوترضى، قبل أن تخضع، قبل أن تصل، قبل أن تحسن، قبل أن تعفو، هيّئ لربك جواباً.

(إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ)

قال لي أخٌ كريم مرةً: إنه استطاع أن يحوز أرضاً عن طريق مناقصةٍ وهميةٍ تمثيلية، فجاء بأشخاص عديدين، ودخلوا في المزايدة، ورست المزايدة على سعرٍ قليلٍ جداً بالنسبة إلى ثمن الأرض، وهناك أيتام يملكون هذه الأرض وأرامل، فلمّا ذكر لي ذلك، قلت له: كيف تواجه الله يوم القيامة ؟ إن هذا مقياس دقيق، فقبل أن تأخذ ما ليس لك، وقبل أن تعطي، وقبل أن تحابي، قوبل أن تظلم، و قبل أن تستغل، و قبل تغتصب، و قبل أن تفعل شيئاً لا يُرضي الله اسأل نفسك هل هيَّأت لله جواباً ؟.

مرة سألني أخ، وهو يعمل في التموين قال لي: ماذا أفعل؟ قلت له: افعل ما تشاء، اكتب (الضبوط) كما تشاء، أدخل الناس إلى السجن كما تشاء.. فنظر إلي هكذا مستغرباً ما هذا الكلام !!.. قلت: ولكن إذا كنت بطلاً فهيّئ لربك جواباً عن كل شيءٍ تفعله، فإذا كان هناك إنسان يؤذي المسلمين في طعامهم فيجب أن توقفه عند حده، وإذا كان هناك إنسان يطعم الناس طعاماً فاسداً، أو لحماً فاسداً فيجب أن توقفه عند حده، وذلك لأن علاقتك مع الله، لا مع عبد الله، فهيّئ لربك جواباً.

وأنا أقول لكم أيها الإخوة وأقول لنفسي أيضاً: قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تعطي، قبل أن تمنع، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تتساهل، قبل أن تتشدد، قبل تُطلِّق، قبل أن تتزوج، قبل أن تحرم، قبل

أن تمنع، قبل أن تذهب إلى هذه النزهة، قبل أن تجلس مع هؤلاء في سهرة، قبل أن تفعل شيئاً هيئ لله جواباً، لأن يوم الحساب يوماً آتٍ..

(إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21))

عيشةٍ مرضيٍ عنها، وعيشةٍ ترضى عنك أيضاً ؛ ترضى عنك فلا تذهب عنك، وترضى عنها فلا تَمَلُّها..

عيشة راضية !!

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

حتى إن الذي يطيب لنا في الدنيا ليس بينه وبين ما في الجنة من شبهٌ إلا الاسم، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

قال تعالى:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22))

(سورة الحاقة)

فيها من الحور العين، وفيها من الولدان المخلّدين، وفيها ما تلذُ الأعين وتشتهيه الأنفس، فيها من كل فاكهةٍ زوجان، و فيها من كل شيءٍ يُسعد الإنسان إلى أبد الآبدين، لا تقدم في السن، ولا مرض، ولا كِبَر، ولا حسد، ولا قلق، ولا شيءٍ مما يؤذي الإنسان في الدنيا، وفوق هذا قد ينظُر المؤمن إلى الله عزّ وجل يوم القيامة فيغيب خمسين ألف سنة من نشوة النظرة..

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: آية " 26 ")

الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم، وفوق ذلك..

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(التوبة: آية " 72 ")

هذه الجنة التي يزهد بها الناس ويسعون إلى جناتٍ في الدنيا، وهذه الجنات الدنيوية ما إن تكتمل حتى يأتي ملك الموت فيقول: تفضل، الآن ؟ الدنيا تغر وتضر وتمر، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، فالذي يضع كل آماله في الدنيا مقامر لأنه قد يخسرها في ثانيةٍ واحدة، وكم سمعنا عن أناس يملكون عشرات ألوف الملايين، وماتوا في ثوانٍ معدودات، بحادث، فهناك إنسان أحياناً يسعى لتجارةٍ عريضة، ويخسر كل ما يملك في ثانيةٍ واحدة، فلذلك أمرنا الله عزّ وجل أن نسعى إلى الآخرة..

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23))

بمعنى أنّك مُضّجع تأكل من ثمارها، وإن كنت قاعداً تأكل من ثمارها، وإن كنت واقفاً تأكل من ثمارها، ففيها راحة إلى درجة غير معقولة، كيفما أردت.

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

هي دانيةٌ منك..

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

هذه أيام الدنيا هي أيام بذل المال و غض البصر و البعد عن الفتن و البدع التي جاؤوا بها إلينا كي نسهر إلى ساعة متأخرة من الليل في معصية الله عزّ وجل، فقبل أن نجلس، وقبل أن نستمتع، وقبل أن نفعل ما يفعله معظم الناس، هل فكّرنا في هذا اليوم ؟.

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

صلاة الليل، صلاة الفجر في المسجد، تلاوة القرآن، حضور مجلس العلم، تربية الأولاد، خدمة الزوجة، إنصافك من نفسك، الدعوة إلى الله، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، هذه الأعمال الطيّبة تجد ثمرتها يوم القيامة..

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

إخواننا الكرام... إن الإنسان حينما يدرس في الدنيا ويتعب تعباً شديداً ثم ينجح، ينسى كل تعبه لحظة النجاح، و هذه الدنيا التي مرّت تمر كلمح البصر، تذهب منها متاعب الطاعات وتبقى ثمارها، وتذهب لذائذ المعاصي وتبقى تبعاتُها، لذلك يقول الله عزّ وجل:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

أي: الأيام السابقة في الدنيا، و الدنيا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((سجن المؤمن وجنة الكافر))

هناك ممنوعات و محرمات، هناك أشياء أنت ممنوع من أن تشربها أو تأكلها أو تنظر إليها، وهناك أوامر ونواه و حقوق و واجبات و مسؤوليات و تبعات، وعليك واجب نحو الله عزّ وجل، و واجب نحو أمك وأبيك، و واجب نحو زوجتك، و واجب نحو أولادك، وواجب نحو من تتعامل معهم.

ندم الخسران..

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25))

لأنه شيء مخز، فيه فضائح و أعمال سيئة، و معاص، و آثام، وهذا الكتاب ينطق عليه بكل ما فعل.

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27))

(سورة الحاقة)

الموت للكافر أهون من أي شيءٍ بعده، والموت للمؤمن أصعب من كل شيء بعده، فبعده سعادة أبدية، أما ما يعانيه الكافر حينما يموت، من سكرات الموت فهي أهون شيءٍ مما سيراه بعد الموت..

(يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ)

يا ليت الموت الذي متُّه كان قاضياً علي كلياً..

(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ)

أين المال ؟

(هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ)

ماذا يفعل المال بعد الموت ؟ بالعكس قد يكون وبالاً على صاحبه، قد ينفقه أولاده في المعاصي والآثام، لقد جمعه وتعب به ودخل به النار.

(يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29))

لقد فقد مكانته و وظيفته و شأنه و حُجَّتَهُ...

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)

ضعوا الأغلال في يديه..

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32))

(سورة الحاقة)

قال بعض المفسرين: تدخل من فمه وتخرج من دُبُرِهِ، أو العكس..

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

لأنه ما آمن بالله العظيم، وما استقام على أمره، و حينما لم يؤمن بالله العظيم تفلّت من منهجه، ففعل ما يحلو له، فالإيمان بالله من ثمار الطاعة، والطاعة من ثمار السلامة، والسلامة تنتهي إلى الجنة، آمنت فانضبطت، فسلمت، فسعدت، يمكن أن نقول: الناس رجلان: متصلٌ بالله، منضبطٌ بأمره، محسنٌ إلى خلقه، فهو سعيدٌ في دنياه وأخراه، وإنسان مقطوع عن الله، ما آمن بالله العظيم، و تفلّت من منهجه، و أساء إلى خلقه، فهو شقي في الدنيا والآخرة..

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

وفضلاً عن كفره كان يحارب الأعمال الصالحة.

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

أي: لا يحضُّ على إطعام المسكين بل يُثبّطُ الهمم والعزائم..

(فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ)

ليس له صديق، فالإنسان في الدنيا له أصدقاء و له أتباع، و له من يدافع عنه، و له من يتفقّده، أما هنا...

(فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36))

(سورة الحاقة)

كأنه قَيْح..

(لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ)

مصيران لا ثالث لهما:

أيها الإخوة الكرام... هذان المشهدان من مشاهد يوم القيامة ؛ رجلان، رجل قال:

(هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)

ورجل قال:

(يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ)

رجل:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

ورجل:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31))

أي أن لا توجد حالة وسط، ففي الدنيا قد نجد إنساناً بوضع غير جيد وغير سيئ، أما في الآخرة فلا يوجد..

((فوالذي نفس محمدٍ بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفدُ عذابها، إما في نعيمٍ مقيم

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

وإما **" الأغلال في أعناقهم يُسْحَبون إلى النار"**، فما في حل وسط، إما في قمم السعادة أو في دركات النار، فلذلك: إذا آمنت بالله العظيم طبّقت منهجه القوي فسلمت وسعدت، وإن لم تؤمن بالله العظيم تفلّتت من هذا المنهج القويم فشقيت وأشقيت.

إخواننا الكرام... من المناسب أن نعيد قراءة هذه المشاهد في البيت، وأن نذكّر ما قيل حولها لأن هذه السورة سورة الحاقة سورةٌ مباركة، تذكّر الإنسان بهذه المشاهد وهذه النهايات التي لابدّ منها، وكلنا على هذا الطريق سائرون، و ما منا واحد إلا وسيكون في أحد هذين المشهدين، ما في حالة ثالثة، في

بالدنيا واحد درس، وواحد لم ديرس، و الذي لم يدرس هو (عايش)، (ماشي الحال)، أما في الآخرة فلا يوجد شيء من هذا، فإما أن تكون قد آمنت بالله العظيم وتبعته، فأنت في سلامةٌ وسعادة إلى أبد الآبدين، وإما أنك لم تؤمن، فمن لوازم عدم الإيمان التفلت والمعصية والانحراف والعدوان، ثم شقاءٌ إلى أبد الآبدين، فلذلك: هنيئاً لمن اتعظ في الدنيا قبل الآخرة، و هنيئاً لمن قال: الله ربي قبل أن يقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

فساعات الندم تعتصر القلب، وربنا عزّ وجل كأنه قد ذكر لنا ما سيكون كي نقف الموقف المناسب، و هذه السورة بين أيديكم، وهذان المشهدان الصارخان الدّالان على نهاية الإنسان الحتمية ؛ إما مع هؤلاء وإما مع هؤلاء.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحاقة 069 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 37-52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-07-11

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن كلام الله

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث والأخير من سورة الحاقّة، ومع الآيات الأخيرة التي تبدأ بقوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

أيها الإخوة... القرآن الكريم آياته محكمة، فحينما قال الله عزّ وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة المعارج)

اللهمّ اجعلنا من هؤلاء..

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ(37))

كيف السبيل إلى دخول الجنة ؟ كيف السبيل إلى أن نكون من هؤلاء الأوائل الذين أوتوا كتابهم بيمينهم؟ الذين هم..

(َ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23))

هؤلاء الذين يتنعّمون بما أسلفوا في الأيام الخالية، كيف نكون من هؤلاء ؟ ربنا جلّ جلاله في آخر هذه السورة رَسَمَ لنا الطريق، يقول الله عزّ وجل:

المرئيات وغير المرئيات:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

ما معنى لا أقسم ؟ إن هذه كأس الماء ترونها جميعاً، فهل يحتاج إلى أن أُقسِم على أنها كأس ماء ؟ الشيء البديهي المُسَلّم به الواضح كالشمس لا يحتاج إلى قسم، فالمُسَلّمات التي تتفق مع الفطرة لا تحتاج

إلى قسَم، هل تحتاجون إلى أن أُقسِم لكم أن الأب أكبر من الابن ؟ من منّا يُصدّق أن الابن أكبر من الأب من حيث السن ؟ مستحيل لأن الفرع يكون دائماً أصغر من الأصل، والجزء أصغر من الكل، هذه مسلّمات، فلو أن إنساناً أقسم لكم أن عُمُرَ الأب أكبر من عمر الابن لكان هذا القسَم لا معنى لأن هذه الحقيقة تُدرك بالفطرة، ولو أنك سألت أهل الأرض جميعاً: من هو الأكبر الأب أم الابن ؟ لقيل لك: الأب.. و توجد حالات نادرة و قضايا اجتماعية أخرى، هذه موضوع آخر..

سئِل سيدنا العبّاس: أيهما أكبر أنت أم رسول الله ؟ فقال: **" هو أكبر مني، وأنا ولدت قبله "**، هذا أدب رفيع جداً، أما من حيث العمر الزمني ؛ من حيث عدد السنوات التي يعيشها الإنسان فليس منّا واحدٌ يصدّق أن عمر الابن أكبر من عمر الأب، هذه الحقيقة البديهيّة الواضحة الناصعة البسيطة التي يُدرِكها الإنسان بالفطرة التي تنطوي تحت المُسَلّمات لا تحتاج إلى قسَم، و هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ)

أي أن هذه الحقيقة لشدة وضوحها ونصاعتها وبديهيتها، وانسجامها مع فطرة الإنسان لا تحتاج إلى قسَم..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

هذه الآية فيها لفتة علمية عميقة جداً..

نجوم السماء:

لو نظرنا مثلاً إلى السماء، فماذا نرى ؟ قرأت مرّةً أن بعض المراصد المتواضعة تستطيع أن تعدّ عشرة آلاف نجمة، أما الحقيقة التي عرفها العلماء اليوم، والتي لا تُرى بالعين هي أن في الكون قريب من مليون مليون مجرّة، وفي المجرّة الواحدة قريب من مليون مليون نجم، أي مليون مليون (×)مليون مليون، أي: واحد أمامه اثنا عشر صفراً (×) واحد أمامه اثنا عشر صفراً، والعملية ضرب وليس جمع، فالناتج هو عدد النجوم التي توصّل إليه العلماء بالمراصد العملاقة، أما هذه العين التي في رؤوسنا في إحدى الليالي التي غاب فيها القمر، فلو نظرنا بها إلى السماء لا نستطيع أن نعد أكثر من عشرة آلاف نجمة، فعشرة آلاف النجمة هذه هي مما نبصر، والمليون مليون (×) مليون مليون نجم مما لا نبصر، فكأن الذي لا نبصره أعظم بكثير من الذي نبصره، فالله سبحانه وتعالى أشار إشارةً إلى أن في الكون حقائق لا أحد يُبصرها..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ)

محدودية الحواس نعمة كبرى:

رأيت قرصاً عليه كثيرة، ما يقرب من مائة واثنين وستين مليون معلومة، و ثمن كتبه مائتا ألف ليرة سورية، وهو قرص صغير، فانظر إلى المعلومات فهل تستطيع بعينك أن تنظر إلى هذه المعلومات ؟

مستحيل، فالحواسّ محدودة، و محدوديتها هذه نعمةٌ كبرى، فأحدنا الآن يُمسك بكأس ماء فيراه صافياً، فتتوق نفسه إلى شربه، أما لو وضعت هذا الماء تحت مجهر لرأيت فيه من الكائنات الحيَّة والبكتريا ما تعاف نفسك أن تشربه، فلا تشربه أبداً، لكن الحواسّ محدودة، فقد تنظر إلى ابنك الصغير ذي الجلد المتألِق الأملس، ولكنك لو وضعت هذا الجلد تحت مكبّر مجهري إلكتروني لوجدت أخاديد، وجبالاً وتلالاً ووديانَاً على خدِّه، فمن نعمة الله عزّ وجل أن الحواس التي أودعها الله فينا حواسّ محدودة، و أحياناً تُجْرَحُ يدك قليلاً فإذا أكلت طعاماً حامضاً تشعر بألم لأن الأعصاب الحسّاسة في الطبقة الثانية من الجلد، و لو أنها مكشوفة لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق، من هنا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر)

فالحواس محدودة، و هذه العين لها عَتَبَة ودنيا، وعتبة قصوى، لذلك توجد أشعة فوق الحمراء وتحت البنفسجية لا نراها نحن، فالحواس إذاً لها عتبات، فالعين لها عتبة رؤية، والأذن لها عتبة استماع، وكل شيءٍ له حدود، فحواسُّنا محدودة، وعدم الرؤية لا يدل على عدم الوجود، وأكبر حماقةٍ ارتكبها الإنسان في مطلع عصر النهضة أنه أصبح حسِّياً لا يؤمن إلا بما يرى..

وقد سأل معلمٌ طلاّبه: هل ترون الله ؟ قالوا: لا، قال: إذاً هو غير موجود، فقال له أحد الطُلاّب: هل نرى عقلك يا أستاذ ؟ قال: لا، فقال له: إذاً أنت ليس لك عقل. ليس كل شيءٍ لا يُرى لا يوجد، وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، و هذه حقيقةٌ مهمةٌ جداً وهي محور الدرس..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

البحار..

لو أنك وقفت على ساحل بحر ماذا ترى ؟ إنك ترى مياهاً زرقاء، فلو أن إنسان غاص إلى أعماق البحر لرأى العجب العُجاب ؛ من الجزر المرجانية،و النباتات البحرية والطحالب، و مليون نوع من السمك، وقد ورد في الموسوعة العلمية أن الحقيقة الثابتة أن في البحر مليون نوع من السمك، فماذا رأيت من البحر ؟ و باطن البحر مما لا نبصر.

الحقيقة تقول: أن الذي لا نبصره أكبر بكثير إذا قيس إلى الذي نبصره، بل إن الذي نبصره لا شيء إطلاقاً أمام الذي لا نُبصره، فربنا عزّ وجل يشير إلى هذه الحقيقة.

الأحياء الدقيقة:

مرّة رأيت في مجلّة علمية مكعّباً من التراب.. وفي داخل هذا المتر المكعب من التراب ما يزيد عن عشرة آلاف مخلوق، من البكتيريات والحشرات و ديدان التربة، و هذه لا تراها، فأنت ترى حقلاً، لكنك

لا تعلم كم حيواناً يعيش تحت التراب ؟ هذا مما لا تُبصر، ونحن نتحدث هنا عن الحشرات والأشياء التي يمكن أن نراها، أما التي لا تراه الأعين فهو أكبر بكثير.

الزغابات المعوية و شعر الرأس:

من منّا رأى أن أمعاءه الدقيقة فيها زُغابات تتبدل كل ثمانية وأربعين ساعة ؟ عمر الخلية في زُغابة الأمعاء ثمانيةٌ وأربعون ساعة، تتبدّل كل يومين، أي منذ أن ولدت إلى الآن كل يومين يوجد تبدل في خلايا الأمعاء الدقيقة التي تمتص، وهذا الشعر الذي في رأسك من منّا يصدق أن لكل شعرةٍ وريداً، وشرياناً، وعصباً، وعضلةً، وغدّةً دهنيةً، وغدّةً صبغية ؟

خلايا الدماغ والعصب البصري:

من منّا يصدق أن في رأسه مائة وأربعين مليار خلية استنادية في الدماغ لم تُعرف وظيفتها بعد ؟ من منّا يصدق أن في شبكية الدماغ مائة وثلاثين مليون عصيّة ومخروط ؟ وأن العصب البصري قد يصل إلى تسعمائة ألف عصب، وهذه الخطوط لا تتداخل، فقد تتصل أحياناً بإنسان فتسمع مكالمة ثانية، فمن أين جاءت هذه المكالمة الثانية؟ من تداخل هذه الخطوط، أما تسعمائة ألف عصب فلا يمكن أن تتداخل فيما بينها، وهي تنقل الصورة إلى الدماغ حيث الإدراك، فأنت وحدك كونٌ كامل، فالحديث عن العين لا ينتهي بأشهر، والحديث عن الدماغ لا ينتهي بأشهر، و الحديث عن أعضاء النُطق كذلك، فكل حرفٍ تنطق به تسهم في تكوينه سبعة عشر عضلة، فكم حركة عضلية يحتاجها إلقاء كلمة خلال ساعة حتى لتصنع هذه الحروف ؟ وكم حرفاً صنع كلمة ؟ وكم كلمة صنعت جملة ؟ وكم جملة صنعت محاضرة ؟

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

الحوينات والنسج:

في اللقاء الزوجي الواحد هناك خمسمائة مليون حوين هل تراها أنت ؟ هل بإمكانك أن تعدّها واحدةً واحدة ؟ كل حوين له رأس، وله عنق، وله ذيل، وكائن حيّ فيه مكونات، وفيه مليون معلومة مورّثة، أين هذا كلّه؟ و الآن توجد مجاهر إلكترونية تكبّر بعض النسج أربعمائة ألف مرّة، و الشيء الذي يُرى بالصور لا يُصدّق، توجد صور للسان، و صور لشبكية العين، و صور لأعضاء الأذن، و صور لجدار المعدة، و صور للأمعاء، وصور لخلايا الكبد، و صور للجلد، و صور للخلية العظمية، فأنت ترى عظماً أملس ولكن هل تصدّق أنّ عظمك إسفنجي ؟ لأنه لو كان أصَمّ لأصبح وزنك الضعف، ومعنى أن يكون وزنك الضعف هو أنك تحتاج إلى قلب مضاعَف، و تحتاج إلى طاقة مضاعَفة، فيجب أن تأكل الضعف، أما العظم المخلخل فهو أمتن، لأن المُفَرّغ أمتن، و عنق الفخذ يحمل خمسمائة كيلو، وعظم الفخذ له عنق لكي يكون الإنسان منظره جميل، فيكون من الوسط أعرض من الصَدر ومن الأرجل،

ولهذا يوجد عنق لعظم الفخذ، هذا العنق يحمل خمسمائة كيلو، فهل تبصر خلية العظم كيف تكون ؟ عظمة الكون:

الآن طبعاً يوجد تقدّم علمي مذهل ؛ فقد وصلوا إلى الفضاء، و تراهم يقولون: غزونا الفضاء.. تأدّبوا مع الله، الفضاء الذي غزوتموه سابقاً يبعد عن الأرض ثانية ضوئية واحدة.. و القمر يبعد عن الأرض ثانية ضوئية واحدة..، وقد حَطّت مركبة على كوكب المريخ، لكن الأرض، والمريخ، والزهرة، وعطارد، والمشتري، وكل هذه المجموعة الشمسية أقصى قطرٍ لها هو ثلاثة عشر ساعة، و القمر ثانية ضوئية، ولكن هذه المجرّة التي تبعد عنّا ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية لا يمكن لك أن تراها، فهي ثلاثمائة ألف بليون، وقبل عامٍ ونصف أذاعت إحدى محطّات الأخبار العالمية خبراً عن اكتشاف مجرّةٍ من خلال مرصدٍ عملاق رُكِّب على مركبةٍ فضائية أُرسلت إلى المشتري، وبقيت تسير في الفضاء الخارجي ست سنوات، وإلى جانب المشتري التقط هذا المرصد العملاق صورة مجرّة تبعد عن الأرض ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، فهل ترى أنت هذه المجرّة ؟ إنّ أقرب نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض يبعد عنّا أربع سنوات ضوئية، و لو أردت أن تصل إليه فإنك تحتاج إلى خمسين مليون سنة، و الأربع سنوات ضوئية تحتاج إلى أن تصل إليها خمسين مليون سنة، فهذا الإله العظيم الذي يقول لك:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

فهل من الممكن أن تكتشف الخلية الإنسانية، ولتكن هذه الخلية الحوين المنوي، أو خلية من الثدي التي تستخدم في الاستنساخ، إنّ هذه الخلية يوجد عليها أكثر من مليون معلومة مبرمجة ؟ وكل معلومة لها علاقة بتكوينك، فيوجد مورّث للطول، و مورّث للون، ومورث للشعر، ومورّث للمرض الفلاني، ومورث للسرطان، و كل مورث عبارة عن أمر مبرمج معقّد جداً، العلم الأول الآن في علم الطب هو الهندسة الوراثية، فهم يريدون أن يعرفوا سرّ تكوين الإنسان، لماذا هذا الإنسان يتحمّل بعض الجراثيم وهذا لا يتحمّل ؟

أيها الإخوة... هذه الآية الكريمة:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

ماذا ترى في الجو ؟ في أحد السنين كانت الحرارة في المملكة العربية السعودية أثناء أداء فريضة الحج ست وخمسين، ونحن في الطائرة قالوا: نحن على ارتفاع أربعين ألف قدم والحرارة خمسين تحت الصفر، أما على الأرض فهي ستة وخمسين فوق الصفر، فيوجد فرق مائة درجة، فهل ترى ذلك أنت ؟ الآن توجد طائرات ومركبات فضائية ومراصد، و مجاهر الإلكترونية ترى هذه الخلايا ؛ وهذه الكريات الحمراء و البيضاء، فهل تعلم أنه في كل ثانية يولِد نقي العظام اثنين ونصف كرية حمراء ؟ وأنه في

كل ثانية تموت اثنان ونصف مليون كريّة حمراء ؟ وأن هناك مرضاً عضالاً يوقف هذه المعامل عن تصنيع الكريّات واسمه فقر الدم اللامصنع ؟ و هذا المرض لا يوجد له الآن شفاء..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

ومن يحرك هذا الطفل حينما يبلغ التسعة أشهر، فيقلبه رأساً على عقب ؟ قيل: هو أمر هرموني، لكن هل رأيت أنت هذا الأمر ؟ ومن الذي يوسّع عظم الحوض في المرأة؟ قيل: أمر هرموني ثان، و من الذي يجعل الرحم يتقلّص تقلصاتٍ لطيفة متزامنة متقاربة ؟ أمر هرموني ثالث، هذا شيء لا يُصدّق، لأن آلية الولادة من آيات الله الدّالة على عظمته.

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

(سورة عبس)

أنا لا أتكلّم الآيات بشكل مُنَظّم، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

الذي لا نبصره من حيث الكم يساوي ملايين ملايين ملايين الأضعاف عن الذي نبصر، ومن حيث التعقيد أقول: إن الأشياء التي تراها بسيطة أما الأشياء التي لا تراها فهي معقّدة جداً.

تضيق الأوعية الدموية عند إرادة الوقوف:

الإنسان أحياناً قد يكون مُضَّجعاً فيستيقظ من فراشه وهو لا يشعر بشيء، فهذا الدم يكون موزّعاً على طول جسمك وأنت مضّجع، فإذا وقف الإنسان فجأةً وجب أن ينساق الدم إلى الأسفل وذلك بحسب قانون الجاذبية، و معنى ذلك الإنسان يصاب بإغماء مباشر فوري، فحينما تنوي أن تستيقظ يكون هناك أمر يأمر كل الأوعية الدموية بالتضَيُّق ليبقى الدم في الرأس، والإنسان مع التقدّم بالسن تضعف عنده هذه الآلية، فيُنصح أنه إذا استيقظ ينبغي أن لا يقوم فجأةً، فهل ترى أنت هذه العوامل التي تؤثّر في الأوعية فتجعلها ضيّقة ؟

الغدة النخامية:

فأنت حينما ترى - لا سمح الله - أفعى في بستان وتُدرِك أنها أفعى، فإنك تجري في جسمك عمليّات معقّدة جداً جداً وأنت لا تشعر، ويكون ذلك خلال ثوان، فهذه العين تنطبع على شبكيتها صورة الأفعى، فتنقل هذه الأفعى إدراكاً إلى الدماغ، و الدماغ ملك الجهاز العصبي، يتصل فوراً بملكة اسمها الغُدّة النخامية وهي ملكة الجهاز الهرموني، وهذه الملكة من أخطر غدد الإنسان ؛ لأنها لو اضطربت لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق، أما وزنها "الكبير جداً" فهو نصف غرام، لكنها رغم ضآلة وزنها تفرز اثني عشر هرمون، فأحد الهرمونات ينظِّم السوائل في الإنسان، و لو أن هذا الهرمون لم يُفرَز فإن الإنسان يجب أن يقضي كل وقته جانب صنبور الماء والمرحاض، فسيشرب عشرين تنكة

ماء في اليوم وسيطرحها، و هذا الهرمون ينظّم توازن السوائل، فهل ترى أنت هذا الهرمون ؟ و هل ترى الغُدّة النخامية كلّها ؟ إن رئيس الجهاز العصبي هو الدماغ، وهو يتصل برئيسة الجهاز الهرموني وهي الغدة النخامية المحترمة، فهناك خطر تصرفي، فهذه الملكة تعطي أمراً لغدتي الكظر اللتين هما فوق الكليتين، والكظر توجد عنده أجهزة و آلات، فيُصدِر خمس أوامر فورية هرمونية لا عصبية، منها أمر إلى الأوعية الدموية بتضييق لمعتها، فالخائف يصفرّ لونه فوراً، لأن الخائف بحاجة إلى الدم للعضلات لا إلى المنظر الوردي الجميل، لأنه الآن خائف فعليه أن ينجو بجلده.

1- الأمر الأول: هرموني هو تضييق الأوعية الدموية في جسم الإنسان ولا سيّما المحيطية، فالخائف يصفر.

2- الأمر الثاني: فهو إلى القلب حيث يرتفع النبض إلى مائة وثمانين نبضة،فالخائف يحتاج إلى تدفُّق دم سريع لا إلى سير بطيء، فعلى قدر النبضات تكون سرعة الدم، فالنبضات ثمانية نبضة فيمشي الدم بهذا الشكل، أما في مائة وثمانين نبضة فغن يسير الدم سريعاً.

3- الأمر الثالث: إلى الرئتين كي يتناسب وجيب الرئتين مع ضربات القلب.

4- الأمر الرابع: إلى الكبد وهو طرح كمِّية سُكّر إضافيةٍ في الدم، و توجد الآن مشكلة جديدة طارئة، فيحتاج الإنسان إلى غذاء استثنائي.

الأوامر معقّدة جداً ؛ إلى الرئتين، و القلب، والجلد، و الكبد، فالكبد يجوز أن يكون فيه صدام مباشر، ويصير فيه جرح..فيذهب أمر إلى الكبد بمضاعفة هرمون التجلُّط لكي لا ينزف الدم كلّه، فخلال ثوان يصبح هناك إحساس و إدراك وأنت لا تدري، كما يحدث اتصال بين رئيسي الجهازين، فالغدة النخامية أعطت أمراً موحّداً للكظر، والكظر أعطى خمسة أوامر وأنت لا تشعر، فالخائف يضطرب قلبه، ويزداد وجيب رئتيه، ويصفر لونه، فلو فحصت سكر دمه لرأيته مرتفعاً، فهل ترون هذا أنتم ؟ أبداً.

جهاز في الدماغ لمعرفة اتجاه الصوت:

هناك جهاز في الدماغ يكشف تفاضل وصول الصوتين للدماغ، وعن طريقه تعرف جهة الصوت والفرق بين الصوتين، فلو صرخنا وراء إنسان وكنا على جهة على اليمين فإن الصوت يصل للإذن اليمنى قبل اليسرى بواحد على ألف وستمائة جزء من الثانية، و هذا الجهاز يكشف التفاضل فيعرف جهة الصوت، فهل عرفت أنت ذلك ؟

فيا أيها الإخوة... والله لا أريد أن أُطيل عليكم بالأمثلة، و لو أننا أمضينا في تفسير هذه الآية سنوات وسنوات فلن تنتهي، وهذا كله يدور حول ما لا نبصره، فالأحمق هو الذي يقول: أنا لا أؤمن بشيءٍ إلا إذا رأيته:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ.. تدل على أنه واحدٌ

العضلات الهدبية:

و توجد الآن بديهيات في العلم، فعينك مثلاً لها عدسة، والعدسة لها مِحْرَق، والشبكية هي المحرَق، فلكي يقع الخيال على المحرق يوجد لدينا احتمالان: إما أن نغيّر حركة المحرَق، أو أن نغير احتداب العدسة، فالمحرق ثابت، وبعد الشبكية عن العدسة ثابت، وما بقي هو تحريك العدسة، فإما أن نزيد في احتدابها أو نقلِّص، فمن المسؤول عن ذلك ؟ إنها عضلات هدبية بسيطة جداً، والله لو أن هذه العضلات تحمل دكتوراه في الفيزياء لما استطاعت أن تقيس المسافة وتضغط ضغطاً يتناسب مع وقوع الخيال على الشبكية، و عملية المطابقة هذه من أعقد عمليات العين..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

فالذي لا نبصره أضعافُ أضعافِ الذي نبصره، وعظمة الذي لا نبصره أضعاف أضعاف الذي نبصره، فماذا ترى بعينك ؟ إنك ترى أن الشمس شرقت من الشرق وغربت من الغرب، والحقيقة هي عكس ذلك، فنحن ندور حولها، و ندور حول أنفسنا دورةً كل يوم، لذلك يجب على الإنسان أن يعلم الحقيقة كيفما تحرّك ؛ فكأس الماء الذي تشربه، والطعام الذي تتناوله، والبيت الذي تسكنه، و الطاقة التي تستخدمها (الكهرباء) من خلقها؟ الله جلّ جلاله، وقد ترى شجرة فماذا تبصر ؟ إنك تراها في الشتاء حطباً و خشباً فقط، أما في الربيع فهي تزهر، ثم تورق، ثم تثمر، وهذا الذي رأيته.

ورقة الشجر:

أيها الإخوة.. لقد قرأت في موسوعة علمية مترجمة عن النباتات كلمة عن ورقة الشجر أذهلتني، قال: إن أعظم معملٍ صنعه الإنسان حتى الآن يبدو تافهاً أمام الورقة، فما هذه الورقة ؟ إنها تستقبل النُسُغْ الصاعد، وهو عبارة عن ماء محلول فيه أملاح ثماني عشر معدن تقريباً ؛ الفوسفات، والآزوت، والكالسيوم.. إلخ، وهذه هي الأسمدة التي يضعونها الآن في التُربة، وهي أملاح معادن وليست معادن، إنها أملاح معادن قابلة للذوبان، تذوب هذه في الماء ويصعد الماء بخاصّية شعريةٍ معقّدةٍ جداً. فهل عند الإنسان سائل يُحْقَن فيكون حديداً تارةً، وإسفنجاً تارةً، وعصيراً تشربه تارةً؟ هل يوجد عندك شيء هكذا ؟ هذا السائل الواحد يعطيك مادة صلبة، ومادة رخوية، ومادة إسفنجية، ومادة غذائية ؟ هذا غير معقول، والنُسُغُ الصاعد وهو يصعد قد يرجع، لكن قيل: إن النبات يحتوي على دَسّمات، والدسّمات شيء لا يُصدّق، ونحن أيضاً توجد عندنا دسّمات، فإذا وقفت خمس ساعات لصعد الدم من الأسفل إلى الأعلى خلاف الجاذبية، إنه يصعد بدفع القلب لكن ما الذي يمنعه من أن يرجع ؟ توجد دسّمات في الأوردة (ثلاث وريقات كل فترة) عندما يأتي النبض تفتح، وعندما ينتهي النبض تغلق، فلا يرجع الدم، وحينما تتعطّل يصاب الإنسان بمرض الدوالي، وهو ينتج عن تعطّل الدسّمات الصاعدة، وهناك دسّمات مشابهة في النبات، فالماء الذي يصعد لا يرجع، وذلك عن طريق دسّمات، أما النسغ النازل فهو

لخطورته الوعاء مُحَصَّن بحلزون لكي لا يضغط نمو النبات على لمعته، فهل ترى أنت هذا ؟ وأذكر لكم أن عندنا شجرة حملت هذه السنة فقط والحمد لله، وأكلنا منها، فهل تعرف أن الشجرة معمل صامت؟ هي معمل صامت ينقِي لك الجو، فيأخذ فضلاتك الغازية ويعطيك ما تحتاجه من أكسجين، هل تعلم ذلك ؟ الإنسان حينما يمشي في غابة صنوبر يشعر بانتعاش لأنها تُعْطِي الأكسجين بأكبر كمِّية وتأخذ غاز الفحم، فهل أنت تبصر ذلك ؟

الحليب:

عندنا بقرة تعطي أربعين كيلو في اليوم الحمد لله، فهل تعلم كيف يتحول الدم إلى حليب من بين فرثٍ ودمٍ ؟ إن بعض إخواننا المهندسين الزراعين اطّلع على بحث جميل وأطلعني عليه، أن كلمة (فرْث) تعني الفضلات السائلة، فتوجد فضلات غازية هي الزفير، و توجد فضلات سائلة وهي حمض البول الموجود في الدم، وتوجد فضلات صلبة وهي الغائط، فهذه الخلية.. خلية الحليب.. تختار من الدم ما تحتاج ؛ من البروتين و الشحوم والفيتامينات و المعادن، من أجل أن تصنع لك حليباً كامل الدسم، يعدُّ غذاءً كاملاً، يمكن أن تقيم عليه حياتك، و حتى هذه الساعة لا يعلم أحدٌ كيف تعمل هذه الخلية الثديية في البقرة، هي خلية توجد فوقها شبكة أوعية كأنها تنتقي من الدم ما تحتاج، فهي كالعقل، وفي الحليب ثلاثة بالمائة بوتاسيوم، وأربعة بالمائة من الفيتامين الفلاني، و فيه بروتين و شحوم، وسكّريات، وهو مادة غذائية كاملة، وهناك شيء آخر يقول: أن أربعمائة حجم من دم يساوي حجم حليب واحد، فكل كيلو حليب تشتريه قد ساهم بصنعه أربعمائة لتر دم من البقرة، وهذا الضرع الكبير مقسّم بجدارين متعاكسين من الداخل، فلو أن هناك أربعة إخوة لهم بقرة واحدة فإن كل حلمة من البقرة تُعْطي ربع الكمية بالتمام والكمال، و هي بقرة ساكتة تأكل الحشيش فتعطيك الحليب، فتأكل منه الجبنة، واللبن، والسمن، والقشطة، ومشتقات الألبان، والبوظة في الصيف، و الأرز بحليب في الشتاء، والشمندور، وأشياء لا تعدُّ ولا تحصى من هذا اللبن السائغ للشاربين..

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشّارِبِينَ)

(سورة النحل: آية " 66 ")

هل ترى ذلك ؟ فهذا الذي لا تراه هو أعظم بمليار مرّة من الذي تراه، فربنا نبّهنا فقال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

ديدان التربة:

مرّة اطلعت على مقالة بمجلة مترجمة يقول كاتب هذه المقالة: يمكن أن يُلغى وجود الإنسان [وهو المخلوق الأول]، فلو فني البشر قاطبةً لكانت الحياة مستمرة، كما لو فني الحيوان بأكمله فإن الحياة مستمرة، إلا أن في التربة ديداناً لو ألغيت لتوقف الحياة، فهل تصدق ذلك ؟ إن الدود في التربة يقوم

بعمل يعجز عنه العلماء، فهو يأكل التراب ويعطيه تراباً صالحاً لإنبات النبات، وهذه الديدان إذا أُبيدت انتهت حياة الإنسان من على الأرض لأن التراب لا ينبت، والحيوان يموت، والإنسان يموت بعدها، وهذا لا تراه أنت.

والله هذا الكلام لم يكن مُحَضَّراً، ولكنه خواطر آنية حول هذه الآية، أما لو كان هناك دراسات منهجية في عالم النبات و الحيوان و الأسماك و الفضاء و التربة لرأيت العَجَب العُجاب، وتوجد كل حقيقة لا يصدّقها العقل.

جهاز المناعة:

أنت لا تعرف ما معنى جهاز المناعة، بل إنك تقول: الحمد لله الصحة طيّبة، والصحة طيّبة لأنه يوجد جهاز مناعة، هذا جهاز المناعة هو عبارة عن جيش يفوق أرقى جيش في العالم، له قيادة، له أسلحة.. وهو يمثل سلاح الطيران، وسلاح المدرّعات، وسلاح الإشارة، فيوجد فيه سلاح الاستطلاع، فإذا دخل إلى جسم الإنسان جرثومة أعطت القيادة المركزية أمراً لسلاح الاستطلاع، فينطلق سريعاً إلى هذا الجرثوم، لا يقاتله ولكنه يأخذ معلومات فقط، عن تركيبه أو عن شفرته الكيماوية ويعود بها إلى معامل الأسلحة، ففي العقد اللمفاوية توجد معامل أسلحة، ويسلِّم هذا العنصر شفرة هذا الجرثوم وتنتهي مهمته، لأن هناك تنسيقاً، و توجد قيادة حكيمة، فالعنصر الذي في العقد اللمفاوية مهمّته أن يُصَنِّع مصلاً مضاداً لهذا الجرثوم، فيصنّعه فوراً، وتنتهي مهمّته هنا، و توجد خلايا ثالثة وهي خلايا مقاتلة.. هؤلاء سلاح المشاة.. يحملون هذا السلاح وينتقلون إلى هذا الجرثوم، ويقاتلونه حتى يقتلوه وتنتهي مهمتهم، و هناك سلاح الخدمات.. سلاح الهندسة.. وهو يأتي لينظف أرض المعركة من الجثث، ويوجد سلاح (كوماندوز) وهذا أعلى شيء، وعنده قدرات عالية جداً، فمن الممكن أن يكتشف شذوذ خلية قبل أن تشذ فيقضي عليها، ولولا هذا السلاح لكان السرطان يعمّ البشر كلّهم، و هذه الخلية تكتشف الشذوذ قبل أن يبدأ وتقضي عليه، أما الشيء الذي لا يصدّق هو أن هذا الجيش العرمرم الذي في الجسم له قيادته خارج الجسم، و كل جهاز له قيادة، فالعَصَب له الدماغ، والهرمونات لها الغدة النخامية، والدوران له القلب، إلا هذا الجهاز، فقيادته من خارج الجسم، ويقول مؤلف كتابٍ حول هذا الجهاز: ولا نعلم من أين يأخذ أوامره، فيكفي أن ترتفع قدراته القتالية حتى تُلغى كل الأمراض، فإذا تضعضع هذا الجهاز فإن أقل مرض يقضي على الإنسان، قال: إن الحُب، والطمأنينة، والشعور بالأمن يرفع قدرة هذا الجهاز ؛ وإن الخوف والقلق، والحقد والبغض يضعفان هذا الجهاز.

والآن فسّر.. لماذا يصاب الناس بأمراضٍ عضالة ؟ إنه من الشرك، الشرك يعطي خوف، وقلق، واضطراب، والتوحيد أساسه الثقة بالله عزّ وجل، فالعالم الآن لا يعنيه إلا هذا الجهاز.. جهاز المناعة المكتسب.. فما الذي يضعفه ويدمّره ؟ إنه الانحراف الجنسي.

فقد قرأت قبل شهر -ولم أصدِّق ما قرأت - لقد قرأت عن وزير الصحة البريطاني عقد مؤتمراً صحفياً وهو يحمل دكتوراه في العلوم الإنسانية، قال في المؤتمر: أنا شاذ جنسياً، والله هذا شيء غريب في مؤتمر صحفي ! فهذا الإنسان في آخر الزمان

((كيف بكم إذا أصبح المعرف منكراً والمنكر معروفاً ؟ كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف))

كيف بكم ؟

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

إن كل هذا الكون المرئي وغير المرئي، وكل ما فيه من مجرّات و كازارات، ومذنّبات، و كواكب، ونجوم، و أقمار، و سُحُب، والأرض بجبالها، وصحاريها، وبحارها، وأنهارها، وأسماكها، وأطيارها، ونباتاتها، و الإنسان.. فكل ما في الكون يدلُّ على أن هذا القرآن كلام الله، و هذا جواب القسم..

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40))

القرآن من عند الله:

إن الرسول ليس مُبْتَدِع، وهذا القرآن ليس من عنده..

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة المائدة: آية " 67 ")

(إنما أنا مُتَّبِع)، وقد قال العلماء: **" إما أن هذا الرسول هو سيدنا جبريل، أو هو محمدٌ عليه الصلاة والسلام ".** و كلاهما جائز..

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ)

وهذا القرآن ليس شعراً، ولا نثراً، ولا قصّةً، هذا كلام الله، فمن الغباء أن توازن بينه وبين الشعر، أو بينه وبين القصة، أو بينه وبين النَثر، إنه كلام الله..

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ)

فليس من العقل أن ينكر الإنسان شيئاً لم يدرسه، ولا بحث فيه، ولا درس جوانبه، ولا تعمّق بفهمه، فهل سمعت عن إنسان طرق عليه ساعي البريد وأعطاه رسالةً فجاء الذي تسلّمها فمزّقها ولم يقرأها ؟ هذا مستحيل، وهناك من الناس من لا يعظّم هذا الكتاب دون أن يقرأه أو يتعمّق فيه أو يفهم أحكامه، هذا القرآن هو كلام رب العالمين، فكل الكتب في الأرض بكفّة، وهذا القرآن بكفة أخرى، و الآن يُطبع في اليوم الواحد من كتب في العالم وباللغة الإنكليزية فقط ما لا يستطيع الإنسان أن يقرأه في مائتي عام.. فكم من كتاب في الأرض ؟ وكل هذه الكتب بجميع اللغات في كفّة وهذا كلام الله في كفّة ثانية، هذا كلام الله.

قصة:

دخل مُغَنّ إلى مكتبة في إيطاليا فلفت نظره القرآن الكريم باللغة الأجنبية، فسأل صاحب المكتبة: مَنْ مؤلِف هذا الكتاب ؟ قال له: الله. فسخر من هذا الكلام واشتراه لينقض هذه الدعوى التي ادّعاها صاحب المكتبة، قرأه فآمن، وأسلم، وترك الغناء، وأنفق ثروته كلّها في شراء اسطواناته وإتلافها لعل الله يغفر له ذلك، ففي بدء الهداية قيل له: هذا الكتاب ألّفه خالق الكون، و أشار إلى السماء، ففضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، فكم هي المسافة بين خالق الكون وبين إنسان حقير ؟ إنها نفس المسافة التي تكون بين كتاب ألّفه إنسان شاعر أو كاتب أو مفكِر، وبين كتاب الله، و لا يؤلمني إلا أن يُعدّ كتاب الله كأي كتاب، هذا قرآن.. هذا كتاب الخالق !

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت: آية " 42 ")

وهو كتاب من عند الله فيه الحق المُطْلَق، ولا يوجد فيه خطأ أبداً، فما من كتابٍ قرأته إلا وجدت فيه ثغرات بعد حين، وقد قرأت كتاب الله كتاب كثيراً فما وجدت فيه ثغرة واحدة، وهو من أعظم الكتب الدينية، وقد قرأت كتاباً ذكر فيه المؤلف أن الإنسان عندما يأكل يصعد بخار الطعام إلى الدماغ، فكأن الجسم مُفَرّغ، والمعدة صحن وضع فيه الطعام الحار وبخار هذا الطعام صعد إلى الدماغ، وهذا شيء مضحك لأنه كلام بشر، فهل وجدتم حقيقةً في الأرض تُصادم آيةً قرآنية ؟ هذا مستحيل لأنه كلام خالق الكون.

طبعاً أيها الإخوة...

(فَلَا أُقْسِمُ)

هي عند علماء التفسير بحكم أقسم، بمعنى أن الله عزّ وجل حينما قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

فجواب هذا القسَم المَنْفي هو:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

أي أن الكون كلّه في كفّة وكلام الله في كفّة، والدليل:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام: آية " 1 ")

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: آية " 1 ")

فالله عزّ وجل خلق الكون ونوّره بالقرآن الكريم، إذاً:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(43))

أحياناً يكون للإنسان دعوى بالقضاء، فيصدر اجتهاد محكمة النقض بخمس كلمات فيقول: لقد ارتحت.. لأن هذا الاجتهاد يغطي دعواي، و دعواي ناجحة.. فكلمة قالها إنسان من اجتهاد بسيط قد لا يؤخذ به يشعرك بالطمأنينة، وربنا عزّ وجل يطمئن المؤمن في ستمائة صفحة، و يعد المؤمن بجنةٍ عرضها السماوات والأرض، أفلا ينبغي أن نطمئن ؟

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة ابراهيم: آية " 27 ")

والقرآن الكريم..

(تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وعد الله عزّ وجل المؤمن بحياة طيّبة، وهو وعد قطعي، كما وعد المعرض بمعيشة ضنك، فلابدّ من أن يحيا هذه الحياة، ووعد المستقيم بالرزق الوفير، ووعد الخائن بالمَحْق، فأي شيءٍ وعد الله به محقق الوقوع، وأي شيءٍ أوْعَد الله به محقق الوقوع ما لم يَتُب صاحبه..

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ)

(سورة المعارج)

لو أن النبي عليه الصلاة والسلام تكلّم كلمة لم يقلها الله عزّ وجل، قال:

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46))

الوتين: هو عرق في القلب إذا انقطع يموت الإنسان..

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

أي: أهلكناه..

(ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47))

أي أن النبي عليه الصلاة والسلام اسمه أمين وحي السماء، فلا توجد كلمة أوحى الله إليها به إلا وذكرها، فهناك أمانة مطلقة، فالله عزّ وجل يوحي إليه وهو الرقيب عليه..

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ)

تقوّل ؛ أي: قال عنّا قولاً لم نقله..

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

بطشنا به..

(ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47))

لأن كل إنسان في قبضة الله..

(وَإِنَّهُ)

القرآن الكريم..

(لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

لأن الإنسان مفطور على الكمال، فإذا توافقت فطرته مع كتاب الله شعر براحة كبيرة.

أنواع التكذيب:

(وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49))

إما تكذيب قولي، أو اعتقادي، أو سلوكي، فالإنسان عندما يخالف نص القرآن الكريم يكون فعله هذا أحد أنواع التكذيب، لكن التكذيب العملي هذا خطير جداً..

حسرة الكافرين:

(وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المعارج)

و الحسرة لا تكون الآن، لكنها تكون حينما يكتشف أن هذا القرآن الذي أهمله، واتخذه وراء ظهره، وأعرض عنه، ولم يتله آناء الليل وأطراف النهار، ولم يأخذ بأحكامه، ولا بحلاله ولا بحرامه، ولا التصور الذي جاء به القرآن للكون، والحياة، والإنسان، وأنه سبب هلاكه عندئذ تأتيه الحسرة..

(وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)

فمثلاً: إذا باع إنسان بيته وهو لا يملك غيره، وباعه بعملة صعبة، ومعه جهاز في جيبه لكشف الزيف في العملة ولكن لم يستخدمه، ثم اكتشف أن الثمن كله عملة مزورة ألا يُصْعَق ؟ لكن لماذا يتضاعف ندمه ؟ لأن معه جهاز كشف الزَيف ولكن لم يستخدمه، فالله عزّ وجل أعطانا منهج وأعطانا عقل، فلا استخدم الإنسان عقله ولا استخدم المنهج..

(وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51))

كل ما فيه حق يقين، وخيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط، لأنه لابدّ من أن يؤمن ولكن بعد فوات الأوان حينما يأتيه ملك الموت..

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

(سورة المعارج)

سبحان الله العظيم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1-4 حتمية الحساب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-07-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الأول من سورة المعارج:

العذاب الواقع:

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

(سورة المعارج)

إذا قال الله عزّ وجل:

(بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

فلا بدّ للعذاب من أن يقع، والإنسان- أيها الإخوة مخيَّر، فالشهوات التي أمامه محسوسة، لكن عقابها خبر في القرآن الكريم، و الطاعات التي يتحمّل من أجلها جهداً جزاؤها خبرٌ في القرآن الكريم، فلو أن الشهوات و الطاعات مع نتائجها كانت جميعاً محسوسة لما كان الإنسان مخيَّراً، بل إنه يصبح عندئذ مضطراً، والشيء الدقيق هو أن المؤمن سُمِّيَ مؤمناً لأنه يؤمن بالغيب، و يؤمن بجنةٍ لم يرها،لكن الله أخبره عنها، و يؤمن بنارٍ لم يذق حرَّها لكن الله أخبره عنها، فلو كانت الجنة و النار محسوستان كالشهوات التي بين أيدي الناس، لما اقترف إنسانٌ معصيةً، ولا رقي بطاعة لأنه في هذه الحالة يكون مضطراً.

مثال:

أوضح مثلاً على ذلك: ضع على طاولةٍ مبلغاً من المال، وليقف أمامه إنسان، ثم قل له: إن أخذته بغير حقٍ أطلقت عليك النار، فهل يأخذه ؟ إطلاقاً، وضع على طاولةٍ ثانية صندوقاً، وقل لإنسان: ادفع مائة ليرة وخذ ألفاً، إنك ستجد الناس جميعاً يقفون وراء بعضهم بعضاً ليأخذوا هذه الميزة، فلو أن نتائج الطاعة كانت محسوسة كمقدِّماتها، ولو أن نتائج المعصية كانت محسوسة.. حسِّية.. كأسبابها، لما عصى إنسانٌ ربَّه إطلاقاً ولما ارتقى بهذه الطاعة، إنها طاعةٌ اضطرارية، وأنت لا ترضى و لا ترقى عند الله عزّ وجل إلا إذا آمنت به غيباً وأطعته على ثوابٍ أخبرك به، ولا ترقى إطلاقاً إلا إذا اجتنبت معصيته على عقابٍ أخبرك الله عنه، و لذلك كانت مشكلة غير المؤمن أنه يتعامل بحواسِّه، فما دام في صحة وبحبوحة، فهو قادر على أن يمارس كل نشاطات حياته، وتكون الشهوات التي بين يديه مستعرة

فينغمس فيها، وينسى أن الله أوعد هؤلاء العصاة بعذابٍ شديد، بينما ربنا عزّ وجل في هذه السورة يقول:

(سَأَلَ سَائِلٌ)

إن هذه السورة مَكِّيَةٌ بإجماع العلماء..

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

قد يقول الكافر أحياناً -لاستهزائه بحقائق الدين ولعدم تصديقه لكلام الله عزّ وجل-: أين العذاب ؟ فليأت، وحينما يقول أحدٌ هذا الكلام يكون كتلة من الجهل، لأنه يقول ذلك لخالق الكون، فأنت لا تقول لإنسانٍ قوي يفعل ما يقول: افعل ما تريد، فهذا كلام فيه تحدّ، لكن الإنسان لجهله ولعدم معرفته أحياناً يستعجل عذاب ربّه، فيقول: أين العذاب ؟ أين المرض ؟ أين الدمار ؟ نحن أقوياء، يقول لك: أنا قوي، وكأنّه لن يموت، و لن يمرض، وكأنه يضمن ما هو فيه من شهواتٍ وموات.

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ)

أي: التمسَ ملتمسٌ عذاباً للكافرين، هذا العذاب قال الله عنه:

(لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ)

(سورة المعارج)

لو أن أهل الأرض كلّهم و الإنس والجن اجتمعوا على أن يمنعوا عذاباً عن إنسان لا يستطيعون.

قال عليه السلام:

((وَاعْلَمْ أَنّ الأُمّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ))

[من سنن الترمذي: عن ابن عباس]

قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

((لِكُلّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[من مسند أحمد: عن أبي الدرداء]

الخوف دليل العقل:

أيها الإخوة الأكارم... إن الله جلّ جلاله يبيّن في هذه الآية أن العذاب الذي توعّد به الكافرين واقعٌ لا محالة، وأن القضية هي قضية وقت فقط، فالعذابُ واقعٌ بهم لا محالة مع وقف التنفيذ إلى أن يستكملوا

أجلهم، فالإنسان المحكوم عليه بأن العذاب سوف يصبُّ عليه في الوقت الذي يراه الله مناسباً، لو عرف هذه الحقيقة لما نام الليل.

يا أيها الإخوة الكرام... كلّما نما عقل الإنسان نما خوفه، فالخوف متعلّق بالعقل، وقد قال لي مستهزئ مرة إنسان: أنا لا أخاف من الله، قلت له: معك الحق، قال لي: كيف ؟ قلت: إن بعض الفلاّحين يذهبون ليحصدوا القمح مع أطفالٍ صغار في سن السنتين، فقد يمر أمام هذا الطفل الصغير ثعبانٌ ضخم، لكن هذا الطفل لا يخاف أبداً، بل يضع يده عليه، قلت له: إذا انعدم الإدراك انعدم الخوف، فالذي لا يخاف ليس عنده إدراك أبداً، وهذه قاعدة أيها الإخوة: **" إن صح الإدراك كان الخوف، وإن كان الخوف نقلك إلى السلوك ".**

وأوضح مثل على ذلك أنك إذا كنت في بستان فرأيت أفعى، فخبراتك السابقة، والقصص التي سمعتها، والكتب التي قرأتها، والمشاهدات التي شاهدتها، هذه كلُّها كوّنت في ذاكرتك مفهومات أن الأفعى قد تكون قاتلة، وسمها قاتل، فهذه المفهومات التي أودعت فيك ؛ من خبرات و تجارب و مطالعات و قراءات شكّلت لك إدراكاً، فإن رأيت أفعى تتحرك أمامك وكان الإدراك صحيحاً فلا بدّ من أن تشعر بالخوف منها، فعلامة الإدراك الصحيح الشعور بالخوف، وإن خِفْتَ منها حقيقةً فلا بدّ من أن تتصرف، فإما أن تهرب وإما أن تقتلها، وصحة الإدراك تنقلك إلى الشعور، وصدق الشعور ينقلك إلى الحركة، الإدراك أولاً ثم الانفعال ثم الحركة، وإذا لم يكن هناك حركة فلا يوجد انفعال، ومعنى عدم وجود الانفعال هو عدم وجود الإدراك، فالإنسان حينما لا يخاف يكون إدراكه للخطر غير صحيح، فقد تجد إنسانين ؛ أحدهما جاهل والآخر طبيب، أما الجاهل فيُمْسِك بالفاكهة ويأكلها والتراب عليها، لكن الطبيب يغسلها كثيراً، لأن إدراك الطبيب بحسب معلوماته ومشاهداته للجراثيم والأمراض والأوبئة والأمراض المُعْدِيَة يدفعه إلى غسل الفاكهة، بينما الذي لا يعلم هذه الحقائق كلها قد يأكلها بترابها وما يدري أنه ماذا يفعل، فالخوف متعلِّق بالإدراك، فالذي لا يخاف الله إدراكه معدوم، ومن هنا جاء الحديث:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

فكلما نما إدراك الإنسان نما خوفه من الله، وأذكر أنني زرت بعض المعامل فرأيت صاحب المعمل في وضعٍ صعبٍ جداً، فوجهه مُصْفَر، ونفسه مضطّربة، فقلت: ما الذي حدث ؟ قال: تعال انظر، لقد كان المعمل قائماً والآلات تعمل بانتظام وكل شيء على ما يرام.. لكنه قال لي: تعال انظر، فنظرت فإذا بجسرٍ مركزيٍ في السقف فيه خط بسيط، قال: جئنا بدكتور في الهندسة وقال: هناك انزياح في أساسات المعمل، وإصلاح هذا الانزياح يحتاج إلى خمسمائة ألف ليرة، فقلت: لو نظر إنسان عادي لهذا الشق في هذا الجسر لقال: إنه يحتاج إلى معجون وطلاء وانتهى الأمر، أما العالم فيقول: هناك انزياح في أساسات، وهذا آيلٌ إلى السقوط، فلا بدّ من إصلاح هذه الأساسات بأقرب وقت.

فالعلم معه خوف، ويصحبه إدراك للنتائج، والإنسان إذا خاف بعينيه كان في مستوى البهيمة، أما إذا خاف بعقله فإنه يكون في مستوى الإنسان، وأقرب مثل على ذلك الدُخان، فالمدخن يدخِّن دون أن يشعر بشيء، ويقول لك: (الدخان ما فيه شيء مضرّ)، أما حينما يُداهمه المرض الخبيث، ولا يسمح له الدخان أن يعيش ولا ساعة أو ولا سنة يدرك أنه خاف بعينيه ولم يخف بعقله، أما إذا خاف الإنسان بعقله تصوّر المستقبل قبل أن يصل إليه، فمن أدق تعريفات العقل: أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

نحن عبيد وعباد..

أيها الإخوة... أردت من هذه المقدمة أن أقول: إننا جميعاً عبيدٌ لله عزّ وجل، فنحن عَبيد وعِباد، و(عَبيد) جمع عبد، وفيها معنى القهر، فكلنا عبيدٌ لله ؛ بمعنى أننا مقهورون في وجودنا وفي سلامة وجودنا، وفي استمرار وجودنا إلى الله عزّ وجل، وكلكم يعلم أن أي خللٍ في جسم الإنسان يجعل حياته جحيماً لا يُطاق، وأن أحداً لا يملك أجهزته، ولا خلاياه، ولا سيولة دمه، ولا دماغه، ولا قلبه، ولا رئتيه، ولا أمعاءه، ولا أي غدةٍ في جسمه، فإذا كنا عبيداً مقهورين لله عزّ وجل فكيف نعصيه ؟ كيف نعصيه وكل مقومات سلامتنا وسعادتنا بيده سبحانه ؟؟

قال أحدهم لأحد العلماء: أريد أن أعصي الله، فقال له: لا شيء عليك، اعصه إذا شئت، ولكن احتط لخمس نقاط، قال له: ما هي ؟ قال: إن أردت أن تعصيه فاعصه في مكانٍ لا يراك فيه، و إن أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، فقال: أين أسكن إذاً ؟ قال: تسكن أرضه وتعصيه ؟ هذا ليس معقول، قال له: هات الثانية، قال: إن أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه، قال: وماذا آكل إذاً ؟ قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه ؟ قال: هات الثالثة، قال: إن أردت أن تعصيه فاجهد أن تعصيه في مكانٍ لا يراك فيه، قال: هو معنا دائماً، قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ؟! قال: هات الرابعة، قال: إن أردت أن تعصيه وجاءك ملك الموت فلا تذهب معه، ارفض، قل لا أريد أن أموت، قال: لا أستطيع ذلك، قال له: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تتفلّت من ملك الموت !! قال له: هات الخامسة، قال له: إذا جاءك الزبانية ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم، قال له: لا أستطيع، قال له: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تتفلّت من ملك الموت ولا من زبانية جهنم ؟؟ فكيف تعصيه إذاً ؟.

أيها الإخوة.. إن الإمام الغزالي لمّا خاطب نفسه قال: " يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلةٍ تحبّينها فلا شك أنك تمتنعين "، فأنت تطبّق تعليمات الطبيب بحذافيرها من أجل صحتك و قلبك، "أيكون الطبيب أصدق عندك من الله "، إنك تصدِّق الطبيب، وقد تبيع بيتك الذي في الطابق الرابع في اليوم التالي، وقد تعبت في شرائه، وتزيينه، وهندسته، وتأثيثه، قد تبيعه فوراً لأن الطبيب أمرك بهذا، فأنت تصدِّقه دون

أن تصدق الله عزّ وجل ؟!.. " إن منعك طبيبٌ من أكلةٍ تحبينها فلا شك أنكِ تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ فإن كان كذلك فما أكفرك، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله "، فالطبيب يقول لك: هذا الدرج قد يؤثِر على قلبك، وهذا الطعام قد يرفع ضغط الدم عندك، و الوعيد هو ضعف في القلب أو ارتفاع في الضغط، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله ! إذاً فما أجهلكِ.

إخواننا الكرام... إن أي إنسانٍ يعصي الله هو مدموغٌ بالكفر والغباء والجهل، لأننا بيد الله، وفي قبضة الله ؛ حياتنا، وأجهزتنا، وأعضاؤنا، وأنسجتنا، فهذا نمو الخلايا إما أن ينمو نمو نظامياً فالوضع سليم، وإما أن تنمو هذه الخلايا نمواً عشوائياً فالوضع مميت، فمن منا يملك قلبه ورئتيه ومعدته وأمعاءه وكبده، وكليتيه، وحركته، ودمه السائل إن أصبح لزجاً، من منا يملك ذلك ؟ إذا كنا في قبضة الله عزّ وجل فكيف نعصيه ؟ ماذا تقول له إذا قال لك: يا عبدي لم عصيتني ؟ هل معك جواب ؟

لا تدع الدنيا تستهلكك:

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

(سورة المعارج)

العذاب الذي أوعد به الكافرين واقعٌ لا محالة، لكن الإنسان أحياناً يكون كالنعامة ؛ فالنعامة تماماً يَتْبَعُها عدوٌ لها ليفترسها،فتجد أن أفضل شيء أن تغمس رأسها في الرمل، عندئذٍ لا ترى عدوها فالمشكلة في نظرها قد حلّت ؟ فتسهل بذلك لعدوها أن يفترسها بلقمةٍ سائغة، فالحقيقة هي أن هناك مشكلة، وهي أن الإنسان أحياناً الحياة تستهلكه ؛ فمن يوم إلى يوم، ومن فصل إلى فصل، ومن سنة إلى سنة، ومن عمل إلى عمل، ومن مشروع إلى مشروع، تستهلكه الحياة ويغفل عن ساعة لقاء الله عزّ وجل، فيُؤسس مشروعاً، و يحضِّر دكتوراه، ويفكر في الزواج، وينهمك إلى قمة رأسه في الأمور الدنيوية، ويغيب عنه أنه في لحظةٍ واحدةٍ قد يكون من أهل القبور، فيغدو خبراً بعد أن كان رجلاً، لقد كان رجلاً له وزن و حجم و فكر و عاطفة و نشاط و حركت و مكانة في بيته و مركز تجاري و سمعة، لكنه فجأةً يصبح خبراً على الجدران.

فيا أيها الإخوة الكرام... وقفتي عند قوله تعالى:

(بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

إنه واقع لا محالة، ولا نستطيع أن ننجو من عذاب الله إلا بطاعة الله، ولا نستطيع أن ننجو من هذا العذاب الواقع إلا بالصلح مع الله.

الوهم المريح والحقيقة المُرّة:

إخواننا الكرام... إن أخطر شيء في الحياة هو الوهم المريح، وأصعب شيء هو الحقيقة المرة، فالإنسان إذا كان رجلاً بالمعنى الصحيح، لا يأبه للوهمِ المريح بل يبحث عن حقيقةٍ مرة تقلقه، وقد ذكرت الوهم المريح في درسٍ سابق، فقد يسمع طالب في أول عام الدراسي كلمةً غير صحيحة تقول: أنك إن قدّمت هديةً للأستاذ قبيل الامتحان فإنه يعطيك الأسئلة، فالطالب هنا يرتاح راحة كبيرة جداً، لأن الدراسة قد انتهت، فلن يحضر، ولن يدرس، ولن يذاكر، ولن يلخِّص، ولن يؤدِّي واجباته على إطلاقاً اعتماداً على هذا الوهم المريح، فهو سيطرق باب الأستاذ قبل الامتحان بيوم ليقدِّم له الهدية ويأخذ الأسئلة مكانها، فقد يفعل ذلك، فيصفعه الأستاذ على وجهه ويطرده ويركله بقدمه، وهذه هي الحقيقة المُرة، فالأستاذ لا يفعل هذا أبداً، ولو أنه علم هذه الحقيقة في أول العام لدرس ونال الشهادة، لكنه علمها بعد فوات الأوان ؛ قبل الامتحان بيوم، فالأمر في ذلك الوقت يكون قد انتهى، فيجب على الإنسان ألا يكون ضحية وهم كاذب، و انهماك في الدنيا، وألا يجعل الدنيا تستهلكه، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ)

(سورةالفرقان: آية " 63 ")

ذكرت من قبل أن العَبيد جمع عبد القَهر، أما العِباد فهو جمع عبد الشُكر قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً)

(سورة الفرقان)

ما معنى: هَوْناً ؟ أي بتؤدة، فهذا الذي يمشي على الأرض هوناً لا يسمح لعمله أن يستهلكه، وما أكثر الذين استهلكتهم أعمالُهم، فهو مُنْغَمِس في علمه إلى قمّة رأسه ؛ لا يفقه شيئاً ولا يعي شيئاً ولا يهتم بشيء، فقد استهلكه عمله وأنهاه، لكن العبد الذي يمشي على الأرض هوناً لا يسمح لأسرته أن تستهلكه، ولا يسمح لبيته أن يستهلكه، ولا يسمح لمشكلةٍ أن تستهلكه، يمشي هوناً، ويسأل دائماً من أنا ؟ أين كنت؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ أما هذا الذي يعيش لحظته فهو إنسانٌ تافه، يعيش لأنه يعيش، ويعيش لأن قلبه ينبض، لا يعرف من أين ؟ ولا إلى أين ؟ ولا لماذا ؟.

السلامة والسعادة مطلبان أساسيان:

يا أيها الإخوة الكرام... إننا لا نحتمل العذاب أبداً، فلو أنّك سألت خمسة مليارات إنسان يعيشون على سطح الأرض في القارات الخمس: هل هناك مطلبان ثابتان دائمان أساسيان ؟ لقيل لك: نعم هما السلامة والسعادة، فمن منا يحب المرض ؟ من منا يحب أن يصيبه مرضاً عضالاً ؟ -لا سمح الله ولا قدر- من منا يحب الفقر المدقع ؟ من منا يحب الذل ؟ من منا يحب أن يكون مهاناً ؟ أن يكون شقياً في بيته ؟ أن يكون دنيئاً أمام الناس ؟ كلنا نحب السلامة، فباستقامتك على أمر الله تسلم، وكلنا نحب السعادة،

وباتصالك بالله تسعد، فالسلامة ثمنها الاستقامة، والسعادة ثمنها العمل الصالح، فإن استقمت على أمره سلمت، وإن عملت الأعمال الصالحة سعدت، والذي يطلب السلامة والسعادة عليه أن يصطلح مع الله وأن يطيع الله عزّ وجل وأن يتقرب إليه بالأعمال الصالحة.

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2))

(سورة المعارج)

الحساب على الله:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 1ل ")

هناك أُناس يتوهمون أن فلاناً رجل صالح، فإذا كنت معه أنجو، فهو يحاول أن يغطِّي أشياء بأشياء، وقد ذكرت اليوم في الخطبة: أن الإنسان إذا كان في أعلى درجة من الذكاء وطلاقة اللسان وقوة الحجة، والتقى مع النبي عليه الصلاة والسلام وكان في خصومة مع أحد أصدقائه، وعرض أمره على النبي، واستطاع بطلاقة لسانه وقوة حجته وحِنكته أن ينتزع من فم النبي فتوى لصالحه، و أي فتوى أهم من فتوى النبي وهو سَيِّد الأمة وسيد ولد آدم المعصوم الذي يوحى إليه، لو أنَّك انتزعت من فم النبي عليه الصلاة والسلام فتوى لمصلحتك بقوة حجتك وبطلاقة لسانك ولم تكن محقاً فإنك لن تنجو من عذاب الله، فـ(العَلْقَة) مع من إذاً ؟ إنها مع الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ))

(من صحيح البخاري: عن أم سلمة)

هذا الحديث وحده أيها الإخوة يكفي لئلا نعتمد إلا على الله، وألا نرجو إلا الله، وألا نخاف إلا من الله، وألا نضع آمالنا إلا على الله، فلو أفتى لك النبي عليه الصلاة والسلام، و سمح لك و قضا لك و حكم لك، ولم تكن محقاً فإنك لن تنجو من عذاب الله، وهذا الحديث صحيح،

((لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ))

(من صحيح البخاري: الرواي "أم سلمة"")

فالإنسان كلما زاد عقله زادت طاعة لله، وزاد حرصه على القرب من الله.

معاني (العذاب الواقع):

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2))

[سورة المعارج]

وقال بعضهم: هذه الباء زائدة، أي: سأل سائلٌ عذاباً واقعاً للكافرين، فإما أن نفهم هذه الآية على أن الكافر لجهله وبعده وتكذيبه واستهزائه يستعجل عذاب الله عزّ وجل، فيقول: أين العذاب ؟ لينزل بنا العذاب، وإما أن المؤمنين ينتظرون أن ينزل الله عقابه بالكافرين، وإما أن المسلمين سألوا: على من يقع عذاب الله ؟ ومتى ؟ فهذا من علم الله عزّ وجل، أي إما أن يسأل مسلم الله عزّ وجل أن يدمِّر الكافرين، والله عزّ وجل يقول:

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

(سورة يونس: آية " 46 ")

أي: إنك يا محمد قد لا تستطيع أن ترى نتائج أو عقاب الكافرين، فقد ترى وقد لا ترى، فإذا كان النبي وهو أكرم الخلق على الله عزّ وجل يرى أو لا يرى، فنحن ليس هذا من شأننا، فأنت عليك أن تطيع الله عزّ وجل، والإنسان حينما يستقيم على أمر الله ويصل إلى هدفه مع الله، فلا علاقة له بالطرف الآخر، عُذِّب أو لم يُعَذَّب، " كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله "، فالإنسان لا يعلِّق أهمية فيقول: لم لا يدمِّر الله هؤلاء الكُفّار الذين أخرجوا الشعوب من بلادهم وتغطرسوا، وافتخروا، وتحدوا، وهدموا بيوت الناس ؟ أين الله ؟ لماذا لا يدمِّرهم ؟ إن هذا استعجال، و هذا ليس من شأنك، بل هو من شأن الله عزّ وجل، و أنت عليك أن تطيع الله وانتهى الأمر.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

تنتهي مهمة الإنسان المؤمن حينما يلتزم أمر الله ونهيه، وحينما يرجو الله عزّ وجل أن ينصر المؤمنين، وهو يفرح حينما يُنْزِل الله عقابه للكافرين، و لا ينبغي عيه أن ينتظر وأن يسأل وأن يتعجَّب، إذاً: إما أن السائل هو مسلم ينتظر أن يُنزل الله عقابه بالكافرين، وإما أنه مستهزئ كافر يقول: متى وعد الله ؟ وإما أن السائل يسأل متى وأين ؟ فالجواب عند الله عزّ وجل.

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2))

وقد قال الله تعالى:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ)

(سورة الحاقة)

آيات الدرس الماضي..

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47))

(سورة الحاقة)

فلا تعتمد -أيها الأخ الكريم- على مالك، لقد قال شخص هذه الكلمة: إن المال يحل كل مشكلة، وقالها وهو يجهل أن هناك مشكلات لا يحلها المال، فوقع في ورطةٍ، فدامت ثلاثة وستين يوماً، وكانت في محلٍ لا يُحْتَمَل أن تبقى فيه ساعة، وكان يأتيه هذا الخاطر كل يومٍ.

وهناك رجل توفِّي، وقبل أن يتوفّاه الله عزّ وجل خرج من معمله في جهة الجنوب وكان بيته في المهاجرين، فبقي ساعاتٍ طويلة يبحث عن بيته، فقد ضاع من ذاكرته مكان بيته، و هذا فقد جزئي للذاكرة.. وهناك فقد كلي..، فأصبح لا يعرف أبناءه، فمن اعتمد على ماله فإن المال يذهب بأدنى سبب، ومن اعتمد على عقله وذكائه فالعقل يذهب بأدنى سبب، ومن اعتمد على من حوله فقد يتخلّى الذين حوله في أحرج المواقف، لذلك:

((لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكرٍ خليلي، ولكن أخٌ وصاحبٌ في الله))

إخواننا الكرام... هذه كلمةٌ من القلب: من اعتمد على غير الله فقد أشرك ؛ فلا تعتمد على زوجة، ولا على ولد، ولا على أقرب الناس إليك، ولا على قوةٍ في جسمك، ولا على ذكاءٍ في عقلك، ولا على مالٍ بين يديك، ولا على مكانةٍ تتمتع بها بين الناس، ولا على رصيدٍ من أي نوع، اعتمد على الله، فحينما توحِّد تجد أن الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك، وحينما لا توحِّد تجد أن الله سبحانه وتعالى قد يتخلّى عنك، وإذا تخلّى الله عنك لا تجد حولك أحداً.

سمعت عن رجل له ولدٌ وحيد، وقد قدم لهذا الولد كل شيء، فكسب مالاً حراماً لينفق عليه في دراسته، وكان يعلِّق آمالاً عريضةً على هذا الابن، فأرسله ليدرس ويأتي بالدكتوراه، فتزوّج هناك وتجَنَّس واستقر، وقطع عن أبيه كل صلة، فكل من يعتمد على غير الله يلقى تأديباً من الله عزّ وجل، فقُم بكل واجباتك تجاه أولادك و زوجتك و إخوانك، وجيرانك، ولا تعتمد إلا على الله، قُمْ بواجباتك ولا تعلِّق أملاً إلا على الله، و افعل كل عملٍ طيب ولا تجعل لعملك سنداً لك في حياتك الدنيا.

أيها الإخوة... إن الشرك الخفي تأديبه قاسٍ، لأن الله عزّ وجل يغار تتكِل على غيره و أن تضع ثقتك في غيره، فلذلك تُفاجأ بكل جهةٍ تضع ثقتك عليها، فتتخلّى عنك في أحرج المواقف.

معاني (المعارج):

(مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ)

(سورة المعارج)

قال العلماء:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

1- أي: ذي العلو والدرجات الفواضل والنِعَمْ.

(ذِي الْمَعَارِجِ)

ذي الدرجات العالية الرفيعة، و هذا ثناءٌ على الله عزّ وجل، وقال بعضهم:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

مراتب إنعامِه على الخلق.

(ذِي الْمَعَارِجِ)

ذي الدرجات العُلا، وهذا ثناءٌ على الله، و:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

2- مراتب إنعامه على الخلق، فقد أنعم عليك بنعمة الإيجاد، وأنعم عليك بنعمة الإمداد، وأنعم عليك بنعمة الهدى والرشاد، فجعلك إنساناً بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، وأعطاك أسرةً، ومنحك زوجةً و أولاداً، وأعطاك عقلاً وحواسّ أعضاء، وأنت تتحرك، فهناك نعمٌ كثيرة.

(ذِي الْمَعَارِجِ)

أي: ذي المراتب في إنعامه على الخلق، وقيل:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

ذي العظمة والعلاء.

3- وقال بعض العلماء:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

معارج السماء، أي طبقات السماء، فـ (المعارج): إما الدرجات العُلا وهذا ثناءٌ على الله، أو درجات الإنعام على الخلق، وهذا نوعٌ آخر، أو (ذي المعارج) ؛ أي: ذي العظمة والعلاء، أو ذي معارج السماء، الذي خلق السماء على هذه الطبقات، أو:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

4- معارج الملائكة.

5- وقيل: المعارج: الغُرَفْ التي جعلها لأوليائه في الجنّة، و كل هذه المعاني تَصْدُق على كلمة:

(مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ)

الملائكة والروح:

الملائكة هي هذه الأجسام النورانية التي تُسَبّح الله عزّ وجل.

(لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

(سورة التحريم)

والروح هو جبريل، وهذا من عطف الخاص على العام، فالملائكة وعلى رأسهم جبريل، أو الروح اسم جنس لكل نفوس البشر حينما تموت، فالإنسان حينما يموت تَعْرُجُ روحه إلى السماء لتلقى حسابها عند الله، فإما أنه جبريل، وإما أن الروحَ اسم جنسٍ لأرواح بني آدم.

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

(سورة المعارج)

(يوم مقداره خمسين ألف سنة):

لهذه الآية وقفةٌ متأنِّية، قال بعض العلماء: هو يوم القيامة، فهو يومٌ طويل على أهل الكفر قصيرٌ على أهل الإيمان، فربنا عزّ وجل عَبَّرَ عن طول هذا اليوم بخمسين ألف سنة، أيها الإخوة.. لقد جعل الله يوم القيامة على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ثم يدخلون بعدها النار للاستقرار فيها، أي أن يوم الحسان يطول ويطول حتى يصل إلى خمسين ألف سنة، والقاعدة الدقيقة تقول: أن الألم ساعة، و اللذّة دقيقة، والزمن يطول ويَقْصُر، فهو يطول على المعذبين ويقصر على المحبّين:

إن يطل بعدك ليلي فلكم بتُّ أشكو قِصَرَ الليل معك

وقد أراد الله جلّ جلاله أن يبيّن أن هذا اليوم يوم القيامة هو على الكافرين عسير، فهو عليهم طويلٌ طويل، ومقداره خمسون ألف سنة، وإما أن يكون هذا الرقم معبراً عن طول هذا اليوم، أو أن طوله خمسين ألف سنة من سنيّ الدنيا، فهو إما رقم للتكثير أو رقم للتحديد، فإما أن هذا اليوم مقداره خمسون ألف سنة من سنوات الدنيا، أو أن هذا اليوم طويلٌ طويل طويل فهو يزيد عن خمسين ألف سنة ليُكَثِّر الله هذا اليوم ويجعل هذا اليوم نخافه جميعاً في الدنيا، ومما يؤكِّد معنى أن هذا اليوم يوم القيامة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((والذي نفسي بيده إنه ليُخَفّف عن المؤمن حتى يكون أخَفّ عليه من صلاةٍ مكتوبة يصلّيها في الدنيا))

أي أن هذا اليوم الذي هو خمسون ألف سنة على الكافرين يَقْصُر ويَقْصُر على المؤمنين ليصبح مقدار صلاةٍ مكتوبةٍ في الدنيا ؛ أي: ربع ساعة، ويطول على أهل الكفر ويقصر على أهل الإيمان، فهذا الذي يؤكِّد معنى أن هذا اليوم يوم القيامة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((ما من رجلٍ لم يؤدِّ زكاة مالٍ إلا جعل الله شجاعاً من نار تكوى بها جبهته وظهره وجنباه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي الله بين الناس))

هذا الحديث أيضاً يؤكِّد أن هذا اليوم هو يوم القيامة.

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ)

فكلمة الروح تعني اسم جنسٍ لأرواح البشر، أي: إن كل إنسان ستصعد روحه إلى السماء لتحاسَبْ عن كل أعمالها، فإن كانت هذه النفس كافرةً طال عليها اليوم طولاً لا حدود له، أو كان مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة، وقال إبراهيم التَيْميّ: **" قدر ذلك اليوم على المؤمن لا يزيد على ما بين الظهر والعصر "**، وهذا قول آخر.

ومن حديث معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((يحاسبكم الله تعالى بمقدار ما بين الصلاتين، ولذلك سمى نفسه سريع الحساب وسمّى نفسه أسرع الحاسبين))

تقريب للأذهان:

بالمناسبة أقول لكم: إن الله عزّ وجل قال تقريباً لإفهام الناس: يُبقي هذا اليوم في الآخرة للمؤمن ربع ساعة مقدار صلاة مكتوبة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، و هذا تقريب، و ربنا عزّ وجل سريع الحساب، وهو أسرع الحاسبين، فإذا كان فهمنا هذه الآية فهماً علمياً قلنا: الآن هناك بعض الأجهزة في أمريكا تقرأ أربعمائة وخمسين مليون حرف في الثانية، والذي يمتلك الحاسوب يعرف ما معنى هذا الكلام، فقد تطرح سؤالاً: أن ابحث لي في الأحاديث عن حديث في هذه الكلمة، فيقرأ لك ستين أو سبعين ألف حديث خلال ثوان، فإذا وصل الإنسان إلى سرعة الحساب بهذه الطريقة، فكيف الله سبحانه وتعالى وهو أسرع الحاسبين ؟! فالوقت عنده لا يوجد إطلاقاً، والحساب فوري، وكل إنسان معه نتائج عمله، لكن ربنا عزّ وجل يقول كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أنه مقدار صلاة مكتوبة))

وهذا تقريب للأذهان، وقد قال تعالى:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

فكلمة:

(كُنْ فَيَكُونُ)

تحتاج إلى وقت، فهي تحتاج إلى ثوان، وهذه أيضاً للتقريب، وأحياناً ربنا عزّ وجل يقول:

(كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

(سورة الأنعام: آية " 12 ")

الله لا يكتب، لكننا نحن نثق بالشيء إذا كان مكتوباً ثقة أكبر، يقول لك: أنا معي عقد أو سند أو تصريح أو تنازل، فالإنسان يرتاح للشيء المكتوب، فربنا عزّ وجل حينما قال:

(كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

إنما قال ذلك ليطمئننا، أو لنفهم ما معنى أن وعد الله حق، فحتى كلمة:

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

(سورة الأنعام: آية " 62 ")

فلا يوجد وقت على الإطلاق، فالإنسان كاد أن يلغي الوقت، والإنسان بحساباته على الحاسوب كاد أن يلغي الوقت، فكيف الله عزّ وجل ؟ والله تعالى يقول:

(َصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً)

(سورة الفرقان)

الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن:

لذلك قال العلماء عن ربهم: إنه لا يشغله شأنٌ عن شأن، فأنت قد تكون مشغولاً بقضية، وحينما تنتهي تلتفت إلى قضية ثانية، فهذا شأن العباد، لكن شأن رب العباد أنه لا يشغله شيءٌ عن شيء، فلو كنت محاسباً وأردت أن تعطي عشرة موظفين الرواتب، فإنهم يقفون أمامك واحداً تلو الآخر، فتبحث عن اسم كل واحد منهم، كما تبحث عن مبلغه، وتنقده راتبه، ويوقع لك، ثم يمشي، ويأتي الثاني، فأنت لا تستطيع أن تدفع للعشرة في ثانية واحدة، لأن هذا ليس من شأن البشر، فأنت مشغول بالأول عن الثاني، وبالثاني عن الثالث، وبالثالث عن الرابع، لكن الله جلّ جلاله لا يشغله شيءٌ عن شيء..

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

قال بعض العلماء: كما يرزقهم في ساعةٍ واحدة يُحاسبهم في لحظةٍ واحد، فالحساب فوري، ويؤكِّد هذا قوله تعالى:

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(سورة لقمان)

وعن ابن عباس:

(فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ)

(هذه الآية في سورة السجدة)، قال: أيامٌ سمّاها الله عزّ وجل هو أعلم بها كيف تكون ".

الآيات المتشابهة:

أحياناً قد يوجد بعض الآيات -وهي قليلة جداً - متعلقة بذات الله، منها قوله تعالى:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

(سورة الفجر: آية " 22 ")

فأين كان ؟ وإلى أين أتى ؟

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

هل لله يد ؟

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)

(سورة المائدة: آية " 116 ")

هل له نفس الله عزّ وجل ؟

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27))

(سورة الرحمن)

هل الله له وجه ؟ له نفس ؟ له يد ؟ له سمع ؟ له بصر ؟هل يأتي ؟ ينتقل ؟

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

(سورة الملك)

هو في السماء ؟ والأرض ؟ وهذه الآياتُ قليلةٌ جداً جداً، ولا تزيد عن أصابع اليد وهي تتعلّق بذات الله عزّ وجل، وإن أسلم وأكمل موقفٍ هو أن تفوّض معناها إلى الله، فآيات التكليف واضحة، وآيات الأمر والنهي واضحة، وآيات افعل ولا تفعل واضحة، وهي لا تحتاج إلى مفسِّر.

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)

(سورة الإسراء)

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)

(سورة النساء: آية " 103 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

وإن أكمل فهمٍ لها أن تفوّضَ لله عزّ وجل أمر معناها، والموقف الثاني هو أن تؤّلها تأويلاً يليق بجلال الله، فيده قوته، وسمعه وبصره عِلمه، ومجيئه مجيء أمره، ووجهه هو ذاته، ونفسه هي ذاته، أما أن تُعَطِّل هذه الصفات، فهذا انحرافٌ في العقيدة، أو أن تجسد هذه الصفات فهو انحرافٌ آخر في العقيدة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 5-18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-07-25

بسم الله الرحمن الرحيم

مشاهد من يوم القيامة

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة المعارج، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)

ضيق أفق الكافرين:

إن هؤلاء الكفار المُعرضين، العُصَاة، المنغمسين في ملذّاتهم المحرّمة يرون هذا اليوم بعيداً لأنهم لا يؤمنون به، ومعنى بعيد: أنه لن يأتي، فهو في رأيهم بعيدٌ عن الواقع و غير صحيح، إنهم يرونه: علام تعود هذه الهاء ؟ قال تعالى:

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

(سورة المعاج)

هذا اليوم طويلٌ جداً على أهل المعصية والعدوان..

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ)

وأرواح المؤمنين و نفوسهم تعرج إلى بارئها لتُحَاسب في يومٍ طويلٍ جداً..

(كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

فاصبر يا محمد على تكذيبهم صبراً جميلاً..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً)

كل آتٍ قريب:

الهاء تعود على يوم القيامة، يوم الدينونة، يوم الحساب و الجزاء و تسوية الحسابات، يوم أن يؤخذ للمظلوم من الظالم، ومن القوي للضعيف، ومن المقهور لمن قَهَرَه..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَرَاهُ قَرِيباً (7))

أيها الإخوة الكرام... لقد زرت قبل أسبوع بلدةً عملت فيها مدرّساً قبل ثلاثين عاماً، وأنا في الطريق تذكرت كيف مضت هذه الثلاثون عاماً ؟ لقد مضت كلمح البصر، وقد كنت مرّة في حفل، فقام خطيب في الحفل وذكّرني أنه كان تلميذاً لي قبل أربعين عاماً.. فقلت: سبحان الله كيف مضت هذه الأعوام الأربعون ؟ والأربعون، والخمسون، والعشرون والعشرة.. كلها تمضي سراعاً..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَرَاهُ قَرِيباً (7))

" كل متوقعٍ آت وكل آتٍ قريب " فنحن الآن في الصيف، وسريعاً ما يمضي الصيف ويأتي الشتاء، وإذا دخلنا في الشتاء، فإنه سريعاً ما يمضي ويأتي الربيع، فندخل في الربيع، وسريعاً ما يمضي الربيع ويأتي الصيف، وإذا دخلنا في أول العام انقضت الأشهر سريعاً ليأتي العام الثاني، وما إن ندخل رمضان حتى ينتهي ويأتي رمضان الثاني.. فالزمن يجري.. وهؤلاء المكذِّبون الكفَّر المنغمسون في الشهوات يرون يوم الدينونة بعيداً، وهو يوم تسوية الحسابات الذي يُحَاسب فيه الإنسان عن أعماله صغيرها وكبيرها.

قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

يوم يحاسب فيه المرء على كل صغيرةٍ وكبيرةٍ، و كل بسمةٍ، وكل عَبوسٍ، وكل عطاءٍ، وكل منعٍ، وكل صلةٍ،وكل قطيعةٍ، وكل كلمةٍ ؛ هل هي قاسيةٍ أو حاميةٍ أو رحيمةٍ أو منصفةٍ، كما يحاسب على كل صلةٍ و زيارةٍ و سفرٍ و إقامةٍ و حفلةٍ، فكُلُّ شيءٍ تفعله مسجلٌ عليك وسوف تُحاسب عنه..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً)

(يْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)

(سورة المؤمنون)

فالمسافة بين حياة الإنسان وبين أن يكون تحت سطح الأرض تقدر بثوان، فقد يفقد حياته فجأةً، وفي ساعات معدودة يُصبح تحت أطباق الثرى.

لقد ذهبت مرَّةً إلى تعزية وسألت عن المتوفى فقيل لي: إن عمره خمسةٌ وخمسون عاماً، وقد ترك مبلغاً فَلكياً، فكيف مات ؟ لقد مات في الفندق ؛ جاءته سكتةٌ دماغية فأنهته بثوان، وفي ذهنه آمال لا تنقضي بعشرين ولا بثلاثين عاماً..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَرَاهُ قَرِيباً (7))

ما من إنسان توفَّاه الله إلا وجاءته الوفاة حسماً لآمالٍ طويلة، وقد رسم النبي عليه الصلاة والسلام على الرمل مستطيلاً بقضيبٍ بيده، ورسم خطاً داخل المستطيل، ثم مدَّده إلى خارج المستطيل بمسافةٍ طويلة، فأشار إلى المستطيل بأن هذا أجل الإنسان، وأما الخط الممدَّد إلى ما بعد المستقيم فقال عنه: وهذا أمله. وقال بعض العلماء أن الأمل يُهْلِك الإنسان، أي أنه يتأمَّل أن يعيش سنواتٍ طويلة جداً وقد تكون أكفانه نُسِجت وهو لا يدري.

مرّة حدثني أخ فقال: هناك رجل يريد أن يكسو بيته، فحيّر المهندسين ماذا يفعل بالتدفئة المركزية ؛ أيجعل تمديداتها خارجاً ؟ أم يجعلها داخل الجدران ؟ و بقي في حيرةٍ ستة أشهر، فإن جعلها من الخارج أعطت فاعليةً أكبر لكن منظرها غير أنيق، وإن جعلها من الداخل فلعلّها تتعطّل فيضطرّ إلى تكسير البلاط، فمرت ستّة أشهر وهو يضع حساباته ماذا يفعل ؟ ثم اهتدى إلى الحل الآتي، فقال: يجعلها داخليةً، و حينما تفسد بعد عشرين عاماً يجعلها خارجية ولا يكسِّر البلاط.. وكأنه ضامن لأن يعيش عشرين سنة بعد هذا العمر.. فكم من إنسان انتهى من كسوة البيت فانتهى أجله، و كم من إنسان أنهى دراسته وانتهى مع إنهاء دراسته أجله، و كم من إنسان نال شهادةً ولم يستخدمها، واشترى بيتاً ولم يسكنه، وكم من شابٍ مات في ليلة عرسه.. أعرف شاباً مهندساً وقد كان متفوّقاً جداً، وأراد الزواج فهيؤوا لحفلة العرس أوزاناً من الحلوى لا يمكن أن تَصدّق، وفي أحد المشاريع مدّ رأسه من النافذة ليتفقّد شيئاً فوقع فوق رأسه قطعة صُلبة قتلته فوراً، فوزّعت كل هذه الحلوى يوم وفاته أثناء التعزية.. وهناك قصص كثيرة جداً من هذا القبيل ؛ فهناك من يُسافر فلا يعود، ويأتي إلى بلدٍ فلا يرجع إليها، ويعقد قِرانه فلا يدخل، وينال شهادةً فلا يستمتع بها، ويبني بيتاً فلا يسكنه.

حدثني أخ عن رجل اشترى بيتين متصلين في طابقٍ واحد، وأمضى سنتين كاملتين في كسوتهما، وبعد أن انتهت الكسوة بأسبوعٍ واحد انتهى أجله..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَرَاهُ قَرِيباً (7))

أيها الإخوة... إن المؤمن الصادق يجب أن يكون مستعداً لمغادرة الدنيا في أية لحظة والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران)

أي لا يأتينّكم الموت إلا وأنتم مستسلمون لأمر الله عزّ وجل، خاضعون له..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَرَاهُ قَرِيباً (7))

فلا يوجد إنسان يموت إلا وكانت في مذكِّراته أعمال لا تنقضي بعامين أو بعشرة أعوام ؛ مشاريع وخطط، وطموحات، وشركات، وعقود، ومنجزات، فيأتي الموت فيهدِم اللّذات، ويفرّق الأحباب، ويشتت الجماعات.. **" عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به "..**

إخواننا الكرام... بعضهم يقول: إن ذكر الموت فيه تشاؤم، لكن الموت فيه معنى إيجابي، فإذا كنت على طريق فأنت معرّضٌ لخطرين ؛ خطر التوقف والتعطّل، وخطر الانزلاق، فالتفكّر بالموت يحول بينك وبين الانزلاق وبين الوقوف، فأنت متحرّك، والموت يدفعك إلى طاعة الله والعمل الصالح وإنفاق المال

و تلاوة القرآن و طلب العلم و الذكر، والموت يمنعك أن تعصي الله عزّ وجل، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أكثِروا ذكرَ هادم اللذّات))

فلم يقل: اذكروا، بل قال: أكثِروا، فالأمر لا ينصبُّ على الذكر بل ينصبُّ على كثرة الذكر، فما الذي يمنع أن يسأل الإنسان نفسه: هل بقي لي بقدر ما مضى؟ إنه سؤال صعب، ولكن ليتصوّر أحدنا أنه مات، ماذا سيكون بعد موته ؟ هل يباع بيته ؟ هل تتزوج امرأته ؟ هل ينضبط أولاده أم يتفرّقون ؟ هل يجتمعون أم يتنافسون ؟ ماذا سيحصل ؟ و هذه الأشياء التي يقتنيها من سيأخُذها ويستخدمها ؟ وماذا سيكون ؟

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يوماً على آلةٍ حدباء محمول
فإذا حملت إلى القبور جنازةً..
فاعلم بأنك بعدك محمـولُ

* * *

هناك رجل ورث من رجل مبلغاً ضخماً جداً يزيد عن تسعين مليون، ولكن هذا المبلغ لا يحصّل إلا بمعاملات طويلة جداً، فترك عمله، وترك متجره وشمّر وانطلق من دائرة إلى دائرة، ومن مكان إلى مكان، ومن ورقة إلى ورقة، ومن وثيقة إلى وثيقة، ومن براءة ذمّة إلى براءة ذمّة من أجل أن يحصِّل هذا المبلغ الكبير، وجاءته المَنِيَّة قبل أن يقبض درهماً واحداً..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَرَاهُ قَرِيباً (7))

سبحان الله.. إنه شيء يحيّر، فهناك إنسان يُلقى على الفراش ثلاثين عاماً، وإنسان يُخطف بثانية واحدة وهو سليم لا يشكو من شيء على الإطلاق، فهناك رجل قبل بيوم من وفاته أجرى تخطيط قلب وتبين أن لا شيء فيه، كما أجرى (إيكو) فتبين ألا شيء فيه، فاطمأن..

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة: آية " 8 ")

والإنسان أحياناً يفر من عدوٍ يتبعه، وكم تكون المفاجأة صاعقة لو رأى عدوه أمامه في الاتجاه المُعاكِس ؟ وهذه الآية دقيقة جداً أيها الإخوة:

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً)

الذي أهلك الكافر هو طول الأمل، فقد يكون على مشارف الموت وهو يلعب بالنرد للساعة الثانية، وقد يكون على مشارف الموت وهو لا يصلي، أو يأكل المال الحرام، أو يعتدي على أعراض النفس، أو

يسهر إلى الساعة الخامسة صباحاً على أقنية (المجاري) فينتقل من قناةٍ إلى قناة، وعمره ستين سنة وهو على وشك أن يغادر الدنيا..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَرَاهُ قَرِيباً (7))

ما النذير ؟؟

قال تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

ما النذير ؟ قيل: هو الشيب..

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعُف بصرك، وشاب شعرك فاستحيي منّي فأنا أستحي منك))

إلى متى أنت باللذاتِ مشغولُ وأنت عن كلِ ما قدّمت مسؤولُ

الشيب نذير، وسنّ الأربعين نذير، المصائب نذير، وموت الأقارب نذير..

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

افتراض:

وعلامة المؤمن أنه يرى أجله قريباً و مجهّزاً، وقد ضربت مرّة مثلاً، وهو افتراضي وغير واقعي، ولكن قصدت منه فكرة دقيقة جداً فقلت: افترض أن هناك بطاقة الطائرة إلى أمريكا بخمسمائة ألف، وقد قصدت هنا مضاعفة المبلغ خمس مرّات، فجعلته خمسمائة ألف ؛ أي: نصف مليون، وافترض أنّك إن لم تسافر فلن تأخذ قيمتها إطلاقاً ؛ أي: إنها ستضيع عليك.. وهذا افتراض ثان.. فأول افتراض هو مضاعفة قيمة البطاقة خمسة مرّات، والافتراض الثاني هو أنك إن لم تسافر و تصعد إلى الطائرة خسرت قيمة البطاقة، وافترض أن الشركة الناقلة هي التي تأخذك من البيت، وأنها تأتي في حدود عشر ساعات ؛ أي من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساءً، وأنها لا تنتظر إلا دقيقةً واحدة، والشركة الناقلة هي التي تأخذك من البيت، وتأتيك من الساعة الثامنة وحتى الساعة الثامنة مساءً..وأنت لا تدري متى تأتي، وهي لا تنتظر إلا دقيقة واحدة، فماذا تفعل أنت من أجل مبلغ خمسمائة ألف ؟ إنك تقف وراء الباب من الساعة الثامنة صباحاً، تقف مع المحفظة، وكل شيء جاهز، لأنك إن لم تكن جاهزاً فالقضية خطيرة جداً، و هذا معنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران)

الموت ليس بيدي يا رب بل بيدك، فإذا كان ليس بيدك فمعنى ذلك أنه ينبغي أن تكون مستعداً له دائماً ؛ بأداء الحقوق، بالتوبة الكاملة، والعمل الصالح، وأداء الصلوات، وإنفاق زكاة المال، وهذا الاستعداد سببه أن الموت قريب، وإنك قد تجد شخصاً مِلء السمع والبصر فيصبح فجأةً خبراً، وقد كان رجلاً فصار خبراً على الجُدران، وكان رجل يركب الدرجة الأولى في الطائرة وتُقدَّم له أنواع الطعام من الشراب و الشاي و القهوة و أنواع الأطعمة الساخنة و المجلاّت والجرائد، فيرجع بصندوق على أنه بضاعة وتوجد معه أوراق تخليص، فنحتاج إلى موظف جمركي ليخلِّص هذا الطرد، لقد كان رجلاً فصار بضاعةً !!

لقد ركبت مرّة في الطائرة إلى المغرب، فانتظرنا في تونس ساعة، فنظرت إلى مكان البضاعة فخرج فجأةً نعش عليه اسم صاحبه.. سبحان الله.. هذا الرجل جاء بالطائرة وعاد بضاعةً..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَرَاهُ قَرِيباً (7))

إخواننا الكرام... لا تتشاءموا لأن التفكّر بالموت صحّة نفسية، فأكْثِر من ذكره لأن هذا الموت ما ذُكِر في كثيرٍ إلا قلّله، ولا في قليلٍ إلا كثّره.. وله مفعول عكسي.. فإذا كنت في غنىً فاحش فلن تأخذ معك شيئاً مما تملكه إلا الكفن، وإذا كنت في فقرٍ مدقع وكنت مستقيماً على أمر الله فالموت بداية الغنى المطلق، **" الغنى والفقر بعد العرض على الله ".**

المهل:

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَرَاهُ قَرِيباً (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8))

(سورة المعارج)

قيل: المُهل ما أذِيّب من الرصاص، والنحاس، والفضّة، و المعادن المُذابة، و قال علماء الفلك: " الكواكب الآن عبارة عن معادن منصهرة و متبخِّرة ". فهي غازات معادن، والعُنْصر حينما تسخِّنه ينتقل من حالة الصلابة إلى حالة اللزوجة، إلى الميوعة، إلى الحالة الغازية، فأكثر الكواكب في السماء عبارة عن غازات منصهرة ومتبخِّرة، وقد قال الله عزّ وجل:

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

(سورة التكوير)

ومعنى (انكدرت) ؛ أي: انطفأت و عادت إلى سيولتها..

(يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)

فالسماء معادن مذابة كدرة ليس لها لونٌ صافٍ، وقال بعض العلماء: " كالمُهل ؛أي: قيحٌ من دمٍ وصديد"، وكالمهل: المعادن المذابة ". ويوجد تفسير ثالث: " المهل أي دردِيُّ الزيت وعَكَرُه ". فهو إما زيت أو قطران يغلي، أو معادن مُنصهرة، أو قيحٌ من دمٍ ومصلٍ، هذا هو وضع السماء..

(يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9))

(سورة المعارج)

العهن:

الصوف المنتوف، فالجبل شامخ و الصخر القاسي يصبح كصوفٍ منتوف لا وزن له، أي أن هذه الجبال تلين بعد الشدة وتتفرّق بعد التجمُّع، أو تصير رملاً مهيلاً، ثم عهناً منفوشاً، ثم هباءً منبثاً.. فمن من صخورٍ صمّاء، إلى رملٍ و عهنٍ و هباء، ففي يوم القيامة يوجد تبدُّل جذري.

لكل امرئ شأن يغنيه..

قال تعالى:

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً)

(سورة المعارج)

(لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

(سورة عبس)

قد تقع عين الابن على أمه، و قد تقع عين الأم على ابنها فتقول له: يا بني جعلت لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحجري وطاءً فهل من حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم ؟ فيقول لها: ليتني أستطيع ذلك يا أماه إنني أشكو مما أنت منه تشكين. لذلك يبين ربنا عزّ وجل في آياتٍ كثيرة هذه الحقيقة، أي: يوم لا يسأل قريبٌ قريبه، ولا صديقٌ صديقه، ولا ذو نسبٍ نسيبه من شدة الهول، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال:

((أن الناس يحشَرون حفاة عُراه غُرَلاً))

أي غير متطهرين (من الطهور وهو الختان) تقول السيدة عائشة: يا رسول الله أيرى بعضنا بعضاً هكذا ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((يا أمّ المؤمنين الأمر أفظع من أن يعنيهم ذلك))

وذلك لشدة الهول، فإذا كان الإنسان محكوماً بالإعدام، وسيق إلى حبل المشنقة، ورأى امرأةً تلفت النظر بثيابها الفاضحة فهل يفكِّر في جمالها ؟ إطلاقاً، إطلاقاً، إنه لا يراها إطلاقاً، فهناك شيءٌ ينسيه كل شيء..

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً)

(سورة المعارج: آية " 5 ")

أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ حال، و الإنسان الصحيح إذا عاد مريضاً فإنه يسأله عن صحته، وعن الطبيب الذي عالجك والدواء الذي وصفه، وعن الآلام التي تشكو منها، وذلك لأن السائل مرتاح تماماً، فتراه يسأل، وقد يقع الإنسان أحياناً بمصيبة فيفقد ماله كله، فتجد السائل يسأل:

متى صودر ؟ ولماذا ؟ وما المخالفة ؟ ومن فعل هذا؟ ويبحث عن إجابة، فهناك فضول، أما حينما يكون السائل في مصيبةٍ كمصيبة المسؤول فإنك تجد هذا ساكتاً وهذا ساكتاً..

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً)

قال: لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ حال تشغله نفسه عن غيره، و قال بعضهم: " يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون ثم يفرُّ بعضهم من بعض ". أي أنه يراه كما لو أن أناس اتفقوا على سرقة، فهم يعرفون بعضهم بعضاً جيداً، أما حينما يُلقى القبض عليهم فلا يتمنى الواحد منهم أن ينظر إلى الآخر.. وهذا المعنى الثاني.. و ربنا عزّ وجل يقول:

(لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

(سورة عبس)

كل واحدٍ مشغولٌ بشأنه الخاص..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

(سورة لقمان: آية " 33 ")

لا الأب يُسأل عن ابنه، ولا الابن يُسأل عن أبيه..

(وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

(سورة فاطر: آية " 18 ")

نحن لا نزال في الدنيا، وإذا تورّط الآن إنسان في مخالفة كبيرة جداً مخالفة للقوانين النافذة فقد يعاقب بعشرين سنة في سجن، فمن يتبرّع أن يدخل مكانه السجن ؟ هذا مستحيل، فإذا وقع إنسان في الدنيا يقول لك أقرب الناس إليه: تورّط، غلط، الله يصلحه، ثم لا يتكلّم كلمة، فهو غير مستعد لأن يدافع عنه بكلمة، ويوجد في الدنيا علاقات وصلات، وتجمعات وقرابات، ونسب ومصالح، وشركات، وأصدقاء، ومع كل هذه التجمُّعات يتخلّى كلٍ منهم عن صاحبه، فكيف بالآخرة حينما نأتي ربنا فُرَادى لا مجتمعين؟

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

هناك علاقات النسب في الدنيا، فيقال لك: هذا ابني، وهذا أبي، وهذه أمي، وهذه أختي، وهذا زوج ابنتي، هذه في الدنيا..

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(37))

(سورة عبس)

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (14))

(سورة المعارج)

أيها الإخوة..قال تعالى:

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً)

فكل إنسان مشغول بمصيبته، و كل إنسان مشغول بهمّه.

" يبصّرونهم ":

أيها الإخوة... في درسنا هذا كلمة ينخلع لها القلب وهي قوله تعالى:

(يُبَصَّرُونَهُمْ)

إن الله عزّ وجل يُري المؤمن مصير الكافر ليتحقق المؤمن من عدالة الله، فأسماء الله كلُّها محققةٌ في الدنيا إلا اسم العدل، وهذا الاسم يتحقق في الدار الآخرة، فالذي ظُلِم يرى ظالمه، والذي أُخِذ ماله ظلماً يرى الذي أخذ ماله ظلماً، والذي قُهر يرى الذي قهره أين مصيره، والذي عُذِب يرى مصير الذي عَذّبه، فكل إنسان مظلوم لابدّ في هذا اليوم أن يرى ظالمه، وأن يرى مكانه، ن كيف يُعذّب و يُقتصّ منه..

(يُبَصَّرُونَهُمْ)

شيءٌ آخر أيها الإخوة... قيل في معنى يبصّرونهم: ليس في القِيامة مخلوقٌ إلا وهو نُصْبُ عين صاحبٍ له من الجن والإنس، فيبصر الرجل أباه، وأخاه، وقرابته وعشيرته، ولا يسأله ولا يكلمه لاشتغالهم بأنفسهم، فيتعارفون ساعةً من نهار ثم لا يتعرفون بعد تلك الساعة، و أهل يوم القيامة يفرّون من المعارف مخافة المظالم، فأخطر ما في هذه الآية أن الإنسان يرى مكانه لو أنه لم يطع الله عزّ وجل، كما يرى مكان الذي عصى الله عزّ وجل، و في الدنيا يوجد قلق دائم..قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً(104))

(سورة الكهف)

أحياناً ترى إنساناً فاجراً كافراً منحرفاً بذيئاً منحرف الأخلاق، ويعتدي على أعراض الناس.

أيها الإخوة... جاء في بعض التفاسير أن معنى قوله تعالى:

(يُبَصَّرُونَهُمْ)

أي: يُبْصِرُ المظلوم ظالمه، ويُبْصِر المقتول قاتله،و يُبْصِر كل ذي حقٍ الذي أكل حقَّه، وتشتفي نفسه حينما يرى عدل الله مطلقاً قائماً في كل شيء، الآن:

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

(سورة المعارج: آية " 11 ")

يود ذلك الإنسان الذي أجرم في حق نفسه، وغفل عن الله و انغمس في الشهوات و عصى الله عزّ وجل:

(لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

هناك من الإخوة الكرام من لديه أولاد صغار في السنوات الأولى ؛ كسن السنتين، والثلاثة، إن كلام الطفل في هذا العمر يعزف على أوتار قلب الأبِ والأم، كذلك منظر وجهه الجميل و ملامحه اللطيفة و حركاته البريئة و عذوبة حديثه و حركاته، هذا الطفل كما قال عنه الأدباء: " فَلِذة الكَبِد ". (أطفالنا أكبادنا تمشي على الأرض)، و في مقياس المؤاثرة نقول أن الطفل الصغير هو أغلى شيءٍ على قلب والديه على الإطلاق، فربنا عزّ وجل في آية الفداء قال:

(لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

فمع أن هذا الحب الجارف لهذا الابن الصغير وهو في أجمل أطوار حياته، يتمنّى أبوه أن يضعه مكانه و ينجو من عذاب النار..

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ)

زوجته التي عاش معها عُمُراً وسعِد بها يتمنّى أن يلقيها في النار لينجو هو من هول عذاب الناب..

(وَأَخِيهِ)

الذي ساعده في حياته، وكان كلما نابه أمر يقول: أخي، فيقوم أخوه ويمدّه ويعينه ويدافع عنه..

(وَفَصِيلَتِهِ)

الفصيلة ليست القبيلة، ولكنها أقل من القبيلة، وهي تعني أقرب الناس إليه ؛ أولاد عمومته، أولاد خالاته، جيرانه، زملاؤه في العمل.. خاصّة نفسه.. هذه الفصيلة..

(ي يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13))

ففي ميزان الحُب وتعلّق القلب بمخلوق يقع الابن في المكان الأول، وفي ميزان المساعدة يكون الأخ في المقام الأول، و في ميزان الاعتزاز الاجتماعي يُعدُّ الأب في المقام الأول، وفي موضع الشهوة تُعَدّ المرأة في المكان الأول، فربنا عزّ وجل في خمس آياتٍ قرآنية ذكر الأقرباء مرتّبين، كل منهم مرتب حسب زاوية معينة..

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة: آية " 34 ")

بدأ بالأب لأن الأب موضع اعتزاز اجتماعي، فيقال لك: أنا ابن فلان، والدي فلان أما في موضع الشهوة فقد ذكر المرأة.

وقد قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران: آية " 14 ")

و في موضع المعاونة واللجوء والاستغاثة قال:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ)

(سورة عبس)

إذا كان أبوه كبير في السن، وابنه صغير، فمن الذي يعينه؟ إنه أخوه الذي هو في مستوى سنّه، ففي موطن المساعدة والاستغاثة والمعاونة ذكر الأخ، أما في موطن الأثرة والحب فقد ذكر الابن..

فدية من العذاب:

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

(سورة المعارج: آية " 11 ")

وقد يقع الإنسان في الدنيا في ورطة، وكل ورطة لها ثمن يغطيها، فمن الممكن أن يدفع ألفاً و يتخلص بعد ذلك من هذه الورطة، وهناك ورطة يدفع المرء لها مائة ألف، وهناك ورطة ثانية بمليون، وهناك ورطة يدفع من أجلها عشرة ملايين، فإذا كان الأمر يتعلق بخمس سنوات سجن يقول لك: خذ عشرة وخلصني ؛ فكلما كبرت الورطة يكون الدفع أكبر، لكن الإنسان عندما يرى عذاب النار الأبدي يتمنّى أن يضحي بابنه الذي هو فلذة كبده، وبزوجته التي صاحبها طوال عمره، وبأخيه الذي أعانه وساعده، وبفصيلته كلّها التي تؤويه وتعينه، فلو إنسان.. فرضاً.. دهس آخر، وكانت الديّة مائتا ألف، فمن يدفعها؟ إنهم عاقلته، وهم أقرب الأقرباء إليه، فإنهم يتعاونون على دفعها، أما في الآخرة..

(وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

(سورة المعارج: آية " 14 ")

فإنه يتمنّى أن يضع خمسة آلاف مليون إنسان – وهم سكان الأرض الآن -جميعاً في النار لينجو وحده منها..

(وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ)

ثم.. للاستبعاد..

(ثُمَّ يُنْجِيهِ)

لا والله.. هناك شخص حصّل مبلغاً قريباً من ألف مليون بالقِمار، و حينما كان شاباً كان يجمع هذه الأموال الطائلة، ويدير هذه المقامر العديدة، ويأتي بالأموال يضعها في خزانته، ويأكل ويشرب، وينتشي، ويركب المركبات، وقد كان غافلاً، فلما قَرُبَ أجله وكان على فِراش الموت عرف إلى أين هو ذاهب، فطلب أحد العلماء وقال: أنا معي مبلغ قريب من ثلاثمائة مليون ن فماذا أفعل ؟ فقسا عليه هذا العالم وكان محقّاً، فقال: والله لو دفعتها كلّها لا تنجو من عذاب الله، لأن هذا الطريق صار مسدوداً.

أيها الإخوة... إن البطل هو الذي لا يصل مع الله إلى طريقٍ مسدود، فليفعل الآن ما شاء ولكن.. عندما يأتي الأجل يجب عليه أن يجد طريقاً موصلاً إلى الله، فإذا قتل إنسان رجل وحكموه بالإعدام، و استؤنف الحكم، ثم مُيّز، ثم أقرّته محكمة النقض، ثم رُفِع إلى الرئاسة كي تصدقه، وصدقته، ثم سيق إلى المشنقة، فإذا أحب أن يضحك وهو أمام حبل المشنقة فليضحك، وإذا أحب أن يبكي فليبك، وإذا أحب أن يتوسل فليتوسل، وإذا أحب أن يتجلد فليتجلد، وإذا أحب أن يشتم فليشتم.. افعل ما شئت فلابدّ من أن يُنَفذ الحكم، فهذا بدأ بابنه..

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

(سورة المعارج: آية " 11 ")

فإن كان ابنته لا يكفي، فإنه يتمنى أن يفتدي بزوجته..

(وَصَاحِبَتِهِ)

لا يكفي..

(وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

قال تعالى:

(ثُمَّ يُنْجِيهِ)

هذا استفهام إنكاري ؛ أي: إن هذا لا ينجيك هذا..

(كَلَّا)

(سورة المعارج: آية " 15 ")

أداة ردعٍ ونفي، فهذا كله لا يجديه شيئاً، و لا بدّ من أن يُعذّب..

نار لظى..

(كَلَّا إِنَّهَا لَظَى)

إذا كان هناك نار مشتعلة، ملتهبة، ونحن في الدنيا، فجرّب وضع إصبعك على مدفأة مشتعلة، هل تحتمل ذلك ؟ إن آلام الحريق أيها الإخوة لا تُحتمل..

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء: آية " 56 ")

هذا عذاب أبدي..

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(سورة الزخرف)

سنوات وسنوات، ومصير آل فرعون:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً)

(سورة غافر: آية " 46 ")

ستة آلاف عام، وكل عام ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، وكل يوم مرتين..

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

هذا كلام خالق الكون، وإننا -أيها الإخوة- إذا كنا أشخاص من جلدتنا وجنسنا و كانوا أقوياء وكانت تعليماتهم واضحة، وعندهم قدرة على كشف المخالفات، فإننا لا نستطيع أن نعصيهم وهم بشر من جلدتك، من بني جنسك لكنهم أقوى منك، وهم قادرون على أن يكشفوا المُخالفة ويوقعوا بك عقاباً أليماً، إنك لا تفكِّر إطلاقاً في أن تعصيهم، فكيف بخالق السماوات والأرض ؟

(كَلَّا إِنَّهَا لَظَى)

نارٌ ملتهبة..

(نَزَّاعَةً لِلشَّوَى)

(سورة المعارج)

تنزع جلد الوجه، ومكارم الوجه، و جلد الأعضاء، و كرامة الإنسان، فالإنسان حينما يُعذّب يُهان، فهناك عذاب مهين، و عذاب أليم، و عذاب عظيم..

(كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16))

أي إنها تنزع جلد الرأس، فتصور إنساناً بلا جلد، بجمجمة فقط، هذا شيء مخيف، وتصور إنساناً بلا أعضاء، وقد احترقت معالم وجهه، هذه النار:

(تَدْعُوا)

(سورة المعارج: آية " 17 ")

نحن في الدنيا نُدعى إلى الله، فنستجيب أو لا نستجيب، لكنه في الآخرة قال: النار تدعوا من أدبر في الدنيا عن طاعة الله وتولّى عن الإيمان، قال بعض العلماء: " تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم، بلسانٍ فصيح ". تعال أنت يا فلان ادخل، تعال أنت وادخل، النار، وقد شبّهها ربنا عزّ وجل بمخلوقٍ مدرك يخاطب هؤلاء الكفار والفجّار بأسمائهم..

(كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16))

أي مشتعلة، متقدة تنزع جلد الوجه..

(تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى)

أو تقول: إليّ يا كافر، إليّ يا منافق، أو تلتقطهم كما يلتقط الطير الحَب، وقال بعض العلماء: " دعوتها لهم تمكينها من تعذيبهم أو أنها تلتقطهم كما يُلتقط الحَب، أو أنها تقول: إليّ يا كافر يا منافق، أو أنها تخاطبهم بأسمائهم واحداً واحداً "..

(كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17))

من أدبر عن الإيمان بالله وتولى أن يطيعه، الآن:

(وَجَمَعَ فَأَوْعَى)

(سورة المعارج)

همُّه جمع المال و تخزينه، وهمُّه أن يزهو بين الناس، فحجمه المالي كذا، و رصيده في المصرف كذا، وقد ذهب إلى بلدٍ غريب بعيد وأنفق هذا المبلغ الكبير، و أقام عقد قِرانٍ في المكان الفلاني، ودفع ستين مليون، و فعل كذا، و قدّم خاتماً هدية إلى زوجته بنصف مليون، و سافر إلى المكان الفلاني، ونزل في فندق كلّفه في اليوم مائة ألف.. مثلاً.. وجمع المال وأنفقه، وتباهى بإنفاقه.. ثم:

(فَأَوْعَى)

أي إنه خزن المال ولم ينفع به المسلمين..

(كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18))

توجد مفارقة: الدعاة إلى الله يدعونك إلى الله وأنت حرّ فقد تستجيب أو لا تستجيب، والإنسان حينما لا يستجيب و يعصي و ينغمس في الملذّات، يُدعى يوم القيامة إلى النار لكنه ليس مخيراً أن يستجيب أو أن لا يستجيب، فهذا الخيار كان في الدنيا، أما في الآخرة فأنت لست مخيراً..

(تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18))

وفي درسٍ آخر إن شاء الله نبدأ قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 19-26
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-08-01

بسم الله الرحمن الرحيم

طباع الإنسان، وصفات المؤمنين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة المعارج، ومع الآية التاسعة عشر، وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

أيها الإخوة الكرام... هذه الآية تذكرنا بآياتٍ مثيلاتٍ لها..

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

(سورة الأنبياء: آية " 37 ")

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج)

ضعف الإنسان لصالحه:

يقصد بالإنسان هنا جنس الإنسان، فالألف واللام هنا: أداة الجنس، أي أن جنس الإنسان قبل أن يعرف الواحد الديان ضعيفٌ هلوعٌ عَجول، و نقاط الضعف هذه موجودة في أصل خلقه، كما أنها لصالحه، وأضرب على ذلك مثلاً: لو أن الله خلق الإنسان قوياً، لاستغنى بقوّته عن الله، فشقي باستغنائه، لأن السعادة كلها عند الله، فإذا استغنى الإنسان عن ربه شقي، فخلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، و خلقه عجولاً، ولو خلقه مَهُولاً واختار الدار الآخرة فإنه لا يرقى بها، فخلقه عجولاً يريد الشيء الذي أمامه، فإذا أعرض عنه واختار الشيء الآجل ارتقى عند الله عزّ وجل، وكما خلق الله عزّ وجل الإنسان هلوعاً، هذا هو موضوع درسنا اليوم.

الصفة قيد:

أيها الإخوة الكرام... قال المناطقة ؛ أي: علماء المنطق: إن الصفة قيد، فإذا قلت مثلاً: أُريد أن أعيّن موظفاً يحمل شهادةً ثانوية، أتاك عشرات الألوف، وإذا قلت: أريد موظفاً يحمل شهادة ثانوية ومعفى من الخدمة الإلزامية ضاقت الدائرة، وإذا قلت: أريده دون الثلاثين، ضاقت الدائرة أكثر، كذلك إذا قلت

أريده غير متزوّج و يتقن اللغة الأجنبية، وإذا قلت: يتقن لغتين ضاقت الدائرة أكثر وأكثر، فكلما أضفت صفةً ضَيَّقت الدائرة، وهناك مثلٌ أوضح، لو أنك قلت: إنسان فقط، للشملت هذه الكلمة خمسة آلاف مليون إنسان، وإذا قلت: إنسان مسلم لاقتصرت على مليار ومائتين مليون، ولو قلت: إنسان مسلم عربي لاقتصرت على مائة مليون، ولو قلت: إنسان مسلم عربي مثقف لهبطت إلى عشرين مليون، ولو قلت: إنسان مسلم عربي مثقف طبيب لهبطت إلى مئات الألوف، كذلك لو ضيَّقت الاختصاص، أو حددت مكان الإقامة، أو عيَّنت مدينة بذاتها فقد يصل العدد من خمسة آلاف مليون إلى ثلاثة آلاف، فكلما أضفت صفةً ضيقت الدائرة، وضربت هذا المثل لأبيّن لكم ما ورد في الحديث القدسي:

((ليس كل مصلٍ يُصلي إنما أتقبّل الصلاة ممن تواضع لعظمتي (قيد) وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له حلماً والظلمة نوراً يدعوني فألبيه، يسألني فأعطيه، يقسم عليّ فأبرُّه، أكلأهُ بقربي، أستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يمسُّ ثمرها ولا يتغير حالها))

فكلما أضفنا صفةً ضاقت الدائرة، وقد مهّدت بهذين المثلين لقوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

من هم المصلون ؟ إنهم الذين صلّوا كما أراد الله عزّ وجل، واتصلوا بالله من خلال صلواتهم، وهم الذين يرضى الله عنهم، لأنهم حققوا الهدف من صلاتهم، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35))

(سورة المعارج)

إذاً ليس كل مصلٍ يصلي.

نعود إلى أول الآيات، أيها الإخوة الكرام:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

المقصود بالإنسان هنا الإنسان في أصل خلقه، قبل أن يعرف ربه، فالإنسان أيها الإخوة فردي، فإذا ما عرف الله ولا عرف منهج الله كان فردي النزعة، لكن تعاونه مع إخوانه المؤمنين فيه تكليف، فالإنسان في أصل خلقه يحبُّ الشهوات، فإذا اتبع منهج الله عزّ وجل أحبُّ القُرُبات، والإنسان في أصل خلقه يحب أخذ المال، أما إذا اتبع منهج ربه فإنه يُنْفِقُ المال، وهكذا.. فهناك طبعٌ و بنيةٌ و جبلةٌ في الإنسان، وهناك تكليف له، فالإنسان قبل أن يعرف ربه، أو قبل أن يتبع منهج ربه، هلوع في أصل خلقه، كما قال الله تعالى..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

قالوا في الهَلَع: هو أشد الحرص وأسوأ الجَزَع، وأشد الحرص البخل، والحقيقة أن الإنسان إن لم يكن مؤمناً كان حريصاً على الدرهم والدينار حرصاً مضحكاً، وحرصه هذا مرضي، فهو حريصٌ على كنز المال و عدم إنفاقه وعلى حيازته إلى درجة أنه يُضحي بمكانته وكرامته من أجل المال.

من هو الهلوع ؟؟

إن الإنسان إن لم يعرف الواحد الديّان:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

الهلوع: أشدُ الحرص وأسوء الجزع و أفحشه، وقال بعضهم: الهلوع هو الذي لا يصبر على خير ولا على شَر حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي، فالخير يدفعه إلى البَطَر، والشر يدفعه إلى اليأس والقنوط، فمن هو الهلوع ؟ هو الذي لم يتصل بالله، فالشر سحقه والخير أبْطَرَهُ، ومن تعاريف الهلوع الوارد في قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

أي: الذي يصيبه الخير فيفجر، ويصيبه الشر فييئس، ويُصيبه الخير والشر فيفعل فيهما ما لا ينبغي، بل هو أشد أنواع الحرص، وأشد أنواع الجزع، وقال بعض العلماء: الهلوع أي الضَجور، المَلول الذي لا يصبر، وقال بعضهم: هو الذي لا يشبع مهما أعطيته.. " منهومان لا شبعان طالب علمٍ وطالب مال"..

المنوع:

والمنوع الذي إذا أصاب المال منع منه حق الله تعالى، وقال بعض العلماء، خَلَقَ الله الإنسان على حب ما يسرّه وعلى بغض ما يكرهه، ثم تَعَبَّدَ الله الإنسان بأن ينفق ما يحب وأن يصبر على ما يكره، فالعبادة دائماً وأبداً تتناقض مع طبع الإنسان، وهذا هو ثمن الجنة

و بشكلٍ مختصرٍ مضغوط أقول: إن الجنة لها ثمن، وقد أودع الله فيك الشهوات وجاء التكليف فأمرك أن تنضبط وفق منهجٍ دقيق، فما حَرَمَكَ هذه الشهوات ولكن نَظَّمها، فهو لم يحرمك المرأة ولكن سمح

لك بالزواج فقط، فليس في مجتمع المسلمين علاقة بين رجل وامرأة إلا أن تكون زوجةً له، أو أماً، أو بنتاً، أو أختاً، أو عمةً، أو خالةً، فلا يوجد امرأة يستمتع بها خارج الزواج إطلاقاً، فثمن الجنة ضبط الشهوات، فلو أن الإنسان جُبلَ على بغض المرأة لما ارتقى الإنسان بغض البصر، و لو جُبلَ على بغض المال لما ارتقى الإنسان بإنفاق المال، فسر الرُقي عند الله عزّ وجل أنّك تنفق شيئاً تحبُّه، وأنك تمنع نفسك عن شيئاً تحبه، وأنك تصبر على ما تكره، ولولا هذا التناقض الذي أراده الله عزّ وجل بين طبع الإنسان وبين منهجه لما ارتقى إنسانٌ إلى الآخرة إطلاقاً، فالإنسان خلق هلوعاً، لولا أنه هلوع لما دخل جنة ربه، لماذا ؟ لأنه خلقه شديدَ الجزع، لذلك لا يطمئن إلا بالاتصال بالله عزّ، ولا يستقر له قرار إلا أن يكون مصطلحاً مع الله، ولا يشعر بالأمن إلا إذا كان مطيعاً لله، ولا يشعر بالطُمأنينة إلا إذا ذكر الله، فلو ألغيت ذكر الله و الاتصال به و الصلح معه، لعاش حياةً كالجحيم لا تطاق..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126))

(سورة طه)

لولا أنه هلوعٌ جذوعٌ، يَفْرق من الشر والمُصيبة، لما التجأ إلى الله عزّ وجل خوف أن تصيبه، ولولا أنه جزع لما استقام على أمره، لولا أنه جزوع لما غض بصره وترك أكل المال الحرام، فجِبِلّته تدعوه إلى الجزع، والجزع هو سبب إقباله على الله و توبته إليه وصلحه معه، فهو سبب كف نفسه عن شهواتٍ حرمها الله عزّ وجل.

وقال بعض العلماء: الهلوع هو الذي إذا مَسّه الخير لم يشكر، وإذا مسه الضر لم يصبر، وهذا ضعفٌ خلقي في أصل بُنية الإنسان، وهذا الضعف الخلقي سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، فلو لم تكن تخاف لما خفت من المرض، ولا من الفقر، ولا من قهر الرجال، والذي لا يخاف لا يطيع الله عزّ وجل، لكن الإنسان قد يخاف مرضاً عُضالاً، أو قهراً مُذلاً، أو موتاً مُجْهزاً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مُفَنِّداً، أو فقراً مُدقِعاً، لذلك تراه يصطلح مع الله حتى يطمئن.

(أَلَا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد: آية " 28 ")

لو أن الله عزّ وجل قال: تطمئن القلوب بذكر الله، لاختلف المعنى، فيصبح المعنى عندئذ أن القلوب تطمئن بذكره وبغير ذكره، أما حينما قال:

(أَلَا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد: آية " 28 ")

أي أن قلب الإنسان لا يطمئن ولا يسكن ولا يتوازن ولا يطمئن إلا إذا ذكر الله عزّ وجل..

(إِنّ الْإِنْسَانَ)

جنس الإنسان قبل أن يعرف الله جُبِلَ على الهلع، فهو شديد الخوف عند الضرّاء، وشديد الحرص عند السرّاء، وهذه صفته قبل أن يعرف الله، وهاتان الصفتان تدفعانه إلى التوبة و الذكر و الطاعة و التقرُّب من الله عزّ وجل، ولولا صفات الهلع و الجزع والحرص لما ارتقى الإنسان إلى الله عزّ وجل، فقد يكون مع الإنسان مبلغٌ من المال محببٌ إليه، وهو حريصٌ عليه ليكون دائماً في حوزته وفي خزنته، وهو حريصٌ على أن ينمو هذا المال، فحينما ينفق منه كان هذا معاكساً لطبع الحرص فيرقى عند الله عزّ وجل.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

فمن صفات الإنسان صفة الهَلَع بشقّيها: الحرص والجزع، وصفة الضعف

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (28))

وصفة العجل

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

وهذه الخصائص والصفات ضعف في أصل خلق الإنسان ولكنها لصالح إيمانه.

مثال موضح:

وأوضح مثلاً على ذلك ؛ إنك قد تقتني آلةً كهربائيةً غاليةً جداً، وهناك من الآلات ما يصل ثمنه إلى بضعة ملايين، ويوضع في هذه الآلات قاطع على طريق اتصال الكهرباء بها، فهناك سلك ضعيف جداً، ومهمة هذا السلك الضعيف أنه إذا جاء التيار فوق مائتين وعشرين (ساخ) وانقطع، فنضمن بذلك سلامة الجهاز، فهناك ضعف في أساس هذا الجهاز، ويتمثل هذا الضعف في وصلة ضعيفة في الجهاز، وحينما يأتي التيار الذي يمكن أن يحرق الآلة بأكملها يدخُل من هذا السلك الضعيف فينصهر هذا السلك، فإذا انصهر قُطِعَ التيّار وضمنت الآلة، فهل نَعُدُّ هذا الجزء من الآلة خطأ في التركيب ؟ لا، بل هو عين الكمال، و قمة الكمال، فهذا جهاز صيانة، وصمّام أمان، فضعف الإنسان سبب رُقِيّه عند الله، والإنسان يخاف، فلو شعر أن في جسمه شيئاً غير طبيعي وأخذ خزعة وحلل، وكانت النتيجة إيجابية فإنه يبرك وذلك لأنه جزوع، وتراه يقول له: يا رب أعاهدك على التوبة، وهذا الشيء يقع مئات ألوف المرات، فشبح مرضٍ عضال يدفع المرأة إلى الحجاب الكامل، وشبح مرضٍ عضال يدفع الرجل إلى التوبة النصوح، وشبح أزمةٍ مالية مُدَمِّرَة يدفع صاحبها إلى دفع زكاة ماله، فتسعة أعشار الناس الذين اصطلحوا مع الله، كان سبب اصطلاحهم معه أزمة جاءت مفاجئة ماحقة ساحقة، فكيف هرب منها صاحبها ؟ لقد هرب منها بالصلح مع الله، إذاً:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

و لولا هذه الصفة لما أقبل أحدٌ على الله، ولما اصطلح معه، ولما تاب على منهجه، ولا فعل أي شيء من هذا، قال:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)

أي إذا ناله الشر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله الخير بَخِلَ ومَنَع، وإنك تعجب أحياناً من أُناس يملكون أرقاماً فلكية ومع ذلك يبحثون عن دُريهمات يأخذونها ظُلماً، ويبحثون عن بضع ليرات و بضع مئات يأخذونها قهراً من فقير، وهذا واقع، كما أن هذا إنسان مريض.

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة التغابن)

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه:

((شر ما أعطي العبد شحٌ هالع وجبنٌ خالع))

لذلك استعاذ النبي عليه الصلاة والسلام من الجُبن والبُخل، فالجبن جزع، والبخل حرص، والجبن والبخل صفتان مركبتان في طبع الإنسان إن لم يعرف الواحد الديّان، والمصلّون مستثنون من الهلع ومن الجزع ومن الحرص.

" إلا المصلين ":

قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

و (المصلين) هنا بالمعنى الذي أراده الله، وبالصلاة التي أرادها الله، والتي هي عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين، فلا خير في دينٍ لا صلاة فيه، والصلاة غُرّة الطاعات، وعصام اليقين، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، والصلاة حسن العلاقة مع الله،

((أرحنا بها يا بلال))

ولم يقل أرحنا منها، وهذا فرقٌ بين الواجب وبين الحب، فبالحُب ترتاح في الصلاة، وحينما تؤدِّيها كواجب ترتاح منها، فينبغي أن تؤديها كمحب لا كمضطر.

أيها الإخوة... قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة العصر)

يمكن أن نوسّع هذه الحقيقة: أينما وردت كلمة الإنسان في القرآن فإنها تعني الإنسان قبل أن يعرف الله، وتعني الإنسان في أصل جِبلّته و طبعه، ولم أقل فطرته لأن الفطرة متوافقة مع الشرع، لكن الطَبْعَ

متناقض معه، فالطبع أقرب إلى المادة من الفطرة، فالفطرة نفسية، أما الطبع فمادي، وأوضح مثل على ذلك أن الإنسان حينما يؤدِّي ما عليه من زكاة مالٍ يؤنِّبَهُ طبعه حينما يدفع هذا المال، لكنه حينما يدفعه نفسه ترتاح، فتنفيذ الطاعات متعب للجسم، لكنها مُريحةٌ للنفس، فحينما تفعل عبادةً ما فإنك تشعر بالتعب في أثناء القيام بها وقد تعاكِس طبعك، أما حينما تؤديها كاملةً فإنك تشعر بالراحة النفسية، إذاً:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

وتدل هذه الآية على أن هؤلاء المصلِّين مستثنون من الهلع والجزع، قال العلماء: المصلون هم الذين يؤدّون الصلوات المكتوبة، فهذه فرائض، والله جلّ جلاله لا يقبل النوافل ما لم تؤدَّ الفرائض، فالفرائض أولاً والنوافل ثانياً، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إلا المصلين الذين يصلّون الصلاة لوقتها، وخير الأعمال أو تؤدِّيَ الصلاة على وقتها، وقال بعض العلماء: هم الصحابة الكرام الذين حققوا من الصلاة غايتها، وقطفوا من الصلاة ثمارها، وهم الذين سَعدوا بالصلاة، وكانت سبب سعادتهم في اتصالهم بخالقهم.

أيها الإخوة...

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

معاني ((دائمون)):

الصفة الأولى لهؤلاء المصلين:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

1- قال بعضهم: دائمون ؛ أي: ساكنون لا يلتفتون يمنةً ولا يسرةً، فهم في خشوع، وقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يصلي ويتلفّت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه))

فمن معاني:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

أي: هم ساكنون، خاشعون، وقال بعض العلماء: الخشوع في الصلاة ليس من فضائلها بل من فرائضها.

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

2- وقال بعضهم: الذين يكثرون من الصلوات النافلة.

3- وهناك معنى ثالث ربما كان مقبولاً ؛ وهو أن المؤمن بين الصلاتين يتّصل بالله عن طريق الدُعاء و الاستغفار و التفكّر والتأمُّل، و التسبيح والحَمْد و التكبير، فإذا قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفرت الله، وتلوت القرآن، ودَعَوْتَ الله، و تفكّرت في

خلق الله، فإن هذه الأنشطة الفكرية واللسانية تجعلك على صلةٍ مع الله دائماً، وهذا قد يقبل إضافةً للمعنيين السابقين:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

أي: يتصلون بالله عزّ وجل بطريقةٍ أو بأخرى، من خلال الدعاء و الذِكْر و التفكّر، و التسبيح و الحمد و التوحيد و التكبير، فهؤلاء المصلون على صلاتهم دائمون..

الإنفاق في سبيل الله:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الصدقة برهان))

فقد حبب المال إلى الإنسان، وهو يرقى بإنفاقه لا بقبضه، فالذي يُنْفِقُ ماله ابتغاء وجه الله يؤكد أن الله عزّ وجل أغلى عليه من المال، لذلك أنفقه ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل، فمن صفات المصلين..

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

أي: حقٌ ثابت، وقد رجح العلماء أن هذا الحق المعلوم هو الزكاة، فقد قال في آية أخرى:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة الذاريات)

لم يقل: معلوماً، فالمعلوم هي الزكاة، وحينما نغفل معلوم يكون المعنى: الصدقة..

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ)

(سورة البقرة)

إيتاءُ الزكاة شيء، وإيتاءُ المال على حب الله عزّ وجل أو على حبِّ المال شيءٌ آخر، من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((في المال حقٌ سوى الزكاة))

والأشياء التي نصبو إليها لا تحتملها الزكاة، بل تحتملها الصدقة، فالناس يودُّون أن يقدِّموا زكاة أموالهم فقط،مع أن الله سبحانه وتعالى يثني على من يؤتي من ماله صدقةً فوق الزكاة.

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

لذلك كان هذا الذي يُقِدر الزكاة تقديراً يعصي الله عزّ وجل، فيجب عليك أن تجرد، وقد يقول لك قائل: هذا المَحَل فيه مائة ألف، فإذا سمحنا للتاجر أن يُقَدِّر الزكاة تقديراً عشوائياً أو تقديراً غير دقيق لم تعد الزكاة حقاً معلوماً، فهناك من يقدر زيادة الألف، وهناك من يقدر أقل، لذلك لا تصح الزكاة إلا بحساباتٍ

دقيقة..

السائل والمحروم:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25))

من هو السائل ؟ قالوا: الذي يسأل الناس لفاقته، فهو فقير يسأل، ومن هو المحروم ؟ هو الفقير الذي يستحي أن يسأل فَيُحْرَم، فالسائل هو الذي يسأل، فيقتحم عليك، ويقول لك: أعطني، أنا فقير، معه وسائل، أما المَحْروم هو الذي يغلبه الحياء فلا يسأل فيُحرم، لذلك أثنى ربنا عزّ وجل على هؤلاء الذين يغلبُ عليهم الحياء فقال:

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

كأن الله يحب هؤلاء المتعففين الذين يَسْتَحْيون، فما واجب المؤمنين في ضَوْءِ هذا الشرح ؟ أن تبحث أنت عنهم و تستقصي أحوالهم و أن تسألهم بنفسك، وأن تستحلفهم وتنظر في معيشتهم وتتفقدّهم، وفي بعض الحالات يجب عليك أن تسأل، وحتى أكون دقيقاً معكم أود أن أورد هذا المثال: إنسان عنده ابن مريض يحتاج إلى عملية، فإذا استحى أن يسأل مات ابنه، وهذا لا يجوز، فهذه حالات استثنائية يجب أن تسأل فيها، وإن لم تسأل فأنت آثم، أما في الأعم الأغلب فلا يجب ذلك، فهناك من يسأل من أجل تأمين حاجات ليست ضرورية جداً، وهناك من لا يسأل، فالذي لا يسأل قال تعالى فيه:

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

لذلك كان واجبك _أيها الأخ المؤمن _ ألا أن تنتظر من يسألك، بل تَسْعَى أنت إليه، وتزوره في بيته، و تسأله عن أحواله و معيشته، وأن تستحلِفَه هل عليه دين ؟ وأن تحاول أن تحفظ له ماء وجهه،لتجعله عزيزاً كريماً، وهذا الذي ينبغي أن يكون بين المؤمنين، لكنك حينما تنتظر من يسألك فقد يأتيك المحترفون الذين هم أغنى منك لكنك تظنهم فقراء.

حدّثني أخ قال لي: كنت في محل تجاري ورأيت امرأةً ترتدي ثياباً مضى عليها أكثر من عشرين عام، فاللون الأسود أصبح فاتحاً لامعاً، وقد سألت التاجر مبلغاً من المال في مطلع العيد، فأعطاها المال لأنه رقّ لها، فهي تلبس ثياباً مهترئة، وبعد ذلك التقى بها في المصرف، و سأل عنها بعض الموظّفين فقال: رصيدها سبعمائة ألف، وتسأل الناس إلحافا، فنحن نريد هؤلاء المؤمنين الصادقين، الأعفّة، الأعِزّة، ابحث عن هؤلاء قبل أن تُلقي المال جزافاً، فهناك من المحترفين من يأخذ أضعاف ما يأخذ أولئك الذين تبحث عنهم.

أيها الإخوة الكرام... هناك الآن جمعيّات لمنع التسوُّل، وقد نجحت نجاحاً كبيراً، وكل إنسان متسوّل يحاسب حساباً شديداً ويُلقَى في السجن ستة أشهر، وأغلب المتسولين محترفون، لكن.. إذا صدق السائل هلك المسؤول، لذلك لا تقل: لا إلا بعد تريّث، فابحث، و اسأل، و تحقق، والنقطة الدقيقة أن هناك من يظن أنه يرتاح لمجرد إعطائه المال، وهذا غير صحيح، فلا بدّ من أن تضع المال في المكان المناسب، للشخص المناسب وهو الإنسان المؤمن، وتذكر طرفة أن هناك امرأة كانت تتسول من أجل أن تجمع ثمن إبرة، فظن الناس أنها إبرة طب، فاتضح بعد ذلك أنها إبرة دش، فالمحروم هو الذي حُرِمَ المال، وهو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، فلا يعلم أحدٌ حاجته، والمحروم الذي يأتي بعد الغنيمة وليس له فيها سهم، والمحروم الذي لم يبقَ له مال فقد احترق محله مثلاً، أو جاء الصقيع فأتلف مزرعته بأكملها، فالمحصول صفر، وعليه ديون من ثمن البذور والأسمدة وما إلى ذلك.. و المحروم الذي أصيب ثمره أو زرعه أو ماتت ماشيته، و المحروم الذي أصابته جائحة، وهذه كلها معاني المحروم، لقوله تعالى:

(إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67))

(سورة الواقعة)

وقال بعضهم: المحروم هو الحيوان الذي لا يجد من يُطْعِمُه، فالذي يقتني الخرفان يطعمها من أجل أن تسمن ليأكلها أو يبيعها، والذي يقتني الدجاج يطعمها من أجل البَيض، وكن هناك من الحيوانات ما لا ينتفع به أحد، فهي حيوانات محرومة، فمن أطعم هرةً أو كلباً جائعاً فهو يدخل في باب الحِرمان، هكذا قال بعض المفسِّرين.

والمحروم هو الذي وَجَبَتْ نفقته بالفقر على أقربائه، فقد يفقد الإنسان أحياناً عمله فجأةً وعنده زوجة وأولاد، ويجب أن ينفق عليه، وأقرب الناس إليه هم أقرباؤه، والمحروم الذي حُرِمَ كسب نفسه حتى وجبت نفقته على غيره، فهو لا يستطيع أن يكسب إما لعجزٍ أو لفقدان عملٍ، و أحياناً يكون هناك عاجز فيه عاهة وهذا يندرج ضمن المحرومين، وقد يكون هناك شخص ليس له عمل، لتفشي البطالة، رغم كونه شاباً قوياً.

و لما امتحن سيدنا عمر والي قال: " ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً إن جاءني من رعيّتك من هو جائعٌ أو عاطل فسأقطع يدك، قال: إن الله قد استخلفنا عن خلقه، لنسُد جوعتهم ونستر عورتهم ونوفر لهم حرفتهم، إن وَفّينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية ".

وإن أكبر مشكلة تواجه العالم بكل قارّاته الآن البطالة، لذلك كان تأمين الأعمال من أعظم الأعمال، وحينما يلد المالُ المالَ عن طريق الربا تفشو البطالة وترتفع الأسعار، وحينما تَلِدُ الأعمال المال تَقِلُّ

البطالة وترخص الأسعار، وهذه قاعدة، لأن أي محل تجاري يؤَمِّن أعمالاً للمئات دون أن يشعر، و بشكل غير مباشر.

فإذا افتتح محل تجاري، فإنه يحتاج إلى دفتر فواتير و محاسب، كما يحتاج إلى شاب يعمل عنده، ويحتاج إلى مُراسل و آلة كاتبة ومُراسلات و حارس لمستودعاته، و موظّفين، وطلاء محلِّه، و خطاط، و يحتاج إلى أشياء لا تعدُّ ولا تحصى، فحينما تلد الأعمال المال تقل البطالة وترخص الأسعار، وحينما يلد المالُ المالَ تفشو البطالة وترتفع الأسعار، وحينما ترتفع الأسعار توزّع الكتلة النقدية توزيعاً غير صحيح، فقلةٌ قليلة تملك كلّ شيء، وكثرة كثيرة لا تملك شيئاً، هذا التوزيع العشوائي للثروة، أما إذا كان المال كله من أعمال فإن الأعمال تتزاحم، والأسعار ترخُص، وعندنا ألف دليل ودليل على هذا، ومن هنا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((أن ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون: ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم، فيقول الله عزّ وجل: وعزّتي وجلالي لأقربَنّكُم ولأبعدنهم))

فالغنى والفقر بعد العرض على الله، لذلك قال سيدنا علي: " قِوام الدين والدنيا أربعة رجال: عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلّم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضَيَّعَ العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره ".

التصديق بيوم الدين:

أيها الإخوة الكرام...

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

إن صَدَّقْتَ بيوم الدين ملكت ميزاناً خاصاً، وإن لم تصدق بيوم الدين استعملت ميزاناً آخر، إن آمن الإنسان بيوم الدين كان ميزانه ميزان الشَرع، فلا يأكل المال الحرام ولا يعتدي على أعراض الأنام، وتجده حيث أمره الله، وتفتقده حيث نهاه، فلا يتعدّى على أحد، ولا يبني مجده على أنقاض أحد، ولا يأخذ ما ليس له، فميزانه ميزان الشرع، فالحلال والحرام، والخَيْر والشر، الحق والباطل هو ميزانه، أما إذا لم يؤمن بيوم الدين صار لديه ميزان آخر، وصار إلهه الدِرهم والدينار، فيأخذه بأي طريقٍ كان، ومن أي إنسانٍ كان، وبأية وسيلة، و يعدُّ الاحتيال شطارةً، والكَذب والخداع ذكاءً، وجمع المال تفوُّقاً، وإنفاق المال على ملذّاته رقياً وحضارةً، فالقضية دقيقة جداً، فإن لم تؤمن بيوم الدين كان ميزانك دُنيوياً، وإن آمنت بيوم الدين صار معك ميزان أُخْرَوي وهو ميزان الشرع، فالإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، فإن آمنت بيوم الدين فلن تستطيع أن تبتغي إلى أهدافك إلا الوسائل المشروعة، أما إن لم تؤمن بيوم الدين اخترت إلى أهدافك أقذَرَ الوسائل وأحطّها وأبشعها، وتؤمن عندئذ وتقول: الغاية تبرر

الواسطة، فهناك فرقٌ كبير بين من آمن بالدنيا وزينتها، و زينتها ومالها ونسائها وشهواتها ومتعها ومباهجها، وبين من آمن بالآخرة فجعل الدنيا مطيةً لها، فهؤلاء المصلون:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25))

هؤلاء يصدِّقون بيوم الدين، فالمؤمن -يا إخواننا الكرام -مسؤول أمام الله عن كل عملٍ يفعله، أما غير المؤمن -كائناً من كان -فهو مسؤول أمام إنسان عن أعماله، فالإنسان ليس معه دائماً، وبإمكانه أن يحتال عليه و يوهِمه و يكذِب عليه و يعطيه صورةً غير صحيحة، لذلك قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

فأن تجعل الآخرة ميزاناً لك هو شيءٌ أساسيٌ جداً جداً في الإيمان.

أيها الإخوة... هذا بحثٌ يقول:

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

فإذا اختلف الأمر، واختلف دخله أو إنفاقه أو بيته أو زواجه، أو اختلف كل شيء لم يختلف ميزانه، فإذا أيقنت أن هناك يوم تقف فيه أمام الله عزّ وجل ليسألك عن كل شيء صار هوسك في كل لحظة من لحظات حياته أن تهيئ لله جواباً عن أعمالك، فالمؤمن يمنعه عن المال الحرام خوفه من الله، فقد يكون قوياً متمكناً ولا يسأله أحد لكنه لا يعصي الله تعالى، فهناك أخ من إخواننا قد وضع لي ورقة والله لا أعرف اسمه قال فيها: سمعت درس الأمانة، وأنا معي عشرين مليون ليرة مودعةٌ عندي لرجلٍ مات فجأةً ولا يعلم أحد بها، فذهبت إلى ورثته وسلّمتهم إياها.. فما الذي دفعه إلى ذلك ؟ إنه خوفه من الله، وخوفه من عذاب القبر، والسؤال،و الحساب، "عبدي خفني وخف نفسك وخف من لا يخافني "، فإذا لم يخف الإنسان من الله فهو جاهل وغبي و أحمق، فعليك أن تؤمن أن هذا الدنيا دار عمل، وأن الآخرة دار جزاء، وأن هذه الدنيا دار تكليف، وأن الآخرة دار تشريف، وأن كل أعمالنا مسجلة علينا في هذه الدنيا..

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف)

حينما تؤمن بيوم الدين يكون ميزانك ميزان الشرع وميزان الآخرة، ويكون هدفك الآخرة والميزان هو الشرع، أما الذي لم يؤمن بيوم الدين فميزانه الدنيا و إلهه المال والشهوة، أما الطامة الكبرى فهي في هذه الآية:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (4-6): تفسير الآية 27-31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-08-08

بسم الله الرحمن الرحيم

التصديق بيوم الدين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الرابع من سورة المعارج، والآيات التي شُرِحَت في الدرس الماضي هي قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26))

التصديق بيوم الدين:

أيها الإخوة الكرام... في اللحظة التي تُصدِّق فيها بيوم الدين تستعمل ميزاناً خاصّاً، وهو ميزان الآخرة و الشريعة، وهؤلاء الّذين يَزينون الأمور بالمكاسب المادية فقط ؛ فلا يعبئون بحلالٍ ولا بحرام، ولا بشيءٍ مشروع أو غير مشروع، ولا يعبئون بأن مكتسباتهم كانت على حساب آخرين هم يزينون كل شيء بميزان المكاسب المادِّية، وهؤلاء لا يُصدِّقون بيوم الدين، فلو أنهم صدّقوا بيوم الدين لاستعملوا ميزان الشريعة و ميزان الآخرة، فهذه الموازين الدقيقة توزن بها أعمال الإنسان يوم القيامة، لذلك يقول الإنسان العاقل كلّما وقف موقفاً: ماذا أُجيب الله يوم القيامة ؟ هل هذا العمل أقرَّه الشرع ؟ هل أنا مغطىً بالشرع ؟ هل الحكم الفقهي إلى جانبي ؟ هل لي حجّةٌ يوم القيامة أمام الله عزّ وجل ؟ ولمجرّد أن تصدِّق بيوم الدين لابدَّ من أن تتخذ ميزاناً جديداً هو ميزان الشريعة، أما إن لم تَصدق بيوم الدين فإنك تزين كل شيء بموازين المكاسب الماديّة، لذلك قد تجد إنساناً يسعى إلى كسب المال بأي طريق ؛ مشروع أم غير مشروع، صحيح أم غير صحيح، فيه ظلم أو فيه عدل، لابدَّ من أن يأخذ هذا المال ليستمتع به في الحياة الدنيا، و هذا ميزان المكاسب المادية، وهو ميزان من لم يُصدّق بيوم الدين، اسأل نفسك هذا السؤال: هل يمكن أن تقبل دخلاً غير مشروع ؟ هل يمكن أن تَبْتَزّ مال إنسان ؟ هل يمكن أن تغشّ إنسان ؟ هل يمكن أن تأخذ ما ليس لك ؟ هل يمكن أن تبني مالك على إفقار الناس ؟ ثق وآمن وتَيَقّن، فإن فعلت هذا فأنت لا تُصدِّق بيوم الدين، أي إنسان عاقل إذا صدّق أن الله سيُحَاسِبَه عن كل شيء فلا بدَّ أن يعد للمليون قبل أن يعصي الله عزّ وجل..

ميزان الآخرة:

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

حينما صدّقوا بيوم الدين استخدموا ميزاناً جديداً، وهذا الميزان لا يسمح لهم أن يكذبوا، ولا أن يُدَلِّسوا، ولا أن يغشُّوا، ولا أن يوهموا، ولا أن يبتزوا أموال الناس، ولا أن يبنوا غناهم على فقر الناس إطلاقاً، فراقب نفسك وراقب ما الميزان الذي تستخدمه في حركتك اليومية ؟ إن كنت تستخدم ميزان المكاسب الماديّة فأنت لا تُصدِّق بيوم الدين، ولو أعلنت بلسانك ألف مرّة أنّك مؤمن بالآخرة، الإيمان بالآخرة يجب أن يُجسّد باستخدام ميزان الشريعة، وكل من ترك من يده لحظةً ميزان الشريعة هَلَك، فقد تكون قوياً جداً وزوجتك ضعيفةٌ جداً، قد توفيَّ والدها، وإخوتها مسافرون، وهي تحت إمرتك و هيمنتك، فإن ابتززت أموالها أو ظلمتها فأنت لا تُصدِّق بيوم الدين، و قد يأتيك إنسان جاهل وأنت تحمِل أعلى شهادة، وكلامك عنده مُصَدَّق، وأي شيءٍ تقوله له يُصدقه، وبإمكانك أن تأخذ من أمواله الشيء الكثير وهو يشكُرك على هذا ولا يعلم، إن فعلت هذا فتيقّن أنك لا تُصَدِّق بيوم الدين، فالمهن الراقية التي هي موضع ثقة الناس، فإن أخلص أصحاب هذه المهن، وصدقوا الناس وأخلصوا لهم في التعامل معهم فهم يصدِّقون بيوم الدين.

تصنيف الناس وفق الآية:

أيها الإخوة... لعل هذه الآية تَفْرِز الناس إلى فرقتين ؛ فرقةٍ ناجيةٍ استخدمت ميزان الشريعة، وفرقةٍ هالكةٍ استخدمت ميزان المقاييس اليومية، فقد تسكن في بيت وتدفع أجرةً رمزيةً لا تساوي واحد بالألف من أجرته الحقيقية والقانون معك، وعندك بيتٌ آخر، إنك إن فعلت هذا فأنت لا تُصدِّق بيوم الدين، فماذا ستقول لله عزّ وجل يوم القيامة إذا كانت صاحبة البيت امرأةً أرملةً تعيش من أجرة هذا البيت، والقانون معك وأنت مستأجر قبل السبعين، إنها لا تستطيع أن تقول كلمةً واحدة، وأنت متمتع ببيت وبأجرةٍ رمزية، وتذهب إلى المسجد وتصلي في أول صف، إنّك لا تصدِّق بيوم الدين، إن الذي يصدق بيوم الدين يحاسب نفسه على الدِرْهَم والدينار، والذي يصدق بيوم الدين يحاسب نفسه على كلمةٍ و النظرة، و يستغل وقته أعلى استغلال في طاعة الله، وفي طلب العلم، وفي تعليم العِلم، و الدين لا يضيّع وقته في مباحاتٍ لا تقدِّم ولا تؤخِّر.

إخواننا الكرام... إن القضية خطيرة جداً، فأنت حينما تصدِّق أن إنساناً قوياً سيستدعيك بعد يومين، وسيسألك كذا وكذا فإنك لا تنام الليل لأنك أيقنت أنه سيسألك، وقد يُعاقبك أو يحجز حرّيتك، فإذا قيل لك: إن الله جلّ جلاله خالق السماوات والأرض سيسألك عن كل صغيرةٍ وكبيرة، وعن كل كلمةٍ، وعن كل نظرةٍ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

كيف تُقنِع نفسك أنك مصدقٌ بيوم الدين، وأنك تفعل أشياء لا تُرضي الله عزّ وجل ؟

إخواننا الكرام... هناك عشرات ألوف الأعمال التي يقترفها المسلمون فيها مخالفةٌ صريحة لمنهج الله عزّ جل، وإذا سألتهم عدد أركان الإيمان يقول لك: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.. لا والله ما آمنت باليوم الآخر، فهذا الذي يفعل المعاصي والموبقات، ويبني مجده على أنقاض الناس، ويبني ماله على إفقار الناس، ويبني عزّه على إذلال الناس، ويبني كل مكتسباته على حساب الناس هذا والله ليس مؤمناً بيوم الدين.. فإن أنت إذا تيَقّنت أن إنساناً من بني البشر أقوى منك سيحاسبك فإنك تعد للمليون قبل أن تفعل شيئاً يغضبه.. وهو إنسان من بني البشر، فكيف تفعل كل هذه المعاصي وأنت تقول: إني مؤمنٌ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ؟

الإيمان قيد:

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

إخواننا الكرام... سأذكر أمامكم هذا المُصْطَلَح: إنك حينما تُدخِل في حساباتك اليومية أنّ هناك يوماً لا بدّ واقفٌ بين يدي الله فيه، ولا بدّ أنك سوف تطّلع على أعمالك كلّها واحدةً واحدة، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، فلن تستطيع عندئذ أن تعصي الله.. " الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن ".. فالإيمان قيد، وهذا الطليق المتفلِت الذي لا يعبأ لا بمالٍ ولا بشيءٍ،وهمُه أن يجمع مالاً كثيراً ليستمتع به في الحياة الدنيا لا تنفعه هذه العبادات الجوفاء التي يؤدّيها وهو يبني مجده على أنقاض الناس، إن هذه العبادات لا تقدِّم ولا تؤخِّر، قال عليه الصلاة والسلام:

((أتدرون من المفلس ؟ قالوا: الذي لا درهم له ولا دينار، قال: لا، المفلس من جاء بصلاةٍ، وصيامٍ، وصدقةٍ، وضرب هذا وشتم هذا وأكل مال هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته طرحوا عليهم سيئاتهم حتى يُطرح في النار))

هذا هو المفلِس.

إخواننا الكرام... وقِّروا وقتكم لأن الوقت ثمين، لا تحاول أن تخادع الله..

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: آية " 142 ")

لا تحاول أن توهم أنّك تُصلي، وأنك تصوم، وأنك حججت بيت الله الحرام عشرات المرات

((ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حجةٍ بعد الإسلام))

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

لا بدّ من أن تقف عند الحلال والحرام و تحاسب نفسك حساباً عسيراً على كل صغيرةٍ وكبيرة.. فقد كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى واقفاً في ظلّ بيت يحدِّث رجلاً فأمسكه من يده ونقله إلى الشمس،

قال: " هذا البيت مرهونٌ عندي وإني أكره أن أنتفع بظلِّه ".. هكذا كان السلف الصالح يحاسبون أنفسهم حساباً يبدو لنا غير معقول، لكنهم عقلاء، فهذا سيدنا عمر يقول: **" والله لو تعثَّرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها لما لم تصلح لها الطريق يا عمر "؟ "..**

وقد كان سيدنا عمر مرة في جولةٍ مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما في المدينة، فرأيا قافلةً قد نُصبت خيامها في ظاهر المدينة فقال: تعال نحرسها.. نحرس هذه القافلة.. فسمع طفلاً يبكي فقال لأمه: أرضعيه، فأرضعته، ثم بكى، فقال لأمه: أرضعيه، فأرضعته ثم بكى فغضب وقال: يا أمة السوء أرضعيه، فقالت له: وما شأنك بنا ؟.. وما دخلك أنت ؟ قال: لما لا ترضعيه ؟ قالت: إنني أفطمه، قال: لم ؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفِطام [أي: التعويض العائلي]، ويروي كتّاب السيرة أنه ضرب جبهته وقال: ويحك يا بن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين.. فقد عدَّ نفسه قاتلاً لأنه حمل الأمهات على فطام أولادهن قبل الوقت المناسب من أجل أن يأخذوا من عمر العطاء. فما لم تحاسب نفسك حساباً عسيراً فلن تكون مصدقاً بيوم الدين، فالتصديق بيوم الدين أن تتصور أنك في كل ثانية واقفٌ بين يدي الله عزّ وجل.

هناك طالب من الطلاب الذين أدوا امتحان الشهادة الثانوية نال الدرجة الأولى على طُلاّب القطر، فسأله صحفيٌّ في مقابلةٍ: ما الذي أعانك على أن تنال هذه الدرجة الأولى ؟ أجاب إجابةً رائعة فإنه قال: إن لحظة الامتحان لم تُغادر مُخيلتي ولا ثانية.

وأنت حينما تتصور أنه في أية لحظة سوف تُسأل من قِبَل الله عزّ وجل: لماذا فعلت؟ لماذا تركت ؟ لماذا وصلت ؟ لماذا قطعت ؟ لماذا تكلّمت ؟ لماذا سكت ؟ لماذا أعطيت؟ لماذا منعت ؟ لماذا ابتسمت ؟ ولماذا عَبست ؟ لماذا فعلت هذا ؟ لماذا طلّقت ؟ لماذا تزوّجت ؟ لماذا دَلّست ؟ هيئ جواباً لله عزّ وجل عن كل ما تفعله في يومك وإلا فإنك لا تعدُ مصدقاً بيوم الدين، لأن الله سيسأل: ما حُجّتك ؟

وقد دخلت زوجة سيدنا عمر بن عبد العزيز عليه مرة فرأته يصلي ويبكي، فلما انتهى من صلاته قالت له: ما لك تبكي ؟ قال: دعيني وشأني، قالت: أستحلفك بالله ما لك تبكي؟ قال: دعيني وشأني، فلمّا ألحّت عليه قال: إني ولِيت أمر هذه الأمة فعلمت أن الله سيسألني عن الفقير، وعن الأسير، وعن صاحب العيال الكثير، وعن ذي الدخل القليل، وعن ابن السبيل.. ولا أذكر النصّ بكامله لأنه ذكر عشرات من النماذج المعذّبة في الحياة.. ثم قال: أيقنت أن الله سيحاسبني عنهم جميعاً وأن خصمي دونهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم فخفت أن لا تثبت حجّتي فلهذا أبكي. فأنت حينما تتولى أمر عشرة، تكون في دائرة تحت يدك عشرة موظّفين، فلا بدَّ من أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً ؛ هل أعطيتهم حقهم ؟ هل عَدَلت بينهم ؟ هل منحتهم ما ينبغي أن تعطيهم إيّاه؟

إخواننا الكرام... حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطّانا إلى غيرنا وسيتخطّى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، والكيّس من دان نفسيه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، فلا توهم نفسك أنك مصدقٌ ليوم الدين إذا كنت مقيماً على معاصٍ تغضب الله عزّ وجل، و لا تتصور أنك مؤمنٌ بيوم الدين إذا كان في دخلك جزءٌ من مالٍ حرام، إيّاك أن تفعل هذا، فهؤلاء الذين يُصلّون..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23))

فلو جاءك إنسان ليشتري حاجة، وعلمت أنه جاهل فَغَبَنْتَهُ فإنك لا تصدق بيوم الدين، وقد ورد في بعض الأحاديث:

((إن غبن المسترسل ربا، إن غبن المسترسل حرام))

المسترسل: هو الجاهل، ففي بيعك وشرائك، في إقامتك وسفرك، في علاقاتك بأهلك، في علاقاتك بجيرانك، الناس يفعلون ما يشاءون، فهم طُلقاء يفعلوا كل ما يرونه صواباً، ولكن المؤمن وحده هو الذي يوفّق أعماله مع منهج الله عزّ وجل، فالذي يُغضب الله لا يفعله ولو قطّعته إرباً إرباً، والذي يرضي الله يفعله دون تردد، هذا معنى:

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27))

عذاب الله:

الله عزّ وجل حينما حدّثنا عن النار قال:

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

(سورة الواقعة)

تذكرةً.. أشعل شمعةً وضع إصبعك على لهيبها فإن تحمّلتها فافعل هذه المعصية، والشمس تصل حرارتها في ألسنة لهبها إلى ستة آلاف درجة، أما في مركزها فتصل الحرارة إلى عشرين مليون درجة، ولو أن الأرض أُلقيت في الشمس لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة، وحرارة الشمس من حرارة نار الدنيا، أما نار الآخرة فهي أشدُ حرّاً..

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء: آية " 56 ")

قال الله تعالى:

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

هذا كلام الله جلّ جلاله، وهو إلهنا و ربنا وخالقنا، وقد ذكر نار جهنّم فقال:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّار)

(سورة البقرة)

فهذا الذي لا يأخذ بهذا الوعيد إنسان أحمق، ومن الذي لا يخاف الله ؟ إنه الإنسان الذي عطّل تفكيره و إدراكه، لذلك تراه لا يخاف، وأضع لك مثالاً على ذلك: قد تأتي بطفل عمره سنة واحدة، فيجلس في أثناء الحصاد، وقد يمرّ أمامه ثعبان لو رآه رجل شديد لولّى هارباً، لكن هذا الطفل لا يتأثر ولا يبكي بل إنه يضع يده عليه، لماذا لا يخاف منه ؟ لأنه لا يُدرك، لو أدرك لخرج من جلده و صاح صيحةً ملأت الأُفُق، لكنه لا يُدرك، فالذي لا يخاف قد عطّل إدراكه. قال:

(وَالّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبّهِمْ مُشْفِقُونَ)

فلو كان عند إنسان قدرة على أن يفعل لك بعض الأشياء المزعجة التي لا تحتمِلُها، فإنك تحسب له مليون حساب، وذلك لأنك تخاف أن يعذّبك، لكن الإله تبارك وتعالى يقول لك عن نار جهنم..

(كُلّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء: آية " 56 ")

إن الناس يتحرّكون في الطرقات، وفي دور اللهو، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويستعلون على غيرهم وكأن شيئاً لم يقع، إن هؤلاء عطّلوا إدراكهم، وهم عديمو الإدراك لأنهم لو أدركوا لخرجوا من جلودهم، وقد ورد في بعض الآثار:

((أنه ما من بيتٍ إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرّات، فإذا رأى أن الإنسان قد انتهى أجله وانقطع رزقه ألقى عليه غمّ الموت فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثوبها، والصارخة لويلها، يقول: فيما الجزع ؟ ومما الفزع؟ ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً، ولا قرّبت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة، ثم عودة حتى لا أبقي منكم أحداً، فوالذي نفس محمدٍ بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم))

يقول سيدنا عمر: **عجبت لثلاث، عجبت لمُأمّلٍ والموت يطلبه، وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٍ ملء فيه ولا يدري أساخط عنه الله أم راضي ؟**. يبنون ويعتنون، ويؤسسون ويزخرفون، ويتشدّقون ويتيهون على خلق الله، والقبر ينتظرهم، فلعل أحدكم حضر تعزية، إنه قد يجد بيتاً لا يوصَف بجماله، ولكن أين صاحبه ؟ تحت أطباق الثرى، هذا هو البيت الحقيقي، هذا هو المثوى الأخير.

التفكر بالمصير يسمو بالحياة:

يا أيها الإخوة الكرام... التفكّر بالمصير المحتوم لا يعرقل الحياة لكنه يسمو بالحياة، فأنت حينما تؤمن أن الله سوف يحاسبك، فإنك تفعل كل شيءٍ وفق منهج الله عزّ وجل، فالآية الكريمة دقيقة جداً:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

والمعنى المُخالِف أن الذي يتبع هواه وفق هدى الله عزّ وجل لا شيء عليه، فإذا كان هناك إنسان أودع الله في قلبه حبَّ المرأة فتزوج فلا توجد مشكلة أبداً، وإن أودع في قلبه حبَّ المال فعمل بمشروع شريف فكسب المال وأنفقه على نفسه وعلى أهله فلا شيء عليه أيضاً، فأيُّ شيءٍ سمح الله لك به افعله ولا تخاف، لكن التفكّر بالمصير المحتوم يسمو بالنفس فيمنعها من أن تزل، ويمنعها من أن تقف، فللموت إيجابيتان مهمتان ؛ فهو يمنعك من أن تعصي الله، ويمنعك من تقف في الطريق لله عزّ وجل، وقد قال ابن عبَّاس في تفسير أية:

(وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

" هذا لمن أشرك أو كذّب بالأنبياء "، وقيل: لا يأمنه أحد، بل الواجبُ على كل أحدٍ أن يخافه ويشفق منه.. فالنبي عليه الصلاة والسلام كان عند أصحابه الذين توفّاهم الله، وكان من عادته أن يذهب إلى بيت أصحابه الذين توفّاهم الله قبل الغسل والدفن، فسمع امرأةً تقول: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، قال: ومن أدراك أن الله أكرمه، وأنا نبيٌّ مرسَل لا أدري ما يُفعل بي.. هذا يؤكِّد قول من قال: ينبغي أن لا يأمنه أحد، فهذا سيدنا عمر وهو مبشَّر بالجنَّة قد سأل سيدنا حذيفة بن اليمان فقال له: بربك هل اسمي مع المنافقين ؟ قال له: لا يا أمير المؤمنين، معاذ الله أنت أمير المؤمنين، فينبغي أن تخاف الله دائماً، وينبغي أن ترجوه..

العفاف:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

(سورة المعارج)

أُذَكِّرُكُم بقول سيدنا جعفر حينما سأله النجاشي عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال:

((كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، حتى بعث الله فينا رجلاً (دققوا) نعرف أمانته وصدقه وعفافه))

العفاف ثلث الأخلاق الفاضلة، فعلاقة المؤمن بالمرأة أساسها العفاف..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

فالإنسان يحفظ فرجه حينما يتّقي ربَّه، فيفعل الأسباب التي تحفظ له فرجه، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

هذا ترتيب دقيق جداً، جعل الله حفظ الفرج بسبب غضّ البصر.

خطوات الزنى:

قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

فأي خطوةٍ تخطوها تُقَرّبك من الزنى، فالنظر يقرّب، وصحبة رفقاء السوء تقرّب، والمشي في طريقٍ من دون حاجةٍ ضروريةٍ وهو مليء بالنساء الكاسيات العاريات تقرّب، وأن تأتي بصحنٍ فتتابع ما فيه من أفلامٍ داعرةٍ إلى الساعة الخامسة صباحاً يقرّب أيضاً، فالأعمال الفنية الساقطة، والمجلات الخليعة، والقصص المنحطّة، ورفقاء السوء، وإطلاق البصر، والحديث عن الزنى هذا كلّه يقرّب، لذلك كان من حكمة الله عزّ وجل أنه قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

حقيقة علمية!!

لم يقل الله تعالى: ولا تزنوا، لأن الإنسان حينما يستثار يفرز الدماغ مادة تعطِّل المحاكمة، وهذه الحقيقة العلمية تفسّر كل تورُّط في الزنى، لذلك قال عليه السلام:

((ما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلا كان الشيطان ثالثهما))

وهذا كلام مطلق، فهو يشمل أي إنسان، فالذين يحفظون فروجهم لا يسمحون بخلوةٍ مع أجنبية، و لا يُطلقون النظر إلى محرّم، ولا يملؤون عيونهم من الحرام، ولا يجلسون مع امرأةٍ لا تحلّ لهم، ولا يديرون حديثاً لطيفاً مع امرأةٍ لا تحلّ لهم، و لا يقرؤون شيئاً يثير شهواتهم السُفْلى، ولا يُشاهدون عملاً فنياً مثيراً، وكل شيءٍ يقرّبُهُم من الزنى لا يفعلونه، فتصور أن الزنى تيار كهربائي بثماني آلاف فولط.. توتر عالي.. و هذا التيار من خصائصه أنه يجذب، وله منطقة حرام ؛ أي: ثمانية أمتار، و كل إنسان دخل إلى أقل من ثمانية أمتار يجذبه التيار ويجعله فحمةً سوداء، فلو أن وزير الكهرباء لم يضع لوحة تفيد الناس أن هناك خطر الموت، فماذا يحدث لكل من يقترب منه ؟

و هذه الشهوة خطيرة جداً، و يمكن أن نشبهها بصخرةٍ مستقرةٍ في رأس جبل، وأنت لك أحد خيارين ؛ إما أن تبقيها في مكانها فأنت آمن، أو أن تدفعها من مكانها فلن تستقر عندئذ إلا في قعر الوادي، ولن تستطيع أن توقفها بعد مترين من الانحدار، لأنها لن تستقر إلا في قعر الوادي، فبطولتك تكمن في ألا تدفعها في المنحدر، فإنك إن دفعتها في المنحدر استقرّت في قعر الوادي.

أيها الإخوة... هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: آية " 187 ")

فلابدّ من أن تدع بينك وبين المعاصي المتعلقة بالمرأة والجنس هامش أمان، فيوجد خط أحمر إن اخترقته كانت الكارثة، فهذه الشهوة لها وَهْج، فإن جذبتك إليها انتهى كل شيء، لذلك قد تعجب أن كل الآيات التي نهت عن الزنى لم تنه عن فعل الزنى نفسه بل نهت عن الاقتراب من الزنى، فإطلاق البصر اقتراب كذلك المصافحة،والخلوة و ملء العينين من الحرام، وإدارة حديث، وقراءة قصة، و مشاهدة عمل فني رخيص، وصُحْبَة الأراذل، و مشاهدة الصور الفاضحة، هذا كلّه يقرّب من الزنى، والنهي عن أن تقترب من الزنى..

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

شيء ثان: ليس في الإسلام حرمان، فأية شهوةٍ أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها، وهناك قول لطيف جداً: " ما كان الله ليعذِّب قلباً بشهوةٍ تركها صاحبها في سبيل الله ". فالله يريِّحك.. وقد تجرّأ أحدهم جرأة غير معقولة، فقال للنبي الكريم وهو بين أصحابه الكرام وهم قممٌ في العِفّة، قال: يا رسول الله ائذن لي بالزنى.. أعوذ بالله.. فقام أصحابه، فقال النبي:

((دعوه، تعال يا عبد الله واقترب مني، قال: أتحبه لأمك؟ فاحمر وجهه وقال: لا، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لأختك ؟ قال: لا، أتحبه لابنتك ؟ قال: لا، أتحبه لعمتك، لخالتك ؟ فقال هذا الشاب: والله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وما شيءٌ أحب إلي من الزنى، وخرجت من عنده وما شيءٌ أبغض إليّ من الزنى))

فإذا صدق الإنسان في التوبة، وصدق في طلب مرضاة الله عزّ وجل فإن الله عزّ وجل لا يعذِّبه بهذه الشهوة، بل بالعكس، إنه يُفْسِحُ له طريقاً مشروعاً. " فإنهم غير ملومين ":

اسمحوا لي أن أقول كلمة: إذا كان الإنسان متزوجاً، فإنه قد يصلي قيام الليل ويبكي في الصلاة، ويكون ذلك بعد لقاءٍ زوجي.. وهو الشيء مشروع.. وهنا لا توجد مشكلة..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30))

وهو ليس ملوماً لا عند الله، ولا عند نفسه، ولا عند الناس أبداً، ولكن لاحظوا شاباً يمشي مع فتاة بشكل غير مشروع، فلو تكلّم واحد معه كلمة فإنه يرتعب، أما حينما يخطب ابنتك شابٌ، فتوافق عليه ثم كتب العقد، فإنه يسهر مع ابنتك حتى الثانية صباحاً وأنت مطمئن، فهي زوجته، فالشيء المشروع مشروع، والحرام حرام، فلذلك قال ربنا عزّ وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

وربنا عزّ وجل يُعَلِّمُنا الحياء، فلا توجد كلمة تخدش الحياء..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ)

ملك اليمين..

(فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى)

إرواء هذه الشهوة عن غير طريق زوجته:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

إنه معتد على أعراض الناس، معتد على منهج الله، ومعتد على سعادته، و ظالمٌ لنفسه..

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

طالب الزواج مرزوق: أيها الإخوة... في الجامع الصغير بضعة أحاديث شريفة تبدأ بقوله صلى الله عليه وسلم: حق الأب على ابنه، وحق الابن على أبيه، وحق الزوج على زوجته، وحق المسلم على المسلم، وحق الجار على الجار، لكن حديثاً واحداً تقرأه يقشعر منه جلدك وهو: " حق المسلم على الله أن يعينه إذا طلب العفاف".. " ما شكا إلى النبي أحدٌ ضيق ذات يده إلا قال له: اذهب فتزوج ". لأن طالب الزواج مرزوق، وهناك ألف قصة على ذلك، فبعد أن يعقد العقد يأتيه رزقٌ جديد لم يكن في الحسبان، ف حينما تقول لله: يا رب أنا أحب أن أطيعك، فأعني على أن أطيعك، فيهيئ الله من علم الغيب ما يسعدك ويحصّنك من أن تقع في الحرام..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31))

هذه الآية مُجْمَلة والتفصيل عندك، فأي انحرافٍ جنسي ؛ من المثلية وغير المثلية وما إلى ذلك،-كلكم يعلم هذه الانحرافات ويستمع إلى أخبارها - هو عدوان في نصّ هذه الآية الكريمة، لذلك قال تعالى:

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)

(سورة هود: آية " 86 ")

أي ما بقي لكم من الأشياء المشروعة هو الخير.

أيها الإخوة... نختم الدرس عند هذه الآية:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30))

فالآن لا يوجد ملك اليمين (لكي لا يسن أحد أسنانه) وملك اليمين له حالات خاصة وهو الآن غير موجود..

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

أي معتدون، وفي درسٍ آخر ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (5-6): تفسير الآية 32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-08-15

بسم الله الرحمن الرحيم

ثقل الأمانة

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الخامس من سورة المعارج، ومع الآية الثانية والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

(سورة المعارج)

إن هؤلاء مصلين مستثنون من الهلع والجزع، ومن الحرص والمَنع، وهذه الصفات هي في أصل خلق الإنسان، وهي نقاط ضعفٍ لصالحه تدفعه للإيمان، والهلع هو شدة الجزع وشدة الحرص، فبالحرص ترقى إذا أنفقت، وبالجزع ترقى إذا خِفْت، وبخوفك تلتمس أبواب الله عزّ وجل و تنساق إلى العبودية لله عزّ وجل، وتلجأ إلى الصُلح مع الله، وخوفك يحملك على التوبة، وهذا الخوف الشديد هو في أصل خلقك، وهو فيما يبدو نقطة ضعفٍ، لكنه في الحقيقة سببٌ لتوبتك و صُلْحِكَ مع الله، فالإنسان كما وصفته الآيات:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

(سورة المعارج)

وإذا اتصل هذا الإنسان بالله عزّ وجل أصبح مستثنىً من هذا الضعف الخلقي، فهناك فرقٌ واضح جوهري نوعي بين المُتَّصِل وغير المتصل.

قسما البشر بحسب الآية:

أيها الإخوة... في ضوء هذه الآية يمكن أن يُقْسَمَ البشر إلى قسمين لا ثالث لهما ؛ وهما: المتصل والمنقطع، فالمتصل مُحْسِن مطمئن كريم منضبط بمنهج الله و يرجو رحمة الله وهو أسعد الناس، أما المُنقطع فهو متفلتٌ من منهج الله، مسيءٌ إلى الخلق، قلبه فارغ، ممتلئٌ خوفاً وذعراً و تشاؤماً، فيؤذي الخلق، وهو أشقى الخلق، ولست مبالغاً إذا قلت: إن البشر في ضوء هذه الآية قسمان: متصلٌ مطمئنٌ، كريمٌ، ومنقطعٌ جذوعٌ، منوع، ولكن ربنا عزّ وجل قيد هؤلاء المصلين بصفاتٍ كثيرة، لئلا يتوهَّم الإنسان أنه إذا صلى ركعتين صار من المصلين، وقد تحدثت عن أكثر هذه الصفات في الدروس السابقة:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ

مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31))

ودرس اليوم:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

شمول هذه الآية:

أيها الإخوة... لا أعتقد أن في القرآن كلمةً تتسع لتشمل كل شيء كهذه الكلمة، والأمانة في أقدم معانيها هي نفسك التي بين جنبيك، فقد جعلها الله أمانةً عندك، فإذا زكيتها و عرفتها وحملتها على الطاعة و الاتصال بالله فقد زكيتها، فإذا زكيتها أدَّيْتَ الأمانة ؛ وإذا تركتها جاهلةً فقد خنت الأمانة، ومن توابع الجهل المعصية، ومن توابع المعصية القطيعة مع الله، فأول أمانة تحمِلها هي نفسك التي بين جنبيك، وقد قال الله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

حرفتك أمانة:

إن شؤون الدنيا والدين بأكملها هي أمانةٌ في عُنقِك، ولو بدأنا بشؤون الدنيا لقلنا: حرفتك التي ترتزق منها أمانةٌ جعلها الله في عنقك، فإذا كنت مُعَلِّماً فهل أديت الأمانة لهؤلاء الصغار ؟ هل علّمتهم بإخلاص؟ هل هذّبتهم ؟ هل وجّهتهم ؟ هل عرّفتهم بالله عزّ وجل ؟ أم أنك عملت بقدر الراتب ؟ وهذا ما يقوله معظم الموظفين، إن عملت بقدر الراتب فقد خُنْتَ الأمانة، فإما أن تؤدي الأمانة بالتمام والكمال، وإما أن تدع هذه الحرفة وتعمل شيئاً آخر، أما أن تقدِّم عملاً يتوازى مع راتبٍ الذي لا يكفيك خمسة أيام وتقول: ليس علي شيء لأن الراتب قليل، فإنك في هذه الحال تكون قد خُنت الأمانة، و كل واحدٍ منا - أيها الإخوة -حرفته أمانةٌ في عنقه، فيا أيها الأستاذ: هل رفعت مستوى الأسئلة كثيراً، حتى يأخذ الطُلاب علامات متدنية كثيراً ليأتوا بك إلى البيت ويأخذوا دروساً خاصة ؟ إذا فعلت ذلك فقد خُنت الأمانة، لكنك إن جعلت الامتحان معتدلاً فقد أدّيت الأمانة، وهذا ينطبق على أية حرفةٍ، فلو أنّك كنت تعمل في المحاماة فعليك أن تسأل نفسك:، هل صدقت الموكِّل ؟ أم أوهمته أن دعواه رابحة، وأنت توقن يقيناً قطعياً أن دعواه خاسرة، هل أخذت ماله حراماً أم حلالاً ؟

وأبواب الخيانة لا تعدُّ ولا تُحصى، وهي في كل الحِرَفْ من دون استثناء، كالطب و الهندسة و المحاماة، والتدريس والتجارة، كذلك إذا كان عندك معمل غذائي، فهل تضع فيه مواد من الدرجة الثانية؟ هل تضع مواد انتهى مفعولها ؟ هل تختار مواد قد تكون مُسَرْطِنَةً وتعلم ذلك ثم لا تعبأ ؟ هل تدقق في نوعية الإنتاج ؟ إن حرفتك هذه أمانةٌ في عنقك، والإنسان بحرفته عليم وخبير، ولا يستطيع

الناس في الأعَمّ الأغلب أن يكتشفوا الخطأ، و لا يستطيع أن يكشف الخطأ إلا قلةٌ قليلة، لذلك كان جزءٌ كبيرٌ كبير كبيرٌ من الدين هو أن تؤدي الأمانة في الحرفة التي أقامك الله فيها، فهل نصحت المسلمين ؟ هل رحمتهم في الأسعار ؟ هل استَغَلّيت ندرة المادة فضاعفت أسعارها أضعافاً مضاعفة ؟

أيها الإخوة... صدقوني أن دينكم في أداء أماناتكم، يقول الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

(سورة النساء: آية " 58 ")

أنت موظف، وهذا الذي أمام الطاولة مواطن يرجوك أن توقِع له هذه المعاملة، وبإمكانك بثانيةٍ أن توقعها له، فإن قلت له: تعال بعد غدٍ لأنك في حديثٍ مُمْتِعٍ مع موظف آخر، أو لأنك ترتشف فنجان قهوة، أو تطالع مقالة في جريدة، وهذا الذي أمامك قد يأتي من حلب، وقد يكلفه توجهك هذا أن ينام في الفندق ليلتين، فأنت بهذا قد خُنْتَ الأمانة.

الدين أيها الإخوة ليس في المسجد، ففي المسجد نتعلم أحكام الدين، لكن الدين يمارس في عملك، في وظيفتك، في دُكّانك، في تجارتك، فهل تأتي بهذه المواد و الهرمونات لترشها على النبات فيزداد حجم النبات وتبيعه بأسعارٍ عالية، وتكون بذلك قد عالجته بمادة مسرطنة ممنوع استعمالها، هل تعبأ بصحة الناس الذين يأكلون هذه الخضار، أم أنك تبغي الربح فقط؟ إخواننا الكرام.. إن الأساليب التي ينزلق فيها الإنسان لخيانة الأمانة لا تعد ولا تحصى، والإنسان ممتحن ومبتلى.

إذا استأجرت سيارة مثلاً فالشيء مألوف أن هذه السيارة ليست لك، و بإمكانك أن تُحَطِّمَها دون أن تكون مسؤولاً، فتفعل كل الأساليب التي تتعبها وترهقها، لأن هذه ليست لي فهي أجرة، أنت بذلك قد خنت الأمانة، و إن أردت الكلام الصحيح أقول لك: إنك لن تعد عند الله مؤمناً إلا إذا جعلت كل شيءٍ بين يديك أمانة.

و زوجتك أمانة كذلك، فهل دللتها على الله، إنها قد تؤدي لك كل ما تريد من دون استثناء، فمصلحتك محققةٌ معها، ولكن.. هل عَرّفتها بالله ؟ هل حملتها على طاعة الله ؟ هل أخذت بيدها إلى الله ؟ هل كانت قرة عينٍ لك في دينها ؟ أم هي قرة عينٍ لك في جمالها ؟ وأولادك و بناتك أمانة كذلك، فهذه البنت الذي أهملها أبوها فزَلّت قدمها، ماذا تقول لله يوم القيامة ؟ ستقول: يا رب لا أدخل النار حتى أُدخل أبي قبلي، والله -أيها الإخوة – إننا لو نفهمها هذه الآية وحدها حق الفهم لانخلع قلبنا خوفاً من الله عزّ وجل:

(وَالّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

(سورة المعارج)

هل أديت حق طلابك أيها الأستاذ ؟ هل أديت حق مرضاك أيها الطبيب ؟ هل أدّيت حق هذا البناء أيها المهندس ؟ أحياناً يبقى عند المهندس مسافة صغيرة، فيجعلها درجة غير طبيعية، فكم من حادث تسبب

هذه الدرجة، و كم إنسان يتعثّر بهذه الدرجة، مرة كنت في معمل فنبّهني صاحب المعمل إلى أن الدرجة السابعة أعلى بسنتيمتر، قال لي: كم من إنسان تعثّر على هذه الدرجة ؟ فقلت: لماذا ؟ إن الإنسان -سبحان الله- إذا صعد الدرج يقيس ارتفاع الدرجة ويقيس على هذا الارتفاع كل الدرجات بشكل آلي، فإذا كان هناك درجة ارتفاعها (سم) زيادة، أو أقل بـ (سم) تعثّر صاحبها، فهذا الذي أنشأ هذا الدرج سريعاً ولم يعبأ بسلامة الناس قد كان عمله أمانة فخان الأمانة، وكل من تعثّر على هذا الدرج في صحيفته، وأحياناً يُرَكّب أحدهم بلور بمسامير قليلة، وفي حالات الرياح الشديدة يقع البلور، فإذا وقع على طفلٍ وأرداه قتيلاً فمن المسؤول ؟ إنه الذي ركبه بهذه الطريقة، وقد وقع مرة صحن من صحون السطوح.. فضلاً عن الفساد الذي يحققه هذا الصحن.. وقع فقتل طفلةً في عمر الزهور، فلما سألوا: من ركّب هذا الصحن ؟ لقد كان مركباً بـ(برغيين) من أصل أربعة (براغٍ)، ففي أيام الرياح وقع الصحن فأردى الطفلة ميتةً.

أيها الإخوة... حدثني رجل قام بتغيير زيت، وصاحب العمل ترك لغلامٍ صغير أن يغيّر الزيت فلم يحكم إغلاق الغطاء، فسال الزيت في الطريق فتعطّلت السيارة والمسير بين جدة وبين دمشق في أيام الصيف، فخرج صاحب السيارة مرتين ليفحص السيارة ضربته الشمس فأردته قتيلاً، فمن الذي يحاسب عن هذه الجريمة ؟ وكم من أخطاء حدثت في غذائنا ومواصلاتنا، فخطأ في الطريق أحياناً يذهب ضحيته عشرات، وهذا الذي هندس الطريق هو المسؤول عن ذلك، ففي طريق إلى محافظة جنوبية هناك زاوية قائمة تقريباً، وقد وقع بسببها أكثر من مائة حادث على هذا الطريق، فإذا كان هناك إنسان يمشي بسرعة، ولم يتوقع أن المنعطف زاوية قائمة، و لم يتمكن من أن يبقى على الطريق فإنه يتدهور، وكم إنسان مات بهذا الحادث:

(إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

(سورة النساء: آية " 58 ")

نفسك وجسمك أمانتان عندك:

هناك حياةٌ أبدية وسوف نحاسب على كل شيء، فاعلم علم اليقين أن نفسك التي بين جنبيك أمانةٌ في عنقك، أفلحت إن زكّيتها وخبت وخسرت إن دسيتها، كما أن جسمك أمانة، وهذا الجسم ليس لك، إنه للمسلمين، كما أنه لأسرتك، فإذا حافظت على صحته عشت حياةً سليمةً، و كم إنسان يدخّن ويرديه الدخان في ريعان الشباب قتيلاً ؟ وجسمه أمانةٌ بين يديه، فقد أعطاك الله هذا الجسم ليكون وعاءً لعلمك، ونفسك وعاؤها هذا الجسم، فإذا أهملته وأمضيت الحياة في مرضٍ شديد فقد خنت الأمانة، فجسمك أمانة.

وهذه العين أمانةٌ في يديك، أعطاك الله إيّاها، فكيف تستعملها ؟ فإن نظرت بها إلى عورات المسلمين

فقد خنت أمانة الله، و إن نظرت إليها لما لا يرضي الله خنت أمانة الله، وهذه الأذن متّعك الله بها لتستمع إلى الذكر، فإن استمعت بها إلى الغيبة والنميمة والغناء، والكلام الذي لا يُرضي الله خنت الأمانة، وهذه اليد أعطاك الله إياها من أجل أن تفعل الخير لا من أجل أن تبطش بها و تمدها إلى ما لا يُرضي الله عزّ وجل، فيجب أن تعتقد أن عينيك أمانة، وأن أنفك أمانة، وأن لسانك أمانة، وأن أذُنيك أمانة، وأن يديك أمانة، وأن رجليك أمانة، فهل تقودانك إلى بيتٍ من بيوت الله ؟ أم تقودانك إلى ملهىً من الملاهي التي تراها عينك ؟ هذه الآية واسعة جداً، فكل شيءٌ أمانةٌ في عنقك.

قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

(سورة النساء: آية " 58 ")

و نحن هنا نقف عند الأشياء البارزة، و أهم شيءٍ هو نفسك التي بين جنبيك، فهل عرّفتها بالله ؟ هل حملتها على طاعته ؟ هل زكّيتها بالقرب من الله عزّ وجل ؟ فإن فعلت هذا فقد أفلحت وإن لم تفعل فقد خسرت.

أهلك أمانة:

و أقرب الناس إليك هم أهلك أولادك، فكم من ابن شقي في حياته لأن أباه أهمله ؟ و كم من بنتٍ زلّت قدمها لأن أباها لم يرعها حق الرعاية ؟ فالمراقبة عندها ضعيفة، والوازع ديني ضعيف أيضاً، و ثقافتها مكونة من هذه الأجهزة التي لا تُرضي الله عزّ وجل، ففيها تغذية يومية تدعوها إلى الانحراف، والمراقبة ضعيفة، فزلت قدمها، و كشف أمرها فسقطت، فمن أعانها على السقوط ؟ إنه الأب الذي لم يرعها و لم يحفظها، فابنتك أمانة، فإن أديت الأمانة في ابنتيك ضمنت الجنة، قال عليه السلام:

((من جاءه بنتان فأحسن تربيتهما حتى يزوّجهما أو يموت عنهما فأنا كفيله في الجنة، قالوا: واحدة، قال: واحدة))

ابنتك أمانة، فهؤلاء الفتيات اللواتي يخطرن في الطرقات كاسياتٍ عاريات، أين آباؤهن؟ أين إخوانهن؟ أين أمهاتهن ؟ إن هؤلاء الفتيات أمانةٌ في أعناق آبائهن، فإذا تركوهن يفعلن ما يشأن فقد خانوا هذه الأمانة...

عباداتك أمانة:

ماذا أقول لكم حول هذه الآية ؟ كل شيءٍ بين يديك من أمر الدنيا والآخرة أمانةٌ في عنقك، وقد قال العلماء: الصلاة أمانة، فإن أديتها على الوجه الصحيح في وقتها، بخشوعها، وركوعها، وسجودها فقد أديت الأمانة، و الصوم أمانة، والحج أمانة، والزكاة أمانة، و هذا المال الذي بين يديك هو أمانةٌ في عنقك ينبغي أن تؤدِّيَهُ على الوجه الصحيح والتام.

أيها الإخوة الكرام... الإسلام صارخ، فوضع المُسْلِم وعلاقاته، وبيته، وعمله، ومعاملته كل هذا صارخ في الكمال، فإن لم تجد بين المسلم وغير المسلم إلا هذه الصلاة وهذه الحركات والشعائر من دون أن ترى في سلوكه شيئاً صارخاً، فيجب أن تعلم علم اليقين أن هذا المسلم بعيدٌ جداً عن حقيقة الإسلام.

أيها الإخوة الكرام...

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

إنك لا تكون من المصلين و هؤلاء الناجين من الهلع والجزع إلا إذا رَعَيْتَ الأمانة، فقد يقول العبد مثلاً: " يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام وغذي بالحرام، فأنّى يستجاب له " هل يمكن أن تكسب رزقك من مسبح مختلط ؟ هل يمكن أن تكسب رزقك من مطعمٍ تباع فيه الخمر ؟ هل يمكن أن تكسب رزقك من تجارةٍ محرمة أو من طريقةٍ في التعامل محرمة ؟ هل يمكن أن تكسب رزقك من نماء المال عن طريق الربا ؟ فالعبد يقول: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حراك وغُذِّي بالحرام فأنى يستجاب له.

يا أيها الإخوة الكرام... موضوع الأمانة موضوعٌ دقيقٌ جداً..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

الإنسان قَبِلَ حمل الأمانة، فهل تعرف أيها الأخ من أنت ؟ إنك قد حملت الأمانة لأنك من بني البشر و من بني آدم، وما دمت قد قبلت حمل الأمانة فالله سبحانه وتعالى كرّمك ورفع شأنك..

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

فهؤلاء المؤمنون هم لأماناتهم وعهدهم راعون، فقد قال أحدهم لآخر: هل تعرفه ؟ قال له: نعم أعرفه، قال له: هل سافرت معه ؟ قال: لا، قال: هل جاورته ؟ قال: لا، قال: هل حاككته بالدِرهم والدينار ؟ قال: لا، قال: فأنت لا تعرفه، لعلّك رأيته يُصَلِّي في المسجد.

العبادات التعاملية أساس الدين:

إخواننا الكرام... أريد أن أقدِّم لكم هذه الفكرة ذكرتها كثيراً لكني لا أشبع من ذكرها، هناك عباداتٌ شعائرية، وهي الصلاة والصوم والحج، وهناك عباداتٌ تعاملية، فالعبادات التعاملية هي أساس الدين، و لما سأل النجاشي سيدنا جعفر عن الإسلام، قال: **" كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار.. هذه هي الجاهلية.. حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف**

أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحِّدَه، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان.. والآن دققوا.. وأمرنا بصدق الحديث " صلّ ألف ركعة، فإن لم تكن صادقاً فلا قيمة لصلاتك، لأن المؤمن لا يكذب.

إخواننا الكرام... شيء مخيف، دققوا في هذا الحديث:

((إن فلانة تذكر أنها تُكثر من صلاتها ؛ أي: الخمس أوقات، والأوّابين، وقيام الليل، والضحى، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال: هي في النار))

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

((رُبَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش))

فقد صام رمضان و ما ناله إلا الجوع والعطش، و أنفق المال ليقال عنه: محسنٌ كبير، فليس له من هذا الإنفاق شيء إلا الوزر.

أيها الإخوة الكرام... إن العبادات التعاملية هي الأصل في الدين، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بُني الإسلام على خمس))

الإسلام بناء أخلاقي بني على خمس عبادات، فالعبادات ليست هي الإسلام إنما هي دعائم الإسلام، فالعبادة التعاملية هي الأصل، فماذا قال سيدنا جعفر: **" حتى بعث الله فينا رجلاً".. لم يقل: رأيناه يصلي.. لا، بل قال: "نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه ".**

وإننا –والله- لن نتقدم، ولن نحظى بنصر الله و رضوانه، ولن ننال من الله شيئاً إلا إذا طبقنا الدين كما أراد الله، و نحن أردنا الدين شعائر، والشعائر سهلة، فهي صلاة، وعمرة، وحج، وصوم، لكن الله جلّ جلاله أراده منهجاً أخلاقياً كاملاً.

مرة ثانية أقول: يجب على المؤمن أن يكون صارخاً في كلامه كله، فهل يكذب المؤمن ؟! إن المؤمن لا يكذب، بل هو "يطبع على الخلال كلِّها إلا الخيانة والكذب ". أيُعْقَل أن يأتي راوي حديث أو طالب علم من المدينة المنورة إلى البصرة ليس بالطائرة، فلم يكن هناك في طائرة، وليس بالمركبة المكيفة، و لا على ناقة، يأتي من المدينة إلى البصرة، ليأخذ حديثاً عن رجل في البصرة، فلما رآه يكذب على فرسه، لم يسأله وعاد لتوّه، إنه ليس أهلاً لأن يروي عن رسول الله حديثاً، فهو يكذب على فرسه، و المؤمن لا يكذب، أما الصلاة والكذب فهي لا تصلح، فكيف يجمع الناس صلاة وكذب؟؟! يكذب في بيعه، ويحلف أيْمَاناً مغلّظة أن رأس مال هذه السلعة أقل مما يعرضه الشاري، يقول عليه الصلاة والسلام:

((اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة))

إخواننا الكرام... دينك في عملك و دكانك و قاعة تدريسك و عيادك، وغرفة المُحاماة، ومكتبك الهندسي، و تجارتك، و زراعتك، و صناعتك، فأنت تصنع غذاءً للمسلمين، فهل اتقيت الله في هذا الغذاء ؟ لقد سمعت أن في بعض البلدان الإسلامية من يشتري طعام الكلاب ويبيعه للبشر، ويغيّر اللصاقة الخارجية، إن هذا لو صلّى ألف ركعةٍ في اليوم، وحج كل عام فإنه يصنف خائناً للأمانة..

الحيوان أمانة:

((دخلت إمرأةٌ النار في هرةٍ حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض))

الهرة أمانة عند أصحابها، لها طعامها وشرابها، وهناك من الناس من يقتل الدواب وهي أمانةٌ في أعناقهم، دخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى بستان، فرأى جملاً، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حَنّ، فذرفت دموعه، فجاء النبي ومسح ذفريه، وقال: من صاحب هذا الجمل ؟ فجاؤوا بفتىً من الأنصار، و قالوا: هذا هو صاحب الجمل، فقال عليه الصلاة والسلام:

((ألا تتقّ الله في هذه البهيمة التي أوكلها الله إليك، ملكَك الله إياها، فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئِبُه))

افتح ورقة وأحضر قلماً واكتب بنود الأمانة ؛ نفسك أمانة، و زوجتك أمانة، وأولادك الذكور أمانة، و بناتك الإناث أمانة، و حرفتك أمانة، و عبادتك أمانة، و صلاتك أمانة، وصيامك أمانة.

(إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

(سورة النساء: آية " 58 ")

الأمانة تحقق الرخاء في المجتمع:

فنحن أيها الإخوة الآن بحاجة ماسّة لا إلى كلام يُلقى، ولا إلى كتاب يُقرأ، ولا إلى شريط يُسمع، ولكننا بحاجة إلى مجتمع مسلم، فهل تصدقون أن سيدنا معاذ حينما بعثه النبي إلى اليمن أقرّه عليها سيدنا أبو بكر، وأقره عليها سيدنا عمر، فجمع مال الزكاة، وأرسل بثلث الزكاة إلى سيدنا عمر، فراجعه عمر، قال له: " أنا لم أبعثك جابياً ولا جامع مال، ولا جامع مال، ولكن بعثتك هادياً، قال: والله لم أجد من يأخذ مني شيئاً، و هذا الذي فاض ". و في العام التالي أرسل له نصف الزكاة، وفي العام الثالث أرسل له كل الزكاة، فحينما أُدِّيَتْ الأمانة عاش الناس في بحبوحة ؛ أما الإنسان حينما خان الناس الأمانة أذهب الله البركة من المال، فأصبح المال يُنْفَق على الصحّة والكوارث، و المصائب، أما حينما تؤَدِّي حق الله عزّ وجل فإن الله يبارك لك في مالك، وموضوع الأمانة -أيها الإخوة- موضوعٌ خطير و دقيق، وموضوعٌ يحتاجه كل مسلم، فعلى كل إنسان أن يصدق ويخلص وينفع المسلمين.

سعة الإسلام:

إخواننا الكرام... لا تستهينوا بالدين.. فالإسلام واسع جداً، فحرفتك التي هي أمانةٌ في عنقك يمكن أن تنقلب إلى عبادة ببساطةٍ مذهلة، فالمسلم إذا كان له عمل فابتغى به كفاية نفسه، فهو في طاعة، كذلك إذا ابتغى منه كفاية أهله فهو في طاعة، وإذا ابتغى منه نفع المسلمين فهو في طاعة، فما شغله عمله عن صلاةٍ ولا عن صيام ولا عن عملٍ صالح، وهو في طاعة، و العمل بهذه الطريقة وبهذا المنطلق ينقلب إلى عبادة، فما قولكم في أن العبادات الشعائرية إذا أدّها المُنافق يحاسب عليه، وأن الأعمال الاعتيادية إذا أدّاها المؤمن يؤجر عليها، فالعادات إذا رافقتها النوايا الطيّبة انقلبت إلى عبادات، وذلك كأن تعمل عملاً تجارياً، أو أن تدير شؤون بيتك، أو أن تدرس و تنال شهادة، أو أن تُأسس عمل، فالأعمال العادية التي يفعلها كل الناس تنقلب إلى عبادة إذا عرفت الله وعرفت ما معنى الأمانة، والأعمال العبادية الصِرفة ؛ والصلاة، والحج، والصوم، إذا أُديت رياءً انقلبت إلى آثام، وهذا شيء خطير، فعليك أن تعرف الله وتعرف ما معنى الأمانة و تؤدّيها بالتمام والكمال، والأمانة هي أحوج ما يحتاج المسلم، فالأم أولادها أمانة في أعناقها، فهل تعتني بهم، و هل تؤمّن لهم الطعام، و الشراب، و اللباس، و هل تهيئ لهم وسائل النجاح في الحياة، إنها إذاً قد أدت الأمانة.

إخواننا الكرام... إن أبواب الجنة لا تعدُّ ولا تحصى، فالبنوة الكاملة باب للجنة، والأبوة المثالية باب للجنة، والأمومة المثالية باب للجنة، فكل أمٍ إذا أتقنت عملها وأخلصت لزوجها ولأولادها تدخل الجنة من أوسع أبوابها، فالأم تدخل الجنة، والأب يدخل الجنة، والابن يدخل الجنة، وكل إنسان بحرفته، فأبواب الجنة مُفَتَّحَةٌ على مصارعها، وكل حركة من حركاتك، وكل سكنة من سكناتك، هي باب للجنة، فلا تظن الدين عبارة عن صلاة تؤدى، أو صوم، أو حج، فالدين في كل ثانية، وكل حركة من حركاتك متعلِّقة بالدين، فهذا منهج الله عزّ وجل، ولذلك كان هؤلاء المصلِّون مستَثْنَين من الهلع و الجزع و شدة الحرص..

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32))

قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا لا دين لمن لا أمانة له، ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له))

الذي ليس له عهد ليس له دين، و الذي ليس له أمانة ليس له إيمان، و الخيانة تنقض الإيمان ونقض العهد ينقُض الدين.

أدّ الأمانة ولا تعبأ بأقوال الناس فيك..

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تترجم هذه المعاني إلى سلوك و انضباط، فالإنسان أحياناً يغدو أكبر داعية وهو صامت، وذلك باستقامته و أمانته و صدقه و إخلاصه، والله عزّ وجل هو الحق ولابدّ من أن يظهر الحق، فأخلص وأدِّ الأمانة ولا تعبأ للضجيج، أد الأمانة بصمت والله عزّ وجل هو الذي يرفع شأنك، و هو الذي يُعْلي قدرك، و هو الذي يرفع ذكرك، أدِّ الأمانة في كل شيء.. البر لا يفنى، والذنب لا يُنسى والديان لا يموت.. وقد ذكرت هذه النقطة الأخيرة لأنَّ الإنسان أحيانا يكون عنده قدرة على عرض إمكاناته بشكل رائع، وهناك إنسان مخلص ويؤدِّي الأمانة لكن بصمت، فماذا يظن الناس ؟؟ لإنهم يظنون أن هذا الذي يتحدَّث عن نفسه ويحيط نفسه بهالة كبيرة هو الفالح، لا.. إن الذي يؤدي الأمانة بإخلاص هو الفالح، والله عزّ وجل يرفع من قدره بطريقةٍ لا نعلمها نحن..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

(سورة النساء)

أدِّ الأمانة ولا تعبأ بأحد، و تعامل مع الله وحده، والتعامل مع الله وحده أحياناً يجعلك في التعتيم، والتعامل مع أشخاص يجعلك تحت الأضواء، فالعبرة أن يكون الله راضياً عنك، فإذا رضي الله عنك فأنت أسعد الناس، فالإنسان قد يكون مُعَلِّماً في صف، والدخل قليل جداً، وليس لهذا المعلم شأنٌ إلا أنه اتقى الله في هؤلاء الصغار الذين هم بين يديه وأدى الأمانة، فهذا يعد أسعد الناس، فالمعلم في صفه، والطبيب في عيادته، والمهندس في مكتبه، والمحامي في مكتبه، فإذا كان هناك تاجر صغير، و بضاعته كلها جيدة، لكنه اشترى مائتين بيضة فاكتشف أنهن فاسدات، وبذكائه كلّف الصانع أن يبيعهم في الطريق فوراً، وقال له: سريعاً، فهذا البيض فاسد، فإن بعته خنت الأمانة.. و أحياناً يكذب الإنسان مائة كذبة من الصبح حتى الظهر، ثم يصلي في الصف الأول ويقول: الله أكبر..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: آية " 142 ")

دقق في عملك.. لا تكذب، لا تدلِّس، لا توهم، لا تستغل، لا تمكِّن، لا تبتز أموال الناس، لا تضيّق عليهم، لا تحمِّر وجوههم، لا تحتل عليهم، فإذا فعلت هذا من الصبح حتى الظهر صليت الظهر وأنت أبيض الوجه لله عزّ وجل، فأداء الأمانة -أيها الإخوة -واسع جداً، فنفسك أمانة، وزوجتك أمانة، وأولادك أمانة، وبناتك أمانة، وحرفتك أمانة، فهذا الذي يغيّر تاريخ نهاية الاستعمال.. يمحوه ويبيع الدواء.. ألم يخن الأمانة ؟ وهناك من يتوهم أن الدواء الذي انتهى مفعوله لا ينفع لكنه لا يضر، لا بل

إنه يضر، فقد ينشأ تفاعل سلبي بالدواء الذي انتهى مفعوله، وقد يؤذي استعماله المريضَ، وكم آلاف الأبواب التي تعد مزالق للإنسان في حرفته، وهذا الدرس للتطبيق، لا لأخذ العلم، فحينما تؤدي الأمانة في بيتك وفي عملك يرضى الله عنا جميعاً،وأنت لست مكلفاً إلا ببيتك وعملك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

اضمن لي أن تقيم الإسلام في بيتك وفي عملك وأنا أضمن لك كل شيء.. فهذه:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

(سورة النساء: آية " 58 ")

الأمانة في التأليف:

أحياناً يأخذ إنسان فصلاً من كتاب فيجعله مقالة، ويقول: الكاتب فلان، وهذه سرقة وخيانة للأمانة، و تقتضي الأمانة في التأليف أن تعزو كل فكرةٍ إلى صاحبها، الآية واسعة جداً، وهذا شيء يحيّر، يا ترى هل تدخل في الأدب، أم في التأليف، أم في العلم، أم في الدين، أم في العبادات، أم في المعاملات ؟؟ إنها تدخل في كل شيء، فهذه الآية تدور مع المؤمن حيث ما دار، و أينما ذهبت، فحواسك الخمس أمانة، والسيارة المستأجرة أمانة، وكل شيءٍ تفعله أمانة.

الوقت أمانة:

إن الإنسان الذي يعمل موظّفاً في محل تجاري إذا أرسله صاحب المحل إلى سفر، فيمكن أن يعمل ساعة والباقي استجمام، إنه لم يؤد الأمانة في هذه الحالة بل خانها، والوقت أمانة، و هذا الوقت ليس لك، وإذا ذهب لكي يصلي فغاب ساعتين، فقال له صاحب المحل: ماذا تفعل ؟ فأجاب أصلي يا سيدي.. الصلاة ربع ساعة، أما ساعتين وثلاثة أرباع، ساعة وثلاثة أرباع.. إنها خيانة الأمانة، أدخل الوقت في هذه الآية إن شئت، و أدخل التربية، وأدخل الحرفة، و أدخل الحواس، و أدخل دينك، و أدخل كل شيء في هذه الآية، وقد قلت في البداية، ما من آيةٍ تتسع لأي موضوع كهذه الآية.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (6-6): تفسير الآية 33 إلى أخر سورة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-08-22

بسم الله الرحمن الرحيم

صفات المصلّين ومصير الكافرين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس السادس وقد يكون الأخير من سورة المعارج، ومع الآية الثالثة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

(سورة المعارج)

أيها الإخوة... حينما يُحَمّل الإنسان الأمانة ينبغي عليه أن يؤدّيها، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

معنيا الآية:

إن المعنى المتبادر لهذه الآية هو أن الإنسان إذا دُعي إلى شهادة ينبغي أن يؤديها على وجهها، ولكن هناك معنىً آخر عميق فضلاً عن هذا المعنى المتبادر، وهو من أوجه تفسيرات هذه الآية، وهذا المعنى يتحدث عن إنسان قائم يشهد للناس بوحدانية الله و رسالة رسول الله، ويدعو إلى الله مبادرةً، وحينما يكلّف حمل الأمانة يؤديها، وحينما يكلّف بعملٍ يؤديه على الوجه التام، وحينما يرزقه الله عزّ وجل أولاداً فإنه يحفظ هذه الأمانة ويأخذ بيدهم إلى الله.

موضوع الدرس الماضي كان حول حمل الأمانة، وتحدثنا عن أنواع الأمانات التي ينبغي أن تؤَدّى على وجهها، لكن الآية التي تليها تقول: ما دام الإيمان قد استقرّ في قلوب هؤلاء المؤمنين، فلابدّ من أن يعبّر عن ذاته بذاته، وذلك عن طريق حركةٍ نحو هداية الخلق، فلا تصدّق مؤمناً استقرت حقيقة الإيمان في قلبه ثم يبقى ساكتاً ولا يعنيه أمر الناس، لأن الله عزّ وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: آية " 108 ")

فالمُتَبِع لرسول الله صلى الله عليه وسلّم يدعو إلى الله، وآية سورة العصر تقول:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

(سورة العصر: آية " 3 ")

الدعوة إلى الله سمت المؤمن الحق:

هاتان الآيتان تبيّنان أن أي مؤمنٍ صادق لابدّ له من أن ينطلق لسانه إلى الدعوة إلى الله، و يؤكِّد هذا المعنى الوارد في الآيتين هذه الآية:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

و يُستَأنس بالآية التي تقول أن الله عزّ وجل جعل النبي شهيداً على هؤلاء..

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)

(سورة النساء: آية " 41 ")

أي: أنت شهدت لهم بالحقيقة، وأكبر شيءٍ يشغل بال المؤمن الحق هو أن يوضِّح للناس الحقيقة و طريق الهُدى، فلا يسكت، وهناك إخوةٌ كثيرون يفاجَؤون من خلال تجاربهم في الدعوة إلى الله، قال لي أحدهم في الأسبوع الماضي: إنه طرق على باب جار له قبل الدرس وقال له: أعندك شيء ؟ فقال له: لا، قال: أتذهب معي إلى المسجد ؟ قال لي: شعرته قد أُحْرِجَ لأنني سألته أعندك شيء فقال: لا، قال: لقد ندمت على هذا العرض لكنه خرج معي وجاء إلى المسجد.. وهو الآن لا يغيب عن درسٍ من دروس المسجد، لا في الفجر، ولا في الظهر، ولا في المساء.. فماذا تكلف هذا الأخ ؟ إنها كلمة فقط، فلا تيئس، ولا تسئ الظن بالناس، لعل كلمةً حانيةً صادقةً و وفيةً تنقذ أخاك من الهلاك في الدنيا والآخرة، فلذلك:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

فالمؤمن أينما جلس، وأينما حلّ، وأينما ذهب لسانه رطبٌ بذكر الله، وهو يُذَكِّر بالله، ويشرح كيف تفضّل عليه الله سبحانه وتعالى عليه وهداه..

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة)

اذكروني لعبادي، والذي يذكر الله لعباده يذكره الله عزّ وجل في ملأٍ خيرٍ منهم، فأنت حينما تنشغل بذكر الله فالله جلّ جلاله يرفع لك ذكرك من دون أن تدري..

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

أيها الإخوة... مُفادنا من هذه الآية أنك إذا شهدت الحقيقة فأشهدها للآخرين لأن الله عزّ وجل يقول:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد: آية " 19 ")

إن علمت حقيقةً على وجه اليقين فلا ينبغي أن تقول: لقد هُدِيت وما لي وللناس ؟ لا ليس هذا موقف المسلم الصادق، إن علمت حقيقةً على وجه اليقين، وشهدت أبعادها فينبغي أن تُشهدها للناس..

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

لذلك أيها الإخوة..يُعَدُّ أوفى الناس هم الذين كانوا أوفياء للناس الذين عاشوا معهم في ردحٍ من الزمن، فإذا كان لك أصدقاء أو جيران أو زملاء و أصحاب، فهؤلاء لهم حقٌّ عليك، فإن أكرمك الله بالهدى و

قَذَفَ النور في قلبك و شرح الله صدرك للحق، فينبغي ألا تنسى هؤلاء الذين كانوا معك، وكانوا في جوارك، أو كانوا زملاءك، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يسأل العبد عن صحبة ساعة))

وأنا أُثني -والله -على إخوةٍ كثيرين لم ينسوا أصدقاءهم في الماضي بل حاولوا معهم مراراً وتكراراً محاولات كثيرة وذكية إلى أن أخذوا بيدهم إلى الهدى، فلا يوجد إنسان ليس له أصحاب، و جيران، و أقرباء، و إخوة، والذي يأتي إلى الحلقة، و إلى مجلس العلم ويتنوّر قلبه، ويستقيم سلوكه، ويصِحُّ إيمانه فينبغي عليه ألا يكون أنانياً.. إن صح التعبير.. فابحث عن هؤلاء الذين كانوا معك، و الذين تحبهم، و عشت معهم ردحاً من الزمن، اسأل عنهم ما أحوالهم ؟ وما أحوال دينهم ؟ وما أحوال علاقتهم بالله عزّ وجل ؟ وأين هم من حقائق الدين و منهج الله ؟ هل هم مطبقين أم غير مطبقين ؟ هل تستطيع أن تمدّهم ببعض الحقائق ؟ أن تقنعهم وأن تأخذ بيدهم ؟ أن تؤنسهم وأن تداريهم ؟ أن تبذل شيئاً من دنياك لأخراهم ؟

((استقيموا يُستقم بكم))

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

توجد نقطة دقيقة جداً قالها النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه نقطة مُبَشِّرة لكم جميعاً، قال عليه الصلاة والسلام:

((استقيموا يُسْتَقَمْ بكم))

لمجرد تأديتك لحق الله أحياناً، ولمجرد أن تقف موقفاً نبيلاً فإن الآخرين قد يستفيدوا من هذا الموقف فيقلِّدوك.

حَدَّثني أخ أجرى عملية جراحية ناجحة جداً، فجاء وليُّ المريض ليشكره شكراً جزيلاً ومعه محفظة، فلما فُتِحَت ليُقدِم له هذه الهدية فإذا هي زجاجة خمر من النوع الغالي جداً، فقال هذا الطبيب المؤمن: أعتذر عن قبولها لأنني لا أشرب الخمر، فقال له: أهدها لمن تحب، فقال له: أعتذر عن أن أهديها لأحد لأن هذا ليس من شأني.. وتمضي الأيام.. وبعد ستة أشهر التقى بهذا الذي قدّم له هذه الهدية، قال له: والله لقد أعجبني موقفك، وتبت بعد شهرٍ عن شرب الخمر، والذي حملني على التوبة هذا الموقف الشريف المبدئي منك. فهذا الطبيب لم يفعل شيئاً، و لم يتكلم ولم يدع، ولم يلق خطبة ولا هو أعطى شيء، إلا أنه وقف موقفاً سليماً

((استقيموا يُسْتَقَمْ بكم))

لقد رأيت في الحج إنساناً ألمانياً غربياً، فعلمت أنه أسلم بسبب طالبٍ سوريّ أقام في بيته مستأجراً، وصاحب البيت هذا تمنّى أن يرى هذا الطالب ينظر إلى ابنته للحظةٍ واحدة، لكن هذا الطالب غضّ بصره، وفعله هذا حمل إنساناً ليس مسلماً على أن يتبع الإسلام..

((استقيموا يستقم بكم))

قد تكون أكبر داعيةٍ وأنت ساكت، فاستقامتك دعوةٌ إلى الله، وصدقك دعوةٌ إلى الله، ووفاؤك دعوةٌ إلى الله.

فتح سمرقند:

أذكر أن الجيوش الإسلامية فَتَحَتْ سمرقند، ويبدو أنها فُتِحت بخلاف الطريقة الشرعية، فالطريقة الشرعية هي أن يُعرض الإسلام على هؤلاء، فإن رفضوا، تُعرَضُ عليهم الجزية، فإن رفضوا يُقاتَلوا، ويبدو أن هذا الجيش قاتل مباشرةً ودخل المدينة واحتلها ورفع راية الإسلام فيها، و بَلَغَ أهل هذه البلدة بعد حين أن الطريقة التي فُتِحت بها بلدتهم ليست شرعية فأرسلوا وفداً سرياً إلى خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز، وعرضوا عليه المخالفة الشرعية في فتح بلدهم، و هذا الخليفة العظيم قد حَكَمَ ثلاثين شهراً فقط، وفي هذا العهد الذي حكمت به ديار المسلمين لم يستطع دافع زكاةٍ أن يُعطي درهماً واحداً لفقير، فلم يعد هناك فقراء، فجاءت أموال الزكاة من اليمن و إفريقيا إلى الشام، فلم يوجد أحد يقبل الزكاة، فتحقق وعد الله في عهد هذا الخليفة الراشد، قيل أن هذا الخليفة أمسك ورقة صغيرة..

قصاصة.. وكتب عليها إلى قائد الجيش في سمرقند: أن اخرج من المدينة واعرض عليهم الإسلام أولاً، ثم الجزية ثانياً، ثم الحرب ثالثاً، فلم يصدق هؤلاء الناس أن جيشاً محتلاً، احتل مدينة وفتحها ورفع راية الإسلام فيها يخرج بقصاصة ! لكن هذا الذي حدث، وحينما أُعطي قائد الجيش قصاصة الخليفة قبّلها وأعطى أمراً بالانسحاب، فما كان من أهالي سمرقند إلا أن أعلنوا إسلامهم وقالوا: ابقوا نحن راضون بكم.. لا تخرجوا..

إخواننا الكرام

((استقيموا يستقم بكم))

و كل واحد منّا له حرفة، فكن صادقاً،ولا تكذب، ولا تغُش، ولا تحتل، طبّق الإسلام، فإن فعلت فأنت داعية بعملك، والناس قد ملّوا الكلام يا إخوان، فالكلام لا يقدّم ولا يؤخّر لأنه ليس له ثمن ولا يكلّف شيئاً، وأنت إن أردت أن تدعو إلى الله فطبق الإسلام في بيتك وفي عملك، وأنا أقسم لك -غير حانثٍ- أن أناساً كثيرين سيستفيدون منك، وسيقتدون بك، وستكون سبب طاعتهم وتوبتهم وإنابتهم، بشرط أن تكون أنت مطبقاً

((استقيموا يستقم بكم))

فلذلك قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

فهم إن حُمِّلوا أمانةً فإنهم يؤدوها حق الأداء، ولكن قد لا توجد عند الإنسان أمانة، فهو غير مشغول فماذا يفعل ؟ إنه يجب أن يبادر إلى الدعوة إلى الله إلى أن يشهد للناس حقيقة التوحيد.. " وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ".. والتوحيد نهاية العلم، والعبادة نهاية العمل..

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

شهادة الحق:

إنك قد ترى حادث سير وربما يكون السائق مظلوماً، فإذا ذهب وشهدت حقيقة ما جرى أمام القاضي، فإنك تكون قد رسّخت قِيَم العدل، وإنك قد تتعطّل يوماً من أجل ذلك، وقد تنتظر وقد تنزعج لكن هذا في سبيل الله..

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

(سورة البقرة: آية " 282 ")

و لكن بالمقابل:

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

(سورة البقرة: آية " 282 ")

فالشاهد ينبغي أن يأخذ تعويضاً عن عُطْلَتِهِ، فقد تعطّل يوماً وعنده أولاد ينبغي أن يطعمهم..

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

وبالمقابل:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

فعدل ساعةٍ يعدل أن تعبد الله ثمانين عاماً، وأحياناً يُحَقُّ الحق بشهادة منصفة، وهناك حوادث سير كثيرة جداً قد يكون أحد الأطراف أقوى من الطرف الآخر، فتضيع معالم القضية، فالركّاب إذا كانوا من المؤمنين الصادقين فإنهم يذهبون ويشهدون، فالسائق يمشي على سرعة بطيئة جداً والطفل هو الذي قَفَزَ أمامه فدهِس، والسائق ليس له ذنب، ولكن من يقول هذا الكلام ؟ قد لا يُصدّق السائق، فأنت حينما تدلي بشهادةٍ صحيحة فإن هذا من الأعمال الطيبة.

ففضلاً عن معنى: أن تشهد للناس أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، و فضلاً عن أن تشهد لهم بلسانك أو بعملك، بلسانك متكلماً، أو بعملك قدوةً، هناك معنى آخر متبادر وهو أنك إذا دُعيت إلى شهادةٍ فاشهد ولا تقل: ليس عندي وقت..لأن هذه عبادة و طاعة لله عزّ وجل.. وأنت حينما تنقذ أخاً لك من ظُلْمٍ محقق تكون قد فعلت عملاً طيباً.

أذكر أن امرأةً أرادت أن تفتري على إنسانٍ يسكن في بيتٍ لها مستأجر، فادَّعت أنه فاسد الأخلاق، فلما جاءت القاضي قال لها: أريد شاهداً على ذلك، فقالت: ابنتي، قال: لا إنَّ شهادة البنت لا تكفي وليست مقبولة، قالت: عندنا طالبة جامعية تشهد، قال: أوافق، فلما عرضوا على هذه الطالبة أن تشهد شهادة زور لا أصل لها، قبلت، فلما قبلت أكرموها إكراماً ما بعده إكرام، لأنها إذا شهدت وصدر الحكم بإخلاء المنزل استردوا بيتاً، فبعد شهرٍ جاء وقت المحاكمة واستدعيت هذه الطالبة وسألها القاضي: هل صحيحٌ أن هذا المستأجر فاسد الأخلاق؟.. وهذا المستأجر مؤمن.. قالت له: والله يا سيدي إن لمح امرأةً عن بعد مئة مترٍ فإنه يغضُّ بصره عنها.. فهي قبلت أن تشهد كي لا تسمح لأخرى أن تشهد شهادة زور، وهذا عمل طيب، وقد سقطت الدعوة لأنه فيها افتراء يمس أخلاق الإنسان وهي تعلم استقامته وعفّته وطهارته، لكن كيد الكائدين أراد تشويه صورته، فإذا دعيت إلى شهادة رأيتها بأم عينك فضيعت وقتك من أجل أن تشهد للحق فلا تتصور أن هذا عمل سهل، بل هذا يُعَدُّ عملاً طيباً وعبادةً عاليةً جداً.

معنيان..

فصار هناك معنيان.. المعنى الأول:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

أي: يشهدون للناس أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

والمعنى الثاني: هم إذا دُعوا إلى شهادةٍ تنفيذاً لقوله تعالى:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

(سورة المعارج)

المقصود بالحفاظ على الصلاة هنا ؛ أي: يحافظون على أدائها في وقتها، وعلى إتمام ركوعها، وسجودها، وقعودها، وقراءتها، وخشوعها، وإن أعمق معاني المحافظة على الصلاة هو أن تحافظ على استقامتك فيما بين الصلاتين، و هذا معنى دقيق، فكيف تستطيع أن تُصَلّي الظهر وأن تقبل على الله ؟ إن ذلك يحصل لك إذا كنت فيما بين الفجر والظهر مستقيماً، غاضاً لبصرك، ضابطاً للسانك، مسبحاً وموحداً، مستغفراً وذاكراً لله عزّ وجل، أما لو تفلّت الإنسان من منهج الله فيما بين الصلاتين وجاء لكي يصلي فإن هناك حجابٌ بينه وبين الله، وسبب هذا الحجاب هو المخالفات التي ارتكبها، فمن قبيل المحافظة على الصلاة أن تحافظ على استقامتك فيما بين الصلاتين، فالذي يحافظ على استقامته فيما بين الصلاتين يستطيع أن يؤدي الصلاة إذا دخل وقتها، وذلك كما قال الله عزّ وجل..

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

يحافظون على أدائها في وقتها، كما يحافظون على ركوعها وسجودها وقراءتها..

جزاء المصلين:

(أولَئِكَ فِي جَنّاتٍ مُكْرَمُونَ)

(سورة المعارج)

هؤلاء هم المصلّون المستثنون من الجزع، ومن المَنع والحرص، وهذه النقاط هي نقاط الضعف التي كانت في أصل خلق الإنسان، والتي هي لصالحه، وهذه النقاط تدفعه إلى باب الله،و تدفعه إلى التوبة و الطاعة، وهذه النقاط بالذات أحد أسباب توبته وإقباله وسعادته، وهي في ظاهرها نقاط ضعفٍ، وفي حقيقتها نقاط حثٍ على الطاعة وعلى السير في طريق الإيمان، إلا أن المصلين مستثنون من هذه النقاط، فالإنسان بعد أن اتصل بالله ليس جزوعاً، وإن أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يدك، و إن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، و إن أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، فبعد أن يتصل الإنسان بالله ويرى رحمته وقدرته و محبّته ينسى أنه هلوع جزوع منوع..

(إلّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

لكن... ليس كل مصلٍ يُصلِّي كما قلت في الدرس الماضي..

((إنما أتقبل الصلاة لمن تواضع لعظمتي وكفّ شهواته عن محارمي، ولم يصرّ على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العُريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له حلما، والظلمة نوراً، يدعوني فألبّيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم عليّ فأبرُّه، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يمس ثمرها ولا يتغيّر حالها))

(إلّا الْمُصَلِّينَ)

تكلّمنا في درسٍ سابق وسابق عن أن المصلين كلّما أضفت إليهم وصفاً ضاقت الدائرة..

(إلّا الْمُصَلِّينَ (22) الّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقّ مَعْلُومٌ (24) لِلسّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنّاتٍ مُكْرَمُونَ (35))

(سورة المعارج)

قيمة الصلاة:

لذلك كان أول ما يحاسب المرء يوم القيامة عن صلاته، فإن صَحَّت أفلح ونجح، وإن لم تصِّح خاب وخسر، ولا تنسوا أن أركان الإسلام خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان، و يمكن لأربعة أركان من هذه الأركان الخمسة أن تسقط، فالشهادة مرّة واحدة في العمر، والحج يسقط عن الفقير أو غير المستطيع، والزكاة تسقط عن الفقير، والصيام يسقط عن المريض والمسافر، أما الركن المتكرر الذي لا يسقط بحال فهو الصلاة، **" هي سيدة القُرُبات، وغرّة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات ".. " ولا خير في دينٍ لا صلاة فيه "..**

و.. " الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين "..

(فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

(سورة المعارج)

معاني (مهطعين):

معنى مهطعين ؛ أي: مُسْرِعين..

(فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

قال العلماء عدة معان:

1- المعنى الاول: " ما بال هؤلاء يسرعون إليك ويجلسون حواليك ولا يأتمرون بما تأمرهم به ؟ ".

2- المعنى الثاني: ما بالهم مسرعين في التكذيب لك ؟

3- المعنى الثالث: ما بالهم يسرعون إلى السماع منك ليَعيبوك ويستهزئوا بك ؟

4- المعنى الرابع: ما لهؤلاء مهطعين ؛ أي: معرضين ؟

5- المعنى الخامس: ما لهؤلاء ينظرون إليك نظر التَعَجُّب ؟

المعاني كلها متقاربة، فهم يسرعون إلى أن يجلسوا حولك وهم لا يأتمرون بأمرك.. وهم مهطعين: يسرعون ليكذبوك، و يسرعون ليبحثوا عن عيوبٍ يذكرونها..

(عزين):

(فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37))

أي: يجلسون حولك جماعاتٍ جماعات، و يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا جلس جَلَسَ حوله هؤلاء جماعاتٍ جماعات، حلقاً حلقاً.. العزين.. و هي جماعات متفرقة، وأحياناً قد يكون هناك حفلة فتجد أن كل خمسة أو ستة أشخاص يتكلمون وحدهم فإن هؤلاء عزين، أي جماعات متفرّقة غير مجتمعة.

ويوجد مأخذ على بعض الإخوة في بعض الدروس أنهم يجلسون عزين، كل واحد في جهة، في أقصى الجامع و أقصى مكان، فالمنظر غير مألوف وغير مقبول وغير شرعي.. قال عليه الصلاة والسلام:

((إياكُم والفُرْقة فإنّ الشيطانَ مع الواحِد وهو من الاثنَين أبعَدعَلَيْكُمْ بالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ))

(سنن الترمذي: عن أبو الدرداء)

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض أسفاره اختار أصحابه في ساعة راحة كل منهم مكاناً ليرتاح فيه، وكانت الأمكنة متفرّقة، فلم يرض النبي بهذا التفرُّق، فاجتماع الجسم له معنى نفسي، فإذا وقفتم في الصلاة متراصّي الصفوف فهذا يعني شيئاً آخر غير تراصُّ الصفوف، فهو يعني وحدة الكلمة و التعاون، يقول أحد الصحابة:

((خَرَجَ عَلَيْنَا قُرَآنَا حَلَقًا فَقَالَ: مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ ؟ قَالَ: ثُمّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: ألا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبّهَا فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبّهَا ؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصّفّوف))

(صحيح مسلم: عنجابر بن سمرة)

أي الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، وهناك إخوان كثيرون يشكون أن صلاة المغرب في هذا المسجد تكون فيها ممتلئة الصفوف باتجاه الطاولة، لكنها فارغة في الطرف الآخر وهذا شيء غير شرعي..

ثمن الجنة:

(يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنّةَ نَعِيمٍ)

(سورة المعارج)

قال: كان المشركون يجتمعون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون إلى كلامه فيكذبونه، ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منهم، فقال تعالى:

(أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنّةَ نَعِيمٍ)

والحقيقة أن هؤلاء فيهم سذاجة، فما الميزة التي تكون لك حتى تستحق دخول الجنة ؟ فهناك أشخاص يحملون دكتوراه، وهناك أناس لا يقرؤون ولا يكتبون، فهل هناك ميزة فيما بينهم ؟؟... يقول الله عزّ وجل:

(كَلّا)

(سورة المعارج: آية " 39 ")

أي: هؤلاء الذين يحلمون بجنةٍ دون أن يدفعوا ثمنها هم أناسٌ ساذجون أغبياء، فهل يمكن لك أن تأخذ جنةٌ عرضها السماوات والأرض بلا ثمن ؟ فإذا كان هناك شخص واحد لم يأخذ شهادة واحدة في

حياته، ثم تقدم بطلب إلى الجامعة يقول فيه: يرجى منحي دكتوراه.. التوقيع فلان، ثم وضعاً طابع وقدّمه.. إن هذا يوضع في مستشفى المجانين، فهولا يحمل شهادة الصف السادس، ولا الكفاءة، ولا البكالوريا، ولا الليسانس، فقدّم فوراً طلب رجاء منحه دكتوراه، و ما السبب ؟ هكذا مزاج، فطلب هذا هو نفس طلب هؤلاء لدخول الجنة..

(أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

والجنة -أيها الإخوة -تحتاج والله إلى جهد كبير، ولن يدخل الجنة إلا إنسان امتُحِن فنجح، والله جلّ جلاله يمتحن كل عباده، فأنت ممتَحَن دائماً، ممتحنٌ فيما أعطاك، وممتحنٌ فيما منعك، فإن أُعطيت المال فأنت ممتحن بالمال، و إن منعت المال فأنت ممتحن بالفقر، و إن أعطيت القوة فأنت ممتحنٌ بالقوة، و إن كنت مستضعفاً فأنت ممتحنٌ بالاستضعاف، و إن أعطيت الوسامة فأنت ممتحنٌ بالوسامة، وإن لم تكن وسيماً فأنت ممتحنٌ بعدم الوسامة، وإن تزوّجت فأنت ممتحنٌ بالزوجة، و إن لم تكن متزوجاً فأنت ممتحنٌ بعدم وجود الزوجة، فأنت ممتحنٌ دائماً، و الجنة تحتاج إلى جهد كبير جداً. ذكر مرّة أن هناك شاباً توفي والده، و كان الشاب أميّاً لا يقرأ ولا يكتب فذهب ليزور قبر أبيه، وتمنى على أحد الصغار أن يقرأ له بعض الآيات، ثم أعطاه مبلغاً لا يُذكر (ليرة)، وكان أقل مبلغ يدفع لقاء ذلك خمس ليرات.. فقرأ هذا القارئ:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31))

(سورة الحاقة)

تألّم الابن وقال: ألا يوجد في القرآن غير هذه الآية لكي تقرأها ؟ ثم قال في نفسه: الآن تأتي آية ثانية وتعدل الموقف.. فجاءت الآية:

(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)

فأمسكه من رقبته وقال له: أهكذا تقرأ ؟ فقال له: تريد الجنة بليرة !! فهذا عجيب.. أن يطمع الإنسان بالجنة بلا سبب، فقد يكون غير مستقيم، ولا يغض بصره، و لسانه طليق بعورات الناس، و دخله مشبوه، وبيته غير إسلامي ومع ذلك يطلب الجنة، لذلك قالوا: "طلب الجنة من دون عملٍ ذنبٌ من الذنوب ". و ادخل الآن إلى محل سجاد فخم، فيريك البائع قطعة فتقول له: أريد أغلى، فيعطيك أغلى،فتقول: أريد أجمل.. أنعم.. ذات لون فلاني.. لها لمعة.. رقيقة.. حرير، فجعلت البائع ينشغَل بك ثلاث ساعات، وبعد هذا أعطاك سجادة جيدة جداً، فإذا قلت له: هل تأخذ ثمنها ثلاثة ليرات ؟ فماذا يقول لك ؟ من الممكن أن يضربك، فهذا الذي يطمع بدخول الجنة بلا استقامة و لا عمل صالح ولا عبادات و لا انضباط، ولا يوجد شيء مضبوط في حياته ويقول لك: أنا أدخل قبلك الجنة، هذا فيه تحد ساذج غبي، لقد قالوا: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منهم..

(كَلَّا)

فجاء الجواب، أداة ردعٍ ونفيٍّ، لا.. ليس بأمانيكم ولا بأماني أهل الكتاب، من يعمل سوءً يُجز به..

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة البقرة)

والمسلمون يقولون: نبيُّنا عليه الصلاة والسلام يشفع لنا، وهم يرتكبون كل المعاصي ويتعلّقون تعلقاً ساذجاً بشفاعةٍ، وهذه الشفاعة ليست هي التي أرادها النبي عله الصلاة والسلام، أما حينما يقول النبي: أمتي أمتي، فيقال له: لا تدري ماذا أحدثوا من بعدك، فيقول: سحقاً سحقاً..

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

((يا فاطمة بنت محمد، يا عباس ابن عم رسول الله، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

((وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُه))

(من صحيح مسلم: عنأبي هريرة)

من هو أبو لهب، إنه عم النبي، عاش ورآه بعينه وسمع كلامه ومع ذلك قال الله تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2))

(سورة المسد)

(كَلَّا)

كلا لا يدخلونها..

(إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ)

إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفةٍ، ثم من علقة، ثم من مضغة، كما خُلِقَ سائر أجناسهم، فليس لهم فضلٌ يستوجب به دخول الجنة، إنما يستحقُّ الإنسان الجنة بالإيمان والعمل، لا بالأمل والتمني، كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم.

أصل الإنسان:

قال تعالى:

(إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ)

فلا يليق بهم التكبُّر.. مرة رأيت طفلاً في المطار، وكان في وسطه كرة كبيرة، يبدو أن السفر طويل، فخافوا أن يخرج منه شيء يؤذي الرُكّاب، فضاعفوا هذه الفوط حتى أصبح وسطه كالكرة، فقلت في نفسي: لو أن هذا الطفل صار شاباً وأخذه الكِبْر والعُجْب، و رأى صورته يوم كان صغيراً، والإنسان

كلما تذكر أصله يتواضع لله عزّ وجل، ونحن جميعاً من أين أتينا ؟ لقد خرجنا من عورةٍ ودخلنا في عورةٍ ثم خرجنا من عورة، من ماءٍ مهين تستحي به إن كان على ثوبك، هذا أصلنا جميعاً، فلم الكِبْر ؟ إن الإنسان قد يتكبر بسبب، ولكن لا يوجد سبب يملكه الإنسان للتكبر، فمهما كان عظيماً، فحياته متوقِفة على نقطة دم تتجمد في أحد شرايين دماغه، يقول لك: خثرة دماغية.. فانتهى.

يُروى -أيها الإخوة - أن مطرف بن عبد الله رأى المُهَلّب بن أبي صُفْرَة يتبختر في مطرفٍ له من خز، وجبةٍ من خز.. أي من حرير.. فقال له: يا عبد الله ما هذه المِشية التي يبغضها الله ؟ قال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أعرفك، أوّلُك نطفةٌ مذرة، وآخرك جيفةٌ قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العُذْرَة.. أي الغائط.. أي: أنا أعرفك.

الإنسان أوله نطفة وآخره جيفة، وهو في أناقته وعظمته يحمل الغائط في أمعائه، ولو لم يستطع التحَكُّم لكانت حالته صعبة جداً، ولأصبح مفضوحاً بين الناس، فكل مكانتك من أين تستمدها ؟ من أن هاتين الفتحتين مضبوطتين، و لو كان هناك تفلت لاحتاج الواحد منا للفوط، فعلام يتكبر الإنسان ؟ وعلام يرفع رأسه ؟ وعلام يستعلي على الناس ؟ و كل مكانتك الاجتماعية بهاتين العضلتين اللتين تحكمان الغائط والبول، فأوله نطفةٌ مذرة وآخره جيفةٌ قذرة وفيما بينهما يحمل العُذْرَة، قال بعضهم:

يا ابن التراب ومأكول التراب غداً

اقصر فإنك مأكولٌ ومشروبٌ

الإنسان أحياناً قد يقف أمام المرآة فيتيه بشكله، بطوله، بأناقته، بجماله، بلون جلده، بشعره أحياناً، لو تصوَّر بعد حين أنه سيوضع في القبر، فلو فُتِحَ القبر بعد شهر أو شهرين لرأى شيئاً لا يُحتمل ؛ دود، بعض الحيوانات، بعض الحشرات، بعض القوارض، هذا هو الإنسان، علام التَكَبُّر ؟.

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ)

(سورة المعارج)

المشرق جهة والمغرب جهة أخرى، والمشرقين أقصى شروق الشمس في الشتاء، وأقصى شروقها في الصيف، ففي الصيف تشرق الشمس نحو الشمال، فتكون الأشعة عمودية، وفي الشتاء تشرق نحو الجنوب، فتصبح جنوب شرق، فتدخل إلى البيوت، والغرب كذلك، وإذا كان للإنسان بيت على البحر أو على مكان ممتد، فهو يلحظ هذا واضحاً، فشروق الشمس في الصيف نحو الشمال، وقد تمتد المسافة على الأفق، والمسافة طويلة جداً بين شروقها في الصيف وشروقها في الشتاء، إذاً: فرب المشرق جهة المشرق، و رب المشرقين هو النهاية العُليا والدُنيا، و رب المشارق: كل يوم هناك مشرق، فلو قسمت المسافة على مائة وثمانين تجد أن الشمس في كل يوم تشرق من مكان جديد، فقد ورد أن الله تعالى: رب المشرق، ورب المشرقين، ورب المشارق.

لا قلق على دين الله:

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ)

إخواننا الكرام... هناك حقيقة خطيرة جداً أقولها لكم: لا تقلقوا على دين الله، فالله هو يتولّى حفظ دينه، وهو يتولّى نصره و يتولّى دَعْمَهُ، ولكن اقلقوا: هل يسمح الله لكم أن تدافعوا عنه أو لا يسمح لكم ؟

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

(سورة محمد)

المشكلة: لا تقلق على دين الله، بل اقلق هل سُمِحَ لك أم نُحِّيتَ جانباً ؟ إن كنت أهلاً للحفاظ على هذا الدين باستقامتك، وعلمك، وإخلاصك، وسلوكك، فمعنى ذلك أن الله قَبِلَكْ، وإن لم تكن أهلاً نحّاك جانباً واستبدل بك آخرين ليسوا أمثالك.

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

(سورة محمد)

(فَذَرْهُمْ)

(سورة المعارج: آية " 42 ")

هذا تهديد..

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

والله أيها الإخوة سيأتي على هؤلاء الشاردين، العصاة، المنحرفين، الفُجّار، الذين أكلوا أموال الناس بالباطل، الذين فعلوا ما فعلوا، سيأتي عليهم زمان ينسون فيه الحليب الذي رضعوه من أُمّهاتهم.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ(43))

(سورة المعارج)

فكما كان هؤلاء في الدنيا يستيقظون مع طلوع الشمس فيذهبون إلى عبادة الصنم، أو يخرجون إلى شيءٍ مهمٍ جداً، فقال: هؤلاء غداً حينما يأتيهم يومهم الموعود..

(يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ)

(سورة المعارج)

ذليلة، خاضعة، لا يرفعونها خوفاً من الله عزّ وجل.

(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

هذا مصير المنحرف والعاصي.

مصير الكافرين:

تقول الآيات الأخيرة..

(فَذَرْهُمْ)

تهديد.. يخوضون في الدنيا ويمرحون، ويلعبون، ويسافرون، ويتاجرون، ويقيمون الملاهي، ويفعلون الموبقات، والمعاصي، والآثام، ويتبجّحون، ويستعلون، ويستعلون..

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ)

أي إلى صنمٍ نُصِبَ أمامهم يعبدونه من دون الله..

(يُوفِضُونَ)

أي يسرعون.

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ)

خوفاً من الله، لا خوف الطاعة، بل خوف الذل..

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

وكل واحد منا -أيها الإخوة -لا يدخل هذا اليوم في حساباته اليومية فهو أحمق وغبي فابدً من يومٍ نقف جميعاً بين يدي الله عزّ وجل لتُعْرَض علينا أعمالنا صغيرها وكبيرها بكل تفاصيلها و ملابساتها وبواعثها و أهدافها، تعرض علينا هذه الأعمال، وهنيئاً لمن كان عمله طيباً..

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30))

(سورة الحاقة)

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة نوح 071 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-08-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

الغاية من إرسال الرسول

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة نوحٍ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة نوح: آية " 1 ")

إن الله جلّ جلاله يتحدّث عن ذاته العليّة تارةً بضمير المُفْرَد وتارةً بضمير الجمع، قال بعض العلماء: إن تحدّث عن أفعاله كان الحديث بضمير الجمع، وإن تحدّث عن ذاته كان الحديث بضمير المفرد..

(أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه: آية " 14 ")

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة نوح: آية " 1 ")

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر)

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49))

(سورة القمر)

أفعال الله جلّ جلاله تدخل فيها أسماؤه الحسنى كلُّها، و إن كل أفعاله رحمةٌ، وحكمةٌ، وعدلٌ، ولطفٌ، وعلمٌ، وقوةٌ، ورأفةٌ، و أسماؤه الحسنى كلها متمثلة في أفعاله، وهذا أول شيء أود ذكره.

إرسال الرسل من رحمة الله:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا)

(سورة نوح: آية " 1 ")

فلو كان توتر التيار الكهربائي في بيتك (مائة وعشرة)، ثم بُدِّل إلى مائتين وعشرين، وأبلغتك المؤسسة أن هذا التيّار خطر، فلو كان هناك إنسان يمشي على أرضٍ فيها ماء ولَمَسَتْ يده التيار فقد يموت، فهل هناك أبٌ على وجه الأرض يبقى ساكتاً، أم أنه سيحذِّر أولاده زوجته و يبين لهم ذلك ؟ إن من لوازم

رحمة الأب أن يبَيّن لأهله الأخطار المحدقة بهم، وهذا حد أدنى، و ربنا عزّ وجل ذو الرحمة، و من لوازم رحمته جلّ جلاله أن يبيّن لعباده دائماً، وذلك من لدن آدم إلى يوم القيامة.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا)

(سورة الرعد)

لكل قومٍ هاد على مدى الدوران، فسيدنا نوح أُرسل إلى قومه.. أي:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا)

إن إرسال الرسل دليل رحمة الله عزّ وجل، فالتيار مائتين وعشرين تيار خطر، وقد يؤذي الأولاد، فالأب يبيّن، فإذا كان جالساً و اقترب أحد أولاده من مأخذ الكهرباء ووضع يده على هذا المأخذ فماذا يفعل الأب ؟ إنه يقوم ويصرخ ويأخذه ويبعده، فهذا المثل.

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل: آية " 60 ")

وربنا عزّ وجل يبيّن ويربي، يبين تارةً ويربي تارةً أخرى، فإذا كان هناك حركة نحو المعصية فإن ربنا عزّ وجل يؤدِّب وينهر ويردع ويخوّف، وإذا لم يكن هناك حركة نحو المعصية فهناك بيان، فمن لوازم رحمة الله جلّ جلاله أولاً أنه يُرسل إلى كل خلقه، وهوه يرسل الأنبياء تارةً، والمرسلين تارةً أخرى، ومعهم الكتب والمعجزات، ويسخِّر العلماء، والدعاة، والخُطباء، والمدرّسين، كما يُنذر بأفعاله، و يحذِّر من خلال أنبيائه، فإرسال الأنبياء أحد مظاهر رحمة الله جلّ جلاله.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ)

(سورة نوح: آية " 1)

ماذا يعني الإنذار ؟

الإنذار يعني أن هناك خطراً متوقّعاً، (احذر هذا الخطر)، فربنا عزّ وجل حينما ينذرنا فهو ينذرنا من خطرٍ متوقّع، قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20))

(سورة الحديد)

أي: أنت أيها الإنسان لست كهذه الورقة التي تخضر، ثم تصفر، ثم تيبس، ثم تذروها الرياح، أنت مكلّف ومن لوازم التكليف المسؤولية، فلو أن هناك شاباً لا ينتمي إلى أي مدرسة، وأمضى وقتاً في النوم أو في النُزُهات، فهو لا شيء عليه، أما طالب العلم فعنده امتحانات و رسوب و نجاح و مسؤولية،

والإنسان قد اختار حمل الأمانة، وهو مكلّف ومعه منهج، و الله عز وجل سيسأله، فإن سمت نفسه على شهوته كان فوق الملائكة، لذلك كان هناك إنذار، فالإنسان من دون تكليف وأمر ونهي وأمانة يحملها لا يوجد عليه شيء، فلا يكون مؤاخذاً، لكنه حمل الأمانة، وكلّفه الله بتزكية نفسه، وأعطاه وعداً بمغادرة الدنيا ووقتاً آخر للحساب و العذاب، فالإنسان يجب أن يُنْذَر..

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ)

(سورة نوح: آية " 1 ")

هناك آيةٍ أخرى يقول الله عزّ وجل:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37))

(سورة فاطر)

ما النذير ؟

النبي هو النذير، و الرسول هو النذير، والقرآن هو النذير، والكتاب السماوي هو النذير، وذا بلغ الإنسان سن الأربعين ومال الميزان فهذه السن تُعَدُّ أيضاً هي النذير، وإذا بلغ الستين فقد صار بينه وبين مغادرة الدنيا قاب قوسين، وهذه السن تعدُّ من النذير، وإذا أصابته مصيبةٌ فهي تعدُّ من النذير، وقد قال لي أحد الإخوة الكرام اليوم عقب خطبة الجمعة أن سبعين بالمائة من الناس عندهم آلام مفاصل بعد سن الستين، فقلت له بطرفةٍ: كأن هذه الآلام التي يصاب بها الإنسان تذكرة من الله، فينحني ظهره، و يشيب شعره، و يضعف بصره، و يغيّر أسنانه، فكأن هذه المظاهر والآلام الجديدة تذكرةٌ لطيفةٌ من الله: أنْ يا عبدي قد اقترب اللقاء بيننا، فهل أنت مستعدٌ لهذا اللقاء ؟.

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وشاب شعرك، وضعف بصرك، فاستحيي مني فأنا أستحيي منك))

فالنذير ؛ أولاً هم الأنبياء، فالنُذُر هم المرسلون، والكتب السماوية، و القرآن، وأي كتابٍ نزل على رسولٍ كان قد أرسله الله لقومه نذير، والمصائب نذير، وموت الأقارب نذير، فكم من إنسان كان ملء السمع والبصر ثم يغادر الدنيا بلحظةٍ واحدة، و يصبح خبراً و حديثاً، أين هو ؟ تحت أطباق الثرى، فالموت نذير، والمرض نذير، وموت الأقارب نذير، و الشَيْبُ نذير، و سن الستين نذير، والأربعون نذير، والكُتُب نذير، والأنبياء نُذُر، والمرسلون نُذُر.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ)

(سورة نوح: آية " 1 ")

إذا رأيت لوحةً تشير إلى خطر أمامك في تحويلة، ألا تحس أن هذا الذي وضع هذه اللوحة رحيم ؟ إنك قد تسير في طريق السفر بسرعة كبيرة جداً، ولولا هذه اللوحة لتفاجأت ووقعت في حادث، فتوضع لك قبل ألف متر لوحة كبيرة، وقد تكون مُضاءة أو تكون ذات إشعاع: أن هناك تحويلة انتبه، لقد كنت مرة في بلد، وقد وضعت في أحد طرقاتها قبل ثلاثة آلاف متر لوحة وقد كانت تقريباً مترين بمترين، فوسفورية، ومكتوب عليها عبارة: (هناك مطب انتبه)، لقد وضع هذا قبل ألفين أو ألف أو خمسمائة، فكلها لوحات كبيرة ومضاءة، فالإنسان ينتبه عندئذ، فقلت: هذه رحمة بالإنسان.

ومرة رأيت جسراً يوجد عليه أجراس، فلم أعرف لماذا ؟ ثم تبين أن هذا الجسر قد أقيم قبل جسر حقيقي، فالذي معه حمولة عالية يسمع صوت الأجراس.. انتبه، الجسر القادم لن تستطيع أن تمرّ من تحته، لسوف تفسد هذه الحمولة.. و هذه إنذارات، فالإنذار شيء ينطلق من رحمة و حرص.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

(سورة التوبة)

فربنا عزّ وجل يبيّن و يُنذِر الإنسان إذا تحرّك حركة خاطئة.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1))

(سورة نوح)

إن لم تؤمن بالله فلن تستقيم على أمره:

والشيء الذي يلفت النظر هو أن أركان الإيمان خمسة: **" أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبي "** وإن أكثر ركنين مترافقين في كتاب الله هما **الإيمان بالله واليوم الآخر**، لأنك إن لم تؤمن باليوم الآخر فلن تستقيم على أمر الله، لذلك كانت كل الدعوات إلى الله تركِّز على الإيمان باليوم الآخر.. والشيء الذي لا يصدّق أن هناك من الناس من يرتكب المعاصي والآثام، ويأكل المال الحرام، ويكيد للآخرين، وكأن الله لن يسأله، ولن يُحاسبه، وكأنّه متفلت من عذاب الله، ومعنى ذلك أن إيمانه باليوم الآخر ضعيف..

وأحياناً إذا كان هناك إنسان يؤمن بقوة إنسان آخر، ويعلم أن هذا الشخص له عقابٌ أليم ولن يعفو عنه، فإنك تجده ينضبط.. فلو آمنت بإنسان قوي من بني جلدتك يحاسب حساباً عسيراً فإنك تستقيم على أمره، فكيف إذا آمنت بالله، وأن هناك يوماً آخر ؟ فإذا ذهبت إلى ما في حياتنا من مشكلات، ومن دعاوى كيدية، و اغتصاب أموال، و أكل مال حرام، فإنك تشعر أن هذا الإنسان الذي يعصي الله لن يحاسب و لن يموت، وكأن الله عزّ وجل لن يسأله، مع أن الله عزّ وجل يقول:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

العبث يتناقض مع وجود الله:

أيها الإخوة الأكارم... إن العبثية تتناقض مع وجود الله، و العَبَثْ يعني أن الكون خُلِقَ بلا هدف، والله عزّ وجل ينكر هذا المعنى، قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(117))

(سورة المؤمنون)

فينبغي أن تنفي فكرة العَبَثْ، فهناك حسابٌ دقيق، لكن الإنسان يؤمن بعقله باليوم الآخر، لكنه يرى بعينه بيوتاً ومركبات، ونساء كاسيات عاريات، ومطاعم فَخْمَة، فالإنسان يجب أن يعرف الأمور بعقله، أما الحيوان فهو يعرف الأمور بعينه، وهناك من يرى بعينه الشهوات وينغمس فيها ويبعد عقله عن إدراك الخطر البعيد.. و أوضح مثل هذا المدخِّن، وضرر التدخين شيء مفروغ منه، فمن الحقائق القَطْعِيّة أن هذا الدخان ينتهي بصاحبه إلى أمراضٍ بالقلب والشرايين، أو بالأورام في الرئتين، أو في الأوعية، فلماذا يفعل هذا ؟ لأنه يعيش لحظته، ولم يفكِّر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن عمل الجنة حزنٌ بربوةٍ، وإن عمل النار سهلٌ بسهوة))

شخص يركب درّاجة فوجد في الطريق منحدراً شديد الانحدار، و راكب الدراجة يرتاح طبعاً لهذا الطريق، أما لو علم أن في نهاية المطاف حفرةً سحيقةً مالها من قرار، فيها وحوشٌ مفترسة فإنه قد يترك هذا الطريق المُريح، ويصعد طريقاً متعباً ينتهي بقصر منيف.

((" إن عمل النار سهلٌ بسهوة، وإن عمل الجنة حزنٌ بربوةٍ))

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1))

(سورة نوح)

الكيّس من دان نفسه:

أيها الإخوة الكرام... المشكلة هنا أن المؤمن يعيش المستقبل، وغير المؤمن يعيش الحاضر، كنت أروي قصةً موجودة في بعض كتب الأدب، وهي قصة رمزية تقول أن صيادَين مرا على غدير، فرأيا في هذا الغدير ثلاث سمكات كيسةٌ و أكيس منها وعاجزة، فتواعدا أن يرجعا ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك فسمع السمكات قولهما، فأما أكيسهن فارتابت وتخوّفت وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل

وقوعها، فخرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير فنجت.. وهذه أعقل واحدة.. وأما الكيّسة.. الأقل عقلاً.. فبقيت في مكانها حتى عاد الصيّادان، فذهبت لتخرج من حيث خرجت صديقتها فإذا بالمكان قد سُد، فقالت: فرّطت وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ثم أنها تماوتت فطفت على وجه الماء، فأمسكها الصياد ووضعها على الأرض بين النهر والغدير فنجت، فوثبت في النهر فنجت، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ و إدبارٍ حتى صيدَتْ، ومعنى ذلك أن هناك إنسان كَيّس، و إنسان أكيس، وإنسان عاجز، والكيّس يحتاط للأمور قبول وقوعها، والأقل عقل يحتاط عند وقوعها، والعاجز لا يحتاط قبل وقوع الأمور ولا بعد وقوعها ولا أثناء وقوعها، تراه (يحوص)، فلم تزل هذه السمكة في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدت، فماذا قال النبي الكريم؟؟

((الكيّسُ من دان نفسه))

فقد ضبط دخله، وإنفاقه، وعينه، و لسانه، وسمعه، ويده، ورجله، و ضبط أعضاؤه، وحواسه و بيته و عمله.

((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني))

فأكاد أقوال لكم: ؟إن الكافر يعيش بحواسِّه لحظته الحاضرة، والمؤمن يعيش بعقله المستقبل، وهذا هو الفرق، فبالعقل يصل الإنسان إلى الشيء قبل أن تصل إليه..

شخص كان يركب مركبة، فلو أنه ألقى نظرةً على مؤشِّر الوقود ورآه قُبَيْلَ الأخير، فإنه يملأ وقود المستودع في أول محطة، أما لو لم ينظر إطلاقاً فمتى سيعلم بانتهاء الوقود ؟ حينما ينتهي هذا الوقود، وهناك أمكنة لا يوجد فيها محطة وقود، فإذا تعاملت مع الحواس علمت أن المركبة تسير إلى أن تقف، لكنها تقف في مكان غير مناسب، فقد يقف ساعتين أو ثلاثة، و لكن يجب عليك أن تلقي نظرةً على مؤشِّر الوقود وتفكر قائلاً: بقي خمسين كيلو، ثم تفكر في محطة وقود.. لذلك أقول مرة ثانية: المؤمن يتعامل مع المستقبل بعقله، والكافر و غير المؤمن يتعاملان مع الحاضر بحواسهما، وهناك شهوات، فأي شيءٍ يلبّي هذه الشهوات يفعله غير المؤمن دون تفكير أو حساب أو مسؤولية أو وجل أو خوف، فما دام هناك شهوات مودعة فيه، فإنه يلبيها بحيوانيةٍ عجيبة.. إذاً:

(إِنّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2))

مبين: معه أدلة، فهو ينطق بلسانهم، بلغتهم.

ليخاطبوهم.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ)

(سورة إبراهيم: آية " 4 ")

إما بلغتهم التي يعرفونها، أو بالأشياء التي تفوّقوا بها، فقد كان هناك قومٍ تفوق في السحر، فإذا بسيدنا موسى يأتي بعصاةٍ فتصبح ثعباناً مبيناً، كما كان هناك قوم تفوّقوا في الطب فأتى سيدنا عيسى وأحيى الموتى، وقد تفوّق القوم في اللغة والبلاغة فأتى النبي الكريم بقرآنٍ مُعْجِز، فلذلك كان الأنبياء يأتون ببيان و أدلة وأسلوب واضح وعلامات نَيّرة وبيان معجز.

(إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2))

مرة حدثني أخ أنه كان له جار مسرف على نفسه في المعاصي، فنصحه مرة واثنين وثلاثة وأربعة، ونبهه قائلاً: الموت قريب، وأنت لا تصلي، وترتكب المعاصي والآثام، وتشرب، فما كان ينتبه إطلاقاً إلى أن توفِّي، فرآه بعض الجيران في المنام يرتدي ثياباً بالية مُمَزّقة، ويصيح من شدة الألم ويقول: فلان نصحني ولم أنتصح، يا ليتني قبلت نصيحته.. فأحياناً تأتيك نصيحة من إنسان فلا تراها، ولكن يجب عليك أن تراها من الواحد الديان، فالله سخر لك هذا الإنسان لكي ينصحك، فهناك إنسان تتأبى نفسه قبول النصيحة،وهذا كبر.

وهناك فكرة دقيقة جداً، إن الإنسان أحياناً لا يحب أن يستجيب لداعية، ويقول لك: هو أصغر مني، وأنا أكبر منه، وأنا معي شهادة أعلى منه و لي مكانة اجتماعية أعلى منه، فلماذا ترى أن هذا الأمر منه ؟ إنه ينقل لك أمر الله عزّ وجل، فهو ناقل أمين، وهذا ليس أمره، بل أمر الله، وهذا النهي ليس نهيه بل نهي رسول الله، فأنت لا تنظر إلى الشخص بل انظر إلى ماذا يقول، إنه يعطيك أمر ونهي، فأحياناً الإنسان يكون ركباً مركبة، ويكون له زميل له بمركبة أخرى، فيعطيه تحذير عن طريق الضوء، فيأخذ بهذا التحذير، ولو كان هذا الذي حذّره عدواً له، فإنه يأخذ بهذا التحذير، فالإنسان يجب أن يقف موقفاً متعَقّلاً من هذه القضايا الكبرى في حياة الإنسان.

(قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2))

أي: إنني نذير أحذِّركم من عذاب يومٍ أليم لكن السؤال: إنه نذيرٌ مبين ينذرهم ولكن.. من ماذا ؟ عندنا قاعدة في اللغة تقول أن **الشيء إذا حُذِفْ أطلق**، ولم يذكر الله عزّ وجل: ينذرهم من ماذا ؟ ينذرهم من عذابٍ في الدنيا، ينذرهم من عذابٍ في القبر، ينذرهم من عذابٍ في الآخرة، ينذرهم من تأديبٍ إلهي، من تضييقٍ، من مشكلةٍ، فالله عزّ وجل رحيم، فإما أن تأتيه طائعاً مستسلماً تائباً، وإما أن يحملك على أن

تأتيه سريعاً أو أن يحيطك بمصائب.. لا سمح الله ولا قدّر.. تدفعك إلى الوقوف على بابه، فلو أنك أتيت الله طائعاً من دون مصيبة فهذا موقفٌ شريفٌ جداً، فهناك نقطة دقيقة، لو أن الله أرادنا أن نعبده خوفاً وَ يجبرنا على طاعته، لكانت القضية سهلة جداً.. ف لو أراد رئيس جامعةٍ مثلاً أن ينجّح كل الطلاب لكانت القضية سهلة بالنسبة له، إنه سيوزع أوراق الأسئلة مطبوعٌ عليها الإجابة الصحيحة الكاملة، واكتب اسمك ورقمك فقط، ويحصل الطلاّب على العلامة النهائية، مطبوع عليها بالأحمر علامة مائة بالمائة، هذه سهلة، لكن هذا ليس امتحاناً، وهذا الامتحان لا يُسْعِدُ الناجحين فيه، ولا قيمة له عند المجتمع، ولا عند الناجح، ولا عند الجامعة، لأنه قسر.. لكن الله عزّ وجل أرادنا أن نأتيه مُحِبّين، فكلمة: عبد قد تعني عبد قهرٍ، وعبد القهر يجمع على عَبيد، وقد تعني عبد شكرٍ، وعبد الشكر يُجْمَعُ على عِباد، فكل إنسانٍ مقهور في وجوده إلى الله، فلو توقّف قلبه انتهت حياته، ولو تجمّدت نقطة دمٍ في دماغه انتهت حياته، وإذا جاءته سكتة دماغية أو سكتة قلبية انتهت حياته كذلك، وقد ذكرت اليوم على منبر أن الإنسان قد يشرب عبّاً، فهناك عصب اسمه العصب الحائر، والعصب المبهم.. له اسمان.. وهذا العصب بين المعدة والقلب، فإذا جاء تأثير شديد جداً على هذا العصب، ربّما أمر القلب أن يَكُفَّ عن النبض، وفي كثير من الحالات يموت الإنسان موتاً مفاجئاً من شربة ماءٍ عباً، قال عليه الصلاة والسلام:

((مُصوا الماء مصاً ولا تعبّوه عباً، فإن الكُباد من العَبْ))

فالمعدة حارة، وتأتي بلتر ماء، فتلقيه في جوفك مباشرةً وفوراً، وبشكل مفاجئ، و هذا يعطي تأثيراً قاسياً، فربما كف القلب عن النبض، لذلك:

(قالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2))

عبادة الله:

نذير مبين.. فالإنسان أحياناً يدرك الحقيقة فيلتزم، و كل واحد منا مقهور بوجوده إلى الله عزّ وجل، فلو توقّف قلبه مات، ولو تعطّل دماغه مات، فهناك موت دماغ و موت قلب، ونحن نظن موت القلب هو الموت، ولكن الحقيقة موت الدماغ هو الموت، فنحن مقهورون، أما الذي عرف الله واستقام على أمره وتقرّب إليه فهو عبد الشكر، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

قال تعالى:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت: آية " 46 ")

العَبيد غير العِباد، فإذا كنت تعرف الله عزّ وجل وتحبه وتتقرّب إليه فأنت من عِباد الرحمن، أما إذا كان الإنسان غارقاً في شهواته فهو من عَبيد الشيطان.

(قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3))

(سورة نوح)

اعبدوا الله.. فطالب في المدرسة هويّته في المجتمع هي: طالب، وهو عند والده ووالدته و إخوته و أقربائه وأصدقائه طالب، كما أنه في الحي طالب، ومادام طالباً فما مهمته الأولى في حياته ؟ إنها الدراسة فقط، وأنت عبدٌ لله فما مهمتك الأولى في الحياة ؟ أن تعبده.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

المهمة الأولى أن تعبده، والعبادة عِلّةُ وجودك على وجه الأرض، فأنت هنا من أجل أن تعبده، فإذا قال أحدهم: ليس عندي وقتٌ أن أستمع لدرس علم، أو ليس عندي وقتٌ أن أصلي، فهل تعلمون ماذا يشبه هذا ؟ إنه يشبه إنساناً أخذ شهادة عُليا في الطب، واشترى عيادة وأجهزة معقّدة جداً كلها بالدَّين، ويحمل أعلى شهادة، وجاءه مريض بحسب المواعيد التي رسمها.. من الساعة الخامسة إلى السابعة.. فقال: أنا مشغول الآن ولست (فاض)، فإلى ماذا أنت (فاض) إذاً ؟ لقد أخذت دكتوراه في ثلاثة وثلاثين سنة، واشتريت عيادة بالدين وهي بمليونين، وأجهزتها بمليون، وجاءك أناس بالوقت الذي أنت خصصته، فقلت: لست (فاض)، إن هذا مجنون، فإذا قال لك الإنسان: أنا ما عندي وقت أصلّي، أو ما عندي وقت لأطلب العلم، أو ما عندي وقت لأحضر مجلس علم، أو ما عندي وقت أفهم كتاب الله، أو ما عندي وقت أفهم سنة رسول الله، أو ما عندي وقت لأعرف أحكام الفقه، نقول لك: أنت موجودٌ على وجه الأرض من أجل أن تعبده، ولن تستطيع أن تعبده إلا إذا عرفته، فإذا عرفته أطعته، وإن أطعته سَعِدّتَ بقربه، فلا توجد كلمة أشعر أنها تنطلق من غباء أو من سوء فهم أو من عمى، كقول أحدهم: أنا ليس عندي وقت لأطلب العلم، إن علة وجودك هي أن تعلم..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: آية " 12 ")

لام التعليل، أنا جئتُ إلى المدرسة لأتعلم..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

(قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ)

جوانب العبادة:

طاعةٌ طوعيةٌ ممزوجةٌ بمحبةٍ قلبية، أساسها معرفةٌ يقينية، وتفضي إلى سعادةٍ أبدية، وفي العبادة ثلاث كُلِيات ؛ كليةٌ معرفية، وكليةٌ سلوكية، وكليةٌ جمالية، **ما اتخذ الله ولياً جاهلاً**، فالذي يعبد الله هو على شيء من العلم، فمن مستحيل أن تعبده على جهل، كيف تعبده ؟ والذي يعبد الله على شيء من خلق مستقيم فهو لا يكذب، ولا يغتاب، ولا يتكبّر، ولا يجحد، والذي يعبد الله على شيء من السعادة، فهناك علم، و انضباط، و سعادة، وهذه هي العبادة، فيها جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي.

(أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاتَّقُوهُ)

أي: اتقوا عذابه، فإن لم تعبدوه فهناك عذاب ينتظركم، فأنت إما أن تعبده لأنك تحبه، وإما أن تفكر أنه ينبغي ألا تقع تحت وطأة عذابه.

(أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاتَّقُوهُ)

ولن تستطيعوا أن تتقوا الله عزّ وجل إلا إذا اتبعتم سنة رسوله.

(وَأَطِيعُونِ)

لذلك لم يقبل ربنا عزّ وجل من إنسانٍ دعوى محبّته إلا بطاعة رسوله.. قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: آية " 31 ")

(أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاتَّقُوهُ)

محبوبيةً.

(وَاتَّقُوهُ)

خوفاً..

طاعة الله عين طاعة رسول الله:

(وَأَطِيعُونِ)

وهذه وسيلةٌ.. فبطاعة رسول الله تصل إلى محبة الله عزّ وجل.. قال تعلى: (وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) قالوا: عين إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، و عين إرضاء الله هو عين إرضاء رسول الله، فالأمر واحد، فالحقيقة النبوية تقريباً كلوح من بلور الشفاف الذي يشفُّ عما وراءه، فليس هناك وجود لذات النبي، فإنه يعبّر عن حقيقة هذا الدين، و يعبر عن ذات الله عزّ وجل، فإذا أطعت رسول الله وصلت بطاعته إلى الله.

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

(سورة نوح)

أما هذه الـ:**(من)** فينطوي فيها معنى خطير ؛ أي: يغفر لكم بعض ذنوبكم، و **(من)** للتبعيض، فأية ذنوب تقصد هنا ؟؟ قال: الذنوب التي بينكم وبين الله، أما التي بينكم وبين العِباد فلا تغفر إلا بحالتين ؛ بالأداء، أو المسامحة، لأن حقوق الله عزّ وجل مبنيةٌ على المسامحة، لأما حقوق العباد فهي مبنيةٌ على المشاحّة.

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

الأجل لا يؤخّر:

من أجمل معاني هذه الآية أن الأجل لا يتأخّر، فالأجل أجل، وما معنى يؤخِّركم ؟ أي يمتعكم بصحتكم إلى يوم أجلكم، فمن الممكن أن يعيش إنسان ثلاثين سنة صحيحاً، وثلاثين أخرى بالفراش، وثلاثين مشلولاً، كما أنه من الممكن أن يعيش أربعين أو عشرين صحيحاً، وحينما تعبدوا الله وتتقوه وتطيعوا رسوله، فإنه:

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

التي بينكم وبينه..

نهاية مشرقة لبداية محرقة:

(وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

أي: يمتِّعكم بصحتكم وقوّتكم، وعقلِكُم، وسمعكم، وبصركم إلى يوم موتكم، تأخر، أي جعلك نشيط وحركة طوال هذا العمر، وهناك رجل سمعت قصّته وقد تواتر عنه هذا الخبر: عاش ستاً وتسعين سنة، لكن قامته ظلت منتصبة، كما أن بصره حاد، و سمعه مرهف، و أسنانه بفمه، و لم يستخدم نظّارة، و حينما يسأل يقال له: يا سيدي ما هذه الصحة ؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكِبَر، فمن عاش تقياً عاش قوياً.

لقد زرت مرة والد أحد أصدقائي، فقال لي بالضبط: (لقد عملت تحليل البارحة و طلع كله جيد)، وعمره ست وتسعون سنة، وليس لديه مشكلة في التحليل، لا بالكولسترول، ولا بالأسيد أوريك، ولا بالشحوم الثلاثية، ولا بحمض البول، ولا بالسكر، لكنه مرة قال لي: والله يا أستاذ لا أعرف أني أكلت

قرشاً حراماً في حياتي، ولا أعرف الحرام الذي يعرفُه الناس إطلاقاً، لا أعرف الحرام ولا الدرهم الحرام، (حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكِبَر).

إخواننا الكرام... الناس يتشابهون في ربيع العمر.. فكلهم شباب.. أما في خريف العمر فهم يتمايزون، فربيع العمر يحدد خريف العمر، و إذا كان ربيع العمر في طاعة الله فإنه يحدد خريف العمر في تألق وبهاء، أما إذا كان في ربيع العمر انحراف وخطأ، فلا بد أن يكون في الخريف مشكلات..

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

أي: يمتّعك بمكانتك، فأحياناً هناك الإنسان يَخْرَف، قال لي أخ: إننا نقوم بربط والدتي على ديوان، فنربط يديها فوق رأسها إلى طرف السرير، ورجليها إلى الطرف الآخر ؟ قلت له لماذا ؟ قال لي: لأنها تأكل غائطها وتخلع كل ثيابها.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)

(سورة الحج: آية " 5 ")

فالإنسان إذا حفظ الله في الصغر حفظ الله عليه صحته وعقله ومكانته، والله لقد زرت إنساناً في بلدة في الشمال وقد دعا إلى الله بإخلاص، وعمره خمس وتسعون سنة، والله ما رأيت ملكاً في عرشه كما رأيت هذا العالم.. لأنه حفظ الله في الصغر ؛ فهو في مكانة، وله شخصية و منطق و أدب و محبة، وهو مخدوم محفوظ محسود، و كل الناس أمامه، فمن كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة.. **و من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة..**

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(4))

فالأجل لا يؤخَّر، أما:

(وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

أي: يمتِّعكم بصحتكم طوال عمركم، وقد زرت شخصاً يعمل في الحقل الديني و عمره خمس وثمانون سنة، فقلنا له: كيف الصحة ؟ قال: "الحمد لله، والله على هوى سني صحتي ممتازة " فحركته نشيطة، وهو بكامل الحواس الخمس، وبكامل إدراكه، ويعمل في الإفتاء، قال لي: الحمد لله. وكلما رأيت إنسان بسن متقدمة وصحة طيبة، أقول: سبحان الله، شيء جميل جداً أن الإنسان يكون له بداية محرقة فتكون له هذه النهاية مشرقة.

(إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4))

لا يؤخَّر، لكنك قد تستمتع بهذه الحياة وأنت في صحةٍ طيبة، و في درسٍ قادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً(7))

(سورة نوح)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة نوح 071 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 5-14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-09-05

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الله

أيها الإخوة الكرام.. مع الدرس الثاني من سورة نوح، ومع الآية الكريمة الخامسة وهي قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5))

(سورة: نوح)

الدعوة إلى الله مهمة كل مؤمن:

أيها الإخوة الكرام... إن الأنبياء والرسل مكلّفون بالدعوة إلى الله، وقد أعطاهم الله المُعْجزات، فمهمّتهم الأولى الدعوة إلى الله:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً(46))

(سورة: الأحزاب)

ولكن الأنبياء دعاةٌ إلى الله، وقد أُعطوا المعجزات، وأُمِروا أن يتحدّوا بها أقوامهم، ولكن ما حال المؤمن في الدعوة إلى الله ؟.. إنه كلامٌ دقيقٌ جداً.. سأضع بين أيديكم الآيات وأنتم تكشِفون الحقيقة بأنفسكم، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة: الصبر)

إن الإنسان -أي إنسان- خاسرٌ خسارةً محقّقة لا محالة، ولا ينجو من هذه الخسارة إلا بأربعة أشياء؛ أن يؤمن بالله، وأن يطيعه في أمره ونهيه، وأن يدعو إليه، وأن يصبر على معالجته، فمن طبّق هذه الأربعة نجا، ومن لم يطبّقها هلك، فربع النجاة في التواصّي بالحق، لكن لماذا جعل الله هذه الأمة التي نرجو الله أن نكون منها خير أمّة ؟ قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران: آية "110 ")

علّة هذه الخيرية:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)

(سورة آل عمران: آية "110 ")

لو أن الإنسان أعرض عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لانتمى إلى أمةٍ ثانية، وهي أمة التبليغ لا إلى أمة الاستجابة، فلا يحقُّ لك أن تقول: أنا من أمة محمدٍ، وأن تفتخر بهذا الانتماء، وأن تتوهَّم أنك من أمةٍ خيّرَةٍ بل هي خير أمة أخرجت للناس إلا بسببٍ واحد هو: الاستجابة لله ورسوله إذا دعانا لما يحينا..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية "24")

إن الحياة التي أرادها الله والتي خُلِقنا من أجلها و صمِّمت من أجلنا والتي تليق بنا وبإنسانيَّتنا هي الحياة في طاعة الله ورسوله..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

نحن إن استجبنا لله وللرسول كنَّا من أمة محمدٍ الخيّرة التي هي خير أمةٍ أخرجت للناس، فإن لم نستجب فنحن من أمة التبليغ وليس لنا عند الله أية ميّزة..

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: آية " 18 ")

أي: ليس لكم عند الله شيئاً، وحينما أرى المسلمين يعانون ما يعانون أقول: هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، فإن أردت أن تكون عند الله مكرّماً فليكن أمر الله عندك مكرّماً.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

إن أردت أن تكون عند الله مكرّماً فأطع الله ليرفع من شأنك ويُعلي قدرك ويمنعك من عدوّك.

أيها الإخوة الكرام... إننا لا ننجو من الخسارة المحقّقة إلا بالإيمان بالله وطاعته، والتواصي بالحق، فلو أهملنا هذا كنَّا في خسارةٍ محقّقة.. فقد أرسل الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلّم شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله، فيجب على المؤمن أن يتواصى بالحق من أجل أن ينجو من الهلاك المحقّق و الخسارة المحقّقة يجب، كما يجب عليه أن يتواصى بالصبر.. و هذه واحدة..

الشيء الثاني:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: آية " 31 ")

ربنا عزّ وجل لم يرض منّا أن ندّعي محبّته إلا إذا قدّمنا الدليل، والدليل هو طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلّم..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي)

الدعوة إلى الله دليل محبته:

الآن دقق..

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: آية " 108 ")

والله -أيها الإخوة -هذه الآية وحدها تقصم الظهر:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي)

واضحة، جليّة.. قال عليه السلام:

((تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال))

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)

بالدليل و التعليل والكتاب والسنة..

(أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: آية " 108 ")

فالذي لا يدعو إلى الله ليس متّبعاً للنبي عليه الصلاة والسلام، وما دام ليس متّبعاً للنبي فإنه لا يحب الله عزّ وجل..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31))

(سورة آل عمران)

الشيء خطير هو أنك إن لم تدعو إلى الله على بصيرة فأنت لست متّبعاً لرسول الله، وإن لم تكن متّبعاً للنبي عليه الصلاة والسلام فأنت لست محبّاً لله، وإن دعوت إلى الله على غير بصيرة وبلا دليل ؛ بخرافة أو كرامة، أو منام، أو شطحة، فهل تعد داعية إلى الله ؟ لا، لأنك دعوت إلى ذاتك بدعوةٍ مغلّفةٍ بدعوةٍ إلى الله، و لن تنجو من الله عزّ وجل.

شروط الدعوة إلى الله:

إن الدعوة إلى الله لا تُقبَل إلا بشرطين ؛ أن تكون خالصةً إلى الله عزّ وجل، وأن تكون موافقةً لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلّم، خالصة: ما ابتغي بها وجه الله عزّ وجل، وصواباً: ما وافقت السُنّة..

إذاً هناك ثلاث آيات:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31))

علامة محبّته اتباع نبيه، من اتباع نبيه:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: آية " 108 ")

فالدعوة ينبغي أن تكون على بصيرة، ومعنى (على بصيرة) ؛ أي: وفق الدليل، ووفق التعديل، ووفق السند الصحيح، ووفق النصّ الذي جاء من عند الله عزّ وجل، بدعوة علمية منهجية مستندة إلى صخرة راسخة و أرضيةٍ راسخة و حقيقة.

تعليم القرآن جهاد كبير:

أيها الإخوة الكرام... قال صلى الله عليه وسلم:

((ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّهِ))

(مسند أحمد: عن معاذ بن جبل)

أي:أعلى شيء في الإسلام هو الجهاد، والجهاد غير القتال، بل كما قال الله عزّ وجل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

(سورة الفرقان: آية " 52 ")

أي: بالقرآن بتعلّمه وتعليمه..

(جِهَاداً كَبِيراً (52))

وسمّى الله الجهاد.. جهاد تعليم القرآن الكريم.. جهاداً كبيراً، وهذا جهادٌ متاحٌ لنا جميعاً، فهل يمنعك أحدٌ من أن تقرأ القرآن ؟ بالعكس هناك من يشجّعك إذا تعلّمت القرآن وعلّمته، أليس هذا متاحاً لنا؟ هذا جهادٌ كبير، والجهاد ذروة سنام الإسلام، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من مات ولم يحدّث نفسه بالجهاد مات على ثُلْمة من النفاق))

فأي واحد يحضر مجالس العلم لكنه لا يفكّر أبداً أن ينصح الناس، ولا أن يُلقي العلم على الناس، ولا أن يأخذ بيد الناس إلى الله، ولا أن ينصح أخاه أو صديقه أو جاره أو ابنه أو أباه و أقرب الناس إليه فإنه إن مات مات على ثلمةٍ من النفاق.

الدعوة الشاملة فرض كفاية:

لكن الدعوة إلى الله الشاملة الواسعة هي فرض كفاية إذا قام به البعض سقطت عن الكل هي، وهذه الدعوة القادرة على أن ترّد على كل الشُبَه وأن تأتي بكل التفاصيل والأدلة، فهذه الدعوة إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، وذلك كحال إنسان متخصص بالفكر الغربي وما فيه من شُبهات ضدّ الإسلام وعنده ردودٌ على كل هذه الشبهات، فهذا فرض كفاية، لكن المؤمن مكلف بالدعوة في حدود ما يعلم و هذا فرض عين، ولا تنس الآيتين، الأولى:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

(سورة العصر: آية " 2 ")

وفيها ربع النجاة، ولا تنس الآية الثانية:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

فعلامة محبتك لله اتباعك لرسول الله، ومن أجَلّ أنواع الاتباع أن تدعو إلى الله على بصيرة في حدود ما تعلم ومع من تعرف من خاصّة نفسك ؛ أي: أهلك، أقرباؤك، جيرانك بالسكن و بالعمل، فلو دعا كل إنسان إلى الله في حدود خاصّة نفسه لما وجدت مشكلة، لأن هؤلاء يعرفهم ويعرفوه، فإذا كان لك أخ كريم، أو ابن عم، أو صديق، أو صهر، أو جار أو زميل عمل فبيّنت له آية أو حديث، أو بينت له علّة وجودنا، وغاية وجودنا، ودعوته إلى الله بلطف وأدب و موعظة حسنة، فاستقام على أمر الله وسار في طريق الحق فقد انطبق على هذا الشخص حديث

((يا علي لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس))

فهذه صنعة الأنبياء، وهذا العمل لا يقدّر بثمن لأنك تسعد به إلى أبد الآبدين، ودقق دائماً في هذه القاعدة: مات إنسان وغُسِّل وكُفِّن ومشت جنازته وأُدخِل في قبره، فماذا ينفعه في القبر ؟ إذا كان بيته مثلاً أربعمائة متر، فهل ينفعه ؟ لا.. وإذا كان يسكن في كوخ فهل يضرّه ؟ لا.. فكوخ أربعين متر و قصر أربعمائة متر، هما في القبر سواء، فإذا كان الإنسان من أكبر الأغنياء أو من أفقر الفقراء فهل يرفعه غناه في القبر أو يخفضه فقره في القبر ؟ لا، فما الذي ينفعك في القبر ؟ وما الذي تلقى الله به ؟ وما الذي يبيّض وجهك وأنت بين يدي الله عزّ وجل ؟ إنه طاعته و محبّته و خدمة عباده و الدعوة إليه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و تعلّم كتابه و تعليم كتابه و تفقّد المساكين والعطف على الفقراء، و دفع المال في سبيل الله، فهذا الذي ينفعك وأنت في القبر، فشفير القبر هو الحد الفاصل.. فكل عملٍ يستمرّ معك إلى ما بعد الموت هو العمل العظيم الذي ينبغي أن تعضّ عليه بالنواجذ، أما العمل

الذي لا يذهب معك إلى القبر فوقته وقيمته خسارة و إن كان مباحاً، أما إن كان محرّماً فهو بلاءٌ كبير وسبب الهلاك لهذا الإنسان.

إذاً أيها الأخ الكريم... لست مُعْفَى من الدعوة إلى الله لأن أحد أركان النجاة التواصي بالحق، ولست معفى من الدعوة إلى الله لأن علامة محبّتك لله عزّ جل اتباعك لرسول الله، ولأن من أبرز أنواع اتباعِك للنبي الدعوة إلى الله على بصيرة، والدعوة إلى الله فرض عينٍ وفرض كفاية، لكن الدعوة الكبيرة الواسعة التي فيها اختصاص عميق وأساليب بارعة هي فرض كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، أما الدعوة إلى الله التي هي فرض عين فهي أن تبلغ عن الله ولو آية..

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

(مسند أحمد: عن عبد الله بن عمرو)

((فيا ربّ مبلغٍ أوعى من سامع))

وهذه نقطةٌ دقيقةٌ جداً، فالإنسان الذي لا يحدّث نفسه أبداً ولا يفكّر في هداية أحد من أقرب الناس إليه، كزميله، أو جاره، أو ابنه، أو أخيه فهو ليس متبعاً لرسول الله، وبالتالي فهو لا يحبُّ الله، فإن كان كذلك فقد وقع في الهلاك لأن الدعوة إلى الله..أحد أركان النجاة..

الدعوة إلى الله في كل الأحوال:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5))

(سورة نوح)

ما معنى ليلاً ونهاراً ؟ أي: دائماً، في الصباح، في الظهيرة، في المساء، في لقاء، على طعام، في سهرة، في نُزهة، في وليمة، في دعوة، في عقد قِران، في مَولد، في محاسبة، في مجاورة، في لقاء عابر..

(لَيْلاً وَنَهَاراً (5))

وهذا من خصائص المؤمن، يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

الأمر مُنْصَب على الذكر الكثير، ومن صفات المنافقين:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142))

(سورة النساء)

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (6))

(سورة نوح)

لأن الإنسان له اختيار، فلو كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قمّة البشر وأفصح الخلق وحبيب الحق، وهو سيد ولد آدم، وأكمل الخلق، وهو الرحيم اللطيف الكريم إذا كان معه ولم يكن هذا الإنسان يبتغي وجه الله، ولا يرجو الله والدار الآخرة فإنه لا يستفيد شيئاً، والدليل:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: آية " 21 ")

ولكن.. لكم جميعاً.. لا:

(لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللّهَ كَثِيراً)

(سورة الأحزاب: آية " 21 ")

إذاً حينما لا يستجيب الإنسان فمعنى هذا أن له طلباً آخر.

إن لم تكن مع الحق فأنت مع الباطل !

بالمناسبة.. يوجد شيء خطير أريد أن أقوله لكم: هناك خطّان وطريقتان ومنهجان إن لم تكن على أحدهما فأنت على الآخر حتماً، والله هذا كلام خطير..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

إن لم تكن مع الحق فأنت مع الباطل، وإن لم مستقيماً فأنت منحرف، وإن لم تستجب لرسول الله فأنت مع الهوى، فلا يوجد حل ثان..

(فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (6))

فطالب الحق يبحث عنه، وطالب الشهوة يفرُّ من الحق مهما دعوته، فأقول لكم هذه الحقيقة: هناك قرار داخلي، إن اتخذ أحدكم قراراً بطلب الحقيقة فأي شيءٍ يدلُّه عليها، أما إن كان قد أراد الدُنيا فإنه لو التقى بنبيٍّ مرسل فإنه لا يستفد شيئاً، و لو رأى الأموات خرجوا من قبورهم فإنه لا يستفيد شيئاً، فماذا رأى بنو إسرائيل ؟ لقد رأوا العصا أصبحت ثعباناً مبيناً، و رأوا أن نبيهم موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ضَرَبَ البحر بعصاه فإذا هو طريقٌ كبير، فلما رأوا بقرةً قالوا:

(يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

(سورة الأعراف: آية " 138 ")

لم يستفيدوا شيئاً، و قوم صالح قد رأوا الناقة خرجت من الجبل، فإذا أردت الحقيقة فإنك تبحث عنها وتجدها في كأس ماء، و تجدها في طائر، و تجدها في ابنك الذي من صلبك، و تجدها في الليل والنهار و الشمس والقمر، في خلق السماوات والأرض، وفي كل في لقمةٍ تأكلها، تجدها في عينك، في أذنك،

تجدها في القرآن الكريم، أما إن أردت الشهوة وأعرضت عن الحقيقة فإنك لو التقيت بالأنبياء جميعاً واحداً واحداً فإنك لا تستفيد.

الأصل أنت !!

فمرّة سألني أخ عن رجل داعية إلى الله، فقلت له: ليس شأني أن أقيّم الناس لأن تقييّم البشر من اختصاص خالق البشر، ولكن أقول لك: لو أُتيح لك أن تلتقي بالنبي عليه الصلاة والسلام، وأن تجلس معه، وأن تستمع إليه، وأن تُكَحِّل عينك بمرآه، ولم تطبّق مبدأه ولا سنّته فإنك لا تستفيد منه شيئاً وتهلك، ولو التقيت بإنسانٍ قال لك آيةً أو حديثاً وهو لا يطبّقها، فصدّقته وطبّقت هذه الآية فإنك تسعد بها وتنجو أنت وحدك، هو قد لا ينجو بل أنت تنجو.. هذا كلام دقيق أقوله: الأصل أنت.. فلو أُتيح لك أن تلتقي بنبي ولم تطع أمره ولم تطبق سنته فإنك لا تنجو من عذاب الله، ولو أُتيح لك أن تلتقي بإنسان يفعل ما لا يقول، أو يقول ما لا يفعل فصدّقته وأخذت كلامه وطبّقته، وقطفت ثماره نجوت وسعدت في الدنيا والآخرة، فالمُعَوّل عليك أنت، وهناك متكلّم و مستمع، فالمتكلِّم له حساب والمستمع له حساب، فحساب المتكلم: هل أنت مطبقٌ لما تقول ؟ وهو حساب خاص عند الله، والمستمع له حساب من نوع ثان، الحساب: هل طبّقت ما استمعت إليه ؟ فكلٌ من المتكلم والمستمع له حساب عند الله عزّ وجل، لذلك لا ينفعنا تَقْيمُنا ولكن تنفعنا طاعتنا لله عزّ وجل.

مثل آخر: لو أنك التقيت بالنبي عليه الصلاة والسلام، أو احتكمت إليه في موضوع أنت وصديق لك، واستطعت أن تنتزع من فمه الشريف حكماً لصالحك ولم تكن محقاً في هذا الحكم فإنك لا تنجو من عذاب الله،

((لعلّ أحدكم ألحن بحجّته من الآخر، فإذا قضيت له بشيء فإنما أقضي له بقطعةٍ من النار))

إذاً المعوّل عليك أنت، المعوّل عليك لك عند الله حسابٌ خاص، هل طبّقت ما استمعت إليه ؟ ماذا فعلت؟

الإصرار على الكفر:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ)

أي: دعوتهم ليؤمنوا بك، ثم ليطيعوك، فتغفر لهم، فالمغفرة لها ثمن، دعوتهم إلى الإيمان بك و طاعتك ليكون الإيمان بك وطاعتك ثمناً لمغفرتك..

(جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ)

(سورة نوح)

وأصرّوا على كفرهم ومعصيتهم واستكبروا على أن يطيعوا الله عزّ وجل استكباراً.. فالإنسان مخيّر..

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: آية " 17 ")

هؤلاء دعاهم نبيٌّ كريم وجاء بالمعجزات والبينات، وكان في دعوته صادقاً، وفي أخلاقه كاملاً، ومع ذلك لم يصغوا إلى هذه الدعوة لأنهم أرادوا الدنيا، قال بعض الحكماء: " لم أجد أشدّ صمماً من الذي يريد أن لا يسمع ". فالذي يُعرض عن الشيء لا يفهم منه شيئاً، فمتى يستفيد الإنسان ؟ إذا كان هناك شخص يمشي في الطريق وفي ذهنه أن يشتري حاجة معينة، فإنه يقف عند أي محل ويفتّش: هل هذه الحاجة موجودة ؟ فهو يبحث عنها، أما إذا كان هناك حاجة لا يحتاج إليها ولا يهتم بها فإنه لو رآها أمام عينه فهو لا يراها حقيقة، فالعبرة أن تكون أنت طالباً للحق.. فهؤلاء دعاهم نبيٌّ كريم..

(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (7))

(سورة نوح)

هناك من الناس من تتكلم معه كلمة حق واحدة.. فتجده يتثاءب، أو يقول لك: عندي موعد، فيعتذر ويقوم، فحدّثه في أمرٍ من أمور الدنيا تجده يجلس أربع ساعات وينسى مواعيده كلّها، و ينسى أنه متعب، لقد قال قبل أربع ساعات: أنا مستعجل وعندي موعد، تروى قصة عن الحَجّاج أنه قد مرّ في السوق فرأى رجلاً له دكان وكان يصلي قاعداً وهو بائع أواني، ودكانه عالية وفيها سلم، فقال له: أريد هذا الإناء الذي تضعه في أعلى مكان، فوضع السلم وصعد إليه، فقال له: أصلحك الله إنني أريد الذي إلى جانبه، فصعد مرة ثانية وأتى بالذي طلبه، فقال له: إنك لم تفهم علي إلى جانبه من الطرف الأيسر، فصعد مرة ثالثة، فجعله يصعد وينزل أربعين مرة، وبعد هذه علاه وضربه وقال: تصلي قاعداً ؟! من أجل أنة تبيع هذا الإناء صعدت ونزلت عشرات المرات ؟.. فالإنسان حينما يبتغي شيئاً يضع كل طاقته فيه..

(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا)

(سورة نوح)

الإصرار على الخطأ مرض في الإنسان، والاستكبار مرض أشد، و الكافر عنده إصرار وتعنُّت، و جمود وتكبر..

(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ)

(سورة نوح)

أي: ليؤمنوا بك ويطيعوك فيستحقوا المغفرة..

(جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)

(سورة نوح)

تعبيراً عن صدِّهم عن طريق الحق، فهم لا يريدون أن يسمعوا.

مرّة حدّثت إنساناً أجنبياً بكلمة عن الله عزّ وجل فلم أتمّ كلمتي حتى قال لي: هذه الموضوعات لا تعنيني، ولا أهتم بها، ولا ألقي لها بالاً، أنا يعنيني في الحياة ثلاثة أشياء ؛ امرأةٌ جميلة، وبيتٌ واسع، وسيارةٌ فارهة.. و انتهى الأمر..

(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)

(سورة نوح)

دليل الصدود..

(وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ)

(سورة نوح)

دليل العداوة..

(وَأَصَرُّوا)

على معاصيهم، وعلى كفرهم..

(وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (8))

(سورة نوح)

أحياناً يكون هناك دعوة بينك وبين أخ أو صديق أو جار أو قريب، وأحياناً تكون الدعوة على الملأ، فمن أنواع الدعوة ؛ الدعوة العامة، خطيب يخطب، أو محاضر يتكلّم.

(ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (9))

(سورة نوح)

نوّعت بين الإعلان والإسرار..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10))

(سورة نوح)

معنى غَفّار ؛ أي: صيغة مبالغة، وصيغ المبالغة إذا نسِبت إلى الله جلّ جلاله تعني شيئين: تعني مبالغةً في الكم، و مبالغةً في النوع، أي: إن أكبر ذنب مهما تصوّرته كبيراً يغفره الله عزّ وجل.

تنويع أساليب الدعوة إلى الله:

على كلٍ هذه الآيات تعطي معان، منها أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تكون مستمرّة ليلاً ونهاراً، وتعطي أن الإنسان مخيّر، فقد يستجيب وقد لا يستجيب، و ما على الرسول إلا البلاغ فقط، لأن الله عزّ وجل يقول له:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة: آية " 272 ")

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الزمر: آية " 41 ")

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86))

(سورة هود)

وقال تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23))

فتعلمنا من هذه الآيات أن تكون الدعوة مستمرّة و منوّعة، أي: إنه دعاهم سرّاً، وجهراً، و الإنسان أحياناً يحب أن تكلمه على انفراد، فلا يوجد لديه مانع عندئذ، وهناك إنسان يحب أن يجلس جلسة عامة، فيشعر بأنس، كأن يكون لك سهرة، أو لك جلسة مثلاً، و هذه طِباع، فادع إلى الله على أنواع كثيرة ؛ سراً، وجهراً، ومتلطِّفاً، ومقرّعاً، ومخاطباً للعقل تارةً، والعاطفة تارةً، آتياً بالدليل والتعليل..

(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10))

مغفرة الله:

مهما يكن الذنب كبيراً يغفره الله، ومهما تكن الذنوب كثيرةً يغفرها الله، مليون ذنب يغْفَر، وأكبر ذنب يُغْفَر، والدليل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

فتصوَّر أن حياتك وعلاقتك مع الله لا توجد فيها مغفرة، أو لا توجد توبة، لكن ربنا عزّ وجل ينتظرك أن تستغفره، لذلك نحن في بحبوحتين ؛ بحبوحة طاعة الله، وبحبوحة الاستغفار، و الدليل:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

أي ما دامت سُنَّتَكَ مطبقةً في حياتهم فهم في بحبوحةٍ من عذاب الله:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

أوضح مثلاً يوضِّح هذه الآية: لو أن هناك أباً مثقّفاً بثقافة عالية، وعنده ابن يعلِّق آمالاً كبيرة على تحصيله العلمي، فجاء هذا الابن بالجلاء وقد نال صفراً في الرياضيات، فأراد الأب أن يؤدِّبه تأديباً شديداً، ولكنه نظر إلى ابنه فرآه مصفَّر اللون، فدعاه إلى الطعام فلم يأكل، وكان مع الابن مبلغ جمَّعه في الأعياد فبحث عن أستاذ للرياضيات لكي يدرِّسه دروس خاصَّة، فلما رأى الأب ابنه مهموماً وخائفاً و متألماً ألم شديد، فإنه سوف يضحي بكل مدَّخراته المالية لكي يأخذ عدداً من الدروس الخاصة، و هذه الوضع بالابن يمنع الأب من أن يعاقبه. فأنت في بحبوحتين ؛ بحبوحة طاعة الله، وبحبوحة الاستغفار، فلا سمح الله لو أن إنسان عصى لوجدت عنده بحبوحة ثانية، وهي أن يستغفر، أي: إما أنَّك مطيع، أو أنك عاص لا سمح الله، فإذا كنت مطيعاً فليس هناك مشكلة..

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

(سورة سبأ)

إذا: بالطاعة لا توجد مشكلة، ولكن ماذا يجب عليك أن تفعل حال المعصية ؟ أن تستغفر..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ)

فأنت في بحبوحتين ؛ بحبوحة الطاعة، وبحبوحة الاستغفار، و حينما تستغفر تؤجِّل العِقاب، لذلك كان الاستغفار من الأذكار، تقول بعض الأحاديث:

((علم عبدي أنني أغفر الذنوب فاستغفرني))

فلا تيئس، و الأكمل أن تكون في طاعة الله دائماً، ولو أخطأت فإن باب الاستغفار مفتوحٌ على مصراعيه..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10))

((إذا قال العبد مستغفراً: يا رب وهو راكع، قال الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو ساجد، قال له لبيك يا عبدي: فإذا قال: يا رب وهو عاصٍ، قال الله له: لبيك ثم لبيك ثم لبيك))

ورد في الآثار:

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطّعت أوصالهم من حبّي ولماتوا شوقاً إليّ))

((يا داود هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين))

لا تقنط من رحمة الله، استغفر..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10))

نتائج الاستغفار:

(يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11))

(سورة نوح)

فإذا كان هناك نقص شديد في الغذاء أو الدخل فهذا دليل على ضعف في الاستغفار.. دخل على الإمام الحسن البصري رجل فقال: يا إمام إني أشكو الفقر، فقال: استغفر الله، فدخل عليه قوم آخرون فقالوا: يا إمام نشكو شُحَّ السماء، قال: استغفروا الله، ودخل عليه رجل وقال: إن امرأتي لا تنجب، قال: استغفر الله، وكان شخص جالس في المجلس فقال: ما هذا الشيخ ؟!، فقال له: أو كلما دخل عليك رجل تقول له: استغفر الله ؟، فقال له: أما قرأت قوله تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

(سورة نوح)

فالآية واضحة، فالذي أراد أن يُنجِب يستغفر الله، و الذي أراد الله فليستغفر الله، والذي أراد أن تمطر السماء فليستغفر الله، وأقول كثيراً: قد يقنّن الله عزّ وجل على الإنسان، فيقول لك: لا يوجد شغل، لا يوجد مال، لا يوجد دخل، فهل معنى هذا أن الله تعالى ليس معه ؟؟ إن الله عز وجل يقنن تأديباً لا عجزاً، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

أي: إن الخيرات في الأرض لا تُعد ولا تُحصى لكن يوجد تقنين تأديب، و الحل أن نستقيم على أمر الله..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

فما قولك في أن الله سبحانه وتعالى غَنيٌ عن تعذيبا، و غنيٌ عن إفقارنا، و غنيٌ عن مرضنا، وغنيٌ عن خوفنا و همنا، لماذا نهتم ؟ لماذا نمرض، لماذا نفتقر ؟ لماذا نخاف؟ لأنه يؤدِّبُنا

((كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلح لك))

ورد في الأثر القدسي:

((أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمت لي في ما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

أي: اصطلح مع الله وافهم عليه، فهو يريدك تائباً، والدنيا تأتي بشكلٍ عجيب، إن اصطلحت مع الله لم يكن هناك خطر عليك من الدنيا بل إنها تأتيك وهي راغمة..

" أوحى ربك إلى الدنيا أنّه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه ".

(وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

أي: إن هذا دافع من دوافع الطاعة لله عزّ وجل.. وقد قيل لأحد الصحابة -وأظنه سيدنا أبا الدرداء -: احترق محلّك، فقال: لا إنه لم يحترق، يا أخي احترق ونحن رأيناه بأعيننا، قال: ما كان الله ليفعل.. إنه واثق من طاعته لله عزّ وجل، و واثق من دفع الزكاة.. فلما ذهبوا ليتأكّدوا فرأوه كما قال فعلاً، إنه ليس محله، فبشّروه فقال: أعلم ذلك، أعلم أن محلي لم يحترق.. فإذا كنت مع الله عزّ وجل فإن الله يلقي في قلبك الطمأنينة و الأمن..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

الآية الأخيرة أيها الإخوة في هذا الدرس هي قوله تعالى:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

أوجه تفسير لهذه الآية: ما لكم لا تطمعون برحمة الله ولا تخافون من عذابه ؟ فقد تجد شخصاً قوياً، وهو من بني جِلْدَتِك و جنسك لكنه أقوى منك ولا تقدر تسترحمه فتطيعه..

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

كيف تزهدون فيما عند الله من نعيمٍ أبدي ؟ ومعنى ذلك: أنّكم لا ترجون لله وقاراً، وكيف لا تخافون ناره ؟ معنى ذلك أنكم لا ترجون لله وقاراً.

إخواننا الكرام... إذا كان هناك شخص قوي و أنت موقن بذلك، و له عندك وقار، وبيده شيء ثمين، وهو يقدر أن يعطيك أو يمنعك فإنك ترجو ما عنده وتخشى ما عنده، فإذا كان هذا حالك مع إنسان ترجوه فكيف حالك مع الواحد الديّان خالق الأكوان ؟ فما بالك لا ترجو جنّته ؟ و لا تخاف عذابه ؟ لا يليق بك أن تقرأ كلامه ولا تفهمه ؟

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

لم لا ترجو جنَّته و لا تخاف ناره ؟ لم لا تخشى وعيده و لا ترجو وعده ؟ لم لا تطمع في رحمته ؟ لم لا تخش من عقابه ؟ ومعظم الناس الغافلين يحسبون ألف حساب لإنسان ولا يحسبون لله حساباً واحداً، فترى أحدهم يخاف على سمعته و حرّيته و ماله وتجارته، ومكانته، فيُرضى هذا، ويُرضي ذاك، ويدعو هذا، ويبارك لهذا ويهنِّئ هذا، يزور هذا، إنه يحرص على سمعته..

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

الله الذي خلقك..

إذا قدّم إنسان لك شيئاً فإنك تشكره مئات المرّات، والله عزّ وجل منحك نعمة الوجود، و نعمة الإمداد ونعمة الهُدى والرشاد ألا يستأهل أن تشكره ؟ ألا يستأهل أن ترجو رحمته وأن تخشى عذابه ؟

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

فقد تجد شخصاً ما حوله أشخاص كثيرون، وهو شخص مهم جداً، فلو اتصل بأحدهم لأجاب: حاضر، فيقوا: تعال إلي بعد ربع ساعة فإنه يكون عنده، فه وقار، ولو كلّفه بتكليف فإنه ينفذ التكاليف بحذافيرها، لاحظ نفسك إذا واحد كلّفك وأنت غير مهتم به كثيراً إنك قد تنسى، يقول لك: هل سألت لي ؟ فتقول: والله نسيت لا تؤاخذني، يقول: أمنتها لي ؟ فتقول: والله نسيت، فإذا كلّفك شخص وليس له قيمة عندك فإنك تنسى على الفور، فلا تنفِّذ شيئاً مما يقول، ولكن الله يأمرك، ويوعدك، و يخوفك..

أطوار الإنسان:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

لقد كنت حوَيْناً لا يُرى بالعين، و خمسمائة المليون حوين يبلغون سنتيمتراً مكعباً، فمن حوين إلى بويضة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى جنين، إلى طفل صغير لا يتكلّم، وبعد هذا تطور من حال إلى حال، لاحظ الآباء والأمهات يقولون عن الطفل الصغير:.. طلعوا أسنانه.. فيحدث ضجّة في البيت.. وبعد هذا يقال لك: نظِفَ..و مشى و لم يكن يمشي..، وبعد هذا صار يتكلم أي وصار اجتماعياً ؛ يشكر، يحترم..

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

وبعد هذا دخل إلى المدرسة، ثم حفظ الفاتحة، وحفظ بعض الأناشيد، وبعد هذا كتب الألف مائلة، والباء طالعة، وهذه نازلة، يقول لك: كتب، انظر هذا خط ابني، وبعد هذا يأخذ ابنه الشهادة، ثم يكبر ويغلظ صوته، ثم يبلغ، و يريد أن يشتغل و يتزوج، وبعد هذا ينجب أولادً، ثم يربّي أولاده، ثم يريد أن

يزوجهم، وبعد هذا يلتفت إلى صحته، فقد صار يحتاج إلى خمسين نوعاً من الدواء، وبعد هذا تعلّق نعوته على الجدران..

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

من طور، إلى طور، إلى طور، تنظر إلى إنسان في الخامسة عشر يصعد كل خمسة درجات معاً، وبالنزلة كل عشرة معاً، فإذا كان هناك.. درابزين.. فإنه ينبطح عليه وينزل على الفور، وانظر إليه وهو في الثمانين تجده يضع رجله على الدرجة ويسحب الثانية، درجة درجة، أليس كذلك ؟

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

أي: إن كل سن له ترتيب و اهتمامات و هموم، قبل الزواج يبحث عن زوجة، داخل في متاهة البحث عن زوجة، وهذه متاهة، فإذا تزوج تجده يقول خلا السنتين الأوليين: قصيرة، لا طويلة، يا ترى غلطت، لا لم أغلط، وبعد هذا يُنسخ الموضوع من تفكيره، ثم جاء موضوع الأولاد، هل درسوا، لم يدرسوا، تعلموا، لم يتعلموا، تزوجوا، لم يتزوجوا، فكل سن له ترتيبات، و هذه أطوار، فالإنسان يمشي في هذا الطريق الإجباري وآخر محطة الموت..

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

ألا ترجو رحمته ؟ ألا تخاف عذابه ؟ قد يكون هناك إنسان يخيفك، فإن أرسل في طلبك فإنك لا تنام الليل.. طوال خمسة أيام، وهو إنسان ولست مرتكباً شيء مخالف، فالواحد الديّان يقول:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

فهل هذه قليلة ؟

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة نوح 071 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 15-28
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-09-12

بسم الله الرحمن الرحيم

مظاهر قدرة الله

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة نوح، ومع الآية الخامسة عشر وهي قوله تعالى:
بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (15))

(سورة نوح)

علاقة هذه الآية بالتي قبلها:

والآية التي قبلها هي قوله تعالى:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

(سورة نوح)

أي: مالكم لا ترجون رحمته ولا تخشون عذابه، يقول الله عزّ وجل:

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

(سورة المدثر)

أي: أهلٌ أن تتقيه، وأهلٌ أن ترجوه وتخطب وده، وأهلٌ أن تفني عمرك من أجله، وأهل أن يكون شبابك في سبيله، وأهلٌ أن تجعل مالك ووقتك وصحّتك وجهدك وأولادك وتجارتك وخبرتك واختصاصك في سبيله، فهذه كلها يجب أن تبذلها في سبيل الله لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: آية " 77 ")

حظوظ الدنيا ابتلاءات حيادية:

أيها الإخوة الكرام... إيّاكم أن تتوهموا أن حظوظ الدنيا التي يتكرّم الله بها على الإنسان نِعَم، لكنها ابتلاءات حيادية، فهي ليست نعماً ولا نِقَماً ولكنها ابتلاء، فإذا وظِّفتها في الحق انقلبت إلى نِعَم، أما إذا وظِّفتها في الباطل انقلبت إلى نِقَمْ، فالمال مثلاً سُلَّمٌ ترقى به أو دركاتٌ تهوي بها، والقوة سلمٌ ترقى به

أو دركاتٌ تهوي بها، والعلم إما أن يقودك إلى الله فتسعد بقربه، وإما أن يقودك إلى الكبر والاستعلاء والاعتداد بالنفس فيكون دركات يهوي بها إلى النار، فكل حظوظ الدنيا ليست نعماً ولا نِقَمَاً إنما هي ابتلاءات حياديةٌ موقوفة على نوع استخدامها..

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

(سورة نوح)

خلق الإنسان:

مالكم لا ترجون رحمته ببذل حظوظكم في سبيله، ومالكم لا تخافون عذابه باتقاء معصيته، والدليل:

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

(سورة نوح)

إن الأشياء المألوفة -أيها الإخوة- قد تُفرّغُ من مضمونها، فهذا الطفل الذي بين يديك ابنك، وأنت تعلم بالضبط كيف تم خلقه ؛ من نقطةٍ من ماء دخلت إلى بويضة لقّحتها فانقسمت فزرعت في الرحم، إلى أن أصبحت جنيناً له دماغٌ وأجهزةٌ ؛ من جهاز هضمٍ، وجهاز دورانٍ، وجهاز إفرازٍ، وجهازِ تنفسٍ، وعضلات، وأعصاب، وغدد صمّاء وغير صماء، ثم يخرج هذا الطفل إلى حيّز الدنيا، فينمو شيئاً فشيئاً، وتنمو مداركه و عضلاته، وعظامه ليصبح إنساناً سوياً..

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

التفكر جزء من الدين:

إن التفكر في خلق الإنسان -أيها الإخوة- جزءٌ من الدين، بل هو الدين نفسه، لأن المؤمن الصادق يتعرّف إلى الله من خلال خلقه، فينظر إلى الكون بسماواته وأرضه و جباله وصحاريه، وينظر إلى الأرض بجبالها وصحاريها، وسهولها، ووديانها، ونباتاتها، وأطيارها، وأسماكها، والبحار وما فيها، كلها آياتٌ دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل، فيمكن أن نقول: إن الكون أوسع بابٍ ندخل من خلاله إلى الله، وإن الكون أقصر طريقٍ إلى الله.

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (15))

(سورة نوح)

سعة السماوات:

المراد هنا هو هذه السماوات التي فوقنا، قال بعض العلماء: كلمة (سبعة) في اللغة تفيد التكثير لا العدد؛ أي: ما أكثر طبقات السماء التي فوقنا ! فهناك سماء دنيا و سماء عُليا و سماء القمر و سماء الشمس و سماء السُحُب الفضائية، وسماوات لا يعلم عددها إلا الله، وأنتم -على كلٍ- تستمعون وتقرؤون عن إرسال مركبةً إلى القمر، وقد قطعت هذه المركبة ثلاثمائة وستين ألف كيلو متر، ووصلت بعد ثلاثة أيامٍ، و كلّفت أربعة وعشرين ألف مليون دولار، فماذا قطعنا في الفضاء الخارجي ؟ لقد قطعنا ثانية ضوئية واحدة.. فهناك ثانية ضوئية واحدة بين الأرض والقمر، وبين الأرض والشمس هناك ثمانية دقائق، والمجموعة الشمسية قطرها ثلاث عشرة ساعة، وهناك مجرة تبعد عنا بأربع سنوات ضوئية و أقرب نجم ملتهب يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، وهناك مجرة تبعد مليون سنة ضوئية، وأخرى تبعد أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، وثالثة بعدها ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، هذه السماوات.. بعض هذه المجَرّات يسير بسرعةٍ قريبةٍ من سرعة الضوء ؛ وهي مائتان وأربعون ألف كيلو متر في الساعة، و بعض العلماء يقول: الكون فيه مليون مليون مجرة تقريباً، والمجرة الواحدة فيها مليون مليون نجم، وما المجموعة الشمسية إلا نقطةٌ صغيرةٌ جداً على شكلٍ مِغْزَلي هو درب التبانة، ودرب التبانة هو المجرة التي نوجد فيها، وهي مجرةٌ متواضعةٌ جداً.

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (15))

(سورة نوح)

فأنت أيها الإنسان لم تُكلّف بمعرفة دقائق الكون بالتحديد والتفصيل، ولكنها لفتة من الله عزّ وجل ينبّهُك فيها إلى عظمة هذا الكون الذي فوقك، يقال عن مذنّب هالي: إن هذا المذنب يعود إلى مكان انطلاقه كل اثنين وسبعين سنة، ويمر إلى جانب الأرض، فحركات النجوم والمذنّبات تجري بدقةٍ متناهية، فنظرة إلى السماء..

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: آية " 101 ")

هذه العين لا ترى من نجوم السماء إلا عشرة آلاف نجم تقريباً، بينما يوجد في الكون مليون مليون مجرة، والمجرة الواحدة فيها مليون مليون نجم ؛ أي: مليون مليون ضرب مليون مليون، فهناك ستة أصفار في ستة في ستة، أي: أربعة وعشرين صفراً تقريباً.

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنّ نُوراً وَجَعَلَ الشّمْسَ سِرَاجاً (16))

(سورة نوح)

الشمس والقمر من آيات الله الدالة على عظمته، وهذه الشمس المُتّقدة التي مضى على اتقادها كما يقول بعض العلماء: خمسة آلاف مليون سنة، ويقولون أيضاً: إنها لن تنطفئ في تقديرهم قبل خمسة آلاف مليون سنة تقريباً، فمن أين تأتي الطاقة لهذه الشمس ؟ كل شيءٍ يحتاج إلى طاقة، فمن أودع في الشمس هذه الطاقات ؟ و من جعل هذه الشمس بحجمٍ يزيد عن حجم الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة ؟ و من جعل ألسنة اللهب على سطح الشمس تزيد على مليون كيلو متر ؟ إن لسان اللّهَب في أثناء الكسوف الكامل يغيّب قرص الشمس، وتبقى ألسنة اللهب على الجوانب، و هذه يتراوح طولها من نصف مليون كيلو متر إلى مليون كيلو متر، وقد قدّر بعض العلماء أن حرارة الشمس على سطحها ستة آلاف درجة، وفي وسطها عشرين مليون درجة، فلو أُلقيت الأرض في الشمس لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة. والشمس تتسع لمليون وثلاثمائة ألف أرض، قال تعالى:

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنّ نُوراً وَجَعَلَ الشّمْسَ سِرَاجاً (16))

فلولا الشمس لما وجدت حياة إطلاقاً، و لو أن الأرض سارت بعيدةً عن الشمس لدخلت في التجمُّد العام، فتصبح حرارتها ثلاثمائة وخمسين درجة تحت الصفر فتنتهي الحياة على سطح الأرض لذلك، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر: آية " 41 ")

الجاذبية:

و لو أن الأرض زالت عن مسارها حول الشمس، واتجهت مستقيمةً بعيدةً عن الشمس، لدخلت الأرض في التجَمُّد الكامل ولانتهت الحياة من على سطحها، فما الذي يشدها إلى الشمس ؟ إنه جاذبية الشمس لها، و ما جاذبية الشمس لها ؟ إنها قدرة أودعها الله في الكون، فلو تفلّتت الأرض من قرص الشمس وأردنا أن نعيدها نظرياً.. لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي، قطر الحبل خمسة أمتار، وقوة شد الحبل اثنين مليون طن، فالأرض مربوطة بالشمس بقوة تساوي مليون مليون ضرب (×) اثنين مليون، فلو زرعنا هذه الحبال على سطح الأرض المقابل للشمس لكان بين الحبلين مسافة حبلٍ واحد، فنصبح أمام غابة من الحبال تعيق الحركة والبناء والزراعة والتنقّل وما إلى ذلك.

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: آية " 2 ")

القمر نور:

إذاً..قال تعالى:

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنّ نُوراً)

(سورة نوح)

قوة إضاءة القمر هي واحد على ثمانية عشر جزءاً من مائة من أشعة الشمس، ففي أيام الليالي المقمرة تكون الطرقات واضحة تماماً، فالله جعل القمر نوراً، وجعل الشمس سراجاً وضّاءً.

إنبات الإنسان:

(وَاللّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (17))

انظر إلى طفل يزن ثلاثة كيلو يشرب حليب، وبعد حين يأكل بعض الفواكه والبقول، وبعض أنواع الطعام، فيصير وزنه أربعة كيلو، أو خمسة كيلو أو ستة أو سبعة.. إلى ستين أو سبعين أو ثمانين، لقد جاء إلى الدنيا بثلاثة كيلو، فصار ثمانين، فمن أين جاءت سبعة وسبعين الكيلو هذه ؟ لقد جاءت من نبات الأرض و الطعام الذي يأكله نبات، و النبات يبدأ صغيراً، ثم يكبر و يكبر و يكبر، فماذا تفعل أنت؟ إنك تسقي هذا النبات بالماء، وهذا الماء تذوب فيه المعادن التي في التربة، فيمدُّ النبات بالغذاء وبالمعادن فينمو النبات، وكأن في الكون وحدة كاملة بين أنواع المخلوقات، فالحيوان ينبُت، والإنسان ينبت، والنبات ينبت، إلا أن الجماد، يشغل حيزاً ولا يتحرّك ولا ينمو، بينما يشغل النبات حيزاً وينمو، ويشغل الحيوان حيزاً وينمو ويتحرّك، والإنسان يشغل حيزاً وينمو ويتحرّك ويفكِّر، فأسمى شيء في الإنسان هو هذه القوة الإدراكية التي أودعها الله فيه، فإذا عطّلها عَطّل إنسانيته وعاد إلى مستوى البهيمة، والإنسان من دون علم كالبهيمة تماماً، وقد كرّم الله عزّ وجل الإنسان بالقوة الإدراكية، وكرّمه بالبيان..

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

فالقوة الإدراكية من أجل أن يعرف الله، والبيان من أجل أن يعرّف الناس بالله عزّ وجل، فحينما يتعرّف إلى الله ويعرّف الناس بالله عزّ وجل فقد حقق الهدف الأمثل من خلق هذه القوة الإدراكية، ومن خلق هذا البيان الفصيح.

(وَاللّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (17))

حليب الأم و منعكس المص:

والحقيقة أن تطوّر الإنسان شيء عجيب، فالطفل يولد، و لولا أن الله سبحانه وتعالى قد تفضّل على الإنسان بما يسميه العلماء: (منعكس المَصْ) لمات الإنسان، و(المنعكس): مصطلح علمي، فالإنسان أحياناً تصيب يده دخينةٌ.. شرارة.. فيسحبها سريعاً قبل أن يعرف ما الذي أحرق يده، وقال علماء التشريح: هذا المؤثِّر قد وصل إلى النخاع الشوكي، والنخاع الشوكي أعطى أمراً بسحب اليد مباشرةً دون أن يصل الأمر إلى الدماغ، فأسرع استجابة هو استجابة المنعكس الشرطي، وهذا من رحمة الله بالإنسان، وضماناً لسلامته، فأحياناً يحتاج الإنسان إلى أن يتحرّك قبل أن يدرك، فلو أن إنساناً مَسّت يده طرف مدفأةٍ مشتعلة فإنه يسحبها قبل أن يفكِّر في أسرع من لمح البصر، لأن العلماء قالوا: قد يصل عن طريق الحس إلى الدماغ حينما يأتي هذا الأثر الحراري، و إلى أن يصل إلى الدماغ و يفكِّر الدماغ ما هذا الذي أحرق اليد ؟ ثم يعطي أمراً بسحب اليد تكون اليد قد احترقت، لذلك جَهَّز الله الإنسان بآليةٍ دقيقةٍ جداً سريعةٍ جداً.. **آلية إسعافية..** فإذا جاء أثر خطر إلى الجسم، فالنخاع الشوكي هو الذي يَرُدُّ على هذا الأثر باستجابةٍ عضلية، فالإنسان يسحب يده قبل أن يعرف ما الذي أحرق يده. مَهَّدت هذا التمهيد لأصل معكم إلى هذا الطفل الذي ولد الآن، فهل تستطيع أن تعلِّم هذا الوليد لتوّه كيف يَمُصُّ الحليب من ثدي أمه ؟ قل له: يا بني يا حبيبي ضع شفتيك على حلمة ثدي أمك وأغلقهما تماماً ثم اسحب الهواء، هل بإمكانك أن تعلِّمه ؟ لولا هذا المنعكس الذي خلقه الله في الإنسان لما كنا في هذا المسجد، و لما رأيت على ظهر الأرض إنساناً، فالإنسان مُجَهَّز، فتراه يضع شفتيه على ثدي أمه منذ أن يولد، ثم يحكم إغلاقهما ويسحب الهواء فيأتي معه الحليب، هذا المنعكس سماه علماء نفس الطفل: **(منعكس المص)**، لولا هذا المنعكس لما عاش إنسان على وجه الأرض.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد)

النجدان هما الثديان، فطعامه معقّم، ساخن في الشتاء، بارد في الصيف، وفيه كل مناعة الأم، كما يوجد فيه مواد مضادة للجراثيم، و مواد مضادة للتعفنات المعوية، و مواد تسرّع الهضم، وحليب الأم لا يبقى في المعدة أكثر من ساعة أو أقل، بينما يبقى حليب القوارير ثلاث ساعات، فالله عزّ وجل خلق الإنسان وخلق له طعامه المعقّم، فالأم التي تطعم وليدها من حليب القوارير تحتاج إلى أن تعقِّم الحليب عن طريق الغليان، ثم تبرّده كي يطيقه جسمه، وبينما تفعل ذلك يموت الطفل من شدة البكاء، لكن حليب الأم جاهزٌ في تعقيمه، و حرارته، بل إن العلماء اكتشفوا الآن أن حليب الأم تتبدّل نسبه في أثناء الرضعة الواحدة، فنسبة الماء في أوّل الإرضاع ستون في المائة، وحينما ينتهي من الإرضاع تكون نسبة الماء

أربعين بالمائة، ثم يزداد تركيزه، فتتبدل نسبه في الرضعة الواحدة، فكيف في اليوم الواحد ؟ إنه في كل يوم له نسب خاصة..

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنّ نُوراً وَجَعَلَ الشّمْسَ سِرَاجاً (16) وَاللّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (17))

أسنان الطفل:

الطفل لا يستطيع الأكل، فليس في فمه أسنان، ولو كان في فمه أسنان لما عرف معنى القطع، فربما عض على حلمة أمه فقطع حلمة الثدي، و لكن رحمة الله جعلت هذا الطفل بلا أسنان، ثم ينبت الله له أسنان لبنية تتناسب مع بنيته اللطيفة، فإذا كَبُر نبتت له أسنان أساسية، فمن رَتَّب هذا الترتيب ؟

جهاز التوازن عند الطفل:

إن الطفل يمشي و يتحرك، فهو في أول الأمر لا يستطيع أن يمشي، فينشأ له جهاز التوازن، و لو وضعت على ركبتك طفلاً عمره ثلاثة أشهر فما دون لمال ووقع، لكنه إن مال بعد ثلاثة أشهرٍ قليلاً فإنه يعدِّل جلسته، فقد عمل جهاز التوازن عملاً دقيقاً جداً..

الموت والحياة:

(وَاللّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (17) ثُمّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (18))

هناك بيت يولد مولود، وهناك بيت يموت إنسان، فالمَيّت يذهبون به إلى القبر، والمولود يطعمونه ويسقونه حتى يكبر، فكأن هذا النبات نما، فلما كبر يبس وعاد إلى الأرض وتحلل مع تراب الأرض..

(ثُمّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (18))

جاء بكم إلى الدنيا ليمتحنكم، ثم يعيدكم فيها ليحاسبكم، ويخرجكم في النهاية إخراجاً لتَلْقَوا نتيجة أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فالله عزّ وجل قال:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً (13))

وقد بيّن لك من هو الله ؟ فهو الذي خلق سبع سماوات طباقاً، وهو الذي جعل القمر فيهن نوراً، و جعل الشمس سراجاً، وهو الذي أنبتكم من الأرض نباتاً، وهو الذي يعيدكم فيها، وهو الذي يميتكم ويخرجكم إخراجاً، وهو الذي جعل لكم الأرض بساطاً.. فالأرض مستوية و مستقرة..

الأرض مستقرة وهي متحركة !!

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل61)

لو أنها ليست مستقرة لما قام بناءٌ على وجه الأرض، فالأرض تدور حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متر في الثانية، فإذا مضى علينا عشر ثوان تكون الشمس قد دارت ثلاثمائة كيلو متر، فإذا مضى علينا دقيقة ؛ أي: ستون في ثلاثين، فالناتج يساوي ألفاً وثمانمائة كيلو متراً في الدقيقة، والناتج في عشر دقائق هو ثمانية عشر ألف كيلو متر، فإذا كنا قد بدأنا الدرس قبل عشر دقائق فقد قطعنا في الفضاء الخارجي ثمانية عشر ألف كيلو متر، و نحن بدأنا من ثلث ساعة، أو من نصف ساعة،، فمعنى هذا أننا قطعنا ما يعادل مائتين وأربعين ألف كيلو متر، و ذلك من قول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، حتى الآن، ومع ذلك فإن الأرض مستقرة، و الآن لا توجد مركبة في الأرض إلا وتهتز، فالطائرة تهتز، والسيارة و القطار، وكل شيءٍ يتحرك و يهتز، لكن صنعة ربنا عزّ وجل..

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: آية " 88 ")

و الأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف وستمائة كيلو متر في الساعة، وأعلى طائرة وهي النفاثة تطير بسرعة تسعمائة كيلو متر، وقد ركبت طائرات كثيرة، فيها ثمانمائة وسبعمائة وخمسين، ستمائة و تسعمائة، وهي حالة نادرة جداً، وهي ترتفع إلى أعالي الجو، و أسرع طائرة يركبها الإنسان تبلغ سرعتها تسعمائة كيلو متر في الساعة، و الأرض تدور حول نفسها بسرعة آلف وستمائة كيلو متر، و الهواء متمم لها يدور معها، فلو كان الهواء ثابتاً لنشأ من دورتها حول نفسها أعاصير لا تبقي شيئاً على سطحها، فالأعاصير المدمرة الآن التي تقتلع المدينة من جذورها سرعتها في الساعة تسعمائة، ولو كنا على سرعة مائتين وخمسين لانهدمت الأبنية، والهواء على سرعة مائتين وخمسين كيلو متر يهدم أبنية وجدران و يقلع أشجار، وعلى مائة وخمسة وعشرين فيه أذى، فعلى سرعة مائة وخمسة وعشرين يحدث انهدام للبيوت وجدران، واقتلاع أشجار، فكيف يكون الحال على سرعة تسعمائة ؟ وكيف هو على سرعة ألف وستمائة ؟ ولو كان الهواء ثابتاً والأرض لنشأ من دورتها وثبات الهواء رياحٌ عاتية لا تبقي ولا تذر، فالأرض تدور، وهي مع دورتها حول نفسها و حول الشمس مستقرة ثابتة.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

مستقرة وهي متحركة، وهذا شيء عظيم جداً، ورغم ذلك تنجذب الأجسام إليها، ولا تستقر إلا عليها، وهذه من نِعَمِ الله العظمى، و رواد القمر يصلون إلى مكانٍ بين الأرض والقمر تنعدم فيه الجاذبية، و الحياة هناك لا تُطاق ؛ فيستيقظ أحدهم فيرى نفسه في سقف المركبة، لأنه ليس له وزن، فيمسك الأداة

فتطير منه، و حياة روّاد الفضاء في مكان انعدام الجاذبية لا تحتمل، أما الشيء الذي له وزن فإنك تضعه فيستقر، و هذه نعمةٌ عظمى لا يعرفها إلا من فقدها، وهي نعمة استقرار الأشياء على سطح الأرض، إذاً:

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً (19))

(سورة نوح)

ممهدة، لو كانت جبال حادة فهل يمكننا أن نعيش عليها ؟ لكن هناك سهول و جبال انحدارها معقول، يمكن أن تصير مدرجات، وهناك وديان و صحارى و أغوار، أما لو كان في الأرض صخور بازلتية مسننة حادة فكيف نعيش عليها ؟ و كيف نأكل منها ؟ من مهّدها ؟ لقد جعل الله الجبال و الوديان و السهول و الممرات بين الجبال و القنوات و الترع و البحار و الأنهار.

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً (19))

أي: مبسوطة أمامكم، و هي كروية لكنك تراها مُنْبَسِطَة.

(لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً (20))

(سورة نوح)

أي: جعل ممرات، فبين الجبلين تجد وادياً، والوادي له ممر إلى سهل، والسهل يساير البحر، ومن حين لآخر ينحسم الجبل فينشأ طريق بين الساحل البحري والداخل، فمن صمم هذه الطرق، وهذه الجبال، وهذه الوديان ؟.

(وَقَالَ نُوحٌ)

(سورة نوح)

كل هذه الآيات هي تعقيب على قوله تعالى:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

أي: هل تعرفونه من هو هذا الذي يدعوكم نوحٌ إلى عبادته ؟ إنه الذي خلق سبع سماواتٍ طباقاً، وهو الذي جعل القمر فيهن نوراً و جعل الشمس سراجاً، وهو الذي أنبتكم من الأرض نباتاً، وهو الذي سيميتكم ثم يحيكم و جعل هذه الأرض ممهدة، فلو أن الأرض خلقت كما هي بلا ماء فكيف نعيش عليها؟ إنك لن تجد تجمعاً سكانياً إلا وفيه نبع، و في إندونيسيا أربعة آلاف جزيرة، لكل جزيرةٍ نبعها، وماذا يعني أن يكون في الجزيرة نبع ماء؟ أي: إن هناك تمديدات من تحت سطح الأرض، وهناك مستودعات في الجبال في اليابسة، فلا يمكن أن يُفَسَّر النبع في الجزيرة إلا بهذه الحقيقة، وهناك مستودعات للمياه في قمم الجبال، وهناك تمديدات من تحت سطح البحر إلى هذه الجزيرة، فربنا عزّ وجل يَسَّر الهواء في كل مكان، ويسّر الماء في مُعْظَم الأمكنة، وجعل التربة تنبت، فالعبرة في أن الله

هو الذي صمم الهواء، وصمم الماء، والتربة، والبذور، والنباتات، والمعادن، وأشباه المعادن، والحيوانات، والأسماك، والأطيار.

اتباع الباطل:

(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (21))

لقد اتبعوا الأغنياء واتبعوا الأقوياء وهذا شأن الغافلين، بينما يتبع المؤمنون العلماء الذين يدلونهم على الله عزّ وجل.

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

بالمقابل..

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

فالإنسان المؤمن لا يصاحب إلا مؤمناً، ولا يستشير إلا مؤمناً، ولا يستنصح إلا مؤمناً، ولا يقبل نصيحة إلا بالدليل، فما حُكم الشرع في هذا ؟ وما الدليل ؟ وما الآية ؟ وما الحديث ؟ **(إن هذا العِلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم)**

(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (21))

كما قلت في بداية الدرس: إن المال يزيد الإنسان رفعةً عند الله إذا أُنْفِقَ في طاعة الله، ويزيد الإنسان خسارةً يوم القيامة إذا أنفق في معصية الله، فإذا أنجبت مولوداً فإن هذا المولود يزيدك رفعةً عند الله إذا دللته على الله، ويزيدك خسارةً عند الله إذا أطلقته إلى المعاصي والآثام، فالمال والبنون إمّا أن ترقى بنا، وإما أن تهوي بنا، لأن الكافر يربّي ابنه على الكفر، والعاصي يربّيه على المعصية، والمُنْحَرِفْ يربيه على الانحراف، قال سيدنا نوح:

(وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً (27))

قال تعالى:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف: آية " 46 ")

إن المال والبنين إذا استعملا في طاعة الله كانا سُلماً لك إلى الله، أما إذا استعملا في معصية الله فهما وقود للإنسان في النار.

(وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (21))

المعنى الآخر لهذه الآية.. ينبغي إذا كان معك مال أن يزيدك رفعةً عند الله، وينبغي إن كان لك ولد أن يزيدك هذا الولد رفعةً عند الله، فالمال بإنفاقه والولد بتربيته، والمال بتوظيفه في الحق والولد بتربيته التربية الإسلامية الصحيحة، وعوام الناس- أيها الإخوة -يؤخذون بالمال والقوة والجمال، بينما يؤخذ المؤمنون بالعلم والعمل، وفي القرآن قِيَم، قال تعالى:

(يَرْفَعِ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة المجادلة: آية " 11 ")

وفي القرآن قيم أخرى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ (132))

(سورة الأنعام)

فالقيم التي اعتمدها القرآن كَمُرَجِّحات بين خلقه هي قيم العلم والعمل، والدليل واضح.

(يَرْفَعِ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة المجادلة: آية " 11 ")

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ (132))

(سورة الأنعام)

أما الناس فهم يعظِّمون أصحاب الأموال و أصحاب السلطان، ويعظمون من أتاه الله شكلاً بارعاً جميلاً، لكن المؤمن يتّقي الله عزّ وجل فلا يوالي إلا المؤمن..

تطبيق عملي:

(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلّا خَسَاراً (21))

هذه الآية لها تطبيق عملي، فأنت -أيها الأخ الكريم- ما الذي يستهويك ؟ هل يستهويك رجل علم يعلِّمُكَ مما علمه الله ؛ يعلمك الآداب و الأحكام و القرآن و سِيَر النبي العدنان، أم يستهويك إنسان يعلمك السقوط، والانحراف، والانغماس في الملذات والشهوات ؟ والإنسان يُغَذّى، فانظر ما الذي يغَذّيك ؟ فهذه الأوعية التي يستعملها الناس للماء لها فتحةٌ علوية ولها صنبور سُفلي، فالذي يوضع فيها من فتحتها العلوية تجده في الصنبور السُفلي، فلو ملأتها ماءً قُراحاً، أخذت منها الماء القُراح، ولو ملأتها ماءً ملوّثاً أخذت منها الماء الملوّث، ولو ملأتها شراباً طيباً أخذت منها الشراب الطيّب، فالإنسان ينظر.. من أين أتغذّى ثقافياً ؟ هذا الذي يتغذّى عن طريق أجهزة اللهو، وعن طريق أخبار الساقطين والساقطات الأحياء منهم والأموات يغذّي نفسه تغذيةً رديئة، فماذا يتكلم إذا أراد الكلام ؟ أما إذا كان التغذية تغذية إيمان و قرآن وسنة و فضيلة و بطولات، فهذا الإنسان يخرج منه البطولات، فإذا التفتنا إلى أهل الدنيا وانغماسهم في الملذّات وقلّدناهم هلكنا.

(وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (21))

فإذا سمحنا لأعمال فنية ساقطة أن تربي أولادنا فماذا يوجد في العمل الفني الساقط ؟ هناك خيانة زوجية و تفلّت و شرب خمر و اختلاط و احتيال و كذب و سقوط و دناءة.

مكر الكافرين:

(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (21) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22))

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30))

(سورة الأنفال)

الكافر دائماً يهيّئ خططاً لإطفاء نور الله وإبطال الحق، إنه لا يستطيع ذلك، ولكن الله عزّ وجل يعطيه فرصةً ليكشف عن مكنونه، ليعبّر عن ذاته، ليأخذ أبعاده، لكن الله سبحانه وتعالى يُفْشِلُ عمله، وقد قال الله عزّ وجل:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12))

(سورة آل عمران)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية " 36 ")

(وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22))

لا تقلق على دين الله عزّ وجل إنه دينه، ولكن اقلق هل سمح الله لك أن تنصره أم لم يسمح ؟ هل منحك الله شرف نصر دينه أم لم يُعْطِكَ هذا الشرف ؟ فقط..

آلهة الكافرين:

(وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (23))

هذه الأصنام التي كانوا يعبدُها الجاهليون، هي خشبة أو تمر، إنها صنم من تمر لما جاعوا أكلوه، أو حجر، إنها أسماء ما أنزل الله بها من سُلطان، قال بعض المفسّرين: إنهم رجالٌ صالحون لما ماتوا نصبوا لهم تماثيل، وبعد حين عبدوها من دون الله، وحينما انتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق

الأعلى وقف الصديق رضي الله عنه، وما على وجه الأرض أحدٌ يحبُّ رسول الله كَحُبِّ الصديق، ومع ذلك قال: **" من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ".** فالخطر أن نتخذ الأولياء آلهة نعبدهم من دون الله، فكل تعظيم للأشخاص يُفْضي إلى عبادتهم و تقديسهم كما يُقَدَّس الإله، وهذا طريق إلى الشرك، لذلك حسم سيدنا الصديق الموقف وقال: **" من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت "** فهذه أسماء الأصنام التي كانت تعبد في الجاهلية من دون الله، لها قصصٌ طويلة قد لا تغنينا شيئاً، إلا أن الذي نستفيده منها فيما يروي بعض المفسرين، وفيما ورد في الأثر، أنهم كانوا رجالاً صالحين لما ماتوا أراد قومهم أن يذكروهم دائماً، فصنعوا لهم تماثيل، بعد حين ضاع العِلم فظنوهم آلهة فعبدوهم من دون الله.

(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً (24))

و سيدنا نوح لما أبلغ ربنا عزّ وجل قال له:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36))

(سورة هود)

وبعد هذا الإعلام من الله عزّ وجل.

(وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (26))

الآية التي قبلها:

(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا)

أي بسبب خطيئتهم أغرقوا..

(فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً (25))

وكل إنسان يقع في الخطأ ويعصي، ويجحد، ويجهل، ويقترف الآثام، ويموت كافراً فهو من حياةٍ كلها شقاء إلى موتٍ حاسم إلى جهنم وبئس المصير.. هكذا..

(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (26))

طبعاً لكي نفهم الآية لا بد أن نعلم أن الله أعلمه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، إذاً يا ربي حياتهم لا تجدي.. إذاً..

خطر الكافرين:

(لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً (27))

أي: إن الكفار الله عزّ وجل وصفهم في آية، فقال:

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45))

(سورة الأعراف)

وقد رأيتم وسمعتم قبل أسبوع عن تلك وفاة إنسانة غارقة في الفساد والفسق والفجور والعصيان والزنى، وقد سار في جنازتها سبعة ملايين إنسان، وعظّمها كل دول العالم، وأرسلت وفوداً لتشييع الجنازة، وهي تعترف بمؤتمر صحفي أنها زنت مع فلان، ومع فلان، ومع فلان، ومع فلان.. سبع حالات.. هذا هو مجتمع الغرب، مجتمع الكفر والفسق والفجور.

(وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً (24) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً (27))

أي: إن ثقافتهم ثقافة زنى، ثقافة فُحْش، ثقافة إباحيّة، ثقافة أمراض، ثقافة شذوذ، هذه ثقافتهم، وطرحُهم الفكري لا يوجد فيه إلا الدنيا، فيقال لك: هذا عِلماني لا يؤمن إلا بالمادة و لا يؤمن إلا بهذه الحياة فقط، ولا يؤمن إلا بالشهوة، ولا يؤمن إلا بالمال، ويَكْسِبُ المال من أي طريق، وينغمس في أية شهوة، ولا يعبأ بشيء.

(إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ)

طبعاً والداه كانا مؤمنين كما يقولُ المفسرون.

(دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً (28))

أي: خسارا.

يا أيها الإخوة... هذه ليست قِصّة هي موعظة، هذه حقيقة تتكرر، إن كل مجتمع فسق، وفجر، وانحرف، وكفر، يُهْلَكْ ويشقى وهو إلى جهنم وبئس المصير.

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

(سورة الإسراء)

إذا لم يستقم الإنسان أصبحت أمامه مشكلة كبيرة، وقد كنت أضرب مثلاً فأقول: نحن في مسرح، فهناك مقاعد للمشاهدين و خشبة مسرح، وكل إنسان مستقيم له مكانٌ مع المشاهدين، والمستقيم يستمع إلى

قصص غريبة ونادرة وصحيحة وكاذبة، قد تصدّق وقد لا تصدق، أما إن لم يكن مستقيماً فلا بدّ من أن يُجَرّ إلى خشبة المسرح، ولا بدّ من أن تنزل به نازلة، ولا بدّ من أن يصبح قصةً هو نفسه، فهذه قصة أمامنا، كيف أهلك الله قوم نوح، و عندنا هلاك جزئي، فقد تجد إنساناً فسق و فجر وأسس ملهى وأحضر كل الساقطات للملهى، وبعد افتتاحه بأسبوع مات.

(فَأُدْخِلُوا نَاراً)

الذين يبنون رزقهم على المعاصي والآثام، و يأكلون أموال الناس بالباطل، و يبنون مجدهم على أنقاض الناس، هؤلاء جميعاً يموتون.. وسبحان من قهر عباده بالموت ثم يدخلون إلى النار وبئس المصير.. هذه ليس قصة، بل هي حقيقة متكررة، فالإنسان عليه أن ينتبه، وعليه أن يعرف الله وأن يعرف منهجه، وأن يستقيم على أمره لئلا يكون كما قال الله عن قوم نوح، هؤلاء الذين عصوا، وطغوا، وعتوا، وفجروا ثم أهلكهم الله عزّ وجل وصاروا إلى النار وبئس المصير.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (1-8): المقدمة 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-09-19

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان بالجن، وحدود قدراتهم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة الجن.

إن هذه السورة تتحدث عن نوعٍ من مخلوقات الله عزّ وجل وهم الجن.

تطرف بعض الناس في اعتقادهم بالجن:

1- هناك من الناس من تطرف فنسب للجن كلّ الخوارق والعلوم والأفعال، كما نسبوا إليهم كل نفعٍ و ضرٍ، بل إنهم قد وصلوا إلى أبعد من ذلك حينما زعموا في عهد النبي أن الجنّ هي التي علّمت النبي عليه الصلاة والسلام.

2- وتطرّف أناسٌ آخرون فأنكروا وجود الجن، مع أن الحقيقة تقول: إن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود.

أين الحقيقة ؟

إن الحقيقة إنما تكون من عند الله عزّ وجل عن طريق الوحي، لذلك كان أولُ ردٍ على الذين زعموا أن النبي عليه الصلاة والسلام تلقى علمه من الجن الذين عاصروا النبي هو أنّ الجن قد استمعوا إلى القرآن بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلوه والنبي لا علم له بذلك، فلولا أنّ الله أخبره وأمره أن يخبر الناس أنّ الجنّ استمعت إليه لما علم ذلك.

أيها الإخوة.. لا أريد في هذه العُجالة أن أبدأ بشرح الآيات بل أريد أن أضع بعض الحقائق عن الجن كما هي مستنبطة من الوحي السماوي.. قال الله جلّ جلاله:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: آية " 72 ")

معنى هذه الآية أن الإنسان مخلوقٌ مكرّم قَبِل حمل الأمانة، في حين أشفقت السماوات والأرض من حملها، وقد كان من أبرز المخلوقات الذين أشفقوا من حمل الأمانة الملائكة ؛ فقد ملّكوا أنفسهم لله عزّ وجل وآثروا الإقبال عليه من دون مخاطرة التكليف والاختيار، فكانوا في بحر الأمان، وهم كائناتٌ تسبّح الله عزّ وجل وتمجده وتأتمر بأمره:

(لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

(سورة التحريم)

بينما آثر صنف الحيوان النجاة من مخاطرة التكليف، كما أنه آثر الشهوة ؛ فهو يستمد سعادته من الشهوات التي أودعها الله فيه دون أن يكون مسؤولاً.

الفرق بين ماهية الإنسان والحيوان والملك:

إن الملك يسبّح الله وهو ناجٍ من مسؤولية الاختيار فقد رُكِّبَ من عقلٍ بلا شهوة، أما الحيوان فقد رُكِّبَ من شهوةٍ بلا عقل، فالملك يسبّح والحيوان يأكل ويسبّح، لقوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: آية " 44 ")

إلا أن هناك آياتٍ كثيرة قرنت الجن بالإنس، فقد قال تعالى:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

(سورة الرحمن)

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء)

لقد استُنبط من هذه الآيات أن الجن أيضاً هم مخلوقاتٌ من نوعٍ خاص، كما هو الحال في الإنسان، فهو مخلوقٌ أول لأنه قَبِل حمل أمانة التكليف كما أنه قبل أن يغامر، فأودعت فيه الشهوات وأُعطي عقلاً في وقتٍ واحد، فالملك رُكِّبَ من عقلٍ بلا شهوة، والحيوان ركب من شهوةٍ بلا عقل، لكن الإنسان ركب من كليهما، فعنده نوازع أرضية كما يمتلك تطلّعاتٌ إلى السماء، وذلك لأن الإنسان مخلوقٌ متميز فهو ليس ملكاً ولا حيواناً، فالحيوان هو شهوة فقط، أما الملك فهو عقل فقط، أما الإنسان ففيه العقلُ وفيه الشهوةُ، فإن سمت شهوته على عقله كان دون الحيوان، و إن أحقر حيوان ترونه بأعينكم هو أفضل من الإنسان الشارد عن منهج الله:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة

أي: إن هؤلاء هم شر ما برأ الله، ولكن الإنسان إذا سما بعقله على شهوته أصبح فوق الملائكة.

أيها الأخ الكريم... إن هويتك الأساسية هي أنك المخلوق الذي قَبِلَ حمل الأمانة في حين أن السماوات والأرض أشفقتا من حملها، فإذا سما عقلك على شهوتك تفوّقت على الملائكة، لأن الملائكة ليس عندها ما تغامر به، أما الإنسان ففيه نوازع أرضية وتطلعات سماوية، وفيه قبضة من تراب الأرض ونفخة من روح الله عزّ وجل وهو بينهما، فحينما قَبِل الإنسان حمل الأمانة كرّمه الله أعظم تكريم ؛ ومن أعظم

أنواع التكريم أنه سخَّر له ما في السماوات والأرض جميعاً منه تسخير تعريفٍ وتسخير تكريم، ويا ليت الإنسان يعرف من هو ؟ إنه إذا عرف ذاته فهم أنَّ كلَّ هذا الكون مسخرٌ له، كما أنه يفهم أن الله إذا أدَّبه إنما يؤدِّبَه من أجل أن يرجعه إليه وفي ذلك سعادته، فقد يظن الناس الجهلة أن موارد الأرض قليلة وأن هناك تفجُّراً سكَّانياً و مجاعات تنتظر أبناء الأرض، و هذا كلامٌ مضحك لأن الله عزَّ وجل إذا قنّن كان تقنينه تقنين تأديب لا تقنين عجز، فهو يؤدِّب هؤلاء الناس الذين خلقهم ليكونوا مخلوقات في الصف الأول فجعلوا أنفسهم في الصف الأخير، فقد سُخِّرت لهم السماوات والأرض فكانوا مسخَّرين لشهواتهم، أيها الأخ الكريم: إن الماء للتراب، والتراب للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، وأنت لمن ؟ أنت لله الواحد الديان، و لا يليق بك أن تكون لغير الله، ولا يليق بك أن تُحْسَب لغير الله، كما لا يليق بك أن تُجيّر طاقاتِك وتفني شبابك وتنفق عمرك لغير الله، فأنت لله، وقد خُلِقت لسعادةٍ أبدية.

مثال يوضح معنى (الأبد):

أيها الإخوة الكرام... ما الأبد ؟ إننا قد لا نفهم هذه الكلمةَ، لقد ذكرت مرة في جامع العثمان هذا المثل: لقد كان أمامي كتاباً أقرأ منه، فقدَّرت طوله بخمسة وعشرين سنتيمتراً، وقلت: إذا وضعنا واحداً في طرفه الأول وكان مكان كل ميليمتر صفر، أصبح لدينا مائتين وخمسين صفراً، فكم هذا الرقم ؟ إن أول ستة أصفار من هذا الرقم تعني مليون، وثاني ستة أصفار تعني مليوناً آخر، و ثالث ستة أصفار تعني مليوناً ثالثاً، فإذا قسمنا مائتين وخمسين صفراً على ستة لكان الناتج خمسين مليوناً، فلو أن الأصفار كانت إلى مدخل المسجد، فما هو هذا الرقم الناتج عندئذ ؟ لقد كنت أرى ساحة شمدين وأنا على كرسي التدريس، فقلت: تصوروا أن الأصفار ممتدة إلى ساحة شمدين مثلاً، أو أنها ممتدة إلى النبك، و إلى حمص أو حماه أو حلب أو إلى أنقرة أو موسكو أو القطب الشمالي، ولو أننا عُدنا إلى المحيط الهادي من القطب الجنوبي، ثم عُدنا صعوداً إلى جنوب إفريقيا ثم إلى مكة، ومعان وعمّان، وبعد ذلك عدنا إلى الشام مرة ثانية، فكم يصبح هذا الرقم، إن الإنسان في هذه الحالة يكون أمام أربعين ألف كيلو متر من الأصفار، وكل ميليمتر من هذه الكيلو مترات هو عبارة عن صفر، فما هذا الرقم ؟ إنه رقم يصعب تصوره، فإذا كان أحدنا أمام أصفار تصل إلى الشمس، وإن المسافة بين الأرض والشمس هي مائة وستة وخمسين مليون كيلو متراً، وكل ميليمتر هو صفر، إن هذا الرقم ضخم جداً، لكنه إذا نُسب إلى اللانهاية كان الناتج صفراً، وقيمة الصفر هي: لا شيء، فأنت مخلوق للأبد، أنت مخلوق لجنةٍ لا ينفد نعيمها فيها من السعادةٍ مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمسكينٌ هو ذلك الإنسان الذي يضيّع سعادة الأبد من أجل سنواتٍ معدودة مشحونة بالهموم والمتاعب، وكم هو خاسر ذلك الذي يضيع جنةً خلقه الله له من أجل دريهمات يكسبها حراماً في سنواتٍ معدودة،أو من أجل أن يمضي وقتاً مع نساءٍ ساقطات يعصي الله بهن، إن الإنسان مسكين إذا نسي لماذا خلقه الله، و ظن أن

الدنيا و المال و المرأة و المكانة الاجتماعية كل شيء، وهو مسكين لأنه ما عرف قيمته و هويته، ولا عرف مكانته عند الله عزّ وجل، و أنه مخلوقٌ أوّل مكرّم مميز مكلفٌ بالعبادة، إنه يغفل عن أخطر شيءٍ في حياته:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُون)

(سورة الذاريات)

من أنت ؟؟!

أيها الأخ الكريم... يجب عليك أن تعرف من أنت، إن الله جلّ جلاله في عليائه أنزل هذا القرآن ليعرّفك من أنت، ثم يعرفك بمهمتك الخطيرة التي أنيطت بك، و يعرفك أن كلّ سعادتك وسلامتك في طاعته، وكلّ شقائك وعطبك في معصيته، و يعرفك أنك زمن، فما أنت إلا بضعة أيام، و إن كل واحد منا له عمر عند الله عز وجل، فالواحد منا مثلاً قد يبلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أسابيع وخمسة أيام وسبع ساعات وثماني دقائق وأربع ثوان، وهذا هو الإنسان، كلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، فهو أيامٌ معدودة، ومضي الزمن يستهلكه ويقضي عليه، و هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر)

إن مضي الزمن وحده يستهلكه وهذه خسارة كبرى لك، وإنك مخلوق سُخِّرَت لك السماوات والأرض، فهذه المجرة التي تبعد عنا ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية مسخرةٌ لك وهناك مليون مليون مجرة وفي كل مجرة تقريباً مليونُ مليون نجم، وكل هذه المجرات مسخرةٌ لك بنص القرآن الكريم، وهو كلام خالق الكون:

(وَسَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية: آية " 13 ")

ماذا تعمل ؟ كيف تمضي وقتك ؟ ماذا أعددت ليوم اللقاء مع الله عزّ وجل ؟ و ماذا أعدت لهذه الحياة الأبدية التي لا تنقضي، فإما أن تكون فيها في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها، ماذا تقول إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجل الذي يقول لك:

((عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن، أفيعيني رغيفٌ أسوقه لك كلّ حين؟؟))

أي: أتعصيني من أجل الرغيف، فتغتصب ما ليس لك، و تغُش و تكذب و تحتال على الناس من أجل أن تربح ؟

((لي عليك فريضة ولك علي رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً))

أيها الإخوة... أريد منكم بعض التأمُّل و بعض التريث:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

لقد أُثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا مشى مَشى مسرعاً كأنه ينحط من صبب، وقالت السيدة عائشة عن سيدنا عمر: **" رحم الله عمر ! ما رأيت أزهد منه ! كان إذا سار أسرع، وإذا أطعم أشبع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع ".**

فما معنى قوله تعالى:

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

معنى (يمشون هوناً) ؛ أي: لا يسمحون لهذه الدنيا الفانية أن تستهلكهم، و لا يسمحون لمشكلاتهم أن تشغلهم عن ربهم، و لا يسمحون لعرض الدنيا الزائل أن يصرفهم عن هدفهم الكبير، كما لا يسمحون لعملهم أن يقبرهم:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

نحن نرى الناس الآن كل منهم في قبر ؛ فهذا غارق في قبر عمله، وهذا في قبر زوجته، وهذا في قبر أولاده، وهذا في قبر صنعته، وهذا في قبر أمله، أم عباد الرحمن فهم لا يسمحون للدنيا أن تستهلكهم ولا أن تصرفهم عن الهدف الكبير الذي خلقوا له، وإذا تأملنا بعض التأمل رأينا أن هؤلاء الذين هم من عمل إلى عمل، ومن لقاء إلى لقاء، ومن حفل إلى حفل، ومن نشاط إلى نشاط يأتيهم الموت فجأةً، فيقال لهم: " أم ماذا كنتم تعملون؟ " أيعقل أن يذهب إنسان إلى بلدٍ غربي لينال الدكتوراه و يعود إلى بلده وهو يحمل أعلى منصب، ثم ينسى سرّ مجيئه إلى هذا البلد، وينسى أنه أرسل ليحصّل هذه الشهادة العليا ؟ فيتلهى بالملهيات، ويغرق في الموبقات و النزهات والمسارح و المتاحف و النوادي الليلية، ثم تمضي الأيام ويعود صفر اليدين بعد ذلك.

يا أيها الإخوة... إن هذه دعوةٌ إلى أن تعرفوا أنفسكم من خلال هذا الكتاب الذي هو كلام الله، فالإنسان مخلوق أول:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُون)

(سورة الذاريات)

أي: لتطيعه طاعةً طوعية مع حبٍ شديد على أساس معرفته، لكي تسعد بقربه، فهؤلاء الملائكة قد يذكرون الله دائماً من دون مسؤولية أو مغامرة، فهم ليس عليهم حساب، لأنهم لا يملكون شهوات يميلون إليها، أما هؤلاء الحيوانات على كثرة أنواعهم فهم ليسوا محاسبين ولا مكلّفين، لأنهم يمارسون شهواتهم مسيَّرين لا مخيَّرين، فهم معفَون إذاً من المسؤولية، كما الملائكة قد أعفوا من المسؤولية أيضاً، لكن هذا الإنسان كائن ازدواجي، فيه قبضةٌ من تراب الأرض ونفخةٌ من روح الله، و فيه نوازع أرضية ؛ كحاجته للطعام والشراب والنساء، كما فيه نوازع سماوية ؛ كأن يكون كريماً و عفواً وجواداً و منصفاً ومحسناً، متصلاً بالله متعرفاً عليه متقرباً إليه، ليسعد به، و هنيئاً لمن ضبط شهواته وفق منهج الله.

ضبط الشهوات:

إن الله عزّ وجل لم يحرم على الإنسان الشهوات التي أودعها فيه، ولكنه أمره بضبطها وفق منهجه فقط، فقد سُمِحَ له أن يأكل ما شاء إلا لحم الخنزير، وأن يشرب ما يشاء على إلا الخمر، وأن يختار أي امرأةً راقت له فيتزوجها على أن يدع الزنى وإطلاق البصر إلى الحرام، وقد سُمِحَ له أن يكسب المال الحلال على أن يدع المال الحرام، فمنهج افعل ولا تفعل هو منهج تفصيلي، فيا سبحان الله ! ما شأن هؤلاء المسلمين الذي ضغطوا الدين فجعلوه صوماً وصلاةً وحجاً وزكاةً فقط ؟ إن في الدين _إن صح التعبير_ مليون بند ؛ فالإسلام معك في بيتك حينما تغتسل، و حينما تلتقي مع أهلك، و حينما تربي أولادك، كما أنه معك حينما تخرج من بيتك و تدخل إلى دكانك، وهو معك في لهوك و جدّك، و في سفرك و إقامتك، و في حربك و سلمك، و في مسرّاتك وأحزانك، و هناك منهج دقيقٌ دقيق يجب أن تسير عليه، فهذا الإنسان هو الكائن الأول الذي منحه الله شرف التكليف، وقد أعطاه الله مقومات، فسخر له كوناً ينطق كلّه بوجود الله ووحدانيته وكماله، و أعطاه عقلاً وقوةً إدراكيةً يتميز بها على كل المخلوقات.

الإنجازات المذهلة للعقل الإنساني:

إن الطائرة التي تحمل سبعمائة راكب يجلسون على مقاعد وثيرة، ويأكلون أطيب الطعام الساخن، و يشربون أطيب الشرابات الباردة، ويحلقون على ارتفاع أربعين أوخمسين ألف قدم، هذه الطائرة قد صُنعت عن طريق هذا العقل الذي أودعه الله فينا، فما هذا العقل ؟ إنه شيء معجز، وإني لا أبالغ إن قلت: إن العقل البشري هو أعقد شيءٍ في الكون، فقد اخترع الإنسان أشياء مذهلة، وأنا هنا لا أمدح هذا الإنسان ولا أثني عليه، لكني أبين لكم هذه المخترعات، فهي شيء لا يصدق، ومنها أن يصور إنسان إنساناً آخر في أقاصي الأرض، فيلتقط حركاته وسكناته، فتُنْقَل هذه الصورة إلى كل بقاع الأرض في

وقتٍ واحد، وإنك الآن تضرب كلمات بحروف، فتنقل هذه الكلمات خلال ثانية إلى أقصى المعمورة، وهذا عمل الفاكس أليس كذلك ؟ فهناك منجزات مذهلة للعقل، وقد صنع هذا العقل جهاز يقرأ أربعمائة وخمسين مليون حرف في الثانية.

أيها الإخوة... إن الإنسان قد وصل إلى القمر، ثم أرسل مركبة إلى المريخ وهو يبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليون كيلو متر، كما أنه أرسل مركبة إلى المشتري بقيت تسير ست سنوات بسرعة أربعين ألف ميل في الساعة، وقد اخترع الإنسان الحاسوب الذي يقرأ أربعمائة وخمسين مليون حرف في الثانية، كما اخترع وسائل للمعرفة، منها الأسطوانة التي دُوِّن فيها كتب تملأ أربع جدران، وقد وصل الإنسان إلى أعماق البحر، فحفر فيها آبار النفط، فوالله الذي لا إله إلا هو لو بذل هذا الإنسان من هذه الطاقة الفكرية التي أودعها الله فيه واحداً بالمليون لعرف الله ولسعد بقربه، فمسكين هذا الإنسان الذي يستخدم عقله لغير ما خلق له، لقد استخدمه من أجل السيطرة على الطبيعة فتم له ذلك، كما استخدمه لنقل الأشخاص و الصور و المعلومات بلمح البصر وتم له ذلك، واستخدم عقله لصنع مركبات فارهة و طائرات كبيرة وناقلات تزيد حمولتها عن مليون طن، فحمولة ناقلات النفط العملاقة هي مليون طن، فكأن هذه الناقلة مدينة مصغرة، فلو استخدم من عقله واحداً بالمليون لعرف الله وسعد بقربه في الدنيا والآخرة، لكنه يستخدم أثمن شيءٍ يملكه لغير ما خلقه الله عزّ وجل:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً(104))

(سورة الكهف)

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

حقيقة الدنيا:

لقد أعطى الله الإنسانَ الشهواتِ ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات صابراً وشاكراً، كما أعطاه حرية اختيار ليثمّن عمله، و أعطاه منهجاً تفصيلياً يسير عليه، و أعطاه شرعاً حنيفاً لا يخطئ، فالحسن ما حسّنه الشرع والقبيح ما قبّحه الشرع، فمن كونٍ إلى عقلٍ إلى فطرةٍ إلى شهوةٍ إلى حرية اختيارٍ إلى منهجٍ، وذلك لأنه قَبِل حمل الأمانة، أما الغافل عن ذكر الله و الغافل عن حقيقته و مهمته، والمفتون بهذه الدنيا الفانية القصيرة التي تنقضي بلمح البصر فإنه سيكون تحت أطباق الثرى ما بين طرفة عينٍ وانتباهتها، فقد يكون الإنسان ملء السمع والبصر، فإذا هو خبرٌ على الجدران، فيقال: انتقل إلى رحمة الله تعالى عميد الأسرة الفلانية وسيُشَيَّع إلى مثواه الأخير، ثم ينتهي بعد ذلك كل شيء، فإلى أين نحن

ذاهبون ؟ إن هذا الذي يعيش يومه و لحظته، فلا يفكر من أين و إلى أين، ولا يفكر في سبب حياته يعيش على هامش الحياة، و هو إنسان يحتقر نفسه.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة: آية "130 ")

هناك أشياء كثيرة يرفضها الإنسان احتقاراً لها، إلا دين الله عزّ وجل فإنك إذا رفضته احتقرت نفسك، قال تعالى:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

اعرف نفسك:

أيها الإخوة الكرام... من عرف نفسه عرف ربه، فإذا عرفت نفسك وظفت كل شيء الله أعطاك إياه في الحق، و استخدمته فيما خُلِقتَ له، فتستخدم عقلك لمعرفة الله، وعينك للنظر إلى آيات الله، وأذنك لسماع الحق، ولسانك لذكر الله عزّ وجل، فإذا عرفت نفسك فهمت خطورة المهمة التي أناطها الله بك، وعرفت أن الله عزّ وجل خلقك ليسعدك، قال تعالى:

((إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم))

فإذا عرفت هذه الحقيقة كنت إنساناً آخر، أما إذا شردت عن منهج الله فإنك ستكون من الذين لا يُقام لهم وزن يوم القيامة، و لهم صَغارٌ عند الله..

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

أيها الإخوة الكرام... اكسبوا حياتكم، واعرفوا هويتكم، وافهموا لماذا خلقتم في الأرض، لقد خلقتم لمعرفة الله والعمل الصالح، وحينما تحققون هذين الهدفين، تأتيكم الدنيا وهي راغمة، لأن الله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

فماذا يفعل بعذابكم إن أردتم سعادة الدنيا والآخرة، فإذا أردتم ذلك فاعرفوا من أنتم، واطلبوا العلم، لتتعرفوا من خلاله إلى الله عزّ وجل، فتفقهوا منهجه، وتميزوا أهل الحق، و تهتدوا إلى الطريق المستقيم وهو طريق سعادتكم.

من الجن ؟؟

لقد أردت من هذه المقدمة أن أقول: إن الجن الذين هم موضوع هذه السورة مخلوقات كالإنس.

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

(سورة الرحمن آية "33 ")

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

و في درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نشرع في تفسير هذه السورة التي تعطي الجن الحقيقة التي ينبغي أن نعرفها عنهم دون زيادةٍ أو انحرافٍ أو إسرافٍ أو إنكار، فالجن كائنات خلقها الله عزّ وجل و أعطاها حرية الاختيار

الإيمان بالجن:

إن الإيمان بالجن هو من العقائد التي تُعلم من الدين بالضرورة، وهو فرض عين، ففرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، لكن الإيمان بالله و أسمائه الحسنى، والإيمان بالملائكة و الجن، والرسل، والكتب، والقضاء والقدر، هذه كلها عقائد يجب أن تُعلم بالضرورة، فهي فرض عينٍ على كل مسلم.

توضيحٌ دقيق:

لو أن إنساناً اشترى سيارةً، وجب عليه أن يعرف أنه إذا تألق الضوء الأحمر في لوحة العدادات فلا بدّ له من أن يقف فوراً ليضيف زيتاً إلى المحرك، وإلا احترق المحرك، فهذه معلومات يجب أن يعرفها كل من يقود السيارة، لكن معرفة نوع الخلائط التي استخدمت في صناعة المحرك ليست واجبة على كل من يركب السيارة، فهي للذين يتخصصون في صناعة السيارات، فهناك علوم يجب أن يعلمها كل إنسان مسلم ولا عذر له في جهلها، وإذا جهلها زاغت عقيدته فانحرف سلوكه و شقي في الدنيا والآخرة، وموضوع الجن من العقائد التي يجب تعلم بالضرورة، لأنك إذا توهّمت، أن هذا فلان يعرف الغيب، وأن هذا الشيخ يتطلع على ما سيكون، فإنك في هذه الحالة تمشي في متاهاتٍ لا أساس لها من الصحة.

وقد مَرَ معنا من قبل أن من الجن من هم مؤمنون ومنهم من هم كافرون، قال تعالى:

(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة الجن آية "11 ")

مدى تأثير الجن على الإنس ؟

إن كان لخبثاء الجن بعض التأثير الجسمي على أحد من الإنس، فهذا التأثير إنما يكون على من يستكينُ بأوهامه وتخيلاته إلى سلطانهم، فالجن لا يستطيعون أن يؤثروا على أحد إلا إذا استكان وخضع لهم واتبعهم واعتقد بهم وأشركهم مع الله عزّ وجل، فكلُّ من يستكين بأوهامه لهم من ذكرٍ أو أنثى أو يتخيل أن بيدهم نفعه أو ضُرُّه و يخضع لسلطانهم، فإنه يتعرض لمسهم وتخبُّطاتهم، وسبب ذلك هو استعاذته بهم والتماسه نفعهم أو استخدامه لهم من أجل الإضرار بأعدائه من الإنس، و هذه الحالات محددة، فمن أراد أن يستخدم الجن ليضرّ بهم إخوانه من الإنس، أو التمس النفع عندهم، أو استعاذ بهم، أو خضع

لسلطانهم، أو اعتقد بهم، أو استكان بأوهامه لهم، دفع ثمن جهله و شركه و ضلاله، إذ قد يتعرّضون له بالأذى، و قد علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نستعيذ بالله من همزات الشياطين ومن حضورهم، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إذا فَزِعَ أحدكم في النوم فليقل: أعوذ بكلمات الله التامّات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون فإنه لم تضره))

فإذا رأى إنسان مثلاً ابنه يبكى في الليل بكاءً شديداً فجأةً فليستعذ بالله من همزات الشياطين، و هذا هو السلاح الفعّال المجدي.

ومنه ما رواه أبو داود وابن ماجة بإسنادٍ صحيح عن زيد بن الأرقم قال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الحشوش (أي مكان قضاء الحاجات) محتضرة (أي يحضرها الشياطين)، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبْثِ والخبائث))

و هذا دعاءٌ مأثورٌ عن النبي عليه الصلاة والسلام..

فالفكرة الأولى هي أن الشياطين ليس لهم سلطانٌ على الإنسان إلا إذا اعتقد بهم أو أشركهم مع الله، أو خضع لسلطانهم، أو توهّم أنهم ينفعونه و يضرونه، أو ابتغى النفع عندهم، أو استعاذ بهم والتجأ بهم، أو أراد أن يكيد لإخوانه من الإنس عن طريقهم، فإذا فعل هذا مسّه شرُّهُم ومسته همزاتهم، ودفع ثمن شركه وبغيه وعدوانه غالياً.

هل يُلْقِي الجن للإنس علوماً وأخباراً ؟

إن الجن قد يلقون العلوم والأخبار إلى قُرَنَائهم من الكُهّان، و بالمناسبة: لا يمكن للإنسان الذي يتعاون مع الجن إلا أن يكون كافراً، و هذا قول واحد، لأن أدق التعريفات للساحر أنه الشخص الذي يتّصل بالجن، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((من سحر فقد كفر))

فأي اتصالٍ بين الجن و الإنس، لا بد أن يكون هدفه إضلال البشر، ولو تزيًا هذا الذي يتصل بالجن بألف زيٍ وزي، و قد يكون هذا زي دينياً في بعض الأحيان، فقد يلبس هذا الإنسان عمامةً خضراء، لكنه كافر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم فعله ذلك، لأن هدفه إيهام الناس أن بيد الجن النفع والضُر، ليحولهم بذلك من عبادة الله سبحانه وتعالى إلى عبادة خلقه.

و السؤال الآن: هل يلقي الجن للإنس علوماً وأخباراً ؟ ونقول إجابة عن ذلك: أما العلوم والأخبار التي يمكن أن يلقيها الجن إلى قرنائهم من الكُهّان فصدقها مرتبط بطبيعة مواضيع هذه العلوم التي يُلْقونها.

1- العلوم المشهودة: فإن كانت من العلوم التي تتعلّق بالأمور المشهودة، كأن يخبروا عن الأمطارٌ الغزيرة التي نزلت في حلب هذا اليوم، فنزول الأمطار في حلب هذا اليوم من الأشياء المشهودة التي وقعت، و ليس من الأشياء الغيبية، لكن نقل الخبر قد لا يكون متيسراً للإنس قبل وجود الاتصالات السلكية واللاسلكية، والسفر السريع إلى هذه البلاد، فالجن أحياناً يستطيعون أن ينقلوا هذه الأخبار التي وقعت، وليس التي ستقع، و هذا ليس من عالم الغيب بل هو من عالم الشهادة، فإن كانت هذه الأخبار التي ينقلها الجن من العلوم التي تتعلق بالأمور المشهودة أو الأخبار عن الوقائع الماضية، فإنها أخبارٌ تحتمل الصدق والكذب، وليس ببعيدٍ أن يكون في الجن كذّابين، وقد أثبت الله تعالى أن منهم العصاة الكافرون، ومن جهة ثانية إننا لا يمكننا الثقة بأخبارهم لانعدام المقاييس بحوزتنا في معرفة صدقهم وكذبهم، و من الممكن أن يكون انتقال الجن سريع جداً، والدليل:

(قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ)

(سورة النمل: آية "39 ")

فقبل أن يقوم سيدنا سليمان من مقامه استطاع العِفْريت من الجن أن يأتي بعرش بلقيس من اليمن إلى القدس، فانتقاله سريع جداً، قال الله عزّ وجل:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

(سورة الرحمن)

فقد قدّم الله سبحانه وتعالى الجن على الإنس لأنهم أقدر من الإنس على خرق السماوات والأرض لميزاتٍ أعطاه الله إياهم.

قصة تبين كذب بعض الجن:

سأذكر لكم هذه القصة وقد سمعتها بأذني من صاحبها الذي توفي الآن رحمه الله، فقد سُرقت من بيته سجادة ثمينةٍ جداً، فدله بعضهم على من يضرب له (المندل)، فقال: ذهبت إلى (ضارب المندل) فجاء بوعاءٍ وضع فيه زيت، وجاء بغلام صغير، وصار يسأل هذا الغلام والغلام يجيب قائلاً: إن هذه السجادة موجودة الآن في بيت كذا، ثم حدد الحي، و(الدَخلة) و الحارة، وقال: أمام البيت هناك حجر كبير، و الباب لونه كذا، وهو يفتح على بهو واسع، ويوجد على اليمين غرفة تدخلونها، و في زاوية الغرفة مكان في الحائط يشبه هذا المكان، يوجد عليه فرش ولحف، فتنزعون الفرش و اللحف، فتجدون صندوقاً فيه قطن، و السجادة تحت القطن، فقال هذا الرجل: توجّهت إلى هناك وأخذنا معنا المختار وقد كان له عمل في الدرك، واقتحمنا البيت، فكان كل شيءٍ قاله هذا الطفل في (المندل) صحيحاً، من أدقّ التفصيلات إلى أكبرها، فقد دخلنا البيت و وجدنا الفسحة السماوية، ودخلنا إلى الغرفة و وجدنا في

صدرها فراغاً يوجد عليه صندوق وفرش ودُسُر، ففتحنا الصندوق، و وجدنا القطن ولكننا لم نجد السجادة، فذهبوا إلى صاحب البيت، فكان بائع سجاد، فضربوه إلى أن قال: لقد أخذتها وبعتها، فانتقوا أحد السجادات وخذوها مكانها، قال هذا الرجل: ثم أخذنا سجادة بنفس القياس،و بعد أربعة أشهر قال لي رجل كان في السجن: أتدري من سرق من عندك السجادة ؟ قلت له: أعرف، وقد استرددتها... قال له: لا، فقد كنت في السجن فحدثني أحد السجناء أنه هو الذي دخل إلى بيتك وسرق السجادة.

فأين كلام الجن؟ إنهم كذّابون، لكنهم قد يعرفون معالم هذا البيت بلا شك، فأعطوه كلاماً صحيحاً عنه، لكنهم لا يعرفون من أخذ السجادة، فلذلك كان ضرب المندل خلط وكذب و دجل، و لكن قد يوجد في أثناء الكلام بعض الحقائق ليست الغيبية بل المشاهدة، فهذا الجني يعرف أن في هذا المكان يوجد الحي الفلاني، والبيت الفلاني، والمكان الفلاني، وقد أردت من هذه القصة الطويلة أن أقول: إن الجن في نقلهم للأخبار المشهودة يكذبون ويصدقون، فهم لا يعوّل على كلامهم إذاً، لأننا لا نملك المقاييس للتفريق بين كذبهم وصدقهم.

2- العلوم الغيبية: إن كانت الأخبار التي يخبرون بها من المغيبات فهي على نوعين:

أ - إما أن تكون من المغيّبات التي استأثر الله بعلمها، كعلم الساعة مثلاً،قال تعالى: " إن الله عنده علم الساعة" فهذه العلوم لا يمكن لإنس، ولا جن، ولا لنبي أو رسول أن يعرفها.

وقد ألقى أحد العلماء غير المستنيرين محاضرةً في بعض عواصم الدول العربية، عن إعجاز القرآن الرياضي، واجتمع حوله علماءٌ كثيرون، فقد بدت لهم المحاضرة قيّمة، وقد كان هذا المحاضر يعمل على الكمبيوتر، فلقّم كلمات القرآن لهذا الجهاز فجاء بحقائق مدهشة، لكنه شطّ به الطموح فعيّن يوم القيامة، فانسحب عندئذٍ كل من في المحاضرة من العلماء، لأن هذا دجل، لأن الله عنده علم الساعة وحده.

إذاً: إذا كانت المعلومات من الحقائق التي استأثر الله بها، فلا يمكن لإنس ولا جن ولا ملك ولا نبي ولا رسول أن يعرفها، و التحدُّث بها ضرب من الكذب والافتراء على الله، لكنه وارد على لسان أحد القرينين من الإنس والجن.. قال ربنا عزّ وجل:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

(سورة الأنعام: آية "59 ")

فلو قال الله عزّ وجل: (ومفاتح الغيب عنده)، لكان هناك فرقٌ كبيرٌ جداً في اللغة، فإذا قال الله عزّ وجل: (ومفاتح الغيب عنده)، معنى ذلك أنها عنده، كما أنها قد تكون عند غيره، ولكن حينما قدّم الظرف على المبتدأ فقال:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

كان معنى ذلك أن الغيب محصورٌ ومقصورٌ على الله وحده، وليس لأحدٍ كائناً من كان أن يعلمه، فكل من قال لك: أنا أعلم ما سيكون، فهو دجّال و كذّاب، فما بال هذه (الصّرعة) التي ظهرت حديثاً بين الناس، فجعلت في كل عاصمة كبيرة كاهنة أو كاهن يأتيه رجالٌ من عَلِيّة القوم فيسألونه عن المستقبل، فيقولون: هل سأبقى في هذا المكان ؟ هل سأبقى بهذه البحبوحة ؟ ماذا سيحصل لي في المستقبل ؟ وهذا كله سخفٌ في سخفٍ، و دجلٌ في دجلٍ، و كذبٌ في كذبٍ، و غباءٌ في غباءٍ، فلا يعلم الغيب إلا الله.

ب- قد تكون هذه المغيّبات من الأمور التي قُضيَت في السماء، وأصبحت معلومةً لذوي الاختصاص من الملائكة، كما أصبحت معدّةً لتبليغها للملائكة، ومثال ذلك أن ترتئيَ الحكومة فجأةً أن تقدِّم الساعة أو أن تُؤخرها، فيتداول الأمر مَن في مجلس الوزراء، لكنه لا يذاع، فلو فرضنا أن أحد الأذنة (المستخدمين) دخل ليقدِّم لهم الشاي أو القهوة، فسمع أنهم يُزمعون تقديم الساعة، فهذا القرار في الحقيقة لا يزال طيَّ الكتمان، لكن هذا (الآذن) استطاع أن يأخذه بشكلٍ أو بآخر، فلما أذاعه في الناس بين أسرته وأقربائه، ظنُّوه أنه يعلم ما سيكون، وهذا غير صحيح، لأن هذا مما هو كائن، أما ما سيكون فلا يعلمه إلا الله، وقد يُتخذ هذا القرار، وكان هذا الآذن قد دخل ليقدم القهوة فسمع شيئاً عنه، فيأتي إلى أهله ويقول: لقد آتاني الله قدرة على كشف الغيب، ودليله على ذلك، أنهم في يوم الثلاثاء سوف يقدِّمون الساعة، وليس ثمة أحد ذكر هذا الكلام، فيصدق الناس ما يقول، و يعتقدون أنه ولي، والعملية في النهاية ما هي إلا استراق خبر بعد أن اتُخذ قراره، فأذاعه هذا المستخدم قبل أن يُذاع في الإعلام، و هذا هو الموضوع كله.

و قد جاء حديثٌ لرسول الله ما يأتي:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهم عَنْهَا زَوْجِ النّبيّ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ أنّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: إنّ الْمَلائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السّحَابُ فَتَذْكُرُ الأمْرَ قُضِيَ فِي السّمَاءِ (اتخذ فيه قرار) فَتَسْتَرِقُ الشّيَاطِينُ السّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إلَى الْكُهّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِم))

(صحيح البخاري)

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(34))

(سورة: الذاريات)

فالقرية كانت لا تزال على حالها ؛ تعيش حياتها الطبيعية، لكن الملائكة أباحوا لسيدنا إبراهيم ما سيُصنع بها:

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(34))

(سورة: الذاريات)

فهل هذا من قبيل علم الغيب ؟ لا، إن هذا قرارٌ اتُخذ في السماء وبُلِّغ لأصحاب العلاقة لينفذوه، و من قبل أن ينفّذ علمه سيدنا إبراهيم، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنّ الْمَلائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السّحَابُ فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِيَ فِي السّمَاءِ فَتَسْتَرِقُ الشّيَاطِينُ السّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ))

(صحيح البخاري: الرقم " 2971)

فقد يعطون الخبر الصحيح ويخلطون به مليون خبر كذب، "فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم"، فهي عملية استراق أمر قضى الله به في السماء وبُلِّغَ للملائكة لتنفيذه، فيأتي الشيطان فيسترق هذا الخبر و يوحيه إلى لكاهن، فيقوله للناس، ثم يوهم الناس أنه يعلم الغيب، و لا غيب في ذلك، إنما هو استراق الشياطين السمع من الملائكة، بعد نزولها إلى جو الأرض، وليس استراق السمع من السماء كما كان دأبهم قبل بعثة النبي صلى الله عليه والسلم، فقد منعوا بعد العثة من ذلك بالشهب:

(وَأَنّا لَمَسْنَا السّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً(9))

(سورة الجن)

إثم المتصل بالجن من الإنس:

إن من يلقي سمعه للشياطين عليه إثمه الكبير، فقد قال تعالى في سورة الشعراء:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزّلُ الشّيَاطِينُ (221) تَنَزّلُ عَلَى كُلّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(223))

(سورة الشعراء)

لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت، فهذا الذي يلقي أذنه للشيطان، هو أفّاكٌ أثيم كاذب، ضالٌ مضل:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزّلُ الشّيَاطِينُ (221) تَنَزّلُ عَلَى كُلّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(223))

(سورة الشعراء)

فأي تعاونٍ بين إنسانٍ و شيطان هو دليلٌ قطعيٌ على أن هذا الإنسان أفّاكٌ أثيمٌ كاذب، ولو لبس جبةً ووضع على رأسه عمامةً خضراء، وسمى نفسه الولي الفلاني، فإذا كان على علاقة مع الجن و الشياطين، فهو أفّاكٌ أثيمٌ كذاب، مهما يكن زيه، قال عليه الصلاة والسلام:

((عالمٌ واحد أشد على الشيطان من ألف عابد))

العلم سلاح يا إخوان.. قال عليه الصلاة والسلام:

((العلم سلاحي))

يوجد عندنا آية أعظم وأدق وأوضح، تخبرنا أن الجن لا يعلمون الغيب أبداً، فسيدنا سليمان قد قبضه الله عزّ وجل وهو مستندٌ إلى عكازه، و قيل إنه بقي مدةً طويلة- ولا أدري كم بقي- إلى أن جاءت دابة الأرض (أي السوسة) ونخرت في هذه العكازة حتى أتت عليها كلّها، فلما أتت عليها كلها انكسرت فوقع سيدنا سليمان، قال تعالى:

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

(سورة سبأ)

(منسأته) ؛ أي: عصاه، (فلما خرّ)،أي: لما وقع،(ما لبسوا في العذاب المهين) ؛ أي: لقد كان سليمان عليه السلام قد كلفهم بأعمال شاقة جداً وكانوا يتحملونها خوفاً منه، فلو أنهم يعلمون الغيب لتخففوا من هذه الأعمال بمجرد أن قبضه الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل جاء بهذه القصة ليؤكِّد بشكلٍ قاطعٍ على أن الجن لا يعلمون الغيب:

(فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

فنقول قولاً واحداً: إن الجن لا تعلّم الغيب، كما أنهم ليس لهم تأثيرٌ جسماني على الإنسان، فإذا كان هناك إنسان يقع بـ(الساعة) فهذه الحالة يوجد لها سببان ؛ فإماأن يكون هناك مرض عصابي، أو أن يكون في الشخص نوع من تأثير الشياطين، و المرض العصابي كما قال لي بعض الأطباء: هو تخريشٌ في الدماغ، وهو قابل للعلاج، لكن بعض أنواع الصرع قد يكون فيه أثر الشيطان في الإنسان، فإذا اعتقد الإنسان به،أو استسلم له، أو ابتغى النفع من عنده، أو توهّم أنه ينفعه أو يضره، أو أشركه مع الله عزّ وجل، أو خنع له، عندئذٍ يقع تأثيره عليه، أما لو اعتقد بالواحد الديان، وقال: **" أعوذ بالله من همزات الشياطين"** فلا يمكن للجن ولا للشياطين ولا للإنس أن يؤذوه.

فإذا وقع واحد في الساعة فقد يؤذِنون أمامه، و بمجرد أن يؤَذّن أمامه يذهب عنه الشيطان والسؤال الثاني يقول: هل للشياطين سلطانٌ على الإنس في عقائدهم وإرادتهم وأعمالهم ؟ هذا ما سنتحدث عنه في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (2-8): المقدمة 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-09-26

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج التلقي

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة الجن.

ملخص المقدمة الأولى:

في الدرس الأول قدمت لهذه السورة بمقدمةٍ فحواها أن المخلوقات على أصناف، يقع في أعلاها الإنس والجن لأنهما قَبِلا حمل الأمانة، أما بقية المخلوقات فمنهم من أشفق منها ولم يحملها وآثر السلامة على المغامرة كالملائكة، كما أن منهم من آثر الشهوة والسلامة كالحيوانات، بينما قَبِل الإنسان أن يأتي إلى الدنيا وأن يحمل الأمانة، و أرجح الأقوال تقول: إن الأمانة التي حملها الإنسان هي نفسه التي بين جنبيه، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

لقد أودعت فيه الشهوات ليرقى بها صابراً أو شاكراً لرب الأرض والسماوات، كما أعطي العقل وهو أداة معرفة الله الأولى، و أعطي الفطرة وهي مقياسٌ نفسيٌ يكشف له الخطأ من الصواب، ثم جاءته الكتب السماوية وهي المنهج القويم، فكانت حجةً على مقياسَي العقل والفطرة، وأعطي حرية الاختيار كي يثمّن عمله، و أودعت فيه الشهوات كي يندفع إلى الله عزّ وجل، و هذا ملخص الدرس الأول، والإنس والجن على سويةٍ واحدة:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

(سورة الرحمن آية "33 ")

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

واليوم أجدني مضطراً إلى مقدمةٍ ثانية تعدُّ أساسيةً في فهم هذه السورة.

يا أيها الإخوة الكرام... إن الإنسان كائن قبل كل شيء، وهو من أرقى الكائنات، وأرقى ما فيه هو هذه الأداة الإدراكية التي يمتلكها وهي العقل، غير أن الإنسان مزوّد بوسائل معرفية غير العقل ؛ فهو يمتلك الحواس و العقل، وهناك وسيلة لمعرفة بعض الحقائق ليس لها علاقةٌ بالعقل ولا بالحواس.

وسيلة معرفة الأشياء المحسوسة:

(الحواس الخمس):

يمكننا أن نقول إن الأشياء المحسوسة هي الأشياء التي لها وزن و لها حيّز و جسم وطول و عرض و ارتفاع و لون وصوت و رائحة و ملمس، فهذه الأشياء يمكننا أن نعرفها عن طريق الحواس، ونحن والحيوانات الأخرى في معرفتها سواء، فقد ترى بعينك ضوء الشمس، و تسمع بأذنك صوت السيارة، و تشمُّ بأنفك رائحة الزهر، و تمسك بيدك قطعةً من القماش تتحسس نعومتها، فهناك سمعٌ وبصرٌ وشمٌ ولمس، و هذه الحواس متعلقة بالمحسوسات، فسبيل معرفة الشيء الذي ظهر جسمه وأثره هو الحواس الخمس، وهذا لا خلاف عليه، فأنت تمسك بالكأس مثلاً فتقول: هذا كأس فيه ماء وله وزن، فتقيّم وزنه بيدك، وقد ترى أن الماء لا لون له ولا طعم له ولا رائحة، فتشربه و تقول: هذا ماء بارد عذبٌ فرات، و هذه المعرفةُ الحسية ليست مشكلة، فهي لا خلاف عليها.

فرق الإنسان عن الحيوان والجماد:

و نقول إن صح التعبير: إن الجماد شيءٌ يشغل حيزاً، فله طولٌ وعرضٌ وارتفاعٌ ووزنٌ،وحجم، أما النبات فيشغل حيزاً كالجماد تماماً، فله وزن و طول وعرض وارتفاع، لكنه ينمو، و الحيوان يشغل حيزاً كالنبات أيضاً، وله وزن وطول وعرض وارتفاع نمو لكنه يتحرك، أما الإنسان فهو شيءٌ له طول وعرض وارتفاع و وزن، ويشغل حيزاً ويتحرك وينمو، لكنه يدرك. و هنا يتميَّز الإنسان، فإذا عطّل الإنسان عقله، أو أساء استعماله هبط عن مستوى إنسانيته، إلى مستوىً لا يليق به، لذلك يقول أهل النار في النار:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

فقد يركب إنسان مركبة قديمة جداً من موديل الأربعين، فتتدهور و يموت، نقول: إن سبب تدهورها هو نوعيتها السيئة أو قِدمها الشديد الذي أتلف أجهزتها، و لكن إذا ركب الإنسان أحدث مركبة، وكانت الطريق مليئة بالمنعطفات، وكان على اليمين وادٍ وعلى اليسار وادٍ، فلو أطفأ الضوء مرةً واحدة تدهور، فهل علة التدهور الأولى كعلة التدهور الثانية ؟ لا، لقد تدهور الأول بسبب ضعف المركبة، أما الثاني فقد تدهور بسبب عدم الرؤية أو انعدام الرؤية فارتكب حادثاً فأودى به، فقد يكون الإنسان من أذكى البشر، و قد يكون ذا عقلٌ راجح، لكنه حينما لا يرى بنور الله يهلك، وسأضع لكم على ذلك أمثلة تعرفونها جميعاً.

قد يفحص الإنسان درجات عينيه عند طبيب عيون، فإذا كشف جهة الحروف في السطر الأسفل كانت درجة رؤيته عالية جداً،فيقول له الطبيب: (اثنتا عشرة على عشر)، وقد يقول لإنسان آخر: (عشر على عشر)، أو تسع على عشر وهكذا.

فقد يكون الإنسان حاد البصر، وقد تكون درجة رؤيته اثنتي عشرة على عشر، ولكن.. ما قيمة هذه العين إذا لم يوجد ضوء ؟ إنها لا قيمة لها إطلاقاً، فالعين لا بد لها من وسيطٍ يصل بينها وبين الأشياء، والوسيط هو النور الاصطناعي أو الطبيعي، فكما أن النور أساسيٌ في وظيفة العين فإن الوحي أساسي في وظيفة العقل، فقد يكون عقل الإنسان مجهزاً بتجهيز من أعلى المستويات، ولكن هذا العقل لا قيمة له من دون وحيٍ يهتدي به.

فالعقل جهاز ضخم لكن حيادي، فقد يُستخدم في الخير و قد يستخدم في الشر، فالآلة الطابعة الراقية التي يصل ثمنها إلى نصف مليون، من ممكن أن تطبع بها عملة وتزورها فتدخل السجن، كما يمكن أن تصمم بها أغلفة وبطاقات فتغتني، والآلة واحدة.

وسيلة معرفة الأشياء غير المحسوسة التي لها أثر:

(العقل):

أيها الإخوة الكرام... إن الإنسان يملك قوة إدراكية هي العقل، هذا العقل لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة إلا بالأثر، (الأقدام تدلٌ على المسير، والماء يدل على الغدير، والبعر يدل على البعير، أفسماءٌ ذات أبراج وأرضٌ ذات فجاج ألا تدلاّن على الحكيم الخبير)، فمهمة العقل هي أن يصل من شيءٍ محسوس، إلى شيءٍ مغيَّب.

فالله عزّ وجل لا تدركه الأبصار، ولكن الكون كله يدلٌ عليه، فالكون أحد آثاره، ونحن نصل من الأثر إلى المؤثِر، و من الخلق إلى الخالق، و من التسيير إلى المسيّر، ومن الحكمة إلى الحكيم، و من العطاء إلى المعطي، و من النِعمة إلى المُنعم.

فالأشياء المحسوسة أداة معرفتها الحواس الخمس، أما الأشياء غير المحسوسة التي لها آثار فأداة معرفتها العقل، و العقل في هذا الميدان يجول ويصول، وإذا تعمّقت في التفكر بالآثار وصلت إلى الله عزّ وجل، لذلك يمكن أن أقول لكم بشكلٍ بسيط: إن العقل أوسع بابٍ ندخل منه على الله وأقصر طريقٍ نصل به إليه، فهو يتكامل مع الكون كما أنه قوة إدراكية تكشف المجهول من آثاره، و تكشف الغائب عنك منها، لذلك يصنِّف المؤمن دائماً وأبداً المقولات فيقول: هذه قضية حسية، و هذه قضية عقلية، ولكن.. هناك قضية ثالثة، كانت سبب درسنا اليوم، وسبب هذه المقدمة، فقد عرفنا أن الشيء الحسي الذي ظهرت عينه فأدركنا آثاره بحواسنا الخمس، ونحن بهذا نلتقي مع بقية المخلوقات، أما الشي الذي غابت عينه وبقيت آثاره فلا يمكن أن نصل إليه بحواسنا الخمس، وهناك المغالطة يطرحها الفلاسفة

تقول: (أنا أشعر بوجودي إذاً أنا موجود) و الرد على هؤلاء أن عدم الوجدان لا يدلُّ على عدم الوجود، فإذا لم تر الله بعينيك ولم تشعر به بحواسك الخمس لم يكن معنى ذلك أنه غير موجود، فأنت الآن تتعامل مع أشياء كثيرة لا تشعر بوجودها لكنها موجودة، فعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، و هذه حقيقة.

فمهمة العقل إذاً هي أن ينتقل من الأثر إلى المؤثِر، و من خلق إلى خالق، و من شيء محسوس إلى شيء مجرّد، و من شيء الذي له أثر إلى ذات الشيء، لذلك كان الإيمان بالله يأتي عن طريق التفكّر في خلق السماوات والأرض.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

يعني يتفكرون.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

(سورة آل عمران)

فنحن أيها الإخوة أمام عبادة راقية جداً هي عبادة التفكّر، و هذه عبادة أهملها فضعف إيمانهم بعظمة الله، فأصبحوا يؤمنون بوجوده لكنهم لا يؤمنون بعظمته، والدليل:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33))

(سورة الحاقة)

فبعض المسلمين يجعل الله أهون الناظرين إليه، يقول تعالى في الحديث القدسي:

((عبدي طهّرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة))

فإلى أي شيءٍ ينظر الله عزّ وجل ؟ إنه ينظر إلى قلبك، وقد طهرت منظر الخلق ؛ فطليت بيتك و نظفت مركبتك، و غيرت أثاث بيتك، و لبست أجمل الثياب، إنك تُطهّر منظر الخلق، ويا ليتك تطهر منظر الله عزّ وجل، و الله ينظر إلى قلوب لعباد، فلو طهرت منظر الله عزّ وجل لكنت في حال غير هذا الحال، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

لأن القلب هو قِوام الإنسان، وقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: **" تعاهد قلبك ".**

فلو حطت ذبابة سوداء على عينك لرأيت كل شيء أسود، فتذهب إلى طبيب العيون، وقد يقول لك: الموعد بعد شهر، أو بعد شهرين، أو بعد ثلاثة أشهر، فتنتظر وتتأدب وتدفع وتسخو، فلماذا تعتني بعينك ولا تعتني بقلبك ؟ إن القلب هو منظر الله عزّ وجل وهو ذخيرتك ورأس مالك يوم القيامة:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

إن العقل أداة معرفة الله، والعقل حيادي، فإذا سرقت إنسان عصابة ما آلة حاسبة فإنها تأتي بهذه الآلة و تستخدمها في توزيع السرقة، وقد يستخدم إنسان آخر هذه الآلة في عمل عظيم، فهذه الآلة حيادية فيمكن أن تُستَخدم لتوزيع مال مسروق، كما يمكن أن تُستخدَم في عملٍ شريف، فالعقل حيادي، وهو إما أن يكون درجات ترتقي بها أو دركات تهوي بك، وهو أداة معرفة الله، لأن الله عزّ وجل لا تدركه الأبصار، ولكن تدركه العقول، غير أن العقل لا يمكن أن يحيط بالله عزّ وجل لكن يصل إليه، وهناك فرقٌ كبير بين أن تصل إليه وبين أن تحيط به، فقد تركب مركبة و تذهب بها إلى البحر، فنقول: هذه المركبة أوصلتك إلى البحر، لكنك لن تستطيع أن تخوض بها البحر فإن فعلت غرقت، فمهمتها أن تصل بك إلى ساحل البحر، وهذا العقل مهمته أن تصل به إلى الله، فهذا الكون يمكن أن يكون بما فيه من آلاء ومن آيات عظيمة جداً جسراً تعبره إلى الله، فالعبرة في أن تعبره إلى الله.

فالصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين وصلوا إلى الله وعبروا هذا الكون إليه، ونحن وصلنا إلى دقائق علمية مذهلة، فقد وصلنا إلى الذرة و الهندسة الوراثية والمورّثات المبرمجة، كما أن العلوم الطبيعية والحيوية وصلت إلى درجات يصعب أن يصدقها العقل، ولكننا ما زلنا على الجسر لم نعبره إلى الله عزّ وجل.

أقول لكم هذه الحقيقة وقد ذكرتها من قبل: لو أن هناك مدينةً فيها كلُّ شيء مما لذ وطاب، و كان كل شيء فيها ثمين و مباح بلا ثمن، فإنك إن وصلت إليها سعدت سعادةً لا توصف، لكن العبرة في أن تصل إليها، فالآن مثلاً توجد مركبات مختلفة ؛ فهناك المركبة البدائية وهي الدراجة، وهناك مركبة أعلى وهي الدراجة النارية، وهناك مركبة ثلاثة دواليب، وهناك مركبة أربع عجلات وهي أرقى، و بعد ذلك نجد الطائرة... فالمركبات تتنوع، لكنك حينما تختار أي مركبة فإنك تستعملها لتصل بك إلى هذه المدينة، لكن هذه المركبة ينتهي دورها بعد وصولك، فلم يعد لها قيمة لأنها أدت المهمة، و مهمة الكون هي أن تصل منه إلى الله، وإنك قد تصل إلى الله بمعلومات دقيقة جداً، فالصحابة وصلوا إليه، لكن هؤلاء الذين يعيشون في عصر العلم كانت شهواتهم المنحرفة أو معاصيهم الكثيرة حجاباً بينهم وبين الله عزّ وجل.

الموضوع الثاني هو أن مهمة العقل هي أن يصل من المحسوس إلى الغائب، و من المحسوس إلى المجرّد، و من الأثر إلى المؤثِر، و من النعمة إلى المنعم، و من التسيير إلى المسيّر، و من الحكمة إلى الحكيم، و من العطاء إلى المعطي، وهكذا... ولكن.. ما علاقة هذه المقدمة بدرسنا ؟!

وسيلة معرفة الأشياء غير المحسوسة التي لا أثر لها:

هناك طريق ثالث إلى المعرفة، وهذا الطريق ليس حسياً ولا عقلياً، لأن موضوع المعرفة شيء غابت عينه وغابت آثاره عن حواسنا، فليس له أثر ولا نراه بالعين، هذا الشيء لا يمكن أن نعرفه إلا بالخبر الصادق فقط، فالعقل ليس له دور هنا، فإياك أن تسأل عن دليلٍ عقلي لوجود الجن مثلاً، فهذا الدليل غير موجود، وقد زلّت قدم البعض فأنكروا الجن، وقالوا: أين الجن ؟ و إياك أن تسأل: أين الملائكة ؟ لأنه لا يوجد دليل عقلي على وجود الملائكة فالعقل يحتاج إلى أثر، كما لا يوجد حسي، لأنها أجسام نورانية لا نراها، فالعقل يتعامل مع الأثر، ثم ينتقل بك إلى المؤثر، و الحواس تتعامل مع الشيء مباشرةً، لا مع أثره، فقد جاء في العقيدة الصحيحة موضوعاتٍ كثيرة، وسبيل معرفتها ليس الحواس ولا العقل، و هذه موضوعات قليلة، ومنها الجن، فنحن لا نملك عن الجن إلا ما أخبرنا الله به، ولا نستطيع أن نزيد على ذلك شيئاً، ولا أن نحذف شيئاً، و هذا موضوع مسلك الإيمان به الخبر الصادق.

فقد تدخل مثلاً إلى بيت فترى بعينك الأثاث و الثلاجة والمقعد الوثير والمكتب وقد تجد مروحة تتحرك ومصباحاً يتألّق، وجواً مكيّفاً، فتقول: إن في البيت كهرباء مع أنك لم تر الكهرباء، فقد عرفت الطاولة والأثاث والثلاجة والمكتب بحواسك، وعرفت وجود الكهرباء بعقلك، فلما رأيت المروحة تدور، والمكيف يعمل، ثم طُرِقَ الباب فَرن الجرس، تقول: في هذا البيت يوجد كهرباء، فمعرفة الكهرباء تختلف عن معرفة المكتبة والأثاث، فأنت تعرف المكتبة والأثاث بحواسك، والكهرباء بعقلك، أما الغرفة المغلقة فلا تستطيع أن تعرف ما فيها، لا بحواسك ولا بعقلك، مهما كان الإنسان ذكياً و عاقلاً حتى وإن كان يحمل شهادة البورد، فإنك إذا أدخلته بيتاً وأجلسته في غرفة فيها باب، فإنه لا يعلم ما بداخله الغرفة الأخرى، لأن الحائط كاتم يمنع الرؤية، والعقل يحتاج إلى وسائل، و يحتاج إلى آثار لكي يشتغل، فجاء بعد ذلك صاحب البيت وهو إنسان صادق، فقلت له: ماذا يوجد في هذه الغرفة ؟ فيقول لك: فيها غرفة نوم لونها بني، وفي ثريا، و منظر طبيعي و ستائر بنية أوبيج، فهذا خبر صادق، فقد رأيت المكتب بعينك وأدركت الكهرباء بعقلك وعرفت ما في الغرفة بالخبر الصادق.

فالآن أصبحت القضية سهلة جداً، فإذا كنت أمام أي موضوع بالدين، فإن أول عمل يجب عليك هو أن تصنِّفه، فهل هو مع الحواس أم مع العقل أم مع الخبر الصادق ؟؟ فإذا كان مع الحواس فانظر إليه وأمسكه بيدك، و قدِّر وزنه، وقدِّر نعومته بجلدك، وقد يكون مما لا يُرى جسمه ولكنه يُرى أثره، فإذا رأيت دخاناً مثلاً قلت: هناك نار، لأنه لا دخان بلا نار، وإذا رأيت الضوء أطْفِئ فجأةً فمعنى ذلك أن

الكهرباء قد انقطعت، فهل سبب الانقطاع يا ترى من عندنا أم من المؤسسة ؟ فالعقل هنا اشتغل في الآثار، أما حينما ترى غرفةً مغلقة في البيت، فلا يمكنك أن تعرف ما فيها مهما كنت ذكياً إلا أن تسأل صاحب البيت: رجاءً قل لي ما في هذه الغرفة ؟ وهو عندك صادق، فقد عرفت المكتب بعينك وعرفت وجود الكهرباء بعقلك وعرفت محتوى هذه الغرفة بالخبر الصادق.

فإذا استطعت أن تصنف كل موضوع في أي حقل هو، انتهت كل مشكلاتك في العقيدة، وإن أكثر أعداء الدين الآن يأتون إلى مؤمن ضعيف الإيمان ويقولون له: أنا رجل واقعي، أثبت لي وجود الجن بدليل علمي، أو أحضر دليلاً على وجود الملائكة، أين الملائكة ؟ فيرتبك هذا الإنسان بسبب عدم وجود دليل مادي، لأن الدليل إخباري فقد، فالله عزّ وجل أخبرني أن هناك مخلوقات تدعى (الجن)، و أن هناك مخلوقات تدعى (الملائكة)، فإيّاك أن تخوض مناقشةً مع ملحدٍ حول موضوعاتٍ إخبارية، فالموضوعات الإخبارية ليس لها قيمة لها إطلاقاً إلا إذا صدِّقت قائلها، و كلامي هذا دقيق، فإذا آمنت بالله أولاً وآمنت بكتابه ثانياً وصدّقت أنه كلام الله، وأخبرك الله أن هناك مخلوقاتٌ هي الجن، فإنك تؤمن الآن بالجن إيماناً إخبارياً، فأنت لست مكلّفاً أن تؤمن بالجن إيماناً عقلياً، فليس هناك دليل عقلي على وجود الجن، ولن تستطيع أن تؤمن بالجن إيماناً حسياً لأنك لا تراها، قال تعالى:

(يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: آية " 27 ")

فما دمت لا ترى الجن، فأنت لست مكلفاً أن تؤمن بها إيماناً حسياً، وما دام الجن ليس له أثر فأنت لست مكلفاً بأن تؤمن بالجن إيماناً عقلياً، فالسبيل الوحيد للإيمان بالجن هو الدليل الإخباري وهو الخبر الصادق، وهذا هو حال أية موضوعاتٍ يمكن أن تكون في دائرة الخبر الصادق، كالملائكة و الجن والماضي السحيق، قال تعالى:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الكهف: آية " 51 ")

أي: لم يكونوا في ذلك الوقت، فهؤلاء الذين يزعمون أن أصل الإنسان قرد، لم يكونوا شاهدين على خلقه..

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

(سورة الكهف)

فالملائكة والجن والماضي السحيق، و المستقبل البعيد، و ما بعد الموت، و قصة خلق الإنسان، و ذات الله عزّ وجل، هذه كلها موضوعات نؤمن بها عن طريق الخبر الصادق، فالله أخبرنا مثلاً أنه على العرش استوى، فما هي كيفية استوائه ؟ قال الإمام مالك لسائل سأله هذا السؤال:" الاستواء معلوم (الله أخبرنا به)، والكيف مجهول، والسؤال بدعة قم عني "، فمن الممكن لك أن تريح نفسك من طريق

شائك، أو من حقل ألغام، إذا عرفت أن هذا الموضوع متعلق بالخبر الصادق فآمنت به، وذلك طبعاً بعد أن تؤمن بالله الإيمان الحقيقي المتين العميق،وبعد أن تؤمن بكتابه المعْجز ورسوله الصادق الذي جاء بهذا الكتاب.

مثال موضح:

لقد ضربت مرة مثلاً يوضح هذا الأمر فقلت: إذا كان هناك بقالية فيها عشرة آلاف صنف، وأقل صنف يزن خمسة غرامات، أما أكبر صنف فهو يزن خمسة كيلو، فإذا كان هناك ميزان حساس و غال جداً يؤدي الوظيفة بالتمام والكمال، لكن استيعابه هو من الغرام إلى عشرة كيلو فقط، فهذا الميزان يكفي البقالية، لكن صاحب البقالية أراد أن يستخدم هذا الميزان لوزن سيارته، فوضعه على الأرض وسار فوقه فتحطم، فقال: هذا لا يصلح، فقد استخدمه في غير ما صنع له، و دققوا الآن في كلامي: إن عقلك محدود المهمة، فإذا عددته مقياساً مطلقاً للمعرفة فقد جانبت الحقيقة، فإذا اعتقدت أن عقلك مقياس مطلق للمعرفة أخطأت خطأ كبيراً، وهذه مشكلةُ المعتزلة الذين عدوا العقل مقياساً مطلقاً وحكّموه بالنقل، فقال بعض العارفين بالله:**" العقل حصانٌ تركبه إلى باب السلطان فإذا دخلت إلى السلطان دخلت وحدك ".**

وقد يقول لك الإنسان أحياناً: أريد طبيب هضمية متفوق ؛ فيسأل أصدقاءه ومعارفه وأقرباءه وبعض المرضى عن شهادته و اختصاصه و خبراته وسمعته و أمانته و ذكائه وتواضعه، إلى أن يوصله عقله إلى هذا الطبيب، فإذا دخل إليه أعطاه الدواء، فهل يستطيع هذا المريض بعد ذلك أن يعترض على هذا الطبيب ؟ لا، لقد انتهت حدود عقل المريض، فعقله أوصله إلى باب العيادة وانتهى الأمر، أما الآن فهو يتلقى، و الشيء اللطيف في الموضوع هو أن الشيء الذي يعجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، وهذا شيء جميل جداً، فقد جعل لك أشياء محسوسة وأعطاك خمس حواس، وجعل لك أشياء مغيّبة عنك وأعطاك عقلاً، فعقلك له مهمة محدودة، فهل يا ترى كلمة (محدودة) نقص في العقل ؟ لا إنها ليست نقص، فإذا كان عندك مثلاً زوجة وثلاثة أولاد فإنك تحتاج إلى مركبة، فهل من المعقول أن نعطيك (تراكس) لتخرج به إلى نزهة ؟ هذا ليس كمالاً، أنت تحتاج إلى مركبة بعشرة أحصنة وليس إلى مركبة بخمسمائة حصان -أحصنة سيارة طبعاً وليس أحصنة عادية-، فلذلك كان كمال عقلك في أن يكون محدوداً بالمحسوس وبالآثار، أما العقل المطلق فهو الله عزّ وجل، فالشيء الذي عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به،و القضية سهلة، قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: آية " 2 ")

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُون)

(سورة الذاريات)

لقد عرّفك بذاته، وعرفك بأسمائه، وعرفك بكمالاته، و عرفك بالأنبياء السابقين،قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

(سورة آل عمران: آية " 44 ")

عرّفك بتاريخ الأنبياء وتاريخ الشعوب والأمم السابقة، كما عرفك بالمستقبل:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

(سورة المائدة: آية " 116 ")

لقد عرفك بالماضي السحيق، والمستقبل البعيد، وحكمة الأشياء، وعلّة الخلق، وسر وجودك، وغاية وجودك، فكلُّ شيءٍ يعجز العقل عن إدراكه أخبره الله به، فهناك أشياء محسوسة أداتها الوحيدة هي الحواس الخمس، كما أن هناك أشياء معقولة غابت عينها وبقيت آثارها وأداتها الوحيدة العقل، وهناك شيء لا يستطيع عقلك ولا حواسك أن تدركه وهو متعلق بالإخباريات التي أخبرك الله عنها، فإذا قرأت القرآن مثلاً شعرت أن هذا كتاب معرفة كامل، ففيه محسوسات، قال تعالى:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: آية " 101)

تسلسل عقلي...

هناك معقولات وهناك إخباريات، لكني أريد أن أنصحك بشيء: إياك ثم إياك ثم إياك أن تناقش إنساناً منكراً ملحداً في الإخباريات، والإخباريات لها أربع مراتب، فيصبح التسلسل كالآتي: أولاً تؤمن بالله عن طريق الكون، و الكون شيء موجود و مسلّم به، وهناك من يسميه: الشيء الثابت، فإذا أعملت عقلك في الكون وصلت من خلاله إلى خالقه العظيم، لأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، فالخَلق لا يمكن أن يكون عبثاً:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

فلا يمكن للخالق أن يخلق الخلْق سدىً..

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

هذا غير معقول، فلا يمكن لإنسان عاقل أن يرسل شخصاً إلى حلب ثم يدفع له ألفين ليرة أجرة سيارة، ثم يقول له: لا تفعل شيئاً، اذهب وارجع فقط، هذا مستحيل، كما لا يوجد مدير شركة يحترم نفسه يعطي أمراً ليس له معنى أو فيه إتلاف للمال أو هدر للوقت والجهد بلا سبب، إنه إن فعل ذلك لا يسمى مديراً بل مجنوناً، فهل يمكن لإله عظيم أن يخلق الخلق عبثاً ؟!!

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

إن كمال الخلق يدلُّ على كمال التصرف، و ربنا عزّ وجل خلق إنسان، ثم دله عليه و أرشدك إليه، ثم حذره و نبهه، فقد يشق الإنسان طريقاً، وبعد أن يشق الطريق يضع عليه لافتات: (ممنوع مرور، ممنوع تجاوز، منحدر خطر، جسر، طريق تحويل)، وهذه كلّها إرشادات، والله عزّ وجل قد خلق الخلق، ونوّر الخلق بكتابه، فإذا آمنت بالله واحداً وموجوداً وكاملاً، ثم آمنت أنه لا بدّ من أن يُخْبِر خلقه عن سبب خلقهم، فلا بد لك من أن تؤمن بهذا الكتاب عن طريق إعجازه، كما لا بد لك من أن تؤمن بالنبي عن طريق هذا الكتاب، وهذا تسلسل عقلي رائع، فإذا آمنت بالله عن طريق الكون، وبالقرآن عن طريق إعجازه، وبالنبي عن طريق قرآنه، انتهى دور العقل، ويأتي بعد ذلك دور النقل، لذلك قالوا: " الدين نقلٌ " فأساس الدين وحي من السماء ؛ أي: إخبار الله الخلق، و تعريفهم به، إلهاً و رباً وخالقاً و حكيماً و سميعاً و بصيراً و رحيماً و غنياً و لطيفاً و قديراً، فالدين وحي لكن التأكد من هذا الوحي يكون عن طريق العقل، كما أن فهمه يكون عن طريق العقل، فدور العقل يكون قبل النقل وبعد النقل، فدوره قبل النقل هو إثبات صحة هذا النقل، ودوره بعد النقل هو فهم هذا النقل، فالعقل لا يتناقض مع النقل، ولكن لا يجوز للإنسان أن يُحَكِّم العقل بالنقل، فالإنسان المنحرف قد تقول له الآية أو الحديث فلا تعجبه، لأنه جعل عقله هو الأصل، و العقل في الحقيقة وسيلة، وهو محدود المهمة، فلا يمكن له أن يكون العقل حكماً على النقل.

لذلك كان درسنا اليوم متعلِّقاً بالخبر الصادق، فالله أخبرنا أن هناك مخلوقات لا نراها لكنها ترانا، و تسمعنا لكننا لا نسمعها، و الدليل على ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق الذي يوحى إليه، قد حضرتْ مجلسه الجن واستمعتْ إلى القرآن الذي يتلوه على أصحابه والنبي لا يعلم، فلولا أن الله أخبر النبي أن الجن حضرت مجلسك وسمعت القرآن من فمه لما علم النبي، فمعنى ذلك أننا لا نرى الجن، كما أننا لا نسمع صوتهم:

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ)

(سورة الجن: آية " 1 ")

قل يا محمد لإخوانك وأصحابك، وللناس قاطبةً:

(أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ)

(سورة الجن: آية " 1 ")

فلولا أن الوحي جاءه ما علم أن الجن حضروا معه، فالنبي الكريم -على عظمته- لا يعلم إلا أن يعْلِمه الله عزّ وجل..

هذه السورة تنبذ الخرافات والأوهام..

إخواننا الكرام.. من الممكن الآن بعد أن استمعت إلى هذا الدرس أن تضع تحت قدمك مليون قصة ليس لها أصل، فهناك من الناس من يعيش في أوهام عالم الجن، وقد تجد أشخاصاً محترمين يذهبون إلى أشخاص من أجل إخراج جني أو إدخال جني أو تعامل مع الجن، فنحن نسمع قصصاً لا تنتهي حول ذلك في كل جلسة نحضرها، و هذه السورة هي الحاسمة، لأنها مقياس دقيق، لقد قلت في بداية الدرس الماضي: إن هناك أناساً تطرفوا، حينما أنكروا الجن، كما أن هناك أناساً تتطرفوا حينما أعطوا الجن كل شيء، فالجن لا نراهم ولا نسمع أصواتهم، ولكنهم يروننا ويسمعوننا:

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ)

و لولا أن الله أوحي إلى النبي لما عرف النبي أن الجن حضرت مجلسه.

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ)

و بالمناسبة: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول:

((أنا لا أعلم الغيب))

" قل لا أعلم الغيب "، فأي مخلوق يدّعي بعد ذلك أنه يعلم الغيب يجب أن تركله بقدمك، لأن الله عزّ وجل قال:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(الأعراف)

قل: إني لا أعلم الغيب، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء، فإذا كان النبي لا يعلم الغيب، فهل نقبل من أحدٍ كائناً من كان أن يعلم الغيب ؟ فكم من قصة تسمعونها كلّ يوم عن أناس يعلمون الغيب ! يقولون: يوجد أمامك قبضة (أي قبض نقود)، أو يوجد لك عدو يمكر بك، إن من أتى كاهناً فصدّقه فقد كفر، و من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، ولا دعاؤه أربعين ليلة، فهذا شيء كبير جداً، فمن الكبائر أن تقرأ حظك هذا الأسبوع في المجلات، كبرج الثور، وبرج (الديب) وهذا كله كذب، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله، و هذا ديننا، فأنت عندما تفهم القرآن تركل بقدمك مليون قصة كذب، فلا أحد يعلم الغيب، و النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب كذلك، قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

فهل يستطيع مخلوق كائناً من كان أن يدعي أنه يملك لك النفع والضر ؟ فإذا كان سيد الخلق النبي على عظمته يقول:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

وهناك آية أبلغ تقول:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف: آية " 188 ")

انتهى الأمر، فأي إنسان يدّعي أنه ينفعك أو يضرك، قل له: أنت كاذب.

إخواننا الكرام... مرةً ثانية.. إن الله عزّ وجل يقول أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب،

((قل لا أعلم الغيب، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء))

فهل يستطيع إنسان آخر أن يدعي علم الغيب ؟ كم من قصة بإمكانك أن تنفيها بآية واحدة ؟ إذا قال الله عزّ وجل:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف: آية " 188 ")

ولا أملك لكم نفعاً ولا ضراً: فهل من إنسان بإمكانه أن يدعي أنه ينفعك أو يضرك ؟ هذا مستحيل، كما قال الله تعالى:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

فهل تحترم إنساناً يقول لك: أنا لا تهمني المعصية ؟ يجب عليك أن تحتقر هذا الإنسان، لأن رأس الحكمة مخافة الله، إذاً: هذه آيات تعدُّ مفصلية في القرآن الكريم، وكذلك هو شأن هذه السورة، و إن شاء الله في الدرس القادم سنشرع بتفسيرها بشكل دقيق، لكنك إذا استوعبت آيات سورة الجن، والآيات الأخرى التي تتحدث عن الجن في غير سورة عن الجن، كان بإمكانك أن ترد مليون قصة ولا تعبأ بها إطلاقاً، فهناك مقولات وأخطاء وأوهام وخرافات وخزعبلات ومتاهات كثيرة، لا ينجينا منها كلها إلا الاعتصام بالكتاب والسنة، وهذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأي شيء آخر غير القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة، فيه خلط و إضافات و حذف و زيادات و تأويلات خاطئة نحن عنها في غنى.

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

يجب أن تكون هذه السورة حاسمة لنا في موضوع الجن، فلا نسمح لأنفسنا أن تروّج قصة تخالف هذه الآيات أو أن تستمع إليها أو أن تصدقها أو أن تخاف منها، فقد يقال لك مثلاً: إن فلاناً سحروه، فليس هناك تفاهم بينه وبين زوجته، إنه (مكتوب له)، فما هذا الكلام ؟! فسبب عدم التفاهم بينه وبين زوجته هو سوء معاملته لها، فقد خالف منهج الله فيها، فيجب أن تكون علمياً في طرحك و فهمك للأمور، لأن هذا الدين علم، والصحابة الكرام ما يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بالعلم و بالدقة البالغة، وهذه المقدمة

الثانية كانت في منهج التلقي، أما المقدمة الأولى فقد كانت في تعريف الإنسان، و في الدرس القادم إن شاء الله نبدأ بشرح هذه الآيات آية آية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (3-8):المقدمة 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-10-03

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق الجن من خلال القرآن

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة الجن، و المقدمةُ الثالثة التي تحدد خصائص هذه المخلوقات التي سُميت بالجن.

اعتقادات الناس في الجن:

أيها الإخوة الكرام... إن من الناس من تطرف في إيمانه بالجن، فآمن بقدراتهم الخارقة على أساس أنهم يعلمون الغيب، فينفعون ويضرون ويعطون و يمنعون، كما أن هناك مَن تطرف فنفى وجود الجن، لكن الحقيقة تقع بين أن تنفي وجود الجن وبين أن تعقد بقدراتهم الهائلة، فقد زعم كفار قريش أن محمداً صلى الله عليه وسلم تُعَلِّمُه الجن، فهو يستقي علمه منهم، بل إنهم جعلوا بين الجن وبين الله نسباً، فهم يزعمون أن الله تزوّج من الجن وأنجب الملائكة، وهذه كلها أفكارٌ وخرافاتٌ وخزعبلاتٌ وأوهامٌ وأساطير تروى عن الجن في الجاهلية، فجاءت هذه السورة لتضع لتبين حدود هذه المخلوقات.

أيها الإخوة الكرام...لقد كان العربي في الجاهلية إذا سار وحده، أو دخل وادياً،أو قطع مفازةً يستعيذ بعظيم الجن الحاكم، ويقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، فيعتقد بعد ذلك أنه إذا باتَ بات آمناً لأنه استعاذ بالجن، فقد ألّه هؤلاء الجن وهذا تطرُّف و شرك، كما أنهم كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتنبّئ الكُهّان به، فإذا أتوا كاهناً عرفوا الغيب من خلاله، لأن الجن تعلِّم الكُهّان، أما الكهان فهم ينبئون بني آدم.

وكما قلت قبل قليل، لقد جعلوا بين الجن وبين الله نسباً، فكانوا يعتقدون أن لله عزّ وجل زوجةً من الجن أنجبت الملائكة، فالملائكة بنات الله، وقد ذكر القرآن فعلهم هذا، وما هذا إلا ركامٌ وخرافاتٌ و ضلالاتٌ و أساطير ما أنزل الله بها من سلطان، وقد جاءت هذه السورة لتضع حداً لكل هذه الأوهام و الخرافات و الأساطير، و إذا كان هذا اعتقاد الجاهليين، فهل تفاجؤون إذا علمتم أن في مجتمعاتنا الإسلامية جماعاتٌ كثيرة تؤمن بأن الجن عندهم قدرات خارقة، وأنهم يعلمون الغيب، وأن بإمكانهم أن يوفقوا بين الزوج وزوجته وأن يفرقوا بينهما، وقد جاءت هذه السورة لتنفي الشرك والأضاليل و التخرُّصات و الأكاذيب، فهذا كلُّه يجب أن ينتهي بعد أن يوضِّح الوحي حقيقة الجن.

فهناك الكثير من الناس اليوم من يعتقد بقدرة الجن على فكّ السحر، كما أنهم يتوهمون أنهم يستطيعون أن يخرجوا الجن من الإنسان، وقد يكون هؤلاء من بعض المثقفين، وقد يكونوا للأسف الشديد من

بعض رواد المساجد، فنجد هؤلاء يلجؤون إلى أشخاص من أجل ذلك، و أنا لا أنفي هنا أن هناك علاقةً بين الجن والإنس، إن هذه العلاقة موجودة، لكنها غير مشروعة إطلاقاً، لأن الله عزّ وجل في كتابه والنبي عليه الصلاة والسلام في سنته لم يسمحا لنا أن نقيم علاقةً مع الجن، أما الذين أقاموا علاقةً مع الجن فقد أُرهقوا وأُتعبوا ولم يجنوا من هذا العمل شيئاً.

هناك الآن جماعاتٌ دينيةٌ كثيرة منحرفة العقيدة تنفي وجود الجن إطلاقاً، وتزعم أن الجن خرافةٌ لا وجود لها، فهي في اعتقادهم من التخرُّصات، قد تسألهم كيف تفسر آيات الجن ؟ فيقولون: كل شيءٍ غاب عن عينك فهو من الجن، فإذا وقف الإنسان وراء الباب ولم تره فهو من الجن، فقد وقعت قضية الإيمان بالجن بين هؤلاء الذين ألّهوا و أشركوا، وبين هؤلاء الذين اعتقدوا بقدراتٍ الجن الفائقة، كما اعتقدوا بالنفع والضر وعلم الغيب، وبين هؤلاء الذين أنكروا الجن، فجاءت هذه السورة لتعطي كل شيءٍ حقه، فأعطت الجن حجمهم الحقيقي، و المقياس الوحيد في ذلك هو الوحي، لأن الوحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه كلام الخالق الخبير الواحد القهّار.

بعض حقائق الجن:

أيها الإخوة... لن أبدأ اليوم بتفسير هذه السورة بعد ولكني سأضع لكم بعض الحقائق المستقاة من هذه السورة، أو من بعض الآيات التي وردت عن الجن في سورٍ أخرى.

1- الحقيقة الأولى: إن الجن مخلوقاتٌ موجودة، فعالم الجن عالمٌ حقيقة تؤكِّدها هذه السورة، فأنت لا تستطيع أن تنفي الجن، لأنك إذا نفيت الجن كذبت القرآن، وتكذيب كلمةٍ من هذا الكتاب كفرٌ صريح.

2- الحقيقة الثانية: لقد وصف الجن أنفسهم من خلال هذه السورة فقالوا:

(وَأَنّا مِنّا الصّالِحُونَ وَمِنّا دُونَ ذَلِكَ كُنّا طَرَائِقَ قِدَداً)

(سورة الجن)

إنهم موجودون ومتنوعون، فمنهم الصالحون ومنهم الطالحون، كما أن منهم الضالون المضلون، ومنهم السُذّج الأبرياء الذين ينخدعون، فبعضهم مهتدٍ وبعضهم ضال، وبعضهم خيّر وبعضهم شرير، و بعضهم ماكرٌ خدّاعٌ مضل وبعضهم ساذج، والدليل قول الله تعالى:

(وَأَنّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللّهِ شَطَطاً (4) وَأَنّا ظَنَنّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللّهِ كَذِباً (5))

(سورة الجن)

فهؤلاء عندهم سذاجة، فقد ظنوا أن الإنس والجن لن تقول على الله كذباً، كما ظنوا أن سفيههم (أي الشيطان): كان يقول على شططاً.

التقوّل على الله تعالى من أعظم الكبائر:

إن للإمام الغزالي كلمة رائعة يقول فيها: **" لئن يرتكب العوام الكبائر فذلك أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ".**

و حينما تحدث الله سبحانه وتعالى عن المعاصي والآثام ورتبها ترتيباً تصاعدياً، بدأ بالإثم والفحشاء، وانتهى بالشرك والكفر، لكنه جعل التقول على الله من أكبر المعاصي، فقال:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

فكم من إنسانٍ ضل الطريق لفكرةٍ سمعها فلم ترق له، و كم من إنسانٍ ظن بالله ظن السوء و ظن الجاهلية فأعرض عنه بسبب كلام تحدث به إنسانٍ جاهل، و كم من إنسانٍ أعرض عن الدين لأنه ما استقاه من مصادره الصحيحة، و كم من إنسانٍ كفر بسبب ما يرى ويسمع من تجاوزات يفعلها المسلمون، فلذلك قال تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللّهِ شَطَطاً (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللّهِ كَذِباً (5))

(سورة الجن)

وإن من أغرب ما قاله الإمام الشافعي قوله: " لأن أرتزق بالرقص أهون عليّ من أن أرتزق بالدين "، لأنك إذا ألقيت على الناس أفكاراً غير صحيحة فأضللتهم وأفسدتهم وحملت بعضهم على أن يكفروا بهذا الدين، فأنت أكبر آثمٍ لأن كل انحرافٍ يجري عن طريقك.

أيها الإخوة الكرام... استمعوا إلى هذه الحقيقة: إنه هناك من يدعو إلى الله بمضمونٍ هزيل سطحي غير متماسك، وبأسلوبٍ غير تربويٍ وغير علمي، وهناك من يدعو إلى الله بمضمونٍ عميق، لكنه لا يلتزم بأوامر هذا الدين، فعندئذ لا يرى المدعو في هذا الداعية التزاماً بل ازدواجاً، وإن المدعو بهذا المضمون الهزيل، وهذه الازدواجية والتناقض الشنيعين، وبتلك الطريقة غير التربوية وغير العملية، لا يُعَدُّ عند الله مبلغاً، فقد رُكِّب في أعماق الإنسان أن دين الله عظيم، و أن هذا الدين من عند الله العليم الحكيم الرؤوف الرحيم علاّم الغيوب أكرم الأكرمين رب العالمين، فهذا الدين لا يحتمل أن يوجد فيه تناقض، ولا ضحالة، ولا خرافة، ولا تجاوز، لأنه الدين يمثِّل عظمة هذا الإله العظيم.

أيها الإخوة الكرام... إن في الدين مقولاتٌ لا تعدُّ ولا تحصى، فلا بد لك من مقياسٍ دقيق تصنف به هذه المقولات، وقد تحدثت في الدرس الماضي عن منهج التلقي، فعن طريق منهج التلقي تستطيع أن تفرز هذه المقولات، فتقبل المقولة التي تنطبق على هذا المنهج، وترفض المقولة التي لا تنطبق عليه، فلا بد من منهجٍ دقيق نعتمده في قبول المقولات الدينية وفي رفضها.

إذاً: الجن موجودون، و منهم الصالحون ومنهم الطالحون، فهم فرَقٌ كثيرون:

(وَأَنّا مِنّا الصّالِحُونَ وَمِنّا دُونَ ذَلِكَ كُنّا طَرَائِقَ قِدَداً)

والجن منهم المضلّون، الخبثاء، ومنهم السُذج البسطاء.

(وَأَنّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللّهِ شَطَطاً (4) وَأَنّا ظَنَنّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللّهِ كَذِباً (5))

(سورة الجن)

3- حقيقةٌ ثالثة: إن الجن لديهم استعدادٌ للهداية، فهم مستعدُّون لإدراك القرآن الكريم سماعاً وفهماً، والدليل على ذلك هذه الآيات الكريمة:

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيّ أَنّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنّ فَقَالُوا إِنّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبّنَا أَحَداً (2))

(سورة الجن)

فقد استمعوا إلى هذا القرآن الكريم وأُعجبوا به وفهموه وأدركوا أبعاده و آمنوا به، فصاروا جناً مؤمنين، وهذه حقيقة ثالثة.

4- الحقيقة الرابعة: إن الجن مكلّفون، ومعنى ذلك أنهم مسؤولون ومحاسبون، فتقع عليهم أنواع العقوبات وأنواع الإكرامات، والدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَنّا لَمّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً)

(سورة الجن)

فمن يؤمن بربه ؛ أي: منا، فالجن مكلّفون.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32))

(سورة الرحمن)

أي: سنقصد إلى محاسبتكم، فالملك غير مكلف، و الحيوان غير مكلف، و الجماد غير مكلف، لكن الإنس والجن مكلفون بحمل الأمانة، وهم مسؤولون، وسيحاسبون ثم يعذّبون، أو يُنعّمون، و هذه حقيقة ثالثة.

(وَأَنّا لَمّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً (13) وَأَنّا مِنّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنّا الْقَاسِطُونَ)

(سورة الجن)

القاسطون: الظالمون، هذا الاسم ذو معنىً دقيق، فالمُقسط هو العادل، أما القاسط فهو الظالم، فـ(أقسَطَ): عَدَلَ، و(قَسَطَ): ظَلَمَ، و اسم الفاعل من الثلاثي: قاسط، و اسم الفاعل من الرباعي: مقسط، فالمُقسط هو العادل، والقاسط هو الظالم.

(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15))

(سورة الجن)

فالجن مخلوقات مكلفة بحمل الأمانة، فهي مسؤولة عن أعمالها، و لا بد لها من أن تملك حرية الاختيار، فإذا كانت مسؤولةٌ عن أعمالها وتملك حرية الاختيار، فإن مصيرها إما إلى جنةٍ يدوم نعيمها أو إلى نارٍ لا ينفد عذابها، قال تعالى:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

(سورة الرحمن)

و هذه أيضاً حقيقةٌ عن الجن.

(وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15))

(سورة الجن)

5-الحقيقة الخامسة: إن هؤلاء الجن لن ينفعوا الإنس إذا لاذوا بهم، فأية محاولةٍ يقوم بها الإنسان ليلجأ من خلالها إلى الجن هي محاولةٌ خاسرةٌ يائسة، وقد ورد هذا كله في كتاب الله، فهذا هو حجم الجن الحقيقي، و هذا هو تعريفهم الدقيق، لذلك قال تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)

(سورة الجن)

فلا تستعذ إلا بالله، فالجن لن يقدِّموا لك شيئاً، و لن ينفعوك إطلاقاً، و لن يخلِّصوك من أية ورطة، وإن أكثر المسلمين اليوم يلجؤون إلى رجال يزعمون أنهم يعرفون الجن ليفكوا عنهم بعض السحر، ليخرجوا بعض الجن منهم،فهؤلاء لا يزدادون إلا ضلالاً وتيهاً.

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)

(سورة الجن)

6- الحقيقة السادسة: إن الجن لا يعلمون الغيب إطلاقاً، فهم ليست لهم أية صلةٍ بالسماء، قال تعالى:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً(9))

(سورة الجن)

وأنا كنا نقعد ؛ أي: قبل رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مثال موضّح:

سأضرب لكم هذا المثال: لو أن (آذناً) أو حاجباً أو مستخدماً في رئاسة الوزراء كان يطوف على الوزراء ليقدم لهم القهوة أو الشاي، وفي أثناء الاجتماع سمع من أطراف أحاديثهم أن الساعة ستؤخّر

ستين دقيقة قبل شهرٍ من موعد تأخيرها، فأشاع بين الناس أنني أعلم الغيب، فبعد أربعة أسابيع سوف تؤخَّر الساعة لأول مرة، فهل هذا الحاجب أو هذا (الآذن) يعلم الغيب ؟ لا، فقد استرق السمع من خلال اجتماعٍ مهم، فأوهم الناس أنه يعلم الغيب، الآية الكريمة:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ)

(سورة الجن)

أي: لقد كنا نستمع إلى بعض الأوامر الإلهية، وننزل بها إلى الأرض، فنلقي هذه المعلومات في آذان الكُهّان، فيأتي هؤلاء الكهان إلى الناس ويدعون أنهم يعلمون الغيب، فهذا ليس غيباً، ولكنه استراق سمعٍ.

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً(9))

(سورة الجن)

أيها الإخوة... إن المشكلة الكبيرة هي أن تعتقد أن هؤلاء الجن يعلمون الغيب، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، لكن هؤلاء الجن عندهم سرعة تَنَقُّل، و قدرتهم على تخطي المسافات مذهلة، فقد يقطعون آلاف الكيلو مترات في لمح البصر، فإذا نقلوا لك معلومةٍ من مكان إلى مكان، توهمت أنهم يعلمون الغيب، و هم لا يعلمون الغيب إطلاقاً، فإذا إنسان مات بظرف غامض مثلاً، ادعى بعضهم أن بإمكانه تحضير الأرواح، فهو بذلك يأتي بقرآنه من الجن.

فيأتي عملاؤهم من الجن، ثم يعرضون على أهل القتيل أن يأتوا بابنهم المقتول ليُسمعهم اسم قاتله، فالهدف من القضية كلها أن يتوهم الناس أن الجن يعلمون الغيب، وهم لا يعلمون الغيب إطلاقاً، ولكنهم قادرون على استحضار الأرواح، فهم يستحضرون قرين هذا المقتول من الجن، فيعطيهم معلومات دقيقة جداً عن ملابسات و ظروف حياته، مما يوهم الناس أنهم يعلمون الغيب، و لا يعلم الغيب إلا الله.

فقد سمعت أن هناك من يزعم أنه استحضر روح امرأة ماتت بحادث، فأخبرت الناس أنها أسلمت وأنها كذا وكذا، و كل هذا خرافةٌ بخرافة، لأن الجن لا يعلمون الغيب إطلاقاً.

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (10))

(سورة الجن)

لا يعلمون الغيب، لكن:

(وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً)

(سورة الجن)

إن الخير إلى الله، والشر ليس إليه، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((وَالشّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))

(عن علي بن أبي طالب)

أي: إن الخير كله بيدك يا رب، والشر ليس إليك، وهذا أدبٌ رفيع.

(وَأَنّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً)

(سورة الجن)

فليس هناك علاقة بينهم وبين الله، و لا توجد علاقة مصاهرة، كما يدعي العرب في الجاهلية.

(وَأَنّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً)

(سورة الجن)

لأن المشركين في الجاهلية كانوا يزعمون أن الله تزوّج من الجن وأنجب الملائكة، فالملائكة بنات الله.

أيها الإخوة... أقول لكم مرةً ثانية، إن هذه الحقائق من كتاب الله تعطي الجن حجمهم الحقيقي، وإن أية زيادةٍ على ذلك هي زيادة باطلة، كما أن أي إنكارٍ لذلك هو إنكارٌ باطل، لأننا لا نستطيع أن ننكر شيئاً أثبته القرآن، ولا أن نزيد شيئاً على ما ذكره القرآن، وهذه السورة إضافة إلى الآيات التي وردت في بقية السور عن الجن، هي المقياس الدقيق لموضوع الجن، وإنك حيثما جلست، وأينما التقيت بالناس، وجدت من يطرح قضية الجن، فهناك من يعطي الجن حجماً أكبر من حجمهم بكثير، و هناك من يزعم أن الجن يعلمون الغيب عن طريق القرناء و غيب الحاضر و سرعة التنقل في الأرض، و هذه كلها خرافاتٌ ما أنزل الله بها من سلطان، فهم لا يعلمون الغيب ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، وأكبر دليل على ذلك، أن رئيسهم الشيطان قال:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم: آية " 22 ")

وما كان لي عليكم من سلطانٍ ؛ أي: آيةٌ حاسمة قطعية الدلالة..

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: آية " 22 ")

فهذه حقائق ناصعة قد أثبتها الله في كتابه العزيز.

فالجن لا قوة لهم مع الله أبداً، كما لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، لقول الله عزّ وجل:

(وَأَنّا ظَنَنّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً)

(سورة الجن)

فهم في قبضة الله، و ليس لهم إرادةٌ مستقلةٌ عن الله عزّ وجل، كما أنهم ليس بهم قوةٌ يصرفونها في غير إرادة الله عزّ وجل:

(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً)

و إن من الآيات الأخرى عن الجن التي وردت في غير سورة الجن قوله تعالى:

(فَلَمّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلّا دَابّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ)

على موته ؛ أي: على سيدنا سليمان، منسأته ؛ أي: عصاته، الدابة ؛ أي: السوس.

(فَلَمّا خَرّ)

فقد سيدنا سليمان كلّفهم بأعمالٍ شاقة متعبة:

(فَلَمّا خَرّ تَبَيّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

(سورة سبأ)

فأنا هنا أعطيك مقاييس، فإذا كنت جالساً في سهرة مع أصدقائك أو مع إخوانك أو أقربائك أو زملائك في العمل، ثم سمعت قصة مفادها أن الجن يعلمون الغيب، فلا ينبغي أن تبقى ساكتاً، بل يجب أن تنطق بالقرآن الكريم، فتقول: إنهم لا يعلمون الغيب، و لو أنك سمعت قصةً أن الإنسان أوذي من الجن، فذكِّرهم بقول الله عزّ وجل:

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ)

(سورة ابراهيم: آية " 22 ")

فقد نزلت هذه الآيات من أجل أن تعطي الجن حجمهم الحقيقي، و من أجل أن تقف الناس على الحدود التي جاءت في هذه السورة.

يروننا ولا نراهم:

لقد وردت خاصةٌ أخرى من خصائص الجن، في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى:

(إِنّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: آية " 27 ")

إنه ؛ أي: الشيطان وجماعته، فكيان الجن غير مرئي عند الإنس، أما كيان الإنس فهو مرئيٌّ عند الجن، فهم يروننا ويسمعون كلامنا، ونحن لا نراهم ولا نسمع كلامهم هذه حقيقة دقيقة وصريحة وواضحة.

حقيقةٌ عن بنيتهم:

إن الجن مخلوقون من النار، والإنس مخلوقون من الطين، قال تعالى:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيّ آلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ (16))

(سورة الرحمن)

أيها الإخوة الكرام... من خلال هذه الحقائق التي وردت في سورة الجن وفي غير سورة الجن يتضح لنا أن الذين عرفوا الله عزّ وجل، وعرفوا حقيقة الجن، لا يمكن لهم أن يعتمدوا على الجن ولا أن يلجؤوا إليهم، لا في معرفة الحقائق المستقبلة، ولا في الاستعانة بهم، لأنهم ضعافٌ كالبشر، ولأنهم لا يعلمون الغيب كالبشر، فهذه السورة توضّح حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية.

الصلة بين الإنس والجن:

ثم توضّح هذه السورة أيضاً الصلة بين هذه الخلائق المنوّعة، فمن ممكن أن تقوم صلة بين الإنس وبين الجن، فيستعيذ الإنس بالجن و يتعاون معه، و هذه حقيقة، لكن هذه الصلة ليست مشروعة ولا مطلوبة، ولا مستحسنة إطلاقاً.

فقد ورد في أول هذه السورة تأكيدٌ على وحدانية الله، وتأكيدٌ على نفي الصاحبة والولد، -وهذا تأكيدٌ مهمٌ جداً – كما ورد إثبات الجزاء في الآخرة للإنس والجن معاً، وأن أحداً من مخلوقات الله -ولو بدا خارق القدرة على تخطي المسافات - لن يُعجز اللهَ في الأرض ولن يتفلّت من يده أبداً.

وفي هذه السور أيضاً بيانٌ لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، كما يتبين فيها أن الجن لا يملكون قوةً ولا علماً،فليست لهم إرادةٌ مستقلةٌ عن الله عزّ وجل، فهم في قبضة الله كالإنس:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً)

(سورة الجن)

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

(سورة الجن)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في ما يرويه ربه عنه، فيما يأمره الله أن يبلغه للناس:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

(وَأَنَّا لَا نَدْرِي)

(سورة الجن)

فالغيب موكولٌ إلى الله وحده.

(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً)

(سورة الجن)

وإن الذي يستقيم على أمر الله عزّ وجل سيجني ثماراً طيبة، قال تعالى:

(وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17))

(سورة الجن)

إن هذه بعض الحقائق المتعلقة بالجن، فالله إله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، أما الجن فهم ليس لهم أي شأنٍ ولا أي فعلٍ ولا أي علمٍ، فلا يعلمون الغيب، ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً مع من يعوذ بهم.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذه الحقائق التي عرضت في هذه السورة، لنجعلها مقياساً لكل ما يدور في مجالس الناس عن الجن، فهناك آلاف القصص التي ما أنزل الله بها من سلطان يمكنك أن تركلها بقدمك، فيجب عليك حينما تقرأ آيةً من سورة الجن أن تقول: إن هذه الآية تبيّن أن الجن لا يعلمون الغيب، ولا يستطيعون أن ينفعوا الإنسان إلا أن يزيدوه رهقاً كما قال الله عزّ وجل، وأنهم مسؤولون ومحاسبون وسيعذبون إن انحرفوا، وسيتنعّمون إن هم أفلحوا.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن نبدأ تفسير الآيات آيةً آية بحسب التسلسل في الدرس القادم، لكني أردت من هذا الدرس أن تعرفوا حقيقة الجن من خلال هذه السورة ومن خلال بقية السور، فهؤلاء المخلوقات موجودون ، وهذا هو حجمهم الحقيقي، وإن أي تخرصٍ أو تأويلٍ أو زيادةٍ هي باطلٌ ينبغي أن لا نأخذ به.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 1-17
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-10-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الرابع من سورة الجن ومع الآية الأولى من هذه السورة وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً (2) أ)

(سورة الجن)

أيها الإخوة الكرام... لقد قال تعالى:

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ)

إلى ماذا استمع الجن ؟ لقد استمعوا إلى القرآن الكريم، والنفر: ما بين الثلاثة والعشرة، وقد تستخدم هذه الكلمة للتعبير عن الرهط وهم الأربعون.

لمحة عن ماهية الجن:

لقد وصف أحد العلماء أجناس المخلوقات بوصفٍ جميل فقال: **" قد مرّ أن في الوجود نفوساً أرضية قوية هي الجن، لا في غلظ النفوس السبعية والبهيمية وقلة إدراكها كالحيوانات، ولا على هيئات النفوس الإنسانية واستعداداتها، ولا في صفاء النفوس المجردة ولطافته ".**

فهؤلاء المخلوقات ليسوا كالحيوانات، ولا كالملائكة، ولا كالبشر، فالحيوانات نفوسٌ سبعيةٌ بهيميةٌ قليلة الإدراك، والملائكة نفوسٌ صافيةٌ مجردةٌ لطيفةٌ متصلة بالعالم العلوي، أما عالم الإنس فهو نفوسٌ إنسانيةٌ لها استعداداتها الكبيرة جداً، فهؤلاء المخلوقات هم لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ولا ومن هؤلاء، فقد غلبت عليها الصفات الهوائية أو النارية أو الدُخانية و هم من طبيعةٍ ناريةٍ ودُخانية على اختلاف أحوالها، كما أن لهم علومٌ وإدراكاتٌ من جنس علومنا وإدراكاتنا، ولما كانت قريبةٌ بالطبع إلى الملكوت السماوي أمكنها أن تتلقى من عالمه بعض الغيب، فقد تلقت من قبل بعض الحقائق التي استرقتها من الملائكة، فلا يستبعد أن ترتقي إلى أفق السماء فتسترق السمع من كلام الملائكة، ثم تنزل إلى الأرض ومعها من بعض من أوامر الملائكة، ولأنها مخلوقات أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية فقد تأثّرت بهذه القوى، فرُجِمَت ومُنعت عن بلوغ مرادها، وإدراك مداها من العلوم.

لقد كانت هذه لمحة عن حقيقة الجن، فهم مخلوقاتٌ ليسوا كالبشر في استعداداتهم العالية وفي الجمع بين النفخة الروحية والبضعة الأرضية، ولا هم كالملائكة في أجسامها النورانية المتصلة بالعالم السماوي، ولا كالحيوانات البهيمية السبعية ذات الإدراك القليل، بل هم بين هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء.

النبي صلى الله عليه وسلم لم تعلمه الجن:

أيها الإخوة، قال تعالى:

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً)

(سورة الجن)

إن هذه الآية أكبر دليل على أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يرهم ولم يقرأ عليهم ولم يعلمهم، بل إن الله جلّ جلاله أخبره أنهم استمعوا إليه وآمنوا به، فقد اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته صلى الله عليه وسلم، فسمعوا الآيات، فأخبره الله بسماعهم وإيمانهم، فمن خلال هذه الآية نستدل على أن النبي عليه الصلاة والسلام لم ير الجن ولم يعلِمهم، لكن الحقيقة أنه قد اتفق حضورهم مجلسَه مع تلاوته، فسمعوها وآمنوا بهذا القرآن الذي جاء به، فلما رجعوا إلى قومهم قالوا: إنا سمعنا قرآناً ؛ أي: كتاباً جامعاً للحقائق الإلهية والكونية والأحكام والمواعظ وجميع ما يُحتاج إليه في أمر الدارين ؛ الدنيا، والآخرة:

(إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً)

عجباً ؛ أي: إن أسلوبه فوق أسلوب البشر، فهو ليس من كلام البشر بل من عند خالق البشر، قال تعالى:

(إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً)

أي: جامعاً للحقائق الإلهية والكونية وللحِكَمِ والأحكام والمواعظ، فهذا القرآن فيه كلُّ ما يحتاجه الإنسان في الدارين في دار الدنيا ودار الآخرة، عجباً ؛ أي: غريباً، فهو ليس في مستوى عبارة الخلق، بل في مستوى عبارة خالق الأكوان:

(يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ)

(سورة الجن: آية " 2 ")

أي إلى الحق والصواب و سبيل السعادة والسلامة في الدنيا والآخرة:

(فَآمَنَّا بِهِ)

(سورة الجن: آية " 2 ")

فهم إذاً مكلفون بالإيمان:

(وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً)

(سورة الجن)

أي: لن نشرك أحداً من خلقه في عبادته، إذاً:

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ)

(سورة الجن)

لاشيء يمنع من الإيمان:

إن الإنسان حينما يؤمن بالله عزّ وجل ويستقيم على أمره يكون قد اهتدى إلى رشده، فحينما يشعر الإنسان أنه على صواب ومنهجٍ واضح، وأنه في طريقه إلى سعادةٍ أبدية، وأن الجنة هي دار القرار التي خُلِقَ الإنسان من أجلها، فإنه يشعر بسعادةٍ لا توصف، وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال:

((انْطَلَقَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوق عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ))

فقد كان الجن والشياطين يسترقون السمع من أخبار السماء، بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، ثم حيل بعد ذلك بين الشياطين وبين خبر السماء، إلا من استرق السمع فأتبعه شهابٌ ثاقب

((: فَرَجَعَتِ الشّيَاطِينُ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ قَالَ: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السّمَاءِ إلا مَا حَدَثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الّذِي حَدَثَ. فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السّمَاءِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الّذِينَ تَوَجّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِنَخْلَةَ وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوق عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلّي بِأَصْحَابِهِ صَلاةَ الْفَجْرِ فَلَمّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمّعُوا لَهُ فَقَالُوا هَذَا الّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السّمَاءِ فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا يَا قَوْمَنَا (إِنّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبّنَا أَحَدًا))

(من صحيح البخاري رقم " 4540 ")

إننا نستفيد من هذه الآية أن الإنسان إذا قامت أمامه الحجج والأدلة والبراهين على أن هذا الدين حق، و أنه الصراط المستقيم وعلى حبل الله المتين و طريق السلامة والسعادة فلا شيء يمنعه من أن يتمسك به، فما الذي يمنعك من أن تتمسك بهذا الدين و تحاول الحفاظ عليه ؟ ما الذي يمنعك أن تصطلح مع الله والإسلام في بيتك و عملك ؟ ما الذي يمنعك أن تنطلق إلى الله تفر إليه ؟ ((ففروا إلى الله))، ما الذي يمنعك أن تُقْلِع عن كل ما لا يرضيه ؟ إن الجن قد استمعوا في جلسة واحدة إلى آيات من فم النبي عليه أتم الصلاة والتسليم،فقالوا:

(فَآمَنّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبّنَا أَحَداً)

(سورة الجن)

فكم من خطبة دينية يسمعها المسلم، و كم من درس تفسير أو حديث أو سيرة أو فقه يُلقى عليه، وما أكثر الأدلة الناصعة كالشمس، و البراهين القوية كالجبال التي قامت عليه، فما الذي يحول بينك وبين أن تكون مهتدياً، ما الذي يحول بينك وبين أن تكون مع الله دائماً، لتستظل في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؟ إن القضية بيدك، فقد قال تعالى:

(إِنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إِمّا شَاكِراً وَإِمّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29 ")

صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام:

قال تعالى:

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيّ)

لقد صلى النبي صلى الله عليه و سلم بأصحابه الفجر، فاستمع الجن إلى قراءته، ولم يعلم ذلك إلا بعد أن أعلمه الله عز وجل، فهل يعقل أن تكون الجن هي التي علّمت النبي صلى الله عليه وسلم كما يدّعي المشركون ؟ إنه لم يرهم ولم يسمع بوجودهم إلا بعد أن أخبره الله عزّ وجل.

لقد زاد الإمام مسلم على هذا الحديث فقال:

((مَا قَرَأَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى الْجِنّ وَلارَآهُمُ))

فهو ما قرأ عليهم وما رآهم ولكن الله أخبره، و يقول أحد العلماء: "إن الجن آمنوا عند سماع القرآن، والإيمان بالقرآن يقع بالعلم بحقيقة الإعجاز "، فحينما تضع يدك على إعجاز القرآن، وعلى أن هذا الكلام لا يستطيعه أحد من بني الإنسان لأنه كلام خالق الأكوان فإنك عندئذ تؤمن به، فإذا آمنت أنه كلام الله آمنت أن الذي جاء به هو رسول الله، والأدلة على إعجاز القرآن كثيرةٌ و قاطعة، وهناك ثلاثة ثوابت في الحياة تدل على الله، وهي:

1- الكون.

2- إعجاز القرآن الذي يدل على أن القرآن كلام الله.

3- إعجاز القرآن يدل على أن الذي جاء به هو رسول الله.

فإذا آمنت بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وآمنت أن هذا القرآن كلامه، وأن الذي جاء بهذا الكلام وفسّره وبينه لك هو رسوله، فقد استكملت الإيمان العقلي، و بقي عليك أن تستكمل الإيمان الإخباري، وهو أن تؤمن بكلّ شيءٍ أخبرك الله به في القرآن، أو أخبرك به النبي عليه الصلاة والسلام في السنة، وهو الجانب الآخر المسموع من الوحي.

يقول الإمام الرازي: **" إنه عليه الصلاة والسلام بُعِثَ إلى الجن كما بعث إلى الإنس"**، وقد قال الله عزّ وجل:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

(سورة الأنبياء)

فقد بُعِثَ رسول الله إلى الإنس كما بعث إلى الجن، بل إن كل المخلوقات سعدت ببعثته لأنه صلى الله عليه وسلم نشر الهدى في الأرض.

لقد قرأت مرةً هذا الحديث الشريف:

((إن الملائكة في السماء والحيتان في البحر لتصلي على معلمِ الناس الخير))

فما علاقة الحوت في البحر بمعلِم الناس الخير كي يصلِّي عليه ؟

إنك إن علّمت الناس الخير ترفّقوا بالحيوانات وذبحوها وفق منهج الله فلم يعذبوها، فما من مخلوقٍ إلا ويحمد الله على بعثة النبي عليه الصلاة والسلام لأنها خيرٌ كلها، ورحمةٌ كلها، ومصلحةٌ كلّها، و صوابٌ كلها، وكمالٌ كلّها.

حقائق مستنبطة من هذه السورة:

1- الشيء الأول الذي نستنبطه هو أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث إلى الجن كما بعث إلى الإنس.

2- والشيء الثاني: أن الله جلّ جلاله أراد أن يُعْلِمَ قريشاً أن الجن لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا به وبرسوله وذلك رغم تمرُّدهم، فما بال هؤلاء الفصحاء البلغاء يكذِّبون القرآن الذي جاء بلغتهم؟ قال تعالى:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ)

(سورة الحشر: آية " 21 ")

إن الإنسان مخلوق من المخلوقات المتميزة التي أعطاها الله قوةً إدراكية، فالجن استمعوا إلى القرآن فآمنوا به ولم يشركوا بربهم أبداً، كما أن كل من في السماوات والأرض يسبّح الله عزّ وجل، أما هذا الإنسان الذي سُخِّرَ له الكون كله فهو الغافل وحده.

3- وهذه السورة تؤكِّد لنا أن الجن مكلّفون كالإنس تماماً، قال تعالى:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32))

(سورة الرحمن)

لقد أراد الله عزّ وجل من هذه السورة أن يُعْلِمَ القوم أن الجن مكلفون كالإنس تماماً، كما أراد الله جلّ جلاله أن " يعلمنا أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمونه، ويفهمون لغاتنا كلها " وذلك كما قال الإمام الرازي.

4- والشيءُ الآخر الذي نستنبطه هو أن بعض الجن المؤمنين يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان قال تعالى:

(فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً (2))

(سورة الجن)

5- إن هؤلاء الجن لما سمعوا القرآن ووُفِّقوا للتوحيد والإيمان تنبّهوا إلى الخطأ الذي وقع فيه كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه، واتخاذه صاحبةً وولداً، فاستعظموا ذلك ونزّهوا الله عز وجل، فليس كل ما قالته الجن صواباً، وهذه ناحية دقيقة جداً، فما كل شيء تسمعه صحيح، و ما كل كتاب تقرأه صحيح، فهناك كتب و قصص فيها ضلالات، وهناك مقولات كلها خطأ، فالإنسان عليه أن يختار الحق و يصطفي ويتخذ مقياساً لتلقِي الحقائق، فلا يقبل كل ما يسمع، " بحسب المرء من الشر أن يحدث بكل ما سمع "، لأن الذي تسمعه قد لا يكون صواباً، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً)

(سورة الجن)

فقد كان الشيطان سفيه الجن يقول على الله شططاً، فيتأوّل ما لم يكن، و يقول إن الله اتخذ من الجن زوجةً، وأنجب من هذه الزوجة ملائكةً، و هذا شيءٌ لا أصل له، لذلك قالت الجن:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً)

الافتقار إلى الجنس الآخر دليل على الضعف:

إن الإنسان مفتقر إلى الطرف الآخر، فكل طرف من بني البشر مفتقر إلى الجنس الآخر، فالمرأة مفتقرةٌ إلى زوج، والزوج مفتقرٌ إلى زوجة، و لا يتمُّ كيانه إلا بالزواج، كما لا يتمُّ كيان المرأة إلا بالزواج، وهذا من ضعف الإنسان، فالإنسان لا يستغني عن زوجة، والزوجة لا تستغني عن زوج، أما الإله جلّ جلاله فلا يمكن أن يكون محتاجاً إلى زوجةً، فحينما تقول: الإله اتخذ صاحبةً وولداً ؛ فهذا يعني أنه ليس إلهاً ولا خالقاً، فالله جلّ جلاله وجوده ذاتي، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4))

(سورة الإخلاص)

إن الإنسان حينما يتخذ زوجةً يسكن إليها، و معنى يسكن إليها؛ أي: يكمِّل نقصه بها، والزوجة حينما تسكن إلى زوجها فتكمِّل نقصها به، فهي مفتقرة إلى الحماية، وإلى رجل يقودها إلى الصواب، فهي تحتاج إلى رجل يحميها و يُسْعدها لتكون تحت جناحه، أما هو فتنقصه أنثى يرتاح و يطمئنُّ و يسكن إليها، فالرجل والمرأة متكاملان، والإنسان يحتاج إلى زوجة تؤنسه وذلك بسبب ضعفه، كما أن المرأة تحتاج لضعفها إلى رجل يسعدها، فكلاهما مفتقرٌ إلى الآخر، هذا لا يليق لله عزّ وجل:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً)

الجَد: الحظ، نقوا: إن فلاناً ذو جدٍ في هذا الأمر إذا كان له حظٌ كبيرٌ فيه، والمعنى في الآية أن الله سبحانه وتعالى جلّ جلاله وعزّ نواله، حظه من الملك والسلطان والقدرة لا حدود له، فهو الذي بيده الأمر، وهو على كل شيءٍ قدير، فيعلم السرّ وأخفى، و لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، قال تعالى:

(وَأَنّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبّنَا)

(سورة الجن: آية "3 ")

أي: تعالى في كل شيء ؛ من القوة و الغنى و العلم و القدرة و الرحمة و الحكمة:

(وَأَنّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبّنَا)

إن الإله العظيم الواحد الأحد، الفرد الصمد، لا يليق به أن يتخذ صاحبةً وولداً:

(وَأَنّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبّنَا مَا اتّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً)

لقد أودعت في الإنسان شهوة، فهو يشعر أنه بحاجةٍ إلى تلبيتها، فيبحث عن زوجة و يلبي هذه الشهوة فيتزوج، وهذا ضعفٌ فيه، لأن الذي ينطلق بدافعٍ من شهوةٍ ليلبيها هو كائن ضعيف، أما الإله جلّ جلاله فلا يليق به أن تكون له زوجة ولا ولد، فالولد قد يأتي ثمرةً لهذا الزواج، وربنا عزّ وجل منزّهٌ عن أن يتخذ ولداً وعن أن يتخذ زوجةً، قال تعالى:

(وَأَنّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبّنَا)

إن أسماء الله الحسنى و ذاته الكاملة التي لا يليق بها أن تتخذ زوجةً، فقد ينشب خلاف بين الزوج و زوجته، فيبتعد عنها أسابيع فيتضايق، كما قد تبتعد عنه أسابيع فتتضايق، فهي مفتقرةٌ إليه وهو مفتقرٌ إليها، وهذا من شأن الإنسان، أما الله الواحد الديان فليس هذا من شأنه، قال تعالى:

(وَأَنّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبّنَا مَا اتّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً)

قال بعض العلماء في تفسير هذه الآية: " علا مُلك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته عن أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وقاعٍ إلى شيءٍ يكون منه الولد " فهذا لا يليق بالله عزّ وجل.

(وَأَنّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللّهِ شَطَطاً)

(سورة الجن)

سفيههم ؛ أي: مضلهم و مغويهم، والشطط: القول ذو الشطط ؛ أي: القول المنحرف عن الحقيقة، كالكلام الكاذب غير الصحيح، الذي فيه افتراء ولا يطابق الواقع، فهذا من الشطط، قال تعالى:

(وَأَنّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللّهِ شَطَطاً)

أصل الشطط مجاوزة الحد، فالكلام إذا جاوز الحد الصحيح صار شططاً:

(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

(سورة الجن)

ضرورة امتلاك مقياس التلقي:

لقد كان الجن يعتقدون أن كلّ شيءٍ يقال هو الصحيح، وإن اعتقاد الإنسان أن كل شيء قرأه أو سمعه صحيح هو مرضٌ خطير، لأن الإنسان في هذه الحالة يكون إمّعة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يكن أحدكم إمّعة))

أي: وعاء يستقبل كل شيء، فكثير الناس في لقاءاتهم وسهراتهم و اجتمعاتهم وولائمهم، ينقلون كل شيء سمعوه كالآلة، و لا يوجد عندهم تدقيق و فحص و تمحيص و ميزان دقيق، فلا يقولون:هذه القصة غير صحيحة، و هذا الخبر كاذب، و هذا الرقم فيه مبالغة، وهذا الشيء لا يليق بكمال الله، فتجدهم يلقون قصصاً ما أنزل الله بها من سلطان، أو خرافات ليس لها قيام، أو كلاماً ليس له دليل، ومع ذلك يصدقه الناس، وهذا مرض خطير.

وهناك ضخٌ معلومات كثيف جداً في هذا العصر إن صح التعبير، فمن الممكن أن تسمع أخبار العالم في ربع ساعة، وقد تسمع تحليلات وأحياناً تكون هذه التحليلات غير صحيحة، وقد تكون هذه الدراسات تهدف إلى خلق شعور معين عند المستمع، فقد تقرأ كتاباً كلّه ضلالات و كذب وافتراء، كما أنك قد تستمع إلى محاضرة في ناد أو مكتبة، فيكون كل ما قيل في هذه المحاضرة لا ينتمي إلى الحقيقة بصلة، فالإنسان العظيم هو الذي يملك مقياس التلقي، ويكون معه ميزان دقيق، فيقبل به ما كان صواباً، و يردُّ به ما كان خطأً، فلا ينبغي على الإنسان أن يكون وعاءً للتلقي، وهذا شأن معظم الناس، فترى أحدهم يسمع، فيقول لك ما سمع بلا تمحيص و لا دراسة و لا تحليل ولا دليل أحياناً، فإن جلست جلسة - وما أكثر هذه الجلسات – فجاء فيها موضوع الجن، استمعت إلى قصص ما أنزل الله بها من سلطان !! إنك تشعر من كلام الناس أن الجن آلهة يفعلون ما يريدون و لا يعجزهم شيء، وهذا شيء غير معقول، لذلك كانت هذه السورة مهمة جداً لئلا يقع المسلمون في أوهام و مبالغات و تُرُّهات، فقد جاءت هذه السورة لتضع حداً لهؤلاء المخلوقات (الجن)، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (5))

إن هذا من سذاجة الجن، فإذا قال الإنسان: هكذا سمعت و هكذا قالوا لي كان ساذجاً، وقد يقرأ أحدهم مقالة جاء فيها أن الربا لا شيء فيه، فيقول: إن فلاناً قال ذلك، وهو عالم كبير في مصر، فهذا شخص هو وعاء يقبل كل شيء يصبُّ فيه، وقد قيل: **" لعالمٌ واحد أشد على الشيطان من ألف عابد "، كما قيل: " كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك ".**

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (5))

اعلموا علم اليقين أن هناك من يكذب على الله و على رسول الله، وأن هناك من يُعْطي أفكاراً لا أصل لها في الواقع، واعلموا أن الضلالات منتشرة في كل مكان، وأن السعيد هو الذي يوفّق إلى الصواب ولو كان قليلاً، فلا تفرح باعتقادك الباطل وتقول: إن معظم الناس يعتقدون بهذا، قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28))

(سورة النجم من الآية 28)

إن الله عزّ وجل في هذه الآية الكريمة القاطعة في دلالتها يبيّن أن أكثر أهل الأرض في ضلالاتٍ ما بعدها ضلالات، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

(من صحيح مسلم عن أبي هريرة)

أناسٌ صالحون في قوم سوءٍ كثير.

استعاذة الجاهليين بالجن:

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)

روى ابن جرير عن ابن عباس قال:

" كان رجالٌ من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فزادهم ذلك إثماً " لأن هذا شرك، وقد كان هناك وادٍ في الجزيرة اسمه وادي عبقر فزعمت العرب في جاهليتها أن الجن تسكنه، فكانوا إذا رأوا من أحدٍ ذكاءً وألمعية سموهُ عبقري، أي هو كالجني، وهذا هو أصل كلمة عبقري، كما كان أحدهم إذا نزل الوادي يقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فزادهم ذلك إثماً، وكان العرب يعتقدون في جاهليتهم أن الوديان مقرٌ الجن، وأن رؤساء الجن تحميهم منهم، وكانوا إذا نزلوا الوادي يقولون: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه، فتقول الجن: ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعاً!!".

و هذه هي الحقيقة، فالجاهل يقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، و أعوذ بسيد هذا الوادي، والجن يقولون: لا نملك لكم ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعاً، فإذا كان سيد الخلق وحبيب الحق يقول: **" لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً "**، بل إنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فمن باب أولى أنه لا يملك لغيره شيئاً.

وعن الربيع بن أنس أنهم كان يقولون: **" فلان من الجن ربُّ هذا الوادي، فكان أحدهم إذا دخل هذا الوادي يعوذ برب هذا الوادي من دون الله، فيزيدهم ذلك رهقاً"** ؛ أي: خوفاً وقد قال تعالى:

(فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)

أي: إن الخوف رَهَقهم ؛ أي: أتعبهم وتغشّاهم.

الاستعاذة بالله في الإسلام:

فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6))

(سورة الناس)

فقد حلت المعوّذتان محل كل استعاذةٍ يستعيذها العرب في الجاهلية، ولا نملك _ نحن المسلمين - حيال الجن إلا أن نستعيذ بالله منهم، واستعاذتُك بالله سلاحٌ ماضٍ فتّاك، لا تحتاج معه إلى شيءٍ آخر، فلا تحتاج إلى شيخ ولا إلى إنسان خبير ليخرج لك الجن، ولا إلى إنسان يبطل السحر، إنك لا تحتاج إلا إلى هاتين الآيتين:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

(سورة الفلق)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

(سورة الناس)

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا)

(سورة الأعراف: آية " 201 ")

أي: ذكروا الله.. وقال:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ)

(سورة الأعراف: آية " 200 ")

فهناك آيتان و سورتان لعلاج الجن، وهذا سلاحٌ فتاكٌ ضد الجن، و ليس في الإسلام غير هذين السلاحين ن فقد روى مسلمٌ:

((عن خَوْلَة بِنْتَ حَكِيمٍ السُّلَمِيّة تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: مَنْ نَزَلَ مَنْزِلا ثُمّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللّهِ التّامّاتِ مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرّهُ شَيْءٌ حَتّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ))

فإذا كنت في السفر فدخلت بيتاً لا تعرف أهله، أو نزلت في فندق، أو ركبت مركبة، فقلت: أعوذ بكلمات الله التامات، من شر ما خلق لَمْ يَضُرَّك شَيْءٌ حَتَّى ترْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِك ذَلِكَ.

أيها الإخوة الكرام...لقد قال تعالى:

(فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)

أي: زادوهم ضعفاً و خوفاً و حيرة و قلقاً و شقاءً، قال:

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)

(وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً)

(سورة الجن)

تلازم الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر:

إن إنكار الآخرة موجود في عالم الجن كما هو في عالم الإنس، والحقيقة أنه لا يوجد من أركان الإسلام ركنان متلازمان كتلازم الإيمان بالله والإيمان اليوم الآخر، لأن الإنسان إن لم يؤمن باليوم الآخر لم يستقم على أمر الله، وإن المفصل الأساسي لاستقامته على أمر الله هو أن يؤمن أنه محشورٌ إلى يومٍ يحاسب فيه على كل شيء، ثم يقول الله تعالى:

(وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً)

إن الإنسان إذا أنكر الدار الآخرة، تفلّت من منهج الله، فهناك علاقة بين الإنكار والتفلت:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون)

إنك لن تستقيم على أمر الله استقامةً تامة إلا إذا علمت علم اليقين أن الله سيحاسبك على كل شيء، وأنك واقفٌ بين يديه، وأنك لن تستطيع التفلّت من بين يديه، وأنه يعلم وسيحاسب، فإما أن يكون الإنسان في جنةٍ لا ينتهي نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

استماع الجن لأخبار السماء قبل البعثة:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً)

و هذا قبل البعثة..

(وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ)

(سورة الجن: آية " 9 ")

أما بعد البعثة..

(فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً)

(سورة الجن)

أي: مُلئت السماء بالحرس والرواجم، فإذا اقترب الجني من السماء جاءه شهابٌ فيحرقه:

(وَأَنَّا لَا نَدْرِي)

فهذا الحادث الذي مُنعوا به هو من خبر السماء، وهذا الحادث هو امتلاء السماء بالحرس والشهب:

(وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً)

(سورة الجن)

و هذا كلام في منتهى الأدب، لأن الشر ليس إلى الله عزّ وجل، فقد قالوا:

(وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ)

فالفاعل هنا مجهول..

(بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً)

فقد أراد الله جلّ جلاله بخلقه رشداً حينما بعث لهم نبيه صلى الله عليه وسلم، كما أراد بكم رشداً حينما سمح لكم أن تستمعوا إلى الحق، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 23 ")

فقد يكون في هذه الساعات المباركات أناسٌ في الملاهي أو في دور السينما أو النوادي الليلية، أو في جلسات عائلية مختلطة يلعبون النرد، أو في كلام غيبة ونميمة، فإذا سمح الله جلّ جلاله لك أن تستمع إلى الحق، فشرح صدرك لدخول المسجد وسماع الدروس فيه، فهذه نعمةٌ عظمى:

(وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة الجن: آية " 10، 11 ")

والجن أنواع، فهناك جن مؤمنة وهناك جن كافرة، وهناك جن ضالة مضلة، وهناك جن مسلمة..

(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً)

أي متفرقة..

(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً)

أي: أيقننا أننا في قبضة الله وأن الأمر بيد الله يفعل بنا ما يشاء، وهذا هو التوحيد..

(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً)

(سورة الجن)

إن هذا الذي يعصي الله، ويأكل المال الحرام، ويعتدي على خلق الله، فيبتز أموالهم، ويذلّهم على أي شيء يعتمد ؟ كأنه اعتمد على قوته الذاتية، لكنه لم ينتبه لحظة إلى أنه في قبضة الله...

(وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ)

(سورة الجن: آية " 13 ")

أنواع الهداية:

1- الهداية البيانية:

إخواننا الكرام... إن أرقى أنواع الهداية هو الهداية البيانية، فإذا كنت صحيحاً معافىً ولا يوجد عندك مشكلة، ثم حضرت مجلس علم أو استمعت إلى خطبة واضحة فيها آيات وأحاديث، فاستجبت إلى الله عزّ وجل كانت هدايتك هداية بيانية، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

أريد أن أقول لكم في نهاية هذا الدرس كلاماً دقيق جداً.

إن أرقى أنواع الهداية هو الهداية البيانية، ففي هذه الهداية منطق ودليل وحجة وبرهان، والطريق فيها واضح، كما أن الهدف واضح أيضاً.

2- التأديب التربوي:

إن لم يستجيب الناس بالهداية البيانية، فعسى أن يستجيبوا بالتأديب التربوي.. " عجب ربكم من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل "، أي: بالابتلاءات، وأنواع الأمراض والعذابات

3- الإكرام الاستدراجي:

فإذا جاء الإنسانَ التأديبُ التربوي فعليه أن يتوب، فإن لم يتب فهناك حل ثالث له، وهو الإكرام الاستدراجي، لعله يشكر و يفهم عن طريقه، فإن لم يفهم ولم يتب ولم يشكر، قُصم، قال تعالى:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)

(سورة سبأ: آية " 19 ")

إن هذا كلام دقيق، فالدعوة البيانية فهم، والتأديب التربوي توبة، والإكرام الاستدراجي شكر، فإما أن تفهم، وإما أن تتوب، وإما أن تشكر، فإن لم تفهم -لا سمح الله- ولم تتب ولم تشكر، فقد بقي القصم والتدمير، قال تعالى:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (12))

فنحن في قبضته...

(وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120))

و الآن دققوا..

(فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً)

أي: لن يضيع عليك شيء، و لن تُبْخَس أجرك الذي وعدك الله به، ولن يُضل الله عملك، ولن يترك ولن يدعك، فإذا كنت طائعاً لله فأنت في حفظ الله ورعايته وتأييده ونصره وتوفيقه، و زوال الكون أهون على الله من أن يخيّب ظن عبدٍ مؤمن فيه..

(فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ)

فإذا غض الإنسان بصره مثلاً فلن يضيع عليه شيء، بل ستأتيه الدنيا وهي راغمة، وسيملأ الله قلبه غنىً، فيسعده بزوجةٍ صالحة، تسره إذا نظر إليها، وتحفظه إن غاب عنها، و تطيعه إن أمرها، فكل شيء بحسابه، وهذه آية دقيقة جداً..

(فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً)

فلا تخف أن تضيع الدنيا من يدك إن نفذت أوامر الله، إنها ستأتيك وهي راغمة، ولا تخف أن تكون أقل حظاً من غيرك، فأنت المتفوّق السعيد المتوازن المطمئن الآمن الموفّق المنتصر، هكذا..

((لا يستوون)):

(فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً)

أي: أن يبخسه الله بعمله، فإذا ضحيت وطلبت العلم، وطلب غيرك الجهل، وآثرت الاستقامة وكان غيرك متفلِّتاً، وآثرت الإنفاق ن و أمسك وغيرك، فإنه من سابع المستحيلات أن تستوي مع هذا المفرط..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

فاستواء المستقيم مع المنحرف، والصادق مع الكاذب، والأمين مع الخائن، والمحسن مع المسيء، يتناقض مع وجود الله، وعليك عندئذٍ ينبغي أن تؤمن بالعبثية، والله عزّ وجل ينفي العبثية بقوله:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116))

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ)

هذا كلامٌ لنا جميعاً..

(فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً)

بخساً: أن يظلم، ولا رهقاً: أن تأتيه شدة، فإن آمنت بالله فلن يضيع عليك شيء، قل دائماً هذه الكلمة: (يا ربي ماذا فقد من وجدك ؟) ما فقد شيئاً، (وماذا وجد من فقدك ؟) ما وجد شيئاً، فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، لعل هذه الآية من أبرز ما في هذه السورة..

(فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً)

فإذا تعففت عن مال حرام فلن تكون فقيراً، لأنك قد تعففت عن هذا المال ورعاً وطاعةً لله،

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

وإذا تعففت عن الحرام، فلن تكون شقياً بزوجتك، وإذا تعففت عن عملٍ لا يرضي الله فلن تكون مُهاناً في مجتمعك، فأنت الفائز و الرابح و الناجح و المتفوّق و المفلح في طاعتك لله:

(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ)

القاسطون: الظالمون.

(فَمَنْ أَسْلَمَ)

أي: منا..

(فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً)

فقد بحثوا عن الحقيقة فوجدوها..

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

(سورة الجن)

فالجن مكلّفون كالإنس، ويدخلون إلى الجنة، وإلى النار..

(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً)

هناك معنى دقيق أريد أن أذكره: لا يمكن للمسلم أن يكون ظالماً، فإما أن تكون مسلماً، وإما أن تكون قاسطاً، فهناك ضوء وهناك ظلام، فالضوء والظلام متناقضان فأحدهما ينقض وجود الآخر، فإن كنت مسلماً فلن تكون ظالماً، وإن كنت ظالماً فليس هذا من شأن المسلم..

(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً)

عرفوا الحقيقة...

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ)

أي: الظالمون.

(فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

فالظلم ظلماتٌ يوم القيامة..

(وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ)

أي: على المنهج الصحيح، و صراط الله، فتمسّكوا بحبل الله، و أطاعوا رسول الله..

(وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

أي خيراً كثيراً..

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً)

(سورة الجن)

الخيار الصعب:

إذا أعرض الإنسان عن ذكر الله أتته المشكلات والمضايقات والصعوبات والمصائب، والأزمات والخوف والإرهاق والقلق.

قال أعرابي لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: عظني ولا تطل، قال له:

((قل آمنت بالله ثم استقم))

قال: أريد أخف من ذلك، قال له:

((إذاً فاستعد للبلاء))

الخيار صعب: فإما أن تستقيم وإما أن تستعد للبلاء، وهذه الآية:

(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17))

(سورة الجن)

أي: إن الله عزّ وجل سيسيّره في طريق كلّه متاعب و ألغام و انفجارات و هموم وأحزان و إحباطات و قلق، فإن ذكرت الله كنت في أمنٍ ودعة

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

وإن أعرضت عن ذكر الله فإن الله يسلك بالإنسان عذاباً صعداً، فمن صعوبة إلى أشد، وذلك كما يفعل الطبيب مع المريض، فإذا أعطاه دواء عيار خمسين فلم يستفد قال له: تناول عيار مائة، فإن لم يستفد يتناول خمسمائة ثم ينتقل إلى ألف.. وهكذا، فتأتيه شدة كي تردعه، فإن لم يستجب لهذه الشدة جاءته شدة أكبر، و هذا كلام دقيق واضح كالشمس، فإما أن نستقيم على أمر الله، وإما يأتينا العذاب صعداً، و هذا كلام رب العالمين، وهو حل حقيقي.

(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً)

أي: بحثوا عن الصواب فأصابوه، و بحثوا عن الحقيقة فأدركوها، و بحثوا عن سبل السعادة فوصلوا إليها..

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15) وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16))

أي: يأتيهم التوفيق، والدعم، والنصر، والحفظ، والأمن، وهذا كلّه من نتائج الاستقامة..

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً)

إياك أعني واسمعي يا جارة:

أيها الإخوة الكرام... هذه آياتٌ كريمة تحدثت عن الجن.... كقوله تعالى:

(وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ)

فهل هي للجن فقط أم لنا أيضاً ؟ إن هذه آياتٌ لنا أيضاً، أي (إياك أعني واسمعي يا جارة)، فربنا عزّ وجل يتحدث عنهم، ولكننا نحن المعنيون بهذا الكلام، فإذا آمن الإنسان فلن يبخسه الله عمله ولن يَتِرَكهُ...

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (5-8): تفسير الآية 18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-10-17

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل المساجد

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الخامس من سورة الجن، ومع الآية الثامنة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَأَنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللّهِ أَحَداً)

(سورة الجن)

إن القرآن الكريم كتابٌ أحكمت آياته ثم فصلّت، فكلُّ آيةٍ تأخذ بالآية التي بعدها لتصبح كأنها سلسلة، فالآية الأولى في هذه السورة هي قوله تعالى:

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيّ أَنّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنّ)

(سورة الجن: آية " 1 ")

(وَأَنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ)

(سورة الجن: آية " 18 ")

المساجد لله:

أوحي إليّ: أنه استمع نفرٌ من الجن، وأن المساجد لله.

فقد كان مما أوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام أن المساجد لله ؛ أي: إن هذه البقاع في الأرض التي يُعْبَد الله فيها و تؤدّى فيها الصلوات و يعلّم فيها العلم، هي لله وحده، لا لجهةٍ، ولا لفئةٍ، ولا لشخصٍ، و معنى أنها لله ؛ أي: لا يجوز أن تكون الدعوة في المساجد إلا لله، فلا تقام فيها علاقة تجارية كالبيع والشراء، كما لا تقام فيها دعوة إلى إنسان..

(وَأَنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللّهِ أَحَداً)

أيها الإخوة الكرام... يقول عليه الصلاة والسلام:

((خير البلاد مساجدها، وشرُّها أسواقها))

ففي الأسواق تُعرض الدنيا بأبهى شكلٍ وزينة، أما المساجد ففيها الآخرة، وإن حياة الإنسان مرتبطة بمعرفة الله و الاتصال به، فأين يعرف الله ؟ إنه يعرفه في المسجد، كما أن حياة الإنسان مرتبطة بالعلّم، فأين يتعلّم ؟ إنه يتعلمه في المسجد، فإذا كنت في المسجد كنت في المكان الذي يذكرك بالآخرة والعلم، كما يذكرك بالله عزّ وجل و طاعته، وقد ورد في الحديث القدسي:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تتطهر في بيته ثم زارني وحُق على المزور أن يكرم الزائر))

فإذا كنت في بيتٍ من بيوت الله كنت في ضيافة الله، وضيافة الله عزّ وجل ليست في طعام تأكلُه، أو شراب تشربه، ولكنها أمنٌ يملأ قلبك و توفيقٌ في عملك و صحةٌ في رؤيتك و توازنٌ في حياتك، فعطاء الله عزّ وجل لا يقدّر بثمن.

حب المساجد من علامات الإيمان:

لقد ورد في الحديث قوله:

((من أحب الله عزّ وجل فليحبني، ومن أحبني فليحب أصحابي، ومن أحب أصحابي فليحب القرآن، ومن أحب القرآن فليحب المساجد))

أي: إن من علامة إيمانك أنك تحب الله و رسوله و أصحابه، و أن تحب القرآن والمساجد، لذلك جاء في الحديث أنه من كان يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان، فمن أين استنبط النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأحاديث ؟ من قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة التوبة: آية " 18 ")

إن من علامات إيمانك أن ترتاح في المسجد، كما أن من علامات ضعف الإيمان أن تتضايق في المسجد، فالمؤمن في المسجد كالسمك في الماء، أما غير المؤمن من المسجد فهو كالعصفور في القفص لشدة تضايقه.

((من أحب الله عزّ وجل أحبني ومن أحبني فليحب أصحابي ومن أحب أصحابي فليحب القرآن ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أفنية الله عزّ وجل))

إن أبنية المساجد أذن الله في رفعها وبارك فيها، فهي ميمونةٌ - مباركةٌ - ميمونٌ أهلها، محفوظةٌ محفوظٌ أهلها، فعندما يكونون في صلاتهم يكون الله عزّ وجل في حوائجهم، وعندما يكونون في مساجدهم يكون الله عزّ وجل من ورائهم، فحينما تقتطع وقتاً من وقتك الثمين للمجيء إلى المسجد و سماع درس علْم أو أداء صلاة أو ذكرٍ لله عزّ وجل، فإن ثمن هذا الوقت الذي اقتطعته من وقتك أن الله عز وجل يكون في حاجتك بينما أنت في المسجد، فأنت في المسجد والله من ورائك بالتوفيق والتأييد والنصر والحفظ، فالمساجد المخصوصة لله عزّ وجل، و العبادة فيها تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض، فأنت عندما تنظر من الأرض إلى السماء ترى النجوم متألقة، وإن هذه المساجد كأنها نجوم الأرض تضيء لأهل السماء، فالمساجد فيها الحق، و فيها الذكر والأمر بالخير والنهي عن الشر و التعريف بالحلال و الحرام، و فيها الطريق الموصل إلى الله عزّ وجل وهو طريق سعادة الدنيا والآخرة، لذلك كانت المساجد تتألق لأهل السماء كما تتألق النجوم لأهل الأرض، لكن أدق ما في هذين الحديثين هو قوله عليه الصلاة والسلام:

((هم في مساجدهم والله في حوائجهم))

وقد قال عليه السلام:

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

قال الله عزّ وجل:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

يمشون هوناً ؛ أي: لا يسمحون للدنيا أن تستهلكهم، فهم يقتطعون من أوقاتهم وقتاً لمعرفة الله و لطلب العلم وأداء العبادات، فهم يمشون هوناً لأن الدنيا لا تستهلكهم، ولا تستحوذ عليهم، و لا تجعلهم ينسون كلّ شيء، فإن من تشعّبت به الهموم لم يبال الله بأي أوديتها هلك، أما من كان همُّه معرفة الله و جعل همه هماً واحداً كفاه الله الهموم كلّها، فاعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الهموم كلها، فإنك عندما تأتي إلى بيت الله لتطلب العلْم و القرب من الله عزّ وجل فإن الله عز وجل يعاملك معاملةً خاصة عندئذ، فيعاملك بالنصر والتأييد والحفظ والتوفيق، إذاً:

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ)

(سورة الجن: آية " 1 ")

وقل أوحي إليّ أيضاً...

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)

أي: إن هذا المسجد إنما بُنِي لتعريف الناس بالله و تعريفهم بحقيقة وجودهم، وحقيقة الحياة الدنيا، وحقيقة الكون، فيقرّبهم إلى الله عزّ وجل.

فاستخدام هذا المكان للبيع والشراء و قضايا الدنيا و حل مشكلات الناس المادية هو استخفافٌ بهذا البيت المقدس.

معاني كلمة (مسجد):

قال تعالى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)

1- المعنى الأول: (وهو أوسع معنى):

إن كلمة مساجد واسعةٌ جداً، فكل مكانٍ سجدت فيه لله عزّ وجل هو مسجد، فإذا وسعنا كلمة المسجد صار معنى المسجد: كل مكان سجدت لله عزّ وجل، فالمسجد اسم مكان، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أينما كنتم فصلوا، فأينما صليتم فهو مسجد))

فبهذا المعنى وجب عليك أن تكون خالصاً لله في كل مكان، و هذا أوسع معنى للآية.

(وَأَنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ)

(سورة الجن: آية " 18 ")

أي: ليكن عملك دائماً وأبداً، خالصاً لله عزّ وجل، قال تعالى:

(إِنّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)

(سورة الإنسان)

وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر:

((وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمّتِي أَدْرَكَتْهُ الصّلاةُ فَلْيُصَلّ وَأُحِلّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشّفَاعَةَ وَكَانَ النّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النّاسِ عَامّةً))

(من صحيح البخاري:الرقم " 323 ")

فالمسلم أينما أدركته وقت الصلاة صلّى، وهذا مما يؤكد أن هذا الدين العظيم بسيط، فأنت لا تحتاج إلى معابد فخمة ولا إلى أبنية شاهقة، ولا إلى كهنوت ولا إلى رجال دين، فأينما وجدت نفسك قد دخلت في وقت الصلاة فصلّ، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أينما ما كنتم فصلوا، وأينما صليتم فهو مسجد))

وقال:

((وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا))

فأوسع معنى للآية يقول: ليكن عملك خالصاً لله طول حياتك، لأن أي مكان تصلي فيه مسجد، والسجود لله وحده.

2- المعنى الثاني:

المساجد: جمع مَسْجَد، والمسجد هو الأعضاء التي تسجد بها، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إذا سجد العبد، سجد معه سبعة آراب))

و الآراب: الأعضاء ؛ أي: الرأس، والركبتين، واليدين، والقدمين، فهي سبعة، فيصبح معنى الآية: إن الله عز وجل قد كرمك بأعضاء، فلا ينبغي لك أن تسجد بها لغير الله، فهذا الرأس لا ينبغي له أن ينحني لغير الله، و هذه اليد لا ينبغي أن تخضع لغير الله، هذه الرجل ينبغي ألا تسير بها إلى غير ما يرضي الله، لأن هذه الأعضاء التي كرّمك الله بها هي لله، وأنت لله، فلا يليق بك أن تكون لغير الله، كما لا يليق بك أن تذِل رأسك لغير الله، (ارفع رأسك يا أخي متى موّت علينا ديننا ؟).

3- المعنى الثالث:

(وَأَنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ)

المساجد: مصدر ميمي (مَسْجِد)، على وزن (مَفْعِل)، أي: مكان السجود، فالصلاة هي العبادة الخالصة لله عزّ وجل، وينبغي أن تكون عباداتك كلها وفي مقدمتها الصلاة خالصةً لله عزّ وجل، كما ينبغي أن تكون أعضاؤك التي كرّمك الله بها خاضعة لله وحده في استعمالاتها كلها كعطاء اليدين وتنقُّل الرجلين، فلا تخضع لأحدٍ سواه.

4- المعنى الرابع:

إن المعنى المألوف للمساجد هو هذه البيوت التي يبنيها المسلمون ليؤدوا فيها الصلوات و يتعلموا فيها و يلتقوا فيها بإخوانهم المؤمنين، وإن خير البلاد مساجدها، فهذا المسجد بالمعنى الضيّق الذي نألفه هو لله، فإذا اعتلى إنسان منبراً في المسجد فلا ينبغي له أن يعرض آراءه الشخصية - فمن أنت حتى تفعل ذلك ؟ - كما لا ينبغي له أن يتشفى من خصومه وهو على هذا المنبر، لأن هذا المنبر منبر رسول الله، و كرسي التدريس هذا كرسي رسول الله صلى الله عليه، فلا يسمح لأحد أن يتخذ المنبر والكرسي لتحقيق أغراضٍ الشخصية ولا للنيل من الخصوم، فينبغي عليك أن تنحي كلّ نزواتك وأهوائك و مصالحك، وأن تجعل الدعوة لله وحده، لئلا يشوبها شائبة، قال تعالى:

(وَأَنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ)

أي: هناك أهواء و آراء و مصالح و انتماءات و علاقات و قضايا، و هذه كلُّها ممنوعٌ أن تُعالج في المسجد، لأن هذا البيت بيت الله، فالموضوع الذي ينبغي أن يعالج فيه فقط هو ذكر الله وما والاه، فالقرآن من ذكر الله، و السنة من ذكر الله، و السيرة من ذكر الله، و الفقه من ذكر الله، فكل شيءٍ يقربك من الله عزّ وجل يمكن أن يعالج في المسجد، كما أن كلُّ شيءٍ يقربك من الدنيا يعالج خارج المسجد، لأن الجامع مُقَرّب إلى الله، أما الأسواق والبيوت والمتنزهات والمقاصف فهي مقربة من الدنيا..

المسلون في المسجد سواسية:

(وَأَنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللّهِ أَحَداً)

أيها الإخوة الكرام... قال العلماء: إن في كلمة المساجد لله إضافة تشريفٍ وتكريم، لكن هذا لا يمنع أن ينسب المسجد إلى غير الله، فلا حرج في قولنا: هذا جامع الفاروق مثلاً، أو جامع الوليد بن عبد الملك، وهذا لا يمنع من كون المساجد لله، فلا يمنع من أن تنسب إلى الباني أو منفق أو مشرف، أما في الأصل فهي لله عزّ وجل، لذلك وجب على الإنسان حينما يأتي إلى المسجد يجب أن يخلع الدنيا خارج المسجد، مهما كانت مرتبته الاجتماعية أو حجمه المالي، أو درجته العلمية أو رتبته العسكرية، فإن كل شيء متعلِّق بالدنيا يجب أن يبقى خارج المسجد، وهذا شيء دقيق جداً، فالناس يتفاوتون خارج المسجد، ففيهم المدير العام، وفيهم الحاجب، لكن حكمة الله عزّ وجل شاءت أن يكون هذا التفاوت في مراتب الدنيا متلاشياً المسجد.

يروى أن أحد الخلفاء كان في المسجد الحرام _ وأظنه أنه الإمام مالك إمام دار الهجرة _ فطلب منه بعض العلماء أن يزوره، فقال له: قولوا له يا هارون إن العلم يؤتى ولا يأتي، قال: صدق، نحن نأتيه، ثم قال: قولوا له: إذا جئتنا فلا ينبغي أن تتخطى رقاب الناس.

فأنت في المسجد مسلم فقط، لا يوجد لك رتبة عسكرية، ولا رتبة علمية كالدكتوراه مثلاً، ولا رتبة اجتماعية كعضوية غرفة التجارة، بل أنت في المسجد مسلم، فيجب أن تجلس حذاء أخيك المسلم دون أي تفرقة، فلا يجوز لك في المسجد تخطي رقاب الناس، أما إذا كنت في احتفال أو في دائرة فقد تمتلك مرتبة خاصة، فالمدير العام له غرفة خاصة كما له طاولة خاصة و مقعد خاص، أما الموظفون الآخرون فلهم غرفهم الخاصة، و المستوى فيها أقل، فالمراتب في الدنيا تتفاوت، أما في المساجد فكل المسلمين عند الله سواء، فهم سواسيةٌ كأسنان المشط، فالمساجد لله، والذين فيها عبادٌ من عباد الله.

إن الإنسان في المسجد الحرام مثلاً لا يمكن أن يخطر في باله أنه في السعودية أبداً، فلا يذكر إلا أنه في بيتٍ من بيوت الله، في داخل المسجد الحرام، فلا تشعر أنك في بلد، لأن هذا بيت الله، وكذلك حال أي إنسان يدخل إلى بيت من بيوت الله في أي مكان من العالم فنراه ينسى في أية دولة هو، لأنه في بيت من بيوت الله، و تقريباً لهذا المعنى أقول: يعد بناء السفارة في العرف الدُبلوماسي جزءاً من البلد التي تمثِّله، وهذا المسجد هو بيت الله، فهو يعدُّ جزءاً من مقدسات المسلمين، فالمسجد لا يُمَلَّك أبداً، فليس في الإسلام إنسان يملك مسجداً، فمن الممنوع أن تبني فوقه، و بحسب الأحكام الفقهية يمنع أن يكون تحته شيء، فهي أرضٌ حرة لا شيء تحتها ولا شيء فوقها، لأنه بيتٌ من بيوت الله.

قال تعالى..

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ)

أي إنها بقاع مقدسة جداً، فالدعوة فيها لله وحده، فليس فيها في آراء ولا انتماءات، ولا في فكر معين ولا مصالح، ولا نزوات، كما أن هذه المساجد ليست لأشخاص ولا لجماعات ولا لفئات.

حكم فقهي:

سأعرض لكم الآن حكماً فقهياً يقول: إذا أغلقت أبواب المسجد وألقيت فيه خطبة الجمعة كانت الخطبة باطلة، فلو اخترنا الجامع الأموي وهو من أكبر المساجد في بلدنا، وأظن أنه يتسع لمائة ألف ؛ فالصحن يتسع لخمسين ألفاً، والحرم يتسع لخمسين ألفاً آخرين، فلو اجتمع في هذا المسجد مائة ألفٍ ثم عيّنا أعظم خطيبٍ لهم ليلقي خطبة الجمعة، ثم أغلقنا الأبواب، كانت الخطبة باطلة، لأن المساجد لله، فأيُّ عبدٍ لله له أن يدخل المسجد، ولا يوجد عندنا مسجد مغلق، أو مسجد خاص لفئة معينة أو لجماعة معينة، أو مسجد خاص للمذهب الفُلاني، أو خاص بالاتجاه الفلاني، هذا لا يوجد..

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)

إن هذا بيت الله، فهل تستطيع أن تمنع مسلماً من دخول مسجد، من أنت ومن أين أنت حتى تفعل ذلك ؟ إن هذا بيت الله، يدخله كل مسلم من أي انتماء، وأريد من هذا التفصيل، أن تعتقدوا أن هذا البيت بيت الله، وأن الدعوة لله، وأن الأسلوب مستقى من كتاب الله، وأن الأهواء والمراتب العلمية والحجم المالي توضع خارج المسجد، فأنت هنا مسلم، وتتحقق هذه المساواة في الصلاة، وقد جاء في الحديث أن

((خير الصفوف أولها))

فقد تجد إنساناً يعمل حاجباً فهو في المرتبة الدنيا الاجتماعية، ثم تجد إلى جانبه شخص كبير جداً في المرتبة الاجتماعية، أما في المساجد فلا يوجد أماكن خاصة، لأن المساجد لله وكل من فيها عباد الله، فالمساواة تتحقق في المساجد، أما في الدوائر فهناك مدير و معاون مدير ورئيس دائرة و موظف و كاتب و ضارب آلة كاتبة و مراسل و (آذن) و حاجب، أما في المسجد فكل هؤلاء عند الله سواء، فلا يجوز للإنسان أن يتخطى رقاب الناس في المسجد، كما لا يجوز له أن يقول: هذا المكان مكاني، فلا يوجد في المسجد حجز أماكن، ولا مقاعد مرقمة، بل القاعدة في ذلك: اجلس حيث ينتهي بك المجلس.

ثلاثة استثناءات:

إن الصلاة في بيت الله الحرام بعشرة آلاف صلاة فيما سواه، والصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة فيما سواه، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

أي أن الصلاة عند رسول الله بألف ثواب، وفي تتمة الحديثٍ يقول:

((إلا الْمَسْجِدَ الْحَرَام))

وفي جاء حديثٍ آخر:

((صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فإن صلاةً فيه خيرٌ من مائة صلاةٍ من مسجدي هذا))

فالصلاة عند رسول الله بألف، وهي في بيت الله الحرام مضروبة بمائة، فهي تساوي: مائة ألف، وقد مر بكم من قبل أنه:

((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

نرجو الله سبحانه وتعالى أن نعود إليه..

أما بقية المساجد فهي عند الله سواء، فليس من السنة أن تشد الرحال إلى مسجد في حلب، ولا إلى مسجد آخر في أي مكان من العالم الإسلامي، لأن المساجد كلُها -عدا المسجد الحرام، و المسجد النبوي، والمسجد الأقصى - سواءٌ عند الله عزّ وجل.

جواز نسبة المساجد إلى غير الله تعريفاً:

قال العلماء: إن المساجد وإن كانت لله ملكاً وتشريفاً، فإنها قد تنسب إلى غيره تعريفاً، أي: قد تنسب إلى من بناها، أومن أشرف على بنائها.

استثناء فقهي:

وهناك استثناء فقهي آخر، فقد قال العلماء: إن المساجد لله عزّ وجل و لا يذكر فيها إلا الله، ورغم ذلك فإنها تجوز فيها قسمة الأموال - أي: الغنائم - ويجوز فيها وضع الصدقات، ويجوز فيها حبس الغريم، وربط الأسير، وسكنى المريض، وفتح الباب للجار إليها، وهذه بعض الاستثناءات التي أقرها العلماء.

(وَأَنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللّهِ أَحَداً)

بعض الأدعية المعلقة بالمساجد:

لقد كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل المسجد يدعو ويقول:

((اللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مزورٌ حقٌ وأنت خير مزور فأسألك برحمتك أنت تَفُكّ رقبتي من النار))

وهناك دعاء مختصر عنه يقول:

((اللهم افتح لي أبواب رحمتك))

فالرحمات تتنزل على المسلمين في المساجد، فإذا خرجت من المسجد فقل:

((اللهم افتح لي أبواب فضلك))

فعندما تكون في المسجد تتنزل عليك الرحمات، أما عندما تكون خارج المسجد فإنك تسأل الله من فضله، فأنت في حالين: إما طلب رحمة الله وأنت في بيته، أو طلب التوفيق في عملك وأنت خارج المسجد.

فإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى وقال:

((اللهم صُبّ علي الخير صباً ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً ولا تجعل معيشتي كداً واجعل لي في الأرض جداً أي غنىً))

و هذا دعاء النبي عليه الصلاة والسلام وهو خارج المسجد.

بعض آداب المساجد: إن من أهم آداب المسجد أنه:

((مَنْ أكَلَ مِنْ هَذِهِ الشّجَرَةِ -يَعْنِي الثُّوم- فَلا يَأْتِيَنّ الْمَسَاجِدَ))

(من سنن الدارمي عن ابن عمر)

وهناك حديث آخر يقول:

((مَنْ أكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الثُّومِ و قالَ مَرّةً: مَنْ أكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرّاثَ فَلا يَقْرَبَنّ مَسْجِدَنَا فَإِنّ الْمَلائِكَةَ تَتَأَذّى مِمّا يَتَأَذّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ))

(من صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله)

فيجب أن يكون المسلم على أكمل وجه عندما يأتي إلى بيت الله، فإذا دعيت إلى عقد قِران في صالة فماذا تفعل ؟ إنك ترتدي أجمل ثيابك، و تتعطر، و تحاول أن تظهر بأبهى منظر، فهذه العناية ينبغي أن تكون في بيتٍ من بيوت الله، فيجب عليك أن تبتعد عن أي شيءٍ يؤذي المسلمين، فقد يكون هناك أشخاص متفاوتون في طباعهم، فهناك إنسان يتأذى مثلاً من ثياب غير نظيفة يرتديها مصلٍ، وقد يتأذى من رائحة العرق أو رائحة الثوم، فينبغي عليك أن تبتعد عن أية رائحةٍ من فمك أو من أعضائك أو من ثيابك يتأذى منها المسلمون.

وقد ورد في بعض الأحاديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((يأتي الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نجائب بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران ورؤوسها من المسك وأزمّتها من الزبرجد الأخضر، والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعُمّارها متعلقون بها، فتجوز عرصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف: هؤلاء ملائكة المقربون وأنبياء مرسلون فينادى بهم: ما هؤلاء من ملائكةٍ ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم))

فإذا أكل الإنسان من هذه الشجرة فلا يقربن المسجد، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((فلا يقربنْ مصلانا))

يوجد عندنا حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام فيه:

((إن الرجل ليكذب الكِذْبة فيتباعد عنه الملك من نتن ريحه))

فعلينا هنا أن نوسع الموضوع، فلو كان هناك الإنسان يكذب ثم دخل المسجد فإن له ريحاً منتنة يتأذّى منها الملك، فالأكمل لك ألا تدخل بيت الله إلا وأنت منيبٌ إلى الله، وطاهر داخلاً وخارجاً، قلباً وقالباً، سراً وعلانيةً..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلّا مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه المساجد إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن))

إنما: أداة قصر، أي: لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن، فلذلك كان على الإنسان أن يحتاط كثيراً و أن يتأدب كثيراً لأن الله تعالى قال:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول أيضاً:

((إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن))

فقد سمع سيدنا عمر رضي الله عنه صوت رجل في المسجد فقال: ما هذا الصوت ؟ ثم قال لصاحب الصوت: أتدري من أين أنت ؟ وقد كان خلف ابن أيوب جالساً في مسجده، فأتاه غلامه يسأله عن شيءٍ فقام وخرج من المسجد وأجابه خارج المسجد.. أرأيتم إلى هذا الأدب ؟ إنه من شدة ورع السلف الصالح، أنهم كانوا لا يجيبون عن سؤال دنيوي إلا خارج المسجد، فالمساجد إنما هي التسبيح والذكر وقراءة القرآن.

لقد كَره العلماء -أيها الإخوة- البيع والشراء في المسجد ؛ كأن تبيع بضاعة في المسجد فتساوم عليها، حتى إن بعض التابعين قال: (يا أبناء الأفاعي، أتخذتم مساجد الله أسواقاً ؟؟ هذا سوق الآخرة) أي: يباع فيه بضاعة الآخرة، وهي معرفة الله عزّ وجل.

و ورد أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((مَنْ سَمِعَ رَجُلا يَنْشُدُ ضَالّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لا رَدّهَا اللّهُ عَلَيْكَ فَإِنّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا))

(من صحيح مسلم عن أبي هريرة)

فتحقيق مصالح شخصية في المسجد من بيع و شراء، أو حل مشكلة ما يكون خارج المسجد، لأن هذه المساجد لم تبن لهذا.

وآخر شيء أود ذكره هو أن السلف الصالح والعلماء كرهوا رفع الصوت في المسجد، فخفض الصوت في المسجد من السنة، فإذا انتهى الدرس كان من الأولى أن يكون الصوت خفيضاً وذلك أدباً مع الله عزّ وجل، فالإنسان دائماً يتأدّب مع صاحب البيت، و كلما كان صاحب البيت عظيماً تأدب معه الإنسان أكثر، كانت هذه بعض الأحاديث المتعلقة بالمساجد التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلخيص معاني كلمة (مسجد):

إن الآية الكريمة تقول:

(وَأَنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللّهِ أَحَداً)

1- المعنى الأول: إن المساجد هي مكان السجود، وإن أي أرضٍ تصلي فيها هي الله، فيجب أن تكون مخلصاً لله في كل شؤون حياتك، وفي كل أحوالك وحركاتك وسكناتك.

2- المعنى الثاني: إن هذه الأعضاء (المساجد) التي تسجد بها لله ينبغي ألا تُخْضعها لغير الله، فلا تحن رأسك لغير الله، ولا تمد يدك ليدٍ مشبوهة، ولا تسر برجلك إلى معصية.

3- المعنى الثالث: المساجد: (مصدر ميمي) وتعني:الصلوات، و الصلوات تكون لله وحده.

4- المعنى الرابع: المسجد هو البيت الذي بني لأداء الصلوات، وإن هذا البيت بني لتعريف الناس بالله، فلا ينبغي لك أن تطرح فيه نظرية أرضية، ولا دعوة لإنسان أو جهة، أو فئة أو جماعة، فالمساجد لكل المسلمين، وفيها تتحقق المساواة بينهم، فإذا كنت خارج المسجد فقد يكون لك مرتبة علمية، أو مكانة معينة، أو وظيفة مرموقة، أو حجم مالي كبير، أما إذا دخلت إلى بيت الله فأنت واحدٌ من المسلمين، وهذا شيءٌ مهمٌ جداً، فقد نجد أحياناً إنساناً يشعر بعزّته في المسجد فيقول: أنا مقامي كمقام أغنى إنسان! أو كمقام أقوى إنسان! فالمسجد يوحِّد بين المسلمين، بينما تفرّق الدنيا بينهم.

أيها الإخوة الكرام...

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيّ أَنّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنّ)

(سورة الجن: آية " 1 ")

وأنه..

(وَأَنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللّهِ أَحَداً)

فإذا أتيح للإنسان أن يتكلّم في مسجد، أو أن يخطب في مسجد فليعلم علم اليقين أن هذا المنبر منبر رسول الله، وأن هذا الكرسي كرسي رسول الله، فلا يجوز له أن ينطق بأهوائه، ولا أن يروّج أفكاره، ولا أن ينال من خصومه، لأن هذا المنبر لله عزّ وجل، فينبغي أن تنطق فيه بالحق، وأن تضع تحت قدمك كل مصالحك و أهوائك..

إن هذه الآيات هي حكم قطعي، فهؤلاء الجن لا يعلمون الغيب، ولا يملكون النفع ولا الضُر، وهم محاسبون ومعذّبون إن عصوا، كما أنهم مكافؤون إن نجوا، وقد أُرسل النبي عليه الصلاة والسلام لهم، لكن النبي لم يعلم بوجودهم إلا بعد أن أعلمه الله بذلك، وقد ذكرت هذا كثيراً، ولكن الدرس الماضي لا يعني أنه ليس هناك إنسٌ يتعاونون مع الجن، إن هذا التعاون موجود، ولكنه غير مشروع، فقد نفيت مشروعية التعامل مع الجن، لكن الواقع يؤكِّد أن هناك أُناساً (رجالاً من الإنس يعوذون برجالٍ من الجن)، و هذا ما قاله الله عزّ وجل (فزادوهم رهقاً)، وقد يستمتع الجن أحياناً بالإنس في مصالحهم وفي نشر ضلالاتهم، فأنا أنفي مشروعية التعامل مع الجن، أما التعاون بين الإنس والجن فهو قائم، وقد ذكره الله عزّ وجل، ولكني أؤكد لكم أن هذا التعاون غير مشروع، بل هو محرّم (ومن سحر فقد كفر)، لكن

هناك من يزعم أنه يتصل بالجن وأنه يستقي الأخبار منهم ويتعاون معهم، فهو قد يستفيد من خصائص الجن في سرعة التنقُّل و الإتيان بأخبار دقيقة عن الشخص، كما أنه قد يدعي أنه يستحضر أرواح الموتى، وهو لا يفعل هذا في الحقيقة، بل إنه يستحضر قرناءهم من الجن، فيأتون بتفاصيل دقيقة جداً، فأنا لم أنف التعاون، بل أنفي مشروعية التعاون، فالتعاون غير مشروع، وليس عندنا للاستعاذة من ذلك إلا قول الله عزّ وجل:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة الأعراف)

و قول الله عزّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

و المعوذتان:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2))

(سورة الفلق)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4))

(سورة الناس)

هذا هو ديننا... إنه دين علم، و دين النقل الصحيح، دين القرآن الكريم، أما ما سوى الكتاب والسنة فلا تلتفت إليه، و لا تعبأ به بل اركله بقدمك لأنه باطل في باطل.

فأنا لم أنف التعاون فالتعاون قائم، ولكنني أنفي مشروعية التعاون، و والله الذي لا إله إلا هو لقد ذكر لي أحد الإخوة الكرام عن رجل يتعاون مع الجن، فقال: والله إنه لا يصلّي وهو من أكبر الزناة، وله أساليب في قنص النساء يندى لها الجبين، فهذا التعاون قائم ولكن ليس مشروعاً، بل هو ضلالة.

وقد ذكرت لكم كثيراً أن كل خرقٍ للعادات إذا كان على يد نبي فهو معجزة، وإذا كان على يد ولي فهو كرامة، وإذا كان على يد فاسق فهو استدراجٌ وضلالة، فخرق العادات موجود حتى عند المضلّين، فقد تقول لي: ما تفسير هذا ؟ فأقول: إن الدين لم يقره حتى يعطي تفسيراً له، فاسأل أهل الذكر، و اسأل الأطباء، فقد يجلس بعض الناس، ويتحدث عن خرق العادات، وعن هذا الذي يدخل سيخ في بطنه مثلاً، ففي جلسة من الجلسات قال أحدهم: ما قولكم فيّ ؟ وهو لا يصلّي، وله أعمال من دون ذلك، ثم قال: أنا وآبائي على هذا المنوال. فهو يستخدم ذلك وسيلة للارتزاق.

أما الإسلام فهو بريء من هذه الخزعبلات والخرافات والتجاوزات والشطحات، لأن الإسلام دين علم، و دين كتاب وسنّة، و دين منهج واضح، فكل شيء لم يفعله النبي فهو غير مشروع..

أقال الله حين عبدتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

لقد علّم النبي أصحابه أن يكونوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، و أنا لا أريد أن أطيل الحديث، لكني أريد أن أقول: إننا لا نملك إلا سنة النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: آية " 7 ")

فيجب عليك أن تمتلك منهج للتلقي، فترفض أي شيء خلاف الكتاب، وإلا وقعنا في متاهات لا تنتهي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (6-8): تفسير الآية 19
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-10-24

بسم الله الرحمن الرحيم

العبودية لله عز وجل

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السادس من سورة الجن، ومع الآية الكريمة التاسعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً)

(سورة الجن)

عبد الله هنا: رسول الله صلى الله عليه وسلم..

العبودية منتهى الرقيّ:

إن نهاية رقي الإنسان وتفوقه هي أن يصل إلى مرتبة العبودية لله عزّ وجل، لأن الرب ربٌ والعبد عبدٌ، وإنك لا ترتقي إلا إذا كنت عبداً لله، لأن هذا هو مكانك الطبيعي، وهذه هويتك، وهذه خصائصك، فالذي يدّعي الربوبية أو يتألّه أو يتعاظم أو يتكبّر يسقط من عين الله ومن عين الخلق، فليس هناك درجةٍ أعلى عند الله وعند الناس من أن تكون عبداً لله، وكلما ازددت لله خضوعاً زادك الله عزاً، و كلما ازددت لله طاعةً زادك رفعةً، وكلما ازددت لله انصياعا لأمره زادك قرباً، فما من مرتبةٍ وصلها بشرٌ على الإطلاق، كالمرتبة التي وصل إليها النبي عليه الصلاة والسلام..

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

إن سدرة المنتهى هي أعلى مقامٍ بلغه إنسان، يقول عليه الصلاة والسلام:

((سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ))

(من مسند أحمد عن عمرو بن العاص)

والوسيلة هي المرتبة التي تصل به إلى سدرة المنتهى، قال تعالى:

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17))

(سورة النجم)

وقد قال الله عزّ وجل:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

فقد كان أعلى وصْف وُصِفَ به النبي عليه الصلاة والسلام أنه عبدٌ لله، لكن القضية هنا محيِّرة، لأنها تقول: إنك كلما ازددت خضوعاً زادك رفعةً، و كلما ازددت تواضعاً زادك مكانةً، و كلما ازددت انصياعا لله عزّ وجل زادك رفعةً، ولكن الله عزّ وجل قال:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

إن الله عزّ وجل لم يذكر مرة إلا ذكر معه النبي عليه الصلاة والسلام، فأنت تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله، و هل يعقل أن يقسم الله جلّ جلاله بعمر إنسان ؟ لقد أقسم الله عز وجل بعمره الثمين، فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

وقد أثنى الله جلّ جلاله على خُلُقه العظيم، فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

إياك أن تتكبر..

إن هذا تعليمٌ لنا، فإيَّاك أن تتكبر و تستعلي و تتطاول، و تدعي ما ليس لك، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((العظمة إزاري، والكبرياء رداءي، فمن نازعني منهما شيئاً أذقته عذابي ولا أبالي))

فأنت تزداد رفعةً عند الله بخضوعك له، و تزداد مكانةً بعبوديتك له، و تزداد غنىً بافتقارك إليه، و تزداد قوةً بإعلان ضعفك أمامه، و تزداد علماً بإعلام جهلك أمامه:

مالي سوى فقري إليك فبالافتقار إليك فقري أدفع

مالي سوى قرعي لبابك حيلةٌ فإذا رُددْت فأي بابٍ أقرع

إن المؤمن الصادق -أيها الإخوة- له علاقةٌ طيّبة بالله، و علاقته بالله علاقة الخضوع، و إذا أعزّ الله سبحانه وتعالى إنساناً سخَّر له أعداءه في خدمته، وإذا أذل إنساناً تنكَّر له أقرب الناس إليه، وإن مما يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى وصف النبي عليه الصلاة والسلام في أعلى وصفٍ بلغه الإنسان، فقال:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

وقد وقف خطيبٌ أمام النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

ما شاء الله وشئت، فقال:

((بئس الخطيب أنت، جعلتني لله نداً ؟! قل: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن))

من أنا ؟؟ إن الأمر هنا عجيب، لأنك كلما ازددت خضوعاً، ومرّغت وجهك في أعتابه زادك عزاً و رفعة، وحفظك وأيّدك ونصرك وأكرمك ورفع ذكرك ودافع عنك، وكلما قلت: أنا ! تخلّى عنك، وقد ذكرت من قبل كثيراً أن في حياة المؤمن يومين يتكرران كل يوم، وهما يوم بدرٍ ويومُ حنين، ففي يوم بدرٍ قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلّةٌ)

(سورة آل عمران: من الآية " 123 ")

أي مفتقرون إلى الله.. أما في حنين فقال:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

(سورة التوبة: من الآية " 25 ")

فحينما قالوا في حنين: لن نغلب من قلة تخلى الله عنهم، رغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، وهم الصحابة الكرام من خير خلق الله..

(وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

ولكنهم حينما التجؤوا في بدر إلى الله وابتهلوا إليه نصرهم، وهم قلةٌ قليلة ضعيفةٌ ذليلة على كثرةً كثيرة مدججةٍ بأنواع السلاح، فماذا نستفيد من هذين اليومين ؟

إنك مع الله بين حالين ؛ أن يتولاّك، و أن يتخلّى عنك، فإذا قلت: أنا !! لدي خبرات متراكمة وعلم و مال و نسب و مكانة ومركز مرموق و ذاكرة قوية وصحة جيدة، تخلى الله عنك، وإذا قلت: هذا من فضل ربي، وهذا بتوفيق الله و حفظه تيسيره تولاّك الله، فأنت مخيَّر ؛ فإما أن تقول: أنا، فيتخلى الله عنك ويكلك إلى نفسك، وإما أن تقول: الله، فيتولاك بحفظه ورعايتك، و كلما اقتربت من أن تكون عبداً لله نلت كل مراتب هذه المكانة التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصى.

أنواع المعية الإلهية:

1- المعية العامة: (معية العلم):

إن ربنا عزّ وجل قال:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية " 4 ")

فالمراد هنا أن الله مع كل الناس، كافرهم و مؤمنهم، طائعهم وفاسقهم.. مع القريب والبعيد، مع الملحد والمنكر، والكافر والفاجر، وهذه المعية تسمى معية العلم.

2- المعية الخاصة: (معية التأييد):

قال الله تعالى:

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

(أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ)

(سورة البقرة)

فهذه معيةٌ خاصة، لأنها معية التوفيق، والتأييد، و النصر، و الحفظ، و المعية الخاصة لها ثمن، و الثمن يملكه كل واحدٌ منا، تقول الآية الكريمة:

(وَقَالَ اللّهُ إِنّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة: آية " 12 ")

إن هذا ثمن المعية.. أتُحِبُ أن يكون الله معك ناصراً و مؤيداً و حافظاً و ملهماً ومسدداً ومدافعاً ؟ إذا أردت ذلك فآمن به، واستقم على أمره، وأيّد رسله، واعمل الصالحات لخدمة خلقه، ففي هذه الحالة يكون الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ لا أحد يجرؤ أن يكون عليك إذا كان الله معك، فإذا كان الإنسان في مجتمعاتنا مع أعلى رجل في البلاد فمن يستطيع أن يقف ضده ؟ لا أحد، فإذا كان هذا في مجتمع البشر، فكيف بالله عزّ وجل وهو القوي العزيز، ألا تقرؤون في الدعاء: **" سبحانك إنه لا يذِلّ من واليت، ولا يُعَزّ من عاديت ".**

(وَأَنّهُ لَمّا قَامَ عَبْدُ اللّهِ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم -على علوّ مقامه و عظم مكانته عند الله و شدة قربه وفنائه في سبيل الله - كان في الطائف يدعو أهلها إلى طاعة الله وعبادته، فردوه شرّ رد و كذبوه وسخروا منه، وأغروا صبيانهم بإيذائه، فماذا دعا ؟؟ لقد قال:

((يا رب إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، لك العتبى حتى ترضى لكنّ عافيتك أوسع لي))

فهذا هو مقام العبودية

((إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، لك العتبى حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي))

و حينما وجد الأنصار في أنفسهم عليه وجاءه سعد بن عبادة، وقال يا رسول الله: إن قوم وجدوا عليك في أنفسهم، قال:

(((لمَ ؟) قال: من أجل هذا الفيء الذي وزّعته في الناس ولم تخصّهم منه، قال: (أين أنت من قومك؟) قال: ما أنا إلا من قومي، فقال: (اجمع لي قومك)، فلما جمعهم قال: (يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، واجِدَةٌ وجدتموها علي في أنفسكم، من أجل لعاعةٍ تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم)))

والآن أريد منكم أن تدققوا: لقد كان عليه الصلاة والسلام أقوى رجل في الجزيرة العربية، فقد دانت له الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، وكان هذا بعد حنين، وفي ذاك الوقت لم يكن هناك مشكلة، فقد كان كل الناس خاضعين له، وقد قال:

((أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصُدقتم، أتيتنا مكذباً فصدّقناك، و طريداً فأويناك، ومخذولاً فنصرناك))

فبماذا ذكّرهم هنا ؟ لقد ذكرهم بفضلهم عليه، وهو أقوى رجل، لقد كان بإمكانه أن يلغي وجودهم، كما كان بإمكانه أن يهدر كرامتهم، و كان بإمكانه أن يهملهم أو أن يعاتبهم، فما الذي فعله ؟ لقد ذكّرهم بفضله عليهم، فقال:

((يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضُلالاً فهداكم الله بي))

إنه هنا لم يقل: فهديتكم، أرأيتم إلى تواضعه صلى الله عليه وسلم و افتقاره لفضل الله

((ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي، عالةً فأغناكم الله ؟ أعداء فألّف بين قلوبكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم))

فقالوا: رضينا، وبكوا حتى أخضلوا لحاههم، قال:

((اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، وما سلك الناس شِعْبَاً وسلك الأنصار شعباً إلا سلكت شعب الأنصار))

فما هذه العبودية لله عزّ وجل ؟ إن المؤمن كلما تواضع لله و أعلن افتقاره إلى الله ازداد عند الله رفعةً، وهناك أربع كلماتٍ مهلكات، هي: (أنا) و(نحن) و(لي) و(عندي)، فهناك من يقول مثلاً:أنا ابن فلان ! أنا أحمل هذه الشهادة ! أنا أشغل هذا المنصب ! أنا أستطيع أن أفعل كذا وكذا ! لقد قال الشيطان:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

فأهلكه الله، و قال قوم بلقيس:

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل: آية " 33 ")

فأهلكهم الله عزّ وجل، و قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

أي: على خبرات متراكمة أمتلكها..

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: آية " 81 ")

و قال فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: آية " 51 ")

فأهلكه الله عزّ وجل..

ملخص الفكرة..

إن ملخصَ ملخص هذا الكلام هو أنك بين أن تقول: الله ! فيتولاك الله، وبين أن تقول: أنا ! فيتخلى عنك، وقد يكون ذلك على علمك، و علو قدرك، وعِظَم شهاداتك، و تراكم خبراتك، و ضخامة مالك، لأن هذا كله ليس بشيء عند الله، فليس هناك ذكاء ولا غنى مع الله عز وجل، لأن الذي أعطاك يستطيع أن يأخذ كل ما أعطاك في يوم وليلةٍ فتصبح من الفقراء، كما أن الذي منحك نقطة دم قادر على أن يجمدها، و إن كل ما تملك من الدنيا منوط بسيولة دمك، فلو تجمد دمك في بعض العروق، كعروق الدماغ مثلاً وكان ذلك في مكان الذاكرة فإنك لن تعرف ابنك وهو أقرب الناس إليك، ثم يتوسّط لك أقرب الناس إليك لتكون أحد نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية، فنهاية الإنسان متوقفة على سيولة دمه، فإذا تجمد دمه انتهى، وإن استيقاظ الإنسان من النوم ومشيه لا بدّ له من توافر آلاف الشروط، كما أن جهاز الهضم السليم الذي يبدأ من الفم إلى البلعوم إلى المرئ إلى المعدة، إلى البنكرياس، إلى الأمعاء إلى الصفراء، إلى الغدد الصمّاء، إلى الأمعاء الدقيقة، ثم الأمعاء الغليظة، فالمستقيم، إن هذا الجهاز هو الذي يجعل الإنسان يجلس بين الناس طاهر الثياب عطر الرائحة، والمستقيم له آفات، فلو أصيب المستقيم بالشلل كان لا بدّ للإنسان من أن يحمل قَدَرَه إلى جانبه، ولو أن كُلْيتي الإنسان توقفتا عن العمل كان لا بدّ من أن يذهب كل أسبوع مرتين ليغسل دمه، و لو أن دسّاماً تعطل في قلبه كان لا بدّ له من إجراء عمليةٍ تساوي ثمن بيته، فكيف تقول: أنا ؟ من أنت؟! إنك تقف على قدميك برحمة الله، و تمشي على رجليك بلطف الله، و بحماية الله أنت مصان ومحفوظ، و كل هذا الكلام يدور حول قوله تعالى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

إنك لن تكون إنساناً كاملاً إلا إذا كنت عبداً لله، ولن تكون محطّ عناية الله إلا إذا اعترفت له بالعبودية، لأن العبد عبدٌ والربُ رب.

القلوب منظر الرب:

أيها الإخوة.. إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، و القلب منظر الرب، فإيّاك أن يرى الله فيه كبراً أو حقداً أو تَعَنُّتاً أو استعلاءً أو استكباراً أو تَمَيُّزاً على الخلق، لقد كان عليه الصلاة والسلام مرة مع أصحابه في سفر - وهو سيد الخلق وحبيب الحق - فأرادوا أن يعالجوا شاةً، فقال أحدهم: عليَّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: عليها طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((وعلي جمع الحطب))

فقالوا: نكفيك يا رسول الله قال:

((أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

كن مع إخوانك واحداً منهم، لا تستعلِ عليهم، و لا تكن فوقيَّ التصرفات، كن واحداً منهم، لقد كان سيدنا عمر وهو عملاق الإسلام، يقول: **" أتمنى أن أخص عاملاً بعمل له صفتان: إذا كان أميراً على إخوانه بدا وكأنه واحدٌ منهم ".**

و هذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، لقد كان يدخل الأعرابي والنبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه فلا يعرفه فيقول: أيُّكم محمد ؟ فلم يكن له كرسي خاص فخم، و ليس له ثياب خاصة من ذهب، بل إن كان الأعرابي كان يقول قال: أيكم محمد ؟ فيقول: أنا، وقد ورد في رواية ثانية أنه قال: أيكم محمد ؟ فقال له أحد الأصحاب: ذاك الوضيء ؛ أي: متألق الوجه، فهكذا عامل النبي عليه الصلاة والسلام الناس، و هذا الذي نريد أن يكون بين المسلمين، فليس في الإسلام طبقة رجال دين، قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

(سورة يونس)

هذه هي صفات الولي، وعلى هذا يجب أن يكون كلُّ واحدٌ منكم ولياً لله عزّ وجل، لأنك إذا آمنت بالله واستقمت على أمره كنت ولياً له.

المساواة في الإسلام:

لقد ذكرت اليوم أن تفوقك في الدين لا يكون بحجم ثقافتك الدينية، ولا بحجم مشاعرك الجيّاشة نحو الإسلام والمسلمين، ولا بحجم المظاهر التي تحيط نفسك بها، ولكن التفوق في الدين بحسب استقامتك على أمر الله، وطاعتك له..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

وبحجم عملك الصالح الذي تفضّل الله عليك وأجراه على يديك، والذي يعود نفعه على المسلمين بخاصة وعلى الإنسانية بعامة، فهذا هو التفوق الحقيقي، إنه التفوق في إيمانك و طاعتك و عملك الصالح.

إن النبي صلى الله عليه وسلم ما داعب أحداً من أصحابه كما داعب سيدنا سعد بن أبي وقّاص، فقد كان إذا رآه يقول:

((هذا خالي، أروني خالاً مثل خالي))

وقد كان هناك مودة بالغة بينهما، وما فدى النبي صلى الله عليه وسلم واحداً من أصحابه إلا سيدنا سعد حيث قال له:

((ارم سعد فداك أبي وأمي))

فماذا قال له سيدنا عمر بعد موت النبي ؟ لقد قال له:

((يا سعدُ لا يَغُرّنّك أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواء ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له))

فكلنا عند الله سواسية، و لا توجد طبقية في الإسلام، ولا يوجد انتماء، ولا يوجد فرق بين أبيض وأسود، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((اسمعوا وأطيعوا ولو تولّى عليكم عبدٌ رأسه كالزبيبة))

وقد وقف أبو سفيان سيد قريش، بباب عمر ساعاتٍ طويلة فلم يؤذن له، وكان بلالٌ وصهيب يدخلان بلا استئذان، فلما دخل عليه عاتبه وقال: سيد قريش يقف ببابك الساعات الطوال وصهيبٌ وبلال يدخلان بلا استئذان ؟ قال له: يا أبا سفيان، أنت مثلهما ؟! أي: أين أنت منهما، فكل إنسان له عند الله مرتبة.

فيا أيها الإخوة... توقفوا عند كلمة:

(وَأَنّهُ لَمّا قَامَ عَبْدُ اللّهِ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

التواضع:

إنك ترقى عند الله بقدر عبوديّتك له، وتواضعك لعظمتك، و أُنْسك به، لقد صلى عليه الصلاة والسلام مرةً بأصحابه فأطال السجود، فقلق أصحابه، ثم علموا أن أحد أولاد ابنته - الحسن - ارتحل ظهره فكره أن يزعجه، فما هذا التواضع ؟

وقد كان عليه السلام في بيته كأنه واحدٌ في أهل البيت، فكان إذا دخل بيته بسّاماً ضحّاكاً، وكان يقول:

((أكرموا النساء فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم يغلبن كلّ كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

فما هذه العبودية ؟ هذا التواضع ؟ لا يوجد في الإسلام كلمة أنا، بل هناك كلام علمي ؛ فالأمور في الإسلام تتم بفضل الله و توفيقه وبراعيته و معونته، فإذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضل ونسبه إليك، فالفعل فعله، وقد نُسِبَ هذا الفعل إليك تكريماً لك:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللّهِ يَدْعُوهُ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

قيل: يدعوه ؛ أي يعبده، وقيل: يدعوه ؛ أي: يدعو إليه، والأصح أن نجمع بينه، فنقول: المعنى: يدعو إليه ويعبده.

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللّهِ يَدْعُوهُ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

أي: يدعو الناس إلى معرفته وطاعته ويعبده..

معاني الآية:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً)

(سورة الجن)

إن لهذه الآية معان عدة..

1- المعنى الأول:

إن الجن الذين استمعوا إلى القرآن اجتمعوا بأعدادٍ كبيرةً جداً، وكان بعضهم فوق بعضٍ من شدة الازدحام، وقالوا: لقد سمعنا قرآناً عجباً، فهذا كلام رائع وهو منهج قويم، وفيه تفسير رائع للكون، كما أن فيه أمراً ونهياً لصالح الإنسان، و قد قال بعض العلماء: الشريعة عدل كلُّها، رحمةٌ كلها، مصلحةٌ كلها، حكمةٌ كلها، وقد اجتمع هؤلاء الجن إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو لا يعلم بوجودهم، إلا أن الله أخبره بهم، فتكاثفوا حوله وتجمّعوا وازدحموا وتدافعوا إلى درجة أن بعضهم كان فوق بعض من شدة دهشتهم واستغرابهم وتعلّقهم بهذا الكلام الرائع، فإذا كان الجن كذلك فكيف بنا نحن الإنسَ وقد أُنْزِلَ القرآن بلغتنا وكان إلينا في الأصل ؟! و ما بال هؤلاء الذين اتخذوا القرآن مهجوراً؟؟

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ)

(سورة الحشر: آية " 21 ")

إن هؤلاء الجن لما كانوا عند النبي استمعوا إلى القرآن يتلى عليهم، وقال تعالى:

(كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً)

فقد كان هناك كثافة واجتماع وتزاحم وتدافع، بل إن بعضهم كان فوق بعض لدهشتهم، وذلك لأن الحق مسعد، كما أنه يحل مشاكل الإنسان كلها، لأن الثقل الذي على الإنسان هو ثقل ظُلُمَات و ثقل معاصي و ثقل الشكوك بالله عزّ وجل، أما حينما تتضح الحقيقة، ويصطلح الإنسان مع الله فلا يوجد مشكلة على الإطلاق، لأن الإنسان يؤمن حينئذ أن أمره كله بيد الله، وأن كمال الله عزّ وجل مطلق، وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا ألمّت به نازلة أو مصيبة يقول:

((لا إله إلا الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله العليم الحكيم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم))

فلذلك اندهش الجن وعجبوا من هذا القرآن الذي تخشع له الجبال، قال تعالى:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ)

(سورة الحشر: آية " 21 ")

وهناك إنسان أجنبي اعتنق الإسلام بسبب إيمانه بآيةٍ واحدة في القرآن، وهي قوله تعالى:

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

(سورة النساء)

إن الذي يراه الزوج من زوجته لا يستطيع الأبُ ولا الأخُ ولا القريب أن يراه منها، لذلك كان أغلظ ميثاق بين إنسانين ميثاق الزواج، كما أن الطلاق يهتزُ له عرش الرحمن، إذاً.. هذا هو المعنى الأول.

2- المعنى الثاني:

لقد تعلق الصحابة الكرام بسيد الأنام و..

(كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً)

وبسبب تعلُّقهم بهذه الدعوة فهم كفار قريش أن النبي عليه الصلاة والسلام سحرهم، وقد كان أحد الصحابة وهو سيدنا ربيعة يبقى على عتبة بيت النبي صلى الله عليه وسلم إذا آوى إلى فراشه، فأمره أن ينصرف فلم ينصرف، فلماذا كان الصحابة مشدودون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ إن سبب ذلك هو كماله.

لقد كنت أقول دائماً: إن الأقوياء يملكون الرقاب بقوتهم، والأنبياء يملكون القلوب بكمالهم، وأريد أن أسألك: أنت مع من ؟ إنك إذا كنت مع أتباع الأنبياء ملكت القلوب بكمالك، وإذا كنت من أتباع الأقوياء أرهبت الناس بقوتك.

وهناك شيء آخر ذكرته في درسٍ سابق ولا بأس من إعادته..

إن هناك قانون يجعلك تتصل بالله، و بسبب هذا الاتصال تستقر في قلبك الرحمة، وهذه الرحمة تجسّد باللين، و اللين يدعو الناس إلى أن يلتفوا من حولك، فهناك اتصال ورحمة و لين و التفاف، أما غير المؤمن فهو منقطع عن الله، فقلبه قاسٍ كالصخر، وإن الفظاظة والغلظة من لوازم القسوة، فينفضُ الناس

من حولك،فالقانون هو: أن تتصل بالله، فتستقر الرحمة في قلبك، و تلين في المعاملة، فيلتف الناس حولك، فإن انقطعت عنه قسا القلب، فتصبح فظاً غليظاً ينفض الناس من حولك، والآية الكريمة تقول:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران: آية " 159 ")

فبما رحمةٍ ؛ أي: بسبب رحمتك، لذلك قال الله تعالى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً)

(سورة الجن)

3- المعنى الثالث: إن أهل الفسق والفجور دائماً متعلِّقون بالشهوات والأهواء والنزوات، فإذا جاءت دعوةٌ من السماء لتَحُدُّ من حركتهم وانطلاقهم إلى شهواتهم، عارضوها أشدَّ معارضة، وهذه حقيقةٌ ثابتة، فهناك معركةٌ أزليةٌ أبدية بين الكفر والإيمان، فأهل الكفر والفسوق دائماً وأبداً يعادون أهل الإيمان والتقوى، لأن الناس رجلان: برٌ تقي كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقي هينٌ على الله، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الدعوة وهو أكمل الناس خلقاً وخلقاً، ومنطقاً، وحكمةً، ورحمةً، وبلاغةً، وفصاحةً، ولكن..

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً)

(سورة الجن)

أي: كاد الكفار يكونون عليه لبداً، وفي هذا إشارة دقيقة إلى أن الكفار يتعاونون على إطفاء نور الله عزّ وجل، و يسهرون من أجل ذلك الليالي، فيجتمعون، و يأتمرون، ويخططون، وإن العالم كله بشرقه و غربه الآن يخطط ضد الإسلام، فهم يكيدون له، لأنهم أيقنوا أن لا سبيل إليهم لمواجهة هذا الدين، لأنه دين الله، وكلما اشْتَدَتّ الأزمات عليه ازداد تألُقاً، فأصبحوا كالذي يريد أن يطفئ النار بالزيت، كلما صبَّ عليها الزيت ازدادت توهُجاً، فأيقنوا أن هناك طريقاً قذراً شيطانياً آخر، وهو تفجيره من داخِلِهِ، و اصطناع فئاتٍ لا تنتمي إلى الدين أبداً ترفع شعار الدين، وتسيء إلى الدين أبلغ إساءة، حتى يقتنع أهل الغرب والشرق أن المسلم مجرم، فهذه المذابح التي تجري في بعض البلاد المسلمون منها بُرَآء، لأنه لا يوجد إنسان فيه ذرة إيمان يفعل ذلك، والذين يفعلونها إنما هم مجرمون يوصفون بالمسلمين، وما هذا إلا من خطط تفجير الإسلام من داخله، فهناك كتب تؤلّف ومذاهب تنتشر و عقائد زائغة تشاع بين الناس، و قد تأتي بشيءٍ جديد كأن تنكر الجن، وتنكر المعجزات، وتَدَّعي أن هناك نبياً بعد رسول الله، فخطة أعداء الدين الآن تفجيره من داخله، من خلال مؤلفاتٍ باطلة، و نظرياتٍ منحرفة، و جماعاتٍ فاسدة، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً)

(سورة الجن)

في كل عصر من العصور هناك من أهل الدنيا من يحارب أهل الحق، فيجتمعون ويتعاونون ويتكاتفون، و في سورة بالأنفال آية تؤكِّد هذا المعنى تقول: إن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، كما أن الكفار بعضهم أولياء بعض، فهم يتعاونون لإطفاء نور الله عزّ وجل، فإن لم يتعاون المؤمنون ولم يتناصروا ويتناصحوا ويتضامنوا و ينسوا خلافاتهم تأججت الخلافات بينهم، و من يؤجج هذه الخلافات؟ إنه الشيطان، إن الشيطان يأس أن يعبد في أرضكم، ولكنه رضي فيما دون ذلك، من التحريش بين المؤمنين.

إن الشيطان له مهمة كبيرة جداً، ومن أكبر مهمّاته أن يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء، فكل إنسان يُعَادي مؤمناً ويتحرّش به و يطعن بإيمانه و يطعن باستقامته و يشوّه سمعته هو أداةٌ بيدي الشيطان، وهو يفعل هذا لصالح الشيطان.

أخوة المؤمنين:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات: آية " 10 ")

فالمؤمنون إخوة، فإذا لم تنتم إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً، فلا تنتم إلى جماعةٍ صغيرة فأنت أكبر من ذلك ! أنت مسلم ! وكل مسلمٍ أخوك في الإسلام، أنت مؤمن ! وكل مؤمن أخوك في الإيمان ! أما أن تقول: نحن من جماعة كذا، أو من جامع كذا، و نحن وحدنا على حقٍ، فهذا كلامٌ سخيف مضحك يدعو إلى السخرية، يجب عليم أن تنتمي لمجموع المؤمنين، كما يجب أن يكون كل مؤمنٍ في بقاع الأرض أخاك في الإيمان، فما بال المسلمين على مستوى الحلقات يجعلون هذه الحلقة ضد هذه الحلقة، وهذه الجماعة ضد هذه الجماعة، وهذه الفئة ضد هذه الفئة، وهذا الجامع ضد هذا الجامع، إن هذا شيء مضحك يدعو إلى القرف، فما من يومٍ نحن في أمسّ الحاجة إلى أن نجتمع فيه و نتعاون ونتكاتف و نتناصر كهذه الأيام، فالعالم كلّه يخطط لإطفاء نور الله عزّ وجل، و العالم كله يأتمر على الإسلام والمسلمين، فقد آن أوان الصحوة الدينية، وينبغي لها أن تُرَشّد لا أن تبقى هوجاء موجهة توجيهاً ما أراده الله عزّ وجل.

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً)

فالمعنى الأول يتعلّق بالجن لدهشتهم، والمعنى الثاني متعلق بالصحابة لاستفادتهم، والمعنى الثالث متعلق بأهل الكفر والعصيان، لأنهم تجمعوا وتكاتفوا، وتناصروا، وائتمروا لإطفاء نور الله عزّ وجل.

و المؤمن الصادق لا يتأثر لذلك، فمعارضةٍ الدين شيء مألوف طبيعي، وهكذا الحياة، و هكذا سنة الله في خلقه، فهناك مؤمنٌ وكافر، و المعركةٌ أبديةٌ سرمدية، فقد ورد في مناجاة سيدنا موسى: أن يا رب لا

تبق لي عدواً، فقال جلّ جلاله لنجيّه موسى: يا موسى هذه ليست لي، فهناك أُناس أعداءٌ لله عزّ وجل، فعليك أن تقول: الله معي، ثم ذرهم في غيهم يعمهون.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

(سورة آل عمران: آية " 12 ")

ألا تكفي هذه الآية.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

قال تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

و قال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية " 36 ")

لقد كان درسنا عن هذه الآية الكريمة:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً)

(سورة الجن)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 20 - 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-10-31

بسم الله الرحمن الرحيم

توحيد الله سبحانه

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس السابع من سورة الجن ومع الآية العشرين، وهي قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً)

(سورة الجن)

أيها الإخوة... إذا كان الحديث في الدرس السابق عن مقام العبودية، فالحديث اليوم عن التوحيد.. قل: أي: قل يا محمد لهم، إنما: أداة قصر.. و لو أن الله عزّ وجل قال: قل أدعو ربي فقط لما كان هناك مانع من يدعو رسول الله غير الله، لكن الله عزّ وجل قال:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

(سورة الجن: آية " 20 ")

أي: أدعو ربي وحده، وهذا هو التوحيد.

إن التوحيد لا يقبل الشرك، فيجب عليك أن تدعو الله وحده، ومعنى تدعوه ؛ أي: تصلِّي له و تعمل من أجله، و أن يكون القلب متعلقاً به وحده.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

(سورة الجن: آية " 20 ")

ضرورة توحيد الله:

أيها الإخوة.. إن القضية بسيطة جداً، فإذا دخلت إلى دائرة كبيرة فيها ألف موظف وكانت مشكلتك لا تُحَل إلا مع مدير هذه الدائرة، فلا يمكن لأي إنسان عاقل أن يبذل ماء وجهه لغير مدير الدائرة العام، لأن هذا مضيعةٌ للوقت، ففيه جهدٌ ضائع وعملٌ أخرق،وطريقٌ مسدود، فإذا دعا الإنسان غير الله كان الطريق أمامه مسدوداً، لأن هذا الذي تدعوه ضعيفٌ مثلك، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فهو لا يملك لك نفعاً ولا ضراً من باب أولى، لأنه لا يملك لنفسه، فهو ضعيف عاجز، و وجوده غير ذاتي، بل إن وجوده كان بسبب إمداد الله له، فلو أن الله قطع عنه الإمداد ثانيةً لأصبح جثةً هامدة، فكيف تعلِّق الآمال على إنسان يستمد وجوده من غيره، أما الله جلّ جلاله فهو واحدٌ أحد فردٌ صمد، ووجوده ذاتي، و لا يتعلّق على وجود غيره، أما البشر فكل مكتسباتهم متعلقة ببقائهم أحياء، فهي متعلقة بنبض قلوبهم، و سيولة دمائهم، و سلامة أعضائهم، وعقولهم التي في رؤوسهم، فالإنسان يستمد وجوده من عوامل كثيرة جداً، فإذا تعطّل أي عاملٍ أُلْغِيَ وجوده، لذلك قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

(سورة الجن: آية " 20 ")

إن التوحيد نهاية العلم، وكلما تعمّق إيمانك ازداد توحيدك، وكلما ازداد توحيدك ازداد إخلاصك، فعليك أن توقن أن أحداً -غير الله-لن ينفعك ولن يضُرّك، وأن الإنسان إذا ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى، وأنه إذا عبد غير الله عزّ وجل كان الله له بالمرصاد، فلا بدّ من أن يخَيّب ظنه و يحبط عمله، و يريه هذا الشريك الضعيف اللئيم.

الإيمان الحقيقي:

أيها الإخوة... إن بطولتنا لا تكون في أن نُقِر أن الله خالق السماوات والأرض، ولكن بطولتنا في الإيمان أن نوقن أن الله بيده كلُّ شيء، و أنْ ليس في الكون إلا الله، و هذا هو التوحيد.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

ليس المقصود من التوحيد هذه الكلمات التي تقولُها، فالمسلمون جميعاً يدعون الله بلسانهم، فهم في الصلاة يدعون الله عزّ وجل، و في الدعاء يدعون الله عزّ وجل أيضاً، وفي الاستغفار يستغفرون الله عزّ وجل، ولكن المشكلة أن الناحية العملية ليست كالناحية النظرية، فالإنسان يدعو الله بلسانه ويُعَلِّق الآمال ويتكئ على غير الله، ويعتمد على ماله، يقول لك: الدراهم مراهم، وهذه كلمةٌ إبليسيَّة، فهناك مليار مشكلة لا تَحُلُّها الدراهم، إنه يعتمد على ماله و أولاده و مركزه و صحته ويدعو ربه بلسانه، فعليك أن تشعر أن كل شيءٍ تتمتع به إنما هو من فضل الله عزّ وجل، وفي أية لحظةٍ يسلبه منك..

ما بين غمضة عينٍ وانتباهتها يغيّر الله من حالٍ إلى حال

فقد ترى الإنسان ملء السمع والبصر، فإذا بخثرة دم في الدماغ تجعله مشلولاً، فعلى الإنسان ألا يعتمد على صحته ولا على قوته ولا على ماله.

لقد كان هناك رجل مثقف ثقافة عالية يجلس مع أصدقائه، فقال: أنا موتي بعيد، فسأله صديقه: لماذا ؟ قال له: لأن وزني خفيف، وأكلي قليل، وأمشي، ولا أدخِّن، ولا (أُحَمِّلها) [أي: لا أكترث للضغوط]، وليس عندي شدة نفسية.

لقد كان كلامه صحيحاً بمجمله، فالشدة النفسية و النهم في الأكل و بطء الحركة والتدخين أشياء قاتلة، وقد قال هذا الكلام يوم السبت في سهرة مع أصدقائه، فما جاء يوم السبت الذي وليه إلا وهو تحت الأرض، فلا تعتمد إلا على الله، فالمال قد يذهب في ثانية واحدة، فقد تكون من أغنى الأغنياء فإذا أنت من أفقر الفقراء.

لقد زارني رجل فقال لي: أنا كنت أملك عدداً كبيراً من الدونمات، وإني لا أذكر العدد، فهو كبير جداً، فقد يكون مائتان وخمسون دنماً، وقد كان هذا الرجل يقيم كل يوم في بيته مضافة و يدعو الضيوف، أما

الآن فهو يبحث عن عمل ناطور في براتب ثلاثة آلاف ليرة في الشهر، فالله عزّ وجل يُعطي ويدهش، ويأخذ ويدهش، فلا تعتمد على صحتك ولا على مالك، ولا على أعوانك، ولا على أقرب الناس إليك، ولا على أبعد الناس منك، ولا على أقوى الناس، ولا على أضعف الناس.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

علِّق أملك بالله، وثق بالله وحده، و اتكل عليه وحده، و ارجُ الله وحده، هذا هو التوحيد الحقيقي، إن التوحيد سهل جداً في الكلام، فإدراكه سهل، وشرحه سهل، أما في الأزمات فهو ليس كذلك، فقد تأتيك أزمة، فتبحث عن إنسان يحميك ويُعطيك و يقيك، لا.. لا تفعل ذلك، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمرٌ بادر إلى الصلاة، والله عزّ وجل متكَفِّل أن يُرِيَك من آياته.

عَوِّد نفسك في الأزمات و الأوقات الحرجة أن ترجو الله وحده وأن تعلِّق عليه الآمال، وأن تصطلح معه، وأن تتذلل بين يديه، وأن تُمَرِّغَ جبهتك في أعتابه.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

لا تكن مُجَيِّراً لصالح إنسان، و لا تكن محسوباً على جهةٍ أرضيةٍ أبداً، و لا تعط طاقتك وجهدك ووقتك وعمرك لغير الله عزّ وجل، فغير الله ليس أهلاً لأن تعطيه طاقتك و جهدك وذكاءك و علمك، فأنت لله، ولا يليق بك كإنسان إلا أن تكون في خدمة الله عزّ وجلّ، فلا تكن محسوباً على جهةٍ أرضية، و هذه نصيحةٌ لله عزّ وجل، لأن ذلك لا يليق بك، فإن كنت محسوباً على جهةٍ أرضية دعوتها ولم تدع الله عزّ وجل، و رجوتها ولم ترجُ الله عزّ وجل، و خفت بطشها ولم تخف بطش الله عزّ وجل، وأنت لله، فإذا كان الماء للتراب، والتراب للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، فلمن الإنسان ؟ إنه لله الواحد الديّان.

إن الإنسان يوجد في حياته ضيق و أزمات ومشكلات، فعليه أن يعتمد على الله وحده ويدعوه، و معنى يدعوه هنا ؛ أي: يصلي له، والصلاة دعاء، فصلّ لله، و ادعوه بلسانك في أي جلسة تجلسها، ولا تدعُ زيداً أو عبيداً، ولا فلاناً ولا علاناً، ولا جهة، بل ادع الله عزّ وجل، يقول تعالى في الحديث القدسي:

((ما ذكرني عبدي في سره إلا ذكرته في نفسي، ولا ذكرني في ملأٍ من خلقي إلا ذكرته في ملأٍ خيرٌ منه))

إنما: أداة قصر، أي: أنا أدعو الله وحده ولا أدعو أحداً سواه.

والنبي عليه الصلاة والسلام علّمنا أنه ما من مخلوقٍ على وجه الأرض أقرب إلى مخلوقٍ كقرب رسول الله صلى الله عليه وسلّم من سيدنا الصديق، ومع ذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي مَرَضِهِ الّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِباً رَأْسَهُ بِخِرْقَةٍ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمّ قَالَ: إِنّهُ لَيْسَ مِنَ النّاسِ أَحَدٌ أَمَنّ عَلَيّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ

بْنِ أَبِي قُحَافَةَ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلا وَلَكِنْ خُلَّةُ الإِسْلامِ أَفْضَلُ سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ))

(من صحيح البخاري عن ابن عباس)

و قد قال سيدنا الصديق بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام:

((من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت))

فديننا دين توحيد، لا دين أشخاص و جهات و شرك..

توسيع للمعنى..

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

عليك هنا أن توسِّع المعنى، فمعنى أدعو الله ؛ أي: أصلي له و أخافه و أرجوه وحده، فكلُّ أملي معقودٌ على رحمته، و كلُّ خوفي منه، و كل رجائي له، فأنا أرجو ما عنده، وأخشى عذابه، وأتهيب جفوته، وأرجو نواله، و هذا هو الإيمان، فالعلاقة مع الله يجب أن تكون غنية و مفعمة بالحب و الاتصال و الإخلاص.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

أي: أدعو ربي وحده ولا أدعو أحداً سواه، و إذا جرّبت أن تعتمد على غير الله فإن الله جلَّ جلاله يؤَدِّبُك رحمةً بك وعطفاً عليك، فتراه يخيب ظنَّك بفلان، وقد يكون هذا الإنسان بغير هذه الصفات، لكن الله يلهمه أن يتخلى عنك في أحرج الأوقات، و هذا عقاب من الله، لأنك اتكلت عليه، وعقدت الآمال عليه، واطمأننت إلى وعده، فيجب عليك أن تطمئن لوعد الله وحده، كما يجب أن تستجير بالله وحده، وأن تستعين بالله وحده، و أن تقبل على الله وحده، و أن ترجو الله وحده، و أن تكون متعلِّقاً بالله وحده.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً)

(سورة الجن)

فالإيمان بالله وحده سهل نظرياً، أما عملياً فهو صعب و يحتاج إلى جهد كبير.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

إن أكثر الناس يعتمدون على بعضهم، ويتخذ بعضهم بعضاً شركاء، فلا يقول لك أحدهم: أنا أعبد فلان، ولكن قلبه مُفْعَمٌ بمحبته، و رجاءه معلقٌ به، فتراه يرتعد خوفاً من وعيده، وهذا شرك، لأنه في هذه الحالة يعامله كإله.

قانون العناية الإلهية:

كلما تذلل الإنسان لله رفعه الله، و كلما اعتمد على الله وحده دافع عنه وحَفِظَه، فالقضية تحتاج إلى إيمان عميق و إرادة قوية.

فقد يكون هناك ضيق في الدخل في حياتنا اليومية مثلاً، وقد يُفتح لك باب فيه دخل كبير لكن هذا الباب لا يرضي الله، فماذا يفعل المؤمن ؟ إنه يؤثر ما عند الله على الشيءِ الذي لا يرضيه، و بعد حين الله جلّ جلاله يفتح له باباً واسعاً، و هذا الباب الواسع يُفتح بعد حين، ولو أنه فتحه مباشرةً لما دفع ثمن الطاعة، و الله عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة: آية " 28 ")

والمشركون الآن يشكلون ما يسمّى صناعة سياحية، فينفقون أموالاً طائلة، ويروّجون السلع في البلد، و يستأجرون البيوت، و ينفقون أموالهم على الطعام والشراب وعلى أشياء أخرى، فمن نتائج السياحة الرائجة دخل كبير، و ربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة: آية " 28 ")

في الآية شيء دقيق جداً، فأنت حينما تلتزم مبدئياً بطاعة الله عزّ وجل قد يقل دخلك، لأنك قد ترفض هذا العمل وهذا المشروع وهذه الصفقة وهذه التجارة لما فيها من شبهات، وحينما ترفضها كلّها يقلّ دخلك، فإذا قل الدخل كان معنى ذلك أنك لم تدفع ثمن هذه الطاعة وثمن هذا الإيثار، فعلم الله منك صدقاً وإصراراً على طاعته وتضحيةً في سبيله، ثم يأتي الفرج القريب، فيأتيك رزقٌ من حيث لا تحتسب، لأنك كنت خاضعاً لقانون مستنبط من حركة الحياة، فبعد أن علّم الله صدقك واستقامتك، وخوفك من الله، وحرصك على طاعتِهِ، أخضعك إلى قانون آخر، وهو قانون العناية الإلهية المباشرة، وهناك آلاف القصص على ذلك.

أيها الأخ الكريم... تصوّر تصوُّراً فقط أنه ليس هناك وجود للقرآن والسنة، وأن هذه الحياة تجري، فلو كان عندك نفسٌ طويل وتحليلٌ دقيق وتتبعت كيف يعامل الله خلقه، لاستنبطت من معاملة الله لخلْقه قواعد وقوانين مطابقة للشرع تماماً، فالمستقيم ينصره الله عزّ وجل، والمنحرف يخذله، والذي يجمع المال الحرام يدمِّره، والذي يجمع المال الحلال يبارك الله له فيه، والذي يكون في خدمة الناس يكون الله في حاجاته، فييسِّرها له، فهناك قوانين، فإما أن تأخذ بهذه القوانين مركزة من كتاب الله، وإما أن تستنبطها من حركة الحياة، ولكن الشقي كل الشقي هو الذي يعرفها بعد فوات الأوان، وهذه هي المشكلة.

وأقول لكم دائماً: إن خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، فالحقائق التي جاء

بها الأنبياء سيعرفها كلُّ الناس عند الموت، حتى الكُفّار و الملحدون والفُجّار والعُصاة، فكلُّ المخلوقات سيعرفون الحقيقة بعد الموت.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

لكنك إما أن تعرفها وتنتفع بها، وإما أن تعرفها وتكون معرفتها حسرةً على القلب، والمعرفة بعد الموت تكون مع الحسرة، أما المعرفة مع الانتفاع فتكون قبل الموت.

إننا يا إخواننا الكرام - وأنا معكم - مدعوُّون إلى الله عزّ وجل، والله عزّ وجل يريدنا جميعاً.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

(سورة النساء)

الله عزّ وجل يريدنا أن نكون على منهجه، كي يسعدنا بطاعته.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً)

(سورة الجن)

أي: لا أشرك به أحداً كبيراً ولا صغيراً ولا قريباً ولا بعيداً ولا قوياً ولا ضعيفاً.

وقد يتعلّق الإنسان بابنه تعلّقاً غير طبيعي، فهناك إنسان توفِّي ابنه فكفر بالله وترك الصلاة، فيجب عليك أن تكون متعلقاً بالله..

إن النبي عليه الصلاة والسلام مات ابنه إبراهيم فدمعت عينه، فقالوا: أتبكي !! قال:

((إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون))

إن هذا كلام رائع و متوازن، لأنه كلام فيه توحيد.

ضعف التوحيد هو أصل المعصية:

أقول لكم كلاماً دقيقاً أيها الإخوة: والله الذي لا إله إلا هو ما من معصيةٍ أو نفاقٍ أو تقصير إلا وهو مصحوب بضعف توحيد، فحينما يرجو الإنسان أمراً بمعصيةٍ يرى أن هذه المعصية من وراءها خير، و هذا غلط شديد، فلا يوجد مع المعاصي إلا شرور، و لا يوجد مع الطاعات إلا بركات وخيرات.

((من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا و أقرب مما اتقى))

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية " 36 ")

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

سبب عدم نجاح الدعوة هو ضعف الإخلاص:

إخواننا الكرام...

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

إذا دعا الإنسان إلى الله فإن دعوته تكون في عبادته و حركته، وقد قال العلماء: إن هذين المعنيين منطويان في هذه الكلمة.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

إن الصلاة دعاء، فقولي: أنا أدعو الله في صلاتي ؛ أي: أنا أصلي له وحده، أو أدعو إليه و لا أدعو لسواه، فكم من إنسان مُجَنَّد لأن يدعو إلى غير الله عزّ وجل، فهناك من يختار الأذكياء و أصحاب الحجة القوية لتكون دعوتهم إلى جهةٍ أرضيةٍ، فالمؤمن يدعو لله عزّ وجل، الله عزّ وجل يقول:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر: آية " 51 ")

هناك رأي دقيق جداً يقول: إن الإنسان إذا دعا إلى الله ولم ينجح في دعوته كان السببَ في عدم نجاحه ضعفُ إخلاصه وضعف توحيده، فقد يخاف، أو يرى الوقت أثمن من أن ينفقه في الدعوة إلى الله مثلاً، فإذا دعا الإنسان إلى الله، ثم عَزَا إخفاقه إلى الله عزّ وجل، فإنه يكون قد ردّ القرآن الكريم، وردُّ أي آيةٍ من كتاب الله كفر، فقد قال تعالى:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ)

(سورة غافر: آية " 51 ")

إنا: حرف مشبّه بالفعل يفيد التوكيد، واللام: لام التأكيد، فهناك توكيدان، لننصر: فعل مضارع، والفعل المضارع مستمر، فالنصر مستمر، ونصر الرسل شيء بديهي طبعاً لكن الله تعالى لم يقف عند الرسل وحسب بل قال:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة غافر: آية " 51 ")

وقوله: سننصرهم في الآخرة أمر بديهي، لكنه قال: سننصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهذه آية جامعة مانعة.

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

فإذا دعوت الله عزّ وجل أو دعوت إلى الله، ولم تَقْطِف الثمار ثم عزوت ذلك إلى الله كان هذا نوعاً من التكذيب، وتكذيب القرآن الكريم كفر..

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

إخواننا الكرام.. إن زوال الكون أهون على الله من ألا تحُقَّقُ هذه الآية، قال تعالى:

(وَإِنّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

فإن لم تَغْلِب فأنت لست جندياً لله عزّ وجل، وهذا يكون بسبب شرك فيك، لأنك في هذه الحالة تكون جندياً لجهةٍ أرضية، فلو كنت جندياً لله فلا يمكن أن تُغْلَب أبداً.

(وَإِنّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

فإذا لم ينصر الله عزّ وجل الإنسان، فعلى الإنسان أن يراجع نفسه ليتحقق من جنديته لله عزّ وجل، و إن أعلى مقام يصلُه إنسان هو أن يكون جندياً للحق ولا شيء سواه..

قال تعالى:

(قُلْ إِنّمَا أَدْعُو رَبّي)

أي: أدعوه في عبادتي، وأدعوه بلساني، وأدعو له الخلق، فأنا أدعوه وأرجوه وأصلي له..

أنواع الشرك:

(وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً)

أيها الإخوة، إن الشرك نوعان ؛ جليٌ وخفي.

1- الشرك الجلي: كأن تقول: بوذا إله، وهذا في الهند والصين، وليس في بلادنا والحمد لله..

((إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم))

فالشرك الجلي ليس له وجود في العالم الإسلامي والحمد لله رب العالمين، بل إن الذي يقال في العالم الإسلامي هو الله لا إله إلا الله محمد رسول الله، و هذا مفروغ منه، و نحن والحمد لله ناجون من الشرك الجلِيّ بعد الدعوة الإسلامية

((إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم))

ولكنه رضي بالشرك الخفيّ.

2- الشرك الخفي: وهو أن تعتمد على غير الله، و أن ترجو غير الله، و أن تخاف من غير الله، و أن تُخْلِصَ لغير الله، و أن تُعَلِّقَ الأمل على غير الله، و أن تدعو غير الله، وأن تَهَابَ غير الله، و هذا هو الشرك، لذلك قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

أي: مشركون به شركاً خفياً، و الله عزّ وجل يربّي الإنسان، فكلما تعلّق بجهةٍ أرضيةٍ نبهه وخَيَّبَ ظنّه فيعود.

و كما قلت في الدرس الماضي، إن الصحابة الكرام وفيهم رسول الله رأوا تَجَمُّعاً كبيراً جداً ما سبق له

مثيل في الجزيرة، فقد كان هناك عشرة آلاف سيفٍ مؤمن، فقال بعضهم في نفسه: لن نُغْلَبَ من قِلّة، فقال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

فهناك شرك جلي نحن والحمد لله ناجون منه، أما الشرك الخفي فهو المشكلة، و من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول أنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن شهوةٌ خفية وأعمالٌ لغير الله))

(وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً)

أحداً: جاءت نكرة والتنكير هنا تنكير شمول، أي: أن أشرك به أي أحد ؛ صغيراً كان أم كبيراً، قريباً أو بعيداً، قوياً أو ضعيفاً.

(وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً)

(سورة الجن)

مهمة الرسول البلاغ وليس الهداية:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

إن الضر يقابله النفع، والرشد يقابله الغيّ، وهذا من بلاغة القرآن الكريم، أي: لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، ولا غياً ولا رشداً، فهناك أربع معانٍ بكلمتين، فالهداية باختيار الإنسان، و النبي مبلِّغ، فقد تلقى محاضرة بليغة جداً على مجموعة من الناس، فيستجيب بعضهم ولا يستجيب البعض الآخر، السبب هو أن الإنسان مخير، فأنا لا أملك أن أهديكم ولكني أملك أن أبلغكم، ولا يستطيع مخلوق أن يخلق الهدى في نفس الآخرين، و هذا شيء مستحيل.

قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة: آية " 272 ")

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: آية " 56 ")

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104))

(سورة الأنعام)

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

النبي هو الذي أوتي المعجزات، و أوتي الكمال الإنساني الكامل، و أوتي المنطق، والفصاحة، فهو قمّة البشر، ومع ذلك إنه لا يستطيع أن يهدي الإنسان لكنه يُبَلِّغ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41))

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104))

قل لا أملك لكم ؛ أي: أنا لا أملك أن أخلق الهدى فيكم، ولكني أملك أن أدعوكم و أُرْشِدَكُم وأبَيِّن لكم فقط.

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

إني لا أملك الهدى ولا أملك الضلال، فالضلال باختياركم والهدى باختياركم.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29 ")

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

كما أنني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، وهذا أمر عجيب، فالنبي عليه الصلاة والسلام أقبل الناس عليه وافتدوه بأرواحهم، وهو يقول لهم صباح مساء: لا أملك لكم شيئاً، إن هذا هو التوحيد، فيجب عليك أن تبيّن للناس أنك ضعيفٌ مثلهم، و أنك لا تملك لهم شيئاً، لا نفعاً ولا ضراً، و كل إنسان يدّعي أنه يملك النفع أو الضُر، أو يملك الهدى أو الضلال، هو إنسان مشرك ودجّال، فيجب علي عندما أدعوك أن أحاول أن أبين لك وأقنعك وآتيك بالدلائل و الحجج و البراهين، فإذا اهتديت واستجبت كان هذا من عندك و باختيارك، وهو أمر من صنع قرارك، فأنا أدعوك وأنت قد تستجيب وقد لا تستجيب، والنبي صلى الله عليه وسلم -على علو مقامه وعلى عظمة دعوة وعلى فصاحة لسانه وعلى أخلاقه الكريمة - استجاب له البعض و حاربه البعض، أليس كذلك ؟.

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

إن دعوتك الصحيحة تكون في ألا تُعَلِّق الناس بشخصك، بل علّقهم بالله عزّ وجل، فهناك من الناس من يسلطون الأضواء على أشخاصهم، أما في الدعوة إلى الله فعليك أن تعلّق الناس بالله عزّ وجل لأنه معهم أينما كانوا، و أينما ذهبوا، وهو معهم في حِلِهم وترحالهم، في خلوتهم وجلوتهم، في سرّهم وعلانيتهم، في بيتهم ومع الناس، فلذلك قال:

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

وكل من يقول خلاف ذلك هو مشرك، فيجب على الإنسان أن يعلن براءته من كل هذه الأفعال، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام - وهو سيد الخلق وحبيب الحق الذي أوتي المعجزات ونزل عليه القرآن - لا يملك لنا ضراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً، فمن باب أولى أن لا يملك ذلك أحدٌ بعده إطلاقاً، إلا أن واجب الداعية أن يبين، ومهمتك تنحصر في أن تحاكم وتناقش، ولك أن تستجيب بعد ذلك أو لا تستجيب، لأن هذا أصبح شأنك وهذا قرارك.

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(46))

(سورة هود)

فهذا سيدنا نوح -على عِظَمِ مقامه – لم يستطع أن يقنع ابنه بأن يركب معه، فقال له:

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(43))

(سورة هود)

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً (21))

(سورة الجن)

والداعية الصادق يبين للناس.

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

إن الهدى يكون باختيارك، وعدم الهدى يكون باختيارك أيضاً، كما أن نفعك يتأتى من طاعتك، وضركْ يتأتى من معصيتك، فسعادتك بيدك، وشقاءك بيدك، و توفيقك بيدك، فقد قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

فالتوفيق بيَدِّك، والتعسير بيدك، والهداية بيدك.

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

و الاستجابة بيدك وعدم الاستجابة بيدك، والنفع من طاعتك، والضر من معصيتك.

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً(22))

(سورة الجن)

فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو في أعلى درجة بالعبودية، قال:

((إذا شاء الله عزّ وجل بي شيئاً فلن يستطيع أحدٌ في الأرض أن يجيرني من الله أبداً))

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: آية " 2 ")

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47))

(سورة الحاقة)

يجب عليك أن تؤمن دائماً أنك في قبضة الله، فلو كان أهل الدنيا كلّهم معك، ولم يكن الله معك فإنك لن تستفيد شيئاً، ولو أن أهل الدنيا كلهم ضدّك، وكان الله معك فإنك لا تعبأ بهم جميعاً، فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، وهذا هو التوحيد، فأنت في قبضته و حفظه وتوفيقه، و أقول لكم دائماً وأبداً: إن هناك معية خاصة ومعية عامة، فالمعية العامة، يكون الله تعالى فيها مع البشر كلّهم ؛ مع الكفار و الفُجّار و المؤمنين، الصادقين منهم و الكاذبين، وهو معهم بعلْمه، لكنه مع المؤمنين بتوفيقه و تأييدِه و حفظه و نصره، فالحفظ والنصر والتأييّد من المعية الخاصة، والمعية الخاصة لها ثمن، فقد قال الله تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة: آية " 12 ")

هذا هو الدين.. فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم -وهو سيد الخلق وحبيب الحق- يقول:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

(سورة الجن: آية " 22 ")

فماذا نقول عن الذين يبيعون الجنة بالصكوك ؟ هل هذه الدعوة الصحيحة ؟؟ إن نبي هذه الأمة يقول:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

هناك رجل اشترى النار، فاستغرب الذي باعه إياها، لكنه اشتراها وبلّغ الناس أنه اشترى جهنم ولن يدخل إليها أحداً بعد ذلك، فخفّ الطلب على سوق الجنة، فاضطر ذلك البائع أن يشتريها منه مرة ثانية، إن هذه سخافات وأفكار مضحكة.

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلّا بَلَاغاً مِنَ اللّهِ وَرِسَالَاتِهِ)

(سورة الجن: آية " 22، 23 ")

إن مهمة النبي صلى الله عليه وسلم هي إبلاغ الناس وأداء الرسالة، فإذا وقف الإنسان أمام مقام النبي في العمرة أو الحج يقول: أشهد أنك بَلّغْتَ الرسالة وأدّيْتَ الأمانة، ونصحت الأمة وكشفت الغُمّة، وجاهدت في الله حق الجهاد، وهديت العبادة إلى سبيل الرشاد.

(إِلّا بَلَاغاً مِنَ اللّهِ)

فالنبي لا يملك الضر ولا النفع ولا الهدى ولا الغَي ؛ أي: الضلال، ولا يملك أن يحمي نفسه من الله، ولا أن يجير أحداً، لأنه ضعيف، و مهمته التبليغ، كما أنه له مهمة أخرى جاءت بها آيات أخرى، وهي مهمة القدوة، قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: آية " 21 ")

إن مهمته أن يبلِّغ بلسانه وأن يعمل عملاً موافقاً لرسالته، فالإنسان لا يقنع بالكلام وحده، بل إنه يقنع بالكلام المُطبّق، فالنبي عليه الصلاة والسلام مبلغٌ بلسانه و قدوةٌ بعمله، وهذه مهمة الأنبياء، فينبغي أن تكون مهمة الدعاة من بعدهم على شاكلتها، فعلى المبلّغ أن يكون مُطبّقاً، و هو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً، ولا أحد يحميه من الله عزّ وجل.

(وَمَنْ يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنّ لَهُ نَارَ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

(سورة الجن)

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نعيد شرح هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 22-28
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-11-07

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الرسول

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثامن والأخير من سورة الجن ومع الآية الثانية والعشرين، وهي قوله تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

(سورة الجن)

إن الآية التي قبلها تقول:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً)

(سورة الجن)

أي: لو أنني أشركت واتبعت أهواءكم وداهنتكم فلن يجيرني من الله أحد..

قصة:

أريد أن أروي لكم قصةً مختصرةً هنا عن والي البصرة الذي جاءه كتابٌ من يزيد يأمره بأمرٍ لا يرضي الله عزّ وجل وكان عنده الحسن البصري، فوقع في حيرةٍ من أمره، فإن هو نفّذ أمر يزيد أغضب الله عزّ وجل، وإن لم يعبأ بأمر يزيد أغضب يزيداً وربما عزله، فقال للحسن البصري: ماذا أفعل ؟ فأجابه بكلمة ينبغي أن تكون نصب عيني كل مسلم وكل مؤمن، لقد قال الحسن البصري: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

لا أحد يمنعك من الله:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

من منا يملك سيولة دمه ؟ قد يتجمد الدم في عروقك في أية لحظة، فمن من البشر يستطيع أن يمنع خثرة دم في دماغه ؟ و من منهم يملك دوام عمل صمامات قلبه و كليتيه وكبده ؟ و من منهم يملك أن يبقى عقله في رأسه ؟ و من منهم يملك ألا يخسر أحد أعضائه في ثانيةٍ واحدة ؟ إننا في قبضة الله، ولن يجيرنا من الله أحد، فإذا ذهبتم إلى أي مكان في العالم فإنكم ستجدون أن له أدوية خاصة، كلُّ بلدٍ بحسب ظروفه، كما أن لله عزّ وجل أدوية خاصة يؤدِّب بها عباده في كل بلد، فلو انتقل الإنسان من بلدٍ إلى بلد لينجو من تأديب الله كان الله معه أينما كان، فالله تعالى لا منجى منه إلا إليه، ولا ملجأ منه إلا أن يتوب المرء إليه، فلا ملجأ من الله إلا أن تصطلح معه و تطيعه، فيجب أن تخاف و تفر منه، كما يجب عليك أن تتحصّن به منه، و بطاعته من عذابه..

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

والقصص على هذه الآية لا تعدُّ ولا تحصى، فقد يعتمد الإنسان على ماله فتأتي مصيبةٌ فلا يستطيع المال أن يفعل شيئاً، وقد يعتمد الإنسان على جماعته فتأتي مصيبةٌ فلا يستطيع من حوله أن يفعل معه شيئاً، وقد يعتمد الإنسان على مكانته، ثم لا تنفعه مكانته في مكانٍ ما أوفي ظرفٍ دقيق، وقد يعتمد الإنسان على علمه فيَحْجُبَ الله تعالى عنه علمه في لحظةٍ ما فيرتكب حماقةً ما بعدها حماقة،وأي شيءٍ تعتمد عليه من دون الله لن ينجيك من عذاب الله،

فقد يعتمد بعض الاختصاصيّن في بعض الأمراض على علمهم، فيمرضون باختصاصهم، وقد يعتمدُ المحامون على سعة اطلاعهم في القانون، فيخسرون دعوة وهم أربابٌ في هذا الاختصاص، و مجرد اعتمادك على غير الله يجعلك لا تنجو من عذابه، فنحن في قبضة الله، و شعور المؤمن أن الله عزّ وجل على كل شيء قدير يؤدِّبه، فيجعله أديباً في حركاته وسكناته وكلامه..

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

فلا ينفع مال ولا مكانة ولا علم ولا ذكاء، و إذا أراد ربُّك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لبَّه، فيعطِّل له خبرته و ذكائه و عقله وإمكاناته، فإن أردت أن تكون قوياً فكن مع الله، فهو القوي، و إن أردت أن تكون غنياً فكن مع الغني، و إن أردت أن تكون عزيزاً فاكن مع العزيز.

اجعل لربك كلّ عز زك يستقرُّ ويثْبُتُ

فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزّك ميّتُ

قال عليه السلام:

((سبحانك إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت))

وقال تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

فكم من آياتٍ باهراتٍ لله عزّ وجل، كانت مع أُناسٍ اعتمدوا على غير الله فخيب الله ظنَّهم، وكان اعتمادهم على غير الله كحال من يبني قصراً أساسه ملح، فإذا جاء المطر ذاب الملح، والحياة الدنيا مليئة بالمواعظ، و لكن ما أكثر المواعظ وما أقل المتَّعظين ! و ما أكثر العبر وما أقل المُعْتَبرين !!

أفعال الله تدل على منهج متكامل:

لقد قلت لكم أيها الإخوة لو أننا تصورنا تصوراً أن ليس في حياتنا قرآنٌ ولا سنة، ثم تأمّلنا أفعال الله لاستنبطنا من أفعال الله منهجاً كاملاً، فالله عزّ وجل يوفِّق المستقيم ويؤيِّده ويحصِّنه ويحفظه ويدْعمه ويدافع عنه، ويخيِّب كل من أشرك به، و يجعل الله تدميره في تدبيره، و يجعل الدائرة تدور عليه..

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

سبحان من قهر عباده بالموت، ونحن لا نعلم متى يأتي الموت، ولا من أي سبب، فقد يأتي من أتفه الأسباب، وقد يأتي من جهةٍ لم نكن لنتوقعها، فما دامت حياتنا و صحتنا وقوتنا بيد الله فكيف نعتمد على غير الله ؟ وكيف نطيع غير الله ؟

الحاجة إلى الله تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللّهِ أَحَدٌ)

أي: أن الله عزّ وجل إذا أراد أن ينصرك نصرك على سببٍ صغيرٍ جداً، وإن أراد أن يدمِّر إنساناً فإنه يدمِّره على سببٍ صغيرٍ جداً، فقد لا نصدق أن هذه الخسارة الكبيرة كانت بسبب هذا السبب الصغير، فلذلك قال عليه السلام:

((لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك))

أي: يجب عليك أن تفرّ إليه منه، لأنك كائن به، فنحن بالله وإليه، وإن من أبلغ أدعية النبي عليه الصلاة والسلام قوله:

((نحن بك))

لأنك ما دمت تمشي على قدميك فقوتك بالله، و ما دام عقلك برأسك يحترمك الناس، فاحترام الناس لك سببه أن عقلك برأسك، وإذا سمح الله لهذا العقل أن يعمل عملاً صالحاً عمل، لكن إذا اختلّ العقل، توسط أقرب الناس إلى هذا الإنسان المختل ليجعله في مستشفى المجانين، فأنت محترم لأن العقل في الرأس، كما أنك محترم لأنك تمشي على قدمين، فلو كان الإنسان طريح الفراش تمنى أقرب الناس إليه بعد عدة سنوات موته، وقد يسمعه هذه الكلمة بأذنه، فيقول له: الله يخفف عنك، فمكانتك تأتي من استقامة عقلك و قوتك، كما أنها تأتي سماح الله لك بأن تكتسب رزقاً وتنفق على من حولك، فلو ألجأك إليهم لاختلف الأمر، فكم من أبٍ يقف أمام ابنه ذليلاً ليأخذ منه ما يأكل، وكم من رجلٍ كان غنياً فافتقر، وصار يتمنى أن يأخذ أقل دخلٍ في الشهر.

وسائل العلاج الإلهية:

إن ربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللّهِ أَحَدٌ)

والوسائل التي قد يعالجك الله بها لا تعدُّ ولا تحصى، ففي الجسم وحده مئات الألوف بل عشرات مئات الألوف من الأجهزة والخلايا والأعضاء، التي لو أصابها خللٌ بسيط لاختل هذا الجسم، فلو أن قناة الدمع سُدّت لكنت مضطراً إلى أن تمسك منديلاً وتمسح دمعك الذي يفيض على خدّك طوال النهار والليل، وهكذا إلى أن يحفر الدمع أخدوداً في الخد، و قناة الدمع من أدق القنوات فلو انسدت أصيبت العين بخلل، ولو حدث هذا معك لنسيت كل شيء سوى عينك المصابة، ولو أصبح في حركتك بُطْئاً أو

شعرت بشعورٍ لم تكن تشعر به من قبل فإنك ستنسى كل شيء أيضاً، فقل: لن يجيرني من الله أحد، فإذا تحرك إنسان في الحياة حركة مع معصية وكان قوياً شديداً صحيح البنية فهذا استدراج من الله عزّ وجل له، وإذا رأيت الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره، لأن هذا استدراج..

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45))

(سورة القلم)

ضعف الإنسان:

أيها الإخوة.. إن المتانة في اللغة هي صفةٌ توصف بها قوى الشد، أما القساوة فهي تقاوم قوى الضغط، فالصفة التي تقاوم قوى الشد المتانة، وحبال الفولاذ أمتن عنصر في الأرض، والألماس أقسى عنصر، وإن ربنا قال تعالى:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة القلم)

فالإنسان مربوط بحبل لكن الحبل مُرْخى، فيتوهم الإنسان لجهله أنه طليق، وقد يشدُّ الحبل في أية لحظة، ومهما تحرك الإنسان فإن لن الحبل ينقطع، وذلك لأن الحبل متين جداً قال تعالى:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة القلم)

أيها الإخوة.. إن هذه الرؤية يجب أن تكون مستمرة، لأنها تحملك على طاعة الله، كما تحملك على أن تكون كاملاً، و تحملك على أن تتصل بالله لترى ضعفك، و إن كمالك في ضعفك، فقد قال أحدهم:

مالي سوى فقري إليــك فبالافتقار إليك فقري أدفع

مالي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت فأي بابٍ أقرع

فإن أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك،وإن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، و إن أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله.

لا تعتمد إلا على الله:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

أي: لن يجيرني زوجة ولا ولد ولا أموال مكدّسة في أكثر من جهة، فهناك أناس يضعون في كل بلد رصيد كبير، وقد تأتي مصيبة فلا تنفعهم كلُّ هذه الأموال، وهناك إنسان يقيم علاقات متينة جداً مع أقوياء ليشعر بالأمن، فلا ينفعه كلُّ هؤلاء الأقوياء في لحظة واحدة، فقد يضعه الله عزّ وجل في ظرفٍ لا يستطيع فيه أن يتصل بواحدٍ منهم، وذلك لحكمةٍ يريدها، وهذا هو التوحيد، وديننا هو دين التوحيد.. فلن يجيرك من الله إلا أن تكون على منهجه، و لن يجيرك من الله إلا أن تكون في طاعته، و لن يجيرك من الله إلا أن تكون مقبلاً عليه خاضعاً لحكمه، فلو جاءك ضرٌ فمن ينجيك ؟ قال:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22))

(سورة الجن)

الملتحد: الملجأ، وقد أوتي النبي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم، ففي حديثٍ مختصرٍ قصيرٍ جداً يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يخافنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجونّ إلا ربه))

فالشيء الذي يسبب لك المتاعب هو الذنب فقط، أما كل قوى الأرض فلن تستطيع أن تصل إليك إذا كان الله معك، وكل القوى الشريرة لن تستطيع أن تنالك بأذىً إذا كنت مع الله وكان الله معك، كما أن أقرب الناس إليك قد يسبب لك من المتاعب ما لا يعدُّ ولا يحصى إذا لم تكن مع الله، و هذه المعادلة دقيقة جداً..

كن مع الله ترى الله معك واترك ما لك وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك ؟

فمن يعطيك سوى الله ؟ومن يرحمك إذا أبعدك عن رحمته ؟ و من يدْعمك إذا خذلك الله عزّ وجل ؟ و من يُعِزُّك إذا أذلك الله عزّ وجل ؟ و من يشفيك إذا أمرضك الله عزّ وجل ؟

إن الطبيب له علمٌ يُدِلُّ به إن كان للناس في الآجال تأخيرُ

حتى إذا ما انقضت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقير

إن الإيمان أن ترى أنك بيد الله، فإذا أعطاك الله حرفة تكسب منها مالاً ثم سئلت ماذا تعمل ؟ فقل بفضل الله ورحمته أعمل كذا، والله مكّني من وظيفة أو اختصاص في طب، أو في هندسة أو محاماة أو التجارة أو الصناعة أو الخدمات، و الله عزّ وجل أعانني على إتقان حرفة ويسّر لي سبيل الرزق منها، و هذا الكلام الصحيح، فإذا لك بيت وكان معك مفتاح بيت، وكان في بالبيت زوجة وأولاد لك فهذا شيء ثمين جداً.

نعمة الزواج:

أريد أن أقول لكم أيها الإخوة: لا تكفروا بنعمة الزواج، فعلى الزوج ألا يستهين بنعمة الزوجة، كما إنني أخاطب الزوجات فأقول لهن: لا ينبغي للزوجة أن تكفر نعمة الزوج، فهناك عددٌ كبير من النساء يتمنَّيْنَ أن يكنّ زوجاتٍ لأزواج، فنعمة الزوج نعمةٌ عظمى، ونعمة الزوجة نعمةٌ عظمى، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إني أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها))

وقال

((: لا ينظر الله إلى امرأةٍ لا تشكر زوجها وهي لا تستغني عنه))

وقال:

((أيما امرأةٍ سألت زوجها الطلاق من غير بأسٍ لم تُرَح رائحة الجنة))

قال تعالى:

(وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

(سورة الجن)

لا تخف إلا ذنبك:

لا يوجد ملجأ غير الله، فقد تجد الطبيب أحياناً يده بيد الله، فإن أراد الله لهذا المريض شفاءً وفّق الطبيب، وإن أراد له عقاباً أخطأ الطبيب، والخطأ كله موظّف في الخير المطلق، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية بشكل مختصر.

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه))

فمهما يكن في الحياة الدنيا قِوَى شريرة فلا تخف منها، فإنك قد تنام في مكانٍ خالٍ فيه عقارب و أفاع، وهذه المخلوقات كلها بيد الله، وقد يكون هناك إنسان شرير يستطيع أن يفعل بك ما يفعل لكنه لا يستطيع لأنه مُلْجَم.

التوحيد:

يجب أن تؤمن أن الله خالق كل شيء، و أنه على كل شيءٍ وكيل، فهو الذي خلق والزمام بيده، كما يجب عليك أن تؤمن أن الله له الخلق والأمر، وأن كل شيء خلقه أمره بيده، كما يجب أن تؤمن، بهذه الآية:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: آية " 2 ")

هذا هو التوحيد، وديننا دين توحيد، بل إن فحوى دعوة الأنبياء جميعاً واحدة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

إن هذه العبارة تضغط الدين كله بل أن تضغط كل الأديان في كلمتين، أي: اعتقد أنه لا إله إلا الله واعبده ووَحِّده وأطعه، فالسلوك طاعة، والاعتقاد توحيد، وهذا هو الدين كله.

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

(سورة الجن)

إني أقوله كثيراً: إنك حينما تعتمد على مالك أو أولادك أو زوجتك أو ذكائك أو حرفتك، أو علمك أو من حولك من الأتباع، فإن الله تعالى يجعل تأديبك في أن يخيّب ظنك هذا الذي اعتمدت عليه فتفاجأ، وذلك لحكمةٍ أرادها الله، فلا تُفاجأ لأن هذا هو تأديب الشرك الخفي.

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

(سورة الجن)

الاستثناء في هذه الآية:

مهمة الرسول:

(إِلَّا بَلَاغاً)

الحقيقة أن هذا الاستثناء ليس من هذه الآية بل من آيةٍ قبلها، كما قال المفسرون، وهي:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

لقد ذكرت في الدرس الماضي أن الرسول عليه الصلاة والسلم لا يملك لأحد ضراً ولا نفعاً ولا غَيّاً ولا رشداً، وهذه الأشياء الأربعة قد اختصرت في كلمتين، فقال الله تعالى: قل إني لا أملك لكم أن أضرّكم ولا أملك لكم أن أنفعكم، لأن الضر والنفع بيد الله، كما أني لا أملك لكم أن أضلّكم ولا أن أهديكم، فقد قال تعالى

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

وقال:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

وقال:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

وقال:

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104))

وقال:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

إذاً ما الذي يملكه لنا ؟ إنه لا يملك لنا نفعاً لا ضراً ولا غياً ولا رَشَدَا، و رُشْد: مصدر أيضاً، أما الآية فقد ورد فيها الرَشَد، فما الذي يملكه لنا ؟ قال:

(إِلَّا بَلَاغاً)

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ)

(سورة الجن: آية " 22، 23 ")

إنه يقول: إن مهمتي هي التبليغ، أما الهدى فهو بيدكم، وهو قرار من اختياركم، فأنتم تختارون الهدى أو الضلال،أما أنا أبلغكم:

(إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ)

(سورة الجن: آية " 23 ")

فهذا البلاغ من الله، لذلك كان الأنبياء مؤَيَّدون بالمعجزات والوحيد والعصمة، فهم معصومون، ويوحى إليهم، ومعهم معجزاتٍ تؤَكِّد أنهم أنبياء.

(إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ)

فالله عزّ وجل يبلغنا أنه هو خالقنا عن طريق الأنبياء، فقد خلقنا لنعبده، والمصير إليه، ثم أعطانا رسالة مفصّلة، ورد فيها: افعل ولا تفعل، فقد قال لك: أنا موجود وهذا منهجي، لذلك كان عليك عندما تؤمن بالله أن تتعرف إلى منهجه، وأنت بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، فيجب عليك أن تعرفه وأن تعرف أمره، كما يجب عليك أن تعرفه من خلال خلقه و من خلال أفعاله و كلامه، ثم عليك أن تطيعه من خلال تشريعه.

أشياء لا بد للمؤمن من أن يعرفها:

و كما قلت في الخطبة اليوم: يجب ألا يعلو شيء في حياة المؤمن على أن يعرف المنهج التفصيلي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فلو قلت لك مثلاً: يجب أن تتقرب من فلان بطاعته، فإنك تسأل: أين أمره ونهيه، إن هذا شيء يسمونه تحصيل حاصل، فما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، و ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، و ما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، فلو أنني قلت لواحد من الناس: أطع الله، فإنه يقول لك: علِّمني أمره ونهيه حتى أطيعه، فهذا شيء بديهي جداً بالنسبة لك إن استقرت حقيقة الإيمان في قلبك، فماذا بقي عليك ؟ لقد بقي عليك أن تتعلم أمره ونهيه كي تطيعه، فمن لوازم طاعة الله معرفة أمر الله، لذلك كانت معرفة الحكم الشرعي فرض عينٍ على كل مسلم.

وقد ذكرت في خطبة سابقة أن معرفة المظلة تحتاج إلى مجموعة معلومات عن المظلة، وبعض هذه المعلومات ضروري كما أن بعضها غير ضروري، فهل المظلة دائرية أم مربعة أم مستطيلة ؟ و ما نوع قماش المظلة ؟ هل هو من خيوط صناعية أم طبيعية ؟ يا تُرى ما لونها ؟ و كم حبل بها ؟ و ما قطر هذه الحبال ؟ و ما ألوان هذه الحبال ؟ و مم صنعت هذه الحبال ؟ إن هذه معلومات لو جهلها المظلي لنزل سالماً، أما كيف نفتحها ؟ فهذه حقيقة مصيرية أساسية خطيرة، وهذه حقيقةٌ يجب أن تُعْلَمُ بالضرورة، فإن لم يعرفها المظلي نزل ميّتاً، ففي الدين أشياء إذا عرفها البعض سقطت عن الكل، وهناك أشياء علمها فرض عين على كل مسلم ؛ سواء أكان مثقفاً أو غير مثقف، وسواء كان اختصاصه عالي أم متوسط... أمي أو متعلم، غني أو فقير، هي فرض على أي إنسان بصرف النظر عن جنسه ؛ ذكراً كان أم أنثى، كبيراً أم صغيراً، مثقّفاً أم غير مثقف، وهذه الأشياء هي الحلال والحرام و الأمر والنهي و التشريع، فطلب الفقه حتمٌ واجبٌ على كل مسلم، قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ)

(سورة الجن: آية " 22، 23 ")

لقد أبلغني الله من خلال الأنبياء والرسل أنه موجود وواحدٌ وكامل، و هذه الرسالة منهج، فإذا فتحت كتاب الفقه وجدت أحكام الزواج والطلاق و أحكام الخطبة، و أحكام البيع ؛ كبيع الغرر، وخيارات البيع، و هذه كلها مستنبطة من الكتاب والسنة أساساً، فالطلاق، والزواج و الإيجار و الأمانة و الحوالة و الكفالة و اللُقْطة و كل أحكام الفقه هي تنظيم لحياتنا فإذا سار الإنسان على منهج الله عزّ وجل ضَمِنَ توفيق الله له.

جزاء الإشراك:

(إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

(سورة الجن)

أي: إن من يعص الله ورسوله ويمت عاصياً لله عزّ وجل فلن يغفر له الله سبحانه، والمقصود بالمعصية هنا بالشرك، لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك.

مثل:

لقد ضربت مرة مثلاً، وفي إعادة هذا المثل فائدة..

إذا كان هناك إنسان له مبلغ كبير جداً في حلب يبلغ الملايين، وكان عليه أن يكون في هذه المدينة في الساعة الثانية عشر، فإذا ركب قطاراً فإنه قد يرتكب في هذا القطار عشرات الأخطاء، فقد يشتري بطاقة من الدرجة الأولى، وقد يجلس في الدرجة الثالثة بخطأ منه، كما أنه قد يجلس عكس اتجاه القطار فيصاب بالدوار، وقد يجلس مع أُناس غير مهذبين فينزعج انزعاجاً شديد، وقد يتلوّى من الجوع وينسى أن في القطار مطعماً صغيراً، وقد..وقد.. ورغم كل هذه الأخطاء فإنه لا يزال في طريق إلى حلب وسيأخذ هذا المبلغ، لكن هناك خطأ قد يرتكبه فلا يغتفر، وهو أن يركب قطار درعا، فهذا الخطأ لا يغتفر، لأن المبلغ في الشمال، ومهما كان هذا القطار فخماً ومريحاً ومكيفاً، حتى إن له نوافذ تفتح أوتوماتيكاً، فإنه لا يصلح للوصول إلى الهدف، فيجب عليك أن تمشي باتجاه هدفك، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ؛ فإن اتجهت إلى غيره و عبدت غير وعلِّقت الأمل على غيره وخفت من غيره، فالطريق أمامك مسدود، و ليس هناك مغفرة، أما إذا وحّدْتَه وتعرّفت إليه فإنه قد يغفر لك بعض الأخطاء مع المعالجة، فيعالجك ويغفر لك، لكن أكبر هو غلط أن تشرك بالله عزّ وجل، و أن تتجه إلى غير الله.

(إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

(سورة الجن)

الخوف من علامات العقل:

إذا مات عاصياً مشركاً فإن له نار جهنم خالد فيها أبداً، فهل يحس الإنسان يا ترى إذا قرأ هذه الآية بخوف ؟ إن الخوف من علامات العقلاء، فكلما هبط ذكاء الإنسان، وهبط إدراكه فإنه لا يخاف، و الدليل على ذلك أن الفلاح قد يأخذ ابنه الصغير الذي يبلغ من العمر ثلاث سنوات إلى الحصيدة، فيضعه بين سنابل القمح، فيمشي إلى جانب هذا الطفل الصغير ثعبان مخيف طوله خمسة أمتار، فلا يخاف هذا الطفل منه أبداً، بل إنه قد يضع يده عليه، فلماذا لا يخاف ؟ لأنه لا يدرك.

فإذا كنت إنساناً عادياً فأعطاك إنسان أقوى منك تهديداً، فإن لم تفعل كان عليك ضريبة كذا، فتجد الناس قبل آخر السنة يتدافعون لدفع الضرائب، لماذا ؟ لأن الذي أو عدهم بدفع غرامةٍ كبيرة لا يرحمهم أحياناً، فقراره قطعي، فتجد الناس يتجمعون زُرافاتٍ ووحداناً، وذلك لأنهم صدقوا، يقول الله عزّ وجل:

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

(سورة الجن)

هذا كلام من ؟ هذا كلام خالق الكون فقد تصدق إنسان مثلك لأنه أقوى منك فلا تحيد عن أمره قيد أنمُلة، وتعتقد أنه إذا قال فعل، وهذا الشيء يدعو للعجب والأسف في آن واحد، فالناس قد ينضبطون مع إنسان، ولا ينضبطون مع الواحد الديّان، فنراه ينضبط انضباطاً تاماً مع مخلوق لأنه أقوى منه فهو يظن أنه لن يتفلّت من قبضته، فيُطبّق الأمر بحذافيره التامة و أدق تفصيلاته وذلك خوفاً من العقاب، فما بالك بهذا الإله العظيم ؟؟

سعة الكون:

إن مجرّتنا درب التبّانة تحوي تقريباً مليونَ مليون مجرة في الكون، و هذه معلومات قديمة، و مجرتنا هي مجرة متوسطة فيها نقطة واحد هي المجموعة الشمسية، فإذا كبّرناها لرأينا أن في المجموعة الشمسية ثلاثة عشر ساعة ضوئية، و من شهر تقريباً قيل في الأخبار أنهم أرسلوا مركبة إلى المشتري، وهذه المركبة سوف تسير سبع سنوات إلى هذا الكوكب، بسرعة أربعين ألف ميل بالساعة ؛ أي: ستين ألف كيلو متر، و الطائرات النفاثة سرعتها 900 كيلو، فهي أسرع من طائرات الركاب بتسعمائة أو ثمانمائة أو سبعمائة أو ستمائة تقريباً، فسرعة الطائرة تتراوح بين ستمائة إلى تسعمائة، وأعلى شيء في السرعات هو تسعمائة، أي: أربعين ألف ميل بالساعة أو ستين ألف ميل بالساعة، وتستغرق سبع سنوات، أما نحن فلا زلنا في نقطة على درب التبابنة، والمشتري كوكب ليس ببعيد، فنبتون وبلوتو أبعد منه، وإن خالق هذا الكون يقول لك:

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

(سورة الجن)

فأنت تخاف من إنسان أقوى منك بقليل، وإذا أعطاك أمراً فإنك تنفذه بحذافيره، لكنك لا تخاف من خالق الأكوان !!

التعامل مع الحقائق البيانية دليل العقل:

(حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ)

(سورة الجن: آية " 24 ")

هناك دائماً وعد ووعيد، وهناك تأويلٌ لهذا الوعد والوعيد، فالوعد يكون بالخير، أما الوعيد فهو العقاب، وبعد الوعد والوعيد هناك تنفيذ لهذا الوعد والوعيد، فالعقلاء يصدِّقون الوعد والوعيد، والأغبياء يخافون بأعينهم فقط، والحيوان يخاف بعينه، فلو أن دابةً مثلاً كانت تسير في طريق، وهذا الطريق سيغلق بعد عدة ساعات، فمهما أسمعتها أن الطريق مغلق فإنها تظل سائرة، أما إذا وجدت حفرة كبيرة فإنها تقف، أما الإنسان فإذا وجد الطريق مغلقاً فإنه لا يكمل الطريق، لأنه يتعامل مع الفكر،والكلام، فكل إنسان يتعامل مع الفكر والكلام والتنبيه والبيان إنسان عاقل، وكل إنسان لا يخاف إلا بعينه ليس بعاقل، فهناك من الناس من لا يقتنع أن الدخان مضر إلا حينما يصاب بالسرطان، فتجده يقول: (الله يلعنها)، فيجب عليك أن تصدِّق الأطباء قبل أن تصاب بمرض، تصدقهم أنت صحيحٌ معافى، وكل إنسان يتعامل مع الخطر مباشرةً هو إنسان معطل عقله، وكل إنسان يتعامل مع الحقائق البيانية هو إنسان ذكي وعاقل، وقد بلغ أرقى مستويات العقل.

مثل:

وقد ضربت مرة هذا مثل: إذا كان هناك راكب درّاجة يدوية يسير في طريق، وهو يرى طبعاً أن الطريق الهابط مريح جداً له، وأن الطريق الصاعد متعب جداً، فلو وجد أمامه طريقاً نازلاً مُعَبَّداً و كان على أطرافه حدائق، و وجد طريقاً آخر صاعداً غير معبد وكلُّه آكَام وحفر وغبار، وقد كتبت لوحة إلى جانبه تقول: ينتهي هذا الطريق الصاعد بقصر منيف فيه كل شيء، وينتهي هذا الطريق الهابط بحفرةٌ فيها وحوشٌ مفترسة، فهنا يُمتحن عقل الإنسان، فإذا كان عطّل عقله فإنه يرى أن النزول أريح فهذا الإنسان معطِّل عقله، لأنه يعيش لحظته فقط، وإن معظم الناس على هذه الشاكلة، فإذا رأى أحدهم امرأةً جميلةً ملأ عينيه منها، وإذا رأى دخلاً كبيراً مشبوهاً أخذه، وإذا رأى بيتاً اغتصبه وسكن فيه، فهو يعيش لحظته.

أما العاقل فينظر إلى ساعة فراق الدنيا وهو في القبر، عندما يسأله الله لماذا طلقت زوجتك ؟ و لماذا أكلت هذا المال الحرام ؟ و لماذا ابتززت أموال الناس ؟ ولماذا كذبت عليهم ؟ لماذا احتلت عليهم ؟ فامتحن عقلك بتعاملك مع التحذير البياني، أما تعاملك مع الخطر الحقيقي الذي أمامك فلا يحتاج إلى عقل، فما هو العقل ؟ قال بعض من عرّفه: هو أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه، فمتى يصلح أكثر

الناس مدافئهم ؟ عند البرد -وأنا واحد منهم - لكن الإنسان أحياناً قد يهيئ الأمور كلها وهو في شهر الصيف، فكل إنسان يتعامل مع الخطر حين وقوعه يكون ذا تفكير ضعيف.

(حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ)

فيقول: الآن جاءت المشكلة، جاءت المصيبة، جاء الوعيد.

(فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً)

(سورة الجن)

اعرف قبل فوات الأوان، و لا تعرف بعد فوات الأوان، وقد قال تعالى: سيعلمون، و يستنبط من هذه الآية أن خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط، لا خيار قبول أو رفض، لأن أكفر كفار الأرض فرعون آمن عند الموت، فقال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

فالذي جاء به الأنبياء والرسل والدعاة الصادقون سوف نعرفه جميعاً حتماً عند الموت، لكن هذه المعرفة لا قيمة لها إطلاقاً بل تزيد الإنسان ندماً، فالمعرفة المفيدة تكون قبل فوات الأوان. فلو قدّم أحد الأشخاص فحصاً وأخذ صفراً في الامتحان، فذهب إلى البيت وفتح الكتاب فعرف الجواب، فقدّم طلباً يقول: نظراً لمعرفتي الجواب بعد الامتحان يرجى إدراج اسمي مع الناجحين، إن هذا كلام مضحك، لأن كل طالب رسب يعرف الجواب بعد الامتحان، لكن العبرة في أن تعرفه وأنت على مقعد الامتحان في الوقت المناسب، وهذه كلمة دقيقة.

(حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً)

(سورة الجن)

سيعلمون، والآية الكريمة تقول:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4))

(سورة التكاثر)

أي: تعلمون مرةً عند الموت، ومرة يوم القيامة، فهذه الحقائق التي تُلْقَى جاء بها الأنبياء وجاء بها الوحي العظيم، وسوف يعرفها أهل الأرض قاطبةً، كُفّارُهُم و مُلْحِدوهُم وفُجّارُهُم و فُسّاقُهُم و عُصَاتُهُم.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق: آية " 22 ")

(حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (24) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26))

(سورة الجن)

فلا يعلم الغيب إلا الله، وإن أيُّ إنسان يدّعي علم الغيب هو دجالٌ وكذّاب، يقول الله عزّ وجل لنبيّه وهو صفوته من خلقه: قل: لا أعلم الغيب، كما أنه قال:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

(سورة الأعراف: آية " 188 ")

أما ما جاء به النبي من أشراط الساعة فهذا غيبٌ أطلعه الله عليه، فهو لا يعلم بذاته إلا أن يعلمه الله، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن: آية " 26، 27 ")

فلو تنبّأ إنسان في السبعينات بما سيكون في الشرق من انهيار دول عظمى لوضع في مستشفى المجانين، لأن هذا كان غيباً وقتها، أما ما حصل بعد ذلك، فهو أن أكبر قوة انهارت، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن: آية " 26، 27 ")

فليس هناك وليٌّ عند الله - مهما علا شأنه و أظهر من الكرامات - يعلم الغيب، فالاستثناء هنا للرسل فقط، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن: آية " 26، 27 ")

أي أن الغيب الذي يطلع الله عليه بعض عباده يجب أن يكون رسولاً، أما ما سوى الرسول فلا يعلم الغيب، ومع ذلك قال الله تعالى عن هذا الرسول..

(فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً)

(سورة الجن: آية " 27 ")

أي: معه ملائكةٌ يحفظون هذا الغيب، و لا يستطيع الجن أن يصلوا إلى هذا الغيب، فلا يستطيع الشيطان أو الجن مثلاً أن يسترقوا من النبي ما أوحى الله به إليه من علم الغيب.

(فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً)

الرصد: الحراس، فالغيب محروسٌ من قبل الله عزّ وجل، فإذا وضع أحدهم أسئلة فلن يستطيع أحد أن يأخذ منه الأسئلة، وأحياناً قد تُخَصُّ الأسئلة بإنسان ليضعها في الامتحانات العامة، فلا يستطيع أحد أن يستدرجه لأخذ هذا السؤال، وذلك ليعلم النبي عليه الصلاة والسلام أنه ليس رسولاً وحده.

(لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ)

(سورة الجن: آية " 28 ")

إنه نبيٌّ من الأنبياء، و هناك أنبياء بلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة.

الإحصاء:

(وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً)

(سورة الجن)

إن الإحصاء أعظم من العد، فإذا قلنا: كم أخ حاضر هنا ؟ فالجواب يكون مائة، وإذا قلنا: كم أخ متزوج ؟ و كم أخ غير متزوج ؟ كم أخ بيته بعيد ؟ وكم أخ مطبّق ما يسمع ؟ فهذه الأسئلة تحتاج إلى إحصاء، فالعد سهل، أما الإحصاء فيحتاج إلى دراسات تفصيلية عميقة جداً، فربنا عزّ وجل عدهم وأحصاهم.

مسؤولية التبليغ:

قال تعالى:

(لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ)

إن هؤلاء الأنبياء أدّوا الرسالة، و أقول لكم كلاماً دقيقاً وفيه مسؤولية كبيرة، إن كل واحد منكم سمع الحق قد صار مسؤولاً عند الله عزّ وجل، لأن الله عزّ وجل أخبرنا عن طريق النبي، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((بلّغوا عني ولو آية))

فإذا سمعت آية أو حديثاً أو درساً فتأثّرت تأثراً بالغاً منه، فأهديت شريطاً لأخ صديق فلعلّ هذا الشريط يكون سبب هدايته، فإذا تأثّرت من درس فعممه، وإذا سمعت آية فسِّرها للناس، وإذا سمعت حديثاً بيّنه للناس، وهذا أداء الرسالة، وكل واحد منا يجب أن يكون داعيةً إلى الله في حدود ما يعلم ومع من يعلم، فالحد الأدنى يكون في حدود ما يعلم، من الذي سمعه، ومع من يعرف، لا سيما نفسه، أما الدعاة الكبار فلهم دعوة عامة كبيرةً جداً، و أنت المستمع وطالب العلم مكلّف بأن تنقل هذا العلم إلى أخصّ الناس إليك، أي: أولادك و زوجتك، وأولاد عمك و أعمامك و أخوالك و من معك في العمل من زملاء مثلاً و جيرانك، فهؤلاء هم خاصة الناس، ولهذه الآية تفسيرات كثيرة، و أوجهها ؛ أي: ليعلم النبي أنه ليس وحده هو النبي، وليس وحده هو الرسول، وليس وحده هو المُبَلِّغ..

(لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً)

فالله عزّ وجل عندما يحيط بالإنسان، يحيط بكلامه و نيّته وهدفه البعيد و بواعثه الخَفِيّة، فالله يعلم كل شيء، يعلم السر وأخفى، فهو يعلم جهرك، ويعلم سرك، ويعلم ما خَفِيَ عنك، و هذا شيء دقيق جداً، فهو: عَلِمَ ما كان وعَلِمَ ما يكون، وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المزمل 073 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-11-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية عبادة الداعية

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة المزمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8))

المزمل: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: تزمل ؛ أي: تلفف بثيابه.

سببا نزول هذه الآيات:

1- السبب الأول: (الرواية الأولى):

يروى أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة تدبر كيدها للنبي عليه الصلاة والسلام والدعوة التي جاء بها، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاهتمّ لذلك والتف بثيابه وتزمل ونام مهموماً، فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2))

فالدعوة فيها صعوبات، وفيها أعداء و كيد و صوارف وعقبات، والنبي عليه الصلاة والسلام يدعوه ربه في هذه السورة إلى أن يقوم بأعباء هذه الدعوة، والإنسان قد تأتيه أحياناً حالات نفسية تضغط عليه فيميل إلى النوم، و الله جل جلاله يقول للنبي عليه السلام:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2))

2- السبب الثاني: (الرواية الثانية):

وخلاصتها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحنث في غار حراء قبل البعثة بثلاث سنوات ؛ أي: يتطهر ويتعبد، وكان تحنُّث النبي عليه السلام في كل سنة شهراً كاملاً وهو شهر رمضان، فكان يذهب فيه إلى غار حراء الموجود على بعد ميلين من مكة، فيقيم فيه هذا الشهر، ويطعم من جاءه من المساكين، ويمضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة وتطوراته الواهية، ولم يكن بين يديه طريق واضح ولا منهج محدد ولا طريق قاصر.

لقد كان عليه الصلاة والسلام يذهب إلى غار حراء فيمضي فيه الليالي ذوات العدد يتعبد و يصلي و يفكر و يتأمل وهو في حيرة كبيرة، لأن قومه في ضلالة شديدة وفي ظلمة حالكة وفي انحراف خطير وفي فتن مشتعلة، ولكنه لا يدري ما العمل.

وكان اختياره لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له، وذلك لما ينتظره من الأمر العظيم، فقد كان في هذه العزلة يخلو إلى نفسه، فيخلص من زحمة الحياة وشواغلها، ويفرغ لموحيات الكون ودلائل الإبداع، وتسبح روحه مع روح الوجود وتتعانق مع الجمال و الكمال والحقيقة الكبرى، وتتمرن على التعامل معه في إدراك وفهم.

أهمية خلوة الداعية مع الله عز وجل:

أيها الأخوة... لا بدّ لأية نفس يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية من خلوة وعزلة مع الله عز وجل، ففي الخلوة يتم الشحن ومع الناس يتم التفريغ، فلا يمكن لإنسان أن يحدث تأثيراً كبيراً في الحياة، أو أن يقلب مجرى الحياة و يغير طبيعة العلاقات، و يضفي على الحياة من بعده روح الفضيلة و الاستقامة دون أمة يكون له مع الله خلوة، ليشحن نفسه في هذه الخلوة، فالتأثير في الناس من دون خلوة كلام غير مقبول على الإطلاق، لأن العطاء يحتاج إلى كسب، و فاقد الشيء لا يعطيه، فلا بدّ للنفس التي تؤثر بمن حولها أن يكون لها خلوة مع الله، لتكتسب بذلك شحنة روحية تفرغها مع الناس، فإذا ضعفت هذه الشحنة ضعف التأثير، و إذا قلّت الخلوة أو انعدمت ضعف التأثير أيضاً.

إن هذا درس يجب أن يوضع بين أيدي المؤمنين، لا سيما الدعاة منهم، كما يجب أن يوضع بين يدي كل إنسان و كل مجموعة من الناس أرادت أن تحدث شيئاً في الإسلام، فلن تستطيع أن تؤثر إلا إذا شحنت، و لن تستطيع أن تعطي إلا إذا اكتسبت، و لن تستطيع أن تعلّم إلا إذا تعلمت، و لن تستطيع أن تحمل الناس على الاتصال إلا إذا اتصلت.

أيها الأخوة... لا بدّ لنا من وقت إلى آخر من خلوة وعزلة وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة وهموم الناس التي تشغلهم، و لا بدّ من فترة للتأمل والتدبر والتعامل مع الكون الكبير، و هذه هي الحكمة الأساسية من العبادة، لأن العبادة نافذة إلى السماء، فلا بدّ من لك من أن تتصل بالله و تناجيه و تقف بين يديه و تتفكر في عظمة الكون، فهذا هو الذي يعطيك الشحنة، و هذه هي الشحنة التي تكتسبها من خلواتك مع الله هي زادك في الدعوة إلى الله و قوة التأثير و إحداث التغيير ليشيع من كلامك الخير الكثير.

أيها الأخوة... إن أكثر الناس يقضون أوقاتهم في الشواغل التافهة، رغم أن الإنسان هو المخلوق الأول الذي خلقه الله لجنة عرضها السماوات والأرض، كما أنه خلقه ليعرفه ويقبل عليه، وهو المخلوق الأول الذي سخر له ما في السماوات والأرض، لكنه مشغول بتوافه الحياة و سفاسفها، و مشغول بالأمور التي

تفعلها كل الكائنات بلا فضل ولا أجر ولا شكر، فالإنسان لا يليق به أن تستهلكه الحياة كما هو حال الناس اليوم، فالإنسان الآن مستهلك، و قوائم الأعمال التي يكتبها على دفتره لا تنتهي.

قلت مرة لأحد الأشخاص: لو ذهبنا إلى مقبرة واطلعنا على أحوال هؤلاء الموتى جميعاً لوجدنا أن كل واحد منهم قد مات وعليه قوائم من الإنجازات التي لم يفعلها بعد، فهذه المشاغل لا تنتهي، و لا بدّ أن تقتطع من وقتك الثمين وقتاً لمعرفة الله والاتصال به والإقبال عليه و التفكر في ملكوته، وإلا لن تستطيع أن تؤثر في نفسك، لأن المهزوم أمام نفسه إنسان ضعيف تافه، و المهزوم أمام شهواته و رغباته و نزواته و مصالحه إنسان لا يستطيع أن يحرك ساكناً، فأنى له أن يحدث في الناس التغيير.

النبي عليه الصلاة والسلام هو بشر من بني البشر وقد عاش ثلاثاً وستين عاماً.. فما هو أثره بعد هذه الحياة ؟ لقد تعرفت أمم لا تعدّ ولا تحصى إلى الله و أقبلت عليه و سعدت بقربه و اصطلحت معه بسببه عليه السلام، لذلك أقسم الله جل جلاله بعمره الثمين فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72))

(سورة الحجر)

كأن الله سبحانه وتعالى قد أعدّ النبي عليه الصلاة والسلام من أجل أن يتحمل عبء هذه الرسالة العظيمة الخالدة، يقول عليه الصلاة والسلام:

جاءني جبريل فقالَ: اقْرَأْ، فقُلْتُ: مَا أنَا بقارِئٍ، فأخَذَنِي فغَطَنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، فقُلْتُ: مَا أنَا بقارِئٍ، فأخَذَنِي فغَطَنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، فقُلْتُ: مَا أنَا بقارِئٍ، فأخَذَنِي فغَطَنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمّ أرْسَلَنِي فقالَ:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5))

(سورة العلق)

إن أول كلمة نزلت في **الوحي** هي: **اقرأ**، فأساس هذا الدين العلم، لكن العلم واسع جداً، فاقرأ العلم الذي يوصلك إلى الله، واقرأ باسم ربك، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ))

(سنن الترمذي)

قيمة طلب العلم:

إن أول خصيصة تمتاز بها أيها الإنسان أن الله جل جلاله أودع فيك القدرة الإدراكية، فإن لم تقرأ عطلت هذه القدرة وهبطت إلى مستوى لا يليق بك، و إن لم تطلب العلم هبطت عن مستوى إنسانيتك إلى مستوى مخلوقات لست منها و هذا لا يليق بك إطلاقاً، وحينما تفكر أن تأكل وتشرب وتكسب المال

و تستمتع بالحياة فقط فمعنى ذلك أنك هبطت عن مستوى إنسانيتك إلى مستوى آخر لا يليق بك، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق 12)

هذه اللام لام التعليل، فعلة وجودنا على الأرض هي أن نعلم، قال تعالى:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

فلا شيء في حياتنا يعلو على طلب العلم وحضور مجالس العلم، و لا شيء في حياتنا يعلو على معرفتنا سبب خلقنا، وتكليفنا، وماذا ينبغي أن نفعل، وماذا ينبغي أن ندع، فهذا هو الشيء الأساسي لأن الجنة ثمنها العمل الصالح، والعمل الصالح سببه العلم الصحيح، فإذا لم تعلم لم تعمل، وما لم تعمل فلن تدخل الجنة، و الجنة التي خلقنا لها أساسها العمل الصالح، والعمل الصالح أساسه العلم الصحيح، قال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5))

(سورة العلق)

قال: فقرأتها، ثم انتهى وانصرف عني، فخرجت حتى إذا كنت وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل، قدماه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه ما أتقدم ولا أتأخر، وجعلت أحول وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية إلا ورأيته كذلك، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فما زلت واقفاً لا أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة، فجلست إليها، فقالت يا أبا القاسم: أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليّ، ثم حدثتها بالذي جرى، فقالت: **أبشر يا ابن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ".**

دور الزوجة:

هذا هو دور الزوجة، إنه دور المساعد و المشجع و الداعي و المعين، أما الزوجة السيئة فإنها تثبط همة زوجها و تحول بينه وبين طاعة الله، فتكلفه ما لا يطيق، و تحمله على معصية الله و كسب المال الحرام، فتكون سبب قطيعته مع الله، لذلك قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

(سورة التغابن 14)

قال العلماء: هذه عداوة مآل وليست عداوة حال، فسبب شقاء هذا الإنسان و دخوله النار هو زوجته التي حملته ما لا يطيق، لكن السيدة خديجة رضي الله عنها التي تتعطر بذكرها المجالس قالت له: **(أبشر يا ابن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة)**، ولها كلمة أخرى يقشعر لها البدن تقول فيها: **(والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر)** إن هذه كلمة الفطرة، فقد أدركت بفطرتها، أن المحسن لن يخزيه الله أبداً.

ثم فتر الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن كان في الجبل مرة أخرى فنظر فإذا جبريل، فأدركته منه رجفة حتى حثا وهوى إلى الأرض، وانطلق إلى أهله يرتجف يقول: **(زملوني دثروني)**، ففعلوا وظلّ يرتجف بما به من الورع، وإذا جبريل يناديه: يا أيها المزمل، و هذه هي الرواية الثانية.

فإن صحت الرواية الأولى أو الثانية، فإن المزمل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال بعضهم: إن هذه الثياب التي تلفف بها هي ثياب النبوة، فالإنسان أحياناً قد يلبسه الله عز وجل ثوباً، فأرقى ثوب يلبسه الإنسان هو أن يكون نبياً مرسلاً.

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)

يا أيها المزمل ؛ أي: يا من تلففت بثياب النبوة، وثمن ثياب النبوة التي ترتديها هو أعمالك واستقامتك وحبك وشوقك وإخلاصك وطاعتك.

انقضى عهد النوم...

أيها الأخوة الكرام... بعد أن نزل جبريل الأمين على قلب النبي صلى الله عليه وسلم انتهى عهد النوم عنده، فقد دعت السيدة خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أخذ قسط من الراحة بعد أن جاءته الرسالة فقال قولته الشهيرة:

((انتهى عهد النوم يا خديجة))

إن هناك أناساً كثيرين همّهم النوم والاستمتاع بلذائذ الحياة والإغراق بنعيمها، وهؤلاء تافهون عند الله رغم دنياهم العريضة، فسيد هذه الأمة قالت له زوجته خذ قسطاً من الراحة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((انتهى عهد النوم يا خديجة))

لقد ظلّ عليه السلام قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً لم يسترح ولم يسكن ولم يعش لنفسه ولا لأهله، و ما أكثر الناس الذين يعيشون لأنفسهم ولحظوظهم ولشهواتهم ولبيوتهم و لأهليهم ولأولادهم، فهم متقوقعون متمحورون حول مصالحهم، و لا يعنيهم أحد ماداموا قد حصلوا الدنيا العريضة، و هؤلاء كبار في متاعهم صغار عند الله عز وجل، فبيوتهم كبيرة لكن حظوظهم من الله قليلة، وأموالهم كثيرة لكن صلتهم بالله ضعيفة، فحينما خاطب الله عز وجل النبي عليه الصلاة والسلام قال له:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2))

ما علاقتنا بهذه السورة ؟

نحن كما يقول معظمنا لسنا بأنبياء ولا مرسلين، ولكننا مؤمنون إن شاء الله، وعلاقتنا بهذه السورة هي أن نخرج من ذواتنا إلى خدمة الخلق، و أن نخرج من بيوتنا إلى الدعوة إلى الله، وأن نخرج من مصالحنا إلى نشر الحق، أن يعنينا أمر المسلمين، و نحمل همومهم، فلا أن نكتفي بهموم بيتنا وهموم أسرنا، و أن يكون نشر الحق شغلنا الشاغل، و أن تكون خدمتنا للخلق هدفنا الكبير، و هذه هي علاقتنا بهذه السورة، فالنبي عليه السلام لم يعش لنفسه ولا لأهله، بل ظلّ قائماً على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض وعبء البشرية كلها، وعبء العقيدة كلها، و عبء الكفاح والقتال في ميادين شتى.

فإذا وقفت أمام قبره الشريف فإنك تقول له: أشهد أنك رسول الله بلغت الرسالة وأديت الأمانة وهديت الأمة ونصحتها وكشفت الغمة وجاهدت في الله حق الجهاد وهديت العباد إلى سبيل الرشاد.

ليسأل كل منا نفسه: ماذا فعلت ؟ ماذا أديت من واجبات تجاه أمتي ؟ تجاه المسلمين ؟ تجاه عقيدتي وديني ؟ هل ساهمت بشكل أو بآخر في ترسيخ دعائم الدين ؟ هل ساهمت بعلمي أو بمكانتي أو بمالي أو بخبرتي أو بطاقتي في سبيل رفع المسلمين للتخفيف عنهم ووصلهم بالله عز وجل و إبعادهم عن الشيطان ومكائده ؟؟ أليس لك دور في الحياة ؟ لقد قال عليه السلام لأحد الصحابة:

((يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبماذا تلقى الله إذاً ؟؟))

إن السؤال الكبير الذي ينبغي أن تسأل نفسك عنه: ماذا أجيب الله عز وجل إذا وقفت بين يديه ؟ هل ستقول له: يا رب زينت بيتي و فرشته، يا رب فعلت كذا وكذا، يجب أن تقول له كلاماً متصلاً بمهمتك في الحياة.

أيها الأخوة الكرام... إن العمر قصير والرسالة كبيرة جداً، والثمرة يانعة، فهل تدري ماذا ينتظرك إذا كنت سائراً وفق منهج الله عز وجل ؟ تنتظرك جنة عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين، أتضيع هذه الجنة بسنوات معدودة لا تقدم ولا تؤخر، والشيء الدقيق الذي ينبغي أن تتساءل عنه هو ماذا حملت من عبء المسلمين ؟ هل تعلمت القرآن وعلمته مثلاً ؟؟

أيها الأخ الكريم: أقول لك هذه الحقيقة: لا تنشغل بما لا تملك عن الذي تملك، لأن الله جلّ جلاله لا يؤاخذك أبداً فيما لا تملك، فكم من قوة غاشمة في العالم كله تكيد للمسلمين، لكن يجب علينا أن ننشغل فيما نملك، فأنت تملك بيتك وعملك وجوارحك وحواسك ووقتك وتفكيرك، فهل يمنعك أحد من أن تصلي في البيت ؟ أو أن تربي أولادك ؟ أو أن تقرأ القرآن وتعلمه وتتعلمه ؟ هل يمنعك أحد أن تكون صادقاً في عملك مستقيماً في معاملة الخلق ؟ أبداً... إن هذا هو جهاد النفس والهوى الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام فجعله أعلى جهاد على الإطلاق، ثم يأتي بعده جهاد الدعوة، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

إن هذين الجهادَين -جهاد النفس والهوى وجهاد الدعوة - متاحان لكل مسلم في كل مكان وزمان، فإذا أقمتهما كفاك الله ما لا تملك، و إذا أطعت الله فيما تملك كفاك الله ما لا تملك، أيها الأخوة الكرام:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2))

إنها دعوة السماء إلى الأرض من خلال النبي عليه الصلاة والسلام..

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر؟؟

أنت مخلوق عظيم، لكنك عددت نفسك مخلوقاً عادياً، فالإنسان أحياناً بسبب جهله بقيمته يظن أنه (تكملة عدد)، أو إنساناً من هؤلاء البشر المعذبين الضعاف، لكن الحقيقة هي أنك المخلوق الأول الذي كرمك الله عز وجل و خلقك لعبادته، يقول تعالى في الحديث القدسي:

((خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك، إني والإنس والجن في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرّهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنهمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إليّ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بالعبد من الأم بولدها))

ثمن الجنة:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)

يخاطب الله عز وجل نبيه الكريم:فيقول له: قم، وهناك قيام نفسي، فالإنسان الفاسق الفاجر أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فكانت سعادته الكبرى في النوم والاسترخاء والتمتع بالملذات والشهوات والمناظر المثيرة، لكن المؤمن يخاطَب من خلال النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول له الله تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الذاريات)

أي: اذهب إلى الله و أطعه، فلا ينبغي للإنسان أن يستهلك، ولا أن يكون في زحمة الحياة ورقة في مهب الريح، تذهب يمنة ويسرة دون اختيار منه.

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ)

قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، و العبء الثقيل المهيأ لك، قم للنصب والكد والتعب.

أيها الأخوة الكرام... والله الذي لا إله إلا هو، لا يمكن للمؤمن أن يشم رائحة الجنة إن لم يبذل، والدليل قوله تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران 92)

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

وهناك نشاطات سهلة جداً على النفس البشرية، كالسماع والحديث والثرثرة والتعليقات ونقد الكلام، وهذه القضايا سهلة جداً، لكن الله يمتحنك إذا كنت صادقاً أم غير صادق، فهو يريد مصداقيتك كلامك، فتكلم عن نفسك ما شئت، لكن الله عز وجل متكفل أن يجعلك في وضع تكشف فيه تماماً على حقيقتك، ولا بدّ لله عز وجل من أن يحجم الإنسان عاجلاً أم آجلاً، فقل ما شئت وافعل ما شئت، وضع نفسك في أي مرتبة تريد، و قل: (أنا أكبر مؤمن)، وهذا كله كلام بكلام، لكن الله متكفل أن يضعك في ظرف يكشف حقيقتك ليعرف معدنك.

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ)

إنها دعوة السماء و صوت الكبير المتعال: قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك، قم للنصب والكد والجهد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة، قم وتهيأ للأمر العظيم واستعد له، إنها كلمة عظيمة، فقد ينهض الإنسان أحياناً من فراشه بسرعة ليفعل شيئاً، وكأن في الفراش عقرباً ! فماذا فعلت ؟ اسأل نفسك ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت ليوم تقف فيه بين يدي الله عز وجل ؟ إن المؤمن له عند الله سجل ذهبي، و أعمال مشرفة صالحة كبيرة..

إنها كلمة رهيبة عظيمة تنتزعه صلى الله عليه وسلم من دفء الفراش في البيت، وتدفع به إلى الخضم بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب، في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء بسواء، اخرج من ذاتك و مشكلاتك وهموم بيتك و انتماءاتك الضيقة، وانتمِ إلى هذا الكون العظيم وخالقه الكبير و طاعته والقرب منه..

إن كلمة **(قم)** فيها إحصاءات كثيرة جداً...

من هو الإنسان العظيم عند الله ؟؟

أيها الأخوة... دققوا في هذه الكلمات: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً لكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، و أكثر الناس اليوم يعيش لنفسه، فهو موفق في عمله ودخله كبير، فقد حلّ كل

مشكلاته المادية، فتجده يعيش لنفسه مستريحاً لكنه يعيش ويموت صغيراً عند الله عز وجل، أما الكبير فهو الذي يحمل العبء الكبير، ألم يقل الشاعر:

ذو العقل يشقى بالنعيم بعقله وأخو الجهالة بالشقاء ينعم

إن العظماء يشقون في النعيم، والتافهون يسعدون في الجحيم، إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، أما الكبير فهو الذي يحمل هذا العبء الكبير، فانظر إلى الأشياء التي تهمك و تقلقك و تعنيك، فإذا قلت لي ما الذي يهمك ويقلقك ويعنيك قلت لك من أنت.

فما للنبي عليه الصلاة والسلام وللنوم، ما له و للراحة، ما له وللفراش الدافئ والعيش الهانئ والمتاع المريح، لقد عرف عليه الصلاة والسلام حقيقة الأمر وقدره فقال لخديجة وهي تدعوه إلى النوم: مضى عهد النوم يا خديجة، مضى عهد النوم وبدأ عهد الجد والتعب و تحمل التبعات و نشر الدعوة وملاقاة الخصوم و الانصراف عن الجواذب ومجابهة العقبات، هذه حقيقة الإسلام، فإذا كنت مؤمناً فليكن همك كبيراً، فهناك إنسان قبره عمله وأهله و هموم بيته فقط، أما المؤمن فله همّ كبير و هدف عظيم، فهو يحمل رسالة ويشعر بوطء حمل الأمانة، لذلك يسعى وبقدر همته يجري الله على يده الخير.

روى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا يحيى بن سعيد عن قتادة عن سعيد بن هشام أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوَتر، فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال: نعم، قال: ائتِ عائشة فاسألها ثم ارجع فأخبرني بردها عليك، يقول سعيد بن هشام قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ألست تقرأ القرآن، قلت: بلى، قالت: كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن، فهممت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت يا أم المؤمنين: أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ألست تقرأ هذه السورة:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4))

قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض عليه قيام الليل بأول هذه السورة، فقام عليه الصلاة والسلام وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله ختامها في السماء ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة، قال: فهممت أن أقوم فبدا لي وَتر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن وَتر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: كنا نعدّ سواكه وطهوره فيبعثه الله كما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ثم ينهض ولا يسلم ثم يقوم ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعو ثم يسلم تسليماً يُسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك تسع

يا بني، وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل شيء أو وجع أو مرض صلى من نهار اثنتي عشر ركعة ولا أعلم نبي الله صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان.

هذا كلام السيدة عائشة عن أخلاق رسول الله، وعن قيامه لليل ووتره، و لا أكتمكم أن قراءة هذه السورة وفهمها يُشعران الإنسان أنه صغير جداً، فتشعر أنك لا شيء أمام هذه العبادة وهذا الشوق و الحب و الإقبال و الهمة، ولكن الذي أراه أن الإنسان إذا صغر فإنه قد يكبر، أما إذا رأى نفسه كبيراً فإنه لا يكبر.

يجب أن تعرف ما العبادة التي كان عليها رسول الله، كما يجب أن تعرف ما الهمة التي كان يتحلى بها رسول الله، و ما الشوق الذي كان يعتري قلب رسول الله، فتقرأ هذا فتصغر، لكننا إذا صغرنا نكبر، أما إذا رأينا أنفسنا كبراء فإننا لا نكبر أبداً.

و قد يشعر أحدنا أن كل عمله و عبادته و صلاته و صومه قليل أمام هذا، ولكن هذا هو النبي، الذي جعله الله عز وجل في مقام محمود، قال عليه الصلاة والسلام:

((سَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ قالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَسِيلَةُ قالَ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ))

قال تعالى:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (79))

(سورة الإسراء)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون مطلع هذه السورة باعثاً لنا جميعاً وأنا معكم على قيام الليل وإتقان العبادة و العمل الصالح الذي نلقاه في قبرنا، والذي لا ينبغي أن نغفل عنه لحظة، فما منا من أحد إلا وسيغادر الدنيا عاجلاً أو آجلاً، ولا ينفعه في قبره إلا العمل الصالح، **" يا قيس إن لك قريناً تدفن معه وهو حي ويدفن معك وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك "**، والموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل.

لا تقل: فسد المجتمع..

يا أيها الأخوة الكرام... إن سبل العمل الصالح مفتوحة في كل العصور، و أؤكد لكم لا تشتكوا، و لا تقولوا فسد المجتمع، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

(سورة المائدة 105)

عليك من نفسك و أسرتك و عملك، اضمن لي أن تقيم الإسلام في بيتك وفي عملك وأقول لك سوف ترى حال المسلمين في غير هذا الحال، لا تنشغل بما لا تستطيع عن الذي تستطيع، لا تنشغل بما لا تستطيع أن تفعل معه شيئاً عن شيء بإمكانك أن تغيره، فالذي يهمل ما كلفه الله به ويتطلع إلى ما لا يستطيع أن يغيّره يقع في طريق مسدود.

إن مطلع هذه السورة يكفي كي يحثنا على أن نحسن علاقتنا بالله عز وجل، وأن نسعد بقربه، وأن نكون عند الأمر والنهي من أجل أن نستحق أن يكفينا الله ما لا نستطيع عليه، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5))

كيف تطمع أن تؤثر في الآخرين إن لم يكن لك مع الله صلة متينة.

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6))

ولكن أقول لكم من باب التطمين: من صلى الفجر في جماعة ومن صلى العشاء في جماعة فكأنه قام الليل، فصلاة الفجر في جماعة والعشاء في جماعة نوع من قيام الليل، ومن لم يقدر على قيام الليل فقيام الليل ليس فرضاً على المؤمنين، لقد كان فرضاً ثم أصبح سنة، لكنك يمكنك أن تصلي ركعتين أو أربع قبل آذان الفجر فهذا قيام لليل.

على كل لا بدّ أن تسعد بالقرب من الله، و لا بدّ من أن تشحن في هذه الساعة حتى تستطيع أن تفرغ هذه الشحنة مع الناس تأثيراً وهداية ومعونة، فالإنسان الذي يفقد شيئاً لا يعطيه، و إن لم تشحن فلن تستطيع أن تؤثر، وكأن الله سبحانه وتعالى يقول: أيها المؤمنون قوموا إلى معرفة الله و تطبيق أمره و جهاد أنفسكم وأهوائكم و تعلم القرآن وتعليمه، فهذا هو الذي ينفعنا عند موتنا والله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً..

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المزمل 073 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 1-5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-11-21

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل قيام الليل

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة المزمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)

إن أصل كلمة (المزّمل) في اللغة هو: المتزمل، فأدغم حرف بحرف، وذلك أيضاً كقولك يا أيها المدثر، فأصلها: يا أيها المتدثر، فما معنى المزّمل ؟ إنها تعني المتحمل، أي: يا أيها النبي، لقد جاءتك هذه الرسالة التي حُمّلتها.

(قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً)

معاني المزّمل:

لقد ذكر العلماء عدة معان لهذه الكلمة:

1- المعنى الأول: المزمل: المتحمل، الذي حمل هذه الرسالة، و أي إنسان إنما هو مكلف بحمل الأمانة، وأمانته هي نفسه التي بين جنبيه ؛ و أمانة النبوة التبليغ، أما أمانة المؤمن فهي أن يزكي نفسه، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

2- المعنى الثاني: المزمل: المتلفف، فلو فتحتم في معاجم اللغة لوجدتم معنى المتزمل أو المزمل هو: المتحمل أو المتلفف، فالمعنى الأول أنه قد حمل الرسالة وكلف أن ينقل الحق إلى البشر، و هذه المهمة فيها جهد كبير، فالإنسان أحياناً يكلف بمهمة وقد لا ينام الليل عندما يشعر بثقلها، فأحياناً يرسَل الإنسان ببعثة إلى بلد غربي فيشعر أن جهة ما وثقت به وحملته هذا الأمر، فعندما ينال هذه الشهادة يشعر بمسؤولية، والله سبحانه وتعالى يقول له: يا أيها المزمل، أي: يا أيها النبي الذي حُمل هذه الرسالة، والمعنى الثاني (المتلفف) هو معنى أبسط، أما المعنى الأوسع فهو أنه تلفف بثياب النبوة، و ألبسه الله ثوب النبوة والرسالة.

3- المعنى الثالث: المزمل هو المتلفف بالقرآن الكريم، وقد كان عليه الصلاة والسلام قرآناً يمشي، و كان خلقه القرآن، فالكون قرآن صامت، و القرآن كون ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي.

وهناك معنى دقيق يقول: إن المزمل و المدثر ليسا من أسماء النبي، و هذا الاسم اشتُق من حالة من حالات النبي صلى الله عليه وسلم، وهي أنه كان متلففاً بثوبه، وهذا الأسلوب من اللغة العربية، فأسلوب العرب أنهم قد يشتقون اسماً من حالة إنسان ما من أجل للتحبب والتلطف، فرب العزة في عليائه أراد أن يتلطف مع نبيه.

شواهد هذا الأسلوب من السيرة:

من هذه الشواهد أن علياً رضي الله عنه غاضب فاطمة رضي الله عنها، وكان علي نائماً وقد ألصق جنبه بالتراب، فقال له عليه الصلاة والسلام:

((قم يا أبا تراب))

وقد كان ذلك تلطفاً به وتحبباً إليه وإشارةَ أني لست عاتباً عليك، فهذا أسلوب من أساليب العرب، والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين.

وهناك شاهد آخر.. فقد أراد النبي عليه الصلاة والسلام في معركة الخندق أن يندب صحابياً جليلاً لمهمة خطيرة، وهي أن يدخل هذا الصحابي في صفوف الأعداء ليأتيه بالأخبار، فاحتمال أن يكشف هذا الصحابي قائم، واكتشاف أمره يعني قتله، وقد كان سيدنا حذيفة متلففاً بالثوب نائماً وذلك من شددة البرد و الجوع، فاختاره النبي صلى الله عليه وسلم من بين أصحابه كلهم، فقال لحذيفة بن اليمان:

((قم يا نومان))

وذلك تلطفاً وتحبباً إليه وإشعارا له أنه ليس عاتباً عليه، وهذا أسلوب من أساليب العربية في التحبب والتلطفف والتبيان.

لذلك قيل: المزمل: اسم اشتق من حالة لابست النبي، فلمّا جاءه الوحي شعر أنه حمل عبئاً ثقيلاً، وأن أمامه طريقاً شاقاً مديداً فلجأ إلى النوم الموقت فجاءه الوحي مرة ثانية:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ)

القيام هنا يعني: انهض لتبليغ هذه الرسالة، فهذا تحبب وتلطف وإشعار بأن الله جل جلاله ليس عاتباً عليه في تزمله و تلففه بالثوب.

أيها الأخوة الكرام... إن المعنى الثاني يُفهمنا أن كل متلفف بثيابه خالدٍ إلى النوم هو معنيّ بهذه الآية، فالآية تقول له: يا أيها النائم قم فصلّ، ألا يقول المؤذن في صلاة الفجر: الصلاة خير من النوم، ففي قاعدة في اللغة أن كل اسم مشتق من فعل ينطبق على كل من اتصف بهذا الفعل.

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)

أيها المؤمن المتدثر المتلفف بثيابك لا تنس ذكر الله، قم فصلّ..

فوائد صلاة الليل الصحية:

لقد مرّ في بعض خطب الجمعة أن بعض العلماء الغربيين وجدوا أن أخطر أمراض القلب من احتشاء القلب و تصلب الشرايين و انسداد الشريان التاجي سببها النوم المديد، لأن الإنسان إذا نام نوماً مديداً أبطأ قلبه إلى درجة أنه ينبض خمسين نبضة، وحينما تضعف نبضات القلب ويقل عددها يمشي الدم في الأوعية ببطء شديد، وحينما يمشي ببطء شديد تترسب على جدر الشرايين المواد الدهنية، وعندئذ يصاب الإنسان بما يسمى بتصلب الشرايين أو انسدادها، يقول أحد الأطباء الغربيين -وهو لا يعرف عن الدين الإسلامي شيئاً -: أنصح الإنسان أن يقطع نومه بعد أربع ساعات أو خمس ويجري التمرينات الرياضية لربع ساعة أو أن يمشي مقدار ربع ساعة، وهذه هي صلاة الفجر، فالذي يصلي الفجر في جماعة أو يصلي قيام الليل فيقطع نومه ويقوم إلى الصلاة لا يدري أنه يحقق صيانة راقية لقلبه وشرايينه، وأن أكثر أمراض انسداد الشرايين أو تصلبها سببه النوم المديد، ومن فضل الله على المسلم أنه لا يستطيع أن ينام أكثر من خمس ساعات متتالية، فإذا نام الساعة الحادية عشر كان لا بدّ أن يستيقظ لصلاة الفجر في الساعة الرابعة، العبادات هي أجل القربات إلى الله عز وجل، لكنها لها فوائد جانبية صحية، و لو أننا نعلم هذه الفوائد لسارعنا إلى طاعة الله أولاً، وإلى صيانة أجسامنا ثانياً، فكل راقدٍ في فراشه معني بهذه الآية إذاً، لأنها لم تأت بلفظ: قم يا محمد، بل: يا أيها المزمل، والمزمل اسم مشتق من فعل، فكل من تلفف بثيابه وخلد إلى النوم والراحة نقول له قم فصلّ.

أيها الأخوة الكرام... إن (قم) استعيرت لصلاة الليل ؛ أي: قم صلّ صلاة الليل، ومنه: قيام الليل.

(قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً)

الليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، و من هنا استنبط عليه الصلاة والسلام أنه من صلى المغرب والعشاء وصلى الفجر قام نصف الليل لأن حدّ الليل من صلاة المغرب حتى طلوع الفجر، و صلاة الفجر من قيام الليل، وصلاة المغرب والعشاء من قيام الليل، فالذي يتاح له أن يستيقظ بعد أن ينام ليصلي بعض الركعات قياماً لليل فهذا من كمال هذا الأمر الإلهي.

حكم قيام الليل:

السؤال الآن: هل قيام الليل حتم و فرض أم ندب وحض ؟ هل قيام الليل حتم وفرض على النبي عليه الصلاة والسلام وحده أم عليه وعلى الأنبياء معه، أم عليه وعلى أمته معه ؟ الأصح أنه في بادئ الأمر كان فرضاً على النبي عليه الصلاة والسلام وعلى أصحابه لقول الله عز وجل:

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

(سورة المزمل)

وقد صلى النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه عشر سنين حتى تورمت أقدام أصحابه وتورمت أقدامه الشريفة هو أيضاً، ثم أنزل الله آيات التخفيف وستأتي بعد حين...

(قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً)

و هذا استثناء من الليل..

أهمية التوازن بين العبادة ومعاملة الناس:

جاء سيدَنا عمر رضي الله عنه رسول عامله على أذربيجان، فوصل هذا الرسول إلى المدينة في منتصف الليل، فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين، فذهب إلى المسجد، فإذا رجل في الظلام يصلي ويقول: **ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أو رددتها فأعزيها**، فقال هذا الرسول: من أنت يرحمك الله ؟ قال: أنا عمر، فقال: أمير المؤمنين ؟! **(لقد كره أن يطرق بابه ليلاً لئلا يوقظه فإذا هو يصلي في الليل)**، قال: يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل، فقال هذا الصحابي الجليل عملاق الإسلام: **إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي**، و يُستنبط من هذا الكلام أن سيدنا عمر رضي الله عنه وازن بين اتصاله بالله وخدمته للخلق، ومعظم الناس يجنحون إلى واحدة من هاتين، فإما أن يستغرق في خدمة الخلق فيضيع ما ينبغي أن يفعله مع ربه، وإما أن يستغرق في العبادة فينسى خدمة الخلق، والأصح أن تقيم توازناً بينهما، فلا بدّ أن تشحن نفسك بالعبادة كي تفرغ مع الناس، و لا بدّ أن تتلقى كي تلقي، و لا بدّ أن تتعلم كي تعلم، و لا بدّ من أن تتصل حتى إذا رآك أحد ذكر الله بك، وذلك من أجل أن تؤثر في الناس بحالك لا بكلامك فقط.

(إِلَّا قَلِيلاً)

هذا استثناء من الليل، وهو يعني: صلّ الليل كله إلا يسيراً، لأن قيام الليل كله غير ممكن وهو شيء غير واقعي يتناقض مع طبيعة الإنسان، وقد تسمعون بعض القصص تروي أن أحدهم صلى صلاة الفجر بوضوء العشاء دون أن ينام في النهار أربعين سنة، وهذا شيء مستحيل وهو مبالغة، لأنه مخالف لطبيعة البشر، لكن الله تعالى قال: قم الليل إلا قليل، والقليل عند العلماء هو ما دون النصف أو الثلث.

كيف تحول هذا الحكم من مستوى الفريضة إلى مستوى الندب ؟

لقد حدث ذلك بقوله تعالى:

(عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ)

(سورة المزمل20)

هذه الآية خففت عن المؤمنين فرضية قيام الليل..

وقت مبارك...

إن الوقت الذي يكون قبيل أذان الفجر هو وقت مبارك كما ورد في الصحاح، فقد روي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ مَرَّتَيْنِ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ مَنْ الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ))

إن الله تعالى يناجي هؤلاء الذين تركوا الفراش الوثير، و لم يكن مقصودهم من ذلك جنات العدن ولا الحور الحسان، لكن سؤلهم و مناهم هو نظر الحبيب، وهذا مطلب القوم الكرام، إن هؤلاء هجروا الفراش ليقفوا بين يدي الواحد الديان ليناجيهم ربهم عز وجل.

فيا أيها الأخوة الكرام... إذا ضاقت بكم السبل، أو استعصى عليكم أمراً، أو أخافكم شيء، أو تعقدت مشكلة أمامكم وأنتم ضعفاء لا تملكون لها حلاً، فعليكم بقيام الليل، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة، وكم نصحت إخوة كرام وضعوا أمامي مشكلة عويصة، فقلت لهم: عليكم بقيام الليل، لأن حديث النبي عليه الصلاة والسلام حديث صحيح صدر عمّن لا ينطق عن الهوى:

((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ))

(موطأ مالك447)

أيها الأخوة الكرام... إن سرّ الدين هو أن تنعقد لك صلة بالله عزّ وجل، فإذا أطعته في النهار ولم تعصه أوقظك في الليل..

فالقليل: هو أقل من النصف أو الثلث.

(نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4))

و كما قلت قبل قليل: إن صلاة الليل كانت فرضاً على جميع المسلمين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

ثم جاء التخفيف، قال العلماء: إن الذي نُسخ هو فرضية قيام الليل، والناسخ هو الآية السابقة وقوله تعالى:

(عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ)

وقوله:

(عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى)

وقال العلماء هو منسوخ بالصلوات الخمسة،أما الآن فقيام الليل سنة مندوب إليها، وكما يقول البعض: الشتاء ربيع المؤمن، طال ليله فقامه وقصر نهاره فصامه، فالليل الطويل يحتمل القيام، والنهار القصير يحتمل الصوم.

فضل قراءة القرآن في قيام الليل:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4))

إن أجمل ما في قيام الليل هو قراءة القرآن في الصلاة، و يجوزعند الإمام مالك قراءة القرآن من المصحف، فإن أردت أن تقرأ القرآن كله في قيام الليل فلك أن تفتح المصحف أمامك، وأن تقرأ في كل ركعة صفحة، وأن تقرأها قراءةً مرتلة، فما معنى مرتلة ؟

روى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ برجل يقرأ آية ويبكي، فقال عليه الصلاة والسلام: ألم تسمعوا إلى قول الله تعالى:

(وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)

اقرأ القرآن بتمهل و تمعن و تدبر، وعش جوّ الآيات، فإن كانت في الآية وصف لعذاب فتعوذ بالله من عذاب أهل النار، وإن كان فيها الآية وصف لأهل الجنة فادع الله أن تكون من أهل الجنة، وإن كان في القرآن آية تدل على عظمة الله فسبح الله ومجده تفاعل مع هذه الآيات، وخصيصة الليل هي السكون والهدوء، فلا يوجد اتصالات هاتفية ولا حركة ولا ضجيج ولا صخب، لأن هذا الليل للمحبين.

قم سر نحونا في الليل لا تخش وحشة فالأنس في طيب ذكرنا

أيها الأخوة الكرام... لقد سمع علقمة رجلاً يقرأ قراءة حسنة فقال: **لقد رتل القرآن فداه أبي وأمي،** وروى عبد الله بن عمر فقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا))

(رواه أبو داود1252)

(وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)

كَانَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُدُّ صوته بالقراءة مَدًّا.

ومعنى قوله تعالى:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

أي: يقرؤونه قراءة توافق قواعد التجويد، ويتفهمون المعاني التي ينطوي عليها، و يتدبرون الآيات التي أمروا أن يتدبروها، فمن حسن قراءته إلى حسن فهمه إلى حسن تدبره، و هذا معنى الآية.

معاني الآية:

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)

لهذه الآية معاني كثيرة، و الحقيقة أن الليل هو وقت النوم، والفراش يغري ويجذب الإنسان إليه، والاسترخاء في الفراش أمر يتوافق مع حاجيات الجسم، فإذا أمر الإنسان أن يقوم الليل والناس نيام ففي هذا الأمر كلفة، و لكن.. ما من شيء يوصلك إلى مرتبة عالية إلا فيه مشقة بالغة.

1- المعنى الأول:

إن نيل الشهادة العليا اليوم أمر يحتاج إلى وقت مديد و سهر طويل و جهد جهيد، فالمراتب العليا تحتاج إلى بذل جهد، فلعل المعنى الأول لهذه الآية يقول: إن تكليفك أنت وأصحابك بترك الفراش والصلاة نصف الليل، أمر فيه كلفة ومشقة، لكن طريق المقام المحمود هو صلاة الليل.

قال الله عز وجل:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (79))

(سورة الإسراء)

إن المراتب العليا عند الله عز وجل تُنال من هذه الساعات التي يقضيها الإنسان في ذكر الله وتلاوة قرآنه والاتصال به، فالمعنى الأول يقول: إننا حينما كلفناك قيام الليل كان هذا التكليف ثقيلاً على الجسد لكن مريحاً للنفس، ودائماً الأشياء التي تريح الجسد تتعب النفس، فإذا الإنسان أطلق نظره في الحرام استمتع بمنظر الحسناوات، ولكنه إذا جاء يصلي وجد بينه وبين الله حجاباً كثيفاً، فإذا استجبت لرغبات الجسد أتعبت نفسك، أما إذا ضبطت جوارحك فإنك تريح نفسك، و راحة النفس في طاعة الله، بل إن أوامر الدين في معظمها تتناقض مع طبع الإنسان و تتوافق مع فطرته، أوضح مثل على ذلك أن من صلى الفجر في جماعة وعاد إلى النوم شعر بسعادة، ثم يستيقظ الساعة التاسعة وهو في رحمة الله، أما لو ترك صلاة الفجر واستيقظ الساعة التاسعة فإن جسمه يستيقظ مرتاحاً، و لكن كيف حاله مع الله عز وجل عند استيقاظه ؟ إنه يشعر أن الشيطان بال في أذنه.

إن التكاليف متعبة للجسد مريحة للنفس، و التكاليف كلها تتناقض مع الطبع و تتوافق مع الفطرة، هذا المعنى الأول للآية:

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)

فهناك تكليف، فقد يحب الإنسان أن يقال له: دكتور أو برفسور أو أستاذ جامعي، وهذا كلام طيب، فهو يريد أن تكون له مرتبة في المجتمع، و هذه المرتبة العالية في العلم تحتاج إلى ثلاث وثلاثين سنة من الدراسة والامتحانات والقراءة والتلخيص والتأليف والمتابعة، فكل شيء تناله في الدنيا أو الآخرة يحتاج

إلى بذل جهد، وسلعة الله غالية، ومن ظنّ أن الجنة تنال بعبادات جوفاء أو صدقات يسيرة يدفعها وهو غافل عن الله، فهو إنسان واهم

((ألا إن سلعة الله غالية))

((ألا إن سلعة الله غالية))

((ألا إن سلعة الله غالية))

وقال تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران 90)

2- المعنى الثاني:

أي: إنا سنلقي عليك القرآن في قيام الليل، والقرآن قول ثقيل ومنهج كامل، الناس يحبون التفلت، لأن التفلت ليس مقيداً بشيء، فالمتفلت يأكل ما يشتهي وينام حينما يشتهي ويستيقظ متى يشاء و يتكلم ما يشاء و يكسب المال من أي طريق شاء و ينفقه على أي شكل شاء، و يلتقي مع من يشاء ويرفض من يشاء، فحياة التفلت مريحة لكن حياة التقيد بمنهج الله تحتاج إلى إرادة وإلى جهد، لكنها مسعدة، فالقرآن الكريم منهج كامل.. و منهج الله عز وجل الكامل يتدخل في أدق خصوصيات حياتك، وأكثر الناس اليوم يتوهمون أن منهج الله عز وجل هو الصلاة والصوم والزكاة والحج، فمن قال لك أن هذا الدين العظيم الذي أنزله الله على نبيه الكريم هو هذه الفرائض الخمس، أكاد أقول ولا أبالغ إن الدين هو مائة ألف بند في كسب المال و إنفاقه، وفي العلاقة الزوجية و تربية الأولاد، والعلاقة مع الجيران وفي مناسبات الحزن و مناسبات الفرح، في الزواج و الطلاق، في السفر والإقامة في نظافة جسمك، وضبط لسانك، وضبط جوارحك، إنه منهج متكامل، فحينما ضغط المسلمون هذا المنهج إلى خمس بنود كانوا في مؤخرة الأمم، أما حينما طبقوا منهج الله في كل أمور حياتهم فقد وصلوا إلى أعلى المراتب، ومصيبة المصائب اليوم أن الدين في المساجد فقط، أما البيوت بيوت المسلمين فهي غير إسلامية، وأسواقهم غير إسلامية، وتجاراتهم غير إسلامية، وهذه المسافة بين الدين والحياة هي التي جعلت المسلمين وراء الأمم.

فالمعنى الأول يقول: تكليفك يا محمد بقيام الليل هو تكليف ثقيل على الجسد لكنه مريح للنفس، وهناك مثل في التربية يقول: إن كل شيء كان شاقاً على النفس في البداية فهو مريح لها في النهاية، وإذا كان سهلاً على النفس في البداية كان متعباً في النهاية، و أوضح مثل على ذلك هو تعلم الآلة الكاتبة، فلو أنك لم تتعلم بمنهج صحيح لضربت بإصبع واحدة، ولو بقيت على هذه الحالة مائة سنة لاحتاجت الصفحة إلى ساعة لتقوم بكتابتها، أما حينما تذهب لتتعلم استعمال الآلة وفق منهج صحيح و خبرة عميقة، فتكون

عينك على النص وأناملك على أزرار الآلة، فالتعلم في البداية صعب جداً، لكن هذا التعلم الصعب ينتهي إلى راحة كبيرة، فإذا آثرت الطريق السهل فضربت على الآلة بإصبع واحدة فإنك تبقى عشرين سنة تضرب عليها و تحتاج الصفحة منك إلى ساعة وإلى ساعتين، فكل شيء متعب في بدايته مريح في نهايته، و العلماء يقولون من لم تكن له بداية محرقة فلن تكن له نهاية مشرقة، فالمعنى الأول هو مجرد تكليف، فقيام الليل أمر ثقيل، لأنه يكون في وقت النوم و الراحة، والفراش يغري لأن تنساق إليه و تستلقي عليه و تنعم بالدفء في الشتاء، أما حينما تنزع عنك الغطاء وتنهض لقيام الليل فهذا معاكسة لطبيعة الجسم لكنه موافق لطبيعة النفس.

المعنى الثاني: إن هذا القرآن الكريم منهج تفصيلي يحتاج تطبيقه إلى جهد وإرادة وضبط و يقظة.

3- المعنى الثالث:

قولا ثقيلاً: أي ثقيل في خيره، فالإنسان قد يهدي لأحدهم قلم رصاص، وقد يهديه أحياناً هدية سيارة غالية جداً، فنقول: هذه هدية ثمينة ؛أي:ثمنها غال جداً و لها نفع عظيم، فالمعنى الثالث يقول: إن الذي يأتيك من قيام الليل شيء ثمين جداً.

4- المعنى الرابع:

ثقيل ؛ أي: مبارك فيه خير كثير، ولحكمة أرادها الله عز وجل كان الوحي حينما ينزل على النبي صلى اله عليه وسلم ثقيلاً عليه، فقد كان عليه الصلاة والسلام يركب ناقة، فلا تحتمل الناقة -على عظم وزنها- الوحيَ، فكانت تبرك، لأن الوحي ليس شيئاً في المنام.. و ديننا كله وحي، فلا بدّ لهذا الوحي من أن يكون واضحاً جداً، وأشد أسباب وضوحه أن النبي عليه الصلاة والسلام كان في أيام البرد القارص إذا نزل عليه الوحي تصبب عرقاً، وكانت ناقته تبرك على الأرض لثقل هذا الوحي، و هذا هو المعنى الأخير لقوله تعالى:

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)

إن هذا الوحي ثقيل، فقيام الليل أمر يثقل على الجسد أيضاً..

فهذا القرآن الكريم منهج تفصيلي كامل، يحتاج إلى إرادة وجهد كبيرين، و هذا القرآن الكريم ثقيل من حيث الخير والبركة، وأخيراً: هذا القرآن الذي نزل عن طريق الوحي كان له وقع شديد على النبي عليه الصلاة والسلام:

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المزمل 073 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 6-14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-11-28

بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات قيام الليل

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث من سورة المزمل ومع الآية السادسة وهي قول الله تعالى:

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9))

أيها الأخوة الكرام... الآية الثامنة في هذه السورة هي:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ)

و ناشئة الليل: هي الصلاة في الليل، سواء كانت في أول الليل أو في منتصف الليل أو في آخر الليل، وذلك لأن الليل سكن، فأصبح ظرفاً مناسباً للاتصال بالله، فالمشاغل منقطعة والعلاقات ضعيفة، وكل إنسان انصرف إلى بيته، فهذا الذي يذكر الله عز وجل في الليل هو على شوق إلى الله تعالى، كما أن الوقت في الليل مناسب والصفاء موفور..

فلذلك قال تعالى:

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

أشد وطئاً ؛ أي: أعظم أثراً، ويمكننا أن نفسر هذه الآية مستعينين بالمثل الآتي: إنسان كتب اسمه على الماء بإصبعه، فكم من الزمن يبقى هذا الاسم ؟ أقل من ثانية، ويقولون في المثل: كالكتابة على الماء، و إنسان آخر كتب اسمه بريشة على ورق، فمع الأيام يضعف أثر هذا الحبر، وقد تتمزق الورقة، أما لو حفر اسمه على رخام فقد يبقى هذا الاسم محفوراً آلاف السنين، وعندنا الآن آثار كانت قبل الميلاد بآلاف السنين، وقد ظلت النقوش التي على الحجر كما هي، وأردت من هذه الأمثلة أن أقول: إن الذي ينشأ في صلاة الليل غير الذي ينشأ في صلاة النهار.

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

وطئاً: وقعاً ؛ أي: هي أعمق أثراً و أعظم ثمرة، و الليل هو الوقت الذي يكون بين من المغرب وحتى الفجر، فمن صلى المغرب و العشاء و الفجر كان كمن حقق جزءاً من هذه الآية، فكأنه صلى قيام الليل لأن هذه الصلوات تكون في الليل، وهذا الوقت وقت راحة فالذي يصلي فيه يؤكد أن طاعة الله واللقاء معه أغلى من الفراش.

المعرفة الكسبية والإشراقية:

و يحصل الإنسان في الليل معرفة إشراقية، وهناك معرفة كسبية ومعرفة إشراقية، فنجد الإنسان أحياناً يقول: لمع في فكري وعقلت هذه الحقيقة وتشبثت بها، و ينبغي على الإنسان أن يكون أثناء الصلاة هكذا، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول فيما ورد عنه:

((ليس للرجل من صلاته إلا ما عقل منها))

وحينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء43)

فأنت في الصلاة تعلم ما تقرأ، فالذي ينشأ في صلاة الليل غير الذي ينشأ في صلاة النهار.

و بالمناسبة أقول: يمكن الإنسان أن يصلي، لكن هذه الإشراقات التي تكون في الصلاة ليست بيده وهو لا يملك لها جلباً ولا دفعاً، فهو لا يملكها لأنها بيد الله عز وجل، ويتفضل الله عليك بها من حين لآخر، فيسمح لعباده بها في مناسبات معينة و أسباب معينة، وقد ورد:

((أن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها))

فعرض نفسك لهذه النفحات، باستقامتك على أمر الله، وإقامتك لهذه الصلوات، و لحكمة بالغة بالغة تأتي قد هذه الإشراقات كثيفة مجتمعة أحياناً فلا تعرف تواترها، وقد تأتي قليلة أحياناً أخرى، كما أنها قد تنقطع عنك، وهذا من حكمة الله عز وجل، فإذا كان هناك معصية فإنها لا تأتي، لأن الإنسان يكون محجوباً عن الله عز وجل، و إذا كان هناك مخافات و تقصيرات في حقوق العباد فإنها تخفت أيضاً، فهي متعلقة بك، و قد لا تأتي هذه النفحات إطلاقاً لأن الله سبحانه وتعالى لا يتجلى على عبد ظالم لنفسه واقع في المعاصي والآثام، تارك لما عليه من حقوق، فإذا كان هناك تقصيرات ومعاصٍ خفتت هذه التجليات و النفحات الإلهية، أما إذا كان هناك استقامة والتزام فإن النفس تتهيأ للتعرض لها، و هذه النفحات قد تأتي وقد لا تأتي، فعليك أن تكون مطيعاً لله مؤدياً الذي عليك، ثم اطلب من الله الذي لك ؛ أدِّ الذي عليك من الصلوات، ودع الله عز وجل بحكمته يتجلى عليك ببعض النفحات من حين لآخر، و قد تكون أحياناً قليلة وقد تكون كثيفة متفاربة، وهذا تابع لحكمة الله عز وجل، فإذا كنت مستقيماً ملتزماً مؤدياً لما عليك أذاقك الله بعضاً من هذه النفحات.

يقول بعض العرفين بالله:**" في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة "**، ويؤكد هذا قول الله سبحانه وتعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد6)

لقد عرفوها في الدنيا فذاقوا طعمها، والجنة في الحقيقة هي القرب من الله عز وجل في الدنيا والآخرة، فالذي يقترب من الله يذوق طعم قربه، ولا شك أن كل مؤمن صادق تأتيه هذه النفحات من حين لآخر، وقد سمّاها الله عز وجل في قرآنه:

(أَيّامَ اللّهِ)

فقد يكون للإنسان مع الله أحياناً حال نفسي عال، من ابتهالات و مناجاة، وتأتي النفحات من خلال هذه الحال.

(إِنّ نَاشِئَةَ اللّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

ماذا نستفيد من هذه الآية ؟

إن الإنسان إذا أراد أن يصلي كان عليه أن يكون متفرغاً للصلاة، فلو جاءته رسالة ولم يفتحها، فالأولى له أن يقرأها ثم يصلي، لأنه قد ينشغل بها أثناء الصلاة، و إذا كان جائعاً وأمامه طعام تتوق إليه نفسه فينبغي عليه أن يأكل ثم يصلي، و إذا كان عنده مشكلة لا يدري ماذا سيكون من أمرها فعليه أن يبحث عن أمرها ثم يصلي، فالعبرة أن تصلي وأنت متفرغ للصلاة، لا أن تكون منشغل الفكر في الصلاة، و نرجو الله سبحانه وتعالى أن نذوق من الصلاة التي أرادها الله عز وجل الشيءَ الكثير، و الصلاة عماد الدين، **فمن أقامها أقام الدين ومن تركها هدم الدين**، و لا خير في دين لا صلاة فيه، و هي الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، و هي الشحنة اليومية التي تستمد منها قوة وعزيمة وسعادة وأمناً وتوازناً، لذلك كان بين المصلي وغير المصلي بون شاسع كبير، لأن الذي لا يصلي منقطع عن الله فتراه في تيه و قلق و حيرة و ضياع، لأن هدفه غير واضح، و نفسه غير متوازنة، أما المتصل بالله عز وجل فهو إنسان أخر، لذلك يمكنك أن تقسم الناس الناس على اختلاف أنواعهم ومشاربهم وأجناسهم وأعراقهم وألوانهم وثقافتهم إلى رجلين، رجل موصول منضبط بمنهج الله محسن لخلق الله فهو سعيد في الدنيا والآخرة، و رجل مقطوع متفلت من منهج الله مسيء لخلق الله فهو شقي في الدنيا والآخرة، فالعبرة أن تصلي الصلاة التي أراد الله عز وجل، و أنا لا أكلفك أن يكون في كل صلواتك نفحات، ولكن الذي تملك هو أن تستقيم قبل الصلاة، لتعرض نفسك لتلك النفحات بشكل دقيق، فإما أن الله سبحانه وتعالى يتفضل عليك عندئذ بتلك النفحات، أو يؤخرها عنك لحكمة بالغة، فأنت عبد الفتاح وليس عبد الفتح كما يقولون.

((اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني في ما تملك ولا أملك))

وإذا إذا صلى الإنسان الصلاة في وقتها وأسبغ الوضوء وأتقن الركوع والسجود ووقف خاشعاً أو متخشعاً فقد حقق المراد من الصلاة، أما الفتوحات والنفحات والتجليات فهذه يهبها بحكمة بالغة لمن يشاء من عباده.

وناشئة الليل: صلاة الليل، فيمكن للإنسان أن يصلي العشاء في جماعة والفجر في جماعة فيكون كأنما صلى الليل، كما يمكن له أن يصلي قبل أن ينام، ويمكن أن يصلي قبل الفجر، وهذا كله من قيام الليل، ففي قيام الليل لك أن تصلي ركعتين أو أربع أو ثمان، وهكذا...

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

أقوم قيلاً..

إن صحّ وجاءتك النفحات في صلاة الليل فأنت ملكت شيئاً مؤثراً تقوله للناس في النهار..

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

إن ألفاظ القرآن تؤخذ من حفاظه، كما أن معانيه تؤخذ ممن يعانيه، فإذا تلوت القرآن في الصلاة وعاينت ما في هذه الآيات من معان نبيلة و حكم و مواعظ وحقائق وأوامر ونواه و توجيهات، وحلال وحرام، وجاءتك بعض النفحات الإلهية وأنت تصلي، فعندئذ تملك شيئاً لتقوله، من كلام سديد مقنع مؤثر.

فالصلاة التي تقيمها في ناشئة الليل و أوقات الليل المتتابعة هي أشد تأثيراً في النفس وأقوم قيلاً إذا تكلمت، فقد يتكلم الإنسان أحياناً من ورقة أو من شيء قرأه أو سمعه، لكن الإنسان الذي يصلي صلاة حقيقية إذا تكلم عن الله عز وجل تكلم مما عرف عنه بصدق وإخلاص وقوة تأثير..

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

وقد يسأل سائل.. كيف لي أن أؤثر في الناس ؟ إنك إذا تكلمت عن شيء تعيشه أو تعانيه فإنك تتكلم من قلب حي، فأنت لك مع الله تجربة رائعة، فيها معاناة و مواقف وصلة، فإذا أردت الكلام تكلمت كلاماً مؤثراً، والشيء الذي يحير أن هناك أناس يحصلون ثقافات عالية جداً، ومع ذلك لا يؤثرون في الذين يكلمونهم إذا تكلموا، لكن الإنسان المتصل بالله عز وجل قوي، وقد يؤثر في الناس أضعاف تأثير الإنسان الذي حصل شهادات عالية، وقد مرّ من قبل أن حال امرئ صادق في ألف رجل و هي أقوى من ألف لسان، ولو كان هناك ألف رجل بلا معاناة ولا صدق ولا إخلاص فإنهم لا يفلحون في التأثير في رجل واحد، وإذا كان هناك واحد يصلي الليل، ويتصل بالله عز وجل ويستقيم على أمره، و جاءته النفحات فإنه بإمكانه أن يؤثر في ألف رجل، فألف قول في رجل لا تساوي حالاً في ألف رجل.

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

والإنسان حينما يتصل بالله ويكون على معرفة به يتناسب كلامه مع إخلاصه وطلبه، فإذا تكلم عن شيء كان له منطق و قوة بيان و حجة، وأجمل ما في الحياة أن تعرف الله وأن تعرّف الناس بالله،وأن يكون لسانك رطباً بذكر الله، و أن تكون جندياً للحق، وأن تدعو إلى الله، وأن تكون سبباً في هداية الخلق، وأن تكون في قلب كل إنسان، ألم يقل عز وجل:

(إِنّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمّةً)

(سورة النحل 120)

اسأل نفسك هذا السؤال، في قلب كم إنسان توجد، هناك من الناس من ليس له هم إلا نفسه وبيته، وهناك إنسان همه الخلق، فهل لديك رغبة جامحة أن تحدث تأثيراً في الآخرين لتنقلهم من حال إلى حال، ومن جانب إلى جانب، ومن طريق إلى طريق، ومن اهتمام إلى اهتمام، من انشغال إلى إقبال، ومن ضياع إلى وجدان، إن هذا الذي يريد ذلك يمكنه الله عز وجل مما يريد ويعطيه الوسائل، ويعينه على مهمته، فالإنسان ضعيف بنفسه قوي بالله، والإنسان لا حكمة له لكنه حكيم في الله،و ليس عنده قوة تأثير لكنه حينما يخلص يمنحه الله قوة تأثير، و كل هذا الكلام يحوم حول معنىً واحد، وهو أنك إذا اتصلت بالله شُحنت، فإذا شحنت أفرغت هذه الشحنة في الخلق، فيتألقون ويستقيمون ويهتدون ويسعدون، فشتان بين من يدعو إلى الله ومن يدعو إلى النار، إن الذين يدعون الناس إلى الفجور والمعصية والانغماس في الدنيا هم دعاة إلى النار.

معاني الآية:

(إِنّ لَكَ فِي اَلنّهَار سَبْحاً طويلاً)

1- المعنى الأول:

إن الحركة وكسب المال وحل مشكلات الحياة وشراء المنزل وترتيبه وتأسيس عمل إنما يكون في النهار **" إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل "** فإذا احتجّ الإنسان بكونه مقدماً على أعمال أو زواج أو دراسة طويلة قلنا له إن النهار يكفي لهذا كله، فحركة الإنسان في النهار واسعة جداً، و النهار لشؤون الدنيا.. فادرس وتاجر وأسس وحصّل رزقك في النهار، لأن الليل لله والنهار لك، و هذا المعنى الأول.

2- المعنى الثاني:

إذا قمت الليل ولم تنم النوم الكافي نقول لك: إن لك في النهار مجالاً للنوم، فقد يأخذ الإنسان أحياناً قيلولة ليستعين بها على قيام الليل.

((استعينوا على القيام بالقيلولة وعلى الصيام بالسحور))

فمن الممكن أن يعوض لك النهار شيئاً من التعب، ومن الممكن أن تحل فيه مشاكلك الدنيوية.

3- المعنى الثالث:

يمكنك أن تعوض الذي يفوتك من صلاة الليل في النهار، فإذا فات الإنسان أن يصلي الليل فمن الممكن أن يصلي الضحى أو صلاة الأوابين أو أن يجلس بين المغرب والعشاء يذكر الله عز وجل، فمن الممكن

أن تعوض ما فاتك من الليل في النهار، ويمكن أن يكون النهار معواناً لك على قيام الليل، ومن الممكن أن تتحرك في النهار حركة للحياة الدنيا.

4- والمعنى الرابع:

وهو معنى دقيق جداً يقول: إن النفحات التي حصلتها في الليل من اتصال بالله ومعرفة به واستغراق في شهود جماله يمكن أن تكون موضوعاً لحركتك في النهار، فمن ممكن أن تقول للناس وافعلوا ولا تفعلوا، فإذا حدث معك شيء في الليل فإنك تتكلم به في النهار، فالذي حصلته في الليل تنشره في النهار، و هذا المعنى الرابع.

إذاً، قال تعالى:

(إِنّ نَاشِئَةَ اللّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنّ لَكَ فِي اَلنّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7))

والآن تطورت حياتنا فصار ليل الناس نهاراً ونهار الناس ليلاً عن طريق الوسائل الحديثة التي قلبت الموازين، فإذا فات الإنسان النوم باكراً صلى الفجر متعباً، ويكون قد فاته أجمل ما في النهار، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ يَعْلَمُ النّاسُ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

(مسند أحمد7412)

فأجمل ما في الحياة هو ساعات الفجر وما قبل الفجر وما بعد الفجر، وهذا يحتاج إلى نوم مبكر، فالذي ينام مبكراً يستمتع بهذه الساعات، فالإنسان الذي يسافر قد يحتاج بحكم السفر أحياناً إلى أن ينام في الساعة التاسعة ويستيقظ الساعة السادسة بأعلى درجات النشاط، فالتصميم الإلهي هو أن تنام باكراً وأن تستيقظ باكراً لكي تتصل بالله.

(إِنّ نَاشِئَةَ اللّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنّ لَكَ فِي اَلنّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبّكَ وَتَبَتّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8))

لاشك أن ذكر اسم الله عز وجل ليس المقصود منه أن تقول (الله) بقلب غافل، فهذا لا يرضي الله عز وجل ولا يحقق ثمرة من ثمار الذكر، وقال العلماء: الذكر هو أن تذكر الله بلسانك على أن يكون قلبك خاشعاً ؛ أي: ذكر اللسان مع حضور القلب.

معاني البسملة:

1- المعنى الأول: وهو الأوسع:

إنك إن أردت أن تشرب فاذكر اسم ربك واذكر هذه النعمة، ثم اذكر كيف شرب النبي، و إن أردت أن تأكل فاذكر اسم ربك و قل: إني آكل هذا الطعام باسم الله، وذلك لأن الله خلقه وجعله مناسباً لجسمي ومكنني من شرائه وجعله سائغ المذاق سهل الهضم، ولولا ذلك لما أكلته، فقل: **(بسم الله الرحمن**

الرحيم)، وأجمل ما في البسملة أنها تعرفك بالله وبمنهج الله معاً، فهذا الكأس الذي أشربه أقول عليه بسم الله الرحمن الرحيم، وهذا ماء جعله الله عذباً فراتاً وقد كان ملحاً أجاجاً، فأنا أشربه بسم الله، لأن انتقاله من حالة الملوحة إلى حالة العذوبة ليس بيدي ولا بيد الناس، بل هو من فعل الله عز وجل، فبسم الله صار هذا الماء عذباً فراتاً بعد أن كان ملحاً أجاجاً.

إن الفلاح يضع البذرة في الأرض فينبتها الله جلّ جلاله، فالبذرة صغيرة تنبت شجرة تعطيك ثمار وفواكه، وهذه البذرة نبتت باسم الله ؛ أي: بفعل الله وعلمه وقدرته وإرادته، وهذا معنى بسم الله، فإذا أردت أن تستعمل أي شيء أمامك فاذكر اسم الله عليه، فإن كان مأكولاً وأردت أن تأكله فاذكر اسم الله، وإن كان مشروباً و أردت أن تشربه فاذكر، وإن كان ذا منظر جميل و أردت أن تستمتع بها فقل بسم الله الرحمن الرحيم، فمن جعل هذه الوردة الجميلة برائحتها ولونها؟ من صممها ؟ إنه الله جلّ جلاله، فمن معاني البسملة أن تذكر نعمة الله عليك، لأن هذا الذي حصل ليس بقدرتك بل بقدرة الله، فتحول الماء من ملح أجاج إلى عذب فرات ليس بعلمنا وليس بقدرتنا بل بعلم الله وقدرته ولطفه، فكل شيء لله عز وجل.

2 - المعنى الثاني:

كيف شرب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ لقد شرب على ثلاث دفعات، وهذه السنة، فالبسملة تذكرك بنعمة الله ومنهج الله، هذا معنى آخر.

واذكر اسم ربك: على كل شيء، فإن خرجت من البيت فاذكر اسم الله عز وجل وقل: اللهم إني أعوذ بك من أن أضِلّ أو أضَلّ، أو أذِل أو أذَل أو أجهل أو يجهل عليّ، وإن دخلت بيتك فاذكر اسم الله... وإن ذهبت إلى عملك.. وإن سافرت...وإن لبست جديداً.. وإن جلست إلى الطعام..وإن أردت أن تؤدي عملاً عظيماً.. أو أن تفعل أي شيء فاذكر اسم ربك، فتذكر نعمة الله وتذكر منهج الله، والذكر يكون باللسان وبالقلب معاً ؛أي: باللسان مع القلب الحاضر، وهذا هو الذكر المقبول.

(وَاذْكُر اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)

ما التبتيل ؟

التبتيل هو الانقطاع، فلا بدّ من أن تقتطع من وقتك وقتاً لمعرفة الله و الاتصال به، و الذي لا يجد في حياته وقتاً لمعرفة الله وحفظ القرآن و تعليمه، ولا يجد وقتاً للعمل الصالح والأمر بالمعروف، هو الإنسان ميت لكن بصورة حي، فلا بدّ من التبتل و الانقطاع، ولا بدّ من أن تقتطع من وقتك وقتاً لمعرفة الله، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان63)

ومعنى يمشون هوناً ؛ أي: يقتطعون من وقتهم وقتاً لطاعة وحضور مجلس علم والدعوة إلى الله، ومطالعة كتاب علمي ثمين جداً، وقراءة القرآن، فالإنسان له حاجات يومية من أكل وشرب ونوم وترتيب بيت وتحقيق رزق، وهذه نشاطات يفعلها كل الناس، أما المؤمن فيتميز بأنه يأخذ وقتاً لمعرفة الله و طاعته وتعريف الناس به، ويبذل وقتاً سخياً في سبيل هذا.

وقد ذكرت شيئاً عن أهمية التبتل قبل أسبوعين في درس الأحد، الذي كان بعنوان **(الخلوة)**، فلا بدّ من أن تخلو مع الله ولو لوقت قصير كل يوم، و هذه الخلوة تتصل بها بالله فتذكره، و تذكر أين كنت وإلى أين المصير ؟ ولماذا ؟

من هذا الذي تتبتل إليه ؟ إنه خالق السماوات والأرض و الأكوان، وقد ورد في أحدث التقديرات أن في الكون مليون مليون مجرة، وفي المجرة مليون مليون نجم، والمجرة التي نحن فيها متواضعة جداً، واسمها درب التبانة، وعلى هذه المجرة التي على شكل مغزل (عضلة) نقطةٌ هي المجموعة الشمسية بأكملها، و إذا أرادوا أن يرسلوا مركبة إلى المشتري فإنها تحتاج إلى سبع سنوات من أجل أن تصل إليه، وهي تنطلق بأعلى سرعة بلغها الإنسان: أربعين ألف ميل في الساعة ؛ يعني ستين ألف كيلو متر، مع أن أسرع طائرة تسعمائة كيلو متر في الساعة، لنكون بذلك قد قطعنا من الأرض إلى المشتري ضمن النقطة التي على درب التبانة !! فالذي أمرت أن تتبتل إليه هو خالق السماوات والأرض.

رب المشرق والمغرب...

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً)

إنه رب هذا الكون.. و الإنسان أحياناً قد يعجب ممن عرف الله ثم لا يحبه، أو لمن عرف ما عنده ثم زهد فيما عنده، أو لمن عرف ما ينتظره إذا عصاه ثم يتورط في معصيته..

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

أي: لا يوجد غيره ؛ فلا توجد حقيقة أخرى غير هذا الإله العظيم، و لا يوجد منهج آخر إلا منهج هذا الإله العظيم، و لا توجد جهة مسعدة إلا هذا الإله العظيم، فهذا هو الذي أمرت أن تذكره وتتبتل إليه، إنه خالق الأرض والسماوات، وبالتعبير المختصر نقول: لا يوجد إلا الله، والله كبير، فالمؤمن الصادق لا يرى مع الله شيء ؛ فلا يرى معه معطياً ولا مانعاً ولا معزاً ولا مذلاً ولا مسعداً، فهو الحقيقة الوحيدة في الكون، و هو الجهة المسعدة، لذلك كان ذلك الذي أمرت أن تذكره وأن تتبتل إليه تبتيلاً هو رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو.

إن كل الأشخاص الذين تراهم عينك والذين تتوهم أنهم أقوياء هم في قبضة الله، قال تعالى:

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه46)

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أنت مدعو إلى الخالق ؛ خالق الأكوان، و ملك الملوك القدير العزيز الغني الكريم.. الرحيم...

الوكيل:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً)

ألا ترضى أن يكون الله وكيلك ؟؟ إن كان الله وكيلك فأنت أقوى الناس، و إن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، فليس هناك أسعد من إنسان سلّم أمره إلى الله و حرص على طاعة الله وسلّم أمره لله، إنه يكون بذلك أقوى الناس.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً)

لا تعلّق الآمال بأشخاص في الأرض لأنهم ضعفاء مثلك، وقد يكونون أقل وفاءً لك مما تظن، بل علّق الآمال بالله عز وجل، واجعل الله عز وجل محط الرحال ونهاية الآمال.

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً(9))

أيها الأخ الكريم... إنك أقوى إنسان إن اتخذت الله وكيلاً، و أسعد إنسان إن اتصلت بالله، وأعظم إنسان إذا عملت لله، و لا يليق بك أن تعمل لغير الله، ولا أن تكون محسوباً على غير الله، ولا أن تكون مجيراً لغير الله، فأنت المخلوق الأول.

الصبر على الجاهلين:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10))

إن الجهّال كثيرون والمنحرفون أكثر، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فاصبر على هؤلاء، والصبر من صفات المؤمن، فاصبر عليهم وتمنى هدايتهم، واشكر الله عز وجل على أن نجّاك من هؤلاء ولم تكن مثلهم، ففي هذا الوقت قد يكون هناك أناس كثيرون في الملاهي والنوادي الليلية، يرتكبون الموبقات ويتوهمون أنهم سعداء وهم في الوحول.

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

وهناك أناس كثيرون لا يعرفون الله، فهم لا يعرفون إلا المادة والدرهم والدينار، لقد كان هناك مسلم في أمريكا جالس في حديقة عامة، فجلس إلى جانبه إنسان من تلك البلاد فسأله عن دينه فقال له: أنا مسلم، فقال له: حدثني عن الإسلام، فحدثه ساعة وقد كان العلماء الكبار، ثم قال له: ما رأيك، فأخرج من جيبه دولاراً وقال: هذا إلهي الذي أعبده من دون إلهك.

فهناك أناس جهّال، قد يكون الدرهم والدينار إلههم، وقد تكون المرأة إلههم، فالذي كرمه الله عز وجل بمعرفته، وأكرمه بعقيدة صحيحة ومنهج منضبط، فسلك مسلكاً قويماً كان هذا بالنسبة له نعمة لا تعدلها نعمة.

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11))

تهديد....

إن هؤلاء المعاندين هم الأعداء الألداء العصاة المكذبون الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم.. فهؤلاء.. دعهم يا محمد لي، قال تعالى:

(إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً (12) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً (13))

إن أخطر كلمة في القرآن الكريم هي قوله تعالى:

(وَذَرْنِي)

أي: دعه لي يا محمد، فأنا أربيه.. أنا أداويه.. أنا أحمله على التوبة بطريقة صعبة جداً، قال تعالى:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

(سورة البقرة286)

هناك أمراض تشيع بين الناس كل مرض فيها (يُنسي الإنسان حليب أمه)، فهناك آلام لا تحتمل، وهناك أمراض عضالة و مشكلات..

(وذرني): هي كلمة تهديد من أعلى درجة.. دعه لي..

فإن دعيت إلى الحق فاستجب، قال تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال 24)

إذا دعيت فاستجب وإلا انطبق على هذا الإنسان قوله تعالى:

(وَذَرْنِي)

أي: دعه لي، فإذا دعيت إلى طاعة الله و الاستقامة على أمره وأنت في صحة وعافية ونشاط وبحبوحة فاستقم و استجب و آمن و صلّ و طبق أمر الله عز وجل، قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص50)

عندئذ ينطبق عليهم قوله تعالى:

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً)

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة126)

وقال تعالى:

(يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33))

(سورة الحاقة27-33)

(إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً (12) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً (13))

(إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً)

أي: قيوداً تنكل بالإنسان.

(وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ)

أي: لا يستساغ..

(وَعَذَاباً أَلِيماً)

(يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً)

هذا اليوم يوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم الحق و الدينونة، يوم الجزاء، يوم إنصاف المظلومين، يوم البطش للظالمين، يوم إحقاق الحق، يوم الحسم، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الحج 17)

يوم ينتهي فيه الكذب الدجل، و إن اسم الله الحق لا يتحقق كاملاً إلا يوم القيامة، قال تعالى:

(إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

(سورة يونس4)

محور الدرس:

أيها الأخوة الكرام... إن محور هذا الدرس هو أن صلاة الليل أعمق أثراً في النفس، وأن ضوء النهار مجال واسع للعمل الصالح وكسب الرزق، وأنك يجب أن تنقطع لله سبحانه وتعالى، فهو أهل أن تنقطع لعبادته والتفكر في خلقه، لأنه خالق الأكوان الواحد الديان، فهو الحق وحده ولا حق سواه، فإذا اتخذته وكيلاً فأنت أقوى الناس، أما الذين ينتمون إلى الطرف الآخر فهم الجاهلون الضالون الشاردون فاصبر عليهم وادع لهم بالهدى: **" اللهم اهد قومي إنهم لا يعلمون "**، أما هؤلاء المعاندون المكذبون الضالون المضلون الفاسدون، فينطبق عليهم قوله تعالى:

(وَذَرْنِي)

أي: دعهم لي يا محمد.

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً)

ليست نِعمة ولكن نَعمة ؛ أي: نقمة، وهذا اسمه الاستدراج، فإن رأيت الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره.

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً (12) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً (14))

يعني كالعهن المنفوش، وفي درس قادم نتابع تفسير هذه الآيات:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً (16))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المزمل 073 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 15-19
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-12-05

بسم الله الرحمن الرحيم

توافق الرسالات مع الفطرة

أيتها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع من سورة المزمل، ومع الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً)

شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لقد خلق الله جلّ جلاله الخلق ثم أرسل إليهم رسلاً ليعرفهم بذاته، وليعرفهم بطريق سعادتهم، بل ليعرفهم بطريق سلامتهم، فرحمة الله عز وجل تقتضي أن لا يدع عباده من دون تحذير و توجيه و منهج قويم، فإرسال الرسل دليل على رحمة الله عز وجل، فالأب أحياناً قد يرى ابنه يقترب من المدفئة فلا بدّ له من أن يحذره ويوجهه، وربنا عز وجل يقول:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً)

غير أن الله عز وجل في آية أخرى يقول:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا)

(سورة آل عمران164)

ومعنى هذا أن الإنسان قد أودع الله فيه العقل، فلو استعمل الإنسان عقله وفق ما خُلق له عرف ربه، فللإنسان فطرة عالية، ولو أنه أبقاها سليمة لعرف من خلال فطرته ما إذا كان على حق أم على باطل، قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

وقال تعالى:

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

(سورة القيامة14)

فلا يمكن للإنسان أن تخدع نفسك، إنها تعرفك حق المعرفة:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس7-8)

فالنفس تعرف حالها إذا ما كانت متقية لله عز وجل أو فاجرة، فقد أودع الله فيك العقل، ولو أعملته وفق ما خلقه الله عز وجل لرأيت أنه متوافق في مبادئه مع مبادئ الكون، وعندئذ تصل إلى الله عن طريق

الكون وعن طريق الخَلق، وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم فلو درسته وتدبرته وفهمته لعرفت أنه كلام الله عز وجل، لأن أفعال الله تدل عليه، و كلامه يدل عليه، و خلقه يدل عليه، وفوق ذلك إنك مؤهل بإمكاناتك الفطرية، فعن طريق عقلك وفطرتك وخلق الله وأفعاله تعرف الله عز وجل، وقد امتنّ الله تعالى على المسلمين أن بعث فيهم رسولاً، فقد يضع الأب ابنه في مدرسة راقية جداً في منهاجها و مدرسيها و نظامها ومرافقها و قاعاتها الواسعة و مخابرها العامرة بالمواد، وفوق كل هذه الميزات يضع الأب لابنه درساً خصوصياً وأستاذاً خاصاً.

فربنا عز وجل أعطانا العقل والعقل حجة، و أعطانا الفطرة وهي دليل، و أعطانا النظر في أفعاله، وأفعاله تدل عليه، و أعطانا كل شيء، ومع كل هذا أرسل فينا رسولاً شاهداً علينا، وهذا مما تقتضيه حكمة الله عز وجل، وقد أرسل هذا الرسول الكريم مرشداً ومحذراً وناصحاً ودليلاً وشاهداً لأنه رحمن رحيم، فلو وسعنا هذه الفكرة قلنا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ))

(صحيح مسلم3544)

فلا يمكن للحق أن يفتقد من الأرض ولو للحظة واحدة، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ))

(صحيح مسلم3544)

فالحق مستمر لكن تتسع دائرته أو تضيق، لكنه لا يتلاشى، فما عليك إلا أن تبحث عن أهل الحق..

من هم أهل الحق الذي ينبغي أن تبحث عنهم لتكون معهم ؟

1- العلامة الأولى:

قال تعالى:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

(سورة يس20-21)

إن الدنيا غير مطروحة في العلاقات الإيمانية، فليس هناك مكاسب مادية ولا معنوية وليس هناك ثناء ولا شكر ولا امتنان:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)

(سورة الإنسان9)

فأحد علامات أهل الحق الذي ينبغي أن تبحث عنهم أنهم منزهون عن الأغراض الدنيوية.

2- العلامة الثانية:

إنهم لا يخافون في الله لومة لائم، قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب39)

لو أن هؤلاء المعنيون بالدعوة إلى الله خافوا من غير الله، فسكتوا عن الحق خوفاً منهم وتكلموا بالباطل إرضاءً لهم لما بقي شيء من دعوتهم.. قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب)

3- العلامة الثالثة:

وردت في قوله تعالى:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران 18)

فالعالم الحق هو الذي يشهد لك بعدالة الله و كمال الله، و يبين لك أسماء الله الحسنى.

4-العلامة الرابعة:

قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف 108)

فالدعوة بصيرة، فيها الدليل والتعليل والتوافق مع العقل والمنطق والواقع والفطرة، وكأن الحق دائرة تمر فيها خمس خطوط ؛ خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، فالحق يؤيده الموضوع الواقع، و تقبله الفطرة ويقره العقل، ويدعمه النقل الصحيح، فهناك نقل صحيح وعقل صريح وفطرة سليمة وواقع موضوعي، ولو ضيقنا الدائرة وجدنا شخصاً يقيم الحق وهو حجة على من حوله، لكنه قد لا يكون داعية، ولكنه رجل عادي في دائرة أو في شركة، لكنه مستقيم لا يأخذ درهماً حراماً، و يضبط لسانه وجوارحه، فالمستقيم حجة على غير المستقيم، و العفيف حجة على غير العفيف، و المنضبط حجة على المتفلت، فالله عز وجل لا يدعم الحق بأفكار تنشر في كتب فقط، بل يدعم الحق أيضاً برجال تكون الدنيا كلها تحت أقدامهم، لا يخافون في الله أحداً، ولا يأخذون الحرام، ولو كانوا بأشد الحاجة إلى المال، فالإنسان عليه أن يكون مع المؤمنين والدليل، قوله تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف28)

وقوله تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة119)

أيها الأخوة... إن هذه الأفكار مستنبطة من قوله تعالى.

مراحل الدعوة:

فالإنسان حينما يدعى إلى الله قد لا ينتبه إلى أن الذي يدعوه إلى الله شاهد يشهد عليه يوم القيامة أنه دعاه، وربنا سبحانه وتعالى حكيم في دعوة الناس إليه، فيبدأ معهم بالدعوة البيانية و الكلام ؛ فقد تقرأ القرآن، أو تستمع إلى خطبة جمعة، أو تستمع إلى درس تفسير،أو تقرأ كتاباً، أو تستمع إلى حديث في شريط، أو تقرأ مقالاً في مجلة، وكل هذه الأفكار التي تدعوك إلى الله هي دعوة بيانية وأنت صحيح معافى، فإذا لم يستجب الإنسان إلى هذه الدعوة البيانية اللطيفة السلمية فلا بدّ من دعوة أخرى بطريق آخر، وهو طريق التأديب، فيدخل الإنسان مع الله في طوراً آخر هو طور التأديب التربوي:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة21)

ثم إن الله عز وجل ينقل عبده إلى طور ثالث وهو الإكرام الاستدراجي، ثم يقصمه إن لم يستجب، فهنيئاً لمن يستجيب لله عز وجل ولرسوله من خلال الدعوة البيانية ن فهذا أعقل إنسان، لأنه يأتي إلى الله وهو في صحته وقوته و غناه و شبابه.

الداعية شاهد على المدعوّ:

إن الذي يدعوك إلى الله سيشهد عليك يوم القيامة، بل إن أقرب شيء إليك سيشهد عليك، قال تعالى:

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النور24)

أعضاؤهم و جلودهم ستشهد عليهم، قال تعالى:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً)

و الإنسان أحيانا إذا كان قوياً و غنياً و صحيحاً استغنى، قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق6-7)

فالإنسان يستغني عن الله، إن رأى نفسه قوياً صحيح البدن، و الذي يدعو الله وقت الشدة فقط هو إنسان ضعيف، لأنه تذكر الله حين الشدة، أما في الرخاء فلم يتذكره مع أن بعض النصوص تقول: **" من عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة الأولى أن تعرفه في الرخاء ".**

فرعون...

فهذا فرعون مثل للقوة قال: أنا ربكم الأعلى، ولي ملك مصر كلها:

(قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الزخرف51)

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص38)

فمع ملكوته و جبروته و عناده و غطرسته و استعلائه و استكباره جعله الله في أسفل سافلين، فقد قال تعالى:

(فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً)

هذا كلام دقيق... فمن أنت أيها الإنسان ؟ إن هذا هو مصير فرعون، وما أدراك ما فرعون ؟ ! إنه الجبار الطاغية الذي عبده الناس من دون الله و الذي قال أنا ربكم الأعلى:

(فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ)

(سورة القصص38)

ما هذا الجبروت ؟ و ما هذا الاستعلاء ؟ ومع ذلك أخذه الله أخذاً وبيلاً، فهو أشقى إنسان، فالذي يقف في خندق مضاد لخندق الحق و يعارض الحق و يريد أن يطفئ نور الله عز وجل هو أشقى إنسان، قال تعالى:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15) فَعَصَى)

فمراحل الدعوة هي: الدعوة البيانية.. التأديب التربوي.. الإكرام الاستدراجي.. وأروع شيء أن تستجيب لله عز وجل في مرحلة الدعوة البيانية، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم)

(سورة الأنفال 24)

فأي إنسان يدعوك إلى الله هو شاهد عليك، وقد لا ينتبه الإنسان أحياناً فيسأل فيجاب، فيترتب على هذا السؤال عذاب أليم إلى أمد طويل، وقد يُدعى أحياناً فيرفض فيندم أشد الندم، وقد قالوا: (هذا اليوم له ما وراءه)، فالإنسان أحياناً يأكل وينام، فليس هناك مشكلة في هذا، لكنه قد يعقد صفقة تجعله مفلساً يتكفف الناس، و قد يقف موقفاً يجعله يقبع في غيابات السجن سنوات تلو سنوات، فهناك مواقف لها ما وراءها ويبنى عليها مصير.

الموقف الحاسم..

أمثلة:

وأضع بين أيديكم أمثلة على ذلك:

لو أن إنسان اتخذ قراراً بشراء بضاعة غير نظامية، ثم أُمسك به متلبساً ببيع هذه البضاعة وكان ثمنها كبير جداً فإنه في هذا الحالة يترتب عليه غرامات تبلغ ثمانية أضعاف ثمنها، ثم يودَع في السجن، فهناك لحظة يكون اتخاذ القرار الخاطئ فيها سبباً للدمار و الإفلاس والسجن، وهذه الأمثلة من حياتنا الدنيا.

و قد يقف الإنسان موقفاً أو يشير إشارة، وقد يسكت أحياناً فيدفع ثمن سكوته سنوات طويلة، فهذا الموقف الدنيوي قد يسبب لك متاعب طويلة، فقد يسبب قرار الزواج أحياناً شقاءً طويلاً لك، وقد يتخذ الإنسان قراراً خطأ في زواجه أو في سفره أو في تجارته أو في إقامته أو في مواقفه فيدفع ثمنها سنوات تلو سنوات، وهذا مع بني البشر فكيف مع خالق البشر، فقد يقف الإنسان موقفاً فيدفع ثمنه جهنم إلى أبد الآبدين، وهذا شيء لا يحتمل.

فأي إنسان دعاك إلى الله وطاعة الله و إلى التوبة إليه و ترك الطريق المنحرف والعمل المنحرف هو شاهد عليك..

حدثني أخ أن هناك إنساناً كان يملأ عينيه من الحرام، فأصيب بمرض ارتخاء الجفون وهو مرض صعب جداً ؛ يكون الجفن فيه مغلقاً دائماً ولا يفتح إلا باليدين من أجل أن ترى، فالإنسان حر يفعل ما يشاء لكن ليس حراً في قبول العقاب أو عدم قبوله، فقد تقف بمركبتك أمام إشارة، وتكون الإشارة حمراء والطريق مفتوح، فأنت حر في أن تخالف أو لا تخالف، لكنك إذا خالفت لم تكن حراً في قبول المخالفة أو رفضها، لأن العقاب أصبح إلزامياً، و أنت الآن مخير، لك أن تصلي أو لا تصلي، و لك أن تكون صادقاً أو أن تكون كاذباً، و لك أن تكون أميناً أو خائناً، و لك أن تنضبط أو أن تتفلت، ولك أن تحسن أو أن تسيء، ولك أن تكسب مالاً حلالاً أو حراماً، وقد قال الله تعالى:

(افعلوا ما شئتم)

لكنكم حينما تختارون الاختيار السيِّ لم تكونوا أحراراً في رفض العقوبة أو قبولها، لأن العقاب أصبح إلزامياً.

و نستشف من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أرسل هذا الرسول الكريم النبي الأمي الذي جعله الله رحمة للعالمين كي ينقلنا من الضلالة إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور، ومن وحول المادة إلى جنات القربات، فهنيئاً لمن استجاب لهذا النبي، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل الاستجابة لهذا النبي الكريم عين الاستجابة لله عز وجل، قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص 50)

قال العلماء: **إن الاستجابة للنبي صلى الله عليه وسلم هي عين الاستجابة لله عز وجل.**

إخواننا الكرام.. إن القضية خطيرة و مصيرية ؛ أي: يتحدد بها مصيرك، فلو أن إنسان خان وطنه خيانة عظمى لقلنا هذه الخيانة مصيرية ؛ ومعنى ذلك أنه سيعدم فتلغى حياته، فهذا عمل خطير، و هناك أعمال يقترفها العبد في دينه تسبب له النار إلى أبد الآبدين، قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(سورة الزخرف77)

وقال:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108))

(سورة المؤمنون104-108)

إنه يوم مصيري، فحينما يُدعى الإنسان إلى الله ولا يستجيب ينتظره مصير قاتم أسود شقي إلى أبد الآبدين.

إن النبي عليه الصلاة والسلام له سنة، ومن لوازم تطبيق سنته أن تعرف سنته، لذلك كان طلب العلم أساسياً في حياة الإنسان، وقد ذكرت قبل يومين في درس من دروس الطاووسية أن علة خلق السماوات والأرض هي العلم، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق 12)

فالإنسان هو المخلوق الذي أودعت فيه قوة إدراكية، فحينما يعطل عقله ويرفض العلم يهبط من وجود إنساني إلى وجود حيواني، فماذا يفعل يعني الحيوان ؟ إنه يأكل ويشرب ويتنفس وينجب ويعمل ويستمتع بالطعام والشراب، فالإنسان الذي يأكل ويشرب ويتنفس وينجب ويستمتع ذو وجود حيواني، لكن الوجود الإنساني هو معرفة الله عز وجل و تحقيق رسالة الحياة، و أن تكون على منهج الله، و أن تنتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، وجنة عرضها السماوات والأرض، و مهما كنت قوياً جباراً في الأرض متمتعاً بقوة لا تعد ولا تحصى فلن تكون كفرعون، ومع ذلك قال تعالى:

(فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلا)

إن هذا الكلام يساق على أسلوب (إياك أعني واسمعي يا جارة)، فمن أنت ؟ أنت إنسان ضعيف صغير، فالله عز وجل حينما أراد أن يدمر فرعون أغراه بدخول البحر، فضرب البحر سيدنا موسى فإذا هو طريق سالك، فلما عبر سيدنا موسى وتبعه فرعون عادت اليابسة بحراً فغرق فرعون و قال وهو يغرق:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس90)

ولكن بعد فوات الأوان، فالمعصية إذاً عقابها وبيل، وأخذها شديد ومصيرها مظلم، و هذه دعوة من الله لطيفة غير مباشرة، حيث يقول:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً (16))

يروى أن فرعون رأى في المنام أن طفلاً سيقضي على ملكه، فقال: القضية بسيطة، إني سأقتل أطفال بني إسرائيل جميعاً من دون استثناء، وأستحيي نسائهم، لكنه ربى الذي قضي على ملكه في قصره، وهذا من حكمة الله البالغة، فلا تعاند الحق، و لا تكن في الخندق المقابل، لا تكن عدواً للحق في الطرف الآخر، لأن الطرف الآخر مهزوم لا محالة قال تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران12)

إن النبي عليه الصلاة والسلام خاطب قتلى بدر من المشركين وسماهم بأسمائهم واحداً وحداً وكأنهم يسمعونه، فقال:

((هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، فقالوا: يا رسول الله أتخاطب قوماً جيفوا؟؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم))

(فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً)

كلما ارتقى إيمانك و تعمق علمك و اشتد يقينك رأيت أن نتائج المعصية خطيرة، فيجب على الإنسان أن يتقي الله عز وجل بدافع حبه لسلامته، فمهما كنت قوياً صحيحاً متماسكاً متملكاً لزمام الأمور فإن الله عز وجل يجعلك في أسفل سافلين حينما تعصيه.

وبيلاً ؛ أي: شديداً.

يوم القيامة..

ثم يقول الله عز وجل: إن هذا عذاب الدنيا فكيف بعذاب الآخرة، هناك أمراض وبيلة خبيثة فتاكة، واسأل الأطباء عنها، هناك أمراض الأورام و أمراض القلب و أمراض الأعصاب وهي شيء لا يحتمل، فقد تستأصل حنجرة الإنسان فينتهي صوته، وقد يفتح بطنه أحياناً فيخرج الغائط من طرفه بلا توقيت، فهناك أمراض وبيلة، ولكن هذا ليس بشيء أمام عذاب الآخرة، فقد قال تعالى:

(فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً)

الشيء المألوف أن يظهر الشيب في الأربعين أو الخمسين أو الستين ؛ أي في السن المتقدمة، أما طفل فمن غير المألوف أن يشيب، لذلك قالوا: هذا أمر يشيب له الولدان، وقد رئي في شعر النبي بعض الشيب، فقال: شيبتني هود، فمن هي هود ؟ إنها سورة هود، وما الذي شيبه فيها ؟ إنه قوله تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة هود 112)

يروى عن سيدنا ابن رواحة - إن صحة الرواية – أن النبي عليه الصلاة والسلام عيّنه قائداً ثالثاً بعد سيدنا زيد وسيدنا جعفر، أما سيدنا زيد فقتل سريعاً، فأخذ الراية سيدنا جعفر فقاتل بها حتى قتل، فلما أراد أن يأخذها عبد الله بن رواحة ورأى صاحبيه قد قتلا سريعاً تردد- هكذا تقول الروايات إن صحت– فقال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حِمام الموت قد صليتِ

إن تفعلي فعلهما شقيتِ وإن توليتِ فقد رضيتِ

وأخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة مع أصحابه فقال:

((أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل، وإني لأراه في الجنة يطير بجناحين _لذلك سمي جعفر الطيار - ثم سكت النبي عليه الصلاة والسلام فلما سكت النبي قلق الصحابة كثيراً على أخيهم عبد الله بن رواحة فقالوا: ما فعل عبد الله ؟ فقال: ثم أخذها عبد الله فقاتل بها حتى قتل وإني لأرى في مقامه إزوراراً عن صاحبيه))

أي: مقامه هبط لأنه تردد

فإذا تردد الإنسان في بذل روحه هبط مقامه عند الله، فكيف بهؤلاء الذين يأكلون المال الحرام وينتهكون الحرمات ويغرقون في المعاصي والآثام ويعتدون على أعراض الناس، إن المعصية عقابها وبيل واسمها خطير.

(فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً)

كلام من هذا ؟ هذا كلام الله، فقد يخوفك الإنسان أحياناً، لكنه قد يقول فقط ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، لأنه غير قادر على فعل شيء، وقد يخوفك وهو لا يريد فعل ما يقول، لكن ما هو الحال إذا كان التخويف من قبل الله ؟!! قال تعالى:

(فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً)

هذا اليوم يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين، فيحق فيه الحق، و تسوى فيه الحسابات، و يأخذ فيه المظلوم حقه من الظالم، و يأخذ المغصوب حقه من الغاصب، و تقوم فيه العدالة الإلهية المطلقة، هذا يوم الدين، والله تعالى مالك يوم الدين.

(السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً)

إن السماء التي خلقها الله تعالى وما فيها من مجرات وكواكب تتصدع من هول هذا اليوم فكيف بالإنسان ؟ و هذا يذكرنا بقول الله تعالى:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر21)

إذا كان هذا القرآن ينصدع له الجبل فكيف بقلب الإنسان من لحم ودم.

(السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً)

تذكرة..

أيها الأخوة.. إن هذا الوعد أو هذا الوعيد واقع لا محالة، والأمر منتهٍ، فقد قال تعالى:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

قد اتفق معك على أمر ما ثم لا أذكرك به، لكن التذكير يعني أنك تعرف الأمر، وأنا الآن أذكرك به فقط، لذلك كان القرآن تذكرة، بمعنى أن الإنسان عنده وسائل معرفة الله عز وجل من عقل وفطرة ونظر لكن الله عز وجل ذكره بهذا القرآن، فهذا القرآن كله تذكرة، لأن فطرتك متوافقة مع الإيمان بالله، وعقلك يدلك على الله، وكل ما في الكون ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله، فإنك أيها الإنسان تملك وسائل معرفة الله، ورغم ذلك امتن الله عز وجل عليك بفضل منه وكرم فذكرك، فقال:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

إن الإنسان لما يؤمن ويستقيم يقول: وجدت نفسي لأن الفطرة مستقيمة، فالسيارة مصممة لتمشي على هذه الطريق المعبدة، فإن سرت في الوعر تكسرت، وإذا انتقلت إلى الطريق المعبد استراحت وأراحت، فالإنسان مصمم على الإيمان متوافق مع الإيمان عقلاً وفطرةً، فإذا ضعف إيمانه أو انحرف سلوكه تشوش عقله واضطربت نفسه لذلك قال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه123)

الإنسان مصمم أن يكون مؤمناً، فإذا لم يؤمن ضل عقله و شقيت نفسه.

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً)

وما أكثر السبل إلى الله عز وجل، إن التوبة سبيل، وضبط الأعضاء واللسان سبيل، وبر الوالدين، وتربية الأبناء، وخدمة الزوجة زوجها، ورحمة الرجل بزوجته، و إتقان العمل، والصدق والأمانة، وخدمة الحيوان، و الصلاة و الصيام و الصدق و الدعوة إلى الله و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كل هذا من السبل الموصلة إلى الله تعالى، و معنى السبيل: هو الطريق إلى الله و الوسيلة إلى العمل الصالح...

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً)

والوسائل التي تقرب إلى الله لا تعد ولا تحصى، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، ففي بيتك ألف طريق إلى الله، أليس بإمكانك أن تقول: يا بنيتي قومي فصلي، قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

(سورة طه 132)

حينما ترحم من في البيت يكون هذا سبيلاً.. و حينما تتقن عملك لتنفع المسلمين يكون هذا سبيلاً.. و حينما تصدق مع الناس فهذا سبيل أيضاً.. كذلك إخلاصك وأمانتك وعطاؤك كل هذا من السبل الموصلة إلى الله عز وجل.

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً)

الله عز وجل ينتظرنا لننطلق إليه، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

(سورة الذاريات 50)

إنه ينتظرنا أن نصطلح معه، والصلحة بلمحة، كما ينتظرنا أن نتوب إليه و ندعوه، فادع الله وتوكل عليه وأقم الإسلام في بيتك واسع إلى طاعة الله عز وجل.. قال تعالى:.

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً)

ولهذا اليوم ما بعده، فإذا دعيت إلى الله فإن الذي دعاك إلى الله سيكون شاهداً لك قياساً على الآية السابقة الذكر، فالعاقل لا يندم، لأنه فعل الشيء المناسب في الوقت المناسب... وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المزمل 073 - الدرس (5-5): تفسير الآية 20
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-12-12

بسم الله الرحمن الرحيم

علم الله تعالى

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الخامس والأخير من تفسير سورة المزمل، ومع الآية العشرين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

قوله: (إن ربك يعلم) يعني أنه يعلم عمل الإنسان و عبادته.

معنيا الآية:

ولهذه الآية معنى ضيق ومعنى واسع...

1- المعنى الضيق: إن الله يعلم أنك تقوم الليل، ويعلم مقدار الليل الذي تقوم فيه.

2- المعنى الواسع: إن الله يعلم عملك وعبادتك و صلاتك و صيامك و إنفاقك، فهو يعلم عمل الإنسان بأوسع معانيه، فيعلم حق العلم خلفية هذا العمل كما يعلم بواعثه ومؤداه وغايته، و يعلم حجمه ومقدار التضحية في سبيله، ويعلم العوائق والصوارف، فقد تنفق في هذا العمل درهماً، وقد تنفق مائة ألف درهم، وقد يكون الدرهم أكبر عند الله من مائة ألف درهم، ورب درهم أنفقته في إخلاص خير من مائة ألف درهم أنفقته في رياء، و درهم تنفقه في حياتك خير من مائة ألف درهم تنفق بعد مماتك، فالمعنى الضيق هو أن الله سبحانه و تعالى يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام يقوم أكثر من ثلث الليل، أو يقوم نصفه أو أقل من ثلثيه، فيعلم قيامه في الليل ويعلم مقدار قيامه من الليل، أما لو وسعنا مفهوم هذه الآية لقلنا: إن الله يعلم حجم عملك وما خلف هذا العمل من نوايا، وما أمام هذا العمل من أهداف وما رافق هذا العمل من تضحيات، وما كان أمام العمل من عقبات، وما كان جانبه من صوارف، فهذا كله يعلمه الله عز وجل، فيا أيها المؤمن إنك لا تحتاج مع الله إلى إيصال ولا إلى سند ولا إلى قسم ولا إلى يمين ولا إلى شهادة حسن سلوك، لأن الله يعلم.

ثمرة الإيمان بعلم الله:

إذا أيقنت أن الله يعلم ابتعدت عن النفاق و الرياء، ولو أن أول الناس وآخرهم و إنسهم وجنهم أعطوك ولم يأذن الله لك بالعطاء لا يصلك شيء من ذلك، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر2)

ما الذي يدعو الناس إلى الذل و النفاق ؟ إنه الخوف على أرزاقهم، وما الذي يدعوهم إلى الخنوع ؟ إنه الخوف على أجالهم، فلو أيقن الإنسان يقيناً قطعياً أن الأرزاق والآجال بيد الله وحده ما راءى مراءٍ ولا نافق منافق ولا خنع إنسان ولا استذل، إن الله يعلم وإذا علمت أن الله يعلم اطمئن قلبك وانصرفت عن استجداء المديح، و الإنسان أحياناً قد يستجدي المديح ليحقق ذاته، فإذا كان عملك عند الله معروفاً ونيتك مكشوفة وهدفك نبيلاً وباعثك عظيماً، وكانت العقبات أمامك كثيرة والصوارف مغرية، ومع ذلك لزمت الحق وتمسكت به فإن الله يعلم حجم العمل وبواعث العمل وأهداف العمل، ويعلم التضحية التي رافقت العمل، ويعلم المشقة التي تحملتها من أجل هذا العمل والصعوبات والعقبات التي اعترضتك..

الإخلاص:

إن الإخلاص يعفيك من استجداء المديح والرياء و النفاق..

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ)

و هذه الآية نزلت للنبي عليه الصلاة والسلام، وبالتالي هي لكل مؤمن، فعبادتك عند الله معروفة، فهو وحده يعلم، فقد يصلي إنسان قيام الليل، فإذا كان ضعيف الإيمان رأيته يصلي قيام الليل ويملأ الدنيا صخباً وضجيجاً بهذا القيام، أما المخلص فيصلي قيام الليل ولا يتكلم إطلاقاً، فإن تكلم فلحكمة يريدها، كتشجيع الآخرين ليجعل من نفسه قدوة، وإن رأى أن في كلامه ذلك تحقيقاً للذة نفسية سكت لأن الله يعلم، ويجب أن تعلم أن الله يعلم، فإذا علمت أن الله يعلم أخلصت له، و استرحت من حالات كثيرة قد تصغرك عند الناس وعند الله

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ)

التأديب الإلهي:

إن الله ربك الذي يربيك ؛ يربي جسدك بإمداده بما يحتاج، و يربي نفسك بنقلها من حالة إلى حالة، وهو الذي يطهرها ويزكيها ويعرفها، فربنا عز وجل يطهر و يزكي، ويقول تعالى في الحديث القدسي عن العصاة:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب))

هذا هو تأديب الله للإنسان، و حينما سئل عليه الصلاة والسلام عن أدبه العالي قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

ولكل مؤمن من هذه الآية نصيب، فإن تكلمت كلمة ينبغي ألا تقولها أتاك التأديب ليقول لك: لا تعد هذه الكلمة، وإذا وقفت موقفاً لا ينبغي أن تقفه أتى التأديب قائلاً: لا تعد هذا الموقف، وإذا أنفقت نفقة لا ينبغي أن تنفقها أتاك التأديب وقال: لا تعد هذه النفقة، وإذا أمسكت إمساكاً لا ينبغي أن تمسكه أتاك

التأديب وقال: ينبغي ألا تعيد هذا الإمساك، وكذلك إن وصلت صلة لا ينبغي أن تصلها أو قطعت قطيعة ينبغي ألا تقطعها..، هذا هو تأديب الله عز وجل، إن ربك هو الذي يربيك ويربي جسمك، و يربي نفسك، و يربي عقلك، فهو الرب، و ما من اسم من أسماء الله عز وجل أقرب إلى الإنسان من اسم الرب، فالله هو الذي يمدنا.

منعكس المصّ:

إن هذا الطفل الذي يولد لتوه قد زوده الله بآلية معقدة جداً سماها العلماء منعكس المص، فتراه يضع فمه على ثدي أمه ويحكم الإغلاق ويسحب الهواء فيأتيه الحليب، و لو جئنا بأهل الأرض و علماء التربية و معلمي البشرية قاطبة فهل يستطيعون أن يعلموا هذا الوليد كيف يمص ثدي أمه ؟ مستحيل... لكن الله زودنا بهذا المنعكس، ولولا هذا المنعكس لما وجدتم أحداً في الأرض، هو ربنا الذي خلقنا وأعطانا نعمة الوجود و نعمة الإمداد ثم هدانا إليه، فالذي وصل إلى الله ينبغي أن يذوب شكراً لله أن خلقه وأمدّه وهداه إليه.

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ)

تصور أن هناك إنسان بعيد عن هذه الآية أو هذا الإدراك، إنه يعيش في متاهات، تراه يتكلم عن نفسه ويتبجح، ويتكلم عن الآخرين و يمدح نفسه و يدفع الناس إلى أن يمدحوه لأنه لا يعلم أن الله يعلم، أما إذا علم أن الله يعلم فإنه يعمل عملاً بينه وبين نفسه ولا يتمنى أن يطلع عليه أحد.. و لا يتمنى أن يتبجح إطلاقاً..

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

إنك حينما تعلم أن الله يعلم ترتاح من النفاق و الرياء و الخوف، فقد يخطئ الإنسان أحياناً، لكن نيته تكون سليمة، فهو ولا يقصد الذي فهمه الناس من عمله،فالله هو الحق ولأنه الحق يظهر الحق، و هو الحق يحق الحق ويظهره ويدافع عن أهل الحق، وهناك إنسان قال: الحمد لله على وجود الله، فالله موجود ويعلم، ويكفي أن تكون علاقتك بالله قوية، و يكفي أن تكون النوايا طيبة، و يكفي أن يكون قلبك سليماً، عندئذ لا تعبأ بأحد، أما البعيد عن هذا المعنى فهو موزع بين الناس، فإن أرضى زيداً أغضب عبيداً، وإن أغضب فلاناً أرضى علاناً، فتراه ساعة يمدح، وساعة يذم، وساعة ينافق، وذلك لأنه لا يعلم أن الله يعلم.

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

الآية الناسخة:

وقال بعض العلماء إن هذه الآية نسخت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2))

فإما أن حكمها نُسخ عن المسلمين وبقيت فرضيتها على رسول رب العالمين، وإما أن قيام الليل أصبح نفلاً وتطوعاً يفعله كل مسلم دون أن يكون ملزماً، و هناك شيء آخر في قوله تعالى:

(إِنّ رَبّكَ يَعْلَمُ أَنّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الّذِينَ مَعَكَ)

أهمية الجماعة المؤمنة:

إن هؤلاء كانوا مع رسول الله بأجسادهم و نفوسهم و أرواحهم و عبادتهم وإخلاصهم، لقد استشار النبي عليه الصلاة والسلام الأنصار حينما أرادوا أن يدخلوا معه في غزوة أحد فقال سيدنا معاذ: **(امض يا رسول الله لما أردت و نحن معك، و لو خضت هذا البحر لخضناه معك، وما تخلف منا رجل، صل حبال من شئت واقطع حبال من شئت، و أعط من شئت وامنع من شئت، وسالم من شئت وعاد من شئت، فوالذي بعثك بالحق للذي تأخذه من أموالنا خير لنا من الذي تدعه لنا، فسر على بركة الله).**

هكذا كانوا معه، و الشيء الدقيق أيها الأخوة أن الله تعالى قال:

(مُحَمّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَالّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفّارِ)

(سورة الفتح 29)

فالإنسان وحده لا يفعل شيئاً، أما الجماعة فمباركة، والإنسان وحده قد لا تحل مشكلته أما إذا كان مع أهل الحق فهو في بحبوحة الجماعة و الأنس و الاستقامة.

(إِنّ رَبّكَ يَعْلَمُ أَنّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الّذِينَ مَعَكَ وَاللّهُ يُقَدّرُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ)

الله يعلم.. ويقدّر..

إن الله عز وجل يعلم كم من الجهد بذلت، و كم من الوقت أمضيت، و كم من المشقة كابدت، و يقدر الليل والنهار.. فيقدر طول الليل و قصر الليل، و يقدر طول النهار و قصر النهار، و يقدر العمل الذي فعلته في الليل وقد اقتطعت من نومك، ويقدر العمل الذي فعلته في النهار وقد اقتطعت من راحتك وعملك.

(وَاللّهُ يُقَدّرُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ)

في هذا الآية كلمتان هما مركز الثقل فيها، **" إن ربك يعلم"** و **" يقدر"**، إنك قد تعلم ولا تقدر، وقد تقدر ولا تعلم، فقد يكون هناك إنسان عنده خبرة واسعة، فيقدر حجم التضحية ولكنه لم يعلم تضحيتك، وقد يكون هناك إنسان آخر علم أنك فعلت هذا ولكن لا يقدر هذا العمل، فهذا العمل ليس له قيمة عنده، فأنت بين إنسان يقدر ولا يعلم، أو يعلم ولا يقدر، و الأسوأ من هذين من لا يقدر ولا يعلم، لذلك كان من المشقات التي يعانيها الإنسان المشرك (المشرك شركاً خفياً) أنه يتمنى أن يعلم الناس عمله ولا يستطيع، و يتمنى أن يقدر الناس جهده ولا يرى أذناً صاغية ولا تقديراً ولا تقييماً ولا تثميناً، أما إذا كان

مخلصاً لله عز وجل فلا يعبأ بتقدير الناس ولا تثمينهم ولا مدحهم ولا ثنائهم، كما أنه لا يعبأ بذمهم، فمن عرف نفسه ما همّه ذمّ الناس له.

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

إن الإنسان أحياناً قد يكون نائماً من نصف ساعة، فيأتيه طارق بحاجة، فيستيقظ ويلبي هذه الحاجة، وقد يكون هناك إنسان آخر يوضع تحت نفس الموقف فلا يلبي، فقد تملك المال ولا تنفق، وقد لا تملك وتنفق، لكن الله يملك وينفق و يقدر.

قصة..

لقد سمعت قصة لا بأس من روايتها لكم: كان هناك رجل من أهل الغنى، فأراد أن يُنشئ مسجداً في أحد أحياء دمشق، فبحث عن أرض فوجد أرضاً مناسبة تصلح لمسجد، فسأل عن صاحبها فالتقى به، وصاحبها يعمل (آذن) في مدرسة ابتدائية وقد ورث هذه الأرض من أشهر ولا يملك من الدنيا غيرها، ودخله أقل من ثلاثة آلاف في الشهر، وعنده خمسة أولاد، وكان يسكن في بيت صغير جداً، ففاوضه على شرائها، واتفقا على السعر وكان السعر مناسب 3.5 مليون، فكتب له شيك بمليونين والباقي عند التنازل للأوقاف، قال له: ما علاقة الأوقاف، فقال: أريد أن أجعلها مسجداً، قال: أعطني هذا الشيك، فأخذه ومزقه وقال: أنا أولى بتقديمها لبيت الله، يقول هذا الرجل الغني: ما صغرت في حياتي كما صغرت أمام هذا الإنسان، إنه إنسان فقير لا يملك من الدنيا إلا هذه الأرض ن ودخله أقل من أن يكفيه، فما رضي أن ينافسه أحد على تقديم هذه الأرض لتكون بيتاً من بيوت الله، فقال: أنا أولى منك بتقديمها لله عز وجل.

إذا كان هناك إنسان معه مائة مليون واشترى أرضاً بثلاثة ملايين ونصف، فهل يكون أجره كأجر هذا الآذن ؟؟ لا والله، فرب درهم سبق ألف درهم، فدرهم تنفقه في إخلاص خير من ألف درهم في رياء.

فيا أيها الأخوة الكرام الإخلاصَ الإخلاصَ، بالإخلاص يرتقي عملنا، ونتصل بربنا، و لا نعبأ بالناس، ونحن لسنا مستهترين بهم طبعاً، ولكننا لا يعنينا مدحهم ولا ذمهم، فمن عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس فيه، فربك يعلم وهو يقدر حجم عملك، و يعرف أنك في ضائقة مادية وأعطيت هذا الفقير المؤمن مبلغاً و أنت في أمس الحاجة إليه، إنه يعلم ذلك، ويعلم أنك متعب جداً وأنك في أمس الحاجة إلى النوم، وأنك في إمكانك أن تصرف هذا الذي طرق بابك ولا تستجيب له، لكنك كابدت مشقة كبيرة وقدمت له خدمة عظيمة في هذا الوقت الصعب من الليل، إن الله يعلم الضغوط التي حولك، وكيف أنك تحملتها في سبيل الله، إن ربك يعلم الإغراءات التي أحاطت بك، وكيف أنك أعرضت عنها في سبيل الله، إن ربك يعلم أنك في خلوتك تخشاه، فقد يكون هناك إنسان في غرفته وحده لا أحد يراقبه، لا زوجة ولا ولد ولا

صديق ولا أحد، ففتحت نافذة أمام غرفته وخرجت امرأة متبذلة، فغض بصره عنها، فمن يعلم هذا العمل ؟ إنه الله جل جلاله، وقد يكون هناك طبيب من حقه أن يعالج امرأة وأن يكشف عن بعض جسمها، لكنه قد يختلس النظر إلى مكان لا تشكو منه، فمن الذي يعلم ؟ إن الله وحده يعلم:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر19)

كما أن المحامي قد يقول للموكل: إن الدعوى ناجحة، وهو يعلم علم اليقين أنها ليست ناجحة، والمواطن لا يعلم ذلك، لكن الله يعلم، فكلمة (يعلم) تعني: يعلم عملك بكل تفصيلاته و أبعاده و نهاياته و خلفياته وملابساته وتضحياته وصعوباته وعقباته و صوارفه، فلو أن حكومة أرادت أن تصنف الموظفين في عشر مراتب، كل مرتبة ثلاث درجات، فهناك ثلاثون درجة، وكل الموظفين لا بدّ أن ينزلوا في هذه الدرجات، والمراتب: ثلاثون درجة وعشر مراتب، أما الله عز وجل فعنده خمسة آلاف مليون إنسان، فهناك خمسة آلاف مليون درجة، فهو يحسب إخلاص كل واحد منهم وتضحيته و استقامته والضغوط التي يتحملها والمغريات التي تحيط به، فالله يعلم حجم عملك تماماً بكل أبعاده وخلفياته وبواعثه وأهدافه.

فقد يعمل الإنسان في التجارة، فيأتيه مال يتيم، وهو يستطيع - ولا يمكن لأحد على وجه الأرض أن يعلم - أن يضع هذا المال في صفقة غير معلوم ربحها، فيجس السوق عن طريقها، أما الصفقات المعلومة ذات الأرباح المحسوبة والبيع السهل فيضع فيها رأس ماله الأساسي ليستثمره ويقلبه إلى مال أوفر، أما في صفقة ربحها غير معلوم فنراه يقول فيها: أنا سأتّجر بمال اليتيم لئلا تأكله الزكاة، وذلك وفق كلام رسول الله، فهو يضع هذا المال في هذه الصفقة، فإن خسر يقول: ترتيب الله عز وجل، إنه قد جعل مال اليتيم ردءاً لماله، ومن يعلم ذلك ؟؟ لا يستطيع أحد في الأرض أن يعلم أنه جعل من هذا المال وقايةً لماله، ويقول: إذا ربحت هذه الصفقة ربحاً كبيراً فسأُدخل مالي عندئذ في هذه البضاعة، وإذا لم تربح أكون قد عرفت السوق ولم أُضَر، فمن من يعلم حقيقة ما فعلت ؟ الله وحده يعلم ذلك.

وهناك أعمال كثيرة من هذا القبيل.. فإذا قال طبيب لمريض: أريد هذا التحليل لتشخيص مرضك، وهو لا يحتاج إلى تحليل، و لكن كان في باله شيء، فمن يعلم ذلك ؟ لا يعلمه إلا الله، إن كل حركاتك وسكناتك وأعمالك في علم الله مكشوفة، و الله عز وجل يعلم سرّ ك ويعلم جهرك ويعلم ما خفي عنك، قال تعالى:

(فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه7)

فما خفي عنك يعلمه، وإذا أيقنت أن الله يعلم تأدبت معه كثيراً، وأخلصت له كثيراً واستقمت على أمره، ونفعت عباده، ووقفت عندك حدك، فالقضية المهمة جداً هي أن تعلم أن الله يعلم، أما هذا الذي يخادع الله فإن الله خادعه، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء 142)

أيها الأخوة الكرام... يجب أن تعلموا علم اليقين أنه لا يمكن لحد أن يخدع الله عز وجل، و بالمقابل لا يمكن للإنسان أن يخدع نفسه، لقوله تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة14-15)

أما ما سوى الله عز وجل و نفسك التي بين جنبيك، فبإمكانك أن تخدعه،فقد تخدع بعض الناس لوقت طويل أو قصير، أما أن تخدع كل الناس طول الوقت فهذا مستحيل، لأن الله عز وجل لا بدّ أن يكشف الحقائق، فهو لا يهدي كيد الخائنين، فأي خيانة على وجه الأرض لا بدّ من أن تفتضح، فتعامل مع الله بإخلاص وصدق وطاعة وإقبال عليه...

(وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ)

لقد علم أن في الناس من هو مريض متعب، وأن هناك من له جهد كبير في النهار والليل قصير، وعلم أن المسلمين لن يستطيعوا أن يصلوا قيام الليل دائماً، فقد يصلونه في الشتاء وفي بعض أيام الصيف، لكن لو جعله فريضة لكان مشقة علينا، والله سبحانه وتعالى جعله في أول الأمر فريضة على الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى أصحابه، ثم جعله فرضاً عليه ونفلاً على المسلمين وهذا من أنهج الأقوال.

علم أن لن تحصوه ؛أي: لن تستطيعوا قيام الليل دائماً، فتاب عليكم، فكانت هذه الآية ناسخة لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2))

معاني الآية:

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ)

1- المعنى الأول: فاقرؤوا في الصلاة ما تيسر من القرآن، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقرأ مائة آية في صلاة الليل، فهنا الآية تخفيفية أيضاً ؛ أي اقرأ بحسب طاقتك وإقبالك، و القرآن هنا هو الصلاة ؛ أي: صلّ ما تيسر لك من الصلاة، لقوله تعالى:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً(78))

(سورة الإسراء)

و قرآن الفجر هنا هو صلاة الفجر، سميت الصلاة هنا باسم بعض أجزائها، فإذا قلت فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ؛ يعني: فصلوا ما تيسر لكم من الصلاة، و هذا معنى.

2- المعنى الثاني: فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ؛ أي: اقرؤوا في الصلاة ما تيسر لكم، فالإنسان له إقبال وله فتور، فإذا كنت مقبلاً فأدّ الفروض والنوافل، وإذا كنت في فتور فاكتف بالفرائض، ومعنى قوله تعالى:

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى)

فالمريض لا يستطيع أن يصلي قيام الليل.

(وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللّهِ)

و هؤلاء الذين يسافرون ليكتسبوا المال قد ورد ذكرهم في القرآن الكريم، فقد ينقطع الرزق في بلدك كلياً، فتسافر كي تبحث عن رزق و عمل، فهذا السفر في سبيل الرزق.

أنواع السفر:

أيها الأخوة... كلكم يعلم أن أعظم أنواع السفر هو الجهاد في سبيل الله، ويأتي بعده طلب العلم، ويأتي بعده الفرار بالدين، ويأتي بعده كسب الحلال، ويأتي بعده السفر المباح الذي لا معصية فيه، وبعد ذلك سفر من نوع المعصية فيعاقب صاحبه أشدّ العقاب، فهذه السياحة التي يخالطها المعاصي والآثام والفجور هي من المحرمات.

(عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللّهِ وَآخَرُونَ)

الراحة في المسجد:

تعلمون أيها الأخوة أن الإنسان إذا دخل المسجد يقول: (اللهم افتح لي أبواب رحمتك) ففي المسجد قد تأتيك الرحمة و السكينة و التجلي،و قد تشعر أنك في ظل الله و ضيافته وأنت في بيته، فالذي يأتيك في الصلاة و الذكر و قراءة القرآن و الاستماع إلى درس العلم هو راحة نفسية و شعور بالأمن و شعور بأن الله راضٍ عنك، وهذا من فضل الله عز وجل في المسجد، فإذا دخلت المسجد فقل: (اللهم افتح لي أبواب رحمتك)، أما إذا خرجت من المسجد فأنت بحاجة إلى عمل و قضاء حاجة و تأمين طعامك وشرابك فقل: (اللهم افتح لي أبوب فضلك).

(عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ)

الحديث في هذه الآية عن المجاهدين، وقد استنبط بعض العلماء أن جَمْع الله هؤلاء مع هؤلاء يعني إمكانية جمع السفر في كسب الرزق الحلال والسفر في سبيل مجاهدة الأعداء فالعمل أيضاً عبادة، لأن الجمع يقتضي المشاركة فقد قال تعالى مثلاً:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء 23)

فالله عز وجل رفع برّ الوالدين قريباً من عبادة الله عن طريق هذا العطف، و العطف يقتضي المشاركة، و ربنا عز وجل يقول:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

(سورة محمد5)

فقد جعل صلاح البال قريباً من الهدى، و جعل برّ الوالدين قريباً من عبادة الله، كما جعل الضرب في الأرض ليبتغي من فضل الله قريباً من الجهاد في سبيل الله.

(وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

لأن فيكم مرضى و مسافرون ومجاهدون، فقال:

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ)

أي: القرآن، وذلك يعني: صلِّ قيام الليل واقرأ ما تيسر لك من القرآن، أو صلِّ خمس أوقات في رأي بعض المفسرين.

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

إن إيتاء الزكاة معروف، وقال بعضهم في بعض التفاسير: -وهذا من التفسيرات الوجيهة _ إنه مطلق العمل الصالح يعني: اتصل بالله وأحسن إلى الخلق، فالدين كله اتصال بالخالق وإحسان إلى المخلوق، و هناك حركة نحو السماء هي اتصال بالله وحركة نحو الأرض هي خدمة الخلق وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

(سورة مريم31)

وجوب تلازم الإيمان والعمل الصالح:

الزكاة هنا فسرت تفسيراً واسعاً، و الآية تعني الزكاة و الصدقة، كما أن خدمة الخلق تعنيها الآية كذلك، فيجب أن يكون لك عمل صالح وطيب، فما قيمة الصلاة من دون عمل طيب وصالح ؟؟ بل ما قيمة العمل الصالح من دون صلاة ؟؟ لقد أصبح سلوكاً زكياً، وهناك أشخاص كثيرون لم يؤمنوا بالله إطلاقاً ولكن لهم أعمال طيبة، فهذه الأعمال ينتزعون بها إعجاب الآخرين ويحققون بها مصالحهم، و ليس هذا العمل هو المقصود، فلا بدّ من اتصال بالله وعمل صالح، وكلاهما شرط لازم غير كافٍ، فالاتصال بالله يسمو بعملك، والعمل الصالح يرقى بإيمانك، والعمل يزداد بالإيمان، والإيمان يثمن بالعمل الصالح، قال تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

وهذا يشمل أي عمل صالح على الإطلاق مع أي مخلوق كان، ولو أطعمت هرة، أو خلّصت نملة من الغرق، أو نزعت قشة من أرض المسجد، وهو أي عمل صال مهما بدا لك صغيراً، مع أي مخلوق من حيوان أو بهيمة، كأن تذبح حيواناً مؤنساً ذبحاً سريعاً، فتضربه ضربة واحدة لتحسن قتله، أو تطعم مسكيناً، وأو ترعى يتيماً، أو تكون أباً جيداً أو زوجاً مثالياً، أو ابناً باراً، أو جاراً مسلماً محسناً صادقاً، أو أن تكون متقناً في عملك، صادقاً في حرفتك، تقرض الناس قرضاً.. تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. تدعو إلى الله.. تصلح بين زوجين، فأي عمل صالح مع أي مخلوق يجب أن تعلم أنه قرض لله تعالى، فالمقترض هو الله.

وقد يقول لك شخص: هذه المعروف لا يضيع معي أبداً، فقد تخدم خدمة لابنه، أو تقدم له خدمة ثمينة أخرى، أو تعاونه في مشكلة، أو تخلصه من ورطة مع الإنسان، فهذا المعروف لا يضيع معه، فكيف مع الواحد الديان ؟؟ هذا قرض حسن.

قصة:

لقد ذكرت مرة قصة عن طبيب رأى امرأة شابة جاء زوجها إليه، وكان معها ورم خبيث في الحنجرة، و حالتها ميئوس منها، وقد زاروا جميع البلاد المحيطة ببلدنا للعلاج، ولم يكن هناك أمل أبداً، فالطبيب أعلمه أنه لا يوجد أمل، ثم قال له: أتسمح لي أن أجرب شيئاً ولا أبغي مقابله شيئاً، لقد قال لي: عالجتها في ستة أشهر معالجة مضنية، كل يوم بالأشعة، فتراجع المرض قليلاً قليلاً ثم شفيت منه تماماً، وهي قصة طويلة ولكن هذا ملخصها، قال لي: إن زوج هذه المرأة من ثلاثين عام يأتي كل عام ويقدم لي الهدايا الثمينة وأقول له: يا أخي والله خجلت منك ما قدمت لك شيء، فقال له: لو مت أنا لتابع أولادي من بعدي هذا العمل، لأن هذا الفضل لا يُنسى، فإنسان عنده شيء من الوفاء لم ينس فضل طبيب من ثلاثين سنة، فكيف بالله عز وجل ؟ إنك إذا كنت في خدمة عباده، أو عرّفت عباده به، ومسكتهم بالحق وأسعدتهم بطاعته كنت مصدر أمن لهم، فالله عز وجل شكور، يشكر أي عمل صالح، فقد يكون هناك إنسان خدم المسجد فنظف السجاد وغير ذلك، فأي عمل صالح هو قرض لله عز وجل، وهناك آية أخرى تقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

(سورة البقرة 245)

فتاجرْ مع الله عز وجل لأن الأرباح مع الله تفوق الخيال، فالإنسان قد يربح عشرين بالمائة، فيقول لك: وفقنا في هذه الصفقة، فإذا اتجرت مع الله كنت أسعد الناس، لذلك:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ)

أي: لن تجدوه بحجمه الحقيقي، بل سيضاعفه لكم أضعافاً كثيرة، أما أن تخسر شيئاً مع الله فهذا غير ممكن، كأن تدفع مبلغاً من المال ولا تجده يوم القيامة، أ، تمضي وقتاً في طاعة الله ولا تجد ثمرته، هذا مستحيل:

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ)

كل عمل مادي فيه تضحية أو تضيع وقت أحياناً فيه مثوبة من عند الله، فكل إنسان له بيت يرتاح فيه، وقد تكون أنت قد أتيت من مكان بعيد، وركبت سيارتين، وجلست على ركبتيك، واستمعت إلى درس علم فهذا عمل طيب، ولن لن يترك الله عملك و لن يضيعه عليك.

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ)

كل عمل صالح لك أجره، فإذا رعيت يتيماً، أو كانت لك أخت عانس فسكنت معك وأكرمتها وهيأت لها الجو المريح، وحفظت لها كرامتها فلن يضيع هذا العمل، وإذا كان لك أب متقدم في السن فتحملت كثيراً من ضغوطه و كنت راضياً بهذا فلن يضيع هذا العمل، وإذا كان هناك إنسان عنده ولد معاق أو عنده مشكلة، فأي عمل صالح بكل ملابساته محفوظ عند الله عز وجل.

من عمل صالحاً سرّه اللحاق به...

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ)

فإذا قدم الإنسان خير سره اللحاق به، و الحقيقة أن الموت تحفة المؤمن و عرسه لماذا؟ لأنه كان في كل حياته يقدم أعماله أمامه، فأكبر شيء يسره أن يلحق بها، فهو كالذي يرسل ماله إلى بلد معين، فأكبر شيء يسره أن يلحق بماله ليستمتع به في هذا البلد، وهذا شيء واضح جداً، فالمؤمن يعمل للآخرة لذلك ينفق ماله ووقته، وقد يتعب في عباداته، وقد يتعب في ضبط جوارحه لكن كله محفوظ، قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة18)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم35-36)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية21)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص61)

أنت تتعامل مع خالق الكون، وكل شيء عند الله مسجل، قال تعالى:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف49)

فتاجر مع الله عز وجل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(11))

(سورة الصف10-11)

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً)

ورد في بعض الأحاديث أن الإنسان قد يطعم لقمة فيجدها يوم القيامة كجبل أحد، وقد يتكلم كلمة حق فيجدها عظيمة عند الله تعالى، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(25))

(سورة إبراهيم24-25)

تكلم بكلمة حق، أو نصح نصيحة، أو دعا إلى الله، أو أراد أن يعلم الناس القرآن، إنه لا يعلم إلا الله مقدار ما ينتظره من سعادة، بل إن الله عز وجل يقول:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة17)

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

(صحيح البخاري)

ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، فقد أعطاها لمن يحب ولمن لا يحب، بل إنه أعطاها لمن لا يحب أكثر ممن يحب.

(وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

إن الماضي يغطى بالمغفرة، والمستقبل يغطى بالعمل الصالح، فإن قدمت العمل الصالح ضمنت المستقبل والماضي بالمغفرة، فاستغفروه لما بدر منكم إن الله غفور رحيم.

مراكز ثقل الآية:

إن هذه الآية الأخيرة من سورة المزمل فيها مراكز ثقل:

1- المركز الأول: إن ربك يعلم، فيجب أن تعلم أن الله يعلم، وأن الله يقدر عملك، فهو يعلم ويقدر.

2- المركز الثاني: الله عز وجل خفف عن عباده بعض العبادات التي قد تشق عليهم، وجمع بين الجهاد في سبيل الله و كسب الرزق الحلال، ثم إن الله سبحانه وتعالى قال: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ؛ يعني:

أقيموا الصلاة التي تتبعها الزكاة يعني العمل الصالح، فلا معنى لصلاة دون عمل صالح، كما أن العمل الصالح بدون صلاة لا قيمة له.

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

كل أعمالكم تجاه المخلوقات هي قرض حسن لله عز وجل.

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (1-8): تفسير الآيات1-4 الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-12-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة المدثر:

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

التحبب إلى الآخرين:

كأن الله سبحانه وتعالى ـ كما قلت في درسٍ سابق ـ حينما يخاطب بأسلوب اللغة العربية، بأسلوب البلاغة العربية، حينما تخاطب إنساناً بحالةٍ متلبّسٍ بها فهذا من باب التَحَبُّب، ومن باب الاستلطاف، ومن باب الإيناس، وقد ذكرت لكم تأكيداً لذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان سيدنا عليٌّ رضي الله عنه مُضَّجعاً على الأرض وقد تأثّر بتراب الأرض، قال: **قُمْ يا أبا تُراب**، كان مخاصماً للسيدة فاطمة، أراد النبي أن يتحبب إليه، وأراد أن يتلطّف به، وأراد أن يؤنسه فقال: **قُمْ يا أبا تُراب.** فحينما تخاطب إنساناً بحالةٍ متلبّسٍ بها فهذا من باب التحبُب، من باب الاستلطاف، من باب الإيناس.

الدعوة إلى الله فرض عين:

النبي عليه الصلاة والسلام تدثّر بثيابه فقال الله له:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

أي انتهى وقت الراحة، وقد سمعتم من قبل أن السيدة خديجة رضي الله عنها طَلَبَت من النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن جاءه الوحي من السماء أن يأخذ قسطاً من الراحة، فقال لها:

((انتهى عهد النوم يا خديجة))قد يقول أحدكم: ما علاقتنا بهذا ؟ علاقتنا بهذا علاقة متينة، كل واحدٍ منّا مكلّفٌ بعبادة الله، كل واحدٍ منّا مكلّفٌ بالدعوة إلى الله، كل واحدٍ منّا مكلفٌ بنشر هذا الحق، نشر الحق فرض عين، طالبوني بالدليل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: آية " 108 ")

فإن لم تدعُ إلى الله فأنت لست متبعاً لرسول الله، وقد قال الله عزّ وجل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31))

(سورة آل عمران)

الجهاد الدعوي أعلى أنواع الجهاد:

مما يؤكِّد حُبَّك لله أن تتبع رسول الله، ومن اتباع رسول الله أن تدعو إلى الله على بصيرة، والإنسان الذي لا يجد في نفسه رغبةً في أن ينشر الحق، أو أن يدعو إلى الله، أو يشيع الفضيلة في المجتمع ؛ هذا إنسان يموت على ثُلْمَةٍ من النِفاق، لأنه كما تعلمون كلمة الجهاد يخطئ الكثيرون حينما يحصرونها بالجهاد القتالي، جهاد النفس والهوى في بعض الأحاديث الصحيحة من أعلى أنواع الجهاد، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى، والجهاد الدعوي من أعلى أنواع الجهاد.

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

(سورة الفرقان)

سمّاه الله جهاداً كبيراً أن تتعَلَّمَ وتُعَلِّم، أن تأخذ وتعطي، أن تتلقى وتُلقي، أن تُسهم في نشر الحق، أن تسهم في تعريف الناس بربهم، أن تسهم في حملهم على طاعته، أن تُسهمَ في إسعادهم بالقرب منهم، هذه أكبر مهمة، إنها صنعة الأنبياء.

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

(سورة فصلت)

إقناع الناس بالحق في حدود ما نعلم:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

المؤمن ينبغي أن يُفَكر ؛ كيف آخذ بيدِ أولادي ؟ كيف أقنع زوجتي بالحق ؟ كيف أقنع أولاد إخوتي ؟ كيف أقنع جيراني من حولي ؟ طبعاً الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم.

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

(مسند أحمد: عن عبد الله بن عمرو)

وفي حدود من تعلم ؛ من حولك، أقرباؤك، جيرانك، زملاؤك، أقرب الناس إليك هؤلاء الذين أنت مكلفٌ بدعوتهم إلى الله، أما إنسان يعيش عُمُراً مديداً لم يحدث نفسه بالجهاد الدعوي ولا مرة يموت على ثِلمةٍ من النفاق، لأن الجهاد كما تعلمون وكما وصفه النبي عليه الصلاة والسلام:

((ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّه))

(مسند أحمد: عن معاذ بن جبل)

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1))

تحبباً، وإيناساً، وتلطفاً.

مسؤوليتك تجاه الآخرين:

(قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

ويا أيها المؤمن هل فكّرت في الدعوة إلى الله ؟ قالوا: الإنسان قد يقرأ كتاباً، قد يقرأ قصةً ممتعةً يمضي بها وقتاً لطيفاً، بعد أن تنتهي قراءتها يتثاءب وينام، لكنك أحياناً تقرأ قصةً أو كتاباً، كتاباً في العقيدة أو كتاباً إسلامياً تنتهي من قراءته فتبدأ متاعِبُك لأن هذا الكتاب وضعك أمام مسؤوليّاتك، وضعك أمام سرّ وجودك وغاية وجودك، وضعك أمام رسالةٌ مكلفٌ بحملها، وضعك أمام مهمةٍ لا بدّ من أن تؤَدِّيها، فإذا قرأت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1))

قل: ما علاقتي أنا بهذه الآية ؟ علاقتك بهذه الآية هل تعلّمت وعَلّمت ؟ هل قرأت القرآن وأقرأته ؟ هل تعلّمت القرآن وعَلّمته ؟ هل نقلت عن رسول الله حديثاً ؟ هل بلّغت الناس حُكماً فقهياً ؟ هل رويت للناس قصة صحابيٍّ أحبَّ الله عزّ وجل وبذل في سبيله الغالي والرخيص ؟ ماذا فعلت ؟ نأكل ونشرب !!

للإنسان وجودان:

1 ـ وجود حيواني:

أيها الأخوة: ـ دققوا في هذا المعنى ـ الإنسان له وجود إنساني، وله وجود حيواني، فالإنسان حينما يكتفي بالطعام والشراب والتنفُّس والنوم، وإنجاب الأولاد والتمتُّع بمباهج الحياة الدنيا، ماذا فعل هذا الإنسان ؟ ما حقق إلا وجوده الحيواني فقط، قد تسأله: أيعقل أن يكون هذا ؟ ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

هذا كلام الله عزّ وجل، قال:

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف: آية " 176 ")

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة: آية " 5")

أبلغ من ذلك:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون: آية " 4)

الإنسان أحياناً يرى دابة تُفاجأ بحفرة تحيدُ عنها، ترى ناراً مضطرمة فتبتعد عنها، يوجد نوع من الإدراك، أما الخشب المسندة هل تبتعد عن النيران ؟ الله عزّ وجل وصف هؤلاء:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة: آية " 5")

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف: آية " 176 ")

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

هذا الوجود الحيواني ؛ أكل، شرب، تنفس، زواج، استمتاع وإنجاب أولاد، عمل شاق، نوم، وجود حيواني.

2 ـ وجود إنساني:

أما الحاجة العُليا في الإنسان من هنا إلى فوق ؛ إدراك، معرفة، طلب العلم، تعليم العلم، تحقيق سر وجودك، تأكيد ذاتك، نشر الحق، إشاعة الفضيلة بين الناس، هذا وجود إنساني لا يليق بك أن تَهْبِطَ عن وجودك الإنساني إلى وجودٍ حيواني، لا بدَّ من أن تحمل رسالة، لا بدَّ من أن تنقل الحق، لا بدَّ من أن تتعلّم وتُعَلِّم، تتلقى وتُلقي، أن تتعلم القرآن وأن تُعلمه، لا بدَّ لك من عملٍ صالح.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1))

تحبباً، واستلطافاً، وإيناساً..

(قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

خدمة الخلق عن طريق النصيحة و المودة:

فأكثر نشاط الإنسان يَتَمَحْوَر حول مصالحه، أما أن يخرج الإنسان من بيته لطلب العلم، لزيارة مريض، لدعوة أخٍ إلى الله، لخدمة شخص دون أن تكون له مصلحة لا من قريب ولا من بعيد إلا ابتغاء وجه الله، هذا الذي أتمنّاه على كل مؤمن أن يخرج من ذاته إلى خدمة الخلق.

(قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

بالنصيحة، بالمودة، بالتلطُّف، تزوره في بيته، تقدِّم له هدية، تعاونه، تحل له مشكلة ثم تأخذ بيده إلى الله.

((يا علي وَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجُلا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

(سنن أبي داود عن سهل بن سعد)

((يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس))

((.... خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

توجد شركات مبيعاتها السنوية أربعمائة مليار دولار.

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس، خيرٌ لك من حُمُر النعم، خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1))

أي أن هذا التوجيه من باب علاقتنا بالآية، تسميه تطبيق عملي جيد، تسميه مغزى جيد:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)

نصيحة أقرب الناس إليك لأنك ستسأل عنهم:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214))

(سورة الشعراء)

أقرب الناس إليك أولادك، زوجتك، إخوتك، أخواتك، أعمامك، أخوالك، جيرانك، زملاؤك، أصدقاؤك، هؤلاء الذين هم حولك، ألا تنطق بكلمة حق أمامهم ؟ ألا تأخذ بيدهم إلى الله ؟ ألا تشعر أن الله سيسألك عنهم ؟

((إن الله يسأل العبد عن صحبة ساعة))

يقول عليه الصلاة والسلام:

((بينما أنَا أمْشِي إذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإذَا الْمَلَكُ الّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السّمَاءِ وَالأرْضِ فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَأنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى (يَا أيُّهَا الْمُدّثّرُ قُمْ فَأنْذِرْ) إلَى قَوْلِهِ (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)))

(صحيح البخاري عن جابر عبد الله الأنصاري)

إيناساً له، تحبباً إليه، تقريباً له، تلطفاً به.

(يَا أيُّهَا الْمُدّثّرُ (1) قُمْ فَأنْذِرْ (2) وَرَبّكَ فَكَبّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

وجاء في صحيح مسلم:

((عَنْ يَحْيَى بْنِ أبي كَثِيرٍ الْمَعْنَى قَالَ: سَأَلْتُ أبَا سَلَمَةَ أيُّ الْقُرْآنِ أنْزِلَ قَبْلُ؟ فَقَالَ: يَا أيُّهَا الْمُدّثّرُ، قَالَ يَحْيَى: فَقُلْتُ لأبي سَلَمَةَ أو اقْرَأ، فَقَالَ: سَأَلْتُ جَابِرًا أيُّ الْقُرْآنِ أنْزِلَ قَبْلُ ؟ فَقَالَ: يَا أيُّهَا الْمُدّثّرُ، فَقُلْتُ: أو اقْرَأ ؟ فَقَالَ جَابِرٌ أحَدّثُكُمْ مَا حَدّثَنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ: جَاوَرْتُ بِحِرَاءَ شَهْرًا فَلَمّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أرَ أحَدًا ثُمّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أرَ أحَدًا ثُمّ نُودِيتُ قَالَ: فَرَفَعْتُ رَأسِي فَإذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ (أي جبريل عليه السلام) فَأخَذَتْنِي وَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ وَقَالا فِي حَدِيثِهِمَا: فَأتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ دَثّرُونِي فَدَثّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيّ مَاءً فَأنْزَلَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ (يَا أيُّهَا الْمُدّثّرُ قُمْ فَأنْذِرْ وَرَبّكَ فَكَبّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهّرْ)))

(مسند أحمد)

الصفات التي نعت بها الكفار سيدنا محمد:

1 - مجنون:

شيءٌ آخر متعلقٌ بهذه الآية: اجتمع أبو لهبٍ وأبو سفيان والوليد بن المغيرة في أيّام الحج وهم يتساءلون عن أمر محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وقد اختلفوا في الإخبار عنه فمن قائلٍ: مجنون ؟ وقد يسأل سائل كيف ربنا جلّ جلاله أثبت في القرآن الذي يُتلى إلى يوم القيامة، أثبت قول الكُفّار فيه ؟

(مَا أنْتَ بِنِعْمَةِ رَبّكَ بِمَجْنُونٍ (2))

(سورة القلم)

لأنه قدوةٌ لنا صلى الله عليه وسلم، الإنسان إذا دعا إلى الله أو عمل صالحاً الطرف الآخر لا يرضى عن ذلك، فقد يتهم الطرف الآخر من دعا إلى الله أو من عمل صالحاً بتهمٍ هو منها بريء، فتطيباً لقلب

كل من دعا إلى الله إلى آخر الزمان أثبت الله قول الكفار في سيّد الخلق وحبيب الحق، قالوا: مجنون، وقال آخرون: كاهن، وقال آخرون: شاعر، وتَعْلَمُ العرب أن هذا كلّه لا يجتمع في رجلٍ واحد، فَسَمّوا محمداً باسمٍ واحد، اتفق أهل الكفر والعصيان على توحيد النعت الذي يُنعَتُ به النبي أي مجنون، شاعر، كاهن.

هذه الصفات الثلاثة لا تجتمع في واحد فاتفقوا على أن ننعت محمداً بنعتٍ واحد يجتمعون عليه وتسميه العرب به.

2 ـ شاعر:

قام منهم رجل فقال: هو شاعر، فقال الوليد بن المغيرة: كلامُه ما يشبه كلام الشعراء، كلام محمدٍ شيء وكلام الشعراء شيءٌ آخر.

3 ـ كاهن:

قالوا: إذاً هو كاهن، فقال: الكاهن يصدُقُ ويكذب وما كذب محمدٍ قط.

قام آخر وقال: مجنون، فقال الوليد: **المجنون يخنق الناس وما خَنَقَ محمدٌ أحدٌ قط**، وانصرف الوليد إلى بيته، فقال خصومه: صبأ الوليد بن المغيرة أي إنه أسلم لأنه دافع عن النبي، نفى عنه الشعر، نفى عنه الكهانة، نفى عنه الجنون.

4 ـ ساحر:

دخل أبو جهل على الوليد بن المغيرة و قال: ما لك يا أبا عبد شمس هذه قريش تجمع لك شيئاً يعطونك إيّاه زعموا أنك قد صبأت، فقال الوليد: **" ما لي إلى ذلك حاجة ولكنني فكّرت في محمدٍ فقلت: ما يكون من السحر، فقيل: يفرق بين الأب وابنه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلت: إنّه ساحر".**

أي بعد ما لامس الحقيقة، بعد أن قال الصواب وجد أنه سيفقد مكانته بين مجتمعه فعاد وانتكس وقال: إنه ساحر، وصاحوا يقولون: إن محمداً ساحر، ويرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته محزوناً مُتَألِماً أشدّ الألم تدثر بقطيفةٍ ثم نزل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1))

النبي بشر، لولا أنه بشر وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيّد البشر تألّم هو رسول الله، هو بين أن يكون مجنوناً، أو كاهناً، أو شاعراً، ثم اتفقوا على أنه ساحر لأنه يفرق بين المرء وأهله، كيف يُفَرّق ؟ الرجل يؤمن وامرأته لا تؤمن، تنشأ هوةٌ بينهما، الأخ يسلم و الأخ الثاني لا يسلم.

حساسك بالغربة بين عامة الناس علامة إيمانك:

وأنت الآن: إن لم تشعر بغربةٍ وأنت بين عامّة الناس فأنت بعيدٌ عن الإيمان لأن:

((هذا الدين بدأ غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء))

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)

أناسٌ صالحون في قوم سوءٍ كثير، إحساسك بالغربة علامة إيمانك، إن جلست بين أهل الدنيا، بين من شغلتهم الدنيا، شغلتهم أهواؤهم، شغلتهم شهواتهم، شغلتهم مصالحهم عن طلب العلم، وعن معرفة الله، وعن طاعة الله عزّ وجل، هؤلاء ضاعوا فإن استأنست بهم فأنت مثلهم، الإحساس بالغربة من علامة الإيمان، والعلماء قالوا: **" المؤمنون في غربةٍ مع غير المؤمنين، والموَحِّدون في غربة مع عامّة المؤمنين، والسالكون إلى الله في غربةٍ مع غير السالكين ".** كلّما ارتقيت في الإيمان شعرت أن الذين حولك ليسوا على مستواك، هذا نوعٌ من الغربة.

الشيء الذي أكّدته لكم قبل قليل:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1))

صفات المؤمن في الدعوة إلى الله:

ملاطفة في الخطاب، إيناس، تَحَبُّب إلى الله عزّ وجل، تكريم لهذا النبي وتذكير لمهمّته الكبيرة.

(قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

لذلك أيها الإخوة: من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلّها. اعمل لوجهٍ واحد يكفيك الهموم كلها. حينما ينشأ في نفسك رغبةٌ في نشر الحق هذا همٌ مقدّس عندئذٍ الله جلّ جلاله يوفِّقك ويؤيّدك، ويَدْعَمك ويطلق لسانك، ويهبك الحكمة التي هي أثمن شيء.

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة: آية " 329 ")

معنى قم فأنذر:

(قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

أي أنذر أهل مكة وحذِّرهم العذاب إن لم يسلموا، وأنذرهم أي أعلمهم أنك نبيٌّ من عند الله وأنَّك رسول الله، وأنك تحمل رسالة، وقال: أنذرهم أي ادعوهم إلى التوحيد لأنه المقصود بالدين، وقال بعض العلماء: **"قم فأنذر، أي قم فصلي و ائمر بالصلاة ".**

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر:

بالمناسبة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفريضة السادسة، وهذه الأمة المحمّدية التي استحقت أن تكون خير أمةٍ أخرجت للناس، علّة هذه الخيرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن لم يأمر بالمعروف ومن لم ينهَ عن المنكر فقد عطّل فريضةً من أجلّ الفرائض وعندئذٍ الحق يصغُر ويتقلّص ويضعُف والباطل ينمو.

ضربت مرة مثلاً: لو أنَّك عم وزارتك بنت أخيك فلم يعجبك مظهرها، ولا خروجها في هذه الثياب، لو بقيت ساكتاً فأنت قصَّرت بواجبٍ دينيّ كبير، أما لو نصحتها وبيَّنت لها صفة المرأة المؤمنة المسلمة، وكيف أن الاحتشام يزيدها قرباً من الله عزّ وجل، وكيف أن الأمر بيد الله، وأن زواجها بيد الله، وأنها إذا أطاعت الله عزّ وجل فقد فازت فوزاً عظيماً، ربما تأتيك في المرة الثانية بثياب محتشمة، وربما يغدو الاحتشام سلوكاً لها ثابتاً، تكلم، بين حكم الله.

أحياناً الإنسان يُدعى إلى طعام وعليه خمر ماذا يقول ؟ يقول لك: أنا معي القرحة لا أقدر أن أشرب الخمر، يا أخي قل: أنا مسلم وهذا محرَّم عندنا، أتستحي من دين الله عزّ وجل ؟ بيّن وضح استقيموا يُستقم بكم.

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3))

(سورة المدثر)

أي عظِّم، ما هو التسبيح ؟ هو التنزيه، وقال بعضهم: **" هو التمجيد ".** وقال بعضهم: **" هو الخضوع".**

تعظيم الله و تكبيره:

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3))

أي إن الله أجلّ وأكبر مما تصفون، أجلّ وأكبر أن يظلم العباد، أجل وأكبر أن يكون مِثْلَ عباده ليس كمثله شيء، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، أي عظم.

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32))

(سورة الحج)

أي هو أكبر من أن يكون له صاحبةٌ وولد، قالوا: الملائكة بنات الله، هو أكبر من ذلك، فكلما كَبَّرته كلما عرفته، كلما اقتربت منه، وقد سأل الصحابة الكرام بما نفتتح الصلاة ؟ فنزل قوله تعالى:

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3))

أي صِفْهُ بأنه أكبر، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا صلى يقول:

((الله أكبر))

ومعنى الله أكبر أي أكبر من أي شيءٍ يشغلني عنه.

إذا الإنسان كان يعد مئة ألف ليرة وشعر أن هذه الحاجة مائلة فترك العد وجعلها مستقيمة، هل يفعل هذا ؟ هذا شيء سخيف جداً أنّ الحاجة مائلة ليست متوازية مع طرف الطاولة، إنه يعد مالاً، لا يوجد إنسان أثناء العد ينام، إنه يقبض مبلغاً، أو يدفع مبلغاً، إنه في يقظة، ولكن الإنسان إذا صلى وقال: الله أكبر يعني الله أكبر من أي شيءٍ يشغلني عنه، من أي شيءٍ في الدنيا يشغلني عنه.

تطبيق الله أكبر قولاً و فعلاً:

شيءٌ آخر: روي أن أبا سفيان قال يوم أحد: اعلُ هُبَل. أي يكبرون أصنامهم اعلُ هُبَل، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: قولوا:

((الله أعلى وأجل))

وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع تكبير العبادات كُلِّها ؛ آذاناً، وصلاةً، وفي أكثر العبادات. الآن عند ذبح الأضحية نقول: الله أكبر، عند تقبيل الحجر الأسعد: الله أكبر. عند الآذان: الله أكبر. عند الصلاة: الله أكبر.

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3))

لكن ليس المقصود أن تقول: الله أكبر فقط. فأنا مرة في خطبة العيد قديماً ذكرت أن الإنسان إذا أطاع مخلوقاً وعصى خالقاً لو قال بلسانه الله أكبر ألف مرة هو في الحقيقة ما قالها ولا مرة لأنه رأى أن طاعة هذا المخلوق أكبر عنده من طاعة الخالق، لو أن الإنسان في بيته استجاب لرغبات زوجته المُنْحَرفة فكسب المال الحرام إرضاءً لزوجته وعصى الواحد الديّان، لو قال في العيد ألف مرة الله أكبر ما قالها ولا مرة لأنه رأى أن إرضاء زوجته أكبر عنده من إرضاء الله، بينما صحابيٌّ جليل طالبته

امرأته بشيءٍ من الدنيا (الشيء المباح) فقال: **" اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهُن على أهل الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضَحِّي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهنّ من أجلك ".** هذا قال الله أكبر.

لذلك المؤمن إذا دُعي إلى مخالفة، إذا دعي إلى شيء لا يرضي الله يقول: الله أكبر ما عنده أكبر، ما وعد به أولياءه من الجنة أكبر، ما أوعد عباده من العذاب أكبر، الله أكبر، وهذا هو الدين وهذا هو الإيمان، فالله أكبر أكثر العبادات تفتتح بهذه التكبيرة أي أعظم الله عزّ وجل.

من معاني الله أكبر:

أن الله أكبر مما تعرف:

بعضهم قال من معاني الله أكبر في قوله تعالى:

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3))

أن الله أكبر مما تعرف. مهما عرفت عن الله فهو أكبر، مهما ارتقيت في سُلّم الإيمان فهو أكبر، مهما اتسعت رؤيتك للحقيقة فالله أكبر، مهما شعرت أن الله عظيم فهو أعظم، لذلك من أدق التفسيرات لقوله تعالى:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

(سورة محمد: آية " 19 ")

أيُّ ذنبٍ اقترفه النبي عليه الصلاة والسلام ؟ العلماء وجّهوا هذه الآية بمعنى أن كل رؤيةٍ رآها النبي رأى فيها عظمة الله عزّ وجل، الرؤية التي تليها هي أوسع وأشمل فكأنه يستحي من رؤيته السابقة وكأنها في حقِه ذنب.

إنسان تعرف عنه الشيء الكثير ثم فوجئت أنه أكبر مما تعرف فإنك تستحي بمعرفتك المتواضعة، وفي النهاية لا يعرف الله إلا الله، النبي عليه الصلاة والسلام مع أنّه سيّد الخلق وحبيب الحق لم يعرف الله حق المعرفة، فهو أعلى إنسان في معرفة الله لكن لأن الله لا يعرفه إلا الله، إذاً الله أكبر، أكبر مما أعرف، مهما عرفت عن رحمته فهو أكبر، مهما عرفت عن عدله فهو أكبر، مهما عرفت عن لطفه فهو ألطف.

من معاني الثياب في قوله " و ثيابك فطهر ":

1 - العمل:

أيها الإخوة:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

هذه الآية مهمة جداً، أول معنى من معاني الثياب: هو العمل، الإنسان له ثوبٌ من عمله، الآن في جلسة يذكر إنساناً (جزاه الله خيراً) يذكر إنساناً ثانياً أول كلمة: الله لا يوفقه، معنى هذا أن عمله ثوب له، فأول معنى من معاني:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي أن هذا العمل الذي هو لك كالثوب أنت متلبسٌ به، يوجد مستقيم ويوجد منحرف، يوجد رحيم ويوجد قاسي، يوجد منصف ويوجد ظالم، يوجد صادق ويوجد كاذب.

أول معنى: وعملك فأصلح، عملك ثوبٌ لك، يقول لك: هذا أمين الأمانة ثوب، هذا مستقيم فإن الاستقامة ثوب، هذا مُتْقِن الإتقان ثوب، هذا مخلص الإخلاص ثوب، هذا صادق الصدق ثوب، هذا كاذب فإن الكذب ثوب، هذا خائن الخيانة ثوب، هذا غير عفيف فإن عدم العفة ثوب، فثوبك أي عملك، كلما ذُكِرت ذُكِرَ معك عملك وكأنه ثوبٌ لك يحيط بك.

استعمالات كلمة الثوب في اللغة العربية:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي أصلح عملك، يوجد تقصير، يوجد انحراف، يوجد كذب، يوجد اغتصاب لأموال الآخرين، يوجد احتيال، يوجد تدجيل، يوجد ابتزاز، عملك ثوبك الذي تَلْبَسُهُ دائماً ولا تستطيع أن تخلعه أبداً.

لو أن إنساناً فُضِح، هذه الفضيحة سَرَت بين الناس، أصبحت له كالثوب متى ذُكِر تذكر فضيحته، متى تحرّك يُشار إليه بأنه فعل كذا وكذا، والآن الفضائح توجد معها أفلام، يوجد تصوير، لا يستطيع أن يهرب من هذا الثوب الذي لبسه، هذا المعنى الأول (وعملك فأصلح).

لذلك العرب تقول: فلان خبيث الثياب إذا كان عمله سيئ، وفلان طاهر الثياب إذا كان عمله صالحاً وهذا من استعمالات كلمة الثوب في اللغة العربية، لأن القرآن الكريم نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين.

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3))

(سورة الزخرف)

أساليب العرب قبل الإسلام الثوب هو العمل، فلان طاهر الثوب أي عفيف، فلان خبيث الثوب أي عمله سيئ، والحقيقة الإنسان القوي أحياناً أو الغني يّمدح في وجهه فقط، العبرة لا ما يّقال أمامك بل ما يّقال في غيبتك، أنت تساوي لا ما يّقال في حضرتك بل ما يُقال في غيبتك، فإذا غبت عن الناس ماذا يّقال عنك ؟ جزاه الله خيراً، والله صادق، والله كريم، والله محسن، مستقيم، ورع، والإنسان المنحرف إذا تكلّم الناس عنه في غيبته نهشوا عرضه وأطلقوا لألسنتهم العنان.

2 ـ القلب:

المعنى الثاني:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي قلبك فطهّر لأن العمل أساسه القلب، الذي قلبه طاهر عمله طاهر، الذي قلبه فبه حقد وفيه حسد وفيه شهوة دنيّة عمله سيئ، فهذا تحصيل حاصل، يعني ثوبك أي قلبك الذي منه يصدر عملك، العمل سلوك وقبل السلوك إرادة وقبل الإرادة تصوُّر وقبل التصور عزم القلب، يوجد في القلب تساهل فيصبح الإنسان غير مستقيم، يوجد في القلب كبر فسلوكه فيه كبر، يوجد في القلب حقد فإن سلوكه فيه حقد، يوجد في القلب ظلم إذاً هو يظلم، فالمعنى الثاني:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي قلبك فطهر.

((عبدي طهّرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة ؟))

(ورد في الأثر)

طهرت منظر الخلق أي الإنسان يطلي البناء، يرتدي ثياباً جميلة، ينظف مركبته لأنها منظر الخلق، أفلا ينبغي أن يطهر قلبه لأنه منظر الرب ؟

((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

(متفق عليه عن أبي هريرة)

3 ـ النفس:

المعنى الثالث: النفس، ذات الإنسان، يوجد نفس طاهرة، يوجد نفس خبيثة.

(إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7))

(سورة المائدة)

من هي ذات الصدور ؟ نفسك التي بين جنبيك، هذا المعنى الثالث من:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي طهر عملك، وطهر قلبك، وطهّر نفسك، والنفس ذات الإنسان، قالوا: طَهّرها من الإثم والعدوان، طَهّرها من المعاصي والآثام، طهرها من الغدر بالخُلاّن، أي طَهّر نفسك من كل شيْ لا يرضي الله عزّ وجل.

4 - الجسم:

المعنى الرابع:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي وجسمك فطهّر عن المعاصي الظاهرة، العين تزني وزناها النظر، توجد عين طاهرة أي تغض عن محارم الله، توجد أذن طاهرة لا تستمع إلى الغناء، يوجد لسان طاهر يذكر الله دائماً، توجد يد طاهرة إنها تعطي، توجد رجل طاهرة إنها تحملك إلى المسجد ؛ أما الرجل التي تقود صاحبها إلى ملهى هذه رجلٌ نجسة، واليد التي يبطش بها الإنسان ظلماً يدٌ نجسة، والعين التي يتّبع بها عورات المسلمين عينٌ نجسة، والأذن التي يستمع بها إلى الغيبة والنميمة وقول الزور والبهتان وفضائح الناس ويستمع بها إلى الغناء أذنٌ نجسة، واللسان الذي يذكر عورات الناس لسانٌ نجس، إذاً:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي طَهّر جسمك من المعاصي الظاهرة.

5 - الأهل:

المعنى الخامس لقوله تعالى:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي أهلك فطهّرهم لأن أهل الإنسان كالثياب له استنادا لقوله تعالى:

(هُنّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنّ)

(سورة البقرة: آية " 187 ")

والله سبحانه وتعالى يؤكِّد هذا المعنى في آيةٍ أخرى، يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

(سورة التحريم: آية " 6 ")

أي زوجتك ألصق الناس بك، أولادك، بناتك، إخوتك، أخواتك هؤلاء أهلك، هؤلاء عورتك، طهّرهم، أي اهتم بهم، دقق في صلاتهم، في طاعتهم، في حجابهم، في دينهم، في علمهم..

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

هم ثيابك، هذا المعنى المتعلِق بالأهل وهو المعنى الخامس.

6 - الخُلُق:

والمعنى السادس: الثياب هي الخُلُق، يعني يبدو منك أخلاقك، أخلاقك هي كالثياب، أنت إن نظرت إلى إنسان ماذا ترى ؟ ترى ثيابه، وأخلاقه ثيابه.

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي طهّر أخلاقك من الدَنَس، من الكذب، من الغيبة، من النميمة، من الحقد، من الكِبر، هذا أيضاً من معاني:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي أن خلق الإنسان مُشْتَمِلٌ على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه.

7 - الدين:

ويوجد معنى سابع:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي دينك فطهر:

((ابن عمر، دينك دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

(أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر)

دين عقيدتك، هل بحثت عن عقيدةٍ صحيحة أم أن في ذهنك تعشعش الأوهام والأباطيل والخرافات، والأحاديث الضعيفة والموضوعة، والقصص التالفة، والخرافات، والكرامات التي لا تُصدّق، ثيابك دينك، هل استقامت عقيدتك ؟ هل قُمْتَ بواجباتك الدينية ؟ هل عبدت الله حق العبادة ؟ هل اتقيت الله حق التقوى ؟ أن تذكره فلا تنساه، أن تشكره فلا تكفره، أن تطيعه فلا تعصيه، هذا المعنى السابع.

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي دينك فطهّر، هذا يؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم:

((رأيت الناس وعليهم ثياب منها ما يبلغ الثدي ومنها ما دون ذلك ورأيت عمر ابن الخطاب وعليه إزارٌ يجرّه (أي ثيابه سابغة) فقلت يا رسول الله: فما أوّلت ذلك، قال: الدين))

(متفق عليه عن أبي سعيد الخدري)

الثوب هو الدين، يوجد إنسان ثوبه إلى خصره، يوجد إنسان ثوبه إلى أثدائه، يوجد إنسان ثوبه إلى رقبته، رأى عمراً يرتدي ثوباً سابغاً يجرُّه، قال: ما أولت ذلك ؟ قال: الدين، إذاً استنباطاً من هذا الحديث الشريف:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي دينك فأصلح، اللهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا.

8 - الثياب:

بقي المعنى الثامن:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

المعنى المتبادر للثياب، أي إن هذه الثياب التي ترتديها يجب أن تكون طاهرة، لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((لا يَنْظُرُ اللّهُ إِلَى مَنْ جَرّ ثَوْبَهُ خُيَلاء))

(صحيح البخاري: عن ابن عمر)

((مَنْ جَرّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

(صحيح البخاري:عن عبد الله عن أبيه)

سيدنا الصديق قال:

((يا رسول الله إن أحد شِقّي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه، فقال عليه الصلاة والسلام: لست ممن يصنعه خيلاء))

(متفق عليه عن سالم بن عبد الله)

أنت فوق ذلك يا أبا بكر.

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

لا تجعلها مع الطريق، أو اغسلها من النجاسة وهو ظاهرٌ، لا تصلي في ثوبٍ غير طاهر، هذا معنى الثياب الطاهرة، أي يجب أن ترتدي ثياباً نظيفة، فإما أن تجعلها طاهرة بأن لا تكون سابغةً إلى درجة أنّك تنظِّف بها الطريق، فالثوب المعتدل أنقى وأقرب إلى الله وأتقى.

علامة حبك لله إتباعك لرسوله:

شيءٌ أخير في هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

الثوب الأهل، والثوب القلب، والثوب النفس، والثوب العمل، والثوب الثياب التي أمرنا أن نطهّرها دائماً، والقرآن كما قال الإمام عليٌّ بن أبا طالب رضي الله عنه: **" حمّال أوجه ".**

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109))

(سورة الكهف)

وهذه الآية الأولى:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

اسأل نفسك هذا السؤال: هل ساهمت في حياتك بهداية إنسانٍ واحد ؟ هل فكّرت أن تنقل حقيقةً للآخرين؟ هل أردت أن تصطحب أحداً إلى بيت الله ؟ هل دخل إلى قلبك رغبةٌ حميمةٌ أن تنقذ إنساناً من الكفر، من الضياع، من المعصية ؟ هذا ما نستفيد منه من هذه الآية:

(قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

طبعاً في حدود ما تعلم وفي حدود من تعلم، وهذه الدعوة إلى الله على هذين المستويين فرض عينٍ على كل مسلم، ومن قصّر بهذا فهو ليس متبعاً لرسول الله، ومن علامة حبك لله إتباعك لرسول الله، وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع هذه الآيات:

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 5-7 التواضع علامة الإيمان لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-12-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الثاني من سورة المدّثِر، ومع الآية الخامسة والتي بعدها وهي قوله تعالى:

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

(سورة المدثر)

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

المعنى الدقيق و الواسع للرجز:

أيها الإخوة الكرام: الرُجْز معناه الدقيق الأصنام، المعنى الواسع كلُّ ما سوى الله، لا تلتفت إلى غير الله، ولا تعتمد على غير الله، ولا تتجه إلى غير الله، ولا تعقد آمالك على غير الله، ولا تتكئ على صديقٍ ولا صاحب، ولا على ولدٍ ولا زوجة، ليكُن اعتمادك على الله وحده.

الشرك الخفي:

أيها الإخوة: قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106))

(سورة يوسف)

العلماء فصّلوا بين الشرك الجلّي وبين الشرك الخفي. ليس في العالم الإسلامي كله والحمد لله شركٌ جلي، ليس عندنا إلهٌ كبوذا يُعبد من دون الله، ولكن الشرك الخفي هو كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس الشرك الخفي))

[سنن أحمد عن شداد بن أوس]

أنت مسلم مؤمن بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الكتب حق، وأن الأنبياء والرسل حق، ولكن لضعف التوحيد تتجه إلى غير الله، لضعف التوحيد تُلقي آمالك على غير الله، لضعف التوحيد تعتمد على مالك، من اعتمد على ماله ذل، لضعف التوحيد تثق بقدراتك،

ومن توكّل على ذاته أوكله الله إيّاها، نريد من هنا أن نبين معنى الشرك الخفي، فأصحاب النبي عليهم رضوان الله، والنبي بين أظهرهم، وهم صفوة الصفوة.

((إن الله اختارني واختار لي أصحابي))

ومع ذلك حينما قالوا يوم حنين: لن نغلب من قلة، اعتمدوا على كثرتهم وهم لا يشعرون.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

على الإنسان أن يعتمد على الله وحده:

راقب نفسك، دقق فيما تقول، هناك إنسان أنا أعرفه مؤمناً، لكن زلّ لسانه فقال: بالمال يُحَلُّ كل شيء، وقع في ورطةٍ، فجلس تسعةً وستين يوماً في غرفةٍ لا تزيد عن متر بنصف متر وهو لا يستطيع أن ينطق ولا أن يتنفّس، فكان تأتيه الخواطر كل دقيقة: أتُحَلُ هذه بالمال ؟ لا تعتمد على مالك، ولا على سلطانك، ولا على ذكائك، ولا على خبراتك المتراكمة، ولا على علمك، ولا تُلقي الآمال على ولد قد يسافر ويتجَنّس ويستغني عن أهله كلهم، لا تعتمد على زوجة قد تقلب لك ظهر المِجَن وأنت في أشد الحاجة إليها، اعتمد على الله وحده، هذا المعنى الواسع:

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

لا تلتفت إلى الأصنام، أي:

((إن الشيطان يئس أن يُعبد في أرضكم))

بعد ظهور هذا الدين العظيم ليس في العالم الإسلامي كله مجالٌ لصنمٍ يُعبد من دون الله:

((.... ولكنها شهوةٌ خفية وأعمالٌ لغير الله))

[سنن أحمد عن شداد بن أوس]

فلذلك:

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

قالوا: الأوثان، الدليل:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

(سورة الحج: آية " 30 ")

الاجتناب و التحريم:

الاجتناب له معنى دقيق، كيف أن الله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(90))

(سورة المائدة)

الاجتناب أشد من التحريم، أشد بكثير، لو أن الله حرّم الخمر لجاز لك أن تبيعها أو أن تشتريها، أو أن تنقلها، حرم الخمرة فقط، ولم يأمر باجتنابها، لجاز لك أن تبيعها وأن تشتريها، وأن تحملها، وأن تُحْمَل إليك تربح بها، وأن تعلن عنها، وأن تستثمر ثمنها، ولكن حينما قال الله عزّ وجل:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

لعن الله الخمرة وبائعها وشاريها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه، الاجتناب لا بدّ من أن تبقي مسافةً بينك وبين هذا المُحَرَّم، مسافة أمان، كذلك هنا:

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

أي أن كل شيء ما سوى الله رجزٌ.

معاني الرجز:

1- الأصنام:

أول معنى الرجز: هم الأصنام، الآية الكريمة:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

(سورة الحج: آية " 30 ")

2 - الإثم:

عن ابن عباس رضي الله عنه: **" أن الرُجز هو الإثم "** أي إثمٍ ينبغي أن تجتنبه، والإثم هي المعصية، الإثم والعدوان، الإثم معصيةٌ فيما بينك وبين الله، والعدوان معصيةٌ فيما بينك وبين العباد، الإنسان إذا ترك الصلاة يأثم، وإذا أطلق بصره في الحرام يأثم، أما إذا أكل مال الآخرين ظُلماً فقد اعتدى عليهم، فالإثم متعلقٌ فيما بينك وبين الله، والعدوان متعلقٌ فيما بينك وبين الناس.

نحن على أبواب رمضان، وعلى أبواب الحَج بعد رمضان، وقد يتوهَّم المسلمون أنَّك إذا صُمت رمضان غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر إطلاقاً نقول: لا، غُفرت لك الذنوب التي بينك وبين الله، أما التي بينك وبين العِباد هذه لا تُغفر إلا بحالتين، إلا بالأداء أو المسامحة، وإذا ذهبت إلى بيت الله الحرام (إن شاء الله تعالى) وحججت حجاً مبروراً غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر إلا الذنوب التي بينك وبين العباد، لأن حقوق الله مبنيةٌ على المسامحة بينما حقوق العباد مبنيةٌ على المُشاححة.

فإيَّاك أن تتوهم أنه بعد رمضان سقطت عنك كل الحقوق والواجبات التي عليك أن تؤديها إلى الناس، وأنه بعد الحج سقطت عنك كل الحقوق والواجبات التي عليك أن تؤديها للناس، هذا لا يسقط إلا بالأداء والمسامحة، فالمعنى الثاني اهجر كل معصيةٍ تُبعدك عن الله عزّ وجل.

هجر كل ما يبعدنا عن الله تعالى:

أنت أمام شيء، الهدف الأول الحقيقة الوحيدة في الكون هي الله، أي شيءٍ يقربك إليك افعله، وأي شيءٍ يبعدك عنه فاهجره، هذا ملخص الملخص، إن تكلّمت بالحق تتقرب، وإن نصحت مسلماً تتقرب، إن قرأت القرآن تتقرب، إن أعنت ضعيفاً، إن أطعمت جائعاً، إن رَعَيْتَ يتيماً، إن اعتنيت بأرملةٍ، إن أنفقت مالك في سبيل الله، إن صليت، إن صُمت، إن تعلّمت العلم، إن علّمت العلم، إن قرأت القرآن، إن قَرَّأت القرآن، أي شيءٍ يقربك إلى الله فافعله، وأي شيءٍ يُبعدك عن الله ولو ومضة، لو أنك أتبعت النظرة النظرة وقعت في الإثم، لو أنك ابتسمت ابتسامةً ليس في مكانها ابتعدت عن الله، لو أنها كما قالت: قصيرة، قال:

((يا عائشة لقد قلت كلمةً لو مُزجت بمياه البحر لأفسدته))

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

اهجر كل إثمٍ ومعصيةٍ تبعدانك عن الله.

لكن العلماء قالوا: إذا قلت للطالب المجتهد اجتهد، معنى ذلك أن ثابر على اجتهادك، وإن قلت للكسول: اجتهد أي ابدأ اجتهادك، العاصي إن أمرته بالطاعة فمن أجل أن يطيع الله، أما إذا أمرت طائعاً بالطاعة من أجل أن يستمر على طاعته.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: آية " 1 ")

النبي يتقي الله، إذاً معنى اتق الله بحق النبي أن يستمر على تقوى الله عزّ وجل.

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

3 ـ العذاب:

معنى آخر قال تعالى:

(لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134))

(سورة الأعراف)

هنا العذاب، معنى العذاب.

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

أي ابتعد عن كل عملٍ يؤدِّي بك إلى العذاب، أي عملٍ ينتهي بك إلى العذاب ابتعد عنه.

قانون العزة:

بحياتنا الواقعية إذا فرط الإنسان في تناول ما لا ينبغي (كشرب الدخان مثلاً) هذا قد يؤدي به إلى أورام خبيثة، إلى أمراض في الأوعية، إلى أمراض في الدم، أمراض في دسّامات القلب، أمراض في الكُليتين، أمراض في الجلد وفي الأطراف البعيدة، فهذا يؤدي بك إلى مرضٍ معَذِّب، ابتعد عنه، بشكل واسع أي عملٍ ينقلك إلى عذاب، يضعك تحت وطأة عذاب، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إياك وما يعتذر منه))

أي العمل الذي تستحي منه، تصغر أمام الناس به، يحمرُّ وجهك خجلاً منه، إيَّاك أن تفعله تكن عزيزاً، والعزّة لها قانون:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(26))

(سورة يونس)

المُحسن المستقيم لا أحد يستطيع أن يذلّه أبداً ولو كان فقيراً، ولو كان ضعيفاً، ولو كان في الدرجة الدُنيا من المجتمع، استقامته، ونظافته، وصدقه، وأمانته، وعفافه يجعلانه كالملك، قال الملك لوزيره: من الملك ؟ قال: أنت. قال له: لا، الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيتٌ يؤويه وزوجةٌ ترضيه، ورزقٌ يكفيه (إنسان نظيف).

فأي واحد منا إذا كان مستقيماً، صادقاً، أميناً، عفيفاً، مطبقاً لمنهج الله، يؤدِّي صلواته الخمس، يصوم رمضان، يغضُّ بصره عن محارم الله، لا يوجد في بيته معصية، ولا يوجد في عمله معصية، صادق، أمين، هذا هو الملك، هذا ملك في الدنيا والآخرة لأنه هجر الرُجز، و ترك كل أنواع الإثم.

الأخذ بالأسباب و الاعتماد على الله:

لا بدّ في الإثم من عدوان على الآخرين، لو نظرت إلى امرأةٍ لا تحل لك هذا إثم وعدوان بآن واحد. فالمعنى الأول: اجتنب عبادة الأوثان بالمعنى الضَيّق، بالمعنى الواسع: اجتنب الشرك الخفي، أن تلقي الآمال على غير الله، أن ترى أن هذا الإنسان يعطيك أو يمنعك، يرفعك أو يخفضك، يُمِدُّك أو يمنعك، لا تفعل هذا نوعٌ من الشرك، اعتمد على الله وحده، لكن لك أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد على الله وحده، وهذا الشيء دقيق إن لم تأخذ بالأسباب فقد عصيت الله، لأن الله عزّ وجل جعل لكل شيءٍ سبباً، وإن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فقد جعلتها إلهاً، أشركت مع الله، فالبطولة أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد على الله وحده، وهذا لا يستطيعه إلا المؤمنون الصادقون، من أنتم ؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، أناسٌ فقراء سألهم عملاق الإسلام (سيدنا عمر): من أنتم ؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: **كذبتم، المتوكِّل من ألقى حبةً في الأرض، ثم توكل على الله.**

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض أحاديثه الصحيحة:

((قضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فقالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لمّا أدْبَرَ: حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فقالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ: " رُدُّوا عَلَيّ الرّجُلَ. فقالَ: مَا قُلْتَ ؟ قالَ: قُلْتُ حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فقالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فإذَا غَلَبَكَ أمْرٌ فقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

(مسند أحمد عن العوف بن مالك)

الابتعاد عن كل ما يؤدي بك إلى العذاب النفسي:

أنت مكلّف أن تسعى، أما حينما تقهر هذا قضاء الله وقدره، هذا المعنى الثالث. المعنى الأول: ابتعد عن عبادة الأصنام، الأوسع: ابتعد عن الشرك الخفي، المعنى الثاني: ابتعد عن كل عملٍ يؤدِّي بك إلى العذاب، في عذاب نفسي أحياناً، فإذا كان شريك خان شريكه، يحتقر نفسه ولو أن أحداً لم يعلم. لو أن امرأةً ابتسمت لغير زوجها، ابتسمت في محلٍ تجاري لرجلٍ أجنبي عنها، ابتسمت وألانت له القول، تشعر أنها خانت زوجها بشكلٍ أو بآخر، هذه الابتسامة وهذا اللين لزوجها فقط لا لرجل أجنبي لأن الله تعالى يقول:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32))

(سورة الأحزاب)

فالإنسان حينما يخطئ يشعر بصغار، يفقد احترامه لذاته، إذاً أي عملٍ يؤدِّي بك إلى عذاب نفسي، إلى حرج مع الآخرين، إلى حرج أمام الله عزّ وجل ينبغي أن تبتعد عنه.

الانضباط في مجتمعنا من نعم الله على الإنسان:

فمن الطُرَفِ التي قرأتها مرةً: أن استبياناً (أي إحصائية) وزّعَ على مئة زوج، هذا الاستبيان فيه سؤال وحيد: لماذا لا تخون زوجتك ؟ طبعاً ليس عندنا في بلادنا، نحن عندنا في بلادنا الأصل ذلك، هذه من نعم الله الكبرى، معظم الأسر خمسة وتسعين بالمئة أسر منضبطة (من هذه الناحية منضبطة) أما في بلاد الغرب قد يحتفل الإنسان وهو في دمشق بعيداً عن زوجته ثلاث سنوات بأن امرأته أنجبت له مولوداً، ويدعو أصدقاءه لطعامٍ ولحفلةٍ، شيء طبيعي جداً.

هناك قصةٌ رويتها لكم سابقاً، تعبّر عن مجتمع الغرب، شابٌ رأى فتاةً فأحبها فاستشار أباه فقال له: لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري، فلما رأى فتاةً أخرى أعجبته أيضاً، فاستشار أباه ثانيةً، فقال له: لا يا بني إنها أختك وأمُك لا تدري، فلما رأى فتاةً ثالثة أيضاً أعجبته فاستشار أباه فقال له كما قال في المرة الثانية والأولى: لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري، فلما ضَجِر شكا إلى أمِّه هذا فقالت له: خذ أياً شئت فأنت لست ابنه وهو لا يدري. هذا مجتمع الغرب، هذا مجتمع الغرب مجتمع التفلُّت، والانحلال.

لذلك: من هوي الكفرة حُشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً، ومن أقام مع المشركين فقد برأت منه ذمة الله، من أقام معهم إقامةً دائمة، أعجبه سلوكهم، أعجبه تفلُّتهم، أعجبه انحلالهم، أعجبه نمط حياتهم، أعجبه بعدهم عن الله عزّ وجل واعتمادهم على العلم وحده وعلى المادة وحدها.

اختبار الدافع الإنساني في العالم الغربي:

قرأت تعليقاً أرادوا أن يمتحنوا الدافع الإنساني الرحيم في المجتمع الغربي، فجاؤوا بسيارة محطمة، وأجلسوا إلى جانبها إنساناً وقد صبغوه باللون الأحمر كأن الدم قد سال منه، وضعوه على أكثف طريق بين باريس وليون، فهذا الطريق لا ينقطع فيه السير، بعد ست ساعاتٍ وقفت سيارة كي تسعفه. فهؤلاء ابتعدوا كثيراً عن الله عزّ وجل أما أتقنوا الدنيا إتقاناً مذهلاً، لكي نكون واقعيين، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، أتقنوا الدنيا وكفروا بالآخرة، لذلك ينطبق عليهم قول الله عزّ وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: آية " 44 ")

لم يقل: باب كل شيء، قال: أبواب، ولم يقل: أبواب شيء، أبواب كل شيء:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

أُجري برنامج في بعض البلاد الغربية عن الزنا، جاءت اتصالات هاتفية إلى البرنامج، اكتشف أن ثلاثة وثلاثين بالمائة من حالات الزنا في أمريكا زنا محارم، بين الأخ وأخته، والأب وابنته، هذا المجتمع، هناك مسيرات في بعض المدن الغربية، مئة ألف إنسان لأخذ حقوقهم، هؤلاء الشاذّين جنسياً، مجتمعاتٌ انحلت وانتهت لكن قوتها المادية لا تزال موجودة، العلم والتكنولوجيا والقوة المادية موجودة، أما مبادئ، قيم، أخلاق، حدِّث ولا حرج.

فالذي أوصلنا إلى هذا: لا تعمل عملاً تستحي منه، تعَذّب، هذا الاستبيان سألوا الأزواج (ألف زوج فرضاً): لماذا لا تخون زوجتك ؟ فكان الجواب، بعض الإجابات: أنني لا أستطيع لأنها تعمل معه في البقالية مثلاً. ويوجد إجابات: إني لا أحتمل الشعور بالذنب. وفي جواب جيد: إني أكره الخيانة. أنا ذكرت هذا المثل للفقرة الثانية، إني لا أحتمل الشعور بالذنب.

الإحساس بالذنب يؤدي إلى الكآبة:

فأحدنا والفضل من الله عزّ وجل، المستقيم، الطاهر، الصادق، الأمين، العفيف، عنده راحة نفسية، عنده شعور سوي صحيح، أما حينما يقترف إثماً، حينما يعتدي على أعراض الناس، حينما يعتدي على أموالهم، حينما يحتال عليهم، حينما يستغل جهلهم، حينما يبتزُّ أموالهم، قد يكون في نظرهم عالياً ولكن يفقد أخطر شيءٍ في حياة الإنسان احترامه لذاته، ينهار من الداخل، المسيء ينهار من الداخل، لذلك الذي نسمعه الآن عن الكآبة المنتشرة في بلاد الغرب، كآبة، ما هي الكآبة ؟ الإحساس بالذنب، يقول لك: مُرَكّب النقص، عقدة الذنب، الشعور بالكآبة، هذا كل عقاب الفطرة على انحراف صاحبها.

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

المعنى الثاني: هو لا تفعل عملاً يؤدِّي بك إلى العذاب ولو كان نفسياً، أوضح كلام للنبي:

((إياك وما يعتذر منه))

الموقف الذي تضطر أن تعتذر منه لا تفعله أبداً.

الابتعاد عن كل ما يؤدي بك إلى الفاحشة

أيها الإخوة الكرام: الرجز عبادة الأصنام، بالمعنى الواسع: الشرك الخفي، المعنى الثالث كلُّ إثمٍ يحجبك عن الله عزّ وجل، كل فعلٍ يؤدِّي بك إلى تحمل عذاب لا تطيقه اهجره، والهجران أن تبتعد عنه، أن تجعل بينك وبينه هامش أمان، هذا معنى قوله تعالى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: آية " 187 ")

اجعل بينك وبينها هامش أمان، وأوضح مثل موضوع الزنا قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

(سورة الإسراء)

إذاً هنا محرمة مقدماته، الخلوة محرمة، وإطلاق البصر محرَّم، وصحبة الأراذل محرَّم، وكل مجتمعٍ يغريك بهذه الفاحشة أنت ينبغي أن تبتعد عنه.

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ: آية فيها معاني عدة:

أما قوله تعالى:

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

(سورة المدثر)

فهناك موضوعاتٌ كثيرة في هذه الآية:

1 ـ لا تمن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوة:

أولاً: لا تمنن على ربّك بما تتحمّله من أثقال النبوة، وكأن المؤمنين معنيون بهذه الآية:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(17))

(سورة الحجرات)

فأي إنسان يتوهَّم أنه حينما أسلم وحينما اصطلح مع الله وحينما تاب إلى الله وحينما طبّق منهج الله فله عند الله حق.

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(17))

بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان هذا هو المعنى الأول.

2 ـ لا تعطي من أجل أن تستكثر الجزاء في الدنيا:

المعنى الثاني: لا تمنن أي لا تعطي، لا تعطي من أجل أن تستكثر الجزاء في الدنيا، فإنسان عنده إدراك عميق وعنده حاسة سادسة، يقول لك: فلان إذا دعوته يظهر منه خير كبير، إذا فلان أكرمته يلزمني، فالقضية عنده تجارية، إذا فلان قدمت له هدية آخذها أضعافاً منه بالمستقبل، إذا اليوم أنمته عندي في المستقبل عندما أسافر إلى بلده الفندق غالي جداً أنام عنده، هذه العقلية التجارية بالعمل الصالح، هذه المؤمن ينبغي أن ينزّه نفسه عنها، لا تمنن من أجل أن تستكثر الجزاء في الدنيا، وحينما يعطي يفكِّر في الجزاء، يفكِّر في رد الفعل، يفكر في المكافأة، فكل عطاء أهل الدنيا عطاءٌ مشوبٌ بهدفٍ خسيس.

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

تستكثر الخير في الدنيا من أجل أن تنتفع، فالذي يحسب هذه الحسابات، أي يعطي عطاءً مشروطاً، أو يبحث من الذي إذا أعطيته أعطاني ؟ إذا أكرمته أكرمني ؟ إذا بجّلته عظّمني ؟ إذا قدّمت له هديةً قابلها بأضعافٍ مضاعفة، فهذا صار ليس عبادة لله عزّ وجل، هذا عمل مشوب بالمصلحة ويمكن أن نفسِّر ما يُعجب به الناس من استقامة الغرب بهذا الباب هم صادقون.

قتل امرؤ في غابةٍ جريمةٌ لا تغتفر وقتل شعبٍ آمنٍ مسألةٌ فيها نظر

* * *

عندهم حقوق الإنسان، فإذا بلد من البلاد أخطأ في نظامهم الديمقراطي قال: حقوق الإنسان في هذا البلد غير مصونة، أما أن يموت خمسمئة ألف طفلٍ كل عام من جرّاء الحصار الاقتصادي هذه ليست مشكلة، فهؤلاء إن رأيت منهم استقامةً أحياناً، إن رأيت منهم صدقاً أو إتقاناً، هذا من هذا القبيل، هم يوظِّفون استقامتهم لمصالحهم، يوظِّفون موضوعيتهم في أخبارهم لمصالحهم، يوظفون مظهرهم البرّاق لمصالحهم، هذا سلوك أهل الدنيا، هذا شيء والعبادة شيء آخر، تمنن تعطي، تستكثر، تعطي كي تستكثر، لا تعطي إلا من يعطيك أضعافاً مضاعفة، لا تعطي إلا من يكافئك، لا تعطي إلا من يدعمك، هذا نموذج موجود كثير جداً.

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

المؤمن منزه عن أي عطية يلتمس أفضل منها:

المؤمن منزّه عن هذا، قد يعطي فقيراً، قد يعطي ضعيفاً، قد يعطي ولا يفكِّر في رد الفعل إطلاقاً.

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

هذا المعنى الثاني، أي لا تعطي عطيةً تلتمس منها أفضل منها.

وبعضهم قال: هذا حرّمه الله على النبي صلى الله عليه وسلم لأنه مثلٌ أعلى في الكمال، فهذا قضية خلافية أنت إذا أعطيت أي إذا أكرمت إنساناً وتعلم علم اليقين أنّه سيكرمُك، يوجد رأي أنّك لست مؤاخذاً على هذا لأنك من شيمتك أن تكرم الناس، فإذا أكرموك مقابل إكرامك لا شيء عليك، فالقضية خلافيّة بين أن تكون محرّمة على المؤمنين وبين أن تكون خاصّة بالنبي عليه الصلاة السلام.

3 ـ لا تضعف نفساً عن أن تطلب معالي الأمور:

(وَلَا تَمْنُنْ)

أي لا تضعُف، حبلٌ منين أي حبلٌ ضعيف، لا تمنن عن أن تستكثر من الخير، هذا نموذج آخر (نموذج كسول)، يا أخي اتصل بالله، اعمل أعمالاً صالحة، فكِّر، تعلّم فأين نحن من هذه المراتب ؟ ضعيف أي يرضى بالقليل، يرضى بالمرتبة الدُنيا، يرضى أن يكون في مؤخِّرة الركب، يرضى أن يكون في الدرجة الدنيا في المجتمع، يقول لك: أريد أن أكون وراء الباب في الجنة، هذه لا تصح لك، وراء الباب لا يوجد.

الآن على مستوى الدراسة إذا الطالب لم ينو أن يكون متفوقاً فإنه لا ينجح، إذا بالأساس نوى أن ينجح على الحدود فإنه لا ينجح إطلاقاً، إذا في بداية الدراسة قال: أنا أريد علامة النجاح فقط، أريد مقبول في كل المواد، هذا لا ينجح، يضع أمامه التفوق لينجح، أما إذا وضع النجاح فقط فإنه لا ينجح.

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

أي لا تضعف نفساً عن أن تطلب معالي الأمور، عن أن تطلب درجات الجنة العالية، لا تضعف نفساً عن أن تصل إلى أعلى درجة علوُّ الهمّة من الإيمان. والله عزّ وجل واحدٌ في عطائه، قال: ملك الملوك إذا وهب.. يوجد تعديل عدّلته للبيت:

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألن عن السبب

الله يعطي من يشاء فقف على حد الأدب

* * *

الطموح في كثرة الخير:

كلّنا عباده، كن طموحاً واطلب من الله أعلى المراتب، إله الصحابة إلهنا وربهم ربنا، الظروف واحدة.

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك ؟ قال: لا، أنتم أصحابي، أحبابي أناسٌ يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر أجره كأجر سبعين، قالوا: منا أم منهم ؟ قال: بل منكم لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

ألا تستطيع أن تغض بصرك ؟ أن تضبط لسانك ؟ أن تقيم الإسلام في بيتك ؟ أن تقيمه في عملك ؟ أن تربّي أولادك ؟ أن تجلس معهم ؟ هذه بيدك، لذلك:

(وَلَا تَمْنُنْ)

أي لا تضعف عن أن تستكثر من الخير، لا ترضى أن تكون في الدرجة الدنيا، وراء الباب، نحن خدّام سيدي، لا كن سيّداً، للحق كن خادماً أما كن سيّداً في مجتمعك، سيدنا خالد كان علم، تأخر لكنه صار أول قائد، سيدنا الصديق، سيدنا عمر، سيدنا عثمان، سيدنا علي، هؤلاء الصحابة الكبار كانوا طموحين.

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

أي لا تضعُف عن أن تستكثر.

4ـ لا تمنن مستكثراً عملك:

والمعنى الرابع:

(وَلَا تَمْنُنْ)

أي لا تمنن مستكثراً عملك، أنا لي أعمال كالجبال، لي مؤلّفات، لي محاضرات، لي كذا، أي أنت تكبّر نفسك، وهذا العمل من فضل الله عليك فلما رأيته كبيراً حُجِبْتَ عن الله عزّ وجل، بطولتك أنه مهما قدمت من عملٍ عظيم أن لا ترى لنفسك فضلاً عند الله عزّ وجل.

(وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

(سورة النسا)

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

(سورة النسا)

مرّة أخ قدّم بيتاً لجمعية خيرية ليكون مشغل للفقيرات، بيت ثمنه عشرة ملايين أُقيم له حفل تكريم، الخطباء أشادوا بإحسانه وفضله وكرمه، إلا أحد إخوتنا الكرام ألقى كلمة أمامه وتكلم العكس، قال له: كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين من جمعيتنا، وأن تقف في طابور طويل لنأخذ هويّتك وبصمتك على ثلاثمائة ليرة في العيد، ولكن الله امتنّ عليك فجعلك غنياً وقدمت هذا البيت فاشكر الله على هذا الفضل.

هذا كلام طيب، هذا كلام صحيح، أي أن هذا الذي تراه يمد يده إليك كان من الممكن أن تكون أنت

مكانه، لا تستكبر على أحد، لا ترى عملك عظيماً، إذا أراد الله إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

التواضع علامة الإيمان:

إذاً: رؤية العمل شرك، أنا حجمي الفلاني، مكانتي، علمي، محاضراتي، هناك كثيرون ممن يستفيدون مني، هذا فضل الله عزّ وجل، الله أنطقك بالحق، كان من الممكن أن تكون خلاف ذلك، يقول الإمام الشافعي: **"كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي ".**

والمؤمن كلّما رفعه الله تواضع، وكلّما أعطاه تأدّب، لا يوجد أعظم من النصر في الحرب إنه شعور لا يُصَدَّق، سيدنا محمد دخل مكة فاتحاً فمن شدة تواضعه لله حنى رأسه تواضعاً لله حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره أدباً مع الله.

(وَلَا تَمْنُنْ)

بالنبوة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثر به، أي لا تتخذ ما أعطاك الله إياه وسائل ربح في الحياة الدنيا، اجعلها لله خالصة، وطبعاً هذا كله موجهٌ إلى أمته من بعده، لا تمنن بهذا الذي أعطاك الله إياه لتستكثر به من الدنيا اجعله خالصاً لوجه الله، وقال بعض العلماء: **" لا تعطي مالك مصانعة ".** أي مداهنةً، ومُراءاةً، هذا ينطبق على الآية الكريمة.

الإخلاص في العطاء:

إذا أعطيت عطيةً فأعطها لربك وابتغ بها وجه الله عزّ وجل لأن الأعمال إنما هي بالنيات، ولا تقل دعوت فلم يُستجَب لي، عليك أن تعبده ولا تنظر إلى النتائج، هو حكيمٌ يعطي أو يمنع، يرفع أو يخفض.

(بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

وقول ابن عباس رضي الله عنه: **" لا تُعطي لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال "** والأمر أن تكون عطاياك لله وحده لا لارتقاب ثوابٍ من الخلق عليك.

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9))

(سورة الإنسان)

لذلك: هذا الذي يُعلِّق أهميةً كبيرةً على ردِ فعل الناس، وعلى تكريمهم إيّاه، وعلى معرفتهم لقدره، وعلى تقديرهم لعلمه، هذا فيه ضعفٌ في إخلاصه، إذا كنت مخلصاً كما يريد الله عزّ وجل لا تعلِّق أهميةً على ردود الفعل، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

(صحيح البخاري عن أبي هريرة)

الذراع أي مؤدم.

أي ملخص الملخص: أراد الله عزّ وجل من هذه الآية أن لا تمنن بعملك على الله فتستكثره فهو صحيح فإن ابن آدم لو أطاع الله عمره من غير فتورٍ لما بلغ لنعم الله بعض الشكر.

قمة النجاح أن تكون متواضعاً:

أنت تعيش ستين أو سبعين سنة لو فرضنا أنك عبدت الله عشر سنوات عبادة صحيحة فأدخلك الله الجنة إلى الأبد، فإن كل عبادتك مؤقتة ومحدودة، والعطاء سرمدي أبدي فمهما فعلت، مهما بذلت، مهما ضحيت، مهما وضعت إمكاناتك وصحتك ومالك في سبيل الله فأنت الرابح، لذلك لا تمنن، حتى عند المؤمنين الضعاف يرى عمله كبيراً فيحجبه عن مزيدٍ من فضل الله، النبي قال: جهدُ مُقِل.

سيد الخلق أعظم إنسان قدّم للإنسانية الهداية سمّى عمله جُهدَ مُقِل، أنا كنت أقول دائماً: الصعود إلى الأعلى صعب، الطريق وَعْرة ومرعبة ومخيفة وفيها عقبات وفيها حُفَر وفيها أكمات وفيها غبار وجهد شاق، فإذا وصل إلى قمة النجاح فإن هناك طريق يسقطه إلى الحضيض في ثانية (الغرور) يسقطه في ثانية، لذلك قالوا: البطولة لا أن تصل إلى قمة النجاح بل أن تبقى في القمة.

أحياناً الإنسان يجتهد في العبادات فإن الله يعلي شأنه، عندما رفع الله شأنه اغتر، عندما اغتر سقط مرة ثانية، فالبطولة أن تعلو وأن تبقى، إن بلغت قمة النجاح ينبغي أن تبقى متواضعاً لله عزّ وجل، ينبغي أن تعترف بفضل الله عزّ وجل، ينبغي أن تكون مفتقراً إلى الله عزّ وجل.

التولي و التخلي:

قيل: إن نور الدين الشهيد استطاع أن يحارب قوى عاتية وجبّارة، واستطاع أن يرد الفرنجة، قيل: إنه كان مرّةً ساجداً لله فقال له: يا رب من هو الكلب نور الدين حتى تنصره ؟ انصر دينك. أرأيت إلى إنكار الذات ؟ الإنسان كلّما كان إخلاصه شديداً أنكر ذاته، كلّما كان مفتقراً إلى الله تلقّى من الله المدد، فدائماً أنت بين حالين بين التولِّي والتخلي، إن قلت الله تولاّك، وإن قلت أنا تخلّى عنك، هذا امتحان يومي، عندك كل يوم مئة امتحان، إن قلت: أنا، إن قلت: مالي، إن قلت: خبرتي، شهادتي، شأني، مكانتي، أتباعي، إذا قلت: أنا تخلّى الله عنك ووكلك إلى ذاتك وأنت ضعيف، وإن قلت الله تولاّك.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

أما:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123))

(سورة آل عمران)

اجعل جهدك أن تكون مفتقراً إلى الله، ويكون كلامك بلطف ؛ هذا من فضل الله عليّ، هنا وفقني الله، هنا أكرمني الله، هنا منحني الله، لا تعزو هذا إلى نفسك بل اعزوه إلى الله عزّ وجل.

الصبر و أنواعه:

1 ـ صبر القهر:

2 ـ صبر الشكر:

3 ـ الصبر المحمود:

الآية السادسة:

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

الإنسان أحياناً يكون ضعيفاً فيصبر أمام القوي، يكون فقيراً فيصبر أمام الغني، ليس هذا هو الصبر، الصبر أن تكون في أعلى درجات القوة، وفي أعلى درجات الغنى وأنت صابرٌ لله وحده، مقيّدك خوفك من الله، مقيّدك تواضعك لله، هذا الصبر المحمود.

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

أحياناً الإنسان يسكت (لا أستطيع التكلّم) طبعاً لا تستطيع أن تتكلم لأنك ضعيف وخصمك قوي، ليس هذا هو الصبر المحمود، الصبر المحمود أن تكون قوياً وأن تضبط سلوكك، الإنسان غضب من خادمٍ عنده قال: يا سيدي والكاظمين الغيظ، قال: كظمت غيظي، قال: والعافين عن الناس، قال: عفوت عنك،

قال: والله يحب المحسنين، قال: أنت حرٌ لوجه الله. يعني أن تكون قويّاً وأن تصبر، أن تكون غنياً وأن تصبر، فهذا الصبر المحمود.

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

القضاء و أنواعه:

1 ـ القضاء المحمود:

العلماء قالوا: **" لسيدك ومالك فاصبر على أداء فرائضه وعباداته ".** وقال مجاهد: **" اصبر على ما أذيت ".** وقال ابن زيد: **" حمِّلت أمراً عظيماً فاصبر عليه ".** وقيل: **" اصبر على مكاره القضاء ".**
يوجد مكروه القضاء، ويوجد محبوب القضاء، إذا إنسان صحته طيبة والله بعث له مال وفير فإنّ هذا محمود القضاء.

2 ـ القضاء المكروه:

أما أصابه مرض لا سمح الله، أصابه فقر، أصابه مشكلة، سيدنا علي قال: **" الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".** اصبر على البلوى لأن الله يمتحن أصفياءه وأولياءه، اصبر على أوامره ونواهيه، وقيل: اصبر على فِراق الأهل والأوطان في الهجرة.

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

الإيمان هو الصبر:

وبشكل مختصر اصبر على الطاعة، واصبر عن المعصية، واصبر على قضاء الله وقدره، ثلاثة أنواع أساسيات، اصبر على الطاعة (على مشقّة الطاعة). واصبر عن المعصية (إغراء المعصية). واصبر على مشقة الطاعة، واصبر عن إغراء المعصية، واصبر على قضاء الله وقدره لأن الإيمان في الأساس صبر.
الإيمان انضباط والانضباط صبر، والصبر ثمن الجنة. وفي حديثٍ:

((الإيمان هو الصبر))

الإنسان يضبط أموره كلّها بالصبر، يصبر فيغض بصره، يصبر فيضبط لسانه، يصبر فيضبط يده، يصبر فيضبط رجله، فهذا هو الصبر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 8-14 العقاب الأليم للكافر يوم القيامة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-01-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثالث من سورة المدثر، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

الإعلان عن بدء يوم القيامة:

الناقور اسم آلة من النَقْر، والنقر هو التصويت.

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8))

أي نفخ في الصور.

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14))

(سورة الحاقة)

هذا النفخ في الصور إعلانٌ عن بدء يوم القيامة، قال:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

حرية الاختيار في الدنيا:

تصوّر إنساناً ارتكب سرقات كبيرة وجمع أموال طائلة ثم أُلقي القبض عليه، مشاعره حين أُلقي القبض عليه، سيواجه تعذيباً، سيواجه عقاباً شديداً، قد يواجه سجناً مديداً، قد يواجه ذُلاً وإهانة، فهذا اليوم يومٌ عسير، إنسان ارتكب جريمة ثم أُلقي القبض عليه، فيوم الدين أي يوم الحساب، في الدنيا الإنسان مخير يفعل ما يشاء، له أن يستقيم وله أن ينحرف، له أن يصدق وله أن يكذب، له أن يأكل المال الحلال وله أن يأكل المال الحرام، طبيعة الحياة الدنيا طبيعةٌ فيها حرية الاختيار، وفيها أمد، فأنت تُعْطَى أمداً طويلاً، لك أن تفعل كل شيء ولا شيء عليك وأنت في الدنيا، لكن حينما يأتي ملك الموت وحينما تنتهي الحياة الدنيا وحينما يبدأ الحساب.

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9))

يوم الجائزة يوم قطف ثمار العبادة:

هذا اليوم أيها الإخوة هو أسعد أيام المؤمن، يوم الجائزة، يوم الفَوز، يوم دخول الجنة، يوم تحقيق وعد الله عزّ وجل، يوم قطف ثمار العبادة.

العبادة فيها تكاليف الصلوات، تكاليف الصيام، تكاليف ضبط اللسان، تكاليف ضبط الجوارح، تكاليف إقامة الإسلام في البيت، تكاليف ضبط كسب الإنسان وضبط إنفاقه، كل هذه التكاليف متى تقطف ثمارها؟ في هذا اليوم، لذلك النبي قال:

((الموت عُرس المؤمن))

((والموت تحفة المؤمن))

التفلت من منهج الله عذابه عسير يوم القيامة:

بالمقابل الذي تفلّت من منهج الله واستكبر عن عبادته، أعطى لشهواته العنان وركب رأسه، وردّ حقائق الدين، وسخر من المؤمنين أو كاد لهم، أو أراد أن يطفئ نور الله عزّ وجل، نقول له: افعل ما تشاء لا بدّ من أن تموت، وعند الموت سوف تعلم من هو الخاسر.

لذلك: البطولة أن تكون آخر الضاحكين، الإنسان أحياناً يكون أول الضاحكين، يكسب مالاً غير مشروع، يشتري بيتاً فخماً، يشتري مركبة، يؤسس هذا البيت، يتطلّع إلى الشهوات التي حرّمها الله يفعلها استهتاراً، فهو يضحك، وقد يضحك ضحكاً غير معقول، لكنه سيبكي، سيبكي دماً، قال:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8))

أي إذا نُفخ في الصور

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

أحياناً ينشرون صور المجرمين في الصحف، مجرم كان عاتياً، ارتكب الموبقات، زنا، سرق، شرب الخمور، له عصابة، ثم يُلقى القبض عليه فإذا هو ذليلٌ ذلاً لا حدود له، لذلك البطل هو الذي يعمل لهذه الساعة، ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتّقي الله البطل.

ما هو الغيب ؟

يوجد آية قرآنية ذكرتها قبل يومين، أن أخص خصائص المؤمن أنه يؤمن بالغيب، فما هو الغيب ؟ الذي لم يره لكنه استنبطه بعقله، يوم القيامة خبر في القرآن الكريم، وحساب الله لنا استنباط، خالقنا جميعاً لا يسمح لنا أن نؤذي خلقه فإذا فعلنا سمح لنا إلى حين لا على حساب الآخرين.

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129))

(سورة الأنعام)

العقاب الأليم الذي ينتظر الكافر يوم القيامة:

ثم يأتي العقاب الأليم.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42))

(سورة المعارج)

سيدنا إبراهيم قال:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة البقرة)

أراد أن يكون هذا الإكرام للمؤمنين، فقال الله عزّ وجل:

(وَمَنْ كَفَرَ)

وسأرزق من كفر.

(وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

(سورة البقرة)

والله أيها الإخوة هذه الآية تكفي:

(فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

السلامة و السعادة في طاعة الله:

يقول أحد العارفين بالله: **" مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إلى الدنيا وغادروها ولم يذوقوا أطيب ما فيها، أطيب شيءٍ فيها القرب من الله عزّ وجل ".**

فقد وقع تحت يدي قصة كتبتها أختٌ مؤمنة، يبدو أنّها قبل أن تكتبها كانت متفلِتة، وصفت حياتها يوم كانت متفلتة، ثم وصفت حياتها بعد أن عرفت الله عزّ وجل، هناك بونٌ شاسع ليس هناك شيءٌ يجمع

بينهما، هي في قمة السعادة حينما صلّت، وصامت، وعبدت ربها، وتحجّبت، وقرأت القرآن، ودعت إلى الله، وكانت في قمّة تفلتها وهي من أشقى الشقيات.

إخوانا الكرام: لا أصدق أن في الأرض واحداً لا يتمنّى السلامة والسعادة (في الأرض كلها)، و السلامة في طاعة الله، والسعادة في القرب منه، كلمتان خفيفتان، السلامة في طاعة الله، والسعادة في القرب منه.

يوم القيامة يوم عسير على الكافرين:

موطن الثقل في هذه الآية:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

كل متع الحياة، إنسان سافر وأقام في فنادق، وأكل من الطيّبات، وأحاط نفسه بالشهوات والمباهج ثم جاء الموت، يقول: لم أر خيراً قط، كل هذا الذي أمضاه في المعاصي تذهب لذّته ويبقى إثمه، ويبقى الحساب الأليم، ثم إن الذين جاهدوا أنفسهم وأموالهم في الطاعات وأطاعوا الله عزّ وجل وجاءهم ملك الموت، يذهب عنهم كل هذا التعب وتبقى الثمار اليانعة التي يقطفها، إذاً:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8))

أي إذا نفخ في الصور:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

عسيرٌ جداً:

(عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

الموت أكبر سعادة للمؤمن:

المعنى المخالف: أن هذا اليوم يومٌ يسير على المؤمنين، قالت له: يا أبت، وا كربتاه يا أبت (وهو على فراش الموت) قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبّة محمداً وصحبه.

اقرؤوا إن شئتم سِيَر الصحابة تفاجئون أنه ما من صحابي على الإطلاق إلا كان في أسعد لحظات حياته يوم فارق الدنيا، ماذا قال عليه الصلاة والسلام: وقف خطيباً فقال:

((إن عبداً خيّره الله بين زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده))

(رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري)

فبكى أبو بكر بكاءً لا حدود له، عرف أن النبي ينعي نفسه، اختار ما عند الله عزّ وجل، فهذه الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمر، هذه الدنيا فانية، هي دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، كيف ؟

ممكن إنسان يبني مستقبله لبنة لبنة، بدأ حياته عصامياً، نال شهادة عُليا، اشترى بيتاً صغيراً، وَسَّع البيت، فرشه، اشترى بيتاً بمكان آخر، زوّج أولاده، نَمّى ثروته وصل إلى قمة نجاحه، يأتي ملك الموت فيأخذ منه ما حصّله في كل عمره في ثانيةٍ واحدة، أما المؤمن قدّم ماله أمامه، وله عند الله زادٌ كبير، يسره اللحاق بماله وبزاده، الإنسان حيث أهله وحيث رحله، معلّق بماله لو كان ماله في بلد آخر، دائماً مع أخبار هذا البلد، يذهب من حين إلى آخر لتفقُّد ماله.

فإذا الإنسان قدّم ماله أمامه وقدّم عملاً صالحاً كثيراً، أسعد شيءٍ في حياته اللحاق به.

فالملخص: بين أن يكون الموت أكبَرَ مصيبةٍ، وبين أن يكون الموت أكبر سعادةً، للمؤمن أكبر سعادة لأنه يوم الجائزة، يوم الفوز، يوم دخول الجنة، يوم القُرب من الله، يوم نَمَط من الحياة جديد، فلا مسؤوليات، ولا تكاليف، ولا حساب، اطلب تعطى، لهم ما يشاءون فيها.

جزاء المؤمن يوم القيامة:

(فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة الحاقة)

أما الآخرون هم في عذابٍ أليم، هذه الآية الأولى.

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9))

هذا كلام الخبير يقول لك: هو يومٌ عسير، إنسان أحياناً يتهدد إنساناً، ماذا فعل معي ؟ يوزن قوته، يوزن اتصالاته، يوزن مكانته، يا ترى هل يستطيع أن يمنعني من السفر، هل يستطيع أن يكف يدي عن هذا العمل ؟ هل يستطيع أن يخلِّصني هذه الشركة مثلاً ؟ إذا توعدك شخص ما من بني البشر تحسب له ألف حساب ولا تنم الليل، وتبحث عن حجمه واتصالاته وعلاقاته، ويا ترى هل هو قادر أن ينفذ هذا الوعيد أم أنه يبالغ ؟ فإذا قال الله خالق البشر:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9))

رسول الله هو أشد الناس خوفاً من الله تعالى:

أنا ما رأيت أعقل من الذي يخاف من الله، والله يا أيها الإخوة، والله ليس في الأرض أعقل ممن يخشى الله ويحسب حساب المساءلة في كل دقيقة، عوّد نفسك أيها الأخ الكريم قبل أن تقول كلمة زنها، هل ترضي الله ؟ قبل أن تبتسم، لعلها ابتسامة سخرية، قبل أن تعلِّق تعليقاً لاذعاً، لعل هذا التعليق يكسر هذا الإنسان ويجرحه، قبل أن تنفق هذه النفقة، قبل أن تطلق بصرك في منظرٍ.

أيها الإخوة: الإنسان كلما اشتد خوفه من الله كان أعلم، هل تعلمون من هو أشد الناس خوفاً من الله ؟ هو رسول الله.

مرة أمسك بسواك حيث كان عنده خادم أرسله في حاجة فغاب طويلاً، فأدرك النبي الغضب البشري فلما جاء الخادم قال له:

((لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

ولكن لم يفعل.

مرّ على أحد أصحابه وكان يضرب غلاماً له قال له:

((اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام))

(رواه مسلم عن أبي سعيد البدري)

التذلل إلى الله علامة عزتك:

فأنت لا تتألق ولا تشعر بالطمأنينة إلا إذا خفت من الله، اسمعوا هذه الحقيقة: محالٌ أن تخافه فيما بينك وبينه ثم يخيفك من خلقه، محال هذا لا يليق بكمال الله، أن تخافه فيما بينك وبينه ثم يخيفك من خلقه، أما الذي لا يخاف الله فيما بينه وبين الله يخيفه من أضعف خلقه، قال لي رجل مرة: دخل علي موظف طلب هويتي، ركبي لم تعد تحملني، فيها سجن شهرين، صار يرجف، مستحيل أن تخاف من الله في بيعك وشرائك، لم تغش، لم تكذب، لم تحتال، لم تدلس، لم تستغل، لم تحتكر، لم استغل جهل الزبون، بعت بضاعة غالية وسيّئة، خفت من الله، ما دُمت تخاف من الله لن يخيفك من خلقه، هذه قاعدة، إن أردت أن تكون عزيزاً فتذلل إلى الله، وخف منه، وخلقه في خدمتك، فقد ورد بالأثر القدسي:

((ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيّته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه وقطّعت أسباب السماء بين يديه))

قلوب العباد بيد الله:

وتعلمون أن مرةً الحسن البصري تكلّم كلاماً، أدى رسالة العلم مع الحجاج، بلغ الحجاج مقالة حسن البصري، فقال: والله لأروينّكم من دمه، واستدعى السيّاف ومُدّ النَطْعُ(النطع رداء كبير يوضع إذا أراد الإنسان أن يقتل بقطع رأسه لئلا يتأثر الأثاث بالدم يمد النطع)فجيء بالسيّاف، ومُد النطع وقال: ائتوني به لأقتله أمامكم، دخل الحسن البصري رأى السيّاف واقف، نطع ممدود، والجو مكهرب، فتمتم بكلماتٍ لم يسمعه أحد، فإذا بالحجاج يقف له، ويقول له: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيّد العُلماء، وما زال يقرّبه حتى يجلسه إلى جانبه، ويستفته، ويعطِّره، ويضيّفه، ثم يشيّعه إلى باب القصر، السياف والحاجب صُعِقا، استدعي السياف ليقطع رأس الحسن البصري، والحاجب هو الذي يعلم هذا، فإذا بالحجاج يحترمه ويكرّمَهُ، تبعه الحاجب، قال له: يا أبا سعيد، لقد جئ بك لغير ما فُعِلَ بك، فماذا قلت لربك ؟ قال له قلت: **" يا مؤنسي في وحشتي، يا ملاذي عند كُربتي، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم ".**

فالله عزّ وجل قلّب قلب الحجاج من قلب الحقد والغضب إلى قلب الرأفة والرحمة، وقلوب العباد بيد الله، هذه حقيقة جديدة الآن، فالنبي صلوات الله وسلامه عليه قال:

((قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء))

(رواه الترمذي عن أنس)

أنت إذ وقفت أمام إنسان، إذا الله عزّ وجل أراد أن ينجّيك أو أن يكَرّمك ألقى محبتك في قلب هذا الإنسان فإذا هو خادمٌ له، وإذا أحبّ الله عزّ وجل أن يؤدِّب إنساناً يلقي بغضك في قلبه، فيبحث لك عن الذي يؤلمُك، والذي يزعجك، يُعَقِّدُ عليك الأمور، يضع العراقيل، ينشئ السدود، يلبّسك تهماً أنت منها برئ، لأنه ألقى في قلبه البغض، هذه قاعدة: أنت إذا وقفت أمام إنسان أقوى منك تذكّر أن قلبه بيد الله، فإن شاء ليّنه، وإن شاء قسّاه، إذاً:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

تأديب الله لعباده:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(ذَرْنِي)

أي دعني يا محمد.

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11))

(سورة المدثر)

وهذا من أشد أنواع التهديد، من أشد أنواع التهديد أن يقول الله

(ذَرْنِي)

فالله عزّ وجل أرسل رسولاً، ومعه الكتاب، ومعه معجزات، ومعه منطق، ومعه بيان، ومعه فصاحة، ومعه كمال، ومعه أدلة، ومعه براهين، ومعه شيء كثير، فالإنسان أبى أن يؤمن وركب رأسه وعصا، فإن لم يستفد من رسول الله، قال له: أنت اتركه أنا أعالجه.

إنسانة متفلِّتة أشد التفلُّت، تبدي كل مفاتنها للناس، نصحت، ونصحت، ونصحت، ونصحت لم ترعُ ثم أصيبت بمرضٍ خبيث، فقالت: أنا مستعدةٌ أن أضع على رأسي ما يوضع على الحمار على أن يشفيني الله عزّ وجل، الله أدّبها، الله أدويته مُرّة، وأدويته مصيبة تصيب المكان الحرج، والله عزّ وجل يعرف تماماً ما الذي يحجّمُك ؟ يعرف كل خصائصك.

إنسان عنده المال ليس له قيمة، هذا يرسل له شيئاً متعلق بصحته أحياناً، متعلق بكرامته، متعلق بمكانته، متعلق بعمله، متعلقة بأهل بيته، متعلِّق بأعزّ الناس إليه.

(ذَرْنِي)

مراحل الدعوة إلى الله:

1 ـ مرحلة البيان:

إذاً الملخص: نحن حينما نُدعى إلى الله، في مرحلة رائعة، مرحلة البيان (الدعوة البيانية) القضية سهلة، الخطيب يلقي خطبة، مدرس يُلقي درساً، شريط تسمعه، كتاب تقرأه، نصيحة تنصح بها، أنت معافى، سليم، كامل، مُكمّل، لكن الله عزّ وجل بلّغك الدعوة ينبغي أن تستجب.

2 ـ مرحلة التأديب التربوي:

فإن لم تستجب أدخلك في معالجة ثانية التأديب التربوي، قال له:

(ذَرْنِي)

3 ـ الإكرام الاستدراجي:

فإن لم تستفد أدخلك في معالجةٍ ثالثة هي الإكرام الاستدراجي.

4 ـ مرحلة القصم:

فإن لم تشكر أدخلك في مرحلة القصم الرابعة، عندئذٍ يقصم الإنسان وينتهي.

فنحن إذا كنا في مرحلة الدعوة البيانية، فنحن في خير، نحن في بحبوحة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

قانون التيسير و التعسير:

العلماء فسروا: ما معنى غير يسير ؟

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

قال: عقدهم تنحل إلى عقدٍ أشد، كلمة عسير، العقدة تنحل إلى عقدة أشد، فإذا كنت لا تملك مفتاح هذا الباب، فهناك عِدَّة مفاتيح يمكن أحدها أن تستعمله في فتح الباب، هذه مشكلة، فأدخلت مفتاحاً وحركته فانكسر داخله، أصبحت المشكلة أصعب، كنت تبحث عن مفتاح مناسب فصرت تحتاج فك القفل، أحضرت إنساناً لكي يصلحه، رأيت البيت كله مسروقٌ، ممكن أن ينتقل من مشكلة إلى أكبر إلى أكبر، هذا معنى عسير، أما يسير، من مشكلة إلى حل إلى حل انتهت العملية لذلك: اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً.

إنسان له انحرافات جاء بإنسان قال له: هذا القاطع جدده لي، قال له: سأضعه في مكان عالٍ، قال له: ضعه إن شئت، في اليوم التالي أراد أن يستعمله، لزمه كرسي، الكرسي اختل، فدخلت رجل الكرسي في مقعده، دخل المستشفى ثمانية عشر يوماً كان قد انتهى، والسبب تافه جداً، تبديل محل قاطع، لزمه أن يبدله، و عند اختلال توازن الكرسي دخل في مقعده، تسمم دمه، ثمانية عشر طبيباً، عشرين يوماً كان منتهياً وخالصاً، كتبت نعوته، يمكن إنسان يُتْلف بسببٍ تافه، إذا كنت في رضوان الله فأنت غالي على الله، الحياة مليئة بالقصص، فكلمة عسير، أي أن المشكلة تولد مشكلة أكبر، أكبر، أكبر إلى أن ينتهي الأمر، قانون التعسير والتيسير معروف:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

(أَعْطَى وَاتَّقَى (5))

أي عمل عملاً صالحاً، واتقى أن يعصي الله عزّ وجل، وآمن بهذا الدين، فالأمور كلها ميسرة، وفي تأكيد للمستقبل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(سورة التوبة: آية " 51 ")

نعمة الأمن:

إخوانا الكرام: الأمن الذي يشعر به المؤمن لا يقدّر بثمن، يشعر أنه في رحمة الله، وفي عين الله.

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: آية " 48 ")

ويشعر أن أحداً لن يستطيع أن يصل إليه إلا بأمر الله، شعور كأنه في حصانة، أحياناً يمنحون للنوّاب حصانة، يحس النائب أنه إنسان متميّز لا يستطيع أن يصل إليه أحد، لا يقدر، فلا اعتقال، معه حصانة، عضو مجلس الشعب محصّن، فإذا حصّن الإنسان يحس بالأمن، فكيف لو أن الواحد الديّان حَصّنك ؟ أقوى بكثير.

معاني كلمة وحيد:

1 ـ خلقك ضعيفاً:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11))

(سورة المدثر)

كلمة وحيد لها معاني كثيرة، فهو حينما خُلق خُلِق وحيداً، لا معه ماله، لا معه شهادة، لا في زوجة، لا في أولاد، لا في مكانة اجتماعية، لا في منصب رفيع، ما في ثروة طائلة، لا يوجد شيء، طفل صغير، رأيت مرة في مطار طفل يبدو أن السفر بعيد، فواضعين له عدداً كبيراً جداً من الفُوَط فصار وسطه مثل الكرة، قلت هذا الطفل حينما يكبر يصير ذو شأن غني أو قوي، وينسى أنه كان صغيراً وكان يوضع له الفوط لئلا يتسرّب البول إلى الخارج، الإنسان خلق ضعيفاً، ما معنى:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11))

خلق وحيداً، لا يوجد عنده شيء، مفتقر إلى رضعة من أمه، لو أنه لم يرضع لمات.

منعكس المص:

كلكم يعلم أن الله عزّ وجل أمدنا بما يسمى بمصطلح العلماء: منعكس المَص، فالطفل الآن يولد بعد دقيقة يضع شفتيه على حلمة ثدي أمه ويحكم الإغلاق ويسحب الهواء، لو أن هذا المنعكس غير موجود وأراد الأب أن يعلِّم ابنه الذي ولد الآن: يا بني الله يرضى عليك، شيء مضحك، مستحيل أن يعيش إنسان، لأن المص عملية معقدة، أما حينما يولد الطفل يعرف كيف يَمُصّ الحليب من ثدي أمه، ضعيف إلى منعكس المص، ولولا هذا المنعكس ما وجدت إنساناً على الأرض الآن، ما في إنسان، لأنه خلق لك هذا الثدي، كرّمك بهما، لكن أعطاك هذه الخاصية المعقدة منعكس المص، خلقت وحيداً، لا مال، ولا زوجة، ولا مكانة، ولا علم، ولا شهادة، ولا عزوة، ولا منصب، ولا ثروة، قال:

(وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13))

(سورة المدثر)

رحمة الله بعباده:

إذا الإنسان كبير، عظيم بماله، عظيم بشهاداته، عظيم بمنصبه، ونسى كيف كان صغيراً، كيف رضع من ثدي أمه، كيف كان مفتقراً إلى الله، كيف كان مفتقراً إلى رحمة الله، ينظر إلى أولاده، الله جعل أولاده شهوداً على طريقة خلقه، هل من بيت لا يوجد فيه أولاد ؟ انظر إلى الطفل كيف يولد ؟ فغلطة في أثناء الولادة يموت، قال: هذا الرحم يتقلّص، يتقلّص تقلصاً لطيفاً قبل الولادة، تقلّص متزامن لطيف متسارع، تقلص لطيف متزامن أي فيه زمن وفيه تسارع، الطلقات تضيق أمدها مع مرور الزمن، شيء جميل، فإذا خرج الطفل من بطن أمه تقلّص الرحم تقلصاً شديداً وصار كالصَخر، فالموَلِّدة تضع يدها على رحم الوالدة فإذا كان صخرياً تقول: الولادة سليمة، فإذا كان الرحم فيه ليونة معنى ذلك أن هناك شرايين مفتوحة سوف تموت الأم من النزيف.

آيات الله الدالة على عظمته:

من جعل هذا الرحم يتقلّص هذا التقلص الشديد بعد الولادة واللطيف قبل الولادة ؟ العلماء قالوا: لو عُكِسَ الأمر لماتت الأم والطفل في آن واحد، لو تقلّص تقلصاً حاداً لقتل الغلام، وبعد الولادة تقلصاً لطيفاً لماتت الأم من النزيف، الطفل مفتقر إلى الله عزّ وجل:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11))

بلا مال، بلا أهل، الله عزّ وجل قال:

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20))

(سورة عبس)

فعظم الحوض يتوسع بأمر هرموني، توسع ميكانيكي، عظام متراكمة لا تسمح للطفل أن يخرج منه، يتوسع عظم الحوض توسع بأمر هرموني مبرمَج، الولادة وحدها آية من آيات الله الدالة على عظمته، والله ذكرها في القرآن.

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20))

(سورة عبس)

فهذا هو المعنى الأول: وحيداً بلا أهل، ولا مال، ولا ثروة، ولا منصب، ولا شهادات، ولا مكانة، ولا أتباع.

2 ـ خلقك وحيداً هو وحده:

المعنى الثاني: خلقته وحيداً ولم يشركني في خلقه أحد.

3 ـ خلقك متميزاً:

والمعنى الثالث: أنه المخلوق الوحيد الأول، فالمخلوق الأول في الكون هو الإنسان..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72))

(سورة الأحزاب)

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

أنت المخلوق الأول الوحيد، الله عزّ وجل خلقك وحيداً بمعنى أنك ضعيف، وخلقك وحيداً بمعنى أنك متميّز، وخلقك وحيداً بمعنى أن الخالق لا شريك له، خلقك وحيداً هو وحده، وخلقك متميزاً، وخلقك ضعيفاً.

4 ـ ستعود إلى الله وحيداً:

والمعنى الرابع: كما خلقه وحيداً سيعود إليه وحيداً، فالإنسان له أتباع، له أعوان، له من يدافع عنه في الدنيا، أحياناً يقول لك: جاءنا مئة تليفون للمخبر أنت مهم. أُخذ فجأةً فجاء له مئة تليفون، له أتباع، له

أنصار، له أعوان، فكما خُلقت وحيداً تعود إليه وحيداً، لا يوجد دفتر تليفونات (خبّر فلان لا يوجد)، هواتف لا توجد، اتصالات لا توجد، أعوان لا يوجد، أموال لا توجد، دفتر شيكات لا يوجد، كلّه واقف، بالقبر لا يوجد شيء، خُلِقت وحيداً وسوف تعود إليه وحيداً ومعك عملك فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك.

القبر صندوق العمل:

لذلك القبر صندوق العمل، سؤال محرج ودقيق، اسأل نفسك هذا السؤال: أنا ما عملي ؟ يوجد عمل طيب، يوجد عمل نظيف، يوجد عمل خيّر، يوجد عمل عظيم، ويوجد عمل قذر، يوجد عمل إجرامي، يوجد عمل خسيس، يوجد عمل دنيء، يوجد عمل ظالم، اسأل نفسك ما عملي ؟ وإن أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك. يا ترى استعملك بالخير أم بالشر ؟

((إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق الشر و إن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير بيدي فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه و ويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه))

(سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك)

أحياناً الإنسان يمد شريطاً حريرياً تفتح به المستشفيات والأبنية النافعة للأمة، وأحياناً مِلقط يُلتقط به الشيء النجس والقذر، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك. هذا سؤال مهم، كل إنسان له عمل ؛ إذا كان عملاً نظيفاً فهذا جيّد، عملاً خيّراً فهو أجود، عملاً بنّاء فهذا أعظم، عملاً كبيراً فهو أعظم وأعظم، أما أن يكون عمله مبني على أنقاض الآخرين، أن يبني غناه على فقرهم، أن يبني سعادته على شقائهم، أن يبني أمنه على خوفهم، أن يبني مجده على تلفهم، هذا شيء مخيف.

5 ـ خلقته وحيداً و لا أحتاج النصر في إهلاكه:

شيءٌ آخر: خلقته وحيداً ولا أحتاج إلى من ينصرني في إهلاكه هذا المعنى الخامس. خلقته وحيداً فإن أردت أن أهلكه لا أحتاج إلى من يعينني، هذا الإنسان يسمُّوه في أوروبا الإنسان الإله، هم كفروا بالله وألّهوا الإنسان، أن الإنسان سيطر على الطبيعة، وأرسل مركبات إلى الفضاء الخارجي، وسخّر الطبيعة، وكشف الثروات، وتحكّم برقاب العباد، هذا الإنسان الإله سوف يجعله الله يلقى مصيره يوم القيامة.

((فالكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني شيئاً منه أذقته عذابي ولا أبالي))

(رواه ابن ماجه عن أبي هريرة)

الأولاد شهود ببدايتك و رفاهك:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13))

(سورة المدثر)

يشهدون له أصله، كل واحد ينظر إلى أولاده، أحياناً يقف الإنسان عند قصّاب فيجد أن فيه عضلات، وفيه أوتار، وفيه كبد، وفيه رئتين، وتوجد معدة، وتوجد أمعاء، ويوجد دماغ، ويوجد أعصاب، وأوعية وشرايين وأوردة وعظام، فالله جعل غذاءنا من حيوانات تشابهنا في التشريح تماماً.

والله مرّة رأيت قلباً صغيراً وهو قلب خروف شرّحته فرأيت الدسّامات، الأجواف، الأذين، البطين، هكذا قلبك. فالبنين شهود أي يشهدون لك بدايتك.

(وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14))

(سورة المدثر)

أي رفهته مثل المهاد (فالمهاد مريح جداً). أي يوجد بيت فيه تدفئة، فيه تكييف في الصيف، فيه أنواع من الطعام، فيه مشروبات كالعصير، قهوة، شاي، مُقَبّلات سلطات مثلاً، أنواع الفواكه أحياناً يضعوا ثلاثين نوعاً من أنواع الفواكه، أنواع الحلويات، أنواع الطعام، أحيانا تجد مُتَعاً سمعية كأن يسمع أحياناً أنغام، توجد متع بصرية، توجد حدائق، توجد مروج خضراء، توجد جبال خضراء، توجد كائنات جميلات، أي:

(وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14))

الإنسان إذا كان له بيت، له زوجة، له أولاد، محل ينام، محل يأكل، محل يستقبل الضيوف، محل يستلقي، محل يتنظف، يوجد لك بيت عدة غرف، لك زوجة، لك أولاد، لك عمل، توجد أنوع من الطعام الطيبة تأكلها.

(وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14))

الكافر رغم انحرافه يطلب مزيداً من فضل الله:

قال: (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا)

أي رغم انحرافه وفسقه وفجوره يريد مزيداً من فضل الله، بل إنه يدّعي إذا مات سيدخل الجنة، هذا إدّعاء، كان الوليد بن المغيرة يقول هكذا: **" لو أن هناك جنة لكانت لي "**. وهو من أكفر الكفّار.

(ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 16-30 معاندة الله جزاؤه القصم لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-01-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الرابع من سورة المدّثر، ومع الآية السابعة عشرة وهي قوله تعالى:

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16))

رد الكافر للحق:

هذا الكافر عنيد، معنى عنيد أي يُعاكس الحق، يَرُدُّ الحق بلا سبب، الآية التي قبلها:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا)

أي إن الخط البياني يصعد أحياناً للكافر أما الصعود غير مستمر، هذه حقيقةٌ خطيرة، الكافر أحياناً يتوَهَّم أن خطه البياني صاعد في نمو مستمر، يزداد مالاً، يزداد مكانةً، يزداد قوةً، يزداد انغماساً بملذّاته، هذا الخط البياني الصاعد بعده انتكاسةٌ خطيرة، لا يطمع أن يزداد ماله ولا أن تزداد لذائذه لا بدَّ من تأديبٍ أو لا بدَّ من قصمٍ.

(كَلَّا)

كلا ليست حرف نفيٍّ فحسب، كلا حرف نفيٍّ وردعٍ، أي يردع الله هذا الإنسان السادر في أحلامه. كلا أي الأمور ليست على ما هي عليه إلى ما شاء الله، يؤكِّد هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي: عن أبي هريرة)

المؤمن خطه البياني في صعود مستمر:

أنت لا تستيقظ كل يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله، أقول لكم بإخلاص وبثقة: المؤمن خَطُّه البياني صاعد صعوداً مستمراً ولا ينزل أبداً حتى عند الموت، فالحقيقة مذهلة خطك البياني صاعد صعوداً مستمراً والموت نقطة على هذا الخط والصعود مستمر والدليل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة: آية " 51 ")

كتب لنا، ولنا للتملك من الخير، من السعادة، من الرُقي.

حدثني أخ قال لي: رجل في المسجد، دخل المسجد وصلى ركعتين وقرأ القرآن في رمضان هذا. فلمّا أقيمت الصلاة للفرض وجِد ميتاً، في المسجد، في عبادة.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27))

(سورة يس)

الكافر العاصي جزاؤه القصم:

اطمئن أيها الأخ ما دمت على منهج الله، مادُمت مراقباً لله فخطك البياني صاعد أبداً بشكل مستمر، أما الكفّار يصعد خطهم صعوداً مذهلاً ليسقطوا من عَلٍ، هذا هو القصم.

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا)

أداة ردعٍ ونفيٍّ، يوجد قصم، يوجد بطش.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

يوجد إهلاك، يوجد تدمير.

(فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (36))

(سورة الفرقان)

سقوط الكافر الفاجر سقوطاً مروعاً:

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29))

(سورة الدخان)

فإذا كنت مع الله لا توجد مفاجأة إطلاقاً، مفاجآت كلها سارّة، خطّك البياني صاعد صعوداً مستمراً وحتى عند الموت يُكشف لك مقامك في الجنة فتقول: لم أر شراً قط، وأما الكافِر المُعرض، العاصي، الفاجر هذا يصعد صعوداً حاداً ليسقط سقوطاً مريعاً.

(ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا)

قال علماء التفسير: **" هذه الأداة لقطع رجاء الكافر عما يطمع فيه من الزيادة "** كلا. لماذا هناك قَصْمٌ؟ وهناك تدميرٌ ؟ وهناك بطشٌ ؟

(إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16))

أي إنه يرفُضها كبراً.

المعصية نوعان:

1 ـ المعصية عن غلبة:

إخوانا الكرام: هناك من يعصي الله ونقول لهذا العاصي: تاب الله عليك وألهمك رُشْدَك، هناك من يعصيه غلبةً وهناك من يعصيه كِبراً، المعصية عن غلبة أهون عند الله ألف مرة من أن تعصيه كبراً.

2 ـ المعصية كبراً:

الذي يعصيه كِبراً لا توبة له، مصيره إلى النار، أما الذي يعصيه غلبةً فتاب العبد وتذلل، وبكى، ومرّغ جبهته في مصلاّه وقال: يا رب اعفُ عني، فهذا يرجى له المغفرة، فيوجد فرق كبير، المصيبة واحدة إنسانان لا يصومان، واحد تغلبه شهوته، والثاني يحتقر الصوم، فرقٌ كبيرٌ بينهما، قال له:

(ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16))

أي نفسه أبت أن تطيع الله، تأبّى على الله، استكبر على الله كإبليس تماماً، العنيد هو المُعانِد كجَليس ومُجالس.

عَنيداً كلمة لها معاني عدة:

1 ـ الجاحد:

(إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16))

وفي أصل اللُغة البعير العاند والعنيد هو الذي يحيدُ عن الطريق ويشرُدُ عن الصواب، بعضهم قال: **"العنيد هو الجاحد "**. الجحود ؛ تكرمه، تتلطف له، تعطيه، تقنعه وهو يرفض رفض الأحمق، رفض اللئيم.

2 ـ المعرض:

وقال بعض العلماء: **" العنيد هو المُعْرِضْ "**. الجاحد أو المُعْرِض، أو المنحرف، أو الذي يرُدُّ الحقّ كبراً، هذه هي معاني عنيد، يرد الحق كبراً، أو ينحرف عن جادة الصواب، أو يجحد الفضل، أو يُعرض عن الله عزّ وجل.

3 ـ المجاهر بعدوانه:

وقال ابن عباس: **" العنيد المجاهر بعدوانه، المجاهر بعداوته "**. يوجد إنسان عدو لكنه يُظهرُ خلاف ذلك، يوجد إنسان يُظهر أنّه عدو، العنيد المجاهر بعداوته، والعنيد المجانب للحق، والعنيد المُعرض عن الله، والعنيد الذي تجاوز قَدْرَهُ أي جعل نفسه نداً لله عزّ وجل، رفض أن يطيعه، والعنيد هو المَعْزول عن الناس الذي لا يُخالط الناس، ولعل هناك علاقةً بين العند وبين الانعزال، الإنسان إذا اعتزل الناس ضاق أفقه وعاش في أوهامٍ باطلة فوقف مواقف مضحكة.

أيها الإخوة الكرام: العنيد لها معاني كثيرة أولها: المُعْرِض عن الله، والجاحد، والمتكبّر، والمتأبّي، والذي يُظهر عداوته ولا يخفيها.

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16))

\العذاب الشديد لمن يعاند الله عز وجل:

الآن:

(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17))

سأحْمِله على ما لا يطيق، نعوذ بالله من هذا.

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

والله أيها الإخوة: توجد آلام بالأمعاء عَقِب أمراض خبيثة، يقول لي بعض الأخوة الأطباء: الآلام لا تحتمل مهما كان الإنسان عنده جلَد يفقد صوابه ويعلو صياحه إلى درجة غير معقولة، توجد آلام بالأعصاب، آلام بالأحشاء.

(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17))

كلمة واسعة شاملة جامعة مانعة، أي قد نُحَمِّلُه ما لا يطيق، أحياناً الإنسان يرى نفسه في بيته مفضوحاً والفضيحة لا تحتمل، إنسان يرى امرأته تخونه، أحياناً يضربه ابنه، أحياناً يفقِدُ حُرّيته، أحياناً يُعَذَّب

عذاباً لا يطاق، هل تحتمل أيها الإنسان ؟ هذا الذي يعاند الله عزّ وجل، يتأبّى على الله، يجاهر عداوته لله، يريد أن يطفئ نور الله، هل تحتمل فعل الله فيك ؟

(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17))

أي سأكَلِّفُهُ ما لا يطيق، أحياناً والعياذ بالله توجد أمراض مزدوجة، دواء هذا المرض يزيد هذا المرض، ودواء هذا المرض يزيد هذا المرض، يقف الأطباء مكتوفي اليدين، لا يوجد حل، إنكم تسمعون ولا شك من الناس أن هناك أمراضاً آلامها لا تحتمل، هناك حالات من الذُل لا يحتمل، الإنسان أحياناً يُهان، أحياناً يُهان في بيته، يُهان في عمله، كان عليه الصلاة والسلام يعوذ بالله من غلبة الدَيْن وقَهْر الرجال.

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130))

(سورة الشعراء)

فالإنسان حينما يُعاند الحق قد يتحَمّل ما لا يطيق.

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17))

الوليد بن المغيرة و كلامه عن القرآن الكريم:

قال:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

(سورة المدثر)

طبعاً هذه الآية لها أسباب نزول ولها عموم، خصوص السبب لا يُلغي عموم القصد، عندنا قاعدة: خصوص السبب لا يلغي عموم القصد، لعلّ هذه الآيات عن الوليد الذي فكّر وقدّر، قال:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

قال بعض علماء التفسير: **" هذه الآية نزلت في شأن الوليد بن المغيرة الذي فكّر في شأن النبي وفيما جاء به من القرآن ".** قال:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

معنى قدّر أي هيأ كلاماً، قال الوليد: والله لقد سمعت منه كلاماً (دققوا فهو ذكي جداً وفصيح). قال: **"والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس (أي القرآن) ولا هو من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمُثمر، وإنّ أسفله لمُغدِق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقوله هذا بشر".** كأنه آمن، كأنه بقي بينه وبين الإيمان ومضة.

الإنسان العاقل أقرب إنسان إلى الحق:

المشكلة أن الإنسان المفكِّر العاقل هو أقرب إنسان إلى الحق لأن عقله يعينه على ذلك، الإنسان المثقف العاقل الذكي الذي أُوتيَ قدرة على الإدراك هذا أقرب الناس للحق، والدليل: أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أسلم سيدنا خالد قال له: **" عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً "** لماذا تأخَّرت إلى هذا الوقت وأنت مفكِّر ؟ فالوليد كان ذكياً جداً، وعاقلاً، قال: **" والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر "**، فقالت قريش: صبأ الوليد، والله إن صبأ الوليد لتصبأ قُريشٌ كُلُّها.

هو زعيم قائد من علية القوم، نجم من النجوم، هؤلاء الكبراء الناس أتباعٌ لهم، فإذا اهتدى إلى الله إنسان كبير في مكانته، في عقله، في علمه، في شخصيَّته، في حجمه، هذا الذي يهتدي إلى الله له أتباعٌ كُثُر، فقالوا: **" والله لقد صبأ الوليد ولئن صبأ الوليد لتصبأ قريشٌ كلها ".**

الحوار الذي دار بين أبي جهل و الوليد بن المغيرة:

وكان يُقَال إن الوليد ريحانة قريش أي من أوجه رجالها وقاراً وعلماً وعقلاً. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فمضى إلى الوليد حزيناً أي (إنه يُظهر الحزن) فقال له الوليد: ما لي أراك حزيناً يا أبا جهل ؟ قال له: وما لي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقةً يعينونك بها على كبَرِ سنك، ويزعمون أنَّك زيَّنت كلام محمد ودخلت عليه وعلى ابن قحافة لتنال طعاماً من فضلهما "، أعوذ بالله !! فغضب الوليد وتكبَّر وقال: **"أنا أحتاج إلى كسرة خبزٍ من محمد وصاحبه ؟ فأنتم تعرفون قدر مالي، واللات والعُزّى ما بي حاجة إلى ذلك "** أي إنه استفزه استفزازاً رخيصاً والمعرض مهما كان ذكياً ليس بعاقل. " وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنِق (هذه حالات الجنون). قالوا: لا والله.

الاتهام الكاذب الذي وجهه الوليد للنبي الأمين:

الآن حدثت مناقشة:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

(سورة المدثر)

إنكم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه قط يخنِق ؟ قالوا: لا والله، قال: وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه نطق بالشعر ؟ قالوا: لا والله، قال: فتزعمون أنه كذّاب فهل جرَّبتم عليه كذباً قط ؟ قالوا: لا

والله، قال: فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قط، ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً و تخارجاً فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا: لا والله.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُسَمَّى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو إذاً؟ لا مجنون، ولا شاعر، ولا كذّاب، ولا كاهن فمن هو إذاً ؟ ففكّر في نفسه فكّر فكّر فكّر، تأمّل لعله حكّ رأسه ثم نَظَر، ثم عبس فقال: ما هو إلا ساحر في النهاية خرج منه أنه ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهذا قوله تعالى:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

إنه فكّر في أمر محمدٍ وأمر القرآن وقدّر في نفسه ما يمكن أن يُقال، وقال:

(فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24))

(سورة المدثر)

أي ساحر تعلّم السِحْرَ من غيره، قال تعالى:

(فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

(سورة المدثر)

الابتعاد عن الله أكبر خسارة تصيب الإنسان:

فأنت في اليوم تتخذ مئات القرارات، قررت أن تذهب في نزهة فلم تسر فيها، قررت أن تأكل هذا الطعام فلم يعجبك (ليس مشكلة)، تتخذ ألف قرار غلط، أما يوجد قرار واحد تتخذه غلط يدمِّرك، فليس كل قرار مثل الثاني، في شأن الطعام والشراب، والحركة، واقتناء مركبة، وشراء بيت، الإنسان يصيب ويخطئ والخطأ يُصَحَّح، أما الإنسان أحياناً يرتكب خطأ في جسمه أي إنه يأخذ معالجة من دون رأي الطبيب فيُشَل، هذه غلطة كبيرة، أحياناً يتكلّم كلمة فيفقد حريته عشر سنوات (وهي كلمة واحدة). أحياناً يشتري بضاعة غير نظامية يُحكم بضرائب تفوق كل أملاكه فيُفلِس، فليس كل خطأ خطأ، فقال:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

(قُتِل)

أي لُعن، أي أبعد نفسه عن الله، فأكبر خسارة تصيب الإنسان أن يبتعد عن الله بعمله السيئ، أكبر خسارة ينالها إنسان أن يبتعد عن الله نظير عمله السيئ.

(فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

أي لُعِنَ، وهناك تفسير آخر: أي قُهِرَ وغُلِب.

التفكير الأعمى يؤدي إلى الغلبة و القهر:

إخوانا الكرام: زوال الكون أهون على الله أن تتخذ قراراً بطاعته وتخسر، وأن تتخذ قراراً بمعصيته وتربح، وهذه الأيام أمامكم، إنسان يتخذ قراراً بطاعة الله لا بدّ من أن يربح، لا بدّ من أن يرفع الله شأنه، إنسان آخر ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى، فالإنسان يفكِّر في كل شيء إلا أن يكون في خندقٍ مُعادٍ للدين، حارب أي إنسان إلا أن تُحاربَ الله ورسوله، حارب كل شيء إلا أن تحارب الدين، فمن هو الطرف الآخر ؟ الله، يتوازى طفل رضيع مع عِملاق في الصراع ؟ لا يتوازى، يتوازى إنسان صغير مع دولة عُظمى، إنسان وحيد مع دولة عُظمى ؟

(فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

قال بعضهم: **" قُهر وغُلب "**. وقال بعضهم: **" عُذِّب "**.

(فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

(كَيْفَ)

تَعَجُّبِيَّة، أي كيف هداه تفكيره إلى هذا الحكم ؟ نحن أحياناً كثيرة نرى موقف فيه حمق من إنسان ذكي فنقول: كيف فكَّر ؟ ما الذي خطر في ذهنه ؟ كيف وقف هذا الموقف ؟ توجد كيف تعجبيَّة، وهذه كيف تعجبية.

التفكير الخاطئ عقابه اللعن:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20))

أي لُعن لعناً بعد لعن، فأخت أرادت أن تغتصب بيت أخيها وهي قوية أقوى منه دافع ثمنه وليس معه إيصال، اشترى البيت وأخته معاً فاستطاعت أن تأخذ الحكم لصالحها وأن تخرجه من البيت وتنتصر عليه، وعنده أربعة عشر ولداً وهي عزباء، بعد حين أصيبت بمرضٍ خبيث في أمعائها، وفي الشهر التالي ماتت، وريثها الوحيد أخوها، عاد إلى البيت مع أولاده، فأنا أقول: لعنها الله ولعنتها الملائكة إلى يوم القيامة.

أحياناً الإنسان يأخذ موقفاً يلعنه اللاعنون، يلعنه من في الأرض جميعاً. هذا نوبل اخترع البارود فشعر بخطأ فاحش لأنه الآن كل ما يقع في الأرض عن طريق التفجير والألغام في صحيفته، فجعل كل أملاكه جائزة لمن يقدِّم بحثاً في الإنسانية ينفعها، ومع ذلك كل هذه الجوائز لا تُكَفِّرُ ما فعله حينما اخترع هذه المواد المتَفَجِّرة.

(ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20))

أي لُعِنَ لعناً بعد لعنٍ بعد لعنٍ، أو عُوقب مرةً بعد مرة الخ.

(ثُمّ نَظَرَ (21))

(سورة المدثر)

(نَظَرَ (21))

أي فكّر. بالمناسبة: إياك أن تظن أن العقل لا يخطئ، العقل يرتكب أكبر الخطأ، العقل كالعين تماماً، الآن ائتِ بإنسان أعمى كلياً وإنسان بصره اثني عشر على عشرة، ضع الاثنين في غرفة مظلمة ألا يستويان ؟ مئة بالمئة يستويان، فالعين لا قيمة لها من دون ضوء، من دون نور، والعقل لا قيمة له من دون وحيٍّ يهديه، لا بدَّ من وحيٍّ يهدي العقل إلى الصواب، من دون وحي:

(إِنّهُ فكّرَ وَقدّرَ (18) فقُتِلَ كَيْفَ قدّرَ (19) ثُمّ قُتِلَ كَيْفَ قدّرَ (20) ثُمّ نَظرَ (21) ثُمّ عَبَسَ)

أي قَطّب بين عينيه.

الاستكبار عن الإيمان يؤدي إلى الكفر:

(ثُمّ أدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23))

استكبر عن الإيمان فقال في النهاية، صمت دهراً ونطق كفراً.

(إنْ هَذَا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24))

هذا النبي ساحر وقد أخذ السحر عن غيره.

(إنْ هَذَا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24))

أي إن الإنسان له أن يفكر وأن يتأمّل وأن يقلِّب الأمر على وجوهه، أما أن ينتهي بنتيجة مضحكة أنه ساحر

(عَبَسَ)

أي قطّب بين عينيه في وجوه المؤمنين.

تجبر اللئيم مع الضعيف و تذلله مع القوي:

مَرّ الوليد على جماعةٍ من أصحاب رسول الله فدعوه إلى الإسلام فعبسَ في وجوههم.

(عَبَسَ وَبَسَرَ (22))

أي عندما دعاه النبي عبسٌ في وجهه، حينما دعاه أصحابه عبسٌ في وجوههم، يوجد أشخاص ـسبحان الله ـ للطيبين مُتَجَهّمون، للمنحرفين منبسطون، وهذا من أشد حالات اللُّؤم، للشخص الطيب الطاهر المتواضع تراه مستعلياً ومستكبراً، مع إنسان آخر ذليل كالشاة أمام ذابحها، المؤمن بالعكس

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

من لؤم اللئيم أنه متجبّر على الضعيف متذلل أمام القوي، مع من دونه في منتهى الجبروت، ومع من فوقه في منتهى الخضوع والذل والاستكانة، أما المؤمن مع المؤمن ذليل، ومع غير المؤمن عزيز.

(ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23))

ولى وأعرض ذاهباً إلى أهله واستكبر عن أن يؤمن، أدبر عن الإيمان واستكبر حين دُعي إليه.

السحر و تعريفه:

فقال:

(فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24))

أي أخذه عن غيره، والسحر هو الخديعة، تعريف السحر: إظهار الباطل في صورة الحق.

(إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25))

(سورة المدثر)

أي ما هذا إلا كلام المخلوقين تُخدع به العقول كما تُخدع بالسحر.

توعد الوليد بالنار الشديدة:

الله عزّ وجل قال:

(سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26))

(سورة المدثر)

إله يقول:

(سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26))

أي سأدخله جهنم كي يصلى حرّها.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27))

هذه مبالغة، أي لا تعلم ما هي سَقَر.

لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ: آية فيها معاني عدة:

1 ـ لا تترك للكافر شيئاً إلا و تحرقه:

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28))

استمعوا إلى تفسير هذه الكلمة قال:

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28))

أي لا تترك لهم عظماً ولا لحماً ولا دماً إلا أحرقته، وقيل: لا تبقي منهم شيء ثمّ يعادون خلقاً آخر، أي لا تذر أن تعاود إحراقهم مرةً بعد مرة.

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء: آية " 56 ")

2 ـ لا تبقي من فيها حياً و لا تذره ميتاً:

و قال بعض العلماء: **" لا تبقي من فيها حياً ولا تذره ميتاً ".** وهذه أصعب حالة (لا موت ولا حياة) مات انتهى، يحيا مستريح، لا حياة ولا موت، لا تبقي من فيها حياً ولا تذره ميتاً.

3ـ تحرقهم كلما تجدد جلدهم:

بعضهم قال: **" تحرقهم كلما تجدد جلدهم ".**

4 ـ لا تبقي لهم لحماً و لا عظماً:

وقال بعضهم: **" لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً ".**

لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ: آية فيها معاني عدة:

1 ـ تلوح جهنم لهم من بعيد فتسود جلودهم و يزدادون عطشاً:

(لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29))

(سورة المدثر)

أي تلوح لهم من بعيد، هذا معنى:

(لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29))

تغيّر لون جلودهم، تسودُّ جلودهم، إذا الإنسان احترق يسوّد لون جلده، قال بعض العلماء:" **تلفح وجوههم لفحةً تدعها أشدّ سواداً من الليل**". بياض الوجه له معنى وسواده له معنى، لاحه البرد والسُقم والحزن أي غيّر لون وجهه، الإنسان أحياناً يصفر وجهه، أحياناً يسود وجهه.

وقال بعضهم: " **يشتَدُّ عطشهم** ". لأن اللوح شدة العطش، هذه كل معاني:

(لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29))

وتوجد قراءة لواحةً للبشر.

2 - تلوح للبشر من مسافة بعيدة:

المعنى الثاني: تلوحُ للبشرية من مسيرة خمسمئة عام.

3 - تلوح لهم جهنم حتى يروها رأي العين:

ويوجد معنى ثالث: تلوح لهم جهنم حتى يروها عياناً وهذا يؤكِّده قوله تعالى:

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91))

(سورة الشعراء)

الملائكة الموكلون بتعذيب الناس في جهنم:

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

(سورة المدثر)

أي على سَقَر تسعة عشر من الملائكة يلقون الناس فيها، هؤلاء زبانية

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

(غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6))

(سورة التحريم)

هؤلاء الملائكة التسعة عشر هم خزنتها موكّلون بتعذيب الناس فيها وإلقائهم في لهيبها.

أيها الإخوة الكرام: قال بعض العلماء: نُقِل عن أحد الكفار في عهد النبي أنه قال: لا تخافوا من التسعة عشر أنا أدفَعُ بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة ومنكبي الأيسر التسعة ثمّ تمرُّون إلى الجنة، يقولها مستهزئاً كانوا يضحكون من المؤمنين، يقول الله عزّ وجل:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

إدعاء الكفار بأن التدين سلوك بدائي أساسه الضعف:

الآيات اليوم:

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

يغلب على التفسير الطابع المتعلِّق بأسباب نزول هذه الآيات، لكن كما تكلّمت في أول الدرس: لو تحررنا من خصوص السبب إلى عموم القصد، كل نظرية إلحادية الآن تنضوي تحت هذه الآية، كل دعوة إلى التفلّت من الدين، كل تصغير لشأن الدين، كل طعن في أحقية الدين، كل محاولة لإلغاء الدين من حياة البشر، كل محاولة لإحلال الفكر العلماني مكان الفكر الديني تحت هذه الآيات:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

يقول لك: التديُّن سلوك بدائي أساسه الضعف والخوف، فلما قوي الإنسان وسَخَّر الطبيعة له ليس بحاجة إلى الدين، وعليه فَقِس آلاف النظريات التي تطرح بإلغاء الدين من حياة الإنسان.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

الوقوع في الضلالات عندما يبتعد العقل عن الوحي:

العقل حينما يتحرك بعيداً عن الوحي يقع في ضلالةٍ عمياء، العقل بحاجة إلى الوحي كما أن العين بحاجة إلى النور.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23))

هذا كلام المتكلمين، المفكرين أعداء الدين، العلمانيين، الإلحاديين، والعوام لهم كلام قريب، يقول لك: من هنا إلى يوم الله يفرجها الله، هذه نوع من أنواع الفلسفة (الفلسفة التفلتية) يقول لك: من مات ورجع فقال لك: ماذا صار معه ؟ الله أعلم، فهذا تشكيك، يقول لك أحد الشعراء الجاهليين:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيّتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

* * *

قال له: غُب على قدر ما تقدر، انبسط، أي اكسب شبابك، هذا كله كلام أيضاً مشابه لهذا الكلام.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

استخدام الفكر للوصول إلى الدين:

أخْطَأ تفكير أن تفكِّر في المعصية، أن تفكِّر في ترك الدين، أن تفكر في الدنيا فقط، أن تفكر أن تنغمس في الملذّات على حساب طاعتك لله عزّ وجل، فسواءٌ فسَّرنا هذه الآيات بحسب خصوص السبب أم بحسب عموم القصد، كلاهما على حق.

على كلٍ هذا الفكر أداة إيَّاك أن تستخدمه لغير ما خُلِق، إياك أن تستخدمه لترك الدين.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26))

والذين فكّروا هذا التفكير أين هم الآن ؟ نُبشَت قبورهم بعد مئة عام وأُحرقت، الذين ناهضوا الدين، الذين ألحدوا، الذين أنكروا هذا الدين أين مصيرهم ؟ إلى مزبلة التاريخ، وهؤلاء الذين ناهضوا الدين أصبحت فكرتهم سخيفة ومرفوضة، لذلك إيَّاك ثمَّ إيَّاك ثمَّ إيَّاك أن تقف في خندقٍ معادٍ لدين الله لأن الطرف الثاني من هو ؟ هو الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (5-8): تفسير الآية31 معرفة الله من خلال أفعاله و كلامه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-01-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الخامس من سورة المُدَّثِر، ومع الآية الكريمة الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31))

(سورة المدثر)

ولاء الملائكة لله عز وجل:

تروي كتب التفسير أن أبا جهل قال: أيعجز كل مئة منكم أن يبطش بواحدٍ منهم، هؤلاء التسعة عشر ؟ أيعجز كل مئة منكم أن يبطش بواحدٍ منهم ؟ ثم تخرجون من النار، تفكير عميق جداً أن مئة لواحد فقال الله عزّ جل:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً)

(سورة المدثر: آية " 31)

من جنس آخر، لا من جنس البشر، إذا بدا جبريل للنبي عليه الصلاة والسلام ملء الأفق، فهؤلاء الملائكة ليسوا من جنس البشر، وقد حلل بعض علماء التفسير حكمة أن الذين يعذِّبون الكُفّار في النار ليسوا من جنسُ البشر، لأنهم لو كانوا من جنسهم لكان في مقاربة في القوة فقد يغلب المعذّب المعذِّب، ولو كانوا من جنسهم لتعاطفوا معهم، ولو كانوا من جنسهم لما كانوا في نُصرة لله عزّ وجل، فالملائكة من جنسٍ آخر، لا يتعاطفون مع هؤلاء العُصاة الفُجّار، كما أن ولاءهم لله وحده، فلا يمكن أن يكون هناك تخفيف.

عدم تعاطف الملائكة مع الكفار:

أحياناً يأتي أمر بإيقاع عذاب معين بشخص، المنفذ قد يخفف هذا الأمر، قد يأتي بربعه، قد يعذِّب عذاباً شكلياً إذا في تعاطف، فإذا توهّم أبو جهل أن كل مئة من كفار قريش يصرعون واحداً من هؤلاء التسعة عشر فتفكيرٌ مضحكٌ سخيف، قال:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً)

الملائكة ليسوا متعاطفين مع هؤلاء العُصاة الكفار، ولاؤهم لله وحده، لو كانوا من جنسهم لتعاطفوا معهم، ولا يمكن بحال أن يخفف الملائكة بعض العذاب عن هؤلاء، الآية الكريمة:

(عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6))

(سورة التحريم)

فليس من الحكمة أن يكون هذا الذي كُلِّف بتعذيب هؤلاء لطيف.

(عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6))

معرفة الله من خلال خلقه:

إذاً: هذا التفكيرٌ المحدود وينمُّ عن جهل، ولكن أنا أريد أن أقف وقفةً توَضِّح أعماق هذه الآية، الله جلّ جلاله لا بدَّ من أن نعرفه، هناك طرق لمعرفته، إنَّ أسلم الطرق وأنجعها أن تعرفه من خلال خلقه، ترى عظمةً ما بعدها عظمة، ترى حكمةً ما بعدها حكمة، ترى دقةً ما بعدها دقة، ترى نظاماً ما بعده نظام، ترى إعجازاً ما بعده إعجاز، أما لو أن المشاهد جَهِلَ، غفل عن معرفة الله من خلال خلقه وأراد أن يعرفه مثلاً من خلال أفعاله، فالطريق شائك، هذا الطريق محفوف بالألغام، ماذا يرى المشاهد ؟ يرى مجاعة، ويرى عدوان، ويرى تَصَحُّر، ويرى نقص مياه في العالم، ويرى فقر شديد، فإن أردت أن تعرف الله من خلال أفعاله هذا الطريق يوصل ولكن بصعوبة، سالك بصعوبة، فيه ألغام كثيرة، وإن أردت أن تعرف الله من خلال كلامه فقط تقرأ الآية الكريمة:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة: آية " 13)

تقع في إشكال، أي أن الله عزّ وجل ما شاء أن يهدي الناس، لو شاء لهداهم، فلذلك طريق معرفة الله من خلال كلامه طريق يحتاج إلى تَبَصُّر، من هنا قال أصحاب رسول الله رضي الله عنهم أجمعين: **"أوتينا الإيمان قبل القرآن ".**

هناك آيات كثيرة شاءت حكمة الله أن تكون متشابهة.

التفكر في خلق السماوات و الأرض:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(13))

(سورة السجدة)

فإذا الإنسان ما له معرفة بالله عميقة جداً يقع في إشكال مع هذه الآية، مع أن معنى هذه الآية دقيق جداً: أي يا عبادي لو أردت أن ألغي اختياركم، وأن ألغي تكليفكم، وأن ألغي حمل الأمانة، وأن أجعلكم كبقية المخلوقات التي لا اختيار لها، وأجبرتكم على شيءٍ ما، لما أجبرتكم إلا على الهدى.

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

لكن هذا المعنى الدقيق هذا لا يفهم إلا بعد مرحلة متقدِّمة من الإيمان، فربنا عزّ وجل شاءت حكمته أن يكون في كتاب الله بعض الآيات المتشابهة، هذه تحتاج إلى إيمان قبل أن تقرأها.

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 8)

هكذا قد تفهم هذا الآية على نحوٍ ما أراده الله عزّ وجل، إذاً الطريق السليم الآمن الموصل الذي لا يوجد فيه أخطار، ما فيه ألغام، ما فيه مفاجئات أن تتفكر في خلق السماوات والأرض، أبو جهل اسم على مسمًّى.

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً)

الإنسان الغافل عن الله لا يفهم القرآن المبين:

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

هم قلة، نحن أكثر، كل مئة على واحد يصرعونه ويخرجون من جهنم، هذا أراد أن يعرف الله من خلال كلامه وإيمانه صفر، أما إذا آمنت بالله إيماناً عميقاً عندئذٍ أنت أقرب الناس.

ذكرت قبل يومين أن القرآن الكريم لا يكفي أن تتقن العربية لفهمه، لأن الله عزّ وجل قال:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199))

(سورة الشعراء)

نزّلنا هذا الكتاب على إنسان فارسي أو على إنسان تركي أو على إنسان صيني، فقرأ عليهم هذا القرآن باللغة الصينية أو الفارسية أو التركية، لا يفقهون شيئاً، قال:

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200))

(سورة الشعراء)

أي أن هذا القرآن العربي المبين الواضح المعجز إذا الإنسان قرأه وهو غافل عن الله، بعيد عن الله، بعيد عن الاتصال بالله، يفهمه كما يفهم كتاباً باللغة الفارسية.

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200))

(سورة الشعراء)

الله عزّ وجل قال:

(أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44))

(سورة فصلت)

وقال:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصلت)

وقال:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82))

(سورة الإسراء)

فهو عمى على الكفار ويزيد الظالمين خساراً لأنه يُنادى من مكانٍ بعيد، والله عزّ وجل يبيّن أنه لا بدّ من أن تؤمن بالله قبل أن تقرأ كلامه.

الإيمان شرط للوصول إلى الله:

أنت أحياناً تلتقي بإنسان لا تعرف عنه شيء إطلاقاً، قال لك: أنا معي ألف مليون، تضحك من هذا الكلام، لو تعرف حجمه المالي حقيقةً لما ضحكت، لذلك الطريق إلى الله ؛ طريق كلامه يحتاج إلى إيمان مسبق، وطريق أفعاله يحتاج إلى إيمان مسبق، طريق أفعاله حقل محفوف بالألغام، أنت ماذا ترى؟ ترى مشكلات في العالم، ترى دول متجبّرة ودول مقهورة، ترى مجاعات، ترى فيضانات، ترى سيول، ترى زلازل، ترى براكين، ترى أعاصير، ترى شحاً في المياه، ترى حروب طاحنة، ترى حروب أهلية تدوم أربعين عام أحياناً، الحرب العالمية الثانية فيها خمسين مليون قتيل، فقد تأخذ صورة غير صحيحة، هناك حكمٌ ما بعدها حِكَم، العبرة أن توحِّد، أن ترى يد الله تفعل في كل شيء، فلذلك الله جعل لنا مثلاً قال:

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

تسعة عشر ملكاً، فجاء إنسان غافل عن الله وقال: هؤلاء قلة، نحن نغلبهم وننجو من هذا العذاب.

آيات الله امتحان للإنسان:

قال الله عزّ وجل:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

ما معنى فتنة ؟ أنت أحياناً تقول كلاماً واضحاً كالشمس، لكن هناك كلام له فائدة، يوجد كلام تمتحن به الآخرين، مثلاً لو قلت لك: أعطي فلاناً ألف درهمٍ، شيء واضح لا يوجد معه مشكلة، أما أعطي فلاناً ألف درهمٍ ونصفه. هنا تدخل النفوس، البخيل يقول لك: ألف ونصف درهم، لأن الهاء تعود على الدرهم، أما الكريم يقول لك: ألف و خمسمئة لأن الهاء تعود على الألف، فهذا كلام احتمالي لكن في الوقت نفسه فيه امتحان، الله عزّ وجل يمتحن هذا الإنسان، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

تصور مثلاً حقل سباق، نأتي بمئة حصان مثلاً كلها تجري في هذا الحقل، لو وضعنا عقبة (مرتفع) فبعض هذه الأحصنة لا تستطيع تخطي هذه العقبة، العقبة ما فائدتها ؟ هذه تعطي فرزاً، فمنهم خمسة ضعاف ما أمكنهم تجاوز هذه العقبة، لو رفعنا العقبة سقطوا عشرين، لو رفعناها أكثر سقطوا خمسين، لو رفعناها أكثر وأكثر سقطوا تسعين، فهذه العقبات التي توضع أمام الخيول في أثناء جريها هي فارزة لها، فربنا عزّ وجل أنزل هذا الكتاب على النبي الكريم، يوجد آيات تفرز المؤمنون، ويوجد آيات متشابهة، إنسان ميّال للربا، مُصِر عليها، يقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130))

(سورة آل عمران)

أنا آكله ضعفاً واحداً (نسبة قليلة)، فأنا لست معنياً بهذه الآية، يفهمها كما يريد، كما يحلو له، فالقرآن الكريم فيه أيضاً امتحان، لذلك قالوا: تؤخذ ألفاظه من حُفّاظه، وتؤخذ معانية ممن يعانيه، القرآن يحتاج إلى قرب من الله، القرآن يحتاج إلى إيمان بالله، القرآن يحتاج إلى أن تعرف من هو المتكلم ؟ خالق السماوات والأرض.

معرفة الله من خلال أفعاله و كلامه:

من هنا قال بعض الصحابة الكرام: **" أوتينا الإيمان قبل القرآن، لمّا آمنا بالله فهمنا كلامه فهماً صحيحاً وكنا في المستوى الذي ينبغي ".**

كذلك إذا نظرت في أفعاله قد تجد أمراضاً وبيلة، قد تجد طفلاً مات في المهد، قد تجد شاباً مات في حادث عمره ثلاثين سنة لم يتزوّج، إنسان عمر مئة وثلاثين، قد تتساءل، لذلك لا تستطيع فهم أفعاله إلا بعد معرفته:

مثل بسيط: لو طفل رأى طفلاً يضربه رجل يقول لك: هذا الرجل ظالم، أما لو رجل رأى رجلاً يضرب ابنه، يقول لك: يربّيه، اختلف، الطفل توهّم أن هذا الإنسان يظلمه، أما الرجل الذي عنده مشاعر الأبوّة علم أن هذا الرجل يؤدِّب ابنه لذنبٍ كبير حتماً، ما الذي جعله يفهم صواب فعل الرجل ؟ قربه منه.

الذي أريد أن أقوله هنا: خطر كبير أن تعرف الله من خلال أفعاله فقط، لأنه لا يمكن أن تفسِّرها إلا بحالة واحدة أن يكون لك علمٌ كعلمه، وهذا مستحيل، هناك أمثلة كثيرة جداً، فإنسان قد يجد مرضاً عضالاً ألمّ بإنسان فسحقه سحقاً، أنت لا تعرف عن هذا الإنسان شيئاً، قد يكون هذا عقاباً له، وقد يكون ترقية، هناك حكمةٌ.

تعلق إرادة الله بالحكمة المطلقة:

نحن لدينا قاعدة: كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق، هذا السطر يحل مليون مشكلة، كل شيء وقع يجب أن تؤمن إيماناً جازماً أن الله أراده، الدليل: لو لم يرده لما وقع، لأنه لا يقع شيءٌ في ملك الله إلا إذا أراده الله، مستحيل ما دام وقع.

وتوجد مقولة رائعة جداً: لكل واقعٍ حكمة، قد يكون الذي أوقع هذا الشيء غير حكيم، أحمق، مجرم، لكن ما دام هذا الشيء قد وقع فليس لكل موقعٍ حكمة، لكن لكل واقعٍ حكمة، الشيء الذي وقع هناك حكمةٌ ما بعدها حكمة منه، قد نعرفها وقد لا نعرفها، قد نكشفها وقد لا نكشفها، قد نكشفها بعد حين، وقد نكشفها بعد أمدٍ طويل، وقد لا نكشفها، نحن غير مكلّفين أن نستقصي حكمة الله من أفعاله فهذا فوق طاقة البشر.

لكل واقع حكمة:

قصة ذكرتها كثيراً لكن الآن تفيدنا كثيراً: إنسان استوقفني مرة بالطريق قال لي: فلان خرج من بيته إلى دكانه في أحد أسواق دمشق الشهيرة المغطاة وسمع إطلاق رصاص اثنان يتشاجران، مد رأسه فإذا برصاصةٍ تستقر في عموده الفقري تشلّه فوراً، فهذا الإنسان فكّر

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

ليس له ذنب، إنسان برئ جاء إلى هذا المحل التجاري وهو محله ليفتح المحل وليبيع وليشتري ويكسب قوت أولاده، قال لي: ماذا فعل ؟ أجبني، قلت له: أنا ليس لدي جواب، أنا غير مكلف أن أستقصي حكمة أفعال الله كلها، فهذا فوق طاقتي.

أنا مؤمن إيماناً إجمالياً أن الله حكيم وعادل ورحيم، أما هذه بالذات أنا لا أعرف تفسيرها، طبعاً حكمة إلهية الله سخرها، بعد عشرين يوماً أحد إخواني الكرام قال لي: أنا ساكن في الميدان بالمحل الفلاني، لنا جار بالطابق الأعلى أو الأدني لا أذكر آكل مال أيتام، مال أولاد أخيه، والمبلغ كبير ويساوي ثمن بيت، وأولاد أخيه في أمسّ الحاجة لهذا المال ليشتروا بيتاً به، يمتنع عن إعطاء حقهم، شكوه لأحد علماء دمشق توفِّي رحمه الله، فاستدعاه وحضّه على دفع ما عليه فرفض، قال لي: بالضبط قال لهم: يا بني إيّاكم أن تشكوه إلى القضاء فهذا لا يليق بكم ولا به هو عمكم والعم والد، اشكوه إلى الله، هذا الكلام تم في الساعة التاسعة مساءً، هذا الشخص نفسه الذي نزل إلى محله التجاري وسمع إطلاق رصاص بين اثنين متشاجرين ومد رأسه ليرى ما الخبر ؟ فإذا برصاصة تستقر في عموده الفقري. أنا لا أعلم الحكمة وقتها، لكن أُتيح لي لحكمةٍ أرادها الله أن يأتي إنسان يعطيني هذه القصة التي فسَّرت لي الحدث الأخير.

امتحان الله للإنسان في الدنيا من أجل أن يتوب إليه:

من الصعب أن تعرف الله من أفعاله، الله له حكم.

يوجد شيء ثان أهم بكثير، هذه الدنيا محدودة، الله خلقنا لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، فربنا أحياناً يُضَحِّي لنا بدنيانا من أجل أن نتوب إليه، فأصحاب الجنة أتلف كل محاصيلهم، محصول ثمنه خمسمئة ألف فرضاً تجده كله منتهٍ ؟ دَمَّر كل محاصيلهم، ليقولوا:

(سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29))

(سورة القلم)

ليقولوا هذه الكلمة وليتوبوا إلى الله.

فأنت إذا كنت غنياً كبيراً أو عندك ابن صغير ومعلِّق عليه آمالاً كبيرة، وفحصه على الأبواب و يلعب بلعبة، واللعبة غالية وأنت غني فجئت ودهستها برجلك حطمتها برجلك، قلت له: ادرس، والطفل متعلق بهذه اللعبة، بكى بكاءً مراً من أجلها، شيء ثمين عنده، لكن عند الأب ليس لها قيمة، سحقها وحطّمها من أجل أن يلتفت إلى دراسته، إلى مستقبله، فالدنيا على الناس غالية كثيراً.

إنسان يفلس، إذا كان لا يصلي وبعد أن فلس صار يصلي فقد ربح ربحاً كبيراً، إنسان لا يوجد فيه دين، بعد ما جاءه شبح مرض مخيف فتاب، ربح ربحاً كبيراً، المرض شر نسبي، والتفليسة شر نسبي، ومحله احترق شر نسبي، أما في منظور الله عزّ وجل الله ناظر إلى الآخرة، خير مطلق.

تعلق حكمة الله بالخير المطلق:

أول نقطة إخوانا الكرام: كل شيء وقع أراده الله، لأن لكل واقعٍ حكمة، ما دام وقع في حكمة، قد يكون الفاعل أحمق، قد يكون مجرماً فلا يهمنا، ما دام الله سمح له أن يفعل إذاً لكل واقعٍ حكمة، كل شيءٍ وقع أراده الله، بالعكس كل شيءٍ أراده الله وقع أي:

(وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 11)

مهما كانوا أقوياء يتهافتون كبيت العنكبوت، فقلعة من قلاع الإلحاد تداعت كبيت العنكبوت، فلا أحد عند الله قوي، الله هو القوي، إذاً إذا أراد شيئاً وقع، الله عزّ وجل فعّالٌ لما يريد، الذي أراده يقع، والذي وقع أراده.

الآن: إرادته متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، أي أن هذا الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، أو لو وقع على خلاف ما وقع لكان الله ملوماً، أو لعُدّ هذا نقصاً في حكمته، والذي وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق، اسمع قوله تعالى:

(قُلِ اللّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

(سورة آل عمران)

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

لو قال: والشر اختلف المعنى، إيتاء الملك خير، ونزعه خير، تعز من تشاء خير، تذل من تشاء خير.

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

الكون هو الطريق الآمن لمعرفة الله تعالى:

هذه المُقدمة أيها الإخوة الطريق السليم الآمن لمعرفة الله الكون، أقصر طريق إلى الله وأوسع باب.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

(سورة آل عمران)

هل تريد أن تكون معطِّلاً لكتاب الله لا سمح الله ولا قدر ؟ لما ربنا عزّ وجل يقول لك:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20))

(سورة الغاشية)

هذا أمر إلهي.

التفكر في خلق الإنسان لمعرفة قدرة الله:

يوجد عندنا قاعدة أصولية: كل أمرٍ يقتضي الوجوب.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25))

(سورة عبس)

تحلية لتر ماء يكلِّف خمس عشرة ليرة، فهذا الماء الذي تشربه محلى، مصفى، فرات، عذب، من جعله عذباً فراتاً وكان ملحاً أجاجاً ؟ انظر إلى طعامك، وإلى شرابك.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5))

(سورة الطارق)

باللقاء الزوجي يوجد خمسمئة مليون حوين، والحوين يوجد عليه مليون معلومة مبرمجة، الخمسمئة مليون حوين بسنتيمتر مكعب، أو اثنين سنتيمتر مكعب، والحوين الواحد عالم قائم بذاته والبويضة قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ(8))

(سورة الطارق)

التفكر في الآيات الكونية للوصول إلى الله:

اجمع الآيات التي تتحدث عن الكون تقريباً ربع القرآن، فإذا الإنسان لم يفكر في هذه الآيات عطّلها، عَطّل رُبع كتاب الله، هذا خطأ كبير، طريق معرفة الله من خلال الكون طريق آمنة وسالكة، والكون أوسع بابٍ للدخول منه إلى الله وأقصر طريقٍ إليه، في طريقين اثنين، طريق أفعاله طريق ضيّق ومحفوف بالألغام وسالك بصعوبة، فيه مشكلات، في حروب، في فقر، يوجد قوي ويوجد ضعيف، يوجد ظالم ويوجد مظلوم، يوجد فروقات اجتماعية كبيرة جداً هذه لا تعرف حكمتها إلا أن يكون لك علمٌ كعلم الله، وكلامه:

(الم (1))

(سورة البقرة)

الله أعلم بمراده.

القرب من الله يقودنا إلى التفسير الصحيح:

بعضهم قال:

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

لماذا ليسوا عشرين ؟ عشرين رقم صحيح، تسعة عشر، يوجد أشياء تتحدى عقل البشر، فهذه المقدِّمة: إذا أردت أن تعرف الله ابدأ بمعرفته من خلال خلقه، بعد ذلك أصبح عندك نوراً، هذا النور يكشف لك أفعاله، مثل بسيط: طفل صغير رأى طفلاً يضربه أبوه، قال: هذا أبوه ظالم، لأنه رؤيته محدودة جداً، أما صديق الأب يعلم علم اليقين أن ابنه ارتكب ذنباً كبيراً وهو يؤدِّبه ويضربه رحمةً به، اختلف التفسير، فكلما كنت أقرب إلى الله كان التفسير أوضح وأصح، وكلما كنت أبعد كان التفسير خطأ، هذا عن أفعاله، وعن كلامه أيضاً الصحابة قالوا: **" أوتينا الإيمان قبل القرآن "**، هذا معنى قوله تعالى كل هذا التمهيد:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

اختبار الله العباد لفرزهم:

عملية فرز، اللهم صلِ على سيدنا محمد بعثه الله رسولاً، و أنزل عليه قرآناً أما عندما عرج به إلى السماء، وقال له: أخبرهم، فهذا شيء صعب جداً، فهم ما قبلوه رسولاً، حتى يقبلوه سافر إلى القدس ورجع ببضعة دقائق، فهو كان يتمنّى من أعماقه ألا يقول لهم ذلك، هم كذّبوه في الأصل وفوق تكذيبهم كيف يقول لهم: أنا كنت في السماء، وتخطيت بيت المقدس، وعرجت إلى السماء، فلهذا قد قالوا: الإسراء والمعراج كان فرزاً للمؤمنين جاء قبل الهجرة، يوجد عملية تحميل، كشرفة منسِّمة إخواننا المهندسين يعرفون هذا الشيء ماذا نفعل تجاهها ؟ نضع لها عشرة براميل من الماء فإذا وقعت هذا هو المقصود نكشف خللها، إذا ثبتت معناها جيدة، نطمئن، عملية تحميل.

فربنا أحياناً يفعل شيئاً أولاً لفرز عباده، أو يُحَمِّلهم، فإما أن يكشف لهم أنهم بعيدون عن الإيمان أو أنهم يصمدوا، فإن صمدوا عرفوا أنهم صامدون والله عزّ وجل أكرمهم بعد ذلك، فالقضية ليست سهلة أن أنا آمنت وانتهى كل شيء.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

فهل من الممكن طالب بالجامعة يقدِّم طلباً لرئيس الجامعة أنا أشعر أنني قوي بالرياضيات، فيرجى إدراج اسمي مع الناجحين، وإعطائي مرتبة امتياز الأولى، التوقيع من دون فحص، فأنا واثق من نفسي. شيء مضحك، لا يمكن أن تأخذ شهادة من دون امتحان، والامتحان صعب.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

امتحان الله لكل إنسان على قدر ما يستطيع:

معرفة الله من خلال قرآنه تحتاج إلى إيمان مسبق، ومعرفة الله من خلال أفعاله تحتاج إلى إيمان مسبق، أما إن بدأت فابدأ بخلقه فلا إشكال في ذلك، النبي قال:

((تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

(وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

وقيل: إلا عذاباً للذين كفروا لأن الله عزّ وجل يقول:

(يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14))

(سورة الذاريات)

أي أنها عملية فرز، الامتحان هكذا، فمرة كنا في الجامعة الصف الذي أعلى منا جاء سؤال، الدكتور في الجامعة كتب نصاً قال (قال ابن المقفّع و كتب نصف صفحة) اشرح هذا النص ؟ الطلاب ثلاثمئة وخمسين طالباً، والنتيجة سطر واحد: لم ينجح أحد. لماذا فكلهم شرحوا النص ؟ هذا النص بعيد عن خصائصه عن كلام ابن المقفع، فكيف صدّقوا أنه له، فالذي ينجح هذا النص ليس لابن المقفع، لأن خصائصه الأدبية بعيدة عن أسلوبه، هم لم ينتبهوا، فكان هذا النص عملية فرز، من عَطّل محاكمته، عَطّل ذوقه الأدبي، عطل فهمه العميق للنص وشرحه شرحاً آلياً، فرسب عنده، يوجد امتحانات، والله عزّ وجل حكيم، فهو يمتحن كل إنسان على قدر ما يستطيع، فعن هذا الرقم (تسعة عشر) قال:

(وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً)

(سورة المدثر)

عدم الإكثار من الجدل:

سيدنا الصديق لما قيل له: تعالَ اسمع ما يقول صاحبك، قال: **إنه عرج إلى السماء**، فقال: **هو قال هذا؟** قالوا: نعم، قال: **فقد صدق**، هذا الإيمان، إن قال هذا فقد صدق، فأحياناً الله يمتحنا بامتحانات عبودية،

سيدنا إبراهيم قال له الله: اذبح ابنك، ليست مقبولة بل غير معقولة وغير محتملة، قال له: سمعاً وطاعة يا رب، قال:

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

يوجد شيء اسمه امتحان عبودية، الله قال لك:

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

انتهى، في حكمة بالغة، أما لماذا ليسوا عشرين ؟ يجعلهم مئة، خمسة، صارت هناك مناقشة، أنت تناقش خالق الكون.

(وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)

أي الذين آمنوا، كعبد الله بن سلام، أو الذين أوتوا الكتاب لأن هذا الرقم عندهم أيضاً، إما ليستيقن الذين أوتوا الكتاب من أن القرآن كالإنجيل والتوراة من مصدر واحد، أو لأن بعض الذين آمنوا بالإسلام يستيقنوا أن كلام الله هو الصحيح..

(وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً)

مكافأة الله لمن ينصاع لأمره:

الحقيقة توجد نقطة مهمة جداً، أحياناً الإنسان يتلقى أمر إلهي ما فهم حكمته، لكن لأنه يعلم أن الله الذي خلق السماوات والأرض حكمته لا شك فيها، فيستسلم لحكمةٍ يصدِّقها ولا يراها (دقق في هذا الكلام) أحياناً تجد أن هناك حكماً شرعياً، لماذا الله عزّ وجل ما ورّث أبناء الذين توفي أبوهم في حياة جدهم ؟ يا ترى هل في نقص بالشريعة ؟ الله عزّ وجل نسي أن يورثهم، ألا يوجد له ورثة ؟ فالمؤمن عنده علم اليقين أن الله عزّ وجل حكيم، فيستسلم لحكمة الله، لأنه استسلم لحكمته العامة غير التفصيلية فربنا عزّ وجل يكرمه لكشف حكمة عدم توريث هذا الإنسان، فيكون جَمَعَ الإنسان الحُسْنَيين ؛ جمع العبادة ثم أضاف إليها الحقيقة، فكل إنسان ينصاع لأمر الله استسلاماً له يكافئه الله عزّ وجل بكشف الحكمة، فكسب مرتبة العابدين ومرتبة العلماء، العلماء قالوا: **" علة كل أمرٍ أنه أمر".**

حكمة الله وراء أوامره و نواهيه:

أحد علماء دمشق الأكارم كان بأمريكا وكان يناقش عالماً أسلم حديثاً عن مضار لحم الخنزير، ذكر له تفاصيل، ذكر له الدودة الشريطية، ذكر له انتقال طباع الخنزير إلى الإنسان، يقول لك: هذا مخنزر، لأن الخنزير يقارب امرأته أمام بقية الخنازير، فإذا شخص أكل لحم الخنزير يتطبع بطباعه، بعد ما

أسهب قال له: كان يكفيك أن تقول لي إن الله حرّمه (الأمريكي كلامه أبلغ)، كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرمه، خالق الكون حرمه، انتهى.

سألوا امرأة ببرنامج مفتوح بين القارات الخمس عن رأيكِ في تعدد الزواجات ؟ امرأة من بلد إسلامي، قالت: كيف تطلب رأيي والله سمح به، من أنا ؟ إذا كان الله سمح به أنا ليس لي رأي في الموضوع، يوجد كلام عميق جداً، فأنا الذي أريده أن تعرف الله، إن عرفته فسّرت أفعاله، أن تعرف الله، إن عرفته فسّرت كلامه.

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

يوجد شخص لو تفرمه لا يصدق أن الله يضل عباده، لكن أضله أي وجده ضالاً، أنا عاشرت هؤلاء فما أبخلتهم (بالمعاجم): أي ما وجدتهم بخلاء.

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ)

(سورة الكهف: آية " 28)

أي من وجدناه غافلاً، أما قد يفهم إنسان منحرف أن الله خلق فيه الغفلة، أو خلق فيه الضلال، لا.

الكون طريق المعرفة السالك:

إذاً: يجب أن تعرف الله قبل أن تقرأ كلامه، ويجب أن تعرفه قبل أن تنظر في أفعاله، طريق المعرفة السالك والآمن والمحصّن طريق الكون، طريق أفعاله يحتاج أن تعرفه قبل أن تنظر في أفعاله، وطريق كلامه يحتاج إلى أن تعرفه قبل أن تقرأ كلامه.

ازدياد إيمان المؤمن بعد كشفه حكمة الله تعالى:

(وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً)

فالإنسان أحياناً يستسلم إلى الله، تكشف له الحكمة فيزداد إيماناً.

(وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً)

(سورة االمدثر: آية " 31)

معناها:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113))

(سورة الأنعام)

إذاً هذه الآية هي آية دقيقة جداً، مُفادها أنها امتحان، وأنها فرز، وأنها تعريف بإيمان المؤمن.

(وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

أي المنافقون، أو المختلفون.

(وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً)

عظمة الله في خلقه:

الله عزّ وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً)

(سورة البقرة)

بعوضة !! هذه البعوضة ! إله عظيم، أنت هل تعلم أن هذه البعوضة لها ثلاثة قلوب ؟ قلب مركزي، وقلب لكل جناح، وأن جناح البعوضة يرف أربعة آلاف رفة في الثانية، وأن هذه البعوضة تملك جهاز رادار، تتحرّك في الليل المظلم بأشعة رادار، تأتي على جبين النائم مباشرةً لا تخطئ، وأن هذه البعوضة معها جهاز تحليل دم، فهناك دم لا يناسبها، إذا نام أخوان على فراش واحد، الأول يلسع، والثاني لا يوجد فيه شيء.

وهذه البعوضة يوجد عندها جهاز تمييع دم لأن خرطومها دقيق جداً، فإذا كان الدم غير مميّع لا يمر، وأن هذه البعوضة عندها جهاز تخدير وأنت تضربها تكون قد طارت تخدرك أولاً، وتأخذ الدماء، ينتهي المخدر تجد نفسك مقروصاً، تعمل هكذا فإذا هي قد طارت إلى الأعلى، جهاز رادار، وجهاز تحليل، وجهاز تخدير، وجهاز تمييع، ولها مخالب إذا كان سطح خشناً، ولها محاجم إذا كان لها سطح أملس على الضغط، ولها مخالب، وجناحاها يرفرفان أربعة ألاف رفة في الثانية، ولها ثلاثة قلوب.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً)

(سورة البقرة)

ما هذا ؟ بعوضة !! أنت لو تعرف ما البعوضة تخشع لله عزّ وجل.

الإضلال الجزائي المبني على إضلال اختياري:

تسعة عشر ليسوا كُثُر، كل مئة على واحد ينتهوا، هكذا قال أبو جهل، وهو اسم على مسمى، كل مئة لواحد فنخرج من النار.

(وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة المدثر)

إذا عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، أو يضلهم عن شركائه، أو يجدهم ضالين، تحب أن تقول: وجدهم ضالّين، أو أضلّهم عن شركائه ليلتفتوا إليه، أو أضلّهم ضلالاً جزائياً أساسه ضلال اختياري.

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

أي ملايين مُمَلينة، الحديث الشريف: أنه لا يوجد مكان بالسماء إلا وفيه ملك.

استسلام الإنسان لله عز وجل:

(وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31))

(سورة المدثر)

إما النار التي نستخدمها هي ذكرى للبشر، أي الإنسان لو وضع يده على لهب يقفز قفزاً سريعاً، فكيف إذا وضع كله في النار، فالنار ذكرى للبشر، أو جهنم جعلها الله رادعاً للبشر، أو جعل هذا الرقم ذكرى ليستيقن الإنسان أنه يجب أن يستسلم لله عزّ وجل.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى نعود لهذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 32-37 بطولة الإنسان طاعة الله لا عصيانه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-01-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس السادس من سورة المدّثر، ومع الآية الثانية والثلاثين:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

الكفار في قبضة الله عز وجل و سوف يحاسبهم:

أولاً: كلمة

(كَلَّا)

ليست أداة نفيٍّ فحسب بل هي أداة نفيٍّ وردعٍ، أي إن توهُمُكُم أنكم بإمكانكم أن تقضوا على الملائكة الذين أوكلهم الله عزّ وجل بجهنم.

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

(سورة المدثر)

فدعوى أبي جهل الساذجة أن كل مئة يقتلون واحداً وينتهي الأمر فلا تخافوا، هذا جهلٌ مطبق وهذه سذاجةٌ ما بعدها سذاجة، وأن الكافر لن يسبق الله عزّ وجل، بمعنى أنه في قبضتهم وأنه سيُحَاسب، بل إن خطة الكافر تستوعبها خطة الله عزّ وجل، الإنسان قد يرى بعينه أن هذا الكافر فعل شيئاً ؛ قتل إنساناً، أعطى إنساناً، إرادته تستوعبها إرادة الله، خطته تستوعبها خطة الله، تدبيره يستوعبه تدبير الله، فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا أذن الله به.

طغيان الإنسان عند شعوره بالاستغناء عن الله:

إذاً: هو لن يسبق الله عزّ وجل، كما أنه لن يستطيع أين يتفلّت من عقابه، فالكفار يتوهّمون أن بيدهم فِعل أي شيء، وهذا شأن كل كافر في كل عصر، الإنسان يطغى ومتى يطغى ؟

(أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

حينما يشعر أنه مستغنٍ عن الله يطغى، لذلك أيها الإخوة: الإنسان القوي يحتاج إلى علم، وإلى فهم، وإلى صبر أضعاف ما يحتاجه الضعيف، والغني يحتاج إلى علم وإلى صبر أضعاف ما يحتاجه الفقير، السبب: الفقير خياراته محدودة، إنسان له دخل محدود من عمله إلى بيته، أما الغني عنده ألف خيار وخيار، لو سافر إلى بلد أجنبي بإمكانه أن يمضي الليل في أي مكان، في أي ملهى، في أي نادي، في أي مُتَنَجَع، ومعه مال يُمَكِّنه أن يفعل ما يشاء، فمن هو الذي يحتاج الصبر ؟ الغني، من هو الذي يحتاج الصبر ؟ القوي، لأن قوته أو غناه تتيح له أن يفعل أشياء كثيرة جداً، بينما الضعيف والفقير خياراته محدودة، فالإنسان بحاجة إلى معرفة وإلا يُعَدُّ غناه وبالاً عليه.

أكبر المصائب الغنى المطغي:

هل تصدِّقون أن النبي عليه الصلاة والسلام عدَّ الغنى المُطغي أحد أكبر المصائب ؟ بل إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما خيَّره جبريل قائلاً: **يا محمد أتحب أن تكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً** ؟ قال:

((بل نبياً عبداً أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره.))

طبعاً كل إنسان له وضع هو في حقه خيِّر، وفي حقه حكمة ولكن كل إنسان بحاجة للعلم، بل إن الأقوى والأغنى أشد حاجةً من الأضعف والأفقر، فالإنسان يطغى.

(أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7))

حينما يرى نفسه مستغنياً عن الله يطغى وهذا حال الكفار في العالم كلّه، امتلكوا القوة النووية، تحكّموا في مصائر الشعوب، قهروا الشعوب، نهبوا ثرواتهم، تحكموا بمقدّراتهم، خططوا مصيرهم، إذاً الآية الكريمة:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

قوة الكافر لا تبعده عن قبضة الله:

كل ما قاله الكفّار كلامٌ سخيف، كلامٌ مردود، الكافر مهما كان قوياً في قبضة الله، والحقيقة عندنا يتدخل الله عزّ وجل ويبطش فإن كل الخَلق يرون الحقيقة، لكن الإنسان القوي والغني أحياناً مربوط بحبل مرخى لجهله يظن أنه طليق لكنه مُقَيّد إلا أن الحبل مُرخى، لكن متى يُشَد الحبل هو لا يعلم، فجأةً يشد الحبل فإذا هو في قبضة الله عزّ وجل.

يوجد رجل قال: إذا حمل هذا الصفصاف أجاصاً أنا أخسر ما أنا فيه، أي من باب التحدي، من باب المستحيل، فبعد يومين كان في قبضة الله عزّ وجل وانتهى، فالإنسان يجب أن يعلم حتى يعرف حدَّه فإذا تجاوز حدَّه قصمه الله عزّ وجل.

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

أي كلا ليس كما تزعمون، ليس كما تتوهّمون، ليس كما تتصورون، ليس كما يحلو لكم، ليس كما تتمنون، الحقيقة إن الإنسان العاقل لا يعيش في وهم مريح بل إنه يعيش في الحقيقة المرّة، دائماً وأبداً هناك خيار صعب بين الوهم المريح والحقيقة المرّة، لو شخص معه شيك في جيبه بمئة ألف دولار لكنّه مزوّر، إذا توهّم أنه صحيح فإنه يشعر بالغنى والقوة، لكن لو أراد أن يستخدمه لوضع في السجن وشعر بالفقر والخيبة، يا تُرى الأولى له أن يبقى بهذا الوهم المريح أم أن يعرف الحقيقة المرّة ؟

الإنسان الذكي من يجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة:

والله أيها الإخوة: معظم الناس يفضّلون الوهم المريح على الحقيقة المرّة، ما دام في قوة، وفي منعة، وفي غنى، وفي صحّة فإنه يرتكب كل المعاصي والآثام ولا يتأثر بها إطلاقاً، أما حينما يأتيه المرض، حينما يأتيه شبح الموت عندئذٍ يصيح كالكلاب، فأنت بطولتك أن تبقى الحياة مستمرّة بخطٍ صاعد، لا أن يكون الصعود حاداً ثم السقوط مريع، المؤمن خطه صاعد صعوداً ثابتاً فهو دائماً في حال أعلى، وأنا أؤكِّد لكم والله ولا أبالغ إن المؤمن الصادق المستقيم حتى الموت يعدّ نقطةً على خطِّه الصاعد، والآيات كثيرة:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

(سورة يس)

من هو الذكي ؟ هو الذي يجعل من نِعَمِ الدنيا متصلة بنعم الآخرة، فهو في الدنيا في عز، في سلطان، في غنى، في طمأنينة، في راحة، في سعادة، جاء الموت فهو في سعادةٍ ما بعدها سعادة، هذا الذي أرجو الله سبحانه وتعالى أن يَخُصَّ به المؤمنين.

تقبل الحقيقة المرّة:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

(كَلَّا)

أي أن الله عزّ وجل نفى و ردع الكفّار عن كل أوهامهم، وعن كل تصوراتهم، وعن كل ضلالاتهم، وعن كل توهمهم أنهم أقوياء، هذا وهم، أحياناً إنسان غني قال كلمة والله أنا أحسبه مؤمناً وهو مؤمن بإذن الله ولكن الله أدّبه، قال مرّة كلمة في سهرة، قال: المال يحلُ كل مشكلة، وجاء بحكمة(هي ليست بحكمة) الدراهم مراهم، فدخل غرفةً ضيقةً جلس فيها تسعةً وستين يوماً لا تتسع إلا لنصف متر في مترين فقط، طوال هذه الأيام يذكر قولته: الدراهم تحل كل شيء ؟ لا، لا تحل كل شيء، توجد أمثلة كثيرة جداً، الإنسان جاهل ظنّ أنه قوي فكشف الله له ضعفه، ظنّ أنه غني فكشف الله له فقره.

(كَلَّا)

فالعبرة لا أن تتوهم شيئاً مريحاً، العبرة أن تعرف الحقيقة.

حتى في العلاقات الاجتماعية الإنسان يحاول أن يهرب من الواقع المرّ، لا هذا غير صحيح، أحياناً يُكذِب النبأ، أحياناً يقول لك ثم يفاجأ أنه وقع في شرّ عمله، العبرة أن تقبل الحقيقة المرّة، إنّك إن قبلتها تلافيت خطرها أما إن رفضتها وقعت في شرّها.

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

من آيات الله الدالة على عظمته:

1 ـ القمر:

القمر من آيات الله الدالة على عظمته، كلكم يعلم أن الله جعل القمر تقويم، الأرض هكذا والقمر حولها يدور، إلا أن الشيء الذي يلفت النظر هو أن الأرض تدور حول نفسها، والقمر يدور حول الأرض، لو أن سرعة دورة القمر حول الأرض مكافئةً لدورة الأرض حول نفسها التغى القمر وبقي مع الأرض في مكانٍ واحد هكذا في مكان بدر، في مكان محاق إلى أبد الآبدين، إلا أن هناك تفاضل بين سرعة دورة القمر حول الأرض ودورة الأرض حول نفسها، هذا التفاضل بين السرعتين هو الذي يعطي القمر وظيفة التقويم، فيكون هلال، ثم أعلى من هلال، ثم بدر، ثم يتراجع، تسلسل رؤيته من هلال، إلى بدر، إلى هلال السبب أن سرعته حول الأرض أقل من سرعة الأرض حول نفسها، هذا التفاضل في السرعة يسبب أن يكون القمر تقويماً:

(لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

(سورة يونس: آية " 5 ")

بالمناسبة: السنة القمرية حُكْمية أما أصلها الشهر القمري، أما الشهر الشمسي حُكمي أصله السنة الشمسية لأن السنة الشمسية هي تمام دورة الأرض حول الشمس، فالدورة مقسّمة إلى أبراج فالشهر حكمي في التقويم الميلادي والسنة حقيقية، القمر بالعكس الشهر حقيقي والسنة حكمية، وتوجد لفتة لطيفة، أنه:

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً (25))

(سورة الكهف)

هذا هو الفرق بين ثلاثمئة سنة قمرية تساوي ثلاثمئة وتسعة ميلادية بالضبط، هذه الآية أشارت إلى التقويم القمري والتقويم الشمسي، فهناك تقويمين: تقويم أساسه حركة

الأرض حول الشمس ومقسمة إلى اثنتي عشرة مرحلة، ودورة القمر حول الأرض مضروب باثنتي عشرة مرحلة، هذه السنة الشمسية والسنة القمرية.

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

تناسب العلاقة بين الشمس و القمر و الإنسان:

أي فكِّر بهذا القمر، بعده عنّا ثانية ضوئية واحدة، ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر تقريباً وهي سرعة الأرض وزيادة، الإنسان إذا كان على سطح القمر فإن وزنه يكون سدس وزنه على الأرض، أي أن الذي وزنه ستين كيلو فإن وزنه على القمر عشرة كيلو، من أجل أن تعلم ما هي علاقة الوزن بحجم الكوكب، لو نحن على كوكب أكبر لكان وزن الواحد منّا طن وهذا شيء صعب كثير، لو كان على القمر وزنه السدس، فهناك علاقة بين الوزن وبين الحجم، توجد كواكب ليلها مئة عام ونهارها مئة عام، توجد كواكب سنتها ثمانمئة عام، الله جعل السنة اثني عشر شهراً، واليوم اثنتي عشرة ساعة، لو كان اليوم مئة ساعة و لك طاقة محدودة فإنك تشتغل فتتعب، تحتاج لأن تنام في النهار وغيرك يشتغل في النهار صار هناك فوضى، أما الله جعل الشمس والأرض العلاقة بينهما علاقة متناسبة مع الإنسان.

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34))

2 ـ الليل و النهار:

قضية الليل والنهار أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته، هذه الأرض تدور حول نفسها لو أنها توقّفت لأصبحت الأرض وجهين: وجه نهار أبدي ووجه ليل أبدي، والله نبّهنا وقال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ(71))

(سورة القصص)

معنى هذا: لو كان الليل سرمدي تصبح حرارة الأرض المظلمة مئتين وسبعين تحت الصفر (تنتهي الحياة) ولو أن النهار سرمدي فإن الحرارة تصبح ثلاثمئة وخمسين فوق الصفر إلى أبد الآبدين (تنتهي الحياة)، أي بمجرد أن تقف الأرض عن الدورة حول نفسها فإن الحياة تنتهي، هذا شيء خطير، فبين بردٍ مُميت وحرٍّ مُميت.

رحمة الله بالإنسان:

لو أن الأرض تدور على محور موازٍ مع دورتها حول الشمس والشمس من هنا فكأنها واقفة، سيكون هناك وجه نحو الشمس دائم أبدي، ووجه مظلم دائم أبدي، إذاً لا يكفي الدوران، لا بدَّ من دورانٍ بمحور متعامد مع مستوى دورانها، لو كان المحور موازي فدورتها كوقوفها، نصف الأرض متَّصل بالشمس ونصفه منقطع عنها، هنا موت من الحر وهنا موت من القَرْ.

الآن: لو دارت الأرض بمحور عمودي على مستوى دوران الأرض ما الذي يحصل ؟ أبدية الفصول، ففي خط الاستواء صيفٌ إلى أبد الآبدين، وفي المنطقة المعتدلة ربيعٌ أو خريفٌ إلى أبد الآبدين، وفي المنطقة الباردة شتاءٌ إلى أبد الآبدين، لكن حكمة الله عزّ وجل جعلت الأرض تدور بمحور مائل ثلاثة وثلاثين درجة عن عمودية المحور، فالأرض هنا والشمس هنا والأشعة عمودية على القسم الجنوبي والأشعة مائلة على القسم الشمالي.

3 ـ ميل محور الأرض:

يوجد بعض الأصدقاء سافروا إلى أمريكا (أمريكا القارّة الوحيدة المتصلة بين الشمال والجنوب) فقال لي: انتقلنا من بلد الناس على الشواطئ يسبحون والحر شديد لا يُحتمل، إلى بلدٍ الثلج فيها خمسة أمتار، وهذا في يومٍ واحد، لأنه لو كان المحور عمودي على مستوى الدوران لثبتت الفصول، أما كونه مائلاً، الأرض هنا الأشعّة عمودية نحو الأسفل وللأعلى مائلة، عندما انتقلت الأرض إلى هذا الوضع صارت عمودية على القسم الأعلى ومائلة على الأسفل، إذاً حكمة الدوران، وحكمة المحور، وحكمة مَيل المحور، آياتٌ دالّة على عظمة الله عزّ وجل.

4 ـ الجاذبية و المد و الجزر:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33))

القمر له علاقة بالجاذبية. بالمناسبة إخوانا الكرام: النبي عليه الصلاة والسلام من سنته صيام الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر، ثلاثة أيام التي فيها القمر بدراً، الحقيقة أنهم وجدوا في بعض الإحصاءات، أخذوا محاضر و ضبوط المخافر في بلد غربي، وقعوها على الشهر القمري فوجدوا أن الجرائم والسرقات والاغتصاب يزداد ستين بالمئة في هذه الأيام الثلاثة، لأن هناك علاقة بين دورة القمر وبين طبيعة الإنسان، فهذه الأيام أيام فورة الدّم فالنبي أمرنا أن نصومها، أي أن القمر له علاقة بنا، وكذلك المد والجَزْر، فالبحر أحياناً يرتفع إلى عشرين متراً بالمد، وينخفض عشرين في الجَزْر بفعل القمر (جاذبية القمر).

الآن توجد بحوث تؤكِّد أنه حتى في القشرة اليابسة تتجه نحو القمر بمقدار سنتيمترات بين المد والجَزْر.

العلاقة بين الأرض و القمر:

القمر له علاقة بالأرض متينة جداً ؛ علاقة مد وجَزْر، علاقة جذب، وله علاقة إعطاء إضاءة، القمر يُعطي ضوءاً في أيام البدر تساوي ثمانية عشر بالمئة من إضاءة الشمس، ليلة مقمرة مضيئة للناس، فالقمر من آيات الله الدّالة على عظمته.

توجد نظرية تقول: إنّ الكواكب كانت كوكباً واحداً فمن شدة الدوران والقوة النابذة تفلّتت من بعضها، هذه النظرية ينبغي بناءً عليها أن تكون طبيعة تربة القمر كطبيعة تربة الأرض، فلما ذهبوا إلى القمر وجاءوا بعيّنات إلى الأرض وجدوا العكس تماماً، ليس هناك علاقةٌ بين تربة القمر وتربة الأرض، فتربة القمر فيها بلّورات عاكسة، أبلغ شيء في تربة القمر أنّ هناك مواداً لها وضع بلوري عاكس، فأنت ترى القمر منيراً متألِّقاً، لو ذهبت إلى هناك لوجدت تربةً قذرةً تُنَفِّر من ينظر إليها، هذا كلّه عن القمر.

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33))

كروية الأرض:

الليل والنهار: الأرض لأنها كرة تدور حول نفسها فالله عزّ وجل جعل الشكل الكروي يتداخل فيه الليل والنهار، لو أن الأرض مكعبة وتدور فإن الليل يأتي فجأةً والنهار يذهب فجأةً، أما لأنها كرة فإن الليل والنهار يتداخلان، هذا معنى قوله تعالى:

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

(سورة الزمر: آية " 5 ")

فأحد الأدلّة على أن الأرض كرة أن الشكل الهندسي الوحيد الذي تتداخل به أشعّة الشمس مع الظلام هو الكرة، فالليل جعله الله سكن، وهو من نعم الله الكُبرى، الإنسان إذا لم ينَم يختل توازنه، والليل يحتاج إلى السكينة فالله جعل الليل سَكَناً، وجعل النهار معاشاً، وجعل الليل والنهار متناسبان مع طبيعة الإنسان، فالنهار اثنتي عشرة ساعة، يشتغل ثماني ساعات ويرتاح أربع ساعات بين طعام و صلاة، والليل اثنتي عشرة ساعة ينام ثمانية وأربع ساعات مع أهله بين الفجر والعشاء، أما لو كان الليل مئة ساعة والنهار مئة ساعة لاختَلَ نظام الحياة، فربنا يُلفت نظرنا إلى هذه الآيات آية القمر وآية الليل.

(وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33))

(سورة المدثر)

آية الليل و النهار:

أي ظلام دامِس وحشة وخيفة، تخاف من كل شيء بالليل، تأتي أشعة الشمس تأنس بها، النهار واضح، فالذين يقودون السيارات بالليل توجد مفاجآت ويوجد انبهار، أما في النهار الأمور واضحة، ورد في بعض الأثر: **((سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار ؟ وأين النهار إذا جاء الليل))**

تجد أن النهار فيه أنس، فيه رؤية مديدة، فيه إشراق، فيه نشاط، فيه عمل، فيه حركة، الليل للسكن، لكن طبيعة الحضارة الحديثة قلبت ليل الناس نهاراً ونهار الناس ليلاً وهذا من أسباب بعض الإرهاق الجسمي لأن الله صمّم الليل للنوم، الآن أكثر الناس المتفلتين طوال الليل يسهرون للساعة الواحدة، والثانية، والثالثة، وقت الراحة ووقت النوم الصحي ساهرون وعند وقت العمل والنشاط نائمون، أي أنهم غيّروا خلق الله عزّ وجل.

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34))

دائماً توجد عندنا آيات كبيرة ؛ الشمس آية، القمر آية، الليل آية والنهار آية، من آياته الليل والنهار، من آياته الشمس والقمر، فالشمس والقمر آيتان، والليل والنهار آيتان دالّتان على عظمة الله عزّ وجل.

5 ـ حركة النجوم:

وهذا الثبات العجيب أي إن الأرض بعد مئة سنة، أو بعد ألف سنة، أو بعد مئة ألف سنة يوم ثلاثة وعشرين أيلول تشرق الشمس الساعة الخامسة وثلاث عشرة دقيقة، فلا تتغير، ثبات عجيب، أحياناً أدق ساعة في الأرض (بيك بن)، هذه تضبط على حركة نَجْم، فقد تقدِّم هذه الساعة ثانية في السنة وقد تؤَخِّر ثانية، دقّة هذه الساعة مرتبطة بضبطها على نجم، أحياناً يقول لك: قطار بين طوكيو وأوساكا يجب أن لا يتأخر دقيقة عن موعد وصوله، هذه يعدونها رُقِي ما بعده رقي، لأن ستة آلاف كيلو متر أو ألفين كيلو متر يجب أن يصل القطار بالدقيقة وقد يتأخر دقيقة، أما النجوم العملاقة بحركتها المديدة الطويلة تصل بمواعيد بواحد من الألف بالثانية، لذلك أدق ساعات العالَم تضبط على حركة النجوم، ثبات عجيب، الله ثَبَّت أشياء وحرّك أشياء.

النار مصير كل كافر:

(وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

العلماء قالوا: **" هذه النار التي أعدّها الله للكفّار إنها لإحدى الكُبر"**، المشكلة أنّ هؤلاء الناس المنحرفين في الحياة يغيب عنهم أن هناك شيءٌ اسمه النار، أكثر الناس لا يعبؤون، لا يتخذون النار أساساً في عقيدتهم، النار محرقة وهذه مصير كل كافر وكل عاصٍ.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

أي النار التي خلْقها الله ردعاً لعباده من أن يعصوه.

حرمان الإنسان الكافر نفسه من السعادة:

بعضهم قال:

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

أي تكذيبكم بالنبي عليه الصلاة والسلام شيءٌ كبير، أي حرمتم أنفسكم من السعادة الكبرى.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36))

الله جعل النار نذيراً، وجعل هذا الكتاب نذيراً، وجعل النبي نذيراً لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45))

(سورة الأحزاب)

(نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

(سورة المدثر)

أنتم أحرار، أنتم مخيَّرون إما أن تتقدّموا إلى طاعة الله، أو أن تتأخَّروا عنها، إما أن تتقدم للعمل الصالح، وإما أن تحجم عنه، إما أن تتقدم لأداء العبادات و إما أن تحجم عنها، أنت مخيَّر، وقال تعالى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية " 40 ")

إذاً هذه الآيات:

(وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

البطولة الحقة طاعة الله لا عصيانه:

نحن الآن في بحبوحة الحياة، والقلب ينبض، وكل شيءٍ ممكن وأنت حي ؛ التوبة ممكنة، والصلح ممكن، والاستغفار ممكن، والإصلاح ممكن، والتكفير ممكن، كل شيء ممكن، أما حينما يأتي الأجل انتهى كل شيء.

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

الله جعل الطاعة تقدُّم، معرفة الله تقدم، العمل الصالح تقدم، طلب العلم تقدم، الإحجام عن العلم تأخُّر، فبهذه الآية يجب أن نقيّم كل أمورنا، فالتقدم ليس أن نركب الفضاء، ولا أن نغوص في أعماق البحار، التقدم أن نطيع الواحد الديّان، والتخلف لا أن نكون أمة زراعية ولسنا صناعية، لا، التخلف أن نعصي الله عزّ وجل، فهذه الآية يجب أن نقيّم بها كل شيء، التقدم في طاعة الله، التخلُّف في معصية الله، التقدم في العلم، والتخلف في الجهل، التقدم في الإحسان، والتخلف في الإساءة.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى نتابع شرح هذه الآيات:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

(سورة المدثر)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 38-56 طاعة الله سبب مغفرته لك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-02-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس السابع من سورة المدّثر، ومع الآية الثامنة والثلاثين وهي قوله تعالى:

تذكير بما سبق ربطاً باللاحق:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

(سورة المدثر)

القمر من آيات الله الدالة على عظمته:

الله عزّ وجل يقول:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

(كلا)

لا كما تتوهمون، لا كما تفكِّرون، لا كما تعتقدون.

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

القمر أحد آيات الله الكبرى الدالة على عظمته.

(وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33))

جواب القسم.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

الدين أخطر و أعظم موضوع في الدنيا:

أي أن أعظم موضوع في حياتك، أخطر شيء في حياتك هو دينك، دينك دينك إنه لحمك ودمك، هناك قضايا ثانوية، وهناك قضايا أساسية، فمثلاً طالب في المدرسة أخطر شيء في حياته الامتحان، الامتحان سيحدد مصيره ناجح أو راسب.

التاجر أخطر شيء في حياته ميزانية الشركة (الربح أو الخسارة)، فإذا كان يخسر فلا معنى لهذه التجارة.

طبيب وهو في الجامعة أهم شيء في حياته نجاحه في الجامعة، فبكل حقل، بكل مكان، بكل نشاط، بكل اتجاه، في قضية كبيرة جداً، حرب قائمة بين دولتين أخطر شيء فيها النصر والهزيمة، يجوز أن يكون هناك أشياء تَلِفت لا قيمة لها، فيجب أن يكون هناك أولويات في حياتك، أنا متأكِّد أن أناساً كثيرون يضعون الدين في آخر اهتماماتهم، اهتمامه كسب المال، اهتمامه تحقيق الرغبات، اهتمامه العلو في الأرض، والدين يتابعه صدفةً، أو لماماً دون تركيز.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

أي أن الذي خلق السماوات والأرض هو الذي أنزل هذا القرآن ومعرفة القرآن وما جاء فيه أحد أكبر القضايا الكُبرى في حياة الإنسان.

مصير الإنسان يتحدد بعلاقته بربه:

أيها الإخوة الكرام: هناك شيء اسمه مصيري، فمصير الإنسان يتحدد في علاقته بالله عزّ وجل، فالتعليم الثانوي، في سابع، ثامن، تاسع، عاشر، حادي عشر، أما الشهادة الثانوية، علاماتك تحدد طبيباً، أو مهندساً، أو صيدلياً، أو طبيب أسنان، أو فرع أدبي، أو معهد متوسِّط، أو ليس لك مكان بالجامعة إطلاقاً، أو لم تنجح، هذا الصف بالذات يحدد مصيرك، هذا في الدنيا فقط، لكن هذا الدين هو مصيرك للأبد، نحن نعيش، نحن في الدنيا، كل الناس يأكلون ويشربون، ويسكنون في بيوت، ويتزوجون، وينجبون، ويتنعّمون، ويتنزهون، لكن عند الموت يُفرز الناس، إما إلى جنةٍ يدوم نعيمها أو إلى نارٍ لا ينفد عذابها، فالقضية مصيرية، لا يمكن أن تضع الدين بالمرتبة الثانية، إذا كنت تملك وقتاً تحضر مجلس علم، هذا أهم شيء في حياتك، تبرمج حياتك على دروس العلم، تبرمج حياتك على فهم كتاب الله، لأن الله عزّ وجل قال:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

(سورة الفرقان)

معرفة تعاليم الله من أولويات الأمور:

معرفة هذا القرآن، معرفة أمره ونهيه، حلاله وحرامه، وعده و وعيده، معرفة آياته الكونية، معرفة أخبار الأمم السابقة، معرفة مستقبل البشرية، في هذا الكتاب معرفته وتعليمه للناس أكبر أنواع الجهاد كما قال الله عزّ وجل، بل إن الجهاد ذروة سنام الإسلام، فدائماً أتمنى على الله عزّ وجل أن يكون كل أخ منكم أن يكون عنده أولويات، ونحن بحاجة إلى ما يسمى بفقه الأولويّات، أي أن أول شيء دينك. سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبةٌ قال: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني "**، معنى ذلك أنه إذا أصبت في دينك فالقضية كبيرة جداً، قد تعاني كل أنواع المصائب ودينك سليم فأنت سعيد، قد تعاني كل متاعب الحياة، إذا جاء الموت وكنت من أهل الجنة تقول: لم أر شراً قط، والذي غرق في النعيم ولم يكن يعرف الله عزّ وجل يأتيه ملك الموت فيقول: لم أر خيراً قط، وسيدنا علي رضي الله عنه يقول: **" يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية "**

الغنى و الفقر بعد العرض على الله:

الناس في أغلب الأحيان يتألّمون إذا رأوا إنساناً شارداً، منحرفاً، عاصياً، قوياً وغنياً، يضطرب ميزانهم ؟ لا.

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

(سورة البقرة)

الغنى والفقر بعد العرض على الله.

الموازنة بين أمتين أساسها ضم الآخرة إلى الدنيا:

أيها الإخوة: أتمنى عليكم إذا وازنتم بين شخصين، أو بين شعبين، أو بين أُمّتين، ألا تغفلوا الآخرة، ضموا الآخرة إلى الدنيا وبعد ذلك أجروا الموازنة ترتاحون، أما إذا أغفلت الآخرة، قد تجد أمةً تعيش

حياةً تفوق حد الخيال وهي غارقةٌ في المعاصي والرذائل، والإباحية، وكل أنواع الانحراف، وهي من أقوى الدول، أضف الآخرة إلى الدنيا يستقيم الميزان.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

إيَّاك أن توازن بين شخصين دون أن تَضُمَّ الآخرة إلى الدنيا، ضم الآخرة إلى الدنيا ثم وازن يستقيم معك الميزان، لأنه يجب أن تكون واثقاً من عدل الله، واثقاً من رحمته، واثقاً من حكمته، وأسماء الله كلها محققةٌ في الدنيا، إلا اسم العدل، اسم العدل تراه جلياً واضحاً يوم القيامة، يوم الدينونة، يوم الجزاء، يوم الحساب، يوم توفّى كل نفسٍ ما كسبت، يوم القيامة، يوم:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

(الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3))

(سورة الحاقة)

الموازنة بين أمتين أساسها ضم الآخرة إلى الدنيا:

هذه أيها الإخوة معانٍ تُريح النفس، الدنيا هي أصغر من أن تكون دار استقرار، هي دار ممر، ممر سريع، الدنيا أصغر من أن تكون عقاباً للمؤمن، أو جنةً للكافر، لا قيمة لها:

((لو كانت الدنيا تَعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء))

(أخرجه الترمذي عن سهل بن سعد)

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

(إِنَّهَا)

أي هذه القضية

(لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

أي لا سمح الله ولا قدَّر إذا إنسان عمل عدة فحوص وجد عنده بوادر مرض خبيث، هل يوجد قضية أهم من هذه القضية بعد ذلك ؟! فهل من الممكن أن يفكر بشراء باقة ورد مثلاً ؟ أو أن يفكر بزيارة صديق نسيه ؟ دخل بقضية كبيرة جداً (هذا مثل)، أحياناً الإنسان تأتي قضية تنسيه كل القضايا، والحقيقة الدين هكذا، الدين أكبر قضية في حياتك، مصيرك في الدين، مصيرك الأبدي في الدين.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

عدم المبالاة بالدين يؤدي إلى الكفر:

كما أن النجاح في الجامعة أهم شيء فيها، وكما أن الربح في التجارة أهم شيء فيه، وكما أن النصر في المعركة أهم شيء فيها، جيشان يتحاربان أخطر ما في الموضوع النصر، طالب في الجامعة أخطر شيء النجاح، تاجر أخطر شيء الربح، مريض أخطر شيء الشفاء.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

إحدى أكبر قضايا حياتك لا تجعلها في الدرجة الثانية، والله أيها الإخوة هناك أناسٌ كثيرون يجعلون الدين في الدرجة العاشرة، فلا يعبأ، لا يطلب العلم، مع أنك إذا تعاملت مع الناس تكون واضحاً جداً، الإمام الغزالي قال: **" يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلةٍ تحبينها لا شك أنك تمتنعين، يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟! إذاً فما أكفركِ، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله ؟! إذاً فما أجهلكِ ".**

فعندما يقترف الإنسان معصية باختياره دون أن يبالي هذا يقع في حماقةٍ وفي كفرٍ شديدين.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

الموت نهاية كل شيء:

أكثر الناس يظنون أن التقدُّم أو بالتعبير الاقتصادي النمو هو في المال، مع أن الموت ينهي كل المال، الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغني الغني، وفقر الفقير، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وصحة الصحيح، ومرض المريض ينهي كل شيء، يبقى بعد الموت العمل الصالح، هذه آيات الدرس الماضي.

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38))

حركة الإنسان بالحياة إما صالحة أو طالحة:

أنت إنسان، لك عمل، سوف تُسَمِّية حركة الحياة، لو أن إنساناً مقعداً في البيت لا يتكلم، ولا يتحرك، ولا يأكل، ولا يشرب هذا ليس له عمل، أما إنسان خرج من بيته، له عين، له أذن، له لسان، له يد، كيف كسب المال ؟ كيف أنفق المال ؟ كيف خاطب الناس ؟ كان خاطباً أو كاذباً ؟ مستقيماً أو منحرفاً ؟ مراوغاً أو مخلصاً ؟ أعطى أم لم يعط ؟ أنصف أو لم ينصف ؟ حركتك بالحياة هذا هو عملك، حركتك، تزوجت، لماذا تزوجت ؟ كيف عاملت الزوجة ؟ كيف عاملت الأولاد ؟ كيف عامل الجيران ؟ كيف

عاملت زبائنك ؟ صدقت معهم ؟ كذبت معهم ؟ هل نصحتهم أم لم تنصحهم ؟ احتلت عليهم أم كنت ناصحاً لهم ؟ عملك، عملك في بيتك، عملك في السوق، عملك في الطريق، عملك في مهنتك، هذه الحركة في الحياة ما هي ؟ ممكن كل هذه الحركة أن توصف بوصفٍ واحد عمله صالح أو عمله سيئ، ضمن بيته، ضمن تربية أولاده، ضمن علاقاته بجيرانه، ضمن الأخذ والعطاء، المحاككة بالدرهم والدينار، في أثناء السفر، في أثناء الإقامة، حركتك بالحياة، يمكن أن توصف بوصفٍ واحد: صالحة أو طالحة.

علاقة الإنسان بالآخرين:

كيف أن الطالب بالجامعة يقدِّم اثني عشر مادة، وكل مادة عشرين سؤالاً، وكل سؤال علامات، تصحيح، وتدقيق، وسُلّم، النهاية تكون بتقدير امتياز، أو تقدير جيد جداً، أو تقدير وسط، مقبول، أو جيد، بالنهاية كل حركتك بالحياة توصف بكلمة.

والناس أحياناً يموت بعض الأشخاص، يذكر اسمه في مجلس يتكلمون عنه كلمة واحدة: الله يوفقه (كلمة)، وإنسان آخر يقال: ابن حرام، من دون تفاصيل، عمله سيئ، كذّاب، منافق، دجّال، خدّاع، مغتصب لأموال الآخرين، فأنت لك عمل، عملك ضمن بيتك، عملك بعلاقتك مع جسمك، عملك بعلاقتك مع ربّك، عملك بعلاقتك مع البهائم، عملك بعلاقتك مع من حولك، مع جيرانك، عملك بعلاقتك مع من تعمل، مع من هم فوقك، مع من هم تحتك، علاقتك مع والدتك، مع والدك، مع إخوتك البنات والذكور أولاد عمك، عملك هو علاقاتك مع من دونك ومع من في مستواك ومع من فوقك، هذا العمل يوصف بكلمة واحدة، إما أنه صالح أو أنه سيئ.

علاقة الإيمان بالعمل:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

(سورة البينة: آية " 7)

اقترن العمل الصالح مع الإيمان بمئتي آية، ولا قيمة للإيمان إطلاقاً من دون عمل، فدائماً تفَحَّص عملك كيف ألقى الله ؟ هل بكسبك شيء من الحرام ؟ هل فيه إيهام للناس من أجل ابتزاز أموالهم ؟ هل هناك مبالغة حتى تخوّفهم ليعطوك مثلاً ؟ هل تستخدم مكانتك الأدبية من أجل أخذ مال ليس لك ؟ هل من الممكن أن تأخذ شيئاً ليس لك ؟ عملك عملك كلمة واسعة كثير، لك دعوة إلى الله: هل تنصح

المسلمين ؟ هل تطلب العلم ؟ هل تعلِم العلم ؟ هل تربي أولادك تربية عالية ؟ هل ترعى من حولك ؟ هل تعرف ما لك وما عليك ؟ هل تؤدِّي الذي عليك ؟ عملك.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38))

(سورة المدثر)

أنت مرهون لعملك، كلام واسع جداً، قضية العمل كبيرة جداً، ملخّص حركتك في الحياة هو عملك، إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، أنت رهين عملك، أي محبوس.

القيد الذاتي للإنسان ينتهي إلى الحرية:

الآن العمل يُفْحَص، إما أن يُطْلَق، وإما أن يُقَيَّد،، أحياناً إنسان مرتكب أعمالاً خسيسة فاسمه على الكمبيوتر (إذا وجدت أي مشكلة يحضروه)، أنت رهين عملك حتى في الدنيا، حتى مع أولي الأمر، فإذا إنسان سارق، إنسان محتال، إنسان له عمل سيئ، يبيع بضاعة ممنوعة كالمخدرات، واسمه مسجَّل فما الذي جعلهم يقبضون عليه ؟ سوء عمله، والمستقيم طليق يتحرّك أين ما شاء.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39))

الذين عرفوا الله، بالمناسبة هناك فكرة رائعة وتبدو فيها مفارقة كبيرة، المؤمن كل حياته قيود، بَصره مُقَيَّد بالمحارم، سمعه مقيد بذكر الله فلا يستمع للأغاني، لسانه مقيد بالصدق والنصيحة والتواضع، فلا يستطيع أن يتكلم بكلمات فيها كبر واستعلاء، يده مقيدة بالعطاء فلا يستطيع أن يبطش بها، رجله مقيدة بالذهاب إلى المساجد وإلى دور العبادة وإلى زيارة الأصدقاء وإلى الدعوة إلى الله، فكل أعضاؤه مقيدة بالشرع، لأنه مقيَّد فهو طليق، غير المؤمن حر حرية البهائم، يأكل ما يشاء، يأخذ من أموال الناس ما يشاء، يعتدي كيفما يشاء، فإذا هو يُقَيَّد، فالقيد الذاتي ينتهي إلى الحرية، والحرية البهيمية تنتهي إلى القيد، والله عزّ وجل قال: أولئك المؤمنون الذين تقيّدوا بالكتاب والسنة، ضبطوا جوارحهم، ضبطوا أعضاءهم، ضبطوا دخلهم وإنفاقهم، ضبطوا بيوتهم، المؤمنون:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: آية 5)

الله رفع شأنهم.

الحرية المتفلتة للإنسان تنتهي إلى القيود:

والطرف الآخر لأنهم تفلتوا، وكانوا أحراراً من كل شيء.

(أُولَئِكَ فِي)

وفي تفيد شيئاً ضمن شيء:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22))

(سورة الزمر)

فالحرية البهيمية تنتهي إلى القيود، أحدها قيود نفسية (الكآبة)، الكآبة قيد:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

إذا وجدت في الأرض كلها، وفي القارّات الخمس، إنسان معرض عن ذكر الله وهو يتمتع بسعادة كبيرة، فالقضية خطيرة جداً عندك فراجع القرآن مرة ثانية، هذا كلام خالق الأكوان قال لك:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

المعرض عن الله له معيشة ضنكى:

لا يمكن لأي إنسان على وجه الأرض يكون مُعرضاً عن ذكر الله إلا وله معيشة ضنكاً، أما الضنك أنواع ؛ أحياناً هم، أحياناً قلق، أحياناً خوف، أحياناً سقم، أحياناً ضجر، أحياناً ضيق القلب، عصرة القلب، أحياناً ملل.

و لا يوجد إنسان يذكر الله وإلا في قلبه طُمأنينة، ألا بذكر الله تطمئن القلوب، والحياة الطيبة حياة يعرفها من ذاقها، فلذلك:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38))

الدين هو تطبيق لمنهج الله الكامل:

افحص عملك، افحص مهنتك، افحص كسبك للمال، افحص إنفاق المال، افحص بيتك، فيه خلل ؟ افحص تربية أولادك، افحص بناتك كيف أنشأتهم هل تربيتهم ترضي الله أم لا ترضي الله ؟ افحص تجارتك فيها مادة محرمة ؟ فيها طريقة تعامل محرّمة ؟ فيها إيهام، فيها غش، فيها احتيال ؟ افحص وظيفتك هل تنصح هؤلاء المراجعين ؟ هل تلبّي حاجاتهم ؟ أم تماطلهم ؟ أم تعقِّد عليهم الأمور من أجل أن تضطرهم إلى دفع مبلغٍ من المال ؟ انظر إلى عملك، إياك أن تظن أن الدين هو صلاةٌ وصيامٌ فحسب، الدين هو تطبيقٌ لمنهج الله الكامل.

الصوم والصلاة هي مناسبة تقطف ثمار استقامتك، فإذا لا توجد استقامة لا يوجد معنى للصوم والصلاة، الصوم والصلاة كساعات الامتحان فالدارس يكتب، والذي لم يدرس ليس لها معنى الساعات

الثلاثة لم يقرأ ولا كلمة، دخل إلى الامتحان معه ستة أقلام وأسبرين، وشطيرة (سندويش) لكنه لم يقرأ شيء، فلا قيمة لهذه الساعات الثلاث.

الكافر محجوب بعمله عن الله:

هذا الذي يقيم شعائر الله من دون استقامةٍ على أمر الله يجد الملل والسقم والضجر، ولا معنى لهذه العبادة عنده لأنه محجوبٌ بعمله، والإنسان له عمل طيب يقبل به على الله وعمل سيئ يحجبه عن الله، وأكثر الناس تألق وجهه وبراءة وجهه دليل صلاح عمله، والذين لهم أعمال سيئة يغشى وجوههم غبرة.

(تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42))

(سورة عبس)

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39))

طلقاء.

جزاء المؤمن يوم القيامة:

(فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40))

وهم في جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، مضت الدنيا، هي الدنيا كلها ساعة اجعلها طاعة، تمضي، فهذا الموت لا يدع شيئاً، كم من إنسان بنى ولم يسكن، حقق جزءاً من أهدافه ولم تتم.

(فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42))

ما الذي أوصلكم إلى هنا ؟

أسباب دخول النار:

الآن اسمعوا جواب إنسان يحترق في النار وسُئل ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ هذا أخطر جواب:

1 ـ عدم الصلاة:

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43))

(سورة المدثر)

لذلك:

((لا خَيْرَ فِي دِينٍ لا رُكُوعَ فِيهِ))

(مسند أحمد رواه: عثمان بن أبي العاص)

لذلك الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين، أصل هذا الدين الصلاة، والصلاة هي الفرض المتكرر التي لا تسقط بحال، لا تسقط بحالٍ إطلاقاً، تؤدي الشهادة مرّة واحدة، يسقط عنك الحج عند الفقر والمرض، يسقط عنك الصيام عند المرض والسهر، تسقط عنك الزكاة إذا كنت فقيراً، أما الصلاة فرضٌ متكررٌ لا يسقط بحال، الدين هو الصلاة، والصلاة صلة والصلة تحتاج إلى استقامة، وكل إنسان تلبّس بظلمٍ محجوب عن الله.

الاستقامة أكبر دوافع المؤمن:

لذلك لا تبحث عن أداء حركات الصلاة بقدر ما تبحث عن تأكُّدك من أن الطريق إلى الله سالك، ولا يكون الطريق إلى الله سالكاً إلا باستقامتك على أمره وخدمتك لعباده، فتجد المؤمن حريصاً على خدمة الخلق وعلى الاستقامة لأنه حريصٌ على اتصاله بالله، كلهم عباده فإذا آذيتهم، أو غششتهم، أو خوّفتهم، أو ابتززت أموالهم، العمل السيئ يكون حجاباً بينك وبين الله، فأحد دوافع المؤمن الاستقامة، أحد أكبر دوافعه أنه يحافظ على اتصاله بالله فيستقيم مع عباد الله، وهذا الدين لولاه لا تُحَقَّق سعادة على وجه الأرض، فدائماً وأبداً العلاقة بين اثنين بينهما الله.

الخوف من الله سبب استقامة الإنسان:

في عالم المسلمين الله بين كل اثنين، فأنت تتحرك مع الطرف الآخر وتخاف الله، أو تخدمه وترجو الله، فأعظم ما في الدين أنه كل إنسانين في بلاد المسلمين الله بينهما، فكل إنسان يعامل الثاني بحالتين بخوف ورجاء، يخاف الله أن يظلمه، يخاف الله أن يعتدي عليه، يخاف الله أن يَغُشّه، يخاف الله أن يكذب عليه، يخاف الله أن يؤذيه، يخاف الله أن يأخذ ما ليس له، ويرجو رحمة الله بخدمته، ويرجو رحمة الله بمعاونته، ويرجو رحمة الله بتطمينه، إذاً ما دام الله بين كل اثنين فنحن في سعادة كبيرة.

أما المجتمعات الشاردة الله ليس بين كل اثنين (علاقة مباشرة)، فالأقوى يأكل الأضعف، مادام هناك مصلحة توجد علاقة، لا توجد مصلحة انتهى كل شيء، فالحياة من دون دين لا تطاق لأن القوي يأكل الضعيف، والغني يبتز الفقير، والأقوى يجلب الخير لنفسه وحده.

يا أيها الإخوة الكرام: هذه الحقيقة أن الله بين كل اثنين هذه أروع حقيقة في عالم المسلمين، وهذه لا تُعرف إلا بالاطلاع على بيئات أخرى أو على مجتمعات أخرى، المجتمع الإسلامي على ما هو عليه

من تقصير لكن هناك خوفٌ من الله، يقول لك: أخاف من الله، تجد شخصاً يرجو رحمة الله ويخشى عذابه إذاً يستقيم، إذاً:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ)

أي ما أدخلكم ؟

(فِي سَقَرَ (42))

في النار.

2 ـ عدم القيام بالأعمال الصالحة:

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44))

أي ليس لنا عمل صالح، طبعاً يوجد عندما مثل وعندنا قاعدة، إطعام المسكين عمل صالح، أي ليس لنا أي عمل صالح، لا اتصلنا بالله ولا خدمنا عباده.

3 ـ التقليد الأعمى للآخرين:

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45))

(سورة المدثر)

نحن مع هؤلاء الناس، ركّبوا صحوناً فركبنا صحون، مع الناس، مع الأكثرية، تكشّفت عوراتهم كشفنا عوراتنا، فعلوا كذا فعلنا كذا، هذا الإنسان الذي يسير مع الناس بلا فهم وبلا ضوابط هذا إنسان سخيف، لذلك دائماً العظماء هم الذين يحدثون تغيرات في البيئة، أما الضعفاء يتأثّرون بالبيئة، وأنت ترى بعينك امرأة ترتدي ثياباً فاضحة فلماذا ؟ فتقول لك: هكذا أصبحت الموضة، فأين أصبح الدين ؟ أين منهج الله عزّ وجل ؟ أين طاعة الله ؟ أين من أنك مسلمة من أب مسلم وأم مسلمة ؟

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45))

ماذا يفعل الناس يفعلون.

((لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ فِيهِ))

(سنن ابن ماجة عن أبي هريرة)

وطبعاً مصمم أزياء في فرنسا هو الذي يتحكم بنساء المسلمين، بيده لباس النساء كلّهن، يكشف كل العورات ونحن نتبعه شبراً بشبر، فكيف ينصرنا الله عزّ وجل ؟

(وَكُنَّا نَخُوضُ)

هذا كلام أهل النار، وهذا شيء دقيق جداً أنه أتيح لنا بعلم الله عزّ وجل أن نستمع إلى رجل يحترق في النار ونسأله: ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ يقول:

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46))

4 ـ التكذيب بيوم الدين:

الآن أكثر الناس يقول لك: (من هنا إلى يوم القيامة الله يفرجها)، أي إنه كذّب بيوم الدين، (من مات ورجع فقال لك: في آخرة)، هكذا يقولوا العوام من الناس، هذه كلمات كفر وهم لا يشعرون (لا تدقق) أي أنه لا توجد آخرة، هذه الكلمات يقولها الناس بشكل مداعبة أما هي خطيرة جداً.

(وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46))

والتكذيب يا إخوانا الكرام أنواع: يوجد تكذيب قولي، لن تجد في العالم الإسلامي إنسان يكذِّب بيوم الدين فيقول لك: لا توجد آخرة. لكن لو فحصت عمله لا تجد أبداً أنه يعمل للآخرة، الذي يأكل المال الحرام يخاف يوم الدين ؟ أبداً بل إنه يكذِّب به، الذي يعتدي على حقوق الناس يكَذِّب بيوم الدين ؟ الذي يأخذ ما ليس له يكذِّب بيوم الدين ؟ الذي يحتال يكذِّب بيوم الدين ؟ كل إنسان يعصي الله هو في الحقيقة يكذب بيوم الدين، فإذا قلت لإنسان من باب الطرفة: يوجد على كتفك عقرب، فابتسم وبقي هادئاً ومرتاحاً تماماً وقال لك: أنا شاكر لهذه الملاحظة وإن شاء الله يجب أن أكافئك عليها، إنه لم يفهم ما قلت له لأنه لو فهم لكان قفز من مكانه.

ما جاء في القرآن ستعرفه معرفة يقينية عند الموت:

جاء اليقين قال:

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

(سورة المدثر)

اليقين هو الموت.

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99))

(سورة الحجر)

والحقائق التي جاء بها الأنبياء سوف يعرفها كل البشر عند الموت.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق: آية " 22)

أي إن أكثر كفّار الأرض (فرعون) عندما أدركه الغرق قال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: آية " 90)

المعرفة النافعة هي المعرفة قبل الموت:

إذاً مشكلتك مع الإيمان مشكلة وقت، كل شيء جاء بالقرآن وجاء به النبي عليه الصلاة والسلام سوف تعرفه معرفةً يقينيةً قطعيةً ثابتةً أكيدةً عند الموت، إن عرفته الآن استفدت منه، أما عند الموت لا قيمة لهذه المعرفة.

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ(158))

(سورة الأنعام)

فكل عمل، كل معرفة تكون عند الموت يقينية ولكن لا قيمة لها، المعرفة النافعة هي المعرفة التي تعرفها وأنت في أوج حياتك.

(فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

قال عليه الصلاة والسلام:

((يا بني عبدِ المطلب، أنقِذُوا أنفُسَكم مِنَ النّار، يا فاطِمَةُ، أنقِذي نفْسَكِ مِنَ النّار، فإنّ لا أملك لكم من اللّه شيْئا، غير أنّ لكم رَحِما، سَأَبُلُّها بِبَلالِها))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19))

(سورة الزمر)

شفاعة النبي لا تنال الشارد عن الله:

أما الذي يموت موحِّداً، مخلصاً، غير مشركٍ بالله تناله شفاعة النبي، شفاعة النبي حق لكنّها لأهل التوحيد، لأهل الإيمان، لأهل الطاعة، لأهل الاستقامة أما أن يتوهّم الإنسان أن يشرد عن منهج الله وأن يفعل كل الموبقات وأن يتعلّق بشفاعة النبي فهذه سذاجةٌ ما بعدها سذاجة.

(فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

أي اثني عشرة مادة والناجح في المواد كلها عدا مادة واحد آخذ فيها خمسة وأربعين من خمسين أي لازمك خمسة علامات تنالك شفاعة النبي، أما يوجد تقصير شديد فإن هذا موضوع خارج شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام.

إعراض الكافر عن الإيمان:

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49))

(سورة المدثر)

تُذَكِّرُهم فيعرضون، تدعوهم فلا يستجيبون، تنصحهم فلا ينتصحون، قال:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50))

(سورة المدثر)

والعوام يقولون: (مثل الحمير التَّرّابة)، عمل مستمر إلى لا هدف، يأتي الموت فجأةً فينهي كل شيء.

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51))

القسورة الرُماد، والحُمُر الوحشية إذا رأت الرماة وبيدها أقواس النبل فرّت فراراً مخيفاً.

الإنسان الغير مؤمن يريد ديناً خاصاً به:

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52))

(سورة المدثر)

أي كل إنسان يريد ديناً خاصاً له، يريد أن يأكل الربا وأن يُصلي، أن يصلي وأن تبدو زوجته سافرة، يريد أن يفعل هذا العمل السيئ وأن يكون ديناً، الدين منهج إلهي ثابت، أما أن تأخذ ما يُعجبك وتدع ما لا يعجبك وتقول: أنا هكذا رأييٌ، من أنت ؟

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ فمن أنتمُ حتى يكون لكم عندُ

* * *

الإنسان المؤمن يعلم أن ما جاء به الله هو الحق:

الآن أكثر الناس الغير ملتزمون بدروس علمية دينية يقول لك: أنا أرى كذا، يقول لك: أنا، فمن أنت ؟ قرآن، سنة، نبي معصوم أعطى توجيهات ولك رأي مع كلام الله عزّ وجل ؟

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36)

إذا الله عزّ وجل حكم بشيء انتهى الأمر، سألوا إنسانة في برنامج إذاعي حول التعدد، أنه ما رأيك في تعدد الزوجات ؟ فأجابت إجابة مذهلة وقالت: رأيي في التعدد وقد سمح الله به غير معقول أن أتكلم أنا برأييّ في التعدد ما دام الله سمح به، إذا كان شيئاً أعطى الله فيه حكماً انتهى الأمر، ليس لك رأي أبداً، فكل إنسان يريد دين على مزاجه فيأخذ ما يُعجبه، الصلاة لا توجد مشكلة، أما إطلاق البصر فغض البصر صعب يقول لك: غير معقول، هذه الآية ليست لهذا الزمن، فهو يريد ديناً خاصاً، لا بدّ من أن آكل هذا المبلغ، هكذا الحياة الآن يوجد تعامل ربوي، فإنه يجعل ظروف الحياة هي الدين، أما المؤمن يعلم علم اليقين أن ما جاء في الكتاب والسنة هو حقٌ وأنه في طاقة البشر، وأن الله لا يكلِّف نفساً إلا وسعها لذلك ينصاع لأمر الله.

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً(52))

كل واحد يريد دين مِزاجي خاص.

(كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54))

(سورة المدثر)

هذا كلام.

مشيئة الله قيد فضل لا قيد جبر:

(فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة المدثر)

أي لولا أن الله شاء لكم أن تشاؤوا لما شئتم، هذا الربط بمشيئة الله ربط فضل وليس ربط جبر، أكثر الناس يتوهّمون أنه وما تشاؤون إلا أن يشاء الله أي القضية بيده، إذا الله يريد فيهديني، وإذا لا يريد لا يهديني، لا هذا معنى جبري لم يرده الله أبداً، هذا المعنى الجبري أنت اخترعته، أي إذا سعدت باختيارك هذا اختيارك من فضل الله، ما كان لك أن تختار إلا لأن الله سمح لك أن تختار، أي إذا أدخلناك إلى محل صياغة وقلنا لك: تفضّل وانتقي، فانتقيت أكبر ألماسة وثمنها مليون ليرة، ماذا نقول لك ؟ لو لم نسمح لك أن تختار ما كنت أخذتها، أدخلْناك إلى محل صياغة يوجد ألماس حقيقي غالي جداً ويوجد ألماس تقليد، ويوجد ذهب رخيص، ويوجد ذهب ستة عشر، ويوجد نحاس ملمّع، قلنا لك: اختار ما تشاء خيّرناك فانتقيت أكبر خاتم ألماس ثمنه مليون، ماذا قلنا لك وأنت ذاهب ؟ لو لم نسمح لك أن تختار ما كنت اخترته، لو قيّدناك ما كنت اخترته، فإذا أنت شئت الخير فإن هذه المشيئة لولا أن الله شاء لك ما تشاء لما شئتها، فهذا قيد فضل وليس هو قيد جبر.

طاعة الله ثمن سعادة الإنسان:

(وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

لولا أن الله أعطاهم حرية الاختيار، لولا أن الله أعطاهم فكراً يذكرون به لما ذكروا ولما عرفوا الحقيقة، ولما سعدوا بالله عزّ وجل، آخر آية:

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

(سورة المدثر)

لا توجد في الكون جهة أهلٌ أن تطيعها إلا الله، لا توجد في الكون جهة أهلٌ أن يفنى شبابك من أجلها إلا الله، أي لا يليق بك أن تكون لغير الله، أنت حينما تكون لإنسان أو لجهة تحتقر نفسك، أنت إنسان غالي على الله.

((خلقت الخلق ولم أعيا بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟ لي عليك فريضة ولك عليّ رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً))

((خلقت السماوات والأرض ولم أعيا بخلقهن، خلقتها من أجلك فلا تتعب وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))

طاعة الله و تقواه سبب مغفرة الله لك:

أي أنّك لله وحينما تكون لغير الله تحتقر نفسك، لا يليق بك أن تكون لغير الله، الله كرّمك جعلك مخلوقاً أول وقال لك: أنت لي، الماء للأرض، الأرض للنبات، النبات للحيوان، الحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟ للواحد الديّان، أنت لله، لا تكون لغير الله فتحتقر نفسك، فهل من الممكن أن تستخدم مثلاً سبيكة ذهب لصنع مجرور أو قدُوم ؟! أنت بذلك احتقرت الذهب، فأنت مخلوقٌ لله وهو وحده أهلٌ أن تطيعه، أهلٌ أن ترجوه، أهلٌ أن تطلب رضاه، أهلٌ أن تعبده، أهلٌ أن تضع كل طاقتك في خدمة عباده، أهلٌ أن يكون الله هو الأول والآخر عندك، هو أهل التقوى، أي أهلٌ أن تتقيه وإذا اتقيته هو أهلٌ أن يغفر لك، هذه الكلمتين في الأخير.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

رفض الدين سبب في احتقار نفسك:

أي لا توجد جهة مؤهّلة أن تكون أنت لها إلا الله، وكل إنسان كان لغير الله فقد سَفِهَ نفسه، توجد أشياء كثيرة تعرض عنها احتقاراً لها، رأيت بيتاً صغيراً فتقول: لا أريده لأنه لا يعجبني، رأيت وظيفة دخلها قليل رفضتها، أنت قد ترفض أشياء كثيرة احتقاراً لها إلا شيئاً واحداً إن رفضت الدين فإنك تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة: آية " 130)

حينما ترفض الدين تحتقر نفسك فقط.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

أما إنسان لو أفنيت كل حياتك من أجله، فهو ضعيف مثلك، لو إنسان أصيب بشيء خطير هل أحد يخلِّصه ؟ لا أحد يخلِّصه إلا الله، لذلك لا يليق بك أن تكون لغير الله هو وحده أهلٌ أن تطيعه، هو وحده أهلٌ أن تُخْلِص له، هو وحده أهلٌ أن تتقيه، هو أهل التقوى، وإذا فعلت هذا هو أهلٌ أن يكرمك وأن يغفر لك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 52-56 اختيار طريق الحق سبب سعادة الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-03-06

بسم الله الرحمن الرحيم

وقفة متأنية مع سورة المدثر:

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثامن والأخير من سورة المدّثر، في الدرس الماضي نقاطٌ كثيرةٌ ودقيقة مررنا بها سريعاً، وأتمنى أن نقف عندها وقفةً متأنية في هذا الدرس ويكون هذا الدرس الأخير من سورة المدثر.

أعظم سعادة للإنسان أن تكون تصوراته متوافقة مع كلام الله:

الآية الكريمة:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

(سورة المدثر)

كلمة:

(كَلَّا)

كما تعلمون أداة ردعٍ ونفي، أي حينما يقول الله عزّ وجل لهذا الإنسان:

(كَلَّا)

أي لا كما تتصور، لا كما تتوهم، لا كما تقول، أي شقاءٍ أكبر من أن تكون في تفكيرك وإدراكك مخالفاً لمنهج الله عزّ وجل، كلا. من هو السعيد ؟ الذي جاءت تصوّراته ويقينياته موافقةً لما في القرآن الكريم، والحقيقة لا بدّ من أن نعرفها جميعاً، أهل الأرض كلُّهم من آدم إلى يوم القيامة سيعرفون الحقيقة عند الموت، كل البطولة أن تعرفها الآن، إن عرفتها الآن انتفعت بها، وإلا لا تنتفع بها أبداً، فعند كلمة:

(كَلَّا)

تعتقد شيئاً ؟ تتوهم شيئاً ؟ تتصور شيئاً ؟ تمشي في طريق مسدود، تمشي في طريق ينتهي بك إلى الهاوية، فأنا لا أرى سعادةً أعظم من أن تكون معتقداتك تصوُّراتك يقينياتك موافقةً لكلام الله عزّ وجل، هذا هو الهُدى.

الابتعاد عن الضلال و الوهم:

أما:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً(104))

(سورة الكهف)

بطولتك أن تتوافق تصوراتك مع ما في القرآن الكريم، أو أن تأخذها من القرآن الكريم، بطولتك أن تكون قِيَمُك قيماً دينية، أن تكون مقاييسك مقاييس القرآن الكريم، أن تقيّم الأشخاص لا بحجمهم المالي ولا بحجم قوتهم بل بحجم انتمائهم لهذا الدين، فكلمة:

(كلا)

أداة ردعٍ ونفيٍ أي إياك أيها الإنسان أن تكون ضالاً، إيّاك أن تكون واهماً، إيّاك أن تتبع الظن، عليك أن تكون مع الحقيقة، والحقيقة تُستقى من الوحي فقط.

توافق الحقيقة مع الوحي:

العقل أيها الإخوة مع أنه أعقد جهازٍ أودعه الله فينا، مع أنه الشيء الذي نتميّز به لا يكفي وحده من دون وحيٍ لمعرفة الحقيقة.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

(سورة المدثر)

لا بدّ من أن تهتدي بوحيٍ، الحقيقة قد تعرفها بالتجربة، قد تعرفها من خلال العِلم، ولكن الحقيقة المطلقة لا تكون إلا على طريق الوحي، الإنسان بعقله قد يكشف بعض الحقائق، قد يكشفها في الوقت المناسب، وقد يكشفها في الوقت غير المناسب، وقد يكشفها بعد فوات الأوان، وقد يكشفها ولا يستطيع أن ينتفع بها، أما إذا استقيت الحقائق من الوحي، من كتاب الله، تعرفُها في الوقت المناسب، وتنتفع بها، وهي صحيحةٌ صحةً مطلقة، فكلا ليس كما تقولون، ليس كما تزعمون، ليس كما تتوهّمون، الحقيقة هذه:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

التأمل في الآيات لمعرفة الله من خلالها:

كل الآيات القرآنية:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2))

(سورة الشمس)

(وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2))

(سورة الفجر)

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

الله عزّ وجل يلفِتُنا إلى هذه الآية، هؤلاء الذين أعرضوا عن التفكر في خلق السماوات والأرض ماذا فعلوا ؟ عطّلوا ثُلث القرآن، لماذا يقول الله عزّ وجل:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

أي هل فكرت في القمر ؟ هل فكرت في الشمس ؟ هل فكرت في الليل والنهار ؟ هل فكرت في الكواكب ؟ هل فكرت في طعامك ؟ هل فكرت في شرابك ؟ هل فكرت مما خلقت ؟ هل فكرت في الذكر والأنثى ؟ فهذه الآيات كيف تعرف الله عزّ وجل ؟

التفكر أساس معرفة الخالق:

ذكرت اليوم في الخطبة: أنك ترى إنساناً، رأيته هل عرفته ؟ لا، إنسان أمامك، برأس، وجذع، وأطراف، وعيون، وأنف، وفم، لابس، جالس، مهما تأمّلت في شكله وفي هندامه لا تعرفه، أما إذا سألته عن دراسته، أو عن إنجازاته، أو عن طبيعة عمله، أو عن فعله، كلما عرفت عنه شيئاً كَبُر في نظرك، فأنت مع إنسان تحتاج إلى تفاصيل كي تعرفه، فمع الواحد الديان، يكفي أن تقول: الله خالق السماوات والأرض ؟! فهل فكّرت في رحمته، في قدرته ؟ في علمه ؟ في رأفته ؟ في لطفه ؟ في جبروته ؟ في قوته ؟ ما لم تحص أسماء الله الحسنى لا تعرف الله عزّ وجل، أحد الأشياء التي تقربك من الله عزّ وجل أن تحصي أسماءه الحسنى، **" إن لله تسعاً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة ".** إحصاؤها شيء، وعَدُّها شيءٌ آخر، أن تعرف أسماء الله الحسنى باب، أن تفكِّر في القمر.

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33))

(سورة المدثر)

الليل وحده، فيا سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل ؟ ويا سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار ؟ من ظلام من سكينة من هدوء إلى إشراق إلى وضوح، وكيف أن الليل والنهار يتعاقبان و يختلفان طولاً وقصراً بين الصيف والشتاء، فهذه آية الليل، يقولون: شدة القُرب حجاب، الشيء الذي نألفه كثيراً ؛ ليل ونهار، وشمس وقمر، وأمطار ورياح، وجبال ونباتات، وطعام وشراب، هذا نعيشه كل يوم، شدة هذا القرب قد تكون حجاباً بينك وبينه، فالإنسان لا ينتبه أنه مغمور بنعم الله عزّ وجل.

كأس الماء بكم تشتريه يا أمير المؤمنين إذا منع عنك ؟ قال: بنصف مُلكي، قال: فإذا منع إخراجه ؟ قال: بنصف مُلكي الآخر. عندما يشرب الإنسان الماء ويخرج الماء، لما يتحرك، ينظر، يبحث، يسمع، يتكلم، ينطق، يدخل بيته، هذه نعمٌ كثيرةٌ، يجب أن نتأمّل فيها.

وظائف آيات الله الكونية:

1 ـ وظيفة نفعية:

فالآيات التي نستعملها ينبغي أن ننتفع بها.

2 ـ وظيفة تعريفية:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

فكرت بالقمر ؟ فكرت بالشمس ؟ فكرت بالليل ؟ فكرت بالنهار ؟ فهذه الآيات ينبغي أن نستعملها، ينبغي أن ننتفع بها، ينبغي أن نعرف الله من خلالها، وأذكر لكم دائماً أن آيات الله الكونية لها وظيفتان كبيرتان وظيفةٌ تعريفية، ووظيفةٌ نفعية، فنحن ننتفع بالقمر ونتعرّف إلى الله من خلاله، فالذي انتفع به فقط هم أهل الغرب، والذين ينبغي أن يتعرفوا إلى الله من خلاله نحن المؤمنين، يجب أن تتعرّف إلى الله من خلقه، ولا شك أن المهمة الأولى أكبر بكثير، فكل شيء الله خلقه له وظيفتان ؛ وظيفةٌ تعريفية، ووظيفةٌ نفعية، فالشارد عن الله عزّ وجل يقف عند النعمة ولا يصل منها إلى المنعم، وظيفته نفعية، ينتفع ويأكل ويشرب، لكن المؤمن ينتقل من هذه النعمة إلى المُنعم، من هذا الخَلق إلى الخالق، من هذا النظام إلى المُنَظِم، من هذا التسيير إلى المُسَيّر، من مظاهر الكون إلى خالق الكون، هذه النقلة التي لا بدّ منها.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71))

(سورة القصص)

الليل و النهار من نعم الله على الإنسان:

(وَاللّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34))

فهل نعمة النهار قليلة ؟ أساساً هناك في شمال الكرة الأرضية في قطبها الشمالي وقطبها الجنوبي الليل يستمر ستة أشهر، والنهار ستة أشهر، الحياة لا تُحتمل، لا تحتمل أن يبقى الليل ستة أشهر، جعله في ساعاتٍ تناسب طاقاتك، تناسب عملك، تناسب نظام حياتك، هذه آية، دائماً في ربط، فالذي أنزل هذا الكتاب هو الذي خلق السماوات والأرض، في ربط مستمر في القرآن الكريم.

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40))

(سورة الحاقة)

جواب القسم يأتي دائماً متناسباً مع المُقْسَم به، خالق الكون أنزل هذا القرآن الكريم:

(وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا)

على الإنسان إدخال الجنة و النار في حساباته:

بعض علماء التفسير قال: إنها جهنم لإحدى الكبر، فإنسان يمشي في الطريق يمرح ويضحك وأمامه لغم سيجعله قطعاً صغيرة، ولا يتأثر؟!! الناس في غفلةٍ شديدة، موضوع الجنة والنار، أنا أرى أن أكثر الناس لا يُدخلان هذا الموضوع في حساباتهم اليومية، لماذا آلاف الدعاوى في قصر العدل ؟ لماذا اغتصاب الأموال ؟ لماذا الكذب ؟ لماذا الغُش ؟ لماذا العدوان على ما عند الآخرين ؟ سيدنا عمر تَسَلَّم منصب القضاء في عهد سيدنا الصديق سنتين لم يرفع أحدٌ إليه قضية، كل إنسان يعرف ما له وما عليه، كل إنسان يعرف حدوده، وهذا هو المؤمن، فحينما نأخذ ما ليس لنا ونعتدي على حقوق الآخرين كيف نكون في المستوى الذي يريدنا الله به ؟

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

جزاء الإنسان في النار:

قضية النار قال تعالى:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

(سورة البقرة)

إله عظيم، فهل يعقل أن يقول شيئاً لا يقع ؟ فهل تصدق أن تذلك ؟! هل تصدق أن خالق الكون يقول شيئاً لا يقع ؟ إنسان قوي يحترم قوله، إنسان جُبِلَ على الخطأ ويحترم قوله، خالق الأرض والسماوات يقول: جهنم ونار:

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (74))

(سورة طه)

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا)

(سورة النساء: آية " 56)

ومع ذلك لا تجد كثيراً من المسلمين الذين ينتمون إلى هذا الدين يدخلون النار في حساباتهم اليومية.

إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ: آية لها عدة معاني:

1 - جهنم أكبر الأخطار التي تنتظر الإنسان:

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

هذه النار إحدى أكبر الأخطار التي تنتظر الإنسان، فأكبر خطر أن يكون المصير إلى النار.

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30))

(سورة إبراهيم)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

(سورة البقرة)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(سورة الإنسان)

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

فجهنم أحد أكبر الأخطار التي تنتظر الإنسان، والأخطار في الدنيا مؤقّتة تنتهي عند الموت، لكن الأخطار في الآخرة ليس هناك موت.

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (74))

(سورة طه)

2 - تكذيب الإنسان بالحق من أكبر الجرائم:

المعنى الثاني:

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

تكذيبكم بالحق، أحد أكبر الجرائم، أي أن أكبر جريمة أن تشرد عن الله عزّ وجل، أن تكذِّب كلامه، ألا تعبأ بكلام نبيّه، ألا تعبأ بالوعد والوعيد، ألا تعبأ بالحق والباطل، تعيش لذاتك لشهواتك.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

3 ـ الاهتمام بقضية الدين:

والمعنى الثالث الذي فَصّلته في الدرس الماضي: أكبر قضية ينبغي أن تنتبه لها هي مصيرك، علاقتك بهذا الدين، هل أنت مؤمن ؟ هل أنت مسلم ؟ هل أنت مُحسن ؟ أين موقعك ؟ ما درجتك عند الله عزّ وجل ؟ هل أنت مقبول عند الله ؟ الصحابة الكرام، أحد التابعين قال: التقيت بأربعين صحابياً ما منهم واحداً إلا وهو يظن نفسه منافقاً من شدة خوفه من الله. المنافق يبقى في حالٍ واحدة أربعين عاماً بينما المؤمن يتقلّب في اليوم الواحد أربعين حالاً، من شدة قلقه وخوفه وحرصه على رضوان الله عزّ وجل.

إذاً أول معنى جهنم:

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

المعنى الثاني تكذيبكم بهذا الدين.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

المعنى الثالث: قضية الدين بمجملها، هذه أكبر قضية ينبغي أن تهتم لها، ليس هناك قضية تعلو عليها، وأكثر الناس يضعون قضية الدين في الدرجة الخامسة، مصالحه، رزقه، كسبه، ماله، مكانته، في الدرجة الأولى، إذا عنده وقت فارغ يحضر درس علم، يجب أن تُشَكِّل حياتك وفق منهج الله عزّ وجل.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36))

حرية الاختيار للإنسان:

النار نذير، وقال علماء التفسير: النبي هو النذير، وقالوا: القرآن هو النذير، والأربعون هي النذير، والشَيب هي النذير، والسّتون هي النذير، والمصائب النذير، وموت الأقارب نذير:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37))

(سورة فاطر)

(نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

(سورة المدثر)

أنت مُخَيَّر تحب أن تتقدم إلى السعادة فالطريق سالك، وتحب أن تتأخَّر عنها أنت مخير، تحب أن تتقدم إلى الخير الطريق سالك، تحب أن تبتعد عن الخير إلى الشر فممكن لأنَّك مُخَيَّر.

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ)

إلى الخير، إلى الجنة، إلى رضوان الله، إلى السعادة، أو يتأخَّر عن هذه كُلها.

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38))

(سورة المدثر)

الإنسان رهين عمله:

أنت رهينُ عملك، أنت محبوسٌ بعملك، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك، فأخطر سؤال يجب أن تطرحه على نفسك كل يوم: ما نوع عملي هل فيه خلل ؟ في خلل بالدخل ؟ في خلل بالعلاقات ؟ هل لي عمل لا يُرضي الله ؟ هل لي عمل مخالف للمنهج الصحيح ؟

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38))

وشَتَّانَ بين من يكون عمله صالحاً ويأتيه ملك الموت، وبين من يكون عمله سيئاً ويأتيه ملك الموت. أيها الإخوة الكرام: أن تكون طليقاً هذا دليل استقامتك، المؤمن طليق، والمؤمن متفائل، والمؤمن متوازن، والمؤمن سعيد، والمؤمن بقلبه سكينة، سعادة، شعوره أن الله راضٍ عنه، شعور لا يقَدَّر بثمن.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39))

هؤلاء الذين عرفوا الحق وطبَّقوا أمر الله وأمر النبي، هؤلاء الذين وصلوا إلى الله، هؤلاء الذين عرفوا سر وجودهم وغاية وجودهم.

أسباب دخول المجرمين النار:

(إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41))

(سورة المدثر)

فماذا أراد الله بهذه الآية ؟ لو أن إنساناً زار سجناً وهو يعمل في التجارة، وزار سجناً ورأى أحد السجناء قال له: ما الذي أوصلك إلى هنا ؟ قال له: لأنني تاجرت ببضاعةٍ محرمة ممنوع المتاجرة بها، أليس هذا درساً للزائر ؟ درس لنا، الآن نحن مع بعض أهل النار، يُسْأل:

(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42))

ما الذي أوصلكم إلى النار ؟ ما سبب دخولكم النار ؟ لماذا أنتم هنا ؟ أول سؤال تطرحه على سجين: لماذا أنت هنا ؟ لأنه كامل ؟ لا، لأنه إنسان صالح ؟ لا طبعاً، لأنه محسن ؟ طبعاً مستحيل، يوجد مشكلة كبيرة كانت سبباً لدخوله السجن، فالآن اسمعوا إلى أسباب دخول النار:

1 ـ عدم الصلاة:

(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43))

أي إن لم تنعقد الصلة بينك وبين الله فالوضع خطير جداً، إن لم تنعقد هذه الصلة، وهذه الصلة لا تنعقد إلا بطاعته، إلا بالاستقامة على أمره، إلا بالإحسان إلى خلقه، إلا بأن تقف عند الحدود، إلا بأن تعرف ما لك وما عليك، إلا أن تنام مساءً وأنت مرتاح لم تكن سبباً في شقاء إنسان، ولا في نشر معصية، ولا في إفساد إنسان، ما تَعَلّقت بك الحقوق ولا الواجبات، هذه الحالة الطيبة، الذي استقام على أمر الله، هو الذي ينام مطمئناً:

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43))

الاتصال بالله يحتاج إلى مقدِّمات، مقدماته الاستقامة على أمر الله، الاتصال بالله يحتاج إلى معرفة الله، تصلي لمن ؟ هناك من يصلي لمن لا يعرفه، يجب أن تعرفه من أجل أن تنعقد صلاتك معه انعقاداً صحيحاً.

2 ـ الانقطاع عن الله و الإساءة لخلقه:

(وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44))

نحن متصلين بالله عزّ وجل وليس لنا عمل صالح، معنى أسباب دخول النار الانقطاع عن الله والإساءة للخلق.

(وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44))

بل إن هنا المعنى دقيق جداً، فالامتناع عن العمل الصالح جريمة لأنك مخلوق للعمل الصالح، لو طالب قال لك: أنا ما آذيت صديقاً طوال حياتي، ما ضربت زميلاً لي، ما سببت زميلاً، لكن ما درست إطلاقاً، فهل هذا ينجح ؟ لم يؤذِ أحداً، لم يتكلم كلمة نابية، لم يضرب أي طالب أبداً، كل أعماله صالحة ولكن لم يدرس ولا كلمة، معنى ذلك أن عدم العمل الصالح هو الخطأ الكبير.

3 ـ التقليد الأعمى للآخرين:

(وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45))

هنا المشكلة، هذا الانجراف مع التيار:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116))

(سورة الأنعام)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36))

(سورة يونس)

الانجراف مع التيار العام، الناس كشفوا عن عوراتهم يكشف عن عوراته، دخلوا جحر ضَبٍ فدخلوه، فهذه صرعات الأزياء، المستحدثات، الانحرافات، هذا الشيء الذي نستورده من الغرب، يتعلّق بأخلاقنا بديننا بقيمنا ما دام شاع نأخذ به.

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45))

ما في موقف، ما في اتجاه خاص، ما في منظومة قيم تقبلها أو لا تقبلها، مع الناس إمَّعة:

((لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا و إن ظلموا ظلمنا))

[أخرجه الترمذي عن حذيفة]

إدخال اليوم الآخر في حساباتنا:

وأنتم ترون، كيف تنتشر بعض المستحدثات في بلادنا انتشاراً واسعاً جداً مع أنها لا ترضي الله عزّ وجل، الذي يفعله الناس يفعله الباقون والحُجَّة: هكذا يفعل الناس. فأي إنسان يقول لك: الناس كلهم كذلك، هل هذه حجة ؟ هذا دليل ؟ فبشكل أو بآخر إذا وجد مستنقعاً آسناً، مياه سوداء، مياه مجاري، وفيها مئة إنسان يسبحون بها ويلعبون ويضحكون، وأنت الله عزّ وجل كَرّمك بالنظافة والوضع السليم لأن هؤلاء في هذه البركة الآسنة تنزل معهم ؟ هل هذه حُجَّة ؟.

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46))

أي أن اليوم الآخر لم يدخل في حسابات الناس إطلاقاً.

حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ: آية لها عدة معان:

1 ـ الإنسان عند الموت يعرف الحقيقة اليقينية:

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47))

لما سُمي الموت يقيناً ؟ سُمي الموت يقيناً لأن الإنسان عند الموت يعرف الحقيقة اليقينية التي كان غافلاً عنها، هذا معنى.

2 - اليقين بوقوع الموت:

المعنى الثاني: سُمي الموت يقيناً لأنه مُتَيَقّنٌ وقوعه، هل يستطيع أحد على وجه الأرض أن يقول: أنا لا أموت ؟ أعوذ بالله، مصير كل حي، جئنا على هذا الشرط، سبحان من وعد عباده بالموت، كتب علينا الموت، جميعاً: عش ما شئت فإنك مَيّت، أحبب ما شئت فإنّك مُفارق، اعمل ما شئت فإنّك مجزيٌ به. لذلك لا أحد يستطيع أن يُنكر حدث الموت، ولكن الناس يتفاوتون في مدى الاستعداد للموت.

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47))

أروع ما في حياة الإنسان أن يأتي الغيبُ موافقاً لاعتقاده، أما أن يأتي الغيب الذي غاب عنك مفاجئاً لك هذه مشكلة كبيرة جداً.

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

(سورة المدثر)

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19))

(سورة الزمر)

عدم الإعراض عن الحق:

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49))

لماذا الإعراض عن هذا الحق ؟ لماذا الإعراض عن هذه التذكرة ؟ لماذا الإعراض عن هذا القرآن ؟ لماذا الإعراض عن دعوة الله علينا أن نستجيب له ؟ لماذا نُعرض ؟ لما لا نستجيب؟ لا نتقاعس ؟

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ)

في إعراضهم.

(حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51))

من رامي، أو من الليل.

(فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51))

الإنسان المنحرف يريد ديناً يتوافق مع مزاجه:

أيها الإخوة: الآية التي ذكرتها في الدرس الماضي:

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52))

أبو جهل قال له: **" يا محمد ليُنزل ربك علينا كتاباً نقرأه أنه بعثك إلينا رسولاً ".** هذا قول أبو جهل، وكل إنسان لو توسّعنا في فهم هذه الآية، كل إنسان يريد ديناً يتوافق مع مزاجه، يحب هذا السلوك فيبحث عن غطاءٍ لهذا السلوك، فتوى ضعيفة، قول ضعيف، اجتهاد، تصوّر عقلي شخصي، فهذا الذي يقول لك: أنا عندي هذه جائز فعلها. فمن أنت ؟ هل أنت مُشَرّع ؟ يقول هذا عندنا غير جائزٍ، فمن أنتمُ حتى يكون لكم عندُ ؟!.

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52))

أي هو يريد منهجاً يتوافق مع مزاجه، فالذي يُرابي يقنعك أن هذا الربا أنا لا أُرابي بالربا ربا القروض، بل ربا الاستثمار والمشاريع، والإسلام حينما حرّم الربا حرم القروض فقط، القروض الاستغلالية هذه حرمها، لكن الله لم يذكر علة للتحريم، تحريم مطلق، فيريد كل إنسان أن يبقى على ما هو عليه وأن يكون تحت غطاء الدين، فهذا مستحيل، أن تبقى على ما أنت عليه وتحت غطاء الدين مستحيل.

الأفعال السيئة ينسبها الإنسان إلى ربه:

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53))

لو الإنسان مع شخص قوي يُطبّق تعاليمه بحذافيرها، لكن مع الله عزّ وجل يأخذ ويعطي، شيء يقول لك: هذا لم أقتنع به، شيء يقول لك: فيه فتوى، أما لو عرف عظمة الله عزّ وجل لانصاع لأمره.

أيها الإخوة: النقطتان التي مررت بهما سريعاً في الدرس الماضي الآيتان الأخيرتان:

(كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55))

(سورة المدثر)

أنت مُخَيَّر، وفي أية لحظةٍ تنفي بها عن نفسك الاختيار فأنت واهم، أنت مخير، والإنسان عجيب أمره في أعماله الطيبة يقول: أنا فعلت وتركت، أما في أعماله السيئة يقول: إن الله قدّر عليّ ذلك، لماذا تنسب أفعالك الطيّبة إلى ذاتك بينما الأفعال السيّئة تنسبها إلى الله عزّ وجل ؟

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28))

(سورة الأعراف)

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12))

(سورة عبس)

ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ربط فضل:

الآن الشيء الدقيق أن بعض الناس يتوهّمون أن ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله، أي أن الإنسان مُجْبَر، وهذا المعنى لم يرد إطلاقاً في الإسلام، الإنسان مُخَيَّر، لكن:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (30))

(سورة الإنسان)

ما معنى هذه الآية ؟

دخلت إلى محل تجاري يبيع الذهب والألماس، قال لك صاحب المحل: اختر ما شئت، طبعاً في خاتم بمليون، وفي خاتم بمئة ليرة، فأنت اخترت المليون، وأنت خارج قال لك: لولا أنني سمحت لك أن تختار لما نلت هذا الخاتم الثمين، فربط اختيارك بسماح صاحب المحل أن تختار ربط جبر أم ربط فضل ؟ ربط فضل.

أسباب سعادتك في الآخرة اختيارك للحق:

أحد أسباب سعادتك في الآخرة، أحد أسباب دخول الجنة أنّك استعملت حرية الإرادة التي منحك الله إيّاها في اختيار الحق واختيار طريق الجنة فوصلت إليها، فيقال له: ما كان لك أن تدخل الجنة لولا أن الله لم يسمح لك أن تختار، فاختيارك الموَفّق هو بسبب أن الله سمح لك أن تختار، فهذا الربط، ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ربط فضل، لبيان الفضل، أي أن كل هذا الخير الذي نلته بسبب اختيارك شاءه الله لك، ولو لم يشأ لك هذا الاختيار لما اخترت ولما كنت المخلوق الأول، فهناك مخلوقات كثيرة جداً في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة مسيَّرة، أما الإنسان أكرم المخلوقات.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ(7))

(سورة البينة)

فالإنسان إذا استعمل حرّيته وفق ما أراد الله عزّ وجل كان خير المخلوقات جميعاً، وإن لم يستعملها وفق ما أراد الله عزّ وجل كان شر المخلوقات جميعاً، فحالته عجيبة بين أن يكون سيّد المخلوقات أو أشقى المخلوقات، من سيد المخلوقات إلى أسوأ المخلوقات، من صنفٍ فوق الملائكة إلى ما دون الحيوان.

أكبر أسباب السعادة أن تتوافق نفسك مع فطرتك:

(كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54))

والتذكرة تعني أن الإيمان فِطري، إذا الإنسان ذهب إلى بلد ورأى معالمه، ثم أطلعته على صوره للبلد فسيقول: نعم أنا كنت هناك، وكنت في هذا المكان بالذّات. ما دور هذه الصورة ؟ تذكرة، ذَكَّرَتْكَ بهذه الرحلة، فالتذكرة معنى ذلك أنك تعرفها سابقاً، فالإنسان مجبول على الإيمان بالله، فطرته فطرةٌ مؤمنة فإذا آمن ارتاحت نفسه واطمأن قلبه واستعاد توازنه، تماماً كالسيّارة التي صُمِّمَت لتسير على طريقٍ مُعَبَّد، فإذا سرت بها في طريقٍ وعر كَسَّرْتَها وانزعجت من الأصوات ولم تحتمل قيادتها، أما إذا سرت بها على طريقٍ مُعَبَّد ارتاحت نفسك لأنك أرجعتها إلى فطرتها.

فأحد أكبر أسباب السعادة أن تجد نفسك وأن تتوافق مع فطرتك، والعالم الغربي الآن بماذا يشعر ويعاني ؟ كل شيء موفور، كل شيء ميَسَّر، لكنهم مقطوعون عن العبادة، فبيوتهم قطعٌ من الجحيم، جحيم البعد عن الله عزّ وجل، جحيم التفلّت، جحيم تفكك الأسرة، جحيم الانغماس في المخدرات، جحيم الانحراف الجنسي الخطير، هذا كله جحيم.

سعادتك تكون باختيارك ما يرضي الله:

يا أيها الإخوة الكرام: فكون الإنسان مُخَيَّراً، فإذا استعمل هذا الاختيار وفق ما يرضي الله ونال السعادة الكبرى، يُقال له: لولا أن الله شاء لك أن تختار لما اخترت، فهذا هو فضل الله عليك وكان فضل الله عليك عظيماً.

(فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة المدثر)

لولا أن الله يشاء لكم أن تذكروه لما ذكرتموه.

طاعة الله واجبة على كل إنسان:

آخر كلمتين في هذه السورة يا أيها الإخوة الكرام كلمتان خطيرتان جداً.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى)

(سورة المدثر)

وحده أهلٌ أن تطيعه، أما إذا أطعت مخلوقاً وعصيت خالقاً، هذا هو الشقاء بعينه، هو هو الخطأ بعينه، هذا هو الضلال بعينه أن تطيع مخلوقاً وتعصي خالقاً، أن تمشي في طريقٍ مسدود، أن تعلِّق الآمال على مخلوقٍ ضعيف لئيم ينسى الفضل.

ليس هناك جهةٌ في الكون أهلٌ أن تطيعها إلا الله، ليس هناك جهةٌ في الكون أهلٌ أن تفني شبابك من أجلها إلا الله، ليس في الكون جهةٌ مؤَهّلةٌ أن تهبها روحك ووقتك وجهدك إلا الله، من هو الذكي ؟ هو الذي كان لله، ومن هو الغبي ؟ هو الذي كان لغير الله، احرص على أن تكون محسوباً على الله، وإياك أن تُحْسَب على زيدٍ أو عبيد، أو على هذه الجهة، أو على هذه الجماعة، أنت مخلوق مُكَرَّم، أنت مخلوقٌ لله، هو وحده أهلٌ أن تطيعه، أن تتقيه، أن ترجو رحمته، أن تخشى عذابه، أن تسعى إليه، أن تسعى إلى رضوانه، أن تسعد بقربه، لأنه أبدي وسرمدي، مبدئياً ما سوى الله فان، كم من إنسان تعلّق بامرأة، زوجته، لكنه تركه أو تركته شاء أم أبى، تعلّق بأولاده تركوه أو تركهم، تعلّق بالمال ترك المال، تعلّق بالبيت ترك البيت، تعلّق بمكانة اجتماعية فقدها، أيُّ تعلقٍ بما سوى الله سوف تفقده، أما إذا كنت مع الله فأنت أسعد الخلق.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى)

رجاء الإنسان رحمة الله و مغفرته:

أما الشيء الذي يملأ النفس تفاؤلاً لكن لو كانت لك مشكلة في الماضي ؟ فهو أهل المغفرة، فإيَّاك أن تجعل الماضي عقبةً بينك وبين الله:

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53))

(سورة الزمر)

لا تجعل الماضي مهما بدا لك منحرفاً عقبةً بينك وبين الله، فيا أيها الإخوة الكرام لنعقد النيَّة على أن نكون لله، على أن نكون أحراراً من أي عبوديةٍ أرضية، كن لله، كن عبداً لله فعبد الله حُر.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

الله عز وجل منتهى آمال الإنسان:

لا تكن لغير لله، لا تتجه لغير الله، لا تسعى لغير الله، لا ترجو رحمة غير الله، لا تخاف من غير الله، لا تعلِّق الآمال على غير الله، لا تتوكّل على غير الله، لا تصبر لغير الله.

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

(وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُوا)

(سورة المائدة: آية " 23)

و عليه فاعقد النيَّة، اجعله منتهى آمالك، محطّ رحالك، هذا هو المؤمن.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

أنت له ولست لأحدٍ سواه فإن كنت لسواه خسرت خسارةً كبيرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القيامة 075 - الدرس (1-4): تفسير الآيات1-4 محاسبة الإنسان لنفسه سبب استقامته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-03-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة القيامة:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2))

(سورة القيامة)

أنواع النفس:

1 ـ النفس اللوامة:

النفس اللوّامة أيها الإخوة نفسٌ أثنى الله عليها ومدحها.

2 ـ النفس المطمئنة:

وهناك نفسٌ مطمئنة، قال تعالى:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28))

(سورة الفجر)

3 ـ النفس الأمارة بالسوء:

وهناك نفسٌ أمّارةٌ بالسوء.

خصائص النفس المطمئنة:

النفس المطمئنة نفسٌ اطمأنت إلى رحمة الله، واطمأنت إلى استقامتها وإلى محبتها له، فنالت سعادة الدنيا والآخرة.

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29))

(سورة الفجر)

و النفس المطمئنة بلغت مرتبة الرؤية، ترى الحق حقاً والباطل باطلاً، مصداق قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

(سورة الأنفال: آية " 29 ")

مصداق قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(28))

(سورة الحديد)

الإنسان المتصل بربه يلقي في قلبه نوراً:

كإنسان يركب مركبة والضوء ساطع، والمركبة يملكها وحريصٌ على سلامتها، وحريصٌ على سلامته، فإن رأى حفرةً حاد عنها، وإن رأى أكَمةً حاد عنها، وإن رأى طريقاً معبّداً سار فيه، فالسلامة ناتجة من صحة الرؤية ومن الحرص على السلامة، فأيُّ إنسانٍ اتصل بالله عزّ وجل وألقى الله في قلبه نوراً رأى به الحق حقاً والباطل باطلاً، فهذا نفسه مطمئنة، الأمور واضحة جداً، لا يُضَحِّي بصِلته بالله ولو أن الدنيا كلها ملكه إطلاقاً.

لكن الذي تُشْرِقُ أنوار الله في قلبه تارةً ويغفل تارةً، في ساعة الغفلة في ساعة فتور العلاقة بالله قد يُخطئ وقد لا يُخطئ، فهو في حسابٍ عسير مع نفسه، قال: **يا رب هل قبلت توبتي فأهنِّئ نفسي أم رددتها فأعزيها ؟**

ارتقاء المسلم عند ربه دليل محاسبته لنفسه:

سيدنا عمر كان مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف في طرق المدينة فرأوا قافلةً قد استقرت في أطرافها قال له: تعال يا عبد الرحمن نحرس هذه القافلة، جلّس عملاق الإسلام مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف يحرسان هذه القافلة، فبكى طفلٌ صغير، لمّا طال بكاؤه ذهب عمر إلى أمه وقال: **أرضعيه**، فأرضعته فسكت، ثم بكى ثانيةً، فقال: **أرضعيه**، فأرضعته فسكت، ثم بكى ثالثةً (سيدنا عمر عصبي المزاج) قال: **يا أمة السوء ألا تُرضعيه** ؟ قالت له بحدةٍ: وما شأنك بنا أنت ؟ إنني أفطمه، قال: **ولما تفطميه** ؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفِطام (أي التعويض العائلي)، فضرب جبهته وقال: **يا عُمر كم قتلت من أطفال المسلمين** ؟ وحينما صلّى بأصحابه الفجر ما استطاع أصحابه أن يفهموا قراءته من شدّة بكائه قال: **يا رب هل قبلت توبتي فأهنِّئ نفسي أم رددتها فأعزيها.**

فالإنسان يصيب ويُخطئ، يحاسب نفسه حساباً عسيراً، يتهم نفسه دائماً، سيدنا عمر هذا الإنسان العظيم الذي أثنى عليه النبي، والذي بشّره بالجنة جاء إلى سيدنا حذيفة قال: **يا حذيفة أناشدك الله اسمي مع المنافقين ؟** لأن رسول الله أعطى حذيفة أسماء المنافقين، وكان أمين سرّ رسول الله.

فكلما ارتقى مقامك عند الله تحاسب نفسك أشد الحساب، لعلّ هذه الابتسامة كان فيها سُخرية، لعل هذه الكلمة فيها اعتزاز، لعل هذا التصرُّف جرح شعور فلان، لعل عدم تلبية هذه الدعوة انكمش لها فلان، فالمؤمن يتقلّب في اليوم الواحد بأربعين حالاً ؛ بين أنّه يرضى، بين أنه لا يرضى عن نفسه، بين أنه يستبشر، بين أنه يخاف، فإن هذا الوضع الحريص على رضاء الله، والحريص على طاعة الله، والحريص على استقامته مع الله، هذا الحرص الشديد يجعله بحالة محاسبةٍ نفسيةٍ شديدة، هذا الذي يُحاسب نفسه حساباً عسيراً أثنى الله عليه قال:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2))

علامة حياة قلبك حسابك لنفسك محاسبة شديدة:

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

(من صحيح مسلم:عن أبي هريرة)

إيّاكم، ثم إياكم، ثم إياكم أن تأخذوا هذا الحديث على ظاهره، المعنى الدقيق والعميق الذي أراده النبي من هذا الحديث: أنّك إن لم تشعر بذنبك فأنت ميّت، والدليل: اذهب إلى إنسان مات حديثاً وأمسك بسكين واجرحه، فلا يتألم ولا يصيح، ولا يسحب يده، ولا يعترض، ولا يلومك.

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجـرحٍ بميتٍ إيلامُ

* * *

فإذا الإنسان ارتكب ذنباً وقال لك: ماذا فعلت ؟ ماذا حدث ؟ منتهي، ميت.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21))

(سورة النحل)

علامة حياة قلبك أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً، أحياناً كلمة قاسية لا تنام الليل، أحياناً موقف غير مدروس من مؤمن قد تبكي طوال الليل، فهذا الذي يبكي ويتألّم، ويحاسب نفسه حساباً عسيراً، ويخشى الله عزّ وجل، يخشى ألا يكون الله راضياً عنه، يخشى ألا يكون متبعاً لسنة النبي هذه نفسٌ طيبةٌ طاهرةٌ أنعم بها من نفس ـ جعلنا الله من هؤلاء ـ أقسم الله بها:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2))

عدم الشعور بالذنب دليل موت قلبك:

لذلك: المنافق يبقى أربعين عاماً في حالٍ واحد، بينما المؤمن الصادق يتقلّب في اليوم الواحد بأربعين حالاً، ما دام الله عزّ وجل أنت حريصٌ على إرضائه، و حريصٌ على طاعته، وحريصٌ على نيل رضوانه، لذلك تُحاسب نفسك، هذه الصلاة لم تعجبني، اليوم لم أقرأ قرآن، اليوم نظري ليس مضبوطاً مئة في المئة، اليوم لساني زَلّ وتكلّم عن إنسان

(وهذا نوع من الغيبة)

أما هذا الذي يقول: ماذا فعلت ؟ هذا ميت.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21))

(سورة النحل)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف: آية " 176 ")

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة: آية " 5 ")

أموات، بهائم، فإذا أكرمك الله عزّ وجل وكنت يقظاً، وكنت شديد المحاسبة لنفسك، فأرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون جميعاً ممن تنطبق علينا هذه الآية:

(وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2))

استمالة القلب باللين:

لذلك المؤمن يعتذر، مهما كان مقامه كبيراً، يعتذر من طفل لعله أساء إليه، يُقَدِّم اعتذاراً، يقدم أحياناً هدية إذا كان أخوه وجد عليه في نفسه، قال عليه الصلاة والسلام:

((تهادوا فإن الهدية تذهب وَحَر الصدر))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

فإذا تكلّمت كلمة مع أخوك قاسية فأعرض عنك يجب أن تقدِّم له شيئاً تستميل قلبه به.

تطبيق سنة النبي الكريم تبعد الإنسان عن العذاب:

على كلٍ: نقطة دقيقة أضعها بين أيديكم، هو أن الله عزّ وجل يقول:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

الآية واضحة، إلا أن فيها إشكال هو بين ظهرانيهم.

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

أما حينما ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربّه ما معنى الآية ؟ هو بين ظهرانيهم يبلِّغهم هم في بحبوحة التبليغ، في أثناء التبليغ، كما أن الطلاب في أثناء العام الدراسي في بحبوحة، الطالب لن يُفصل ما دام ضمن العام الدراسي، يُفصل متى ؟ بعد الامتحان، وبعد رسوبه سنتين يُفصل، أما في أثناء العام الدراسي في بحبوحة العام الدراسي، وما دام النبي عليه الصلاة والسلام بين ظهراني أمته فهم في بحبوحة، بحبوحة وجود النبي بين ظهرانيهم، أما حينما ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، معنى الآية أنّه إذا كانت سُنة النبي عليه الصلاة والسلام مطبقةً في حياتهم هم في أمنٍ من عذاب الله.

علامة حبك لله إتباعك لسنة النبي:

إذا بيتك إسلامي، إذا عملك إسلامي، حركتك إسلامية، سفرك إسلامي، أفراحك إسلامية، حتى المآسي إسلامية ؛ يوجد معها صبر، يوجد معها ضبط لسان، يوجد معها كلام طيب عن الله عزّ وجل، فأنت في بحبوحة، لأن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يُرْدِفُ سيدنا معاذاً خلفه على دابة، قال:

((هل تدري ما حقُ الله على العباد ؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم قال هل تدري ما حقُ العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: حقُ العباد على الله: أن لا يعذِّبهم))

(أخرجه البخاري عن معاذ بن جبل)

هذا الكلام لنا جميعاً، خالق الكون على لسان رسوله الذي لا ينطق عن الهوى أكبر ضمانة لك هذا الحديث، إن عبدته حقّ العبادة أنشأ لك حقاً عليه ألا يعذبك، لذلك معنى قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

إذا كنت متبعاً سنة النبي، إذا كنت تدعي أنك تحب الله، فالله جلّ جلاله لا يرضى منك هذا الإدعاء إلا بالدليل، والدليل إتباع سنة النبي، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31))

(سورة آل عمران)

علامة حبك لله إتباعك لسنة النبي، هذه بحبوحة، هذه البحبوحة تمهيدٌ لشيءٍ آخر، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

المعنى دقيق جداً، هذا معنى النفس اللوّامة، فلو إنسان زلّت قدمه تكلم كلمة غير صحيحة، صار فيه خطأ ماذا يفعل ؟ يستغفر، يتوب، يعمل عمل صالح، إن الحسنات يذهبن السيئات.

الاستغفار و الخوف من الله يبعد الإنسان عن التأديب:

فلو أب عالِم وله ابن يعلِّق عليه أمالاً كبيرة، ويحرص على تفوقه الدراسي حرصاً لا حدود له، هذا الابن دخل الامتحان ونال صفر بالرياضيات، فالأب امتلأ غيظاً من ابنه على إهماله فأراد أن يؤدِّبه تأديباً شديداً، نظر إلى ابنه الذي سيؤدِّبه على تقصيره رآه مُصْفَرّ اللون، لم يأكل الطعام، أصابه همٌ شديد، معه مبلغٌ بسيط جمعه في العيد، أراد أن يأخذ درساً خصوصياً في الرياضيات (من هذا المبلغ الذي معه). فلما رأى الأبُ ابنه على هذا الحال اهتم اهتماماً شديداً، تألم ألماً شديداً، خاف خوفاً شديداً، ولم يأكل، ولم ينام، وسينفق كل شيء ملكه على دروس خصوصية مثلاً، فهذا الموقف جعل الأب يؤخِّر تأديبه، لذلك:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

فلو كان هناك خطأ لا سمح الله ولا قدر، مع الغلط في ندم، مع الندم توجد توبة، يوجد استغفار، و يوجد رجاء من الله عزّ وجل، و تذلل، و بكاء، أيضاً أنت في بحبوحةٍ ثانية، بحبوحة الطاعة، وبحبوحة الاستغفار، وهذا المعنى الدقيق لقوله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2))

النفس الأمارة بالسوء هي نفس انقطعت عن الله:

فالنفس ؛ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، أما النفس الثالثة الأمارة بالسوء، أقول لكم مرة ثانية: إياكم، ثم إياكم، ثم إياكم أن تعتقدوا أن الله خلقها أمّارةً بالسوء، لو أن الله خلقها أمارةً بالسوء ما ذنبها ؟ ليس لها ذنب، وما حيلتها ؟

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

* * *

هذا المعنى الجبري مرفوض، هي النفس الأمارة بالسوء نفس عادية كأي نفس أخرى، هذه النفس (فلسفة الشر الآن) أودع الله فيها الشهوات، هذه الشهوات لا بدّ منها للجنة، لا يمكن أن ندخل الجنة بلا شهوات، الجنة تحتاج إلى عمل فإذا كنت لا تشتهي شيئاً ولا تحبُّ شيئاً، ولا تكره شيئاً فكيف السبيل إلى أن تعمل صالحاً ؟ هذه الطاولة لا تحب ولا تكره، ولا تجوع ولا تبرد، ولا تتعرّى، ولا تشتكي ولا تتألم (جمود) أما أنت تشتهي المرأة، ترى امرأةً في الطريق مُتَبَذِّلة تخشى الله عزّ وجل مع أن كل القوانين لا تمنعك أن تنظر إليها، تغضُّ بصرك عنها، يأتيك مالٌ فيه شبهة ترفضه، تنام بالليل يؤذِّن الفجر فتصلي، تعاون إخوانك المؤمنين، فالجنة تحتاج إلى عمل، فلذلك العمل هو أساس الجنة، فالنفس الأمارة بالسوء هي نفس أودع الله فيها الشهوات لكنها انقطعت عن الله عزّ وجل ولم تأخذ بمنهجه، ففي شهوة والشهوة عمياء.

الشر ينتج عن وجود الشهوة مع انعدام الرؤية:

أحضر حيواناً جائعاً جداً، ضع أمامه كيلو من اللحم، ماذا يفعل ؟ يأكله، تقول: حرام يأكله، ما هذا الحرام ؟ ما معنى الحرام ؟ جائع أمامه طعام يريد أن يأكل، فإذا الإنسان بمستوى البهيمة همه الوحيد إرواء شهواته ؛ حرام حلال، يجوز لا يجوز، مكروه، الهم الأول أن يقضي هذه الشهوة، أما المؤمن يوجد معه منهج مكتوب، يوجد معه نور بقلبه، يوجد معه خوف من الآخرة، فالنفس الأمارة بالسوء نفسٌ كأية نفس، أودع الله فيها الشهوات لكن لانقطاعها عن الله ولعدم صلتها به ولعدم استنارتها بنور الله تحرّكت حركةً عشوائية فكان عملها سيئاً، فالسوء ناتج عن وجود شهوة مع انعدام الرؤية، تماماً كالمحرك يقود المركبة، لابدّ من مقود، بلا مقود الحادث حتمي، ببساطةٍ بالغة، محرك يندفع بالسيّارة بسرعةٍ عالية والطريق متعرّج ولا يوجد مقود فالحادث حتمي، فكل إنسان أودع الله فيه الشهوات لم يعتمد منهج الله في حياته فلا بدّ من أن يأخذ المال الحرام، ولا بدّ من أن يعتدي على أعراض الناس، ولا بدّ من أن يأخذ ما ليس له، لا بدّ من أن يستعلي على خلق الله، فالنفس الأمّارة بالسوء هي كأية نفسٍ أخرى فيها كل الشهوات ولكنها انقطعت عن الله عزّ وجل، فكانت في عمى:

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40))

(سورة النور)

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46))

(سورة الحج)

طاعة الله ترفع ذكر الإنسان:

الله لم يخلُق نفساً أمارة بالسوء، خلق نفساً طاهرة ذات فطرةٍ عالية، إلا أنّ هذه النفس فيها شهوات، شيء طبيعي كل واحد منا يشتهي المال، يشتهي المرأة، يشتهي العلو في الأرض، لكن الله جعل هذه الشهوات قنوات نظيفة، المال اكسبه من طريقٍ مشروع، والمرأة اقترن بها بعقد زواج، وطاعتك لله عزّ وجل ترفع ذكرك عند الناس، فهذه الميول الأساسية في الإنسان تُروى عن طريق الطاعات، فتجمع بين إرواء هذه الميول وبين علوّك وبين راحتك النفسية.

مثلاً: لو الإنسان له علاقة مع المرأة غير مشروعة، يقول لك: أخاف، يخاف من الفضيحة، يخاف من مداهمة بيت فيه دعارة، يخاف هو دائماً خائف، أما إذا الإنسان تزوّج، يطلقون أبواق السيارات لتصمّ الآذان (نحن متزوجون) ولا يستحيون بهذا لأنه شيء مشروع، فلا توجد شهوة الله أودعها بالإنسان إلا ويوجد لها قناة نظيفة، لذلك النفس الأمارة بالسوء نفس فيها شهواتٌ كغيرها من النفوس، لكن انقطاعها عن الله عزّ وجل جعلها تتحرك بلا نور، وحركة بلا نور والطريق متعرج الحادث حتمي، وهذا كل ما في الأمر:

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40))

(سورة النور)

النفس الأمارة بالسوء هي نفس تحركت بلا نور:

قال النبي:

((الصلاة نور))

(أخرجه مسلم عن أبي مالك الأشعري)

الاتصال بالله يعطيك رؤية صحيحة، لذلك العقل وحده لا يكفي وأكبر دليل العالَم الغربي، فالعقل محكّم في كل شيء، عقلهم أودى بهم إلى الشقاء، شقاء كبير، فهناك أحد رؤساء الدول العظمى، يقول: أربع أخطار تتهدد أمريكا، لعلك تظنُّها الصين، أو أوروبا المتحدة، أو اليابان، لا، تفكك الأسرة، وشيوع الجريمة، والمخدرات، والإيدز، هذه هي الأخطار، لأنهم خرجوا عن منهج الله، تفلّتوا من دون قيد، إذاً النفس الأمارة بالسوء نفس عادية إلا أن هذه النفس تحرّكت بلا نور، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

دعوة الله إلى الحياة الحقيقية، وتوجد آية ثانية:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(50))

(سورة القصص)

هذه هي النفس الأمارة بالسوء، نفسٌ اتبعت هواها من غير هدىً من الله (حركة عشوائية).

محاسبة النفس وظيفة النفس اللوامة:

هذه النفس اللوّامة نفسٌ كثيرةُ الحساب لذاتها، شديدة التضييق على ذاتها، تحاسب نفسها على الخطرات، والحركات والسكنات حتى على الابتسامة، حتى على الإعطاء، لعلّ هذا الإعطاء غير مناسب، لعل هذه الوساطة غير صحيحة، لعلّ هذا الدخل غير مشروع، لعلّ هذه الحفلة لا تُرضي الله، لعلّ هذا الزواج لا يرضي الله، دائماً في حساب، هذا إذا كان صحّ التعبير: الهموم المقدّسة، المؤمن بهذا المستوى يحمل هموماً مقدسة، هموم علاقته بالله، أما هموم الخلق من نوع آخر، هموم الرزق، هموم الكَسب، هموم حل المشاكل، إلا أن المؤمن يحمل أكبر همٍ يُشَرّفُهُ وهو همُّ العلاقة بالله.

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1))

يوم القيامة هذا أخطر يوم بحياة الإنسان، يوم الحساب، يوم الدينونة، يوم تسوية الحسابات، يوم خافضةٌ رافعة.

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

مقاييس الدنيا و الآخرة:

الدنيا قِوامُها المال، وقِوامها القوة، وقِوامها الذكاء، وطلاقة اللسان، والوسامة، هذه مقاييس الدنيا، إلا أن الله جلّ جلاله عنده مقاييس أخرى، المقياس الذي يُعتمد يوم القيامة طاعتك لله، المقياس الذي يُعتمد عند الله يوم القيامة إحسانك للخلق، فإذا شخص معه ثروة طائلة بعملة مزيّفة، أو عملة ألغيت، ما قيمتها؟ أو انتقل من بلد إلى بلد، معه عملة البلد الأول، وهذه العملة غير رائجة هناك ولا يوجد صرّافين، معك مئة مليون وتتمنى أن تأكل شطيرة، لا تستطيع لأن العملة غير مقبولة هنا، فإذا الإنسان مكتسباته في الدنيا ؛ المال والصحة، والجاه، وجاءه ملك الموت، والموت قريب يا أخوان، بعد انتهائنا من صلاة الجمعة اليوم جاء أخ كريم قال لي: يوجد رجل بالقاعة توفي أثناء الصلاة، وطبعاً وفاة جيدة

جداً في مسجد ويوم الجمعة وفي أثناء الصلاة، لكن الموت قريب جداً، هو لم يخرج من بيته حتى يموت، هو مات في القاعة، توفي، فالموت قريب وليس له سبب.

يوم القيامة يوم تسوية الحسابات:

أحياناً إنسان يعاني مرضاً ثلاثين سنة ولا يموت، أحياناً يموت خطفاً، فما دام هذا الموت يأتي فجأةً، وهذا مغادرة بلا عودة فلا أعقل ممن يستعد له، فيوم القيامة يوم الدينونة، يوم تسوية الحسابات، أنا لا أعتقد إنساناً يعصي الله (وكلامي دقيق وخطير) أنا لا أصدِّق إنساناً يعصي الله أو يأخذ ما ليس له وهو مؤمن أنّ هناك يوم قيامة سيُحَاسب به عن كل شيء، ألا تقرأ قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

مثقال ذرة، فإذا أنت كنت تتوضأ فوجدت نملة على المغسلة وانتظرت حتى صعدت ولم تغرقها بالماء، هذا عمل صالح، هذا عمل مُسَجّل لك، فما فوقه.

((دخلت امرأة النار في هرةٍ ربطتها لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض))

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)

قالت له: قصيرة، قال لها:

((يا عائشة لقد قلت كلمة لو مُزجت بمياه البحر لأفسدته.))

نسيان أمر الله سبب هوان المسلمين:

سهرات إلى الساعة الواحدة كلّها غيبة ونميمة، ومعاصي، ومشاهدة أفلام ساقطة، وانحراف، وأكل مال بالحرام، وثمانية آلاف قضية في قصر العدل، أين المسلمون اليوم ؟ أين هم من أحكام دينهم ؟ لذلك (دققوا في هذه الكلمة) هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، ألف كأْف، لا نقيم لهم يوم القيامة وزناً.

((يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللّهِ: أَمِنْ قِلّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ: أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، قَالَ: قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ: حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

(من مسند أحمد:عن ثوبان بن مولى)

فيا أيها الإخوة الكرام: يوم القيامة إذا ما أدخلناه في حساباتنا اليومية والساعية، بكل حركة، بكل سكنة، بكل صفقة، فهل أنت شاطر بذلك ؟! لا لست شاطراً، سوف تدفع الثمن مضاعفاً في الدنيا قبل الآخرة،

إذا كان بائعاً باع شيئاً مغشوشاً وأخذ فيه سعراً عالياً يظن نفسه أنه شاطر، يظن نفسه أنه تاجر ماهر، لا، التجارة أساسها الصدق، فإذا كان أخ كبير وعنده خمسة إخوة وتوفي الأب، استطاع الكبير أن يأخذ كل شيء، يعد نفسه أنه قوي، لا ليس قوياً سوف تغدو ضعيفاً يوم القيامة، وسيدنا علي يقول: **" الغنى والفقر بعد العرض على الله "** الغنى لا قيمة له.

ضعف الإنسان:

أنا جالس مع طبيب قلب من يومين أو ثلاثة، سألته: هذا الشريان الأبهر الذي شاغل الدنيا والذي يعد أكبر مشكلة يعاني منها الإنسان بالعصر الحديث، تضيُّق هذا الشريان، والقسطرة خمسة وثلاثين ألفاً، بعد ذلك زرع شريان، بعد ذلك بالون، بعد ذلك راصور، هذا الشريان كم قطره ؟ قال لي: ميليمتر واحد. أي أن كل آمالك، وكل قوتك، وكل عظمتك إن صح التعبير على ميليمتر فراغ، إذا صغر تعاني ما تعاني، إذا هذا الميليمتر يضيق إلى نصف ميليمتر، تعاني أشياء كثيرة لا تحتمل، فكل شيء تملكه على بقاء هذا الشريان مفتوحاً ميليمتر، هذه هي كل القصة، وكل شيء تملكه على بقاء الدم سائلاً فإذا صار لزجاً انتهت الحياة.

ما هي الجلطة ؟ خثرة دم بمكان في الدماغ، وكل حركتك ونشاطك على بقاء الدم في الدماغ سيّال، إذا تجمد في الدماغ، بمكان شلل، بمكان عمى، بمكان فقد ذاكرة، وكل حركتك ونشاطك على نمو الخلايا نمو منضبط، فإذا لم يعد النمو منضبطاً انتهت الحياة، وكل مكتسباتك على عمل الكليتين إذا توقفتا انتهت الحياة، شيء مخيف كلية لو توقفت أصبحت الحياة جحيماً لا يطاق، أين ؟ تحتاج لزرع كلية، الإنسان يبحث. أين ؟ يقول لك: لكي نؤمِّن كلية تقوم مكان الكلية الطبيعية.

ما هو الإنسان ؟ الإنسان ضعيف جداً إذا قال: أنا. فإنه يكون أحمقاً، من أنت ؟ أنت على ميليمتر لمعة شريان وعلى سيولة الدم، وعلى نمو خلايا منضبط، كل شيء تملكه، لو تجمد هذا الدم فإنّ النعوة تُعَلّق، كان شخصاً أصبح خبراً على الجدران، لو ضاق هذا الشريان قليلاً وانسد تعلق النعوة، لو هذه الخلايا نمّت نمواً عشوائياً تعلق النعوة، فكلنا نودع بعضنا.

مغادرة الدنيا تباعاً ليتعظ بعضنا ببعض:

في اليوم توجد ستين أو سبعين حالة موت في الشام، توجد حوالي أربعين نعوة، وتوجد ستين حالة وفاة، و قد شاءت حكمة الله أن نغادر الدنيا تباعاً ليتعظ بعضنا ببعض، أما أخطر شيء بحياتنا هو يوم القيامة فإنك تُحَاسَب عنه حِسَاباً عسيراً، القرآن ستمئة صفحة، نقرأ ونسمع تفسير آية في ساعة، يقول

لك: ما شاء الله ما هذا الدرس ؟ نحفظه، نسمعه على شريط، نقرأ تفسيره. فهذا أعرابي قال للنبي عليه الصلاة والسلام: عظني ولا تُطِل، فقرأ له آية واحدة، فقال له: كفيت، قرأ عليه هذه الآية:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

فقال له: كُفيت، فقال:

((فقُهَ الرجل))

فهل يا ترى تكفينا آية واحدة فقط ؟.

(إنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (1))

(سورة النساء)

الله معك دائماً ألا تستحي منه ؟

((قل آمنت بالله ثم استقم))

(مسند أحمد عن سفيان الثقفي)

قال: أريد أخف من ذلك، قال: إذاً فاستعد للبلاء.

أخطر قضية قضية يوم القيامة:

يوم القيامة موضوع خطير جداً، فالامتحان في الجامعة أخطر شيء، من الممكن أن ترتدي ثياباً أنيقة وتذهب إلى الجامعة، تريد أن تزهو فترتدي ثوباً أبيضاً، أنا طالب طب، تضعه هكذا، تمشي هكذا، يمكن أن تجد ندوة فيها طاولات، وفيها زميلات، لكن أهم شيء الآن في الجامعة هو الامتحان، إذا لم تنجح (التجارة أهم شيء فيها الربح) وهذه الحياة أخطر شيء ينتظرنا جميعاً هذا اليوم، يوم الدينونة، يوم الحساب، يوم السؤال لماذا فعلت ؟

قال لي أحدهم: انصحني ؟ فهو يعمل في عمل رسمي لكن معه قوة كبيرة، أي ممكن إذا شخص أسعاره غير صحيحة يضعه في السجن، فيكتب ضبط فوراً، قال لي: انصحني، فقلت له: افعل ما تشاء، فنظر إلي مستغرباً !!، فقلت له: افعل ما تشاء ولكنك إذا كنت بطلاً هيئ لله جواباً عن كل ضبط، الله سيحاسبك، كلّهم عباده، والله هو الذي سيُحَاسب.

فهذه قضية القيامة، أنا والله أيها الإخوة أشعر وأنا متألم أن هناك مسلمين كثيرين جداً من خلال حركاتهم بالحياة وكأن هذا اليوم ليس داخلاً في حساباتهم إطلاقاً، الذي يأكل مال أخيه غصباً هل هذا مسلم ؟! يخاف الله عزّ وجل ؟! المسلم يخاف من الله على كلمة، على نظرة، على شيء. سيدنا رسول الله انقطع الوحي أسبوعين فقال:

((يا عائشة (غريب) لعلها تمرةٌ وجدتها على السرير فأكلتها، لعلها من تمر الصدقة))

تمرة واحدة، فهذا الذي لا يحلل ولا يحرم، لا تدقق، هؤلاء المسلمون هذا حالهم الآن، يوجد تقصير، توجد تجاوزات.

لَا أُقْسِمُ: آية لها عدة تفاسير:

1 - أن الله إذا لم يقسم فبالنسبة إليه فإذا أقسم فبالنسبة إلينا:

إذاً:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1))

ولكن هذه الأقسام فالله عزّ وجل يُقسم بهذا اليوم، بعضهم قال: **" لا أقسم أي أقسم "**. ويوجد توجيه لطيف: أن الله إذا لم يقسم فبالنسبة إليه فإذا أقسم فبالنسبة إلينا، إذا قال:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1))

(سورة الشمس)

أقسم، لكن الشمس بالنسبة إلينا شيء عظيم جداً، وإذا لم يقسم فبالنسبة إليه. هذا معنى.

2 - لا أقسم أي أقسم:

ويوجد تفسير آخر: لا، يعني أقسم.

3 - وضوح الشيء لا يحتاج إلى قسم:

ويوجد تفسير ثالث: أي هذا الشيء لشدة وضوحه لا يحتاج إلى قسم، الشمس ساطعة في رابعة النهار، هل تقول لمن يراها معك: والله هذه شمسٌ ساطعة ؟ كلام ليس له معنى لأنه يراها معك ساطعة فالقسم ليس له معنى، لذلك:

(لَا أُقْسِمُ)

يعني أُقسم:

(لَا أُقْسِمُ)

قسم الله بأن يبعث عباده ليحاسبهم:

هذا الأمر لشدة وضوحه لا يحتاج إلى قسم، والله عزّ وجل أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، أين جواب القسم ؟ والله. هل أكمل ؟ سكت لأن القسم ليس له معنى من دون جواب، والله لأفعلنّ كذا وكذا هذا جواب القسم، والله لا أفعل كذا **(جواب القسم)**.

جواب القسم قدّره علماء التفسير: يقسم الله عزّ وجل بيوم القيامة وبالنفس اللوامة على أن يبعث عباده يوم القيامة ليحاسبهم، أي:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

أن الحياة هكذا تمشي ؛ غني وفقير، صحيح ومريض، قوي وضعيف، مستغِل ومستَغَل، تنتهي الحياة هكذا ؟ مرة سمعت مثلاً أعجبني من رجل يعمل في الدعوة، طبعاً نحن لا نتعامل معه لكن الفكرة لطيفة: أنه أناس في مسرحية، مثِل الفصل الأول لكن توجد مشكلة في المسرحية، وأُرخي الستار، لا أحد يقوم، يقول لك: إنها لم تنته بعد لنرى ماذا حلّ بالذي قتل ؟ فممكن أن تنتهي الحياة هكذا: دول كبرى تسحق الدول الصغرى، تعيش على أنقاض الشعوب، غنى فاحش وفقر مدقع، وتنتهي الحياة هكذا ؟ الذي معه سلاح أقوى هو المنتصِر دائماً وإرادته نافذة ؟ ولن يُحَاسَب ؟ هذا يتناقض مع وجود الله.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

ذكاء الإنسان و قوته لن ينجياه من يوم القيامة:

والآن في الدنيا يقول لك: إعصار كلّف ثلاثين ملياراً، إعصار ثاني، إعصار ثالث، إعصار رابع، الله كبير، هؤلاء الذين يتحكّمون بالشعوب ويبنون مجد شعبهم على أنقاض كلّ الشعوب سيُحَاسبون حساباً عسيراً، ذكاء الإنسان لا يُنجيه يوم القيامة، ذكاؤه وقوته وفلسفته وكلامه الباطل.

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65))

(سورة يس)

أحياناً يفتعلوا مشكلات في العالَم فيذهب ضحيتها مليون قتيل من أجل رواج الصناعة فقط، لترويج صناعتهم ورفع مستوى دخل شعبهم، دول كُبرى تضحي بملايين القتلى والجرحى، هؤلاء لن يُحاسبوا؟ معنى هذا لا يوجد إله.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

كل إنسان مسؤول عن نفسه يوم القيامة:

إياك أن تظن أنك تفلح إذا أخذت ما ليس لك، لأنه يوجد حساب دقيق، يوجد دفع ثمن باهظ، هذا معنى يوم القيامة يوم الدينونة، زوج يظلم زوجته يقول لك: هذه مقطوعة، يسحقها سحقاً، يستخدمها ولن يُحَاسب ؟ شريك يأكل مال شريكه ولن يُحَاسب ؟ ورثة شخص قوي يأخذ كل المال له ولن يُحَاسب ؟ عالِم يصنع أسلحة كيماوية لتدمير الإنسان ولن يُحَاسب ؟ قوة غاشمة تأخذ ثروات أمم أخرى ولن تُحَاسب ؟ هذا مستحيل، هذا يوم القيامة يوم الدينونة ترى الأم ابنها في الآخرة، تقع عين الأم على ابنها فتقول له: يا بني جعلت لك صدري سقاءً وحجري وطاءً وبطني وعاءً فهل من حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم ؟ تعطيني من عندك حسنة ؟ يقول ابنها: ليتني أستطيع ذلك يا أمّاه إنني أشكو مما أنتِ منه تشكين.

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101))

(سورة المؤمنون)

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: آية " 94 ")

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة الحاقة)

تجاوز الإنسان لحدوده عند جهله بعظمة الله:

خطأ طبيب يؤدِّي إلى وفاة إنسان ولن يُحَاسب ؟!

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92))

(سورة الحجر)

محامي يوهم الموكِّل أن الدعوى رابحة ويبتز ماله ثماني سنوات ولن يُحَاسب هذا ؟ فهناك أخطاء كثيرة جداً، فكلما جهل الإنسان عظمة الله عزّ وجل تجاوز حدوده، وكلما عرف عظمة الله عزّ وجل وقف عند حدّه ولم يتعدَ طورَه، فيوم القيامة يومٌ عظيم، قال:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (28))

(سورة الإنسان)

علم الله و محاسبته للإنسان سبب استقامته:

مرّة سألوا طالباً نال الدرجة الأولى في الامتحان: بما نلت هذه الدرجة ؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مُخَيّلتي إطلاقاً، وأنا أقول لكم: لا ينجو الإنسان من حساب هذا اليوم العسير إلا إذا كان هذا اليوم ماثلاً أمامك طوال الحياة، قبل أن تقول له: سعرها كذا، ليس سعراً فاحشاً، قبل أن تبيعه بضاعة فاسدة، قبل أن تخفي عنه العيب، قبل أن تغش البضاعة، قبل أن تضع لإنسان فخاً، ألا ترى أن الله سيُحَاسبك حساباً شديداً ؟

إذاً أيُّها الإخوة: أركان الإيمان خمساً، أكثر ركنين جاءا معاً في القرآن الكريم: الإيمان بالله واليوم الآخر لأنك لن تستقم إلا إذا آمنت أن الله يعلم وسيُحَاسبك، الله موجود ويعلم وسيُحاسب، لا بدّ أن تستقيم. بل تستقيم مع إنسان إذا كان يعلم وسيُحَاسبك، ولن تخطئ معه أبداً:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3))

(سورة القيامة)

أي ألن نعيد خلْقه مرّةً ثانية ؟

بعث الإنسان ثانية يوم القيامة للحساب:

(بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4))

الباهم له شكل، خطوط وجُزر ونتوءات وفروع وشعب، ممكن نستنبط من الباهم شكل الباهم مئة نقطة، فلا يوجد إنسان يشبه باهمه باهم إنسان آخر، صوروا الباهم وكبّروه بحجم متر مربع وعرضوا عليه مليون صورة فما اتفقت صورة مع الباهم، لذلك باهمك هويتك، وإذا وجدنا سبعة نقاط مشتركة بين إبهامين يكونان لشخص واحد، سبعة لا يوجد اشتراك بينهما، حتى بعض المجرمين في أمريكا أحضروا لحماً من أعضائهم الأخرى ووضعوه فوق الباهم وخيّطوه لكي يخفوا معالم جرائمهم، بعد أربعة أشهر ظهرت الخطوط على اللحم الجديد، فهذه الخطوط الدقيقة ؛ جُزر، نتوءات، فروع، شُعَب، هذه سوف تعود يوم القيامة، تسوى مرّة ثانية.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4))

صفات الإنسان مشابهة لصفات الإله لكرامته على الله:

ومادام الموضوع بُحِث، خطوط الباهم هوية، وقُزحية العين هوية، ليس في الأرض كلِّها إنسان له قزحية عين تشبه قزحية عينك إطلاقاً، ورائحة الجلد هوية، ونبرة الصوت هوية، وبلازما الدم هوية،

والزمرة النسيجية هوية، أنت فرد لكرامتك عند الله عزّ وجل جعل لك صفات مُشابهة لصفات الإله عزّ وجل، الله فرد وجعلك فرداً، فشكل وجهك تتميّز به، رائحة الجلد تتميز بها، قُزحية العين تتميز بها، نبرة الصوت تتميز بها، شكل الإبهام تتميز به، بلازما الدم، الزمرة النسيجية:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4))

(سورة القيامة)

هذه الخطوط الدقيقة جداً التي لا تُرى بالعين المجرّدة إلا بالمكبر، وعبارة عن دوائر ومنحنيات وجزر وتفريعات، هذه سوف تعود ملامحها يوم القيامة كما كانت في الدنيا.

أعقل إنسان من يطبق منهج الله و يرجو رحمته:

طبعاً من باب أولى إذاً أن يعود الإنسان كلّه إلى ما كان عليه ليُحاسب، وتعرض عليه أعماله كلّها على شريط:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14))

(سورة الإسراء)

أعقل إنسان، أذكى إنسان، هو الذي يطبّق منهج الله ويرجو رحمته ويخشى عذابه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القيامة 075 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 5-13 تكذيب الإنسان بيوم القيامة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-03-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة القيامة، ومع الآية الخامسة وهي قوله تعالى:

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

(سورة القيامة)

ثناء الله على النفس اللوامة:

النفس اللوّامة نفسٌ تلوم ذاتها على كل خطأٍ وانحراف، وقد أقسم الله بها وأثنى عليها، والله عزّ وجل يُذكِّرُنا بيوم القيامة.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4))

(سورة القيامة)

هذه الآيات شُرِحَت في الدرس الماضي.

أنواع التكذيب:

1 - تكذيب عملي:

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

معنى يفجر أي يكذِّب، يكذب ما أمامه من يوم القيامة، هذا اليوم يكذب به تكذيباً قولياً أو تكذيباً عملياً، فالذي يتحرّك حركةً لا تنبئُ أنه يحسب حساباً لهذا اليوم فهو مكذبٌ بيوم القيامة تكذيباً عملياً.

2 - تكذيب قولي:

و الذي ينكر هذا اليوم هذا مكذب تكذيباً قولياً.

الاستخفاف بالدين يؤدي إلى الكفر:

كما تعلمون هناك كفرٌ اعتقادي ولو بقي الإنسان ساكتاً، وهناك كفرٌ قولي، وهناك كفرٌ عملي، فقد يكفر وهو ساكت، وقد يكفر وهو يقول، وقد يكفر وهو يتحرّك، وهذا الذي قال: لو أن محمداً صادقٌ فيما يقول لكنا شراً من الحُمُر، كان محسوباً من أصحاب رسول الله ثمّ ظهر أنه منافق، وقد قال الله في حَقِّه:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

(سورة التوبة: آية " 74 ")

فقد يكفر الإنسان إذا اعتقد اعتقاداً يخالف كلام الله أو سنّة رسول الله الصحيحة، وقد يكفر إذا تكلّم بكلمةٍ ردّ بها حُكْماً شرعياً ثابتاً أصلاً، أو ردّ آيةً أو حديثاً، أو أنكر فرضاً أو واجباً أو حقيقةً جاءت في القرآن الكريم، وقد يكفر إذا فعل شيئاً يعبّر عن استخفافه بهذا الدين، فلو ألقى المصحف على الأرض ليهينه فقد كفر.

إنكار الإنسان ليوم القيامة:

يا أيها الإخوة الكرام: هذا الإنسان يُنْكِرُ ما أمامه من يومٍ تشيب من هوله الولدان، ينكر ما أمامه من يومٍ:

(يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

ينكر ما أمامه من يومٍ ثقيل، حسابٌ دقيق.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

هذا سمّاه الله القارعة، وسماه الحاقّة، وسماه الطّامة، وسمّاه يوم القيامة، ويوم الجزاء، كلّها أسماءٌ بمسمًّىً واحد يوم تسوّى فيه الحسابات، يوم يحاسب الإنسان عن كل شيءٍ فعله صغيراً كان أم كبيراً.

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

تكذيب الإنسان بيوم القيامة:

أي ليُكَذِّب هذا اليوم، أو ليكذب بهذا اليوم الذي فيه تسوّى الحسابات، والدليل أن يفجر بمعنى يكذِّب:

(يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6))

(سورة القيامة)

سؤال استخفاف، سؤال استهزاء، متى ؟

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6))

لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ: آية لها عدة معانٍ:

1 - يفجر بمعنى يكذب:

هذا هو المعنى الأول، يفجر بمعنى يكذِّب، والدليل يستخف بهذا اليوم الذي وعد الله به عباده ليجزي فيه كلّ نفسٍ بما تسعى.

2 - يعجل بالمعصية و يسوف التوبة:

المعنى الثاني: هذا الذي يُعَجِّل بالمعصية ويسوف التوبة، أي يفعل معصيةً أمامه، ينوي أن يقترف معصيةً، يتحرّك ليقترف معصيةً في المستقبل، إذاً يفجر في وقتٍ أمامه، طبعاً أمام ظرف مكان ولكنها في هذه الآية جاءت ظرف زمان، ما أمامه من زمن.

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

أي ليقترف المعاصي والآثام في مستقبله القريب وكأنّه لا حساب ولا عذاب، فالذي يُعَجِّل المعصية ويسوف التوبة هذا ينطبق عليه قوله تعالى:

(لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

أو الذي يقول: سوف أتوب ولا يتوب، يفجر أمامه، أو الذي يقول: سأتوب ويكذب، لا ينوي أن يتوب، يفجر أمامه، والذي يقول: سوف أتوب ويأتيه الموت على شر حال، هذا يفجر أمامه، فإما التكذيب القولي أو العملي، والدليل:

(يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6))

وإما تعجيل المَعْصية وتأخير الطاعة، تعجيل الانحراف وتأخير التوبة، أو يفجر أمامه هذا الأمل الذي يَخْدَعُ الناس.

الأمل يخدع الناس:

كل شخص يوجد بذهنه آمال إلى ثلاثين سنة قادمة وقد لا يعلم أن الموت سيفاجئه بعد حين، ما من إنسان وافته المَنِيَّة إلا وفوجئ بها وهو يعتقد أنَّه سيعيش سنواتٍ وسنوات، فقال بعض العلماء: يفجر أمامه أي يلهيه الأمل، والأمل خطير جداً، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أكثروا ذكر هادم اللّذات))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

مفرق الأحباب مشتت الجماعات.

((عش ما شئت فإنّك مَيّت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به))

(رواه الطبراني عن سهل بن سعد)

شيءٌ آخر هذا الذي يقول: سأعيش، وسأفعل، وسأبني، وسأسافر، وسأنغمس في الملذات، ولا يذكر الموت إطلاقاً هذا مما تنطبق عليه هذه الآية:

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

يعزم على المعصية لأمدٍ طويل، فهل من الممكن لإنسان في السبعين مثلاً يحاول إنشاء ملهى ؟!! مُتَأَمِّل أن يعيش ثلاثين عاماً قادمة، ويقطف ثمار هذا الملهى الذي لا يُرضي الله عزّ وجل، هناك أشخاص هكذا، في نهاية المطاف يؤسسون بيوتاً تُرتكب فيها المعاصي.

3 ـ الميل عن الحق إلى الباطل:

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6))

أيها الإخوة: أصل الفجور الميل عن الحق إلى الباطل.

(يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6))

سؤال استهزاء، سؤال سخرية.

جمود بصر الناس من شدة صعقهم بيوم القيامة:

قال:

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7))

(سورة القيامة)

الإنسان أحياناً يَشْخَصُ بصره إذا رأى شيئاً مخيفاً يشخص بصره أي أن حدقة العين تجمد في مكانها، هذا معنى شخص، جمد بصره خوفاً وفزعاً قال:

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7))

فهناك من ينظر، وهناك من يستشْرِف (نظر مع التمطّي)، وهناك من يستشف (نظر مع التفحص باليدين)، وهناك من يرنو (ينظر مسروراً)، وهناك من يُحَدِّج (ينظر مع المَحَبّة)، وفي الحديث:

((حَدِّث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم))

(حديث ذو إسناد حسن عن الحسن البصري)

وهناك من يلمح (ينظر ثم يُعرض)، وهناك شيء يلوح (يظهر ويختفي)، وهناك من ينظر شذراً مع الاحتقار، وهناك أفعالٌ كثيرة للنظر أحدها شخصٌ، قال تعالى:

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الأنبياء: آية " 97 ")

من شدة الخوف، من شدة الدهشة، من شدة الصَعْق يجمد بصره.

الشمس و القمر من آيات الله الدالة على عظمته:

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8))

القمر أيها الإخوة من آيات الله الدّالة على عظمته، وربنا عزّ وجل جعل القمر والشمس آيتين من آيات الله عزّ وجل.

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت: آية " 37 ")

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)

(سورة الروم: آية 21 ")

هذه الآيات إن لم نُفَكِّر فيها فقد عَطّلناها، ربنا عزّ وجل يقول:

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32))

(سورة المدثر)

أي أنه يُقْسِمُ بالقمر.

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8))

القمر آية من آيات الله الدالة على عظمته.

دوران القمر حول نفسه و حول الأرض:

أيها الإخوة: قال بعض العلماء: القمر يدور حول الأرض دورة وحول نفسه دورة، تطابق الدورتان (الدورة حول نفسه والدورة حول الأرض) يجعل أحد وجوهه نحو الأرض دائماً، يدور دورة حول نفسه ودورة حول الأرض، من تطابق الدورتين يبقى وجه الأرض نحونا ثابتاً، هذه الحقيقة الأولى.
شيء ثانٍ: القمر لو أنّه سار مع الأرض تماماً لكان بدراً دائماً، و لالتغت وظيفته كتقويم جعله الله في السماء.

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

(سورة الإسراء: آية " 12 ")

قال: القمر يتأخّر تسعةً وأربعين دقيقةً كل يوم، لولا هذا التأخُّر لبدا القمر بدراً طوال الحياة، تسعة وأربعين دقيقة يتأخر كل يوم عن اليوم السابق، من هنا يكون هلالاً ثم رُبعاً ثم بدراً ثم عرجوناً، تبدُّل القمر من هلال إلى رُبع إلى بدر إلى عرجون بسبب التأخر تسعة وأربعين دقيقة كل يوم.

استخدام القمر كمنارة و تقويم للإنسان:

أيها الإخوة: كتلة القمر تساوي جزءاً من ثمانين جزءاً من كتلة الأرض، أي أن كتلة القمر تساوي 80/1 من كتلة الأرض، بينما جاذبية القمر تساوي سُدس جاذبية الأرض، فالذي وزنه على الأرض ستين كيلو وزنه في القمر عشرة كيلو، هناك أقمار تدور حول نفسها في بضع سنوات، تبتعد كثيراً وتقترب كثيراً، لكن القمر الذي أكرمنا الله به قمر يدور قريباً من الأرض بحيث يغدو منارةً ويغدو تقويماً لنا.

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

علماء الفلك يقولون: هذا القمر بُعْدُهُ عن الأرض بحسابٍ دقيقٍ، قال تعالى:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5))

(سورة الرحمن)

ظاهرة المد و الجزر:

لو أن هذا القمر ابتعد كثيراً عن الأرض ماذا يحصل ؟ تنعدم ظاهرة في الأرض خطيرة جداً اسمها المد والجزر، فالبحر قد يرتفع عشرين متراً في بعض الخُلْجان والموانئ وينخفض عشرين متراً بفعل جاذبية القمر للماء، لو أن القمر ابتعد كثيراً عن الأرض ما الذي يحصل ؟ يلغى المد والجزر، والمد

والجزر له وظيفة كبيرة في حياة البشر، وهناك أخطر من ذلك، لو أن القمر ابتعد عن الأرض لدارت الأرض حول نفسها في أربع ساعات، لصار النهار ساعتين والليل ساعتين، لذلك قال الله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

أما لو اقترب جذبته الأرض وارتطم بها.

استخدام القمر كمرآة يعكس ضوء الشمس:

شيءٌ آخر يتحدَّث به العلماء عن القمر هو أن تربة القمر عاكسة كالبلور تماماً، الله عزّ وجل جعله مرآة في السماء يعكس ضوء الشمس، والعلماء قالوا: إن ضوء القمر يساوي واحد على ثمانية عشر جزءاً من أشعة الشمس، في أحد الليالي المُقْمِرة ترى الأشياء بإضاءة تساوي واحد على ثمانية عشر جزءاً من أشعة الشمس، وفضلاً عن ذلك هو تقويم جعله الله في السماء، فقبل أن نخترع الساعات والتقاويم، كل البشر يعرفون واحد بالشهر، اثنين بالشهر، وإلى الآن هناك أشخاص بالريف يحسبون أمورهم على القمر.

أيها الإخوة: القمر آية من آيات الله، بعده عنا ثلاثمائة وستين ألف كيلو متر، يقطعها الضوء في ثانيةٍ واحدة، المسافة الضوئية بين الضوء والقمر ثانية ضوئية واحدة، ذهبت مركبة إلى هناك اسمها (أبولو) هذه كلّفت أربعة وعشرين ألف مليون دولار، هذه أول مركبة وطأت بها قدم إنسان على أرض القمر بتأمين جو الأرض في القمر، القمر لا يوجد فيه هواء، القمر فيه الجاذبية أقل، وهناك موضوع دقيق جداً لا يمكن أن يُلقى في هذا الدرس.

الكسوف و الخسوف:

على كلٍ:

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8))

خسف القمر، الخَسْف إذا ذهب كله فهو خسوف، أما إذا ذهب بعضه فهو كسوف، يوجد عندنا كسوف وعندنا خسوف، الخسوف والكسوف، إذا غاب شكل القمر كلياً فهو الخسوف، أما إذا غاب جزئياً فهو الكسوف، وقد يظهر الكسوف من حين إلى آخر، قد تأتي الأرض بين الشمس والقمر فيكون الكسوف، أما الخسوف حينما يغيب القمر كلِياً أو حينما تغيب الشمس كلياً يكون الخسوف.

انطفاء ضوء الشمس و القمر يوم القيامة:

أيها الإخوة:

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9))

(سورة القيامة)

العلماء قالوا:

(وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9))

في ذهاب ضوء الشمس والقمر أي كلا الشمس والقمر يذهب ضوءهما.

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9))

لبعض العلماء تعليقاتٌ لطيفة حول هذه الآية، جُمِعَ بينهما أي قُرِنَ بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين، مكورين، مظلمين، مُقَرَّنَين كأنهما ثوران عقيران يوم القيامة، أي ينطفئ ضوء القمر، وتنطفئ أشعة الشمس.

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1))

(سورة التكوير)

أي أن هذا النظام إلى حين.

نظام الآخرة:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38))

(سورة يس)

القمر يذهب نوره والشمس تُكَوَّر وينتهي هذا النظام ليدخل البشر في نظامٍ آخر نظام الآخرة، يُجْمَعُ بين الشمس والقمر فلا يكون تعاقب ليلٍ ولا نهار، إذاً يلغى الضوء وتلغى الأشعة، ويلغى تعاقب الليل والنهار، لأن النهار والليل من حركة الأرض حول الشمس، ومن نور الشمس الساطع فلو أطفأت الشمس وخسف القمر أُلغي الليل والنهار، في هذا اليوم العصيب في هذه الساعة الحرجة في هذا اليوم العسير كما قال الله عزّ وجل:

(يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10))

(سورة القيامة)

استحياء الإنسان من ربه يوم القيامة:

هذا هو الطريق المسدود، نحن في بحبوحة، نحن أحياء، إذاً في بحبوحة يمكن أن نتوب، يمكن أن نستغفر، يمكن أن نُصلح من أعمالنا، يمكن أن نطلب العلم، أما:

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10))

(سورة القيامة)

أَيْنَ الْمَفَرُّ: آية لها عدة معان:

1 - أين المفر من الله استحياء:

أين المهرب ؟ قال بعض العلماء: أين المفر من الله استحياءً ؟ فلو أن أباً له ابن أنت ضربت هذا الابن وابتززت ماله وأوجعته وجرحته، ثمّ ساقتك الأقدار مثلاً إلى موظفٍ كبير لك عنده حاجةٌ خطيرة فإذا هو والد هذا الطفل الذي آذيته، حينما تعلم أن هذا الإنسان والد الذي آذيته تَذوبُ خجلاً منه، فهذا الذي يأتي إلى الدنيا ويأكل مال هذا ويسفك دم هذا ويشتم هذا ويبتزُّ مال هذا ثم يأتي ربَّه يوم القيامة ليرى أنه ربُّ الجميع، وأنه أرحم الراحمين وقد أساء لعباده ما موقفه ؟ قال:

(يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10))

استحياءً من الله عزّ وجل:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر عليّ مما ألقى، وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

(حديث صحيح الإسناد عن جابر بن عبد الله)

2 - أين المفر من جهنم حذراً منها:

وأين المفر بمعنى آخر، أين المفر من جهنّم حذراً منها، فأحياناً الإنسان يمشي في طريق يؤدي به إلى الهاوية، أعماله في الدنيا ساقته إلى حتفه وإلى مصيره المشؤوم، لذلك:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185))

(سورة آل عمران)

هذا كلام رَبِّ العالمين، هذا كلام الذي لا ينطق عن الهوى.

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

هذا وصف النبي ليوم القيامة وصفٌ قطعي الثبوت والدلالة لأن النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى.

3 ـ سؤال المؤمن و الكافر عن المفر يوم القيامة:

والمعنى الثالث: يقول المؤمن والكافر من شدّة الهول يوم القيامة: أين المفر ؟ فالمؤمن يتمنّى لو عمل أعمالاً صالحةً أكثر، الكافر في هلاك، المؤمن ينجو ولكن ما من أحدٍ إلا ويندم يوم القيامة، حتى المؤمن يندم على ساعةٍ عاشها في الدنيا لم يذكر الله فيها، فكيف أفر؟ الكافر مصيره مشؤوم هو جهنم، المؤمن كيف يتثنّى له أن يعمل أعمالاً صالحةً أكثر، انتهى الأمر:

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام مرّ مع أصحابه على قبر، فقال:

((يقول صاحب هذا القبر: إلى ركعتين مما تَحْقِرون من تَنَفُّلِكُم أفضل عنده من كل دنياكم))

الدنيا فيها بيوت، فيها مزارع، فيها أراضي غالية جداً، فيها مصانع، فيها معامل، فيها تجارات رابحة، فيها مُتَع رخيصة ومتع ثمينة، قال هذا الميت: إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم أفضل عنده من كل دنياكم.

(كَلَّا)

يأتي الجواب الإلهي:

(أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا)

كنت أُعَبّرُ عن هذا المعنى: أن الإنسان ليجهد ألا يصل مع الله إلى طريقٍ مسدود، أي أنه ارتكب معاصي وآثام ومات على ما هو عليه من معصيةٍ وإثم.

عدم وجود حصن يحصّنك من عذاب الله يوم القيامة:

(كَلَّا لَا وَزَرَ (11))

(سورة القيامة)

لا مفر.

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12))

(سورة القيامة)

الوزر الحصن، لا يوجد حصن يُحَصِّنك من عذاب الله، والوزر هو الجبل ولا يوجد جبل يحميك من سيلٍ عارم، والوزر هو الملجأ فلا يوجد ملجأ يقيك من عذاب الله يوم القيامة، والوزر المحيص، لا محيص ولا ملجأ ولا جبل ولا حصن.

(كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12))

العودة إلى الله في الآخرة:

لذلك: الميت حينما يُشَيَّع ترفرفُ روحه فوق النعش يقول: يا أهلي يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم فأنفقته في حلِه وفي غير حلِه فالهناء لكم والتبعة علي.

وقد ورد في الأثر أنه:

((ما من بيتٍ إلا وفيه ملك الموت، إذا رأى أن العبد قد انقضى أجله وانقطع رزقه ألقى عليه غمّ الموت، فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزّقة ثوبها، والصارخة بويلها، يقول هذا الملك: فيما الفزع ومما الجزع، ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً ولا قرّبْتُ له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة ثم لعودة حتى لا أبقي منكم أحداً، فوالذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميّتهم ولبكوا على أنفسهم))

(ورد في الأثر)

يوجد رجل مريض على فراش الموت، زاره أحد أقربائه فقال له هذا الزائر لابن المريض: أبوك منتهي، مات هذا الزائر قبل المريض، في اليوم الثاني مات الزائر.

رجل جالس بين أصدقائه عنده دعابة قال لهم: أنا لن أموت قريباً، أنا سوف أموت بعد وقت طويل، فسئل: لماذا ؟ قال له: أنا صحتي جيدة، وزني معتدل، وأمشي، ولا أدخ، ولا أحملها، وأكلي قليل، وأعمل رياضة، تكلّم هذا يوم السبت، في يوم السبت الثاني كان تحت الأرض، بالضبط، وأنا أعرفه.

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12))

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ(11))

لا يوجد ملجأ، جبل يعصمك، ليس هناك جبل يعصمك، ليس هناك ملجأ تلجأ إليه، ليس هناك حصن تتحصّن به، ليس هناك محيص، فالإنسان وهذا كلام رب العالمين قبل أن يصل مع الله إلى هذا الوضع الصعب ليتب من فوره.

عدم القنوط من رحمة الله:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53))

(سورة الزمر)

إخوانا الكرام: لاحظوا أنفسكم لو عندكم رحلة عشرة أيام، أول يوم، ثاني يوم، ثالث يوم، اليوم السابع تفكِّر في العودة، بقطع تذاكر العودة، بجمع الحاجات، بشراء الهدايا مثلاً، من سبعة إلى عشرة هناك سلوك يتناسب مع قرب العودة، قيل: من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، الإنسان بأول حياته، بالعشرين، بالخامسة و العشرين، بالثلاثين، بلغ الأربعين، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، فالتفكير المناسب والمنطقي بعد الأربعين، وإن كان الأولى أن تكون مؤمناً في سنٍ مبكرة، من لم تكن له نهايةٌ محرقة لم تكن له نهايةٌ مشرقة، فأنا لا أغبط إنساناً كشابٍ نشأ في طاعة الله، نشأ في طلب العلم، نشأ على منهج رسول الله، شيء عظيم ولكن إذا الإنسان بلغ الأربعين ورد أنه من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شرَّه فليتجهز إلى النار، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، وقد قال الله عزّ وجل:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37))

(سورة فاطر)

إنذار الله للإنسان بقرب أجله:

(وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر)

النذير أي الشيب:

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك فاستحي مني فأنا أستحي منك))

(ورد في الأثر)

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12))

بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ: آية لها عدة معان:

1 ـ بما أسلف الإنسان من عمل سيئ أو صالح:

في هذا اليوم:

(يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13))

(سورة القيامة)

(بِمَا قَدَّمَ)

أي بما أسلف من عملٍ سيئ أو صالح، أو

(أَخَّرَ (13))

ترك من عملٍ سيئ أو صالح، العمل السيئ الذي لم يفعله أخَّر، كل شيء فعله قَدَّم، بما قَدَّم أي بما فعل، وأخَّر بما لم يفعل، والإنسان أمام شيئين أمام موقف تفعل أولا تفعل، إنسان طلب منك تعطي أو لا تعطي، أذّن المؤذِّن تُصَلِّي أو لا تصلي، شخص استعان بك بشيء تساعده أو لا تساعده، امرأةً بالطريق مَرَّت تنظر أو لا تنظر.

(يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13))

2 ـ عرض شريط أعمال الإنسان من أوله إلى آخره:

بما قَدَّمَ يُنَبَّأ بأوّل عمله، وأخَّر بآخر عمله، كيف بدأ ؟ وكيف انتهى ؟ أي يعرض عليه شريط أعماله من أوله إلى نهايته دون أن يقتطع منه شيء.

3 ـ بما قدم من أمواله و بما آخر لورثته:

المعنى الثالث:

(يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13))

بما قَدَّمَ من أمواله في سبيل الله لنفسه، وبما أخَّر لورثَتِه، قدم شيئاً أمامه، ومن قدم ماله أمامه سَرَّه اللحاق به، ودرهمٌ تنفقه في حياتك خيرٌ من مئة ألف درهمٍ يُنْفَقُ بعد مماتك، بما قَدَّم من مالٍ لآخرته وبما أخر من مالٍ لورثته، وأحياناً هؤلاء الورثة لا يحسنون إنفاق المال فينقونه إسرافاً وتبذيراً، والأب الذي تركه لهم ما ربّاهم ولا وجههم إلى الله عزّ وجل، فالهناء لكم والتبعة علي.

شخص سأل شاباً بعد وفاة أبيه بأيام: إلى أين أنت ذاهب ؟ قال: أنا ذاهبٌ لأشرب الخمر على روح والدي.

(يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13))

بما قدم من مالٍ لآخرته وبما أخر، وحينما قلت: درهمٌ تنفقه في حياتك خيرٌ من مئة ألف درهمٍ ينفق بعد مماتك، لأن مئات الوصايا لا تُنَفَّذ بعد موت الأب، الورثة يتَّخِذون أوهى الأسباب لعدم تنفيذ الوصية.

الأعمال الصالحة سبب نجاة الإنسان من النار:

قال بعض العلماء: **" يُنَبَّأُ الإنسان يومئذٍ بما قدّم من فرضٍ وما أخر من فرض "**، أدّى هذه الصلاة بوقتها أو أخرها، أدى الزكاة بوقتها أو أخرها، فعل شيئاً في الوقت المناسب أو أخره، أخره تهاوناً أو تقصيراً، وقال بعضهم: هذا الإنباء إما عند الموت وإما يوم القيامة، وكلاهما جائز، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: دققوا في هذا الحديث:

((إِنّ مِمّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ وَمُصْحَفًا وَرّثَهُ أوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أوْ بَيْتًا لابْنِ السّبِيلِ بَنَاهُ أوْ نَهْرًا أجْرَاهُ أوْ صَدَقَةً أخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ))

(سنن ابن ماجة: عن أبي هريرة)

كل هذه الأعمال تلحقه في موته.

أعظم الأعمال ما يستمر بعد الموت:

لذلك يوجد أعمال تنقطع عند الموت ويوجد أعمال تستمر بعد الموت، أعظم هذه الأعمال ما كان مستمراً بعد الموت.

((إذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَه))

(من صحيح مسلم: عن أبي هريرة)

((عِلْمًا عَلّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ وَمُصْحَفًا وَرّثَهُ أوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أوْ بَيْتًا لابْنِ السّبِيلِ بَنَاهُ أوْ نَهْرًا أجْرَاهُ أوْ صَدَقَةً أخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ))

(من صحيح مسلم: عن أبي هريرة)

كل هذه الأعمال تلحقه بعد موته.

بالمقابل إذا أنشأ ملهى ومات كل معصيةٍ تكون في هذه المَلْهى إلى أن تنتهي الدنيا في صحيفة الذي أنشأه، في الحديث الصحيح، يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ سَنّ فِي الإسْلامِ سُنّةً حَسَنَةً فَلَهُ أجْرُهَا وَأجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أنْ يَنْقُصَ مِنْ أجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ سَنّ فِي الإسْلامِ سُنّةً سَيّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أنْ يَنْقُصَ مِنْ أوْزَارِهِمْ شَيْئًا))

(من سنن النسائي: عن المنذر بن جرير عن أبيه)

أيها الإخوة الكرام:

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13))

وفي الدرس القادم إن شاء الله نبدأ بقوله تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القيامة 075 - الدرس (3-4): تفسير الآيات 14-25 الأعمال الصالحة و السيئة بيد الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-03-27

بسم الله الرحمن الرحيم

جهتان لن تستطيع أن تكذب عليهما: الله تعالى و نفسك:

أيها الإخوة الكرام: مع الآية الرابعة عشر من سورة القيامة، وهي قوله تعالى:

(الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

(سورة القيامة)

ومع الدرس الثالث من سورة القيامة ومع الآية الرابعة عشر:

(الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

أقوى حجة على الإنسان أنة يعلم نفسه قطعاً، يعلم ما إذا كان على حقٍ أو على باطل، يعلم ما إذا كان صادقاً أو كاذب، يعلم ما إذا كان مخلصاً أو منحرفاً أو خائناً، يعلم كلّ شيءٍ عن نفسه، جهتان لن تستطيع أن تكذب عليهما ولا لثانيةٍ واحدة: الله جلّ جلاله ونفسك، الله جلّ جلاله متطّلعٌ على السرائر:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7))

(سورة طه)

النية و الإخلاص لا يعلمهما إلا الله:

يعلم جَهْرَكَ، ويعلم سِرّك، ويعلم ما خفي عنك، ويحول بين المرء وقلبه، أقرب شيء لك هو قلبك والله بينك وبين قلبك، يعلم خائنة الأعين ولن يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يضبط خيانة العين. طبيب يفحص امرأةً، مكان الألم هنا، إن اختلس نظرةً إلى مكانٍ آخر هل هناك في الأرض من يستطيع أن يضبطه ؟ أبداً، يعلم السِّر، يعلم الخواطر، يعلم الأفكار، يعلم النوايا، يعلم البواطن، لذلك النيّة لا يعلمها إلا الله حتى الملاك لا يعلمها.

إنسان ذهب إلى بلد غربي وأراد أن يتزوّج امرأةً وذهب إلى مركزٍ إسلامي وعقد عقده الشرعي على هذه المرأة بإيجابٍ منه وقبولٍ منها وشاهدي عدل ومهر على كتاب الله وسُنّة رسوله، وفي نيّته أن يطلِّقها بعد سنتين(بعد أن ينهي الدراسة)، هل في الأرض كلِّها إنسان يستطيع أن يعلم ذلك ؟ أبداً لكن الله وحده يعلم، أنت مكشوف أمام الله عزّ وجل، ما دمت هكذا ينبغي أن تكون مخلصاً، ينبغي أن سريرتك

كعلانيتك، ينبغي أن يكون باطنك كظاهرك، ينبغي أن تكون خلوتك كجلوتك، هذا الإخلاص، وهذا الذي قاله عليه الصلاة والسلام:

((تركتكم على بيضاء نقية ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك))

(رواه أحمد عن العرباض بن سارية)

المال و النساء نقطتا الضعف عند الإنسان:

من أروع ما في المؤمن الوضوح، لا يوجد عنده سر، ما في قلبه على لسانه، ما ينطق به في قلبه، لا يستحي من شيء في حياته(أموره كلّها شرعية) لا في بيته، ولا في علاقته بزوجته، ولا في علاقته بأولاده، ولا ببناته، ولا بأصهاره، ولا بجيرانه، ولا بزبائنه، لأنه لا يكذب ولا يغش، لا يوجد عنده نقطة ضعف يضعف أمامها، لماذا المؤمن عزيز النفس ؟ لأنه مستقيم، لا يخشى في الله لومة لائم، نقطتا الضعف الخطيرتان في الإنسان: المال والنساء، حصّن نفسه من النساء بالعفّة ومن المال بالورع، لن تستطيع أن تصل إلى إنسان إلا بإحدى هاتين النقطتين، بمالٍ أخذه حراماً، أو بعلاقةٍ مشبوهة، فقمة المجتمع الغربي تُسَاق إلى المحكمة لأنه تحرّش بامرأة(صغر).

الإنسان نفسه حجة قوية عليه:

فلذلك الإنسان أمام ربه مكشوف، فالله جلّ جلاله لا تستطيع أبداً أن تُخْفي عليه شيئاً.

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: آية " 142 ")

(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)

(سورة فاطر: آية " 43 ")

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57))

(سورة البقرة)

ونفسك أيضاً لن تستطيع أن تخدعها، تكشفك على حقيقتك.

(الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

هذه فيها مبالغة(شديد البصر). الإنسان له على نفسه حجة لأنه يعلمها حقيقة العِلم.

(الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

إلا أنه أوتي ذكاءً، أوتي عقلاً يستخدمه لتغطية انحرافه(هذا كلام)، هذا المنطق التبريري، والإنسان منطقي فعندما ينحرف يبرر، يأتي بحجج واهية ليغطِّي بها انحرافه، هذا المنطق لا قيمة له عند الله.

شهود أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة:

لأن يوم القيامة:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65))

(سورة يس)

يوم تشهد عليهم جلودهم.

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(21))

(سورة فصلت)

جلد الإنسان، جلد أعضائه التي مارس بها المعصية تنطق عليه يوم القيامة وتشهد عليه، إنك لن تستطيع أن تكذب على الله، لن تستطيع أن تكذب على نفسك:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

بل إن الله عزّ وجل حينما سَوّى هذه النفس.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

أي إنه ألهمها حينما تفجر أنها فاجرة، وألهمها حينما تتقي أنها مُتّقية.

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

المؤمن لا يكذب:

هذا يتضح أحياناً من إنسان كان تائهاً شارداً منحرفاً، فعندما تواجهه بخطئه يغلي ويأتي بحجج ضعيفة و واهية، لكن لو أن هذا الإنسان تاب إلى الله ورجع إليه يقول لك: والله كنت أكذب.

ذات مرّة كان رجل وسيم الصورة يُستخدم للإعلان لبعض أنواع الدخان فمات بسرطان بالرئة بسبب الدخان، وهو على فراش الموت قال هذه الكلمة: كنت أكذب عليكم الدُخان قتلني. فالإنسان أحياناً يكذب وكثيراً ما يكذب وربما لا يَصْدُق، وربما يكذب كلّما تَنَفّس، والمؤمن لا يكذب.

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

(مسند أحمد رواه: أبي أمامة)

فالإنسان بصيرٌ على نفسه.

(وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

هذه المعاذير يُلقيها للناس ليخدعهم، ليُغَطِّي انحرافه، ليغشّهم، ليضللهم لكنه يعرف الحقيقة، حتى يوم القيامة يقول المشركون:

(قالُوا وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23))

(سورة الأنعام: آية " 23 ")

الكذب لا يطول و قد يكشف في أية لحظة:

قال:

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24))

(سورة الأنعام)

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

قال بعضهم: **" تستطيع أن تكذب على بعض الناس لكلّ الوقت، وتستطيع أن تكذب على كل الناس لبعض الوقت، أما أن تكذب على كل الناس لكل الوقت، هذا لن تستطيعه ".** فكل إنسان له عُمر ؛ إذا كان كذاباً، مخادعاً، مضللاً، مزوّراً، له عُمر، إذا كان الذين يضلهم قلائل قد يدوم هذا العمر، وإذا كانوا كُثُر يقصر هذا العُمر، لا بدّ من أن يكشف لأن هذه سنّة الله في خلقه.

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَحْوِيلاً (43))

(سورة فاطر)

(مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: آية " 179 ")

كشف الله للحقائق و لو بعد حين:

لا بدّ من أن يفرز المؤمنين إلى صادقين وإلى مقصّرين ثم إلى منافقين، فهذا الشيء لو الإنسان أيقن به ينخلع قلبه، لا بدّ من أن يكشف ربنا الحقيقة، هو الحق، كل أساليب الذكاء في الخديعة لبعض الوقت، للباطل جولةٌ ثم يَضْمَحِل، الله عزّ وجل يكشف ؛ يكشف المنافقين، يكشف المنحرفين، وقد يرخي الحبل إلى أمد من أجل أن يأخذ الإنسان أبعاده كلّها فإذا وصل إليها كشف الله الحقيقة، والإنسان ينبغي أن يستحي من الله، ينبغي أن لا يجعل الله أهون الناظرين إليه، إذا استحييت من الله ألقى عليك السِتر(سَتَرَك)، إذا استحييت من الله حفظك، إذا استحييت من الله ألقى عليك الهيبة، إذا استحييت من الله خدمك أعداؤك، أما حينما ينخلع أو يُهتك السِتر الذي بينك وبين الله عندئذٍ يكشف الله الستر الذي بينك وبين الناس.

معرفة الإنسان لنفسه من أعظم الأشياء:

سيدنا الصديق(رضي الله عنه)ما قرأتُ دعاءً أكثر أدباً وتواضعاً من هذا الدعاء مُدِح فقال: **" اللهمّ أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهمّ اجعلني خيراً مما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون ".**

هذا عن قوله تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

وإذا تحققت من هذا استقمت على أمره وتعاملت معه وحده، والله كاشف الحقيقة، لماذا تحاول أن توهم الناس أنّك على غير حقيقتك ؟ الأصل كاشفك، فإذا كنت في محل تجاري فرضاً وصار هناك خطأ، إذا كشفه صاحب المحل لماذا تحاول أن تضلل هذا الطفل الصغير ؟ ليس له قيمة، إذا الخطأ كشفه من بيده الأمر فأنت ما من فائدةٍ أن توهم هذا الصغير أنك مستقيم، إذاً:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

الخيانة والكذب من صفات المنافقين و هي أبعد ما يكون عن المؤمنين:

اللهمّ صلِ على سيدنا محمد في عقِب غزوة تبوك جاء المنافقون يعتذرون واحداً تلو الآخر، استمع إليهم وقَبِلَ منهم أعذارهم ودعا لهم، فلما جاء الصادق المُقَصِر(سيدنا كعب)قال له: والله لقد أوتيت جدلاً(أوتيت لساناً طليقاً)، ولو جلست إلى غيرك لخرجت من غضبه، ولكنني جمعت أن أصدقك يا رسول الله، إني إن صَدَقتك لعلّ الله يغفر لي، وإني إن كَذَبْتُ عليك يوشك الله أن يفضحني(انظر إلى التوحيد) صدقه وقال له: حينما دعوتنا إلى الذهاب إلى هذه الموقعة ليس عندي عذرٌ إطلاقاً، تخلّفت بلا سبب، فالنبي قال كلمة قصيرة لكنها بليغة: أما هذا فقد صدق(سمع لثمانين شخصاً قبله)ولا يوجد شيء يرفعك كالصدق، ولا يوجد شيء يصغرك كالكذب، والمؤمن لا يكذب، المؤمن قد يخطئ كثيراً لكنه لا يكذب ولا يخون.

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

(مسند أحمد رواه: أبي أمامة)

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15) لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16))

(سورة القيامة)

أي يا محمد، حيث كان عليه الصلاة والسلام إذا نزل عليه الوحي أسرع وردد الكلمات(كلمات الله عزّ وجل)خَشْيَة أن ينساها، فطمأنه الله عزّ وجل:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6))

(سورة الأعلى)

إنك لا تنسى بفضل الله عزّ وجل.

اهتمام النبي الكريم بالقرآن و حفظه:

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

(سورة الأعلى: آية " 7 ")

شاء الله مرّةً أن ينسى، صلى الظُهر ركعتين فسأله أحد الصحابة(ذو اليدين) **يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت** ؟ أي أصبح الظهر ركعتين أم نسيت ؟ ولأن النبي لم ينس قط سابقاً، قال:

((كل هذا لم يكن))

فقال ذو اليدين: **بعضه قد كان**(أصَر). سأل النبي أصحابه الكرام فإذا به قد صلى ركعتين(صلاة الظهر)فأتمّ الظُهر أربعاً وقال:

((إنما نُسِّيت كي أسُن، لولا أن الله أنساني كيف أسن لكم سجود السهو))

نُسيّ ولم ينس:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

(سورة الأعلى)

قال:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16))

لا تقلق لن تنساه، تطمين من الله عزّ وجل، أي أنت استوعبت الكلمات لا تخشى أن تنساها، لن تنسى هذا القرآن، فالنبي عليه الصلاة والسلام كل شيءٍ نزل عليه حفظه من أوّل مرة، وقد تقول أنت: أنا لا أحفظ، الجواب: لو بلغ اهتمامُك بنصٍ من النصوص كما بلغ اهتمام النبي بالقرآن لحفظته، الحفظ متعلِّق بالاهتمام، ولاحظ نفسك الأشياء التي تَهْتَمُّ لها تحفظها، أحياناً صاحب محل تجاري(يوجد في المحل عشرة آلاف نوع)، يحفظ الأنواع واحداً واحداً وأمكنتها والعدد المتبقي منها، لأنه مهتم، هذه تجارته.

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

(سورة القيامة)

مهمة الإنسان اتباع الأمر و النهي:

نجمعه لك ونقرأه عليك، فإذا قرأناه عليك:

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

(سورة القيامة)

أنت مهمتك الاتباع، لا تحمل عبء الحفظ لن تنسى، إذا قرأناه عليك اتبع مضمونه، اتبع الأمر والنهي، اتبع المشاهد التي سمعتها، اتبع الأوامر التي تلقيتها:

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

لا تقلق من حفظه لن تنسى هذا القرآن، اطمئن.

السنة الشريفة هي شرح للقرآن الكريم:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(19))

علينا بيان هذا القرآن أي أن الله عزّ وجل كما أوحى إليه هذا النص المتلو أوحى إليه شرحَه غير المتلو، لذلك السُنّة هي شرحٌ للقرآن والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى.

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

الذي ذكره من أحاديث شريفة شرحاً للقرآن من وحي الله عزّ وجل، لكن القرآن وحيٌ متلو والسُنّة وحيٌ غير متلو، إذاً:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(19))

تبين أنت يا محمد بوحيٍ منا ما نُزّل عليك، لذلك السُنة مبينة، تبين أنت يا محمد بوحيٍ منا غير متلو ما نُزّل عليك.

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(19))

وكما أن الله حفظ كلامه، حفظ سُنّة نبيه لأنه من لوازم حفظ الأصل حفظ الشرح.

تعهد الله تعالى بحفظ كلامه ومن لوازم هذا التعهد حفظ سنة نبيه:

الآن لو أنه صدر قانون ثم صدر مرسوم تفسيري لهذا القانون لا قيمة لحفظ القانون من دون حفظ تفسيره، فحفظ التفسير جزءٌ من حفظ القانون، وكذلك لما تعهّد الله عزّ وجل بحفظ كلامه فمن لوازم هذا التعهُّد أن يحفظ سُنّة نبيه، لذلك هيّأ علماء لهم همةٌ عاليةٌ جداً مَحّصوا السنة ونخبوها وفرزوها،

وعرفوا صحيحها، وعرفوا ضعيفها وموضوعها، وصنّفوا الكتب فالسُنّة الآن محفوظة، وكل شيء ميَسَّر، يوجد عندنا كتب صحيحة، القضية انتهت، ما من علمٍ عند الأمم كعلم الحديث عندنا، إنه علم دقيق جداً، لذلك بما أن الدين نقلٌ أخطر ما في النقل صحة النقل.

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

نجمعه، نستكمله، ونقرأه عليك، القرآن نزل مُنَجّماً وفق الحوادث، وهناك حكمة بالغة أن ينزل منجماً وفق الحوادث.

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ)

عليك:

(فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

أي إن مهمتك أن تُطبّقه:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

أعمال الإنسان مكتوبة في صحيفة أعماله:

بعض العلماء قال: **" لهذه الآيات تفسيرٌ آخر يختلف مع سياق الآيات".** إنك تُلقي على طُلاّبك موضوعاً في التاريخ، فترى بعض الطلاب قد أغمض عينيه، فتقطع الدرس وتنبّه الطالب ثمّ تعود إلى الدرس، فبعض العلماء فسّروا هذه الآيات تفسيراً يبتعد عن سياق الآيات، الآن حينما قال الله عزّ وجل:

(يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13))

(سورة القيامة)

يقول له الله عزّ وجل يوم القيامة: أيها الإنسان لا تحرك به لسانك لتعجل به، كل شيء فعلته مكتوب عندنا:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16))

القضية ليست في كلامك ولكن بما كُتِب في صحيفة أعمالك.

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

أعمالك كلها جمعت عليك:

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

نقرأه عليك، ألم تفعل يوم كذا كذا ؟ يوم كذا كذا ؟ في المكان الفلاني، في الوقت الفلاني مع فلان ؟ كل أعمال الإنسان سوف يراها أمامه وهي تتلى عليه.

إحصاء أعمال الإنسان في الدنيا:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ)

لا تستعجل كل شيء مسجّل(فعلت لا لم أفعل). سوف نسمعك الشريط، سوف ترى شريطاً مصوّراً، أين ذهبت ؟ إلى أيّ بيتٍ دخلت ؟ ماذا فعلت ؟ أرح نفسك ولا تتكلم لأن كل شيء مسجل، هذا هو المعنى.

(تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16))

كتاب أعمالك:

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

سنقرأه عليك:

(يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13))

(سورة القيامة)

فإذا قرأناه عليك ليس لك إلا أن تقول: نعم فعلت كذا.

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

حينما نقول لك: ألم تفعل كذا وهذه الصورة ؟

بيان أعمال الإنسان في الآخرة عملاً عملاً:

الآن في الدنيا نأتي بإنسان يقود سيارة ويُخالف ويوجد جهاز رادار يكشف المخالفة ويصورها، نأتي به ونقول له: هذه سيارتك، وهذا هو الوقت، وهذه هي الساعة، وهذه هي السرعة فما قولك ؟ يرى الصورة صحيحة فيقول: نعم، ليس لك إلا أن تقول نعم، لأن هناك صورة.

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

هذه المخالفة خمسمئة، هذه سحب إجازة، هذه سجن، سوف نبين لك المخالفة، أول شيء:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ)

لا تستعجل، لا تنفي بسرعة لأن كل شيء مسجّل ومصور، لا تنفي، لا تستبق الأمور.

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا)

عرض أعمال الإنسان عليه و عدم مغادرة واحد منها:

جمع كل أعمالك صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، جمعت كلها في كتاب، الإنسان يضجر ويقول:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)

(سورة الكهف: آية " 49 ")

لا توجد واحدة نساها، كلها مذكور حتى النظرة، حتى الكلمة، حتى الابتسامة في غير محلها، فيها سخرية، كلّه مسجل.

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

سنجمع لك أعمالك كلّها ونقرأها عليك، فإذا قرأناها عليك(لأنها مشاهدة)لا تستطيع إلا أن تُقِرّ بها، ليس أمامك خيار، ألم تفعل كذا ؟ نعم هذه الصورة، وهذا التاريخ، فإنك تقول: نعم.

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

ثمّ نقول لك: هذه المخالفة ثمنها كذا، وهذه كذا، وهذه كذا، وهذه كذا.

بيان المعاصي للإنسان و عقوباتها:

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

بيان المعاصي، ونتائجها، وعقوباتها، ومصائرها، هذا تفسير ثاني، إما أن الله عزّ وجل يخاطب النبي يقول:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ)

يا محمد:

(لِتَعْجَلَ بِهِ (16))

نعلم حرصك على حفظه وثباته، اطمئن ولا تحمل عبء حفظه.

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6))

(سورة الأعلى)

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ)

في صدرك.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ: آية لها عدة معانٍ:

1- شرح القرآن بوحي من الله عزّ وجل لرسول الله:

وقرأناه عليك:

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ)

عليك أن تطيع الأمر والنهي.

(فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

ثمّ أنك مكلّفٌ أن تشرحه بوحيٍ منا:

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

حتى شرح القرآن بوحيٍ من الله عزّ وجل لرسول الله، هذا هو المعنى.

2 - تسجيل أعمال الإنسان عليه:

المعنى الثاني: أيها الإنسان يا من تُنَبَّأ بما قدّمت وأخّرت لا تستعجل لأن كله مسجل، إنا علينا أن نسجل لك كل أعمالك وإذا تلوناها عليك ليس أمامك إلا أن تعترف بها، ثمّ نخبرك لكل ذنبٍ عقوبته.

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

نقاط الضعف في أصل خلق الإنسان:

يقول الله عزّ وجل:

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21))

(سورة القيامة)

أي أنّ الله عزّ وجل خلق الإنسان هلوعاً، وخلقه ضعيفاً، وخلقه عجولاً، وهذه ثلاث نقاطٍ في أصل خلق الإنسان، نقاط ضعفٍ في أصل خلقه لصالحه، خلق عجولاً حتى إذا اختار الآخرة ارتقى عند الله كثيراً، طبعه يدعوه إلى العاجلة الشيء أمامه.

الآن أكثر الناس يتحرّكون وفق شهواتهم الآنيّة، أما الذي يفكر في المستقبل، أحياناً طفل أو طالب يوجد عند إغرائين: إغراء أن يذهب إلى النُزُهات مع أصدقائه ويترك المدرسة، وينام إلى ساعة متأخرة، ويذهب إلى أماكن جميلة، ويأكل ما يشتهي، ويدع الدراسة، طالب آخر يتصوّر نفسه أصبح طبيباً أو

مهندساً، في مرتبة عالية جداً له بيت، له مركبة، له زوجة، فإنه يؤاثر المستقبل المشرق على هذه الساعات الممتعة الآنيّة فيقبع وراء الكتاب ويدرس، الأوّل عاش لحظته بغباء، والثاني عاش مستقبله، هذه القصة كلها كذلك.

فالإنسان خلق هلوعاً شديد الهلع، وخلق ضعيفاً، وخلق عجولاً، خلق ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، ولو خُلِق قوياً لاستغنى بقوّته فشقي باستغنائه، خلق هلوعاً ليلجأ إلى الله عند الخوف، أما خلق عجولاً لأنه إذا اختار الآجلة وكان طبعه يحب الآجلة لا يرقى عند الله، طبعه آني.

إعمال الفكر سبب الفوز بالآخرة:

أنا أذكر لكم كثيراً هذا المثل لأنه واضح جداً: سيارة واقفة في مكان ما وعليها أن تدور حول دائرة أو حول ساحة وتتجه إلى مكان بعيد، فهي واقفة باتجاه الشرق والشمس على اليمين، وأنت بحسب معرفتك هذه السيارة سوف تدور حول الساحة في دقيقةٍ واحدة وتنعكس الآية(أي تنقلب الشمس إلى مكان آخر)، إن صعدت إلى هذه السيارة أين تجلس ؟ العاقل يجلس في الشمس، يقول لك: دقيقة ويتمتّع بالظل ساعة، والذي يعطِّل فكره يقبع في الظل يقول لك: هذا مجنون جالس في الشمس، من المجنون ؟ الذي جلس في الظل، فالذي يحب العاجلة عطّل فكره، والذي يحب الآجلة أعمل فكره، شيء واضح جداً كل شيء بحسابه.

تغض بصرك، تضبط لسانك، تصلِّي، تصوم، تجاهد نفسك وهواك، تنفق مالك هذه فترة مؤقتة وجنة إلى أبد الآبدين، أما الإنسان الآخر يتفلّت كم سنة ؟ سنوات تمضي سريعاً وأمامه العقاب إلى أبد الآبدين، فالإنسان أحياناً ينطلق من محبّته لذاته، ينطلق من أنانيته فيستقيم على أمر الله، كل شيء بحسابه.

تناقض العبثية مع وجود الله:

الآية الكريمة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

(سورة الجاثية)

فمستحيل، هذا يتناقض مع وجود الله، أن يُعَامل إنساناً مستقيماً وورعاً، يخاف الله عزّ وجل، يرجو رحمته ويخشى عذابه، يضبط لسانه، يضبط عينه، يضبط أذنه، يضبط أعضاؤه، يحرر دخله، يعامل

زوجته بالحسنى، يربّي أولاده(إنسان يفعل هذا). وإنسان متفَلِّت يعاملان سواء ؟ هذا يتناقض مع وجود الله، إن تيقّنت أن الله يعامل هذا كهذا أيقنت بالعبثية، والعبثية تتناقض مع وجود الله:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

لا يوجد حساب ؟ لا توجد مساءلة ؟ جامعة تكلِّف ألف مليون لا يوجد فيها امتحان ؟ كل واحد سجل أخذ دكتوراه ؟ لا يوجد فحص أبداً ؟ هذا مستحيل، إنسان لا يفعلها فكيف الواحد الديَّان ؟

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

مستحيل.

الدنيا ساعة اجعلها طاعة:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

شاب مؤمن له معاملة خاصة، له حياة طيبة، له سعادته، له مكانته، له طمأنينته، له استقراره النفسي، له ثقته بالله عزّ وجل.

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21))

(سورة القيامة)

مرة ثانية، إن المثل واضح جداً: سيارة على اليمين شمس وعلى اليسار ظل، الطريق يستغرق ساعة، أمام ساحة، تدور الدورة بدقيقة فإذا دارت هذه الدورة انعكست الآية، والإنسان صعد إلى السيارة، على اليمين شمس على اليسار ظل، إذا عَطّل فكرة يجلس في الظل يتمتع فيه دقيقة ويذوق حرارة الشمس ساعة، إذا شغّل فكره فإنه يتحمّل الشمس دقيقة ويتمتّع بالظل ساعة، هذا المثل كَبّره، هذه الدنيا دقيقة **" الدنيا ساعة اجعلها طاعة ".**

حب الدنيا و كراهية الموت رأس كل خطيئة:

انظر إذا شخص مات وترك بيتاً فخماً أين هو قاعد ؟ تحت أطباق الثرى، انتقل من دار موَقّت إلى دار أبدية، فالإنسان دائماً وأبداً عليه أن يعرف ما سيكون، الأغبياء يعيشون الماضي(يفتخرون بماضيهم

دائماً)، والأقل غباء يعيشون حاضرهم، والأذكياء يعيشون المستقبل، المؤمن بعقله الراجح دائماً يعيش المستقبل:

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21))

أي أن المرض حبُّ الدنيا، يقول عليه الصلاة والسلام:

((حبُّ الدنيا يُعمي ويُصِمّ))

((حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة))

((يُوشِكُ الأُمَمُ أنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

(سنن أبي داود: عن ثوبان)

في آيةٍ أخرى يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(سورة الإنسان)

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21))

(سورة القيامة)

العاقل من عاش لآخرته:

العاقل الذي يفكِّر بآخرته، لذلك المؤمن منضبط يرجو الآخرة، يرجو رحمة الله، يرجو دخول الجنة، يسعى إلى سعادةٍ أبديةٍ لا تنقضي هذا هو العاقل.

خليفة أموي دخل إلى بيت الله الحرام فرأى عالِماً جليلاً فأراد أن يتقرَّب إليه قال له: سلني حاجتك ؟ فقال له: ليس لي عندك حاجة، قال له: سلني حاجتك ؟ قال له: والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، التقى به خارج بيت الله فقال له: سلني حاجتك ؟ قال له: والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها ؟ قال له: سلني حاجتك ؟ قال له: نجني من النار وأدخلني الجنة، فقال له: هذه ليست لي، قال له: إذاً ليس لي عندك حاجة أنا حاجتي مع الله.

((من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه))

(رواه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود)

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25))

(سورة القيامة)

العاقل من عاش لآخرته:

في النهاية يوجد وجهين، وجه متألِق ينظر إلى الله عزّ وجل، فالجنة فيها حور عين، فيها بساتين، فيها أنهار، فيها كل شيء، ولكن أجمل ما فيها هو النظر إلى وجه الله الكريم:

((النّاسَ قالُوا لِلنّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ هَلْ نَرَى رَبّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ النّبيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟...قالُوا لَا يَا رَسُولَ اللّهِ، قالَ: فَإِنّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ))

(أخرجه الدارمي عن أبي هريرة)

فإنكم سترون ربكم يوم القيامة كالقمر ليلة البدر.

وتوجد أحاديث كثيرة تثبت ذلك، وهذه الآية أصل..

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22))

(سورة القيامة)

من النضارة، تألّق، الآن إذا إنسان نجح بتفوق تجد وجهه بلون آخر أصبح بلون مشرق، عيناه زئبقيتان، حركتهم عجيبة، تصبح حركته لطيفة لأنه نجح، النجاح مُسْعِد، فهذا الوجه الذي نجا من عذاب النار واستحق دخول الجنان تجده ناضراً.

تألق وجه المؤمن يوم القيامة:

والله مرّة دُعيت إلى افتتاح مسجد، إن الذي عمّر المسجد يقف ليستقبل الضيوف وودعهم واحداً واحداً، لم أنظر إلى وجه متألِق كوجهه لأنه عمِلَ عملاً عظيماً(بنى مسجد بأكمله)وهو يستقبل الضيوف بتألق، وهو يودعهم في تألق، العمل الطيّب يجعلك متألقاً، الوجه يصبح جميلاً.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبّهَا نَاظِرَةٌ (23))

سواد وجه الكافر يوم القيامة من الخزي:

تنظر إليه، والعياذ بالله:

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24))

أي كالحة، سوداء.

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمّا الّذِينَ اسْوَدّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمّا الّذِينَ ابْيَضّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107))

(سورة آل عمران)

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24))

كالحة، سوداء، مغبرّة من عملها، من انحرافها.

العمل الصالح و السيئ بيد الإنسان:

(تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25))

(سورة القيامة)

الآن إذا شخص ارتكب جريمة كبيرة وأُلقي القبض عليه، أحياناً يصوروه ترى وجهه كالحاً، غاضباً، وعينه في الأرض، يودع في السجن، يا ترى هل سيعدموني ؟ يا ترى سجن مؤبد ؟ يا ترى عشرين سنة ؟ يا ترى هل يوجد عفو ؟

(تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25))

أي إنه أمر عظيم، داهية.

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25))

كل هؤلاء الناس على اختلاف مشاربهم، وانتماءاتهم، ومللهم، ونحلهم، وأعراقهم، وأجناسهم، وألوانهم، وقبائلهم، وعشائرهم، وأسرهم، وقوميّاتهم، هم في النهاية وجهان: وجهٌ نضر ينظر إلى الله عزّ وجل ووجهٌ باسر يظن أنها النهاية أو أن يفعل بها فاقر، وجوهٌ مبيَضّة من عملها الطيب، ووجوهٌ مسودة من عملها الخسيس، والأمر بيد الإنسان، الطاعة بيدك، والمعصية بيدك، العمل الصالح بيدك، والعمل السيئ بيدك، وأنت مخير.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29 ")

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع هذه الآيات

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القيامة 075 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 26-40 بطولة الإنسان أن يلقى ربه و هو عنه راض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-04-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الرابع والأخير من سورة القيامة، ومع الآية السادسة والعشرين وهي قوله تعالى:

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ(26))

(سورة القيامة)

النفس في حالة النزاع الأخير:

من التي بلغت التراقي ؟ النفس (هذا في حالة النزاع)، في حالة مفارقة الدنيا، وما من واحدٍ منا جميعاً إلا وسيمر بهذه اللحظة، لحظة مفارقة الدنيا.

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26))

(سورة القيامة)

أيها الأخوة: الإنسان وهو في زحمة العمل، وهو في صحّته، وهو في شبابه، وهو في تألّقه منغمس في همومه، وفي أهدافه وفي ما هو فيه، أما حينما يشعر أنه لا بدّ من أن يغادر الدنيا عندئذٍ يعيش في حالةٍ خاصة.

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27))

(سورة القيامة)

مَنْ رَاقٍ: آية لها عدة معان:

1- من يشفي الإنسان و قد شارف على الموت:

الإنسان مُضّجع على سرير الموت حوله أولاده، حوله أخوته، حوله زوجته، أخواته كلّهم متلهّفون لمصيره هل يعيش أم يموت ؟ هل يبقى أم يغادر ؟

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27))

من يرقى له ؟ أي من يشفيه ؟ أو من يشفي هذا الإنسان وقد شارف على الموت ؟ إمّا المعنى الأول من يشفيه ؟ يبحثون عن طبيبٍ يشفيه، أو يستيئسون من طبيبٍ يشفيه.

(مَنْ رَاقٍ (27))

من يشفيه ؟ من يشفي هذا المريض الذي على وشك الموت ؟

2 - من يرقى به إلى السماء:

أو من يرقى به إلى السماء ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ الإعداد لهذه الساعة التي لا بدّ منها عين العقل، لأن هذه الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، لأن هذه الساعة مصير كل حي:

كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت:

والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

***

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامت ه يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبــور جنازة فاعلم بأنك بعدهــا محمول

***

تفاوت الناس في الاستعداد للموت:

أيها الأخوة: هل يستطيع واحدٌ من بني البشر أن ينكر حدث الموت ؟ الأنبياء ماتوا، الملوك ماتوا، الجبابرة ماتوا، عُظماء العالم ماتوا، أغنياء العالم ماتوا ؟ أقوياء العالم ماتوا ؟ الأصِّحاء ماتوا، المرضى ماتوا، أصحاب الشكل الوسيم ماتوا، أصحاب الشكل الدميم ماتوا، الموت مصير كل حي.

إذاً لا يستطيع أحدٌ أن ينكر حدث الموت لكن الناس بماذا يتفاتون إذاً ؟ في الاستعداد له، لا تتفاوت في إنكار الموت أو عدم إنكاره، لأن الموت أقوى حقيقة مستقبلية، أي أن ما من حدث أشدُ واقعيةً في مستقبلنا من مغادرة الدنيا، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا.

الشخص منا قد يحضر في الأسبوع تعزية أو تعزيتان، والسنة خمسين أسبوعاً، خلال أربعين سنة (25×40) ألف تعزية حضرها. فلا بدّ من تعزيةٍ يُعَزّي الناس بِهِ، لا بدّ من تعزية الذي كان يُعَزّي الناس هو موضوع التعزية هذه لا بدّ منها، في النهار الإنسان يخرج من بيته مرة أو مرتين أو ثلاثة، ثم يعود إليه مرة مرتين ثلاثة، المُعَدّل ثلاث مرّات خروج وعودة، لا بدّ من مرة يخرج ولا يعود، الإنسان يخرج ماشياً على رجليه منتصب القامة لا بدّ من خروج بشكل أفقي، بيت فخم، صغير، كبير، أجرة،

ملك، واسع جداً، ضيّق جداً، بأرقى أحياء دمشق، بأشد أحياء دمشق تواضعاً، لا بدّ من مغادرة هذا المنزل، أين يُغَسّل ؟ هل في المستشفى ؟ أم في البيت في المطبخ ؟ في البهو، في الحمام ؟ لا بدّ من أن يُغَسّل، صل قبل أن يصلى عليك، هكذا قرأت كلمة في بعض البلاد.

كيفية الاستعداد للموت:

1- الاستقامة على أمر الله:

أريد من هذه الآيات حدث الموت لا أحد يستطيع أن ينكره إطلاقاً، نتفاوت في الاستعداد للموت، أول بند في الاستعداد للموت الاستقامة على أمر الله، طاعة الله عزّ وجل.

2 ـ طلب العلم:

ثاني بند: طلب العلم.

3 ـ الإحسان للخلق:

ثالث بند: الإحسان للخلق، فنتفاوت في معرفتنا لله، ومعرفتنا لمنهجه، وطاعتنا له، والإحسان إلى الخلق.

صورة الإنسان على فراش الموت:

الله عزّ وجل أعطانا صورة، صورة الإنسان وهو على فِراش الموت.

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27))

من يشفيه أين الطبيب ؟ اتصلوا بالطبيب، بالمستشفى، أو ماذا يفعل الطبيب مع هذه الحالة الميئوس منها ؟ معنى ثان، أو من يرقى به إلى السماء ؟ هل ترقى به ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟

دفع الإنسان وهم الموت عند تعلقه بالحياة:

(وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28))

(سورة الإنسان)

ظنّ هنا بمعنى أيقن، الإنسان لتعلّقه بالحياة يدفع عن مُخَيِّلَتِهِ وَهْمَ الموت، الصحة طيبة، عرضية، لها علاج، تُعالج، الطبيب وعد بالشفاء، الطبيب قال: في دواء، الإنسان أحياناً يدافع عن نفسه يردد الحقيقة المرة، لكن أحياناً المريض يدرك أن مرضه عضالاً ولا شفاء له وأنه على وشك مغادرة الدنيا.

فرح المؤمن عند ملاقاة ربه:

إخوانا الكرام: ورد في بعض الأحاديث أن:

((تحفة المؤمن الموت))

(أخرجه الطبراني، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عمر)

فالموت (موت المؤمن) فكل جهوده في الدنيا، وكل نشاطه في الدنيا، وكل استقامته، وكل عباداته، وكل بذله، وكل تضحيته، وكل أعماله الصالحة، الآن سيقطف ثمارها، لذلك المؤمن الموت عنده تحفة.

والله أيها الأخوة قد قرأت أكثر من ترجمة سبعين أو ثمانين صحابياً، الذي لفت النظر في كل هذه المطالعات أن هؤلاء الصحابة الكرام كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند مغادرة الدُنيا، صدق رسول الله:

((تحفة المؤمن الموت))

((لِلصّائِمِ فَرْحَتَان فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبّهِ))

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة)

واكربتاه يا أبت، قال: **لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.**

لكرامة المؤمن عند ربه يلقي في روعه أن أجله حان:

المؤمن لكرامته عند الله يلقي الله في روعه أن الأجل اقترب، فهو مستبشر، قد يأتيه ملك الموت، بأحبِّ الناس إليه.

يروى عن أحد الصالحين وحوله أولاده وهو على فراش الموت قال لأولاده: قوموا سلِّموا على عمكم (عمهم أي أخوه يحبه حباً شديداً لكنه سبقه إلى الآخرة)، يقول لهم: **قوموا سلموا على عمكم، هذا أقرب الناس إلي، هذا المحب، هذا الوفي، هذا المخلص.** بمن جاءه ملك الموت ؟ بأحب الناس إليه.

قرأت عن عالم جليل في بعض البلاد الإسلامية أنه كان في السجن ونام فرأى رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال له: **أنت غداً ضيفنا**، يقول زميله: ما رأيت أحداً أسعد منه، ولا أقرب إلى الله منه، ولا أشدّ تفاؤلاً منه.

الموت هو لحظة العطاء و المكافأة:

لا أريد أن أخوّف الأخوة الكرام إذا كان عملك طيباً واستقامتك عالية، ومعرفتك بالله عالية، وأنت طلبت العلم وحملت نفسك على طاعة الله، ولك أعمال صالحة من إنفاق للمال، من خدمة المسلمين، من الصدق، من الإخلاص، من الأمانة، الموت عُرس.

تصوّر أن طالباً (مثل افتراضي) أُرسل إلى بلد غربي ليأتي بدكتوراه وهو فقير، لكن موعود وعداً قطعياً أنه إذا عاد بهذه الدكتوراه سيغدو في أعلى منصب، وسيسكن أجمل بيت في العاصمة، وسيركب أغلى سيارة، وستقدم له من الميزات ما لا يعدُّ ولا يحصى، صار هناك يشتغل ويدرس ؛ إما حارس أو في المطعم، أو في تنظيف السيارات، عمل شاق، ودراسة شاقّة سبع سنوات، نال الدكتوراه، صَدَّق الشهادة، اشترى بطاقة طائرة، صار موعد إقلاع الطائرة، وضع في سُلّم الطائرة باتجاه أهله، وباتجاه ما وعد به من منصبٍ رفيع ومن زوجةٍ جميلة، ومن منزلٍ كبير، ومن مركبةٍ فارهة، تُرى هذا السنوات السبع التي قضاها في بلد غربي يعمل أشد الأعمال ويدرس، وانتهى العمل، وانتهت الدراسة، ونال الشهادة وصدّق الشهادة، وحمل معه الوثائق، والآن في طريق العودة إلى أهله إلى أمه وأبيه، إلى أخوته، إلى أخواته، إلى منصبه الرفيع، إلى بيته الفخم، إلى مركبته الفارهة، إلى زوجته الموعود بها، بماذا يشعر ؟ يَكادُ يرقص سعادةً، يكاد يرقص من السعادة، هذا هو الموت، ما الموت ؟ الموت لحظة العطاء، كنت في زمن الامتحان فدخلت إلى زمن الإكرام، كنت في زمن التكليف فانتقلت إلى زمن التشريف، كنت في زمن العمل والكدح انتقلت إلى زمن المكافأة والجائزة.

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً (16))

(سورة الفرقان)

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

(أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة)

مفهوم الأبد:

أنا أعرف فرضاً من يقول: أنا ذهبت إلى الحج والعمرة، أنا ذهبت إلى لبنان، هذا إلى تركيا، هذا إلى مصر، كل واحد له مجموعة بلاد زارها، لكن محدودة، أما المسموعات كثيرة جداً، افتح الأخبار تسمع عواصم بأطراف الدنيا، عاصمة الأرجنتين، عاصمة ألا سكا، عاصمة الشمال، عاصمة الجنوب، في شرق آسيا، في شمال أمريكا،في جنوب أمريكا، مسموعاتك كثيرة جداً، أما الخواطر ليس لها حدود،

شيء خاطر لا يوجد له مقياس أساساً، أنا قد يخطر في بالي إنسان طوله من الأرض إلى القمر، هذا خاطر، الحديث يقول:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

(أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة)

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17))

(سورة السجدة)

هذه الجنة إلى الأبد، ما معنى الأبد ؟ مفهوم صعب إدراكه.

ذكرت مرة أن من الأرض إلى الشمس المسافة مئة وخمسة وستين كيلو متراً، فإذا كل ميليمتر صفر، كل ميلي واحد بالأرض والأصفار إلى الشمس، أي واحد أمامه مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر أصفار بحدود ميلي بين الصفرين، ما هذا الرقم ؟ أول ستة أرقام مليون، الستة الثانية مليون مليون (ألف مليار) الستة الثالثة، فإذا للشمس وكل ميلي صفر هذا الرقم ضعه صورةً وضع خطاً تحته، وارسم في المخرج إشارة اللانهاية قيمة هذا الرقم صفر، الرقم مهما كان كبيراً إذا نُسِب إلى اللانهاية فهو صفر، لو إنسان عاش مليون سنة، بالنسبة إلى الأبد صفر، لو عاش مليار سنة، صفر، ما دام رقم صفر، لأن الرقم محدود واللانهاية غير محدود.

اكتشفوا مجرة، ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، قبل عام ونصف تقريباً أُذيعت في محطة أخبار عالمية، ثلاثمئة ألف بليون، البليون ألف مليون، والألف الثانية أي مليون مليون، ثلاثمائة مليون مليون سنة ضوئية، الضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، في الساعة ضرب ستين، باليوم ضرب أربعة وعشرين، بالسنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، أضرب ثلاثمئة ألف بستين بستين بأربعة وعشرين بثلاثمئة وخمسة وستين يطلع ما يقطعه الضوء في سنة ضوئية، أضربه بثلاثمئة ألف بليون سنة، ما هذا الرقم ؟ بالنسبة إلى الأبد صفر، الله عزّ وجل قال:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً (23))

(سورة الجن)

إما إلى جنةٍ يدوم نعيمها أو إلى نارٍ لا ينفد عذابها

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

والله الذي لا إله إلا هو لو عرفنا قيمة الأبد لما نمنا الليل، أنت في دار عمل، في دار كَسْب، في دار رُقي، والأعمال الصالحة لا تعدُّ ولا تحصى، الله عزّ وجل جعل لك في كل مكان عمل صالح، في بيتك يوجد عمل صالح، كونك زوجاً، الزوج المثالي طريق إلى الله، كونك أباً الأبوة المثالية طريق إلى الله،

كونك ابناً البنوة المثالية طريق إلى الله، الزوجة خدمتها لزوجها وعنايتها بأولادها طريق إلى الله، إتقان عملك طريق إلى الله، طلب العلم طريق إلى الله، تلاوة القرآن طريق إلى الله، غض البصر طريق إلى الله، ضبط اللسان طريق إلى الله، تحرير الدخل طريق إلى الله، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، سائل الرقي بين أيديكم جميعاً، ألا تستطيع أن تكون صادقاً لا تكذب أبداً ؟ ألا تستطيع أنت تكون عفيفاً ؟ ألا تستطيع أن تكون ورعاً ؟ ألا تستطيع أن تطلب العلم ؟ أن تحضر مجلس علم ؟ ألا تستطيع أن تقول الحق ؟ بيدك هذا كله، فلذلك أيها الأخوة نحن في دار عمل، لأن ساعة المغادرة صعبة جداً.

(هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(سورة الإنسان)

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21))

(سورة القيامة)

انسحاب الروح من الإنسان شيئاً فشيئاً:

لذلك:

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26))

(سورة القيامة)

هذه الروح وصلت إلى عظم الترقوة، يقول لك: رجليه بردوا، ازرقّوا، النفس ماشية، وتنسحب شيئاً فشيئاً.

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26))

بلغت عَظْمَ الترقوة، وصلت الروح إلى هنا، وصار في اضطراب بالأهل، طبعاً إذا كان له سيرة حميدة جداً يتمنّى من حوله أن يفدوه بأرواحهم، إذا كان بخيلاً يقولون: خلصنا والحمد لله، هناك إنسان يتمنّى الناس حياته، وهناك إنسان يتمنّى الناس موته.

(وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27))

من يشفي هذا المريض ؟ أين الطبيب ؟ اتصلوا بفلان، أو مرض عُضال لا يوجد أمل، من يشفي هذا المرض العُضال ؟ أو من يرقى به إلى السماء ؟.

(وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28))

عدم صعوبة الموت على المؤمن:

إذا شخص له قريب توفي، يمر القريب بمراحل أمل بالحياة، أحياناً يغلب على ظنه ويوقن أنه انتهى، يقول لك: أنا انتهيت، أعرف رجلاً أنا لم أراه ولكنني سمعت عنه صالح جداً وله أعمال طيبة كثيرة جداً، فإذا كان دخل إنسان يطلب منه مساعدة لأسرة يتيمة، لجمعية خيرية، لبناء مسجد، يقول له: افتح هذا الصندوق وخذ ما تشاء، ولا تعلمني بما أخذت، صار معه مرض بدمه، وصار في اتصال هاتفي بين المستشفى وبين البيت، والاتصال كان ليس له ولكن لابنه، رفع السماعة خطأً فعلّم أنّه قد بقي من حياته ثلاثة أيام، قال له: ثلاثة أيام أقصى شيء، هكذا سمعت، هذا الرجل أول يوم أنهى علاقاته المالية، في صفقات ألغى بعضها وأتم بعضها، ووكّل صديقه بمتابعة الأعمال، وثاني يوم ودّع أهله فرداً فرداً، أولاده، بناته، أصهاره، وثالث يوم اغتسل بنفسه، وله شيخ في الشام صالح، جاء شيخه وقرءوا أمامه ذكر، كما جاء في الهاتف ثالث يوم الساعة الواحدة فارق الحياة، أنا أخذت موعظة من هذه القصة، الإنسان إذا عمله طيّباً، ومستقيماً وله عند الله مكانة فالموت ليس صعباً، مرحباً بالموت.

لقاء النبي أعظم شيء عند النبي الكريم:

النبي الكريم خُيّر بين أن يكون مخلداً في الحياة الدنيا، بين أن يؤتى زهرة الحياة الدنيا، وبين أن يلقى الله، قال: بل الرفيق الأعلى، ولما قال الله عزّ وجل:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (3))

(سورة النصر)

قال: هذه السورة تعزية النبي عليه الصلاة والسلام، انتهت رسالته.

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (3))

بطولتك أن تضحك عند لقاء ربك:

ذكرت سابقاً الإنسان أحياناً يولد، كل من حوله يضحك من فرحهم، هو يبكي وحده، أما إذا جاءه ملك الموت كل من حوله يبكي، فإذا كان مؤمناً وعرف سرّ الحياة، وعرف حقيقة حياته الدنيا، وعرف ربه يضحك وحده، أي أن بطولتك أن تضحك وحدك حينما يبكي الناس عليك، أن تضحك وحدك، البطولة أن تكون آخر من يضحك.

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

(سورة المؤمنون)

الله عزّ وجل قال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

البطل هو الذي يضحك آخر الأمر، والمؤمن يضحك، يضحك حينما يلقى الله عزّ وجل، ضحك السرور، ضحك الفرح، ضحك الاستبشار.

الموت راحة للمؤمن:

في بعض الآثار النبوية، أن المؤمن يرى مقامه في الجنة حينما يغادر الدنيا، فيقول: لم أر شراً قط، كل ما ساقه الله له من مصائب يراها محض خير، لم أر شراً قط، فالوجه المشرق للموت، الموت للمؤمن مسعد، الموت راحة، النبي رأى جنازة قال:

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا.....))

(متفق عليه عن أبي قتادة الأنصاري)

انتهى كل شيء أنت مكلّف به، انتهى الشيء الذي تراه متعباً.

مثل بسيط لو طالب فرضاً درس عاماً دراسياً بجهد كبير، وسهر إلى ساعة متأخّرة من الليل، وحَرَم نفسه كل شيء، فنال أعلى درجة، فساعة إعلان النتائج يأتيه سرور ينسيه كل تعبه.

وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ: آية لها عدة معان:

1 ـ اجتماع شدة الحياة و شدة الآخرة على الميت:

(وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29))

(سورة القيامة)

كلمة ساق تعني الشدة، شَمَّرَتِ الحرب عن ساقها، عن شدتها، قال: اجتمع على هذا الميت شدة الحياة الدنيا وشدة الآخرة، في أشخاص يتوهمون إذا شخص متفلِّت ومرض مرضاً عضالاً، يظنون الآن يموت ويستريح، لا لم يستريح، إلى تعبٍ أشد، من شدةٍ إلى شدة، من شدة الدنيا إلى شدة الآخرة.

(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29))

أي اجتمع على هذا الميّت شدة الدنيا وشدّة الآخرة هذا معنى.

2 ـ ضُم ساقي الميت إلى بعضهما بعضاً وشدهما:

والمعنى الثاني: الميّت حينما يُغَسّل تُرْبَطُ رجلاه، أنا مرة شاهدت تغسيل ميت، فلما انتهى من تغسيله المُغَسِّل ولفّه بالكفن، جاء بقطعة قماش طولية غمسها في الماء وشد بها رجليه (القماش إذا بلّ بالماء يتماسك) شدّ بها رجليه شداً عنيفاً.

(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29))

إما اجتمعت عليه شدة الدنيا مع شدة الآخرة، أو ضُمّت ساقاه إلى بعضهما بعضاً وشدت، صار لا يوجد مشي الآن انتهى، فلا يستطيع أن يقوم ليمشي يموّه، يتنزّه، يتحرك.

(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29))

الرجوع إلى الله تعالى بأعمالك كلها:

إلى أين ؟

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30))

(سورة القيامة)

يا ترى الذي أنت ذاهبٌ إليه أطعته ؟ الذي أنت ذاهبٌ إليه نصحت عباده ؟ الذي أنت ذاهبٌ إليه أكلت مال عباده ظُلماً ؟ الذي أنت ذاهبٌ إليه أخفت عباده بلا حق ؟ الذي أنت ذاهبٌ إليه كنت عبئاً على عباده أم كنت رحمةً لهم ؟ كنت مضلاً أم هادياً ؟ كنت مُحسناً أم مسيئاً ؟ كنت منصفاً أم جاحداً ؟ كنت رفيقاً أم جبّاراً ؟ هذا الذي أنت ذاهبٌ إليه كل هؤلاء الخلق عباده ماذا فعلت معهم ؟ هل غششتهم ؟ ابتززت أموالهم ؟ انتهكت أعراضهم ؟ روّعتهم؟ أخفتهم ؟ إلى أين ؟.

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30))

(سورة القيامة)

مسكين.

عدم تصديق الإنسان للدين و إعراضه عنه:

(فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31))

لا صَدّق بهذا الدين ولم يتصل بالله عزّ وجل، والدين تصديق وصلاة، التصديق عقيدة، والصلاة عبادة، الدين معرفة وطاعة، لا صدّق بهذا الدين ولا اتصل برب العالمين.

(وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32))

(سورة القيامة)

مُشَكِّك لا يعتقد أن هذا الدين يَصلُحُ لهذا الزمان، لا يعتقد بأحد صالح، دائماً يظنُّ السوء، يُشَكِك بكل عمل طيب، يُبَخِّس كل عمل طيّب، يُكَذِّب.

(وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32))

أي تكذيب وإعراض، نشاطه الفكري تكذيب، حالته النفسية إعراض.

الحديث عن الدنيا عمل كل إنسان بعيد عن الله:

تجد شخصاً يجلس معك ثلاث ساعات، الحديث في الدنيا تجده يقظاً، نشيطاً، متألِّقاً، عيونه زئبقيّات، تتكلم معه عن الله تجده يقول لك: هل تسمح لي ؟ أول كلمة عن الله تجده يتثاءب وينام، بالدنيا عن الأسعار، العملات، البيوت، الأجهزة الإلكترونية، ماذا فيها من مسجدات ؟ تجده صحيان، شاطر، احكي له بالآخرة صار يكذب.

(فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32))

ممكن يمضي ساعات طويلة في شؤون الدنيا ولا يتحمّل درساً طويلاً، ولا صلاة طويلة.

(فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32))

شيء مخيف هناك عشرات الناس يموت وهو ليس مصلي، سمعت عن شخص مات في بلد عربي ترك ثلاثة آلاف مليون، ما صلى فرضاً في حياته، وكان ببلد الحرمين ولم يحج ولا اعتمر، مات في الفندق، وفي سن ليس متقدماً بالخمسينات تقريباً.

(فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32))

هناك إنسان يموت وهو يصلِّح الدش.

(فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33))

(سورة القيامة)

الكبر سبب غفلة الإنسان عن مصيره:

الإنسان أحياناً يغفل عن مصيره، يعيش لحظتَهُ، صحة طيبة، أكل، بيت جميل، امرأة جميلة أمامه، مكانة، مرتبة، حديثه فيه عجرفة، حديثه فيه غطرسة، حديثه فيه كبر، جلسته فيها كبر، إذا جلس في كبر، إذا قاد مركبته فيه كبر، إذا تحدث من طرف أنفه.

(فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33))

لا يحترم الآخرين، النبي عليه الصلاة والسلام ما رئي ماداً رجليه قط بين أصحابه، متواضعاً، دخل مكة فاتحاً، دخلها مطأطئ الرأس، كادت دُؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزّ وجل، والله المؤمن جلسته فيها أدب، لو اضطجع في أدب، حديثه في أدب، الله أكرمني، الله فَضّل علي، الله سمح لي، الله وفّقني، يقول لك الآخر: أنا، لحم فلان من خيري، خير إن شاء الله، أنا متفضل على فلان، إذا أراد أن يتكلم، لولاي أنا لكانت الكلاب شحطته، كل ذلك كلام فارغ، كلام فيه كبر، أنا أعيل ثمانية أشخاص، الله المعيل أنت معال معهم.

الويل للإنسان المتعجرف مما ينتظره:

(ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33))

(سورة القيامة)

تمطي بالكبر، حديثه كبر، جلسته كبر، إن حَدّث فعن نفسه، عن رحلاته، عن زياراته، عن إنفاقه الشديد، الرحلة كلفته كذا ألف، وهذا العُرس كلّفه كذا مليون، والعريس ألبس ابنته خاتم بثمانمئة ألف مثلاً، هذا هو حديثه، كبر، وفخر، واختيال على الناس.

(ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35))

(سورة القيامة)

الخطر قريب منك، الخطر على مرأى البصر.

(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34))

أي ويلٌ لك مما ينتظرك، لو شخص راكب سيارة ونازل نزلة شديدة، والمكان جميل، والنسيم عليل، ثم اكتشف أنه لا يوجد معه مكبح، وينتهي الطريق بمنعطف حاد، يقول لك: انتهينا.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

(سورة التكاثر)

(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35))

(سورة القيامة)

محاسبة الإنسان محاسبة دقيقة يوم القيامة:

الآن دققوا:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

هل من الممكن أن تلعب على الناس ؟ تغتصب أموال الناس ؟ تنتهك أعراض الناس ؟ تظلم الناس ؟ تضغط على الناس ؟ تخوّف الناس ؟ وما في شيء أبداً، لا يوجد إله يحاسبك ؟ ما في سؤال وجواب أبداً؟ هذا بالأرض مستحيل، جامعة مكلفة ألف مليون ما في امتحان ؟ ما في إنسان يحاسب ؟ الله عزّ وجل يقول:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

معنى ذلك أنك مؤمن بالعبثية، قوي وضعيف، الله مَلّك الضعيف للقوي، غني وفقير، الغني يَحَار في إنفاق الأموال. قال لي أحد الأشخاص زوجته عندها غرفة أربع حيطان من الأرض إلى السقف كلها (كنادر) مكتبة كنادر كلها، مال لا تأكله النيران، هناك حمامات في إسبانيا مساحتها أربعمئة متر، بيت قصر، في حمام، في بيوت ضمن غابات، في مركبات، في سيارات، في طائرات، من دون حساب ؟!!

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

ما في تكليف، ولا في حساب ؟!.

إعجاز القرآن في خلق الإنسان:

(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37))

(سورة القيامة)

ألم يكن حوين منوي واحد من بين خمسمئة مليون حوين، حوين واحد ذهب إلى البويضة ولقّحها، وخرج من عورة ودخل في عورة وخرج من عورة.

(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37))

علامَ الكبر ؟ ألم يكن طفلاً ؟ ما كان لا يضبط نفسه ؟ كم فلقة أخذ من أمه ليضبط نفسه وهو صغير ؟

(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(39))

(سورة القيامة)

وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

آيات نفي العبثية:

أيها الأخوة: آيتان في كتاب الله تنفيان العبثية، الأولى هذه:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

والآية الثانية:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

الجواب:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

الجواب:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

الجواب:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

الجواب:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

الجواب:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(سورة الإنسان)

الجواب:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: آية " 77 ")

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية " 40 ")

عدم استواء المؤمن مع الفاسق يوم القيامة:

في حساب:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

هذا هو الجواب:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

الخوف من دعوة المظلوم:

أيها الأخوة الكرام: القرآن كلّه جواب لهذا التساؤل:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

(أخرجه ابن عساكر عن البراء)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

(سورة سبأ)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

تظلمها وتطلقها وتأخذ لها مالها (ليس لها أحد) هكذا ؟ ألا يوجد حساب ؟ الذي خلقها نساها ؟ يوجد ظلم كثير، الظلم يأتي من الجهل، من جهل الظالم، أن هذا المظلوم له رب، لذلك: اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، فليس بينه وبين الله حجاب.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

القصاص في الدنيا قبل الآخرة:

صدقوني أيها الأخوة أخ كريم أقسم بالله وهو يركب مركبة في طريق من الطُرق، سائق المركبة رأى كلباً صغيراً على طرف الطريق في أيام الشتاء والزفت دافئ والتراب بارد (الزفت لونه أسود يمتص حرارة) جالس هذا الكلب الصغير على طرف الطريق، فاستطاع سائق هذه السيارة أن يقطع رجليه فقط بمهارة عالية جداً، لم يدسه كله، داس يديه فقط، قص يديه، هذا الرجل يقسم بالله العظيم أنه بعد أسبوع في اليوم الذي يشبه هذا اليوم قال لي: كان يوم السبت وقتها، السبت التالي في المكان نفسه، الذي فعل هذا بهذا الكلب تعطّلت مركبته فأحد عجلاتها يحتاج إلى تبديل، قال لي: رفع المركبة بالرافعة وسحب البراغي وأمسك بالعجلة ليأخذها من مكانها ليضع مكانها عجلة أخرى، الرافعة تعطّلت وقعت السيارة على الدولاب والعجلة على رُسُغَي يديه، فسحقتا، إلى أن وصل إلى المستشفى اسودت يداه فلا بدّ من قطعها، من السبت إلى السبت، هذا الكلب الصغير الذي يجلس على الطريق أليس له رب ؟ له رب، أنا أقول لك على مستوى كلب على مستوى هِرّة:

((عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

(رواه البخاري عن عبد الله بن عمر)

على مستوى هرة، هناك عقاب شديد، فما قولك فيما فوق الهرة ؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

لكن الناس لا يعرفون الله عزّ وجل، يغشون غشاً شديداً ويدفعون الثمن باهظاً.

خلق الإنسان على أجمل صورة:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38))

علقة (دم متجَمِّد)، ثم صار إنساناً، صار في دماغ، في شعر، عينان جميلتان، خدّان أسيلان كما يقولون، أسنان بيضاء، لسان طليق، يدان، مفاصل، رُسُغ، أصابع، جذع، قلب، رئتين، معدة، أمعاء، كبد، غدد صمّاء، أعصاب عضلات، حركة.

(فَخَلَقَ فَسَوَّى (38))

جميل الصورة، فانظر إلى بيت من دون إكساء وهو على الإسمنت لا يحتمل، أما بعد الكسوة ؛ دهان، ورخام، وبلاط، وثريات، وسجاد، فالإنسان من دون جلد مخيف، طبعاً في بناء داخلي عظيم، بعد ذلك في جلد جميل.

(فَخَلَقَ فَسَوّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالْأُنْثَى (39))

انظر إلى الزوجة، بُنيتها، شكلها، طباعها، كمال في وظيفتها، وبنية الرجل، وطباعه، وأجهزته، كمال في وظيفته.

بعث الإنسان يوم القيامة للحساب:

(أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40))

بلى، الله عزّ وجل خلقنا وسيعيد خلقنا.

(وَهُوَ الّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ)

(سورة الروم: آية " 27 ")

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15))

(سورة طه)

العاقل من عرف ما بعد الموت:

لذلك لا تكون عاقلاً، ولا ذكياً، ولا فالحاً، ولا ناجحاً، ولا موفّقاً، ولا فائزاً إلا إذا عرفت الله، وعرفت ما كلّفك الله به، وعرفت هذا اليوم الذي لا بدّ من أن تغادر به الدنيا، وعرفت ما بعد الموت، أما أن نعمل للحياة الدنيا، فالقضية سهلة العالم كله يعمل للحياة الدنيا، العالم كله يعمل لهذه السنوات المحدودة، فماذا بعد الموت ؟ أعظم بلاد العالم، أجمل بلاد العالم فيها مقابر، معنى هؤلاء الذين عاشوا في هذه البلاد الجميلة، واستمتعوا بخيراتها، وبأجهزتها، وطائراتها، وسيّاراتها، وبإدارة الأعمال فيها، ماتوا ودفنوا فيها، الموت مصير كل حي، وأتَمَنّى على كل إنسان أن يدخل الموت في حسابه اليومي، كان أحد الصالحين ينام في قبر يتلو قوله تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

يقول لنفسه: قومي لقد أرجعناكِ. كل إنسان لا بدّ من أن يغادر، أجمل شيء إذا الإنسان أعد للموت الإعداد الكافي عندما يأتي لا يفاجأ به، مهيئ نفسه، وا كربتاه يا أبت، قال: **لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه.**

التذكير بالآيات السابقة:

فيا أيها الأخوة: هذا المقطع الأخير من سورة القيامة دقيق جداً.

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39))

(أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40))

(سورة القيامة)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإنسان 076 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-3 الثواب و العقاب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-05-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الأول من سورة الإنسان:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

معاني الآية:

هل حرف استفهام قد تأتي للتقرير، وقد تأتي للنفي

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

أي لقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً (هذا استفهام تقريري بمعنى: قد)، وقد تأتي هل بمعنى الإنكار، هل جحدت لك حقك ؟ لم تجحد لي حقي، هل قصرت في واجبي ؟ لم تقصر في واجبك، فإما أن تأتي هل استفهام تقريري بمعنى قد، وإما أن تأتي هل استفهام إنكاري بمعنى لا.

قال علماء التفسير: هذه بمعنى قد، يعني استفهام تقريري(أي لقد أتى)كل شخص له عمر من الأخوة الكرام الحاضرين، لو رجعت إلى الوراء إلى أكثر من تاريخ ميلادك، إنسان ولد بالثلاثينات، بالأربعينات، بالخمسينات، ارجع عشر سنوات إلى ما قبل تاريخ ميلادك، هل كان لك وجود ؟ هل كان لك ذكر ؟ هل أحد يعرفك ؟ هل أحد يفكر فيك ؟ أنت مخلوق حادث، لم تكن من قبل، لم يكن لك وجود، لم يكن لك ذكر، لم يكن لك اسم، لم يكن لك خطر، لا أحد يعرفك، ولا أحد يذكرك، ولا أحد يعلم بوجودك، لم تكن بالأساس، فالمخلوق حادث، فالذي خلقك ولم تكن من قبل شيئاً، هل هو لا يقدر على أن يعيد خلقك مرة ثانية ؟

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

لقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

النعم التي أنعم الله بها على الإنسان:

1 – نعمة الإيجاد:

أحياناً إنسان يتصفح كتاب، يفتح صفحته الأخيرة أو الأولى فيرى أنه قد طبع سنة كذا، إذا كان هذا العام يسبق ميلاده في أثناء صف أحرف هذا الكتاب، في أثناء طبعه أين كنت أنت ؟ الله عز وجل تفضل عليك بنعمة الإيجاد، هذه من أعظم النعم، هذه من أجل النعم أوجدك

(لم يكن شيئاً مذكوراً)

لماذا أوجدك ؟ أوجدك ليسعدك، أوجدك ليرحمك، أوجدك لجنة عرضها السماوات والأرض.

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119))

(سورة هود)

هذه آية قطعية الدلالة، كل بني البشر خلقوا ليرحمهم الله عز وجل في الدنيا و الآخرة، وما المصائب التي تحل بالبشر إلا لأنهم خالفوا منهج الله عز وجل.

الإنسان هو المخلوق الأول:

الإنسان مخلوق متميز، الإنسان مخلوق أول والدليل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72))

(سورة الأحزاب)

أنت في رأس قائمة المخلوقات، لأن الأمانة عرضت على السماوات والأرض أبين أن يحملنها، أشفقن منها، وحملتها أنت، وقلت أنا لها، أنا لها، أنا لها، فلما قَبلت حمل الأمانة سخرت لك السماوات والأرض.

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13))

(سورة الجاثية)

أيهم أكرم على الله المسخر أم المسخر له ؟ المسخر أقل من المسخر له، الكون كله مسخر لك لأنك قبلت حمل الأمانة.

ما الأمانة التي قبل الإنسان حملها:

ما الأمانة ؟ نفسك التي بين جنبيك، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

الأمانة أن تأتي إلى الدنيا، وأن تزكي نفسك لتكون مؤهلة لجنة الله عز وجل، أصل الخلق للجنة، لدار النعيم، لدار القرار، لدار الخلد، لدار التكريم، لدار التشريف، لدار لهم ما يشاءون فيها، لدار قطوفها دانية، لدار جنات تجري من تحتها الأنهار، لدار وحور عين مخلوق للجنة، لا تعب، ولا نصب، ولا برد، ولا حر، ولا مرض، ولا قهر، ولا فقر، ولا خوف.

((قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ،

فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

ثمن الجنة:

هذه الجنة الأبدية، ثمنها أن تأتي إلى دنيا محدودة، سنوات معدودة، أيام وليالي، وتطيع الله فيها (الطاعة محدودة، والعطاء لا نهاية)، تطيعه في سنوات محدودة، وتستحق جنة الله اللا محدودة، ما حرمك من شيء، ولكن نظم لك الشهوات، حينما قبلت حمل الأمانة

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

حمل الأمانة أن تزكي نفسك، أن تؤهلها للجنة، كيف ؟

مقومات التكليف:

1 - الكون:

بادئ ذي بدء أن تعرفها بالله، فالكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى، الكون كله تعبير عن عظمة الله عز وجل، فقد قال تعالى:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101))

(سورة يونس)

ما الذي يدلك على الكون:

1 ـ خلق الله:

خلق الله يدلك عليه، خلق الله يدلك على أن لهذا الكون إله موجود واحد، كامل، يمكن أن تجمع كلمات الله الحسنى بكلمات ثلاث إله عظيم، موجود، واحد، كامل، الكون أحد مقومات السفينة، لأنه ينطق بوجود الله.

وفي كل شيء له آيـــة تدل على أنه واحـــد

***

2 ـ ما حولك من أشياء:

طعامك وشرابك، نفسك التي بين جنبيك، جسمك، ما حولك من أنهار، من أمطار، من جبال، من سهول، من وديان، من بحار، من بحيرات، طعامك، أنواع النباتات، أنواع الحيوانات، أنواع الأطيار، أنواع الأسماك، أنواع الكواكب، المجرات، الليل، النهار، الشمس، القمر، كل ما حولك، ينطق بوجود الله، ينطق بوحدانية الله، ينطق بكمال الله.

3 ـ العقل:

حينما قبلت حمل الأمانة سخر الله لك السماوات والأرض، وجعل السماوات والأرض تنطق بوجوده، ووحدانيته، وكماله.

ما قيمة السماوات والأرض من دون جهاز إدراكي ؟ أودع فيك قوة إدراكية هي العقل، كرمك بالعقل، وكل إنجاز حضاري، تدهش منه، يأخذ بلبك، إنما هو ثمرة متواضعة من ثمرات العقل، لكن الإنسان الذي شرد عن الله عز وجل يستخدم عقله لغير ما خلق له، يستخدمه للدنيا، العقل خلق في هذا الإنسان ليكون أداة معرفة الله.

مبادئ العقل:

مبادئ العقل تتناسب مع مبادئ الكون و هي:

1 ـ مبدأ السببية:

العقل في مبدأ السببية لا يمكن أن يفهم شيئاً بلا سبب.

2 ـ مبدأ الغائية:

أي عقلك لا يمكن أن يفهم شيئاً بلا غاية.

3 ـ مبدأ عدم التناقض:

العقل لا يقبل التناقض.

هذه مبادئ العقل الثلاثة، وهذه المبادئ الثلاثة هي هيكل الكون الأساسي، نظام السببية، نظام الغائية، نظام عدم التناقض، فإذا أعملت عقلك في الكون، هداك بلطف إلى وجود الله، كل شيء له سبب، من سبب وجود هذا الكون ؟ الله جل جلاله، كل شيء له غاية، لماذا خلقنا ؟ سخر لك الكون، منحك العقل.

3 ـ الفطرة:

ثم أعطاك فطرة ؛ هذه الفطرة نفس مبرمجة على الخير، مبرمجة على الطاعة، جبلتها أن تعرف الله، وأن تطيعه، وأن تركن إليه وأن تحتمي به، وأن تلجأ إليه، فكل نفس خرجت عن فطرتها تعذبت سمي هذا العذاب كآبي، سمي هذا العذاب تأنيب ضمير، سمي هذا العذاب شعور بالنقص، سمي هذا العذاب شعوراً بالذنب، مسميات أسماء لمسمى واحد، الفطرة أحد مقومات التكليف أعطاك كوناً، وأعطاك عقلاً، وأعطاك فطرة.

4 ـ الشهوة:

ثم أعطاك شهوة، هي المحرك إلى الله، لولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات، يوجد ميول و يوجد غرائز و يوجد شهوات، بعضها مسموح به، بعضها محرم، عملية ضبط هذه الأهواء وفق منهج الله.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: 50)

المعنى المخالف: لو أنك أتبعت هداك وفق هدى الله لا شيء عليك، أودع فيك الشهوات لترقى بها، تارة صابراً، وتارة شاكراً إلى الله عز وجل، لولا الشهوات لما كان هناك جنات، لولا الشهوات لما كان هناك قربات، لولا الشهوات لما كان هناك درجات عند الله، بقدر ما أودع فيك الشهوات، بقدر ما ترقى عند الله، أعطاك الكون، أعطاك العقل أعطاك الفطرة، أعطاك الشهوة.

5 ـ حرية الاختيار:

ثم منحك الله حرية الاختيار ليثمن عملك، فلو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، لو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو تركهم هملاً لكان عجزاً بالقدرة، فالله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل الكثير، فأنت مخير، وعاقل، وذو فطرة عالية، و أودعت فيك الشهوات، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14))

(سورة آل عمران)

6 ـ الشرع:

ثم فوق كل ذلك أعطاك ميزاناً علمياً (العقل)، و أعطاك ميزاناً نفسياً (الفطرة)، و أعطاك ميزاناً مركزياً لا يخطئ (هو الشرع)، فالحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، أعرض ميزان عقلك على الشرع، أو أعرض ميزان عاطفتك على الشرع، فإن توافقا فهو الحق والصواب، وإن اختلفا كن مع الشرع ولا تكن مع العقل، لأن العقل قد يضل، ولأن العقل كالعين لا معنى له من دون وحي يهتدي به، كما أن العين لا معنى لها من دون نور تهتدي به.

7 ـ القوة:

ثم أعطاك قوة من أجل أن تحقق اختيارك فيما يبدو، أعطاك قوة تتحرك، تصلي، تذهب إلى مجلس علم، تتكلم، تتصرف، قوة، واختيار، وشهوة، وعقل، وفطرة، وكون، وشرع، هذه مقومات التكليف هذه مقومات التكليف.

لذلك:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

لقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

الحدث الخطير في حياة الإنسان:

أيها الأخوة: الحياة رحلة، لها بداية ولها نهاية، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، كل واحد من أخوتنا الحاضرين له عمر، كيف مضت الأربعون عاماً ؟ الثلاثون عاماً ؟ العشرون عاماً؟ الخمسون عاماً ؟ الستون عاماً ؟ ويمضي ما تبقى، وفجأة ترى نفسك أمام حدث خطير، حدث مغادرة الدنيا.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2))

(سورة الملك)

بدأ بالموت لأن الحياة أمامك آلاف الاختيارات، أما الموت لا بد من سلوك أحد الطريقين طريق إلى الجنة أو طريق إلى النار،

((فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

الخيار صعب جداً، أنت في الحياة في بحبوحة و اتساع، هناك آلاف الحرف، هناك إنسان غني وفقير وبينهما آلاف المراتب، هناك إنسان عالم وجاهل وبينهما آلاف المراتب، هناك إنسان قوي وضعيف وبينهما آلاف المراتب، خيارات واسعة جداً، أما عند الموت إما إلى جنة أبدية يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفد عذابها، لا يوجد خيار طريقان لا ثالث لهما، مصيران لا ثالث لهما، نتيجتان لا ثالث لهما جنة أو نار.

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107))

(سورة آل عمران)

نَعَم الجنة:

1 ـ فيها ما تلذ الأعين و تشتهي الأنفس:

قال تعالى:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31))

(سورة النحل)

2 ـ النظر إلى وجه الله الكريم:

قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

3 ـ أن تنال رضوان الله و محبته:

وفوق هذا وذاك:

(وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72))

(سورة التوبة)

في مكان، وجمال، ونبات، وحور عين، و ولدان مخلدون هي الجنة الحسية، و يوجد جنة أرقى منها أن تنظر إلى وجه الله الكريم، و جنة أرقى من هذه وتلك أن يشعرك الله أنه يحبك، وهو راض عنك، وهذا أثمن شيء يصل الإنسان إليه من دون استثناء، أن تصل إلى رضوان الله، إلى أن يرضى الله عنك، إلى أن يقربك.

عذاب النار:

1 ـ شدة العذاب في النار:

النار والعياذ بالله، حدث ولا حرج.

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً(56))

(سورة النساء)

2 ـ البقاء و الخلود فيها:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنّكُمْ مَاكِثُونَ (77))

(سورة الزخرف)

3 ـ تمني الموت:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

معاني لم يكن شيئاً مذكوراً:

1 – في وقت من الأوقات ليس للإنسان أي وجود:

أيها الأخوة الكرام:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

كل واحد منا له تاريخ ميلاد، وقبل هذا التاريخ لك يكن شيئاً مذكوراً، لا أحد يعرفه، لا أحد يذكره، ليس له وجود، ليس له ذكر، ليس له اسم، ليس له هوية، ليس له اسم بالجدول، أنت موظف لك اسم بالجداول، لك اسم بدائرة النفوس، يوجد معك هوية، أي لا يوجد إنسان ليس له هوية، أما في وقت من الأوقات ليس لك وجود إطلاقاً، هذا معنى.

2 ـ نسيان من سهل له الخروج من بطن أمه بعد أن كان شيئاً منسياً:

يوجد معنى آخر: المعنى الآخر:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ)

لما كنت صغيراً، طفل يرضع من ثدي أمه، طفل توضع له الفوط، طفل لا يفقه شيئاً، لا يعلم شيئاً، ضعيف التفكير، ساذج، فطري، بعد ذلك أصبح ذا شأن كبير، معه شهادة علمية عالية جداً، أو له حجم مالي كبير جداً، أو يحتل مركزاً مرموقاً جداً، نسي أنه قد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، عظماء العالم كانوا أطفالاً، وحينما كانوا أطفالاً لا أحد يعبأ بهم، عظماء العالم كلهم، كانوا أطفالاً، فحينما كانوا أطفالاً كانوا بحاجة ماسة إلى ثدي أمهم، إلى من تنظفهم، إلى أب يرعاهم، إلى أب يأتيهم بالطعام ليأكلوا، إلى طبيب يعالجهم، إلى رعاية مكثفة من أمهم أو أبيهم، فلما أصبح إنساناً كبيراً، إنساناً

ذا خطر، إنساناً ذا مكانة، ذا حجم مالي كبير، نسي طفولته، ونسي أصله، وتغطرس على عباد الله، نسي أصله وطفولته، واستعلى على عباد الله.

نسي أصله وطفولته وبنى مجده على أنقاض الناس، أو بنى غناه على إفقارهم، أو بنى حياته على موتهم، نسي الذي خلقه، نسي الذي صوره في بطن أمه، نسي الذي سهل له السبيل (الخروج) من بطن أمه.

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20))

(سورة عبس)

منعكس المص عند الإنسان:

نسي الذي هداه الثديين، نسي الذي أعطاه منعكس المص، لولا منعكس المص لما كنا في هذا المسجد، لما رأيتم واحداً على وجه الأرض منعكس المص، الطفل بمجرد أن يولد من دون تعليم، من دون توجيه، من دون أن يخضع لدورة، من دون أن يقرأ كتاباً، يضع شفتيه على ثدي أمه، ويحكم إغلاقهما ويسحب الهواء، عملية معقدة، لو أن هذا المنعكس لم يكن مع هذا الصغر، وأراد الأب من ابنه الذي يولد لتوه أن يعلمه كيف يمص ثدي أمه، تفضل علمه، اعمل له دورة، قل له باللغة العربية يا بني ضع شفتيك على ثدي أمك وأحكم إغلاقهما ثم اسحب الهواء، من أجل أن تعيش، لولا هذا المنعكس الذي أودعه الله فينا لما رأيتم على وجه الأرض إنساناً.

بعد ما كبر صار شخصية مرموقة حجمه المالي ثلاثمائة مليون، يحتل منصباً رفيعاً جداً، يحمل أعلى شهادة، نسي الله، ونسي أنه من نطفة، ونسي أنه كان صغيراً، ونسي أنه يرضع من ثدي أمه، ونسي كيف كان يملأ الفراش صباحاً، هذا كله نسيه ونظر إلى معطفه، وإلى مركبته، وإلى ما على كتفيه، أو إلى منصبه الرفيع، أو إلى حجمه المالي، أو إلى مكتبه التجاري، أو إلى صفوته، أو إلى جماعته، أو إلى أتباعه:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

الإمام الشافعي يقول كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي.

آيات الله في الإنسان:

أحد الخلفاء الكبار الذي كان إذا نظر إلى سحابة يقول لها: اذهبي أينما شئت يأتيني فرجك، سأل مرة وزيره، أو سأله وزيره يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا منع عنك ؟ قال بنصف

ملكي، قال: فإذا منع إخراجه ؟ قال بنصف ملكي الآخر، كل ملكه لا يساوي كأس ماء، وأجهزتكم الدقيقة في أجسامكم آية من آيات الله.

أهمية الهرمونات في جسم الإنسان:

لو تعطل جهاز، لو اختل هرمون واحد (الغدة الدرقية تفرز اثنا عشر هرموناً) الهرمون الواحد لو تعطل لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، من هذه الهرمونات:

1 - هرمون النمو:

لولا هذا الهرمون لكان الناس أقزاماً.

2 - هرمون الجنس:

فلولاه لما كان هناك رجل وامرأة، الغدة النخامية ملكة الغدد.

3 - هرمون توازن السوائل:

لولا هذا الهرمون لأمضيت الوقت كله في شرب الماء وطرحه، لا تستطيع أن تفعل شيئاً، قد يشرب الإنسان خمسة براميل ماء ويطرحهما هي وظيفته، شرب وطرح لولا هذا الهرمون الذي لا يرى بالعين.

والغدة النخامية تفرز اثنا عشر هرموناً ووزنها نصف غرام، وهي ملكة الغدد.

4 - هرمون الاستقلاب:

من هذه الهرمونات هرمون الاستقلاب، هي التي تأمر الغدة الدرقية بالعمل (الدرقية خطيرة جداً) تحول الغذاء إلى طاقة، هذا الاستقلاب تحويل الغذاء إلى طاقة، لو تعطل هذا الهرمون لرأيت الناس كسالى أوزانهم تزيد، ونشاطهم يقل، لو أفرزت زيادة عن المعقول لا تنام الليل يوجد نشاط ليس له حدود.

فبالتوازن الدقيق بين هرمون الدرقية الذي يثبت النخامية، وهرمون النخامية الذي يثبت الدرقية يتمتع الإنسان بالحياة المنعشة، ينام، يتحرك، يأكل، يزداد الوزن، أو يقل الوزن، فالإنسان حينما ينسى أن

أصل من نطفة خرجت من عورة ودخلت إلى عورة وخرجت من عورة، وكان صغيراً لا يضبط نفسه، ولا ينطق، ولا يتكلم، ولا يمشي، شيئاً فشيئاً صار شخصاً.

هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً:

ليس له أي قيمة، الآن عظماء الناس لهم احترام كبير، لهم طقوس كبيرة جداً، إذا ذهبوا إلى مكان تطلق لهم المدافع، يحيّون بسلم من حرس الشرف، وتنشد الأناشيد، هؤلاء كانوا صغاراً، إذا شخص أعطاه الله شيئاً، أعطاه منصباً رفيعاً، أعطاه علماً، أعطاه طلاقه لسان، أعطاه مالاً، أعطاه زوجة، أعطاه أولاداً، أعطاه خبرة تجارية، أعطاه اختصاصاً معيناً، أعطاه ذكاء، أعطاه طلاقه لسان لا ينسى أصله، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2))

المورثات و عملها:

نطفة، ما هي النطفة ؟ حوين، الرجل يفرز باللقاء الزوجي خمسمائة مليون حوين، تحتاج البويضة إلى حوين واحد، هذا الحوين له غلاف، له هيلولة، لو نواة، على النواة مورثات، الآن شغل العالم الشاغل الهندسة الوراثية، كم مورث ؟ وَاللهِ لا أعلم، سمعت أرقاماً كثيرة، سمعت رقم خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، على النوية التي في الحوين المنوي، وسمعت مليون وسمعت مائة ألف، إلى أن الشيء الثابت إلى الآن اكتشف ثمانمئة مورث.

أية صفة ثانوية في الجسم يقابلها مورث، مورث الكولسترول، مورث الاستقلاب، مورث اللون، مورث الشعر، يعني الإنسان مبرمج برمجة دقيقة، فمورثات البويضة مع مورثات الحوين المنوي يجتمعان ويختلطان ويشكل الجنين من أقوى المورثين، وهذا من نعمة الله الكبرى، يعني الحوين فيه نقطة ضعف بالاستقلاب، مورث الاستقلاب في الأنثى قوي، القوي يغلب الضعيف، فيأتي الجنين بصفات أحد الأبوين، أما في الاستنساخ الشيء لا يكون، لا يوجد بالاستنساخ

(مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ)

في طقم واحد، فالخطأ يتكرر.

الاستنساخ:

يزعمون أنهم صنعوا إنساناً عن طريق الاستنساخ، مئات المحاولات سبقتها، ومئات الحالات الشاذة والمنحرفة ظهرت معهم، أما حينما وصلوا إلى شكل مقبول هو الذي ذكروه، فكلمة

(مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ)

هذه تنفي الاستنساخ، لأنه في ذكر وفي

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2))

جعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه، أعطاك الله سمعاً، بإمكانك أن تسمع الحق.

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

أعطاك العين لترى بها آيات الله عز وجل.

وأعطاك الأذن لتسمع بها، كلام الله عز وجل.

أعطاك سمعاً وبصراً من أجل أن يبتليك بهما، إن السمع والبصر، وإذا جاء الفؤاد مع السمع والبصر فهو العقل.

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

(سورة الإسراء)

محاسبة الله تعالى للإنسان:

إن هذا الذي يستخدم الحواس لمعصية الله، يستخدمها في المعاصي و الآثام، لا في الطاعات والقربات، ينظر إلى عورات المسلمين لا إلى آلاء الله عز وجل، يستمع إلى ما فحش من الكلام، وإلى الغناء لا إلى آيات الله تتلى عليه

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2))

لأن الله جعلك بصيراً سيحاسبك.

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106))

(سورة المؤمنون)

بل إن الله سبحانه وتعالى يسمع الحق.

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51))

(سورة القصص)

الله عز وجل قال:

(إِنّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

على إذا جاءت مع لفظ الجلالة تعني الإلزام الذاتي، الله عز وجل ألزم نفسه بالهدى، قضية الهدى على الله.

(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23))

(سورة الأنفال)

لو في الإنسان ذرة خير لأسمعه الله الحق.

(وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9))

(سورة النحل)

وعلى الله بيان سبيل القصد إليه، السبيل الموصل إلى الله على الله بيان السبيل

(وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السّبِيلِ)

العلماء قالوا: وعلى الله بيان سبيل القصد إلى الله.

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69))

(سورة العنكبوت)

الإنسان مخير بمعرفة الحقيقة:

ولكن الإنسان مخير، مخير بمعنى أنه إذا أراد الحقيقة اتخذ قراراً بالبحث عن الحقيقة، أي شيء يدله على الحقيقة، الأقدام تدل على المسير، لا يحتاج إلى حاسوب، ولا إلى مجهر، ولا مرصد، ولا إلى مخبر، ولا إلى كتب، ولا إلى ترجمات، الأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، والبعرة تدل على البعير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا تدلاني على الحكيم الخبير ؟

البحث عن الحقيقة:

إن اتخذ الإنسان قراراً بالبحث عن الحقيقة، أي شيء يدله على الله، كأس الماء عينه سمعه، لسانه، قلبه، جسمه، عظامه، عضلاته، طعامه رغيف الخبز أمامه، كأس الحليب أمامه، الدجاجة، البقرة، الفواكه النباتات الشمس، القمر، إن أردت الحقيقة كل شيء يدلك عليها، وإن لم ترد الحقيقة، قد تحمل أعلى شهادة بالطب، وقد تحمل أعلى شهادة في الكيمياء والفيزياء، وقد ترى من أسرار الكون ما لا يراه

معظم الناس، وترى من أسرار البحار ما لا يراه معظم الناس، وترى من أسرار النبات ما لا يراه معظم الناس، ومع ذلك لا تعرف الله ولا تطيعه، لأنك ما أردت الحقيقة.

مثلاً: ائتِ بأرخص آلة تصوير بسيطة جداً، لا تغير فتحة، ولا تغير سرعة، ولا تقريب ولا إبعاد، أبسط آلة، أرخص آلة، علبة فيها عدسة، هذه الآلة مع الفيلم تعطيك صورة، وائتِ بأرقى آلة تصوير ثمنها ثمانمئة ألف، بلا فيلم لا تعطيك شيئاً، فإذا كان الإنسان ذكياً جداً معه شهادات عالية جداً، وأتيح له أن يرى أسرار الكون، ولم يطلب الحقيقة لا يرى شيئاً، وإنسان بثقافة متواضعة جداً، بمعلومات أولية، بأشياء بسيطة، إن أراد الحقيقة يصل إليها، ولا تنسوا مثل آلة التصوير أرخص آلة مع فيلم تعطي صورة، وأغلى آلة بلا فيلم لا تعطي شيئاً لذلك:

(خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44))

(سورة العنكبوت)

إن أردتم الإيمان.

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

(سورة البقرة)

إن أردت التقوى هذا الكتاب يهديك.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللّهَ كَثِيراً (21))

(سورة الأحزاب)

معنى الهدى:

قضية الهدى قضية دقيقة جداً، لخصتها في هذا الكلام: إن أردت الهدى كل شيء يدلك عليه، ولا بد من أن تصل إليه، وزوال الكون أهون على الله من ألا تصل إليه، إن أردت الهدى أردت الحقيقة، والحقيقة واحدة، الحقيقة لا تتعدد، والحق لا يتعدد، إن أردت الحقيقة أنت وأردتها أنا لا بد من أن تلتقي بها.

الخصومات بين الناس:

كل أنواع الخصومات، كل أنواع التفرقة بين البشر بسبب أنهم ما أرادوا الحقيقة أرادوا المصلحة، أرادوا الدنيا، الدنيا تفرق، والحقيقة تجمع، لو أنهم أرادوا الحقيقة لاجتمعوا، وتوحدوا، وتكاتفوا، وتعاونوا، وتناصروا وتضامنوا، وقهروا أعداءهم، أما لأنهم أرادوا الدنيا، الدنيا فرقتهم وجعلتهم شيعاً وأحزاباً، وجعلتهم ممزقين.

(وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ (46))

(سورة الأنفال)

الحق يجمع والباطل يفرق، الباطل مكاسب مادية، والمكاسب المادية لا يمكن أن تتوزع بالتساوي، كل يريدها كلها له، تنشأ الخصومات، أما الحق قيم، مبادئ، هذه توزع بالتساوي على الناس أجمعين، لا تبتعد كثيراً، اجلس مع أصدقائك في سهرة، حدثهم عن الدنيا، النفوس تضطرب، هذا حدثنا عن رحلته، وكم أنفق على هذه الرحلة، يوجد شخص فقير بين الحاضرين يشعر بالحقد، هذا تحدث عن منجزاته أوتي حظاً عالياً، كان له منجزات، هذا ما عنده منجزات، لو أنك تحدثت عن الله عز وجل لاجتمعت القلوب، فالحق يجمع والدنيا تفرق، الحق يؤلف والدنيا لا تؤلف، قال تعالى:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2))

طريق الهداية:

الآن:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

أي دللناه على أول الطريق

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ)

و على الله الهدى

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

الله عز وجل تكفل بذاته العلية أن يبين لنا السبيل

(إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

فالإنسان مخير، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً بالقدرة، الإنسان مخير.

جيء برجل شارب خمر لسيدنا عمر قال أقيموا عليه الحد، قال: وَاللَّهِ إن الله قدر عليّ ذلك ؟ قال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأن افترى على الله، قال: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار، والذي يعتقد بالجبر يعتقد اعتقاد فاسداً باطلاً لا أصل له:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ)

هو

(إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148))

(سورة البقرة)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

(سورة الأنعام)

الآيات المحكمات و الآيات المتشابهات:

قال علماء التفسير: هذه الآية أصل في اختيار الإنسان:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

وقال علماء الأصول: الآية محكمة، الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلت.

كيف الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلت ؟ أي إذا قلت القمح مادة خطيرة، ما معنى هذا الكلام ؟ يعني قنبلة ؟ لا ! ماذا أقصد بخطيرة ؟ إذا قلت بعد قليل القمح مادة أساسية في حياة الإنسان، معنى خطيرة هي كلمة متشابهة (تحير) فإذا قلت القمح مادة أساسية في غذاء الإنسان.

إذاً: كلمة خطيرة تعني أنها مادة أساسية، فالآيات المتشابهة لو أننا شممنا من آية أن الله أجبرنا على الضلال مثلاً قوله تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)

هذه الآية المحكمة تفسر كل الآيات المتشابهة، بل إن الإضلال إذا عزي إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري يؤيد هذا قوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5))

(سورة الصف: 5)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

ملاحظة هامة:

ملاحظة: شاكر اسم فاعل، وكفور اسم فاعل لكن مبالغ به، كافر وكفور، و يوجد شاكر وشكور، لو أن الله إما شكوراً وإما كفوراً لا يوجد مشكلة، لو قال إما شاكراً وإما كافراً، لا يوجد مشكلة، أما لماذا قال شاكراً من دون مبالغة وكفوراً بصيغة المبالغة ؟ قال بعض العلماء: الإنسان لن يستطيع أن يشكر الله مهما فعل، لأن عطاء الله لا يكافأ، فأعلى إنسان شكر الله اسمه شاكر، النبي الكريم الذي جاء الحياة فأعطى ولم يأخذ، عاش ثلاثة وستين عاماً في الدعوة كلها لله، وفي تحمل المتاعب، وفي تجشم المصاعب، ومع ذلك اسمه شاكر، أما الكفور حينما تتغافل عن نعمة الله العظمة أدنى تغافل فهذا مبالغة بالكفر، يعني الأم لو قلت لها أف لكنت عاقاً، أف، لأنها هي موجودة من أجلك، كل عملها من أجلك، فلا ينبغي أن تقول لها كلمة أف.

الشاكر و الكفور:

مهما شكر الإنسان ربه لا يمكن أن يكون شكره مساوياً لنعم الله عز وجل فجاءت شاكراً، وأما الكفور أي لو أنك تركت فرض صلاة.

أعظم إنسان شكر الله يسمى شاكراً، لأن إنساناً ما في الكون لا يستطيع أن يوفي فضل الله حقه، يوجد قصة على ذمة الروايات أحد الصحابة الكرام اسمه عبد الله بن رواحة يعينه النبي قائد ثالثاً في مؤتة، الأول سيدنا زيد، والثاني سيدنا جعفر، والثالث عبد الله بن رواحة، فأول قائد أمسك الراية بيمنه وقاتل بها حتى قتل (استشهد سريعاً)، أخذها جعفر سريعاً فحمل اللواء قاتل به حتى قتل، جاء دور ابن رواحة كان شاعراً تردد ثلاثين ثانية قال:

يا نفس إلا تقتـــلي تموتي هذا حمـام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضـــيت و إن توليت فقد شقيـــت

* * *

وأخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، النبي عليه الصلاة والسلام جاءه الوحي وهو في المدينة قال:

((أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل وإني أرى مقامه في الجنة، ثم قال وأخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل وإني أراه في الجنة يطير بجناحين))

فسمي جعفر الطيار، (وهناك مشروع إن شاء الله إن شاء مسجد بالمطار اسمه جعفر الطيار يتناسب مع المطار)، ثم سكت النبي فسكوت النبي أقلق الصحابة على الصحابي الثالث، قالوا يا رسول الله ما فعل عبد الله ؟ قال:

((ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله فقاتل بها حتى قتل وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه))

تردد ثلاثين ثانية ببذل حياته، فأنت أمام فضل الله عز وجل مهما بذلت لا تقدم شيئاً، أما أقل معصية معنى هذا أنت في كفر شديد.

لذلك سيدنا عمر سأل سيدنا حذيفة بن اليمان (أمين سر رسول الله) قال له: بربك هل اسمي مع المنافقين ؟ عملاق الإسلام من شدة خوفه من الله سأل هذا السؤال، هذا بعض ما قاله العلماء حول إما شاكراً من دون مبالغة وإما كفوراً مع المبالغة، وقال بعضهم الشاكرون قليلون، وأما المنحرفون كثيرون.

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116))

(سورة الأنعام)

(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13))

(سورة سبأ)

الوفاء بالعهد:

حينما أرى حول الكعبة المشرفة حجاج بيت الله الحرام وهم بالملايين، يقفون عند الحجر الأسود، ويتجهون نحوه، ويرفعون أيديهم، ويقولون: بسم الله، الله أكبر، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، و اتباعاً لسنة نبيك، وعهد على طاعتك، فإذا عادوا إلى بلادهم، عادوا كما ذهبوا، لهذا قال الله تعالى:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102))

(سورة الأعراف: 102)

ما أكثر ما يعاهد المسلم ربه ثم ينقض العهد ثم يقع في الحرام ثم يأكل المال الحرام ثم يغتاب، أما البطولة حينما قال الله عن سيدنا إبراهيم قال:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37))

(سورة النجم)

نبي آخر:

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (43) وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ(44))

(سورة ص)

فالله عز وجل إذا أطلع عليك من أنت ؟ هل أنت عند عهدك ؟ هل يراك الله صابراً ؟ هل تستحي من الله ؟ عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة ؟!

هل كلما قرأت هذه الآية

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

تذكر عهد الله ؟ أنت حينما عاهدته على الطاعة تعاهد خالق الكون، لا تأخذك لومة لائم، امض بما أردت

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإنسان 076 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 4-10 الإخلاص في العمل لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-05-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام مع الدرس الثاني من سورة الإنسان، ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً (4))

خلق الإنسان ليس عبثاً:

أيها الأخوة الكرام: أن يتوهم الإنسان أن هذه الدنيا تنقضي وينقضي معها كل شيء هذا جهل كبير، إن الله عز وجل يقول:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

يعني تتحرك وتستعلي، وتأخذ ما ليس لك، وتعتدي، وتتبجح، وتقول أنا وأنا، وتنتهي الحياة، وينتهي معها كل شيء، هل تقبل أن يعيش إنسان في أعلى درجات الخوف، وإنسان ثاني في أعلى درجات الطمأنينة، وتنتهي الحياة هكذا، من تصفية حسابات، إنسان يعاني من أشد أنواع الفقر، وإنسان يكاد لا يعقل كم ينفق من الأموال وتنتهي الحياة بلا تصفية حسابات ؟ إنسان مغتصب لأموال الآخرين وإنسان مقهور وتنتهي الحياة بلا تصفية حسابات ؟ هذا هو العبث بعينه لابد من يوم آخر تسوى فيه الحسابات، لابد من يوم آخر ينتصر فيه المظلوم، لابد من يوم آخر ينتصر فيه الفقير، لابد من يوم آخر ينتصر فيه المستغل، أن تأتي إلى الدنيا وتكذب على الناس وتحتال عليهم وتقتنص أموالهم بقوة منك، أو بحيلة منك، أو بمركز منك، وتنتهي الحياة هكذا لا شيء بعد الموت، هذا هو الجهل بعينه.

تسوية الحساب يوم القيامة:

الحياة الدنيا تعقبها الحياة الآخرة، يعقبها يوم تسوى فيه الحسابات، يعقبها يوم يحاسب فيه الظالمون.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

لذلك قمة العقل، وقمة الذكاء، وقمة الفلاح، وقمة النجاح، أن تدخل هذا اليوم في حساباتك اليومية، بل في حساباتك الساعية، بل في كل حركاتك و سكناتك، كلما تقف موقفاً هذا الموقف هل أحاسب عليه ؟ هذا الموقف هل يرضي الله ؟ هل أدفع الثمن باهظاً يوم القيامة ؟ هل أستحق النار من أجله ؟.

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللّهم عَنْهمَا، عَنِ النّبيّ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ قالَ دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النّارَ فِي هِرّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ))

[أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما واللفظ له]

فإذا كانت امرأة استحقت النار في هرة، فما قولك فيما فوق الهرة ؟

لذلك أيها الأخوة: أقل ذرات العقل، أقل إدراك عقلي صحيح العبثية تتناقض مع وجود الله

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

مستحيل،

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ)

مستحيل، لابد من يوم يحاسب فيه الإنسان حساباً دقيقاً.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

عذاب الكافر يوم القيامة:

الآية الأولى في هذا الدرس:

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ)

تقيد بها أرجلهم

(وَأَغْلَالاً)

تقيد بها أيديهم، ثم يقذفون في النار

(وَسَعِيراً (4))

هذا كلام خالق الكون، وكلما ارتقى إيمانك ارتقى تصديقك لكلام الله، تقول أنت صدق الله العظيم، هذا كلام خالق الكون.

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، مرة خاطب نفسه قال: **يا نفس لو أن طبيباً حذرك من أكلة تحبينها**، لا شك أنك تمتنعين ـ وأنتم جميعاً وأنا معك لو قال الطبيب دع الملح، وطعم الطعام لا يطيب إلا بالملح، تترك الملح حفاظاً على ضغطك ـ يا نفس لو أن طبيباً حذرك من أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين عنها ـ دقق ـ أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً فما أكفرك، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد

الله ؟ إذاً ما أجهلك، الذي يعصي الله مدموغ بالكفر والجهل، أما خالق الكون وسوف تقف بين يديه، وسوف يسألك.

محاسبة الإنسان لنفسه:

لو أن إنساناً اصطاد عصفوراً لغير مأكله، عصفور صغير، قتله ما أكله، يأتي يوم القيامة وله دويٌ تحت العرش، يقول يا رب سله لما قتلني ؟ فإذا المرأة قالت لله عز وجل سله لما طلقني ؟ لما ظلمني ؟ لما حرمني الطعام ؟ لما طردني في منتصف الليل وأنا أخدمه وأرعى شؤونه ؟ وإذا قال الشريك يا رب لما أخرجني شريكي خارج المحل وأنا أسست هذه الشركة ؟ لما جعلني أموت جوعاً أنا وأولادي ؟ من أجل أن يستأثر بحظه من هذه الشركة، إذا أيقنت أن كل مظلوم سوف يقف بين يدي الله عز وجل ليأخذ منك حقك حتى الغيبة والنميمة التي قد يقول الإنسان ما عملنا شيئاً فقط تكلمنا.

قال أحد العلماء الكبار التقيت برجل، فقلت له: بلغني أنك اغتبتني قال له: ومن أنت حتى أغتابك، لو أنني مغتاب أحداً لاغتبت أبي وأمي لأنهم أولى بحسناتي منك ؟ كلام دقيق، لو أنني مغتاب أحداً لاغتبت أبي وأمي لأنهما أولى بحسناتي منك، أنت تظن القضية هكذا تتحدث عن إنسان كلاماً غير صحيح، في افتراء و في كذب وأنت مرتاح، ما في شيء، هكذا الأمور تمشي.

أعرابي لم يدرس شريعة ولا فقه ولا أصول ولا حديث ولا عقيدة ولا تفسير، قال للنبي الكريم عظني ولا تطل، قال له:

((فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره فقال له كفيت))

هذه تكفي، القرآن الكريم ستمائة صفحة، آية واحد كفت هذا الأعرابي، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقه الرجل.))

وَاللّهِ أيها الأخوة هناك آلاف الآيات و كل آية وحدها تكفينا، وحدها لو لم تعلم من الدين كله إلا هذه الآية لكفت.

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (1))

(سورة النساء)

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19))

(سورة غافر)

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18))

(سورة الحاقة)

آية وحدة لو تدبرناها وعقلنها لكفتنا.

كان الأمام الشافعي يقول: **في القرآن سورة لو تدبرها الناس لكفتهم.**

(وَالْعَصْرِ (1) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ(3))

(سورة العصر)

الموت و الحساب نهاية الدنيا:

يعني اليوم الذي لا تزداد به علماً بالله عز وجل يوم خاسر، لو غلة المحل مئة ألف، خمسمئة ألف، بعت بمائة مليون، اليوم الذي لا تزداد به علماً بالله عز وجل يوم خاسر، اليوم الذي لا تزداد فيه قرباً من الله عز وجل يوم خاسر، ورد في بعض الأدعية، لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً، لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قرباً، فلذلك أن الحياة فيها الغني والفقير، فيها القوي والضعيف، فيها الظالم والمظلوم، فيها المستغل والمُستغل، فيها المُعتدي والمعتدى عليه، فيها المغتصب والمغُتصب، وتنتهي الحياة هكذا ؟! ما في شيء بعد الحياة ؟! هذا هو الجهل بعينه.

الوقوف بين يدي الله عز وجل:

قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللّهُ الْمَلِكُ الْحَقّ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ رَبّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ(116))

(سورة المؤمنون)

فتعالى الله أن يفعل هذا.

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنّ رَبّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

اقرؤوا القرآن أيها الأخوة:

(وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلّوهُ (30) ثُمّ

الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللّهِ الْعَظِيمِ (33))

(سورة الحاقة)

يوجد حساب، هناك وقفة بين يدي الله عز وجل، سمعت قصة وقعت في الشام إنسان مضطر إلى ثلاثمئة ألف ليرة، لم يجد أحداً يقرضه إياها، عرض على أحد الأغنياء أن يكتب له مزرعة يملكها كرهن مقابل هذا القرض، فقبل، كتبت هذا المزرعة في السجلات الرسمية باسم هذا المقرض، وبعد سنوات، توافر المبلغ الذي اقترضه فذهب إليه ليعطيه المبلغ، قال له: لا، كل واحد حقه معه، مزرعة ثمنها ملايين، قال له كل واحد حقه معه، من شدة الألم أصيب بأزمة قلبية وقارب أن يموت، فكلف ابنه وهو على فراش الموت أن يكتب رسالة قال له فيها: أنا ذاهب إلى دار الحق، وسأقاضيك هناك، فإن كنت بطلاً فلا تلحق بي، قال له امشِ بالجنازة إلى دكان هذا الرجل (محله التجاري) قد يكون بطرف المدينة، سر بالجنازة إلى أمام دكانه وقِفوا قليلاً وناوله هذه الرسالة وأنا في النعش، يروى أن هذا الإنسان الغني لما قرأ الرسالة في اليوم الثاني أرجعها إلى الورثة.

يوجد حساب دقيق، سوف تقف بين يدي الله عز وجل، لتسأل عن أقل الأشياء، لما اغتصبتها ؟ لما أكلتها ؟ لما غششت الناس ؟ لما غششت المسلمين في طعامهم وشرابهم ؟ قدمت لهم طعاماً فاسداً ؟ وضعت في الطعام مواداً تؤذي صحتهم ؟ من أجل أن تحقق أرباحاً طائلة ؟

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

ازدياد علم الإنسان يؤدي لازدياد خوفه:

كلما ازداد علمك ازداد خوفك من الله، وأشد الناس خوفاً من الله عز وجل هو رسول الله، قالوا يا رسول الله مثل بهم هؤلاء الذين مثلوا بعمك حمزة ؟ قال و الله لا أمثل بهم كي لا يمثل الله بي ولو كنت نبياً، لولا أني خشيت القصاص لأوجعتك بهذا السواك، فكلما ازداد علمك ازداد خوفك

(إِنّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً (4))

أوصاف أهل النار:

(خُذُوهُ فَغُلّوهُ (30) ثُمّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلّا الْخَاطِئُونَ (37))

(سورة الحاقة)

هذه أوصاف أهل النار، شيء ينخلع له القلب، إياك أن تظن أنه كلام، هذا كلام رب العالمين، زوال الكون أوهن على الله من ألا يقع كلام رب العالمين

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ)

لمن كفر بالله، لمن ابتعد عنه، لمن تبع شهوته، لمن بنى مجده على أنقاض الناس، لمن بنى غناه على فقرهم، لمن بنى حياته على موتهم، لمن بنى أمنه على خوفهم

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً (4))

قال بعض علماء التفسير السورة في مجملها تتحدث عن أهل الجنة، فلذلك جاء الحديث عن أهل النار موجزاً، آية وحدة

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً(4))

من هم الأبرار ؟

(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5))

من هم الأبرار ؟ الأبرار جمع البر.

من هو البر ؟ الذي أطاع الله عز وجل، في أدق التفاسير، البر هو الذي عرف ربه فأطاعه

(إِنَّ الْأَبْرَارَ)

هؤلاء الناس، هؤلاء المؤمنون الذين جاءوا إلى الدنيا وتفكروا في خلق السماوات والأرض، وعرفوا أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، إلهاً واحداً، إله كاملاً، وهذا الإله له حق عليهم أن يعبدوه.

حاجات الإنسان الدنيا و العليا:

هؤلاء المؤمنون الذين جاءوا إلى الدنيا، وطلبوا العلم، لبوا حاجاتهم العليا، المعرفة، معظم الناس يلبون حاجاتهم الدنيا، الطعام، والشراب، والنساء، المؤمنون الصادقون يلبون الحاجات العليا (المعرفة) معرفة الله، معرفة منهجه، التقرب إليه، بطاعته، قال:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ)

هؤلاء في نعيم مقيم، هؤلاء في جنة عرضها السماوات والأرض، هؤلاء في جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر إلى أبد الآبدين.

الحياة الدنيا أيها الأخوة اسم على مسمى دنيا، يعني إذا أخذت راحتك في الطعام تحتاج إلى نظام قاسٍ جداً يحرمك كل لذائذ الحياة، وخط الإنسان البياني يصعد، ثم يستقر، ثم ينزل، ثم يرد إلى أرذل العمر،

الإنسان يشيب شعره، يضعف بصره، تفسد أسنانه، تؤلمه مفاصله، ينحي ظهره، يشكو من تعب شديد، تضطرب معايير جسمه، هي الحياة يعني الإنسان كائن غالٍ على الله، إلا أنه سريع العطب، يعني ما في إنسان خالي من علة في جسمه، هذه العلة لحكمة بالغة أرادها الله من أجل ألا تطمئن إلى الحياة الدنيا، ألا تجعلها منتهى طموحك، محط رحالك، منتهى آمالك، هذا الدنيا تغر وتضر وتمر، والإنسان لا يستسهل هذه الحياة.

حتى يحقق الإنسان مصالحه المادية يكون في الأربعين و معترك المنايا بين الخمسين والستين، الآن معظم الناس، كلما مات إنسان اسأل عن عمره، يقول لك ثمانية وخمسون، سبعة وخمسون، واحد وخمسون، و الله صغير، تسعة وأربعون، خمسة وأربعون، يعني الإعداد أربعين سنة لعشر سنوات فقط، أنضيع الآخرة كلها من أجل سنوات معدودة ؟!

مقياس أهل الدنيا: المال و الصحة و الوقت:

سأذكر حقيقة ما لها علاقة بالمؤمنين هي لأهل الدنيا يعني لذائذهم وسعادتهم في مقاييسهم، تحتاج إلى ثلاثة عناصر، تحتاج إلى صحة، وإلى مال، وإلى وقت، والإنسان بكل مراحل حياته تنقصه واحدة دائماً، ففي أول حياته الصحة جيدة جداً والوقت مديد، لكن لا يوجد مال، المال مادة الشهوات، في منتصف حياته أسس مشروعاً المال متوافر، والصحة متوافرة لكن لا يوجد وقت، عمل دائماً عشرين ساعة باليوم، في خريف عمره يوجد وقت سلم أولاده كل شيء، يوجد وقت ومال وفير لكن لا يوجد صحة، كل ممنوع عنه، هكذا الحياة تغر وتضر وتمر.

معرفة المؤمن لربه تكون في مقتبل حياته:

أما المؤمن و الله له شأن آخر، و الله المؤمن لا علاقة له بهذا المثل إطلاقاً عرف الله في مقتبل حياته.

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162))

(سورة الأنعام)

سعيد بقربه من الله، لأن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، هي جنة القرب، ماذا يفعل أعدائي بي ؟

تجد شخصاً هو في بيت فخم، معه دخل وفير، والشهوات كلها أمامه، يقول لك أنا مللت من هذه الحياة، لا يوجد فيها شيء، المؤمن وهو في أصعب الحالات سعيد، المؤمن وهو في أصعب حالاته هو قمة السعادة.

سعادة المؤمن:

تصور إنساناً على وشك أن يصلب، سيدنا خبيب، تقدم منه أبو سفيان، ماذا بقي له ؟ بقي له من حياته ساعة، سيصلب، قال له أبو سفيان أتحب أن يكون محمد مكانك؟ ـ و الله أنا لا أشبع من ترداد جوابه ـ قال له: و الله ما أحب أن أكون في أهل وولدي ـ في بيته مع زوجته وأولاده ـ وعندي عافية الدنيا ونعيمها، العافية ما في مرض، ما في جوع، ونعيمها.

أحياناً الإنسان يضع باقة ورد أمامه، ويشتري مكيف، يتفنن بأنواع الفاكهة هي نعيمه، عندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة، ما هذه السعادة ؟

النبي عليه الصلاة والسلام تفقد أحد الصحابة ما وجده، سعد بن الربيع فكلف أحد أصحابه يتفقده بأرض المعركة، ذهب إلى أرض المعركة فإذا هو بين القتلى، لكن لم يمت بعد هو بالنزع الأخير، قال له: يا سعد هل أنت مع الأموات أو مع الأحياء ؟ قال له مع الأموات، قال له: إن النبي الكريم أرسلني إليك و يقرئك السلام، قال له: قل له (تصور إنساناً على وشك الموت)،**جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته**، هو يموت، معنى ذلك أنه في قمة السعادة، قال له: **وقل لأصحابه لا عذر لكم عند الله إذا خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف**، ما هذه السعادة وهو على فراش الموت ؟

طلب العلم فريضة على كل مسلم:

سألت أحد أخوانا الكرام (طبيب) قلت له: صف لنا حالة إنسان وهو يموت ؟ قال لي: أهل الدنيا يضربون وجوههم، يلومون أنفسهم، يبكون كالصغار تماماً ؛ لأن الموت عندهم مصيبة كبيرة جداً، من كل شيء، يا ليت إلى لا شيء، إلى كل شيء من العذاب، تعرض على الإنسان عند نزاعه الأخير أعماله كلها، عملاً، عملاً، وسيواجه الله عز وجل بكل أعماله، أما المؤمن ينتظر رحمة الله عز وجل.

لذلك عندما يطلب الإنسان العلم يعرف موضعه، لا شيء يعلو على طلب العلم أنت بالعلم تعرف من أنت ؟ وأين أنت ؟ من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ فالعلم يقدم لك حراسة بالغة، العلم يحرسك و أنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق.

(إِنَّ الْأَبْرَارَ)

الذين بروا ربهم أي أطاعوه، هنا بمعنى عرفوه فأطاعوه، وتقربوا إليه.

حال أهل الجنة:

(إِنّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5))

بالمناسبة أيها الأخوة لا أحد يعلم حال أهل الجنة، إلا ما جاءنا في هذا القرآن الكريم، وربنا عز وجل يصف لنا الجنة: فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لكن نحن في الدنيا، الله عز وجل خلق جمال، خلق بساتين، أشجار، مروج خضراء، جبال خضراء، سواحل بحار، ورد جميل، أطفال لهم صورة حسنة، هذا الجمال الذي أودعه الله في بعض مخلوقاته نموذجاً ليقرب لأذهاننا ما في الجنة من نعيم مقيم، قال:

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15))

(سورة آل عمران)

وصف جمال الجنة:

لكن الجنة في الآخرة غير كل ما في الدنيا من جمال، ليس بين الشيئين إلا الاسم المشترك، قال تعالى:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15))

(سورة محمد)

قال لك: أنهار من عسل مصفى، عسل الجنة غير عسل الدنيا.

قال لك: من لبن لم يتغير طعمه، لبن الجنة غير لبن الدنيا.

ليس من شيء يجمع بينهما إلا الاسم فقط للتقريب، لأنه لو لم يكن في الدنيا مظاهر جمالية، كلمة الجنة لا معنى لها، فربنا عز وجل جعل أشياء بالأرض جميلة، وحدثنا عن هذه الجنة العظيمة بكلمات نفهمها نحن، أي العرب كانوا في الجاهلية يشربون الخمر ويمزجونه بالكافور، من أجل نكهة طيبة، تقريباً لأذهانهم قال:

(إِنّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5))

يعني أعلى أنواع الشراب.

أحياناً الإنسان يشعر بعطش شديد والجو حار، يقدم له كأس شراب طبيعي، عصير فاكهة من الدرجة الأولى، طبعاً لا يوجد شيء يعلو عليه إطلاقاً، بارد محلى ونكهة الفواكه الطبيعية، فلذلك تقريباً للأذهان قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5) كافوراً)

يعني أعلى أنواع الشراب.

جزاء أهل الجنة:

(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (6))

قال علماء التفسير: يشرب بها أي يشرب منها

(عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا)

وفي بعض التفاسير أن هذه المياه العذبة الباردة المنعشة تدور معهم أينما داروا.

أحياناً يقول لك أحدهم هناك مشاريع مذهلة فالحجاج عندما ينتقلون من مكة إلى منى المياه كلها تنتقل معهم، وصلوا إلى عرفات فالمياه تنتقل معهم، يعني تركيبات دقيقة جداً، بحيث أن كل المياه التي هم بحاجة إليها تنتقل معهم من مكان إلى مكان، هذا حال أهل الجنة، يعني أينما ذهبت، عين الماء العذب السلسبيل إلى جانبك

(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ)

عباد الله الصالحين، الذين صلحت نفوسهم واستحقوا جنة ربهم

(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (6))

الوفاء بالنذر:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7))

النذر: ما أوجب الإنسان على نفسه ـ هذا هو النذر ـ فإذا كان موفياً بما أوجبه على نفسه، فلأن يكون موفياً بما أوجبه الله عليه من باب أولى، فالله أوجب علينا الاستقامة، أوجب علينا الصدق، أوجب علينا الأمانة، أوجب علينا العفة، أوجب علينا الإخلاص، أوجب علينا أن نصلي، أن نصوم، أن نحج، أن نعتمر، فإذا كان هؤلاء المؤمنون يوفون بالنذر ما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بالذي أوجبه الله عليهم ؟ هو من باب أولى، يعني هذا المؤمن صفته أنه يوفي ما عاهد الله عليه، لذلك هذه الآية من أدق الآيات:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)

الآن أكثر الحجاج أثناء الطواف إذا حاذوا الحجر الأسعد أو الأسود يقفون أمامه ويشيرون له بأيديهم ويقولون بسم الله الله أكبر، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، واتباعاً لسنة نبيك، وعهد على طاعتك، يعودون إلى بلدهم، الحاج الحقيقي هذا العهد ينبغي ألا يغيب عن ذهنه ولا لحظة، أنت عاهدت الله.

فالنبي عليه الصلاة و السلام جاءه صحابي جليل مهاجر قال له: **في أثناء الطريق ألقي القبض عليّ من قبل المشركين فعاهدتهم إن أطلقوني ألا أقاتلهم**، فرح به النبي عليه الصلاة والسلام، بعد سنة أو سنتين كان هناك غزوة فهذا الصحابي نسي العهد، فرح بالجهاد مع رسول الله فانخلط مع أصحابه، قال له:

((أنت ارجع، ألم تعاهدهم ؟))

إن العهد كان مسؤولاً، فهؤلاء المؤمنون الذين استحقوا جنة الله عز وجل

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)

أي هم يوفون ما أوجبوه على أنفسهم، ومن باب أولى ما أوجبه الله عليهم، لذلك قال تعالى:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102))

(سورة الأعراف: 102)

أما المؤمن كما قال عز وجل عن سيدنا إبراهيم:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37))

(سورة النجم)

أي أشرف موقف أن تكون عند عهدك مع الله عز وجل.

الوفاء بالعهد:

الإنسان لأن يسقط من السماء إلى الأرض فتتحطم أعضاءه، أهون من أن يسقط من عين الله، قد تكون فقيراً ـ والفقر ليس وصمة عار بالإنسان أبداً ـ قد تكون مريضاً، فالفقر ليس بمشكلة و المرض أيضاً ليس بمشكلة، لكن أن تسقط من عين الله هي المشكلة، أن تخون أمانتك، ألا توفي بما عاهدت الله عليه، ألا تكون عند عهدك لله عز وجل بطاعته فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

(سورة الصف)

بني إسرائيل قالوا:

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

(سورة البقرة: 93)

أما المؤمنون الصادقون:

(وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285))

(سورة البقرة: 285)

محاسبة الإنسان يوم القيامة:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7))

الشر المستطير ؛ المنتشر، المتفجر، أي يوجد مشكلات بالحياة الدنيا ينشأ عنها مشكلات، مشكلة متفجرة، يوجد مشكلات محدودة، تحاط، تطوق، تحدد، أما في مشكلة تتفجر، فهذا اليوم يحاسب الإنسان فيه عن كل شيء، تراجع كل الحسابات، تراجع كل القوائم، كل شيء فعله يراجع به، هذا اليوم يوم عصيب.

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(سورة الإنسان)

(يَوْماً ثَقِيلاً (27))

قال:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7))

يعني أخ كريم، قال لي اشتريت محضراً وأخذناه بالمزاد أي بطريقة أو بأخرى، أخذه بثلثي ثمنه، يعني دخل بالمزاد أشخاص خلبيون، رفعوا السعر قليلاً قليلاً، هذا الأخ قال لي ثم عرفت أن أصحاب هذا المحضر بعضهم أيتام، كيف أواجه الله يوم القيامة ؟ قال لي بماذا تنصحني ؟ قلت له إما أن تنسحب، وإما أن تعطي أصحابه الثمن الكامل، ولا تعبأ بهذه المزاودة أو المناقصة، وهذا الذي فعله، في قبر، أحياناً يكون القانون معك مائة بالمائة لكن بالقبر لا يوجد قانون، بالقبر يوجد شرع، القضية تحل معك هكذا.

جوهر الدين معرفة الحلال و الحرام:

قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ؟ قال له: هي ليست لي، قال له: قل لصاحبه ماتت، قال له: ليست لي، قال له: خذ ثمنها، قال له:**و الله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها مات أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق آمين، ولكن أين الله** ؟ هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين.

لو عندك مكتبة وعندك ألف شريط تسجيل وعندك إطلاع، وعندك ثقافة إسلامية واسعة وعندك، وعندك، وأكلت درهماً من حرام فأنت لا تعرف شيئاً، لا تقل أبالغ و الله لا أبالغ، قالت السيدة عائشة عن رجل خالف الشرع قولوا له إنه أبطل جهاده مع رسول الله لما ؟ في أكل مال حرام، في كذب، وفي غش واحتيال وعدوان، ضع صلاتك وصيامك وحجك في الحاوية وأنت مطمئن.

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ(54))

(سورة التوبة)

يصلي وينفق وهو عند الله كافر.

الصوم: رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش.

الصلاة: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً

الحج: إذا إنسان حج بمال حرام وقال: لبيك اللهم لبيك، يناديه منادي بالسماء لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك.

فالحج لا يفيد، و العمرة لا تفيد، و إنفاق المال لا يفيد مع المعصية، و الصلاة لا تفيد، و الصيام لا يفيد، يفيدك أن تطيع الله أولاً، عندئذ كل هذه العبادات ترقى بها، أما إذا كنت مقيماً على المعاصي أي بيتك إسلامي، وعملك إسلامي، الآن الصلاة تتوج بها هذه الاستقامة، أما إذا في مخالفات كبيرة جداً، هذه العبادات لا تقدم ولا تؤخر، هي فرض لا بد منها، ولكن لا تقدم ولا تؤخر.

أفضل الأعمال الصالحة:

1 ـ الوفاء بالنذر:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8))

2 ـ إطعام الطعام:

إطعام الطعام، النبي الكريم سئل أي الإسلام أفضل ؟ قال: إطعام الطعام، إطعام الطعام يؤلف القلوب، يجمع النفوس، لكن النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يجيب المتباريين يعني إذا الوليمة من أجل أن تفتخر، أن تعلو بها على الناس، هذه وليمة أريد بها الشيطان.

معاني إطعام الطعام:

أما إطعام الطعام من أعظم الأعمال الصالحة:

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ)

العلماء قالوا: هناك معنيان:

1 ـ إطعام عباد الله بدافع حبهم لله:

إما أنهم محتاجون إلى هذا الطعام ويحبونه، والوضع عصيب جداً، آثروا به الفقير هذا معنى، أو على حب الله عز وجل، الإطعام بسبب حبهم لله عز وجل

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً)

عاجزاً عن العمل،

(وَيَتِيماً)

لا يمكنه أن يكسب المال

(وَأَسِيراً (8))

ولو كان مشركاً واقع بالأسر.

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9))

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ)

أي حباً بالله عز وجل، بدافع حبهم لله، هؤلاء عباده الجائعون، بدافع حبهم لخالقهم يطعمون عباده، هذا المعنى الأول.

2 ـ إيثار إخوانهم على أنفسهم على الرغم من فقرهم:

المعنى الثاني: يؤثرون على أنفسهم ولو كان به خصاصة، هم في أشد الحاجة إلى هذا الطعام، لكنهم آثروا عليهم إخوانهم، على حبهم لهذا الطعام، وشدة حاجتهم إليه، يطعمونه

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً)

أي العاجز عن العمل،

(وَيَتِيماً)

أي الصغير الذي ليس له أب يغتني بغناه،

(وَأَسِيراً (8))

الذي أسر ولو كان مشركاً، إلا أن الأسير المشرك لا يعطى من الزكاة، يعطى من الصدقة لأن الزكاة تأخذ من الأغنياء المسلمين وترد على فقرائهم.

أما الصدقة يمكن أن ينفق منها لغير المسلمين:

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ)

لذلك الإخلاص ينفع معه قليل العمل و كثيره، أما عدم الإخلاص لا ينفع معه لا قليل العمل ولا كثيره.

الإخلاص لا يعلمه إلا الله، حتى الملك الذي على كتفك لا يعلم إخلاصك هذا بينك وبين الله

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ)

ابتغاء مرضاته،

(لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9))

لا نريد استحساناً ولا مدحاً ولا ثناء ولا أي شيء من هذا القبيل.

بعض المسلمين ـ أصلحهم الله ـ لا يدفعون إلا إذا وضعت على الجدار قطعة رخام عليه اسمهم، فأنت حينما قدمت هذا لله عز وجل، الله عز وجل يعلم كل أعمالك الصالحة.

الإخلاص ثمنه الجنة:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92))

(سورة آل عمران)

هو يعلمه، وسيعوض عليك أضعافاً مضاعفة، كن غنياً عن أن يقول الناس عنك أنك محسن كبير، كن غنياً عن ذلك، لأن هذا تقترب به إلى الإخلاص، والإنسان إذا نازعته نفسه حول إذا ما كان مخلصاً أو غير مخلص ليكتم عمله الطيب عن الناس، ليصلي في جوف الليل دون أن يقول لأحد، ليدفع صدقة لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، بهذا تنتصر على الشيطان، إذا قال: أنت تريد مديحاً، ثناء، ردّ عليه بهذه الطريقة

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9))

المؤمنون كثيرون لهم أعمال كالجبال، لا يعلمها أحد، فيما بينهم وبين الله عز وجل، وكلما كانت عامرة فيما بينك وبين الله استغنيت عن استلذاء المديح، استلذاء المديح مرض نفسي، بضعف الإخلاص تستلذي مديح الناس، تذكرهم بعملك، من أجل أن يمدحوك تذكرهم بفضل، بإحسانك، تذكرهم بطريقة أو بأخرى، من أجل أن يثنوا عليك، لأن ثناءهم عليك هو جزاؤك من هذا العمل، أما المؤمن يبتغي وجه الله، لذلك لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.

أعمال المؤمن الصادق:

سيدنا الصديق رَضِي اللّه عَنْه يعني له أعمال عظيمة لا يعلم بها أحد، له جيران ضعاف، فكان يحلب لهم الشياه، فلما صار خليفة المسلمين دخل الحزن على هؤلاء الجيران ـ مستحيل يتابع هذه الخدمة ـ في صبيحة اليوم الأول عندما تسلم منصب الخلافة، طرق باب أحد الجيران، قالت الأم لابنتها: افتحي الباب يا بنية، فلما رجعت قالت من الطارق ؟ قالت: جاء حالب الشاة يا أماه، وهو في قمة المجتمع الإسلامي، يحلب الشياه لجيرانه الضعاف، المؤمن الصادق له أعمال لا يعلمها إلا الله له أعمال جليلة بينه وبين الله، ولا يستطيع الشيطان أن يقول له: إنما تفعل هذا رياء الناس أبداً، الدليل: ما تكلم بها فيما بينه وبين الله.

إعلان الأعمال الصالحة إذا كان ذلك يشجع الآخرين:

أما إذا كنت واثقاً من نفسك والكلام عن الأعمال الصالح يشجع الآخرين لا يوجد مانع:

(إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271))

(سورة البقرة)

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10))

يوم القيامة يوم مخيف، هم:

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8))

وهم مخلصون بهذا العمل

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9))

لأننا:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإنسان 076 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 10-19 من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-05-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام مع الدرس الثالث من سورة الإنسان، ومع الآية العاشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10))

وصف يوم القيامة :

يوم تعبس فيه الوجوه، وقمطرير طويل.

أحياناً الموقف الحرج لا يطول، وأما إذا نام أياماً وأياماً، أسابيع وأسابيع، وشهوراً وسنوات هذا معنى قمطرير، أما عبوس يوم صعب.

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(سورة الإنسان)

يوم الحساب، يوم المحاسبة، يوم الجزاء، يوم التحقيق، يوم الإدانة، في الدنيا لا يحتمل، إنسان خارج عن القانون، ألقي القبض عليه، دخل في دوامة التحقيق، السؤال والجواب، عرف ما ينتظره إما شنقاً، وإما مؤبداً مع الأشغال الشاقة، هذا يوم صعب جداً، صعب مع إنسان، فكيف مع الواحد الديان ؟

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10))

لذلك هناك من يدعي أن الإنسان يكفيه أن يكون ضميره حياً، هذا الكلام ليس له معنى، فلن تستقيم على أمر الله إلا إذا عرفت أن كل حركة و سكنة تحاسب عليها، وسوف يحقق معك، وسوف تعرض أعمالك عليك، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها.

محاسبة الله تعالى للإنسان :

حينما تعلم علم اليقين أن الله يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، ثلاث كلمات وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ لو أيقن الإنسان يقيناً كيقينه بوجوده أن الله يعلم كل حركاته وسكناته، كل نواياه، كل مقاصده، كل بواعثه، كل أهدافه، أن الله يعلم ما أخفاه على الناس، لا تخفى عليه خافية، حينما يعلم أن الله يعلم، وأنه سيحاسب، وأنه سيعاقب، وأن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، وأن الحساب عسير، وأن العقاب طويل، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ انطلاقاً من حب الإنسان لذاته، ومن حبه لوجوده، وسلامة وجوده، وكمال وجوده،

واستمرارا وجوده، لن يعصي الله عز وجل، فلذلك هؤلاء المؤمنون لماذا آمنوا ؟ لماذا استقاموا ؟ لماذا أدوا ما عليهم من واجبات ؟ لماذا أعطوا ما في ذمتهم من حقوق ؟ لماذا عبدوا الله عبادة متقنة ؟ لماذا خافوا أن يأكلوا درهماً حراماً ؟ لماذا خافوا أن ينظروا نظرة لا تجوز ؟ لماذا ؟ لأنهم خافوا من ربهم

(يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10))

أي يوم الحساب.

الإيمان باليوم الآخر :

القضية قضية إيمان باليوم الآخر، إذا آمنا باليوم الآخر حلت كل مشكلاتنا، انطلاقاً من حبنا لذواتنا، انطلاقاً من أنانيتنا المفرطة لا نعصي الله عز وجل، إذا آمنا باليوم الآخر، إذا آمنت أن هذا الذي أمامك لو كذبت عليه، أو احتلت عليه، أو ابتززت ماله، أو أرعبته، أو أخفته، لتأخذ ما في يده، إن الله سيحاسبك عنه حساباً عسيراً، لا يمكن أن تفعل ذلك، أنت لاحظ نفسك مع شرطي، يرتدي بذلة حكومية قد تكون أقوى منه، قد تكون أقوى منه جسداً، وقد تستطيع أن تفعل به ما تشاء في مكان ما، لكن ستحسب حساب من هم أعلى منه، كيف سيحاسبونك ؟ كيف سيقتصون منك ؟ هذا هو الذي يحمل الناس على الاستقامة، الإيمان باليوم الآخر، إن الله يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب.

علم الله و حسابه و عقابه:

هذا الذي يعلم أن الله يعلم ويحاسب ويعاقب لا يظلم زوجته خوفاً من الله، لا يظلم أولاده خوفاً من الله، لا يظلمهم في الميراث، لا يظلم جيرانه، لا يغتصب شبراً من أرض فكيف من يغتصب بيتاً ؟ فكيف من يغتصب أرضاً ؟ فكيف من يغتصب شركة ؟ العبرة أن تعلم، درسنا ثلاث كلمات: إن الله يعلم وسيحاسب وسيعاقب، ولا يستطيع أحد أن يتفلت من حسابه، ولا من عقابه ؛ والعقاب إلى أبد الآبدين، وَاللَّهِ عز وجل يقول:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40))

(سورة فصلت)

ضبط الناس عن طريق القوانين:

الآن ما الذي يضبط الناس في حياتهم المدنية ؟ القوانين، ومع القوانين ما يسميه علماء القانون المؤيدات القانونية، قانون السير لا قيمة له إطلاقاً ما لم يدعم بمؤيدات، من يقود هذه المركبة بلا إجازة

يعاقب، يحاسب، يسجن، يدفع غرامة كبيرة، تصادر المركبة، لا يوجد قانون بالأرض إلا له مؤيدات قانونية، المؤيد هو الذي يحمل الناس على إتباع القانون، من الذي يدفع الناس إلى دفع الضريبة ؟ أنها تتضاعف ثلاثة أضعاف إن لم تدفعها في وقتها، ما الذي يمنع الناس ألا ينقلوا بضاعة غير نظامية ؟ نظام الجمارك تدفع ثمانية أمثال الثمن، هذه المؤيدات بها ينضبط الناس، في حياتهم المدنية، فما قولك بجهنم إلى أبد الآبدين، أي عقاب يوقعه إنسان لا قيمة له أمام هذا العقاب، أي عقاب يوقعه إنسان ليس بشيء أمام أن يدخل الإنسان النار.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً(56))

(سورة النساء)

فلذلك الآية الكريمة:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً)

يوم صعب وكل واحد منا من خلال خبرته بالحياة أمامه أيام عصيبة يقول لك: دخلوا لعندي و عندي بضاعة غير نظامية، تعرف المضاعفات و المؤدى و تفعل هذا ؟

يقول لك عملت حادثاً و لا أملك رخصة، تجده قد اختل توازنه، اصفر لونه، ارتعدت مفاصله، لأنه لا يملكه رخصة قيادة، ما معه إجازة، ما معه أوراق البضاعة، البضاعة غير نظامية، مع إنسان من جلدتك من بني جنسك، لكنه أقوى منك، وبإمكانك تخفي عنه بعض المخالفات، وبإمكانك أن تشتريه، وبإمكانك أن تصرفه، وبإمكانك أن تكذب عليه أما مع الله لن تستطيع أن تكذب، لن تستطيع أن تحتال، لن تستطيع أن تخفي، لا تخفى منكم خافية.

الإيمان باليوم الآخر يحمل الناس على الاستقامة:

أخوانا الكرام: الكلام المفيد، المجدي، الواضح، الدقيق: الإيمان باليوم الآخر وحده هو الذي يحمل الناس على الاستقامة، الإنسان لا يعد ذكياً إذا أخذ شيئاً ودفع مقابله أضعافاً مضاعفة، هذا شيء واضح في حياتنا.

مثلاً: إذا نقلت بالطائرة حاجات، ووجدت أن أجرة نقلها بالشحن الجوي أغلى من ثمنها لا تفعل كذلك، أحياناً تجد أن ثمن الكيلو غرام زيادة عن الوزن النظامي لك تدفع ثمنه بالعملة الصعبة، أغلى من ثمن البضاعة كلها لا تفعل ذلك.

بأمور الدنيا أنت عندك حساب دقيق، عندك حساب أرباح وخسائر ما ينبغي أن تفعل وما لا ينبغي أن تفعل، لماذا بأمور الآخرة تغفل الحساب الدقيق ؟

كل هؤلاء العباد عباد الله و الله معك، ويعلم ما تفعل معه، تحتال على إنسان، توهمه ـ طبعاً المهن الراقية فيها احتيالات كثيرة جداً ـ توهم المريض أنه يحتاج إلى عملية، الله يعلم أن هذا الكلام غير صحيح، توهم هذا الموكل أن دعواه رابحة وتعلم علم اليقين أنها خاسرة، توهم هذا الطالب أنه سينجح وهو لا ينجح من أجل أن تأخذ منه مبلغاً على كل درس، يعني هذا الذي يفعل شيئاً لا يرضي الله، كيف يتوازن لو علم أن الله يعلم ؟ وكيف يتوازن لو علم أن الله سيحاسب ؟

دقق: موظف له مدير قوي جداً وقاسي جداً ونظامي جداً وله عيون قبل أن يتحرك أي حركة، كيف سأجيبه لو سألني ؟ كيف سأخرج من سخطه لو حاسبني ؟ ماذا أبرر عملي لو عرف ذلك ؟ أنت مع إنسان منضبط، مع إنسان لا تحبه و لكنك تنضبط، لا تحبه وليس له فضل عليك ولم يمنحك الحياة ولم يمنحك شيئاً.

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه الآية دقيقة جداً:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10)قمطريراً)

جهز لربك جواباً قبل أن تلقاه:

نصيحة أخوية أنصح بها نفسي قبلكم: قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تتخذ قراراً، قبل أن تعطي، قبل أن تمنع، قبل أن تصل، قبل أن تقطع، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تزور فلاناً، قبل أن تعاديه، قبل أن تقطعه، هيئ جواباً لله عز وجل.

البائع مع الزبائن، والموظف مع المواطنين، والطبيب مع المرضى، والمحامي مع الموكلين، والمدرس مع الطلاب، لو أن هذا الطالب سألك يوم القيامة: يا رب لم يعلمنا شيئاً، أمضى الوقت بكلام فارغ، ما علمنا شيئاً، لو أن هذا المريض قال يا رب لم يعالجني لكنه أبتز مالي، لو أن هذا الموكل قال يا رب لم يدافع عني ولكنه أوهمني، لو أن هذا الشاري قال يا رب غشني، أخذ منا أضعاف ثمن هذه البضاعة، بماذا تجيب الله عز وجل ؟ لا تكون عاقلاً إلا إذا هيأت لله عز وجل جواباً عن كل حركة وسكنة، عن كل موقف، عن كل عطاء، عن كل أخذ، في بيتك محاسب، مع أولادك محاسب، مع زوجتك محاسب، مع جيرانك محاسب، إن لم تنصح المسلين محاسب، الدين نصيحة.

مواجهة الله عز وجل:

أنا أعرف بمعلومات متواضعة أن الدواء المنتهي مفعوله لا يؤذي، لكنه لا ينفع ثم تبين لي من خلال أخوة كرام أطباء، أن الدواء المنتهي مفعوله يؤذي لأن هذه المادة الفعالة تتفكك، وحينما تتفكك تنقلب إلى مادة سامة فهذا الذي يبيع دواء قد انتهى مفعوله، كيف سيواجه الله عز وجل ؟

هذا الذي يضع مواد مسرطنة في المواد الغذائية، من أجل أن يربح أكثر، أن يبيع أكثر، كيف سيواجه الله عز وجل ؟.

في معمل حلويات من أرقى المعامل في الشرق الأوسط، كان يصدر كل يوم طائرة مترعة بالحلويات إلى دول الخليج يومياً، طائرة مترعة (ممتلئة)، دخل صاحب المعمل إلى معمله، لم يعجبه عمل بعض العمال، فأمسك العجينة ووضعها على الأرض، وعركها بقدميه وحذائه، فقال له هذا العامل يا سيدي أيعقل أن تعركها بقدميك وحذائك ؟ فقال: الناس يأكلون من تحت قدمي، لم يمض ثلاثون يوماً على هذه الكلمة حتى أصيبت رجلاه معاً بالغرغرين، فقطعتا، أتعرف من تحارب ؟ كل شيء بيده، جسمك بيده، الغرغرين بيده، القلب بيده، الشرايين بيده، الدسام بيده، سيولة الدم بيده، الأعصاب بيده، العظام بيده، نمو الخلايا بيده، من حولك بيده، الله كبير.

الاستعلاء على عباد الله ثمنه جهنم:

هذا الذي يتحرك حركة عشوائية، يأخذ ما ليس له، يستعلي على عباد الله، يبتز أموالهم، يلقي في قلوبهم الرعب، أحياناً من أجل أن يجروا هذه العملية وهم لا يحتاجون إليها، من أجل أن يوكلوه ودعواهم خاسرة، من أجل أن ينجحوا أبناءهم، وأبناءهم في وضع سيئ قبل الامتحان، فهذا الذي يتحرك حركة لا ترضي الله ما الذي يحميه من الله عز وجل ؟

كم من إنسان أقسم يميناً غموساً أمام القاضي بعد ساعة كان مشلولاً، هم كثيرون، هذا الذي لا يخاف الله لا يعرفه ؛ ولو عرفته لارتعدت مفاصلك ارتعاداً شديداً.

إدراك الإنسان مرتبط بخوفه من الله:

حينما تتحرك لإيذاء أحد من خلقه، أحياناً إنسان يؤذي حيواناً، حيوان بريء بلا ذنب، عدواناً عليه فيصاب بمرض عضال فلذلك:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10)قمطريراً)

يوم مخيف وطويل، الذي يخاف هو الذي ينجو، والذي لا يخاف هو الذي يقع وعلى مستوى السير في المركبات، السائق الذي يخاف الحادث قلما يقع في الحادث، والسائق الطائش هو الذي يدفع الثمن باهظاً، لا يخاف فيقع في شر عمله، الخوف مرتبط بالإدراك، الذي لا يدرك لا يخاف، علامة إدراكك خوفك من الله:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10))

والإنسان حينما يخاف في الدنيا يطمئنه الله في الآخرة،

((لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، إن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة))

يعني مستحيل أن تخاف الله ثم يخيفك من عباده، مستحيل أن تخافه في الدنيا ويخيفك يوم القيامة.

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11))

النجاة من عذاب يوم القيامة:

إن الشعور بالنجاة شعور مسعد، الناس هلكى، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2))

(سورة الحج)

أن ينجو المؤمن من هول هذا اليوم، من عذاب هذا اليوم، من شدة هذا اليوم، من هول المطلع يوم القيامة، أن تنجو.

أحياناً إنسان مؤدي ما عليه تجاه القوانين، تأتي حملة هو يشعر براحة غير معقولة هو مواطن صالح، دافع الضريبة، أموره كلها صحيحة، تجده مرتاحاً، أنت مرتاح مع إنسان فكيف مع الله عز وجل ؟

(فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11))

وجه متألق، قلب مسرور، نظرة في وجوههم، و سروراً في قلوبهم.

علامات السعادة في الآخرة:

أحياناً الإنسان يكون أنيقاً، جميل الصورة لكن قلبه مظلم، وأحياناً يكون في راحة في قلبه، لكن يوجد كآبة في وجهه، أما كمال السعادة أن يكون القلب مسروراً والوجه متألقاً،

(فَوَقَاهُمُ اللّهُ شَرّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11))

، نضرةً بالضاد بالنضارة.

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنّةً وَحَرِيراً (12))

جزاء صبر الإنسان في الدنيا:

الدين كله صبر

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا)

غض البصر يحتاج إلى صبر، ضبط اللسان يحتاج إلى صبر، أن تكف أذنك عن سماع الغناء يحتاج إلى صبر، في أغنيات جميلة جداً، وفي نساء كاسيات عاريات، وفي حديث ممتع لكن فيه غيبة، فاللسان ينضبط صبراً، والعين تنضبط صبراً، والأذن تنضبط صبراً، وأن تكون قوياً ثم تخشى الله عز وجل فلا تستعمل هذه القوة إلا فيما يرضي الله، يحتاج إلى صبر.

أن تمشي إلى بيوت الله فقط، يوجد بيوت أخرى فيها أضواء، فيها جمال، فيها طعام، وفيها نساء كاسيات عاريات، أن تتجه إلى المسجد، وأن تأوي إليه، وآخرون يتجهون إلى الملاهي، إلى السهرات المختلطة، إلى الفنادق، إلى الحفلات، يمتعون أعينهم بالنساء الحسناوات، ويتحدثون من لغو الكلام، المؤمن يتجه إلى بيت الله، ليتعلم كتاب الله ليرضى الله عنه، يوجد فرق كبير جداً

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا)

إنسان يسكن في بيت أجرته مائة ليرة، والقانون معك وسلمته لأصحابه عن طيب قلب خوفاً من الله، والقانون يحميك أنت وزوجتك وأولادك إلى ما شاء الله

(إِنّا نَخَافُ مِنْ رَبّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10))

عندك بضاعة جاء من يشتريها ولا يعلم عيبها، فكشفت له العيب، هذا الشيء يحتاج إلى صبر الأسهل أن تبيعها دون أن تكشف العيب، وترتاح منها، وكأنها جبل على صدرك، يقول لك: أعطيناها لفلان، أين الله ؟ والقبر ماذا تفعل به ؟

(إِنّا نَخَافُ مِنْ رَبّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10) فَوَقَاهُمُ اللّهُ شَرّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11))

هذا الذي يخاف الله في الدنيا، هذا الذي يخشاه، هذا الذي يقف عند حدوده، ضابط أموره، نفسه طوع بنانه، هو قائد على نفسه وليس مقوداً لها، قال تعالى:

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (12))

المباحات في الآخرة:

1 – الحرير:

الحرير في الدنيا ممنوع، لكنه في الآخرة مباح.

2 - الحور العين:

لا يحق لك أن تنظر إلى امرأة لا تحل لك في الدنيا، لكن في الجنة حور عين، لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، هذه مباحة لك يوم القيامة من دون حرج، الذي غض بصره في الدنيا، وقال إني أخاف الله رب العالمين، أما أهل الدنيا يتهمونه، انظر لها، إن الله جميل يحب الجمال، ويتفلسفون

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (12))

حلاوة الإيمان ثمنها ضبط الجوارح:

هذا الذي ضبط شهواته، ضبط لسانه، ضبط عينه، ضبط سمعه، ضبط أذنه، ضبط دخله، آلاف الدخول مشبوهة، آلاف الدخول محرمة، لا يقبل إلا قرشاً حلالاً يرضي الله عز وجل، لا يأخذ إلا مبلغاً واضحاً معاذ الله، قد يكون في أمس الحاجة إليه، لكن المال الحرام تحت قدمه يقول: معاذ الله، الله الغني، وَاللّهِ يوجد مواقف فيها بطولة، يكون إنسان فقير يحتاج إلى مائة ليرة، يعرض عليه مئات الألوف، ملايين، اكتب وفاة طبيعية، الوفاة فيها جريمة، اكتب وفاة طبيعية خذ عشرة ملايين، يقول لك: معاذ الله أن أخون أمانتي، الطب الشرعي أمانة، أبداً.

اشهد هذه الشهادة خذ مائة ألف، يقول لك: معاذ الله، وأساساً الله عز وجل يضع الإنسان في موقف صعب ليكشف حقيقته، أنا لا آخذ قرشاً حراماً على مستوى ألف، ألف وما دون لا تأكل قرشاً حراماً، أما مليون تفكر فيها، تقول عندي أولاد ماذا أفعل جميع الناس تفعل هذا ؟ فالله عز وجل يضع الإنسان

في موقف ليكشف حقيقته، مهما حاولت أن تخفي حقيقتك، فالله يكشفها، في ظرف صعب، والحديث الشريف:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا....))

[أخرجه البخاري عن أنس بن مالك]

فالناس يقتتلون على أن يولد ابنهم في أمريكة ليأخذ جنسية، أعرف إنساناً مؤمناً قبل أن تلد امرأته بأسبوع أرسلها إلى الشام لتلد في بلد إسلامي، حتى لا يفكر أن ابنه صار معه جنسية، دائماً مسيطر، دائماً يملك زمام نفسه، دائماً يرضي الله ولا يعبأ بالنتائج، العبرة أن أكون في طاعة الله، العبرة أن يرضى الله عني، الله عز وجل يتكفل الباقي، وأساساً الإنسان ليس مكلفاً إلا بهذا.

(بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

مهمة الإنسان في الدنيا:

1 ـ عبادة الله تعالى:

على الإنسان أن يعبد الله فإذا عبده جاءته الخيرات من كل جانب.

2 ـ شكر الله عز وجل:

على الإنسان أن يشكر الله.

لك مهمتان، وَاللّهِ الّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ لا تحتاج إلى مهمة ثالثة، اعبده واشكره:

((قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي مَا حَقّ اللّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قَالَ حَقّ اللّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمّ قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقّ الْعِبَادِ عَلَى اللّهِ إِذَا فَعَلُوهُ، قَالَ حَقّ الْعِبَادِ عَلَى اللّهِ أَنْ لَا يُعَذّبَهُمْ))

[أخرجه البخاري عن معاذ بن جبل]

أي لك ضمانة من الله، تطمين من الله.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلّا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51))

(سورة التوبة)

جزاء الله تعالى للصابرين:

أحياناً الناس يُسحقون بالهموم، وأنت واثق برحمة الله، يا رب أرجو رحمتك فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، واثق من حفظ الله لك، ما معنى قول الله عز وجل ؟

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19))

(سورة الأنفال)

معهم بالحفظ، معهم بالتأييد، معهم بالنصر، معهم بالتوفيق، وَاللّهِ الّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ لا يوجد إنسان مؤمن يخطب ود الله بطاعته، والاستقامة على أمره، والإقبال عليه، والتقرب منه، إلا يرى العجب العجاب، يرى معاملة لا تصدق من قبل الله عز وجل، حفظ ودعم وتأييد وتوفيق، هذا معنى قوله تعالى:

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19))

(إِنّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ (153))

(سورة البقرة)

(فَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ إِنّكَ عَلَى الْحَقّ الْمُبِينِ (79))

(سورة النمل)

(يَا أَيُّهَا النّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64))

(سورة الأنفال)

إذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى

طاعة الله ثمن محبته لك:

إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، أتزهد بمعية الله عز وجل، إله عظيم بيده ملكوت السماوات والأرض، بيده كل شيء، إليه يرجع الأمر كله، قدرته، ورحمته، وعلمه، ولطفه معك، الثمن أن تطيعه فقط، وطاعته بإمكانك، ضمن وسعك، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، كل ما عند الله تناله بطاعته فقط، وطاعته بين يديك، أمره بين يديك، وقد ركّب في فطرتك أن الحق تعرفه بالفطرة وأن الخطأ تعرفه بالفطرة،

(فَوَقَاهُمُ اللّهُ شَرّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنّةً وَحَرِيراً (12))

صبر على أولاده، صبر على زوجته، صبر على والديه، وقد تقدمت بهم السن، تعليقات لا تحتمل، طلبات غير معقولة.

ضبط الشهوات وفق منهج الله:

أخوانا الكرام: الإيمان هو الصبر، أي ضابط شهواتك، ضابط غرائزك، ضابط ميولك، ضابطها وفق منهج الله، وكل شيء فيه حركة عشوائية، ويوجد حركة محددة وفق المنهج، لك أن ترى كل شيء ولك أن تنظر إلى من تحل لك ـ هذا الدين ـ لك أن تسمع كل شيء، أما المؤمن يسمع ما يحل له، لك أن تتحرك إلى أي مكان، لكن المؤمن يتجه إلى بيت الله فقط، يعني الحركة مقيدة بالشرع، والإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن:

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (12))

مشاهد من الجنة:

1ـ فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر:

الآن: ربنا عز وجل بحكمة بالغة أراد أن يقدم لنا مشاهد من يوم القيامة، الحقيقة الجنة فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

2 ـ فيها أنهار من عسل مصفى:

من باب التقريب كل أوصاف الجنة أوصاف رمزية بمعنى: إذا الله قال لك بالجنة يوجد أنهار من عسل، يجب أن تعلم علم اليقين أن عسل الجنة غير عسل الدنيا، لكن الله سماه عسلاً كي يقرب المعنى إليك، أما عسل الجنة لا يقاس بعسل الأرض.

3 ـ اختلاف المرأة:

المرأة في الجنة لا تقاس بالمرأة في الأرض.

4 ـ البساتين الجميلة:

والبساتين في الجنة لا تقاس ببساتين الأرض، لكن لا يوجد طريقة أخرى، أي الكلمات عندك في الدنيا مرتبطة بالمفاهيم، فربنا عز وجل يستخدم هذه الكلمات نفسها ليقرب لك حال أهل الجنة، مع أن حال أحل الجنة لا يعلمها إلا الله، قال:

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً (13))

مثلاً: كلكم في بعض أيام الربيع أو أيام الخريف تجدون الجو رائعاً لا برد ولا حر، لا يوجد برد مزعج، ولا يوجد حر مزعج، جو لطيف، نسمات لطيفة، لا تحتاج لا إلى مدفأة، ولا إلى مكيف، ولا إلى مروحة.

أحياناً إنسان يجلس على كرسي قاسٍ نصف ساعة يتضايق، أما إذا وجد فرش مريح جداً (وثير)، منجد تنجيداً راقياً، ليونته عالية جداً، يحيط الجسم كله، كرسي صغير صعب فقط يصلح للجلوس ربع ساعة أو خمس دقائق، أما جلسة طويلة تحتاج إلى أثاث مريح، واسع،عريض، يستوعب الجسم كله، وفيه مرونة بالغة

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً (13))

جلسة مريحة.

أحياناً الإنسان على الأرض يغير جلسته مرتين أو ثلاثة، كلما جلس جلسة تؤلمه أقدامه فيغير من جلسته، لأن الأرض قاسية، أما على كنبة وثيرة جداً سبع ساعات لا يتعب، لا تغير جلستك، فالجلسة مريحة.

مثلاً: الجامع هنا ليس كالجنة:

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً (13))

جو مريح لطيف.

وصف شجر الجنة:

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (14))

أحياناً تجد شجرة، ظل الشجرة لا يقدر بثمن بالصيف، سبحان الله يوجد نباتات خلقها الله خصيصاً لتكون مظلة، هذا الزيزفون عبارة عن دائرة نظامية، كثيفة جداً، دائمة الخضرة، أوراقها صغيرة، تتراقص مع الريح، جزعها مستقيم، الأخوة في الساحل أكثرهم يزرعون شجرة أمام بيتهم تجد مظلة، في الصيف ظل ظليل أي كثيف الظل، لأنها مطبقة، أوراق كثيفة جداً، و ثخانة الأوراق واسعة، ودائرة ممتدة، هي شجرة تقدم لك ظلاً لا يقدر بثمن

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (14))

الإنسان أحياناً يرى نخلة فارعة الطول فيها بلح شهي لكنه بعيد، أما الفواكه في الجنة بمتناول اليد، أنت واقف بمتناول يدك، وأنت جالس بمتناول يدك، وأنت مضجع بمتناول يدك، هي تأتي لعندك

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (14))

أحياناً تجد صبارة في الصيف فتتمنى أن تأكلها لكنها ممتلئة بالشوك، مشكلة تريد قفازات، انتبه المزرعة مرشوشة بالمواد المبيدة، يجب أن تغسلها وإلا هناك مشكلة، أما في الجنة لا تحتاج لأن تغسلها ولا فيها شوك ولا فيها بزر ولا هي عالية، قال تعالى:

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (14))

هذا حال أهل الجنة.

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31))

(سورة النحل)

اطلب تعطى، خاطر يأتيك تراه أمامك، أما في الدنيا يأتيك مليار خاطر، لا يتحقق واحد منهم، يقول لك: العين بصيرة واليد قصيرة، بالجنة خاطر واحد، أي خاطر تجده أمامك.

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (15))

5 ـ استعمال الفضة و الذهب في الجنة:

الفضة محرمة في الدنيا، استعمال أواني الذهب والفضة محرم في الدنيا، العلماء قالوا: كلمة فضة يطاف عليهم صحاف من ذهب الفضة تشير إلى الذهب أيضاً، وبعضهم قال الفضة لها اختصاص دقيق جداً، معدن الفضة معدن معقم.

خصائص معدن الفضة:

في كل معامل الماء آخر مرحلة يمر الماء بمواسير من فضة، لأن الفضة تعقم الماء الذي يمر من ضمنها، لو ألقيت قطعة فضة في إناء الماء يعقم فوراً، فهذه إشارة علمية إلى أن الفضة من خصائصه التعقيم.

قرأت في كتاب علمي موثوق أن: معامل الماء آخر مرحلة الماء يمر في أنابيب من فضة كي يعقم، الفضة لها إشعاعات تعقم الماء الذي بداخله

(وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (15))

يوجد أكواب ماء ثمن الكوب خمسة آلاف ليرة، كريستال، تحتار بالصفاء، تحتار بالألوان أحياناً، يعطي ألوان قوس قزح، وهو محفور حفراً جميلاً جداً، يوجد أشياء ثمينة جداً الكأس الواحد ثمنه خمسة آلاف، هذا الكريستال، قال:

(ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير)

هي من فضة وبصفاء البلور.

(قوَارِيرَ مِنْ فِضّةٍ قدّرُوهَا تَقْدِيراً (16))

أحياناً تكون في غاية العطش يأتيك كأس شرب صغير، تنزعج وتقول ألا يوجد أكبر منه ؟ أحياناً ترغب أن تشرب ماء قليلاً يأتيك كأس كبير تنزعج منه، أحياناً لا يأتي الكأس متناسب مع حاجتك، تحتاج إلى ماء كثير بالصيف، يأتي الكأس صغير، بالشتاء يأتيك كأس ماء كبير، وأنت تريد ربعه، قال هذا الكأس بالجنة:

(وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضّةٍ وَأكْوَابٍ كَانَتْ قوَارِيرَ (15) قوَارِيرَ مِنْ فِضّةٍ قدّرُوهَا تَقْدِيراً (16))

بقدر حاجتك.

(وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً (17))

أحياناً: إنسان يضيفك شراب معه ماء الزهر، يقول لك شاي معطر مبالغة بالإكرام، يوجد شاي معطر، يوجد قهوة مع هيل، أحياناً شراب فواكه مع ماء الزهر، تشعر بانتعاش بهذا العطر، أما في الجنة:

(وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً (17))

فوائد الزنجبيل:

(إنّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5))

(سورة الإنسان)

هنا زنجبيل.

بالمناسبة: هذا الشيء ليس له علاقة بالآية، أحد أخوانا الأطباء بحث بالقرآن الكريم عن التوابل فوجد الكافور، والزنجبيل، والمسك، فقرأت عن الزنجبيل شيء لا يصدق، كل أدوية القلب مجموعة في الزنجبيل، موسع للشرايين، ينظم ضربات القلب، يزيل الكولسترول عن جدران الشرايين.

موضوع الزنجبيل في يوم من الأيام كان خطبة جمعة، أخ كريم طبعاً من مصادر قديمة، و من **" 12 "** مصدر حديث (مقالات علمية حديثة) عن تركيب الزنجبيل، عرضته على طبيب قلب فدهش، قال لي: كأن أدوية القلب كلها في هذا الزنجبيل فهو منظم لضربات القلب، موسع للشرايين، خافض للضغط، مزيل للكولسترول.

يوجد أشخاص يطحنوه ويضعونه مع بعض الشراب، نحن نحتاج أن نراجع كل علمنا الطبي، يوجد أدوية نباتية رائعة جداً، ليس لها أي أخطار وفيها طابع الوقاية، سمعت في بعض القرى في مصر قرية يكثرون من أكل الترمس، شيء خارج اهتمامنا، لا يوجد عندهم أي مشكلة صحية قلبية إطلاقاً.

في بلدة في بريطانية قاسوا الضغط جميعاً، لا يوجد في هذه البلدة أي إنسان معه ضغط مرتفع لأنهم لا يأكلون الملح أبداً، فالملح عادة غذائية سيئة، نحن بالإمكان أن نأخذ الملح من التفاح الجسم يأخذه، يأخذ حاجته من أي شيء، نحن تعودنا أن الأكل القليل الملح لا نحبه، هي عادة غذائية سيئة.

على كل أكثر أدوية القلب مجموعة في الزنجبيل:

(وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً (17))

6 ـ في الجنة عين تسمى السلسبيل:

(عَيْناً فِيهَا تُسَمّى سَلْسَبِيلاً (18))

يوجد أيضاً ماء سلسبيل عذب فرات أي مستساغ.

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12))

(سورة فاطر)

عين في الجنة اسمها السلسبيل

(يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً)

7 ـ يطوف على الناس ولدان مخلدون في جمالهم:

والذين يخدمون:

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (19))

أحياناً بالفنادق الراقية جداً ـ بمقياس الأرض طبعاً ـ يستخدم الموظفون لهم وجه حسن، الوجه الصبوح له أثر كبير، حتى بعض المحلات التجارية يهمهم إذا أرادوا أن يجذبوا الزبائن أن يكون الموظف لبقاً، وهندامه حسن، ووسيم الصورة، هذا شيء طبيعي بالعلاقات العامة، هنا:

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (19))

أي حتى الذين يطوفون على الجنة ولدان مخلدون في جمالهم.

أحياناً تجد الطفل بأوله قطعة من الجمال، كلما كبر يتغالظ بعد ذلك لا يحتمل، ما معنى مخلدون ؟ في هذا الشكل الحسن، في هذه النعومة، في هذا اللطف، في هذا الحياء، في هذه الطبيعة الطيبة، في هذا الجمال، مخلدون في هذا الحال:

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (19))

هذا مشهد من مشاهد أهل الجنة.

ثمن الجنة:

والثمن الطاعة، والثمن بين أيديكم جميعاً، الضبط، الصبر، أي الصبر لوقت محدود، والجنة إلى أبد الآبدين، والحياة هكذا.

أحياناً تركب بمركبة على اليمين شمس، وعلى اليسار ظل، المركبة سوف تدور دورة كاملة بعد دقيقة، تنعكس الآية إلى مسافة طويلة جداً، فالذي يختار الشمس لدقيقة يتمتع بالظل لساعات، أذكى بكثير من الذي يختار الظل لدقيقة ويحترق بالشمس لساعات، هذا مثل من واقعنا، الذي يختار الظل لدقيقة ويحترق بالشمس لساعات أحمق، أما الذي يختار الشمس لدقيقة ويتمتع بالظل لساعات ذكي جداً وعاقل، فالدنيا محدودة، و الإنسان فيها يعيش ستون، ثمانية وخمسون، اثنان وستون، ثلاثة وسبعون، يعني سنوات، صلى الصلوات الخمس، غض بصره، ضبط لسانه، ضبط دخله، بيته إسلامي، أطاع الله، أدى الصلوات، طلب العلم، نشر العلم، يأتي وقت تنتهي حياته، ماذا بقي ؟ بقيت له الجنة إلى أبد الآبدين.

النبي صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ له كلمة جميلة قال: **أما الأنصار فقد أدوا الذي عليهم وبقي الذي لهم،** فالمؤمن أدى الذي عليه، بقي الذي له، أما غير المؤمن، تمتع متعاً رخيصة لفترة قصيرة وسيتحمل العذاب إلى أبد الآبدين.

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

(سورة البقرة)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (77))

(سورة النساء)

الآخرة خير و أبقى للإنسان من الدنيا:

مثلاً: إذا خيرنا إنسان بين أن يركب سيارة لربع ساعة، أو يتملك دراجة دائماً، ما الذي يختار ؟ طبعاً يختار الدراجة.

إذاً: لو خيرناه بين سيارتين، متشابهتين تماماً، واحدة ربع ساعة، والثانية دائماً هل يتردد ثانية ؟ ولا ثانية.

لو عكسنا المثل، تركب دراجة ربع ساعة وتتملك سيارة ثمنها خمس وعشرين مليون إلى أبد الآبدين، تتردد ثانية ؟ هذا هو.

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17))

(سورة الأعلى)

خير وأبقى لماذا ؟ لأمدها اللانهائي ونعيمها المقيم، أما هذا الذي يختار الدنيا على الآخرة أحمق، اختار شيئاً أقل وأقصر والمؤمن اختار الآخرة، يقال للمؤمن زاهد، لا ليس زاهداً، الزاهد هو الكافر، زهد بعطاء الله، زهد بالجنة، أما المؤمن طماع، طموح آثر الآخرة على الدنيا.

نتيجة ثمينة:

آخر كلمة: من آثر أخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، وأجمل دعاء هو: اللهم اجعل نعم الدنيا متصل بنعم الآخرة، أي إذا الإنسان متعه الله بصحته، متعه بسمعة طيبة، متعه بأولاد أبرار، بزوجة صالحة، بعمل حلال، ثم توفاه الله إلى الجنة، هذا الشيء رائع جداً، تكون نعم الدنيا قد اتصلت بنعم الآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإنسان 076 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 20-27 جزاء المؤمن و الكافر يوم القيامة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-05-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الرابع ولعله هو الأخير من سورة الدهر، ومع الآية العشرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (19))

النعيم الأرقى في الآخرة النظر إلى وجه الله الكريم:

كل شيء بالجنة مسعد، بدءاً من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، إلى الفواكه التي قطوفها دانية، إلى الحور العين التي لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، إلى الولدان المخلدين الذين يطفون على أهل الجنة، وهذا كله نعيم حسي أما النعيم الأرقى النظر إلى وجه الله الكريم.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26))

(سورة يونس)

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

أي الجنة،

(وَزِيَادَةٌ)

النظر إلى وجه الله الكريم، هناك شيء فوق هذا.

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72))

(سورة التوبة)

إن الله مع المؤمنين:

قد تنظر إلى شيء رائع ولكن هذا الشيء الرائع لا ينظر إليك، أما رضوان الله عز وجل هو أعظم شيء يناله مخلوق في الكون ؛ أن يرضى الله عنك، ووسائل الرضا بين يديك، وإذا شعرت أن الله راضٍ عنك وأنت في الدنيا فأنت أسعد الناس.

ما من شعور يسعد الإنسان في الأرض كأن تشعر أن الله راضٍ عنك، ما من شعور يسعدك في الدنيا كأن تشعر أنك في طاعة الله، وأنك تحت ظل الله، وأنك في رعاية الله، وأنك في توفيق الله، وأنك في نصر الله، شعور أن الله معك لا يوصف، لا يعرفه إلا من ذاقه، إن الله مع المؤمنين، أي إذا كان الله خالق الأكوان معك من يستطيع أن ينال منك بنظرة ؟

إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك ؟ وإذا تخلى الله عنك تخلى عنك أقرب الناس إليك، وقلبوا لك ظهر المجن، وقد يهان الإنسان في عقر بيته ومن أقرب الناس إليه، وقد يُخيب أقرب الناس إليه ظنه، وقد يرى العجب العجاب إذا تخلى الله عنك، وإذا كان معك سخر لك ألد أعدائك، إذا كان الله معك كل من في الأرض معك، ألقى محبتك في قلوب الخلق، وإذا كان الله عليك، ألقى البغض في قلوب الخلق، ومن هاب الله هابه كل شيء، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء.

نعم الجنة الحسية:

أيها الأخوة: الجنة حسية فيها حور عين.

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(13))

(سورة النساء)

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ(35))

(سورة الرعد)

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35))

(سورة ق)

أي شيء يخطر في بالك تراه أمامك ومتجدد إلى أبد الآبدين، وفوق هذه النعم الحسية، هناك نعم النظر إلى وجه الله الكريم.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

وفوق هذا وذاك:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ)

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (19))

[سورة الإنسان]

المؤمن في الجنة ملك كبير:

أيها الأخوة:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20))

(وَإِذَا رَأَيْتَ)

أي يا محمد

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمّ)

ثم: ظرف مكان بمعنى هناك، ثُم شيء، وثَم شيء آخر، لم يكن ثمة من أحد (لم يكن هناك من أحد)، ثُم أي هناك، ظرف مكان

(وإذا رأيت ثم)

أي هناك،

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20))

مقام المؤمن في الجنة ملك كبير.

مثلاً: كيف أنك إذا عملت أن رجلاً له قصر مساحته عشرون ألف متر، أنا زرت قصراً في استنبول، مساحته عشرين ألف متر، قاعة الاستقبال ألفي متر، فيه خمسة طن ذهب للتزيين، الأبهاء والمداخل، والحمامات، وغرف النوم، وغرف الاستقبال، والذهب المزين به الأقواس، والشيء الذي لا يوصف هذا لا يسمى بيتاً، ولا مسكناً، حتى ولا قصراً، هذا ملك كبير.

مثل آخر: إنسان عنده مائة سيارة، عنده طائرات من كل القياسات، عنده يخوت بالبحر، عنده بكل بلد قصر، بكل مكان جميل بالعالم قصر، نقول: هذا ملك كبير

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20))

((قَالَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللّهِ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

الإحسان ثمن الجنة:

بينك وبين الجنة أن تطيع الله، وبينك وبين الجنة أن تعبده، وبينك وبين الجنة أن تفعل الصالحات، الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً(108))

(سورة الكهف)

هذا كلام الله، هذا ليس كلام أديب، نقول خيال شاعر، نقول أفكار ترد على ذهن عبقري، هذا كلام خالق الكون، فما عليك إلا أن تدفع الثمن.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32))

(سورة النحل)

أي كانوا:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17))

(سورة الذاريات)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16))

(سورة الذاريات)

هي الثمن:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

فهذه الجنات، وهذا النعيم المقيم بسبب الإحسان فقط، وكلمة إحسان مطلقة، في كل حركات المؤمن وسكناته محسن، في كل أقواله محسن، في كل تصرفاته محسن، محسن في بيته، في عمله، مع من حوله، مع من فوقه، مع من دونه، عمله متقن، كلامه طيب، تصرفاته أديبة، ثيابه ساترة، نظراته متواضعة، محسن، كلمة مطلقة تنتظم كل حركة الإنسان في الدنيا.

طاعتك لله لا تتناسب مع الأجر العظيم المقدم لك:

أيها الأخوة الكرام: لا يتناسب الثمن مع المبيع، أي طاعة الله عز وجل في سنوات محدودة، ما منعك من الطعام، ولا من الشراب، ولا من الزواج، ولا من أن تأكل و تتزوج وتسكن في بيت، لكن وفق

منهج الله. ما كلفك أن تصلي ألف ركعة في اليوم، خمس صلوات، الصلاة ثلث ساعة، ما كلفك أن تصوم كل أيام العام، شهر واحد، ما كلفك أن تحج كل عام مرة، الحج مرة، والعمرة مرة أو أكثر.

فالصيام شهر في العام، والصلوات خمس، يوجد وقت تنام ثماني ساعات، و وقت تعمل ثماني ساعات، في وقت تقعد مع أهلك، وفي خمس صلوات، الفجر أربع ركعات، والظهر عشر ركعات، أو اثنتي عشرة ركعة، أي العبادات وفق طاقة الإنسان ضمن إمكانيته.

ما حرمك من النساء قال لك تزوج لكن نهاك عن الزنا، حرم عليك الخمر سمح لك بعشرة آلاف مشروب، أنواع العصير، وأنواع المشروبات، أنواع لا تعد ولا تحصى، لكن اترك الخمر، سمح لك بآلاف الأنواع من اللحوم، منعك عن لحم الخنزير فقط وبعدها في جنة، و الإنسان غبي إذا نسي جنة الله عز وجل.

عذاب الإنسان الشارد:

لذلك: الإنسان الشارد حينما يأتيه ملك الموت يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، من شدة الندم.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24))

(سورة الفجر)

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56))

(سورة الزمر)

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29))

(سورة الفرقان)

هي كلمات الحسرة والندم تسحق الإنسان، نحن أحياء، نحن نستمع، أهل النار ماذا يقولون ؟ دققوا أهل النار وهم في النار يتصايحون ماذا يقولون ؟

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

جنة الدنيا و الآخرة:

إذا استمعت إلى الحق واهتديت إلى الله عز وجل فزت بالجنة في الدنيا والآخرة، في الدنيا جنة القرب وفي الآخرة جنة الله عز وجل، فلذلك:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً)

الإنسان يسكن ببيت مائة متر، مائة وعشرين، يعني إذا مئتين يقول لك ما شاء الله، ثلاث غرف نوم، ثلاث صالونات، إذا عنده بيت وعنده مزرعة هذا شيء كبير، عنده بيت ومزرعة و فيلة على البحر أكبر وأكبر، عنده سيارة له، ولزوجته سيارة، ولابنه سيارة، واحدة للسفر و واحدة ضمن البلد، و واحدة كبيرة للأقارب، هي بالدنيا، فكيف إذا قال الله عز وجل وهو العظيم:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20))

مثلاً: إذا قال لك طفل أنا معي مبلغاً كبيراً، كم تقدره ؟ طفل عمره ثلاث سنوات، أنا معي مبلغاً كبيراً، أي خمس وعشرين ليرة، إذا قال لك شخص من أكبر أغنياء البلد، قال لك: أنا معي ثروة ضخمة، يعني مائة ألف معه، قل خمسة آلاف مليون، قل سبعة آلاف مليون، إذا العظيم خالق الكون قال لك:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20))

ذهب أخ لبلد أجنبي، قال لي: قصر الملك ضمن غابة عملاقة، السيارة تمشي فيه قريب الساعة، ضمن غابات القصر قال لي يوجد قصور بأوربا، قصور بشرق أسيا، شيء لا يوصف استنبول هذا قصر دولمة بهجت هذا مساحته عشرين ألف متر، أي عشرين دونم، قاعة الاستقبال ألفي متر، ارتفاع السقف ارتفاع بناء بكامله، كله مزين، أنا ضربت أمثلة على قوله تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20))

لأن الله عز وجل يقول في الحديث القدسي:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ))

طاعة الله ثمن الجنة:

شخص ما رأى هكذا قصور يقول لك مثل هؤلاء، لا ليس مثلهم، أكبر بكثير، إذا كان عنده رغبات سياحية، وطاف أرجاء الدنيا، ودخل إلى قصور الملوك، ورأى العجب العجاب، الآن يوجد قصور تجد فيها زخرفات، فيها تماثيل، فيها رخام، فيها ذهب، شيء لا يوصف، الحديث القدسي:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

هذه الجنة ثمنها بيدك، ثمنها بيدكم جميعاً، ثمنها طاعة الله، وطاعة الله ضمن وسعك.

ثياب أهل الجنة:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (21))

أناس يرتدون ثياباً فخمة جداً، اللون الأخضر لون جميل و هو لون ثياب أهل الجنة،

(عَالِيَهُمْ)

أي يرتدون ثياباً من حرير، حرير رقيق وحرير غير رقيق

(ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (21))

يعني ثياب فخمة جداً، حلي فخمة جداً، شراب طيب جداً، يقال لهم:

(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22))

الخوف من الله:

أنت في الدنيا متزوج وعندك امرأة، لكن وأنت في الطريق مرت امرأة حسناء، ليس في الأرض كلها قانون يمنعك أن تنظر إليها، ولكنك غضضت البصر عنها خوفاً من الله، هذا له ثمن.

إذا كنت تمشي في طريق كله نساء كاسيات عاريات، ولم تركز ولا على امرأة، ولا أطلقت البصر إليهن، هذا له ثمن.

عُرض عليك دخل كبير من شبهة، يعني من مال حرام، أو عمل رفيع المستوى لكن لا يرضي الله، فقلت معاذ الله إن أخاف الله رب العالمين.

يوجد مكاسب في الدنيا كبيرة جداً، أحياناً يمكن أن تصبح من أصحاب الملايين بمعاملة غير شرعية، بكسب غير مشروع، تقول معاذ الله.

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23))

(سورة يوسف)

الجنة جزاء المؤمن العفيف الطاهر:

أنا ذكرت لكم هذه القصة مرات عديدة، لكن هنا مناسب أن أذكرها: رجل من أهل الغنى، في هذه البلد الطيبة، أراد أن يبني مسجداً، في حي ليس فيه مسجد، بحث عن أرض مناسبة، وجد هذه الأرض، صاحب هذه الأرض نالها بالإرث قبل أشهر و هو يعمل حاجباً في مدرسة ابتدائية (آذن)، دخله ثلاثة

آلاف، أربعة آلاف بالشهر، عنده ثمانية أولاد، يسكن ببيت متداع، ودخله ثلاثة آلاف، وعنده ثمانية أولاد، وليس له من الدنيا إلا هذه الأرض التي تَمَلكها قبل شهر عن طريق الإرث.

هذا الرجل الميسور الغني أعجبته الأرض بحث عن صاحبها، سأل عنه، ساومه، فتمّ الاتفاق على أن يبيعها له بثلاثة ونصف مليون ليرة، وصار إيجاب وقبول وانتهى كل شيء وكتب العقد، وسطر هذا الغني شك لصاحب هذه الأرض بمليونين وقال: الباقي عند التنازل في الأوقاف، قال لماذا الأوقاف ؟ قال له لأنني سأبني عليها مسجداً، فما كان من هذا الآذن إلا أن استرجع الشك ومزقه و قال له: أنا أولى من أقدمها لله منك، وقدمها لله عز وجل.

يقول هذا الغني: ما مرّ في حياتي موقف صغرت أمام إنسان كهذا الموقف، رأى حاله لا شيء أمام هذا الآذن، والآن هذا الجامع بناه أحد أخوانا وهو بنهر عيشة وله خيرات كثيرة، هذا الذي أعطى الأرض ما جزاؤه عند الله ؟ له قصور لا تنتهي، الذي أنفق ماله ما جزاؤه عند الله عز وجل ؟ الذي ضبط نفسه بالشرع ؟

الآن البلد حفلات واختلاط وسهرات وأفلام وصحون يوجد كل شيء، وحفلات المجتمع المخملي، صدقوني: مؤمن يأوي إلى مسجده، فهذا الذي يغض بصره عن محارم الله، يضبط لسانه، ينفق ماله، يرعى حقوق الآخرين، زوج صالح، أب صالح، جار صالح، عامل متقن، طبيب نصوح، مهندس وفي، أي يتقن عمله، هذا المؤمن المستقيم الصادق الأمين العفيف، هذا له جنة عرضها السماوات والأرض.

ندم الإنسان على الوقت الضائع:

والله أيها الأخوة لو نعلم جميعاً ما علمه النبي عليه الصلاة والسلام بما أُعد للمؤمنين من نعيم مقيم لما نام أحدنا الليل، لأن أي ساعة تمضي دون أن تذكر الله فيها خسارة، أية ساعة تمضي دون أن تزداد علماً بالله خسارة، أية ساعة تمضي دون أن تزداد قرباً من الله خسارة، أي شيء تنفقه دون أن تبتغي فيه وجه الله خسارة، أي لقاء تلتقي به دون أن تذكر الله خسارة، أية نزهة تمضي بها وقت دون أن تذكر الله فيها خسارة، أي اجتماع، أية سهرة، أية وليمة تقام ابتغاء الظهور خسارة.

((قالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إنِّي أرَى مَا لا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ، أطّتِ السّمَاءُ وَحُقّ لَهَا أنْ تَئِطّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أرْبَعِ أصَابِعَ إلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلّهِ وَاللّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذّذْتُمْ بِالنّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إلَى الصُعُدَاتِ تَجْأرُونَ إلَى اللّهِ لَوَدِدْتُ أنّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ))

[أخرجه الترمذي عن أبي ذر]

الدنيا دار من لا دار له:

هي الدنيا تمضي، ذكرت لكم مثل قبل يومين وأعيده ما في مانع سباق سيارات، كبيرة، صغيرة، حديثة، قديمة، قوية، ضعيفة، جميلة، وغير جميلة، على طريق طويل ينتهي بقاطع خمسين متراً وتحت حفرة مالها من قرار، فأول سيارة تسقط، وآخر سيارة تسقط، وأكبر سيارة تسقط، وأصغر سيارة تسقط، وأحدث سيارة تسقط، وأقدم سيارة تسقط، والأولى تسقط، والأخيرة تسقط، كله نازل، هي الدنيا، غني ينزل ميتاً، الكفن ليس له جيب، دفتر شيكات لا يوجد بالقبر، الفقير يموت، المريض يموت، الصحيح يموت، القوي يموت، الضعيف يموت، الذي استغل أموال الناس يموت، المستغل يموت، كله يموت، ما هذا السباق ؟

شخص ورث تسعين مليون ترك محله واندفع لتحصيل هذا المبلغ عن طريق المعاملات، مات قبل أن يقبض قرشاً واحداً، هي الدنيا، الدنيا جيفة طلابها كلابها، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له.

أيها الأخوة الكرام:

(إِنّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22))

و قوله تعالى:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5))

(سورة الضحى)

وعود الله للمؤمنين:

يوجد وعد إلهي، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص)

فالإنسان وعده الله بالجنة، وعده الله بنعيم مقيم، وعده الله بجنة عرضها السماوات والأرض، وعده برضوان منه، وعده أن ينظر إلى وجه الكريم، وهو خالق الأكوان، و الإنسان لا يعبأ بهذه الوعود، ولا يخشى هذا الوعيد، ويتحرك وفق شهواته، يشتم هذا، ويضرب هذا، ويأكل مال هذا، هذا هو الحمق بعينه، هذا هو الغباء بعينه، هذا هو الشقاء بعينه:

(إِنّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22))

مثلاً: إنسان يشكر إنسان، أي أب له ولد شارد عاق، وإنسان كريم أقنع هذا الابن أن يعود إلى مظلة أبيه، وأن يرضي والده، وأن يكون ابناً باراً، هذا الأب ما شعوره تجاه هذا الإنسان الكريم الذي أعاد له ابنه ؟ أنا لا أبالغ يقول له أموت ولا أنسى فضلك، لأنه سبب برجوع ابنه له.

إذاً: إذا شخص منكم أكرمه الله بهداية شخص آخر، أقنع إنساناً بالدين، أقنعه بالاستقامة، أقنعه بالتوبة، أقنعه أن يلزم مجلس علم، أقنعه أن يدع المنكرات، عبد شارد رُد إلى الله، هذا الذي رده إلى الله كم له عند الله ؟ هذه الدعوة صنعة الأنبياء.

حجم الإنسان عد الله بحجم عمله الصالح:

أيها الأخوة:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

(سورة فصلت)

أي لا تجد في الأرض كلها إنساناً أفضل ممن ساهم في نشر الحق و ردّ الناس إلى الله، وأقنعهم أن يستقيموا، وأقنعهم أن يعبدوا الله عز وجل.

أخوانا الكرام: الإنسان حجمه عند الله بحجم عمله الصالح، ألا تقرؤوا هذه الآية:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120))

(سورة النحل)

فأنت أقنعت إنساناً بالإيمان، أقنعت إنساناً بالاستقامة، ساهمت بأخيك، بابن أخيك، بجارك، بزميلك بابنك، أقنعته أن يستقيم، أقنعته أن يعرف الله عز وجل، أقنعته أن يدع المنكرات، اعتنيت به، تفقدته، زرته، خدمته، أعطيته، حتى أخذت بيده إلى الله هذه الآية دقيقة جداً

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

و الله أيها الأخوة: رأيت بعض الأخوة الكرام لهم عمل عظيم تجده هو وشركاؤه وأولاده وأقرباؤه وأصدقاؤه القدامى كلهم صاروا في المسجد، وكلهم التزم، وكلهم تركوا المنكرات، هذا جهد عظيم، فأنت لا تعلم ما لك عند الله إذا ساهمت في هداية إنسان.

عطاء الله للإنسان المستقيم:

ضربت لك مثلاً من واقع الحياة، إذا كان ابن عاق، ابن شارد، ابن شرس، شخص ما أقنعه أن يصبح ابناً باراً، مستقيماً، أعاده إلى أبيه، ماذا يقول الأب لهذا الإنسان؟ يقول له: قدمت لي معروفاً لا أنساه مدى الحياة والله شاكر عليم.

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

فإذا خدمت لله عباده، ورحمت عباده، وطمأنت عباده، وتلطفت بعباده، ونصحت عباده، وأكرمتهم، وأعطيتهم، ودللتهم على الله، وكنت معهم، من الذي سيشكرك ؟ الله جل جلاله.

أنا أنتظر من أخ أن يكون داعية، ليس من الضروري أن تتعين خطيباً إطلاقاً، ليس من الضروري أن يكون لك شريط ليكون لك اسم لامع، هذا وحيد عصره، فريد زمانه، لا، أنت إذا جارك أقنعته بالدين، إذا ابنك، إذا أخوك، إذا ابن خالتك، ابن عمتك صديقك، اعتنيت به، زرته، أسمعته شريطاً، أعطيته كتاباً، دعيته للمسجد، تابعته، تفقدته، أنت ساهمت بهداية إنسان، لك عند الله عطاء لا يعلمه إلا الله، وهذه الآيات أمامك:

(إِنّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22))

التجارة الرابحة:

هؤلاء الذين فتحوا الصين، فتحوا شمالي أفريقيا، بالمغرب يوجد جوامع، بالجزائر يوجد جوامع، في تونس يوجد جوامع، في ليبيا يوجد جوامع، بمصر، بالسودان، نصف أفريقيا مسلمة، بالصين يوجد خمسين مليون مسلم، بأمريكا عشرة ملايين مسلم، بفرنسا هناك ألف مسجد، هؤلاء الذين نشروا الحق، ووسعوه، وأسعدوا الناس،هؤلاء ما لهم عند الله ؟ هي التجارة، هذا هو الذكاء، هذا هو التوفيق، هذا هو الربح، هذا هو الفلاح، هذا هو التفوق.

بعد ذلك الله عز وجل لا ينساك عندما تقدم شيئاً للآخرين، هم في مساجدهم والله في حوائجهم.

و الدليل على هذا: إذا أنت ساهمت في خدمة الخلق، الله يرقيك بالصبر، يعني إما أن ترقى بعمل صالح، وإما أن ترقى بصبرك على مصيبة، أيهما أحسن لك ؟ الله يريدك، أنت مطلوب لرحمته، مادمت أمنت لك عنده مقاماً، هذا المقام إما أن تصل إليه في الأعمال الصالحة وخدمة الخلق والخروج من ذاتك، وإما أن تصل إليه بالصبر، والله أول طريق أجمل وأسعد وأكمل وأشرف فإذا خرجت من ذاتك لخدمة الخلق، تولى الله شؤونك

((عبدي أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، عبدي كن لي كم أريد، ولا تعلمني بما يصلحك ـ لا تكلف نفسك أن تقول لي ماذا تريد، أنا أعرف ماذا تريد ـ كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك))

أي إذا خرجت من ذاتك لخدمة الخلق الله عز وجل كفاك كل هم في الدنيا، والله عز وجل فيما ورد عن رسول الله هم في مساجدهم والله في حوائجهم، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاخدميه، ومن خدمني فاخدميه، إذاً:

(إِنّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22))

أي أنت عندما تؤمن لك معاملة خاصة، أنت مستثنى مما يصيب الشاردين، والتائهين، والغافلين، والعصاة.

وعود الله للمؤمن الصالح:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(97))

(سورة النحل)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

(إِنّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22))

فالإنسان يكون في رضوان الله وينتظر ما عند الله.

مرة قال لي أخ من باب المداعبة: هذا المؤمن يصيبه ما يصيب الناس، ما هي ميزاته ؟ إذا وجد الحر يذوق الحر مع الناس، إذا في برد، إذا في أزمة موصلات يعاني من هذه الأزمة، في أزمة سكن يعاني منها، في غلاء أسعار يعاني منها، قلت له من باب التوضيح: لو إن إنساناً موظفاً فقيراً عنده ثمانية أولاد، دخله ألفين أوثلاث آلاف، بيته بالأجرة، عليه دعوة إخلاء، يعني مصائب الدنيا اجتمعت عليه، وله عم حجمه المالي خمسمائة مليون، ما له أولاد، ومات هذا العم فجأة بحادث، لمن هذه الخمسمائة مليون ؟ لابن أخيه الفقير المعدم، لا يستطيع أن يقبض قرشاً واحداً قبل عام، حتى تتم المعاملات القانونية، لماذا هو في هذا العام من أسعد الناس مع أنه لم يتمكن بعد من أن يأكل لقمة واحدة، ولا أن يرتدي ثوباً جديداً، ولا يغير بيته ؟ لأنه دخل في الوعد، الآن لا يملك شيئاً لكنه موعود بخمسمائة مليون، ربنا عز وجل قال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ((61))

(سورة القصص)

إذا أنت مغطى بوعد إلهي فأنت أعظم إنسان، قال تعالى:

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21))

(سورة التوبة)

طريق الهداية طريق النجاة:

فيا أيها الأخوة الكرام: يجب أن نسعى، يجب أن نحث الخطى، يجب أن نتحرى الحلال، يجب أن نقيم الإسلام في بيوتنا، أن نقيمه في أعمالنا، إذا أقمته في بيتك، وأقمته في عملك، أديت ما عليك، وانتهى الأمر، لا تحمل هم الجميع.

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة: 272)

الله عز وجل قال للنبي الكريم من أنت ؟ و قال له:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56))

(سورة القصص)

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(41))

(سورة الزمر)

(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104))

(سورة الأنعام)

ما على الرسول الكريم إلا البلاغ:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

هي مقام النبوة، وما على الرسول إلا البلاغ المبين، بلاغ فقط، أما أنت شخصك مضمونة سعادته في الدنيا والآخرة بطاعتك لله، فإذا أنت كحل وسط بدأت بطاعة الله، وأقمت الإسلام في بيتك وعملك انتهى الأمر، وبعد ذلك افعل ما تشاء، وادعُ كما تشاء ولكن ضمنت سلامتك أنت أولاً.

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24))

أسماء الله الحسنى داخلة في أفعاله:

إخوانا الكرام: أحياناً ربنا جل جلاله يعبر عن ذاته بضمير المفرد فيقول:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ)

هكذا الآية وردت في سورة طه:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

و هنا وردت

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23))

قال بعض العلماء: ولعل في هذا الكلام شيئاً مقنعاً، أن الله جل جلاله إذا تحدث عن ذاته العلية تحدث بضمير المفرد، وأما إذا تحدثنا عن أفعاله العظيمة، تحدث بضمير الجمع، لأن كل أسمائه الحسنى داخلة في أفعاله، أي فعل لله فيه رحمة، فيه عدل، فيه حكمة، فيه لطف، فيه قوة، فيه قهر أحياناً، أفعاله فيها كل أسمائه، لذلك الحديث عن أفعاله بضمير الجمع.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43))

(سورة ق)

الوحي لا يملكه النبي الكريم:

هنا:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23))

فتنزيل مفعول مطلق مؤكد للفعل، أي هذا ليس من عند محمد، هذا وحي من الله، والوحي لا يملكه النبي عليه الصلاة والسلام، لا يملك له جلباً ولا دفعاً.

الدليل: حينما اتهمت زوجته السيدة عائشة اتهاماً فظيعاً، تأخر الوحي أربعين يوماً، وما ملك النبي شيئاً في هذا الوقت، الوحي لا يستطيع النبي جلبه ولا دفعه، فهذا القرآن وحي من عند الله.

الحكم من وراء هذه الآية:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

هذه الآية رائعة جداً حيث أمر الله عز وجل النبي الكريم:

1 – الصبر على تنفيذ أمر الله:

2 ـ الصبر على ترك ما نهى الله عنه:

3 ـ الصبر على قضاء الله و قدره:

4 ـ الصبر على مواجهة الكفار:

أحياناً المواجهة تحتاج إلى صبر، وإلى شجاعة

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

حكم الله أن نصلي، اصبر للصلاة، حكم الله أن نصوم، أن نحج، أن نعتمر، أن نؤدي زكاة أموالنا، نهانا عن الغيبة تحتاج إلى صبر، الحديث عن الناس ممتع ومسلي ويلفت النظر نهانا عن أن نغتاب، نهانا عن أن نكذب، نهانا عن أن نفعل المنكرات، فاصبر على الطاعات، واصبر على الشهوات، واصبر على قضاء الله وقدره، واصبر وأنت تدعو إلى الله عز وجل.

هناك معارضون، هناك مفندون، هناك من يتهمونك، هناك من يطعنون في علمك، هناك من يسفه أحلامك، سيدنا موسى بالمناجاة قال **يا رب** ـ هكذا ورد في بعض الكتب ـ **لا تبقي لي عدواً**، قال له يا موسى هذه ليست لي، لا يوجد إنسان ليس له خصوم، لا يوجد إنسان ليس له طرف آخر يقلل من قيمته، فاصبر لحكم ربك، إما اصبر على طاعته، أو عن معصيته، أو على قضائه وقدره، أو اصبر وأنت تدعو إليه، يوجد معارضات

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24))

العصاة نوعان:

العصاة نوعان: الكفار أو الشاردون، إنسان عقيدته فيها كفر، وإنسان عنده إثم، يعني واحد له معاصي، و آخر عنده عقيدة زائغة الانحراف في عقيدته، أو في سلوكه، شخص عقيدته سليمة، يعني مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخرة، لكن غرق بالمعاصي والذنوب، هذا إذا دعاك إلى سهرة، إلى حفلة، يقول لك لا تدقق الله عز وجل غفور رحيم عيش وقتك، من الآن إلى يوم القيامة يفرجها الله، هذا آثم لا تطيعه، لا

ترد عليه إطلاقاً، الثاني يقول لك: مات ورجع قال لك في آخره، هذا الثاني الكافر، يعني شخص كافر خلل في عقيدته والثاني خلل في سلوكه، إياك أن تطيع هؤلاء ولا هؤلاء

(وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24))

أحياناً تأتيك دعوات من كفار للتقليل من قيمة الدين، يقول لك: هذا الدين شعور، الإنسان عندما كان ضعيفاً خاف من قوى الطبيعة فتدين، الآن عصر علم، الآن كل شيء مسيطر عليه، هذا كلام، هذا كافر، وأصحاب الشهوات يعيشون لشهواتهم، لغناهم، للطرب، للاختلاط، للمرأة، هؤلاء آثمون، فإياك أن تطيع آثماً أو كافراً، لذلك:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15))

(سورة لقمان)

الدعوة إلى الله لها ثمن باهظ:

ومن أجل أن تصبر على الطاعات، وعن الشهوات، وعلى قضاء الله وقدره، من أجل أن تصبر بالدعوة إلى الله، في خصومات، في معارضات، في متاعب أحياناً، الدعوة لها ثمن باهظ، دفع النبي أكبر ثمن، أخرجوه، وقاتلوه، ونكلوا بأصحابه، ثم جاء نصر الله والفتح في النهاية، الإسلام وصل إلى درجة بقي موضوع ساعات بالخندق، ساعات وينتهي الإسلام عن آخره، قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر أو كسرى، وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته انتهى الإسلام، النبي صبر، لما هاجر أهدر دمه، وضع مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

أي اصبر على طاعته، واصبر عن معصيته، واصبر على قضائه وقدره.

للدعاة واصبروا في الدعوة يوجد معارضات، مقاومات، أناس خصوم يكيدون المؤامرات

(فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً)

إنسان فكره علماني كافر، وإنسان ثانٍ فاسق فاجر.

ذكر الله طريق الثبات على الدعوة:

من أجل أن تستطيع ذلك:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25))

صلاة الفجر، والظهر، والعصر، الظهر بعد زوال الشمس.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26))

المغرب والعشاء، العبادة خمسة أوقات، الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء:

(وَمِنَ اللَّيْلِ)

قيام الليل.

ندم الشاردون عن طريق الحق:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(إِنَّ هَؤُلَاءِ)

الشاردون

(يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

يتحدث عن الدنيا خمس ساعات لا يمل على الواقف بالطريق، لا يقول لك عندي موعد، عندما تذكر آية يقول لك: اعذرني عندي موعد، عندما تتحدث عن حديث شريف يتثاءب، سبع ساعات كل آذانه معك عند الحديث عن العملات، وعن البيوت، وعن الزواج، وعن التجارات، والاستيراد، والتصدير، والسفر، والرحلة، والفندق خمس نجوم، والعرس، تصل إلى موضوع الدين يتثاءب لا يريد شيئاً، عنده غير مطلوب لأنه، لذلك:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

أي يوم ينسون فيه كل ملذات الدنيا، يصعقون.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25))

(سورة الفجر)

أي إذا شخص قال لك حضرنا ألف عزيمة، وكل عزيمة طعامها أطيب من الأخرى، بأحد الليالي أصابه ألم في أسنانه لا يحتمل، فكان بقرية لا يوجد فيها طبيب أسنان لو تذكر هذه الولائم وليمة وليمة هل يذهب ألمه ؟ اليوم أكلنا الأكلة الفلانية و هي لذيذة جداً، لكن الألم قائم، لو أراد أن يستعيد كل الطعوم الطيبة التي أكلها، وأسنانه تؤلمه و الألم لا يحتمل واقعه الآن في شقاء، فالماضي ينسى في لمحة.

جزاء المؤمن و الكافر يوم القيامة:

الكافر يقول حينما يرى مكانه في النار: لم أر خيراً قط، في كل حياته، يقول لك: ما هذا الفندق شيء جميل جداً، أكل، سافر، ركب السيارة، ركب الطائرة، يحدثك ساعات عن رحلاته، عن متعه، عن نعيمه، حينما يرى مكانه في النار، يقول: لم أرَ خيراً قط، والمؤمن حياته كلها متاعب، وتكليف، وضبط شهوات، وضبط جوارح، وضبط لسان، وضبط عين، لا يسمع شيئاً خلاف الشرع، لا ينظر إلى عورة إنسان، ضابط لسانه، ضابط دخله، عرضوا عليه ملايين، قال إني أخاف الله رب العالمين، بقي على دخله المحدود، وبقي على بيته الصغير، لكن حينما يأتيه ملك الموت، يقول لم أرَ شراً قط.

طالب جامعي درس وأخذ الشهادة بأعلى درجة و قد نال الدرجة الأولى، فلو حاول أن يتذكر سهر الليالي للساعة الرابعة، واعتزل بالبيت، وكم مرة ما فهم الموضوع، وسأل صديقه، وأحضر كتباً وترجم، عندما يأخذ الدرجة الأولى نشوة النجاح تنسيه كل متاعب السنة.

الظفر برضوان الله مراد الإنسان الأكبر:

و هكذا نرى أن نشوة الظفر برضوان الله ينسيك كل متاعب الحياة، وشقاء النظر إلى مصير إنسان ينسيه كل ملذات الحياة، لذلك:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإنسان 075 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 24-31 نعم الله الكبرى على الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-05-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام مع الدرس الخامس والأخير من سورة الإنسان ومع الآية الكريمة:

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25))

علاقة الصبر بالذكر:

هل هناك من علاقة بين الصبر والذكر ؟

الصبر سلبي، أما الذكر إيجابي، لو أن الإنسان صبر ولم يذكر اختل توازنه فالذكر هو البديل، و الإنسان مفطور على حب الخير، مفطور على حب الجمال، مفطور على حب النوال، فالإنسان يحتاج إلى إيجابيات فإذا صبر عن الشهوات التي حرمها الله عز وجل لا بد من البديل، لا بد من بديل جمالي، لا بد من بديل إيجابي، لا بد من بديل ينسيك الذي تركت من أجل الله، إنه ذكر الله.

عندما يستقيم الإنسان ويضعف ذكره تصبح استقامته عبئاً عليه، عندما يستقيم ولا يذكر الله إلا قليلاً يرى الاستقامة عبئاً لا يحتمل، لأنه سلبيات، ترك هذه، وتركت هذه وترك هذه، إذاً ما الإيجابيات ؟ هذا الطعام ممنوع، هذا الطعام ممنوع، هذا الطعام ممنوع، إذاً بقي بلا طعام، لا بد من طعامٍ نفيسٍ ينسيه هذا الذي تركه، فدائماً صبر وذكر، الصبر سلبي.

ذكرنا في درس سابق: الإنسان عليه أن يصبر على الطاعات، فالطاعات فيها جهد و تكاليف، وعليه أن يصبر عن الشهوات، وعليه أن يصبر على قضاء الله وقدره، أما ما البديل ؟ البديل الأنس بالله.

المنظر الجمالي لأهل الدنيا، المال، الطعام، النساء، الأماكن الجميلة، المركبات، البيوت، إذاً عندما الإنسان المؤمن يدع أشياء كثيرة لوجه الله لا بد من مصدر جمالي له يسعده، إنه ذكر الله، اصبر واذكر، دع هذا وخذ هذا، أما دع ولا تأخذ، اختل توازنه الإنسان، فالإنسان سعادته بذكر الله.

البديل الإيجابي:

لذلك قالوا: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها جنة القرب، أحد العلماء قال: بستاني في صدري ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة.

وقال بعض شراح الحديث: حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((أبو بكر في الجنة))

الآن في جنة أي في جنة القرب، لا بد من البديل، أنت حينما تحرم ابنك كل هذه الشبهات والمعاصي، لا بد من البديل، لا بد من أن تعلمه، لابد من أن تعطيه أشياء إيجابية، يحبها حتى ينسى هذا الذي تركه. هناك آباء قمعين، هذه حرام، و هذه حرام، و هذه لا تجوز، و هذا ممنوع، هذه لابأس بها، ماذا أفعل ؟ لا بد من أن تقدم البديل، والتربية هكذا، والتعليم هكذا، والدعوة إلى الله الصحيحة هكذا، عندما أنت منعته من هذه الشبهات وهذه المحرمات يجب أن تعطيه البديل الإيجابي، أن تعطيه الشيء الذي يسره، أن تعطيه الجانب الجمالي في الدين، الإنسان يمشي بالصحراء، حر لا يحتمل، عطش، لكن بعد حين يوجد واحة، يوجد ظل، يوجد ماء، لابد من محطات استراحة، لابد من إيجابيات، لابد من القرب من الله.

طعم الإيمان يشدك إلى الدين:

أقول لكم هذه الكلمة أيها الأخوة:

الدين منطقي، والدين حق، والدين أعطى الإنسان تفسيراً عميقاً وواضحاً ومتكاملاً للكون والحياة والإنسان، والدين أعطى للموت تفسيراً عميقاً، الموت بداية وليس نهاية، الدين أعطى الحياة معنى الإعداد لا معنى الاستهلاك، الدين أعطى الإنسان قيمة كبيرة جداً، فالإنسان مخلوق أول، كل هذه الأفكار العظيمة، وكل هذه المنظومة المتناسقة، وكل هذا التصور العميق، لا يكفي وحده، الإنسان حينما يشد إلى الدين، لأن الله تجلى على قلبه، لأن الله أسعده، لأن الله قربه، لأنه أذاقه طعم القرب، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((ذاق طعم الإيمان، الإيمان له طعم))

يوجد بالإيمان قناعات، وأفكار، ومبادئ، و تصورات، لكن يوجد بالإسلام أذواق تذوقها، تشعر بها، الذي يشدك إلى الدين طعم الإيمان، الذي يشدك إلى الله القرب منه، الذي يشدك إلى البذل والتضحية هذه السعادة التي تنغمس فيها، هي الإيجابيات، دعوة إلى الله بلا إيجابيات لا تنجح، تدين مبني على

القمع والتحريم، حرام، لا يجوز، ودع هذا لا تنجح، لابد من أن يكون هناك شيء بين يديك تسعد به. عندما تركت المحرمات هناك المباحات، والمباحات معها قرب من الله عز وجل، فلذلك لابد من أن نذكر هذه النقطة.

القلوب لا تطمئن إلا بذكر الله:

لذلك يقول الله عز وجل:

(وَاذْكُر اسْمَ رَبِّكَ)

آية واحدة، لو فهمناها فهماً دقيقاً كما تقتضيه قواعد اللغة، وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

نحن قد نقرأ القرآن ولا نعرف دقائق نظمه الإعجازي، لو أن الله عز وجل قال: تطمئن القلوب بذكر الله، هذا الكلام ليس قرآناً، السبب: لأن هذه العبارة لا تعني أن القلوب تطمئن بذكر الله وحده، تطمئن بذكر الله، وقد تطمئن بغير ذكر الله، وقد تطمئن بالمال الوفير، وقد تطمئن بالجاه العريض، وقد تطمئن بالمتع الرخيصة، أما حينما قال الله عز وجل وهو ربنا، هو الخبير، هو الصانع، قال:

(ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

أي أن القلوب لا تطمئن إلا لذكر الله.

بالإنسان حاجة، و هناك فراغ لا يملؤه المال، قد تجد إنساناً معه ملايين وهو أشقى الناس لا تملؤه الصحة، و قد تجد إنساناً كالحصان وهو شقي لا يملؤه الجاه العريض، و قد تجد إنساناً قوي جداً، بيده مقاليد الأمور وليس سعيداً، لكن هذا الفراغ، يملؤه الإيمان

(ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

تكامل الذكر مع العلم:

ينبغي أن نعلم علم اليقين أن الإنسان قلب وعقل وجسم، الجسم يحتاج إلى طعام وشراب هو قوام حياته، والعقل يحتاج إلى علم غذاؤه الأول، والقلب يحتاج إلى ذكر بإتقان الصلوات، وبذكر الله عز وجل، وتلاوة القرآن، والدعاء، والاستغفار، والمناجاة والابتهال، والتسبيح، والحمد، والتكبير، هذه كلها أذكار توصلك بالله، تسعد القلب، هي غذاء القلب.

فالذكر كالمحرك، والعقل كالمقود، غذاء العقل هو العلم، وغذاء القلب هو الذكر، الذكر يعطيك قوة اندفاع هائلة، أما العقل وغذاؤه العلم يعطيك منهجاً، يعطيك مقوداً صحيحاً تبقى على الطريق، فالذكر والعلم يتكاملان، وأية دعوة تركز على الذكر ولا تركز على العلم دعوة عرجاء، وأية دعوة تركز على العلم ولا تركز الذكر دعوة عرجاء، وأية دعوة تركز على العلم وعلى الذكر و تهمل الجسم، و تهمل الحياة، و تهمل الكسب المشروع، و تهمل قوام الحياة دعوة لا تنجح.

الخطوط التي نسير عليها لنتزود بالمعرفة:

خطوط ثلاثة، العبادة طاعة طوعية تسبقها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، هناك جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي، خطوط ثلاثة يجب أن نسير عليها معاً، جانب معرفي، جانب سلوكي، جانب جمالي، تتزود بالمعرفة، تسلك منهج الله عز وجل، تتصل بالله، و الاتصال بالله يجعلك تعيش في سعادة كبيرة تنسى بها هموم الدنيا.

عجبت لأمر المؤمن، إنّ أمره كله خير ؛ إن أصابته سراء شكر فكان ذلك له خير، وإن أصابته ضراء صبر فكان ذلك له خير، وليس ذلك لغير المؤمن، فلذلك الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

كثرة الذكر:

(ذِكْراً كَثِيراً (41))

الأمر يتجه إلى كثرة الذكر، لا إلى الذكر، لأن الذكر القليل يفعله المنافقون.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142))

(سورة النساء)

الذكر القليل يفعله المنافقون، أما المؤمن يذكر الله ذكراً كثيراً.

لذلك الصلوات الخمس ذكر كثير على أن تكون متقنة، تلاوة القرآن كل يوم ذكر، التسبيح ذكر، الاستغفار ذكر، الدعاء ذكر، الابتهال ذكر، المناجاة ذكر، التكبير ذكر، الحمد ذكر، الشكر ذكر، الدعوة إلى الله ذكر، بيان السنة ذكر، بيان الحكم الفقهي ذكر، بيان السيرة ذكر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

نتائج كثرة الذكر:

جرب في أي جلسة تذكر الله، تنعقد القلوب، تجتمع القلوب، تتألق الوجوه، يسعد الحاضرون، فإن ذكرت غير الله قام الحاضرون على أنتن من جيفة حمار، احرص على ذكر الله في كل جلسة، لا تنسى أن تذكر الله، ذكر الناس بآية، بحديث، بقصة، بحكم فقهي، بسيرة، بصحابي، بشيء يسمو بك، يرقى بك، قال:

(وَاذْكُر اسْمَ رَبِّكَ)

إما أن تذكره لنفسك، وإما أن تذكره لغيرك، الآية مطلقة:

(وَاذْكُر اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً)

الفجر

(وَأَصِيلاً (25))

الظهر والعصر.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26))

(وَمِنَ اللَّيْلِ)

المغرب والعشاء وقيام الليل.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

(سورة آل عمران)

منهج الإسلام منهج كامل:

إذاً:

(وَاذْكُر اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25))

كل أمر في القرآن يقتضي الوجوب، الشيء المؤلم أن هذا الدين منهج كامل، منهج لعقلك، ومنهج لقلبك، ومنهج لجسمك، ومنهج لحياتك الاجتماعية والنفسية، ومنهج لتربية أولادك، ومنهج لعقيدتك، منهج كامل، أفكار دقيقة جداً معها أدلة قوية، كيف أن هذا الدين ضغط وضغط وضغط حتى أصبح عبادات شعائرية لا تقدم ولا تؤخر، الدين دين حياة، الله قال:

(إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنّ اللّهَ نِعِمّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (58))

(سورة النساء)

ما قال أمانة، قال أمانات، هؤلاء الكفار، أو هؤلاء المنافقون، أو هؤلاء الشاردون عن الله عز وجل، أو هؤلاء العصاة، أو هؤلاء المجرمون، الطرف الآخر، نحن عندنا طرفين.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنّمَا يَتّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلّ مِمّنِ اتّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللّهِ إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ(50))

(سورة القصص)

تقسيمات الحياة:

يوجد بالحياة خطان لا ثالث لهما، إن لم تكن على الخط الأول فأنت على الثاني حتماً، إن لم تستجب لله عز وجل فأنت مع الهوى، إن لم تكن على الحق فأنت على الباطل، إن لم تكن مع الله فأنت مع الشيطان، إن لم تكن مع القيم فأنت مع المصالح، إن لم تكن من أهل الآخرة فأنت من أهل الدنيا و هؤلاء هم الطرف الثاني.

الحقيقة يوجد تقسيمات كثيرة، أي حياتنا مفعمة بالتقسيمات التي لا تعد ولا تحصى.

الآن يوجد تقسيم جديد، دول الشمال ودول الجنوب، دول الشمال كلها غنية، الجنوب كلها فقيرة، كان شرقاً و غرباً و صار شمالاً وجنوباً، وصار في أعراق، وأجناس، وألوان، وشعوب، وأمم، وقبائل، وملل، ونحل، ومذاهب، وطوائف كل هذا التقسيمات باطلة.

الناس رجلان:

1 ـ رجل عرف الله فدخل الجنة:

هناك رجلان لا ثالث لهما، رجل من أي جنس، من أي عرق، من أي ملة، من أي طائفة، من أي عنصر، رجل عرف الله وانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، واتصل به، فسعد بالدنيا والآخرة.

2 ـ رجل غفل عن الله فخسر الآخرة:

ورجل غفل عن الله، فانقطع عنه، من لوازم الغفلة الانقطاع وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة، ولن تجد إنساناً ثالثاً، هذا هو التقسيم الحقيقي، الناس رجلان غر كريم (كريم على الله)، وفاجر شقي، هين على الله، فمنهم شقي وسعيد.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24))

(سورة القيامة)

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(106))

(سورة آل عمران)

اثنين وجه أبيض، ووجه أسود، وجه ناظر إلى الله، ووجه مغبر، فمنهم شقي وسعيد، أهل الجنة وأهل النار، أهل الشقاء وأهل النعيم، الوجوه الناضرة والوجوه الباسرة، هذا التقسيم الحقيقي، وأي تقسيم آخر باطل، مؤمن وغير مؤمن، فقال: إن هؤلاء الطرف الثاني ينطوي تحته الكفار، المشركون، العصاة، الشاردون، المنافقون، الفجار، كل هؤلاء الملحدون طرف واحد، والمؤمنون طرف آخر، قال:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

يحبون الدنيا، الدنيا تمشي في دمائهم، تمشي في عروقهم، الدنيا هي كل شيء، هي نهاية المطاف، نهاية السعي، فمن ملكها ظن نفسه سعيداً، ومن فاتته ظن نفسه شقياً:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

ولكن الله عز وجل أعظم، وأكرم، وأجل من أن يكون عطاءه محدوداً.

الموت يجمع كل البشر:

أيعقل أن يكون عطاء الله عز وجل ينتهي عند الموت ؟ ليس عطاءً، فالدنيا أمامكم سباق أحمق، الغني يموت والفقير يموت، والموت ينهي الفقر والغنى، والقوي يموت، والضعيف يموت، والوسيم يموت، والدميم يموت، والصحيح يموت، والمريض يموت، والموت ينهي كل شيء، سباق أحمق، سباق سيارات طريق طويل ينتهي بقاطع مائة متر، حفرة سحيقة، فأقوى سيارة تسقط، وأضعف سيارة تسقط، وأحدث سيارة تسقط، وأقدم سيارة تسقط، كل ينتهي للقبر، ينزل عالم، ينزل جاهل، ينزل غني كبير، ينزل فقير، ينزل شقي، ينزل سعيد، القبور تجمع كل البشر.

فلذلك:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

يوم الحساب.

محاسبة الإنسان:

مثلاً: يروون طرفة أن رجلاً من أغنياء مصر مات فأولاده خافوا عليه من عذاب القبر، فرجوا إنساناً فقيراً معدماً أن ينزل معه ليلة واحدة ليؤنسه، أعطوا هذا الفقير مائة جنية (مبلغ خيالي بالنسبة له) ـ هي قصة رمزية ـ جاء أنكر ونكير فوجدوا اثنين بالقبر، فخاف الفقير و حرك رجله أنه على قيد الحياة، فقالوا: نبدأ به، أحضر معه من قبل كيساً من الخيش قصه من فوق أدخل رأسه فيه (من فقره)، وقصه من أطرافه من عند الأكمام وربطه بحبل عند خصره، من أين أحضرت الحبل ؟ قال له: من البستان، كيف دخلت إلى البستان ؟ فضربوه كيف دخل البستان و الحبل له حساب ثان، كيف أخذها موضوع ثاني، كيف دخل البستان ؟ حتى تعب من القتل، خرج في اليوم التالي فقال: أعان الله أباكم، طبعاً

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

إذا الله عز وجل قال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

إذا امرأة استحقت النار لأنها حبست هرة، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها، فإذا كانت الهرة سبب دخول النار، فكيف بما فوق الهرة ؟

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

أين قوله تعالى لا ظلم اليوم.

نفي الظلم عن الله تعالى:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

أين ؟

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (124))

(سورة النساء)

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (49))

(سورة النساء)

ولا قطمير، أين ؟.

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70))

(سورة التوبة)

آيات نفي الظلم كثيرة جداً، كل شيء بحسابه الدقيق، أنا أرى الأحمق هو الذي يظن أن الحساب غير دقيق، يأخذ ما ليس له، يعتدي على الناس، الذي يبني مجده على أنقاض الناس أحمق، الذي يبني غناه على فقر الناس أحمق، الذي يبني مجده على إتعاس الناس أحمق

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

أحياناً السارق يسطو على بيت ويأخذ أموال كثيرة، يظن نفسه شاطراً فلما يقع في قبضة العدالة، ويأخذ المال كله، ويحكم ثلاثين سنة أو أربعين سنة أو يعدم إذا قتل أحداً، عندئذ يعلم أنه كان أحمقاً، ودائماً المجرمون مصنفون في علم النفس مع الأغبياء.

خلق الإنسان على أكمل وجه:

مرة ثانية الإمام الغزالي يقول: **يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله إذاً ما أجهلك، إذاً ما أكفرك، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله إذاً ما أجهلك**، الذي يعصي الله مدموغ بالغباء، والكفر

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (28))

فلو جئنا بكرة نحاسية وقسمناها شطرين وفرغناها من الهواء وأتينا بأربعة أحصنة من هنا، وأربع من هناك، وتحركت الأحصنة باتجاهين متعاكسين، لا تستطيع هذه الأحصنة أن تفك هذه الكرة لماذا ؟ لأنها مفرغة من الهواء، محكمة، وقال: عظم عنق الفخذ داخل بتجويف الحوض مع تفريغ الهواء، فالإنسان محكم، يعني أصعب شيء بعملية العظام سحب الهشاشة من الحوض

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

أحياناً الإنسان يحمل ابنه من يده، لو كان الرباط ضعيفاً تخرج يده من مكانها، أحياناً يشتري الإنسان حقيبة رخيصة يحملها فتنقطع اليد، طبعاً غير محكمة، غير مدروسة، أما الابن مدروس وزنه، مدروسة مفاصله، العضلات، الأربطة، الأوتار، وإذا كان الأب غضبان يدفع ابنه، الدفع في ضعف الوزن أيضاً مدروس

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

الإنسان بناء متكامل:

الإنسان بناؤه كامل، أنت لاحظ سيارة مصنوعة سنة 1900 تدعو إلى الضحك، لا يوجد فيها علبة سرعة حركة واحدة، لا يوجد دولاب في هواء، دولاب صب، فيها فانوس يشعله مساء بيده، يشغلها من أمام مناويل، انظر 600 موديل 99 انظر لميزتها ما معنى هذا، معنى هذا أن الإنسان خبرته تنمو.

عندما اخترعوا القطار ببريطانية، أمروا صاحب القطار يمشي أمامه إنسان مشياً يحذر الناس منه، إذاً ما هي سرعته ؟ أول قطار سرعته أقل من حركة الإنسان، الآن يوجد 380 كيلومتر بالساعة، فالإنسان خبرته تنمو.

انظر الإنسان هل طرأ عليه تعديل ؟ هل يوجد إنسان موديل 98، الإنسان مصمم على أكمل تصميم، حتى كلمة زائدة دودية كلمة خاطئة زائدة مدافعة، لا يوجد شيء عند الله زائد إطلاقاً، كمال مطلق

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

تصور لو وجد بالشعر أعصاب حس، إلى أين تذهب ؟ أعمل عملية حلاقة بالمشفى، طبعاً يحتاج إلى تخدير كامل إذا وجد بالشعر أعصاب حس، إذا وجد بالأظافر أعصاب حس فيلزمك عملية تقليم أظافر لماذا ؟ في أعصاب حس بالعظام، بنقي العظام ما في حاجة ؟ هذه أعصاب حس وقائية، لو صار كسر، شدة الألم تجعلك تحافظ على وضع الرجل، بقاؤها على ما هي عليه أربعة أخماس العلاج.

الطفل معه منعكس المص، لولا هذا المنعكس لا يوجد أحد بالجامع، و لم يكن هناك جامع أساساً لولا هذا المنعكس و هو عمل معقد جداً يفعله الصغير بلا تعليم، الآن ولد يضع فمه على حلمة ثدي أمه، يحكم الإغلاق ويسحب الهواء لو ما معه المنعكس تفضل علمه، تكلم باللغة العربية هل يفهم عليك ؟ كان مات من الجوع:

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

الأمعاء فيها شحم أسود، يقول لك هذه السيارة بشحمها، أنت بشحمك، أول أربع وعشرين ساعة حليب الأم مادة مذيبة للشحم يسمى صمغاً، أول أربع وعشرين ساعة خروجه أسود، هذا الشحم ما قال شحمه، فالشحم المذاب بهذه المادة تصميم رائع جداً، جهاز التوازن وحده يكفي، أنت تمشي على قدمين لطيفتين لو لو يوجد جهاز التوازن بالأذن، يلزمك خفي جمل لتمشي، أما في جهاز توازن، قنوات فيها سائل، فيها أهداب، تميل ثلاث درجات لتعدل، فالتوازن جهاز معقد.

هناك جهاز معرفة جهة الصوت، جهاز بالدماغ يكشف تفاضل الصوتين، والتفاضل 1620/1 جزء بالثانية لتعرف جهة الصوت، وبالعينين تعرف البعد الثالث، والأنف فوق الفم والأنف في عشرين مليون نهاية عصبية، وكل نهاية فيها سبعة أهداب وكل هدب مغمس بمادة مخاطية يتفاعل مع الروائح وتشكل شكلاً هندسياً يرسل للدماغ، بالدماغ في ملف عشرة آلاف رائحة، الرائحة الجديدة تعرض على عشرة آلاف رائحة أين وافقت تقول ياسمين، شم هذا ياسمين، هذا مسك، هذا عنبر، هذا ورد، هذا كمون، هذا فلفل، هذا بهار، الله كرمك، عندك حاسة قوية جداً.

تجلس بالبيت عينك تنتهي عند الجدران، لكن عندك جهاز سيطرة أبعد من الجدران السمع، يقول لك هناك حركة، السمع أبعد، إذا شيء ليس له حركة و ليس له شكل، يوجد عندك الشم، يوجد بالبيت شيء متفسخ، الله أعطاك سمعاً وأعطاك بصراً وأعطاك شماً، هذه كلها أجهزة سيطرة

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (28))

المؤمن الحقيقي مستعد دائماً لمغادرة الدنيا:

فالإنسان عندما تضعف أجهزته، تتعطل كليتاه، قلت لشخص مرة له عمل حساس يستطيع أن يؤذي الناس من خلاله، قلت له الله عنده سرطان، تشمع كبد، فشل كلوي، وخثرة بالدماغ، وشلل، في أمراض تقلب حياة الإنسان جحيماً، وكل هؤلاء عباده، هيئ لله جواباً عن كل شيء بالتساوي، هذا كلام دقيق.

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

سألوا طالباً نال الدرجة الأول على القطر بما نلت هذا المجموع ؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر ذهني إطلاقاً، والمؤمن يتفوق إذا هذه الساعة الحاسمة، ساعة الحساب مع الله، ساعة اللقاء، ساعة مغادرة الدنيا لم تغادر ذهنه إطلاقاً، وأروع ما في حياة المؤمن أن الحدث الخطير في حياته المغادرة مستعد له، كل حياته استعداد لهذه الساعة، كالطالب المجتهد عندما يدخل الامتحان مهيئاً نفسه، دارس، ملخص، مراجع الكتاب كله، حل أسئلة الكتاب كلها، عنده شيء جاهز، أما الشارد الغافل يفاجأ، يصعق إذاً

(ِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

كأن الله يحتقرهم، كأن الله يقرعهم، يحبون العاجلة، الله عز وجل قال:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (77))

(سورة النساء)

كونوا واقعيين، ليرتاح الإنسان بالأربعين عنده بيت و زوجة و دخل يكفي مصروفه ومعترك المنايا بين الستين والسبعين، هل من المعقول أربعين سنة إعداد، استمتاع عشر سنوات أو عشرين سنة ؟ لو لم يكن هناك آخرة قضية مختلفة غير صحيحة أما الآخرة هي التي تسوي الحسابات كلها:

(إِنّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

بلاء الكافر يوم القيامة:

فلذلك الكافر حينما يرى مكانه في النار يقول لم أر خيراً قط، سيدنا علي قال يا بني يخاطب ابنه الحسن، ما خير بعده النار بخير، لو معك ستة آلاف مليون، لو لك بكل مدينة بالعالم قصر، لو عندك عشرات المركبات، عشرات الطائرات، عشرات المراكب البحرية، ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محفور، وكل بلاء دون النار عافية.

مثلاً: إذا شخص مقطوعة أيديه وأرجله وأعمى وأصم وأبكم ومتسول ولا زوجة له ولا ولد وعلى الرصيف وانتهى للجنة

(وكل بلاء دون النار عافية)

أما النار:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77))

(سورة الزخرف)

قال تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

(سورة البقرة)

التفكر بآيات الجنة و النار:

الإنسان إذا لم يعبأ بآيات الجنة والنار يكون إيمانه ضعيفاً، آيات الجنة والنار يجب أن نأخذها بملء السمع والبصر، يجب أن نسعى للجنة، دار النعيم، النعيم المقيم، ويجب أن نفر من النار.

لذلك: كل شيء يقربك إلى الجنة يجب أن تفعله، وكل شيء يبعدك عن الجنة يجب أن تدعه:

(إِنّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (28))

أي:

((عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (29))

الإنسان مفطور على الإيمان بالله:

مثلاً: ذهبت إلى بيروت ورأيت الشاطئ الصخري، ثم أطلعناك على صورة، تقول أذكر ذلك رأيتها بأم عيني، الصورة ذكرتك بشيء تلمسه، فكل كلمة ذكرى بالقرآن أنت بالأصل مؤمن، الإيمان ضمن فطرتك، الإيمان فطري، كل مولود يولد على الفطرة، الإنسان مفطور على الإيمان بالله ؛ مصمم ليؤمن بالله، لا ترتاح نفسه إلا إذا آمن بالله، لا يطمئن قلبه إلا بذكر الله، لا يطمئن إلا إذا رجع إلى الله.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

(سورة الروم)

مصمم نفسك، خصائص نفسك، قوانين نفسك، مبرمج على أن تؤمن بالله، فإن لم تؤمن شقيت، إن لم تؤمن امتلأ قلبك ذعراً.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

أصل الشقاء الخروج عن الفطرة:

المصلي ليس جزوعاً، ولا منوعاً، مثلاً هذه المركبة مصممة للزفت الطريق معبد، الآن اركب سيارة على الزفت شيء مريح تماماً لا أصوات ولا مشكلة، امش فيها بالطريق الوعر تكسرها، حجر يكسر

مستودع الزيت فوقفت، حفرة نزلت فيها، حجر ضرب المحرك، لأنها مصمم للزفت لا للوعر، أما الوعر الدبابة، المدرعة، فيها جنزير هذه مصممة للوعر، وهذه مصممة للطريق المعبد.

فالإنسان مصمم للإيمان فإذا آمن ارتاح، لذلك في أصل جبلتك، وفي أصل تركيبك، ومن خصائص نفسك أنك مؤمن بالله، فإذا خرجت عن فطرتك شقيت.

أكثر الأمراض النفسية هي بالأساس خروج عن الفطرة، فالإنسان إذا كان محسناً يرتاح، إذا أساء يخاف.

يوجد فندق بألمانيا، قال لي شخص نزلت فيه ليلة، مكتوب لوحة لطيفة على السرير، أنه إذا لم تنم فالعلة من ذنوبك لا من فراشنا، نحن فراشنا وثير، إذا ما نمت العلة منك، تعذبك ذنوبك.

فالإنسان المستقيم ينام مرتاحاً، يتعب، ينام يرتاح، لا يوجد حقوق معلقة، لم يظلم أحداً، لم يعذب أحداً، لا يوجد إنسان كان سبب شقائه، فالإنسان عندما يكون سبب شقاء مخلوق ولو حيوان ينهار من الداخل.

أعظم نعمة نعمة الأمن:

فلذلك الفطرة أساسها الإيمان بالله، قال:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

أنت بالأساس مؤمن، الإيمان فطري، الإيمان أصل في جبلة الإنسان، الإيمان شيء من طبيعية الإنسان

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

وهذا القرآن يذكرك بأصل فطرتك، إنسان إذا اصطلح مع الله وجد نفسه، استقرت نفسه في اللحظة التي يتوب فيها إلى الله، يشعر أن جبالاً قد أزيحت عن كاهله، الشهوات عبء، والمعاصي عبء، أما حينما تتوب إلى الله، لطيف خفيف، متفائل، مستبشر، مطمئن، الله عز وجل قال:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

فأعظم نعمة نعمة الأمن، الأمن مكافئة للمؤمن، أنت مع الله وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا وجدت الله ماذا خسرت ؟ ما خسرت شيئاً

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

وأنت مخير، قال:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (29))

الطرائق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق:

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، طلب العلم طريق إلى الله، والاستقامة طريق إلى الله، والأعمال الصالحة طريق إلى الله وتربية الأولاد طريق إلى الله، ونصح للمسلمين طريق إلى الله، وإطعام الفقير طريق إلى الله، وكسوة العاري طريق إلى الله، والإحسان إلى الزوجة طريق إلى الله، وإتقان العمل طريق إلى الله، وأن تكون صادقاً طريق إلى الله، وأن تكون أميناً طريق إلى الله، وأن تكون عفيفاً طريق إلى الله، وأن تعلّم العلم طريق إلى الله، وأن تدعو إلى الله طريق إلى الله

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (29))

الله عز وجل بكماله المطلق، وكرمه العظيم، السعادة كلها عنده، لكن جعل لك طرائق له، الأبوة الكاملة طريق إلى الله، البنوة الكاملة طريق إلى الله، الزوج الكامل طريق إلى الله، الزوجة المطيعة لزوجها طريق إلى الله، إتقان عملك طريق إلى الله، عدم الغش طريق إلى الله، الصدق طريق إلى الله

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (29))

صحبة المؤمنين طريق إلى الله، لزوم مجالس العلم طريق إلى الله، علمنا النبي صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ إذا الإنسان دخل المسجد يقول:

((اللهم افتح لي أبواب رحمتك))

أنت في بيت الله، وفي ضيافة الله، وَاللّه عز وجل إذا أكرمك في بيت الله وفقك في الحياة، يسر لك أمورك، ألقى في قلبك النور، اتخذت قراراً صحيحاً.

مرة في بعض قرى ريف دمشق، صائغ هاجمه سبعة أو ثمانية أشخاص و ساقوه إلى مكان الخزنة وسرقوا عشرة كيلو ذهب وقتلوه وبعضهم كان مثقفاً، خلال أسبوع كشفت الجريمة وتم إعدامهم في مكان الجريمة هل كانوا أذكياء ؟ حمقى، هل تمتعوا بالذهب الذي سرقوه ؟ توهموا أنهم يملكون عشرة كيلو ذهب، ثم أعدموا شنقاً في مكان الجريمة.

تجلي الله على قلب الإنسان بالرأفة:

ما معنى الله رحمك ؟ أي أعطاك رؤية صحيحة، أعطاك قراراً حكيماً، أعطاك كلاماً سديداً، وفقك، يسر لك أمورك، يسر لك زواجاً مريحاً، يسر لك أولاداً أبراراً، يسر لك عملاً صالحاً تلقى الله به، هذه رحمة الله عز وجل، طبعاً بالجامع لا يوجد شاي ولا كاتو، و الجلوس على الأرض وغير مريح، لكن عندما يتجلى الله على قلبك، يطمئنك ييسر لك أمورك، يوفقك بالعمل، يعطيك رؤية صحيحة لا تخطئ، كلام سديد لا تتحامق، هذا كله من رحمة الله عز وجل فالله عز وجل قال:

(إِنّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (29))

لكن:

ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله:

1 ـ ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ربط حكمة:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلّا أَنْ يَشَاءَ اللّهُ إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (30))

بط مشيئة الإنسان بمشيئة الله، ليس ربط جبر لكن ربط حكمة، لا يقع شيء بالكون إلا بمشيئة الله، كل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقع، أحياناً الإنسان يرتكب معصية، الله عز وجل لا يعاقبه و أحياناً يعاقبه، هذا لعلم الله به، إذا ما عاقبه أعطاه فرصة ليتوب، إذا عاقبه قد يقصمه، وقد يردعه، إذاً مشيئة الله عز وجل مشيئة حكمة، مشيئة رحمة، ليست مشيئة جبر، لا، هذا المعنى فاسد، إنسان أراد أن يعصي الله لكن الله يعلم أنه صالح يمنعه من المعصية، يضع أمامه العراقيل، إنسان شهوته استحكمت بنفسه حتى جعلته لا يرى شيئاً، أحياناً يسمح له أن يفرغ شيئاً منها ويعاقبه.

فالله عز وجل ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ربط حكمة، ربط رحمة، ربط تأديب، ربط تربية، لكن ليس ربط جبر، هذا الذي يعتذر عن عدم صلاته، وعن عدم إيمانه أن الله ما شاء له الهدى هذا كذب على الله، هذا افتراء، هذا كلام ما أنزل الله به من سلطان، ربط حكمة، ربط تربية، ربط رأفة، يوجد معنى ثاني.

2 ـ مشيئة العبد مشيئة اختيار:

المعنى الثاني: مشيئة العبد مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله مشيئة فحص واختبار، طلبنا من الطلاب الذين معهم شهادة ثانوية أن يقدموا للجامعة فتقدم الجميع لكلية الطب، الطب يريد علامات عالية، فحصنا الاستمارات وجدنا الطلاب ليسوا أهلاً للطب، ليس عنده إمكان أن يتابع الدراسة بهذه الكلية، كلية علمية، عنده أسلوب أدبي جيد، هذا للآداب، والطالب اختار الطب، أما رئاسة الجامعة تفحص اختياره، وترى علاماته وإمكاناته، وميوله، وتوجهه وجهة صحيحة تناسبه.

3 ـ مشيئة الله مشيئة فحص و اختبار:

فمشيئة الله عز وجل مشيئة فحص واختبار، وحكمة، ورحمة وتربية، وتأديب، و ليست مشيئة جبر، وإلا المعنى فاسد.

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ((148)

(سورة الأنعام)

إذاً: إذا كان ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ربط جبر وقهر التغى الاختيار، وإذا التغى الاختيار التغى الثواب والعقاب، والتغت الجنة والنار، والتغى التكليف، والتغى حمل الأمانة، والتغى نزول الأنبياء، فنزول الأنبياء لا معنى له، والتغى إنزال الكتب، فإنزال الكتب، وإرسال الأنبياء، والجنة، والنار، والثواب، والعقاب، والتكليف، وحمل الأمانة، أصبحت تمثيلية سمجة.

فالإنسان مخير

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

ربط حكمة، ربط تربية، ربط تأديب، ربط علم الإنسان اختار.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ((18)

(سورة الإسراء)

شخص أراد أن يسافر والله يعلم أن إيمانه ضعيف بالسفر يفسد، فنشأت عقبة منعوه من السفر، هذه مشيئة الله عز وجل، لكن مشيئة الله فيها حكمة، إنسان يستفيد سمح له، إنسان طلب الزواج بوقت مبكر، ليس له أهل، فقد يفسد الزوجة، أخره، الله يؤخر أو يقدم، فعلى المؤمن ألا يستعجل ما أخره الله، ولا يؤخر ما عجله الله، يرى حكمة الله.

إذاً: مشيئة الإنسان مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله مشيئة فحص واختبار، ومشيئة علم، ومشيئة تربية، ومشيئة رحمة، ومشيئة تأديب ومشيئة توجيه.

4 ـ مشيئة الله مشيئة تربوية:

الآية الكريمة:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

أحياناً الإنسان يطلب المال و المال لا يناسبه، الله لا يعطيه المال، هو شاء المال لكن الله ما شاء له المال.

أحياناً يشاء السفر لكن الله لا يشاءه له، فمشيئة الله مشيئة تربوية، مشيئة رحمة أساسها العلم، والدليل:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (30))

لعلمه وحكمته يشاء لكم أو لا يشاء لكم، فأنت لك أن تختار أما أن توفق لما اخترت هذا بيد الله عز وجل.

هِداية الله للإنسان:

1 - هدايتك إلى مصالحك:

لذلك قالوا: هناك أربع هدايا، الهداية الأولى: هدايتك إلى مصالحك، أعطاك سمعاً وبصراً، حياتك مصونة بالسمع والبصر والإدراك والخوف أحياناً، وتهتدي إلى الطعام والشراب، فلو لم يكن هناك إحساس بالجوع كنا متنا من الجوع، لكن يجوع الإنسان، لا يوجد داعي أن يقول لك الله كل، أودع فيك الشعور بالجوع، فيوجد شعور بالإنسان ثابت.

2 - الهداية إلى الله:

الهداية الثانية: الهداية إلى الله.

3 - هداية التوفيق:

الـهداية الثالثة: هداية التوفيق.

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13))

(سورة الكهف)

عندما أنت تختار الهدى، الله يوفقك، يجمعك مع أهل الحق، يعينك على الطاعة، يعينك على الاستقامة، أحياناً يعينك على إنفاق المال، يهبك المال لتنفقه في سبيل الله، هذه هداية التوفيق.

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ((17))

(سورة فصلت)

4 - الهداية إلى الجنة:

الهداية الرابعة: الهداية إلى الجنة، يوجد هداية مصالح، وهداية وحي، وهداية توفيق، وهداية للجنة.

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (31))

رحمة الله بعباده:

رحمة الله عز وجل شيء صعب وصفه، عطاء الله مطلق، الصحة من الرحمة، والأمن من الرحمة، والسعادة من الرحمة، والتوفيق من الرحمة، وصلاح البال من الرحمة، وعدم الخوف من الرحمة، الرحمة واسعة جداً، إذا الله عز وجل منحك رحمته، لو حرمك الدنيا كلها أنت أسعد الناس، ولو حجب عنك رحمته وأعطاك الدنيا كلها أنت أشقى الناس.

شيء عجيب، وأنت في وضع صعب جداً تنام على الشوك مع رحمة الله فراش وثير، وتنام على فراش وثير وقد حجبت عنك رحمة الله فأنت أشقى الأشقياء، تتمتع بأموال طائلة وقد حجبت عنك رحمة الله.

أخ من أخوانا الكرام وجد بيوم واحد مفارقة كبيرة جداً، التقى بإنسان حجمه المالي كبير جداً بآلاف الملايين، فشكا له السقم، والضجر، والملل، والدنيا ليس لها طعم، و هو متعب من أهله، و أولاده، و بيته، و البلد، مع أن حجمه المالي كبير جداً، بنفس الوقت زارته امرأة تطلب منه مساعدة ألف ليرة بالشهر، أجرة بيت، سألوا عن عنوان البيت، وذهبوا ليزوروها، وجد بيتاً تحت درج، نظيف، وزوجها موجود، بالبيت جو لطيف، مودة، سرور، طبعاً قرر لها ألفين، قالت له: لا، ألف يكفي، لأن معاش زوجي يكفينا، لكن ينقصنا أجرة البيت.

شيء محير أن إنسانة تسكن تحت الدرج وبأعلى درجة من السعادة، و شخص معه ملايين مملينة، ويسب الدنيا وحظه وشقاءه، يعطيك المال يحجب عنك الرحمة أنت أشقى الناس، يحرمك من المال يتجلى عليك بالرحمة أنت أسعد الناس.

يجعلك قوياً و يحجب عنك الرحمة فالقوة تصبح بلاء، يجعلك ضعيفاً مستضعفاً و يعطيك رحمته فأنت أسعد الناس.

يحرمك الأولاد أحياناً مع رحمته مستغنٍ عن كل الأولاد، أحياناً يعطيك الأولاد كما تتمنى الأولاد يصبحون عبئاً، بلاء من الله أحياناً، فأنت ابحث عن رحمة الله وَاللَّهِ عز وجل قال:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32))

(سورة الزخرف)

لي دعاء أدعوه دائماً: اللهم كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك، أنت اطلب رحمة الله، اطلب توفيقه، اطلب أن تكون بطاعته، اطلب أن يحبك الله، أن يرضى الله عنك، شيء كبير.

محبة الله للعبد قمة سعادته:

رسول الله قال لسيدنا معاذ:

((والله يا معاذ إني لأحبك))

هذا عطاء أن يحبك رسول الله، وأن يحبك الله، واستقامتك، وتواضعك، وأدبك، ومحبتك، وإخلاصك، ووفاؤك وعفتك، وطهارتك، وخدمتك للناس وصدقك معهم، وأمانتك، الله يحبك، وإذا أحبك الله ألقى محبتك في قلوب الخلق، هذا العطاء، أن يحبك الله، أن تكون في رضوانه، أن تكون في طاعته،

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ)

من هذا الذي يستحق أن يدخل في رحمته ؟

الظالمون هم المحرومون من محبة الله و رحمته:

(وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (31))

معنى الذين يحرمون من رحمته أي هم الظالمون، أما المنصفون هؤلاء في رحمة الله العادل، والرحيم، والمستقيم، والصادق، والأمين، والعفيف في رحمة الله.

هناك قانون: لو أن أستاذاً قال لطلابه: أنا سآخذ من أشاء من الطلاب إلى النزهة، يفهموها قضية مزاج، أما لو قال: أما المقصرون فلن آخذهم معي واضحة، إذاً:

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ)

لو أنك عزوت المشيئة إلى الله، لكن للمشيئة قانون:

(وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (31))

فإياك أن تظلم، إياك أن تخرج عن مظلة الله عز وجل، كن في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

الإنسان يعرف الحقيقة بالفطرة:

أخوانا الكرام: آخر آية دقيقة جداً:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

الدين فطري والقرآن الكريم، والأنبياء، والرسل جاؤوا ليذكروك بأصل فطرتك.

قرأت كلمة أن إنسانة تعمل في الفن، سألوها ما شعورك وأنت على خشبة المسرح ؟ قالت شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الجمهور، إن الحب يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرف مغلقة، هذه الفطرة، هي فاسقة، هي ممثلة، الإنسان بالفطرة يعرف الحقيقة، أنت مبرمج، بالتعريف الحديث مولف، أنت مجبول، جبلتك وفق هذا الدين، فإذا سرت مع هذا الدين، شعرت بالراحة، تماماً كسيارة تجري على أرض وعرة فتتكسر فلما انطلقت إلى طريق معبد استرحت، هذه الفطرة

(إِنّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ)

أنت مخير:

(اتّخَذَ إِلَى رَبّهِ سَبِيلاً (29))

إذا إنسان دخل إلى مسجد فهو في رحمة الله، اختار طريقه إلى الله، طبعاً يوجد ملهيات بالبيت لكنك آثرت أن تسمع الحق:

(فَمَنْ شَاءَ اتّخَذَ إِلَى رَبّهِ سَبِيلاً (29))

في طلب العلم، في تعليم العلم، في إنفاق المال، في خدمة المساجد، في الدعوة إلى الله، مليون طريق إلى الله، وكلما أكثرت كلما كان أحسن

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ)

أنت لو عزوت هذه الفعل إلى الله، مشيئته واضحة

(وَالظّالِمِينَ أَعَدّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (31))

نعم الله الكبرى:

هذه السورة أيها الأخوة: سورة الإنسان من السور الدقيقة، بدأت:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

ونحن كلنا نتمتع بثلاث نعم كبرى:

1 ـ نعمة الإيجاد:

نحن موجودون هي نعمة.

2 ـ نعمة الإمداد:

أي يوجد هواء، ماء، طعام، شراب، زوجة، أولاد، بيت، ولك أب، ولك أم، ولك أخوان وأصدقاء.

3 ـ نعمة الهدى و الرشاد:

ثلاث نعم نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المرسلات 077 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-7 نعم الله على الإنسان لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-06-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام : مع الدرس الأول من سورة المرسلات.

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (5) عُذْراً أَوْ نُذْراً (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7))

(سورة المرسلات)

التعريف بالمرسلات عرفاً:

الواو واو القسم، و القسم في القرآن الكريم يعني لفت نظر الإنسان لعظمة هذا المقسم به، فهذه المرسلات قال علماء التفسير: إنها الرياح.

وقال بعض العلماء: إنها الملائكة التي تُرْسَل إلى الأنبياء فَتُلْقي عليهم الوحي.

وقال بعضهم : المُرسلات هؤلاء الذين أرسلهم الله عزّ وجل لتبليغ رسالته للناس.

أما كلمة عُرفاً أي التتابع، الرياح تتابع، والملائكة تتابع، والأنبياء يتتابعون، العُرف كَعُرْف الفرس، كيف أن هذه الأشعار يتلو بعضها بعضاً على شكل خطٍ مستمر، كذلك هذه الرياح التي يرسلها الله عزّ وجل تسوق السحاب، والسحاب يصنع المطر، والمطر تصنع الحياة، والحياة قِوامُ حياة الإنسان والحيوان.

قسم الله عز وجل بالمرسلات:

الله عزّ وجل يقسم بالمرسلات، أي أن حياة الإنسان متوقِفة على هذه الرياح، الرياح كيف تتحرّك ؟ الرياح هي الهواء، والهواء له درجة حرارة معيّنة، الهواء إذا سَخَن يتمدد، وإذا برد يَنْكَمِش، الأرض فيها أماكن حارّة كخط الاستواء وأماكن باردة كالقُطبين، الهواء بالأماكن الباردة ضَغْطه مرتفع أي منكمش، والهواء في الأماكن الحارة ضغطه منخفض أي متمدد، إذا كان هناك فرق في الضغط بين منطقتين الكتلة التي أشد ضغطاً تتحرك نحو الأقل ضغطاً، صار هناك مُنْفَرَج، فَسِرُّ حركة الرياح وجود مناطق باردة ومناطق حارة.

بل إنّ هذه الصحارى التي قد لا ننتبه إلى دورها في الحياة هي منطقة حارّة، المنطقة الحارة بسبب حرّها الهواء فوقها ضغطه مرتفع (متخلخل).

مرةً في أحد أيام رحلات الحج شعرت أن إقلاع الطائرة في دمشق أسرع من إقلاعها في جدة، فسألت خبيراً فقال لي: الهواء في دمشق أكثر برودةً إذاً هو أكثر تماسُكاً إذاً هو يحمل الطائرة، أما الهواء في جدة الحرارة تسعة وأربعون أكثر تخلخلاً وأكثر تمدداً وأضعف من أن يحمل الطائرة، فإقلاع الطائرة يحتاج إلى أمدٍ طويل كي ترتفع عن سطح الأرض، بينما هي في دمشق تحتاج إلى وقتٍ أقل، معنى ذلك الهواء إما أنّه مخلخل (ضغطه مرتفع)، أو أنه منكمش (ضغطه عالٍ).

إذاً: بوجود كتلتي هواء أحدها ذات ضغطٍ مرتفع والثانية ذات ضغطٍ منخفض تتمُّ هذه الحركة، مع سكون الهواء الشديد لو دَفَّأتَ غرفةً وأبقيت بقية الغرف باردة، وجئت بشمعة وضعتها على طرف الباب تجد أن هناك تيّار هواء نشأ من تفاوت الحرارة في الغرفتين.

تحرك الهواء من نعم الله العظمى:

على كلٍ أن يتحرك الهواء هذه من نعم الله العظمى، لأن الهواء هو الذي يسوق السحاب، والسحاب فيه المطر، والمطر فيه الحياة، والحياة قِوام النبات، والنبات غذاء الحيوان والإنسان.

لذلك: ربنا عزّ وجل حينما أقسم بالمرسلات عرفاً إن شئت عددتها الرياح التي يسوقها الله عزّ وجل لتُثيرَ سحاباً فيكون السحاب حياةً، أو عددتها ملائكةً لتُحْيي القلوب.

لك جسمٌ يحتاج إلى طعام وشراب، و لك نفسٌ تحتاج إلى الهُدى، فإذا قلنا والمرسلات هم الملائكة، هم الذين يأتون بالوحي إلى الأنبياء فيكون الوحي سبب سعادة الإنسان وسلامته، إنها تعليمات الصانع، إنها خطاب السماء إلى الأرض.

طبعاً الله عزّ وجل يخاطب أهل الأرض من خلال الوحي ومن خلال الأنبياء، وأحياناً يخاطبهم من خلال أفعاله، أفعاله خطابٌ من نوعٍ آخر، فالإنسان أحياناً يتعلّم بالكلمة و أحياناً يتعلّم بالموقف.

دروس الله لعباده:

مرةً صُنعت باخرة، في عام ألفٍ وتسعمائة واثني عشر تعدُّ أضخم باخرةٍ في الأرض في ذلك الحين، وقد قال الذين صنعوها: إن القدر لا يستطيع إغراقها، لأنها صنعت من جدارين اثنين وبين الجُدُر جُدُر عرضانِيَّة ولها أبوابٌ محكمة، فلو أنها خُرِقَت من جانب هناك جانبٌ داخلي يمنع تسرب الماء إليها، طبعاً فيها من البذخ و الترف و الفرش الغالي و الكسوة الرائعة جداً ما لا يوصف، وقد كانت في أوّل رحلةٍ لها من بريطانيا إلى بوسطن وعليها نخبةٌ من أثرياء أوروبا، وقد قدّر الخبراء أن ثمن حِلِي

نسائهم بالمليارات، وفي أول رحلةٍ لها اصطدمت بجبلٍ ثَلجي في عرض الأطلسي فانشقت شَطْرَين وغرقت فقال أحد القساوسة: إن غرق هذه الباخرة دَرْسٌ من السماء إلى الأرض.

هناك آلاف الدروس يتلقّاها البشر من خلال أفعال الله عزّ وجل، وهناك خطابٌ من الله لأنبيائه وبالتالي لبني البشر من خلال الوحي، على كلٍ:

معنى المرسلات:

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً (1))

(سورة المرسلات)

1 ـ المعنى الأول: الرياح التي تحيي الأرض:

إنها الرياح التي تُحْيي الأرض بعد موتها، تسوق السحاب، والسحاب ينقلب إلى مطر، والمطر تحيي بها الأرض بعد موتها.

2 ـ المعنى الثاني: الملائكة يأتون بالوحي:

المعنى الثاني: هؤلاء الملائكة يأتون بالوحي وهذا الوحي فيه التشريع وفيه المنهج وفيه الدستور وكل من طبّق هذا التشريع سعد في الدنيا والآخرة، فإما أنها سبب حياة الأجسام أو سبب حياة النفوس.

معنى عرفا:

تتابع الرسل:

أما عرفاً تتابع الرسل..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7))

(سورة الرعد)

يوجد رُسُل، يوجد أنبياء، يوجد أولياء، يوجد دُعاة، هؤلاء جميعاً موزّعون في الأرض توزيعاً تسلسلياً، توزيعاً متتابعاً، توزيعاً جغرافياً، وتوزيعاً زمنياً، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

التجديد في الدين مزلق خطر:

والآن هناك من يقول بالتجديد، والتجديد أيها الأخوة مَزْلَقٌ خطير، ولُغْمٌ كبير، وفِرْيَة الإسلام بريءٌ منها، كل من توهّم أن التجديد أن تضيف على الإسلام شيئاً أو أن تحذف منه، شيئاً كقطع اليد لا يتناسب مع هذا العصر لا بدّ من رادعٍ آخر، أما قوله تعالى:

(وَالسّارِقُ وَالسّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا)

(سورة المائدة: آية " 38 ")

قرآن مع التفصيل، مع التحديد، لا ينبغي أن نقطع اليد، قطع اليد لا يتناسب مع الحضارة الحديثة.. هذا تكذيبٌ بالقرآن، و لعل مشكلات الإنسان في كل مكان سببها أكل أموال الناس بالباطل، وهل من رادعٍ أقوى من أن تُقْطَعُ يد السارق لتحقيق قُدسية الملكية.

يدٌ بخمس مئين عسجدٍ و دية ما بالها قطعت في ربع دينار

***

فقال الإمام الشافعي:

عِزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذُلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

***

عندما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

التجديد بالمعنى الدقيق: أي لا ينبغي أن نزيد عليه ولا كلمة، و إزالة ما عَلِقَ بالإسلام مما ليس منه فقط.

بناءٌ أصله من الحجر الأبيض فصار الحجر أسود اللون من دخان السيارات ومن الغبار ومن عوارض الرياح، فإذا أزلنا عنه هذه الطبقة السوداء التي شوّهت جماله فهذا هو التجديد، ولا يُقْبَل في الإسلام تجديدٌ آخر، أن تزيل ما علق فيه مما ليس منه، أما أن نضيف أحكاماً، أو أن نحذف أحكاماً، أن نقول: هذا الحكم لا يتناسب مع هذا العصر. من هي الجهة التي شرّعت ؟ إنه الله عزّ وجل..

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (17))

(سورة الإسراء)

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة: آية " 3 ")

التجديد أن نعود إلى أصل النبع:

إذاً: التجديد وقد وصلنا إليه كفرع من فروع هذه الآية هو إزالة ما علق بالإسلام مما ليس منه، أي أن التجديد أن تعود إلى الينابيع، ينبوع بردى عذبٌ صافٍ كالزُلال، أما مَصَبُّه مياهٌ سوداء لكثرة ما أُضيف على هذا النهر من مصبّات ومن روافد ومن مياهٍ مالحة صارت مياهه سوداء، فالتجديد أن تعود إلى أصل النبع، أصل النبع هذا القرآن وما صَحَّ من حديث رسول الله، هذا هو أصل الإسلام، فإذا عُدنا إلى الكتاب والسنة فقد عُدنا إلى ينابيع الإسلام، ولن نفلح إلا إذا كنا على ما كان عليه رسول الله وأصحابه، الفرقة الناجية، فعرفاً الشيء المتتابع، فالرياح تتابع، والملائكة تتابع رسالاتها والأنبياء يتتابعون.

الأعاصير و أخطارها:

(فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً (2))

(سورة المرسلات)

هذه الرياح تشتد، وإن اشتدت بين أن تكون نسيماً عليلاً ثم تكون ريحاً ثم رياحاً ثم عواصف ثم زَعازع ثم أعاصير، والأعاصير لا تبقي ولا تذر، فأحياناً تسمع أن إعصاراً في أمريكا كانت الخسائر من بعده ثلاثين ملياراً، الإعصار تقول: هنا كانت مدينة، هنا كانت بلدة، البيت وأثاث البيت، وما حوله، وما قبله، وما بعده لا تجده في مكانه.

الرياح لها سرعات، من عشرين كيلو متر في الساعة إلى ثلاثين إلى أربعين إلى مائة إلى مائة وخمسة وعشرين فالرياح تؤذي، أما هناك رياح سرعتها ثمانمائة كيلو متر في الساعة، تصوّر أن الأرض إذا كانت تدور وطبقة الهواء ثابتة لا يبقى عليها شيء لأن سرعة دوران الأرض ألف وستمائة كيلو متر بالساعة، لو الهواء ثابت والأرض تدور ينشأ من حركة الأرض وثبات الهواء رياح سرعتها ألف وستمائة كيلو متر في الساعة.

إذاً: إذا كان الهواء راكداً وركبت أنت سيارةً مسرعةً ومددت يدك من النافذة تشعر أن هناك تيار هوائي مُخيف، الهواء راكد وأنت المتحرك، لا بد من حركة أحدهما أنت أو الهواء، فلو أن الهواء ثابت والأرض تدور ما بقي على سطح الأرض من شيء، لذلك قال بعض العلماء:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة العنكبوت: آية " 20 ")

يا سبحان الله ما معنى قول الله عزّ وجل ؟

معنى سيروا في الأرض:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة العنكبوت: آية " 20 ")

فهل نحفر سرداب، ندخل في الأنفاق، ندخل في القنوات التي تحت الأرض، ندخل في التعبير الحديث بالبنية التحتية ؟ لا:

(سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة العنكبوت: آية " 20 ")

لأن الهواء جزءٌ من الأرض، فإذا سرت على سطح الأرض فأنت تسير في الأرض، من نِعَم الله العظمى أن الهواء يدور مع الأرض، ولو لم يكن كذلك لدُمِّر ما على سطح الأرض.

شيءٌ آخر: يُدَمِّر ما على سطح الأرض لأن الأرض ترفع سرعتها عندما تصل إلى القطر الأصغر، بينها وبين الشمس المسار إهليلجي (بيضوي)، والشكل البيضوي له قطران قطرٌ أصغر وقطرٌ أكبر، فالأصغر لعلّ الأرض تنجذب إلى الشمس، الأرض ترفع سرعتها لينشأ عن هذه السرعة الجديدة قوةٌ نابذة تكافئ القوة الجاذبة، الشيء الدقيق هو أن هذا التسارع بطيء، ترفع سرعتها شيئاً فشيئاً، هذا من لطف الله عزّ وجل، لو أنها رفعت سرعتها فجأةً لانهدم كلُّ ما عليها.

من لطف الله بعباده أن تسارع الأرض و تباطؤها بطيء:

ضع عشرة علب من الكرتون في صندوق سيارة (سيارة شحن) وأقلع بسرعة كل هذه العُلب تقع، أو أوقفها بسرعة كلها تقع، من لطف الله عزّ وجل أن ازدياد سرعة الأرض في دورتها حول الشمس ازديادٌ بطيء، هذا اسمه في الرياضيات تسارع بطيء، تسارع الأرض بطيء وتباطؤها بطيء، وهذا من لطف الله عزّ وجل، والآية الكريمة:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24))

(سورة يونس)

فقد يقول قائل: هنا كانت مدينة اسمها باريس، هنا كانت مدينة اسمها واشنطن.

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً)

(سورة يونس)

لو أن هذه السرعة ارتفعت فجأةً أو انخفضت فجأةً لانهدم كلُّ ما على الأرض.

إذاً:

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3))

(سورة المرسلات)

أنتشار الخير عن طريق السحاب:

قال علماء التفسير: هذه الرياح بما تسوق من سحاب تَنْشُرُ الخير، امش في أيّام الربيع ترى الأرض قد اكتست بحلةٍ خضراء، والأشجار اكتست بحلةٍ بيضاء، والأزهار من كل لونٍ وشكل، والأرض قطعةٌ من الجمال، بسبب مياه الأمطار، وكلّما ازداد المطر ازداد العشب نمواً، فلذلك هذا الجمال، وهذا النبات، وهذه الأشجار، وهذه المروج الخضراء، وهذه الأشجار المَكْسوّة بكل ما فيها بسبب مياه الأمطار.

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3))

(سورة المرسلات)

ينتشر الخير.

سمعت مرة من أحد إخواننا الكرام أن محصول القمح في سورية ثلاثة ملايين طن (استهلاك القُطْر كله مليون طن)، ثلاثة أمثال حاجتنا.

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3))

(سورة المرسلات)

في المنطقة الشمالية الشرقية هذه أراضي خَصْبَة جداً بمياه الأمطار، كلها أراض بعلية، فالقمح هو المحصول الإستراتيجي الضخم الأساسي في حياتنا، وهو المعوّل عليه في العالم.

إذاً: هذه الأمطار تنشر الخيرات، فأنتم قد لا تصدقون قد يُدفع للمزارعين عشرات ألوف الملايين ثمن القمح، عشر مليارات أحياناً ثمن القمح الذي تشتريه الدولة من الفلاحين.

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3))

(سورة المرسلات)

فحوران وحدها كانت تُطْعِمُ سوريا في عهد الرومان قمحاً، وكانت تعداد هذا البلد كما قرأت حوالي خمسة وخمسين مليون، خمسة وخمسين مليون يأكلون من محافظةٍ واحدة، و حوران كما تعلمون تُسْقى بمياه الأمطار أي بعلاً، إذاً هذا هو معنى:

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3))

(سورة المرسلات)

مياه الأمطار تُنْبِتُ الزرع.

أحياناً يقال لك: استوردنا ببضعة مليارات علف للحيوانات، وإذا كان موسم البادية طيّب لا نستورد شيئاً في موسم العلف.

فهناك نبات رعوي و النبات الرعوي إذا كان نامياً والسنة خصبة لا نستورد شيئاً، وأحياناً نستورد كي نطعم مواشينا و ندفع عدّة مليارات ثمن للعلف.

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3))

(سورة المرسلات)

فأنت لا تعرف ما معنى الموسم طيّب، موسم البادية طيّب، أسعار الجُبن والسمن تنزل إلى الربع، هذه السنة يوجد خير كثير إن شاء الله، أسعار السمن البلدي إلى الربع، والجبن كذلك.

أزدياد الخير بإمطار السماء:

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3))

(سورة المرسلات)

مرةً كنت أجلس في مكان فسمعت رجلين يتحادثان قال له: بعنا السنة بشكل كبير، ما الذي باعوه ؟ قِماش مُطرّز لمناسبات الزواج في الشمال الشرقي من سوريا، قال له: ولما ؟ ما السبب ؟ قال له: كان موسم الأمطار جيّداً، فمعمل التطريز يبيع بحجم فلكي لأن موسم الأمطار هناك جيد، هذا الرزق، الرزق من السماء فإذا السماء أمطرت الأرض أنبتت والناس في خير، لذلك لما قال الله عزّ وجل:

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود: آية " 84 ")

قال العلماء: شرح هذه الآية وفرةُ المواد ورُخص الأسعار، أحياناً الذي يضمنون الفواكه في أي مكان يُقَدِّرون أنهم سيبيعون هذا الكيلو بخمسين ليرة، أحياناً يأتي موسم طيب يُباع الكيلو بخمس ليرات أو عشر ليرات.. يخسرون.. فكلما ازداد الخير أصبح السعر معتدلاً، هذا معنى:

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3))

(سورة المرسلات)

فهذه السُحُب التي تُمْطِر في أماكن جافّة تكون هذه الأرض اهتزت و رَبَتْ.

تفرق السحاب عن طريق الرياح:

(فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (4))

(سورة المرسلات)

نعود إلى الملائكة الذين يأتون بالوحي، وهذا الوحي تُفَرّقُ أنت به بين الحق والباطل و من خلال التشريع أيضاً تفرق بين الحق و الباطل، الخنزير حرام ولحم الضأن حلال، الخمر حرام واللبن حلال، فمن خلال التشريع الذي كان عن طريق الملائكة، من خلال الوحي الذي كان عن طريق الملائكة، فهذا التشريع يُفَرّق بين الحق والباطل، وإذا فهمنا أن هذه المرسلات هي الرياح فالرياح تفرّق السحاب.

أحياناً في مطلع هذا العام نزل في دمشق في قسمها الشرقي فقط ثلاثين ميليمتر، وفي قسمها الغربي لم ينزل ولا قطرة واحدة، أحياناً يأتي هذا المُنْخَفَض يمطر في مكان ولا يُمْطِر في مكان هذا معنى:

(فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (4))

(سورة المرسلات)

فالرياح تُسَيّر السحب إلى مكان وتبعدها عن مكان، تُسَيّرها إلى مكان وتُبْعِدها عن مكان، إذا فهمنا المرسلات هي الرياح:

(فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (4))

(سورة المرسلات)

ثبات مجموع الأمطار في العالم:

هذه السحب تأتي بحكمة الله وعلمه وقدرته لأناسٍ ويحرم منها أُناس، ولكن الشيء الذي لا يصدق أو لا بدّ من أن يصدّق أن علماء الجغرافيا الطبيعية اكتشفوا حقيقةً خطيرة، هي أن مجموع التَهْطال السنوي في الأرض لا يتغير أبداً، فمجموع الأمطار في خمس قارات لا تزيد ولا تنقص، أحياناً تصاب أوروبا بالجفاف والشرق الأوسط بأمطار غزيرة جداً، أحياناً تصاب إفريقيا بالجفاف وأستراليا بأمطار غزيرة جداً، إلا أن المجموع ثابت، هذه الحقيقة جاءت بعد دراسات ومقاييس.

في قطرنا الحبيب كم مركز قياس أمطار ؟ مئات، بالنشرات الرسمية التي توزّع يوجد مئات مراكز لقياس الأمطار، مئات بل بضع مئات، وفي أي مكان بالعالم يوجد مراكز لقياس الأمطار، بعد وضع هذه المقاييس الدقيقة والحسابات الدقيقة تبيّن أن مجموع التَهْطال في العالم لا يزيد ولا ينقص، أما يختلف توزيعه من بلدٍ إلى آخر، كيف عرف النبي هذه الحقيقة ؟ قال:

((ما عامٌ بأمطر من عام))

هذه جاءته عن طريق الوحي لا عن طريق المُدارسة، عن طريق المدارسة مستحيل، بعد دراسات وأقمار صناعية ومقاييس أمطار وأجهزة كمبيوتر، بعد كل هذه الوسائل اكتشف الإنسان أن مجموع الأمطار في العالم لا يزيد ولا ينقص، أما أن يقول النبي عليه الصلاة والسلام قبل ألفٍ وخمسمائة عام

((ما عامٌ بأمطر من عام))

هذا من وحي السماء، وهذا من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

الأمطار تنطق باسم الرزاق:

(فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (5))

(سورة المرسلات)

إن أردتها رياحاً نظام الأمطار كأنّه ينطق بوحدانية الله، نظام تَهْطال الأمطار ينطق باسم الرازق، أنت حينما تسمع في الأخبار أن منخفضاً جوياً متمركز فوق قبرص باتجاه القطر، إن كنت موحداً ينبغي أن تعلم علم اليقين أن هذا المُنْخفض هو رزق الله ساقه لبني البشر، وأن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين، أما إذا كنت بعيداً عن التوحيد لا تزيد تصوُّراتُك عن أن منخفضاً جوياً يتّجه نحو بلدنا الطيّب، أما الحقيقة هو تجسيدٌ لاسم الرزّاق.

في بلادٍ قاحلة، في بلادٍ جافة كالخليج مثلاً، في بلدة قبل عامين (رأس الخيمة) نزل فيها أمطاراً في ليلة واحدة مئتين وعشرين ميليمتر بليلة واحدة، أي كأمطار بلدة دمشق طوال الموسم في ليلة واحدة، نحن هنا في بلدنا في بعض الليالي خمسين ميليمتر، ستين ميليمتر، تسعين ميليمتر في ليلة واحدة، فالله عزّ وجل إذا أعطى أدهش، وهؤلاء الذي يقولون: هناك حرب مياه، كنا بحرب البترول فإذا نحن بحرب القمح، والآن الشيء المطروح في العالم الحروب الآن حروب مياه.. وكأن الله سبحانه وتعالى ليس عنده احتياط من الأمطار، فلذلك هناك جفاف وهناك حرب مياه.

تقنين الله للأمطار تقنين يأديب لا عجز:

حينما كنت في الحج في هذا العام من فضل الله عزّ وجل طالعت صحيفة تصدر في المدينة المنورة فإذا بخبرٍ لفت نظري ذكرته في الخطبة، هذا الخبر يقول: هناك مِرْصَد يعمل بالأشعة تحت الحمراء، مرصد في أوروبا عملاق، اكتشف وجود سحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض لو جففناها ستين مرة في يوم واحد، سحابةٌ واحدة في الفضاء الخارجي يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم بالمياه العَذْبَة، فإذا كان التقنين من قِبل الله فهو تقنين تأديبٍ لا تقنين عجزٍ.

(فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (5))

(سورة المرسلات)

صنعة الله المتقنة:

أحياناً تقف أمام صنعة متقنة جداً، هذه الصنعة المتقنة كأنها تنطق وتقول: انظر من صنعني، انظر إلى ذوق من صنعني، انظر إلى إحكام من صنعني، انظر إلى علم من صنعني، انظر إلى جمال من صنعني.. الشيء ينطق.. هذا يسميه العلماء: " لسان الحال ". هناك لسان المقال ولسان الحال، فالشيء الذي تراه من صنع الله عزّ وجل فيه إتقان مدهش.

لذلك نظام الرياح، ونظام السحاب، ونظام الأمطار، نظام متقن:

(فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (5))

(سورة المرسلات)

تُلقي علينا الذكر، فأنت حينما تأكل تفاحةً إذا كان عندك شفافية عالية جداً كأنَّها تقول لك: انظر من خلقني ؟ من جعلني بهذا الحجم اللطيف ؟ وهذا اللون الزاهي ؟ وهذا الطعم الحلو ؟ وهذه الرائحة العطرة ؟ وهذا القِوام الذي يتناسب مع أسنانك ؟ لو أن التفّاحة كالصخر كيف تأكلها ؟ لو أنها مُرةٌ كيف تأكلها ؟ لو أنها تفتقر إلى الغذاء، كيف تأكلها ؟ لو أنها بعيدة جداً كيف تَقْطِفُها ؟ إنها في متناول يدك، كان عليه الصلاة والسلام يُسَلِّم على حجرٍ بمكة، مرّة سلّم على أُحد، مرة نخلة كان يخطب عليها فلما تركها إلى المنبر حنّت إليه فكان يضع يده عليها إكراماً لها.

مرّة دخل بستاناً فإذا فيه جمل فلما رأى النبي حنّ.. بكى.. فأمسك ذفريه ومسحهُما وقال: من رب هذا الجمل ؟ جاءوا بفتىً أنصاري، قال:

((ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إيّاها فإنه شكا إليّ أنك تُجيعه وتُدئبه))

[أخرجه أبو داود عن عبد الله بن جعفر]

فالإنسان إذا كان عنده شفافية و رأى الأمطار ينهمر، هذه رحمة الله، أحياناً الفلاح يبكي بكاء الفرح لأنه زرع خمسة طن قمح و قد دفع ثمناً باهظاً للطن الواحد، فإذا لم يكن هناك مطر فإنه خسر، الأمطار تنبت القمح فإنه يبكي من فَرَحه، رأى فضل الله عليه، والإنسان المؤمن لا يرى النعمة فقط بل إنه يرى المُنعِم، يوجد شيء أمامك، توجد نعمة، يوجد كأس ماء، المؤمن يرى الذي أنزل الماء من السماء وجعله عذباً فراتاً.

المؤمن يرى المنعم لا النعمة:

لِتر المياه المُحلّى في المملكة العربية السعودية يكلِّف اثني عشر ريالاً، أي مائة وخمسين ليرة سوري، توجد محطات تحلية اللتر الواحد أغلى من البنزين، اللتر الواحد من المياه المُحلاّة من مياه البحر يكلِّف

اثني عشر ريالاً، يعني مائة وخمسين ليرة، فأنت تفتح الصنبور في دمشق وأنت في البيت على ماء عذب فُرات بارد، فهذا شيء لا يُقدر بثمن إطلاقاً، فالمؤمن لا يرى النعمة، يرى المُنعِم، أما الكافر يرى النعمة، وهذا هو الفرق بين الكافر والمؤمن.

الآن أهل الغرب مع النِعَم أما المؤمنون إن شاء الله مع المُنْعِم، يرون المُنعِم، لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم: أنه كانت تعظُم عنده النعمة مهما دَقّت.

نعم الله على الإنسان عديدة منها:

1 ـ المثانة و الكلية:

إذا الإنسان أفرغ مثانته فإن هذا شيء ثمين جداً لا يُقدر بثمن، لو توقفت الكُليتان لأصبحت الحياة جحيماً، تبحث من يعطيك كُليَتَهُ فلا تجد، كل أسبوع مرّتين غسل كُليتين، انتظار ثماني ساعات ودفع آلاف مؤلّفة، وتثقيب الجسم كل أسبوع مرتين في جهة، والتصفية ليست تامّة، يتبقى بالمائة عشرين من البولة في الدم، وهذه النسبة في الدم تسبب تَوَتُّر عصبي شديد وردود فعل قاسية جداً لأنه يوجد بول، يوجد حمض البول في الجسم لأن التنقية غير كاملة، يعني لو توقفت الكليتان لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق، فالنبي عليه الصلاة والسلام إذا أفرغ مثانته يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني الأذى و عافاني))

[أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك]

2 ـ السمع و البصر و الفؤاد:

والمؤمن دائماً يعيش برحمة الله، إذا شرب كأس الماء، إذا تناول صحنَ طعام، هناك من يأخذ السيرون، ممنوع من الأكل، إذا تكلّم فإن هناك من استُؤصِلَت حنجرته، يعني النِعَم التي تتمتع بها لا تُعَد ولا تُحصى، نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة التوازن، يوجد إنسان تضايق من هرةٍ فأمسكها وألقاها من سبع طوابق فنزلت مَيّتة فوراً فقد توازنه، لا يمشي إلا مع اثنين، جهاز التوازن لا يُقَدّر بثمن، السمع، البصر، يقول لك: يوجد عنده عمى ألوان ممنوع من أن يقود سيارة لأنه يرى الأخضر أحمر، والأحمر أخضر، مرض عمى الألوان يصيب الإنسان، يوجد مرض ارتخاء الجفون لا ترى إلا إذا فتحت جفنك بيدك، تتركها فتنزل لوحدها، يوجد أمراض لا تُعَد ولا تُحصى.

3 - الرئتان:

يوجد مرض مركز تنبيه الرئتين الآلي يتعطل، ينام فيموت، يجب أن يتنفس تنفساً صناعياً، يوجد تنفس آلي وتنفس صناعي، فأنت عندما تُحرّك عضلات الصدر يصبح التنفس صناعياً، أي يدوي، والإنسان عندما ينام هناك تنفس آلي، يوجد مركز بالبصلة السيسائية)مركز تنبيه الرئتين النوبي(، هذا المركز يتعطّل فالإنسان إذا نام يموت، لا يمكن أن ينام، بعد جهد جهيد أُخترع دواء في أمريكا يجب أن تأخذه كل ساعة، فرجل من أبناء دمشق كان طبيب رحمه الله تعالى أُصيب بهذا المرض، فكان يتناول حبة من الدواء الساعة الحادية عشر، وحبة الساعة الثانية عشر، وحبة الساعة الواحدة، والساعة الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة.. إلى الساعة التاسعة، فكان يضع أربع منبهات لأنه لو نام يموت على الفور، أربع منبّهات حتى يستيقظ ويأخذ حبة، هذا دواء حديث جداً ونادر ومفقود تأخذه كل ساعة وإلا أول غَفْلة يموت الإنسان، له ابن كان مسافراً فرجع من السفر، سهر مع ابنه من شدة فرحه الأربع منبهات لم يستيقظ عليها، وجدوه مَيّتاً في الصباح، نعمة أنه يوجد عندك تنفس آلي هل تعرف هذه النعمة ؟.

4 - القلب:

نعمة عمل القلب الآلي هل تعرف هذه النعمة ؟ لو أن الله أناط القلب بك أين اليوم ؟ والله اليوم عندنا نبض القلب.. لا تقدر أن تنام، لو أناط الهضم بيدك، الهضم أراحك منه، نبض القلب أراحك منه، التنفُّس أراحك منه وإلاّ حياة الإنسان جحيم لا يُطاق. هذا معنى:

(فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (5))

(سورة المرسلات)

صنعة الله المتقنة سبب الذكر:

أي أن الصنعة المتقنة تُلقي عليك الذكر، وإن أردت هؤلاء المُرسلات هم الملائكة هؤلاء يوحون إلى الأنبياء ؛ الذكر الحكيم، القرآن الكريم، والتشريع، والحلال والحرام، وافعل ولا تفعل، وأخبار السابقين، وأخبار اللاحقين، ومشاهد يوم القيامة، والوعد والوعيد، والإنذار والبشارة، وكل شيء فإن أردتها ملائكةٌ:

(فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (5))

(سورة المرسلات)

الوحي، وإن أردتها رياحاً فإن هذه الصنعة المحكمة تنطق بوحدانية الله، وتنطق برحمته، وتنطق بعلمه وبحكمته.

إنذار الله للإنسان:

(عُذْراً أَوْ نُذْراً (6))

(سورة المرسلات)

أي أن الله عزّ وجل حينما ينذر يُعْذِر (قد أعذر من أنْذر):

(فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (5))

(سورة المرسلات)

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى)

(سورة الزمر: آية " 71 ")

الله عزّ وجل أعْذَرَ لأنه أنْذر، وأنزل هذا الوحي ليكون للعالمين نذيراً:

(عُذْراً أَوْ نُذْراً (6))

(سورة المرسلات)

والرحيم يُنْذِر فإذا أنْذر أعْذِر، القسم:

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (5) عُذْراً أَوْ نُذْراً(6))

(سورة المرسلات)

جواب القسم:

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7))

(سورة المرسلات)

والله الذي لا إله إلا هو لا تجد في المائة مسلم من يُدخل الآخرة في حساباته اليومية، وإلا كيف يتوازن الإنسان مع نفسه حينما يأكل أموال الناس بالباطل، كيف ؟ لا يمكن أن يؤمن باليوم الآخر ويأكل أموال الناس بالباطل، لا يمكن أن يؤمن باليوم الآخر وأن يعتدي على أعراض الناس، لا يمكن أن يؤمن باليوم الآخر وأن يأخذ ما ليس له، مستحيل لذلك الله عزّ وجل أقسم:

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً (1))

(سورة المرسلات)

بالرياح التي هي سبب الحياة على وجه الأرض، أو بالملائكة التي تحيي القلوب بالوحي الذي تُنْزِلُهُ على الأنبياء.

(فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (5) عُذْراً أَوْ نُذْراً (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ(7))

(سورة المرسلات)

الأعمال الصالحة ثمن الجنة:

ما بين غَمْضَة عينٍ وانتباهتها يغيّر الله من حالٍ إلى حال، كل واحد منا يسمع والله فلان توفي (رحمة الله عليه)، كان شخصاً صار خبراً، صار كلمة، صار نعوة في الجريدة، نعوة على الجدران، انتهى وجوده، انتهت هيمنته، انتهت إمْكاناته، انتهت ثروته، كله انتهى.

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7))

(سورة المرسلات)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

لو أن الإنسان أدار ظهره للحق ولم يعبأ به ماذا ينتظره ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أو الدّجّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أو السّاعَةَ فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

الموت نهاية الأجل:

فإذا الإنسان أرد الدنيا ؛ أراد مالها، أراد شهواتها، أراد زينتها وأدار ظهره للحق، الأيام كلُّها تمضي على وتيرةٍ واحدة ؟ مستحيل، كل يوم يستيقظ صحيح البدن إلى أبد الآبدين ؟ مستحيل، إذا انتهى أجله قبل أن ينتهي أجله تأتي عِلّةٌ في أحد أعضائه، إنسان يموت من قلبه، إنسان يموت من نمو خلاياه، إنسان يموت من دماغه يقول لك: خثرة في الدماغ، إنسان يموت بحادث، إنسان يموت بسكتة قلبية، فعندما ينتهي الأجل تأتي علة تستفحل تتفاقم تُنهي الإنسان.

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7))

(سورة المرسلات)

لذلك هذا الحديث

((فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

إلا المؤمن ينتظر كل خير، ينتظر كل إكرام، ينتظر كل توفيق، ينتظر كل نصر، ينتظر مَعِيَّة الله، لذلك الدعاء اللطيف

((اللهمّ اجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة))

الإنسان المؤمن المستقيم الله عزّ وجل يحييه حياةً طيبة و يميته في أحسن حال، يعني رجل محسن كبير في رمضان وفي السابع والعشرين من رمضان في ليلة القدر وهو يقرأ القرآن توفّاه الله عزّ وجل، وإنسان يموت في مرحاض أحياناً، يموت وهو يصلح الدش، يموت هناك على السطح، فالإنسان بحسب حياته تُلَخَّص حياته في موته.

الموت للكفار مصيبة كبيرة:

سمعت قصة ولا أعرف مدى صحتها ولا تحققت منها: أدخلوا ميتاً إلى أحد المساجد ليُصلى عليه، وقف الإمام ليصلي عليه فرعف، أحضروا إمام ثانٍ فرعف، الثالث وقع، فأخذوه ولم يصلوا عليه، هذا عمل نادر لأن ثلاثة أئمة لم يتمكّنوا من أن يصلوا عليه ففتحوا عليه فرأوا وجْهَهُ وجه كلب، فسألوا أهله، كان يأتي إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل من خمّارة فإذا سمع المؤذن قال: أسكتوا هذا الكلب، فأماته الله وقد مسخه كلباً، فالموت شيء خطير، مغادرة نهائية.

(عُذْراً أَوْ نُذْراً (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7))

(سورة المرسلات)

هذا الموت لا يخاف منه المؤمن: **<< وا كربتاه يا أبت، قال: لا كربة على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه >>.**

أما الموت للكافر فهو مصيبة ما بعدها مصيبة، سيفقد كل شيء في ثانية واحدة، فالمؤمن يدخل الموت في حساباته اليومية قبل أن يقول كلمة لعلها غيبة، قبل أن يقول كلمة لعلّها بُهتان، لعلها كذب، لعلها سُخْرية، لعلها تؤذي أخيه، قبل أن ينظر لعلها امرأةٌ لا تَحِلّ له، قبل أن ينتقد لعل في هذا الانتقاد كسر لخاطر هذا الإنسان، بيتك صغير كيف البيت يسعك ؟ يسعه وهو راضٍ به، قبل أن تُصَغِّر الناس في نظرك، قبل أن تنتقدهم، قبل أن تزعجهم، قبل أن تُحَمِّر وجوههم فكر، الله عزّ وجل كبير وسينتقم.

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7))

(سورة المرسلات)

محاسبة الإنسان الشديدة يوم القيامة:

هذا يوم القيامة توجد تسوية حسابات.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها لا هي أطعمتها و لا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض))

[أخرجه أحمد عن أبي هريرة]

هرة تكفي لدخول النار.

((قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ: هِيَ فِي النّارِ))

(أخرجه أحمد عن أبي هريرة)

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8))

(سورة المرسلات)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المرسلات 077 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 8- 24 خلق الإنسان من آيات الله الكبرى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-06-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة المُرسلات. ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ(13))

(سورة المرسلات)

مظاهر يوم القيامة:

أيها الأخوة الكرام: في يوم القيامة تَبَدُّلٌ جذري للحياة، هذه الشمس الثابتة، هذه الجبال الشامخة، هذه النجوم المتألِّقة سوف تُطْمَس، هذه السماء المبنية سوف تَنْشَق، هذه الجبال الشامخة سوف تنسف عن آخرها و تتفتت و تقتلع من جذورها، هكذا ورد في التفاسير.

(وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11))

(سورة المرسلات)

هؤلاء الذين أرسلهم الله عزّ وجل للبشر سيأتون ليقفوا أمام الله عزّ وجل ليُسْألوا عن أداء مهمّتهم وليسأل الذين أُرسلوا إليهم عن استجابتهم، المُرسل سَيُسأل والمُرسل إليه سيسأل، ولو وقفنا عند هذه الآية وقفةً متأنية، الإنسان يتكلّف، سيُسأل يوم القيامة أولاً: هل أدّيت أمانة التبليغ ؟ الأنبياء يُسألوا هل أديتم أمانة التبليغ ؟ وأنت حينما تقف أمام مقام النبي عليه الصلاة والسلام تقول: أشهد أنّك بَلّغت الرسالة وأدّيت الأمانة.

سؤل الإنسان عن رسالته يوم القيامة:

أي إنسان تصدّى للدعوة إلى الله سيسأل: هل أدّيْتَ أمانة التبليغ ؟ هل أخْفَيْتَ شيئاً ليس في صالحك أن تظهره ؟ هل ذكرت شيئاً لست قانعاً به، ذكرته إرضاءً لقوي ؟ هل خشيت غير الله عزّ وجل فسكت عن الحق إرضاءً لهذا ؟ أو نطقت بالباطل إرضاءً له ؟ كل إنسان تصدّى للدعوة إلى الله سوف يُسأل، هل كان أميناً على شرع الله ؟ هل كان أميناً على الفتوى ؟ هل كان أميناً على الدعوة ؟ هل كان أميناً على

الحقيقة ؟ هل بيَّن بشكلٍ دقيقٍ ما يعلم أم تكلّم بما لا يعلم ؟ مع العلم أن الله سبحانه وتعالى ذكر المعاصي بشكلٍ تصاعدي، الفحشاء والمنكر والإثم والعدوان والكفر والشرك وجعل أعلى معصيةٍ في قِمَّةِ الهرم..

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169))

(سورة البقرة)

الابتعاد عن عقيدة الجبر:

الإنسان قبل أن يقول على الله ما لا يعلم، هل هو متأكدٌ ؟ هل يظنُ بالله غير الحقّ ظن الجاهلية ؟ هل يُنَفِّر الناس من الدين وهو لا يعلم ؟ هل يُلقي على الناس عقيدةً الجبر؟ يقول له: منذ أن خُلِقت خُلقت كافر، ولن تستطيع أن تُغَيِّر قضاء الله أبداً، وسوف تموت كافراً، وسوف تَخْلُد في جنهم إلى أبد الآبدين، لماذا ؟ لأن الله لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

أن تلقي على الناس عقيدة الجبر وأنت لست متأكداً من صحة ما تقول هذا شيءٌ عند الله عظيم، أنت أداة تنفير أم أداة تقريب؟ أداة تحبيب أم أداة تنفير ؟ أداة وصل أم أداة قطع ؟ أداة تعريف أم أداة تجهيل؟ فكلمة: سيسأل أي كل من تصدّى للدعوة إلى الله، الأنبياء حملوا أمانة التبليغ وقد أدّوْها حق الأداء، العلماء كُلفوا أمانة التبيين فهل بينوا ؟ هل أفتوا بما يعلمون أم بغير ما يعلمون أم بخلاف ما يعلمون ؟ هناك من يفتي بعلم، وهناك من يفتي بغير علم، وهناك من يفتي بغير ما يعلم، بخلاف ما يعلم.

محاسبة المتكلم والمستمع يوم القيامة:

أيها الأخوة: المتكلِم سيسأل والمُستمع سيسأل، سؤال المتكلِم: هل بَيَّنت ؟ هل فَصَّلت ؟ هل اجتهدت في إحقاق الحق ؟ هل أصبت ؟ هل تكلّمت من خيال أم تكلّمت من حقيقة ؟ هل تكلّمت بالدليل والبرهان من الكتاب والسنة أم تكلمت من مزاج ومن هوىً لا ينضبطان بقاعدة ؟ المتكلم سيسأل والمستمع سيسأل: ماذا عملت مما علمت ؟

يلقى على المسلمين في هذه الأيام آلاف الحقائق، آلاف الأدلة، آلاف البراهين، الآيات وشرح الآيات، الأحاديث وشرح الأحاديث، السيرة وتفاصيل السيرة، الفِقه وأحكام الفقه، وأصول الفقه ومذاهب الفقه، وكل شيءٍ يُلقى على الناس، ماذا عملوا بما علموا ؟ المرسل إليه سيسأل، والمرسل سيسأل، والله سيسأل الجميع.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

)سورة الحجر)

الدنيا دار هدنه لا دار حساب:

أحياناً الإنسان يكون في جلسة فيطرح موضوع الربا، يتكلم الإنسان كلاماً صحيحاً، و كلاماً دقيقاً، وكلام معه الآيات والأحاديث والأدلة، وشخص يستمع ولا يعبأ بما سمع، يوم القيامة سيسأل: ألم تجلس في المكان الفلاني مع فلان وفلان وقد بيّن لك فلان أن هذه معصية كبيرة ؟ وأن الذين يأكلون الربا ستنتظرهم حربٌ من الله ورسوله ولم تعبأ بما سمعت، ولم تُلْق بالاً لما سمعت ؟ فالمتكلم سيسأل والمستمع سيسأل، المتكلم إذا كان نبياً سيسأل: هل أدّى أمانة التبليغ ؟ والمتكلم إذا كان عالماً ولياً سيسأل: هل أدّى أمانة العلم ؟ والذي أُلقي عليه العلم سيسأل: هل أصغيت ؟ هل اهتممت ؟ هل استوْعبت ؟ هل دققت ؟ هل تساءلت ؟ هل جلست مع نفسك ؟ هل تفحصت هذا الذي سمعته ؟ إذا كان حقاً لما لم تقبله ؟ وإذا كان باطلاً لما لم تردّ عليه ؟ هنا المشكلة.

نحن الآن في زمن هدنة، دقق في العام الدراسي لا توجد عقوبات، لا يوجد نجاح ولا رسوب أثناء العام الدراسي، الطلاب جميعاً يذهبون إلى المدرسة ويخرجون منها ويستمعون إلى الدروس، لكن هناك يوم سيجلس فيه الطُلاب على مقاعد الامتحان وسوف تلقى عليهم الأسئلة، وسوف يدعون إلى الكتابة، فإما أن ينجحوا فَيُكَرَّموا، وإما أن يرسبوا فيهانوا، في يوم فيه سؤال، نحن الآن في زمن هدنة.

عندنا حي فيه بيوت، بيت فيه صلاة، بيت لا يوجد فيه صلاة، بيت فيه صحن، بيت لا يوجد فيه صحن، بيت فيه فتيات متفلتات، بيت فيه محجبات، بيت يُتلى فيه القرآن، بيت تصدحُ فيه الأغاني، بيت فيه حفلات مختلطة، بيت فيه حفلات منضبطة، بيت في أمر بالمعروف، بيت فيه أمر بالمنكر، بيت منضبط، بيت متفلِت، أما كلهم يأكلون ويشربون وينامون ويعملون وهم في مستوى واحد في المجتمع، نحن في زمن هدنة الآن، نحن في أثناء العام الدراسي، لكن يوم القيامة سوف نُسأل: لما فعلت ؟ لما لم تفعل ؟ لما أعطيت ؟ لما لم تعط ؟ لما ابتسمت ؟ لما عبثت ؟ لما واليت ؟ لما عاديت ؟ لما وصلت ؟ لما قطعت؟

إعطاء الرسل الوقت المناسب لتبليغ الرسالة:

كل موقف يقفه الإنسان سوف يُسأل عليه، فلذلك الأنبياء وهم قِمم البشر، هم قمم المجتمعات البشرية، هؤلاء الأنبياء قال:

(وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11))

(سورة المرسلات)

وضع لهم وقتٌ معلوم ليَسْألهم الله عزّ وجل: هل بَلّغوا الرسالة أمام شعوبهم ؟ أمام أممهم، أمام أقوامهم، وليسأل أقوامهم: هل أصغيتم ؟ هل عقلتم ؟ هل استجبتم ؟ هل طَبّقْتُم ؟ ماذا فعلتم ؟ هذا السؤال يوم القيامة يوم تُطْمَس النجوم، وتنشقُّ السماء، وتُنْسَف الجبال، ويأتي الرسل ليجيبوا عن أسئلة الله عزّ وجل، ليقفوا أمام أقوامهم وجهاً لوجه.

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتّخِذُونِي وَأُمّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبّي وَرَبّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذّبْهُمْ فَإِنّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118))

(سورة المائدة)

يُسأل هذا النبي العظيم: ماذا قلت لهم ؟ وماذا أجابوك ؟ إذاً هذا معنى قوله تعالى:

(وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11))

(سورة المرسلات)

ضُرِبَ لها وقتٌ معلوم لتقف أمام الله عزّ وجل ليسألها: هل بلّغتم الرسالة ؟ وليسأل الأقوام الذي أرسلوا إليهم: هل استجبتم ؟ هل كذّبتم ؟ هل آمنتم ؟ هل نصرتم ؟ هل خذلتم ؟ هل آويتم ؟ هل جاهدتم مع الأنبياء؟ ماذا فعلتم ؟ كل شيء سوف تُسأل عنه.

مصيبة الدين من أكبر المصائب التي تصيب الإنسان الغافل:

الإنسان الغافل يظن هكذا الدنيا، فيرتكب المعصية، يُعطي، يمنع، يأخذ مالاً حراماً، يغتصب بيتاً، ينتهك عرضاً، يمضي أوقات فراغه كما يشاء، هذا الجاهل الغافل، فأكبر مصيبة تصيب الإنسان أن يكون غافلاً عن الله، سيدنا عمر رضي الله عنه كان إذا أصابته مصيبةٌ قال: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني ".**

فأكبر مصيبة على الإطلاق مصيبة الدين، أن تكون جاهلاً، أن تكون غافلاً، أن تقع في الشِرك الخفي، أن تقع في المعصية، أن تقع في المخالفة، أن تكون في طريقٍ لا يُرضي الله، أن تتحرّك في سخط الله، أن تكسب المال الحرام، أن تُطلق بصرك في الحرام، أن تتكلم كما يحلو لك ؛ غيبة، نميمة، بهتان، إفك، سخرية، مُحاكاة، شتيمة، احتقار، تتكلّم كما يحلو لك، تذهب إلى أي مكانٍ تشاء، لا تقول: أنا مسلم، هذا المكان لا يليق بي لا يتناسب مع وضعي، هذا الإنسان سوف يسأل.

أكبر مصيبة على الإطلاق أن تكون غافلاً عن الله، أكبر مصيبة على الإطلاق ألا تدخل يوم القيامة في حساباتك اليومية، أن تكون غافلاً عن اليوم الآخر، هذه هي المصيبة، سيدنا عمر يقول: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني ".**

إنهاء الموت لجميع مشكلات الحياة:

أما المصائب التي هي ما دون مصيبة الدين، مصائب لا قيمة لها، تنتهي بالموت، فالموت يُنهي الفقر، يُنهي المرض، يُنهي كل مشكلات الحياة، وتبقى الآخرة، ويبقى النعيم المقيم، وتبقى جنةٌ عرضها السماوات والأرض، وتبقى لك الحور العين، ويبقى لك الولدان المُخَلّدون، ويبقى لك النظر إلى وجه الله الكريم، ويبقى لك رضوانٌ من الله أكبر.

مثلاً: الصيام، الذي أفطر في رمضان وانتهك حرمة هذا الشهر، وشرب الشراب وأكل الطعام في نهار رمضان، ثلاثون يوماً تمضي، يأتي يوم العيد بماذا يشعر هذا الذي أفطر رمضان ؟ بالخزي والعار، وهذا الذي صامه يُفطر في يوم العيد، بماذا يشعر ؟ برحمة الله عزّ وجل، فالأيام تمضي، المعاصي تنتهي لذائذها وتبقى تَبعَاتُها، والطاعات تنتهي أعباؤها ويبقى ثوابها، شيء دقيق كالعام الدراسي، الذي اجتهد وسهر ودرس وراجع وذاكر نجح بالامتحان، ينسى كل التعب ويبقى التألق ومكانته الرفيعة بين الناس، ونجح بتفوّق، والذي رسب والذي تكاسل، فرسب ينسى كلّ أيام النوم، ساعات النوم المديدة وساعات السهر مع أصدقائه ويبقى الخزي والعار أمام الناس، شيء دقيق اللذائذ تنتهي وتبقى التبعات، والمتاعب تنتهي وتبقى المكافآت.

فلذلك أكبر مصيبة على الإطلاق أن يكون الإنسان غافلاً عن الله، أن يكون منغمساً في المعاصي والآثام، أن يكون ماله حراماً، أن يكون بيته غير إسلامي، أن يكون عمله لا يُرضي الله عزّ وجل، هذه هي المصيبة.

الصبر على المصائب:

أما المرض بتقدير الله عزّ وجل، المرض ليس وصمة عار، قضاء وقدر من الله عزّ وجل، من صبر على مرضه كافأه الله بجنةٍ عرضها السماوات والأرض، فكل الناس يحاسبون حساباً دقيقاً، إلا فئة واحدة وهي فئة الصابرون، قال:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10))

(سورة الزمر: آية " 10 ")

أنتم اذهبوا بغير حساب، فإذا الإنسان في الدنيا أصابته مصيبة ورآها من الله عزّ وجل ورأى يَدَ الله وراءها، رأى يدَ الله الرحيمة، الحكيمة، العادلة، يد الله التي رحمته بهذه المصيبة، فصبر على هذه المصيبة.

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10))

(سورة الزمر: آية " 10 ")

(فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10))

(سورة المرسلات)

الوقوف يوم القيامة بين يدي الله عز وجل:

لنا وقفةٌ مع رسول الله: يا رب هؤلاء قومي، أمتي أمتي !! يقول الله له: ما تدري ماذا أحدثوا بعدك. من فتن، من شهوات، من بدع، من انحرافات، كيف كان بأسهم بينهم، لم يرحموا صغيراً، ولم يوَقِّروا كبيراً، ولم يؤَدّوا ما عليهم من حقوق، انغمسوا في الشهوات، وأمروا بالمنكر، ونهوا عن المعروف، وكان بأسهم بينهم.. يا محمد لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، فيقول عليه الصلاة والسلام: سحقاً سحقاً. كل قومٍ سوف يقفون مع نبيّهم، يسأله: هل بلّغتهم ؟ فيقول: يا رب بلّغتهم، لما لم تستجيبوا ؟.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71))

(سورة الزمر)

أسماء يوم القيامة:

(وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13))

(سورة المرسلات)

اسمه يوم القيامة، والحاقّة، والطّامة، ويوم الدين، ويوم الديدونة، ويوم الجزاء، واليوم الآخر، ومن أسماء يوم القيامة: يوم الفصل، العالم كلّه كلٌ يتوهّم أنه على حق.

الإنسان الذي على حق هو الذي تمسك بوحي السماء:

هناك نظريات عرقية، يقول لك: تطهير عِرْقي، يوجد نظريات ضيّقة الأفق، نظريات عشائرية، نظريات جنسية.

في رأي للعلماء: الإنسان كتلة من الجنس وكتلة من الاقتصاد، وكل إنسان يدَّعي أنَّه على حق، وأن نظريته صحيحة، ومبدأه صحيح، فالملل والنِحَل، والمذاهب والطوائف، والاتجاهات، والأديان لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، من هو على الحق؟ يوجد بشرق آسيا مئات الأديان ؛ شعوب يعبدون النار من دون الله، شعوب يعبدون البقر من دون الله، شعوب يعبدون بعض الحيوانات، شعوب يعبدون أحقر الحيوانات، شعوب يعبدون مَوْجَ البحر، شعوب يعبدون الأعضاء التناسلية في الإنسان، شعوب يعبدون الشمس، وهناك أممٌ تعبد الله عزّ وجل، وكل هؤلاء يتوهَّم أنه على حق.

من هو على الحق حقيقةً ؟ الذي تمسَّك بوحي السماء، الذي عبد خالقَ السماوات والأرض، هؤلاء الشعوب بأديانهم، بطوائفهم، بمللهم، بنِحَلِهم، بأجناسهم، بأعراقهم.

الله تعالى يفصل بين الناس يوم القيامة:

مرة يظهر لنا إنسان يقول لك: الشعب الغربي أرقى شعوب العالم، والعرب صُنِّفوا مع البرابرة. قال هتلر: كل إنسان يدَّعي أن شعبه أرقى شعب، وهم شعب الله المختار. اليهود هكذا يدَّعون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أحباب الله، أبناء الله وأحبّاؤه.

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(سورة المائدة: آية "18")

دعوات، كلٌ يدَّعي أنه هو الشعب الأعلى، المتميّز، المتفوّق، هذه دعوة مضحكة، من يفصل بينهم ؟ الله جلّ جلاله، الله جلّ جلاله يفصل بينهم يوم القيامة، فإلى متى هذا الخلاف ؟ إلى متى هذا الوهم ؟ توجد نظريات مضحكة: في التلمود أشياء العقل لا يصدِّقها، يتقربوا إلى الله بقتل المسلم (هذا جزء من دينهم)، فهذه الأوهام، هذه التَخَرُّصات، هذه الأباطيل، هذه المزاعم، هذه التُرُّهات، متى يوضع حدٌ لها؟ من يقول: أنتم كاذبون وأنتم صادقون ؟ أنتم مبطلون وأنتم محقون ؟ أنتم دجاجلة وأنتم صادقون ؟ من يقول هذه الكلام ؟ الله جلّ جلاله.

(وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13))

(سورة المرسلات)

القوة هي مقياس الحق بنظر أهل الدنيا:

الشعوب الغربية تدَّعي أن الإنسان إله العصر، وأن الحياة للقوي فقط، وأنت إذا كنت قوياً فأنت على حق (هذا شعار أمريكا) إذا كنت قوياً فأنت على حق.الإنسان يخترع أسلحة فتّاكة فيصير قوياً فيسحق الشعوب، يأخذ خيراتها وثرواتها، ويقهرها، ويذلُّها، ينطلق من نظرية أنك أنت على حق لأنك قوي

فقط، القوي هو على الحق، النظرية من يقول لهم يوم القيامة: أنتم كاذبون، أنتم واهمون، الحق هو الله عزّ وجل >

إخوانا الكرام: يوم القيامة يحل كل مشكلات البشر، فالإنسان إذا كان على الحق لا يخاف، كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله، هذا الذي ادعى أن الإنسان كتلة جنس، من يقول لفرويد: أنت كنت واهماً، أو مخطئاً، أو كنت دَجّالاً ؟ الله جلّ جلاله.

النظريات الباطلة في الدنيا:

هذا الذي ادعى أن الإنسان أصله قرد وقصة سيدنا آدم وحوّاء كلها ليس لها أصل، الإنسان كائن تطور من قرد، أصبحت مؤمناً بهذه النظرية من جديد لكن معكوسة: كان إنساناً أصبح قرداً، مؤمن بها وهي معكوسة، من يقول لهذا الإنسان الدَجّال: أنت على باطل؟ الله عزّ وجل، نظريات لا تنتهي.

النظرية المادّية، نظرية اللّذة، يجب أن تقتنص اللّذة في أي لحظة، الوجودية، المادية، المِثالية المُسرفة في الخيال، هذه الاتجاهات والنظريات والمذاهب والأباطيل والأديان التي لا يعلم عددها إلا الله، آلاف الأديان، دين يُقَدِّس البقرة، يضعون روثها في غرف الضيوف في الأعياد، روث البقر، ويتعطّرون ببولها، وإذا مَرّت في الطريق يُقْطَعُ الطريق، وإذا دخلت إلى بائع فاكهة، فهذا عنده يوم عيد لأن الإله دخل وأكل من الفواكه التي عنده، شعوب بأكملها ثمانمائة وخمسين مليون، من سيقول لهؤلاء: أنتم واهمون، هذا كذب وافتراء ؟ الله جلّ جلاله.

البطولة الحقة للإنسان أن يكون مع الحق:

فالخلاف موجود ولكن البطولة أن تكون مع الحق، مع الوحي، مع خطاب السماء إلى الأرض، مع هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن تكون مع الإله الواحد، مع الإله خالق السماوات والأرض، أن تكون مع منهجه، أن تُطَبّق افعل ولا تفعل.

في بعض أنواع الأطعمة في آسيا، أفخر أنواع الطعام أن يأتوا بقرد وهو حي يضعونه في قفص ويضعون رأسه في مكان مُحْكَم ويَقْلَعون غطاء رأسه ويأكلون من دماغه بالملعقة وهو حي، هكذا يأكل بعض الشعوب، هذه أكلة غالية جداً، يأكلون القطط أحياناً، الكلاب، فمن يقول لهؤلاء: أنتم على خطأ شديد ؟ العبرة أن تكون مع الحق، مع منهج الله عزّ وجل، مع تعليمات الصانع خالق الكون.

فأكبر نعمة على الإطلاق والتي لا تعدلها نعمةٌ أنك تعبد الله خالق السماوات والأرض.

أخ كريم أقام في اليابان فترات طويلة، اختصاصه في الأجهزة الإلكترونية، استطاع أن يدخل إلى معابدهم، ماذا يعبدون ؟ ذكر الرجل يعبدونه، يخضعون له، يُقَدِّسونه هكذا، شعوب في متاهات، في بعد عن الله عزّ وجل، في شطط، هؤلاء الضالون، هؤلاء المنحرفون، هؤلاء الواهمون، هذه المذاهب الضّالة المُضَلّلة، هذه النظريات المضحكة، من يقول لأصحابها: أنتم على خطأ، أنتم كاذبون؟ الله جلّ جلاله، فلو كان الناس ليسوا معك دائماً العبرة أن تكون أنت مع الحق، أن تكون مع الحق الذي من عند الله عزّ وجل.

(وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14))

(سورة المرسلات)

إظهار الدين و لو كره الكافرون:

إنسان كان يعمل رئيس وزارة في فرنسا و من أرقى عائلات باريس، مثقّف ثقافة عالية، غني، انتحر وهو في السبعين من عمره، مائة صحفي تنافسوا في البحث عن أسباب انتحاره، لا يوجد أي سبب معقول، إنسان بمكانة عالية، الأسرة راقية، في غنى واضح، بسمعة طيبة، لماذا انتحر ؟ صحفي واحد كشف السر، اعتنق مذهباً فاكتشف وهو في السبعين أنه على خطأ، فاحتقر نفسه أنه اعتنق هذا المذهب الإلحادي أربعين أو خمسين سنة وهو يظن أنه على حق ثم اكتشف أنه كان على باطل، احتقر نفسه، هذه الحالة لن يقع بها مسلمٌ إطلاقاً، الأيام مهما امتدت لا تزيدك إلا يقيناً بأنّك على حق، وأن هذا الدين هو أصل، وأن الإسلام هو الدين الحقيقي، والذي سيظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المُشركون.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14))

(سورة المرسلات)

العذاب الشديد للمكذبين بيوم الدين:

هذا اليوم يومٌ عسير، يومٌ صعب، الإنسان يكتشف أنه كان على باطل، كان على وهم، كان على انحراف، وأن اللذائذ قد انقضت.

بمصر يوجد عبدة الشيطان، إباحية مطلقة، ينطلقون من نظرية، من فكر، ولكنهم يكافحون والحمد لله، إباحية مطلقة، لا زواج ولا نسب ولا شيء من هذا القبيل، كائن يبحث عن شهوته بأي طريق بأي ثمن، فهؤلاء:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15))

(سورة المرسلات)

الهلاك لهم، من هم المكذِّبون ؟ الذين كذّبوا بوحي السماء، كذّبوا بآيات القرآن الكريم، كذّبوا بدعوة الأنبياء، كذّبوا بهذا الدين العظيم:

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16))

(سورة المرسلات)

الحضارات البائدة:

1 ـ حضارة الفراعنة:

أين الفراعنة ؟

الفراعنة أمةٌ عريقة في الحضارة مَكّنَ الله لهم ما لم يُمَكّن لغيرهم، حدثني أخ مهندس أنه حتى الآن أعلى مستوى هندسي يقف كالطفل أمام هندسة الفراعنة، فالأهرامات وحدها، الأهرامات قبور للفراعنة فيها نوافذ، زاوية النافذة تسمح للشمس أن تدخل إلى جوف الهرم في العام كلّه يوماً واحداً، هل بإمكان مهندسينا أن يصمموا بناء ويفتحوا نافذة بزاوية دقيقة جداً ؟ نافذة ضيقة وبزاوية دقيقة حيث أن الشمس لا تدخل إلى الهرم إلا في يومٍ واحد هو يوم وفاة هذا الفرعون، كل حجر طوله ثمانية أمتار × أربعة × ثلاثة. منقول من جنوب مصر، كيف نُقِل ؟ في أي قارب وُضِع ؟ كيف نُقل من شَطِّ النيل إلى موقع الأهرامات ؟

دخلت إلى الأهرامات، تحت الأرض حياة كاملة، خُبزهم قبل ستة آلاف عام مُحَنَّط، أدواتهم، حليّهم، مركباتهم، يتوهّمون بعد الموت هناك حياة، في الدنيا قصدهم، مركباتهم، طعامهم، لحمهم من ستة آلاف عام مُقَدَّد، خبزهم، أدواتهم الشخصية، كان الفرعون يوضع لكل إصبع لها حليّ من الذهب، يعني كأس من الذهب لكل إصبع، شيء لا يُصدق، حتى الآن تحنيط الفراعنة فوق طاقة البشر، فرعون موسى هو كما هو، وأثبت العلماء أنه هو الذي غرق في البحر وأن الله قذفه إلى الشط (حُنِّط).

هؤلاء عاشوا في أوهام، كل شيء تراه في الهرم ليس له أساس من الصحة، يا ترى الذي دُفِن في الهرم استفاد من العربة ؟ عربة ملكية رأيتها بعيني، هذه الأدوات، الخبز أكلّه ؟ هذا الميت في الهرم أكل الخبز ؟ وُضع الخبز له قبل ستة آلاف عام، وضعت قطع اللحم له قبل ستة آلاف عام، هل أكل هذا اللحم ؟ هل أكل هذا الخبز ؟ هل ركب هذه المركبة ؟ أبداً، ماتوا.

إذاً حضارة مبنية على الوهم، الفراعنة كل حضارتهم في القبور، هؤلاء مَكّنَ الله لهم ما لم يُمَكّن لغيرهم ومع ذلك أين هم ؟

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

(سورة غافر)

2 ـ حضارة عاد و ثمود:

قوم عادٍ وثمود: الذي ذهب إلى البتراء في الأردن شيء لا يُصدّق، قاعة بحجم هذا المسجد مكعبة تكعيباً على مستوى المليمترات كلّها منحوتة من الصخر، ليست مبنيةً هي في جوف الجبل، كيف حُفِر هذا الصخر ؟ و كيف حُفِر بهذا الشكل المكَعّب النظامي ؟ وفي المدخل الأقواس، والتيجان، والزخرفة، لا يوجد بناء (جبل) منحوت من الجبل، مدينة بأكملها كلّها بيوت في الجبل منحوتة، غرفة، وغرفتان، وثلاث غرف، وتمديدات للمياه، وحمّامات عامّة وخاصّة، وقصور ملكية كلّها منحوتة من الصخر..

(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (149))

(سورة الشعراء)

أين عادٍ وثمود ؟

3 ـ حضارة اليونان و الرومان:

أين الرومان الذين كانوا يأتون بمَن يؤمن بالمسيح ويجعلون الوحوش تأكلُه ويضحكون ؟ عندهم رغبةٌ في تعذيب الآخرين بشكل لا يُصدق، أين الرومان ؟ أين اليونان ؟ أين هؤلاء الأقوام الذين أبادَهُم الله عزّ وجل ؟ قال:

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوّلِينَ (16))

(سورة المرسلات)

أصبحوا أحاديث.

حكمة الله من بقاء الآثار:

المشكلة أن الآثار لحكمةٍ أرادها الله حُفظت لتكون موعظةً للناس وقد غفل الناس عن هذه الموعظة، أصحاب هذه الآثار أين هم ؟ الآن تجد ببعلبك عامود قطره ثلاثة أمتار وطوله عشرة أمتار، قطعة واحدة كيف نُحت هذا الحجر ؟ وكيف نُصِب ؟ وكيف وضع التاج عليه، وقع مرّة عمود اهتزت بعلبك بأكملها لأن وزناً خيالياً وقع على الأرض، هؤلاء الأقوام أين هم ؟ أين مدنيّتهم ؟ أين حضارتهم ؟ أين قوتهم وبأسهم ؟ أين وجوههم وترفهم ؟ أين هم ؟ طواهم الثرى.

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوّلِينَ (16) ثُمّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17))

(سورة المرسلات)

غضب الله و عقابه:

توجد قرية في بعض البلاد العربية على الأطلسي، قرية ممنوع للمغاربة أن يدخلوها فيها نوادي عراة، وفيها فسق، وفيها فجور، فيها شيء لا يوصف من المعاصي، وفيها فُندق ثلاثين طابقاً، خلال ثلاث ثواني أصبحت تحت الأرض، وغار الفندق وبقي منه ظاهراً الطابق الثلاثين، ولوحته في الطابق الثلاثين وكأنّها شاهدةٌ له، بثلاث ثواني، طبعاً:

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17))

(سورة المرسلات)

توجد زلازل الآن، يوجد زلازل وقع في الصين مئات الألوف ماتوا فيه.

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)

(سورة الحجر: آية " 74 ")

فهناك زلازل، وهناك براكين، توجد قرية في إيطاليا جاءها بركان فيزوف غمرها برماد بُركاني بسماكة خمسة أمتار، هذا الرَماد البركاني غطّى هذه المدينة بأكملها، فقد مضى على الحادثة لا أذكر كم من الأعوام ولكن بالمئات، في الأربعينات يفتحون طريقاً قُرب هذه المدينة وجدوا آثاراً. هذا الرماد عندما غطّى هؤلاء البشر كان التوقيت تقريباً بعد الظهر، هذا الرماد عندما غطّى هؤلاء الناس وأحرقهم بعد حين لحمهم وعظمهم تفتت وانتهى، جاء العلماء وحقنوا هذه الفراغات حقنوها بجبسين سائل، الشيء العجيب: رأوا أُناس، ونساء، ورجال، وكلاب، وأُناس يأكلون الطعام على الموائد، وامرأةٌ تأخذ الحليّ من خزانتها ففاجأها الرماد البركاني، مدينة بأكملها جُمِدت في ساعةٍ واحدة، هذا بركان فيزوف وتوجد عندي صور، تجد الطفل في حضن أمه والمرأة مذعورة، حتى ملامح الوجوه واضحة لأن الرماد غطّى فصار هناك فراغات وعندما حُقِن بالجبسين السائل ظهرت أدق الملامح، وهذا البركان جمّد مدينةً بأكملها.

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17))

(سورة المرسلات)

وتسمعون يومياً عن فيضانات، عن سيول وَحْليّة، عن ضحايا، عن أُناس ماتوا تحت الأنقاض، عن أُناس ماتوا في الزلازل، عن أُناس ماتوا في العواصف الشديدة، يأتي الإعصار بسرعة ثمانمائة كيلو متر في الساعة (لا يبقي ولا يذر) فالإهلاك مستمر:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

(سورة الإسراء)

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17))

(سورة المرسلات)

الهلاك عاقبة المجرمين:

القانون:

(كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34))

(سورة المرسلات)

هذه سُنَةُ الله في خلقه، المجرم يُهلكه الله عزّ وجل، أما الهلاك منوّع.

(كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19))

(سورة المرسلات)

هذا الذي يُكَذِّبُ.. يقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20))

(سورة المرسلات)

آيات الله في الإنسان:

1 - القلب:

إنسان مُكْتَمِل، وزنه ثمانين كيلو، فيه عظام قاسية جداً، عظم عنق الفخذ يحمل خمسمائة كيلو على الطرفين، ميناء السن أقسى مادة بعد الألماس، أجهزة، قلب ينبض ثمانين عاماً دون كلل أو ملل يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم، قلب الإنسان لو أنه يضخ إلى هذا البناء الضخم يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم، القلب قلب إنسان عاش ستين سنة يملأ هذه الناطحة بالدم، مضخّة لا تعرف الكلل ولا الملل، القلب ودسّاماته وعضلة القلب، العضلات ثلاثة أنواع: عضلات ملساء وعضلات مخططة، والنوع الثالث: عضلة القلب.

تُعقد مؤتمرات في بعض البلاد المتقدمة تُلقى في المؤتمرات عشرات ألوف المحاضرات حول عضلة القلب فقط، آلاف العلماء يأتون من أقطار الدنيا لحضور هذا المؤتمر لشأن القلب فقط، القلب من آيات الله، الرئتين، الكُليتين، العضلات، الأعصاب، الدماغ، العمود الفِقَري، هذا الإنسان من ماءٍ مهين، من حوين، حوين وبويضة التقيا فانقسما فتكونا فكانا جنيناً بعد تسعة أشهر، انظر إلى الجنين، مئة وأربعين

مليار خلية في دماغه استنادية، أربع عشرة مليار خلية قشرية، ثلاثمائة ألف شعرة ولكل شعرة شريان، ووريد، وعصب، وعضلة، وغدة ذهنية، وغدة صبغية.

2 ـ المعدة:

في المعدة توجد خمسة وثلاثين مليون عصارة هاضمة.

3 ـ حاسة الشم:

عشرين مليون نهاية عصبية للشم، كل نهاية فيها سبعة أهداب والهُدب مغطّى بمادة مخاطية تتفاعل مع الروائح، يتشكل بشكلٍ هندسي يُرسل إلى الدماغ، بالدماغ يوجد ملف فيه عشرة آلاف رائحة، هذه حاسة الشم فقط.

4 ـ العين:

بشبكية العين مئة وثلاثين مليون مخروط وعُصية، الشبكية عشرة طبقات، العصب البصري تسعمئة ألف عصب، وكل عصب له ثلاثة أغمدة.

الآن يقول لك: والله يظهر على التلفون مكالمة ثانية، الخطوط متشابكة، خط لامس خط فظهرت مكالمة ثانية، تسعمئة ألف عصب في عصب موحّد ولكل عصب أغماد ثلاثة، هذا هو العصب البصري، هذه العين على حجمها الصغير ترى الشيء بحجمه الحقيقي، العين البشرية تُفَرّق بين لونين من ثمانمائة ألف درجة من لون واحد، لو درجنا اللون الأخضر ثمانمائة ألف درجة فإن العين الإنسانية السوية تفرّق بين لونين، ما هذا ؟ البُعد الثالث، الألوان الدقيقة، لا يوجد تحميض إلى الغد، تحميض فوري ترى الصورة مباشرةً بحجمها الطبيعي وملونة بأدق الألوان مباشرةً:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد)

5 ـ اللسان:

وهذا اللسان كل حرف تُسهم في تشكيله سبع عشرة عضلة، كل حرف، كلمة خمسة حروف، محاضرة ساعة هذه كم حرف ؟ وكم حركة للعضلات ؟ ما هذا اللسان ؟

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

علّمه كيف يتكلم، مرّة طفل في سفر يبكي بكاءً لا يُحتمل، أطعموه و مازال يبكي، نظّفوه وما زال يبكي، شيء يحير ويقطع القلب، داخل دبوس في جسمه وأهله غير منتبهين له، لا يقدر أن يتكلم ويقول لهم: يوجد دبوس " أخرجوه من جسمي " الإنسان علمه البيان.

البيان من خصائص الإنسان الهامة:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

من خصائص الإنسان العالية البيان، يتكلم، ويحكي، ويشعر، ويتذكر، ويتخيّل، الإنسان يتذكر حوادث قديمة، ذاكرة الإنسان بحجم حبة العدس فيها سبعين مليار صورة مرتّبة ترتيباً دقيقاً ؛ توجد ذاكرة شمّية، وذاكرة ألوان، ذاكرة أسماء، ذاكرة أرقام، الذاكرة وحدها عالم قائم بذاته.

6 ـ الدماغ:

الدماغ وحده مئة وأربعين مليار خلية، ما هذا العصب السمعي والعصب البصري ؟ طريق الآلام، النهايات العصبية تصل إلى النخاع الشوكي، والنخاع الشوكي إلى الجسم تحت السرير البصري ومنه إلى قشرة الدماغ، توجد على الطريق بوّابات، هذه البوابات تُغلق أحياناً فيمتنع الألم، من يتحكّم بهذه البوابات ؟ الحالة النفسية للمريض، فإذا إيمانه قوي، وثقته بالله عالية، وكان صابراً الله عزّ وجل يكافئه بإغلاق بوابات الألم.

7 ـ السمع:

هذا الإنسان شيء عظيم، فإذا كان يسير في الطريق وسمع بوق سيّارة فإنه يعرف الجهة، لأن هناك جهاز في الدماغ معقد جداً يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين، إلى أين دخل الصوت أولاً ؟ إلى اليمين، إذاً من جهة اليمين السيارة فهو يعطي أمر معاكس.

8 ـ اللعاب:

و أنت نائم يمتلئ فمك باللُّعَاب فيجئ أمر من داخل الفم إلى الدماغ، الدماغ يعطي أمر للبلعوم فيغلق باب التنفُّس إغلاقاً محكماً ويفتح باب المري فتبلع ريقك وأنت نائم، مرتاح.

9 - الهيكل العظمي:

جسمك العلوي مع الهيكل العظمي ضاغط على السُفلي، التروية ضعفت صار هناك ضغط، توجد مراكز للإحساس بالضغط في الجسم تُرسل للدماغ إشارة، الدماغ نحن انضغطنا لأن هذا هيكله العظمي واللحم الذي فوق الهيكل فوق القسم السفلي، فلا يوجد تروية يأتني أمر من الدماغ فينقلب الإنسان وهو نائم، ولكن قلبة إلى اليمين أو إلى اليسار لكي لا يقع من على السرير متعادلة:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف: آية " 18")

تقلّب الإنسان آية، لسان المزمار آية.

10 - البروستات:

البروستات آية و هي في مكان دقيق حينما تلتقي قناة ماء الحياة مع قناة البول في المستقيم، عند اللقاء هنا توجد البروستات، هذه تفرز مادة إذا كان الإنسان يريد أن يفرّغ المثانة فالبول حامضي ويخرش، المادة الحامضية تفرز البروستات مادة قلوية تتعادل مع المادة الحامضية، وإذا خرج ماء الحياة وماء الحياة نقي وطاهر والممر فيه بول تفرز البروستات مادة مُطهّرة ثم مادة معطِرة ثم مادة مغَذِّية، مثل سكك الحديد تفتح طريق المثانة و تُغلق طريق الخصيتين، أو بالعكس، هذه الغدة تعمل ثمانين سنة فتح وغلق وإفراز وأنت لا تدري، يقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20))

(سورة المرسلات)

وهذا الماء تستحي به لو ظهر على ثيابك..

(فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21))

(سورة المرسلات)

11 - الرحم:

انظر القرار المكين هو الرحم، لو جئت بامرأة ونصّفتها بخط من قمة رأسها إلى أسفل قدميها (خط طولي مُنَصِّف) ثم قِست طولها ونصّفته، مررت خط عرضي لتقاطع الخطّان في رحمها، الوسط الهندسي في المرأة: الرحم، وهو ضمن حجرة عظمية متينة (الحوض) الرحم في قرار مكين، والدماغ في الجمجمة، والنخاع الشوكي في العمود الفِقَري، معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام، والعين

في المحجر، انظر إلى الحكمة الإلهية، لو واحد وقع على رأسه فإن العين محفوظة ضمن محجر، لو أن العين خارجية لكان أربع أخماس الأطفال تُفقأ أعينهم أثناء اللعب، العين في المحجر، والدماغ في الجمجمة، والنخاع الشوكي في العمود الفِقَري، ومعامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام، والرحم في الحوض، أخطر أيام الحمل أوائله، قال:

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22))

(سورة المرسلات)

تسعة أشهر وعشرة أيام فيأتي أمر فيقلب الجنين، وأمر ثاني وهو يتعلّق بالمشيمة، وأمر ثالث يتباعد الحوض عند المرأة تباعداً ميكانيكياً، حوض المرأة بوضعه الطبيعي مستحيل أن تلِد فلا بدّ من تباعد عظام الحوض بشكل ميكانيكي، الله عزّ وجل قال:

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20))

(سورة عبس)

طفل، فهذا الرحم يعمل تقلّصات، لو أن الطريق مفتوح أمامه لقذف الوليد إلى اثني عشر متراً كل طلقة، لكن هناك حكمة إلهية بالغة:

(إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24))

(سورة المرسلات)

أكبر آية من آيات الله خلق الإنسان:

أيها الأخوة الكرام: خلق الإنسان آيةٌ كبرى دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل، والإنسان إذا فكّر في خلْقه فإن هذا شيءٌ قريب منه، فكل واحد له عينان، وله أذنان، وله لسان، وله فم، وله بلعوم، وله مري، وله أمعاء، وله تنفس، وله قلب، وله كُليتان، وله عظام، إذا الإنسان فكّر في جسمه فقط فإنه يصل إلى الله.

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

فربنا عزّ وجل يُذكِّرُنا:

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ(23))

(سورة المرسلات)

المورثات و خلق الإنسان:

هذا الحِوين عبارة عن خلية صغيرة جداً لا تُرى بالعين، يعني باللقاء الزوجي يوجد خمسمائة مليون حوين، الرجل يفرز خمسمائة مليون حوين في اللقاء، البويضة تحتاج إلى حوين واحد، تنتقي أقوى هذه الحوينات، والحوين له في رأسه مادةٌ نبيلة مغَطّاة بغشاء فإذا وصل إلى البويضة يتمزق الغشاء والمادة النبيلة تذيب غلاف البويضة فيدخل فإذا دخل أُغلق الباب وانتهى الأمر (واحد من خمسمائة مليون).

الآن تنقسم هذه الخلية إلى عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم دون أن يزيد حجمها، لو زاد حجمها لتعثَّرَت في طريقها، الآن في الرحم هذه البويضة المُلقحة بالحوين توجد مورثات، الآن شغل الناس الشاغل الهندسة الوراثية، طبعاً رقم، سمعت في برنامج علمي أن خمسة آلاف مليون مورّث، وسمعت مليون، على كل حال رقم كبير، يوجد خلاف بين الأرقام، العلماء حتى الآن عرفوا ثمانمائة مورّث، يعني الإنسان طويل، قصير، كبده قوي، كبده ضعيف، توجد مورّثات هي التي تعطي الأوامر المبرمجة، فالحوين فيه أوامر والبويضة فيها أوامر وهذه الأوامر تجتمع، فإذا كان هناك ضعف وقوة فإن القوي يغلب.

الإغتراب في الزواج يقوي النسل:

ورد عن سيدنا عمر في حديث موقوف عليه لكن سمعه من رسول الله:

((اغتربوا لا تطووا))

فالاغتراب في الزواج يبعد ضعف النسل، وعقدت مؤتمرات كان محورها أن التباعد يقوي النسل ويحسّن النسل، فهذا الحوين فيه أوامر والبويضة أوامر، الشيء اللطيف أن هذه الأوامر حينما تتحد:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2))

(سورة الإنسان)

هذه الأوامر حينما تتحد تُصبح منظومة أوامر تُقسم إلى قسمين: قسمٍ يشكِّل الجنين، وقسمٍ يُودَعُ في جهاز الجنين التناسلي ليكون ابن الجنين على شاكلة أبيه.

تجد الآن الشعوب كلّها يقول لك: شكل موحّد، لولا هذه الخاصة لا يوجد إنسان شابه أباه أبداً، هذا ابن فلان، معنى ذلك أن هذه المورثات قُسِمَت إلى قسمين: قسم ساهم في تشكيل الجنين، وقسم أودِع في جهاز الجنين التناسلي ليكون ابن الجنين على شاكلة أبيه، علم الأجنة الآن علم متقدِّم جداً، ويوجد شيء لا يُصدق:

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24))

(سورة المرسلات)

هؤلاء الذين يكذِّبون بهذا الدين، يكذبون هذا القرآن، يكذبون هذا العلم الشرعي الصحيح، يكذبون ما في الوحي من عقائد ومن تفاصيل، هؤلاء سوف يدفعون الثمن باهظاً يوم القيامة، وفي درسٍ آخر إن شاء الله نُتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المرسلات 077 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 24-50 الإيمان أساسه الإرادة الداخلية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-06-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الثالث من سورة المُرسلات . ومع الآية الرابعة والعشرين:

أكبر مصيبة تصيب الإنسان الآخرة:

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37))

(سورة المرسلات)

الويل هو الهلاك، الإنسان أحياناً له دخل، هذا الدخل يقل لكن لم يهلك بانخفاض دخله، ويقل أيضاً لا يهلك، ويمرض ويبقى حياً، أما حينما يُعْدَم شنقاً نقول: هلك فلان، فالهلاك حسم، الهلاك نهاية، الهلاك تدمير، الهلاك مَحْق، الهلاك شقاء أبدي، الآن دخول الناس متفاوتة، معظم الناس على اختلاف دخولهم يعيشون، أما الذي يصاب بحادث سير يموت على أثره نقول: فلان هلك بهذا الحادث، قد يأتي مرض عضال فينهي حياته نقول: هلك بهذا المرض، الهلاك هو أعلى درجة من المصيبة، الهلاك هو الحسم، والحقيقة أكبر مصيبة تصيب الإنسان أن يخسر الآخرة .

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15))

(سورة الزمر)

أكبر رابح هو الذي يربح آخرته:

قد تخسر كل شيء وتربح الآخرة فأنت أكبر رابح، قد تخسر المال وتربح الآخرة، قد يخسر الإنسان حياته، ففي الجهاد يقتل الإنسان، سيدنا حمزة قُتل لكنه ربح الآخرة بأكملها، والآخرة أبد لا ينتهي، ومن الصعب أن يتخيَّل العقل البشري حقيقة الأبد .

مثلاً: أكبر رقم تتصوره واحد بالأرض و أصفار إلى الشمس، المسافة مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، كل ميليمتر صفر، ما هذا الرقم ؟ هذا الرقم إذا نُسِبَ إلى اللانهاية فهو صفر، أول ستة أرقام مليون، ثلاثة أرقام فوقهم ألف مليون، ثلاثة ألف ألف مليون، على اثني عشر صفراً ألف ألف مليون، على أصفار من الأرض إلى الشمس كل ميليمتر صفر، المتر فيه كم صفر ؟ ألف، الكيلو متر ؟ ألف ألف، كل كيلو مليون صفر، مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، هذا الرقم لو أنه مَثَّل الدنيا والآخرة لانهاية هذا الرقم قيمته صفر .

ما هو الهلاك ؟

فما هو الهلاك ؟ لا أن يقل دخلك في الأرض، لا أن يموت الإنسان بمرض عُضال، لا أن يموت في ساحة الجهاد، لا، الهلاك أن تخسر الآخرة، الهلاك أن تخسر هذه الحياة الأبدية التي أُعِدّت للمسلمين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

الإنسان حينما يكتشف أنه خسر الآخرة يُصْعَق، تصوّر إنسان له بيت، وله عمل تجاري، وله مركبة، وله معمل، وله مكان بالمصيف، لو بلغه خبر أن كل هذه الممتلكات المنقولة وغير المنقولة صودرت، وأنه لا يملك ثمن رغيف خبر، هذا الخبر كم هو صاعق ؟

الآخرة: الإنسان إذا خسر الآخرة خسر كل شيء، لذلك ورد في الأثر القدسي:

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء))

لو جُمِعَت مصائب الدنيا كلها في إنسان وربح الآخرة فهو أكبر رابح، ولو جمعت أموال الدنيا كلّها لإنسان وخسر الآخرة فهو أكبر خاسر، هذا المعنى أشار إليه الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه، قال لابنه الحسن: **" يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية "**

الإنسان الموفق:

إنسان أعمى أصم أبكم مقطوع اليدين والرجلين، يجلس على قارعة الطريق يتسوّل، يطلب من الناس أن يضعوا في فمه لقمة طعام، لو أن هذا الإنسان ربح الآخرة ربح كل شيء، ولو إنسان كأغنياء العالم أموالهم لا تعدُّ ولا تُحصى، الآن يوجد إنسان بأمريكا حجمه المالي خمسين مليار دولار، هذا إذا خسر الآخرة ما ربح شيئاً أبداً، فقضية الآخرة أخطر ما في الدين .

موضوع الآخرة يجب أن يدخل في حساباتنا اليومية، إذا ربحت الدنيا وخسرت الآخرة ما ربحت شيئاً، وإذا خسرت الدنيا وربحت الآخرة ربحت كلّ شيء، فالويل هو الهلاك، هذا إنسان هلك، لهذا يقال: كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله، سيدنا عمر كان يقول إذا أصابته مصيبة: **" الحمد لله إذ لم تكن في دينه "**، ما دام على شيء من الهدى وعلى استقامة وفق منهج الله ولك عمل صالح تلقى الله به، أنت أغنى الأغنياء، أنت أسعد السعداء، أنت الإنسان الموفّق .

باب التوبة مفتوح على مصراعيه:

قبل يومين أحد إخوتنا الكرام توفِّي والده، وقفت على قبره قلت هذه الحقيقة، قلت للإخوة المشيّعين: اعلموا أن ملك الموت قد تخطّانا إلى غيرنا وسيتخطّى غيرنا إلينا (كلام سيدنا عمر) فلنتخذ حذرنا . أما كلام رسول الله:

((الكَيّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))

[أخرجه الترمذي عن شداد بن أوس]

الكَيّسُ من دان نفسه (ضبطها وحاسبها)، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني. ثم قلت: العقلُ كل العقل، والذكاءُ كل الذكاءِ، والفلاحُ كل الفلاح، والتفوّق كل التفوق، والتوفيق كل التوفيق أن تعد لهذه الساعة ساعة نزول القبر التي لا بدَّ منها، كيف تعدُّ لها ؟ بالتوبة .

الإعداد للتوبة عن طريق:

1 ـ طلب العلم:

باب التوبة مفتوح، كيف تعدُّ لها ؟ بطلب العلم، أبواب المساجد مفتّحة على مصارعها، وهذا من فضل الله علينا في هذه البلدة، دروس العلم قائمة على قدم وساق، مفتحةٌ أبواب المساجد لكل طالب علم وبلا مقابل، أن تطلب العلم .

2 ـ أن تحمل نفسك على طاعة الله:

على الإنسان أن يحمل نفسه على طاعة الله .

3 ـ خدمة عباد الله:

عليك أن تتقرّب إلى الله بخدمة عباده، فأنت أسعد السعداء، أنت الموفّق، وأنت الذكي، وأنت العاقل، وأنت الفالح، وأنت الناجح، وأنت الراشد، هذه أهم حقيقة في الدين.

اليوم الآخر: لا يوجد إنسان إلا وسيلقى هذا اليوم، يدخل إلى المسجد ليصلِّي دائماً وفي مرة واحدة لا بدّ من أن يدخله ليصلّى عليه، ويخرج من بيته ويعود طوال حياته إلا خروجاً واحداً بلا عودة، فهذه الساعة الحرجة ينبغي ألا نفاجأ بها، ينبغي أن نُعِدّ لها، ينبغي أن نعد لها العمل الصالح، والدليل:

(ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

الويل الهلاك المدمر:

ما معنى ويل ؟ قد تسكن في أرقى بيت في الأرض، هناك أغنياء بالعالم عندهم يُخوت في البحار، طائرات خاصّة، عندهم أملاك مخيفة، ومع ذلك ماتوا وتركوا كل شيء في ثانيةٍ واحدة، العبرة أن يكون لك عند الله **مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر**، العبرة أن يكون لك حظٌ في الآخرة، أن يكون لك شيء ينتظرك في الآخرة، أما أن تعيش للدنيا ؛ وأما أن تكون كل مكتسباتك في الحياة الدنيا فأنت أكبر مُقامر، لأن كل شيء تملكه (وكلامي دقيق جداً) منوطٌ بلمعة الشريان التاجي، هذه اللمعة مليمتر فإذا ضاقت انتهت الحياة، كل شيء تملكه منوطٌ بسيولة الدم فإذا تجمّد الدم انتهى كلُّ شيء، كلُّ شيءٍ تملكه منوطٌ بنمو الخلايا فإذا اضطرب نمو الخلايا فقدت كل شيء، والحياة بين أيديكم، وقِصَص المرض والموت بين أيديكم كل يوم بالمئات، إذاً معنى ويل الهلاك، الهلاك المدمِّر.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

فالمؤمن يصبح و أكبر همه الآخرة، فمن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شَمْله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه وشتت عليه شمله ولم يؤته من الدنيا إلا ما قُدِّر له .

لاعيش إلاعيش الآخرة:

هناك مثل يقول: **لا تضع البيض كله في سلةٍ واحدة**، إذا الإنسان كل شيء يملكه وضعه في الدنيا ولم يعبأ بالآخرة هذا أكبر مقامر.

رجل حدّثني عنه أخ كريم أراد أن يسكن في بيت فخم فاشترى بلاطة (بتعبير تجّار الأبنية) في شارع برنية في الطابق الثاني عشر، وبقي يكسو هذين البيتين سنواتٍ عديدة حتى اكتملت كسوة هذين البيتين وأصبح البيتان كجنةٍ على وجه الأرض، بعد أن انتهت كسوة هذين البيتين وافته المَنِيَّة بعد أسبوعٍ من انتهاء العمل، هذه هي الدنيا، تغرُّ وتضرُّ وتمر، وكان عليه الصلاة والسلام إذا رأى بيتاً فخماً إذا رأى شيئاً فارهاً يقول:

((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة))

[رواه البخاري عن سهل بن سعد]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

الفوز الحقيقي أن يكون لك مكان في الجنة:

سباق الدنيا سباقٌ أحمق، لأن الموت ينهي كل شيء، في الدنيا لا يوجد فائز، لأن الغني سيموت والفقير سيموت والموت يجمع بينهما، والقوي سيموت والضعيف سيموت والموت يجمع بينهما، والصحيح سيموت والمريض سيموت والموت يجمع بينهما، لا يوجد فوز، الفوز أن تصل إلى دار السلام بسلام، الفوز أن تحجُز مكان في الجنة، هذا هو الفوز، الحياة الأبدية وعطاء الله عزّ وجل عطاءٌ أبدي ولا يليق بحضرة الله عزّ وجل أن يكون عطاؤه في الدنيا، هذه الدنيا لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى الكافر منها شربة ماء، دعاء سيدنا إبراهيم:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

(سورة البقرة)

الجاذبية من نعم الله على الإنسان:

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً (25))

(سورة المرسلات)

هذه آية الجاذبية، كَفَتَ الشيء سقط سريعاً .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً (25))

(سورة المرسلات)

يوجد بالأرض نعمة لا نعرفها إلا إذا سافرنا إلى القمر، بين الأرض والقمر منطقةٌ تسمَّى منطقة انعدام الجاذبية، لا تعرف نعمة الجاذبية إلا في هذه المنطقة، أي شيءٍ تضعه على الطاولة يستقر، لأنه له وزن، ما هو الوزن ؟ قوة جذب الأرض إلى هذا الشيء، فالأثاث في البيت في مكانه، الأدوات، الحاجات، الإنسان يمشي مطمئناً، لولا أن الأرض تجذب الأشياء التي على سطحها إلى مركزها لما استقر شيء على وجه الأرض .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً (25))

(سورة المرسلات)

الآن أنت وزنك، ما معنى وزنك ؟ وزنك أي قوة جذب الأرض لك، لو ذهبت إلى القمر لكان وزنك السُدُس، الذي وزنه ستين في الأرض وزنه عشرة بالقمر، معنى ذلك أن الوزن شيء نسبي، وزن الإنسان بحسب الكوكب الذي يسكن فيه، فهذا الوزن من نِعَم الله الكبرى، بالوزن تستقر حياتنا، روّاد الفضاء في المركبة الفضائية استيقظوا وجدوا أنفسهم في السقف، لانعدام الوزن، بدأ نومه على السرير ثم وجد نفسه في السقف، في سقف المركبة، يمسك الحاجة تطير من يديه يدفعها، الحياة لا تطاق من دون وزن .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً (25))

(سورة المرسلات)

الأشياء تستقر عليها .

استقرار الأرض يدل على عظمة الخالق:

ويوجد آية أخرى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: آية " 61")

من جعلها مستقرة ؟ الأرض تدور، تدور حول نفسها، بالثانية ثلاثين كيلو متر، بالدقيقة ثلاثة في ستة يساوي ثمانية عشر، صفرين ألف وثمانمائة كيلو متر بالدقيقة، بالعشر دقائق إحدى عشر وثمانمائة كيلو متر، من أول ما بدأت إلى الآن في عشرين دقائق، حوالي اثنين وعشرين ألف كيلو متر نحن مشيناها حتى الآن، ومع ذلك الأرض مستقرة، الجامع كما هو، لا يوجد فيه شقوق، لا يوجد اضطراب، لا يوجد اهتزاز .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً (25))

(سورة المرسلات)

الأرض مستقرة والأشياء التي عليها تنجذب إليها فإذا هي مستقرّة، فالإنسان أحياناً لو كان ميّتاً جسمه ينجذب إلى الأرض، ولو كائن حي يتحرك مع حركته جسمه ينجذب إلى الأرض .

(أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً (26))

(سورة المرسلات)

الجبال من آيات الله الدالة على عظمتة فهي :

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ)

(سورة المرسلات)

1 ـ مرساة تستقر مع الدوران السريع:

هذه الجبال من آيات الله الدّالة على عظمته، قال بعض علماء الجيولوجيا: إن الأرض طبقات وفي أثناء دوران الأرض، الأرض ما دامت طبقات، والطبقات متفاوتة في الكثافة، فدوران الأرض يجعلها مضْطربة لأن عطالة كل مادة خاصّة بها، كما لو جئت ببيضة غير مسلوقة وحاولت أن تجعلها تدور لا تدور، لأن الصفار غير البياض، الصفار له كثافة والبياض له كثافة، والصفار له عطالة، والبياض له عطالة، أما إذا سلقت البيضة تدور تتجانس .

الأرض طبقات متفاوتة، هذه الجبال جُعِلت كالأوتاد تجمع الطبقات بعضها إلى بعض فتجعلها كتلة واحدة، الله عزّ وجل ذكر أنه جعل الجبال أوتاداً، والجبل أيضاً ثُلثا ارتفاعه مغروسٌ تحت الأرض لأنه وتد، وتد الخيمة ظاهر منه عشرين سنتيمتر، أما في أربعين سنتيمتر مغروس بالأرض، وكذلك الجبل، والجبل جُعِلَ مرساةً، كيف أن العجلة إذا دارت دورةً سريعةً تضطرب، فلا بدّ لها من أوزان توضع في أماكن محددة تجعلها تستقر مع الدوران السريع، الله عزّ وجل جعل الجبال:

(رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

(سورة النحل: آية " 15")

2 ـ مصدات للرياح:

وجعل الجبال مصدَات للرياح .

3 ـ مناطق باردة و جمالية:

وجعل الجبال مناطق باردة يلجأ إليها الناس في أيام الحر، وجعل الجبال تزيد في مساحة الأرض، وجعل الجبال مناطق جمالية في الأرض، حدِّث عن الجبال ولا حرج .

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

أعلى جبل في الأرض هملايا فلو جئنا بكرة قطرها متر، أعلى جبل في العالم يُمَثّل على هذه الكرة بسنتيمتر واحد، أعلى جبل في العالم يمثل على كرةٍ أرضيةٍ صغيرةٍ قطرها متر بسنتيمتر واحد، وأعمق نقطة في الأرض هي غور فلسطين، وفيها جرت المعركة بين الروم والفرس، وقال الله عزّ وجل:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

(سورة الروم)

قبل أن نكتشف أن هذا الغور هو أعمق نقطة في الأرض كلها، ربنا عزّ وجل ذكر هذا في القرآن الكريم، الآن بعد اكتشاف أشعة الليزر عُرف أن أخفض نقطة على الإطلاق غَوْر فلسطين، أما في كتاب الله المعركة تمّت في غور فلسطين قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ)

(سورة الروم)

وهذا من إعجاز القرآن العلمي .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً (27))

(سورة المرسلات)

الأنهار:

وأغلب الآيات التي فيها ذكرٌ للجبال فيها ذكرٌ للأنهار، لأن هذه الأنهار مستودعاتها في الجبال، وذكرت لكم من قبل أن بعض الأنهار في أمريكا (الأمازون) غزارته ثلاثمائة ألف متر مكعب في الثانية، أين المستودعات ؟ نظام السوائل نظام ثابت في الأرض، السائل لا يسير إلا من مكان مرتفع إلى مكان منخفض، فلا بدّ من كل نهرٍ يجري من مستودعٍ في مكانٍ مرتفع وإلا لا يجري .

إذاً: هذه الأنهار في الأرض، الأمازون، الميسسبي، نهر النيل، نهر الفرات، هذه أنهار لها مستودعات ضخمة جداً، الله عزّ وجل جعل الجبال مستودعاتٍ للأنهار، وقد يتخيّل أحدنا أن الجبل مجوّف وفيه

ماء، لو أنه مجوف وفيه ماء لكان ضغط الماء قد صدّع الجبل، ولكن الجبل في داخله صخور إسفنجية بحيث أن هذه الصخور تمنع تصدُّع الجبل، وهذه الصخور تنْحَلُّ في الماء، لذلك المياه المعدنية لا بدّ منها، المياه غير المعدنية غير صالحةٍ للشرب، وفي كل مشاريع التحلية لا بدّ من أن يُخْلَط ماء التحلية مع مياه الآبار، لابدّ من أجل أن يكون الماء منحلاً في بعض المعادن الأساسية .

الماء من نعم الله الكبرى:

فربنا عزّ وجل جعل الماء آيةً دالةً على عظمته، فمستودعات المياه، تم إنشاء مستودع (تقليداً لمستودعات المياه الطبيعية) تحت سطح الأرض بأربعمائة متر، ليكون تقليداً بسيطاً لمستودعات المياه في الجبال وإلا صار الماء آسناً، المستودع يجب أن يكون في ظلام تام، وفي بعد عن التأثيرات السطحية، لذلك مستودع مياه الفيجة، هذا النبع الذي أكرم الله به هذه المدينة الطيبة، هذه النبع حجمه إلى حمص، نصف لبنان تحت حوض هذا النبع، وحدوده الشرقية إلى خط دمشق حمص، قريب من البادية، فمستودع هذا النهر الجيولوجي تقريباً من عين الفيجة إلى حمص، ومن تدمر أو قبل تدمر بقليل إلى جنوب لبنان، هذا النبع فتحته في عين الفيجة، غزارته تصل إلى أربعة وعشرين متر مكعب في الثانية، يسقي هذه المدينة المترامية الكبيرة، ولولا هذا النبع لما كان لهذه المدينة من معنى، لذلك الآية الكريمة .

(وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً)

(سورة المرسلات)

ماء مُحَلّى، ماء عذب، فرات مستساغ، مُقَطّر، منحلةٌ فيه المعادن، امسك أي زجاجة ماء معبّأة، يقول لك: بوتاسيوم، منغنيز، كالسيوم، فيها اثني عشر معدن تقريباً، يقول لك: مياه معدنية، ولا يصلح للإنسان إلا المياه المعدنية .

خصائص الماء:

الماء من نعم الله الكبرى، وهذا الماء له خصائص عجيبة جداً، إذا أراد أن يتمدد عند التبريد لا توجد قوة في الأرض تقف أمامه، ضعه في محرّك سيارة من أعلى الخلائط المعدنية، أنواع الفولاذ المُطَرّق القاسي المُعالج، ينشطر المحرّك شَطْرَين إذا تجمّد الماء في ثناياه، والآن أحدث طريقة لقلع الرخام إحداث ثقب وإملاؤه بالماء، ثم تبريد الماء، حينما يُبَرّد الماء ينقطع الصخر من أصله، والماء لا يُضغط، ثمانمائة طن وضعت على مكعب ماء فلم يضغط ولا ميليمتر، له سيولة عجيبة، يتبخّر في الدرجة أربع عشرة، لا يوجد سائل ينساب في أدق المسامات كالمياه، سيولة، تبخر، لا يضغط، على

التبريد يزداد حجمه، وهذه الخاصّة لولا أن الماء إذا برّدته يزداد حجمه لما كان من كائنٍ على سطح الأرض و هذا قانون للماء مستثنى من كل عناصر الأرض .

كل عناصر الأرض إذا برّدتها تنكمش، إلا الماء، القانون مطبقٌ عليه حتى درجة أربعة، إذا برّدت الماء ينكمش، إلى الدرجة أربعة، فإذا تابعت التبريد يزداد حجمه، لولا هذه الخاصّة لما كان على وجه الأرض كائنٌ حي، تأتي موجات صقيع شديدة تتجمّد سطوح البحار، أما أعماق البحار مياه دافئة فيها كل الكائنات الحية، أما لو كان الماء على التبريد تزداد كثافته فيهوي في أعماق المياه لتجمدت المحيطات كلها في مدة معينة، وأصبح التبخُّر مستحيلاً، والأمطار تنقطع، والنبات يموت، والحيوان يموت، والإنسان يموت، هذا هو الماء .

(وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً)

(سورة المرسلات)

فالمؤمن حينما يشرب كأس الماء يقول: بسم الله، معنى بسم الله لولا أن الله جعله لك عذباً فراتاً لما شربته، وأحياناً في بلاد الماء فيها غالٍ، ثمن الزجاجة ثلاثة ريالات، إذا كنت عطشاناً تشربها كلها دفعةً واحدة، الماء غالي بأكثر بلاد العالم الماء له ثمن، وإذا كان مُحَلّى أغلى، أما حينما تشرب الماء العذب الفرات بلا ثمن هذه نعمةٌ كبرى أنعم الله بها علينا .

(وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28) انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29))

(سورة المرسلات)

عذاب الكافر الذي كذب بالنار:

فالكافر كذّب بالنار، كذّب بها، يقال له يوم القيامة: انطلق إلى التي كذّبت بها:

(انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31))

(سورة المرسلات)

بعضهم قال: هناك استعارات القصد منها لفت نظر الكافر، أسموها استعارة تهكُّمِيَّة، فلو فرضنا أن شخصاً قال: سوف نبشّرك بالرسوب، البشارة تقال للناجح .

إنسان أنشأ ملهى وفيه كل الموبقات وبعد افتتاحه بأسبوع توفي، فقال بعضهم: هذا الملهى صدقةٌ جاريةٌ له إلى يوم القيامة، هذه استعارة، فهو وبال جاري إلى يوم القيامة، فبشرهم بعذابٍ أليم !! لا يبشّر بالعذاب .

(انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ)

(سورة المرسلات)

الظل شيء مريح، والظل مُحَبَّب، ولا نعرف قيمة الظل إلا في أيام الحر كهذه الأيام، جاءت موجة حر إلى الخليج أربعة وثمانين تحت أشعة الشمس، ستة وخمسين في الظل .

(انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31))

(سورة المرسلات)

لا يَمنع عنك أشعة الشمس ولا وَهْجَ النار، ولا يقيك من لهب النار، فما هذا الظل ؟ أي ظلٍ هذا ؟

(انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31))

(سورة المرسلات)

أطوار الشمس:

هذه النار مرةً سئل أحد كبار علماء الفضاء (رئيس مركز وكالة فضائية كُبرى في العالم) سئل عن الشموس ؟ قال: **"الشموس لها ثلاث أطوار، طورٌ تكون فيها حمراء، وطورٌ آخر تكون فيها بيضاء، وطورٌ آخر تكون فيها سوداء "** . كلام علمي محض، فشمسنا التي نحن نحوم حولها في المجموعة الشمسية هي حمراء الآن، لونها في النهار أحمر، هي في منتصف حياتها، لكن بعد حين هذه الشمس يزداد حجمها أكثر من مئة مرّة، ثم تنكمش إلى أقل من ذلك وتغدو أشعتها بيضاء، والأشعة البيضاء ذات حرارة عالية جداً تفوق أضعاف مضاعفة عن الأشعة الحمراء، لكن بعد حين تدخل الشمس في مرحلة ثالثة سموها (الانكماش)، في هذه المرحلة تنكمش ذرات الشمس إلى درجة تصبح سرعة انكماشها أقوى من خروج الأشعة منها فتغدو سوداء، سموها علماء الفلك: الثقب الأسود، أما الثقب الأسود مقبَرَةُ النّجوم، أماكن ضغط عالية جداً في الكون .

قال العلماء: **" لو أن الأرض انجذبت إلى أحد الثقوب السوداء لأصبحت بحجم البيضة مع الوزن نفسه "** . هذه الحقيقة عمرها سنوات، مراحل تطوّر الشموس: المرحلة ذات اللون الأحمر، إلى مرحلة ذات لون أبيض، إلى مرحلة تصبح مقبرة ذات لون أسود، والنبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((يوقد على النار ألف عامٍ حتى تغدو حمراء، ثم يُوقد عليها ألف عامٍ حتى تغدو بيضاء، ثم يُوقد عليها ألف عامٍ حتى تغدو سوداء فهي كالليل المُظلِم))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

هذه حقيقة أنّ الشمس تسير من طور أحمر، إلى طور أبيض، إلى طور أسود، ولعلّ هذه النار (نار جهنم) كما جاءت في وصف النبي عليه الصلاة والسلام **هي سوداء من شدة اتقادها وارتفاع حرارتها:**

(انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ(32))

(سورة المرسلات)

حجم الشرارة في نار جهنم:

حجم الشرارة الواحدة كالبيت، نحن في الدنيا حجم الشرارة ليس لها حجم تقريباً، يعني أقل حجم ممكن هو حجم الشرارة، أثناء برد الحديد بمبرد آلي الشرار ينطلق منه كثيراً، أو أثناء إجراء بعض الأعمال الميكانيكية عن طريق الأوكسجين ينطلق شرار، فإن هذا الشرار لا حجم له، إنه صغير جداً، قال: في نار جهنم .

(إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32))

(سورة المرسلات)

حجم الشرارة بحجم البيت .

(كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (33))

(سورة المرسلات)

كأنه جملٌ أصفر اللون .

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

(سورة المرسلات)

عدم قبول الاعتذار و المعاتبة:

هذا اليوم العصيب، هذا اليوم العسير الذي على الكافرين غير يسير:

(هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35))

(سورة المرسلات)

لأن الحجة قامت عليه، هذا اليوم ليس يوم عَتَبْ .

(وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36))

(سورة المرسلات)

أي أنّ إنساناً ارتكب جريمة قتل، سيق إلى السجن وأجريت له محاكمة، حكمه القضاة بالإعدام، ارتفع الحكم إلى محكمة النقد صُدِّق الحكم، ارتفع إلى مقام الرئاسة فصُدِق الحكم، ثم سيق المجرم للإعدام، وقبل أن يشنق، فهل من الممكن أن يعتذر ؟ الاعتذار انتهى، هذا المقام ليس مقام اعتذار، إنه مقام تنفيذ الحكم، لذلك يحب أن يعتذر، يحب ألا يعتذر، يحب يضحك، يحب يبكي، يحب يضرب نفسه كلّه سواء،

وصل إلى طريق مسدود، فهذا الوقت وقت تنفيذ الحكم لا وقت اعتذار ومُعاتبة . لماذا فعلت هذا ؟ أصلحك الله هل يقال لإنسان سيشنق بعد دقيقة: لماذا فعلت هذا ؟ أين عقلك ؟ لا تؤاخذوني، سامحونا هذه غير واردة إطلاقاً، لا توجد مسامحة، ولا يوجد عفو، ولا يوجد اعتذار، ولا يوجد بيان أسباب مخففة، هذا كلّه أثناء المحاكمات، بعدما صدر الحكم وأصبح الإنسان على وشك تنفيذ الحكم قال:

(هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36))

(سورة المرسلات)

أي أنّ الإنسان وصل إلى طريق مسدود، ومادام قلبه ينبض فإن الطريق غير مسدود، باب التوبة مفتوح:

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

خزي الكافر يوم القيامة:

العبرة أن تأتيه وأنت في الدنيا تائباً، أما يوم القيامة لا يوجد عتاب، ولا يوجد اعتذار، ولا يوجد بيان أسباب مخففة، كلّه انتهى، لا يوجد إلا تنفيذ العقاب .

(هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35))

(سورة المرسلات)

لماذا لا ينطق ؟ لأن الله عزّ وجل منحه نعمة الوجود، وهو لم يقدِّر هذه النعمة، منحه نعمة الإمداد، ولم يقدر هذه النعمة، أعطاه عقلاً، أعطاه سمعاً وبصراً، أعطاه نطقاً، أعطاه يداً ورجلاً، أعطاه فكراً، أعطاه زوجةً، أعطاه أولاداً، أعطاه قدرةً على كسب المال، استخدم كلّ هذا في الشهوات وفي المعاصي والآثام، وفي بناء مجده على أنقاض الآخرين، وفي بناء غناه على فقر الآخرين، فجاء يوم القيامة أمام الله مجرماً .

مثلاً: شخص يمشي في الطريق بعد صلاة الفجر فنظر إلى الحاوية (حاوية القمامة) وجد فيها كيساً أسوداً يتحرّك معنى هذا أنه طفل، أخذه فإذا هو طفل (و هذا شيءٌ وقع)، أخذه إلى المستشفى إلى دار الأطفال، وضعه في الحاضنة، كَبَّره وأدخله روضة، ابتدائي، إعدادي، ثانوي، أدخله كلية الطب (جعله طبيباً)، زوّجه، اشترى له عيادة وبيت، بعد كلّ هذا الإحسان من الحاوية إلى أعلى درجة في المجتمع، بعد كل هذا الإحسان خانه، فعندما سيواجهه بهذه الخيانة لا يستطيع النظر إليه، أنتم انظروا إلى

المجرمين حينما يُلقى القبض عليهم تروا عيونهم في الأرض، لا يستطيع المجرم أن ينظر هكذا لأنه مجرم .

حجة الله على الإنسان:

فهذا اليوم الله عزّ وجل منحه نعمة الوجود، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرَشاد، وسخّر كلّ طاقاته ؛ عقله وفكره، ولسانه، ويده ورجله، وسمعه وبصره في المعاصي والآثام، وفي الإضرار بالعباد، وفي سلبهم أموالهم بالباطل، وفي الكيد لهم، وجاء يوم القيامة، فأحياناً الإنسان يكون له ابن وشخص أنت أحسنت إليه وقد أساء لابنك ماذا تقول له ؟ ماذا فعلت معك يا فلان حتى تقابلني بهذا ؟ كلمة:

(لَا يَنْطِقُونَ (35))

(سورة المرسلات)

شيء مخيف، الحجة قائمة على هذا الإنسان، لذلك ورد بالجامع الصغير:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى))

يلقى عذاب الخزي، النار قائمة ولها لهيب وسوف تلسع جلده، وسوف تأكل جلده ومع ذلك:

((يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

العذاب النفسي شيء مخيف، أحياناً الإنسان حينما يندم وحينما يتألّم قد لا يحتمل وجوده .

(هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ(38))

(سورة المرسلات)

الله عز و جل يحكم بين عباده يوم القيامة:

كل فئة في الأرض تدّعي أنها على حق، وأنها على صواب، وأنها هي الأولى في العالم، وأن كل هذه الشعوب والأمم والقبائل والطوائف والعشائر، كل فئة تدّعي أنها هي الأولى، هي على حق، أما هذا اليوم (يوم القيامة) ربنا عزّ وجل يفصل بينهم، المُبطِل يقال له: أنت مُبطِل، والمستقيم يقال له: أنت مستقيم .

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38))

(سورة المرسلات)

الآن أحياناً على مستوى القضاء، متخاصمين كل واحد عنده محامي، وأدلة، وشهود إثبات، وشهود نفي، ومذكِّرات، وكشف مباشر، ووصف هيئة راهنة، بعد هذا تُرفع للتدقيق، بعدئذٍ يأتي حكم القاضي ليفصل هذه الدعوى، فلان مذنب وفلان براءة، الله عزّ وجل هو الذي يحكم بين عباده يوم القيامة .

كيد الكافرين و مكرهم:

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39))

(سورة المرسلات)

ومكروا مكرهم في الدنيا، وعند الله مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال (هذا في الدنيا)، أما في الآخرة:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39))

(سورة المرسلات)

والله أهل الدنيا الكُفّار يخططون ويتآمرون ويسعون لإفناء البشرية ليعيشوا هم وحدهم، فهم مستعدون أن يفنوا أربعة أخماس البشرية ليعيشوا وحدهم في بحبوحة، لهم كيدٌ كبير، كلما رأوا جهة انتعشت فإنها تُحَطم، مرّة عن طريق العملات، مرّة عن طريق الحروب، مرّة عن طريق افتعال خصومات، توتر في العالم، يكيدون للبشرية كلّها، أما في الآخرة:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39))

(سورة المرسلات)

تفضّل .. الآن أين قوتك ؟

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40))

(سورة المرسلات)

أما المؤمنون:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41))

(سورة المرسلات)

ظلال حقيقية، تلك ليست حقيقية لعلها بالمعنى العلمي: ظلال سوداء لأن نار جهنم في أعلى درجات الحرارة، انتقلت من حمراء، إلى بيضاء، إلى سوداء ..

(انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ)

(سورة المرسلات)

شيء أسود لكنه ليس ظلاً:

(ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (33))

(سورة المرسلات)

أما هنا:

جزاء المؤمن جنات ظليلة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41))

(سورة المرسلات)

ظلال حقيقية وعيون ماء تجري أمامهم .

(وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43))

(سورة المرسلات)

أي أن حضور مجالس العلم، الصلوات في المساجد، تعلُّم القرآن، تعليم القرآن، خدمة الخلق، الصدق، الأمانة، الاستقامة، الأذكار، الأوراد، غض البصر، معاونة أهل الحق، هذا كلّه مسجّل، الآن:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43))

(سورة المرسلات)

انتهى وقت العمل والآن وقت الجزاء، انتهى وقت التكليف والآن وقت التشريف، انتهى وقت التعب والآن وقت المكافأة والجائزة .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42))

(سورة المرسلات)

أي أن إنساناً أمضى حياته في الدعوة إلى الله، توفي، فتشعر أن هذه الوفاة وسام شرف، أي أنه أمضى كلّ حياته في تفسير القرآن وترك أثراً كبيراً في العالم الإسلامي توفي لكنه جاء يوم القيامة معه عمل كبير، أما الذي سكن في بيوت فخمة، وركب مركبات فخمة، وتناول أطيب الطعام ومات، ما أخذ معه من هذا شيئاً، أما الذي ترك بصمات واضحة في المجتمعات الإسلامية أخذ معه كلّ شيء .

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44))

(سورة المرسلات)

أنظرت إلى هذه الآية ؟ هذه قانون، أي محسن إلى يوم القيامة هذا جزاؤه .

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45))

(سورة المرسلات)

متاع الدنيا قليل و زائل:

الآن عدنا إلى المكذِّبين، أما هنا في تهديد:

(كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46))

(سورة المرسلات)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: آية " 77")

الآن لاحظ أن الإنسان من وقت ما يستطيع أن يقف على قدميه (بالأربعين)فهو درس، تعب، توظّف، جمع، اشترى بيتاً، تزوّج، صار له بيت صغير ودخل معقول وله مكانة اجتماعية متواضعة بالأربعين، معترك المنايا بين الستين والسبعين، أي بقي له نصف المدة وهذه تمضي سريعاً، إذا سَلِمَت من مرض خبيث، من مرض في القلب، من مشكلة، من غلطة دخل بها السجن، يعني قلما ينجو إنسان من مشكلة ثم يُفَاجأ أن أجله قد أتى، أنتم كلما رأيتم نعوة اسألوا كم عاش هذا الإنسان ؟ اثنين وأربعين، سبعة وثلاثين، خمسة وعشرين، ستين ما شاء الله، معنى هذا أنه مُعَمر، سبعين، فلو عاش مئة عام لابدّ من نزول القبر: **" عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزيّ به"**

" كل مخلوقٌ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت " . " الليل مهما طال فلابدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلابدّ من نزول القبر "

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلــى القبور جنازة فــاعلم بأنك بعدها محمول

***

الكِبر عند الله أشد من معصية الغلبة:

(كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46))

(سورة المرسلات)

اسمعوا هذه الآية ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ)

(سورة التوبة:آية"38")

فهل تأمل فيها ؟

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38))

(سورة التوبة: آية " 38")

"الدنيا ساعة اجعلها طاعة، والنفس طمّاعَة عَوّدها القناعة ".

(مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

(سورة النساء: آية " 77")

رحمة الله بنا:

(إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

(سورة التوبة: آية " 39 ")

إذا لم تنتبهوا:

(وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً)

(سورة التوبة: آية " 39 ")

(كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46))

(سورة المرسلات)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(سورة الإنسان)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

(سورة محمد)

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47))

(سورة المرسلات)

يستنكفون عن عبادة الله، تتأبّى نفوسهم أن يطيعوه، والعلماء قالوا: **" معصية الكِبر أشد عند الله من معصية الغَلَبة ".**

الإنسان أحياناً يغلب ويعصي، هذا أقرب للتوبة من الثاني، الثاني تأبى نفسه أن يطيع الله عزّ وجل، لا يُصلي، لا يغضُّ بصره، لا يخضع لأوامر الشرع الحنيف، قال:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48))

(سورة المرسلات)

هم المؤمن الأول أن يتبع حكم الله:

أما علامة المؤمن:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

المؤمن همّه الأول أن يتّبع حكم الله عزّ وجل، هنا افعل يفعل، لا تفعل لا يفعل، هنا أعطي يعطي، لا تعطي لا يعطي، همُه الأول تتبُع حكم الله عزّ وجل ..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49))

(سورة المرسلات)

العلماء قالوا: **" كل هذه الآيات المتكررة كل واحدة متعلِّقة بما قبلها وما بعدها "** يعني العبارة واحدة أما كل واحدة متعلِّقة بالتي قبلها تارةً والتي بعدها تارةً أخرى .

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50))

(سورة المرسلات)

الإيمان أساسه الإرادة الداخلية:

كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه واضحٌ كالشمس .

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1))

(سورة هود)

فيه أمر، وفيه نهي، وفيه وعد، وفيه وعيد، وفيه وصفٌ لحال أهل الجنة، ووصف لحال أهل النار، فيه بيان لحال الشعوب السابقة كيف أُهلِكت، وكيف نجحت، كل شيء في هذا الكتاب .

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50))

(سورة المرسلات)

فالإنسان إذا أراد الإيمان كل شيءٍ يدلُّه على الله، وإذا انصرف عن الحق لو التقى بالنبي عليه الصلاة والسلام، لو رأى هذا القرآن يتنزّل من السماء لا يؤمن لأنه أراد الدنيا، لذلك الإيمان أساسه إرادة داخلية، أنت حينما تريد أن تؤمن كل شيء يدلُّك على الله، أما إذا عزفت عن الإيمان لو رأيت أعظم الآيات فإنك لا تنتفع بها .

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50))

(سورة المرسلات)

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الملك 067 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-2..... 1

سورة الملك 067 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 2-4..... 15

سورة الملك 067 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 5-11..... 27

سورة الملك 067 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 12-14..... 39

سورة الملك 067 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 15-19..... 50

سورة الملك 067 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 20-26..... 64

سورة الملك 067 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 23-30..... 80

سورة القلم 068 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-3..... 94

سورة القلم 068 - الدرس (2-7): تفسير الآية 4..... 106

سورة القلم 068 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 4-9..... 119

سورة القلم 068 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 8-16..... 133

سورة القلم 068 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 17-33..... 147

سورة القلم 068 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 34-43..... 162

سورة القلم 068 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 42-52..... 175

سورة الحاقة 069 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-8..... 189

سورة الحاقة 069 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 9-36..... 204

سورة الحاقة 069 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 37-52..... 219
سورة المعارج 070 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1-4 233
سورة المعارج 070 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 5-18 247
سورة المعارج 070 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 19-26 261
سورة المعارج 070 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 27-31 273
سورة المعارج 070 - الدرس (5-6): تفسير الآية 32 283
سورة المعارج 070 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 33 إلى آخر السورة 294
سورة نوح 071 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-4 308
سورة نوح 071 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 5-14 321
سورة نوح 071 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 15-28 337
سورة الجن 072 - الدرس (1-8): المقدمة 1 352
سورة الجن 072 - الدرس (2-8): المقدمة 2 367
سورة الجن 072 - الدرس (3-8): المقدمة 3 380
سورة الجن 072 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 1-17 390
سورة الجن 072 - الدرس (5-8): تفسير الآية 18 407
سورة الجن 072 - الدرس (6-8): تفسير الآية 19 420
سورة الجن 072 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 20-23 430
سورة الجن 072 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 22-28 446

سورة المزمل 073 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-5..... 460
سورة المزمل 073 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 1-5..... 471
سورة المزمل 073 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 6-14..... 480
سورة المزمل 073 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 15-19..... 492
سورة المزمل 073 - الدرس (5-5): تفسير الآية 20..... 503
سورة المدثر 074 - الدرس (1-8): تفسير الآيات1-4..... 516
سورة المدثر 074 - الدرس (2-8): تفسير الآيات5-7..... 533
سورة المدثر 074 - الدرس (3-8): تفسير الآيات8-14..... 550
سورة المدثر 074 - الدرس (4-8): تفسير الآيات16-30..... 564
سورة المدثر 074 - الدرس (5-8): تفسير الآية31..... 578
سورة المدثر 074 - الدرس (6-8): تفسير الآيات32-37..... 593
سورة المدثر 074 - الدرس (7-8): تفسير الآيات38-56..... 603
سورة المدثر 074 - الدرس (8-8): تفسير الآيات52-56..... 620
سورة القيامة 075 - الدرس (1-4): تفسير الآيات1-4..... 636
سورة القيامة 075 - الدرس (2-4): تفسير الآيات5-13..... 653
سورة القيامة 075 - الدرس (3-4): تفسير الآيات14-25..... 668
سورة القيامة 075 - الدرس (4-4): تفسير الآيات26-40..... 684
سورة الإنسان 076 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-3 702

سورة الإنسان 076 - الدرس (5-2): تفسير الآيات 4-10 722
سورة الإنسان 076 - الدرس (5-3): تفسير الآيات 10-19 738
سورة الإنسان 076 - الدرس (5-4): تفسير الآيات 20-27 755
سورة الإنسان 076 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 24-31 773
سورة المرسلات 077 - الدرس (3-1): تفسير الآيات 1-7 795
سورة المرسلات 077 - الدرس (3-2): تفسير الآيات 8-24 812
سورة المرسلات 077 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 24-50 831
الفهرس.....850

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

تفسير سور جزء عم

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة النبأ 078 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-17
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-02-04

بسم الله الرحمن الرحيم

الإله العظيم إذا قال عن شيء إنه نبأٌ عظيم فهو حقاً نبأ عظيم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من الجُزء الثلاثين، والسورة اليوم سورة النبأ.

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ* الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

كلمة (عمَّ) أساسها "عن" وهو حرف جر، و"ما" الاستفهامية، فإذا أضيفت ما الاستفهامية إلى حروف الجر حذفتْ ألفها، أما إذا أضيفت إلى ما المصدرية بقيتْ ألفها، لو أنني سألت واحداً متفوقاً: بمَ نلت هذا النجاح المتفوِّق؟ يقول لي: بما بذلت من جهدٍ، فـ (ما) الأولى استفهامية، أما الثانية مصدرية، فإذا جاءت حروف الجر مع ما الاستفهامية حُذفتْ ألفها، هذه قاعدة؛ عمَّ، إلامَ، فيمَ. يقول الله عزَّ وجل:

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

الإله العظيم إذا قال: إنه نبأٌ عظيم، فهو حقّاً نبأ عظيم، لأن الذي يصفه بالعظمة عظيم، ولو أن طفلاً قال لك: أنا معي مبلغ كبير، فكم تقدِّر هذا المبلغ؟ ولو أن رجلاً غنياً قال لك: ثروتي كبيرة، فإنك تقدِّر كلمة (كبيرة) بالنسبة للقائل، فالطفل إذا قال لك: معي مبلغ كبير، فهو غير الإنسان التاجر الكبير، مليونير، فقال لك: ثروتي كبيرة، فحجم الكِبَر هنا يؤخذ بحسب القائل.

خسارة الآخرة نبأٌ عظيم يصعق فيه الناس :

ربنا عزَّ وجل العظيم، سبحان ربي العظيم..

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

[سورة الواقعة: 74]

(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة: 255]

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة: 33]

الإله العظيم يقول لك: هو نبأٌ عظيم، هذا اليوم - يوم الفصل - الإنسان يُصْعَق:

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[سورة الطور: 45]

الإنسان يصعق في هذا اليوم؛ لأنه يكتشف أنه خسر الآخرة، فالإنسان حينما يخسر خسارة كبيرة في الدنيا يُصعق، فإذا ذهبت ثروته كلُّها، أو صُودِرَت أمواله، أو فَقَدَ بيته الوحيد، أُعطِي أمراً بإخلائه لخللٍ في البناء، ولا يملك مأوىً غيره، شيء من الدنيا إذا كان مهماً، وفَقَده الإنسان فجأةً يصعق، فكيف إذا اكتشف يوم القيامة أنه في ساعة واحدة خسر الآخرة؟

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الزمر: 15]

الغنى والفقر بعد العرض على الله :

الخسارة الحقيقية حينما نخسر الأبد، نربح الدنيا المحدودة، القصيرة، ونخسر الآخرة، فهذا نبأٌ عظيم يصعق فيه الناس.

لذلك المؤمن حينما يربح الآخرة يقول: لم أرَ شراً قط، وكل ما ساقه الله له من مصائب في الدنيا لا يراها شيئاً أمام هذا الفوز العظيم، وكل شيءٍ تَنَعَّم به الكافر في الدنيا، حينما يرى مكانه في جهنم يقول: لم أرَ خيراً قط.

فالغنى والفقر بعد العرض على الله، والعاقل كل العاقل، والعقل كل العقل، والنجاح كل النجاح، والذكاء كلّ الذكاء، والتفوق كل التفوق أن تربح الأبد، وأن تربح جنةً عرضها السماوات والأرض، والإنسان في الدنيا مُرْخى له الحبل، له أن يفعل ما يشاء، له أن يصلي أو لا يصلي، له أن يأكل المال الحرام أو أن يكسب المال الحلال، له أن يُطلق بصره أو أن يغضَّ بصره، له أن يصدق أو أنْ يكذب، له أن يُخْلص أو أن يخون، وله أن يقسو أو أن يرحم، فليفعل ما يشاء:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

[سورة فصلت: 40]

كل شيء له حساب، في يوم الفصل؛ تقاس الأشياء بمقياسٍ واحدٍ إلهي، فهؤلاء يتساءلون..

زعم المنجِّم والطبيب كلاهما لا تُبعث الأموات قلت: إليكما

إن صحَّ قولكما فلست بخاسرٍ أو صحَّ قولي فالخسار عليكما

* * *

هذا التساؤل سوف يُحْسَم يوم القيامة..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ* الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

ما من حدثٍ أشد واقعيةٍ من النبأ العظيم :

البشر الآن مختلفون؛ هناك من يؤمن بالمادَّة فقط ولا شيء آخر بعد المادة، والدنيا هي كل شيء، والمال هو كل شيء، وطاعة الأقوياء هي كل شيء، وهناك إنسان عرف الله فرأى الحقيقة الدينية هي كل شيء، ورأى أن الله عزَّ وجل هو كل شيء، والسعادة كل السعادة في معرفته، وطاعته، والقرب منه، والشقاء كل الشقاء في الغفلة عنه، ومعصيته، والبعد عنه.

فهذا النبأ العظيم واقعٌ لا محالة، بل ما من حدثٍ أشد واقعيةٍ من النبأ العظيم، من يوم القيامة، من يوم الفَصْل، من يوم الطَّامة:

(فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

[سورة النازعات: 34]

من يوم القارعة..

(الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ)

[سورة الحاقة: 1-2]

أسماء يوم القيامة كثيرةٌ جداً؛ يوم الفصل، ويوم الدين، ويوم الجزاء، والحاقَّة، والقارعة، وما إلى ذلك، لكن هذا الاختلاف لا يستمر، يحسمه الله عزَّ وجل عند الموت..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

أكفر كفَّار الأرض حينما جاءه الموت قال:

(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس: 90]

أيْ أن هذه الحقائق الكبرى التي جاء بها الأنبياء سوف يكشفها فيعرفها الخلق كلهم، ولكن عند الموت، وبعد فوات الأوان.

خيار الإيمان خيار وقت :

إذاً خيار الإيمان خيار وقت، إما أن تؤمن في الوقت المناسب فتنتفع بإيمانك، وإما أن تؤمن في الوقت غير المناسب فتشقى بإيمانك، أما الإيمان حاصل لا محالة..

(كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

عند الموت..

(ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

يوم البعث والنشور. الآن هذا اليوم يوم الفصل، هذا اليوم يوم الدين، هذا اليوم يوم الجزاء، هذا اليوم يوم تسوية الحسابات، فما سبيل الإيمان به؟ هو إيمانٌ تحقيقي أم إيمانٌ تصديقي؟ هناك من يقول: أنه إيمان تصديقي لأن الله أخبرنا أن هناك يوماً عظيماً، يحاسب فيه الناس عن كل أفعالهم..

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

[سورة الكهف: 49]

الإيمان بالله واليوم الآخر متكاملان :

أنت حينما تؤمن أيها الأخ الكريم أنه:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

يجب أن تكتفي بهذه الآية، لأن أعرابياً لقي النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله عظني ولا تطل. فتلا عليه قوله تعالى:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

قال: كُفيت، فورد عن النبي عليه الصلاة والسلام: فقهَ الرجل. أيْ أصبح فقيهاً من آية واحدة فقط. أيها الأخ الكريم أنت حينما تؤمن أن كل كلمةٍ، وكل حركةٍ، وكل سكنةٍ، وكل عطاءٍ، وكل منعٍ، وكل ابتسامةٍ، وكل صلةٍ، وكل قطيعةٍ، وكل غضبٍ، وكل رضاً، وأيّ موقفٍ، وأيّ عملٍ تعمله مسجلٌ عليك وسوف تحاسب عنه، وهذا هو الإيمان.

لذلك الإيمان بالله لا يكفي، فلا بدَّ أن تؤمن مع الإيمان بالله باليوم الآخر، هما فرعان من فروع الإيمان أساسيان، اقترنا معاً في أكثر آيات القرآن: آمن بالله واليوم الآخر، الإيمان بالله واليوم الآخر متكاملان، أي أنك إن لم تؤمن أن الله موجود، وكامل، وواحد، ويعلم، وسيحاسب، وسيعاقب فلن تستقيم على أمر الله.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

الإيمان باليوم الآخر إيمان تصديقي :

حينما تؤمن أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك لا يمكن أن تعصيه أبداً، هذا النبأ العظيم يوم القيامة، يوم الدين، يوم الفَصْل، يوم الجزاء، يوم الدينونة، القارعة، الحاقة، الطامّة، الغاشية، إن آمنت باليوم الآخر أصبحت مَلَكاً، وأمّا هذا الذي يعصي، وهذا الذي يعتدي على أعراض الناس، وهذا الذي يقع في المعاصي والآثام، وهذا الذي يبني حياته على العدوان، فهذا إنسان لم يؤمن باليوم الآخر، ولو آمن لما فعل ذلك، إنك إن آمنت بإنسانٍ قوي يفعل ما يقول لا يمكنك أن تعصيه، هذا من بني البشر، من بني جلدتك، إذا كنت موظفاً في دائرة، ولك مديرٌ قويُّ الشخصية يعلم ما يفعله موظَّفوه بالتفاصيل، ويحاسب ويعاقب، فإنّك تستقيم على أمره، تستقيم على أمر بشر، فكيف بخالق البشر؟!

هذا الإيمان باليوم الآخر إيمان تحقيقي أم تصديقي؟ الحقيقة هو عند جمهور العلماء إيمان تصديقي، لأن الله أخبرنا أن هناك يوم دين، يوم جزاء سوف نحاسب فيه، ولكن لو أعْمَلْتَ عقلك في الموضوع، مثلاً هل من الممكن لبلد أن ينشئ جامعة تكلّف ألوف الملايين، ويستغرق بناؤها خمسين عاماً، وبعد افتتاحها بسنتين يؤمر بتهديمها؟ هذا عمل غير معقول، فقس على ذلك إنساناً عاش ستين سنة، أربعين سنة إعداد؛ درس حتى نال دكتوراه، تزوّج، واشترى بيتاً، وفرش البيت، صار له عمل، هذا كله استغرق أربعين سنة، معترك المنايا بين الستين والسبعين في أحسن الأحوال، وأحياناً بالثمانية والخمسين يموت الإنسان، بالخامسة والخمسين، بالاثنين والأربعين، وبالثالثة والأربعين، بالتاسعة والخمسين، بالخمسين، أيُعقَل هذا؟! هكذا الحياة، تكون سنتين، ثلاثاً، أربعاً، عشراً، وانتهى الأمر؟! لا ثم لا.

واحد قوي، وواحد ضعيف، وتنتهي الحياة هكذا، القوي قوي والضعيف ضعيف، والغني غني والفقير فقير، والصحيح صحيح والمريض مريض، والمعمِّر معمِّر والقصير العمر قصير العمر بلا تسوية حسابات؟!! هناك ظالم ومظلوم، هناك مستغِل ومستغَل، هناك قاهر وهناك مقهور، تسمع بإنسان تمتَّع بصحة رائعة طوال حياته، وعاش مئة سنة، وإنسان آخر كله عللٌ وأمراض، وتنتهي الحياة هكذا بلا شيء؟! المعتدي نجا والمعتدى عليه سُحِق، الظالم نجا والمظلوم هُضِم حقه، بلا يوم حساب؟! العقل لا يقبل ذلك.

لذلك بعض العلماء الكبار، ومنهم ابن القيِّم قال: الإيمان باليوم الآخر عقلي، وتفاصيله نقليَّة، التفاصيل؛ ماذا يجري في هذا اليوم؟ الصراط المستقيم، الحوض، العذاب، الصُحُف نُشِرَت، الميزان نُصِبْ، تفاصيل هذا اليوم نقلاً، أما أصل هذا اليوم نؤمن به عقلاً..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ* كَلَّا سَيَعْلَمُونَ*ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

من عظمة الله سبحانه أنه جعل هذه الأرض ممهَّدة لنا :

الآن أيها الأخوة قوله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً*وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً *وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً *وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً *وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً *وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً*لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً *وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً *إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

ما العلاقة بين قوله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً)

إلى آخر الآيات، وبين قوله تعالى:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

أيْ أنَّ هذا الخالق العظيم الذي جعل هذه الأرض ممهَّدةً لنا، لو جعلها كلها صَخْرِيَّة كيف نعيش عليها؟ لكن من رحمته سبحانه جعلها تُرْبَةً تُنبت الزرع والزيتون.

الأرض الممهَّدة كل شيء فيها خُلق خصيصاً للإنسان :

من فجَّر الينابيع؟ ومن أنزل الأمطار؟ ومن حرَّك السُحُب؟ ومن قَنَّنَ هذه القوانين؟ بخار الماء، والتبخُّر، والهواء يحمل بخار الماء، وكل درجة حرارة يستوعب الهواء من بخار الماء ما يستوعب، فإذا انتقل بخار الماء إلى جبهةٍ باردة تخلى عن بعض ما فيه فكان المطر.

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

هذه الأرض الممهَّدة؛ فيها معادن، فيها أشباه معادن، فيها نباتات، فيها أطيار، فيها أسماك، فيها حيوانات، فيها أنعام، كل شيء فيها خُلق خصيصاً للإنسان..

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

[سورة النحل: 5]

فهذه الآيات الدالة على عظمته:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً)

مهداً لكم، فالأرض مستقرة، لو أنها مضطربة هل يُبنى عليها بناء؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل: 61]

(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا*وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا*مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

[سورة النازعات: 31-33]

كل ما في الكون ينطق بآيات الله سبحانه :

أيها الأخوة، هذا موضوع كبير:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً)

مستقرَّة، ومتحركة، وذات حجم معتدل، وكثافة معتدلة، والجاذبيّة معتدلة، الإنسان إذا كان وزنه في الأرض ستين كيلو، لو كان على سطح القمر فوزنه عشرة كيلوات فقط، وزن معتدل، كثافة معتدلة، حجم معتدل، دورة معتدلة، دورة على محور مائل، لولا هذا المَيْل لما كانت الفصول، ولولا أن الدوران على محور لا يتوازى على مستوى الدوران لما كان الليل ولا النهار، فالليل والنهار آية، الشمس والقمر آية، والفصول آية، والاعتدال في الحرارة والبرودة آية، والأمطار آية، والرياح آية، والجبال آية، والصحارى آية، والبحار آية، والأنهار آية، والينابيع آية.

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)

الأرض تدور، فالأرض لها طبقات، وكل طبقة لها كثافة، وكل كثافة لها عطالة خاصَّة بها، والكثافات متفاوتة، لو أنّ الأرض حينما تدور يجب أن تضطرب لما استقرّتْ عليها الحياة، ائتِ ببيضةٍ ليست مسلوقةً دوّرها تضطرب، لأن فيها عناصر متفاوتة في الكثافة، فيها الصفار وفيها البياض، والكثافة تَعني أن العطالة مختلفة، والعطالة ما هي؟ هي أن الجسم المتحرِّك يرفض السكون، والساكن يرفض الحركة، فالجسم الكثيف عطالته عالية جداً، والجسم القليل الكثافة عطالته بسيطة، فالبيضة غير المسلوقة لا تدور بل تضطرب، أما المسلوقة فقد تجانست، فالعطالة أصبحت واحدة، والأرض فيها طبقات متفاوتة، الجبال أوتاد، الجبال ربطت هذه الطبقات بعضها ببعض، لذلك الجبل يُرى منه ثلثه فقط، والثلثان تحت الأرض، الجبال أوتاد، هناك آية تذكر أنّ الجبال رواسٍ، وآية أخرى الجبال مَصَدَّات، أما هنا فالجبال أوتاد.

الذكور شيء والإناث شيء وكل جنسٍ خصائصه وقدراته كاملة لمهمَّته :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً* وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً)

نظام الزوجية، نظام الذكر والأنثى، شخصان متشابهان، لكن الرجل له بُنْيَة جسمية خاصة، أجهزة خاصة، له عقلية خاصة، الجانب العقلي مختلف، الجانب النفسي مختلف، الاجتماعي مختلف، القُدرات مختلفة. والله قرأنا كتاب في الجامعة " الفروق بين الجنسين " كتاب مشهور جداً، ثمانمئة صفحة، بعد أن تقرأه وتقرأ قوله تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

تسجد لله تعظيماً لخلقه، بمئات القدرات الذكور شيء والإناث شيء، وكل جنسٍ خصائصه وقُدراته كاملةٌ لمهمَّته، وهذا معنى قول الإمام الغزالي: ليس في الإمكان أبدع مما كان، فكل خصائص المرأة؛ الجسمية، والعقلية، والنفسية، والاجتماعية كمالٌ لمهمتها، أما حينما تختلط الأوراق، وتتشبَّه النساء بالرجال، ويتشبَّه الرجال بالنساء، ويأخذ كلّ جنسٍ دور الجنس الآخر، يصير هناك معاناة كبيرة جداً، أما المرأة بكل خصائصها كاملةٌ لأداء مهمَّتها..

(وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً)

يقول لك بعضهم: المرأة كالرجل تماماً، لا، فهذا كلام غير صحيح، هي كالرجل؛ تشريفاً، وتكريماً، وتكليفاً، ومسؤولية، مكلَّفة أن تؤمن كما هو مكلف أن يؤمن، مكلفة أن تؤمن بالله، واليوم الآخر، والكتاب، والملائِكة، والنبيين، مكلَّفةٌ بأركان الإسلام؛ بالصلاة، والصيام، والحجِّ، والزكاة، مشرَّفةٌ كما هو مشرَّف، مسؤولةٌ كما هو مسؤول، ومع كل ذلك:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

من آيات الله الدالَّة على عظمته أن الله عزَّ وجل جعل البشر أزواجاً :

قدرات الأنثى وخصائصها، وبُنْيَتُها، ونفسيّتها، وعلاقاتها، وعقلها أكمل شيءٍ لأداء مهمتها.

إن زوجي تزوجني وأنا شابة؛ ذات أهلٍ ومالٍ وجمال، فلما كبرت سني، ونثرتُ بطني، وتفرَّق أهلي، وذهب مالي قال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا "، لها دور التربية وله دور القيادة.

لذلك قالوا: " ما زاد في عقل الرجل ونقص في عاطفته كمالٌ في مهمته، وما زاد من عاطفة المرأة الجيَّاشة وضعفت قيادتها كمالٌ بحقّها "، فهذه أسرة، مركب يحتاج إلى قائد، القيادة للزوج، والرعاية للزوجة.

(وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً)

من آيات الله الدالَّة على عظمته أن الله عزَّ وجل جعل البشر أزواجاً.

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الروم: 22]

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة الروم: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

النوم والليل من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً)

ما هذا النوم؟ لك أعصاب، ولك منافذ؛ العينان منفذان من العالم الخارجي إلى عالمك الداخلي، والأذنان منفذان من العالم الخارجي إلى عالمك الداخلي، وأعصاب الحِس منافذ، والأنف من المنافذ، والفم من المنافذ، هذه المنافذ ماذا يحصل لها في النوم؟ قال العلماء: الطريق العصبي عبارة عن خلايا عصبية، خلية واستطالة، وهناك تباعد بينها وبين الخلية الثانية، في النهار الخلايا متقاربة، فالسيَّالة العصبيَّة تستمر في سيرها، في الليل تتباعد، فإذا تباعدت انقطعت السيالة العصبية فكان النوم.

(وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً)

النائم كالميت تماماً، ترتاح أعصابه، ترتاح عضلاته، يرتاح نشاطُه الفكري، يستيقظ ليستعيد نشاطه مرةً ثانية.

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً*وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً*وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً *وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً *وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً)

الليل سَتر، وقت الراحة، وقت النوم، وقت اللقاءات، وقت الركون إلى البيت والأهل، كله في الليل.

النهار والكون من آيات الله الدالة على عظمته أيضاً :

قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً)

النهار طبيعته طبيعة عمل، بالعكس فالإنسان عنده ساعة بيولوجية، هذه الساعة البيولوجية في النهار ترتفع خلالها ضربات القلب، ويعلو الضَغط، وبعض الغُدَد الصمَّاء تفرز كميَّات مضاعفة، هناك برنامج دقيق جداً متعلّق بأجهزة القلب، وبالدوران، والرئتين، والغدد الصماء كله في النهار، فإذا جاء الليل هبطت ضربات القلب إلى الثُلثين، والضغط هبط، والإفراز قَلّ.

إذا سافر الإنسان لبلد بعيد يقول لك: مضى عليّ يومان لم أنم، لأنه مبرمج على البلاد القديمة التي سافر منها، إلى أن تأخذ الساعة البيولوجية خطَّتها الثانية تحتاج إلى يومين، فالنهار معاش، والليل لباس، وقلبك، وشرايينك، وضغط الدم، والرئتان، والهضم، الهضم في الليل أضعف بكثير، والغدد

الصمَّاء، هذه كلها نشاطها يزداد في النهار ويضعف في الليل، لذلك الذي يسهر الليل وينام النهار هذا إنسان غير سوي، هذا يعاكس بُنْيَة جسمه..

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً)

قد تكون كلمة (سبعاً) للتكثير فقط، وفي الكون مئة ألف مليون مجرَّة، ومجرَّتنا مجرة معتدلة جداً، فيها مئة ألف مليون نجم، وهناك مجرَّة اسمها المرأة المُسَلْسَلَة، تزيد عن مجرَّتنا بثمانيةٍ وعشرين ضعفاً، وتبدو في المناظير نجماً واحداً، كلها، كل شيء ترونه في السماء هو درب التبانة، مجرتنا فقط، هناك في السماء نجم متألِّق جداً اسمه المرأة المُسلسلة، وهو في الحقيقة مجرةٌ بأكملها، ويزيد حجمها عن حجم مجرتنا بثمانيةٍ وعشرين ضعفاً..

(وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً)

آيات أخرى دالة على عظمته سبحانه :

الآن الرقم وصل إلى عشرين مليار سنة ضوئيَّة، أي أنَّ بُعد بعض المجرات عنا عشرين مليار سنة ضوئيَّة، الضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، فمن أذان المغرب وحتى أذان العشاء، فإذا قطع الضوء في كل ثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، فكم قطع الضوء في هذا الدرس؟ النجم الذي يبعد عنا عشرين مليار سنة، وصلنا ضوءه بعد عشرين مليار سنة، أين هو الآن؟ النجم يسير بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر بالثانية، الله عزَّ وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة:75-76]

(وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً)

هذه الشمس من خمسة آلاف مليون سنة مُتَألِّقة، مشتعلة، ويقدِّر علماء الفلك أنها تبقى متألِّقة إلى خمسة آلاف مليون سنة أخرى، وترسل من الطاقة ما لا يوصف، سطحها تزيد حرارته عن ستة آلاف درجة، حرارتها في مركزها عشرين مليون درجة، لو أُلقيت الأرض فيها لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف كرة أرضية، لسان لهبها يزيد عن مليون كيلو متر، هناك أناسٌ نظروا إلى الشمس يوم كُسوفها بالمناظير، وفقدوا أبصارهم كلها، من مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، لو حدَّقت في قرص الشمس لاحترقت شبكية العين.

(وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً* وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

هذه الأمطار، فقد ترى على الأرض مِن القمر الصناعي لطعةً رمادية اللون فوق الشرق الأوسط، هذه كانت بالقُطر كلّه ببلدنا الطيب، وفي الأردن، وفلسطين، ولبنان، وتركيا، وشمال السعودية، فهي

منخفض، هي رحمة الله عزَّ وجل، كمية الأمطار كانت مئة وتسعين ميليمتراً في الأربعة وعشرين ساعة، مئتين، مئتين وخمسين، خمسين، ستين، سبعين، كلها خيرات لا يعلمها إلا الله، على القمر الصناعي بقعة رمادية اللون فوق الشرق الأوسط..

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[سورة الحجر: 21]

كل شيء نأكله هو نبات أساسه الماء :

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

لا يعرف كلمة:

(المعصرات)

إلا علماء الجغرافيا، هذا الهواء يحمل بخار الماء، فمن الممكن أنْ يحمل هذا الهواء بدرجة ـ فرضاً ـ ثلاثين، كمية من بخار الماء معيَّنة، فلو مررنا بهذا الهواء الحامل لبخار الماء، وعرَّضناه إلى برودة، فالهواء ينكمش، فإذا انكمش الهواء تخلّى عن بعض الماء الذي فيه، لأن الهواء يستوعب بكل درجة كمية بخار ماء معيَّنة، وكأن هذا الهواء عَصَرَ ما فيه من بخار الماء وجعله مطراً:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً)

أساس الرزق هو الماء، فالأنهار والينابيع، والمزروعات والمحاصيل، والقمح والشعير، كل شيء تأكلونه هو نبات، هذا النبات أساسه الماء:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً*لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً)

الذي خلق هذا الكون العظيم لن يدع الإنسان سُدَىً بل سيحاسبه :

هذا الذي خلق السماوات والأرض، جعل:

(الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً* وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً* وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً* وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً* وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً* وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً)

هذا الإله العظيم هل خلق الكون عبثاً؟!

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

بلا هدف؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

يَظْلِم فلا يُحاسَب؟ يعتدي فلا يحاسَب؟ يزني فلا يحاسَب؟ يأخذ ما ليس له فلا يحاسَب؟ يستعلي فلا يحاسَب؟ يتغطرس فلا يحاسَب؟ يسحق الآخرين فلا يحاسب؟ يبني مجده على أنقاض الآخرين فلا يحاسَب؟ يبني حياته على موتهم فلا يحاسَب؟ يبني أمنه على خوفهم فلا يحاسَب؟!! لا..

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

هذا هو الجواب يقيناً، والذي خلق هذا الكون العظيم لن يدع الإنسان سُدَىً، بل سيحاسبه.

الله تعالى سيسأل الناس جميعاً يوم القيامة عما كانوا يعملون :

قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

لنسألنَّهم واحداً وَاحداً عما كانوا يعملون:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

لهم جميعاً، هذا المغزى، فجامعة كلفتْ خمسين ملياراً، وفيها مخابر، وقاعات تدريس، وحدائق، وملاعب، وسَكَن للطلاب، وأساتذة كبار، ومناهِج عظيمة، ووسائل إيضاح رائعة، وليس فيها نهاية العام امتحان؟! مستحيل، فلا بدَّ من امتحان، ولا بدَّ من فرز الطلاب إلى ناجحٍ وراسب، الناجحون؛ متفوقٍ وغير متفوِّق..

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

الذي جعل:

(الْأَرْضَ مِهَاداً*وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً *وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً *وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً *وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً *وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً*لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً *وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً)

الإيمان باليوم الآخر إيمانٌ عقلي وتفاصيله نقليَّة :

الذي فعل كل ذلك سوف يسألكم، وسوف يحاسبكم، وسوف يوقِفكم للحساب الدقيق.

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[سورة الطور: 45]

لا بد أن يصعق الإنسان حينما يكتشف الحقيقة، فكل البطولة أن تكتشفها قبل فوات الأوان، أن تكتشفها وأنت صحيحٌ معافىً، أن تكتشفها وأنت في الدنيا، قبل أن تُكشَف وأنت بين يدي الله عزَّ وجل، لكنَّ فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

فرعون نفسه حينما أدركه الموت قال:

(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس: 90]

فأهم شيء في هذا الدرس أن هذا الخالق العظيم، وهذا الكون يشهد بعظمته أنّ الإنسان لن يُترك سُدىً، ولم يُخلَق الخلق عبثاً، خلقهم ليحاسبهم، وخلقهم ليجزيهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذه العلاقة بين هذه الآيات وبين..

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

إذاً الإيمان باليوم الآخر إيمانٌ عقلي، وتفاصيله نقليَّة، وأكرِّر هذه الحقيقة: أصل الإيمان عقلي وتفاصيله نقليَّة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النبأ 078 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 16-30، كمال الخَلْق يدل على كمال التصرُّف.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-02-11

بسم الله الرحمن الرحيم

محور هذه السورة أن كمال الخَلْق يدل على كمال التصرُّف :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة النبأ، وفي الدرس الأول ذكرت أن هذه السور القصيرة هي سورٌ مكيَّة، محورها الواحد ترسيخ الإيمان في نفوس المؤمنين، لذلك حفلت هذه السور بآياتٍ كونيةٍ دالةٍ على عظمة الله عزَّ وجل، ولكن في سورة النبأ قضيةٌ دقيقة هي: الربط، الربط بين كمال الخلق وكمال التصرف، فكمال الخَلْق يدلّ على كمال التصرُّف:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً)

معادن، أشباه معادن، صحارى، جبال، سواحل، بحار، بحيرات، أنهار، أطيار، أسماك، الورود أنواعها لا تعد ولا تحصى، مليون نوع من السمك في البحر، بضع مئات من أنواع الطيور، وكل خَلْقٍ:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

بحسب صنعة الله عزَّ وجل، فمحور هذه السورة أن كمال الخَلْق يدل على كمال التصرُّف، كأن يسأل طالبٌ سؤالاً: أهناك امتحان؟ هذا سؤال ينبغي ألا يُسأل، جامعة، ممتدة إلى مسافات طويلة، أبنية كلّفت مئات الملايين، مخابر، مدرَّجات، حدائق، بيوت للطلبة، أرقى المدرسين، أرقى الوسائل، والطلاّب لا يمتحنون؟!! كلُّ هذه العناية والطالب السيِّئ كالطالب الجيِّد؟! والذي درس كمن لم يدرس؟! والذي التزم بنظام الجامعة كمن لم يلتزم؟!

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

يستحيل أن يكون هذا الكون بهذه العظمة دون أن يُسأل الإنسان :

هل عندهم شك فيه؟ هل هم في شكٍ منه؟ أيعقل أن يكون هذا الكون بهذه العظمة دون أن يُسأل الإنسان؟!

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

هكذا قويٌ وضعيف، غنيٌ وفقير، صحيحٌ ومعلول، مُتَألّقٌ وخامل، وسيمٌ ودميم، ظالمٌ ومظلوم، مستغِل ومستغَل، طويل العمر وقصير العمر، امرأةٌ وسيمة وأخرى دميمة، هكذا؟ تنتهي الحياة هكذا بحظوظٍ متفاوتة؟ بعطاءاتٍ مُتباينة؟ بقدراتٍ متباعدة؟ أيعقل هذا؟ كمال الخلق يدل على كمال التصرف.

أنت إذا دخلت إلى شركةٍ من أرقى الشركات؛ شركة أجهزة حاسوبية، أيعقل أن تكون هذه الشركة بلا نظام محاسبة؟ بلا نظام مكافآت وعقوبات؟ بلا نظام ترقية محترم؟ كمال الخَلق يدل على كمال التصرُّف..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

مثل هذا الشيء ينبغي ألا يُسأل عنه، لأنه أمرٌ بديهي..

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

السؤال عن يوم إحقاق الحق وإبطال الباطل ينبغي ألا يُسأل :

أمة تعيش على أنقاض الأمم، وتنتهي الحياة هكذا؟ أمةٌ تقتل مئات الألوف، وتنتهي الحياة هكذا؟ إنسان يبني وجوده على أنقاض الآخرين، وتنتهي الحياة هكذا؟ إنسان يجمع ثروته على إفقار الآخرين وبؤسهم، وتنتهي الحياة هكذا؟ إنسان عاش الناس كلّهم له، وإنسانٌ آخر عاش للناس كلهم كالأنبياء، وتنتهي الحياة هكذا؟ مثل هذا السؤال ينبغي ألا يُسأل..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

عن هذا اليوم الذي ترتعد منه الفرائص، عن هذا اليوم الذي يصبح القوي ضعيفاً، والضعيف المظلوم قوياً، عن هذا اليوم الذي يكافأ فيه المُحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، عن هذا اليوم الذي يعود فيه هذا الإنسان الذي طغى، وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى، يعود إلى حجمه الصغير..

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

[سورة الأنعام: 94]

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ)

عن يوم الدين؟ عن يوم الجزاء؟ عن يوم الدينونة؟ عن يوم تسوية الحسابات؟ عن يوم رَدِّ المَظالم؟ عن يوم إحقاق الحق وإبطال الباطل؟ فكمال الخَلق يدل على كمال التصرف.

للتقريب: لو أن إنساناً قال لشركة: أعندك القدرة على أن تنجزي هذا المشروع؟ يقول مندوب هذه الشركة: ألم تنظر إلى البناء الفلاني، والبناء الفلاني، والمشروع الفلاني، والمَعمَل الفلاني، والجسر الفلاني، أليست هذه كلُّها أدلةٌ على أن هذه الشركة بإمكانها أن تنجز هذا الموضوع؟

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ *الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

الله وزَّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء ويوم القيامة توزيع جزاء:

واللهِ أيها الأخوة ما من إنسانٍ يشك في يوم الدين إلا يُشَكُّ في سلامة عقله، ألا ترون الناس متفاوتون في الحظوظ، إنسان يشتهي أن يأكل لقمةً، وإنسان يكاد يُتْخَم مِن كثرة الطعام، هذا التفاوت في الحظوظ لا بد من أن يُسوَّى يوم القيامة، بل إن الله جلَّ في علاه جعل الحظوظ في الدنيا موضع ابتلاء، وزَّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، توزيع امتحان، وسوف توزَّع يوم القيامة توزيع جزاء.

إنسان امتُحن بالفقر، فصبر وتعفَّف، ورضي عن الله عزَّ وجل بما قسمه له، فنجح في الامتحان، وإنسانٌ آخر امتُحِنَ بالغنى ـ مثلاً ـ فرسب في الامتحان، لأنه طغى وبغى، واستعلى وتكبَّر، وأنفق المال على ملذَّاته السخيفة، وحرم منه الفقراء، رسب، إنسان امتحن بالفقر فنجح، وإنسان امتُحن بالغنى فرسب، يوم القيامة توزَّع الحظوظ توزيعاً آخر؛ توزيع استحقاق، توزيع جزاء، توزيع عَدل، فالذي نجح في امتحان الفقر سيغدو غنياً إلى أبد الآبدين، والذي رسب في امتحان الغنى سيغدو فقيراً إلى أبد الآبدين، مِن هنا قال سيدنا علي: الغنى والفقر بعد العرض على الله، وتوزيع الحظوظ في الدنيا لا قيمة له من حيث إنها مُنْقَطِعَة، أيامٌ تمضي، ولكن الخطورة توزيعها في الآخرة..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر: 54-55]

البطولة أن يكون لك مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، البطولة أن يرضى الله عنك، الأرض فيها الآن ستة آلاف مليون إنسان، واللهِ لو أن ستة آلاف مليون أثنوا عليك، ورفعوك، وعظَّموك، ولم تكن عند الله مقبولاً، فأنت أكبر خاسر، ولو أن ستة آلاف مليون ذَمُّوك وكنت عند الله مقبولاً، فأنت أكبر رابح، فابتغوا الرفعة عند الله.

من علامات المؤمن أنه عاش الآخرة قبل أن يصل إليها :

هذا اليوم يوم الدين، مثل ضربته اليوم في الخطبة: إنسان جاءته دعوة لزيارة بلد بعيد، لمجرَّد أنه قَبِلَ الدعوة؛ تصوراته، أفكاره، خواطره، كتاباته، هواجسه، أحلامه فكأنّه صار في هذا البلد، هو لا يزال

في بلده ولكن قلبه، ونفسه، واهتماماته، وخواطره نُقِلت إلى هذا البلد. فلو أنّ إنساناً أراد العمرة ـ مثلاً ـ حينما يأخذ الموافقة، ويشتري بطاقة الطائرة، فقد أصبح كل تفكيره، وكل هواجسه، وكل خططه، وكل تأمُّلاته، وكل محاكماته، وكل ذاكرته صارت هناك في البيت الحرام.

فالمؤمن حينما آمن باليوم الآخر، وآمن بالآخرة، كل حركةٍ، وكل سكنةٍ، وكل كلامٍ يلفظه، وكل عطاءٍ، وكل منعٍ، وكل غضبٍ، وكل صلةٍ، يقيسها بنظام الآخرة؛ هل هذا العمل يرضي الله؟ هل سأحاسب عنه؟ هل سأُؤَاخذ عليه؟ هكذا، فمن علامات المؤمن أنه عاش الآخرة قبل أن يصل إليها، عاش في الآخرة.

لو طُلِب إنسان للتحقيق، من ساعة أن يُطلب يقول لك: ما نمت الليل، ماذا سَأُسأل؟ ما الذي دعا إلى أن أُسأل؟ أربعة أيام، الوقت كلُّه يمضى في التفكير، ما الذنب الذي اقترفته حتى أسأل عنه؟ لعل هذا الذنب، لعل هذا الذنب، لعل هذا الذنب، هذا حالك مع إنسان، فكيف الحال مع الله العظيم؟!

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

الذي لا شكَّ فيه واقعٌ لا محالة، خالق السماوات والأرض، أمم تعيش على أنقاض أمم، وينتهي الأمر؟ إنسان يترك خمسين مليونَ قتيلٍ في ألمانيا، في الحرب العالمية الثانية، وينتهي الأمر هكذا بلا سبب؟ مستحيل، إنسان يلقي قنبلة في اليابان يبيد بها ثلاثمئة ألف في ست ثوانٍ، أخذ قراراً، وألقى هذه القنبلة الذرية، وانتهى الأمر؟ ما من مشكلة؟ الكل يموتون دون تمييز؟ لا..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

كمال الخَلْق يدلُّ على كمال التصرُّف..

(الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

آيات تؤكد أن الله عزَّ وجل مستحيلٌ أن يخلُق الناس عبثاً :

لمجرَّد أن تشكّك في وقوع يوم الدين ينبغي أن تشكّك في عقلك، لأن الله عزَّ وجل مستحيلٌ وألف ألف مستحيل أن يخلُق الناس عبثاً..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

لا يمتحنون؟

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران: 142]

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران: 179]

في الحياة امتحانات، وابتلاءات، ومِحَن صعبة، فلا بدَّ أن تُمتحَن، فقد تخدَع بعض الناس لكل الوقت، وقد تخدع كل الناس لبعض الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل، لذلك بدأت هذه السورة..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

لا بد من وجود يوم تسوى فيه الحسابات :

هذا شيء بديهي، لو أنّ سائلاً سألك: ما قولك الكل أكبر من الجزء؟ هذا سؤال لا يسأل، أيْ هل غرفة في البيت يمكن أن تكون أكبر من البيت؟ مستحيل، قطعة في السيارة يمكن أن تكون أكبر من السيارة؟ أيعقل أن يكون الجُزء أكبر من الكُل؟ تقول له: ما هذا السؤال؟ هذا شيء بديهي، هذا شيء مُسَلَّم به، مقطوعٌ به..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

هكذا الشعوب؛ شعوب غارقة في الفجور، غارقة في الزنا، غارقة في الخمور، غارقة في العدوان، قلوبٌ قاسيةٌ كالصخر، يُقتل الإنسان بلا ذنب، لأنه مسلم فقط، بالمئات، بل بمئات الألوف، وهؤلاء الذين يفعلون كل هذا يموتون وانتهى الأمر! وتنتهي الحياة هكذا؛ بظالمٍ ومظلوم، ومستغِلٍ ومستغَل، وقويٍ وضعيف، وغني وفقير، ولا يحاسب الإنسان عن ماله من أين جاء به، وفيمَ أنفقه؟!

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ* الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ* كَلَّا)

أداة ردع ونفي..

(سَيَعْلَمُونَ)

تهديد.

(ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

الله عزَّ وجل لم يخلُق الكون عبثاً ولم يخلُق الإنسان سدىً:

سيعلم الإنسان عند الموت، وسيعلم يوم القيامة أن الله عزَّ وجل لم يخلُق الكون عبثاً، ولم يخلُق الإنسان سدىً..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ*فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[سورة المؤمنون: 115-116]

وهذا هو الدليل:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً*وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً *وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً *وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً *وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً *وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً*لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً *وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً *إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

هذا اليوم الموعود، كلُّ متوقعٍ آت، وكل آتٍ قريب، لو أن الإنسان سأل نفسه سؤالاً مُحْرِجاً: هل بقي بقدر ما مضى؟ فهذه صفحات النعي أمامكم، الناس يموتون بين الستين والسبعين إذا سَلِموا من مرضٍ خطير، إذا سَلِم من الأمراض والأخطار فبين الستين والسبعين يموت، وكما ورد:

((أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين))

[أخرجه أبو يعلى وابن حبان عن أبي هريرة]

وإن لم يَسْلَم فبحادث وهو بالأربعين، بالثلاثين، بالخامسة والعشرين.

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

في هذا اليوم تسوَّى الحسابات.

الآية التالية لو لم يكن في القرآن غيرها لكفتنا جميعاً :

واللهِ أيها الأخوة، القرآن بين أيدينا؛ ستمئة صفحة، نسمعه ليلاً ونهاراً، وكل شيء مُيَسَّر في القرآن، وإنّ أعرابياً جاء النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله عظني ولا تطِل (لا تطِل عليّ)، فتلا عليه قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه، قال: كفيت يا رسول الله، اكتفى بآية واحدة، آية وليست سورة، قال: كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فقُهَ الرجل، واللهِ الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفتنا جميعاً:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7]

قال: أيْ لو أن إنساناً ابتسم ابتسامة ساخرة، أو أعرض عن إنسان بلا سبب، أو تجاهله، أو داس نملةً..

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

((دَخَلت امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ ربطتها، فلم تُطعِمها، ولم تَدَعْها تأكُل مِن خَشاشِ الأرض))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

فما قولكم فيما فوق الهرَّة؟ ألا تسمعون ما يجري في العالم مِن مذابح، من تقتيل جماعي، من تشريد، هؤلاء الذين اتخذوا هذه القرارات ألا يحاسبون؟!

حقيقة الصور لا يعلمها أحد:

قال تعالى:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)

هذا ميقات دقيق لهؤلاء الذين نَسوا ما ذكّروا به..

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً)

(الصور) البوق، أما حقيقته فلا يعلمها أحد، هذا من شأن الآخرة، وهذا من الإيمان التصديقي الإخباري، لا تخض فيما لا يجدي، هذا شيء نعرفه بعد الموت، أما الله عزَّ وجل قال:

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ)

أيْ الصور أداة من أدوات دعوة الأموات إلى البعث والنشور..

(فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً)

أفواج آكلي الربا، هؤلاء فوج، وأفواج الزناة، وأفواج الشاذّين، وأفواج الطُغاة والظالمين، وأفواج المُقَصِّرين، وأفواج المؤمنين، وأفواج الصِدِّيقين، وأفواج المُسلمين، وأفواج السابقين..

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً)

في اليوم الآخر كل شيءٍ في الكون يتغيَّر و هذا هو النبأ العظيم :

في هذا اليوم يغيَّر نظام الكون، كان في الكون شمس..

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

[سورة التكوير: 1]

تكوير وكان في الكون نجوم في الدنيا.

(وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ)

[سورة التكوير: 2]

وكان في الكون جبال شاهقة..

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

[سورة التكوير: 3]

وكان للدنيا سماء..

(وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً)

كل شيءٍ في الكون يتغيَّر، هذا هو النبأ العظيم..

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً* وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً* وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً)

صور عما ينتظر المقصرون من عذاب يوم القيامة :

جبل قاسيون رآه الرومان هكذا، ورآه الإغريقيون، ورآه الآراميون، ورآه الفُرس، والأتراك، والمسلمون، ونراه نحن، الجبل جبل لا يتغير، أما يوم القيامة..

(وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً)

أي صورة باهتة..

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً* لِلطَّاغِينَ مَآباً)

فكّرْ مليّاً، وانظر ونحن في الدنيا إلى عصابة سرقة؛ تأخذ الأموال، وتسهر في الملاهي، وتأكل ما لذَّ وطاب، وتقترف الكبائر، والفواحش، أما حينما يلقى القبض عليها، وتودع في السجن، انظر إلى هذا المجرم فلا يستطيع أن يرفع بصره من قُبح فعلته، فكيف به يوم القيامة..

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً*لِلطَّاغِينَ مَآباً)

هذا الذي طغى وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى، أيْ انحرف واعتدى وبنى وجوده على أنقاض الآخرين..

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً)

تنتظرهم..

(يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)

[سورة ق: 30]

(لِلطَّاغِينَ مَآباً* لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)

حياتنا لا تستقيم إلا بمعرفة الله والخوف منه والإيمان باليوم الآخر :

قرأت خبراً مرَّةً: أن سفينة فرنسية راسية في ميناء بإفريقيا، وإذا بعشرة أشخاص أفارقة فقراء، يتسللون إلى السفينة ويختبئون في ثنيّات عنابرها، وبعد أن تُبْحِر إلى فرنسا، يكتشف رُبَّان السفينة أن في السفينة عشرة أشخاص قد تسللوا إليها، ببساطةٍ بالغة يأمر بقتلهم جميعاً، ونحن نتساءل: هل إذا تسلّل إنسان إلى سفينة يقتل؟! فأطلق عليهم النار واحداً واحداً، وألقوا في البحر، وفي نيَّته أن هذا العمل لا يمكن أن يعلم به أحد، غير أنّ واحداً من العشرة أُطلِق النار عليه ولم يمت، فاختبأ في مكان سري، وانتظر حتى وصل إلى فرنسا، وخرج من السفينة، واتصل بأحد مخافر الشرطة وأبلغها الخبر، فتم الحكم على الربان بالإعدام، وعلى من أعانه على قتلهم بعشرين سنة مؤبَّداً، هكذا تقتل عشرة أشخاص، طبعاً ليس معهم هويات، وينتهي الأمر بهذه البساطة؟ لا، فهذا باطل وضلال وجور..

أيها الأخوة، من هو العاقل ومن هو الذكي؟ هو الذي يُدخِل اليوم الآخر في حساباته اليومية، وإليكم هذه الواقعة المؤلمة المُرّة: لدى أصحاب المخابز مادة تعين على نُضْج الخُبز، المادة الصحية ثمن الكيلو خمسة آلاف ليرة - هكذا قرأت في الجريدة - وهناك مادة مسرطنة سامة ثمن الكيلو خمس ليرات، فضبطوا فرَّاناً يستخدم هذه المادة السامة المُسرطنة، التي لها فعل المادة الأولى، ولكنها رخيصة جداً، يضع هذه المادة دون أن يعلم به أحد، ويأكل الناس هذا الخبز، ويأخذ ثمنه باهظاً، أفلا تحاسب؟ وكان العمل يتمّ سراً في الليل؟ أيمكن ذلك؟! ليروّج بضاعته ويحسنها يضع مادة مسرطنة في الخبز؟!! هؤلاء الذين يغشون المسلمين في طعامهم وشرابهم. بائع فروج مثلاً، يضع فروجاً ميتاً مع الأحياء؟! فيُطعم الناسَ لحماً ميتاً، وينتهي الأمر هكذا؟ هذا مستحيل، وأنْ تُوضَع كذلك في بعض المواد الغذائية مواد مسرطنة لكي يرتفع سعرها، لتكون زاهية اللون، والمادة ممنوع استعمالها! فالحذرَ الحذرَ، فإنّ الحساب عسير.

حياتنا لا تستقيم إلا بمعرفة الله والخوف منه والإيمان باليوم الآخر، والإنسان يصعب عليه أنْ يراقب إنساناً، يكاد يكون من المستحيل أن يراقب الإنسانُ الإنسانَ في كل أطواره، إنسان يعجن - الساعة الثالثة صباحاً - ووجد في العجين حيواناً، وقد فُرم مع العجين، ماذا يفعل؟ يكمل العجين، لا يراه أحدٌ، ولن يحاسَب؟ فحياتنا لن تستقيم إلا بالخوف من الله عزَّ وجل..

جوهر الدين أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً ليكون حسابك يوم القيامة يسيراً :

قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها. قال: ليست لي. قال: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب. قال له: والله ليست لي. ثم قال: والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: إنّها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله؟! فهذا الأعرابي، هذا البدوي وضع يده على جوهر الدين، هذا هو الدين أن تقول: أين الله؟ أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً ليكون حسابك يوم القيامة يسيراً، فلا بدّ أن تسأل: هل لي الحق أن آخذ هذا المبلغ؟ هل لي الحق أن آخذ هذه العمولة؟ هل لي الحق أن أجلس مع هذه المرأة، وأن أمتّع نظري بمحاسنها؟ هل لي الحق أن أفعل كذا، أن آخذ هذا المال، أن أقبل هذا المال؟ إن لم تحاسب نفسك حساباً عسيراً، فينتظر هذا الإنسان يومٌ عسير، حيث لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً)

تنتظرهم، وترصد حركاتهم وسكناتهم..

(لِلطَّاغِينَ مَآباً)

مصيرهم إلى النار، المجرم أين مصيره؟ إلى قصر؟ لا بل إلى السجن، في النهاية فهو مجرم قتل، وسرق، ثم ألقي القبض عليه، أين مصيره؟ مؤبَّد بالسجن وانتهى، لكنّ إنساناً طغى، وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى، ونسي الدار الآخرة، ونسي أنْ يتعرف إلى الله، وأن يطيعه، فأين مصيره؟

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً* لِلطَّاغِينَ مَآباً * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)

دقيقة الألم ساعة وساعة اللّذة دقيقة :

دقيقة الألم ساعة وساعة اللّذة دقيقة، أحياناً بجلسة لطيفة مع أخوة تحبهم ويحبونك فتفاجأ بأن الساعة صارت الواحدة ليلاً، جلسوا الساعة السابعة، فإذا بها الساعة الواحدة، لأنهم في سرور، أما أنْ تجلس على كرسي تنتظر إنساناً فهذا صعب، ومِن أجل أنْ تعرف ذلك راقب في قاعة امتحان، تشعر أن الدقيقة ساعة، فكيف إذا كان في عذابٍ أليم؟ كيف؟

(لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)

يقول لك: سُجِنْت ثلاثة أيام حتى كدتُ أخرج من جلدي، فكيف حال الذي دخل السجن، وبقي فيه عشرين سنة، كان مجرماً، وكيف مضتْ هذه السنوات العشرون؟ أما في جهنم فإلى الأبد..

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف: 77]

على طول..

(لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)

حِقباً وحقباً وَحقباً إلى ما شاء الله..

(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً)

الغبي يتغنَّى بماضيه والأقل غباء يعيش حاضره لكن العاقل يعيش المستقبل :

إذا ذهب الإنسان إلى الحج، أو إلى العمرة، أو ذهب إليهما في أشهر الصيف، حينها يعلم ما هو الحَرّ، والإنسان هناك لا يشتهي إلا الماء البارد، لا يشتهي إلا مكيِّفاً، لا يشتهي شيئاً آخر، فالحرُّ لا يحتمل، فكيف إذا كان هذا في النار؟

(لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً *لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً)

ولكن هناك استثناء، فهم يذوقون شراباً، ولكنَّه ماءٌ يغلي يقطِّع أمعاءهم..

(إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً)

ذق إنك أنت العزيز الكريم.

أخواننا الكرام، الغبي يتغنَّى بماضيه، والأقل غباء يعيش حاضره، لكن العاقل يعيش المستقبل، فما هو أخطر حدثٍ في مستقبلك؟ إنّه الموت. اليوم كنت في تشييع جنازة، قبر لا شيء فيه، تراب، وعميق، يوضع الإنسان في هذه الحُفرة، فإن كان كريماً، وكان عمله صالحاً أُكرِم في هذه الحفرة، فاتسعت مدَّ بصره، حتى أصبحت روضة من رياض الجنة، وإن كان لئيماً أسلمه عمله إلى هذه الحفرة، فكانت قطعةً من العذاب، اقرؤوا كل صفحات النعي في الأرض، فماذا كُتِبَ عليه؟ وسيشيَّع إلى مثواه الأخير، كل بيوتنا المريحة، المرتبة، المطلية، المكيَّفة، المدفَّأة، المفروشة بالأثاث، غرف الضيوف، غرف الطعام، غرف النوم، غرف الاستقبال، المطابخ، الحمَّامات، هذه كلها مؤقَّتة، أما المثوى الأخير فتحت الأرض:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً* يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً* وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً* وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً* إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً* لِلطَّاغِينَ مَآباً)

(مآباً) أي مأوىً.

المؤمن واع أما الكافر فما أدخَلَ يومَ الدين في حساباته إطلاقاً :

قال تعالى:

(لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)

جمع حِقَب، والحِقَب المدة الطويلة جداً..

(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً* إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً)

ماءٌ يغلي..

(وَغَسَّاقاً* جَزَاءً وِفَاقاً *إِنَّهُمْ كَانُوا)

في الدنيا..

(لَا يَرْجُونَ حِسَاباً)

ماذا يقولون؟ العوام لهم كلمات مضحكة: ضع رأسك بين الرؤوس وقل يا قطاع الرؤوس، أهذه آية أم حديث؟ هذا كلام سخيف، كلام باطل، المؤمن واعٍ..

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً)

ما أدخَلَ يومَ الدين في حساباته إطلاقاً، يغتصب بيتاً، يغتصب شركةً، يأكل مالاً حراماً، يعتدي على أعراض الناس..

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً* وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً*وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً*فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً)

المؤمن قبل أن يقوم بأي حركة يدخل اليوم الآخر في حساباته :

أيها الأخوة، لازلنا في هذه السورة الكريمة:

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً)

أي اليوم الآخر نسيه وما أدخله في حساباته - دقق - إنسان ذهب إلى لبنان -مثلاً - وهو في طريق الذهاب وجد تفتيشاً دقيقاً جداً يجري مع العائدين، الآن وصل إلى بيروت فرضاً، وجد بضاعة جميلة، غرفة نوم جميلة جداً، كيف يفكّر؟ ألا أستطيع أن أوصلها إلى دمشق؟ لا، هناك منع، وهناك تفتيش دقيق، فكل حاجة عرضت له يتذكر التفتيش الدقيق في الذهاب، معنى ذلك أنه كلّما ألقى نظرة على بضاعة، أو على حاجة، أو على جهاز، يفكر: لا أستطيع أن أدخله إلى بلدي، معنى هذا أنه أدخَل التفتيشَ على الحدود في حساباته الدقيقة، فكلّما ألقى نظرة على شيء يتذكر أن في الطريق تفتيشاً دقيقاً، وهذا الغرض لن يمر، عليه غرامة - مثلاً - وهذه حالة بسيطة، والمؤمن كلما همَّ أن يقول كلمة يجيب نفسَه قائلاً: هذه لا ترضي الله..

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْساً يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً فِي النَّارِ قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

همَّ أن ينظر نظرةً، هذه النظرة لا ترضي الله، همَّ أن يشتم إنساناً، همَّ أن يأكل مالاً حراماً، همّ أن يُذِل إنساناً، المؤمن الصادق قبل أن يتكلّم، قبل أن يقف موقفاً، قبل أن يدلي برأي، قبل أن ينظر، قبل أن يسمع، قبل أن يمتّع عينيه بمحاسن امرأةٍ، قبل أي شيء لا بدّ أنْ يفكر في يوم الدين، يوم الجزاء، يوم الدينونة، يوم الحساب، يوم تسوية الحسابات، يوم الفَصْل، لذلك:

(إِنَّهُمْ كَانُوا)

لماذا دخلوا النار؟ وكانت النار مآبهم؟ ولبثوا فيها أحقاباً؟ و..

(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً* إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً)

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً*وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً)

مقطع من مقاطع هذه السورة الحديث عن أهل النار وسبب دخولهم النار :

كلَّما عرضتَ عليهم أن يعرفوا الله قالوا: نحن مشغولون، يخوضون مع الخائضين، وهم مع الناس إمَّعة، والذي شاع في البيئة فهم مع البيئة، على أسطحة المنازل صحون وصحون، فمسلسلات ومسلسلات، فثياب فاضحة وثياب ضيقة، وأكل للربا..

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً*وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً)

تعطيه الدليل فلا يقبل، تعطيه الآية فلا يقبل، حديث فلا يقبل، توجيه النبي فلا يقبل، آية كونية تدله على عظمة الله، يأتيك بمخترع حديث ليصرفك عن العظة والعبرة..

(وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً*وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً)

كأن الإنسان يوم القيامة يعرض عليه شريط لأعماله، الآن أحدث طريقة في التحقيق أن يصوَّر الإنسانُ، فمن أجل ألا يطول الحديث يُعرض عليه الفيلم..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء: 14]

(وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً*وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً* فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً)

هذا مقطع من مقاطع هذه السورة، الحديث عن أهل النار، وسبب دخولهم النار:

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً)

لماذا لا يرجون حساباً؟ قال تعالى في وصف حالهم:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك: 10]

الجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، والجهل يتبعه الانحراف، وتتبعه الغفلة عن يوم القيامة..

(فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النبأ 078 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 31-40 ، الفوز العظيم يكون بالنجاة من النار.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-02-18

بسم الله الرحمن الرحيم

الفوز بالنجاة من النار فوز عظيم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة النبأ، ومع الآية الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

الحقيقة أن الفوز بالنجاة من النار فوز عظيم.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران: 185]

يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية.

لمجرد النجاة من النار فهذا فوز عظيم، اتقوا النار ولو بشق تمرة، قال رجل لسفيان الثوري: أوصِني: فقال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها - فترة محدودة - واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتقِ النار بقدر صبرك عليها.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

تقوى الله أن تذكره فلا تكفره وتطيعه فلا تعصيه :

اللهُ عز وجل سمَّى هذا الفوز فوزاً عظيماً.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ*لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 60-61]

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

هؤلاء الذين اتقوا ربهم لمجرد أن يفوزوا بالنجاة من النار فهذا فوز عظيم.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

إنّ المتقي هو الذي اتقى أن يعصي الله، اتقى غضب الله، وسخطه، وعذابه في الدنيا والآخرة، فالتقوى هي الوقاية من شيء خطير، والفعل اتقى بمعنى وَقَى، فهؤلاء الذين اتقوا ربهم وقفوا عند كلامه، وعند

أمره، وانتهوا عما نهى عنه الله، وائتمروا بما أمر الله، فوجدَهم الله حيث أمرهم، وافتقدهم حيث نهاهم، وحرموا ما حرم الله، وأحلُّوا ما أحل الله، هذا معنى المتقي.

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

أي أن تذكر الله فلا تكفره، وتطيعه فلا تعصيه ولا تغفل عنه.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

ليس في الدنيا من حقيقة نعيم الآخرة إلا الأسماء :

الفوز مُسعِد، وكل إنسان بحسب فطرته يتمنى أن يكون فائزاً فوزاً عظيماً، والفوز العظيم في الدنيا أن تكون غنياً، أو قوياً، أو في مرتبة عالية جداً، هذا فوز أهل الدنيا، لكن فوز أهل الإيمان فهو في طاعة الرحمن، والعمل الصالح، ومعرفة الواحد الديان، هذا معنى الفوز الأُخروي.

قل لي: ما مقياس الفوز عندك أقلْ لك مَن أنت! أهل الدنيا فوزهم بالدرهم والدينار، أو بالمتع الحرفية، لكن فوز أهل الإيمان ففي معرفة الله، وطاعته، والعمل الصالح.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

نجوا من النيران، وسَعِدوا بالجنان.

(حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً)

الحقيقـة أنّ كل ما في الآخرة لا علاقة له بالدنيا، إلا في ذهنك، فإنّ الله عز وجل تقريباً للأذهان ذكر لنا أشياء نعرفها في الدنيا، وقد صحّ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ليس في الدنيا من حقيقة نعيم الآخرة إلا الأسماء، فإنّ المسمَّى يختلف، نحن نرى في الدنيا بستاناً جميلاً، فيه أشجار وارفة الظلال، أرض خضراء ممتعة للعينين، ورود، وأزهار، ورياحين، وعصافير مزقزقة، نسيم عليل، هذه معلوماتنا عن الدنيا، وربنا عز وجل تقريباً لعقولنا قال:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً* حَدَائِقَ)

الفوز الدنيوي والفوز الأخروي :

أحياناً الإنسان يرى في مجلة صورةً لحديقة جميلة جداً، يُعتَنَى بها كثيراً، بساط أخضر، حوله ورود، وأشجار، وجدول من المياه الرقراق، فيقول: هذا منظر جميل جداً، يأخذ بالألباب، هذا كله تقريب لك.

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

كما أن النار مخيفة فالجنة جميلة، وكما أن النار خسارة ما بعدها خسارة فإنّ الجنة فوز ما بعده فوز، لو أن كل مصائب الدنيا طُرِحتْ على إنسان، وانتهت به إلى الجنة فهو الفائز الأول، ولو أن كل نعيم الدنيا كان بيد إنسان، وانتهى به الأمر إلى جهنم فهو الخاسر الأول، وهو ليس بشيء إطلاقاً.

فإذا نظر ناظر بعقله أن الله أكرمه حين أعطاه، أو أهانه حينَ زوى عنه الدنيا، إذا قال: أهانني فقد كذب، وإن قال: أكرمني فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا.

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ)

[سورة يوسف: 101]

من أدقِّ ما قرأت عن هذه الآية أنّ المُلْكَ ليس مَن ملك القصرَ الجميل، وليس مَن جمع المال الوفير، الملك مَن ملك نفسه عند الشهوة فضبطها وحملها على طاعة الله، قال تعالى:

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الحشر: 16]

هذا هو الملك العظيم، أما الملك المادي فإنّ اللهَ يعطيه لمن يحب ولمن لا يحب.

الملك أن تملك نفسك عند الغضب والشهوة وأن تتماسك عند الضغوط :

الملك أن تملك نفسك عند الغضب، والشهوة، والمغريات، وأن تتماسك عند الضغوط، وهذا هو الفوز العظيم.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً* حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً)

الحديقة لها أسوار تحيط بها، حديقة ليست عامة ولكنها خاصة بك، وما يزيد في متعتها أنها لك وحدك، لأنّ المكان العام قد يكون فيه ازدحام، وهو لكل الناس، أما الحديقة الخاصة فهي لصاحبها حصراً.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً* حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً)

الفواكه من الصعب أن تصفها، لأنّ لكل فاكهة طعماً تتميز به، أنا أقول لك: لن تستطيع أن تصف طعم العنب دون أن تقول هذا عنب، ولا الكُمَّثْرى دون أن تقول كمثرى، فلكل فاكهة طعم متميز، وهو

محبب، فالتفاح والكمثرى والبرتقال أنواع منوَّعة، فهذه الحدائق لإمتاع الحس، وتلك الأعناب لإمتاع الذوق.

(وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً)

حُورٌ كاملات الخَلق، وهذا أيضاً مما أودعه الله في الإنسان، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

[سورة آل عمران: 14]

في الآخرة الحور العين من أكمل ما خَلَق الله عز وجل :

لحكمة بالغة بَالغة لم يشأ الله عز وجل أن تكون المرأة كاملة في الدنيا، فما من امرأة إلا وفيها نقص، وهذا النقص هدفه تربوي، وهو أن تستعين بها دون أن تتعلق بها، تستعين بها على أمر دينك دون أن تجعلها قِبلتك، لكن التكليف يوم القيامة انتهى، فالنساء هناك كاملات الخَلق والخُلق، قد يعجبك في الدنيا خَلقُ امرأةٍ ولا يعجبك خُلُقها وبالعكس، والكمال لله وحده، أما في الآخرة فالحور من أكمل ما خَلَق الله عز وجل، لذلك قال بعض أصحاب النبي لزوجته، وقد أَلَحَتْ عليه في شيء من الدنيا، قال: (اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لبلغ نورُ وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهْونُ من أن أضحي بهن من أجلك).

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً)

كواعب أي شابات، مكتملات الخَلق، وهناك معانٍ تفصيلية لمعنى الكواعب.

(أَتْرَاباً)

أيْ: في سن متقارب، الفتاة ربما لا تألف مَن هو أكبر منها بكثير والرجل لا يألف من هي أكبر منه بكثير، فمِن دواعي كمال المتعة بين الزوجين أن يكونا في عمر متقارب.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً* وَكَأْساً دِهَاقاً)

أي: مترعة ممتلئة، طبعاً في الجنة أنهار من عسل مصفى، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من ماء غير آسن، شراب مِن أعلى مستوى، والكأس مترعة ممتلئة، وهذا كله تقريب للأذهان، لأن اللغة لا بد لها من مسمَّيات، كلمة بحر تثير عندك خبرة، لو أنك ذهبت إلى البحر، وركبته، وسبحت فيه، ورأيت هيجانه، وجماله، ثم عدت، وسمعت بعدئذٍ كلمة (بحر)، فهذه الكلمة تثير عندك كل الخبرات.

ربنا عز وجل قرّب إلينا مفهوم الجنة بأسماء معلومة في الدنيا :

مرة أستاذ بالجامعة ذكّرنا أن كلمة كرسي يعلّق عليها كل إنسان ما في وسعه من الخبرات، فلو أن أستاذاً جامعياً يحمل أعلى شهادة، ولم يتح له أن يكون أستاذاً ذا كرسي في الجامعة، وسمع كلمة (كرسي) يبقى ساعات طويلة شارداً، متألماً لأنه لم يكن هو الأستاذ ذا الكرسي، وهو الأولى بهذا المنصب لعلوِّ شهادته وكفاءته، فذهنه عند موقع أستاذ ذي كرسي، ووازن بين شهادته العالية من دولة ذات سمعة عالية في العلوم، وبين أستاذ آخر يحتل هذه المنزلة، وليست شهادته في المستوى المطلوب يتألم، فهو يفكر مدة ساعة أو ساعتين في كلمة (كرسي)، وهو يقول في نفسه: أنا أولى بهذا المنصب من فلان.

يسمع كلمة (كرسي) إنسان حلاق عنده في الدكان كرسيان، يحتاج إلى كرسي ثالث، هل يشتري كرسياً ثالثاً، هناك ضريبة مالية، ويحتاج إلى موظف ثالث. إذا سمع بها حلاق فكَّر في الموضوع ساعات طويلة، وقد يسمع كلمة (كرسي) إنسان يحتاج إلى كرسي حمام، تُرى من أين أشتري هذا الكرسي؟ وماذا أشتريه، مِن خشب أم من نوع آخر؟ يفكر تفكيراً ثالثاً، وقد يسمع كلمة (كرسي) إنسان متعب، فيقول: آه، لو أستريح على كرسي لبعض الوقت، فكلمة واحد قد تعلق عليها كل خبراتك!

ربنا عز وجل تقريباً لنا لمفهوم الجنة سمَّى بعض نعيم الجنة بأسماء معلومة في الدنيا، فعندنا حديقة، وبستان، وأشجار باسقة، وللزينة، وجميلة، ودائمة الخضرة، وذات أشكال مختلفة، وورود مختلف أنواعها، رياحين، ونباتات ذات رائحة عطرة، وأنهار، وينابيع، وشلالات، ونساء جميلات، وعصافير مزقزقة، وأطيار جميلة، هذه خبراتنا في الدنيا، فربنا عز وجل قرّب إلينا مفهوم الجنة فقال:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً* وَكَأْساً دِهَاقاً)

الكأس مترعة، والفتاة مكتملة الخَلق، وهي في سنِّ مَن في الجنة، والحدائق لها خصوصية، وفيها من الفواكه ما لذّ وطاب.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

أسعدُ أناس الدنيا أرغبهم عنها وأشقاهم فيها أرغبهم فيها :

هذا إله عظيم، خالق السماوات والأرض يُغْرينا بما أعدَّه لنا في الآخرة، فهل ننصرف عن دعوته؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

أغرانا بهذه الجنة التي نعيش فيها إلى أبد الآبدين، فلا مرض بالدنيا، لا تعب في الفقرة فتصبح حياته جحيماً، لا التهاب في المفاصل، ولا ضعف في الرؤيا، أو ارتفاع نسب الشحوم الثلاثية في الدم، فيمُنَع من تناول الطعام اللذيذ، هذه حياتنا في الدنيا، كلها متاعب، وهموم، وأحزان، وقد تضعف همةُ الإنسان على الإمتاع بالحياة، فيملّ الأكل، والشرب، والذهاب، والسفر، والاختلاط، فهذه الحياة الدنيا، فيها هموم، وموت الأقارب، وأمراض شديدة جداً، فيها ذل، وقهر، وخوف، وحزن، أمّا هذه الجنة فأُعدَّت لعباد الله الصالحين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قد تكون غنياً فلا تنجب أولاداً، وقد تنجب الكثير من الأولاد وليس معك المال الكافي لتنفق عليهم، وقد تنجح في زواجك ولا تنجح في تربية أولادك، وبالعكس، أو تنجح فيهما ولا تنجح في عملك، وقد تنجح في عملك ولا تنجح في صحتك، هكذا الدنيا أرادَها الله أن تكون ذات إيجابيات وسلبيات، كي لا نتعلق بها، ونتخذها مطية لا قبلة، ممراً لا مقراً، وسيلة لا غاية، وأسعدُ أناسِ الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها، خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها همّاً، ومَن أخذ مِن الدنيا فوق ما يكفيه فقد أخَذ مِن حتفه وهو لا يشعر.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً* وَكَأْساً دِهَاقاً)

هناك متعة للعين بالحدائق ومتعة للفم بالأعناب، ومتعة حسية بالكواعب الأتراب، ومتعة غذائية بالكأس الدهاق.

من سعادة المرء أن يعيش مع أناس صادقين :

لاحظ الصفاء!

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً)

اللغو كلام لا معنى له، كله كذب، كلام غير واقعي، فيه دجل ومجاملات وتزوير.

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً)

لا يكذبون، ولا يُكذب عليهم، واللغو هو الكلام الذي لا معنى له. مرة كنت في مركبةٍ عامة، والحافلة مزدحمة بالركاب، والساعة الثالثة بعد الظهر، صديق السائق يدعوه لتناول الغداء معه في البيت! كلام لا معنى له، أيترك هذا السائق المركبة ممتلئة بالركاب، وينزل معه إلى الغداء؟! هذا نمط من كلام فارغ، ومجاملات لا معنى لها، وكذب، ودجل، وتعبيرات لا تعني شيئاً، هذا الذي في الدنيا كذب وهُراء، هناك أناس يكذبون، كلما تنفسوا كذبوا مع النفس! وقد تجلس مجلساً كله كذب في كذب، كله نفاق.

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً)

ليس ثمة كلام لا معنى له، ولا كلام فيه كذب، فهم لا يكذبون، ولا يستمعون إلى الكذب، أي لا يُكذب عليهم.

أخواننا الكرام: مجتمع الصدق مجتمع مقدس، أن تلتقي بإنسان صادق يعبِّر لك عن الواقع دون أن يزيد أو يحذف، أو يكثر أو يقلل، فمن سعادة المرء أن يعيش مع أناس صادقين.

((إنَّ الصِّدْقَ برٌّ، وَإِنَّ الْبرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً....))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ]

الجنة والكأس الدهاق والبُعْد عن اللغو والكذب هي الفوز الكبير:

هذه الجنة التي هي في الحقيقة فوز كبير، مع الحدائق المنوعة، والكأس الدهاق، والبُعْد عن اللغو والكذب.

(جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات: 15-19]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ*إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ *قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

كل ما في الدنيا له حساب دقيق في الآخرة :

كل شيء بحساب دقيق، صلواتك، وغض بصرك، صِدْقك، وإعراضك عن النميمة، وبرك لوالديك، كل هذا محفوظ عند الله، كل صغيرة وكبيرة مسجلة عليك أو لك، حساب دقيق.

(جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً)

حساباً: أي عطاءً كبيراً، قال علماء اللغة: هذا عطاء إلى أن تقول: حسبي اكتفيت، خذ ما شئت. عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((.....يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ

أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

(جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

أما الدنيا فَلَكَ أنْ تتَصَوَّرَ طريقاً عريضاً وطويلاً جداً، ينتهي بحفرة مالها من قرار! عمق الحفرة مئة متر، والسيارات تتسابق على هذا الطريق، أول سيارة السباقة الأولى سقطت! ثم الثانية، ثم الثالثة! فما هذا السباق؟ الدنيا هكذا أغنى وأقوى إنسان يموت، ويوضع في القبر، الصحيح والمريض، والوسيم والدميم، والقوي والضعيف، ومن أصل عريق والصعلوك، كل هؤلاء إلى الموت! والموت قَطْعٌ للدنيا، نهاية، ما هذا السباق؟!!

يوم الحساب سيشهد علينا كلُّ شيءٍ:

أما في الآخرة:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر: 54-55]

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً)

هذا اليوم العصيب! حينما يُستدعَى إنسان في الدنيا للتحقيق في موضوع ما، ربما لا ينام الليل أياماً عديدة، وسيسأله إنسان، وبإمكانه أن يخفي عنه الشيء الكثير، أما إذا وقفنا بين يدي الواحد الديان ليحاسبنا على كل ما اقترفت أيدينا شهد عليك كلُّ شيءٍ، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ)

[سورة فصلت:20-21]

جاء مع كل نفس شهيدٌ، ملَكٌ يسوقها، ومَلَكٌ يشهد عليها، هذا العطاء الكبير! قال بعضهم: بغير حساب، وقال بعضهم: حتى تقول حسبي.

يوم القيامة لا يملك إنسان أن يقول كلمة واحدة :

قال تعالى:

(جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً)

هذا من الله.

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ)

الرب هو الممد الذي يدبر أمر السماوات والأرض، يمد المخلوقات بما يحتاجون، ويربِّيهم، ويقودهم إلى طريق سلامتهم وسعادتهم، الموقف رهيب، وإنّه يوم عصيب وعسير.

(لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً)

في الدنيا الإنسان يتفوّق، ويعترض، وينتقم، ويترجى، أما في هذا اليوم العصيب فلا يملك إنسان أن يقول كلمة واحدة.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ)

[سورة الأنعام:94]

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً)

اختلف علماء التفسير في تفسير كلمة الروح، ماذا تعني؟ قال بعضهم: جبريل، وقال بعضهم: مَلَكٌ عظيم، يأتي بَعد العرض اسمه الروح، وقال بعضهم: الروح الملائكة، ومن أدق ما قرأت عن هذه الكلمة (الروح) هي القرآن الكريم، هو المنهج، الملك معه عملك، والميزان إلى جانبك.

عملك بأيدي ملائكة كتبوا كل شيء والمقياس في تقييمك هو القرآن الكريم :

قال تعالى:

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ)

الملائكة كتبتْ على هذا الإنسان كل حركاته وسكناته، كتبت عليه كل أنفاسه، وسجلت عليه كل شيء، وأعماله تقوم بمنهج الله عز وجل، بهذا القرآن الكريم الذي فيه الأمر والنهي، وفيه الحلال والحرام، والفرض والواجب، والحق والباطل، والخير والشر، هو المنهج، والمقياس، والميزان، فعملك بأيدي ملائكة مقربين، كتبوا عليك كل شيء، والمقياس في تقييمك هو القرآن الكريم.

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً)

أي: لا يتكلم بالشفاعة إلا من أذن له بالشفاعة، وقال صواباً.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ)

هذا اليوم واقع لا محالة، ونحن معه على موعد، وما هو إلا وقت يسير حتى نجد أنفسنا في هذا اليوم العصيب.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ)

كل متوقع آت، وكل آت قريب، لاحظ في حياتنا اليومية ننتظر رمضان، جاء رمضان وانتهى! سيأتي عيد الأضحى على أبوابه، سيأتي الصيف، يأتي الصيف وينتهي! بدأ عام ألفين، وانتهى، وألفين وواحد، وهكذا الزمن يمضي سراعاً.

إذا استعنت بعمل صالح خالص لله عز وجل نَقَلك هذا العمل إلى رحمة الله :

قال تعالى:

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ)

اليوم الموعود، والمورود، والممدود، وأخطر أيامك كلها اليوم المشهود الذي نحن فيه، ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً)

يمكن أن تتخذ عملاً صالحاً يُرجِعك إلى الله، فإذا استعنت بعمل صالح خالص لله عز وجل نَقَلك هذا العمل إلى رحمة الله.

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ)

من أراد النجاة، وسعادة الدنيا والآخرة، والفوز العظيم، وأن يكون في جنات الله يوم القيامة:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً)

اتّخذ إلى الله عز وجل وسيلة يرجع بها إليه سالماً غانماً.

نحن بين الدعوة البيانية والتأديب التربوي والإكرام الاستدراجي ثم القصم :

من لم يشأ:

(إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً)

قال علماء التفسير: قريباً في الدنيا، وقال بعضهم: في الآخرة، وقد نجمع بين القولين، فإنْ لم يستجب الإنسان فقد قال الله لنبيه الكريم:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً)

[سورة المدثر: 11]

ذرني وإياه، أنا سأعالجه، فالإنسان إن لم يستجب للدعوة البيانية ساق له الله التأديب التربوي، وإن لم يستجب به ساق له الإكرام الاستدراجي، وإن لم يتأثر قصمه الله عز وجل! فنحن بين الدعوة البيانية، والتأديب التربوي، والإكرام الاستدراجي، ثم القصم.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً)

اتخذ عملاً صالحاً يبتغي به وجه الله، ينفق مما أعطاه الله من ماله، أو وقته، أو علمه، أو خبرته، أو يقدم خبرة للمسلمين، أو يزيل الكرب عنهم، أو يحل مشكلاتهم:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً)

المؤمن ينظر إلى عمله الذي بين يديه وهو نور يضيء أمامه الطريق :

إن لم تشأ أيها الإنسان:

(إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

المؤمن ينظر إلى عمله الذي بين يديه.

(نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة التحريم: 8]

المؤمن عمله الصالح يسعى بين يديه، وهو نور يضيء أمامه الطريق.

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

قدم عملاً، قدم دعوة إلى الله، ترك كتابَ علمٍ، أو ولداً صالحاً، أنشأ مسجداً، أو ميتماً، أو معهداً شرعياً، أو أمَرَ بالمعروف ونهى عن المنكر، تعلم القرآن وعلمه، تعلَّمَ السنة وعلَّمها، بَذَلَ جُهدَه، وأطعم الفقراء والمساكين، ورعى الأيتام، والبائسين، والنساء الأرامل، أنشأ جمعية خيرية، عمل عملاً طيباً يرجو به وجه ربه، فهذا العمل الطيب يراه المرء يوم القيامة بين يديه.

إنسان فقير جداً دخْلُه أربعة آلاف، يعمل مستخدماً في المدرسة، ورث أرضاً، عُرِض عليه ثمنُها بضعة ملايين، فلما قبض ثمنها الدفعة الأولى قيل له الدفعة الثانية عند التنازل، عندما جاء وقتُ التنازل قيل له: سوف تغدو مسجداً، قال: لا أوافق أن أقبض ثمنها، لأنني أولى منكم أنْ أقدمها لله! على فقره

الشديد قدمها هدية في أحد أحياء دمشق، هذا المسجد نور له، إنسان يعمر معهداً شرعياً، أو ينشئ مسجداً، أو يؤلف كتاباً، أو يخدم الناس، أو يطعم الفقراء.

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

من قدّم ماله أمامه سرَّه اللحاقُ به :

أن تضع اللقمـة في فم زوجتك فهي لك صدقة! لقمة تطعمها فقيراً يوم القيامة تراها كجبل أحد.

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

من قدّم ماله أمامه سرَّه اللحاقُ به.

(وَيَقُولُ الْكَافِرُ)

لماذا قلنا: المرء المؤمن؟ بالمقابل يوم ينظر المرء المؤمن ما قدمت يداه من خير، فيسعد به، ويرقى، ويدخل الجنة بهذا الخير.

(وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً)

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ* يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ* خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)

[سورة الحاقة: 25-32]

المؤمن الصادق يقيسُ أيَّ شيء يعرض عليه بمقياس الآخرة :

هذه حقائق أيها الأخوة: هذا كلام ربنا عز وجل، نحن في مثل هذه الدروس نشحن شحنة إلى الله عز وجل، يجب أن تحملنا هذه الشحنة على طاعة الله وطلب الجنة وعلى الاستعاذة بالله من النار، هذه الشحنة يجب أن تجعل الجنة هدفاً لنا.

أخواننا الكرام لو أن أحدكم أراد أن يسافر إلى بلد بعيد دخل إلى السفر وأخذ التأشيرة، أصبح هذا السفر إجازة ومعه ثمن البطاقة، لمجرد أن أخذ الإجازة للسفر إلى بلد بعيد عاش في هذا البلد في نفسه، هو لا زال في الشام! لكن أين سأنزل؟ أيّ ولاية سأزور؟ في أيّ مكان سأنام؟ ماذا سأشتري هناك؟ عاش هناك وهو لا يزال في بلده، والمؤمن الصادق حينما يؤمن بالجنة وبالنار يعيش مع أهل الجنة، فكلُّ عمل يعمله يرجو به وجه الله، وثوابه، والقرب منه، يرجو به مقعدَ صدقٍ عند مليك مقتدر.

أنت حينما تكون من أبناء الآخرة تعيش في الآخرة قبل أن تصل إليها، وهذه من علامة المؤمن الصادق، والمؤمن الصادق يقيسُ أيَّ شيء يعرض عليه بمقياس الآخرة، هل هذا يرفعني عند الله أم لا؟ هل يقرِّبني أم يبعدني؟ هل يرضى الله عني بهذا العمل أو يسخط عني؟ هذا هو المؤمن، يعيش بمقياس الآخرة.

بمقياس الدنيا القرض الربوي أكثر ربحاً، أقرضت مئة ألف فعادت إليك مئة وعشرين+ ألفاً، هكذا الحساب، أما ربنا عز وجل فيقول:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

بمقياس الآخرة القرض الحسن هو الذي يرضى الله عنه، وهو الذي يعين على أن يزداد المال، فلذلك المؤمن يؤمن بوعد الله ووعيده، ويعيش في الآخرة قبل أن يصل إليها، وهذه مشاهد مِن الجنة والنار.

مشاهد مِن الجنة والنار :

الدرس الماضي كان عن أهل النار:

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً* لِلطَّاغِينَ مَآباً *لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً *لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً *إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً *جَزَاءً وِفَاقاً *إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً*وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً* وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً *فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً)

المحور الثاني:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً *حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً *وَكَأْساً دِهَاقاً * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً *جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً *رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً* يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً *إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً)

كل شيء يصحَّح في الحياة قبل فوات الأوان :

نحن أحياء لأن كل شيء يصحَّح في الحياة، القلب ينبض ونتحرك، ولنا أيدٍ نعطي بها، وأعينٌ نغض بها طَرْفَنا، كل شيء يصحَّح قبل فوات الأوان، قبل أن يقول الإنسان:

(يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً)

قبل أن نصل مع الله إلى طريق مسدود، قبل أن يأتي ملك الموت، وتتوقف التوبة.

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

[سورة الأنعام: 158]

أيها الأخوة، هذا كلام فيه شُحْنة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بها جميعاً، وأرجو أن تحملنا على مزيد من الاستقامةِ، والعمل الصالحِ، حتى نستحقَّ أن نكون في جنّة الرحمنِ حيث نجد:

(حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً *وَكَأْساً دِهَاقاً * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النازعات 079 - الدرس (1-4): تفسير الآيات 1-13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-02-25

بسم الله الرحمن الرحيم

عظمة خلق الله تدلّ على عدالته وعلى دقة المعايير:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة النازعات، ونبدأ بقوله تعالى:

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً*وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً*وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً*فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً*فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)

هذه "الواو" أعربها بعضُهم واو القَسَم، وإذا جاء القسم في القرآن الكريم؛ فبالنسبة إلينا فشيءٌ عظيم، أما بالنسبة إلى الله جل جلاله فشيءٌ قليل، فإذا أردت أن تَنْسِب هذه الآية إلى الله فالواو تلفت نظرنا إلى هذه الآية، وإن أردت أن تنسب هذه الآية إلى قدرات الإنسان الضعيفة، فالواو واو القسم. على كلٍ ففي أكثر سوَر الجزء الثلاثين تبدأ السور بمجموعةٍ من الآيات الكونية، التي تدل على اليوم الآخر، وقد مرّ بنا هذا في سورة عَمَّ..

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)

معنى ذلك أن الإيمان بالله من دون إيمانٍ باليوم الآخر لا قيمة له، لأن أساس الاستقامة أن تؤمن بأن هناك يوماً تسوّى فيه الحسابات، وأن هناك يوماً يؤخذ الحقُّ من القويّ ويُعطى للضعيف، وأن كل خللٍ في الأرض يسوّى يوم القيامة، فلذلك ربنا عز وجل يشير إلى عظمة خَلْقِهِ، لأن عظمة خلقه تدلّ على عدالته، وعظمة الخلق تدل على دقة المعايير، وكمال الخَلق يدل على كمال التصرُّف، وهذا شيءٌ مهمٌ جداً في السوَر التي تأتي في الجزء الثلاثين.

كواكب الكون ونجومَه تسير في مساراتٍ مغلقة :

أيها الأخوة، اختلف علماء التفسير في هذه النازعات، أهُم الملائكة تَنْزعُ أرواح الكفار، فيغرقون في نار جهنم؟

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

أي تَنْشَط إلى نزع أرواح الكفار، وهم يسبحون في السماوات والأرض، يعرجون إلى الله عز وجل في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة، أم شيءٌ آخر؟ الحقيقة من أوجه تفسيرات هذه الآيات أن النازعات غرقاً هي الكواكب، تُنْزَع عن مسارها يوم القيامة، لأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

كل الكون هو كواكب تدور في مساراتٍ مُغْلَقَة، وانتظام الكون في انتظام هذه المسارات، ولأضرب لكم مثلاً بسيطاً: إنّ الأرض تدور حول الشمس في مسار مُغْلَق، ومعنى "مسار مغلق" أنها ترجع إلى مكان انطلاقها النِسْبِيّ، كيف أن الإنسان يجري حول ملعب، هذا المَجْرى مُغلق، دائرة مغلقة، يجري خمس مرات، سبع مرات، عشر مرات، نقول: المسار مغلق، إذاً الكون كله يمكن أن تنتظمه حقيقة واحدة، أن كل كواكبه ونجومَه تسير في مساراتٍ مغلقة، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

أي أنها ترجع إلى مكان انطلاقها، وأن الكون كلَّه مُتَحَرِّك لو أن الكواكب لا تدور حول بعضها بعضاً في مساراتٍ مغلقة، ماذا حدث؟ طُبِّقَ مبدأ الجاذبية، فأصبح الكون كله كتلةً واحدة، لأن كل نجمٍ أكبر يجذب الأصغر، لكن مع هذه الحركة، ينشأ عن الحركة قوى نبذ تكافئ قوى الجذب، والمثل البسيط: املأ وعاءً من الماء وأدره في الهواء، تجد أن الماء لا يسقط، إذا كان هذا الوعاء في الأعلى، وفي الجهة السُفلى فراغ، فالماء لا يسقط، ما الذي يمنعه من أن يسقط؟ أنه في أثناء الدوران نشأت قوة نبذ نحو الطرف الآخر لمركز الدوران.

الكون متوازن توازناً حركياً :

أكثر الآلات التي تتولى تجفيف الملابس، على أي مبدأ تكون؟ دوران سريع، فماذا ينشأ من هذا الدوران السريع؟ قوة نبذ، فالماء يخرج من الثياب عن طريق قوة النبذ.

فربنا عز وجل جعل هذا الكون كله يدور في مسارات مغلقة، هذه المسارات ينشأ من خلال هذا الدوران السريع قوة نبذ، تكافئ قوة الجذب، فالكون متوازن، هذا يسمونه أعلى نوع من الميكانيك: التوازن الحركي، أي حركة مع توازن، كل متحرِّك والمحصلة استقرار.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل: 61]

لنضرب على هذا مثلاً، هذه الأرض تسير في مسار مغلق حول الشمس، وهذا المسار ليس دائرياً، بل هو إهليلجيّ أيْ بيضوي، والشكل البيضوي له قطران، قطرٌ أعظمي، وقطر أصغري، فالأرض إذا وصلت إلى القطر الأصغر، هناك خطر أن تنجذب إلى الشمس، لأن المسافة قلَّت بينها وبين الشمس، صغرت، حينما تقل المسافة بين الأرض والشمس تتغلب قوة جذب الأكبر، والشمس يزيد حجمها عن

حجم الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، إذاً من السهل جداً أن تنجذب الأرض إلى الشمس، وتتبخر في ثانيةٍ واحدة، بثانية واحدة تصبح الأرض بخاراً، لأن أشعة الشمس تبلغ ستة آلاف درجة على سطحها، وعشرين مليون درجة في نواتها، في مركزها، فماذا ينشأ؟

تزيد الأرض سرعتها، مِن هذه الزيادة ينشأ قوة نابذة زائدة تكافئ القوة الجاذبة، فتبقي في مسارها، فلو وصلت إلى البعد الأعظمي، الشكل بيضوي، القطر الأطول، هنا تواجهنا مشكلة ثانية، لعل هذه السرعة العالية تجعلها تتفلّت من مسارها حول الشمس، وإذا تفلّتت غرقت في ظلامٍ دامس، وغرقت في بردٍ شديد يصل إلى درجة الصفر المطلقة، مئتين وسبعين تحت الصفر، وكان الموت، فلا بد لتبقى على مسارها أن تتباطأ سرعتها، تباطؤاً تدريجياً كي تبقى مرتبطة بالشمس، فمن أعطى الأرض سرعةً إضافيةً كي تتفلّت من انجذابها للشمس، ومن أعطى الأرض سرعةً متباطئةً كي تنجو من تفلُّتها من مسارها حول الشمس؟ الله جل جلاله.

حينما يأتي اليوم الآخر ينتهي نظام الكون الرائع :

لكن هذه السرعة الزائدة، وذاك التباطؤ الزائد، يكون بشكلٍ تدريجيٍ سماه علماء الرياضيات "التسارع"، تسارع الأرض في سرعتها بطيء، وتباطؤها بطيء، من أجل هذا تبقى الأبنية على حالها، ولو أن الأرض رفعت سرعتها فجأةً لتهدم كلُّ ما عليها، وهذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

أيْ أن تنحرف من مسارها، وتُنزع مِن مسارها، فلو نُزِعَت الأرض من مسارها لانتهت الحياة مِن على سطحها، وهناك عالم بعيد جداً عن أن يؤمن بالله، ومع ذلك قال: لو أن الأرض تفلّتت مِن مسارها حول الشمس، وأردنا أن نعيدها إلى مسارها المُغْلَق، لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي، وقطر كل حبلٍ خمسة أمتار، وهذا الحبل الفولاذي المضفور يتحمل قوى من الشد تزيد عن مليوني طن. أي أن الأرض مربوطة بالشمس، بقوة جذب تساوي مليونين ضرب مليون مليون طن، لو أردنا أن نزرع هذه الحبال على سطح الأرض المقابل للشمس، لفوجئنا أن بين كل حبلين مسافة حبل واحد فارغ، فنحن إذاً أمام غابة من الحبال الفولاذية، ولتعطّلت الزراعة عندئذٍ، وتعطل البناء، والمواصلات، والضوء، أمام غابة، بين كل حبلين مسافة حبل فارغ، وهذا معنى قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

رفعها بعمدٍ لا ترونها، الآن، ما معنى:

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً)

أي أن الله عز وجل حينما يأتي اليوم الآخر، حينما تنتهي الحياة من على سطح الأرض، الشمس كوّرت، والنجوم انكدرت، والنجوم كيف تنكدر؟ تُنْزَع من مسارها حول بعضها بعضاً، اختل نظام الكون، أو أن الله سبحانه وتعالى أنهى نظام الكون، فحينما تُنْزَع الكواكب من مساراتها حول بعضها بعضاً، تنتهي هذه الكواكب وتتناثر وتتفَجَّر، وينتهي نظام الكون الرائع.

إعجاز الله تعالى في الكون :

قال تعالى:

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً)

إذاً هذه النجوم حينما تنزع من مسارها حول بعضها بعضاً وتنتهي..

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ)

[سورة التكوير: 1-2]

أي انطفأت..

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

أي أن هذه السُرعات الهائلة للنجوم هل فكرنا فيها؟ أكثر المجرَّات البعيدة سرعتها تزيد عن مئتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، بل إن سرعتها تقترب من سرعة الضوء وبنشاط دقيق بالغ، أي أن أدق ساعة في العالم تضبط كل عامٍ على مسير نجمٍ، على زاوية رصد نجم، فقد تقصِّر هذه الساعة بضع ثوانٍ، وقد تقدِّم بضع ثوانٍ، والنجم لا يقدِّم ولا يؤخِّر، إذاً هي سرعةٌ عالية مع دقةٍ بالغة:

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

الأرض كما تعلمون تنطلق في رحلتها حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً في الثانية، فمنذ أن أذَّن المغرب حتى الآن قطعنا مئات آلاف الكيلومترات، وهذه حقيقة بديهية ثابتة، مقطوع بها، فسرعة الأرض حول الشمس ثلاثين كيلومتراً في الثانية.

أقرب نجم مُلْتَهِب إلى الأرض بُعدُه عنا أربعُ سنوات ضوئية :

قال تعالى:

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً* وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً)

أيْ أنك لا تستطيع أن تجعل بعض الأحجار تتحرَّك في الهواء، فهذا فوق طاقة البشر، وقبل أن أنتقل من قوله تعالى:

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

أُذكِّركم بقوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

هذا النجم الذي يبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، فالبُعدُ رقمٌ خياليٌّ، علماً بأنّ أقرب نجم مُلْتَهب إلى الأرض بُعدُه عنا أربعُ سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، في الساعة ضرب ستين، في اليوم ضرب أربعة وعشرين، في العام ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، في أربعة، هذا الرقم الكبير هو بُعدُ هذا النجم الذي هو أقرب نجمٍ على الإطلاق إلى الأرض ملتهب، فهذه المسافة لو قسمناها على مئة كيلو متر سرعة سيارة، لعرفنا كم ساعة تكفي كي نصل لهذا النجم بسيارتنا، ولو قسمنا على أربعة وعشرين، كم يوماً؟ على ثلاثمئة وخمسة وستين، كم سنة؟ نحتاج إلى خمسين مليون سنة كي نصل بمركبةٍ أرضيةٍ إلى أقرب نجمٍ ملتهب للأرض.

النجوم والمجرات والكواكب من آيات الله الدالة على عظمته :

القفزة الواحدة، نجم القطب أربعة آلاف سنة، اليوم ذكرت في الخطبة: أن مرصداً عملاقاً اسمه مرصد "هابل" في أمريكا رصد سديماً اسمه عين القِط، وفي هذا السديم نجم تفجَّر، يبعد عن هذا النجم ثلاثة آلاف سنة ضوئية، وقد رُصِدَ هذا النجم، والتقطت صورته، قال تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن: 37-38]

وهي صورةٌ حقيقيةٌ مأخوذةٌ من مِرْصَدٍ عملاق في أمريكا، وقد سُجِّلت هذه الصورة في الصفحة العالمية للكمبيوتر " الإنترنت "، والتقطها أحد الأخوة الكرام، واليوم تحدثت عنها في الخطبة ملياً، وأكثر من عشرين أخ حمل هذه الصورة، واطَّلع الأخوة المُصَلّون عليها، وردة بكل معاني هذه الكلمة، وردة جورية، وريقات حمراء اللون، وحولها وريقات خضراء، وفي الوسط الكأس..

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن: 37-38]

هذا النجم بُعدُه عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، أربع سنوات ضوئية نحتاج إلى خمسين مليون سنة كي نصل إليه، فكم تساوي ثلاثة آلاف سنة ضوئية؟ المرأة المسلسلة مليوني سنة ضوئية تبعد عنا، المرأة

المسلسلة حجمها يزيد عن حجم مجرتنا بثمانٍ وعشرين مرة، مجرَّتنا إحدى مجرَّات الكون، فيها ما يقرُب من مئة ألف مليون نجم، وفي الكون ما يقرُب من مئة ألف مليون مجرَّة، وفي كل مجرة ما يقرب من مئة ألف مليون نجم، المرأة المسلسلة مجرة، حجمها يزيد عن حجم مجرَّتنا بثمانية وعشرين ضعفاً، وتبدو نجماً واحداً من عندنا، وقد تجدون في السماء نجماً متألقاً يومض، فالذي يومض هو مجرة، وبُعدُه عنا مليونا سنة ضوئية، وأحدث رقم لمجرة تبعُد عنا عشرين مليار سنة ضوئية إن أرسلت ضَوْءَها إلينا، فهذا الضوء يبقى يسير في الفضاء الخارجي عشرين مليار سنة كي يصل إلينا، فإذا وصل إلينا فأين هو الآن؟ لا يعلم مكانه إلا الله، ولكنه كان في هذا المكان قبل عشرين مليار سنة.

الله عز وجل لم يقسم بالنُّجُومِ بل أقسم بمواقعها :

ربنا عز وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

لم يقسم بالنُّجُومِ بل أقسم بمواقعها، هذا موقع نجم، أما هو فيمشي بسرعةٍ عالية، هذا على معنى:

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

أما على قوله تعالى:

(وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً)

فأنت يمكن أن تأتي بسطح ثقيل، لوح بلور، وتأتي بكتلتين مغناطيسيتين بحجمٍ واحد، وأنت عالم كبير في الفيزياء، نعطيك كرة ثقيلة، ونقول لك: هل بالإمكان أن تضع هذه الكرة في مركز متوسط بين الكتلتين حيث لا تنجذب لا إلى هنا، ولا إلى هنا؟ أغلب الظن أن هذا فوق طاقة البشر، أن يضع كرةً حديديةً بين كتلتين مغنطيسيتين بحجمٍ واحد، وقوة شحنٍ واحدة، فلو جعلنا كل كتلةٍ بحجم معيّن، لاحتاجت إلى حسابات رياضية معقدة جداً، لأن قوة الجذب تتناسب مع الحجم، مع مربع المسافة، فلو أعطيناه ثلاث كُتَل متفرقة، كل كتلة بحجم، فهذا أشدُّ صعوبة، فكيف ولو أعطيناه أربع كتل، أما كتلتان على سطح وكتلتان في الفراغ، فهذا أصعب وأصعب، ولو أعطيناه كتلاً عديدةً مختلفة الحجم وهي تتحرَّك في فضاء، ووضع هذه الكرة في مكانٍ متوسط حيث لا تنجذب لا إلى هنا ولا إلى هنا، فهذا فوق طاقة البشر، وهذا هو الكون، الكون مئة ألف مليون مجرة مع مئة ألف مليون نجم، كلها أحجام كبيرة، وصغيرة، ومتفاوتة، وكثافات متفاوتة، وهي كلها متحرِّكة، والمحصلة: نظام مستقر، توازن حركي، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً*وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً*وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً*فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً*فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)

عدة تفاسير وردت حول هذه الآيات :

نظام الليل والنهار أساسه دورة الأرض حول نفسها، ونظام الفصول أساسه دورة الأرض حول الشمس مع محورٍ مائل، فتدبير أمر الفصول، وأمر الليل والنهار، وأمر الأمطار، هذه تجدها في قوله تعالى:

(فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)

هذا أحد التفاسير التي وردت حول هذه الآيات، هناك تفسيرٌ آخر يقول: النازعات هم الملائكة، تنشط إلى قبض أرواح الكُفَّار، وتسبح تعرِّج إلى الله عز وجل في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة..

(فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً* فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)

تدبر أمر الخلائق بما تتلقى من أوامر من الله عز وجل، القرآن حمَّال أوجه، أنا وجدت أن أول تفسير هو أقرب إلى الانسجام مِن بين التفاسير، هذه النجوم التي في السماء، لو أنها نزعت من مسارها لانتهت، من أجل أن تعرف ماذا يعني أن يبقى النجم في مساره؟ إن الله يمسك، إنه إلهٌ عظيم..

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

[سورة فاطر: 41]

انتهت الحياة من على سطح الأرض، فلو أن الأرض خرجت عن مسارها، كما لو أن القطار خرج عن سكته لهوى في الوادي.

وصف دقيق ليوم الدين كما ورد في القرآن الكريم :

هذا القسم فأين جوابه؟

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً*وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً*وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً*فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً*فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً* يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ)

هذا اليوم العصيب، هذا يوم الدين، هذا يوم الراجِفَة، هذا يوم الواقعة، هذا يوم الحاقَّة، هذا يوم الطامة الكبرى، هذا يوم الفَصْل، هذا يوم الدين، هذا يوم الدينونة، هذا يوم الجزاء.

(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ)

الراجفة الأرض:

(إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا*وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا*وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا*يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا*بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا*يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ*فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه)

[سورة الزلزلة:1-8]

الزلزلة الكبرى والزلزلة الصغرى :

ربنا عز وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

(يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ)

[سورة المزمل: 14]

الأرض تهتز، هذه الزلزلة الكُبرى، وهناك زلزلة صُغْرَى، زلزال في تركيا استمر ثوانيَ معدودة، وكانت شدته سبع درجات على سُلّم (رختر)، فخلّف وراءه خمسين ألف إنسان، مئتا ألف بلا مأوى، وخمسين ألف قتيل، في دقيقة وزيادة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ*يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج: 1-2]

الأرض سوف تتحدث يوم القيامة لله عز وجل عما فعله هذا الإنسان :

أيها الأخوة، في هذا اليوم تُزَلْزَل الأرض زلزالها، وتخرج أثقالها، أيْ الإنسان، وقد دُفِن فيها من قبْلُ، ويقول هذا الإنسان: مالها، ما الذي حدث؟

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

[سورة الزلزلة: 4]

تحدّث عما فعل فيها الإنسان، أقام حروباً، انتهك أعراضاً، شرَّد أُناساً، لا لسببٍ وجيه بل لسببٍ عِرْقِيّ، يقول: حرب تطهير عرقية، هذه الأرض سوف تتحدث لله عز وجل عما فعله هذا الإنسان، هذا المخلوق الأول..

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً*وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً*وَبَنِينَ شُهُوداً*وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً*ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ*كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً*سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً*إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ*فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ*ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ*ثُمَّ نَظَرَ*ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ*ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ*فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ*إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ*سَأُصْلِيهِ سَقَرَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ*لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ*لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ*عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)

[سورة المدثر: 11-30]

في اليوم الآخر الأرض تُزَلْزَل والنجوم تَنْكَدِر والشمس تتكوّر:

أيها الأخوة، في هذا اليوم يوم تهتز الأرض وتخرج هذا الإنسان الذي طغى وبغى ونسي المبتدى والمنتهى، تخرج هذا الإنسان الذي بنى مَجْدَهُ على أنقاض الآخرين، وبنى غِناه على إفقار الآخرين، وبنى أمنه على خوف الآخرين، وبنى حياته على موت الآخرين، هذا الإنسان الذي خَلَقَهُ الله ليسعد في الآخرة، خان الأمانة، ونسي مهمته، وفعل ما فعل..

(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ* تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ)

الأرض تُزَلْزَل، والنجوم تَنْكَدِر، والشمس تتكوّر، وكل شيءٍ قد انتهى، أول كلمة هي الراجفة، والرادفة تتبعها هي السماء:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ*وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ*وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

[سورة التكوير: 1-4]

(قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ*أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

البطولة أن تنجو في اليوم الآخر لا في الدنيا :

الإنسان أحياناً حتى في الدنيا يتجاوز حدوده، فينتهك حُرْمة القانون، ويتبجَّح، ويتعاظم، ويتغطْرَس فإذا وقع في يد العدالة لم يستطع أن ينظر إلى آلة التصوير حين يُصوَّر:

(قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ* أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

البطولة أن تنجو في هذا اليوم، لا أن تتيه على الناس بمالك، ولا بعلمك، ولا بسلطانك، ولا بمكانتك، ولا بقدرتك على الأذى، البطولة أن تنجو في هذا اليوم..

(قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ*أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

ساكنة سكون الخَوْف، والقلب مضطرب اضطراب الفزع والجزع.

(يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)

أي نحن سوف نرد إلى الدنيا؟ فما الذي حصل؟ هم في رعب، وهم في دهشة..

(أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً)

طبعاً الإنسان قد يبقى عظاماً نخرةً فقط، أي عظماً هَشّاً، عظماً مَنْخوراً، قال: لا، أنتم حينما رَجَفَت الأرض، وتبعتها السماء، وأنتم تخافون، والأبصار خاشعة، لن تردوا إلى الدنيا.

(يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)

الإنسان حينما يوضع في الحساب يندم أشد الندم :

العرب تقول: رُدَّ في حافرته، أي عاد من حيث أتى، توهّموا أن هناك عودةً إلى الدنيا، قال: لا، الذهاب إلى الآخرة، إلى يوم الجزاء، إلى يوم الحساب، إلى يوم الدين، عندئذٍ يقولون:

(قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)

الإنسان حينما يُلْغِي إنسانيَّته، ويتَّبع شهوته، قد يستمتع إلى حين، وقد ينغمس في لذَّاتٍ محرَّمة، ولكن حينما يوضع في الحساب يندم أشد الندم.

والآن نحن في الدنيا أيها الأخوة، لك أن تفعل ما تشاء فأنت مخيَّر، لك أن تصدق ولك أن تكذب، لك أن تستقيم ولك أن تنحرف، لك أن تُخْلِص ولك أن تخون، لك أن ترعى ولك أن تُضَيِّع، لك أن تفعل ما تشاء، ولكن اعتقد اعتقاداً جازماً أن كل شيءٍ تفعله مُسَطَّرٌ في صحيفتك وسوف تنشر هذه الصحيفة، وسوف تحاسب عن كل كلمةٍ، وعن كل حركةٍ وسكنةٍ قمت بها في الحياة الدنيا.

هؤلاء الذين دفنوا في باطن الأرض، حينما رجفت الأرض، وأخرجتهم للحساب توهَّموا، وكانت قلوبهم مضطربة من شدة الخوف، وأبصارهم خاشعةً من شدَّة الخَجَل، توهموا أنهم مردودون إلى الأرض، إلى الحياة الدنيا مرةً ثانية، فلمّا علموا أنهم ذاهبون إلى الحساب، إلى الجزاء، حينما يكتشف الإنسان أنه ذاهبٌ ليُحاسب، ذاهبٌ ليحاسب حساباً دقيقاً عسيراً، ما شعوره؟

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية:25- 26]

إلى أين الذهاب؟ إلى الدنيا مرةً ثانية؟! لا، إلى يوم الدين، إلى الدار الآخرة، إلى الحساب.

الذي يؤمن باليوم الآخر لا يستطيع أن يعتدي على أحد :

أحدهم اضطر إلى أن يقترض مبلغ ثلاثمئة ألف ليرة، بحث في جهاتٍ عديدة، فلم تُنْجِدْهُ، عرض مزرعةً اشتراها وهي غالية الثمن، عرض أن يجعلها باسم من يقرضه هذا المبلغ، على أن يردَّها إليه بعد تسديد المبلغ، وقَبِلها أحدُهم فأعطاه المبلغ ثلاثمئة ألف، وسجّل المَدين هذه المزرعة باسم الدائن، وبعد سنواتٍ عدة تمكن المدين من تأمين المبلغ، فذهب إليه ونقده الثمن، وقال: يرجى أن ترجع لي مزرعتي، قال له: كل واحد حقه وصل له. المزرعة ثمنها مليون، فلما رأى أن هذه المزرعة قد ذهبت وضاعت منه، تألَّم أشد الألم، فطغى عليه الألمُ حتى أصابته أزمةٌ قلبيةٌ حادّةٌ، جعلته على شفير الموت، فجاء بابنه وأملى وصية عليه، قال فيها: حينما أموت، وحينما أوضع في النعش، اذهب بجنازتي إلى

محل الذي اغتصب مني هذه المزرعة، وأوقف هذه الجنازة، وادخُلْ إلى محله، وقدِّم له هذه الرسالة، فماذا في الرسالة؟

يقول له: لقد اغتصبتَ مزرعتي ظلماً، وأنا ذاهبٌ إلى دار الحق، فإن كنت بطلاً فلا تلحقْني، يُروى أنه ردَّ لهم المزرعة بعد فوات الأوان.

هناك يوم حساب، فافعل ما تشاء، لكن الجاهل يعدُّ نفسه ذكياً حينما يأخذ ما ليس له، ويعدُّ نفسه ذكيّاً إذا اغتصب مالاً، أو عقاراً، أو دكاناً، أو شركةً، أو وكالةً، أو طلّقَ امرأةً ظلماً وعدواناً، وقد أخذ كل ما عندها، هناك من يقول لزوجته: إن لم تكتبي لي هذا البيت طلقتُك، تكتبه له، وبعد هذا يطلّقها، أما هذا الذي يؤمن باليوم الآخر فلا يستطيع أن يعتدي على نملة، ولا أقلّ من نملة، ولا يستطيع أن يأكل درهماً واحداً حراماً، هذا هو الذي يؤمن باليوم الآخر، أما إذا كان الإيمان فيه ضعف، ويعد نفسه ذكيّاً، ويفعل العمل السيئ، فمن أقرَّه على عمله كان شريكه في الإثم كذلك.

ثم يقول الله عز وجل حينما يعلمون أنهم ذاهبون إلى يوم الدين، ليوم الجزاء:

(قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)

مشكلة كبيرة جداً، أن نحاسَب على كل مالٍ اقترفناه، فالميّت حينما يوضع في نَعشِهِ ترفرف روحه فوق النعش، تقول: يا أهلي يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حِلّه وغير حله، فالهناء لكم والتبعة عليَّ.

فسر بعض المفسرين الراجفة والرادفة بأنهما الصعقة الأولى والصعقة الثانية :

إنّ أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنة ـ ورثوه حلالاً ـ ودخل هو بماله النار، وأندم الناس عالمٌ دخل الناسُ بعلمه الجنة ودخل هو بعلمه النار، وأندم الناس رجلٌ باع آخرته بدنيا غيره..

(أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً* قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ* فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

فاتني أن أقول لكم:

(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ* تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ)

بعض علماء التفسير فسر هاتين الكلمتين (الراجفة والرادفة) بأنهما الصعقة الأولى، والصعقة الثانية، اللتان وردتا في سورة الزُمَر، النفخة الأولى والنفخة الأخرى..

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

هذه الصعقة الثانية:

(ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

[سورة الزمر:68]

أول صعقة يصعق بها كل الخلائق، والصعقة الثانية عندما يوقفون ليوم الحساب.

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ*فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

الساهرة، مكان الحشر، ساحة كبيرة جداً، فليست هناك كتل، ومحاور، وتجمعات، هذا من جماعتنا اتركوه، فليس هناك شيء من هذا.

(فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

[سورة الأنعام:94]

أحاديث شريفة تؤكد أن الإنسان يحاسب على كل شيء يوم القيامة:

المشكلة أن الإنسان يحاسب على كل شيء، ولا نصير له أبداً..

((لَمَّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشاً فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه أخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

((قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

هذه الصعقة الثانية:

(فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

في ساحة الحَشْر.

الإيمان بالله من دون إيمانٍ باليوم الآخر لا ينفعنا إطلاقاً :

أيها الأخوة، سورة النازعات من سوَر الجُزء الثلاثين، وهي تُركِّز على اليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر أساسيٌ جداً، بل إن الإيمان بالله من دون إيمانٍ باليوم الآخر لا ينفعنا إطلاقاً.

وفي الدرس القادم إن شاء الله يحدثنا الله عز وجل عن أحد رؤوس الكفر، فرعون، كيف كان في الدنيا حيث قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

وكيف أصبح مصيره في الآخرة، ولذلك سُمِّيَ يومُ القيامة الواقعة، قال تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ*لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ*خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

[سورة الواقعة: 1-3]

فمن كان في الدنيا بمقياس البشر غنياً، أو قوياً، ولم يكن مستقيماً، كان في الآخرة في أسفل سافلين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النازعات 079 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 15-26
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-03-10

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق جاءت في القرآن بشكلٍ مباشر و قِصَصٌ هي تطبيقاتٌ لهذه الحقائق :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة النازعات، وآيات اليوم:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى*إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى*اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى*وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى*فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى*فَكَذَّبَ وَعَصَى*ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى*فَحَشَرَ فَنَادَى*فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى*فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى*إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

أيها الأخوة الكرام، يمكن أن نقول: هناك مُنْطلقاتٌ نظرية، وتطبيقاتٌ عملية، هناك حقائق جاءت في القرآن بشكلٍ مباشر، وهناك قِصَصٌ هي في الحقيقة تطبيقاتٌ لهذه الحقائق، لذلك قالوا: الحق حقيقةٌ مع البُرهان عليها، حقيقةٌ مُبَرْهَنٌ عليها، أي حقيقةٌ واقعية، حقيقةٌ يؤكّدها الواقع.

ولا يغيب عن أذهانكم أن الحق هو في الحقيقة نقلٌ عن الله، وحيٌّ، نقلٌ صحيح يؤيّده الواقع الموضوعي، يقبله العقل الصريح، ترتاح له الفطرة السليمة.

الله عزَّ وجل له كلام هو القرآن وله أفعال هي تأويل القرآن :

ربنا عزَّ وجل له أساليب عديدة ومنوَّعة في تعريف الناس بالحق، فقد تأتي الآيات النظرية، كأن يقول الله لك:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

في مواطن أخرى يأتيك بإنسانٍ لم يؤمن، طغى وبغى ونسي المبتدى والمنتهى..

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

لذلك قال بعض علماء التفسير في معنى قوله تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

[سورة يونس: 39]

تأويل الآيات في الأعم الأغلب وقوع الوعد والوعيد، فإذا قال الله عزَّ وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة: 276]

فإن رأيت إنساناً مُرابياً دُمِّرَ ماله عن آخره، فتدميرُ مال هذا المرابي هو تأويل قوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة: 276]

وإن رأيت شاباً مستقيماً نشأ في طاعة الله، يخشى الله، يُطبِّق منهج الله، ثم تلوت قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

الحياة الطيِّبة التي يحياها هذا الشاب المؤمن المستقيم هي تأويل قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً)

فالله عزَّ وجل له كلام هو القرآن، وله أفعال هي تأويل القرآن.

النبي عليه الصلاة والسلام قرآن متحرك :

قال بعضهم: لو لم يكن في الأرض إلا أفعال الله التي تتمثَّل بإكرام المستقيم، والدفاع عنه، ونَصره، وتأييده، وتوفيقه، وخذلان الكافر، وإهلاكه، أفعال الله وحدها كتابٌ وسُنَّة. هذا المعنى مستنبط من أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما وصفته السيدة عائشة قالت:

((إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ))

[مسلم عن سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ من حديثه الطويل]

وقد وصفه بعض العلماء بأنه قرآنٌ يمشي، القرآن آيات بين دفَّتي هذا المُصحف، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن متحرك، أي إذا تكلم فهو صادق، وإذا حكم فهو عادل، وإذا تصرَّف فهو حكيم، وإذا سئل أجاب فهو عالم، فالنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي، فربنا حدّثنا عن:

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً)

هذا خلقه:

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً*وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً*فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً*فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)

هذا خلقه، ثم حدثنا عن اليوم الآخر:

(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ*تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ*قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ*أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

هذا اليوم الآخر، الآن التطبيق العملي، فهناك حقائق نظرية، وهناك تطبيقات عملية، فأنت قد تحضر درس عِلم، وتستمع إلى تفسير آيات، وقد يكون لك جار أكل أموال اليتامى فدمَّره الله، فقصَّته حقيقة، قصته تنطبق على آية.

من قبل الهدى فهو في أعلى عليين ومن ردّ الحق فهو في أسفل سافلين :

فيا أيها الأخوة الكرام، الآن ندخل في صلب الآيات، إنسان اسمه فرعون، لو أنه قَبِلَ الهدى لكان في أعلى عليين، فلما ردَّ الحق كان في أسفل سافلين، وكل إنسان يرفض الحق، ويتبع هوى نفسه، ويركب رأسه فله مصيرٌ وخيم، وهذا التاريخ بين أيديكم.

الذين وقفوا مع النبي عليه الصلاة والسلام في ساعة العُسْرَة، والذين نصروه وأيَّدوه، ونشروا دعوته، أين هم الآن؟ في أعلى عليين، وكل إنسان يذهب إلى المدينة المنورة يقف أمام سيدنا الصديق متأدباً: يا خليفة رسول الله، يقف أمام سيدنا عمر متأدباً: يا أيها الفاروق، يذهب إلى البقيع فيقف أمام قبور أصحاب رسول الله متأدباً، أما أبو لهب وأبو جهل فماذا نفعل بهما؟ نلعنهما، لأنهما عارضا الحق.

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

بطر الحق أن ترُدَّ الحق، وأن تظلم الناس، فيا أيها الأخوة، هنيئاً ثم هنيئاً ثم هنيئاً لمن كان في خندق الحق، ودافع عن الحق، ونشر الحق، وأعان أهل الحق، وأيَّد أهل الحق، وعزَّز أهل الحق، والويل ثم الويل ثم الويل لمن كان في خندقٍ آخر؛ يتربص بأهل الحق الدوائر فيكيد لهم، ويريد ليطفئ نور الله عزَّ وجل.

بربكم آياتٌ كثيرةٌ نقرؤها ولا ننتبه إليها، لو وقف رجل أمامكم في رابعة النهار، واتجه نحو قرص الشمس، ونفخ عليها بقصد إطفائها، ماذا تحكمون على عقله؟ رجل في رابعة النهار، الشمس ساطعة، وقف باتجاه قرص الشمس، وسحب نفساً طويلاً، ونفخه على الشمس بقصد إطفائها، هذا يحتاج إلى مستشفى المجانين، الله عزَّ وجل يقول:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

[سورة التوبة: 32]

أين نور الشمس من نور الله؟

(بِأَفْوَاهِهِمْ)

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، لذلك ما ضرَّ السحابَ نباحُ الكلاب، القافلة تمشي والكلاب تعْوي، ما ضرَّ البحر أن ألقَى فيه غلامٌ بحجر، ولو تحوَّل الناس إلى كنَّاسين ليثيروا الغبار على الإسلام، ما أثاروه إلا على أنفسهم، وبقي الإسلام هو الإسلام، كالطود الشامخ.

في تاريخ هذا الدين العظيم، كم من فئةٍ أرادت أن تنهي هذا الدين؟ وأن تطفئ نور الله؟ أين هي؟ هي في مزبلة التاريخ، وأين الدين؟ شامخٌ كالجبل، لأنه دين الله.

دينُنا دين الله والله عزَّ وجل بيده الخلق والأمر :

أيها الأخوة الكرام، أتمنى على أخوتنا الأكارم أن يستوعبوا هذه الحقيقة: لا تقلق على هذا الدين ولو تناهى إلى سمعك أن كل من في الأرض يحارب هذا الدين؛ في آسيا، وفي شمال آسيا، وفي جنوب شرقي آسيا، وفي بلاد الغرب، وفي أمريكا، لعلَّه ليس من الخطأ أن نقول: هناك حربٌ عالميةٌ مُعْلنةٌ على الدين الإسلامي بالذات، إنه دين الله فلا تقلق عليه، والله عزَّ وجل بيده الخلق والأمر..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

ولكن اقلق على أن الله سمح لك أو لم يسمح أن تنصره، سمح لك أو لم يسمح أن تكون جندياً مِن جنوده، سمح لك أو لم يسمح أن تساهم بشكلٍ أو بآخر في حل مشكلات المسلمين، وفي تأييدهم، وفي نصرهم بحكمةٍ بالغة.

في الدنيا جنة مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة :

فيا أيها الأخوة، نحن مع طاغيةٍ مِن طغاة الأرض، إنه فرعون، ما مصيره؟ ما مصير الأنبياء والمرسلين؟ إنهم في أعلى عليين، وما مصير أصحاب الأنبياء والمرسلين؟ وما مصير الصدِّيقين؟ وما مصير الشهداء؟ وما مصير الصالحين؟ وما مصير أهل الإيمان؟ وما مصير العلماء العاملين؟ هؤلاء الذين نذروا أنفسهم لله، أين هم؟ في أعلى عليين، يذكرهم المسلم كل دقيقة بخير، وهم في جنَّة، وفي الدنيا جنة مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، هم في جنة القُرب.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ*إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ)

[سورة المدثر: 38-39]

طُلَقاء:

(فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ*عَنْ الْمُجْرِمِينَ*مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ*قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ*وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ*وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ*وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ*حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ*فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

[سورة المدثر: 40-48]

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

أضرب مثلاً للتقريب: رأيتَ إنساناً يُدَخِّن، تقول له: فلان أصيب بالمرض الفلاني بسبب التدخين، فلان بُتِرَت رجله بمرض الموات، فلان أصيب بسرطان في رئتيه، فلان وفلان، فأنت حينما تذكر له أشخاصاً عديدين أدمنوا شرب هذه الدخينة فأتلفتهم، وأتلفت أعصابهم، فهذا تذكير لهم، ومِن أندر ما

قرأت: أن رجلاً قسيماً وسيماً يرتدي ثياب رعاة البقر، كان يعلن عن بعض أنواع الدخان، فإذا هو يموت حتف أنفه بسبب الدخان، ثم قال وهو على فراش الموت: كنت أكذب عليكم، الدخان قتلني، فالموعظة: السعيد من اتعظ بغيره، والشقي لا يتعظ إلا بنفسه.

سيدنا موسى عليه السلام كليم الله :

الآن، دخلنا في صلب القصةِ، قصةِ الطاغية، قال:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى* إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

شيءٌ كبيرٌ جداً أن يكلّم اللهُ إنساناً، إن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كليم الله، ناداه ربه:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي*إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى*فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى*وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى*قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى*قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى*فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)

[سورة طه: 14-20]

إلى آخر الآيات:

(نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

إذا أخلص الإنسان لله كان غنياً بالله قوياً به وعالماً به :

قال بعضهم: كن لي كما ترجو أرجا منك لما ترجو، ويضرب على هذه الحقيقة بشاهدٍ؛ سيدنا موسى، أراد أن يذهب ليقتبس ناراً، إلى..

(لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى*فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى)

[سورة طه: 10-11]

هو ذهب ليأتي بقبسٍ مِن النار، فإذا ربنا جلَّ جلاله يُكَلِّمه هناك، أنت حينما تُخْلِص فالله عزَّ وجل ينقلك من حالٍ إلى حال، ومن مقامٍ إلى مقام، ومن مرتبةٍ إلى مرتبة، ومن درجةٍ إلى درجة، ومن توفيقٍ إلى توفيق، ومن نجاحٍ إلى نجاح، ومن عملٍ إلى عمل أطْيَب، ومن دعوةٍ إلى دعوةٍ أكبر، رأسمالِك الإخلاص، أنت فقير، وأنت ضعيف، وأنت لا تعلم، لكن الله غنيٌّ، وقديرٌ، ويعلم، فإذا أخلصت له، استفدت من الذّات الكاملة، وكنت غنياً بالله، قوياً به، وعالماً به، فالإنسان ما هو فيه لا يتناسب مع قدراته بل مع مطلبه العالي..

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة طه: 24]

ليس من السهل أبداً أن تدخل على طاغيةٍ وأن تعظه، والطغاة دائماً كلمة واحدة منهم تنهي حياة إنسان، والتاريخ يشهد بهذه الحقيقة.

ذات مرَّة، الحسن البصري وهو سيد التابعين، أدى واجب أمانة العلماء، فبلغ الحجاج ما قاله، فقال لمن حوله: يا جبناء واللهِ لأروينكم مِن دمه، وأمر بقتله، كلمة: اقتلوه، ائتوني به لأقتله أمامي، فجيء بالسَيَّاف، ومدَّ النِّطْع، وذهب الجند ليأتوا بالحسن البصري ليقطع رأسه في مكان حكمه، في قصره، يروي الرواة أن الحسن البصري دخل على الحجاج، فرأى السيَّاف واقفاً، والنطع ممدوداً، ففهم كل شيء، فحرَّك شفتيه بكلماتٍ لم يفهمها أحد، فإذا بالحجَّاج يقف له، ويستقبله، ويقول له: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيِّد العلماء، ومازال يدنيه من مجلسه حتى أجلسه إلى جنبه، واستفتاه، وضَيَّفه، وطلب الدعاء منه، وشيَّعه إلى باب القصر.

السيَّاف كاد يصعق، والحاجب كاد يصعق، فتبعه الحاجب، فلما خرج من القصر قال له: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فُعِلَ فيك، جيء بك لتقتل، فإذا بالحجاج يكرمك، فماذا قلت بربك وأنت داخلٌ عليه؟ قال: قلت له: يا ملاذي عند كُرْبَتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليَّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

قصة الطاغية فرعون :

الأقوياء بيد الله، فعندما يسلمك ربنا عزَّ وجل لغيره كيف تعبده؟ قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

أنت حينما تعرف الله، وتستقيم على أمره، فأنت أقوى إنسان لأن الله معك، وإذا كان الله معك، فمَن عليك؟ ومَن يجرؤ أن يكون عليك؟ ومَن يستطيع أن يمد يده عليك؟ وإذا كان الله عليك فمَن معك؟ فكم مِن إنسانٍ نكَّل به أولاده، ونكلت به زوجته، ونكل به أقرب الناس إليه؟! لأنه لم يكن مع الله، كن مع الله تر الله معك، القصة من أولها إلى آخرها أنك إذا قلت: الله، تولاَّك الله، فإذا قلت: أنا، تخلَّى الله عنك.

فرعون الطاغية، المخيف، الذي ذبَّح أبناء بني إسرائيل، واستحيا نساءهم، فرعون رأى رؤيا فيما تروي الكتب أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه، فالقضية سهلة جداً، لم يسمح لامرأةٍ إسرائيليةٍ ولدت طفلاً إلا ويقتله، إن لم تُبَلِّغ القابلة تُقتَل مكانه، والله عزَّ وجل ذكر ذلك فقال:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

[سورة القصص: 4]

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة طه: 24]

الدين دين الله والله عزَّ وجل ذاتٌ كاملة :

مهمةٌ صعبةٌ جداً أن تدخل على طاغيةٍ جَبَّار، قتلُ الإنسان عنده لا يساوي شيئاً، فأن تدخل على هذا الطاغية الجبَّار وأن تنصحه، وأن تُذَكِّرَه بالله عزَّ وجل..

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة طه: 24]

(طغى)

أي جاوز الحد، وخرج عن العدل، وخرج عن الرحمة، وخرج عن الحكمة، ومِن أجمل ما قال بعض العلماء عن الشريعة: الشريعة عدلٌ كلها، رحمةٌ كلها، مصلحةٌ كلها، حكمةٌ كلها، أية قضيةٍ خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن العدل إلى الجَوْر، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الحكمة إلى خلافها فليست مِن الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل. ليست من الشريعة، الدين دين الله، والله عزَّ وجل ذاتٌ كاملة:

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة طه: 24]

لكن ما كل مَن يطغى يقول لك: أنا طاغية، لا، فماذا قال فرعون لقومه؟

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

[سورة غافر: 29]

أيُّ رشادٍ هذا؟

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

[سورة غافر: 29]

النفس تزكو بمعرفة الله وتطْهُر بالإقبال عليه وتتألَّق بالقرب منه وتسعد بالعمل الصالح:

قال تعالى:

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى)

أي أنَّ أكبر مهمةٍ أنت فيها؛ أن تزكّي نفسك، والدليل كلام خالق الكون:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

قد أفلح، بل إن الله عزَّ وجل حمَّلك أمانةً عظيمةً هي نفسك التي بين جنبيك، فإن زكيتها أفلحت، ونجحت، وسعدت في الدنيا والآخرة، وإن دسَّيتها شقيت في الدنيا والآخرة.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

النفس تزكو بمعرفة الله، تطّهُر بالإقبال عليه، تتألّق بالقرب منه، تسعد بالعمل الصالح:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

هناك من يحمل هذه النفس فيعرفها بربها، يعرفها بمنهجه، يدفعها إلى العمل الصالح فتسعد بقرب الله عزَّ وجل.

الإنسان مخلوقٌ في الدنيا من أجل أن يتزكَّى :

قال تعالى:

(هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى)

أي أنت مخلوقٌ في الدنيا من أجل أن تزكَّى، والدليل قول الله عزَّ وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

أكبر رأسمالٍ لك قلبٌ سليم، نفسٌ زكيةٌ طاهرة، نفسٌ عفيفة، نفسٌ صادقة، نفسٌ رحيمة، نفسٌ حكيمة، نفسٌ وَقَّافةٌ عند منهج الله، نفسٌ محسنة، هذا في الأساس ثمن الجنة..

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

(فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى*وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)

تشعر بسعادة كبيرة جداً، الإيمان بالله يَرْدَع، ويمنع، ويحفظ، قال سينا عليّ كرَّم الله وجهه: يا بني العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، فأنت حينما تتصل بالله عزَّ وجل، تصبح إنساناً آخر:

(فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى*وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)

هناك قِيَم جهادية هذه في الحرب أما في السِلم فالقيَم دَعَويَّة :

بالمناسبة أيها الأخوة، ربنا عزَ وجل يقول:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

[سورة النحل: 125]

الغِلْظَة، والكلمة القاسية، ليست مِن الدين في شيء، نحن عندنا منطق الإيمان، وعندنا منطق الجهاد.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

هذه قِيَم جهادية، هذه في الحرب، أما في السِلم فله قيَم دَعَويَّة، قال الله عزَّ وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة فصلت: 33-35]

القضية قضية منهج دَعَوي ومنهج جهادي، في الجهاد مطلوب القوة والشدة والغلظة، هذا كله في الحرب، وهذه أخلاق الحرب، لكن في السلم، أخلاق السلم اللين، من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة النحل: 125]

قيَم الدعوة شيء وقيَم الجهاد شيءٌ آخر :

انتق أحسن الكلمات، وأحسن الألفاظ، وألطف العبارات، فهذا الذي يقول: أنا سأغلظ عليه، هو جاهل في منهج الدعوة. يروى أن شخصاً قال لأمير: سأعظك وأغلظ عليك، فكان الأمير أفقه ممن يعظه، قال له: ولمَ الغلظة يا أخي؟! لقد أرسل الله مَن هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌ مني، أرسل موسى وهارون إلى فرعون، فقال لهما:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 44]

فقيَم الدعوة شيء، وقيَم الجهاد شيءٌ آخر، قيم الدعوة؛ اللين، والحكمة، واللطف، والمنهج الأيْسَر.

(هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى* وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى *فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى)

أخرج يده فإذا هي بيضاء للناظرين، كأنها كوكبٌ دُرِيٍّ، ألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين، هذه معجزة، فكأن الله عزَّ وجل يقول: هذا رسولي لأنه سيفعل شيئاً لا يستطيع أن يفعله أحد مِن الخَلق، أن تكون يدك كالمصباح المُنير، وأن تُلْقِيَ عصاً فإذا هي ثعبانٌ مبين..

(فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى)

لكنَّ هذا الطاغية رَكِبَ رأسه، وأنْكَر، وجحد، قال تعالى:

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ)

[سورة النمل: 14]

الإيمان تصديق وطاعة والكفر تكذيب ومعصية :

يوم القيامة يقول أهل الكفر:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ*انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)

[سورة الأنعام: 23-24]

(فَكَذَّبَ وَعَصَى)

الإيمان تصديق وطاعة، والكفر تكذيب ومعصية، التصديق داخلي، والطاعة سلوك خارجي، والتكذيب داخلي، والمعصية خارجية، إذاً هناك شيء داخلي؛ الإيمان ما أُقرَّ في القلب، وأقرّ به اللسان، وصدَّقه العمل، شيء داخلي قد استقر، وكلامٌ يعبِّر عنه، وعملٌ يؤيِّده، بالمقابل؛ الكفر تكذيب داخلي، وتكذيب قولي، ومعصيةٌ وعصيان.

فرعون منتفع بكفره منتفع بدعواه الباطلة لذلك لا يُنَاقش :

أيها الأخوة:

(فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى)

نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، ألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين، وهذه معجزةٌ قاطعةٌ في دلالاتها، صاحب هذه المعجزة رسول الله، ومع ذلك فرعون كذَّب وعصى، قالوا: المُنْتَفِع لا يناقش، ففرعون منتفع بكفره، منتفع بدعواه الباطلة.

(فَكَذَّبَ وَعَصَى)

كذَّب بموسى عليه السلام، وعصى الله عزَّ وجل..

(ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى)

لم يكتفِ بأنه ردَّ الحق، بل أراد أن يطفئ نور الله، هناك إنسان فاسد مُفْسِد مُمْسِك، يدعو الناس إلى أن يمسكوا أيديهم، يبخل ويأمر الناس بالبخل، ينحرف ويأمرهم بالانحراف.

(فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى)

كيداً على سيدنا موسى، جمع السحرة، وعرض عليهم أن يكونوا مِن المقرَّبين إليه بشرط أن يدحضوا هذه المعجزة، لكن السحرة آمنوا في النهاية.

قصة إسلام عمير بن وهب :

أحد كُفَّار قريش اسمه صفوان بن أمية، لقي عُمَيْر بن وهب، قال عمير: والله لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، وأولادٌ صغار أخشى عليهم العَنَت مِن بعدي لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه. فقال له صفوان: ديونك عليَّ بلغت ما بلغت ـ العرض مفتوح ـ وأولادك هم أولادي ما امتدَّ بهم العمر فاذهب لما أردت.

فسقى سيفه سماً، ووضعه على كتفه، وركب ناقته، وتوجَّه إلى المدينة ليقتل محمداً عليه السلام، طبعاً هو مغطًّى في دخول المدينة أن ولده أسير، فلما وصل إلى المدينة رآه سيدنا عمر فقال: " هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً "، فأمسكه بحمَّالة سيفه وقيَّده بها، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال: يا رسول الله هذا عمير جاء يريد شراً، فقال النبي الكريم: أطلقه يا عمر. فأطلقه. قال: ابتعد عنه. فابتعد عنه. قال: ادنُ مني يا عمير، فاقترب منه. قال له: يا عمير سلِّم علينا. فقال له: عمت صباحاً يا محمد.

قال له: قل السلام عليكم. قال: لست بعيداً عن سلام الجاهلية، هكذا بغلظة. قال له: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت أفدي ولدي. قال له: وهذا السيف الذي على عاتقك؟! أي لماذا أحضرته؟ قال له: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر؟ ما استفدنا منها. قال له: ألم تقل لصفوان: لولا أطفالٌ صغار أخشى عليهم العنت من بعدي ولولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها لقتلت محمداً وأرحتكم منه؟ فوقف عمير وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، لأن هذا الذي دار بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسوله. أما صفوان فكان بمكة ينتظر الخبر السار، وكان يخرج إلى ظاهر مكة كل يوم ليتلقَّى الرُكْبَان، فالخبر مسعد: أنه قُتل محمد، ثم سمع الخبر الآتي: لقد أسلم عُمَيْر.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 12]

بدأ الله بكلمة الآخرة لأن الكلمة الثانية أشد كفراً والأولى أقل :

قال تعالى:

(ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى* فَحَشَرَ فَنَادَى*فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

فرعون له كلمة قبلها فيها شيء من التحفُّظ، فرعون قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

أي في حدود علمي ليس في الدنيا إله غيري، هذا كلام كفر، ولكنه أقل من قوله:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

على وجه القَطْع واليقين.

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى* فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

العلماء قالوا: بدأ الله بكلمة الآخرة، لأن الكلمة الثانية أشد كفراً، والأولى أقل..

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

الحكمة من إبقاء جسد فرعون كدليل على كذبه :

وتبع سيّدنا موسى بقوته، وجَلَبته، وأسلحته، وجنوده، ورهبته، وطُغْيانه، وسيدنا موسى مع فئةٍ قليلةٍ مِن بني إسرائيل، فلما وصلوا إلى البحر..

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء: 61]

ليس هناك أمل أبداً، البحر مِن أمامهم، وفرعون مِن ورائهم بكل وزنه وثقله، ماذا قال سيدنا موسى؟

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 62]

أُمِرَ هذا النبي الكريم أن يضرب البحر، فإذا هو طريقٌ عريضٌ واسعٌ يَبَس، سار به موسى ومَن معه، وخرجوا مِن الضَفَّة الثانية، فلما دخل فرعون، ووصل إلى وسط هذا الطريق اليبس، عاد البحر بحراً، فأغرقه الله، وكان مِن الممكن أن يأكله السَمَك، لكن لو أكله السمك لقال عُبَّاده: لقد صعد إلى السماء، لا:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

[سورة يونس: 92]

قذفه الموج إلى الشاطئ، وهو مُحَنَّط، وقد ذهب إلى باريس قبل سنتين أو ثلاث واستقبل في المطار كمَلِك، ورمموا بعض أجزاء من جسمه، لأن فيها فطور بدأت تنهش بجسمه، وأحد كبار علماء الرياضيات في أمريكا قرأ القرآن بنية أن يكتشف الأخطاء فيه، فلما وصل إلى قوله تعالى:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

[سورة يونس: 92]

قال: هذه أول غلط، له صديق بفرنسا اسمه موريس بوكاي، اتصل به هاتفياً وقال له: هذا غلط بالقرآن، فقال له: فرعون الذي غرق لا يزال جسمه محنطاً كما هو في متحفٍ في مصر، وقد جاء إلى باريس للترميم وعاد إليها،

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

وأحد الأخوة الأكارم قبل يومين أطلعني على صورته بشكل دقيق جداً، فرعون موسى الآن موجود في مصر، محنَّط في المتحف، هناك أدلَّة علمية مِن ماء البحر ورماله، وبيض القواقع، ومن بعض الفطور تؤكد أنه مات غرقاً..

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى*إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

قصص القرآن الكريم حقائق مبرهنٌ عليها :

في طريق الكفر، والضلال، والفجور، والعدوان، والطُغْيان، والإباحية، وفي طريق الإيمان، والورع، والتقى، والعمل الصالح، هذا الطريق طريق ينتهي إلى جهنم وبئس المصير، وهذا الطريق طريق الإيمان ينتهي إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض، ونحن أحياء، وقلبنا ينبض، وما دام القلب ينبض فأمامنا خيار، فهذا مسلك فرعون وهذا مسلك الصديق، الصديق أعان رسول الله:

((كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذاً بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ فَسَلَّمَ وَقَالَ إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ فَقَالَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثاً ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ فَقَالُوا لَا فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَعَّرُ حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ مَرَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا))

[البخاري عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الصديق أعان، وأبو لهب عارض، أين الصدِّيق وأين أبو لهب؟ سيدنا عمر آمن ودعم، وأبو جهل عارض، أين عمر وأين أبو جهل؟ أين الثرى مِن الثريا؟!!

أيها الأخوة، قصص القرآن الكريم حقائق مبرهنٌ عليها، هذا دليل، وكل إنسان يسلك طريق فرعون مصيره معروف، وكل إنسان يسلك طريق سيدنا الصديق مصيره معروف:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 1-3]

سبحانك إنه لا يذل مَن واليت، ولا يعز من عاديت، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، العبرة بالنهايات.

ملخص الملخص أن العبرة بالنهايات :

أخواننا الكرام، العبرة مَن يضحك آخراً، قال بعض الحكماء: مَن يضحك أولاً يضحك قليلاً ويبكي كثيراً، ومَن يضحك آخراً يضحك كثيراً إلى ما شاء الله.

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ*فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ*إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

[سورة المؤمنون: 109-111]

وفي آية القرآن آية أخرى، قال تعالى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين: 34]

فملخَّص الملخَّص: الإنسان حينما يولد كل مَن حوله يضحك، وهو يبكي وحده، فإذا جاء أجله كل مَن حوله يبكي، فإذا كان بطلاً فليضحكْ وحده،

قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة يس: 26-27]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النازعات 079 - الدرس (3-4): تفسير الآيات 27-33
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-03-24

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن مأخوذٌ بصنعة الله والشارد عن الله مأخوذٌ بصنعة البشر :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة النازعات، ومع الآية السابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

أي أأنتم أشد خلقاً أم الذي خلق السماوات والأرض؟ المؤمن مأخوذٌ بصنعة الله، والشارد عن الله مأخوذٌ بصنعة البشر، المؤمن يحدِّثك عن المجَّرات وعن الكواكب، وعن الشمس والقمر، وعن الليل والنهار، وعن الجبال، وعن الأنهار، وعن البحار، وعن الأطيار، وعن الأسماك، مأخوذٌ بآيات الله، بصنعة الله، بروعة خلق الله عز وجل، بينما أهل الدنيا مأخوذون بصِناعات الكفار؛ بمركباتهم، بأجهزتهم، بما عندهم من وسائل سريعة، فنفس المؤمن مُمْتَلِئةٌ تعظيماً لله، ونفس غير المؤمن ممتلئةٌ تعظيماً لأهل الدنيا، واللهُ عز وجل في هذه الآية يلفت نظرنا:

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

أيها الأخوة، لو وازنت بين هذه العين التي ترى صوراً لا نهاية لها، بحجمها الطبيعي، وبألوانها الدقيقة، وبحركاتها وسكناتها مباشرةً، وبين آلةٍ تصوِّر، شتانَ بين الجهازين، لو وازنت بين كُلْيةٍ صناعيةٍ، وبين كُلْيةٍ طبيعية، فشتانَ بين الصنعتين، الكليةُ الصناعية حجمها كبير، ويحتاج الإنسان أن يتمدد إلى جنبها ثمانِيَ ساعات، وفي النهاية لا تستطيع أن تصفي مِن دم الإنسان إلا ثمانين بالمئة، ويبقى بعض حمض البول في الدم، مما يزعجه ويحمله على سلوكٍ غير سوي، بينما الكُلْية الطبيعية بحجمها الصغير، بلا صوت، وأنت تعمل هي تعمل، وأنت نائم وهي تعمل، وأنت تعمل عملاً شاقاً وهي تعمل..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

موازنة بين صنعة الله عز وجل وصنعة الإنسان :

محرِّك صغير له صوت، يملأ الدنيا صَخَبَاً، بينما سحبٌ كالجبال تمرّ مَرَّ السحاب بلا صوت!! صنع الله الذي أتقن كل شيء، عوِّد نفسك أن توازن بين صنعة الله عز وجل وصنعة الإنسان، فأعلى طبيب أسنان في الأرض من أجل أن يقلع السِن لابد من أن يضع المخدِّر، ووضع المخدر مؤلمٌ جداً، بينما الطفل الصغير يسقط سنه دون أن يشعر، دون أن يتألَم، فإذا هو مع لقمة الطعام، هل عندك لطفٌ بهذه الطريقة، دقق واعتبرْ.

الدماغ البشري حينما يصيبه ألمٌ لا يحتمل، يفرز من تلقاء ذاته مادةً مخدِّرةً، هذا الغياب عن الوعي، الإنسان فإذا أصيب بحادث، والألم بلغ درجة لا تحتمل، الدماغ نفسه يفرز مادة مخدرة فيتخدر، ما هذه الصنعة؟

هذه العين، لو سافرت إلى بلدٍ في القطب الشمالي، والحرارة هناك سبعين تحت الصفر، ترتدي الثياب الصوفية، والجوارب، وكلَّ شيء، لكن هل تستطيع أن تغطي عينيك؟ لا تستطيع، لا بد أن تكون صفحة العين على مساسٍ مع الهواء الخارجي، وفي العين ماء، لمَ لا يتجمَّد الماء، وهو على اتصالٍ بجوٍ حرارته سبعون تحت الصفر؟! لأن في العين مادةً تمنع التجمد، مضادةً للتجمد..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

قرأت مرةً كلمة في موسوعة علمية مِن أرقى الموسوعات، العدد كان عن الطيران، الذي لفت نظري مقدِّمة صغيرة، يقول صاحبها: إن أعظم طائرةٍ صنعها الإنسان على وجه الأرض، لا ترقى إلى مستوى الطير، فقد يطير الطير ستاً وثمانين ساعةً بلا توقُّف، وقد يقطع سبعة عشر ألف كيلو متر في رحلةٍ من الشمال إلى الجنوب دون أن يضل الطريق، يعتمد على ماذا؟ على أي جهازٍ يعتمد؟ والعلماء حتى هذه الساعة في حيرةٍ مِن أمر اتجاه الطير إلى هدفه، بماذا يهتدي؟ بالتضاريس؟ كيف يهتدي في الليل؟ بساحة الأرض المغناطيسية؟ صنعوا له ساحةً مضادةً، فسار وفق هدفه، أخذوه بعد الولادة إلى شرق الأرض، فعاد إلى مكان مسقط رأسه في شمالها، لَمْ يَدَعُوا افتراضاً إلا طبَّقوه، والطير يهتدي إلى هدفه، والعلم اليوم لا يعرف ما الذي يهدي الطير، ولكن الله أجاب عن هذا السؤال، فقال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)

[سورة الملك: 19]

أي أنَّ ربنا عز وجل مباشرةً مِن دون واسطة يهدي الطير إلى أهدافها.

التوازن الحركي :

أنت اجعل لك جولاتٍ في الكون، ووازنْ بين الطير والطائرة، وبين الأرض والمركبة، مركبة فضائية، مِن أجل أن تقطع ثانيةً ضوئيةً واحدة، من أجل أن تقطع ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر، كلَّفتْ أموالاً أرهقتْ ميزانية أمريكا، مِن أجل أن يركب فيها اثنان، ويستطيعا أن يعيشا على سطح القمر بجو القمر، ركبا مركبةً فيها علم البشرية كلّه؛ الرياضيات، مع الفيزياء، مع الفلك، مع الكيمياء، مع الصحة، علم البشرية كله في مركبةٍ كلَّفت أربعة وعشرين ألف مليون دولار، من أجل أن نقطع بها ثانية ضوئيّة واحدة.

وهذه الأرض التي وزنها ستة آلاف مليون مليون مليون طن، هذه الأرض التي تسير حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متر في الثانية، ولا تتأخَّر عن ميعاد وصولها ولا ثانية، دقةٌ ما بعدها دقَّة، بل إن بعض الساعات العِملاقة في الأرض قد تقدِّم ثانيةً أو تؤخِّر ثانيةً في العام كله، وبعض الكواكب تُضبَط ساعاتُ الأرض على حركتها..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

تبعد عنا بعض المجرات عشرين مليار سنة ضوئية، وبعض المجرات تزيد عن مجرتنا ثمانية وعشرين ضعفاً، وتبدو نجماً واحداً من بعدٍ سحيق، من بعد مليوني سنة ضوئية.

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

السماء بناها، كَوْنٌ، مئة ألف مليون مجرَّة، وهو أحدث رقم، وفي كل مجرة تقريباً، بشكل متوسط، مئة ألف مليون نجم، أي مئة ألف مليون نجم ضرب مئة ألف مليون مجرة، وكل نجمٍ له حجمٌ، وسرعةٌ، وكتلةٌ، وجاذبيةٌ وهو يسير في مسار مغلقٍ حول نجمٍ آخر، والمحصلة كونٌ يتحرك بسكونٍ مُطْلَق، هذا التوازن الحركي..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا* رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)

خبرة الله قديمة لا تحتاج إلى تعديل ولا إلى تطوير بينما خبرة الإنسان حادثة :

أيها الأخوة الكرام، حينما قال الله عز وجل:

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

وازن بين صنعة الله عز وجل وهو خَلَق الإنسان، منذ أن خَلَق الله سبحانه الإنسانَ مِن عهد آدم إلى يوم القيامة أطرأ عليه تعديل؟ فهل وجد اليد قصيرة فزاد طولها؟ أطرأ عليه تعديل؟ انظر إلى مركبةٍ صنعت في عام ألف وتسعمئة، ووازن بينها وبين مركبةٍ صنعت عام ألفين، الفرق شاسع جداً، فالمركبةُ القديمة

تدير محرِّكها مِن خارجها، أتذكرون ذلك؟ وتطلق البوق بطريقةٍ بدائيةٍ جداً، على الهواء، وتُشعَل مصابيحهُا بالكبريت، فيها شمعات، وعجلاتها ليس فيها هواء، فهي كتلة صلبة، ومحركها له حركة واحدة، هذه مركبةٌ صنعت عام ألف وتسعمئة، أما التي صنعت عام ألفين، هي شيء لا يصدَّق، فماذا تستنبط؟

إن خبرة الله قديمة لا تحتاج إلى تعديل، ولا إلى تغيير، ولا إلى تبديل، ولا إلى تطوير، بينما خبرة الإنسان حادثة، الصناعات كلها، كلّ سنة هناك تطوير، وتحسين، وتسريع، في شتَّى المجالات، فأنت عوِّد نفسك أنْ توازن بين العين وآلة التصوير، وبين الأرض ومركبة الفضاء، وبين الكُلية الطبيعية والكلية الصناعية، فلو دخلت إلى مستشفى لجراحة القلب، لرأيت القلب الصناعي بحجم كبير جداً، بحجم ثلاجة كبيرة جداً، وأنابيب، وأجهزة، وساعات، فشيء يحتاج إلى غرفة تقريباً، هذا القلب الصناعي، فإذا أجرى الإنسان عملية قلب مفتوح يوصل دمه بالقلب الصناعي، بينما قلبه الطبيعي لا يزيد عن قبضة اليد، يعمل ثمانين عاماً دون كَلَلٍ أو مَلَل، يضُخ من الدم في عمرٍ متوسط ما يملأ أكبر ناطحة سحابٍ في العالم، يضخ في اليوم ثمانية أمتار مكعبة من الدم باليوم الواحد، فأنت قد تستهلك في العام كله ألف لتر من الوقود السائل، ألف لتر، بينما قلبك يضخ في اليوم الواحد ثمانية آلاف لتر، له دسامات، وله شرايين، وله أوردة، وازن بين صنعة الله في خلقك، فإنّ الله أرادك أن تُوازن.

ربنا عز وجل سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع مخلوقاته :

قال تعالى:

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

أم الذي بنى السماء، انظر إلى تلوين العصافير، إلى تلوين الفراشات، شيء لا يصدق، فالمهندسون الجماليون، مهندسو الفنون الجميلة الذين يصممون الأشكال والألوان، يقتدون بالفراشات والأطيار في تلوين الآلات وتزيينها..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

وازن بين الطائر والطائرة، وازن بين العين وآلة التصوير، وازن بين الكُلية وبين الكُلية الصناعية، بين القلب الطبيعي وبين القلب الصناعي، وازن بين صنعة الله وصنعة البشر، لذلك ربنا عز وجل سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع مخلوقاته، قال:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون: 14]

جولات بين صنعة الله وصنعة الإنسان :

هل اقتنى أحد سيارة فوجد بعد سنة سيارة صغيرة ولدتها الكبيرة، لا يوجد مثل هذا الشيء، أم أنَّكَ تشتري الفرس فتلد لك حصاناً صغيراً، تشتري البقرة فتلد لك بقرة أخرى، وهل هناك معمل يعمل بصمت ويأكل الحشيش والبرسيم، يعطيك مادة أساسية جداً جِداً في حياة الإنسان، فيعطيك الحليبَ متوازناً، فيه فيتامينات، وبروتينات، ومعادن، ومواد سكرية، ومواد دسمة، وحموض، فهو غذاء كامل، انظر إلى الدجاجة، فهي تأكل من خشاش الأرض، تعطيك بيضة فيها كل شيء، فيها ستة عشر فيتامينا، ومعادن، وأشباه معادن، ومواد أساسية، ومواد دسمة، ومواد بروتينية، لأن البيضة يمكن أن تصبح طيراً، إذاً هي كاملة في كل شيء، غذاء كامل، دقق، عود نفسك أن تسيح في جولات بين صنعة الله وصنعة الإنسان، ربنا وازَنَ ذاته العليّة مع خلقه، قال:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون: 14]

ووازن ذاته العلية مع خلقه أيضاً فقال:

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

[سورة الأنعام: 62]

الآن الكمبيوتر، حَسْب معلوماتي القديمة جداً، يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف في الثانية الواحدة، والله عز وجل قال عن ذاته:

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

[سورة الأنعام: 62]

معنى ذلك لا يوجد وقت إطلاقاً، ألغي الوقت، كن فيكون، عالم مصري أراد أن يكتشف ما يجري داخل الذرة، فأراد أن يخترع مقياساً يصور ما يجري في داخل الذرة، بمقياس واحد من بضعة ملايين من الثانية، يقيس الفيمتو ثانية، فمن أجل أن يقرأ ما يجري من تفاعلات في ثانية واحدة، يجب أن يراه في أربعين سنة، موضوع نال به أعلى جائزة في العالم وهي جائزة نوبل في الكيمياء، فقضية الوقت وقضية الخلق، وقضية الذرة والمجرة والخلايا، فدقق واعتبرْ.

إعجاز الله في خلقه :

ذكرت مِن مُدة الغدة التيموسية، وهي عبارة عن كلية حربية، تنمو مع الجنين، وتضمر بعد عامين من الولادة، كُلّيةٌ حربية بكل معاني هذه الكلمة، تدخلها الكريات البيضاء المُقاتلة، تصطف على مدرجات كالمدرجات الرومانية، تتلقى دروساً في العناصر الصديقة والعناصر العدوة، دروساً عَبْرَ مناعة الأم،

وعبر الأمراض، وعبر عادةٍ خلقها الله في الطفل؛ بأنه يضع كل شيء في فمه كي يتعرَّف، بعد عامين تخرج هذه الكريات مِن مخرج امتحاني، هناك فاحصان يفحصان كل كريةٍ بيضاء، يعطيانها عنصراً صديقاً، فإذا قتلته تقتل، يعطيانها عنصراً عدواً، فإذا لم تقتله تقتل، ثم تتخرَّج هذه الخلايا وقد سُمِّيت الخلايا التائيّة، كانت همجيةً فأصبحت مثقفةً، فتعرف الصديق من العدو، وهي خلايا مُقاتلة مع سلاح فتَّاك، فلو كان مع شخصٍ مدفعٌ ضد الطائرات، أهم شيء لصاحب هذا المدفع أن يعرف الطائرة الصديقة من العدوة، فهذه الكلية تضمر بعد عامين، وتكلّف الخلايا المثقّفة أن تعلم الأجيال اللاحقة، بعد ستين عاماً يضعف هذا التعليم، فينشأ ما يسمَّى بالخَرَفَ المناعي وهو حرب أهلية ضمن الجسم، فأكثر أمراض البشر في الستينات، عبارة عن هجوم كريات الدم البيضاء، التي هي في الأصل مكلفة أن تدافع عن الجسم، تهاجم أعضاء الجسم ومفاصله وأماكنه الحسَّاسة، فهذه الكلية الحربية من صممها؟

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

عَوِّد نفسك أن توازن بين صنعة الله عز وجل وبين صنعة البشر، وازن بين وردةٍ مِن البلاستيك، وبين وردةٍ طبيعية، وازن بين شرابٍ كيماوي مصنوعٍ يضرُّ أجسامنا، وبين شرابٍ طبيعي ينفع أجسامنا..

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

خبرة الإنسان خبرةٌ حادثةٌ متنامية لكن خبرة الله عز وجل خبرةٌ قديمة :

أي تعديل يطرأ على خلق الله عز وجل يسير نحو الأسوأ، فمثلاً الاستنساخ، ما هو؟ محاولة توليد جنين لا من نطفةٍ وبويضة، بل من نطفة أو بويضة فقط، قال تعالى:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ)

[سورة الإنسان: 2]

فنشأت مضاعفات، ونشأ هَرَم مبكِّر جداً، ونشأت أمراض، لأن الإنسان أراد أن يطوِّر صنعة الله عز وجل، فإذا طورها فنحو الأسوأ، وأكثر ما يعانيه البشر الآن مِن تغيير خلق الله، فهو يكافح أمراض النبات بالمواد الكيماوية، فإذا بالتربة تتملَّح، وإذا بأمراض النبات تستشري، الآن عادوا إلى المكافحة الحيوية، لما سمدوا الأرض بأسمدةٍ كيماوية، فإذا هناك أمراض للنبات كثيرة، فعادوا إلى السماد الطبيعي.

فعود نفسك من خلال هذه الآية أن توازن بين صنعة الله عز وجل وصنعة الإنسان، صنعة الإنسان تنقصها الخبرة، بل إن خبرة الإنسان خبرةٌ حادثةٌ متنامية، لكن خبرة الله عز وجل خبرةٌ قديمة، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

والبشرية اليوم كلما تاهت، وكلما انحرفت، وكلما ضلَّت سواء السبيل، ترجع مقهورةً إلى أصل الدين، هناك جامعاتٌ في بعض البلاد المنحلَّة، عادت إلى فصل الذكور عن الإناث، لأنهم وجدوا أعداداً مخيفةً من الأجِنَّة توضع في أطراف الحدائق، عادوا إلى فصل الذكور عن الإناث، هناك في بلد من بلاد الشرق الكبيرة حرَّمت الخمر، لأسبابٍ صحيةٍ فقط، قبل أن ينهار هذا البلد، حرمت الخمر تحريماً كلياً، فكلما تقدَّم العلم اكتشف أن أكمل حالةٍ هي التي شَرَعَها الله عز وجل.

الموازنة بين خلق الله وخلق البشر :

مؤلف كتاب (الإنسان ذلك المجهول) وهو أليكسي كارينجي فيما أذكر، قال: إن أفضل نظام للبشرية أن يقصر الرجل طرفه على امرأةٍ واحدة. على زوجته، هذا غض البصر، إذاً وازن بين خلق الله وخلق البشر، وازن بين جهازٍ صنعه ربنا عز وجل، وبين جهازٍ صنعه الإنسان.

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا* رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)

رفع سمكها، المسافات بين النجوم مسافات فلكية، شيء لا يصدَّق، عشرين مليار سنة ضوئية، بين الأرض وبين بعض المجرات، يسير الضوء في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، وفي الدقيقة ثلاثمئة ألف ضرب ستين، بالساعة ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين، باليوم ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربع وعشرين، بالشهر ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربع وعشرين ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، بالسنة ضرب اثني عشر، الآن هذا الرقم الكبير، ضرب عشرين مليار، فما هذه المسافة؟ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

(رَفَعَ سَمْكَهَا)

المسافات في الفضاء الخارجي صعب على العقل أنْ يتصورها، فأقرب شيء لنا، أقرب نجم ملتهب لأرضنا بعده عنا أربع سنوات ضوئية، أما تلك المجرة فإنها تبعد عشرين مليار، عشرين ألف مليون أنا أريد أقرب نجم، أربع سنوات ضوئية، لو أردت أن تصل لهذا النجم بمركبة أرضية تحتاج إلى خمسين مليون سنة، فهل تصل؟!

معنى التسوية :

قال تعالى:

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا* رَفَعَ سَمْكَهَا)

السَمْك أي المسافات..

(فَسَوَّاهَا)

معنى، سواها، المعنى دقيق:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

[سورة الأعلى: 1-2]

أنت ممكن أن تبني مكاناً مِن جدران وسقف وأرض وباب، لكن لو أردت لهذا المكان أن تبيت فيه سيارتك، تحتاج إلى ماذا؟ تحتاج إلى قياسات، يجب أن يكون عرض هذا المكان بعرض المركبة مع فتح الأبواب، لو كان مِن دون فتح أبواب، فكيف تخرج من السيارة؟ لابد مِن فتح البابين، يجب أن يكون طول هذا المكان أكبر من طول السيارة، يجب أن يكون ارتفاع السقف أعلى من سقف السيارة، فحينما تتوافق أبعاد هذا المكان مع أبعاد السيارة، فأنت قد سوَّيته مع السيارة.

فمثلاً تفاحة، هذه مَن سوَّاها مع حاجة الإنسان؟ الله سبحانه! فحجمها معقول، لو كان حجمها بحجم السمسم فهي غير معقولة، تطلب من أخيك أن يقشِّر لنا هذه التفاحة، فكيف نقشرها، لو كان حجمها متر، كيف تحمل التفاحة؟ لو كانت بُنيتها كالفولاذ، كيف تأكلها؟ لو كانت كريهة، رائحتها كريهة، دقق: حجمها معتدل، ولونها جميل، وقوامها مناسب، وطعمها طيِّب، لكن لو ينضج هذا التفاح كله في يوم واحد، ماذا تفعل به؟ لو أن البطيخ ينضج في يوم واحد، ماذا نصنع به؟ حدثني أخ فقال لي: قد ضمنت حقل بطيخ، حمَّلت كل يوم منه سيارة خلال تسعين يوماً، فالبطيخ ينضج تباعاً على مدى أشهر الصيف، معنى مسوَّى مع الإنسان، البطيخ على الأرض والتفاح في الشجر، لو كانت الآية معكوسة، لو البطيخ على الشجر يصبح قاتل، لو بطيخة فلتت، تقتل الإنسان، انظر إلى التسوية كل فاكهة لها وقت، البطيخ ينضج في الصيف، لو كان في الشتاء النفس تنفر منه، أما في الصيف البطيخ محبب جداً، بالشتاء البرتقال، أكثره مواد فيها فيتامين " C "، مضادة للرشح، البرتقال والحمضيات تتوافق مع أمراض الشتاء، وفاكهة الصيف تتناسب مع حر الصيف، انظر إلى التسوية، التناسب، معنى ذلك أنه يوجد إله حكيم، هذه التسوية.

اللهُ جعل الليل ستراً وجعل النهار مشرقاً فالنهار يملأ القلب طمأنينة والليل يملؤه خوفاً:

قال:

(رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا* وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا)

جعل ليلها مظلماً، جعل الليل سكناً، جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكوراً، الليل ستر، وفي الليل يأوي الإنسان إلى فراشه، يلتقي مع أهله، يجلس في بيته، ينقل أغراضه في الليل، فاللهُ جعل الليل ستراً:

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشً)

[سورة النبأ:10-11]

مَن جعل الليل مظلماً؟ لو كان الليل ستة أشهر، تنام وتفيق، وتنام وتفيق، وتذهب إلى عملك في الليل، وتعود في الليل، وتنام في الليل، وتستيقظ في الليل، شيء لا يحتمل، لو كان النهار ستة أشهر كما هو في القطب شيء لا يحتمل، أما الليل والنهار يتناسبان مع طاقاتك، وجهدك، ووقتك، لأن الليل والنهار تقريباً متساويان..

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا)

جعل ليلها مظلماً..

(وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)

وجعل النهار مشرقاً، فالإنسان يسير في الغابة ليلاً، فيمتلئ قلبه خوفاً، إذْ كل شيء أمامه يظنه شبحَ إنسان هجم عليه، يأتي النهار يطمئن قلبه، فالنهار يملأ القلب طمأنينة، والليل يملؤه خوفاً، وأشد المدن صخباً تجدها بعد الساعة الثانية حيث يعمُّ الهدوء فيها، والناس آوَوا إلى بيوتهم، وقلَّت الحركة والصخب، وسكن الناس.

رحمة الله واسعة شاملة بأنْ ذلَّل الأرض للإنسان :

قال تعالى:

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا)

جعل ليلها مظلماً:

(وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)

من الممكن أن تذهب إلى منطقة في السويداء فتجد أرضها صخرية، وصخورها حادَّة، فهل هذه الأرض يمكن أنْ يعاش بها؟ آثار البراكين صخور ناتئة، وحادة، ومؤذَّفة لا يعاش بها، لكن رحمة الله واسعة شاملة بأنْ ذلَّل الأرض للإنسان.

(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا)

مَن جعلها مستوية هكذا؟ ومَن جعل تربتها ليّنة؛ تفلحها، وتزرعها، وتسقيها، وتبني عليها، فلو كانت الأرض كلها مائلة، فالأراضي المائلة متعبة جداً تحتاج إلى جدر استنادية، وإلى مدرجات، والتربة قد تذهب مع الماء، مَن جعلها مستوية في معظمها؟ الله جل جلاله، مَن جعل تربتها صالحة للزراعة؟ لو أن الأرض مِن صخر كلها، فماذا نأكل؟

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا* وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

ربنا عز وجل أمرُه كن فيكون :

مصر، ما قيمتها مِن دون النيل؟ صحراء، مصرُ هبَةُ النيل، قال سيدنا عمر لسيدنا عمرو بن العاص: صف لي مصر؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، مصر طولها شهر، أي طولها مسيرة شهر، وعرضها عشرٌ، أي عشرة أيام، يخط وسطها نهرٌ ميمون الغدوات، مبارك الروحات، بحر، فيه أماكن عمقها ستون متراً، ويبلغ عرض النيل في بعض الأماكن أكثر من ألف متر، وهو أطول نهر في العالم، ومصر هبة النيل، ولولا نيلها لما عاش فيها أحد، فبينما هي يا أمير المؤمنين عنبرةٌ سوداء، في الشتاء التربة داكنة، إذا هي دُرَّةٌ بيضاء، عند طوفان النيل، ثم هي زبرجدةٌ خضراء، فتبارك الله الفعال لما يشاء.

ما قيمة دمشق مِن دون بردى ونبع الفيجة؟ مَن يسكنها؟ ما قيمة الزبداني مِن دون ينابيعها؟ ما قيمة بلادنا مِن دون أنهارها؟ موت، مَن أخرج هذا الماء؟ فهذا نبع الفيجة، ومَن يصدِّق أن حوض الفيجة في التقدير العادي القديم يصل إلى حمص، على سيف البادية، فنصف لبنان فوق حوض الفيجة، ومِن قرية عين الفيجة إلى حمص قريباً منها، هذا امتداد الحوض نحو الشمال، وعرضاً من سيف البادية إلى أواسط لبنان، يعطينا في الثانية ستة عشر متراً مكعباً، وذلك في الأيام العادية، وفي الشام خمسة ملايين ونصف يشربون مِن هذا النبع، والله أكرمنا في هذه السنة بالأمطار إكراماً لولاه لاشتهينا كأس الماء.

(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

مرة نظرت إلى صورةٍ مِن القمر الصناعي للأرض في منطقة الشرق الأوسط، حينما جاءت موجة الأمطار التي أكرمنا الله بها رأيت لطعة رمادية فوق الشرق الأوسط، قلت: سبحان الله!! كل هذا الخير،

وكل هذه البركات، وكل هذه الثلوج، وكل هذه الأمطار، وكل هذا الفرح الذي أصاب الناس، وكل هذا الأمل بموسمٍ زراعي جيد، من لطعةٍ رماديةٍ فوق الشرق الأوسط، هي المنخفض الجوي الذي غمر منطقتنا، فربنا عز وجل أمرُه: كن فيكون.

كل ما في الأرض مسخَّر لهذا الإنسان مِن أجل أن يعرف الله وأن يطيعه :

قال تعالى:

(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

إذا أجدبت المرعى بالبادية، فربما لا تصدقون، سيكلف استيراد العلف للمواشي مئات ألوف الملايين، فتجد مرعى جيداً، وهذا المبلغ كله وفَّرناه بنزول ذلك المطر، والمرعى الذي أخصب..

(وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)

لأن الأرض طبقات، وهذه الطبقات المتباينة في بُنيتها، والأرض حينما تدور، فإذا هي طبقات متباينة في بنيتها، وقد تضطرب في دورانها، فمن أجل ألا تضطرب جعل الله الجبال أوتاداً، يثبت بها طبقات الأرض، جعلها أوتاداً، وجعل للأرض رواسي أن تميد بكم، أيضاً مُعَدِّلات للدوران، وجعلها مصدَّات للرياح، وجعلها مخازن للماء، وجعلها أماكن للاصطياف، وجعل انحناءاتها أماكن تزيد مِن مساحة الأرض، مساحة ضلعي المثلث أكبر مِن قاعدته، فتزيد المساحات، ويعتدل الجو، ويكون الجبل مصداً للرياح، ومخزناً لمياه الأمطار، ووتداً في الأرض، ومِرساةً للأرض حينما تدور، هذه بعض فوائد الجبال..

(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا*وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا*مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

كل ما في الأرض مسخَّر لهذا الإنسان، مِن أجل أن يعرف الله، ومن أجل أن يطيعه، ومن أجل أن يسعد بقربه في الدنيا والآخرة، فاعتبروا يا أولي الألباب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النازعات 079 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 34-46

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-03-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

الطَّامة هي اسمٌ من أسماء يوم القيامة التي لا بدّ أن تأتي :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة النازعات، ومع الآية الرابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

قال علماء اللغة: " إذا " الشرطية تفيد تحقق الوقوع، بينما " إن " الشرطية تفيد احتمال الوقوع أي:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر:1]

لا بد أن يأتي.

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

لا بد أن تأتي.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا)

[سورة الحجرات: 6]

قد يأتي وربما لا يأتي، لأنّ " إن " تفيد احتمال الوقوع، بينما " إذا " تفيد تحقق الوقوع، فهذه الطَّامة التي هي اسمٌ من أسماء يوم القيامة التي لا بد أن تأتي، وهذه الطامة تلغي كل شيء، الإنسان يسكن في بيت، يحتاج إلى إصلاح نوافذه، وإلى إصلاح بلاطه، وإلى إصلاح الكهرباء، فجاءت زلزلةٌ جعلته أنقاضاً، وانتهى كل شيء، وانتهت قوائم التصليحات، وانتهت هموم الترميمات، وانتهى كل شيء، وأصبح البيت أنقاضاً، فخبر الزلزال يلغي كل شيء، وهذا تقريب للمعنى.

حينما يدرك الإنسان أنه ضيَّع الأبد فقد خسر خسارةً لا تقدَّر بثمن :

هذه الطامة تنسي الإنسان كل هموم الدنيا، وتوقعه أمام مشكلةٍ لا نهاية لها، وتجعله في مكانٍ كما ورد في بعض الآثار النبوية:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بى إلى النار أيسر على مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب .))

[الحاكم عن جابر بن عبد الله]

حينما يدرك الإنسان أنه ضيَّع الأبد، فقد خسر خسارةً لا تقدَّر بثمن، خسر جنةً عرضها السماوات والأرض، خسر الحياة الأبدية، خسر الجنة التي خُلِقَ مِن أجلها، خسر النعيم المقيم وهو في أسفل سافلين، في جهنم وبئس المصير، هذه هي المصيبة، يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية.

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

الشيء العجيب أيها الأخوة، أن هؤلاء المسلمين الذين يرتادون أحياناً بيوت الله، يصلون الصلوات، ويصلون صلاة الجمعة في المساجد، حينما تتعامل معهم بالدرهم والدينار، وكأنَّهم لن يصيروا إلى الدار الآخرة، وقد يأكلون المال الحرام، وقد يعتدون على بعضهم بعضاً، ولو أن الإنسان آمن أنه لا بد أن يقف بين يدي الله عز وجل ليحاسب عن كل شيء لتغيَّر سلوكه مئة وثمانين درجة.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه)

[سورة الزلزلة: 7-8]

يوم التغابن يشعر الإنسان أنه قد غُبن أي تعلق بدنيا زائلة وضيَّع الآخرة الباقية:

ما دام الإنسان يحاسَب عن كل أعماله،فكيف يقترف المنكرات؟ وكيف يتطاول على إنسان؟ وكيف يبتزُّ مال إنسان؟ وكيف يعتدي على عرض إنسان؟ وكيف يتفلَّت من منهج الواحد الديان؟ كيف؟

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

حدثني أخ من مصر، حينما ضرب الزلزال القاهرة، زوجته مِن شدَّة الهلع أمسكت حذاءً وظنته ابنها، وضمَّته إلى صدرها وولَّت هاربةً. قال عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج: 1-2]

أيها الأخوة الكرام، هذا اليوم، يوم الدين، الحاقة، الواقعة، الطامة، يوم الفصل، القارعة، هذا يوم لا بد أنْ يأتِيَ، وفي هذا اليوم يُسوَّى الحساب، وفي هذا اليوم يأخذ الضعيف حقَّه من القوي، ويأخذ الفقير حقه من الغني، وفي هذا اليوم يأخذ كل ذي حقٍ حقَّه، وهنيئاً لمن حاسب نفسه في الدنيا حساباً شديداً، ليكون حسابه يوم القيامة يسيراً، والويل لمَن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً، فكان حسابه يوم القيامة

عسيراً، هذا اليوم يوم عظيم، يومٌ شديد، يوم التغابن، يشعر أنه قد غُبن، أي تعلق بدنيا زائلة وضيَّع الآخرة الباقية:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً*الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً*أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

[سورة الكهف: 103-105]

البطولة كل البطولة أن تدخل اليوم الآخر في حساباتك اليومية :

أيها الأخوة، الذكاء كل الذكاء، والعقل كل العقل، والفِطْنة كل الفطنة، والتوفيق كل التوفيق، والتفوّق كل التفوّق، والبطولة كل البطولة أن تدخل هذا اليوم في حساباتك اليومية، في بيعك وشرائك، في أفراحك وأتراحك، في إقامتك وترحالك، في أخذك وعطائك، في زواجك، في كل ما تتحرَّك به وتتحرك لأجله..

(وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 281]

اتق الله، سيدنا عمر بن عبد العزيز عيَّن أحد كبار المستشارين اسمه عمر بن مزاحم، قال له: كن معي، وراقبني، فإذا رأيتني ضللت فأمسكني من تلابيبي، وهزني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر فإنك ستموت.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان في جولةٍ تفقديةٍ مع أحد أصحابه، عبد الرحمن بن عوف، فرأيا قافلةً قد خيَّمت في ظاهر المدينة فقال: تعال نحرس هذه القافلة بعد أن جلسا لحراستها، فإذا طفلٌ رضيعٌ يبكي، فقام عمر إلى أمه وقال: أرضعيه، أرضعته ثم بكى، فقام إليها في الثانية: فقال: أرضعيه، فأرضعته ثم بكى، فقام إليها في الثالثة وغضب، قال: أرضعيه، فغضبت وقالت له: ما شأنك بنا؟ ما دخلك بنا إنني أفطمه، قال لها: ولمَ تفطمينه؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام ـ التعويض العائلي لا يستحقه الغلام إلا بعد الفطام، فأنا أفطمه كي آخذ العطاء ـ يروي كُتَّاب السيرة أنه ضرب جبهته وقال: ويحك يا عمر، لقد أهلكت نفسك، كم قتلت من أطفال المسلمين؟

توزيع التعويض العائلي عند الفطام عذابٌ لهؤلاء الصغار، ويحك يا بن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين؟ وصلى صلاة الفجر وهو يبكي، ولم يفهم أصحابه إطلاقاً قراءته في الصلاة من البكاء، ثم قال: رب هل قبلت توبتي فأهنِّئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟

المؤمن يخاف مِن هذا اليوم فلا يهمل عباداته ولا يعتدي على أحد :

المؤمن يخاف مِن هذا اليوم، يخاف أن يُسْأل عن ماله مِن أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ يخاف أن يسأل عن شبابه فيمَ أبلاه؟ يخاف أن يسأل عن عمره فيم أفناه؟ يخاف أن يسأل عن علمه ماذا عمل به؟ يخاف أن يعتدي على نملة:

((مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَمْرَةٍ مَسْقُوطَةٍ فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ تَكُونَ مِنْ صَدَقَةٍ لَأَكَلْتُهَا))

[متفق عليه عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

تمرة..

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

ما بال المسلمين يتوسعون في علاقاتهم ويأخذون ما ليس لهم، ويهملون عباداتهم، إذا كان سيدنا عبد الله بن رواحة، وهو صحابي جليل، عيَّنه النبي قائداً ثالثاً في مُؤْتة، وعين القائد الأول سيدنا زيداً، والثاني جعفراً، والثالث عبد الله بن رواحة، سيدنا زيد أمسك بالراية فقاتل بها حتى قتل، ثم أخذها سيدنا جعفر، فقاتل بها حتى قُتل، جاء دور ابن رواحة، تردد ثلاثين ثانية، ثلاثون ثانية تقابل ترديد بيتين مِن الشعر، فقد كان شاعراً، قال:

يا نفسُ إلا تـقـتلي تموتِي هذا حمام الموت قد صليتِ

إن تفعلي فعلهما رضيــت وإن تـوليتِ فـقـد شقيتِ

* * *

فلما وصل الخبر إلى النبي قال:

((أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، لقد رفعوا لي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير صاحبيه فقلت: بم هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ومضى))

[الطبراني عن رجل من الصحابة من بني مرة بن عوف]

درجته هبطت لأنه تردد في بذل نفسه ثلاثين ثانية، فهذا الذي يتردد في صلاته، يتردد في أداء الحقوق، يلفُّ ويدور، ويحتال ويختال، ويأخذ ما ليس له، يقيم دعوى كيديّة، فهذا أين مكانه؟!!

الإنسان إذا شارف الخطر يُعْرَض عليه شريط حياته عملاً عَملاً فيراه في ثوانٍ معدودات:

أيها الأخوة الكرام:

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

في هذا اليوم، قال تعالى:

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى)

شيء ثابت الآن علمياً أنّ الإنسان إذا شارف الخطر، يُعْرَض عليه شريط حياته عملاً عملاً، فيراه في ثوانٍ معدودات، كل واحد منا له عمل، قد يكون عمله إحساناً، قد يكون إساءة، وقد يكون أخذ بغير حق، كشخصٍ ركب مركبته، وعلى إشارة المرور ألمَّت به أزمةٌ قلبية، فانكب على مقود السيارة، وكانت زوجته إلى جانبه، ومِن غرائب الصدف أن صديقه كان في مركبته خلفه، فصرخت، فنزل صديقه وحمله إلى مركبته وأخذه إلى أحد المستشفيات، وهو في العناية المشددة، قال: ائتوني بمسجلةٍ وشريط، فقال وهو يتوهَّم أنه يوشك أن يفارق الدنيا: المحل الفلاني ليس لي، هو لفلان، أنا اغتصبته اغتصاباً، والشركة الفلانية ليست لي، والأرض الفلانية ليست لي، يبدو أنه كان الأخ الأكبر، وقد أكل أموال أبيه كلّها، وحرم أخوته فكانوا فقراء، ولعله عاد إلى الله وهو في هذه الأزمة الصعبة، وبعد أيامٍ لعل هذا الدم المتجمد وقد أخذ مميعات عاد سائلاً، وعاد طبيعياً كما كان قبل هذه الأزمة فقال: أين الشريط؟ أخذه وكسَّره وعاد إلى ما كان عليه، وبعد ثمانية أشهر جاءته الأزمة القاضية، وكانت الأزمة الأولى إنذاراً مُبَكِّراً، وكل واحد منا له إنذارات مبكِّرة.

العقلاء والأذكياء من المؤمنين يفكِّرون في هذه الساعة التي لا بد منها :

يا أيها الأخوة الكرام، هذه الطَّامة، العقلاء والأذكياء من المؤمنين يفكِّرون في هذه الساعة التي لا بد منها، قال عز وجل:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ*لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً - من دون تطهير، أي من دون إزالة القلفة عن الحشفة - قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ! فَقَالَ: الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

إذا سيق إنسان إلى المشنقة، وهو في السيارة أطلَّ من نافذتها فرأى امرأةً ترتدي ثياباً فاضحة، فهل يبالي بهذا المنظر؟ مستحيل، ذاهبٌ إلى المشنقة، الأمر أفظع من أن يعنيه منظر هذه المرأة.

ورد أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن أماً رأت ابنها يوم القيامة فوقعت عينها على عينه قالت: يا بني ألم يكن لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحضني وطاءً، هل مِن حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم؟ قال: يا أماه ليتني أستطيع ذلك إنما أشكو مما أنت منه تشكين "، وبكى عليه الصلاة والسلام.

هذا اليوم العظيم، يوم الطامة، وقد تأتي مصيبة ويكون لديك هموم كثيرة، فتصاب في صحتك، فتنسى كل هذه الهموم، فكيف بيوم القيامة؟ في جهنم إلى أبد الآبدين، وقد خسرت جنة رب العالمين؟ هذه هي المصيبة:

((اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه]

مر النبي عليه الصلاة والسلام بقبرٍ، فقال لأصحابه:

((ركعتان خفيفتان مما تحقرون وتنقلون يزيدهما هذا في عمله أحب إليه من بقية دنياكم))

[كنز العمال عن أبي هريرة]

فما هي الدنيا؟ هناك شركات أرباحها السنوية تبلغ أربعمئة مليار دولار، وشركات أرباحها تفوق ميزانياتها ميزانيات مجموعة دول، فلو أن هذه الشركات لك، وكل هذه الأرباح لك، وكان يوم القيامة فلن تقدِّم ولن تؤخِّر شيئاً، قال تعالى:

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

[سورة المعارج: 11]

يستطيع الإنسان أن يخدع كل الناس إلا رب العالمين :

أيها الأخوة الكرام:

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى)

الإنسان في الدنيا يدجِّل، ويكذب، وينافق، ويدَّعي ما ليس له، ويلقي على نفسه صفات الكمال، والنزاهة، وكل إنسان يتكلَّم بالفضائل والحكم، ويبيع وطنيّات للآخرين، ويزاود على الناس، ويقول: أنا لا أحد باستقامتي..

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ*وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة: 14-15]

لك أن تخدع كل الناس لبعض الوقت، ولك أن تخدع بعضهم لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت، هذا مستحيل، أما أن تخدع الله عز وجل..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء: 142]

أما أن تخدع نفسك فلن تستطيع..

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى)

الجحيم يراها الكفار فهي مصيرهم ويراها المؤمنون لتتضاعف سعادتهم في الجنة :

ممكن بحسب القوانين النافذة لو تبرَّعت بأرضٍ لبناء مسجد أن تنظَّم هذه الأراضي وأن يرتفع سعرها، فأنت قد تقول: أنا تبرَّعت بأرض مساحتها خمس دونمات لمسجد، وقد يثني الناس عليك، ويرفعونك إلى أعلى عليين، وأحياناً يتبرَّكون بك، وأنت في نيَّتك أن التبرع بهذه الأرض للمسجد قد يرفع أسعار الأراضي التي حوله، فأنت أوَّل الرابحين، هذا يخفى على الناس، ولكن لا يخفى على الله عز وجل، فهو الذي سيحاسبك ويعلم السر وأخفى، وهو الذي سيحاسبك ويعلم النوايا، والبواعث الخفية، ويعلم كل شيءٍ عنك..

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

[سورة الحاقة: 18]

يا رب تعَلَّمت القرآن في سبيلك، قال: كذبت تعلمت القرآن ليقال عنك عالم وقد قيل، خذوه إلى النار، يا رب جاهدت في سبيلك؟ قال: كذبت، جاهدت ليقال كذا وكذا، وقد قيل كذا وكذا فخذوه إلى النار، أهل النار يرون إنساناً له مكانةٌ كبيرة جداً في الدنيا، ألست فلاناً؟ يقول: نعم، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! يقول: بلى، كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه، ابن آدم عظ نفسك فإن وعظتها فعظ غيرك وإلا فاستحْيِ مني.

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى*وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى)

الإنسان قد يكون ممَّن سرق من البيوت، فحينما يلقى القبض عليه، ويوضع في السجن، ويرى مَن سبقه من السارقين، وقد يُحْكَم بثلاثين عاماً، عندئذٍ يعرف كم كان أحمقاً حينما اعتدى على أموال الآخرين، هذا في الدنيا.

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى)

قال علماء التفسير: هذه (الجحيم) يراها الكفار والمؤمنون، يراها الكفار فهي مصيرهم، ويراها المؤمنون لتتضاعف سعادتهم في الجنة، فلو أن شريكين أراد أحدهما أن يعمل في تجارةٍ محرمةٍ قانوناً، ورفض الثاني، فَفُكَّت الشركة، وسار الأول بمخططه، بعد حين ألقي القبض عليه، وأودع في السجن، فذهب شريكه ليزوره في السجن، فبماذا يشعر وهو يراه قابعاً في السجن؟ يشعر براحةٍ شديدة، قراره الحكيم أبعده عن السجن.

دخول النار شيء وورودها شيءٌ آخر :

المؤمن حينما يرى النار، دخول النار شيء، وورودها شيءٌ آخر، وإن منكم إلا واردها، المؤمن يرد النار، ولا يتأثر بوهجها، ولكن يرى مكانه فيها لو لم يكن مؤمناً، فتتضاعف سعادته في الجنة:

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى*يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى*وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى)

فالناس فريقان:

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى)

تجاوز الحد، أخذ ما ليس له، غَشَّ في بيعه، نظر إلى مَن لا تحل له، طغى، اعتدى على أعراض الناس، أو على أموالهم، أو على حياتهم، خرج عن منهج الله عز وجل، وتجاوز الحد الذي سمح الله به، وباع بربح فاحش، وحلف يميناً كاذبة، اعتدى على إنسان.

مصير من طغى وبغى نار جهنم :

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى)

لماذا طغى؟ لأنه:

(وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

فطغى، وخرج عن منهج الله عز وجل، فما مصيره؟ قال:

(فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)

وبعد، فما مصير إنسان أسرف على نفسه في بعض المحرَّمات، فاستحق دخول السجون أو المستشفيات؟ نقول: هذا مكان مناسب لهذا الإنسان.

(فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)

إنسان مريض، يتلوّى مِن الألم، أين المكان المناسب له؟ المستشفى، خذ إنساناً إلى نزهةٍ رائعة، وهو مصاب بالتهاب زائدة، وهو يصيح من الألم، هل يتأثر بجمال المناظر؟ هل يأكل طعاماً فيرتاح له؟ مستحيل، الإنسان الذي يعاني من التهاب زائدة حادٍّ مكانه الطبيعي المستشفى، وأنسب غرفة في المستشفى غرفة العمليات، وأفضل شيء يعالج به جسمه، ليس ملعقة يأكل بها، بل مشرطاً يفتح بطنه به، فالذي معه أمراض يحتاج إلى عمليات جراحية..

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى*وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)

مأواه النار.

على الإنسان أن يحسب حساب الساعة التي سيقف فيها بين يدي ربه :

بالمقابل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

هذه الساعة التي يقف فيها العبد بين يدي ربه، يقول الله سبحانه لهذا العبد: لمَ فعلت كذا؟ لمَ اعتديت على عرض هذه المرأة، فجعلتها امرأةً بغيّاً وكانت امرأةً شريفة؟ لمَ اعتديت على مال هؤلاء الأيتام فنشؤوا فقراء، فقد كاد الفقر أن يكون كفراً؟ لمَ ظلمت زيداً وأكلت مال عُبيدٍ؟ لمَ أهملت أولادك فشبوا على معصية الله؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

خاف مِن فظاعة الوقوف بين يدي الله، وأن يسأله الله عن أعماله كلها، قال: تقف الفتاة يوم القيامة تقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه كان سبب انهياري.

تروي القصص أن إنساناً نشأ شارداً وله أم جاهلة، جاء ببيضةٍ قد سرقها، فأثنت عليه، فسار في طريق السرقة، إلى أن حُكِمَ عليه، طبعاً السرقات تطوَّرت إلى قتل، وحُكِم عليه بالشنق، فلما جاءه مَن يطلب منه أن يتمنى شيئاً قبل أن يشنق قال له: أريد أن أرى أمي، فجاؤوا له بأمه فقال: مدي لسانكِ كي أقبله، فمدت لسانها فقضمه بأسنانه فقطعه، وقال: لو لم يكن هذا اللسان مشجعاً لي على الجرائم لما فقدت حياتي.

الإنسان بعد أن يتزوج تصبح له مسؤولية كبيرة جداً، مسؤولية تربية أولاده، وحينما يتحرَّك ينبغي أن يتحرك وفق أمر الله، ووفق سُنَّة رسول الله، ووفق منهج الله، أما هذا الذي يتحرك وفق هوى نفسه كالدَّابة المتفلّتة فمآله وخيم، مصيره الجحيم.

الإيمان هو أن تخاف مقام ربك :

قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

بإمكانه أن يأخذ هذا المال، أقسم لي أحد بورقةٍ كتبها لي: أعدت لورثةٍ عشرين مليون ليرة لا يعلمون عنها شيئاً، لماذا أرجعها؟ خاف مقام ربه، لماذا سيدنا يوسف قال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف: 23]

كم من إنسان تعرض له فتاةٌ، وبإمكانه أن يفعل معها الفاحشة فيقول: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، وكم من إنسان ترقَّع عن مالٍ حرام، وهو في أمس الحاجة إليه، حدثني أخ من أخواننا، عنده معمل ويعمل لديه مهندس، وقد وجد في أحد شوارع دمشق ثمانمئة ألف ليرة، وما زال يبحث عن صاحبها حتى وجده ونقده إيَّاها، لماذا ردَّها إلى صاحبها؟ لأنه خاف مقام ربه؟ هذا هو الإيمان، الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن، لماذا تغض بصرك عن محارم الله؟ لأنك تخاف مقام ربك، لماذا ترحم زوجتك؟ لأنك تخاف مقام ربك، لماذا تربي أولادك؟ لأنك تخاف مقام ربك، لماذا تعدل في الوَلَد؟ لأنك تخاف مقام ربك، " إن أحدكم ليعبد الله ستين عاماً، ثم يضارُّ في الوصية فتجب له النار "، نحن في هذه البلدة الطيبة، وهو بلد إسلامي، مئات الأسر عقيدتهم ألا يعطوا البنات شيئاً، بل يعطون الذكور فقط، فكم من إنسان يسيء في هبته ماله لأولاده، يعطي ابن الزوجة الجديدة ويدع أولاد الزوجة القديمة تملُّقاً لأمهم.

ثمن الجنة :

أيها الأخوة:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

فالنفس تميل..

(فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

ما ثمن الجنة؟ حدثني أخ فقال: أنا والله لي دخل فلكي، فلدي مطعم فخم جداً يبيع الخمر، تاب إلى الله عز وجل، قال لي: فَقَلَّ الدخل للعشر، وأقل من العشر، لماذا ترك بيع الخمر؟ لأنه خاف مقام ربه، فكم مِن إنسان ترك مالاً وفيراً، ولذةً عريضةً، وجاهاً كبيراً لأنه خاف مقام ربه:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

أي خاف هذه الوقفة التي سوف يقفها بين يدي ربه، لمَ فعلت كذا؟! يُروى في الحرب العالمية الثانية أن ضابطاً خان أُمَّته، ولهذا البلد تقليد خاص، فلما جيء به للمحاكمة وقيل له: لمَ فعلت كذا وكذا؟ فأخذ مسدساً وأطلق على رأسه فمات، هذا جوابه، إنه موقف عصيب، خيانة عظمى..

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

إلى أبد الآبدين، لذلك فالإنسان حينما يرى مكانه في الجنة، مقامه في الجنة، يقول: لم أرَ شراً قط، كل ما في الدنيا مِن متاعب ينساها.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)

متى مرساها؟ السفينة أيان مرساها؟ أي متى تقف؟ أي متى الساعة؟!

علم الساعة عند الله وحده :

قال تعالى:

(فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا)

أنت لا تعرف ذلك، أحد الأئمة الكبار رأى ملك الموت فسأله: كم بقي لي من عمري؟ فأشار له بخمسة أصابع، فهذا تشوَّش، يا ترى خمس سنوات، أم خمسة شهور، أم خمسة أيام، أم خمسُ ساعات، أم خمس دقائق؟ فسأل أحد العلماء الذين اشتهروا بتفسير المنامات، فقال: يقول لك ملك الموت إن هذا السؤال أحدُ خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا)

أنت لا تعرف متى:

(إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)

لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو، ولا يعلم متى الساعة إلا هو؟ لكن تجد سؤالاً فيه ترف، كما سأل أحدُ الأعراب النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال:

((أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ))

[متفق عليه عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ]

بدل أن تسأل متى الساعة، اسأل نفسك ماذا أعددت لها؟

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا)

هؤلاء:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً)

[سورة البقرة:10]

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[سورة البقرة:171]

الدنيا ساعة وأمر الله لا بد وأن يأتي كلمح البصر :

قال تعالى:

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا* كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)

كل واحد منكم وأنا معكم، كيف مضى عمره؟ والله كلمح البصر، يقول لك: البارحة كنا في الابتدائي نلبس ما يُعرف بالصدرية، الآن عنده ثمانية أولاد، فكيف مضى هذا العمر الطويل؟ مضى كلمح البصر، الدنيا ساعة:

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)

لذلك فإذا جاءت الطَّامة، ولا بد أن تأتي، والزمن المتبقي لمجيئها ينقضي كلمح البصر، هذا معنى قوله تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

[سورة النحل: 1]

أتى وانتهى، ثم يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: 1]

معناها لم يأتِ، فما معنى هذه الآية؟ ربنا عز وجل لحكمةٍ يريدها يعبِّر عن المستقبل بصيغة الماضي، لأن هذا اليوم لا بد أن يأتي، وكأنه أتى، فإذا ركب شخصٌ مركبة - لا سمح الله ولا قدَّر - والطريق شديد الانحدار، وينتهي بمنعطفٍ حاد، ثم اكتشف أن مكابح السيارة لا تعمل، ماذا يقول: هلكنا، متنا، لم يمت بعد، بقيت دقيقتان، لا، فالمصير محتوم بالمئة مليون، فكل إنسان حينما يوقن أنّه إلى هلاك يستعمل الفعل الماضي، فلذلك:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: 1]

لا بد أن يأتي، وقد يأتي كلمح البصر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة عبس 080 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-04-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق بين مقام الألوهية ومقام الرسالة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة عبس، والآيات الأولى:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى*وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى*أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى*أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى*فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى*وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى*وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى*وَهُوَ يَخْشَى*فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى)

[سورة عبس:-10]

لا بدَّ قبل شرح هذه الآيات مِن مقدِّمة، هناك مقام الألوهية، وهناك مقام الرسالة، فلا بد أن يكون هناك فرقٌ واضحٌ بين المقامين، لئلا تختلط الأمور، فيؤلَّه النبي عليه الصلاة والسلام، فلا بدَّ من تمايز مقام الألوهية عن مقام النبوّة، فالنبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ من أن يخطئ؛ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، فلا في أفعاله خطأ، ولا في أقواله خطأ، ولا في إقراره خطأ، والإنسان الوحيد الذي يعدُّ كلامه تشريعاً، وإقراره تشريعاً، وأفعاله تشريعاً، هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقد عصمه الله عزَّ وجل مِن أن يخطئ، وأمرنا أن نأخذ منه، وأن ننتهي عما عنه نهانا، فقال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

فكلامه تشريع، وأفعاله تشريع، وإقراره تشريع، ولكن لئلا يختلط مقام النبوة والرسالة مع مقام الألوهية سُمِح للنبي عليه الصلاة والسلام بهامشٍ اجتهادي ضيقٍ جداً، يجتهد فيه؛ فإن أصاب أصاب، وإن اجتهد خلاف الأوْلى جاء الوحي فصحح له، ولماذا سُمِحَ له بجانبٍ اجتهادي؟ ليكون هناك فرقٌ بين مقام الإله ومقام النبيّ، ولئلا يُعْبَد النبي مِن دون الله.

تُرك للنبي هامشٌ اجتهاديٌّ ضيِّقٌ ليكون فارقاً بين مقام النبوة ومقام الألوهية :

1 ـ لأنه لا معصية من دون تكليف :

أيها الأخوة، الحقيقة الأولى هي أنه لا معصية من دون تكليف، لهذا المسجد أبوابٌ ثلاثة، ليس هناك باب مسموح الخروج منه وباب ممنوع، لو وُضِعتْ لوحة ممنوع وأخرى مسموح وخرج إنسان من الممنوع لكان عاصياً، فالحقيقة الأولى: لا معصية من دون تكليف.

النبي عليه الصلاة والسلام جاءه أحد زعماء قريش، والشيء المألوف، والمعروف، والطبيعي، والمنطقي أن هذا إذا أسلم أسلم معه خَلْقٌ كثير، الناس متبوعون وأتباع، المتبوعون يتبعون الأعلام دائماً، فكل إنسان إذا سعى لهداية إنسانٍ متبوعٍ، فكل أتباعه سوف يقلِّدونه، فحرْصُ النبي عليه الصلاة والسلام على هداية هذا الإنسان حرصٌ كبير، وهذا موقفٌ طبيعي، وصحيح، ومألوف، ومنطقي، وواقعي.

بربكم، لو أن أحداً مِن الأخوة الدعاة خُيِّرَ بين أن يلتقي برجلين؛ رجلٍ محبٍ، مستقيمٍ، تائبٍ، عابدٍ، سائحٍ، ورجلٍ منكرٍ، معترضٍ، مُعاندٍ، أيهما أهون عليك: أن تلتقي مع محبٍ، مع خاضعٍ، مع مؤمنٍ مستسلمٍ، أم مع منكرٍ، معاندٍ، فظٍ، غليظ؟ الأهون أن تلتقي مع إنسان مؤمن، والجلسة عندئذ مُريحة جداً.

والنبي اجتهد لا لراحته، ولا لصالحه، ولكن لصالح الدعوة، فاختار الأصعب، واختار الأقوى، واختار الأشد، اختار الإنسان المتعِب، فكان مهتماً بهذا الإنسان، فجاءه أحد أصحابه الكرام، ابن أم مكتوم، وكان كفيف البصر، وقال: يا محمد يا محمد، والنبي عليه الصلاة والسلام انزعج منه، وأعرض عنه، وتغيَّر لون وجهه.

تماماً كما لو أن أستاذاً كبيراً في الرياضيات عنده ضيفٌ كبير، وهو حريصٌ على هدايته حرصاً لا حدود له، وهو منهمكٌ في المناقشة، دخل ابنه وقال له: يا أبتِ دلّني على حل هذه المسألة، فماذا يقول له؟ الآن اخرج، أنا لك دائماً، وكل وقتي لك، أمّا الآن فدعني، دعني وهذا الإنسان، هذا الذي حصل.

لذلك قال بعض العلماء: إنّ الله عزَّ وجل عتب للنبي ولم يعتب عليه، وفرقٌ كبير بين أن تعتب له، وأن تعتب عليه، فلو دخلت الأم على غرفة ابنها، فرأته يدرس حتى الساعة الثانية فجراً، قد تصيح به: إن لجسمك عليك حقاً يا بني، قم إلى الفراش واسترح قليلاً، إنها الآن غاضبة، أفغاضبةٌ له أم عليه؟ له، فقال العلماء: إن الله عتب على النبي لأنه حمَّل نفسه فوق طاقته، لأنه اختار الأصعب، اختار الإنسان الأصعب، والأقسى، والمُعاند، والكافر.

2 ـ لأن النبي عليه الصلاة والسلام اختار الأصعب فقد عَتِبَ الله له ولم يعتب عليه :

الله عزَّ وجل وَصَفه فقال:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى)

هذا وصف، وليس هذا تقييماً، أنا أقول لكم: فلان خرج، أما إذا قلت: بئس ما فعل، فأنا أُقَيِّم، فأنا عندئذٍ أقيِّم، لو أنني قلت: خرج أو دخل، فهذا وصف، أما إن قلت: بئس ما فعل، نعم ما فعل، صار تقييماً، فالله عزَّ وجل قال:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى)

الذي اجتهد فاختار المركب الصعب، لكن الوحي لفت نظره إلى أن هذا الذي تراه كبيراً، هذا الذي تراه قويّاً وتراه مَتْبوعاً، هذا الذي تعلّق آمالاً على هدايته، لعلم اللهِ فيه لا تضيِّع وقتك معه. الإنسان قد يجتهد، وقد يكتشف خطأ اجتهاده، قد يجتهد وقد يعلم أن اجتهاده لم يكن في محلّه، فالنبي عليه الصلاة والسلام لأنه ليس هناك تكليف، إذاً ليس هناك معصية، لا معصية مِن دون تكليف، ولأنه اختار الأصعب فقد عَتِبَ الله له ولم يعتب عليه.

3 ـ الوحي مستقلٌ عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام:

النقطة الثالثة هي أن الوحي شيءٌ مستقلٌ عن كيان النبي، لا يملك جلبه، ولا دفعه، ولا بيانه، ولا إخفاءه، كمثّل إنسان قابل شخصاً، وفي أثناء المقابلة تكلّم معه كلاماً قاسياً، فلو عاد هذا الإنسان إلى بيته، بماذا يحدِّث أولاده وأهله؟ بإمكانه أن يخفي الكلمات القاسية من هذا الذي قابله، ومعظم الناس يفعلون هذا، وقد يتكلّمون العكس، كنت قويّاً، وكنت جريئاً، لأنه ليس هناك من يكذِّبه، فيتكلم كلاماً كما يحلو له، ولكن الإنسان من عادته أنْ يخفي النواحي السلبية، ويظهر الإيجابيات.

فالنبي عليه الصلاة والسلام أمينُ وحي السماء، فلا يمكن أن يخفي شيئاً جاءه بالوحي، وهذه الآية بالمقياس البشري ليست لصالح النبي، فكأن الله يعاتبه، ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يصطنع الوحي ويفتعله لما ذكر هذه الآية، ولأن الوحي شيءٌ مستقلٌ عن كيان النبي فلا يملك له جلباً، ولا دفعاً، لذلك جاءت هذه الآيات.

هناك شاهدٌ آخر يؤيده وهو أن الله عزّ وجل حينما سمح أن يذاع حديث الإفك بين الناس، وأن يرجف المرجفون في المدينة أن السيدة عائشة ارتكبت الفاحشة مع فلانٍ من الناس، وأن هذا الخبر شاع، وسار في المدينة كالنار في الهشيم، وأن النبي عليه الصلاة والسلام تألم ألماً لا حدود له، والنبي يعرف أن امرأته طاهرة، ولكن ليس معه دليل إثبات، ولا دليل نفي، ولحكمةٍ بالغة بالغةٍ بالغة تأخّر الوحي أربعين

يوماً، وهو في حيرةٍ مِن أمره، ولو أن الوحي مِن فعل النبي لقال بعد دقيقة، أو بعد ساعة، لقال آيةً برَّأ فيها زوجته، لكنْ هذا لم يحدث، ليعلم الناس أن هذا الدين أصله وحي السماء، أي أن الإله أنزل على هذا النبي قرآناً عن طريق الوحي، فنحن ديننا أساسه الوحي، فإيمان المؤمن بالوحي مهمٌ جداً، فهذا الوحي لا يملك النبيُّ له جلباً ولا دفعاً ولا توقيتاً، لذلك جاء في الوحي عتابٌ للنبي، وجاء في الوحي تبرئةٌ للسيدة عائشة، ولكن بعد مضيِّ أربعين يوماً، إذاً فالوحي مستقلٌ عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام.

إذاً تُرك للنبي عليه الصلاة والسلام هامشٌ اجتهاديٌّ ضيِّقٌ، ليكون هذا الهامش فارقاً بين مقام النبوة ومقام الألوهيَّة.

مرَّةً ـ والشيء بالشيء يذكر ـ في موقعة بدر اختار النبي موقعاً لتمركز أصحابه في المعركة، ولحكمةٍ بالغة بالغةٍ حَجَبَ الله عنه الموقع المناسب، حَجَبَهُ عنه وَحْياً، وحَجَبَهُ عنه إلهاماً، وحَجَبَهُ عنه اجتهاداً، وهناك موضوعاتٌ أقلُّ مِن هذا الموضوع بكثيرٍ جاءه الوحيُ فيها، أما هذا الموضوع فقد حُجِبَ عنه الوحي فيه، وحُجِبَ عنه الإلهام والاجتهاد، فاختار النبي موقعاً، فجاءه صحابيٌّ جليل، يكاد يذوب أدباً مع رسول الله وقال: يا رسول الله أهذا المكان وحيٌ أوحاه الله إليك؟ أي إذا كان وحياً أوحاه الله إليك ولا كلمة، أمّا أنّ هذا المكان رأيٌ ومشورة، هكذا سأل النبي. فقال عليه الصلاة والسلام: لا، إنه الرأي والمشورة. قال: يا رسول الله هذا ليس بموقع. بكل جُرْأة، وبكل أدب، فالنبي علَّمنا كيف يكون أدب الإصغاء إلى الناصح، فلولا أن الله حجب عنه الموقع المناسب إلهاماً ووحياً واجتهاداً لما شرَّع لنا هذا الكمال؛ كمال أن تصغيَ إلى الناصح، كمال أن يكون للناصح فضلٌ عليك، فالحقيقة أنه ما مِن أحدٍ أكبر مِن أن يُنْقَد، وما مِن أحدٍ أصغر مِن أن يُنْقُد، علمنا النبي عليه الصلاة والسلام التواضع، وعلمنا الإصغاء للناصح، قال له: لا بل هو الرأي والمشورة. فقال: يا رسول الله هذا ليس بموقع، وعلّل السبب. فقال: جزاك الله خيراً، وأمر أصحابه أن ينتقلوا إلى الموقع المناسب.

نسيان النبي موَظَّفٌ في التشريع :

يقول الله عزَّ وجل:

(لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى)

[سورة طه: 52]

إنّ الله لا ينسى، لكن النبي بشر ينسى كما ينسى البشر، ولكن نسيان النبي موَظَّفٌ في التشريع، فقد صلَّى الظهر يوماً ركعتين:

((صلّى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِحْدَى صَلَاتَيْ الْعَشِيِّ الظُّهْرَ أو الْعَصْرَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ثُمَّ قامَ إِلَى خَشَبَةٍ فِي مُقَدَّمِ الْمَسْجِدِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَهَابَا أَنْ يُكَلِّمَاهُ وَخَرَجَ سَرَعَانُ النَّاسِ، فَقالُوا: أَقصُرَتْ الصَّلَاةُ؟ وَرَجُلٌ يَدْعُوهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُو الْيَدَيْنِ فَقالَ: أَنَسِيتَ أَمْ قَصُرَتْ؟ فَقالَ: لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصَرْ، قالَ: بَلَى قَدْ نَسِيتَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ثُمَّ كَبَّرَ فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَكَبَّرَ ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ فَكَبَّرَ فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

النبي علّم أصحابه على الجُرْأة وعلى الصدق لا على النفاق، فسأل أصحابه، وهنا استنبط علماء الحديث التواتر، فإذا بأصحابه الكرام يقولون: بل صلينا ركعتين يا رسول الله، فورد عنه أنه قال: إنما نسِّيت كي أسن.

إنّ الله عزَّ وجل وظَّف نسيانه في حكمٍ شرعي، وهو سجود السهو، ولولا أن النبي نسي فصلى الظهر ركعتين، لما سنَّ لنا سجود السهو.

إذاً هناك جانبٌ اجتهادي ضيقٌ جداً تُركَ للنبي، فإن أصاب في اجتهاده أصاب، وإن لم يُصِب وتَرَك الأوْلى، أو اتّجه اتجاهاً أصعب، يأتِ الوحي ليلفت نظره ويصحح اجتهاده، أما في النهاية فالنبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ مِن أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وقد أُمرنا أن نطيعه استقلالاً، دون أن تعرض كلامه على القرآن.

أوامر العلماء والأمراء يجب أن تتوافق مع كلام النبي حتى تُطاع :

قال تعالى:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء: 59]

أولو الأمر هم العلماء والأمراء، أوامر العلماء والأمراء يجب أن تعرضها على كلام النبي عليه الصلاة والسلام، فإن وافقتها فعلى العين والرأس، وإن لم توافقها فلا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، وهذا منهج النبي عليه الصلاة والسلام:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى*وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

دخل صحابيٌ على النبي عليه الصلاة والسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: أهلاً بمَن خبّرني جبريل بقدومه. قال: أوَ مثلي؟ قال: نعم يا أخي خاملٌ في الأرض علمٌ في السماء، وقد يكون الواحد منكم في الأرض في درجة دنيا اجتماعياً، أو اقتصادياً، أو علمياً، وهو عند الله في درجةٍ عُلْيا، أمّا هؤلاء الذين نافقوا وكذبوا على الله وعلى الناس:

(فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

[سورة الكهف: 105]

هم صَغارٌ عند الله:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)

لعلَّ هذا الذي أعرضت عنه خيرٌ ألف مرَّة مِن الذي أقْبَلت عليه، وهذا درسٌ لنا ولسائر المسلمين، إنسان فقير طرق بابك، لعل الخير كله في هذا الإنسان، وإنسان كبير هو معرضٌ عنك، وأنت مقبلٌ عليه، فهذا الذي أقبل عليك يجب أن تضعه في قلبك، لا تدري أين الخير؟ قال له:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى)

اللهُ عزَّ وجل يربي الأمة بعظيمها :

طبعاً المؤمن الداعية أديب مع الله، يستقبل كل الناس، ويبَشُّ لكل الناس، ويرحِّب بكل الناس، ولا يفرِّق بين واحدٍ وواحد، فلعل الخير كله في أناسٍ لا تظنّهم أهلاً لدعوتك، وقد يخيب ظنك بأناسٍ تظنهم أهلاً لدعوتك، وهذا درسٌ علّمنا إياه ربنا جلَّ جلاله عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام، واللهُ عزَّ وجل يربي الأمة بعظيمها.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 1]

هو، ألا يتقي الله؟ فإذا قلت للمجتهد: اجتهد، أي: ثابر على اجتهادك.

((لا أمثِّل بهم فيمثِّلَ اللهُ بي ولو كنتُ نبياً))

[كنز العمال عن عائشة]

(عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى* أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى)

فالله عزَّ وجل قال:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-6]

وهذه واضحة..

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 8-10]

استغنى عن طاعة الله، استغنى عن درس العلم، استغنى عن معرفة الله، مشغول بدنياه، غارقٌ في ملذّاته، مقبورٌ في شهواته، هذا استغنى عن الحق فلا يعبأ لا بدرس علم، ولا بتفسير آية، ولا بحكم فقهي، ولا بسيرة صحابي، يعنيه الدِرهم والدينار، وتعس عبد الدرهم والدينار، وتعس عبد البطن، وتعس عبد الفرج، وتعس عبد الخميصة.

إن أردت الحقيقة فأقل شيءٍ في الدنيا يدلك عليها :

أما من استغنى، أي أن المعرض لو التقى بالأنبياء جميعاً، ولو صعد إلى السماء فيرى كل شيء، ولو رأى ما بعد الموت، فلن يؤمن، والذي أراد الحقيقة دلّتهُ بعرةٌ عليها، البعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، والماء يدلُّ على الغدير، أفسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير؟ فإن أردت الحقيقة فأقل شيءٍ في الدنيا يدلك عليها، وإن لم تردها، لو كنت أكبر موظف في وكالة (ناسا) الفضائية، وترى كل يوم صور المجرات مما يذهل العقول ويبهرها فلن تؤمن. فالإنسان الذي لا يريد الحقيقة، وكان ذكياً جداً، مثله كمثل آلة تصوير غالية جداً، ولكن ليس فيها فيلم، فكل هذه المناظر التي تلتقطها لا تُطْبَع فيها، والإنسان الصادق، ولو كان متواضعاً في ثقافته، أو في اطلاعه، مثله كمثل آلةٍ فيها فيلم، أيّ منظرٍ يطبعه عليها، إن أردت الحقيقة كل شيءٍ يدلُك عليها، وإن لمْ تردها لو التقيت مع الأنبياء جميعاً، ورأيت كل المعجزات، وصعدت إلى السماء فلن تؤمن، فالقضية قضية اختيار وقرار داخلي..

(أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى*فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى)

أيضاً هذا وصْفٌ للنبي بأنه حريصٌ على هداية الخلق، فإذا التقى بقويٍ أو بزعيمٍ، فإذا اهتدى لعل مَن تبعه يهتدي، لكن الله عزَّ وجل لفت نظره إلى أن هذا لا خير فيه.

(وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى)

لا يستطيع أحد أن يهدي إنساناً لم يرد الهُدى :

يقول الله عزَّ وجل:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

[سورة البقرة: 272]

والله تعالى يقول:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

[سورة القصص: 56]

أي أنك لا تستطيع أن تهدي إنساناً ما أراد الهُدى، ثم إنك لست مسؤولاً عن هذا الذي لم يهتدِ:

(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ)

[سورة الرعد: 40]

أما دعوتك فإنها حق..

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

دعوتك حق، ولكن لأن الإنسان مخيَّر، وهو حرٌ طليق، فليس بإمكانك يا محمد أن تجبر أحداً على الهدى.

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

[سورة القصص: 56]

توجيه الوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام :

لست مسؤولاً..

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

[سورة البقرة: 272]

لن تسأل عن عدم هدايتهم، ولن تستطيع أن تهدي مَن لم يُرد الهدى، أما أنت في دعوتك فعلى الحق المبين..

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

(وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى*وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى*وَهُوَ يَخْشَى*فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى*كَلَّا)

هذا هو توجيه الوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام..

(إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

الدين مودعٌ في أصل فطرة الإنسان :

دقق في معنى تذكرة، أيْ: شيءٌ يذكّرك بشيء، ومعنى هذا أن الشيء السابق مرئيٌ مِن قِبَلك، فأنت إن ذهبت إلى بلد، وبعد حين أطلعك أحدٌ على صورةٍ لهذا البلد، فتقول: نعم واللهِ أعرفه، هذه الصورة تذكرة؛ تذكّرك بمشاهدتك لها سابقاً، والدين مودعٌ في أصل فطرة الإنسان، فأنت مبرمجٌ، ومفطورٌ،

ومجبولٌ على حقائق الدين ومنهجه، فإن عرفت اللهَ، وطبّقت منهجه ارتاحت نفسك، واطمأن قلبك، وسعدت في الدنيا والآخرة، وهذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

هكذا صُمِّمت، فأنت تحب العفَّة، وأمَرَك اللهُ أن تكون عفيفاً، ففطرتك تطابق تكليفك، تحب الصدق، وأمَرَك الله أن تكون صادقاً، تحب الإنصاف، وأمَرَك الله أن تكون منصفاً، فتطابق أوامر الله مع فطرة الإنسان تطابقٌ تام، لذلك قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه)

[سورة الروم: 30]

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً، هو الشيء نفسه الذي فُطِرْتَ عليه، وهذا تطابق تام، لذلك الإنسان لا يرتاح، ولا يطمئن، ولا ينام قرير العين إلا إذا أطاع الله عزَّ وجل، وعرف سرَّ وجوده، وغاية وجوده.

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ*فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ)

آيات الاختيار :

الإنسان مخيَّر..

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: 148]

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

[سورة فصلت: 17]

(آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

[سورة الكهف:13]

هذه آيات الاختيار:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

أنت عليك أن تُبيّن، والإنسان حُرٌّ في أن يستجيب أو لا يستجيب، لأنه مخيَّر، أنت عليك أن تبيِّن، وأن توضِّح، وأن تأتي بالأدلة، وأن تأتي بالبراهين، وأن يكون كلامك منطقياً، فالإنسان إن لم يستجب فهذه مشكلته، وليست مشكلة مَن يدعوه إلى الله عزَّ وجل.

النبي لا ينطق عن الهوى مع أن معظم كلام الناس ينطق عن الهوى :

قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ*فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ* فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ*مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ* بِأَيْدِي سَفَرَةٍ* كِرَامٍ بَرَرَةٍ)

أي أن هذا الوحي الذي جاء:

(فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ*مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)

مكرمة عن الخطأ، وعن الدَلَس، وعن المصالح، طبعاً كل كلام الإنسان ينطق عن الهوى أو لا ينطق، أمّا النبي عليه الصلاة والسلام فلا ينطق عن الهوى، مع أن معظم كلام الناس ينطق عن الهوى، والإنسان يبيع بضاعة، فمن دون أن يشعر يثني عليها ثناءً لا حدود له، هذا كلامٌ ينطلق مِن الهوى، أذكر لكم طرفة: ذات مرة دخلت إلى بائع ستائر، فألقى عليَّ محاضرة قال لي: كلما كانت الأطوال أكثر يكون أجمل، قلت له: كم تعني؟ قال: الحائط كم طوله؟ قلت له: ستة أمتار، قال لي: ثلاثة مع ثلاثة زائد واحد يبدو المنظر حينئذ جميلاً، محاضرة، هذا كلام منطقي، اخترت ثوباً، فبقياسه ظهر أنه خمسة، ثلاثة، مع اثنين، فقال لي: هذا المطرز مع الفرد أجمل يا أستاذ، أجمل بكثير، رأساً عكس الفكرة، إذاً هو ينطق عن الهوى، فلما وجد أنني تعلّقت بهذا الثوب - أحببته - وجاء طوله أقل بمتر من الضعف، فأعطى قاعدة ثانية، وقال: هذا المطرز على الفرد أجمل يا أستاذ بكثير، قلت له: مقبول، إذاً هو ينطق عن الهوى، وأكثر كلام الناس في علاقاتهم ينطقون عن الهوى.

كمال الله مطلق وكلامه مطلقٌ في كماله :

هذا الوحي من السماء:

(فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ*مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)

مكرمة أن يكون فيها مصلحة:

(مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ* بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

ملائكة..

(كِرَامٍ بَرَرَةٍ)

هذا الكتاب لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، مكرمٌ عن أن يكون فيه مصلحةٌ، أو هوى، أو خطأ، كلامٌ هو كلام رب العالمين، وكمال الله مطلق، وكلامه مطلقٌ في كماله. صحفٍ مكرمة عن كل زيف، عن كل عَيْب، عن كل خطأ، عن كل سطحيِّة..

(مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)

مِن كل ما يشوبها:

(بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

ملائكة كرام:

(كِرَامٍ بَرَرَةٍ* قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)

حيثما وردت كلمة (الإنسان) معرَّفة بأل في القرآن فهو الإنسان قبل أن يؤمن :

بالمناسبة: حيثما وردت كلمة (الإنسان) معرَّفة " بأل " في القرآن فهو الإنسان قبل أن يؤمن..

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

[سورة الانفطار: 6]

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً*إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)

[سورة المعارج: 19-20]

ورد في القرآن " فطرة" وورد "صبغة"، وكل مولودٍ يولد على الفطرة، لكن الذي اتصل بالله عزَّ وجل، يصطبغ قلبه بكمال الله عزَّ وجل، فكلمة الإنسان إن وردت في القرآن معرفة " بأل " فهو الإنسان قبل أن يؤمن، فهذا "الإنسان" إن لم يؤمن قُتِلَ، لُعِنَ، وأهلك نفسه في الدنيا والآخرة:

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)

ما الذي حمله على أن يكفر؟ ألأنَ الله أوجده من عدم؟ ألأنّ الله كرَّمه؟

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

إعجاز الله في خلق الإنسان :

لماذا هو يكفر؟ ألأن الله تعالى قال:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد: 8-10]

ألأنه خلقه، وألقى حُبَّه في قلب أمه وأبيه؟ ألأنه خلقه وشق سمعه وبصره؟! ما الذي حمله على أن يكفر، ألأن الله أوجده؟ ألأن الله خلقه في أحسن تقويم؟ ألأن الله أنعم عليه بنعمه الظاهرة والباطنة؟ ما الذي حمله على أن يكفر؟!!

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ*مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ *مِنْ نُطْفَةٍ)

أي أنّ الهيكل العظمي يضم عظمَ عُنق الفخذ، يتحمَّل ضغطَ مئتين وخمسين كيلواً، والعظم الثاني كذلك، أي أن الإنسان يمكنه أن يتحمل حِملاً يبلغ نصف الطن، ولكن هذا العظم ما أصله؟ ماءٌ مَهين، كيف أصبح الماء عنصراً متيناً، قوياً، كيف؟ كيف أصبح ميناء الأسنان ثاني أقسى عنصر في الكون بعد الماس؟ فمن أين جاءت هذه القساوة؟

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[سورة التين:4]

ألأن في العين مئة وثلاثين مليون عصية ومخروط؟ بكل واحد منا في شبكية العين لديه مخاريط وعصيات، واحدة منها للون الأبيض والأسود والثانية للألوان، مئة وثلاثون مليون مِن أجل صورةٍ دقيقةٍ جداً، من أجل أن تفرِّق بين درجتين من ثمانمئة ألف درجة للون الواحد، إذاً فاللون الأخضر درَّجته ثمانمئة ألف درجة، فالعين البشرية السليمة تفرِّق بين درجتين.

مِن أجل أن تشم كل الروائح، وأن ترى كل الصور والمرئيات، وأن تسمع أدقَّ الأصوات، وأن تمشي، فوازن بين كُليةٍ طبيعيةٍ وكذلك كليةٍ صناعية، ما أبعد الفرق بينهما؟ وبين آلة للتصوير وبين عين الإنسان.

الإتقان والدقة في خلقه سبحانه :

قال تعالى:

(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ *مِنْ نُطْفَةٍ)

هل من المعقول أنّ نقطة ماء تصبح بعد تسعة أشهر طفلاً له جمجمة، دماغ، عين، حواجب، أجفان، رموش، قَرْنية، قزحية، جسم بلوري، خلط مائي، خلط زجاجي، أعصاب، شبكية، عصب بصري؛ ثمانمئة ألف عصب بغمد واحد، أمعقول هذا؟! معدة فيها خمسة وثلاثون مليون عصارة، أمعاء دقيقة، عمر الخلية في الأمعاء ثمانٍ وأربعون ساعة، هذا شيء لا يصدق، كل واحد منا تتجدد زُغابات أمعائه كل ثمان وأربعين ساعة مرة، أقصر عمر خلية بالإنسان زغابات الأمعاء؛ ثمان وأربعون ساعة، وأطول عمر خمس سنوات، والإنسان يتجدد كلياً كل خمس سنوات، كلياً ما عدا دماغه وقلبه، لو تجدد دماغه، فيا لطيف، تجده يقول: والله كنت طبيباً، وقد مُحيت كل المعلومات من دماغه:

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ*مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ *مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ)

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[سورة القمر: 49]

لو كان بالتصنيع خطأ، وكان بالشعر أعصاب حس، ماذا تفعل؟ تحتاج لأن تذهب إلى المستشفى لتحلق، تخدَّر كاملاً لتحلق، وكانت أعصاب حس بالأظافر والشعر، لصرتَ كالوحش، أو تجري عملية جراحية فتخدر لكي تحلق، ولولا هذه المفاصل لأكل الإنسان كما تأكل القطّة، يضع الصحن على الأرض وينبطح، ويلعق بلسانه، ليس هناك طريقة ثانية.

(مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

عظام، وأعصاب، ولو أن هذه المثانة غير موجودة، فقط الكليتان والحالبان، لسال البول إلى الخارج مباشرةً، لا توجد مثانة، كل عشرين ثانية تخرج نقطتا بول، يحتاج إلى فوط صحية ماركة " الرجل السعيد "، لكن الله عزَّ وجل خلق لك مثانة، تبقى خمس أو ست ساعات وأنت بكامل راحتك، نظيف، مهفهف، مُعَطَّر.

آيات قرآنية تؤكد دقة خلق الإنسان :

قال تعالى:

(مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ *مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ)

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ)

[سورة البلد: 8-9]

كل حرفٍ تنطق به؛ تسهم في صنعه سبعة عشرَ عضلة، فخلال ساعة كم كلمة تكلمت، وكم عضلة تحركت؟

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد: 10]

كل قال ابن عباس: الثديان، غذاء بارد في الصيف، دافئ في الشتاء، مُعَقَّم، فيه مناعة الأم، سهل الهضم، جاهز فوري..

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)

[سورة البلد: 10-11]

كل ماذا ينتظر؟

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ*مِنْ أيِّ شَيْءٍ* خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

آلية الولادة :

كيف يكون هذا الطفل داخل الرحم، الذي حجمه يبلغ سبعمئة وخمسين سنتيمتراً مكعباً، سوف يخرج؟ ولو قرأتم عن آلية الولادة لخشع قلبُكم، واقشعرَّ جلدكم، قال العلماء: أمر هرموني يأتي إلى عظم الحوض فيتَّسع، أمر هرموني ثانٍ يأتي إلى الطفل الجنين فينقلب، أمر هرموني ثالث.. هذا الرحم يتقلَّص قبل الولادة تقلُّصاً لطيفاً، مُتَزَامناً، مبرمجاً، تقول لها القابلة: أنتِ لم يحِنْ وقت ولادتك، بعد خمس ساعات ستلدين، تقيس المسافة الزمنية بين التقلُّصين، ومِنها تعرف متى ستكون الولادة، فالرحم ينقبض انقباضاً لطيفاً، لأنه لو انقبض انقباضاً عنيفاً لقتل الطفل، فإذا خرج الطفل ينقبض انقباضاً شديداً جداً، فالرحم كالصخر، لأنه الآن مئة ألف شريان كانت فيه وانقطعت، فإذا انقبض انقباضاً شديداً أغلق كل الشرايين، ولو أن الانقباض كان قاسياً قبل الولادة وليِّناً بعدها لماتت الأم وطفلها، فإنْ كان قبل الولادة عنيفاً أمات الطفل، وإنْ كان بعد الولادة رخواً أمات الأم مِن النزيف:

(مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ*مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

يولد، فيفرحون، الحمد لله على سلامتك، ولو كان عنده ثقب مفتوح لاحتجتَ إلى مئتين وخمسين ألف ليرة لإجراء العملية، ثقب بوتال لو بقي مفتوحاً للزم إجراء عملية، فبين الأذينين هناك ثقب مفتوح لو لم يُغلق في أثناء الولادة لاحتجتَ إلى ربع مليون ليرة، ويصبح لون الطفل أزرق، وإذا لم يجروا له عملية يموت أمّا وهو سليم، رضع من ثدي أمه، وقد فرح الجميعُ، ثم ظهرتْ أسنانه ففرحوا، ثم قال: بابا، فطار عقل أبيه، بعد هذا دخل الحضانة، فقرأ الفاتحة، الأسرة كلها اختلَّ توازنها لأنه قرأ الفاتحة مثلاً، بعد هذا ذهب إلى المدرسة، وبعدها أخذ ابتدائية، وإعدادية، ثم الثانوية، وبعدها أخذ بكالوريا، وبعدها يريد أن يشتغل، فتؤَمِّن له عملاً، ثم يريد أن يتزوج، فتزوج، ثم جاءه أولاد، ثم تقدم في السن، فزوّج أولاده، وزوّج بناته، ثم بدأت متاعبه الصحية، حتى صار عنده كيس أدوية:

(ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ)

هذه رحلة لا بدَّ منها، وكل واحد يقف على المحطة الآن، وهذا القطار مِن البداية إلى النهاية، تجد أحدهم نزل من القطار في المحطة الوسطى وهذا بالرابعة، والآخر بالخامسة.

(ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ*كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ)

إلى الآن لم تتب إلى الله عزَّ وجل؟ إلى الآن لم تستقم؟ إلى الآن لم تصطلح مع الله عزَّ وجل؟!

إلى متى وأنت باللذات مشغولٌ وأنت عن كل ما قدَّمت مسؤولُ

تعصي الإله وأنت تظهر حبــه ذاك لـعمري في المقام شنيـعُ

لـو كان حـبـك صادقاً لأطعته إن المـحب لمن يحب يــطيعُ

*** * ***

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة عبس 080 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 24-42

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-04-14

بسم الله الرحمن الرحيم

كل أمرٍ في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة عَبَسَ، ومع الآية الرابعة والعشرين، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

أولاً: اللام هنا لام الأمر، وكل أمرٍ في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، وفي القرآن أمر تهديد، كقوله تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

وأما قوله تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

[سورة البقرة: 187]

فهذا أمر إباحة، لكن قوله تعالى في الآية التالية:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

[سورة النور: 132]

فهذا أمر ندب، إلاّ أن تكون ثمة قرينة دالة على الوجوب.

الآية التالية مِن فقرات المنهج التفصيلي :

هنا الآية:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

المشكلة، بل هي أكبر مشكلة، أن هذا الدين العظيم، وهذا المنهج القويم، اخْتُزِلَ إلى خمس عباداتٍ شعائرية، بينما منهج الله عز وجل فيه مئات بل ألوف الأوامر والنواهي، هي منهج تفصيلي، مِن فقرات المنهج التفصيلي هذه الآية:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

تأكل في اليوم ثلاث وجبات، هل فكَّرت في الدقيق؟ هل فكرت في القمح؟ هل فكرت في الخُضراوات والفواكه؟ هل فكرت في كأس الماء؟ هل فكرت في نظام هذه المخلوقات؟ كيف تعرف الله من دون أن تتأمل في خلقه؟

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية: 6]

فالإنسان إذا نظر إلى طعامه، المحاصيل والحبوب تنضج في يومٍ واحد، بينما الخُضار والفواكه تنضج في مدةٍ طويلة، قد تزيد على ثلاثة أشهر، لو أن الآية عُكِسَت فماذا يحصل؟ أيمكن أن نحصد القمح فنمسك كل يوم كل سنبلة على حدة نضجت أم لم تنضج؟ أما هذا البطيخ ينبغي أن تأكله طوال الصيف، إذاً ينبغي أن ينضج بالتدريج، فهذه آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته. لكن كيف يعرف من يريد قطع هذه الثمرة أنها نضجت؟ اللون كله أخضر، هل يمكن أن يفتح ما في داخلها؟ إنْ فعَل فلن تُبَاع معه، هناك خيطٌ في أعلاها إذا كان يابساً فقد نضجت، إذا انكسر بيده فالبطيخة ناضجة، إن لم ينكسر فالبطيخة لم تنضج بعد، هذه علامة من علامات نضج هذه الفاكهة.

منهج طعامنا طريقٌ إلى الله :

الإنسان إذا فكر فيما يأكل فقط يصل إلى الله، في القمح، القمح خمسة وأربعون ألف نوع، والقمح هو الغذاء الأول، وهو الغذاء الكامل، وهو الغذاء الطبيعي، ونحن الآن قلبنا هذا الهَرَم، كان طعامنا قبلاً حبوباً وخضاراً، وفواكه ولحوماً، لو كان لدينا هرم أو مثلث، نجد أن أكبر مساحة للحبوب، ثاني مساحة للخضار والفواكه، أصغر مساحة للحوم، حينما قُلِب هذا الهرم أو هذا المثلث نشأت أمراضٌ لا تعد ولا تحصى، فهذا القمح غذاء أساسي، الشعير، العدس، الحمص، هذه كلها حبوب تسمى في علم الزراعة محاصيل، تنضج في يوم واحد، وتخزَّن، ويمكن أن تكون غذاء استراتيجياً إن صح التعبير.

بينما الخضار والفواكه تنضج على فترةٍ طويلة، أكثر الخضار تأكلها طوال الصيف، لأنه على مدى أشهر الصيف تنضج هذه الخضار بالتدريج، وكذلك الفواكه، ولدينا شيء آخر: هذه الخضار وتلك الفواكه مبرمجة فيما بينها، فنحن فيما تعرفون نبدأ بقطف الكرز، ثم المشمش، ثم الإجاص، ثم التفاح، بالتسلسل، لو أن هذه الأنواع تنضج دفعةً واحدة لما استفدنا منها، فهي فيما بينها مُبَرْمَجة بتدبير الله سبحانه، والنوع الواحد مبرمج كذلك، وكل نوع من الفاكهة يضم من ثلاثمئة إلى خمسمئة نوع فرعي، فهذه الفاكهة حامضة، هذه سكرية، هذه تؤكل سريعاً، هذه تُشْحَن، هذه للتصدير، أنواع لا يعلمها إلا الله، كل هذا تودداً لهذا الإنسان، ألا ينبغي لهذا الإنسان أن يخطب ود الله عز وجل؟!

فمنهج طعامك طريقٌ إلى الله، والإنسان ينبغي أن يأكل بعد أن يسمِّيَ، وما معنى: بسم الله الرحمن الرحيم؟ أي أنت باسم الله تأكل هذه الفاكهة، لولا أن الله خلقها، وأمدها بالغذاء، وأنضجها لما أكلتها، وبالمناسبة، فثمن الفواكه والخضار، والحبوب والمزروعات التي تؤديها، ثمن خدمتها لا ثمنها، لو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يصنعوا كأس حليبٍ لما استطاعوا، فهذا الكلأ بين أيدي الناس، هل بإمكان جهةٍ في الأرض أن تحول الكلأ إلى حليب، تشربه، تصنع منه لبناً، تصنع منه جبناً، تصنع منه سمناً؟ هذا الكلأ أمامنا، اعمل مزرعة برسيم، أو مزرعة فِصَّة، وحاول أن تجلب هيئات علمية راقية جداً تحوِّل هذا الحشيش الأخضر إلى حليب، أو هذا الذي تأكله الدجاجة إلى بيض يحوي خمسة عشر فيتامينا، ثمانية معادن، بروتينات، شحوم، غذاء كامل، بدليل أن هذه البيضة تنقلب إلى كائن حي، إلى فرخ صغير، فما دامت هذه البيضة تنقلب إلى صوص، إذاً فيها من كل أنواع الخلق، فهل بإمكان جهة في الأرض أن تحوِّل هذا الذي تأكله الدجاجة وهي تأكل كل شيء، حتى القَذَر، وتقدِّم لك هذه البيضة؟!!

طعامنا الذي نأكله يمكن أن نصل إلى الله مِن خلاله :

هذا البستان يسقى بماء واحد، ويثمر الأنواع المتعددة، ونفضل بعضها على بعضٍ في الأُكُل، طعم الإجاص غير طعم التفاح، غير طعم الدراق، غير طعم المشمش، غير طعم الكرز، أنواع منوَّعة..

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

[سورة الرعد: 4]

بستان فيه فستق حلبي، ثمن الكيلو ثلاثمئة وخمسون ليرة، وهناك فواكه أخرى رخيصة، مَن ميَّز هذه الطعوم؟ طعامك الذي تأكله يمكن أن تصل إلى الله مِن خلاله، هناك إنسان يأكل كما تأكل البهائم، يأكل ويشرب ولا ينتبه، ربنا عز وجل يلفت نظرنا:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

الطماطم (البندورة) بعضها قاسٍ جداً، بعضها ذو حموضة، بعضها كروي الشكل، بعضها محزَّز، بعضها للعصير، بعضها للتصدير، فهي أنواع منوعة، والبرتقال نوع للعصير، نوع لونه وردي، نوع سكري، حلو المذاق، أنواع منوعة، وكل نوع يأتي بعد نوع على مدار السنة، وفي فصل الشتاء تأكل الفواكه فيها أعلى درجة من الفيتامين(C)، يقاوم أمراض الشتاء، والبطيخ مناسب جداً في الصيف.

عند الإنسان عطش خلوي، وعنده عطش عادي، ولو شرب الإنسان ماء كثيراً، إن لم يأكل فاكهة فيها ماء كثير لا يرتوي خلوياً يرتوي هضمياً، لكنه لا يرتوي خلوياً، شيء دقيق جداً.

التفكر في الطعام والشراب منهج كامل موصل إلى الله عز وجل :

مادة التفكر هي الطعام والشراب، منهج كامل موصل إلى الله عز وجل، فهذا الصوص كيف يخرج مِن البيضة؟ ينمو له نتوء مؤنف على منقاره كالإبرة تماماً، يكسر بها البيضة، ثم يتلاشى هذا النتوء، ويعود إلى ما كان عليه بعد أن خرج مِن البيضة، أمعن النظر في حقائق الطعام والشراب.

فهذا النبات، منه شجرةٌ عملاقة، كيف يصعد الماء إلى الأعلى على عكس نظام الجاذبية؟ السوائل لو أطلقتها تسقط نحو الأسفل، هناك خاصة شعرية معقدة جداً، تجعل هذا السائل يصعد إلى الأعلى، هذه الشجرة فيها نُسُغ صاعد، ما الذي يجعل هذا السائل، النسغ الصاعد، لا يرجع؟ قال العلماء: هناك دسامات في الأوعية الصاعدة، عليها دسامات عدم رجوع، داخل النبات، فإذا وصلت إلى الأعلى توزعت في الورقة. الورقة قرأت عنها مرة مقالةً: أن أعظم معملٍ على وجه الأرض لا يرقى إلى مستوى الورقة، وهذه الورقة تأخذ من الهواء الآزوت، وتأخذ من الشمس الطاقة الشمسية، وتتفاعل مع هذا النسغ الصاعد فتجعل منه نسغاً هابطاً، هذا النسغ الهابط يسري في أوعية، لو أن هذه الشجرة نَمَت لضاقت لمعة الأوعية، إذاً هذه الأوعية الهابطة فيها حلزون مقوٍّ، يقويها ويمنع التصاق بعضها ببعض، وفي الأوعية الصاعدة دسامات عدم رجوع، وفي الأوعية الهابطة نوابض قاسية تمنع ضيق لمعة الوعاء.

هذا النسغ النازل، سائل، تصنع منه الجذور، وتصنع منه الأغصان، وتصنع منه الأزهار، وتصنع منه الأوراق، وتصنع منه الثمار، هل بإمكان الإنسان أن يأتي بسائل يحقنه فيكون خشباً، يحقنه فيكون حديداً، يحقنه فيكون إسفنجاً، يحقنه فيكون شراباً؟ مستحيل، نسغٌ واحد؛ يصنع الجذر، والفرع، والغُصْنَ، والزهرة، والورقة، والثمرة، لا يزال علم النبات في البدايات، لا تزال النبتة كائناً يحيِّر العقول، كم نوعاً من الورقة ترون في الدنيا؟ تفاوت في الحجوم، تفاوت في الأشكال، تفاوت في الوظائف، على كلِ الورقة معمل، معمل مِن أعلى درجة، ولا تزال البحوث لمعرفة حقيقة هذا المعمل في البدايات.

أيها الأخوة، شجر يمتد جذره إلى ثلاثين متراً تحت الأرض، هذا الجذر يبحث عن الماء، الشجر الذي تزرعه كي تستفيد من ثمره جذوره عميقةٌ جداً، أما الشجر الذي تزرعه كي تستفيد مِن خشبه، فجذوره قليلةٌ جداً وسطحية، ليسهل قلع الشجرة واستخدامها.

النبات من أعظم آيات الله الدالة على عظمته :

لو ذكرت أنواع النبات، مرة قرأت مقالة عن نبات، نبات جميل جداً، يوضع في أصص، في البيت، له زهرة على شكل فم السمكة، فإذا جاءت بعوضة أو ذبابة ودخلت إلى البيت، تنجذب البعوضة أو الذبابة إلى هذه النبتة، فإذا وصلت غلى جوفها أطبقت عليها، هذا النبات خلقه الله خصيصاً كي يُنَقّي بيتك من البعوض والذباب، وهناك نبات يعطيك سائلاً مرناً هو الكاوتشوك، ونبات آخر يعطي الفلّين، وهناك نبات يعطي سواكاً للأسنان، ونبات يعطي خلة لتنظيف الأسنان، ونبات يعطي ليفة تنظف بها جسمك، لها وجه خشن للرجال، ووجه آخر ناعم للنساء، أليس كذلك؟ هذا من صنع الله عز وجل، ونبات يعطيك أوعية بعضها كروي، وبعضها أنبوبي، أوعية كالنحاس تماماً، وهناك نبات يعطيك حبة مسبحة، كرة مثقوبة، تصنع منها سبحة، وهناك نبات يستعمل أساساً للأبنية، ويتوسع على الماء، بعض أبنية دمشق أساسها مِن الخشب، بناء المنزل في المرجة أساسه خشب، وعمره مديد، خشب تصنع منه النوافذ، فهذه لا تتأثر بالماء والهواء، والعوامل الجوية، خشب تصنع منه الأثاث، خشب تصنع منه الأدوات، هناك مئة نوع من الخشب، نبات حدودي بينك وبين جيرانك له لون جميل، وزهر جميل، لكنه شائك، وكذلك هناك نبات مظلة، يؤدي دور مظلةٍ تماماً، أوراقها دائمة الخضرة، كثيفة جداً، تحتها ظلٌّ ظليل على شكل دائرة نظامية دائمة على طوال العام، هذه مظلة، نبات يعطيك الفاكهة، نبات يعطيك الخضار والفواكه والمحاصيل، والحديث عن النبات يطول، بل هو من أعظم آيات الله الدالة على عظمته، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

عوِّد نفسك كلما جلست إلى المائدة تفكر في هذا الغذاء الذي تأكله، هذه المُنَكّهات، هذه التوابل، هذه الخضراوات، هذه الحبوب، هذه الألبان، مشتقات الألبان، الشاي الذي تشربه، النعناع الذي تأكله، هذه الخضار كلها فيتامينات من صممها لتكون كذلك؟ أذكّر ثانيةً: درسنا اليوم عن طعام الإنسان.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

الحكمة من تلف المحاصيل عند تخزينها لمدة طويلة :

تصور كل نبات متى يزرع؟ متى يحصد؟ كيف ومتى يُصَنَّع؟ كيف يخَزَّن؟ لو أن النبات لا يصيبه السوس لخَزَّنه الناس، واحتكروه، وجعلوا العالم نصفين، نصف يموت من الجوع، ونصف يموت من التخمة، فهذه المحاصيل تصيبها الآفة، لا تخزن أكثر من سنة أو سنتين، فلا بد أن تستهلكها لمنع الاحتكار، هذا أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

من أين يبدأ الطعام؟ من قوله تعالى فاقرأ:

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً)

هذه الأمطار الغزيرة لولاها لمُتنا مِن الجوع، والآن هناك بلد في إفريقيا، وشيء والله مؤلم جداً جداً وهو شعبٌ مسلم، يموت من الجوع، وشعوبٌ تموت من البَطَر، ومن الترف، ومن التُخْمَة، وشعوبٌ تموت من الجوع، والمسلمون لا يتحركون لإنجادهم.

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً)

انظر إلى الأرض في الشتاء، تراب، ثم يأتي الربيع وتنشق الأرض عن هذه النباتات وهذه المحاصيل، فإذا هي حلةٌ خضراء، ثم شققنا الأرض بالنبات شقاً، صببنا الماء من السماء صباً، ثم شققنا الأرض شقاً.

موضوع صببنا الماء صباً أيضاً درس كبير جداً، كيف أن الله عز وجل جعل الهواء يحمل بخار الماء، وكيف أن الله عز وجل جعل مناطق حارة، ومناطق باردة، وجعل المنطقة الحارة ضغطها منخفض، والمنطقة الباردة ضغطها مرتفع، وجعل من تفاوت الضغطين ما تنشأ عنه حركة رياح، والرياح تسوق السحاب، والسحاب محمَّل ببخار الماء، يواجه جبهةً باردةً فينقلب إلى مطر، ويُعْصَر عصراً، وهذا المطر يصبح ينابيع وأنهاراً.

أهمية الماء والبذور :

نهر الأمازون كثافته في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف متر مكعب، ينابيعه مِن أين؟ كله من أمطار السماء، من ماء السماء، انقلب إلى ينابيع وأنهار، وحول الأنهار قامت الحضارات، حضارة الرافدين حول دجلة والفرات، حضارة النيل، مصر هبة النيل، قال سيدنا عمر بن الخطاب: صف لي مصر يا عمرو؟ قال له: يا أمير المؤمنين مصر طولها شهر وعرضها عشر، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات، مبارك الروحات، فبينما هي عنبرة سوداء، فإذا هي دُرَّة بيضاء، ثم هي زبرجدية خضراء، فتبارك الله الفعال لما يشاء.

مصر هبة النيل، وفي حضارة الرافدين، وهنا في بلدنا الطيب أين التَجَمُّع السكاني؟ حول نهر العاصي، ونهر بردى، ونهر الأعوج، هذه الأنهار، الآن في العالم معركة مياه، كنا في معركة البترول، ثم دخلنا في معركة القمح، والآن نحن في معركة المياه، بل إن موضوع المياه هو الموضوع المُشْكِل في أيَّة مباحثات، موضوع المياه بالذات، لأن حياة الأحياء بالمياه:

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

[سورة الأنبياء: 30]

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً)

فهذه البذرة، ائت بحبة فاصولياء، ضعها في قطن مبلل، كيف تنشق هذه البذرة عن رشيمٍ صغير، وعن سويقٍ صغير يأخذ غذاءه من مخزونها الغذائي؟ فإذا نما ساقُها، ونما جذرها، أمْسِكْها فإذا هي فارغة، فمَن أعطاها أمراً بالإنبات؟ تتجه نحو الأعلى، قضية الإنبات وحدها شيء لا يصدق، هذه البذرة فيها رشيم كائن حي، هناك قمح أُخِذَ من الأهرامات قد خزِّن قبل ستة آلاف عام، زُرِع فنبت، الرُشيم كائن حي، لكن النملة حينما تخزن القمح تأكل الرشيم لئلا ينبت، فالرشيم كائن حي، وهناك بذور الغرام الواحد يحوي سبعين ألف بذرة، وكل بذرة فيها رشيم، وفيها سويق، وفيها جذير، وفيها مخزون غذاء، وهذا شأن كل بذرة، فقضية البذور وحدها قضيةٌ تلفت النظر.

النباتات الرعوية :

الآن مع النباتات الرعوية، كيف تنبت بذورها على شكل حلزون؟ تسقط مِن الأعلى فتُغرس في الأرض، زَرْعٌ طبيعيٌّ من دون أنْ تعمل فيه يد إنسان، قد تنمو الأحراش والرعويات بشكل مخيف دون أن يزرعها أحد، وهناك بذور طائرة تنتقل مِن قارةٍ إلى قارة، وهناك بذور لا تنبت إلا إذا أكلتها الزرافة، تأكلها الزرافة وتخرجها من أمعائها فتنبت في الأرض، والحديث عن البذور حديث طويل.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

يقول العلماء: هذه الفاكهة طعمها حامض، شكلها كمثري، أو شكلها كروي، لونها كذا، كل كلمة هي معلومات مبرمجة عليها هذه البذرة.

(فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً)

القمح هو الغذاء الكامل:

(وَعِنَباً)

الفاكهة:

(وَقَضْباً)

قالوا: القضب هو غذاء الحيوانات، أي هذه الفِصَّة والبرسيم، لأنها تحصد فتنبت، تحصد فتنبت، تحصد فتنبت ست مرّات، وهذه الحقيقة ربما لا تعرفونها، غذاء الحيوانات بشكل اقتصادي مربح جداً، تزرعه مرةً واحدة، وتحصده ست مراتٍ متوالية، كلما قضمته نبت مرة ثانية، سمي قضباً، قال تعالى:

(وَعِنَباً وَقَضْباً)

وقال بعضهم: القضب هو التمر، والعلماء على ترجيح أن القضب هو التمر، أو القضب هو النبات الذي تأكله البهائم، يقضب فينمو، ويقضب فينمو.

أهمية الزيتون والتمر للإنسان :

قال تعالى:

(وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً)

هذه الشجرة المباركة، وكلما تقدم العلم اكتشف أن أول غذاء ينتفع به الإنسان هو زيت الزيتون، يُخَفِّض الضغط، يخفض الكولسترول، يقوي الشرايين، بل إن عمر الإنسان من عمر شرايينه، لو أن الإنسان نجا من كل الأمراض العضالة، كيف يموت؟ يموت بتصلب الشرايين، وزيت الزيتون وحده يطيل عمر الشرايين إلى أعلى درجة، فقالوا: الإنسان عمره من عمر شرايينه، وزيت الزيتون يكافح السرطان، ويخفّف الضغط، ويخفف الكولسترول، يقوي الشرايين، ويجعلها مرنة، وقال تعالى:

(مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ)

[سورة النور: 35]

(وَعِنَباً وَقَضْباً)

إما التمر، وإما نباتٌ تأكله البهائم..

(وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً)

النخل مِن أطول الأشجار المُعَمِّرة، تعيش شجرة النخل ستة آلاف عام، وتعطيك الثمرة، وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ أَوْ جَاعَ أَهْلُهُ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

التمر فيه مواد مهدئة، مواد مطهرة، مواد قابضة، مواد مُلَيِّنة، فيه ست وأربعون مادة غذائية، ولا يتلوث أبداً، وهو أحد الأسودين؛ التمر والماء.

الفاكهة ما يأكله الإنسان والأبّ ما يأكله الحيوان :

قال تعالى:

(وَحَدَائِقَ غُلْباً)

الآن أنواع الأزهار، وأنواع الرياحين، أنواع النباتات التي تعيش في المنازل، أنواع الأبصال، أنواعها بالألوف، وكل زهرة تسبِّح خالقها، وقد خلقت خصيصاً للإنسان، أعطى شخص للحمار فُلة فأكلها، فقيل عنه: إن الذي أعطاه الفُلة هو الحمار، الفُلة لتُشمّ لا لتُؤكل.

(وَحَدَائِقَ غُلْباً)

أي كثيفة عظيمة:

(وَفَاكِهَةً وَأَبّاً)

الفاكهة ما يأكله الإنسان، والأبّ ما يأكله الحيوان، الآن قد يغيب عن أذهانكم أن هذا القمح غذاء أساسيٌ للإنسان، أما هذه الساق التي تحمل سنبلة القمح غذاءٌ أساسيٌ للحيوان، يعيش الحيوان على التِبْن فقط، فهذا من بقايا الحصيد، وهو غذاءٌ أولُ للحيوان، فيعيش الحيوان على التبن عمره كله، فهو غذاءٌ كامل، فهذه السنبلة غذاءٌ للإنسان، وهذه الساق التي يحملها غذاءٌ للحيوان:

(وَفَاكِهَةً وَأَبّاً* مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

من يأكل ولا يسميِّ الله عز وجل ولا يحمد الله على هذه النعم فهو كالدابة تماماً:

أنا طبعاً أذكر عناوين أبحاث، أما أنت فلديك منهج للتفكُّر، لديك منهج الفاكهة والأب، والحدائق والأزهار، والأبصال، والورود والرياحين، وكل نباتات الزينة، هذه وحدها موضوع، والأعداد بالألوف، وفي الزيتون والنخل، فوائد الزيتون وزيته، وفوائد التمر، وفي العنب والقضب، وفي الحب أي المحاصيل، وفي انشقاق الأرض عن النبات، وانشقاق السماء عن الماء، فالماء من السماء، والنبات من التراب، ثم يكون الحَبُّ والعنبُ والقضب والزيتون والنخل والحدائق الكثيرة.. وكلها فضل من الله وكرم.

(وَفَاكِهَةً وَأَبّاً* مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

وبعدُ فإذا فوَّت الإنسان على نفسه فرصة التفكُّر في خلق السماوات والأرض، فلم يفكر، فهو يأكل كالبهيمة تماماً:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

[سورة محمد: 12]

تأكل الحشيش وكفى لأنها دابة، وكل إنسان يأكل وكفى، ولا يسميِّ الله عز وجل، ولا يحمد الله على هذه النعم، فهو كالدابة تماماً:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

[سورة محمد: 12]

الحكمة من استنجاد الإنسان بأخيه :

الإنسان يأكل ويتفكَّر، يأكل ويتعلَّم، يأكل ويتقرَّب، يأكل ويسمِّي، يأكل ويشكر، يأكل ويحمد الله عز وجل، أما إذا لم يفكر الإنسان، وعاش شهوته، واستجاب لميوله ونزواته وغرائزه، وعاش لمُتَعِهِ وشهواته فقد جاء البلاء الأعظم:

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ)

صوتٌ يصمُّ الآذان، أو صوت تصغي له الآذان، كلاهما صحيح..

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ* يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ)

الإنسان عادة يستنجد بأخيه، لأن أباه متقدمٌ في السِن، وأن ابنه ضعيفٌ لا يقوى على نجدته، أما الإنسان بمَن يستنجد؟ بأخيه، في هذا اليوم:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

[سورة المؤمنون: 101]

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ)

أي زوجته..

(وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً - أي من دون اختتان، وقلفة أعضائهم موجودة، وقد رجعت إلى حالها يوم خُلق - قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالَ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ]

وصف دقيق لهول يوم القيامة :

نحن اليوم لو سيق إنسان إلى حبل المشنقة للإعدام وفي الطريق إلى المرجة ساحة التنفيذ، رأى فتاةً ترتدي ثياباً فاضحةً، أيتأثر بهذا المنظر؟ مستحيل، هو في عالم آخر، في عالم الشنق، فقال:

((... الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ]

قد تقع عين الأم على ابنها يوم القيامة تقول: يا بني جعلت لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحجري وطاءً فهل من حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم؟ يجيبها ابنها ويقول: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنما أشكو مما أنتِ منه تشكين، أي:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

له مشكلة أو له قضية غارقٌ في همومها، ولا يلتفت إلى أحد، في النهاية هؤلاء البشر صنفان:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ)

مشرقة، متألّقة..

(ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ)

الناس يوم القيامة رجلان :

لو أنّ طالباً نجح، وأبلغوه أنه نجح، ينتظر العلامات، وتكريم أهله، وتكريم الدولة له لأنه حصل على المرتبة الأولى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ*ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ*تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ)

ظلمة، قال:

(أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)

كم إنساناً؟ وكم ملة؟ وكم مذهباً؟ وكم طائفة؟ وكم ديناً؟ وكم عِرْقاً؟ وكم جنساً؟ وكم لوناً؟ وكم نِحْلة؟ كل هؤلاء الناس على اختلاف مللهم، ونحَلهم، وألوانهم، وأجناسهم، وأديانهم، وانتماءاتهم، هم في النهاية رجلان؛ وجه مسفر، ضاحك، مستبشر، عرف الله في الدنيا، فاستقام على أمره، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، ورجلٌ غفل عن الله، تفَلّت من منهجه، أساء لخلقه، فشقي في الدنيا والآخرة.

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ)

العمل السيّئ يجعل الوجه أسود:

(تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)

أخواننا الكرام، الوجه صفحة النفس، سعادتك تظهر على وجهك، وبراءتُك تظهر على وجهك، وعقّتك تظهر على وجهك، وصدقك يظهر على وجهك، الوجه صفحة النفس، وجهٌ صافٍ، مُشْرِق، بريء، طاهر، ووجه خبيث، مجرم، مذنب، عمله أمامه:

(أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ)

هم الذين لم يعرفوا الله:

(الْفَجَرَةُ)

وهم الذين عصوه في الدنيا، وتباهوا بهذه المعصية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التكوير 081 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-14، كل شيء يتبدَّل وكل حال يزول

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-04-21

بسم الله الرحمن الرحيم

الموت حدثٌ مستقبليّ وأعقل إنسان هو الذي يعدّ لهذه الساعة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة التكوير، بسم الله الرحمن الرحيم:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ *وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ *وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ *وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ *وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ *وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ *وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ *وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ *وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ *وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ *وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ *عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

أيها الأخوة المؤمنون، العاقل يعيش المستقبل والأقل عقلاً يعيش الحاضر، والغبي يعيش الماضي:

((إن أكيس الناس أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً))

[أخرجه الحارث عن زيد بن علي]

الموت سيأتي مستقبلاً، الموت حدثٌ مستقبليّ، وأعقل إنسان هو الذي يعدُّ لساعة الموت التي لا بد أنها آتية.

الكيِّس هو من ضبطحياته وفق منهج الله :

قال تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: 1]

أَتَى" فعل ماض، قال: فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، معناه لم يأتِ، فكيف أتى ولم يأتِ؟ أي حينما يخبر الله عن شيء يجب أن تأخذه وكأنه وقع، وحينما يُخبرُ عن شيء في الماضي تأخذه وكأنك تراه، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

ليس هناك إنسان في زماننا شاهد هذه الحادثة، لكنّ الله عز وجل أخبر عنها، إذاً كأنك تراها، والله عز وجل أخبر عن يوم القيامة، إذاً أتى يومُ القيامة فلا تستعجلوه، فمن هو العاقل؟ الكيس بتعريف النبي عليه الصلاة و السلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

إذاً: الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، ضبطها، وضبط دخله، وإنفاقه، وضبط بيته وأسرته، وضبط حواسه وأعضاءه، وضبط لهوه، فلهوُه شرعيٌّ، ضبط أفراحه، وضبط أحزانه، ضبط كل حياته وفق منهج الله:

((إن أكيس الناس أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً))

[أخرجه الحارث عن زيد بن علي]

الكيس من دان نفسه أيْ ضبطها:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

في بعض سفري أُطلِعتُ على لقطات نادرة، آلة تصوير في بناء يصوِّرون حفلاً، فحدث زلزال، المناظر لا تُصدق، الهرج والمرج، وانهيار الأبنية، نشوب الحرائق، ذعر الناس، وهناك لقطات نادرة في العالم لبعض الزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير، هذه نماذج مصغرة.

ليست البطولة أن نعيش الحاضر فالعالم كله يعيش الحاضر :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج: 1-2]

حدَّثني أخٌ قال لي: لما حدث زلزال في مصر، زوجتُه من شدة رعبها أمسكت ابنها وخرجت خارج البناء، فلما أصبحت في عرض الطريق نظرت إلى ما تحمله فإذا هو حذاء زوجها، فمن شدة الخوف أخذت حذاء زوجها على أنه ابنها، قال تعالى:

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

فالبطولة لا أن نعيش الحاضر، العالم كله يعيش الحاضر، العالم كله يعيش لحظته، ويستمتع بالطعام والشراب والنساء والأفلام، ويسهر إلى منتصف الليل، و يلهو ويغتاب وينُم، يفعل كل ما يحلو له، يأكل ما يشتهي، يذهب إلى أيِّ مكان يشتهيه، يجلس مع مَن يشتهي، هذا قد عطَّل فكره.

أخواننا الكرام، وإن كان مثلاً ذكرته سابقاً ولكنه يفيدنا الآن، أعيد فأذكره لكم: ركبتَ دراجة ووصلت إلى طريقين؛ طريق هابطة، وطريق صاعدة، فراكبُ الدراجة يرتاح في الطريق الهابطة من دون شك، والطريق الهابطة معبَّدة، ومزدانة بالأشجار والرياحين والحدائق، والنسيم عليل، كل شيء في هذا الطريق يدعوك إلى النزول، الطريق الصاعدة فيها أكمات، وفيها حفر، وفيها غبار، وكل شيء في هذه الطريق الصاعدة يدعوك إلى البُعد عنها، ولكن رأيت لوحة صغيرة مكتوب عليها هذه الطريق الصاعدة تنتهي بقصر منيف، وهو مِلكٌ لمن وصل إليه، وهذه الطريق الهابطة تنتهي بحفرة ما لها من قرار، الواقع يدعوك إلى الطريق النازلة، أما كونك إنساناً عندك عقل، وبيان صحيح، فالإنسان العاقل يرفض هذا الواقع المغري ويتجه في الطريق الصاعدة.

العاقل يستخدم عقله والحيوان يستخدم حواسه :

مثل آخر أوضح: لو أن طريقاً يمتد خمسين كيلومتراً، مكتوب في بدايته: الطريق مغلقة، والطريق سالكة، لكن بعد خمسين كيلو متراً الطريق مغلقة، إنسان يقرأ ويكتب، قرأ اللوحة، فوقف وما أكمل، لو كان مكانه حيوان لسلك، متى يقف الحيوان؟ عند القطع، الإنسان متى يقف؟ عند القراءة، هذا هو الإنسان، بفكره وعقله، والبيان الذي أمامه يصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه الحيوان، بربك لو أنك ذاهب إلى حمص في أيام الشتاء، واستمعت بأذنك أن الطريق في (النبك) مغلقة بسبب تراكم الثلوج، هل تذهب؟ الطريق سالك من دمشق إلى دوما، إلى عدرا، الطريق كله سالك جاف، ولكن الخبر من (النبك) لا تُكمل، فالإنسان بطولته أن يؤمن بالغيب، عندنا شيء محسوس، وعندنا شيء معلن، بياناً فقط، الغيب خبر، والدنيا محسوسة، والعاقل دائماً يستخدم عقله، والحيوان يستخدم حواسه، الحيوان يخاف بعينه، بينما العاقل يخاف بعقله، مثل أوضح: إنسان عاقل يقرأ أن التدخين يسبب أمراضاً لا حصر لها، بدءاً من جلطة، ومروراً بضيق الشرايين التي تغذّي القلب، ثم بعض الأورام الخبيثة في الرئتين، ثم مرض الغرغرين، فالإنسان العاقل لا ينتحر بنفسه، أما الذي يعطّل عقله متى يدع الدخان؟ عندما يصاب بالمرض، أما العاقل فيدَع التدخين قبل أن يصاب بالمرض، إذاً النقطة الحساسة هنا هي أنه هل تستخدم عقلك لتصديق الخبر الإلهي وتنضبط أم تواجه الحقيقة المرة بعد فوات الأوان، مَنْ في ذهنك يعدُّ أكثر كفار الأرض؟ اختر واحداً من هؤلاء، الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

هذا فرعون نفسه، وعند الموت سيؤمن بكل ما آمن به الأنبياء، ولكن بعد فوات الأوان.

خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط :

أكثر كفار الأرض لا بد أن يؤمن عند الموت بكل ما جاء به الأنبياء، أو الذي رفع لواء الإلحاد في العالم الشرقي، الذي رفع لواء الإلحاد وقال: الدين أفيون الشعوب، عندما مات آمن بكل ما جاء به الأنبياء، إذاً خيارك مع الإيمان خيار وقت، إما أن تؤمن الآن بالخبر الصادق، وأن تعرض عن الدنيا المغرية، وإما أن يكون الإنسان كالذي دونه يخاف بعينه فقط، فعندنا إنسان يتحرك بالخبر، وإنسان يتحرك بالحواس، أكثر الناس متى يشتري الوقود السائل؟ عند موجة البرد القارس، أما هناك قلة قليلة من الناس يملؤون خزّاناتهم وهم مرتاحون، في أيام الحر، لا يوجد ازدحام، ويختار أفضل موزِّع، لا يقف بالمرصاد له، أما حينما تأتي موجة البرد، فمعظم الناس يتهافتون على شراء الوقود السائل، فالإنسان العاقل لا تكون أعماله ردَّ فعل، وحينما يرى الشيء يأخذ موقفاً، لا، يجب أن تخطط، فالعاقل يعيش المستقبل، وكما يروي بعض الأدباء في العصر العباسي أن سمكات ثلاث كنَّ في غدير، فمرَّ صيادان، نظرا إلى السمك في الغدير فتواعدا أن يرجعا، ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك - والقصة رمزية - فسمعتْ السمكاتُ قولهما، أما أكيسُهُنّ - أعقل واحدة - فإنها ارتابت وتخوفت وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، فلم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماءُ من النهر إلى الغدير فنجت، أمّا الكيِّسة فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها، فإذا بالمكان قد سَدَّه الصيادان، فقالت: فرّطتُ، وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ثم إنها تماوتت، تصنعت الموت، فطفت على وجه الماء فأخذها الصياد ووضعها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر فنجت، بعد أن احترقت أعصابُها، وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صِيدتْ، فالناس ثلاثة أشخاص؛ عاقل جداً، وأقل عقلاً، وعاجز غبيّ، فالعاجز تحرِّكه الأفعال، فكلُّ أعماله ردود فعل، يخاف بعينه إلى أن يرى الطريق مسدوداً فيرجع، يرى الطريق النازل أكثر راحة، لا يقرأ اللوحة، أما العاقل يقرأ ويفكر ويخطط ويرسم مستقبله بعيداً عن تأثير الواقع، والعاجز لا يفكر لا قبلاً ولا بعداً.

سورة التكوير فيها أخطر انقلاب في الكون :

هذه السورة سورة التكوير فيها أخطر انقلاب في الكون، كل شيء ترونه؛ الشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار والحيوانات والبشر، هذا كله سيتبدَّل، هناك انقلاب كوني كبير جداً، وما دام كل متوَّقع آتٍ، وكل آت قريب، فكل هؤلاء البشر من آدم إلى يوم القيامة سوف يقفون للحساب في هذا اليوم، فماذا يحدث في هذا اليوم؟ هذه الشمس التي تزيد حرارتها في مركزها على عشرين مليون درجة، وفي سطحها عن ستة آلاف درجة، والتي تزيد ألسنة اللهب فيها عن مليون كيلومتر، والتي إذا أُلقيت فيها الأرضُ تَبَخّرت في ثانية، هذه الشمس سوف تنطفئ، قال تعالى:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

أيْ انطفأت، مع أن العلماء يقولون: مضى على تألُّق الشمس خمسة آلاف مليون سنة، ومع ذلك فإنّ انطفاء الشمس آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته، قال تعالى:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

مثلاً حريق وقع في غابات إندونيسيا لم ينطفئ إلا بعد أشهر، وهذه الشمس سوف تنطفئ، هذا حدث كبير جداً، قال تعالى:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

"إذا " أداة شرط تفيد تحقق الوقوع، فلا بد لهذه الشمس أن تنطفئ، وكل حال يزول، أنا أقول لبعض الأخوة الأكارم: هل بالإمكان أن تستيقظ كل يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله؟ مستحيل، ولن ينجوَ أحد ذات يوم، لا بد من يوم يستيقظ الإنسان على تبدُّل في جسمه لم يكن يعهده، فإذا كان هذا مرض الموت فسوف يتفاقم إلى أن تُعلن الوفاة، واعلموا أن ملك الموت قد تخطَّانا إلى غيرنا، وقد سألت أحد الأخوة الموظفين في دفن الموتى: كم وفاة في دمشق يومياً؟ فقال لي: من ثمانين إلى المئة كل يوم، كم نعياً؟ بين عشرين وثلاثين نعياً يومياً تقرأ فيها، واعلموا أن ملك الموت قد تخطَّانا إلى غيرنا، وسيتخطّى غيرنا إلينا، أما في أحد الأيام فسيقرأ الناس نعي هذا الإنسان نفسه، يذهب ويخرج، يخرج هكذا ويرجع هكذا، وفي أحد الأيام يخرج هكذا ولا يرجع، يدخل إلى المسجد هكذا ويخرج هكذا، وفي أحد الأيام يدخل هكذا ليُصلّى عليه.

الناس رجلانرجل عرف الله فسعدورجل تفلت من منهج الله فشقي :

اعملوا لهذه الساعة، اجتهدوا لهذه الساعة، هيِّئوا لهذه الساعة، هيئوا العمل الصالح، هيئوا التوبة، هيئوا الإنابة إلى الله، هيئوا تحرير الدخل، هيئوا ضبط الإنفاق، هيئوا إقامة إسلامية في البيت، هيئوا تحجيب

البنات والزوجة، هيئوا ضبط اللسان، هيئوا ضبط النظر، هذه الساعة آتية لا بد منها، ما نجا منها نبي، ولا نجا منها ملِك، ألا ترون الملوك يموتون تحت سمعكم وبصركم، هل نجا منها قوي؟ هل نجا منها ضعيف؟ هل نجا منها غني؟ وهل نجا منها فقير؟ قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران: 185]

فلا بد أن نموت، ولا بد من أن نحاسب، ولا بد من أن تُعرض أعمالنا على الله عز وجل، قال تعالى:

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

[سورة آل عمران: 106]

الناس في النهاية رجلان؛ رجل عرف الله فاستقام على أمره، وانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، ورجل تفلت من منهج الله وأساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

هذه الشمس أين هي؟ كورت.

إعجاز الله يتجلى بوضوح في الكون :

قال تعالى:

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

سقطت متناثرة، في الكون تقريباً مئة ألف مليون مجرة واليوم في موقع معلوماتي لإحدى أكبر وكالات الفضاء في العالم في الحادي والثلاثين من تشرين من عام ألف وتسعمئة وتسعة وتسعين عرضت صورة في موقعها المعلوماتي، الصورة لا يمكن أن تشك إلا أنها وردة، وردة جورية، ذات وُريقات حمراء داكنة، وذات وريقات خضراء زاهية، في الوسط كأس أزرق، هذه الصورة هي صورة في جانب نجم اسمه عين القط يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، وهذا معنى قوله تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن:37-38]

الشمس كورت أي انتهت، انطفأت، كما أن هناك قوة عظمى عملت على إيقادها، هذه الكتلة الملتهبة لا بد من قوة عظمى عمِلت على إطفائها، قوة عظمى أوقدتها، وقوة عظمى أطفأتها، قال تعالى:

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

إذا كان هناك مئة ألف مليون مجرة، وفي كل مجرة مئة ألف مليون نجم، وإذا كانت بعض النجوم تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، فكم هذا الكون فسيح؟ فيه كل هذه النجوم، مثل بسيط، نحن في درب

التبانة، مجرتنا درب التبانة، بين الأرض والقمر ثانية ضوئية، بين الأرض والشمس ثماني دقائق، المجموعة الشمسية قطرها الزمني ثلاث عشرة ساعة، مجرتنا طولها مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، فيها مئة ألف مليون نجم، وهناك مجرة اسمها المرأة المسلسلة، تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، حجمها ضرب مجرتنا بثمان وعشرين مرة، و تبدو نجماً واحداً، المرأة المسلسلة تبدو نجماً واحداً لأنها تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، هذا هو الكون.

وصف لبعض ما سيجري يوم القيامة في الكون :

قال تعالى:

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

سقطت وانطفأت وتلاشت وانتهت، شيء سهل، تُطفِئ مئة ألف مليون ضرب مئة ألف مليون نجم متألق، وبعضها له أحجام مخيفة، هناك بعض النجوم أكبر من الشمس بملايين المرات، بالملايين، كل هذه النجوم تنطفئ وتسقط وتتلاشى، أخطر حدث، أخطر انقلاب كوني في هذه السورة، جبال كجبال هملايا ترتفع عن سطح البحر اثني عشر ألف متر، وثلثاها تحت الأرض، اثنا عشر ألف زاد أربعة وعشرون يساوي ستة وثلاثون ألف متر، ستة وثلاثون كيلومتر كتلة، أعلى جبال في العالم، هذه الجبال الصخرية تصبح كالعهن المنفوش، كالرمل، قال تعالى:

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

رمال، كانت جبالاً فأصبحت رمالاً، تحريك هذا الجبل، هل في الأرض قوة بإمكانها تحريك هذا الجبل المتواضع جداً جداً؟ أعني جبل قاسيون، فهل تحريك هذا الجبل قليل؟ كل جبال العالم ستزول، قال تعالى:

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

هذه الكتل الصخرية التي ثلثاها تحت الأرض وثلثها فوق الأرض، هذه الجبال تصبح كالعهن المنفوش، كالصوف المنتوف، تصبح هباء منثوراً، رملاً متحركاً، قال تعالى:

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

كل ما يملكه الإنسان لا قيمة له حينما تكور الشمس وتنكدر النجوم وتسير الجبال:

قال تعالى:

(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

وبعدُ فهاكَ مثلاً: هناك أشياء ذات قيم غالية جداً، فرضاً محل تجاري في سوق رائجة، يقول لك: كل متر بثلاثة ملايين ليرة، هناك محلات في العالم أرقامها فلكية، أسواق رائجة جداً وسط العاصمة، وفي كل عصر هناك أشياء ثمينة، في عصر النبي أثمن شيء الناقة الحبلى لعشرة أشهر، الناقة كانت أول مال هناك، ناقة وفي بطنها مولود، وفي ضرعها حليب، اسمها العشار، فالإنسان متى يهمل هذا المال؟ إذا أصيب بزلزال، إذا كانت عنده مشكلة كبيرة جداً، المال لا قيمة له، في كل عصر هناك أموال، وهناك سيارات، وهناك بيوت فخمة جداً، أخبرني أخ كريم عندما كنت في القاهرة أن هناك بيتاً ثمنه عشرون مليون دولار، أي ألف مليون ليرة، شيء ثمين، لو أن صاحبة هذا البيت - له صاحبة تعمل في الفن - أصيبت بمرض عضال فما قيمة هذا البيت؟

وكل إنسان أيها الأخوة حينما تأتي المصيبة الكبيرة لا شيء له قيمة، لا بيت، ولا مركبة، ولا معمل، ولا شركة، ولا مكانة، ولا اسم، ولا لقب، هذا معنى قوله تعالى:

(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

إنّ الله عز وجل ضرب مثلاً، وأراد أن كل عصر فيه شيء يشبه هذه العشار، الآن هناك سيارة ثمنها خمسة وعشرون مليوناً، فالذي يملك مثل هذه السيَّارة وأصيب بمرض عضال فأيُّ قيمة لها عنده، وهناك بيت ثمنه خمسون مليوناً، ومئة مليون، ومئة وثمانون مليوناً في دمشق، بيت كهذا البيت، ومركبة كهذه المركبة، ومزرعة رائعة جداً، إن أصيب صاحبها بمرض عضال فلا قيمة لها، وكلمة:

(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

أي أن هذا المال النفيس الذي يعتزُّ به العربي حينما تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال، هذه الأموال لا قيمة لها إطلاقاً.

في هذا اليوم العظيمالأموال الثمينة عطلت والحيوانات كلها حشرت :

قال تعالى:

(وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

كل الحيوانات سوف تحشر في هذا اليوم، وقد قال بعض العلماء: ليقتص بعضها من بعض، هي ليست مكلفة، يقتص منها مرة واحدة وينتهي حسابها، هذه الشاة التي نطحت أختها سوف تحاسب، قال تعالى:

(وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

أي الأموال الثمينة عطلت، والحيوانات كلها حشرت، قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)

الماء فيه أوكسجين وهيدروجين، والأوكسجين أشد الغازات اشتعالاً، والهيدروجين أشد الغازات إعانة على الاشتعال، فبقدرة قادر الأوكسجين والهيدروجين يصنعان ماء، والماء تطفأ به النيران، لكن جرِّب أن تضع قطرة ماء في مدفأة، اللهب يزداد، فماذا حصل؟ هذه القطرة تحللت إلى أوكسجين وإلى هيدروجين فانفجرت، فما قولك في هذه البحار التي تساوي أربعة أخماس الأرض، المحيط الهادي، والمحيط الأطلسي، والمحيط العربي، هذه المحيطات الخمسة، وهذه البحار كلها تشتعل فجأة، قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)

أو مُلئت، هذا تفسير آخر، الحواجز بين البحار تحطمت، واتصلت البحار كلها، وملأت الأرض وغطّتها.

ربنا عز وجل أحياناً يقصد الكل ويذكر البعض :

قال تعالى:

(وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

قال بعض العلماء: الجسم نبت مرة ثانية، وألحقت به نفسه، رجع الإنسان ليُحاسب، وقال بعض العلماء: أي المرابون مجموعة، والزناة مجموعة، والصالحون مجموعة، والعُبَّاد مجموعة، والعلماء مجموعة، والنساء العفيفات الطاهرات مجموعة، والزانيات مجموعة، أي كل مجموعة يألف بعضها بعضاً، قال تعالى:

(وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

طبعاً أحياناً ربنا عز وجل يقصد الكل ويذكر البعض، قال لك: العشار عطلت، قس عليها بيوتاً فخمة، من أندر الأموال، قس عليها مزارع فخمة جداً، قس عليها معامل، سمعت عن معمل أدوية يبيع بأربعمئة مليار دولار في السنة، هناك شركات عالمية ميزانيتها أكبر من ميزانية عشر دول، فإذا كان الشاب عمره اثنان وأربعون سنة، والآن معه من تسعون إلى مئة مليار دولار، هذا رقم مايكروسوفت، هذه الشركة الضخمة التي تسيطر على العالم كله في الكومبيوتر، مال ثمين عشار، المركبات عشار، الطائرات، شركة عندها مئتا طائرة، شركة طيران ضخمة لها ميزانيات دول، فشركات التغذية،

وشركات الطيران، والملاحة، هناك ناقلات نفط تتسع لمليون طن من البترول، في داخلها معامل، تأخذ المواد الأولية من أستراليا وتصنِّعها ستانلس، وتنقلها إلى الشرق الأوسط، في أثناء الطريق تُصنَّع، هذه البواخر الضخمة، والطائرات العملاقة، والشركات ذات التعددية العالمية، هذه كلها عشار، في هذا اليوم لا قيمة لهذه الشركات، ولا لهذه المؤسسات، ولا لهذه المباني الضخمة، ولا لهذه الصُّروح.

كل إنسان يعتز بما عندهأما يوم القيامة فلا قيمة لكل هذه الأشياء :

قال تعالى:

(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

قس عليها كل شيء، كل إنسان يعتز بما عنده، من بعض الأدعية قرأت أن النبي عليه الصلاة السلام يدعو بها:

((للهم اجعل حبَّك أحبَّ الأشياء إليَّ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم، فأقر عيني من عبادات))

[كنز العمال عن الهيثم بن مالك الطائي]

يقول لك: هذه الأرض لا أبيعها ولا بمئة ضعف، هذا البيت لا أبيعه، هذه الشركة حياتي، كل إنسان يعتز بشيء، أما في هذا اليوم، يوم القيامة فلا قيمة لكل هذه الأشياء، هناك صناعات راقية جداً، محجوزة لسنة، لو قيل لك: تعالَ تملَّكها واخسر الآخرة، ألم يقل عليه الصلاة والسلام:

((.. فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[متفق عليه عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

النعم الحمراء غالية جداً، قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ* وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

الإيمان باليوم الآخر يمكن أن يكون عقلياً فقط :

الآن قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

أحد العلماء الكبار له رأي رائع، هو أن الإيمان باليوم الآخر يمكن أن يكون عقلياً فقط، وذكرت هذا اليوم في الخطبة، هناك من طغى وبغى، هناك من ظلم، هناك مَن سلب ونهَب، هناك من قتَل، هناك من تجبَّر، هناك من استعلى، هناك من بنى مجده على أنقاض الآخرين، هناك من بنى عزه على إذلالهم، هناك من بنى غناه على إفقارهم، هناك من بنى حياته على موتهم، هناك من بنى أمنه على خوفهم،

ومات، وانتهى الأمر هكذا، وقد يكون موتُه بأحلى صورة، وبأضخم جنازة، وانتهى الأمر، وإنسان استقام وضحّى وقدّم وبذل، إنسان عاش الناسُ له، هذه الأهرامات شعوب بأكملها بنَتها، سخرة بلا مقابل، الأهرامات قبور، حضارة كلها قائمة على قبور، أنا دخلت إلى بعضها ورأيت بعض المتاحف، لكل إصبع للملك الميت غلاف ذهبي، الذهب الموجود في المقابر لا يصدِّقه العقل، كل شيء في هذه القبور كالأسطورة، فإنسان عاش الناس جميعاً له وأُذِلوا وسُخروا، وهكذا تنتهي الحياة، إنسان عاش الناس له، وإنسان عاش للناس كالأنبياء، الأنبياء أعطَوْا كل شيء، والأقوياء أخذوا كل شيء، وتنتهي الحياة هكذا بلا دار آخرة تُسوّى فيها الحسابات، ويُنصر فيها المظلوم، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تنتهي الحياة هكذا، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

لا يوجد حساب، إنسان قد يكون عنده زوجة، وأهلها ليسوا في البلد، فظلمها وقهرها، وأخذ أموالها ثم طلقها، وانتهى الأمر، ولا يوجد إله يحاسب، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

[سورة القيامة: 36-40]

بلى.

تعالى الله أن يخلق الخلق عبثاً :

قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ*فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

[سورة المؤمنون: 115-116]

فتعالى الله أن يخلق الخلق عبثاً، مهلاً ألا يوجد الآن قوي وضعيف على الأرض، هذا هتلر من أجل نزواته الشخصية أشعل نار الحرب العالمية الثانية التي ذهب فيها خمسون مليون قتيل، هكذا تنتهي الحياة؟ انتحر وانتهى الأمر، أم هناك حساب؟ قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ*فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

[سورة المؤمنون: 115-116]

بنت، قطعة من الجمال، بريئة، طاهرة كان يأخذها أبوها ويحفر لها حفرة، ويرميها في الحفرة، ويهيل عليها الرمل، وتقول: يا أبت، يا أبت، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

وفي العالم الآن يقال: تطهير عرقي، أي خمسة وثلاثون ألف امرأة مسلمة اغتصبت في البوسنة والهرسك، كم تسمعون في الأخبار من المقابر الجماعية في أوروبا، وفي بولونيا، وفي هذه البلاد التي تنتمي إلى الإسلام، كم؟ هذا الذي مات لا ذنب له، ما قتل، ولا سرق، ولا فعل، بل لأنه مسلم، تطهير عرقي، نقرأ بعض الأحاديث أن في آخر الزمان موت كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لِمَ يقتل، ولا المقتول فيمَ قُتِل، هذا القاتل في الحروب التي كانت حولنا، قناص، كلما مر إنسان يقتله، هكذا، دون أن يعرف من هو، أهذا ينجو، وليس مِن مشكلة أبداً؟ لا، وألفُ لا، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

لا بد من يوم تردُّ فيه الحقوق لأصحابها :

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ لَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فما القول فيما فوق الهرة؟ وأنا أذكّر بهذه الكلمة: كل ما يشبه هذه الكلمة يُحمل عليها، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

كم مِن إنسان ضعيف أُخذ مالُه، وكم مِن إنسان لا يحسن المرافعة فضاع حقه، وكم من إنسان أُخذت أرضُه، وكم مِن إنسان اغتصب بيته بقوة القانون، ويقول: أنا مستأجر، فهل من المعقول أن بيتاً ثمنه مليون تستأجره بمئة ليرة شهرياً؟! كيف بقوة القانون؟

(أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ*لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة المطففين:4-5]

قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ)

وقس عليها كل شيء:

(بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

لا يمكن أن تنتهي الدنيا إلا بحساب دقيق :

أخواننا الكرام، لا يمكن أن تنتهي الدنيا هكذا إلا بحساب دقيق، بكل سنة يموت في العراق خمسمئة ألف طفل جوعاً ومرضاً، وهؤلاء الغربيون يعيشون في بحبوحة تفوق حد الخيال، هم يحاصرون هذا البلد، ألن يُحاسبوا؟! هناك دار آخرة، خمسمئة ألف طفل يموتون جوعاً ومرضاً كل عام، ولا أحد يفكر فيهم، هذه هي الموءودة بعينها:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

الفتيات اللواتي اغتصبن في البوسنة والهرسك، خمسة وثلاثون ألف فتاة اغتُصِبت، المقابر الجماعية التي تمت في أوروبا، في إفريقيا ذُبح خمسمئة ألف إنسان في ليلة، قبل سنتين أو ثلاث:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

قس عليها كلها، هناك إله موجود، وسيحاسب، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

وقال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

بأي لحظة قد يقع الماكر في قبضة الله ويذوق عذاب النار إلى أبد الآبدين :

هذا المكر، مكر الإنسان الذكي، يظن نفسه ذكياً وليس مع الله ذكي، بأي لحظة قد يقع في قبضة الله عز وجل، ويذوق عذاب النار إلى أبد الآبدين، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ* فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47-48]

هذا القرآن شفاء للنفوس، أنت كن مستقيماً وانجُ بجلدك، واحرص على ألاّ يتعلق بك حقُّ إنسان، وكن مع الله عز وجل، ولا تخش أحداً، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

قد يقال للإنسان: لِم طلقت زوجتك؟ ماذا فعلت معك حتى طلقتها وشرّدتها؟ لماذا فعلت كذا؟ لماذا فعلت كذا؟

كل إنسان له باطن وظاهر لكن المؤمن سريرته كعلانيته وباطنه كظاهره :

قال تعالى:

(وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)

هناك أسرار، كل إنسان عنده ملفات، لكن بذكاء بارع يخفيها عن الناس، يظهر أحسن ما عنده، أما هذه الملفات لو نُشرت لفُضح صاحبها، هناك بعض البنوك في أمريكا إذا كان للمودِع حجم كبير يورِّطونه في فضيحة نسائية، فيصورونه، فإذا ما طالبهم بسحب الرصيد هدَّدوه بنشر هذه الصورة، فيخاف، هناك ملفات، فلو كُشفت هذه الملفات لكُشف الناس معها، قال تعالى:

(وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)

كل إنسان له باطن وظاهر، له سر وعلانية، لكن المؤمن - ونرجو الله أن يكون المؤمن هكذا - سره كعلانيته، وسريرته كعلانيته، وباطنه كظاهره، وخلوته كجلوته، ليس عنده ازدواجية، لكن أناساً كثيرين يتقنون التمثيل، لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وهم أمام الناس متألقون، فإذا كان يوم القيامة انكشفت الحقائق، ونُشرت الصحف، قال تعالى:

(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)

هذه القبة الزرقاء ذهبت لم يعُد ثمة نجوم، لكن الآن في الليل ترى قبة مليئة بالنجوم.

الآيات التالية تبين أن الجنة أمام المؤمنين وجهنم أمام الكافرين :

قال تعالى:

(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ* وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ*وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ*عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

إذا كان الإنسان محكوماً عليه بالإعدام، فإلى أن يُشنَق كلما وضع العسكري المفتاح في الباب بلغ قلبه الحنجرة، ويظن أنهم جاؤوا لتنفيذ الحكم، فيمكن أن يموت مليون موتة قبل تنفيذ الحكم، هكذا، قال تعالى:

(وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ*وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

الجنة أمام المؤمنين، وجهنم أمام الكافرين، في هذه اللحظة:

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

ماذا هيَّأت لهذا اليوم؟ أنا أنصح نفسي قبلكم، أن تفكر كل يوم ماذا هيَّأت لهذا اليوم؟ حينما:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ *وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ *وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ *وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ *وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ*وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ *وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ *وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ *وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ *وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ *وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

كل شيء يتبدَّل وكل حال يزول :

ماذا أحضرت لهذا اليوم؟ هل أحضرت تربية أولاد نشؤوا على طاعة الله، أم تركتهم هكذا هملاً، فانغمسوا في الرذائل؟ هل أحضرت زوجة مؤمنة دللتها على الله، أم استمتعت بها وتركتها هملاً؟ هل هيّأت صدقة جارية تنتفع بها في هذا اليوم؟ هل دعوت إلى الله؟ هل أمرت بالمعروف؟ هل نهيت عن المنكر؟ هل أطعمت الفقراء؟ هل رعيت المساكين؟ هل تكفلت بالأيتام؟ هل بنيت المساجد، ماذا فعلت؟ يا بشر!! لا جهاد ولا صدقة، فَبِمَ تلقى الله إذاً؟ قال تعالى:

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

أنا واللهِ أتمنى على كل واحد من الأخوة الحاضرين أنْ يفكر تفكيراً جدياً بعمل صالح يلقى الله به، أما أنْ يعيش الإنسان ليأكل، يقولون: نحن نعيش كغيرنا، فهذه السورة فيها أخطر انقلاب في الكون، كل شيء يتبدَّل، وكل حال يزول، في هذا اليوم لا بد أن نصل إليه، مرة قرأت كتاباً عن قصص العرب، من أمتع الكتب، أربعة أجزاء، بعد أن أنهيت قراءته قلت: سبحان الله الأغنياء الذين قرأت عنهم هذا الكتاب كلُّهم ماتوا، والفقراء ماتوا، والأقوياء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والأذكياء ماتوا، والحمقى ماتوا، وكل أجناس الذين قرأت عنهم جميعهم تحت أطباق الثرى، ونحن، هذا الجمع بعد مئة عام لن تجد واحداً منا فوق الأرض، كلنا سنكون تحت الأرض، فنحن في وَهْمٍ، الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، نحن في زمن سينقضي، والدنيا ساعة فاجعلها طاعة.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بهذه السورة، وسأتابع شرحها إن شاء الله في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التكوير 081 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 15-29 ، الإنسان مخلوق مكرّم ومكلّف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-04-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يلفتنا إلى خلقه العظيم وإلى كونه الذي صنعه بيده :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا مع نهاية الدرس الأول من سورة التكوير في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ *وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ *وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ*عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

وآيات اليوم، قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ *الْجَوَارِ الْكُنَّسِ *وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ *وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ *إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ *ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ *مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ *وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)

إلى آخر الآيات.

أيها الأخوة الكرام، الشيء الذي يُستنبط من تسلسل آيات السورة الواحدة أن ربنا جل جلاله من حين إلى آخر يلفتنا إلى خلقه العظيم، إلى كونه الذي صنعه بيده من أجل أن يكون هذا الكون الذي هو صنعُ اللهِ عز وجل، والذي أتقنه وسيلةً لمعرفة الله.

إذا أقسم الله بشيء من خلقه فليلفت نظرنا إلى قيمته وخطورته :

الله عز وجل حينما يقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس: 1]

أي يقسم، فالواو واو القسم:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس: 1]

وقال تعالى:

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

[سورة الفجر: 1-2]

هذه الصيغة صيغة قسم، والمُقسِم دائماً يقسم بشيء عظيم، فهذه الآيات الكونية التي هي ِمن خَلق اللهِ عز وجل، كيف يقسم الله بها وهو خالقها؟ هناك من يقول: إن هذه الواو إذا جاءت في القرآن الكريم ليست واو القسم، إنما هي واو لفت النظر، لأن الله عز وجل هو الأعظم، وهو الذات الكاملة، وكل شيء دونه، فإذا أقسم الله بشيء من خلقه فليلفت نظرنا إلى قيمته، وإلى خطورته، وإذا قال الله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

هذا الشيء من خلقه، كن فيكون، وهناك معنى ثالث لطيف جداً هو أنه إذا قال إنسان لإنسان: والشمس في كبد السماء ساطعة، قلت له: أتقسم أن هذه الشمس ساطعة؟ يقول لك: هذه حقيقة صارخة لا تحتاج إلى قسم، شيء طبيعي جدا أن الشمس ساطعة، وأن كل الناس يرونها ساطعة، فهذا شيء بديهي مسلم به، لا يحتاج إلى قسم.

الآيات الكونية الصارخة الدالة على عظمة الله لا يحتاج إلى أن يقسم الله بها :

على كلٍّ لك أن تحمل قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

أي هذه الآيات الكونية الصارخة الدالة على عظمة الله لا يحتاج إلى أن يقسم الله بها:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

وقال بعضهم: "لا" زائدة، أي أقسم، وعلى كلٍّ هذه الآية الكونية، إنْ قال الله:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

أقسم بها لعظمتها ولأنها من خلقه، هذا أوّلاً، وإن أقسم بها فليُلفِتَ نظرنا إليها ثانياً ولتكون أداة لمعرفة الله، وإن لم يقسم بها فلأنها من خلقه، فلا داعي لأنْ يقسم بها، وهذا ثالثاً.

الخنس: النجوم، وكلكم يعلم أن في الكون، طبعاً الرقم التقريبي الآن مئة ألف مليون مجرة، والعدد المتوسط في المجرة الواحدة مئة ألف مليون نجم، هذا ما علمه الإنسان اليوم، قال تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 85]

وقال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 255]

ربنا عز وجل وصف النجوم كلها بصفة واحدة :

يكفي أن أنقل لكم أن في برج العقرب نجماً أحمر اللون متألقاً يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وبينهما مئة وستة وخمسون مليون كيلومتر، وهذا النجم المتألق الصغير يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، فيكفي أن أقول لكم: إن مجرتنا درب التبانة عدد نجومها يقترب من مئة ألف مليون، والمجموعة الشمسية التي نحن فيها هي هذه النجوم التي نتحدث عنها؛ المريخ والزهرة وعطارد والمشتري وبلوتو وغيرها، هذه النجوم كلها لا تزيد أقصى مسافة فيها على ثلاث عشرة ساعة، بينما طول مجرتنا مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، هناك مجرة اسمها المرأة المسلسلة أكبر من مجرتنا بثمانية وعشرين ضعفاً، وتبدو نجماً واحداً لأنها بعيدة عنا بعداً شديداً، مليونا سنة ضوئية تبعد عنا، بينما أقرب نجم ملتهب إلى الأرض يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، فلو أن هناك طريقاً إليه وركبنا مركبة أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون سنة كي نصل إلى أربع سنوات ضوئية، فكيف بنجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، فكيف إلى المرأة المسلسلة مليونا سنة، فكيف إلى أحدث مجرة تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، هذا معنى قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

أما لماذا سميت الخنس؟ لأنها تخنس وتتراجع، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ*مَلِكِ النَّاسِ*إِلَهِ النَّاسِ*مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

[سورة الناس: 1-4]

فربنا عز وجل وصف النجوم كلها بصفة واحدة.

لولا حركة الكون لأصبح الكون كله كتلة واحدة :

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

أي أنّ كل نجم في السماء يدور في مسار مغلق، والمسار المغلق دائرة أو شكل بيضوي، معنى مغلق أي أن هذا النجم ينطلق من هذا المكان ويرجع إلى المكان نفسه، صفة عامة مطردة في النجوم كلها، وأنها تدور في مسار مغلق، وما دام المسار مغلقاً أي أنها تعود إلى مكان انطلاقها النسبي، فالخنس تنطلق وترجع، تظهر وتختفي، تقترب وتبتعد، وهذه الخصيصة في الكون دقيقة جداً، ذلك لأن هناك في الكون قانون الجاذبية، هذا القانون أن كل كتلة تجذب الكتلة الأصغر إليها، وهذا الجذب متعلق بمربع

المسافة بين النجمين، متعلق بالكتلتين ومربع المسافة بينهما، لو أن هذه النجوم واقفة لوجَبَ أن يصبح الكون بأكمله كتلة واحدة، فما الذي يجعله مجرات ونجوماً وكواكب وأقمارً وكازارات ومذنبات؟ ولماذا الكون على وضعه الراهن؟ لأنه متحرك، والحركة ينشأ عنها قوة نابذة عكس القوة الجاذبة، فما دام هناك حركة فهناك قوة نبذ، امسك دلواً من الماء وأدِره هكذا، حينما يكون الدلو أو هذا الوعاء في الأعلى وفتحته نحو الأسفل، وقانون الجاذبية يدعو الماء إلى أن يسقط لماذا لا يسقط الماء؟ لأنه في أثناء الدوران نشأت قوة نابذة عكس القوة الجاذبة، وهذا مبدأ المجففات، كيف تجفف قماشاً؟ عن طريق التدوير السريع، فبهذا الدوران السريع الشيء ينطلق إلى المحيط، إذاً لولا حركة الكون لأصبح الكون كله كتلة واحدة، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

أي هذه النجوم التي تسير في مسار مغلق، فبينما هي أمامك تختفي لأنها تسير، ثم تعود إلى مكان انطلاقها النسبي، هذا معنى كلمة " الخنس".

الشيطان ليس له على الإنسان سلطان إلا الوسوسة :

الشيطان بالمناسبة "من شر الوسواس الخناس"، لمجرد أن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يبتعد الشيطان، قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

[سورة إبراهيم: 22]

إنّ الشيطان ليس له على الإنسان سلطان إلا الوسوسة، أنت بمجرد أن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ يبتعد عنك الشيطان، فلا تحتاج إلى وسيلة أخرى، لا إلى إنسان يفك لك هذا السحر، ولا إلى شيخ يخرج منك هذا الجنيِّ، هذه كلها خزعبلات وضلالات وترهات ما أنزل الله بها من سلطان، قال تعالى:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

[سورة الأعراف: 200]

وقال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف: 201]

النجوم من أضخم الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل :

قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

النجوم من أضخم الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل، والأرض نجم صغير جداً، والشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، هناك نجوم حجمها أضعاف الشمس بمئة ألف مرة، واللهِ هناك أرقام أيها الأخوة لا يمكن أن يستوعبها العقل، وهي حقائق مبرمة، وهذه النجوم الجواري الكنس تجري، والحركة تحتاج إلى طاقة، تحريك سيارة يحتاج إلى طاقة، والطاقة غالية جداً، فهذه الحركة المذهلة، من يحرك هذه النجوم؟ هناك مجرات تزيد سرعتها عن مئتين وأربعين ألف كيلومتر في الثانية، مجرات ضخمة جداً، من يحركها؟ من يعطيها هذه القوة؟ نحن عندنا في الفيزياء مبدأ العطالة، الأجسام ساكنة، فإذا تحَّركتْ معنى ذلك أنها تلقَّت قوة دافعة، فما هي هذه القوة التي دفعت النجوم إلى الحركة؟ الله عز وجل، الأجسام المتحركة ترفض السكون، والأجسام الساكنة ترفض الحركة، فهذا يحتاج إلى قوة كبيرة جداً، إطفاء الشمس يحتاج إلى قدرة هائلة، وتألقها يحتاج إلى قدرة فائقة، الآن تحريكها يحتاج إلى قوة كبيرة جداً، والشمس تجري لمستقر لها، فمن أعطاها هذه الحركة؟ أنتم أحياناً تستمعون في الأخبار إلى أن مركبة أُطلقت، قد يقول قائل: لمَ لا نطير إلى هذا الكوكب بطائرة عادية؟ لأن أقصى سرعة للطائرة لا يمكن أن تجعلها تخرج عن جاذبية الأرض، إلا في حالة نادرة جداً، أن يكون هناك وقود سائل، وأن يشتعل الوقود، وأن ينشأ عن الاحتراق ردُّ فعل عالٍ جداً، وأن تتجاوز السرعة كذا كيلومتر في الثانية، حتى تستطيع هذه المركبة أن تتحرر من جاذبية الأرض، فحتى يتمكن الإنسان من إخراج مركبة من جاذبية الأرض فتحتاج إلى سرعة كبيرة جداً جداً، وهذه السرعة لا تكون إلا بمحرك يقوم على الفعل وردّ الفعل، والاحتراق الشديد يولد قوة مندفعة بعكس جهة الاحتراق، وهذا ما يكون في المركبات الكبرى، من أجل أن نخرج من جاذبية الأرض، فإذا خرجنا من الجاذبية انعدم الوزن، فمعنى ذلك أن الوزن من آيات الله العظيمة، شيء له وزن، هذا الكأس تضعه فيستقر، قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل: 61]

أن تكون الأرض مستقرة وهي متحركة وبلا صوت فهذا من فعل الله تعالى :

من جعل هذه الأشياء تستقر على الأرض؟ بفعل الجاذبية، لولا الجاذبية لانعدم قرار أيّ شيء، ورائد الفضاء قد يستيقظ في منتصف الليل فإذا هو في سقف المركبة، لأنه لا وزن له، ومن أصعب الأشياء

استخدام الحاجات، يريد أن يأخذ فرشاة أسنان فإذا هي في السقف، أنت في الأرض تضع حاجاتك على مكان فتستقر فيه، فهل مِن معقول أن يجد الإنسان حاجاته في السقف؟! هذا ما يحدث في أماكن انعدام الجاذبية فيما بين الأرض والقمر، لذلك قوله تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل: 61]

أيْ مَن جعل هذه الأشياء تستقر على سطح الأرض؟ إنه الله عز وجل، بل مَن جعل هذه الأرض مستقرة استقراراً دقيقاً، هذا المسجد بني قبل أربعمئة عام، لو أن هناك اهتزازاً خفيفاً لتداعى هذا المسجد، والدليل الزلازل، زلزال بسبع درجات على مقياس ريختر تهدّمت معه المدينة، وأصبحت ركاماً بعضُها فوق بعض، إذاً أن تكون الأرض مستقرة وهي متحركة وبلا صوت، فهذا من فعل الله تعالى، قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل: 88]

الكون مظهر لأسماء الله الحسنى ومظهر لعلمه ولقدرته ولقوته سبحانه :

بلا صوت، محرك ماء بسيط يعكّر على المتنزهين نزهتهم، مركبة بسيطة، حفر طريق أحياناً، يأتون بآلات تخرج الإنسان من جلده من ضجيجها، مع تخريشها لطبلة الأذن، وهذه الأرض تسير بسرعة ثلاثين كيلومتراً في الثانية، وتدور حول نفسها بسرعة ألف وستمئة كيلومتر في الساعة، ومع ذلك من دون ضجيج، فالطائرة من أجل أن تطير وعليها ثلاثمئة راكب لها ضجيج يصم الآذان، بل إن مستوى ضجيجها يفوق الحدّ المقبول في الأذن، مئة وخمسة وعشرون ديسيبل، هذا لإقلاع الطائرة، والإنسان لا يحتمل فوق خمسة وسبعين ديسيبل، لذلك الذين يسكنون إلى جوار المطارات يصابون بضعف في السمع، فهذه الأرض المتحركة بلا صوت من نِعم الله سبحانه، قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل: 88]

أيها الأخوة، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، مظهر لعلمه، مظهر لقدرته، مظهر لحكمته، مظهر لرحمته، مظهر لقوته، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ *الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)

تجري، والشمس تجري، والقمر يجري، والنجوم تجري، ولكن الجريان بحكمة بالغة، فالقمر يجري ويدور حول الأرض، وهناك تفاضل بسيط بين دورته ودورتها، ولولا هذا التفاضل لرأى الناسُ القمرَ بدراً كل حياتهم، أمّا إنْ يكون محاقاً ثم هلالاً ثم بدراً، فما الذي جعله بهذه المنازل؟ لأن هناك تفاضلاً طفيفاً بين دورته حول الأرض وبين دورة الأرض، فهذا التفاضل بقدرة قادر، وحكمة حكيم، وعلمِ عليم.

الله عز وجل اختار اللغة العربية لغة لكلامه :

قال تعالى:

(الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ *الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)

الكنس، أي تختفي، لذلك حينما ينظر الإنسان إلى قبّة السماء، كل فصل في برج، ألم يقل الله عز وجل:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

[سورة البروج: 1]

هذه الأبراج الاثنا عشر التي نراها في كل فصل هي أبراج تظهر في فصل وتختفي، فهذا معنى الكنس، نجوم تظهر ونجوم تختفي، قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

دقّقْ في هذه الصيغة، "السين" تفيد معنى الشيء الداخلي، تقول: همس، حس، أنس، لمس، وكل كلمة فيها السين فيها معنى الأنس، والشيء اللطيف الداخلي الذاتي، كل كلمة فيها راء فيها معنى التكرار، جرَّ، مرَّ، كرَّ، كل كلمة فيها قاف فيها معنى الصدم، طرق، لصق، كل كلمة فيها غين فيها معنى الغيبوبة، غاب، غرب، غيبة، غموض، شيء داخلي، طبعاً هذه الخاصة مما امتازت به اللغة العربية، أي هناك معانٍ لحروفها، ومن أطرف ما قرأت في هذا المقام أن الذي يغرق " غرق " فالغين غاب عن الأنظار، فوُضعت الغين، وتتالى سقوطه فوُضعت الراء، ثم وصل إلى القاع فوضعت القاف، وهذا من أسرار اللغة العربية، لأن الله عز وجل اختارها لغة لكلامه.

اتساع العربية في التعبير :

في اللغة العربية تنوع عجيب في المفردات، هذا يُعبر عنه بمقولة: اتساع العربية في التعبير، فكلمة "نظر" معروفة عندكم، لكن رأى تفيد معنى آخر، قد تكون النظرة ليست مادية، إنها رؤية قلبية، تقول:

رأيت العلم نافعاً، أما (نظر) شزراً، فهناك احتقار مع النظر، نظرت إلى السارق شزراً، أمّا (شَخَصَ) فهناك خوف مع النظر، قال تعالى:

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الأنبياء: 97]

هكذا، أما إذا تمطى، نقول: استشرف، نظر وتمطى، وإذا أمسك بيده قماشاً، نقول: (استشفّه)، أما إذا اتّسعت حدقة العين نقول: (حدّق)، أما إذا ظهر ما تحت الجفن من لون أحمر نقول: (حملق)، ظهر حملاق عينه، أما إذا نظر مع المحبة، نقول: (حدّج)، وروي عن ابن مسعود أنه قال:

((حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم))

[فقه اللغة عن ابن مسعود]

أي ما أحَدُّوا النظر إليْكَ، أمّا إذا كان مع النظر سرور نقول: "رنا"، رنوت إلى المنظر، أما الشيء ظهر و اختفى نقول: "لاح"، أما إذا نظرت وأعرضت، أُمِرتَ بغض البصر، رأيت الباب مفتوحاً، ووراءه امرأة فغضضت بصرك نقول: لَمَحَ، إذاً لاح، وحدج، ورنا، وبحلق، حملق، حدق، استشرف، استشف، نظر، رأى، نظر شذراً، شَخصَ هذه كلها كلمات دقيقة جداً تعبِّر عن حالات النظر، لذلك قال العلماء: العربية واسعة جداً في التعبير، فهناك:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

هذا يُسمى في اللغة ثنائيّاً مضعَّفاً، مثل: زلزل، وعسعس، وقلقل، ودمدم، هذه دمدم، وعسعس وزلزل صيغتها ثنائي مضعف يفيد التكرار، زلزل، عسعس، أي يختفي تدريجياً، وقال بعض العلماء: يأتي تدريجياً.

الليل والنهار آيتان دالتان على عظمة الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

تكون في ظلام دامس لا ترى شيئاً، قبيل الفجر ترى خطاً أبيض في الأفق، هذا الخط يمتد ويزداد إلى أن ترى الأشياء أمامك، ثم الشمس ساطعة، يا سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار؟ قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

الليل والنهار آيتان دالتان على عظمة الله عز وجل، هناك نقطة دقيقة، وهي أن الإنسان عندما فحصوا أجهزته، وجدوا أن لها برنامجاً ليلياً، وبرنامجاً نهارياً، ضربات القلب، ضغط الدم، إفراز الهرمونات، اتساع الأوعية والشرايين، عملية الهضم، كل الأجهزة الدقيقة لها برنامج ليلي وبرنامج نهاري، لأن الله

جعل النهار معاشاً، وجعل الليل لباساً، فلا داعيَ أن تكون ضربات القلب مئة في الليل، بل هي في الليل خمس وستون، وأحياناً ستون، الرياضيون خمس وخمسون في الليل، القلب مرتاح، في النهار ثمانون، مئة وعشرة، الضغط في الليل أقل من الضغط في النهار، فالإنسان إذا سافر تختل ساعته البيولوجية، فهو في أمريكا وقد وصلها لتوه فهو مبرمج على سورية، هذا الوقت في سورية ليل، وفي أمريكا يميل نهار، فيميل نحو النوم، في الليل يستيقظ، ويسميها العلماء: الساعة البيولوجية، فلا بد له من يومين أو ثلاثة أيام حتى يبدأ برنامجاً جديداً يتأقلم مع نهار وليل أمريكا، فالله جعل الليل لباساً، وجعل النهار معاشاً، وأشياء دقيقة جداً في خلق الإنسان، فإذا أدخلتَ إنساناً إلى مغارة لا يرى فيها شيئاً، وفحصت أجهزته، لها نظامان، إذا كان النهارُ خارج المغارة فهناك نظام لأجهزته، وإذا كان الليل خارجها، فهناك نظام، لأنه في ظلام دامس، فهذا من عظمة خلق الإنسان، مبرمج برنامجين؛ برنامج نهاري فيه نشاط، وحيوية وتيقظ، وتنبه، وضغط، وضربات قلب، وإفراز هرمونات، وهناك نظام ليلي يعتمد على الراحة والسكون، وما إلى ذلك، بل إن من ألطف ما قرأت عن آلية النوم أن الأعصاب في الليل تتباعد، فالأصوات إذا مشت في هذه الأعصاب ترى فجوة لا تستطيع تخطيها، فالنائم لا يسمع شيئاً، أمَّا لو أنك كنت تمشي في بستان فرأيت ساقية عرضُها أعرضُ من قفزتك، فأنت لا تمشي، أما لو أن وحشاً تبعك لقفزتها، فإذا كان الصوت شديداً يستيقظ النائم، ومع الأصوات العادية لا تقفز، أما الصوت غير الطبيعي فيستجيب له ويستيقظ النائم.

الليل فيه حبْسُ نَفَس وفي الصباح يتنفس الإنسان :

قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ* وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

الحقيقة هنا يوجد جمال راع في التعبير:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ*وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ *وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

ظهر الصبح، كأن الليل فيه حبْسُ نَفَس، وفي الصباح يتنفس الإنسان:

(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

هذه التي أقسم الله بها أو لم يقسم أو أراد أن يلفت نظرنا إليها، قال عن هذا القرآن:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

سيدنا جبريل رئيس الملائكة، مقرب إلى الله، لا يعصي اللهَ ما أمره، ويفعل ما يؤمر، هذا الرسول الكريم، ذو قوة، كريم.

الضغوط على المؤمن تنقله من حال إلى حال ومن مرتبة إلى مرتبة:

يقول لك: حجر كريم، ألماس، الياقوت، صافٍ، نقي، غالٍ، قلت لواحد البارحة: ما أصل الماس؟ قال: تفضل، قلت له: الماس أساسه فحم، ومن شدة الضغط وشدة الحرارة أصبح ألماساً، قلت له: وكذلك المؤمن، كلما جاءته ضغوط شديدة وانفعل انفعالاً شديداً يزداد إيمانه، حتى يصبح كالماس، فالإنسان المؤمن لا يتألم من شدة الضغط، فالضغوط تجعل قطعة الفحم ألماساً، بل إن الماس الصناعي يأتون بالفحم ويضغطونه ويضعونه في حرارة عالية جداً فيغدو ألماساً، لكن ليس كالأصلي، أنا رأيت ألماسة في متحف في استنبول، قالوا: ثمنها خمسة عشر مليون دولار، أو مئة وخمسون فيما أذكر، كالبيضة تماماً، كأنها شعلة، ائتِ بقطعة مشابهة لها من الفحم، كم ثمنها؟ ليس لها ثمن، فالضغوط على المؤمن تنقله من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن مرتبة إلى مرتبة، ومن حيِّز إلى حيِّز، فرسول كريم كالحجر الكريم، صافٍ، نقي، غالٍ، والمؤمن غالٍ على الله كثيراً:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي، ابن ماجه عن سهل بن سعد]

لهوانها على الله أبى أن تكون عقاباً لأعدائه، أو إكراماً لأوليائه، فقد تجد مؤمناً فقيراً، لأن الله عز وجل يحبه، وفي الحديث:

((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤمِنَ كَمَا يَحْمِي الرَّاعِي الشَّفِيقُ غَنَمَهُ مَرَاتِعَ الهَلَكَةِ))

[كنز العمال عن حذيفة]

قال تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: 15]

هذه مقولته هو، وقال تعالى:

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر: 16]

المرء يُبتلى على قدر دينه وإيمانه :

هذا كلام غير صحيح:

(كَلَّا)

[سورة الفجر: 16]

أداة ردع ونفي، أي: يا عبادي ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، فالإنسان المؤمن إذا كان دخله قليلاً فلا ينبغي أن يشعر أنه هيِّن على الله، لا، أو مرضتَ، أو عندك مشكلة اجتماعية، أو مشكلة أسرية، فإنّ الله اختارها له، قضاء وقدراً، وليس من تقصيره، فلا ينبغي أن تجعله يتطامن، ويخجل، ويشعر بهوانه على الله أبداً:

((عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنْ حَرِّ الْحُمَّى قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[أحمد عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ]

المرء يُبتلى على قدر دينه وإيمانه، والابتلاء يعطي الإنسان قوة دافعة إلى الله، فما من محنة إلا ووراءها منحة من الله، وما من شدة إلا ووراءها شِدَّة إلى الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

هو سيدنا جبريل، هذا كتاب كريم، كتاب لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه، كتاب فيه حق صِرف.

(ذِي قُوَّةٍ)

إنّ الله عز وجل أعطاه قوة ليتلقى هذا الكلام منه عز وجل، وأن يوصله إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وهو أمين وحي السماء، ومما يُسمَّى به سيدنا جبريل: أمين وحي السماء، فدينك حينئذٍ ليس من اجتهاد الناس، ولا من تأملاتهم، ولا من تصوراتهم، ولا من ثقافتهم الأرضية، دينك من عند الله، لذلك فإنّ الطرف الآخر يحلو له أن يسمِّيَ الدين تراثاً، ليس تراثاً، التراث من صنع البشر، والتراث ثقافة أمة، وعاداتها، وتقاليدها، ذاك هو التراث، أما ديننا فهو وحي السماء، والشيء المعصوم هو الوحي فقط.

العلم التجريبي يصيب ويخطئ أما الوحي الإلهي فحقٌّ صرف :

أضرب لكم مثلاً؛ أنت أمَام مذياع قديم، فتحتَ داخله فإذا فيه " لمبات" نزعت واحدة فانقطع الصوت، فقلت: هذه للصوت، هذا اسمه علم تجريبي، هي ليست للصوت، ولكنها وُضعت على طريق الصوت، فلما نزعتها وانقطع الصوت توهَّمتَ أنها للصوت، إنها على طريق الصوت، فعلمُ الإنسان علم تجريبي، يصيب ويخطئ، أما لو أنك توجّهتَ إلى مخترع هذا الجهاز لقال لك: هذه لسبعة عشر هدفاً، هي هكذا، فحينما تأخذ الحقيقة من الله مباشرة، هذا هو الوحي، وحينما تأخذ الحقيقة من التجارب، هذا اسمه علم تجريبي، فالعلم التجريبي يصيب ويخطئ، أما الوحي الإلهي فحقٌّ صِرف، الحقيقة قد نصل إليها عن

طريق التجربة، وقد نعرفها عن طريق الوحي، لكن مع الوحي هناك عصمة وصواب مطلق، أما مع التجربة فهناك خطأ وهناك صواب، وأحيانا التجربة لا تسمح لك أن تستفيد من هذا الخطأ، أنت أمام كرة حديدية يا ترى أهي قنبلة؟ لا، ليست قنبلة، احترت، تعال نجرِّب، لو أمسكتها وانفجرت خلال عشر الثانية لعرفتَ أنها قنبلة، ولكن لم يبق لك في الحياة وقت تنتفع بهذا الدرس، وهذا ما حصل للعالَم الآن، فقد تركوا الدين، وانفلتوا، وانهاروا في إباحية واختلاط وزنى وشذوذ، وأصبح هذا الانحراف جزءاً من حياتهم، وبعدما عرفوا الحقيقة المرة لم يعودوا يستطيعون الخروج منها، فليس كل مَرة تستفيد من التجربة، في معظم الحالات التجربة مُرة، لن تسمح لك أن تستفيد منها، أما حينما تكون مع الوحي، فالوحي كله واضح، إنّه وضوح وتعلُّم من دون ثمن.

أيها الأخوة، فالوحي حق مطلق، وعصمة مطلقة، أما التجربة ففيها خطأ وفيها صواب، نصيب ونخطئ، فإذا أصبنا ربما لا نستطيع أن ننتفع من هذه التجربة، لذلك فعظمةُ هذا الدين من عند خبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

الوحي معصوم من الخطأ وهو يقدِّم لنا خبرات خالق الكون :

الخبير أنزل هذا القرآن، فأنت حينما تتبع هذا الكتاب فلن تخطئ، ولن تقع في شر عملك، ولن تقع في مطبٍّ، ولا تحتاج إلى أن تدخل محاكم، لأنه كتاب وقاية، وكتاب هداية، وكتاب منهج، فالوحي عصمة مطلقة، أما العلم فخطأ وصواب، مثلاً؛ العالم الشرقي قبل انهيار الاتحاد السوفيتي بسنتين أو ثلاث حُرمت فيه الخمر، بعد أن شعروا أن أربعة أخماس طاقاتهم ومواردهم تذهب إلى الفودكا، إلى الخمر، فحُرِّمت الخمر بعد تجربة مُرة، والتحريم كان شكلياً، وبعد أن تغلغلت في دم شاربيها لم يستطع القانون أن يمنع هذه المعصية، فمثلاً في بعض بلاد الغرب الانحراف بلغ درجة معقولة، الآن بعض الدول في أوروبا تعطي المخدرات وتوزعها في الطرق مجاناً على مدمنيها من أجل أن يأخذوا هذه المخدرات بحقن معقمة، لئلا تنتقل إليهم الأمراض، فالإدمان بلغ درجة مخيفة، ففي أمستردام قبل سنوات سارتْ مظاهرة تُعدُّ أكبر مظاهرة في العالم، مئات الألوف كلهم شاذّون يطالبون بحقوقهم المدنية، فبعد أنْ أطلقنا للإنسان شهواته فإنْ عرفوا بعدها الحقيقة فلن يجدوا طريقاً إليها، والآن الغرب يقتنع بانتهاء مجتمعه، ومجتمع الغرب في طريق الانحلال، والذين يقومون بإدارته نخبة من الجيل السابق، أما إذا ابتعد هذا الجيل السابق عن مراكز القيادة فالجيل اللاحق جيل منحلّ، حتى في البلاد التي تتحكم في العالم، فالذين يتحكمون في العالم ليسوا من أبناء هذه البلاد، بل هم ممّن هاجر إليها، وهم ذوو إمكانات

عالية جداً، فالوحي معصوم من الخطأ، والوحي يقدِّم لك خبرات خالق الكون، خبرات عالية جداً، إنه الخالق، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

أما التجربة فقد تصيب وقد تخطئ، فإن أصابت فربما لا تنتفع بها، وهناك نقطة دقيقة جداً، الإنسان حينما يخطئ قد يتوهم أنه في أي لحظة يتوب، ثم لا تستطيع أن تتوب بعدئذ، وهناك معاصٍ لها قوة جذب قوية جداً، فحينما تنهار في هذه المعصية، وأنت تعلم علم اليقين أنك تنهار، وأنها مهلكة لا تستطيع أن تبتعد عنها، فما كل تجربة نافعة، مثلاً؛ في أمريكا رئيسها قبل سنتين قال: تواجه أمريكا خمسة أخطار مدمرة فأصغيتُ إلى أن سمعت بقية الخبر، تصورت خطر اليابان مثلاً، أو خطر أوروبا المتحدة، أو خطر الصين فرضاً، لا، ولكنه خطر المخدرات، وخطر تفكك الأسرة، والانحلال الأخلاقي، وشيوع الجريمة، هذه هي الأخطار، لأننا تركنا منهج الله عز وجل تفلَّت المجتمع، ولما قُطعت الكهرباء في نيويورك؛ طبعاً هناك المجتمع منضبط إلكترونياً وليس أخلاقياً، تَمَّتْ مئتا ألف سرقة في ليلة واحدة، سُرق مليونا دولار في ليلة واحدة، فلما انقطعت الكهرباء انتهت الرقابة كلُّها، وكل شيء اسمه حاسوب أو قاعة مراقبة أو طريق مراقب، لم يعد له فائدة.

قانون الله عز وجل لا يعدل لأنه من عند خبير :

أيها الأخوة، الوحي معصوم، والوحي من عند خبير، أما التجارب الإنسانية فتصيب وتخطئ، وحينما تصيب ربما لا ننتفع من صوابها، لأن صوابها جاء متأخراً، وهذا حال العالم اليوم، فقد جاء الصواب متأخراً، والآن يفكرون في العالم الغربي بأن يخصِّصوا للطلاب جامعات، وللطالبات جامعات، بعد أن أصبح عدد اللقطاء يفوق حد الخيال، وفي بعض الشعوب في أوروبا أربعون بالمئة من اللقطاء، هذا إنسان وُلد في المستشفى ليس له أب ولا أم، عنده حقد على المجتمع، مريض نفسياً، هذا دَرَسَ وتعَلَّم وصار في منصب عالٍ جداً، وهو بهذه النفسية، فخاصِّية الوحي أنه معصوم، لكن العلم التجريبي يصيب ويخطئ، فكم من نظرية جاء بها العلماء ثبت بطلانها بعد التجربة،لذلك فلن تجد تعديلاً لقانون الله عز وجل، لأنه من عند خبير، وخبرة الله قديمة، قال تعالى:

(ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ*مُطَاعٍ)

سيدنا جبريل يأمر ملائكة دونه، وهو مطاع في أمره، مكين، قال تعالى:

(مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)

أي أمين على وحي السماء، فلا يزيد كلمة ولا ينقص، قال تعالى والكلام موجَّهٌ للنبي:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ*ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ*فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

[سورة الحاقة: 44-47]

المجنون مَن عصى الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)

مَن هو صاحبكم؟ هو رسول الله، نشأ بينكم، تعرفون صدقه وأمانته وعفافه واستقامته ونسبه، وحينما عرف ربه واستقام على أمره ودعا إليه لم يكُ هذا جنوناً، لأنّ المجنون مَن عصى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ* وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ)

رأى جبريل عليه السلام ملء الأفق، هكذا يقول بعض المفسرين، قال تعالى:

(وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)

هذا الوحي الذي ينقله جبريل ما هو متَّهم عليه لأنه أمين، قال تعالى:

(وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ*فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)

الإنسان مخيّر والنبي الكريم ليس مسؤولاً عن عدم هدايته :

إذا أصيب إنسان فرضاً بمرض شديد، وأمامه مستشفى، وعلاجه في هذا المستشفى، تركه وذهب، نقول له: إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين؟ هنا العلاج، هنا الدواء، فالإنسان عندما ينصرف عن الدين نقول له: إلى أين أنت ذاهب، إلى المتع، إلى الملاهي، هناك موت، وحساب، وعذاب، هناك جنة إلى الأبد، ونار إلى الأبد، فإلى أين أنت ذاهب؟ فالإنسان حينما ينصرف عن الدين، عن درس علم، عن معرفة الحقيقة، عن طاعة لله، عن صلوات، إلى أين ذاهب؟ انظر إلى السيارات يوم الجمعة وقت صلاة الجمعة، هي متجهة إلى المصايف، هذا وقت صلاة جمعة، وقت فريضة:

((عَنْ أَبِي الْجَعْدِ يَعْنِي الضَّمْرِيَّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ فِيمَا زَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوُناً بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي الْجَعْدِ يَعْنِي الضَّمْرِيَّ]

قد نقول: إلى أين أنتم ذاهبون؟ إلى نزهة، إلى منظر جميل، إلى تناول طعام، تركتم فريضة الجمعة، قال تعالى:

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ* إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

تذكرة، لأن الإنسان مخيّر، تذكرة، فأنت مخيّر، والنبي عليه الصلاة والسلام قال الله له:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

[سورة القصص: 56]

لأن الإنسان مخيّر، وقال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة البقرة: 272]

كما أنك لست مسؤولاً عن عدم هدايتهم.

الاختيار لولا أن الله شاءه للإنسان لما كنت مختاراً :

قال تعالى:

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ*لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

أنت إذا شئت أن تستقيم فكل شيء ميسّر أمامك، وإن أردت الحقيقة فكل شيء يدلك عليها، إن أردت الوصول إلى الله فالطرائق إلى الخالق بعَدَد أنفاس الخلائق، إنْ أردت أن تستقيم فكل شيء ميسّر، دروس العلم، والدعاة إلى الله، والعمل الصالح، والتوفيق إن أردت الاستقامة، فكل شيء ميسّر لك، قال تعالى:

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

لكن:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

إياكم أيها الأخوة ثم إياكم ثم إياكم أن تفهموا هذه الآية فهماً جبرياً، افهموها فهماً تفضُّلياً، كيف؟ كل مكانتك أيها الإنسان لأنك مخيّر، ولولا الله شاء لك أن تختار لما كنت مختاراً، وكل ما تصل إليه من سعادة أبدية في جنة عرضها السماوات والأرض لأنك مخير، واخترت الحق على الباطل، والهداية على الضلالة، وطاعة الله على معصيته، هذا الاختيار لولا أن الله شاءه لك لما كنت مختاراً، لو كنت كالجماد، كالحيوان، كالصخر، كالجلمود، قال تعالى:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

وما كان لكم أن تشاؤوا لولا أن الله شاء لكم أن تشاؤوا، هذا المعنى.

فهذه الآية قد تُفهم فهماً جبرياً، وهذا الفهم الجبري عقيدة فاسدة، ما أرادها الله عز وجل، وقد تُفهم فضلاً تفضُّلياً، أي أن الله تفضل علينا ومنحنا حرية الاختيار:

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

الإنسان مكرّم وهو المخلوقُ الأولُ المكلَّفُ :

إنّ أبواب الجامع مفتوحة، وأبواب الملاهي مفتوحة، لك أن تصلي ولك أن تذهب إلى ملهى، لك أن تصدق، ولك أن تكذب، ولك أن تتقن، ولك أن تهمل، لك أن ترعى، ولك أن تسيِّب، لك أن تكون مخلصاً أو أن تكون خائناً، لك أن تتعرف إلى الله ولك أن تتعرف إلى الشياطين، إلى شياطين الإنس والجن، لك أن تقرأ عن أصحاب رسول الله ولك أن تقرأ عن الفنانين والفنانات الأحياء منهم والأموات، كل ذاك ممكن، أنت مخير، فلك أن تذهب إلى مسجد، ولك أن تذهب إلى ملعب، هذه الأبواب مفتوحة، وأبواب المساجد مفتوحة:

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ* وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

هذه المشيئة التي تنعمون بها، والتي هي سبب سعادتكم الأبدية، إن هذه المشيئة شاءها الله لكم، وتفضّل عليكم، وشاءها لكم، ولولا هذه المشيئة الإلهية لما شئتم، ولكنتم كمخلوقات في درجة دنيا، هناك مخلوقات كثيرة، هو مخلوق، ولكن ليس له هذه المكانة العالية، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

فالإنسان مكرّم، وهو المخلوقُ الأولُ المكلَّفُ، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الانفطار 082 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-06 ، صور عن أهوال يوم القيامة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-05-05

بسم الله الرحمن الرحيم

مشهد من مشاهد انقلاب الكون من وضعه الراهن إلى وضع آخر :

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة الانفطار:

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ* وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ* وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ* وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

أيها الأخوة، مشهد آخر من مشاهد انقلاب الكون من وضعه الراهن إلى وضع آخر، فهناك تغييرات جذرية سوف تطرأ على هذا الكون العظيم يوم القيامة، فالسماء تنفطر أي تنشق، قال تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

[سورة الانشقاق: 1]

وقال:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

[سورة الرحمن: 37]

آيات كثيرة تؤكد انشقاق السماء أما شكل هذا الانشقاق فالله أعلم به :

آيات كثيرة تؤكد أن السماء سوف تنشق، والذي يؤكد حتمية انشقاقها كلمة (إذا)، لأن إذا تفيد وقوع الشيء قطعاً وتفيد حتمية الوقوع، أما (إنْ) فهي لاحتمال الوقوع قال تعالى:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا)

[سورة الحجرات: 6]

قد يأتي وربما لا يأتي، بينما إذا قال الله عز وجل:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر: 1]

نصر الله لا بد آت، وهو حتميُّ الوقوع، فإذا انفطرت السماء لم تبْق هذه السماء على حالها ووضعها وسوف تنشق، أما كيف تنشق؟ وما صورة انشقاقها؟ وما طبيعة انشقاقها؟ فهذا غيب لا نعلمه، فالانشقاق واقع أما كيفية هذا الانشقاق فلا نعرف عنه مثقال ذرة من علم.

آيات كثيرة تؤكد هذا الانشقاق، أما شكل هذا الانشقاق فالله أعلم به، وعلى ذكر كلمة الله أعلم، الإنسان يكون في أعلى درجة من العلم، وهناك أشياء كثيرة لا يملك لها تفسيراً، فربنا عز وجل يقول:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

[سورة الانشقاق: 1]

أي هذه السماء سوف تنشق، وسوف تنفطر، وسوف يختل نظامها، وسوف تغدو في حالة أخرى:

(وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)

تمدد الكون و انكماشه وفق قانون سنَّه الله له :

ذكرت أن بعض النجوم تنفجر وأن هذا الكون في حياة مستمرة، يتوسع وينقبض:

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ)

[سورة الأنبياء: 104]

وهناك آية أخرى:

(وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات: 47]

فهذا الكون يتمدد وينكمش وفق قانون سنَّه الله له:

(وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)

أي انفرط عقدها، هناك نظام بديع جداً يحكم الكواكب كلها، كل كوكب يسير في مسار مغلق، وهذه الحركة تجعل هذا الكوكب منفصلاً عن الكواكب الأخرى، لو توقفت هذه الحركة لأصبح الكون كله كتلة واحدة، لأن هناك حركة، وهذه الحركة ينشأ عنها قوى نابذة تكافئ القوى الجاذبة، أي هناك قوانين جذب بين نجوم السماء عجيب جداً، وهذا معنى قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

كل كوكب مربوط بمنظومة جذب مع الكواكب الأخرى وهذه المنظومة عجيبة جداً :

هناك ترابط بين الكواكب، إما بقوى تجاذب لا نراها بالعين، قالوا: إن الأرض مرتبطة بالشمس بقوة جذب تساوي مليون مليون حبل فولاذي، قطر كل حبل خمسة أمتار، وكل حبل يحتمل من قوى الشد مليوني طن، مليونان مضروبة بمليون مليون، هذه قوة انجذاب الأرض للشمس، فكل كوكب مربوط بمنظومة جذب مع الكواكب الأخرى، وهذه المنظومة عجيبة جداً:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

أي بعمد لا ترونها، إنما هي قوى الجذب، فكل كوكب منجذب إلى كوكب آخر بقانون الجاذبية، والقانون دقيق جداً، وعوامل الانجذاب الكتلة والمسافة، المسافة تلعب دوراً في الانجذاب، فكلما زادت ضعُفَ الجذب، وكلما نقصت زاد الجذب، والكتلة تلعب دوراً آخر بهذا الجذب، فالكتلة الأكبر تجذب الأصغر، ففي هذا الكون نظام جاذبي يجعل هذا الكون على وضعه الراهن، والكواكب لا يصطدم بعضها ببعضٍ، ولا تخرج عن مساراتها، فكل كوكب له مسار يسبح فيه، وهذه المسارات قد تكون إهليلجية، بيضوية، لها قطر أقصر، وقطر أكبر، فحينما يصل الكوكب إلى القطر الأصغر تقل المسافة بينه وبين النجم المركزي، فبدل أن ينجذب إلى هذا النجم الأكبر يرفع سرعته لتنشأ قوة إضافية نابذة تكافئ القوة الجاذبة، وهذا مِن صُنع الله عز وجل.

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ*وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)

أي نظام هذا الكون انفرطت عقده، فهذه النجوم بدل أن تبقى في مسارات مغلقة تدور حول بعضها بعضاً، منضبطة في مساراتها، لا تحيد قِيد أنملة، ينفرط عقد هذا النظام، وتتفلت هذه الكواكب والنجوم، وتسبح في الفضاء الخارجي.

يوم القيامة ينفرط عقد هذا النظام وتتبعثر الكواكب والنجوم وتسبح في الفضاء الكوني:

قال بعض العلماء وهو ليس من المسلمين ولا تعنيه آيات القرآن الكريم: لو أن الأرض فرضاً خرجت من مسارها، وتفلتت من جاذبيتها للشمس، وخرجت في الفضاء الكوني ماذا نفعل كي نعيدها؟ لا بد من مليون مليون حبل فولاذي، وكل حبل قطره خمسة أمتار، فلو أن هذه الحبال الفولاذية كل حبل يقاوم من قوى الشد مليوني طن، لو أننا زرعناها في الأرض في الوجه المقابل للشمس، ماذا يحصل؟ يحصل معنا أن بين كل حبلين مسافة حبل واحد، إذاً نحن أمام غابة من الحبال الفولاذية، وهذه الغابة تعيق

الحركة، وتعيق الزراعة، وتعيق البناء، وتعيق التنقل، ولأصبحت الأرضُ غابة مظلمة، لو أن هذه الأعمدة كانت مرئية قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

فنحن في الأرض، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

كل كوكب له مسار، فالله يمسك هذه الكواكب أن تخرج عن مسارها، وعن سكّتها، وعن الطريق المرسوم لها، أما يوم القيامة فينفرط عقد هذا النظام، وتتبعثر هذه الكواكب والنجوم، وتسبح في الفضاء الكوني بلا نظام، وبطريقة أخرى.

أيها الأخوة، لفتُ نظرنا لهذه المظاهر التي سوف تكون من أجل أن نقدِّر النظام القائم، أي الشيء يُعرف بضده، والأمور تُعرف بنقيضها، وربنا عز وجل كأنه يلفت نظرنا إلى هذا النظام البديع، النجوم الآن ليست متنافرة، النجوم متماسكة، النجوم منضبطة، النجوم كلها في مساراتها، وهي كلها وفق نظام دقيق، أرأيتم إلى هذه القوة التي تربط الأرض بالشمس، مليون مليون مضروبة بمليوني طن، هذه القوة الكبيرة من أجل أن تحرف الأرض ثلاثة ميليمتر كل ثانية، إذا حُرِّفت ثلاثة ميليمتر كل ثانية بقيت في مسار مغلق حول الشمس، أما لو أن الأرض تفلتت فمن ذا الذي يقوى على أن يعيدها إلى مسارها؟ الله جل جلاله:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

الزوال هنا أن تخرج عن مسارها، فالسماء تنشق، والكواكب تنتثر، أي النظام الذي يحكم السموات سوف ينتهي.

البحار من آيات الله الدالة على عظمته :

أحياناً بناء شامل سوف يُهدم؛ إما بقنبلة من داخله فيتهاوى على بعضه البعض، أو بآلة كبيرة جداً تقطعه من أساسه:

(فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ)

[سورة النحل: 26]

أي هذا البناء انتهى، انتهت مهمته ودوره، ولا بد أن يُلغى، قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

الحقيقة أن البحار من آيات الله الدالة على عظمته، البحار أربعة أخماس اليابسة، فيها تقريباً مليون نوع من السمك، ولا تجد في الأرض كثافة أنواع وأشياء صارخة إما في التوحش، أو في الجمال، أو في الرقة كحيوانات البحر، والأسماك تزيد أنواعها عن مليون نوع في البحر، ولها نظام عجيب، ولها طرائق خاصة في الحياة، وهذه البحار يصل عمقها أحياناً إلى اثني عشر كيلومتراً في خليج مريانا في المحيط الهادي، هذه البحار من أي شيء تتألف؟ من الماء، والماء ما تركيبه؟ أكسجين وهيدروجين، غاز من أعلى أنواع الغازات اشتعالاً، وغاز يعين على الاشتعال، اتّحدا مع بعضهما بعضاً فشكلا ماءً تُطفأ به النيران، هذا دليل على عظمة الله عز وجل، فإذا أراد الله عز وجل أن يفجّر هذه البحار يُلغي هذه العلاقة المُطفئة في الماء، فيتحد الأكسجين مع الهيدروجين، ويكوِّنان انفجاراً، أين منه القنابل النووية اليوم؟! قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

يُبعث الناس من قبورهم ليُحاسبوا حساباً دقيقاً عن كل أعمالهم في الدنيا :

تصور عندما يُفجَّر بئر نفط! الألسنة تصل إلى أعلى السماء، وعندما تلتهب ناقلة بنزين ماذا يحصل؟ تصور هذه البحار التي هي أربعة أخماس اليابسة تتفجر، ماذا تكون المحصِّلة؟!! قال تعالى:

(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

لعل البحار تمتلئ فتطغى على اليابسة، أو لعل الحواجز بين البحار تتهدم، أو لعل ماء البحار يشتعل، كل هذه المعاني وردت في التفاسير، قال تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ*وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ*وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ*وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

حينما أبعثر حاجات هذه الغرفة، وأقلّبها رأساً على عقب، وأجعل عاليها سافلها فقد بعثرت أشياءها كلّها، ومعنى بعثرت القبور أيْ أصبحَ ما فيها على ظهرها، أي يُبعث الناس من قبورهم ليُحاسبوا حساباً دقيقاً عن كل أعمالهم في الدنيا، قال تعالى:

(وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

أيها الأخوة، عالم من العلماء الأجلاء أتى ببرهان على أن الإيمان باليوم الآخر أصله عقلي، ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا فيها حظوظ متفاوتة، فمِن إنسان غني إلى إنسان فقير، ومن إنسان قوي إلى إنسان ضعيف، ومن إنسان ظالم إلى مظلوم، ومن إنسان طويل العمر إلى إنسان قصير العمر، ومن امرأة مُنحت مسحة من الجمال عالية إلى امرأة دميمة، فهناك تفاوت كبير في الحظوظ، والآن مع حركة البشر هناك من يظلِم، وهناك من يُظلَم، وهناك من يأكل حق أخيه، هناك من يَقتُل، وهناك من يُقتَل،

هناك من يُعتدى عليه، وهناك من يعتدِي، هناك من يَستغل، وهناك من يُستَغَل، هذا الوضع غير طبيعي، فلا بد أن تؤمن بيوم آخر، يوم القيامة، في هذا اليوم تسوَّى فيه الحسابات، ويؤخذ حق الضعيف من القوي، ويؤخذ حظ المظلوم من الظالم، وكل إنسان يُجزى بعمله.

الإيمان بالآخرة يعكس الموازين :

الحقيقة حينما تؤمن باليوم الآخر لا بد أن تنعكس عندك المقاييس رأساً على عقب، فتصور إنساناً لم يؤمن باليوم الآخر، يرى التفوق في ابتزاز أموال الآخرين، وفي السيطرة عليهم، وفي استهلاك جهودهم، وفي الهيمنة عليهم، وحينما يؤمن باليوم الآخر تنعكس موازينه، فيرى التفوق في رعايتهم وخدمتهم ونفعهم والتواضع لهم وإعطائهم حقهم، لذلك ترى بوناً شاسعاً بين المؤمن والكافر، المؤمن يعطي، والكافر يأخذ، المؤمن يعيش للناس، والكافر يعيش الناس له، المؤمن كل همِّه أن يقف عند منهج الله عز وجل، والكافر لا يعبأ بمنهج الله، ويتحرك وفق شهوته، لذلك صنَّف الله عز وجل البشرَ إلى نموذجين على اختلاف مللهم، ونِحلهم، وعلى اختلاف أعراقهم، وأجناسهم، وألوانهم، ودياناتهم، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-6]

أي بنى المؤمنُ حياته على العطاء، وبناها الكافر على البخل:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

[سورة الليل: 8]

فأما مَن أعطى، وأما مَن بخل، أعطى واتقى أي اتقى أن يعصي الله عز وجل، والآخر بخل واستغنى عن طاعة الله، الأول:

(وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 6]

صدَّق أنه مخلوق للجنة، وأن ثمن الجنة الانضباط والعطاء، والآخر:

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 9]

فلما كفر بالحسنى استغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على أن يأخذ ما عند الناس، لا أن يعطيهم شيئاً، لذلك أعطى الأنبياء كلَّ شيء، وأخَذَ الأقوياء كلَّ شيء، وملَكَ الأنبياءُ القلوب، ومَلَك الأقوياء الرقاب، فكان سلاح الأنبياء الكمال، وسلاح الأقوياء البطش، فلذلك الإيمان بالآخرة يعكس الموازين.

إن لم تنعكس موازينك كانت حياتك معكوسة وفطرتك معكوسة :

بصراحة إن لم تنعكس موازينك كانت حياتك معكوسة، فطرتك معكوسة، فالمؤمن بالآخرة يستوي عنده التبر والتراب، أي المئة مليون تحت قدمه إذا كانت فيها شبهة، فلا يبحث إلا عن دخل حلال، ولا يفعل إلا فعلاً يرضى الله عنه، أمّا غير المؤمن فهو دابة متفلتة، لا انضباط له إطلاقاً، فالذي يعنينا من قول الله عز وجل:

(وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

معنى (بُعثِر)، أي بعثر ما فيها من مخلوقات، وخرجوا إلى ظاهرها ليُحاسبوا على أعمالهم، إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ*عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

[سورة المدثر: 9-10]

يوم الامتحان عسير على الكسول، لأنه لم يدرس، ويحاول أن يغشّ، فإذا به أمامَ مَن يردعه، وهناك مَن يكتب ضبطاً بحقه، فيحرمونه ستّ سنوات أحياناً، والامتحان عنده مشكلة، أما الطالب المجتهد فالامتحان متعة له، لأنه سوف يُعبِّر عن جهده بهذه الكتابات المنضبطة، إذاً:

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ*وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ* وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ*عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

الإنسان حركته في الحياة تتلخص بشيئين شيء فعَلَه وشيء لم يفعله :

الإنسان حركته في الحياة تتلخص بشيئين؛ شيء فعَلَه، وشيء لم يفعله، فالشيء الذي فعله ليته لم يفعله، والشيء الذي لم يفعله ليته فعله، هذا هو الكافر، أمّا المؤمن فشيء فعله ليته فعلَ أضعافه، وشيء لم يفعله ليته ابتعد عنه أضعافاً:

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

أنت ماذا قدمت لله عز وجل؟ سوف نُعرَض على الله يوم القيامة، وسيقف كل إنسان بين يدي الله، ماذا فعلت من أجلي يا عبدي؟ هيئ الجواب مِن الآن، يا رب أنا اعتنيتُ ببيتي عناية بالغة وزيَّنته، فهل هذا الكلام مقبول عند الله عز وجل؟ يا رب أنا استمتعت بالحياة إلى أعلى درجة، وكان لي ذوق عالٍ في الطعام جداً، وكان لي رغبة في السفر والانطلاق، فهل هذا الكلام مقبول؟ ماذا فعلت؟ جئتُ بك إلى الدنيا كي تأتيني بعمل صالح، فما هو العمل الصالح الذي فعلتَه من أجلي؟ هل ربيت أولادك؟ هل أخذتَ بيد الناس إلى الله عز وجل؟ هل فهمتَ كلامي؟ هل عملتَ به؟ هل تعلمتَ القرآن؟ هل علّمته؟ هل كنتَ

وقافاً عند حدودي؟ هل آمنتَ برسلي؟ هل رعيتَ اليتيم؟ هل عطفتَ على الأرملة والمسكين؟ هل أنفقت من مالك الذي جمعته بكدك في سبيلي؟ هل أنفقت من علمك؟ ماذا فعلت؟ ماذا قدمت؟

وقد قيل: الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، فلو أنك وقفت بين يدي الله عز وجل ليسألك: منحتك الكون، قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

منحتك الكون، منحتك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، منحتك زوجة وأولاداً، ذكوراً وإناثاً، وبيتاً ومأوىً، ماذا فعلت من أجلي؟ ماذا قدمت؟

ما الذي قدمناه في سبيل الله؟ سؤال ينبغي ألا يغادرنا ولا لثانية واحدة :

هذا السؤال أيها الأخوة الكرام ينبغي ألا يغادرنا ولا ثانية واحدة، ماذا قدمت في سبيل الله؟ إنسان قدّم علمه، وغيرُه قدّم ماله، وآخرُ قدّم خبرته، ورابعٌ قدّم جهده، ومنهم مَن قدّم النصيحة للمسلمين، وغيره نفع المسلمين باختصاصه وخبرته وعلمه، يا رب فعلت هذا في سبيلك، امرأة عمران ماذا فعلت؟

(رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً)

[سورة آل عمران: 35]

هل هناك أمٌ تقول: يا رب هذا الحمل الذي في بطني هو نذر لك، سأعتني به ليكون عبداً من عبادك الصالحين، واللهِ الأم إذا فعلت هذا، فنذرت ما في بطنها لله محرراً، وربّت أولادها تربية عالية جداً، واللهِ هذه هي الأم الأولى في الأرض، وهي الأمّ المثالية، أنت معك اختصاص لغة أجنبية، هذا الاختصاص ماذا فعلت به؟ هل وظّفته في نشر الحق؟ في ترجمة بعض الكتب الإسلامية إلى اللغات الأجنبية؟ أنت رزقك الله مالاً، فماذا فعلت به؟ هل أنفقته على مُتَعك الدنيوية، أم خصصت منه للأيتام والفقراء والمساكين وطلبة العلم؟ هذه هي النقطة الدقيقة، اسأل نفسك كل يوم: ما العمل الذي سوف تعرضه على الله عز وجل؟

يا عبدي ماذا فعلت؟ يا رب علّمت العلم في سبيلك، فإن كنت صادقاً في هذا ومخلصاً قبله الله منك، وإلا يقال لك: كذبت، تعلمت العلم، وعلّمته ليقال عنك: عالم، وقد قيل، خذوه إلى النار، يا رب قرأت القرآن، فإن كان صادقاً قبله الله منه، وإن لم يكن كذلك يقول: عبدي قرأتَ القرآن ليقال عنك: قارئ، وقد قيل، خذوه إلى النار، يقول: ماذا فعلت أنت في سبيلي؟ يا رب قاتلتُ الكفار والمنافقين، قاتلتَ ليقال عنك: شجاع، وقد قيل خذوه إلى النار.

هذا السؤال اليومي: ماذا فعلت في سبيل الله؟ هل احتسبت اختصاصك وحرفتك، وهل وظّفتها في الحق؟ مالُك هل أنفقته على كل محتاج ومسكين؟ علمُك هل بذلته أم لم تبذله؟ أولادك هل ربَّيتهم؟ هل كان يهمك طعامهم وشرابهم وشهاداتهم، أم كان يهمك إيمانهم واستقامتهم؟ هذا سؤال يومي؛ فما العمل الذي ادخرته لله عز وجل؟

مِن عظمة هذا القرآن أنه يخاطب العقل تارة والعاطفة تارة أخرى :

هناك أناس في الستين وفي السبعين يمضون سهراتهم في لعب النرد، ومتابعة المسلسلات، يقال: ماذا ادّخرت لله عز وجل؟ ماذا خبأت لليوم الآخر؟ هذا السؤال أيها الأخوة سؤال يوميّ، ما العمل الذي ادخرته لآخرتك؟

(وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

الآن يخاطب الله هذا الإنسان:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

بالمناسبة مِن عظمة هذا القرآن أنه يخاطب العقل تارة، والعاطفة تارة أخرى، والذين خاطبوا العقل فقط لم ينجحوا في دعوتهم، والذين خاطبوا العاطفة وحدها لم ينجحوا في دعوتهم، ولكن الدعاة الناجحين هم الذين وفّقوا بين العقل والعاطفة، فكانوا يخاطبون العقل تارة، والعاطفة تارة أخرى، لكن هذه الآية من أدقِّ الآيات في القرآن الكريم، هناك آية واحدة يتوجه الله إلى عقل الإنسان وإلى عاطفته في وقت واحد، قال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

بالمناسبة ما هو الغرور؟ أن تعطي الشيء حجماً فوق حجمه، فقد يجد الإنسان علبة غاليةً على الرصيف، فيتوهم أن فيها حاجات ثمينة، فإذا فتحها وجدها فارغة، فيصاب بحالة غرور، اغترّ بها، وتوهم أن فيها قطعة ألماس، أو قطعة من الحليّ الثمينة، فإذا فتحها وجدها فارغة، فهذا الإحباط وخيبة الأمل هي الغرور، فالإنسان قد يغتر بالدنيا، وقد يعطيها حجماً أكبر من حجمها، وقد يظنها في أول حياته هي كل شيء، فإذا امتد به العمر رآها شيئاً، وليست كل شيء، فإذا كان على وشك مغادرتها يراها ليست بشيء.

اجلس مع شخص بالعشرينات، وآخر بالأربعينات، وآخر بالسبعينات فترى أن الدنيا عند الشاب هي له كل شيء، في بيوتها، ونسائها، ومركباتها، وشركاتها التجارية، حتى جعل ساحة نفسه كلها الدنيا، في الأربعين أو الخامسة والأربعين يهتم بالدين، وبقراءة القرآن، ومعرفة ربه، أما بالسبعين فيهتم بالآخرة،

فكان المال في أول حياته هو كل شيء، في وسطها شيء، في آخرها ليس بشيء، وقِس على ذلك كل شيء، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

قد يغتر الإنسان بالدنيا فيعطيها حجماً كبيراً وهي أقل من هذا بكثير :

أيها الأخوة، حقيقة مهمة جداً، كما قال الله عز وجل:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

[سورة الكهف: 103-104]

وقع في الغرور، قد يغتر الإنسان بالدنيا فيعطيها حجماً كبيراً، وهي أقل من هذا بكثير:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِناً فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي وابن ماجة عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ]

بعض الأخوة الكرام يدخلون في تجارة كبيرة جداً، ويصابون بأزمات خارقة، يقول لي أحدهم: واللهِ أتمنى أن آكل خبزاً يابساً، وألا أكون في هذه التجارة، الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاقتصاد في المعيشة خير من بعض التجارة، هناك تجارة متعبة وضاغطة، وقد تصيب صاحبها بمرض عضال:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

قد نغتر بالدنيا فنعطيها حجماً فوق حجمها، لكن ما معنى أن نغتر بالله؟ الأمر يختلف، أي ظننتَ اللهَ عز وجل بشيء، وهو ليس كذلك! هذا المعنى لا يستقيم مع الله عز وجل.

العقيدة الفاسدة تشلّ حركة الإنسان :

ما معنى أن نغترّ بالله؟ الإنسان له عند قاضٍ دعوى، فتوهم أن هذا القاضي لو قدّم له هدية قبل الحكم لأصدر حكماً لصالحه، والقاضي أنزه وأعظم من ذلك، فلما اكتشف الحقيقة المُرَّة خسر خسراناً مبيناً، نقول: هذا المتهم اغترّ بالقاضي، أي ظن أنه يصدر حكماً لصالحه على بطلانه وهو ليس كذلك، اغتر الإنسان بالله أي ظن أنه لا يحاسب عباده أبداً ففوجئ بالعكس، ظن أن هذا المبلغ الذي أخذه سوف يُسامَح فيه، فإذا ربنا عز وجل يحاسبه عليه حساباً عسيراً، فيجب على الإنسان أن يعلم الحقيقة المرّة، ويجب أن يؤثرها على الوهم المريح، لأن معظم المسلمين يعيشون وهماً مريحاً باعتبار أنّ النبي سوف يشفع لهم، فيقترفون المعاصي والآثام، وهكذا يسمعون من بعض الدعاة؛ أن النبي سوف يشفع لهم على

كل أخطائهم، هذا فهْم ساذج وهذا الفهم يُقعِد الإنسان عن العمل، وهذه العقيدة الفاسدة تشلُّ حركة الإنسان.

يا فاطمة بنت محمد يا عباس عم رسول الله أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم:

((حِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هذه حقيقة، عوّد نفسك أن تكون مع الحقيقة المرة لا أن تكون مع الوهم المريح، إنسان في جيبه شيك بمئة ألف دولار، لكنه مزوّر، الأولى أن يعلم أنه مزور، أو ألا يعلم، دعه مرتاحاً، يظن نفسه غنياً كبيراً، ولو أبرز هذا الشيك، لاعتُقِل به، وفَقَدَ حريته، وتلاشت كل آماله، لا، فالأولى به أن يعرف هذا في وقت مبكر حتى يسعى، فكم من مسلم يعيش أوهاماً ليست صحيحة.

المسلمون وقعوا في الأماني التي وقع بها اليهود :

قال تعالى:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

[سورة الزمر: 19]

مستحيل، لقد فعلت اليهود هذا، قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً)

[سورة البقرة: 80]

وقال:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 111]

كلها أماني، والمسلمون وقعوا أيضاً في مثل هذه الأماني، والله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء: 123]

كل إنسان ينسى عقاب الله وحسابه فهذا إنسان اغتّر بالله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

قد يغتر الإنسان بأنّ الله لن يُحاسِب، يقول لك: لا تدقق، إنّ الله لن يحاسبك هذا الحساب الشديد، وإنّ الله لغفور رحيم، لمجرد أن تقول: إن الله غفور رحيم بسذاجة فأنت قد اغتررتَ بالله عز وجل:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 49-50]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ*وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

[سورة الزمر: 53-55]

فجأة يأتي العذاب، فكل إنسان ينسى عقاب الله، وينسى حساب الله، وينسى عدل الله، ويتحرك على مزاجه وعلى هوى نفسه، ويقول الله غفور رحيم، فهذا إنسان اغتّر بالله.

الله عز وجل عدلٌ يعطي كل ذي حق حقه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

ولنضْربْ على هذا مثلاً؛ ابن والده أستاذ في الرياضيات، وفي شعبته، يقول: ليس من المعقول بأن يرسِّبني أبي، ولكنّ أباه نزيهٌ جداً، لم يدرس الابنُ فرسب، اغتّر بوالده، وظن أن أباه سيُحابيه، أو سيسرب له الأسئلة:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

إنّ الله عز وجل عدلٌ، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

وإنّ الله عز وجل يعطي كل ذي حق حقه:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

قال له: يا رسول الله عظني ولا تُطِل، قال له: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، قال: كفيتُ يا رسول الله، فقال النبي: فَقُهَ الرجل.

الاغترار بالله عز وجل أن تظن أنه لن يحاسب ولن يعاقب :

الاغترار بالله عز وجل أن تظن أنه لن يحاسب وأنه لن يعاقب، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية: 21]

أي شاب متفلت، منحرف الأخلاق، يفعل كل شيء، ويأكل كل شيء، ويجلس مع من يشاء، ليس عنده قيد، وشاب مستقيم، مِن رواد المساجد، يخشى الله، ويتوجه إليه، ويخلص إليه، ويخطب ودّه، أيعقل أن يُعامل هذا كهذا، أو هذا كذاك؟ مستحيل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية: 21]

وقال:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

وقال أيضاً:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم:35-36]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

الله عز وجل يُمهِل ولا يُهمل :

إن لم تؤمن بهذه الآيات فأنت مغترّ بالله عز وجل، أن تغتّر به ألاّ تتيقن مِن عدله، أن تغتّر به ألاّ تتيقن أنه سيحاسب، وسيعاقب:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

أيعقل أن يحابيك الله عز وجل، وتظلم الناس، وتبتز أموالهم، فالقضية بهذه البساطة، إنسان عاش على أنقاض الناس، وجمع أموالاً طائلة من ابتزازهم، ومن استغلال غفلاتهم وجهلهم، فهل من الممكن

لإنسان له مهنة راقية، والناس يثقون به، أن يحتال عليهم ليأخذ أموالهم، فهل هذا ممكن؟ والأمر يتم هكذا من دون عقاب، من دون فضيحة؟!! مستحيل:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

إلا أنَّ الله يُمهل ولا يُهمل، ويُرخي الحبل إلى أن يتوهم الإنسان الجاهل أن الإله لن يعاقب، ولن يحاسب، وفي لحظة واحدة يُشدُّ هذا الحبل، فإذا هو في قبضة الله عز وجل.

نقطة دقيقة جداً، معظم الناس الآن بحسب قوته يبتزّ أموال الناس، بحسب ذكائه، فإذا كان عنده مهنة راقية، ويوقن يقيناً قطعياً أن هذه الدعوى خاسرة يعِده أنه سيربحها، فيبتز أمواله لسنوات طويلة، والله عز وجل موجود ويعلم فهو:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

يعلم ما أسررتَ وما خفي عنك، فكل إنسان يغتر بالله، أي لا يقيم وزناً لمحاسبة الله له فهو إنسان لا عقل له ولا فطنة.

عظمة الخلق تدلّ على دقة المعاملة وكمال الخلق يدّل على كمال التصرف :

قال عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ*فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

إنّ عظمة الخلق تدلّ على دقة المعاملة، وكمال الخلق يدّل على كمال التصرف، هذه قاعدة، أنت دخلتَ إلى شركة ضخمة جداً، فما دامت ضخمة جداً، وإنتاجها عال جداً، معنى ذلك أن عندها حساب دقيق، عندها هيئة محاسبة، ووسائل دقيقة، وإيصالات، وصفحات، وأجهزة حاسوبية، فكمال الخلق يدل على كمال التصرف، وهذا موضوع الدرس القادم إن شاء الله:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ*فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

فهذه الآية نقف عندها وقفة متأنية إن شاء الله في الدرس القادم، وسنعرف لماذا لا يغتر المؤمن بالله عز وجل، بل يربط بين عظمة الخلق، وعظمة الحساب الدقيق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الانفطار 082 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 06-18، الاغترار بالله عز وجل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-05-12

بسم الله الرحمن الرحيم

الغرور بالشيء أن تراه بحجم أكبر من حجمه الحقيقي :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الانفطار، والآيات الكريمة هي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

حيثما خوطب الإنسان في القرآن الكريم معرَّفاً بأل فهو الإنسان قبل أن يعرف الله، (ما غرك) تكلمت في الدرس الماضي عن الغرور، وقلت: أن تحسب الشيء أكبر من حجمه، وأن تظن أن هذا الشيء كبيرٌ، وهو ليس كذلك، وذكرت أن الإنسان في مطلع حياته قبل أن يعرف الله يظن المال كل شيء، فإذا عرف الله رآه شيئاً، أما إذا تعمَّق في المعرفة لم يرَه شيئاً.

أيها الأخوة، الغرور بالشيء أن تراه بحجم أكبر من حجمه الحقيقي، ولكن كيف نفسِّر الغرور بالله عز وجل؟ النبيُّ عليه الصلاة والسلام أجاب عن هذا السؤال، فجهلُ الإنسان بربه جعله يغترُّ به، وجهله بعدالته جعله يغتر به، وجهله برحمته جعله يغتر به، فالغرور أن تتوهم أن الله على غير ما هو عليه، وأن تظن أنه لن يحاسب ولن يعاقب، أو أن تظن هذه الدنيا قويُّها قوي، وضعيفها ضعيف، وينتهي الأمر هكذا، هذه النظرة العبثية للكون لا تليق بالله عز وجل، ولا يليق بجلال الله أن يخلق الإنسانَ عبثاً، قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

الجهل والاغترار يلتقيان في مكان واحد :

آية ثانية، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

يأكل من مال حرام، و يحتال على الناس، ويبتز أموالهم، ويعتدي على أعراضهم ويقهرهم، و تنتهي حياته هكذا بلا حساب ولا عقاب، هذا اغترار بالله عز وجل، وهذا جهل وسوء ظن به، فالجهل والاغترار يلتقيان في مكان واحد.

يا أيها الإنسان ما الذي حملك على أن تتوهم أن الله عز وجل يستوي عنده المحسن والمسيء، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

جهلك بالله، وجهلك بأسمائه الحسنى، وجهلك بكماله قد يوقعك في ذاته العلية، آية واحدة لو عقلناها لملأت قلبنا يقيناً وإيماناً، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

الرابح الأول هو المستقيم على أمر الله :

إذا كنت مستقيماً على أمر الله فأنت الرابح الأول، وأنت الفائز، وأنت المتفوق، وأنت الفالح، وأنت السعيد، وأنت السليم، لكن الله عز وجل لحكمة بالغة بَالغة لا يواجه العبدَ بعمله إلا بعد حين، ليأخذ أبعاده، ويأخذ مساره الحقيقي، ويمكن لإنسان أن يعصي الله، وفي المدى المنظور لا يرى شيئاً، فيأكل الحرام، ويعتدي على أعراض الناس، ويكذب عليهم، ويتكبر ويتجبر، ويطغى ويبغي، إلى أمد معقول دون أن يشعر بشيء، فتأخير عقاب الله حمله على أن يغتر به، وحلمُ الله حمله على أن يغتر به أكثر وأكثر، ولكن الله عز وجل يأخذ مَن هَلك على بينة، و يعطي مَن تفوَق على بينة، بعد أن يأخذ أبعاده، وبتعبير آخر أن الله عز وجل من سياسته مع خلقه أنه يرخي لهم الحبل إلى أن يتوهموا أنه لن يحاسبهم، وفي لحظة واحدة يشدّ الحبل فإذا هم في قبضته، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ))

[مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

قال تعالى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

[سورة فصلت: 40]

هذه آية قرآنية فيها تهديد ووعيد، وكل شيء مسّجل عليكم، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

الغُرور أن تتوهم أن الله له صفات لا تليق به :

الاغترار بالله سببه الجهل، والاغترار بالله سببه حلم الله عز وجل، والاغترار بالله سببه الشيطان، يقول لك بعضهم: لن يدقّق الله مع عباده، ولن يحاسبكم، فإذا جاء يوم القيامة يقول الشيطان عكس ما كان يقوله في الدنيا، قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ)

[سورة إبراهيم: 22]

الشهوة إذاً، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

ما الذي حملك على أن تغتر به؟ قال علماء التفسير: جهل الإنسان بالله حمله على أن يغتر به، وحلم الله حمله على أن يغتر به، والشيطان هو الغَرور الذي يدعو الإنسانَ إلى أن يغتر بالله، تماماً كما لو قال لك أحدهم: هذا القاضي بهدية بسيطة يحكم لك، فهذا الإنسان حملك على أن تغترّ بهذا القاضي النزيه، أو كطالب كسول قال لأحد زملائه: إن هذا المدرس بهدية بسيطة يعطيك الأسئلة، فلا تدرس، فهذا الطالب حمل زميله على أن يغتر بأستاذه، فلما جاء وقت الامتحان فوجئ هذا الطالب أن الأستاذ نزيه، وأن توهُّمه ليس صحيحاً، وفوجئ المُعمَّى عليه أن هذا القاضي نزيه، وأن توهمه ليس صحيحاً، هذا هو الغُرور، أن تتوهم أن الله له صفات لا تليق به، لا وألف لا، بل يليق به العدل، وتليق به الرحمة، ويليق به ألاّ يضيِّع على أحد عمله.

حلم الله يدعو بعض الناس إلى الغرور بالله لكن في لحظة واحدة يعاقبهم دون أن يشعروا:

قال تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

يليق به قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة:7-8]

الشيء الواقع أيها الأخوة، أن حلم الله يدعو بعض الناس إلى الغرور بالله، لكن في لحظة واحدة يعاقبهم، دون أن يشعروا، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ*وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

[سورة الزمر: 53-55]

الله جل جلاله حين يفتح عليك أبواب الدنيا وأنت لست أهلاً لها فهذا اسمه استدراج:

إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره، بل إن الله جل جلاله حين يفتح عليك أبواب الدنيا، وأنت لست أهلاً لها، فهذا اسمه استدراج، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

[سورة الأعراف: 182-183]

الكيد هو التدبير، والمتانة في الفيزياء مقاومة قوى الشدِّ، فهذا الإنسان مربوط بحبل مهما تحرّك فلن يفلت من قبضة الله عز وجل، وبشكل واقعي فالإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، خثرة دم لا يزيد حجمها على معشار الميليمتر المكعب، فإذا وقفت في أحد أوعية الدماغ أصيب بالشلل، وفي مكان آخر أصيب بالعمى، وفي مكان آخر فَقَدَ ذاكرته، فكل ما عند الإنسان يذهب بتجمّد خثرة لا تزيد عن معشار ميليمتر مكعب في أحد أوعية الدماغ، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

وفي الآية التي تليها تتمة للآية السابقة، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

هذا الإله الذي خلقك وفي أحسن تقويم سوَّاك، والتسوية شيء يضاف على الخلق، فأنت قد تبني بناءً من أجل أن تضع مركبتك فيه، أما تسوية هذا البناء فتعني أن يكون له عرض يسمح لك بفتح أبواب المركبة فإذا فُتحت أبواب المركبة من الطرفين براحة فهذا البناء مسوّى مع السيارة، ويجب أن يكون طوله متناسباً مع طول المركبة، فإذا دخلت وأمكنك أن تغلق باب هذا البناء معنى ذلك أن هذا البناء

مسوّى مع المركبة، وأن يكون ارتفاع البناء أيضاً مسوّى مع ارتفاع المركبة، فالبناء شيء، وأن يكون هذا البناء مسوّى مع المركبة شيء آخر.

الإنسان مخلوق في أحسن تقويم :

الله خلقك، ولو أن الإنسان خُلق ولم تكن أربطة ذراعه متناسبة مع وزنه، فإذا حمل الأبُ ابنَه انخلعت يده، فهذا الإنسان على هذا النحو مخلوق في أحسن تقويم، لكن غير مسوّى، ولولا أن لهذه اليد مفصلاً داخلياً لما أمكنك أن تأكل، فأنت مخلوق، لكن هذه اليد مسواة مع طعامك، وتصل إلى كل أطراف جسمك، لولا هذه الإبهام لما أمكنك أن تكتب، حاول أن تكتب بلا إبهام، حاول أن تخيط بلا إبهام، حاول أن ترتدي ثيابك بلا إبهام، حاول أن تصنع شيئاً بلا إبهام، تستغربون أن هذه الإبهام وحده سبب الحضارة الإنسانية، هذا فقط، لولا هذا الإبهام لن تستطيع أن تفعل شيئاً، بل إن الإنسان حينما يمشي على قدمين ويداه طليقتان، هاتان اليدان الطليقتان سبب بناء وإعمار الأرض، أما هناك من يمشي على أربع، ماذا يفعل؟ لا يمكنه إلا النباح أو نحوه فقط، أما الإنسان فيتحرك، ويبني، وينسج، ويصنع، ويحفر، ويخيط، ويقرأ، ويكتب، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ)

التسوية فيها تناسب، لو أن الله عز وجل أعطاك أعصاباً حسية في شعرك لما أمكنك أن تحلق رأسك إلا في المستشفى، وإلا بعملية جراحية، وإلا بتخدير، ولو أن الله عز وجل لم يضع في لُبِّ السن العصب الحسيّ لوصل النخر إلى كل السن ولقُلع من مكانه، ولابتلعته مع لقمة الطعام ولم تشعر، لكن هذه الأعصاب المؤلمة في الأسنان هي أجهزة إنذار مبكّر، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ)

ولو أن الإنسان لا يرى إلا بعين واحدة لما رأى إلا بُعدَين الطول والعرض، أما بالعينين فيرى بُعداً ثالثاً، ويقدِّر بالعينين المسافات، ويقدر بالأذنين مصادر الصوت، ولو أن الإنسان أُوكل أمرُ تنفُّسه له لكان أمام خيار صعب إما أن يموت وإما أن ينام، ولا يجتمع موت وحياة، لو أن أمر رئتيك موكّل إليك لعظمت المصيبة، ولكن الرئتين تخفقان بشكل دوري نوبي، وبطريقة بالغة التعقيد جداً، ولو أن القلب أوكله الله إليك لما أمكنك أن تفعل شيئاً إلا أن تهيئ قلبك للنبض، ولو أنه أوكل الهضم إليك لاحتجت بعد كل وجبة إلى أربع ساعات تتفرّغ فيها كي تهضم طعامك.

النوم والحركة والعضلات من نعم الله الكبرى :

قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

لو أنك مُنِعتَ النوم لكانت الحياة جحيماً، فالنوم نعمة، والحركة نعمة، لك هيكل عظمي مكسو بعضلات، والعضلات مكسوة بجلد يجعلك مقبولاً وجميلاً، وهذه من نعم الله الكبرى، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

جعل لك زوجة من نفسك، امرأة تفكر كما تفكر، وتشعر كما تشعر، وتتألم كما تتألم، وتفرح كما تفرح، وتفهم كما تفهم، وتحب الله كما تحب الله، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)

[سورة الروم: 21]

فهذه من نعم الله الكبرى، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

جعلك معتدلاً، جعل شكلك مقبولاً، وجعل وزنك مقبولاً، وجعل حاجاتك مقبولة، يكفي أن يكون الهيكل العظمي ممتلئاً، الهيكل العظمي بالضبط شكله إسفنجي، فلو أنه أصم لكان وزن الإنسان ثلاثمئة كيلو، فكم يحتاج من الطعام والشراب حينئذٍ؟!! تحريك ثلاثمئة كيلو تحتاج إلى كمية طعام، أي لا بد أن يأكل في الوجبة الواحدة خمسة وعشرين رغيفاً حتى يمشي، جعل قوام العظم إسفنجياً خفيفاً.

كمال الخلق يدلّ على كمال التصرف :

الإنسان يمشي على قدم لطيفة، ولو لم يكن في هذه الأذن الداخلية جهاز توازن لكان لا بد من قاعات استناد كبيرة جداً، ولا بد لك من قاعات استناد عرضها أو قطرها أربعون سنتيمتراً من أجل أن تقف، والدليل من يستطيع أن يوقف ميتاً، مستحيل، تعطَّل جهاز توازنه، أما إنسان وزنه ثمانون كيلواً فهو يمشي على قدمين لطيفتين، لولا أن جهاز التوازن عن طريق ثلاث أقنية نصف دائرية فيها سائل، وفيها أهداب، وآلية معقدة جداً لما استطعتَ أن تمشي على قدمين صغيرتين، لو أنك دخلت في حقل طيني وحمل حذاؤك كمية طين كبيرة ترى أن السير على القدمين أشغال شاقة، اللهُ جعلك لطيفاً، لباسك لطيف، الأرجل لطيفة، والحركات لطيفة، والبحث طويل، التفكر في خلق الإنسان لا ينتهي طوال العام، طعامك وشرابك ونومك وتفكيرك وذاكرتك، لو لم توجد ذاكرة لتبدَّل الإنسان تبدلاً كاملاً كل خمس سنوات، لو تبدل دماغه لنسي اختصاصه، تكون له كل خمس سنوات دكتوراه أو يعود جاهلاً، لكن

شاءت حكمة الله أن خلايا الدماغ نبيلة لا تتبدل أبداً، خلايا الدماغ وخلايا القلب، وما سوى القلب والدماغ فكل شيء فيك يتبدل كل خمس سنوات، لأن أطول عمر خلية خمس سنوات، وأقصر عمر خلية ثمانية وأربعون ساعة، خلية زغابات الأمعاء، فأنا أردت من هذه التفاصيل أن تعلموا أن كمال الخلق يدلّ على كمال التصرف، خالق عظيم، من خلقه ترى هذا العلم، وهذه الحكمة وهذه القدرة وهذه الرحمة وهذا الجمال، أيُعقل أن تُخلق سدى بلا حساب، أيعقل أن تُخلق عبثاً بلا جزاء، تبارك الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

جعلك معتدلاً، لو أن الإنسان كان وجوده على سطح القمر لكان وزنه عشرة كيلوات، إذا قفز قفزة يصبح في سقف الغرفة، لو كان على كوكب آخر وزنه خمسمئة طن، هناك كواكب كبيرة، ووزن الإنسان يتناسب مع حجم الكوكب، والأشياء ذات علاقة بالجاذبية، رائد الفضاء في القمر وزنه ستة كيلوات أو عشرة كيلوات، السدس، أما لو انتقل هذا الرائد الفضائي إلى كوكب عملاق لكان وزنه نصف طن، لكن من رحمة الله أن جعل وزنك ستين أو سبعين كيلواً، والوزن معتدل، قال تعالى:

(فَعَدَلَكَ)

الإنسان مكرَّم عند الله عز وجل خلقه في أحسن تقويم وكرمه أعظم تكريم :

جعل النهار ثماني ساعات، وأنت طاقتك على العمل ثماني ساعات، فهناك تناسب بين دورة الليل والنهار وبين طاقتك على العمل، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ* فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

الخنزير خلقه الله عز وجل، والقرد خلقه الله عز وجل، والكلب خلقه الله عز وجل، لكنك مكرَّم عند الله عز وجل، خلقك في أحسن تقويم، وكرمك أعظم تكريم، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 21]

أنت في أحسن تقويم، وأجمل صورة، وكان من الممكن أن تكون في صورة أخرى، لو توسَّعنا قليلاً، أنت تأكل مما لذّ وطاب، وتحب الروائح الزكية، وتكره الروائح القبيحة، فمن برمجك على هذا؟ أليس هناك حيوانات تأكل الجيف، فالخنزير مثلاً أكلته المفضلة التي يسيل لها لعابه هي الجيفة، إنك إن مررت بجيفة كدتَ تخرج من جلدك من نتن رائحتها، بينما هذا الخنزير يقبل عليها ويأكلها بنهم، وهناك حيوانات تأكل البراز، وحيوانات تعيش في المجاري، وهؤلاء مبرمجون على هذه الروائح، يحبونها وكأنها عطر، فأنت أيها الإنسان من جعلك في هذا القوام، في أحسن تقويم، وجعل أذواقك في الطعام

والشراب أذواقاً عالية جداً، تحب رائحة الزنبق وتكره رائحة اللحم المتفسخ، من جعلك هكذا؟ هذا من تكريم الله لك.

في كل نظرة نرى آيات تدلُّ على وجود الله :

قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ* فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ* كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)

مع كل هذه الآيات الدالة على عظمته تُكَذِّب بالدين ولا تعبأ بتوجيه سيِّد المرسلين قال تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

[سورة الأعراف: 175]

واللهِ أيها الأخوة نحن محاطون بآيات من فوقنا ومن تحت أرجلنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، وفي كل مكان وفي كل وقت، وفي كل نظرة آيات تدلُّ على وجود الله، الضوء مثلاً إذا سار في وسط شفَّاف كالهواء، ثم دخل في وسط آخر شفَّاف كالزجاج ينكسر، حقيقة يدرسها الطلاب في الثانوي، انكسار الضوء، ضع قلماً في كأس ماء تراه مكسوراً، فالضوء إذا سار في وسط شفاف ثم دخل في وسط آخر ينكسر، فهل تصدق أنه لولا هذه الظاهرة لما كان هناك نظَّارة، ولا آلة تصوير، ولا ميكروسكوب، ولا تلسكوب، ولا عدسات، وتطبيقات العدسات لا تعدُّ و لا تُحصى، إنسان ضعف بصره، استعمل نظارة، أراد أن يرى أشياء بتكبير عالٍ أخذ الميكروسكوب، أراد أن ينظر إلى النجوم العملاقة استعمل التلسكوب، التلسكوب عدسته يستغرق تبريدها أكثر من عشر سنوات، من أجل أن ترى نجوم السماء، كل هذا عن طريق انكسار الضوء، لولا انكسار الضوء لما كان هناك عدسات ولا تلسكوبات ولا ميكروسكوبات، ولا نظارات، وكل التطبيقات لا قيمة لها، ثم من قدَّم قانون الترسب، ممكن أن تنحل أملاحُ معدن، ثم تترسب هذه الأملاح، لولاها لما وُجد إنسان يقف، أنت أصلك من ماء مهين تأكل طعاماً ليِّناً، من أين جاءت قساوة العظام؟ وكيف أن عظم عنق الفخذ يحمل ثقلاً يزيد على مئتين وخمسين كيلواً، مِن أين جاءت لهذه الأسنان قساوتها؟ قساوة ميناء السن تأتي بعد الألماس، لولا الترسب لما كانت هذه الظواهر، اقرأ الفيزياء برؤية إيمانية، فلولا انكسار الضوء لما وجدت عدسات، ولولا الترسب لما وجد هيكل عظمي، فما دام أكلك ليِّناً بقيتَ أنت ليِّناً، كذلك تشرب الحليب فيصير عظماً، من أين جاءت هذه القساوة؟ من الترسُّب، الكالسيوم يترسب في بعض النسج العظمية فيشكل الهيكل العظمي، ولولا أن الماء عند التبريد يزداد حجمه لما كان على سطح الأرض كائنٌ حيّ، هذا نظام الماء والحديث عن قوانين الفيزياء والكيمياء لا تنتهي.

كل الآيات في السماء والأرض هي آيات دالة على وجود الله وعظمته :

قال تعالى:

(فِي أيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

كل هذه الآيات في السماء والأرض، والطعام والشراب، والأسماك والأطيار، والجبال والوديان، والصحارى والأغوار، والوحوش، هذه الآيات الدالة على وجود الله وعظمته ووحدانيته وكماله، ومع كل هذا:

(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدِّينِ)

يقول لك: الدين لا يصلح لهذه الأيام، والدين انعكاس لضعف الإنسان أمام مظاهر الطبيعة، هكذا، هذا تكذيب قولي، أما أنا فقناعتي أن التكذيب العملي أخطر، لأنّ الذي يكذب بالدين قولاً تقنعه، أما الذي يكذب عملاً ففيه يكمن الخطر، يعمل للدنيا ولا يعبأ بالآخرة، يقول لك: أنا مؤمن، وتلك أفعاله تؤكّد عدم إيمانه، قال تعالى:

(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدِّينِ)

يكذبون بالدينونة لله عز وجل، يكذبون بهذا الإله العظيم، وبالتالي يكذبون ويأبون الخضوع لأمره ونهيه، والإنسان أحياناً يستكبر أن يطيع الله عز وجل، والمكذبون استكبروا عن عبادته.

الملَكان يكتبان ما تفعل أما ما وراء ما تفعل ونيتك فهذه يعرفها الله وحده :

قال تعالى:

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)

أيْ أنّ الإنسان في الحياة المدنية لو وصل إلى علمه أنه مراقب، أو أنّ هاتفه مراقب، أو حركاته مراقبة، وكل شيء ينطق به مسجَّل عليه، كيف ينضبط؟ ينضبط انضباطاً لا حدود له، لكن الله عز وجل يقول:

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)

وقال تعالى:

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

[سورة ق: 18]

فما من كلمة تنطق بها، وما من حركة تتحرك بها أو تفكر في شيء إلا والله يعلمه، قال تعالى:

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ*يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

الإنسان حينما يألف الشيء قد يبتعد عن حقيقته بسبب طول الألفة، كلّكم في الصلاة يقول: السلام عليكم ورحمة الله، تسلم على مَن؟ على ملكَي اليمين والشمال، هذا الملك لا يفارقك إلا في حالتين ذكرهما العلماء، هو معك يسجِّل عليك كلّ شيء، قال تعالى:

(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ *وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ*يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

أما النوايا فلا يعلمها إلا الله، والملكان يكتبان ما تفعل أما ما وراء ما تفعل ونيتك فهذه يعرفها الله وحده.

الناس رجلان برٌّ وفاجر :

في النهاية، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

إنّ القرآن الكريم واضح، وتقسيماته واضحة، والناس رجلان؛ بَرٌّ وفاجر، البر في نعيم القرب، والفاجر في جحيم البُعد، البر عَرف اللهَ فاستقام على أمره، والفاجر غفل عن الله فتفلّت من أمره، والبر أحسن إلى المخلوقات، والفاجر أساء، والبر لو زلّتْ قدمه لاستتر، والفاجر حينما يعصي اللهَ يفتخر، فالناس رجلان ونموذجان، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

الأبرار في نعيم القرب، في نعيم السلامة، في نعيم السعادة، في نعيم الأمن، في نعيم الرضا، في نعيم التسليم لقضاء الله وقدره، في نعيم الوعد العظيم بجنة عرضها السماوات والأرض، والفجار في جحيم، جحيم البُعد، جحيم الخوف، جحيم القلق، جحيم اليأس، جحيم الإحباط، جحيم الخوف من المستقبل، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

معنى ذلك أن كل هذه التقسيمات التي يأتي بها البشر لا أصل لها، تقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان، أبيض وملوَّن، دول الشمال ودول الجنوب، عرق صيني، عرق أبيض، وعرق ملوَّن، الشعوب السامية والأنجلوساكسونية، تقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان، وهي واقعة، ولكن عند الله لا يُؤخذ بها إطلاقاً:

((لا منكم، ولا منكم، سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

((نِعْمَ العَبْدُ صُهَيْبٌ لَوْ لَمْ يَخفِ اللَّهَ لَمْ يَعْصِهِ))

[كنز العمال عن عمر]

كل صفات الكمال في المؤمن لأنه اتصل بالله واصطبغ بصبغته :

قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد: 1]

قرشي عريق جهل واغتر بالله، قال تعالى:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

[سورة المسد: 2]

فهذه التقسيمات هي حقائق واقعة، ولكن ينبغي ألاّ نأخذ بها، فهناك إنسان أبيض وإنسان ملوَّن، وإنسان فقير وإنسان غني، وإنسان عرقه ساميّ وإنسان عرقه آري، فهذه التقسيمات لا معنى لها:

((رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ قَالَ اللَّهُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))

[الترمذي عَنْ ابْنِ عُمَرَ]

ورُوِي في الأثر: الناس سواسية كأسنان المشط. فالتقسيم الحقيقي لعباد الله: برٌّ وفاجر، ولا ثالث لهما، والمؤمن بر تقي، والفاجر خبٌّ شقي مارق محتال، وكل صفات الكمال في المؤمن لأنه اتصل بالله واصطبغ بصبغته، وكل صفات النقص بغير المؤمن لأنه انقطع عن الله.

الفرق بين اللذة والسعادة :

أيها الأخوة، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

طبعاً نعيم مطلق في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا ترى المؤمن في جنة القُرب، قال تعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

[سورة محمد: 6]

عرَّفها لهم في الدنيا، لذلك قال بعض العلماء: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقال أيضاً: بستاني في صدري، ماذا يفعل أعدائي بي، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي؟!! هذه جنة القُرب، فإذا مات دخل جنة الآخرة، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

إن نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة، ذلك لأنني في درس سابق أو في خطبة سابقة بيَّنتُ أن هناك لذة وهناك سعادة، فاللذة طبيعتها حسية، متناقصة في تأثيرها، تنبع من خارج الإنسان، وتأتي من الخارج، وطبيعتها حسية، متناقصة في تأثيرها، تأتي من خارج الإنسان؛ من طعام، ومن شراب، ومن امرأة، ومن منظرٍ جميل، ثم إن هذه اللذة متناقصة في تأثيرها، تنتهي بكآبة، فلو بُنيتْ على معصية انتهت بهلاك وبعذاب أليم، بينما السعادة تنبع من الداخل، طبيعتها نفسية، متنامية في تأثيرها، تنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض، فالأبرار في نعيم، وإنّ البرُّ هو الذي عرف الله فاستقامت أعمالُه، فكان في نعيم.

الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا :

ثم قال تعالى:

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

هم الذين عصوا اللهَ، وكانوا جهلاء، بل إنهم افتخروا بمعصيتهم:

(لَفِي جَحِيمٍ)

ولكن قد يبدو لك الفاجرُ غنيّاً، يأكل ما يشتهي، ويسكن أجمل بيت، ويركب أجمل مركبة، قال تعالى:

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ* يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ)

الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا، الناس في الدنيا قد يُخدَّرون بالشهوات، ولكنهم حينما يوضعون في قبورهم تستيقظ فطرهم، ويصبح بصرُهم حديداً ثاقباً، قال تعالى:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

وتنقطع عنهم شهواتهم، قال تعالى:

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)

[سورة سبأ: 54]

انتهت الشهوات، بيته ومركبته ومكانته ومركزه وأصدقاؤه ورحلاته ومجونه وسهراته وندواته كلها انتهت، قال تعالى:

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ)

[سورة سبأ: 54]

البطولة أن تنجو في الآخرة من عذاب أليم وأن تكون من المقرَّبين :

قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

في الدنيا والآخرة، نعيم القرب في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

جحيم البُعد، لكنّه يبدو صارخاً يوم القيامة، وقد يكون الفاجر في الدنيا مخدَّراً بلهوه وضلاله، قال تعالى:

(يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ *وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ)

فالبطولة أن تنجو في الآخرة من عذاب أليم، وأن تكون من المقرَّبين، وأن تكون ممن عرف اللهَ في الوقت المناسب، لأنّ كل الخلق سيعرفون الله عند الموت، ولكنها معرفة لا تغنيهم ولا تنفعهم، قال تعالى:

(وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

إذا قال تعالى: وما يدرك؟ فلن تعلم عنه شيئاً، أما إذا قال سبحانه: وما أدراك؟ فنحن الآن سندرك وسنعلم، قال تعالى:

(وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

آيات وأحاديث تبين اليوم الآخر حيث تتقطع كل العلاقات :

هذا اليوم تتقطع فيه كل العلاقات، قال تعالى:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

[سورة المؤمنون: 101]

ذكرت لكم سابقاً أنّ عينَ الأم قد تقع على ابنها يوم القيامة فتقول له: يا بني جعلتُ لك صدري سقاءً، وحِجري غطاء، وبطني وعاء، فهل من حسنة يعود عليّ خيرها اليوم، فيقول لها ابنها: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنما أشكو مما أنتِ منه تشكين، فيوم الدين كما قال تعالى:

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

يقول عليه الصلاة و السلام في الحديث المروي عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلاً يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُم فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؟ فَأَقُولُ: سُحْقاً سحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[مسلم عَنْ أَبِي حَازِمٍ]

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا فَقَالَ: يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

قال تعالى:

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

[سورة الزمر: 19]

فلو أنك التقيت بالنبي عليه الصلاة والسلام في الدنيا، وبذكاء وطلاقة لسان وقوة بيان انتزعت من فمه الشريف فتوى لصالحك، فلن تنجو من عذاب الله، لقول النبي عليه الصلاة والسلام الذي روته أُمُّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[مسلم عن أُمُّ سَلَمَةَ]

قال تعالى:

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

وهو العدل الحق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المطففين 083 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01 – 06 ، معنى التطفيف وعقابه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1984-10-26

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة التالية تتحدَّث عن نوع من علاقات الناس بعضهم ببعض :

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

قال بعض علماء التفسير: هذه السورة تتحدَّث عن نوعٍ من علاقات الناس بعضهم ببعض، وقد جاءت بين السور المكية التي تتحدث عن الإيمان بالله عزَّ وجل، فلو دققت في موضوع هذه السورة لوجدته مغايراً لكل السور المكية التي جاءت قبلها والتي جاءت بعدها.

قال بعض علماء التفسير إن هذه السورة جاءت بهذا الشكل تأكيداً إلى أن التقصير في حقٍ صغيرٍ من حقوق البشر موجبٌ للهلاك، فكيف التقصير بأكبر حقٍ من حقوق الإله!! إذا طففت في الوزن أو في الكيل فهذا موجبٌ للهلاك يوم القيامة، فكيف إذا أنكرت الخالق؟ فحكمة مجيء هذه السورة في الجزء الأخير من كتاب الله حيث الحديث عن السماوات والأرض، والحديث عن اليوم الآخر، والحديث عن عظمة الله عزَّ وجل، وكلُّكم يعلم أن السور المكية ترسِّخ الإيمان بالله عزَّ وجل، فكيف جاءت هذه السورة وسط سور عديدة تتحدَّث عن الله عزَّ وجل بينما هذه السورة تتحدث عن علاقة جزئية جاريةٍ بين الناس، ألا وهي التطفيف؟

قال بعض علماء التفسير: إذا كان التقصير اليسير في حقّ إنسانٍ يوجب الهلاك، فكيف بالتقصير الكبير في حق الله عزَّ وجل؟ ما حقُّ الإنسان عليك؟ لا شيء، حقُّه أن تعطيه بضاعةً بهذه القيمة، فإذا قللت من نوع البضاعة، أو من وزنها، أو من كيلها، أو من حجمها فقد قصَّرت في حقّه ولو كان هذا التقصير طفيفاً، أما حقُّ الله عليك وقد خلقك من نطفةٍ وسخَّر لك الشمس والقمر والنجوم فكيف تنكره؟! وكيف تجحد فضله؟ وكيف تعصي أمره؟ وكيف لا تنتظر حسابه؟ إنها مفارقة حادة، فإذا قصَّرت تقصيراً يسيراً في حق إنسان فهذا موجبٌ للهلاك، فكيف إذا قصَّرت في حق الله الذي خلقك ولم تكن شيئاً؟! هذا موجبٌ للشقاء الأبدي.

معنى التطفيف :

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

المطففون جمع مُطَفِّف، والمطفف اسم فاعل من طَفَفَ، وطفف ثنائي مضعَّف مثل زلزل، قلقل، عسعس، طفف.. فطفف بمعنى قَلَّل، والشيء الطفيف الشيء القليل.

أي لو أن الإنسان وزن وزنة ولم تتوازن العين بالعين فهذا مطفف، ومِنَ الذي يُذهِب العدالة أو يجرحها تطفيفٌ بتمرة، فإذا كنت قد بعت كيلو غراماً من التمر وكان الوزن أقل من الوزن الصحيح بتمرة واحدة فهذا مما يجرح العدالة، فالتطفيف له أمثلة كثيرة ولا سيّما في عصرنا.

فأنا بقدر الإمكان قد جمعت بعض الأمثلة التي نعانيها، والتي وصلت إلى علمي، والمخفي أعظم، بعض الأمثلة التي نعاينها، هذه سورة من كتاب الله:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

تعالج الأمثلة التي نعاني منها، وزيادة، مثلاً كم من الأبنية التي انهارت بسبب وضع المتعهّد إسمنتاً أقل من الكمية التي فرضها المهندس؟ فالمتر المكعب من الخرسانة المسلحة يلزمه وضع سبعة أكياس من الإسمنت، فقام هو بوضع خمسة فقط، وبعد فترة من الزمن انهار البناء، فإذا مات ثلاثون أو أربعون شخصاً، وكان ثمنُ كل بيت مليوناً فأصبح لا شيء، هذا الشيء الكبير مَن المسؤول عنه؟ وبرقبة مَنْ؟ برقبة المطفف، فالتطفيف قد يكون بالإسمنت، وهناك تطفيفٌ بالحديد كذلك، وهناك تطفيف بفترة صلاحية الإسمنت، فيكون قد مضى على انتهاء صلاحيته فترة زمنية طويلة فأصبح بلا مفعولٍ، ويبيعه بالسعر نفسه للإسمنت الجيد، فلدينا تطفيف عدد وتطفيف نوع، هذا النوع ليس بهذا السعر فهذا تطفيف بالأسعار، أحياناً الذين يشترون من الفلاّحين بعض الحاجات، يشتريها أحدهم بوضعٍ ويبيعها بوضعٍ آخر، فقد ذكر لي شخص أن الجوز يشترى بالمنخل فيُنْخَل مع البائع أوقيتان فيضعهما عنده، ويحاسب الفلاح على الصافي، ويبيع الجزء الذي وضعه عنده لبائعي الحلويات، فهذا تطفيف، ويقول لك: هذا عرف ومصلحة، وهكذا الترتيب.

تقليل الكم وتخفيض النوع والغش وعدم الإتقان يدخل في هذه الآية :

كل عملية تنقيص وزن، أو تنقيص كيل، أو تنقيص نوع، وكل عملية غش، وكل عملية عدم إتقان، فقد وجدتُ أن تقليل الكم وتخفيض النوع والغش وعدم الإتقان يدخل في هذه الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أحياناً يقوم مصلّح السيارات بتوفير جزء من الوقت، فيسرع في إصلاح السيارة، فيسبب كارثة لأصحاب هذه السيارة، فلا يضبط عمله قبل أن يسلّم هذه السيارة لأصحابها، فيسبب حادثاً كبيراً يموت فيه خمسة أشخاص مثلاً، فهو مطفف لا يحاسب على هذا التقصير، ولكن يحاسب على موت هؤلاء الخمسة بسبب التقصير:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

فبتقديره أنّه وفّر الوقت ويتسامر مع ضيف يتسامر عنده، وقال لصانعه: ركب وشدَّ البراغي على الإطارات، وجاء صاحب السيارة فقال له: السيارة جاهزة فخذها، هذا مطفف، وأحياناً يوفّر جهده فهو كذلك مطفف.

أحياناً الطبيب يعطي المريض إبرة من الماء المقطَّر، فيأخذ من المريض أجرته خمسة وعشرين، وثمن الإبرة خمس عشرة ليرة، فقبض أربعين ليرة من جرائها، ولكن الماء المقطَّر ثمن الإبرة منه عشر قروش، أو ربع ليرة، وقد أوقع المريض تحت الوهم، ويظن نفسه قد انتعش بهذه الإبرة وشعر بنشاط وهي إبرة من الماء المقطَّر ولا قيمة لها، فهذا تطفيف وهو أحد أنواع السرقة. أحياناً أحد المحامين يعلم جازماً أن هذه الدعوى خاسرة، لأن كل القوانين والاجتهادات وآراء محكمة النقض ضد هذه القضية، ومع ذلك يقبل تسلُّم الدعوى، على نيَّة أن يتقاضى أجراً إلى أن يُفضَح الأمر، فتطول الفترة إلى خمس أو ست سنوات، ويكون قد ابتزَّ موكله ابتزازاً فاحشاً وحراماً، وهذا المحامي داخل في هذه الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أحياناً طبيب يأتيه مريضٌ، فلم يفهم مرضه ولم يستطع تشخيصه، وله زميلٌ مختصٌ بهذا المرض، فيعطي المريض مسكّنات على أن يراجعه بعد أسبوع مثلاً، فهذا التصرف كلّه ابتزاز، وهذا الطبيب داخل في مفهوم هذه الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

وكان عليه أن يرشده إلى زميله الطبيب المختص ليعالجه.

التقليل من التطفيف :

من التطفيف التقليل إذا قلّلت حقَّ هذا الإنسان شيئاً يسيراً فأنت مطفف، فإذا قلّلت الكمَّ، أو قللت النوع، أو قللت العدد، أو غششت، أو لم تتقن، فعدم الإتقان والغشّ والتقليل والإساءة من التطفيف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

وأحياناً الطبيب يكلّف المريض بإجراء ثمانية تحاليل مثلاً، والمريض بحاجة إلى تحليل واحد، ويكون هذا الطبيب متفقاً مع محلل اتفاقاً شفوياً أن المطلوب من التحاليل هو المكتوب في أول القائمة وما تبقى من الثمانية غير مطلوب، وهذا الفرق نتقاسمه بيننا مناصفة، ويقول لك: الحياة شطارة، من قال لك إنَّها شطارة؟ هذه سرقة، فهذا المريض بحاجة إلى تحليل نسبة الكوليسترول فقط، فيكتب له الطبيب ثمانية تحاليل، ويزكي له محللاً لثقته به، وينصحه بالذهاب إلى مختبره. هذا المحلل حلّل أول مادة، وألقى الباقي في الحاوية، وطلب منه مئة وعشرين ليره سورية، في حين أن التحليل كلّفه عشر ليرات، والمئة مناصفة، فيعدَّ هذا الطبيب نفسه ذكياً، وهو يصلي أيضاً:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أمثلة أخرى من حياتنا اليومية عن التطفيف :

يشتري صافياً، ويبيع قائماً، فأحياناً تكون للعبوة وزن كبير وهذا تطفيف أيضاً، أنت ماذا اشتريت؟ اشتريت صافياً، وكيف بعت؟ بعتَ قائماً، أحياناً يوزن شيء ثمين بورق سميك، أصبح سعر كيلو الورق بمئة وخمسين ليرة، فهذا تطفيف كذلك، لأنه باع الورق بسعر البضاعة المباعة.

أحياناً تكون أشياء توزن بالمثاقيل، والمروحة تشتغل، فهذه المروحة يتوجه هواؤها إلى كفة البضاعة فترجح:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أحياناً يقول لك: صلّح لنا هذه القطعة من الذهب، فتقص من طرفين وتلحم، هذا الوزن الذي نقص من القطعة ثمنه يساوي خمسين ليرة مثلاً، فهذا داخل في التطفيف، ويقول: هذا عرف، من قال بهذا؟ إذا كلفك أحد الناس بتصليح قطعة ذهبية، فمن الممكن أنْ تقص قطعة من هنا وقطعة من هناك وتلحمها، وهذا الفرق قد يكون حلقة في سلسلة يبلغ سعرها خمسين ليرة أو خمسة وعشرين، إن الله قال: تطفيف، ولم يقل تكفير، حتى لو كان ثمنها ليرة واحدة.

بعض المصلّحين يفتح خزان الوقود بالسيارة، ويأخذ منه صفيحتين لغسل المحرك، فيضع صفيحة من البنزين في سيارته، ويغسل المحرك بالصفيحة الأخرى، وثمن صفيحة البنزين أربعمئة ليرة، فهذا داخل في اسم:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

بائع الأقمشة عندما يشتري القماش يشتريه مرخياً، تجد القماش منحنياً على المتر، وإذا أراد بيعه يظل يشده حتى آخر مدى له، وهذا داخل في التطفيف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

فأنت اشتريت القماش مشدود فبعه مشدوداً، وإذا اشتريته مرخياً فبعه مرخياً، وفي الشراء يُتساهل، فإذا زاد مقدارٌ فلا يدخل الزيادة في الحساب، ويقول لك: طول الثوب ثمانية وعشرون متراً فقط، وعندما يبيع الثوب نفسه يبيعه بطول ثمانية وعشرين متراً وأربعين سنتيمتراً، فهذا أيضاً داخل في التطفيف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

معظم مصالح العباد داخلة في هذه الآية :

أحياناً يكون هناك تعهد لتقديم طعام مثلاً لأناس فقراء، أو تقديم هدايا للذين يلتهمون الطعام، وتقدَّم نصف الكمية، بالتعهد يكون المقدار مئتا غرام من اللحم بالصرة مثلاً، ويقدم مئة غرام من اللحم فقط بدل المئتين، ويكون هذا التعهد لمئتي شخص أو لخمسمئة، فيكون الفرق كبيراً، هذا في قوت العباد، واسمه كذلك تطفيف، فأنت قد أخذت ثمن الصرة خمس ليرات أو عشر ليرات مقابل مئتي غرام من اللحم، أو مئة غرام، وليس خمسين غراماً، ويقول لمَن يعترض: من استلم مني رضي بذلك، لكن الله لا يرضى عن ذلك، فدخل في الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أكثر المطاعم إن طلبت أوقية من اللحم يعطيك مئة وخمسين غراماً فقط، لماذا؟ ونصف هذه الكمية المقدمة دهناً، وهذا الدهن يُمزج بالرئة الحمراء لتصبغ الدهن باللون الأحمر، فالرئة توضع مع الدهن، ويصبح كل لون اللحم أحمر، ويضع مئة وخمسين غراماً، ويقول لك: ثمن الأوقية أربعون ليرة، أو نحوها، فهؤلاء أصحاب المطاعم دخلوا في الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

وحتى يربح صانع الطحينة ليرة واحدة زيادة عن السعر يضع فيها إسبيداج ويقول لك: هذه طحينة بيضاء أغلى بليرة ونصف، فهذا السبيداج يدخل في صناعة الدهانات، والطحينة طعام المسلمين، يدخل إلى المعدة، ويسبب أمراضاً خبيثة، ولا يُهضم، ويذهب إلى الكلية فيتعبها ويسبب لها التهاباً، ولكنه باع الكيلو غرام منها بإحدى عشرة ليرة ونصف، والسعر التمويني عشر ليرات، ولكن الأجود أغلى قليلاً، فوضع مادة الإسبيداج وباع بإحدى عشرة ليرة ونصف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

الآية التالية تشمل كل مصالحنا :

كأن هذه الآية تشمل كل مصالحنا، فمعظم مصالح العباد الآن داخلة في هذه الآية:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

ولقد قال لي أحد الأشخاص: إنَّهم يضعون في الزعتر نشارة الخشب، فالحليب إذا غُش بالماء فالماء لا يؤذي، أما النشارة فتؤذي وكذلك الإسبيداج يؤذي، وكذلك يضع أصحاب معامل السكاكر أصبغة البلاط في السكاكر بدلاً من الأصبغة الصحية، فهم كذلك دخلوا في الآية الكريمة:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

وأصحاب محلات قطع الغيار يبيعونك قطعة مقلدة على أنها أصلية، فالغش تطفيف، وتقليل الكمية تطفيف، وهبوط النوعية تطفيف، وعدم إتقان الخدمة تطفيف.

وضع لك لتثبيت لوح زجاج مسمارين فقط، واللوح طويل فكسر لوح البلور من طرفه، وثمنه ثمانون ليرة، ولتثبيته يحتاج لأربعة مسامير تثبّت بشكل محكم، فإذا كان كذلك لم ينكسر البلور، وهذا داخل في التطفيف.

فالخلاصة هي أن ربنا عزَّ وجل يعلم أن هذا الموضوع حسّاس وله سورة بكاملها.

ترك المكافأةِ من التطفيف :

يخلط الزيت النباتي مع البلدي، هذا غش وتطفيف، ويخلط السمن الحيواني الرديء المستورد مع السمن البلدي، وهذا أيضاً تطفيف، ويوضع زيت الكاز مع البنزين فيسبب المتاعب للسائقين، وهذا أيضاً تطفيف، وهذا موضوع آخر، وقد جاء في المثل العربي: ترك المكافأة من التطفيف، فلو أردت أن أذكر شواهد أخرى على التطفيف في حياتنا اليومية لانتهى الدرس كله ولن ننتهي من ذكر الشواهد، إذاً إنْ لم يكن هناك خوفٌ من الله عزَّ وجلَّ فهذا الأمر جد خطير، قال الله سبحانه لموسى: يا موسى خفني وخف نفسك وخف من لا يخافني.

فهذا الذي لا يخاف الله عزَّ وجلَّ يفعل كلَّ شيء، أي مهما كان الذنب خطيراً يفعله، هذا التطفيف الذي تحدثت عنه من تقليل كمية، أو من تخفيض نوعية، أو عدم إتقان، أو إهمال، أو توفير وقت أو جهد أو غش، هذا كله داخلٌ في التطفيف وخطره كبير.

هناك شيءٌ: ترك المكافأةِ من التطفيف، إذا خدمك إنسان خدمةً، وأنت لم تكافئه فهذا من التطفيف، كلَّفت إنساناً بعمل، وقدمه لك ولم يرض أن يأخذ ثمنه، له مصلحة، وله أولاد، وله وقت وجهد، وهو أحب أن يكرمك ولم يرض أن يأخذ ثمنه، فأنت عليك أن تكافئه بهدية، ترك المكافأةِ من التطفيف.

((مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ وَمَنْ اسْتَجَارَ بِاللَّهِ فَأَجِيرُوهُ وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ))

[النسائي عَنْ ابْنِ عُمَرَ]

متى لك الحق أن تقول للذي أسدى إليك معروفاً: جزاك الله خيراً؟ في حالة واحدة؛ إن لم تجد ما تكافئه به فادع له، فترك المكافأةِ من التطفيف.

إذا تركت المكافأة ولم ترد على الإحسان بإحسانٍ مثله، فإن أعارك أحدٌ شيئاً فأرجعه له متقناً، وهناك أشخاصٌ يزيدون، استعار كتاباً يجلده ولو بغلاف من النايلون، ولو بغلاف لونه أزرق، وأرجعه إليه مجلداً، إنّ هذا شجعك على العمل الصالح، أمّا هذا الذي يمنع الخير فهو الذي يُسيء لصانعي الخير، فإذا أسأت لصانع الخير فقد منعت الخير، وترك المكافأةِ من التطفيف.

التطفيف المعنويّ أيضاً يدخل في الآية :

هناك تطفيفٌ معنويٌّ أيضاً يدخل في الآية، الابن أحضر لزوجته غسالة، فالأم أقامت النكير عليه، لماذا؟ تقول له: إنها لا تستحق، هي صبية، وهي تستطيع أنْ تشتغل، فلا تعوِّدها الكسلَ، أما إذا الصهر أحضر لابنتها غسالة فإنها تقول: الله يرضى على فلان! الله يرضى عليه! أكرم بنتنا!! لماذا هذه التفرقة في المعاملة؟ أكثر شيء يقع في المرأة أنها تدلّل ابنتها، فإذا نامت متأخرة فلا مانع، ولا شيء عليها، أما إذا كان عندها كِنَّة في البيت، وكان رأسُها يتألم، ونامت باكراً فالويل لها، تقول لزوجها: هذه كسلانة، وإنها تتمارض، ولا تشكو من شيء، إنها مثل القردة، لماذا هذا الكلام؟!

إذا كان عندك صانع تعامله معاملة قاسية، أما ابنك فتخاف عليه من الهواء لماذا؟ وهذا أيضاً تطفيف، تنقصه حقه، ترك المكافأةِ من التطفيف.

هناك تطفيف ماديّ وتطفيفٌ معنويّ، وهناك تطفيف غش، وتطفيف عدم إتقان، وهناك تطفيف تنقيص وزن، وهناك تطفيف تنقيص كيل، وهناك تخفيض المستوى النوعي، هذا كله مِن التطفيف، الله عزَّ وجلَّ قال:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أما كلمة "ويل " فقد فسرها المفسرون بأنها الهلاك، الهلاك للمطففين، فإذا طففت بحق إنسان قليلاً فالويل لك، فكيف إذا تركت حق الله كله؟ لا تنسوا أن هذه السورة وردت في سياق السورِ المكية، كلها تتحدث عن حق الله عزَّ وجلَّ، فإذا قصرت في حق البشر قليلاً فالويل لك، فَكَيفَ إذا تركتَ أو أنكرتَ أو جحدْتَ حق الله كلَّهُ؟!!

إذاً كلمة "ويل" أي الهلاك، ومرةً فسرتها لكم كما لو أن سائقاً يهبط بسيارته في طريق منحدر شديد جداً، على اليمين وادٍ سحيق وعلى اليسار وادٍ سحيق، وينتهي الطريق بمنعطف خطر، وشعر أن المكبح قد تعطل ولا زال منطلقاً، قد يضرب نفسه ويقول: انتهينا ومتنا. كلمة "ويل" أي تحقق الهلاك، وليس عنده شك ولا بنسبة واحد في المليون أنه انتهى، وقد رأى الوادي الأول والثاني، والسرعة مذهلة، والمنعطف خطير، وليس معه مكبح، فأصبح عنده يقينٌ قطعيٌّ، ولا مجال للشك إطلاقاً مِن أنه انتهى، أرأيتم الناس الذين في هذه الحالات، ومن دون وعي يستخدم أحدهم الفعل الماضي، فإنه يقولُ لك: هلكنا، قل سنهلك! لا، بل يقول لك: هلكنا، وقُضِي علينا، وبشكل لا شُعوري، هذه الفطرة، لقد أيقن بالهلاك.

كلمة (ويل) دعاءٌ من الله تعالى على هؤلاء المطففين وهذا الدعاء قرارٌ قطعي :

قال بعض المفسرين: كلمة "ويل" دعاءٌ من الله تعالى على هؤلاء المطففين، وقال بعضهم: دعاء الله قرار، إما أنهم هلكوا، وإما أن الله قضى عليهم بالهلاك، ودعاء الله عزَّ وجلَّ غير دعاءِ البشر، فدعاءُ البشر يُستجاب وربما لا يستجاب، لكن دعاء اللهِ قرارٌ قطعي..

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

أي أن المطففين خسروا وهلكوا، وانتهى أمرهم، وكلٌّ منا لا يزالُ حياً، وما دام الإنسانُ حياً فباب التوبة مفتوحٌ على مصراعيه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

مَن همُ المطففون ؟

فيما يلي يبيِّن ربنا عزَّ وجلَّ مَن همُ المطففون، قال الله عزَّ وجلَّ:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

لكنَّ الذي ينبغي أن يُقال: الذين إذا اكتالوا من الناس، أي اشتروا منهم، اشتروا منهم كيلاً، أو اشتروا منهم وزناً، أو اشتروا منهم طولاً، قال الله عزَّ وجلَّ:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ)

أي بحكم احتكار الصنف، أو بحكم القوة المادية أو المعنوية، أو قوة المال أو الجاه أو السلطان، أي أن معك قوةً، ألزمت هذا المشتري أن تأخذ منه حقك كاملاً، يا أخي أريدها قائمة، الوزن غير مقبول، فلا يعبأ بكلامك:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ)

من معاني على الاستعلاء، استخدام ربنا الفعل (اكتال على) وعدم استخدامه (اكتال من) إشارةً إلى أن (اكتال على) بمعنى ألزم المشتري البائع أن يقدم له حقهُ كاملاً:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

حقهم بكامله، فإنه يدخل في هذه إن ادَّعيت يا أخي أن البضاعة عليها مصاريف، وأيضاً سافرنا سفرة ووجب عليك مصروفٌ، وقد خسرتُ في هذه الحالة، والحقيقة أنك سافرت لأمورٍ خاصةً بك، والسفر ليس له علاقة بالبضاعة ثم تغرِّمه مصاريف الرحلة والسفر، وإذا كان هناك مخالفات تحسبها، حتى مخالفة السيارة تحسبها عليه، فهذا من التطفيف، فكلمة "على" فيها قوة، أي:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

إذاً يريد أن يلزمه بمصاريف كل شيء، حتى حاجاتهِ اليومية، حتى طعامه الذي فيه بذخ، يقول لك: يا أخي إن هذا يدخل في المصروف.

عجب ربنا من المطففين الذين غاب عن أذهانهم أنهم سيقفون بين يدِي حاكمٍ عادل :

قال تعالى:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)

انظر كما يقول عامَّة الناس على سطح واحد صيف وشتاء في وقت واحد، أي إذا اشترى يستوفي حقه كاملاً، أما إذا باع فينقص هذا الحق إما كيلاً، أو وزناً، أو مساحةً، أو طولاً، أو نوعيةً، أو غشاً، أو عدم إتقان، أو ينقص هذا الحق نقصاً معنوياً، ثم يقول الله سبحانهُ وتعالى:

(أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ*لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

أي كيف غابَ عن ذهنهم أنهم سوف يقفون بين يدِي حاكمٍ عدل؟ كيف غاب عن ذهنهم هذا اليوم العظيم، الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين؟ كيف غاب عنهم أنهم سيحاسبون على هذه الأعمال حساباً عسيراً؟ كيف غاب عنهم أنهم سيدفعون الثمن غالياً؟

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))

[أحمد عَنْ عُقْبَةَ بْن عَامِرٍ]

هناك مجموعة آيات في غير هذه السورة تحضُّ على الاستقامة في التعامل مع الناس:

ربنا عزَّ وجلَّ هنا عجب:

(أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ)

هؤلاء جميعاً، وكلمة "أولئك" تعني أناساً كثيرين، حتى إن بعضهم قال: حينما بُعِث النبي عليه الصلاة والسلام كانت مكةُ تضجُ بهذه الظاهرة، تطفيف الوزن والكيل، ولا تنسوا أن قوم سيدنا شعيب أهلكهم الله عزَّ وجلَّ بهذا الذنب وحده، قال الله تعالى:

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

[سورة الرحمن: 9]

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

[سورة الإسراء: 35]

هناك مجموعة آيات في غير هذه السورة تحضُّ على الاستقامة في التعامل مع الناس، لذلك فعلامة المؤمن ليست الصلاة، ولا الصوم، ولا الحج، ولا الزكاة، ولا قراءة القرآن، هي غير التعلُّق بمظاهر الدين، علامة المسلم أنه إذا عمل عملاً فكأن هذا العمل لنفسه، وعليه أن يتقنه إتقاناً شديداً، والشيء المؤكد أن الذي يتقن عمله يتفوق بين أقرانه، فقانون الله عزَّ وجلَّ جعله عامّاً، حتى لو أخذ به الكافر لتفوق بمقتضى هذا القانون، فمن أتقن عمله تفوق في أي مصلحة كانت، حتى لو جاء إنسان ملحد وطبَّق هذا القانون لتفوق، فلا تعجبوا إذا رأيتم الناس مقبلين على إنسان بمصلحة معينة، يقول لك: عمله متقن، وصنعته متقنة، حاجته نظيفة، بضاعته جيدة، وزنه صحيح، لا يغش، ولا يأكل مالاً حراماً، فالذي يطبق هذا القانون يغتني في الدنيا قبل الآخرة.

الورعُ علامة الإيمان :

قال الله تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ*إِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ*أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ*لِيَوْمٍ عَظِيمٍ *يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

أي هذا اليوم العظيم الذي يحاسب فيه الناس جميعاً على أعمالهم، يقومون لهذا الرب بين يديه، فهنا ربنا عزَّ وجلَّ ذكر اسم الربوبية، لأن الرب لا يظلم عباده، لا يدع مظلوماً ولا يدع ظالماً، يأخذ حق المظلوم من الظالم:

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* كَلَّا)

(كلّا) أداة ردع، أي لا تفعلوا هذا، دعوا التطفيف واتركوه على الفور، حدثني أخ فقال: أنا أعمل ميكانيكياً، تصليح عُطل يكلف مثلاً ألفاً وخمسمئة ليرة، أفتح المحرك فلا أجد شيئاً، فقط تحتاج لوصل شريط، ويتقاضى الأجر المذكور، لكن بعد أن عرف الله عزَّ وجلَّ إنْ جاء الزبون طالبه بأجر قدره عشر ليرات فقط، فيقول الزبون: ما هذا؟ غير معقول! تصليحه يكلف ألفاً وخمسمئة حسب ظني، فيقول له: والله لم أجد أيَّ عطل في المحرك، لكن قبل التعرف على حقيقة الإيمان كان يلحم هذا السلك ويشغل المحرك فيشتغل، ويأخذ ألفاً وخمسمئة ليرة، هذه هي علامة الإيمان، إذاً علامة الإيمان الورعُ، رأس الدين الورع.

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

رأس الدين النصيحة :

رأس الدين النصيحة، إذا قال لك أحد: انصحني، وأنت مؤمن، واللهِ الذي لا إله إلا هو، لو لم تنصحه لخرجت من دينك، قال لك: أي القماش آخذ؟ وأنت عندك شيء كاسد فتقول: خذ من هذا، تعني الكاسد، وانظر إلى كلّ الباعة فهم ينصحون بالكاسد دائماً، إذا كان من النوعية أو اللون، أي شيء كاسد عنده ينصحه به، ويقول له: هذا أحلى، هذا اللون أجمل وأجود وأقوى وأمتن، وأنا ألبس منه، ويخيط منه بنطالاً للإيهام، ويقول: انظر فأنا ألبس منه، لكن الله عزَّ وجلَّ يحاسب، ولا يغفل، فرأسُ الدين النصيحة، رأس الدين الورع.

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

هذه علامة الإيمان، أحيانًا يذهب إلى اللحام طفل، ويقول: أريد لحماً، والله الذي لا إله إلا هو لو لم تعطه حاجته كما لو كان أبوه واقفاً أمامك لما كنت مؤمناً، هذا هو الإيمان، ليس في الإيمان حل وسط، كأن تقول: هكذا تقتضي المصلحة، فهذا كلام مرفوض، هكذا قال أهل العرف، هذا أيضاً كلام مرفوض، المقياس هو أن تقول: قال الله تعالى، أو قال رسوله عليه الصلاة والسلام، أما قال أهل العرف فهذه الكلمة مطاطة يدخل تحتها الفسقة والفجار والمنحرفون. قال الله تعالى:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

كلا.. أداة ردع أي دعوا التطفيف بكل أنواعه، ما قلَّ منه وما كثر، ما ظهر منه وما بطن، ما كان بالوزن، وما كان بالعدد، وما كان بالكيل، وما كان بالمساحة، وما كان بالأطوال، وما كان بالنوع، وما كان بالغش، وما كان بعدم الإتقان، وما كان مادياً، وما كان معنوياً، دعوا التطفيف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

الحديثُ عن الفُجَّار :

قال تعالى:

(كَلَّا)

أداة ردعٍ من الله عزَّ وجلَّ:

(إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

الآن ربنا عزَّ وجلَّ بدَّل اسماً باسم، كان الحديثُ عن المطففين فأصبح الحديثُ عن الفُجَّار. قال المفسرون: الفُجَّار هم المطففون، وهذا تبديل توضيح لا تبديل تغيير، المطففون هم الفُجَّار، وكلُ مطففٍ فاجر:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

أي أن هذا الكتاب يكفي أن يقوده إلى السجن أي إلى جهنم، هذا الكتاب قيدٌ لهم، يؤخذ بهذا الكتاب، كل عمله مسجل، وهذا الكتاب الذي سجل به عمله كافٍ أن يقودهُ إلى النار، هذا معنى كلمة "سجين"، من الفعل سَجَنَ، أي هذا الكتاب من سماته أنه يسجن صاحبه في النار إلى أبد الآبدين:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

إذا كان الرجل عليه مأخذ خطي، وبذنب كبير، هذا المأخذ الخطي كافٍ لمحاكمته وإيداعه السجن، يقول لك: كتابُ إدانة أي يدين صاحبه:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

أي هذا الكتاب كافٍ إذا أصر صاحبه عليه ولم يتب منه أن يوردَهُ النار.

الفرق بين (ما أدراك) و (ما يدريك) :

قال تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ)

ربنا عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم من عادته أنه إذا قال: وما أدراك، أنه يُدري به نبيه عليه الصلاة والسلام، وإذا قال: وما يدريك، أي أن هذا لا يعلمه أحد ولم يُعلمه الله لأحد، هنا قال الله تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ* كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

قال الله تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ*لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

[سورة القدر: 1-3]

إن قال الله عزَّ وجلَّ: وما أدراك فإنه سوف يدرينا، وإن قال:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً)

[سورة الأحزاب:63]

فهذه بعلم الله، ولا يطلع عليها أحداً أبداً، قال الله تعالى:

(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنْ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً)

[سورة الأحزاب:63]

هذه بعلم الله، كلمة (وما يدريك) فلا يُعلِمُها لأحد حتى الأنبياء، أما (وما أدراك) فالله عزَّ وجلَّ يُعلمنا بذلك.

كل تطفيف فعله الإنسان مسجَّل عند الله كتابةً وصورةً وسوف يطلعه عليه يوم القيامة:

قال الله تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ* كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

مرقوم أي من الرَقم، أو من الرَقْم، الرَقْمُ أي كتاب مرقَّم ومختوم يصعب تزويره، فالمالية تختم للتجار دفاترها، وترقمها، وتفقّط الأعداد، فإذا باع التاجر بيعاً بمليون، وقطع الصفحة المسجل عليها مبلغ البيع ومادة البيع، وقال: لا بأس علينا، فلا يستطيع تمرير ذلك، لأن الأرقام متتابعة، ولا يخفى على المدقق أمر الإتلاف والتزوير، فكتابٌ مرقوم أي محدود ليس فيه زيادة ولا نقصان.

شيء آخر، الرَقم هو النقش، أي المخالفة مع صورتها، ففي بعض الدول تأتي للإنسان مخالفة، فإذا أنكرها يعرضون عليه صورة السيارة وهي في وضع المخالفة، فلا يستطيع أن ينبس ببنت شفة، أليس ذلك رقم سيارتك؟ وفي الطريق كنت مخالفاً؟ فكتابٌ مرقوم بمعنى مرقَّم، وكتابٌ مرقوم بمعنى هناك رقَم، أي فيه صور، أي أن كل شيء عملته التقطت له صورة، وسبحان الله فالصورة مُسْكِتة للشخص، فأحياناً يأخذ إنسان لشخص آخر صورة وهو في وضع مشين فهذه الصورة تكلّفه مئات الألوف، فهل تستطيع أن تقول: لا، ليست هذه صورتي؟

فربنا عزَّ وجل أبان ذلك، فكل تطفيف فعله الإنسان في الدنيا مسجَّل عند الله عزَّ وجلَّ كتابةً وصورةً، وسوف يطلعه على عملية التطفيف يوم القيامة.

آيات قرآنية تبين أن المعتدي والآثم هما من يكذبان بيوم الدين :

قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ*وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

هؤلاء الذين كذبوا بيوم الدين، هؤلاء الذين كذبوا بحساب الله عزَّ وجل، هؤلاء الذين استخفوا بأوامر الله ولم يعبؤوا بزجره ولا بنهيه:

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ* الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ*وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

انظر إلى هذا القانون الجديد، فهنا أسلوب حصر:

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

المعتدي على حقوق العباد والآثم في معصية الله هؤلاء الرجلان عادةً يكذِّبان بيوم الدين، فإذا كذَّب المرء بيوم الدين دقق في عمله تراه معتدياً أثيماً، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1-2]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1-2]

الاستقامة طريق الإنسان للإيمان بالله والإيمان بيوم الدين والإيمان بالحق :

ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

لذلك يكفي أن تستقيم حتى تؤمن بالله وتؤمن بيوم الدين وتؤمن بالحق، فهذا شيء عجيب، فالحق لا يحتاج إلى إذن ولا إلى فكر ولا إلى كتاب، الحق يحتاج إلى استقامة، فإذا استقمت آمنت به، وطبقَّته، وملأ الحق قلبك، وأعجبت به، يجوز أن يستغرب أحدكم فيقول: ما علاقة الاستقامة بالإيمان؟ إنها علاقةٌ مصيرية، علاقةٌ ترابطية، علاقة سببٍ بنتيجة، ومَنْ يؤمن بالله يهد قلبه، من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، خذ هذه القاعدة: إذا لم يكن هناك شيء واضح لك فاستقم، فالإنسان أحياناً لأنَّه غير مستقيم تجده يجيِّر الحق لمصلحته، ويفسِّر القرآن وفق هواه، وهذا الذي ذكره الإمام الغزالي: التفسير بالرأي أي يؤول آيات القرآن الكريم لمصالحه، كأنْ يقول: الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

[سورة آل عمران: 130]

الله لم ينهَنا عن الربا بل نهانا عن أكله أضعافاً مضاعفة، هذا هو التفسير بالرأي، يريد أن يجيِّر الآيات لمصلحته، لأنَّه مُرابٍ وهذه الآية تغطي تصرفاته فيتشبث بتفسيرها، ويقول لك: لا، إنك لا تفهم معناها، وهذا هو تفسيرها، وقد سألت عنها، ومعي فتوى بذلك.

عندما ينكر الإنسان الحق أو يردّه فهو غير مستقيم، فلو أنه استقام على أمر الله لآمن به ولقي ثماره يانعةً.

علامة المنافق أو الكافر أنه لا يعبأ بقصص الأنبياء ولا بآيات القرآن :

قال تعالى:

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ*إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

آية مثل الشمس، مثل القمر، مثل المجرات، يقول لك: الحديث لا يفيد، فلا داعي للتحدث فيه، ولو قلت له: سيدنا نوح، يقول لك: سيدنا نوح ماذا تريد منه الآن، فقد مات من آلاف السنين، وإن قلت له: سيدنا يوسف قال:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

[سورة يوسف:33]

فلا يتركك تتكلم، ويقول لك: هل هذا عصر سيدنا يوسف؟! فإن تكلمت معه عن التاريخ يرفضه، وإن تكلمت مستشهداً بالآيات يرفضها كذلك، لأنه معتدٍ أثيم:

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

يريد أن تحدثه في شيء جديد كالكمبيوتر، أو تكلمه عن مشروع تجاري ناجح، أو يريد دخلاً كبيراً أو سيارة فارهة، أو فيلا في مصيف، أو مركزاً أو مكانة مرموقة، أو حياة ناعمة، أو مباهج، فلا تعنيه سيرة سيدنا نوح أو سيدنا إبراهيم فهذه القصص ليست لها قيمة لديه، لا هذه القصص ولا تلك الآيات.

علامة المؤمن أنْ تراه مأخوذاً بآيات الله :

لو أخبرته عن وزن الحوت البالغ مئة وثلاثين طناً، فيقول لك: ماذا نريد منه!! فهذا يدل على عظمة الله عزَّ وجل، وهذا لا يهتم به، الأرض سرعتها في الثانية الواحدة ثلاثون كيلو متراً، أي أنها تسير في الساعة الواحدة مئة وثمانية آلاف كيلو متر، وقد مضى من وقت الدرس ساعة تقريباً أي أننا قد سرنا في هذا الفضاء مئة وثمانية آلاف كيلو متر:

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ*إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

إنّ علامة المؤمن أنْ تراه مأخوذاً بآيات الله، وعلامة المؤمن أن تكون هذه الآيات الكونية ملء سمعه وبصره، وعلامة المنافق أو الكافر لا يعبأ بها، يقول لك: انظر إلى الطائرة الجامبو العملاقة، فوزنها ثلاثمئة وخمسون طناً، وتحمل ستمئة راكبٍ، وثمنها ثلاثمئة مليون دولار، فتجده مأخوذاً بسعرها، ومأخوذاً بمواصفاتها وبصوتها المنخفض، أو أنها ذات طابقين، ومأخوذ بأجهزتها.

إنّ المؤمن مأخوذ بالشمس، مأخوذ بالقمر، وبهذا الكون وما فيه من مجرات، وبهذه الثمار، وبهذه الفاكهة، وبهذا الماء العذب الفرات، مأخوذ بالجبال، مأخوذ بالبحار، مأخوذ بخلق الله عزَّ وجل، وكيف كان الإنسانُ نقطة من ماء مهين، ثم صار طفلاً، صار خلقاً سوياً، مأخوذ بمظاهر الكون..

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

إذا رأيت أحدهم يقول لك: هذه أشياء قديمة لا تنفعنا، وهذه أشياء تجاوزناها، وهي ليست من روح العصر، وهذه الأشياء كانت لأناسٍ سُذَّج، وكل هذا كان حينما كانت البشرية في بدايتها، في طفولتها حيث أُخذت بها، أما الآن فنحن في عصر العلم يا أخي.

إذا سمعت أحدهم يقول هذا فاعلمْ أنه: معتد أثيم، وأنه يكذِّب بآيات الله عزَّ وجل، وأغلب الظن أنَّه مطفف:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

الرَّان هو حجابٌ كثيف بين العبد وربِّه :

هذه علامة الناس، يريد المال من أي طريق، بطريق مشروع أو غير مشروع، يجوز أو لا يجوز، سواء كان كثيراً أم قليلاً، لا يهمّه إلا المال فقط، لذلك فقَدتْ البركة، ولذلك أصبحت الأمراض كثيرة، مرض واحد يستهلك ما جنيته في العمر كله، والأسعار غالية، فثمن زرع كلية ستمئة ألف، وهذه الأسعار قبلَ سنتين، والآن هي أغلى بكثيرٍ، والدولار تضاعف، لقد كان سعره خمس ليرات، وقد تضاعف الآن، فمرض بسيط يستهلك عملَ خمس سنوات، لأن هناك تطفيفاً.

أما إذا كان المال حلالاً، ودون تطفيف فإنّ الله عزَّ وجل يبارك لك فيه، فتعيش في بحبوحة، وفي صحة تامة، وفي سرور وسعادة، وأنت في خير وعافية، فلذلك أنا أقول: درهم حلال أحسن من مئة حرام، فإذا حصلت على المئة بالتطفيف فمعنى ذلك أنّ هناك عقاباً أليماً في الدنيا قبل الآخرة، وإذا كان العقاب في الدنيا تذكيراً فهو نعمة، أما إذا كان في الآخرة فهو عقاب أليم.

نشب قديماً حريق في شارع بكامله، وفي الشارع سوقٌ تجارية، أحد التجار عنده بضاعة احترقت في يوم واحد، ثمنها ثلاثة ملايين ليرة، فهل هذا المال قليل؟ لقد قضى هذا التاجر في جمع المال عشرين سنة، واللهُ جمع هذا كله وأتلفه في يوم واحد، كذلك فالله يحبه لأنَّه يذكره في الدنيا قبل الآخرة.

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هذا الذي أقوله دائماً هو نصيحة وذكرى، فكل معصية تسبب غشاوة بينك وبين الله، غشاوة فوق غشاوة فوق غشاوة حتى يصبح الرَّان، والرَّان هو حجابٌ كثيف بين العبد وربِّه:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

أكبر عقابٍ للإنسان يوم القيامة أن يكون محجوباً عن الله :

هذا الكسب الحرام، هذا التطفيف، هذا الغش في البيع والشراء، هذا النقص في المكيال، هذا النقص في الميزان، هذا النقص في الكيل، هذا النقص في المساحة، هذه الخدمة غير المتقنة، هذا التدليس، هذا الكذب، هذا الختل والمخادعة، هذا كله تطفيف، أي أنَّ الإنسان لم يأخذ حقه منك، بل أخذ أقل من حقه، وجُرْتَ عليه وغَبَنْتَه، ولا أعتقد أن هناك مصلحة في الأرض إلا ولها علاقة بهذه الآية:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

بهذا الكسب السيّئ، وهذا الكسب للمال الحرام تجَمَّعت طبقات كثيفة بعضها فوق بعض، حتى صار راناً على قلب صاحبه، ولا يعي على خير:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ* كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

انظر إلى بلاغة القرآن الكريم، فماذا يفهم من هذه الآية؟ دائماً ابحثوا عن المعنى العكسي، إنْ كان هؤلاء الفجَّار، وهؤلاء المطففون، وهؤلاء الذين كذَّبوا بيوم الدين، وهؤلاء الذين اعتدوا وكانوا آثمين، وهؤلاء الذين قالوا: إنَّ هذه الآيات أساطير الأولين، فهؤلاء:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

والمعنى العكسي: فهل المؤمنون محجوبون؟ لا، إنَّهم يرون ربَّهم، مِن هنا استنبط عليه الصلاة والسلام:

((قالَ كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذْ نَظَرَ إلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قالَ: إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا))

[البخاري عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ]

وقال بعضهم: إنَّه إذا نظر المرء إلى الله عزَّ وجل نظرةً واحدة غاب خمسين ألف سنةٍ من نشوة النظرة، فأكبر عقابٍ لهذا الإنسان أنَّه عن الله محجوبٌ:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

الفجار المطففون يوم القيامة محجوبون عن ربِّهم حجاب رؤيةٍ وحجاب تحقير :

أحد العارفين قال: إنّ أحد تلامذته قال له: إنَّه عصى الله مرةً، وانتظر عقاب الله عزَّ وجل طويلاً فلم يأته، وبحسب ما سمع منه أن كل معصية لها عقاب، فعصاه والعقاب لم يأتِ، فنادى ربَّه وقال: ربي لقد عصيتك فلم تعاقبني! قال: عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذَّة مناجاتي!؟ أي أن الله عزَّ وجل قال:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

ألا يكفي هذا العذاب أنَّ الله سبحانه هو مصدر السعادة وهو محجوبٌ عنه.

إذا قال الأب لابنه: اخْرُجْ من هنا، ورفض الجلوس معه، والأهل يحيطون بالأب مسرورين، والحديث ممتع، والأكل طيّب، وهذا الابن محجوب، أليس هذا عقاباً نفسياً؟!! لذلك ابن القيِّم قال: هناك عقابٌ يوم القيامة نفسيٌّ، ربما زاد على عقاب الجسد. هذا وقت الحجاب:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

قال المفسرون: هناك حجاب رؤية، وهم محرومون من هذا الجمال، وهذه النظرة، وهناك حجاب تحقير، فإذا تجاوز إنسان حدَّه فينهر ويؤمر بالخروج من المجلس، أخرجوه من عندي، هناك حجاب عدم رؤية، وهناك حجاب تحقير، وهؤلاء الفجار المطففون يوم القيامة محجوبون عن ربِّهم حجاب رؤيةٍ وحجاب تحقير، ألا يكفي هذا؟!!

ألا يغار الواحد ويتألّم بأن يكون مع المحجوبين؟ مع المحرومين؟ إذا ظهر اسم طالب غشَّ في الامتحان، وصدر قرار بحرمانه ثلاث دورات، وأذيع هذا القرار على الأشهاد، ألا يتألّم؟ هذا ألم نفسي، فربنا عزَّ وجل قال:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ* ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ* ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

هذا يوم الدين، يوم القيامة، يوم الفصل، يوم يقوم الناس لربِّ العالمين، وكل إنسان يأخذ حقَّه كاملاً، ويُعطى حقه كاملاً.

فهذه السورة والله الذي لا إله إلا هو تقطع الظهر، وتقصم الفقار، وليست هناك مصلحة من مصالح الأرض إلاَّ وهي داخلة تحت مظلة هذه السورة، وإذا كان التطفيف هذا عقابه فكيف يكون عقابُ التقصير بحقِّ الله عزَّ وجل؟

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المطففين 083 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 07 – 36 ، الأبرار يتنعمون في الجنة بتجليات الله عزَّ وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1984-11-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب هو صفحة أعمال الإنسان وكل إنسان له صفحة أعمال :

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ*وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ*الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ *وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ *إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ* كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ*كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ* ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ* ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ*كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

صار الكتاب هو صفحة أعمال الإنسان، وكل إنسان له صفحة أعمال، وفي التنظيمات الإدارية الحديثة كل موظَّف له إضبارة، كتب الشكر في سجلّه صورةٌ عنها، وكتب العقوبات في سجلّه صورةٌ عنها، والتوبيخات والتحذيرات والإنذارات والمكافآت كلها هناك صور عنها.

صفحات هذا الكتاب مرقّمة ومضبوطة لا تُنسَى منه صفحة واحدة :

إنسان عادي من الناس حينما نظَّم الأمور جعل لكل موظف سجلاً يشهد على أعماله الطيّبة وأعماله السيِّئة، ففي حالة الترفيعات أو البعثات أو المهمات يلقون نظرة على سجله. فإذا كان الإنسان نظَّم هذا التنظيم فليس عجباً أنّ رب العالمين جعل لكل إنسان كتاباً، وفي كتابه هذا أعماله كلُّها، صحيحها وفاسدها، الأعمال السامية والأعمال المنحطة، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وما من حركةٍ ولا من سكنةٍ، ولا من عملٍ صالح ولا عملٍ سيّئ، ولا مخالفةٍ ولا معصيةٍ، ولا صدقةٍ ولا زكاةٍ إلا في هذا الكتاب:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء: 14]

إن طفح هذا الكتاب بالأعمال الصالحة يقود صاحبه إلى الجنة، وإن طفح هذا الكتاب بالأعمال السيِّئة قاد صاحبه إلى النار، فالآيات الأولى:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

أي صفحاته مرقَّمة ومضبوطة لا تُنسَى منه صفحةٌ واحدة، ولا تضاف صفحةٌ تزويراً، ولا تنزع منه صفحةٌ واحدة، لا تزويراً ولا تستيراً:

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

ومرقوم أيضاً أعماله كلُّها مصوَّرة، فالخبر عن العمل شيء وصورته شيء أبلغ، فإذا ارتكب الإنسان مخالفة، وقيل له: أنت خالفت، وهذه المخالفة بكتاب رسمي هذا خبر، أما إذا قدِّمت له صورةٌ وهو يخالف فالصورة أبلغ، مرقومٌ في صفحاته، ومرقومٌ في صوره.

من علامة المكذبين أنَّهم لا يعبؤون بآيات الله عزَّ وجل ولا بقوانينه :

قال تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ*وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ*الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ *وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

هذا الترابط المستمر بين التكذيب بالدين والعمل السيِّئ:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1-2]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ *إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

أي أن من علامة المكذبين أنَّهم لا يعبؤون بآيات الله عزَّ وجل ولا بقوانينه، ولا بنظمه، ولا بآياته القرآنية، ولا بتشريعاته.

غير المؤمن محجوب عن رؤية الله عز وجل حجاب رؤيةٍ وحجاب إهانة :

قال تعالى:

(قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ* كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

كلُّ عملٍ سيِّئ يشكل غشاوةً تلقى على القلب، ثم غشاوة فوق غشاوة، إلى أن يصبح الرَّان، أي غشاوةٌ سميكةٌ لا يمكن خرقها..

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ*كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

هؤلاء محجوبون حجاب رؤيةٍ وحجاب إهانة، لذلك فإنّ المؤمن يرى الله عزَّ وجل رأي العين يوم القيامة أما غير المؤمن فمحجوب عن رؤيته حجاب رؤيةٍ وحجاب إهانة:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ*ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ*ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

القرآن الكريم فيه توازن، أي أنه إذا بثَّ في نفوسنا الخوف والوجل والذعر في الوقت نفسه يطمئننا إلى أنَّ المستقيم المحسن المؤمن له عند الله مصيرٌ سعيد، فربنا قال:

(فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى*لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)

[سورة الليل: 14- 15]

هذه النار لا يصلاها الناس اعتباطاً، لا يصلاها إلا الأشقى.. فهذا تركيب حصري قصري، الأشقياء وحدهم يصلون النار.

الإنسان إما أن يكون براً وإما أن يكون فاجراً شقياً :

كذلك هنا ربنا عزَّ وجل قال:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

فقد يكون مَحْضَرُ الجريمة مودع في القصر العدلي، وفي القصر العدلي زنزانة، وقد ينتقل منها إلى السجن، لكن في الجامعات سجل للطلاب الأوائل، فكتاب الأبرار، أيْ من مكانه تعرف مضمونه، مكانه في علِّيين، أي في الجنة، يحفظ كتاب الأبرار في عليين، فإذا كان الكتاب في الجنة فأين صاحبه؟ في الجنة قطعاً:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الناس رجلان برٌ تقيٌ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌ هيّنٌ على الله))

[ابن أبي حاتم عن حذيفة]

فالإنسان إما أن يكون براً وإما أن يكون فاجراً شريراً شقياً، الأبرار جمع بَر، وهناك بِر، فهذه الكلمة مثلثة، ومعنى مثلثة أيْ أنّ الباء تكتب وتلفظ بالضم والفتح والكسر، البُر القمح، والبَر العمل الصالح وكذلك اليابسة، والبر الإحسان:

(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

[سورة الطور:28]

البر الإحسان، بالبرِّ يستعبد الحر، والبَر اليابسة، والبَر أيضاً الإنسان الطيِّب، والبُر القمح، والأبرار جمع بَر، أي الإنسان الطيِّب، الطاهر، النقي، المحسن، صاحب الوفاء، صاحب المروءة، صاحب الحلم، الذي يعفو، الذي يرحم، المنصف، المتواضع، ليس فيه كِبر، ليس لديه استعلاء، ليس عنده حقد، ولا حسد، هذا هو البَر، كتاب الأبرار أي سجل أعمالهم في الجنة منشور.

أبواب الأعمال الصالحة التي لا تحتاج إلى إنفاق واسعة جداً لا تُحصى ولا تُعدّ :

قال تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ*يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)

كذلك هذا الكتاب مرقوم، صفحاته مرقّمة، وصفحاته مصوَّرة، كل عمل صالح فيه صورته، أي كأنَّ هذا الكتاب ينطق بعمل الإنسان في الدنيا، في اليوم الفلاني وفي التاريخ الفلاني أغاث إنساناً، في اليوم الفلاني عاد مريضاً، في اليوم الفلاني دعا إلى الله، في اليوم الفلاني كان براً بوالدته، في اليوم الفلاني أنقذ غريقاً، في اليوم الفلاني دفع من ماله لبناء مسجد، فهذه الأعمال الطيبة من صلاة، من صوم، من حج، من زكاة، من حضور مجالس علم، من دعوة إلى الله، من ذكر لله، من معاونة للناس، من إنفاق أموال، من بناء مساجد، من بناء دور للأيتام، من إصلاح بين زوجين، من إصلاح بين شريكين، فالأعمال الصالحة لا تُعدُّ ولا تحصى واسعة جداً، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنَّكم لن تسعوا بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم))

[البزار في مسنده]

أي أنَّ أبواب الأعمال الصالحة التي لا تحتاج إلى إنفاق واسعة جداً لا تُحصى ولا تُعدّ:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

هذا الكتاب المرقوم:

(يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)

ورد في بعض الأحاديث: أن الإنسان يوم القيامة ينظر إلى لقمة أطعمها في سبيل الله فيراها كجبل أحد، لأن العظيم يكافئ على الصغائر فكيف بالكبائر؟ فصغائر الأعمال يكافئُ عليها، أما جلائل الأعمال فيكافئُ عليها وزيادة، فقد قال تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس: 26]

لو قرأنا القرآن الكريم لشعرنا أن الله سبحانه وتعالى يطمئننا :

قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور: 55]

هذا وعد إلهي وقال تعالى:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

(وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ)

[سورة آل عمران:115]

(وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

[سورة الأنفال:60]

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[سورة البقرة:143]

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ)

[سورة التوبة:115]

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

[سورة النساء:124]

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)

[سورة محمد:35]

إذا عرفتَ الله عزَّ وجلَّ فأنت موعود بالخير في الدنيا والآخرة :

لو قرأت القرآن الكريم لشعرتَ أن الله سبحانه وتعالى يطمئننا، وقد قال الله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا من خير، أي إذا عرفتَ الله عزَّ وجلَّ فأنت موعود بالخير في الدنيا والآخرة، اطمئن فلن تلد الأيام إلا الخيرات، أما أهل الدنيا فلن تلد الأيام لهم إلا المصائب، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

ليس هذا الكلام للمؤمنين، لا، هذا الكلام لمن أدار ظهره للدين، هذا الكلام لأهل الدنيا، لمن آمنوا بالدنيا، لمن جعلوها أكبر همهم ومبلغ علمهم، لمن تنافسوا عليها، وعصوا الله من أجلها، هذا الكلام لمن لم يبالِ بوعد الله ووعيده، قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

كتاب الأبرار في أعلى درجات الجنة :

إذاً ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

أي هذا الكتاب في أعلى درجات الجنة..

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ* كِتَابٌ مَرْقُومٌ* يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)

قال بعض المفسرين: المقربون هم الملائكة، وقال بعضهم: المؤمنون، أي هذا الكتاب خاضع للنشر، أي منشور، فإذا عمِل الإنسان عملاً طيباً، فهذا العمل الطيب ينشر في جريدة، أجل الأعمال السيئة تبقى محفوظة في سجلات في المحاكم، وفي دوائر الشرطة، وفي بعض الأماكن الخاصة، أما الأعمال الطيبة فتُنشر، فهذا الكتاب:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ *كِتَابٌ مَرْقُومٌ*يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ*إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

المطلق على إطلاقه، الأبرار جمع بَرّ، وهو الإنسان الطاهر الطيب، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الناس رجلان برٌ تقيٌ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌ هيّنٌ على الله))

[ابن أبي حاتم عن حذيفة]

بمجرد أن نتوب توبةً نصوحاً فإننا ندخل في النعيم :

قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

في نعيمٍ منذ أن عرفوا الله، يبدأ هذا النعيم منذ التوبة النصوح، وهذا الكلام موجَّهٌ لنا جميعاً، بمجرد أن تتوب توبةً نصوحاً فإنك تدخل في النعيم، نعيم القرب، نعيم الطمأنينة، نعيم الثقة بالله عزَّ وجلَّ، نعيم أنك من عباده المخلصين، نعيم أنك بأعين الله عزَّ وجلَّ:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: 48]

نعيم الحفظ الإلهي:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

[سورة يوسف: 64]

نعيم أن الله يدافع عنك:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

نعيم المودة مع الله عزَّ وجلَّ:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

هذا هو النعيم، نعيم القرب، نعيم التجلي الإلهي، نعيم الثقة بالله.

الإنسان إذا عرف الله عزَّ وجلَّ يهون عليه كلّ شيء ويحتقر كلّ شيء سواه :

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتّق الله، من هاب الله هابه كل شيء، من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عن مالنا كنا له ومالنا.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضى من أحبنـــا

ولذ بحمانا و احتمِ بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنـــا

وعن ذكرنا لا يشغلنَّك شاغلٌ وأخلص لنا تلقَ المسرة و الهنـا

* * *

هذا النعيم في قلب المؤمن ما لو شُقَّ عليه وعاينه الناس لحسدوه جميعاً، وكما قال أبو يزيد البسطامي: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف.

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

حتى إن بعضهم يفسر قوله عليه الصلاة والسلام:

((أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَعِيدٌ فِي الْجَنَّةِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ))

[الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف]

أي الآن في الجنة قبل أن يموت، أي في سعادة وأي سعادة أعظم من أن ترى أنك قد اهتديت إلى الله، ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وأن فتك فاتك كلُّ شيء وأنا أحبُّ إليك من كل

شيء.

أي إذا كان معك دفتر شيكات مفتوح ضع أي رقم ووقع، فإنه يُصرف، فهل هذا مثل واحد معه قليل من النقود؟ هذا دفتر وقلم، فتضع رقماً بمئة مليون يُصرف، ألف مليون يُصرف، مئة ألف مليون يُصرف، وبالعملة الصعبة أيضاً، ودفتر شيكات، وليس شيكاً واحداً، وهذا شخص آخر معه قليل من الليرات وسعيد بها، فكيف بصاحب الشيكات؟ والإنسان إذا عرف الله عزَّ وجلَّ يهون عليه كلُّ شيء ويحتقر كلُّ شيء سواه.

المؤمن يسعد بالله عزَّ وجلَّ واللهُ معه أينما كان :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[سورة المؤمنون: 1-2]

قال بعض المفسرين: اللغو كلُّ ما سوى الله عزَّ وجلَّ، كلُّ ما سوى الله لغو، لأنه سوف يُلغى، البناء يلغى إما بالموت أو يوم القيامة يلغى، الأبنية الشامخة متى تلغى؟ إما بموت صاحبها أو بزلزال أو يوم القيامة، الشمس تكوَّر، النجوم تبعثر، الجبال تسيَّر:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن: 26-27]

إذاً:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

حتى لا يقع الإنسان في وهم، إذا كنت باراً فيجب أن تكون في نعيم، أنا أحياناً ألتقي مع أخ مؤمن يقول لي: إني مسرور جداً، والله كأنني أعيش في جنّة، صدقت، هذا هو الإيمان، أما خلاف ذلك لست مؤمناً، من علامة إيمانك أنك سعيد في كلِّ الظروف، وأنت وسط الأزمة، وأزمات العصر الحديث كثيرة جداً، أزمات السكن، وأزمات دَخْل، أزمات أعمال، أزمات مواد أولية، وأزمات كثيرة جداً، فإذا كنت مؤمناً فأنت سعيد في كلِّ الظروف، لأن السعادة لا تأتيك من الخارج، بل تأتي من الداخل.

أهل الدنيا يسعدون بالمال، يسعدون بوسائل الرفاه، يسعدون بالبيوت، يسعدون بالدخل الكبير، يسعدون بالطعام اللذيذ الشهي، يسعدون باللباس الأنيق، يسعدون بالمكانة الاجتماعية، لكن المؤمن يسعد بالله عزَّ وجلَّ، واللهُ معه أينما كان.

حسن الظن بالله ثمن الجنة :

قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

و لو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

و لو نسمت من قربنا لك نسمة لمُت غريباً و اشتياقاً لقربنا

ولو لاح من أنوارنا لك لائحٌ تركت جميع الكائنات لأجلنا

فما حبنا سهلٌ ولكن من ادعى سهولته قلنا له: قد جهلتنا

* * *

قال ابن الفارض:

لو قال تيهاً قف على جمر الغضى لوقفت متمهلاً ولم أتوقف

أو من كان من يرضى بخدي موطئاً لوضعته أرضاً ولن أستنكفِ

* * *

لو قال تيهاً محبوبه.. وهو الله عزَّ وجلّ، لو قال: تيهاً قف على جمر الغضى، وهو أشد أنواع الجمر حرارةً، إنّ الإسلام كله محبة، الإسلام له جسد وله روح، الجسد الصوم والصلاة والحج والزكاة، وهذه الأوامر والنواهي هذا هو الجسد، فكما قال صلى الله عليه وسلم: إن للإسلام مناراً وضياءً، المنار البناء، أما الضياء فهو النور المنبعث من هذا المنار، فالأحوال القلبية والشعور بالقرب من الله عزَّ وجلَّ، والشعور بالطمأنينة، بالرضى، بالراحة، الثقة بالله عزَّ وجلَّ، المؤمن واثق من الله عزَّ وجلَّ لا يخيب ظنه بالله عزَّ وجلَّ، حسن الظن بالله ثمن الجنة.

ربنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل صفحة الوجه صفحة للنفس :

قال عليه الصلاة والسلام:

((أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي وَأنَا مَعَهُ إذَا ذَكَرَنِي فَإنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإنْ ذَكَرَنِي فِي ملأ ذَكَرْتُهُ فِي ملأ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِرَاعاً وَإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ بَاعاً وَإنْ أتَانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[البخاري وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذه الأحوال إذا وجدت سعد الإنسان، أما إذا لم توجد، فالإسلام يصبح شيئاً عادياً، يصلي بملل، ويؤدي الزكاة بثقل، ويقوم بالعبادات دون شوق وحرارة، لذلك تجد بعض الناس يقول لك: إن هذا الشخص تديّن، وبعد فترة انقلب على عقبيه؛ فلت وشرد وضاع، طبعاً لأنه لم يتصل بالله عزَّ وجلَّ الصلة الحقيقية، فإنه تدين تديُّناً شكلياً، وهذا الشيء الشكلي مملٌّ، وبعدئذٍ ينتهي:

(إنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ*تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

هناك وجه شقي وهناك وجه منعَّم، سبحان الله سيدنا عثمان بن عفان كان على المنبر يخطب، فدخل رجل فقال: أيدخل علينا رجلٌ وأثر الزنى بين عينيه؟ فقال له الصحابة: أوحيٌ بعد رسول الله؟ قال: لا ولكنها فراسةٌ صادقة، إنّ عمل الإنسان يظهر على وجهه، هناك وجه بريء، وهو وجه مقبل، وهناك وجه مضيء كمصباح متألق، وكذلك هناك وجه ضوءه خفيف، وهناك أيضاً وجه ضوءه قد انطفأ، وهو وجه فيه شقاء، فيه حقد، كل صفات النفس منطبعةٌ على صفحة الوجه، وربنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل صفحة الوجه صفحة للنفس:

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لو كان حسن الخلق رجلاً يمشي في الناس لكان رجلاً صالحاً، ولو كان سوء الخلق يرى رجلاً يمشي في الناس لكان رجل سوء))

[الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود]

((اللَّهُمَّ أحْسَنْتَ خَلْقِي فَأحْسِنْ خُلُقِي))

[أحمد عن عَائِشَةَ]

الوجه الحسن: طبعاً هذا الحديث ليس له علاقة بمواصفات الجمال، فأيُّ وجه أقبل على الله عزَّ وجلَّ تألّق النور فيه، فسيدنا بلال له وجهٌ يأخذ بالألباب.. نور، أي وجهٍ إذا أقبل على الله عزَّ وجلَّ تألق بنور الله.

طعام أهل الجنة رحيق مختوم أما أهل النار فشرابهم وطعامهم من غسلين :

قال تعالى:

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

الآن بالمعنى المادي في الدنيا؛ إذا رأيتَ شخصاً يعتني كثيراً بأكله وصحته، واستيقظ من نومه بعد نوم عميق، ثم أكل إلى أن شبع، وترفَّه في الحمامات تجد وجهه مشرقاً، وكأن الدماء تجري في وجهه، أما إذا كان الواحد متعَباً مهموماً تجد حول عينيه دائرة سوداء، وغضوناً واصفراراً، هذا في الدنيا فكيف في الآخرة؟!

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ)

النعيم له نضرة:

(يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ)

قال العلماء: الرحيق شرابٌ نفيس، أما مختوم فله معنيان؛ أول معنى: أن هذا الشراب صنع خصيصاً لهم، وفي زماننا إذا كانت قارورات الشراب غالية جداً فهي مختومة، وتفتحها بمفتاح، لأنها خاصةٌ بك، لا أن تقول للبائع: املأها لنا، فالشراب المختوم أغلى، فهذا لم يقربه أحد، وصنع خصيصاً لك، ولم تقترب منه يدٌ، لأنه مختوم، وبعضهم قال: كلمة مختوم تعني له عقابيل، أي ينتهي برائحة طيبة، فإذا شرب الإنسان كأساً من الماء فيه ماء الزهر، في أثناء الشرب لا يشعر برائحتها، ولكن حينما ينتهي من الشرب خلال ثانية تفوح عليه رائحة ماء زهر، فقال العلماء: هذا الشراب النفيس ختامه مسك، إما أنه مختوم بمادةٍ هي المسك، والختم مسك، أو أنه إذا شربت منه تفوح عليك رائحة المسك، وهذا هو الشراب النفيس، أما أهل النار فشرابهم وطعامهم من غسلين، أي شيء لا يحتمل كراهته طعماً ورائحةً، قال تعالى:

(لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

[سورة الغاشية: 6]

التنافس على الآخرة يسعد الناس و التنافس على الدنيا يشقيهم :

قال تعالى:

(يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ*خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

هذه الآية سبحان الله كلما قرأتها أشعر بمشاعر خاصة، فلو أن الناس تنافسوا في هذا الطريق لسعدوا جميعاً، وإذا تنافسوا على الدنيا لشقوا جميعاً، ويمكن أنْ أقول لك بكلِّ بساطة: كل المآسي البشرية من

التنافس على الدنيا؛ على مستوى الأمم، وعلى مستوى الشعوب، التنافس على النفط، وعلى مواطن النفوذ، وعلى المناجم والثروات الباطنية، والتنافس على المغانم، فما يشهده العالم من حروب في العصور الحديثة كله بسبب التنافس على حطام الدنيا، الدنيا جيفة طلابها كلابها، الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له، لو تصورت تنافس الناس في طريق الإيمان لرأيتَه شيئاً لا يوصف، أي كل إنسان يجب أن يخدم أخاه ويؤثره في الدنيا، إنسان أخذ محلاً تجارياً واسعاً، وله أخ ليس له محل، فيقول له: تعال وخذ نصفه، تكون قد حُلَّت المشكلة، عندك بيت زائد عن حاجتك أعطه لمَن لا بيت له، فلو أن الناس تنافسوا في الآخرة لسعدوا جميعاً لكن تنافسوا على الدنيا فشقَوا جميعاً، وربنا عزَّ وجلَّ يقول:

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

ففي هذه الموضوعات تنافَسوا، وفي هذا المجال تنافسوا، وتنافسوا في معرفتكم بي، افتخروا بمعرفة الله، بقراءة القرآن، بفهم كتاب الله، بالعمل الطيب.

من أجل سنوات معدودة نضيِّع آخرة أبدية لا تنتهي :

يقولون: إنّ سيدنا عمر كان يزور امرأة أرملة، فيقدم لها الطعامَ والشرابَ، يطرق بابها فتقول له: والله لقد أتى شخص قبلك، ثم يبكر ساعة فيأتي رجل قبله، فذات مرة صلى الصبح وذهب فرأى سيدنا الصديق قد سبقه.

فأنت تصور خمسة أشخاص عاشوا في بيت مؤمنين كيف يعيشون ويتنافسون؟ إذا كانت التفاحة كبيرة آثر بها غيره، وكذا المكان الجيد بالغرفة والثاني أيضاً يقابله بمؤاثرة، فإذا كانت حياتنا مجموعة مؤاثرات ومجموعة عطاءات فالحياة تبدو سعيدة جداً..

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

ما الذي يحصل الآن؟ تنافسٌ على جمع الدرهم والدينار، من أجل أن يجمع ثروةً طائلة يبيع دينه كلّه، يضع القيم كلها تحت قدمه، يضع المبادئ السامية تحت قدمه من أجل لعاعةٌ من الدنيا، كما وصفها النبي عليه الصلاة والسلام لا تدوم، فأنا أسمع قصصاً غريبة، فهناك شخص أجرى تحسينات في بيته إلى درجة قصوى لم يترك شيئاً إلا وأدخله لتحسين بيته، وهو في بحبوحة، وبعد ما انتهى بشهر جاءته المنية، فلو أنَّ الدنيا جاءت بالحلال لكانت شيئاً حسناً، لكن أنْ تعصي الله من أجلها، وهي غير باقية فهذه هي الخسارة الكبيرة، تعصي الله من أجلها فتبيع دينك، وتبيع الآخرة بأكملها من أجل سنوات معدودة!!

من يستطيع أن يركّز وضعه وهو قبل الأربعين سنة على حسب حياتنا المعاصرة؟ فالإنسان من أجل أنْ

يأخذ شهادة، وأنْ يشتري بيتاً حتى تخرج عيونه بالطول والعرض، وما أكثر الخطأ في أساساته، إلى أنْ يستقر، أو إلى أنْ يشتري عيادة، أو إلى أنْ يشتري معدات طب الأسنان لعيادته فيصبح في سنّ الأربعين، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين))

[أبو يعلى وابن حبان عن أبي هريرة]

وذلك قبل هذه الأزمات القلبية المعاصرة، أما الآن فأصبح بالأربعينات معترك المنايا، وهو في عمر الثانية والأربعين توفى، وفي الثانية والثلاثين جاءته الجلطة، ففي الثانية والخمسين، أو الرابعة والخمسين، أو التاسعة والأربعين، ونحو ذلك، فتابعوا الأخبار أزمات كبيرة جداً، فمن أجل سنوات معدودة نضيِّع آخرة أبدية لا تنتهي فو الله إن هذه لخسارة كبيرة.

التسنيم إما أن تكون شراباً خالصاً للمقربين وإما أن تكون شراباً ممزوجاً للأبرار :

قال تعالى:

(يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ*وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ)

هذا الشراب ممزوج بشراب آخر من تسنيم، والتسنيم كما وصفه الله عزَّ وجل:

(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)

العلماء استنبطوا أنَّ التسنيم نبعٌ يشرب منه المقرَّبون، يشربونها صرفاً، لكن هذا الشراب؛ الرحيق المختوم يشرب منه الأبرار ممزوجاً مع التسنيم، كما لو أعطينا شخصاً قطعة مذهبة، وشخصٌ آخر أُعطِي قطعة من الذهب الخالص من عيار أربعة وعشرين، فالأولى مذهبة مطلية بالذهب، أما تلك فمن الذهب الخالص، فمن هنا يستنبط أن التسنيم شرابٌ نفيسٌ، نفيس للمقربين، وبعضهم أيضاً استنبط أنَّك في الجنة إما أن تسعد بتجليات الله عزَّ وجل، وإما أن تسعد بما فيها من طعامٍ وشرابٍ وجنَّاتٍ وثمارٍ وحورٍ عين.. إلى آخره من النعيم، فإما أن تسعد به، وإما أن تسعد بجنته، وإما أن تسعد بهما معاً، فهؤلاء الأبرار يسعدون برحيقٍ مختومٍ ممزوجٍ بتسنيم.

التسنيم من سَنَمَ، أي المكان العالي، فبعضهم قد أعطاها تفسيراً مادياً، أي المياه المنصبة من مكانٍ مرتفع كالشلال، وبعضهم وجهها توجيهاً آخر، أي النعيم بذات الله عزَّ وجلَّ وهو أرقى درجات القرب. والأبرار ينعمون بما في الجنة من حورٍ عين وما فيها من فواكه مما تلذُّ به الأنفس والأعين، وفوق ذلك فهي ممزوجة بتسنيم، فالتسنيم إما أن تكون شراباً خالصاً للمقربين، وإما أن تكون شراباً ممزوجاً للأبرار.

لا يحيط بالله إلا الله عزَّ وجل :

بالمناسبة، كل ما ذكر عن الآخرة لا ينبغي لنا أن نزيد عليه شيئاً، لأن الآخرة غيبٌ لم يرها أحدٌ، ولا نعرف عنها إلا في حدود ما ذكر الله عزَّ وجل عنها، فالبحث في كيفيَّتها وفي كُنهها وفي حقيقتها بحثٌ غير مُجدٍ، فإذا وُعِد الطالب المتفوِّق بقصر فخم جداً، وهو صادر من أعلى جهة في الدولة، فالطالب بدلاً من أن يضيّع الوقت في السؤال والبحث عن ماهية القصر، وما به من الغرف وعددها، وكم طابقاً، وبأي منطقة يقع؟ وهل له حديقة أو مسبح؟ فبدلاً من أن تفكر في مواصفات القصر فاشتغل حتى تنال القصر، فأيُّهما أبلغ؟ أن تفكر في مواصفاته أم أن تَجِدَّ حتى تناله؟

لذلك ليس للإنسان أي حق في أن يفصِّل، أو يضيف إضافات على ما جاء في كتاب الله، ونحن فيما يتعلَّق بالجنة نبقى في حدود ما ذكر الله عزَّ وجل فقط، لأن الشيء المجدي أن تكون أهلاً للجنة، أن تجتهد في الدنيا حتى تدخل الجنة، هذا هو الشيء المجدي، أمَّا أن تفكِّر في شيء غائبٍ عنك فهذا عبثٌ، فالآخرة لا نعرف عنها إلا ما ذكره الله عزَّ وجلَّ، لكن الله عزَّ وجلَّ تعرف عنه كل شيء من خلال الكون، فيمكنك أن تعرف عن الله الشيء الكثير الكَثير ولكن لا يحيط بالله إلا الله عزَّ وجل، لا يعرف الله حقَّ المعرفة إلا الله:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 255]

لكن من خلال الكون قد تعرف عنه الكثير الكَثير إذاً:

(يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ*خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

وهذا الرحيق المختوم من صفاته أيضاً أنَّ مزاجه من تسنيم، أي أن هذه السعادة في الجنة وهذا التمتُّع بما في الجنة من عطاءات ممزوج بالتجلي الإلهي، كما لو دُعِيتَ إلى حفلة أو إلى وليمةٍ فاخرة، وصاحب البيت أجلسك إلى جنبه ورحَّب بك، ومن حين لآخر يلتفت نحوك قائلاً: أهلاً وسهلاً، شرَّفتنا يا أخي، والله البيت استنار بقدومك، فهو يأكل طعاماً طيباً كثيراً، وبالإضافة إلى الطعام النفيس هذا الإكرام الترحيبي، فأحياناً الإنسان يأكل وينصرف فهذا إطعام، أما الإطعام مع الترحيب ففيه إكرام.

الأبرار يتنعمون في الجنة بتجليات الله عزَّ وجل وهذا هو ملخص الآيات :

إذاً فربنا عزَّ وجل في الآخرة بالإضافة لِمَا في الجنة من فواكه وثمار وجنَّات وأنهار، وأنهار من عسل وأنهار من لبن، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، بالإضافة إلى كل ذلك هناك تجليَّات الله عزَّ وجل. المقربون مشغولون بالله عمن سواه، الأبرار يتنعمون في الجنة بتجليات الله عزَّ وجل، وهذا هو

ملخص الآيات، أي مزاجه من تسنيم، هذه العطاءات ممزوجة بشراب من نوع راقٍ جداً وعالٍ ويُكرَم أيضا بتجليات الله عزَّ وجل، أما المقربون فهم يشربون من هذه العين صرفاً:

(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ* إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ)

سبحان الله!! قد ضربت يوماً مثلاً بسيارات النقل العام قديماً، الذاهبة لحي المهاجرين، فكانت تقف في ساحة المرجة، وتقف باتجاه الشرق، ففي أيام الصيف الحارة يصعد الناس إلى السيارة ليركبوا، فتجد على اليمين شمساً، وعلى اليسار ظلاً، إذا أعمل الراكبُ فكرَه قعد في جهة الشمس، وإذا عطل فكرة دون إعمال قعد في جهة الظل، وهذه السيارة خلال دقائق ستدور دورة حول ساحة المرجة فستنعكس الآية، فمن قعد في هذا الظل تنعَّم فيه دقيقتين، وظل لمدة ثلث ساعة حتى يصل إلى الموقف الأخير تلفحه الشمس، في شهر آب الحار، ومن قعد متعرضاً للشمس دقيقتين، إلى أن دارت السيارة حول الساحة تنعّم بالظل إلى آخر الخط. فإذا صعد شخص إلى السيارة، وجلس في الظل، ورأى من يجلس في الشمس، فقد يضحك عليه، ويتهمه بالجنون، ويقول له: لِمَ لم تقعد هنا؟ ولكن بعد أن تدور السيارة دورة واحدة تنعكس الآية، وتظهر له الحقيقة سافرة.

المؤمن يضحي بسمعته أمام الناس حفاظاً على سمعته أمام الله عزّ وجل :

الكفار الآن يضحكون من المؤمنين، ويستهزئون بهم، ويسخرون منهم، فالمؤمن لا يحضر الحفلات المختلطة، ولا يذهب إلى الأماكن الجميلة الموبوءة، ولا يحب الاختلاط، ويعصِّب سريعاً، ويقولون عنه: إنه جلف، فلا يصافح ولا يسلّم على النساء، ولا يروي نكته لفتاة، مثلاً، ويضحكون لتصرفاته، لأنها بلهاء بنظرهم، فقال الله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ)

يقولون: هذا لا يفهم شيئاً، فمن البيت إلى الدكان، ومن الدكان إلى البيت، ولا يقول إلا الله، ويقرأ القرآن، ويقولون له: روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلَّت عميت، فهذا يحفظونه، فأهل الدنيا كلَّهم يحفظون هذا الحديث ويأخذونه على غير ما حمله النبي الكريم، روِّحوا القلوب باللهو البريء، أي إذا مزح الإنسان مع أهله، وكان لطيفاً وذكر طرف يلطف مجلس أهله فلا مانع، فإن القلوب إذا كلَّت عميت، لا أن يبل قلبه بمعصية، أو بمسلسل ساقط، أو يبل قلبه بحفلة مختلطة، فبهذا لم يبل قلبه بل نَجَّس قلبه، فبدلاً من أن يبلَّ قلبه نجسه، فربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ* وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ)

هذا صاحبنا الذي حدثناك عنه هل رأيته؟ يقول هذا سخرية وغمزاً ولمزاً.

(وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ*وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ)

أحياناً يجلس الرجل مع أهله، ويقول: والله اليوم التقينا مع شخص، وعند دخول فتاة لم يصافحها، وضحك الناس عليه، فهو يرى هذا الشيء مضحكاً، وقصة تروى.

إذا كان أحد المؤمنين قد خشي الله عزَّ وجل، أو لم يقترف معصية، أو خجل، يقولون: لماذا وضع نفسه في موقف حرج؟ لأن رضى الله غالٍ عليه، ولم يرد أن يخرِّب ويفسد علاقته مع الله عزَّ وجل، فضحى بسمعته أمام الناس حفاظاً على سمعته أمام الله عزّ وجل فقد قال:

(وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ*وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ)

يوم القيامة تدور الدائرة وتنعكس الآية فمن كان يظن أنه في سعادة يصبح في شقاء أبدي:

أي أن الكافر لا يكفيه أنه كافر بل يريد حمل الناس كلهم على كفره، والمنحرف يريد أن يجعل كل الناس منحرفين، فإذا التقى أحدهم بشخص مستقيم ينكر عليه استقامته، ويقول له: أنت تشدِّدها كثيراً، فليس الأمر بهذه الدرجة، يجب أن تكون وسطاً، كلمات مبهمة ولكن لها معانٍ خطيرة، وقد قال ربنا عزَّ وجل :

(وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ)

هؤلاء ليسوا أوصياء عليهم، كل إنسان ينصِّب نفسه وصياً على الناس يكون أحمق، من أنت؟! له رب، له رب يثيبه على عمله، ويقدِّر الليل والنهار وكل حال، فربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ)

فهؤلاء الذين ينصِّبون أنفسهم أوصياء على الناس وينتقدونهم على استقامتهم وعلى تمسّكهم بالدين، وعلى ورعهم، قال عليه الصلاة والسلام:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

ركعتان، إذاً:

(وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ*فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

فقد دارت الدائرة، دارت دورة فانعكست الآية، ولقد دارت الدنيا وجاءت الآخرة، فمن كان يظن نفسه في سعادة فقد أصبح في شقاء أبدي، والذي تحمَّل الدنيا قليلاً جاءت الجنة فسعد بالله سعادةً أبدية.

الأمور بنتائجها :

قال تعالى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

طبعاً ليس ضحك الشماتة ولكنه ضَحِك الحبور، فحينما كنتُ أصلي، وحينما كنتَ تراني أخاف الله عزَّ وجل، وأحرص على طاعته، وحينما كنت أجلس مجالس العلم كنتَ أنت تستصعب القعود، وتقول لنفسك: أما أنا فأقعد في محل وثير وأرائك لأرتاح، وأسهر وأمزح.. لكن المؤمن يؤثر مجلس العلم، جالساً على ركبتيه، ولا يجد أرائك مريحة، ويقعد ساعة من الزمن يستمع إلى الحق، وغيره مضطجعٌ على أريكة وثيرة يشاهد مسلسلاً تلفزيونياً، ويتناول الشاي والقهوة، ويحضرون له الموجودات في الثلاجة والبراد من الفواكه والتفاح، بينما الآخر في المسجد، فشتَّان بين الاثنين، هذا يمهِّد لنفسه في الآخرة ليسعدها، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة، ألا يا رُبَّ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة، ألا يا رُبَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رُبَّ مهينٍ لنفسه وهو لها مُكرم))

[السيوطي عن أبي البحير]

فالأمور بنتائجها، فإذا دخل إنسان إلى الجامعة يجد المقاعد عرضها أربعون سنتيمتراً فقط، ومن الخشب، وظهرها يتخذ زاوية قائمة دون أي تزويق، وأغلب الظن أنه يجد برداً في الشتاء، وحراً في الصيف، وكنا ندرس في الجامعة اليوم الدراسي اثنتا عشرة ساعة في اليوم الواحد، والمحاضرات متلاحقة، فإذا جاء يوم الأربعاء أصيب الإنسان بالملل، فإذا درس طالب بالجامعة خمس أو ست سنوات، وحصل بعد ذلك على الشهادة العليا، وتخصص ثم رجع إلى بلده، فإنه يقبع خلف مكتبه إن كان طبيباً، ويتقاضى من كل مريض عطاءً ينسيه أتعاب أيام دراسته، فيحصل في اليوم على أكثر من خمسة آلاف أو ستة آلاف ليرة، وهذا دخل وفير يرضيه.

إذا تعب الإنسان في الدنيا وبذل جهداً كبيراً سعد في الآخرة إلى أبد الآبدين :

فبالطبع هو قد درس اثنتي عشرة سنة، وتحمَّل المشاق، فأين كنت أنت تجلس حينها؟ أما أماكن اللهو فمريحة جداً والكرسي فيها وثير ومريح، وفي هذه الأماكن ترفيه كبير، كذلك الدنيا والآخرة، فإذا تعب الإنسان في الدنيا هكذا، وبذل جهداً كبيراً سعد في الآخرة إلى أبد الآبدين:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-9]

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ*عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ)

إنه سؤال، لكنَّه يبدو سؤالاً محرجاً: يا أيها الذين كفروا هل كنتم رابحين؟ لا واللِه، هل كنتم فائزين؟ هل كنتم أذكياء؟ لا واللهِ، لقد كانوا حمقى، فبعض الناس ذكاؤهم جزئي، فيمكن أن تجد إنساناً له اختصاص ذكي، ولكنه في الاختصاص الشمولي كان أحمق.

إذا اعتبرنا أنّ الذكاء نوعان؛ ذكاء جزئي، فكل واحد في عمله وبخبراته واختصاصه وشهاداته ومهنته ذكي وفذّ وخبير، فهذا ذكاء جزئي، ليس له نتائج باهرة، أما الذكاء الشمولي فأن تكون الدنيا والآخرة أمامك هكذا مبسوطتان، فمن آثر دنياه على آخرته كان غبياً بمقياس الذكاء:

(هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

الجواب: نعم، فكل إنسان دفع ثمن عمله غالياً.

مخافة الله والاستقامة على أمره هذا هو الدين كله من دون تعقيد :

طبعاً هذه السور في الجزء الثلاثين من القرآن، جعلها الله عزَّ وجل قصيرة، لأنَّها ترسِّخ قواعد الإيمان، ففي النهاية العلوم الدينية كثيرة جداً، لكن كل هذه العلوم إن لم تُبْنَ على معرفة الله أولاً، وعلى الاستقامة على أمر الله ثانياً، وعلى العمل الصالح ثالثاً فإنها لا تُجدي، وأساس الدين هذه الطهارة النفسية، وهذا العمل الطيِّب.

تاجر تأتيه ألف بالة يبيعها، فهو منهمك بين استلامِ الطرود وبين فكّ البالات وأخذ المتراج، وبين شحن البضاعة، وبعد ذلك كان ربحه مئتين من الليرات، فهل هذا معقول؟ يقول لك: حجم العمل مليون ليرة، والربح مئتان فقط، فهذه تجارة خاسرة، فالإنسان في الدنيا عندما يكون حريصاً على أشياء ثانوية، ويهمل الأشياء الأساسية فهذا غير رابح، ولو حصَّل من العلوم الفرعية الكثيرة، لكن لم يحصِّل تطهير النفس وتزكيتها، فالخلاصة خسارة، أما الإنسان عندما يعرف جوهر الدين وهو معرفة الله أولاً، والاستقامة على أمره ثانياً، فمهما حصَّل مما تبقى عليه فهذا جيد، لأنه حصَّل على الجوهر، وأدركه، واغتنى به.

سيدنا عبد الله بن عمر عندما سأل بدوياً، وقال له: بعني هذه الشاة، فقال: ليست لي، فقال له: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، وخذ ثمنها، فقال: والله إنني لفي أشدِّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت له: ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله؟

هذا البدوي لا يعرف شيئاً من تفريعات الدين، لكن يعرف مخافة الله، والاستقامة على أمره، هذا هو الدين كله من دون تعقيد، فإذا قلت: أين الله في كل أعمالك فأنت ديِّن، وإذا كنت متجاهلاً لله عزَّ وجل في علاقاتك التجارية؛ في بيعك وشرائك، لكنك تصلي الصلاة بأوقاتها، والعبادات تامة، وهناك مخالفات، وأكل مال حرام، وهناك معاصٍ فأنت ما عرفت من الدين شيئاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله))

[البيهقي عن مسروق مرسلا]

يكفيك علماً أن تخشى الله، والدين منابعه صافية جداً، انظر إلى المياه؛ مياه بردى في جنب النبع ذي الماءِ الفرات المتلألئ الصافي، وانظر في المصب، فيه بقدر ما يأتي من مياه إلى النبع، روافد من مياه آسنة، فشتان ما بينهما، أصبح في الدين خرافات وضلالات وانحرافات ومبالغات كالنهر الآسن. فإذا كنتَ تريد الدين الصحيح فعليك بينابيعه الأولى، وارجع إلى الينابيع الرقراقة، وأحد أكبر هذه الينابيع كتاب الله عزَّ وجلَّ، ودع عنك ما هناك من قصص يتداولها كثير من المسلمين ليس فيها وأضاليل وخرافات، ما أنزل الله بها من سلطان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الانشقاق 084 - الدرس (1-2): تفسير الآيات01-14 ، الموت وأهوال يوم القيامة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1984-11-09

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى في السور المكية

يصوِّر لنا أهوال يوم القيامة:

سورة الانشقاق، وسميت سورة الانشقاق لأنها بدأت بقوله تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

الله سبحانه وتعالى كما مرَّ بنا في السور المكيَّة يصوِّر لنا أهوال يوم القيامة، وكيف يحدث في هذا اليوم من تبدُّلاتٍ جذريةٍ في الكون، إلا أن هذه السورة فيها ظاهرةً جديدة، لنستمع معاً قليلاً:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ*وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ*وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ*وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ*وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ*وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ*وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ*بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ*وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ*وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ*وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ*وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

[سورة التكوير: 1 – 13]

جواب الشرط:

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)

[سورة التكوير: 14]

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ*وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ*وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ*وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ*عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

[سورة الانفطار:1-5]

الله سبحانه في هذه السورة ترك لقارئ القرآن أن يتصوَّر جواب الشرط كما يريد :

أكثر سور هذا الجزء يأتي جواب الشرط متأخراً، لكن هذه السورة التي تبدأ بقوله تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ*وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ*وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ*وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

فما بعد الشرط يأتي كلامٌ جديدٌ مستأنف:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

أين جواب الشرط؟ الله سبحانه وتعالى في هذه السورة ترك لقارئ القرآن، لهذا المؤمن، أن يتصوَّر جواب الشرط كما يريد، أحياناً في فن القصة تنتهي القصة عند العقدة، وقارئ القصة يتخيَّل نهايتها كما يشاء، فربنا عزَّ وجل يقول:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

أي تشققت، وهذا من علامات يوم القيامة.

كل ما في الكون يستمع لله ويستجيب إلا الإنس والجن لأنهما مخيران :

ثم قال تعالى:

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

معنى أذنت أي استمعت لربها، بمعنى أنها خضعت له، استمعت لربها واستجابت له، فماذا يفيد هذا المعنى؟ هناك من يستمع ولا يستجيب، وهناك من يستمع ويستجيب.

في الكون كله نوعان من المخلوقات تستمع؛ قد تستجيب وقد لا تستجيب إنهما الإنس والجن لأنَّهما مخيَّران:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا)

[سورة الأحزاب: 72]

إنّ الإنسان حمل الأمانة، ومن مقتضيات الأمانة أن يكون مخيراً، ومن مقتضيات الأمانة أن يرسل الله له رسلاً، أن يخلق له كوناً معجزاً، أن يهبه عقلاً نيراً، كونٌ معجز وحواس يلتقط بها معطيات هذا الكون، فكرٌ يحاكم ويدرك، فعليه أن يعرف الله من خلال الكون والحواس والعقل، وإذا غفل عن الله عزَّ وجل أرسل الله له الأنبياء، وأنزل إليه الكتاب، وبعث في كلِّ زمانٍ من يدعو إلى الله عزَّ وجل في كلِّ عصرٍ واحدٌ يسمو به.

إذاً الحجة قائمة، لكنّ السماوات والأرض أذنت واستجابت، والإنسان قد يأذن، بمعنى قد يستمع، وربما لا يستجيب، واليهود قالوا:

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

[سورة البقرة: 93]

الإنسان مخيَّر ومسيَّر :

الإنسان قد يستمع إلى الحق، وقد يستجيب، وربما لا يستجيب:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43- 44]

هو مخيَّر، قد يستجيب وربما لا يستجيب، وقد يهتدي وربما لا يهتدي:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: 148]

أنت أيُّها الإنسان مخيَّر ومسيَّر، مسيَّرٌ لما اخترت، معنىً دقيق جداً، أي أنت حينما تقف على الإشارات الضوئية أنت مخيَّر، قد تستجيب، وتقف عند الإشارة الحمراء، وربما لا تستجيب، فإن لم تستجب وتابعت المسير، والإشارة حمراء فقَدْت اختيارك، وليس لك وقتها خيارٌ في قبول العقوبة أو رفضها، كنت قبل أن تخطو مخيَّراً، والإنسان مسيَّر ومخيَّر، مسيَّر لما اختار، مسيّرٌ لدفع ثمن اختياره، والإنسان مخير لا سمح الله ولا قدَّر أن يأكل مالاً حراماً أو أن لا يأكل، فإذا أكل مالاً حراماً فليس مخيّراً في أن يقبل المصيبة التي سيعاقبه الله بها أو لا يقبل، فَقَدَ اختياره الآن، وبعد أن اختار السوء فقدْ فَقَدَ اختياره، والطالب مخيَّر أن يكتب الوظيفة أو لا يكتب، فله كل الاختيار أن يسهر مع أهله، وأن يسمُر معهم، وأن يبقى في الطريق، وأن يلهو مع أصدقائه، أو أن يدخل إلى غرفته فيعكف على كتابة الوظيفة، لكن غداً حينما يصدر قرارٌ بفصله ستة أيام، لأنه ترك الوظيفة فليس مخيراً في قبول هذا القرار أو رفضه، لقد صدر القرارُ، وهو ملزمٌ.

القول بأن الإنسان مسيَّر تسييراً مطلقاً هذا افتراءٌ على الله عزَّ وجل :

الإنسان مخيَّر ومسيَّر، مخيَّر في أن يأكل مالاً حلالاً أو حراماً، إذا أكل مالاً حراماً فَقَدَ اختياره، وقد يحترق محله التجاري، وقد تصادر أمواله، وقد يدفع مبلغاً فوق طاقته، وهذا ثمن اختياره السيّئ، فالإنسان مخيَّر.

أما إذا قال الإنسان: إنه مسيَّر تسييراً مطلقاً فهذا افتراءٌ على الله عزَّ وجل، فسيدنا علي رضي الله عنه سأله رجل: أكان مسيرُنا إلى الشام بقضاءٍ من الله وقدر؟ فقال: ويحك، لعلّك ظننت قضاءً لازماً وقدراً حاسماً، إنَّ الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلّف عسيراً، ولم يعصَ مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء عبثاً، ولم ينزّل القرآن لعباً.

فالاختيار تماماً كطريق عليه في المقدمة لافتة مكتوب عليها ممنوع المرور، لكن السائق بإمكانه أن يسير، ولكن لسيره ثمن، فإذا نهى الله عزَّ وجل عن شيء، وإذا نفى شيئاً آخر، وإذا نفى أي: أن هذا الشيء لا يمكن أن يحدث كأن الطريق موضوع فوقه قطع مكعبة من الإسمنت كبيرة جداً لا يمكن لسيارة أن تخترقها، هذا هو النفي، أما النهي أي أنك مخيَّر، إما أن تسير فتدفع الثمن، أو أن تستجيب فتنجو، فالسماء والأرض والكواكب والنجوم والصخور والهواء والمياه والبحار والجبال والتراب كلُّ هذه المخلوقات مسيّرةً مئة في المئة:

(اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

[سورة فصلت: 11]

لا خيار لهما، فربنا عزَّ وجل قال:

(إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ*وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

معنى أذنت أي استمعت لأمره، واستجابت له، فانشقَّت، وحُقَّ لها أن تفعل هذا، لأنَّها ليست مختارة، أما الإنسان فقد يستمع إلى الحق، ولا يستجيب له، ربما يستجيب، وهذا هو الصدق، فالنبي الكريم قال:

((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمئة وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً مِنْ قِلَّةٍ))

[الترمذي عن ابن عباس]

لو كانت أمة سيدنا محمد تعدُّ اثني عشر ألفاً، وهم صادقون كصدق أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام لم يُغلبوا أبداً، فكيف غُلِبوا وهم ألف مليون؟ لأنهم ليسوا على الطريق الذي سار عليها أصحاب رسول الله.

الإنسان قد يستمع للحق وربما لا يستجيب لكنَّ الصادق هو الذي يستجيب :

الإنسان قد يستمع للحق وربما لا يستجيب، لكنَّ الصادق هو الذي يستجيب، من كان صادقاً في طلب الحق.

أحياناً تطرق باب إنسان مرة واحدة فإذا لم يفتح لك تعود أدراجك منصرفاً، وآخر يقرعه مرتين، وإنسان ثالث يقف خلف الباب ربع ساعة، وإنسان رابع يصلي ثم يعود، وإنسان خامس يقرع الباب ثم يغيب ساعة ويعود، أعرف شخص وقف على باب بيت ست ساعات في أيام الشتاء، له مع صاحب البيت دين كبير وسيأتي متأخراً عند العشاء، انظر إلى إصراره في طلب الشخص! لو أننا صدقنا في طلب الله عزَّ وجل لكنا في حالٍ غير هذه الحال.

لقد وصف ربنا عزَّ وجل نبياً عظيماً بأنَّه كان من الصادقين، مع أنَّ الصدق الذي نعرفه نحن في معجمنا ألاّ يكذب، هذه صفةٌ يجب أن تتوافر في أقل مؤمن، فأقل مؤمن على وجه الأرض لا يكذب فكيف يوصف بها نبيٌّ عظيم؟ إنا وجدناه صادقاً، وكان من الصادقين، أي كان طلبه في معرفة الله نابعاً من تصميم عالٍ جداً، كما فعل النبي صلّى الله عليه وسلّم قال:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

لكن عامة الناس:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الحج: 11]

تنبع قيمة أعمال الإنسان من كونه مخيَّراً :

بعض الأشخاص لأدنى ضغط يترك الدرس، لأدنى فكرة ليست ثابتة يقول لك: لا أريد الحضور، إغراء بسيط كأن يخطب فتاة فلا يأتي الدروس في المسجد بعد ذلك، فقد تلهى فهذا ليس صادقاً، فيمكن أنْ يحضر الدروس وهو في بحبوحة، وإذا لم تكن هناك بحبوحة بل كان لديه ضغط يقول لك: مشغول، وليس عندي فراغ، أريد الالتفات الآن لمستقبلي.

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

إنّ الله عزَّ وجل يُسمعنا الحق، فإما أن نستجيب وإما ألاّ نستجيب، لكنَّ السماوات والأرض والشمس والقمر والجبال والنجوم والبحار والصحارى وذرَّات الهواء وحبَّات المطر هذه ليس لها خيار إطلاقاً تستجيب لأمر الله:

(إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ *وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

أذنت له أي استمعت له ونفَّذت مشيئته وليس لها إلا ذلك، أما الإنسان الذي يستمع للحق وينفِّذ فله أجر كبير، لأن في إمكانه ألاّ ينفِّذ، فلما يحضر أحدكم مجلس علم فله أجر كبير، وبإمكانه أن يمكث في بيته ولا يأتي، ولا يتجشَّم مشقَّة ركوب سيارتين تحت المطر ليحضر الدرس، فبإمكانه ألاّ يأتي، وبإمكانه أن يأتي، إذاً فهو مخيَّر، إذاً عمله له قيمة، من أين تنبع قيمة الأعمال؟ لأن الإنسان مخيَّر. معك مئة ليرة ممكن أن تتناول بها الطعام في أحد المطاعم مع أصدقائك وممكن أن تدفعها صدقة، هذه ممكنة وهذه ممكنة، أما الجماد فليس له خيار.

لا يوجد مجال للاختيار يوم القيامة :

إذاً:

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

أي حُقَّ لها أن تفعل هذا لأن هذه وظيفتها، ليس لها خيار:

(ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

[سورة فصلت: 11]

لا يوجد مجال للاختيار يوم القيامة:

(إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ*وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ*وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ*وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

مدّت أي أصبحت منبسطة، لا تلَّ ولا جبلَ ولا وادي:

(وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ)

[سورة المرسلات: 10]

وهناك آية أخرى:

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

[سورة التكوير: 3]

(لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)

[سورة طه: 107]

أي منبسطة:

(وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ *وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

ألقت كلَّ الناس الذين كانوا في بطنها، كانوا في بطنها فألقتهم على ظهرها، وتخلت أي بالغت في إخراج ما في بطنها، أجل بالغت فلم تبق أحداً.

أهوال يوم القيامة :

أحياناً الإنسان يقول له: أعطني كل شيء معك، فيقلب له جيبه لآخر مدى، هذه مبالغة:

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

أي هؤلاء الذين دفنوا في بطنها سوف تلفظهم إلى ظهرها، وإذا لفظتهم إلى ظهرها أصبحوا أمام الحساب:

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

هكذا جاءها الأمر، استمعت لأمر ربّها، ونفّذت أمره وحُقَّ لها ذلك، هذه وظيفتها منذ الأزل؛ يا أيها الإنسان، أما جواب الشرط فهو في أهوال يوم القيامة، هول الموقف بين يدي الله عزَّ وجل، هول الحساب، هول النار، هول الصراط المستقيم، هول:

(وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)

[سورة التكوير: 10]

هول:

(وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً*اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء:13 – 14]

هذه أهوال يوم القيامة.

الحكمة من جعل الحلال صعباً والحرام سهلاً :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

معنى كادح أي من بذل جهداً شاقاً فبدا عليه، أحياناً تجد يداً خشنةً، والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم رأى أحد أصحابه ذا يدٍ خشنة من آثار العمل الشاق،فأمسك يد هذا الصحابي وقال: إنَّ هذه اليد يحبها الله عزَّ وجل، فمن له مصلحة صعبة يكسب منها رزقاً حلالاً يعين بها أهله فهذه اليد يحبُّها الله عزَّ وجل. فمعنى كادح أي عمل عملاً تبدو عليه آثار التعب، أحياناً تجده مخدوشاً أو فيه حروق، أو يده خشنة، قالت أعرابيةٌ لمست يد أبيها، فرأتها خشنة:

هذه كفُّ أبي خشَّنها ضرب مسحاةٍ ونقلٌ بالزبــيل

* * *

قال: ويلكِ لا تستنكري هذه اليد، يقول الأب: إن هذا العمل خير له من أن يجرَّ ذيله إلى وجه لئيم، وخيرٌ له ألف مرة من أن يقف على باب اللئيم.

قيل: ما الذل؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يرده، ألم يقل الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه: والله والله، مرّتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين.

فالإنسان يكدح في الدنيا، والأعمال أكثرها شاقة، سبحان الله! الأعمال الحلال شاقة، وهذه حكمةٌ بالغة، لو أن الكسب الحلال أيسر من الكسب الحرام لتحوَّل الناس إلى الحلال لا حباً في الله عزَّ وجل، ولكن

ابتغاء السهولة، لكنَّ حكمة الله اقتضت أن يكون الكسب الحلال متعباً، والكسب الحرام سهلاً، يمكن أنْ تعمل سنة بكاملها، ولك خمسة شركاء وتربحون مئة ألف، وبعد أن توزع الأرباح يكون نصيبك في الشهر الواحد ثمانمئة ليرة فقط.. هذا كسب حلال.

الكسب الحلال متعب ولكن له ثمراته :

يمكن أن توقّع توقيعاً، وأنت طبيبٌ شرعيٌّ فتقول: إن هذه الوفاة طبيعية، وتكون الوفاة غير طبيعية، وتأخذ على هذا التوقيع خمسمئة ألف، لم يكتب إلا (الوفاة طبيعية) ووقّع، ويكون الميت ترك تركة تبلغ خمسة ملايين، وأعطوه نصف المليون ورجوه طي هذا الموضوع، فهذا الكسب سهل جداً، أن يكتب كلمة: "تبيَّن بعد فحص الجثة أن الوفاة طبيعية"، التوقيع: فلان. واسمحوا لنا بنصف المليون، الكسب الحرام سهل جداً ولكن معه انهيار داخلي، أما الكسب الحلال فمتعب، ولكن له ثمراته.

أحياناً تعمل المرأة في البيوت من أجل أن تطعم أولادها فو الله عملها هذا مقدَّس، وهناك امرأة تعرض مفاتنها على الناس، وتكسب رزقاً أكثر من هذه بمئات المرّات، فهناك عمل من الخارج قذر متعب، كأعمال فيها دخان وغبار ونحوهما، ولكن دخلها حلال، وهناك أعمال من الخارج أنيقة جداً، ولكنها قذرة من الداخل، والعبرة أن تكون نفسك من الداخل نظيفة، وليكُن عملك بعدئذٍ أيّ عمل، لو بأيام الشتاء القارسة لك عمل متعب؛ شحم وزيوت وبذلة عمل ملطخة، واللهِ هذا مقدَّس عند الله عزَّ وجل لأنك من الداخل نظيف، وهذا كسب حلال، لأنك تقدِّم خدمات مقابل أجر معتدل ونصيحة للمسلمين، فهذا عمل شريف، ولو كان المظهر الخارجي في أثناء العمل متعباً أو غير مريح، فهناك أشخاص لهم أناقة ظاهرة في عملهم، ولكن عملهم مبني على الغش وعلى الاحتيال وعلى المخاتلة، مبني على كسب المال حرام، مبني على إيقاع الأذى بالناس، مبني على سلب الناس أموالهم، ولو كانت الغرفة التي فيها مكتب العمل فخمة، لكن هذا العمل من الداخل قذر، ومن الخارج أنيق، وهناك أعمال من الداخل نظيفة جداً، ومن الخارج ليست على ما يرام، فهناك كدح، والحياة فيها كدح:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

أما كلمة (إنسان) فلا تعني أنَّه مؤمن، أيّ إنسان، فالذين تركوا ثروات طائلة ألم يبذلوا جهداً طائلاً في الحياة؟ هذا ترك كذا ألفاً، وترك بنايتين، بدأ من الصفر كعامل حتى حصَّل هذه الثروة، ألم يبذل جهداً كبيراً جداً؟ إذاً هو كادح، لكنّه كدح له ثمار إيجابية، وهناك كدح له ثمار سلبية، وعلى كل حال:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

كلمة (ملاقيه) لها معنيان :

الإنسان الذي صار صاحب ثروة طائلة يمكن أنّه لم ينم الليل، أو ينام في المحل، أو ينام على ديوان خشبي، حتى جمَّع هذه الثروة، فإذا لم يعرف الله عزَّ وجل فكل هذا الكدح لا قيمة له:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

كلمة (ملاقيه) لها معنيان: المعنى الأول أن هذا العمل سوف تلقى جزاءه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن سهل بن سعد و البيهقي عن جابر]

افعل ما يحلو لك فكل شيء بسعره، كل عمل سوف تلقى جزاءه، وأعمل ما شئت فإنَّك مجزيٌّ به:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

إنَّك سوف تلقى جزاء هذا العمل. المعنى الثاني: هذه الهاء تعود على الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

ليجزيك على عملك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وعلى كلٍ فالمعنيان يلتقيان في مفهومٍ واحد، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة النساء: 104]

شتَّان بين همِّ المؤمن وهمِّ غير المؤمن :

كل الناس يتعبون ويعرقون وينصبون ويصابون بالهم والحزن، لكن شتَّان بين همِّ المؤمن وهمِّ غير المؤمن، انظر صباحاً إلى النّاس وقد انطلقوا من بيوتهم:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى* وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى* إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل: 1-4]

هذا ذاهب في سفر يعقد صفقة، وهذا ذاهب إلى وظيفته، وهذا يريد أن يشتري بيتاً، وهذا سمع أن هناك محلاً للبيع رخيصَ الثمن، فهو ذاهب ليراه، كلٌّ واحد يمشي في خط. وهنيئاً لمن انطلق من بيته يبحث عن عملٍ صالح، أو يبحث عن رضاء الله عزَّ وجلَّ:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

تقرير حقيقة، أيْ أن الحياة متعبة، حياة فيها جهد، لكي تأكل صحناً من السلطة تشتغل فيه ربع ساعة، اغسل البندورة وقسمها، ونقِّ البقدونس وافرمه، وضع الليمون، وأخرج البذور من الليمون، وضع الملح، تحتاج إلى ربع ساعة من العمل، فالحياة متعبة.

لكي تسكن في بيت مريح تشتغل أربعين عاماً في عمل مُضْنٍ، ولكي تأخذ الشهادة، ويقول الناس عنك: مثقف، وتأخذ لك راتباً لن يكفيك خمسة أيام، تشتغل ليلاً ونهاراً، وتظل عدة سنوات وأنت تدْرس في الجامعة، وامتحانات، وإرهاق أعصاب، وتوتر، وسؤال يأتي لم تتوقعه، وأحياناً لم تنم الليل، وأحياناً يصيبك ألم لا يحتمل لكي تأخذ الشهادة المتواضعة جداً:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

معنى كلمة (فملاقيه) :

لكن..

(فَمُلَاقِيهِ)

إذا استيقظ شخص قبل الفجر، وصلّى قيام الليل، ثم صلّى الصبح في جماعة، واستمع إلى مجلس العلم، وقرأ القرآن، وغضَّ بصره، وأحسن إلى أمهِ وأبيهِ، فإذا كان يسكن في حيّ بعيد، وأمه وأبوه يسكنان في المهاجرين، وهو ساكن في المخيم، ركب الحافلة الأولى، ثم الثانية ليصل إليهما، وزارهما وقالت له: اعمل كذا، احضر لي الحاجة الفلانية، هذا جهد شاق وليس سهلاً، لكن ملاقيه، اعتنيت بأولادك، فأنت ملاقيه، جلست مع زوجتك ساعات تنصحها وتفهمها حتى صلّت أو حتى اقتنعت بالصلاة، أو حتى تحجَّبت، فملاقيه، لك صديق أكرمته وعاونته حتى أتيت به إلى المسجد وسمع الدروس واستجاب، وكان كل حين يسألك سؤالاً وأجبته عن أسئلته حتى استقام تماماً فهو في صحيفتك، فملاقيه، فلو ساهمت في إنشاء مسجد حتى توسَّع فاستراح المصلّون فيه فهذا الجهد، فملاقيه، وربما لو كان الأمر لك شخصياً لما بذلتَ مثل هذا الجهد، فأحياناً تكون هناك عقبات كبيرة جداً، هي فوق طاقة الإنسان، فتنصرف عنه، أما إذا كانت لله فإنك تندفع لتحقيقها، وهذا الجهد لك، فأنت ملاقيه.

جلست ساعة وربع الساعة في مجلس علم، وقد ترى شخصاً جسمه متعباً أو متقدماً في السن، ولا يستطيع أن يقعد، وليس له محل يستند عليه، لكنه قعد دون أن يستند، فملاقيه، هذا التعب ملاقيه، كان بإمكانك أن تظل في بيتك قاعداً على أريكة مريحة جداً، وديوان عريض، والوسائد على يمينك ويسارك، مادّاً رجليك في راحة:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

فالدروس كلها في معرفة الله، وفي فهم كتاب الله، وفي الاستقامة، وفي الكسب الحلال، وفي العمل الصالح، كلُّ هذه الجهود سوف تلاقيها.

الجهد الكبير كله محسوبٌ عند الله عزَّ وجل للمؤمنين فقط :

قال تعالى:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

كُلْ تمرةً، ودقق في النواة تجد هناك خيطاً بين الفِلقتين، هذا الخيط الصغير اسمه الفتيل، وضع النواة على رأس لسانك، وقم بتحريكها تجد لها نتوءاً صغيراً مثل رأس الدبوس، هذا هو النقير:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

فكل شيء محسوب، لكن عندما تجد إنساناً يمشي في طريق الإيمان وهو متعب، يريد أن يرضي أمه وأباه، وأن يؤمِّن لزوجته حاجاتها، وأن يعتني بأولاده ويربيهم، ويرغب في أن يكون أولاده مؤمنين، ويريد إتقان عمله حتى لا يشينه أمر وهو مسلم، وأن يحضر في موعد الوظيفة تماماً، وإذا كان مراجعاً من المراجعين يلبس زياً دينياً، واضعاً لفة على رأسه فتأخر لخدمته ساعة بعد الدوام، يعاني مشقة في دوامه، وفي وظيفته، وفي عمله، وفي تجارته، وفي بيته، ومع أهله وأمه، وله أخوة يسكنون في أماكن بعيدة، فهذا الجهد الكبير كله محسوبٌ عند الله عزَّ وجل. لكن الشقاء لا لهؤلاء، ولكن لمن كان يسعى بجهدٍ كبير، ويعرق، وينصب، ويكدح، والنهاية إلى جهنَّم، هذه هي المشكلة، فالمؤمن رابح مهما بذل من جهد، ومهما انضبط، ومهما شعر أن في الحياة جهاداً، لكن المربح معه، فالحياة مؤقَّتة، والسعادة أبدية، والجنة سرمدية، لكن إنساناً آخر يهلك طوال حياته، كشخص ذهب إلى دولة أجنبية، وعمل في المطاعم ليلاً ونهاراً، وترك عياله وأولاده إلى أن أسس مشروعاً، وجمَّع ثرةً، وأرسل أول مبلغ، وطلب من أهله شراء أرض، وفي السنة الثانية بعث مبلغاً آخر لتعمير الأرض، ثم بعد ذلك أمدّهم بمال لفرش البيت وتأثيثه بالأثاث الفخم، وطلب إنشاء حديقة، وما زال في أوامره: اعملوا واتركوا، وهو راجع بعد عشرين سنة من التعب، وبعد أن أمَّن بيتاً فخماً وفرشه، وفي أثناء تناوله الطعام في المطار، وبعد أنْ أكل لقمتين من الطعام، وفجأة سقط مفارقاً للحياة، مسكين على هذه الحياة، تعب مُضنٍ، والثمرة صفر.

المؤمنون كدحهم مأجور وسيرون نتائج كدحهم لكن غير المؤمنين كدحهم إلى دمار :

الكدح موجود عند المؤمنين وعند غير المؤمنين، لكن شتَّان بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، فالمؤمنون كدحهم مأجور، وسوف يرون نتائج كدحهم، لكن غير المؤمنين كدحهم إلى دمار، وإلى لا شيء، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ* فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ*فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً)

أي أن ربنا عزَّ وجلَّ هكذا ترتيبه، فإذا أخذ الإنسانُ كتابه بيمينه، معنى ذلك أن أعماله صالحة وطيبة:

(فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً)

قال بعض المفسرين: إن ما في كتابه من أعمالٍ سيئة قبل الإسلام يعفو الله عنها، وهذا معنى قوله تعالى:

(حِسَاباً يَسِيراً)

أي الإسلام يَجُبُّ ما قبله، الكتاب فيهِ كلِّ شيء، لكن بعد أن أسلم، وعرف الله عزَّ وجلَّ، واستجاب له، وتاب إليه توبةً نصوحاً، فالذي وقع قبل هذا التاريخ يعفى عنه، ولهذا:

((عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ قَالَتْ قُلْتُ أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً قَالَ ذَلِكِ الْعَرْضُ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ]

ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً)

أي فيما سبق التوبة، ما سبق الإسلام، هذا معفو عنه، بعد التوبة والإسلام أعماله كلَّها جيدة واستقامة وعمل صالح وتوبة.

الغنى والفقر بعد العرض على الله :

قال تعالى:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

الآن إذا قرع الابن الباب، وهو ناجح فقد يثير في البيت كثيراً من هجمته وفرحته، فيريهم شهادته، لا يترك إنساناً إلا ويريها له..

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

وإذا نقل الزوج إلى وظيفة أعلى فيدخل البيت بطريقة تأخذ العقل، ببشاشة ومرح، وأين الأكل، ويمزح مع زوجته ومع أولاده، لأنه فرح:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

إذا اشترى صفقة رابحة، أو باع بيعةً فيها ربح كبير، أو حقق نجاحاً خارج البيت، فدخوله البيتَ فيه سرور، ويمكن لأهل البيت أنْ يروا أثر الفرحة عليه، ويقولون: حتماً هناك شيء، ليس هذا من عادته، طليق، عيناه زئبقيتان، تلمعان، ابتسامته عريضة، مرح:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

نسأل الله أنْ يجعلنا من هؤلاء، وكما قال سيدنا عليّ: الغنى والفقرّ بعد العرض على الله. فإذا تمَّ العرض على الله، وأُوتي الإنسان كتابه بيمينه، وحوسب حساباً يسيراً، عندئذٍ:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

الحياة الدنيا مدرسة :

الآن تعب، وبعده سرور، وظّن نفسك أن الحياة الدنيا مدرسة، فيها جدّ ودوام، وانتباه ووظائف، وامتحانات ومذاكرات، ومذاكرات فُجائية، وفيها مذاكرات شفهية، ووظائف كتابية، وعقوبات، وإخراج، وتعهدات، لكن بعد الشهادة يضع يده على المريض ثم يقول: عليك خمسون ليرة، وتخطط مئة وخمسون، مئتان، عنده خمسون زبوناً، معنى ذلك في اليوم يحصل على ألفي ليرة، تساوي راتب الموظف في الشهر كلّه، ويحصلها الطبيب في يوم واحد، لكنه عانى الكثير حتى أخذ الشهادة، أخذ بكالوريوس، وأخذ دكتوراه، وأخذ بورد، وتعب، ورجع إلى بلده، فالإنسان إذا تعب الآن فغداً:

(فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً *وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

أيْ مِن السعادة أن يطرق الإنسان باب أهله ويحمل لهم خبراً سارّاً جدّاً، فإذا اشترى لزوجته قطعة من الحليّ تكرمةً لها فدخوله البيتَ لا يكون دخولاً عادياً.

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

الذي يؤتَى كتابه وراء ظهره يدعو على نفسه أن يهلك :

قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ)

قال المفسرون: من شدة الخجل لا يستطيع أن ينظر للذي يعطيه الكتاب، وقال بعضهم الآخر: من شدة ازدرائه واحتقاره، فهذا الذي يعطيه الكتاب لا يحب أن ينظر إلى وجهه، هذا أو ذاك، فإما خجلاً وإما ازدراءً:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ* فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً)

أي يقول: وا ثبوراهُ، أي لقد هلكت، الأعمق من ذلك أن هذا الذي يؤتَى كتابه وراء ظهره يدعو على نفسه أن يهلك:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف: 77]

قال الشاعر المتنبي:

كفى بك داءً أنْ ترى الموت شافيَا وحسبُ المنايا أنْ يكُنَّ أمانــيَا

* * *

أي أنت في حالةٍ تتمنى معها الموت، فما هي هذه الحالة؟ إنها أشدُّ من الموت.

كفى بك داءً أنْ ترى الموت شافيَا وحسبُ المنايا أنْ يكُنَّ أمانــيَا

* * *

فهي حالةٌ لا تحتمل، شيءٌ لا يطاق أن تكون في حالةٍ تتمنى معها الموت، وأن يكون الموت أحبَّ إليك من الحياة، كذلك هذا الذي يؤتَى كتابه بشماله يوم القيامة يدعو ثبوراً، يدعو ربّه أن يهلكه، أي أن يفنيه، أن يدمره.

الفرق بين أهل الدنيا وأهل الجنة :

قال:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ *فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً* وَيَصْلَى سَعِيراً)

لذلك:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر على مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[الحاكم وتعقب عن جابر]

(فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً* وَيَصْلَى سَعِيراً* إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

فالفرق فرق بسيط..

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

أما هذا الثاني:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

معظم الناس يقبعون في بيوتهم في انبساط وسرور، وتجد الواحد منهم يتمطّى ويتمدد، ومزحه ثقيلٌ أحياناً، ولا شيء عنده حرامٌ، وإذا جاءت امرأة أخيه جلس معها، وإذا جاءت رفيقة زوجته يدعوها للجلوس معه، مدَّعياً: عندي المكان أدفأ لكم:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

مسرور مبسوط، ليس لديه شيء حرام، لاح له مبلغٌ من المال حلال أو حرام يأكله، يجوز أو لا يجوز يأكله، دُعِي إلى حفلة لا يجوز الذهاب إليها فيقول: لا أتركها تذهب من يدي:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

أي ليس عنده قيود ولا حدود، وليس عنده شيء محرَّم، ولا يخشى حساباً ولا عذاباً ولا شدّةً يوم قيامة، ولا يخشى أن يغضب الله عزَّ وجل، يقول لك: يفرجها الله، هل سنعيش عمرين؟ العمر الذي سنعيشه واحد.

من كان عبداً لفرجه ولبطنه ولدينار موضوع الموت لا يخطر بباله على الإطلاق :

إن كنت كما قال أحد الشعراء الجاهليين:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيّتي فدعني أبادِرْها بما ملكت يدي

* * *

إنّ معظم الناس يقوم بإعداد الترتيبات للذهاب إلى النزهة في أثناء يوم الجمعة، فصلاة الجمعة لا ترد على باله من الأساس، فالنزهة هي كل ما في باله، فلا شيء عنده محرَّم، شهوته هي إلهه، شهواته وسروره وبسطه:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

عبدٌ لفرجه ولبطنه وللباسه ولدرهمه ودينارِه:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ*فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً*وَيَصْلَى سَعِيراً *إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

كان مكيّفاً، له مقعده الخاص، وله قعدته الخاصة، وله أكلته الخاصة، والكل في خدمته، وهمّه الأوحد أنْ يُسَرَّ ويعطي نفسه ما تشتهي، فإذا تكلَّم صهره بكلمة يقيم قيامته، ويثور عليه، هكذا تتكلم معي؟! ولا يقول هذا صهري، حامي عرضي، يجب أن أداريه، فلا يهمه، وإذا اشتكت ابنته المتزوجة يقول لها: تعالَيْ إلينا، واقعدي عندنا، واتركيه وحيداً، يقوم بتحريضها:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً*إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

موضوع الموت لا يخطر بباله على الإطلاق، ومعنى "لن يحورَ" أي لن يعود إلينا.

المؤمن البطل هو الذي يفكر في الآخرة و بوقوفه بين يدي الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

ظنَّ أن هذه الدنيا فيها كل شيء، يقول: الجنة هنا والنار هنا، فما معنى الدنيا هنا؟ أي أنّ مَن معه مال فهو في الجنة والفقير في جهنم، هذه فلسفته، أما الآخرة فهي خارج حسابه.

الآن يجب أن نكون واقعيين، فمن يُدخل الآخرة في حسابه اليومي فيمكن أن يأتيه خاطر في الشهر مرة، أو بالأسبوع مرة، أما الذي تكلَّم بكلمة، أو باع بيعة، أو كلما حلف يميناً فالآخرة في باله باستمرار؟ هذا هو المؤمن؛ كلما تحرَّك حركة، أو تنفس نفساً، أو كلما نظر نظرة، فهذه النظرة لا ترضي الله، فيغض عنها بصره، ولكن الذي ظن أن لن يحور يقول: لا أستطيع أن أصلي الظهر، وبإمكاني أن أنظر أيّ نظرة، وليس بإمكاني أن أقرأ القرآن في الصباح الباكر، فهذا هو الخسران المبين.

وخلاصة القول: لا تعصِهِ في النهار.. يوقظك في الليل، أيْ يكون لك معيناً دهرك كله.

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأنّ العلم نــورٌ ونور الله لا يهدى لعاصـي

* * *

فالمؤمن البطل هو الذي في كل حركة وكل سكنة وكل نظرة يفكر في الآخرة، يفكر في وقوفه بين يدي الله عزَّ وجل، فالموت لا يرحم أحداً.

كل إنسان يفكر في الموت يومياً يكون ذكياً وعاقلاً :

أحد أعلام الأمة الكبار رأى ملك الموت، فقال له: يا ملك الموت كم بقي من حياتي؟ فأشار له بيده خمس، فلما استيقظ امتلأ قلقاً، هل يا ترى خمس أشهر أم خمس سنوات، خمسة أسابيع، خمسة أيام، خمس ساعات، فالتقى بإمام المفسرين ابن سيرين فقال له: ما تفسير هذه الرؤيا؟ قال له: قال لك ملك الموت: إن سؤالك أحدُ خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله. فأشخاص توفوا، فيا ترى عندما توفى أحدهم ألم

يكن خاطراً بباله أن غداً سيحضر إلى البيت حلوى قطائف عصافيري؟ هذا ممكن، أوَ ما خطر بباله أنه في العطلة الصيفية سيذهب هو وأولاده إلى المصيف في اللاذقية، كل ذلك قد يكون لكنه مات..

فقد ذكرت لكم أني قد التقيت بشخص يعمل مديراً لثانوية، وقال لي بفمه: والله مللت، أريد أن آخذ استيداعاً لخمس سنوات، أو إعارة إلى الجزائر، وكنتُ أستمع له، وكان يوم الخميس، والساعة الحادية عشرة، فقال: وسأبقى في الجزائر خمس سنوات، ولا آتي إلى الشام في الصيف، وأقضي الصيف في فرنسا، وأتملى منها، وفي العطلة الصيفية الثانية أذهب إلى إنجلترا، والثالثة إلى إيطاليا، ثم أرجع إلى الشام، فأفتح محلاً وأتقاعد، وأضع أولادي في المحل لإدارته، وأعيش باقي حياتي في رفاهية.

واستمعت إليه، وجاملته فيما يقول، وأن الله كريم، وذهبت إلى البيت لتناول طعام الغداء، ونزلت بعد ذلك إلى شغل لي في أسواق دمشق، وبينما كنتُ راجعاً وجدت نعوته على الجدران، والله الذي لا إله إلا هو في اليوم نفسه، وتكلم معي في أشياء تحتاج إلى عشر سنوات لتحقيقها، وفي اليوم نفسه كان غادر الحياة، فلذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

فالموت لا يدخل في حسابه على الإطلاق، لا الموت ولا الآخرة، فالواحد له بيت يسكنه، فهل سأل نفسه يوماً في أي غرفة سيغسِّلونه؟ فإذا فكّر في ذلك فلن ينزعج منها، لأنّها واقعة لا بد منها، فهل يغسَّل في المطبخ؟ فالمطبخ صغير، والحمام صغير، ففي أي غرفة، فهو سيغسَّل في هذا البيت، كيف ستطبع ورقة النعي؟ وهل سيكتب فيها والد الفقيد؟ فهو لا يعرف من سيموت قبل الآخر، هيّئْ لك مشروع نعي ولو ضقت منها، وبادِرْ لعمل مشروع شاهدة: هذا قبر المرحوم فلان الذي توفي في: وضع نقطتين وخطين وألف وتسعمئة، فلا نعرف متى؟ مشروع شاهدة، مشروع نعي، هذه أشياء ذات فائدة عظيمة، اذهب لزيارة مقبرة، اتبع جنازة، انظر عندما يضعونه في القبر، لق وضعوا عليه التراب بالمغرفة، أما أنت فقليل من الغبار تثور من أجله على أهل البيت، أو قليل من الغبار على حلّتك تثور ثورة كبرى، أما الميت فيضعون التراب بالمغرفة فوقه، وبعد أن يمهدوا التراب أخذوا بالأجر عظَّم الله أجركم:

(إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

كل إنسان يفكر في الموت يومياً يكون ذكياً وعاقلاً، عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أي الناس أكيس؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: إن أكيس الناس أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم للموت استعدادًا))

[الحارث عن علي]

مَنْ عَدَّ غداً مِنْ أجَلِهِ فقدْ أسَاءَ صُحْبَةَ المَوْتِ :

إن النور إذا دخل الصدر انفسح، قيل: هل لذلك من علم يعرف به؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله، هذا هو العقل، يقول: أنا ما زلت صغيراً، فالموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً، تجد نعياً كُتِبَ عليه: الشاب، فإذا نظرت تجد ليس له زوجة فهو لم يتزوج بعد، والد الفقيد، وأخو الفقيد، تتبَّع هذه صفحات النعي، الشابة، فتاة مخطوبة، وعرسها بعد أسبوعين، وزوجها مهندس كبير، كان يراقب مشروعاً أخرج رأسه من النافذة، وكان أحد العمال يلقي بقالب من البلوك فوقعت فوق رأسه فمات، وكانوا قد أعدوا للعرس من الحلويات أكثر من خمسمئة كيلو غراماً، وقد وضعت كلها للمعزِّين، وتعزية النساء، أجلسوا العروس بلباسها الكامل، فالعرس لم يتم:

(إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

فيجب أن تؤمن أن الموت قريب قَريب، وأذكركم:

((مَنْ عَدَّ غداً مِنْ أجَلِهِ فقدْ أسَاءَ صُحْبَةَ المَوْتِ))

[تخريج السيوطي عن أنس رضي الله عنه]

غداً فقط، إذا قلت: غداً إن شاء الله سوف أشتري شمسية، فالأمطار ستكون غزيرة هذه السنة، فإذا لم تقل: إن شاء الله، وقلت: غداً سآخذ شمسية من عند بائع أعرفه، فأريدها أن تكون أجنبية وممتازة، وبهذا تكلّم نفسك، فعندما تعدّ غداً من أجلك فقد أسأت صحبة الموت، فأنت لا تعرف ما هو الموت إذاً؟!

لي صديق نام في الساعة الحادية عشرة، ويظهر أن زوجته مسَّت يده في الساعة الواحدة فوجدتها شديدة البرودة، فوجدته قد مات دون إذن أو إنذار، نام نوماً طبيعياً في الساعة الحادية عشرة، فأصبح جثة هامدة، فاعتبروا رعاكم الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الانشقاق 084 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 16-25 ، آيات باهرات على وجود الله سبحانه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1984-11-16

بسم الله الرحمن الرحيم

الشفق حمرة الأفق قبل شروق الشمس وبعد غروبها :

وصلنا إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ*فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ*فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً *وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً*وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ* فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً* وَيَصْلَى سَعِيراً*إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً *إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ* بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً* فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

ما هو الشفق؟ قال بعض العلماء: الشفق حمرة الأفق قبل شروق الشمس وبعد غروبها. لماذا أقسم الله تعالى؟ أوْ لِمَ يقسم؟ لماذا لفت نظرنا إلى الشفق؟ إنْ أقسم فبالنسبة إلينا، وإن لم يقسم فبالنسبة إليه، هناك آياتٌ فيها قسم:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس:1]

هناك آياتٌ "فلا أقسم"، وبعض المفسرين قالوا: إن هذه - لا - زائدة لتوكيد القسم، على كلٍ إنْ كان هناك قسمٌ فبالنسبة إلينا، وإن لم يكن هناك قسمٌ فبالنسبة إليه سبحانه وتعالى، على كلٍ ما هذه الآية العظيمة الظاهرة التي هي الشفق.

الشفق دليلُ وجود الهواء ووجود السحب وبخار الماء وهو دليل كروية الأرض :

بالمناسبة ليس في سطح القمر شفق، لماذا؟ لأنه ليس على القمر هواء، وحيث لا يكون هواء فلا شفق، فكأن الشفق إشارة إلى هذه الكتلة الهوائية الضخمة التي تصلُ إلى عشرات بل مئات الكيلو مترات، في القمر ليس هناك هواء، إذاً ليس هناك شفق، وفي الأرض هواء، فهذا الهواء له مهمة في نثر الضوء، لولا الهواء لكانت حالة الأرض إحدى حالتين؛ إما أشعة الشمس، وإما ظلامٌ دامس، وعن طريق الهواء هناك أشياء ثلاثة: هناك أشعة الشمس، وهناك ضياءٌ، وهناك ظلامٌ دامس، فلما ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

أي هذه الحمرة التي تبقى في الجوّ بعد غياب الشمس، أو هذه الحمرة التي يتلوَّن بها الهواء قبل شروق الشمس، أمّا إذا كان في السماء سُحبٌ فالشفق له ألوانٌ تأخذ بالألباب، وأجمل منظر هو منظر الغروب في أيام الخريف والربيع، إذْ يتلون الشفق بألوان ساحرة، إذاً فالشفق دليلُ وجود الهواء، والشفق دليل وجود السحب وبخار الماء، والشفق دليل كروية الأرض، ولو كانت الأرض مكعبة، أو على شكل متوازي مستطيلات، أيْ لها حروف، وبالحروف تغيب الشمس فجأةً، وتشرق فجأةً، لكن هذا الشكل الكروي يجعل الشروق تدريجيّاً، عند الفجر ظهور الخط الأبيض في الأفق، هذا الخط يزداد ويزداد معه الضياء إلى أن تضيء الأرض، وبعدئذٍ تشرق الشمس، هذه من رحمة الله بنا:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً)

[سورة الفرقان: 45]

كذلك تغيب الشمس، أيْ يغيب قرصها، وتبقى الأرض مضيئة، ويظهر الشفق عند الغروب، وهذا الشفق يتضاءل ويتضاءل حتى يغيب، فإذا غاب دخل وقت العشاء.. لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((وَقْتُ الظُّهْرِ إِذَا زَالَتْ الشَّمْسُ وَكَانَ ظِلُّ الرَّجُلِ كَطُولِهِ مَا لَمْ يَحْضُرْ الْعَصْرُ وَوَقْتُ الْعَصْرِ مَا لَمْ تَصْفَرَّ الشَّمْسُ وَوَقْتُ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبْ الشَّفَقُ وَوَقْتُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوْسَطِ وَوَقْتُ صَلَاةِ الصُّبْحِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ مَا لَمْ تَطْلُعْ الشَّمْسُ فَإِذَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ فَأَمْسِكْ عَنْ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

الآية التالية تتضمن آيات عدة :

فلما قال ربّنا عزَّ وجلَّ:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

هذه آية تنطوي بها آيات، ينطوي بها الهواء، ينطوي بها السحاب، تنطوي بها كروية الأرض، على كلٍ لو وقف أحدنا أمام غروب الشمس لرأى بعينيه كيف أن هذا القرص يغيبُ شيئاً فشيئاً، فغياب القرص شيئاً فشيئاً هو ما يعبَّر عنه بسرعة الأرض في دورانها حول نفسها، وسرعة الأرض في دورانها حول نفسها تزيد على ألف وثمانمئة كيلو متر في الدقيقة، حينما ترى أشعة الشمس ثابتة متحركة، دقق في أشعة الشمس تجدها ثابتة، غب عنها خمسة دقائق تجدها انتقلت من مكان إلى مكان، ما هذا الوضع الدقيق؟ ثابتة متحركة كعقرب الساعة انظر إليه تجده ثابتاً، دعه ترَهُ قد انتقل، فمن عيَّر هذه الحركة؟ ومن عيَّر هذه السرعة؟ ومن جعلها على شكلٍ ثابت متحرك؟

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

إنّ الشمس حينما تغيب فإنها تغيب من مكانٍ معين، ولكن هذا المكان ليس ثابتاً، بل يتنقل من الصيف إلى الشتاء، والآن في الشتاء ترى أنَّ أشعة الشمس تدخلُ إلى صدر الغرفة، إذاً هي مائلة، وليست عمودية، ولو صعدت إلى الجبل وحدّدت بحسب بعض النقاط علامة لشروق الشمس الآن، ثم اصعد بعد ستة أشهر تجدْها قد انتقلت إلى مكان آخر، وكذلك الغروب، فالغروب متنقل، والشروق متنقل، وهذا الشفق أيضاً متنقل، فلمّا قال ربنا عزَّ وجلَّ:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

إنه آيةٌ كبيرة.

الشفق القطبيّ :

لو دققت في الكتب العلمية لرأيت مصطلحاً علمياً اسمه الشفق القطبيّ، ما هو الشفق القطبيّ؟ قال العلماء: هناك كهارب ونوياتٌ تخرج من الشمس، وتتجه نحوَ الأرض على مسافة خمسة وستين ألف كيلو متر من سطح الأرض، فتصطدم بالمجال المغناطيسي، وهذه الأشعة الكونية تنعكس عليها أشعة الشمس، فتبدو كأنها شفق، وهذا الشفق يرى من القطبين بشكلٍ واضح، بل يرى من المناطق القريبة من القطبين، وقالوا في وصف هذا الشفق: إنّه حزامٌ يمنع عن الأرض الأشعة الكونية المؤذية، وكلما تقدم العلم اكتشف لآيات القرآن الكريم معنىً جديداً.

قد يُفهم من هذه الآية أنّ هذا الشفق حمرة الأفق قبيل الشروق، وحمرة الأفق بُعَيْد الغروب، والشفق يعني الهواء، والشفق يعني السحاب وبخار الماء، والشفق يعني كروية الأرض، والشفق يعني تبدل غروب الشمس وتبدل شروقها، والشفق يعني أنَّ هناك أشعةً كونيةً تحمي الأرض من تأثيرات الإشعاعات الضارة هذه تقبع على مسافة خمسة وستين ألف كيلو متر حيث ينعدم الهواء، هناك آلات تصوير صورت هذا الشفق القطبيّ على شكل ستائر مسنَّنات، وفي الكتب العلمية هذا الموضوع يحتاج إلى تفصيل وتوضيح، ولكن المجال هنا لا يتسع لتفصيلاتٍ أكثر مما ذكرت..

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

إذاً الشفق آية كبيرة، أما القمر فليس فيه شفق، وبالصور التي التقطها روَّاد الفضاء حينما وقفوا على القمر فكان ظلُّ المركبة الفضائية ظلاماً دامساً، والمكان الآخر أشعة شمسٍ قاتلة، سبحان الله.. فالشفق جهاز تبريد وجهاز تكييف.

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

الشفق والليل آيتان من آيات الله الدالة على عظمته :

لا شك أن الإنسان أحياناً يمر بسوق مزدحم في الساعة الثانية عشرة ليلاً، تجد المحلات كلها مغلقة، والطريق فارغة، ويكون إلى جانب بيته مدرسة ثانوية أو إعدادية، وطوال النهار ضجيج، وفي المساء سكون، سِرْ في الطرقات في الساعة الثانية ليلاً لا حركة ولا ضجيج ولا صوت ولا صخب، فربنا عزَّ وجلَّ جعل من هذه آية، كيف أن كلَّ هذه المخلوقات تحتاج إلى النوم، يكون الابن طوال النهار في حركة مستمرة، وفي الليل ينام..

(وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

أي وما احتوى، فالليل يقِلُّ فيه النشاط البشري، بل ينعدم نشاط الحيوانات كذلك، وكلُّ المخلوقات تأوي إلى أوكارها، وإلى أماكن نومها، وإلى بيوتها، فلو لاحظت الدواب أو الأغنام أو الأبقار أو الأنعام التي سخرها الله لنا بعد غياب الشمس تأوي إلى أماكن مبيتها، فربنا عزَّ وجلَّ جعل من هذه آيةً ثانية..

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

لو كان بيتك على طريق عام، والضجيج لا يحتمل، ففي الساعة الثانية ليلاً تجد هدوءاً تامّاً، حيث كلُّ إنسان قد أوى إلى فراشه، فمَن خلقَ الحاجة إلى النوم؟ بل ما تعريف النوم؟ هو نوعٌ من أنواع الموت، لذلك:

((عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا، وَإِذَا قَامَ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ))

[متفق عليه عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ]

عندما يستيقظ الإنسان صباحاً فليعلمْ علمَ اليقين أن الله سبحانه وتعالى منحه يوماً جديداً في حياته، ليكون فرصةً ليسعد بها إلى أبد الآبدين..

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

ربنا عزَّ وجلَّ أقسم لنا بالقمر :

قال بعض علماء التفسير: إن هذا القسم يشبه قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

لأن الليل يتنقل من نصف الكرة الأول إلى نصفها الثاني، إذاً كلُّ ما على الأرض يحويه الليل، والبحرُ في الليل له وحشة، وكذا الغابات والجبال والطرقات، فأكثر الأماكن أنساً تكون في الليل لها وحشةُ سكونٍ رهيب.

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

ربنا عزَّ وجلَّ أقسم لنا بالقمر، وليس على الأرض كلها رجلٌ لا يعرف القمر، والقمر واحد، سواءٌ أقسم ربنا عزَّ وجلَّ أم لم يقسم بالقمر، فما في هذه الآية؟ القمر تابع من توابع الأرض مساحته تعادل كما يقول العلماء مساحة أمريكا الشمالية والجنوبية، والقمر يبعد عنا ما يزيد عن ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر، فلو أنَّ للقمر قطارٌ سريعٌ لاحتجنا لنصل إليه إلى مئتي يوم، ومئتان تقسيم ثلاثين يساوي سبعة أشهر، فسبعة أشهر تركب قطاراً سريعاً كي تصل إلى القمر، والقمر لا يعدُّ في الفضاء، لكن هو في الفضاء، والعلماء الذين قالوا: غزونا القمر أو غزونا الفضاء، وربنا عزَّ وجلَّ قال:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

[سورة الرحمن: 33]

قال تعالى:

(مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الرحمن: 33]

الآية التالية تثبت العمد لكن السماء مرفوعة بغير عمدٍ ترونها :

والآن قد اكتشفت مجرة بُعْدُها عنا اثنا عشرة ألف مليون سنة ضوئية، أما القمر فيبعد عنا ثانية ضوئية واحدة، ودائماً في القياس هناك وحدات قياس، نقيس الذهب بالغرامات، ونقيس القماش بالأمتار، ونقيس المسافات على الأرض بالكيلو مترات، فما هو متر السماء؟ وما الوحدة القياسية للسماء؟؟ قالوا: السنة الضوئية أي عشرة آلاف مليون مليون كيلو متر، هذا هو متر السماء، وبيننا وبين القمر ليس سنة ضوئية؟ بل ثانية ضوئية، أي بَدَلاً من السين ثاء، ثانية ضوئية واحدة، لذلك لا يُعدُّ القمر إلا تابعاً من توابع الأرض. فالقمر مرتبط بالأرض بجاذبية، وهذه الجاذبية محيِّرة، هل يمكن أن تتصوَّر أنَّ بناءً مؤلفاً من عشرة طوابق بلا أعمدة؟

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

لكن ترونها، إذاً هناك عمد، فهذه الآية تثبت العمد، لكن السماء مرفوعة بغير عمدٍ ترونها، فقد قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد: 2]

لذلك قال العلماء: إنَّ القمر مرتبطٍ بالأرض بقوةٍ جاذبيةٍ تساوي كبلاً من الفولاذ قطره خمسون كيلو متراً، لكنَّ لطف الله عزَّ وجل جعل قوة الجذب هذه المتمثّلة بكبل من الفولاذ قطره خمسون كيلو متراً، هذه القوة موجودة لكنّها غير مرئية، هذه الأعمدة موجودة ولكنّها غير مرئية، وليست حاجباً، لا حاجب رؤية، ولا حاجب تنقُّل الهواء، لذلك القمر له أثر على الأرض، والأرض لها أثر على القمر، فما أثر القمر على الأرض أو في الأرض؟

أثر القمر على الأرض وأثر الأرض على القمر :

قال العلماء: لولا القمر لدارت الأرض حول نفسها في أربع ساعات، ولكان الليل ساعتين والنهار ساعتين، فما الذي يخفف من سرعة الأرض حول نفسها؟ القمر، أثر القمر في الأرض أنه بطّأ سرعتها، وجعل دورتها حول نفسها أربعاً وعشرين ساعة.

أما أثر الأرض في القمر فهي أنّها جذبته ولولا جاذبيتها لسار في خطٍ مستقيم ولبعُد عنها، فالقمر إذاً مرتبط بها.

وهناك أثر آخر للقمر في الأرض وهو المدُّ والجزر، فالمدُّ والجزر لا يلمح في اليابسة، مع أنَّ حقائق علمية تثبت أن اليابسة ترتفع قليلاً مقدار خمسة عشر سنتيمتراً باتجاه القمر حينما يقابلها، ولكن هذا يتم بتجارب دقيقة، والإثبات حول هذه الحقيقة يحتاج إلى توضيح لا يحتمله هذا المكان، ولكنَّ الماء لأنه سائل ومتحرِّك ومرن يرتفع حينما يقابل القمر الأرض، فيرتفع تقريباً عشرين متراً، لذلك فالموانئ الكبرى في المحيطات مصممة على المد والجزر، وقد يكون البحر في حالة الجزر ولا يحتمل بواخر ضخمة، فتدخل البواخر إلى الميناء في حالات المد، وتخرج منه قبل أن ينتهي المد، إذاً فالبحر يرتفع إلى ما يساوي عشرين متراً، وينخفض عشرين متراً بين النهار والليل، أو بين دورة القمر بين شروقه وغيابه، أما اليابسة فترتفع خمسة عشر سنتيمتر، أما البحر فيرتفع وينخفض، وظاهرة المد والجزر معروفة، ولا يجهلها أحد، ويراها الإنسان رأي العين إذا سافر إلى مدن تقع على المحيطات، كالمحيط الأطلسي والهادي والهندي.

شيء آخر، القمر يدور حول الأرض دورةً كل ثمانية وعشرين يوماً، أما هو فيدور حول نفسه دورةً كل ثمانيةٍ وعشرين يوماً، أي أن نهاره أربعة عشر يوماً، وليله أربعة عشر يوماً، ودورته حول الأرض

في ثمانية وعشرين يوماً، لكن سبحان الله! فالإنسان أحياناً يرى القمر يوم خمسة عشر من الشروق تماماً، فيشرق مع المغرب في اليوم الخامس عشر، وفي اليوم السادس عشر يشرق بعد خمسين دقيقة ونصف الدقيقة من غياب الشمس، وفي اليوم الذي بعده يشرق بعد خمسين دقيقة ونصف دقيقة من اليوم الأول، وكل يوم يتأخَّر شروقه خمسين دقيقة ونصف دقيقة، بعد أربع أو خمس أيام يظهر القمر في السماء بُعيد منتصف الليل، بعد خمسة أيام أُخر يظهر في السماء قبيل الفجر إلى أن يغيب تماماً، فما سرُّ هذا الشروق المتأخِّر؟!

سرّ الشروق المتغير :

هذه آيةٌ من آيات الله.. هذه الأرض وهذا القمر، فلو أنَّ القمر دار حول الأرض بسرعة الأرض حول نفسها لثبت القمر في جهةٍ ما من جهات الأرض، هذه الأرض تدور حول نفسها، فلو أن دورة القمر حول الأرض كانت بسرعة الأرض حول نفسها لصار القمر مقابلاً لمكانٍ واحدٍ في الأرض، ولحرم منه سكان الجهة المقابلة، لكن هذا التفاضل في السرعة بين سرعة القمر في دورانه حول الأرض وبين سرعة الأرض في دورانها حول نفسها، فتفاضل السرعتين جعل أهل الأرض كلَّهم يتمتَّعون بالقمر، فشروق القمر متأخِّراً خمسين دقيقة ونصف كل يوم عن اليوم الذي سبق هذا معناه أنّه يدور حول الأرض والأرض تدور حول نفسها وبين السرعتين تفاضل، هذه آيةٌ من آيات الله، لولا أن هناك إلهاً حكيماً قديراً قدَّر كلَّ شيء لزالت الفائدة من القمر.

هناك شيء آخر؛ قالوا: لو أن القمر اقترب من الأرض إلى مئة ألف كيلو متر، فهو يبعد عنا ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر، فربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[سورة القمر:49]

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[سورة الرحمن: 5]

لو أن القمر اقترب من الأرض، وكان على بعدٍ يساوي مئة ألف كيلو متر فماذا يحصل؟ قد يقول أحد الناس لا يحصل شيء، نقول له: يزداد المد والجزر أربعة وستين ضعفاً، فإذا كان المد ارتفاعه عشرين متراً، فنضرب عشرين في أربعة وستين، أي يرتفع الماء حوالي ألف متر، أي أن المدن الساحلية كلّها، ومعظم ما حولها إلى ارتفاع ألف متر ينغمر بمياه البحر، فبيروت مثلاً على البحر، أما ظهر البيدر فارتفاعه حوالي ألفي متر، فتقريباً عند عالية يصبح كل هذا بحراً، لو أن القمر اقترب من الأرض إلى مسافة مئة ألف كيلو متر، لتضاعف المد والجزر أربعة وستين مرة، أي ألف ومئتا متر لغرقت جميع

المدن الساحلية، وإلى ارتفاع ألف ومئتا متر تقريباً، فبعض الجبال الساحلية يبلغ ارتفاعها ألفاً ومئتي متر، أو ألفاً وخمسمئة، فبلودان ألف وخمسمئة، أي لوصل الماء إلى بلودان من البحر، هذا إذا اقترب القمر من الأرض إلى مسافة مئة ألف كيلو متر.

جُعل القمر تقويماً في السماء بسبب تنوعه وتغيره من حال إلى حال :

هناك أشياء كثيرة عن القمر، والشيء الذي يُحيِّر العقول كيف أن القمر يُرى بدراً حيناً، وحيناً آخر لا يُرى، وحيناً ثالثاً يُرى بين بين، وكيف يكون محاقاً، ثم عُرجوناً، ثم بدراً؟ هذه الأرض وهذه الشمس إذا كان القمر في الجهة المقابلة للشمس يأخذ ضوءه من الشمس بكامله، فالقمر له وجهان أحدهما منيرٌ والآخر مظلمٌ، والأرض هنا والشمس هناك، إذا كان القمر في الجهة المقابلة للشمس نراه بدراً، فإذا كان في جهة الشمس لا نراه إطلاقاً، لأن القمر هنا، والشمس هناك، والأرض هنا، وجهه المظلم نحونا، والمنير نحو الشمس، فلا نراه، وإذا انتقل القمر إلى هذا المكان فهذا الوجه المنير وهذا المظلم، نحن نرى نصف القمر تقريباً، أي كنصف البرتقالة، إذاً تنوّع القمر من البدر، إلى وضع متوسِّط نصف دائري، إلى هلال، إلى محاق، هذا بتقدير قديرٍ حكيم، فهذا تقويم في السماء:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

[سورة البقرة: 189]

لذلك، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ:

((هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

[أبي داود عن قتادة]

أي هو خير لنا، ولكنه يرشدنا إلى الله عزَّ وجل، فلا أدري إذا كان التوضيح لكم كافياً، فكيف يشرق القمر كل يوم متأخراً خمسين دقيقة؟ لولا تفاضل السرعتين لاستفادت جهة واحدة من القمر، وبقيت جهات الأرض الأُخرى محرومةٍ منه، أما هذا التفاضل بين سرعتي القمر والأرض فقد جعلت القمر يعُمُّ الأرض كلها، ويراه جميع من في الأرض.

تنقُّل القمر حول الأرض من جهة الشمس إلى جهةٍ مقابلة إلى جهةٍ ثالثة ورابعة جعل القمر لا يبدو أبداً، أي محاقاً، ثم يبدو هلالاً، ثم يبدو نصف دائرة، ثم يبدو بدراً، إذاً جُعل القمر تقويماً في السماء.

الجاذبية من آيات الله الدالة على عظمته :

الحقيقة لو كان الإنسان يزن وهو على الأرض ستين كيلو غراماً، ووقف على القمر لكان وزنه عشر كيلوات فقط، ولو أمسك إنسان كرة، وألقاها في الأرض بكامل قوته، وكانت الكرة حديدية لارتفعت خمسة أمتار، ولو ألقى هذه الكرة على سطح القمر لاندفعت إلى ثلاثين متراً، إذاً الجاذبية شيء عظيم، وبعض المفسرين فسَّر قوله تعالى:

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

أي انعدمت الجاذبية، فما الذي يجعل الأشياء مرتبطة بالأرض؟ الجاذبية، فأي شيء إذا تركته يسقط، فما هو السقوط؟ أي انجذاب هذا الشيء إلى الأرض، فما وزن الشيء؟ هو قوة انجذابه إلى الأرض، لذلك فالبحار في المحيط الجنوبي وفي نصف الكرة الجنوبي الإنسان بنظرة ساذجة يتساءل كيف متعلقة؟ أي إذا سافر شخصٌ إلى الأرجنتين فهل يجد السماء من تحته، والأرض من فوقه، كيف ينظر هذا؟ لو سافر شخص إلى بلاد تقع في نصف الكرة الجنوبي تبقى السماء نحو الأعلى، والبحر نحو الأسفل، إذاً ما تعريف السماء؟ هي جهةٌ مقابلةٌ لمركز الأرض، أينما ذهبت على سطح الأرض ترى السماء سماءً والأرض أرضاً، فالأرض هي كرة، لذلك هذه القوة التي ربطت كلَّ ما على الأرض من ماء ومن هواء ومن أشياء بالأرض هي قوة الجذب القوية واللطيفة، ولا تراها، فارتباط القمر مع الأرض بقوة الجذب الهائلة، لكن ليست حبالاً أو أعمدة، قوة جذب لطيفة، قوية ولطيفة بآن واحد تخترقها، هذه السارية هي حاجب تحجب الرؤية، ولا يستطيع الإنسان أنّ يخترقها، لكن ما قولك لو كان الجامع مبنياً على سواري قوى خفية غير مرئية، ولا يوجد حواجز على الإطلاق، هذا شيء ليس بطاقة البشر، هكذا الجاذبية...

لذلك فإن الأرض ساكنة سكوناً مطلقاً، فإذا كانت الأرض ساكنةً سكوناً مطلق وهي متحركة، فهذه آيةٌ كبيرة، هي متحركة وتنتقل مسافة ثلاثين كيلو متراً في الثانية، فهذه السرعة الدقيقة، وهذا السير على خط ثابت يفسِّره قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: 41]

ومعنى "تَزُولَا"، أي أن السماوات والأرض وكل الكواكب في السماء والنجوم والأجرام لها مسارات دقيقة لا تحيد عنها، كقطار له سكة لو حاد عنها يحتاج إلى آلات ضخمة حتى ترجعه إليها.

الهواء في الأرض نعمة كبرى :

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

[سورة فاطر: 41]

هذا شيء مستحيل إذاً، واللهُ عز وجل عندما أوضح لنا هذه الآيات فالشفق يدل على وجود الهواء، يقول العلماء: إن بعض الكواكب ليس فيها هواء فما هو السبب؟ قالوا: لأن قوة الجذب خفيفة، وقوة الجذب الضئيلة تجعل الطبقات الهوائية تتفلت من على هذا الكوكب وتهجره، لذلك فحجم الأرض مناسب جداً، وهذا الحجم يعني جاذبية بحجم معين، وهذه الجاذبية ربطت البحار والهواء بالأرض ربطاً نهائياً.

قال العلماء: القمر يقدِّم إلى الأرض أشعة وحرارة تساوي واحداً على مئة وخمسة وثمانين ألف جزء من أشعة الشمس وحرارتها، أي أنه لطيف، وفي الليالي البيضاء المقمرة يُرى الطريق، حتى الحرارة كما بينت قبل قليل مِن أن القمر يقدم لنا حرارة مقدارها واحد على مئة وخمسة وثمانين ألف جزء من أشعة الشمس وحرارتها.

كما قلت قبل قليل أيضاً لولا الأرض لسار القمر في خطٍ مستقيم مبدئياً، ولكان له مدار طويل حول الشمس، ولكن الأرض واقترابها منه جعلته يرتبط بها، ولولا القمر لدارت الأرض حول نفسها في أربع ساعات، ولصار الليل ساعتين والنهار ساعتين، وهذا لا يحتمل.

إنّ سرعة القمر حول الأرض ثلاثة آلاف وخمسمئة كيلو متر في الساعة، ولو تصورنا أن مدفعاً أطلق من على سطح القمر فلا يحتاج ضارب المدفع إلى أن يغلق أذنيه، إذْ لا صوت له، والقمر ليس فيه هواء، فما دام لا هواء فيه فليس له وسط ينقل الصوت، لذلك فإنّ الهواء في الأرض نعمةٌ كبرى، فكلامي مسموع بسبب الهواء، ولولا الهواء لما سَمِعَ أحدٌ من كلامي شيئاً.

أهمية الهواء في الأرض وفوائده :

إذاً فلا بد من وسطٍ مرنٍ ينقل الصوت، وينقل الحرارة، وينقل البرودة، التكييف مركزي، أي هواء بارد، تدفئة مركزية، أي ماء ساخن لامس الهواء فجعله ساخناً، والغرفة دافئة، فلو أن الإنسان فكَّر في الهواء فقط كيف ينقل الصوت والحرارة والبرودة والضوء لكفى ذلك دليلاً على الله، لكن على سطح القمر لا صوت يسمع، ولا برودة تنتقل، ولا حرارة، وفي النهار ثلاثمئة وخمسون درجة، وفي الليل مئتان وخمسون درجة تحت الصفر، إذاً ما دور الهواء على سطح الأرض؟ دور ملطِّف، الهواء جهاز

تكييف يحتفظ بالحرارة ويخفف البرودة، لذلك تجد الدرجات معقولة ما بين عليا عشرين ودنيا ثلاث، أو خمس وعشرين وعشرة درجات، أو عشرين وخمسة وثلاثين، فالدرجات معقولة جداً بين الليل والنهار بفضل الهواء، فهذه كذلك إشارات دقيقة جداً، أنَّ الهواء ينقل لكَّ الصوت، ينقل لكَ الحرارة، ينقل لكَ البرودة، وينقل لك الضوء، ويلطِّف الجوّ، ويجعل درجات الحرارة متقاربة، وهذا كلّه بفضل الهواء، فلذلك ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

ومعنى "وسق" أي ما احتوى، ومعنى "اتسق" أي إذا تمَّت استدارته وأصبح بدراً.

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

هذا جواب القسم:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

الإنسان مجموعة أيام كلّما انقضى منه يومٌ انقضى جزءٌ منه :

ما معنى هذه الآية؟ فعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

((لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ" حَالاً بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[البخاري عن مجاهد]

فأنت شاب ليس لك خيار في الموضوع، لا بدَّ أن تصبح كهلاً، ولا بدَّ أن تصبح شيخاً، بمعنى التقدُّم في السنّ، ولا بدَّ أن تدخل القبر، ولا بدَّ أن تُبعَث، ولا بدَّ أن تقف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، ولا بدَّ أن تحاسَب على أعمالك، تكون نطفةً، ثمَّ جنيناً، ثمَّ مولوداً، ثمَّ طفلاً، ثمَّ شاباً، ثمّ رجلاً، ثمَّ كهلاً، ثمَّ شيخاً، ثمَّ ميْتاً تحت التراب، ثمَّ مبعوثاً حياً، ثمَّ واقفاً للحساب، ثمَّ إلى الجنّة أو إلى النار:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

فلا بدَّ من أن تمروا بهذه المراحل، يقول لك الواحد باللغة الدارجة: بلمح البصر ولَّى الصيف، وبلمح البصر ولَّى الشتاء، فالإنسان يدخل الجامعة يستكثر الأربع سنوات، بلمح البصر انتهت الدراسة الجامعية، ثم هو قد تزوج، وجاء له أولاد، وزوجهم وأصبح جدّاً:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

أي نحن نسير في اتجاه إجباري، وبسرعة ثابتة، ليس لنا خيار فيها، والأيام تدور، والسنوات تمر، والليل والنهار يُبلِيان كلَّ جديد، ويقربان كلَّ بعيد، والإنسان مجموعة أيام، كلّما انقضى منه يومٌ انقضى جزءٌ منه:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

حالاً بعد حال، وهذا تفسير أوّل.

الإنسان ينتقل من حال إلى حال كل يوم لذلك عليه أنْ يتعلق بالله عزَّ وجلَّ :

وهناك تفسير آخر:

(طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

أيضاً حالاً بعد حال، قد ينتقل المرء من الفقر إلى الغنى إذا كان شاكراً، أو ينتقل من الغنى إلى الفقر، وقد ينتقل المرء من الرخاء إلى الشدة، أو من الشدة إلى الرخاء، ومن الصحة إلى المرض، أو من المرض إلى الصحة، أي كلُّ حالٍ يزول، فالإنسان لا يطمئن للدنيا، اليوم أنت شابّ وليس فيك من بأس، وفي خلال دقائق توقفت الحركة، وأصبح يحتاج إلى زحّافة، يريد من يحمله إلى المرحاض، أحياناً يبكي:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

وعلى الإنسان أنْ يتعلق بالله عزَّ وجلَّ، لا أنْ يتعلق بالدنيا، ويضع ثقته كلها بالله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام:

((الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدَيِ اللَّهِ وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ إِذَا أَنْتَ أُصِبْتَ بِهَا أَرْغَبَ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا أُبْقِيَتْ لَكَ))

[الترمذي عَنْ أبي ذرٍّ]

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

الشفق أي الهواء والسحاب وبخار الماء وكروية الأرض وتبدل غروب الشمس.

(وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

كل شيء وجميع الكائنات يحتويها الليل، وتسكن في الليل.

حسبنا الكون معجزة فالكون قرآنٌ صامت والقرآن كونٌ ناطق :

قال تعالى:

(وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

هذا التابع له فضل على الأرض في الجاذبية، وفي المد وفي الجزر، والأرض لها فضلٌ عليه - مجازاً فالفضل لله عزَّ وجل - في ارتباطه بها، والقمر بُعدُه عنا مناسبٌ جداً:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[سورة الرحمن: 5]

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

من دون قمر يصبح النهار ساعتين، والليل ساعتين، وبوجود القمر يكون الليل والنهار أربعاً وعشرين ساعة.

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ* فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

سبحان الله! كأنَّ الله سبحانه وتعالى يعجب منهم، فما الذي يمنعكم أن تؤمنوا؟!! لقد أعطيتكم فكراً، وأعطيتكم كوناً، والكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى، فإذا أردت أن تعرف الله فدونك الكون، حسبكم الكون معجزة، الكون قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، الإمام محمد عبده يقول: إن لله في أرضه كتابين؛ الكون والقرآن..

ليس في الأرض شيء أهم من معرفة الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

ما الذي يمنعهم من الإيمان، والمرءُ مشغول بماذا؟ هل في الأرض شيء أهم من معرفة الله عزَّ وجل؟! ما دمت سوف تكون مع الله إلى أبد الآبدين، حينما يدفن الإنسان في قبره يقول الله له عزَّ وجل: عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحيُّ الذي لا يموت*.

فما دام الله سبحانه وتعالى إليه المصير، وإليه المنقلب، إلى أبد الآبدين، فما هذا الكلام إذْ تدّعي أنك مشغول، لماذا لا تحضر معنا؟ يجيب بأنه مشغول، وعندهم الآن موسم، أو حتى يرتاح بالي، بالك لن يرتاح أبداً:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

هل يوجد إنسان يأخذ الدكتوراه من دون جامعة؟! في البيت وحدي وأنا مستلقٍ على السرير أخذتها، هذا لا يصح أبداً، فالعلم يؤتى، ومعرفة الله تحتاج إلى أن تحضر مجلس علم، فكيف تعرفه؟ وكيف تعرف آياته؟ وكيف تعرف أوامره؟ وكيف تعرف الحلال والحرام؟ وكيف تعرف الطريق إليه من دون أن يعلّمك أحد؟

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

ما الذي يشغلك؟

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين - فلماذا تكون مشغولاً برزقك؟ - لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك ، فلأسلِطنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي ، وكنتَ عندي مَذْموماً .))

[ورد في الأثر]

الله عزَّ وجل خلق الكونَ كلَّه شهادةً له فلا عذر لغير المؤمن يوم القيامة :

كنا نخوض ونلعب، فلا عذر، لأنّ الله عزَّ وجل خلق الكونَ كلَّه شهادةً له، خلقك من نطفة ثم سوَّاك بشراً سوياً، والقبر أمامك فما الذي يمنعك من أن تؤمن به؟

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

فإذا وضع الأبُ ابنه في أحسن مدرسة، وفيها أحسن أساتذة، وأحضر له كتباً جديدة، وأقلاماً ودفاتر، وجميع اللوازم من أعلى مستوى، وخصَّص له غرفة مدفأة شتاءً، ومكيّفة صيفاً، ومكتباً، وإضاءة مناسبة ومكتبة، وقدَّم له نفقات كبيرة، وأحضر له أساتذة خصوصيين، ودخل عليه ذات مرة فرآه لا يدرس، فقال له: يا بني لمَ لا تدرس؟ ما الذي يمنعك أن تدرس؟ هل قصَّرت بحقك؟ هل هناك شيء لم أقدِّمه لك؟

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ)

كتاب الله، قد حدثتكم اليوم في الخطبة كيف أن ربنا عزَّ وجل خلق غدّة دمعية، وهذه الغدة تفرز مادة قلوية من أجل تطهير القرنية، ومن أجل تسهيل عمل الأجفان - المسّاحات - وكيف تعمل هذه المسّاحات، أيْ الأجفان عن طريق حركة لا إرادية من أجل أن ترتاح، فلم يكلّفك فيها عملاً، فلو كلَّفك فيها لوجدتَ أنّك وأنت تتكلَّم تقول لمن أمامك: انتظر سأمسح عيوني، وتقوم بمسحهما، ثم تقول لمحدثك: أكمل، أما الله فقد جعل لك هذه الأجفان نعمة كبرى، فحركة الأجفان حركة نوبية لا إرادية مع مادة قلوية تذيب الرمل، فلو دخلت حبة من الرمل في العين لأذابها الدمع، وهذا الدمع خرج من الغدة الدمعية بشكل معيَّر دقيق، نظَّف القرنية، وسهَّل عمل الأجفان، ثم انتهى إلى قناةٍ دمعيّةٍ لا تُرى بالعين لشدة دقتها.

هذا الدمع له وظيفة أُخرى، وهي ترطيب الأنف، فالأنف سطوح متداخلة، والهواء يمر عبرها، والله جعل هذه السطوح ساخنة، أرقى جهاز تسخين، وجعل هذه السطوح أيضاً مغطَّاة بطبقة مخاطية لزجة

رطبة حتى الغبار العالق في الهواء والمواد الغريبة كلها تعلق عليها، وإذا استطاعت ذرة من الغبار أن تنتقل عبر الفراغات، وهذا مستحيل فجعل منها أشعاراً تلتقطها، سطوح ساخنة متداخلة عليها طبقة لزجة رطبة وأشعار في الفراغات من أجل أن يصل الهواء إلى الرئتين ساخناً نقياً، فلو نام الإنسان على ظهره فسيتنفَّس من فمه، وكأنَّه عطَّل جهاز التسخين، وعطَّل جهاز التعقيم، فتنكشف اللثة، وهذا مرض يسمى - البوريه - أي انكشاف اللثة، يصاب برشوحات دائمة، ويأتيه الهواء بارداً مؤذياً ومعبّأ بالغبار أو الأجسام الغريبة. إذا ازداد الدمع فهو البكاء، ومعنى البكاء أن الغدد الدمعية تفرز كميَّات من الدمع تزيد عن طاقة تصريف الدمع بالقنوات الدمعية فيسيل ويفيض الدمع.

ذكر الله في القرآن الكريم أن البكاء هو فيضان الدمع :

ربنا عزَّ وجل ذكر في كتابه الكريم:

(تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ)

[سورة المائدة: 83]

هذه الأشياء كشفها العلم الآن وكذلك موضوع الغدد الدمعية والتنظيف والتصريف، ولكن الله سبحانه وتعالى في موطنين من القرآن الكريم ذكر أن البكاء هو فيضان الدمع، قال تعالى:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

أليس هناك آياتٌ باهرات؟ في العين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، ربع مليون شعرة، ولكل شعرة شريان ووريد وعصب وعضلة وغدة دهنية وغدة صبغية:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

المجرات والشمس وكل ما في الكون آيات باهرات على وجود الله سبحانه :

في المعدة خمسة وثلاثون مليون عصارة هاضمة تفرز مقدار ليتر ونصف، أيْ بقدر قِنِّينة بقين من حمض كلور الماء عند كل وجبة طعام:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

الشمس بُعدُها عنا مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وهناك شموس حجمها يزيد عن حجم الشمس بثلاثين مليون مرة، والشمس بينها وبين الأرض من الفرق مليون وثلاثمئة ألف مرة، وهناك كازارات شدة إضاءتها وحجمها يزيد على شمسنا بثلاثين مليون مرة.

وفي الكون توجد بقع سوداء - الثقوب السوداء - وهذا الشيء لا يصدَّق، إذا دخلتها الأرض انضغطت إلى حجم البيضة، الأرض كلها، ففيها قوى ضغط تزيل الفراغات البينية بين الذرات، فكل شيء تراه ثقيلاً وصامتاً فيه فراغات هائلة بين ذراته، هذه القوى الضخمة في البقع السوداء تجعل الأرض بكاملها بيضة، وهذه الأرض لو أُلقيتْ في الشمس لتبخَّرت كلها في ثانية واحدة، الأرض كلها:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

المجرَّات أعرف رقماً عن المجرات أن هناك حوالي عشرة آلاف مليون مجرة، أحدث مقالة قرأتها قبل يومين مليون مليون مجرة في الكون، هذا في حدود مراقبتنا ومراصدنا، وفي حدود تكهُّناتنا مليون مليون، وأحد المراصد أمريكا اسمه بالومار كشف منها ألف مليون، والباقي لم تُكشف، فالعين المجردة لا ترى إلا ثلاث مجرَّات فقط؛ هي المرأة المسلسلة، ومجرّتان، ومجرتنا فقط، قال تعالى:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ)

فما هناك آية في هذا الكتاب إلا وتنطق بالكون؟ بل الكون كله في الكتاب.

الكافر من صفاته أنه يكذِّب بالحقّ ويؤمن بالباطل :

قال تعالى:

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ)

إنّ الكافر من صفاته أنه يكذِّب بالحقّ ويؤمن بالباطل.

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ)

معنى يوعون أي يخبِّئون من نوايا شريرة للنبي صلَّى الله عليه وسلم ولأصحابه الكرام:

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ*بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ* وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ*فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

قال بعض علماء البلاغة: هذه استعارة تهكُّمية، كأن تقول مثلاً: فلان رسب عن جدارة، وأحرز درجة عالية في الرسوب، أو تقول لإنسان: قمّة في الغباء، فالغباء ليس له قمة، وهي استعارة تهكُّمية.

وبعضهم قال: لا، بل هي على حقيقتها، ربما كان العذاب عذاب النار الذي يحرق الجلود أهون من عذاب النفس:

(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

ثم قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

ما معنى "غير ممنون"؟ أي غير منقطع، وغير منقوص، وغير محسوب.

قال بعض المفسرين: غير ممنون، ليس ممتناً عليهم، ولكنَّ هذا التفسير مرفوض، لأنَّ لله المنة والفضل دائماً، فيمكن ألا يكون لإنسان على إنسان مِنَّة، أما ربنا عزَّ وجل فله المِنَّةُ والفضلُ على عباده جميعاً، فإذاً معنى غير ممنون أي غير مقطوع وغير منقوص وغير محسوب عليهم، أيْ بغير حساب، فلا أحد من الناس يأخذ إلا بحساب، أما إذا أعطى ربنا عزَّ وجل أدهش، وهو المعطي فلا يسأل، وهو الكريم فلا يبخل، وهو الحليم فلا يعجز.

ملخص سريع لما ورد في درس اليوم :

درسنا كله:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

تذكروا الشفق القطبي، هذا السور الذي وضعه الله في الفضاء الخارجي على بعد خمسة وستين ألف كيلو متر ليقِيَ الأرض من الأشعة الكونية الضارة، أو الشفق تلك الحمرة التي تكون بعد الغروب أو قبل الشروق، تعني الهواء، تعني السحاب، تعني البخار، تعني كروية الأرض:

(وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

وما حوى:

(وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

تمَّت استدارته:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

ليس لك خيار، فأنت الآن شاب، لكنك سائر في طريق الكهولة، وبعد الكهولة الشيخوخة، فإذا رأيت إنساناً يمشي متمهلاً فلا تنتقده، فسوف تكون كذلك:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ *فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ*بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ* وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ)

أي بما يخبئون في نفوسهم من نوايا شريرة:

(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

أي غير منقوص، غير مقطوع، غير محسوب، أي بغير حساب أو تقنين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البروج 085 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-11، السماء وأهوال اليوم الموعود.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-11-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

المقياس على الأرض يتلاشى في السماء :

قد لا يستطيع العقل تصوره فالله عزَّ وجل يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

إذاً المقياس على الأرض يتلاشى في السماء، أي أن محيط الأرض أربعون ألف كيلو متر هذا لا يذكر في السماء إطلاقاً، مهما بدت لك القارة واسعة الأبعاد، فالاتحاد السوفيتي مثلاً يشغل أكبر دولة في العالم من حيث الامتداد، أي مسافات شاسعة، فالإنسان إذا نظر إلى سورية على الخارطة يجدها مسافة صغيرة جداً، اركب من دمشق إلى حلب تقول لقد مللنا حتى وصلنا بخمس ساعات، فما قولك في دولة لها مسافات شاسعة وجميع القارات الخمس تشكل خمس الأرض، فاليابسة خمس الأرض، وجميع المقاييس التي على وجه الأرض تتلاشى في السماء فلا قيمة لها، والزمان في الأرض لا زمان له في السماء أي أنه صفر، والمكان في الأرض لا مكان له في السماء صفر، وقد يكون وزن الأرض.. هذه فكرة جديدة.. يوجد في السماء بقع سود يوجد فيها ضغط شديد جداً، والعلماء قدَّروا أن الأرض لو دخلت في هذه البقعة السوداء لانضغطت حتى تصبح كالبيضة، فمن يصدق ذلك الأرض بحجمها الكبير ببحارها وبأنهارها وجبالها وقارَّاتها تصبح كالبيضة! قال بعض العلماء في السماء يوجد بعض النجوم المضغوطة، السنتيمتر المكعب يزن مئة مليون طن، إذاً لو دخلت الأرض في بعض هذه البقع السوداء لانضغطت.

وبالمناسبة فالماء لا ينضغط، أي لو جعلنا متراً مكعباً من الماء في متر مكعب من الحديد الفولاذي السميك وأنزلنا على متر مكعب من الماء مكبساً فوقه مئة طن، أو ألف طن لا ينضغط الماء ولا سنتيمتر ولا ميليمتر فالماء لا ينضغط، والأرض بأكملها تنضغط وتصبح كالبيضة فما هذه القوى الضاغطة في هذه البقع السود؟ شيء لا يوصف.

الإنسان يجب أن يفكر بالسماء حتى يعرف من هو الله عزَّ وجلَّ :

الآن، إذا أراد الماء مجازاً أن يتمدد لا توجد في الأرض قوة أرضية تستطيع أن تحول بينه وبين التمدد، وهل يوجد أكثر من المحرك المصنوع من أرقى أنواع المعادن من خلائط في منتهى المتانة والقساوة، فإن نسي أحدنا الماء في أيام الصقيع في المحرك من دون مادة مضادة للتجمد فالمحرك يتشقق فما معنى ذلك؟ إن الماء إذا تمدد ليس في الأرض كلها قوةٌ تمنع تمدده لا فولاذ ولا صخر، الصخر يتفتت، أساساً أحد عوامل تفتت التربة تمدد الماء في أثناء الصقيع، فالماء إذا تجمد تمدد ثم يتفتت الصخر. وأحياناً تلاحظ في منطقة جبلية صخوراً متشققة فقد تسرب الماء إلى داخلها وأصبح صقيعاً تمدد الصخر كلّه فأحدث هذا التشقق، وحتى الآن إحدى الطرق لتقطيع الصخر إدخال ثقوب فيه وإدخال ماء ثمَّ تبريده يشق الصخر، فالماء لا يمكن أن يتمدد، الأرض بما فيها وما عليها ومن فيها لو دخلت هذه البقعة السوداء في الفضاء لأصبحت كالبيضة، ما هذه القِوى! شيءٌ لا يعلمه إلا الله.

ما هذه القوى المتجاذبة في الفضاء؟ القمر كما قلت في الدرس قبل الماضي مربوط بالأرض بقوة جاذبية تعادل كبل فولاذي قطره خمسون كيلو متر، أي قطر الفولاذ من دمشق مثلاً إلى بلودان أو إلى قرب النبك، فهذه ثخانة القطر الفولاذي، أما ربنا عزَّ وجلَّ يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

الإنسان يجب أن يفكر بالسماء حتى يعرف من هو الله عزَّ وجلَّ، وحتى يعرف إذا كان الإله أمر بأمر كيف ستكون استجابتك؟ من أجل أن تعرف إذا وقفت بين يدي الله عزَّ وجلَّ لمن تصلي، ومن تخاطب؟ تقف بين يدي من؟ إذا قرأت القرآن فيجب عليك أن تعرف هذا كلام من؟ كلام رافع السماء بلا عمد.

والسنة الضوئية كما تعرفون وقد تحدثت عن هذا كثيراً تعادل عشرة مليون مليون كيلو متر أي ما يقطعه الضوء في سنة واحدة يعادل عشرة مليون مليون كيلو متر، والشيء الغريب أننا عندما نرى نجماً في الفضاء ونرصده، فهذا المكان مكان وجوده حينما أرسل ضوءه إلينا الضوء بينما النجم استمر في الطريق، أما ضوء القمر فيصل بثانية، وضوء الشمس بثماني دقائق، وضوء أقرب نجم إلينا أربع سنوات ضوئية وأربعة الأعشار، وأقرب مجرة بعدها عنّا اثنا عشر ألف سنة ضوئية، وهذه الأرقام قد لا يصدقها العقل.

إعجاز الله في الكون :

إذا ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

كلكم يعلم أنَّ الأرض تدور حول الشمس وهذه الدورة بسرعة ثلاثين كيلو متر في الثانية، وفي دورانها حول الشمس تطوف حولها وتمرّ على مجموعة نجوم، وهذه المجموعات من النجوم تسمى الأبراج، فكلكم يعلم مثلاً برج العقرب، برج الجدي، وهناك بروج كثيرة، أي هذه المجموعات من النجوم على شكل عقرب، وهذه على شكل جدي، وهذه على شكل حمل، وهكذا، فربنا عزَّ وجلَّ يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

أحد هذه الأبراج برج العقرب، وفي أحد هذه الأبراج الذي هو برج العقرب نجم لامع أحمر اللون متألق اسمه قلب العقرب، فهذا النجم يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما. وبعض العلماء قالوا: في السماء المرئية مليون مليون مجرة وهذا أحدث رقم ومن أحدث مصدر، مليون مليون مجرة، في كلِّ مجرة أكثر من مئة ألف مليون نجم:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

وفي كلِّ نجم من هذه النجوم الكبيرة يسع مليون أرض، أي النسبة بين الشمس والأرض مليون وثلاثمئة ألف، أي الشمس التي نراها صباحاً وظهراً لو أنَّ جوفها مفرَّغ لاتسع إلى مليون وثلاثمئة ألف أرض، ففي هذه المجرات بعض النجوم يتسع إلى ثلاثين مليون شمس، شمسنا تتسع إلى مليون وثلاثمئة ألف أرض، وبعض النجوم في المجرات يتسع إلى ثلاثين مليون شمس من شمسنا فما هذه الأحجام؟!! ربّنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

على الإنسان ألا يؤجل انصياعه لله إلى الغد :

فهل فكرت فيها؟!! وهل نظرت إليها؟ وهل عرفت مبدعها؟ وهل فكرت في خالقها؟ وهل نظرت إلى عظمة الله من خلالها؟ وهل خشعت بين يديه؟ وهل انصعت لأمره؟ أم بقي الإنسان متمرداً؟!

إلى متى أنت في المعاصي تسير مرخى لك العنانُ

عندي لك الصلح وهو برّي وعندك السيف والسنانُ

ترضى بأن تنقضي الليالي وما انقضت حربك العوانُ

***

إلى متى أنت باللّذات مشغول وأنت عن كلِّ ما قدمت مسؤول

***

إلى متى؟!!

فيا خجلي منه إذا هـو قال لي أيا عبدنـا ما قرأت كتابنـا ؟

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى؟ أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا ؟

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً؟ وتنظر ما به جاء وعدنـا ؟

***

إلى متى؟!!

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد: 16]

هذه ساعة الصفر متى ستكون؟ ساعة التوبة الكاملة، ساعة الانصياع الكامل لله عزَّ وجلَّ، ساعة العزوف عن المعاصي كلّها صغيرها وكبيرها متى؟ سوف أفعل هذا غداً.. قال عليه الصلاة والسلام:

((هلك المسوفون))

[ورد في الأثر]

سوف أفعل هذا في مطلع الصيف، بعد أن أؤدي الامتحان، وبعد أن أتزوج أتوب، وما يدريك أن تصل إلى الزواج وأنت حيّ من يعلم ذلك؟!!

المجرات والنجوم وما فيها من آيات الله الدالة على عظمته :

توجد أرقام ومعلومات سبحان الله لولا أنَّ الدرس:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

فالحديث عنها شيء غير معقول قد يبدو هذا لبعض الناس، وفي بعض المجرات يحدث فيها انفجار، فالمجرات والنجوم تأخذ أرقاماً وحروفاً، فهذه المجرة التي رمزها (m 84) يحدث فيها انفجار وهذا الانفجار يعادل قوة انفجار قنبلة هدروجينية مضروبة بواحد أمامه ستة وأربعون صفراً، والآن تكلمنا قبل قليل عن الرقم المذهل مليون مليون واحد أمامه اثنا عشر صفراً، وإذا كان واحد وأمامه ستة وأربعون صفراً ضعف انفجار القنبلة الهدروجينية فهذا انفجار يحدث في مجرة اسمها (m 84).

ومرصد ببعض الدول الأجنبية اسمه (بلومار) فهذا المرصد حتى الآن رصد ألف مليون مجرة، وبكل مجرة من هذه المجرَّات تقريباً رصد مئة وثلاثين ألف مليون نجم، وقد رصد صور، أما العين المجردة هذه لا ترى إلا ثلاث مجرات فقط، الأولى اسمها المرأة المسلسلة والثانية اسمها ماجلان

الكبرى، والثالثة اسمها ماجلان الصغرى، ففي هذه العين المجردة لا نرى إلا ثلاث مجرات فقط، وأما في المرصد الذي قطر عدسته اثنا عشر متراً، واستغرق صنع العدسة حوالي اثنتي عشرة سنة، وتبريدها خمس سنوات، أي سبعة عشر عاماً حتى صنعت هذه العدسة كي ترصد هذه المجرات الواسعة، أي علَّم ربنا عزَّ وجلَّ الإنسان ما لم يعلم، قال الله تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 255]

أي إلا بما شاء هو، ربنا عزَّ وجلَّ سمح لنا أن نعرف حتى الآن هذه الحقائق، وما يدرينا أنَّ هناك حقائق أُخرى لا نعرفها نحن الآن؟

وصف السماء :

يوجد شيء آخر؛ النجوم العملاقة كما قلت قبل قليل قد يزيد حجم النجم منها على ثلاثين مليون شمس من شموسنا هذه العملاقة، هذه ذات لون أحمر، ويوجد لون أبيض أقلُّ إضاءةً، وربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

مثلما أقول لك الآن: هل تقدر أن تعطي السيارة وصفاً ينطبق على جميع السيارات قديمها وحديثها، منذ أن صنعت أول سيارة وحتى آخر طراز، الكبيرة والصغيرة، الشاحنة وغير الشاحنة والسياحية، ذات المصادر المتعددة والبلدان المتنوعة والطاقة المتعددة وصف واحد يجمع فيه كلّ السيارات من دون استثناء، أي أقدم سيارة وأحدث سيارة، أكبر سيارة وأصغر سيارة، وحتى اللعب وصف واحد؟

قال لي واحد: إنها مريحة، قلت له: الفراش مريح، فهل تسمى السيارة الفراش؟ قال: لا، قال لي: يوجد فيها فخامة. قلت له: القديمة لا يوجد فيها فخامة فما تسميها إذا لم يكن فيها فخامة؟ إلى أن توصلت أنا وهو إلى كلمة الحركة، السيارة شيء يتحرك فهذا الوصف الذي يجمع جميع أنواع السيارات، فربنا عزَّ وجلَّ أراد أن يصف السماء فماذا قال؟ قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

أي بخار الماء يتصاعد إلى السماء فيرجع أمطاراً وهذا شيء جميل.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

هذه الأمواج التي تبثها الإذاعات لولا طبقة في السماء تعيدها إلينا لما كان هناك اتصال لاسلكي على وجه الأرض..

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

الحكمة من جعل الله عزَّ وجلَّ الكون متحركاً و ليس ثابتاً :

ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

بمعنى آخر: أنّ كل كوكب في السماء يدور حول مدار معين في مدار معين، وكل أفلاك السماء، وكل نجوم السماء تدور، ومعنى الدوران أن تعود حيث كنت قبل قليل، والآن نحن في هذا التاريخ بعد سنة بالضبط بهذا التاريخ تكون الأرض قد رجعت إلى موقعها الحالي، فالأرض الآن تمشي، الأرض والشمس والقمر والمجرات والمجموعة الشمسية، كل كوكب في السماء يدور، فلماذا الله عزَّ وجلَّ جعل الكون متحركاً ولم يجعله ثابتاً فيكون أهدأ؟ لو أن الكون ثابت لتجمَّع كلّه في كتلةٍ واحدة، طبعاً لوجود الجاذبية، النجم الأكبر يجذب الأصغر وهكذا الكون كلُّه يتجمع بكتلة واحدة، فلماذا جعله متحركاً إذاً؟ من أجل أن تنشأ قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة فيبقى الدوران ويبقى الانفصال مع الدوران، إذاً لمَ الحركة؟ الحركة فيها بركة، فلولا الحركة لا يوجد ليل ولا نهار، ولا يوجد صيف وشتاء وخريف وربيع، لا يوجد بروج تراها في السماء، فلولا أنَّ الأرض تدور حول الشمس لما رأيت بروج السماء:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

من نتائج دورة الأرض حول الشمس، أن سكان الأرض يرون البروج في السماء، طبعاً الخبراء في النجوم، في الصيف يوجد بروج ترى، والحقيقة في كلِّ شهر يوجد برج، ففي السماء اثنا عشر برجاً فلكل شهر برج نراه نحن في سمائنا الدنيا، فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

كلمة الرجع صفة مشتركة لكل ما في السماء :

الآن سأستطرد استطراداً بسيطاً، لمَ ربنا قال:

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرجع)

[سورة الطارق: 11]

أي كلمة الرجع صفة مشتركة لكل ما في السماء، وربنا عزَّ وجلَّ قال:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

أيضاً الباطل أنواع، فالباطل الاعتقادي أنواع، والباطل السلوكي أنواع، وباطل فئات الأرض أنواع، أي أن الباطل أنواع لا تعد ولا تحصى، أي بين نقطتين لا يمر سوى مستقيم واحد، أما الطرق المنحنية والملتوية والمنكسرة يمر مليون خط منحنٍ بين نقطتين، ولذلك فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ)

[سورة الأنعام: 153]

ضمير صراطي مستقيماً مفرداً:

(وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

خطوط الانحراف كثيرة:

((تفترق أمتي بضعاً وسبعين فرقة.))

[ابن عدي عن عوف بم مالك]

طبعاً علينا أن نلزم ما عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه الكرام، فمن ينجو منهم يا رسول الله ما أنا عليه وأصحابي.

الله عزَّ وجلَّ يعطي وصفاً للباطل يشمل كلّ باطل من دون استثناء :

بين نقطتين لا يمكن أن يمر سوى مستقيم واحد لكن يمر مليون خط منحن، إذاً الباطل كثير والباطل الاعتقادي كثير، في الهند يوجد المئات من الديانات كلها ديانات فيها شرك بالله عزَّ وجلَّ، تأليه الشمس، وتأليه البقرة، والإنسان يموت فيحرقونه، والبقرة إذا نفقت تدفن دفناً، فالبقر يدفن والإنسان يحرق، وهذا باطل، ويوجد مذاهب كثيرة في الأرض باطلة لا يعلمها إلا الله، ويوجد تصرفات باطلة، وكسب رزق باطل، وتعامل مع الناس باطل، ومعتقد باطل، وقيم باطلة، وتصورات باطلة، والآن مثلما قال ربنا عزَّ وجلَّ:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

والآن ربنا عزَّ وجلَّ يعطي وصف للباطل يشمل كلّ باطل من دون استثناء؟ قال:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

أي أن هذه الصفة المشتركة التي تجمع بين كلِّ أنواع الباطل، كل أنواع الباطل زاهقة، ولو قال: زاهقة، اسم فاعل، أنت قد تقول: فلان كاذب: أي أنت قد جربت عليه كذبةً واحدة، أما إذا كان كثير الكذب، فهذا يسمى كذوباً، على وزن فعول، كذلك ربنا عزَّ وجلَّ ما قال: إن الباطل كان زاهقاً معنى زاهقاً يزهق مرة واحدة يمكن أن يتجدد أما:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

إذا ربط إنسان مصيره مع الباطل فمعنى ذلك أنه معه مزهوق أيضاً، أي زاهق ومزهوقٌ معه، أما إذا ربط الإنسان مصيره مع الحق الذي لا يحول ولا يزول يكون في منتهى الذكاء والكياسة، وإذا ربطت مصيرك مع شيء باطل شيء هو مبدأ، هو شخص، هو سلوك، هو تصرف.

(كان) في القرآن الكريم لها معنى آخر :

قال تعالى:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

أما الإنسان إذا ربط نفسه مع الحق، كن للحق عبداً فعبد الحق حر:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

[سورة القصص: 88]

كان، فمعنى (كان) معنى دقيق جداً، وجدت في القرآن الكريم أربعمئة وأربع وعشرين (كان)، فالإنسان يقول لك أحياناً: الجو ممطرٌ! بعدئذٍ تقول: كان الجوُّ ممطراً، أي أنت نقلت هذا الحدث أو الإسناد إلى زمن ماضٍ، لكن إذا قرأت قوله تعالى:

(وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة النساء: 17]

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)

[سورة الكهف: 45]

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

[سورة النساء: 32]

هذه (كان) أصبح لها معنى آخر وليس معناها الماضي، معناها الكون العام والوجود والاستمرار، أي هذا الشيء الذي ربط بهذا الشيء مع فعل (كان) مترابط معه وجودياً بحيث لو زال هذا الشيء لزال الأصل.

ترابط الزهوق مع الباطل ترابطاً وجودياً :

قال:

(وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة النساء: 17]

أي علمه شيء ثابت وأزلي وقديم وسرمدي، مثلاً إذا رأيت ضوءاً أخضر فهل من الممكن أن تفصل الأخضر عن الضوء؟!! ضوء أخضر هل بإمكانك أن تفصل اللون الأخضر وحده عن الضوء؟!! مستحيل، فلما ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

أي أن يكون الباطل زهوقاً فهذا شيء ثابت فيه، الزهوق مترابطٌ مع الباطل ترابطاً وجودياً، حيث كان الباطل فهو زهوق:

(وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة النساء: 17]

أي العلم والحكمة شيء ثابت وقديم وأزلي وسرمدي، لا زلنا في السماء ذات البروج، ربنا عزَّ وجلَّ لما حدثنا عن السماء ذات البروج فإن بعض العلماء قالوا: إنَّ أقرب نجم إلينا بعده عنا أربع سنوات ضوئية، وهنا توجد نقطة دقيقة جداً أي أن هذا النجم عندما تقول أربع سنوات ضوئية أي انطلق الضوء منه، فبالطريق يستمر أربع سنوات، ونحن اليوم رأينا النجم بالمرصد، فهل تصدقون أنَّ هذا النجم كان قد أصدر ضوءً قبل أربع سنوات والآن في مكان آخر قد يكون انفجر، وقد يكون تحول، وقد يكون زال؟!!

عندما صعدوا على القمر هل تظنون أنهم تبعوا القمر بالضوء؟ ضوءه كاذب، الضوء الذي تراه، فالقمر سائر في الفضاء وأنت تذهب إليه يجب أن تصل إلى مكان وصوله بعد أربعة أيام، فهناك حسابات دقيقة جداً، فهذا النجم يصل ضوءه إلينا بعد أربع سنوات من انطلاق الضوء منه، وهذه الفترة الزمنية معقولة.

أما مجرة المرأة المسلسلة فبعدها عنا مليونا سنة ضوئية، أي إذا خرج منها الضوء يستمر سائراً في طريقه إلينا مليوني سنة ضوئية، فإذا رأينا هذه المجرة مجرة المرأة المسلسلة هذه الرؤية قبل مليوني سنة وهي الآن أين تكون؟ لا يعلم مكانها الآن إلا الله، فالذي نراه في المرصد اليوم كان قبل مليوني سنة، ونحن كل تاريخنا الميلادي ألف وتسعمئة وأربع وثمانين، وكل التاريخ البشري المقروء سبعة آلاف سنة قبل الميلاد، فما نراه اليوم عن هذه المجرة هو ما قبل مليوني سنة.. فما هذه العظمة؟!!

الزمن هو البعد الحركي للأجسام والجسم الثابت ليس له زمن :

شيء آخر، بعض الكازارات قد كشفوا أن بعدها عن الأرض اثني عشر ألف مليون سنة، أعطيكم أرقاماً متسلسلة، القمر ثانية ضوئية واحدة، والشمس ثماني دقائق، وأقرب نجم أربع سنوات، وأقرب مجرة مليونا سنة، وأبعد مجرة من نوع الكازارات اثنا عشر ألف مليون سنة، والأغرب من ذلك أن المجموعة الشمسية تدور حول مركز المجرة فما سرعتها؟

نحن قبل قليل قلنا إن الأرض تمشي ثلاثين كيلو متر في الثانية، والدرس قد بدأ من نصف ساعة تقريباً أي ثلاثين دقيقة، فثلاثون في ستين ثانية أي ألف وثمانمئة ثانية وكل ثانية ثلاثون كيلو متر فنكون قد قطعنا مسافة في الفضاء تقدَّر بأربعة وخمسين ألف كيلو متر وهذه سرعة الأرض حول الشمس، فما قولكم في سرعة المجموعة الشمسية حول مركز المجرة؟ مئتان وخمسون كيلو متر في الثانية وهي سرعة المجموعة الشمسية حول مركز المجرة، فكم تستغرق المجموعة الشمسية في دورانها حول مركز المجرة حتى تصل إلى ما كانت عليه قبل كذا سنة؟ قال: مئتان وخمسون مليون سنة تستغرقها المجموعة الشمسية في دورانها حول مركز المجرة. فما سرعة بعض المجرات؟ قال: سرعة المجرات تقترب من سرعة الضوء، أي حوالي مئتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، الأرض ثلاثون كيلو متر، والمجموعة الشمسية مئتان وخمسون كيلو متر، وبعض المجرات الضخمة سرعتها مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية.

فلو أن الشيء سار بسرعة الضوء لانقلب ضوءً أي لصار ضوءً، ومن صفات الضوء أن كتلته صفر وحجمه لا نهائي، فلو أن إنساناً سار بسرعة الضوء لانقلب إلى ضوء، ولذلك فالصورة تجميد الزمن، والزمن هو البعد الحركي للأجسام، والجسم الثابت ليس له زمن، أما المتحرك فله زمن أي:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 85]

بمجرد أن تعصي الله عزَّ وجل مطيعاً لإنسان فهذه علامة الرسوب في الإيمان :

هذا الذي أدركه الإنسان في هذا العصر والشيء الذي يجهله أكثر مما يعلم، والله الذي لا إله إلا هو قلت قبل يومين كلمة في نفسي كلما ازداد علم الإنسان بالله ازداد جهلاً به، كيف؟ فإذا كنت عرفت شيئاً من عظمته فأنت لم تعرف شيئاً عنه بالمرة وما بقي عليك مما تجهله أضعاف مضاعفة مما عرفته، فالآن نحن نريد أن نستفيد من هذه الحقائق، الآن إذا قال ربنا عزَّ وجل لك:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

يا موسى أتحب أن أجلس معك؟ قال: كيف ذلك يا رب؟! قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني؟ صلِّ، فعندما تصلي استحضر هذه العظمة وهذه الصور عن الكون، تقف أنت بين يديه، عندما يأتيك أمر من البشر يتناقض مع أمر إلهي قم بالموازنة بين المخلوق والخالق، فهل من المعقول أن يستمع جندي لكلام عرِّيف ويعصي أمر قائد الفرقة؟ يكون أحمقاً، لو تعارضوا يمشي مع قائد الفرقة، فالقائد يقدر أن يضع العريف في السجن، فهل من المعقول أن يطيع إنسان مخلوقاً في معصية الخالق؟ يكون لا يعرف الخالق، فبمجرد أن تعصي الله عزَّ وجل مطيعاً لإنسان فهذه علامة الرسوب في الإيمان.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

حجم خوفك من الله بحجم علمك :

لكن ما هذه المناسبة بين:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

وبين:

(وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

أي يوم القيامة، فلو دارت حرب بين فئتين وغلبت فئة منهم، وكانت حرباً واسعة وغلبوا عدوَّهم وغنموا قلم رصاص مثلاً، فلا يقارن هذا بذاك، فأنت تتكلم عن النصر وهناك شيء يتناسب معه، فربنا عزَّ وجل يقول لك:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ *الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

أي بقدر ما في السماء من عظمة يكون ما في هذا اليوم الموعود من هول وانسجام وتوافق فهذا عطف، فنحن في الأدب لا ينبغي أن نعطف اسماً على فعل، ولا فعلاً ماضياً على مضارع، فالأقوى أن يكون هناك انسجام في العطف فربنا عزَّ وجل يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

والله الذي لا إله إلا هو أنا اعتقادي أن الذي سمعتموه عن المجرات شيء صغير جداً وقليل جداً عن الحقيقة، فالإنسان معرفته متواضعة وعلمه في الحقيقة جهل، وكلما رأيت إنساناً متكبِّراً اعتبره جاهلاً فالعالم متواضع.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ *الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

إذاً من الذي لا يخاف من الله؟ الأحمق، الجاهل، أي حجم خوفك بحجم علمك.

بقدر ما في السماء من عظمة بقدر ما في هذا اليوم من هول :

مرة قال لي شخص: إني لا أخاف من الله. قلت له: معك حق. وعندما قلت له معك حق فانتبه لي كأنه انتصر، فقلت له: أحياناً الطفل الرضيع يمر أمامه ثعبان فيلمسه، ولا يخاف منه لعدم وجود الإدراك، فعلى قدر الإدراك الإنسان يخاف، أما أن يكون أبوه يقفز قفزاً من الثعبان، نقول إن الطفل لا يخاف وهل الطفل لا يخاف فهو أحسن من أبيه، الطفل لا يوجد عنده إدراك. لذلك عندما الإنسان لا يخاف من الله تعالى يكون أحمق، ورأس الحكمة مخافة الله، ولو أن الله أكرمنا بمعرفة الأنبياء نراهم أشدَّ الناس خوفاً من الله، وهؤلاء المقصرون علام هم مطمئنون؟ هذا شيء غريب.

يقول سيدنا عمر: عجبت لثلاث: لمُؤملٍ والموت يطلبهم، وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٍ ملء فيه ولا يدري أساخطٌ عنه الله أم راضٍ؟!!

فإنه لا يعرف، كيف هو مطمئن، هذه أنا سميتها طمأنينة بلهاء، فعندما الإنسان يطمئن وليس هو بمستقيم، يطمئن وليس متحققاً من دخله، مطمئن وليس مطيعاً لله عزَّ وجلَّ، هذه طمأنينة بلهاء.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ *الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

فبقدر ما في السماء من عظمة بقدر ما في هذا اليوم من هول، لا على المؤمن، ولكن على أهل العصيان والفسوق والفجور، لأن هناك حساباً دقيقاً.

(وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)

قال بعض المفسرين: هاتان الكلمتان جمعتا الكون كله، هذا الشيء إما أن يكون شاهداً أي كائناً مدركاً أو مشهوداً، فالكائنات الحية كلها، والجمادات ما يَرى وما يُرى:

(وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)

كما قال الله عزَّ وجلَّ:

(وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

[سورة الحاقة: 38- 39]

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

ليس القرآن الكريم كتاب قصص ولكنه كتاب عبر :

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ *الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ *وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)

ثلاث آيات:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)

الآن الله عز وجل أشار إلى قصة جعلها تسلية لهؤلاء الذين يُضطهدون في سبيل الله، هؤلاء الذين يتحملون الصعاب لا لشيء إلا لأنهم عرفوا الله عزَّ وجل وخافوا منه فلم تأخذهم بالله لومة لائم، فليس القرآن الكريم كتاب قصص ولكنه كتاب عبر، فربنا عز وجل كأنه يسلي أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الذين لاقوا من أذى قريش وتعنُّتها وإخراجها لهم من بلادهم، ومحاربتها لهم وتعذيبها إيّاهم، كأن الله سبحانه تعالى من طرفٍ خفي، وبطريقةٍ غير مباشرة يسلّي أصحاب النبي المعذبين قال:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ*النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)

فتفصيلات القصة لا تهمنا كثيراً، لكن يهمنا أنَّ هناك قوماً ظالمين حفروا أخاديد في الأرض وملؤها ناراً مشتعلة، وجاءوا بالمؤمنين وعذبوهم في هذه الأخاديد، على مرأى منهم ومسمعٍ من أصواتهم.

القلب القاسي بعيد عن الله عزَّ وجلَّ :

قال تعالى:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ*النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)

أي أوقدوها وأضرموها حتى اشتعلت وألقوا فيها المؤمنين حتى احترقوا، ووقفوا يتأملون في تعذيبهم كأنهم يتشفوْن منهم، ولذلك فالرومان كان لديهم استعدادات ضخمة جداً، كانوا يأتوا بإنسان يضعونه بالساحة العامة، ويخرجون إليه وحوشاً ضارية، وكانوا يتلذذون بمشاهدة موت هؤلاء بين أنياب هذه الوحوش طبعاً القلب القاسي بعيد عن الله عزَّ وجلَّ:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)

أي الله سبحانه وتعالى سيهلكهم:

(النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)

مرة قال لي شخص عن شخص آذى آخر، قلت له: الله يعينه، أنا أحببت أنّ أتكلمها بشكل غير واضح، قال لي: واللهِ معه حقّ فإنه تعبان كثيراً، قلت له: الله يعين الثاني وليس الأول، الذي أصابه بالأذى، كيف سيقف بين يدي الله عزَّ وجلَّ؟! أما الأول الله عالجه ونفد أما المشكلة مع الثاني:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ*النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ*إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ)

أي قاعدون ينظرون إلى هؤلاء المعذبين لينقعوا غليلهم كما يقول الأدباء.

الإنسان الذي يتحرك ويغلط أفضل من الذي لا يتحرك ولا يغلط :

قال تعالى:

(وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)

يشهدون عذابهم بأنفسهم، من غير المعقول ملك يصدر أمراً بقتل إنسان، ويحضر ساعة قتله إلا أن يكون في قلبه ألم شديد منه، إذ عليه أن يصادق على الحكم وانتهى فيقتلونه، أمّا أن يحضر قتله، فقد يكون عنده غيظ، امتلأ منه غيظاً، أراد أن يشفي غليله برؤيته وهو يتعذب.

(قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود* وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)

أحياناً المؤمن تأتيه بعض المتاعب، فإذا كانت المتاعب جاءت بسبب تقصير، لا تقل هذه لله أنا احتسبتها لله، فهذا تقصير منك، موظف تأخر، فحاسبوه على تأخره لا يعتبرها لأنَّه مؤمن فعلوا معه هكذا، هذا تقصير، أما إذا أنت قمت بواجبك الكامل، ولسبب أنّك مؤمن، تحمَّلت بعض المشاق فهذا احتسبه عند الله عزَّ وجلَّ، وهذا ألم مقدّس وهذه مصيبة مقدسة، وهذه تصيب العظام من الناس، وهذه المصيبة بالذات تصيب من كان طموحاً لرضوان الله عزَّ وجلَّ، طبعاً إذا الإنسان لم يتحرك فلن يغلط، وإذا كان سكونياً لا أحد يقترب منه، فما دام هناك حركة، إذاً يوجد محاسبة ومسؤولية ولذلك فالإنسان الذي يتحرك ويغلط أفضل من الذي لا يتحرك ولا يغلط، هذا قدَّم شيئاً للمجتمع، فهؤلاء ذنبهم الوحيد أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد، قال هذا أسلوب بلاغي، اسمه تأكيد المدح بما يشبه الذم، أي:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهن فلولٌ من قراع الكتائب

* * *

يوجد فيهم عيب واحد الحقيقة من شدة خوض الحروب وشجاعتهم سيوفهم مثلمة، والنبي الكريم استخدم هذا الأسلوب، فقال:

((أنا أفصح العرب بَيْد أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

وقريش أفصح قبيلة، فهو أفصح العرب، فهذا تأكيد المدح بما يشبه الذم، فلان كريم؟ نعم كريم ولكن يوجد له قصة، هذا مع أنه كريم إلا أنه شجاع، هذا تأكيد المدح بما يشبه الذم.

العزة كلّها محصورةٌ بالله عزَّ وجلَّ :

يوجد أسلوب آخر اسمه تأكيد الذم بما يشبه المديح، فلان بخيل، إلا أنه إنصافاً له نقول: إنه لئيم، أي مع أنه بخيل إنه لئيم، أي تأكيد الذم بما يشبه المدح.

(وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)

أحياناً لو العزيز وقفنا عندها أشهراً لا ننتهي منها، الذي لا ينال جانبه، فإذا غلط طبيباً غلطة، تفتح له هاتفاً وتعمل له تنبيهات، لماذا لم تسألني عن الحساسية، أخذت إبرة أصبح معي صدمة ذهبنا إلى المشفى في الليل، هكذا الأصول أيها الدكتور؟! هذا الشأن الكبير تلاشى، عندما يقدم لك صانع قطعة يوجد فيها عيب وتنبهه إلى العيب تجده انكمش، أما الله سبحانه وتعالى لا ينال جانبه، في أعماله كلها حكيم، في كلِّ تصرفاته رحيم، لطيف وعليم، قدير، لا ينال جانبه أي عزيز قال الله تعالى:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة المنافقون: 8]

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً)

[سورة فاطر: 10]

أي العزة كلُّها محصورةٌ بالله عزَّ وجلَّ، سبحانك إنك لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، الذي يعادي الله عزَّ وجلَّ له عذابٌ مهينٌ في الدنيا، وعذاب مهين غير أليم، يوجد عندنا عذاب أليم، وعذاب عظيم، وعذاب مهين:

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ*الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

كل ما في السموات والأرض ملك لله وحده خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً :

والله هذه الآية لوحدها تكفي:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

كلُّ ما في السماوات، وكلُّ ما في الأرض، وما على الأرض، وما بين السماء والأرض ملكه، فما معنى ملكه؟ أي ملكه خلقاً، وملكه تصرُّفاً، وملكه مصيراً، هو خلقه، وهو الذي يسيِّره كما قلنا في الدرس الماضي وإليه مصيره:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

أحياناً الزوج يقول لك: زوجتي ليس لها أحد أي مقطوعة، من الذي يقدر أن يكون حامياً لها؟!! اقرأ هذه الآية:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

أحياناً البائع يكون عليه ضغط يغش البضاعة، يضيف قليلاً من الماء إلى الحليب، يقرأ الآية هذه:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

سيدنا رسول الله اللهم صلي عليه رأى أبا ذرّ الغفاري رضي الله عنه، يضرب غلاماً له مرَّ به، فقال: اعلم أبا ذر أنَّ الله أقدر عليك منك عليه:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

تكلم بما شئت لكن الله على كل شيء شهيد :

شريكان الله يرى، أو أخان، أو جاران، أو موظفان، يأتيك مراجع تكون معاملته بالدرج الثاني، وأنت جالس مرتاح، وتقول له: تعال غداً، فهل تعرف من أين أتى هذا الشخص؟ قم وتحرك واجلبها له، يقول لك: لم تُوقَّع من المدير، لكن:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

تكلم بما شئت لكن الله على كل شيء شهيد، إن كنت تؤمن بالآية تنضبط وتستقيم:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

كل شيء، هذه كلمة شيء تشمل كل شيء، كلمة شيء أوسع كلمة تعني عن كلِّ شيء:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

أي حتى الإنسان إن أدَّب ابنه يجب أن يتقي الله لأنه لا أحد يقدر أن يمنعه من ذلك، فهل يقدر أن يستغيث بأحد؟ أب يربي ابنه، يجب أن يرى أن الله تعالى على كل شيء شهيد، فهذا الذنب لا يستأهل الضرب، هذا الذنب بحجم يريد تأديباً من نوع معيّن، أحياناً يغضب الأب من زوجته فيصب كل غضبه على ابنه حتى يجذب نظرها، فما ذنب هذا الصغير؟ تحدثُ كثيراً في بعض الأحيان:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

حاسب نفسك فالله يراك في كل حركة وسكنة :

الله يراك إذا غضبت، وإذا قصَّرت، وإذا كان يشتغل على الساعة، جاء فوجد المعلم لم يأت، هو جاء في الساعة الثامنة والثلث وكتبها الساعة الثامنة، اقرأ هذه الآية:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

قال له: اطلع إلى السفر واصرف، فهذا كتب شيئاً كان وشيئاً لم يكن، مصروف الفندق مثلاً مئة وثمانون ليرة في الليلة، هذا هو أقل سعر، وأنت دفعت ثمانين فقط والله على كل شيء شهيد، أحياناً تصلح عند شخص سيارتك، يقول: هنا كان يوجد قطعة تالفة فرميناها ووضعنا أخرى جديدة فأنت لن تنبطح وتراها من تحت تقول له: ما الثمن؟ يقول لك: مئتا ليرة ثمنها، ومئتان أجرة أي أربعمئة ليرة، يكون هو وضعها ولكن صلحها ولم يغيرها بأخرى:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

إيّاك، حاسب نفسك فإنها آية فظيعة جداً تدور مع الإنسان، ومع الموظف، والصانع، وأصحاب المصالح، والزوج، والزوجة، والشركاء، والمدرسين، والمحامين، والأطباء، والمهندسين، والقضاة، وتدور مع كلّ مصلحة:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

أحياناً يأتيك زبون ساذج، يقول لك: هذا زبون مدهن، وبعد هذا لبسناه البضاعة تلبيساً، يوجد فيها عيوب وبأسعار غالية، شقف ونتف أعطاها له:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

معصية الله عزَّ وجلَّ كلُّها خسارة وطاعة الله عزَّ وجلَّ كلُّها ربح :

قال لي شخص: أنا كان عندي سيارة فبعتها ويوجد فيها عيب خطير ولبَّستها لشخص بسعر غالٍ، والله قال لي هذا الكلام وهو مزهو، أنا شعرت أنَّ هذا يوجد أمامه شيء، وذهب واشترى سيارة جديدة، كان في طرطوس فجلب سيارة أخرى، في اليوم السادس من ركوبها عمل حادثاً:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

أي عندما الإنسان يظن نفسه كسب في معصية الله فهذا منتهى الحمق والغباء، فمعصية الله عزَّ وجلَّ كلُّها خسارة، وطاعة الله عزَّ وجلَّ كلُّها ربح:

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ*الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ*إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

هؤلاء الذين فتنوهم وعذبوهم واضطهدوهم وأحرقوهم ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق، بعض المفسرين قالوا: عذاب جهنم هو نفسه عذاب الحريق، قد يقول قائل: إذا كان عذاب جهنم هو نفسه عذاب الحريق فلِمَ قال الله عزَّ وجلَّ:

(فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله :

العطف كما قال بعض علماء النحو: يقتضي المغايرة، فهل تقول جاء أحمدُ وأحمد هل هو نفسه أحمد؟ غير معقول، إن قلت: جاء أحمدُ وأحمد، يكون أحمد هذا غير أحمد هذا، أي اثنان اسمهما أحمد وأنت ناسٍ كنيتهما، جاء أحمد الذي أنت تعرفه وأحمد الثاني الذي هو أحمد، مادام يوجد عطف إذاً يوجد مغايرة، فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

بعضُ العلماء استنبط من هذه الآية أنَّه يوجد عذاب نفسي، ويوجد عذاب جسدي، فهناك عذاب الحريق، وعذاب نفسي، ويوجد أحاديث تؤكد هذا المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

أي إنَّ كلام الله حق، ومن لم يخف من وعيد اللهِ فهو أحمق، والعبرة ما سيكون بعد الموت، وقد قال الإمام عليٌّ كرم الله وجهه: الغنى والفقر بعد العرض على الله.

بعد العرض على الله لك أن تقول أنا غني أو فقير، أما في هذه الدنيا لا قيمة للمال إذا كثر ولا عبرة للمال إذا قلّ، العبرة للعمل الصالح، ونستطيع أن نستنبط من هذه الآيات الترابط بين:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ*وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

فبقدر ما في السماء من عظمة بقدر ما في يوم القيامة من هول، والشيء الآخر أنَّ الله على كلِّ شيءٍ شهيد، هذه الآية اجعلها شعاراً لك في كلّ حركاتك، وفي كلّ سكناتك، وفي بيتك، من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله.

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

الفكرة الثالثة: أنَّ الباطل زهوق، فإذا الإنسان ربط نفسه مع الباطل فهو هالكٌ مثل الباطل، أما إذا ربط نفسه مع الحق، فالحق أبديٌ سرمدي، حتى لو جاء الموت تتنقل إلى حياة أجمل وأسعد وأكرم.

رحمة الله بعباده :

قال الله تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ*بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة يس: 26-27]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة فصلت: 30-31]

أخ كريم بعث لي رسالة هذه الرسالة بمثابة تفكُّر شخصي، قال لي: إن عنده حساسية تجعله يكثر من العطاس، أي يوجد عنده نوبات عطاس شديدة جداً، احتاج إلى إجراء عملية في أسفل البطن، أكثر شيء أهمَّه أنه كيف سيواجه هذا العطاس والجرح مفتوح، لا بدَّ من تمزق الجرح، وجرحه لم يلتئم، قال هذا الأخ وهو صادق، إنَّ كلّ إنسان مؤمن صادق والمؤمن لا يكذب وليس له مصلحة بأن يكذب، قال: منذ أن أجريت العملية وحتى تمَّ الشفاء التام لم أعطس ولا عطسة واحدة، وبعد أن التأم الجرح عدت إلى ما كنت عليه، تفسير ذلك أنَّ هذا رحمةٌ من الله به وحكمة، أي الله عزَّ وجلَّ ابتلاه بهذه العملية وأعانه عليها، وأعانه عليها بأنه منعه عن العطاس، فكثير من المرات يكون معه علة خطيرة بجسمه، يطلب الذهاب إلى الحج، والأطباء يتحفظون ويقولوا له: لا يمكن لأن مرضك خطير، يتناقض معه ركوب طائرة مثلاً والازدحام الشديد والحرّ، كلّه يصيبك بنكسات، سبحان الله، الله عزَّ وجلَّ يجمد له صحته على أحسن وضع، فيذهب إلى هناك فلا يحسّ بشيء، لا بآلام، ولا بقلق، ولا بخوف، ولا بضعف، قوة فقط، فلما يرجع يعود إلى ما كان عليه، وأحياناً الله يشفيه شفاءً تاماً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البروج 085 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 12-22 ، بطش الله تعالى ومكانة القرآن.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1984-12-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل إذا أراد أن يأخذ العصاة أخذهم أخذاً شديداً :

وصلنا في الدرس الماضي في سورة البروج إلى قوله تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

قد يبدو لقارئ القرآن أن كل سورةٍ في كتاب الله فيها مجموعة مقاطع، وقد لا يبدو لمن يقرأ القرآن قراءة سريعة أن هناك علاقة بين هذه المقاطع، ولكن لو تعمقنا في فهم هذه السورة لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ* إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أي أن الله سبحانه وتعالى يؤكد أن الله إذا أراد أن يأخذ العصاة أخذهم أخذاً شديداً، سيدنا موسى سأل الله عزَّ وجل فقال: يا رب أي عبادك أحبُّ إليك حتى أحبه بحبك؟

قال: يا موسى أحبُّ عبادي إلي تقي القلب، نقيُّ اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبَّني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، فقال: يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك؟! قال: ذكرهم بآلائي، الآيات الكونية كما كان في الدرس الماضي والسماء ذات البروج، ونعمائي، وهذه النعم الكبيرة التي منَّ الله بها علينا، وبلائي.

في هذه الآية مناسبة للحديث عن بطش الله الشديد :

في هذه الآية مناسبةٌ للحديث عن بطش الله الشديد، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

وهذه الآية مطبقة في كل زمانٍ وفي كلِّ مكان، وتحت سمع الناس وبصرهم، آيةٌ ثانية ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

[سورة الأنعام:65]

هذا من بطش الله الشديد، وأن تذوق القرية التي كانت آمنةً مطمئنةً والتي كان رزقها يأتيها رغداً من كل مكان أن تذوق الخوف والجوع هذا من بطش الله الشديد، وربنا سبحانه وتعالى في آيةٍ ثالثة يقول:

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

[سورة هود:102]

ليست أخبار الزلازل والفيضانات والمجاعات والبراكين والصواعق عنا ببعيد، وهذا من أخذ الله الشديد، وهذا من بطش الله عزَّ وجلَّ، الله سبحانه وتعالى قد ينزل بطشه بجماعاتٍ وقد ينزل بطشه بأفرادٍ، ألم تسمع بإنسانٍ فقد ثروته كلها وأصبح يتكفف الناس، هذه قصص كثيرة.

على المؤمن أن يعطف على من ألمت بهم المصائب وأن يرحمهم ويقدم لهم المساعدة:

قال لي رجل: إن بيتي مساحته مع الحديقة ألفٌ وخمسمئة متر، وهناك موظفان خاصّان للحديقة، وعندي ثلاث سيارات واحدة للسفر وواحدة للمدينة وواحدة للمعمل، وقال لي: ما دخل بيتي الطعام إلا بكمياتٍ كبيرة، رأيته في بعض الدكاكين في أحد أحياء دمشق ينام على طاولة التفصيل، ويأكل طعاماً من العلبة التي فتح منها الطعام ولا صحن في دكانه، ثم بكى وقال: لقد طردني أهلي خارج المنزل، وكيف كان من قبل؟

أي عندما الإنسان يرى أشخاصاً ألمَّت بهم المصائب، بالإضافة إلى أنه ينبغي له أن يعطف عليهم وأن يرحمهم وأن يقدم لهم المساعدة، وينبغي له أن يستنبط من هذه الظواهر المؤلمة حكمةً، أن تقول: والله لا يستأهل، هذا كلام فيه شكٌ في حكمة الله عزَّ وجلَّ، وأن تقول - الله لا يقيمه - كذلك فيها شماتة، لا تقل هذا الكلام ولا ذاك، ولكن قل كما قال سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة المائدة:118]

فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

إنّ حرف مشبه بالفعل معناه التوكيد، أي إذا قلت: الله غفورٌ رحيم، وإذا قلت: إن الله غفورٌ رحيم، التركيب الثاني فيه توكيد، إذا قلت: الشمس ساطعةٌ، وإذا قلت: إن الشمس ساطعةٌ، فالتركيب الثاني فيه توكيد، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

معنى البطش :

ما هو البطش؟ الأخذ بالعنف، وربنا حليم وكريم يمد للناس مداً لكنه إذا أخذهم:

(فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر: 42]

الذي لا يخاف من الله فهو أحمق، ألا نرى بأعيننا ما يحل ببعض الناس من أمراضٍ وبيلة ومن أمراضٍ عضالة؟ ألا نرى بما يحل ببعض الناس من فقرٍ مدقع؟ ألا نرى ما يحل بالناس من مصائب قد لا تحتمل..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

فالبطش شدة الأخذ والأخذ بالعنف وبالقوة، يا موسى ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي، والبطش من بلاء الله عزَّ وجلَّ:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

هذا البطش نسب إلى الله عزَّ وجلَّ، لم ينسب إلى اسم التسيير نسب إلى اسم الربوبية، الله رب العالمين، ومعنى رب أي مربٍ، والمربي لا بدَّ من أن يكون عالماً ورحيماً في وقتٍ واحد، فالذي يربي شيئاً يحتاج في تربيته إلى علم، ويحتاج في تربيته إلى عطف، فالله سبحانه وتعالى عليمٌ بنا ورحيمٌ بنا ومع ذلك بطشه شديد.

نسب البطش إلى الله تعالى وإلى اسم الربوبية بالذات معنى هذا أن البطش لا بدَّ منه :

أحياناً الطبيب يكون طبيباً لامعاً جداً وماهراً جداً ومع ذلك يقول: لا بدَّ من بتر الرجل وإلا فهذا المرض سيتفاقم، نقول: إن الطبيب قطعها، قد يقطعها مجرم وقد يقطعها حادث لا نقول إن الحادث هذا كان رحيماً، أما إذا قلنا إن الطبيب قطعها، فحينما تنسب قطعها إلى الطبيب والطبيب يتمتع بالعلم والرحمة، إذاً لا بدّ من أن يكون قطعها فيه حكمةٌ بالغة.. إن بطش ربك؛ نسب البطش إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى اسم الربوبية بالذات هذا يعني أن هذا البطش لا بدَّ منه، وهو عين الحكمة، وهو في النهاية رحمة:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

البطش وحده الأخذ بالعنف، فكيف إذا وصف البطش بأنه شديد، إذا قلنا: إن لله بطشاً، كلمة بطش وحدها تعني الأخذ بالعنف والقوة، فكيف إذا وصفنا هذا البطش بأنه شديد؟ هذا شيء يجذب النظر، إن

بطش ربك لشديد، هذه اللام يعربها النحاة لامٌ المزحلقة، أي أصلها لام التوكيد، أساسها لبطش ربك شديدٌ، دخلت عليها إنْ فزحلقنا اللام إلى خبر إنَّ، أساسها لام التوكيد.

إذاً الله سبحانه وتعالى في قوله (إنّ) يؤكد، والبطش هو الأخذ الشديد، وهذا البطش وصف بأنه شديد، لكن هذا البطش الشديد مضافٌ إلى رب العالمين، ورب العالمين عليمٌ وحكيم ورحيم، إذاً هذا البطش لا بد منه:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

يذكرني هذا التفسير بقوله تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت: 69]

أربع توكيداتٍ في هذه الآية، والذين جاهدوا فينا، لنهدينهم سبلنا، اللام لام التوكيد، ونهدينهم النون نون التوكيد الثقيلة، (سبلنا وإن) إن: حرف توكيد:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت: 69]

لا بدّ للإنسان من حين إلى آخر أن يتعرف إلى الله عن طريق الكون :

اللام لام المزحلقة أي لام التوكيد، إذاً عندما يتجه الإنسان إلى الله عزَّ وجلَّ ويتمنى أن يتقرَّب منه، فليطمئن أنَّ الله سبحانه وتعالى لا بدَّ من أن يهديه إلى السبيل الصحيح:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أي الإنسان من حين إلى آخر لا بدَّ من أن يتعرف إلى الله عن طريق الكون، عن طريق الكون يعظمه..

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

وفي الدرس الماضي كان معظمه على:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

التعرُّف إلى الله من خلال الكون يورث عظمةً لله في النفس، تعظيماً لله في النفس:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

معرفة الله من خلال النعم تورث المحبة، يا داود.. ذكّر عبادي بإنعامي عليهم، فإنَّ النفوس جُبلت على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.

تمام النعمة الهدى :

إذا نظرت إلى نعمة البصر ونعمة السمع ونعمة الإدراك السليم، والعقل والحركة، تقضي حاجتك من دون أن تكلّف أحداً بذلك، ونعمة الزوجة والأولاد والبيت، أي المأوى إذا لك مأوى فهي نعمة، وأنّك تملك قوت يومك، ونعمة السمعة الطيبة، وأنّك تعرف الله عزَّ وجلَّ، فسيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبةٌ، قال: الحمد لله ثلاثاً، على هذه المصيبة، الحمد لله إذ لم تكن في ديني، فنعمة الدين هي النعمة الكبرى والنعمة العظمى، ولذلك فسَّر المفسرون قوله تعالى:

(وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)

[سورة الفتح: 2]

أي تمام النعمة الهدى، إذا كان الإنسان في بحبوحة، وله منزل متسع، وله زوجة وأولاد، وعمل يدرُّ عليه دخلاً جيداً، ولم يكن مهتدياً، فهذه ليست نِعمة، قال الله تعالى:

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

[سورة الدخان: 25-27]

أما النِعمة إذا أتممتها بالهدى، إذا كنت مهتدياً، فالزوجة نعمة، إذا كنت مهتدياً فالمال نعمة والأولاد نِعمة، أما إن لم يكن الإنسان مهتدياً فقد يدفع ابنه إلى معصية، وقد يدفع ابنه إلى الفجور، فيأتي يوم القيامة هذا الابنُ ويقول: يا ربّ لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي لأنه كان سببي، فهل يعدُّ الولد نعمةً من دون هدىً؟!! لا، هذه الزوجة التي يفتخر زوجها بجمالها، ويسمح لها بالخروج بأبهى زينة هل تسمَّى هذه الزوجة نعمة؟!! لا، لأنها يوم القيامة تقوده إلى جهنم، هذا المال الذي جمعه من حرام، يُحشر الأغنياء أربع فرقٍ يوم القيامة، فريقٌ جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، حسابه يسير، بمعنى سريع، وفريقٌ جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حلال وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، فهذا الذي يحاسب، هذا يقال قفوه فاسألوه، هل ترك فرض صلاةٍ؟ هل قصَّر في حقِّ جيرانهِ؟ هل قطع رحمه؟ هل قصر في حق أولاده؟ هل قال من حوله: يا رب قد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقنا؟ هل هل؟؟ النبي الكريم رأى أنَّه يوجد عنده قائمة أسئلة طويلة جداً، انتظر، انتظر قال: تركته وما زال يسأل ويسأل.. هذا الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال.

الإنسان يجب أن يعرف أنه إذا فكر بالمنعم فقد أحبّ الله عزَّ وجلَّ :

الإنسان يجب أن يعرف أنه إذا فكر بالمنعم فقد أحبّ الله عزَّ وجلَّ.

يا داود؛ ذكِّر عبادي بإنعامي عليهم، فإنَّ النفوس جُبلت على حبٍّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. وإذا فكر في البطش، في بطش الله عزَّ وجل، إذا فكر في النِقم، إذا فكر في المصائب، والبلايا، والرزايا، والمحن، والنكبات، والأمراض، والفقر، والذل، ففي هذا يخاف من الله عزَّ جلَّ.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

هناك أشخاصٌ فقدوا أموالهم، فإذا الله عزَّ وجلَّ وقَف عمل الكليتين فجأةً، وهذا مرض شائع جداً، هبوط مفاجئ في عمل الكليتين، فما الحلّ؟ الحل هو الغسيل في الأسبوع مرتين وكلّ مرة خمس ساعات أو ستاً، وأن تقف بالدور، قال الطبيب لي: هذه اليدَّ تتحمل عشر مرات، فالشريان الموجود فيها يتحمل عشر مرات، وفي اليد الثانية عشر مرّات كذلك فصارت عشرين، وبالرجل عشرة أي ثلاثين، والرابعة عشر فصارت أربعين، ففي حدود فتح الشريان وأخذ الدم كله منه وتصفيته بجهاز حديث ثم إرجاع الدم إلى جسم الإنسان تستغرق من الوقت ست ساعات، وكل مرة تكلّف مبلغاً لا بأس به، تكلّف بالشهر ستة آلاف أو خمسة آلاف أو أربعة آلاف، أو تقدّم وثيقة أنك معفى من دفع ثمن التصفية.. وفي الأسبوع مرتان ويبقى بالمئة عشرون من البولة في الدم وتسبب ضيقاً بالنفس وبالمشاعر ونرفزة سريعة جداً وتسبب ضيقاً وانحطاطاً عامين في الجسم..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

حجم معرفتك بالله هو نفسه حجم خوفك منه :

من يتحمل آلام الأورام الخبيثة؟ فالأورام الخبيثة لها آلام في البطن لا تحتمل:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

هناك رجل كان يعتدي على الأعراض في بعض القرى، وكلما بلغه أن هناك إنساناً مسافر يتسور البيت ويعتدي على زوجته، فالله عزَّ وجلَّ أصابه بمرضٍ خبيث في عضوه.. أي الله عزَّ وجلَّ له موعظة كبيرة جداً:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

لا بد أن تخاف من الله خوفاً شديداً، يجب أن تخاف من الله بقدر علمك به، بالضبط إن حجم معرفتك بالله هو نفسه حجم خوفك منه، لذلك أشد الخلق خوفاً من الله هو سيدنا رسول الله.

وسيدنا عمر قال: والله لو أنزل الله في كتابه أنه معذب رجلاً واحداً لظننته أنا، من شدة الخوف. قال:

يا ليت أم عمر لم تلد عمر، ماذا فعل سيدنا عمر؟ قال: والله لو تعثَّرت بغلةٌ في العراق - وهو في المدينة - لحاسبني الله عنها، لمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر؟ إذا قال: يا ليت أم عمر لم تلد عمر، يقول هذا الكلام حقيقةً، أي هو خائف جداً:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أنا والله الذي لا إله إلا هو شيءٌ واحدٌ يثير عجبي، أن إنساناً تجاوز الأربعين وهو يعصي الله عزَّ وجلَّ، فما الذي ينتظره؟!!

((بادِرُوا بالأعمال سبعاً: هل تُنْظرون إلا فقْراً مُنْسياً، أو غِنِي مُطغياً، أو مَرَضاً مُفسِداً، أو هَرَماً مُفنِداً، أو موتاً مُجْهِزاً، والدجالَ؟ والدَّجَّالُ شَرُّ غائب يُنْتظَرُ، والساعةُ؟ والساعةُ أدْهَى وأمرُّ))

[الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكّر قدرة الله عليك :

والذي لا يخاف من الله أحمق، والذي لا يخاف من الله غبي وشقي، اعلم أبا ذر أن الله أقدر عليك منك عليه.

إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكّر قدرة الله عليك، نقطة دم كرأس الدبوس إذا تجمدت في أحد شرايين الدماغ، فمعنى ذلك شلل، أو جنون، أو فقد ذاكرة، أو فقد بصر، أو سمع، نقطة دم، بالنخامية وهي غدة وزنها نصف غرام بالضبط، هذه الغدة مسيطرة على جميع الغدد في الإنسان سماها العلماء ملكة الغدد، فلو تعطلت، بعض الغدد من بعض وظائفها إحداث توازن في السوائل في الجسم، فلو اختلت لكان على الإنسان أن يشرب في اليوم الواحد عشر تنكات من الماء وعليه أن يخرجها بولاً، إذاً عليه أن يبقى إلى جانب الصنبور والمرحاض طوال اليوم، لو اختلت بعض الغدد في الجسم، فماذا تفعل الكوليرا هذا الجرثوم؟!

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أحياناً عن طريق زلازل، أو صواعق، أو فيضانات، أو براكين، أو عن طريق لمس الإنسان للإنسان، أو عن جراثيم والكوليرا أخطر ما فيها أن الإنسان عندما يشرب ماء تنفذ السوائل من أمعائه إلى شرايينه عن طريق الامتصاص، جرثوم الكوليرا يعكس الآية، جميع ما في الجسم من ماء ينفذ إلى الأمعاء عبر غشاء الأمعاء، فالإنسان يفقد ماء جسمه في ساعتين أو ثلاث يخرج أربعين مرةً أو خمسين ماء ثم يموت من الجفاف، جرثوم لا يرى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

ومرض الطاعون أوقف جيشاً بكامله، عندما احتل نابليون عكا، الذي حال بينه وبين احتلالها الطاعون:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

إذا ارتكب الإنسان الفاحشة فالأمراض الجنسية وحدها أكبر عقاب من الله عزَّ وجلَّ :

قال تعالى:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

[سورة المدثر: 31]

الله عزَّ وجلَّ له جنود لا ترى بالعين، جراثيم وفيروسات والآن له جنود موجودون في أمريكا، مرض اسمه - الهربس - هذا مرض جنسي ناتج عن الانحلال الأخلاقي، مرض حياتي لا شفاء منه يصيب الإنسان بنوبات من الحُمى والإنتان والقشعريرة، وهذه النوبات تأتي في الأسبوع مرتين أو ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً، أو في اليوم مرتين إذ ليس لها قاعدةً، هذا المرض ليس له دواء، وهذا المرض انتقل إلى قطر عربي بسبب أنهم اشتروا دماً من أمريكا:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

فإذا الإنسان ارتكب الفاحشة، فالأمراض الجنسية وحدها أكبر عقاب من الله عزَّ وجلَّ، قال الله تعالى:

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 22]

ذهب رجل إلى بلد وارتكب الفاحشة وله زوجة وأولاد، فرجع معه مرض ويخجل أن يتكلم مع زوجته، فمعنى ذلك أنه خانها، يغادر ويرجع ويتطبب خلال ست سنوات، وقال لرجل آخر: لقد احترق قلبي على هذه الغلطة..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

آيات قرآنية تبين عذاب الله سبحانه للضالين من عباده :

عندما تكون أخلاق الإنسان نظيفة وبدنه نظيفاً فإنه يكون سعيداً، فهذه الآية يجب أن تترك فينا أثراً بليغاً:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الشعوب، الشعوب الضالة:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

قال الله تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

[سورة الأنعام:65]

كل شيء بيد الله سبحانه :

من آيات الله عزَّ وجلَّ:

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

[سورة هود:102]

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أعرف شخصاً في أوج شبابه، له بيت، وله سيارة، وعمل يدر عليه أرباحاً طائلة، لكنه لا يعرف الله أبداً، ذهب إلى بلد عربي، ونزل في مسبح فجاءته جرثومة إلى عصبه السمعي فأتلفته، قيل لي: إنه دخل البيت، وارتمى على الأرض، وصار يبكي كالأطفال، يقول: أصبحت أطرشاً.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

سمعك بيده، بصرك بيده، يقول: أخي حدث انزلاق في الشبكية، فبيد مَنْ الشبكية؟ عمل عملية جراحية معقدة جداً أعطوها أربع تبشيمات في الشبكية ألصقوها، لكنه مهدد في كل لحظة أنّ تسقط الشبكية فيفقد بصره:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

أمثلة واقعية تبين بطش الله تعالى :

الله عزَّ وجلَّ قادر أن يسلب للإنسان بصره، وأن يسلب له سمعه، ويسلبه صحته، وقوته، وإن كان سلبه عقله فأقرب الناس إليه يترجون أولي الأمر أن يكون له مكان في مشفى الأمراض العقلية، يكون بيته وهو اشتراه وزوجته تترجى وتتغطى وتذهب تريد مكاناً لزوجها وتقول: أهلكنا، فلم ننم الليل البارحة، فإذا أعطى الله الإنسان عقلاً متزناً فهو بنعمة، وإذا سلب منه عقله، لم يعد له مكان في البيت أبداً، إذ فقد مكانه في البيت، وفقد مكانه في العمل.

رجل تزوج امرأة جيدة ومستقيمة، ومتدينة ومستورة، فلم يعجبه هذا الشكل، أمرها أن تختلط مع أصدقائه حتى أخرجها من دينها، آلام في عينه لا تطاق من طبيب إلى طبيب، آخر شيء استقر عند طبيب لا بدَّ من قلعها، قلعت عينه ووضعت في كفه:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

شخص آخر حصل على شهادات عليا، ووصل إلى أعمال راقية جداً، وعاش في بحبوحة كبيرة فقد بصره، ففي أول أسبوعين أو ثلاثة، يقول له المساعد: إنَّ المعاملة هذه مضمونة يقول له: موافق ثم يوقع، فبعد أسبوعين أو ثلاثة أو شهرين أعفي من منصبه، زاره صديق لي وهو صديقه أيضاً، قال له: والله يا فلان أتمنى أن اجلس على الرصيف وأتكفف الناس ولا أملك شيئاً من حطام الدنيا وأن يرد الله لي بصري:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

رجل يقطن في بعض أحياء دمشق وعنده رغبة كل يوم مساءً في الصيف طبعاً على طريق الصالحية أن يتمشى ذهاباً وإياباً، ولا يفعل شيئاً ولكنه يمتّع نظره بالجمال، إن الله جميلٌ يحب الجمال، نصحه جارٌ له وهو صديقٌ لي، نصحه نصائح كثيرة، قال له: أنت رجل ولك بنات وشباب، قال له: لا أعمل شيئاً، أنا أنظر فقط، هذا الإنسان أصيب بمرض اسمه ارتخاء الجفون، وإلى الآن موجود، إذا كان يريد أن يراك يمسك جفنه ويقول: أهلاً وسهلاً:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

كلما همّ الإنسان بمخالفة الله عزَّ وجلَّ عليه أن يذكر الآية التالية :

في الدنيا يوجد أشياء لا تحتمل، ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به، البصر غالٍ، والسمع غالٍ، والصحة غالية، والحركة غالية جداً، وتوجد أمراض تكلُّس المفاصل يصبح الإنسان قطعة واحدة، لا حركة ولا سكنة ملقى على ظهره، أي على سرير وإذا الإنسان ظل ملقى على ظهره أياماً طويلة، يتعفن اللحم، أي يتحلل:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

وكلما همّ الإنسان بمخالفة الله عزَّ وجلَّ يذكر هذه الآية:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

شيء مخيف، مدينة تقع على سفح بركان في إيطاليا اسمه بركان فيزوف، ثار هذا البركان، وقذف هذا البركان رماداً بركانياً حرارته خمسمئة درجة غطَّى المدينة بأكملها بارتفاع ثمانية أمتار، عرفوا خلال

ساعات أن المدينة جمدت وطبعاً مضى عليها عشرات السنين ومئات السنين، وقبل عشرين أو ثلاثين سنة وهم ينقبون في هذا المكان وجدوا حفرة، وبعد ذلك وجدوا آثار مدينة ضخمة، وهذه الفراغات حقنوها بجبصين سائل فرأوا أماً تعانق ابنها في الفراغ، الأم فنِيَت لكنها تاركة فراغاً فقط، هناك مقالات في مجلات علمية حول هذا الموضوع شيء مذهل، مناظر الخوف والهلع، كان هذا أثناء تناول طعام الغداء، وصف العلماء ما كان على الموائد، كان يوجد جوز وعنب على المائدة، وجاء هذا الرماد فالإنسان يموت إما احتراقاً أو اختناقاً، حتى أن بعض النساء في القصور كانت تبحث عن حليِّها لتأخذه وتغادر، المساجين في السجون، إنها مدينة رومانية عريقة بالحضارة جمدت ألف عامٍ والآن هناك مقالات مطولة وصور مذهلة عن آثار هذه المدينة، وأيضاً هناك مدينة أغادير في المغرب في ثلاث ثوانٍ بالضبط أصبحت قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، ويوجد فيها فندق يبلغ ارتفاعه ثلاثين طابقاً – Holiday inn - هذا الفندق هبط كلّه وبقي منه متر واحد فقط، وبقيت اللوحة الكبيرة التي كتب عليها عنوان الفندق، إلى الآن إن ذهبت إلى هذه المدينة تجد على الأرض لوحة كبيرة مكتوباً عليها اسم الفندق هذه اللوحة كانت مثبَّتة على الطابق رقم ثلاثين.

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

[سورة هود:102]

الذي يبطش البطش الشديد هو نفسه الخالق الذي يبدئ ويعيد :

قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

يوجد على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي، وتوجد مصائب طبيعية، كالزلازل والبراكين، وتوجد مصائب إنسانية، فكثيراً ما حدثت غزوات تمت من شرقي آسيا، هولاكو وتيمورلنك، سألوا مرة تيمورلنك: من أنت؟ قال: أنا غضبة الرب.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ*إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

إنه الذي يبطش البطش الشديد هو نفسه الخالق الذي يبدئ ويعيد، أي يبدأ الخلق ثم يعيده هذا الطفل يكبر، يكون جنيناً، أصبح رضيعاً، ثم طفلاً، ثم صبيّاً، ثم شاباً فرجلاً فكهلاً فشيخاً، ثم توفي، ابنه يكبر وهكذا.. فكل واحد منا له دورة، جاء ابنه مكانه:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

دورة الكائنات :

الحيوانات كذلك:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

والنبات كذلك، فمن عنده بستان، هذه الشجرة حطب يابس جاء الربيع فأزهرت وأورقت، ثم أثمرت وأينعت وقطفت، ثم أوراقها سقطت وعادت حطباً، ثمَّ أزهرت، فأورقت، فأثمرت ثم أينعت، فقطفت، فسقطت أوراقها:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

هذا الورق المتساقط يدخل في التراب ويتحلل ويصبح غذاءً للتراب، كل شيء تنتجه النباتات يتحلل ويصبح في خدمة نمو النباتات:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

قال لي شخص عنده بستان: أغلى شيء السماد الطبيعي، يصبح للأشجار المثمرة نكهة لذيذة جداً، سبحان الله هذا السماد أي روث البهائم، أكلت وهضمت وأخرجت الفضلات والفضلات ساهمت في بناء التربة مرةً ثانية:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

دورة، الإنسان له دورة إذ يولد ووزنه ثلاثة كيلوغرام، والآن وزنه اثنان وسبعون، أربعة وسبعون، أو ستة وسبعون أو ثمانية وسبعون، اطرح ثلاثة من ثلاثة وثمانين فيصبح وزنك ثمانين كيلو من أين جاءت هذه الزيادة؟ من الغذاء، من الطعام والشراب، يموت ويوضع في التراب فتفتح القبر فتجد عظاماً، فأين بقية الجسم؟ غدت تراباً:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

التكفير غير المغفرة :

هذا الإنسان، والحيوان كذلك، والنبات أيضاً، الآن في أحدث النظريات المجرات تنفجر وتصبح رماداً ثم بعد ملايين السنين تتجمع وتصبح مجراتٍ جديدة.

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

فمن الذي يبدئ ويعيد؟ من الخالق؟ هذا بطش الخالق، بطش رب العالمين.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ*إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

أي خفنا كثيراً والله لكن:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

انظر إلى القرآن المتوازن:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ*إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ* وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

الغفور بمعنى الشافي، هناك فهم ساذج لهذه الآية، أن فلاناً ارتكب ذنباً فقال: اسمح لي. قال له: اذهب لا شيء عليك. ليس هكذا، هذا معنى ساذج للمغفرة، المغفرة شفاء، أي هذا الذي ارتكب الذنب نفسُهُ مريضة، أقبل على الله بعد التوبة فجاء النور الإلهي فشفى نفسه من هذا المرض، أي إذا غفر لإنسان شفيت نفسه بنور الله، الصلاة طهور، أي بها يطهَّر الإنسان من ذنوبه، وهذه هي المغفرة، التكفير غير المغفرة، التكفير حينما يفنى الإنسان، وتفنى هذه الذاكرة، حينما يبعث مرةً ثانية لا يذكر من أيام جاهليته شيئاً، أما في الدنيا فلو تاب الإنسان واستقام وأقبل وطهرت نفسه فبذاكرته أعماله في الجاهلية وهذه أحياناً تنغِّص عليه سعادته، بعد التوبة والاستقامة والعمل الصالح والإقبال والطهر والسمو، فبذاكرته ما فعله في الجاهلية، الآن غفر له لكنه إذا مات وفني جسمه فهذه الذاكرة تحللت، إذا بعثه الله مرةً ثانية، لا يذكر من أيام جاهليته شيئاً، هذا هو التكفير، ولذلك فالأنبياء لا يفنون، والشهداء لا يفنون، لأنهم فعلوا عملاً يغطي على كل شيء إن كانوا شهداء، وإن كانوا أنبياء أطهاراً مطهرين منذ الولادة وحتى الوفاة.

الله عز وجل غفور ودود :

قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ*إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ* وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

أحياناً الإنسان يعفو عنك، هذا غفور، يقول لك: سامحناك يا أخي، اسكت لا تتكلم ولا كلمة، وليس كذلك فالله عزَّ وجلَّ غفور ودود، ودود أي محب، أنت استغفرت، هو يشفيك ويمنحك شيئاً من مودته، من أسماء الله الودود، من أسماء الله المُقيت، الهواء والماء والخبز مقيت، لكن الودود جعل لك أزهاراً، شاهدت مجلداً مؤلفاً من ثمانية عشر جزءاً، كل جزء عرضه ثمانية سنتيمترات، كل ورقة فيها رسم لزهرة غير التي تليها، أنواع منوعة، ماذا نسمي هذه الورود والرياحين والألوان والأشكال والروائح الشذية تحت اسم ماذا؟ تحت اسم الودود، الألوان تحت اسم الودود، جمال الطفل تحت اسم الودود.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الكهف: 46]

تنوّع الطعام تحت اسم الودود، الفواكه تحت اسم الودود، فصل الربيع تحت اسم الودود:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ يتودد إلينا بهذه النعم المنوعة، بهذه الأزهار وبهذه الأطيار والأسماك والرياحين والمناظر والهواء العليل يتودد إلينا.

معنى الودود :

قال تعالى:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

فالودود لها معنى عام، أي هذه النعم التي تزيد عن حاجتنا، فالإنسان يأكل خبزاً وقمحاً وما شاكل ذلك، هذه هي حاجته الأساسية لكن أيضاً جعل له موالح، وجعل له شاياً وقهوة، فهذا من خلق الله عزَّ وجلَّ، جعل له فواكه منوعة، ومسرَّات منوعة، فهذه كلها تحت اسم الودود.

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

على المستوى الجماعي، أما على المستوى الفردي فكل إنسان عندما يستقيم على أمر الله ويتوب إلى الله توبة نصوحاً فالله عزَّ وجلَّ يعامله معاملة تفتنه، ما هذه المعاملة؟ لطف وتيسير أمور وشعور بالراحة والسرور.

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ* ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

العرش المُلك، أي بتعبير آخر الكون، صاحب الكون، الإنسان يكون صاحب مزرعة فيمشي بالعرض، يقول لك: هذه مزرعة لي، أنت تقول: الملك لله مزرعة فلان..

(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

أمر الله هو النافذ ولا تستطيع جهة في الأرض أن تحول بينه وبين ما يريد :

كلُّ هذا الكون بمجراته، أحدث رقم مليون مليون مجرة، كشفوا منها ألف مليون، بالمجرة يوجد عشرة آلاف مليون، ويوجد ثلاثة عشر مليوناً، ومئة وثلاثون ألف مليون في كل مجرة، وبعض النجوم يزيد حجمه عن الشمس ثلاثين مليون مرة، ثلاثين مليون مرة زيادة عن حجم شمسنا، وشمسنا زيادة عن أرضنا مليون وثلاثمئة مرة، والأرض معروفة أربعة أخماسها بحر:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ* ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

المجيد أي العظيم، السامي، العالي، العليّ:

(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ* فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

أي أمره هو النافذ، لا تستطيع جهةٌ في الأرض أن تحول بينه وبين ما يريد:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

أي إذا كنت مع من هو:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

أقوى بكثير من أن تكون مع الذي لا يستطيع أن يفعل ما يريد، سيدنا داود قال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

المغزى من قصة سيدنا يوسف أنّ الله فعال لما يريد :

بيد الله عزَّ وجل، فالله:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

أي أمره هو النافذ:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

[سورة الأنعام: 18]

أنت تريد وأنا أريد، عبدي أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد، كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد. الله سبحانه وتعالى:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

ربنا يعلمنا، سيدنا يوسف ماذا أراد به أخوته؟ تعلمون القصة الطويلة مغزاها في كلمةٍ واحدة، قال تعالى:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف: 21]

إخوته جميعاً أرادوا به كيداً، وضعوه في غيابة الجب، الله:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

فجعله عزيز مصر.

قصص بليغة جداً تؤكد أن كل شيءٍ بأمر الله فأمره هو النافذ :

سيدنا موسى:

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى*أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه: 38-39]

سيدنا موسى رُبِّي في قصر فرعون، كان يخاف من طفلٍ من بني إسرائيل يقضي على ملكه، فأمر بقتلهم جميعاً.. الذي سوف يقضي على ملكه رباه في قصره:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَنَاً)

[سورة القصص: 8]

هذه القصص بليغةٌ جداً.. كل شيءٍ بأمر الله، أمره هو النافذ.. فالواحد لا يظن أنَّ باجتهاده أو بذكائه يفعل ما يريد.. لا يفعل الله إلا ما يريد، وأنت ضمن إرادته.

ربنا عزَّ وجلَّ كنَّى بكلمة (فرعون) عن قومِ فرعون :

قال تعالى:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ* ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ*فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

الدليل:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ)

من هم؟ قال:

(فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)

من فرعون وثمود؟ ففرعون اسم فرعون، وثمود اسم قوم، فكيف جمع الله اسم رجل مع اسم قوم؟ قال: هذه إشارة إلى أنَّ قوم فرعون ذابوا في فرعون، ذابت شخصيتهم كلها في فرعون، فإذا قلنا فرعون، نعني بهذه الكلمة قوم فرعون فقد قال الله تعالى:

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر: 9-11]

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

أي إن هؤلاء ذابوا جميعاً، ذابت شخصيتهم ولم يبق في هذا المجتمع إلا فرعون، فربنا عزَّ وجلَّ كنَّى به عن قوم فرعون.

الله عز وجل

محيطٌ بدقائق أعمال الكفار فأعمالهم كلها تحت إشرافه ومراقبته :

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ *فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)

أي أهلكهم الله عزَّ وجل وهذا تأكيد قوله تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ)

والمقصود بالذين كفروا كفَّار قريش، أي على الرغم من كلِّ هذا، قومك يا محمد يكذِّبونك، ولم يقل يكذبونك:

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ)

هذه في الظرفية، أي هم في حالةٍ من التكذيب، هم غارقون في كل أنواع التكذيب، أي كما قال أحدهم: لم أر أشدَّ صمماً من الذي يريد ألا يسمع، قال الله تعالى:

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الزخرف: 22]

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ* وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

معنى محيط هنا، أي محيطٌ بدقائق أعمالهم، أعمالهم كلها تحت إشرافه ومراقبته.

سمو القرآن الكريم وفضل قراءته :

أحياناً الإنسان يعمل عملاً ويظنُّ أنَّ فلاناً لا يراه، فلان يصوره، يريه شريطاً، فيقول أعوذُ بالله، كلُّ الذي فعلته مسجلٌ عليك، ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ* وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

أي كلّ أعمالهم وكلّ حركاتهم وكلّ سكناتهم وجميع تصرفاتهم وتجاوزاتهم وطُغيانهم، كلُّه في علم الله عزَّ وجلَّ وفي قبضته:

(وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

المعنى الثاني: والله قادرٌ عليهم في كلِّ لحظة من لحظاتهم أن يهلكهم:

(وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ)

أي لا حدود لعلوه، ولا حدود لسموه، وشرفه، وعظمته:

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ)

أي لو أنكم جعلتم هذا الكتاب كتابكم الأوحد، فالقرآن غنىً لا فقر بعده، من تعلّم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، من تعلم هذا الكتاب فهو أمانٌ له من الخرف، لا يخرفُ إنسانٌ قرأ القرآن وتعلمه، قارئ القرآن لا يحزن أبداً، لا يوجد داعٍ أن يحزن فكله قوانين واضحة، وهذه القوانين بمنزلة مقدمات، ونتائج حتمية.

لا يحزن قارئ القرآن لأنه يرى أموره كلها بيد الله عزَّ وجلَّ :

قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

الحياة:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ)

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت: 69]

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 38]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وابشروا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: 30]

لا يحزن قارئ القرآن، يرى أموره كلها بيد الله عزَّ وجلَّ، وهو الرحيم، الحنون، اللطيف، السميع، البصير، القدير، الغني، المحب.

من نعمة الله عزَّ وجلَّ أنه حفظ لنا كتابنا :

قال تعالى:

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ *فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)

بعضهم قرأ: في لوح محفوظٌ، أي بل هو قرآنٌ محفوظٌ في لوحٍ، إذا قلنا محفوظٌ في لوحٍ، أي من الزيادة والنقصان، وإذا قلنا:

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ *فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)

أي اللوح محفوظ من الزيادة والنقصان، وإذا كان محفوظ للقرآن من التبديل والتغيير، إما أن تكون محفوظ صفة للقرآن:

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ *فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)

أي محفوظٌ من التبديل والتغيير، وإذا قلنا في لوحٍ محفوظٍ فمن الزيادة والنقصان.

أحياناً يصورون بعض الخرائط على أفلام صغيرة، يضعونها في أماكن أمينة حتى لو احترقت مثلاً يقول: عندنا صور مايكرو فيلم لكل هذه المصورات.. فربنا عزَّ وجلَّ، هذا الكتاب، أي القرآن الكريم في لوحٍ محفوظ، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبدل، ولا يحرّف، ولا يغيّر، ولا أي شيء يطرأ عليه. قال الله تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر: 9]

ومن نعمة الله عزَّ وجلَّ أنه حفظ لنا كتابنا، وهذا الكتاب حفظ لنا لغتنا، فلا يوجد بالعالم أمة أطفالها الآن يقرؤون في الصف العاشر ما كتبه شعراءٌ قبل ألفٍ وخمسمئة عام بفضل كتاب الله، أما اللغة الإنكليزية، ما كتبه شكسبير في عام ألف وستمئة تقريباً الآن يترجم ترجمة إلى اللغة الإنكليزية، هذه اللغة تبدّلت، وتغيَّرت، وتطورت، لكن الله عزَّ وجلَّ حفظ القرآن فحفظ لنا لغتنا، مئة مليون إنسان يتكلمون لغة واحدة هذا شيء من فضل الله عزَّ وجلَّ.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطارق 086 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-8 ، حقائق عن السماء وخلق الإنسان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1984-12-14

بسم الله الرحمن الرحيم

السماء شيءٌ عظيمٌ جداً ولا يعرف عظمتها إلا أولو العلم :

سورة اليوم سورة الطارق، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ*إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

الله سبحانه وتعالى ذكر في مطلع هذه السورة السماء، ومنهم من يقول إنَّه أقسم بالسماء، وقد حدثتكم من قبل أن الله سبحانه وتعالى في قرآنه العظيم مرةً يقول أُقسم، حينما يقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس: 1]

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

ومرةً يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

يمكن أن نفهم أن هذا الشيء الذي أقسم الله به بالنسبة إلينا لأن السماء شيءٌ عظيمٌ عظيم، ولا يعرف عظمتها إلا أولو العلم، ولذلك قال الله عزَّ وجل:

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

الأنبياء رأوا من ملكوت السماوات والأرض ما جعلهم يخضعون ويعظّمون الله تعالى :

نحن نعرف عن السماء بقدر ما توصل إليه العلم، وكلّما زاد العلم في معرفته للسماء كان فهمنا لهذه الآية أعمق وأكبر، لكنَّ الأنبياء رأوا من ملكوت السماوات والأرض ما جعلهم يخضعون ويعظّمون الله سبحانه وتعالى.

فالسماء، نحن إذا ركبنا سيارة وتجاوزت سرعتها المئة شعرنا باضطراب، فإذا ركبنا طائرة، فسرعة الطائرة التجارية تسعمئة كيلو متر في الساعة أو ألف ومئتا كيلو متر، يركب الناس اليوم طائرةً أسرع

من الصوت تقلُّهم من أوروبا إلى أمريكا في ساعتين وأكثر، الإنسان الذي ذهب إلى القمر ركب أسرع مركبة على وجه الأرض وتبلغ سرعتها أربعين ألف كيلو متر في الساعة، فالطائرة التجارية تسعمئة، وبعض الطائرات ألف ومئتان، وبعضها ألف وستمئة وخمسين، أما أن يركب الإنسان مركبةً سرعتها أربعون ألف كيلو متر في الساعة فهذا شيءٌ جديد، وبقيت هذه المركبة تسير في الفضاء الخارجي أياماً ثلاثة حتى وصلت إلى القمر.

ماذا قطعت من الفضاء الخارجي؟ قطعت ثانيةً ضوئيةً واحدة، ما يقطعه الضوء في ثانية قطعه الإنسان في ثلاثة أيامٍ على متن مركبةٍ سرعتها أربعون ألف كيلو متر في الساعة، وهذا المشروع كما يقول بعض العلماء كلَّف أربعة وعشرين ألف مليون دولار، واسمه مشروع أبولو، وماذا قطع الإنسان؟ ثانيةً ضوئيةً واحدة.

فما قولك بالشمس!! الشمس تبعد تسعين مليون ميل ويقطعها الضوء في ثماني دقائق، فلو أردت أن تصل إلى آخر نجمٍ من نجوم المجموعة الشمسية يحتاج الضوء إلى ثلاث عشرة ساعة، فإذا أخذنا الأبعاد بالزمن فقطر المجموعة الشمسية ثلاث عشرة ساعة، والشمس ثماني دقائق، والقمر ثانية، أقرب نجم إلى الأرض من غير المجموعة الشمسية أربع سنوات ضوئية ويوجد أربعة آلاف سنة، فمجرة درب التبَّانة قطرها مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، والقمر ثانية، وعرضها خمسة عشر ألف سنة ضوئية، هذا درب التبَّانة ومن هذه المجرة يوجد مليون مليون مجرة، وبعض المجرات بعدها عنا اثنا عشر ألف مليون سنة ضوئية، فعندما يقول ربنا عزَّ وجل:

(وَالسَّمَاءِ)

كل إنسان يفهم هذه الكلمة بحسب ما يعرف عن السماء.

معنى كلمة (السماء) :

لذلك قال بعضهم: نحن نفهم الأشياء كما نحن عليها، وليست كما هي عليها بل كما نحن عليها، يجوز للإنسان أن تكون معلوماته عن السماء محدودة فإذا قرأ:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

يتصور الفضاء الذي فوق رأسه وهذه هي السماء، وبعضهم قال: كلُّ ما علاك فأظلَّك فهو سماء، أما سيدنا رسول الله اللهم صلِّي عليه سأله بعض الصحابة: يا رسول الله لو حفرت تحت قدمي هذا هل أرى السماء؟!! قال: نعم، فمعنى ذلك أنَّه اللهمَّ صلِّ عليه رأى أنَّ الأرض كرة وأن السماء هو ما يحيط بالكرة، وأن الكرة إذا ثقبتها من طرف، نظرياً طبعاً، لا بدَّ من أن تصل إلى الطرف الثاني، فقال هذا

الصحابي الجليل: يا رسول الله لو حفرت تحت قدمي هذا هل أرى السماء؟!! قال: نعم، فكل إنسان بحسب ما يعرف عن السماء يعظّم ربَّ السماء، بعض المجرّات اثنا عشر ألف مليون سنة ضوئية، وبعض النجوم حجمها ثلاثون مليون ضعف عن شمسنا، وبعض الكازارات فيها قوة انفجار تعادل واحداً أمامه ستة وأربعون صفراً عن أكبر قنبلة هيدروجينية فجِّرت على وجه الأرض، فعندما يقول ربنا:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

أي أن هذه آيةٌ عظيمة لنا، نحن نعيش في جو الأرض ولكن روَّاد الفضاء رأوا الأرض كرة جميلة، رأوا بعض القارّات من القمر، بعض الأماكن خُضراً، وبعضها بيضاً بفعل السحب، وبعض الأماكن زرقاً فالأرض كرة، ولو أن إنسان أثار الغبار في غرفته تحت ضوء الشمس فرأى ذرةً عالقةً في ضوء الشمس قال: هذه تشبه الأرض بالنسبة إلى الكون، ذرة، فقد تجد الهواء يحمل ذرات الغبار، وتحت أشعة الشمس يرى الإنسان هذه الذرات فما الأرض إلا ذرةٌ بالنسبة لجو الغرفة، لذلك عندما يقول ربنا عزَّ وجل:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

بعض الحقائق عن السماء :

على الإنسان أن يعرف ماذا تعني كلمة السماء، مرة قمت بإجراء حساب بسيط، أقرب نجم إلينا يبعد عن الأرض أربعة آلاف سنة ضوئية، فلو كان هناك طريق معبَّد إليه فنحتاج إلى سبعة وعشرين مليون مليون مليون سنة بسيارة حتى نصل إليه، فهذا أقرب نجم، لذلك هذه الآيات لا يعقلها إلا العالمون، لا يعقلها إلا من فكَّر في ملكوت السماوات والأرض:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران: 190-191]

حركة الكواكب، لكل كوكب فلك، ونظام التجاذب، ونظام العطالة، والقوة النابذة، والقوة الجاذبة، والكتل واختلافها، فهذه بعض الحقائق عن السماء، فربنا عزَّ وجل يقول:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

ماذا في السماء؟ السماء فراغ ويوجد فيها نجوم، وهذه الآية شملت الفراغ والنجوم معاً، قال: الطارق الله سبحانه وتعالى عرَّفه:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

على قدر تفكرك في السماوات والأرض تعظّم رب السماء :

قال: هذا النجم، هذه الألف واللام ألف الجنس، لا يقصد بهذه الكلمة نجماً معيناً، إنما جنس النجوم، تقول مثلاً التفاح ذو قيمة غذائية عالية، أي تفاحة هذه، المعنى جنس التفاح، إذا قال الله تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

أي نجمٍ؛ فالسماء فيها فضاء وفيها نجوم، وكلمة (والسماء والطارق) شملت الفضاء والنجوم والكواكب السابحة في هذا الفضاء، أما هذا الفضاء أين حدوده؟ هذا لا نعلمه ولا أحد يعلمه، فهو شيء قد لا يصدقه العقل، هذا النجم أو هذه المجرة التي قال عنها العلماء تبعد عنا اثني عشر ألف مليون سنة، فالشيء الذي لا يصدق أننا حينما رأيناها اليوم أي وصل إلينا ضوؤها اليوم، منذ متى خرج منها هذا الضوء؟ منذ اثني عشر ألف مليون سنة، اليوم رأيناها لكن أين هي الآن؟ لا يعلمها إلا الله لأنها متحركة، إن قلنا: هذا النجم يبعد عنا اثني عشر ألف مليون سنة، أي هذا الضوء الذي وصل إلينا اليوم كان قد صدر منه قبل اثني عشر ألف مليون سنة، والآن المركبات الفضائية مثل الصياد تماماً عندما يصوب البندقية على طائر يبعدها باتجاه حركته، يحسب المسافة إذا أطلق هذه الرصاصة يجب أن تصل إلى مكان وصل إليه بعد زمن الإطلاق، فالكواكب متحركة كلُّها، ومن يصدق أن بعض المجرات حركتها تقترب من سرعة الضوء، مئتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، من يصدق أن حركة الشمس في دورانها حول نجم في المجرة تستغرق دورتها مئتي مليون سنة؟ أرقام الفلك تكاد لا تصدق لعظمتها ولكنها واقعة، ولكن العلماء الذين رصدوا هذه النجوم وأجروا هذه الحسابات حينما وصلوا إلى هذه ما كان يعنيهم أن تكون تلك الحقائق في خدمة الإيمان ولكن هذا الذي حصل، والسماء والطارق، ولذلك فسيدنا علي رضي الله عنه يقول: في القرآن آيات لم تفسّر بعد، فعلى قدر معرفتك تفهم هذه الآية وعلى قدر تفكرك في السماوات والأرض تعظّم رب السماء، ولذلك، لا عبادة كالتفكر، تفكر ساعةٍ خيرٌ من عبادة ستين عاماً:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

نحن نعرف ما يسمح الله لنا به وما سوى ذلك فموكولٌ إلى علم الله عزَّ وجل :

ما معنى كلمة: الطارق؟ نقول: طرق الباب، أي ضربه فأحدث بهذا الضرب صوتاً وجلبة ومنها المطرقة، طرق الطريق أي سمع وقع أقدامه على هذا الطريق، طرق بمعنى ضرب. والطارق

الضارب، وسمي الطريق بهذا الاسم لأن الإنسان يطرقه، ثم سمي هذا الذي يسير في الطريق طارقاً، ثم سمي هذا الذي يسير في الطريق ليلاً هو الطارق، ثم صار كلُّ شيءٍ يأتيك يسمى طارقاً، وفي بعض الأدعية: اللهم إنا نعوذ بك من طوارق الهم، فصار الطارق كل شيء ينتابك، فإذا عممناها ووسعناها كل شيء يطرق هذه النفس، يصل إليها من شيءٍ مادي أو معنوي. فربنا عز وجل يقول:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ)

إذا قال: وما يدريك، فالله سبحانه وتعالى سوف يدريك، لكنه إذا قال: وما أدراك فهذا شيءٌ لا يستطيع الإنسان أن يحيط به، نحن على كوكبٍ من هذه الكواكب فأنَّى لنا أن نعرف حقيقة النجوم وعددها ومساراتها؟ إننا نعرف ما يسمح الله لنا به، وما سوى ذلك فموكولٌ إلى علم الله عزَّ وجل.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ* النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

انظر إذا كان هناك ظلام دامس فالنجم قد يثقب هذا الظلام فيكشف حقيقته، والضوء يثقب الظلام نقول: قطع السكون هذا الصوت، وثقب الضوء هذا الظلام.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ* النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

هذا هو القسم أين المقسم به؟ المقسم به:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

التناسب بين القسم وبين موضوعه تناسب ضروري :

ما موضوع القسم؟

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

قال بعضهم: يجب أن يكون هناك تناسب بين القسم وبين موضوعه، بين المقسم به وبين المقسم عليه:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ*إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

جواب القسم:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

ما هو الحفظ؟ من معاني الحفظ الرعاية والعناية، ومن معاني الحفظ الرقابة والرصد، فيا ترى أيُّ المعنيين في هذه الآية أقرب إلى السياق:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

(لمَّا) في القرآن الكريم لها ثلاثة معانٍ :

ما هذا التركيب؟ وما معنى لما؟، (لمَّا) في القرآن الكريم لها ثلاثة معانٍ:

1 - (لمَّا) حرف نفي تنفي الماضي ويمتد هذا النفي إلى الزمن الحاضر :

المعنى الأول: ربنا عز وجل يقول:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الحجرات: 14]

إذاً (لمَّا) حرف نفي تنفي الماضي ويمتد هذا النفي إلى الزمن الحاضر، أي إذا قلنا لما يحضر المدرِّس، أي لم يحضر، وإلى الآن لم يحضر لكن حضوره متوقع، فهذا معنى (لمَّا) بالضبط والآية واضحة:

(وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الحجرات: 14]

أي حتى الآن لم يدخل الإيمان في قلوبكم.

2 -(لمَّا) حرف وجود لوجود :

المعنى الثاني من معاني (لمَّا) قال تعالى:

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة التوبة: 76]

قال: هي حرف وجود لوجود، أي تبيّن وجود شيء لوجود شيءٍ آخر، متى بخلوا؟ لما آتاهم من فضله.

3 - (لمَّا) بمعنى إلا :

المعنى الثالث، والذي تعنيه هذه الآية حرف استثناء، وإن مخففة، وهي حرف نفي، أي ما من نفسٍ إلا عليها حافظ، لم يعد هناك خلوة، وأي خلوة هذه، كل نفسٍ عليها من الله رقيب وما من نفسٍ إلا والله رقيبٌ عليها، وما من نفسٍ إلا والله يرصد حركاتها وسكناتها:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

إن أي ما، (إن كل نفس لمّا): إلا، بمعنى إلا عليها حافظ.

أحد مراتب الإيمان أن تشعر أن الله يراقبك فلم تعد هناك خلوة :

هل هناك فرق بين لها حافظ وعليها حافظ؟ هناك فرق كبير، إذا قلنا: لها حافظ، أي هذا الحفظ حفظ الرعاية، وإذا قلنا: عليها حافظ، فهذا حفظ الرقابة، إذاً فالإنسان تحت رقابة الله عزَّ وجلَّ، وبعض الصوفيين قالوا: هذا مقام المراقبة، أحد مراتب الإيمان أن تشعر أن الله يراقبك، فلم تعد هناك خلوة، قال رسول الله صلى الله عيه وسلم:

((من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله تعالى بسائر عمله))

[مسند الشهاب عن أنس بن مالك]

يا ترى نحن كفهم تطبيقي لهذه الآية، هل يحس أحدنا في خلوته وفي جلوته، في بيته وفي غرفته، وفي عمله وحده ومع الناس أن الله عليه حافظ؟ أي رقيب، فكأن رقابة الله عزَّ وجلَّ مستمدةٌ من عظمة الخلق، كما قلت قبل قليل لا بدَّ من انسجامٍ بين المقسم به والمقسم عليه، بين القسم وموضوع القسم:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

المقسم عليه هو:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

أي أن هذه الآية ينبغي أن تأخذ منا مأخذاً كبيراً، إذا شعر الإنسان أن الله شهيدٌ عليه ورقيبٌ عليه وبالمرصاد انتهت المشاكل كلها، لماذا انتهت؟ لأنه سوف يستقيم، وإذا استقام سوف يقبل على الله عزَّ وجلَّ، وإذا أقبل عليه سعد به، فهذا قانون إن رأيت الله رقيباً خشيته واستقمت على أمره، وإن استقمت على أمره أقبلت عليه وسعدت بقربه، هذا هو كلُّ الدين، وإن رأيته بعيداً لا يرى تصرفاتك ولا يطَّلع على خائنة الأعين، يعلم خائنة الأعين.

الله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور :

أي إذا الإنسان دخل بيت صديقه وتركه في الغرفة وحيداً وخرج، وشعر هذا الضيف أن هناك حركة أمام الباب فنظر، طبعاً المؤمن لا ينظر لعلها تكون امرأةً أو أخته أو أمه، هو نظر، مَن عَلِم بهذا النظر؟ لا يعلم إلا الله، امرأة أمام طبيب يفحصها نظر إلى مكانٍ من جسمها لا تشكو منه، من يعلم هذا؟ الله سبحانه وتعالى، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، فالذي يعلمه الله لا يمكن لمخلوقٍ على وجه الأرض أن يحاسبك عليه، لكن الله يحاسبك عليه هو وحده يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فالإنسان إذا آمن بهذه الآية ومدلولها ومضمونها أن كل نفسٍ:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

أعمالها كلها مكتوبة على صفحة، حركاتها، ونياتها، ونوازعها، وما تضمر وما تبطن، وما تسر وما تعلن، وما تقول وما تفعل، كله تحت رقابة الله عزَّ وجلّ:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[سورة المجادلة: 6]

إذا بلغت هذه المرتبة فأنت مؤمن، لأنك استقمت حتماً، فالإنسان أمام الناس هل يفعل فعلاً يستحي منه أو يخجل، فإذا كنت تجلس أمام إنسان ممكن أن تضع يدك في أنفك؟ تخجل، فإذا كنت أمام إنسان عادي تخجل أن يفعل شيئاً لا يليق، فكيف إذا كنت تحت رقابة الله عزَّ وجلَّ؟!!

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً)

[سورة الأحزاب:52]

الكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى :

ما العلاقة بين المقسم عليه والمقسم به؟ كيف أنّ النجم يثقب الظلام ويكشف أسرار الليل وكذلك الله عزَّ وجلَّ يكشف ما كمن في هذه النفس، وما أضمره الإنسان في نفسه، كما أنَّ النجم يثقب الظلام كذلك الله عزَّ وجلَّ يكشف خبايا النفوس، ويكشف خواطرها ونوازعها وميولها ونياتها وما تعلن وما تضمر.

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

أي كأن آية:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

شملت الكون كله، السماء أي الفضاء، والطارق النجم، والكون فضاءاً ونجوماً، وأشكالها وحجومها وأبعادها وقوامها ومادتها، فهذا نجم غازي، وهذا ملتهب، وهذا نجم بارد، وهذا صلب، وهذا كبير، وهذا صغير، وهذا مفتت، وهذا غير مفتت، هذا سرعته ثلاثون كيلو متر في الثانية مثلاً أي سرعة الأرض حول الشمس، والشمس مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية حول مركزها في المجرة، وسرعة النجوم وأحجامها وأشكالها كلها منطوية بكلمة:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

هذا الكون، الكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى، فإذا أردت أن تعرف طرفاً من علمه فكّر في الكون، علم هائل، وهذه الأرض بميل محورها، ما هذا الميل؟! قبل ميل المحور بدورانها تشكل الليل والنهار، ولولا دورانها لما كان ليلٌ ونهار، وإذا كانت لا تدور فمعنى ذلك أن النهار ثابت والليل ثابت، وإذا النهار

ثابت أي الحرارة مئتان وخمسون فوق الصفر فهذه حياة مستحيلة، وإذا الليل ثابت فالحرارة ثلاثمئة وخمسون تحت الصفر، أيضاً فالحياة مستحيلة، بدورانها تشكّل تنوع الليل والنهار على سطحها. لولا الهواء، الهواء جهاز تكييف، أيضاً والحرارة ترتفع إلى درجة قاتلة وتهبط إلى درجة قاتلة، أما الهواء فيعدل الحرارة، إذاً الهواء من آيات الله، والهواء ينقل الصوت والحرارة والبرودة والضوء ويفعل انتثاراً للضوء، فالهواء له ميزات كبيرة جداً.

لا يستخفُّ برقابة الله عزَّ وجلَّ إلا الجاهل والأحمق فنحن مراقبون من قبل المولى :

الآن إذا كان المحور ليس مائلاً فكل منطقة على وجه الأرض لها فصلٌ ثابتٌ إلى أبد الآبدين، فهذه المنطقة صيف، وهذه ربيع، وهذه شتاء، وهذه خريف، لكن بميل المحور تبدَّلت الفصول على وجه الأرض فأصبح لكل منطقة في الأرض صيف وشتاء وخريف وربيع، ومن تبدُّل الفصول أمكن للنبات أن ينمو، وأن يثمر وأن نأكل منه، إذاً ميل المحور لو مال المحور تسعين درجة حتى أصبح موازياً لمستوي الدوران، كأن الأرض لا تدور، فالدوران هكذا، والشمس من هنا، ونصف الكرة يتمتع بأشعة الشمس دائماً، ونصفها الثاني محرومٌ من أشعة الشمس دائماً، فآيات دقيقة جداً، فهذه:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

بقدر ما في هذه الآيات من عظمة، فهناك رقابة الله علينا من حساب، لا يستخفُّ برقابة الله عزَّ وجلَّ إلا الجاهل والأحمق والغبي، فنحن مراقبون من قبل المولى عزَّ وجلَّ:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

توجد آيات أخرى قال الله تعالى:

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الانفطار:10-12]

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً)

[سورة الأحزاب:52]

رأس الحكمة مخافة الله :

هذه آية ثالثة، كلٌّ هذه المعاني تتلاقى مع هذه الآية:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

لذلك شخص سأل شيخاً عن معصية الله عز وجل، فقال له هذا الشيخ – وهو إبراهيم بن الأدهم - مقولة غير مقبولة إطلاقاً، قال: اعصِ الله ما شئت ولكن إذا عصيت الله فاحرص على ألا تسكن أرضه،

قال له: وأين أسكن إذاً؟ قال له: تسكن أرضه وتعصيه؟ قال له: هات الثانية، قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تأكل رزقه، قال له: وماذا آكل إذاً؟ قال له: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه!! قال له: هات الثالثة، قال له: إذا أردت أن تعصيه فاجهد أن تعصيه في مكانٍ لا يراك فيه، قال له: وما في الأرض من مكانٍ إلا وهو يراني فيه! قال له: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه وهو يراك!! قال له: هات الرابعة، قال له: إذا أردت أن تعصيه، وجاءك ملك الموت فلا تذهب معه، قل له: لا أريد أن أموت، قال له: هذا لا يكون، قال له: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تمنع نفسك عن ملك الموت!!! قال له: هات الخامسة، قال له: إذا مت وجاءك الزبانية ليأخذوك إلى النار، فلا تذهب معهم، قال له: لا أستطيع، أعاد له: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تمنع نفسك عن ملك الموت ولا عن زبانية جهنم!!!! قال له: كفيت.

فمن يعصي الله؟ الجاهل، لا يعصي الله إلا إنسان ليس عنده معرفة بالله، أنا أضرب مثلاً دائماً، أحياناً يوجد شق بالجسر، يرى الشق مهندس، فيقول لك: البناء خطر، يجب أن يخلى فوراً، يراه دهَّان، يقول لك: هذا الشق يحتاج إلى معجون، أسويه لك إن شاء الله، بين كلمة يحتاج إلى معجون، وبين كلمة بناء خطر يجب أن يخلى فوراً مسافة كبيرة، لماذا يجب أن يخلى فوراً؟ لأنه صار هناك قلق من هبوط البناء، فما الذي أعلم بالهبوط؟ العلم، بقدر علمك بقدر خشيتك، وبقدر علمك بقدر خوفك من الله عزَّ وجلَّ، ولذلك رأس الحكمة مخافة الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((...أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له...))

[متفق عليه عن أنس]

أكثر خلق الله خوفاً من الله رسول الله :

كيف مقدار خوف المؤمن من الله؟ أكثر خلق الله خوفاً من الله رسول الله، في معركة بدر بعد أن قتل صناديد الكفر، وكانوا في القليب، اللهم صلِّ عليه خاطبهم قائلاً: يا فلان يا فلان، سماهم بأسمائهم واحداً واحداً، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وآذيتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس- أعادها لهم مرةً أخرى - فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله أتخاطب قوماً جيفوا!! إنهم أصبحوا جيفاً أتكلّمهم؟! قال: ما أنتم بأسمع لي منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني، قرأت حول هذه القصة إضافةً قال بعضهم: يا رسول الله مَثِّل بهم، إنهم أخرجونا وقتلوا أخواننا وعذبونا، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أُمَثِّلُ بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبياً، كان عند النبي خادم أرسله في حاجة فأبطأ

كثيراً، فقال له حينما عاد: أين كنت؟ فقال له: كنت في مكان كذا وكذا، وكان النبي غضبان فقال عليه الصلاة والسلام: والله لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك.

سمع من السيدة عائشة أنها قالت عن أختها صفية رضي الله عنها أنها قصيرة، فقال:

((يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

[أبو داود عن عائشة]

كم كان عليه الصلاة والسلام يراعي خاطر الناس، فما واجه أحداً بما يكره، فأشدكم لله خشية أنا، قال:

((...أمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذا الحديث يجعلنا نتساءل لو أن إنساناً اعتزل، ونأى بشعب، أو ببيته:

((...أمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أي لا رهبانية في الإسلام.

قيمة العمل في الإسلام :

أحياناً يوجد هروب من الحياة، ويوجد مواجهة لمشكلاتها، فالهروب ليس بطولةً، ليس بطولةً أن تجلس في صومعةٍ في رأس الجبل وتعبد الله، ولكن البطولة أن تعبده وأنت في السوق، وأنت في زحمة الحياة، وأنت تبيع وتشتري، فالمؤمن يألف ويؤلف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف، فهذه البطولة، البطولة أن تتزوج وأن تأخذ بيد زوجتك إلى الله، البطولة أن تنجب أولاداً وأن تنشِّئهم في طاعة الله، هذه هي البطولة، فالأسلوب الأول أسلوب هروب من الحياة، ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يتزود منهما معاً فإن الأولى مطيةٌ للثانية، الآخرة تحتاج لإنفاق، إذاً يجب أن تكسب المال من وجه حلال، والآخرة تحتاج إلى العمل الصالح، إذاً يجوز أن يكون تأسيس أسرة عملاً صالحاً، فالنبي الكريم اللهم صلِّ عليه له أحاديث كثيرة يمجِّد فيها العمل، فالإنسان إذا عمل عملاً صالحاً وحفظ ماء وجهه من السؤال فهذا العمل عبادة، يقول سيدنا عمر: إني أرى الرجل لا عمل له فيسقط من عيني. ومما يروى أن سيدنا عمر رأى رجلاً يقرأ القرآن في النهار فقال: إنما أُنزل هذا القرآن ليعمل به، أفتخذت قراءته عملاً؟ اقرأه في الليل، والصحابة الكرام كانوا فرساناً في النهار رهباناً في الليل، وقيمة المرء ما يحسنه، فيجب أن يكون لك حرفة أو اختصاص أو عمل تنفع به المسلمين، وأن تكون مع هذا

العمل متقياً لله وعالماً بأمر الله وداعيةً إلى الله، وسيدنا الصديق كان بزازاً أي كان تاجر أقمشة، وسيدنا أبو عبيدة كان جزّاراً، كان أمين هذه الأمة.

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ*فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

هنا النظر ليس نظر رؤية ولكن نظر تفكُّر، ليس الأمر الإلهي في النظر هنا نظر رؤية، العين هذه لا ترى مم خلق، ولكن الفكر يرى:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ*فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

السبب والمسبب :

ما قال الله عزَّ وجلَّ: من ماءٍ مدفوقٍ، إذا كان مدفوقاً أي بإرادتك دفقه أو عدم دفقه، لكن الدفق جاء على وزن اسم الفاعل، أي الماء دافق أي ليس بإرادتك أن تدفقه أو ألا تدفقه، هذا الماء أي أكثر من ثلاثمئة مليون مليون حيواناً منوياً يدفق الإنسان، والبويضة تحتاج إلى حيوان منوي واحد، حكمة الله عزَّ وجلَّ لا حدود لها، أي الإنسان يخرج منه هذا الماء ما دام حياً، لكن الله لحكمةٍ بالغة أودع في مبيض المرأة عدداً محدداً من البويضات، كل شهر تخرج بويضة من المبيض فإذا بلغت المرأة سن اليأس فمعنى ذلك أن البويضات انتهت، في السابع والثلاثين، أو في الثماني والثلاثين، أو في الواحدة والأربعين، أو في الثالثة والأربعين، أو أربعين، لها عدد محدود، فلو كان المبيض ينتج بويضات كما ينتج الإنسان هذا الماء ما دام حياً فمعنى ذلك أن الحمل يكون في السبعين للمرأة أو في الثمانين، يكون عمرها خمساً وثمانين وهي في الشهر الرابع، إذ لم يعد هناك إمكانية لأن تربي ابنها، انظر إلى حكمة ربنا عزَّ وجلَّ:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ*فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

أما دقة الآية فليس هذا الماء الدافق هو الذي خلق الإنسان، الخالق هو المسبب، مسبب الأسباب، هذا الماء هو السبب، ولكن ربنا عزَّ وجلَّ هكذا جعل الترتيب، أن هناك ذكراً وهناك أنثى، وتزاوجاً وحيوانات منوية ومبيضاً ورحماً وتكوّناً، لكن ربنا عزَّ وجلَّ لحكمةٍ بالغة يريد أن يقول لنا: أنا الخالق، وهذا آدم خلق بلا أب ولا أم، ولا ذكر ولا أنثى، ولا بحيوانات منوية ولا مبيض ولا رحم، إذاً استنبط العلماء أن الماء الدافق هو سببٌ لكن الخالق هو الله عزَّ وجلَّ، الخالق هو المسبب والماء هو السبب، والدليل أن آدم عليه السلام خلق بلا أبٍ ولا أم.

كم حالة توجد؟ إذا كان الإنسان يأتي من أب وأم، عندنا هناك أربع حالات: إما أن يأتي من أبٍ وأم شأنه كشأن ألوف الملايين من البشر، وإما أن يأتي بلا أب ولا أم وهو سيدنا آدم عليه السلام، وإما أن

يأتي من أمٍ بلا أب كالسيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وإما أن يكون أم وأب ولا تنجب هذه الأم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قدير)

[سورة الشورى: 49-50]

خلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته :

إذاً مع وجود الأب والأم قد لا يحدث الإنجاب، وأحياناً يكون ملك لا يترك مكاناً في العالم لكي ينجب ولداً فلا يستطيع، فالطب كله في خدمته، وحصل هذا:

(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً)

بأب وأم لا يوجد إنجاب، فإنسان بلا أب ولا أم، وإنسان من أم بلا أب، وربنا عزَّ وجلَّ كلما حدثنا عن السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة السلام مهد لنا الحديث عن سيدنا يحيى، امرأة عاقر لا تنجب، تجاوزت سن اليأس ومع ذلك أنجبت، أي كما يدخل إنسان من غرفة معتدلة، إلى غرفة حارة.

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ*خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ*يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

طبعاً السيدة حواء من سيدنا آدم، بعض العلماء قالوا: هذا الماء الدافق، معصَّب، أي مركز الإثارة العصبية من الصلب من الظهر، ومركز الخروج من عظمي الحوض، الترائب، وبعضهم فسَّر هذه الآية، أن البويضة تخرج من مكان قريبٍ من صدر المرأة من عظام الترائب، وأن الماء يخرج تعصيباً، أي المؤثر العصبي، من مكانٍ في الصلب، أي في الظهر، فهذا الماء الدافق:

(يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ*إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

أي هذه العظمة أن هذا الحيوان يوجد له رأس مكور وله عنق حلزوني وله ذنَّب، يتحرك فإذا وصل إلى البويضة، فالبويضة يوجد حولها مئتان وخمسون مليون حيوان، فتنتقي هذه البويضة أقوى هذه الحيوانات فكيف تنتقي هذا الحيوان المنوي؟! ترقق الجدار الذي هو تجاهها، فيدخل الحيوان ويتخلى عن ذنبه وعن عنقه، ويحدث التلقيح، والتلقيح كما تعلمون هذه الخلية المذكرة، والخلية المؤنثة عبارة عن سائل اسمه هيلولة، ونواة، وبالنواة فيها المورِّثات، والمورثات ثلاثة وعشرون زوجاً، تحمل خمسة آلاف مليون صفة، تحمل هذه المورِّثات فتجد أن هذا الابن إذا كان الأب له في أكتافه شعر كثيف، فالابن كذلك وحجم الجمجمة وشكلها وخطوطها وملامحها ولون العينين ونوع الحاجبين ونوع الأنف ونوع الجبهة ونوع الخد ونوع الشعر وطول العنق وطول الإنسان ولون الجلد، فخمسة آلاف مليون صفة تحمل هذه المورِّثات، هذه المورِّثات المذكَّرة تتزاوج مع المورِّثات المؤنثة.

من آمن بالله حق الإيمان صدَّق ما جاء به القرآن :

الآن إذا كان في هذا التزاوج تباعد نسبي، فالأقوى يغلب الأضعف. ولو فرضنا بالخلية المذكرة الكبد قوي، وبالخلية المؤنثة الكبد ضعيف، فيأتي الجنين ذا كبدٍ قوي لأن الأقوى غلب، أما إذا وجد قرابة بالنسب فهذا الضعف يزداد. ولذلك: اغتربوا لا تضووا، لا تضعفوا، أي أن الإنسان إذا تزوج امرأة بعيدة عنه نسباً فهذا من عوامل قوة النسل وتغلُّب الصفات القوية على الصفات الضعيفة:

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ*يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ*إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

الحقيقة الإيمان باليوم الآخر له علاقة بالإيمان بالله، ومن لوازم الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، لأن من آمن بالله حق الإيمان صدَّق ما جاء به القرآن، فهذا الخلق المعجز من الممكن أن يعيده الله كرةً أخرى:

(إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

فالحقيقة لكن متى:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

أهمية الإخلاص في النية :

ورد أن بعض قراء القرآن يقفون يوم القيامة ويقولون: يا رب لقد قرأنا القرآن في سبيلك، يقال: كذبتم قرأتم ليقال عنكم كذا وكذا وقد قيل، العلماء، قرَّاء القرآن، المجاهدون:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

أي ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة آل عمران: 132]

لعل تفيد الترقُّب، أي إذا كان هناك إخلاص ترحمون، وإذا لم يكن هناك إخلاص، هناك من يبتغي الدنيا بالدين:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

جميع النيات غير المشرِّفة سوف تظهر على حقيقتها، فالإنسان يخلص، يا معاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل، دينك ديْنك يا بن عمر إنه لحمك ودمك خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا، درهمٌ أنفق في إخلاص خير من مئة ألف درهم أُنفقت في رياء، فالإنسان ينتبه إلى الإخلاص:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

جميع النيات التي لا ترضي الله سوف تنكشف على حقيقتها في هذا اليوم، فالإنسان يحاول أن ينقّي سريرته من الشرك، ومن النيات التي لا ترضي الله عزَّ وجلَّ:

((مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ عَلَانِيَتَهُ، وَمَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاس))

[ورد في الأثر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطارق 086 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 09- 17، الإعجاز في خلق الإنسان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-12-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

السر ومعانيه :

يهمس في أذن صديق شيئاً، نقول: هذا سرٌ بينهما، هذا سر، ربنا عزَّ وجل قال:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

ما هو الأخفى؟ إذا إنسان همس في أذن صديقه شيئاً، ما هو الذي أخفى من السر؟ هو نية القائل، فقد يكون كلامه غير صحيح، وقد يكون فيه كذب، وقالوا: السر ما يسرُّه الإنسان في نفسه دون أن ينطق به، لم يحكه لأحد فهذا سر، فما الذي هو أخفى؟

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

المعنى الأول السر ما تسرُّ به لإنسان وليس شخصٌ ثالث يعلم ذلك، المعنى الآخر للسر ما بقي في سريرتك، وما بقي في نفسك يعلمه الله فإذا في نفسك خداع فتعهّد قلبك:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ*فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

الإنسان في الدنيا يوكّل محامياً ويدفع سند كفالة فيخرج من الحبس، فكيف أخرجوه وقد دهس شخصاً؟ بعث إنسان بسند كفالة فأفرج عنه، توجد وسائط وأساليب، ولكن الله عزَّ وجل يوم القيامة:

(فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

آلية المطر وكيفية تشكلها :

توجد أشياء تحل بالمال، ولكن في الآخرة لو أنَّك تملك ملء الأرض ذهباً لا تستطيع أن تفتدي نفسك من عذاب الله، ملء الأرض ذهباً لا تستطيع فلا تنحل بالمال، الآن بأي شيء، فالآن يقولون - الدراهم مراهم - هذا كلام وليس هو بآية أو حديث، ولكن الناس عندهم كل شيء ينحل بالنقود، فهناك بعض الحكم وهي غير صحيحة كقولهم: اتق شرَّ من أحسنت إليه، فيقول: لا أريد أن أفعل خيراً أبداً فهذه

الحكمة تقول اتق شرَّ من أحسنت إليه. هذا الكلام باطل، فرسول الله يقول: اصنع المعروف مع أهله، ومع غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تُصب أهله فأنت أهله:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ*فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

لا يوجد إنسان يخلِّص إنساناً، فليس هناك وجاهة أو واسطة، ولا توجد معاملة خاصة، ولا يوجد استثناء، أو يقول أحد أنا معي استثناء، ولا فلان بن فلان:

(فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

الله عزَّ وجل أمرنا قبل قليل أن ننظر ممّ خُلقنا، أن ننظر إلى قِوامنا الحالي ثم مم خلقنا، بعد قليل قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

هل فكَّرت في السماء؟

يصعد بخار الماء إليها فترجعه ماءً نقياً زلالاً مقطراً عذباً فراتاً، فلو ركب إنسان في البحر وأصابه العطش فيموت من عطشه، فهناك قصص كثيرة، فباخرة غرقت نجا ستة منها على قارب للنجاة وقد ماتوا عطشاً وهم على سطح البحر. إذاً لولا أن الله سبحانه وتعالى رتَّب آليّة المطر، شمسٌ تبخِّر البحر، فيصعد بخار الماء إلى السحاب، فينتقل من مكان دافئ إلى مكان بارد وتحدث شرارة كهربائية عن طريق البرق فتنعقد حبَّات المطر على ذرَّات من الكبريت ناعمة جداً، وتسقط الأمطار عذبة حلوة طيِّبة المذاق.

الصفة الوحيدة في السماء التي تنطبق على كل نجم أنَّ هذه النجوم ذات رجع :

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

هذه آية، وبعضهم قال: في السماء طبقة تعيد الأمواج اللاسلكية، ولولاها لما أمكن حدوث اتصال لاسلكي في العالم، ولا أمواجٌ إذاعية، عرفوها الآن:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

وبعضهم قال: إنَّ الصفة الوحيدة في السماء، التي تنطبق على كل نجم أنَّ هذه النجوم ذات رجع، أي تتحرَّك في مسارات دائرية أو بيضاوية، فالأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، والشمس تدور حول مركزٍ لها في المجرة، والمجرة تدور، وكل ما في الكون يدور ويعود إلى ما كان، نجم القطب هو نجم الشمال الآن، لكن في عهد الإغريق كان نجم الشمال هو نجم النسر الواقع، وسوف يكون هذا بعد آلاف السنين لأن محور الأرض المائل يدور حول نفسه كل خمسة وعشرين ألف سنة دورة، فكل

خمسة وعشرين ألف سنة يتبدَّل نجم الشمال من نجم القطب إلى نجم النسر الواقع، ولو سألتني عن صفة واحدة أصف لك السماء كلَّها أقول لك:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

صفة واحدة وصف الله لنا بها الأرض تنشقُّ فيخرج القمح فتأكله :

كل شيء يرجع إلى ما كان، وبعضهم قال: لا، الغبار في المجرّات والذرّات العالقة تدخل في مناطق سود ذات ضغط مرتفع جداً فتنكمش وتغدو أجراماً سماوية، ثم تتفلَّت من هذا الثقب وتدور بعد مئات آلاف الملايين تنفجر وتعود رماداً أو تراباً أو ذرّاتٍ صغيرة، إله وصف لك السماء يقول لك:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

فإذا فهمتها فدورة المجرَّات من الوضع السائل إلى الوضع الصُلب، أو تفهم كل شيء يدور حول مدار بيضوي أو دائري ويعود إلى ما كان عليه، ويرجع إلى ما كان عليه، أو تفهمها أن السماء تعيد لك الأمواج اللاسلكية، أو تفهمها بشكلٍ مبسَّط أن السماء تعيد لك الأمطار ولكن المعنى الأول البسيط هو الأقرب للسياق:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

الأمطار خيراتها ملموسة:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

[سورة الذاريات: 22]

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ* وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

صفةٌ واحدة وصف الله لك بها الأرض تنشقُّ الأرض فيخرج القمح فتأكله خبزاً شهياً، وتنشقُّ الأرض فيخرج الشعير فتأكله الدواب طعاماً شهياً، وتنشقُّ الأرض فيخرج الحمّص فتأكله طعاماً شهياً، وتنشقُّ الأرض فيخرج العدس، وتنشقُّ الأرض فتخرج شجرة التفّاح، والكمثرى، والدرَّاق، والعنب، والبلح، والتمر وكلُّ ما تأكله إنما هو من قوله تعالى:

(وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

لو أن الأرض لا تنشق والنبات لا ينبت لما كنا أحياء أساساً :

صفةٌ ولو أن الأرض لا تنشق، والنبات لا ينبت، لم نكن نحن في هذا المسجد، وما كنا أحياء أساساً ولولا أن:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ* وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

لما كنّا على قيد الحياة لمتنا، يموت النبات فيموت الحيوان ويموت الإنسان، فبموت النبات يموت الحيوان، وبموت الحيوان والنبات يموت الإنسان:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ* وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

(إنَّه) هذا اليوم، أو هذا القرآن:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

ما معنى (فصل)؟ قد سمعت في الأخبار أن في الكويت ظهرت صحون طائرة هبطت وعطّلت مراكز الكهرباء، وبين مصدّقٍ ومكذّب، فهناك مقالات تثبت وجود كائنات من كواكب أُخرى تركب صحوناً طائرة سريعة الحركة ولها إشعاعات عطّلت كل شيء، وبعضهم يقول إنّها أقمار صناعية تجسسية من معسكر كبير لمعسكر آخر، فأنت احسب الآن الجواب الشافي لا تعرفونه لكي تفهموا قوله تعالى:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

ما جاء به القرآن الكريم قولٌ فصل :

فهل يا ترى وجه المرأة عورة؟ أو الربا بنسب قليلة مسموح به أم محرَّم؟ فهناك خلافات بين المسلمين، وبين المسلمين وغير المسلمين، فسيدنا عيسى ابن الله أم رسول الله؟ ويوجد خلافات بين الأديان السماوية وغير السماوية، توجد خلافات عقائدية بين البشر، توجد خلافات في هذا اليوم:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ*وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ *إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

أي أن ما جاء به القرآن الكريم قولٌ فصل. مثلاً قوله تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

[سورة الأحزاب: 33]

هذا كلام الخبير، فإذا أردتم أن تخالفوه فخالفوه، فإذا خالفتموه ستشتكون، وقوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

هذا قول فصل، فإذا أردتم المخالفة فخالفوا فتفلّس في نهاية المطاف وقوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

قول فصل فانظر إذا أردت كيفما تشاء فيصبح بيتك في جهنَّم، فانظر فهذا قول فصل، كلام خبير، كلام عليم خبير الذي خلق النفس الإنسانية يعرف:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

أي في كل الموضوعات الخلافية بين بني البشر، جميع الموضوعات الخلافية بين الأديان السماوية والأديان غير السماوية.

القرآن الكريم يحسم الخلافات بين الأديان السماوية :

الهنود يعتقدون أن البقرة مقدَّسة، الكلام الفصل في كتاب الله، الخلافات بين الأديان السماوية القرآن يحسمها:

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

[سورة النساء: 171]

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

[سورة التوبة: 30]

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

الخلافات بين بني البشر، الخلافات بين الأديان السماوية وغير السماوية، الخلافات بين الأديان السماوية، والخلافات في الديانة الواحدة..

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

كلّ موضوع فيه خلاف على الإنسان أن يعود للقرآن ليحسمه :

بعضهم قال: الله عزَّ وجل لم يحرِّم الربا، فقد قال الله:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

[سورة آل عمران: 130]

حرَّم الأضعاف المضاعفة، أما ضعف واحد فلا مانع أن يأخذ في المئة خمسة أو ستة أو عشرة فلا شيء في ذلك، فهذا يزعم هكذا ولكن يوم القيامة:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

يقول له الله عزَّ وجل: كذبت، هل فهمت من كلامي هذا؟ إنَّك فهمت هذا الفهم لمرضٍ فيك. ولو قلت لأحدهم لمَ لا تصلي؟ فيقول لك: الله لم يأذن لي ولم يسمح الآن لي بالصلاة:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

[سورة السجدة: 13]

والله لم يشأ، يفهم الآية فهماً مريضاً..

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)

ففي كل موضوع فيه خلاف، الله عزَّ وجل أنزل في هذا الكتاب حسمٌ للخلاف، يقول لك: إطلاق البصر يربّي الذوق الجمالي، فقل له: كذبت، فقد قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

الفائز من يتمسك بما قاله الله عزَّ وجل تمسُّكاً عظيماً :

لو قال لك: الاختلاط يهذِّب المشاعر. فقل له: كذبت، الله سبحانه وتعالى يقول غير ذلك:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

إذا الله عزَّ وجل فصل في موضوع، فما معنى فصل؟ هذا تعبير قضائي كأن تقول: القاضي فصل في هذه القضية، أي أعطى حكماً وانتهى الأمر، وحكمه غير قابل للنقض، حكم نقض، محكمة النقض، فحكمه غير قابل للطعن أبداً:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)

فإذا كنت مؤمناً بعظمة هذا القرآن، وعظمته من عظمة الله عزَّ وجل، فالذي قاله الله عزَّ وجل يجب أن تتمسَّك به تمسُّكاً عظيماً..

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

هذا هو الفائز:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى* بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

[سورة الأعلى: 15-16]

كل قضية عالجها الله وأعطى فيها حكماً فهذا الحكم هو الحق وما هو بالهزل :

قال تعالى:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

جاءك خطيبان أحدهما غني فاسق والآخر لا يملك شيئاً ولكنّه مستقيم:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة: 221]

هذا هو الفصل، وإن أردت أن تجرِّب جرِّب الآخر وسترى، سترى أخلاقه الشرسة تنصب على ابنتك وغناه له لا لغيره:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

أي إن كل قضية ربنا عزَّ وجل عالجها وأعطى فيها حكماً، فهذا الحكم هو الحق وما هو بالهزل.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً)

الكيد هو التدبير، الكيد هو التدبير بالخفاء، وهو سلاح الضعفاء، القوي لا يكيد، يبطش، أما الضعيف فيكيد، وهذا الكيد تدبير خطة في الخفاء، فما الذي يفسدها؟ أن تكشف، إذا أُناس دبَّروا خطة في الخفاء وكشفت فانتهت الخطة بهذا..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً)

لا يعرفون أن الله متطَّلعٌ عليهم.

الصلح مع الله سهل جداً يحتاج لساعة صدق وساعة صفاء :

قال عمير بن وهب لأمية بن خلف: والله لولا ديونٌ ركبتني، وأولادٌ صغار لذهبت إلى محمدٍ وقتلته، يقول له ذلك في ظاهر مكة، في مكانٍ ليس فيه أحد، سرٌ بينهما، فقال له أمية بن خلف: أما ديونك فعليَّ كائنة ما كانت - أي مهما بلغت - وأما أولادك فهم أولادي، فامض لما أردت - اذهب - فأمر أن تعدَّ راحلته وأن يُسمَّ سيفه، وانطلق عمير بن وهب إلى المدينة، والظاهر لكي يفتدي ابنه الذي قد وقع أسيراً في معركة بدر:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

ووصل إلى المدينة فرآه سيدنا عمر، قال: هذا عدوّ الله عمير بن وهب جاء يريد شراً، اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، لكن لا يعلم، ولكن شكله لم يعجبه، فأخذه للنبي عليه الصلاة والسلام، أخذه مقيّداً، قيّده بحمَّالة سيفه وقاده إلى النبي، وقال له: يا رسول الله هذا عدو الله عمير. فقال له: أطلقه يا

عمر. فأطلقه، قال له: ابتعد عنه. فابتعد، فقال له: أدنُ مني يا عمير، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ فقال له: جئت أفتدي ابني. فقال له: ولم هذا السيف؟! قال له: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر؟ - لم نستفد منها - فقال له: ألم تقل لأميّة بن خلف: لولا ديونٌ ركبتني، ولولا صغارٌ أخاف عليهم لمضيت وقتلت محمداً. فقال لك: أما ديونك فعليّ بلغت ما بلغت وأما أولادك فهم أولادي، فانطلق لما أردت. فصعق وقال له: والله هذا الذي دار بيننا لا يعلمه أحدٌ إلا الله وأنت رسول الله.

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

وأسلم - فاسمعوا ماذا قال سيدنا عمر - قال: دخل عمير بن وهبٍ على رسول الله والخنزيرُ أحبُّ إليَّ منه، وخرج من عنده وهو أحب إليَّ من بعض أولادي.

الصلحة بلمحة، فالصلح مع الله سهل جداً، يحتاج لساعة صدق، ساعة صفاء وتدعو قائلاً: يا رب تبت إليك، فينتهي كل شيء ويرد الله عليك بقبول توبتك: وأنا قد قبلت.

كيد الله تدبيرٌ مضاد من نوع المشاكلة :

قال تعالى:

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ*مَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ*وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ *الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ* إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ*وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ *إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

كيدهم منتهٍ لأن الله يعلمه، فالكيد ما الذي يفسده؟ الحليب ما الذي يفسده؟ الحمض، فلو وضعنا قليلاً من الحمض فيفرط الحليب ولا تجد لبناً أو جبناً، والكيد ماذا يفسده؟ أن يكشف، وعن الله مكشوف، إذاً أي كيدٍ لأهل الحق يخفق..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

كيد الله ليس ككيد البشر، كيد الله تدبيرٌ مضاد:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

من نوع المشاكلة، مثلاً ربنا عزَّ وجل قال:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى: 40]

الرد على السيئة بالعقاب هل يسمّى سيئة؟ لا بل يسمى حسنة لكنّها مشاكلة.

كيد الله مُحكَم وكيد الكفار مخفِق :

مثلاً قوله تعالى:

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)

[سورة البقرة: 194]

هل يسمى هذا عدواناً؟ لا، لكن مشاكلة، هل يقال: الله ماكر؟ لا، حاشا لله، وهناك مكر وكذلك كيد، فهل يقال: الله عزَّ وجل ماكر، أو كائد؟ لا، لا يشتقُّ اسم من هذا الحدث، لكن هذا الكيد الذي قاله الله عن نفسه ردٌ على كيدهم، كيده محكم لأنّهم لا يعلمونه، وكيدهم مخفِق لأنّه مكشوفٌ عند الله عزَّ وجل:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

فعندما تبع كفار قريش محمداً عليه الصلاة والسلام إلى غار ثور، فبين أن يروه وعدم رؤيتهم له حركةً قليلة، قال سيدنا الصديق: لو نظر أحدهم إلى موطن قدمه لرآنا. وقفوا أمام رؤوسهم.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

وعندما تبع سيدنا سراقة محمداً ليقتله غاصت قدما فرسه في الرمل، أول مرة والثانية والثالثة:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

الله سبحانه وتعالى يعلم السرّ وأخفى :

عندما تبعوا رسول الله ليقتلوه بغار ثور رأوا الحمام فقالوا: هذا هنا قبل أن يولد محمد، فعشش الحمام والعنكبوت، على موضوع المشاكلة:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

الله سبحانه وتعالى لا يُسمَّى كائداً، ولا يسمَّى ماكراً، ولا يُشتقُّ من هذين الحديثين اسمان لله عزَّ وجل فلله الأسماء الحسنى، ولكن مثل قاضٍ رفعت له قضية قتل والقاتل ظالم، فأمر بقتل القاتل، فهل يسمَّى القاضي قاتلاً؟ لا، أما حكمه فعادل، ردَّ على هذه الجريمة بجزاءٍ عادل، فلا يسمَّى القاضي قاتلاً لأنه حكم بالعدل، وكذلك عندما يكيد إنسان لأهل الحق فالله عزَّ وجل يدافع عن الذين آمنوا، كيدُ الكفار مكشوفٌ عند الله، أما كيد الله التدبير المضاد لهؤلاء الكفار فناجحٌ مئة في المئة، لذلك قالوا: لا تجوز على الله حيلة.

فأنت تعامل إلهاً سميعاً بصيراً، فسيدنا عمر قال: لست بالخب، ولا الخبُّ يخدعني. انظر لهذا الموقف الرائع منه، فلا هو من البساطة والسذاجة بحيث يُخدع، ولا هو من الخبث بحيث يَخدع، لا يَخدع ولا

يُخدع، فإذا كان سيدنا عمر لا يُخدع، فالله سبحانه وتعالى الذي يعلم السرّ وأخفى لا تجوز عليه حيلة، فإذا كاد إنسانٌ لأهل الحق كان كيده ضعيفاً مكشوفاً فاسداً. أما تدبير الله له تدبيرٌ متين محكم ناجح:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

فلو قال ربنا: إنهم يكيدون كيداً وأنا أدبِّر لأوليائي خطةً تحميهم من هذا الكيد، فليس فيها بلاغة، هذه اسمها مشاكلة، مثلاً قال الشاعر عندما قالت جماعة تقترح على الشاعر طبخة ليطبخوها له:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت: اطبخوا لي جبةً وقميصا

* * *

ما ينقص هو الجبة والقميص، فهذه مشاكلة.

كيد الله ردٌ على كيد البشر :

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً)

فبدلاً من أن يقول: وأنا يا عبادي أدبِّر لهؤلاء الذين يكيدون لأوليائي خططاً دقيقةً تحميهم من عدوانهم، لا، فقد قال:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

من باب المشاكلة:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى: 40]

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)

[سورة البقرة: 194]

فيها بلاغة أكثر، لا تقل: الله كائد، ولا الله ماكر، فلا يشتقُ اسمان من الكيد والمكر، فكيد الله ردٌ على كيد البشر.

الكفار مهملون إلى أن يحين الوقت لغلبتهم :

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً* فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

فمهل يا محمد، النبي لا يمهل، الله الذي يمهل الفعل بيده، هذا إكرامٌ له، أي أنا يا محمد - اللهمّ صلّ عليه - لا أسوق لك الشدائد لضعفي، لا، ولا لهوانٍ لك عندي، لا، أنت حبيبي كما يقولون، ولكن أسوق

هذه الشدائد لأمتحن أتباعك، فإذا كانوا صادقين كانوا مؤهَّلين للنصر، فالأمر بيدك أنت مهّلهم، وليس: أنا سأمهلهم:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً* فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

أي إلى أن ينضج الذين معك وإلى أن يمتحن صدقهم وإلى أن تظهر همَّتهم وإلى أن يظهر ثباتهم، فالكفار مهملون إلى أن يحين الوقت لغلبتهم:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

في الخندق الكفار قاموا بترتيب خطة جهنمية، فجمعوا عشرة آلاف مقاتل للقضاء نهائياً على محمد وأصحابه في حرب إبادة، واليهود نقضوا عهدهم مع النبي عليه الصلاة والسلام، وبقي للإسلام قضية ساعات وسينتهي، إلى أن قال أحدهم: أيعدُنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

كيد عظيم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، فربنا عزَّ وجل عن طريق صحابي جليل أسلم وقتها وهو نعيم بن مسعود قال للرسول عليه الصلاة والسلام: أنا أسلمت يا رسول الله، ماذا أفعل مُرْني؟ فقال له: خذِّل عنا ما استطعت. فذهب لقريش وتكلَّم بكلام لهم، وبكلام لليهود فأوقع بينهم العداوة، وهبَّت رياحٌ قلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم، وكفى الله المؤمنين القتال. هذا كيد الله عزَّ وجل. اجتمعوا ليجتثوا الإسلام، فالله أرخى لهم الحبل لآخر لحظة، حتى بدا لبعض المسلمين أن الإسلام انتهى.. فأي إسلام هذا، وأي نبي ورسول هو، فقال: صاحبكم، ولم يصبح رسول الله.. ولكن في آخر لحظة جاء نصر الله عزَّ وجل وكاد الله للكفّار وعادوا مخفقين وحبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة.

كن مع الله ترَ الله معك :

فرعون كاد لسيدنا موسى، فتبعه إلى البحر ليقضي عليه، وفتح البحر فعبر سيدنا موسى وأصحابه، وتبعهم فرعون، وخرج سيدنا موسى من البحر من الطرف الآخر، ثم عاد البحر بحراً..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

خطّتهم أعرفها أما خطتي لا يعرفونها، لذلك كن مع الله تر الله معك، ولذلك إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك؟ ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيَّته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيَّته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطَّعت أسباب السماء بين يديه.

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

*** * ***

فهذه الآية آية عظيمة كثيراً:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً)

كيدهم مكشوف، وكيدهم فاسد ومخفق:

(وَأَكِيدُ كَيْداً)

كيدي هو المتين، إن كيدي متين.. لأنّه إله، ما يُعدُّه لهم لا يعرفونه:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً* فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

أمهلهم.. الأمر بيدك يا محمد، هو الأمر لك إلى أن ترى أن أصحابك صاروا صادقين مخلصين ينتهي أمرهم، وهذا الذي حصل.. فلمن كانت الغلبة؟!!

آيات قرآنية تؤكد أن المتقي لا ينتظر من الله إلا كل خير :

آية واحدة إن صدَّقت بها حُلَّت كل مشكلاتك..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

فجرِّب، إن المتقي هو الفائز وهو الرابح والناجح، والسعيد في الدنيا والآخرة، والمتقي لا ينتظر من الله إلا كل خير.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الملك: 22]

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: 9]

هذا الذي يستقيم على أمر الله ويخشى الله، لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، إن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمَّنته يوم القيامة.

كل أمرٍ في القرآن الكريم يقتضي الوجوب :

قال:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

إذا كنت مع الباطل فأنت زاهق مع الباطل، وإذا كنت مع الحق فأنت باقٍ ولذلك:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ *يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ *إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ* يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ* فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ* وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ *إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ *وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ *إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً* فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

كلمة (فلينظر) هذه اللام لام الأمرٌ، وينظر فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، الأمر إلهي والفعل المضارع إذا سُبق بلام الأمر يساوي فعل الأمر، فكلمة (فلينظر) أمرٌ إلهي، وكل أمرٍ في القرآن الكريم يقتضي الوجوب.

إعجاز الله في خلق الإنسان :

الذي يظن أن الأوامر محدودة؛ الصوم والصلاة والحج والزكاة وانتهى الأمر، هو لا يعرف كتاب الله، (فلينظر) أمر إلهي، من الذي عليه أن ينظر؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الإنسان معرَّف بأل، هذا الإنسان المعهود الكامل يقف على قدمين، فيه جهازٌ عصبي وفيه عظام، وعضلات، ودماغ، ونخاع شوكي، وعمود فقري، وقلب، ورئتان، وكبد، وكُليتان، ومثانة، وأمعاء دقيقة وغليظة، وفيه شرايين، وأوردة، وخلايا سمعية، وسمع، وبصر، وشم، وذوق، ونطق، وشعر، ورأس، ومفاصل، هذا الإنسان:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

ما أصله؟ هذا الماء الذي نعرفه جميعاً هو أصل الإنسان، كيف انقسم بعضه فصار عظاماً، وبعضه صار عضلاتٍ، وبعضه صار أوردةً، وبعضه صار أعصاباً، فكيف تخلّق القلب؟ كيف تخلّقت أغشيته الثلاثة وكيف انقسم إلى أذينين وبطينين؟ وكيف اتصل بالرئتين وكيف خرجت منه شبكةٌ متناهيةٌ في الدقة هي الشرايين والأوردة؟ وكيف غطّت مساحة الجسم كلّها شبكة أعصاب؟ كيف من هذا الماء المهين؟! كأن الله سبحانه وتعالى يقول: أيها الإنسان انظر إلى دقة تكوينك ثم انظر إلى أصلك، هل يعقل أن هذا الماء المهين هو وحده أصبح إنساناً سوياً:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

من منا ليس له أعصاب إذا أمسك دبوساً في أي مكان غرسه لا على التعيين يحس بالألم، فماذا يستنتج؟ يستنتج أن هناك شبكةٌ عصبيةٌ متناهيةٌ في الدقة تغطي كل ذرةٍ في سطح الجلد، فلو غرس الدبوس نفسه في مكانٍ آخر لخرج الدم فما معنى ذلك؟ أن هناك شبكة من الشرايين والأوردة متناهية في الدقة موزّعة على سطح الجلد، كيف الإنسان يتثاءب؟ وكيف يسعل؟ وكيف يعطش؟ هذه آليات بيولوجية، من صممها؟ يتعذَّر الآن زرع الرئة لاستحالة السعال، فلولا السعال لمات الإنسان، من جعل زغابات تتحرك نحو الأعلى باستمرار وتدفع كل شيء في الرئة نحو الأعلى، من جعلها كذلك؟ من جعل هذه الأسناخ الرئوية لو نشرت لأصبحت مساحتها مئتي متر مربع؟ من جعل هذا الشعر الذي على رؤوسنا، ربع مليون شعرة لكل شعرة وريد وشريان وعصب وغدة دهنية وغدة صبغية من جعل كل هذا؟

خلق الإنسان أكبر دليل على وجود الله سبحانه :

من جعل المفاصل؟ مفصل الرأس دائري، مفصل اليد أنسي، ومفصل الرجل وحشي، من جعل العظام بعضها مجوفاً وبعضها مستقيماً؟ ومن جعل عظم الفخذ له عنق، هذا العنق يتحمل مئتين وخمسين كيلو ضغط؟ لو الإنسان حمل خمسمئة كيلو فعنقا عظمي الفخذ يحتملان ذلك فمن صمم هذا التصميم؟ من جعل في العظم عصباً حسياً، من؟ حتى إذا صار للإنسان كسر لألمه الشديد يبقي رجله كما هي، وهذا ثلثا العلاج؟ من جعل الطحال مقبرة لكريات الدم؟ ومن جعل في كل ثانية يموت مئتان وخمسون مليون كرية حمراء تذهب إلى الطحال ويتحللوا إلى عواملها الأولية..

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الإنسان كيف يفكر وكيف يتذكر؟ فيه ذاكرة شمية، وذاكرة ألوان، وذاكرة سمعية، وذاكرة أرقام، كيف يتصور؟ وكيف يتخيل؟ كيف يحاكم؟ وكيف يفكر بالأساس؟ وكيف يطرح الفرضيات؟ وكيف ينتقل من المحسوس إلى المجرد؟ وكيف يستنتج القوانين والمفاهيم؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

هذا الإنسان السوي، مم خلق؟ كيف اكتسب علمه؟ وكيف الإنسان عرف أن في قلبه ثقباً مفتوحاً ثقب بوتال، هذا الثقب من فتحه في القلب؟ الطفل بالرحم، في الرحم لا يوجد هواء، ولا هناك رئتان، ولا نَفَس، من فتح ثقباً مؤقتاً بين الأذينين؟ لأنه لا يوجد رئتان، فلما تمت الولادة هكذا قال الأطباء قال: تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب في الوقت المناسب، ربنا عزَّ وجلَّ حتى يعلمنا بكل مليون طفل يجعل واحداً منهم ثقب قلبه مفتوح يعيش عشر سنوات وعمليته الجراحية تكلف سبعين ألف ليرة سورية، واحتمال نجاحها في المئة ثلاثون، ولإغلاق هذا الثقب، يد من تدخلت وأغلقت هذا الثقب:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الحكمة من خلق الحركات اللاإرادية :

انظر إلى الطفل، يغريه عصا يركبها، والبنت تغريها لعبة تحتضنها من الذي خلق هذه النوازع الأنثوية في البنات، ونوازع الرجال في الذكور، من؟ كيف علامات الذكورة تظهر ولماذا يخشن الصوت؟ ولماذا ينمو شعر اللحية عند الرجل ولا ينمو في المرأة؟ إذاً معنى ذلك يوجد مخطط، لماذا لا تفقد المرأة شعرها كلياً؟ من الذي يتحمل أن تصبح زوجته بدون شعر نهائياً؟ يخف شعرها، لكنها لا تفقد شعرها كلياً، يوجد مخطط:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الإنسان كيف ينام؟ ما هو النوم؟ لماذا القلب لا إرادي؟ والرئتان لا إراديتان؟ فلو أن ربنا عزَّ وجلَّ كلفنا بالتنفس فقط لم يعد نوم إطلاقاً، يصبح في حاجة ماسة للنوم، وإذا نام الإنسان يموت، فكيف ربنا جعل حركة الرئتين حركة نوبية تتم بتنبيه نوبي من غاز الفحم في البصلة السيسائية، كيف؟ مرة خطر في بالي خاطر لو أن الله عزَّ وجلَّ عطل هذا المكان مكان التنبُّه اللاإرادي للتنفس، تصورت حياة الإنسان مستحيلة، لا يوجد حل وسط، ينام فيموت، يصحو فيموت، إذ يموت تعباً، وإذا نام يموت اختناقاً، بعدما خرجت من الدرس قال لي شخص وهو طبيب: إن هذا مرض وموجود، فسألته: ما علاجه؟ قال لي: لا علاج له، ولكن الآن توجد حبوب تأتي من دولة أجنبية ثمنه غالٍ كثيراً، تأخذ كل ساعة ستة، سبعة، ثمانية، إلى السابعة من الحب وسمّى لي طبيباً مشهوراً أصيب بهذا المرض فاستعمله

شهرين، فيقوم بضبط أربع منبِّهات يقوم بضبطها في الساعة التاسعة، لأنَّه إذا لم يصح من نومه يموت، أخذ الحبة فيعيد ربط المنبه للساعة العاشرة، وأخذ حبة الساعة العاشرة فيعيد ربطه للساعة الحادية عشرة، والساعة الثانية عشرة، والساعة الواحدة كذلك، حضر ابنه وهو طبيب من دولة أجنبية فسهروا فرحانين بقدومه، وسهروا وتعشّوا، وناموا وقد ضبطوا المنبهات فلم يستيقظوا عليها، وعندما صحوا صباحاً وجدوا الأب قد مات. من الذي أراحك من التنفُّس؟!!

السمع والبصر وغيرها من آيات الله الدالة على عظمته :

من الذي أراحك من خفقات القلب؟ من أراحك من آلية الهضم، من؟ إذا كان الواحد هو الذي يضبط طعامه بنفسه، على أن يتركوه خمس ساعات لهضم الطعام، ويتتبع سير الطعام من المعدة للبنكرياس ثم بعد ذلك إلى المرارة، ثم العصارة والإنزيم الفلاني، ويصيح قائلاً: توقّف توقف لقد جعلتني أغلط، فمن يتحمل أن يهضم طعامه فقط، فأنت ما عليك إلا أن تأكل وتمشي، وتأكل وتنام، كل واضحك، أما الطعام على الله هضمه، آلية معقَّدة جداً، ساعة إفرازات من الفم وإفرازات من المعدة وإفرازات من الإثني عشر وإفرازات المرارة، والبنكرياس، والحركات اللولبية، مواد تحرِّك الأمعاء، ومواد محولة من شيء إلى شيء والامتصاص، من؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

هذا الإنسان السوي الذي هو ملء السمع والبصر، الذكي، الذي يتحرّك ويفكّر ويحاكم ويتصوَّر ويسمع، وإذا تكلم أحد معه من الهاتف يقول له: فلان، لقد عرفتك، كيف عرفته على الهاتف؟ عندك ذاكرة للأصوات، فعندما سمعت صوته وازنت بين صوته وكل الأرشيف الموجود في دماغك وقلت: فلان.

وإذا أعطاك أحد عطراً تقول: هذه الرائحة الفلانية فلديك ذاكرة للمشمومات، كذلك وعندك مركز قيادة آلي، تذهب من الدكان إلى البيت من دون تفكير، تمشي مع شخص وتتكلَّم معه تسليه ويسلّيك وأنت ماشٍ على الطريق، قيادة آلية وأنت مستريح.

حتى أعمالك اليومية، فإذا إنسان له مصلحة بعد فترة تنقلب أعماله إلى أعمال آلية، إذا أراد أحد أن يحلق ذقنه في الصباح هل يفكّر؟ من دون تفكير، يستطيع أن يحكي مع إنسان وأن يفكّر بموضوع آخر وهو يقوم بالعملية بمنتهى البساطة، انتقلت من مركز التفكير الإرادي إلى مركز التسيير الذاتي، حلاقة الذقن، تناول الطعام، ارتداء اللباس عملية معقَّدة، لكن تقوم بها بشكل لا إرادي، ربنا عزَّ وجل قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الإنسان ينظر، من جعل بالعين مادة مضادة للتجمُّد؟ الإنسان الذي يعيش بفلندا في أيام الشتاء قد تهبط الحرارة لأربعين تحت الصفر، أعلى درجة وصلت في فلندا ثمانية وخمسين تحت الصفر، في الصنبور يتجمَّد الماء، من وضع في ماء العين مادة مضادة للتجمُّد؟ لو الله نسي هذه فقط، وجاءت موجة من الصقيع فاستيقظ الناس صباحاً والكل عميٌ ليلاً ذهبت أبصارهم كلَّهم، لو الله نسي هذه فقط، ولكن لا ينسى شيئاً؟

الأذن والجلد والشعر من آيات الله الدالة على عظمته أيضاً :

من جعل ثقباً بين الأذن وبين تجويف الفم، نفير أوستاج، إذا سمع أحدنا صوتاً قوياً يفتح فمه فلا يحدث شيء لتوازن الضغط بين فمه وبين أذنيه، فمن جعل هذه الفتحة؟ فإن لم تكن هناك فتحة فأدنى صوت يحدث نصاب بالصمم، من جعل هذا الثقب؟ من جعل غشاء الطبل بهذه الحساسية البالغة؟ عشرون هزة بالثانية الواحدة أنت تسمعها، فمعنى ذلك جزء بالعشرين تحسُّ بها ثم يعود الغشاء إلى وضعه الصحيح ثم يهتزُّ مرة ثانية.

كل حرف تنطق به تسهم في صنعه سبع عشرة عضلة، فلو الكلمة من خمسة أحرف في سبع عشرة فتتحرَّك تسعين حركة عضلة، فإذا كان الدرس ساعة من الزمن فكم كلمة في هذا الدرس قلتها؟ قم بعدِّهم، فهل كنت تعلم أن كل حرف يسهم في صنعه سبع عشرة عضلة؟ ربنا عزَّ وجل قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

من جعل الجلد له مسامات؟ من جعل أن لكل شعرة عضلة؟ من جعل شعر الرأس يطول وشعر الحاجبين لا يطول؟ من الذي جعل في الأنف شعراً وفي الفم لا يوجد شعر، من الذي جعل شعراً في ظاهر اليد وفي بطنها لا يوجد شعر؟ من جعل الأظافر؟ لماذا لم يضع الله للشعر أعصاباً للحس؟ فتقول: والله ذاهب إلى المشفى. لماذا؟ سوف أقوم بإجراء عملية حلاقة، يحتاج لتخدير كامل، أو يصيح مولولاً، من أعفاك من أعصاب الحس في الشعر؟ وعملية تقليم الأظافر، وإلا أصبح كل واحد منا كالوحش، لماذا ألغى ربنا أعصاب الحس من الشعر وألغى أعصاب الحس من الأظافر؟

من وضع العين في هذا المكان بالذات؟ لماذا الحاجبان؟ لماذا الجفنان؟ لماذا الغدة الدمعية؟ لماذا الأهداب؟ لماذا؟؟ لماذا القرنية والملتحمة والقزحية والشبكية؟ لماذا هذه المطابقة المعقَّدة جداً؟

الأسنان والعظام من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

إذا كان الشخص جائعاً وعلى وشك الموت من الجوع ورأى خطراً ينسى جوعه، فمعنى ذلك أن الوجود لم ينته بعد، فإذا كانت السيارة ليس فيها وقود تتوقّف عن السير، أما الإنسان الجائع فلا يقف، فبإمكانه أن يعمل عشرين ساعة، فما هو الجوع إذاً؟ قيل هو نقص بعض المواد للمخزون في الكبد لا في الدم، فلو فحصنا دم جائع تجد أن النسب كاملة، الجوع إشعار للإنسان بأن المخزون نقص قليلاً بالمستودعات، أما بالشرايين نسب الغذاء ثابتة:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

انظر إلى الإنسان وأصله.. قليل من ماء مهين، مئتين وخمسون مليون حيوان منوي، يطلع منه الأسنان أقسى من الماس!! فميناء الأسنان أقسى من الماس، حتى العظام يتحمّل العظم مئتين وخمسين كيلو من ماء مهين!! فربنا يقول لك: انظر لوضعك الحالي، وانظر إلى أصلك:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

آيات أخرى دالة على عظمة خلقه سبحانه :

أصلك ماء، فهل الماء يصنع عظماً، أو يصنع في العين أربعمئة ألف عصب ضمن زمرة واحدة، أحياناً تجد في الجمجمة محجر العين فيه ثقباً، من هنا يخرج العصب البصري أربعمئة ألف عصب ضمن عصب واحد قطره مليمتر واحد، من جعل في الشبكية مئة وثلاثين مليون عصيّة؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

العين الصحيحة تشاهد ثمانمئة ألف لون، فإذا أخذنا اللون الأخضر فقط ودرجناه ثمانمئة ألف درجة العين تفرِّق بين درجتين.

قال لي شخص: الكلب يملك حاسة للشم مليون ضعف من حاسة الإنسان، والفأر يملك حاسة سمع ستة عشر ضعفاً من حاسة الإنسان، والصقر يملك حاسة بصر ثمانية أضعاف من حاسة الإنسان. فعلى رأي داروين أن الفأرة كانت إنساناً، فبحسب تصوّره المريض أن المخلوقات تطوّرت من الأبسط للأعقد، فعين الإنسان أبسط من عين الصقر بكثير، وأذن الإنسان أبسط من أذن الفأر، وشم الإنسان أقل بمليون مرة من شم الكلب، فهذه نظرية باطلة.

الحكمة من خلق الأبناء :

قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

مم خلق؟ خلق من ماءٍ، الله عزَّ وجل قادر أن يخلق البشر كلَّهم دفعةً واحدة، ويموتون دفعةً واحدة، لكن جعل لك ابناً من صلبك لترى كيف تم الخلق تحت سمعك وبصرك، فلا تحتاج لمعلّم، ماءٌ مهين، بعد تسعة أشهر جاءها المخاض للزوجة ولدت طفلاً له عيون، وله آثار حواجب، وله أهداب وأجفان، ووجه مستدير وعظام وآثار شعر ورقبة وحركة بسيطة ويتثاءب، يسعل، يعطس، أليس كذلك؟ يمص، يخرج إذاً الطريق مفتوح، وليس مغلقاً، يتحرَّك، يبكي، يضحك، إذا حرَّكت يدك ينظر إليها، إذا أشعلت له ضوءً ينظر، كائن تعرفه جيداً كان ماء مهيناً نزل من بطن أمه، لا تعلمون شيئاً، يعلم شيئاً واحداً وهو منعكس المص، فالمص عملية معقَّدة، يضع فمه على حلمة الثدي ويحكم الإغلاق ثم يشفط، من علّمه ذلك؟ لا تعلمون، هذه يعلمها الإنسان من دون معلّم حفاظاً على حياته، وبعد السنة يمشي ويتوازن، قبل ثلاثة أشهر ضعه في أحضانك واجعله يميل فإنه يميل معك، ولكن بعد ثلاثة أشهر إذا أملته عشر درجات يرجع كما كان فجهاز التوازن اشتغل عنده، إذا نام يحس على نفسه أنه نام يخاف، اشتغل جهاز التوازن، وبعد ذلك إذا رأى صورة رجل في المجلة يقول بابا، ليس عنده إلا بابا، ولكن بعد فترة يقول: هذا عم، أصبح هناك شخص آخر غير أبيه وبعد كذا سنة يقول: هذا رجل، فأول شيء كل إنسان أبوه، بعد ذلك هناك أبوه وعمه، وبعد ذلك هناك رجل، أي مفهوم الرجل. هكذا مفاهيمه، أنت لو راقبت كيف ينشأ عنده التفكير، إذا كان يمشي الطفل مستنداً على أريكة وتوجد في الطرف الثاني لعبة وهو يزحف زحفاً قبل أن يمشي، ثم إذا أراد أن يمشي للعبة لا يستطيع أن يمشي رأساً فتجده يرسم خطة مطوَّلة، يمشي على أطراف الحوائط إلى الطرف الثاني، فهذه المرحلة أعقد المراحل، توضّع عنده الهدف والوسيلة، له هدف هو اللعبة ومشى بعكس هدفه على الحوائط حتى وصل إليها، أنت فكّر في الطفل وكيف ينمو تفكيره وكيف تنمو حواسه ومداركه، يقول لك: بابا أح، أي أن يده قد احترقت، لكن بعد ذلك يقول: احترقت يده، صار عنده فعل، وفاعل، ومفعول به، وضمائر، تنمو.

خلق الإنسان من ماء مهين وسبب تسميته مهيناً :

قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

هذا الإنسان مغرور بنفسه يدَّعي تكبراً أن معه دكتوراه؛ طبيب، أو مهندس، أو محام لامع، أو تاجر كبير ولا يرى أن ربه قد خلقه من ماء مهين، الله سمّاه مهيناً لأنَّه خرج من عورة، ودخل في عورة، وخرج من عورة، ثلاث محلاّت، وسماه مهيناً فالإنسان يستحي به، ومنه خلق الإنسان، من جعل لهذه الغدة البروستات وهي المذهلة بعظمتها، وهي واقفة على مفترق للطرق، طريق الحالب، وطريق الخصيتين، إذا أراد البول أن يمر تغلق طريق الخصيتين وتفتح طريق المثانة، هذا البول حامضي فتفرز مادة قلوية من أجل أن تتعادل مع المادة الحامضية حتى لا يؤثّر البول بالمجرى، والآن الماء الثاني يريد المرور، فتغلق طريق المثانة لأن ماء المثانة نجس، فترسل مادة مطهِّرة، ثم مادة معطِّرة، وبعد ذلك مادة سكريّة، حتى تسبح فيها الحيوانات المنوية، فهذا الذي معه تضخُّم في البروستات، فالغدة قاعدة على مفترق الطرق تفتح هذا الطريق وتغلق هذا الطريق، فإذا فتحت طريق البول تفرز مادة قلوية، وإذا فتحت طريق الخصيتين تفرز مادة معقّمة، ومادة مطهِّرة معطَّرة، ومادة سكرية، تشتغل ثمانين سنة من دون أن تكل ولا تمل:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

الشرايين والمفاصل من آيات الله الدالة على عظمته أيضاً :

من جعل للشريان الأبهر دسّاماً لو تعطَّل يموت على الفور؟ هذا الدسام يسمح للدم بالمرور إلى الأعلى ثم يغلق، ثم يعاود الفتح والإغلاق، طبيب جرّاح فتح فلم يجد سوى كرية من اللحم صغيرة، خاف فلم يستطع أن يعرف ما هي حكمتها، ففتح قلب الحيوان فوجد شيئاً مشابهاً لها قصّها فلم يجد فيها حياة، فقال: هذه الوريقة عندما تفتح مع الشريان وحتى لا تشكّل مع جدار الشريان سطحاً تلتصق به فيوجد كرة بظهرها تشكّل نقطة تماس فترجع ولا تلتصق، كرية بين العشر ميليمتر تشكل بين الوريقة وبين جدار الشريان نقطتي تماس لا سطحي تماس:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

من جعل للإنسان إكسسوار، كل إنسان يقوم بإجراء عملية بقلبه يأخذون من رجله شرياناً كبيراً وفرعياً، من خلق هذا الشريان؟ فأول شيء يقومون بإجرائه فتح رجله ويأخذون هذا الشريان الاحتياطي من رجله، ويربطونه بقلبه، من جعل هذا؟ من جعل إذا شريان بالدماغ سد يفتح آخر بدلاً منه؟ الله سبحانه وتعالى، من جعل الجمجمة لها مفاصل ثابتة؟ لولا هذه المفاصل لكسرت بأتفه ضربة؟ انظر إلى جمجمة الخروف تجد فيها خطوطاً منكسرة وكالزجاج، هذه مفصل ثابت فعندما يتلقى الإنسان صدمة تتداخل بين بعضها وتمتص الصدمة بذلك، من جعل بين الدماغ والجمجمة سائلاً مثل أجهزة مص

الصدمات بالسيارة الزيتية، فإذا وقع الإنسان يأتي السائل ويأخذ الصدمة من جهة ويقوم بتوزيعها على كامل السطح، تكون من جهة سنتيمتراً فيوزعها فتصبح ربع المليمتر، من جعل الرحم بقرار مكين؟ بالوسط الهندسي تماماً بالمرأة؟ من؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

السبب والمسبب :

هذا أكبر درس لنا، ربنا عزَّ وجل يأمرنا:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

هذا الماء الدافق ألا يخرج بضغط؟ هل يوجد شيء يخرج باندفاع من دون ضغط؟ من خلق العضلات للانقباض وضغط السائل؟ من؟ دافق لا مدفوق، دافق رغم أنفك، لا رأي لك بتدفقه:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

هذا الآن كشفوا أن المركز العصبي الآمر لهذه العملية في الظهر، والترائب أعلى الرجلين، أصول الرجلين يقال لها ترائب، فيخرج أمراً من الصلب، وتنفيذاً من الترائب..

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

خلقه من ماء دافق، رأساً:

(إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

أين الدنيا؟ لا قيمة لها، مركز الثقل الآخرة:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

خلقه حتى لا يظن أن الماء هو الذي يخلقه، الماء سبب أما الخالق فهو الله عزَّ وجل، والدليل إذا كان ذكر وأنثى قد لا ينجبان وهما موجودان، وهناك حيوانات منوية ومبايض، ويجعل من يشاء عقيماً، فسيدنا آدم بلا ذكر وبلا أنثى ولا حيوان منوي ولا بويضة ولا شيء، والسيدة حواء من رجل، وسيدنا عيسى من أنثى هذه كل الأحوال، إما من رجل وامرأة، أو من غير رجل وامرأة، أو من رجل، أو من امرأة، فالخالق هو الله عزَّ وجل، هذا الماء سبب لكن المسبب هو الله، اللهم يا مسبب الأسباب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعلى 087 - الدرس (1-3): تفسير الآيات01- 03 ، التنزيه والتعظيم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1984-12-28

بسم الله الرحمن الرحيم

في القرآن الكريم كل مشتقات كلمة (سَبِّح) :

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى*وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى*فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)

هذا هو المقطع الأول، فكلمة: سَبِّحْ فعل أمر، وفي القرآن الكريم كل مشتقات هذا المصدر. المصدر من سَبِّحْ: سبحان، قال تعالى:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

[سورة الإسراء: 1]

وفي آيات كثيرة:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد: 1]

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

[سورة الجمعة: 1]

فجاء المصدر في:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

[سورة الإسراء: 1]

وجاء الفعل المضارع:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

[سورة الجمعة: 1]

وبقي فعل الأمر:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

التسبيح هو التنزيه :

ما معنى سبّح؟ فالأمر سَبِّحْ، والماضي سَبَّح ومن دون تضعيف سَبَحَ، فإذا قلنا سَبَحَ فلان في الكلام أي أكثر منه، وإذا قلنا: سَبَحَ فلان في الماء أي عام وانبسط، وإذا قلنا: سَبَحَ فلان في الأرض أي غاص في

أعماقها، إذاً السبح فيه معنى الجولان ومعنى التحرك وفيه معنى البعد، سَبَحَ القوم أي انتشروا، أما سَبَّحَ أي قال: سبحان الله، ومعنى سَبَّحَ: صلّى، فماذا تعني:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

قال بعضهم: التسبيح هو التنزيه أي نزّه ربك عز وجل عما لا يليق به. فأنت موجود والله سبحانه وتعالى موجود ولكن وجوده غير وجودك، أنت من عدم وإلى عدم، ولكن الله سبحانه وتعالى أزلي أبدي قديم، فإذا قلنا سبّح الله أي نزّهه عما لا يليق به من صفات البشر، إذا قلت:

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ*إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً)

معنى: سَبِّحْ: أي فسَّر هذه الآية تفسيراً يليق بذاته العلية:

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال: 3.]

معنى سَبِّحْ أي نزّه مكر الله عن مكر الخلق، لأن مكر الخلق شرير لكن مكر الله لصالح الخلق.

حيثما وردت كلمة العلم في القرآن والسنة فإنما تعني العلم بالله :

إذا قلنا:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[سورة السجدة: 13]

فإذا قلنا:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أي وجه هذه الآية توجيهاً يليق بذاته الرحيمة، التسبيح هو التنزيه، من يسبح الله عز وجل؟ هو الذي عرفه، إذاً كان في معنى التسبيح معرفة الله عز وجل، أعرابي جاء النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله جئتك لتعلمني من غرائب العلم، فقال عليه الصلاة والسلام: وماذا صنعت في أصل العلم؟ فقال هذا الأعرابي: وما أصل العلم؟ قال: هل عرفت الرب؟ فقال عليه الصلاة والسلام: رأس الدين معرفته، حيثما وردت كلمة العلم في القرآن والسنة فإنما تعني العلم بالله:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أي نزّهه عما لا يليق به، ومتى تستطيع أن تنزّهه عما لا يليق به؟ إذا كنت تعرفه، وإذا جاءك خبر سيء عن إنسان، فمَنْ ينفي هذا الخبر؟ من يعرفه، فإن كنت تعرفه تنفي عنه النقص، و إن كنت تعرفه تنفي عنه ما لا يليق به.

لا يستطيع رجل أن يُسَبِّحَ الله عز وجل إلاَّ إذا عرفه :

إذاً لا يستطيع رجل أن يُسَبِّحَ الله عز وجل إلاَّ إذا عرفه، لكن سبحان الله حينما تفرّغ هذه الكلمات من مضمونها، حينما يكون الناس في آخر الزمان، وهذه الكلمات العظيمة حينما تفرّغ مضمونها فيفهم الناس من:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أن تمسك مسبحة وأن تقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، والقلب ساه ولاه ليس هذا هو التسبيح، فالتسبيح هو التنزيه:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

هل نزّهت الله عز وجل عما لا يليق به، كيف أنزهك يا رب؟ يقول لك الله عز وجل: هل عرفتني؟ يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإذا فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، فليت شعري ماذا أدرك من جهل الله عز وجل، وماذا فاته من عرف الله؟ إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أي تعرّف إلى الله عز وجل كي تستطيع أن تسبّحه. فإذا قرأت:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: 8]

فإذا كنت مسبّحاً فتقول: ألهمها فجورها أي ألهمها أن عملها هذا فجور، وإن لم تعرف الله عز وجل تقول: الله ألهمها الفجور، ألهمها أن تفعل الفجور ثم حاسبها عليه وأدخلها النار. فإن كنت مسبّحاً تفهم قوله تعالى: ألهمها فجورها أي ألهمها أن عملها فجور، أي قيّم لها عملها، أي ضيّق نفس الإنسان حينما فعل السيئات فألهمه أنه فجور، وإن كنت لا تعرف الله عز وجل تفسّر ألهمها فجورها بأن الله سبحانه وتعالى ألهم النفس أن تفعل الفجور.

أصل الدين معرفة الله :

إن كنت تسبح الله عز وجل فتقرأ قوله تعالى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة الصافات: 96]

فتبحث عن تتمة الآية في السورة فتجد قوله تعالى:

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ*وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة الصافات:95- 96]

لذلك تقول: لا هذه الآية سياقها في التنبيه لعبادة الأصنام:

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ*وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة الصافات:95- 96]

إذا كنت تعرف الله عز وجل وتسبحه وقرأت قوله تعالى:

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

[سورة الأنبياء:23]

تقول: لا يسأل عما يفعل لعدالته، عدله يُسكت الألسنة، وإن كنت لا تعرفه تقول: لجبروته، من يستطيع أن يسأله؟ وشتان بين المعنيين، لذلك التسبيح هو التنزيه، والتنزيه لا يكون إلا بالمعرفة، و لذلك فمعرفة الله أصل ديني هكذا قال عليه الصلاة والسلام: معرفة الله أصلُ ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والفقر فخري، والقناعة حسبي، واليقين قوتي، والعلم سلاحي، والفقر ردائي، والرضا غنيمتي، وجُعلت قرة عيني في الصلاة، أصل الدين معرفته، المعرفة رأس مالي.

معانٍ أخرى كثيرة لكلمة (سبح) :

كلمة سبّح: إذا قلنا لطالب خذ شهادة عالية، فماذا يُفهم من هذا الأمر؟ أي اذهب إلى إدارة الجامعة وقدم استدعاء وقل امنحوني دكتوراه أم معنى خذ شهادة عالية أي ادرس؟ هذا الأمر ينطوي به أمر آخر، كلمة: سبّح: أمر إلهي ينطوي به أمر آخر وهو اعرف الله عز وجل كي تنزّهه، وكي تسبحه، وكيف تنزّهه، إن لم تعرفه فعندما يمضي جزء كبير من وقتك في معرفة الله، فمن أجل ذلك خلق الإنسان، خلقت السموات والأرض من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك، هذا أمر إلهي: سبّح أي نزّه، والتنزيه أن تقول: الله سبحانه وتعالى وجوده غير وجودنا، وسمعه غير سمعنا، وبصره غير بصرنا، وحلمه غير حلمنا، وفعله غير فعلنا، نزّهه عما لا يليق به، هذا معنى؛ وهناك معنى آخر يضاف إلى التنزيه هو التعظيم، سبح القوم أي انتشروا، سبح المرء في الكلام أي أكثر منه، سبح المرء في الماء أي عام وانبسط، سبح المرء في الأرض، سبحت الخيل أي: أسرعت. هناك معانٍ أخرى كثيرة لكلمة (سبح)، أي الجولان في ملكوت السموات والأرض، والتفكر في عظمة الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[سورة يونس: 67]

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ: أين أنتم ذاهبون؟ وإلامَ منصرفون؟ وما الذي يشغلكم؟ وما الذي ينجيكم؟ وماذا تستهدفون؟ فَأَنَّى تُؤْفَكُون، يقول الله عز وجل:

(كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

[سورة غافر: 63]

اعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة :

إن لم تفكر بآيات الله سوف تنصرف عنه إلى سواه. إن لم تفكر بالآيات التي بثها الله في الأرض، والتي بثها الله في السماء، وفي خلق الإنسان، وفي الحيوان، وفي النبات، إن لم تفكر بآيات الله؛ سوف تؤفك عنه، أي سوف تنصرف إلى سواه؛ إلى الدنيا.

فكلمة: سبّح: فعل أمر ينطوي به فعل أمر آخر، كأن تقول: خذ درجة علمية عالية، أي ادرس فهذه الدرجة لا تؤخذ أخذاً من عند البائع. يدرس الطالب، ينتسب في الجامعة إلى أن يستحق النجاح، يعطى عندها هذه الدرجة. فكلمة: سبّح أي اعرف الله كي تستطيع تنزيهه وكي تستطيع تعظيمه، لذلك اعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة:

((اِغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ))

[أخرجه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس وأحمد عن عمرو بن ميمون]

بادروا بالأعمال الصالحة:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

إذاً: سبّح: أي اعرف الله من أجل أن تعظّمه، ومن أجل أن تنزهه. وقال عليه الصلاة والسلام:

((حسن الظن بالله ثمن الجنة))

[ابن عساكر عن أنس]

كل من ظن بالله السوء لا يعرفه، الذي ظن أن الله سبحانه وتعالى خلق عباده ليعذبهم لا يعرفه، والذي ظن أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وليسوا كُمّلاً لا يعرفه. فهذا رسوله، يجب أن يكون هذا الرسول نموذجاً للكمال الإنساني، والذي ظن أن الله سبحانه وتعالى خلقنا عبثاً لا يعرفه:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

[سورة ص: 27]

الإنسان بين أمرين إما أن يعرف الله سبحانه وتعالى وإما أن يجهله :

الذي يظن أننا خُلقنا عبثاً كقوله تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[سورة المؤمنون: 115-116]

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

[سورة ص: 27]

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)

[سورة الأحزاب: 1.]

الإنسان بين أمرين: إما أن يعرف الله سبحانه وتعالى، وإما أن يجهله، فإذا عرفه عرف كل شيء، وإذا لم يعرفه لم يعرف شيئاً، وهو أشد الناس خسارة يوم القيامة. فسبح تعني: نزّه، ونزّه تحتاج إلى معرفة، قال الأعرابي: جئتك لتعلمني من غرائب العلم، قال: وماذا صنعت في أصل العلم؟ قال: وما أصل العلم؟ قال: هل عرفت الرب؟ وهو أصل العلم، لذلك فالإمام الغزالي ـ رضي الله عنه ـ قال: حيثما وردت كلمة العلم؛ فإنما تعني العلم بالله تعالى. لأن العلم بالله له ثمن باهظ، وله مقابل هذا الثمن نتائج مذهلة، نتائج العلم المادي أنه يبقى في الدماغ، فقد يحمل الإنسان أعلى شهادة، وقد يكون بخيلاً، وقد يكون قاسي القلب ودنيئاً، وقد يعرف الإنسان ربه فتسمو نفسه.

التفكر في ذات الله ممنوع ومحظور :

ثمن العلم بالله المجاهدة، جاهد تشاهد، ونتائجه باهرة، فلا يبقى العلم بالله في الدماغ، بل ينقلب إلى حلم، وإلى سمو ورحمة وحنان وعطف وإنصاف وعدالة ورقة قلب، ولذلك: " علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ".

لماذا (سبّح اسم) ولم يقل الله عز وجل: سبّح الله؟ لأن كلمة (الله) اسم الذات، ولا نستطيع أن نتعرف إلى ذاته، لكن نستطيع أن نتعرف إلى أسمائه، ولأن الكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى.

إذا أردت أن تعرف علمه فدونك الكون، وإذا أردت أن تعرف قدرته فدونك الكون، وإذا أردت أن تعرف رحمته فدونك المخلوقات. انظر كيف خلق الله في قلب الأمهات تلك الرحمة. اذهب إلى مستشفى الأطفال زيارةً، وشاهد كل أب وكل أم كيف يحرصون على ابنهم المريض؟ فمن أودع الرحمة في قلب الأمهات والآباء؟ الله سبحانه وتعالى.

رجل شديد عتيد يبكي، لأن الطبيب قال له: معه التهاب سحايا، قد لا يبكيه شيء؛ فبكى! إذا أردت أن تعرف رحمته فدونك الخلق. فهذا الكون تجسيد لأسماء الله الحسنى، وتستطيع أن تعرف كل أسمائه من خلال الكون. ولذلك ربنا عز وجل قال: (سبّح اسم)، ذاته لا تعرفها، تفكروا في المخلوقات، ولا تفكروا في الخالق فتهلكوا.

عندما يأتي الإنسان بميزان بقال مكتوب عليه (2) كغ، ويحاول أن يزين فيه شاحنة ثلاثين طناً، فيصبح هو والأرض سواء! وعندها لا يتهم أن مصنع الميزان سيء، بالطبع لا، بل إنك استعملته بغير ما أعدّ له. وعندمّا يفكر العقل البشري في ذات الله، ولا يفهم شيئاً ليس هذا عجزاً في العقل، ولكن سوء استعمال له. فالتفكر في ذات الله ممنوع محظور فتهلكوا.

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأعراف: 143]

كل أسماء الله الحسنى نستشفها من خلال الكون :

إذا ألقينا في فرن لصهر الحديد ورقة سيجارة، وقلنا ماذا حلّ بها؟ من الوهج تبخرت نهائياً، لم يبقَ لها أثر! تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا.

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أي تبحَّر في أسمائه الحسنى، ابحث عن اسم اللطيف، مرّ السحاب في السماء يؤكد اسم اللطيف، حينما يسقط سن الطفل في فمه، تعرف من خلال ذلك اسم اللطيف، مهما أوتي طبيب الأسنان من براعة لا بد من إبرة المخدر، ووضع الإبرة في اللثة يؤلم ألماً شديداً، أما ربنا عز وجل لطيف فلا يُحس الطفل بشيء إلا في فمه قطعة عظم، فالسن نزعه الله له بشكل لطيف، الهواء لطيف بيننا، وسيلة لنقل الضوء، وسيلة لنقل الحرارة، وسيلة لنقل البرودة، نقل للصوت؛ خفيف. كيف ترى طائرة في الجو! معنى ذلك: الهواء شيء له قيمة يحملها، وإذا مدّ أحدهم يده أثناء سير السيارة، يشعر بقوة كبيرة تدفعها نحو الوراء، إذاً هو شيء لكن لطيف. يمكن أن تعرف اسم اللطيف من الهواء؛ من سير السحاب، من استقرار الأرض، فالأرض لا تضطرب فليس لها صوت، وليس لها عادم دخاني يملؤها سواداً، وإنما حركة لطيفة بدون صوت، إذا أردت أن تعرف اسم اللطيف، فانظر إلى الثمار والفواكه، فترى معملاً بدون صوت تكون خشباً؛ تزهر؛ تورق؛ تثمر بلا صوت، إذا أردت أن تعرف اسم القوي قال: هناك ثقوب سود في الفضاء الخارجي، إذا دخلت الأرض إلى أحد هذه الثقوب تصبح كالبيضة بالضبط حجماً، أي

عشرة آلاف مليون مليون طن وزن هذه البيضة، لأن الضغط شديد جداً، اسم القوي، إذا أردت أن تعرف اسم العليم فاقرأ شيئاً عن خلق الإنسان،ثلاثة عشر مليون عصية في الشبكية في المليمتر المربع. كل أسماء الله الحسنى تستطيع أن تستشفها من خلال الكون.

مهما عرفت عن قدرة الله فالله أكبر ومهما عرفت عن لطفه فلطفه أكبر :

إذاً:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أقرب اسم للإنسان هو الرب، أي المربي العليم والحكيم، والمربي عطوف، والمربي غني، إمداد بالطعام والشراب، في الدرس الماضي في سورة الطارق ربنا عز وجل قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ *يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

هذه نعمة الإيجاد:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ *وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

هذه نعمة الإمداد. أوجدك من ماء مهين، وأمدك بالطعام والشراب عن طريق هذه الخاصة، خاصة نزول الأمطار وإنبات النبات:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

لماذا سبّح اسم ربك؟ لأنه أعلى. أعلى اسم تفضيل؛ أي لا نهاية لعلوه ولا نهاية لقدرته، بعضهم قال: كلمة الله أكبر الصلاة مفتاحها الطهور، وتحريمها التكبير، وحلّها التسليم، ما معنى كلمة(أكبر)، بعضهم قال: أكبر من كل شيء، وبعضهم قال: أكبر مما أعرف فمهما عرفت عن قدرة الله فالله أكبر، ومهما عرفت عن لطفه فلطفه أكبر، إذاً:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

أي لا نهاية لعلوه، فهذا الإله العظيم يُزهَد به؟! يُنصرف عنه؟! يعصى؟! سبحان الله.

الخالق له إرادة نافذة في الخلق أما المخلوق فيفعل لإرادة الخالق :

قال تعالى:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

الخالق غير المخلوق، فالخالق له إرادة نافذة في الخلق، أما المخلوق فيفعل لإرادة الخالق، فالله عز وجل خلقك، ولو شاء لما خلقك، أعطاك السمع والبصر، ولو شاء ما أعطاك السمع والبصر، أعطاك هذا الفكر:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

شخص وصل لمنصب عالٍ جداً قبل أربعين عاماً فأصبح وزير عدلية في الحكم العثماني، ثم تقدم به السن حتى إذا خرج من بيته لا يعرف كيف يعود، فتخبر زوجته مخافر الشرطة ليبحثوا عنه.

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ)

[سورة يس: 67]

هناك رجل أعرفه كان يحضر معنا هنا، توفي ـ رحمه الله ـ قبل وفاته بأسبوع ركب سيارته من معمله متجهاً إلى بيته فضاع عنه بيته، وبقي ساعة ونصف يدور حتى ذهب إلى بيت ابنه يسأله: أين بيتي يا بني؟!

أنت منفعل بإرادة الله عز وجل. أعطاك فكراً، ولو شاء لما أعطاك. أعطاك قوة. قطعة دم أقل من ميليمتر مكعب تتجمد في شريان في الدماغ. فهو شلل كامل؛ لا يوجد حركة مطلقاً. لي قريب أصيب بالشلل، فبقي في فراشه لا يتكلم ولا يتحرك. يده كقطعة لحم على بطنه لا يستطيع الحركة.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

من أعطاك القوة؟ من أعطاك البصر؟ من أعطاك السمع؟ فإذا أصابك طنين في الأذن تتضايق وتقول: معي التهاب يلزمني طبيب أذن، وإذا كان هناك غباشة في العين، ذبابة طائرة أمام عينك، فهناك بروتين داخل العين يتحرك مع النظر، فتتضايق من الذبابة الطائرة. أما إذا أغلقت القناة الدمعية فهذا شيء لا يحتمل. وإذا كان الإنسان قد جرحت يده، وانكشفت الأعصاب الداخلية، فإذا أكل سلطة يتضايق، أصبح هناك ألم. آلام الأسنان لا تستطيع أن تنام في الليل، وأثناء قلع الضرس ترى خيطاً أرفع خيط مرّ في حياتك، وهو خيط عصب السن، وهو الذي أقلقك طوال الليل!

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

فهو الخالق، أيعبد غير الخالق؟ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، (الذي خلق) أي حينما قال الله عز وجل:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

ما هي التسوية؟ خطر في بالي مثل، وأنا في طريقي إليكم: لو أن إنساناً عنده سيارة وعمّر مرآباً، فإذا كان أضيق من السيارة لا تدخل، وإذا كان أقصر من طولها لا يغلق، وإذا كان بمثل حجم السيارة فلا يفتح الباب، وإذا كان له رصيف ارتفاعه كبير لا تصعد السيارة، أو تعمل رصيفاً آخر يكون أعرض أو أطول. يعني أن تجد مرآباً يتناسب مع الحجم، تدخل إلى داخله، وتفتح الباب فيفتح، والرصيف مكسور، أي هناك تسوية؛ تناسب.

كل ما في الكون مدروس من لدن حكيم خبير :

ربنا عز وجل قال:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

الشمس بعدها عن الأرض بقدرٍ مدروس:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[سورة الرحمن: 5]

لو اقتربت لاحترقت الأرض، ولو ابتعدت لتجمدت! بُعد القمر عن الأرض بحسبان، فلو اقترب نصف المسافة لتضاعف المَّد ستين ضعفاً. أي لأصبح المَّد والجزر مئة وعشرين متراً، ولغمرت معظم مدن العالم الساحلية.

حجم الأرض تقدير حكيم عليم مسوٍّ. سرعة الأرض حول نفسها مسوّاة تتناسب مع طاقة الإنسان. اثنا عشر ساعة نهار، واثنا عشر ساعة ليل، فلو دارت أسرع، ولو ألغي القمر لدارت الأرض حول نفسها دورة كل أربع ساعات. معنى ذلك أن النهار ساعتان، والليل ساعتان، فهذا فتح المحل، والآخر أغلقه. والأول فتح، والثاني ذهب لينام؛ فوضى:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

حجم الأرض يتناسب مع طاقة الإنسان. دورتها حول نفسها تتناسب، دورة الأرض حول الشمس تتناسب(36) يوماً، والفصول تتناسب، والإنسان بحاجة لماء. فالماء موجود، والهواء له نسب ثابتة، فهناك نسب ثابتة؛ نسبة الأكسجين إلى الآزوت مسواة، أي مدروسة من لدن حكيم خبير.

كل شيء خلقه الله تعالى مذلل لخدمة الإنسان :

الجبال؛ فهناك جبال تكفي لتخزين المياه العذبة، ولولا الجبال لما خزّنت المياه العذبة. وهناك صحارى كافية لتحريك المنخفضات الجوية، وهناك سهول كافية لتأمين طعام البشر، وهناك بحار كافية لتخزين

المياه. فلو جعلت طبقات الأرض كتيمة سطحية، والنفوذة تحتية فلا يوجد آبار إطلاقاً، كيف تكون الآبار؟ الطبقة الكتيمة تحتية، والنفوذة سطحية.

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

إذا أردت بروتيناً فهناك غنم فيقال مثلاً: فلان مثل الغنمة، أي وديع (وذللناها لكم) وإذا أردت دجاجاً فهو مذلل، وإذا أردت الركوب من جهة إلى جهة:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

[سورة النحل: 8]

الآن يوجد صواريخ وطائرات جامبو، وسيارات فارهة جداً.

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 8]

كلام إله:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

من الذي خلق البترول؟ ومن الذي أعطاه هذه القوة الانفجارية؟ من خلق الحديد؟ ومن خلق الدماغ البشري ليخترع المحرك الانفجاري؟

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 8]

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

الله عز وجل خلق فسوى :

واسعة جداً، أي أن كل شيء يناسب شيئاً، فلو كانت الحرارة في الأرض مئة فوق الصفر لا أحد يعيش، أو مئتان تحت الصفر لا أحد يعيش، ولو كان محور الأرض أفقياً، أي موازياً لمستوى الدوران، فتبقى الأرض واقفة، فالأرض تدور هكذا، والشمس من هنا، فالنصف الأول للكرة شمس إلى الأبد، والآخر ظلام إلى الأبد. ولو كان المحور قائماً على مستوى الدوران؛ فالفصول ثابتة، فالمحور مائل قليلاً، فهناك ليل ونهار، وهناك اختلاف الليل والنهار:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة آل عمران: 19.]

واختلاف الفصول أيضاً بميل المحور:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

أنت تحتاج إلى خشب كي تشعله، فهناك أشجار تتخذ منها وقوداً، وتحتاج إلى خشب كي يكون في السقف، جعل الله أشجار الحور لهذه المهمة، وتحتاج إلى خشب لصنع الأثاث، فجعل الله خشب الزان لهذه المهمة، وتحتاج خشب للبيتون فهناك خشب الشوح، وإلى خشب الزان يكسر المسمار لها فائدة، خشب الشوح يختلف عن الزان، وعن السنديان، وعن الكندي، وعن المشمش، وعن الزيتون، فالله عز وجل خلق فسوى، فلو جعل لك طعاماً واحداً تملّه، فالأطعمة متنوعة، والفواكه متنوعة، فلو جعل المرأة تنجب ما دامت حية فهذا شيء لا يحتمل..

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

أي ليس لها حدود.

الكون كله مجال للبحث في الآية التالية :

لو جعل الماء ينكمش إذا تجمد فتنتهي الحياة من على سطح الأرض، فكل ما في الأرض ينكمش إذا تجمد عدا الماء؛ العنصر الوحيد الشاذ الذي إذا تجمد زاد حجمه، فقلّت كثافته، فطفا على وجه الماء. فلو أن الماء إذا تجمد زادت كثافته، وانكمش كلما تجمد المحيط غاص في الأعماق إلى أن تتجمد المحيطات كلها، فينعدم التبخر، وتنعدم الأمطار، وينعدم النبات، ويموت الحيوان، ويموت الإنسان..

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

هناك تسوية:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

الحيوان يمرض؛ فالله جعل له حشائش خاصة به. فالكون كله مجال للبحث في هذه الآية:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى *وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

مثلاً: التربة فيها مواد. فلو جئنا بماء وحللنا فيه السكر والملح، ومادة صابونية من مشتقات الصابون، وحللنا فيه ملح الليمون، وجئنا بأنابيب شعرية، فهل يعقل أن بعض الأنابيب يمتص الملح فقط؟! مستحيل. أو أنبوب آخر يمتص الماء مع السكر؟ مستحيل. أنبوب ثالث يمتص الماء مع ملح الليمون؟ مستحيل. هذه المواد ذابت في الماء، وأصبح المحلول منسجماً، والأنابيب غير عاقلة.

النباتات من آيات الله الدالة على عظمته :

أرض واحدة مزروعة، تفاحاً، وكمثرى، ودراقاً، وخوخاً، وعنباً، و طعم هذا يختلف عن ذاك، مع أن الأرض واحدة، والمواد واحدة، فالماء حلّ هذه المواد. فكيف أخذ التفاح الطعم السكري، وأخذ الخوخ الطعم الحامضي، والدراق أخذ هذا الطعم مع الماء الكثير، وأخذ التمر هذا الطعم الحلو، والبرتقال الحامض شيء، والحلو شيء، والليمون شيء:

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[سورة الرعد: 4]

هدى هذه الجذيرات، أي الأشعار الماصة في الجذر؟ أن تختار البوتاس والحديد والفسفور والكالسيوم، والجذر الآخر اختار هذه المواد:

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

أي وضع المواد الكافية لنمو النبات، وهدى الجذور لاختيار حاجتها من هذه المواد، أما في عالم الإنسان فهذه مستحيلة أن تخلط الملح مع السكر مع ملح الليمون في بناء واحد، وتضع أنابيب رفيعة جداً، وتتوقع أن يخرج من أنبوب ماء وسكر فقط، وماء وملح فقط، مستحيل..

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

الجذور من أضخم الموضوعات للتفكر :

مثل آخر: هذه البذرة؛ انظر إلى الجذور فهي من أضخم الموضوعات للتفكر، في غرام من البذور فيه سبعون ألف بذرة، كم هي متناهية في الدقة هذه البذور؟! ومع ذلك يرسمون على الغلاف وردة حمراء، وعلى غلاف آخر صفراء، وعلى غلاف آخر وردة مطبقة. فهذه البذور يخرج منها ورد مطبق، وهذه ورد أصفر، وهذه ورد أحمر، وهذه نرجس. من سيّر هذه البذرة حتى صار هذا النبات بهذا الشكل؟ له أوراق خاصة وجذع خاص، وله أشكال وألوان، وله طباع. فيقال: هذا يلزمه ماء كثير كل يوم، وهذا يلزمه في الأسبوع مرة واحدة، وهذا يحتاج إلى شمس، وهذا يحتاج ظل، وهذا يحتاج خيالات شمس، وهذا يلزمه حرارة، وهذا نبات في الغرف، وهذا تحت السماء، وهذا نبات يعيش في هذه البلاد، وهذا على السواحل له طباع، فكل هذه الطباع والألوان في هذه البذرة.

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

كيف أن أسماك السلمون تأتي من منابع الأنهار في أمريكا وتهاجر من منابع الأنهار إلى أواسط المحيط الأطلسي وتموت. كيف أن هذه المخلوقات الجديدة تعود إلى مسقط رأسها هناك، قال: تتجه أسماك السلمون من المحيط الأطلسي غرباً نحو أمريكا، وبعض الأسماك يأخذ زاوية نحو نهر الأمازون، لأنها ولدت في ينابيع نهر الأمازون، وبعض الأسماك تتجه نحو مصب الميسيسيبي لأنها ولدت في ينابيع نهر الميسيسيبي. من وجه هذه الأسماك وجهتها؟ هناك أسماك في نهر النيل تخرج من منبعه إلى مصبه، وتتجه غرباً إلى مضيق جبل طارق، ثم شمالاً على جانب إسبانيا، ثم تعبر بحر المانش، ثم شمالاً نحو بحر الشمال، وتعود كرّة ثانية إلى ينابيع النيل، من هداها؟

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه: 49-5.]

النحل من آيات الله الدالة على عظمته :

هذه النحلة؛ من علّمها أن تبني هذه الخلية؟ ومن علّمها الشكل المسدس؟ هذا الذي لا يترك فراغات بينية أبداً، من علمها؟ من علّم بعض النحلات أن تقف على الباب حارسات، ولا تسمح بدخول النحل إلى الخلية إلاّ إذا نطق بكلمة السّر؛ وإلاّ تقتل. لأن النحلة التي تنسى كلمة السّر تقتل! من علّم هذه النحلة أن تهوّي الخلية؟ تقف النحلات على بابي الخلية وتفعل بأجنحتها هكذا، فإذا كان هناك حرّ تعمل تهوية، وإذا كان برد تغلق الأبواب، فيصبح الجو دافئاً. من علّمها؟ من علّم النحلة أن للملكة طعاماً خاصاً، وهناك وصيفات خاصة بالملكة؟ تذهب الوصيفات لإحضار غبار الطلع ممزوجاً برحيق الأزهار هذا طعام الملكة الخاص، من علمّها؟ من علّم النحلة أن تقتل كل حشرة غريبة في الخلية؟ فإذا كانت هذه الحشرة فأرة لا تستطيع جرها ولا قتلها، فتغطيها بمادة شمعية تحفظها من الفساد، من علمّها ذلك؟ من علّم النحلة أنها إذا كانت محمّلة بالرحيق تعطي النحلات الآخر ما جمعته من رحيق، وتعود تواً إلى امتصاص الرحيق تارة أخرى من أجل كسب الوقت، فإذا كان آخر الموسم دخلت النحلة إلى مكانها في الخلية ووضعت الرحيق. من علّم النحلة أن ترقص؟ فمن نوع الرقصة تعرف النحلات الباقيات بُعد الأزهار عن النحلة، أي رقصة معينة واحد كيلومتر، رقصة أخرى أكثر من ذلك. فالنحلات يعرفن قبل أن يخرجن من الخلية بُعد الزهر عن الخلية من طبيعة رقص النحل!

من أعلم الملكة أنها سوف تلد ذكراً، تقف في مكان خاص للذكور تضع الذكر. وهناك امرأة معها دكتوراه في أمراض النساء والتوليد، وتزوجت وحملت، فهذه الدكتورة في أمراض النساء؛ هل تعرف

نوع المولود؟ ملكة النحل تعرف قبل أن تلد؛ ماذا سوف تلد؟ لذلك تقف في مكان النحلات العاملات تلد الأنثى، وتقف في مكان الذكور تلد الذكور وهكذا.

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه: 49-5.]

أمثلة كثيرة حول هذه الآية:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

الأشياء المذهلة في خلق الإنسان وخلق الحيوان وخلق النبات :

الطيور؛ فترى سنونو يعشش في أحد بيوت الصالحية، تذهب مثلاً إلى حارة الحنابلة في أحد البيوت العربية ترى سنونو معششاً. يأتي موسم الشتاء فيهاجر هذا السنونو إلى الجنوب، إلى بلاد أفريقيا. وأما في موسم العودة إلى الشمال. من أعلم هذا الطائر أنه يجب أن يأخذ هذه الزاوية ليصل فيها إلى دمشق؟ فإذا انحرف من أفريقيا درجة واحدة أصبح في مصر، ولو انحرف درجة أخرى أصبح في بغداد. فمن أعطاه الزاوية من أفريقيا ووصل إلى دمشق؟ ولو أخذ زاوية إلى المهاجرين فيرجع هذا السنونو إلى هذا البيت في الحنابلة الحارة الثالثة إلى عشه، ويكون قد قطع آلاف الكيلومترات من علْمه؟

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

أحياناً يمرض الحيوان فيأكل بعض الحشائش فيشفى، والشجرة تستهلك أوراقها فهي بحاجة إلى الماء، والماء حيوي لها. فإذا منعت عنها السقي تصفر أوراقها، أوراقها غير مهمّة تضحي بها من أجل بقائها، ثم تيبس عيدانها، وعيدانها غير مهمّة من أجل أن تبقى، ثم ييبس جذعها، وجذعها غير مهم من أجل أن تبقى، كل هذا حفاظاً على جذرها. لو لم يكن هناك خالق؛ فمنع عنها الماء فجف جذرها فماتت. تستهلك أوراقها ثم أغصانها، ثم أغصانها الكبيرة، ثم تستهلك ماء جذعها وتبقى محافظة على حياة جذرها. من علمها ذلك؟ من هدى هذا النبات إلى هذا؟

حللوا ورقة خضراء فوجدوها لها مسام، وهذه المسام تبقى مفتوحة شتاءً مغلقة صيفاً، فالشتاء فيه رطوبة مفتوحة. في الصيف هذه المسام تقترب من بعضها بعضاً فتغلق، ولذلك تحافظ الأوراق على نضارتها في الصيف، لأن المسام مغلقة. فمن هداها إلى ذلك؟ الله سبحانه وتعالى، قالوا: هناك غشاء بين الخلايا وبين الدم، فتصور مجموعة أبنية على اليمين، ومجموعة أبنية على الشمال، ومن الأرض حتى أعلى طابق غشاء يمنع دخول كل ما في الشارع إلى البناء؛ غشاء. فهذا الشارع فيه دم والأبنية الخلايا، وهذه الخلية بحاجة إلى غطاء، فتفتح فتحة أمام مادة البوتاس، فتذهب هذه المادة عبر الغشاء إلى الخلية، فإذا أخذت الخلية حاجتها، أغلق هذا الثقب، وكأن عقلاً كبيراً يخطط لتغذية الخلايا، فالدم فيه

كل شيء، فتأخذ البنكرياس حاجتها، والمرارة حاجتها، والكبد حاجته، والغدد الدمعية حاجتها، واللعاب حاجته، فكل عضو يجري فيه الدم يأخذ حاجته، وهنا يوجد مفرزات قلوية، أو هنا مفرزات غير قلوية، وهنا حامضية؛ حمض كلور الماء؛ مادة مهادنة. فهذه المواد التي تفرزها الغدد الصم من أين تأتي بالمواد الأولية؟ من الدم. فمن الذي يقول يا بنكرياس خذ من الدم مادة كذا وكذا؟ هو الذي خلق فسوّى، وقدر فهدى. هناك أشياء مذهلة في خلق الإنسان، وفي خلق الحيوان، وفي خلق النبات.

الله عز وجل هدى الكائنات لكل ما تحتاجه :

نقار الخشب طائر يعيش على دود ضمن أشجار الصنوبر، والغريب أن له منقاراً يزيد عن اثني عشر سنتمتراً، يقف هذا الطائر على جذع شجرة، ويثقب الجذع حتى يصل إلى الدودة التي تقع داخل الجذع ويأكلها. فهل عنده أشعة ليزر، أو أشعة تحت الحمراء ليعرف مكان الدودة؟ من الذي هداه إلى مكانها بالضبط؟ الله سبحانه وتعالى، النحل حينما تشرع النحلات ببناء البيت الشمعي السداسي، تبدأ بعض النحلات من هذه الجهة، وبعض النحلات من هذه الجهة، فيجتمعن على مسدس نظامي بينهما. فإذا أتيت ببلاطين وقلت للأول من جهة اليمين أن يبدأ، والآخر من جهة اليسار، فهل من الممكن أن يلتقوا على بلاطة نظامية؟ نصف بلاطة، أو ثلاثة أرباع. أما هذه النحلات فقسم يبدأ من هنا، وقسم من هنا فيجتمعان على مسدس نظامي، بدون أن يأخذوا قياسات مسبقة، فهل أخذوا عرض الخلية وقسموه؟ مستحيل؛ وإنما هناك تخطيط..

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

الإنسان عندما يأكل فوق حاجته يتراكم الشحم في جسمه، فيعمد إلى التنحيف، فيذوب الشحم الذي كان آخر ما توضع في جسمه. فمن أعطاه التوجيهات هذه، وأين آخر مكان توضع فيه الشحم؟ فهذا أول مكان يذوب منه الشحم، فهذا التخطيط تخطيط من؟ الشحم مدخرات غذائية، أحدهما دخل مكاناً وأصبح هناك مجاعة، فهذا الشحم ذاب كله، أو سيارة فيها بنزين وكل غلافها مهيأ لمستودعات احتياط، وكلما انتهى مستودع يفتح الآخر وهي ما زالت تمشي، فانتهى الشحم، فالجسم يستهلك اللحم، وانتهى اللحم يستهلك العظم، وكل هذا والدماغ هو هُو حفاظاً على هذا الدماغ، وهو الفكر المفكر. فالشحم يذوب، واللحم يذوب، والعظم يذوب، ويبقى الدماغ هو هو:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي)

[سورة مريم: 4]

الكون كله آيات على عظمة الله سبحانه :

غلام دخل على بعض الخلفاء، نظر الخليفة إليه فغضب، فالتفت إلى حاجبه وقال له: ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان، فقال هذا الغلام: أيها الأمير إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك ولكنه شرفني. أصابتنا سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم. فهذا تفكير علمي، أول شيء الشحم، ثم اللحم، ثم العظم، ثم الدماغ.

من الحقائق التي لا تصدق عن الدماغ، أن خلايا قشرة الدماغ تستعصي على السرطان حتى الآن. فلم تظهر في العالم كله حالة سرطان في خلايا قشرة الدماغ، مركز المحاكمة، والتذكر، والرؤية، والسمع، والبصر، والتخيل. قال له: أصابتنا سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي يدكم فضول أموال، فإن كانت لعباده فعلام تحبسونها عنا ونحن عباده؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا، إن الله يجزي المتصدقين. وإن كانت لنا فعلام تحبسونها عنا؟ فقال الخليفة: والله ما ترك لنا هذا الغلام في واحدة عذراً. إما أنها لكم أو لنا، أو لعباد الله..

على كلٍّ:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى *وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

لو نظرت إلى وكر النمل تجد مادة بيضاء ناعمة جداً على مدخل الوكر، إذا أخذتها وحللتها تجد أنها مجموعة رشيمات القمح. فالنمل يعرف أن في القمحة كائناً حياً إذا أصابته رطوبة نما، وإذا نمت القمحة في وكر النملة خربته. فأول ما يفعله النمل أنه يأخذ رشيم القمحة ويبقيه جانباً. من هدى النملة إلى هذه الحقائق في النبات؟ وإذا أخذ عدساً فبعض الحبوب لها رشيمان، فيأخذ رشيمين من الطرفين حتى لا يبقي مادة حية تنمو في وكره.

ولو دخلت إلى بيت فراشة فراقب بعد لحظات تدخل فراشة أخرى تحاول أن تدخل، فهذه الفراشة المؤنثة، وهذا ذكرها يتفقدها، من هداها؟ فالكون كله آيات.

التناسب في خلقه سبحانه :

الله عز وجل قال:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 2.]

آيات ما أكثرها في الكون فأنى تصرفون؟ فأنى تسحرون؟ أفلا تبصرون؟ أفلا تتذكرون؟ أفلا تعقلون؟ قليلاً ما تشكرون. فالإنسان إذا كان عاصياً لله فهو جاهل جهلاً قبيحاً، فصار:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى *وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

كلمة (خلق فسوّى) هو التناسب بين الإنسان والجو الخارجي. حرارة من خمس وثلاثين أو أربعين أو خمسين، أما أن تصبح ثمانين أو مئة تحت الصفر فلا يمكن. وهناك هواء، وماء، وطعام، وشراب، ومعادن، وأخشاب، ونار، وحديد، ووقود:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

البيضة مثلاً كل يوم هناك بيضة، فلو كانت كل شهر لأصبح ثمنها خمساً وعشرين ليرة سورية، أو كانت شجرة التفاح تحمل خمس تفاحات فقط، فيصبح ثمن الكيلو مئتي ليرة، فالكمية مناسبة، والحجم مناسب، والطعم مناسب.

والتفاح بكل ما فيه لو كان مرّاً لا أحد يأكلها، أو كانت ذات طعم طيب لكنها بلا غذاء لا يستفاد منها، أو لو توفر فيها كل شيء لكنها قاسية كالصخر فتحتاج لمطحنة بحص حتى تأكلها. إذاً هناك طعم ورائحة، وقوام ومرونة، وجمال ولون ونكهة:

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

وقطافها سهل، فلو كانت الشجرة شاهقة، أو مع الأرض مشكلة، فهي واسعة جداً.

التنزيه والتعظيم يحتاجان إلى معرفة والمعرفة رأس الدين :

الكون كله خلق فسوّى، والمخلوقات كلها قدّر فهدى. فهدى الجذور والخلايا، وتغذية الخلايا. فالعين تحتاج إلى مادة قلوية تأخذها من الدم، فمن أعلمها أن هذه المادة تفيد الدمع؟ الله سبحانه وتعالى، شيء أغرب من ذلك، أن جميع خلايا الجسم تتغذى عن طريق الشرايين والأوردة إلا منطقة واحدة في الجسم خلاف هذه القاعدة، وهي قرنية العين لأنها شفافة. فلو عمل ربنا شبكة شرايين في القرنية فكأنك تمشي وراء منخل، لكن ربنا جعل قرنية العين تتغذى بطريقة خاصة؛ طريقة الحلول. أول خلية تأخذ غذاءها وغذاء كل الخلايا، وينتقل الغذاء من خلية إلى أخرى عبر أغشية الخلايا حفاظاً على شفافية العين. من وضع في العين مادة مضادة للتجمد؟ الله سبحانه وتعالى. لذلك هذه الآيات؛ تفكرك في اليوم مما يؤكد لك هذه الآيات:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

فكر بأسمائه، وإياك أن تفكر بذاته! ومعنى سبح: أي نزّه وعظّم. نزّه عمل سلبي، وعظّم عمل إيجابي. والتنزيه والتعظيم يحتاجان إلى معرفة، والمعرفة رأس الدين، والهدف الأسمى من الحياة.

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

لا نهاية لعلّوه، ولا لكماله، ولا لرحمته، ولا لقدرته، فهو الأعلى سبحانه، أم كنت من العالين، لما وصف بعض المخلوقات أنهم من العالين، فربنا هو الأعلى الذي خلق، فهذه مشيئته، فأنت ليس لك مشيئة في الخلق. لو لم يخلقك الله فمن أنت؟ لا شيء!

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان: 1]

وللدرس القادم:

(وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى* فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعلى 087 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 3 -8 ، التيسير.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-01-04

بسم الله الرحمن الرحيم

شيءٌ واحدٌ ينتَظِمُ الخلائق كُلَّها :

أيها الأخوة الكرام، الأفعى تستطيعُ في الظلام الدامس أن تصِلَ إلى الفأرة وتأكلها، فمن هداها إلى ذلك؟ وضَعوا مادَّةً شَمْعِيَّة على عَيْنَيْها، ووضَعوا لها في غُرْفَةٍ فأرةً فاتَّجَهَتْ إليها رأساً إلى أنْ اكْتَشَفوا أنَّ هناك حُفْرَتَيْن صغيرتين في رأسِها تتحَسَّسان إلى الأشِعَّة تحت الحمْراء، فلما غُطِّيَت هاتان الحُفْرَتَان لم تهْتدِ إلى فريسَتِها! وبعضُ أنواع الدبابير تحفِرُ حُفْرَةً في الأرض وتصْطادُ جُنْدُباً، وتغْرز فيه سُماً في مكانٍ خاصٍ فَتُخَدِّرُهُ لِيَكون طعاماً طازجاً لِصِغارِها، وتأتي الأنْثى فَتَبيض إلى جانب هذه الطعام الطازج، ثمَّ تموت الأنْثى ويموت الذكر ويبْقى هذا الطعام الطازج إلى جانب هذه البُيوض الصغيرة التي حينما تخْرج من هذه البيْضات فتأكُلُ من هذا الطعام، قال تعالى:

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

وهذا الحَيوانُ المَنَوي دخل في بُوَيْضَة ولَقَحَها وانْقَسَمَت إلى آلاف الأقْسام في أيام، فَمَن هدى بعض هذه الخلايا المُنْقَسِمَة لِتَكون عموداً فَقَرِياً؟ ومن هدى قِسْماً آخر من الخلايا لِيَكون قلْباً؟ ومن هدى قِسْماً ثالثاً من الخلايا لِيَكون عضَلاتٍ؟ وقِسْماً رابعاً لِيَكون عِظاماً؟ وهذا سائِل شفاف في العَيْن؟ وتلك خلايا عَصَبِيَّة وجِلْدِيَّة وشَعْر ومَعي وأمْعاء؟ شيءٌ واحدٌ ينتَظِمُ الخلائق كُلَّها قوله تعالى:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

كُلُّ ما في الأرض يُنْبِئنا إلى زوال العالم :

قال بعض المُفَسِّرين: المَرْعى يُطْلق على كُلِّ نباتٍ تُنْبِتُهُ الأرض، فهو سبحانه وتعالى أنْعم علينا بِنِعْمة الخلق والإيجاد، وأنْعَم علينا نِعْمَةً أُخْرى هي نِعْمَةُ الإمْداد، فما قيمة الإيجاد لولا الإمْداد؟ قال تعالى:

(والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى)

المرْعى إذاً مُطْلق النبات، ثمَّ قال تعالى:

(فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)

معْنى غُثاءً أيْ جَعَلَهُ يابِساً، ومعْنى أحْوى أيْ مُسْوَداً، فالنبات ينتقِلُ من الخُضْرَةِ إلى الاصْفِرار ثم إلى الاسْوِداد، فَأوْراق الأشْجار مثَلاً بعد فصْل الخريف تُصْبِحُ سوْداء اللَّوْن، قال تعالى:

(والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى)

شيءٌ آخر يُسْتَنْبط من تسَلْسُل هذه الكلمات، وهي أنَّ الحياة إلى فناء، مِن خُضْرَةٍ نضِرَة إلى اصْفِرارٍ ودُبول، وإلى موتٍ واسْوِداد، وهكذا حياة الإنسان؛ من شباب واندِفاع وأحْلام إلى كُهولةٍ وشَيْخوخة ومَوْت، وكُلُّ ما في الأرض يُنْبِئنا إلى زوال العالم، غُروب الشَّمْس، ومجيءُ الخريف، وسُقوط أوْراق الأشْجار، قال تعالى:

(والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى)

البشارة الأولى أنْ يا محمد سوف نُقْرِئك القرآن أما أنت فلا تنْسى :

جاءَتْ أوَّلُ بشارَةٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، يرْوي بعضُ كُتاب السيرة أنَّ هذه السورة من أحَبِّ السُّوَر إلى سيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَحينما قرأ سبِّح اسم ربِّك الأعلى قال: اجْعَلوها في سُجودِكم ونحن في الصلاة نقول: سبحان ربِّيَ الأعلى، فقد كانت هذه السورة مِن أحَبِّ السُّوَر إلى النبي عليه الصلاة والسلام، الآن جاءَت البشارة الأولى، قال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى)

أيْ يا محمد سوف نُقْرِئك القرآن، أما أنت فلا تنْسى، بعضهم فَسَّرَ اللام: لا ناهِيَة، والبعض الآخر: نافِيَة، أيْ أنت لا تنْسى خبر، وفي تفْسير آخر إياك أن تنْسى، إذا قال الله عز وجل: لا تنْسى نهْياً، أيْ عليه أن يبْتَعِدَ عن أسْباب النِّسْيان:

شَكَوْتُ إلى وكيع سوء حِفْظي فأرْشَدَني إلى ترْك المعاصي

وأنْبأني بأنَّ العلم نـــورٌ ونور الله لا يُهْدى لِعاصي

* * *

لا تعْصِهِ في النهار يوقِظْك في الليل، قد ينْسَى المرْء بعض العِلْم بالمَعْصِيَة فالمعاصي تُنْسي، فَكِتاب الله عز وجل مهما يكون واضِحاً لَدَيْك، إذا خالَفْتَهُ تنْساهُ، وتُصْبِحُ في حِجابٍ عنه، لذلك الآية تحْتمل الوَجْهَين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: القرآن ذو وُجوه؛ له وُجوهٌ عديدة، سَنُقْرِؤُك فلا تنْسى؛ هذه بِشارةٌ لك يا محمد عليه الصلاة والسلام، حِفْظُهُ علينا بل عَدَّ بعضهم هذا مُعْجِزَةً لِرَسول الله عليه الصلاة والسلام، الإنسانُ الأُمِيّ يقرأ القرآن مرَّةً واحدة ثمَّ يحفظه؛ إنَّ هذا فوق طاقة البشَر، فهذا المُتَعَلِّم

يعود إلى القرآن لما ينْسى ثمَّ ينْسى، كيف حفظ النبي عليه الصلاة والسلام القرآن من أوَّلِهِ إلى آخره لِأوَّل مرَّة؟ قالوا: هذه بِشارة، وهي مُعْجِزة إنْ كانت اللام هنا نافِيَة، بمَعْنى خبر.

وإنْ كانت اللام هنا ناهِيَة، فهذا تأديبٌ لنا عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام؛ أيْ لا تفْعل شيئاً تنْسى معه القرآن الكريم، لو أنَّك خالفْتَهُ لنَسيْتَه.

النبي عليه الصلاة والسلام كان شُغْلُهُ الشاغِل الله فلِذلك لا ينْسى كلامه :

شيءٌ آخر في موضوع النِّسْيان، هناك قانون لو تتبَّعْنا موضوع النِّسْيان في عِلْم النفْس، الإنسان يتذَكَّرُ الشيء الذي يهْتَمّ به، هذه قاعِدَة، فلو أنَّ خطيباً أخذ رقم هاتِفِ خطيبَتِهِ، أنا أجْزِمُ أنَّهُ يحْفظهُ أوَّلَ مرَّة، ولا ينْساه أبداً، التاجر الذي عليه دَيْن ذاكِرَتُهُ هي الدَّفتر، فالشيء الذي تُحِبُّهُ وتهْتمّ له وتطْمحُ إليه لا تنْساه، ولو وعَدَك إنْسان بوَظيفة عالِيَة وأعْطاك رقْم هاتِفِه فأغْلبُ الظنّ أنَّكَ تحْفظهُ من دون كِتابة، وإنْ كنتَ مالِكاً لِمَحَلٍّ تِجاري تعرفُ ما تمْلكُ مِن بِضاعَةٍ مادَّةً مادَّة، تقول للغُلام: اِصْعَد للسقيفة على الرفِّ اليمين بَقِيَتْ لنا قِطْعَة فأنْزِلْها، ما هذه الذاكرة؟! هذا تأكيد أنَّ الشيء الذي تُحِبُّه ويَعْنيك لا تنْساه، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان شُغْلُهُ الشاغِل الله، فلِذلك لا ينْسى كلامه، فإنْ كانت على سبيل النفي فهذه قانون وبُشْرى، ولا ينْسى إلا من كان غير مُهْتَمٍّ بهذا الشيء، يُمْكن أن تسأل عن عُنوان شَخْصٍ وأنت لا تنْوي أن تُراسِلَهُ، فإذا بك تنْساهُ، فالنِّسْيان والتَذَكُّر موضوع ضَخْمٌ جداً يحْتاج إلى تَوَسُّع، ولكن مُلَخَّصُهُ أنَّ هناك علاقة عِلْمِيَّة بين التَذَكُّر وبين الاهْتِمام، وقُلْ لي ماذا تذْكر أقل لك بماذا أنت مُهْتَمّ؟ قال عليه الصلاة والسلام عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

قال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى*إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

أيْ قد تنْسى، والمُفَسِّرون في هذه الآية لهم مذاهب شَتى، بعضهم يقول: الله سبحانه وتعالى لِحِكْمَةٍ بالِغَة قد يُنْسي نَبِيَّهُ شيئاً، وهذا يحْدث، قال عليه الصلاة والسلام:" اللهم إنِّي بشرٌ أنسى كما ينسى البشر" حينها يكون النِّسْيان من الله عز وجل، كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى ألْقى على المؤمنين أمَنَةً نُعاساً يغْشى طائِفَةً منهم، هذا النُّعاس الذي أصابَهُم هو رحْمَة بهم، وكذلك قد ينْسى الإنسان شيئاً رحْمَةً به، والمؤمن يتَذَوَّقُ هذه الآية، قد ينْسى موْعِداً نِسْياناً قطْعِياً فلو ذهبَ إلى هذا المكان لكَان شَرّ كبير، يُنْسيهِ الله هذا المَوْعد، ويَمْحوهُ من ذاكِرَتِهِ نِهائِياً، ولا إثْمَ عليه.

مشيئة الله ليس فوقها مشيئة ولا شيءَ يحُدُّها أو يُعَطِّلُها أو يمْنَعُها :

قال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى*إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

أيْ إلا ما شاء الله أنْ يُنْسيك إياه فإنَّكَ تنْساهُ لأنَّك بشرٌ، المعْنى الثاني دقيقٌ جداً، أنَّ إرادة الله عز وجل ومشيئَتَهُ لا يُمْكن أنْ تُقَيَّد، هذا الموضوع يقودنا إلى موْضوعاتٍ أُخْرى؛ أحَدُهم سَمِع أنَّك إذا سافَرْتَ وتَصَدَّقْت فإنَّ الله سبحانه وتعالى يحْميك في هذا السفر، فأنت إذا تصَدَّقْتَ بمِئَة لسرة قبل السفر فهل عَطَّلْتَ مشيئة الله عز وجل؟! لا يُمْكن أن يحْدُثَ شيء؟! لا، ما دُمْتَ معه فإن شاء الله لا يحْدثُ شيء، لكِنَّك إنْ دَفَعْتَ الصَدَقَة ونسيتَهُ وانْحَرَفْتَ في السفر، ولو دفعْتَ هذه الصدقَة، مشيئة الله مُطْلقة، قد يقول لك إنسانٌ أنا زكَّيْتُ عن مالي، وله طُمأنينة قاطِعَة أنَّ مالهُ لا يتْلَف، فإذا به يفاجئ أنَّهُ تلف! فأنت إن دفعت الزكاة وأيْقَنْتَ أنّ المال لن يُتْلف، وأخذْتَ حُرِّيَتَكَ بأشْياء ثانِيَة؛ معْصِيَة، إنَّك لن تُقَيِّد مشيئة الله بهذه الزكاة، لا، مع أنَّك زَكَّيْتَ تأتي المُصيبة، لا تُمنعُ المصيبة إلا إذا كنتَ معه، حينها يحْفظك ويحْميك، فإذا دَفَعْتَ جُزْءً من مالك، هل بهذا المال تتعطَّلُ مشيئةُ الله عز وجل؟ لا، قال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى*إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

مشيئة الله ليس فوقها مشيئة، ولا شيءَ يحُدُّها أو يُعَطِّلُها أو يمْنَعُها، فهذه بشارة؛ نُقْرئك فلا تنْسى أيْ إياك أن تنْسى، وسَنُقرئك فلا تنْسى أيْ أنَّك مُهْتَمّ وهذا قانون، فهذه الآية بشارةٌ من الله أنّ حِفْظ القرآن علينا وليس عليك، وقانون لأنَّك مُحِبٌّ ومُهْتَمٌ ومُوَلَّهٌ بنا فلا تنْساه، ومُعْجزة إلا ما شاء الله، أيْ إلا أن تكون مشيئة الله قد قرَّرَتْ أنَّ النِّسْيان ضروري، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني))

[رواه مسلم في الصحيح عن يحيى بن يحيى]

فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام ينْسى فَمَن نحن؟ لكن نِسْيان النبي عليه الصلاة والسلام لِحِكْمَةٍ بالغة، وإذا كان المؤمن مُستقيماً على أمر الله يُنْسيهِ شيئاً يكون في ذلك الخير الكثير وقد يُنْسي أعْداءه كذلك، وفوق هذا وذاك النِّسْيان نِعْمة من نِعَم الله عز وجل، فَمن منا إلا وأخطأ مع إنسان خطأً إذا ذَكَرَهُ ذابَتْ نفْسهُ خجلاً، فَلَو أنَّ هذا الشُّعور يسْتمِرّ لانْقَلَبَتْ حياتنا جحيماً، لكن حِكْمة الله عز وجل أنَّ الإنسان ينْسى، فهذه المُشْكِلَة تنْساها بعد أسبوع، وتلك بعد أُسْبوعَيْن، وهذه بعد شهْر، فالنِّسْيان أكبر نِعَم الله عز وجل على بني البشر.

الشيءُ المُعْلَن معْلَنٌ أما الشيء المَخْفي فهذا هو الذي يعْرِفُهُ الله عز وجل :

ثمَّ قال تعالى:

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

كما قلتُ لكم في درْسٍ سابق أنَّهُ تبارك وتعالى يعْلم السِرَّ وأخْفى، فالجَهْر من باب أخْفى، والآن في المطارات هناك قَوْس إذا مَرَرْتَ ضِمنه فإنَّهُ يتحَسَّس للمعادن كالسلاح وغيره، فهذا الشيء مَخْفي ويتحسَّسُ له هذا الجِهاز فَكَيْف إذا أظْهر هذا المعْدن ولم تُخْفِهِ، فهل يحتاجون إلى هذه الآلة؟! يأخذونك فَوْراً، فإذا كانت الأشياء المخْفِيَّةُ تُكْشَف فالأخرى المُعْلَنَة من باب أوْلى، فالشيءُ المُعْلَن معْلَنٌ أما الشيء المَخْفي فهذا هو الذي يعْرِفُهُ الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

في الدرْس الماضي قال تعالى:

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

ما خَفِيَ عن صاحِبِك، وقد يُخْفى عنك أنت فلا تعْلم ما سيكون، كما قال الإمام علِي كرَّمَ الله وجْهَهُ؛ علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، هذا معنى أخْفى، وإنَّهُ يعلم الجهْر وما يخْفى، فالجَهْر معْروف، ولكن ما يخْفى عن الناس يعْلَمُهُ الله وما يخْفى عنك يعْلَمُه الله عز وجل، لأنَّهُ يعلم ما يخْفى فَمَشيئَتُه مطلقة.

الله عز وجل يحب أن نسْتَقِيم اسْتِقامَةً خالِصَةً من أجْله :

مثلاً سمِعَ أحدهم بمَجْلس العِلْم أنَّ الإنسان إذا اسْتقام على أمْر الله يُوَفِّقُهُ الله بحَياته فاسْتقام لا حُباً بالله، إنما حُباً بنَجاحِهِ في تِجارَتِهِ، يُلْغي كُلَّ المُحَرَّمات التي كان يرْتَكِبُها في تِجارَتِه وهو ينتظر التوفيق من الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: 30]

جاء هذا الإنسان لِيُطَبِّقَ ما سمِعَ ففوجئ رغْم اسْتِقامته! ما السبب، تأتي هذه الآية:

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

ربنا يعْلم سِرَّ هذا الإنسان، أنَّهُ استَقام كَوَسيلَةٍ من وسائِل الرِّبْح، لا حُباً في الله، ولا بما عنده، ولا بتَجَلّياته ونجاتِهِ من عذابه، ولأنَّ الله يعْلم السِرَّ وأخْفى عندئذٍ ربنا عز وجل يُؤَخِّر عنه التوفيق مُعالجَةً له، وكأنَّ الله عز وجل يقول: يا عبدي استَقِم من أجْلي لا من أجل أن تربْح، واستَقِم استِقامَةً خالِصَةً من أجْلي، قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

[سورة الزمر: 11]

مخْلِصاً، فلما الإنسان يأتي بآية من كتاب الله وهي قانون؛ مثلاً قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل: 97]

فإذا كان قد طبَّقَها من غير إخْلاصٍ وحُباً في سلامته، وحُباً في حياةٍ في الدنيا كاملة ومُرَفَّهَة، فإن طُبِّقَتْ هذه الآية بهذه النِيَّة فإنَّ هذه الآية لن تُطبَّقَ على هذا المُطبِّق لأنَّ مشيئة الله عز وجل لا تحُدُّها مشيئة.

البشارة الثانية التيسير :

مَثَلاً النائب في المجْلس النيابي له حصانة لكنّ الذي منَحَهُ الحصانة ينْزعها منه أحْياناً إن أساء اسْتِخْدامها، فهناك مشيئةٌ فوق مشيئته، فَمَشيئَةُ الذي منحَ الحصانة قد تُنْزَعُ منه، ثمَّ قال تعالى:

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

وهذه هي البشارة الثانية، التَّيْسير فاليُسْرى مُطْلَقَة، فالأصل أنَّ الله سبحانه وتعالى حينما خلق الدنيا وخلق البشر على هذه الأرض، وضَعَ لهم أهْدافاً، فالهَدَفُ من خلْقِهم أن يتعرَّفوا عليه من طريق الكَوْن، ببَساطة فِكْرِهِم، فإذا عَرَفوه استقاموا على أمْره، وإذا استقاموا على أمْره أقبلوا، فإذا أقبلوا عليه شعروا بلَذَّة القُرْب، فَعَمِلوا الأعْمال الصالحة لِيَزْداد إقْبالهم عليه، فإذا عملوا أعْمالاً صالحة أهَّلَتْهُم هذه الأعمال لِيَكونوا إلى الأبد في مقْعد صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِر، فهذا هو التخْطيط الإلهي لِخَلْق الإنسان، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

إذا تطابقتْ أهْداف العَبْد مع الهَدَف الذي خُلِقَ من أجْله تيَسَّرَتْ أمورُهُ :

إذا تطابقَتْ أهْداف العَبْد مع الهَدَف الذي خُلِقَ من أجْله تيَسَّرَتْ أمورُهُ، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

هذا العذاب لا معْنى له،

وقال تعالى:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

وقال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأعراف: 96]

وقال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة فصلت: 30]

وقال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة يونس: 62]

التيْسير في هذه الآية هو تيْسيرُ دَعْوة :

الأصل في الحياة أنَّ الإنسان إذا سار وفق الأُصول التي رَسَمَها الله عز وجل وباتَّجاه الهَدَف الذي رسمَهُ الله له، فإنَّ حياته تنْقلبُ يُسْراً لا عُسْراً، إلا أنَّه من شذَّ عن هذا الهدف وخرج عن هذا الطريق وأبْطأ في سُرْعَتِه فإنّ الله سبحانه وتعالى يتَّخِذُ من التَّعْسير عِلاجاً له، لأنَّ مُعْظَمَ الناس في هذه الحياة مُنْحَرِفون والله سبحانه وتعالى يَتَوَلى مُعالجَتَهُم عن طريق أمْوالهم أو أولادهم أو نِسائِهم أو أنفسهم أو إتْلاف مالهم، فَيَبْدو للساذج أنَّ الحياة كلُّها نَصَب وتعب، ولا راحَةَ لأحد! وسبحان الله هل خلقنا الله للعذاب! كما يقول بعضهم، هبْ أنَّك الْتَقَيْتَ بِصَفٍّ مُتَخَلِّف عقْلِياً ووجدْتَ كُلَّ الطلاب مُضَيَّق عليهم، فتقول ما هذا التدريس؟! هذه حالة اسْتِثْنائِيَّة خاصة بهذه الشُّعْبة، أما الأصل أنَّ الطالب كرامته وافرة وكذا راحته، ولذلك فمن السذاجة كما قلنا أنْ يظنّ الإنسان لما يعالج ربنا عز وجل بعض عباده بالتضْييق عليهم بالأموال والأولاد، وداخل ذلك يظنُّ أنَّ الحياة كلُّها عذاب! لا، الحياةُ كُلُّها يُسْرٌ لِمَن عرف الله عز وجل، فأوَّل شيء في هذه الآية أنَّ هذه بِشارة لسيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، ألم يقُم صلى الله عليه وسلم وحْدَهُ داعِياً، فما مضى رُبعُ قرْنٍ حتى تغَيَّر وَجْهُ الدنيا، فهذا هو التيسير، وهذا هو العطاء الذي لا ينتهي، وهذا هو معنى قوله تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء:113]

رجلٌ واحد خِلال خمس وعشرين سنة يُبَدِّلُ وجْهَ الأرض ويُبَدِّلُ الشقاء سعادة، والقلق طمأنينةً، والفقر غِنىً، قال له: يا عَدِيّ لعلَّ الذي يمْنعك من الدُخولِ في هذا الدين ما ترى من فقْرهِم وحاجَتِهم! وأيْمُ الله لَيُوشِكَنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلَّ الذي يمْنعُك من دُخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثْرة عَدُوِّهِم! وأيْمُ الله لَيُوشِكَنَّ أنْ تسْمع بالمرأة البابلِيَّة تَحُجُّ على بعيرها لا تخاف، ولعلَّهُ إنما يمْنعُك من دُخولٍ في هذا الدِّين أنَّك ترى المُلْكَ والسُّلْطان في غيرهم، فوَ الذي نفْسُ محمَّدٍ بيَدِه لَيوشِكَنَّ أنْ تسْمع بالقُصور البابلِيَّة مُفَتَّحَةً للعرب، هذا كلُّه وَقَع! ونُيَسِّرُك لليُسْرى، طبْعاً التيْسير في هذه الآية هو تيْسيرُ دَعْوة، فالإسلام انتشر رغْمَ كُلِّ العقبات و الصُعوبات ورغم أنَّ زُعماء قُرَيْش وَقَفوا له كالطَّوْد الشامِخ فما اسْتطاعوا، وتآمروا عليه فما اسْتطاعوا، وحاربوه فما اسْتطاعوا، قال تعالى:

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال:30]

النبي عليه الصلاة والسلام كان التيْسير طبيعَةً من طبائِعِهِ :

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً* وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

[سورة الطارق: 15-17]

فهذا أوَّلُ شيء أنَّهُ بشارة للنبي عليه الصلاة والسلام، فمادام يدْعو إلى ربِّه فإنَّ الله تعالى يتولى تيْسير أُموره في الدعْوة.

النبي الكريم عليه الصلاة والسلام كان التيْسير طبيعَةً من طبائِعِهِ، بعض الأحاديث الشريفة تُثبت ذلك، منها:عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا قَالَتْ:

((مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ وَاللَّهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قطُّ حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا]

وكان إذا خلا بِبَيْتِهِ فهو أَلْيَنُ الناس ضحاكاً بساماً، وكانت الجارِيَة تأخذ بيَد رسول الله فتنْطلق به حيث شاءتْ، وكان إذا دخل بيْته لفَّ ثوْبه حتى لا يُوقِظ أهْله، وكان إذا سجد اعْتلى ظهْره الحَسَن والحُسَين، فكان يُطيلُ السجود حتى لا يُزْعِجهما، وكان يقول لهما: نِعْم الجمَلُ جَمَلُكُما، ونِعْمَ الحِمْلُ حِمْلُكُما، وكذا في لِباسٍ فقد لبسَ العمامة والقلنْسوة والصوف والقطن والكتان والبُرد اليماني، والبُرد الأخضر، وجُبَّةً وقِباءً وقميصاً، وكان يلْبسُ خُفاً أو نعْلاً ورِداءً وإزاراً وسراويل، وكان يلْبسُ ما تيسَّر له من اللِّباس،

ولذلك قال علي رضي الله عنه: لا يكون الرجل قَيِّمَ أهْلِهِ حتى لا يُبالي أيَّ ثوْبَيْه لَبس، إذا كنت يسيراً في المُعاملة تكْتسب هَيْبَةً في المُعاملة، وإذا كان هناك تشْديد على أُمور تافِهَة تُنْتَقَصُ من مكانتك، أما إذا غَضِبْتَ لِمَعْصِيَة ارْتُكِبَتْ في البيت فاغْضَبْ ولا حرج فهو غضَبٌ لله عز وجل.

طعام النبي صلى الله عليه وسلم :

أما في طعامه فهذا رجل قال: لي صديق كان من أعظم الناس في عَيْني، وكان رأسُ ما عَظَّمَهُ في عَيْني صِغَرُ الدنيا في عَيْنَيْه! فكان خارجاً عن سلطان بطْنه، فلا يشْتهي ما لا يجد، ولا يُكْثر إذا وجد، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يردُّ موْجوداً في الطعام، ولا يتكلَّفُ مفْقوداً وما عاب طعاماً قطُّ في حياته، وكان يأكل الحلْوى والتمْر والرُّطب والعسل ونقيعُ التمْر، وبعضُ الفَسَقَة يشْربون النبيذ على أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام شربَ النبيذ، وقد كذبوا!

فالنبي عليه الصلاة والسلام ينْبُذُ بعض التمْرات في إناء الماء ويشْرَبُهُ صباحاً كَشَرابٍ حُلْوٍ؛ من المساء إلى الصباح تمْراتٍ يضعُها في إناء، هذا هو النبيذ الذي شربهُ النبي عليه الصلاة والسلام، وكان يأكل القثاء والخبز شعيراً أو غيره، والخبز بالخل فقط، وقد دُعِيَ إلى وليمة كانت بالخُبْز والخلّ! عَنْ عَائِشَةَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((نِعْمَ الْأُدُمُ أو الْإِدَامُ الْخَلُّ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا]

وقال عليه الصلاة والسلام: نِعْم الإدام الجوع، وعندها تأكل أيَّ شيءٍ وتراهُ طيِّباً، وكان يقول لو دُعيتُ إلى كُراع لأجَبْتُ - رجلاً خروف فقط - وكان يأكل القديد، فعَنْ أبي مَسْعُودٍ قَال:

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ]

وكان يأكل الدباء أي اليقْطين، وكان إذا لم يجد طعاماً بالبيت يقول: هل عندكم من شيء؟ يُقال له: لا، فيقول: إني صائِم! لا يردُّ موْجوداً في الطعام، ولا يتكلَّفُ مفْقوداً وما عاب طعاماً قطُّ في حياته، وكان ينام على السرير، وعلى الحصير، وعلى الفِراش، وينام على المِطاء - لوح خشب - دخل عليه عمر رضي الله عنه ورآهُ نائِماً على الحصير، وقد أثَّر الحصير على خَدِّهِ الشريف، فَبَكى عمر، فقال له: ما يُبْكيك يا عمر؟! فقال: رسول الله ينام على الحصير، وكِسْرى مِلِكُ الفُرْس ينام على الحرير! فقال له: يا عمر، إنما هي نُبُوَّةٌ وليْسَت مُلْكاً، أما ترْضى أن تكون الدنيا لهم، والآخرة لنا.

النبي عليه الصلاة والسلام كان في أعْماله يُسْرٌ :

كان يقول عليه الصلاة والسلام: فيما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

الدين أساسه يُسْرٌ، لا تُشَدِّدوا على أنفسكم فَيُشَدَّدَ عليكم، قيل لبني إسرائيل: اذْبحوا بقرة! فقالوا: ما لونها؟ صفراءُ فاقعٌ لونها، وما هي؟ مِن سؤال إلى آخر حتى أصْبحت البقرة التي أُمِروا بذَبْحِها منعدمة إلا عند واحدة، فَطَلَبَت ملأها ذَهباً، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

[سورة المائدة:101]

وقال صلى الله عليه وسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هل ألبس هذه الكنزة الأجنبيَّة؟ وهل وهل؟؟ قال عليه الصلاة والسلام: إنَّ المنبتَّ لا أرض قطع، هذا الذي يُكلِّفُ ناقته فوق ما تستطيع لا أرض قطع، ولا ظهْراً أبقى، أصابها الإعْياء فَقَعَدَتْ فقَعَدَ معها! والآن سيارات، إذا كَلَّفْتها ما تُطيق تنقطع عن السَّيْر، لقد كان عليه الصلاة والسلام في أعْماله يُسْرٌ، وكان يقول:

((يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

وكان يقول: كما عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحاً إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى))

[البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا]

وكان يقول عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ))

[أحمد عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ]

أحدهم قرأ حديثاً ولُغَتُهُ ضعيفة فقال: المؤمن كيسُ قُطْنٍ، فقيل له: ما معنى كيسُ قطن؟ فقال: هَيِّنٌ لَيِّنٌ! والحديث المؤمن كيِّس فَطِن حَذِر! وقال عليه الصلاة والسلام عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُؤْمِنُ مُؤْلَفٌ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ))

[أحمد عَن أبي هُرَيْرَةَ]

هناك شخْصٌ فظٌ غليظ، وإنَّ أبغض الرجال إلى الله الألد الخَصِم الذي له حِقْدٌ بِقَلْبِه، والنبي عليه الصلاة والسلام التقى بِرَجُلٍ فقال له: ما اسمك. فقال: حَزْن، فقال له: بل أنت سهْل، وجاريَة صغيرة قال لها: ما اسمك؟ فقالت: عاصِيَة، فقال لها: بل أنت جميلة، كان يُؤثر اليُسْر في الأمر كُلِّه، وإنَّ من المعْروف أنْ تلقى أخاك بِوَجْهٍ طلْقٍ.

معان متعددة للآية التالية :

قال تعالى:

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

هي بِشارة على أنَّ هذا الدين سوف ينتشر، وسوف تعْلو رايَتُهُ في الآفاق وسوف يصِلُ إلى الشرق والغرب، وسوْفَ تُفَتَّحُ لكم البلاد، فهذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني، فقد كان عليه الصلاة والسلام يؤثرُ اليُسْر في الأمر كُلِّه.

والمعنى الثالث، أنَّكَ إنْ أحْبَبْتَهُ، وأحْبَبْتَ النبي عليه الصلاة والسلام وصَلَّيْتَ عليه يُحْدِثُ في نفْسِك انْقِلابات لم تكن تعْرِفُها، قال تعالى:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الأعراف: 157]

لا بدّ من الإيمان الحقيقي لا الشكْلي :

الإنسان قبل معْرفته بالله عز وجل وصُحْبَتِهِ لِرَسول الله عليه الصلاة والسلام تكون نفسُهُ عبارة عن مجْموعة مُيول، تراهُ مُصِراً عليها، هذا الإصْرار على بعض الشهوات يزول وهذه الأغلال والشهوات التي تُقَيِّد صاحبها تزول بِمُجَرَّد أن تتوب إلى الله عز وجل وتعرف الله، تجد أنَّ تلك القوة التي كانت

تمْنعك عن الامتناع عن الدخان قد زالت! كلُّ شيء لم تسْتطع ترْكه يُتْرَكُ بسُهولة، أنا لا أستطيع غضَّ البصر، ولا أستطيع أن لا أغضب، اِسْتَقِم وسَتَرى! لكن لا بد من الإيمان الحقيقي لا الشكْلي، إذا اسْتَقَمْتَ اسْتِقامَةً حقيقيَّة وغَضَضْتَ بصرك وحَرَّرْتَ دخْلك وبررْتَ والديك وصَلَيْتَ وذكَرْت، تجد أنَّ أخْلاقك تغيَّرَتْ تغَيُّراً جذْرياً، وهذا ما تعْنيه هذه الآية:

(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الأعراف: 157]

الصادق هو الذي يعرف هذا الكلام، تشْعُرُ وكأنَّ جبلاً أُزيحَ عنك، فالمؤمن خفيف الظل والمحْمل والهموم، فَهُمومه كُلُّها عند الله عز وجل، قال: من جعل الهُموم هماً واحِداً كفاهُ الله الهُموم كُلَّها، دَبِّرْ أن لا تُدَبِّر، إذا كنت معي فأنا في حمْل زادي في غِنى، ليس لي إلا أنت يا ربّ وسَتَرى، كُنْ كما أُريد ولا تُعْلِمْني بما يُصلِحُك، وأنت تريد وأنا أريد فإذا سَلَّمْتَ لي فيما أُريد كَفَيْتُكَ ما تريد، وإن لم تُسَلِّم لي فيما أُريد أتْعَبْتُك فيما تريد، ثمَّ لا يكون إلا ما أريد، شَرْعُهُ يُسْرٌ.

المنْهياتُ أخطر من المأمورات :

اسْمعوا هذه القِصَّة، جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام أعْرابي يطْلب منه مسألةً فأعْطاه، وقال له: يا أعْرابي أأحْسَنْتُ إليك؟ فقال: لا، ولا أجْملْت، فَغَضِبَ المسلمون غضَباً شديداً وقاموا إليه، فأشار إليهم عليه الصلاة والسلام أنْ كُفوا عنه ثمَّ دخل منْزله، وأرْسل للأعْرابي عطاءً زائِداً وقال له: يا أعْرابي أأحْسَنْتُ إليك؟ فقال: نعم، وجزاك الله من أهْل وعشيرةٍ خيراً - فَمَن بدا جفا، وليس معنى بدا سكن البادِيَة، ولكن من ابتعد عن مجالس العِلم، طبعاً يُصبح كلامه قاسياً، فإذا حضر مجالس العِلم أصْبح ليِّناً - فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: إنَّك قلتَ ما قلت به من ألمٍ منك فلما كان الغد، جاء الأعْرابي فقال عليه الصلاة والسلام: إنَّ هذا الأعْرابي قال ما قال، فَزِدْناهُ فَزَعَمَ ما زَعَم أنَّهُ رَضِيَ، أفَهكذا يا أعْرابي: فقال: نعم، جزاك الله من أهْل ومن عشيرةٍ خيراً - القِصَّة انتهتْ - اِلْتَفَتَ النبي عليه الصلاة والسلام إلى أصْحابِهِ لِيُعَلِّمَهُم فقال: إنَّ مثَلي ومثَلُ هذا الأعْرابي كَمَثَلِ رجلٍ له ناقةٌ شَرَدَتْ عليه فَتَبِعَها الناس فلم يزيدوها إلا نُفوراً، فناداهم صاحبُ الناقة أنْ خَلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرْفُقُ بها وأعْلم منكم بها، فَتَوَجَّهَ إليها صاحب الناقة بين يدَيْها، فأخذ لها من زمامها فرَدَّها هوْناً هوناً حتى جاءت واسْتناخت وشدَّ عليها رحْلها، واسْتَوى عليها، وإني لو تَرَكْتُكم حيثُ قال الرجل ما قال فَقَتَلْتُموه دخل النار! هكذا كان يُعالِجُ أعْداءَهُ صلى الله عليه وسلم، وشَرْعُهُ صلى الله عليه وسلم يُسْرٌ في يُسْر، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لأنَّ المنْهياتُ أخطر من المأمورات، قال تعالى:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[سورة القمر: 17]

وقال تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة: 286]

وقال تعالى:

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

[سورة الحج: 78]

لو تتبَّعْنا أمور الشرْع لَوَجَدْنا أنَّ الشرْع كُلَّهُ يدور على الآية التالية :

الوُضوء في حال غِياب الماء، أو وُجود الأذى في الماء شُرِعَ التَيَمُّم والنبي صلى الله عليه وسلم تيَمَّمَ مرَّةً بِمَسْح اليَدَيْن إلى المِرْفَقَيْن، ومرَّةً بِمَسْح اليَدَيْن فقط، والصلاة قاعِداً تجوز، ومُضطجِعاً تجوز، وبالإيماء تجوز، فهل هناك يُسْرٌ أكثر من هذا؟! المُهمّ أن لا تنقطع عن الصلاة، وكذا في السفر شُرِعَ قصْرُ الصلاة في عَدَد ركعاتها، وقصْرُ الصلاة في الخوف نوعٌ آخر، فَقِبْلَةُ الخائِفِ هي جِهَةُ أمْنِهِ، وقِبْلَةُ المُسافر هي جِهَةُ دابَّتِهِ، والحائض لا تُصَلي تيْسيراً لها، والمريض والمُسافر لا يصومان، والحج من اسْتطاع إليه سبيلاً، والزكاةُ يُمكنُ أن تُقَدّم عَيْناً أو نقْداً حتى أنَّ الفُقَهاء قالوا: إذا تَزَوَّجَ الشابُ امْرأةً وكانت صغيرةً وخاف عليها أنْ يتْرُكها في البيت وحْدها له أنْ يُصَلي الأسْبوع الأوَّل كُلَّهُ في البيت لا في المسْجد رأْفَةً بها، وكذا الطلاق هو من التيْسير إذا اسْتحالَتْ الحياة الزَّوْجِيَّة، والخُلْعُ من التيْسير إذا كانت الكراهِيَّةُ شديدةً للمرأة أنْ تطلب الخلْع، فلو تتبَّعْنا أمور الشرْع لَوَجَدْنا أنَّ الشرْع كُلَّهُ يدور على قوله تعالى:

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعلى 087 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 8 -19 أهمية الذكر وطريق التزكية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-01-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية الأولى في درس اليوم سُبقت بآيتين يتصل معناها بهما اتِّصالاً وثيقاً :

أيها الأخوة الكرام، وصلنا في سورة الأعلى إلى قوله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى*سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى*وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى*الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى*ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى*وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى*بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى*إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى*صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)

لكن هذه الآية سُبقت بآيتين يتصل معناها بهما اتِّصالاً وثيقاً، فقال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى*إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى*وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى *فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى)

التذكير بآلاء الله ونعمائه صِنْفٌ من أصْناف الدعوة إلى الله :

هذه الآية الأخيرة لها علاقة بما قبلها، فما قبلها قوله تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى)

عبءُ الحفظ ليس عليك، ولكن علينا، أنت لا تنْسى وإنَّك مُوَفَّقٌ لغايتك، سنُيَسِّرُك لليسرى، الآن بعد حفظْتَ فلا تنْسى، وبعد أنْ بشَّرك الله عز وجل بتَيْسير دعْوَتِكَ؛ الآن فَذَكِّر إن نفعت الذكرى! وهو أمرٌ لسيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينسحب بالتبعِيَّة على كلِّ مؤمن فذكِّر، بماذا؟ بعَظَمَةِ الله، وعدالته، وبيَوْم الحساب وبأوامره ونواهيه، وبالدعوة إلى العمل الصالح، وبحِفْظ الأمانة والعهْد، طبْعاً الفِعْل إذا حُذِفَ المفعول به أُضمر! لو قال الله عز وجل: َذكِّر الناس بعَظَمَتي لصار التذكير محْدوداً، لكن فَذَكِّر بكُلِّ شيء! سواء عليك أعَرَفْتَ الناس بالله أم ذكَّرْتَهم باليوم الآخر، أم حَذَّرْتهم من عذاب النار، أم حَمَّسْتَهم للعمل الصالح، أم وقَيْتَهُم من المعصية؛ كُلُّ هذا تذْكير.

سيّدنا موسى فيما يُرْوى عنه أنه قال مرَّةً في المُناجاة: يا ربّ أيُّ عبادك أحبُّ إليك حتى أُحِبَهُ بحُبِّك؟ قال: يا موسى أحبُّ العباد إليّ تقِيُّ القلب نقِيُّ اليَدَيْن، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحَبَّني وأحبَّ من أحَبَّني

وحَبَّبَني إلى خلْقي، فقال: يا رب، إنَّكَ تعلم أنَّني أُحِبُّك، وأُحِبُّ من يُحِبُّك، فَكَيْفَ أُحَبِّبُك إلى خلْقك؟! قال: ذَكِّرْهم بآلائي، ونعْمائي، وبلائي! والفقرة الأخيرة من هذا الحديث القدسي: تُوَضِّح هذه الآية؛ أيْ ذَكِّرْهم بآلائي فإذا حَدَّثْتَ إنْساناً عن المَجَرَّة، وعن الشمس والقمر، وعن المُذَنَّبات والمسافات في الكون؛ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

هذا باب من أبواب التذكير وصِنْفٌ من أصْناف الدعوة إلى الله؛ ذَكِّرْهم بآلائي فإن ذَكَّرْتَهُم بالأرض وجاذِبِيَّتِها وحجْمها، وكُرَوِيَّتِها، ودَوَرانِها حول نفْسِها، ومَيْل مِحْوَرِها، ومائِها وبَرِّها وجبالها وأنْهارها، وإنْ ذَكَّرْتَهم بالنبات؛ أنواعه وأصْنافه وزُهوره وأشْجاره والمحاصيل والغابات، أشْجار الأخْشاب والزينة والحدود والفاكهة، والأشجار الدائمَة الخضْرة والمُتساقطة الأوْراق، والحِكْمة من خلْقِها، وطريقة قطْفِها وحصادِها.

التذْكير بالبلاء أيضاً صِنْفٌ من أصْناف الدعوة إلى الله :

وكذا إنْ ذَكَّرْتَهُم بالحيوانات؛ مليون نوع من السمك في البحار وأشْكالها؛ الأسْماك الكبيرة والصغيرة، والأسماك التي تنْشر بُقْعَة من الزيت حوْلها، وأسْماك الزينة، والأسماك الحِبْرِيَّة تنشر بقعة من الحبر تخْتفي بها، وأسْماك القاع، كل هذا ضِمْن فَذَكِّر إن نفعت الذكرى، وكذا لو ذَكَّرْت الإنسان بِخَلْقه؛ كيف أنه خُلِقَ من ماء مهين، وعضلاته وشرايينه وأعْصابه، وأوْرِدَته وأجْهزته المُتَعَدِّدة، كيف يُحاكم ويُفَكِّر ويتذكَّر؟ وكيف ينْبض قلبه؟ وكيف يتنفَّس؟ وكيف يهضم الطعام؟ وكيف يلقي الفضلات؟ فالتذكير بالآلاء هذه فقْرة، والتذْكير بالنَّعْماء، هذا الهواء الذي نسْتنشقه ما سرُّ ثبات نِسَبِهِ؟ الأوكسجين إلى الآزوت نِسَبٌ ثابتة، مع أنَّ بني البشر يتنفَّسون منذ آدم وحتى قِيام الساعة، والنبات يتنفس؛ فمن جعل هذه النِّسْبة ثابتة؟ ومن خلق حركة الرِّياح، جعل قطبين وخط استْواء، وصحارى، وجُزر، يقول لك: مُنْخَفَض مُتَمَرْكز فوق قُبْرُص، قُبْرُص لها وظيفة كبيرة في أمطار الشرق الأوسط، من خلق هذه النِّعَم؟ هذه كلها نِعَمٌ، وكذا البلاء؛ ذَكِّرْهم بالفيضانات والزلازل، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

[سورة الأنعام: 65]

الأمراض النفسية والهم والحزن والقلق، وأنواع الأمراض؛ الأمراض المُسْتَعْصِيَة والمُزْعجة، الفقر والضيق والإهانة، وهناك عذاب عظيم وآخر مهين، ذَكِّرْهُم، إذاً يا محمد ذَكِّر ويا أيها المؤمن ذَكِّر.

اختلف العلماء في تفسير كلمة (إن) بالذات :

لكنّ الآية تقول:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى)

اختلف العلماء في تفسير كلمة (إن) بالذات:

1 ـ كلمة (إنْ) شَرْطِيَّة أيْ إنْ نفعت الذِّكْرى فَذَكِّرْ بشَرْط أنْ تنْفَع :

بعضهم قال: هذه إنْ شرْطِيَّة، أيْ لا تُذكّر إلا إنْ نفعت الذكرى، من هذا التفسير يُستنبط أقوال كثيرة فَسَيِّدُنا علي قال: ما من أحدٍ مُحَدِّثٌ قوما حديثاً لا تبْلُغُهُ عُقولهم إلا كان عليهم فِتْنَة، هناك أثرٌ عن علي رضي الله عنه:

((قالَ عَلِيٌّ حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ))

[البخاري عن علي رضي الله عنه]

فإن كانت كلمة إنْ شَرْطِيَّة، أيْ إنْ نفعت الذِّكْرى فَذَكِّرْ، بشَرْط أنْ تنْفَع لذلك قالوا: من تكلَّم بالحِكْمَة لِغَيْر أهلها فقد ظلمها، ومن منعها أهْلها فقد ظلمهم، فهذا معنىً.

2 ـ كلمة (إنْ)ظَرْفية بمَعْنى حيْثُ أيْ فَذَكِّر حيث تنْفعُ الذِّكْرى :

هناك معنى آخر، وهي أنَّها بمَعْنى حيْثُ، أيْ فَذَكِّر حيث تنْفعُ الذِّكْرى أيْ كلما وجدْتَ فُرْصَةً ذَكِّرْ، وكلما وجدْتَ وسيلةً ذَكِّرْ، وكلما وجدْتَ قلباً واعِياً ذَكِّرْ، جُلوسك مع الناس فرصة للتذكير، وكذا إنْ زارك شخْصٌ، وإذا خدمْتَ شخْصاً خِدْمَةً، وأبْدى لك اهْتِماماً كبيراً فقَلْبُ هذا الشخْص مُهَيَّأ فما عليك إلا أنْ تُذكِّره، إذاً ذَكِرْ حيث وجدت فرصةً وقلباً واعِياً ووسيلةً! هذا المعنى الثاني من معاني إنْ، فالمعنى الأول شَرْطي أما المعنى الثاني ظَرْفي.

3 ـ بمَعْنى (إذْ) فالذِّكْرى تنْفع دائِماً :

المعنى الثالث:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى)

بمَعْنى: إذْ، فالذِّكْرى تنْفع دائِماً قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

بمعنى إذْ كنتم مؤمنين.

4 بمَعنى (قد) أيْ ذَكِّر فقد تنْفعُ الذِّكْرى :

المعنى الرابع: بمَعنى: قد، أيْ ذَكِّر فقد تنْفعُ الذِّكْرى.

إذاً فُسِّرَت بمَعنى إن الشرطية، وبمعنى حيث الظرفيّة، وبمعنى قد التي تُعرب حرف تحقيق إن جاءت قبل فعل الماضي، وتُعْرب حرف تقليل إن جاءت قبل فعل مضارع، وبمعنى إن الدالة على الثبوت، فأكبر مهمّة في الحياة أمام المؤمن أن يُذَكِّر عباد الله عز وجل بالله تعالى وعظمته عن طريق آلائه ونِعَمِهِ ونِقَمِهِ، فإذا ذَكَّرْتهم بآلائه يُعَظِّمونه، وإذا ذَكَّرْتهم بِنِعَمِهِ يُحِبُّونه، وإذا ذكَّرْتهم بِبَلائه يخافونه، فلا بد أن يجتمع في قلب المؤمن الخوف والمحبّة والتعظيم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحبّ الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي))

[رواه الترمذي والحاكم عن ابن عباس]

وهناك حديث آخر: "أنا جدّ كل تقي، ولو كان عبْداً حبشِياً ".

من أمر بمَعْروف فلْيَكُن أمرهُ بالمعْروف :

الآيات التي قبلها، ها قد أقْرَأناك فلا تنْسى، وها قد يسَّرْناك للِيُسْرى، فَذَكِّرْ التذكير مبْني على هاتين الآيتين، أو على هذين السَّبَبَيْن، فإذا الإنسان زَوَّدوه بِخُبراء، وأعْطَوْهُ دعْماً كافٍ ولم يتحَرَّك! نقول له: لم لا تتحرَّك؟! ها قد أقْرَأناك فلا تنْسى، وها قد يسَّرْناك للِيُسْرى فَذَكِّر إن نفعت الذِّكْرى، هذه الآيات إذا أردْنا أنْ نسْحَبَها قليلاً للمؤمن، ها قد عرفْتَ شيئاً من كتاب الله، وها قد يسَّرْنا لك عملك في الدنيا، فلماذا لا تُذَكِّرُ بنا؟! قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون)

[سورة البقرة: 152]

أبعد الناس عن الهداية في الأرض فرعون! قال تعالى حكاية عنه:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

ومع ذلك قال تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43-44]

فالإنسان لا ييأس، ذكروا أنَّ رجلاً أراد أنْ يعظ أخاه بقَسْوة فقال له: ولم القسْوة يا أخي؟! لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شرّ منك؛ أرسل موسى إلى فرعون! من أمر بمَعْروف فَلْيَكُن أمرهُ بالمعْروف.

أهمية الذكر كما ورد في القرآن والسّنة :

قال تعالى:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران: 159]

هذه الآية دقيقة جداً وينبغي أن تكون في قلب كلٍّ منا، وهل نؤاخذ بما نقول؟ قال له:

((فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْماً قَرِيباً مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حَتَّى بَلَغَ (يَعْمَلُونَ) ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!!))

[الترمذي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ]

لا يستقيم إيمان عبْد حتى يسْتقيم قلبه، ولا يسْتقيم قلبه حتى يسْتقيم لِسانه، فهذا الإنسان لا بد أن يكون ذاكراً لله عز وجل، دخل على سيّدنا عمر بن عبد العزيز وَفْدُ الحِجازيين يتقدَّمُهُم غُلامٌ صغير لا تزيد سِنُّه عن أحدى عشْرة سنة فَغَضِبَ سيّدنا عمر وقال: يا غُلام اجْلِس! ولْيَقُمْ من هو أكبر منك سِناً، فقال هذا الغُلام الصغير: أصلح الله الأمير، المرءُ بأصْغَرَيْهِ قلبه ولسانه، فإذا وَهَبَ الله العبد لِساناً لافِظاً، وقلباً حافِظاً فقد اسْتَحَقّ الكلام! ولو أنَّ الأمر كما تقول لكان من هو أحقّ منك في المجْلس.

((أمرني ربي بتسع؛ خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني - موطِنُ الشاهد - وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

من أعطاه الله إمْكانيات التذكير به فهذا فضْلٌ كبير منه :

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

((.. وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي ملأٍ ذَكَرْتُهُ فِي ملأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ..))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فإذا أعْطاك الله إمْكانيات التذكير بالله عز وجل فهذا فضْلٌ من الله عليك كبير، إذا أراد ربُّك إظْهار فضْلِهِ عليك، خلق الفضْل ونسَبَهُ إليك، والإنسان لا ينسى أهله وزوجته وأولاده وجيرانه وزملاءه وكل من يُصادف؛ فَذَكِّرْ إن نفعت الذكرى، فذَكِّر حيث نفعت الذكرى، أي في الوقت المناسب وفي القلب المناسب وبالكلام المُناسب، قال تعالى:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

[سورة الشرح: 7-8]

ذَكِّر إذْ نفعت الذكرى فالذِّكْرى تنْفع دائِماً، وذَكِّر بمعنى (قد) فقد تنْفع الذِّكْرى، العوام يقولون كلمة: اضرب هذه الطينة بهذا الحائط، إذا لم تُلصق تكون عبرة، فَهَمُّ المؤمن أن يدْعوَ إلى الله عز وجل قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة يوسف: 108]

ثمَّ قال تعالى:

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى*وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى)

ربنا عز وجل قال: الأشقى ولم يقل الذي لم يخْش، بهذه البلاغة صار الذي لا يتذكر هو الأشقى، والأشقى على وزْن الأفعل وهو اسم تفْضيل، أي الأشقى إطْلاقاً؛ الأشقى في الدنيا والأشقى في الآخرة، وفي تفكيره وفي حياته الزوجيّة ومع أولاده وتِجارته وتعامله ووظيفته، وفي خريف عمره، وساعة موته والبرزخ والآخرة، قال تعالى:

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى*وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى)

الذي يتذكر هو صاحب القلب الحيّ؛ وعلامة حياة القلب الخشية.

آيات قرآنية تبين حال القلب الميِّت الذي لا يذكر ولا يخشى :

القلب الذي ينبض بالحياة هو الذي سيتذكَّر، أما القلب الميِّت فلا يذكر، وربُّنا سبحانه يقول:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

[سورة النحل: 21]

ويقول تعالى:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

[سورة المنافقون: 4]

ويقول تعالى أيضاً:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ)

[سورة المدثر: 50]

ويقول تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[سورة الجمعة: 5]

الخشية أخصُّ ثمار العلم :

هذا القلب الذي لا يذكر هو قلب ميِّت، علامة الحياة الخشية، أخصُّ ثمار العلم الخشية؛ فإن لم تكن الخشية فالعلم إن وجد فلا قيمة له، سيَذَكَّر من يخشى؛ هذا الذي ينطوي على قلب حيّ علامة حياته الخشيَة فهو يذكر، وهذا الذي يعرض عن الحق هو الأشقى، ربنا عز وجل قال:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[سورة الانفطار: 13-14]

بعضهم يفهم هذه الآية أنّ إطْلاقها يبْقى مطلقاً، في نعيمٍ في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا هناك نعيم، ففي زواجه نعيم، وبين حَيِّه وجيرانه هناك نعيم، وله في الدنيا نعيم قبل الآخرة لأنه:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

هذا الإطلاق على إطْلاقه، النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يقول:

((الناس رجلان رجل بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله))

[الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر]

فلا يوجد حلّ وسط إما أن تكون سعيداً وإما أن تكون شَقِيّاً، إما أن تكون سعيداً بمَعْرِفَتِه والصلة به، وإما أن يكون المرء شَقِيّاً بالابتعاد عنه والجهل به:

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى*وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى)

تبْديل الكلمات بالآيات إعْجاز، بحَسْب تفْكير الإنسان الساذج يقول: سيَذَّكَر من يخشى ويتجنَّبُ من لا يخْشى! لما ربنا قال: الأشقى، فُهِمَ من هذا أنَّ الذي لا تنْفعه الذكرى هو الأشقى قاطبةً.

كلّ عطاء ينتهي بالموت ليس بعَطاء :

ثمّ قال تعالى:

(الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى)

فالكُبرى في أمدها، إنَّ أهل النار لَيَبْكون وإنهم ليَبْكون الدم، ولو أنّ السُّفن أُجْرِيَت في دموعهم لَجَرَتْ النار الكبرى في مُدَّتِها إلى الأبد، أكبر رقَمٍ يتصَوَّرُهُ ذِهْنُك ضَعْهُ صورة واجعل المخرج لا نهاية يكون العدد هو الصفر ألف ألف ألف ألف...! فأنت إذا كَسَبْتَ أكبر رقم إلى لا نهاية يصبح لا شيء، لو أخذت قلم حِبْر ووضعت حافَّتَه على كيس طحين فكم من ذرة ستلصق به؟ إذا كل ذرة طحين مليون مليون سنة، فكم في الكيس من مليون سنة؟ وكم في الكيسين؟ وكم لو قدرنا الموجود في القطر السوري؟ فالأبد أطول، ويصْعُب تصوّره، لما ربنا عز وجل قال:

(خالدين فيها أبداً)

[سورة الجن: 23]

لذلك كلّ عطاء ينتهي بالموت فهو ليس بعَطاء، الكريم لا يفعل هذا، مادام ينتهي بالموت فهو لا يُسمى عطاءً، سيدنا علي يقول: فلْيَنظر عاقل بعَقْله أنَّ الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا؟ من قال: أهانه فقد كذب، ومن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعْطاه الدنيا، لو أنَّ الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شَرْبة ماء، الدنيا جيفة طُلابها كلابها، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسْعى من لا عقل له! إنَّ أكْيَسَكم أكثركم للموت ذِكْراً، وأحْزَمَكُم أشَدَّكم اسْتِعْداداً له، ألا وإنَّ من علامات العقل التجافي عن دار الغُرور، والإنابة إلى دار الخُلود، والتَّزَوُّد بِسُكْنى القبور، والتأهُّب بيَوْم النشور، فالعطاء في الدنيا لا يُسَمى عطاءً:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ *وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ* وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً *وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)

[سورة الفجر: 15-20]

ولذلك قال ربنا عز وجل:

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

جَهَنّم صعبة وأصعب ما فيها الخلود فيها :

قال تعالى:

(ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

ثمَّ هذه للترتيب غير الزمني لِتَرْتيب الرتبة، دُخول النار صَعْبٌ جداً والأصعب من ذلك البقاء فيها إلى الأبد، الذي يصلى النار الكبرى، والأصعب من هذا أنه لا يموت فيها ولا يحيى! لا يموت فَيَسْتريح، ولا يحْيى فَيَسْتريح، لا يموت فَتَنْزاح عنه هذه العذابات ولا يحْيى فَيَرْتاح منها، جَهَنّم صعبة وأصعب ما فيها الخلود فيها:

(الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى *ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

الذي لا يخاف من كلام الله فَمِن كلام من سَيَخاف؟! إذا كانت هذه الآيات التي هي من خالق الأرض والسماوات لم تخلق في نفسه خوفاً فَمِما يخاف إذاً! لذلك قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى*وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

الفلاح أيْضاً مُطلق، نجح، وتَفَوَّقَ، سَعِد، الناس لهم مقاييس للنجاح، فَمَن حصَّل دخْلاً كبيراً قالوا: فلان نجح في حياته! وكذا ومن حصَّل منصِباً عالِياً، ومن كان ناجحاً في بيْتِهِ وأولاده ومع زوْجَتِه هذه كلها مقاييس البشر، قال عليه الصلاة والسلام:

((إنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

تطْهير النفس وتحْلِيَتها هو التَزَكي وهذا هو الفلاح :

ربنا عز وجل يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى*وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

الذي نجح وأفلح وسعِد وتفَوَّق وحقَّقَ الهدف، وسعِدَ إلى أبد الآبدين هو من تزَكَّى، أنظر إلى حال الناس في هذه الأيام، من مِن الناس يعْنيه أمر نفْسه؟ الناس جميعاً يعْنيهم أمر دُنياهم؛ بيْتُهُ واسع ومُزَيَّن، ومَرْكب نقْل مُريح وفَخْم، ويحْتاج إلى دخْلٍ كبير، ولا بد أنْ يسَرّ بالحياة، ولبسٌ جيّد ومظهر لائق، ووقت فراغ غَنِيّ بالنزهات والسهرات! من الذي يعْنيه أمْر نفسه؛ قد أفلح من تزكى! كُلّ هذه المظاهر

المادِيَّة تنْتهي بالموت مهما عَلَوْتَ في الدنيا، ومهما كَثُرَ مالك، مهما غُصْتَ في نعيمها، يأتي الموت فَيَسْلُبُك كُلّ هذه المُتَع والمسرات والنعيم في ثانِيَة واحدة، لكن الفلاح والنجاح أن تتزَكى، ما معنى تتزَكى؟

قال بعضهم: قد أفلح من تزكى؛ أيْ مَن طَهَّرَ نفسه من الأدران الخبيثة لأن أمْراض الجسد تنتهي بالموت! لكن خَطَرَ أمراض النفْس يبْدأ بالموت، واحدٌ مُتَكَبِّر وحقود وحسود لئيم، يُحِبّ ذاته، ويقبل أن يبني مَجْدَهُ على الآخرين، وثَرْوَتَهُ على فقْر الآخرين، وأن يبني نفسه على إتْلاف الآخرين، وهو في الدنيا مُخَدَّر، الناس نِيام إذا ماتوا انتَبَهوا، فهذا الذي تزكى طَهَّر نفسه من كُلّ الأدران والمُيول المُنْحَرِفَة ومن كُلّ الشهوات والنقائِص فقد أفلح، ومن معاني التزكية أيضاً التَحَلّي بالكمال والتخلّي عن الانحرافات، فلا بد من تحْلِيَة وتَخْلِيَة، فالصباغ قبل أن يغمس القماش في الدهن يقوم بِتَنْظيفه، فإن كان في القُماش مواد زَيْتِيَّة فالصِّباغ لا يعْلق ولا يؤثر فيه، فلا بد من تحْلِيَة وتَخْلِيَة، لا بد من تطْهير النفْس من الأدران، ثمّ تَحْلِيَتِها بالكمال، فالتطْهير والتَّحْلِيَة هو التَزَكي، وهذا هو الفلاح، لأنَّهُ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، هذا الجُمود الكبير الذي يبْذِلُهُ الإنسان في الدنيا كي يُطَهِّرَ نفسه من كُلّ دَرَنٍ وعُجْبٍ وشِرْكٍ واسْتِعْلاء وكِبْر وحِقْد وضغينة وأثَرَة وحُبِّ الذات؛ هذه الجُهود يرى ثَمَرَتَها عند الموت قال تعالى:

(سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

[سورة يس: 58]

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

[سورة الحجر: 46]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)

[سورة الحاقة: 19]

الجَوْهر أنْ تعْرفَ الله وأن تكْسَبَ حياتك :

قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[سورة الذاريات: 17]

هذه الآية واضحة ولكن هل أنت في مُسْتَواها؟! هل لك رؤيَة تنطبق على هذه الآية؟ إنْ كانت لك رؤية خِلاف هذه الآية... فإذا رأيتَ إنْساناً حَقَّقَ دخْلاً كبيراً جداً فهل تقول: هذا هو الفالح! أين الآية إذاً؟! قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة القصص: 79]

من لم تكن له رؤية مُطابقة لِهذه الآية فَحالُهُ خطيرة ولو فَهِمَها وحفِظَها وقرأها وتلاها في الصلاة، ليستْ العِبْرة أن تقرأ الآية إنما أن تعيشَها وأن تكون في مُسْتواها، أن تنطبق رؤيتك عليها؛ قد أفلح من تزكى، لذلك سيّدنا الصديق ما ندم على شيء من الدنيا فاته قطّ! فالحياة مُؤَقَّتة، فإذا اختار الله لك أن تكون مُوَظَّفاً ودَخْلُك محْدود فارْضَ بهذا، المُهمّ أن تكون صِحَّتُكَ طيِّبَة، وإيمانك جيّد، وحياتك مُسْتَقِرَّة وهادئة، كل متاع الدنيا ليس هو جوْهر الحياة؛ الجَوْهر أنْ تعْرِفَ الله، وأن تكْسَبَ حياتك.

فَلَيْتَكَ تَحْلـو والحياةُ مريـرَةٌ وليْتَكَ ترْضى والأنام غِضاب

وليْتَ الذي بيني و بينك عامـرٌ وبيني و بين العالمين خراب

إذا صَحَّ منك الوَصْلُ فالكُلّ هَيِّنٌ وكُلُّ الذي فوق التراب تُرابُ

* * *

طريق التزْكِيَة :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى*وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

كيف تزْكو النفْس؟ إذا ذكَرْتَ اسم الله فَصَلَّيْت، هذا طريق التزْكِيَة، فعلى الإنسان أن يعرف أسْماء الله الحُسْنى، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأعراف: 180]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْماً مئة إِلَّا وَاحِداً لَا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هل عَرَفْتَ رحْمَتَهُ ولُطْفَهُ وقُدْرَتَهُ وحِكْمَتَهُ ورأفته؟! ماذا عرفْتَ عنه إذاً سبحانه؟! إذا رأيْتَ بلاءً تقول: والله شيءٌ مُحَيِّر! أنت إذاً لا تعرف الله، وتقول: فلان يمشي على الطريق المُستقيم وكُلّ يوم مُصيبة، وفلان طريقه مُعْوَجَّة ومُرْتاح، كان هذا دليلاً على عدم معْرِفَتِك لله تعالى! كأنَّك تشُكُّ في حِكْمَتِه وعدالته، قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

لا تزكو النفسُ إلا بمعْرفَة الله والإقْبال عليه :

لذلك لا تزكو النفسُ إلا إذا ذكر صاحبها اسم ربِّهِ فَصلّى، فَمَنْ ذكر اسم ربِّهِ فقط لا تزْكو نفْسُهُ، فلا بد من معْرفَة الله والإقْبال عليه، فالمعْرفة من دون تَحَرُّك لا قيمة لها، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات: 50]

المعْرفَة تحْتاج إلى تَحَرُّكٍ نحو الله عز وجل، حسناً ما هي العقبات التي تقف بين الناس كي يُحَقّقوا النجاح والفلاح؟ وبين أنْ يُحَقّقوا هذا الفلاح والتَفَوُّق؟! وبين أن يُزَكوا أنفسهم؟ وبين أن يذكروا اسم ربِّهم فَيَتَّصِلون به؟ ما العقبات؟! قال تعالى:

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

تُؤثِرون الدنيا العاجلة على الآخرة الباقِيَة، تُؤثِرونَ عَرَضاً سخيفاً قليلاً تافِهاً ومُؤَقَّتاً على جنَّةٍ عَرْضُها السماوات والأرض، فالله عز وجل عَرَّفَ الفلاح وطريقهُ وبيَّنَ عَقَباتِهِ، عَرَّفَ الفلاح وهو التَزَكي؛ تطْهيرُ النفْس من الأدْران وتَحْلِيَتُها بالكمال تهْيئاً لها لِتَكون في جوار الله عز وجل إلى أبد الآبدين، وطريق هذه التزْكية أن تعرف الله وأن تتصِلَ به، والعَقَبَةُ هو الدنيا، الدنيا هي رأس كلِّ خطيئة، وحُبُّكَ الشيء يُعْمي ويُصِمّ.

الآخرة خير وأبقى :

ثمَّ قال تعالى:

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

ربنا عز وجل يُقَدِّم لكم هذه النصيحة! لو قُلتَ لِشَخْصٍ هل تقبل ألف ليرة بالشَّهْر أم خمسة آلاف دفعة واحدة ولا يوجد بعدها شيء؟! فهذا الخِيار يجْعله يرى للبعيد وتراهُ يُقَدِّم الدفعة الشهرية على الدفعة الواحدة المُنْتَهِيَّة!! والآخرة خيرٌ وأبقى، ليس فقط أبقى بل هي خير، كلام ربِّ العالمين، فإذا لم يُصَدِّق شخْصٌ هذا الكلام يكون أحْمقاً، والآخرة خير وأبقى إلى الأبد، مثلاً شخصٌ مُعْتَنٍ ببيْتِهِ مُرَتِبٌ لِحالِهِ فلما ينتهي من ترْتيبه يأتيه الأجل، يُدْفن، يحزن عليه أهله ثم قليلاً فقليلاً ينسَوْن الميِّت! معنى ذلك أنَّه هناك فناء، إنَّ أكيَسَكم أكثركم للموت ذِكْراً، الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لِما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني:

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

ثمَّ قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى)

ليس هذا الكلام شيءٌ جديد ولم يُذْكر من قبل، هذه الحقائق أزليَّة وأبديَّة لم تكُن في القرآن فَحَسْب بل في التوراة الإنجيل وصُحُف إبراهيم وموسى، جاء في الإنجيل: أنا الطريق والحق والحياة، فَكُلّ غُصْن لا يثبتُ فيَّ يُقْطع ويُلْقى في النار، أنا الكَرْمَةُ الحقيقيَّة وأنتم الأغْصان؛ هذا عن سيّدنا عيسى، فلو قرأت التوراة والإنجيل قبل التحريف وكما أُنْزل لرَأَيْتَ تَطابُقاً بين التوراة والإنجيل والقرآن:

(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى*صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)

بعض ما في صُحف إبراهيم وموسى :

صحابيٌّ جليل سأل النبي عليه الصلاة والسلام؛ فعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قلتُ: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟ فقال: كانت أمْثالاً كُلَّها: أيها المُبْتلى المغْرور، لم أبْعَثْك لِتَجْمَعَ الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثْتُك لِتَرُدَّ عني دَعْوة المظلوم، فإني لا أرُدُّها وإن كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغْلوباً على عقْله أنْ يكون له ساعاتٌ يُناجي فيها ربَّهُ، وساعةٌ يُحاسِبُ فيها نفْسَهُ، وساعةٌ يتفكَّرُ فيها في صُنْع الله، وساعة يخْلو فيها لِحاجتِهِ للمطْعم والمَشْرب، وعلى العاقل أن لا يكون مُسافراً إلا لِثَلاث: تَزَوُّدٌ لِمَعاد، أو شُغْلٍ لِمَعاش، أو لَذَّةٍ في غير مُحَرَّم، وعلى العاقل أن يكون بشيراً في زمانه، مُقْبلاً على شَأنه، حافِظاً لِلِسانه، ومن حسَبَ كلامه من عمله قَلَّ كلامه إلا فيما يعْنيه، قلتُ: يا رسول صلى الله عليه وسلَّم، فما كانت صحف موسى عليه الصلاة والسلام؟ فقال: كانت عِبَراً كُلَّها؛ عَجِبْتُ لِمَن أيْقَن بالموت كيف يفْرح، وعجِبْتُ كيف أيْقَنَ بالنار ثمَّ هو يضْحك، وعَجِبْتُ لِمَن أيْقن بالقَدَر ثمَّ هو ينْصَب، وعَجِبْتُ لِمَن يرى الدنيا وتَقَلُّبَها ثمَّ يطمئِنُّ إليها، عَجِبْتُ لِمَن أيْقَن بالحِساب غداً ثمَّ لم يعْمل! قُلْتُ: يا رسول الله أوْصِني؟! قال: أوصيك بتَقْوى الله تعالى فإنَّها رأسُ الأمر كُلِّهِ، قلتُ: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: عليك بتِلاوة القرآن وذِكر الله تعالى فإنَّهُ لك ذِكْرٌ في السماء ونورٌ لك في الأرض، قلتُ: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: إياكَ وكَثْرَةَ الضحِك فإنَّهُ يُميتُ القلب، ويذْهَبُ بنور الوجه! فقلتُ: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: عليك بالجِهاد فإنَّهُ رَهْبانِيَّةُ أُمَّتي؟ فقلتُ: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: أحِبَّ المساكينَ وجالِسْهُم، قلتُ: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: أنْظر لِمَن هو تحْتك ولا تنْظر لِمَن هو فوْقَكَ فإنَّهُ أجدر أن لا تزْدَري نِعْمَةَ الله عليك، قلت: يا رسول الله زِدْني؟! فقال: قُلْ الحق ولو كان مُراً، قلتُ: يا رسول زِدْني؟ فقال: لِيَرُدَّكَ عن الناس ما تجده في نفْسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي - أي تغْضب عليهم - وكفى بِكَ عَيْباً أن تعْرف من الناس ما تجْهَلُهُ من نفْسك، ثمَّ ضرب بيَدِهِ على صدْري وقال: يا

أبا ذر لا عقْل كالتدْبير، ولا ورعَ كالكَفّ، ولا حُسْن كَحُسْنِ الخُلُق، هذا بعض ما في صُحف إبراهيم وموسى، فربنا عز وجل يقول:

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى*إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى*صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)

الحق قديم فَمُنذ أن خلق الله الأرض ومن عليها هذا هو الحق وهو الطريق المُستقيم، فَمَن سار عليه سعِد ومن حاد عنه شَقِيَ.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الغاشية 088 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1 -16، موقف المؤمن وموقف الكافر يوم القيامة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-01-18

بسم الله الرحمن الرحيم

للاستفهام معانٍ كثيرة

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم: سورة الغاشِيَة، قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

هل حَرْف استِفْهام، وحرف الاستِفهام في اللغة يعْني طلب العِلْم بِمَجْهول، هذا هو الاستِفْهام، قد تسأل إنْساناً: ما اسْمُكَ؟ كم معك من نُقود؟ أين تسْكن؟ كيف حالك؟ فالاستِفْهام طَلَبُ العِلْم بِمَجْهول لكنَّ الاستِفهام يخْرُجُ عن الاستِفْهام وعن هذا التعْريف إلى معانٍ كثيرة:

1 ـاِسْتِفهامٌ بِمَعْنى الأمر :

الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ)

[سورة المائدة: 91]

هذا اِسْتِفهامٌ بِمَعْنى الأمر؛ هل أنتم مُنَفِّذون لِكَلامي؟

2 ـاِسْتِفهامٌ بِمَعْنى النَّهْي :

وهناك اِسْتِفهامٌ بِمَعْنى النَّهْي، قال تعالى:

(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)

[سورة الأحزاب: 37]

قال تعالى:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

[سورة الرحمن: 60]

3 ـاسْتِفْهامٌ بِمَعْنى التَّسْوِيَة

وهناك اسْتِفْهامٌ بِمَعْنى التَّسْوِيَة قال تعالى:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة يس: 6]

4 ـاستفهامٌ بِمَعْنى الإنْكار :

وهناك استفهامٌ بِمَعْنى الإنْكار قال تعالى:

(أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة الأنعام: 40]

وقال تعالى:

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

[سورة الزمر: 64]

5 ـ اسْتفهامٌ بِمَعْنى التَّشْويق :

وهناك اسْتفهامٌ بِمَعْنى التَّشْويق، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة الصف: 10]

6 ـاسْتِفهامٌ بِمَعْنى الاسْتِئناس :

وهناك اسْتِفهامٌ بِمَعْنى الاسْتِئناس، قال تعالى:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

[سورة طه: 17]

هل المولى عز وجل لا يعْرف ما بِيَمينه؟! هذا من قبيل الاسْتئناس كي يستأنس سيّدنا موسى بالله عز وجل.

7 ـاسْتِفهامٌ بِمَعْنى التَّقْرير :

وهناك اسْتِفهامٌ بِمَعْنى التَّقْرير قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

[سورة الشرح: 1]

أيْ لقد شرَحْنا لك صدْرك.

8 ـ اسْتفهام بمَعْنى التَّهْويل :

وهناك اسْتفهام بمَعْنى التَّهْويل، قال تعالى:

(الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

[سورة الحاقة: 1-3]

وقوله تعالى:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

[سورة القارعة: 1-3]

9 ـاسْتفهامٌ بمَعْنى التعظيم :

وهناك اسْتفهامٌ بمَعْنى التعظيم، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

[سورة البقرة: 255]

10 ـاسْتفهام بمَعْنى التعجُّب :

هناك اسْتفهام بمَعْنى التعجُّب، قال تعالى:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً)

[سورة الفرقان: 7]

11 ـاستفهامٌ بمَعنى الوعيد :

وهناك استفهامٌ بمَعنى الوعيد قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

وقوله:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

[سورة الفجر: 6]

الاسْتِفهام في الآية التالية يُعْطي أربعة معانٍ في وقْتٍ واحدٍ :

الاستفهام في التعريف الدقيق: طلب العلم بمَجْهول وقد يخرجُ الاسْتفهامُ عن هذا التعْريف إلى معانٍ كثيرة، فَرَبُّنا سبحانه وتعالى حينما يقول:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

قال المفسرون: هذا الاسْتِفهام يُعْطي أربعة معانٍ في وقْتٍ واحدٍ؛ معْنى التَّعَجُّب، ومعْنى التعْظيم، ومعْنى التَّشْويق، ومعْنى التَّقْرير في قوله تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

أمَّا كلمة (أتَاكَ) فيُروَى أن النبي عليه الصلاة والسلام سمع صحابيّاً يتلو هذه الآية:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

فقال عليه الصلاة والسلام: "بلى لقد أتاني"، لأنه رأى بأنه معنِيٌّ بهذه الآية، ورُبَّما يَظُنُّ المؤمن بأنه ليس معنيَّاً بها، بل إن كل آية تعني النبي عليه الصلاة والسلام تعني كل مؤمن بالتبعية؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

قد يقول قائل: وما فضلُ النُبُوَّة إذاً؟ نقول له: النبُوَّةُ مقام، والنبوة علم، لكن التطبيق يجب أن يكون دقيقاً، هل يُسمَح لممرِّضٍ أن لا يُعَقِّم الإبرة؟! يجب أن يسلك الممرض وهو يَحقِن إبرةً كما يسلك أعلى طبيب في الدنيا، تعقيم دقيق، واعتناء، وبُعدٌ عن العظم، هذا لابدَّ منه. فإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فكلمة (هل أتَاكَ)، قال عليه الصلاة والسلام: "بلى لقد أتاني".

هناك معنيان لكلمة الْغَاشِيَةِ :

أيُّها الأخ الكريم:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

الْغَاشِيَةِ، ما هي الْغَاشِيَةِ؟ الْغَاشِيَةِ يوم القيامة، ولِمَ سُمِّيت الْغَاشِيَةِ؟ هناك معنيان لكلمة الْغَاشِيَةِ:

1 ـ معنى الْغَاشِيَةِ الشيء يحلُّ بأرضٍ ما :

المعنى الأول: أن الشيء الذي يغشى بمعنى يَحُلُّ، غشيهم كربٌ: أي حلَّ بهم كربٌ، قال تعالى:

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)

[سورة النجم: 16]

أي حلَّ بها و ما حلَّ من تجلّيات، غشيَ القومَ أي نزل بديارهم، قال الخليفة المنصور لأبي حنيفة وقد زاره مرَّةً: يا أبا حنيفة لِمَ لا تتغشَّانا؟ أي زُرْنا، فأجابه أبو حنيفة: ولِمَ أتغشَّاكم وليس لي عندكم شيءٌ أخافكم عليه؟ وهل يتغشَّاكم إلاَّ من يخافكم على شيء؟ إذاً معنى الغَاشِيَةِ: الشيء يحلُّ بأرضٍ ما، هذا المعنى الأول، أي يوم القيامة يحلُّ بالناس.

2 ـالمعنى الثاني هي الغشاء وهو السِّتر :

المعنى الثاني: هي الغشاء وهو السِّتر.

بجمع المعنيين يبدو أن يوم القيامة تُنسي الإنسان كلَّ شيء. إذا نزل واحدٌ إلى مركز المدينة، وكان يريد أنْ يسأل عن أسْعار البلاط أو كان يريد أنْ يشتري آجر، وعليه إنجاز مُعاملة بالمالِيَّة، مطْلوبٌ منه براءة ذِمَّة، أو عليه أنْ يُراجع المُختار من أجل هَوِيَّة ابنه، هذا الإنسان أصاب ولداً بالسيارة، هذه القائمة كلها تُنْسى، ويدخل في موضوعٍ آخر ما كان في باله، وموضوع كم أدفع دِيَّة هذا الغُلام؟ يا تُرى هل هناك سِجْن أمْ لا؟ وتجده ارْتَعَدَتْ فرائِصُه وتغَيَّر لَوْنه، ودخل في موضوع آخر لم يكُن في حسابه! معنى غَشِيَهُ الهَمّ أي أنْساهُ الهَمّ كل شيء حلَّ به، وكان هذا الهَمّ غِشاء له عنه لِكُلِّ شيء، أبْعَدَهُ عن كُلِّ شيء:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

لِكُلِّ واحدٍ منا بُنودٌ كثيرة، تَحْسين بَيْته، ووضع معاشه، وتحسين دخله، ومكانته الاجتماعِيَّة، وشِراء مَرْكبة، والذهاب إلى البلد الفُلاني، وله مشْروع شِراء فِيلَّا بالمَصْيَف، لكن إذا حلَّ يوم القيامة كلّ ما سِواها لا قيمة له، مَن مِنَ الناس يحْسب حِساباً لِهذا اليوم؟ يحسِبون لكلِّ شيءٍ حِسابه، يقول لك: هذه البضاعة يغلو ثمنه، وهذه سَتُفْقَد، ماذا عن يَوْمَ القيامة ألا ينْبغي أنْ يُحْسَبَ له كُلّ الحِساب؟!

الله تعالى لم يصِف الغاشِيَة بل وصف حالة الناس فيها وهذا من أساليب الإعْجاز البياني:

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

أي ألم يأتِك حديث الغاشِيَة؟ وأيضاً ما أعظم يوم الغاشية! للتعظيم، وأيضاً لقد جاءك حديث الغاشِية للتقرير:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

ربنا عز وجل لم يصِف الغاشِيَة بل وصف حالة الناس فيها، هذا من أساليب الإعْجاز البياني إذْ لم يَصِف الغاشِيَة وإنما وصف حالة الناس فيها، أوَّل شيء أنَّها تَحِلُّ، وإذا حَلَّت فلا محيص عنها، لا مهْرب ولا منْجاة، ماذا يفْعل الإنسان؟ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

[سورة الانشقاق: 16]

الحياة مراحل، يولدُ فَيَفْرح أهْله بهذا المولود، يُقيمون الدعوات والأطعمة، تأتيهم الهدايا، يمْشي فيفْرحون بمَشْيِهِ، تظهر أسنانه وبعدها يتكلَّم ثمّ يدخل المدرسة، ويتخرّج منها، ويدْخُل الإعْدادي، يتخرَّج منها ويدْخل الثانوي، ويتخَرَّج ويدْخل الجامعة ثمّ يتخَرّج، يبْحثون له عن عيادة إنْ كان طبيباً، أو عن مكْتب إنْ كان مُهندساً، أو عن مكْتبٍ إن كان مُحامِياً، يُصْبِحُ مُحامِياً، ويصبح من الذين لَدَيْهم بطاقة زيارة للعيادة للشُّهْرة، إنْ كان قاضياً وإن كان تاجِراً ثمَّ يتزوَّج لأن هذا من حاجَتِهِ، يتحَقَقُ طموحه في الحياة، يُنْجِبُ أوْلاداً ويدْخل في عالم ثاني تربْيَتهم وتعْليمهم، ثمَّ يكْبرُ أوْلاده ويتزَوَّجوا، ويُزَوِّج بناته، ويسْأل عن الصِّهْر، ثمَّ يكْبر سِنُّه وتُصبح معه أعْراض، فإذا به يُنْعى في الطُّرقات قال تعالى:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

[سورة الانشقاق: 19]

ولا يبْقى إلا العمل الصالح، ماذا أكَلْتَ؟ وماذا صنعْتَ؟ وما لبسْت؟ كان بيْتُكَ عالِياً أو سافِلاً؟ كبيراً أم صغيراً؟ كِسْوَتُهُ عالِيَّة أمْ درجة ثانِيَّة؟ عندك سيارة فَخْمة صغيرة أمْ كبيرة؟ لن يبْقَى إلا العمل الصالح! فالإنسان الذكيّ والمُوَفَّق هو الذي يُعْنى بالعمل الصالح، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

الحياة كلُّها مراحل وآخر مرحلة الموت :

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

هذه آخرُ مرحلة، والحياة كلُّها مراحل، يتقاعد وهي آخر مناسبة في حياته ثمَّ الموت، آخر مُناسبة الموت، ثمّ يوم القيامة هذه لا بدّ أنْ نصِلَ إليها جميعاً، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول فيما روي عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّه))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

إنَّ أكْيَسَكم أكثركم للموت ذِكْراً، وأحزمكم أشَدَّكم استِعْداداً له، ألا إنَّ من علامات العقل التجافي عن دار الغُرور، والإنابة إلى دار الخُلود، والتّزوُّد لِسُكْنى القُبور، والتَّأهُبَّ لِيَوْم النُّشور.

سُئِلَت السيّدة رابعة العَدَوِيَّة: ما الإنسان؟ فقالت: هو بِضْعَةُ أيام، كلما انْقضى منه يومٌ انْقضى بِضْع منه:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

تغْشى الناس، قال تعالى:

(يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة الدخان: 11]

هذا من معاني الغاشِيَة، تُغَشِّيهم عن كُلِّ شيء، أيْ تسْتُرُهُم عن كُلِّ شيء، وبالحياة اليَوْمِيَّة هناك مصائِبٌ تُنْسي الإنسان كُلَّ شيء.

الحكمة من اخْتيار الله عز وجل الوَجْهَ وعدم اخْتيار اليَدَيْن :

قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

لِمَ اخْتار الله عز وجل الوَجْهَ ولم يخْتَر اليَدَيْن؟! لأنَّ أحْوال النفْس كُلّها تنْطبعُ على الوَجْه، لو نظرْتَ لِيَدِ إنْسانٍ خائِف، أنْظر لِيَد إنْسانٍ حاقِدٍ، لا شيءَ عليها أما لو نظرْتَ في وَجْهِهِ لرأيْتَ السُّمَّ! الخوف يبْدو في الوجه، وكذا الشَّفَقَة والمكْر والخِداع والسُّخْرِيَة والكِبْر والإعْجاب والحِقْد والتشَفّي والمحَبَّة، كُلُّ أحْوال النفْس تنْطبع على وَجْه الإنسان لذلك لو أنَّ الوَجْهَ الحَسَنَ رَجُلٌ لكان رَجُلاً صالحاً:

((إبْتَغوا الخير عند حِسان الوُجوه))

[ابن أبي الدنيا والدارقطني عن أبي هريرة]

((اتَّقوا فِراسة المؤمن فإنَّهُ ينظر بنور الله))

[رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

وينطق بِتَوْفيق الله. فربنا عز وجل اِخْتار من الإنسان وَجهه، لذلك الوجه هو وَجْهُ النفْس أي هو تعبير عما في النفْس من اِنفِعالات ومشاعر. لذلك كرَّمَ الله عز وجل الإنسان بالوَجْه فقال عليه الصلاة والسلام: فيما ثبت عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

((نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ وَعَنِ الْوَسْمِ فِي الْوَجْهِ))

[مسلم عَنْ جَابِرٍ]

خَاشِعَةٌ، الخُشوع في اللغة السكون، قال عليه الصلاة والسلام وقد نظر إلى إنْسانٍ يُصلي وهو كثير الحَرَكة:

((لو خشع قلبُ هذا لَخَشَعَتْ جوارحُهُ))

[أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف]

بمَعْنى لَسَكَنَتْ جوارحه. فالخُشوع هو السكون، لكنَّ السكون في هذه الآية بِسَبَبِ الذلّ والخِزْي والعار، إذا نظرْتَ إلى مُجْرِم، تجده يضعُ بصره في الأرض، ويسْكُنُ، أما البريء عَيْناهُ زئبقِيَّتان تتحرَّكُ يَمْنةً ويسْرة، ووجْهُهُ طافِحٌ بالبِشْر، وعلى فَمِه اِبْتِسامة ويتحرَّكُ بِحُرِّيَّة، لكنَّ الذليل المُجْرم الذي اقْتَرَفَ الإثم، ووقع في الفضيحة تراهُ خاشِعاً، لا خُشوعَ الخُشوعِ! ولكن خُشوع الخِزْي والعار، أيْ السُّكون.

كلُّ ما في الكون خلقه الله من أجلنا :

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ *وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

لو أحْسنَ شخْصٌ لآخر ثمَّ خانه، يكْفي أنْ ينظر إليه فلا يسْتطيع هذا الخائِن أنْ ينظر إليه، تراهُ يتلافى النظر إلى وَجْهِهِ! يضعُ بصره إلى الأرض. خلقْتُ لك ما في الكون من أجلك لِمَ عَصَيْتني؟

((إنِّي والإنس والجِنّ في نبأ عظيم أخْلُقُ ويُعْبدُ غيري! وأرزُقُ ويُشْكرُ سِواي! خيري إلى العِباد نازل، وشَرُّهُم إليَّ صاعد! أتودد إليهم برحمتي، وأنا الغني عنهم! ويتبغضون إلي بالمعاصي، وهم أفقر ما يكونون إلي!))

[رواه البيهقي والحكيم الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه]

كلُّ ما في الكون من أجلك قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

[سورة لقمان: 20]

وقال تعالى:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[سورة النحل: 5]

نعم الله علينا لا تعد ولا تحصى وموقف الكفار منها يوم القيامة موقف الخزي والعار:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

الزوجة تَوَدُّدٌ من الله إليك، والأولاد الذين في البيت تَوَدُّدٌ من الله إليك، وهذا الشراب العذبُ الفُرات الذي ساقهُ الله سحاباً ونزل أمْطاراً، واسْتَوْدَعَتْهُ الجبال، وخرج ينابيع وساقه الله إليك، وما أنت له بخازنٍ هكذا قال الله عز وجل:

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[سورة الحجر: 21]

هذه الأزهار خُلِقَت لِمَن؟ وهذه الطيور خُلِقَت لِمَن؟ هذه الأشياء الجميلة خُلِقَت لِمَن؟ قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

عندما يكون الإنسان في الدنيا وكأنَّهُ نائِم، الناسُ نِيامٌ إذا ماتوا انْتَبهوا. يكون في الدنيا غافِلاً، في سَكْرة الشهوات، فإذا جاء الموت اِسْتَيْقظ قائِلاً: ماذا فعَلْتُ بِنَفْسي؟! خُلِقْتُ في الدنيا كي أعْرف الله فما عَرَفْتُهُ، وكي أعْمل صالحاً فما فعلتُ، وكي أسْتقيم على أمْره فما اسْتَقَمْتُ على أمْره، هذا المَوْقف، مَوْقِفُ الخِزْي والعار لا يحْتملُهُ الإنسان، إحْسانٌ من الله مُنْقطع النظير، وجُحود من الإنسانٌ مُنْقطع النظير!! ما المَوْقفُ؟!!

المُجْرم وَجْهُهُ خاشِع يوم القيامة خُشوع الذلّ والندم والعار :

قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

خُشوع الذلّ والندم والعار:

(عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)

كنت عند قاضٍ صديقٍ لي، وقف الأشْخاص الذين سوفَ يُحَقّقُ معهم واحداً تِلْوَ الآخر، فما كان من أحدٍ منهم إلا وعلى وَجْهِهِ كآبَة وغَبَرة ونظرُهُ في الأرض إلى أنْ دخل إلى الغُرْفَة شابٌ ولكن وضْعٌ آخر، وجْهٌ طافِحٌ بالبِشْر، وواثِقٌ من نفْسه فقلْتُ في نفْسي: لا شكَّ أنَّ هذا الشاب ليس مُتَّهَماً ولا علاقة له بهؤلاء المُتَّهَمين، فلما وصل إليه سأله: هل كان تصْليح الساعة جيِّداً؟ فَعَرِفْتُ أنَّهُ كان مُكَلَّفاً بِتَصْليح ساعته! لأنَّهُ بريء. فالمُجْرم وَجْهُهُ خاشِع يوم القيامة، أما المؤمن كما قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ*لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

في الآية التالية معانٍ كثيرة :

قال تعالى:

(عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)

في هذه الآية معانٍ كثيرة:

1 ـمعْناها الأول عاملة ناصِبَة في الدنيا والمرْدود لا شيءَ في الآخرة :

عامِلَةٌ في الدنيا، عمِلَ عمَلاً لا قيمة له وضع كُلَّ طاقاته في الدنيا فجاء الموت فإذا هو صِفْر اليَدَيْن، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً)

[سورة الكهف:103]

وقال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

هو في خُسْرٍ ولو كان معه ألف مليون، ولو عنده معْمل ناجح جداً بِضاعَتُهُ رائِجَة، ودخْلٌ كبير، وهو في خُسْرٍ ولو كان مُوَفَّقاً في زواجِهِ لا بدّ من يومٍ تُفارق فيه زوْجَتَك، في خُسْرٍ ولو كان ذا مكانةٍ اجْتماعِيَّة فلا بدَّ من يومٍ تُفارق هذه المكانة، إنَّ الإنسان لفي خُسْرٍ ولو كان بيْتُهُ جميلاً، لابد من يومٍ تُغادِرُهُ أُفُقِياً، تدخله قائِماً وتخْرُجُه قائِماً إلا مرَّةً واحدة تخْرج منه أُفُقِياً ولا تعود إليه، أَلَيْسَ هذا حقاً؟ إذاً كما قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

فقوله تعالى:

(عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)

عاملةٌ اِنْغَمَسَ في الدنيا حتى أُذنيه، أما هذا العمل لا علاقة له بالآخرة، ولما جاء الموت رأى نفسه صِفْر اليدين، لو أنَّ الواحد اشْتَغَل عشر سنوات بالأعْمال الشاقة حتى جَمَّع مئتين أو ثلاثمئة ألف ليرة، ثمَّ وجد أنَّ هذه العُمْلة كُلُّها مُزَوَّرة! بماذا يُحِسّ؟ هذا الشعور سماه العلماء الإحْباط، وهذا ادّخر مالاً

حتى اشْترى بيْتاً ووقع عقْداً فإذا بِبَائع البيت لا يمْلكه، ماذا يُحِسّ الإنسان بهذه الخسارة التي ألمَّتْ به؟

أوَّلُ معنى عاملة في الدنيا ناصِبَةٌ في الدنيا بذل جُهْداً شاقاً يقول الله عز وجل في الحديث القدْسي:

((عبدي خلقت لك ما في السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك في كل حين، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً))

[ورد في الأثر]

ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفْنيْتَ، أو لبِسْتَ فأبْلَيْتَ، أو تصدَّقْتَ فأبْقَيْتَ، وما سوى ذلك ليس لك، مُحاسَبٌ عليه كيف اِكْتَسَبْتَهُ وفيهم أنْفَقْتَهُ.

(عَامِلَةٌ ناصِبَة) معْناها الأول: غارِقَةٌ في الدنيا في أعْمالٍ مُضْنِيَة، وهي تركض وراء أملٍ كالسراب عَمِلَتْ وتعِبَتْ، ولا مرْدود لهذا العمل ولا لِهذا التَّعَب وجاءَها الموت وهي صِفْر اليَدَيْن، ورأتْ مصيرها إلى النار، وقالتْ كما في قوله تعالى:

(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ*هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ*خُذُوهُ فَغُلُّوهُ*ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ*ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ*إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ*وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ*وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ*لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ)

[سورة الحاقة: 28-37]

وقال تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان: 27]

2 ـالمعنى الثاني عامِلَةٌ في الدنيا شَقِيَّةٌ في الآخرة :

المعنى الثاني، عامِلَةٌ في الدنيا، ناصِبَةٌ في الآخرة، أيْ شَقِيَّةٌ في الآخرة قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا رُب نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا، جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة))

[السيوطي عن أبي البحير]

الدنيا ليْسَت مِقْياساً، إنَّ الله يُعْطي الدنيا لِمَنْ يُحِبّ ومن لا يُحِبّ، والآخرة لا يُعْطيها إلا من يُحِبّ، لو أنَّ الدنيا تعْدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً منها شَرْبَة ماء.

3 ـالمعنى الثالث عامِلَةٌ في الدنيا مَنْصوبٌ عملها يوم القيامة أمام عَيْنَيْها :

المعْنى الثالث: عامِلَةٌ في الدنيا مَنْصوبٌ عملها يوم القيامة أمام عَيْنَيْها، قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء:14]

هذه هي أعْمالك، لا يوجد فلْسَفَة ولا تبريرات، قال تعالى:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة يس: 65]

الإنسان في الدنيا يتَفَلْسَف ويكون ممن اقْتَرَفَ آثاماً كبيرة، قَصَدْتُ كذا وكذا، أما في الآخرة فالواقع غير هذا، وتَزْوير الحقائِق غير مَوْجود، والتكلّم بخلاف الواقع غير موجود، كُلُّ هذا غير موجود، قال تعالى:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة يس:65]

عاملةٌ ناصِبَةٌ في الدنيا والمرْدود لا شيءَ في الآخرة، عاملةٌ في الدنيا شَقِيَّةٌ في الآخرة، ويُنْصَبُ عملها يوم القيامة أمامها ويُقالُ لها: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً.

الأمور ليسَتْ بأشْكالها ولا بظواهِرها ولا بالكلام ولكن بالعمل :

قال تعالى:

(تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً)

سبحان الله، الإنسان إذا كان بيده الحلُّ والعقد كما يقولون إذا قال كلمة يصدِّقها الناس، وإذا سرَّب حقيقة شاع هذا الخبر في الناس فترتفع الأسعار أو تهبط، إنهم يُصدِّقون كلام البشر والله سبحانه وتعالى خالق البشر، خالق الكون، رافع السماء بلا عمد، من بيده ملكوتُ كلِّ شيء؟ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً، منْ مِنَ الناس يُصدِّق هذا الكلام حقيقة؟ ما من مسلم على الأرض إلاَّ ويقول: صدق الله العظيم، ولكن على مستوى الواقع منْ مِنَ الناس يُصدِّق هذا الوعيد من الله عز وجل وينتهي عن المعاصي ويقول: إني أخاف الله رب العالمين، مَنْ مِنَ الناس من يترك صفقةً فيها شُبهة ويقول إني أخاف الله رب العالمين، منْ منَ الناس يترك امرأةً لا تُرضي الله عز وجل، ويقول إني أخاف الله رب العالمين، مَن من الناس يترك بيتاً فخماً لشبهة الربا ويقول إني أخاف الله رب العالمين، مَن من الناس من يستغني عن مبلغ كبير لأن كسبه ليس حلالاً ويقول إني أخاف الله رب العالمين، هذا هو الواقع، أما أن تقول هذا حق فهذا كلام بكلام والأعمال هي التي تنطق وأما الأقوال فلا قيمة لها، قل ما شئتَ وتعلَّموا ما شئتم فو الله لن

تُؤْجَروا حتى تعملوا بما علمتم، كل الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، منْ مِنَ الناس يصدِّق هذا الكلام؛ تقول صدق الله العظيم، فهل أنت مصدق فعلاً بهذا الكلام، علامة تصديقك لهذا الكلام أن تنتهيَ عن كل معصية نهى الله عنها قولاً واحداً، فالواحد لا يلبِّسْ على نفسه، هناك كتاب اسمه تلبيس إبليس، لا يتوهَّم الواحد أنه تقيٌّ وفي بيته معاصٍ كثيرة، لا يتوهَّم أنه مؤمن بالآخرة وهو لا يعمل لها، ولا يتوهم أنه يخاف من جهنم وهو في طريقها، قد يقول قائل: أعوذ بالله من عذاب جهنم! وهو يسير في طريقها، وقد يقول قائل: اللهم ارْزقنا الجنَّة ويسير في طريق مُعاكِسٍ لها، وقد يقول قائِلٌ إنِّي أخاف الله ربَّ العالمين، وهو لا يخافه عَمَلِيّاً فالأمور ليسَتْ بأشْكالها ولا بظواهِرِها ولا بالكلام ولكن بالعمل، الصحابة عملوا ففتحوا الأرض، ونحن اِكْتَفَيْنا بالكلام وليْسَتْ كلمتنا هي العُليا.

إذا لم يُدافع الله عن العبد فهذا علامة عدم الإيمان من ذاك الشخْص :

قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)

[سورة النور: 55]

هذا وعْدٌ إلهي:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً)

[سورة النساء: 87]

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ)

[سورة التوبة: 111]

هناك اِحْتمالان: أما هؤلاء الذين وعدهم الله لم يُنَفِّذوا ما عليهم من طاعَةٍ لله، هذا الاحْتمال الصحيح الوحيد، أما أنْ يبْطُل وعْد الله فَهُوَ شيءٌ مُستحيل، زوال الكون أهْون على الله من أنْ لا يَفِيَ بوَعْدِهِ، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

فإذا لم يُدافع الله عن العبد فهذا علامة عدم الإيمان من ذاك الشخْص. قال تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

انْظر إلى هذا الإدِّعاء! الإمام الشافعي رحمه الله اِسْتنبط من هذه الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُعَذِّبُ أحْبابه، لو أنَّهم صادِقون في دَعْواهم لما عَذَّبهم الله عز وجل.

وُعود الله تعالى مُحَقَّقة مئة بالمئة فاسْعَ أنْ تكون أهْلاً لها :

قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[سورة النمل: 79]

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

[سورة يونس: 9]

وقال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

وقال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

وقال تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

هذه هي وُعود الله عز وجل، فالإنسان يحْتاج إلى أنْ يكون أهْلاً لِهذه الوُعود قال تعالى:

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

[سورة الكهف: 27]

وُعود الله تعالى مُحَقَّقة مئة بالمئة، فاسْعَ أنْ تكون أهْلاً لها واقطِفِ الثِّمار.

موقف الذين تركوا طاعة الله في الدنيا يوم القيامة :

قال تعالى:

(تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ)

العَيْنُ الآنِيَة: هي التي بلغتْ حرارتها الأوْج، أوْ أنَّ الذي يُسقى منها لا يستطيع اِحْتِمالها إلا آناً يسيراً، أو أنَّهُ يشْربها مُتَأَنِّياً من شِدَّة حرارتها، أو أنه لا يحْتملها إلا آناً قصيراً، أو أنها بلغت النِّهاية في الحرارة، ثمَّ قال تعالى:

(لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

شَوْكٌ ينْبتُ في الصحْراء لا تستسيغُهُ الإبل لِشِدَّة قَسْوَتِهِ ومرارَتِه، هذه صورةٌ مُنْتَزَعَة من الصحْراء تقْريباً للأذْهان، هذا طعامهم وهذا هو شرابهم وذاك هو مكانُ إقامَتِهم، ثمَّ قال تعالى:

(لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

لا يَسُدُّ الجوع ولا يُنَمِّي صِحَّة الإنْسان، هؤلاء الذين تركوا طاعة الله في الدنيا، وقالوا: إلى حين ذاك المَوْعِد يُفْرِجُها الله، وهذا الدِّين مضى وَقْتُهُ، ومن قال لك أنَّ هناك آخرة، هل خرج واحِدٌ ميِّت وقال لك: هناك آخرة، وهؤلاء الذين قالوا في الدنيا: الله لن يُحاسِبَ أحداً، وهل يُعْقل أنَّ هذا الإله العظيم يُحاسب هؤلاء البشر؟ كُلُّهُم مُذْنِبون، هؤلاء الذين قالوا: نحن نفْعل ما نشاء، والنبي عليه الصلاة والسلام يسْجد تحت العَرْش ولا يرْفعُ رأسهُ حتى يُدْخِلَ الله كُلَّ أُمَّتِهِ الجنَّة، إنَّ القائل لِكُلِّ هذا مَوْقِفُهُم يوم القيامة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ*عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ*تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً*تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ*لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ*لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

موقف المؤمن الذي كان في الدنيا خائِفاً من عذاب الله ومن معْصِيَة الله :

القرآن الكريم يذكر كُلَّ الفئات، لذاَ قال الله بعد هذا:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ)

كان مُسْتقيماً في الدنيا، قال تعالى:

(آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات: 16]

قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[سورة الذاريات: 17]

وقال تعالى:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة:24]

هذا هو الذي كان في الدنيا خائِفاً من عذاب الله، ومن معْصِيَة الله، وقد يسْخر عليه بعض الناس.

صور من القرآن الكريم عن أحوال الكفار يوم القيامة :

قال تعالى:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

[سورة المؤمنون:104]

وقال تعالى:

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ*قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ*رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ*قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي*إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ*فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ*إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمْ الْفَائِزُونَ)

[سورة المؤمنون:105-111]

بعد هذا الوصف قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

الفوْز العظيم أنْ تصِلَ إلى يوم القيامة سليماً مُعافى من عذاب الله عز وجل :

فقوله تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ)

هذا هو الفوْزُ العظيم، يقول الإمام عَلِيٌّ كَرَّمَ الله وجْهه: الغِنى والفقر بعد العَرْض على الله، قال تعالى:

(يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب:71]

هذا هو الفَوْز العظيم والذكاء والنجاح والفلاح والتَّفَوُّق والتَّوْفيق والعقْل، أنْ تصِلَ إلى هذا اليوم سليماً مُعافى من عذاب الله عز وجل، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران:185]

وجْهُ المؤمن كالكَوْكب الدُّريّ :

ثمَّ قال تعالى:

(لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

المؤمن له سَعْيٌ في الدنيا، صَلَّيْنا وصُمْنا واشْتَغَلْنا ورَبِحْنا وسكنَّا بِبُيوتٍ وتنَزَّهْنا، لك سَعْيٌ كبير بالدنيا، أين سَعْيُك ومُؤاثرتك وعملك الصالح والمال الذي بذَلْتَهُ في سبيل الله؟ والوقت الذي صَرَفْتَهُ في طاعة الله؟ وأين الأمر بالمعْروف والنهيُ عن المُنكر؟ أين معاونة الضعيف؟ أين برُّ الوالِدَين؟ وعيادة المريض؟ وصحبة الأكارم وأهل الحق؟ أين حُضور مجالس العِلم؟ تجدهُ لِسَبَبٍ تافِهٍ يقول لك: والله لا وقْتَ عندي! لماذا وُجوهٌ يومئِذٍ ناعمة؟ لِسَعْيها راضِيَة، هذا الوَجْهُ الناعم والمُتألِّق والوضيء المُشرق، سَبَبُهُ أنَّ صاحبهُ كانَ مُستقيماً وكان عملهُ صالِحاً، أقبل على الله فَسَعِدَ بِقُرْبه فتألَّقَ وَجْهُهُ قال تعالى:

(رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

[سورة الفتح: 29]

وجْهُ المؤمن كالكَوْكب الدُّريّ، قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة: 22-23]

عَلامة المؤمن أنه في نفسه صغير وفي عَيْن الناس كبير :

قال تعالى:

(فَوَقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً)

[سورة الإنسان: 11]

وجْهُ المؤمن في الدنيا مُتألِّق ومُنير ومُشْرق، تعْرفهم بِسيماهم:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

قد يرْضى الناس عنك ولا ترْضى عن نفْسك، وقد لا يرْضى الناس عنك ولكنَّك ترْضى عن عملك الصالح، فأنت مع السعداء، لذلك عَلامة المؤمن أنه في نفسه صغير وفي عَيْن الناس كبير، أما الكافر ففي نفس الناس صغير وفي نفْسه كبير، قال تعالى:

(وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

[سورة الكهف: 104-105]

هم صغارٌ عند الله، لأنْ يسْقُط الإنسانُ من السماء إلى الأرض فَتَتْكَسِرَ أضْلاعُهُ أهْوَنُ من أن يسْقط من عَيْن الله.

أكبر عَدُوّ للإنسان هو الجهل لأنَّهُ يدْفع الثمَنَ باهِظاً :

ذكر لي أخٌ قِصَّة، أنَّ بَدَوِياً معه حُجَّة لأرْضٍ فجاء للمدينة والْتقى بمَكْتب عقاري وقال: أريد أنْ أبيع هذه الأرض، فصاحب المحلّ بأسلوبٍ ذَكِيّ أوْهَمَهُ أنَّ هذه أرْضٌ لا قيمة لها، وبصُعوبَةٍ حتى أقْنَعَهُم ببَيْعِها بثَمَنٍ بخْسٍ، فقال: مئة وخمْسين ألف ريال، وهي ثمنها مليون ونِصْف!! شيدوا بناءً على هذه الأرض بثلاثة وعشرين طابقاً كانوا شُركاء ثلاثة، الشريك الأوّل وقع من أعْلى طابق إلى الأرض فجاء هشيماً، الشريك الثاني رَكِبَ سيارَتَهُ وعمل حادِثاً أخْرجوه قِطَعاً من سيارته، الشريك الثالث رأى مصير شريكَيْه بعَيْنَيْه وعرف أنَّ هذا المصير بسَبَبِ هذا الخِداع فَبَقِيَ يبْحث عن هذا البدوي شهْراً بكامله إلى أنْ وصل إليه وقال: خُذْ خمسمئة ألف ريال وسامِحْني فهذا حَقُّك، وأنت مُسامحٌ بالخَمْسين ألف التي هي حِصَّتي فقال له: والله لو لم تسارع بهذا لكُنْتَ مثل أصْحابك!! الله عز وجل عِقابه أليم وشديد، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج:12]

إذا جاءك طِفْلٌ صغير وكنتَ بائع لحْم، المؤمن يرى أنَّ الله ينظر إليه، التجار يقولون لك: هذا زبونٌ غشيم! ألبِسْهُ هذه، هو بهذا يبيعُ الهَمّ، عِلْمُك أنَّ الله تعالى عقابه شديد حينها تَرْتَدِع، أكبر عَدُوّ للإنسان هو الجهل لأنَّهُ يدْفع الثمَنَ باهِظاً:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

ولو كان دخْلُكَ مُتواضِعاً، ولو كان بيْتُك مُتواضِعاً، إذا كنت راضياً عن سَعْيِكَ فأنت أسْعد الناس، ولو كان بيْتُك ضَخْماً ودخْلُكَ كبيراً من طريقٍ غير مشْروع كنت غير راضٍ عن نفْسِك، لأنّك مُنْهارٌ داخِلِياً، وبك اخْتِلال توازن مما يجْعَلُك شَقِيّاً رغْمَ كثْرة المال.

العِبْرة أنْ تعْرف النفْسُ أنَّها مُسْتقيمة على أمر الله :

العِبْرة أنْ تعْرف النفْسُ أنَّها مُسْتقيمة وأنَّ مالها حلال، وأنَّها لمْ تبْني مجْدها على أنقاض الآخرين، ولا غِناها على فقْرِهِم، ولا أمْنها على قَلَقِهِم، ولا حياتها على مَوْتِهِم، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول:

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْه عن عبد الله بن عمر]

فما قَوْلك بما هو فَوْقَ الهرَّة؟! إذا كان النبيّ الكريم سليمان عليه السلَّام لا يدوسُ على نمْلة فما قَوْلك بما فوْقَ النَّمْلة؟ قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[سورة النمل:18]

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

درجةٌ ممتازة، أعْلى نوعٍ، كلامُ الله ربِّ العالمين، فيها ما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر قال تعالى:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة:17]

وصف للجنة :

ثمَّ قال تعالى:

(لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً)

الكلام البذيء غير موجود، مُناقشاتٌ فارغة غير موجود، ومُشاحنات غير موجودة، ودَجَلٌ غير موجود:

(لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً)

لو أنَّ شخْصاً سمعَ كلاماً غير منْطِقي وغير واقِعي يقول لك: اِنْهَزَّ بدني الكلامُ المُزَوَّر والباطل والدَّجَل، هذا مما يهُزُّ الأعْصاب، من صِفات الجنَّة أنَّك لا تسْمع فيها لاغِيَة، كلامٌ باطِل ولاغٍ لا تسْمعه، ثمَّ قال تعالى:

(فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ)

عُيونٌ من الماء الرَّقْراقة والجميلة، ثمَّ قال تعالى:

(فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ)

السُّرُر جمْعُ سرير، مُرْتفعة وقال بعض المُفسِّرين: إذا أردتَ الصعود عليها تهْبط لِعِنْدك، تجْلس عليها ثمَّ ترْتفع، ثمَّ قال تعالى:

(وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)

أكْلٌ جاهِز، ولا يحْتاج لإعْداد، ثمَّ قال تعالى:

(ونَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ)

هذه الوسائد المُريحة من الريش، كُلُّها جاهِزة، ثمَّ قال تعالى:

(وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)

أيْ أفخر أنواع السجاد، أحْياناً ترى سجادة تأخذ العقل ألوانها متناسقة وبراقة ومُتألِّقَة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الغاشية 088 - الدرس (2-3): تفسير الآيات17-20 الإنسان مُكَلَّف أنْ يتعرَّف إلى الله بالكون.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-01-25

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك علاقة وارْتِباط بين آيات كُلِّ سورة :

أيها الأخوة الكرام، قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

أمر، ما علاقة هذه الآية بِتِلْكَ الآيات من قوله تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ*وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ*عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ*تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً*تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ*لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ*لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ*وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ*لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ*فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ*لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً*فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ*فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ*وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)

الله سبحانه وتعالى يقول:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

[سورة هود: 1]

ما معنى أُحْكِمَت آياته؟ أيْ تعلَّقَ بعْضُها ببَعْض، هناك علاقة وارْتِباط بين آيات كُلِّ سورة.

العلاقة المُحْكَمَة بين المقْطع الأوَّل والثاني من السورة التالية وبين مقْطعِها الأخير :

ما العلاقة بين هذه الآيات الكَوْنِيَّة في قوله تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

وبين الوُجوه الخاشِعة، والوُجوه الناعمة؟ الحقيقة أنَّ الله تبارك وتعالى إذا وَصَفَ لنا أهْلَ الجَنَّة ثمَّ وَصَفَ لنا أهْلَ النار، أوْ العكس، ما الذي يُجْزي من ذلك إنْ لم يُبَيِّن لنا طريق النار وطريق الفوز بالجنَّة؟ بعد أنْ وصَفَ عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنَّة، بَيَّن الله سُبْحانه وتعالى طريق النجاة من عذاب النار والفَوْز بنَعيم الجَنَّة، كيفَ؟ الإيمان أساسُ الاستقامة والإخْلاص والعمل الصالح، سُئل عليه الصلاة والسلام: ماذا يُنَجِّي العبْد يوم القِيامة؟ قال: الإيمان بالله والعمل الصالح، فهو أساس الاستقامة

والإخْلاص والعمل الصالح والعِبادة، الإيمان أساس كُلِّ شيءٍ في عالم الدِين، كيف يُؤْمن؟ الله سُبحانه وتعالى لا تُدْركه الأبصار، لا بد إذاً من أجْل أنْ نعْرِفَهُ من التَفَكُّر بآياته، فإذا فَكَّرْنا بآياته عَرَفْنا الله عز وجل، فإذا عرفناه سبحانه وتعالى اسْتَقَمْنا على أمْره وأطعْناهُ وأخْلصْنا له، إذاً هناك علاقَةٌ مُحْكَمَة ومتينة بين المقْطع الأوَّل والثاني من هذه السورة وبين مقْطعِها الأخير، المقْطَعُ الأوَّلُ وصْفٌ لأحْوال أهْل النار والمقْطعُ الثاني وصْفٌ لأحْوال أهْل الجَنَّة والمقْطَعُ الثالث بيانٌ لِطريق الفوْز والنجاة، طريق النجاة من عذاب النار والفَوْز بِنَعيم الجنَّة.

النَّظَر الذي أمرنا الله عز وجل به في هذه الآية ليس نظر العَيْن ولكِنَّهُ نظرُ الفِكْر :

ربُّنا عز وجل، قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

أفلا ينْظرون؟ الحقيقة أنّ كلمة ينظر هنا لا تعْني نظرَ العَيْن، إنَّ الأغنام تسْتطيعُ أنْ تنظر إلى الجمل وتَحيد عنه في طريقِها إذا نظرَتْ إليه ورأتْهُ، وأيُّ دابَّةٍ من دواب الأرض تنْظر وترى، انظر إلى نمْلَة تسيرُ على الطاولة وضَعْ يدك أمامها، تَقِفُ ثمَّ تُغَيِّرُ مسارها، معنى ذلك أنَّ النَّمْلة رأتْ، والدليل أنها غَيَّرَتْ مسارها، فالنَّظر الذي أمرنا الله عز وجل به في هذه الآية ليس نظر العَيْن ولكِنَّهُ نظرُ الفِكْر، قد تُطْعِمُ دابَّةٌ حشيشاً ولا يرى إلا أنَّهُ غِذاءٌ يبْحث عنه، لكن الإنسان إذا نظر إلى التُفاحة يرى من خِلالها عظمَة الله، وكذا إذا شربَ كأساً من الماء، وإذا نظر إلى ابنه وهو يعلم أنَّ أصْلَهُ نُطْفَة يرى صُنْعَ الله في خلقِه، إذا نظر إلى الجبل والسهْل والبحْر والشجَر والورد كان هذا تفَكُّر، أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَت.

الحقيقة أنَّ الإنسان الأعْمى القلب هو الذي يمُرُّ على هذه الآيات ولا يرى من خِلالها الله عز وجل، قال تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

[سورة يوسف: 105]

الإبل، قد يقول قائِل لماذا اخْتار الله عز وجل من بين آلاف الحيوانات ومن بين ملايين الآيات الجَمَل؟ لأنَّ الله عز وجل يُخاطِبُ بهذا القرآن العظيم العَرَب، وهم سُكانُ الصحْراء، والجَمَل يحْتَلّ المكانة الأولى في الصحْراء يعيشون معه، ويحْتلّ جُزءاً من اهْتِمامهم، ألَمْ يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

ماذا يعْني هذا الحديث؟ أنَّ حُمُر النَّعَم شيءٌ ثمينٌ جداً، ونفيسٌ جداً.

الحكمة من اختيار الله الجمل من بين آلاف الحيوانات ومن بين ملايين الآيات :

الإنسان العرَبِيُّ في الصحْراء يعُدّ الجمَلَ أثمَنَ ما في الصحْراء، لذلك ربنا عز وجل قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

الحَجْم المُتناسب، لو أنَّ حجْمَ الإبِل أصْغر من ذلك لما تناسبَ مع رِمال الصَّحْراء، ومع الكُثبان الرَّمْلِيَّة، ومع المسافات الشاسِعَة التي على الجَمَل أن يقْطَعَها؛ فالحجْمُ مُناسب، يتحمل العطش، وهذه الصحْراء كما تعْلمون قاحِلَة لا نبات ولا ماء! لا بد من أنَّ هذا الحيوان الذي سَخَّرَهُ الله لِخِدْمَةِ الإنسان أنْ يتحَمَّل العطش، فالجَمَلُ كما تعْلمون يتَحَمَّلُ العَطَش إلى دَرَجَة عاليَة، عشْرة أيامٍ، وفي الأحْوال العادِيَّة يشْرب في الأربعة أيام مرَّةً واحدة، لأنَّ الله سبحانه وتعالى زَوَّدَهُ بِمُسْتَوْدعات ماءٍ في جَسَدِه يسْتَهْلِكُها رُوَيْداً رُوَيْداً، فالله تعالى قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

الوسيلة المجدية في الصحراء، البَدْوُ يُسَمون الجمل عَطا الله، أيْ عطاء الله عز وجل، وتعْلمون أنَّ المناطق القاحِلَة في العالم تُساوي سُدْسَ اليابِسَة واليابِسَةُ تُساوي خُمْسَ الكرة الأرضية، والجمل هو الوسيلة الوحيدة للتنَقُّل في الصحارى وحتى الوقت الحاضر لا يُسْتخدم إلا الجمل في نقْل الحاجات والمُعِدَّات، حتى بعض الجُيوش في العالم تسْتخدم الجمل حتى هذا التاريخ لأنَّهُ الوسيلة الأمينة والمُجْدِيَة والفعالة في الصحْراء.

شفتي الجمل، قال بعض العلماء: كلُّ ما في الجَمَل مُتْقَنُ التَّصْميم، كي يتَحَمَّلَ البيئة القاسِيَة في الصحْراء، تحُسُّ أنَّ وراء الجَمَل خِلقة مُبْدَعَة وإلهٌ عظيمٌ، قالوا: شفتا الجَمَل مَطاطِيَتان قاسِيتان قَساوة مع مُرونة تسْتطيعان أنْ تلْتَهما الشَّوْك الذي يخرق نعْل الحِذاء! هناك بالصَّحْراء شَوْكٌ لو وَضَعْتَ قَدَمَكَ عليه لاخْتَرَقَ النعْل إلى رِجْلِك، وهذا الشَّوْك كأنَّهُ إبَرٌ فُولاذِيَّة تسْتطيعُ شفتا الجَمَل أنْ تلْتَهِمَهُ في الصحْراء، فما هذه القُدْرة التي منَحَها الجَمَل وَزَوَّدَها به، شَفَتا الجَمَل تجْمعُ الطعام من دون أن يفْقِد فَمُ الجَمَل رُطوبته، لأنَّ الماء في الصحْراء نادِر، والماءُ شيءٌ نفيسٌ في الصحْراء، فَكُلُّ تصْميمات الجَمَل بِشَكْل أنْ لا يسْتَهْلِكَ الرُّطوبة التي في جَسَدِهِ، لذلك الشَّفتان المُتباعِدتان المطَّاطِيَّتان تلْتَهِمُ الأعْشاب وَفَمُهُ مُغْلق، حِفاظاً على الرَّطوبة في فَمِهِ.

خلق الجمل من آيات الله الدالة على عظمته :

يأكُلُ الجَمَلُ نباتاتٍ لا يلْتَفِتُ أيُّ حيوانٍ إليها، مهما كان النبات قاسِياً وشَوْكِياً وحاداً وجافاً ومُؤَذِّفاً يأكله الجمل لأنَّهُ يعيش في الصحْراء، والصحْراء تحْوي الشَّوْك، والشَّوْكُ أوْراقٌ إبَرِيَّة، كُلُّ هذا التَّصْميم من

أجل الحِفاظ على الرُّطوبة، ففي المناطق الاسْتِوائِيَّة الأوراق كبيرة جداً لأنَّ الرُّطوبة موجودة، لكنَّ في الصحْراء الرطوبة نادِرَة جداً فالنبات الذي يَنْبُتُ في الصحْراء ترى أوْراقهُ كالإبَر ومُؤَنَّفَة، كُلُّ هذا من أجل الحِفاظ على الرُّطوبة.

معدة الجمل، مِعْدَةُ الجمل لها أربعة أجْواف، فَهُوَ من الحيوانات المُجْتَرَّة، فَلَو أنَّك حَرَمْتَ الجمل الطعام أمداً طويلاً فإنَّهُ يهْضِمُ الطعام الذي كان قد أكله، وقد ركَّبَ الله في ظهْره مُسْتَوْدعاً غِذائِياً يكْفيه عَشَرات الأيام بل ما يُعادل الشَّهْر، ذلك السَّنام، السِّنام رَكَّبَهُ الله تعالى في الجمل لأنه يقْطعُ مسافات طويلة بلا طعامٍ ولا ماء في طريقه الصحْراوي، كما قُلتُ قبل قليل يسْتطيع الجمل أنْ يسْتغْني عن الماء أربعة أيامٍ في الأحْوال الطبيعِيَّة، وعشْرَة أيامٍ بالأحوال القاسِيَة، لذلك سيّدنا خالد رضي الله عنه اسْتَخْدَمَ الجِمال في معْرَكَة اليَرْموك ونقل بها الجَيش من العِراق إلى الشام في عَشْرة أيام دون أنْ تشْرب قطْرَةً واحدة.

بول الجمل وروثه، لو تتبَّعْتَ الأجْهزة التي ركَّبَها الله في الجَمَل، بَوْلُهُ كثيفٌ جداً لأنْ لا يسْتهلك الماء، رَوْثُهُ قليل جداً لأنه لا يسْتهلك الماء.

تعرق الجمل، وهو لا يتعَرَّق، لو كان يتعرَّق والحَرّ شديد لَفَقَدَ ماء جِسْمه، يعتمد للحفاظ على حرارة جِسْمِهِ بعَكْس الحرارة عن طريق وَبَرِهِ، الإنسان يتعرَّق والتعرُّق يُحافظ على حرارته، لكنَّ الجمل لا يتعرَّق أبداً حِفاظاً على الماء في جَسَدِه.

سرعة الجمل وحمولته، الجمل يسْتطيعُ أنْ يسبق الحِصان، يصْمُدُ على المسافات الطويلة وبالأحْمال الثَّقيلة كما قلتُ قبل قليل: مُصَمَّمٌ ومُهَيَّأٌ للصحراء ويسْتطيعُ حَمْلَ مئتي كيلو غراماً والسَّيْر بهما أربعين كيلو متراً لِمُدَّة ثلاثة أيام مُتواصِلَة دون تَوَقُّفٍ ودون طعامٍ وشراب!

قيام الجمل وقعوده، شيءٌ آخر، وهو أنَّ ربنا عز وجل لفتَ نظرَنا إلى الجمل إلى سَفِناته، هذه السَّفِنات، تلك الدوائر المُتَقَرِّنَة من جلده الموجودة في بطْنه وفي يَدَيْه ورجْلَيْه، من أجل أن يسْتوي عليهما قاعِداً، فالجَمَلُ إذا جلس على الأرض جلسَ جلْسَةً نِظامِيَّة من أجل أنْ يستطيع صاحِبُهُ أنْ يُحَمِّلَهُ، فلو جلس على الأرض كما يجْلس الحِصان أو البقرة أو الدابة لما أمْكَنَهُ تحْميلها كيف يُحَمِّلُهُ صاحبه وهو عالٍ؟ يحْتاجُ إلى سُلَّم فإذا صعد السُّلَّم وابْتَعَد الجمل رمى صاحِبَهُ ودقَّ عُنُقَهُ، لذلك ربنا عز وجل جعل الجمل ينْفَردُ بهذه الجِلْسَة، جِلْسَة نظامِيَّة، كيفَ ينْهض وله هذه القوائِم الطويلة؟ لو نهضَ بدْءاً بقَوائِمِه الخَلْفِيَّة لَوَقَعَ الحِمْلُ على الأرض، ولو وقَفَ بدءاً بقَوَائِمِهِ الأماميّة لَوَقَعَ الحِمْل خلْفَهُ، لكنَّ الله سُبحانه وتعالى جعل له ذاك الرأس الكبير وذلك العُنُقَ الطويل كي يكون مُتوازناً في قِيامه وفي قُعودِهِ.

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

طريق الإيمان يكون بالتفكر في آيات الله :

رموش الجمل، الجمل يستطيعُ أنْ يُغْلِقَ رُموشَ عَيْنَيْه وأنْ يرى طريقه دون أنْ يدخُل الرَّمْل في عَيْنَيْه، مُزَوَّدٌ برُموشٍ دقيقة مُتشابكة تسْمحُ له بالرؤيا ولا تسْمح للغُبار الدخول لِعَيْنَيْه لأنَّ الصحْراء مملوءَةٌ بالعجاج.

أنف الجمل وأذنيه، الجملُ من بين الحيوانات التي تستطيعُ إغْلاق أُذُنَيْها وأنْفِها، إذا هَبَّت الرِّياحُ العاتِيَة وأثارَتْ الغُبار الدقيق فإنَّ الجمل يستطيعُ أنْ يُغْلِقَ أُذُنَيْه وأنْفَهُ وأجْفان عَيْنَيْه مع رؤية الطريق من دون تعثُّر.

خف الجمل، الجملُ مُزَوَّدٌ بخُفٍّ يُعينه على السَّيْر في الرَّمْل، اِذْهَب إلى ساحِلِ البحْر وامْشِ على قَدَمَيْكَ على أرْضٍ رَمْلِيَّة ثمَّ تذكَّر مِقْدار المَشَقَّة التي تُعانيها في السَّيْر على الرَّمْل! لكنَّ الجمل مُزَوَّدٌ بخُفٍّ مَرِنٍ وبظُفْرٍ يدْفَعُ عنه الأحجار إذا سار على الرَّمْل.

(كَيْفَ خُلِقَتْ)

شيءٌ آخر وهو أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ بهذه الصِّفات؟ كيْفَ تَمَّ خلقُها، أليْسَ الجمل في أصله نُطْفَة؟ ألم يتَكَوَّن الجمل في رَحِمِ أُمِّهِ؟ يدُ من صاغَتْ هذا الخلْق؟ يدُ من جعلتْ له أربعة أجْوافٍ هضْمِيَّة؟ يدُ من جعلتْ له مُسْتَوْدعاتٍ للماء في بطْنِه؟ يدُ من جعلتْ سنامهُ؟ يدُ من جعلتْ رقَبَتَهُ طويلة؟ يدُ من خلقَتْ هذه السَّفِنات؟ يدُ من جعلتْ هذه القوائِم العالِيَة؟ يدُ من جعلتْ هذه الخصائِص؟ هذه الشَّفَة المطاطِيَّة التي تحْتمِلُ أقْصى أنواع الشَّوْك، لِمَ لا يعرقُ الجمل؟ لم لا يُغْلِقُ رموشَ عَيْنَيْه؟ كيف يغلقُ أُذُنَهُ وأنْفَهُ؟ يدُ من؟

(أفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

فَرَبُّنا عز وجل في هذه السورة بَيَّن لنا طريق الإيمان، طريق الإيمان أنْ تُفَكِّر في آيات الله عز وجل، فإذا فَكَّرْتَ في آياته تعالى عَرَفْتَهُ، وإذا عَرَفْتَهُ استَقَمْتَ على أمْرِهِ، وإذا استَقَمْتَ على أمْره أقْبَلْتَ عليه، وإذا أقْبَلْتَ عليه اصطبغتْ نفسُك بالكمال فَصِرْتَ صالِحاً لأنْ تسْعَدَ بقُرْبِهِ إلى أبد الآبدين:

(أفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

إعجاز الله في الكون :

شيءٌ آخر فيما يخصّ توازن الرَّقَبَة مع الرأس، والقِيام مع القُعود والقُعود المُنتظم، هذا مبْني على عِلْم الحَرَكة والثقالة، فهذا الإله العظيم الذي خلقهُ، خلقُهُ مَبْنِيٌّ على عِلْم وحِكْمَة، لذلك تتعرَّفُ إلى العليم والقدير والخبير من خلال الجمل، أسْماء الله الحُسنى تسْتطيعُ أنْ تعرف طَرَفاً منها من خِلال خلْقِهِ:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

الوقتُ لا يتَّسِعُ والمقامُ كذلك وطبيعة الدَّرْس الديني لا تتسع لِتَفْصيلاتٍ عن الجمل أفاض بها العلماء، الآية الثانية:

(وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

أوَّلاً كما قلنا من قبل في قوله تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

[سورة الطارق: 1]

السماء فضاء وكواكب، هذا الفضاء الذي لا حُدود له، هل فَكَّرْنا فيه؟ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

كلمة ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئِيَّة هل يُمكننا استيعابها؟ ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئِيَّة بُعْدُ مجَرَّة أخرى، مئة وخمسون ألف سنة ضوئِيَّة طولُ مَجَرَّتِنا، خمسة عشر ألف سنة ضَوْئِيَّة عرض مَجَرَّتِنا، ثلاث عشرة ساعة أقصى بُعد بين المجموعة الشَّمْسِيَّة، الشمسُ ثمانِيَ دقائق والقمرُ ثانِيَة، فإذا كان بُعد القمر ثانِيَة وصعد الإنسان للقمر وركِبَ مرْكَبَةً تسير بِقدْر أربعين ألف كيلو متر في الساعة، ووصَلَهُ بعد ثلاثة أيام، وكَلَّفَتْ هذه الرِّحْلة أربعة وعشرين ألف مليون دولار، وقد قطع الإنسان في الفضاء الخارجي ثانِيَةً ضَوْئِيَّةً واحدة، فَكَيْفَ لو كُلِّفَ بِقَطْع ثماني دقائق؟! بعدُ الأرض عن الشمس مئة وستُّة وخمسون مليون كيلو متر، فَكَيْفَ لو كُلِّفَ أنْ يقطع المجموعة الشَّمْسِيَّة؟ فَكَيْفَ لو كُلِّفَ أنْ يقطع عرْضَ مَجَرَّة خمسة عشر ألف سنة ضَوْئِيَّة طولها؟ كيف لو كُلِّفَ أن يصِل إلى نجم القطب؟ أربعة آلاف سنة ضَوْئِيَّة.

المجرات والنجوم من آيات الله الدالة على عظمته :

مرَّةً وَضَعْتُ حساباً بسيطاً فقُلْتُ: إذا كان الضوء ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية ضربناهم في ستين، والناتج في ستين، والناتج في أربعة وعشرين، والناتج في ثلاثمئة وخمسة وستين، قسَّمناهم على مئة وهي سرعة سيَّارة تسير بمئة كيلومتر في الساعة، ثم قسَّمناهم على أربعة وعشرين بليون، على ثلاثمئة وخمسة وستين، الناتج: سبعة وعشرون مليون مليون سنة، فإذا كان هناك طريق مُعبَّد إلى نجم القطب فلا بدَّ لك من سبعة وعشرين مليون مليون سنة حتَّى تصل إلى نجم القطب، أربعة آلاف سنة ضوئية، فكيف لو كُلِّفتَ أن تصل إلى بعض المجرات البعيدة التي استغرق ضوؤها كي يصل إلينا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، رأينا مجرَّة بُعدُها عنَّا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، العلماء يقولون هذا

المنظر كاذب، هذا المنظر هو شكل المجرة عندما كانت هنا قبل ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، ذهبت إلى مكان آخر، فربُّنا عز وجل قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

نظام الجاذبية تصميم مَنْ؟ أن الكواكب تتجاذب بحسب كتلتها ومربَّع المسافة بينها، هذا النظام من صمَّمه؟ قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة النمل: 61]

نظام الجاذبية :

بنظام الجاذبية كل شيء تتركه يقع على الأرض، لماذا يقع على الأرض؟ لأنه مربوط في الأرض بالجاذبية، ولو كنت في الفضاء الخارجي وتركتَه هناك يبقى هناك، لا وزن له، في مناطق انعدام الجاذبية لا يوجد وزن، رُوَاد الفضاء سبحوا في الفضاء بدون وزن وما سقطوا، ومعنى وقع؟ أي أن هذا الشيء مربوط بالأرض بطريق التجاذب، هذا نظام الجاذبية من صمَّمه؟ فإذا كان تجاذب في الكون فلماذا لا يتجاذب الكون بعضه ببعض فيصبح كتلة واحدة؟! ما دام الأكبرُ يجذب الأصغرَ، لا بدَّ أن تجذب الشمس المشتري وزحل وأورانوس والمريخ، أن تصبح المجموعة الشمسية كتلة واحدة، وهذه الكتلة الضَّخمةُ تنجذب إلى أكبر نجم في المجرَّةِ، وتصبح المجرة كلُّها كتلة واحدة، والمجرات تنجذب إلى بعضها فيصبح الكونُ كلُّه كتلةً واحدةً، لا بدَّ مِن أن يقع هذا، الحركة فيها بركة، بهذه الحركة تنشأ القوَّةُ النابذةُ التي تكافئ القوَّةَ الجاذبة، قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

كيف هذه الحركة والتجاذب والاستقرار؟ من أصعب الأشياء النظام مع حركة، أنتَ مهما كنتَ ماهراً في الرياضيات وجِئْتَ بقطعتي مغناطيس تضع الأولى على الأرض وتُعلّق الثانية بخيط، وتضع مسماراً في الفضاء بينهما في المكان المُنَصِّف تماماً، وأن يبقى المسمارُ عالقاً في الفضاء بفعل تساوي التجاذب بين القطعتين مع حساب وزنه وجذب الأرض له هذا الشيء فوق طاقة البشر، فكيف الأرض لها مسار لا تزيح عنه، افتح أي تقويم، الفجر على الساعة الخامسة وسبع دقائق، معنى ذلك أن الأرض لها مسار حول الشمس على مستوى ثواني، هناك تجاذب، تجذب القمر والقمر يجذبها، وتجذب الشمس والشمس تجذبها، فلولا الحركة لأصبح الكون كتلة واحدة، من المصمِّم؟ الله سبحانه وتعالى، فربنا قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

هذا الشكل الكُروي رائع جدّاً، لا نهاية لخطوطه وحجمه محدود، الشمس كرةٌ والأرض كرة وزحل كُرَةٌ والكواكب كلها ذات أشكال كروية.

مبدأ العطالة :

تصوّر أن الكواكب مكعبة الحجم، مكعب متوازي مستطيلات، فأنسب شكل للكواكب الشكل الكروي، قال تعالى:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

[سورة الزمر: 5]

لو كانت الأرض مكعبة أو الشمس مكعبة أو القمر مكعب له حروف لاختلف الأمر اختلافاً بيِّناً، الفضاءُ سعتُه والكواكب والمجرَّات بكثافتها ونظام التجاذب وعدم تجمع الكون في كتلة واحدة، ونظام الحركة والحركة متفاوتة وبسرعات عالية، فالأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف وستمئة كيلو متر في الساعة عند خطِّ الاستواء، وتدور أيضاً حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلومتر في الساعة، والشمس تدور حول مركز في المجرَّة وتستغرق دورتُها أكثر من مئتي مليون سنة، سرعات متفاوتة، بعض المجرات سرعتها قريبة من سرعة الضوء - مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، والمُذَنَّبات وغيرها:

(وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

فكَّرتُم فيها؟! هذا طريق الإيمان ومعرفة الله عز وجل، فإذا كان الكون ساكناً رفض الحركة، لذلك الآن يبْعثون قَمَراً صِناعِياً يعطونه حركة ابْتِدائِيَّة بسُرعة ثماني أو تسع سنوات، لا يحْتاج الأمر لِمُحَرِّك، يكْفي أنْ تضَع كَوْكَباً بالفضاء الخارجي في مكان انْعِدام الجاذِبِيَّة وتعْطيه سُرْعة مُعَيَّنة، نَظَرِياً هذه السرعة ينْبغي أنْ تبْقى إلى أبد الآبدين؛ وهذا هو مبْدأ العطالة، فالجِسْم المُتحَرِّك يرفض السكون، والجِسم الساكن يرفض الحَرَكَة، إذا ركبت سيارةً وأنت واقفٌ، ثمَّ تَوَقَّفَتْ فجأةً تجد نفْسَكَ قد وَقَعْتَ، لماذا؟ لأنَّك ترْفض التَوَقُّف، والسيارة وقفتْ مما يجْعلك تقع، وإذا كان الإنسان في السيارة على المقعد الخلفي وتَحَرَّكت به السيارة يشْعر المقعد الخلفي يدفعه إلى الأمام، لأنه يرفض الحركة، وحدث تضاد بالجهة، فهذا المبْدأ من خلقه، والشكْل الكُرَوي والفضاء والذرات والتجاذب ومبدأ العطالة؟!!

الليل والنهار والشمس والقمر والضوء من آيات الله الدالة على عظمته :

إلى الآن وَتَعْرِيفُ الضوء صعْب؛ نُجَيْمات دقيقة جداً تنْطلق من أجْسام هي الضوء، قالوا: إذا صار الجِسْم يمْشي بِسُرْعَة الضوْء صارَ ضَوْءاً، ما معْنى الضَّوْء؟ أيْ حجْمُهُ لا نِهائي، وكُتْلَتُهُ صِفْر، أشِعَّةُ الشمْس لا توزن، هذا الضوْء المُنْبعث من هذه المصابيح لا يوزن، وما دام هناك فضاء فالضوء ينْتشر فيه إلى ما لا نهاية، فالضوءُ كُتْلَتُهُ صِفْر، وحجْمُهُ لا نِهائي، فإذا سار أيُّ جِسْم بِسُرْعَة الضوء صار ضوْءً، ما كُنْهُ الضوْء؟ الله أعلم، من خلق الضوء؟ ومن خلق الليل والنهار؟ والشمْس والقمر؟ قال:

(وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

هذه الكواكب لها قِوامٌ، هذا الكَوْكَب غازي، فالشمْس ليستَ صلبة بل غازات تتفاعل تفاعُلاً مُسْتَمِراً ومُتَسَلْسِلاً، زُحَل غازات والمَريخ جسم صُلب وكذا الأرض، لذلك لكُلِّ كوكب كثافة مُعَيَّنة، قالوا: هناك كواكب السنتِمِتْر مكعب فيها بألف مليون طنّ! الأرض كثافَتُها واحد، وهناك كواكب أكثر وهناك أقلّ، الشَّمْس مثلاً أكبر من الأرض بمِليون وثلاثمئة ألف مرَّة ولكن وزْنُها أكبر من الأرض بثلاثة آلاف وثلاثمئة مرَّة، اِخْتِلاف الأحُجام واخْتِلاف قِيام الكواكب والكثافات، قال تعالى:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل: 88]

هناك موْضوعات تقْترب من أنْ تكون فلْسَفِيَّة، موضوع الزمن مثلاً، ما هو تعْريفه؟ قالوا: الزمن هو البُعْد الحَرَكي للأشْياء، شيءٌ له طول وعرض وارْتفاع وله بُعد رابع هو الزمن!

الجبال أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته :

رَبُّنا عز وجل قال:

(وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)

هناك كتابٌ مُتَرْجَمٌ عن الجبال وعن الأرض مكْتوب فيه بالمُقَدِّمة قال: إنَّ أغْلب الصُّوَر على سطْح الأرض كالبحار والجبال والتِّلال والبُحَيْرات والكُتَل الجليديَّة والسُّهول الخضْراء والمُسْتَنْقعات والصحارى إنما صَنَعَتْها قُوَّةٌ جبارة غيرُ مَرْئِيَّة، فَهُناك نِظامٌ يعْجزُ المرْء عن تَصَوُّر مداه ودِقَّتِه! قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)

[سورة النبأ: 6-7]

عَرَفوا الآن أنَّ هناك طبقات على سطح الأرض، حِجار وتراب ورمال وجليد ونباتات، هذه لو أُزيحَتْ لرَأَيْنا أنَّ للقارات جِسْماً، وهذه القارات مُسْتَنِدَة إلى مادَّةٍ صَخْرِيَّة اسمُها البازلت، وتحت البازلت هناك طبقة ثالثة، هي قاعدة الأرض القِشْرَةُ مُتَجَمِّدَة، وهذه السطوح الصَّخْرِيَّة تتحَرَّك بالسنة بِنِسْبَة واحد سُنتِمِتْر أو اثنين، تَحَرُّك تطاحُن أو تَحَرُّك تباعد، فإذا تحَرَّكَت الكُتَل السَّطْحِيَّة من القِشْرَة الأرضِيَّة تَحَرُّكَ تباعد تأتي البراكين وهذه المادَّة السائِلَة التي في جَوْف الأرض تخْرُج من هذه الشُّقوق وتُكَوِّنُ الجِبال، هناك بروديسْيا جبل كُوِّنَ على هذه الطريقة، أيْ انْزياح الطبقة الصلْبة من الأرض ويُمطر هذا السائِل ويتجَمَّد ويُشَكِّل الجبل، وفي المُحيط الأطْلسي سِلْسِلَةٌ من الجبال، تبْدأ من الشمال إلى المحيط المُتَجَمِّد الجنوبي بارْتِفاعٍ قدْرُه ألف وخمسمئة متر، في سلاسل جَبَلِيَّة ضِمْن البحْر:

(وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)

هناك جِبال بُرْكانِيَّة، أيْ البراكين السائِلَة تصْنَعُه وفي سَنَة سبع وستين أو أكثر كانت هناك جزيرة بكامِلِها تَشَكَّلَت من براكين، فالصفائح القارِيَّة تتباعد عن بعْضِها ومن تباعُدِها تنْشأ الجبال البُرْكانِيَّة وقد تتطاحَن، لأنَّ هذه الصفيحة التي في الأرض تأتي تحت هذه الصفيحة ويحْدُث اِلْتِواء ويظْهر الجبل، فَمِنْ تباعُدها تنْشأ الجبال البركانِيَّة ومن تقارُبها تنْشأ الجبال التوائِيَّة، وهناك ضُغوطٌ باطِنِيَّة في الأرض تدْفَعُ بعض القارات إلى أعْلى وتُشَكِّل الجِبال، هذه بعضُ النَّظريات لكنَّ الله سُبْحانه وتعالى وحْده يعْلم كيفَ نُصِبَتْ هذه الجِبال؟ ومن تصْميم الجِبال حِكْمَةٌ بالغة! تُلاحظ إلى جانب السواحل هناك سلاسل جَبَلِيَّة وهذه الأخيرة تُوَفِّرُ المِصَدَّات التي تمنعُ المُنْخَفضات من التَّبَعْثُر في القارات، وهذه السلاسل الجَبَلِيَّة تُشَكِّلُ فُروقاً في الحرارة بين سُفوح الجبال وبين قِمَمِها، وهذا يُشَكِّلُ تيارات من الهواء، موضوع الجِبال موضوعٌ كبير.

سبب استِقْرار الأرض تَوَزُّع الجِبال على سَطْحِها :

ربنا عز وجل قال:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)

[سورة النبأ: 6-7]

معنى الوَتَد أنَّ للجبل قِسْمٌ ظاهِرٌ وله قِسْمٌ مغْروسٌ في الأرض، العلماء قدَّروا أنَّ القِسْم غير الظاهر يُعادِل ثُلثي القسم الظاهر! مثل السِنِّ تماماً هذان الثُّلثان يرْبِطان طبقات الأرض ببَعْضِها البعض، فإذا حصل اضْطِراب في باطن الأرض فإنَّ هذه الكُتَل مُثَبَّتَةٌ ببعْضها البعض عن طريق الوَتَد الذي هو الجَبل، فربنا عز وجل قال:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)

[سورة النبأ: 6-7]

آيةٌ ثانِيَة، قال تعالى:

(وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)

[سورة النازعات: 32]

الأرض تدور ودَوْرَةُ الأرض بِسُرْعَةٍ بالغة فَلَوْ لم يكُنْ هناك توازُن في تَوْزيع الثَّقالة والكُتَل على سطْح الأرض لحصل اضْطِرابٌ! قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة النمل: 61]

لو تَحَرَّكَتْ الأرض بِسَنْتِمِتْر واحد لتهَدَمَ هذا البناء، اسْتِقْرار الأبْنِيَة بِسَبَب اسْتقْرار الأرض، واسْتِقْرار هذه الأرض بِسَبب تَوَزُّع هذه الجِبال على سَطْحِها.

عَلاقة الاسْتِقْرار بالرواسي :

قال تعالى:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

[سورة لقمان: 10]

أيْ لِكَيْ لا تميد بكم، الآن تجد قوالب لِعَجَلات من أعلى مُسْتوى ويُثَبّتون العَجَلة بإحْكام ويضَعونها على مُحَرِّك وتدور ويضعون لها قطعة رصاص بمَكانٍ مُعَيَّن، فإذا بهذه القطْعة تُحْدث اختلالاً بالدَّوران، كذلك هذه الجِبال حينما أوْدَعَها الله عز وجل ووضَعَها في هذه الأماكن التي بَثَّها على عِلْمٍ من أجل أنْ تكون الأرض مُسْتَقِرَّة، لو تَخَيَّلْنا انْتِقال جَبَل من مكانٍ إلى مكانٍ لاخْتَلَّ اسْتِقْرار الأرض، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الرعد: 3]

كلمة رواسِيَ وأنْهاراً تعْني أنَّ الجبل مُسْتَوْدَعٌ للمياه، هذه الأنهار لها ينابيع والينابيع مُسْتَوْدعاتُها في الجِبال، وهناك آيةٌ ثانِيَة:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

[سورة الحجر: 19]

أيْ شَكْلُها كُرَوي وخُطوطها كُلُّها مُسْتَمِرَّة، أما أيُّ شكْلٍ آخر فإنَّ الخطوط تنْتهي عند الحرْف لكنَّ الكرة خُطوطها لا تنْتهي، وقال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة النمل: 61]

فَعَلاقة الاسْتِقْرار بالرواسي، وقال تعالى:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً)

[سورة المرسلات: 27]

حِكْمَةُ ذِكْر آية الماء الفُرات مع القِمَم الشامِخَة هو أنَّ الجبل مُسْتَوْدعُ المياه وربنا عز وجل قال في آياتٍ أُخْرى:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[سورة الحجر: 22]

الأرض وما فيها من تضاريس من آيات الله الدالة على عظمته :

الآن يقول ربنا عز وجل:

(وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

الحِكْمَة من أن الأرض فيها جبال وفيها هِضاب وفيها تِلال وسُهول وبوادي وصَحارى وسَواحِل وبحار وخُلْجان وجُزُر كبيرة وصغيرة، وهناك قارات من كُلِ النواحي، لكنَّ هناك قانوناً اكْتَشَفَهُ بعض العلماء، قال: كُلُّ نقطة من اليابسَة إذا رَسَمْتَ خطَّ العرْض لها ومَدَّدْتَهُ حول الكُرة، وأخَذْتَ النقْطة المُقابلة لهذه النُّقْطة تراها بحْراً، كُلُّ نقطة على اليابسة يُقابِلها بحر، وهذا تصْميمٌ عجيبٌ! هل يُعْقَل أن تكون الأرض قِطْعَةً من الشَّمْس اِنْفَصَلَتْ عنها وتَبَرَّدَتْ وصارَتْ هكذا! ما هذا النَّظام والقانون! شيءٌ آخر وهو قارات الأرض كما تقول بعض الكُتب هِضابٌ عُظْمى من الصَّخْر ترْتَفِع من ثمانِية إلى عشرة كيلومتر وهو أقْصى ارْتِفاعٍ لها تقْريباً، وسلاسلُ الجِبال التي صَوَّرَها الله عز وجل وألْقاها بعْضُها فوق سطح الأرض، وبعْضُها في أعْماق البحار، لذلك الآن هناك خرائط لِجِبال البحار، تجد سلاسل جَبَلِيَّة وتِلالاً وَوِدْياناً حتى في أعْماق البحار هناك وديان سحيقة، وادي مرْيانة في المحيط الهادي عُمْقُهُ بِقَدْر ارْتِفاع جَبَل إيفرست أعلى نقْطة بالعالم، ثمَّ إنَّ القارة لها رصيفٌ، والرَّصيف القاري يمْتَدُّ مئة وسِتون كيلومتر في البحْر، فَقَارَّةُ آسْيا لها رصيفٌ لو الْتَغى البحر تكْبر قارة آسْيا من كُلِّ الجهات مئة وسِتُّين كيلومتر، لو رأيت أوقيانوسيا من دون بحر أكبر من حجمها الحقيقي بمئة وستّين كيلو متر من كلّ الجهات تقريباً،

هذا الرَّصيف القاري تصْميمُ من؟! كُلُّ الجِبال التي تَرَوْنها تجدون فيها قواقِع وأحافير ورسوم حيوانات، أشْكال نباتات، فالأرضُ كُلُّها كانت مُغَطَّاة بالبَحر، هذه الجبال المُرْتَفِعَة؛ جبلُ قاسْيون فيه أحافيرُ أسْماك ونباتات فهذه الأرض كم عُمْرُها؟ وكم اسْتَغْرَقَت من الوقْت حتى صارتْ صالحة للسُّكنى؟ لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

الإنسان لا يسْتطيعُ أنْ يعرف الله إلا إذا فكَّر في مخْلوقاته :

تَصَوَّر أرْضاً لا تُرْبة فيها! كيف تعيش؟ وأرْضٌ كلها صَخْرِيَّة، نموت من الجوع نحن والحيوانات! لكن من فَتَّت التراب وأعْطى الماء هذا القانون بِحَيْث إذا تَجَمَّد تَوَسَّع، كُلُّ عناصر الكَوْن تتْكَمِش إذا تَجَمَّدَتْ إلا الماء إذا بردَ تَوَسَّع، لذلك يسهم الماء في تفْتيت التربة وجعْلِها صالحة للزراعة، ومن الذي وضع في التراب هذه الكائِنات الحَيَّة، عندما ألْقَوا قُنْبُلَة ذرِّيَّة على هيروشيما وناكازاكي باليابان أصْبَحَتْ الأرض لا تُنْبِت، هذه الكائِنات الحَيَّة التي لا يعْلَمُ عددها إلا الله من خلقها؟ وإلى الأرض كيف سُطِحَت، من الذي جعل بالمدينة جبل، هذا الجَبَل يُؤَمِّن لك مُسْتَوْدعات للمياه وأنْهار وثلْج، وهو إذا ذاب غَذى هذه المُسْتوْدعات، من فوق منطقة باردة ومن تحت منطقة حارَّة، ومن اخْتِلاف الحرارة تنْشأ تيارات هوائِيَّة، كلُّ الجبال فيها نسيمٌ مهما كان الحرّ بالمدينة، ثمَّ مسألة تصميم الجبال مع السواحل هناك جِبال داخِلِيَّة لها هدف، وهذه السواحل لها فَتَحات؛ مثلاً فتْحَةُ حمْص كُلُّ المنخفضات الجويَّة تأتي من هذه الفتْحَة ولدَيْنا فتْحَة ثانِيَة بالجولان أيضاً، هذه الفَتْحات تُؤَمِّن المُنْخَفضات والأمْطار وما شاكل ذلك، هذا التصْميم تصْميمُ من؟

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

هذه الآيات أنا ما أردْتُ منها أنْ أُغْرِقَ الأخوة المُسْتَمِعين بمَعْلومات، ولكنَ أردْتُ من هذه المعْلومات أنْ تكون نماذج، فالإنسان لا يسْتطيعُ أنْ يعرف الله إلا إذا فكَّر في مخْلوقاته، فالارْتِباط بين المقْطع الأول والثاني والأخير في هذه السورة ارْتِباط دقيق جداً، طريق النجاة من عذاب النار والفوْز بنَعيم الجنَّة هو قوله تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

عظمة الله عز وجل تتجلى من خِلال آياته :

الأوروبيِّون فَكَّروا وتوَصَّلوا لِحَقائِق مُذْهِلَة عن المَجَرَّات ولماذا ما عَرَفوا الله عز وجل؟ إذا بَقِيَ الإنسان في الكون ولم ينتقل إلى الله عز وجل ما اسْتفاد من هذا العِلم، أحدُ العلماء قال: كلُّ إنسانٍ لا يرى قُوَّةً في هذا الكون هي أقْوى ما تكون، عليمَةً هي أعْلم ما تكون، رحيمَة هي أرحم ما تكون فهو إنسانٌ حيٌّ ولكنَّهُ ميِّت، يُمكن أن يكون عالم جيولوجْيا وعالم طبقات وعالم فلك وعالم نبات قد شاهَدَ أشْياء ما شاهَدْناها لكن إذا كان هدفهُ الشَّهْوة والشُّهْرة والمال والمجْد فما اسْتفاد منها شيئاً، رآها ولم يرَها، أما المؤمن إذا نظر إليها ينتقل منها إلى خالقها الله، هذه القارات هي كُتَلٌ صَخْرِيَّة هائِلَة، قارة آسْيا هي كُتْلَة صخْرِيَّة بكامِلِها مُسْتَنِدَة إلى سطْحٍ صخْري وهذا السطْح مُستنِدٌ إلى سطْحٍ ثالث، لو كان هناك اخْتِلافٌ بالكثافة عَكْسي لغارَتْ القارات في أعْماق الأرض، أو الطبقة السُّفْلى أشدُّ كثافَة والعُليا أقلُّ منها كما لو وضَعْتَ الفِلِّين فإنّه يطفو في الماء لأنّ كثافته أقلّ من الماء، من صَمَّم هذا التصْميم بحيث تكون هذه القارات قاعِدَتها أشدّ كثافَةً؟ وبالأعْماق هناك مائع ناري، هناك براكين تنطلق من مئة وستين كيلومتر من الأعْماق، حقول النَّفْط أعْماقها ثمانية كيلو متر، فهذه الكُتَل الصَّخْرِيَّة كم أوْزانها؟ تجد جبلاً عُمُره ثلاثون سنة وما تغيَّر شكْلُهُ، وهناك الصخور الثمينة مثل الرخام، هناك رخام ثمنه للمِتْر خمسة آلاف شَفاف أصله كِلس، الكوارتز أصله رمْل، وبعض الأحْجار الكريمة أصْلها فحم، الألماس أصله فحْم، قال تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

[سورة طه: 6]

معنى ذلك هناك ثَرَوات هائِلَة تحت الثرى، نفْطٌ وغازٌ طبيعي وفحْمٌ ومعادن وحديد وأورانيوم وألمنيوم ونحاس، من صَمَّمَ هذا التصْميم؟ الله سبحانه وتعالى، أنا ما قصَدْتُ أنْ أُعْطِيَ بحْثاً مُتكامل، فالبحث المتكامل يضْطرنا للصُوَر والسبورة والبيانات والرسومات إنما قَصَدْتُ أنْ أُبَيِّن عظمة الله عز وجل من خِلال آياته، فقد أتَيْتُ بأفْكارٍ مُتباعدة وغير مُنتظمة لا على قصْد الحصْر إنما على قصْد بيان عظمة الله عز وجل، فالإنسان إذا لم تكن له جلساتٌ مع الله يوْمِيَّة يتفَكَّر فيها في آيات الله فلن ينْجُوَ من عذاب الله ولا يفوز بنَعيم الجنَّة، فَسُبْحانه بعد أنْ حكى لنا عن نعيم أهل الجنَّة وعذاب أهل النار قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

مُلَخَّص الدرس أنَّ الإنسان مُكَلَّف أنْ يتعرَّف إلى الله بالكون :

نحن لنا أمورٌ أخرى كالسمك أحْياناً تأكل السمك تجد فيها خطاً هو جهاز ضغْط تعْرفُ به على أيِّ عُمْقٍ في البحر هي، وهذه سمكات تطْفو على سطْح البحْر لها أكْياس هوائيَّة تُفَرِّغُها، وهي تعْرف أين السطح دائِماً، لها أجْهزة وأساليب، فإذا الإنسان أكل السمك ولم ير إلا أنَّهُ سمكٌ طيِّب فقط ولم يتفَكَّر في هذا!! قالوا: لولا أنّ السمك الكبير يلْتَهِمُ السمك الصغير لتَلاشى الماء وبَقِيَ السمَكُ في البحار!! فالتفكّر دائِماً، نظر إلى ابنه كيف رُزِق السمْع والبصر وضحك وكائِنٌ حيّ بكامِلِه، فالقصْد ليس الآية بما حوَتْ عليه، هذه نموذج، القصْد أنْ تُعْمِلَ عقْلَكَ وفِكْرَكَ في هذه الآيات أنظر إلى التسلسل الابن، السماء، الجبال، الأرض، حَرَكة دائِريَّة، من الإبل إلى السماء إلى الجبال إلى الأرض، هذه كُلُّها أشْياء نَحْياها وتُحيط بنا، هناك آية عن الجبال وهي قوله تعالى:

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)

[سورة النحل: 81]

تجد قرب الجبال ركود الهواء وحرّاً، إذا كانت مدينة خلْفَ جبلٍ تجد جَوَّها دافئاً، لماذا مَكَّة حارَّة؟ لأنَّها مُحاطة بالجبال، فَهِيَ مَسَدُّ الرِّياح، هناك آية قرآنية أُحِبُّ أنْ تسْمعوها لأنَّ لها علاقة بمَوْضوعنا قال تعالى:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان: 44]

فالإنسان إذا لم يفكَّر بهذه الآيات فهو كالأنعام بل أضَلّ! لأنَّ الأنعام ليْسَت مُكَلَّفة بالأمانة ومعْرفة الله عز وجل، مُكَلَّفَة بخِدْمة الإنسان وقد خَدَمَتْهُ فإذا جاء أجلها فهي إلى الجنَّة، أما الإنسان فهو مُكَلَّف أنْ يعرف الله عز وجل، فهذا الدرس مُلَخَّصه أنَّ الإنسان مُكَلَّف أنْ يتعرَّف إلى الله بالكون، قال تعالى:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

[سورة المرسلات: 44]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الغاشية 088 - الدرس (3-3): تفسير الآيات21-26 أهمية التذكير بوعد الله سبحانه ووعيده.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-02-01

بسم الله الرحمن الرحيم

في القرآن الكريم ترابط بين مقاطع السورة مقطعاً مقطعاً :

أيها الأخوة الكرام، وصلنا في الدرس الماضي في سورة الغاشِية إلى قوله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

بيَّنْتُ لكم في الدرس الماضي أنَّ القرآن الكريم أُحْكِمَت آياته ثمَّ فُصِّلَتْ فلا بدَّ من ترابطٍ بين مقاطع السورة مقطعاً مقطعاً، وذكَرْتُ وَقْتَها أنَّ الله سبحانه وتعالى سَيَّر في المقطع الأوَّل أحْوال أهْل النار، وفي المقطع الثاني أحْوال أهل الجنَّة، وبَيَّنَ في المقطع الثالث أنَّك إذا أردْتَ أنْ تفوز بالجنَّة وتنْجُوَ من عذاب النار فَعَلَيْك بالإيمان، وطريق الإيمان التَّفَكُّر في آيات الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى ضَرَبَ بعض الآيات كَمَثَلٍ لا على سبيل الحصْر بل على سبيل المثال، قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

المقْطَعُ الأخير، ما علاقته بالمقاطع الأولى؟ لو أنَّ أهْل الجنَّة كما وَصَفَهم الله عز وجل يسْعدون إلى أبد الآبدين، وأهْل النار كما وَصَفَهم الله عز وجل يشْقَوْنَ إلى أبد الآبدين، وأنَّ الآيات مَبْثوثةٌ في كُلِّ مكان، في أنفسكم، وفي طعامكم، وفي شرابكم، وفي النبات، وفي الحيوانات الأهْلِيَّة وغير الأهْلِيَّة، وفي الجِبال والبحار، وفي السُّهول والصحارى، وفي الطيور والأسماك، إذا كان أهل الجنَّة كذلك والآيات كذلك وأهْل النار كذلك وهذا الإنسان لا يُفَكِّرُ فيها فماذا يجب عليك أنْ تفْعَلَهُ أنت؟!

فِعْلُ (ذَكَّر) يسْتلزم أنَّ في النَّفْس شيئاً كامِناً إذا ذَكَّرْتَ به الإنسان يذْكُرُهُ وهو الفطرة :

قال تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

الإنسان لا يفكر، هل تتْرُكُهُ على حاله؟ لا بُدَّ من التَّذْكير، ما معنى فَذَكِّرْ؟! حينما تقرأ صفْحَةً من كتاب قد لا تذْكُرُها فإذا جاءَكَ صديقٌ أو زميل وذَكَّرَكَ بها تذْكُرُها، لا بدَّ من أن تكون قد قرأتها، فَفِعْلُ (ذَكَّر)

يسْتلزم أنَّ في النَّفْس شيئاً كامِناً، إذا ذَكَّرْتَ به الإنسان يذْكُرُهُ فلولا هذا الشيءُ الكامن، ما معنى قوله تعالى:

(فَذَكِّرْ)

لم يقُل الله تعالى: (عَلِّمْ) إنما قال: (ذَكِّرْ)، معنى ذلك أنَّ شيئاً كامِناً جئتَ أنت أيها النبيّ فَذَكَّرْتَهُ به فَذَكَرَهُ، ما هو هذا الشيء الكامن؟ الفِطْرَة، حينما خلق الله الإنسان خلقهُ بِفِطْرَةٍ لا ترْتاحُ إلا إذا عَرَفَتْهُ، مثلاً السَّمَكة طبيعتها وشَكْلُها وزعانِفُها وأكْياسُ الهواء فيها، بُنْيَةُ السَّمَكَة من ألفها إلى يائِها مُهَيَّأةٌ لِتَكون في الماء فإذا وَضَعْتَها في الماء ترْتاح، وإذا خَرَجَت منه تحَرَّكتْ واضْطَرَبَتْ وماتت فالإنْسان إذا عرف الله عز وجل عاد إلى فِطْرَتِهِ، ربنا عز وجل خلق الإنسانَ ضعيفاً فإذا عرف الله عز وجل اِطْمَأنَّ وإذا انْقَطَع عنه اضْطَرَبَ فَحَياةُ الذين لا يسْتقيمون على أمْر الله مُضْطَرِبة، وحياتُهم قَلِقَة وفيها نَغَص قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

بعض علامات الإيمان :

إذاً كلمة (فَذَكِّر) معناها يوجد بالنَّفْس شيءٌ كامِنٌ، وهو الفِطْرة السليمة التي فطَرَ الناس عليها، وهو تلك الاسْتِعْدادات والإمْكانات والخصائص التي إنْ عرفْتَ الله عز وجل تفاعَلَتْ وعَمِلَتْ وأبْدَعَتْ، فعندما يكون الإنسان غير مُسْتقيم وبعيداً عن الله عز وجل تُصبحُ حياته قَلِقَة، وفيها اضْطِرابٌ، ورُدود فعله عنيفةٌ جداً، وغير منطِقي، يُحبُّ أنْ يأخذ ما له وما ليس له، يخافُهُ الناس، يكْرَهُهُ الناس، فإذا عرف الله عز وجل وهو ضعيفٌ اِطْمَأنَّتْ نفسه بِقُوَّة الله، وإذا عرف الله عز وجل وهو الهلوع توازَنَتْ نفْسُهُ بِعَدالة الله، إذاً ربنا عز وجل لما قال لِنَبِيِّهِ الكريم: فَذَكِّرْ، كان ذلك دليلاً أنَّ في النفْس البشَرِيَّة شيئاً كامناً مُهَيَّئاً للإيمان، ومن كان صادِقاً يعْرفُ ما نقول! قال ابن عطاء الله الإسكندري: لا يعْرفُ ما نقول إلا من اقْتفى أثر الرسول، من آمن إيماناً صحيحاً يقول لك: كنت في جَهَنَّم، وقد أصْبَحْتُ في الجَنَّة، يقول لك: ليس في الأرض أسْعَدَ منِّي! يقول لك: أنا مُطْمَئِنّ، لا يرى إلا الله ولا يخْشى إلا الله، يُصْبِغُ الله عليه طُمأنينةً وسكينةً وتوازُناً وهُدوءاً وحِلْماً وبصيرةً وحِكْمَةً وفِراسَةً، هذه علامات المؤمن، لذلك من علامات الإيمان أنَّ المؤمن يكْرَهُ أنْ يعود في الكُفْر كما يكْرَهُ الرَّجُل أنْ يُلْقى في النار، هذه بعْضُ علامات الإيمان، فالنبي الكريم الله سبحانه وتعالى قال له: فَذَكِّر فالله خلق العباد كلَّهم على فِطْرةٍ سليمة وعلى بُنْيَةٍ واحدة، لا فرق بينهم، ولا فرْق بين أبْيَضِهم وأسْوَدِهم، ولا غَنِيِّهم وفقيرِهم، كلُّهم يخاف، فإذا

عرف الله اطْمَأنَّ، كُلُّهم له قلبٌ هَلوعٌ فإذا عرف الله أصبح جسوراً، كُلُّهم يُحِبُّ المادَّة فإذا عرف الله زَهِدَ فيما سِواها، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-21]

إذا كان هذا الأمر مُوَجَّهاً إلى النبي وهو قِمَّة العِلم فَهُوَ مُوَجَّهٌ للمؤمنين بالتَّبَعِيَّة :

كلمة (فَذَكِّر) تعْني أنَّ شيئاً في النَّفْس مُسْتَقِرّ، مُهِمَّةُ النبي أنْ يكْشِفَ عنه، أنْ يُفَجِّرَهُ كما يقول علماء النَّفْس، في الإنسان أشْياءٌ كامنة، البيئَة الراقِيَة تُفَجِّرُها:

(إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

قبل أنْ نصِل إلى كلمة (إنما أنت مُذَكِّر)، الأمْرُ لِمَن؟ بِحَسَبِ ظاهِرِ الآية الأمْرُ مُوَجَّهٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام؛ يا محمّد ذَكِّر، يا داود ذَكِّر عبادي بإنْعامي عليهم فإنَّ النفوسَ جُبِلَتْ على حُبِّ من أحْسن إليها، وبُغْض من أساء إليها، ولكِنَّ علماء التفْسير: اِستِناداً إلى قَوْل النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

فإذا كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلّم مأموراً أنْ يُذَكِّر، فَنَحْنُ أيْضاً مأمورون أنْ نُذكِّر، فإذا فَهِمْنا أنَّ الفِعْل ذَكِّر أنه للنبي عليه الصلاة والسلام، النبي قِمَّةُ العِلْم، ما من إنْسانٍ على وَجْه الأرض أعْلم من رسول الله، الآن تجد شَخْصاً يأخذ خمسين حديثاً ويَتَعَمَّق فيها فإذا به يأخذ دُكْتوراه بالشَّريعة، إذا فَهِمْتَ كلام النبي فأنت تَحْتَلّ أكبر مكانة عِلْمِيَّة في الأرض، فَمَن هو النبي؟ سيِّدُ العلماء والعُلماءُ كُلُّهم عالَةٌ عليه، فإذا كان هذا الأمر مُوَجَّهاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو قِمَّة العِلم فَهُوَ مُوَجَّهٌ للمؤمنين بالتَّبَعِيَّة، إذاً يجب عليك أنْ تتعَلَّم قبل أنْ تُذَكِّر، إذا كان هذا الأمر مُوَجَّهاً إليك أبها المؤمن ينبغي أنْ تفْهَمَ كتاب الله وهو أصل العِلْم، وأنْ تكون عالِماً، وينبغي أنْ تفهم سنَّة رسول الله وهي أعْلى تفْسيرٍ وفَهْمٍ لِكَلام الله، فإذا فَهِمْتَ آيةً وذاكَرْت بها في البيت وتأثَّرْتَ بها، اُنْقُلْها إلى الآخرين ولا تجْعل حَدِيثَكَ في أمورٍ سخيفة قال عليه الصلاة والسلام: " إنَّ الله يُحِبُّ معالِيَ الأمور، ويكْرَهُ سَفْسافَها ودَنِيَّها"، راقب نفْسَكَ! ما الموْضوعات التي تخوضُها مع أصْدِقائِكَ وزُملائِك وجيرانك ومع أرْباب مصْلحتك، في بيْتِكَ مع أوْلادك وَزَوْجَتِك.

((ما اجتمع قوم ثم تفرقوا عن غير ذكر الله وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إلا قاموا عن أنتن من جيفة))

[الطيالسي والبيهقي والضياء عن جابر]

كَلِمَة (فَذَكِّر) إذا وُجِّهَتْ للمؤمنين تَنْطوي على دَعْوَةٍ للتَّعَلُّم وهو غير الاسْتِماع :

كَلِمَة (فَذَكِّر) تَنْطوي إذا وُجِّهَتْ للمؤمنين على دَعْوَةٍ للتَّعَلُّم وهو غير الاسْتِماع، قد يأتي رجُلٌ إلى مجْلس العِلم ويسْتمع إلى الدرْس ويخرج ونفْسه مُمْتَلئةٌ بهذا الدرس، ولكن قُلْ له بربِّك: ماذا تَكَلَّم المُدَرِّس؟ هل تذْكُر أيةً واحدة أو تَوْجيهاً واحِداً؟ ما الذي اسْتَفَدْتَهُ؟ إنْ كنت تسْتَمِعُ العِلم ولا تحْفَظُهُ ولا تُرَكِّزُه ولا تتعَمَّقُ في فهْمِهِ فَكَيْفَ تسْتطيعُ أنْ تتعَمَّق فيه وتنْقُلَهُ للغَيْر؟! فالتَّذْكير الذي في هذه الآية في الأساس مُوَجَهٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ولأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

إذاً هي أيضاً مُوَجَّهَةٌ لِكُلِّ مؤمن فالمؤمن يجب أنْ يتعلَّم قبل أنْ يُذَكِّر وأصْل العِلم كلام الله، والأصل الثاني سُنَّةُ رسول الله، أعْلى فَهْمٍ لِكِتاب الله، وأدَقُّ تفْسير لِهذا الكِتاب، المقْصود بهذا الأمر النبي عليه الصلاة والسلام أوَّلاً، وكل من آمن به ثانياً، لذلك قد تُسأل هذا السؤال: أنت كم رجل؟ تقول: ما هذا السؤال؟! أنا رجل واحد، نقول لك: إنْ هَدَيْتَ إنساناً فأنت رجلان، وإنْ هَدَيْتَ رجلان فأنت اثنَيْن، وإنْ هَدَيْتَ ثلاثة فأنت ثلاثة، وإنّ إبراهيم كان أمَّةً، بهذا العُمُر المديد كم من إنْسان اتَّجه في اتِّجاهِك وتأثَّر بأفْكارك وبأخْلاقك وبِقِيَمِك، أقرب الناس أوْلادك وزَوْجَتُك، قال عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ خَيرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي وَإِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

((لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم له بصاع))

[العسكري في الأمثال عن جابر بن سمرة]

خيرُ كَسْبِ الرَّجُل وَلَدَهُ، (فَذَكِّر)! هل ذَكَّرْتَ أوْلادك؟! هل ذَكَّرْتَ زَوْجَتَك؟ وما الموضوعات التي تخوضُها مع زَوْجَتِك في الطعام، وفي السَّهْرة، عند الاسْتِيْقاظ، وعند النوم، دُنيا، أثاث المنزل، مشاكل الجيران، فُلان وعِلان، فَذَكِّر للنبي أوَّلاً وللمؤمنين ثانِياً، فهذا الأمر مُوَجَّهٌ إلينا أيْضاً.

من الذي يُذَكِّر؟ كلَّ إنْسانٍ، هل في الأرض كُلِّها إنْسانٍ أبعد عن الدِّين من الذي قال: أنا ربكم الأعلى، والذي قال: ما علمت لكم من إلهٍ غيري! ومع ذلك قال تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43]

حجْمُكَ عند الله بحَجْمِ من اهْتَدَوا على يَدَيْك :

هذا الكلام له أبعاد وهو أنَّ كُلّ إنسان له إمْكانِيَةُ الهُدى بما فيهم فِرْعَوْن فلا تيْأس من الناس، الإمام مالك رضي الله عنه رأى رَجُلاً في الطريق مُلْقى على قارعة الطريق وزيد الخمر على شَفَتَيْه ويقول: الله، هذا الإمام الكريم أبى وكَبُرَ عليه أنْ يخرجَ هذا الاسم من فَمٍ مخْمور! القِصَّة مُطَوَّلة فما إنْ مَسَحَ فمَهُ وأكْرَمَهُ وأخذهُ إلى البيتْ، عالجَه بما يسْتَحِقّ فلما آوى إلى فِراشِه رأى في المنام أنّ الله سبحانه وتعالى قال له: يا مالك، طَهَّرْتَ قلبهُ من أجلنا فَطَهَرْنا قلبه من أجلك، ذَهَبَ إلى المسجد صباحاً، رأى رجُلاً يبْكي في صلاته ولم يألف هذا الوجه من قبل، فقال له: من أنت يا أخي؟! قال: إنَّ الذي هداني أخْبَرَك بحالي! لا تيْأس من الناس، ولا تيْأس من شارب الخمر ذَكِّرْهُ، وكذا إنْ كان آكلاً للرِّبا، كُلُّ إنسانٍ له إمْكانِيَةُ الهُدى بما فيهم فِرْعَون، لكن بالحِكمة وليس بالقسْوة! قال أحدهم للآخر أريد أنْ أنْصَحَك بالقَسْوة، فقال الآخر: ولِم القسْوة؟! لقد أرسل الله من هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌّ مِنِّي أرسل موسى إلى فرعون، وقال له:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43]

حجْمُكَ عند الله بحَجْمِ من اهْتَدَوا على يَدَيْك، وما أحْدَثَ رجلٌ أخاً في الله إلا أحْدث الله له دَرَجَة في الجنَّة والكلام لا يؤثّر، الفعل هو الذي يؤثّر، قدِّم خدماتك للناس، عاونهم في شؤونهم، قدِّم لهم خبراتك، أعطهم من مالك أو أقرضهم إذا اضطر الأمر، قدِّم لهم شيئاً من خبراتك في الحياة، عندئذٍ إذا ذكَّرتَهم يذكرون وقد يبكون ويتأثّرون، الكلام وحده لا يساوي شيئاً كله كلام بكلام، لكن المؤمن الصادق يحاول أن يبذل ممَّا آتاه الله حتَّى يستميل قلوب الناس، يجب أن تفتح قلب أخيك قبل أن تفتح عقله، افتح قلبه بالإحسان ثم افتح عقله بالحقائق:

(فَذَكِّرْ)

أنت المعني بهذه الآية ومن على وجه الأرض من المؤمنين معنيٌّ بالتذكير.

التَّوَدَة خيرٌ في كُلِّ شيء إلا في عَمَلِ الآخرة :

كلمة (ذكِّر) تعني أن في الإنسان فطرةً كاملة كما أن السمكة لها كل مقوِّمات الحياة في الماء، فإذا وضعتَها في الماء استقرَّتْ وارتاحت وسُرَّتْ، فإذا أخرجتَها من الماء اضطربتْ وماتت، فحينما يقول الله عز وجل: (ذكِّر)، يعني في الإنسان فطرة سليمة فإذا أيقظتَ كوامنها وذكَّرته بأصله وعرفتَه بربِّه عاد إلى فطرته فسعِد سعادةً كبرى، الأمر موجَّهٌ إلى النبي أوَّلاً وإليكم بالتبعية، من يُذكِّر؟ كُلَّ إنسان

بالحِكْمة والموعظة الحَسَنة، من أمر بالمعْروفٍ فَلْيَكُن أمره بالمعْروف، كيفَ نُذَكِّر؟ ذَكَّر من الثلاثي المُضَعَّف، مثلاً غَلَقَ الباب لكن غَلَّقَ الباب أرْصَدَهُ، كسر العود أما كَسَّر العود أي بالغ في كسْره، قطع اللَّحْم أما قطَّع اللَّحْم بالغ في التقْطيع، مزَّق الورق جعلها قِطَعاً صغيرة، فالفِعْل الثلاثي إذا ضَعَفْنا عَيْنَهُ يُفيدُ المُبالغة، فَرَبُّنا عز وجل قال: (فَذَكِّر) أيْ أكْثِرْ من الذِّكْر، لا إسراف في التَّذْكير والخير ولا خير في الإسراف، التُّؤَدَة خيرٌ في كُلِّ شيء إلا في عَمَلِ الآخرة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب: 41]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران: 102]

التذكير يكون في كل وقت :

قال تعالى:

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

[سورة الحج: 78]

ذَكِّر صباحاً ومساءً ولَيْلاً ونهاراً، وفي أيام الرَّخاء وفي أيامِ الشِّدَّة، وفي البحْبوحة وفي الصِّحَة وفي المرض، هذه الشِّدَّة تعْني المُبالغة في التَّذْكير من الذي تُذَكِّر؟ ومن يُذَكِّر؟ وكيف تُذَكِّر؟ ما موضوعات التَّذْكير، تذْكيرُ الإنسان بأصْله، قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

[سورة يس: 77]

ذَكِّرْهُ بأنَّ الجِسْم وهذه المكانة وهذه القُوَّة وهذا المال شيءٌ منَّ الله به عليك، ألَمْ يأتِ عليك حينٌ من الدَّهْر لم تَكُن شيئاً مذْكوراً؟ كُلٌّ منَّا له تاريخُ ميلاد، لو فَرَضْنا أنَّ أحداً منَّا مولودٌ سنة ألفٍ وتِسْعِمئة وخمس وثلاثين، سنة ألفٍ وتِسْعمئة وثلاثين، من يعْرِفك؟ أنت لا شيءَ؟ طيِّب، سنة ألفَيْن وخمسُمئة! ذِكرى، إنْ كنت ممن عرف الله عز وجل قد تبْقى ذِكْراك في القلوب، وإلا فلا، مرَّةً سألْتُ طُلابي فقُلْتُ لهم: من يذْكُر لي اسم غَنِيٍّ عاش في الشام سنة ألف وثمانمئة وخمْسٍ وثمانين؟ فَكَّروا وفكَّروا حتى عجَزوا عن الجواب، فقُلْتُ لهم: وأنا مثْلُكم لا أعْرف.

موضوعات التذكير :

يا بُنَيَّ ماتَ خُدامَ المال وهم أحْياء والعلماء باقون ما بَقِيَ الدَّهْر، أعْيانهم مفقودة وأمْثالهم في القلوب موجودة، إذاً الموضوعات، ذَكِّرْهُ بأصْلِهِ لم التكَبر، ذَكِّرْهُ بمَصيره، كيف سيَكُون تحت الثَّرى، يا ابن آدم إنَّك تسير على ظَهْري، وسوف أضمُّك إلى بطْني، الأرضُ القائِلة، ذَكِّرْهُ بآلاء الله فالإنسان مُحاط بآيات مُذْهِلة، ليستْ الآيات التي حَوْلَهُ بُرْهاناً مُقْنِعاً، لكنها برهان قاطع على عظمة الله، الماء يعطيك درساً، من جعله عذباً فراتاً وكان من قبلُ مِلحاً أُجاجاً؟ الله سبحانه وتعالى، من نصب الجبال وأقام السهول وفتَّت التربة وجعلها ممتلئة بالأحياء الدقيقة كي ينبت النبات؟ من جعل الماء يتمدَّد إذا تجمّد كي يعين على تشكيل التربة؟ من جعل البحار ومن جعل القطبين والصحارى والسهول؟ من خلق النبات؟ من أعطانا مليون نوع من السمك ومن صمَّم آلاف الأنواع من الطّيور، وبثَّ فيها من كل دآبة؟ ذكِّرهم بآلاء الله وبأصلهم كي يتواضعوا وبمصيرهم كي يخافوا، وذكِّرهم بآلاء الله كي يعظِّموه وذكِّرهم بنعمه كي يحبُّوه، يا داود ذكِّر عبادي بإنعامي عليهم فإن النفوس قد جُبِلَت على حبِّ من أحسن إليها، ذكِّرهم بالمثانة، فكل عشرين ثانية ينزل من كليتيه نقطةٌ إلى المثانة ولولاها لاحتاج الإنسان إلى فوط طوال النهار، ولأتعبته فأين كرامتك؟ إن كانت للإنسان رائحة قبيحة؟ وإفراغ المثانة؛ هو أنَّ ربنا عز وجل جعل لها عَضَلات ضاغِطة فإذا أردْتَ أنْ تُفْرِغَها أفْرَغْتها في دقيقةٍ أو نصْفُها، ولولا هذه العضلات لاحْتَجْتَ إلى عشْر دقائق كي تُفرغها، ومن منَحَها أنْ تمْنَعَ كُلَّ رائِحَة كريهة تخْرج من المُستقيم! من أعْطاك السمْع والبصر وهذه الذاكرة والقُدْرة على المُحاكمة، قال تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ)

[سورة يس: 67]

رجل دخل عليه ابنه فقال له: منْ أنت؟! فَقَدَ ذاكِرَتُهُ، الإمْكانات الفِكْرية هل هي قليلة؟ هذه المفاصل والعضلات والعِظام، ومن الذي جعل عضلات الحَوْض يرْتَكز عليه الفخِذ؟ ومن جعل لِعَظم الفخذ عُنُقاً؟ ومن جعل هذه القطعة في الفخذ أقْصى شيءٍ في الإنسان؟ هذه الأخيرة تحْتمل وزن مئتين وخمْسين كيلو، فالإنسان لو وُضِع فوقه خمسمئة كيلو فإنَّ العضلات تحْتمِلُها! ذَكِّرْهم بآلاء الله، وبهذا الطِّفْل الذي أمامك، كان من نطفَةٍ من ماءٍ مهين، وأعْطاهُ هذه الصورة الحَسَنَة، وألْهَمَهُ هذا الكلام اللَّطيف، علماء نفْس الأطْفال اكْتَشَفوا صِفات للطُّفولة منها البراءة، والصفاء، والانْفِعال.

آيات قرآنية للتذكير :

إذا رأيْتَ واحداً أشْرك بالله فَذَكِّرْهُ بقول الله تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

ذكّره بقوله تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال: 17]

وذكّره بقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح: 10]

وذكّره بقوله تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود: 55]

وذكّره بقوله تعالى:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة الزمر: 63]

وقوله تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

تذْكيرٌ بالتوْحيد، إذا رأيْتَه مائلاً إلى الدنيا ذكره بالموت، رأيْتَهُ ليس مُحِباً لله ذَكِّرْهُ بآلاء الله، ذَكِّرْهُ بعذاب الله وبالأمراض الوبيلة، والفقر، والشِّقاق الزَّوْجي، هناك مصائبٌ لا يعْلمها إلا الله.

حجم النبي الكريم أنه يذكِّر الناس بالله فقط :

إذاً أصبح التَّذْكير من الفطرة، ومُوَجَّهٌ، وعرفْتَ من يجب أنْ تُذَكِّر؟ وكيف؟ ومن يُذَكِّر؟ وما الموضوع الذي تُذَكِّرُ به؟ قال الله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

أي أن النبي مذكِّر وقد يكون بيده الأمر، مذكِّر وبيده الأمر، مذكِّر وبيده النفع والضُّرُّ، أمَّا حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

أي أنت مذكّر فقط، هذا هو القصر، أي أن حجم النبي الكريم أنه يذكّر الناس بالله فقط، فإذا أحبُّوه وعاملوه شعروا بالسعادة، هذا كل ما في الأمر، أما أن تقول: وليٌّ من الأولياء يصلي العصر في مكّة، والعشاء في المدينة، والغداة في الأقصى، وهو في دمشق، لِم لمْ يهاجر النبي هكذا؟ سُئِل الجنيد: منْ وليُّ الله، أهو الذي يمشي على وجه الماء أم هو الذي يطير في الهواء؟ قال: لا هذا ولا ذاك، وليُّ الله تجده عند الحلال والحرام، وقّافاً عند الحرام ملتزماً بالحلال، هذه هي الولاية، أمَّا أنه تُنسبُ لأشخاص أعمال خارقة للعادات فوق إمكانات البشر وتظن أن الولاية هكذا، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

سيد الخلق وحبيب الحق مذكّر فإن أصبح حجمه أكثر من هذا صار تأليهاً :

اللهم إنما بشر ينسى كما ينسى البشر، قال تعالى:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الأعراف: 188]

قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام:15]

قال تعالى:

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الأنعام:50]

هذا نبي يخاف الله إن عصاه عذاب يوم عظيم، ولا يعلم الغيب، ولا يملك لنا ولا لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، قال تعالى:

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الأحقاف:9]

سيِّد الخلق وحبيب الحق ولكن الفعل بيد الله عز وجل، إنما أنت مذكِّر هذا حجمك، أكثر من هذا صار تأليهاً.

حجم المرشد :

غلاة النصارى قالوا: المسيح ابن الله، وكل فئة تُغالي وتتجاوز الحدَّ الذي نصَّ الله عليه تنسب بعض صفات الألوهية للبشر، فذكِّر إنما أنت مذكِر فقط، لذلك قال الصوفيون: لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ومن لا يدلُّك على الله مقاله، هذا هو حجم المرشد، وأكثر من هذا لا يوجد، يذكِّرك بالله فإذا حصل احتكاك ومعاملة تحبُّه، لأنه ملتزم ومطبِّق، أولياء أمتي إذا رُؤوا ذُكِّر الله بهم،فإذا رأيت النبي الكريم في المنام تبقى شهراً غارقاً في السعادة، فهذه النفس اشتبكَت مع نفسٍ عالية جدّاً تتلقى من الله تجلّيات عالية، هذه بعض معاني الشفاعة، اتصال النفس برسول الله في حياته وبعد مماته، هذا بعض معاني ما يحدث للمؤمن من سرور، فإذا جلس في مجلس علم فالنبي الكريم جاءه سيدنا الصديق مع سيدنا حنظلة، فقال سيدنا حنظلة: نكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، نحن والجنة كهاتين فإذا عافسنا أهلنا نسينا، سيدنا الصديق كان رقيقاً وحكيماً قال له: أنا كذلك يا أخي، انطلق بنا إلى رسول الله وهاك نص الحديث:

((عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَيِّدِيِّ قَالَ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيراً، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيراً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَيِّدِيِّ]

انتهى الكلام أن المؤمن في حضرة النبي الكريم يحس بمشاعر لا يحسُّها وهو بعيد عنه، هذه وظيفة من وظائف النبي والدعاة إلى الله.

أعْلى مقامٍ للإنسان أن يكون عبداً لله :

علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، هذه حال المؤمن، إذا اقتربت منه شعرتَ بالسعادة وإذا استمعتَ إليه يملؤك علماً، أمَّا أنه يمشي على الماء أو طار في الهواء، لا يعْلم الغيب إلا الله، الوليُّ من تجده عند الحلال والحرام هو كالبشر وليس فوق البشر، وليس عنده إمْكانات فوق البشر، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

((إنما أنا بشرٌ أرْضى كما يرْضى البشر وأغضب كما يغضب البشر))

[مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

قال تعالى: قل لا أعلم الغيب، إذا جَمَعْتَ هذه الآيات تعْرفُ حجْم النبي عليه الصلاة والسلام، إنما أنا عبد الله ورسوله، أشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله وأشْهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، أعْلى مقامٍ للإنسان أن يكون عبداً لله، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

[سورة المائدة: 77]

الإنسان مُخَيَّر ومُسْتَقِلّ في اخْتياره عن النبي :

حتى لا يقع الإنسان بمُبالغات ويعْطيك للأنبياء والأولياء حجماً أكبر بكَثيرٍ من حجْمِهم الحقيقي، ربنا عز وجل قال:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

حتى الإنسان مُخَيَّر، ومُسْتَقِلّ في اخْتياره عن النبي لذلك قال الله عز وجل:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 272]

قال تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة القصص: 56]

ذاك نظر بِشَخْصٍ فاهْتَدى! هذه ليْسَت لِرَسول الله فما بالك لِمَن هو دونه إذا أقنعه وجاء بأدلّة منطقيّة، ذكّره بالجنّة وحذّره من النار، عمل محاكمة فاهتدى، لو أنَّ النبي يمْلكها لَنَظَر إلى عَمِّهِ أبي لَهَبٍ فاهْتَدى قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ*فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد: 1-5]

آيات قرآنية وأحاديث شريفة تؤكد أن الإنْسان مُخَيَّر :

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار - أنْظر إلى دِقَّة البلاغة النَّبَويَّة - أنا لا أغني عنك من الله شيئاً ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

((حِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

هذا يعْني أنَّ الإنْسان مُخَيَّر، قال تعالى:"

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة القصص: 56]

قال تعالى:

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)

[سورة الكهف: 29]

التلازُم بين الكُفْر وبين أنْ تُعْرِضَ عن الحقّ :

الله عز وجل طمْأنَ النبي عليه الصلاة والسلام أنَّه ليس عليك إلا التَّذْكير، وعَلَيْك أنْ تُبَيِّن لهم كُلَّ شيء حتى يخْتاروا الهداية، أما إذا ظَنَنْتَ أنَّكَ سَتُجْبِرُهم على شيءٍ فهذا ليس بإمْكانك، ولا يعْني أنَّهُ مُخَيَّر ليس له تَبعَةٌ لِعَمَلِهِ، هذا اِهْتدى وذاك ما اهْتَدى حُرٌّ، لكي لا تقع في هذا الوَهْم تذكَّر قوله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

لكن من تولى وكفر لا يعفى من المسؤوليَّة، هناك سَوف يلْقى تَبعَة عمَلِهِ إلا من تولى وكفر، هناك تفْسيرات لهذه الآية:

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)

من توّلَّى أيْ من أدار ظهْره للحق، هذا هو الكُفْرُ، وهناك تلازُمٌ بين الكُفْر وبين أنْ تُعْرِضَ عن الحقّ، أحْياناً يُلْقي المُدَرِّس درْساً قَيِّماً والطالب مشْغولٌ برَسم خُطوط سخيفة على دفْتَره، فهذا الطالب مُوقِن بوُجود المُدَرِّس صَوْتاً وصورةً وحجْماً، ومع ذلك يُعْتَبر هذا الطالب كافراً بالمُدَرِّس، ليس معنى كافر أنَّهُ أنْكَرَ وُجوده ولكن زاهِدٌ بعِلْمِهِ ومُعْرِضٌ عنه، فصار معْنى الكُفْر الزُّهْد بما عند الله، والإعْراض عنه تعالى لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

الكُفْر هو الإعْراض وهو أنْ تُديرَ وجْهَكَ للشَّرْع ولِعِقاب الله ووعيدِهِ ووعْدِهِ وجَنَّتِه:

يُصَلي ويُنفِقُ من ماله ومع ذلك وَصَفَهم الله عز وجل بأنَّهُم كفروا بالله ورسوله، فالكُفْر هو الإعْراض، وهو أنْ تُديرَ وجْهَكَ للشَّرْع ولِعِقاب الله ووعيدِهِ ووعْدِهِ ولِجَنَّتِه، لذلك:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ *إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)

ولكن من تَوَلى وكَفَر لا ينْجو من تَبعَة عَمَلِهِ، (إلا) هنا بمعنى بَيْدَ، بَيْدَ أنّه من تَوَلى وكَفَر:

(فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

هناك عذابٌ أليم، وهناك عذابٌ عظيم، وهناك عذابٌ مهينٌ، وآخر إلى أبدِ الآبدين، وهناك مَسٌّ بالعذاب، أحْياناً يضَعُ الإنسان تياراً على يَدِهِ فإذا به يُمَسّ قال تعالى:

(أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ)

المَسُّ غير العذاب المُسْتَمِرّ، فالإنسان الذي لا يخاف الله أحْمَقٌ وغَبِيٌّ وعديمُ الإدْراك، الله سبحانه وتعالى قال:

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ* فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

كُلَّما فَكَّرْتَ في عذاب الله فهو أكبر :

قلتُ اليوم بالخُطبة كلمة: أنَّكَ لا تجدُ مُسْلِماً يقرأ القرآن إلا ويقول بعد الانْتِهاء من قِراءَتِهِ: صدق الله العظيم، ولكِنَّك إذا تَفَحَّصْتَ عَمَلَهُ لم تَجِدْهُ مُصَدِّقاً لِكِتاب الله! لماذا؟ لأنَّهُ يعمل للدنيا ويرتكب المعاصي والموبقات، وكأنَّ الحياة هي كُلُّ شيء، ولا شيءَ بعد الحياة، لا حِساب ولا عذاب ولا سُؤال ولا جَهَنَّم، يعيشُ في الدنيا على أهْوائِهِ، يُعْطي لِنَفْسِهِ هَواها ويَتَمَنى على الله الأماني، هذا الإنسان بالذات عَمَلُهُ لا يُصَدِّقُ كتاب الله، قد يكون في لِسانه مُصَدِّقاً ولكن عَمَلُهُ لا يُصَدِّق، لذلك ربنا عز وجل قال:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ*إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ*فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

ما هي العَذابات في الدنيا؟ الإنسان يفْقِدُ سمْعَهُ وعقْلَهُ، ويدخلُ إلى مُسْتَشْفى الأمراض العَقْلِيَّة، وهذا يفْقِدُ أهلهُ، وذاك مرضٌ عُضال، والآخر يفْتَقِر يشتهي رغيف الخُبز، هذا حدث في الحُروب السابقة، يكون له ابنٌ عاق، كُلُّ هذه العذابات معْقولة ومقْبولة ومُحْتَمَلَة، لكنَّ ربنا عز وجل قال:

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ* فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

كُلَّما فَكَّرْتَ في عذاب الله فهو أكبر، لذلك قد يُطِلُّ الإنسان حين مَوْتِهِ يُفْتَحُ له بعضُ أبواب النار، فَيَقول: لم أرَ خيراً قطّ! كُلُّ هذا العُمُر المديد الذي أمْضاهُ في النعيم والمباهج والمَسَرات والطعام الساخن، حينما يُفتَح له بعض أبواب النار يقول: لم أر خيراً قط في حياتي، وإذا فُتِح باب من أبواب الجنة للمؤمن يقول: لم أر شرّاً قط، تكون حياته كلها عذاباً وأمراضاً، هذه الحياة الأبدية التي لا نهاية لها يُستغنَى عنها ويُزهَد بها ويُستخفُّ بحقِّها، ولا يستخفُّ بها إلا أحمق، كلام الله خالق الكون الذي خلقنا من نطفة ولم نكن شيئاً يقول:

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ*فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

ليس في القرآن الكريم آياتٌ أشَدُّ وعيداً من هذه الآيات :

قال تعالى:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

واللهِ إذا عاملت إنساناً قاسياً جدّاً وأبصرت عقابه الأليم فإنك تخاف من معْصِيَتِه، إذا كان لك خِبْرة مع إنْسانٍ قاسٍ لا يَرْحَم إذا قال فَعَلَ، فلا تُعانِد من إذا قال فَعَل وتعْصِي أمْره، وتُطيعُهُ طاعَةَ عَمْياء، فلو قال لك: اللّبن أسْود، قُلْ له: أسْود فاحِم! لأنَّك رأيْت عذابه الأليم، فإذا كُنْتَ تُعامِل إنْساناً من جِلْدَتِك ومن بني آدم وسوفَ يموت وهو بيَد الله عز وجل، إذا حَذَّرك وأنْذَرَك وبَطَشْ تُطيعُهُ طاعَةَ عَمْياء، ألا

يسْتَحِقُّ الله عز وجل خالقُ هذا الكَوْن وخالقُ الشَّمْس والقمر، وخالقُ البحار والجِبال، ألا يسْتحِقُّ الله عز وجل أنْ تُطيعَهُ؟! وأنْ تُصَدِّقَ كِتابه؟ وهذا الكونُ كُلُّهُ شهادَةٌ له، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ*فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ*إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

ليس في القرآن الكريم آياتٌ أشَدُّ وعيداً من هذه الآيات، أحْياناً يكون عندك ضُيوف فتُشيرُ لابنك أنْ تَهَدَّأ! ثمَّ تُحاسِبُهُ حِساباً يسيراً، قال تعالى:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

سوف يعود الناس إلى الله عز وجل ويُسْألون عن كُلِّ حَرَكَةٍ وسَكنةٍ وعن كُلِّ دِرْهَمٍ اكْتسبوه وفيما أنْفَقوه، وعن شبابهم فيما أبْلَوْهُ، وعن عِلْمِهم ماذا عَمِلوا به:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

الحِساب على الله عز وجل فإذا كان الإنسانُ في مَحَلٍّ وخالفَ تعْليماتٍ مُعَيَّنة، ثمَّ يؤْخَذُ إلى الجِهَة التي خالفَ تعْليماتها ويُعْرَضُ عليه شريطٌ صورة وصَوْت بكُلِّ حركاته وسكناته وقيامه، ماذا يَحِلُّ به؟ يتمنى الأرض أنْ تنْشَقَّ وتبتلعَه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفجر 089 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 1 - 14 أهمية التفكر بآيات الله سبحانه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-02-08

بسم الله الرحمن الرحيم

بعض أقوال المفسرين في هذه الآيات الأربع التي افتتح الله بها سورة الفجر :

سورة اليوم هي سورة الفجر الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ*هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

هذه الآيات التي افتتح الله سبحانه وتعالى بها سورة الفجر، اختلف المفسرون في تفسيرها، من أقوال المفسرين مثلاً: الفجر معروف، الليالي العشر هي الليالي العشر من ذي الحجة، وبعضهم قال: الليالي العشر من محرم، والشفع والوتر، نوعان من الصلاة، الصلاة ذات الركعات الأربع هي الشفع، والصلاة ذات الركعات المفردة هي الوتر، والليل إذا يسر، أي يسري، هذه بعض أقوال المفسرين في هذه الآيات الأربع التي افتتح الله بها سورة الفجر.

ولكن بعض المفسرين اختاروا لهذه الآيات معاني تجعلها جميعاً في موضوعٍ واحد، فمثلاً لو أن أحداً قال لك: ساعةٌ وعقارب وميناء وعجلات، قد تقول: يا أخي معنى العقارب جمع عقرب وهي حشرةٌ سامة، والميناء هي مكانٌ على البحر يستقبل السفن، والعجلات عجلات السيارة أو القطار، أما حينما قال لك القائل: ساعة وعقارب وميناء وعجلات، إذا بحثت عن معانٍ أخرى لهذه الكلمات، بحيث تغدو جميعاً في موضوعٍ واحد، تقول الساعة وعقاربها وميناؤها وعجلاتها، فبعض المفسرين توخياً لوحدة الموضوع الله سبحانه وتعالى يقول لك:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

ما علاقة الفجر بالليالي العشر والشفع والوتر، والليل إذا يسر؟ أول آيةٍ كونية وآخر آيةٍ كونية، وبينهما آياتٌ لا علاقة لها بالكون، فإذا قلنا وبالله المستعان، والفجر، هذا الفجر الذي نعرفه جميعاً، ما الذي يظهر عظمة الفجر؟ الليل، اركب قارباً بين مدينتين أو بين مدينة وجزيرةٍ ليلاً، تحسُّ بالوحشة بل والخوف، ادخل في غابةٍ ليلاً تحسُّ بالوحشة والخوف، يأتي الفجر فترى به كلَّ شيء تستريح نفسك للفجر وتستأنس به و يأتي بعد طول انتظار.

الفجر له معانٍ كثيرة :

الفجر له معانٍ كثيرة، معناه الضيِّق الذي جاء في هذه الآية أن الأرض كرة وهي تدور حول نفسها دورةً معتدلة بسرعةٍ تساوي ألفاً وستمئة كيلو متر في الساعة، هذه الدورة المعتدلة حول نفسها مع وجود الشمس، طبعاً سطح الأرض يسير باتجاه الشمس فيتخلى عن ظلمته ويستقبل ضياء الشمس، ولولا دوران الأرض حول نفسها لما كان فجر، ولولا أن شكل الأرض كرةٌ لما كان هذا الفجر الذي يأتي بالتدريج، ولو أن الأرض مكعب وكانت تدور حول نفسها تأتي الشمس فجأةً، ولا يخفى عليكم ما بإشراق الشمس المفاجئ من أضرار، وما لغياب الشمس المفاجئ من أضرار، مجيء الليل بالتدريج ومجيء النهار بالتدريج، فكلمة (والفجر) تعني أن الأرض كرة، وكلمة (والفجر) تعني أن الأرض تدور حول نفسها، وكلمة (والفجر) تعني الشمس، لو أن الأرض تدور حول نفسها وليس هناك شمس، فما قيمة هذا الدوران؟ لا معنى للدوران من دون شمس، ولا معنى للنهار من دون الليل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ)

[سورة يس: 37]

الليل آية والنهار آية، أي من حكمة الله عزَّ وجلَّ أن إشراق الشمس هذه الآية الكبيرة، ومن آياته الشمس، ما كان لك أن تعرفها لولا الليل، حينما تستقبل ضوء الشمس تعرف قيمته بعد أن غاب عنك، وحينما تستقبل دفء الشمس تعرف قيمتها بعد أن حلَّ بك البرد، البرد يظهر لك قيمة الشمس، والظلام يظهر لك قيمة الشمس، ودورة الأرض حول نفسها من معاني الفجر، وكون الأرض كرةً هو الذي يسبب هذا الانسياب اللطيف التدريجي لضوء الشمس، فربنا عزَّ وجلَّ حينما قال: (والفجر)،أي هذه آية كبيرة تجذب النظر، هل فكرنا فيها؟ هل جلسنا جلسةً صباحيةً بعد صلاة الفجر لنفكر في الفجر، ومن آياته الله سبحانه وتعالى أقسم بالفجر، قال: والفجر، فربنا عزَّ وجلَّ يوجه نظرنا في هذه الآية إلى بعض آياته.

خَلَقَ الله سبحانه كل شيء بقدر :

قال تعالى:

(وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

كلكم يعلم أن للأرض تابعاً وهو القمر، والقمر يدور حول الأرض دورةً كل شهر، وإذا جمعنا دوراته الاثنتي عشرة تشكل هذه الدورات سنةً قمرية كلكم يعرفها هي رجب وشعبان ورمضان وشوال وذي القعدة وذي الحجة وغيرها، هذه الأشهر القمرية إذا وازنّاها مع الأشهر الشمسية، الأرض تدور حول الشمس دورةً كل اثني عشر شهراً دورة، بين السنة القمرية والسنة الشمسية فرقٌ هو (ليال عشر)، الجو العام جو كون:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

أي القمر يدور حول الأرض، وينشأ من دورته سنةٌ قمرية، والأرض تدور حول الشمس وينشأ من دورانها سنةٌ شمسية، وبين السنة الشمسية والسنة القمرية (ليال عشر) هو الفرق، كلكم يعلم أن رمضان في كل عام يقترب عشرة أيام، بعض المفسرين في سورة الكهف فسر قوله تعالى:

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)

[سورة الكهف: 25]

لو حسبت الفرق بين السنوات الثلاثمئة الشمسية والقمرية لرأيت الفرق بينهما تسع سنوات بالضبط، فهذا النظام الكوني، من جعل هذا التفاضل بين دورة القمر ودورة الأرض حول الشمس، هذا التفاضل مدروس دراسة دقيقة، أي كل شيء بقدر.

الإنسان يعرف الله سبحانه وتعالى من خلال الفكر :

بعضهم فسر قوله تعالى:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[سورة القمر: 49]

أي السمع والبصر والشمُّ والإحساس وهذه الحواس الخمس، وبعد الأرض عن الشمس، وبعد القمر عن الأرض، وبعد الشمس عن بقية الكواكب، كل هذه المسافات مدروسة بدقةٍ بالغة وبحكمةٍ منقطعة النظير، ولذلك فربنا عزَّ وجلَّ متابعةً للسياق العام لا يمنع أن نقول عشرة ذي الحجة أو عشرة من محرم، ولكن تفسير آخر يؤكّد ارتباط هذه الآيات بعضها ببعض ويجعلها متناسقةً في موضوعٍ واحد:

(وَالْفَجْرِ)

هذا النظام الذي ينطوي على شمس وعلى أرضٍ وعلى دورةٍ وعلى شكلٍ كروي وعلى أشعةٍ ذات دفءٍ وذات ضوءٍ وما إلى ذلك:

(وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

فكر أيُّها الإنسان بهذا النظام البديع الذي جعله الله على نمطين، سنة قمرية وسنة شمسية وجعل بين السنتين تفاضلاً هو (ليال عشر) بالضبط كما وردت في هذه السورة:

(وَالشَّفْعِ)

أي الزوج، الأرض والقمر شفعٌ، والشمس وحدها وتر، لأن الارتباط دقيقٌ جداً بين الشفع والوتر والليالي العشر والفجر، فالإنسان إن لم يجُل فكره في هذه الآيات كيف يعرفه؟ فالإنسان يعرف الأشياء بحواسّه، تعرف الحرارة بحاسّة اللمس، يقول لك: الطفل مفتّر، عندك حاسة هذه معرفة مبكّرة، ترى الشيء بعينك، تسمع صوته بأذنك، تحسُّ وجوده بيديك، فالإنسان مزوَّد بحواس يتعرَّف بها على الأشياء، ولكنّه كيف يعرف الله سبحانه وتعالى؟ لا يعرفه إلا من خلال الفكر، الله سبحانه وتعالى بثَّ كوناً معجزاً وخلق فكراً دقيقاً، فإذا أعملت هذا الفكر في هذا الكون عرفت الله عزَّ وجل، وإذا عرفت الله عرفت كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدّتني وجدت كل شيء، وإن فِتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء، عندما يذكر ربنا عزَّ وجل يذكر عناوين بعض الآيات الكونية، ألا تعرفون أو ألا تستنبطون معي أنَّه لا بدَّ من التفكُّر بها، أن هذه الموضوعات موضوعات للتفكُّر، أنَّك إذا أردت أن تعرف الله فهذه آياته.

الإنسان إذا فكَّر في مخلوقات الله عرف الله :

إذا قال لك أحد الأشخاص: هل ترغب بغرفة نوم؟ فتقول له: طبعاً، فأنا أبحث عن غرفة متقنة جداً، فقال لك: يوجد لديك هذان النجَّاران، عرض عليك شخصين واحداً أسمر اللون والآخر أبيض، فقال لك: انتق أحدهما. وأنت تريد أن ترى صنعتهما أولاً، فأنت تطلب الصنعة وأن ترى غرفة نوم صنعها الأول وغرفة نوم صنعها الآخر، فتتفحَّصها وترى دقة الصنع، والانسجام في الألوان والمتانة، فأنت لديك مقاييس، فهل تعرف النجَّار من شكله؟ لا، بل من صنعته. كذلك ولله المثل الأعلى، الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، لا يدرك بالحواس، ولكن يدرك عن طريق التفكير، فالإنسان إذا فكَّر في مخلوقات الله عرف الله:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 20]

آيات، حيثما التفتَّ وجدت آية، في حياتك اليومية ملايين الآيات، إذا دخلت إلى بيتك تجد آلاف الآيات، فابنك آية، وكأس الماء الذي تشربه آية، وهذا الطعام الذي تأكله آية، وهذه الفاكهة التي تتفكَّه بها آية، وهذا الدفء الذي تنعم به آية، وهذا الفراش الذي تنام عليه من صوف، من خلق الصوف؟ آية، هذا القطن الذي حُشيت به وسادتك آية، وهذا الإسمنت وهذا الحديد الذي أُقيم به بناؤك آية:

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة الحديد: 25]

الأدوات في المطبخ آية، غاز الاشتعال الذي تستخدمه آية، بنتك آية، طباعها آية، طباع ولدك آية، زوجتك آية:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

الليل والنهار آيتان من آيات الله الدالة على عظمته :

لماذا تستهلك هذه الآيات استهلاكاً رخيصاً؟! إن استهلكت هذه الآيات استهلاكاً لم تعرف قيمتها ولم تعرف قيمة الذي خلقها لك، ولكنَّك إذا تفكَّرت بها وعبرت منها إلى الله عزَّ وجل رأيت الله من خلالها، عندئذٍ تكون قد أفلحت ونجحت في حياتك.

ربنا عزَّ وجل ليس من باب المصادفة وليس من نافلة القول أن يبدأ معظم هذه السور في الأجزاء الأخيرة من كتاب الله التي نزلت بمكة المكرَّمة حيث بدأ النبي الكريم ينشر دعوة الإسلام، ليس غريباً أن تكون هذه السور طافحةً بآيات الله:

(وَالْفَجْرِ)

وحده آية، لاحظ حتى الحيوانات حينما تشرق الشمس تستيقظ، وحينما تغيب الشمس تعود إلى أوكارها، إلى مأواها، هذا الإشراق تدريجي، ومجيء الليل تدريجي وهذه آيةٌ كبرى من آيات الله:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

الليل يسير، الليل يسير من خلال دورة الأرض حول نفسها، انظر كيف أن ربنا عزَّ وجل جمع هذه الآيات بآيةٍ في أول الآيات وآيةٍ في آخرها، الأولى هي الفجر، والثانية والليل إذا يسر، أي يطلع الفجر من هنا، ويأتي الليل من هناك.

الآيات القرآنية الكونية أكثر من أن تحصى :

في ساعةٍ من ساعات النهار ولتكن ساعة الفجر، انظر إلى شرق الأرض تر ضياءً، انظر إلى غربها تر ظلمةً، جاء النهار من هنا، وذهب الليل من هنا، مساءً تعكس الآية، ترى الغرب مضيئاً والشرق مظلماً، أقبل الليل، الليل والنهار آيتان من آيات الله، والشمس والقمر آيتان من آيات الله، وشكل الأرض آيةٌ من آيات الله، وهذا الجو الذي ننعم به آيةٌ من آيات الله فأين تذهبون؟! ما الذي يشغلكم عن التفكُّر بآيات الله؟

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية: 6]

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات:21]

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 20]

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

فالآيات القرآنية الكونية أكثر من أن تحصى.

تسمية العقل حجراً لأنَّه يحجز صاحبه عن الأغلاط والانحراف :

بعد ذلك يقول الله عزَّ وجل:

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

الحجر قال بعض المفسرين: هو العقل، لِم سمي العقل حجراً؟ لأنّه يحجر صاحبه عن الأغلاط، فضع قطعة من اللحم أمام هرّة وهي جائعة فماذا تفعل؟ تثب عليها وتأكلها، العلماء قالوا في عالم الحيوان إثارة واستجابة فقط، أما في عالم الإنسان إثارةٌ ومحاكمةٌ واستجابة، قد تكون جائعاً واللحم في المطعم معروضٌ أمامك ولا تأكله لأنَّه ليس لك، وقد تكون جائعاً والطعام في بيت صديقك، لم يدعُك إلى الطعام فلا تأكل فهناك شيء يمنعك، وما الذي يمنعك عن أن تأخذ مالاً ليس لك؟ هو الحجر أي العقل، وما الذي يمنعك عن أن تنظر إلى امرأةٍ لا تحلُّ لك؟ هو الحجر العقل، وما الذي يمنعك عن أن تقبل مبلغاً غير مشروع؟ هو الحجر العقل، ما الذي يمنعك عن أن تستقلَّ بزوجتك وتنسى أُمَّك؟ هو الحجر العقل، فعندما سمى ربنا عزَّ وجل كلمة العقل حجراً لأنَّه يحجز صاحبه عن الأغلاط، وعن الطغيان، وعن الفساد، وعن الانحراف، وعن التردي في المعاصي، ولذلك:

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

سمّاه الله حجراً، وسمَّاه الله لبّاً:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة الزمر: 21]

وسمّاه الله عقلاً، قال: يا رسول الله أأعقلها أم أتوكَّل على الله؟ قال:اعقل وتوكَّل.

((تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتا إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذَّرَّة في جنب أُحُدٍ))

[الحكيم عن طاوس عن ابن عباس مرفوعًا]

وقد قال عليه الصلاة والسلام: قِوام الرجل عقله.

الإنسان كرَّمه الله عزَّ وجل فجعل له فكراً يستطيع أن يرى به الأخطار قبل أن تقع :

مثل قد خطر في بالي: الحيوان لا يخاف إلا إذا رأى الخطر بعينه، هذا مستوى متدنٍّ من الحياة النفسية، لا يتّقي الخطر إلا إذا رآه بعينه، ولكن الإنسان كرَّمه الله عزَّ وجل فجعل له فكراً يستطيع أن يرى به الأخطار قبل أن تقع، وهذا تكريم الله عزَّ وجل، فإذا عطَّل الإنسان فكره ولم يُعمله في الكون وواجه الأخطار عند الموت فإذا هو من أهل الجحيم، نقول له: أين عقلك؟ أين فكرك؟! العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه، ولذلك فربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه: 15]

أكاد أُخفيها، حتى يظهر الإنسان وعقله، فإذا واجه الإنسان انهداماً في الطريق فجأةً إما ينجو أو لا ينجو، وإذا كانت هناك إشارات ولافتات وشاخصات على الطرق تدل على وجود تحويلة مثلاً، أو هناك منحدر خطر، أو منعطف خطر، هذه الإشارات إن لم تستخدمها، وإن لم تعبأ بها، وإن لم تنظر إليها لا يسمّى الإنسان عاقلاً، ولا يسمّى مفكّراً:

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه: 15]

الخطر، خطر الآخرة لا يُرى الآن بالعين، فالناس الآن يستوون في هذه الحياة، المؤمن وغير المؤمن، المؤمن ساكن في بيت يأكل ويشرب وله عمل، وهذا المرابي يسكن في بيت ويأكل ويشرب وله عمل، والذي لا يبالي بطاعة الله يعيش كما يعيش المؤمن، والذي يعتدي على حقوق الآخرين يعيش كما يعيش المؤمن، الخطر لا يُرى بالعين ولكن الإنسان كرَّمه الله عزَّ وجل عليه أن يرى الأخطار قبل وقوعها، وأن يرى أن لهذا الكون إلهاً ويستحيل على الله عزَّ وجل أن يدع الناس هكذا هملاً:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

الحياة من دون آخرة لا يستقيم معناها ولا تكمُل :

تجد جامعة فيها أبنية فخمة شاهقة، وحدائق غنَّاء، ومدرّجات تتسع للألوف، ومخابر فيها أدقّ الأجهزة، وفيها إدارة حازمة، وفيها سجلات وأرشيف دقيق، ومكتبة غنيّة بالمجلدات والمؤلَّفات وأمّهات الكتب،

وملاعب ومساكن للطلاّب، وهذه الجامعة ينقصها شيءٌ واحد هو الامتحان، ولولا الامتحان لكان إنشاء الجامعة عبثاً، أما الامتحان فهو الذي يقيِّم الطلاّب، وهو الذي يكشف الذي بذل جهداً والذي لم يبذل جهداً، فالامتحان هو الذي يكشف مؤهَّلات الطلاّب، ولذلك فالحياة الدنيا بلا آخرة لا معنى لها، ولا تكمل، وليس الكمال في الجامعة أن ينجح جميع الطلاّب، لا، الكمال في الجامعة أن تأتي النتائج متوافقةً مع المقدِّمات، فيجب أن لا ينجح الطالب الكسول، والذي بذل جهداً يجب أن ينجح، والنجاح درجات فهناك امتياز وجيّد جداً وجيّد وكذلك مقبول، فالروعة في النظام الجامعي لا أن ينجح جميع الطلاّب، لا، الروعة أن تأتي نتائج الجامعة متوافقةً مع جهد الطلاّب، فمادام هناك حساب دقيق، ومادام هناك ميزان دقيق، ومادام هناك تقييم دقيق فهذا شيءٌ جميل.

والأرض فيها قوي وفيها ضعيف، فيها غني وفيها فقير، فيها صحيح وفيها مريض، فيها إنسان أُتيح له كلُّ شيء وإنسان لم يُتح له شيء، إذا كانت الحياة الدنيا هي كل شيء نقول: الخلق فيه نقص، ما ذنب هذا الذي حُرِم من نعمةٍ معيَّنة، ما ذنب هذا الذي حُرِم نعمة الأولاد، لمَ حُرِم هذا وأُعطي هذا؟ لمَ كان هذا قوياً وهذا ضعيفاً، لمَ كان هذا غنياً وكان هذا فقيراً؟ الحياة من دون آخرة لا يستقيم معناها ولا تكمُل، يأتي يوم الدين يحاسب الغني على ماله، من أين اكتسبه وفيم أنفقه، يحاسب الفقير أصبرت لوجه الله؟ هل دعاك فقرك إلى كسب مالٍ حرام أم تعفّفت؟ يحاسب القوي ماذا صنعت من أجل هؤلاء الضعاف الذين كانوا تحت رعايتك؟، يحاسب الضعيف هل أعنت الناس على حاجاتهم؟ فكل إنسان عندئذٍ يحاسب، فحينما تأتي النتائج في الآخرة متوافقةً مع المقدمات في الدنيا فهذه هي العدالة، ولذلك لا يمكن أن يستقيم معنى الحياة إلا بالإيمان باليوم الآخر.

عندما يعرض على الإنسان مبلغ كبير جداً من أجل أن يخون ضميره إن كان طبيباً مثلاً، أو كان محامياً ويقول إني أخاف الله ربَّ العالمين، معاذ الله أن أفعل هذا، فإذا بقي هذا المتعفف فقيراً وانتهت الحياة وليس بعد الحياة حياة ألا يُعدُّ هذا أحمق؟ لكن إذا كان هناك يومٌ آخر وكان هذا التعفف غالي الثمن وقبض هذا الذي قال: إني أخاف الله ربّ العالمين قبض سعادةً أبديةً لا تنتهي نقول: هذه هي العدالة، هذا الذي قال: إني أخاف الله ربّ العالمين، هذا المتعفف عن المال الحرام، هذا الذي أبى أن يخون ضميره، أبى أن يعمل خلاف قناعته، نقول له:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 24]

معظم الآيات قرن الله فيها الإيمان بالله واليوم الآخر :

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلاً مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ*وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ*وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات: 15-21]

لو اتبَّعتم كتاب الله من دفته إلى دفته، من البقرة إلى الإخلاص، لوجدتم أن معظم الآيات قرن الله فيها الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن الإيمان بالله فقط لا يكفي>

الآخرة هي دار القرار :

لهذا الكون خالق، فلمَ الفقر؟ ولمَ الضعف؟ لمَ هناك أزمات طاحنة والله غني؟

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة المائدة: 18]

(وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة المنافقون: 7]

لم شحُّ الأمطار؟ ولم شحُّ الإنتاج الزراعي؟ و لم هذه الآفات التي تصيب الزرع لم؟ أما هذه معالجات، هذه حياةٌ مؤقتة، حياة جدٍ واجتهاد، حياة كسبٍ، حياة اختيارٍ، والآخرة هي دار القرار، ولذلك فالإمام الشبلي رضي الله عنه قال: قرأت أربعمئة ألف حديث، ثم استقر على حديثٍ واحد، رأى فيه علم الأولين والآخرين، اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتق النار بقدر صبرك عليها، أي الموت أمامنا، لا يوجد يوم إلا فيه جنازة أو جنازتان أو ثلاث، أي هذا الذي مات أنا لن أكون مثله، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا. انظر إلى هذه النعوات في الطريق، أنا اليوم سمعت ثلاث جنائز، فالموت تخطّى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، هذه هي البطولة، البطولة أن تأتي هذه الساعة وأنت أبيض الوجه، وأنت طاهر القلب، ليس في قلبك غلٌ لأحد، وليس في مالك كسبٌ من حرام، وليس في سلوكك معصيةٌ لله عزَّ وجلَّ:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 24]

لا يعصي الله إلا إنسانٌ عطَّل فكره وهذا ملخص الملخص :

عندما يفكر الإنسان في الموت كل يوم خمس دقائق، فأنت عود نفسك على ذلك، هذا التفكير ليس من باب التشاؤم، العوام يظنونه تشاؤماً، لا، فالمؤمن يرى الموت بين عينيه كلَّ يوم، فإذا كان الموت بين عيني الإنسان انضبط سلوكه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

أي هذه الآيات الكونية ألا تكفي أصحاب العقول، يا أصحاب العقول أين العقول؟ عقلُ الإنسان أن يحجزه عن معاصي الله، لا يعصي الله إلا أحمق، لا يعصي الله إلا غبي، لا يعصي الله إلا إنسانٌ عطَّل فكره، فلذلك:

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

إذا لم يبال الإنسان في هذه الآيات،فما قيمته؟ قال لي رجل التقى مع شخص أجنبي حدَّثه عن الله قال له: أنا مؤمن بوجوده، قال له: بالآخرة؟ قال له: لا أؤمن بها، بعد ذلك قطع عليه المناقشة، قال له: هذه الموضوعات كلها لا تعنينا، ولا تهمنا، ولا تمتعنا، يعنينا شيء واحد، بيتٌ كبير وسيارة كبيرة ودخلٌ وفير، هذا ملخص الملخص قال الله تعالى:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان: 44]

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

[سورة المنافقون: 4]

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

[سورة الجمعة: 5]

حال أهل الدنيا :

ربنا عزَّ وجلَّ قال لما بعرض الإنسان عن الله عزَّ وجلَّ، لا يفكر بآيات الله، ولا يعبأ بها، ولا تعنيه، ويجعلها وراء ظهره، والآن حدث الناس بالدنيا تجد آذاناً صاغية، حدثهم عن أسعار العملات، وحدثهم عن موضوعات التجارة، وعن موضوعات البيوت، عن أحدث جهاز للتسخين في البيت، وعن التدفئة

المركزية، وكل شيء له علاقة بالرفاهية، ومتع الحياة تجد آذاناً صاغية، أما حدثهم عن الدار الآخرة فيتثاءبون، يعتذرون، لذلك قال الله تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

[سورة الكهف: 103-104]

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

حضارة الفراعنة :

إذا لم يفكر الإنسان بهذه الآيات وقال: هذه لا تعنيني، يعنيني الطعام والشراب، والدخل الوفير والزواج، والبيت المريح، وتجارةٌ رائجة، ومشروعٌ ناجح، ومزرعةٌ جميلة، نقول له:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ*وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي*وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ*الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ*فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ*فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ*إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

فرعون، والمقصود بكلمة فرعون في هذه الآية فرعون موسى، وفرعون ذي الأوتاد، هذه الأهرامات قال معظم المفسرين: الأهرامات، تأمّل صنعها شيءٌ يكاد يفوق حد التصور، ارتفاعٌ شاهق، أحجارٌ كبيرة، حتى أن بعضهم قال لي: إنَّ في الأهرام شقّاً، فتوجد دراسة رائعة جداً هندسية بحيث لا تدخل الشمس منه إلا في يومٍ واحدٍ من أيام السنة، هو يوم وفاة (ميلاد)؛ من دفن في هذه الأهرام، فهل يمكن أن تعمل شقاً ضيقاً جداً بحيث لا يسمح للشمس إلا أن تدخل فيه في العام مرةً واحدة، فهذا أرقى أنواع الهندسة، حتى الآن الفراعنة حينما حنطوا الموتى لا يعلم سرَّ تحنيطهم أحد، في الأهرامات قمح زرع فنبت، وكان قد خزن أكثر من سبعة آلاف عام، وفي الأهرام قبور وفيها أجسادٌ محنَّطة، أي قبل سنتين أو أكثر قرأت في الأخبار أن فرعون موسى نقل إلى باريس ليتلقى العلاج، أليس هو محنطاً؟ أصابه بعض التعفن فنقل إلى باريس وتمت معالجة جسده المحنط، وأعيد إلى مصر، ما هذا العلم؟ إنسان قبل آلاف السنين هو هو، فربنا عزَّ وجلَّ قال:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

قال: هذه عاد الأولى اسمها إرم، قبيلةٌ كانت جبارةً تعيش بين حضرموت والرَبع الخالي، وكانت خيامها على أعمدة وكانت مسيطرة على المنطقة كلها.

الله عزَّ وجلَّ وصف قوة عاد وبطشها وجبروتها وهيمنتها بهذه الكلمات الموجزة :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

هؤلاء حينما لم يفكروا في هذه الآيات، ولم يعبؤوا باليوم الآخر، والتفتوا إلى شهواتهم وانغمسوا مع ملذاتهم، أصابهم العمى، فطغوا وفسدوا، عندئذٍ استحقوا الهلاك، فجاءت آية الله عزَّ وجلَّ قاطعةً:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

الله عزَّ وجلَّ وصف قوتها وبطشها وجبروتها وهيمنتها بهذه الكلمات الموجزة:

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

ففي كل عصر يوجد دولة في العالم متفوقة جداً، يقول لك: هذه معها أسلحة ذرية، ومعها قنابل إذا ضربتها على المدن مات الناس فقط، الآن أحدث قنبلة إذا ألقيت على مدينة مات جميع سكانها وتبقى البيوت كما هي والأجهزة كما هي وكل ألوان الرفاهة في المدينة، بيوتها وقصورها ومزارعها ومصانعها وأماكنها العامة وحدائقها كما هي لا يموت إلا الإنسان هذا أحدث ما اخترعه العقل البشري التدميري، هذه الدولة عندها أسلحة كيميائية إذا وضعت في ساحات القتال أصيب الناس بالهوس وبعض الأمراض الوبيلة النفسية، وعندها أسلحة جرثومية وحارقة وخارقة ونفسية، أي أن هذا وصف ربنا:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)

كل فريق قوي في الدول العظمى يظن أن بيده نهاية العالم كما كانت عاد :

ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

[سورة يونس: 24]

الآن كل فريق قوي في الدول العظمى يظن أن بيده نهاية العالم، فلذلك جعلوا خطاً مباشراً بين واشنطن وموسكو وسموه خطاً أحمر حتى لا يحصل سوء تفاهم فيدمرون بعضهم، وهم يظنون أن نهاية العالم بيدهم:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً)

[سورة يونس: 24]

أمرنا لا أمرهم، (ليلاً أو نهاراً) الأرض كروية، لأن هذا التدمير الشامل سيكون على أناسٍ ليلاً وعلى أناسٍ نهاراً:

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

الآية التالية لها خاص ولها عام :

ربنا عزَّ وجل قال:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

هذه الآية بالطبع لها خاص ولها عام، فخاصّها ينصبُّ على عاد، وعامُّها ينصبُّ على أيّة جهةٍ قويةٍ في الأرض تزعم أنّها أقوى قوةٍ في الأرض، وأن لا أحد يقف في وجهها.

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

معنى جابوا أي حفروا في الجبال بيوتاً كالجيوب، فليس معنى جابوا أحضروا، لا بل من الجيب، يوجد قصر بالبتراء في الجبل، قاعة الملك حجمها وقد رأيتها بعيني ثلاثون متراً عمقها، وثلاثون متراً ارتفاعها، وثلاثون متراً عرضها، محصورة في الجبل مكعب كامل ضخم، وعلى مدخل هذا القصر الأعمدة والتيجان والزخارف، ولم يوضع في هذا البناء حجر واحد، نحتٌ من الصخر، هذا شيء فوق طاقة الإنسان:

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

فإذا دخلت إلى البتراء وتعمَّقت فيها رأيت بيوتهم ومساكنهم وحماماتهم ونواديهم، وأماكنهم العامة ومدَّرجاتهم:

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ* وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ)

الأوتاد أي الأهرامات.

العلاقة بين الطغيان وبين تجاوز الحق :

لكن ربنا عزَّ وجل لمَ سمّى عاداً عاداً، وثموداً ثموداً، ولم يسمّ أهل مصر بل قال: وفرعون، استنبط بعض المفسرين أن هؤلاء جميعاً ذابوا في فرعون ولم يبق لأحد شخصية في حضوره، كقوله تعالى:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

لذلك فالله لم يعطهم اسماً، بل كنّى عنهم بفرعون، أما ثمود وعاد فلها وضعٌ آخر.

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ*وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ*وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ*الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ*فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ*فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ*إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

يوجد علاقة بين الطغيان وبين تجاوز الحق، فأحياناً الإنسان يطغى على زوجته، لها حدود وله حدود، حينما يطغى على حقوقها يفسدها ويفسد معها، يفسدها قهراً ويفسد معها ظلماً:

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

إذا طغيت على حق من يشتري من عندك فرفعت عليه السعر، أو أعطيته بضاعةً سيّئة، فهذا طغيان، والطغيان كلمة واسعة جداً تلخَّص بكلمةٍ واحدة: تجاوز الحد، إلى هنا حدُّك، تجاوزته، ينبغي أن تعطي هذا الإنسان حقّه، أحجمت عن إعطائه حقَّه طغيت عليه.

فالطغيان في هذه الآية يعني بالضبط تجاوز الحد وهذه كلمة واسعة جداً، فقد تؤخذ على مستوى أُسري، تجاوز الحد في معاملة الابن طغيان، وفي معاملة الأجير طغيان، وفي معاملة الجار طغيان، وفي معاملة الشاري طغيان، وفي أيّة معاملة، أنت مدير دائرة وعندك موظَّفون قد تتجاوز الحد في معاملاتهم فهذا طغيان، وكل طغيان فساد، علاقةٌ فاسدة، أي علاقة سيّئة.

العلاقة بين الطغيان وبين الفساد :

الطغيان يسبب الفساد، فساد ذات البين، فساد الطاغي، فساد الظالم، فالفساد أيضاً كلمة عامة:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

[سورة القصص:83]

فإذا الإنسان انتقد بيتاً وقال لصاحبه: هذا بيتٌ صغير، كيف تسكنه؟ فأنت كرَّهته به بهذا القول، فحزن وتبرَّم وضاقت نفسه، وأفسدت علاقته مع بيته، إذا ذكرت له امرأة تفوق زوجته أفسدت علاقته مع زوجته، إذا رغّبته في الدنيا أفسدت علاقته بربه، إذا حملته على معصية أفسدت علاقته بآخرته، فالعلاقات كلّها قد تفسد، قد تفسد علاقة الإنسان بعقله فيُعطِّله ولا يستخدمه، أو يسخِّره لشهواته، وقد تفسد علاقة الإنسان بربه لا يطيعه، يحتال على الناس، يظلمهم، يعتدي عليهم، يطغى عليهم، وقد تفسد علاقات المجتمع فتبنى على النفاق وعلى الدجل وعلى الكذب، ولذلك فهناك علاقةٌ بين الطغيان وبين الفساد،

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ*فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

هذه عاد وثمود وفرعون عندئذٍ:

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ*إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

كلمة صب معناها الغزارة، فأحياناً تفتح الصنبور ينزل منه خيط من الماء، أما إذا صببت على هذا الشيء دلواً من الماء تقول: صب. أي الصب بمعنى الغزارة، والسوط بمعنى اللذع، أي عذابٌ مؤلمٌ غزير، عذابٌ مؤلمٌ وغزير في وقتٍ واحد، وهذا يستفاد من معنى:

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

كل حركة وسكنة يفعلها الإنسان تحت المراقبة الإلهية :

قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

أي إن كل حركاتك وسكناتك، وخواطرك، ونياتك، وطموحاتك، وما تنوي أن تفعله وما تفعله، وما تكنُّه وما تسرّه وما تعلنه، مرصودٌ من الله عزَّ وجل أي مراقب مراقبة دقيقة، أنت تحت المراقبة الإلهية.

إذا الإنسان ظنَّ أنّه تحت المراقبة البشرية لا ينام الليل، فكيف إذا كنت تحت الرقابة الإلهية، الذي يعلم السر وأخفى؟ قل ما شئت يعرف بواطنك، ويعرف نياتك، ويعرف خلفيّات القول، وطموحاتك من هذه الدعوة، ومن هذا اللقاء، والذهاب، والنزهة، والسفر، ويعلم كلّ شيءٍ عنك وأنت تحت رقابته:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

لذلك إذا كانت الزوجة عرفت هذه الآية لا تظلم زوجها، وإذا عرف الزوج هذه الآية لا يظلم زوجته، وإذا عرف صاحب العمل أن هذا العامل مضطرٌ كيّ يعمل عندك فإذا عرفت الضرورة التي تحمله على العمل عندك واستغليت هذه الضرورة وخفّضت الأجر ورفعت أوقات الدوام إن ربك لبالمرصاد، وإذا شعرت أن هذا الشاري بحاجة إلى هذه الحاجة فهي حاجة ماسة، فرفعت السعر وأخفيت العيب وبعتها بسعرٍ مرتفع إن ربك لبالمرصاد، والله هذه الآية فقط تكفي.

والله الذي لا إله إلا هو لو تذوّقنا معنى هذه الآية وحدها تكفي ولانتظمت علاقتنا ببعضنا، علاقة العمل، وعلاقات الوظيفة والبيت والجيران، وأيّة علاقةٍ في الحياة إن ربك لبالمرصاد، الله يرى من الظالم، كثيراً ما أقول للزوجين إن ربك لبالمرصاد، إن كنت تظلمها وتعتدي على حقها إن ربك لبالمرصاد، وإن كانت تهمل حقك وتعتدي على حقك إن ربك لبالمرصاد، إنّ أخذه أليمٌ شديد:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج:12]

الإنسان يجب أن ترتعد فرائصه من هذه الآية، والذي لا يخاف أحمقٌ.

أعلى الناس عند الله منزلةً أخوفهم من الله عزَّ وجل :

أعلى الناس عند الله منزلةً أخوفهم من الله عزَّ وجل:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

إذا كنت في جلسة وشعرت بوجود آلة للتسجيل فستنضبط أكثر، فتتوسل إلى صديقك أن يمحو ما سجل عليها من كلامك فلا يمحوها لك ولو من باب المزاح، فبوجود المسجلة تجد نفسك منضبطاً، وإذا كانت هناك صورة وصوت فالانضباط يكون أكثر وخاصة إذا كان تحت الرقابة الإلهية المستمرّة في خلوتك وجلوتك في بيتك، ولذلك من لم يكن له ورعٌ يصدُّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله، هل تصلّي في البيت صلاةً متقنةً فيها خشوع، كما لو تصلّي إماماً في المسجد؟ إن ربك لبالمرصاد، هل تخفي عيوباً في البيت وتظهر للناس الفضائل؟ إن ربك لبالمرصاد، لذلك عندما يتحقق الإنسان بهذه الآية ينضبط، ويصبح سرّه كجهره، فلا تجد عنده ازدواجية، فله موقف واحد، باطنه كظاهره، وسريرته كعلانيته، ونياته كما يقول، لذلك:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

الإيمان عفيفٌ عن المحارم، عفيفٌ عن المطامع، فهذا الذي يستفاد من هذه الآية، فإذا الإنسان فكّر في:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

وتعرَّف إلى الله من خلالها واستقام على أمره وعمل صالحاً سعد إلى أبد الآبدين، وإذا أعرض عن هذه الآيات ولم يعبأ بها واتّبع شهواته وأهواءه:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

يوجد ارتباط دقيق جداً، إذا الإنسان قرأ القرآن من دون تفكُّر، من دون تدبُّر يجد مقطعاً ليس له علاقة بالآخر:

(وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ*هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ *أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

رأساً انتقل من الآيات الكونية إلى قصّة، هذه القصة تعني إن هذا الإنسان إذا لم يفكّر في الآيات ولم يعبأ بها ولم يستقم على أمر الله ولم يعمل صالحاً، هذا مصيره كمصير عاد وثمود وفرعون تماماً، وهذا المصير المحقق، فإذا فكَّرت في هذه الآيات تنجو من هذا المصير الأسود.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفجر 089 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 15 -30 وصف لحال أهل الجنة وحال أهل النار.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-02-15

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يمكن أن تكون الدنيا مقياساً لمحبة الله عزَّ وجلَّ :

وصلنا في درس الجمعة الفائت في سورة الفجر إلى قوله تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي*كَلَّا)

يتضح معنى هذه الآية من توضيح كلمة كلا، (كلا) لا تقابل (نعم) كما يتوهَّم بعض الناس، كلمة (كلا) أداة ردعٍ وزجرٍ، فقد يقول لك قائل: هل أنت جائع؟ تقول له: لا، (لا) حرف نفي، إذا قال لك: هل أنت مذنب؟ تقول له: كلا، تردعه وتزجره عن هذا الظن، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية قال:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

يقول هو، هذه مقولته وهذا تفكيره وهكذا جرى في خلده وهكذا توهم وتصوّر، إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، أي إذا قدَّر الله سبحانه وتعالى لإنسانٍ مالاً وفيراً، أو صحةً جيدة، أو زوجةً جيدة، أو أولاداً كثيرين ذكوراً وإناثاً، أو تجارةً عريضة، أو دخلاً كبيراً، أو منصباً لائقاً، إذا أعطى الله عزَّ وجلَّ عبده بعض ما في الدنيا من مالٍ أو صحةٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ أو ما شاكل ذلك، فهذا الإنسان قد يظن وقد يتوهم وقد يعتقد أن الله أكرمه بهذا، لا، ليس هذا إكراماً، لأن الله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، لا يمكن أن تكون الدنيا مقياساً لمحبة الله عزَّ وجلَّ، فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمداً عليه الصلاة والسلام أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه، فقد كذب، وإن قال: أكرمه، فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا، أي إذا آتى الله الإنسان المال وعمل سياحة حول العالم ودفع في هذه السياحة مئتي ألف، يقول لك: الله يحبني، أطلعني على ملكه، هذا كلام مرفوض ليس صحيحاً، هذا كلامٌ فيه وهمٌ كبير، ما الذي يوضح هذه الآية؟ كلمة (كلا)، الله سبحانه وتعالى يزجر قائل هذه الكلمة ويردعه:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

المال الذي يعطيه الله عزَّ وجلَّ ليس إكراماً بل هو ابتلاء :

الإنسان يبتلى بالمال، قد يتوهم الفقير أن الله سبحانه وتعالى لو أعطاه المال لفعل الخيرات في كل اتجاه، وفي كل جانب، فإذا آتاه الله المال بخل به وحاسب على الدرهم والدينار وأصبح حريصاً، إذاً هذا المال الذي يعطيه الله عزَّ وجلَّ ليس إكراماً بل هو ابتلاء، ومعنى ابتلاء أي يمتحن الإنسان بالمال، فإن كان معدنه ذهباً كان على المال متواضعاً وكريماً، وإن كان معدنه خلاف ذلك أصبح على المال بخيلاً ومتكبراً، فالمال ليس إكراماً إنما هو ابتلاء، ولذلك جاء في بعض الأحاديث الشريفة: إن الأغنياء يحشرون يوم القيامة أربع فرق؛ فريقٌ جمع المال من حرام و أنفقه في حرام يقال: خذوه إلى النار حسابه يسير -لا بمعنى أن الله عزَّ وجلَّ يسامحه بل بمعنى أن وقت الحساب قصير جداً - خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حلال - تجارةٍ مشروعة - وأنفقه في حرام - على المعاصي - فيقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حرام - مثلاً كان عنده ملهى أو كان مرابياً كبيراً - وأنفقه في حلال - تزوَّج واشترى بيتاً - فيقال خذوه إلى النار - ما دام في الكسب أو الإنفاق بندٌ هو حرام فالمصير إلى النار - وفريقٌ جمع المال من حلالٍ وأنفقه في حلال هذا الذي يحاسب - وهذا الذي يقال له: قفوه فاسألوه، هل ضيَّع فرض صلاة؟ وهل تاه بماله على عباد الله؟ وهل قال جيرانه: يا ربي قد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقنا - النبي الكريم بما أوتي من بلاغةٍ معجزة، قال: فما زال يسأل ويسأل أي رأى أمامه أسئلةً طويلة جداً، تركهم وهم يسألونه وتحول عنهم:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

ابتلاه بالمال، ماذا فعل بالمال؟ هل تقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ وكفى عياله؟ مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[مسند الشهاب للقضاعي عن عائشة]

أم أنفق المال بطراً وكبراً وإسرافاً وتبذيراً ورياء الناس؟ هل تقرَّب إلى الله عزَّ وجلَّ بالمال كما قال سيدنا أبو ذر رضي الله عنه: حبَّذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي.

يدنا على المال هي يد الأمانة :

الكفار إن أمسكوا المال أمسكوه بخلاً وتقتيراً، وإن أنفقوه أنفقوه إسرافاً وتبذيراً، فالمال ليس إكراماً إنما هو ابتلاء، ويدك على المال هي يد الأمانة، أعرابيٌ كان يقود قطيعاً من الإبل سُئل: لمن هذه؟ قال: لله في يدي. قالوا: هذه أوجز إجابةٍ في اللغة العربية.

إذاً فالذي بيدك ليس لك، إن لِله ما أعطى وله ما أخذ، هذا الابتلاء بالمال لينظر كيف تعملون؟ تنفق المال على الملذات أم على القربات؟ فأبواب الخير المفتَّحة عن طريق المال لا تعدُّ ولا تحصى، ما عبد الله في الأرض بأفضل من جبر الخواطر:

((أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ))

[متفق عليه عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((أنفق بلال، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا))

[رواه الطبراني عن ابن مسعود]

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

في المال ابتلاء؛ رب درهم سبق ألف درهم، درهم أنفق في إخلاص خير من مئة ألف أنفق في رياء. فالله عز وجل يعطيك المال فماذا تفعل؟ هل تعمل سياحة حول العالم تنفق مئات الألوف ولك أقارب أيتام يحتاجون إلى ليرة واحدة؟ فالله امتحنك بالمال ولم تنجح، يبلغ مسمعك أن شخصاً ابنه يعاني من مرض عضال وهو بحاجةٍ ماسةٍ إلى عملية جراحية وتملك هذا المبلغ، هل تقول: ليس لي دخل به، كل منا له رب يعينه، أم تبادر وتنفق هذا المال ابتغاء مرضاة الله؟ ألك أختٌ لها زوجٌ فقير قد يحل الخلاف بينهم بمبلغ يسير فتنفقه من مالك تقرُّباً إلى الله عزَّ وجل؟ ألك صانعٌ تُؤلِّف قلبه بمبلغ في العيد تجلبه إلى الدين وتكرمه، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

من عاش تقياً عاش قوياً :

الإنسان قد يبتلى بالزوجة، هذه الهدية من الله عزّ وجل كيف تعاملها؟ هل تظلمها؟ يبتلى بها هل تكتفي أن تقدم لك كل حاجتك ولا تُعنى بأمر دينها، ولا بأمر وجهتها إلى الله عزَّ وجل؟ هل يعنيك منها أن تقوم بواجباتك؟ أم يعنيك منها أن تهديها إلى الله عزَّ وجل؟ الإنسان يمتحن بالزوجة، والإنسان يمتحن بالأولاد، وبالحواس الخمس، هذه العين ماذا فعلت بها؟ هل نظرت بها إلى عورات الناس، أم إلى مالا يرضي الله؟ أم نظرت بها إلى آلاء الله وسبَّحت بها الله وحده؟ يمتحن الإنسان بالأذن؛ هل استمعت بها إلى الحق أم استمعت بها إلى الغناء؟ يمتحن الإنسان بهذا الفكر، أو هذا الذكاء الذي منحه الله إياه، هل تستخدم هذا الذكاء لمعرفة الله أم للإيقاع بين الناس؟ فالفكر يمتحن به، والعين يمتحن بها، والأذن، واليد، فهل عاونت بهذه اليد مسكيناً أم بطشت بها؟ والرجل، هل تمشي عليها إلى طاعة، إلى مسجد، إلى مجلس علم، إلى عيادة مريض أم تمشي عليها إلى معصية؟ والإنسان يمتحن باللسان، وهل يوفق

بين الناس أم يوقع بينهم العداوة والبغضاء؟ هل يستخدمه في النميمة والغيبة والفحش والمزاح الرخيص أم يستخدمه في تذكير الناس بالله عزَّ وجل؟ هذا هو اللسان.

مبدئياً لا أعتقد ولا أومن أنَّ عيناً غضَّت عن محارم الله، الله سبحانه يفجعه بها، ولساناً كان رطباً بذكر الله يفجعه الله به، وأذناً استمعت إلى الحق وأعرضت عن الباطل يفجعه الله بها، من عاش تقياً عاش قوياً، حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر؛ هذه كلمة، قالها أحد العلماء القدامى وعاش سبعة وتسعين عاماً وهو متمتعٌ بكامل صحته ونشاطه، ظهره مستقيم، بصره حاد، وسمعه مرهف، وأسنانه في فمه، كان قوياً، فلما قال له تلامذته: يا أستاذنا وسيدنا ما هذه الصحة التي منَّ الله بها عليك؟ قال: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً، والدعاء النبوي الشريف: ومتعنا اللهم بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا، وعقولنا، ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، فالإنسان يبتلى لينظر كيف تعملون، قال الله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

الله سبحانه وتعالى يمتحن كل إنسان ليرى صدقه من كذبه :

إذا أحد الأشخاص عرض عليك قطعة من الذهب، إن كانت ذهباً ثمنها ثلاثة آلاف، وإن كانت من التنك ثمنها ثلاثون ليرة، أو ثلاث ليرات بالأصح، يوجد محك عند الصياغ من الماس يحكون به هذا الذهب، فإن بدا خطٌ أبيض فهو تنك، والله سبحانه وتعالى يحكُّ معادن الناس، إما أن يبدو هذا المعدن ثميناً، وإما أن يكون هذا المعدن رخيصاً لذلك:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ)

على زعمه هو:

(فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي)

هو يقول: الله أكرمني، الله يحبني أعطاني الدنيا، وأعطاني بيتاً واسعاً، وزوجة تروق لي، فإذا قلتَ صالحةً أصبحت نعمة، أما إذا أعطاه زوجة تروق له، ولم يهدها إلى الصراط المستقيم، ولم يقوِّم سلوكها ولم تكن هذه الزوجة نعمة بل هي نقمة:

(فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي)

ولو التقيت بمعظم الناس إذا شعروا أنهم يملكون شيئاً من حطام الدنيا يفوق به الآخرين تراهم يظنون ويتوهمون ويتصورون أنهم مكرَّمون عند الله، مع أن الله سبحانه وتعالى أعطى قارون ما لم يعط أحداً، قال الله تعالى:

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص:76]

الدنيا دار ابتلاء :

لذلك إنَّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترَح لا منزل فرح، دققوا في هذه الكلمات، هذه خطبة لرسول الله، فمن عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، الدنيا دار ابتلاء، ولذلك يجب أن تعتقد أن كل شيءٍ في يديك امتحانٌ وابتلاء، فالزوجة ابتلاء، والمال ابتلاء، والسمع ابتلاء، والبصر ابتلاء، والفكر ابتلاء، واليد ابتلاء، وكلُّ شيءٍ أعطاه الله لك إنما هو ابتلاء:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي)

فيوجد أشخاص أسوأ من ذلك قال الله تعالى:

(ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى*أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى*ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)

[سورة القيامة: 33- 35]

الله سبحانه وتعالى يحب المؤمن الذي عرفه واستقام على أمره وعمل صالحاً تقرباً إليه:

قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة: 25-33]

لا تفرح بالمال، افرح إذا أنفقته في طاعة الله، لا تفرح بالجاه، افرح إذا سخرتّه لخدمة الضعيف، لا تفرح بالزوجة التي تروق لك، افرح بزوجةٍ مؤمنةٍ عرفتها إلى الله عزَّ وجل، لا تفرح بأولادٍ تعتز بهم افرح بأولادٍ ينفعون الناس من بعدك، هؤلاء الأولاد صدقةٌ جارية لا ينقطع خيرها.

إذاً ليس عطائي إكراماً، إنما هو ابتلاء، كأن الله عزَّ وجل يقول: يا عبادي عطائي لكم في الدنيا ليس إكراماً إنما هو ابتلاء، السبب: لأن هذا العطاء سوف ينتهي بالموت، إذاً ليس عطاءً، كل عطاءٍ ينقطع لا يسمى عند الله عطاءً، أما عند البشر قد يسمى عطاءً، لكن ما دام هذا العطاء ينتهي بالموت، فالصحة تنتهي بالموت، ونعمة الزوجة تنتهي بالموت، والمال الوفير، أحد أكبر أغنياء العالم كان يقرض الحكومة البريطانية، له مستودعاتٌ للذهب وكان كثير الترحال والتنقل والأسفار دخل إلى بعض مستودعاته فأغلق الباب عليه خطأً، صاح، علا صوته، استنجد، استغاث، من غير جدوى، إلى أن مات جوعاً، وهو بين سبائك الذهب، فجرح يده وكتب على الحائط (أغنى رجلٍ في العالم يموت جوعاً) المال ليس إكراماً، أعطاه لقارون، فهل يحبه؟ والجاه ليس إكراماً، أعطاه لفرعون فهل يحبه؟ ولكن الله سبحانه وتعالى يحب المؤمن الذي عرفه واستقام على أمره وعمل صالحاً تقرباً إليه.

من ظنَّ أنه مهانٌ عند الله فهذا من وسوسة الشيطان :

الصنف الثاني:

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي)

كان دخله محدوداً، هذا الدخل المحدود لم يتح له أن يأكل ما يريد، ولا أن يلبس ما يريد، ولا أن يسكن حيث يريد، ولا أن ينفق على عياله ما يشاء دخله محدود، في ساعة الغفلة يظن أن هذا تقتيرٌ من الله عزَّ وجل، بسبب أنه مهانٌ عند الله، هذا من وسوسة الشيطان.

فهناك طبيب جاءه مريضان، الأول ميؤوسٌ منه مرضه عضال لا شفاء له، والثاني معه التهاب حاد في المعدة، فربما شدد تشديداً كبيراً على المريض الثاني، وأعطاه قائمة بالممنوعات، وقال للأول: كل ما شئت، فظن هذا الثاني أن الطبيب لا يحبه، إنما قتَّر عليه لهوانٍ له عنده، ولأنه أباح للأول أن يأكل ما يشاء فهو مكرمٌ عنده، مسكين، الثاني أمله بالشفاء كبير، ومرضه ليس خطيراً، وشفاؤه وشيك، ولذلك شدد عليه، العبد إذا ضايقه الله عزَّ وجلَّ بماله، وبدخله، وبصحته، وأولاده، وزوجته، وظنَّ أنَّه مهانٌ عند الله فقد وقع في غلطٍ كبير:

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي)

هكذا تقولون؟ إذا أردت أن أعالجه، وأن أرفعه، وأن أطهره، وأن أقربه، وأن أعطيه الآخرة المديدة الأبدية، يقول هذا الإنسان إنني أهينه! متى كان الدواء فيه إهانةٌ للإنسان؟ متى كان مكبح السيارة إهانة لمحركها؟ من أجل سلامتها، مكبح السيارة لا بد منه لضمان سلامتها، وكذلك الأمراض والآلام والمتاعب والأحزان والهموم، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما من عثرةً، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عودٍ، إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

المؤمن حينما يعالجه الله عزَّ وجل يتلقى المعالجة بتفهم وصبر :

الله سبحانه وتعالى غنيٌ عن تعذيبنا، وإذا عذبنا لمصلحتنا، ليردنا إليه، وليحملنا على طريق الحق، والدنيا لا قيمة لها عند الله عزَّ وجل، إذا قيست الدنيا بالآخرة لا قيمة لها، إن رأى الأبُ بيد ابنه لعبةٍ تلهيه عن الامتحان، ووضع هذه اللعبة وكسَّرها تحت قدمه، وقد يكون ثمنها عشر ليرات، لكن الأب يرى أن نجاحه في هذه الشهادة وتدرُّجه في مراقي العلم والمستقبل الذي ينتظره أغلى بكثير من ثمن اللعبة ولذلك يحطمها ليريح ابنه منها ويزيحها من طريقه حتى تصفو وجهته إلى الدراسة، فهذا يفعله الأب أحياناً، وهكذا يفعل الله عزَّ وجل ولله المثل الأعلى، فحينما يرى أن العبد يتعلق بهذا الشيء، قد انصرف إليه، وقد التفت إليه، وقد آثره على صلاةٍ أو على طاعة عندئذٍ ينزعه منه لا لهونٍ له عليه ولكن معالجةً له.

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي)

فيقول هو، هذه مقولته، هذا توهمه، هذا خطؤه، هذا تصوره. أي إذا كان أحدهم في دمشق بمركز المدينة، ولم يكن في جيبه نقود إطلاقاً، وفي البيت عنده آلاف مؤلفة، وذهب إلى بيته مشياً على قدميه، هل يحس بالإهانة؟ لا، عنده مال، لأسبابٍ خاصة نسي أن يحضر المال معه، فذهب إلى البيت سيراً على قدميه فليس ذلك إهانةً، وإذا منع الطبيب مريضه عن نوعٍ من الطعام، هل يرى نفسه مهاناً عند الطبيب؟ لا، لذلك الذي أرجوه أن يكون هذا المعنى واضحاً في أذهانكم، ليس عطائي إكراماً، وليس منعي إهانةً، عطائي ابتلاء، ومنعي اجتباء أي تقريب ومعالجة. إن الله ليحمي صفيه من الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، إن الله يحمي عبده من الدنيا، كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة، ما أصاب عبدٌ مصيبة إلا بإحدى كلتين؛ بذنبٍ لم يكن الله ليغفر له إلا بتلك المصيبة، أو بدرجةٍ لم يكن الله ليبلّغه إياها إلا بتلك المصيبة. أي لا بد منها، فكلما ازداد عقلك فهمت على ربك، الآن طبيب الأسنان إذا كان عنده طفل يعالجه، يبكي ويصيح، ويحرك يديه ورجليه، وقد يسبُّ الطبيب، أما الراشد فيجلس بهدوء، ولو كان في الوخز ألم، يتجشم الألم وفي نهاية الجلسة يصافح الطبيب ويشكره ويعطيه أجره، لماذا فعل الراشد هذا؟ وفعل الصغير هذا؟ الراشد لأنه راشد، والصغير لأنه جاهل، فالمؤمن حينما يعالجه الله عزَّ وجل يتلقى المعالجة بتفهم وصبر ورضى.

الإيمان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ :

هذه الآية، استنبط منها العلماء شيئاً آخر، أن الإيمان كله نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، فإذا ابتلاك الله بالنعم فعليك أن تشكرها، وإذا ابتلى الله الإنسان بالنقم عليه أن يصبر، ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

[سورة الأحزاب: 21]

النبي الكريم عليه الصلاة والسلام كان إذا جاءت الأمور على ما يحب قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا جاءت على غير ذلك قال: الحمد لله على كلِّ حال، وقال عليه الصلاة والسلام:

((عَجَباً لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن))

[أخرجه مسلم عن صهيب الرومي]

في الطائف، لما ردّه أهل الطائف شرَّ رد، توجه إلى الله عزَّ وجل وقال:

((اللهم إني أشكو إليك ضعفَ قوتي، وقِلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَن تكلني، إلى بعيدٍ يتجهَّمني، أم إلى عدو ملَّكته أمري، إنْ لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي...))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

أي إذا الإنسان فهم على الله تصرفاته فقد أحرز معظم الإيمان، دققوا في هذه الكلمة: من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة، فمصيبته في نفسه أكبر، نفسه هي المصيبة، أي إن لم تحدث المصيبة في نفس الإنسان موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر.

الإيمان نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، وإذا ذهب الشكر ذهب الإيمان، وربنا عزَّ وجلَّ قال: كلا، زاجراً ورادعاً، هؤلاء الذين يدَّعون أن العطاء إكرام والمنع إهانة، لا، لا هذا ولا ذاك، رفض الله عزَّ وجل مقولتهم، وتفكيرهم، وتوهمهم، واعتقادهم، قال: لا.

رعاية اليتيم :

قال تعالى:

(كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)

أنتم إذا كنتم أصحاب أموالٍ طائلة تحبسونها عن الناس لا تكرمون اليتيم، إذاً هذا المال الذي بين أيديكم ليس إكراماً لكم إنما هو امتحانٌ كشفكم على حقيقتكم:

((أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى))

[أحمد والبخاري عن سهل بن سعد]

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا بامرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل؟ قال: هي امرأة مات زوجها، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلها))

[ورد في الأثر]

هذه المرأة تنازع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول الجنة تريد أن تدخل الجنة قبله. الفقهاء في موضوع مال اليتيم لهم بحوث رائعة جداً، فمن كان وصياً على مال أيتام لا ينبغي له أن يأكل من هذا المال شيئاً إذا كان غنياً، ومن كان غنياً فليستعف، ولا ينبغي له أن ينفق على الأيتام من صلب المال، وارزقوهم فيه، ولم يقل الله عزَّ وجلَّ وارزقوهم منه، يجب أن ترزقهم من ريع المال لا من صلب المال، ويجب أن تستثمره لئلا تأكله الزكاة، وهذا المعنى ورد في بعض الأحاديث، فإذا كان الوصيُ فقيراً عليه أن يأكل بالمعروف، كيف فهم الفقهاء كلمة المعروف؟ قال: على الوصي أن يأكل من مال اليتيم أجراً يماثل أجر المثل أو حاجته أيهما أقل. قام بعمل أجر المثل أربعة آلاف حاجته في الشهر ألفان يجب أن يأخذ حاجته لا أن يأخذ أجر المثل، قام بعمل آخر بمال اليتيم فربح ألفاً وأجر المثل ألف، حاجته ألفان يجب أن يأخذ هنا أجر المثل، لذلك:

(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)

النبي صلى الله عليه وسلم حضنا كثيراً على رعاية اليتيم، رأى مرةً في بعض الأعياد صبياً ينزوي في جانب الطريق حزيناً كئيباً، فقال له: مالك يا غلام؟ فقال له: دعني يا رجل لقد مات أبي وليس عندي شيءٌ أرتديه في العيد. فقال له: أتحبُّ أن يكون محمدٌ أباك، وفاطمة أختك وعليٌّ؟ فانتبه هذا الصبي أن هذا رسول الله، وأكرمه حتى قبضه الله عزَّ وجل.

وجاء سيدنا الصديق وأكرمه من بعده حتى قبضه الله عزَّ وجل، فإكرام اليتيم شيءٌ لا يعلم أجره إلا الله، فهذا ردٌ على قول هؤلاء أن الله الذي أعطانا المال يحبّنا فقال لهم: كلا، أيعطيكم المال ولا تفعلون به خيراً، إذاً ليس هذا بدافع الحب ولكن ابتلاءٌ لكم وامتحان.

كلمة التحاض على طعام المسكين فيها معنى التكافل الاجتماعي :

قال تعالى:

(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ*وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

لمَ لم يقل الله عزَّ وجل: ولا تطعمون المسكين؟ قال: لأن كلمة التحاض على طعام المسكين فيها معنى التكافل الاجتماعي، أي إذا كان أناس ماتوا جوعاً فكل المسلمين آثمون، هناك أقطار عربية غنية جداً

فدائماً أربعة أضعاف الطعام يلقى في القمامة في الولائم، وأناسٌ يموتون الآن جوعاً في إفريقياً، طبعاً هذا إثم كبير يقع به المسلمون:

(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ*وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

أي إذا مات إنسانٌ جوعاً قال الفقهاء: أثم أهل البلدة كلهم، والله ما آمن والله ما آمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائعٌ وهو يعلم.

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

النبي الكريم قال:

((شر الطعام طعام الوليمة يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء))

[مسلم عن أبي هريرة]

يقول لك: والله عملنا خميساً على روح والدنا ودعونا الأقرباء والأهل المترفين، هذا ليس على روحه إنه مباهاة، إن كنت تنوي أن تطعم الناس على روحه أطعم الفقراء، كان هناك رجل في هذا البلد أي من علماء الشام الأفاضل، فكان إذا دعا عليَّة القوم يطعمهم طعاماً خشناً ويقول: والله إن هذا الطعام يحبونه ويشتهونه لأنهم لا يأكلونه أبداً، وإذا دعا الفقراء يطعمهم أطيب الطعام ويقول: هؤلاء يحبون هذا الطعام لأنهم لا يأكلونه، ولا تحاضون على طعام المسكين، النبي الكريم حثنا على إكرام الضيف قال: الضيف يأتي برزقه ويرتحل بذنوب القوم، فكلمة: تحاضون، يفهم منها التضامن الاجتماعي، أي لو أن قريةً وجدت فيها أسرة فقيرة لو أصابها ضرٌ بسبب الفقر فإنّ أهل البلدة كلُّهم يأثمون، إطعام هذه الأسرة من فروض الكفاية، فإذا قام بها البعض سقط عن الكل، وإن لم يقم بها أحد أثم الجميع، فكأنَّ الله سبحانه وتعالى يردُّ على هؤلاء، أنتم تعدّون المال إكراماً وتفعلون هكذا بالأيتام والمساكين!!

الغلول نوعان :

قال:

(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ*وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً)

أي أكلاً تاماً لا تدعون شيئاً لغيركم:

(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تعِسَ عبدُ الدِّينار، وعَبْدُ الدِّرهم، تَعِسَ عَبْدُ الخميصة))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

تأكلون التراث أي الإرث، فالمنازعات الآن بين الأسر، والعداوات، والمحاكمات، والقضاء مثقل بمشكلات الإرث، كلُّ طرفٍ يحبُّ أن يأخذ كل الإرث وحده وأن يحرم الباقين، ولا يرضى المرء أن يأخذ ماله، يريد أن يأخذ ماله ومال غيره، علامة المؤمن أنه يكتفي بما له، وكلُّ شيءٍ يؤخذ من الإرث قبل توزيعه فهو غلول، الغلول نوعان: ما يؤخذ من غنائم الحرب قبل توزيعها، وما يؤخذ من الإرث قبل توزيعه، تأخذ ساعة وتقول: هذه من رائحة أبي، غلول، سجّادة، غلول، شيء ثمين، قطعة أثرية، قطعة جميلة، فأي شيء تأخذه قبل توزيع التركة فهذا غلول.

(وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)

أنتم مكرَّمون بالمال؟! هذا ادعاؤكم، كلاّ زجرٌ وردع:

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دكّاً)

دكّت بمعنى دقّت وتهدمت، دكاً دكاً، ليس هذا توكيد بل هو استغراق كأن تقول: قرأت الكتاب باباً باباً، أي إنّك تريد أن تقول إنّي قرأته بشكلٍ دقيق باباً باباً، استغرقت كلَّ أبوابه قراءةً.

إذا وقفت بين يدي الواحد الديَّان لا تستطيع أن تلفّق الحقائق :

قال تعالى:

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دكّاً)

أي إذا جاء يوم القيامة:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً*وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صفّاً)

هذا بحث طويل بين العلماء قديماً وحديثاً، كيف يجيء الله عزَّ وجل؟ فبعضهم قال: هذا مجاز، فإذا قلت: يد الله فوق أيديهم أي يد القوة، وإنَّ الله يستمع إلى دعائهم، هذا استماع العلم لا استماع كالاستماع البشري، على كلِ مجيء الله عزَّ وجل في هذه الآية كأن يأتي أعلى إنسان في بلد ليشهد محاكمة، عندئذٍ يسود الصمت وتضطرب القلوب ويرهب الحاضرون، هذا الذي بيده مقاليد الأمور حضر بنفسه ليشهد المحاكمة:

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً*وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صفّاً)

البطولة الآن، قد يكون لك في الدنيا ألف لسانٍ ولسان، تكلَّم في الدنيا ما تشاء، قد يكذب الإنسان، وقد يدجِّل، ويزوِّر الحقائق، ويقول ما ليس واقعاً، ويأكل مال أخيه ويقول: أنا أحبُّه وهذا حرصٌ مني على ماله، أنا سأستثمره له، قد يقول هذا، هذا كلام، ولكنَّك إذا وقفت بين يدي الواحد الديَّان لا تستطيع أن تلفِّق الحقائق، هذه نصيحةٌ لوجه الله، أيُّ عملٍ تعمله في الدنيا تصوَّر أنَّك واقفٌ بين يدي الله عزَّ وجل يوم القيامة وسائلُك عن هذا العمل: لمَ فعلته؟ فهل تستطيع أن تكذب هناك؟ وهل تستطيع أن تدجِّل، أو تلفِّق، أو تتكلَّم بكلام غير صحيح؟!!

الكافر يأخذ آيات الله لعباً وهزواً :

قال:

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً*وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صفّاً *وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

وجيء يومئذ بجهنم، ما قولك أن ينصب حبل المشنقة في قاعة المحكمة كي يرى المجرم مصيره، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان، كان في الدنيا يأخذ آيات الله لعباً وهزواً، وكان يسخر منها أحياناً، وكان يقول: هذا القرآن ليس لهذا الزمان، بل هذا لأهل الصحراء، والآن عصر علم، وعصر التكنولوجيا والفضاء والإلكترون، وكان يعيش على أهوائه ويعطي نفسه هواها، ويتمنّى على الله الأماني، أما يوم القيامة حينما يجيء ربك والملك صفاً صَفاً:

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ)

وجيء، والله كان قد حضر مجلساً للعلم فيما مضى والأستاذ تكلَّم عن جهنَّم، هذه هي، فهذا الكلام صدق، فقد كنا لا نعتقد فيها، من الآن الذي يهتم ويعتقد بجهنم ؟ يعتقدون بالتجارة وأسعار العملات والبضاعة الأجنبية النفيسة والبيوت الفاخرة والديكور والأثاث المريح، يعتقدون بالأجهزة الصوتية من نوع كذا، وهذا له بعد ثالث، وهذا هاتف تلفزيوني، وهذا فيه محطة تليستار، يعتقدون بمنجزات العلم التي تدغدغ أحلام الناس، من يعتقد ويؤمن بجهنَّم الآن؟ من يصدِّق أن بعد الموت عذاباً أبدياً لا نهاية له.

باب التوبة مفتوح وكلُّ شيءٍ يصلَح مادام في الحياة بقيّة :

قال تعالى:

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

وجيء كلمة، وأنى له الذكرى، أي لا تنفعه الذكرى، تذكَّر أو لم يتذكَّر، اتعظ أو لم يتَّعظ مضى وقت الاتعاظ، عندما يرتكب الإنسان جريمة شنعاء ويحاكم محاكمةً عادلة، ويساق إلى حبل المشنقة، والناس مجتمعون ليشاهدوا شنقه، فلو أحبَّ أن يبكي يبكي، أو يضحك فليضحك، أو يحب أن يصبر فليصبر، وإذا أحب أن لا يصبر فلا يصبر، يحب أن يرفع صوته فليرفع صوته، يحب أن يتوسَّل فليتوسَّل، يحب أن يسكت فليسكت فسيَّان الأمر، لا بدَّ من تنفيذ الحكم فيه. فالآن الباب مفتوح، والآن في الأمور يسر، فباب التوبة مفتوح، كلُّ شيءٍ يصلَح مادام في الحياة بقيّة، ومادام هذا القلب ينبض كلُّ شيءٍ له حل، فإذا توقَّفت دقَّات القلب خُتم العمل ورفعت الأقلام وجفَّت الصُحف، وإذا تذكَّر الإنسان يقال له:

(وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

[سورة الأنعام: 158]

الغنى والفقر بعد العرض على الله :

قال تعالى:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

لا تنفع ليت، يا ليتني حرفٌ لا يعني شيئاً، أي الحسرة، والألم، والحزن، فهذه نصيحة لوجه الله قبل أن تقدم على عمل في الدنيا، علاقة مالية فيها شبهة الربا، توقَّف هل ترضي الله؟ ماذا أقول لله عزَّ وجل إذا سألني لمَ فعلت هذا؟ يا ربّ مضطر فأنا بحاجة إلى غرفة الضيوف ذات الموديل الحديث فلا أملك مثلها، أي شيء مضطر؟! فكلمة مضطَّر تعني فقد الحياة، الخوف من فقد الحياة أو فقد أحد الأعضاء، قبل أن تعتدي على الآخرين، وقبل أن تعتدي على أعراضهم، وأن تأخذ من أموالهم، وأن توقع بينهم العداوة والبغضاء، وأن تغتاب، وأن تنقل حديثاً سيّئاً فتوقع بين أسرتين، وقبل أن تفعل هذا كلّه تذكَّر الواحد الديّان الذي يسألك عن كلِّ أعمالك، البرُّ لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديَّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان، كلُّ ابن آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون.

(كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً*وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً *وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)

سيدنا علي رضي الله عنه يقول: الغنى والفقر بعد العرض على الله، فلا تسمِّ نفسك الآن غنياً، ولا تسم نفسك فقيراً، فقد يكون الفقير أغنى الأغنياء يوم القيامة، وقد يكون أغنى إنسان في العالم الآن أفقر الفقراء يوم القيامة، الغنى والفقر بعد العرض على الله، بعد أن تنجو من هول هذا الموقف، أما إذا لم تنج من هول هذا الموقف، فما قيمة المال اليوم؟ لن تأخذ منه شيئاً:

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى*يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

الحياة الأبدية لا فناء فيها ولا موت ولا شيخوخة ولا مرض ولا هم ولا حزن :

هذه هي الحياة الأبدية التي لا فناء فيها ولا موت ولا شيخوخة ولا مرض ولا هم ولا حزن:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الزمر: 34]

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس: 26]

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

هذه هي الحياة، لذلك العاقل دائماً أمام الحياة الأخروية ملء سمعه وبصره، فهي داخلةٌ في كل حساباته، وأي علاقة في هذه الحياة الدنيا تبعده عن الدار الأبدية يبتعد عنها، وأي عمل يقرِّبه من الآخرة ومن رضوان الله يفعله.

آيات قرآنية تبين حال أهل الجنة :

قال:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

أتمنّى على الله عزَّ وجل ألا يقول أحدنا هذه الكلمة، أن يقول:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

هكذا يقول، وهذا موقف، هذا مشرِّف، أتمنى لكلٍّ منا يوم القيامة أن تنطبق عليه هذه الآية:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*خِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلاً مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات: 15-19]

أتمنى أن يكون كلٌ منا ممن تنطبق عليه هذه الآية:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق: 9]

الإنسان حينما يكون عمله صالحاً في الدنيا تنتظره سعادةٌ لا يعلمها إلا الله :

الإنسان حينما يكون عمله صالحاً في الدنيا تنتظره سعادةٌ لا يعلمها إلا الله:

((أعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة: 17]

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة يس: 26-27]

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـــا فإنا منحنا بالرضا مـــن أحبنـــا
ولذ بحمانا واحتمِ بجنـــابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنـــا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغـل وأخلص لنا تلقى المسرة و الهنـا

* * *

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـــا
ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنـــا
ولو ذقت مـن طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـــا
ولو نسمت من قربنا لك نسمـة لمـــت غريباً واشتياقاً لقربنـا

***

البطولة أن تأخذ كتابك بيمينك والخزي والعار لغير ذلك :

البطولة أن تقول:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الحاقة: 19-24]

والخزي والعار لهذا الذي يقول:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

لم أعرف، شُغِلنا بجمع الدرهم والدينار، شُغِلنا بحطام الدنيا، ظننا أن كل شيء في المرأة فظهر أنه ليس فيها شيء، فطبعاً بعض الناس همّهم شهوتهم، وقبلتهم نساؤهم، الهانم لا تريد ذلك فستغضب، ولو عصيت الله فلا شيء، أما الهانم فهو ماشٍ خلفها، ولذلك فالله عزَّ وجل يقول:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الحاقة: 19-24]

للآية التالية معنيان :

قال تعالى:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ)

لهذه الآية معنيان، المعنى الأول أنَّ عذاباً كعذاب الله لم يكن في الدنيا، فأشدُّ أنواع العذابات عذاب الله:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ)

ومهما سمعت عن ألوان تعذيب الإنسان للإنسان فإنَّ عذاب الله أشد:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

مهما قيل لك إنه لا يمكن لهذا السجين أن يهرب، وثاق شديد ولا يوثق وثاقه أحد.

المعنى الآخر، أن هذا العذاب لا يعذِّبه أحدٌ، إنما يعذِّب نفسه ندماً:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر على مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[الحاكم وتعقب عن جابر]

إما أن تفهم هذه الآية على أن العذاب الذي يعذِّبه الله عزَّ وجل ليس في الأرض عذابٌ مثله، وأنَّ الوثاق الذي يوثقه الله عزَّ وجل ليس في الأرض وثاقٌ مثله. والمعنى الآخر أن هذا العذاب، إذا شخص بلغه نبأ في منتهى الألم ودعوناه بعد دقيقة للخروج إلى نزهة في بلدة بلودان، يقول لك: اتركني بهمّي، لم يحبسه أحد هو الذي حبس نفسه، من شدة الألم والهم قبع في البيت، من قيَّد وثاقه؟ لا أحد هو قيَّد نفسه، بل ألمه قيَّده.

فيوم القيامة، من معاني هذه الآية أنَّ شدة الندم وشدّة الألم وشدّة الحرقة تجعل صاحبها يتعذَّب عذاباً ذاتياً فضلاً عن عذاب الله المادّي، ولا يُنكر عذاب الله المادي إلا كافر، ولا بدَّ من عذاب جهنَّم، ولكنَّ عذاب النفس قد يفوق عذاب جهنَّم. إذا أخذ أحد الطلاب قلماً ليس له، وادَّعى الذي فقد القلم أنَّه قد فُقد له قلم، وهذا مثل من واقع الطلاَّب، وأغلق الباب وفُتِّش الطلاَّب طالباً طالباً، وهذا الذي أخذ القلم سرقةً له

مكانته في الصف، مرموقٌ من قبل رفاقه، أُخرج القلم من جيبه، قبل أن نضربه، بماذا يُحسُّ هذا الطالب؟ يحسُّ أن الأرض ليتها تنشقُّ وتبلعه، ويحسّ بقشعريرة وبعرق، ويصبغ وجهه بالحمرة والخجل، هذا هو العذاب النفسي، قبل أن نعذّبه، وقبل أن نضربه، وقبل أن نفصله، فإنه فقد اعتباره، وكذلك يوم القيامة عذاب جهنَّم حق، ولا بدَّ من عذاب النار، ولكن قد يكون عذاب النفس أشدّ من عذاب النار.

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ *وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

وصف النفس التي عرفت ربّها واستقامت على أمره في الدنيا وأعدَّت لهذا اليوم عُدَّتها:

أما هذه النفس التي عرفت ربّها والتي استقامت على أمره في الدنيا، والتي حسبت لهذا اليوم حسابها، والتي أعدَّت لهذا اليوم عُدَّتها:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

فالله راضٍ عنك وأنت راضيةٌ عن ربّك، أعطاك فأجزل وأكرمك وبالغ في إكرامك:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي)

الله، فمعظم الشواهد الموجود على القبور في مقبرة الباب الصغير عليها هذه الآية، لكن البطولة أن يكون هذا الذي في القبر تنطبق عليه هذه الآية تماماً، فالآن كل القبور تقريباً مكتوب على الشواهد هذه الآية:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

إذا كان آكل ربا فلا علاقة له بهذه الآية، وإذا كان شارب خمر فلا علاقة له بهذه الآية، إذا كان آكلاً مالاً حراماً فلا علاقة له بهذه الآية، إذا لم يكن له عمل صالح فلا علاقة له بهذه الآية:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البلد 090 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1 - 2 معانٍ يستقيها الإنسان من سورة البلد.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-03-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

للمُفسِّرين في تفسير هذه الآيات مذاهب شَتى وهذه المذاهب مُتكاملة وليْسَت مُتناقِضَة:

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم هي سورة البلد وهي تبدأ بقوله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ*أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ*يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً*أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ*أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ*يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ*ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ*أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ*وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ*عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ)

يقول الإمام عليٌّ كرَّم الله وجْهَه: القرآن حمَّال أوْجُه، لذلك للمُفَسِّرين في تفسير هذه الآيات مذاهب شَتى، وهذه المذاهب في التفسير مُتكاملة وليْسَت مُتناقِضَة.

الله سبحانه وتعالى إما أنْ يُقْسم وإما أنْ لا يُقْسِم :

قد مرَّ بنا من قبل أنّ الله سُبحانه وتعالى إما أنْ يُقْسِم، قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

[سورة الشمس: 1-5]

وقوله تعالى:

(وَالْفَجْرِ*لَيَالٍ عَشْرٍ *الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

[سورة الفجر: 1-4]

وإما أنْ لا يُقْسم قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

وقال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

وقال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)

[سورة التكوير: 15]

فهو سبحانه وتعالى إما أنْ يُقْسم وإما أنْ لا يُقْسِم.

الله تعالى لا نِهائي ولا حُدود لِقُدْرته وقُوَّتِه وعظْمَتِه أما الكَونُ فمحْدود :

إذا أقْسَم كان هناك معْنى عظيم من قَسَمِهِ، وإنْ لم يُقْسِم كان هناك كذلك معنى عظيم من نفْيِ القَسَم، فهذا الشيء مهما بدا عظيماً وكبيراً ومُعْجِزاً بالنِّسْبة إلى الله فهو من خَلْقِهِ، ومن إبْداعه، ومُحيطٌ به، وهو ذَرَّةٌ من خلْق الله، ولذلك إذا أراد الله عز وجل أنْ ينْسِبَ الأشْياء إليه يقول: فلا أُقْسِم، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

إذ هناك بين المَجَرَّتَين ثمانية عشر ألف مليون سنة ضَوْئِيَّة، هذه المسافات التي يصْعُبُ على العقْل تَصَوُّرها قال فيها سبحانه وتعالى: لا أُقْسِمُ بها، لأنَّ الله تعالى لا نِهائي ولا حُدود لِقُدْرته وقُوَّتِه وعظْمَتِه، والكَونُ محْدود، والله غيرُ محْدود، فإذا أراد الله تعالى أنْ ينْسِبَ هذه الأشْياء إلَيْنا يقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

[سورة الشمس: 1-5]

من أنْتُم أمام الشَّمْس، سِتَّة آلاف درجة على سطْحها، وفي أعْماقِها الدرجة بالملايين، فلو أُلْقِيَت الأرضُ في الشمْس لَتَبَخَّرَتْ في ثانِيَةٍ واحدة أكبر من الأرض بمِلْيون وثلاثمئة ألف مرَّة، والشَّمْس نجْمٌ مُتَوَسِّط، هناك كازارات يزيدُ حجْمُها عن حجْم الشَّمْس بملايين المرات، وهناك نجْمٌ اسمهُ قَلْبُ العَقْرَب تدْخُل فيه الشَّمْس والأرض مع المسافة بينهما.

إذا أقسَمَ الله ببَعْض الآيات فَهُوَ ينْسِبُها إلى الإنسان وإذا لم يُقْسِمْ فهو ينْسِبُها لعظمته هو:

إذا قال الله تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

[سورة الشمس: 1-5]

أيْ انْظر أيها الإنسان إلى عِظَم هذه الآية، ومن أنت أمامها؟ قال تعالى:

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً)

[سورة الإسراء: 37]

وقال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى*نَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل: 1-4]

صَارَ واضِحاً أنَّ الله تبارك وتعالى إذا أقْسَمَ ببَعْض الآيات فَهُوَ ينْسِبُها إلى الإنسان، وإذا لم يُقْسِمْ فهو ينْسِبُها إلى عَظَمَتِهِ هو، فَرَبُّنا عز وجل قال:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

هناك معْنى ثالث يُسْتَنْبط من هذه الآية: أنَّ هذا الشيء إنْ رأيْتُموهُ عظيماً جداً فهو بالنِّسْبَة إليَّ صُنْعُهُ يسير، فأحْياناً حامِلَة النَّفْط، كيفَ صنَعوها؟! تحْملُ ثلاثمئة ألف طنّ، ومن أيِّ معْدَنٍ صُنِعَتْ؟ وما سُمْكُ المعْدن؟ وما قُوَّةُ مُحَرِّكِها؟ مئة وعشرون حِصاناً قُوَّةُ مُحَرِّكِه تُعادِل تحْريك الدَّفَّة لهذه الحاملة! قلما يكون الإنسان أمام طائِرة ويراها ضخْمَةً، فالله تعالى يقول: إنَّ هذا الصُّنْع الذي يبْدو لك كبيراً، هو يسيرٌ عَليَّ، إذاً لا أُقْسِمُ به، المعْنى الأوَّل: إنَّني أعْظم منه، أما المعنى الثاني: صُنْعُهُ يسيرٌ:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

عدة وجوه لفهم وتفسير الآيات التالية :

بعضُ المُفَسِّرين قال: البلد هي مكَّةُ المُكَرَّمة والبلد الحرام، فإذا سمعْنا الآيات وَجَبَ أنْ نسير في تَتِمَّة هذه الآيات وهو من روح التفْسير:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

أيْ البلد الحرام:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

مما يزيدُ حُرْمَتَهُ أنَّك فيه حُرْمَةٌ على حُرْمَة:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

سيدنا إبراهيم وابنه إسْماعيل:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

أيْ في مَشَقَّةٍ وضَعْف، وإما أنْ نفْهَمَ الآيات فهْماً آخر، وهو أنْ نسير بعُموم اللَّفْظ، البلد هي الأرض وما فيها فالصَّحْراء غير المدينة، ترى في البلْدَة الطعام والشراب والفاكِهة والفنادق وبائع الزهور وتحْتاج إلى حقائِب، مِن معاني البلد المكان الذي تتواصل فيه حاجات الإنسان، فأكبرُ بلدٍ هي الأرض، فيها معادن قاسِيَة نسْتعْملها لِقَسْوَتِها، وأخرى نسْتَعْمِلُها لِمَتانَتِها، وفرْقٌ بين القساوة والمتانة، القساوة تَحَمُّل قِوى الضَّغْط، والمتانة تحمُّل قِوى الشدّ، وهناك معادن ثمينة تسْتعْملها كَقِيَمٍ مثل الذّهب والفِضَّة، وهناك معادن تسْتخْدِمها لِبَعْض الصِّناعات كالرصاص والنحاس، وهناك أشْباه المعادن، وهناك التربة والجبال التي هي أماكن المُتْعَة، والأنهار والبحار التي هي وسائل الإمْطار، والبُحَيْرات والأزهار والأطْيار والأسْماك والحشائِش التي هي مصادر الأدْوِيَة، وجميعُ ما يحْتاج إليه الإنسان في الأرض، فالحيوانات بأنواعِها اللبونة والأليفة، والعناصرُ وحْدها بالمِئات، لِكُلِّ عُنْصُرٍ خواص كيميائِيَّة وفيزْيائِيَّة، وكُلُّ معْدنٍ له طريقةٌ للحُصول عليه وتصْنيعِهِ وتطْريقه، ليسَت الأرضُ كما يتوَهَّمُ الناس كَوْكَباً اِنْشَقَّ عن الشَّمْس بحُكْم سُرْعة الدَّوران، الأرضُ فيها بُذور بكُلِّ أنواع النباتات، زينيَّة، وأشْجارٌ للزينَة، وللثِّمار وللأخْشاب المتينة وتلك خشِنة والأخرى سهْلة التَّصْنيع، الحور والشوح والسِّنْديان وغيرها، فالأخْشاب مُنَوَّعة، والأشْجار مُنَوَّعة، والثِّمار مُنَوَّعة، وهناك المحاصيل والشُجَيْرات والغابات، وهناك نبات لِعالَم المُتْعَة كالوُرود والأغْصان وهي أنواعٌ مُنَوَّعة.

1 ـ المعنى الأول لِكَلمة البلد يشْملُ الأرض وما فيها :

المعنى الأول لِكَلمة البلد يشْملُ الأرض وما فيها، وبعضُ المُفَسِّرين قالوا: وما عليها وما يتَّصِلُ بها، فالشَّمْسُ لها علاقةٌ بالأرض فلولا الشمس لما قامتْ حياةٌ على وَجْه الأرض والقَمَرُ له علاقةٌ بالأرض، فلولاه لما قامت حياةٌ على سطْح الأرض، وكذا الهواء والحرارة درجتُها وتَوَزُّعُها، والرِّياح سحابٌ وأمْطار، إذاً كلُّ ما حوْل الأرض وما في باطِنها وما عليها من ثَرَواتٍ ومياهٍ وطاقةٍ ومعادن:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

هذا المعْنى أخذهُ المُفَسِّرون من مُطْلق الآية، البلد مكانٌ في الأرض تتواصل فيها حاجاتك، الأرض بأكْمَلِها، فالصحْراء ضروريَّة للحياة في الأرض فلوْلاها لما عاش الناس على السواحل لأنَّ الصحْراء

تستقبل المُنْخَفَضات فمن تَنَوُّع الحرارة والبُرودة تنشأ الرِّياح، وينْشأ معها السحاب والأمطار والثلوج والنبات والحيوان والإنسان، فهي جُزْءٌ أساسِيٌّ من هذا البلد، وكذا القُطْبَان جُزْءان أساسِيَّان من هذا البلد، وكذا المنْطقة الاسْتِوائِيَّة والمَداريَّة والباردة والمُعْتَدِلة جُزْءٌ من هذا البلد، وكَوْنُ الأرض كُرة من صُنْع الحكيم العليم جُزْءٌ من هذا البلد، ودَوْرتها حول نفْسِها بِسُرْعة حكيمة جُزْءٌ من قوله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

وهناك رُخامٌ لا يتأثَّر بأشِعَّة الشَّمْس، لو سُلِّطَتْ عليه الشمْس عشْر ساعات مُتواصِلة ثمَّ مَشَيْتَ عليه لرأيْتَهُ بارداً! من الذي خلق هذا الرُّخام؟ هناك موادٌ حَساسة إذا سُلط عليها الضوء انْطَلَقَ عليها إلِكْترون وهي تُسْتَخْدَمُ للتَّصْوير، فَمَن خلق هذه المادة؟ وهذه الجراثيم، والفَيْروسات والعُصَيات والبكْتيريات والأحْياء الدقيقة ووحيدة الخَلِيَّة، والحيوانات الهلاميَّة الفِقَرِيَّة والثَّدْيِيَّة واللَّبونة والأهْلِيَّة والدَّلولة والمُتَوَحِّشَة، هل هناك حاجة من حوائج الإنسان ناقصة في هذا البلد؟! من طعامٍ إلى شرابٍ إلى مُتَعٍ، المُكَسَّرات هل هي أشياءٌ أساسِيَّة؟ لا ولكنَّها كمالٌ في الخلق، وكذا الأزْهار والتوابل والمناظر الجميلة.

2 ـ المعْنى الثاني البلد هو البيْتُ الحرام :

المعْنى الثاني: البلد، الذي هو البيْتُ الحرام، الله سبحانه وتعالى يقول:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

ما معْنى قِياماً؟ الخَيْمَة، هل تقوم بدون عمود؟! قال عليه الصلاة والسلام:" الصلاة عماد الدِّين من أقامها " فالإنسان قِيامُهُ الحقيقي ليس بِهَيْكَلِهِ العَظْمي وعضَلاته المفْتولة والمشْدودة ولا بالغِذاء الجيِّد الذي يتناوَلُهُ، ولا بالراحة التي يأخذها، ولا بدَخْلِهِ الكبير، ولا ببَيْتِهِ الفخْم، ولا بمَرْكَبه الوطيد، إنما قِيامُ الإنسان بمَعْرِفَة الله عز وجل، لأنَّ هذا العطاء ينْفذ ويميل إلى الموت، كُنْ من شِئْتَ فلا بدَّ من الموت، والموتُ إنْهاءٌ لِهذا العطاء، وكُنْ أغْنى الأغْنياء فإذا جاء الموت يُنْهيه لك، وكن أقوى الأقْوياء فإذا جاء الموت يُنْهيه لك، وكُن رفيع الشأن في الحياة فإذا جاء الموت يُنْهيه لك، فالقِوام لا بدَخْلك ولا بصِحَّتِك ولا بكثْرَة أوْلادك ولا ببَيْتِك ولا بكَثْرة تِجارتك، إنما هو بمَعْرِفَة الله التي تُبيحُ لك الخُلود إلى الأبد، إما أنْ تعْرف الله فَتَخْلُد إلى الأبد، وإما أن تغرق في الدنيا فَتَشْقى إلى الأبد.

الحكمة من اتخاذ الله بيْتاً له في الأرض :

ربنا عز وجل قال:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

طبْعاً إذا ذَهَبَ الناس إلى البيْت الحرام سِياحَةً لا يشْعرون بِشَيْء! ذهب أحدهم فقال: سبحان الله! والله ما شَعَرْتُ بِشَيْء، الله عز وجل تَعَبَّدَنا بهذه الأوامر، أوامرٌ غير معْقولة! طواف وسعْي وتقْبيل للحجر وحلْقُ الشَّعْر ولُبس لباس الإحْرام، كذا سبحان الله على جهْله! الله عز وجل تَعَبَّدَنا بهذه الأوامر، الله عز وجل يقول:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

هل هناك آيةٌ أوْضَحُ منها، ذلك أن الكعْبة والشهْر الحرام والهَدْي والقلائد إنَّما شُرِّعوا لِتَعْلموا أنَّ الله يعْلَمُ، حتى يحْصل لكم العِلم بالله عز وجل، هذه هي حكمة اتخاذ الله بيْتاً له في الأرض.

السَّعْي له معنى وكذا الطواف وتقبيل الحجر الأسود له معنى :

معنى البيْت الحرام أنَّ هذه البُقْعَة ليْست كباقي البُقع، هذه بيْتُ الله، مثلاً السفارة إذا دخلها الإنسان يُعَدُّ لاجِئاً إلى الدولة التي هي صاحِبَتُها لأنّ السفارة تُعَدُّ جزءً من أرض الدولة التي تُمَثِّلُها، وكذلك البيْتُ الحرام - مع الفارق - يُعَدُّ بيْتُ الله، وهذه الأرض التي أنت عليها ليْسَتْ لِزَيْدٍ أوْ عُبيد، إنها لله وهي بيْتُهُ، ولذلك فالإنسان إذا بَدَتْ له ملامحُ مَكَّة يقول: اللهمَّ إنَّ هذا البلد بلَدُك، وهذا الحرَمَ حَرَمُك، وهذا الأمْنَ أمْنُك، اللهمّ أنا عبْدك ابن عبْدك وابن أمتك ناصِيَتي بيدك ماضٍ فِيَّ حُكمُك عدْلٌ فيّ قضاؤُك، فالله تعالى اتَّخَذ في الأرض بيْتاً له، فإذا أردْتَ أنْ تتَّصِلَ به اِتِّصالاً مُكَثَّفاً ومُحْكَماً، فهذا معْنى من معاني البيت الحرام، وأنت هناك تُحسّ أنَّ الله يسْمعُكَ - الله يسْمعك في كُلِّ مكانٍ وهذا لا شكَّ فيه - فإحْساسُك هناك إحْساسٌ آخر ومُتَميِّز، إنْ قُلْتَ له يا رب: اِهْدِني واهْدِ بي، تُحِسّ أنَّ الله سبحانه وتعالى اِسْتَمَع إلى هذا الدُّعاء لأنَّك في بيْتِه وليس بيتُهُ قريباً من بيتك فقد قطعْت الأمْيال الكثيرة حتى وصَلْتَ إليه:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

أيْ بالكعْبة المُشَرَّفَة وبالبَيْت الحرام وبيْتُ الله، لماذا يصْطَفُّ الناس لِيُقَبِّلوا الحجر الأسْود؟! النبي عليه الصلاة والسلام قَبَّلَهُ وبكى كثيراً فقال له سيّدنا عمر: يا رسول الله أتَبْكي؟! قال له: يا عمر، هنا تُذْرف العَبَرات، الحجرُ الأسْود يمين الله في أرضِه، من فاوَضَهُ فَكَأنَّما فاوَضَ كفَّ الرحمن، والإنسان أحْياناً تكون والِدَتُه في خاطِره دائِماً لكنَّه إذا أكَبَّ على يدَيها وَقَبَّلَها يحْصل شيئان: المعنى الحاصِل والأمر الثاني هو الاتّصال المادي وهذا يزيد المعنى وُضوحاً وجلاءً وعُمْقاً، حينما تطوف حول الكعْبة وتدْعو بالأدْعِيَة المأثورة أو بأيِّ دُعاءٍ شِئتَ ماذا تشْعر؟ أنَّك تطوف حول البيت والطواف قبل العكوف، أحْياناً تطوف إلى أنْ تسْتقِرّ على الحقيقة فَتَعْكُفُ عليها، فالسَّعْي له معنى وكذا الطواف وتقبيل الحجر الأسود له معنى، قال تعالى:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

إذا علِم الإنسان أنّ الله يعْلم فقد انْتهى المقْصود :

لكن سبحان الله حينما كان الذهاب إلى الحج مشْياً على الأقْدام - تعْلمون كم هناك مِن المشْي من الشام إلى مكّة المُكَرَّمة من مشَقَّة - أشْهُراً وكانوا يرْكبون على الجِمال، ويبْدو أنّ الثواب على قدْر المَشَقَّة، فهذا الذي مشى شهْرين حتى وصل إلى البيت الحرام بماذا يشْعر هناك؟ شُعورهُ يكون أضْعافاً مُضاعفة على من رَكِبَ طائِرَةً ولم يشْعر بشَيء؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى جعل الثواب على قدْر المشَقَّة، اِلْبس ثَوْبَ الإحْرام فإنَّك لا تعْرف قيمة المخيط من الثِّياب حتى تلْبسهُ! قِطْعَتان من القِماش، تُحِسُّ بقيمَة الثَّوْب، وتُحِسُّ أنَك والناس في مُسْتوى واحد، لا فضْل لأحَدٍ على أحَدٍ، الناس كُلُّهم في هذا البيت، ليس هناك رُتَبٌ ولا ألْقاب ولا حُظوظ اجْتِماعِيَّة، ولا درجات ولا دَرَكات، العِباد في بيْت الله، ربنا عز وجل قال:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

فإذا علِمْتَ أنّ الله يعْلم فقد انْتهى المقْصود، فلماذا يكذب الإنسان؟ لِقِلَّة عِلْمِه أنَّ الله يعْلم، ولماذا يعْتدي على أخيه؟ لِقِلَّة عِلْمِه أنَّ الله يعْلم، ولماذا يعْتدي على مال أخيه؟ لِقِلَّة عِلْمِه أنَّ الله يعْلم، فإذا علِمَ أنَّ الله يعْلم فالإيمان قَيْدُ الفَتْك، إذْ لا يُعْقَل للمرء وهو على مرْأى من رِجال الأمن أن يرْتَكب مُخالفة للقانون، فإذا علِمْتَ أنَّ الشرطي يُراقِبُك وأنَّك إنْ تجاوَزْتَ الإشارة فسوف يُقَدَّم في حقِّك ضبْطاً قد يكون مُتْعِباً

لك، سواءً مادِياً أو معْنَوِياً، فليس من المعْقول الإقْدامُ عليه، وإذا كان الحج حصل بِشَكْلٍ كما رسمهُ الله عز وجل، تعود من هذا البيت الحرام وأنت توقِنُ أنَّ الله يعْلم:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

الكعْبة مكانٌ وفيها تَجَلِّياتٌ خاصَّة :

لن تسْتطيع أنْ تقْتَرِفَ إثْماً ولا أنْ تعْصِيَ ولا أنْ تُخالف ولا أنْ تُقصِّر:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 97]

قال تعالى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

[سورة البقرة: 125]

لو أنّ الكعْبة مكانٌ فقط فالله عز وجل في كُلِّ مكان، لكنَّ الكعْبة مكانٌ وفيها تَجَلِّياتٌ خاصَّة، من دخلها صادِقاً مُخْلِصاً تجلى الله على قلبه بِبَعْض هذه التَجَلِّيات بِحَسَب إخْلاصه وإنابَتِهِ وشَوْقِهِ، ومُلَخَّصُ المُلَخَّص أنَّ الذي تُحَصِّلُهُ في بلدك من استِقامة وعملٍ صالح تجده هناك حاضِراً وجاهِزاً، فإذا كان للإنسان إساءات كبيرة، يطوف بالبيت ولا يحُسّ بِشَيْء، أنا شَبَّهْتُهُ تماماً كالسائح أدْخَلْناه إلى قصْر ثقافي، فإذا كان هناك إهْمال بالواجِبات الدِّينِيَّة وتقْصيرٌ أو إساءةٌ للناس، فهذا الأخير إذا ذهب إلى الكعْبة الحرام فهو بِمَثابة سائِحٍ لا أكثر ولا أقلّ، وإذا كان مُسْتقيماً على أمر الله فإنه يشْعُر براحَة وطُمأنينة، أما إذا كان له عملٌ صالحٌ وتضْحِيَةٌ كبيرة وبذل جزءً كبيراً من ماله وصِحَّتِه يرى الجزاء هناك، وكأنَّ الله يسْتقْبِلُه، هناك لا يُضافُ شيء ولكنَّ هذا البيْت العتيق لك عما عندك، ليس كيساً مملوءً يُفْرَغُ في خزائِنِك ولكنَّهُ مِصْباحٌ يكْشِفُ لك ما عندك! وهذا معنى من معاني هذه الآية.

هذا البلد الذي جعله الله للناس قِياماً يزيدُهُ قُدْسِيَّة وحُرْمَة أنَّ النبي الكريم فيه :

قوله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

استُنبط من هذه الآية شيْئان: مكَّة تُمَثِّلُ قُدْسِيَة الله عز وجل، إنها جلال فإذا ذَهَبْتَ إلى المدينة فالجمال، وليس معْقولاً أنْ تقِفَ أمام قبْرٍ وتُخاطِب صاحب القبْر وتُحِسُّ أنَّهُ يسْمعك لكِنَّك إذا ذَهَبْتَ إلى مقام النبي عليه الصلاة والسلام وقُلْتَ له: السلام عليك يا سَيِّدي يا رسول الله، من زار قبْري بعد موتي فكأنَّما زارني في حياتي، حياتي خيرٌ لكم، ومماتي خيرٌ لكم، السلام عليك يا سيّد الرسل والأنبياء ويا من وصفه الله بالخُلق العظيم - كلُّ ما تعْرفه من أوصافٍ لِهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قُلْها هناك - معْرِفَتُك لِرَسول الله تبْدو في هذه اللحْظة إذا كنت تمْتَلِك هذه المشاعر وأنت في بلَدِك ربما تقْطع عليك العبرات لِسانك، أشْهَد أنَّكَ بلَّغْت الرِّسالة وأدَّيْتَ الأمانة ونصَحْت الأمة وكَشَفْتَ الظلمة وأزَلْتَ الغُمَّة وجاهَدْتَ في الله حقّ الجِهاد، فأنت دَخَلْتَ في ضِيافته صلى الله عليه وسلَّم، فَهَل يُعْقل أنْ تخرُجَ من مقامه صلى الله عليه وسلّم كما دَخَلْتَ؟ ليس هذا معْقولاً على الإطْلاق:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

فهذا البلد الذي جعلته للناس قِياماً يزيدُهُ قُدْسِيَّة وحُرْمَةً أنَّك فيه، آيةٌ أخرى عن البيت الحرام، قال تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ)

[سورة آل عمران: 96-97]

هذا الكلام هو كلامُ ربِّ العِزَّة فما الذي بدا لك من آياته البيِّنات؟! هذا سؤال، هناك أشْخاص من أهل العلم قدْر ما دفعوا في بلدهم وجدوا من الآيات البيِّنات.

ديننا دينٌ معْقول وعِباداتنا مُعَلَّمة وليْسَتْ طُقوساً :

يا أيها الأخوة الأكارم، إنَّ القَضيَّة تبْدأ من هنا، من بلَدِك هناك لا يُضافُ شيءٌ ولكن يُحَرِّكُ لك ما في نفْسك، إنها عَمَلِيَّة كشْف مخْزونة، إلى أنْ ينْعقد للتوبة هناك، فإذا حصل خُشوعٌ وتوبة تُضافُ لهذا العمر الثاني صفْحَةٌ جديدة، كأنَّ الله تبارك وتعالى قَبِلَ التوبة وتاب عليك وقال: سَنَنْظُر ماذا ستَفْعَل! هناك معنى من المعاني التي أخَذَتْ لُبِّي، إذا كان هناك طالبٌ عَلَّموه أنْ يَعُدّ إلى العَشَرة، وأخذه أبوه إلى دَوْلَة أجْنَبِيَّة في العطلة الصَّيْفِيَّة ودخلا إلى متْحَفٍ فيه أكبر عالم بالرِّياضِيات في الأرض - أينشتاين - وَدَخَلْتَ لِغُرْفَتِهِ الخاصَّة، مقعدٌ وطاولة وسُبورة وأخَذْنا هذا الطِّفْل الصغير وأقْعَدْناه على هذا الكُرسي

هل تزْداد معْلوماته؟! يبْقى هذا الطِّفل الصغيرُ صغيراً، وهذا العالم عالماً كبيراً، لكن متى يسْتفيد هذا الطِّفل بهذا العالم؟! إذا اِهْتدى بسيرَتِه، وعكف على الكُتب ودَرَسها وحَلَّلها، وسَهرَ الليالي، وإذا سار هذا الطِّفْل بسيرة هذا العالم يسْتفيدُ منه، فإذا كنت ممن قَبَّل الحجر الأسْود، فما الذي حصل؟ هذا التَّقْبيل رمْزٌ وخَلْفَ هذا الرمز معنى كبير! أنت عاهَدْتَ الله عز وجل على طاعَتِهِ، فإذا حصل العهْدُ والتوبة وأصبحتْ هناك صفْحة جديدة فأنت والله قد قَبَّلْتَ، فإذا عاهَدَ شخْصٌ على أنْ يستقيم وأنْ يفتح مع الله صفْحة جديدة، وما تمَكَّن أنْ يُقَبِّل الحجَر فكأنَّهُ قبَّلَهُ، وآخر قبَّلَ الحجر وزاحم بِمِنْكَبيْه الناس وآذاهم ورجع كما جاء فو الله ما قَبَّلَهُ! ديننا دينٌ معْقول وعِباداتنا مُعَلَّمة، ليْسَتْ طُقوساً! تدخل إلى الحرم النبوي الشريف فتجد المِحْراب الذي صلى فيه رسول الله، مكْتوبٌ في أعْلاه هذا المِحْراب الذي صلى فيه رسول الله، يُمكِنُ أنْ يُتاحَ لك أنْ تُصَلي فيه ركْعتين وذلك في أوْقاتٍ مُعَيَّنة، ماذا حصل؟ - لا شكَّ أنَّهُ مكانٌ مُقَدَّس - لو صَلَّيْتَ ألف ركعة خلْفَ هذا المقام وأنت مُقيمٌ على المُخالفات بقيتَ أنت أنت والنبي هو النبي، فلا بدّ أنْ نُحَرِّرَ عُقولنا من الأوْهام، وقد تجد من يقول: أنا صَلَّيْتُ بمُصلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فإذا كنت تتَّبعُ سُنَّتَهُ في حياتك فَهَنيئاً لك، أما إذا كنت مُخالِفاً لِسُنَّتِهِ ومُتَّبعاً لِهَواك فصلاتك في مُصلاه لا تزيدك ولا تُنْقصك! ولو ألف ركْعَة، لقد كان يجْلس إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلَّم كبير المنافقين! فلما حَضَرَتْهُ الوفاة قال: أعْطوني قميص رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: هذا قميصي أعْطوه إياه، وما يُغني عنه قميصي من الله شيئاً، الآن اسْتَقَرَّ في جَهَنَّم حجر كان يهْوي فيها سبعين خريفاً! كُلُّ هذا من أجْل أخْذ الدِّين بِشَكْلٍ عميق، فإذا صَلَّيْتَ في مُصلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وإذا كنت تتَّبعُ سُنَّتَهُ في حياتك فَهَنيئاً لك! فقيل لهذا الرجل: لمَ طَلَبْتَ القميص؟! فقال: إذا جاءَني الملكان في القبر وقالا لي من ربُّك أقول: الله ربي وما دينك؟ أقول: ديني الإسلام، ومن نَبيُّك؟ أقول: هذا قميصُه! يمكن أنْ تقف على بعد متر من مقام النبي وتخْشع وتبكي وتُحِسّ أنَّك ذبتَ كالشَّمْع ولم تمْلك عبراتك ولو لمَسْتَ شباك النبي، وقد يأتي إنسان ويقترب من هذه النافذة ويُقَبِّلُها ويظُنُّ أنَّهُ نال كُلَّ شيء، فهذا نحاس وبركَةُ النبي باتِّباع سُنَّتِهِ كما فعل هؤلاء الصحابة الكرام.

المؤمن المُتَأدِّب مع الله عز وجل يعلم أن هناك طلبات لا بدّ لها من موجِبات :

هناك حديثٌ مرَّ معي يقول فيه عليه الصلاة والسلام:

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

فإذا كان من أُمَّة محمَّد اثنا عشر ألف مؤمن من نمط صحابة رسول الله الكرام لن تستطيع دُوَل الأرض أنْ تقف في وَجْههم، والآن حينما تُقام الصلاة في المسجد الحرام فهناك أكثر من نِصْف مليون في كُلِّ صلاة، هاتوا لي رجالاً كأصْحاب النبي وخُذوا كُلَّ ما وعد الله به المؤمنين، فقد وَعَدَهم بالنَّصْر قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

[سورة الحج: 38]

هذا وعْدٌ وقال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح: 29]

الاسْتِخْلاف والتَّمْكين والطُمأنينة والنَّصْر، فالقَضِيَّة أنَّ الله هو هُو ووُعوده وقوانينه هي هِي فلا تبدُّل ولا تغْيير ولا تجْديد، آياته هي هي، كُنْ في مُستوى هذه الآيات وخُذ ثِمارها، ولذلك فالدعاء الذي يُؤثِّرُ في نفْسي:" اللهم إني أسألك موجِبات رحْمتك وعزائِمَ مغْفِرَتك " أبٌ مِلِكٌ قال لابنه: أُطْلب وتمنّ! قال: أحِبُّ سيارة، وطائِرَة خاصَّة وقصراً، فقال الأب: كلُّ هذا سهْلٌ، فقال الابن: اِجْعَلْني رئيس جامعة، فقال الأب: هذه تحْتاج إلى جُهْدٍ منك خُذْ دُكْتوراه وخُذْ عهْداً مني أنْ تكون رئيس جامعة، ليس كُلُّ طلَبٍ يُنَفَّذ إذْ هناك طلبات لا بدّ لها من موجِبات، فالمؤمن المُتَأدِّب مع الله عز وجل يقول: " اللهم إني أسألك موجِبات رحْمتك وعزائِمَ مغْفِرَتك " هذا من الدعاء المأثور.

آياتٌ أُخْرى مُتَعَلِّقَة بهذا البلد الذي فَسَّره العلماء بمَكَّة المُكَرَّمة :

آياتٌ أُخْرى مُتَعَلِّقَة بهذا البلد الذي فَسَّره العلماء بمَكَّة المُكَرَّمة قال تعالى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

[سورة البقرة: 125]

المثابة في اللغة: العَوْد، تقول: ثاب إلى رُشْدِهِ أيْ عاد فالإنسان إذا جاء الكعبة ورجع إلى الله تائِباً ومُنيباً، فهذا الشعور أيَحُسّ أنَّهُ قد حصل؟ يُكَلِّفُ نفسه ويغادر ويتجشَّم مشاق السّفر، فهل هذه الآيات كلامك؟ إنها كلام ربِّ العالمين، إنْ حَصَلَ لك نصيبٌ منها نقول لك: هنيئاً، هل رأيْتَ الآيات البيِّنات؟ وهل حَصَلَ لك العِلْمُ أنَّ الله يعْلم؟ وهل كان لك هذا البيتُ مثابَةً، عَوْدَةً وإنابةً ورَجْعَةً، قال تعالى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

[سورة البقرة: 125]

هذه المعاني كُلُّها مُسْتَوْحاة من كلام الله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ*أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ*يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً*أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ*أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ)

آيةٌ أُخْرى مُتَعَلِّقة بالبَيْت الأمين :

هناك حاجات مادِّيَّة للناس، فالله جعل الأنهار والينابيع والبحار والأمطار والثُّلوج والوِدْيان والبُحَيْرات، والرؤوس والخُلجان، والناس لا بدَّ لهم من الهواء فَجَعَلَ الله تعالى الهواء بنِسَبٍ ثابتَة، وإلى الطعام والشراب فَجَعَلَ نباتات من محاصيل وخضْراوات وأشْجاراً مُثْمِرَة وفواكِه، وهم بحاجة إلى النَّسْل فَجَعَلَ الله الزواج، وجعل الذَّكَر والأُنْثى والطُّفولة، فنِظام الطُّفولة ونظام الخلق، هذه كُلُّها حاجات، وهناك حاجات عقْلِيَّة وروحيَّة جعل الله الكعْبَة البيْتَ الحرام تَلْبِيَةً لهذه الحاجات الروُّحِيَّة، فالحياةُ الدِّينِيَّة عن طريق هذا البيت، وأنت في مُصَلاك يجب أن تتجِهَ إلى هذا البيت لأنَّهُ بيت الله تعالى، وهذا البلد بلد الله، وهذه الكعْبة رمْزٌ من رُموز الله في الأرض. آيةٌ أُخْرى مُتَعَلِّقة بالبَيْت الأمين وهي قوله تعالى:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج: 32]

منافع، وقد جذب نظري كلمة أجل مُسَمىً، فالإنسانُ إذا سُرَّ هناك فلمَ لا يُقيمُ بالبَيْت الحرام؟! خطر ببالي شُعور وهو أنه إذا زار مُوَظَّف صغير المُدير العام، واتَّفقوا على خُطَّة عَمَل، وقال له: عليك مآخذ؟ فقال الآخر: وما هي؟! قال: كذا وكذا، فقال: دعني وما قلت، فقال: عليك واجبات، قال له: أعاهدك على القيام بها، ودعْ هذه المآخذ، ارجعْ إلى بلدك حتى تنفِّذ العهد، فكل إنسان له في بلده عملٌ صالح يقتات منه يستطيع أن يجعله عملاً صالحاً وليس هناك حرفة في الأرض تستعصي على العمل الصالح؛ طبيب ومهندس ومحامٍ ومدرِّس وصيدلي وخبير وتاجر ومزارع، فإذا نصحت المسلمين في كل ما تُسأل عنه، تعلم أن هناك طبيباً مختصٌّاً بهذا المرض، فإنك لابدَّ أن تفيد هذا المريض وتقول له: اذهبْ إلى فلان فهو أقدر مني لمرضك، فالعمل هذا عمل صالح، والمحامي لا يتسلَّم دعوى إلا إذا علم أن موكِّله على حق، ففي سبيل إحقاق الحق له عند الله أجر كبير، والمدرِّس إذا علم الطلاب ووجَّههم وغرس فيهم حبَّ الحق والفضيلة قلب صنعته إلى عمل صالح، والتاجر إذا باع الناس سلعة جيِّدة بأسعار معقولة ولبَّى حاجاتهم ووفَّر لهم هذه الخدمات فقد قلب عمله إلى عمل صالح، فهذا العهد مع الله عز وجل وهذه التجلِّيات وهذا الخشوع وهذا البكاء وهذا التوسُّل وهذا الترجِّي وهذه الرحمات التي يتجلَّى الله بها على قلب المؤمن إلى أجل مسمًى، والآن وقت التنفيذ انطلق ونفِّذ الذي عاهدت الله عليه،

وكل إنسان بعمله، فربنا عز وجل لما جعل هذه الزيارة والحج فهو لقاء في أعلى مستوى مع الله عز وجل وعهد وتوبة وصفحة جديدة وعزيمة وطموح، ويعود المرء إلى بلده لينفّذ بنود هذا العهد بنداً بنداً، وفقرةً فقرةً.

معانٍ يستقيها الإنسان من سورة البلد :

قال تعالى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

[سورة البقرة: 125]

هذه الشعائر قال تعالى:

(لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الحج: 37]

التقوى، هذا النور الذي يُقْذَفُ في قلوب الحجاج والمُعْتمرين، ربنا عز وجل قال:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

بعضهم قال: البلد هي الأرض ولك أنْ تمْشي في هذا الطريق إلى مسافاتٍ شاسِعَة، إنْ كنت عطشان أو جوعان أو نعْسان أو أردْتَ تصليح سيَّارتك وكان أمامك بلدة فَسَتَجِدُ فيها مُبْتَغاك، فالبلد المكان الذي توجد فيه حاجاتك، فالصحْراء في خِدْمَتِك وكذا الجبال والقطْبَان والحرّ، فلكَ أنْ تفْهَمَ البلد الأرض وما توافر فيه من حاجاتك أساسِيَّةٍ وفَرْعِيَّة إلى أقْصى الحُدود، ولك أنْ تفهم البلد البَلد الحرام والكعبة المُشَرَفة وكيف أنَّ الله سبحانه وتعالى جعلها قِياماً للناس وأمْناً، وشَهدوا منافع لهم منها، وكانت سَبَباً لِعَوْدَتِهم إلى الله عز وجل، وسبباً في عِلْمِهم أنَّ الله يعْلم، هذه المعاني التي يسْتقيها الإنسان من كلمة:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ*أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ*يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً*أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ*أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البلد 090 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 2 - 7 افتقار الإنسان إلى الله تعالى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-03-08

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص لما ورد في الدرس الماضي :

أيها الأخوة الكرام، نُتابعُ السورة التي بدأناها في الماضي، وهي سورة البلد، قال تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

وضَّحْنا في الدرس الماضي أنَّ هذا الشيء الذي أقْسَم الله به له معْنيان: إما أن تعْني الأرض كُلَّها وما توافر فيها من حاجات الإنسان، صغيرِها وكبيرها، وجليلها وحقيرِها، أو أنْ تعْنِيَ مكَّة المُكَرَّمة، وقد تمَّ الحديث عن هذا في الأسبوع الماضي بِفَضْل الله تعالى، قال تعالى:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

إنْ فَسَّرْنا البلد الأرض فأنت أيها الإنسان تسْكن على سطْح الأرض وترى بِعَيْنَيْك السماء وما فيها والأرض وما فيها، وما بين السماء والأرض ترى المشارق والمغارب، وترى أنواع النباتات والحيوانات، وترى رِزْقَكَ الكريم، وأنَّه سبحانه وتعالى خلق لك من نفْسِك زوْجةً تسْكُنُ إليها، وترى أوْلادك بين يدَيْك، ترى الجبال والأنهار والبحار والطيور والأسْماك:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

أيْ وأنت على الأرض وهذه الآيات التي يذكرها لك ليسَتْ بعيدة عن سَمْعِكَ وبصَرِك! إنها بين يدَيْك وتعيشُها كُلَّ يوم.

مِمَّا يزيد حُرْمَة الكعْبة أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام فيها زادَها حُرْمَة على حُرْمَة :

إنْ فَسَّرْنا البلد مكَّة المُكَرَّمة، والبلد الحرام التي جعلها الله مثابةً للناس وأمْناً، ومنع فيها المُنازعات والحُروب وسَفْك الدِّماء والصَّيْد، وجعلها مثابةً إليه وعَوْدَةً إليه وآمِنَةً:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

ومما يزيدُ حُرْمَتَها أنَّكَ فيها يا محمَّد! ففي آياتٍ أُخْرى يقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال: 33]

بعضهم فَسَّر هذه الآية بأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُعَذِّبُ أُمَّةً تُحِبُّ رسولها، فما دامتْ محبَّةُ النبي عليه الصلاة والسلام فيهم فلن يُعَذِّبَهم الله تعالى، ومِمَّا يزيد حُرْمَة الكعْبة أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام فيها زادَها حُرْمَةً على حُرْمَة، والله سبحانه وتعالى حينما قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

ومواقِعُ النجوم مسافات قد لا يسْتطيعُ العقْلُ إدْراكَها، عَشْرَةُ آلاف مليون سنة ضَوْئِيَّة! حينما لم يُقْسِم الله تعالى بهذه الآية الكبيرة، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

أقسْم بِعُمُرِهِ الثمين فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر 72]

ما هذا العُمُر؟ ثلاثٌ وسِتون عاماً أفاضَتْ على البَشَرِيَّة هُدىً وسعادَةً للأرض بأكْمَلِها سادَتْها الفضيلة والسعادة، والتوحيد، إنه إنْسانٌ واحد قلبَ المقاييس كُلَّها، جاء الحياة فأعْطى ولم يأخذ، وقدَّسَ الوُجود كُلَّهُ، ورعى قَضِيَّة الإنسان، وزكى صِياغة العقْل، ونهْنه غريزة القطيع، وعاش واحِداً بين الجميع، وكان بإمْكانه أن يعيش واحداً فوق الجميع، ولذلك استحَقَّ النبي الكريم صلى الله عليه وسلَّم وهو سيِّد البشر أن يُقْسِمَ الله عز وجل بِعُمُرِهِ الثمين:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر 72]

للآية التالية ثلاثة معانٍ :

فإذا قال الله عز وجل:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ *وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

أيْ مِما يزيد هذا البلد الحرام -الذي جعله الله مثابةً للناس ومنافع وجعل فيه آياتٍ بَيِّنات والهدي- أنَّكَ فيه يا محمّد.

وبعض المُفَسِّرين قالوا:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

أيْ أنَّ هؤلاء المُشركين الذين لا يسْتحِلون في الأشهر الحُرُم سفْكَ دَمٍ، ولا قِتالاً ولا صيداً فَكَيْفَ يسْتحِلون أنْ يؤْذوك؟! وكيف يسْتحِلون أن يُخْرِجوك؟

وبعض المُفَسِّرين قالوا:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

هذه بُشْرى للنبي عليه الصلاة والسلام في أنَّ الله سبحانه وتعالى سَيَفْتَحُ عليه مكَّة، وسَتَكون حِلاً له ساعَةً من نهار، إنَّ الله عز وجل حَرَّمَها منذ أن خلق السماوات والأرض وإلى قِيام الساعة إلا ساعَةً من نهار أحَلَّها لِنَبِيِّهِ عليه الصلاة والسلام، فهذه ثلاث معانٍ يعْنيه قوله تعالى:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

نظام التوالد والحكمة منه :

يا أيها الإنسان هذه الآيات بين يديْك وتحت سَمْعِكَ وبصَرِك، ترى النِّعَم إذ تأكل الطعام، وتنام على فِراش، وتتنَسَّم الهواء العليل، وأمْتَعَكَ الله بِعَيْنَيْن ورزقك أُذُنَيْن:

(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

كُلُّ حاجاتك مَيْسورة لك في الأرض تراها بِعَيْنِيك، أنواع المعادن وأشْباهُها، وأنواع المزْروعات وطبيعة الأرض بِتُرْبَتِها، وأنواع الأخْشاب، وأنواع الحديد والنحاس.

لكنَّ الآية الثالثة، الله سبحانه وتعالى خلق الأرض، وخلق فيها من كُل زَوْجَيْن اثنين، فلولا نِظام التوالد على مُسْتوى الإنسان والحيوان والنبات لانْقَرَضَتْ المخْلوقات، فكيف رَتَّب الله سبحانه وتعالى نِظام التوالد؟! لو وَقَفْنا عند الإنسان! كيف جَهَّزَ الله سبحانه وتعالى المرأة بأجْهِزَة خاصة برَحِمٍ ومِبْيَضَيْن وثَدْيَيْن؟ وخصائِص تُعينُها على الحمْل والولادة والرضاع؟ وكيف جعلها مرْغوبةً عند الرجل؟ وكيف زرع في قلب الرجل هذا المَيْل نحوَ الأُنْثى؟ ومن زرعَ فيها مَيْل التطلُّع وإظْهار ما عندها؟ من الذي جعل الزوجة سَكَناً للزوْج؟ أليس الله سبحانه وتعالى إنه قادر على أن يخلق العباد كلهم دفعةً واحدة؟ هو قادر، لماذا جعل نظام التّوالد؟

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

العلماء يقولون: هو حفظ النوع، فالغريزة التي أودعها الله فينا هي من أجل حفظ النوع، ولولاها لانْقَرَض النوع البشري من على سطح الأرض.

نِظام التوالد هو الذي يحْفظ لنا حياتنا :

قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

[سورة آل عمران: 14]

من زرع مَيْل حُبِّ النساء للبنين؟ تريد أن تكون أماً وتحْرص على ذلك مع أنَّ الولادة والحَمْل وَهْنٌ على وهن، فالله سبحانه وتعالى يُشير إلى هذا النظام البديع في قوله تعالى:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

فنِظام التوالد، سواءٌ على مُستوى الإنسان أو على مُسْتوى الحيوان، هذه الدجاجة من ألْهَمَها أنْ تجْلس على البيض، عِشْرين يوماً، وأن تُدافع عنها دِفاعاً مستميتاً؟ ومن أخبرها أن تجلس عليها في فصْل الربيع لا في فصْل الشتاء؟ فَمَن ألْهَمَها هذه العادات والتصرُّفات؟! أليس الله سبحانه وتعالى، وهذه الطيور كيف تتوالد؟ عن طريق البيض والولادة، فالأسْماك تبيض بيضاً، والحيتان تلِدُ ولادةً، ففي الأسْماك مِبْيَض فيه ألوف الملايين من البيض، وفي المُستقبل تصبح هذه البيضة سمَكَة، وبعض الأسماك يُغادر أعالي الأنهار في أمْريكا مُتَّجِهاً إلى المُحيط الأطْلسي، وبعدها تعود الأسماك إلى مسْقط رأسِها لِتَضَعَ البيض هناك وتموت، فكلُّ حيوانٍ له طريقة في الولادة، وكُلُّ حيوانٍ جَهَّزَ الله ذَكَرَهُ وأُنْثاه بصِفاتٍ وعادات وأجْهزة وطِباع مُتباينة، فلولا هذا التفْريق والتمييز بين الذكر والأنثى لانْقَرَضَتْ الحيوانات! ولو أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الحيوان الذي نأكله ثمَّ أكلْناهُ وانتهى الأمر، وبهذا انتهت حياة الإنسان فَنِظام التوالد هو الذي يحْفظ لنا حياتنا، والحيوان الذي نأكله ونرْكَبُهُ، والذي نسْتَخْدِمُهُ في اسْتِخْدامات شتى.

التوالد في النبات :

النبات كذلك فالذرة، هذا العَرْنوس كما يقولون في نِهايتِهِ خُطوط دقيقة، من مِنْكم يُصَدِّق أنَّ كل خيْطٍ من هذه الخُيوط هو أنبوب مُفَرَّغ يتَّصِل بِحَبَّةٍ من حبات العَرنوس، وأنَّ غُبــار الطَّلْع يَمُرّ في الأنبوب إلى ذرَّة الذرة، وفي داخل الأنبوب أهْداب وأشْعار تتَحَرَّكُ حَرَكَةً مُستمرَّة نحو الأسفل، من أجل أن تنقل حبات الطلع غُبار الطلْع عبر هذا الأنبوب الدقيق الذي لا يُرى بالعَيْن، فمن جعل هذا النِّظام؟ ومن خلق في القمْح رشَيْماً، فهذا الموضوع يحْتاج إلى سنوات للإحاطة به، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

[سورة النجم: 45]

نِظام التوالد في النبات من حمص وقمح وأشْجار مُثمرة، والرِّياحُ لواقح فلولاها لما انعَقَدَتْ الثِّمار، من مِنْكُم يُصَدِّق أنَّ مُهمَّة إنتاج العسل في النحْل مُهمَّة ثانَويَّة بينما مُهمَّتُهُ الأساسية تلْقيحُ النباتات، النحْل يقوم بأخطر وظيفةٍ في الأرض وهي تلْقيح النباتات المُؤَنَّثة والمُذَكَّرة، ولولا هذه الحشرات وفي مُقَدِّمَتِها النَّحْل لما انعَقَدَت الثِّمار، والله سبحانه وتعالى يجعل بعض الثِّمار كالصَّنَوْبر والتين لا يُثمر إلا إذا لَقَّحَتْهُ يدُ إنْسان، فالإنسان أحْياناً يُلَقِّحُ أشْجار التين كي تُثمر، ولولا أنَّهُ يشتري أشْجاراً مؤنَّثة من التين كي يُلَقِّحَها على أشْجارٍ مُذَكَّرة لما انْعَقَدَت الثِّمار ولما أكلْتُم هذه الفاكِهَة، فربنا عز وجل حينما قال:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

نِظامُ التوالد والتكامل واللِّقاح على مُسْتوى الإنسان والحيوان والنبات ولولا هذا النِّظام لما كنا نحن جميعاً على مُستوى سطْح الأرض، ولما أكلْنا قمْحاً ولا خُبْزاً ولا طحيناً، ولا فاكِهَةً ولا لحْماً، فَكُلُّ ما نتمتَّعُ به في حياتنا بِفَضْل:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

نظامُ التوالد والتكاثر والانقِسام والوراثة في الخلايا مُوَحَّدة :

لو دَقَقْتُم في خلْق الإنسان، الجنين وهو في بطْن أُمِّه كيفَ يتغَذى؟ وكيف يُصَفي دَمَهُ؟ وكيفَ يُخَزِّنُ السُّكَر؟ فالعلماء قالوا: المشيمة - وهي الخلاص الذي يرْميه الناس بعد الولادة - وهي قِطْعة من اللَّحْم مُمْتَلِئة بالدِّماء، من منكم يُصَدِّق أنَّ هذه المشيمة تقوم بِدَوْر عَشْرة أجْهِزَة مُعَقَّدَة في الإنسان، فهي أوَّلاً تقوم بِدَوْرِ الرئتين لأنَّ رئتي الجنين مُعَطَّلَتان إذْ ليس في الرحِم هواء والجنين لا يتنفَّسُ إنما دمُ الجنين يذهب إلى بُحَيْراتٍ من الدَّم في المشيمة ويتبادل وإياها الأكْسجين بِحَيْث يُعْطيها غاز الفحْم ويأخذ منها غاز الأكْسجين، والإعْجاز في كُرياتِ دمِ الجنين التي لا تختلط بِكُرَيات دَمِ المشيمة التابِعَةِ للأمّ، لذلك فزمرة الأمّ تكون زمرة، وقد يكون ابنها له زمرة أُخْرى فهذه المشيمة تقوم بِدَوْر الرِّئَتَين للجنين، ثمَّ إنَّ هذه الأشْعار الدَّمَويَّة وهذه الشرايين الدمويَّة التي يُدْلي بها الجنين إلى المشيمة فيها أشْعار ماصَّة تمْتَصُّ الغِذاء من المشيمة، فهي تقوم إذاً بِوَظيفة الجِهاز الهَضْمي فالمشيمة تُؤَمِّنُ للجنين كلَّ أنواع الطعام والمواد الغذائية والسكريات والنشَويات وما إلى ذلك، فَهُوَ يأخذ حاجته من المشيمة عن طريق أشْعارٍ ماصَّة مُتَّصِلَة بِشَرايين الجنين، فالمشيمة تقوم بِدَوْر جِهاز الهَضْم للجنين، قال تعالى:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

ثمَّ إنَّ هذه المشيمة قد تأتيها الشُّحوم والدُّهون بِحَيْث لا تسْتطيع أن تصِلَ إلى شرايين الجنين، فالمشيمة تُحَوِّل بعض الدهون والشحوم إلى مُرَكَّباتٍ أبْسط، فالمشيمة تقوم بِدَوْر الكَبِدِ، كما تقوم هذه المشيمة

بِدَوْر الطّحال فَهي مُسْتَوْدع للغذاء والدم لِصالح الجنين، والمشيمة تُفْرِزُ بعض الهرْمونات المُتَعَلّقَة في بُنْيَةِ الجنين، تَوْجيهُهُ نحو الذكورة والأنوثة، والصِّفات الثانَوِيَّة والفرْعِيَّة، هذه كُلُّها تتولاها هُرمونات تُفْرِزُها المشيمة، فهذه القطعة التي يرْميها الناس في الأرض، مَنْ مِنْكم يُصَدِّق أنَّها كائِنٌ مُعْجِز؟ رئتان ومعدة وأمْعاء، وغُدد صماء، وكبد وطحال، وغدة نُخامِيَّة تُفْرز هرمونات، لو دَقَّقْنا في خلق الله كيف تُصْبِحُ هذه النطْفة إنْساناً سَوِياً هذا عند الإنسان وفي كُلِّ حيوانٍ، النِّظامُ مُوَحَّد، نظامُ التوالد والتكاثر والانقِسام والوراثة في الخلايا مُوَحَّدة، فهذه الأنظمة لا يتَّسِعُ المقامُ لِشَرْحِها مُفَصَّلَةً ولكن يكْفينا قوله تعالى:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

لولا هذه الآية لما كنا نحن الآن، ولما جلسْنا في هذا المكان، ولما كان لنا أهل وأوْلاد، وهذه الآية لا يسْتقِلّ بها الإنسان فَحسْب بل النباتات والحيوانات فالله تعالى خلق فَسَوى وقَدَّر فَهَدى، وجعل الحياة مُسْتَمِرَّة، كيف جعلها مُسْتَمِرَّة؟ عن طريق هذا التكاثر، كُلُّ هذا إذا فَهِمْنا البلد الأرض وما فيها من حاجات، وإذا فَهِمْنا أنَّ البلد، هي البيت الحرام، وبيْتُ الله الذي اتَّخَذَهُ الله تعالى لِنَفسه بيتاً ودعانا لِزيارته وأن نؤمَّهُ ونَحُجَّهُ، يكون قوله تعالى:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

فسيّدنا آدم ودُرِّيَّتَهُ، وقال بعضهم الآخر: سيّدنا إبراهيم الذي بنى هذا البيت وذرِّيَّتُه، وقال بعضهم الآخر: سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم الذي هو سيّد البشر ودُرِّيَّتَهُ، فَلِمَ التنكير في هذه الآية، ووالدٍ وما ولد، وما قال: والوالد الذي ولد قال هذا تنْكير التعْظيم وتنْكير العجَب.

طبيعة الحياة مجْموعة صُعوبات وهذه لِحِكْمَة أرادها الله عز وجل :

ثمّ قال تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

هناك كَبَد، وهذه حال أيْ خُلق الإنسان في مَشَقَّة، هناك حِكْمَةٌ بالغة وهي أنَّ الإنسان يكون في بادئ الأمر نُطفَةً تُلَقَّحُ بُوَيْضَة ينقسِمان في أُنبوب بين المِبْيَض والرحِم إلى عَشْرَة آلاف جُزَيْء، فهناك مَشَقَّة أن تعْلَقَ هذه النطْفة على جِدار الرَّحِم، وهذه مَشَقَّة وصُعوبة، وكثيراً ما تُسْقِطُ النِّساء، وهناك نِساءٌ لا تعْلق هذه النطْفة المُلَقَّحَة على جِدار الرَّحِم ولذلك تنْغَمِسُ فيه، ويِنْمو لها أرْجل لِكَيْ تمْتَصَّ الغِذاء، ويُنْصَحُ للمرأة في هذا الوقت الحَرِج بعد الحَمْل بأيامٍ أنْ تعْتَنِيَ عِنايةً فائِقَةً بحَرَكَتِها لِكي لا يسْقط الحَمْل، والولادة مَشَقَّة كبيرة، حَمَلَتْهُ وَهْناً على وَهْن، ووَضْعُهُ فيه صُعوبةٌ فائِقَة إذْ تتَحَرَّكُ عِظام

الحَوْض، وتتنَبَّهُ عضلات الرَّحِم تنَبُّها دوْرياً كي يخرج هذا الجنين من ضيق الرَّحِم إلى سَعَةِ الدنيا فلا بدّ من عِظامٍ تتَحَرَّك بأوامر زَمَنِيَّة ولا بدَّ من برْمَجَةٍ لهذه العَمَلِيَّة فقبل يوْمَيْن ينْقلبُ الغُلام، وبعد يومٍ يتَّسِعُ عظْمُ الحَوْض، هُرْمونٌ يذْهب إلى الكبد لِيَطْرَحَ كَمِّياتٍ كبيرة من الدم في الشرايين، وهُرْمون آخر يصْنع الحليب، قَضِيَّةٌ لا نُحِبُّ أنْ ندخل في تفاصيلها قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

ينزل إلى الأرض فإذا به يبْكي، كيفَ أنَّهُ يسْتنشِقُ الهواء؟ وكيف سَيَتَناوَلُ الغِذاء؟ وكيف سَيَلْتَقِمُ الثَّدْي؟ وكيفَ سَيُخْرِجُ ما في أمْعائِهِ؟ وهكذا تبدأ الصُّعوبات في الجنين صُعوبَةً بعد صُعوبة:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

تنْتشر حرارته ويتغَيَّرُ مِزاجُهُ، ويتألَّم ويبْكي ويحارُ أهْلُهُ فيه، وإذا أراد أنْ يمْشي تلْقَى صُعوباتٍ أُخْرى، فإذا كَبِر دخل المدْرسة فهُناك صُعوبات المدْرسة والتعلُّم والوظائِف والمُعَلِّم، فالصُّعوبات تُلاحق الإنسان منذ أن تلقَّحَ البُوَيْضَة بالحيوان المَنَوي إلى أن يموت، أذْكر أننا كُنا بجَنازة فلما دخلْنا المقْبرة ما وَجَدْنا أين ندفنه! أزْمَة قُبور، فَربنا عز وجل قال:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

طبيعة الحياة مجْموعة صُعوبات وهذه لِحِكْمَة أرادها الله عز وجل، ولذلك إنَّ هذه الدنيا دار التِواء لا دار استِواء ومنزل تَرَحٍ لا منزلُ فرَح، فَمَن عَرَفَها لم يفْرح لِرَخاء، ولم يحْزن لِشَقاء، قد جعلها الله دار بلْوى وجعل الآخرة دار عُقْبى، فَجَعَل بلاء الدنيا لعَطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلْوى الدنيا عِوَضاً، فَيَأخذ لِيُعْطي ويُعْطي لِيُجْزي، وأوْحى ربُّك إلى الدنيا أن تَكَبَّري وتَمَرَّري وتَضَيَّقي وتَشَدَّدي على أوْلِيائي حتى يُحَبوا لِقائي.

للآية التالية معنيان :

1 ـ طبيعة الحياة فيها مَشَقَّة لِحِكْمَةٍ بليغة أرادها الله وهي أنْ يُكْشَفَ الإنسان على حقيقته:

المعنى الأول قال المُفَسِّرون: فيه تسْلِيَةٌ لِرَسول الله، ألم يُعانِ من كُفار قُرَيْش ومُعارَضَتِهم صلى الله عليه وسلم، وتآمُرِهِم وتكْذيبهم إياهُ، وإخْراجهم إياهُ من مكَّة المُكَرَّمة، فَحينما عانى النبي صلى الله عليه وسلَّم ما عانى سلاهُ الله عز وجل وقال:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

فإذا أراد الإنسان أن يكون طبيباً، فَمَرْتَبَتُهُ الاجتماعِيَّة مقْبولة، يحْرص أكثر من ثلاثين عاماً، فَهَل بَقِيَ في حياته بِقَدْر ما مضى؟! متاعب الدِّراسة وشِراء الأجْهزة، فالحياة مملوءَةٌ بالصُّعوبات، هذا إذا كان مُتَفَوّقاً في دِراسَتِهِ وعلى مُسْتوى عالٍ من الذكاء، وإن تَخَرَّج دخل في متاعب أُخْرى في عدم إيجاد العَمَل، فربنا عز وجل لِحِكْمَةٍ بالغة كما قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

جعلها مجموعةً من الصُّعوبات وجعل لِكُلِّ شيءٍ ثمناً، وجعلَ كسْبَ الحلال مُتْعِباً، قال عليه الصلاة والسلام:

((من بات كلاً في طلب الحلال، بات مغْفوراً له))

[ابن عساكر عن المقدام بن معد يكرب]

حِكْمَةٌ بالغة في جعْل الحياة صعْبة، وهذا الذي يتَزَوَّج، بعد الزواج إذا عاد إلى البيت ووجد حرارة ابنه مُرْتَفِعَة لا ينام الليل قلقاً على ابنه، يخْطُر في باله مرض عُضال، ويخْطُر في باله موتُ ابنه، إذاً مع أنَّ الطفل نِعْمَةٌ كبيرة إلا أنَّهُ يجْلبُ لأُمِّه وأبيه مجموعةً من المتاعب، وكذا بعد الزواج قد لا يكون وِفاقٌ بين الزوْجَيْن، وقد تكون الزوْجَة عنيدة، ولا يتلاءم طبْعُها مع طبْعِهِ، وقد تنشأ مُشاحنات فما حِكْمة ذلك؟ قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

كُلُّ أنواع السيارات بأنواعِها بالطريق المُنْحَدِر تنْطلقُ بسُرْعة، ولكنّ بالطريق الصاعِد يُمْكِنُكَ أن تعْرف السيارة الجيِّدَة من غير الجيِّدة، فلوْلا الطريق الصاعد لما عَرَفْتَ الجيِّدة من غيرها، ولذلك فصُعوبة الحياة تكْشف مَعْدن الإنسان، لولا الأزمات لما ظهر الحِلْم، فلا يظْهر الحِلْم إلا في الأزْمات، وأما الصبر فكيف يكْشِفُ الله عز وجل عبْدَهُ الصبور من عبْدِهِ اللجوج؟ بضائِقَة مُوَحَّدَة على الاثنين.

ذكر لي صاحِبُ مصْنع فقال: هل تعْرِفُ المِقْلاة التي يوضعُ فيها الزيْتُ الحامي؟ فقال لي: أنا جالسٌ فيها، إذْ لا توجد موادٌ في المعْمل ولا بدّ أنْ أدْفع أُجور العُمال والضرائب، والإنتاج أصبح زهيداً:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

هذه المتاعب كُلّها من أجل أن نرْقى في الجنَّة، فلا جنَّة بلا متاعب، بها يظْهر يقينه بالله وصبْره وحِكْمته فهذا هو المعنى الأول.

2- خلق الله الإنسان بحاجَةٍ إلى ملايين الأشْياء ووَفَّرَها له حتى تظْهر يدُ العِناية الإلهيَّة:

المعنى الثاني أنَّ خلْقَ الإنسان بهذه الصُّعوبة وتوفير كُلِّ حاجاتِه، فلوْلا أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الحاجة وخلق ما يُلبيها لما عَرَفْتَهُ، ولو أنّ الله عز وجل خلقنا كالخشب الأصم بلا أجْهزة فلا حاجة للطعام والشراب والنوم، أنت مُحْتاج للنوم فَخَلَقَ لك صوفاً وقُطْناً لِتنام عليه، وأنت مُحْتاجٌ للطعام فَخَلَقَ لك طعاماً وفواكه وثِماراً وحُبوباً وبقولاً، وأنت مُحْتاجٌ إلى سائِل تُحَلَّلُ فيه هذه المواد فَخَلَقَ الماء وجعله عذْباً فُراتاً، وأنت بحاجَة إلى مواد قاسِيَة تصْنع بها حاجاتِك فَخَلَقَ لك الحديد، وأنت بحاجة إلى أرض تزْرَعُها فَتنبُت فَخَلَقَ لك التربة ولم يجْعلْها صخْراً، وخلق لك المواد النفْطِيَّة الخشب كي تُشْعِلَهُ فهو سبحانه خلق البرْد والطاقة والجوع والطعام والعطش والماء، ومن أجل الاسْتمرار خلق الذَّكَر والأُنْثى نِظامٌ مُتكامل، فالإنسان خُلِقَ بحاجةٍ إلى أشْياء كثيرة، وكُلُّ هذه الحاجات وفَّرَها الله سبحانه وتعالى من أجل أنْ تعْرِفَهُ، فلولا أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق في هذا البلد الأرض كُلُّ حاجات الإنسان لكانت حياته شقاءً في شقاء، ولكنَّ هذا الشقاء تلاشى فهذا هو المعنى الثاني.

الإنسان كلما نظر إلى ضَعْفه ازداد قُوَّةً عند الله وكلما نظر إلى قُوَّتِه ازداد ضعْفاً عند الله:

المعنى الأول هو أنَّ طبيعة الحياة فيها مَشَقَّة لِحِكْمَةٍ بليغة أرادها الله عز وجل وهي أنْ يُكْشَفَ الإنسان على حقيقته وأنْ يظهر الكريم واللئيم والحليم والشحيح، وكُلُّ هذه المعادن التي ينطوي عليها البشر إنما تنْكشِف لأن الإنسان خُلق في كبد ومشَقَّة، فالإنسان لو أراد أنْ يأكل وجْبَةً واحدة لاحتاج هذا إلى إعْداد وإلى ذهابٍ إلى السوق، وكذا إذا أردْتَ النُّزْهَة، أما المعنى الثاني فهو أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بحاجَةٍ إلى ملايين الأشْياء، وهذه الأشياء كُلُّها وَفَّرَها له حتى تظْهر يدُ العِناية الإلهيَّة، وحتى يبْدُوَ للبشر أنَّ لهم خالقاً مُرَبِّياً عليماً خبيراً قديراً غَنِياً، والإنسان كلما كان أعْقَل نظر إلى ضَعْفِهِ وافْتِقاره إلى الله عز وجل بِكُلِّ شيء، فلو كُنْتَ مُدَرِّساً نقول لك: لو شُرِدْتَ الذاكرة لما بقيتَ في التدْريس ساعَةً، يُجامِلونك أسبوع ثمَّ يجْعلونك مُتقاعِداً إذا كان لك خمسٌ وعشرون سنة، فإذا كنت تكسبُ قوتك من التدْريس فلولا هذه الذاكرة التي منَّها الله عليك لما كنت كاسِباً لِقوتِك، وكذا لو كنت كبيراً، فهذه القُدْرات المُخَزَّنَة في ذاكرتك الله سبحانه وتعالى يسْتطيع أنْ يسلُبُها منك في ثانِيَة، هذه المُسْتَشْفَيات التي تمتلئ بأُناسٍ فَقَدوا عُقولهم أليْسوا بشراً؟ وهذا البيت الذي اشْتَرَيْتَهُ، والذي رَتَّبْتَهُ وأحْسَنْتَ اخْتيار مَوْقِعِه، وفَرَشْتَهُ بأجْمَلِ الأثاث، لو سَلَبَ الله لك عقْلَكَ لما أبْقاك أهْلُكَ في بيْتِكَ ساعَةً فَعَلامَ التكَبُّر؟ لو أن نقطَةً من الدم تَجَمَّدَتْ في بعْض شرايين الدِّماغ لَفَقَدْتَ الحَرَكة وأصْبَحْتَ عِبْئاً على الناس، هو مُحْتَرَمٌ بِقَدْر ما هو خفيف الظِلّ، جلس في الفراش وخدمهُ أهْلُهُ، واضْطَروا إلى أنْ يُنَظِّفوه

في فِراشِه فبعد أُسْبوعٍ يبْدأ الملل، لي قريبٌ أُصيبَ بالفالِج فكانت خِدْمَتُهُ في الأُسْبوع الأوَّل من أرْقى الخَدَمات! وفي الأُسْبوع الثاني تَململَ، وفي الأُسْبوع الثالث أصبح هناك غِياب عن البيت، يسْأل عن فُلان فإذا به ليس في البيت، وفي الأُسْبوع الرابع بدأ أوْلاده يغيبون عنه، فإذا أفْقَدَ الله لك الحَرَكَة أو الذاكرة أو نِعْمة البَصَر والسَّمْع والتوازن، إذ هناك جِهازٌ مُعَقَّدٌ جداً في الأُذُن لو اخْتَلَّ لما اسْتَطَعْتَ المَشْيَ وَحْدَك:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

فالإنسان كلما نظر إلى ضَعْفه ازداد قُوَّةً عند الله، وكلما نظر إلى قُوَّتِه ازداد ضعْفاً عند الله.

اختلاف المؤمن عن غير المؤمن :

ثمَّ قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

هنا يختلف المؤمن عن غير المؤمن، فالمؤمن يرى افْتِقاره الدائِم إلى الله عز وجل، ولا يعتز بقُواه العَضَلِيَّة، إذْ يعلم أنَّ الله تعالى يستطيع أن يسْلبَها منه في ثانِيَة، ولا يعْتَز بحِدَّة بصره، ولا برهافة سمْعه ولا يتباهى بذكائِه، فكم من شخْصٍ عاد إلى بلده وهو يحمل شهادة الدكتوراه فإذا به يفْقِدُ عقْله ويُصبح في الطرقات! فالله سبحانه وتعالى قدير على أنْ يسلب صاحب الذكاء ذكاءه وصاحب القوّة قوَّته، ويستطيع أن يحرم هذا الإنسان كُلّ الطعام بمَرَضٍ عُضال في الأمعاء، فالإنسان تحت رحمة الله، وكُلُّ جِهازٍ من أجْهزَتِهِ يعْمل بقُدْرة الله فلو عَطَّل الله تعالى الأجْهزة تنْقلب حياة الإنسان جحيماً، والله جلسْتُ مع إنْسانٍ، شَعَرْتُ أنَّ له هُموماً لو وُزِّعَتْ على أهْل بلدٍ لكَفَتْهُم، فَكُلْيَتاهُ مُعَطَّلتان عن العمل، وعليه أنْ يذهب إلى المُستشفى مرَّتين كُلّ أُسبوع ويدفع المبالغ الطائلة، وينتظر دَوْرَهُ الساعات الطويلة، ويجْلس تحت الكُلْيَة الاصْطِناعِيَّة أربع أو خمْس ساعات، ولم يعد يحتمل!

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

فالإنسان لو دخل بيْت الخلاء وخرج، النبي الكريم كان يقول دعاء:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الْأَذَى وَعَافَانِي))

[ابن ماجه عن أنس بن مالك]

لو تعَطَّلَتْ هذه الكُلْيَة فما العمل؟! تصبح الحياةُ جحيماً، وكذا لو تعطَّلت بعض الأجهزة، فهذه الآية:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

فالمُتَكَبِّر أحْمق، والمُعْتَدّ بقُوَّتِهِ غَبِيّ، فمن أنت؟ مهما كان الإنسان عظيماً فقد يسْلِبُهُ الله شيئاً من صِحَّتِهِ فَيُصْبِحُ عاجِزاً، والقِصَّة المشْهورة وهي أنَّ أحد المُلوك سأل وزيرهُ وقد طلب كأس ماءٍ فقال له الوزير:

يا أمير المؤمنين بِكَم تشْتري هذا الكأس لو مُنِعَ عنك، فقال الأمير: بِنِصْفِ ملكي، فقال الوزير: وإذا مُنِعَ إخْراجُهُ، فقال الأمير: بِنِصْف مُلْكيَ الآخر، فقال الوزير: إنَّ مُلْكَكَ يعْدِلُ هذا الكأس من الماء:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

الله قادرٌ علينا في الدنيا والآخرة وفي أيَّةِ لحْظةٍ من لَحَظاتِ حياتنا كيْ يُرينا ضعْفنا :

إذا كان تحت يَدِكَ غُلامٌ يعْمل في مَحَلِّكَ فلا تظْلِمْهُ ولا تسْتعْل عليه، ولا تسْتغِلّ حاجتك منه وتُخَوِّفَهُ بالطَّرْد، فعن أحد أصْحاب سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يضْرب غُلامه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: اِعْلم أبا ذرّ أنَّ الله أقْدر عليك منك عليه، فإذا كان لأحدنا زوْجة جيِّدة فلا يسْتعل عليها، فإن كانت بلا أهْل ومقْطوعة، فأقلُّ كلمة تزعجها، وقد كان أحدهم يأتي دائِماً في الساعة الثانِيَة صباحاً، فقال له أهله: نحن أهْلك وأحق بالسَّهر معك، فقال لزوجته: اِفْتَحِي الدُّرْج وخُذي حاجاتك ومع السلامة!

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

أحْياناً المال يكون عَدواً للإنسان، وهو يُعْطي عظمة فارغة، وتضَخُّماً لا قيمة له، فالله قادرٌ عليك في الدنيا وفي الآخرة، وفي أيَّةِ لحْظةٍ من لَحَظاتِ حياتك، كيْ يُرِيَكَ ضعْفَكَ، وهذا الإنسان يقول:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

أنا أقَمْتُ عُرْسي بالفُندق الفُلاني، ودَفَعْتُ ثمانين ألف ليرة، أنا أقمت حفْلةً كَلَّفَتْني كذا. ربنا عز وجل قال:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

فُلانٌ لا يَعُدُّ ماله ولكنَّهُ يزِنُها بالميزان.

الإنسان مرْزوقٌ من الله عز وجل إذ يسوق الناس إليه :

ثمَّ قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

حينما جمع هذا المال، أليْسَ الله يراهُ كيف جمعَهُ ومن أين؟! بالكَذِب والحرام والغِشّ والربا والغصْب، ألا يعْلم أنَّ الله يراهُ بالمِرْصاد، وهناك معنى آخر أيَحْسَبُ الإنسان وقد جمع هذا المال أنْ لم يرهُ أحدُ، وأنَّ جمْعَهُ للمال تمَّ بِفَضْل الله، وتوْفيق الله ونِعْمته، كم من إنْسانٍ مُتَّقِدٍ ذكاءً ولا يمْلكُ قوتَ يومِهِ:

ولو كانت الأرزاق تجْري مع الحِجا هَلَكْن إذاً مِن جهْلِهِنَّ البهائِمُ

* * *

فالإنسان مرْزوقٌ من الله عز وجل، إذ يسوق الناس إليه، فلو أنَّهُ صَرَفَهُم عنه فماذا يفعل؟ يُغْلِقُ المحلّ ويضَعُهُ برَسْم التسْليم، فمن جعل الناس يُقْبِلون عليه؟! كسْبُ المال بِفَضْل الله، والشيءُ الآخر أنَّ الله تعالى يعْرف كيف كسِبْتَ هذا المال؟ فإذا قلتَ: أهْلَكْتُ مالاً لُبَداً فهذا كلام لا يقوله إلا الجاهلون، ولذلك إنْ أنْفَقُوهُ أنْفَقوهُ إسْرافاً وتَبْذيراً، وإنْ منعوه مَنعوه بُخْلاً وتقْتيراً،

أحبُّ ثلاثاً وحُبي لِثلاث أشَدّ: أُحِبُّ الطائعين، وحُبي للشاب الطائع أشدّ، وأُحِبُّ المتواضِعين، وحُبي للأغنياء المُتواضِعين أشدّ، وأُحِبُّ الكُرماء، وحُبي للفقير الكريم أشدّ، وأبغضُ ثلاثاً وبُغْضي لِثلاث أشدّ؛ أبغض العُصاة وبُغضي للشيخ العاصي أشدّ، وأبغض المُتَكَبِّرين، وبُغْضي للفقير المُتَكَبِّر أشَدّ، وأبْغضُ البُخلاء وبُغْضي للغني البخيل أشدُ،

قال تعالى:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً *أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

كيف جمع المال؟ وكيف أنْفَقَهُ؟ وبأيِّ أُسْلوبٍ صار إليه؟ عن طريق الكذب أو الغِشّ أو الخِداع أو السرقَة والاغْتِصاب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البلد 090 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 8 -20 خلق الإنسان ولوازم الإيمان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-03-15

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى رقيبٌ على كُلِّ إنسانٍ وهو لِكُلِّ إنْسانٍ بالمِرْصاد :

أيها الأخوة المؤمنون، وصَلْنا في الدرس الماضي في تفسير سورة البلد إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ* فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ* يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ* ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)

الله سبحانه وتعالى بعدما حَدَّثنا عن هذا الإنسان الغافل الذي يحْسَبُ أنْ لن يقْدر عليه أحد يظُنُّ أنَّهُ لا حِساب ولا مسْؤولِيَّة ولا جزاءَ، وأنَّ القَوِيَّ يأكل حقَّ الضعيف وقُضِيَ الأمر، وأنَّ الضعيف يُؤْكَلُ حقُّه! هذا الذي يحْسَبُ أنَّهُ لن يقْدِرَ عليه أحدُ، يُذْكرُ الله سبحانه وتعالى:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً*أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

[سورة البلد: 6-7]

أيْ أنَّ الله تعالى رقيبٌ على كُلِّ إنسانٍ وهو لِكُلِّ إنْسانٍ بالمِرْصاد، فَيَرى كيف كَسَبَ المال؟ وكيف أنْفَقَهُ؟ ومن أين جمعهُ؟ وكيف تاهَ على عِباد الله؟!!

العين من آيات الله الدالة على عظمته :

ثمَّ يقول الله سبحانه وتعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

فَهَل فَكَّرْتَ أيُّها الإنسان في هاتَيْن العَيْنَيْن؟ أوَّلاً هذه العَيْن وضَعَها الله عز وجل في مغارة سَماها العلماء الوَقْد، على طرفِها عظْمُ الأنف وفي أعْلاها نُتوء الجبْهَة، ونُتوء الجبْهَة يحْميها من الصَّدمات، ومن أشِعَّة الشمْس الحادَّة ومن التعرُّض لها، وهذه العَيْن موْضوعةٌ على وسائِد شَحْمِيَّة ودِهْنِيَّة وهذه الوسائد تقيها الارْتِزاز، وهذه العَيْن خلقها الله عز وجل في رَحِم الأمّ، فهناك الضَّوْءُ مُنعدِمٌ، والعَيْنُ لا ترى إلا بالضَّوْء وكأنَّ الله سبحانه وتعالى أعدَّ الإنسان وجَهَّزَهُ بما يحْتاجه بعد خُروجِهِ من بطْن أُمِّهِ فأيَّ طبيعَةٍ عَمْياء شَكَّلَتْ هذا الجنين؟! هذا كلامٌ لا يقْبَلُهُ عَقْلٌ! فالضَّوْءُ ترى به العَيْن، وكذا الأُذُن تسْمعُ

عن طريق الصوت، فلا سمْعَ بلا صَوْت ولا نظر بلا ضوء، قال بعض العلماء: هذه العَيْن التي أوْدَعَها الله في الإنسان مُؤَلَّفَةٌ من طبقاتٍ ثلاث: الطبقةُ الأولى: هي الطبقة القرْنِيَّة المتينة، والطبقةُ الثانِيَة: هي الطبقة المشيمِيَّة التي تُؤَمِّنُ تغْذِيَة العَيْن بمئات ألوف الشرايين والأوعِيَة والشَّعْريات، والطبقة الثالثة: هي الشَّبَكِيَّة التي تتلقى الإشْعاعات الضَّوْئِيَّة، فصار لدينا طبقة قرنِيَّة ومشيمِيَّة وشبَكِيَّة، وهذه الطبقات على مُسْتوى العَيْن كَكُرَة، أما في مُقَدِّمة العَيْن فَشَيْءٌ لا يُصَدَّق، أوَّلاً الطبقة القَرْنِيَّة والتي هي في مُقَدِّمَة العَيْن شَفافَةٌ تماماً، وليس في جِسْم الإنسانِ نسيجٌ مهما كان نوْعُهُ إلا وَيَتَغَذى عن طريق الشَّعْريات إلا قَرْنِيَّةُ العَيْن فَمِن أجل أنْ تكون شَفافةً مئة بالمئة فَهِيَ تتغَذى بطَريقَةٍ فريدة، وهي طريقة الحُلول، فالقَرْنِيَّة الأولى تأخذ الغِذاء وتُعْطيهِ جارَتِها عن طريق الحُلول لا عن طريق الشَّعْريات من أجل أنْ تكون قَرْنِيَّة العَيْن شَفافَةً مئة بالمئة، وقد شَبَّهها بعضُهم ببلورة الساعة، وقد يظن أحدُنا أن قرنية العين طبقة شفَّافة، إنها خمس طبقات شفافة الطبقة، فالوسطى تتألف من خمسين صفيحة شفَّافة متراكبة بعضها فوق بعض لتُؤَمِّن الرؤية الصحيحة، ولا يعلم سرَّ تكوُّنها من خمس طبقات إلا الله تعالى، وهذه قرنية العين، فماذا بعد القرنية؟ بعدها سائل اسمه الخلط المائي، حجمه لا يزيد عن سنتيمتر واحد مكعب، وهذا السائل يؤَمِّن توازن كرة العين، ولولا هذا السائل لفقد الإنسان رؤيته، فمن منَّا يُصدِّق أن هناك آلاف الشرايين المائية التي تبدِّل هذا السائل الذي يقع خلف القرنية باستمرار، وهو الذي يقوله العوام: المَيَّاه الزرقاء! له كثافةٌ مُعَيَّنة يحْفظ بها توازن قَرْنِيَّة العَيْن، فلو ازْداد ضغْطه أو قلّ لانْعَدَمت الرؤية.

المُطابقة في العين يعْجَزُ عنها أكبر علماء الأرض :

ماذا يأتي بعد هذا السائِل، أو الخلطُ المائي؟ تأتي القُزَحِيَّة وفلان عَيناه زرْقاوان، وفلان عينان عَسَلِيَّتان، وهذا سَوْداوان، القُزَحِيَّة فَتْحَةٌ بعد القَرْنِيَّة تضيقُ وتتَّسِع، فَمِن أجل أن تضيق هذه الفَتْحة أو تتَّسِع، من منا يُصَدِّق أنَّ هناك عضلات دائِرِيَّة، وهناك عضلاتٌ شُعاعِيَّة، فالعَضلات الشُّعاعِيَّة تتَّصِل بعَصَبٍ، والعضلات الدائِرِيَّة تتَّصلُ بعَصَبٍ آخر، عَصَبٌ وُدِّي وعصَبٌ نظيرُ الوُدِّي، فمِن تأثير هذين العَصَبَيْن تُفْتَحُ هذه الفتْحَة، فالإنسان إذا دخل إلى غُرْفَةٍ مُظْلِمَة، وكان بيَدِهِ مرآة، لو نظر إلى عَيْنَيه قبل أنْ يدخل إلى هذه الغرفة لرأى حَدَقَتَهُ صغيرةً صغيرةً، فإذا دخل إلى الغُرْفَة رآها تتَّسِعُ من دون حَوْلٍ منه ولا قوَّة ومن دون إرادةٍ، فاتِّساعُ الحَدَقَة وضيقُها يتِمُّ بشَكْلٍ لا إرادي، وبتَوازُنٍ عجيبٍ بين عَصَبَيْن يعْملان عملاً مُتكامِلاً، الواحد مُرْتَبِطٌ بالنوم فإذا اشْتَدَّ تأثير هذا العَصَب تَضيقُ الحَدَقَةُ شيئاً فشيئاً ويضْعُفُ النور، والآخر يتَّصِف بالنَّشاط والحَيَوِيَّة، وعلى كُلٍّ فالعَيْنُ تزيدُ وتنْقُصُ بحَسَبِ شِدَّة الضوء،

فهذا الذي نعْرِفُهُ من قبل، ولكنَّ العلماء اِكْتَشَفوا أنَّ فتْحَةَ القُزَحِيَّة تكْبر وتصْغُر بعامِلٍ آخر وهو بُعْد الإنسان وقُربه عن الشيء المرئي، فلو ابْتَعَد الشيء كثيراً تزْداد الفَتْحة كي تأخذ الكَمِيَّة الكبيرة من الضوْء وإذا اِقْتَرب تضيقُ الحَدَقَة، تطابُقٌ يعْجز عنه الإنسان يجْري في العَيْن من حيثُ فَتْحَةُ القُزَحِيَّة ضيقاً واتِّساعاً بِحَسَبِ شِدَّة الضوء، فالإنسان إذا أمسك آلة تصْوير وأخْبروه أنَّ هذه الآلة بِحَسَب الضوء تضيقُ فتْحَتُها أو تزْداد بِشَكْلٍ أوتوماتيكي تراهُ يعْجَبُ عجَباً شديداً ما هذا الاخْتراع العجيب؟! وهذه آلاتٌ نادرة، لكن مُعْظَمُ الآلات أنت الذي تُقَرِّر كم تكون الفَتْحَة بِحَسَب شِدَّة الضوء، لكنَّك إذا اطَّلَعْتَ على آلة تصْوير تعْمل ذاتِياً لَدُهِشْتَ! فَكَيْفَ يفوتُك أنَّ هذه العَين التي تحْمِلُها تتَّسِعُ حَدَقَتُها وتضيقُ بِحَسَب شِدَّة الضَّوْء أو بِحَسَب قُرْبِك من الشيء المرْئي وأنت لا تشْعر، وكيف تَتِمُّ هذه الآلِيَّة؟! بِشَكْلٍ مُعَقَّدٍ جداً! مجْموعة عضلاتٍ دائِرِيَّة بعْضُها أكبر من بعض، ومجموعة عضَلاتٍ شُعاعِيَّة كُلُّها مُتشاركة، يأتمر بعضُها بِعَصَب، فإذا تقَلَّصَت العضلات الدائِرِيَّة ضاقتْ فتْحَةُ العَين وإذا انْطَفَأتْ اِتَّسَعَتْ، فسبْحان الخلاق العليم، ماذا بعد القُزَحِيَّة؟ يأتي جِسْمٌ بِلَّوْري هو العَدَسَةُ في العَيْن، وليْس في الكون كُلِّهِ عَدَسَةٌ تُشْبِهُ هذه العَدَسَة إطْلاقاً، إنَّها عَدَسَةٌ مَرِنَة يُحيطُ بها جِسْمٌ هُدْبي له مئة وعشرون عضَلَة مربوطة بِأطْراف العَدَسَة، وهذه العضلات إذا تقَلَّصَتْ شَدَّتْ الجِسْم البِلَّوْري فَقَلَّ احْتدابُه، وإذا اسْتَرْخى ازْداد اِحْتدابُه، الجِسْم البِلَّوْري، لماذا كان هذا الجِسْمُ البِلَّوْري مَرِناً؟ ولماذا يزْداد اِحْتدابُه ويَقِلُّ أو يتقَطَّع؟ لأنَّ الإنسان إذا كان الشيء الذي يراهُ بعيداً عنه فقد يقعُ الخيال قبل الشَّبَكِيَّة أو بعْدَها، فَمِنْ أجْل أنْ يقع خيالُ كُلِّ شيءٍ أمام عَيْنَيْك على الشَّبَكِيَّةِ تماماً لا بدّ من مُطابَقَة، وهذه المُطابقة يعْجَزُ عنها أكبر علماء الأرض، إذاً نحن نعْجَزُ عن فَهْمِها فَكَيْفَ بِصُنْعِها؟!!

إعجاز الله في خلقه :

المُطابَقَةُ شيءٌ لا يُصَدَّق فَحينما تبْتَعِدُ الكُرة، وحينما يقْذِفُ اللاعِبُ الكُرَةَ بعيداً، فالمسافة ازْدادَتْ، فَلَو أنَّ الجِسم البِلَّوْري صلْبٌ فلا يرى الكرةَ إلا في حالةٍ واحدة وعلى مسافَةٍ واحدة، أما إذا ازْدادَتْ أو قَلَّتْ فتنْعَدِمُ الرؤية وتُصْبِحُ ضبابِيَّة غير دقيقة، لكنَّ الجِسْم البِلَّوْري حينما تبْتَعِدُ فكأنَّ هناك عقْلاً عظيماً قاسَ المسافة بينك وبين الكُرة ثمَّ ضغط على العضلات الهُدْبِيَّة التي تقَلَّصَتْ وضَغَطَتْ على الجِسْم البِلَّوْري فازداد اِحْتدابُهُ فَوَقَعَ الخيال على الشَّبَكِيَّة، فيا تُرى هل رأيْتَ الشيء قبل أنْ تحْسَبَ المسافة؟ أم حسِبْتَ المسافة قبل أنْ ترى الشيء؟ هذا شيءٌ لا يسْتطيعُ العقْل تصْديقهُ إلا أنَّهُ واقِعٌ، قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة الحديد: 4]

هذا العمل المُعَقَّد - أنا أقول لكم - لو أعْطَيْنا عَدَسَة مرنَة لِدُكْتور في الضوء وأمْسَكْنا شمْعَةً وَحَرَّكْناها حركةً عَشْوائِيَّة وقلنا لهذا الدكتور: أنت بكُلِّ ما أوتيتَ من عِلْمٍ وفَهْمٍ اِضْغَط على هذا الجسم من أجل أنْ يكون خيال هذه الشمْعة باسْتِمْرار يقول لك: لا أعرف، وإذا عَرَفْتُ فلن أسْتطيعَ مُتابَعَة الحركة، كَيْفَ يتِمُّ التطابقُ في العَيْن؟ هذا الجِسْم البلَّوْري بعد الأرْبعين يفْقِدُ بعض نشاطه وتقِلُّ مُرونته فَنَحْتاجُ إلى هذه النَّظارات! وقبل الأربعين ترى الشيء قريباً وبعيداً ولكن بعد هذه السِنّ يُصبح أقلّ مرونة ويتصلَّب، فلا تسْتطيع أنْ ترى الأشياء القريبة والكلمات الصغيرة، هذا الجِسم البلَّوْري قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

المخاريط والعصيات والحكمة من وجودها في العين :

هذه القَرْنِيَّة المتينة من أمْتَن الأنْسِجَة، فأحْياناً اللَّحام بسِكِّينِه الحادَّة لا يسْتطيعُ قطْعَ القَرْنِيَّة التي هي شفافةٌ ومُؤلَّفة من خمْس طبقاتٍ مُتراكِبَة وبينها خمْسون صفيحة، وبعدها خلْطٌ مائي بكَثافَةٍ مُعَيَّنة وبِنِسَبٍ مُعَيَّنة يتِمُّ تجْديدهُ باسْتِمْرار عن طريق آلاف الشرايين المائِيَّة، وبعد هذا الخلْط المائي قُزَحِيَّةٌ تكْبر وتصْغُر بعَمَلِيَّة لا إرادِيَّةٍ فوق طاقة البشر، وتتأثَّرُ بالضَّوْء والمسافة، وبعْدها تأتي العَدَسَة المَرنَة المُحاطة بمئة وعشرين عَضَلَة تضْغط وتسْتَرْخي بحيث يقعُ الخيال على الشَّبَكِيَّة دائِماً، وبعد هذا الجِسْمُ البلَّوْري يأتي الخلْطُ الزُّجاجي، وكُلُّها أوْصافُ شفافة يخْتَرِقُها الضوء إلى أنْ يصل إلى مكانٍ اسمُهُ الشَّبَكِيَّة، وإلى بؤرةٍ ضَيِّقَةٍ جداً اسمُها البؤرة الصَّفْراء، يجْتمع هناك مئة وثلاثون مليون مخْروط وسبْعَة ملايين عُصَيَّة! لمَ المخاريط ولمَ العُصَيات؟ المخاريط من أجل اسْتِقبال الألوان والإضاءة الشديدة، والعُصَيَّات من أجل اسْتِقْبال اللَّوْن الضعيف والألوان البيْض والسَّوْد، فهي لا ترى إلا الأبيض والأسود والرَّمادي مع الضوء الباهت، وفي المخاريط ترى الإضاءة الشديدة مع الألوان، مئة وثلاثون مخْروطاً وسبْعَةُ ملايين عُصَيَّة.

القُدْرة على الإبْصار ترْتفعُ من واحد إلى خمسمئة إلى خمْسة آلاف إلى عشْرين مليون ضِعْف، والعلماء اكْتَشفوا أنَّ هناك حيوانات كثيرة كالقِطط والكلاب ليس في شَبَكاتها إلا العُصَيَّات! فهي لا ترى إلا الأبْيض والأسْود قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

فلو أنَّك ترى الأبيض والأسْود والرمادِيّ فقط فما قيمة هذه الأزهار؟ وزُرْقَة السماء والبحْر؟ وما قيمة هذه الألوان الزاهِيَة؟ كُلُّ هذه الألوان التي خلقها الله في الأرض المُمْتِعَة الجميلة لا قيمة لها لو حُذِفَتْ من شَبَكِيَّة العَيْن المخاريط وبَقِيَتْ العُصَيَّات، سَترى ولكِنَّك ترى الأبيض والأسْود فقط! قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في ثمانِيَ عشرة آية ذكر السَمْع والبصر :

والله الذي لا إله إلا هو لو فَكَّرْنا في العَيْنَيْن وحدهما لذابت نُفوسُنا خَوْفاً وخُشوعاً وتعْظيماً، يا رب لمَ خَلَقْتَ لنا عَيْنَيْن؟ فماذا لو خلقْتَ لنا عيْناً واحدة كما خَلَقْتَ لنا قلْباً واحِداً؟! بالعَيْن الواحِدة لا ترى إلا المُسَطَّحات، أما بالعَيْنيْن فترى الحُجوم، وبالعَيْن الواحدة ترى الطول والعرْض، وبالعَيْنَيْن نرى الطول والعرض والبُعْد، والتَّجْربة سهْلة في هذا، فلو حاوَلْتَ أن تضع الخيط في الإبرة بعَيْنٍ واحدة لأدْخَلْتَ الخيط عن بُعْد عشرة سنتمتر ظناً منك أنَّك تُدْخِلُهُ في الثُّقب!! لكن بالعَيْنَيْن تكْشِفُ المسافة التي هي العُمْق، ولولا العيْنان لما قدَّرْتَ المسافات فأربع أخْماس حركاتنا مشْياً أو ركضاً أو قِيادَةً، ألم نجْعل له عيْنين؟ وبالمُناسبة فالله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في ثمانِيَ عشرة آية ذكر السَمْع والبصر، وفي سبْعَة عشرة آية حصْراً ذكر السَّمْعَ قبل البصر! والشيء الثابت عِلْمِياً أنَّ حاسَّة السَّمْع تتشَكَّلُ قبل حاسَّة البصر، وأنَّ الجنيـن يسْمعُ بعض الأصوات وهو في بطْن أُمِّه، وأنَّهُ يسْتجيبُ للأصْوات بحَركاتٍ وهو في بطْن أُمِّه ولكنَّهُ لا يسْتجيبُ للضَّوْء إلا بعد الولادة، ولذلك في سبعة عشرة آية قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

[سورة المؤمنون: 78]

وفي آيةٍ واحدة قال تعالى:

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)

[سورة السجدة: 12]

لأنَّ الضَّوء سُرْعَتُهُ ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانيَة أما الصوت فَسُرْعَتُهُ ثلاثمئة وثلاثون في الثانِية، أنت ترى البَرْق قبل أنْ تسْمع الرَّعد مع أنَّهما يخْرُجان في وقْتٍ واحد، ترى البرْقَ أوَّلاً وتسْتَمِعُ إلى البرْق ثانِياً، ربنا أبْصَرْنا وسَمِعْنا.

هناك أمْرٌ آخر، وهو أنَّ ربنا ركَّز على السمْع والبصر في القرآن بشكل واضح بخلاف الشمِّ والإحساس والحرارة والضغط والبرودة والألم والذوق، لقد ذُكِرت ولكن بشكل قليل.

مَنْفَذُ القلب هو السمع و البصر مُغْلَق بحبِّ الدنيا :

قال بعضهم: إن السمع والبصر هما نافذتان تطلُّ بهما على العالم الخارجي وعن طريقهما تتلقَّى الحالة الراهنة المرئية والمسموعة، ومن خلال السمع والبصر ومن خلال هذا التقرير تستطيع التكيُّف في الحياة، ومن خلال السمع والبصر تُكتَسب المعارف، فلا نطق بلا سمع ولا كتابة بلا بصر، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة البقرة: 6-7]

منفَذُ القلب ختمه حكماً، لأن مَنْفَذَ القلب هو السمع و البصر مُغْلَق بحبِّ الدنيا، هذا عن قوله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

وهناك أشياء كثيرة في العين، فهذه الأجفان التي تعمل بشكل دقيق، ست عشرة حركة في الدقيقة، مع عشرين إلى ثلاثين فوهة من فوهات الغدد الدَّمعية مُركَّزة في أعلى الأجفان من أجل تطهير العين وتسهيل حركة الأجفان وتعقيمها وجعلها برَّاقة جميلة، وهناك قناة دقيقة جدّاً هي القناة الدَّمعية التي تصرِّف الدمع الذي ينهمر من الغدد، فإن كان الدمع المنهمر أكثر من طاقة التصريف فاض الدمع، وهذا الذي قاله الله تعالى:

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

[سورة المائدة: 83]

بالسمع والبصر والأفئدة تُكتَسب المعارف :

البكاء ليس هطول الدمع ولكن البكاء فيضان الدموع، وهذه القناة الدمعية لو أنها سُدَّتْ لأصبحت حياتُنا لا تُطاق فلا بدَّ من مسح هذا الدمع كل دقيقة لئلا يحفر الدمع طريقاً في الجلد فيلتهب الجلد لأن الدمع مادة قلويَّةٌ مُذيبة فلو أن إنساناً دخلت في عينه حبة رمل لذابت بعد ساعات، من خلق هذه المادة التي تذيب هذه الحبَّات وتذيب كل شيء، حتَّى أن هناك بعض المواد أكثر صلابة من الرمل وتذيبها هذه المادة وتسهّل حركة الأجفان، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

من منا يشكر اللهَ على عينيه؟! هذه الحواجب التي تحجُب الشمس وأشعَّتها الحادَّة وتعيق العرق عن العين وتجعل الإنسان في منظر حسن قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

هذا المكان المحمي وهذه الوسائد التي تستريح عليها العين وهذه العضلات الجانبية والعُلوية والسُّفلية والإنسية والوحشية والمائلة لتحريك العين، وهذا العصب البصري من ثقب له في قعر العين حفرة، لابدَّ من مهندس، فحينما ترى ثقباً كبيراً في جسم السيارة يمرّ فيه خيط كهربائي، فلا بدَّ من مهندس، قبل تركيب الكهرباء في السيارة قد صمَّم هذا الثقب ليمرَّ فيه هذا الخيط، كذلك في قعر العين ثقب يمرُّ فيه العصب البصري فيه خمسمئة ألف عصب بصري، قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة النحل: 78]

معنى ذلك فبالسمع والبصر والأفئدة تُكتَسب المعارف.

لا بد للعين من أربعة أشياء حتَّى تبصر :

ربنا عز وجل قال عن هذا الإنسان الذي يقول: لن يقدر عليَّ أحدٌ، هذا الذي يرى نفسه فوق البشر، هذا ألم نجعل له عينين؟ هو الذي صمَّمهما، فالإنسان إذا اغتنى أو أصبح ذا شأن بفضل ماله، يرى نفسه فوق الناس ويقول كما قال تعالى:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

يقول أحدهم: كلَّفني زواج ابنتي في الفندق ثمانين ألفاً في حفلة واحدة، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

لماذا حسب ذلك، لأنه لم يفكّر في عينيه، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

السياق في الآيات، لماذا قال الله تعالى:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

ولماذا يظن أنه لن يقدر عليه أحد؟ لأنه لم يفكّر في عينيه:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

هناك شيء آخر، وهو أن العين لا بدَّ لها من أربعة أشياء حتَّى تبصر وإلا لا ترى، لا بدَّ من شدَّة ضوء، فبدون الضوء لا ترى العين، ولا بدّ من طول الجسم الكافي فهناك حجم إذا قلَّ لم تبصره العين، ولا بدَّ من وقتٍ كافٍ يبقى فيه الخيال في الشبكية، ولا بدّ من طول موجةٍ بحدٍّ أدنى حتَّى ترى العين، ولذلك نحن لا نرى الأشعَّة فوق الحمراء ولا تحت الحمراء ولا فوق البنفسجية، فإذا وضعتَ مرآة داخل

وعاء فيه ماء صاف ووضعت الوعاءَ في الشمس فإنه يرى سبعة ألوان في الحائط، فموضوع الألوان موضوع حيَّر العلماء، فما اللون الأبيض؟ هو ضوء سُلِّط على شيء فعكسَه كله، فما دام أن هذا الشيء عكس الضوء كلّه فهو أبيض، وما هو اللون الأسود؟ شيء امتصَّ الضوء كلَّه، ومادام أنه امتصَّ الضوء كلَّه فهو أسود، وإذا امتص بعضه وردَّ بعضه فهو رمادي، وإذا امتصه كلَّه عدا الأزرق فهو الشيء الأزرق والشيء الغريب أنك تقول إن هذا الشيء أخضر، وليس هو الأخضر، إنه امتصَّ الألوان كلَّها إلا الأخضر فلا لون بلا ضوء، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

فلولا ضوء الشمس فما قيمة هذه العين؟! ولولا العين فما قيمة ضوء الشمس.

اللسان أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

طبعاً، القرآن حمَّالُ أوجه، أي ألم تر هذه السموات والأرض بعينيك، وألم تر بعينيك الشمس والقمر، ألم تر الجبال والصحارى والسهول والبحار والأنهار، ألم تر الأزهار والأشجار، ألم تر الطيور والأسماك؟ وألم تر نفسك في المرآة؟ ألم تر ابنك؟

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

هناك آيات كثيرة في الأرض، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 20]

تملك العينين وإن كنتَ لم تر هذه الأشياء، أي لم تر حقيقتها قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

لِمَ لمْ تسأل باللسان؟ فالسؤال نصف العلم، ومفتاح العلم السؤال، وهذا اللسان يلفظ ثمانية وعشرين حرفاً، وفي كل حرف تسهم في صنعه سبع عشرة عضلة، اللسان مؤلَّف من سبع عشرة عضلة، تأخذ أوضاعاً معيّنة فيظهر حرف الدال، وهذا يعرفه علماء التجويد فمخارج الحروف وصفاتها وقوَّتها وهمسها وصفيرها وشدَّتها ورخاوتها وعلوّها، وما شاكل ذلك؛ فهذا اللسان الذي ينطق، إذا كان كل حرف سبع عشرة عضلة، والكلمة فيها خمسة حروف فينتج حوالي ثمانين حركة عضلة، فكم حركة عضلة ساهمت في صنع هذا الدرس؟!

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

بالبيان يتصِّل الإنسان

قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

أحياناً الطفل يبكي، فتظن أنه جائع فلا يأكل، أو تظن أنه يحتاج إلى تغيير الملابس فتجده نظيفاً، وتحتار لبكائه، وبعدها تجد دبوساً في رجله، قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

بالبيان يتصِّل الإنسان، فالآن هناك اتصال بيننا، اتصال لغوي، حتى أن تعريف اللغة: هي أداة اتصال بين أفراد النوع، وهذا تعريف اجتماعي، وهناك تعريف نفسي: فاللغة أداة يعبِّر بها الإنسان عن أفكاره ومشاعره، وهناك تعريف بيولوجي أن اللغة مقاطع صوتية يعبَّر بها عن الفكر والعاطفة، فاللسان شيء ثمين، وفوق أنه أداة للتكلم فهو أداة للذوق، الحلو في المقدِّمة والمرُّ في المؤخِّرة والحامض والمالح على الأطراف، وهناك تسعة آلاف حُلَيْمة، وكل حُلَيْمة فيها مئة وتسعون بؤرة تتلقَّى المواد الكيماوية، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أبردوا بالطعام فإن الحار لا بركة فيه))

[رواه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر]

لأن الطعام الحار يضعِف خلايا الذوق، فهذا هو اللسان فيه حُلَيْمات والحليمات فيها كؤوس والكؤوس نهايات عصبية تتأثَّر كيميائياً بالطعام، وهناك أربعة أطعمة: حلوٌ و مُرٌّ وحامض ومالح، فمن امتزاج الأطعمة نحصل على آلاف الطعوم ومن تداخل الروائح تنشأ النكهات ولو لم يكن ثمة لسان لأكل الإنسان تبناً وشبع، ولكن باللسان يعرف الطعام ويفرق بين السمن الطبيعي والسمن الحيواني، ويقول: هذا التفاح ليس له نكهة، فربنا عز وجل قال:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

كل ما أمرنا به الله تعالى متفق مع الفطرة وكل ما نهانا عنه متفق مع الفطرة :

الطفل عندما يُولَد لا يعلم شيئاً، وكل المعارف والخبرات والمنارات والحقائق والمفاهيم تنشأ مع الطفل إلا منعكَساً واحداً يُولَد معه وهو منعكس المصِّ، فبمجرد ما يُولَد الطفل يضع فمه على ثدي أمِّه ويحكم إغلاقهما ويسحب الهواء فيأتي مع الهواء الحليب، من علَّمه ذلك؟ قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

فبعضهم قال: النجدان طريق الخير والشر، أي الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ من دون تعقيدات ومن دون كتب تفسير، فالسرقة حرام بالبديهة، والكسب والعمل حلال، والزواج حلال والزنا حرام، وشرب الشاي حلال وشرب الخمر حرام، فالخير واضح والشَّر واضح، الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهات فالإنسان له حاسة يدرك بها الحق من الباطل والخير من الشر من دون أن يتعلَّم شيئا إطلاقاً، فهذا بالفطرة، ولذلك الإسلام دين الفطرة، فكل ما أمرنا به الله تعالى متفق مع الفطرة، وكل ما نهانا عنه متفق مع الفطرة، فالأجانب الذين لا يعلمون عن الدين شيئاً يقولون: بعد الانحرافات هناك شعور بالكآبة، هذا عذاب النفس وعذاب الضمير، هذا شعور بالبعد وإحساس بالمعصية فربنا عز وجل قال:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

وبعض المفسِّرين قالوا: النجدان الثديان، هدية ثمينة، أوَّلاً بمجرَّد ما يبكي الطفل جوعاً فالحليب جاهز، لا يلزمه غليٌ ولا تعقيم، أو نسينا شراء الحليب، أو ليس هناك غاز لتسخين الحليب، فكل هذه المتاعب ملغاة:

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

حليب يتوافق مع أجهزة الطفل ومع قدرته على الهضم ونموِّ عظامه وأنسجته يوماً بيوم وساعةً بساعة.

كلمة (النجدين) لها تفسيران إما طريق الخير والشر أو الثديين :

لو أخذنا حليب الأم يوميّاً وحلَّلناه، فكل يوم له تركيب، أما علب الحليب فيقولون: من الشَّهر الأول إلى الشهر الثالث ملعقتان، ومن الثلاث إلى الست ثلاث ملاعق، أمَّا على مستوى الأم فكل يوم هناك تركيب جديد، ثمَّ هناك اتِّصال لاسلكي بين الطفل وأمِّه، ثم إن الحليب ساخن في الشتاء بارد في الصيف، ومُعَقَّمٌ وفيه مناعة تامة، فإذا تلقَّى الطفل ثدي أمه فإن احتمال التهاب الأمعاء قليل جدّاً لأن مع الحليب مناعة الأم، والأم أخذت اللِقاحات ضدَّ كلِّ الأمراض فهذه المناعة كلها في الحليب، وحليب الأم يُهضَم في ساعة ونصف، بينما حليب البقر يحتاج إلى ثلاث ساعات بالضبط، نصف الوقت تماماً.

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

الآن حالات سرطان الثدي تزداد أربع مرات عند النساء اللواتي لا يُرضعن أولادهنَّ، فإذا أخذنا مئة امرأة ترضع أولادها ومئة أخرى فاحتمال مرض سرطان الثدي في اللواتي لا يرضعن أولادهن أربع مرات، هذه قرينة:

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

أي الثديين، هذا التفسير قاله مجموعة من التابعين منهم سعيد بن المسيِّب، النجدان هما الثديان، وإذا قلنا: هما الخير والشرُّ فهناك تناسب، ألم نجعل له عينين يرى بهما الآيات ولساناً يسأل به عن ربِّه وشَفَتين ليسكتَ عن الباطل، وخير وشرٌّ واضحٌ للعَيان، فعليه أن يسلك طريق الخير ويبتعد عن طريق الشر، وإذا فهمنا العينين كنعمة كبرى أنعمها الله علينا واللسان للنطق والذَّوق والشَّفتين لالتقاط الثديين، فالنجدان هما الثديان، طبعاً هذه الآيات لا على سبيل الحصر بل على سبيل المثال.

من أوجَه التفاسير لهذه الآيات أن تعتق رقبتك من الشهوات :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)

ماذا ينتظر وماذا يفعل؟ وما الذي يحجزه عن اقتحام العقبة؟! وما الذي يؤخِّره، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ)

من أوجَه التفاسير لهذه الآية، أن تعتق رقبتك من الشهوات، تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد البطن، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الفرج إذا استطعتَ أن تعتق نفسك من الشهوات فقد اقتحمتَ العقبة، بينك وبين أن تكون مؤمناً عقبةٌ واحدة، بَيْنَ أن تكون شقيّاً أو سعيداً عقبة واحدة، بينَ أن تكون في الجنَّة أو تكون في النار عقبة واحدة، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ)

وقال تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

فاقتحام العقبة أن تكون حُرّاً من الشهوات، وأن تنضبط وأن تستقيم على أمر الله وأن تلزم شرع الله.

هناك معنى آخر إن لم تستقِمْ على أمر الله فلا زال بينك وبين أن تكون مؤمناً عقبة كبيرة:

فكُّ رقبة لها معنى آخر، إذا اشتريتَ عبداً وأعتقتَه لوجه الله فهذا عملٌ يرقى بك وقد يقودك إلى طريق الخير، ومعنى أعتقتَه أي جعلتَه مؤمناً فاستحقَّ العتق، وهذه الآية مستمرَّة، أي إذا كان هناك إنسان عبد لشهواته وأنتَ أقنعتَه وأفهمتَه وفسَّرتَ له بعض الآيات وأكرمتَه وأعنتَه حتَّى جاء معك إلى المسجد

واستقام على أمر الله وصار حُرّاً من الشهوات، أنتَ بهذا قد فكَكْتَ هذه الرقبة، أعتقتَها من النار، وقال بعضهم: عتقُ الرقبة أن تشتريَها بمالك وتعتقَها، أمَّا فكُّها فأن تُسهم في عتقها، فإذا أخذْتَ حُلِياً من أمك وأعطيتَه لزوجتك، فزوجتُك عبدٌ للمظاهر، فإذا عرفَتْ ربَّها فقد تحرَّرتْ، فهذا المعنى الواسع للآية، وهذا المعنى مستمِرٌّ ولا علاقة له بوجود العبيد، ثم إذا كان هناك عبيد فاشترِهِمْ بمالك وأعتِقْهم، عجبتُ لِمَنْ يشتري العبيد بماله ليعتقهم لِمَ لا يشتري الأحرار بمعروفه، فباب الآية مفتوح وواسعٌ جدّاً كأن هذه الآية تقول: إن لم تستقِمْ على أمر الله فلا زال بينك وبين أن تكون مؤمناً عقبةٌ كبيرة، تقول: أنا الحمد لله مؤمن، ولا يكفي هذا، هل اقتحمتَ العقبة؟ فضبطتَ أمورَك، واستقمتَ على أمر الله، وأزَلْتَ المعاصي والمخالفات، إن لم تكن مستقيماً فالعقبة قائمة، والإقبال ممنوع والطريق مسدود والمعصية حجاب كثيف، قال الله تعالى:

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ)

بعد الاستقامة صار الطريق أمامك مُعَبَّداً، والآن نريد أن نمشيَ في هذا الطريق، قال تعالى:

(أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ*يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ*أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ)

الاستقامة والعمل الصالح :

صارت الاستقامةُ تعبيداً للطريق، والعمل الصالح سيرٌ في هذا الطريق قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

فالاستقامة سلبية أما العمل الصالح فإيجابي، فالاستقامة امتناع، أما العمل الصالح فتضحيةٌ وبذلٌ، فربنا عز وجل قال:

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ*أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

فإذا أطعمتَ إنسانا أكرمَكَ الله، ولكن إذا أطعمتَ هذا الإنسان وهو جائع فلك أجرٌ مضاعف قال تعالى:

(أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ *يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ*أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ)

إذاً العقبة هي الاستقامة قال تعالى:

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ*لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

[سورة التكوير: 27-28]

إذا لم تحصل الاستقامة فالعقبة قائمة.

لا بدَّ مع الاستقامة من عمل صالح لأن العمل الصالح يرفع الإنسان :

قال تعالى:

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ*أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

ولا بدَّ مع الاستقامة من عمل صالح، لأن العمل الصالح يرفع الإنسان، و به تلقى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

[سورة الأحقاف: 19]

وقال تعالى:

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النحل: 32]

قال تعالى:

(أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

أي مجاعة.

يجب أن تكون الاستقامة والعمل الصالح على أرض الإيمان :

قال تعالى:

(يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ)

إطعام الجائع عمل عظيم، أما اليتيم فعمل أعظم لأنه لا كافلَ له، ومقربة أي قرابة، وبعضهم فسَّرها بالأقرب نسباً أو إيماناً أو فقراً، ففي توزيع الصدقات يجب أن تُرَاعى هذه العوامل الثلاثة، الأقرب نسباً له حقٌّ عليك، والأقرب إلى الإيمان أولى من الأبعد عن الإيمان، والأقرب فقراً الذي يحتاج إلى الطعام والشراب أولى مِنَ الذي يحتاج إلى غرفة إضافيَّة يتوسَّع بها:

(يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ*)

المسكين الذي لا شيء له أما الصدقات للفقراء والمساكين، فما الفرق بين المسكين والفقير؟ ليس الفقير من تَرُدُّه اللقمة واللقمتان إنما الفقير الذي لا يجد حاجته، هو الإنسان الذي دَخْلُه أقلُّ من مصروفه بكثير، فهذا هو الفقير، أما المسكين فلا شيء له إطلاقاً، صار كالتراب أو لصق بالتراب، فالشرط الأول الاستقامة والشرط الثاني العمل الصالح والشرط الثالث الإيمان، أن تكون هذه الاستقامة والعمل الصالح على أرض الإيمان، فهناك أشخاص كثيرون بدافع الوجاهة والمكانة أو أنه كبير الأسرة يعمل

الصالحات ولا يبتغي بها وجه الله، لكنَّ المؤمن هو الذي يبتغي بعمله وجه الله، ثم يُضاف إلى هذين الشرطين، قال تعالى:

(ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)

الإيمان شرط والاستقامة شرط و العمل الصالح شرط، وإذا أردتَ أن تُلَخِّصَ الدين كلَّه، فهو إيمان وعمل صالح واستقامة.

الصبر عمل سلبي والمرحمة عمل إيجابي فيجب أن نتواصى بالصبر والمرحمة :

ربُّنا سبحانه وتعالى لخَّص القرآن الكريم كلَّه في آية، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

العمل الصالح مبنيٌّ على الاستقامة، أماَّ عمل صالح من دون استقامة فيكون كَمنْ فتح صنبوراً على وعاء لا قعر له، فمتى يمتلئ هذا الوعاء؟! لا يمتلئ، المخالفة الصغيرة ثقبٌ صغير والمخالفة الكبيرة ثقبٌ كبير، وكلما كبرت المخالفة كبر الثقب، فإن ضُرب الإناء وراء ظهره كان الإناء لا قعر له، فربنا عز وجل قال:

(ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

الصبر معالجة إلهية، نصف الإيمان صبر، قال تعالى:

(ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)

الصبر عمل سلبي والمرحمة عمل إيجابي، فيجب أن نتواصى بالصبر والمرحمة، وأن يُصَبِّر بعضُنا بعضاً وأن يرحم بعضنا بعضاً قال تعالى:

(أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)

إنهم السعداء، وهذا من لوازم الإيمان، فلوازم المؤمن أنه يوصي أخاه بالصبر ويوصي أخاه بالمرحمة.

الكفار هم الأشقياء في الدنيا والآخرة :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

إنهم كما قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

الشمس والقمر والمجرَّات والبحار والسهول والطيور والأزهار وآيات هذا الكتاب، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

هم الأشقياء في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ)

أي عليهم نار بشكل مستمر لا يستطيعون منها فراراً. هذه السورة، سورة البلد متكاملة وفيها ترابط وفيها مقدِّمات وموضوع وخاتمة، وكلُّ مقطع فيها يشير إلى فقرة أساسية في الحياة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشمس 091 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 1 - 7 آيات دالة على الله سبحانه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-03-22

بسم الله الرحمن الرحيم

التناسب بين القسم والمقسم عليه :

سورة اليوم سورة الشمس، الله سبحانه وتعالى يقول: بسم الله الرحمن الرحيم:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

أين جواب القسم؟ قد أفلح من زكاها، ما هذا الجواب الذي أقسم الله عز وجل من أجله بـ:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

المقسم عليه:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

لا بد من أن يكون هناك تناسب بين القسم والمقسم عليه، هل يُعقل أن تقسم بالله عز وجل لموضوع تافه أو سخيف، أو لموضوع مالي لا يزيد عن قروش، أن تقسم بالله والله وتالله وبالله غير معقول. لا بد من تناسب بين القسم والمقسم عليه، فالله سبحانه وتعالى كما قلت من قبل مرات كثيرة إذا أقسم بالنسبة إلينا وإن لم يقسم فبالنسبة إليه.

الشمس من آيات الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

هذا المجلس ما كان له أن ينعقد لولا نعمة الشمس لأن الشمس إذا انطفأت أصبحت الأرض قبراً جليدياً للأحياء وانخفضت الحرارة إلى درجة ثلاثمئة وخمسين تحت الصفر، فربنا عز وجل قال في آيات كثيرة عن الشمس:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

معنى من آياته أي علامات دالة على عظمة الله عز وجل، الآية الدليل والآية العلامة، من آيات عظمته عز وجل الشمس:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

[سورة فصلت: 37]

الشمس سبب والله المسبب، فربنا سبحانه وتعالى يقول: (والشمس) أي هل فكرتم في هذه الآية؟ وهل وقفتم عندها؟ وهل دققتم فيها؟ وهل تأملتم في ظاهرتها؟

الذي يفكر في الشمس لا بد من أن يعرف الله عز وجل :

هذا الذي يفكر في الشمس لا بد من أن يعرف الله عز وجل، لأن الناس يفكرون بالدرهم والدينار. فإذا فكرت بالدرهم والدينار فقد تحصل الدنيا أو لا تحصلها، ولكنك إذا فكرت بهذه الآية الدالة على عظمة الله عز وجل فسوف تعرف المسبب من خلال السبب، وسوف تعرف الخالق من خلال المخلوق، وسوف تعرف الله سبحانه وتعالى عن طريق هذه الآية الكبيرة.

أي الإضاءة التي صنعها الإنسان تكلف باهظاً، إضاءة البيت تحتاج لمئات الليرات في الشهر. وإضاءة شارع طويل قد لا تحتمله نفقات الدولة، وطريق طوله ثلاثمئة كيلومتر لا يُضيء، بل يُضيء طريق قصير، فإضاءة طريق طويل وإضاءة مدينة بأكملها لا يعلم إلا الله كم تستهلك من أجل أن تُضيء، فلو تصورنا أن الشمس لا تشرق كيف يكون حال الأرض؟ إذا أردت أن تعرف الشيء فتصور عدمه واختفاؤه وربنا عز وجل يقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

لكن من أجل أن يكون قريباً من أذهانكم، لو أن هناك إلى الشمس طريقا مُعبداً وأنت تركب سيارة سرعتها مئة كيلومتر فلن تصل إلى الشمس قبل مئتي سنة أو أكثر، وهل يستطيع عمر الإنسان أن يوصله إلى الشمس؟ فكم هي المسافة، إذا أطلقنا قذيفة باتجاه الشمس وسارت القذيفة كيلومتراً في الثانية فإن هذه القذيفة سوف تصل بعد سبع سنين وعلى الرغم من هذه المسافة الطويلة فإن أشعة الشمس تبعث الدفء في الجسم بل إنها إذا زادت تصيب الإنسان بمرض قاتل اسمه ضربة الشمس. ما هذه الطاقة التي تختزنها الشمس؟ إن الأرض لا يصيبها من الشمس إلا واحد على ملياري جزء من طاقتها، والله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة ذكر الشمس، ذكر الشمس في اثنتين وثلاثين آية من كتاب الله.

الإنسان أحياناً يتعلق بالسبب ويجب أن يتعلق بالمسبب :

ربنا عز وجل في قصة الملكة بلقيس قال الهدهد:

(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ*أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

[سورة النمل: 24-25]

الإنسان أحياناً يتعلق بالسبب ويجب أن يتعلق بالمسبب، ينبغي أن يفكر بالذي خلق الشمس، ربنا قال:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

[سورة لقمان: 29]

والعلماء قالوا: عمر الشمس خمسمئة مليون سنة وإنها ستستمر - وهذا رجمٌ بالغيب - إلى خمسين ألف مليون سنة قادمة. هذه الشمس تتسع إلى مئة وتسع كرات أرضية أما جوف الشمس فيتسع لمليون وثلاثمئة كرة أرضية، أي أن الشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاثمئة مرة، وبعدها عن الأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلومتر. أما حرارتها على سطحها فتزيد عن ستمئة درجة وأما في أعماقها فتزيد عن عشرين مليون درجة بحيث لو ألقيت الأرض في الشمس لتبخرت في ثانية واحدة، منذ خمسة آلاف مليون سنة وإلى فترة لا يعلمها إلا الله، في علم الله:

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

[سورة الأنعام: 96]

بعد الشمس عن الأرض بُعدٌ دقيق وفيه حكمة بالغة :

هنالك حسابات دقيقة لو أنها ابتعدت لبردت الأرض، ولو أنها اقتربت لاحترقت، ولو أنها اقتربت لذابت الكتل الثلجية في القطبين ولارتفع مستوى البحر تسعين متراً فغمر معظم المدن الساحلية وما حولها من تلال. إذاً بعد الشمس عن الأرض بُعدٌ دقيق وفيه حكمة بالغة.

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

فربنا عز وجل، هذه الشمس التي سخرها الله لنا، هذه الكرة الهائلة من الغاز، وحتى تعرفوا كيف تصدر هذه الطاقة المستمرة؟ يجري فيها تفاعل كتفاعل القنبلة الهيدروجينية تماماً تفاعل مستمر يعطي هذه الطاقة ألسنة من اللهب تزيد عن نصف مليون كيلومتر، أي نصف مليون كيلومتر طول بعض

ألسنة اللهب التي تصدر من الشمس، وهناك صور حقيقية لهذه الألسنة في حالة الكسوف الكامل، وربنا عز وجل يقول:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

في كل يوم تفقد الشمس من كتلتها ثلاثمئة وستين ألف مليون طن، من يعوض هذه الكتلة المفقودة؟ الله سبحانه وتعالى. فالشمس تنشر طاقة في الثانية الواحدة تعادل إحراق أكثر من مليون طن من الفحم الحجر، ذلكم الله رب العالمين، ذلكم الله القوي القدير العليم، إذا وقف إنسان فرضاً على سطح الشمس وكان وزنه على الأرض خمسة وستين كيلو غراماً لصار وزنه ألفاً وسبعمئة كيلو غراماً لتفاوت الجاذبية، وكما قلت قبل قليل لو انطفأت الشمس لأصبحت الأرض قبراً جليدياً ولهبطت الحرارة إلى ثلاثمئة وخمسين تحت الصفر.

يجب ألا يكون عمل الإنسان قبراً له :

عندما يقول ربنا عز وجل:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

أي يا عبادي فكروا في هذه الآية ودققوا فيها وتأملوا، ولا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن آيات الله. فلا يك عمل الإنسان قبراً له، ولا تك شهوة الإنسان قبراً له.

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر: 22]

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة يونس: 101]

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ*وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 105-106]

ربنا عز وجل جعل الكون تجسيداً لأسمائه :

ومع ذلك فالشمس نجم متوسط، فهنالك نجوم تكبرها بآلاف المرات ولكن لبعدها الشديد تُرى نجوماً صغيرة متألقة، وما شمسنا إلا نجم متوسط، ولا تنسوا أن في مجرتنا أكثر من ألف مليون نجم، وفي الكون رقم تقديري حديث أكثر من مليون مليون مجرة.

الشمس تبدو كبيرة لقربها منا، فربنا عز وجل جعل الكون تجسيداً لأسمائه، اسم العليم يتضح من الشمس، واسم الحكيم، واسم القدير، واسم المعطي، يتضح من الشمس، قد يرتفع سعر البيت خمسون ألفاً إذا كانت تدخله الشمس، فهذا المبلغ الذي دفعه صاحب البيت ثمن ماذا؟ إنه ثمن أشعة الشمس، وشيء ثمين جداً أن تبعث الدفء، وتبعث الحرارة، وتطهر، وتعقم، وينتظم الكون، وتعرف الأوقات، وقد كتب أمير الشعراء أحمد شوقي مقالة عن الشمس فقال: سل الشمس من رفعها ناراً ونصبها مناراً وضربها ديناراً ومن علقها في الجو ساعة يدب عقرباها إلى قيام الساعة؟ ومن الذي آتاها معراجها وهداها أدراجها وأحلها أبراجها ونقل في سماء الدنيا سراجها؟ الزمن هي سبب حصوله ومشعب أصوله وفروعه وكتابه بأجزائه وفصوله، ولد على ظهرها، فلولا الشمس لما عرفنا الزمان، ولعب في حجرها وشَابَ في طاعتها، فلولاها لما اتسقت أيامه ولما انتظمت شهوره وأعوامه ولا اختلف نوره وظلامه.

عندما يقول ربنا عز وجل: (والشمس)، أي يا عبادي يجب أن يكون لكم جلسات تتفكرون فيها بالشمس، هذه الآية الكبرى الدالة على عظمة الله.

كلمة ضحاها تعني شيئين :

قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

قال بعض المفسرين: (وضحاها) قَسَمٌ ثانٍ، الشمس آية، وضحاها آية ثانية، فكلمة ضحاها تعني شيئين:

1 ـ الأرض تدور حول نفسها ولولا دورانها حول نفسها لما ظهرت الشمس :

تعني أن الأرض تدور حول نفسها ولولا دورانها حول نفسها لما ظهرت الشمس لأن ضحى بمعنى ظهر.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

فلو أن الأرض واقفة فالذين في الطرف الآخر لا يرون ضحاها فهي ليست آية لهم، ولكن الأرض تدور وبدورانها تظهر الشمس بشكل يومي، ولكن هذا الدوران بمحور مائل، فلو أن محور الأرض موازٍ لمستوى دوران الأرض حول الشمس لكان وقوفها لدورانها، إن دارت هكذا الأرض والشمس من هنا فالطرف الذي لا يقابل الشمس يبقى مظلماً لسبب الدوران وحده ولكن الدوران مع محور، لو أن المحور هكذا قائمٌ على مستوى الدوران لكان هذا المكان صيفاً إلى أبد الآبدين ولكان هذا المكان شتاءً أو

خريفاً وهذا المكان شتاءً إلى أبد الآبدين، لتثبت الفصول، دوران وميل محور لدرجة دقيقة بحيث تتبدل الفصول ولو أن المحور مائل لهذه الدرجة الدقيقة ثلاث وثلاثون درجة، والأرض لا تدور حول الشمس لبقيت الفصول ثابتة.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

إذاً من دورة الأرض حول الشمس ومن دورتها حول نفسها ومن ميل محورها كان هذا الذي ترون أنه صيفٌ، وشتاءٌ، وربيعٌ، وخريفٌ. يأتي الشتاء فيأتي الربيع ثم يأتي الصيف، ويأتي الصيف فيأتي الخريف وبعده الشتاء.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة آل عمران: 190]

هناك أيام يكون الليل طويلاً وأيام يكون الليل قصيراً وهي من آيات الله عز وجل. فـ (الشمس وضحاها) معنى (ضحاها) أن دورة الأرض حول نفسها وحول محور مائل ودورتها حول الشمس هي التي تسبب الليل والنهار المختلفين والفصول الأربعة الجوالة.

2 ـالشمس تَظهر عن طريق دورة الأرض حول نفسها وهي نفسها تُظهر حقيقة الأشياء:

قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

المعنى الآخر أن الشمس تظهر عن طريق الأرض، والشمس تُظهر الأشياء، فلو ذهبت إلى بلدة ووصلتها ليلاً ودخلت أحد فنادقها وكان في الغرفة نافذة تُطل على منطقة واسعة جداً في الليل ماذا ترى؟ هل ترى الجبال الخضر؟ وهل ترى السهول؟ وهل ترى القرى القابعة على سفوح الجبال؟ كل هذا لا تراه في الليل ولكن تراه في النهار، فالشمس تَظهر عن طريق دورة الأرض حول نفسها وهي نفسها تُظهر حقيقة الأشياء، إذ لا تتضح الأمور إلا في النهار. ولا تعرف حقيقة اللون إلا تحت ضوء الشمس، فكثير ممن يشترون القماش يعرفونه تحت ضوء الشمس حتى يتأكد من لونه الصحيح.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

فالشمس آية وضحاها آية ثانية.

الطريق الوحيد الموصل إلى الله أن تفكر بآياته والطريق الآخر طريق الجهل :

ربنا عز وجل قال:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية: 6]

ولا يوجد طريق آخر، الطريق الوحيد الموصل إلى الله عز وجل أن تفكر بآيات الله والطريق الآخر طريق الجهل.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

تغيب الشمس في الأيام البيض من الغرب، فإذا القمر في الشرق يتلوها بحجم كبير وبدرٍ وسيم يطلع فيضيء بما يعادل واحد على ثماني عشرة مرة من إضاءة الشمس، (والقمر إذا تلاها) في الشروق أي إذا ناب عنها في الليل كان ضوءه لطيفاً يفيد ولا يؤذي، إذ يرى المار طريقه ولا يتأذى من شدة الإضاءة لأن الليل سكنٌ.

الشمس والقمر أداتان للحساب وتقويمان يشيران للساعة واليوم :

شيء آخر إذا كانت الشمس ساعة يومية، فالقمر تقويم شهري، والجميع يقول: الشمس أشرقت، الشمس علت. فالآن ضحى، والآن اقترب وقت الظهيرة. وقاربنا من أذان العصر. اقتربت من المغيب، والشمس ساعة سَاعة في كبد السماء، والقمر تقويم شهري كذلك في كبد السماء، الشمس والقمر أداتان للحساب وتقويمان يشيران للساعة واليوم:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

لولا القمر لصار النهار ساعتين، ولولا القمر لدارت الأرض حول نفسها في أربع ساعات، فالقمر له علاقة بالمد والجزر، ولو اقترب القمر أكثر من هذا لتضاعف المد والجزر ستين ضعفاً أي إلى مسافة ألف ومئتي متر، كل هذه الأماكن يغمرها في ساعات معينة وينحسر عنها في ساعات ثانية ولكن الشمس والقمر بحسبان.

بعد القمر عن الأرض يجعل المد والجزر لا يزيد عن عشرين متراً، والمد والجزر له فوائد كبيرة في الملاحة ولا يزال الإنسان عاجزاً عن فهم الفائدة الكبرى للقمر، وكلما تقدم العلم يكشف بعض الفوائد، أما القمر فآية كبرى من آيات الله، وحينما صعد على سطحه رواد الفضاء وجدوا تربة القمر تشبه

الزجاج إنها تربة رمادية عاكسة، فهذا القمر البدر الجميل بفضل هذه التربة التي صنعت خصيصاً ليكون مصباحاً عاكساً للأرض.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

في المرتبة، وفي الإضاءة، وفي الدوران، وفي الحركة.

الحكمة من أنالله عز وجل ثبت إشراق الشمس ولم يثبت هطول المطر :

قال تعالى:

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)

معنى تجلت: ظهرت. ما الذي أظهرها؟ أنك على سطح الأرض، والأرض دارت فأصبح مقابلاً لها، وهذه لها علاقة بالضحى، ولولا أنك تدور على سطح الأرض لما رأيت الشمس:

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)

النهار يُظهر أشعة الشمس ونستفيد منها. ولم يسمع أحد في حياته أن الشمس في أحد الأيام لم تشرق؟ ليس هناك دعاء شروق الشمس، فالله عز وجل ثبتها فلا يقلق الإنسان على شيء، فالله عز وجل هو الذي خلق الخلق، وكان بالإمكان أن تكون كمية الأمطار ثابتة طوال آلاف القرون- أي منطقة الشام مثلاً كمية الأمطار فيها تقدر بألفي ميليمتر- كيف أن الشمس تشرق كل يوم، كل يوم من دون قلق، فالله عز وجل ثبت إشراق الشمس ولم يثبت هطول المطر كي يكون العباد على صلة بالله عز وجل، ولو أنه لم يثبت شروق الشمس لأصبحت الحياة فوضى، فاليوم أشرقت واليوم ما أشرقت، واليوم عطلة فجائية لعدم شروق الشمس، إن هذا شيء مستحيل. ربنا عز وجل لحكمة بالغة ثبت شروق الشمس ولم يثبت هطول المطر من أجل أن يكون للعباد سببٌ للدعاء: اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، إذاً عندما يعطي ربنا عز وجل فهو القدير، ولما خلق الإنسان خلقه لحكمة بالغة كما أنه ثبت شروق الشمس وكان بالإمكان أن يخلق الإنسان بلا مرض إطلاقاً، فلماذا المرض إذاً؟ من أجل أن يكون هنالك اتصال وثيق بين العبد وربه:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

ولو خلقه قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، وخلقه ضعيفاً، وخلقه هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً، وخلقه من عجل.

النهار والليل من آيات الله :

قال تعالى:

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

تكون الأرض مشرقة والجبال واضحة وكل شيء متألق ظاهر وصارخ يأتي الليل فيغشى كل هذه الأشياء:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

إذا غطاها، فأين الشمس؟ قال عليه الصلاة والسلام: يا سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل؟ يكون الإنسان في منطقة جميلة جبال ووديان ومناظر رائعة فتغيب الشمس فكل هذه المناظر غابت وانمحت وانسدلت ولم يبقَ منها شيء، فينام الإنسان في الليل وتضيق نفسه، ثم يصير في أُنس، سر في غابة ليلاً تخف وسر فيها نهاراً تطمئن، واصعد جبلاً ليلاً تخف واصعد نهاراً تطمئن. فالنهار والليل من آيات الله.

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

نظام التجاذب وحده أعظم دليل على عظمة الله :

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)

بعض العلماء قالوا: هذه الـ (ما) بمعنى والسماء ومن بناها؟ هل سألت هذا السؤال؟ هل فكرت في خالق الكون؟ السماء أوسع، والشمس نجم، والقمر كوكب، والأرض كوكب، أما السماء ففيها مليون مليون مجرة، وفيها نظام رائع جداً؛ نظام التجاذب، والآن إذا سألنا أستاذ رياضيات مثلاً عن كتلتين مغناطيسيتين متساويتين حجماً إذا أردنا أن نضع كرة حديدية في مكان بينهما بحيث لا تنجذب هذه الكرة لا إلى هذه الكتلة ولا إلى هذه الكتلة طبعاً سيأخذ خطاً بينهما ويأخذ منتصفه على مستوى الميليمترات وقد يكون على مستوى أعشار الميليمتر، فلو وضعت في مسافة أقرب نصف ملم لانجذبت إلى إحدى الكتلتين، ولو أتينا بثلاث كتل بحيث تشكل هذه الكتل مثلثاً متساوي الأضلاع فأين المكان الذي ينبغي أن توضع الكرة الحديدية بحيث لا تنجذب هذه الكتلة لا إلى هذه الكتلة ولا إلى تلك؟ نأخذ منصفة الزوايا، مركز تقاطع منصفات الزوايا فهنا تستقر الكرة، وإلى الآن القضية سهلة، فإذا كان هذا المثلث مختلف الأضلاع فسوف تحتاج إلى حسابات صعبة جداً، وقد لا تهتدي إلى مكان استقرار الكرة، فإذا كان المثلث مختلف الأضلاع والكتل مختلفة الحجم فصار الحساب أصعب بكثير، فإذا كان بعض هذه الكتل متحركة، فالحساب مستحيل. وإذا كان هناك ألف كتلة وكل كتلة لها حركة مستقلة عن الثانية

ولها مدار وعليك أن تحقق استقراراً بين كل هذه الكتل، فهذا لا يستطيعه بشر ولكن هذه المجرات؛ المليون مليون مجرة وفي كل مجرة عشرة آلاف مليون نجم، وكل هذه النجوم متفاوتة بالحجم مختلفة بالمسافات، وكلها متحركة والمحصلة استقرار.

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)

هذه عظمة الله عز وجل، نظام التجاذب وحده أعظم دليل على عظمة الله.

التجاذب يتبدل بحسب الكتل ويتبدل بحسب المسافات :

كما تعلمون فإن التجاذب متعلق بالمسافة أي بمربع المسافة والكتلة، وكلما كبرت الكتلة ازدادت الجاذبية، فالإنسان على الأرض وزنه ستون كيلو غراماً وعلى القمر وزنه عشرة كيلوغرامات، فالقمر أصغر، فأنت كتلة والقمر كتلة، وعلى الشمس وزنه ألف وسبعمئة كيلو غراماً، فالتجاذب يتبدل بحسب الكتل ويتبدل بحسب المسافات.

الأرض تدور حول الشمس، والمدار بيضوي ومعنى بيضوي أي للشكل البيضوي مركزان، أي هناك قطر أقصى وقطر أدنى فإذا وصلت الأرض للمسافة الدنيا، فلو أنها حافظت على سرعتها، فالمسافة بينها وبين الشمس قلت، إذاً التجاذب ربما انجذبت الأرض إلى الشمس وارتطمت بها وانتهت الحياة. فأين حكمة الله عز وجل؟ فالله عز وجل في هذه المنطقة التي تصغر فيها المسافة بين الأرض والشمس تزداد سرعة الأرض لينشأ من هذه الزيادة قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة وبهذا تستقر الأرض في مسارها حول الشمس، والمسار ليس دائرياً بل بيضوياً، والحكمة الثالثة أن الله سبحانه وتعالى لو رفع هذه السرعة فجأة لتهدم كل شيء على سطح الأرض، تقول هنا كانت مدينة اسمها باريس، فلو أن هذه السرعة ازدادت أو ارتفعت فجأة، فلما قال عز وجل:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة يونس: 24]

العملية لا تكلف أكثر من ازدياد السرعة فجأة كل شيء على سطح الأرض يُهدم.

الكون وما فيه من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)

أي من بناها؟ من بنى هذا البناء؟ من جعل هذا النظام؟ من أجل مطار صغير لا بد من خبراء ومهندسين وتسيير للطائرات لئلا ترتطم طائرتان مع بعضهما، ولكل طائرة خط، مطار صغير لولا وجود قيادة موحدة وأوامر مركزية لحدث تصادم بين الطائرات، وهذا الكون المليء بالنجوم والمجرات، ألا يحدث فيه تصادم واحد؟

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

إذاً:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)

بمعنى من بناها؟ وهناك معنى آخر؛ (ما) مصدرية، والسماء وهذا البناء الرائع الذي بنيت على أساسه، أي والسماء وبنائها، هذا البناء المحكم المطلق على إطلاقه وبنائه القوي، وهنالك منطقة في الفضاء اسمها الثقوب السود، من منكم يصدق أن الأرض بأكملها لو دخلت إلى هذا الثقب لأصبحت كالبيضة، الأرض بأكملها تُضغط وتزول كل الفراغات البينة بين ذراعها وتصبح الأرض كالبيضة وهي بوزنها الحقيقي، تصور بيضة وزنها كوزن الأرض، ما هذه القوة؟ مع أن متراً مربعاً من الماء حتى هذه الساعة لا يستطيع بنو البشر ضغطه لو وضعت فوق هذا الماء ألف مليون طن لا يُمكن ضغطه ولا ميلي واحد.

الماء السائل العذب الفرات الماء لا ينضغط وإذا أراد أن يتمدد لا يستطيع أقسى معدن أن يحول بينه وبين تمدده، ضعه بأقسى أنواع الفولاذ وجمده داخل الفولاذ يتشقق الفولاذ، فإذا دخلت الأرض في هذا الثقب الأسود ما هذه القوى الهائلة في هذا الثقب؟ إنها تصبح كالبيضة بوزنها الحقيقي، (والسماء وما بناها) ما هذا البناء العظيم؟

الأرض وما فيها من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

من جعلها ممددة؟ ومن جعلها منبسطة؟ ومن جعل فيها تربة؟ ولو أننا وصلنا إلى أرض صخرية هل تستقيم حياتنا إن كانت الأرض صخرية؟ ماذا نأكل؟ ومن جعل سطح الأرض تربة؟ يوجد أماكن في العالم قليلة الأرض صخرية، وهنالك في منطقة قبل حلب كلها صخر، ومنطقة في الجنوب بالمحافظات الجنوبية كلها صخور لا تربة فيها.

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

من جعلها ممهدة؟ ومن جعلها منبسطة؟ ومن جعلها صالحة للزراعة؟ ومن جعل الطبقة الكتيمة في الأسفل والطبقة النفوذة في الأعلى؟ فلو أن الكتيمة في الأعلى والنفوذة في الأسفل لما كانت هنالك ينابيع، لكن ربنا عز وجل مثلاً يقول لك: ليبيا تعيش على بحر من الماء العذب، والله عز وجل هذه الطبقات نفوذة وجعل تحت الطبقات النفوذة طبقات كتيمة فجمعت الماء.

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

من هيأها؟ ومن رتبها؟ ومن نظمها؟ ومن مهد لك الحياة فيها؟ ومن جعل الينابيع والأنهار الوديان؟ وهذه تربة كلسية تنبت فيها نباتات معينة، وهذه تربة الحديد فيها مرتفع يصلح لبعض أنواع الفاكهة. من نوّع التربة؟ نوعها في البنية، ونوعها في العمق، ونوعها في الإرواء:

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

النفس الإنسانية لها قوانين :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

فكلمة (ما) تصلح من طحاها والأرض وطحيها، ونفس ومن سواها والنفس وتسويتها، أي سترى شيئين؛ التسوية والمسوي، التسوية مع المسوي والبناء مع الباني.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

هذه النفس تخاف وتتعرف إلى الله كي تطمئن، من جعل هذه النفس تمرض ولأنها تمرض تتعرف إلى الله فتطمئن؟ من جعل هذه النفس تحب من أحسن إليها؟

((يا داود ذكر عبادي بإحساني، فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

من جعلها تحب التملك كي تحافظ على مكتسباتها؟ فالنفس الإنسانية لها قوانين: تحب السلامة، وهذا دافع كبير كي تنجو من عذاب الله، وتحب السعادة فهذا دافع آخر، وتحب من أُحسن إليها وهذا دافع ثالث، تخاف:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 19]

ضعيفة تحب أن تكون في حماية القوي، فالنفس غير بنية الجسم وغير الأجهزة، والجهاز العصبي والعظمي والقلب والأوردة والشرايين والرئتان والأمعاء وجهاز الهضم والغدد الصماء والدماغ والعضلات غير هذا البناء المحكم وغير ما قيل في الدرس الماضي.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد: 8]

النفس لها قوانين فالنفس البشرية تخاف وترجو وتطمع وتحب وتكره وتستعطف.

التسوية كمال الخلق :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

معنى سواها أي جعلها على أكمل وجه، ففي درس سابق قبل شهر على ما أذكر:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

[سورة الأعلى: 1-2]

ضربت وقتها مثلاً كراج سيارة قد يكون بناؤه متقناً وقد يكون أضيق من عرضها فهو غير سوي، وقد يكون على عرضها تماماً فلا يستطيع السائق أن يفتح الباب ويخرج من السيارة، فما معنى كراج؟ أي سوي تسعني أبعاده وعمقه وارتفاعه والرصيف والباب فكله مسوى كي يكون مكاناً لهذه السيارة، فالتسوية كمال الخلق:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

أي ربنا عز وجل جعل هذا المفصل ولولا هذا المفصل لاضطر الإنسان أن يضع الصحن على الأرض وأن يأكل منه بلسانه كالقطة ولا يوجد طريقة ثانية:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

لك مفصل، ولك أصابع، ولك إبهام، ولك عينان وأذنان وأنف ولسان وفم، (ونفس وما سواها) كلمة نفس تعني بناء الجسم وتعني قوانين النفس، فمن أودع في الإنسان هذا الفكر؟ الإنسان لا يفهم شيئاً من دون سبب وهذا مبدأ السببية في الفكر، ولا يفهم شيئاً من دون غاية، من له تعامل مع الآلات لو رأى

ظاهرة في الآلة لا يفهمها إلى أن يعرف غايتها، في الفكر نجد مبدأ السببية مبدأ عدم التناقض ومبدأ الغائية، فمن أودع هذا الفكر، وهذه الأنظمة، وهذه القوانين؟

الله عز وجل ألهم الإنسان عن طريق الملائكة أن هذا العمل فجور وأن هذا العمل تقوى:

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

أروع تفسير لهذه الآية: أن الله عز وجل ألهم الإنسان عن طريق الملائكة أن هذا العمل فجور، وأن هذا العمل تقوى، فعندما يسير الإنسان في الطريق الصحيح ترتاح نفسه، وينشرح صدره، ويطمئن قلبه، ويتوازن، ويُسرَ، ويتفاءل، ويسعد، ألهمها تقواها.

فإذا انحرف شعر بالضيق وشعر بنداء ملائكي: يا عبد الله:لا تفعل، إياك أن تفعل إذا كانت أذنه صحيحة تسمع النداء، وإذا كانت أذنه غير صحيحة يحس بضيق وانقباض، وهذا معنى قوله تعالى:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

أي إذا فجرت عرّفها بأنه فجور، إما من ضيق النفس أو من الإلهام، وإذا اتقت عرفها بتقواها، فالقسم الإلهي بـ:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

جاء الجواب:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

فالفالح أو الذكي أو المتفوق أو الذي ينجو أو العالي في نظر الناس الذي زكى نفسه وهذا هو الذكاء.

الذكاء والفلاح والنجاح والتفوق هو أن تزكي نفسك :

قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

بماذا أثنى الله على نبيه الكريم؟ بالخلق العظيم:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

فالذكاء والفلاح والنجاح والتفوق هو أن تزكي نفسك لأنك إذا زكيت نفسك عشت في رحاب الله إلى أبد الآبدين، في سعادة لا توصف في مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهناك دفعات على الحساب في الدنيا سرور وطمأنينة وتفوق في الأعمال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

فالذي يزكي نفسه أي يؤهلها لدخول الجنة، والجنة ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر، هكذا قال عليه الصلاة والسلام. فالدنيا بكل ما فيها من جمال طبيعي ومن مال ومن مباهج ومن عز ومن غنى ومن طعام لذيذ ومن شيء تتوق إليه النفس وكل ما فيها لا يعادل أن يغمس مخيط في مياه البحر فبمَ يرجع؟!

متاع الدنيا ومتاع الآخرة كما ورد في القرآن الكريم :

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

آية ثانية:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

آية ثالثة:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة: 17]

الله تعالى لا يعطي الآخرة إلا لأحبابه :

ولذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 70-71]

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[سورة القصص: 14]

هذا عطاء الله الكبير:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 269]

وإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، قد يعطيها لأعدائه وقد يعطيها لمن لا يطيعه، ولكن الآخرة لا يعطيها إلا لأحبابه:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 269]

أمراض تفتك بالنفس فتجعل الحياة جحيماً وتجعل الجنة مستحيلة عليها :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى: 14]

التزكية لها بحث طويل إن شاء الله أوسعُ فيها في الدرس القادم، كيف يزكي الإنسان نفسه وكيف يتخلص من أمراضه النفسية؟ من الكبر ومن الأثرة ومن حب الذات والحسد والاستعلاء والحقد والبغضاء، وهذه الأمراض التي تفتك في النفس فتجعل الحياة جحيماً وتجعل الجنة مستحيلة عليها:

((لا يدْخُلُ الجنة مَنْ كان في قلبه مثقالُ حبَّة من كِبْر))

[مسلم عن عبد الله بن مسعود]

ولذلك:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ)

[سورة الشعراء: 88]

فلو ترك إنسان ألف مليون وثمانية أولاد أطباء:

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 89]

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلا)

[سورة الكهف: 46]

من زكى نفسه يُعد فالحاً وذكياً وناجحاً :

إذا الإنسان تفقه بمعنى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى: 14]

والله الذي لا إله إلا هو لو أن إنساناً فهم هذه الآية وصدقها لحلت كل مشكلاته ولسعد في الدنيا والآخرة، فالإنسان قد يرى الفلاح في جمع المال، وقد يرى الفلاح في النزهات مثلاً، وفي الاستمتاع بالمتع الدنيوية، وبأن يكون رفيع الشأن في الدنيا، هكذا قد يرى الفلاح ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى: 14]

الذي نجح والذي ارتقى والذي يُعد فالحاً وذكياً وناجحاً هو من زكى نفسه:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون]

إذاً:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

هذا هو المقسم عليه:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

فإذا كانت الآيات في نظرك عظيمة فجواب هذا القسم أن تزكي نفسك، كيف؟ وما الطريق؟ وما السبب؟ وما الوسيلة؟ هذا ما سيشرح في درس قادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشمس 091 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 7 - 15 النفس البشرية وأمراضها.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-03-29

بسم الله الرحمن الرحيم

كل الأديان والدين الإسلامي بشكل خاص جوهره السيطرة على الذات أو على النفس :

وصلنا في الدرس الماضي في سورة الشمس إلى قوله تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

ربنا سبحانه وتعالى قبل ذكر النفس ذكر الشمس وضحاها، وذكر القمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، وذكر الليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، وذكر الأرض، وبعد هذه الآيات الكبيرة ذكر النفس، وقد تكون النفس أعظم من كل هذه الآيات، ورد في الأثر أن: " ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن "، ربما كانت النفس الإنسانية هي المقصودة من تسخير السموات والأرض:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

وسخر لكم السماوات والأرض، والسماوات والأرض وما فيهن مسخرة لهذه النفس الإنسانية، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

كيف سوى ربنا سبحانه وتعالى هذه النفس؟ نحن اليوم نُعنَى بالجسد، والحضارة الغربية بأكملها وبكل أنواعها مَعنية بالجسد، والجسد مصيره إلى ما تعلمون، فكل هذه الجهود الجبارة التي تبذل من أجل العناية بهذا الجسد تنتهي عند الموت، وعند الموت سيواجه الإنسان نفسه التي دساها وأهملها ولم يسمُ بها ودنسها وسوف تعذبه إلى أبد الآبدين، حتى إن بعضهم لخص الحضارة القائمة على الدين بأنها حضارة تسيطر على ذات الإنسان المؤمن المنضبط، وفسر بعضهم الحضارة المادية بأنها سيطرة على المادة، لكن الأديان والدين الإسلامي بشكل خاص جوهره السيطرة على الذات أو على النفس.

فرق دقيق بين الفطرة والصبغة :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

كل الآلات التي تخطف الأبصار وكل هذه المخترعات الحديثة هدفها ترفيه هذا الجسد والجسد مصيره التراب، فربنا عز وجل في هذه الآية وجهنا إلى النفس. فالإنسان يعتني بجسده، ويرتدي ثياباً جميلة، ويعتني ببيته، وبأثاثه، ولكن أين العناية بنفسه؟ سيدنا عمر كان يقول: تعهد قلبك، فالناس الآن يتعهدون أمورهم المادية ويخجلون من بيت ليس فيه نظام، ويخجلون من أثاث قديم، ومن بيت طلاؤه قديم، ومن بيت مدخله غير مرتب، أما النفس التي ينطوون عليها فقد تركوها، تركوها هملاً. فإذا جاء الموت تظهر عورة النفس وسوف تعذب صاحبها إلى الأبد، فربنا عز وجل جذب النظر إلى هذه النفس.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

كيف سواها؟ لقد فطرها فطرة عالية، لقد خلقها تحب الكمال، وأن تحب الكمال شيء وأن تكون كمالاً شيء آخر، وأن تحب العدالة شيء وأن تكون عادلاً شيء آخر، أن تحب العدالة فهذه فطرة وأن تكون عادلاً فهذه صبغة، فرق دقيق بين الفطرة والصبغة، أن تحب معالي الأمور فهذه فطرة، فهذه الفطرة العالية هي التي تعذب صاحبها، لماذا يحس الإنسان بوخز الضمير؟ ولماذا يحس بالضيق إذا انحرف وإذا اعتدى واستعلى وبنى مجده على فقر الآخرين؟ فما تفسير هذا الضيق؟ إن الفطرة السليمة التي فطر عليها الإنسان هذه الفطرة التي تتجه نحو الكمال، فإن وجدته استرحت وإن قصرت عنه تعذبت، هذا قانون عام ينطبق على النفس التي خلقها الله عز وجل.

النفس تذوق الموت ولا تموت لأن النفس خالدة :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

ما هذه التسوية؟ الإنسان مفطور على حب من أحسن إليه. فإذا رأى نفسه في الآخرة قد أساء إلى عباد الله والله عز وجل سبقت له منه الحسنى إنه يتعذب عذاب الخجل، الفطرة الأولى أن النفس مجبولة على حب من أحسن إليها، الفطرة الثانية أن النفس تحب الكمال فإذا حادت عنه تعذبت وإذا بلغته استراحت لذلك، الناس نيام، الإنسان في الدنيا مخَّدر بالشهوات فإذا اقترب الموت ذهبت عنه هذه الشهوات وظهرت حقيقته كما رآها رأي العين فتعذب بها.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من نفس ومن روح ومن جسد، فالنفس هي ذات الإنسان، مَن فلان الفلاني؟ نفسه هي التي تحب وهي التي تكره والتي تغضب وترضى وتقصر وتحس أنها خالدة لا تموت أبداً، وربنا عز وجل يقول:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة العنكبوت: 57]

فرق كبير بين أن تقول كل نفس تموت وبين أن تقول:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة العنكبوت: 57]

النفس تذوق الموت ولا تموت، النفس خالدة.

أمراض النفس أخطر بكثير من أمراض الجسد :

قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف: 77]

الإنسان مخلوق من نفس هي ذاته هي التي تسعد وهي التي تتعذب، وكلها أعين وآذان وأحاسيس، ولكن الله سبحانه وتعالى جعلها داخل الجسد فترى من خلال نافذتين هما العينان، وتسمع من خلال الأذنين، وتنتقل عن طريق الرجلين، وتبطش وتحس باليد، وتحاكم بالفكر، فالجسد وعاء للنفس تتحرك به، وترى به، وتسمع به، وتدرك به، وتحس به، وتسيء به، ولكن هذا الجسد يتحرك بالروح التي أودعها الله فيه. فالحركة تعبير عن ذات الإنسان وبقوة الله، والعين ترى بقوة الله ترى بالروح، والأذن كذلك، وحقيقة الموت انفصال النفس عن الجسد، عن الروح، والروح قوة الله المحركة، فلو نزعت المأخذ من الكهرباء لآلة تتوقف فوراً وهي كما هي، من الذي جعلها تقف؟ انقطاع القوة المحركة، انقطاع الطاقة؟ فالروح التي أودعها الله فينا إذا مات الإنسان تنقطع فوراً فإذا انقطعت عرجت النفس إلى بارئها إن كانت مؤمنة وبقيت رهينة إن كانت فاسقة، والروح هي قوة الله عز وجل قطعت عن هذه النفس. فالأمر الخطير أن النفس هي نفسك لا جسدك، والناس الآن يقلقون على أجسادهم وعلى قلوبهم ويخافون من تسرع في القلب ومن بعض الأزمات القلبية وفاتهم أن أمراض النفس أخطر بكثير لأن أمراض الجسد كلها تنتهي بالموت وأمراض النفس كلها تبدأ بعد الموت، وبعد الموت هناك أبدٌ لا ينقطع إلى أبد الآبدين، فأيهما أخطر أن تُعنى بهذا الجسد الفاني أم أن تعنى بهذه النفس الخالدة؟

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

خلقها على فطرة سليمة كصفحة بيضاء إما أن يكتب على هذه الصفحة كلام جميل تفخر به وإما أن يكتب على هذه الصفحة كلامٌ بذيء تخجل منه، لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

الله سبحانه وتعالى أودع في هذه النفس حبّ الشهوات :

هذه النفس جعلها تحب الكمال وحبها للكمال هو الذي يعذبها إذا حادت عنه، وجعلها تحب من أحسن إليها، وجعل لها جسداً في خدمتها تتحرك به، وصيرها خالدة تذوق الموت ولا تموت، وجعل الروح قوة محركة لها:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

وشيء آخر الله سبحانه وتعالى أودع في هذه النفس هذه الشهوات.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

[سورة آل عمران: 14]

والله سبحانه وتعالى لحكمة بالغة أودع في هذه النفس هذه الشهوات، لماذا؟ فلولا هذه الشهوات لا ترقى النفس إلى ربها، وكيف ترقى؟ إنها تبذل ما هو غالٍ عليها، حينما تبذل المال ترقى. لولا أن الله عز وجل أودع فيها حب المال فما قيمة الصدقة؟ وما قيمة الزكاة وما قيمة المساعدة؟ ولولا أن الله عز وجل أودع فيها حب المال فما قيمة ترك المال الحرام؟ قد يكون المبلغ مغرياً جداً ومع ذلك تقول: إني أخاف الله رب العالمين، ولولا أن الله سبحانه وتعالى أودع في نفس الإنسان الجنس الآخر فما قيمة غض البصر؟ وما موقف سيدنا يوسف حينما قال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف: 23]

لولا الشهوات التي أودعها الله فينا لما كانت جنة ولا نار :

لاحظوا أيها الأخوة أن هذه الشهوات التي أودعها الله فينا لا يمكن أن نرقى إلى الله إلا بها، وطريقنا إلى الله شهوات حيادية، يمكن أن تكون قوة دافعة إلى الله عز وجل ويمكن أن تكون قوة دافعة إلى جهنم، والشهوة هي هي، وحب النساء طريقك إلى الله عز وجل، وكيف ذلك؟ غض البصر، تحس أنك تعارض نفسك وتنهاها عن الهوى فهذه طريق، وإذا سلكت الطريق التي شرعها الله عز وجل أيضاً فهذا طريق آخر إلى الله، وحب المال طريق إلى الله عز وجل، دافع يدفعك إلى الله عز وجل بإنفاقه أو بالترفع عن المال الحرام.

إذاً لولا هذه الشهوات التي أودعها الله فينا لما كانت جنة ولا نار، أولاً الفطرة سليمة جعلك تحب الخير، وتحب الرحمة، والعدالة، والإنصاف، والحلم، وجعلك تحب من أحسن إليك وجعل فيك نقاط ضعف:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 19]

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

[سورة الأنبياء: 37]

هذه النقاط وإن كانت نقاط ضعف في الإنسان إلا أنها لمصلحة إيمانه ولمصلحة سعادته وهي تعينه على معرفة الله، وهي تعينه على التوكل على الله وعلى الالتجاء إلى الله.

الشهوات حيادية لكنها مِحَك للإنسان وبها تكشف النفس على حقيقتها :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

خلقها على فطرة عالية وخلقها تحب من أحسن إليها وخلقها ذات قوانين وأودع فيها الشهوات، وهذه كلها دوافع إلى الجنة، بها ترقى إلى الله عز وجل وبها تنحدر إلى جهنم:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

لكن المدنية اليوم في العالم كله لا تعنى إلا بالجسد، بيت مريح ومركبة مريحة وطعام نفيس وثياب أنيقة فهذه أشياء تجذب ضعاف العقول، ولكن إذا جاء الموت انقطعت فجأة كل هذه المكتسبات التي حصلها الإنسان في الدنيا، كل المال تنتهي وظيفته عند الموت، فإن مات الإنسان وترك آلاف الملايين وإن مات ولا يملك شروى نقير فكلهما سيّان، وأمراض الجسد تنتهي عند الموت بينما أمراض النفس تبدأ عند الموت ولذلك:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

من الذي سوى هذه النفس؟ جعلها تخاف وجعلها تغضب، بهذه الفطرة تصبر أو لا تصبر، وترقى أو لا ترقى، وتصدق أو تكذب، وتخلص أو تخون، وتحلم أو تنتقم، وتعفو أو لا تعفو، فهذه الشهوات حيادية لكنها مِحَك لها، بهذه الشهوات تكشف النفس على حقيقتها.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

النفس البشرية مخيرة وليست مكرهة :

الإنسان عنده استعداد أن يكون مؤمناً أو غير مؤمن، وعنده استعداد أن يكون رحيماً أو قاسياً، وأن يكون كريماً أو بخيلاً، وأن يكون ودوداً أو مجافياً، وأن يرقى أو يَسْفُل، وأن يسمو أو ينحط، وأن يقوى أو يضعف، هذه كلها في متناول يده عن طريق هذه الشهوات التي أودعها الله فينا:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

و شيء آخر الله سبحانه وتعالى من معاني:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

إضافة إلى الفطرة السليمة وإضافة إلى حب من أحسن إليها وإلى الشهوات التي أودعها الله فيها كذلك جعلها مختارة، فالنفس البشرية مخيرة وليست مكرهة:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: 148]

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

الله عز وجل أعطى النفس الاختيار وجعلها مسؤولة :

إضافة إلى كل ذلك جعل ربنا سبحانه وتعالى معاملته لهذا الإنسان في ضوء موقفه هو:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[سورة المدثر: 38]

أعطاها الاختيار وجعلها مسؤولة، " أكان مسيرنا إلى الشام ـ هكذا سأل أحدهم سيدنا علياً كرم الله وجهه ـ بقضاء من الله وقدر؟ قال: ويحك لو كان قضاءً لازماً حتماً إذاً لبَطَلَ الوعد والوعيد ولانتفى الثواب والعقاب ولكان أنزل القرآن لعباً، إن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً، أعطاك اختياراً وجعلك مسؤولاً "، وأعطاك شهوات مزروعة في نفسك، وهذا ليس عيباً فيك إنما هو لمصلحتك ولسعادتك الأبدية، فهل ترقى أم تسفل بها؟ وأعطاك نفساً تحب الخير وتحب الرحمة وتحب العدالة وقد يكون

المرء غير ذلك، في بحث آخر إن اللصوص إذا اجتمعوا ليقتسموا ما سرقوه يقسمونه بالعدل لِأنهم في الأصل يحبون العدل؟ لا بل هذه الفطرة، أي إنسان على وجه الأرض من أقصى الأرض إلى أقصاها، من شمالها إلى جنوبها فطرته هي هي، إذا أساء لمن أحسن إليه يعذب أشد العذاب من دون أن يعذبه أحد، فلذلك:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

بذل الوقت وبذل الجهد والمال وصون النفس عن المحرمات هذا كله يرقى بالإنسان :

جعلك حراً وجعلك مسؤولاً ومعاملته لك مرتبطة بموقفك منه:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

ومن الأسوأ إلى الأحسن:

(حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

من الأحسن إلى الأسوأ:

(حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

إنها القوانين، وأنت مفطور فطرة سليمة تحب المحسن وتكره المسيء، وأنت حر مسؤول، عندك شهوات حيادية ترقى بك، إذ زرعت فيك لترقى بك، ولولا هذه الشهوات كيف السبيل إلى التقرب إلى الله عز وجل؟ مستحيل، إنه فعل شيئاً عاكس نفسه التي تريد ميل النظر، وعاكس هذا الميل وارتقى إلى الله عز وجل، وآثر امرأة صالحة على امرأة جميلة نبتت في منبت سوء.

((إياكم وخضراء الدمن، قيل: يا رسول الله وما ذاك؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء))

[العسكري في الأمثال والديلمي عن أبي سعيد رضي الله عنه]

فبماذا ترقى؟ جاءك مبلغ كبير فقلت: إني أخاف الله رب العالمين هذا فيه شبهة، بماذا ترقى؟ لا ترقى إلا بترك المحرمات ونيل الطاعات ومخالفة الشهوات التي لا ترضي الله عز وجل واتباع ما شرعه الله لك، أحياناً الإنسان يسأل سؤالاً ساذجاً: لماذا أودع الله عز وجل في أنفسنا هذه الشهوات لو لم يودعها فينا لاسترحنا وأرحنا؟ لا، هذا كلام ساذج، فلولا هذه الشهوات لما كانت جنة، بها ترقى بغض البصر وبإنفاق المال، وأن تقوم من فراشك وأنت مستريح، وأن تشد رجليك مع أخ تساعده في حاجة، ولا

ترقى إلا بالعمل الصالح، والعمل الصالح يحتاج مالاً وجهداً ووقتاً، فبذل الوقت وبذل الجهد والمال وصون النفس عن المحرمات هذا كله يرقى بالإنسان.

الله تعالى أعطانا حرية الاختيار و

جعل علاقتنا معه واضحة تماماً :

قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

جعلك على الفطرة السليمة تحب الخير، زرع فيك الشهوات من أجل سعادتك، أعطاك حرية الاختيار وجعلك مسؤولاً عن أعمالك كلها:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

جعل علاقته معك واضحة تماماً:

(لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الأعراف: 56]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل: 97]

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

بعد الفطرة و الصبغة و قوة التمييز إذا انحرفت يلهمك الله أنك منحرف :

جعل علاقته معك واضحة جداً وفوق كل ذلك جعل في نفسك طبيعة تملكها أنت وهي أنك تميز بين الخير والشر، أعطاك هذه القدرة، فهذه طاقة:

((الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات))

[البخاري عن النعمان بن بشير]

استفت قلبك ولو أفتاك المفتون وأفتوك، أنا أذكر لكم أن أي إنسان عنده بفطرته السليمة حاسة سادسة تنبئه أن هذا العمل صحيح وهذا غير صحيح، ولذلك فإن كل المنحرفين معذبون نفسياً لأن فطرتهم

تحاسبهم، فوق هذا وذاك لقد أعطاك قوة إدراكية موجهة وهي الفكر، أعطاك قوة إدراكية وجعل لها سلطان المنطق وسلطان الفكر، وفوق هذا وذاك أعطاك كوناً هو تجسيدٌ لأسمائه الحسنى، كل أسمائه الكامنة في ذاته مجسدة في هذا الكون، ترى من خلال الكون رحمته وعلمه وقدرته وحكمته ولطفه وإبداعه وعدله، أبداً، هل بقي شي لك عليه؟ شيء بقي عليه أنه أرسل لك أنبياء وأنزل معهم كتباً من عندك، ما الذي بقي؟ فطرة سليمة وشهوات لمصلحة الرقي وقوة إدراك للتمييز بين الخير والشر وفكر مسيطر عنده قدرة على التوجيه وكون معجز وأنبياء دعاة وكتب:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

وبعد كل هذا فبعد الفطرة وبعد الصبغة وبعد قوة التمييز وقوة الفكر والكون والضياء والأنبياء والقرآن وإذا انحرفت ألهمك أنك منحرف:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

النفس التي سواها الله تعالى قد تفوق كل الآيات السابقة :

إذا رشدت ألهمك أنك مصيب؛ يشرح الله صدرك، وإذا استقمت تحس براحة لا توصف، وتحس بأن جبلاً كان جاثماً على صدرك فانزاح عن كاهلك، وإذا وقعت في خلل وانحراف في نية سيئة تحس بالضيق:

(وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

[سورة التوبة: 25]

كل شيء ذكرناه:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

إن هذه النفس التي سواها قد تفوق كل هذه الآيات السابقة.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا *وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

فعلى تسوية النفس هنالك أشياء كثيرة، دعونا من الجسد ومن دقة العين ودقة الأذن ودقة الفكر والسمع والبصر والذوق والغدد الصماء والجملة العصبية والدماغ دعونا من هذا الجسد المعجز الذي هو أعقد آلة في الكون وتعالوا إلى النفس التي لا تزال ذلك المجهول، هناك كتاب أُلّف عنوانه "الإنسان ذلك المجهول" ومحوره كله أن غلط العصر الأكبر أن الناس اتجهوا إلى الجسد على حساب النفس، رفاهية مادية وشقاء نفسي.

الإنسان الذي

نجح في حياته وحقق الهدف الذي خلق من أجله هو الرابح الأول في الحياة:

سألت أحد الأطباء: هل تستطيع أن تلخص لي الأمراض التي تصيب القلب بكلمات؟ قال: نعم راحة جسدية وتوتر نفسي. أما أجدادنا فتعب جسدي وراحة نفسية، وكل هذه الأدوات التي أحالت حواسنا إلى راحة واسترخاء ووفرت أعصابنا، وجعلت التدابر والتناقض والتباعد والحسد والحقد والخوف على زوال الدنيا ولهاث وراءها، وهذه كلها توترات عصبية أرهقت القلب والإنسان ذلك المجهول، الغلطة الكبرى التي ارتكبتها أوربا أنها اعتمدت رفاهية الجسد على حساب النفس.

وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام على أن حياتهم كانت خشنة وطعامهم خشن حفنة من الطحين يأكلونها، وكأس حليب يشربونه، وجمل يركبونه غير مكيف ومع ذلك كانوا سعداء. وكان الواحد منهم كالكوكب الدري إن أتيح لإنسان أن يجلس معهم طار سعادة والآن ترى الرفاهية في قمتها والناس في حضيض الشقاء.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

ومع ذلك مع وجود الأنبياء والكتب المقدسة والكون المعجز الذي هو تجسيد لأسماء الله تعالى وهذا الفكر العظيم وهذا الضياء وهذه القوة المميزة والفطرة السليمة وحب المحسن وحب الخير وهذه الشهوات التي أودعها الله فينا إذا انحرف الإنسان:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

طالب يأخذ علامات عالية في الشهادة الثانوية، يقول لك: صرت طبيباً ولم يدخل كلية الطب بعد، فاستخدام الفعل الماضي مكان الفعل المضارع أو الأمر أو المستقبل معناه في اللغة تحقق الوقوع. والإنسان في الدنيا إذا زكى نفسه ولو كانت حياته متواضعة وخشنة وعمله صغير ومكانته الاجتماعية صغيرة قد أفلح ومعنى أفلح فاز، فاز بماذا؟ مطلقة، هذا مطلق النجاح فلا داعي أن تقول فاز بمَ؟!! هذا الإنسان نجح في حياته، ونجح في وجوده، وحقق الهدف الذي خلق من أجله، هذا الإنسان هو الرابح الأول في الحياة.

ربنا عز وجل عندما أغفل المفعول به أعطى معنى الفلاح المطلق :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

أحياناً الإنسان يركب سيارة وتتعطل المكابح فجأة والطريق منحدرة وتنتهي بمنعطف خطر، يقول لك: انتهينا، بثانية يقول لك: انتهينا، حينما يشعر أن هذا الحادث مصيري فيستخدم الفعل الماضي لا الفعل المضارع (قد أفلح). هذا الذي عرف ربه قد أفلح وهذا الذي استقام على أمره قد أفلح، وهذا الذي عمل الصالحات قد أفلح، وهذا الذي قال إني أخاف الله رب العالمين قد أفلح، أفلح بماذا؟ جميع أنواع النجاة مقيدة؛ نجح بعمله ويكون في بيته شقياً، ونجح بزواجه ويكون بعمله شقياً، ونجح بدراسته ويكون عنده خمسون علة في جسمه، فكل أفعال النجاح نستخدمها مقيدة، أما إذا قلت: فلان نجح بكل شيء فيكون قد حقق التكامل البشري، فربنا عز وجل عندما أغفل المفعول به أعطى معنى الفلاح المطلق، أي:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

فاستخدام الفعل الماضي أي تحقق الوقوع واستخدام (قد) هذه تزيد من تحقيق الوقوع، (قد) حرف تحقيق (قد أفلح)، والآن لنصغ إلى الله عز وجل من الذي أفلح؟ قال:

(مَنْ زَكَّاهَا)

الـ (ها) على من تعود؟ على النفس.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

والحقيقة إذا اعتقدت قيمة أخرى أن المال هو كل شيء فما أشد الضلال، وإذا اعتقدت أن الشهوات هي كل شيء فما أبعد الضلال.

الهدف الأكبر من الخلق :

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

كيف يزكيها؟ ولماذا يزكيها؟ سؤال كيف ولماذا ومتى؟ متى؟ في الدنيا، ولماذا؟ لأن هذه النفس الإنسانية خلقت لتسعد بالله عز وجل، خلقت السموات والأرض من أجلك فلا تتعب وخلقتك من أجلي فلا تلعب، أنت مخلوق من أجل أن تسعد بالله عز وجل، هذا هو الهدف الأكبر من خلقك، خلقت لتعرف الله فما معنى تعرفه؟ أي تسعد بقربه إلى أبد الآبدين في جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لكنك لن تستطيع أن تسعد بالله وأن يكون لك مقعدَ صدق عند مليك مقتدر إلا إذا كنت مؤهلاً لهذا المنصب.

التأهيل في الدنيا، والجزاء في الآخرة، فما هو التأهيل؟ زكاها يجب أن تزكي نفسك لكي تصبح مؤهلة لأن تكون في كنف الله إلى الأبد، وربنا عز وجل بعدما ذكر النفس وما سواها وألهمها فجورها وتقواها قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

وقد نجح نجاحاً مطلقاً هذا الذي توجه إلى نفسه فزكاها.

كلمة (زكاها) لها ثلاثة معانٍ :

ما معنى زكاها؟ لها ثلاثة معانٍ:

1 ـزكاها أي طهرها من الأمراض التي سوف تعذبه إلى أبد الآبدين :

المعنى الأول: طهرها من الحقد والحسد والكبر والضغينة والأثرة وحب الذات والاستعلاء واللؤم والبخل والنفاق والمحاباة:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

هنالك أمراض تصيب النفس لا تعد ولا تحصى، وهذه الأمراض كلها أعراض الإعراض، تُعرض فتظهر عليها هذه الأعراض، فلان لئيم! عجيب ذلك، لا، العجيب إذا كان كريماً يكون عجيباً، وإذا كان مقطوعاً عن الله وكان كريماً فهذا هو العجيب، وإن كان مقطوعاً عن الله فلا بد من أن يكون لئيماً، ولا بد من أن يكون بخيلاً وقاسياً ويحب ذاته وحدها، ولكن هنالك أذكياء نقول هذا ذكاء مصلحة فإذا وضع في موقف حرج وإذا ضيقت عليه ظهر لؤمه على حقيقته. فالإنسان إن لم يكن له صلة بالله عز وجل فلا بد من أن يشكو من معظم هذه الأمراض، وهذه اسمها أعراض الإعراض:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

أي من طهر نفسه من هذه الأمراض، فلو كنت تسكن أفخم بيت وأنت لئيم فهذا هو الشقاء بعينه لأن البيت ينتهي عند الموت ولكن اللؤم سيبدأ فعله المؤلم بعد الموت إلى الأبد، ولو كان عندك ألف مليون فعند الموت تنتهي أما البخل فيبدأ بعد الموت.

مثلاً تجد رجلاً غنياً جداً وتقام عليه دعوى النفقة، إذا مات هذا الغني ترك المال وبقي هذا الموقف اللئيم الذي وقفه إلى الأبد يعذبه، فمعنى زكاها أي طهرها من الأمراض التي سوف تعذبه إلى أبد الآبدين وهذا هو المعنى الأول.

2 ـمعنى (زكاها) أي سما بها :

معنى (زكاها) أي سما بها لأن الإيمان فيه تخلية وتحلية، وتطهير وتعطير، فالمعنى الثاني لا يكفي أن تكون مستقيماً بل يجب أن تكون رحيماً كريماً ودوداً لطيفاً حليماً هذه هي الصبغة، فالصبغة عندما يتخلق الإنسان كقطعة معدن كانت موضوعة في ثلاجة ضعها في الشمس تفقد شيئاً وتكسب شيئاً آخر إذ تفقد برودتها وتكسب الحرارة.

فالإنسان إذا اتجه إلى الله عز وجل يتخلص من أدرانه وأمراضه النفسية ويكسب الكمالات الإلهية.

3 ـالمعنى الثالث الزيادة والنمو :

المعنى الثالث الزيادة والنمو، فلا ينبغي لك أن تبقى في مرتبة واحدة بل لا بد من أن ترقى، والمغبون من تساوى يوماه، من لم يكن في زيادة فهو في نقصان.

أول معنى الطهارة من كل أمراض النفس، والمعنى الثاني التحلي بالكمالات الإلهية، التخلق بأخلاق الله، والمعنى الثالث الرقي والنمو، فما معنى زكّى؟ متى؟ هي في الدنيا ثمن الجنة، ثمنها لمقعد صدق عند مليك مقتدر، ثمنها السعادة الأبدية التي لا تنقضي:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فضل الصلاة :

متى؟ في الدنيا، هذا طريقها الصلاة، الصلاة نور والصلاة طهور، فبالصلاة تشفى من كل أمراضك، وبالصلاة تتحلى بالكمال، وتتقلب في معارجه، ولذلك الصلاة معراج المؤمن، الصلاة ميزان، من وفى استوفى، فلا خير في دين لا صلاة فيه، الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد ترك الدين، وبين الرجل والدين ترك الصلاة، أساس الدين الصلاة:

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم: 31]

إنها صلة بالخالق وإحسان بالمخلوق هذا التعريف المختصر للدين، إذاً إذا قلنا:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

أي قد حقق النجاح المطلق لا في الآخرة فحسب بل في الدنيا، فمن هذا؟ هذا الذي زكى نفسه وطهرها من الأمراض النفسية وحلاها بالكمالات الإلهية وجعلها تنمو مع الأيام، فمن هو الإنسان؟ إنها بضعة أيام كلما انقضى منه يومٌ انقضى منه بضعٌ.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

معنى كلمة (أفلح) :

لذلك إذا كنت أنت أيها الأخ الكريم مطبقاً لهذا الكتاب العظيم، أي إن لم تكن في هذا الطريق فأنت في خسارة كبيرة:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

لقد اشترى أرضاً فازداد ثمنها ثمانين ضعفاً! إنه خاسر، وله دخل يومي يعادل ثلاثين ألفاً، وكل عملية بثمانية آلاف، وعنده خمس عمليات في اليوم وعيادته تكتظ بالناس:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر: 2]

حسابه في المصرف ثلاثة آلاف مليون:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر: 1-2]

كلام الله الذي خلق السماوات والأرض:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر: 1-2]

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

[سورة الكهف: 103-104]

شيء خطير جداً أن تمشي في طريق مسدود، ومعنى قد أفلح؛ لو تخيلنا عشرة أشخاص عطشى على وشك الموت، وهناك نبع وهؤلاء العشرة توجه كل واحد منهم إلى المكان الذي ظن أن فيه ماء فتسعة ماتوا وواحد وصل إلى النبع فقط فهذا (قد أفلح).

إمبراطور اليابان بعث سبعة طلاب إلى فرنسا في أول النهضة اليابانية، فواحد منهم أحضر شهادة وستة طافوا في متاحفها وملاهيها وحدائقها وشوارعها وما درسوا، فأعدم الستة، فهذا الذي عرف مهمته في الحياة من هذه البعثة وحقق الهدف وضعه في منصب عال وأكرمه إكراماً شديداً.

الخاسر الأكبر :

معنى (قد أفلح) أي هذا الإله العظيم خلقك لهدف محدد، فإذا عرفته وكنت في اتجاهه وبالسرعة المناسبة فقد أفلحت، إلا في حالات نادرة، فهناك إنسان هدفه معرفة الله ولكنه سائر في طريق لا يؤدي إلى ذلك فهذا يتأدب ويُعالج، وآخر هدفه معرفة الله وهو على طريق معرفة الله ولكن سرعته بطيئة فهذا له مصائب دفع، ومصائب ردع، ومصائب كشف، إنها أنواع المصائب:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

من هو الخاسر الأكبر؟ الذي دس نفسه أو وضعها في التراب أو وضعها في الوحل في وحول الشهوات، وآثر ما يفنى على ما يبقى، وفضَّل المال ومتع الدنيا والنساء والطعام: تعس عبد البطن، تعس عبد الفرج، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الدرهم والدينار، جعل نفسه عبداً لعبيد الله حباً بالمال وحباً بالشهوات:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

ومعنى دساها وضعها في مكان لا يليق بها، خلقت من أجل أن تعرفه فاستهوتك النساء، وخلقت من أجل أن تعرفه فعشت فقيراً لتموت غنياً أي بخيلاً، ومن أجل أن تعرفه فغرقت في شهوة تافهة لا قيمة لها فجعلت عملك قبراً لك من الصباح إلى المساء في العمل التجاري وحسابات، فهو لا يصلي ولا يفعل خيراً، يأتيه الموت فجأة وهو صفر اليدين:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

خاب وخسر وشقي.

الجنة هي استمتاع بذات الله :

هذه الآية خطيرة جداً إنها آية مصيرية، فأنت على الطريق الصحيح تعرف الهدف الذي خلقت من أجله لتسعد بالله، وأحدنا إذا دخل إلى غرفة دافئة في أيام البرد، وإلى غرفة مكيفة في أيام الحر، وشرب من الماء العذب كأساً إثر العطش الشديد، ورأى منظراً جميلاً، وتناول طعاماً طيباً يستمتع به، فبماذا استمتع؟ بمسحة من جمال أودعها الله هذه المخلوقات، فما قولك أن الجنة هي استمتاع بذات الله:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة: 22-23]

إنكم سوف ترون ربكم في الجنة، ينظر الإنسان إلى ربه فيغيب خمسين ألف سنة من نشوة النظرة، أنت خلقت لهذه السعادة العظمى فأنا صرت في الثمانين وقد ضعف بصري فلا شباب ولا شيخوخة

معك، ولا حر ولا قر، ولا خوف ولا قلق، ولا حزن ولا مشكلة، ولا مشاحنة ولا قلق على المواد الأولية أن تنتهي، وعلى المياه، وكل شيء متوفر، وفوق هذا وذاك كل نظرة إلى الله عز وجل يغيب فيها الإنسان خمسين ألف عام من النشوة.

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ*هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ* لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ* وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ*أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

[سورة يس: 55-60]

هذا هو الهدف فهل أنت في طريق هذا الهدف؟ هل تزكي نفسك؟ هل تقول إن هناك أمراضاً، هناك مؤمن صادق لاحظ بنفسه غيبة فقال: هي مرض خطير فيجب أن أراقب نفسي، فأنا أنقل حديثاً سيئاً لإنسان ما ورأى أنه يخطف بصره بعض المناظر في الطريق هي مخالفة.

ثمن السعادة هو أن تزكي نفسك في الدنيا :

هل عندك رقة مع الله وهل عندك ورع:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

((من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله تعالى بسائر عمله))

[مسند الشهاب عن أنس بن مالك]

(قَدْ أَفْلَحَ)

إنه فلاح مطلق ونجاح مطلق، الآن أنت إنسان عادي ولكنك عرفت الله فكأنك في الجنة:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

أنت مخلوق لتسعد بالله عز وجل لكن هذه السعادة لها ثمن وهو أن تزكي نفسك، متى؟ في الدنيا عن طريق الاختيار والمسؤولية والشهوات التي أودعها الله فيك، وعن طريق كل هذا الكون وهذا الفكر.

أكبر خسارة في الدنيا تبقى محدودة أما خسارة الآخرة فهي خسارة أبدية :

قال تعالى:

(وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

أي حبط عمله وشعر بالخسارة الكبرى، والإنسان في الدنيا قد يخسر ولكن أكبر خسارة تبقى محدودة أما خسارة الآخرة فهي خسارة أبدية. والآن ربنا عز وجل أراد أن يبين لنا صورة من صور الخسارة قال:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)

أي بطغيانها الباء للسببية لأنها كانت طاغية، والطغيان تجاوز الحد المعقول وتجاوز الحق:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)

طغت فكذبت، فالتكذيب ملازم للطغيان، فإذا تجاوز إنسان حده مع شريكه فلا بد أن يكذب بحقائق الدين، فما دام هناك طغيان فيحصل تكذيب، وإذا تجاوز حده مع زوجته فهو طغيان، ويخلق تكذيباً ويتجاوز حده مع زبائنه فكذلك:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)

ما هو هذا التكذيب؟

عقاب الاشتراك في القتل :

قال تعالى:

(إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

هؤلاء سألوا سيدنا صالحاً ناقةً تخرج لهم من الجبل وعلقوا إيمانهم على هذه المعجزة، وفي القرآن الكريم قانون وهو أن قوماً إذا طلبوا من نبيهم معجزة خارقة وتحققت ولم يؤمنوا استحقوا الهلاك. لأن هذا آخر سهم، ومعنى ذلك أنه لا رجاء من إيمانهم، فهؤلاء طلبوا ناقةً تخرج من الجبل، فمن فعل هذا فهو نبي، فلما خرجت هذه الناقة كذبوه وأرادوا أن يعقروها فقال الله عز وجل:

(إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا*فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)

أي احذروا أن تقتلوها فهذه ناقة الله:

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا)

فهل من المعقول إذا قوم سيدنا صالح قوم ثمود عددهم عشرة آلاف إنسان أن يشتركوا بقتل ناقة؟ لا، لكنهم رضوا بقتلها. وسيدنا عمر استنبط من هذه الآية، أن أهل قرية لو اجتمعت على قتل رجل واحد لقتلوا جميعاً به. الذي قتله واحد لكنهم دفعوه جميعاً، وهذا هو الاشتراك في القتل، فربنا عز وجل قال:

(إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

هو الذي عقر الناقة:

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا*فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا)

أي تآمروا على قتلها فاستحقوا الهلاك وهو آخر سهم.

العدالة في عقاب الله سبحانه :

قال تعالى:

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا*فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ)

هذا فعل ثنائي مضعَف مثل زلزل، قلقل، عسعس، جرجر، كل فعل ثنائي مضعَف فيه تكرار زلزل، عسعس، قلقل، القلقلة (دمَ) أي أهلك:

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ)

أي هلاك بعد هلاك، هلاك بعد هلاك متلاحق، زلازل متلاحقة، صواعق متلاحقة، براكين متلاحقة:

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ)

لكن القرآن الكريم مُعلل:

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ)

هناك عدالة:

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا)

أغادير مدينة على الساحل الأطلسي من أجمل المدن الساحلية ومن أفسق المدن دمدم عليها ربهم بذنبهم في ثلاث ثوان أصبحت حجراً فوق حجر، وبعد أسابيع جاءت الجرافات وسوتها، فجعلتها أرضاً مسواة.

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا)

الآن هناك فنادق وأبنية شاهقة أصبحت أرضاً مستوية.

للآية الأخيرة تفسيران :

قال تعالى:

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا*وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

فهذا الإنسان لا يخاف عقبى عمله، بعضهم فسرها أن الله سبحانه وتعالى أمره هو النافذ ولا أحد في الكون يحاسبه فهذا معنى، والمعنى الثاني هذا العاصي لا يخاف عقبى عمله، وهذا الزاني وشارب الخمر وآكل مال اليتيم والطاغي الذي يطغى على حقوق الناس لا يخاف عقباها عجباً له.

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا*وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

هذا مثل مجسد:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا*كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا*إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

لأنها طغت كذبت.

(إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

هو الذي عقر الناقة:

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا*فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا)

اشتراكهم في الإثم والرضا والدفع:

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا*وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الليل 092 - الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1-21 التيسير والتعسير.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-04-05

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى في السور المكيـة يقسم ببعض الآيات الكونية :

أيها الأخوة الكرام:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى*إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى*فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى*وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى*وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى*وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

الله سبحانه وتعالى في هذه السور المكيـة يقسم ببعض الآيات الكونية، وآية اليوم هي الليل:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

يغشى أي: يغطي، فالليل يغطي وجه الشمس، والليل يغطي النهار، والليل يستر كل شيء فلا ترى فيه شيئاً، ترتاح فيه طاقاتنا العصبية، وما منا واحد إلا ويعرف قيمة النوم، فلو بقي بلا نوم يومين متتابعين لاختل كيانه، واختل توازنه.

الليل نظام إلهي تسكن فيه الخلائق والنهار كذلك نظام إلهي ولكنه حركة وانطلاق

فالله سبحانه وتعالى جعل الليل سكناً، فحينما يُغشي الليلُ النهار، أو حينما يُغشي الليلُ ضوء الشمس، أو حينما يُغشي الليلُ كل شيء في أحد نصفي الكرة الأرضية عندئذ تسكن حركة كل شيء، فإن لم يكن ليل فماذا يحصل؟ تنقلب حياتنا إلى فوضى، فهذا نام عشر ساعات، وذاك بدأ يعمل، وهذا بدأ بالنوم عندما بدأ غيره بالعمل، وينعدم الزمن فكيف نحسب الأيام؟ لا ليل ولا نهار، ولكن ضياء مستمر، أو ظلام مستمر، تصوروا لو فقدت الأرض دورانها، ولو بقي الليل سرمداً إلى يوم القيامة، أو بقي النهار سرمداً إلى يوم القيامة فماذا يحصل؟ ينعدم الزمن، ولما عرفنا عدد السنين والحساب، ولما عرفنا أعمارنا، ولما عرفنا النظام، لاختلفنا على العمل وعلى ساعات العمل، ولكن الليل نظام إلهي تسكن فيه الخلائق، والنهار كذلك نظام إلهي، ولكنه حركة وانطلاق، قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً)

[سورة النبأ: 10-11]

النهار لكسب الرزق جعله مضيئاً وجعله واضحاً، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

فيا أيها الإنسان الكريم؛ يا أيها المؤمن: هل فكرت في هذه الآية؛ في الليل كيف أنه رحمة لنا، وأنه نظام لحياتنا، وسكنٌ لأعصابنا، وأنه آية من آيات الله على دوران الأرض حول نفسها، ولولا القمر لأصبح الليل أربع ساعات، إذاً الأرض والقمر وحجم الأرض وسرعة دورانها تسهمان في هذا التوقيت المناسب، فالليل ثماني ساعات، أو عشر ساعات، أو اثنتي عشرة ساعة، وهذا الوقت مناسب لراحة الأجسام، أيْ هو توقيت بين طاقة الإنسان وحاجته إلى النوم، وبين دورة الأرض حول نفسها، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)

الليل والنهار آيتان من آيات الله عز وجل :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((سُبْحَانَ اللَّهِ أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ))

[أحمد عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ]

لقد ظهر النهار، وظهر فيه كل شيء، وتوضحت معالم الأشياء، وتوضحت معالم الأرض، وتوضحت حاجاتنا، ودخل النور إلى بيوتنا فاستغنينا به عن ضوء الكهرباء وعن ضوء الشموع.

(وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)

وقد يقول قائل: لماذا كان (يغشى) فعلاً مضارعاً، والفعل (تجلَّى) ماضياً؟ لأن النهار هو التفات نحو الشمس، والشمس مضيئة دائماً، بينما الليل هو ابتعاد عن وجهها، أو دورة الأرض حول نفسها، حيث تأتي هذه النقطة معاكسة لضوء الشمس إذاً الليل يغشى، والفعل المضارع فيه معنى الاستمرار، ولكن الشمس ساطعة مشرقة دوماً، فإذا كانت هذه النقطة على سطح الأرض في الجهة المعاكسة كان الليل، أما (تجلَّى) فيعني أنّ الشمس ساطعة دائماً، فالليل والنهار آيتان من آيات الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

[سورة فصلت: 37]

ومن آياته أيضاً اختلاف الليل والنهار، اختلاف طولهما وثبات دورانهما، وهما أيضاً آيتان من آيات الله عز وجل.

الفروق بين الذكر والأنثى :

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

هذا النظام البديع في كون الخلائق كلها ذكراً أو أنثى بادٍ في هذه النطفة التي لقحت هذه البويضة، فلا يمكن أن تكون ذكراً أو أنثى إلا بها، فكيف أصبح الذكر ذكراً والأنثى أنثى؟ وكيف أصبح الرجل له صفات خاصة؛ بدءاً من هيكله العظمي، وله جمجمة كبيرة، وله حوض ضيق، وعضلات مفتولة، وصوت خشن، وشعر في أماكن خاصة لا ينبت لدى المرأة، وله شكل معين، وطباع معينة، وأجهزة معينة، وقدرات في فكره معينة، ونفسية معينة، وطموحات معينة، ويتقن أعمالاً معينة، والمرأة لها هيكل عظمي آخر، ارتفاع في الحوض، وصِغَر في الجمجمة، ولها أجهزة خاصة من أجل الحمل والولادة، ولها شكل خاص، وعضلات خاصة، لها توضُّع شحم خاص تحت الجلد، ولها نبرة خاصة، وعقلية خاصة، وطبع خاص، وطموحات خاصة، وأهداف خاصة، (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)، نطفة من مني يمنى، تلقح بويضة فإذا هما مخلوقان متباينان؛ ذكر وأنثى.

وفي بعض العلوم الحديثة تِبيان مُفصَّل للفروق الدقيقة بين الذكور والإناث؛ ذاكرة المرأة أقوى من ذاكرة الرجل، لكن محاكمة الرجل أقوى من محاكمة المرأة، والعاطفة تغلب على المرأة، بينما العقل يغلب على الرجل، واللحظة الآنية تغلب على المرأة، لكن الهدف البعيد يغلب على الرجل، والرجل يحب القيادة، بينما المرأة تحب أن تنقاد إلى زوجها، وهذا كلام عام، فلا يمنع أن ترى امرأة مترجلة، أو رجلاً مخنثاً، فهذه حالات خاصة، لكن الأصل في الزوجين أنهما متباينان في الطباع، والعادات، والتفكير، ونمط الحياة، ونمط السلوك، والنفسية، والرغبات، والطموحات، والشكل، والبنية، وفي الأعضاء.

الآية التالية تحتمل وجوهاً كثيرة في التفسير :

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

هذا المعنى الأول، وبعضهم فسر الذَّكَرَ وَالأُنْثَى، في هذه الآية أنهما آدم وحواء، والبشر كلهم انحدروا من هذين المخلوقين، وكلمة (ما) في الآية:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

تعني خَلْقَ الذَّكر والأنثى أيْ عظمة خلق الذكر والأنثى، ولكنّ المعنى الثاني، ومَنْ خلق الذكر والأنثى، فكأن الله سبحانه وتعالى أقسم بذاته، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

ومَن خلق الذكر والأنثى؟ ومن خطّط للذكر والأنثى؟ ومَن صمّم الذكر والأنثى؟ ومن ابتدع الذكر والأنثى على غير مثال سابق؟ وبعضهم قال: ومن خلق من ذكر وأنثى، والمقصود بمن هنا المؤمنون؛ الأنبياء، والصالحون، والصديقون، وكأن الله سبحانه وتعالى أقسم بعباده المؤمنين، وهذه الآية تحتمل وجوه كثيرة؛ أولاً: خلق الذكر والأنثى. ثانياً: ومن خلق الذكر والأنثى. ثالثاً: وما خلق من ذكر وأنثى، و(مِنْ) هنا للتبعيض، أي خلق مِن ذكر وأنثى صالحين، فأقسم بذاته، أو أقسم بعباده الصالحين، أو أقسم بهذه الآية الكبرى من آياته سبحانه.

والمجال يضيق عن التفصيل في الفروق بين الذكر والأنثى، وليس هذا منحصراً في الإنسان، لكنه ينسحب على الحيوان أيضاً، وعلى كل مخلوق ذو روح؛ ذكر وأنثى، فللذكر طباعه، وللأنثى طباعها. الناقة والجمل، الهرة وذكرها، طباع مختلفة، وهذا باب كبير من أبواب التفكير، لأن الفروق بين الذكر والأنثى لا على مستوى الإنسان فحسب بل على مستوى مخلوقات الله كافة. وربما ينسحب ذلك إلى النبات، فهناك نبات مذكر ونبات مؤنث، ولا تنعقد الثمرة إلا إذا تم التلقيح بين المذكر والمؤنث.

السعي في هذه الحياة هو نشاط الإنسان وحركته اليومية :

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

وهذه هي موضوعات القسم.

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

لكن أين جواب القسم؟

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

أي إن سعيكم في هذه الحياة هو نشاطكم، وحركتكم اليومية، انظر إلى الطرقات في الساعة الثامنة، وانظر إليها في الساعة الخامسة، تزدحم بالمارة، كلٌّ إلى عمله، وهذا إلى مكتبه، وهذا إلى دائرته، هذا إلى أرضه، وهذا إلى عقد صفقة، وهذا إلى بيع أرض، وهذا إلى شراء بيت، وهذا إلى قراءة كتاب، وهذا إلى اقتناء حاجة، وهذا إلى إقامة دعوى، وهذا إلى صلح، وهذا إلى تعلم آيات الله، وهذا إلى حفظ

القرآن، وهذا إلى حضور مجلس علم، وهذا إلى طلاق زوجته، وهذا إلى اغتصاب مال جاره، وهذا إلى الكيد برفقائه:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

ولو نظرت إلى الناس صباحاً في المدن المزدحمة لوجدت أنه ما من واحد منهم إلا وله مسعىً ونشاط يستقل به عن أخيه:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

سعي البشر متباين ومتفرق في نتائجه مختلف في حقيقته :

ولكن ربما لا يبدو هذا المعنى كافياً، لكونه جواباً لقسم:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

فلو قلت لكم مثلاً: واللهِ العظيم إنّ الأرض غير السماء، طبعاً الأرض غير السماء، واللهِ العظيم إنّ هذا غير هذا، طبعاً هذا شيء بديهي، فما المقصود إذاً من كلمة:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى *إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

قال بعضهم: إن سعيكم متباين متفرق في نتائجه، مختلف في حقيقته، هذه بديهة مُسلَّم بها لا يختلف فيها اثنان، لأن كل إنسان له في الحياة طريق، وله فيها مطلب، وغاية، ومبعث، ونية، ودافع، وحاجة، ونمط، ومعنى شتى أي مفترق، لكن الذي يريده الله عز وجل كجواب لهذا القسم العظيم:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى *إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

أي شتان بين سعي وسعي، وشتان بين عمل وعمل، وشتان بين اتجاه واتجاه، وشتان بين نشاط ونشاط.

آيات قرآنية تبين أن سعي البشر متباين :

قال تعالى:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

فسعي يودي إلى المشنقة، وبعدها إلى جهنم وبئس المصير، وسعي آخر يؤدي إلى عز الدنيا والآخرة، فهل يجتمعان؟ شتّان بينهما، سعي يؤدي إلى سعادة في البيت، وسعادة في الحياة، وسعادة بعد الممات، إلى ما لا يعلم إلا الله، إلى الأبد، وسعي آخر يؤدي إلى خزي في الحياة الدنيا، وإلى عذاب عظيم مهين

أليم، ثم إلى جهنم وبئس المصير، فهذا هو المعنى، أي إن هذا السعي غير ذاك السعي، فلا يجتمعان، بل لا يمكن أن يجتمعا في موازنة.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35-36]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة محمد: 14]

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر:9]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

ليس في الأرض إنسان يستحق أن يكون قبلتك :

هذا هو المعنى:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

أي لمختلف، وهذا الذي يبتغي مرضاة الله عز وجل، والذي يخشى الله، ويخاف مقام ربه، ويقول: هذا حرام، إني أخاف الله رب العالمين، معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، لا أفعل هذا ولو قطعت إرباً إرباً، فهل هذا الإنسان المنضبط المحب الخائف الذي يرجو رضاء الله عز وجل كالإنسان الذي يأكل المال من أي جهة ولا يعبأ أحرام هو أم حلال؟ ويبني مجده على أنقاض الآخرين، ويبني غناه على فقرهم، ويبني أمنه على خوفهم، فهل هذا مثل ذاك؟

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

لِيقيِّمْ كلُّ واحد نفسَه، ما الذي أبغيه من حياتي؟ يقيّم سعيه، إلى ماذا يسعى؟ إلى الدنيا الفانية التي تنتهي بالموت أم إلى آخرة باقية؟ أم يسعى إلى إرضاء إنسان ما، وليس في الدنيا إنسان يستحق أن ترضيه، وليس في الأرض إنسان يستحق أن يكون قبلتك.

هل تسعى لإرضاء إنسان مخلوق أم لإرضاء الخالق؟ هل أنت عبد لله أم عبد لعبد الله؟ هل تنضبط بالشرع أم تنضبط بالهوى؟ هل تحكم نفسك أم تحكمك نفسك؟ هل يقودك الهوى أم يقودك العقل؟

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

ليس ثمّة:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى *إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

في الأرض اتجاهان اثنان لا ثالث لهما :

لكن هذا الاختلاف ظاهر بين سعي الناس جميعاً، فإذا كان على الأرض ستة آلاف مليون إنسان، فهناك إذاً ستة آلاف مليون سعي، وستة آلاف مليون اتجاه، وستة آلاف مليون هدف، واللهُ سبحانه وتعالى أراد أن يصنف كل هذه الأهداف، وكل هذه النشاطات، وكل هذه الاتجاهات في طريقين اثنين لا ثالث لهما؛ فما هذان الطريقان؟ قال عز وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى*وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى*وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

لا يمكن أن يكون أحدنا إلا منضوياً تحت أحد هذين التصنيفين، فالطبيب يسعى لجمع المال، والتاجر كذلك، وكذا المهندس، والعامل، والصانع، والفلاح، وزارع الأرض، والموظف، ومن يملك مهنة راقية، وصاحب الخدمات، فاختلاف المهن كلها لها هدف واحد؛ أن تكسب منها رزقك، وهذا اختلاف كثرة ووحدة تنوَّع، وربنا عز وجل قال:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

مع أن السعي مختلف جداً، ولكن كل هذا السعي لا بد أن ينضوي تحت هذين الاتجاهين الكبيرين، ما هما؟

الإنسان خُلِق في هذه الدنيا ليعطي فاللهُ يعطينا لنعطي :

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

يا الله على روعة القرآن! أعطى ماذا؟ أغفل الله المفعول به:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

مطلق العطاء، مجرد العطاء، أن تعطي من مالك، وأن تعطي من وقتك، وأن تعطي من جهدك، وأن تعطي من خبرتك، وأن تعطي من رأيك، وأن تعطي من سمعتك، ومن مكانتك، وأن تعطي الناس:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

فأنت خلقت في هذه الدنيا لتعطي، فاللهُ يعطيك لتعطي، قال عز وجل:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

[سورة القصص: 77]

إنما أعطاك لتعطي، فعطاؤه من أجل العطاء لا من أجل أن تأخذ العطاء وتحرص عليه، فتمنعه عن الناس.

العطاء لا بد له من أساس وهو التقوى :

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

إنّ البلاغة في الإيجاز، وهذا إيجاز، ولنتصوّر غنيّاً أعطى ماله، وآخر خبرته، ورعايته، ووقته، وجهده، وعطفه، فقد تحتاج هذه الزوجة إلى عطف منك، ولو أنها لا تروق لك فلا بد من أنك تعطف عليها ولا بد أن تشعرها أنك تحبها أو تحترمها على الأقلّ.

أعْطَى، أعطى العفو، وأعطى المحبة، والمال، والوقت، والجهد، لك مكانة عند فلان، وأخوك المؤمن له عند فلان ذاك قضية، فاذهب إليه وارجُه أن يحلها لك، وعندئذٍ تكون قد أعطيتَ من وجاهتك.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

لكن هذا العطاء لا بد له من أساس وهو التقوى، أي اتقاء ما نهى الله عنه، والاستقامة على أمره، أعطى واستقام على أمر الله، اتقى أن يعصي الله، واتقى مغبة المعصية، اتقى أن يخرج عن أمر الله، وأيُّ العطاء من دون أن يتقي الإنسانُ معصية الله لا قيمة له، إنه ذكاء اجتماعي، إنه دفعة مقدمة يقبضها في الدنيا وليس له في الآخرة من خلاق، أعطى واتقى، والعطاء كالماء ينصب في برميل، أما اتقى فتعني الاستقامة، وكأنها قعر البرميل، فلو صببت على البرميل ماءً ولا قعر له فمتى يمتلئ البرميل؟ لن يمتلئ، إذْ لا بد من عمل صالح مبنيّ على الاستقامة، هذه الآية تلخِّص الدين بأكمله، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

صدِّقْ بالهدف العظيم النبيل الذي خلقت من أجله.

الهدف العظيم النبيل من كل مصيبة يسوقها الله عز وجل :

لقد خلقت لهدف نبيل، هو معرفة الله، خلقت للسعادة، وللرحمة، وللتنعم في جنة عرضها السماوات والأرض إلى الأبد، خلقت لهذا، فمن صدَّق بهذا الخبر العظيم واستقام على أمر مولاه العظيم وأعطى ممّا آتاه الله، فالجزاء إذاً:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

ما هي اليسرى؟ هو الشيء الذي يسرك بدءاً من لحظة التوبة وإلى الأبد، فإذا أعطيت واستقمت وآمنت فعرفت الله أولاً، واستقمت على أمره ثانياً، وفعلت الصالحات ثالثاً، فسوف ييسرك الله سبحانه وتعالى لليسرى في بيتك، وعملك، وصحتك، وزوجتك، وأولادك، ومكانتك، وكلما ازداد العمر يوماً ازددت سعادة وقناعة وتبصرة ومكانة وعلماً، فإذا جاء الموت بدأت السعادة الكبرى التي وُعِدت بها، وعند الموت يحس الإنسان أن كل عطاء أعطاه الله إياه في الدنيا ما هو إلا دفعة صغيرة من الحساب، دفعة تشجيعية.

إنّ الله سبحانه وتعالى يعطيك طرفاً من السعادة في الدنيا، فإذا غمرك بها قعدت عن طلب المزيد، فتأتيك بعض الأحوال اللطيفة، وبعض التجليات التي تنعشك، لكن إذا جاء الموت عرق المؤمن لشدة الخجل الذي ينتابه من عظم مكانته عند الله، وعظم ما أعد الله له، فإذا فُتِحتْ أحد أبواب الجنة يقول المؤمن: لم أرَ شراً قط في حياتي، ويرى كل هذه المصائب والمضايقات الذي ساقها الله له إنما من أجل أن يصل إلى هذا المقام، قال أحدهم للرسول الكريم: يا رسول الله ادع الله أن يرحمني، فقال عليه الصلاة والسلام: يا رب ارحمه، فقال الله عز وجل: كيف أرحمه مما أنا به أرحمه، وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده أو إقتاراً في رزقه أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه، هذا هو الهدف العظيم النبيل من كل مصيبة يسوقها الله عز وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

أيّما هدف على وجه الأرض لا يُحقَّق إلا بالله :

ليس هناك حظ، ولا أعطني حظّاً وألقني في البحر، هذا كلام فارغ، فلان يده خضراء، هذا كلام فارغ، لا يوجد إلا هذه الآية، فهو إما تيسير أو تعسير، والتيسير له أسباب، والتعسير له أسباب، وهذا هو قانون التيسير والتعسير، أو قانون التوفيق وعدم التوفيق، وبعض العلماء قال: آية واحدة لو عقلها الناس لكانت حياتهم غير هذه الحياة الضنك، قال تعالى:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

[سورة هود: 88]

أيُّ توفيق هذا؟ فأيُّما هدف على وجه الأرض لا يُحقَّق إلا بالله، وإلا إذا شاء الله.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

أي بهذا الهدف العظيم، وقال بعضهم: بالجنة، أو صدق بهدف الله من خلقه، خلقهم ليسعدهم، كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق وعرفتهم بي، فبي عرفوني، من صدق بهذا الهدف النبيل، واستقام على أمره، وعمل الصالحات تقرباً لله استحق اليسر، أليس هذا ممَّا يسرُّك؟ عبدي كن لي كما تريد أكن لك كما تريد، كن لي كما تريد ولا تعلمني بما يصلحك. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمّاً وَاحِداً هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

((من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس))

[الديلمي عن قدامة بن عبد الله بن عمار]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ))

[ابن ماجه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

قانون التيسير :

اليسرى في العمل، واليسرى في الزواج، واليسرى في الصحة، واليسرى مع الأولاد، واليسرى مع الجيران، واليسرى مع المستقبل، فهناك أشخاص يخافون المستقبل، لا، فسنيسره لليسرى، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا من خير، لا تقلقوا، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إن لم تتغيروا فلن يغير الله، هذا قانون التيسير، لا يوجد زهر ولا أحجار نرد. لقد قلب له الدهر ظهر المجن، هذا كلام شيطاني، أيُّ دهر هذا؟ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

((يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ويقولون أيضاً: سَخِرَ القدر منه، أيْ قدُرُ الله عز وجل، لا إله إلا الله، هذه مصيبة حقاً، فهم يقولون على الله ما لا يعلمون، يقولون: أثر عليه السحر، أيّ سحر؟ ألقوا الماء في طريقه فسحروه، هذه كلها

خرافات ما أنزل الله بها من سلطان، لا شيطان، ولا جن، ولا إنس، ولا سحرة، ولا طقوس، ولا كتابات، ولا تشاؤم، يوم الأربعاء يتشاءم الناس منه، ورقم ثلاثة عشر كذلك يتشاءم الناس منه. لا رقم، ولا يوم، دخل شخص المحل وقف البيع، أو أنّ البيعة ألغيت، ويتشاءم صاحب المحل من هذا الرجل، هذا غلط، كله جهل بجهل، اقرأ حظك هذا الأسبوع، برج الحمل لك عدو بالمرصاد، أيُّ عدو هذا؟

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

هذا توفيق من الله وهذه أسبابه، أو هذا تعسير وهذه أسبابه، فاليسرى ما يسرك في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

البخل وأشكاله :

قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

ما دمتُ بخير فالناس لا يعنونني، لا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به))

[رواه الطبراني والبزار عن أنس]

واسمع الحديث الثاني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمس ناصحاً لله ورسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم))

[كنز العمال عن حذيفة]

هذا هو القرآن الكريم:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

بَخِلَ بماله، بَخِلَ بوقته، فلماذا خلقت في الدنيا؟ أو بَخِلَ بخبرته، يخاف أن يعطي الخبرة لصانع فينافسه في العمل، فيبخل عليه ولا يعلمه، إذاً بَخِلَ بالعلم، بَخِلَ أن يكلم فلاناً من أجل فلان، وبَخِلَ بجاهه، وبَخِلَ بكل شيء، و(بَخِل) من دون مفعول به، مطلقة، فمجرد البخل والإمساك والحرص، وأندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، فهؤلاء هم البخلاء.

معنى كلمة (استغنى) :

قال تعالى:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر: 9]

إنّ الذي نجى من مرض البخل فهذا من المفلحين، (وأما من بَخِلَ)، مطلقاً، هناك شخص تستشيره بشيء يقول لك: لا أعرف، تعال إلى المكتب، لا يستطيع أن يتكلم إلا في المكتب لأن هناك أجرة.

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

فلا رازق إلا الله، ومعنى اسْتَغْنَى أيْ استغنى بما عنده من مال عن رحمة الله، واستغنى بالشهوات عن الآخرة، واستغنى بنظرية ابتدعها عمَّا قاله الله عز وجل في كتابه، واستغنى بتقاليد وعادات جاهلية عن سنة النبي المطهرة، ثم استغنى بنفسه عن ربه:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

(أعْطَى) يقابلها (بَخِلَ)، (وَاتَّقَى) استقام على أمر الله ويقابلها (اسْتَغْنَى)، استغنى عن هذا الشرع، تقول له: هذا حرام، فيقول لك: تكلم كلاماً واقعياً، ولا يعبأ بالشرع، ولا يعبأ أكان هذا الدخل حلالاً أم حراماً، فاستغنى عن رحمة وتجليات الله، واستغنى عن الآخرة عن الجنة، واستغنى عن توفيق الله، وعن حفظ الله، وعن رعاية الله، فكلمة (اسْتَغْنَى) مطلقة أيضاً.

اليسرى وعد والعسرى وعيد :

قال تعالى:

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

فلم يرَ إلا الحياة الدنيا، أما ما وعد الله به المؤمنين في جنة عرضها السماوات والأرض فهذه كذَّب بها، قال لك: أنا إنسان واقعي، ليس بحالم ولا غيبي، أما هذا العطاء الكبير الذي وعدنا الله به فقد كذّب به، الحسنى الجنـة:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس: 26]

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى*وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

هذا كلام الله خالق السماوات والأرض، فإنْ وجدت شخصاً بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، وكانت أموره ميسرة، وهو سعيد في حياته، فهذا شيء مستحيل، فما دام قد بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فلا

بد أن تكون أموره معسرة من سيِّئ إلى أسوأ، قد يعطيه الله المال ويضيق عليه، قد يعطيه اللهُ المالَ، ويشقيه نفسياً، قد يعطيه الله الصحة ويجعله قلقاً، فلا بد من شقاء، ولا بد من العسرى، ولا بد أن تجري الأمور على غير مراده، وعلى عكس ما يشتهي، ولا بد من الضيق، والضياع، والخوف، والذعر، والسأم، والضجر.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

هذا وعد إلهي، فاليسرى وعد والعسرى وعيد.

لا قيمة للمال يوم القيامة :

هذا الذي تنكّب الحقَّ وأدار ظهره له لماذا؟ إنه يبتغي الدنيا، والدنيا عنده ممثلة بالمال، ولماذا المال، ولماذا لم يختر ربنا إلا المال؟

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

لأن المال هو القيمة المطلقة للأشياء، فبالمال تشتري بيتاً، وتتزوج، وتسافر، وتقتني سيارة، ويعظمك الناس، وتأكل أشهى الطعام، فالمال قيمة مطلقة، فإنْ أُعطِي الإنسان مبلغاً ضخماً حَلَّ كل مشاكله به:

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

كن هذا المُعرِض لا يغني عنه ماله إذا جاء الموت، فأين ماله؟ هذه الأموال الطائلة، وهذه البيوت، وهذه الوسائل المريحة في بيته إذا جاء ملك الموت ماذا تنفعه؟ هل غير القبر أمامه؟ وهل غير المثوى الأخير أمامه؟ وهل له غير هذه الحفرة الصغيرة؟

ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا رأى أن العبد انقضى رزقه، وانقطع أجله، ألقى عليه غم الموت فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والصارخة بويلها، فيقول هذا الملك: فيم الفزع، وممَّ الجزع؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً؟ وإنّ لي فيكم عودة، ثم عودة حتى لا أبقي فيكم أحداً، فو الذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم، فإذا حمل على النعش رفرفت روحه فوق النعش، تقول: يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حلّه وفي غير حلّه، فالهناء لكم والتبعة عليَّ.

يقف عبدان يوم القيامة بين يدي ربهما، فيقول للأول:

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله له: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك

قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله له: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

الغنى والفقر بعد العرض على الله :

إن الغنى والفقر بعد العرض على الله.

((يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة فريق جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حلال، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، فيقال: قفوه واسألوه.))

[ورد في الأثر]

فهذا يحاسب، هل تاه بماله على عباد الله؟ وهل أنساه المال فرض صلاة؟ وهل قال جيرانه: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا، وقد قصر في حقنا.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ* يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ* خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة: 25-33]

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

أشد الناس ندماً يوم القيامة :

الأصدقاء ثلاثة؛ صديق يتركك عند البيت، وصديق على شفير القبر، وصديق يدخل معك في القبر، أمّا في البيت فالأهل، والنساء، والأموال، مكتبه، بيته، فراشه الوثير، مكتبته الغنية، مكتبه التجاري، سيارته الفارهة، كل هذا يتركه، يسير معه أولاده الذكور، ويودعونه على شفير القبر، ولا يدخل معه في القبر إلا عمله، فلذلك إن كان كريماً أكرمه وإن كان لئيماً أسلمه، كل ذلك بحسب عملك، لذلك في أول ليلة

يبيت فيها العبد في القبر يقول الله عز وجل: عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

هذا المال لمن؟ إنّ أندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، وأندم الناس من باع آخرته بدنيا غيره أو بدنياه، فأما من باع دنياه بدنيا غيره فهو أشد الناس ندماً.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى* إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

لكن الإنسان مخير، لأنّ الله يبين له الطريق الصحيح وأنت حر، ولكنك إذا أعرضت عن الله عز وجل واخترت الضلال:

(وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى)

الدنيا والآخرة بأيدينا خَلْقاً وتصرُّفاً.

الدنيا والآخرة خلقاً وتصرفاً وتسييراً بيد الله سبحانه :

أحد الخلفاء وهو في الحرم المكي سأل عن عالم كبير، فقيل له: هذا فلان أبو حازم، قال له: يا أبا حازم، سلني كل حاجتك؟ فقال له: واللهِ إني لأستحيي أن أسأل في بيت الله غيرَ الله، فلما التقى فيه خارج الحرم، قال له: يا أبا حازم سلني عن حاجتك، قال: واللهِ ما سألتها من يملكها، أأسألها من لا يملكها، فلما أصر عليه قال: حاجتي أن تنقذني من النار، قال: هذه لا أملكها، فقال له: إذاً حاجتي ليست عندك.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

ابتغوا الرفعة عند الله، إنّ شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[أبو الشيخ عن أبي الدرداء]

من اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله، ومن اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

إنّ الدنيا والآخرة خلقاً وتصرفاً وتسييراً بيد الله، وهذا الذي أعرض عن الله لا يزال في قبضة الله وهو لا يشعر:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفْنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

سبعة أشياء تنتظر المعرضين؛ لا بد من غنىً مُنْسي، أو فقر يطغي، أو مرض يفسد الحياة، أو هرم يضعف الشخصية، أو موت ينهي الحياة، أو الدجال، أو الساعة.

الله تعالى لا يسأل عما يفعل سكوت القناعة واليقين بعدالته لا سكوت الخوف من جبروته:

قال تعالى:

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

أنتم أحرار، وأنتم مخيرون لذلك:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

فقط، هم قوم جاءهم أنبياء، وكتب، ودعاة، وحقٌّ مبذول للناس جميعاً:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى*وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى)

ربنا سبحانه وتعالى في آخر السورة يقول:

(فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى)

هذا كلام خالق الكون، أي يا مَن أعرض عن الله، ويا مَن تنكب طاعة الله، وأدار ظهره للحق، وتعلق بالدنيا، وجعلها أكبر همه، ومبلغ علمه، ونسي الآخرة:

(فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى)

لكنه ليس كما يقول بعض الجهلاء من أن الله عز وجل لا يسأل عما يفعل، قد يطيعه العبد طوال حياته ثم يضعه في جهنم، هذه الآية لها معنى آخر، لفرط عدالته لا يسأل عما يفعل، سكوت القناعة والرضى واليقين بعدالته لا سكوت الخوف من جبروته، والدليل هذه الآية الثانية:

(لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)

لو كان الله يدخل الطائع النار لكانت هذه الآية غير صحيحة:

(لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)

حصراً، والشقي الذي شقي ببُعده عن الله، والذي شقي بالانحراف والسقوط في وَحَلِ الدنيا، والذي شقي بهواه وشقي بالدنيا، الأشقى الأشد شقاوة، الأشقى هو الذي يصلى النار.

الأشقى له صفتان صفة عقلية وصفة نفسية :

من هو الأشقى؟ الأشقى له صفتان، صفة عقلية، وصفة نفسية، فالذي كذب وتولى، فبعقله كذب الحق، وبنفسه اتجه إلى الدنيا وأدار ظهره للحق، فوصْفُ الله له بليغ، جاء بكلمتين:

(الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

والتكذيب نوعان؛ تكذيب لساني، وتكذيب سلوكي، والتكذيب السلوكي أخطر، أمّا اللساني فأنْ تقول: ليس هناك آخرة، أنا لا أؤمن بالآخرة، فهذا تكذيب باللسان، لكن الذي يقول: أنا أؤمن بالآخرة، ولا يسعى لها، وفي الأثر: قيل لأحد الناس: هل عرفت الرب؟ فقال: ما شاء الله، قال: فماذا صنعت في حقه؟ ما الموقف العملي الذي وقفته من أجل الله، شخص مريض مرضاً شديداً، وعرف الدواء، فماذا يفعل؟ هل يبقى مكتوف الأيدي؟ إذاً إما تكذيب باللسان، وهذا نادر في العالم الإسلامي، فلا تجد في المليون واحداً يقول لك: ليس هناك آخرة، هذا التكذيب نادر جداً، ولكن التكذيب الشائع أنك تقول: هناك آخرة ولا تعمل لها، هناك جنة ولا تسعى لها، هناك نار ولا تتقيها.

إذا زرت طبيباً، وكتب لك وصفة، وأثنيت على علمه، ولم تشترِ الدواء، فعدم شرائك الدواء دليلُ عدم ثقتك بعلمه، ومهما أثنيت عليه بلسانك فقد أخذت موقف التكذيب، لأنّ المرض موجود، والآلام حاصلة، ومعك وصفة دواء، ولم تشتره، بل ذهبت إلى طبيب آخر.

معنى ذلك أنك تكذب علمه عملياً لا قولياً، وقد تكون لبقاً معه، فتقول له: أنت من أندر الأطباء، والمعول عليه ألاّ تكذّب بالآخرة عملياً، قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً)

[سورة الإسراء: 19]

لها سعي خاص، فالذي كذب وتولى هو الأشقى، وهو الذي يصلى النار.

المحسن يخلف الله عليه أضعافاً مضاعفة والممسك يتلف الله ماله :

قال تعالى:

(وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى*الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)

فهذا هو الذي عرف الله عز وجل، وأراد التقرب إليه، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً))

[متفق عليه وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فالمحسن يخلف الله عليه أضعافاً مضاعفة، والممسك يتلف الله ماله، وما أكثر الوسائلَ التي يتلف اللهُ بها المالَ، أخطاء صغيرة تدفعك إلى دفع مئات الألوف، فالمفلح هو:

(الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)

قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

[سورة التوبة: 103]

لكن هذا العطاء ليس رداً للجميل، قد يفرح شخصٌ إذا قدم لك هدية، وبعد حين رُزِقَ مولوداً، فذهبت إلى السوق، وبحثت عن هدية وقدمتها له ردّاً لجميل سابق، فهذه الهدية لا تدخل في هذه الآية، لأن العطاء الصحيح مَصْدَرُهُ:

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى)

لم يكن هذا العطاء رداً على عطاء سابق، كلا، إنما هو مبادرة وابتداء، وما لأحد عند هذا المعطي من نعمة تجزى:

(إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى*وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

الدنيا دار عملٍ والآخرة دار جزاء :

إنّ المؤمن في الدنيا تحت المعالجة، قد يُحمِّله اللهُ أكبرَ عبء ممكن، حتى يُكسبَه أكبر أجر ممكن، ويعطيَه أكبر سعادة ممكنة، لذلك الإمام الغزالي لخَّصها بقوله: ليس بالإمكان أبدع مما كان، وقال بعضهم: " اللهم لا تخفف حملي ولكن قوِّ ظهري"، فإن خُفِّف حملُك قلَّ أجرُك، إذاً لم يُخفِّف الحملَ، ولكنه أعطـاك قوة لتحمل هذا الحمل، والإنسان في الدنيا في فترة معالجة، ودفع، وتشويق، وتطهير، وتعطير، لكن في الآخرة فترة سعادة كبرى، فَسَمَّوا الدنيا دارَ عملٍ، والآخرةَ دارَ جزاء.

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى* إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى*وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

قال: يا رب هل أنت راض عني؟ فقال: يا عبدي هل أنت راض عني حتى أرضى عنك؟ فلا بد من أن ترضى، إذا رآك يئست أعطاك، وعطاءُ الله حكيمٌ، وإذا غلب عليك اليأس طمأنك قليلاً، وتسترخي وتقعد عن طلب المزيد فيثيرك إلى أن تطلب الأعلى، والدنيا كلها مُعالجة، وأما الآخرة فهي دار نعيم واستمتاع، ربنا عز وجل يعلم ماذا أعدّ لعباده الصالحين من خيرات لا يحصيها اللسان؛ جنة عرضها السماوات والأرض، ونعيم مقيم في جنات وهم مكرمون، لذلك قال سبحانه:

(وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

فلا بد من أن ترضى رضاء لا يوصف، أما الآن فأنت في المعالجة، إذا دخل طالب كلية الطب، والمنهاج كبير، ولغات أجنبية، وتشريح، والدوام ثلاث وأربعون ساعة، وعملي ونظري، ومذاكرات، وأطروحة، لكن بعد أن يتخرج، ويكون في العيادة خمسون شخصاً، وكلُّ شخص معاينته بمئتي ليرة، خمسة آلاف ليرة تقريباً في اليوم.

(وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

الإنسان في الدنيا في دار تكليف وفي هو في الآخرة في دار تشريف :

أما الآن فهو لا يرضى بمتاعب كثيرة، هذا مثلٌ واضح، ولله المثلُ الأعلى، إذا درس شخصٌ دراسات عليا، وتعب ونال شهادة عليا، ثم في وقت قليل يأخذ أرباحاً ضخمة، هذا نمط، فالإنسان في الدنيا يتعب، ويتعرف إلى الله، ويجلس ساعات على ركبتيه ليعرف الله عز وجل، وساعات ليقرأ القرآن، ويمشي مع أخيه ساعات يبتغي مرضاة الله عز وجل، فكأن الله يقول له:

(وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

لا بد أن ترضى، لكنك الآن في دار عمل، والجامعة مكان غير مريح، والمقعد غير مريح، لكن بعد التخرج كلُّ شيء مريح، فهذه كلها أمثلة، والدنيا كذلك، هي دار عمل، دار تكليف، والآخرة دار تشريف، ولو فرضنا أنّ طالباً أخذ الدرجة الأولى على مستوى القطر، فأمامه حفلة تكريم، وهدايا، ورحلة، وسياحة، فهو الآن يتشرف، أما قبل هذا فقد كان مكلفاً بالدراسة، فالإنسان في الدنيا في دار تكليف، وفي هو في الآخرة في دار تشريف، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فكلُّ الخير مدخَّر لك في الآخرة.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

الرصيد يوم القيامة، أما في الدنيا فهي دفعات على الحساب، وإذا صرت في يأس أتتك دفعة على الحساب فتنتعش فيها، وتميل إلى الدنيا فتأتيك مشكلة، فتندفع بها إلى الله عز وجل، ثم تسترخي فتأتيك مشكلة ثانية، وهكذا إلى أن تستقيم وجهتك إلى الله عز وجل.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

إنّ الدنيا دار عمل:

(وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

وسيطالعنا في سورة قادمة:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى: 5]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الضحى 093 - الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 - 11 آيات دالة على عظمة الله ومشاعر تنتاب المؤمن.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-04-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب نزول سورة الضحى :

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة الضحى، وهذه السورة لها مكانة خاصة لأنها متعلقة بالنبي عليه الصلاة والسلام، وقد تتعلق بكل مؤمن له تجربة مع الله عز وجل من نوع تجربة النبي عليه الصلاة والسلام، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما أنزلت هذه السورة قال: الله أكبر، لذلك بعض قراء القرآن الكريم يقولون حينما يقرؤون هذه السورة: الله أكبر، بسم الله الرحمن الرحيم:

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*)

ولد النبي عليه الصلاة والسلام بمكة المكرمة، فرأى مجتمعاً فاسداً وثنياً، يأكل القويُّ منه الضعيفَ، يأتي الفواحش، ويقطع الرحم، ويسيء الجوار، ويعبد الناس بعضهم بعضاً، ويعبدون آلهة ما أنزل الله بها من سلطان، ففكر في هذا المجتمع الفاسد، وفكر في هذه الأوثان، وفي تلك الأصنام، فرأى أنها باطل في باطل، ففكر في خلق السموات والأرض، ونظر في ملكوت الله فعرف ربه. وحينما كان طفلاً صغيراً كان أصدقاؤه يدعونه إلى اللهو فيقول: لم أُخلق لهذا، وكأنه في صغره صلى الله عليه وسلم عرف المهمة الكبيرة التي أنيطت به، فعبد الله عز وجل السنوات الطويلة، وكان في غار حراء يخلو الليالي الطويلة، وَمَن منا يستطيع أن يذهب إلى رأس جبل فيقبع في مغارة أياماً بلياليها، فكم أنسه بالله شديداً.

وما زال يعبد الله عز وجل ويفكر في ملكوت السموات والأرض، ويتقرب إليه بالعمل الصالح، ولا يعرف من هو، ولا ما سيكون، ولا من سيكون، ولا أنه سيكون نبياً، ولا رسولاً، ولا أنه سيد خلق الله، كل هذا لا يعرفه، ولما بلغ الأربعين وقد عرف الناس صدقه وأمانته وعفافه وطهارته ونسبه، جاءه الوحي، قال تعالى له:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[سورة العلق: 1]

قال: ما أنا بقارئ، فقال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

[سورة العلق الآية: 1-5]

جاءه الوحي فكان هذا الوحي غذاءً لروحه، عرف أنه مشمول بالعناية الإلهية، وأنه مقصود بالرعاية الربانية، وعرف أنه مصطفى، وأنه مقرب إلى الله عز وجل، وعرف الطريق لهداية الناس، بعثه الله نبياً ورسولاً، فبدأ يدعو قومه، وبدأ الوحي ينزل عليه، وفجأة انقطع عنه، وبانقطاع الوحي أصابه غم وحزن شديد، وشعر أن الله تركه وكأنه قلاه، وتخلى عنه، فجاءت هذه الصورة مبدوءة بقوله تعالى:

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

من شدة فرحه صلى الله عليه وسلم حينما جاءه جبريل بعد انقطاع طويل قال: الله أكبر، فرحاً بالوحي المتجدد، وبرحمة الله المستمرة، وبمكانته الثابتة.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

* * *

هذه السورة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل مؤمن له مع الله تجربة :

هذه السورة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكل مؤمن له مع الله تجربة، يعبده، ويطيعه، ويحبه، ويتفانى في خدمة خلقه، ويصلي له، ويتهجد له، فإذا أصابته جفوة، وأنكر قلبه، وشعر أن صلاته شكلية، وأن إقباله على الله أصبح صورياً، ضاق بالدنيا وضاقت به الدنيا.

فأحبابنا اختاروا المحبة لنا مذهباً و ما خالفوا على مذهب الحب شرعنا

فما حبنا سهل وكل مـــن ادعى سهولته قلنا له قد جهلتـــنا

فأيسر ما في حب الصب قتـله وأصعب من قتل الفتى يوم هجـرنا

* * *

إذا كان المؤمن قد عوده ربه على الصلة به، والتجلي على قلبه، والسعادة بقربه، ثم انقطعت عنه هذه الأحوال، وأنكر قلبه، ثم عادت له تلك الصلات، وتلك الأحوال، وتلك القربات يكاد قلبه يطير فرحاً. هذا الذي يحصل لبعض المؤمنين بشكل بسيط جداً إذا قيس بما حدثَ لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرب شديد إثر نزول الوحي من جديد، فربنا سبحانه و تعالى يقول:

(وَالضُّحَى)

يقسم بالضحى أي يقسم بالنهار، وإن أجمل ما في النهار وقت الضحى، لا تنظروا إلى الضحى في المدينة، فالمدينةُ شوَّهت الضحى، وشوهت الليل، ولكنك إذا خرجت إلى أماكن بعيدة عن المدينة حيث

الطبيعة الجميلة، وحيث الجبال الخضراء، وحيث الأشجار والعصافير، فإذا ذهبت إلى هناك، ووقفت في وقت الضحى تذوقتَ معنى قول الله عز وجل:

(وَالضُّحَى)

أي أجمل وقت في النهار ليس شديد الحر بل يجمع بين برد الليل وضياء النهار.

(وَالضُّحَى)

أقسم الله سبحانه وتعالى بالضحى.

في الكون اثنينية واللهُ هو الواحد :

قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

أيْ إذا سكن، وأجملُ ما في الليل سكونُه، وأجملُ ما في النهار ضُحاهُ، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: يا محمد، والضحى الذي يمثل فضلي، وعطائي، وجمالي، ولطفي، والليلِ وما فيه من سكون وهدوء وراحة وسكينة، والضحى والليل، وكيف أن الضحى لا تعرف قيمته إلا بالليل، وكيف أن الليل لا يُعرَف سكونه إلا بضجيج النهار وصخبه، واللهُ سبحانه وتعالى خلق من كل شيء زوجين اثنين، فهناك الليل والنهار، والحر والقر، فلولا البرد لمَا عرفنا قيمة الحر، ولولا الحر لمَا عرفنا قيمة البرد، وهناك الحلو والمر، والخير والشر، والحق والباطل، والأمانة والخيانة، والشجاعة والجبن، ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين، وكأن في الكون اثنينية، واللهُ هو الواحد.

(وَالضُّحَى *وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

إنّ الله سبحانه وتعالى أقسم بهما لنبيه المصطفى مؤكداً له أن صاحب هذا الفضل العميم، وصاحب هذا الجمال الأخّاذ، وصاحب هذا اللطف المستديم لا يمكن أن يتركك، لا يمكن أن يتخلى عنك، لا يمكن أن يدعك بلا وحي، لا يمكن أن يأخذ بيدك في أول الطريق ثم يتركك.

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

اطمئن يا محمد، اطمئن إلى مكانتك عندي، واطمئن إلى أن هذا الوحي لن ينقطع، وإلى أنك معنيٌّ بلطفنا.

نعمة القرب من الله سبحانه :

قال تعالى:

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى*)

كذلك حال المؤمن، فبعضهم وقع من غير قصد في مخالفة فأنكر قلبه، وانقطعت صلته، وتوجس خيفة، وخاف أن يعاقبه الله عز وجل، وانتظر العقاب فلم يحدث له شيء، وقف يصلي، وناجى ربه في صلاته، وقال: يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي.

أحياناً تنقطع الأحوال، وتنقطع الصلة، وينكر المرء قلبه لا لذنب اقترفه ولكن لحكمة إلهية، ومن هذه الحكمة أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعرفه بتلك النعمة العظمى نعمة القرب، ولا تعرف هذه النعمة إلا بزوالها ولو مؤقتاً، من ذلك أن الله سبحانه وتعالى إذا قطع تجليته على عبده المؤمن، ضاقت عليه الأرض بما رحبت.

ومن حكمة الله عز وجل أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعرِّف عبده أن نعمة القرب عظيمة عند هذا العبد، فلذلك عندما انقطعت صلته بالله عز وجل لم يحلُ له شيء، ولم يطمئن إلى شيء، ولم يرُق له شيء، لأنه فقَد حبيبه.

إنّ الطفل الصغير إذا ضيع أمه في الطريق لن يصرفه عن هدفه الألعاب التي نثرت في الواجهات، ولا الأطفال الذين حوله، لأنه فَقَدَ أمَّه، وهو يبكي، ولا يريد إلا أمه.

هذه السورة كما قلت قبل قليل خاصّة برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنها بالتبعية لكل مؤمن له مع الله أحوال، وله صلته بالله، وله من الله تجليات على قلبه، وله من الله سعادة إذا غابت عنه وانقطعت وأنكر قلبه، فإنه يتفاعل مع هذه السورة وكأنه معنيٌّ بها.

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

كأنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يجمع بين تلك الآيات الدالة على عظمته وبين المشاعر التي تنتاب المؤمن.

من كانت له عند الله مكانة وصلة وإقبال فهذا هو أثمن ما في الوجود :

هل يعقل يا حبيبي أن يكون فضلي عميماً، وأدعك في منتصف الطريق؟! هل يعقل ممَّن خَلَق الضحى، والليل إذا سجى، وما فيه من رقة وجمال وفضل ونعمة، هل يعقل لهذا الخالق العظيم أن يدعك وشأنك، وأنت المحب وأنت الوفي؟!

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

معنى (ما ودَّعك)، في قراءة (ما وَدَعك) بمعنى ما تركك، ومعنى قلى أي: ما أبغضك الله عز وجل، ماذا فعلت؟ فكلك إحسان للمخلوقات، وحرص على طاعة الله، وكلك شوق إلى صلة الله عز وجل:

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

من ذاق عرف، ومن كانت له عند الله مكانة وصلة وإقبال فهذا هو أثمن ما في الوجود، وما سوى ذلك سراب بقيعة.

فليتك تحلو و الحياة مريــرة وليتك ترضى والأنام غضـاب

وليت الذي بيني وبينك عامـر وبيني وبين العالمين خــراب

إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تــراب

*** * ***

هذه أحوال المؤمن، إذْ لا بد له من صلة بالله عز وجل، ومن ساعة يرقى بها إلى الله عز وجل، ومن ساعة يناجي فيها ربه، ويمرغ وجهه في عتبة بابه عز وجل، ولا بد للمؤمن أن يكون متذللاً لله عز وجل.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيــها

*** * ***

فلو شاهدت عيناك من حسـن نا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

و لو نسمت من قربنا لك نسمة لمتَّ غريباً واشتياقاً لــقربنا

ولو لاح من أنوارنا لك لائـح تركت جميع الكائنات لأجــلنا

فما حبنا سهل و كل من ادعى سهولته قلنا له قد جـــهلتنا

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـا فإنا منحنا بالرضى من أحـبنا

ولذ بحمانا واحتمِ بجنابـــنا لنحميك مما فيه أشرار خلـقنا

*** * ***

عظمة الكون تدل على كمال الله عز وجل :

إنّ التدين من دون هذه الأحوال جسد بلا روح، ومعرفة أحكام الدين من دون إقبال على الله عز وجل جسد بلا روح، وحينما فهمَ الدين أنه عبادات فقط، وأعمالاً تؤدَّى من دون محبة لله ورسوله، ومن دون إقبال على الله والتفات إليه واتصال به، ومن دون هذه التجليات التي تغمر قلب المؤمن فيذوب لها، فمن دون هذا كله أصبح الدينُ جسداً بلا روح. ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له.

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

من هاتين الآيتين اللتين أقسم الله بهما، ومن جواب القسم يتضح أن عظمة الخلق تدل على عظمة الخالق، وأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف.

إنّ عظمة الكون تدل على كمال الله عز وجل، وليطمئن الإنسان إلى الله عز وجل، فإنّ الله سبحانه وتعالى لن يتر المؤمنين أعمالهم، ولن يضيعهم، والعاقبة للمؤمنين، والعاقبة للمتقين، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم، قال الله تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي)

[سورة المائدة: 12]

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 160]

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

المؤمن مطمئنأن الله سبحانه وتعالى لن يصيبه إلا بما كتب له من الخير :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة: 54]

ليطمئن المؤمن المستقيم ذو العمل الطيب إلى مكانته عند الله عز وجل، ليطمئن أن الله سبحانه وتعالى لن يصيبه إلا بما كتب له من الخير، قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

وليطمئن إلى قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

وعود الله سبحانه وتعالى للمؤمنين :

ليطمئن إلى وعد الله عز وجل، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أوفى بعهده من الله، وليطمئن إلى قوله تعالى:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف: 32]

وليطمئن إلى قوله تعالى:

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

[سورة آل عمران: 158]

ليطمئن إلى أنّ الله سبحانه وتعالى هو كل شيء، فمن عرفه فقد عرف كل شيء، ومن لم يعرفه فقد ضل عنه كل شيء، واللهُ سبحانه وتعالى أحَبُّ إلينا من كل شيء.

ابن آدم اطلُبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، لتطمئن أيها إلى أن الله سبحانه وتعالى إذا كنت له كما يريد كان لك كما تريد.

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

ما ودعك أي: ما تركك في نصف الطريق، وما دام قد أخذ بيدك إلى أول الطريق فلا بد أن تكون في نهاية الطريق.

الله تعالى يطلب من عبده أن يتعَلّق بالآخرة ويعمل لها فهي خير له من الأولى :

قال تعالى:

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى* وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

هذه الكلمات واضحة، ولكن مع هذه الكلمات إيحاءات، فهل شعرتَ أيها الأخ الكريم بهذه الإيحاءات؟ إنّ الله سبحانه وتعالى في عليائه، رافع السموات بغير عمد، من بيده ملكوت السموات والأرض يقول لك: يا عبدي وللآخرة خير لك من الأولى، فتعلّق بالآخرة، واعمل لها فهي خير لك من الأولى، قل متاع الدنيا قليل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

[سورة التوبة: 38]

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى)

[سورة النساء: 77]

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

[سورة النساء: 78]

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[سورة القصص: 60]

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا؟ فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا، فإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، وإن الله يحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، وإن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة.

الدنيا لمن يسعى لها والآخرة للمتقين :

فهل أنت يا أخي الكريم مصدِّق قول الله عز وجل:

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

فهل ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا؟ دخل سيدنا عمر رضي الله عنه على سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم فرآه مضجعاً على حصير وقد أثر في خده الشريف، فبكى عمر، فقال: يا عمر ما يبكيك؟ فقال سيدنا عمر وقد هاله الموقف: رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير، فقال: يا عمر إنما هي نبوة وليست ملكاً، أنا لست ملكاً ولكنني نبي، أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا.

أما يرضى أحدنا أن تكون له الآخرة ولو كان في الدنيا معذباً، لأن الدنيا زائلة، أما يرضى أحدنا أن تكون له جنة عرضها السموات الأرض ولو كان دخله في الدنيا محدوداً، ولو كانت الوظيفة في الدنيا متواضعة، ولو كان قد حُرِم من الدنيا أشياء فلا بد من حكمة بالغة:

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

فهل أنتم مصدقون ذلك؟

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

كما قلت قبل قليل: الآيات للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكل مؤمن بالتبعية:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

إذا لاح للمؤمن مقامه في الجنةعندئذ يذوب خجلاً لما أعد الله له من نعيم مقيم :

ربنا سبحانه وتعالى ألا نصدقه:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

متى نعرف ذلك إذا لاحت لنا الآخرة، ولاح للمؤمن مقامه فيها، وظهرت له أعماله الطيبة معروضة عليه، عندئذ يذوب خجلاً لما أعد الله له من نعيم مقيم، قال تعالى:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ*هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ)

[سورة يس: 55-56]

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً*وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً)

[سورة عم: 31-33]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ* إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

وصف الله تعالى للمتقين يوم القيامة :

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلاً مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات: 15-19]

ويصفهم الله عز وجل فيقول:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق:9]

يوم القيامة هذا العطاء الكبير، وهذه الجنة التي عرضها السموات والأرض، هذه الجنة التي لا تزول ولا تحول إلى أبد الآبدين، وهذا الذي أعده الله لعباده أيستغنى عنه؟ أيزهد به؟ أيضعه الإنسان وراء ظهره؟ أيلتفت إلى الدنيا وحدها؟ أينافس على جمع الدرهم والدينار؟ عند الموت لا يأخذ معه شيئاً:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى*وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

المؤمن لا يعرف قيمة عمله إلا حين تلوح له الجنة :

هذا الذي يدرس الليالي الطوال، ويسهر حتى لا تكحل عينه بنوم، بعد التخرج والتفوق، وبعد أن يحتل مركزاً مرموقاً، وتأتيه الأموال من كل طريق ألا يرضى حينئذٍ؟ هذا مثل من أمثلة الدنيا، إنه يرضى ويرضى. وكذلك المؤمن يغض بصره، ويحفظ فرجه، ويترفع عن كل معصية، ويطيع الله في كل شاردة وواردة، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ويسهر الليل، ويستيقظ لصلاة الفجر، ويساعد الضعيف، ويطعم الجائع، ويجلس على ركبتيه الساعات الطوال ليتعرف إلى الله عز وجل، وإذا دعي إلى عمل صالح لبَّى مسرعاً، وإذا دعي إلى عمل طيب وافاه، وهذا المؤمن لا يعرف قيمة عمله إلا حين تلوح له الجنة، فيقول: لم أر شراً قط في حياتي.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى* أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى)

حينما كان النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، ووزع بعض الغنائم على المؤلفة قلوبهم، وجد عليه بعض الأنصار وعلى رأسهم سيدنا سعد بن عبادة:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَاماً فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ

الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْماً وَحَظّاً، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

أما ترضى أن تعطى الدنيا لمن أبغض الله عز وجل، وتكون الآخرة لمن أحبه الله سبحانه وتعالى.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى نبيه يتيماً لئلا يكون لأحد من خلقه عليه حق :

قال بعضهم:

كن عن همومك معرضا وكِل الأمور إلى القضا
و ابشر بخير عاجـل تنسى به ما قد مضـى
فلربَ أمر مسخـط لك في عواقبه رضى
ولربما ضاق المضيق ولربما اتسع الفضـا
الله يفعل ما يشـاء فلا تكوننَّ معترضـا
الله عودك الجميـل فقس على ما قد مضى

* * *

هذا يجب أن يعرفه كل مؤمن، فإنّ الله عودك الجميل، ألم يهدك إليه؟ ألم يعرفك به؟ ألم يدلك على أهل الحق؟ ألم تسعد به؟ اللهُ عودك الجميل فقس على ما قد مضى، والله سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى)

اليتيم الذي لا أب له، بعضهم اجتهد وقال: لقد جعل الله سبحانه وتعالى نبيه يتيماً لئلا يكون لأحد من خلقه عليه حق، لا حق عليه إلا حق الله عز وجل:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى)

قد يكون الطفل يتيماً، ويتاح له من الرعاية والعناية والرفق والإكرام ما لم يتح لمن له أب شديد قوي.

من معاني (اليتيم) :

قال تعالى:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

من معنى اليتيم أيضاً تقول: درة يتيمة، ومعنى درة يتيمة أي لا مثيل لها، فآواك بأصحابك، أنت فرد لا مثيل لك، أنت سيد المخلوقات، أنت سيد ولد آدم، أنت يتيم لا بمعنى أنك ليس لك أب، ولكن بمعنى أنه لا مثيل لك في كمالك، ولا مثيل لك في عطفك.

((عن عبد الرحمن بن عثمان القرشي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على ابنته وهي تغسل رأس عثمان رضي الله تعالى عنهما فقال: يا بنية أحسني إلى أبي عبد الله فإنه أشبه أصحابي بي خلقا))

[الطبراني عن عبد الرحمن بن عثمان القرشي]

وهذا الموقف الكريم أيضاً حيث قال:

((يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت))

[الواقدي وابن سعد وابن عساكر عن عبد الله بن الزبير]

من هو أبوه؟ إنّه أبو جهل، ألدُّ أعداء الإسلام، فاليتيم بالمعنى الآخر لا مثيل له، كأن تقول: درة يتيمة، والمعنى الأول: ألم يجدك يتيماً لا أبا لك، فألهم الناس أن يعطفوا عليك، وأحاطك بالعطف والأمن والرعاية حتى من أعدائك.

واليتيم بالمعنى الآخر الدرة التي لا مثيل لها، فآواك بأصحابك، وبعضهم يقول: لماذا لم يترك النبي عليه الصلاة والسلام ذرية من الذكور؟ بعضهم اجتهد وقال: لو أن للنبي عليه الصلاة والسلام ابن من الذكور، وأساء إلى الناس لسرت البغضاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لكن ليس من ذريته الذين عاشوا ذكرٌ، لتكون محبته خالصة في نفوس أصحابه والناس جميعاً.

من معاني (الضال) :

قال تعالى:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

معنى الضال هنا الغافل عما سيكون، أنت غافل عن أنك ستكون نبياً مرسلاً، أنت غافل عن أنك ستكون سيد ولد آدم، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى)

[سورة طه: 52]

لا يضل أي لا يغفل، الضلال هنا معناه الغفلة، والنبي عليه الصلاة والسلام غافل عن مقامه، غافل عن مرتبته عند الله عز وجل، غافل عن نبوته القادمة، غافل عن رسالته، والمعنى الآخر للغفلة هو عدمُ العلم، ما كنت تدري ما الكتاب وما الإيمان؟ ما كنت تعرف أن قرآناً سينزل عليك، وما كنت تعرف ما بهذا الكتاب من حقائق وتشريعات.

(وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

والمعنى الثالث أن الضال هنا، أي وجدك في قوم ضالين فهداهم الله بك، ومعنى الضلال أيضاً هو الطلب، فلان نشد ضالته فهو ضال، أي يبحث عن شيء ضائع منه. والنبي عليه الصلاة والسلام يبحث عن طريق يهدي به الناس، ويبحث عن أسلوب ينقذهم به من الظلمات إلى النور، وعن طريقة تهديهم إلى ملكوت السموات والأرض، وعن أسلوب يرفعهم من وحل الشهوات إلى سمو الطاعات، فهداه إلى ذلك، وأنزل عليه كتابه، هذا المعنى الرابع، والمعنى الخامس:

(وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

أي ضائعاً بين قومك فهداك إليه، قد كان قومك لا يعرفون مقامك قبل البعثة، فهداك إليه، وعرفهم بك، والمعنى السادس الضلال الحيرة، كنت حائراً في الطريق الذي يناسب هؤلاء الضالين فهداك إلى الطريق، والمعنى الذي يجمع المعاني المادية والمعنوية، أن الشجرة الوحيدة في الصحراء تسمى ضالة وهي يهتدي بها القوم.

كنت وحيداً فريداً في عظمتك، كنت وحيداً فريداً في سموك، فاهتدى بك الناس جميعاً، ويقال: إن النبي عليه الصلاة والسلام ضاع عندما كان صغيراً في شعاب مكة، فسخر الله له أبا جهل، وعثر عليه يلعب ببعض الأوراق والأغصان في شعاب مكة، فردَّه إلى أهله.

الغنى الحقيقي :

قال تعالى:

(أَلَمْ يَجِدْكَ)

فالله سبحانه وتعالى يذكّر النبي عليه الصلاة والسلام بالنعم التي أغدقها عليه، لقد كان يتيماً فآواه، وكان ضالاً فهداه:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

معنى عائلاً أي فقيراً فأغناه الله عز وجل بخديجة، وأغدقت عليه من عطفها، ومن مالها، لذلك كان وفياً لها أشد الوفاء، فحينما فتح مكة دعاه أصحابه ليبيت عندهم فقال: انصبوا لي خيمةً عند قبر خديجة، كلما كان يذكر خديجة تقع الغيرة في قلب عائشة رضي الله عنها، تقول له: ألم يبدلك الله خيراً منها؟ فيقول: لا والله، لا والله، لا والله، صدقتني حين كذبني الناس، وواستني حين أساء إلي الناس، واللهِ ما أبدلني الله خيراً منها، كان وفياً لها، وبعضهم قال:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

أي ربَّاك بما قسمه الله لك، والغنى له معنيان؛ فإما أن تكون غنياً حقيقةً، وإما أن تكون راضياً عن الله عز وجل، فهذا هو الغنى بعينه، ارضَ بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس، فإنْ رضيت عن الله فأنت الغني، وإن رضيت بما قسم الله لك من الدنيا فأنت الغني، وهذا هو الغنى الحقيقي، وبعضهم قال:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

أي فقيراً بمعرفتك له فأغناك بمعرفته، كنت مفتقراً إليه فملأ قلبك معرفةً به، كانت نفسك متشوقة إليه فملأها من تجلياته، فهي معان ثلاثة؛ إما أنه جعله غنياً حقيقةً، فقد جاءه سيدنا أبو بكر فأعطاه كل ماله، فقال: يا أبا بكر ماذا أبقيت لك ولأهلك؟ قال: الله ورسوله. كانت جفنة سعد تدور معه حيثما دار.

المؤمن غناه بعمله الطيب و باستقامته و بيقينه برحمة الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

إنَّ الدنيا لم تكن تعدل عند النبي عليه الصلاة والسلام جناحَ بعوضة، جاءه رجل من سادة العرب، وقد رأى وادياً من الغنم، فقال: يا محمد لمن هذا الوادي؟ قال: هو لك، قال: أتهزأ بي؟ قال: هو لك، لا أهزأ بك، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر. لقد كان غنياً في

نفسه، غنياً بمعرفته بربه، وكذلك المؤمن غناه بعمله الطيب، وغناه في استقامته، وغناه في يقينه برحمة الله عز وجل.

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى *وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

إذا كان أحد من الحاضرين مؤمناً وكان فقيراً فإن الله عز وجل أغناه، كان بلا مأوى فآواه الله ببيت، بلا زوجة فزوّجه الله، وجعل له ذرية، كان بلا عمل فيسَّر الله له عملاً مريحاً، فإذا قرأتَ هذه الآيات ينبغي أن يذوب قلبك محبة لله عز وجل:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى *وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

قراءة هذه الآيات تجعل قلب المؤمن يذوب محبة لله عز وجل :

قال لي أحد الأشخاص وهو من أصحاب الملايين، عندما كنتُ أضع الخبز في الزيت، وأضعها بالزعتر، يبادرني والدي بصفعة ويقول لي: أكثرت، يجب أن تمسها مسّاً رقيقاً، فجعله الله غنياً حين كبر.

فإذا كان الإنسان فقيراً، ثم جعله الله غنياً، ولم يتأثر بهذه الآية فهو كالصخر، ميت القلب، إذا كان بلا مأوى وصار له مأوى، يملك مفتاح بيت، وغرفة نوم، وغرفة جلوس، وغرفة طعام، مطبخاً فيه أنواع من الطعام، ولديه أدوات كهربائية، دافئ في الشتاء، مبرد في الصيف، فليقرأ هذه الآية وسيتأثر بالغ التأثر، ثم صار له أصهار يحترمونه، وأولاد يحفون به، وله مكانة اجتماعية، لا يشكو شيئاً، ولا يشعر بالنقص ولا بالحرمان، ألا يتأثر بهذه الآية.

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى)

كان صانعاً في محل، ويحاسَب حساباً عسيراً، وإذا تأخر يُلام ويُعنَّف، صار صاحب محل، يجلس خلف مكتب، فغضَّ بصرك عن محارم الله، وتواضعْ لله عز وجل، وتذكَّرْ كيف كنت في الماضي.

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

كنت تدخل إلى دور اللهو فمَنَّ الله عليك بمجالس العلم، وهذه نعمة كبرى، كنت تقضي الليالي الطويلة في اللعب بالنرد فمنَّ الله عليك فأصبحت تمضي الوقت في قراءة القرآن، كنت تتحدث للناس بكلام لا معنى له، كلام فاحش، مزح بذيء، فمنَّ الله عليك بمعرفته فأصبحت تعرِّف الناس بالله عز جل، فإذا قرأت هذه الآيات فعليك وعلى كل مؤمن أن يذوب قلبه محبة لله عز وجل.

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)

حق اليتيم :

إذا قرأتها أنت فلها معانٍ، وإن نزلت على النبي عليه الصلاة والسلام فلها معانٍ، والنبي يتفاعل معها بمعانٍ خاصة به، وأنت إذا قرأت هذه السورة ربما تفاعلت معها بمعان خاصة بك، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

كنت يتيماً فإذا رأيت يتيماً فلا تقهره، ومعنى لا تقهره أي لا تظلمه ولا تمنعه حقه، أحسِنْ إليه، وفي قراءة: " فلا تكهر"، والكهر هو الاحتقار.

((عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّماً قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيماً مِنْهُ فَوَ اللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ...))

[مسلم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ]

هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف))

[كنز العمال عن أبي هريرة]

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

أحاديث شريفة تؤكد مكانة من يعطف على يتيم :

قال النبي عليه الصلاة والسلام، ومن كلام داود عليه السلام:

((كن لليتيم كالأب الرحيم واعلم أنك كما تزرع تحصد))

[الطبراني والبخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة]

وفي الأثر:" أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي فقلت: من هذه يا جبريل، قال: هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً فلم تتزوج من أجلهم، تريد أن تدخل الجنة قبلي تنازعني لأنها عطفت على الأيتام.

عَنْ سَهْلٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئاً))

[البخاري عَنْ سَهْلٍ]

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب، فتقول الملائكة: ربنا أنت أعلم، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، اشهدوا أن من أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة، فكان ابن عمر إذا رأى يتيماً مسح برأسه، وأعطاه شيئاً))

[ذكره القرطبي عن ابن عمر]

عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ ضَمَّ يَتِيماً بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ وَمَنْ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِماً كَانَ فَكَاكَهُ مِنْ النَّارِ يُجْزِي بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْواً مِنْهُ مِنْ النَّارِ))

[أحمد عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحَارِثِ]

وليس اليتيم من بلغ أربعين سنة، فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ:

((حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ))

[أبو داود عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ]

فإذا كان الشخص كبيراً ووالده متوفَّى فلا يقل: أنا يتيم، لا، فاليُتْم ما كان دون سن البلوغ.

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

لأنك كنت يتيماً فاذكر يتمك السابق، واللؤماء قد يسيئون للضعفاء، وقد كانوا من قبل ضعفاء، ولا يذكرون كيف كانوا.

إجابة السائل فرض على العلماء :

قال تعالى:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

لا تنهر، أي لا تزجر السائل، رُدَّه ببذل يسير، أو رد جميل، واذكر فقرك، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يمنعن أحدكم من السائل إذا سأله أن يعطيه وإن رأى في يديه قلبين))

[الديلمي عن أبي هريرة]

والقلب هو السوار، وقال إبراهيم بن أدهم:

((نعم القوم السُّؤَّال - جمع سائل - يحملون زادنا إلى الآخرة "، وقال إبراهيم النخعي: " السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء، السائل بريد الآخرة))

[ذكرهما القرطبي في تفسير قوله تعالى: فأما اليتيم فلا تقهر...]

أيْ ينقل لك أعمالك الصالحة إلى الآخرة، وقال عليه الصلاة والسلام:

((ردوا السائل ببذل يسير أو برد جميل))

[ذكرهما القرطبي في تفسير قوله تعالى: فأما اليتيم فلا تقهر...]

وفهم بعض المفسرين أن قوله تعالى:

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

من يسألك العلم، من يسألك عن قضية في كتاب الله عز وجل، ومن يسألك عن حديث شريف، عن آية، وعن قضية فقهية.

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

وتواضعْ لمن تعلّم، إنّ إجابة السائل فرض على العلماء، والسلام سنة لكن رده فرض، وكان أبو الدرداء يقول: "مرحباً بأصحاب الحديث "، هؤلاء الذين يحدثون الناس كان يبسط لهم رداءه، ويقول لهم: مرحباً بأحبة رسول الله.

الله تعالى يطلب من نبيه الكريمأن يهدي الناس وإذا سأله أحد أن يجيبه ويتواضع له :

يروى أن النبي وقع في قلبه أن الله سبحانه وتعالى اتخذ إبراهيم خليله، واتخذ موسى كليمه، وأعطى سليمان ملكاً، فماذا أعطاني الله عز وجل؟ فقال الله عز وجل: ألم أجدك يتيماً فآويتك، ألم أجدك ضالاً فهديتك، ألم أجدك عائلاً فأغنيتك، ألم أشرح لك صدرك.

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

لو أردنا أن نقابل هذه الآيات الثلاث بتلك الآيات الثلاث:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى*وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى*وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى*وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

فيغلب على معنى الآية أن الذي يسألك عن قضية دِين، وعن قضية تتعلق بالله عز وجل، كنت ضالاً فهديتك، فإذا سئلت فاهدِ الناس، وإذا سألك أحد فأجبه وتواضع له.

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

كنت فقيراً فاغتنيت.

الآية التالية لها عدة معان :

الآن إذا اغتنيت حدَّث الناس بهذه النعم:

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

هذه الآية لها عدة معانْ، المعنى الأول، عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((الحمد رأس الشكر، فما شكر اللهَ عبدٌ لا يحمده))

[رواه الديلمي في مسند الفردوس]

والحمد حالة نفسية، والشكر عمل، لقوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ)

[سورة سبأ:13]

الشكر له حدان؛ حد أعلى وحد أدنى، فالحد الأدنى أن تعرف أن هذه النعمة من الله، فكيف شكرك ابن آدم؟ علم أن هذا مني فشكرني، والحد الأعلى: (اعملوا آل داود شكرا).

المعنى الثاني نعمة الله القرآن الكريم.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

فليكن موضوع حديثك القرآن الكريم، قال تعالى:

(أخواناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

[سورة آل عمران: 103]

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ)

[سورة آل عمران: 103]

والمعنى الثالث للنعمة النبوة، فمهما حدثت الناس عن نبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وعن علمه، ورحمته، وكرمه، وعلو مقامه فهذا موضوع مناسب للحديث.

النعم التي طالبنا الله تعالى بالحديث عنها :

حدِّث الناس عن القرآن، وحدِّثهم عن نبوة النبي العدنان، أو حدِّثهم عن نعم الله، فإما أن تحدِّثهم عن نعم الله، وإما عن قرآنه الكريم، وإما عن نبيه العظيم، لتكن هذه النعم موضوع الأحاديث. قال بعض الأصحاب الكرام: إذا أصبت خيراً فحدِّث به الثقة من أخوانك، وإذا أكرمك الله عز وجل بقيام ليل، وقرأت آيات كثيرة وتفاعلت معها، ومنَّ الله عليك بمعانٍ لم تكن تعرفها من قبل، فهذه نعمة عظيمة، حدِّثْ بها من تثق به من أخوانك، ولا يسمَّى هذا كبراً ولا فخراً ولكنه حديث بنعم الله، فلعل هذا الأخ يتشجع، ولعله يغار منك، ولعله يتخذك قدوة.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

حدِّثهم عن نعم الله، بعضهم فهم هذه الآية فهماً خاطئاً، كأنْ يقول: ذهبنا إلى النزهة، والكلفة مئتان وخمسون ليرة، فالله عز وجل هكذا قال:

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

فليس هذا هو المقصود:

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

نعمة البصر، ونعمة الشمس، ونعمة القمر، هذه نعم الله، ونعمة الهواء، ونعمة الماء، ونعمة البيان، ونعمة الذاكرة، ونعمة اليدين، ونعمة الخلق، والطعام، والشراب.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

بعض المعاني الخاصة لهذه الآية :

ونعمة الله هي القرآن الكريم، حدِّثهم عن كلام الله، ونعمة الله نبيه العظيم، حدِّثهم عن النبي الكريم، هذه آية دقيقة، وإذا تجلى الله على قلبك فيما يتعلق بالآخرة، فحدِّث به بعض من تثق به من أخوانك، صليت صلاة متقنة، أو جلست إلى ذكر الله، فشعرت بشعور عالٍ، ألهمتَ بعض المعاني، حدِّث بها من تثق من أخوانك:

((عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ: مَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرْ الْكَثِيرَ وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أحمد عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ]

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

وإليكم بعض المعاني الخاصة لهذه الآية:

((عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَآنِي رَثَّ الثِّيَابِ فَقَالَ: أَلَكَ مَالٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ الْمَالِ، قَالَ: فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالاً فَلْيُرَ أَثَرُهُ عَلَيْكَ))

[النسائي عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ]

وفي الحديث:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[مسند الشهاب للقضاعي عن عائشة]

ارتدِ ثياباً جديدة، ولا تجلب لنفسك الاحتقار، لأن الله وسَّع عليك دون أن تتكبر بها، أو تزهو بها، وتختال على خلق الله بها:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، دُعي رجلٌ إلى حفل، وجاء بثياب رثة مهجورة، نظر الناس إليك نظرة ازدراء، وهو يملك المال، فهذا ليس من السنة، لأن الله آتاك المال، فدع ثياب جديدة للمناسبات الرسمية، لئلا تُتّهم بأنك لا تعرف الأناقة، ولئلا تدع مجالاً لأهل الدنيا أن ينتقدوك.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

فحدثهم عن آيات الله، وحدث عن النبي الكريم، وإذا أصابك خير من طرف الآخرة كذلك، لا من طرف الدنيا فحسب، فحدِّث به الموثوقَ من أصحابك، وإذا وسَّع الله عليك فليرَ اللهُ أثرَ هذه النعم عليك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشرح 094 - الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 - 8 حمل الدعوة وعبء الهدى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-04-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا تأمل الإنسان ما في الكون من آيات أورثه تأمله خشية في قلبه تدفعه إلى طاعة الله:

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة الشرح أو الانشراح، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ*وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ*الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ*وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ*فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً*إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً*فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ*وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

قبل شرح هذه الآية الأولى لا بد من مقدمة، إذا الإنسان فكر في آيات الله الكونية ملياً، واستنبط منها أن لهذا الكون إلهاً عليماً، رحيماً، عادلاً، قوياً، غنياً، إذا فكر في آيات الله، واستنبط هذه الحقائق توَّلد في قلبه خشية تدفعه إلى طاعة الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يقول:

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

إذا تأملت ما في الكون من آيات أورثك تأملك خشيةً في قلبك تدفعك إلى طاعة الله عز وجل، فإذا أطعت الله عز وجل ماذا يحصل؟ يحصل في النفس ثقة بأن الله راض عنا، بهذه الثقة تقبل النفس على ربها، فإذا أقبلت على ربها اشتقَّت من كماله، عندئذ تصطبغ النفس بالكمال الإلهي.

كلما ارتقى الإنسان في سلم الكمال اتسعت دائرة اهتمامه :

كلما ارتقت النفس في سلَّم الكمال اتسع اهتمامها بالآخرين، فلو أن الإنسان صعد إلى قمة جبل قاسيون ماذا يرى؟ يرى مدينة دمشق منبسطة، يرى المزة والميدان، لأنه ارتفع، فإذا ركب طائرة قد يرى مسافة تزيد عن مئة كيلو متر، فإذا صار على ارتفاع أربعين ألف قدم رأى ما هو أوسع. ورواد الفضاء رأوا الأرض والقارات والبحار وبقية الكواكب، فكلما ارتقى الإنسان في سلم الكمال اتسعت دائرة اهتمامه.

الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه اهتموا بالبشر، والمؤمنون قد يهتم بعضهم ببعض، فكلما ضعف إيمان المرء تقلصت دائرة اهتمامه، وغير المؤمن لا تعنيه إلا ذاته؟ فهذا سؤال دقيق، انظر إلى نفسك

ما الذي يعنيك، إن كان لك أخ مؤمن لا يجد مأوى هل تهتم له؟ هل تتمنى أن تقدم له كل ما تملك من أجل أن تيسر له عمله؟

النبي عليه الصلاة والسلام لشدة إقباله على الله اشتقَّ من الله كمالاً يعد قمة الكمال البشري، واللهُ سبحانه وتعالى ألقى في قلب الأمهات رحمة، والذي في قلب جميع الأمهات من الرحمة لا يعدل جزءاً يسيراً من رحمة الله عز وجل، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

[سورة آل عمران: 159]

هذه الرحمة التي في قلب المصطفى عليه الصلاة والسلام مشتقة من رحمة الله، قال تعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

[سورة الكهف: 58]

أرحم الخلق بالخلق هو النبي عليه الصلاة والسلام فهو أرحم بنا من أنفسنا :

أنت يا محمد فبما رحمة من الله لنت لهم، الشيء الثابت أن أرحم الخلق بالخلق هو النبي عليه الصلاة والسلام، هو أرحم بنا من أنفسنا قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)

[سورة التوبة: 128]

قال له سيدنا أبو ذر الغفاري لسيدنا عمر رضي الله عنهم: إنّ الناس يشكون شدتك، فبكى، وقال: واللهِ يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن الأمر لا يناسبه إلا كما ترى، حينما فكر النبي عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء بربه من خلال آيات الكون، ومن خلال الشمس والقمر، والليل والنهار، والحيوان والنبات، وخلق الإنسان، حينما فكر بآيات ربه تولد في نفسه خشية عظيمة، هذه الخشية حملته على طاعة الله عز وجل. طاعة الله عز وجل ولّدت في نفسه ثقةً جعلته يقبل على الله عز وجل، وهذا الإقبال العالي اشتق الكمال المتناهي، لذلك أكمل البشر هو المصطفى عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم: 4]

لكماله العالي الذي اشتقه من كمال الله عز وجل تألم على الخلق، وقد رآهم في ضياع، وفي بعد عن الله، وفي جهالة عمياء، وفي ضلال مبين، رأى قويهم يأكل ضعيفهم، ورآهم يقترفون الأثام، ويأتون الفواحش، يقطعون الرحم، ويسيئون الجوار، ويخونون الأمانة، رآهم في هلاك وفي ضياع، إنّ هذه

الرؤية وهذا الكمال الذي انطوى عليه قلبه الشريف بسبب إقباله على الله، وبسبب استقامته، بسبب خشيته، بسبب تفكره بآيات الله جعله يفعم قلبه بالهم والحزن.

هداية البشر وتعريفهم بربهم كان من خلال النبي محمد عليه الصلاة والسلام :

النبي عليه الصلاة والسلام بدأ يقلق، كيف السبيل إلى هداية البشر؟ كيف السبيل إلى إنقاذهم مما هم فيه؟ كيف السبيل إلى تعريفهم بربهم وهم غافلون؟ كيف السبيل إلى إنقاذهم؟ ما الطريق إلى هدايتهم؟ ماذا أعمل؟ ماذا أقول؟ كيف أهديهم؟ إلى أن نزل عليه الوحي، حينها عرف أنه مكلف بهدايتهم، وأن الله سبحانه وتعالى ناصره، وأن الله سبحانه وتعالى قد جعله هادياً لهذه الأمة، وكما قلت لكم في درس سابق: امتلأ قلبه فرحاً حينما رأى أول الطريق، لم يحدث شيء حينما اقترب أجله، وتوعكت صحته، ونظر إلى أصحابه نظرة وهم في الصلاة، ابتسم حتى بَدَتْ نواجذه، وقال: حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، هذا نهاية الطريق.

أما حينما جاءه الوحي كان هذا بداية الطريق، انشق الطريق، وأضاء بصيص الأمل، وعرف مهمته، وعرف الطريق إلى الله والطريق إلى هداية الخلق، فحينما انقطع الوحي، وظن أن ربه قد قلاه، وأنه قد ودّعه، وتركه، وشمت به الأعداء، نزل قوله تعالى:

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى*وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الْأُولَى*وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى: 1-5]

قال بعض المفسرين: هذه الآية:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى: 5]

أرجى آية في كتاب الله:

(وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى*وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الْأُولَى*وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى: 1-5]

سبب ضيق النبي عليه الصلاة والسلام :

الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

حصل انشراح الصدر، من له مصلحة أو صنعة أحياناً يصبح الطريق أمامه مسدوداً، وتضيق نفسه ويغتم، ويشعر بالضجر، فإذا انفتح له طريق الحل شعرَ بالراحة، هذا مثل بسيط، النبي عليه الصلاة والسلام حينما أرشده الله إلى أول الطريق شرح صدره، أما كلمة:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

شرح الصدر فيه معنىً عكسي، معنى ذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام متضايقاً، فما الذي كان يضايقه؟ الآن جاء دور الموازنة، قل لي: ما الذي يضايقك؟ أقل لك: من أنت؟ قد يأسف الإنسان على الدنيا فله صغار عند الله، قد يأسف الإنسان على مال فاته، أو على امرأة فاته الزواج منها، أو على بيت سُبق إليه، أو على وظيفة لم تتح له، أو على شيء من حطام الدنيا، فإنْ كان الألم والحزن والأسف على الدنيا فهذا شأن معظم البشر، مع أن سيدنا الصديق رضي الله عنه مما أثر عنه أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط.

ما دام النبي عليه الصلاة والسلام قد شرح الله صدره فما الذي كان يضايقه؟ وما الذي كان يؤلمه؟ وما الذي كان يحزنه؟ كان يحزنه ضلال البشر، وكان يحزنه ضياعهم وانحرافهم، كان يرى نهايتهم أنهم هالكون، كان يرى شقاءهم الذي ينتظرهم، فهذا الذي كان يحزنه، فأين أنت يا أخي من هذه المشاعر؟!!

النبي عليه الصلاة والسلام كانت نظرته إنسانية :

نيرون قال: من بعدي الطوفان، وهناك أشخاص كثيرون إذا تحققت لأحدهم مصالحه يقول كما قال نيرون: مِن بعدي الطوفان.

فما دام دخله وفيراً، وبيته متسعاً، وحاجاته متوافرة فالناس لا شأن لهم عنده، هذه صفات أهل الدنيا، وصفات المعرضين عن الله عز وجل، لكن المؤمن يعنيه أخاه المؤمن، فكلما ارتقى إيمانه اتسعت دائرة اهتمامه، إنّ عامة الناس يعنيهم أبناؤهم فحسب، فإن كانوا أكرم من ذلك فيعنيهم أخوتهم الذكور والإناث، وإن كانوا أكرم من ذلك فقد يعنيهم قرابة ثالثة، وإن كانوا أكرم من ذلك فيعنيهم أبناء حيهم، وقد تعنيهم أبناء مدينتهم، وقد يعنيهم وطنهم، وقد تعنيهم أمتهم. لكن قمة ذلك أن تعنيهم الإنسانية جمعاء، لذلك هناك دول متقدمة تحقق لشعبها مستوىً معاشياً جيداً، ولكن على حساب شعوب أخرى، وهذه نظرة ليست إنسانية لأنهم يسببون آلاماً لا نهاية لها لبعض الشعوب، ويحققون لأفرادهم مستوىً معاشياً رفيعاً، وهذه نظرة قاصرة، ونظرة لا تليق بالإنسان، والنبي عليه الصلاة والسلام كانت نظرته إنسانية، قال تعالى:

(طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

[سورة طه: 1-2]

كان النبي عليه الصلاة والسلام متواصل الأحزان، كان الحزن يغلب عليه، لماذا؟ كيف تريد من أمٍّ أن تضحك ولها ابن معذب، ولها ابن مسافر، ولها ابن ذو عاهة، كيف تريدها أن تكون مسرورة؟ معظم الأمهات إذا كان أبناؤها مقدمين على امتحانٍ قريب تراهنّ مهمومات أكثر منهم، وذلك لِما في قلب الأم من الرحمة والحنان والعطف؟ وفي قلب النبي عليه الصلاة والسلام من الرحمة ما لا يصفه الواصفون لذلك حينما شرح الله عز وجل صدره للإسلام، وبيَّن له طريق الهداية أصابه سرور بالغ، فقال له تعالى مسليّاً إياه وممتناً عليه:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

كنت في ضيق فمنّ الله عليك وشرح صدرك.

لا يعرف الإنسان انشراح الصدر إلا إذا كان مغتماً :

الإنسان أحياناً يقول له الطبيب: الحمل عند الزوجة غير طبيعي، وقد تكون الولادة عسرة، وفي الصور المبدئية هناك تشوه في الجنين، منذ أن قال الطبيب هذه الكلمة الهم بدأ يأكل قلب هذا الزوج، كيف سيكون هذا المولود؟ أيكون مشوهاً؟ أيكون مشلولاً؟ يفقد بعض حواسه؟ فإذا وضعت الزوجة المولود سليماً يشعر أن كابوساً أزيح عن صدره، ويشعر أن جبلاً كان جاثماً على صدره وأزيح، هذه أمثلة مبسطة.

النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى الناس في ضلال، وفي ضياع، وفي شقاء، وفي هلاك ضاق صدره واغتم، وضاقت عليه الأرض، فلما نزل قوله تعالى مسلياً إياه، وممتناً عليه، ومبيناً له طريق الهدى، قال ربنا عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

هذه الهمزة للاستفهام الإنكاري، ولم حرف نفي، ونفي النفي إثبات، لذلك:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

معناها لقد شرحنا لك صدرك، ألست بربكم؟ قالوا: بلى، معناها أنت ربنا، نفي النفي إثبات:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

ما معنى الشرح؟ قال بعض المفسرين: الشرح هو التوسعة والانبساط، وضده الضيق والقبض، ولا يعرف الإنسان انشراح الصدر إلا إذا كان مغتماً، وقالوا: وبضدها تتميز الأشياء.

معان متعددة لكلمة (شرح الصدر) :

ربنا سبحانه وتعالى لحكمة بالغة يقلب العبد بين الغم والفرح، وبين الهم والانشراح، ولا يعرف الانشراح إلا من أصيب بالهم، ولا يعرف الفرح إلا من أصيب بالحزن، والنبي عليه الصلاة والسلام أصابه الحزن، وأصابه هم وغم، وأصابه انقباض، ثم شرح الله صدره بالإسلام.

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

وبعضهم قال: شرح الصدر انشراحه وتوسعته بالعلم والمعرفة، وبعضهم قال: شرح الصدر اتساعه بمكارم الأخلاق، وبعضهم قال: شرح الصدر توسعته بأعباء النبوة، وتلقي المعارضين، وبعضهم قال: شرح الصدر لمهام الدعوة التي كلفه الله بها، لذلك بعض العلماء قال:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

هذا إكرام، أي شرحنا لك أنت صدرك إكراماً لك وتقديراً لهمومك الشديدة، عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله أينشرح الصدر؟ قال: نعم وينفسح، قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت، لذلك قال بعضهم: زيارة القبور تشرح الصدور، لماذا؟ لأنها تذيب حب الدنيا من النفس، فإن كان للمرء عمل طيب واستقامة طيبة وزار القبور رأى مكانه في الآخرة، ورأى هذه الحياة الأبدية، ورأى خلاصه من هذه المتاعب الأرضية، لذلك:

((عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ]

مستريح من أعبائها، لأنك في دار تكليف، والآخرة دار تشريف، وأنت في دار عمل، والآخرة دار جزاء.

الحمل النفسي أشد ثقلاً من الحمل المادي :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

هذا الغم والهم والضيق والحزن، هذا الذي أتعبك يا محمد والذي أقلقك لقد زال عنك، لقد بان لك الطريق فقم واصدع بما تؤمر.

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)

الوزر هو الحمل، فأيُّ حمل هذا؟ إنه الحمل المعنوي، أحياناً قد يمرض الابن مرضاً شديداً، وقد يسمع الأب كلمات يائسة للأم فتراها تشعر أن في قلبها حملاً لا تقوى على حمله، وأحياناً قد يجلس الإنسان ويقول: ليس لي أرجل أقف عليها، ماذا على كاهله؟ لا شيء.

إنّ الحمل النفسي أشد ثقلاً من الحمل المادي، فقد يحمل الإنسان ثلاثمئة كيلوغرام ويرفعها على ظهره، ويسير بها، ولكن قد تسمع خبراً مؤلماً يجعل الإنسان يقعد ولا تقوى رجلاه على حمله، وقد يبرك:

(وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)

إنّ أحمال الدنيا ثقيلة، فكيف بهذه الأحمال المقدسة، ولو أن قائداً في معركة رأى العدو قد أحاط به من كل جانب، وأن الأمل في النجاة صار قليلاً، وأن المصير مؤلم، وأنه لا مفر من الاستسلام، فماذا يشعر؟ يكاد قلبه ينفطر، هذا هو حمل القلب، ولو أن طياراً عرف أن هناك خطراً كبيراً في الأجهزة، وأن هذا الخلل سوف يتفاقم، وأنه لن ينجو هو وركاب الطائرة، فبماذا يشعر ربان الطائرة؟ ولو أن ربان باخرة شعر أن العواصف تجتاح باخرته، وأنها صدَّعت شقها الأيمن وأن الماء يتسرب إليها بماذا يشعر؟ هذه أحمال النفس، وقد لا يقوى الإنسان على حملها، لذلك ربنا عز وجل جعل حمل الدعوة وزراً ثقيلاً، قد ينوء به المرء، ولكن الله سبحانه وتعالى أمد النبي عليه الصلاة والسلام بطاقة لتحمل هذا العبء.

إحاطة النبي بأصحاب مخلصين في مستوى دعوته و هذا من إكرام الله له :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)

أزحناه عنك عندما ظهر لك الطريق، عندما رسمنا لك الهدف أعنَّاك على هداية القوم، فلانت قلوب بعض الناس إليك، وسارعوا إلى الإيمان بك، وصدقوك، حينما أسري بالنبي عليه الصلاة والسلام، وعاد من الإسراء والمعراج، وبدأ يحدث بما رأى ارتد كثير من الناس على أثر هذه الأخبار، فلما جاء بعضهم إلى سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وقالوا له: يزعم صاحبك أنه أسري به إلى القدس، وعرج به منه إلى السماء!! فقال: هو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن كان قال ذلك فقد صدق، لقد صدَّقناه على خبر السماء، أفلا نصدقه على خبر الأرض. ومن إكرام الله بالنبي عليه الصلاة والسلام أنه أحاطه

بأصحاب مخلصين في مستوى دعوته، فعرفوا قدره، وعرفوا قيمته، وعرفوا سموه، وعرفوا هدفه النبيل، فآثروه على أنفسهم، وفدوه بأموالهم وأبنائهم، وقدموا له كل شيء، لقد قدّم له سيدنا الصديق ماله كله، فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله، كان أحدهم يدافع عنه ويقول: صدري دون صدرك، ونحري دون نحرك، فما هذه التضحية والفداء؟ ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

يا أخي الكريم اطمئن لكل آية في كتاب الله، وإن كان في ظاهرها توجيه إلى النبي عليه الصلاة والسلام فإنّ لك منها نصيباً، ولا يمكن لمؤمن على وجه الأرض إلا أن يكون له من هذه الآية نصيب، وبقدر إيمانه على قدر مكانته، وعلى قدر كرامته، ومهما ضاقت بك الدنيا فلا بد أن يشرح الله لك صدرك، ومهما احلولكت دونك الخطوب فلا بد أن يشرح الله لك صدرك، ومهما ضاق بك الأمر فلا بد أن يشرح الله صدرك.

((قَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرَ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرَ دُعَاءَكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، قَالَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا شَاءَ أَقَامَ وَمَا شَاءَ أَزَاغَ))

[أحمد عن شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ]

حمل الدعوة وعبء الهدى ونقل الرسالة خطير وثقيل :

لا تعرف الانشراح إلا بعد الضيق، ولا تعرف الشبع إلا بعد الجوع، ولا تعرف الري إلا بعد العطش.

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)

فإذا وضعت على الناقة حملاً ثقيلاً، ودعوتها للمسير سمعتَ صوت أضلاعها وكأنها تنوء بهذا الحمل، فحمل الدعوة وعبء الهدى ونقل الرسالة خطير وثقيل، إنسان وحيد جاءته الرسالة، ومضى على تبليغها للناس ربع قرن، فإذا بالهدى قد عم الأرض، ولما قبض النبي عليه الصلاة والسلام كان مبتسماً، رأى أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق الجهاد. لذلك عندما يقف الإنسان أمام مقام النبي عليه الصلاة والسلام الشريف يجب أن يقول: السلام عليك يا سيدي يا رسول الله، أشهد أنك بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغمة، وجاهدتِ في الله حق الجهاد.

ألك من هذا نصيب؟ ألك رسالة أيها الأخ الكريم؟ أم الطعام والشراب وتأمين الحاجات، هذه كلها هموم الناس، ألك رسالة في الحياة؟ أتشعر أنك خلقت لهدف نبيل؟ أتشعر أن الله سبحانه وتعالى جاء بك إلى الدنيا لتتعرف إليه أولاً، وتُعرِّف به ثانياً، وتعمل الصالحات ثالثاً، أتشعر بهذه الرسالة؟ إن كنت كذلك فلا بد أن يشرح الله صدرك.

إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها ودنيها، وما استرذل اللهُ عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب، ومعنى استرذله أي رآه سخيفاً، ورآه شهوانياً، ورآه متعلقاً بالدنيا، حيث جعلها أكبر همه ومبلغ علمه، ورآه أرضياً لا سماوياً، وإذا فاته من الدنيا شيء ندب حظه وأخذ في البكاء.

قال بعض الفقهاء: من بكى في الصلاة على شيء فاته من الدنيا فإن صلاته فاسدة، فلا ينبغي أن تبكي على الدنيا إن أقبلت أو أدبرت.

النبي صلى الله عليه وسلم أنكر ذاته وفني في محبة ربه فرفع اللهُ تعالى ذكرَه :

إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لن يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ*)

قال بعض الشعراء:

بصرتَ بالراحة الكبرى فلم تَرَهَا تُنال إلاّ على جسرٍ من التَّعب

* * *

نظر إلى حياته الماضية، وكيف كانت مشحونة بالمتاعب والهموم، الهموم الشريفة المقدسة، وكيف كان قلقاً على نفسه، وكيف كان يخاف عدم الإخلاص، وكيف كان يخدم الناس، ويبلغ رسالة الله عز وجل، فهذه النظرة تسعده إلى أبد الآبدين.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

إنّ النبي صلى الله عليه وسلم أنكر ذاته، وفني في محبة ربه فما الذي حصل؟ لقد رفع اللهُ سبحانه وتعالى ذكرَه.

حيثما ذُكِر الله عز وجل ذُكر معه النبي صلى الله عليه وسلم :

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، في الشهادة، وفي الأذان، وفي الإقامة، وفي الصلاة، وفي القرآن:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال: 1]

حيثما ذُكِر الله عز وجل ذُكر معه النبي صلى الله عليه وسلم، فهل من مقام أعلى من هذا المقام؟ ادْخُل الحجرة النبوية المطهرة فلن تشعر أن في الدنيا أحداً عظيماً إلا صاحب هذا المقام، فما هذا الشأن الرفيع؟ بعد ألف وخمسمئة عام من وفاته صلى الله عليه وسلم، إذا وصلت إلى قبره اقشعر جسمك، وتشعر أنك تريد البكاء، مع أنّكَ لم تلتقِ به، ولم تره بعينك، ولم تصاحبه، لكنك سمعت عن كماله، وعن تواضعه، وعن لطفه، وعن رأفته، حتى إنه كان يصغي الإناء للهرة، وفي الأثر: أكرموا النساء فو الله ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً.

وروي أيضاً: أول من يمسك بحلق الجنة أنا فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي قلت: من هذه يا جبريل؟ قال: هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً فلم تتزوج من أجلهم.

كان يعطف على الأرملة واليتيم، وكان يجلس جلسة العبد، وكانت المرأة الضعيفة تستوقفه في الطريق، فتكلمه فيقف معها طويلاً، ويستمع إليها، وقد رُوي أن امرأة جاءته فقالت: يا رسول الله إن زوجي تزوجني وأنا صغيرة ذات مال وأهل، فلما كبرت سني، ونثرتُ بطني، وتفرق أهلي، وذهب مالي، قال: أنت علي كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، فجعل النبي يبكي.

معان متعددة للآية التالية :

كان في قلبه رقة لذلك:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

1 ـالمعنى الأول أي قرنت اسمك مع اسمي يا محمد :

فإنّ اسمك يا محمد اقترن مع اسمي، ومعنى رفعنا لك ذكرك أيضاً: الإنسان له ذكر، رافقْ إنساناً ساعات يحدثك في التجارة، فهذا ذكره، وإنسان يحدثك بالبيوت فهذا ذكره، والمنحط يتحدث لك عن

النساء فهذا ذكره. فكلما التقيت بإنسان فله ذكر معين، في التجارة، في الصناعة، في الرحلات، في ألوان الطعام، في موضوعات كثيرة، أما النبي عليه الصلاة والسلام فترَّفع عن هذه الموضوعات، ورفع الله له ذكره، فجعل ذكره مقدساً.

كان حديث النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه، والذين هم عن اللغو معرضون، وكل ما سوى الله لغو.

المعنى الأول (رفعنا لك ذكرك) أي قرنت اسمك مع اسمي يا محمد.

2 ـ المعنى الثاني جعلنا ذكرك عالياً وسامياً :

المعنى الثاني جعلنا ذكرك عالياً، سامياً، اجلس مع الناس فبماذا يتحدثون؟

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

تلك موضوعات تبعث في النفس اليأس والحسد والغيرة والحقد والضغينة والبغضاء واليأس من رحمة الله، اجلس مع مؤمن فإنه يحدثك حديثاً آخر، فترتاح له، وتستبشر، وتطمئن، وتفرح، وقد تمضي ساعات طويلة ولا تشعر بالوقت.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

جعلنا ذكرك عالياً، وحديثك مقدساً، وجعلناك تهتم بمعالي الأمور لا بسفاسفها، هذا هو المعنى الثاني.

3 ـ المعنى الثالث أنّ الله تولى البيانَ عنه :

والمعنى الثالث أنّ الله تولى البيانَ عنه، قال تعالى:

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

قالوا: يا رسول الله إنك تغضب فإذا كنت غاضباً أنأخذ عنك؟ فأمسك النبي عليه الصلاة والسلام بلسانه، وقال: والذي بعثني بالحق لا ينطق إلا بالحق. هذا اللسان لا ينطق إلا بالحق، في غضبه وفي سروره، وفي حزنه وفي فرحه، وفي السراء والضراء.

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

ما من مؤمن إلا وله من آيات الله نصيب :

قال تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

كما قلت لكم قبل قليل: ما من مؤمن إلا وله من آيات الله نصيب، مع أن هذه الآية في ظاهرها خاصة بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولكنك يا أخي الكريم إذا نسيت ذاتك وأنكرتها فمن أنت؟ أنت عبد من عباد الله، تحدث عن ربك وعرِّف الناس به فلا بد أن يرفع الله ذكرك على قدر إيمانك، وعلى قدر كرامتك، وعلى قدر إخلاصك، ولك من هذه الآية نصيب. والذكر الحسن شيء نفيس في المجتمع، أن تقابل الناس وهم يثنون على أخلاقك فهذه ثروة طائلة هذه:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

يا محمد، ويا أيها المؤمن إذا عرَّفت الناس بالله عز وجل، وكان همك تعريف الناس بي، وكان همك هدايتهم، وأنت ترضيني وأنا سوف أرضيك، رضي الله عنهم ورضوا عنه، جاء جبريل عليه السلام إلى سيدنا رسول الله قال: يا محمد أبلغ صاحبك أبا بكر أن الله راض عنه، فهل هو راض عن الله؟ فلم يحتمل الصديق هذا الكلام، وهل في الأرض شيء أثمن من أن تكون لك مع الله مودة، مع رب السماوات والأرض، وأن تكون بعينه، وبحفظه، ألا تكفيك هذه الآية:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: 48]

منزلة النبي عليه الصلاة والسلام عند الله سبحانه :

قال تعالى:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[سورة طه: 41]

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة: 54]

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

أي الملوك تسمي أنفسها خادم الحرمين الشريفين، فهل هناك مقام كمقام الملك، تتشرف الملوك بخدمة عتبته، لا بخدمته هو صلى الله عليه وسلم، ذكره على الأفواه، ألف مليون مسلم يذكرونه ويتأثرون لذكره، لذلك:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ]

((مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّداً الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتَهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

ومِن رفع ذكره صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى جعله باباً له فأنت باب الله يا محمد، فأيُّ إنسان أتى اللهَ مِن غيره لم يقبل، ولا يُدخل بابُ الله الوحيد إلا مِن جهته، والأنبياء جميعاً يدخلون على الله من باب المصطفى صلى الله عليه وسلم، رحلة الإسراء والمعراج صلى بهم جميعاً، وكان إمامهم ودليلهم، وكان بابهم إلى الله عز وجل.

الله سبحانه وتعالى غني عن تعذيبنا وإذا بعث لنا همّاً أو غمّاً فلمصلحتنا :

قال تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ* فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

كان ممكناً أن يقول: فإن بعد العسر يسراً، لكنَّ ربنا سبحانه وتعالى قال:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

بحسب المنطق فإن بعد العسر يسراً، لذلك إن العسر فيه بذور اليسر، قد يكون المرء منحرفاً، ولا يعي على خير، فيأتيه مرض عضال، ويتكلم الأطباء بكلام بإلهام الله عز وجل، أنْ لا أمل، أو الأمل ضعيف جداً، فتضيق النفس، وتضجر، وتيأس، ثم تذكر أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وأن الشفاء بيده، فتلتفت إلى الله عز وجل، فإذا التفت إليه أذِن بالشفاء، فهذا المرض فيه بذور الشفاء، والمرض دواء النفس وشفاؤها، فالإنسان المؤمن العاقل لو أن الدنيا ضاقت به فليذكر هذه الآية:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

مع الضيق الفرج، ومع الفقر الغنى، ومع المرض الصحة، إن الله سبحانه وتعالى غني عن تعذيبنا، وإذا بعث لنا همّاً أو غمّاً فلمصلحتنا، ومن أجل أن نُقبل عليه، جاء في الأثر: يا رب ارحمني، يا رسول الله ادعُ الله أن يرحمني، فقال صلى الله عليه وسلم: يا رب ارحمه، فقال الله عز وجل: كيف أرحمه مما أنا به أرحمه، وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدَّدت عليه سكرات الموت، حتى يلقاني كما ولدته أمه.

لا بد من يسر بعد العسر :

قال تعالى:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

فكم من مرض أفضى بالإنسان إلى الهدى، وكم من مرض عضال انتهى بصاحبه إلى الصلح مع الله، والتوبة النصوح، دُعِيَ رجل منحرف إلى الصلاة فأبى، ودُعِي إلى الاستقامة فأبى، ودعاه جيرانه سنوات طويلة فلم يستجب، فأصابه مرض عضال، ثم أرشده الطبيب إلى الصلاة، فلما صلى أذن الله له بالشفاء، هذا المرض أفضى به إلى الصلاة، ويوم القيامة يرى أنه نعمة عظيمة.

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

هذه الآية عظيمة جداً، فأيُّ مصيبة على وجه الأرض نفسية أم جسمية، كمصيبة المال، أو مصيبة النفس، أو مصيبة الجسد، أو قلق، وهم، وحزن، وفقر، وخوف، وضياع فاذكر بها:

(إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

العلماء قالوا: المعرفة الثانية غير الأولى، إن للصائم فرحةً، إن للصائم فرحةً، الصائم هو نفسه، لكن له فرحتان، فرحة حينما يفطر، وفرحة حينما يلقى الله عز وجل، فكلمة فرحة نكرة، له فرحتان، وهذا الصائم واحد.

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

العسر معرف بأل، وهذا تعريف الاستغراق، أي كل أنواع العسر، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، ماديها ومعنويها، تشمل كل أنواع العسر، التعريف تعريف استغراق، تقول: الحديد في الأرض، وتعني كل أنواع الحديد، فإن مع العسر، قال: يسراً، بتنكير التعظيم، يسراً كبيراً، وصفه بأنه كبير، وبأنه سريع، وبأنه كريم:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

العسر الذي أصاب الإنسان في الدنيا له نتيجتان :

قال عليه الصلاة والسلام:

((لن يغلب عسر يسرين))

[الطبراني عن جابر]

فإما أن تكون الثانية تأكيد للأولى:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

وإما أن يكون اليسر الثاني غير الأول، لذلك بعض العلماء قال: إن مع العسر في الدنيا يسراً في الدنيا، وإن مع العسر في الدنيا يسراً في الآخرة، إن هذا العسر الذي أصاب الإنسان في الدنيا له نتيجتان، يسر في الدنيا، ويسر في الآخرة، وسعادة في الدنيا، وسعادة في الآخرة، قال تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

ما من عبد مؤمن أصابه همّ وقرأ هذه الآية إلا شرح الله صدره:

سيدنا عمر يقول: مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة إلا وجعل الله بعده فرجاً.

كن عن همومك معرضا وكِل الأمور إلى القضا
و ابشر بخير عاجـل تنسى به ما قد مضـى
فلربَ أمر مسخــط لك في عواقبه رضـى
ولربما ضاق المضـيق ولربما اتسع الفضــا
الله يفعل ما يشـــاء فلا تكونَنَّ معترضــا
الله عودك الجميــل فقس على ما قد مضى

* * *

ولرب نـازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرجُ
نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنتُ أظنها لا تفـرجُ

* * *

اشتدِّي أزمة تنفرجي، إن مع العسر يسراً، فما من عبد مؤمن أصابه هم أو ضيم أو حزن أو غم وقرأ هذه الآية إلا شرح الله صدره:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

كلمة (مع) أبلغ من كلمة (بعد)، أبلغ من إن (بعد) العسر يسراً، مع، أيْ هذا المرض معه الشفاء، وهذا الضيق معه الفرج، وهذه المصيبة معها الهدى، وهذا الخطر معه التعرف إلى الله عز وجل، لذلك يفرح الإنسان.

أوجه معاني تفسير الآية التالية أنك إذا فرغت من الدعوة إلى الله فانصب لذكر الله

قال تعالى:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

لهذه الآية ثمانية معان، وأوْجَه هذه المعاني: إذا فرغت من الدعوة إلى الله فانصب لذكر الله، لماذا؟ لأن هذا الذكر بمثابة الشحن لهذه البطارية، فبقدر صلتك بالله ينطلق اللسان، وبقدر ما لك عند الله من قُربي تؤثِر في الآخرين، أما الدعاة الذين ينصرفون إلى الناس وصلتهم بالله ضعيفة فلا يؤثرون فيهم، فإذا فرغت من الدعوة إليه فانصب إلى الصلاة، واتصل بي، واذكرني، وأقبلْ عليَّ، من أجل أن تستمد الطاقة، ومن أجل أن تستمد النور، وتستمد قوة المعارضين، وتستمد الكمال الإنساني، حتى يفتن بك أصحابك:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

هذا المعنى للنبي صلى الله عليه وسلم، سيدنا سليمان أحب (حب الخير) عن ذكر ربه فعاتبه ربه، وسيدنا داود أحب ذكر الله أكثر من العمل الطيب، وجاءه ملكان على شكل متخاصمين، قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ*قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)

[سورة ص: 23-24]

سيدنا داود له مع الله وجهة عالية، أراد أن يعود إليها سريعاً فأسرع في الحكم، قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، قال أنا لا أريد أن آخذها منه، بل أريد أن أرعاها له، وأريحه من رعايتها:

(وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ)

[سورة ص: 24]

إذا دعوت إلى الله فالتفتْ إلى الله بقلبك حتى تستمد منه القوة على توضيح المعاني :

سيدنا داود غلب عليه أنه أميل إلى الصلة بالله أكثر من العمل الصالح، وسيدنا سليمان غلب عليه عمله الصالح على الصلة بالله، وكلاهما عوتب، أما النبي الكريم:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

فرسان في النهار، رهبان في الليل، فإذا دعوت إلى الله فالتفتْ إلى الله بقلبك حتى تستمد منه القوة على توضيح المعاني، وإذا دعوت الناس إلى الله وفرغت من هذا العمل فانصب واتصل بي حتى تستمد مني قوة الاحتمال فهناك معارضون وهناك ضغوط ومغريات.

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

فإذا فرغت فانصب، وللمؤمن من هذه الآية نصيب، فإذا كان حديثك عن الله باستمرار وصلتك به ضعيفة، فهذا الكلام لا يؤثر في الناس، وبعد فترة يضعف سحر الكلام، ويضعف الأثر، ويصبح كلاماً معاداً مكرراً، ولكن إذا كانت لك صلة بالله عز وجل، وحدثت الناس فَعَلَ ذلك فِعْلَ السحر.

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

هذا للنبي الكريم، ولكل مؤمن صادق، والمعنى الأقل من ذلك: إذا فرغت من الدنيا فانصب إلى ذكر الله.

كلما أتى شيء يهمك في الدنيا فأنجِزْه وانتهِ ثم انصب :

الامتحان انتهى فتعال إلى المسجد، هذا المحل أسسته وانتهى هذا التأسيس فالتفت إلى الله عز وجل، الولادة انتهت، والولد سليم ومعافى قم فصلِّ، واقرأ القرآن.

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

إنّ الحياة كلها مشاغل، والمعنى الثاني يتناسب مع عامة الناس، كلما أتى شيء يهمك في الدنيا فأنجِزْه وانتهِ ثم انصب، فإما أن تأخذه على المعنى الأول في الدعوة بين التعليم والصلة بالله عز وجل، وإما أن تأخذه على المعنى الثاني في عمل انتهى بعد ذلك اذهب إلى الله عز وجل، وانصب إليه:

(وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدل و إن عدلوا

والله و إن فتنوا في حبهم كبدي باقٍ على ودهم راضٍ بما فعلوا

* * *

فما مقصودهم جنات عــدن ولا الحور الحسان و لا الخيام

سوى نظر الحبيب فذا منـاهم و هذا مطلب القوم الكـــرام

* * *

(وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

من طلب الآخرة أتته الدنيا وهي راغمة :

أحد العارفين بالله اسمه أو لقبه المعرض عن المراد الدنيوي والأخروي:

(وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

بماذا ترغب يا أخي؟ لو شُقَّ عن صدور الناس فهذا في صدره أنْ يملك سيارة، وعندما يمتلكها يكون ملك الجنة، ولكن لم يمتلكها، وذاك في ذهنه أن يتزوج فحسب، وآخر يريد بيتاً له مواصفات محددة، وغيره يريد محلاً تجارياً في الشارع الفلاني، ويكون رائج البيع، فإذا بلغ هذا الشيء فقد انتهت كل مطالبه، قال لي شخص: فلان دخله في الشهر ثلاثون ألفاً، وقال: هذا قليل، قال له صاحبه: كيف قليل؟ فقال له: لأن في الآخرة ليس له شيء، هذا هو الشقاء حقّاً، لأن السنوات محدودة وينفد كل شيء:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ* وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

ترغب بماذا؟ من كان راغباً في الدنيا تعِسَ وشقي، ملخص الملخص؛ مَن بدأ بنصيبه من الدنيا فاته نصيبه من الآخرة، ولم يبلغ من الدنيا ما يريد، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة أدرك نصيبه من الدنيا، ونال من الآخرة ما يريد.

من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، كلام بمنتهى الإيجاز، فاطلب الآخرة، واللهِ الذي لا إله إلا هو سوف تأتيك الدنيا وهي راغمة.

إنّ المؤمن يسعد في الدنيا أضعاف ما يسعد الكافر، وتأتيه الدنيا وهي راغمة، اطلب الدنيا تضِعْ منك الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، والشقاء البعيد، لذلك:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ *وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

على الإنسان أن يرغب بالله عز وجل :

ما معنى ارغب إلى الله أي أطِعْه، اقرأ القرآن وتفهَّمْه، واحضر مجلس علم، يجب أن يكون مجلس العلم أغلى عليك من أي اجتماع، ومن أي سهرة، ومن أيّة نزهة، ومن أي شيء مقدس، هذا وقت الله عز وجل.

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ *وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

هل النزهة أغلى عليك من مجلس العلم؟ فيجب على الإنسان أن يرغب بالله عز وجل، فإذا رغب بالله، قال له: اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتُّك فاتك كل شيء. إنّ الله أحب إليك من كل شيء، فلا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفِك النهار كله:

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين ، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك ، فلأسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي ، وكنتَ عندي مَذْموماً))

[ورد في الأثر]

تراه من الساعة السادسة مع الهواتف حتى الساعة الثانية عشرة ووصلت البضاعة، ورسائل، وبيع وشراء، وفجأة يأتي ملك الموت، قال تعالى:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ*)

[سورة التكاثر: 1-2]

لذلك :

((وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك ، فلأسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي ، وكنتَ عندي مَذْموماً .))

[ورد في الأثر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التين 095 - الدرس (1- 1) : تفسير الآيآت 1 - 8 سمو المؤمن إلى أعلى عليين بطاعة الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-04-26

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التين تؤكد أن الإنسان يستطيع أن يسمو إلى أعلى عليين إذا عرف ربه وأطاعه

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة التين.

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ*ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ*فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ*أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

قبل الحديث عن معاني الآيات الذي تنطوي عليها هذه السورة لا بد من تعريف عام لهذه السورة، سورة التين تؤكد أن الإنسان يستطيع أن يسمو إلى أعلى عليين إذا هو عرف ربه وأطاعه وعمل الصالحات تقرباً له وإذا ضل عنه وعصاه يهوي إلى أسفل سافلين، فحياة الإنسان إما أن تكون في أعلى عليين وإما أن تكون في أسفل سافلين، لذلك الإمام علي كرم الله وجهه قال: ركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

إما أن تكون في أعلى عليين فوق الملائكة المقربين، وإما أن يكون الإنسان الضال في أسفل سافلين دون أحط الحيوانات قدراً.

عطاء الله تعالى يتجلى بخلق التين والزيتون :

الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 7]

أي خير ما برأ الله:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 7]

أي شر ما برأ الله:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ*ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*)

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)

التين هو التين الذي نأكله والزيتون هو الزيتون الذي نعصره، وقد يأكل الإنسان الطعام ولا يفقه ماذا يأكل؟ ولا يعرف قيمة ما يأكل؟ ولا يعرف عظمة الله عز وجل من خلال هذا الذي يأكله، هل نظرت إلى التين؟ إن كل بذرة في التينة يمكن أن تكون شجرة، ما أدق هذه البذرة، فيها رشيم وفي الرشيم حياة، فإذا ذهبت تعد عدد بذرات التينة الواحدة، كل بذرة يمكن أن تكون شجرة، وإذا ذهبت تعد عدد الثمرات التي تحملها الشجرة في العام وتضربها بعدد البذرات، هذا عطاؤنا.

أحد أنواع الكفر المبطن أن نعزو الإبداع للمادة :

الله سبحانه وتعالى تفضل علينا بنعمة الإيجاد، وعن طريق التوالد والبذور تفضل علينا بنعمة الإمداد، نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، النبي صلى الله عليه وسلم فيما تروي الأحاديث أهدي إليه سل تين، فقال: كلوا وأكل منه: وقال: لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم، أي بلا نوى، انظر إلى التينة وهي خضراء قاسية لو تذوقتها لرأيت لها طعماً حريفاً حاداً انظر إليها وقد اصفر لونها وسال عسلها وعذب طعمها وصار كالعسل ولان ملمسها، ونمت في الجبال بلا عناية ولا سقي ولا شيء من هذا القبيل، فهذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى.

ذكر التين وأراد كل فاكهة نأكلها، هل فكرت فيها كيف صممت؟ العلماء أحياناً يقعون في شيء اسمه كفر مبطن، يقول هذه البذرة مبرمجة. قال لي رجل من أهل العلم: أن هذه البذرة مبرمجة بمعنى كل خلية من خلاياها فيها نواة، وفي النواة محفظة فيها تعليمات تسميها كروزومات، تسميها جينات، تسميها مورثات، قال هذا الرجل المتعلم المختص بهذا الموضوع: لو أردنا أن نترجم هذه التعليمات إلى لغة لاضطررنا أن نكتب هذه التعليمات في مجلدات تعادل دائرة المعارف، أي من عشرين إلى ثلاثين مجلد وكل مجلد ألف صفحة.

بعض العلماء قال هذه التعليمات تزيد عن خمسة آلاف مليون أمر، هذه التعليمات في محفظة في نواة، هذه النواة في الهيلولة، وهذه الهيلولة في الخلية.

العالم كلما رأى بذرة يقول لك مبرمجة أي عندما تزرعها تنبت تيناً لخشبها شكل، لأغصانها شكل، لأغصانها لون، للأوراق لون خاص، لملمس الأوراق ملمس خاص، ذات طبيعة خاصة وطبع مميز، لها أوقات نضج، تحتمل الحر والقر، تنبت في المرتفعات والمنخفضات، هذا معنى مبرمجة، فهذه

البذرة تنتج تيناً، وهذه البذرة تنتج زيتوناً، على مستوى الأزهار ترى البصل لونه واحد، ومع هذا هذه البصلة تنتج وردة بيضاء، وهذه البصلة زهرتها حمراء قانية، وهذه البصلة زهرتها حمراء غير قانية أي مبرمجة، هذه البذرة فيها تعليمات، تعليقاً على هذا الكلام الذي يقوله العلماء أضرب مثلاً: لو أردنا أن نبني بناءً واستخدمنا مهندسين من أرقى المستويات، وقلنا لهذا المهندس: ضع لنا مخططاً للأساسات ولهذا احسب لنا نسب الإسمنت والحديد، ولهذا المهندس: ارسم لنا شكل البناء، ولهذا المهندس: هندس المجاري، ولهذا المهندس: هندس الكهرباء: وجمعنا هذه الخرائط الصحيحة الدقيقة التي بذل فيها أصحابها الساعات الطوال والإبداع الرائع ووضعناها فوق بعضها بعضاً كيف يظهر البناء؟ أي بناء هذا، هل تكفي البرمجة، هل يكفي أن يكون معك مخطط تفصيلي دقيق جداً فيه آلاف المعلومات عن البناء حتى يبنى البناء، اجمع هذه الخرائط وضعها في أرض خاوية وانتظر هل يبنى هذا البناء؟ يحتاج إلى مواد، ائتِ بمئات الأطنان من الإسمنت والحديد والبلاط والدهان وكل ما يحتاجه البناء وضع هذه المواد وانتظر هل يبنى البناء، إذاً هل يكفي أن تقول بذرة مبرمجة، هل يكفي أن تقول في هذه البذرة معلومات، هل تكفي التعليمات لتنقلب هذه البذرة إلى شجرة، هل تكفي هذه التعليمات لتنقلب البصلة إلى زهر رائع لا تكفي التعليمات، لا بد مع التعليمات من مواد، ولا بد مع المواد من بناء، لا بد من تعليمات أي مخطط أي برمجة ولا بد من مواد ولا بد من بناء يقوم به، فإذا رأيت فاكهة وقلت: هذه بذرتها مبرمجة، فهذا أحد أنواع الكفر المبطن، أي عزونا الإبداع للمادة.

الله عز وجل إكراماً لنا ورأفة بحالنا ثبت خصائص المواد :

الله عز وجل إكراماً لنا ورأفة بحالنا ثبت خصائص المواد، إذا زرعت بذر الفجل ينبت فجلاً، لو كان في الكون فوضى لوجدت الفجل ينبت الخيار، والخيار ينبت البصل، لكن ربنا عز وجل جعل للبذرة صفات ثابتة، والناس حينما بعدوا عن الله عز وجل ظنوا أن هذه البذرة مبرمجة، مع أن الله سبحانه وتعالى حينما أنبت هذا النبات أنبته على طريقة ثابتة كي نطمئن.

حدثني أخ يعمل في حقل الأزهار قال لي: في بعض الأنواع من الأزهار الغرام الواحد من بذورها يعد سبعين ألف بذرة، البذرة التي هي جزء من سبعين ألف من الغرام فيها رشيم، ومع الرشيم مواد غذائية تكفي لإنباته وإنبات جذوره.

أحضر حبة فاصولياء وضعها في قطن بعد أيام ينبت برعم وجذير، أمسك الفاصولياء تراها فارغة، من أين نبت البرعم والجذير؟ ربنا عز وجل حينما خلق البذرة خلق لها رشيماً وخلق مواد غذائية تكفي لإنبات البراعم، السويق، ولإنبات الجذير، إلى أن تستطيع البذرة أن تأخذ غذاءها من التربة يكون هذا

المستودع الغذائي قد انتهى. في كل بذرة رشيم ومواد ومخطط تفصيلي، أية يد بنت هذا البناء؟ أية يد أنبتت هذا النبات؟

التين له شكل معين، وأوراقه لها شكل معين، وأغصانه لها شكل معين، ولحجم فاكهته حجم معين، وله لون معين، وله طعم معين، وله بذور معينة، وله طباع معينة، وله وقت نضج معين، ربنا قال:

(وَالتِّين وَالزَّيْتُون)

على جبل واحد تينة وزيتونة، هذه تنضج في الصيف وتلك تنضج في أوائل الشتاء، هذه ذات طعم مر وهذه ذات طعم حلو كالعسل. سبحان الله، بون واسع بين التين والزيتون، قد تزرع تينة إلى جنب زيتونة على أرض واحدة ويسقيها ماء واحد ويعتني بها مزارع واحد ولهذه صفاتها ولتلك خصائصها.

ما من فاكهة على وجه الأرض إلا ولها علامة نضج وهذه من نعمة الله عز وجل :

قال بعض المفسرين: ما أراد الله عز وجل من هذه الآية التين والزيتون فقط، أراد كل ما تأكله، فهذان النوعان والصنفان اللذان ذكرا تأكلهما على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، هل فكرت أيها الإنسان في التين والزيتون، هل فكرت في المشمش، في التفاح، في الكمثرى، في الدراق، في العنب، في البلح، في الموز، في هذا الذي خلقه الله سبحانه وتعالى؟ كل فاكهة لها لون وطعم، لها نكهة، لها قوام، لها قشر، لو أن التين طال ذنبها لسقطت، لكن قصر ذنبها يعين على تماسكها على الشجرة وهذه من حكمة الله عز وجل، لو أن هذه التينة بقيت ذات لون أخضر، لا تعرف أنت أي ثمرة قد نضجت، تقطف ثمرة غير ناضجة لا تؤكل، لكن الله سبحانه وتعالى تفضل علينا فجعل الثمرة الناضجة صفراء اللون وأعطاك إشارة أخرى وهي نقطة عسل في مؤخرتها، هذه نضجت اقطف هذه ودع تلك، قال ربنا عز وجل:

(وَعَلَامَاتٍ)

[سورة النحل: 16]

ما من فاكهة على وجه الأرض إلا ولها علامة نضج، وهذه من نعمة الله عز وجل حتى البطيخ، الذي يملك حقل بطيخ يجنيه خلال أشهر ثلاثة، كيف يعرف أن هذه البطيخة قد نضجت؟ هل يحملها وهي على أمها ويتفحصها؟ وإذا قطف البطيخ من دون معرفة قد يأتي كله أبيض اللون لا يباع، ربنا عز وجل جلت حكمته جعل على طرف البطيخ حلزوناً إذا كان يابساً فالبطيخة قد نضجت وإذا كان أخضر اللون يدعها على حالها، ما من فاكهة من الفواكه إلا ولها علامة لذلك قال الله عز وجل:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

[سورة النحل: 16]

كلمة (علامات) مطلقة، علامة لنضج الثمار والخضراوات والمحاصيل والفواكه والثمار وكل شيء.

المحاصيل لحكمة بالغة جعلها الله عز وجل تنضج في وقت واحد :

ربنا عز وجل جعل هذا التين لا ينضج في وقت واحد، مع أنه تلقى شروطاً واحدة، حراً في وقت واحد، قراً في وقت واحد، سقي في وقت واحد، الظروف المحيطة بالشجرة واحدة، يجب في المنطق أن تنضج الثمرات في وقت واحد، فلو أن هذه الشجرة نضجت دفعة واحدة الإنتاج كله سوف يباع في الأسواق والإنسان لن يستطيع أن يستهلكه في يوم واحد، يستهلك واحد من تسعين من حجمه والباقي يتلف، لكن الله سبحانه وتعالى جلت حكمته جعل نضج التين، والتفاح، والكمثرى، والدراق، والبطيخ بالتدريج.

لولا أن هناك إلهاً عظيماً لجعل القمح ينضج بالطريقة نفسها، هذه مشكلة، تمسك السنبلة واحدة وَاحدة فترى هل نضجت أم لم تنضج؟ أي يمضي الصيف كله بجني القمح، فالمحاصيل لحكمة بالغة جعلها الله عز وجل تنضج في وقت واحد، فربنا يقول جل من قائل:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

أي هل فكرت أيها الإنسان بهاتين الآيتين؟ يجب على الإنسان ألا يكون كالبهيمة يأكل ويشرب كما تأكل الأنعام، الأنعام تأكل ولا تعرف ماذا تأكل، ولا قيمة ما تأكل، ولا عظمة الخالق فيما تأكل، ولا روعة الخلق، ولا العلم المنطوي بهذه الفاكهة:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

أشياء كثيرة يمكن أن نتكلم عنها في موضوع التين والزيتون ولكن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك، وعلى الإنسان أن يجول فكره في ملكوت السموات والأرض.

الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لنعرفه من خلال الخلق :

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]

أي العلماء وحدهم يخشون الله، كلما زدت المخلوقات فكراً زادتك معرفة بالله عز وجل، والأصح من ذلك أن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لنعرفه من خلال الخلق. قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

فهذه اللام لام التعليل لتعلموا:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ)

هناك تفسيرات كثيرة لآية (وطور سينين)، أن التين والزيتون ينبتان في الجبال، الطور هو الجبل، وسينين هو الجبل الذي فيه أشجار مثمرة، أي الجبل الأخضر منظر جميل وعطاء كريم، في بلادنا جبال كثيرة كلها زيتون، هناك إحصاء قديم من عشر سنوات ونيف فيه عدد أشجار الزيتون خمسة عشر مليون زيتونة. جبال خضراء وفوق جمالها وخضارها تدر على الناس عطاءً كثيراً، ومعنى آخر أن هذا الجبل الذي ينبت هاتين الشجرتين من تربة واحدة قد يكون الجبل كلسياً، قد يغلب على تربته الحديد ومع ذلك ترى طعم الزيتون يختلف عن طعم التين، وبعض المفسرين قالوا الطور من قوله تعالى:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)

[سورة نوح: 13-14]

من الطور والطور مرحلة في النمو، مرحلة في التطور، هذه البذرة لتصبح شجرة تمر في مراحل من مرحلة الرشيم لمرحلة إنبات الرشيم، لظهور الجذير، لنمو الساق، لنمو الأغصان، لنمو الأوراق، لنمو الأزهار، لانعقاد الثمرة، لنضج الثمرة، لحجم الثمرة وتلوينها، هذه الأطوار طور فوق طور، لذلك قال بعض الفلاسفة: البذرة شجرة بالقوة، وبذرة بالفعل.

معنيان مختلفان لكلمة (طور) :

ربنا عز وجل قال:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ)

هذا التطوير في النبات والحيوان والإنسان، فالطفل ينمو، يمشي، يتكلم، يدرك، يحاكم، يفكر، يتذكر، يكبر، تنبت لحيته ويخشن صوته، يصبح شاباً، يزداد عقله، يقل طيشه، ثم يصبح كهلاً، يعقل، يفكر في مستقبله، يتزن في كلامه، أطوار.

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)

[سورة نوح: 13-14]

والأشجار المثمرة تبدأ بذرة ثم فسيلة ثم شجيرة لا تثمر بعد ذلك، تثمر ثم تنمو ثم تعطي عطاءها، منها من يعمر، هذه تعيش ألف عام، هذه تعيش عشرة أعوام، هذه قصيرة العمر وهذه طويلة العمر، هذه الأطوار طواها الله سبحانه وتعالى في قوله وطور سينين.

إما أن نفهم الطور الجبل المبارك الذي تكسوه الأشجار الخضراء، وإما أن نفهم الطور هذا الإمداد الإلهي الذي يجعل الأشياء تمر من طور إلى طور، قبل يومين رأيت الناس متحلقين في أحد شوارع المدينة، اقتربت فإذا إنسان ملقى على الرصيف، سألت: ماذا به؟ قالوا: وقع ميتاً، قبل دقائق كان يمشي ويتحرك ويسمع ويرى ويبصر وكان له محاكمة ونطق وكلام وأجهزة متعددة كانت تعمل دفعة واحدة توقفت عن العمل، فإذا هو جثة هامدة.

ما الذي فقده هذا الإنسان، فقد هذا الإمداد الإلهي، هذا الإمداد الذي يمد الأجهزة بالحركة والعمل، أضرب مثلاً؛ جهاز معقد جداً يعمل على الكهرباء إذا قطعت عنه الكهرباء يقف، يصبح كتلة من حديد. الله سبحانه وتعالى يمدنا بالحياة، والموت توقف القوة الممدة بالحياة فإذا الإنسان لحم وعظم يتفسخ بعد حين.

ثبات خصائص المواد هذه نعمة كبرى ولا يعلمها إلا العالمون :

قال تعالى:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)

البلد الأمين مكة المكرمة، وإذا حملنا هذه الآية على أنها مكة المكرمة تكون بعيدة عن السياق العام مع أن مكة مكرمة عند الله عز وجل مشرفة وزادها الله شرفاً وتعظيماً، لكن البلد الأمين إذا راعينا السياق العام هذه الأرض التي نحن عليها، اركب طائرة هل تحس بالأمن المطلق، لا، لعل جهازاً تعطل فيها لا بد من قلق ولو بالمئة واحد، لعل الوقود تسرب من بعض الخزانات، لعل الأشخاص المكلفون بتنسيق الحركة في المطارات غافلون، لعل هناك اصطدام بين طائرتين، وهذا حدث. إنك وأنت على سطح الأرض في طمأنينة بالغة، الأرض لن تصطدم في كوكب آخر، قال تعالى:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس: 40]

لكل كوكب مسار خاص، الأرض لن يتعطل فيها بعض الأجهزة، لن ينفد الوقود، لن تختل الجاذبية، هناك أمن، هناك أمن على بقائها، وأمن على استمرارها، وعلى حركتها، وعلى طاقتها، والشمس كل يوم تشرق، أنت مطمئن، لولا أن الله سبحانه وتعالى تفضل علينا وجعل للحديد صفات ثابتة فأحوالنا صعبة، بعد أن أشدت البناء طرأ تعديل على بنية الحديد فوقع البناء. الحديد له صفات ثابتة، الإسمنت له

صفات ثابتة، ثبات خصائص المواد هذه نعمة كبرى ولا يعلمها إلا العالمون، أنت في هذا البلد على هذه الأرض تحتاج إلى الماء، الماء موجود في البحار والينابيع، وفي الأنهار، وفي باطن الأرض، والمياه معدنية فيها نسب من الكلور معينة، ومن اليود معينة، هذه النسب لها علاقة بأجهزة الإنسان الداخلية وبغدده الصماء، حتى أن وحدات التحلية التي صنعها الإنسان لتحلية مياه البحر هكذا بلغني أن المشرفين على هذه الوحدات يضيفون إليها بعض مياه الآبار لأن هذه التحلية تعطينا ماء صرفاً وليس معدنياً وهذا يؤذي بالصحة، تحفر الآبار ويؤخذ منها بعض الماء القليل ويخلط مع مياه التحلية حتى يصبح الماء معدنياً، فأنت إذا شربت كأس الماء من هذا البلد الأمين الذي جعل الله عز وجل كل الحاجات متوافرة فيه.

البلد الأمين أي كل الحاجات موفرة خلقها الله سبحانه وتعالى وجعلها لنا :

أنت بحاجة إلى الهواء قد لا تصبر من دون ماء أكثر من أيام، لذلك الماء موزع في المدن والقرى، لكن الهواء لن تستطيع أن تصبر على فقده إلا دقائق، إذاً هو في كل مكان، الهواء موجود في كل مكان لا يباع ولا يشترى، ولا يقنن ولا يحتكر ولا يستغل لأن حاجتك للهواء مستمرة، فالله سبحانه وتعالى جعله في كل مكان.

أنت بحاجة إلى أن تنام جعل لك الليل أميناً، وجعل المخلوقات كلها تخلد إلى النوم في مثل هذا الوقت. أنت بحاجة إلى ثياب تقيك الحر جعل القطن يمتص العرق، بحاجة إلى ثياب تقيك القر جعل الصوف تتدفأ به. أنت بحاجة إلى طعام فيه بروتين جعل اللحوم، ونوَّعها لك، فتأكل لحم غنم تارة ولحم سمك تارة ولحم طير تارةً أخرى.

أنت بحاجة إلى فواكه ذات ألياف سيليلوزية من أجل أن تحرك أعضاءك، وإلى شيء تمتع عينيك، جعل هذه الأزهار ونوَّعها وعدَّدها وجعلها متباينة الأشكال والألوان، أنت بحاجة إلى بيت جعل لك مواداً تجبلها تصبح سائلة ثم تجف تصبح قاسية من خلقها لك؟ من أعطى للإسمنت خواصه، من أعطى الخواص التي صنع منها الإسمنت؟

أنت بحاجة إلى طفل يؤنس وحشتك ثم يعينك في كبرك فجعل نظام الزواج، تحتاج إلى إنسان تسعد به قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الروم: 21]

وهذا البلد الأمين أي كل الحاجات موفرة من طعام وشراب وزينة وكل شيء تريده وكل حاجة تحتاجها، خلقها الله سبحانه وتعالى وجعلها لنا.

الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم :

هذا البلد الأمين، هنا تجاوزنا التين والزيتون، التين والزيتون نموذجين، وطور سينين هذه الجبال الخضراء الجميلة أو هذه البيئة الواحدة، الأرض كل شيء فيها.

أنت بحاجة إلى ليف لتستحم به، يوجد ليف طبيعي له وجه ناعم وآخر خشن، مهما صنع الإنسان من أشياء لتستحم بها، هذا الليف الطبيعي نبات من الداخل خشن ومن الخارج ناعم، أنت بحاجة إلى نباتات حدودية للحدود بينك وبين جيرانك، أنت بحاجة إلى نباتات للزينة، أنت بحاجة إلى شجر ليكون لك مظلة أمام بيتك، هناك أشجار مظلات كأنها مظلة، دائمة الخضرة ذات أوراق لطيفة تتحرك مع الهواء حركة جذابة، وهذا البلد الأمين كل شيء تريده موفر لديك. وأنت في النهاية في أحسن تقويم، أي في أبدع ما يكون، هل تستطيع يا أخي الكريم أن تقترح على الله عز وجل تعديلاً لخلق الإنسان كأن تطول اليدان أو يتغير موضع الإبهام أو الأظافر، هذا الظفر يأتي هنا من أجل أن تمسك الأشياء بقوة، طول المفاصل وكرويتها، العضلات، والأعصاب، والأوردة، والشرايين، لو فتحت اليد ورسمت لرأيت عجباً عجباً، هذا الجذع هذا الرأس كيف يتحرك ويدور؟ من جعل هذا المفصل دائرياً؟ هذا السطح هو المتحرك، والرأس هو الثابت لو كان العكس. مكان العينين، الشعر، الأنف، الفم، الشفتان، الأسنان، منها قواطع، ومنها أنياب وأضراس، لو أن هذه الأسنان تنمو باستمرار، ماذا نفعل؟ من هو القابض؟ نمت ونمت ثم توقفت، من أوقفها عند حدها؟ وماذا نفعل لو أن الله سبحانه وتعالى لم يوقف النمو عند حد معين؟ من جعل هذه الجمجمة ذات مفاصل منكسرة من أجل امتصاص الصدمات؟ من جعل بين الدماغ والجمجمة سائلاً من أجل أن يقي الإنسان ارتجاج الدماغ؟ من جعل هذه الأنسجة حول الدماغ؟ من جعل في الدماغ مئة وأربعين مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد؟ من جعل على سطح الدماغ أربعة عشر مليار خلية سمراء من أجل المحاكمة:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

من جعل في هذه العين مئة وثلاثين عصية وسبعة ملايين مخروط من أجل أن ترى أدق الأشياء وأجملها؟ من جعل العين تفرق بين ثمانمئة ألف درجة من لون واحد؟

من جعل هذا الأنف يعرف الروائح، وفي الذاكرة أرشيف للروائح يشم هذه الرائحة يقول: انتظر هذه الرائحة كذا، ماذا حصل في الدماغ؟ أن هذه الرائحة عرضت على قائمة طويلة من الروائح واحدة

وَاحدة فلما وصلت إليها قلت هذه كذا، عندك ذاكرة روائح وذاكرة أصوات وذاكرة طعام، الذاكرة شيء عجيب.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

إعجاز الله تعالى يتجلى في خلق الإنسان :

الله عز وجل أعفاك من التنفس والدوران، لو أن الله سبحانه وتعالى أوكل إليك التنفس ماذا تعمل هل تنام؟ ينام الإنسان فيموت يجب أن يسهر حتى يتنفس، لو أن الله سبحانه وتعالى أوكل إليك ضربات القلب لا نوم، النوم معناه الموت. لو أن الله سبحانه وتعالى أوكل إلينا الهضم تحتاج أربع ساعات تضع المواد الهاضمة والعصارات وكلور الماء، البنكرياس والمرارة تتفرغ خمس ساعات بعد الأكل، إذاً خمس عشرة ساعة لهضم الطعام كل يوم.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

جعلك تنام وترتاح في النوم، جعلك تتكلم، كل حرف سبع عشرة عضلة تسهم في صنعه، وهناك عضلات معقدة تعمل في الكلام.

(الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ *خَلَقَ الْإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

جعل الحركة لا إرادية، إذا الإنسان شاهد أفعى في بستان يصفر لونه ويدق قلبه ويزداد وجيب رئته، تفحص الدم تجد فيه مواداً سكرية زائدة، خلال ثوان ما الذي حدث؟ قال: العين رسمت في شبكيتها صورة الأفعى، والعين نقلت هذه الصورة إلى ملك الجملة العصبية الدماغ، والدماغ يملك أرشيف فيقول أفعى هذه، وهذا يسمى الإدراك، العين تحس أما الدماغ يدرك، الدماغ أعطى أمراً إلى ملكة الجهاز الهرموني الغدة النخامية وحجمها كالعدسة، هناك خطر، الغدة النخامية أعطت أمراً إلى الكظر هناك خطر تصرف.

المراكز العليا تعطي أمراً صغيراً موحداً أما الدنيا معها تفصيلات، الكظر أعطى أمراً إلى كل الشرايين بتضييق لمعتها لتوفير الدم، الخائف يصفر، أمر ثان إلى القلب ليزداد حتى ينتقل الدم بسرعة، أمر ثالث للرئتين فيزداد خفقانهما حتى تتوافق مع القلب، أمر رابع للكبد يفرز مواد سكرية إضافية في الدم خلال ثوان.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

كل الخلايا في الجلد تتجدد وهذه من نعمة الله على الإنسان إلا خلايا الدماغ :

الله عز وجل خلق مثانة، لولا المثانة لضاعت كرامتنا، كل عشرون ثانية يوجد نقطتي بول، لو كان من الكليتين للخارج مباشرةً يحتاج إلى فوط. ربنا جعل مثانة، جعل حالبين، جعل عضلات، إخراج البول بإرادتك، عضلات قابضة وهي مشدودة إلى أقصى حد أنت مرتاح، هاتان العضلتان فيهما عظمة لا حدود لها.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

هذا عن خلق جسمه، انظر إلى إنسان فقد عقله في الطريق، حدثني أخ عنده رجل مسن فقد تفكيره، قال لي: نربط له يديه حتى لا يأكل من نجسه.

ألا نظرت في الطريق إلى إنسان مجنون كيف يتكلم؟ كيف يتصرف؟ هناك قصص يقشعر لها البدن، تراه صحيح الجسم قوياً ولكنه بلا عقل، فإذا فقد الإنسان عقله فقد كل شيء لأن قوام الرجل عقله.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

تتكلم الكلام المناسب بالوقت المناسب أحياناً تتكلم، أحياناً تسكت، تغضب غضباً مناسباً في وقت مناسب، فعقلك يتحكم في المواقف كلها.

لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم عقلاً وفطرةً وجسماً، لو أن الله عز وجل وضع في الشعر أعصاباً حسية لاحتاج الإنسان إلى عمل جراحي في المستشفى عملية حلاقة، لأنها تحتاج إلى مخدر. وكذا شأن الأظافر ليس فيها أعصاب حس، قص أظافرك ولا تحتاج إلى مخدر ولا غرفة تخدير. كل الخلايا في الجلد تتجدد وهذه من نعمة الله على الإنسان، لكن الله حكيم لو أنه طبق هذا على كل شيء وتجدد الدماغ تفقد كل خبراتك ومعلوماتك، كنت طبيباً ونسيت كل شيء لأنه الدماغ تجدد، أما خلايا الدماغ ثابتة لا تتبدل، خلايا الدماغ التي ولدت بها هي كما هي حتى آخر ساعة من حياتك، فيها خبرات، فيها معارف، فيها الذكريات والمعلومات، كيف تنمو خبرة الإنسان؟ ربنا عز وجل جعل الدماغ لا يتبدل والقلب كذلك، وما سوى ذلك كل شيء بجسمك كل خمس سنوات يتجدد، وأشياء تتبدل كل أربع سنوات، الشعر يتبدل كله بثلاث سنوات، أطول عمر لشعرة ثلاث سنوات. أما خلايا الأمعاء تتبدل كل ثمان وأربعين ساعة.

خلقنا الله عز وجل في أحسن تقويم لنكون في أعلى عليين :

قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

لماذا خلقناه في أحسن تقويم؟ ليكون في أعلى عليين قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

خلقنا الله عز وجل في أحسن تقويم لنكون في أعلى عليين، فإذا ضل الإنسان عن ربه، عصاه، نسي لماذا خلقه، نسي الآخرة قال تعالى:

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

أحقر المخلوقات في الأرض الإنسان العاصي عندما يغفل الإنسان عن الله عز وجل ويعطي لنفسه شهواتها، فيطغى على حقوق الناس ويأخذ ما ليس له ويستعلي عليهم ويبني مجده على أنقاضهم وغناه على فقرهم وأمنه على خوفهم هذا في طريقه إلى مرتبة سفلى، إلى أسفل سافلين هكذا قال الله عز وجل، إذا الإنسان لم يعرف الله عز وجل يرد إلى أسفل سافلين لذلك:

((من جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

[رواه ابن عدي عن أنس]

((طوبى لمن طال عمره وحسن عمله.))

[أخرجه الترمذي عن ابن عمر]

موت الفجاءة للكافر نقمة وللمؤمن نعمة :

الذي يقرأ القرآن ويطبقه لا يخرف، هذه ضمانة من الله عز وجل، أنت كمؤمن في صعود إلى أبد الآبدين، الموت نقطة على هذا الخط الصاعد، المؤمن في صعود دائم مكانة ومعرفة ومحبة ونشاطاً، لذلك المؤمن من إكرام الله له قبضه إليه يكون قبضاً يسيراً، يبقى بكامل صحته ثم يتوفاه الله، انتزع من أهله انتزاعاً تألموا له كثيراً، لكن لو تركه الله سبحانه وتعالى في الفراش عشر سنوات أقرب الناس إليه يدعو الله صباح مساء أن يقبضه، وأن يخفف عنه، فقد مكانته وصار عبئاً على أهله. لذلك موت الفجاءة للكافر نقمة وللمؤمن نعمة:

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليسوا كذلك، ربنا قال إلا الذين آمنوا هؤلاء خلقوا في أحسن تقويم وهم في أعلى عليين ولن ينزل خطهم البياني أبداً هم سائرون، نحو الأعلى، نحو سعادة أشد، وعطاء أكبر، وأمن أكثر، وسرور وتوازن وما شاكل ذلك.

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

أجر غير ممنون أي غير مقطوع، الأجر الذي يعطيه الله سبحانه وتعالى للمؤمنين لا يقطع؟ فكل عطاء ينتهي بالموت ليس عطاءً، فالمال الوفير، والمنزل الفخم، والمكانة الاجتماعية الرفيعة ليست عطاء. فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا.

الله سبحانه وتعالى أعد للمؤمن عطاء لا ينتهي، خالداً فيه إلى الأبد ولا يمكن أن يحد الأبد بحدود لأنه لا نهاية له. أما الأبد إذا وضعنا رقم الواحد في دمشق وأصفار إلى حلب ووضعناها صورة لكسر قيمته لا نهاية، القيمة هي الصفر، كل عدد مهما كان كبيراً إذا نسب إلى اللانهاية قيمته الصفر.

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

البكاء على الدنيا ضعف في التفكير :

قال تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

ابك على الآخرة ولا تبك على الدنيا، البكاء على الدنيا ضعف في التفكير. لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، ليس لها قيمة يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب، قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

كلمة غير ممنون أي غير مقطوع، عطاء سرمدي أبدي، لا خوف ولا مرض ولا شعور بالحزن، حياة سعيدة إلى ما شاء الله، هذه الحياة نزهد بها ونطمع في الدنيا هذا هو ضعف التفكير، لذلك إن أكيسكم أشدكم للموت ذكراً، وأحزنكم أشدكم استعداداً له ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكن القبور والتأهب ليوم النشور.

(فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ)

(ما) بمعنى من أو بمعنى ما، ما الشيء الذي يدعو إلى التكذيب بالدين؟ كل هذا الكون ومع ذلك تكذب بالدين! الله عز وجل له شهادات، خلق هذا الكون أعرفه من الكون، أتكذب بوجوده أم بأسمائه الحسنى أم بوعده أم بناره وهذا الكون أمام عينيك، الشمس والقمر والنجوم والمجرات والليل والنهار والجبال والوديان والبحار وخلق الإنسان كل شيء أمامك فما يكذبك بعد بالدين.

أقصى أنواع التكريم أن الله سبحانه وتعالى خلقنا على صورته :

قال تعالى:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ*ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ*فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ)

ما الذي يدعوك أن تكذب بالدين، بما وعد الله به، بالجنة والنار، بالحساب الدقيق، بالتوفيق بالدنيا، بالتعسير في الدنيا، هذه الوعود التي وعد الله بها كيف تكذب بها؟ كيف لا تأخذها مأخذ الجد؟ كيف تستخف بها؟ هذه معصية رب يقول لك هذا حرام، تفعله أنت؟

(فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ*أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا قرأ هذه السورة قال: نعم، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم فيه معنىً جديد هو أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان مختاراً وخلقه مفكراً وخلقه متكلماً وخلقه سميعاً وخلقه بصيراً وخلقه حكيماً عاقلاً ومتميزاً ليس هناك إنسان آخر يشبهه وهذه كلها أسماء الله الحسنى. الله سميع وخلق الإنسان بهذه الصفة مع التفاوت الكبير، الله سميع وجعل للإنسان سمعاً لذلك هذا يفسر قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

أنت مخلوق مكرم جداً، أسماء الله الحسنى، الفرد، الله عز وجل جعلك فرداً ليس في الأرض إنسان يشبهك في الشكل ولا في طريقة المشي ولا في طريقة الانتعال ولا في طريقة التكلم ولا في طريقة التفكير نسيج وحدك، تكريم من الله عز وجل. الله يفعل ما يشاء أعطاك حرية الاختيار، الله عز وجل سميع وجعل لك سمعاً تسمع به. وبصير وجعلك بصيراً، الله سبحانه وتعالى خلق آدم على صورته، هذا أعلى تكريم، الله سبحانه وتعالى يحكم بين عباده، وكذلك جعل الناس مراتب بعضهم أعلى من بعض ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فلذلك أقصى أنواع التكريم أن الله سبحانه وتعالى خلقنا على صورته.

النبي الكريم يعد الإنسان الأول في الكون الذي بلغ قمة الكمال الإنساني :

ولقد كرمنا بني آدم، لذلك كما جاء في الحديث الشريف: تخلقوا بأخلاق الله، إذا الله عز وجل أعطانا سمعاً وبصراً، ومحاكمة وبياناً يجب أن تكون أخلاقنا مستمدة من أسماء الله الحسنى، أن نكون رحماء كرماء نعفو. هذه الأسماء الحسنى يجب أن نتمثلها بسلوكنا لذلك النبي الكريم يعد الإنسان الأول في الكون الذي بلغ قمة الكمال الإنساني. ما هذا الأدب يا رسول الله؟ قال: أدبني ربي فأحسن تأديبي:

(فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ)

بعضهم قال: من هذا الإنسان الذي يكذبك وقد ظهر الحق؟ ما الشيء الذي يدعو إلى التكذيب:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

بعضهم فسر هذه الآية أن الشمس تحكم الأرض بالجاذبية، والأرض تحكم القمر بالجاذبية، والشمس تبخر الماء، والسحاب تحكمها الرياح، كل مادة لها مادة مضادة ومادة مؤثرة، الكون كله هكذا. الذئب يحكم الغنم لأن الغنم تخاف من الذئب، لخوفها من الذئب تبقى مع القطيع حفظاً لها، والهرة تحكم بعض القوارض رحمةً بنا. من جعل المخلوقات يحكم بعضها بعضاً؟ هو الله عز وجل، هو أحكم الحاكمين، هو الذي أعطى كل شيء ليسيطر به على الشيء الآخر:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

هذا معنى من معاني أحكم الحاكمين، كل شيء يحكم الشيء الآخر والله تعالى فوق الجميع، حكمته ظاهرة في خلقه، وفي تصرفاته، وفي إرادته، وفي كل ما خلق من مخلوقاته.

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ*ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ*فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ*أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

الملخص أنك أيها الإنسان تستطيع أن تصل إلى أعلى عليين وتسبق الملائكة المقربين إذا عرفت رب العالمين، وإن غفلت عنه تهوي إلى أسفل سافلين. أي مخلوق خلقه الله عز وجل هو فوق الإنسان الكافر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العلق 096 - الدرس (1- 2) : تفسير الآيات 1 - 7 ، حض الإسلام على العلم والتعلم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-05-03

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات الأولى من هذه الآية هي أول ما أنزل الله تعالى على نبيه محمد :

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة العلق، بسم الله الرحمن الرحيم:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ*كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى*أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى*إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى*أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى*أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى*أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى*أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى*كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ*نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ*فَلْيَدْعُ نَادِيَه*سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ*كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

كلمة اقرأ في هذه السورة لها عدة معان، تقول: قرأت الرسالة أو قرأت الكتاب بمعنى اطلعت عليه وعلمت بما جاء فيه، وتقول: قرأت في وجه فلان الغضب أي شعرت به، وتقول: لما وصلت المدينة قرأت أهلها السلام بمعنى أبلغتهم السلام، هذه المعاني الثلاث وردت تحت كلمة اقرأ، والله سبحانه وتعالى أنزل هذه الآيات الأولى، أول ما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

لا بد للمؤمن من ساعة يناجي فيها ربه :

كان عليه الصلاة والسلام تأتيه الرؤية الصادقة فهي كفلق الصبح، ثم كان يتعبد ربه في غار حراء الليالي ذات العدد ثم جاءه الوحي في غار حراء.

ما الشيء الذي نستنبطه نحن وهو متعلق بنا من هذا الكلام؟ هل لأحد منا ساعة يخلو بها مع ربه؟ هل لأحد منا ساعة يتأمل فيها ملكوت السموات والأرض؟ هل لأحد منا ساعة ينظر فيها إلى أمر آخرته وماذا أعد لها؟ هل لأحد منا ساعة يفحص فيها عمله، أمنطبق على الشرع أم زائغ عنه؟ هل لأحد منا ساعة يفحص فيها نواياه هل هو مخلص في أعماله أم يبتغي الدنيا بأعماله؟ لا بد من ساعة تخلو بها مع ربك، ولا بد لك من ساعة تناجي فيها ربك، ولا بد من خلوة حتى تكون الخلوة، لا بد من ساعة تأمل، لا بد من تفكر في ملكوت السموات والأرض، لا بد من ساعة تنسى فيها مشاغل الدنيا ومتاعبها وهمومها وأحزانها وأتراحها وكل ما يتعلق بها وتنظر أين كنت وإلى أين المصير؟

إن كان المؤمن له مثل هذه الساعات فلهذه الساعات ما وراءها ولهذه الساعات ما بعدها ولهذه الساعات العطاء الكريم من الله سبحانه وتعالى، أما النبي عليه الصلاة والسلام فلأنه انقطع لله عز وجل وفكر في آياته وأحبه وأقبل عليه وذاب شوقاً إليه وتمنى أن تكون هداية الخلق على يديه فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه الوحي وقال اقرأ.

الرؤية الصادقة أولاً كما قالت السيدة خديجة رضي الله عنها، ثم يتحنث الليالي ذات العدد في غار حراء ثم جاءه الوحي بعد أن استوى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

أي بلغ يا محمد هذا الذي سيتنزل عليك للخلق كافة، أنت رسول الله أنت إذا بلغت الخلق فباسمي، أنت رسولي:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

أحياناً يتكلم السفير باسم دولته إذا رفض شيئاً أو أقر شيئاً أو أثنى على شيء أو ندد بشيء فهذا ليس باسمه الشخصي إنما باسم دولته التي اعتمدته سفيراً ولله المثل الأعلى.

لأن النبي محمد ما ضلّ وما غوى كان نجماً يهدي به الله تعالى الخلق أجمعين :

اقرأ باسم ربك أي بلغ يا محمد ما سيتنزل عليك من ربك، أنت الرسول، وأنت النبي، وأنت المرسل الذي إذا تكلمت فإنما تتكلم باسمي، لذلك ربنا عز وجل يقول:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 1-4]

ما ضل وما غوى، ما ضل بمعنى أنه ما فكر تفكيراً خاطئاً أبداً ولا توهم شيئاً غير صحيح على أنه صحيح ولا وقع في ضلالة ولا في غلطة، جانبه الفكري مسدد دائماً، وما غوى لم يرتكب خطأ في سلوكه، لم يقع في معصية ولا مخالفة ولا في عمل لا إنساني ولا في شيء صغير فيما يتعارف الناس على أنه صغير. لأنه ما ضل وما غوى كان نجماً يهدي به الخلق أجمعين، لأنه ما ضل صاحبكم وما غوى صار لا ينطق عن الهوى:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى*عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى*ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى*وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

[سورة النجم: 4-7]

اقرأ أي أنت رسولي وبلغ ما سأنزله عليك للخلق كافة، وإذا أردت معنى آخر لأقرأ أي اقرأ ما في الكون من آيات، تعرف على عظمة الله من خلال الكون، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، لو أنك جلست إلى المائدة صباحاً وتأملت في صحونها صحناً صَحناً لوصلت إلى الله من دون أن تشعر.

كأس الماء يحتاج إلى شمس وإلى بحار وإلى سحب وإلى منخفضات وإلى رياح وإلى أمطار وإلى ثلوج وإلى مستودعات وإلى ينابيع وإلى تخزين من جعله لك عذباً فراتاً؟

(اقرأ) بمعنى اطلع على ما في الكون وانظر ما فيه من عظمة الله سبحانه وتعالى :

اقرأ؛ لا يأكل الإنسان كالبهيمة، إذا نظرت إلى ابنك تعلم علم اليقين أنه من نطفة لا ترى بالعين من ماء مهين تستحي به، ومع ذلك صار طفلاً يرى ويسمع ويفكر تسأله فيجيب يتعلم الرياضيات ويتعلم اللغة ويتعلم النحو والصرف، ويفرح ويغضب ويحزن، في أحشائه معدة وأمعاء وبنكرياس وكبد ومرارة وقلب ورئتين وشرايين وأوردة وعضلات وغدد صماء وجهاز عصبي وجهاز لطرح البول وهيكل عظمي وجمجمة ودماغ وخلايا عصبية هذا أمامك.

اقرأ، انظر إلى الأشياء وانظر ما فيها من عظمة الله سبحانه وتعالى، اقرأ بمعنى اطلع على ما في الكون قال تعالى:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

[سورة ق: 6]

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ*أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً*ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً)

[سورة عبس: 24-26]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ* إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

[سورة الطارق: 5-8]

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ*وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ*وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

[سورة يس: 71-73]

النبي عليه الصلاة والسلام رسول الله من أحبه فقد أحب الله ومن أكرمه فقد أكرم الله:

الكلمة الأولى (اقرأ) بمعنى بلغ يا محمد ما سينزل عليك فأنت رسولي، والمعنى الثاني اقرأ أو تابع القراءة لأن التفكر أعظم عبادة، لا عبادة كالتفكر، الإنسان عليه أن يقف عند كل شيء:

((أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية وكلمة العدل في الغضب والرضى والقصد في الفقر والغنى وأن أصل من قطعني وأعطي من حرمني وأعفو عمن ظلمني وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرة))

[رزين عن أبي هريرة]

هذه الساعات التي نحياها ثمينة جداً لا يعلم قيمتها الإنسان إلا بعد الموت، ساعات محدودة، وأيام معدودة، وأشهر محدودة، سنوات لا تزيد ولا تنقص، فهنيئاً لمن عرف الله في هذا العمر القصير وسعد بقربه إلى أبد الآبدين، والويل لمن ضيع وقته في سفاسف الدنيا وفي ترهاتها وفي القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

هذا يؤكد أن النبي عليه الصلاة والسلام رسول الله، من أحبه فقد أحب الله، ومن أكرمه فقد أكرم الله، ومن تبع سنته فقد تبع أمر الله، ومن أرضاه فقد أرضى الله، وهذا ينطبق على خلفائه من بعده، إذا أكرم أحد أخاه فإنما يكرم ربه، فكيف إذا كرمت النبي عليه الصلاة والسلام. إذا عزرته ونصرته ووقرته واتبعت سنته وأحييتها ورفعتها بين الناس فهذه محبة وتعظيم لله عز وجل، اقرأ باسم ربك هذا معنى كلمة باسم.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

[سورة النساء: 65]

مقام الربوبية ومقام الألوهية :

هذا هو الإيمان إيمان بالله وإيمان برسوله، إيمان بأن ما جاء به الرسول الكريم هو الحق من عند الله، أما كلمة (ربك) فهناك مقام الربوبية وهناك مقام الألوهية، ولا بد من أن تعرف الله خالقاً وأن تعرفه مربياً وأن تعرفه مسيراً، أما أن تعرف الله خالقاً فليس في الأرض كلها إلا أشخاص قلائل ينكرون أن هناك إله عظيم، فإنكار الوجود قليل، لكن الإيمان المطلوب لا أن تؤمن بالله فحسب بل أن تؤمن به مربياً وأن تؤمن به مسيراً، هناك مقام الخلق ومقام الربوبية ومقام الألوهية.

فالنبي عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى اقرأ باسم ربك شهادة من الله عز وجل على أنه عرف ربه واتخذ الله ربه، وفرق بين عرفه رباً واتخذه رباً. عرفه رباً فالله سبحانه وتعالى بعد أن خلق الخلق أمدهم بالحياة وأمدهم بالغذاء وأمدهم بالماء وأمدهم بالهواء وأمدهم بالطعام والشراب وخلق لهم كل شيء، فالله خالق وهو رب بمعنى ممد، واختار الله عز وجل محمداً رسولاً لأنه عرف ربه، لم يقل اقرأ باسم رب العالمين بل اقرأ باسم ربك، حينما أضيفت كلمة رب إلى كاف الخطاب فهذا دليل على أن النبي عليه الصلاة والسلام قد عرف الله رباً، اقرأ باسم ربك؛ وهذا سؤال لنا هل عرفنا الرب؟ هل ترى

أنه بسعيك تأكل وتشرب؟ وأن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وكفى، وتركهم يأكل قويهم ضعيفهم، أم أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

في تولي أمر الخلق لا يشرك الله معه أحداً :

قال تعالى:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

هذه الآية تكفي، ما لك من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً، أي تولي أمر الخلق لا يشرك الله أحداً معه أبداً فلذلك قال الله عز وجل:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

من هو ربك الممد؟ هو الذي خلق، خلق ماذا؟ بلا مفعول به أي خلق كل شيء بدءاً من المجرات، بعضها يبعد عنا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية وبعض النجوم أكبر من شمسنا بثلاثين مليون مرة وبعض النجوم يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما.

الذي خلق هذه المجرات التي لا يعلم عددها إلا الله تقدير أولي، مليون مليون مجرة ولا يعلم إلا الله كم في المجرة من نجوم وكواكب، تقدير أولي عشرة آلاف مليون نجم في كل مجرة. وهذه النجوم والكواكب متفاوتة في حجومها وفي بنيتها وفي مساراتها وفي جاذبيتها وفي وظائفها، هذا عن السماء فماذا عن الأرض؟ الأرض وما فيها من ثروات قال تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

[سورة طه: 6]

الدولة الفلانية خفضت إنتاجها من النفط من ثمانية ملايين برميل في اليوم إلى ستة ملايين برميل، ما هذه المستودعات وكم حجمها؟ يقول لك: هناك احتياطي لآخر هذا القرن، استهلاك النفط بشكل متزايد وكل بئر من هذه الآبار ينتج ملايين البراميل يومياً.

آيات دالة على عظمة الله سبحانه :

قال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

خلق ما في الأرض من ثروات، من معادن؛ الحديد، والنحاس، والفوسفات، والفحم الحجري أحياناً وبعض المناجم يبلغ مئتي كيلومتر:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

خلق ما تحت الثرى من معادن وثروات، من طاقة، وما على الأرض من جبال، هذه الجبال التي لا يعلم عددها إلا الله، أعلى جبل على وجه الأرض لا يزيد لو مثل على كرة قطرها متر لا يزيد واحد سنتيمتر، وأعمق نقطة في سطح البحر لو مثلت على كرة قطرها متر لا تزيد عن واحد سنتيمتر، كل هذه المرتفعات وهذه المنخفضات وهذه البحار أربعة أخماس الأرض بحر، في بعض الأماكن عمق البحر يقدر باثني عشر كيلومتراً، أنواع الأسماك تزيد على مليون نوع، بعض الأسماك تعيش في أعماق البحار، وفي قاع البحار ظلام دامس هذه الأسماك يتألق في ظهرها مصباح كهربائي ينير لها دائرة قطرها ثلاثون متراً فإذا هاجمها عدوها أطفأت النور واختفت، بعض الأسماك بشكل إناء يخرج من هذا الإناء خطوط واستطالات، هذه سمكة إذا مرت فوقها سمكة تخدرها وتفترسها وهي كإناء الزهور:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

الحوت مئة وثلاثون طناً، خمسون طناً لحماً وخمسون طناً دهناً وتسعون برميلاً زيتاً، ووجبته المعتدلة أربعة أطنان، ويرضع وليده حليباً ثلاث وجبات يومياً في كل مرة ثلاثمئة كيلو، مجموع الرضعات في اليوم ألف كيلو غرام.

الحكمة من جعل بعض الحيوانات مذللة للإنسان :

اقرأ باسم ربك الذي خلق الحيتان وخلق الأسماك منها المتوحشة كسمك القرش، وخلق الأسماك الجميلة، أسماك زينة من أجل أن تستمتع بها يوجد أنواع لا يعرفها إلا الله، من أجمل من خلق الله هذه الأسماك؟ فإذا ذهبت إلى الحيوانات بعضها مذلل، الجمل والغنم والماعز والبقر حيوانات مجترة خلقت من أجل أن تستفيد من لحمها ووبرها وصوفها ولبنها إذاً لا بد لها من أن تأكل كثيراً، تأكل طوال النهار فإذا راقبتها في الليل تراها يخرج من بعض أجوافها لقمة كبيرة كالكرة وتراها وهي تسير من أسفل إلى أعلى تمضغها ثانيةً ثم تعيدها إلى جوف آخر، مَن قطع هذه القطعة وجعلها كالكرة أله أيد في

بطنه؟كيف خرجت من جوفه إلى بطنه وكيف عادت في طريق آخر، ومن جعل الجمل مذللاً لو أن الله عز وجل ركّب في الجمل أخلاق الوحوش من يستطيع أن يقتنيه، من جعل الغنمة تخاف ولأنها تخاف يسهل أن ترعاها وتنضم إلى القطيع وتخاف أن تبتعد عنه وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عليكم بالجماعةِ، وإيَّاكُم والفُرْقة، فإنَّ الشيطانَ مع الواحد، وهو من الاثنين أبعدُ - وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية-))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

القاصية البعيدة.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

الغنم والماعز والبقر والجمال هذه حيوانات نركبها ونأكل من لحمها ونشرب من لبنها ونستعمل صوفها ونستفيد من جلودها، وإذا انتقلنا إلى بعض الحيوانات الأخرى كالدجاج تأكل كل شيء وتعطيك أشهى شيء وهي لا تطير فلو طارت لطارت مع بيضها، أطعمتها أنت وباضت عند جيرانك، إذاً هناك حكمة من عدم طيرانها تطير من مكان إلى مكان بالأمتار أما أن تنتقل من بيت إلى بيت لا، ولها مكان تأوي إليه، انظر إلى النباتات المحاصيل، القمح والشعير والعدس والحمص وأنواع لا يعلمها إلا الله بعضها نعرفه وبعضها لا نعرفه، انظر إلى الخضراوات وإلى الأشجار المثمرة، أشجار الزينة، وأشجار الخشب، أشجار الفاكهة أنواع لا يعلمها إلا الله هل فكرت بالذي خلق وصمم وبرمج وخلق المواد وصنعها لك؟!!

لا بدّ للإنسان من جولات في فكره في ملكوت السموات والأرض :

قال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

خلق كل شيء، حينما أغفل الله عز وجل المفعول به فهذا يعني أنه خلق كل شيء، كل شيء تراه عينك من خلق الله من إبداعه، من تصميمه، هل ترى من خلق الرحمن من تفاوت، المصنع أحياناً ينتج صناعة ممتازة وصناعة تجارية، هل ترى في صنعة الله عز وجل شيئاً متقناً وشيء أقل إتقاناً قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)

[سورة الملك: 3]

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل: 88]

هذا الفرخ ينمو له في رأس منقاره نتوء حاد يعينه على كسر الكلس، فإذا خرج من بيته تلاشى هذا النتوء وعاد منقاره كما هو، يد من أنتجت له هذا النتوء الحاد؟

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

لا بد للإنسان من جولات في فكره في ملكوت السموات والأرض، والله الذي لا إله إلا هو الآيات التي تدل على عظمة الله وعلى أنه خالق عظيم ومربٍ كريم ومسير حكيم لا تعد ولا تحصى.

الله عز وجل في الآية الأولى عمم الخلق ثم خصّ بالخلق الإنسان لأنه مكرم عند الله:

الله عز وجل يقول:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات: 20]

آيات كأس الماء آية، قطعة الجبن آية، الزيتون آية، التين آية، العنب آية، هل تستطيع أن تشد عنقود العنب شداً؟ لا تستطيع إلا أن تحركه حركة خاصة له مفصل لولا هذا المفصل لو هب النسيم شديداً أو الهواء شديداً لسقط كل ما على الكروم على الأرض ولكن الخالق الحكيم جعل لهذا العنقود ذنباً محكماً متيناً لا يفصل عن أمه إلا بحركة معاكسة تصميم من هذا؟ من جعل للبطيخ قشرة سميكة؟ ترى شاحنة تحمل الأطنان من البطيخ ومع ذلك الذي في الأسفل كما هو لا يتأثر، هناك تصميم هناك إعداد هناك لكل ظرف معين شيء يواجهه.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

الله عز وجل في الآية الأولى عمم الخلق ثم خص بالخلق الإنسان لأنه مكرم عند الله عز وجل قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

العلق أي قطعة من الدم متجمدة، البويضة تكون في المبيض يدخل إلى الرحم في اللقاء الزوجي ما يزيد عن مئتين وخمسين مليون حيوان منوي تنتقي البويضة أقوى هذه الحيوانات وتفتح له باباً صغيراً فإذا دخلت أقفلت الباب وردت كل الخاطبين، لقحت البيضة، تسير هذه البيضة من المبيض إلى الرحم في عشرة أيام أو ثمانية تنقسم إلى عشرة آلاف قسم ولا يزيد حجمها لو أن حجمها زاد لعلقت، ويكون

الرحم قد هيأ لها فراشاً وثيراً وغذاءً غنياً فإذا علقت في جدار الرحم تسمى علقة لأنها تعلق به وتمد جذورها إليه لتمتص الغذاء ما يقيم به نموها، هذا معنى علق.

خلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته سبحانه :

قال تعالى:

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

هذه الخلية التي انقسمت أين العينان فيها؟ أين الأذنان؟ أين اللسان؟ أين القلب؟ أين الرئتان؟ أين المعدة والأمعاء؟ أين الهيكل العظمي والعضلات؟ وأين الشعر؟ أين الجهاز البولي؟ أين الأصابع؟ أين الأظافر؟ علقة خلية منقسمة لو لم يكن هناك إله عظيم لنمت ونمت وصارت قطعة من اللحم متجانسة، كيف اتجهت هذه الخلايا فشكلت القلب، وهذه الخلايا شكلت الدماغ، وهذه الخلايا صارت نسيجاً عظمياً قاسياً؟ من أعطى العظام شكلها وطولها وحجمها ومن جعلها قاسية؟ كيف اتجه قسم من هذه الخلايا فصار عضلات وأمعاء ومعدة ورأساً:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

قد يسأل سائل كيف أفكر في آيات الله؟ نقول له: فكر بالشيء وأصله وفكر بالشيء وعدمه وفكر بالشيء وخلاف ما هو عليه، وقد يقول هذا السائل: من أين أتيت بهذه القواعد هل هي من عندك؟ أقول لا، من الله عز وجل.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ)

[سورة القصص: 71]

آيات تحضنا على التفكير بالشيء وعدمه والشيء وخلاف ما هو عليه والشيء وأصله

فكر بالشيء وخلاف ما هو عليه، هناك ليل ونهار فكر لو أن النهار طال وصار سبعين ساعة، فكر لو أن النهار قصر صار ساعة، فكر لو أن الليل استمر كما هو في القطب ستة أشهر، أو النهار كذلك هذا الشيء وخلاف ما هو عليه باب واسع للتفكر، الله عز وجل حضنا عليه هذه قاعدة أولى. فكر بالعين لو أنها في مكان آخر لو أنها في الصدر أو في الظهر أو خلف الرأس، أو لو أن هناك عيناً واحدة ترى فيها أطوال الأبعاد الثنائية لا الثلاثية، فكر بالشيء وخلاف ما هو عليه، هذا باب من أبواب التفكير، فكر بالشيء وعدمه قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

[سورة الملك: 30]

تصور الشام بلا ماء ما قيمة هذه الأبنية العالية؟ من يسكنها؟ ما قيمة هذه المدينة التي تتسع لولا نبع الفيجة؟ هذا الشيء وعدمه هذا باب آخر، وهناك آيات كثيرة تحضنا على التفكير بالشيء وعدمه والشيء وخلاف ما هو عليه والشيء وأصله.

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

شخصية، ذكاء، إبداع، محاكمة، ذاكرة، تصور، إحساس، انفعال، خبرات وتجارب؛ شكل قويم، خلق معد من علق، خلق الإنسان من علق، هذا الإنسان الكامل الذي يسمع ويتحرك ويبصر ويشم ويتذوق ويتكلم ويعبر عن أفكاره وانفعالاته ويستمتع ويغضب ويحزن ويضحك ويبكي ويأكل ويشرب ويتنفس، خلق الإنسان من علق هذا أصله قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى*مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

[سورة النجم: 45-46]

فإذا أردت أن تفكر في آيات الله عز وجل واخترت آية من هذه الآيات ولتكن العين مثلاً فكر في إنسان بلا بصر، لو أن الله عز وجل خلقنا بلا عينين ما قيمة الألوان؟ ما قيمة الأزهار والأطيار؟ ما قيمة الزوجة؟ ما قيمة الجمال كله بلا هاتين العينين؟

إذا أردت أن تفكر في آيات الله اختر آية وفكر فيها من زوايا ثلاث :

فكر بالشيء وعدمه وفكر بالشيء وأصله علقة تصبح عيناً فيها قرنية من خمس طبقات وقزحية تتحرك آلياً تصغر وتكبر بحسب شدة الضوء، فيها جسم بلوري ينضغط ويتقلص بحسب بعد الشيء المنظور، وفيها عضلات هدبية، وفيها مائع زجاجي، وفيها خلط مائي بنسب مركزة، وفيها شبكية فيها مئة وثلاثون مليون نقطة دم تصبح هذه العين، وهذه العين ترى الشيء بحجمه الحقيقي ترى الجبل جبلاً، صور جبلاً بآلة تصوير تراه صغيراً أما العين ترى فيها الجبل جبلاً بحجمه الحقيقي.

إذا أردت أن تفكر في آيات الله وجلست بعد صلاة الصبح للتفكر وهو أرقى عبادة اختر آية وفكر فيها من زوايا ثلاث؛ الشيء وعدمه كقوله تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

[سورة الملك: 30]

والشيء وخلاف ما هو عليه قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ)

[سورة القصص: 71]

والشيء وأصله، قال تعالى:

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

ثلاثة معانٍ تجمعها كلمة (كريم) :

هذا الإنسان العظيم خلقه من علق، كل أب له أولاد يعرف تاريخ هذا الابن، من انقطاع الدورة الشهرية عند زوجته وبعد تسعة أشهر تضع غلاماً لا يتكلم ولا يمشي ولا يفكر ليس فيه إلا منعكس المص، يمص الثدي. غلام ولد من توه وأمسكته القابلة لتغسله جاء طرف خنصرها على فمه فجعل يمصه، من علمه؟ الآن نزل، كان يأخذ الغذاء من صرته من علمه المص؟ الله عز وجل، هذه الحيوانات كلها من هداها إلى طعامها وشرابها وبناء أعشاشها؟ الله عز وجل.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

هذا الرب العظيم الذي خلق وهو الرب، وهو الأكرم، الكريم الشيء النادر، الشيء العزيز، والكريم الشيء المنزه عن كل نقص، والكريم المحسن، ثلاثة معان تجمعها كلمة كريم، لكن الله عز وجل يقول:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

أكرم من ماذا؟ هل يعقل أن يوازن خالق بمخلوق؟ قال بعض المفسرين: اقرأ وربك الأكرم مهما تعرفت إليه فهو أكرم، مهما عرفت عن كماله فهو أكرم، مهما عرفت عن وحدانيته لا شيء مثله، لا شيء قبله ولا شيء بعده، هو القديم، هو الأبدي السرمدي، ليس كمثله شيء هذا من حيث المعنى الأول.

أما المعنى الثاني مهما تعرفت إلى صفاته وأسمائه الحسنى فالله عز وجل أعظم من هذا وأكرم، مهما تعرفت إلى إحسانه فهو أشد إحساناً اقرأ وربك الأكرم، لذلك المؤمن يسعد بالله عز وجل لأن الله لا نهائي مهما عرفت عنه فهو أكبر من ذلك، لكن الإنسان إذا تعرف إلى شيء وأحاط بشيء مل منه.

بعض عطاءات الله تعالى للمؤمن :

لماذا حياة المؤمن سعادة لا تنقضي لأن أهل الدنيا يتوهمون السعادة في الزواج، بعد الزواج يقضون معظم وقتهم خارج المنزل، كان يظن قبل الزواج أنه سيسعد بهذه الزوجة أيما سعادة بعد سنوات عدة ملَّ منها، وهذه سنة الله في خلقه ألفها وألفته، من ظن أن السعادة بالمال بعد أن يصبح غنياً لا يعود المال مصدر إسعاد له يصبح عبئاً عليه، أما إذا عرف الإنسان الله عز وجل فالله مطلق لا نهائي مهما تعرفت إليه فهو أعظم، وكلما ازددت قرباً ازددت سعادةً لذلك حياة المؤمن كلها شباب، المؤمن لا

يشيخ. قد ينحني ظهره قد يضعف بصره قد يضعف سمعه لكنه لا يشيخ مادام مؤمناً فله نفس الشباب، هذه عظمة الإيمان تلتقي بالمؤمن بالسبعين تراه حيوياً ونشيطاً وذا همة عالية، تلتقي بأهل الدنيا في الستين تراهم انتهوا قعدوا وخلدوا إلى الراحة وتلاشى دورهم في الحياة واحتلوا هامش الحياة بعد أن كانوا في أوجها، لكن المؤمن لا يشيخ أبداً.

رجل من كبار المؤمنين بلغ السابعة والتسعين وله همة الشباب وعزم الشباب وطموح الشباب كان مستقيم الظهر حاد البصر مرهف الأذنين وسيم الوجه سأله أحد تلاميذه: ما هذه الصحة يا سيدي؟ قال: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً. ألا تحب أن تعيش حياتك كلها في صحة ونشاط وفي مكانة اجتماعية وفي يقظة وأن يرمقك الناس بنظرة عالية، كن مع الله إن كنت معه فهو معك.

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعـه ثم من يعطيك إذا ما منعك

* * *

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

تعرفه ويتخلى عنك، تعرفه ويجعلك بحاجة عبد لئيم، تعرفه وتخرف في خريف العمر حاش لله، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت.

أكثر من حادثة أن المؤمن يقبضه الله إليه قبضاً يسيراً، لا يكون على أهله ثقيلاً لكرامته على الله سبحانه وتعالى ويترك أثراً بليغاً، لو أن الله أراد تأديبه لأقعده في الفراش ثلاثين عاماً، أعرف رجلاً كان يذهب كل أسبوع إلى مدينة مجاورة ليفعل الفاحشة ثم قعد في فراشه ثلاثين عاماً حتى ملّه أقرب الناس إليه لاقى من أهله غلظة وجفاءً وقسوةً وإهانةً ما لا يحتمل.

من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، متعه بصحته، متعه بقوته، متعه بسمعه، متعه ببصره هذه بعض عطاءات الله للمؤمن.

(علم بالقلم) آية واسعة جداً :

الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله، إذا أردت أن تحب نفسك فأحب الله، إذا أردت أن تحب نفسك فاستقم على أمر الله تعش حميداً وسعيداً وتنقلب إلى الله رشيداً.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

أي بذرة من البذار التي تلقى في الأرض فتنبت فيها محفظة تعليمات، هذه التعليمات لو أخذنا الليمون مثلاً، هذه البذرة فيها محفظة، في هذه المحفظة أكثر من خمسة آلاف مليون أمر، بعض هذه الأوامر يحدد هيكل الشجرة، وبعض هذه الأوامر يحدد لون خشبها أملس أو فيه عقد كالزيتون، بعض هذه الأوامر يحدد ثخن جذعها، وبعض هذه الأوامر يحدد نوع أغصانها، وبعض هذه الأوامر يحدد شكل ورقها ولون ورقها وخطوط الورق وحجم الورق، وبعض هذه الأوامر يحدد نوع الزهر ومتى يزهر؟ وكيف يزهر قبل الورق أو بعد الورق؟ وبعض هذه الأوامر يحدد نوع الفاكهة ولونها وحجمها وتصميمها وهيكلها وعددها، خمسة آلاف مليون أمر الله عز وجل، علم بالقلم آية واسعة جداً.

الإنسان حينما تصيب يده جمرة يزيحها سريعاً ما الذي حصل؟ هناك أعصاب حس تلقت الإحساس بالحر والحرق هذا الإحساس انتقل إلى العمود الفقري، في العمود الفقري أمر جاهز بإبعاد اليد إذا أصابها حريق، إذا أنت لست منتبهاً يدك على الطاولة وإنسان في يده دخينة ولامس رأسها طرف يدك دون أن تشعر تسحبها سريعاً، من نقل هذا الإحساس إلى حركة؟ يوجد خط مرسوم جاهز بالنخاع الشوكي يسمونه المنعكس الشرطي كل مؤثر له استجابة، قال علماء النفس: في الدماغ خطوط مرتسمة عليه إذا جاء هذا التأثير تسير السيالة العصبية في هذا الخط فتنقلب إلى أمر حركي.

الحيوان يقوم بأعمال مذهلة يعجز عنها أذكى البشر :

لماذا ضارب الآلة الكاتبة ينظر إلى النص على الورق ويداه على مضارب الحروف دون أن ينظر إليها ماذا يحصل؟ إذا وقعت عينه على الباء هذا النظر إحساس ينتقل إلى الدماغ وفي الدماغ خط تسير به السيالة العصبية فتعطي أمراً بضغط اليد على مكان محدد من الآلة الذي علم، هذه الآية لها تفسيرات كثيرة بعض هذه التفسيرات أن الغرائز الحيوانية كلها منضوية تحت هذه الآية؛ كيف تأكل الطير؟ كيف تبني أعشاشها؟ كيف تحلق في الأجواء؟ كيف يعشش الطير في دمشق وينتقل إلى أفريقيا في الشتاء ويعود من أفريقيا إلى دمشق في حي الصالحية في الشارع الفلاني في الحارة الفلانية في البيت الفلاني في خشب السطح في الليوان؟ كيف اهتدى هذا الطائر؟ الذي علم هذا الطائر يهتدي بالشمس ليس هذا التفسير كافياً يهتدي بمعالم الأرض ليس هذا التفسير كافياً، من يعلم الطائر خط سيره يقطع ستة وثمانين ساعة طيران؟ هناك طيور تسافر سبعة عشر ألف كيلومتر من علمها خط سيرها؟ من علم سمك السلمون الذي يولد في أعالي الأنهار وينتقل من أعالي الأنهار في أمريكا إلى مصباتها إلى المحيط الأطلسي فيكبر ثم يعود ثانية إلى المحيط الأطلسي قرب أوربا إلى سواحل أمريكا فيدخل في النهر الذي جاء منه.

لو كلفت ربان سفينة يقود سفينة من سواحل فرنسا من دون بوصلة هل يصل إلى مصب الأمازون؟ هذا فوق طاقته عمل لا يستطيع فعله، من هدى هذه السمكة إلى زاوية إبحارها بحيث تصل إلى مصب النهر الذي خرجت منه؟ الذي علم بالقلم، كيف علمها؟ كيف أودع فيها خط السير؟ لو نظرت إلى الحيوان، الإنسان عنده فكر وخبرات وتجارب ويتعلم في المدارس لكن الحيوان يقوم بأعمال مذهلة يعجز عنها أذكى البشر.

الكلب مثلاً يملك حاسة شم تزيد مليون مرة عن حاسة شم الإنسان، وهناك كلاب تعرف أماكن الكمأ في الأرض تهدي صاحبها إلى أماكن الكمأ، من علمها؟ من علم الصقر أن ينقض على فريسته في أعالي السماء وهي في البحر؟ كيف يراها؟

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

الله عالم يحب كل عالم :

المعنى الآخر أن هذه اللغة نعمة كبرى، اللغة وكتاباتها وقراءتها وانتقال الكتب من جيل إلى جيل هو سبب في نقل المعارف هذه نعمة كبرى، هذا كتاب الله بين أيدينا لولا الكتابة لما وصل إلينا، طبعاً هو متواتر تواتراً شفهياً، الكتب، الحقائق، تاريخ البشر، المؤلفات والعلوم، والثقافات، والمعارف، هذه كلها مدونة في الكتب، من علم الإنسان اللغة؟ من علمه النطق؟ من علمه الكتابة؟ ما النص المقروء؟ ما النص المسموع؟ كيف يفهم النص وكيف يعبر عن أفكاره؟

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

نعمة اللغة ونعمة نطقها ونعمة كتابتها ونعمة قراءتها ونعمة نقل المعارف من جيل إلى جيل هذه بالمعنى الضيق، بالمعنى الواسع:

(عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

علم بالقلم كل مخلوق، هذا النبات كيف ينمو؟ والبذرة كيف تنمو؟ من أعطاها هذه الأوامر؟ هذه البذرة لون ثمرتها صفراء وهذه لون الثمر أحمر وهذا أخضر وهذا كبير وهذا صغير وهذا حلو وهذا مر وهذا ينبت متأخراً وهذا ينبت تباعاً وهذا سريع العطب وهذا يتحمل التخزين، من علم النبات هذا؟ من علم الحيوان الذي يخرج من بطن أمه ليرعى الحشائش من علمه ذلك؟

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

لذلك إن الله عالم يحب كل عالم، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى*أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

هذا الإنسان الذي كان من علق ثم صار إنساناً سوياً هو نفسه خلق ليسعد، خلق ليسمو، خلق ليرقى، لكن بعض البشر يطغى يتجاوز الحد الذي رسم له، كلا إياك أيها الإنسان أن تفعل هذا الفعل:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى*أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

الطغيان واسع، يطغى الإنسان على حقوق جاره وعلى حقوق زوجته وعلى حقوق شريكه وعلى حقوق أبنائه وعلى حقوق أصدقائه وعلى حقوق أبويه قد يطغى على الحقوق كلها. الطغيان تجاوز الحد المعقول إلى حد آخر مرفوض.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العلق 096 - الدرس (2- 2) : تفسير الآية: 8 - 19، الفرق بين أخلاق المؤمن وأخلاق غير المؤمن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-05-10

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى علّم كل الخلائق بدءاً من الخلية :

أيها الأخوة الكرام: وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

فالله سبحانه وتعالى علم، من علم؟ كل الخلائق بدءاً من الخلية، في كل خلية في نواتها محفظة فيها معلومات تربو على خمسة آلاف مليون أمر، من علم هذه الخلية أن تنقسم بهذه الطريقة مروراً بالجراثيم؟ لها طباع؛ لها مضادات، ولها طرائق بالتكاثر والفيروسات كما يسميها العلماء، الفيروسات جراثيم الجراثيم، أي حجم الفيروس بالنسبة إلى الجرثوم كحجم الفيروس بالنسبة إلى الإنسان، كيف عرف العلماء أن هذه الفيروسات كائنات حية؟ من تكاثرها فقط، فالذي علم علّم كل كائن كيف يهتدي إلى حاجته، الأسماك التي تولد في أعالي النيل كيف ترحل إلى بحر الشمال؟ تنتقل من منابع النيل عبر بعض المنابع الشرقية إلى السودان ومصر ثم تخرج إلى البحر المتوسط وتتجه نحو الغرب إلى أن تعبر مضيق جبل طارق وتتجه نحو الشمال محاذية لسواحل إسبانية تعبر بحر المانش ثم تنتقل إلى بحر الشمال، الذي علم بالقلم علمها كيف تنتقل لهذه المسافات الطويلة، من هدى الطائر في طيرانه؟ الله سبحانه وتعالى، من علم النبات أنه إذا انقطع عنه الماء عليه أن يستهلك ماء الأوراق أولاً ثم ماء الأغصان ثانياً ثم ماء أغصانه الكبيرة ثالثاً ثم ماء الجذع رابعاً ولا يستهلك ماء الجذر إلا في آخر المطاف، لو أن الأمر بالمنطق لوجب أن يستهلك ماء الجذر أولاً لأنه أقرب أنواع الماء إليه، من علم النبات أن يستهلك ماء الأوراق أولاً حفاظاً على ماء الجذر الأمل الوحيد في إعادة الحياة مرةً ثانية.

آيات كثيرة دالة على عظمة الله سبحانه :

الذي علم كل خلية، كل كائن؛ الفيروسات والجراثيم وحيوانات وحيدة الخلية، الفقاريات وكل أنواع الحيوانات، وكل أنواع النباتات، هذه النحلة من علمها صنع هذه المسدسات مِن الشمع مَن؟ وكأنها رسمت بأدوات هندسية، مَن علم النحلة أن ترقص رقصةً تشعر صويحباتها أن الزهر على مسافات

بعيدة، ولها حركة أخرى تشعرها أن الزهر على مسافات قريبة، من علمها أن تهوي الخلية، من علم بعض العاملات أن يكن حارسات على الأبواب، من أعطى نحلات هذه الخلية كلمة السر لا تدخل نحلة إلى وكرها إذا لم تكن من هذه الخلية، ولا تدخل نحلة إلا إلى خليتها، وإن لم تكن من هذه الخلية لا يسمح لها بالدخول، من علم النحلات ذلك؟ من علم النحلات أن هناك عاملات لهن مهمات خاصة منهن الوصيفات ومنهن ناقلات العسل ومنهن الحارسات، منهن المنظفات، منهن معدات الطعام للملكة، من علمهن ذلك؟

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

من علم النملة إذا أرادت أن تختزن القمح أن تأكل الرشيم لئلا ينبت القمح في مخزنها وهناك بعض الحبوب فيها رشيمان والنملة تأكل هذين الرشيمين معاً؟ الذي علم بالقلم.

في الكبد خمسة آلاف وظيفة من علم هذه الخلية غير العاقلة أن تقوم بكل هذه الوظائف، الكبد يفرز مادة من أجل تجلط الدم ومادة أخرى هرمونية من أجل تميع الدم وإفراز هذين المادتين بشكل دقيق جداً بحيث يبقى الدم بين التميع والتجلط، فلو نقص بعض الهرمونات التي يفرزها الكبد لأصبح الدم في الشرايين كالوحل تماماً ولو نقص الهرمون الآخر لصار الدم بالشرايين مائعاً كالماء تماماً يسيل كله من جرح بسيط، من أعطى هذه الوظائف للكبد؟ من علمه أن يقوم بها؟ من علمه أن يفحص السميات؟ إما أن يقيدها وإما أن يحلها وإما أن يرسلها إلى خارج الجسم عن طريق الكلية، من علمه ذلك؟

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

القلم رمز الكتابة والكتابة رمز الثبات :

الأرض من علمها في سيرها حول الشمس إذا اقتربت من القطر الأصغر للمسار البيضوي أن تزيد من سرعتها؟ الله سبحانه وتعالى علمها، لا شك أن الجمادات كائنات غير عاقلة فإذا بدا لك تصرف عاقل من جماد فلا بد أن يكون وراء هذا الجماد عقلاً كبيراً، أي إن كنت في مكان مرتفع ورأيت سيارةً تقف عند الإشارة الحمراء وتطلق بوقاً للطفل الذي يعبر أمامها وتنحرف عن الحفرة وأنت في مكان مرتفع تحكم بأنه لا بد لهذه السيارة من سائق عاقل، الحديد لا يدرك إذاً لا بد من رجل سائق، ماهر، عاقل، يسيِّر هذه السيارة هذه الفكرة التي ألح عليها، إن رأيت تصرفاً حكيماً عاقلاً من نبات من حيوان أعجم ما تفسير ذلك لا بد من إله علمه، وتعليم الله سبحانه وتعالى:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

علم كل الكائنات، علم المجرات والكواكب والأرض والشمس والقمر، وعلم جميع الكائنات الأسماك والأطيار، الإنسان، الحيوان، الأجهزة في باطن الإنسان من علمها أن تقوم بتصرفات ذكية؟

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

القلم رمز الكتابة والكتابة رمز الثبات، فهذه البذرة إذا وضعتها في التربة تنبت أصلها هذا الثبات في القوانين، هذا الثبات توهمه بعض العلماء أن هذه البذرة مبرمجة، لا الله سبحانه وتعالى علمها ولكن تعليمه بالقلم تعليم ثابت، لا يعقل أن تزرع بذرة هذا النبات إلا وينبت أصله، هذا الثبات في الخلق توهمه الناس غرائز وتوهمه الناس في النباتات برمجة، بذرة فيها تعليمات، لكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم ولكن تعليمه أخذ وضعاً ثابتاً مستمراً، وهذا الوضع الثابت المستمر كأنه كتابة، لذلك الله سبحانه وتعالى قال:

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

[سورة الأنعام: 45]

حيثما وردت كلمة (كتب) في القرآن الكريم تعني الثبات، تعني أن هذا قانون لا يمحى ولا يعدل ولا يبدل.

الثبات في الخصائص والاستمرار بها هذا ما تعنيه كلمة (بالقلم) :

قال تعالى:

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)

[سورة المجادلة: 21]

بمعنى الثبات قانون دائم، فلذلك الله سبحانه وتعالى قال:

(عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

هذا التعليم رمز الثبات، أنت مطمئن، أعطى الحديد هذه القوة، وهذه القوة مستمرة فيه، حيثما وجدت الحديد في سطح الأرض فهو صلب، ثبات الأشياء واستمرارها، كل أنواع الحديد في الأرض لها ميزات واحدة، كل أنواع الفولاذ لها ميزات واحدة، كل أنواع النحاس لها ميزات واحدة، وكل أنواع الذهب لها ميزات واحدة.

فكلمة بالقلم أي كل كائن حي بدءاً من أصغر خلية، والخلية كائن معقد، أي بدءاً من الذرة وانتهاءً بالمجرة؛ تصرفاتها وحركاتها وسكناتها من تعليم الله سبحانه وتعالى، ولكن هذا التعليم أخذ شكل القوانين المكتوبة.

إذاً علم بالقلم، الكهرباء لها قوانين من قننها؟ الله سبحانه وتعالى، الماء له قوانين، لا ينضغط، والهواء له وزن معين، والماء له وزن معين لا لون له ولا طعم ولا رائحة يتبخر في درجات دنيا من علم ذلك؟ الله سبحانه وتعالى، فهذه آية واسعة جداً يدخل بها خصائص الأشياء، الكون مؤلف من مئات العناصر، كل هذه العناصر من تصميم الله سبحانه وتعالى؛ الذرات، المجرات، الكائنات، والأحياء، النباتات، الإنسان، ملخص الكلام أن كل خلية فيها محفظة وفيها تعليمات تزيد عن خمسة آلاف مليون معلومة، أمر، هذا هو الأمر الإلهي الذي علم بالقلم والثبات في الخصائص والاستمرار بها هذا ما تعنيه كلمة بالقلم.

الله أعطى كل حيوان قدرة على الإبصار محدودة لكنه أعطى للإنسان عيناً وفكراً :

قال تعالى:

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

الإنسان له وضع خاص، كل الكائنات علمها الله سبحانه وتعالى أشياء محددة بحسب وظيفتها، فالطائر علمه كيف يطير بسهولة ويسر، البط علمه كيف يسبح، السمك علمه كيف يحيا في الماء وكيف يأكل رزقه، الطفل حينما يولد علمه كيف يلتقم ثدي أمه، لكن كل مخلوق علمه الله أشياء محددة من أعلى مستوى تمشياً مع وظيفته إلا الإنسان أعطاه إمكانية التعلم وأعطاه فكراً، فالإنسان مثلاً له قدرة بصرية محدودة، النسر يفوقه في البصر، عينا الصقر تفوق الإنسان ثمانية أضعاف بدقة الرؤية، ولكن الله سبحانه وتعالى خلق مع هذه العين فكراً وهذا الفكر استطاع أن يرى المجرات، مرصد بانومار في أمريكا استطاع أن يرصد مليون مليون مجرة مع أن العين المجردة لا ترى إلا بعض الألوف من النجوم، الإنسان أعطاه عيناً ومع العين فكراً، بهذا الفكر وصل إلى المجرات، وبهذا الفكر اخترع الميكروسكوب فرأى الجراثيم، ثم اخترع الميكروسكوب الإلكتروني رأى به الأجسام مكبرة به تسعين ألف مرة، لذلك رأى الإنسان بهذا المجهر العجب العجاب، فالله سبحانه وتعالى أعطى كل حيوان قدرة على الإبصار محدودة لكنه أعطى للإنسان عيناً وفكراً، بالفكر رأى أشياء لا يراها أي مخلوق، الإنسان لا يطير لكنه خلق له مع هذا الجسم الذي لا يطير فكراً فركب الطائرات وطار إلى الفضاء ووصل إلى القمر، هذه الآية:

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

تشير إلى هذا الفكر العظيم الذي امتاز به الإنسان على سائر المخلوقات. الإنسان ولد عارياً لكنه بهذا الفكر ارتدى أجمل الثياب والإنسان ليس له عش يأوي إليه ولا وكر ينام فيه ولا مغارة يرقد فيها، ولكن هذا الفكر جعله يبني أجمل البناء ويسكن في أفخم القصور.

لا أدعي أن هذه الإنجازات مقبولة ولكن هذا الفكر شيء عظيم جداً حيثما وجهته أعطاك المستحيل، نقل الصوت عبر العالم، العالم صار قرية صغيرة الآن، أي إنسان بالهاتف يخبر أي مكان في العالم عن طريق هذا الفكر الذي أودعه الله سبحانه وتعالى فينا، نقل الصوت والصورة يمكن أن تشاهد مشهد بطرف العالم الآخر ينقل لك بالوسائط المعقدة.

فضل الله على الإنسان فضل عظيم بهذا الفكر :

إذاً:

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

كأن الله سبحانه وتعالى يشير بهذه الآية أن فضل الله على الإنسان فضل عظيم بهذا الفكر، ولا مخلوق امتاز بالفكر إلا الإنسان، مجتمع من الحيوانات ولم ترتفع مجتمعات الحيوانات وترتقي منذ أن خلقت وحتى اليوم هي كما هي.

يقولون إن الإنسان أصله قرد، هل مجتمع القرود ركب طائرات؟ هل اخترع أشياء؟ قال بعضهم: إن الفرق بين الإنسان والحيوان فرق بالطبيعة لا بالدرجة.

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

أعطاه هذا الفكر، بالفكر انتقل عبر العالم وركب الطائرات، بالفكر غاص في أعماق البحار، بالفكر بنى محطات استخراج نفط وسط البحار، (علم الإنسان ما لم يعلم)، لكن الله سبحانه وتعالى سوف يخاطب الإنسان ويعاتبه يوم القيامة، يقول له: يا عبدي لقد وصلت إلى الفضاء وغصت في أعماق البحار ونقلت الصوت ونقلت الصورة الملونة واخترعت من الأجهزة ما لا يصدق وكل هذا يحتاج إلى جهد كبير، أعجزت أن تعرفني، هذا الفكر سخرته لخدمة مآربك فأعطاك المستحيل، ولو أنك بذلت مِعشار معشار ما تبذله من أجل الدنيا لعرفتني، أليس موقف الإنسان المعرض عن الله يوم القيامة مخزياً؟!!

انظر إلى أي آلة صنعها الإنسان بالغة التعقيد، مثلاً تاجر يخبر شركة بأقصى اليابان أو بأمريكا الشمالية عن طريق جهاز، إذا ضرب في دمشق على هذا الجهاز حرف الراء، هذا الحرف ينطبع في أقصى مكان في الدنيا على الورق، هذا اختراع ليس سهلاً. الإنسان أمام هذه المخترعات سوف يحاسب

ألم تعرفني؟ عرفت كل شيء إلا الله سبحانه وتعالى، أخضعت كل شيء للفكر والمنطق، اتجاهك الاجتماعي وسلوكك اليومي أخضعته إلى منطق الإيمان؟ فلذلك الله سبحانه وتعالى قال:

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

النشاط الفكري نشاط مذهل وهذا من فضل الله علينا :

أعظم شيء أودعه الله في الإنسان هذا الفكر، وفكر الإنسان ينتقل به من الجزئيات إلى الكليات، من المحسوسات إلى المجردات، الإنسان بالفكر يصل إلى المفاهيم، ما المفاهيم؟ هذه الشجرة تنبت وتنمو لها أوراق خضراء ولها ثمار، وهذه كذلك من استقراء أنواع الأشجار يصل إلى مفهوم الشجرة، فالإنسان يتخاطب باللغة عن طريق المفاهيم.

تقول: النحاس أي نحاس، لو وضعت قطعة نحاس أمام حيوان هل يكشف ما هذا المعدن؟ الإنسان يعرف ويتصور ويحاكم ويتذكر ويقارن ويقايس، يخترع ويكتشف، يتخيل، هذا النشاط الفكري نشاط مذهل وهذا من فضل الله علينا.

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

والله الذي لا إله إلا هو لا أجد أن في الإمكان أن أعبر عن الحقيقة إلا بيسر يسير جداً، كلمة (علم الإنسان ما لم يعلم) هذا الكون أمامك، هذا الإنسان أمامك ماذا فعل؟ ماذا حقق في الحياة من أشياء لراحة جسده؟ ألا ينبغي أن يعرف ربه؟ قال الله سبحانه وتعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

مع هذا العطاء الكبير ومع هذه الدرة الثمينة التي هي الفكر التي أودعها الله فينا بها نعرف وبها ندرك وبها نشعر وبها نوازن وبها نقارن ونستنتج ونستنبط، ومع هذه الدرة الثمينة التي هي الفكر مع هذا يطغى، معنى يطغى الإنسان أي يتجاوز حده الإنساني. القرآن مجمل والتفسير فيه تفصيلي، وبلاغته في إيجازه، وإعجازه في إيجازه، قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

يتجاوز حده مع الناس قد يأخذ ما ليس له، قد ينظر إلى ما لا يحل له، قد يعتدي على شيء ليس في حوزته هذا طغيان، يطغى على جاره، يطغى على زوجته، يطغى على أخوته وعلى أبنائه وعلى من هم دونه، ويطغى على مرؤوسيه، يطغى على أبناء حيه.

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن لا يطغى :

قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

لماذا يطغى؟ لأنه رآه فاستغنى، حينما يرى الإنسان نفسه مستغنياً أي في أوج قوته، في أوج نشاطه، في غناه، إن كان قوياً أو غنياً، شديداً، صحيحاً أو متمتعاً بمكانة اجتماعية يطغى.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

هل يحق له ذلك؟ هل ينبغي له ذلك أن يطغى؟ أن يتجاوز حده الإنساني؟ هذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، المؤمن لا يطغى، الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن، مقيد يرى حجمه بالنسبة إلى هذا الكون العظيم، يرى حجمه حينما يرى ربه، عرف نفسه عرف ربه، فالمؤمن لا يطغى يقول إني أخاف الله رب العالمين، لكن غير المؤمن يطغى، يتجاوز الحد المعقول، يتجاوز الحد الإنساني، قد لا تروق له هذه الزوجة فيطلقها لأسباب تافهة هذا طغيان، جعلها مشردة قد تسقط في صحيفته، قد يطمع بالمال فيحمل ابنه على عمل السيئات من أجل تحصيل المال، هذا طغيان.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

في هذه الآية عتاب للإنسان على طغيانه :

لو الإنسان نظر إلى وضعه حينما كان جنيناً، قال تعالى:

(وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ)

[سورة يس: 43]

لو أن هذا الجنين غرق في بطن أمه يد من تستطيع أن تنقذه، الإنسان ما رأى ضعفه حينما كان جنيناً، ما رأى ضعفه حينما خرج من أضيق مكان، ما رأى ضعفه حينما كان طفلاً لا يستطيع تأمين قوته ولا رد الأذى عنه كيف كان مفتقراً لأمه تطعمه وتسقيه وتنظفه وتدفع عنه الحر والقر، الآن طغى بعد أن كان رجلاً، بعد أن قوي عوده، بعد أن كثر ماله، بعد أن عز سلطانه يطغى، ألم يكن نطفة من ماء مهين.

الحقيقة في عتاب شديد؛ الآن تطغى؟ تذكر حينما كنت طفلاً، تذكر حينما كنت جنيناً، تذكر حينما كنت حيواناً منوياً يسعى إلى البويضة، لو لم يصل إليها لما كنت أنت بهذا الحجم الكبير.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

الآن تطغى نسيت أصلك، خرجت من عورة إلى عورة وخرجت من عورة، من ماء مهين يستحي به صاحبه أن يُرى على ثيابه.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

أحياناً يتجبر الإنسان في بيته، يهدد، يتوعد، يشعر الآخرين أن رزقهم في يده إن شاء قطعه عنهم، يشعر الآخرين أن بيده سعادتهم وشقاءهم هذا طغيان، من أنت؟ أنت عبد فقير، ماذا تفعل لو تجمدت نقطة دم في أحد الشرايين في الدماغ؟ إن جاءت نحو البصر فقد البصر، ونحو السمع فقد السمع، نحو الحركة أصبح مشلولاً، نحو الذاكرة فقد ذاكرته، يد من تدخل إلى الدماغ وتحرك هذا الدم دون أن يتجمد:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

لو أصيب الإنسان بشلل ماذا يفعل؟ لو فقد سمعه، لو فقد بصره، لو فقد عضلة المثانة التي تضبط البول كيف يكون حاله بين الناس وفي بيته؟

الإنسان بحسب معرفته بالله يتواضع :

الإنسان العاقل يرى أصله ويرى مصيره، مصيره إلى التراب يكون إنساناً ملء السمع والبصر ثوان ويصبح أثراً بعد عين، صار تحت التراب انتهى، وأُخذَت منه كل حاجاته؛ أمواله المنقولة وغير المنقولة.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

الإنسان بحسب معرفته بالله يتواضع، بحسب معرفته بالله يقف عند حدود الله، سيدنا عمر كان وقافاً عند كتاب الله، هذه تجوز هذه لا تجوز، إني أخاف الله رب العالمين، لا أفعل هذا خوفاً من الله عز وجل ولو أني أستطيع أن أفعل هذا.

مثّل كفار قريش بالمؤمنين حينما قتلوهم، أخرجوه وعذبوه وائتمروا على قتله وحاربوه وفعلوا المستحيل من أجل القضاء عليه فلما مكنه الله منهم وانتصر عليهم وقتل من قتل منهم، قيل له: يا رسول الله مثل بهم، قال: لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً. له حدود الإنسان لا يتجاوزها، أرسل خادماً فغاب طويلاً فغضب الرسول الكريم قال له: لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك. يقف عند حدود الله هذه تجوز وهذه لا تجوز، هذه تصح وهذه لا تصح، أدق تعبير للفاجر الكافر أنه إنسان لا يخضع لقاعدة ولا لنظام ولا لقيم.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

حينما يرى نفسه مستغنياً قوياً عتيداً صحيحاً يطغى، أما المؤمن لا يزيده المال إلا تواضعاً، ولا يزيده المال إلا وقوفاً عند حدود الله، ولا تزيده القوة إلا تواضعاً لله، ولا تزيده القوة إلا وقوفاً عند ما أمر الله، وحشي الذي قتل سيدنا حمزة الذي كان من أغلى الناس على قلب النبي عليه الصلاة والسلام ومثل به

وقبض الثمن، قتله مرتزقاً ليس صاحب قضية، قتله بالأجر قتله وأعتق، ومع ذلك حينما نطق بالشهادة حقن دمه، وقال عليه السلام: اجلس خلفي.

حينما دخل مكة كان عليه الصلاة والسلام يستطيع أن يقضي على أهلها قضاءاً مبرماً قال: اذهبوا وأنتم الطلقاء، الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن.

دعوة من الله عز وجل إلينا أن نتتبع سلوك المعرضين :

قال تعالى:

(إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)

لكن هذا الطغيان مسجل كله، مسجل على الإنسان كل حركة وسكنة وكلمة وهمس مسجل، والدليل:

(إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)

أيها الطاغي سوف تعود إلينا ونحاسبك عن كل أعمالك واحدة وَاحدة ولن تفلت من يدنا (إن إلى ربك الرجعى). المؤمن يقول إني أخاف الله رب العالمين.

(إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى* أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

دعوة من الله عز وجل إلينا أن نتتبع سلوك هؤلاء المعرضين:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

دعوة الآية انتهت هنا، يظن الإنسان أن لها تتمة، أي أيها الإنسان تفحص هذا الرجل الذي ينهاك عن الصلاة، تفحص سلوكه تراه خائناً، تراه كاذباً، تراه أنانياً، تراه دنيئاً، تراه قذراً، وقد تراه يحب نفسه، تراه غير منصف، تراه مستعلياً، تراه متكبراً ولئيماً، هذا الذي ينهى عبداً إذا صلى تفحص أخلاقه، إذا حاككته بالدرهم والدينار أخذ ما ليس له، إذا تواضعت له ظنه ضعفاً استعلى عليك، إذا جاورته تجاوز معك الحدود، إذا جلست معه كذب عليك، حدثك عن نفسه ما ليس فيها:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

هذا الذي ينهى عن الصلاة تتبع عمله لا يمكن إلا أن يكون منحرفاً وشاذاً وخسيساً ولئيماً يحب ذاته ويكره الناس جميعاً.

أخلاق الإنسان الكافر :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

تتبع حياته، انظر علاقته مع زوجته مبنية على الأنانية، إن أصابها مرض عضال قال لها: ماذا أفعل بك أنت عبء علي، يطلقها، إن أعطاها أهلها نصيب من ميراثها أخذه منها وهددها بالطلاق إن لم تعطه إياه، وعندما يأخذه يطلقها.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

إذا باعك شيئاً وشعر أنك بحاجة إلى هذه البضاعة ضاعف السعر يستغلك أبشع استغلال، يكاد يمص دمك، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) تتبع حياته، تتبع علاقته بزوجته وبأولاده، بزبائنه، بمن هم دونه تجبر، بمن هم فوقه تذلل، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) لؤم مع نفاق مع تملق مع استعلاء مع دناءة، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) لو التقى بزوجة صديقه ينظر لها نظرات شهوانية يغريها، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى)، تتبع حياته وأخلاقه، سلوكه، قيمه، نشاطه، وعلاقاته الاجتماعية. سيدنا عمر قال: أتعرفه؟ قال: نعم أعرفه، فقال له: هل جاورته؟ قال: لا، قال له: هل سافرت معه؟ قال: لا، قال له: هل حاككته بالدرهم والدينار؟ قال: لا، فقال له: أنت لا تعرفه. (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى)، لو أن الإنسان الكافر أخلاقي لشك في الدين كله.

الفرق بين أخلاق المؤمن وأخلاق غير المؤمن :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1-2]

هو نفسه، إذا قيل لك: الدين غير صحيح، الدين سلوك بشري أساسه الشعور بالضعف، والدين من صنع البشر، لا تسمع هذا الكلام وتتبع سلوك قائله، انظر أين يسهر مساءً؟ وأين يذهب ويأتي؟ تراه منحطاً، سافلاً:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

انظر أعماله غير مؤتمن، يحل لنفسه كل شيء، تدينه مبلغاً من غير إيصال لا يعطيك شيئاً، تكتب باسمه محلاً من أجل بعض الإجراءات يقول لك: هذا المحل لي، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى)، تكتب بيتاً باسمه من أجل إجراءات معينة يقول لك: هذا البيت ملكي، تضع عنده أمانة يقول لك: ليس لك

عندي شيء، هذا هو غير المؤمن، لو كان غير المؤمن أخلاقياً، صادقاً، أميناً، عفيفاً لشك في الدين كله. لكن هذه صفات المؤمنين حصراً، العفة والأمانة والصدق هذه للمؤمنين، وما سوى المؤمنين إن كانوا أذكياء يخفون في أنفسهم العيوب الكبيرة فإذا استفزوا ظهروا على حقيقتهم. ربما تلقى رجلاً لا دين له، لبقاً وناعماً ولسانه لطيف يبدو أنه متواضع ما دامت الأمور على ما يريد هذه أخلاقه المصطنعة المزيفة، فإذا استفز بدا وحشاً كاسراً. أما المؤمن هو كما هو.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

الآية التالية فيها إشارة إلى مرتبتين :

اتبع الآن صنفاً آخر قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى*أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

انظر المؤمن كيف أخلاقه، وعده صحيح، عنده حياء صادق إذا وعد وفى، وإذا ائتمن لم يخن، إذا حدث صدق، إذا خاصم خاصَم بالحق، إذا دعي إلى العفو يعفو، إذا استرضي يرضى، إذا طلب مالاً له طلبه بالحسنى، إذا كان عليه أداه بالحسنى، علاقته مع بيته مبنية على التواضع، على الإحسان، إذا دخل إلى بيته كان واحداً من البيت دون استعلاء، إن كان له زوجة يحسن إليها، له أولاد يرعاهم، له جيران يحسن إليهم.

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى)

هذا الشيء بديهي، الإنسان ذو دين تراه عفيفاً، صادقاً، أميناً، جاء جندي بتاج كسرى بكامله وضعه أمام عمر، فقال سيدنا عمر: سبحان الله، ما هذه الأمانة؟ تاج ثمنه ملايين كله جواهر نفيسة يحمله جندي بمفرده ويأتي به من المدائن إلى المدينة، لماذا لم يذهب به إلى القسطنطينية كان عاش ببحبوحة طول حياته، قال له: سبحان الله، فقال سيدنا علي: أعجبت من أمانته لقد عففت فعفوا ولو وقعت لوقعوا:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

عامل مؤمن يحفظ القرش محفوظ لأنه يخاف من الله عز وجل، يحاسب نفسه على الشعرة، ناس يعملون ببعض السلع ترى تساهلاً في تعاملهم، بينما المؤمن منهم ورع يقول لك: هذا ليس لي، المؤمن ورع وصادق وعفيف صاحب نخوة ومروءة، شجاع لا تأخذه في الله لومة لائم لا ينافق ولا يستخذي، لا يخنع ولا يتكبر ولا يتجبر ولا يحتقر الآخرين.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

هذه واحدة:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

هذه الثانية، إذا كان على الهدى هو مؤمن أما إذا ارتقى إلى أهل التقوى وصار تقياً، لم يهمه نفسه صار همه الآخرين أن ينجو وينجي الآخرين من عذاب النار. هذه الآية فيها إشارة إلى مرتبتين أرأيت إن كان على الهدى؛ مؤمن، أو أمر بالتقوى، بلغ التقوى وصار يأمر الناس بالخير.

التولي من نتائج التكذيب والتكذيب أحد أسباب التولي :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

كذب بالحق وأدار ظهره له لأن هنا مجاوزة، كذب وتولى لو أنه كذب ولم يتولى لما كذب، علامة التكذيب التولي ومن دلائل التولي التكذيب. نقول لإنسان: لماذا لا تحضر مجالس العلم؟ يقول: مشغول، هذا ظاهره، أما ماذا في أعماقه؟ الدرس لا قيمة له عنده. التولي علامة التكذيب، التولي من نتائج التكذيب والتكذيب أحد أسباب التولي.

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى*أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

الله يرى كل شيء، هذه الآية وحدها تكفي، كل إنسان الله يراقبه، يعرف ماذا في نفسه وبأعمق أعماقه يراه، مكشوف أمام الله عز وجل، خواطرك ورغباتك، تكلمت كلاماً مبطناً لك غاية أخرى:

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

هذا تهديد من الله عز وجل، يا عبادي أنا مطلع عليكم، على سرائركم، على خواطركم، على ألسنتكم، على قلوبكم:

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

نحن مدعوون من قبل الله عز وجل أن نرى بأم أعيننا المعرضين عن الله والمؤمنين:

الله عز وجل قال:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة النحل: 36]

أي اتبع، انظر المؤمن كيف نهايته سعيدة وانظر الفاجر نهايته شقية، انظر الذي يخون الناس في أموالهم نهايته الفضيحة والخسران والفقر انظر الأمين نهايته السعادة والغنى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

انظر نهايته، نهايته فضيحة، الإنسان له أيام معدودة في هذه الأيام إما أن يثبت أنه مؤمن إنساني أخلاقي وإما أن يثبت العكس، إن ثبت العكس فالنهاية وخيمة.

نحن الآن مدعوون من قبل الله عز وجل أن نرى بأم أعيننا هؤلاء المعرضين كيف أخلاقهم؟ وكيف سلوكهم؟ وكيف علاقاتهم الاجتماعية؟ وكيف مصيرهم؟ وهؤلاء المؤمنون أخلاقهم العلية الرضية، صفاتهم الراقية، أمانتهم صدقهم هذه دعوى من الله، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى*أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى*أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى*أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى*أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

ورحمة الله تقتضي أن هذا المكذب المتولي وهذا الذي ينهى عبداً إذا صلى لا بد من أن يعالجه الله عز وجل، الإنسان يعطى فرصة.

الله عز وجل يمهل ولا يهمل :

قال تعالى:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ)

الناصية الرأس، والرأس مركز المحاكمة والفكر:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ)

السفع هو الضرب واللطم، لا أحد ضربك ولكن خبر مؤلم فكأنك قد لطمت، هذا الذي يتعدى يطغى يتجاوز لا بد من علاج حازم له بقدر الانحراف، الانحراف الشديد يحتاج إلى سفع شديد، لنسفعاً اللام لام التأكيد والنون نون التوكيد الثقيلة، أي هذا المعرض هذا الذي ينهى عبداً إذا صلى، هذا الذي كذب وتولى، لنسفعاً بالناصية لا بد أن نصيبه بمشكلة كبيرة بحجم انحرافه، هنا المؤمن تأتيه أشياء صغيرة، ما من عثرة واختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر، لكن في أشخاص انحرافهم شديد جداً والمصائب التي يقدرها الله لهم كبيرة جداً قد لا يقوون على تحملها قال تعالى:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

[سورة البقرة: 286]

أحياناً نمرض مرضين جميع أدوية هذا المرض تزيد هذا المرض وجميع أدوية هذا المرض تزيد هذا المرض، مرضان متناقضان يقول الأطباء لا نستطيع أن نعطيه أي دواء.

عملية جراحية مؤلمة جداً من دون بنج لأن البنج يتعب القلب، يصرخ ويتألم (لنسفعاً بالناصية)، هناك مصائب فوق احتمال طاقة البشر لماذا ساقها الله للبشر؟ لأن حجم انحرافهم كبير، الإنسان لا يتجبر ولا يطغى ولا يتجاوز حده الإنساني مع أي إنسان، بدءاً بزوجته، معه فرصة، الله عز وجل يمهل ولا يهمل.

أشد أنواع المصائب أن يرافقها إذلال :

قال تعالى:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ)

هذه الفرصة يظنها الأحمق أنها لا شيء والله لم يبعث له شيء وهذا منتهى الحمق والغباء، وأن يكون الإنسان في صحة وبحبوحة ومال وفي مكانة اجتماعية وهو منحرف ويظن أن الحياة للأقوى، أنا قوي لا أخاف أحداً، لا هذه فرصة منحت فرصة وبعدها العلاج:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ)

لا تنسوا لام التوكيد ونون التوكيد الثقيلة أي حتمية المعالجة لنسفعاً بالناصية. المصائب بأنواعها؛ مصائب النفس، مصائب الأولاد، مصائب القهر، مصائب الذل، هذه المصائب البلاغة في القرآن الكريم شملتها في كلمة واحدة: (لنسفعاً بالناصية)، تحترق يد الإنسان هذا الحرق يؤلمه لكن لو ضربته على وجهه ضرباً مبرحاً أمام الناس هذا الضرب مؤلم ومذل، أشد أنواع المصائب أن يرافقها إذلال، هناك أمراض مؤلمة لكن ليس فيها ذل، الإنسان يصيح منها لكن لا يهان، ربنا عز وجل على قدر انحراف الإنسان:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ)

أي ضرب على الوجه.

الناصية التي سفعت ناصية كاذبة خاطئة أما الصادق المستقيم فلا يستحق إلا التكريم:

قال تعالى:

(نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

هذا الوجه لماذا لطم؟ لأنه كاذب مخطئ، ناصية كاذبة خاطئة إذا أراد الله به تأديباً وعلاجاً من يستطيع أن ينقذه من الله؟ لا أحد، قال تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

[سورة الرعد: 11]

كن فيكون، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

قد يكون معه ألوف الملايين وجاءه مرض خبيث لا أمل وآلام لا تحتمل، ماذا يفعل بالملايين هناك والموت حق، لكن قبل الموت عذاب سنوات:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ* نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

من يجيرك من عذاب الله؟ إذا كان الله عليك فمن معك؟ هناك مصائب لا قيمة للمال في حلها، أحياناً تنهار سمعته لو دفع مئات الألوف وصمة عار في حقه:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ)

هذه الناصية التي سفعت ناصية كاذبة خاطئة، أما الصادق المستقيم فلا يستحق إلا التكريم.

إذا قرر الله مصيبة لإنسان

كل الذين يظنهم

أصدقاءه يتخلون عنه ويتركونه :

قال تعالى:

(فَلْيَدْعُ نَادِيَه)

استجر بمن تعرف، هذا كلام فارغ، إذا الله عز وجل قرر مصيبة لهذا الإنسان كل هؤلاء الذين يظنهم أصدقاءه يتخلون عنه ويعتذرون وينسحبون ويبقى وحده تحت المطرقة الإلهية.

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَاً بِالنَّاصِيَةِ*نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ*فَلْيَدْعُ نَادِيَه)

فليدع هؤلاء الذين هم معه أشداء أقوياء يعينونه، أين هم؟

(سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)

أي:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

[سورة المدثر: 31]

سمعت ببعض الدول المتقدمة جداً في العلم والحضارة والمتخلفة جداً في الأخلاق، جاء مرض على الحمضيات كافحته هذه الدول بالمبيدات، ليس لهذا المرض علاج إلا حرق المزرعة بكاملها، وحدود الحرق مئة وخمسين متراً زيادة عن المزرعة، بعض المزارع في كاليفورنيا تمد العالم بنصف ما يحتاجه من حمضيات وأصيبت بهذا المرض وأحرقت.

هناك أمراض جنسية، الهربز ليس له حل، كل ما تملك الدول العظمى من إمكانات وهذا المرض ليس له حل، وملأ قلوب الناس بالذعر، كلما التقى رجل بامرأة تسأله: أمعك هربز من شدة الخوف والقلق.

عندما يريد ربنا عز وجل أن يذل قوماً لا يحتاج إلى أسلحة :

عندما يريد ربنا عز وجل أن يذل قوماً لا يحتاج إلى أسلحة يبعث جراثيم لا ترى بالعين، قال تعالى:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)

[سورة المدثر: 31]

هذه جنود جرثوم الهربز بأمر الله عز وجل، الكوليرا شيء غريب؛ ينتقل الماء بجسم الإنسان من الأمعاء إلى الداخل، الجرثوم يعكس الآية ينقل كل الماء الداخل للخارج بخمس ساعات يموت.

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ*نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ*فَلْيَدْعُ نَادِيَه)

الإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، وإذا تعطل مركز يحتاج الإنسان كل ساعة حبة من علاج من أجل أن يبقى حياً، مثلاً إذا نمت الساعة التاسعة يجب أن تستيقظ الساعة العاشرة لتأخذ حبة، والساعة الحادية عشرة، وهكذا دواليك، عملية صعبة جداً.

هذا مركز التنفس الآلي هل يشعر به أحد؟ مركز ضبط السوائل فوق الكلية في الكظر إذا تعطل عندها يقضي الإنسان أربعاً وعشرين ساعة بين الصنبور والمرحاض.

أحياناً ينحل دم الإنسان يحتاج كل أسبوع إلى ثلاثين سنتيمتراً من الدم، الكلية تتوقف فجأةً لا حل لها إلا الزرع، ونجاح العملية ضئيل كورتيزون طوال الحياة أو غسيل كلية كل أسبوع مرتين.

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ)

الإنسان كلما حزبه أمر فليبادر إلى الصلاة :

الله عز وجل عنده أدوية لا يعلمها إلا هو، في الجسم مليون مرض وكل مرض يظنه صاحبه أصعب مرض.

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ*نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ*فَلْيَدْعُ نَادِيَه*سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ*كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

قال عليه الصلاة والسلام:

((أَقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ ساجِدٌ))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

لذلك كان عليه الصلاة والسلام يسجد لله حين تأتيه نعمة وسماه العلماء سجود الشكر، أحياناً يسجد لله ويسأله حاجة، فالإنسان كلما حزبه أمر ليبادر إلى الصلاة.

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

تشبيه بسيط؛ جندي في ثكنة تلقى أمراً من عريف وتلقى أمراً من لواء، والأمران متعاكسان، عليه أن يطيع من؟ أحياناً يتناقض أمر العبد مع أمر الرب، الله قال: لا تطعه واسجد واقترب، عندما يخاف الإنسان من عبد ويعصي الله عز وجل إيمانه صفر، لا يعرف الإيمان إطلاقاً لأنه خاف من عبد ضعيف لا يقوى على شيء، وعصى رافع السماء بلا عمد، ربنا عز وجل قال:

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

أي أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى، لا تطعه واسجد واقترب، صل لأن هذه الصلاة أمر من عند الله ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لا تطعه في كل أمر، في العلاقات المالية والشخصية، بالاختلاط، بالطعام والشراب، لا تطعه واسجد واقترب.

آيات التوحيد :

لا تطعه الله نهانا عن هذا اللحم وهذا المشروب وهذه السهرة والحفلة وعندما يخاف الإنسان من مخلوق هذه علامة ضعف إيمانه، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدً)

[سورة الكهف: 26]

لا أحد في الأرض شريك مع الله في الحكم قال تعالى:

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

[سورة الأنعام: 57]

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة غافر: 20]

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود: 55]

هذه آيات التوحيد:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وهذه الآية واضحة وضوح الشمس، في الصيام، في الصلاة، في مشروب حرمه الله، في حفلة حرمها الله دعيت إليها ضُغِط عليك لا تطعه واسجد واقترب، اذهب وصل فأنت مع الواحد الديان ومع الواحد الذي لا إله إلا هو، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

هذا الإيمان:

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القدر 097 - الدرس (1-1): تفسير الآيات: 1- 7 الانتقال من مرتبة العبّاد إلى مرتبة العلماء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-06-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الناس رجلان عابد وعالم وشتان بين الرجلين :

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة القدر وقبل أن نبدأ في شرح هذه السورة وبيان معاني كلماتها وحروفها لا بد من مقدمة لها، الناس رجلان؛ عابد وعالم وشتان بين الرجلين، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَإن فَضْلَ العالمِ على العَابدِ كَفضل القمر ليلة البدر على سائر الكَوَاكِب))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء]

((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم))

[أخرجه الترمذي عن أبي أمامة]

((ولفقيه واحدٌ أشد على الشيطان من ألف عابد))

[البيهقي عن أبي هريرة]

(لَيلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

أي ألف شهر عبادة، صلاةً، عبادةً، حجاً، زكاةً، عمرةً، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، ليلة قدر واحدة خير من ألف شهر، ما كل عالم بعالم، لأضرب على ذلك مثلاً لو أن إنساناً ركب طائرة مثلاً من طهران إلى بيروت ومرت الطائرة فوق دمشق فرأى دمشق حينما يسأل: هل تعرف الشام؟ يقول: نعم أعرفها، إنسان آخر طائرته هبطت في مطار دمشق ومكث في المطار ليلةً في فندق المطار وسئل: أتعرف الشام؟ يقول: أعرفها، إنسان ثالث ركب سيارة إلى المرجة ورأى مركز المدينة ثم سئل: أتعرف الشام؟ يقول: أعرفها، إنسان رابع أضاف إلى المرجة سوق الحميدية فسئل: أتعرف الشام؟ يقول: أعرفها، إنسان خامس أضاف إلى المرجة وسوق الحميدية الجامع الأموي فيسأل: أتعرف الشام؟ يقول: أعرفها، وإنسان سابع أقام فيها أسبوعاً، وإنسان ثامن تجول في أحيائها القديمة، وإنسان تاسع رأى أحياءها الجديدة، وإنسان تاسع أقام فيها عشر سنوات درس فيها، وفي إنسان ولد في الشام وعرف طباع أهلها وعاداتهم ومداخلهم ومخارجهم وأنماط معيشتهم ومستوياتهم، فيقال له: أتعرف الشام؟ يقول:: أعرفها؛ كل هؤلاء الأشخاص حينما سئلوا: أتعرف الشام؟ قالوا: نعرفها، هل معرفتهم في درجة واحدة. الذي طار فوق دمشق قال أعرفها والذي ولد فيها وعرف مداخلها ومخارجها وطباع أهلها وعاداتهم

وتقاليدهم قال أعرفها وشتان بين المعرفتين، قد تقول لإنسان أتعرف الله يقول لك أعوذ بالله، الله ربنا خالق كل شيء.

الله سبحانه وتعالى في هذه السورة يريد أن ينقلنا من مرتبة العباد إلى مرتبة العلماء:

كل هذه الأمثلة أردت منها أنه ما كل من قال أعرف الله عرفه، وفرق كبير بين إنسان سمع خطبة تحدث فيها الخطيب عن إله عظيم خالق الأرض والسموات وعنده جنة ونار، وله أنبياء، وبين إنسان يعرج في مراتب القرب، بين هذا وذاك مراتب كثيرة، هناك إنسان إذا نظر إلى أي شيء في الأرض يرى الله عز وجل؛ إن شرب كأس ماء، وإن نظر إلى ابنه، إن أمسك تفاحة، إن نظر إلى عصفور، إن نظر إلى سمكة، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

فالله سبحانه وتعالى في هذه السورة يريد أن ينقلنا من مرتبة العباد إلى مرتبة العلماء، بين العالم والعابد مسافة كبيرة، العابد له درجة لا يتخطاها لو أنه عبد الله ألف شهر أو ثمانين عاماً هو هُو، معرفته هي هِي، مستواه لا يزيد، درجته لا ترقى، مقامه لا يزداد قربه ولا يقل، العابد بذلك تحت خطر أن يقع في معصية لأنه هش المقاومة سريع المأخذ، لكن الذي عرف الله عن طريق البحث الفكري وعن طريق التأمل في آيات الله عز وجل هذا الإنسان لو قطعته إرباً إرباً يقول لك: أحد أحد، هذا الإنسان كل يوم يزداد من الله قرباً، يوماه لا يتساويان إذا تساوى اليومان فهو مغبون لذلك، ولا تظنن أن التدين صوم وصلاة وحج وزكاة وانتهى الأمر، فهذه هي العبادة وإذا كانت العبادة في الماضي يوم كان الناس بخير، يوم كانت الطرقات لا منكر فيها، يوم كان الناس يخشون الله، يومها العبادة ربما كانت تنجي صاحبها، أما اليوم العبادة وحدها لا تنجي صاحبها لأن الفتن على قدم وساق، الفتنة يقظة والدنيا اليوم خضرة نضرة، الدنيا اليوم تغر وتضر وتمر، الدنيا اليوم مغرية لذلك لا تنفع معها العبادة لا ينفع معها إلا العلم، العلم يقي صاحبه من الفتنة.

مرتبة العالِم :

العلم خير من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، فلذلك كأن الله سبحانه وتعالى يدعونا في هذه السورة الكريمة إلى أن نترك مرتبة العبادة إلى مرتبة العلم. العبادة طاعة على وتيرة ثابتة لكن العالم في كل يوم يرقى، كلما قرأ القرآن يرقى، كلما تكلم عن الله، يرقى لأنه عقل عن الله شيئاً ثميناً هذا الشيء يرفعه في مدارج القرب. ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

إنّا أساسها (إن) و (نا)، الـ (نا) ضمير جمع الله سبحانه وتعالى أسماؤه فيقول إنا، وفي سورة طه يقول:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

لماذا يقول الله عز وجل مرة إنني أنا الله ومرة يقول إنا أنزلناه في ليلة القدر.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ)

[سورة ق: 43]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

[سورة الكوثر: 1]

قال العلماء: حيثما تكلم الله عز وجل عن ذاته ليبرز وحدانيته فيستخدم ضمير المفرد، وإذا تكلم الله سبحانه وتعالى عن أفعاله يستخدم ضمير الجمع لأن أفعاله يدخل فيها كل أسمائه الحسنى، أي فعل من أفعاله فيه رحمة وفيه قدرة وفيه لطف وفيه حكمة وفيه عدل.

قدسية ليلة القدر لا في الزمن ولكن في المضمون :

أسماء الله الحسنى كلها في أفعاله، لذلك الله عز وجل قال: (إنا أنزلناه)، الهاء تعود على كتاب الله لأن الله سبحانه وتعالى يتحدث عنه فكأنه معروف عند كل قارئ، إنا أنزلنا القرآن، أنزلناه من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا دفعةً واحدة، كان هذا في ليلة القدر، هنا نقطة دقيقة جداً، ليلة القدر في رمضان ورمضان شهر قمري والشهر القمري يتداخل مع الشهر الشمسي، فرمضان يأتي في كانون الثاني ويأتي في شباط وفي آذار وفي نيسان وفي أيار وفي حزيران وفي تموز وآب وأيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وكانون، أي شهر رمضان على مدار ست وثلاثين سنة يأتي في كل أشهر السنة، وعلى مدار الزمان كله ليلة القدر تأتي في كل يوم، فهل القدسية في زمانها أم في مضمونها؟ إذا قلنا في زمانها ليلة القدر جاءت في كل يوم من أيام العام، فقدسيتها لا في الزمن ولكن في المضمون، ماذا حصل بها؟ هذا الذي يريده الله سبحانه وتعالى.

السؤال الثاني لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ليلة القدر، ولم يقل نهار القدر؟ لأن الليل وقت مناسب للصادقين، للمخلصين، للمحبين، للعاشقين، المنافق يصلي في النهار ولكنه لن يقوم الليل، لا يقوم الليل إلا المحب، إلا من أحب الله، إلا من قام ليناجيه، إلا من قام ليقف بين يديه، إلا من قام ليتذلل على

أعتابه، إلا من قام ليمرغ وجهه في الأرض حباً لله سبحانه وتعالى، الليل هو الوقت المناسب للطائعين، للمحبين، للعاشقين، في الليل يحدث هذا الاتصال وفي هذا الاتصال يحدث هذا التقدير، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

[سورة الزمر: 67]

القدر أن تعرف الله حق المعرفة :

الله عز وجل يمتحن الناس يفتنهم بمعنى يبتليهم، فهم ينقسمون إلى قسمين: قسم عرف الله، وقسم لا يزال به جاهلاً، أن تعصي الله عز وجل فأنت لا تعرفه، أن تؤثر مخلوقاً عليه فأنت لا تعرفه، أن تؤثر مبلغاً من المال على رضاه فأنت لا تعرفه، أن تستهين بأمر من أوامره فأنت لا تعرفه، فالقدر أن تعرفه حق المعرفة لذلك الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران: 102]

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

[سورة الحج: 78]

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

ليلة القدر، كلمة (ليل) تعني لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكوراً، والقدر يعني معرفة الله عز وجل، أعيد عليكم حديثاً طالما ذكرته لكم: يا رسول الله جئتك لتعلمني من غرائب العلم، فقال: وماذا فعلت في أصل العلم؟ قال: وما أصل العلم؟ قال: وهل عرفت الرب؟ مثلاً هل عرفت ما عنده إذا أطعته؟ هل عرفت عقابه إذا عصيته؟ إذا الإنسان مشى في الطريق ورأى امرأة سافرة، إذا نظر إليها ماذا تعني هذه النظرة؟ تعني أشياء كثيرة، تعني أنه يستهين بعقاب الله عز وجل، من ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنم، فإذا غض عن محارم الله، ماذا يعني هذه الغض؟ يعني أنك تعرف ما أعد الله لك من ثواب ومن سعادة ومن أجر ومن نعيم مقيم إذا أنت غضضت عن النساء طرفك.

دعوة هذه السورة إلى أن تعرف الله وإلى أن تقدره :

هذا غض البصر فقط، إذا ترفعت عن المال الحرام ماذا يعني ذلك؟ يعني أنك تعرفه، أما إذا أخذت المال ولم تبال أكان حلالاً أم حراماً، لكان هدفك أن تأكل المال وأن تأخذ كسب الآخرين، وأن تضع لهم عراقيل الأمور في معاملاتهم، وتخيفهم حتى تبتز أموالهم؛ إن فعلت ذلك فأنت لا تعرف الله عز وجل إطلاقاً.

الناس يحسبون من صام وصلى كان مؤمناً، مع أن الصوم والصلاة شيء لا يقدم ولا يؤخر ولا قيمة له إذا كان الإنسان عاصياً.

دعوة هذه السورة إلى أن تعرف الله، إلى أن تقدره، قال: لك يا عبدي إذا عبدتني ألف شهر وعبدتني ثمانين عاماً ولم تعرفني ما أفادتك عبادتي؛ ولا رقت بك ولا سعدت بها، فإذا عرفتني لليلة واحدة لساعة واحدة كانت هذه المعرفة خير لك من كل العمر الذي أمضيته في هذه العبادة الجوفاء.

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

في القرآن الكريم لفظتان (وما أدراك)، (وما يدريك)، إن قال الله: وما أدراك أي أن الله سوف يدريك، وإن قال الله: وما يدريك لا أحد يدريك، لأن هذا من علم الله عز وجل، قال الله عز وجل:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً)

[سورة الأحزاب: 63]

هذه بعلم الله لا أحد يعرفها ولا الأنبياء، لكن قول الله عز وجل:

(الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

[سورة الحاقة: 1-3]

سوف يدريك الله عز وجل عن الحاقة.

مقاييس الناس مادية :

هنا يقول الله عز وجل:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

مقاييس الناس مادية، إنسان عنده أرض وفتح أمامها شارع وكان اشترى المتر بمئة ليرة وصار المتر بمئة ألف، يقولون: بيته في الجنة، غني وما دري، سعدت ذريته، هكذا يقولون، الناس يقدرون الدنيا، يقدرون المال، يقدرون الجاه والمنصب، يقدرون البيت الفخم، والبستان الجميل، والسيارة الفارهة، لكنهم لو عرفوا الله عز وجل لعرفوا أن معرفة الله عز وجل تسعدهم إلى الأبد وأن الدنيا سوف تنقطع إلى حين.

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن سهل بن سعد البيهقي عن جابر]

أتمنى على المؤمن أن يشمر ليعرف الله فإذا شمر إلى معرفة الله كفاه الله أمر دنياه، تأتيه دنياه وهي راغمة، كأن الله عز وجل يقول: يا عبدي دنياك علي لا تهتم لها، ما دمت تهتم لتعرفني فدنياك علي، ستأتيك الدنيا وهي راغمة.

كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أكن لك كما تريد، إذا سلمتني في ما تريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما تريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

الله عز وجل يقول:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

أي لا أحد يعرف قيمتها وسوف تعرف قيمتها يا محمد.

إذا عرفت الله تبدأ مكاسبك في أثناء الحياة ولكنها تتصاعد إلى ما بعد الموت وتسعد بها:

قال تعالى:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

حياة الإنسان حافلة، فتح محلاً تجارياً، كبَّره، غير نوع عمله، جاء ببضاعة حملها وشحنها، اشترى، باع، حاسب الناس، حتى في الآخر اشترى بيتاً صغيراً، بعد أن سكنه بشهر ونصف جاء الأجل ومن ثم غادر إلى غير رجعة. ماذا استفاد بربكم؟ قال النبي الكريم:

((بادِرُوا بالأعمال سبعا: هل تُنْظرون إلا فقراً منسياً أو غنىً مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

طبعاً المؤمن ينتظر كل خير، أما النبي الكريم يخاطب أهل الدنيا، الذين أعرضوا عن الله عز وجل، ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا؟!! يأتي ملك الموت عندئذ يعض الظالم على يديه، قال الله عز وجل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

إنسان اشترى أرضاً ووفَّى ثمنها في خمس سنوات، وحصل على رخصة بناء في سنتين، وعلا البنيان في سنة ثم بدأ بإكساء البناء في سنة، بعدما انتهى البناء وصار جاهزاً للسكن جاءت آلة هدمته. يصاب بإحباط منقطع النظير، سبع سنوات حتى رآها قائمة ثم تهدم أمام عينيه قال تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

لأن الموت ينهي هذه الحياة ومكاسب الحياة، لكنك إذا عرفت الله عز وجل تبدأ مكاسبك بعد الموت، تبدأ في أثناء الحياة ولكنها تتصاعد إلى ما بعد الموت وتسعد بها.

إذا عرفت الله صرت أقوى المخلوقات :

قال تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ*لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

لماذا هي خير؟ لأن الإنسان يسعد بها، ما الذي يشقي الإنسان؟ الخوف، الخوف يشقيه، إذا قال الخائف: حسبنا الله ونعم الوكيل، قال: الله عز وجل:

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

[سورة آل عمران: 174]

إذا قال الإنسان الذي أصابه غم: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، قال تعالى:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 87-88]

إذا قال العبد وقد شعر أن مؤامرة تحاك ضده: وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد، فقال الله عز وجل:

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

[سورة غافر: 45]

إذا الإنسان خاف من المكر وفوض أمره إلى الله عز وجل يقيه الله سيئات الماكرين، وإذا أصابه غم فقال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين)، وإذا قال الإنسان وقد أصابه خوف: حسبي الله ونعم الوكيل (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله)، فإذا عرفت الله تعرف كيف تدعوه، وتعرف كيف تفوض أمرك له، وتعرف كيف تتوكل عليه، وتعرف كيف تستسلم له، وتعرف كيف تطيعه، وتعرف كيف تناجيه، لذلك ليلة القدر خير من ألف شهر.

إذا

عرفت الله وقدرته حقّ قدره أمدك الله بالملائكة فسددوا طريقك وأسعدوك :

أنت إذا عرفت الله صرت أقوى المخلوقات، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله. هذا معنى قوله تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر)، يصيبك الخير العميم وتسعد في الدنيا والآخرة، لماذا؟ قال تعالى:

(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

إذا قدرت الله اتصلت به، فإذا اتصلت به جاءتك الملائكة بتجليات الله عز وجل على قلبك، جاءتك الملائكة بتجليات الله فأسعدتك، وجاءتك الملائكة بتوجيهات الله فسددت طريقك، لا ترتكب خطيئة لا تقع في حماقة لا تقع في غضب مفاجئ من غير مبرر، لا تركن إلى إنسان غير موثوق فيه، فهناك ملائكة تسدد عملك.

(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

إنسان مقدم على صفقة، هذه الصفقة غير رابحة يقول لك: تضايقت، مقدم على شيء فيه خير يقول: انشرح صدري.

(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

عرفت الله وقدرته حق قدره أمدك الله بالملائكة فسددوا طريقك وأسعدوك ووجهوك وحذروك وأمروك ونهوك، إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من قلبه، إذا أحب الله عبداً عاتبه في منامه، إذا أحب الله عبداً عجل له في العقوبة، هذا معنى (تتنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر)، إلى أن تصبح حياتك سلاماً في سلام، لا قلق، لا همّ، لا حزن، لا خوف، لا توقع مصيبة، لا مرض، لا خوف، لا يأس، لا قنوط.

عندما يكفر الإنسان بالله أول عقاب يناله أن الله سبحانه وتعالى يقذف في نفسه الرعب

قال العلماء: إن أشد الأمراض فتكاً في النفس هو الخوف، وعندما الإنسان يكفر بالله عز وجل أول عقاب يناله من الله أن الله سبحانه وتعالى يقذف في نفسه الرعب، خائف من سرطان، خائف من حادث، يقول لك: أريد أن أؤمن على حياتي، يحدث معه حادث ويصاب بتمزق بالنخاع الشوكي ويصاب بالشلل، يذهب إلى التأمين ويأخذ مئة ألف ليرة، ما أمَّن؟ ولكن الشلل هذا كيف يؤمَّن عليه؟ لذلك الله عز وجل قال:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً*إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

اعرفه واتصل به وعندئذ قد تقول: كأني إنسان آخر غير هؤلاء البشر، إني لا أخاف مما يخافون، ولا أخشى ما يخشون، ولا أقلق لما يقلقون، هكذا ربنا عز وجل قال:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً*إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

هذه من كل أمر، إن كنت تاجراً يوفقك تختار أحسن الصفقات وأربح الصفقات والله عز وجل يصرف عنك الصفقات الخاسرة وإن كنت مزارعاً الله عز وجل يصرف عنك الصقيع. يصرفه عمن يشاء ويوصله لمن يشاء، إن كنت موظفاً الله عز وجل يلهمك الرشاد والسداد تنتزع إعجاب رؤسائك ولك سمعة طيبة وفي خدمة الناس ويبارك الله لك في دخلك على قلته.

ما أقبل عبد على الله إلا جعل قلوب المؤمنين تنساق إليه بالمودة والرحمة :

ما دام الله معك لا تخف أحداً، حياتك سلام، والسلام اسم من أسماء الله عز وجل، إذا الله عز وجل تجلى عليك باسم السلام يصبح عندك طمأنينة. والله الذي لا إله إلا هو لو وزعت على ستة آلاف مليون إنسان لاطمأنوا وما خافوا.

كل بلد في هذا العصر وكل مجتمع فيه أشياء مقلقة له، يقول لك: في بعض البلاد الأجنبية الخوف من مرض جنسي اسمه الإيدز أصاب الناس بالذعر وهم في ذعر مستمر، الخوف من تشمع الكبد، من السرطان، من أمراض القلب جعلهم أشقياء، أما الله عز وجل قال: سلام هي، حياة هذا الإنسان في سلام، سلام في سلام، ينام مطمئناً، المؤمن لا يحتاج إلى حبوب منومة، أهل الدنيا يأخذون هذه الحبوب بكميات كبيرة يدمنون عليها لأن القلق يأكل قلوبهم.

(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

كأن يوم القيامة فجر جديد يظهر الحق جلياً واضحاً، فإذا عرفت الله عز وجل وقدرته حق قدره فأنت في سلام وفي بحبوحة وفي يسر وفي أمن وطمأنينة، إذا ذهبت إلى قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام لماذا تحس بالسعادة؟ تفسير علمي لأن أسعد نفس على وجه الأرض منذ الأزل حتى قيام الساعة هو سيدنا رسول الله، فإذا اقتربت منه أو ذكرت اسمه أو ناجيته أو خاطبته أو اقتربت من المدينة المنورة تحس بسرور، هذا نوع من تجلي الله عز وجل، إذا كنت مع الله أسعدك الله وسعد من كان معك ومن حادثك ومن احتك بك ومن عاملك ومن سافر معك ومن جلس معك.

وما أقبل عبد على الله إلا جعل قلوب المؤمنين تنساق إليه بالمودة والرحمة وكان الله له بكل خير أسرع، هذه السور القصيرة شأنها خطير كأن الله سبحانه وتعالى يدعوك إلى أن تكون أسعد الناس، يجب أن تقول هذه الكلمة التي طالما أقولها: إنني أسعد الناس إلا أن يكون أحد أتقى مني فهو أسعد مني، ويجب أن ترى أهل الدنيا أشقياء خاسرين، ضائعين، شاردين، تائهين؛ ضالين ويجب أن ترى نفسك مهما تكن من أصحاب الدخل المحدود من أصحاب الدخل غير المحدود، من الأزواج الناجحين من الأزواج غير الناجحين، مهما تكن حياتك الدنيا يجب أن تقول أنا أسعد الناس لأنك عرفت الله عز وجل.

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ*لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ*تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

الطبيب إذا كان مع الله عز وجل الله يلهمه التشخيص الصحيح والدواء الصحيح، وكل حرفة من الحرف إن كان صاحبها مع الله عز وجل تنزلت الملائكة وألهمته الصواب والرشاد والسداد.

خصوصية العشر الأخير من رمضان :

يا أيها الأخوة الأكارم، نحن الآن مقبلون على العشر الأخير، والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أقبل العشر الأخير شدّ المئزر وأيقظ أهله واجتهد في العبادة ما لا يجتهد في غير رمضان، النبي الكريم رقي المنبر فقال: آمين، ثم رقي الدرجة الثانية فقال: آمين، ثم رقي الثالثة فقال: آمين، فقالوا: يا رسول الله علام أمنت؟ قال: جاءني جبريل فقال لي: خاب وخسر من أدرك رمضان ولم يغفر له إن لم يغفر له فمتى؟ نحن في رمضان، ونحن في العشر الأخير، أي دقق في سلوكك، راقب هل في بيتك مخالفة؟ هل هناك معصية؟ هل تسمع الغناء؟ هل تشاهد مالا يرضي الله عز وجل من البرامج؟ هل تنظر إلى الحرام؟ هل تغتاب أحداً؟ هل تكذب في البيع والشراء؟ هل تغش مسلماً؟ هل تأكل حراماً؟ دقق إذا تقصيت الحلال في كل شيء تجلى الله على قلبك. يقول العبد:

((يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب له))

[مسلم عن أبي هريرة]

نحن في مناسبة لا تعود إلى العام القادم، ونحن على أبواب العشر الأخير نريد صيام الخصوص، صيام الجوارح، بل في العشر الأخير صيام خصوص الخصوص، ترك ما سوى الله عز وجل، معنا كتاب الله عز وجل فيه نبأ من كان قبلنا ونبأ من كان بعدنا، في القرآن آيات لما تؤوَّل بعد، فيه قوانين الحياة، فيه مفتاح السعادة، فيه مفتاح الطمأنينة، فيه مفتاح الإقبال على الله عز وجل، فلذلك هذه السورة على صغرها وعلى إيجازها ثلاثة أسطر لكن يجب أن تعرفها، إذا عرفتها نقلت من العبادة إلى العلم، إن صرت عالماً عندئذ كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: العلم خير من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق.

العبادة الصحيحة :

يا خميل مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، إذا انتهى رمضان يجب أن تعاهد ربك على برنامج ديني مكثف، كل المعاصي التي أكرمك

الله بتركها في رمضان يجب أن تستمر طوال العام، إذا أكرمك الله بصلاة الفجر في وقته الصحيح يجب أن تستمر به طوال العام، إذا أكرمك الله بجلسة علم صباحية يجب أن تستمر بها، إذا أكرمك الله بحضور مجلس علم في رمضان يجب أن تستمر بعد رمضان لأن المؤمن عامه كله رمضان، لا يفطر إلا فمه بعد العيد وصوم جوارحه هو هُو طوال العام.

أيها الأخوة الأكارم، كما قال عليه الصلاة والسلام مخاطباً بعض صحابته قال: يا ربيعة سلني حاجتك؟ فقال: أمهلني يا رسول الله- سؤال كبير، فرصة ذهبية لا تعوض- أبحث عن شيء ثمين أسألك إياه، بعد يومين قال له: يا ربيعة ماذا حصل معك؟ قال له: يا رسول الله ادعُ الله لي أن أكون رفيقك في الجنة، قال: من علمك هذا؟ قال: والله ما أحد ولكنني نظرت إلى الدنيا فرأيتها فانية وإلى الآخرة فرأيتها باقية، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

((أعني على نفسك بكثرة السجود))

[صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي]

ملك قال: لابنه اطلب وتمنى، فقال: له أريد أن أكون مدير الجامعة، فقال له: هذا طلب ليس في يدي، هذا يحتاج إلى دكتوراه، أعني على أن أعطيك هذا المنصب بالدراسة، اطلب من الله أن تكون مع النبي الكريم، الطلب سهل، أيستطيع جندي مجند أن يجلس مع هيئة أركان حرب؟ لو سمحوا له يستحي بنفسه لا يستطيع، هل يتمكن ممرض أن يجلس مع رؤساء أطباء القلب؟ لا يقدر، هل يستطيع موظف آلة كاتبة أن يجلس مع رئاسة مجلس الوزراء؟ لا يقدر.

الحياة مستويات، وأنت أيها المؤمن لو قلت: يا رب اجعلني رفيق النبي بالجنة ولم تكن على خطه وعلى طريقه فهذا الدعاء لا يقبل، أعني على نفسك بكثرة السجود، لاشك أن الله عز وجل لو وفقني فبسببكم ولكنكم لو بقيتم تحضرون الدروس وتبدون التأثر ولا تطبقون هذه الدروس لا بد من أن يأتي يوم تقولون هذا الكلام سمعناه كثيراً، أعينوني بكثرة تطبيق كلام الله عز وجل، بإتقان الصلاة، بذكر الله، بالعبادة الصحيحة، حتى تزدادوا تعلقاً بهذه المجالس، تزدادوا تأثراً بها، حتى يقول الإنسان: والله في كل درس أرقى إلى درجة ما كنت أحلم بها من قبل.

معرفة الله عز وجل تمدنا بنشاط منقطع النظير :

أثناء الامتحان ادخل إلى قاعة الامتحان ترى مئة وخمسين طالباً، أمام كل طالب طاولة ويكتب، المظهر واحد لكن المخبأ مختلف، هذا يكتب غلطاً راسب، وهذا يكتب جواباً لا علاقة له، وهذا يخلط الأجوبة، من كل خمسة طلاب طالب يكتب كتابة صحيحة، هذه الكتابة الصحيحة وراءها عام بكامله من

الدراسة، من شهر أيلول لم يضع ساعة، لم يسهر مع أهله مرة دراسة كاملة خلال مدة تجسدت كتابة في ساعتين بشكل جيد.

حضور مجلس علم شيء سهل، عندما يكون أثناء الأسبوع مشغول بقراءة القرآن، مطبق، يغض بصره، يعامل زوجته بالإحسان، بار بوالديه، ما كذب أثناء الأسبوع كله، ما غش مسلماً، ما خان أحداً، عندما يأتي إلى الدرس يصبح هذا الدرس روضة من رياض الجنة، يقول: والله حصل سرور يساوي ملايين، التعب خلال أسبوع تمثل بتجليات من الله على قلب المستمع. وإذا شغل أثناء الأسبوع بالحياة ولم يطبق شيئاً وحضر مجلس علم يقول لك: الدرس حلو تكلم الأستاذ عدداً من النكت الجميلة وضحكنا والحمد لله، ثم يمل ولا يحضر.

تقول: أنا مشغول عندي موعد، عندنا ضيوف، تعبان، معنى هذا لم تعرف ما عند الله عز وجل، لو لك مع واحد مئتا ألف وقال لك: تعال خذها قبل الآذان بنصف ساعة وأنت صائم ماذا تفعل؟ تشعر بنشاط منقطع النظير، تأخذ سيارة أجرة، وأنت تعد المال هل تنام؟ لو أنك ترى ما عند الله من خير وتخشى ما عنده من عقبات لما فرطت بمجلس علم واحد، يقول لك: حضرت مجالس منذ ثلاثين عاماً ولم أتغيب، دليل اهتمام وصدق لذلك هذه سورة القدر هذه سورة عظيمة وأرجو الله أن تكون في قلوبكم لأن فهمها سهل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البينة 098 - الدرس (1-2) : تفسير الآيات 1 - 7. مقدمة في معاني واصطلاحات قرآنية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-05-17

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف ببعض المصطلحات القرآنية :

سورة اليوم أيها الأخوة الأكارم هي سورة:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

وأجد نفسي قبل الحديث عن معانيها آيَةً آيةً مجبراً على التعريف ببعض المصطلحات القرآنية التي وردت فيها، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وهم أهل كتاب مؤمنون بالله، والله سبحانه وتعالى قال:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

فكيف يكون أهل الكتاب كفاراً؟ لأن بعض الناس أو معظم الناس يتوهمون أن الكافر هو الذي ينكر وجود الله عز وجل، ولا يعترف بوجوده، ويؤدي بعض العبادات ليصبح مؤمناً، والله سبحانه وتعالى يقول:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

إذًا هؤلاء عند الله كفار، وفي آية أخرى يقول الله عز وجل:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

أردت في هذا الدرس أن أوضح معنى الإيمان ومعنى الكفر، معنى الإسلام ومعنى الفسوق، معنى العصيان ومعنى الفجور، معنى الذنب ومعنى السيئة، معنى التقوى ومعنى الإحسان، معنى الدين، هذه المصطلحات التي تكثر في القرآن الكريم، إنها كلمات ذات مدلولات دقيقة ومحددة.

1 - الإسلام :

أولا: ما تعريف الإسلام؟ الإسلام تطبيق لأوامر الدين، فإذا لم يطبق أحدنا أوامر الدين بنص كتاب الله فقد نفى الله سبحانه وتعالى عنه الإسلام، قال تعالى:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)

[سورة الحجرات: 14]

هذا الذي غض بصره، وأدى زكاة ماله، وصام شهره، وصلى فرضه، وتحرى الحق، هذا يسمى مسلماً، فإذا أكل مالاً حراماً، وإذا غش المسلمين، وإذا أطلق بصره إلى الحرام فَقَدَ صفة الإسلام، قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

فحيثما وردت كلمة (إسلام) فهي تعني الانقياد والاستسلام لأوامر الله عز وجل، فمن كان منقاداً ومستسلماً لأوامر الله عز وجل فهو مسلم.

الإسلام قناعة و اعتقاد و عمل :

كيف ينقاد الإنسان لأوامر الله عز وجل، ويستسلم له قبل أن يعرفه؟

الحقيقة أنه لا بدّ من أن تسبق الإسلام قناعة فكرية، فمن أين تأتي القناعة؟ من إعمال الفكر، فكل واحد منا إذا أقنعه الطبيب أن بيته في الطابق الثالث يضر قلبه، مع أنه اشتراه، وأسسه، وزينه، واعتنى به، إذا اقتنع أن هذا البيت فيه خطر عليه تراه بمحض اختياره يعرضه للبيع، ويبحث عن بيت يناسب حالته الصحية، متى اتخذ هذا الإنسان خطوات عملية؟ حينما اقتنع.

إذا اقتنع الإنسان أن الدخان يسبب له ورماً خبيثاً في رئته، ويسبب له أزمة قلبية، ويسبب له جلطة مميتة، يقلع عن الدخان إذا ثبت له ذلك، فحينما يقنع الإنسان ينطلق نحو العمل، إذا رأيت إنساناً قاعداً لا ينطلق إلى عمل ما فقناعته مغلقة، إذاً لا بد من إعمال الفكر في أمور الدين، لأن الله سبحانه وتعالى حينما فطر الإنسان فطره فطرةً عالية، ومن خصائص هذه الفطرة أنه يحب نفسه، ويبتغي سلامتها، ويسعى إلى رقيها، وينطلق إلى سعادتها، و يحرص على سلامتها، هذا شيء فطري، فحينما يُقنع الإنسان نفسه، أو حينما تتولد في الإنسان قناعة فكرية أن هذا الدين لمصلحته، إنه مجموعة حدود لسلامته، وليس مجموعة قيود لحريته، كما لو رأيت عموداً كهربائياً كتب عليه: " خطر الموت "، ألا تحس بأن المسؤولين عن الكهرباء أرادوا نصح المواطنين؟ وأرادوا حمايتهم من أخطار الموت؟ وأن

هذه اللوحة ليست حداً لحريتهم إنما ضمان لسلامتهم؟ إذا بلغ المنطق بك أن علمت أن كل أوامر الدين لمصلحتك ولسعادتك الأبدية، ولتحيا حياة مطمئنة، حياة طيبة، عندئذ تنطلق إلى تطبيق أوامر الله عز وجل، فلا بد من قناعة فكرية مبنية على المحاكمة والاستقراء، والمقايسة والموازنة، والمقابلة وفحص الأمور، وتفاضلها، وبيان أسبابها ونتائجها، إذا انطلق الفكر، وتولدت القناعة، عندئذ يستسلم الإنسان لأوامر الله عز وجل، فينقاد، ويخضع لها ويطبقها.

ماذا يقابل القناعة الفكرية عند عامة الناس؟ يقابلها الاعتقاد، ما هو الاعتقاد؟ كل شيء سمعته من الآخرين، فإذا عطل كل شخص فكره، وأرهف أذنه،على أن فلانًا قال كذا، و فلانًا قال كذا، والأب قال كذا، والمعلم قال كذا، والخطيب قال كذا، هذا الذي يأتيك من الآخرين دون بحث وتمحيص، دون مقارنة ودراسة، ودون تفكر وتعمق، دون سبر، هذا الذي يأتيك عفواً، ويترسب في أعماقك، سماه علماء التوحيد الاعتقاد.

إن الناس يعتقدون بوجود الله عز وجل، ولكنهم لا يطيعونه، يعتقدون بأن هناك جنة، ولكنهم لا يعملون لها، يعتقدون بأن هناك ناراً، لكنهم لا يتقونها، يعتقدون بأن هناك حسنات وسيئات، ولكنهم يفعلون السيئات، ويقعدون عن الحسنات.

من خصائص الاعتقاد الخطأ والنسيان والشك :

من خصائص الاعتقاد أنه يتصف بالخطأ والنسيان والشك، قد يكون هذا الذي تعتقده صحيحاً ولكنك شاك في صحته، وقد يكون غلطاً ولكنك لا تعرف أنه غلط، وقد يكون صحيحاً، وعرفت أنه صحيح، ولكنه سرعان ما تنساه، فمن صفات الاعتقاد الشك والخطأ والنسيان.

ومن دراسة الناس، وحضورهم مجالس العلم، وحضورهم خطب الجمعة، واللقاءات، والحفلات، وما يقال فيها من خطب، كوّن بعضهم مجموعة أفكار لم يدقق فيها، ولم يستقص صحتها، لم يقابلها، ولم يمحصها، ولم يدرسها، ولم يتأملها، فكوّن معتَقَداً، فهذا المعتقد يكذب، وهذا المعتقد يغش الناس أحياناً، وهذا المعتقِد يحب الدنيا، وهذا المعتقِد لا يتقرب إلى الله عز وجل، ولا يفعل الصالحات، فالاعتقاد الذي هو متواتر عند عامة الناس يقابله عند المؤمن قناعة فكرية مبنية على البحث، والمدارسة، والتحليل، واستقصاء الأسباب والنتائج.

لاحظ نفسك في أمور الدنيا، حينما تقنع أن هذا السبيل لمصلحتك تنطلق للتطبيق، إذا اقتنعت أن هذا البيت يجب أن يباع تعرضه للبيع فوراً، وإذا اعتقدت أن هذه المصلحة فيها أرباح طائلة تنطلق إليها

فوراً، وإذا اعتقدت أن هذا الخاطب مناسب تسأل عنه، وتبلّغه النتيجة، وحينما تتولد عندك قناعات ثابتة في أمور الدنيا ترَى أنك تنطلق إلى التطبيق فوراً.

إن الإسلام يجب أن تسبقه قناعة فكرية، أيهما أفضل البيع والشراء أم الربا؟ هذا الذي محص وفكر لا يقول لك: أنا أضع مبلغاً ضخماً في المصرف، وآخذ فائدة سنوية تكفيني طوال العام، وأستريح من العمل، لو قنع الإنسان أن العمل هو الخير، وأن الربا هو الشر، لترك الربا، واتجه نحو العمل، هذا الذي يؤثر الربا على العمل ليس عنده قناعة صحيحة بأن الدين حق.

2 - الإيمان :

إذاً عند عامة الناس هناك الاعتقاد الذي يتصف بالشك، والخطأ، والنسيان، وعند المؤمنين هناك القناعة الفكرية التي تتولد في النفس، عندما توازن بين الزواج الذي شرعه الله عز وجل وبين السِفاح تجد فرقًا كبيراً بين النكاح والسِفاح، هذا شرعه الله، وهذا نهى الله عنه، وكذلك الأمر بين البيع والشراء والربا، بين إطلاق البصر وغض البصر، بين الأمانة والخيانة، بين الصدق والكذب، بين ما جاء به الدين وما جاءت به القوانين الوضعية، هذه المقايسة ومرحلة الإقناع الفكري تسبق الإسلام، فإذا صحت استسلم الإنسان لأوامر الله، وانقاد لها، فسمي مسلماً، أما الإيمان فشيء آخر، قال تعالى:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الحجرات: 14]

حينما ينقاد الإنسان كلياً لأوامر الله عز وجل صغيرها وكبيرها؛ فيما يتعلق بالعبادات، وفيما يتعلق بالمعاملات، وفي كل أمرٍ أمر الله به، إذا استمر على هذه الحالة يكسب شيئاً اسمه الثقة برضاء الله عنه، هذه حالة نفسية رائعة، وفي الأثر: والثقة كنزي، يحس هذا الإنسان أن الله راضٍ عنه، بإحساسه هذا إذا وقف ليصلي يُقبِل على الله، ويتوجه إليه، ويتصل به، فإن صحت هذه الصلة فهذا التوجه هو الإيمان، الإيمان من الأمن، إذا أقبلت على الله شعرت بالأمن، إذا أقبلت على الله شعرت بالطمأنينة، إذا أقبلت على الله شعرت بالسعادة، إذا أقبلت على الله شعرت بسمو نفسي لا يعرفه إلا من ذاقه، إذا أقبلت على الله اتكلت عليه، وفوضت أمرك إليه، واستسلمت لحكمه، وصبرت على مصيبته، إذا عرفت الله سعدت، هذه الوجهة إلى الله هي الإيمان، الإيمان وجهة، عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا))

[مسلم عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ]

القناعة الفكرية تفضي إلى الإسلام والإسلام يفضي إلى الإيمان :

الإيمان له طعم لا يعرفه إلا من ذاقه، علامة الإيمان أن تكره أن تعود إلى الكفر كما يكره الرجل أن يلقى في النار، علامة الإيمان أن تقول: ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني، علامة الإيمان الطمأنينة، الأمن، والأمان، علامة الإيمان أنك من سعداء الدنيا.

إن القناعة الفكرية تفضي إلى الإسلام، والإسلام يفضي إلى الإيمان، لكن المؤمن معرض للنكسة، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا)

[سورة النساء: 137]

من علامات قيام الساعة أن يصبح المرء مؤمناً، ويمسي كافراً، يمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، الإيمان وجهة، فإذا اتجهت إلى امرأة ضاع إيمانك، وضاعت وجهتك، وفقدت سعادتك، وضاعت منك كل مكتسبات الإيمان.

القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن، فإما أن تتوجه إلى الله فتكون من السعداء، وإما أن يتوجه المرء إلى الدنيا فتكون من الأشقياء.

3 - الفسق :

نعود إلى القسم الآخر: القناعة الفكرية يقابلها عند الناس اعتقاد، والاستسلام لأمر الله والإسلام يقابله الفسق، اسمعوا إلى بعض الآيات المتعلقة بالفسق قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

[سورة الكهف: 50]

ما معنى فسق عن أمر ربه؟ أيْ خرج، فتعريف الفسق الخروج عن أمر الله، أيّ أمر من أوامر الله إذا خرجت عنه فهذا هو الفسق.

آية ثانية، قال تعالى:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

[سورة يونس: 33]

مسلم فاسق، هذا كلام مضحك، كأن تقول: هذه الغرفة منيرة مظلمة، إما أن تكون منيرة، وإما أن تكون مظلمة، إن كان مسلماً فلا يكون فاسقاً، وإن كان فاسقاً فليس مسلماً، قال تعالى:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

[سورة يونس: 33]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

الفسق والإيمان يتناقضان، الإيمان وجهة، والفسق عقبات أمام هذه الوجهة، قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)

[سورة البقرة: 99]

الفاسق يوجه الآيات توجيهاً يغطي انحرافاته :

حدث عن آية قرآنية أمام عشرة، الذين يكذبون هذه الآية، أو تفسيرها، أو ما تعنيه، أو دلالتها، هم العصاة الفاسقون، المستقيم يقول لك: صدقت ورب الكعبة، هذا هو الحق، غير المستقيم يقول لك: لا أعتقد أن هذه الآية هذا معناها، يحب أن يوجه الآيات توجيهاً يغطي انحرافاته، فإذا قلت له:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

[سورة آل عمران: 130]

قال لك: الآية تنهى عن النِّسب المرتفعة في الربا، ولكن النسب المعتدلة لم ينه الله عنها في نص هذه الآية.

4 ـ النفاق و الكفر :

من الذي يرفض الحق؟ الفاسق، قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)

[سورة البقرة: 99]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

[سورة المائدة: 49]

أكثر الناس فاسقون، يصلون، ويصومون، ويزكون، وهم فاسقون، وفسقهم حجاب، وصلاتهم سراب، وصومهم جوع وعطش، وحجهم سياحة، وأعمالهم مرفوضة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة التوبة: 67]

لو كان مستقيماً لما نافق، ولأنه فاسق ينافق، فالفسق من علامات النفاق، والنفاق من لوازمه الكفر.

الفاسق إنسان خرج عن أمر الله فنسي هدفه في الحياة :

قال تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

[سورة الحشر: 19]

نسوا الله فأنساهم أنفسهم، لماذا نسوا الله؟

(أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة الحشر: 19]

لأنهم خرجوا عن أمر الله، خرجوا عن أمره فنسوا الله، فلما نسوا الله نسوا أنفسهم، أي نسوا المهمة التي خلقوا من أجلها، نسوا هدفهم في الحياة.

الفاسق لا يهديه الله عز وجل و يتوعده بالعذاب الأليم :

ثم قال تعالى:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة الصف: 5]

الفاسق لا يهديه الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يتوعد الفاسقين ويقول:

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 145]

يوجد بلاد دمرها الله، وجعل فيها فتنة لا تنقضي، قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 145]

المدن التي ضج فيها الفسق رأينا كيف دمرها الله عز وجل.

الآيات التالية تبين خطورة الفسق :

قال تعالى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 53]

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

أطاعوه على ضلال، لماذا أطاعوه على ضلال؟ إنهم كانوا قوماً فاسقين، ولأنهم كانوا قوماً فاسقين أطاعوا من استبد بهم، هذه الآيات التي ذكرها الله عز وجل تبين خطورة الفسق، فالأصل الاستقامة، والعبادات تُجدي مع الاستقامة، فإذا انعدمت الاستقامة فلا جدوى لهذه العبادات، ورأيتم قوله تعالى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 53]

هذا هو الفسق، الفسق يقابله الإسلام، الإسلام انقياد، والفسق خروج عن أمر الله، الإسلام مبني على قناعة فكرية، والفسق من ثمار الاعتقاد، وليس القناعة، الاعتقاد قد ينتهي بالفسق، أما القناعة الفكرية فقد تنتهي بالإسلام.

الإيمان و الكفر :

الإيمان وجهة إلى الله، ماذا يقابل الإيمان؟ الكفر، الكفر ليس إنكاراً لوجود الله، هل يشك أحدا في أن إبليس كان كافراً؟ لا يشك أحد، ومع ذلك قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: 82]

اعترف بالله رباً، واعترف بعزته ليغوينهم أجمعين، قال تعالى:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

والذي دعاني إلى هذا الدرس قوله تعالى:

(لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

لهم كنائس، ولهم رجال دين، ولهم صلوات، ولكنهم كفروا بالله، أي لم يلتفتوا إليه، بل التفتوا إلى الدنيا وشهواتها، وغاصوا فيها، وخاضوا في ملذاتها، ولم يعنهم ما إن كانت أعمالهم منطبقة على الشرع أم لا.

الإيمان وجهة إلى الله وطمأنينة وسعادة والكفر خوف و قلق و انحراف :

إذاً الإيمان وجهة إلى الله، وطمأنينة، وسعادة، وسمو، يقابله الكفر، ومع الكفر خوف، قال تعالى:

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

[سورة الحشر: 2]

ومع الكفر قلق، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا)

[سورة طه: 124-125]

مع الكفر قلق، ومع الكفر خوف، و مع الكفر انحراف، و مع الكفر شقاء، الناس رجلان بر تقي كريم على الله، و وفاجر شقي هينٌ على الله.

الفسق يودي بصاحبه إلى الكفر :

ثم يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة النور: 55]

ما الذي أفضى به إلى الكفر؟ الفسق، أشياء في منتهى الدقة، إن الاعتقاد ينتهي بصاحبه إلى الفسق، والفسق ينتهي بصاحبه إلى الكفر، والقناعة الفكرية تنتهي بصاحبها إلى الإسلام، والإسلام ينتهي بصاحبه إلى الإيمان، ومع الإيمان خطر، الإيمان ذوق، والإسلام تطبيق، لكن الإيمان إذا تصاعد رسخ، وإذا استمر ينقلب إلى تقوى، والتقوى شيء آخر، كما أن الإسلام شيء والإيمان شيء، فالتقوى شيء ثالث.

5 - التقوى :

هناك أكثر من مئتي آية تتحدث عن التقوى، ملخصها هاتان الآيتان، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

[سورة الأنفال: 29]

أخطر شيء في الحياة ألاّ تملك رؤية صحيحة، من أين تأتي المشكلات؟ من اتخاذ قرار خاطئ، كأن يغضب الرجلُ فيطلق فيشقى، أو يغضب فيقتل، أو يُغرى فيأخذ ما ليس له، عندها كان أعمى، قال تعالى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

[سورة الحج: 46]

إن أخطر شيء في حياة الإنسان أن يكون أعمى القلب، إن كان أعمى القلب فيتقلب من شقاء إلى شقاء، ومن ورطة إلى ورطة، ومن انحراف إلى آخر، ومن عمل سيئ إلى أسوأ، لأنه أعمى، لكن الإنسان إذا امتلك رؤية صحيحة عندئذ لا يسلك إلا الطريق الصحيح، وإن سلك الطريق الصحيح سعد في الدنيا وفي الآخرة.

إن التقوى هي المرتبة التي فوق الإيمان، والتي يتمتع صاحبها برؤية صحيحة، يرى الخير خيراً فيتبعه، ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه، يقول الله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

[سورة الأنفال: 29]

آية ثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

[سورة الحديد: 28]

المؤمن يخاطب، أنت مؤمن، هناك مرتبة أعلى، أنت مؤمن، ولكن عليك أن تتقي الله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

[سورة الحديد: 28]

المؤمن معه كفالتان؛ كفالة في الدنيا وكفالة في الآخرة :

التقوى درجات، يقول الله عز وجل في آية أخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

أي الوضع الأمثل للتقوى.

الآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

[سورة الحديد: 28]

المؤمن معه كفالتان: كفالة في الدنيا، وكفالة في الآخرة، أن تتقي الله، أن تسلم، وتؤمن، وتتقي الله.

التقوى رؤية صحيحة فيرى العبد فيها الخير خيراً والشر شراً :

يقول الله سبحانه وتعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 38]

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة فصلت: 30]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد: 28]

إنها قناعة فكرية تنتهي بالإسلام، والإسلام الصحيح ينتهي بالإيمان، والإيمان العميق ينتهي بالتقوى، والتقوى لا رجوع بعدها، التقوى رؤية صحيحة، يُقذف نور الله في القلب فيرى العبد الخير خيراً والشر شراً.

الهدف من الصيام أن يبلغ الإنسان مرتبة التقوى :

سبب آخر دعاني لتوضيح هذه المصطلحات هو أننا على أبواب رمضان:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 183]

ليس في كتاب الله آية أوضح من هذه الآية، الهدف من الصيام أن تبلغ مرتبة التقوى، أن ترى بنور الله، أن ترى الخير خيراً والشر شراً، الحق حقاً والباطل باطلاً، وإذا رأيت الحق حقاً تتبعه، وإن رأيت الباطل باطلاً تجتنبه، إن رأيت الحق حقاً آمنت به، و إن رأيت الباطل باطلاً كفرت به، هذا هو الهدف. شهر رمضان على الأبواب، والهدف الأكبر منه أن تبلغ التقوى، إن كنت مؤمناً، ونفسك في أخذ ورد، وصراع وعناد، وحالتك في مدافعة التدني، إذا انتهى رمضان وكنت من أهل التقوى فحالتك الرؤية الصحيحة ومتابعة الترقي، وشتان بين الحالتين.

6 ـ الإحسان :

التقوى هي مرتبة بعد الإيمان، وقبل مرتبة أخيرة، وهي الإحسان، جاء سيدنا جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فسأله النبي عليه الصلاة والسلام عن الإحسان فقال:

((فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))

[مسلم عن عمر بن الخطاب]

إذا بلغت مرتبة الشهود، وكان همك الأوحد الإحسان إلى خلق الله فهذه مرتبة الإحسان، أي الفائدة العملية من مرتبة التقوى، هناك مصطلحات لا بد من تحديدها، عرفنا الاعتقاد، وعرفنا الفسق، وعرفنا

الكفر، الفسق معصية، وخروج عن أمر الله، أما الكفر فإعراض عن الله مع الإيمان به، ومع الإيمان بأنه رب، وبأنه إله، وبأنه عزيز.

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: 82]

7 ـ الشرك :

شيء آخر هو الشرك، الشرك أن تشرك مع الله أحداً، إما أن تشرك نفسك مع الله:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان: 43]

وإما أن تشرك الآخرين، في الماضي صنماً، أو رجلاً، أو زوجةً، أو تجارةً، أو بيتاً، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 24]

الشرك أن ترجو غير الله، أو أن ترجو مع الله أحداً، هناك شرك في الطاعة، من أطاع مخلوقاً في معصية الله فهو المشرك، وهناك شرك في الوجهة، تتجه إلى الله، وتقبل على غير الله أحياناً، وهناك شرك في النية، تنوي بهذا العمل إرضاء زيد أو عبيد، هذا شرك في النية، وهناك شرك في الوجهة، وهناك شرك في الطاعة، وهناك شرك في المحبة، هذه أربعة أنواع للشرك.

آيات الشرك :

أما المشرك فاستمعوا يا أخوة الإيمان إلى آيات الشرك، يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)

[سورة النساء: 48]

إذا شرب أحد الخمر يقول الناس عنه: يا لطيف، لقد شرب الخمر، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)

[سورة النساء: 48]

لأنه وضع الثقة في غير محلها، وضع أمله في إنسان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

[سورة الكهف: 110]

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الزمر: 13]

إن كان النبي عليه الصلاة والسلام هكذا يقول عن نفسه فما بالك بإنسان دون النبي تضع فيه كل ثقتك؟

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)

[سورة النساء: 48]

إذا ظن الإنسان أن زوجته تسعده فقد أشركها مع الله عز وجل، ووضع في هذا الإنسان كل ثقته.

من اتجه إلى إنسان لا يملك شيئاً حبط عمله و خاب ظنه :

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

[سورة النساء: 116]

إذا كان أحد الأشخاص يمشي في طريق، ودخل في فرع من فروع الطريق، وسار في هذا الفرع خمسمئة كيلومتر، واكتشف بعد ذلك أنه في غير الطريق المرجو، هذا ضلال بعيد، وثمة ضلال مبين، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

[سورة النساء: 116]

أي اتجه إلى إنسان لا يملك شيئاً، ووضع فيه كل ثقته، فخاب ظنه، وحبط عمله، ورآه لا شيء، لذلك الله تعالى أغنى الأغنياء عن الشرك:

(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)

[سورة المائدة: 72]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

من يظن أن الأمر بيد فلان أو علان فقد ضلّ ضلالاً بعيداً :

بيده الأمر، لا شريك مع الله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده ملكوت السماوات والأرض، بيده زمام كل شيء، قال تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: 17]

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

[سورة الحج: 31]

عندما يشرك الإنسان فكأنه هوى من السماء إلى الأرض.

(يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[سورة لقمان: 13]

دخلت إلى دائرة لتوقع معاملة، وتوهمت أن الذي يجب أن يوقعها لك هو هذا المستخدم، ووقفتَ على بابه ساعات، ثم فوجئتَ أن هذا المستخدم ليس بيده شيء، لكن الأمر بيد فلان، حينما تظن أن الأمر بيد فلان فقد ضللت ضلالا بعيداً.

(يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[سورة لقمان: 13]

من أطاع غير الله فقد أشرك :

والله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

[سورة التوبة: 28]

ليسوا نجسين، ولكنهم نَجَس، لأن النجِس يطهر، أما النجَس فهو النجاسة، فهو عين النجاسة.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

إنّ معظم من يدّعي الإيمان هم مشركون، إذا رجوت غير الله، وإذا أحببت غير الله، وإذا خفت من غير الله، وإذا أطعت غير الله، وإذا علقت أملاً على غير الله فقد أشركتَ.

في الأثر: " ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً"، إنه شيء خطير جداً أن يكون الإنسان مشركاً، قد يصلي وهو مشرك، يصوم رمضان وهو مشرك، يحج البيت وهو مشرك، لقوله تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

إن أشركت هواك مع الشرع فهذا شرك، الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على معصية، إذا أحببت رجلاً عاصياً لله فهذا نوع من أنواع الشرك.

((إنَّ أخْوَفَ مَا أتَخَوَّفُ عَلَى أمَّتِي الْإشْرَاكُ باللَّهِ، أمَا إنِّي لَسْتُ أقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ أعْمَالًا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[ابن ماجه عن شدادا بن أوس]

هذا هو الشرك، وعلاجه التوحيد، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

التوحيد علاج الشرك :

إن أحد أسباب العذاب النفسي، والألم، والضيق، والقلق، والحقد، والبغضاء، الإشراكُ بالله عز وجل، فاجعل الهموم همًّا واحداً يكفك الهموم كلها.

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ* إنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

فالشرك علاجه التوحيد.

(فَاعْلَمْ أنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

اعلم وليس قُلْ.

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قالوا: وما حقها؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند فيه مقال]

لا إله إلا الله، لا يسبقها عمل ولا تترك ذنباً، لا إله إلا الله حصن من دخله أمن من عذاب الله، لا إله إلا الله كلمة التوحيد.

((أفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأفْضَلُ مَا قُلْتُ أنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ))

[مالك عَنْ طَلْحَةَ بْن عُبَيْدِ اللَّهِ بْن كَرِيزٍ]

(وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلَّا نُوحِي إلَيْهِ أنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً:

(لَا إلَهَ إلَّا أنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

ملخص القرآن الكريم:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 110]

أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، والشرك يقابله التوحيد.

8 ـ المعصية و الفجور :

شيء آخر: كل خروج عن أمر الله يسمى معصية، وقد يكون العاصي مُصرًّا عليها، وقد يكون مغلوباً على أمره، إن كان هذا العاصي متباهياً بمعصيته فهذا هو الفجور، الفجور أن تعصي الله جهراً. إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا.

الفجور أن تعصي الله جهراً، والمعصية مخالفة لأمر الله، قد يكون صاحبها متألماً هذا يرجى له التوبة. رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

9 ـ الإلحاد :

إذاً: هناك فجور ومعصية، أما الذي ينكر وجود الله فهذا لا يسمى كافراً، هذا يسمى ملحداً.

والإلحاد على أنواع: إلحاد في الذات، وإلحاد في الأسماء، وإلحاد في الآيات، إذا أنكرت رحمته إذا قلت: هناك مجاعات في إفريقيا فأين رحمة الله؟ هذا إلحاد بأسمائه، وإلحاد برحمته، إذا قلت: قد يطيع العبد ربه طوال حياته، ثم يضعه في جهنم، وقد يعصيه طوال حياته، ثم يضعه في الجنة، لأنه لا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون، هذا إلحاد في أسمائه، وإلحاد في عدالته، الإلحاد في الذات أن تنكر وجوده، والإلحاد في الأسماء أن تنكر أسماءه الحسنى.

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

[سورة الإسراء: 110]

بقي شيء:

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

[سورة فصلت: 40]

إذا أنكرت عظمة الشمس فهذا إلحاد في الآيات، وهو نوع ثالث من الإلحاد، هناك إلحاد في الذات، إذا أنكرت وجوده، وهناك إلحاد في الأسماء، إذا أنكرت رحمته، أو أنكرت عدالته، أو قلت: إن الله لن ينصر المؤمنين، الله عز وجل قد قوى الباطل، وسيبقيه إلى الأبد، هذا إنكار لأسمائه.

الإلحاد إما أن يكون إنكاراً للذات، إنكاراً للوجود، وإما أن يكون إنكاراً للأسماء، وإما أن يكون إنكاراً للآيات.

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)

[سورة فصلت: 40]

هذا هو الإلحاد، وهذا هو الشرك، وهذه هي المعصية، وهذا هو الفجور.

في رمضان: من أفطر في رمضان في الطريق هذا لا يسمى عاصياً أو فاسقاً، هذا يسمى فاجراً، لأنه جاهر بالمعصية.

10 ـ الذنب :

بقي علينا الذنب، الذنب شيء علق بالنفس، شهوة من شهوات الدنيا علقت بها، أحبَ مالاً حراماً، أو أحبَ الزنى، أو يحبُ الغناء، هذه كلها ذنوب، معنى المغفرة أن يشفيك الله من هذه الذنوب، إذا أقبلت عليه غفر لك، أما المعنى الساذج عند عامة الناس أن الإنسان له ذنوب، والله عز وجل إذا شاء غفرها له، ما معنى غفرها له؟ أي محاها عن اسمه، هي أمراض.

مثلا: هناك مريض معه قرحة في المعدة، والطبيب كتب: فلان معه قرحة في المعدة، هل شفاء هذا المرض يكون بمحو كلمة قرحة عند صفحة الطبيب؟ الآلام قائمة، إذا محوت كلمة قرحة في دفتر الطبيب تبقى القرحة قرحةً، أما إذا جاءها الدواء الناجع، وشفي منها فهذه هي المغفرة.

المغفرة شفاء النفس من الذنوب، ومما علق بها، الذنوب تغفر بالإقبال على الله عز وجل، أما السيئات فتكفّر.

إنّ إنساناً عمل سيئات، وتاب إلى الله توبة نصوحاً، وأحب الله، لكن هذه الذاكرة فيها ذكرى السيئات، إن الذكرى وحدها تعذب صاحبها، لذلك هذا الذي له جاهلية، ثم آمن، وطهرت نفسه، وسمت، ونضجت، إذا مات يفنى جسده، لماذا يفنى جسده؟ كي يُكفر الله عنه سيئاته، لأن هذه السيئات عالقة في الذاكرة، كل منا إن كانت له قبل التوبة جاهلية يذكرها، فإذا خطرت هذه الجاهلية على خاطره تراه يذوب خجلاً.

هذا عن الذنب، والذنب يغفر، والسيئة تُكَفر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة التحريم: 8]

11 - الدّين :

بقي الحديث عن الدين، ما تعريف الدين؟ هو الشيء الذي تدين إليه، مثال مبسط: لو قلت لكم: لو قال معلم في صف من الصفوف: اثنان زائد اثنان يساوي خمسة، هل يسكت الطلاب؟ يضجون، وإن كانوا مهذبين يرفعون أصابعهم، ويقولون: أخطأت يا أستاذ، اثنان زائد اثنان يساوي أربعة، النفس لا تخضع إلا للحق، فالشيء الذي سمعته خضعت له هذا هو الدين.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

الحق واحد، أيّ إنسان منصف إذا سمع الحق يخضع له، وإنما جاء الدين ليبين لك طريقة استعمال كل شيء.

الدنيا فيها شهوات، فيها نساء، وفيها مال، وفيها متع رخيصة، فالدين يقول لك: تزوج ودع الزنى، اعمل في عمل شريف ودع أكل الربا، ودع الرشوة، ودع السرقة، فكأن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملاً، وتبركوا في قراءته، وعصوا فحواه:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

[الترمذي عَنْ صُهَيْبٍ]

إذًا الدين هو الشيء الذي تخضع له، فإن سمعت قصة تظهر أن الله عز وجل ليس عادلاً، نفسك لا تدين لهذه القصة، إذا سمعت أن النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى زينب بثياب متبذلة فأحبها، فقال: سبحان الله! هذا مستوى النبي عليه الصلاة والسلام؟ نفسك لا تخضع لذلك، لا تنقاد لذلك، إذًا لا تدين لذلك.

الدين هو الخضوع والنفس لا تخضع إلا للحق :

الدين هو الخضوع، والنفس لا تخضع إلا للحق، فإذا سمعت الباطل نفرت منه وأبته، إما أن تأباه باللسان، وإما أن تأباه بالقلب، قد يأبى الإنسان هذه القصة بلسانه، وقد يسكت، وقد يجاملك، ويأباها بقلبه، ليس من بين الصحابة وهم أغنياء جداً- بعضهم غني كسيدنا عبد الرحمن بن عوف وسيدنا عثمان بن عفان وسيدنا سعد- ليس من بين هؤلاء الأصحاب المحبين الذين قدموا للنبي أرواحهم أحد يقرض النبي عليه الصلاة والسلام إلا يهودي يقرضه، ويماطل النبي في أداء المبلغ، ثم يلتقي به في الطريق، ويمسكه من ثيابه، ويهزه هزاً عنيفاً، هذه القصة ليست من الدين لأن النفس تأباها.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

فالدين شيء ثانٍ، الدين منطق، وعقل، وأشياء صحيحة يقبلها العقل والمنطق، و ترتاح لها النفس، ولكن في الدين أشياء ليست منه، دخيلة عليه، دسها بعض الزنادقة ، لذلك النفس تأباها، فإذا أبتها ظنت أن الدين كذلك، الدين ما تخضع له النفس، قال عليه الصلاة والسلام:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض]

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

علامة أهل الحق أنهم يدعون إلى الله على بصيرة، إذًا أية قصة لا تؤكد عدالة الله عز وجل أو أسماءه الحسنى أو عصمة الأنبياء فليست من الدين في شيء، هذا هو الدين.

معرفة المصطلحات العلمية جزء من المعرفة العلمية :

هذا العرض السريع لبعض المصطلحات القرآنية من إسلام، وإيمان، وتقوى، وإحسان، ومن اعتقاد، وكفر، وإلحاد، وفسق، وشرك، ومعصية، وفجور، هذه المصطلحات تعيننا على فهم هذه السورة التي سوف نشرحها إن شاء الله في الدرس القادم:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ*رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً* فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ* وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ*وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ *إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ *إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ* جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)

بقي علينا الحديث عن العبادة، والطاعة، وعن الحمد والشكر، وعن المخلِص والمخلَص، وعن العلم والمعرفة، وعن العقل والفكر، وعن النعمة والنعمة، وعن النفس والروح والجسد، وعن الخالق والرب والإله، هذه بعض المصطلحات التي ترد في كتاب الله.

يقولون: معرفة المصطلحات العلمية جزء من المعرفة العلمية، هذه الكلمات يكثر ورودها في القرآن الكريم، فإذا عرفت حدودها الدقيقة، وماذا تعني، فهمت الآيات، أما إذا كنت تحسب أن الكافر هو الذي ينكر وجود الله فكيف يقول الله عز وجل:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

لهم كنائس، لهم رجال دين، لهم صلوات، فهناك تلاوات يتلونها، الحقيقة أن الكفر له معنى، والإلحاد له معنى، والإيمان له معنى، والفسق، والإسلام، والتقوى، والإحسان، والمعصية، والفجور، والشرك، والتوحيد، وكل هذه المصطلحات إن شاء الله عز وجل نتابعها في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة البينة 098 - الدرس (2-2) : تفسير الآيات 1 – 7 ، قصة إسلام عبد الله بن سلام و بشارة النبي له بالجنة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-05-24

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة بين يدي سورة :

قصة قصيرة بين يدي سورة:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

هذه السورة تلقي عليها قصتنا ضوءاً كاشفاً، الحصين بن سلام كان حبراً من أحبار اليهود، وكان أهل المدينة على اختلاف مللهم ونحلهم يجلونه، ويعظمونه، فقد كان معروفاً بين الناس بالتقى والصلاح، موصوفاً بالاستقامة والصدق، وكان كلما قرأ التوراة وقف طويلاً عند الأخبار التي تبشر بظهور نبي في مكة يتمم رسالات الأنبياء السابقين ويختمها، وكان يستقصي أوصاف النبي عليه الصلاة والسلام وعلاماته، ويهتز فرحاً، لأنه سيهجر بلده الذي بعث فيه، وسيتخذ من يثرب مهجراً له ومقاماً.

يقول الحصين بن سلام وهو يروي قصته بنفسه: << لما سمعت بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت أتحرى عن اسمه، وعن نسبه، وصفاته، وزمانه، ومكانه، وأطابق بينها وبين ما هو مذكور عندنا في الكتب، حتى استيقنت من نبوته، وتثبت من صدق دعوته، ثم كتمت ذلك عن اليهود، وعقلت لساني عن التكلم فيه، إلى أن كان اليوم الذي خرج فيه النبي صلوات الله وسلامه عليه من مكة قاصداً المدينة، فعندما بلغ يثرب، ونزل بقباء، أقبل رجل علينا من اليهود، وجعل ينادي في الناس معلناً قدومه، وكنت ساعتئذ في رأس نخلة أعمل فيها، وكانت عمتي خالدة بنت الحارث جالسة تحت الشجرة، فما إن سمعت الخبر حتى هتفت: الله أكبر، الله أكبر، فقالت لي عمتي حينما سمعت تكبيري: خيّبك الله، والله لو سمعت بموسى ابن عمران قادماً ما فعلت شيئاً فوق ذلك، فقلت لها: إنه والله أخو موسى، وعلى دينه، وقد بعث بما بعث به، فسكتت، وقالت: أهو النبي الذي كنتم تخبروننا أنه يبعث مصدقاً لمن قبله ومتمماً لرسالات ربه؟ فقلت: نعم، فقالت: فذلك إذا، ثم مضيت من توّي إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فرأيت الناس يزدحمون ببابه، فزاحمتهم حتى أصبحت قريباً منه، فكان أول ما سمعته من قوله: أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام، فجعلت أتفرس فيه، وأتملى منه، فأيقنت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فيه صدق، ثم دنوت منه، وشهدت أنه لا إله إلا الله و أنه رسول الله، فالتفت إلي، وقال: ما اسمك؟ فقلت: الحصين بن سلام، فقال: بل عبد الله بن سلام، فقلت:

نعم عبد الله بن سلام، والذي بعثك بالحق، ما أحب أن لي به اسماً آخر بعد اليوم، هذا هو اسمي، ثم انصرفت من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتي، ودعوت زوجتي وأولادي وأهلي إلى الإسلام، فأسلموا جميعاً، وأسلمت معهم عمتي خالدة، هذه التي قالت قبل قليل: خيبك الله، وكانت شيخة كبيرة، ثم إني قلت لهم: اكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود حتى آذن لكم، فقالوا: نعم، ثم رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت له يا رسول الله، إن اليهود قوم بهتان وباطل، وإني أحب أن تدعو وجوههم إليك- أي زعماءهم- وأن تسترني عنهم في حجرة من حجراتك، ثم تسألهم عن منزلتي عندهم قبل أن يعلموا بإسلامي، ثم تدعوهم إلى الإسلام، فإنهم إن علموا أنني أسلمت عابوني، ورموني لكل ناقصة، وبهتوني، فأدخلني النبي عليه الصلاة والسلام في بعض حجراته، ثم دعاهم إليه، وأخذ يحضهم على الإسلام، ويحبب إليهم الإيمان، ويذكرهم بما عرفوه في كتبهم من أمره، فجعلوا يجادلونه بالباطل، ويمارونه في الحق، وأنا أسمع، فلما يئس من إيمانهم قال لهم: ما منزلة الحصين بن سلام فيكم؟ فقالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وابن حبرنا، وعالمنا وابن عالمنا، فقال: أفرأيتم إن أسلم أفتسلمون؟ قالوا: حاشا لله، ما كان أن يسلم، أعاذه الله من أن يسلم، فخرجت إليهم وقلت: يا معشر اليهود، اتقوا الله، وأقبلوا على ما جاءكم به محمد، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وتجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، وإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به، وأصدقه، وأعرفه، فقالوا: كذبت، والله إنك لشرنا وابن شرنا، و جاهلنا وابن جاهلنا، ولم يتركوا عيباً إلا عابوني به، فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم أقل لك يا رسول الله: إن اليهود قوم بهتان وباطل، وإنهم أهل غدر و فجور على من يعرفهم.

بشارة النبي الكريم لعبد الله بن سلام بالجنة :

أقبل عبد الله على الإسلام إقبال الظامئ الذي شاقه المورد، وأولع بالقرآن، فكان لسانه لا يفتأ رطباً بآياته البينات، وتعلق بالنبي صلوات الله عليه حتى غدا ألزم من ظله، ونذر نفسه للعمل للجنة حتى بشره بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، بشره بها بشارة ذاعت بين الصحابة الكرام وشاعت، وكان لهذه البشارة قصة رواها قيس بن عبادة.

قال الراوي: كنت جالساً في حلقة من حلقات العلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، وكان في الحلقة شيخ تأنس به النفس، ويستريح به القلب، فجعل يحدث الناس حديثاً حلواً مؤثراً، فلما قام قال: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو عبد الله بن سلام، فقلت في نفسي: والله لأتبعنه، فتبعته، فانطلق حتى كاد أن يخرج من المدينة، ثم دخل منزله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فقال: ما حاجتك يا بن أخي؟ فقلت: سمعت القوم يقولون عنك لما

خرجت من المسجد: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا، فمضيت في إثرك لأقف على خبرك، لأعلم كيف عرف الناس أنك من أهل الجنة، فقال: الله أعلم بأهل الجنة يا بني، فقلت: نعم، ولكن لابدّ لما قالوه من سبب، فقال: سأحدثك عن سببه، فقلت: هاتِه وجزاك الله خيراً، قال: بينما وأنا نائم ذات ليلة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني رجل فقال لي: قم، فقمت، فأخذ بيدي، فإذا أنا بطريق عن شمالي، فهممت أن أسلك فيها، فقال لي: دعها، فإنها ليست لك، فنظرت فإذا أنا بطريق واضحة عن يميني، فقال لي: اسلكها، فسلكتها حتى أتيت روضة غناء، واسعة الأرجاء، كثيرة الخضرة، رائعة النضرة، في وسطها عامود من حديد، أصله في الأرض، ونهايته في السماء، وفي أعلاه حلقة من ذهب، فقال لي: ارفعْ عليه، فقلت له: لا أستطيع، فجاءني وصيف فرفعني، فرقيت حتى صرت في أعلى العامود، وأخذت بالحلقة بيدي كلتيهما، وبقيت متعلقاً بها حتى أصبحت، فلما كانت الغداة أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقصصت عليه رؤياي، فقال: أما الطريق التي رأيتها عن شمالك فهي طريق أصحاب الشمال.

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)

[سورة الواقعة: 41]

وأما الطريق التي رأيتها عن يمينك فهي طريق أصحاب اليمين من أهل الجنة.

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

[سورة الواقعة: 41]

وأما الروضة التي شاقتك بخضرتها ونضرتها فهي الإسلام، وأمّا العمود الذي في وسطها فهو عامود الدين، وأما الحلقة التي في آخره فهي العروة الوثقى، ولم تزل مستمسكاً بها حتى تموت، قال ربنا عز وجل:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

تفسير البينة ومعناها :

ما هي البينة وما تفسيرها؟ الله سبحانه وتعالى فسرها فقال:

(رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً *فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

فالمفسرون لهم في هذه الآية مذاهب عدة، مذهبهم الأول: أن كلمة:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

بمعنى منتهين عن كفرهم، أو تاركين كفرهم، لم يكن الذين كفروا، من هم الذين كفروا؟ من أهل الكتاب اليهود والنصارى والمشركين، أهل مكة، عبدة الأوثان، وبعضهم قال: والمشركين من أهل الكتاب، لأن اليهود قالت: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وهم مشركون.

على كلٍّ الذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمشركون هم أهل مكة عبدة الأوثان، لم يكن هؤلاء اليهود والنصارى ولا هؤلاء كفار مكة منفكين، بمعنى تاركين كفرهم بمحمد، أو بالدين، أو بالوحدانية، حتى تأتيهم البينة، وتفسير البينة:

(رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)

كتاب الله الكريم كتاب طاهر :

النبي صلى الله عليه وسلم حينما جاءهم بَهَرَهم بأخلاقه العلية، بَهَرَهم بمنطقه، بَهَرَهم باستقامته، بَهَرَهم بكماله وخلقه العظيم، فكان النبي صلى الله عيه وسلم بينة لهم على صدقه، وعلى صدق دعوته، لكن النبي صلى الله عليه وسلم هو بينة بأخلاقه واستقامته، وطهره وعفافه، وإحسانه وكرم أخلاقه، ويتلو صحفاً مطهرة، هي بينة أيضاً، وهو القرآن الكريم، سماها ربنا صحفاً مطهرة أي مطهرة من الضلال، ومطهرة من الكذب، ومطهرة من الزيف، ومطهرة من الانحراف، ومطهرة من التناقض، ومطهرة من الخلل، مطهرة من الهوى، ومطهرة من كل ما يشوب كلام البشر، هل يوصف الكلام بأنه طاهر؟ نعم.

قد يؤلف الإنسان قصة قذرة، فإذا قرأها الإنسان ثار كالثور، هذه قصة قذرة، قد يؤلف الإنسان مقالة تدعو إلى الاختلاط، فإذا حدث هذا الاختلاط اختلطت معها الأنساب، كهذا ابن فلان، وهو لا يدري، وهذا ابن فلان، وهو لا يدري، فهل يوصف الكلام بأنه قذر؟ نعم يوصف بأنه قذر، وبأنه نجس، لكن كتاب الله الكريم وصفه الله عز وجل بأنه طاهر:

(رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً *فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

الكتب و الصحف :

ما هي الكتب؟ صحف فيها كتب، أم كتب فيها صحف؟ الأولى أن يقال: كتب فيها صحف، ولكن القرآن صحف فيها كتب، والكتب هي موضوعات، هناك موضوعات في التوحيد، فاعلم أن لا إله إلا الله، وهناك موضوعات في التاريخ، قال تعالى:

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران: 137]

هناك موضوعات في الحكم، هناك موضوعات في المثل، هناك موضوعات في الحقائق الثابتة كأنها قواعد، هناك موضوعات في آيات كونية، هناك موضوعات في أخبار الأولين، هناك موضوعات في آيات منتزعة من واقعنا، موضوعات القرآن كثيرة، ففيه أمر ونهي، وحكمة، وفيه مثل وتاريخ، وفيه آية كونية، وفيه آية تعيشها.

(فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

هذا موضوع، والكتب أيضاً كتاب الطلاق، وكتاب المواريث، وكتاب معاملة الزوجة، والحقوق الزوجية، ولو تصفحت القرآن الكريم لوجدته منطوياً على كتب، فربنا سبحانه وتعالى وصف كتابه الكريم بأنه مطهر من الزيغ، فيه كتب قيمة، معنى قيمة أي: مستقيمة، لا عوج فيها، وقد وصف الكفار الله سبحانه وتعالى فقال:

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأعراف : 45]

الأمور عوجاء، وأيّ تشريع أرضي فيه عوج، لأنه يحقق مصالح أناس على حساب أناس، لكن كتب القرآن الكريم كتب قيمة لا عوج فيها ولا زيغ.

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

كل إنسان له موقف و الرابح من وقف موقف المؤيد للحق :

حينما جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقف الكفار والذين أوتوا الكتاب مواقف عدة، وكل إنسان حينما يبلغه أمر ما يأخذ موقفاً منه، فإما أنه موقف مؤيد، أو له موقف معارض، أو موقف حيادي، والموقف هو اتجاه وفق جهة معينة، ثم الشروع بالحركة، فإذا رأى الإنسان عدواً فإنه يأخذ موقف المدافع، وقد يأخذ موقف المهاجم، وإن رأى صديقاً أخذ موقف الصديق، أو المصافحة والدعوة، فكل إنسان له موقف، قد يأتي الإنسان بحديث، فإما أن تصدقه، وهذا موقف، وإما أن تكذبه وهذا موقف آخر.

سيدنا عبد الله بن سلام أخذ موقفاً، فسعِد بهذا الموقف إلى أبد الآبدين، وأحبار اليهود وهم يعلمون أن النبي عليه الصلاة والسلام نبي أخذوا موقف المعاند، فشقوا بهذا الموقف إلى أبد الآبدين.

وأنت أيها الأخ الكريم، إذا عرض عليك الحق فإما أن تأخذ موقف المؤيد المستمسك، وإما أن تأخذ موقف المعارض الجاحد، وإما أن تأخذ موقف اللامبالي المستهتر، وموقف من هذه المواقف يسعدك إلى الأبد، وموقف آخر يشقي صاحبه إلى الأبد، والحياة كلها مواقف.

قيل عن السيدة عائشة رضي الله عنها: إنها زنت، فأخذ أناس موقف التكذيب من هذا الافتراء، فسعدوا بهذا الموقف إلى الأبد، وأخذ أناس موقف التصديق والشماتة والفرح، فشقوا بهذا الموقف إلى الأبد.

سيدنا الصديق أخذ موقف التصديق حينما بلغه أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أسري به، وعرج به إلى السماء، فسعد بهذا الموقف إلى أبد الآبدين، بينما أبو جهل وأبو لهب أخذوا موقفاً آخر، ونحن في كل عصر لابد لكل واحد منا من موقف إذا عرض عليك الحق، فإما أن تأخذ موقف المؤيد، وإما أن تأخذ موقف المتشكك، وإما أن تقف موقف المعارض المعاند، فهنيئاً لمن وقف موقف المؤيد.

معنى الإكراه وضابطه :

حينما ضاقت على النبي عليه الصلاة والسلام السبل، وحينما ضيق عليه الأحزاب من كل جانب، واجتمعوا لاستئصاله، ونقض اليهود عهدهم ربنا عز وجل قال:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

[سورة الأحزاب: 23]

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

[سورة الأحزاب: 12]

ظهر كذبهم، إن الحياة كلها امتحانات، قد يضغط على الزوجة أن تسفر، إما أن تقف موقفاً صلباً فتقول لزوجها: طلقني، ولا أسفر، وإما أن تقف موقفاً متساهلاً فتسفر، ثم يطلقها زوجها لسبب آخر. قد يضغط عليك أن تفعل منكراً، فتقول: إني أخاف الله رب العالمين، هذا موقف مسعد إلى الأبد، وقد ترضخ، وتقول: إني لا أستطيع، أنا مكره، لكن ما معنى مكره؟

اتفق الفقهاء الذي يبيح للمرء معه مخالفة الشرع الخوف على الحياة، أو الخوف على أحد أعضائه، فإنْ أكره الإنسان تحت خطر أن يموت، أو أن يفقد أحد أعضائه أن يقول كلاماً لا يرضي الله، فإن قاله فلا تثريب عليه، لأنه تحت وطأة فقدِ حياته، أو فقدِ أحد أعضائه، هذه هي الضرورات التي تبيح المحظورات.

الضرورات تبيح المحظورات :

أما الناس فقد توسعوا في فهم هذه الحقيقة، فجعلوا حياءهم ضرورة، وجعلوا مشقتهم من الصيام ضرورة، يقول لك: عندي امتحان، فهل أفطر؟ قال الله عز وجل:

(أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 184]

من لا يطيق الصيام مع السفر والمرض وأفطر فليس عليه إلا القضاء، لكن من أطاق الصيام في السفر أو في المرض وأفطر فعليه فدية وقضاء، قال تعالى:

(وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 184]

فكلمة: الضرورات تبيح المحظورات هذه كلمة خطيرة جداً، وقد توسع فيها الناس حتى تفلتوا من قواعد الشرع تحت اسم الضرورة، الضرورة هي: فقد الحياة أو فقد أحد الأعضاء، هذه هي الضرورة التي تبيح المحظور، لذلك:

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

سعادة من آمن وشقاء من كفر :

لما جاء النبي عليه الصلاة والسلام أناس صدقوا رسالته، وآمنوا به فسعدوا، وأناس رفضوا فشقوا، أين أبو لهب؟

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد: 1-5]

أين أمية بن خلف، أين سيدنا الصديق؟

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

(فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ)

[سورة الشورى: 22]

أين سيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي؟ في الجنة، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

وأنت الآن تسمع الحق، فإما أن تؤمن به، وتصدق به، وتعمل به، فأنت من أهل الجنة، وإما أن تقول: هذا كلام سمعنا به كثيراً، والحياة صعوبات وضرورات، والحياة الواقعية خلاف هذا الكلام، وهناك تيار عام، وعلينا أن نمشي فيه، مثلُ هذا الكلام الشيطاني إذا تبنّيته ربما قاد صاحبه إلى النار.

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

معنى مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ:

1 ـ الانفكاك هنا بمعنى الترك :

مما يروى عن هذه السورة حديثٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ:

((إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ:]لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا [، قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَبَكَى))

[متفق عليه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

كاد يصعق، من؟ أنا، من أنا يا رسول الله حتى يأمرك الله وأنت رسوله وحبيبه أن تقرأ علي هذه السورة؟ استنبط العلماء من هذه القصة أن القراءة نوعان: قراءة مدارسة وقراءة فحص، فالنبي عليه الصلاة والسلام قرأ على أُبّي هذه السورة من قبيل التواضع لمن تعلم، تواضعوا لمن تعلمون، على كلٍّ الانفكاك هنا بمعنى الترك، هذا هو المعنى الأول.

2 ـ لن يبلغ الإنسان نهاية عمره حتى تأتيه البينة :

والمعنى الثاني.

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

أي لن يبلغوا نهاية أعمالهم حتى تأتيهم البينة، فلن يبلغوا نهاية عمرهم حتى تأتيهم البينة، وهذا يعني أن الله رحيم بالكفار، قال تعالى:

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)

[سورة النازعات: 17-19]

3 ـ مهلكين حتى تأتيهم البينة :

والمعنى الثالث:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

بمعنى مهلكين حتى تأتيهم البينة، لأن الله سبحانه وتعالى لا يهلك إنساناً حتى يعرّفه بالحق، إن هؤلاء الكفار من أهل الكتاب لا يتركون صفة النبي عليه الصلاة والسلام حتى يأتيهم، قبل أن يأتيهم كانوا معتقدين به، فلما جاءهم كفروا به، وهكذا قال الله عز وجل:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة البقرة:89]

قبل أن يبعث كانوا يذكرونه للناس، سيبعث نبي صفته كذا وكذا، فلما بعث كفرتم به، سبحان الله !! هذا هو المعنى الثالث.

4 ـ تشبث الكفار بكفرهم :

المعنى الرابع وقد ذكره بعض المفسرين: أن يا محمد، هؤلاء الذين قالوا: إن عيسى ابن الله متشبثون بكفرهم، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة المائدة:17]

ظهور سيدنا المسيح من علامات قيام الساعة :

هؤلاء لم يتركوا كفرهم حتى يظهر المسيح نفسه في آخر الزمان، ويقول لهم: أأنا قلت لكم إني ابن الله؟

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

[سورة المائدة:116]

لذلك هناك أحاديث كثيرة تبشر بظهور سيدنا عيسى عليه السلام، وقد قال الله عز وجل:

(وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

[سورة الزخرف:61]

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)

[سورة النساء:159]

إن ظهور سيدنا المسيح من علامات قيام الساعة، فمن أهل الكتاب يؤمن به نبياً لا إلهاً قبل موته، وبعض التفاسير تقول: رسول من الله يعني سيدنا عيسى.

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ*رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)

5 ـ البينة هي سيدنا عيسى :

البينة هي سيدنا عيسى، ومتى يبعث هذا النبي الكريم؟ عندما تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، فيأتي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً.

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة يونس: 24]

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

فعلى التفسير الأخير البينة هي سيدنا عيسى، وأهل الكتاب أصبحوا يهوداً ونصارى بعد أن جاء سيدنا عيسى.

الخلافات بين الأديان والفرق والملل والنحل من صنع البشر المنحرفين :

هذه الخلافات بين الأديان والفرق والملل والنحل ما أرادها الله عز وجل أبداً، هي من صنع البشر المنحرفين، وهذه العداوات وهذا الحقد بين أهل الأديان و الملل والفرق ما أرادها الله عز وجل، إنها من صنع الشيطان، كلها خلافات ما أنزل الله بها من سلطان، إنها من صنع البشر المغرضين، والدليل قوله تعالى:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

العبادة تسبقها معرفة بالله وتنتهي بسعادة كبرى :

هذا هو الدين الصحيح، العبادة، والعبادة طاعة تسبقها معرفة، وتعقبها سعادة، أن تقول: العبادة هي السعادة غلط، العبادة تسبقها معرفة بالله، وتنتهي بسعادة كبرى، لذلك قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة الحج: 77]

وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين، ليعرفوا الله فيطيعوه، فيسعدوا بقربهم له، وهذا يحتاج إلى إخلاص، لذلك: يا معاذ، أخلص دينك يكفك القليل من العمل، أخلص دينك.

وفي الأثر: يا عبد الله بن عمر، دينَك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذي مالوا، كل هذه الخلافات ما أنزل الله بها من سلطان، عد إلى ينابيع الدين الأولى، هذا الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عد إلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام، أو ما صحّ منها، فهي النبع العذب الفرات، ودع الخرافات والأقاويل والترهات التي ابتدعها أهل العصر، لقد أصبح الدين في هذا العصر مستنقعاً آسناً، وأصله نبع صافٍ، عد إلى النبع.

قال سيدنا عمر لبدوي: يا بدوي! بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، فقال له: ليست لي، قال له: قل لصاحبها: إنها ماتت، أو أكلها الذئب، قال له: ليست لي، قال له: خذ ثمنها، فقال هذا البدوي الراعي: والله إنني لفي أشد الحاجة لثمنها، ولو قلت له: ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟ هذا هو الدين كله، اليوم يحضر دروس الفقه، والتجويد، والمواريث، والحديث، ويأكل مالاً حراماً، ليس هذا هو الدين، رأس الدين هو النصيحة، ورأس الدين الورع:

((وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

((من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله تعالى بسائر عمله))

[مسند الشهاب عن أنس بن مالك]

والله لترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة من بعد الإسلام.

قم فصلّ فإنك لم تصل، من شاء صام، ومن شاء صلى، ولكنها الاستقامة.

على الإنسان الخضوع لله في كل الأمور :

وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين- عبادة لله خالصة لا زيف فيها، ولا رياء، ولا نفاق، ولا خلل- له الدين حنفاء، له الدين أي له الخضوع في كل الأمور، حنفاء أي مائلون عن غيره إليه، مائلون عن الباطل إلى الحق، عن الشهوات إلى الطاعات، عن المحرمات إلى القربات، عن أهل الدنيا إلى أهل الآخرة، عن أهل المتع إلى أهل العلم، عن الوحول إلى الزهور.

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)

الصلاة تقام، ولها دعائم، من دعائمها الاستقامة، ومن دعائمها العمل الصالح، ومن دعائمها معرفة الله عز وجل، قال تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 177]

وأقام الصلاة وآتى الزكاة.

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)

الإسلام خلق و قيم و انضباط و أمانة :

الأديان في هذا الزمان تشبه محلات تجارية، لافتاتها براقة، والبضاعة خاوية، ما نفع اختلاف اللافتات؟ أين البضاعة؟

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 62]

كلهم عند الله سيان، كن واعياً لحقيقة الدين، عازماً لله، مستقيماً على أمره، محسناً للخلق، هذا هو الدين، ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل، وذلك دين القيمة، الدين الصحيح، لو أن الناس فهموا الدين هكذا لعمّ الدين أهل الأرض، لو كان المسلمون في أوربا فقط مسلمين حقاً لعمّ الدين أهل أوربا كاملاً، لو كان المسلمون في كل زمان مسلمين حقاً لما بقي غيرهم على غير ملتهم.

لأن الإسلام شيء عظيم؛ خلق، قيم، انضباط، أمانة، نزاهة، عفة، مروءة، استقامة، ورع، من منا لا يحب أن يكون مثل هذا الإنسان؟ فالمسلم داعية بعمله، لو كان أبكم لهدى الناس بعمله.

الإنسان إما أن يكون فوق الملائكة أو دون الحيوان :

ثم قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

شر البرية أي شر ما برأ الله وخلق، إن الإنسان ركّب من شهوة وعقل، وركب الملك من عقل بلا شهوة، وركّب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركّب الإنسانُ من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

لا يوجد حل وسط، فإما أن تكون فوق الملائكة، وإما أن تكون دون الحيوان، وهذه الآية دليل.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

أحقر حيوان بنظرك تشمئز منه نفسك يكون الكافر أسفل منه، وإذا عرفت الله عز وجل فأنت فوق الملائكة.

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

وفي الأثر: ما وسعتني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن، خلقت السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عمن اقترفته عليك.

علامة معرفة الله الصبر على حكمه و الاستسلام له و التوكل عليه :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

أي خير ما برأ الله وخلق، قال تعالى:

(جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)

معنى جنات عدن أي: جنات يستقرون فيها إلى الأبد، وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه.

قال أحدهم: يا رب! هل أنت راض عني؟ قال: يا عبدي، هل أنت راض عني حتى أرضى عنك؟ أنا أرضى عنك إذا رضيت عني، ولن ترضى عني إلا إذا عرفتني.

وعلامة معرفة الله الرضى في قضائه، والصبر على حكمه، والاستسلام لحكمه، والتوكل عليه، هذه علامة الإيمان.

كل من آمن بلسانه وطبق الشرع بجوارحه و خشي الله فهو ناج :

كل من آمن بلسانه، وأعلن الإسلام بلسانه، وطبق الشرع بجوارحه، و خشي الله، و خشع قلبه لله، فهو ناج، قال تعالى:

(ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه)

والقلب لا يخشى إلا إذا كان عالماً، لأن علامة العلم الخشية، ومن نتائج العلم الخشية، ذلك لمن خشي ربه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزلزلة 099 - الدرس (1-1): تفسير الآية: 1 - 8 مبدأ المسؤولية.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-05-31

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزلزلة قال عليه الصلاة والسلام بحقها إنها نصف القرآن :

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة الزلزلة وقد قال عليه الصلاة والسلام بحقها إنها نصف القرآن، وسورة الإخلاص ثلث القرآن، فما هي هذه السورة التي وصفها النبي عليه الصلاة والسلام بأنها نصف القرآن؟ والحقيقة أن هذه السورة تحدد مبدأ المسؤولية، العقائد إذا زاغت وانحرفت وتاهت وشردت تخفف من مسؤولية الإنسان، وإذا صحت تحدد مسؤوليته وتضعه أمام واجباته؛ فكل فرقة وكل دين قد سبق حينما ينحرف الناس يتعلقون بعقائد زائغة قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 80]

هذه عقيدة اليهود الزائغة قال تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

[سورة المائدة: 18]

الله سبحانه وتعالى في هذه السورة يحدد مسؤولية الإنسان :

النصارى قالوا: آمن بالمسيح تنجو من عذاب النار، والمسلمون في عصورهم المتخلفة اعتقدوا بهذه العقائد وظنوا أنهم من أمة سيدنا محمد فالجنة مصيرهم، الشعوب والأمم وأصحاب النحل إذا امتد بهم العمر وانحرفوا وزاغت عقائدهم يخففون من مسؤولياتهم ويعزون المسؤولية إلى جهة أخرى، لكن الله سبحانه وتعالى في هذه السورة يحدد مسؤولية الإنسان. لذلك أحد الأعراب جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال له: يا رسول الله عظني وأوجز فقال له: قل آمنت بالله ثم استقم، فقال: أريد أخف من ذلك، قال: إذاً فاستعد للبلاء.

لذلك إما أن تستقم وإما أن تستعد للبلاء، لا يوجد حل ثالث، إله عادل. وجاءه أعرابي آخر فقال: يا رسول الله عظني وأوجز، فقال له: من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، فقال هذا الأعرابي: لقد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فقه الرجل.

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه السورة تكفي خالق الكون، الله رب العالمين يقول لك: يا عبدي فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره؛ اعمل ما شئت لذلك:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن سهل بن سعد البيهقي عن جابر]

سيدنا علي كرم الله وجهه يقول: والله ما أحسنت وما أسأت، كيف ما أحسنت إلى أحد؟ وكيف لم تسئ إلى أحد؟ قال: فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلأنفسهم يمهدون، إن فعلت خيراً فهو لك وإن فعلت شراً فهو عليك قال تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة: 286]

كل شيء مسجل عند الله عز وجل إن صغيراً أو كبيراً.

كلمة (إذا) في الآية التالية لتحقق الوقوع لا لاحتمال الوقوع :

ربنا عز وجل في هذه السورة يحدد مسؤولية الإنسان ولكن متى؟ قال تعالى:

(إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)

ما إعراب (إذا)؟ ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه موصول بجوابه مبني على السكون في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان، هذا إعرابها المفصل.

ماذا تعني (إذا)؟ تعني حين، سوف، إن، إذا جمعت حين مع سوف مع إن المؤدى إذا، وماذا قال علماء البلاغة عن إذا؟ قالوا: (إذا) لتحقق الوقوع لا لاحتمال الوقوع، فمثلاً إذا قال الله عز وجل:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر: 1]

عندما قال: إذا جاء نصر الله، لا بد من أن يأتي، إذا زلزلت الأرض زلزالها، هذا اليوم لا بد من أن يأتي، قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[سورة الحجرات: 6]

يتمتع المؤمن،

(فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

أي هذا الفاسق قد يأتي وقد لا يأتي، فـ (إن) لاحتمال الوقوع بينما (إذا) لتحقق الوقوع، وفرق كبير بين احتمال الوقوع وبين تحقق الوقوع.

إذا جاء نصر الله والفتح، لا بد من أن يأتي نصر الله والفتح، إذا زلزلت الأرض زلزالها، لا بد من أن يأتي هذا اليوم، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، قد تحسنوا وقد لا تحسنوا، فإن لاحتمال الوقوع وإذا لتحقق الوقوع.

لا بد من يوم تزلزل الأرض كلها وهذا يوم القيامة :

لا بد من يوم تزلزل الأرض، طبعاً نحن شاهدنا في الصور أو سمعنا أو قرأنا عن زلزال وقع في الأرض، هذا الزلزال محدود، في مكان محدود، وله نتائج محدودة، منطقة في آسيا، في إيطالية، في الجزائر، في بكين، في الصين الشعبية منطقة محدودة تضطرب، فإذا اضطربت جعلنا عاليها سافلها ومات أناس كثيرون، يقول لك: ضحايا الزلزال مئة ألف والمشردون أربعمئة ألف مثلاً ويبقى الزلزال محدوداً بمكان محدد وزمان محدد وآثار محددة، ولكن هناك زلزال يصيب الأرض كلها في كل قاراتها.

(إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)

زلزالها مفعول مطلق وسمي المفعول المطلق مطلقاً لأنه مطلق، أي زلزالها الأخير أو زلزالها الكبير أو زلزالها العظيم، الزلزال الذي وعد الله به والذي هو نهاية العالم.

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

[سورة يس:38]

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ* وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ* وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ* وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ* وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

[سورة التكوير: 1-5]

هذا الوضع لا يستمر أن تستيقظ كل يوم وترى الشمس تشرق ثم تغيب هذا وضع مؤقت؛ لا بد من يوم تزلزل الأرض، وهذا يوم القيامة فإذا زلزلت الأرض زلزالها أي إذا انتهت الحياة الدنيا، وقال بعض المفسرين: زلزالها للتخصيص والتعظيم.

أثقل ما على الأرض الإنسان لأنه قبل حمل الأمانة :

قال تعالى:

(وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)

أثقل ما فيها الإنسان قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر. ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

أنت المخلوق الأول في الأرض، لأنك إنسان أنت حملت الأمانة وتحملت أن تكون من بني البشر وأن تحمل الأمانة التي أبتها الأرض والسموات والجبال.

(وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)

هذه النفوس التي حملت الأمانة والتي جاءت إلى الدنيا فبعضها آمن وبعضها كفر، بعضها وفى بما عاهد الله عليه وبعضها نقض عهده، وبعضها عرف ربه وبعضها أدار ظهره للدين.

الإنسان إن عرف الله فاق الملائكة وإن آثر شهوته هبط إلى مادون الحيوان :

ستخرج النفوس البشرية التي كرمها الله عز وجل والتي خلق الكون كله من أجلها، الذي سخر الكون من أجل الإنسان قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

هذا الإنسان إن عرف الله فاق الملائكة وإن آثر شهوته هبط إلى مادون الحيوان، إما أن يكون خير البرية وإما أن يكون شر البرية، هذا الإنسان الذي جاء إلى الدنيا وأعطاه الله فكراً وأعطاه الله سمعاً وبصراً وبث في الأرض آيات للموقنين وجعل من حوله الآيات تترا وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، هذا الإنسان جاء إلى الدنيا ونسي المهمة الكبرى التي خلق من أجلها.

يوم القيامة تلفظ الأرض البشر من بطنها فيروا أنفسهم في يوم الدين الذي وُعدوا به:

قال تعالى:

(إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)

هؤلاء البشر لفظتهم الأرض من بطنها فقاموا وحشروا ورأوا أنفسهم في يوم الدين الذي وعد به الله رب العالمين.

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ)

[سورة المرسلات:38]

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

[سورة الصافات:21]

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

[سورة يس:52]

(قالوا) وهذا اليوم لا بد من أن يأتي، قالت السيدة عائشة: يا رسول الله أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة؟ قال: نعم يا أم المؤمنين إلا في ثلاثة مواطن، إذا الصحف نشرت وعلى الصراط وعند الميزان، في هذه المواطن الثلاث لو وقعت العين على العين لا تعرف الأم ابنها، ولا ابن يعرف أمه فيما سوى ذلك قد تلتقي الأم ابنها فتقول: يا بني جعلت لك بطني وعاءاً وصدري سقاءاً وحجري غطاءاً فهل من حسنة يعود علي نفعها اليوم، فقال: يا أماه ليتني أستطيع ذلك إنما أشكو مما أنت تشكين.

هذه الساعة العصيبة لا ينفع فيها إلا العمل الصالح والاستقامة ومعرفة الله عز وجل:

قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

(يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ* خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة:27-33]

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ*وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

[سورة الفجر: 24-26]

هذه الساعة العصيبة التي لا ينفع فيها شيء، لا ينفع فيها إلا العمل الصالح والاستقامة ومعرفة الله عز وجل.

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا*وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا*وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا)

قال الإنسان: ما الأمر؟ ما الموضوع؟ ماذا حدث؟ هذا يوم الفصل الذي وعدناكم أجمعين، هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون.

للآية التالية معنيان :

قال تعالى:

(وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا*يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

لهذه الآية معنيان، إما أن هذه الزلزلة كأنها حديث الأرض للبشر، أو قد انتهت الدنيا ودخلنا في يوم القيامة هذا معنى، وكأن زلزال الأرض حديث لبني البشر، وكأنها تحدثهم أن الحياة الدنيا قد انتهت وطويت صفحاتها ونحن على مدخل الدار الآخرة:

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

والمعنى الأوجه أن هذه الأرض أحصت على الإنسان كل سكناته وحركاته وأنفاسه وأعماله صالحها وطالحها، خيرها وشرها، وكل شيء فعلته في الأرض سوف تنطق به الأرض.

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة فصلت: 21]

هذه اليد شاهد عليك فعلت كذا وكذا، وهذه العين شاهدة عليك، وهذه الأذن شاهدة عليك، وهذه الرِّجل شاهدة عليك، وكل شيء على وجه الأرض يشهد على الإنسان عمله.

كل شيء على وجه الأرض يشهد على الإنسان عمله :

قال تعالى:

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا*بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)

أوحى لها أن تكلمي، أوحى لها أن حدثينا ماذا فعل فلان؟

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟))

[الدارمي عن معاذ بن جبل]

الإنسان يجهل أحياناً وهذه هي الأجوبة، حضر نفسك، هذه الأسئلة قبل الامتحان ربنا سبحانه وتعالى سربها لك، هذه هي الأسئلة عن:

((عن عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟))

[الدارمي عن معاذ بن جبل]

الله سبحانه وتعالى يقول:

(بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)

هو الذي أوحى لها أن تنطق بكل شيء، هذا المكان جلسنا فيه ساعة من نهار وذكرنا الله عز وجل، هو شاهد عليكم، وفي هذا المكان لا سمح الله ولا قدر جلس أناس وارتكبوا المعصية؛ المعصية سجلت عليهم، وهذا البيت شهد زواجاً مباركاً وشهد زواجاً إسلامياً صحيحاً لا معصية فيه، هذا البيت بأرضه وجدرانه يشهد عليك، وهذا البيت تمت به معاصٍ كثيرة كلها مسجلة لأن ربك أوحى لها، شيء خطير حينما قال عليه الصلاة والسلام: إنها تعدل نصف القرآن، لم يكن في هذا الكلام مبالغ عليه الصلاة والسلام، تضع الإنسان أمام مسؤولية أنت مسؤول، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

الإنسان العاقل علاقته مع الله وحده وكل عمل يقدم عليه لا بد من أن يهيئ جواباً لله:

يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة؛ فريق جمع المال من حلال وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حلال فيقال: قفوه واسألوه.

هذا الذي يحاسب الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، هل تاه بماله على عباد الله؟ هل ضيع فرض صلاة؟ هل قال جيرانه: لقد أغنيته يا رب فقصر في حقنا، فقال عليه الصلاة والسلام: ومازال يسأل ويسأل.

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله له: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت في؟ يقول: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خير حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله له: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

نصيحة لوجه الله قبل أن تفعل أي عمل هيئ الجواب لله عز وجل يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم لا ينفع إلا العمل الصالح، إن قال لك الله عز وجل: لماذا ظلمت زوجتك؟ ما تقول له؟ لماذا غششت هذا الزبون ولم؟ لماذا بعته أسوأ ما عندك؟ استحلفك أن تنصحه فإذا أنت تغشه ما الجواب؟ لماذا أخذت معظم المال لك أليس لأخوتك نصيب بهذا المال أمعك جواب؟ أين الجواب والإنسان العاقل علاقته مع الله وحده وكل عمل يقدم عليه لا بد من أن يهيئ جواباً لله عز وجل. فلذلك العاقل من فكر في هذه الساعة وهي لا بد آتية، وكل آت قريب. وكل متوقع آت، وكل آت قريب، العاقل يهيئ الجواب. من أجل أن يأتي بالمال الوفير، ضيَّع دينه وقع في الزنا، عاد من أوربا يتقن اللغة الإنكليزية وقد زنا خمسين مرة، هذا الابن يوم القيامة يقول: يا رب لا أدخل النار قبل أن أدخل أبي قبلي، هو الذي شجعني، هو الذي دفعني، هو الذي أغراني.

جوهر الدين أن الإنسان مسؤول :

لماذا قبلت هذا الزوج لابنتك؟ يا رب لأنه يملك بيتاً ممتازاً وسيارة فخمة، أين دينه؟ ألم يقل لك فلان أنه لا يصلي، ألم يقل لك فلان أنه يشرب أحياناً، كيف تزوجه ابنتك لقد ضيعتها معه؟ أجب إن استطعت:

((إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لماذا رفضت فلاناً الفقير؟ ألم تعلم أنني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله، أجب، هذه القضية مع الله عز وجل لا يوجد دجل ولا كذب ولا افتراء، يعلم الجهر وأخفى، وسوف يسألك:

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24))

[سورة الصافات: 24]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

وفّر وقتك واترك السفاسف واترك القشور؛ تعلق بجوهر الدين، جوهر الدين أنك مسؤول:

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك، فلأُسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي، وكنتَ عندي مَذْموماً.))

[ورد في الأثر]

هذا هو العقل، العقل أن تهيئ أجوبة للملكين يوم القيامة، قال تعالى:

(بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا* يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)

متفرقين لا يوجد تجمعات يوم القيامة ولا جماعات، و لا أحزاب، الناس يأتونه فرادى يوم القيامة، كما خلقناكم أول مرة.

العمل الذي فعلته منذ أن ولدت وحتى الموت مسجل على شريط تراه بعينك :

قال تعالى:

(يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)

ما رأيك أن العمل الذي فعلته منذ أن ولدت وحتى الموت مسجل على شريط تراه بعينك.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء: 14]

بعت بيتاً بيعاً قطعياً وقبضت المبلغ كاملاً وبالسعر المناسب ترفض التنازل، تقول: أريد ستين ألفاً، طلبه منك بعد سنوات ترفض التنازل إلا بعد دفع مبلغ معين، يوجد محكمة إلهية وهذا المال ظلم، عندما بعت البيت ألم تبعه بسعره؟ وألم تقبض ثمنه بالسعر المناسب؟ كله صحيح بعقد أصولي بعد ما أنت بعته بكامل أهليتك الشرعية والقانونية وقبضت ثمنه بالكامل وهذا السعر وقتها مقبول، تفضل وأجب الله عز وجل يوم القيامة.

أحدهم احتاج إلى مئتي ألف وعنده بستان جميل جداً، ولأمر ضروري التقى برجل غني وقال له: أعطني هذا المبلغ وخذ البستان رهناً للمبلغ، فإذا أديت لك هذا المبلغ تعيد لي هذا البستان، قال له: قبلت، نقده المبلغ ودخل إلى البستان رآه جميلاً جداً وسعره ثمانمئة ألف وفيه ما لذ وطاب بعد سنة وسنتين تعلق بالبستان، ورفض إعادته قال: كل واحد أخذ حقه، قال صاحب البستان: هذا البستان يا رجل رهن موضوع عندك سعره ثمانمئة ألف وأنا أخذت منك مئتي ألف، رفض إعادته وقال: البستان بستاني وإن لم يعجبك فهذه المحاكم، هذا الرجل طال به العمر وحينما شعر بدنو وقته جمع أبناءه وأوصى أحدهم أنه إذا مات عليه أن يسير الجنازة من أمام بيت المغتصب وتخرج أنت يا بني وتعطيه هذه الرسالة، وبعد أيام توفاه الله عز وجل وغسل الميت وجهز ووجهت الجنازة وفي هذا الطريق المرسوم مرت أمام دكان المغتصب، والمغتصب أخفى وجهه ودخل إلى الداخل خرج الابن الأكبر إلى صاحب الدكان وقال له: هذه يا سيدي رسالة من والدي كتبها لك قبل أن يموت خذها واقرأها، فتح الرسالة وجد فيها، لقد ذهبت إلى الديان الله رب العالمين وأنا أنتظرك هناك فإن استطعت أن لا تحضر فلا تحضر، وسوف تحاسب هناك، يقولون أن هذه الرسالة كانت كافية وأنه في اليوم التالي ردّ لهم البستان وأخذ المبلغ. من السهل

أن تأكل مال الناس في الدنيا لكن ليس سهلاً بعد الموت أكل مال الناس بالباطل عندما يأتي ملك الموت انتهى الأمر.

لو فعل الإنسان عملاً صالحاً وآخر سيئاً كالذرة لرآه يوم القيامة ولحاسبه الله عليه:

قال تعالى:

(يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ)

كلمة ذرة في العلم الحديث أي ذرة لا ترى بالعين، والآن هناك بعض الأخبار أن الذرة يمكن رؤيتها بالمجهر الإلكتروني هذا خبر قرأته، أما الذرة شيء دقيق دقيق، أي كل مئة مليون مليون ذرة برأس دبوس، لو فعلت عملاً صالحاً بمستوى ذرة فإن هذا العمل سوف تشاهده يوم القيامة، وبعضهم قال: الذرة الغبار، تراه في أيام الشتاء وأشعة الشمس بالغرفة قد ترى في أشعة الشمس ذرات لا وزن لها إطلاقاً عالقة في الهواء، لو فعلت عملاً صالحاً وآخر سيئاً كمثل هذه الذرة لرأيته يوم القيامة ولحاسبك الله عليه. رأيت على المغسلة نملة أنقذتها من أن تغرق وأنت تتوضأ وأوقفت الصنبور وأزحتها ماذا فعلت؟ هذا عمل عظيم، أنقذت نفساً.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

[سورة الأنعام: 151]

فراشة أنقذتها، ابتسامة ابتسمتها في وجه أخ لك مؤمن، تفاحتان أخذت الأصغر وأعطيت أمك الأكبر مسجلة، قطعة لحم في الصحن دفعتها لزوجتك مسجلة، سألك إنسان سؤالاً وأنت في الوضوء فأغلقت الصنبور حتى لا تسرف وبعدها تابعت، النبي صلى الله عليه توضأ من إناء ففضلت فضلة فردها في النهر وقال: ينفع الله فيها قوماً آخرين.

كل عمل تفعله مهما صغر مسجل عليك :

ابنك في الليل كان يبكي وزوجتك متعبة قلت: أنا سأسقيه الماء، والزوجة بقيت نائمة هذا العمل مسجل، في سيارة عامة صعد رجل كبير في السن وقفت وأجلسته.

((ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه))

[الترمذي عن أنس]

جالس في المسجد رأيت خيطاً طوله سنتيمتر على السجادة وهذا بيت الله وضعته في جيبك مسجلة، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

أمام بائع اللبن كم سعر الكيلو؟ أكلت لقيمة صغيرة وما أنت تريد أن تشتري مسجلة، بائع كرز أخذت كرزة واحدة أنت لا تريد أن تشتري لماذا أكلت هذه الكرزة؟ مسجلة مهما دقت، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

وأنت تصف سيارتك انخدشت سيارة صديقك قليلاً ولا يشعر بها، يجب أن تبلغه أو تعطيه شيئاً من المال، لا تقل لم يرني أحد ولكن الله يراك:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

امرأة مومس رأت كلباً يأكل الثرى من شدة العطش فسقته فغفر الله لها، هذه الحيوانات التي ليس لها صاحب يدهسها الناس، ولو كانت غنمة لا يدهسها خوفاً من صاحبها.

ترى في الشارع كلاباً مدهوسة أما كان بالإمكان أن تحتاط، والله عز وجل يحاسبك عنه.

السعيد من اتعظ بغيره والشقي من اتعظ بنفسه :

قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

هذه الآية تكفي الإنسان وتجعله ينضبط ويستقيم استقامة تامة ويحسب حساباً لهذا اليوم العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً، قمت لتصلي وأنت ترتدي ثياب النوم وعندك ثوب أستر وأحل ويستر العورة لوناً وحجماً، كنت تصلي وجاءك هذا الخاطر لك أجر فيه، غسلت رأسك وشعرك مبلول وسوف تصلي هكذا تقف بين يدي الله عز وجل؟ جفف شعرك قال تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

[سورة الأعراف:31]

عند الصلاة، وأنتم ابحثوا عن أمثلة صغيرة وكبيرة، على مستوى الصغائر يوجد حساب فكيف بالكبائر؟ ولا تقل لهما أف تقول: أنا لم أقل لهما أف ولكن ضربتهما، إذا كانت كلمة أف تحاسب عليها حساباً عسيراً فمن باب أولى ما فوقها. ربنا عز وجل عندما ذكر الذرة من باب أولى ما فوق الذرة، اغتصاب المال، والاعتداء على الأعراض، أكل مال اليتيم من باب أولى أن هذه الكبائر تحاسب عليها، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، الإنسان أحياناً يضيف قطعة حلوى ويحب أن يأكلها ويتذكر ابنه الصغير فيتركها لابنه هذه مسجلة. أي عمل تعمله كبيراً كان أم صغيراً مسجل عليك وسوف تلقى جزاءه يوم القيامة، والسعيد من اتعظ بغيره والشقي من اتعظ بنفسه، والبطولة أن تحتاط ليوم القيامة وأنت في الدنيا، وقمة الغباء أن تواجه هذا اليوم العصيب وأنت لا تملك تعديل شيء هذا هو الغباء:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ*وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ*يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي)

[سورة الفجر: 24-30]

الإنسان يراقب نفسه ويهيئ جواباً ليوم القيامة ومهما دق العمل محاسب عليه، أخذت أنت وأخوك مئة بيضة وقال لك: اقسمها بيننا، فقسمها قسمة ضيزى، هذه الكبيرة لك والصغيرة له، هذه خيانة، كمؤمن إما أن تقسم بالعدل وإما أن تضع له الكبيرة وأنت محاسب على هذا العمل. لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت، اجترأت على الله عز وجل، لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العاديات 100 -الدرس (1-1): تفسير الآية:1 - 8، تهديد ووعيد لجحود الإنسان وإعراضه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-06-14

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية تبين أن الإنسان إن لم يقابل نعم الله بالشكر والطاعة فقد خسر خسراناً مبيناً:

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة العاديات.

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً*فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً *فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً*فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً*إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ *وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ*وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ* وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ* إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)

هذه السورة من جزء عم أو من الأجزاء الأخيرة التي تقرع مسامع الإنسان حول آيات الله العظيمة، وتبين أن الإنسان إن لم يقابل هذه النعم بالشكر والطاعة فقد خسر خسراناً مبيناً، هذه الواو واو القسم، والله سبحانه وتعالى يقسم ولا يقسم، في آيات كثيرة يقول الله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الحاقة: 38-39]

وفي مرات أخرى يقسم قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

[سورة الشمس: 1-2]

المعنى الأول للعاديات هو الخيل :

المفسرون وقعوا في حيرة لماذا أقسم هنا ولم يقسم هنا؟ الحقيقة قد ذكرتها لكم من قبل أن الله سبحانه وتعالى إذا نسب هذا الشيء إلينا يقسم بها لأنها عظيمة بالنسبة إلينا، وإذا نسبها إليه لا يقسم لأنه هو خالقها وهو المحيط بها، فما الكون كله في جنب ذات الله سبحانه وتعالى كن فيكون، مهما بدا لنا الكون غير محدود فالكون محدود في النهاية والله عز وجل محيط به، فربنا عز وجل يلفت نظرنا إلى مجموعة آيات، أكثر المفسرين قالوا: إن هذه الآيات تتعلق بالخيل، قال تعالى:

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً*فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً)

كيف تعدو؟ وكيف يخرج منها صوت خاص بها أثناء جريها الشديد؟

(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً)

فإذا سارت هذه الخيل على صخر رأيت الشرر يخرج من تحت حوافرها.

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً)

قد تغير هذه الخيل على القوم الأعداء صبحاً.

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً)

قد تهيج الغبار من وراء الخيل.

مجموعة هذه الآيات بهذا السياق آية من آيات الله عز وجل :

قال تعالى:

(فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً)

أي تدخل إلى ساحة المعركة وتحقق النصر، الحقيقة مجموعة هذه الآيات بهذا السياق آية من آيات الله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام:

((الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة))

[عبد الله بن مسعود مسند أبي يعلى الموصلي]

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 8]

من آيات الله عز وجل الدالة على عظمته هذا الحيوان الذي سخره الله لنا نركبه، ونعدو به، وننتقل عليه من مكان إلى آخر، ونحارب عليه، وننشر الدعوة عن طريقه، ونفتح البلاد ونحن على ظهور الخيل هذا معنى، ولكن الله عز وجل كلامه كلام معجز بمعنى أن القرآن الكريم حمال أوجه، والقرآن الكريم ليس ملكاً لأحد، وهناك تفسير آخر لهذه الآيات يعطي معنىً متعلقاً بالآيات الكونية.

فالعاديات جمع مفردها عادية، والعادية الشيء الذي يركض ويسرع بالجري وهي هنا السحابة، السحاب الذي تثيره الرياح والرياح آية من آيات الله العظمى.

الهواء مبدئياً، هذا الهواء الذي نستنشقه والذي ينقل الحرارة، هذا الهواء الذي ينقل البرودة، هذا الهواء الذي ينقل الصوت والذي يحقق التوازن عن طريق الضغط الجوي، هذا الهواء الذي يعد وسطاً مرناً في الأرض، هذا الهواء الذي ينقل الضوء، إذا تحرك صار رياحاً، من حرك الهواء؟ هناك الرياح الشرقية وهناك الرياح الغربية وهناك الرياح الشمالية وهناك الرياح الباردة تأتينا من الشرق وهناك الرياح

المثقلة ببخار الماء تأتينا من الغرب وهناك الرياح التي تلطف الجو وهناك الرياح التي تبعث في النفس الانتعاش، هذه الرياح التي تعدو ألم يقل الله عز وجل:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل: 88]

العاديات لها معنى آخر هي تلك الرياح التي يسوقها الله عز وجل :

العاديات لها معنى آخر تلك الرياح التي يسوقها الله عز وجل، أحياناً تتوقف الرياح ساعات معدودات فتحس أن أنفاسنا ضاقت وأن الجو لا يحتمل وأن الإنسان يكاد يضجر يكاد تضيق به الأرض بما رحبت، فإذا تحرك الهواء بعث النسيم العليل، إذا زادت حركته صار ريحاً فإذا زاد صار رياحاً ثم صار عاصفةً ثم صار زعازع ثم صار أعاصير. الله عز وجل ضرب لنا من آياته العظمى الرياح التي تعدو في الهواء وتسرع في جريها لماذا تعدو؟ إنها تسوق السحاب، هذا البخار الذي ارتفع من البحر إلى الجو بفعل أشعة الشمس المسلطة على مياه البحر بخرت هذه المياه وجعلتها سحباً، جاءت الرياح وساقتها إلى البلاد العطشى، ساقتها إلى البلاد التي هي في أمسّ الحاجة إلى الأمطار، هذا السحاب أثارته الرياح حتى أوصلته إلى المكان المناسب، الله عز وجل في آيات أخرى يقول:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً)

[سورة الروم: 48]

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[سورة الأعراف: 57]

أي هذه آية كبرى وآية عظمى، الله عز وجل يحرك الهواء، إذا حرك الهواء صار رياحاً، هذا الهواء الذي يتحرك يسوق أمامه السحاب، هذا السحاب يسوقه الله عز وجل إلى بلد ميت وينقلب إلى أمطار، تهطل الأمطار، ينبت الزرع، يأكل الناس والحيوان، تستمر الحياة هذه آية كبرى من آيات الله عز وجل.

معنى المعصرات :

العاديات ضبحاً هذه الرياح الشديدة إذا تحركت وعدت وكان لحركتها صوت معروف، دوي الرياح، الله عز وجل جعل هذه السحب ذات كهربائيات، سحب شحنتها الكهربائية موجبة وسحب شحنتها

الكهربائية سالبة، وحينما تحتك هذه السحب المتباينة تنعقد الأمطار بعملية معقدة جداً، نحن هنا نبسط الأمور لنفهمها، كالمدرس الذي يعطي مثلاً واضحاً لكن على حساب الحقيقة العلمية، يقول مثلاً:

الأمطار تشبه إبريقاً من الشاي ملأته ماءً ووضعته على موقد فغلى الماء، تأتي بكأسٍ باردٍ وتضعه في طرف الإبريق، ينقلب هذا البخار المتصاعد من الإبريق إلى قطرات من الماء، هذا هو المطر.

هذا معقول وواضح ولكنه تبسيط مخل للحقيقة، هذه السحب تكون حارة ثم تنتقل إلى مكان بارد تنكمش، حينما تنكمش تنعقد ذرات المطر على مادة كيميائية كبريتية بثها الله عز وجل في سماء المطر، لكل طبقة في الجو وظيفة، وفي الجو طبقة وظيفتها أن تنعقد السحب أمطاراً، لذلك الله عز وجل قال:

(وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

[سورة عم: 14]

معنى المعصرات أي انكماش السحب بفعل مرورها في الأماكن الباردة، هذا الانكماش يعقد حبات المطر، فالذي درسه العلماء عن الأمطار شيء واسع جداً ودقيق جداً، لا يحتمل هذا المجال التفصيلات العلمية حول هطول الأمطار، ولكنك إذا شربت كأساً من الماء أو تناولت قطعة من الفاكهة يجب أن تعلم علم اليقين أن الكون كله ساهم في هذا الكأس من الماء.

قدرة الله عز وجل في الكون :

الشمس حجمها معروف مليون وثلاثمئة مرة زيادة عن حجم الأرض، هذا حجمها وأما حرارتها ستة آلاف درجة على سطحها وعشرون مليون درجة في باطنها، وكلمة عشرون مليون درجة يعني لو ألقيت الأرض كلها في الشمس بجبالها وصحاريها وبحارها ومحيطاتها وكتل الثلج في قطبيها، لو ألقيت الأرض كلها في الشمس لتبخرت في ثانية واحدة. معنى عشرون مليون درجة أنك إذا ألقيت الحديد في الشمس لرأيته بخاراً، من منكم سمع أن للحديد بخار؟ نظرياً هناك بخار للحديد، كل عنصر الله عز وجل خلقه ينتقل من مرحلة إلى مرحلة إلى مرحلة، أن يكون صلباً مرحلة، إذا رفعت الحرارة حينما ترفع الحرارة ذرات الحديد تتباعد عن بعضها، فإذا تباعدت أصبحت مرنة، إذا تباعدت أكثر أصبح سائلاً، إذا تباعدت أكثر أصبح غازاً، لذلك الأجسام لها ثلاث حالات، حالة الصلابة وحالة الميوعة وحالة الوضع الغازي، وبين هذه الحالات حالات ثانوية، الحرارة لها علاقة بابتعاد الذرات بعضها عن بعض، لذلك أحياناً الضغط يشابه التبريد، إذا ضغطنا الهواء يصبح سائلاً، هذا الغاز الذي تشعلونه في البيت اسمه غازاً، لو رججت هذه الاسطوانة لشعرت أن فيها سائلاً، كيف صار سائلاً؟ هذا الغاز حينما ضغطته صار سائلاً، لو ضغطته أكثر لصار قطعاً جسماً صلباً.

الحديد لو سخنته لصار سائلاً، بالعكس لو سخنته أكثر لصار غازاً، لو رفعت الضغط عن الأجسام لغلت وأصبحت سائلاً، هذا موضوع فيزيائي معقد، هذه الذرات التي خلق الله عز وجل منها العناصر لها قوانين بالغة في التعقيد، الحرارة تؤثر في حركتها فالحرارة تباعدها عن بعضها. الشمس حرارتها عشرون مليون درجة، وهذه الشمس عمرها خمسة آلاف مليون سنة، وتقدير العلماء أنها سوف تبقى متقدة إلى خمسة آلاف مليون سنة قادمة هذا عطاؤنا، هذه قدرة الله عز وجل، لو ألقيت الأرض في الشمس لتبخرت في ثانية واحدة، بيننا وبين الشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر يقطعها الضوء في ثماني دقائق.

ما قولك أن نجماً في السماء اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما. برج العقرب معروف يظهر في الربيع على شكل عقرب بداخله يوجد كوكب متألق جداً وأحمر اسمه قلب العقرب هذا النجم يتسع إلى الشمس والأرض مع المسافة بينهما، إذا شربت كأس ماء يجب أن تعلم أن الشمس لها نصيب في صنعه، الشمس سلطها الله عز وجل على مياه البحار فتبخرت وأصبح بخار الماء في الجو وجاءت الرياح فساقت بخار الماء وجعلته سحباً الله عز وجل قال:

(وَالْعَادِيَاتِ)

لم يقل والعادية ضبحاً، والعاديات لأن الرياح أنواع، يوجد رياح باردة، ورياح مثقلة ببخار الماء، ورياح جافة، ورياح خفيفة، ويوجد نسيم وهواء، وهناك ريح، ورياح وأعاصير وزعازع، وهناك أنواع منوعة في حركتها واتجاهها، ويوجد جنوبية وشمالية وشرقية وغربية، وفي رياح موسمية ورياح مدارية ورياح دائمة ورياح ثابتة أنواع منوعة.

القرآن حمَّال أوجه وهو ليس ملك أحد :

قال تعالى:

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً)

هذه الرياح التي تسوق بخار الماء وتجعله سحباً كثيفة، إذا الإنسان نظر إلى السماء ورأى السحب هل يرى أن يد الله عز وجل وحدها تصنعها، وأنها إنما تسوق هذه السحب من أجل أن نشرب كأس الماء، وأن نأكل الخضراوات والفواكه والمزروعات، وأن نحيا نحن وأنعامنا. الله عز وجل قال: هذا الرعد والبرق، الرعد صوت البرق حينما تنظر إلى السماء في الشتاء وترى السماء ملبدة بالغيوم، والغيوم متحركة، وبعدئذ ترى برقاً يلمع، وبعد البرق تسمع هزيم الرعد، ما هذا الذي حصل؟ سحب مشحونة بشحنة إيجابية وسحب مشحونة كهربائياً بشحنة سالبة، من احتكاك هذه السحب تنعقد الأمطار هذه:

(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً)

هذا الذي تراه في السماء واضح، وهذا التفسير لا يمنع التفسير الأول أن تقول أن العاديات هي الخيل، فإذا سارت على الصخر انعقد الشرر من تحت حوافرها، القرآن حمال أوجه، والقرآن ذو وجوه، القرآن ليس ملك أحد.

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً)

فإذا انعقدت هذه السحب أمطاراً على الأراضي العطشى فأنبت الله بها النبات لنأكله، وأنبت للحيوان نباتاً تأكله، واستمرت الحياة، ولولا هذه السحب وتلك الشمس التي سلطها الله على البحار، ولولا أن من خصائص الماء التبخر، ولولا أن من خصائص الهواء أن يحمل الماء، ولولا أن الرياح من فوائدها أنها تسوق السحب، ولولا أن هذه السحب منوعة في شحنتها، ولولا احتكاك السحب بعضها ببعض لما انعقدت الأمطار، وإذا انعقدت الأمطار هطلت على البلاد العطشى.

بلدنا دمشق معدل أمطارها السنوي معدل يسير؛ مئة وخمسين ملم، ربنا سبحانه وتعالى في مطلع الشتاء ساق السحاب وهطلت أمطار على مستوى القطر، في هطول واحد زادت كمية المطر عن مئة ملم، أي ثلثي أمطار الموسم في وسط سوريا، كانت الأمطار مخيفة انتهت إلى فيضانات، ودمرت مدينتين وسط سوريا، الله عز وجل حينما يسمح للأمطار أن تهطل وحينما تنهمر السماء بماء المطر لا يعلم إلا الله مقدارها.

المطر قد بني على قوانين علمية بالغة الدقة لكن مفتاح التشغيل بيد الله عز وجل:

الإنسان أحياناً حينما يفكر تفكيراً بعيداً عن الله عز وجل يقول لك: يحصل تبدلات في الشرق الأوسط بسبب هناك تصحر وهناك خط المطر ينتقل من مكان إلى آخر كلما توقع الإنسان شيئاً جاءت الأحداث فخيبت ظنه وأكدت أن الأمطار بيد الله عز وجل.

الله عز وجل ثبت أشياء وحرك أشياء، دوران الأرض حول نفسها ثابت، لا يوجد إنسان يقلق لعدم شروق الشمس، ودورة الأرض حول نفسها ثابتة، وإشراق الشمس ثابت، هناك أشياء ثبتها الله عز وجل لماذا؟ من أجل أن نرتاح ويكون النظام ثابتاً، وصار في تقويم وأشهر وأسابيع وسنوات، الله عز وجل لحكمة بالغة ثبت هذه الأشياء وثبت أشياء كثيرة، تأخذ بذرة بطيخ وتزرعها تنبت بطيخاً.

لكن إذا زرعت البطيخ وأنبت خياراً هذه مشكلة، الله عز وجل ثبت قوانين البذور وثبت دورة الأرض حول نفسها، وثبت دورتها حول الشمس، إلا أن المطر جعلها بيده. مثلاً سيارة من أحدث طراز بالغة التعقيد لكن مفتاح التشغيل بيد صاحبها، كل هذه الأجهزة معطلة إلى أن يضع المفتاح في مكانه ويحرك

كلها تعمل. والمطر قد بني على قوانين علمية بالغة الدقة لكن مفتاح التشغيل بيد الله عز وجل، لذلك كان دعاء الاستسقاء قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأعراف 96]

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: 66]

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

[سورة سبأ: 17]

قيمة الاستغفار :

يقولون مياه الفرات قليلة قال تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)

[سورة نوح: 10-12]

دخل رجل إلى الحسن البصري وقال له: يا إمام إن زوجتي لا تنجب أولاداً، فقال له: استغفر الله، دخل عليه أناس آخرون قالوا: يا إمام إن السماء لا تمطر، فقال: استغفروا الله، دخل عليه أناس يشكون الفقر، فقال لهم: استغفروا الله، فقال أحد الحاضرين: عجبنا لك يا إمام كلما جاءك رجل تقول له، استغفر الله، فقال له: اقرأ قوله تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)

[سورة نوح: 10-12]

إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فانظر ما لله عندك :

يا رب ما مقامي عندك؟ كأن الله عز وجل يقول لك: يا عبدي ما مقامي عندك؟ هل تنتهي إذا نهيتك؟ هل تأتمر إذا أمرتك؟ هل تحافظ على الصلاة؟ هل تخشى أن تقع في الحرام؟ هل تحرر دخلك من الشبهات؟ إذا أردت أن تنظر مقامك فانظر فيما أقامك.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فانظر ما لله عندك، فهذه السحب التي ساقتها الرياح المنوعة وهذه السحب المنوعة بشحنتها حينما انعقدت أمطاراً صبت على الأرض العطشى صباً، فالمغيرات وهطول الأمطار شيء واضح كالصبح، لكن الناس حينما بعدوا عن الله عز وجل قالوا: منخفض جوي متمركز فوق قبرص ومنخفض آخر معاكس. عندما الإنسان ترك الله عز وجل وتكلم بالمنخفضات هذه المنخفضات لم تغنه من الله شيئاً. المؤمن يرى أن الله عز وجل ساق هذه السحب وساق هذه الأمطار.

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً)

الأمطار حينما تهطل ما هي إلا أشهر أو أسابيع حتى ترى الأرض مخضرة، اهتزت وربت، انظر إلى الربيع سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه أراد أن يصف مصر إلى سيدنا عمر، قرأت هذا الوصف في كلمات بليغة قال: يا أمير المؤمنين مصر طولها مسيرة شهر، وعرضها عشر، يخطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات، فإذا هي يا أمير المؤمنين عنبرة سوداء، أرض خصبة، إذا هي درة بيضاء فيضان النيل، ثم هي زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء. وصف بليغ طولها وعرضها ونهرها وثلاث أحوال فيها، من حالة الجفاف إلى حالة الفيضان إلى حالة خروج النبات.

عالَم البذور عالَمٌ لا ينتهي يمثل كرم الله عز وجل :

ألق نظرة على مكان في الربيع؛ الأرض كلها خضراء، الأرض كلها أزهار، سبحان الله كيف جعل الأزهار على طرف الطريق، من ألقى البذور في هذا المكان بالذات؟ إذا خطط طريقاً في بستان بعد سنة أو سنتين ينبت على أطراف الطريق أنواع من الأزهار من أجل أن تؤنس المار، من أجل أن تدعوه ليسبح الواحد القهار. فهذه المياه المباركة تثير البذور، هذه البذور سماها الله نقعاً، والنقع هو الغبار، وكل شيء يوقع في الماء يسمى نقعاً، وهذه الأرض المحتوية على بذور وحينما تهطل الأمطار في سوريا انطلق في السيارة من مدينة إلى أخرى، دع الأراضي الزراعية جانباً، الأراضي غير المزروعة من أين نبت الحشيش؟ من ألقى بذوره في الأرض؟

(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

في كل مكان ألقى الله بذوراً، أنا أذكر في بعض السنوات من دمشق إلى حمص كان الطريق كله أخضر اللون، هذا الطريق أرض قاحلة، حينما جاءت الأمطار غزيرة جداً أنبتت الحشيش، هذا الحشيش أين بذره؟ بذره مدفون في الأرض، فهذه الأمطار الغزيرة المباركة حركت هذه البذور، وعالم

البذور عالم لا ينتهي، عالم يمثل كرم الله عز وجل، لو أن الله عز وجل خلق الأرض وخلق عليها مليار مليار طن بندورة ووضعت في طريقة تحفظ من التلف وجاء البشر وتوالدوا وأكلوا، فلما انتهت هذه الكمية ماتوا جوعاً، الطريقة المثلى التي تجعل الإنسان يأكل مادام حياً هي طريق البذور. نبات البطيخ يحمل سبع عشرة بطيخة من بذرة واحدة. ومن نصف غرام بذر بندورة ينتج نصف طن بندورة، هذا عطاؤنا.

لولا الماء لما نبت الزرع ووظيفته أنه وسيط :

الخضار كلها لها بذور، إذا دفنتها في الأرض ورويتها بالماء نقعت به فتحرك الرشيم، الرشيم كائن حي له مواصفات لحياته يحيا من عشر إلى ثماني وثلاثين، هذا الرشيم موجود في البذرة والبذرة هي غذاء للرشيم، إذا نقعته في الماء انتعش وأثير وبدأ ينمو مستهلكاً المواد النشوية في البذرة؛ ماذا يفعل؟ ينبت له سويق وينبت له جذير، لكن سرعة الجذير أسرع من السويق من أجل أن يتمكن من امتصاص المواد الغذائية في التربة، فإذا نبت السويق ونبت الجذير، والجذير انتهى بأشعار ماصة، والأشعار الماصة انتهت بقلنسوة ذرة صغيرة، وهذه الذرة تأخذ حاجتها من التراب قد تأخذ البوتاس، قد تأخذ الكبريت، قد تأخذ الحديد، من علم هذه الشعرة التي لا ترى بالعين أن تأخذ سبع ميكرونات حديد، ثمانية فوسفور، وأربعة كلس، من علمها أن تأخذ النسب الضرورية محلولة بالماء، ولولا الماء لما نبت الزرع، والماء وظيفته أنه وسيط، لذلك الله عز وجل قال:

(أَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً)

الماء مهمته أنه تحل به جميع المواد في التربة، يأتي الجذير ويأخذ من هذا الماء الذي حلت به المواد حاجته، أنت تزرع هذه التفاحة وتراها في الموسم القادم أزهرت ثم عقدت ثمراً صغيراً، مثل حبة المسبحة، ومن ثم كبرت، ومن ثم أصبحت تفاحة كبيرة لها لون شهي لون أصفر بخد أحمر، فيها طعم حلو، وفيها حديد، وفيها فوسفور، قوامها يتناسب مع الأسنان، ليس قاسياً وليس هشاً، ولها قشرة ذات حجم مناسب، ورائحة مناسبة، وطعم مناسب، ونكهة مناسبة، وطريقة حفظ مناسبة، القشر تعليب إلهي، ويبقى شهرين على الشجرة وفي الثلاجات أربعة أشهر تقريباً بفضل هذا القشر، من فعل هذا؟ الله سبحانه وتعالى حينما صب الماء على هذه الأرض وحلت في الماء مواد التربة وجاء الجذير بتوجيه من الله سبحانه وتعالى وامتص المواد المناسبة. ضربت مثلاً: أحضر ثمرة تفاح وأجاص ودراق ومشمش وكرز وتوت وعنب، لا تستطيع أن تقول هذه تفاح طعمتها تفاح اشرح طعم التفاح لا تستطيع، من ذاق عرف، اشرح طعم المشمش تقول ثمر حلو والتفاح حلو والتوت حلو والتين حلو والإجاص حلو

والدراق حلو والعنب حلو والتمر حلو، هل تستطيع أن تشرح لنا كتابة الفرق بين طعم التفاح وطعم الإجاص؟ من وضع هذه النسب الدقيقة جداً؟ من أعطى هذه الفاكهة نكهتها؟ من أعطاها شكلها ولونها وحجمها ووقت قطافها؟ من أعطاها طبيعة تخزينها؟

على الإنسان أن يعرف المنعم ليشكره :

قال بعض العلماء: لو أن هذه الأوامر أردنا أن نكتبها كتابة لصار عندنا مجموعة تضاهي الموسوعات العلمية الكبرى، الموسوعات الآن ثلاثون مجلداً توضع على رف بعرض الغرفة، وكل مجلد ثمانية آلاف صفحة ورق رقيق وحرف صغير. لو أن هذه المحفظة وما فيها من أوامر أردنا أن نكتبها كتابة لضاهت الموسوعات العلمية الكبرى، الهواء ينقل الصوت وينقل الحرارة، المكيف ينقل الهواء بارداً والمدفئة تنقل الهواء ساخناً، والهواء ينقل الصوت وينقل الضوء، الغرفة مضيئة وليس فيها شمس، الهواء يحقق ضغطاً على الإنسان ويعمل توازناً، إذا صعد إنسان في الجو يخرج الدم من آذانه لأنه ارتفع الضغط عنه، والطائرة التي ترتفع في الهواء آلاف الأقدام تضغط ثماني أضعاف حجمها من الهواء وهي على الأرض، وهذه الآية:

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً*فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً *فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً*فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً*إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

ومع كل هذا الإكرام الإنسان جاحد لكل هذه النعم، عليك أن تعرف المنعم لتشكره، أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى خلق لك هذه النعم الشمس والقمر والأرض وما فيها والبحار والرياح والسحب وهذه المستودعات من المياه والينابيع والأنهار والأمطار المنصبة والثلوج والنباتات أنواع منوعة وأشجار زينة وأشجار مظلات وفي نباتات حدودية ونباتات للخشب، منها زان وحور وسنديان وسويد وبلوط هذه كلها نباتات من أجل الخشب إلى جانب النباتات المثمرة.

هناك حكمة بالغة الذي يملك بستاناً ينبت الكرز يقطفه ويبيعه، ثم ينبت المشمش يقطفه ويبيعه، ثم ينبت الدراق يقطفه ويبيعه، ثم ينبت الإجاص، وهناك برنامج فيه برمجة لو أن الله سبحانه وتعالى أنبتها في وقت واحد لتعذر على الفلاح أن يقطفها. من جعل النضج في تسلسل؟ هذه يد كريمة وعليمة، ومع هذا:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

تطعم الكلب رغيف خبز يحرك ذنبه شكراً لك، إذا أطعمت هرة تمسحت برجليك شكراً لك، وهذا الإنسان يجلس على المائدة يأكل ما لذ وطاب ويقول: دفعت ثمن هذه المائدة مبلغاً كبيراً، أحمق، لو أن الله ما خلق هذه المواد أنت الذي تملك ورقاً لا قيمة له.

الله عز وجل خلق الأنعام وذللها لنا :

الذي يسير في الصحراء ركب ناقة وضل به الطريق، ونفد زاده، ونضب ماؤه، وكاد يموت عطشاً وجوعاً، وحينما اشتد به الجوع وأخذ منه كل مأخذ ويئس من النجاة وأيقن بالموت وضاقت نفسه وجعل يبكي، ألفى عن بعد شجرةً فاشرق في نفسه نور من الأمل، هرع نحو الشجرة فرأى إلى جانبها بركة ماء فشرب منها حتى ارتوى، ثم تولى إلى الظل وحانت منه التفاتة، فرأى إلى جانب البركة كيساً مملوءً وهو على وشك الموت جوعاً، فسر به سروراً عظيماً وهو يحسب أن فيه خبزاً، ولكن يا للأسف لقد فتح الكيس فلم يجد إلا لآليء فقال: وا أسفاه هذه لآليء. أي ما قيمة اللآليء إذا حرمت الطعام والشراب، في بريطانيا يهودي ثري ريتشارد، كان يقرض الحكومة البريطانية، مستودعات الذهب عنده كبيرة جداً، ومرة دخل إلى مستودع من مستودعاته وبقدرة قادر ولحكمة حكيم انغلق الباب وراءه، والباب محكم الإغلاق، صاح لا أحد يسمعه، عاش يومين ثم مات، قبل أن يموت جرح أصبعه وكتب على الحائط: أغنى رجل في العالم يموت جوعاً، مات في قلب سبائك الذهب، ما قيمة الذهب إن لم يكن هناك كأس ماء أو قليل من الطعام؟ وعندما يقول الإنسان:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ*وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ*لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

[سورة يس: 71-73]

الأنعام خلقها لكم وذللناها لكم، انظر الغنمة ما أودعها، ولم يضع الله سبحانه فيها أخلاق الذئب أو أخلاق الضبع أو أخلاق الخنزير.

يجحد الإنسان نعمة الله سبحانه وتعالى مع كل الفضل و الإكرام :

قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

مع كل هذا يجحد الإنسان نعمة الله سبحانه وتعالى، مع كل هذا الفضل ومع كل هذا الإكرام والنعم المتعددة الإنسان يجحد نعم الله سبحانه وتعالى ولا يرى فضل الله، مع كل هذا لا يصلي ولا يقرأ القرآن لا يغض بصره عن محارم الله، لا يقول: هذا حلال وهذا حرام:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

كأن الله سبحانه وتعالى يعجب كيف يجحد هذا الإنسان الفضل؟

تعصي الإله وأنت تظهر حبــه ذاك لعمـــري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعــته إن المحـــب لمن يحب يطيع

أيا غافلاً تبدي الإساءة والجهل متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام وأنت لا تراها كأن العيناء حولـــة أو عميا

لأنت كمزكوم حوى المسك جيبه ولكنه المحروم ماشمـــه أصلا

* * *

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود* وإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ)

شهيد لها معنيان؛ أي هذه الآيات واضحة، من منكم لم ير المطر، لم يحس بالرياح، لم ير البحر والسحاب، لم ير الينابيع والأنهار، لم ير هذه الأشجار والنباتات؟ هذا فضل الله سبحانه وتعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود* وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ)

هذه النعم بادية للعيان، هذه النعم يراها كل إنسان لا تخفى على أحد، ألم يرَ الإنسان أنا خلقناها له؟!!

بعض نعم الله سبحانه على عباده :

نِعَم الله تراها كل يوم صباحاً، مثلاً بيض مسلوق وهذا الموضوع موضوع للتفكر قائم بحد ذاته، هل فكرت بالدجاج وكيف أنتجت هذه البيضة التي هي غذاء كامل؟ والدليل أنها تصبح فرخاً، والفرخ له جهاز عظمي وأجهزة كاملة، حيوان كامل مكمل من هذه البيضة، إذاً هي غذاء كامل، في البيضة ثمانية عشر فيتامينا، وثمانية عشر شبه معدن، ومئتا نوع من أنواع المواد، البيضة تدرس عاماً دراسياً في كلية الزراعة، موضوع الدواجن موضوع معقد جداً، ويوجد على الطاولة كأس حليب، هل فكرت الحليب من أين جاء؟ واللبن قال تعالى:

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ)

[سورة النحل: 66]

هل فكرت أن وليدة البقرة تحتاج إلى كيلو من الحليب وهي تعطي ثلاثين كيلو من الحليب، معنى هذا أن الحليب لك، وموضوع بجانب الحليب كأس من الشاي، الشاي نبات من خلقه؟ وتضع ملعقة سكر، من خلق الشوندر؟ رغيف خبز كان قمحاً، صمم القمح على أنه غذاء كامل، زيتون إذا فكرت صباحاً في طعامك تذوب محبة لله عز وجل، تأتي الظهر هناك نوع آخر من الأطعمة كله يدل على عظمة الله وأن عليك أن تشكر هذه النعم السابغة.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

ألم تر النعم؟ جاء ولدك وقال لك: بابا، كان نقطة من ماء مهين صار طفلاً يتكلم ويضحك يداعبك أحياناً ويقلدك أحياناً، وجعله الله سبحانه وتعالى في البيت مثل الملك يبعث البهجة في كل أفراد الأسرة هذه مودة من الله، لو جعل شخصيته مثل الكبار لا يتكلم، يحقد ويتكبر على والديه عندها لا يطاق الطفل، من الذي يربيه؟ تأتي الظهر وترى زوجتك جالسة قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الروم: 21]

ترى البيت نظيفاً مرتباً الطعام جاهز:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

كلمة (إنه على ذلك لشهيد) لها معنيان :

عندك غرفة تنام فيها، وغرفة جلوس، حمام، مطبخ، تملك مفتاح بيت:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

تريد أن تزور مريضاً تأخذ معك باقة ورد من خلقها؟ اللون الأحمر في الزهور أجمل لون في الأرض يبعث في النفس البهجة، ضع وروداً اصطناعية لا تؤثر بك، أعطوا الحمار وردة فأكلها، الحمار الذي أعطاه إياها، هذه للإنسان وليست للحمار.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود* وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ)

هذه النعم يشهدها تحت سمعه وبصره، يعيشها كل يوم صباحاً وظهراً.

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

هذه الآية لها معنيان، وكلمة (إنه على ذلك لشهيد) أيضاً لها معنيان، المعنى الأول أن هذه الآيات تحت سمعه وبصره يشهدها، المعنى الثاني أنه يشهد على نفسه أنه جحود وإنه على ذلك الجحود لشهيد، لا يصلي يكذب ويغش الناس، يتكبر ويسبب للناس متاعب كثيرة ويستعلي على الناس، وإنه على جحوده لشديد، أول معنى شهيد لهذه النعم والمعنى الثاني شهيد على جحوده.

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

الفرق بين الرزق والكسب :

الإنسان أحياناً يحب مصلحته، هنا الخير والمال قال تعالى:

(إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ)

[سورة البقرة: 180]

يحب المال، أحياناً في مجلس علم ينام أما عندما يعد خمسمئات لا ينام يمسكها خوفاً من أن تكون اثنتين.

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

عند وجود المال والبيع والشراء ينسى أن يأكل:

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

مع أن المال في خدمته، والإنسان من جهله صار في خدمة المال، صار عبداً للمال، والعلماء فرقوا بين الرزق والكسب، الرزق المستهلكات أما الكسب ما عندك من أموال هذه ليست لك، عندما يدفن الإنسان في التراب كفنه من الخام الأسمر لأن الأبيض غالي الثمن وعليه قليل من القطن:

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

الخير لها معنيان المال أو المصلحة :

الإنسان يحب المال مع أنه قد يكون سبب شقائه، قد يكون فيه طغيانه، قد يطغى في المال وقد يشقى في المال. لذلك الميت حينما يموت ترفرف روحه فوق النعش تقول: يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، وأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي.

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه ؟ يقول : يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، فيقول الله له : ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت في ؟ يقول : يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي بأنك خير حافظاً ، وأنت أرحم الراحمين ، فيقول الله له : أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

المعنى الآخر للخير أنه يحب مصلحته، يحب السلامة، يحب النجاة، يحب كل شيء ممتع في الدنيا، انطلاقاً من هذا الحب لو أن الإنسان أحب نفسه لأطاع الله سبحانه وتعالى، لأن الخير كله في طاعة الله

سبحانه وتعالى، والسعادة كلها في طاعة الله، والطمأنينة كلها في طاعة الله، والفوز كله في طاعة الله، والفلاح كله في طاعة الله، والنجاح، فإذا أحببت نفسك وكنت مفرطاً في حب ذاتك استقم على أمر الله.

لكن الإنسان يتوهم أن المال هو كل شيء، المال شيء والنبي الكريم قال:

((خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هَمّا))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((فإنه من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

[أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

الإنسان يحب المال وقد يطغى بالمال :

الإنسان يحب المال وقد يكون حتفه في المال، يحب المال وقد يكون شقاؤه في المال، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، يجوز أن تكره ضيق الدخل.

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

قد تكون بالدخل المحدود مؤمناً فإذا زاد الدخل فسقت وخرجت عن أمر الله وعصيت الله سبحانه وتعالى واستعليت على الخلق. هذا الذي جمع المال الحلال وأنفقه في الحلال يقال: قفوه واسألوه هل تاه بماله على عباد الله؟ هل قال جيرانه: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا؟ قال عليه الصلاة والسلام: وما زال يسأل ويسأل تركته يسأل ولم تنتهِ الأسئلة. الإنسان لا يتمنى قال تعالى:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة النساء: 32]

لعل الخير كله في الدخل المحدود، لعل الخير كله في هذه الحياة المتواضعة، بهذا البيت، بهذه الزوجة، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، الإنسان يحب المال وقد يطغى بالمال لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((بادروا إلى الأعمال الصالحة ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غِنًى مُطْغِياً...))

[الترمذي عن أبي هريرة]

ماذا قال قارون؟ قال الله تعالى:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ*فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ*وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ

لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ *فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ)

[سورة القصص:78-81]

الله سبحانه وتعالى ترك الأعمال ووصل إلى النوايا :

معظم الناس يتحدثون عن بيت كبير لفلان فيقولون: ما هذا البيت؟ هذا القول كأنك قلت: يا ليت لي مثله، الإنسان يتمنى فضل الله، يتمنى رضاء الله، يتمنى طاعة الله قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ*أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ*وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ)

أفلا يعلم هذا الذي يحب المال إذا بعثر ما في القبور، وخرج الناس لرب العالمين بعثوا؛ كل أعمالهم مسجلة عليهم، ومسجل عليهم نواياهم، والنوايا أبلغ لأنها مبعث العمل، والعمل أساسه النية، والإنسان يفكر بشيء ثم ينطلق إلى العمل، الله سبحانه وتعالى ترك الأعمال ووصل إلى النوايا.

(أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ*وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ* إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)

المقطع الأخير مقطع تهديد ووعيد :

قال الله سبحانه وتعالى:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

[سورة الإسراء:17]

خبرة الله سبحانه وتعالى بنوايا الإنسان يوم القيامة تكفيه حساباً دقيقاً، لذلك الإنسان في الآخرة يود لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه، ولو أن له ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يقبل منهم شفاعة ولا يؤخذ منهم عدل. هذا اليوم الرهيب؛ يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم يعطي كل ذي حق حقه، لمثل هذا اليوم فلنعمل، قال تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

لذلك هذه السورة إن شئتم أن تفهموها على أنها الخيل وما يتبعها هذا فهم صحيح ومعظم التفاسير جاءت بذلك، وإن شئتم أن تفهموها على أنها آيات كونية متعلقة بالرياح والسحاب والمطر وإنبات المزروعات، وهذه النعم التي لا تحصى التي أنعم الله بها علينا، والإنسان بعد كل هذا كنود، يحب المال، يعرض عن الله عز وجل، والمقطع الأخير مقطع تهديد ووعيد، قال تعالى:

(أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ*وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ*إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القارعة 101 -الدرس (1-1): تفسير الآيات: 1 - 8 الميزان.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-06-21

بسم الله الرحمن الرحيم

القارعة بمَعْناها اللغوي ليستْ مقْصودة في هذه الآية :

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم سورة القارعة، الله سبحانه وتعالى يقول:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ*مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ*يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ*وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ*فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ*فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ*وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ*أُمُّهُ هَاوِيَةٌ*مَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ*نَارٌ حَامِيَةٌ)

القارعة وردتْ ثلاث مرات، في قوله تعالى:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

لو فَتَحْنا قواميس اللغة ومعاجِمَها، القارعة أنْ تقْرَعَ أيْ تضْرب شيئاً صُلْباً بشَيْءٍ صلب، هذا هو المعنى المُعْجمي واللغوي وهو بالتأكيد أنَّ الله لا يُريده، لو أنَّ الله سبحانه وتعالى يُريدُ المعْنى اللغوي لما قال:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ)

في هذه الآيات الثلاث الأولى إبْهامٌ وتَهْويلٌ وتعْجيز :

قد أقول لكم الجِدارُ وما الجدار وما أدراكم ما الجدار، لا يُمْكِن أنْ تعنِيَ هذه العبارة الجِدار، قد أُحَدِّثُكم عن جدار الصوت وعن طائِرَةٍ أسرع من الصوت، وهذه طائرة تجْعل أمامها جِداراً ثمَّ تخْتَرِقُهُ فَيَحْدُثُ دَوِيٌّ كبير، قال علماءُ التفسير: في هذه الآيات الثلاث إبْهامٌ وتَهْويلٌ وتعْجيز، فحينما قال الله تعالى: القارعة، شيءٌ مُبْهَمٌ، معْنى القارعة اللُّغَوي لا يرْقى لأنْ يكون من كلام الله عز وجل، لا بد أنَّ الله سبحانه وتعالى يريد شيئاً كبيراً جداً، أكثر من أنْ تضرب شيئاً صُلْباً بشَيْءٍ صُلب؛ فَحينما جاءَتْ القارعة مُبْهَمَة كان إبْهامُها باعِثاً لنا لِطَرْحِ السؤال؛ جاء السؤال: ما القارعة؟ تَهْويلٌ ثمَّ جاء التعْجيز، وما أدْراك ما القارعة؛ أيْ إنَّ أحداً على وَجْهِ الأرض لا يستطيع أنْ يُدْريك ما القارعة، لماذا؟ لأنها من أمور الغيب، الإنسان محْجوب عن الماضي بالزمن، ومحْجوب عن المُسْتقبل بالزمن، فهذا المكان الذي نحن فيه لا ندْري قبل ألف عام من أقام فيه؟ هل كان بُسْتاناً؟ هل كان بيْتاً؟ هل كان طريقاً؟ هل كان

ساحَةٌ؟ فَنحن محْجوبون عن الماضي بحاجز الزمن، ولا ندْري بعد ألف عام ما سَيَكون بهذا المسجد! هل سَيَبْقى مسْجداً يَؤُمُّهُ المُصلُّون، ماذا يحْصل ونحن محْجوبون عن عالم المُستقبل بحاجِز الزمان؟ ونحن محْجوزون عن الحاضِر بحاجز آخر وهو المكان؟ نحن الآن في دمشق لا ندْري ماذا يجْري في مكة! ولا ندْري ماذا يجْري في المدينة! لا ندْري ماذا يجْري في القُطْبين! فالإنسان أمام ثلاثة حواجز، حاجز المكان يحجزه عن الحاضر وحاجز الزمان يحجزه عن الماضي والمستقبل، وما دامت القارعة وهي يوم القيامة من الأمور الغيبية التي لم تحدث بعد فإن أحداً من بني البشر لا يستطيع أن يخبرنا عنها إلاَّ الله سبحانه وتعالى، لأن الله سبحانه وتعالى خالق الزمان والمكان، والزمان والمكان لا يحجبان عن الله شيئاً لأنهما من خلقه، إذاً القارعة شيء مبهم، ما القارعة؟ سؤالٌ مُثير يبعث الاهتمام، وما أدراك ما القارعة تعجيز.

ومن أسماء يوم القيامة القارعة، الحآقَة، الطَّآمَّة، الصَّآخَّة، يوم الفصل، النبأ العظيم، هذه كلُّها من أسماء يوم القيامة، والقارعة أحد هذه الأسماء، ولكل شيء من اسمه نصيب.

الحكمة من جعل كلمة (القارعة) كلمة مبهمة :

لِمَ سمَّاها الله القارعة؟ لأنها تقرع الإنسان، قال تعالى:

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

[سورة يس: 52]

تصيبه بالدُّهول، قال تعالى:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف: 83]

أي ضربٌ شديد مُفزع مُخيف تُصعَق له النفوس، تَقرع الإنسان فتصيبه بالدُّهول، تقرع السماء فتصيبها بالانفطار والانشقاق، قال تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)

[سورة الانشقاق: 1]

وقال:

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ)

[سورة الانفطار: 1]

تقرع الجبال فتَنسِفُها نسفاً وتدُكُّها دكاً، تقرع البحار فتفجِّرُها، وتقرع النجوم فتَنكدِر، تقرع الشَّمس فتُكَوَّر:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

أحد أسماء يوم القيامة، لكنه لشِدَّة الهول وعِظَم المُصيبة، ولِفَظاعة الخَطبِ، ولأنها تَدُكُّ كل شيء، وتبيِّن معالم كل شيء، وتبطل كل القوانين، وتحلُّ كل التماسكات، وتعطِّل كل الزمن، وتجعل الشمس تتكَوَّر، والنجوم تنْكدر، والسماء تنْفطر، والبحار تُفَجَّر، وتجعل الأرض تُشَقَّق وتُدَكّ، والإنسان يسْعى، جعلها مبهمة.

القارعة هنا لها معنى اصْطِلاحي وهو يوم القِيامة تَقْرَعُ كُلّ شيء وتُصيبه بالذهول:

ذكرتُ قبل قليل أنَّ هناك معنىً لُغوياً ومعنىً اصْطِلاحِياً، فالقارعة بمَعْناها اللغوي ليستْ مقْصودة، مثلاً كلمة " نَحْو" تقول ذهَبْتُ نحو المدينة، فكلمة نحو لها معنى لُغَوي، ولكنَّ علماء اللغة اسْتعملوا هذه الكلمة كَمُصْطَلَح؛ علمُ قواعد الكلام فإذا قلْتُ تعَلَّمْتُ النحْو هنا تُقَدِّرها بالمعنى الاصْطِلاحي، الحجُّ هو القصْدُ فإذا قال الله عز وجل:

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 97]

فالحجُّ هنا له معنى آخر، وهي العبادة التي تعْني الذهاب إلى البيت الحرام والطواف حَوْلَهُ والسعْي بين الصفا والمروة، والوُقوف بمِنى ومُزْدَلفة وغيرها، فالحجّ له معنى لُغَوي واصْطِلاحي، فَقَرَعَ بمَعنى ضَرَبَ، العَبْدُ يُقْرَعُ بالعصى والحرُّ تكْفيه الإشارة، لكنَّ القارعة هنا لها معنى اصْطِلاحي وهو يوم القِيامة تَقْرَعُ كُلّ شيء وتُصيبه بالذهول، وتُبَدِّلُ معالم الكون، تُعَطِّل علاقاته، وتُبْطِلُ قوانينه:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

أضيق دائِرَة هي المُشاهدات ثم المسْموعات ثم الخواطر :

ثمَّ قال تعالى:

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)

قبل أنْ نشْرح هذه الآية نَقِفُ مرَّةً ثانِيَة عند مَدْلولات الألفاظ، ربنا عز وجل قال:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

[سورة الرعد: 35]

لماذا قال الله عز وجل مثلُ الجنَّة؟! لأنَّ الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي قال:

((قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وفي الحديث تَرْتيبٌ منطِقي، الإنسان له مُشاهدات محْصورةٌ في دائِرَة، وله مسْموعات وهي أشياءُ سَمِعَها، لكنَّ دائرة المسْموعات أوْسَعُ بِكَثيرٍ من دائرة المشْهودات، المُشاهدات ما شاهَدْتَهُ أنت لكنَّ المسْموعات ما شاهَدْتَهُ أنت وما شاهده غيرك فَسَمِعْتَهُ أنت، لكِنَّ دائِرَة ثالثَة هي دائِرَةُ الخواطر وهي واسِعَةٌ جداً؛ قد تُشاهِد إنْساناً، طوله مِتْرَان، وقد تسْمعُ أنَّ إنْساناً في القارة الفُلانِيَّة طوله متران ونِصْف! هذه مسْموعات، وقد يخْطر في بالِكَ إنْسانٌ طولُهُ ثلاثة أمْتار، فكما تُلاحِظون أنَّ أضْيَقُ دائِرَةٍ هي دائِرَةُ المُشاهدات، والتي بعْدها دائِرَةُ المسْموعات، والتي بعْدها دائِرَةُ الخواطر، الآخرة شيءٌ لم يقع بعْدُ قال الله سبحانه وتعالى في الحديث القدْسي:

((قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

الفواكه التي في الدنيا ليس منها في الجنة إلا الاسم :

ربُّنا عز وجل إذا أراد أنْ يُعَرِّفَنا عنه، يُعَرِّفُنا بالجنَّة، وما فيها من فواكِه فقال: فواكه وهم مُكْرمون، قال: عِنَبٌ ورُمان، قال: نخيل وأعْنابٌ ورُمان، فَثَمَّة أسْماء فواكه في الدنيا، هذه الفواكه التي في الدنيا ليس منها في الجنة إلا الاسم، لها طعْمٌ آخر بِحَيْثُ ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، من الآيات التي تعْني هذا المعْنى قوله تعالى:

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة البقرة: 25]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:" ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم "، قد يكون في الجنة تُفاح ولكن تُفاح الجنَّة له طعْمٌ آخر لم تُشاهِدْهُ ونسْمع به ولم يخْطر على بالنا ولم نتذَوَّقْهُ بعْد، ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، أعْدَدْتُ لعِبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالله عز وجل يسْتخدِمُ كلمات نسْتعملها في كلامنا ولكنّ المدْلول الإلهي لِهَذه الكلمات ليس المدْلول الذي نفْهَمُهُ نحن، لا بد من فَهْمٍ آخر لِكَلمات الله عز وجل. قال تعالى:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ*يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)

الحقيقة أنَّ مشاهد يوم القِيامة كثيرة؛ من هذه المشاهد أنَّ الله سبحانه وتعالى خَبيرٌ بأعْمالنا، ويُرينا أعْمالنا، ويُنْطق أيْدينا وأرْجلنا وجلودنا علينا، وبل يُنْطق الأرض كلها بما فعَلْنا، وهذا مشْهَدٌ من مشْهَدِ يوم القِيامة.

هذه السورة اخْتَصَّتْ بمَشْهَدٍ واحدٍ من مشاهِدِ يوم القِيامة وهو الميزان :

الحِسابُ مشْهد، والجزاءُ مشْهد، والميزانُ مشْهَد، هذه السورة اخْتَصَّتْ بمَشْهَدٍ واحدٍ من مشاهِدِ يوم القِيامة وهو الميزان، كيف توزنُ أعْمال المرْء في هذا اليوم العظيم، يوْمَ يكون الناس، هؤلاء البشر الذين هم أكْرم المخْلوقات، والذين كَرَّمَهُم وخلق لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأسْبَغَ عليهم نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِنَة، هؤلاء البشر الذين قال الله تعالى في حَقِّهم:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

هؤلاء البشر الذين سُخِّرَتْ لهم السماوات والأرض يوم القِيامة يكونون كالفراش المَبْثوث وهي صورة، لماذا شَبَّهَهُمْ الله تعالى بالفراش؟ قالوا: لأنَّ الفراش أضْعَفُ المخْلوقات، وقالوا أيْضاً: لأنَّ الفراش من أغْبى المخْلوقات فَهيَ تُلْقي بنَفْسِها في حَتْفِها، في الضوء فَتموت، الذين ضَيَّعُوا الأمانة، هؤلاء الذين نَسوا الله في الدنيا، وعَصَوْهُ، يوم القيامة يكونون كالفراش المَبْثوث، والمَبْثوث المُنْتَشِر، والمُتَفَرِّق، وهو الذي ليس بينه وبين الآخرين علاقة قال تعالى:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

[سورة الأنعام: 94]

فالإنسان يوم القيامة ينْسلخ عن كُلِّ علاقاته الدُّنْيَوِيَّة إنْ كانَ مُنْتَمِياً إلى جماعة ينسلخ منهم، وإنْ كانَ قَوياً ينْسلخ من قُوَّته، وإنْ كان ذا شأنٍ ينسلخ من شأنه، وإنْ كان ذا مالٍ ينسلخ من ماله، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، فراشٌ مَبْثوثٌ.

الله سبحانه وتعالى يسْحَبُ أمْدادهُ من الجبال التي كانت في الدنيا فتَغْدو كالعِهْن المنْفوش:

ثم قال تعالى:

(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)

الحقيقة الله عز وجل ضرب لنا مَثَل الأشياء الضخمة الصُّلبة والمُتماسِكَة الشامخة في حياتنا، وهي الجبال، الجبال تبعث في النفس الوَقَار، ولها سُلوكُها ووقَارُها، والإنسانُ يُعَظِّمُها أحْياناً، هذه الجِبال المُترادِفَة في الدنيا ذَرَّاتُها صُلْبة، الله سبحانه وتعالى يسْحَبُ أمْدادهُ منها فَتَغْدو كالعِهْن المنْفوش، العِهْن الصوف الملون الذي انْفَصَل عن الغنم، والمنْفوش، قد تجد على ظهْر الغَنَمَة صوفاً مُتَكَتِّلاً يأتي الإنسان فَيُفَرِّقَهُ:

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ*وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)

قال تعالى:

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

[سورة يس: 52]

الفرق بين كلمة (وما أدْراك) وكلمة (وما يُدْريك) :

الله سبحانه وتعالى إذا قال: وما أدْراك، معْنى ذلك أنه سَيُدْريكَ هو! ولا أحَدَ في الأرض مُؤَهَّلٌ كي يُدْريك لكنّ الله وحْده يُدْريك، أما إذا قال الله سبحانه وتعالى: وما يُدْريك هذا من شأن الله سبحانه وتعالى، لا أحدَ يدْريك والله لن يُدْريك، مثلاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)

[سورة الشورى: 17]

وقال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

[سورة لقمان: 34]

وقال:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)

[سورة عبس: 3]

معنى ذلك أنَّ هذا من اخْتِصاص الله تعالى.

(وما أدْراك) تعني أن أيَّ إنْسانٍ لا يسْتطيعُ أنْ يُدْريك ولكنَّ الله يُدْريك :

لكنَّ الله تعالى قال:

(الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

[سورة الحاقة: 1-3]

الله سبحانه وتعالى أدْرانا ما الحاقة، وقال:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)

[سورة المدثر: 27]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ)

[سورة المرسلات: 14]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَومُ الدِّينِ)

[سورة الانفطار: 17]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ)

[سورة المطففين: 19]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ)

[سورة البلد: 12]

وما أدْراك ما العَقَبَة، وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ)

[سورة الطارق: 19]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

[سورة القدر: 2]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)

[سورة الهمزة: 5]

وقال:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ)

[سورة القارعة: 10]

في آخر هذه السورة، فَحَيْثُما وردت: وما أدْراك، تعني أن أيُّ إنْسانٍ لا يستطيعُ أنْ يُدْريك ولكنَّ الله يُدْريك.

الإنسان ينْبغي أنْ يقول (إنْ شاءَ الله) إذا أراد أنْ يفعل شيئاً في المُسْتَقْبل :

أما إذا قال تعالى:

(وَمَا يُدْرِيكَ)

[سورة الأحزاب: 63]

كان ذلك معنى آخر ،وهو أنه تعالى سوْفَ يُدْرِك:

(الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

القارعة تكون:

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ*وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ)

قال تعالى:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

[سورة المؤمنون: 101]

الإنسان ينْبغي أنْ يقول إذا أراد أنْ يفعل شيئاً في المُسْتَقْبل: إنْ شاءَ الله، وبناءً على قوله تعالى:

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً)

[سورة الكهف: 23]

كُلُّ حَدَثٍ يقعُ في المستقبل لا بد له من خمسة عناصر وهذه العناصر لا يمْلِكُها الإنسان:

بعض العلماء قال: الأحداث لها خَمْسُ مُقَوِّمات: الفاعل والمفْعول والمكان والزمان والسبب والقوَّة، مثلاً إذا قلتَ: إنَّني غداً سأذْهَبُ للطبيب الفُلاني، يجب أنْ تقول: إنْ شاء الله، لماذا؟! لأنَّ بقاءَك إلى اليوم الثاني ليس بيدِكَ، فقد يأتي غداً وأنت تحت التراب، وقد يأتي غدٌ والطبيب تحت التراب، فالفاعل الذي هو أنت لا تمْلِكُ حياتك إلى الغد، والطبيب الذي أنت ذاهِبٌ إليه لا يمْلِكُ حياته إلى الغد، والمكان الذي فيه الطبيب قد يُصيبُهُ زِلْزال فَيَجْعَلُهُ رأساً على عَقِب، والزمان قد ينْقطِع، وأما السبب فإن أراد الإنسان أنْ يذهَبَ إلى الطبيب لِيُعالِجَ ابنه، فإذا مات ابنه اِنْعَدَمَ السبب، وأما القوَّة فلو أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُمِدُّ الإنسان بالقُوَّة فَكَيْفَ يذْهَبُ إلى الطبيب؟! فَكُلُّ حَدَثٍ يقعُ في المستقبل لا بد له من الفاعل والمفْعول والمكان والزمان والسبب والقوَّة، وكُلُّ هذه العناصر الخمسة لا يمْلِكُها الإنسان، فإذا قال: سأفْعَلُ هذا غداً فقد أساء إلى عقيدَتِهِ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من عَدَّ غداً من أجَلِهِ فقد أساء صُحْبَةَ الموت))

[تخريج السيوطي عن أنس]

فالعزْمُ على فِعْل الشيء دون قوله إنْ شاء الله فقد أساء صُحْبة الموت، هذا الكلام سُقْتُهُ على قول الله سبحانه وتعالى على قوله تعالى:

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)

القضاءُ في الدنيا قد يخطئ لذلك لا علاقة له بقضاء السماء :

الآن دخلنا في صُلْب السورة، وهو مُتَعَلِّقٌ بالميزان قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

لما السيِّدة عائِشَة قالت: يا رسول الله، أيَعْرِفُ بعضنا بعْضاً يوم القيامة؟! قال: نعم، يا أُمَّ المؤمنين إلا في ثلاثة مواضِع، إذا الصُّحُفُ نُشِرَت، وعند الميزان، وعلى الصِّراط.

لماذا لم يقل الله عز وجل: فأما من ثقُلَ ميزانه؟! وقال:، لِمَ جاءتْ كلمة موازين بالجمْع ولم تأتِ بالمُفْرد؟! قد تضْطر لِوَزْن الذهب، وهناك ميزانٌ خاصٌ للذهب، إذا كان هناك مِرْوَحة توقِفُها لأنَّ ضغْط الهواء قد يُسَبِّب رُجحان كَفَّة الذهب والذَّهب غال، فللذهب ميزانه، ولكن إذا وَزَنْتَ شيئاً بالكيلوغرامات لا تحْتاج إلى تَوْقيف المِرْوَحَة، ولا إلى ميزان حساس، هناك موازين إنْ وَضَعْتَ ورقَةً وكَتَبْتَ اسمك عليها وزْنُ المِداد يُرَجِّحُ الكَفَّة، هذا ميزانٌ حساسٌ، هناك ميزانٌ أشَدُّ حساسِيّة بحَيث لو وَضَعْتَ يدك على الكَفَّة وَهَبَطْت بها، هذا الهُبوط الخفيف يُسَبِّبُ هُبوط الكَفَّة، وهناك ميزانٌ لو وَضَعْتَ عليه مئة كيلوغرام لا يتَحَرَّك، وهو ميزان السيارات الضَّخْمَة، فَرَبُّنا عز وجل قال:

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

معنى ذلك أنَّ كُلُّ عَمَلٍ له ميزانٌ خاصٌّ به، السَّبَقَة لها ميزان، والذكاءُ له ميزان، مُعامَلَتُك لِوالِدَيك لها ميزان، علاقتك بزَوْجتك لها ميزان وكذا بأوْلادك، كَسْبُكَ للمال له ميزان، كيفَ أنْفَقْتَهُ؟ له ميزان، وكذا وَقْتُك والعمل الصالح وعلاقتك بالجار، كلُ هذه لها ميزان، لذلك ربنا عز وجل قال: ثقُلَتْ موازينه، ومعنى ثقُلَت أيْ ليس هناك حاجَةٌ لِوَزْن الحسنات ثمّ لِوَزْن السيِّئات! بل توضَعُ الحسنات في كَفَّة والسيِّئات في كَفَّة فإذا رَجَحَتْ السيِّئات - لم يقُل الله عز وجل رَجَحَتْ بل خَفَّتْ ومعنى ذلك الأصل الحسنات، والحديث عن الحسنات فقط إما أنَّها راجِحَة وإما أنها خفيفة، أو كأنَّ الحسنات هي كُلُّ شيء، إما أنها كافِيَة لِتَسْعَد بالجنَّة إلى الأبد وإما أنَّها خفيفة ليستْ كافِيَة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام حينما أمر أحد الصحابة رضْوان الله عليهم أنْ يَدَعَ الجِهاد معه وأنْ يُلازم أمَّهُ وأباه وقال: صابر الله في برِّهِما، أي برُّ الوالِدَين عَمَلٌ يرْجحُ في الميزان وثقيلٌ وله قيمته، هِدايةُ الناس عَمَلٌ ثقيل له قيمته، يا عَلِيّ لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها، خيرٌ لك مما طلعَتْ عليه الشمس، خيرٌ

لك من حمر النَّعم، لماذا قال الله تعالى: ميزان، واستَخدمها؟ الإنسان أحْياناً قد يُقَيِّمُ شيئاً، سيِّدُنا رسول الله قِمَّةُ البشر وسيِّدُ ولد آدم ومع ذلك لو جاءَهُ خصْمان وكان أحدهما ألْحن من الآخر فلن ينجو من عذاب الله، هذا القضاءُ لا علاقة له بقَضاء السماء.

القاضي بشر ويجْتهدُ أنْ يُصيب لكنَّ ميزان القاضي قد لا يكون كميزان الله عز وجل:

القاضي بشر ويجْتهدُ أنْ يُصيب لكنَّ ميزان القاضي قد لا يكون كميزان الله عز وجل، يَرْوي التاريخ أنَّ قاضِياً تَوَجَّهَ إلى أحد الخلفاء وقال: يا أمير المؤمنين، أريدُ أنْ تُعْفِيَني من منْصِبِ القضاء! فقال الأمير: ولم؟ وليس في الأمةِ من هو أعْدل منك! فقال: والله لقد شاع بين الناس أنَّني أُحِبُّ الرُّطَبَ، وفي أحد الأيام طرق الباب رجلٌ وقدَّمَ لِخادِمي طبقاً من الرُّطَب، وجاءني بها في بواكيرها - إذْ الفاكِهَة التي تأتي في وقتها مُحَبَّبة جداً! فقال: ممن هذا؟! فقال الخادمُ رجُلٌ في الباب، فقال: صِفْهُ لي فلما وصَفَهُ له، عرف أنَّ هذا الرجل له قَضِيَّةٌ عنده فَرَدَّ الطبَقَ، وفي اليوم التالي جاء الرجُلان إلى مَجْلِسِ القاضي فقال: والله يا أمير المؤمنين ما استَوَيا في نظري - الخصْمان - على الرغْم من أنِّي رَدَدْتُ الطبق، فَكَيْفَ بي إذا أخَذْتُهُ! فهذا هو الإنسان مهما كان ميزانه حَسَناً قد لا يسْتطيعُ تقْييم الحق مئة بالمئة، سيِّدُنا داوود حينما جاءَهُ مَلَكان على شكل رَجُلَيْن يخْتصِمان إليه، قال أحدهما:

(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

[سورة ص: 23]

هذا النصّ دقيقٌ جداً، كلمة: لي تِسْعٌ وتِسْعون نعْجَة، هذا الكلام لا علاقة له بحَيْثِيات الدعوة، كان يجب أنْ يقول: إنَّ هذا أخي يُريدُ أنْ يأخذ نعْجتي، له كذا وكذا، كلُّ هذا الكلام خارج الموْضوع، إذا أراد فلانٌ من الناس أنْ يغْتَصِبَ شيئاً، فَهَل تدخُلُ في حَيْثِيات الدَّعْوة أمْلاكُهُ؟ لا علاقة لِهذا بذاك، الاغْتِصابُ اغْتِصابٌ سواء كان المغتصِب فقيراً أمْ غنِياً! مع أنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَل قال: إنَّ هذا أخي له تسعٌ وتِسْعون نعْجة ولي نعْجةٌ واحدة، هذا الكلام طرق مسامِعَ سيِّدنا داوود، فأدْخَلَها في حَيْثِيات الدَّعْوة وقال:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)

[سورة ص: 24]

هذه أمْثلةٌ صارِخَة.

الحياةُ الدنيا إنما جِئنا إليها من أجل العمل الصالح :

رسول الله يقول:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ قَضَيْتُ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً))

[مسلم عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ]

البشَريَّة لها عواطف تأخذ وتعطي، وهذا القاضي لما قال: ما استَوَيا في نظري، ربنا عز وجل قال: ميزان، والميزان حديد والحديد لا يتأثَّرُ بالعواطِف، فهذا الميزان لا يأخذ بالحجم، ولا يتمنى أنْ تكون هذه القِطْعة أوْزَن من هذه، ربنا عز وجل لما قال: ميزان، معنى ذلك أنَّ تقْييم الأعْمال يوم القِيامة من الدِّقَّة المُتناهِيَة بِحَيْث أنَّهُ لا مثيل له في الأرض، أعْمالكَ كُلُّها صغيرُها وكبيرُها، جليلُها وحقيرُها، خاصُّها وعامُّها، فلو وضع النجار عِوَضَ البراغي مسامير يُحاسَب على هذا العمل الخَفِيّ، فالنجار له ميزان، والحداد له ميزان، وصاحِبُ المصْلَحَة له ميزان، والدهان له ميزان، وكُلُّ صاحب صَنْعَةٍ له ميزان يُحاكم فيها، الطبيب يُحاسب حِساباً غير حِساب المُحامي، لم يقُل الله عز وجل: فأما من ثقلت سيِّئاته! السيِّئات ليستْ داخِلَة في الحِساب إطْلاقاً، الشيءُ الداخل في الحِساب هو الحَسنات، لذلك قال تعالى:

(وَالعَصْرِ* إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ*)

[سورة العصر]

من هذه الآية يتَّضِحُ أنَّ هذه الحياةُ الدنيا إنما جِئنا إليها من أجل العمل الصالح، وهذا العمل سوف يُقَيَّم تقْييماً مُتناهِياً في الدِّقَّة، العمل يُقَيَّمُ بِنِيَّةِ صاحِبِه ولِهَدَفِه، بِمِقْدار ما أزاح من وقْتٍ ومن جُهْدٍ وخِبْرة.

إذا عَبَّر الله عز وجل عن اسم الفاعل باسم المفْعول فهُناك عِلَّة كبيرة :

الشيءُ الغريب أنَّ الله سبحانه وتعالى قال: عيشَةٌ راضِيَة، ولم يقُل مَرْضِيَّة! لماذا؟ راضِيَّة اسمُ فاعِل، الأصْلُ أنْ تقول في كلامك: أنا راضٍ عن هذا البيت، أما أنْ أقول هو راضٍ عنِّي فهذه ليس لها معْنى، فَلِماذا لم يقُل المولى عز وجل: فَهُوَ في عِيشَةٍ مَرْضِيٌّ عنها؟ هذا الموضوعُ مُعَقَّد، فقد قال بعضُهم: قد يُسْتَخْدَمُ اسم المفْعول مكان اسم الفاعل، تقول جريح وهو بِمَعنى مَجْروح، وكذا قتيل وطريح فهذا في اللغة واردٌ، وكذا واردٌ أنْ نسْتخدم اسم الفاعل مكان اسم المفْعول، قال تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

[سورة الماعون: 5]

فَهؤلاء البشر الذين يتجلى الله عليهم بإمْدادِهم كيفَ هم غافِلون عن هذه الصلاة؟! من معاني هذه الآية أنَّ هؤلاء البشر جميعاً الله هو مُمِدُّهُم بإمْدادِه وتَجَلّياته وروحه وهم عن هذه الصِّلة غافلون، لكنَّ بعضهم قال: لا يمكن أنْ نستخدم اسم الفاعل مكان اسم المفعول ولا اسم المفعول مكان اسم الفاعل إلا لِعِلَّةٍ كبيرة، فَرَبُّنا عز وجل قال:

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً)

[سورة الإسراء: 45]

فكلمة مسْتور لها معنى ساتِر، وقالوا: الحِجاب الكثيف المُؤَلَّفُ من طَبَقَتَين ساتِرٌ ومَسْتور، فلما عَبَّر الله عز وجل عن اسم الفاعل باسم المفعول فَهُناك عِلَّةٌ كبيرة.

يوم القِيامة كل المخْلوقات التي خلقها الله تعالى تُسْهِمُ في إمْتاع المؤمنين :

قال تعالى:

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً)

[سورة الإسراء: 45]

هناك آيةٌ أخرى قال فيها ربنا تبارك وتعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً)

[سورة النساء: 57]

فهذا الظِلّ ظليلٌ أمْ مُظَلَّلٌ؟! كذلك هنا المعنى نفسه ظِلٌّ فوق ظِلّ، فصار الظِلّ الأوّل مُظَلَّلٌ أيضاً، من باب المُبالغة وهذا تَوْجيهٌ. بعْضُهم قال: لا، العيشةُ نفسُها راضِيَة، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

[سورة الإسراء: 44]

فالنفسُ البشَرِيَّة نفسٌ والنبات نفس والجماد نفس، يُؤَكِّدُ هذا المعْنى قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

فهذه الأشياءُ تُسَبّح، لماذا عيشَةٌ راضِيَة؟ قال: الإنسانُ في الدنيا قد يأكل اللُّقْمَة وهي تلْعَنُهُ لأنَّهُ ليس أهْلاً لها، وقد يدْخُلُ بيْتاً وهو يلْعَنُهُ لأنَّهُ كافِرٌ وجاحِدٌ بِنِعَم الله عز وجل، لكنَّ الله سبحانه وتعالى سَخَّر له هذا البيت وهذا الطعام، وسَخَّر له هذه الدابَّة، وهذه الكأس من الماء، لكن يوم القِيامة هذه المخْلوقات تُسْهِمُ في إمْتاع المؤمنين.

المؤمن يوم القِيامة يأكل اللُّقْمة وهي راضِيَةٌ عنه لأنَّها تعْلمُ أنَّهُ يسْتحقها :

تعلم أنّ هذا المؤمن له حياة مملوءَة بالطاعات، وأنَّهُ يسْتحِقُّ هذا النعيم، فَهيَ بهذا راضِيَةٌ عنه، فالمؤمن يوم القِيامة يأكل اللُّقْمة وهي راضِيَةٌ عنه لأنَّها تعْلمُ أنَّهُ يسْتحقها قال تعالى:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 24]

رسول الله صلى الله عليه وسلَّم كان يعْرف حجراً بمَكَّة يُسَلِّمُ عليه، ودخل إلى بُسْتانٍ فرأى جَمَلاً فلما رآهُ الجمل ذَرفتْ عَينا الجمل بالدُّموع، فَمسَحَ حِقْنَيْه وقال: من صاحب هذا الجمل، فقالوا: فتىً من الأنْصار، فقال: آتوني به، فلما جاؤوا به قال: ألا تتَّقي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها فإنَّهُ شكا إليَّ، وحينما انْتَقَل عليه الصلاة والسلام إلى المِنْبر حَنَّتْ إليه النخلة، حتى أنَّها سُمِّيَتْ الحناء ونص الحديث:

((أَنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَسْتَنِدُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَلَمَّا صُنِعَ الْمِنْبَرُ وَاسْتَوَى عَلَيْهِ اضْطَرَبَتْ تِلْكَ السَّارِيَةُ كَحَنِينِ النَّاقَةِ حَتَّى سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ حَتَّى نَزَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاعْتَنَقَهَا فَسَكَنَتْ))

[النسائي عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ]

وهي الآن في المقام النبوي الشريف مِنْبرهُ صلى الله عليه وسلَّم رَمْزٌ لِهَذه النخلة التي قُطِعَت، وكانت تَحِنُّ إليه، كان عليه الصلاة والسلام حينما يصعد المنبر يضعُ يده على النخْلة، فَكُلُّ شيءٍ تسْتَهْلِكُهُ يُسبِّحُ بحَمْدِه، لذلك بعض العارفين قال: إذا الإنسان جلس ببُسْتان ووجد حشيشاً ثمَّ قطعه كان ذلك إثماً إذْ يقول لك الحشيش: لِمَ قَطَعْتني؟! لو أنَّ خروفاً أكَلني لكنت سعيداً، إنني خُلِقْتُ من أجل الخروف كي يقْتاتَ بي ولِكَي تقْتات أنت بالخروف! قد تقطعُ زَهْرَةً، لو بلغَتْ حساسِيَّتُك هذا المُستوى لَخَشيتَ أنْ تدوس على زَهْرة لأنَّها نفْسٌ تُحاسِبُك، لو تركْتَ في صحْنك حَبَّة رزٍّ لعاتَبَتْكَ لأنها نفْسٌ، سيِّدُنا حنظلة رآه سيّدنا الصديق يبْكي فقال له: ما لك يا حنظلة تبكي، فقال: نافق حنْظلة، فقال الصِدِّيق ولِمَ؟ قال: نكون مع رسول الله ونحن مع الجنَّة كهاتَيْن، فإذا عُدْنا للأهل لَهِيَتْ قلوبنا! لو بقيتم على الحال لصافحتكم الملائكة، المعنى الأول بالعيشة الراضِيَة أنَّ الإنسان يوم القِيامة هذا الذي يأكله نفوس، يستحق أنْ يأكل هذا الإنسان هذا الطعام وهو راضٍ عنه، أما في الدنيا قد يشرب هذا الإنسان هذا الماء وهو يلْعَنُهُ، وقد يأكل الطعام النفيس وهو يلْعَنُهُ لأنَّهُ يكْفر بربِّه، قال تعالى:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

[سورة الدخان: 29]

معنيان لقوْل الله تعالى (فَهُو فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) :

سيّدنا أنس سئل: يا إمام أتَبْكي السماء؟ قال: نعم، ما دامت هنا لم تبْكِ على هؤلاء لا بد أنَّها تبْكي على أُناسٍ آخرين، ربنا عز وجل عندما قال:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

[سورة الدخان: 29]

قال عليٌّ مَوْضِعان: موْضِعٌ في السماء ومَوْضِعٌ في الأرض يبْكِيان على المؤمن، مصْعَدُ عمله في السماء، ومُصلاهُ في الأرض يبْكِيان عليه، فالسماء تبْكي، بعض المُزارِعين ينهى عن سلخ الغصن لأنها نفْس لا بد من قَصِّه قصّاً نِظامِياً، في بعض التجارب وضعوا جهازاً حساساً للرطوبة وُضع على غصن نبات، جاء إنسان ومَزَّق نباتاً أمامه فإذا بعقْرب الجهاز يتحرَّك دَلَّت على أنَّ هناك حياةٌ للنبات لم يكْتشفوا حقيقتها بعد، فَقوله تعالى:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الحاقة: 21]

هذا الشيءُ الذي يتنعَّمُ به يوم القيامة نُفوسٍ راضِيَةٌ عن المؤمن، والمعْنى الآخر أنَّ الإنسان في الدنيا قد يكون في نعيمٍ مُقيم لكن يُداخِلُهُ قلقٌ عمي لا يفْتأ حتى يُفارق هذا البيت، أو أن يُفارق هذه الزوْجة، أو يبيْع هذه السيارة، هذا القلق يُدَمِّرُ سعادته، أما ربنا عز وجل لما قال:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الحاقة: 21]

أيْ هذا الشيء الذي معه في الجنَّة راضٍ عنه، ومعنى راضٍ عنه أنَّهُ مُلازِمٌ له، ولا ينْفكُّ عنه، ليس مُسَخَّراً بل هو مُلازماً لهذا الإنسان طوْعاً، وهذا هو معنى قوْله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ*فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

بركات الجنَّة وبركات النار :

مثلاً - ولو أنَّ الإيداع بالمَصْرف غير وارد - إذا إنسان أوْدَعَ لِيْرَتَين في مصرف ثم غاب سَنَتَيْن ثمَّ رجع فأراد كشْفَ حِسابه فإذا به يجد أن حِسابه اثنتا عشرة لِيْرة، أما لو أوْدَعَ الإنسان مئتي ألف كلّ يوم ثمَّ غاب عشر سنوات فإذا أراد كشْفَ حِسابه بعد العَوْدة، أعْطوا له دَفتر كشْف حساب لأنَّه لا تكْفي ورقة لِعَدِّ ما ترك وما ربح! للإنسان عملٌ كبير بالدنيا يودِعُهُ صدقات، زكاة، إعانة مريض، خِدْمة إنْسان، أحْسَنَ لِزَوْجَتِهِ وأوْلاده وجيرانه، هذه أعْمال ضَخْمة وثقيلة يوم القِيامة، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ*فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ*وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ*فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةٌ)

كلمة أُمّ مَبْعَثُ الحنان، مَلْجأ وملاذ وهذه من بلاغة القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)

[سورة الكهف: 29]

فَأُمُّه التي يأوي إليها ويَحْتمي في كَنَفِها ويرْتاحُ في حِجْرِها هي النار، فأُمُّهُ هاوِيَة، يَهْوي بها، لما بلغ أنَّ النبي علم أنَّ بعض المُنافقين تُوُفِي قال: الآن اسْتقرَّ في جَهَنَّم حجرٌ كان يهْوي منذ سبعين خريفاً، لذلك قالوا: بركات الجنَّة وبركات النار قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً)

[سورة النساء: 145]

إِفْتَرَشَ الأرض والْتَحَف بالسماء:

مُشَرَّدٌ يهْوي إلى هَمِّه إذا أوى الطَّيْرُ إلى وَكْرِهِ

* * *

(فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ*)

هذه الأمّ التي يأوي إليها هي نارٌ حامِيَة! لو أنَّ إنْساناً قال لك: هذه المِقلاة ساخنة كان معنى ذلك أنَّ حرارتها مئة وخمسون، أما إذا إلهٌ عظيمٌ قال لك: نارٌ حامِيَة فهي على قُدْرَتِه، وهذه صورةٌ دقيقة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التكاثر 102 -الدرس (1-1): تفسير الآية: 1 - 8 علم اليقين.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-06-21

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة اليوم سورة التكاثر، وقد تجاوزنا سورةً أو أكثر لأن لموضوعها علاقة برمضان.

التكاثر كلمة مطلقة تعني التكاثر من حطام الدنيا ونهايتها القبر :

أيها الأخوة المؤمنون، الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ*كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ*ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ*كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ*ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ*ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

التكاثر كلمة مطلقة، تعني التكاثر في جمع المال، وتعني التكاثر بالأولاد، وتعني التكاثر من حطام الدنيا، أي رغبة الجمع والاستزادة والتفوق والافتخار والمباهاة، هذه الرغبة التي تتولد في أهل الكفر والعصيان، وأهل الفسوق والنفاق، هذه الرغبة الملحة ما نهايتها؟ نهايتها القبر.

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ)

((وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك، فلأسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي.))

[ورد في الأثر]

هذا التكاثر على إطلاقه، في جمع المال، في المباهاة بالأقران والأولاد، في جمع حطام الدنيا، في التسابق على شهواتها:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ)

هذه وقائع، الإنسان يسعى ليلاً نهاراً، يُفاجأ بالموت ولم يحسب له حساباً، هذه الساعة ساعة عظيمة، يوم يحس الإنسان بالخسارة الكبرى.

الله أرسل هذا الإنسان إلى الدنيا لمهمة عظمى لكنه نسي المهمة واشتغل بالتافه :

قال تعالى:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ)

لو أب وضع ولديه في مدرسة من أعلى مستوى، وهذه المدرسة مقامة على شاطئ بحر، والطلاب جميعاً منصرفون إلى تلقي العلم والمعرفة ونيل أعلى الشهادات بينما ولدان أو طالبان ذهبا إلى شاطئ

البحر وجمعا الأصداف، وفي المساء تنافسا وتناقشا على عد هذا الحصى الذي جمعاه، يقول لهما الأب: ألهاكم جمع الحصى والصدف عن الدراسة والعلم، كأن الله سبحانه وتعالى أرسل هذا الإنسان إلى الدنيا لمهمة عظمى، هذا الإنسان نسي المهمة واشتغل بالتافه، اشتغل بجمع الدرهم والدينار، اشتغل بالحطام، فربنا عز وجل يقرر حقيقة.. يا أيها المعرضون، يا أيها الشاردون، يا أيها الضالون.. ألهاكم التكاثر، انشغلتم بالمال وجمعه، انشغلتم بالدنيا وزينتها، انشغلتم بمباهجها عن هدفكم الكبير وعن المهمة التي خلقكم من أجلها.. حتى زرتم المقابر، سبحان الله الإنسان أحياناً يعد لكل شيء عدته إلا الموت، يحسب لكل شيء حسابه إلا ساعة اللقاء، يفكر في كل شيء إلا الرحيل عن هذه الدنيا.

هنا المفسرون وقفوا عند كلمة: حتى زرتم، الإنسان إذا زار بيتاً لا بد من أن يرتحل عنه، يزوره ثم يرتحل عنه، فاستنبط العلماء أن الإنسان إذا دخل في القبر لا بد من أن يرتحل عنه إلى جنة أم إلى نار، لذلك قالوا: القبر دهليز الآخرة، النفق الذي يوصل من الدنيا إلى الآخرة، فربنا سبحانه وتعالى اختار هذه الكلمة بالذات:

(حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ)

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف: 83]

الإنسان السعيد من جعل ساعة اللقاء ماثلة أمامه وأعدّ لها عدتها :

والله الذي لا إله إلا هو ساعة الموت كالصاعقة على الإنسان إن لم يعد لها عدتها، لكن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن هذه الآية، أن الذي يسعى لرزق ولحاجة أساسية لا ينطبق عليه هذا الكلام، يعني الذي يسعى للنماء، لجمع المال، للجمع على إطلاقه للاستزادة، للتكاثر، للاستعلاء، هؤلاء تنطبق عليهم هذه الآية:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ* كَلَّا)

(كلا) هذه في الكلام أداة ردع ونفي، الله سبحانه وتعالى ينفي أن يكون الهدف من خلق الإنسان جمع الدرهم والدينار، الله سبحانه وتعالى ينفي أن يكون التكاثر هو الهدف الذي خلق الإنسان من أجله، قال الله عز وجل بدافع الرحمة والعطف والحنان: كلا.. لم تخلقوا لهذا، لم أخلقكم لهذا، النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان طفلاً كان إذا دعي إلى اللهو يقول: لم أخلق لهذا، عرف مهمته، والطالب المجتهد إذا دُعي إلى سهرة تافهة، أو إلى نزهة رخيصة، أو إلى تمضية ساعات في الطريق، أو إلى تمضية يوم في مكان سخيف، إذا دُعي إلى هذا يرى مهمته الأساسية في تحصيل العلم وفي نيل الشهادات، لذلك

يقول: لا، ربنا عز وجل يقول: كلا، أداة ردع ونفي كأن الله سبحانه وتعالى يقول: كفاكم تكاثراً، دعوا هذا الطريق، لأنه طريق مسدود، طريق ينتهي بالخسارة، طريق ينتهي بالدمار:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ)

دع هذه الآية وانظر لواقع الناس، هذا الذي جاءه ملك الموت، هل كان يحسب له حساباً؟ فكر في كل شيء إلا ساعة الموت، فكر في كل شيء إلا ساعة اللقاء، فالإنسان السعيد من جعل ساعة اللقاء ماثلة أمامه، إذا جعلها أمامه ماثلة أعد للموت عدته، أرسل ماله أمامه فسره اللحاق به، عمل الصالحات فاشتاق إلى لقاء الله، اشتاق إلى لقاء الله لأن عمله طيب.

من علامة معرفة الله الشوق إلى لقياه :

قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة الجمعة: 6]

الذي عرف الله حق المعرفة، والذي قدره حق قدره ما علامة ذلك؟ أليس لهذا علامة مادية ظاهرة؟ ما علامة الجد والاجتهاد؟ النجاح في الامتحان، فإذا رسب الطالب فهذا الذي يدعيه خطأ، أصبحت دعوى.

كل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تُقر لهم بذاك

* * *

كل إنسان يدعي أنه يعرف الله، هل من علامة واضحة تؤكد أنه يعرفه؟ قال أحد الأخوة الأكارم: طاعة الله علامة معرفته، قلت والله جميل، فعلاً طاعة الله أكبر دليل على أنك تعرفه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

* * *

من علامة معرفة الله الشوق إلى لقياه، هذه علامة صارخة، لأنك إذا عرفت رحمته وإذا عرفت ما عنده من فضل، وأن تجليه يملؤك سعادة اشتقت إليه وذكرت هذه الآية:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة الجمعة: 6]

من علامة أنك تعرفه أنك ترى وحدانيته :

لو لاح لك شبح الموت هل تقول مرحباً بلقاء الله وعلى الدنيا السلام أم ترتعد فرائصك وتقول لا أريد أن أموت في هذا الوقت؟ هذه علامة، فالشوق إلى لقاء الله علامة معرفته، وطاعته علامة معرفته، وشعورك بأن الله يراقبك علامة معرفته، وهو معكم أينما كنتم، أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المجادلة: 7]

ومن علامة أنك تعرفه أنك ترى وحدانيته:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح: 10]

علامات أخرى لمعرفة الله سبحانه :

إذا خفت من يد آثمة فيد الله فوقها، إذا خفت من يد معتدية فيد الله فوقها، قال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال: 17]

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 26]

علامة معرفته أن توحده، وأن تشتاق إلى لقياه، وأن تطيعه، وأن تحس أنه يراقبك، فأحيي ما شئت من ليالي رمضان، إن عصيته فكل هذا الإحياء لا قيمة له، لأنك لا تعرفه، وقد تحصل لك هذه الليلة في أي

يوم من أيام السنة، في الساعة التي تحس أنك يجب أن تطيعه، ويجب أن تؤثره على كل شهواتك، في اللحظة التي ترى أنه كل شيء وأن لا شيء سواه، وأنه بيده مقاليد الأمور، وأنك إذا طلبت رضاه فقد طلبت كل شيء، وأنه إذا فاتتك الجنة فقد فاتك كل شيء، هذه اللحظة التي ذكرها القرآن ليلة القدر:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

[سورة القدر: 3]

الإنسان الآن مخير بين أن يعرف فيسعد أو يتجاهل فيشقى :

معنى كلام ربنا عز وجل: كلا لم أخلقكم لهذا، قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

بلا حساب:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

سوف، الآن لا تعلمون، الآن أنتم جاهلون، ربنا يخاطب أهل الدنيا، من ألهاهم التكاثر، من انغمسوا فيها، كلا سوف تعلمون، الآن لا تعرفون لكنكم سوف تعرفون، ألا يحصل هذا مع الأب وابنه؟ يصر الابن على شيء يراه الأب خطأ، يقنعه دون جدوى، يزجره دون جدوى، يردعه دون جدوى، ينصحه دون جدوى، إذا ضاقت به الحيل واستيأس منه يقول هذا الأب: سوف ترى، الأيام وحدها تريك خطأك، وفعلاً بعد أن يقع الابن ويدفع الثمن غالياً ويندم ولات ساعة مندم، يقول لأبيه: صدقت لقد عرفت الحقيقة ولكن متى بعد فوات الأوان.

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

نحن الآن مخيرون؛ إما أن نعرف ما يجب أن نعرفه الآن وإما أن تكون هذه المعرفة حسرةً في قلوبنا، إن عرفنا ما يجب أن نعرفه الآن هنيئاً لنا، وإن كابرنا وتجاهلنا الحقائق، ووضعنا رأسنا في الرمال فسوف نعلم الحقيقة، إن معرفة الحقيقة ستكون حسرةً في قلوبنا، إن معرفة الحقيقة ستكون عبئاً علينا بعد أن كانت في خدمتنا، المعرفة سوف تكون عبئاً علينا:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

متى؟ عند الموت.

مناسبتان خطيرتان نعلم بهما الحقيقة؛ عند الموت ويوم يقوم الناس لرب العالمين :

أعرف رجلاً كان منغمساً في الدنيا إلى قمة رأسه، لم يترك متعة من متع الحياة إلا وانغمس فيها، جاءه مرض خبيث في السابعة والثلاثين من عمره، كل ليلة يقضيها في مجلس إنس وطرب، ليس في حياته شيء حرام، كل شيء مباح له، وله دخل كبير، وبيت فخم، وبيت في المصيف، وسيارة فارهة، وصاحب طرفة، وظل خفيف، لما علم أن مرضه عضال، وأنه آخر عهده بالدنيا، بدأت تأتيه نوبات هستيرية، يقول: لا أموت، لا أريد أن أموت، إلى أن جاءه ملك الموت حقاً ليقبض روحه، فصاح صيحة لم يبق في البناء كله أحد إلا فزع منها، هذه ساعة النزع:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِر*كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

متى؟ عند الموت، ربنا عز وجل قال:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

مرةً ثانية متى؟ يوم القيامة، هناك مناسبتين خطيرتين تعلمون بهما الحقيقة، الأولى عند الموت والثانية يوم يقوم الناس لرب العالمين:

(ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

فهذه سوف للمستقبل، يا حبذا لو نعلم الآن، يا حبذا لو نعلم الآن علم اليقين، لو نعلم الحقيقة كاملة، لو نعلم حجمنا الحقيقي، لو نعلم المهمة التي خُلقنا من أجلها، لو نعلم كم عند الله من خير، كم عنده من سعادة، كم عنده من عذاب أليم لمن عصاه وظلم نفسه.

في هذا الكتاب قوانين أشد دقة وثبوتاً وحتمية ووقوعاً من قوانين الفيزياء والكيمياء:

قال تعالى:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

كلا.. كأن الله يردعنا، إلى متى أنتم غافلون؟ إلى متى أنتم سادرون؟ إلى متى أنتم تائهون؟ إلى متى أنتم شاردون؟

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ *كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ)

أيها الأخوة الأكارم، أحب أن أقول لكم شيئاً، هذا الدين دين الله وخالق الكون، أليس في الأرض حتمية الحدوث؟ قوانين الرياضيات، قوانين التجاذب الفلكي، قانون ثابت، قوانين السقوط، قوانين التمدد، القوانين التي اكتشفت في الذرة، في المجرة، في الفيزياء، في الكيمياء، في الرياضيات، في الطبيعيات، في الجيولوجيا، هذه القوانين التي استنبطها العلماء من ظواهر علمية بعد أن حللوها واستقرؤوها

واستنبطوها، إنها تأخذ شكل القانون، أي علاقة ثابتة بين متحولين، هذه القوانين من صنع الله، وهذا الدين دين الله، لا بد من أن يكون في الدين قوانين لا تقل حتمية وثباتاً ودقة وضرورة عن قوانين الفيزياء، كيف أن كل معدن يتمدد بالحرارة، كيف أن كل جسم إذا تركته يسقط بسرعة حسبها الحاسبون، كيف أن للضوء قوانين وللعدسات محرق وللأشعة استقامة، تنكسر في الماء، كيف أن لكل شيء قواعد ثابتة. والله الذي لا إله إلا هو في هذا الكتاب قوانين أشد دقة وأشد ثبوتاً وأشد حتمية وأشد وقوعاً من قوانين الفيزياء والكيمياء ولكن الناس لا يعلمون.

لو اطلع الإنسان على دقة الحساب يوم القيامة لرأى كل معصية جحيماً وكل مخالفة ناراً:

قال تعالى:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

لو إنسان طلب إليه أن يحلل دمه، والتحليل أثبت أن هناك تزايد مخيف في كريات الدم الحمراء، هذا التزايد يأخذ شكل مرض خبيث، المريض لم يشعر بعد بشيء، طبيعي، لا يزال طبيعياً، لكن له تحليلات دورية، أحد هذه التحاليل أثبت هذا التزايد السريع، يطّلع الطبيب على هذا التحليل فيرى مصير المريض في القبر بعد أشهر، قد يهمس في أذن أولياء المريض انتهى، المريض مريض حكماً، أما هو الآن صحيح، يتكلم ويتحرك ويأكل ويشرب ويضحك ويمزح ويعمل وينتج، لكن الطبيب رأى مصيره، هذا مرض خبيث لا شفاء منه والتزايد سريع ولا بد من الموت وأقصى مهلة ثلاثة أشهر، وكثيراً ما تأتي هذه التوقعات صائبة، فربنا عز وجل قال:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

لو أن أحدنا يطلع على دقة الحساب يوم القيامة، يطلع على أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس شيئاً:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

لو بلغ يقين الإنسان هذه الدرجة لرأى أن كل معصية جحيماً، وكل مخالفة ناراً محرقةً.

إن بلغ الإنسان علم اليقين عرف كل شيء :

هذا الذي يأكل أموال اليتامى إنما يأكل في بطنه ناراً وسيصلى جحيماً، لا يعلم ذلك الآن، لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم، هذا الذي لا يصلي لو يعلم علم اليقين لرأى الجحيم. هذا الذي ينظر إلى الحرام ولا يبالي لو يعلم علم اليقين لرأى الجحيم فهي المشكلة علم اليقين، هات علم اليقين وخذ كل

شيء، إن تملكت علم اليقين تملكت كل شيء، إن بلغت علم اليقين عرفت كل شيء. هذا الذي يقرب النار من البنزين، قبل أن ينفجر البنزين الذي يراقبه من بعد ويعرف أن هذا بنزين، وهذا نار، يتوقع توقعاً حتمياً جازماً أن حريقاً سينشب، علم قوانين:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

سائق سيارة في منحدر شديد، اكتشف فجأةً أن المكبح قد انقطع وفي نهاية هذا المنحدر منعطف خطير حاد، يعلم علم اليقين أنه انتهى يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، تقول له زوجه: لمَ تتشهد، ماذا حصل؟ يقول لها: المكبح قد انقطع، تقول له: لكن لا بأس علينا، هو علم النتيجة الحتمية التي لا بد منها، فهذه المشكلة، مشكلة معرفة، بين الكافر والمؤمن مشكلة معرفة، لأن الكافر يحب نفسه أيضاً، الكافر حريص على سعادته، الكافر حريص على سلامته، لأن هذه فطرته هكذا فُطر عليها، هكذا خلقه الله عز وجل يحب نفسه، يحب السلامة، يحب الخير، يحب الاستزادة، يحب العلو، يحب النفع، بين المؤمن والكافر المعرفة فقط:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

لو علم أكثر كفار الأرض ما علمه النبي الكريم لآمن إيمانه ولأحب الله حبه، ولاستقام استقامته، ولعمل للآخرة عمله.

الاستدلال الفكري هو علم اليقين وهو أثمن ما يملكه الإنسان :

قال تعالى:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

يوم القيامة:

(ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)

(*كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ*ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

هنا عندنا عين اليقين وعندنا علم اليقين، إذا الإنسان رأى دخاناً خلف الجدار، يستنبط بالفكر السليم أنه لا دخان بلا نار، وأن هذا الدخان وراءه نار، هذا علم اليقين، هذا علم الاستدلال، من منا لا يصدق أن في البناء خطوطاً داخليةً للكهرباء، هو لا يرى إلا مروحة تدور، وثريا متألقة، وأسمنت، وطلاء، هل منا واحد لا يعتقد اعتقاداً جازماً أن تحت هذا الطين الأسمنتي خطوط الكهرباء، هل يُعقل أن تدور هذه المروحة بلا شيء، يقيننا بوجود خطوط داخلية يقين قطعي، هذا هو الاستدلال الفكري، هذا هو علم اليقين.

إذا رأيت آثار عجلة سيارة على طريق ترابي، بالمئة مليون سارت على هذا الطريق سيارة، وقد تعرفها أنها شاحنة من عرض الآثار، وقد تعرفها أنها صغيرة من عرض العجلة، هذا هو علم اليقين، هذا هو الفكر البشري، الاستدلال أثمن ما تملكه أنت.

طبيب قال لي، لو عثرنا على هيكل عظمي فقط نعرف أنه امرأة أو رجل، قلت: كيف؟ قال: من حجم الحوض ومن حجم الجمجمة، أي كل حياتنا على الاستدلال قائمة، العلوم كلها استدلالية، فربنا عز وجل يقول:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

هذا علم اليقين.

علم اليقين وعين اليقين :

قال:

(ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)

هذا الذي رأى الدخان خلف الجدار تقدم به المشي وأطل خلف الجدار فرأى لهب النار، لهب النار عين اليقين، مهندس رأى شرخاً عرضياً في البناء، فقال: هذا البناء خطر لا بد من أن يقع، هذا علم اليقين، بعد أن وقع عين اليقين. معلم خبير رأى طالباً مهملاً، قال: هذا الطالب لا ينجح هذا علم اليقين، حينما تصدر النتائج رسب في صفه هذا عين اليقين، توقعه علم اليقين ورسوبه عين اليقين.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ*ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ*ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

قال بعضهم: نعمة الصحة، العينان والأذنان والأنف واللسان والقلب والرئتان والمعدة والأمعاء والبنكرياس والكبد والطحال والجهاز العظمي والجهاز العصبي والتناسلي والبولي والدموي والقلب، كله يعمل بانتظام هذه نعمة كبرى، قال: هذا النعيم.

نعمة الأمن تنام مطمئناً وأنت آمن، لماذا لم تعرف الله عز وجل؟ لا أحد يسألك، لا أحد يلاحقك، لا أحد يتوعدك، أنت مطمئن، نعمة الأمن تُحاسب عليها، نعمة الصحة تحاسب عليها، نعمة الفراغ، أنت صحيح معافى تنام ست ساعات بعد الظهر، ليس عندك شيء، تسهر إلى الثانية ليلاً في الكلام الفارغ، هذا الوقت الفراغ سوف تُحاسب عليه، لماذا ضيعته هكذا؟ نعمة الوقت تحاسب عليها، نعمة الصحة تحاسب عيها، نعمة العينين تحاسب عليها، نعمة الأذن، بدل أن تحضر مجلس علم وتتعرف إلى الله عز وجل أطلقت الغناء لأذنيك، فطربت وأطربت وضيعت عمرك سدى، الغناء ينبت النفاق، إذاً الأذن من النعيم.

نِعَمُ الله تعالى سوف نحاسب عليها يوم القيامة :

العين نعيم، الأذن نعيم، اللسان نعيم، هذا اللسان طليق يتكلم، أؤمر بالمعروف وانه عن المنكر، نعمة اللسان، يقول لك: لا أستطيع الوقوف، الصحة نعمة كبيرة، لا يوجد آلام ديسك ولا آلام رأس ولا آلام معدة ولا آلام كبد ولا أمراض خطيرة، صحيح معافى، هذه نعمة كبرى تُحاسب عليها، ماذا فعلت بها؟

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[سنن الدارمي عن معاذ بن جبل]

إذا علمت علم اليقين، عندئذ ترى أنك تُسأل عن النعيم، نعمة الزوجة؛ لك زوجة لماذا تنظر إلى هذه المرأة في الطريق، عندك زوجة أنت محصن، لماذا تغازل هذه المرأة؟ لك زوجة، هل أنت محروم؟ لا، عندك أولاد، لماذا تهملهم؟ لماذا لا تربيهم تربية صالحة؟ والله هذه الآية لو عقلناها حقاً، ولو عرفناها حق معرفتها لغيرت حياتنا رأساً على عقب، لخلقت فينا انعطافاً خطيراً في حياتنا:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ*كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ*ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ*كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ*ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ*ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

بعضهم استنبط من هذه السورة أن على الإنسان أن يزور القبور، أي إذا أتيح لك أن تشاهد نزع إنسان فافعل، إن أتيح لك أن تشاهد ميتاً يُغسل فافعل، إن أُتيح لك أن تشاهد ميتاً وُضع في قبره وكُشف عن وجهه فافعل، إن أتيح لك أن تزور المقبرة فافعل، هؤلاء الذين في القبور ألم يكونوا في الدنيا في بيوت، ولهم زوجات، ولهم أهل، ولهم محلات تجارية، ولهم أرباح، ولهم أصحاب، ولهم نزهات، أليسوا كذلك؟ أين هم الآن؟ النبي الكريم إذا زار البقيع يقول: سلام عليك دار قوم مؤمنين أنتم السابقون ونحن اللاحقون، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزي به.

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العصر 103 -الدرس (1-1): شرح السورة كاملة .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-06-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، سورة اليوم هي سورة العصر ؛ نقرأ سورة العصر في الصلاة، سورة قصيرة تمرُّ على الألسنة يكثر ذكرها و تكثر قراءتها وسماعها ؛ وما تنطوي هذه السورة من الخطورة من المعاني بحيث لو عقلناها وفهمناها و عرفنا أبعادها لانقلبت حياتُنا رأسًا على عقبٍ.

يقول الله سبحانه وتعالى: والعصر؛ يقسم بالعصر ؛ وما العصرُ ؟ قال بعض العلماء: هو عصر النبي عليه الصلاة والسلام ؛ بل قال بعضهم: إنه عصر النبي بمعنى عمره، هذا العمر الثمين ؛ ثلاث وستون عاماً كان من نتائجها أنها قلبت وجه البشرية ؛ نقلت البشرية من الشّقاء إلى السعادة و من الضّلال إلى الهدى و من الرذائل إلى الفضائل، من الظُلمات إلى النور، من الحضيض إلى الدرجات العُلى، عمُرٌ ثمين، فإذا قاس الإنسانُ عمرَه بعمر النبي، ماذا فعل ؟ اشترى بيتًا، واستلم محلاً تجاريًا، ثم توظف، ولكن لو قِستَ إنجازاتك التي فعلتَها أو حقّقتها بما فعل النبي عليه الصلاة والسلام في هذا العمر الثمين لاحتقر كلٌ منا عملَه، فالبشرية جمعاء هدايتها في صحيفة النبي عليه الصلاة والسلام، أرسله للناس كافّة لا يكُنْ الإنسان خمولاً بل يجب أن يكون طموحاً، لا يكن قنوعًا في الدنيا بدخلٍ يسير وبيت واسع و زوجة تَرُوقُ له، سيدنا عمر رضي الله عنه أدخل شاعراً السجنَ لأنه هجا رجلاً وقال له:

دع المكارمَ لا ترحل لبُغيَتها واقعُدْ فإنك أنت الطعم الكاسي

دخل صاحب هذا البيت السجنَ لأنه أهجى بيتٍ قالتهُ العربُ فأما الآن فيُعَدُّ شعار كلّ إنسان، إذا حقّق الإنسان دخلاً يسيراً و بيتاً مُريحاً و مركباً وطيئاً و محلاً تجاريًا رائجاً فعلى الدنيا السّلام، فإذا جاء ملكُ الموت يُقال له: ماذا فعلتَ في الدنيا ؟ ماذا فعلتَ من أجلي ؟ هل واليتَ فيَّ وليًا ؟ وهل عاديتَ فيَّ عدوًا؟ لذلك النبي عليه الصلاة والسلام عرف كيف يستغلُ العصر، كيف يستغلُ حياته و كل وقت من أوقاته وكل ساعة من ساعاته، كل دقيقة من دقائقه، لذلك العمر الثمين أثمر هدًى وصلاحًا للبشرية جمعاء، المعنى الآخر من معاني العصر، يعني لو دقّقتَ في هذه الحياة لوجدتَ أن أثمن شيء هو الزمن، لو قلنا أن إنساناً ما، أو زيدًا من الناس سيعيش أربعاً وسبعين عاماً، اضربْ هذه الأعوام في الأيام واضربها بالساعات واضربها بالدقائق يصبح معك رقمٌ كبير، هذا هو عمر الإنسان ؛ لو يعلم الإنسانُ أنّ كل دقيقة من حياته إذا ذكر الله فيها ارتقى عند الله في جنة عرضها السموات و الأرض وإلى أبد الآبدين، لذلك فإن أشدّ أنواع الحسرات يوم القيامة ساعةٌ مضت هدرًا لا جدوى منها، فانظر إلى حياتنا كيف نقضيها سهرةٌ إلى الساعة الواحدة في كلام فارغ، لا أمرٌ بمعروف ولا نهيٌ عن منكر و

لا تذكير بالله ولا فهم لكتاب الله ولا فهم لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث فارغ لا طعم له ولا جدوى منه و لا فائدة منه هذه الساعات الخمس كيف أمْضَيْتَها ؟ وهذا الشهر كيف أمْضَيْتَهُ ؟ هذا اليوم كيف أمْضَيْتَهُ ؟ وهذا العمر كيف أمْضَيْتَهُ ؟ عَن ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ))

[رواه الترمذي]

بعضهم قال: ما مضى فات والمُؤَمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها ماذا تَمْلِكُ أنت ؟ لا تمْلِكُ إلا شيئاً واحِداً، هذه الساعة التي أنت فيها، الذي مضى مضى ؛ إنْ خيراً فَخَيْر، وإنْ شراً فَشَرًّا، ضَيَّعْتَ الوقت أمْ لم تُضَيِّعْهُ ؛ الحديث عن الماضي تضْييعٌ للوَقْت ولا جَدْوى منه ؛ يا لَيْتني كنت مؤمناً ! مضى، ويا لَيْتني قَدَّمْتُ لِحياتي ! مضى، يا لَيْتَني عَرَفْتُ الله باكِراً ! مضى، يا لَيْتَني أنْفَقْتُ من مالي ! ما مضى فات، والمُؤَمَّلُ غيب سأفْعَلُ كذا، من يدْري أتَصِلُ لِهذا اليوم أو لا تصِل ؟ في أوّل الصَّيْف سأقْرأُ القرآن، حينما أنْتَهي من الفَحْص سأحْضُرُ مجالِسَ العِلْم ؛ هذا كلامٌ فارغ، أنت لا تمْلكُ أنْ تصل لِهذا اليوم، ولا يمْلِكُ هذا اليوم أن يصِلَ إليك لا تمْلِكُ ماذا يُفْعَلُ بك ولا بي، ولك الساعة التي أنت فيها لا تمْلِكُ إلا هذه الساعة، فإذا قُلْتُ لكم إنَّ أثمَنَ ما في الحياة الوقْتُ! لا أُبالِغ الإنسانُ بِضْعَةُ أيامٍ كلما انْقضى يومٌ انْقَضى جزْءٌ منه جَلَسْتَ لِتَقْرَأَ قِصَّة ما فائِدَتُها ؟ القِصَصُ كلها موْضوعٌ واحد ؛ وصْفٌ للعلاقات البشَرِيَّة، قد يكون هذا الوصْفُ مُبْتَذَلاً فَهِيَ القِصَصُ الرخيصة وقد يكون أدَبِيًّا ولكنَّ الفِكْرة لا تزيدُ عن علاقَةٍ تَمَّتْ بين شَخْصَيْن وانْتَهَتْ بالوِفاق أو الفِراق، ولكن لو قرأتَ آيَةً قُرْآنِيَّة ورأيْتَ ما فيها من سعادَةٍ وصِحَّة لِمَن طَبَّقَها، ثمَّ طبَّقْتها سَعِدْتَ بها، لو وَعَظْتَ إنْساناً بآيَةٍ فأخَذَتْ منه مَأخَذاً بليغاً وانْطَلَقَ في تطْبيقِها لَسَعِدْتَ وأسْعَدْتَ، لذلك ربنا عز وجل أقْسَمَ بالزَّمَن لأنَّ أخطر شيءٍ في حياتك هو الزمن، فالله عز وجل خلقنا لِسَعادَةٍ أبَدِيَّة، هذه السعادة التي تبْدأ من يوم القِيامة وليس لها نِهاية فيها فُرْصَة أُعْطيتَها في الدنيا مجْموعة دقائِق وساعات وأيامٍ وأشْهُرٍ وسنواتٍ إذا عَرَفْتَ كيف تعرف الله فيها وكيف تسْتَقيمُ على أمْرِهِ وكيف تتقَرَّبُ منه كانت تلك الأيام والساعات والشهور زاداً لك إلى الأبد، لذلك قبل أنْ تسْتَهْلِك الوقت اسْتِهْلاكاً رخيصاً، قبل أنْ تسْتَهْلِكَ الساعات، وقبل أنْ تقول سأذْهَبُ معكم إلى هذه النُّزْهة هؤلاء من ؟ هل يُرْضيهم الحديث عن الله عز وجل ؟ اِذْهَبْ معهم إذاً، لا يُرْضيهم ذلك دَعْهُمْ ولا شأنَ لك بهم، قبل أنْ تقول سآتي لأسْهر معكم هل هم من الذين يُحِبُّون الله ورسوله، وهل يُرْضيهم الحديث عن الله ؟ لا إذاً لا شأنَ لك بهم، هذه الساعة ثمينة تَعَلَّم فيها آية، اُدْعوا إلى الله، كُنْ آمِراً بالمعْروف ناهِياً عن المنْكر قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

يُقْسِمُ الله تعالى بِمُطْلَق الزمن، لأنَّه أثْمَنُ ما تمْلِكُه ما مضى فات والمُؤَمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، أو يُقْسِمُ الله سبحانه وتعالى بِعُمُر النبي الثمين الذي ما ضَيَّعَ منه ثانِيَة، في بعض الإحْصاءات أنَّ كُتُبَ الحديث تَضُمُّ ما يزيد عن مئة ألف حديث، ما نطقَ كلِمَةً إلا حقاً، ما من إشارة ولا عبارة، ولا إقْرار، ولا مُلاحظة حتى مُزاحهُ صلى الله عليه وسلّم كان لا يمْزَحُ إلا حقاً، كانَ يُوَجِّه ولم يسكت عن باطل، ولم يدَع فُرْصَةً إلا أمر بالمعْروف ونهى عن المنكر، نحن كلامنا إذا تَكَلَّمْتَ طوال النهار فما هو الكلام الذي تسْتَفيد منه ؟ وما هو الكلام الذي يُمْكِنُ أنْ يُذاع ؟ كُلُّهُ كلامٌ فارغ، النبي صلى الله عليه وسلّم كُلُّ كَلِمَةٍ قالها في حياته الخاصَّة وفي حياته مع أصْحابه هي قانون، مبْدأٌ ثابت وقاعِدَة أساسِيَّة في الحياة اسْتَغَلَّ عُمُرَهُ الثمين واسْتَغَلَّ الليل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8))

[المزمّل: الآية 1-8]

واسْتَغَلَّ النهار، وآيات الكون قال هِلال خير ورشد، ذكَرنا أنَّ هذا الهلال له وظيفتان وظيفةٌ ماديَّة يُضيءُ لنا بالليل، ووظيفةٌ إرْشادِيَّة يُعَرِّفُنا بربِّنا سبحانه وتعالى، فإذا قِسْنا أعْمارنا بعُمُر هذا النبي الكريم نَجِدُها تافهة ورخيصة ولا قيمة لها، لذلك نُمْضيها كيفما اتَّفَق، والله الذي لا إله إلا هو لو عَرَفْنا يوْمَ القِيامة، وهذا نعْرِفُهُ ؛ لو عَرَفْنا قبل فوات الأوان قيمة الزَّمَن -بِشَكْلٍ مُطْلَق - لما هَدَرْنا منه ثانِيَة، ولما ضَيَّعْنا منه دقيقة، ولما غَفَلْنا عن الله عز وجل، أحْياناً يغْفل الإنسان عن ربِّه عز وجل ؛ أُسْبوع أُسْبوعين وهو غافل ؛ أكل وشُرْب ونوم ومزاح وسهَرات، من يضْمَنُ لي أنَّني أعيش إلى الشهْر القادِم؟ من عَدَّ غداً من أجَلِهِ فقد أساءَ صُحْبَة الموت كلام الله وكلامُ ربِّ العالمين، وكلام رافِع السماوات بِغَيْر عمَدٍ، كلام الخالق، يقول سبحانه وتعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

يقول لك: يا أخي هذا معه مئة مليون ! هذا خَسْران ؛ وبَيْتُهُ من أفْخم البيوت و أولاده كثر كُلُّهُم أطِباء ومُهَنْدسون وله... هكذا قال ربنا عن الإنسان الضال والعاصي والجاهل والذي ما عرف الله وما عرف الهدف من خلقه خاسِرٌ ورَبِّ الكعْبة، فإما أنْ نُصَدِّق أو لا نُصَدِّق، لكن إنْ لم نُصَدِّق فَسَوْفَ نُصَدِّق، هذا

امْتِحانٌ لنا، هل لك رؤْيا مُطابقة لِهذه الرؤيا؟ هل ترى إنساناً مُتَفَوّقاً في هذه الحياة دخْلُهُ كبير ويشْغل منصباً رفيعاً ويده طولى في الحياة ؛ هل تراهُ خاسِراً ؟ هل تراهُ خاسِراً خسارَةً كُبْرى لأنه ما عرف الله؟ هل عندك تصوُّر بإنسانٍ نال أعلى الشهادات و نال أعلى مكانة اجتماعية ثمّ رأيتَه لا يُصلي هل تعُدُّه خاسراً ؟ واللهِ لقد قابلتُ إنساناً يحمل شهادتي دكتوراه ؛ دكتوراه في العلوم و دكتوراه في الآداب و يحتلُّ منصباً علميًّا رفيعاً جدًّا، وفي نظري كبير فقال لي: أنا لا أُصلِّي ولكن أمِّي وبنتها تصلِّيان، واللهِ الذي لا إله إلاّ هو بهذه الكلمة هبط من نظري إلى الحضيض، لا تُصلي ! ماذا درستَ إذاً ؟ هذا الذي درستَه آيات باهرات، لذلك الله تعالى قال:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

الغِنى ينتهي بالموت، و المكانة الرفيعة تنتهي بالموت، بالقبر ذهبوا وتركوه وفي التراب دفنوه، ولو بقوا معه ما نفعوه، فلو رافقته عشرون مركبة محملة بالزهور لما أفادته، هذا شيءٌ لا يقدِّم ولا يؤخر، والعصر إنّ الإنسان لفي خسر، فالإنسان بين عَشِيَّةٍ وضُحاها يصير خبراً، يكون إنساناً ملءَ السمع والبصر ؛ له أعداء، له أصدقاء وهناك من يخافه، وهناك من يرْجوه، وهناك من يطمع بماله، فإذا جاءه الموت صار أثراً بعد عين، كان السيّد فلان فأصبح المرحوم فلان، و لم يأخذ معه إلا أعماله ؛ فالإنسان لما يتغافل عن ساعة اللِّقاء؛ يجْهَلُها أوْ يتجاهلها فسوف يُحِسُّ بمَدى خسارته، وغَبْنِهِ ضيَّعَ شيئاً كثيراً، هذه السورة يقرؤها الناس ولو فَقِهوا معْناها لانْقَلَبَتْ حياتهم، ولغَيَّروا خَطَّهُم في الحياة، ولتابوا وأصْلحوا وتَصَدَّقوا، ولاسْتقاموا، وصلّوا، ولصاموا، وفعلوا الخير، والعصْر كلام ربِّ العالمين يُقْسِمُ لكم إنّ الإنسان الكافر إنسانٌ خاسِرٌ، قال تعالى:

(قُلْ إِنّ الْخَاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15))

[الزمر: الآية 15]

وقال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرّطْتُ فِي جَنْبِ اللّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّاخِرِينَ (56))

[الزمر: الآية 53-56]

لما الإنسان تأتيه ساعة اللِّقاء ويُحِسُّ أنّه صفر اليدين، ليس له عمل صالح وعليه سيّئات ومعاصٍ، ساعتئذٍ يواجه الحضرة الإلهية ؛ يواجه أسئلته لماذا فعلتَ كذا ؟ لماذا عصيتَني ؟ لماذا ظلمتَ فلاناً

وبغيتَ على حقّه ؟ قال تعالى: والعصر إن الإنسان لفي خسر خاسرٌ، خاسر خسارة بيّنة واضحة صارخة، إن رأيتَ أهل الدنيا خاسرين فأنتَ مؤمن، وإن رأيتهم أذكياء قد ملكوا الدنيا بأطرافها و عرفوا كيف يعيشون و عرفوا كيف يكسبون المال و كيف ينفقون وكيف يتنزّهون و كيف يسكنون فأنت خاسر، إنهم يُحقّقون أرباحاً كثيرة وينفقون على أهليهم نفقات كبيرة ويأكلون ما لذّ و طاب ويسكنون في البيوت الفاخرة ؛ إن رأيتهم كذلك فلا تصدّق هذا الكلام، قد تقول: صدق الله العظيم ؛ ويقولها الناس جميعاً ولكن و اللهِ الذي لا إله إلاّ هو إن لم تكن لك رُؤيةٌ تطابق هذا الكلام فأنت من الخاسرين فلو قلتَ في نهاية القراءة: صدق الله العظيم، و تصوُّراتِك تُكَذِّبُ هذا الكلام فأنت لا شيء قال تعالى:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76))

[القصص: الآية 76]

هؤلاء الذين يفرحون بالدنيا لا يُحبُّهم الله سبحانه وتعالى، لماذا لايحبُّهم؟ لأنهم سُخفاء، لأنهم ضيّقوا الأفق، فإذا كنتَ أبًا ولك ولدٌ ذكيٌّ نجيبٌ ووضعْتَه في غُرفةٍ راقية و رأيتَه يفرح بلعبه ويُهمل دروسَه وكتبَه وامتحاناتِه تستصغرُه وتحتقرُه، أهذا الذي يفرحك، إن رأيتَه يبكي لشيء سخيف فقده ويضحك لشيء أسخفَ منه مَلَكَه و لا يأبَهُ للدراسة و للعلم فإنك تحتقره، لذلك قال تعالى: لا تفرح إن الله لا يحبُّ الفرحين وقال تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77))

[القصص: الآية 77]

القصة معروفة ؛ قال تعالى

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79))

[القصص: الآية 79]

يكثر حديث الناس عن الأغنياء، أتعرف كم سعر بيت فلان ؟ كذا مليون ؛ تعرف كم مساحته ؟ كذا متر، ما هذا الكلام ؟ أليس لكم حديث آخر ؟ هل تعرف كم كلّفتْهُ هذه الرحلة إلى أوروبا ؟ كذا ألف ليرة، هذا حديث اليوم، عن البيوت و السيارات و الولائم و الأعراس والفنادق، قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81))

[القصص: الآية 79-81]

والعصر إن الإنسان لفي خسر، أنظُرْ إلى التاريخ ؛ أين فرعون ؟ قال تعالى في حقِه:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

[يونس: الآية 90]

أين نمرود ؟ أين هؤلاء الطُغاة ؟ أين هؤلاء الكفَرة الملحدون الذين أنكروا وجود الله عز وجل و سعَوْا في الأرض فساداً، أين هم ؟ هم رهائن أعمالهم، لذلك يقول الله عز وجل: والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أربع صفات إذا توافرت في حياتك فأنت من الرابحين و لستَ من الخاسرين، معرفةٌ وعملٌ و دعوةٌ وصبرٌ، إلا الذين آمنوا فحضور مجلس عام ليس تضييعاً للوقت ولكنه استثمارٌ له، و لما يحضر الإنسان مجلس علم فهو تحت بند إلا الذين آمنوا، أو حضر خطبةً فهو تحت بند إلا الذين آمنوا، أو قرأ كتاب الله فهو تحت بند الذين آمنوا، إذا فكّر في آيات الله و في الشّمس و في القمر في أذنه، في المولود الصغير من خلقه و من كوّنه و من صوّره؟ كيف كان نطفة ثم علقة فمُضغةً فإنساناً سويًا، إذا فكّر في كأسِ ماء، في الحليب، في البيضة، في البحار، في الجبال، فهو تحت بند الذين آمنوا، صراحة يجبُ أن تكون حياتكُم مُقنّنةً فوق هذه البنود، عندك أربعة بنود، بند الذين آمنوا، كل أنواع المعارف الدينية من فقه إلى حديث إلى قرآن إلى معرفة بالله إلى قراءة موضوع علمي استعظمتَ الله من خلاله إلى دعوة إلى الله إلى إقناع الناس و تذكيرهم بآيات الله، فكل نشاط علمي فكري معرفي استدلالي، تأمُل، تفكّر، فأنتَ تحت بند الذين آمنوا، وعملوا الصالحات ؛ فإذا أدّيتَ حقّكَ كزوج فتحْتَ بند الذين آمنوا وعملوا الصالحات كسبتَ قوتَ يومك من طريق مشروع، أحضرتَ لأهلك طعامهم و أمّنْتَ لهم كِساءهم، أخذتَ مريضهم إلى الطّبيب و أمّنْتَ له الدّواء، هذا عملٌ صالح و لو كان لأسرتك، أطعمتَ فقيراً، أو أعنتَ ضالاً، أو علّمتَ جاهلاً،أو شفعتَ لمؤمن عند إنسان تعرفه فحُلّتْ مشكلتُه، أمَطتَ الأذى عن الطريق، وقفتَ لامرأة عاجزة بسيارتك، أنت تحت بند "عملوا الصالحات " فباب العمل الصالح واسعٌ جدًا، إنكم لن تسَعُوا الناس بأموالكم فسعُوهم بأخلاقكم، فإذا أمطتَ الأذى عن الطريق كُتبت لك صدقة وإذا أرشدتَ ضالاً كُتبت لك صدقة، فأبواب اللأعمال الصالحة مفتوحة أعلاها الدعوة إلى الله، و هي صنعة الأنبياء، و لكنك لن تنال أعلاها إلاّ إذا فعلتَ أدناها، يجبُ أن تخدم الناس في كل حاجاتهم، لن تنال أعلى الأعمال إلاّ إذا قبلتَ أن تفعل أدناها، يجب أن تقف للعاجز وتقدِّم كل ما تملك للناس من إمكانيات و خبرة و معرفة و معلومات، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات البند الثاني، وتواصوا بالحق، فيجب أن ينطق هذا اللسان بالحق و يدعوَ إلى الحق وأن لا يُحابي أحداً ولا ينافق ولا يداهن و لا يتملّق، وأن لا يقول شيئًا لستَ قانعًا به ويجب أن لا يسكتَ على باطل، إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق، يجب أن تكون صادقاً جريئاً؛ هذا اللسان لا تأخذُه في الله لومةُ لائمٍ، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تُقرّب أجلاً، و تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، لو كان في النفس خللٌ واحتاجت إلى المُعالجة فيجب أن تصبر وتدعُوَ غيرك أن يصبر، يجب أن تصبر على معالجة الله عز وجل، انظُر إلى الإنسان الراشد إذا ذهب إلى طبيب الأسنان و بدأ الطبيب بحفر سِنِّه و يبدو أن المُخدِّر لا يناسبه ، عنده مرض السكر ؛ و بدأ بحفر سنِّه و عندما وصلت الآلة إلى العصب و شعر بآلام لا تُحتملُ تراه لا يتحمّل و يمسك الكرسيَ بشدّةٍ بالغة حتّى يتحمّل الألم، هو قنوع أن هذا الألم لمصلحته وأن الطبيب يعمل بخبرة فائقة و أن هذا لابد منه، و أن هذا الألم لن يدوم، هكذا حالة المؤمن مع الله عز وجل، إذا ابتلاه الله بالفقر أو الضيق أو فقد ابن، أو فقد شيء ثمين أو ضيّقَ عليه أحد الناس، لا يرى الناس، ولكن يرى ربَّ الناس ويرى أن الله سبحانه وتعالى يعالجه، لذلك فهو يصبر على معالجة الله له و يدعو غيره كي يصبر، هذا معنى، و المعنى الآخر؛ و تواصوا بالصبر ؛ الصبرعن المعصية و الصبر على الطاعة، هذا صبر، قد تصبر على الاستيقاظ باكراً و على كظم الغيظ.

هذه السورة كمعنى فهو سهل و هي من السور التي لا تحتاج إلى تفسير ولكن البطولة أن تملكَ رُؤيةً تنطبقُ على هذه الرُؤيةِ فالله يقول: إن الإنسان لفي خسر، أنت ماذا ترى ؟ إذا كنتَ مع صديق على مقعد واحد في الدِّراسة و شاءت المقادير بهذا الصديق أن يصبح من كبار الأغنياء و أن تكون أنت مُوظّفًا ذا دخلٍ محدودٍ لا يكفيك دخلُك نصفَ الشّهر ؛ وفي ضائقة شديدة و كنتَ مُطيعاً لله عز وجل و هذا الصديق عاصٍ لله، يعني إذا خطر ببالك أن هذا الصديق مُرتاح في حياته، يُعطيه الله، فهذه السورة لستَ في مُستواها و لو عرفتَ معناها، البطولة لا أن تعرف معنى السورة، بل أن تكون في مستواها، أن تُحِسَّ بغِنَى الإيمان، بكى سيدنا عمر قال له: يا عمر لماذا تبكي ؟ قال: كسرى مَلِكُ الفرس ينام على الحرير و أنت رسول الله تنام على الحصير ! قال: يا عمر أمَا ترضى أن تكون لهم الدنيا و لنا الآخرة، يا عمر إنما هي نُبُوّةٌ وليست مُلكاً " هل أنت قانعٌ بما أعطاك الله ؟! قانعٌ بصحّتك، بدخلك، بزوجتك بأولادك، قانعٌ ببيتك، هل ترى أن الدنيا مُؤَقّتةٌ، لا تحتاج إلى كل هذا الإعداد، سنةٌ ونصف بعد ما اشتغل في بيتين كسَّر كل متاعه وبناءه، هدَّم جهدَ العمال، غيَّر الترتيبات كلها و جاء بالإضاءة المخفية والتدفئة المركزيَّة و جاء بترتيب الغرف على النظام الأمريكي و جاء بالمناظر الطبيعية، حينما انتهى البيت و بقيَ دَرَجُ البناء جاءه مَلَكُ الموت، سبحان الله لم يرتَحْ بعدُ، حان الأجل ؛ قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

منذ أسابيع عِدَّة كنتُ في سهرة و كان معنا أخٌ كريم، اليوم بُلِّغْتُ نبأ وفاته رحمة الله عليه، قبل أيَّام كان من أهل الدنيا و الآن من أهل الآخرة، قبل أيام كان يأكل ويشرب مثلنا والآن ليس له إلاّ زادٌ واحدٌ وهو العمل الصالح، دُعيتُ إلى تشييع جنازة أخ من الذين آتاهم الله الدنيا ؛ فالرجل كان صالِحاً ؛ يُصلي ويصوم ويحْضر الدروس، وأحد أهل العِلْم في جنازته قال: كان أخوكم مُؤَدِّن، أنا قلتُ: لا يُذْكر من عمل العبد إلا ما كان للآخرة، فلا يذكر كيف كان بَيْتُه، ولا أثاث بيْتِه، ولا كيف كان عمله، فلما تكون أعمال الإنسان طيِّبَة فهذا هو الذكِيّ، وهذا هو الغنِيّ الغِنى والفقر بعض العرْض على الله، دائِماً اسْأل نفْسَكَ هذا السؤال: ماذا فعلتُ من أجل الله، قال عليه الصلاة والسلام: هل عَرَفْتَ الربّ ؟ قال: نعم، فقال: ماذا صَنَعْتَ في حَقِّهِ ؟ والله سؤالٌ يَقصمُ الظهْر، سلْ نفْسَكَ هذا السؤال: هل تعْرفين الله ؟ تقول لك: نعم إنَّهُ خالق الكون، ماذا فَعَلْتِ من أجْله ؟! في بيتك مخالفات و تقصير و معاص، الزوْجة تفعل ما تشاء و لا رادع، والبنت تائهة، والدَّخْل فيه شُبهة، ما هذه المَعْرِفَة ؟ قال: هل عَرَفْتَ الربّ: قال نعم، قال: فماذا فَعَلْتِ من أجْله ؟! هذا هو السؤال المطْروح، هل وَلَيْتَ منه وَلِياً ؟ لا، هل عادَيْتَ فيه عَدُوًّا ؟ لا، إذاً أنت لا تعْرِفُهُ، سيِّدُنا عمر قال له: هل سافَرْتَ معه فقال: لا، فقال له: هل جاوَرْتَهُ ؟ فقال: لا، فقال له: هل حاكَكْتَهُ بالدِّرهَمِ والدِّينار ؟ فقال: لا، قال عمر: فأنت لا تعْرِفُهُ، أقول لكم قِياساً على هذا الحديث ؛ إنْ كان لك معْصِيَة ولا تدْري عِظَمَها فأنت لا تخافه ولا ترْجوه، هناك عذابٌ في الدنيا يشيب له الولْدان، رجُلٌ ملءُ السمع والبصر يبْكي كالأطْفال، وأنَّهُ هو أضْحَكَ وأبكى، يُسَلِّطُ عليه امْرأة لا ترْحَمُهُ فَيَعْجَز، تقْسو عليه في الكلام والمُعاملة ؛ يبْكي، وتتَخَلى عنه ابنته، ويغيب عنه ابنه، أقرب الناس إليه يتَهَرَّبون منه، يجْعلونه يبْكي، فإذا كُنْتَ لا ترْجو رحمته، ولا تخافُ عذابه فأنت لا تعْرِفُهُ، لا تخافُ النار فأنت لا تعْرِفُه، ألا تخْشى في الدنيا من مَرَضٍ عُضال ! بادِروا بالأعْمال الصالحة فماذا ينْتَظِرُ أحدكم من الدنيا؟ ها هي أمامكم وأخبار من فيها عندكم، لي قريبٌ أخْبروني أنَّهُ أُصيب بالفالِج ؛ ذَهَبْتُ إليه رأيْتُهُ يبْكي بُكاءً مُرًّا، بادِروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟ هل تنْتظرون إلا فقْراً مُنْسِياً، أحْياناً الفقْر الشديد يُنْسي الإنسان ربَّهُ و آخِرَته، أو غِنىً مُطْغِياً أو مرَضاً مُفْسِداً، أو هَرَماً مُفَنِّداً، أو موْتاً مُجْهِزاً، أو الدجال فَشَرُّ غائِبٍ يُنْتَظر، أو الساعة والساعة أدْهى وأمَرّ، لو قضى الإنسان حياته في طاعة الله، والعمل الصالح ؛ مرْحَباً بالموت حبيبٌ جاء على شَوْقٍ، واكَرْبَتاهُ يا أبتي فقال: لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم، غداً نلْقى الأحِبَّة مُحَمَّداً وصَحْبَه.

والله ساعَةُ اللِّقاء للمؤمن هي عُرْسٌ، فإذا الإنسان عمِلَ جاهِداً حتى اشْترى غُرْفَة للنوم، ثمَّ خطب، ثمَّ تزوَّجَ فهل في يومِ عُرْسِه ينْزَعِج ؟!! يقول لك: تعبتُ هذه السنين من أجل هذه الساعة، وحال المؤمن كُلُّهُ تعبٌ، والدنيا تعَبٌ ؛ دَعْوَةٌ إلى الله يخاف أنْ يزيغَ قلبه، وأن يكون في عَمَلِهِ تقْصير، وفي بيْتِهِ خللٌ، أو أنْ يصاب الشِّرك، أو اضْطِرابٍ بالإخْلاص، أو أنْ يكون من المُقصِّرين مع أوْلاده ومع زوْجَتِه أو

إخْوانه، أو أن يكون عِلْمُهُ أكثر من عمَلِه، حياته كُلُّها قَلَقٌ فجاء الموت، وكُشِفَ له مقامه عند الله عز وجل وكان الله راضِياً عنه، حينها يسْعَدُ سعادَةً ما بعْدَها سعادة، الشيءُ الذي يُضْحك أنّ أهله يبْكون وهو يضْحك، قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

[يس: الآية 26]

المُلَقِّنُ يُلَقِّنُ كلاماً للمَيّتِ هو في الحقيقة لنا: اللهم أبْدِلْهُ أهْلاً خيراً من أهْله وبيْتاً خيراً من بيْته، فهذا حال المؤمن إذا كان مؤمناً يُبْدِلُهُ الله كلّ شيءٍ خيراً، قال تعالى:

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32))

[النحل: الآية 32]

وقال تعالى:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

[الحاقة: الآية 2]

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16))

[الذاريات: الآية 15-16]

وقال تعالى

(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28))

[الطور: الآية 28]

ساعات اللِّقاء هي ساعات الفَوْز بالجنّة، و البعد من عذاب جَهَنَّم، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185))

[آل عمران: الآية 185]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38))

[التوبة: الآية 38]

قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

[النساء: الآية 77]

والله حقائق صارخَة إذا فَكّر الإنسان فيها وجعلها نُصْبَ عَيْنَيْه سَعِدَ في الدنيا والآخرة، فهذه سورة قصيرة:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

دائِماً راقِبِ الزمن ؛ من أمْضى عُمُرَهُ بالنوم أتى يوْمَ القِيامة مُفْلِساً، فَقُمَ نحْوَنا في الليل لا تخْشى وحْشَةً؛ سِرْ إلى بيوت الله واسْتَيْقِظ ؛ دَعِ الفِراش الوثير قال تعالى:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16))

[السجدة: الآية 16]

المؤمن لا يأمن من النوم خوفاً من ضياع صلاة الصبح وإذا كان نامَ مساءً للعاشِرَة فإنَّهُ يخاف أن يفوته وقت المغْرب دائِماً خائِف على الصلاة، وهذه هي حال المؤمن قال تعالى:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16))

[السجدة: الآية 16]

هذه السورة:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

غَنِيّ و قويّ و تحْتلّ منصباً رفيعاً أو شهاداتك عُليا، و مكانتك رفيعة في المجتمع فأنت في خُسْر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " لذلك عندك في ذِهنك أربعة بُنود ؛ هذا العمل تحت أي بند ؟ تحت إيمان أو كفر، كُلُّ عملٍ تقومُ به ؛ تحت أيّ بُنْدٍ يأتي، إذا كان ينْضَوي تحت أحد هذه البنود ؛ اِفْعَلْهُ، أما إذا كان لا ينْضَوي تحت أحد هذه البنود فلا تفْعَلْهُ، وقتُك أثمن منه، بعالَمِ التِّجارة ؛ يقول لك: هذه الصَّفْقَة رابحة إذا كانت ستعطي ربحاً كبيراً تسارع إليها و تدعها إذا كان الربح ضئيلاً، لماذا لا تكون الإنسانُ في أعمالك للآخرة كدقتك في تجارتك !

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[العصر: الآية 1-3]

هذه السورة يجب أنْ نعْقِلها، دائِماً ضَعْها في ذِهْنِك، وكُلُّ عَمَلٍ صَنَّفْهُ تحت أيّ بُنْد ؟ إذا لم يكن له مكان في البنود السابقة فَدَعْهُ ؛ جلوسك مع زَوْجَتِك عملٌ صالح، وجلسْتَ مع أوْلادك ؛ هذا عملٌ صالح، دَعَوْتَهُم إلى الله، وآنَسْتَهُم ؛ هذا كُلُّهُ عملٌ صالح، كسِبْتَ رزقاً ؛ هذا عملٌ صالح نَصَحْتَ في عملِك، هذا

عملٌ صالح، ودَعَوْتَ إلى الله، وأمَرْتَ بالمعْروف، ونَهَيْتَ عن المنكر، وصَلْتَ رحِمك ؛ كُلُّ هذه الأعمال طَيِّبَة تَعَلَّمٌ، ودَعْوَةٌ إلى الله، وصَبْرٌ على الطاعة، وعن المعْصِيَة، وعلى المعالَجَة إنْ كنت كذلك فأنت رابحٌ، وإن كنت غير ذلك فأنت خاسِرٌ ولا يعْرِفُ ما نقول إلا من اقْتفى أثر الرسول، ولا تعْرِفُ هذه الحقيقة إلا عند ساعة اللِّقاء، عندها تعْرِفُ ما إذا كنت خاسِراً أم رابحاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الهمزة 104 -الدرس (1-1): شرح السورة كاملة .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-06-29

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9))

[الهمزة: 1-9]

قالوا: هذا الوَيْل الهلاك والشقاء والخسارة، وقالوا: واد في جَهَنَّم ؛ من أَشَدِّ أَوْدِيَتِها عذاباً، هذا وعيدٌ من الله عز وجل، والوعيد يُؤخذ على الذي يوعِدُ، لأنَّه إنْ قال لك إنسانٌ سأُريك فخوفك بمقدار قدرته ؛ قال:

زعم الفَرَزْدق أنْ سَيَقْتُل مَرْبعاً أبْشِر بطُول سلامةٍ يا مَرْبَعُ

الكلام يُؤخذ على قائِلِهِ لا على نَصِّهِ، قائِلُ هذا الكلام ربُّ العالمين يقول للكافر: وَيْلٌ، أيْ الشقاءُ والهلاك، وكُلُّ أنواع البلاء سوف ينْتظر هذا الإنسان، أيُّ إنسان ؟ ويل لِكُلِّ همزةٍ لُمَزة، الهُمَزَة كأنْ تقول فُلان ضُحَكَة أيْ يضْحك على الناس، فإن قُلْتَ: فلانٌ ضُحْكَةٌ يعني يضْحَكُ عليه الناس ووجْهُ فُعَلة أو فُعْلَة من صِيَغ المُبالغة ؛ كثيراً ما يضْحك على الناس ويسْخَرُ منهم، وإنْ قُلْتَ: ضُحْكَة أيْ كثيراً ما يفْعَلُ أفْعالاً شنيعة تُسَبِّبُ أنْ يضْحك عليه الناس، فُعَلَة يكون الضَّحِكُ منه، أما فُعْلَة يكون الضَّحِكُ عليه، الآن هُمَزَة هو الذي يعيب الناس ؛ يعيبُ عليهم بيوتَهُم، ولِباسهم، ودَخْلَهُم، كم يُعْطونك بالشَّهْر ؟ فإذا قال: ألف، يقول له: وهل هذه تكْفيك !! لأنَّ دخْلَهُ هو كبير ؛ فاحْتَقَرَ هذا الدَّخْل، إذا الإنسان يعْرف الله عز وجل وراضٍ بربِّه تكْفيه هذه الألف ؛ ويل لِكُلِّ همزةٍ لُمَزة.

قال العلماء في الفرق بين الهُمَزَة واللُّمَزَة ؛ أقْوالٌ كثيرةٌ أشْهَرُها: أنَّ الهُمَزَة هو القتات؛ الذي يوقِعُ بين الناس، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما روي عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ هَذَا يُبَلِّغُ الْأُمَرَاءَ الْحَدِيثَ عَنِ النَّاسِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ قَالَ سُفْيَانُ وَالْقَتَّاتُ النَّمَّامُ))

وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

[رواه الترمذي]

وقالوا: اللُّمَزَة هو العَياب الذي يعيبُ على الناس اسْتِعْلاءً بما عِنْدهُ، وقالوا: الهُمَزَة هو الذي يطْعَنُ في الوَجْه بوَقاحة، واللُّمَزَة هو الذي يطْعن في الغَيْبَة، وقالوا: الهُمَزَة الذي يسْتَخْدِمُ العَيْب يعيبُ الناس بلَفْظِه، واللُّمَزَة يعيبُ الناس بحَرَكَتِه، يُقَلِّدُهم ويجْوي أنفه عنهم، وقالوا: الهُمَزَة هو العَيْب، واللُّمَزَة وسيلَتُهُ فهذا الذي عيبُ على الناس حاجاتِهم ؛ دَخْلُهُم أشْكالهم، أسْخَرُ شيءٍ أنْ يسْخر إنْسانٌ من شَكْلِ إنسان ؛ هذا خَلْقُ الله عز وجل ؛ هل هو الذي خلق نفْسَهُ، هذا سوءُ أدَبٍ مع الله، رُبَّ أشْعَثَ أغْبر ذي طمْرَيْن لو أقْسَمَ على الله لأبَرَّه ؛ الأحْنف بن قَيْس كان قصير القامة أسْمر اللّون، مائل الدّقن، غائِر العَيْنَين، ناتئ الجَبهتين، ضَيّق الكَتِف قالوا:

ليس شيءٌ من قُبْح المنظر إلا وهو آخذٌ منه بنَصيب.

وكان مع ذلك سَيّد قَوْمِه، إذا غَضِب غَضِبَ لِغَضْبَتِهِ مئة سَيْفٍ لا يسْألونه فيما غَضِبَ، الإنسانُ يُقاسُ بعِلْمِه وعملِهِ وأخْلاقه ؛ هذا هو مِقْياسُ الرجل فهذا العَياب يعيبُ على الناس أشْكالهم و ألْوانهم وأحْجامهم وبَيْتَهُم وأثاثهم ويل لِكُلّ همزةٍ لُمَزة ؛ هناك سَبَب، ما هو الذي يدْعو هذا المعيب إلى أنْ يعيب الناس ؟! يسْتَعْلي عليهم لأنه صاحبُ مالٍ وغَنِى قال تعالى:

(الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (2))

[الهمزة: الآية 2]

جَمْعُ المال غير كسْبِ الرِّزْق، قد يكسب الإنسانُ رزْقاً وهذا عملٌ طيّب وهو أحد أنواع العِبادة لكنّ الإنسان أحْياناً يتجاوز الحدّ المعْقول إلى جمْع الجمْع، عندئِذٍ يُصْبح البخل ؛ جمع مالاً وعَدَّدَهُ معنى عدَّدَهُ أيْ أعَدَّهُ لِشَيْخوختِهِ ؛ صاحب دار سينما اشْتغل طول حياته في جمْع المال، وجاءَهُ مرضٌ خبيث ؛ له ابن أُخت وكان تلميذي ؛ صار يبْكي بُكاءً مُرًّا ويقول: أعْدَدْتُ هذا المال لِخريف عُمري و هأنذا أموت ولم أسْتَفِد من عُمُري ؛ قال: الذي جمع مالاً وعَدَّدَهُ، من معاني عَدَّده أعَدَّهُ لِشَيْخوختِه، وأعَدَّهُ لِمَلَذاته وافْتَخَر به أنا عندي كذا وكذا قال تعالى عن قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ(78))

[القصص: الآية 78]

وعَدَّهُ كلَّ يوم، غلق الباب وفتح الصندوق وعَدَّدَ الذهب... وأمعن النظر فيها ثمّ أغلق الصندوق ؛ هذا شأنُ البخلاء الذي جمع مالاً وعدَّدَه إما أنَّهُ أعَدَّهُ لِشَيْخوختِه، أو حَسَبَهُ كلّ يوم، كي يبْعَثَ في نفْسه الطمأنينة ؛ أنا غَنِيّ وأنا عندي مالٌ لا تأكله النيران، الذي جمع مالاً وعَدَّدَه، هذا يَحْسَبُ أنّ ماله أخْلده ؛ الدراهِم مراهم

إذا كنت في حاجةٍ مُرْسِلاً فأرْسِل حريصاً ولا توصِهِ

وهذا الحريص هو الدِّرْهم، يقول لك: الدرهم يَحُلُّ لك كل شيء، عنده المال كلّ شيء، يحْسَبُ أنّ ماله أخْلده ؛ من معاني أخْلده أنّهُ لن يموت ومادام غَنِياً فلن يموت !!، ومن معانيها الأخرى أنّ المال يُطيلُ العُمر، لا تظهر عليه علائم الشيخوخة ؛ أكلٌ وشُرْبٌ وراحة ووسائِل حديثة وسيارة، يحْسَبُ أنّ ماله أخْلده.

هذا المال لا بد أنْ تترُكَهُ وأن يترُكَكَ، لابد من أنْ يفْتَرق عنك، حتى أنّ بعض علماء اللغة قال: ماله ؛ أيْ ليس له، ما نافِيَة فهو ليس له، ولأنه ليس لك إلا ما أكَلْتَ، يقول أحد الأعراب وهي قِصّة مُتَرْجَمَة كان يقْطع الصحْراء على ناقَةٍ عليها زاده وطعامه، وبعد مُدّةٍ نفد طعامه وشرابه وأيقن بالهلاك فأبصر عن بُعْدٍ شجرةً فأشْرق في نفسه نورٌ من الأمل، وهُرع إلى الشجرة فإذا إلى جانبها بِرْكَة ماء، فَشَرِبَ منها حتى ارْتوى ثمّ تولى إلى الظِلّ وحالتْ منه التِفافة فإذا بِجانِبِ الماء كيس، فَسُرّ به سُروراً عظيماً وهو يَحْسَبُ أنّ فيه خُبْزاً ولما فتح الكيس وصاح يا للأسف ! لم يجد فيه إلا لآلىء ؛ كان على وَشَكِ الموت فهو يريد خبزاً لا لآلىء ؛ الشيء الثمين هو الطعام والشراب مادامت الصحة طيّبَة وعندك قوتُ يَوْمِك فأنت في أكبر الغِنى، إذا الإنسان معه مئات الملايين و أصيب بهبوط مُفاجِىء في وظائِف الكِلْيَتَين ؛ ما العِلاج ؟ العلاج غسيل الكِلْيَتَين، كل أسبوع مَرّتَيْن وإلا يموت، الحل الثاني زرْع كِلْيَتَين تحتاج آلاف الليرات ! يحْسب أنّ ماله أخلده، ربنا عز وجل يقول كلاّ أداة ردْعٍ وزجْر ؛ إنّ المال لن يُخْلِدَك في الدنيا، وظِلٌ زائِل، وعاريَةٌ مُسْتَرَدّة، قال تعالى:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلّا الْخَاطِئُونَ (37))

[الحاقة: الآية 29-37]

فلذلك الإنسان إذا ظنّ أنّ المال هو كُلُّ شيء فقد وقع في ضلال مُبين قال تعالى:

(يَحْسَبُ أَنّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلّا لَيُنْبَذَنّ فِي الْحُطَمَةِ (4))

[الهمزة: الآية 3-4]

تأمّلْ كلمة لَيُنْبَذَنّ؛ أحياناً الإنسان يرمي علبةً فارغةً أو باحتقار و بغير خجل، أمّا إذا كان في جيبه شيء ثمين فإنه يخاف عليه الشيء السخيف في الطريق تدوسه و لا تُبالي، كغلاف علبة سيجارة مثلاً أنظُرْ إلى النبذ ؛ استعلى على الناس و احتقرهم فاحتقره الله عز وجل هذه بتلك ؛ همزة لمزة، عيّار لمّاز، مُستعلٍ مُتكبّرٌ ؛ كلاّ لَيُنبَذَنّ، كلامٌ بليغٌ كلاّ لينبذَنّ، ليتَهُ يُنبَذُ وكفى، لكن ينبذ في الحطمة، الحطمة نار تُحطِّمُه تحطيماً ؛ تحطِّم كبرياءه، وما أدراك ما الحطمة نار الله، أُضيفتْ النار إلى الله، إذا قلتَ نار زيدٍ فهي نار معروفة ضئيلة، نار القُرن ألفٌ وخمس مئة درجة، لكن قال نار الله، لذلك النبي عليه

الصلاة والسلام دعا على أبي جهل و قال: **" أكله كلبٌ من كلاب الله "** ما كلاب الله ؟ قالوا السَّبُع، لما النبي الكريم نسبَ الكلبَ إلى الله، معناه أن الكلب غيرُ عادي كلبٌ مُخِيف، نار الله المُوقدة التي تطّلِع على الأفئدة، تحرق الجِلدَ والعضلات و تحرقُ العظام إلى أن تصل إلى القلب الذي هو مناط التكليف مناط الخير، مناط الشر هو الذي ينوي السوء، وينوي الباطل، وهو الذي يُوقِع بين الناس، قلب غير سليم، نار الله الموقدة التي تطّلِع على الأفئدة إنها عليهم مُؤْصدة.

أيها الإخوة الأكارم، قال تعالى:

(نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7))

[الهمزة: الآية 6-7]

هو الذي يوقع بين الناس قلبٌ غيرُ سليم.

ثمّ قال تعالى:

(إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8))

[الهمزة: الآية 8]

في بعض التفاسير مُسَلّطة، أحياناً هناك نارٌ كثيفة جداً بِشَكْل حُزْمة، فهذه مُخيفة، تراها فيها اِنْدِفاع.

ثمّ قال تعالى:

(فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9))

[الهمزة: الآية 9]

أيْ مُرَبَّطون، ومُكَبَّلون، فلا يسْتطيعون أن يفْلتوا منها، فمعنى قوله تعالى:" في عمدٍ مُمَدَّة أيْ أنَّهُم مُحاطون بها، ولن يسْتطيعوا الخُروج منها، قال تعالى:

(إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8))

[الهمزة: الآية 8]

أيْ مُسَلّطة، وهم مُرَبوطون ومُقَيَّدون:

(فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9))

[الهمزة: الآية 9]

ويلٌ لِكُلّ هُمَزة لُمَزة، والله هذه السُّوَرُ القصيرة يَنْخلعُ القلب لها، نحن نقْرؤُها كثيراً، قالتْ له إنَّها قصيرة، فقال لها: يا عائِشَة، لقد قُلْتِ كلاماً لو مُزِجَ بِمِياه البحْر لَأفْسَدَتْهُ اُنظر إلى كلام الناس الآن، يُقَيِّدون الإنسان بِلوْنه وطوله و شكله ! ماذا تفْعَلُ أنت ؟! هل أنت مُراقب؟ قال تعالى:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (2))

[الهمزة: الآية 1-2]

كأنَّ الله سبحانه وتعالى في هذه السورة يتحَدَّثُ عن قيمةٍ كُبْرى من قِيَم الدنيا، وهي المال، فالدراهِم كالمراهم ! كذا يُقال، الإنسان بِأُروبا قيمتهُ بِقيمَة دراهمه في البنك، الناس يقولون: إذا لم يكن معك قِرْش

فأنت لا تُساوي قِرْشاً ! قِيَمُ الدنيا هذه يجبُ أنْ تُحَطَّم ! سلْمانُ منا أهل البيت ونِعْم العبدُ صُهَيْب لو لم يخَفِ الله لم يعْصِهِ، ورُبَّ أشْعَثَ أغْبر ذي طِمْرين، مدْفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرَّه، وأهْلاً بِمَن خَبَّرَني جبريل بِقَدومه ! قال أوَمِثْلي ؟! فقال: نعم يا أخي، خامِلٌ في الأرض عَلَمٌ في السماء، لا تنْظر إلى الدَّخْل، وأنَّك لا تمْلِكُ بيْتاً، فقد تُوُفِّيَ صلى الله عليه وسلَّم وهو لا يمْلِكُ إلا سبْعَةَ دراهم، قبل أنْ يأتيهِ النَّزْعُ الأخير قال: ما ظنُّ محمّد بِرَبِّه، إنْ ماتَ وهو عنده هذه الدراهِم؟ أنْفِقُوها، الآن تجد الواحد فينا يموت ويتْرك مالاً لا يُعَدّ ! فالإنسان لما يموت تُرَفْرِفُ روحُهُ فوق النَّعْش، تُخاطبُ أهْله فتقول: يا أهْلي يا ولدي، لا تلْعَبَنَّ بِكم الدنيا كما لَعِبَتْ بي، جَمَعْتُ المال مما حلَّ وحرم، فأنْفَقْتُهُ في حِلِّهِ وفي غير حِلِّهِ فالهناءُ لكم والتَّبِعَةُ علي، فقال عليه الصلاة والسلام: ما من أحدً إلا وَمَلَكُ الموت يقف في بيْتِهِ خمْس مرات، فإذا رأى أنَّ العبْد انْقَضى أجَلُهُ وانْقَطَعَ رِزْقُه، ألْقى عليه غَمَّ الموت فَغَشِيَتْهُ سَكَراتُهُ، فَمِن أهْل البيت الضاربة وجْهَهَا، ومن أهْل البيت الصارخة بوَيْلها، يقول هذا الملك: فيمَ الجَزَع ؟! ومِمَ الفزَع ؟ ما أذْهَبْتُ لِواحِدٍ منكم رِزْقاً، ولا قَرَّبْتُ له أجَلاً، وإنَّ لي فيكم لَعَوْدَة والعَوْدة، حتى لا أُبْقي منكم أحَداً، فوالدي نفسُ محمد بيَده لو يرَوْنَ مكانه ويسْمعون كلامه لذَهِلوا عن مَيِّتِهم، ولَبَكوا على أنْفسهم، فهذه السُّوَر الصغيرة يجب أن نعْقِلها، وأن نفْهَمَها، أبْعادُها خطيرة، ومراميها بعيدة ودقيقة، قيمة المال، سورة اليوم هي عن قيمة المال، يا عائِشَة إذا أردْت اللُّحوق بي لِيَكْفِكِ من الدنيا كَزادِ الراكب، ولا تسْتخلقي ثوْباً حتى ترْقَعيه، وإياك ومُخالطة الأغْنياء، إذا دخلتَ على الغَنِيّ تجد حالك لا تمْلك شيئاً من الدنيا ! يقول لك هذه التُّرَيَّة ثمنها ثلاثون ألف ليرة منذ ثلاثين سنة! أما الآن فلا ثمَنَ لها طبعاً لا بد أن تفهموا أيها الإخوة أنَّنا نقصد بالأغنياء غير المؤمنين، أما المؤمن الغنيّ فتشْتهي أن تكون مثله، فليس الفقير الصابر بأصبر من الغنيّ الشاكر فَحَبَّذا المال أصون به عِرْضي، وأتَقَرَّبُ به إلى ربِّي، فالمؤمن الغنيّ سَموح ويَحُلُّ مشاكل الناس.

تعليق صغير على هذه السورة، الله تعالى قال:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1))

[الهمزة: الآية 1]

فالله سبحانه وتعالى يَتَوَعَّدُ هؤلاء، فَلَو أجْرَيْنا مُوازنة بين أن يتَوَعَّدَ إنسانٌ إنساناً ؛ إذا قال لك إنسان سوف ترى ما سَأفْعَلُ بك، وجاءَكَ الوعيد من الله هل يسْتويان ؟! إذا قالها الإنسان كان هناك لدينا ثلاث احْتِمالات: الاحتمال الأول: هو اِحتِمال أنْ لا يعيش هذا الإنسان، قد لا يسْتطيعُ هذا الذي تَوَعَّدَك أنْ يعيش لهذا الوقت الذي تَوَعَدَّكَ فيه.

والاحتمال الثاني: قد يعيش لِهذا الوقت ولا يمْلكُ القوَّة يفْقِدُها.

والاحتمال الثالث: قد يبْقى حياً قَوياً ولكِنَّكَ أقْوى منه، فَيَتَوَقَّف ! لكن إذا تَوَعَّدَك الله سبحانه وتعالى، فهُوَ حيٌّ قَوِيٌّ قاهِر، حيٌّ على الدوام وقاهِر على الدوام، وقوِيٌّ على الدوام، ووعيدُهُ حقّ ولا محالة واقِع، فالإنسان إذا تَلَقى التَّهْديد فإنَّهُ يَزِنُ هذا التهْديد بالإنسان المُهَدِّد، أما الله خالق الكون.

النقْطة الثانِيَة: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما قال:

(نَارُ اللّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9))

[الهمزة: الآية 6-9]

بالإضافة إلى شِدَّتِها، أيْ أنَّ لا أحد في الكون يسْتطيع إطْفاءَها ولا أنْ يُنَجِّيَكَها، فهذا إذا كان بين الناس ويقول لك أحدهم لا أستطيع أنْ أتَدَخَّل

لِقُوَّة فُلان، فَكَيْف بِقُوَّةِ الله ! فالله تعالى قال:

(نَارُ اللّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9))

[الهمزة: الآية 6-9]

أرجو أنْ تكون هذه السورة في قُلوبكم وفي أذْهانِكُم دائِماً، لأنَّ الإنسان إذا خاف اسْتقام، وإذا عَرَفَ الله تعالى اسْتقام، وإذا عرف أبْعاد هذه

السُوَر هذا كلام الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفيل 105 -الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1- 5 قصة أصحاب الفيل والحكمة منها.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-07-05

بسم الله الرحمن الرحيم

جعل الله تعالى سورة الفيل تأكيداً لسورة الهمزة :

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ*أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ*وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ*تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ*فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

إنّ الله سبحانه وتعالى في سورة الهمزة:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ*الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ)

توعّد الكفار بعذاب النار، فجاءت سورة الفيل تأكيداً لهذا الوعيد، وإن الذي توعده الله سبحانه وتعالى الكفار يوم القيامة لا شك واقع، لأن نوعاً من الهلاك حصل لقوم اجترؤوا على حرم الله عز وجل فأهلكهم الله عز وجل، فجعل سورة الفيل تأكيداً لسورة الهمزة، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام وُلد بعد خمسين يوماً من حادثة الفيل، فحينما جاء أبرهة الأشرم من الحبشة ليهدم الكعبة، كان النبي صلى الله عليه وسلم في بطن أمه، وبعد خمسين يوماً ولد النبي عليه الصلاة والسلام، والخطاب موجَّه للنبي عليه الصلاة والسلام، فكيف يقول الله عز وجل لشيء لم يره النبي عليه الصلاة والسلام:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

الإنسان يتلقى معلوماته الأولية عن طريق السمع والبصر :

بعضهم قال: (ألم ترَ) هنا بمعنى (ألم تعلم)، وما دامت (ألم تر) بمعنى (ألم تعلم)، فلِمَ عدل الله تعالى عن قوله: (ألم تعلم) إلى قوله: (ألم تر)؟ الحقيقة أن الإنسان يتلقى معلوماته الأولية عن طريق السمع والبصر، قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة النحل: 78]

أول شيء يتلقاه الإنسان من العالم الخارجي الأصوات عن طريق الأذن، ولذلك أكثر الآيات القرآنية التي تتحدث عن السمع والبصر بدأت بالسمع لأن السمع يسبق البصر، ولو أن مولوداً ولد لتّوه وسمع صوتاً لتحرك، لكنك لو وضعت يدك أمام عينيه فلا تطرفان إلا بعد ثلاثة أيام، فالمعلومات التي تستقيها عن طريق السماع تكون أولاً، ثم المعلومات التي تستقيها عن طريق البصر، وهذه المعرفة سماها العلماء المعرفة الحسية، فإمّا هو شيء سمعته أو شيءٌ أبصرته، ومع أن حاسة السمع تسبق حاسة البصر إلا أن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع، بمعنى أن الشيء الذي تشاهده لا يحتاج إلى برهان، لكن الشيء الذي تسمعه يحتاج إلى دليل، يحتاج أن تقول لصاحبه: صادق أو كاذب، فصار أعلى درجة من ثبوتيات الحقائق ما شاهدته بعينيك. سيدنا علي رضي الله عنه يقول: " بين الحق والباطل أربعة أصابع". بين أن تقول: سمعت، وبين أن تقول: شاهدت، قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة النحل: 78]

الإنسان تميَّز على الحيوان بأنه يملك إضافة إلى المعلومات الحسية معلومات استدلالية:

المفسرون قالوا: الأفئدة هي العقل، أو هي الدماغ، أو هي الفكر، فَأَدَ الشيء بمعنى ربطه، والإنسان عنده مدركات حسية، فمنها ما رآه بعينيه، وما سمعه، وما ذاقه بلسانه، وما شمه بأنفه، وما لمسه بيده، فهذه مدركات حسية، وعنده معارف استدلالية، هذه المدركات الحسية تعطيه المواد الأولية، ومنها يستنبط المعلومات والحقائق.

لذلك فالإنسان تميَّز على الحيوان بأنه يملك إضافة إلى المعلومات الحسية معلومات استدلالية، وهذه التي سماها ربنا سبحانه وتعالى علم اليقين، أما عين اليقين فمشاهدة الشيء، فمن حيث التسلسل هناك سمع، وهناك بصر، وهناك استدلال، فقد ترى دخاناً، فتقول: لا دخان بلا نار، فتستدل بالدخان على النار. ومن حيث الثبوت واليقين فالمعرفة التي حصلت عن طريق الرؤية تقع في قمة هذه الحقائق، فهل يُعقل أن يكون إخبار الله عز وجل عن حادثة الفيل أقلَّ رتبة من الرؤية؟ وهذا يعني أنك أيها الإنسان إذا أخبرك الله بشيء فيجب أن تتلقفه وكأنك تراه لثبوته، لذلك ربنا عز وجل عدل عن قوله تعالى "ألم تعلم، ألم تُخبر، ألم تسمع"، قال سبحانه: "ألم تر"، لأن الذي يخبرك الله به من حيث اليقينُ والثبوتُ والتأكيدُ هو بمرتبة الرؤية:

(أَلَمْ تَرَى)

بقيت هذه (لم)، فيعربونها حرف جزم ونفي وقلب، أمّا أنها حرف جزم فلأنها تجزم الفعل المضارع، وأما أنها حرف قلب فلأنها تقلب زمنه من الحال أو الاستقبال إلى الماضي، أيْ أما رأيت في الماضي، واللهُ سبحانه وتعالى أخبر نبيه عما فعله بأصحاب الفيل، وموضع الفيل بعد قليل أفصِّل فيه، فهذه (تَرَ) فعل مضارع، وحينما دخلت عليها لم قلبت زمنه إلى الماضي، وأنت يا محمد يجب أن ترى، أو لقد رأيت، أو ألم تر، فهذه الهمزة همزة استفهام، وهذا الاستفهام استفهام إنكاري، والاستفهام الإنكاري فيه نفي، والفعل مسبوق بحرف نفي فصار نفي النفي إثباتاً، فنفيُ النفي إثباتٌ:

(أَلَمْ تَرَى)

أيْ لقد رأيت.

الله سبحانه وتعالى إذا روى قصة فهي عبرة تبقى إلى نهاية الحياة وعلى مدى الأجيال:

القصة كما ترويها الكتب أن ملك الحبشة كان نصرانياً، أراد أن يبني في عاصمة ملكه صنعاء كعبة كالتي في مكة المكرمة، وأراد أن يصرف الناس إليها، وأن يصرف الناس عن مكة إلى صنعاء، فسمع بهذا أحد الأعراب ممن كان في مكة، فجاء إلى صنعاء وقعد في هذا البيت الكعبة المزعومة، بمعنى آذاه، فحينما بلغ ملك الحبشة هذا الحدث غضب، وأرغى وأزبد، وقال: لآتين الكعبة ولأهدمنَّها، فجهز جيشاً كبيراً جراراً، وتوجه نحو مكة المكرمة.

القصة طويلة فيها إضافات، قد تكون صحيحة، وقد تكون غير صحيحة، فساق لهدم الكعبة جيشاً قوامه الأفيال، وجعل في مقدمتهم فيلاً عظيماً، ولما وصل إلى ظاهر مكة طلب زعيمها، وكان عبد المطلب زعيم مكة، وكان قائد هذا الجيش أبرهة الأشرم قد استولى على مئتي ناقة لعبد المطلب، فلما التقى أبرهة الأشرم بعبد المطلب لم يحدِّثه إطلاقاً عن غزو الكعبة وعن هدمها، بل قال: أريد أن ترد علي إبلي، فأبرهة الأشرم عجب أشد العجب، أنا أتيتُ لهدم كعبتكم، ولهدم مقدساتكم، ولهدم دينكم، ولهدم مكان حج العرب إليكم، وتقول لي: ردَّ علي إبلي!! فلما واجهه بهذا العُجب، قال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وإن للكعبة رباً يحميها، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم طيراً أبابيل، أيْ طيراً ضعيفة، رمتهم بحجارة فأبادتهم عن آخرهم، كما أن الفيل الكبير الذي تقدم الجيش أبى أن يتقدم نحو الكعبة، وعاد إلى صنعاء، وحينما كان يوجَّه نحو صنعاء يمشي، وإذا وُجِّه نحو الكعبة توقف:

((عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ فَوَ اللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ

بِثَنِيَّةِ الْجَيْشِ فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيراً لِقُرَيْشٍ وَسَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حلْ فَأَلَحَّتْ فَقَالُوا: خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ...))

[البخاري عَنْ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ]

الحقيقة هذه قصة، ولكن القرآن الكريم إذا ذكر قصة فينبغي أن تكون لها مدلولات كبيرة باقية على مر الأزمان والأيام، وما جاء في القرآن الكريم من قصص ليست مجردَ رواية حدث، ولا إملاء وقت فراغ، ولا إمتاع سامع، هذه كلها أهداف رخيصة لكتَّاب القصص، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا روى قصةً فهي عبرة تبقى إلى نهاية الحياة، وعلى مدى الأجيال.

إذا نسبت الفعل إلى الله مباشرةً بلا أسباب فهذا خرق لنواميس الكون :

أراد أبرهة الأشرم أن يعتدي على الكعبة التي هي بيت الله الحرام:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 69]

هذا بيت الله عز وجل، فلما أراد أبرهة الأشرم أن يعتدي عليه تولى الله ردَّه، وبالمناسبة ما هو معروف أنّ النار تحرق السكين، والسيف يقطع، وهناك حوادث تقع دائماً، فالله سبحانه وتعالى جعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل حدث علةً، خلق الكون، وخلق له قوانين وجعل له سنناً ونواميس، أيْ قواعد، فتجري الأفعال وفقها وخلالها، ولكن الله سبحانه وتعالى أحياناً يحرق بلا نار، مثلاً، هناك موت بسبب توقُّف القلب والنبض، والجملة العصبية كفَّت عن العمل، وهناك أسباب كثيرة للوفاة، وقد تحدث وفاة بلا سبب، فربنا عز وجل قال:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

إنّ هذا الفعل منسوب لله عز وجل، وهذا الفعل خلاف النواميس الطبيعية، أن تقول: إن هذه الطير معها جراثيم الجدري، وقد أصابت هذا الجيش، فهذا فعل الله المباشر، ولا يخضع لقوانيننا، ولا يخضع لنواميس الكون، وكيف أن البحر صار أرضاً تحت أقدام سيدنا موسى، فأيُّ قانون هذا؟ وكيف أن النار كفَّت عن إحراق سيدنا إبراهيم؟ قال عز وجل:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

[سورة الأنبياء: 69]

ما يحدث في العالم دائماً له قواعد وله قوانين وله مبادئ وسنن ونواميس، ولكن أحياناً حينما تنسب الأفعال تُنسب إلى الله عز وجل، على أنه مسبب الأسباب، لكنك إذا نسبت الفعل إلى الله مباشرةً بلا أسباب فهذا خرق لنواميس الكون.

جعل الله عز وجل إهلاك أصحاب الفيل درساً للبشرية إلى انقضاء الزمان :

علماء التوحيد قالوا: النار لا تحرق إلا بإذن الله وإرادته، وجمعوا عقيدتهم هذه بكلمة (عندها لا بها)، أي عند وجود إرادة الله عز وجل في الإحراق فإنّ النار ستحرق، وإذا أراد الله عز وجل أن يحرق إنساناً أتته النار فأحرقته، هذا شيء ألِفه الناس جميعاً، وهؤلاء الذين أرادوا أن يهدموا بيت الله الحرام، كأن الله سبحانه وتعالى لو ألْهَمَ قريشاً أن تقاتلهم، وأن تنتصر عليهم لبدا ذلك أمراً طبيعياً، غزوة رُدت، وحرب انتهت، ولكن الله سبحانه وتعالى تولّى بنفسه إنهاء هذه الحملة وسحقها وإحباطها، لأن هؤلاء اعتدوا على بيته، وهذا بيت الله الحرام، لذلك جعل الله عز وجل هذا الإهلاك درساً للبشرية إلى انقضاء الزمان:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

العلماء قالوا: إنّ النبي عليه الصلاة والسلام ولد في عام الفيل، وكان من الطبيعي أن هناك أناساً عاصروا هذا الحادث، ولما وُلد النبي صلى الله عليه وسلم كان عمرُ بعضهم يزيد عن السبعين، فهذا لما كان عمره عشرين سنة رأى هذا الحادث، وبعضهم كان يزيد عن الثمانين، وثمّة رجلان من قريش حينما بُعث النبي عليه الصلاة والسلام كان عمرهما يزيد على مئة وعشرين عاماً، فحينما كانوا في الستين رأوا هذه الحادثة، فلو أن هذه الحادثة لم تقع، أو وقعت بغير هذا الوصف، لردَّها هؤلاء الذين عاصروها: وقالوا: محمد يكذب، لكن الله عز وجل وهو أصدق من قال روى شيئاً رآه أناس بأم أعينهم:

(أَلَمْ تَرَى)

أي عام الفيل، وحادثة الفيل من الأشياء التي استيقنها الناس قبل النبي وبعده، لذلك قال الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ)

لمَ لم يقل: ألم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل؟ لمَ جاءت كلمة " كيف "؟ المقصود أن تقف عند الكيفية، كيف أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، ولكن كن فيكون وفق الأسباب.

هناك نوع من أفعال الله عز وجل لا تخضع للنواميس :

إذا طلب إنسان من الله الغنى، فهل يستيقظ صباحاً فيرى مئة ألف تحت وسادته؟ لا، يلهمه عملاً يدر عليه مالاً، ومع تتابع الأيام والشهور يصبح غنياً، فأغناه وفق النواميس، ووفق السنن والقوانين التي وضعها الله عز وجل، وهذا شيء نعرفه جميعاً، لكن هناك نوع من أفعال الله عز وجل لا تخضع للنواميس، مثلاً: يتزوج الرجل امرأة وينجب مولوداً، فالله جعل رحماً، وجعل مبيضين، وجعل أنبوبين، وجعل حيواناً منوياً، وجعل هذا الحيوان يسبح في سائل، وسخّر مئتين وخمسين مليونَ حيوان يتجه نحو المبيض، والمبيض فيه بويضة، والبويضة تختار أقوى هذه الحيوانات، يدخل هذا الحيوان البويضة فيلقحها، ثم تنقسم البويضة عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم، وهناك إذا وصلتْ تلتصق به، وتبدأ الخلايا تنقسم، ويزداد حجمها، فينشأ تخطيط أولي للدماغ، ثم للأحشاء، ثم للأعضاء، ثم للقلب، وهكذا يكبر الجنين حتى يبلغ تسعة أشهر وعشرة أيام، ثم يخرج إلى الدنيا، هذا النمط الذي خلقه الله عز وجل، وهذه سنة الله في خلقه، وهذا هو الناموس الأكبر، وهذا هو النظام بالتوالد، ولكن سيدنا آدم خُلق بلا أب ولا أم، خلافاً لهذه القاعدة، وسيدنا عيسى خُلق بلا أب، والسيدة حواء خُلقت بلا أم، وقد يكون الإنسان متزوجاً، ويجعله الله عقيماً، هذه الحالات كلها، أب وأم لا أولاد، أب بلا أم، أم بلا أب، لا أب ولا أم، هذا ذكر واضح للحالات كلها، أمّا نحن جميعاً فمن أب وأم، وفق النواميس والقوانين والحقائق، لكن الله عز وجل لحكمة يراها خلق آدم بلا أب ولا أم، وخلق حواء بلا أم، وخلق سيدنا عيسى بلا أب، وجعل من الناس عقيماً، مع أنه تتوافر فيهم شروط الخلق، فلماذا؟ كي تعرف أيها الإنسان أن التزاوج وحده لا يكفي لإنجاب الأولاد، بل لا بد من مسبب الأسباب، وهو الله سبحانه وتعالى، لذلك قال تعالى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد: 3]

الظاهر والباطن، الظاهر الذي يظهر لك، والباطن أحياناً يحدث الشيء بلا سبب، فمن هو السبب؟ الله سبحانه وتعالى، لذلك في موضوع الطب بعض الأبحاث تذكر أنّ هناك الشفاء الذاتي، حيث الطب يقف عاجزاً عن تفسير هذا الشفاء، كيف شفي؟ لا نعلم، حصل شفاء ذاتي، والأصح أن تقول: يد الله أحدثت هذا الشفاء بلا دواء، وربنا عز وجل قادر على أن يشفي بدواء وأن يشفي بلا دواء، حتى العلم، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 255]

في هذه السورة وعيد لقريش ومعاتبة لها وتطمين للنبي عليه الصلاة والسلام :

أحياناً هذا العالِم يعطيه ربنا طرف الخيط، يقول لك: حدثٌ إبداعي يتسلسل من مقدمة إلى نتيجة إلى حقيقة، وهذا الكشف تم عن طريق مقدمات وأسباب وأدلة وملاحظات، وما شاكل ذلك، وأحياناً تنكشف الحقيقة كاملة بلا مقدمات، إذاً هنا في هذا الموضوع أفعال الله سبحانه وتعالى في الأعم الأغلب وفق نواميس الكون، يغني بأسباب ويفقر بأسباب، يعطي بأسباب ويمنع بأسباب، يصح جسم الإنسان بأسباب ويمرض بأسباب، وقد يمرض بلا سبب، ويصح بلا سبب، وقد يغتني بلا سبب، لكن هذا لا يفعله الله عز وجل إلا لحكمة بالغة، ليعلمنا شيئاً، فكذلك لو أن قريشاً وقفت في وجه أبرهة الأشرم وحاربته وانتصرت عليه لما كانت آيةً من آيات الله، حرب كما هي الحروب، لا بد من فريق ينتصر على فريق، ولكن الله سبحانه وتعالى تولى بنفسه سحق هذه الحملة، لأنها اجترأت على بيته الحرام، وعلى البيت العتيق الذي إذا دخله الإنسان شعر بالأمن والراحة، قال تعالى:

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 97]

كأن في هذه السورة وعيد لقريش، ومعاتبة لها، وتطمين للنبي عليه الصلاة والسلام، أي يا محمداً لا تخف فأنت رسولي، وهذا البيت بيتي، وسابقاً جاء أبرهة الأشرم ليهدمه فانتقمت منه، فلا تقلق، إني ناصرك، وإني معك، هذا معنى.

للآية التالية معنيان :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

1 ـ المعنى الأول أن الذين يعارضون النبي ويكيدون له يجب أن يتعظوا بأصحاب الفيل:

هؤلاء الذين يعارضونك ليطفئوا نور الله عز وجل، هؤلاء الذين يكيدون لك، يكيدون لإخراجك من بيتك، ليقتلوك، ليثبتوك، هؤلاء يجب أن يتعظوا بأبرهة الأشرم، وبأصحاب الفيل، هذا المعنى الأول.

2 ـالله تعالى يعتب على الذين حماهم الله من غزو أبرهة ومع ذلك فهم يكفرون بنبيه:

المعنى الثاني: أن الله سبحانه وتعالى يعتب على هؤلاء الذين حماهم الله عز وجل من غزو أبرهة، ومع ذلك فهم يكفرون بنبيه عليه الصلاة والسلام:

(أَلَمْ تَرَى)

المقصود كيف؟ أي كيف تمّ ذلك؟ هل يُعقل لطائر، بحسب القوانين المألوفة، والنواميس المعروفة، والسنن المطبقة، أن طائراً يحمل حجراً، ربما لا يتمكن من حمله لكنه يسحق جيشاً بكامله، وأي طائر أبابيل، هذه الطيور لا تطير وحدها، لخوفها وقلقها وضعفها، فلا تطير إلا مجتمعة، وهذه الطيور ألقت الحجارة على هذا الجيش فجعلته كعصف مأكول:

(أَلَمْ تَرَى)

الشيء الذي أقف عنده أيضاً، بعد أنْ قلنا: إنّ (ألم) هي نفي النفي، ونفي النفي إثبات، لقد فعل ربك بأصحاب الفيل، وكلمة (ألم تر) تعني إخبار الله عز وجل من أعلى مستوى في اليقينيات، فيجب أن تأخذه كأنك تراه، فاعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه فإنه يراك.

كل أمر تأخذه عن الله عز وجل يجب أن تأخذه يقيناً كأنك تراه تماماً :

إنّ كل أمر تأخذه عن الله عز وجل يجب أن تأخذه يقيناً كأنك تراه تماماً، لذلك ربنا عز وجل يستخدم الفعل الماضي أحياناً بدلاً من الفعل المستقبلي، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ *مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[سورة المائدة:166- 177]

هذا شيء لم يقع بعد، إذ قال الله تعالى:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

[سورة الزمر: 73]

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة الزمر: 73]

إذا استخدمنا الفعل الماضي مكان الفعل المضارع فلمعنى جديد وهو تحقق الوقوع :

كل هذه المشاهد ساقها الله عز وجل بالفعل الماضي، وإذا استخدمنا الفعل الماضي مكان الفعل المضارع فلمعنى جديد، وهو تحقق الوقوع، وما وعد الله به كأنه وقع، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

إذا كان الواحد منا مؤمناً ونرجو أن نكون جميعاً كذلك، وهو ينتظر وعد الله بالجنة فكأنه دخل الجنة، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

صحابي جليل لشدة إيمانه بكلام ربه، قال: " وكأني بأهل الجنة يتنعمون وبأهل النار يتصايحون بعد أنْ قال له النبي: كيف أصبحت؟ فأجابه ذلك الجواب، فقال له: عبد نور الله قلبه بالإيمان، عرفت فالزم، عندما ترى إنساناً لا يدرس، كأنك تراه سائراً في مؤخرة الركب في المجتمع، وهو لا يزال طالباً، ولكن حاضره يدل على مستقبله.

معنى الرب :

إذاً كلمة " ترى " تعني يجب أن تأخذ إخبار الله عز وجل وكأنك تراه، ونفي النفي إثبات، أي لقد رأيت، لم ير النبي ولكن الله أخبره بهذا، وليس في الأمة كلها من يستطيع أن يقول لا، لم يحدث هذا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم عاصر معمرين رأوا بأم أعينهم ما فعله الله بأصحاب الفيل، وبعدها قال:

(أَلَمْ تَرَى)

الكيفية، تدخل مباشر من دون أسباب، لأن هذا البيت بيته والله تولى بنفسه حفظه:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

أما كلمة (ربك)، لم يقل ربنا عز وجل ألم تر كيف فعل الله، أو فعل الإله، أو فعل القوي، قال: ربك، أي أنت في رعايته، وأنت في حفظه، فإنك بأعيننا، فكلمة رب توحي بالعطف والمودة والرحمة، فالرب هو المربي، وهو الممد، وهو الذي يصرِّف الأمور، وهو الذي يحلُّ المشكلات، هذا هو الرب.

قد نستخدم في حياتنا اليومية كلمات، نقول: رب أسرة، ما معنى رب أسرة؟ أينساها بلا طعام؟ إذا مرض الابن أيتركه مريضاً؟ لا، بل يأخذه إلى الطبيب، وينفق على الأسرة من ماله ويرعاها، يرعى أجسامها ونفوسها بالتوجيه، ويقدم لها حاجاتها صيفاً وشتاءً وربيعاً وخريفاً.

هذا معنى الرب، فالمفهوم الصغير رب الأسرة رب البيت، لكنّ رب العالمين هو الذي يرعى كل مخلوق، ويقدم له ما يحتاج من طعام وشراب وكساء، ويقدم له ما يحتاج من توجيه وعناية وإرشاد ومعالجة.

كيد الله إحباطٌ لكيد الكفار وتآمرهم :

سمّى عمل هؤلاء الذين قدِموا مكة ليهدموها كيداً، فقال:

(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

ما هو الكيد؟ عندنا شيئان في الحياة، عندنا مواجهة، وعندنا كيد، فالإنسان إذا كان قوياً جداً وواثقاً من قوته لا يكيد، بل يواجه عدوه رأساً، فمن الذي يكيد؟ إنه الضعيف، يدبر مؤامرة، وخطة للتغلب على عدوه القوي، لذلك ربنا قال:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق: 15-16]

كيد الله سبحانه وتعالى ليس من نوع كيدهم، هم لضعفهم يكيدون، ولكن الله سبحانه وتعالى يدافع عن عباده المؤمنين، فيكيد لهم خطة معاكسة تفشل خطتهم، قال تعالى:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق: 15-16]

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال: 30]

فكيد الله إحباطٌ لكيدهم وتآمرهم، ليس لك أن تقول: الله ماكر، ولا كائد، هذا تدبير يقابل كيدهم ومكرهم:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق: 15-16]

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ)

[سورة آل عمران: 54]

الله تعالى دفاعاً عن أوليائه وعن المؤمنين يدبر خطة تقابل خطة أعدائهم ويفشلها:

إنّ الله سبحانه وتعالى دفاعاً عن أوليائه وعن أحبابه وعن المؤمنين يدبر خطة تقابل خطة أعدائهم، فتصبح هذه الخطة محبطة فاشلة، وهذا الذي عناه الله سبحانه وتعالى:

(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

لقد رسم أبرهة خطة لهدم الكعبة، وتحويل الناس إلى صنعاء، وكأن هذه الكعبة من صنع قريش، وأنها تأتيهم بالمكاسب، وما شابه ذلك.

(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

معنى تضليل: أي ضاع عنهم هدفهم، ولم يحققوا مرامهم، كيف جعل كيدهم في تضليل؟ لقد أرسل عليهم طيراً أبابيل، أيْ ضعاف الطير، أحياناً يموت الإنسان من ضربة قوي، ولكنْ إذا مات من ضربة ضعيف فيكون مع موته إهانة، هناك مثل عربي يقول: لَوْ ذاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي، أيْ لو لطمته أَمَةٌ جارية لتألم، أهذه تلطمني؟ ولو أن ذات سوار لطمتني، أيْ لو كان حرةً لهانت المصيبة، أما أنْ تلطمني جارية فهذه المصيبة كلها. أحياناً الإنسان تدهسه سيارة قمامة، مشكلة، ولو كانت غيرها لهان الخطب، فهذا مع الدمار إهانة.

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ)

أضعف أنواع الطير، ولو أن الله سبحانه وتعالى سلّط عليهم صقوراً جارحة مخيفة، لو سلط عليهم وحوشاً كاسرة، لكان الأمر مقبولاً، لكنْ:

(طَيْراً أَبَابِيلَ)

لقد ماتوا على أتفه سبب.

عند الله عز وجل كل قذيفة عليها اسم من تدمره فليس ثمة طائش عند الله كله صائب:

قال تعالى:

(تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ)

قال بعض المفسرين: الحجارة من سجيل هي كل حجر من طين قاس، وبعضهم قال: من سجيل مسجَّل عليها اسم من تقتله، وإذا قسنا على هذا فليس هناك قذيفة طائشة أبداً، لعله أصابته قذيفة طائشة، طائشة عندك أيها الإنسان أمّا عند الله فليس ثمة طائش كله صائب، كله يصيب الهدف تماماً، بحسب الخطة التي رسمت له، لذلك حتى في الحروب الحديثة، قنابل وصواريخ، شيء طائش، قذف عشوائي، أمّا عند الله عز وجل كل قذيفة عليها اسم من تدمره.

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ*تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ*فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

هذا من الأدب القرآني، العصفُ روثُ البهائم، فإذا أكلت الدابة تبناً خرج منها بعض قطعه الصغيرة في روثها، وهذا منتهى الضعف والإهانة:

(فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

أي كطعام أُكل، وظهر في البراز، وظهر في الروث.

البلاء عامٌّ والرحمة خاصة :

قال تعالى:

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ*تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ*فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

في القرآن آية مشابهة، فسيدنا إبراهيم جاءته رسل الله عز وجل:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ* قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ*لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ* مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)

[سورة الذاريات: 31-34]

مسومة أي كل حجر عليه اسم صاحبه، هذه تقتل فلاناً، وهذه فلاناً، حتى لا يقول أحد: واللِه هذا شيء يحير، يذهب البلاء بالطائع والعاصي، لا، البلاء عامٌّ، والرحمة خاصة، قال تعالى:

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ* وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

[سورة الذاريات: 35-37]

كل شيء وقع في الكون هو خير :

أول عملية أُخرج المؤمنون والمسلمون، ثم تم الهلاك والدمار، لا خطأ عند ربنا عز جل، ولا قذف عشوائي، ولا طائش، ولا خطأ، ولا صدفة، مرة أراد إنسان أن يتوظف فطُلب منه شهادة صحية، فحص شعاعي، ذهب إلى مكان الفحص وفحص صدره، بعد يومين، أخذ النتيجة فإذا هي سلبية، معه بوادر مرض السل، فأعلم أهله، وابتعدوا عنه، وعزلوه، الطعام وحده، صحنه خاص به، وكذلك المنشفة، فهذا الإنسان انزوى، وشعر بالدمار، وشعر بمصيره الأسود، فتألم، وبكى يأس من الحياة، وبعد ذلك أشرق في نفسه بصيص الأمل، لعل الله يشفيني، فتاب إلى الله، وصلى، وذهب أبوه إلى المشفى مرةً ثانية، فإذا بموظفي المشفى كانوا قد أعطوه نتيجة رجل آخر، وهو معافى أصلاً، لكنهم أخطؤوا معه، فخطؤهم معه عند الله صواب، لأنه ردّه إليه بهذه الطريقة، فالإنسان يخطئ، والله لا

يخطئ، حتى إنّ خطأ الإنسان يُوظف لمصلحة إنسان آخر، فليس عند الله خطأ، فإذا أخطأت فإنّ الله لا يخطئ، فحينما سمح الله لهذا الحدث أن يقع فهو خير، أي حادث، وما دام وقع فهو خير، لكن ليس خيراً مطلقاً، بل هو خير نسبي، فتح البطن وشقه، وإزالة الصفراء، هذا ليس خيراً مطلقاً، لكنه خير نسبي، لمن يشعر بآلام الزائدة، ولمن يصيح طوال الليل، فخير له أن يُفتح بطنه، وأن تُستأصل هذه الزائدة، أو هذه الذائدة في التعبير الآخر، فهذا خير نسبي، أما المطلق فألاّ يحتاج لهذه العملية، فكل شيء وقع في الكون هو خير، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 26]

العطاء خير والمنع خير، والعز خير والذل خير، وكله خير بخير، والله سبحانه وتعالى لا يقضي لعباده إلا خيراً.

الحكاية الربانية درس بليغ فلا تخف من عدوك الكافر لأن الله أكبر منه :

قال تعالى:

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ*تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ*فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

هذه السورة القصيرة بل هذه القصة الموجزة هذه يسمونها حكاية، لأنه حدث واحد، هذه الحكاية الربانية درس بليغ إلى نهاية المطاف، فلا تخف من عدوك الكافر لأن الله أكبر منه:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة: 67]

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[سورة النمل: 79]

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتّق الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في أيدي الله أوثق منك بما في يديك، لماذا فعل ربك ذلك بأصحاب الفيل؟ ولماذا جعل كيدهم في تضليل؟ ولماذا أرسل عليهم طيراً أبابيل؟ ترميهم بحجارةٍ من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول؟

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة قريش 106-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 4 نِعَمُ الله على خلقه .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-07-06

بسم الله الرحمن الرحيم

سورتا الهمزة وقريش قال بعضهم إنهما سورة واحدة :

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ)

هذه اللام متعلقة بهذه الأفعال:

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ*إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ*فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

لهذه السورة معنيان؛ المعنى الضيق؛ قريش القبيلة التي منها النبي عليه الصلاة والسلام، كانت تعيش حول البيت الحرام، وكانت لها مهابة بين العرب، لأن بيتها يُحج إليه من قِبَل العرب جميعاً، ولذلك كانت تجارتها آمنة، هي في واد غير ذي زرع، من أين تأكل إذاً؟ من التجارة، لها رحلة إلى اليمن شتاءً ورحلة إلى الشام صيفاً، وقد ألفت هاتين الرحلتين، وكانت هاتان الرحلتان سبباً في الرزق الوفير، وفي رخاء العيش التي تنعم به قريش، فلو أن الله سبحانه وتعالى مكن أبرهة من هدفه، وسمح له أن يهدم الكعبة، وأن يتحول الناس إلى صنعاء لذهبت مكانة قريش، ولخسرت تجارتها، ولماتوا جوعاً، لكن لأنهم يعيشون حول هذا البيت ويرعونه دافع الله عنهم، لذلك بعضهم يقول: إنهما سورة واحدة، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ*أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ*وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ*تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ*فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ* لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ)

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ(1))

الحكمة من ردّ الله تعالى أبرهة الحبشي عن بيت الله الحرام وعن قريش :

لتألف قريش رحلتيها، وتنعم بهما، وتبقى موقرة مهابة بين قبائل العرب، هذه اللام هي في الأساس لام التعليل، لكن في حالات نادرة لا تكون هذه اللام لام تعليل، بل لام المآل، مثلاً قال تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

[سورة القصص: 8]

هل يعقل أن يلتقط فرعون هذا الغلام ليقضي على ملكه؟ مستحيل، لكن الذي حصل أن هذا الغلام قضى على ملكه، إذاً هذه اللام من باب المآل والعاقبة، وليست لام التعليل، هو بوعيه وعقله وفكره واختياره لا يفعل هذا، ولكن الذي حصل أن هذا الغلام قضى على ملكه، قال تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

[سورة القصص: 8]

فأبرهة ما فعل ما فعل إلاّ عن رغبة في الكيد لبيت الله، لكن الله سبحانه وتعالى حينما رده عن قريش، وقريش وقتها لا تستحق النصر من الله عز وجل، فالذي حصل لو كانت قريش مؤمنة بالله لكانت هذه اللام لام التعليل، بل لأن قريش وقتها كانت وثنية تعبد الأصنام من دون الله، ويأكل قويها ضعيفها، لم تستحق النصر، والذي حصل أن الله عز وجل حينما رد أبرهة عن الكعبة المشرفة كان من نتيجة هذا أن قريش بقيت على مكانتها، وحافظت على منزلتها، حتى إن قبائل العرب بعد حادثة الفيل كانت تسمي قريشاً أهل الله، وأهل حرمه، صارت مُهابة يخاف الناس أن يعتدوا عليها، وأصبحت لها هيبة كبيرة، وأصبحت تجارتها رائجة، وقوافلها آمنة، فلا يجرؤ أحد على أن يعتدي عليها.

كل ما في الأرض يألفه الإنسان لأنه صُنع خصيصاً له وليس محض صدفة :

قال تعالى:

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ*إِيلَافِهِمْ)

بعضهم قال: الإيلاف مصدر الإلفة، وقريش قَرَشَ الشيء أي تجمع، في الكون آيات باهرة ومجتمعات بشرية، وهذه المجتمعات موفورة لها كل حاجاتها، هذه نعمة من الله عز وجل. الهواء موجود، والماء موجود، الطعام موجود، والمحاصيل موجودة، والخضراوات موجودة، والفواكه موجودة، والأزاهير، والرياحين، والمعادن، وأشباه المعادن، والفيتامينات، والكائنات الصغيرة المجهرية، والبكتريا، وديدان الأرض، والشمس والقمر، والإنسان ألِف هذا، لأنّ الكون مصمم وفق حاجاته فألفه، إذا لبس الإنسان معطفاً بقدره، ضعف حجمه مرتين، يقال له: شيئاً فشيئاً تألفه، لكن الواقع أنه ما يُؤلف معك ما دام كمه طويلاً وعريضاً، أما إذا كان مخيطاً وفق جسمك فتألفه، فالألفة ليست ناتجة بالصدفة، بل هي ناتجة من أن هذا الشيء صُنع لهذا الشيء.

أنت بحاجة للطعام، جُعل لك الطعام طيباً طعمُه، طيبة رائحته، جميل منظره، وهو قوام حياتك، من جعل التفاحة فيها عناصر يحتاجها الإنسان؟ من وضع في الماء الكلور؟ من وضع في الماء مواد تستعين بها الغدد على القيام بوظائفها؟ هذا الماء ألفته أنت، وعندما يحلُّون مياه البحر فليست صالحة للشرب، لأن البحر لم يُخلق للشرب، فلما يحلّونه يضيفون معه مياه الآبار، لأن مياه الآبار فيها بعض

المعادن، يقال: مياه معدنية، فربنا عز وجل جعل في مستودعات المياه في الجبال صخوراً معدنية، تنحل بنسب محدودة جداً، تكفي لحاجة الإنسان. فأنت ألفت الماء، وألفت الغذاء، وألفت اللحم، وألفت الخضار، وألفت الفواكه، وكان هذا الهواء مناسباً لك، والحرارة مناسبة، يقال: حول معدلها، فوق معدلها، دون معدلها، ليست مئة تحت الصفر، لا بل هي خمس وثلاثون، أو حواليْ عشرون، أو خمس عشرة، وقد ترتفع إلى أربعين درجة، فالجو تألفه، والطعام تألفه، والماء تألفه، وكل ما في الأرض تألفه لأنه صُنع خصيصاً لك وليس محض صدفة. ولنضربْ لذلك مثلاً؛ في طحال الوليد كمية حديد تكفيه سنتين، لأن حليب الأم ليس فيه حديد، فبطحال كل مولود كمية من الحديد تكفيه عامين، إلى أن يأكل من الطعام الآخر، نقول: الحديد ألفه، لأن الله خلقه خصيصاً له.

سورة (قريش) لها معنيان :

1 ـ يمكن أن نأخذ الآية بمعناها الضيق عن قريش ورحلتيها إلى اليمن والشام :

هذه السورة إما أن نأخذها على قريش بمعنى أن هذه القبيلة التي كانت حول الكعبة، والله حينما رد أبرهة عن بيته العتيق وقّر لها طمأنينة وأمناً ومهابة، وبقيت على رحلتيها الصيفية والشتوية، وحققت عيشاً رغداً، ولأن قريش في المستقبل سوف ترعى هذا البيت، هذا معنى.

2 ـ المعنى الثاني أن الذي نألفه ليس محض صدفة وإنه خُلِق خصيصاً لنا :

والمعنى الآخر؛ أن هذا الذي تألفه، أتألف النوم على فراش غير الصوف لا ترتاح عليه؟ على إسفنج مثلاً، فهو حام، والقطن يتلبد، أما الصوف فخاص بك، أتألف في الصيف ثياباً صوفية؟ تحتاج إلى قطن، والقطن تألفه، أتألف ماءً ساخناً للشرب؟ والله جعل ماءَ الينابيع بارداً، فربنا عز وجل خلق كل شيء كي تسعد به، وتألفه، وجعل لك الطعام من حيوان تألفه، ولا تخاف منه، فهل الغنم يخيف؟ فمن جعلها مذللة لنا، قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

[سورة يس: 72]

الدجاج، الغنم، البقر، الماعز، سبحان الله، الجمل كبير ولا يخافه الإنسان، وقد يقوده طفل، ويجعله يبرك، أو يجعله يقف، لكن عقرباً صغيراً لا تألفه، واللهُ خلق حيوانات مخيفة أيضاً، وهذا الذي تألفه ليس محض صدفة، إنه من صنع الله عز وجل، وإنه خُلِق خصيصاً لك أيها الإنسان.

الفصول وما فيها من نعَم وما فيها من فواكه وثمار كلها إكرام من الله عز وجل :

هذه الفصول الأربعة؛ من صيف وشتاء وربيع وخريف، الصيف موسع، لأن الربيع قليل، والشتاء موسع، والشتاء له طعام خاص وله عادات، والبيت محبب للإنسان، والثياب الداكنة محببة، والمعاطف كلها للشتاء، لكن السهرات في الصيف، وفيه تحب الثياب الرقيقة الخفيفة، والثياب البيضاء الناعمة، لكنك في الشتاء تحتاج إلى صوف سميك، وإلى معطف، ومدفأة، ودثار، ولحاف، أمّا في الصيف فيكفيك مسبل خفيف، وفي الصيف طقس معيَّن، وجو خاص، ومناخ، وفواكه، وثمار، وعادات، وتقاليد، إنّ الله نوَّع الحياة، آخر الصيف الناس يملون منه، وينتظرون الشتاء بفارغ الصبر، وفي آخر الشتاء يملونه، وينتظرون الصيف بفارغ الصبر.

رحلة الأرض، دورانها حول نفسها، دورانها حول الشمس، كونها عمودية تحت الشمس، أو مائلة، وصيف وشتاء، طبعاً يمكن أن نأخذ الآية بمعناها الضيق عن قريش، ورحلتيها إلى اليمن والشام، وعن أن الإنسان خُلق، أنّ الله خلق له ما يألفه من كل شيء.

هناك طعام، ولحم خفيف، ولحم طير مما يشتهون، ولحم ثقيل، ولحم يؤكل مشوياً، ولحم يحتاج إلى طبخ، وأنواع الفواكه، وأنواع الثمار، وأنواع الخضراوات، الإنسان خُلق يألف زوجه، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الروم: 21]

الإنسان يألف أولاده، ويألف بيته، يألف حيه، ويألف صنعته، وهذه الألفة ليست مجرد صدفة، إنها خلق مركز من الله عز وجل، وهذه الفصول وما فيها من نعَم، وما فيها من فواكه وثمار، كلها إكرام من الله عز وجل، فإذا فكرتم بهذه النعم أصبح عندنا جواب:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*)

البيت كل شيء فيه، فيه مكان للنوم، مكان للراحة، مكان للجلوس، مكان للطعام، مكان للاستحمام، البيت كناية عن مكان فيه كل حاجاتك، وكأن هذه الأرض بيت كبير، إذا فكرتم في هذه النعم ماذا تنتظرون؟

توافر النعم يجب أن نعرف الله بها :

قال تعالى:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

تصور حالة الإنسان من دون خضار، عندما قلَّ محصول البندورة قليلاً خفت قبل شهرين، فإنْ شاهد أحدهم مع الآخر كيس بندورة، ينظر إليه بطرف عينه، ويتساءل: من أين أتى به؟ وكأنه شيء ثمين جداً. وربنا عز وجل بعد ذلك جعل كل شيء متوافراً، وتوافر النعم هذا يجب أن نعرف الله بها، والنبي كان يدعو ويقول: اللهم عرفنا نعمك بكثرتها لا بزوالها، إذا زالت نعرف قيمتها تماماً، وإذا انقطعت المياه في الخزانات عندئذ تعرف قيمة الماء، وحينما تشرب كأس الماء، وتفتح الصنبور، وتغسل يديك بماء طاهر نقي بارد عذب فرات، هل تقول الحمد لله رب العالمين؟ سيدنا عمر كان يقتدي بالنبي عليه الصلاة السلام في كثير من أحواله، فمرةً أكل خبزاً وزيتاً وملحاً خشناً، وبعد أن انتهى قال: آتونا بالشراب، أسقوه سُويقاً، ماءً وشعيراً، فبعد أن انتهى قال: الحمد لله الذي أطعمني فأشبعني، وسقاني فأرواني.

ماذا نأكل نحن؟ على أثر طعام خفيف هل تقول: الحمد لله الذي أطعمني؟ وهل ترى أن هذه المائدة مائدة الله عز وجل؟

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)

الذي حماه، والذي رد عنه كيد الكائدين، والذي جعلكم آمنين مطمئنين، ويُتخطَّف الناس من حولكم:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)

العبادة علة الخلق :

أتعادون النبي عليه الصلاة والسلام، وقد رد الله كيد الكائدين عنكم، وحمى بيتكم، وجعل لكم هذه المهابة، هذا عتاب من الله عز وجل، وإذا فهمنا الإيلاف وقريشاً، والتجمع، والصيف، والشتاء آيات من آيات الله عز وجل، وإذا فكرتم بهذه الآيات:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)

ليعبدوه، وليطيعوه، فما هي العبادة؟ هل تقول: إن العبادة هي الطاعة؟ قد تطيع المرأة زوجها، وليست راضية بهذه الطاعة، قد يأمرها أن تغطي وجهها وهي غير مقتنعة بهذا، هذا اسمه إذعان، طاعة مع إذعان، وقد يطيع الجندي قائده، وقد يطيع الفتى سيده، وليس في الطاعة رضى أو قبول، ولكن العبادة

تعني شيئاً آخر؛ طاعة لله بعد معرفة به، إذا عرفت الله عز وجل أطعته طاعة المحب، وطاعة المستسلم، وطاعة الراضي، وطاعة الذي يرى أن في هذه الطاعة مكسباً كبيراً:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

والعبادة ينتج عنها السعادة، لأنك إذا أطعت الله عز وجل أقبلت عليه، وإذا أقبلت عليه سعدت بقربه، فكلما ذكرت كلمة العبادة في القرآن الكريم فتعني أن هذه العبادة تسبقها معرفة، وتعقبها سعادة، وهي طاعة ذاتية، طاعة مع طواعية وليس مع إكراه، لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

فجعل الله تعالى العبادة علة الخلق، العبادة أن يعرفوني.

من معاني العبادة الطاعة التامة والإسلام ليس فيه حل وسط :

ربنا عز وجل قال:

(فَلْيَعْبُدُوا)

إما هؤلاء الذين فكروا في هذه الآيات، فالفاء رابطة لجواب الشرط، أو أنهم قريشٌ، فالمقصود بهذه الآية قريش التي كذبت النبي عليه الصلاة والسلام، ومن معاني العبادة مثلاً؛ تلقيت عشرة أوامر، أطعت اثنين منها، فأنت في هذين الأمرين طائع، وفيما سوى ذلك عاص، لكن العبادة لا تُسمى عبادة إلا إذا أطعت الله في كل أوامره، من دون استثناء، لذلك قالوا: ليس في الإسلام حل وسط، إما أن تأخذه كله أو أنْ تدعه كله، لأنك إذا أخذت بعضه لم يعطك شيئاً، كالعلم، لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، هذه مشكلة، يقولون: لا تكن متزمتاً، دقة على الحافر ودقة على النافر، هذا كلام العوام، والإسلام ليس فيه حل وسط، لأن الإسلام مثل القالب، إما أن تكون الآلة مضبوطة أوْ لا، وليس من حالة ثالثة، فلذلك قال الله عز وجل قال:

(فَلْيَعْبُدُوا)

ومن معاني العبادة الطاعة التامة، فما الذي يحصل إذاً؟ إنسان يحضر مجلس علم سنة وسنتين، وقد يستمر سنوات عدة، وهو مقيم على بعض المخالفات، مقطوع عن الله، محسوب على أهل العلم، طالب علم، وهو لا يحقق من نتائج العلم شيئاً، هذه المخالفات تحجبه عن الله، وبهذا الحجاب عن الله عز وجل لا يذوق طعم الإيمان، ولأنه لا يتذوق طعم الإيمان يصبح ملولاً، ويقول: واللهِ شيء سمعناه كثيراً، لكنه إذا طبق الأوامر الإلهية تطبيقاً تاماً عندئذ يقطف الثمار، فإذا قطف الثمار سعد بدينه، وأثمر دينه سعادة وطمأنينة ورضى وتوكلاً وصبراً وعفواً، وصار إنساناً كامل الصلة بربه، هذا الإنسان حتى لا يضيع

وقته عليه أن يعلم أن الحلول الوسطية غير موجودة ولا بد من تطبيق الإسلام بأمانة وإخلاص، فيسعد سعادة المؤمنين.

يجب أن نعرف الآمر قبل أن نعرف الأمر :

قال تعالى:

(فَلْيَعْبُدُوا)

العبادة هي الطاعة التامة المبنية على معرفة بالله عز وجل، كيف تريد أن تطيع أمر الله عز وجل وأنت لا تعرفه، فالذي يحصل أنْ يقال له: هذه حرام فيقول: حط بالخرج، هذه نهى عنها ربنا، فيقول: لا تدقق، فهذا لا يعرف الله حقاً، أما لو عرفت الله عز وجل لأطعته، لكنك إذا تلقيت أمره قبل أن تعرفه فلن تطيعه، فإنك ترى الشهوات أغلى عليك من الله عز وجل، أنا أترك هذه من أجل آية قرآنية، الله غفور رحيم..

إذاً يجب أن تعرف الآمر قبل أن تعرف الأمر، والنبي عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة عرَّف أصحابه بالله عز وجل، فلما عرفوه جاءهم التشريع، فإذا عكسنا الآية حقّقنا فشلاً ذريعاً، إذا علمنا الناس أحكام الدين قبل أن نعرفهم بالله عز وجل احتالوا عليها؛ يقول أحدهم: أنا والحمد لله دفعت زكاة مالي، كيف؟ والله أخذت كيلو خبز ووضعت داخل رغيف خمسة آلاف ليرة، وأعطيت الخبز لفقير، والفقير بعد ذلك باعني هذا الخبز بعشر ليرات، الحمد لله الزكاة وصلت، يحتالون على الزكاة كما يحتالون على أكل الربا، يقول: أنا أبيع شاياً، أضع صندوق شاي أمام المحل، يأتي زبون فيشتريه ديناً بألف ريال، ويسجله عليه، بعد ذلك يبيعه إلى صاحب المحل نقداً بثمانمئة ريال، باع واشترى، فعندما تُعلّم الناس أوامر الله عز وجل قبل أن تعرفهم به احتالوا عليها كما فعل اليهود.

يقول الأخ: أريد أن أرى زوجة أخي، فما هي الطريقة، سهلة، خذ بنتاً صغيرة من بنات الجيران عمرها سنة، في سن الرضاع، واجعل زوجة أخيك ترضعها، واعقد عقداً على هذه البنت الصغيرة، فتصبح زوجة أخيك حماتك بالرضاعة، أي أم زوجتك، بعد ذلك طلقها في اليوم الثاني، الحماة تحرم على التأبيد، فتدخل على بيت أخيك متى شئت، ويمكن أن تسكنوا في بيت واحد، صار إطلاق البصر والاختلاط والربا كله مباحاً عن طريق الحيل الشرعية، لماذا صار هذا؟ لأنهم تعلموا الأمر قبل أن يعرفوا الآمر، تعلموا أمر الله وأحكامه الشرعية قبل أن يعرفوا خالقهم أنه سميع بصير، مطلع على قلوبهم وعلى خواطرهم، وعلى نواياهم وعلى خططهم، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا تفوته شاردة ولا واردة، ولو عرفوا الله حق المعرفة لما احتالوا على شرعه.

الجوع وحده آية كبرى من آيات الله عز وجل :

قال تعالى:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

أما قوله تعالى:

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ)

معنى أطعمهم أيْ خلق لهم أنواع الطعام والشراب، ولكن الإنسان لو لم يشعر بالجوع ماذا يحدث؟ أحياناً السيارة ينقصها الماء فيسخن المحرك، ولولا وجود إشارة أمام السائق تشير إلى ارتفاع الحرارة لاحترق المحرك، فيضطرون لوضع عدادات، الآن الأحدث يضعون عداداً ناطقاً، يقول: انتبه ارتفعت الحرارة، فالإنسان عنده أجهزة أدق من ذلك، فإذا جاع ولو كان منهمكاً في العمل يشعر بالجوع، ولولا إحساسه بالجوع لمات جوعاً، ولم يدر لماذا مات. وجود الإحساس بالجوع آية، وكذا الإحساس بالعطش، أنت بحاجة للماء، فالله سبحانه وتعالى لإتقان صنعته خلق لدى هذا الكائن دوافع داخلية للطعام والشراب، منها الإحساس بالجوع، وأحد وسائل تخفيف الشهوة للطعام دواء يؤثر على أماكن الجوع في الدماغ، فلا يجوع الإنسان، ويبقى عشر ساعات دون طعام، لأنّ مركز الإحساس بالجوع تخدر، فمن خلق هذا المركز في الإنسان؟ والجوع أيضاً معه لذة الشبع، ولولا الجوع لما أحسسنا بلذة الطعام الطيب، لكن إذا لم تكن جائعاً لم تشعر به. وأطيب أكل ما كان على الجوع، فكن جائعاً وكل ما تشاء، وكن جائعاً تجدْ أي طعام طيباً، وإن لم تكن جائعاً فلن يعجبك أنفس الطعام، فالجوع وحده آية كبرى من آيات الله عز وجل، ومن دون إشعار أنّ الماء ارتفعت حرارته في السيارة فيحترق المحرك، فيسبِّب خسارة بعشرة آلاف ليرة، لكن بهذه المشيرة تعرف أن الحرارة ارتفعت، وإذا لم تنتبه لها، وأنت تتكلم مع راكب احترق المحرك، الآن صنعوا جهازاً صوتياً يسمعك؛ أن انتبه فقد ارتفعت الحرارة، في الإنسان أعمق من ذلك، لا تحتاج إلى إبرة ولا عداد ولا جهاز صوتي، يقول جائع، سأموت من الجوع، فمن جعل الإحساس بالجوع؟ وهل تدري أيها الأخ الكريم أنك إذا شعرت بالجوع، وفحصنا دمك فحصاً دقيقاً، فليس فيه نقص إطلاقاً في كل المواد الغذائية، بدليل إذا جاع الشخص جوعاً شديداً وبلغه نبأ مؤلم جداً، ويحتاج إلى ركض، فهذا الشخص تنشأ عنده طاقة عجيبة، وينسى جوعه، إذاً الجوع نقصٌ في المخزون، فعندما ينقص مخزون الطعام في الكبد يشعر الإنسان بالجوع، لكن الدم بحالة تامة، وبحالة كاملة من توفر المواد الغذائية، إذاً الجوع وحده آية.

نعمة الشبع والأمن هما الحياة كلها :

قال تعالى:

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

العلماء قالوا: نعمة الشبع والأمن هما الحياة كلها:

((عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي عَن عَبْدِ اللَّهِ بْن مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ]

إذا كان لأحدنا قوت يومه لا أكداس المؤن بل قوت يومه، وكان آمناً في سربه، ما عليه دعوى، ولا ملاحقة، ولا شيء من هذا القبيل، معافى في جسمه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

نعمة الشبع والأمن هما الحياة بكاملها، فإذا حاز الإنسان هاتين النعمتين فليكن لله شاكراً، وله حامداً.

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الماعون 107-الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 - 7 حقيقة الدين وأنواع الرياء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-07-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة (الدين) في هذه الآية هي مركز الثقل :

سورة اليوم هي سورة الماعون، وتبدأ بقوله تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ*وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

الآية الأولى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

في هذه الآية مركز ثقل كلمة الدين، ماذا تعني كلمة (الدين)؟ آلة معقدة جداً، حاسب إلكتروني، الشركة الصانعة ترسل معه كتيباً صغيراً فيه طريقة استعماله، لو أن إنساناً اشترى هذا الحاسب، ودفع ثمنه مئات الألوف، هناك حواسب إلكترونية يزيد ثمنها عن عشرين مليوناً، لو أن جهازاً من هذه الأجهزة اشتراه إنسان ما، ولم ترسل له الشركة التعليمات، كيف يستعمله، سوف يستعمله بجهل، لا بد أن يعطبه، فهذه النشرة التي ترافقه لها شأن خطير، ربما لا تقل قيمة عنه، لو استعمله الإنسان من دون هذه النشرة لأصابه بالعطب، وإن لم يستعمله جمّد ثمنه، فماذا عليه أن يفعل؟ عليه أن يستقدم هذه النشرة، ليقرأها ملياً، بشكل دقيق دَقيق يتبصر بمعلوماتها، ويتبع إرشاداتها، هذه النشرة التي ترافق الجهاز المعقد الصنع، هذه النشرة تشبه إلى حد كبير الدين، لو أن هناك ثلاث مواد مسحوقة بيضاء؛ ملح، ومنظف، وسكر، المواد جميعاً مفيدة، لكن نشرةً تقول لك: استعمل الملح في الطعام، واستعمل السكر في الشاي، واستعمل المسحوق الأبيض في تنظيف الصحون، فماذا فعلت هذه النشرة؟ أمرتك أن تضع كل شيء في مكانه الصحيح، كل شيء نافع، لو وضعت السكر في الطبخ لما استسغتَ أكلَ هذه الطبخة، ولو وضعت الملح في الشاي لمَا استطعتَ أنْ تشربه، ولو وضعت السكر لتنظف به الصحون لما أفادك شيئاً.

حقيقة الدين :

إذاً الدين منهج رباني، جاء ليبين وجه استعمال كل شيء، هذه حقيقة الدين، نشرة تفصيلية مبنية على علم وخبرة، سطرتها الشركة الصانعة لهذا الجهاز، ربما لا تقل هذه النشرة قيمةً عن الجهاز نفسه لأنك لو استعملت الجهاز من دون هذه التعليمات لأصبته بالعطب، وإن لم تستعمله لجمدت ثمنه، إذاً لا بد من قراءة النشرة، إتباع ما فيها حرصاً منك على سلامة الجهاز. إن كنت أيها الإنسان تحرص على جهاز له ثمن ما، قل أو كثُر، ألاّ تحرص على نفسك، هذه النفس التي ركب الله فيها ميولاً ونوازع وطموحات، وجعلها مِنْ فكر ونفس، وروح، وشهوات، وحاجات، هذا الكائن المعقد لا تعقيد عجز بل تعقيد إبداع، هذا الكائن ألا يحتاج في حركته إلى منهج؟ هذا المنهج ماذا يقول لهذا الكائن؟ افعل ولا تفعل، لأن هذا المنهج يضمن سلامة هذا الكائن.

لو أنك كنت في طريقك في بعض الأماكن ووجدت عموداً من الكهرباء كُتب عليه (خطر الموت ابتعد)، هل ترى أن هذا الأمر هو حجز لحريتك، أم أنه ضمان لسلامتك؟ هذا هو الدين. ينطلق الدين من مصلحة الإنسان، ويستهدف سلامته، ويستهدف إسعاده في الدنيا والآخرة، فقوله تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

كلمة الدين في هذه الآية مركز الثقل، الدين ما دانت له النفوس، ومتى تدين النفوس إلى شيء ما؟ إن كان واقعياً، وإن كان منطقياً، وإن كان صحيحاً، وإن كان مفيداً، ومتماسكاً، لا خلل فيه، ولا تناقض ولا خطأ ولا سخف فيه، النفس الإنسانية لا تخضع إلى فكرة ما إلا إذا كانت صحيحة، وواقعية، ومنطقية، وخيِّرة، ومتماسكة، فإذا قال الله عز وجل: (أرأيت الذي يكذب بالدين)، أي بهذا المنهج الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لعباده، كما قلت قبل قليل: كل شيء على وجه الإطلاق خلقه الله عز وجل، إنما خلقه لخيرنا، ولكن الشر من أين يأتي؟ من سوء استعمال هذه الأشياء، إذا وضعت السكر في الطبخة فإن هذا شر، إن نظفت الصحون بالسكر فإن هذا شر، إن وضعت المنظف في الشاي، فإن هذا شر، مع أن هذه المواد الثلاث البيضاء نافعة ولها قيمة، جاء الدين ليقول لك: ضع السكر في الشاي مثلاً، والمنظف استعمله لتنظيف الصحون، والملح في الطعام، لقد جاء الدين ليضع كل شيء في مكانه الطبيعي، قال لك: تزوجْ ولا تزنِ، اكسب المال الحلال ولا ترابِ، قل قولاً حسناً ولا تقل قولاً سيئاً، عامل أهلك بالإحسان ولا تعاملهم بالفظاظة، جاء الدين ليقول لك: افعل هذا، ولا تفعل هذا.

النفس المريضة ترفض حقائق الدين لأنها تتعارض مع شهواتها :

إذاً الدين منهج مِن عند الخالق، مِن عند الخبير، مِن عند الذي يعلم السر وأخفى، مِن عند مَن خلقك، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

ليس في الكون كلام أرقى من كلام الله، لأنه من عند الخبير العليم، إذاً هذا الدين الذي تدين له النفوس، والنفوس السوية الصحية تدين له، كلما قال النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً قال له سيدنا الصديق: صدقت يا رسول الله، وأنت إن كنت صادقاً في طلب الحقيقة، فإنك تحس أن حقائق الدين هي غذاء لروحك، كلما اطلعت على آية كريمة، أو على منهج رباني، أو على سنة مطهرة تقول: صدق الله العظيم، صدق النبي الكريم إن هذا لهو الحق المبين، هذه مواقف النفس الصحيحة، أما النفس المريضة فإنها ترفض حقائق الدين، لا لأنها ليست صحيحة، بل لأنها تتعارض مع شهواتها، قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[سورة القصص: 50]

إن لم تحصل استجابة للدين فلعدم الاستجابة تفسير واحد، وهو أن هذه الحقائق تعارضت مع شهوات النفس، لذلك رفضت، لا لأنها باطلة، بل لأنها كما توهمها صاحبها تحد من شهواته ونوازع نفسه.

إذا طبقنا النهج الإلهي في حركة هذه النفس في الحياة فنحن من السعداء :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

بهذا المنهج الإلهي الذي من عند الحكيم الخبير، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي ما ترى فيه من تفاوت، ولا تناقض، ولا خلل، ولا نقص، ولا ضعف أبداً:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

فلو أننا اطلعنا على نشرة صادرة عن معمل يصنع أجهزة إلكترونية معقدة، بحسب المنطق تقول: هذه النشرة يجب أن تُتَّبع لأنها من المعمل، وصممها مهندسون كبار، وسطرتها أقلام خبراء بهذه الآلة، فاستعملها على الوجه الفلاني ولا تستعملها على الوجه الفلاني.

إذا اشترى شخصٌ مكيفاً يقول لك الصانع: إذا أطفأته فلا تشعله فوراً، ترى نفسك متأدباً مع هذه التعليمات، إذا كان المكيف ثمنه باهظ، وأنت حريص على أن يؤدي وظيفته طوال هذا الصيف، فترى نفسك من دون شعور تنفذ تعليمات الخبير بحذافيرها، إن اشتريت مكيفاً، وإن اشتريت مكواة، أو أيَّ جهاز أو آلة من الآلات، ترى نفسك بدافع حب السلامة، حب سلامتها حريص على تطبيق تعليماتها تطبيقاً حرفياً، يا سبحان الله، أأنت أثمن أم هذه الآلة؟! أهذه النفس الإنسانية أثمن أم هذه الآلة؟ هذه الآلة لا بد أن تتركها في يوم ما أو أن تتركك، لكن هذه النفس هي نفسك، هي ذاتك تحيا بها إلى الأبد إما في شقاء دائم أو في نعيم دائم، فإذا طبقت هذا النهج الإلهي في حركة هذه النفس في الحياة، فأنت من السعداء، وإذا خالفت هذا المنهج فالذي يخالفه يكون من الأشقياء.

حينما تدين لهذا الدين دينونتك له إما بسبب استنتاجك المنطقي أو بسبب تجربتك الفعلية:

ربنا عز وجل يقول:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

ما هو التكذيب بالدين؟ هو التكذيب بهذا المنهج الإلهي، وكما قلت قبل قليل: كأنه نشرة تعليمات، يقول لك المنطق: لا بد أن تكون صحيحة، لأن هذا الجهاز المعقد البالغ الإتقان لا بد من أن صانعيه على مستوى عال جداً من الفهم والخبرة، فتعليماتهم صحيحة، إنك تدين لهذا المنهج استنتاجاً منطقياً، فإذا خالفت التعليمات وقعت في خطأ، وتعطل الجهاز، إنك الآن تدين له مرةً ثانية يقيناً نابعاً من التجريب، فحينما تدين لهذا الدين، دينونتك له إما بسبب استنتاجك المنطقي، أو بسبب تجربتك الفعلية، قد تدين له انطلاقاً من أن هذه النشرة لا بد أن تكون صحيحة، استنتاج منطقي وقد تدين له إثر مخالفة لهذه التعليمات، ودفع الثمن باهظٍ، عندئذ تدين له يقيناً نابعاً من التجربة.

والآن النفوس السليمة الصحيحة المعافاة، الفكر المنطقي ماذا يقول؟ هذا كلام الله رب العالمين، هو العليم الخبير، هو الذي يجب أن يُسمع كلامه، هو الذي يجب أن يعبد، فهذا المنطق يقول لك: أطع الله، إن قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة البقرة:278]

إذا نهانا عز وجل عن الربا أنت كمؤمن انطلاقاً من المنطق السليم، هذا كلام الله رب العالمين، ولا بد أن يمحق الله عز وجل الربا، والذي لا ينصاع لهذا الأمر لا بد أن يحاربه الله ورسوله، هذا انصياع مبني على استنتاج منطقي، لكن الإنسان إذا خالف تعليمات الدين ودفع الثمن باهظاً، عندئذ يقول يا ليتني لم أفعل، لقد صدق الله العظيم، ربنا عز وجل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

[سورة النور:30]

الدين هو الشيء الذي تخضع له النفس :

لو أن الإنسان أطلق بصره، وشعر بالشقاء الزوجي، ونشأت هوة كبيرة بينه وبين زوجته كرهها وكرهته، وكانت حياتهما شقاقاً وبغضاء ومشاحنة، وقرأ قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

[سورة النور:30]

عندئذ يدين لهذه الآية، لا دينونة استنتاج منطقي، بل دينونة يقين تجريبي، هذا هو الدين، لكن الذي أرجوه أن تخضع له بناءً على استنتاج منطقي، قبل أن تضطر أن تخضع له بناءً على تجربة يقينية.

هذا الذي يفعل السيئات، ويبتليه الله بالمصائب، وقد تسحقه المصائب يقول: ليتني لم آكل الربا، ليتني لم أفعل كذا وكذا، ليتني اتقيت الله عز وجل في زوجتي، ليتني ليتني، عندئذ يقول لك: لا بد أن يكون هذا الدين صحيحاً لأنني عاينته بنفسي. هذا هو الدين؛ الشيء الذي تخضع له النفس خضوع استنتاج منطقي، أو خضوع يقين تجريبي.

الحقيقة إنْ شئت أن تعترف بها فلك، وإن شئت ألاّ تعترف بها فعليك، ولو أننا قلنا لك: الأجسام التي تسقط في الهواء تتسارع، هذا قانون، إلا إذا كان هناك مقاومة للهواء، أي وجود مظلة، فأنت بالطائرة وهناك قانون للسقوط، فأنت حر، تحب أن تسقط بغير مظلة أو تسقط بمظلة، من دون مظلة تنطبق عليك قوانين السقوط، فتصل إلى الأرض محطماً، وإذا تأدبت مع قوانين السقوط، وصدقت بها، وأكبرت مكتشفيها، ونزلت بمظلة وصلت إلى الأرض سالماً، فالقوانين هي هي، العبرة لديك أنت، إما أن تؤمن بها فتسلم، وإما أن تستخف بها فتهلك.

الدين حقائقه ثابتة في كل مكان وزمان :

قانون السقوط مثلاً، إمّا أنْ تؤمن به، وأنه يوجد تسارع، وأن حجم الإنسان لا يستطيع أن يقاوم تسارعه في السقوط، ولا بد له من مظلة تحجز كميةً كبيرةً من الهواء تجعله يسقط بسرعة ثابتة، وإما ألاّ تؤمن بهذا فتتكسر أضلاعك. إذاً الدين هو هو، فإذا عصى رجل ربَّه فما ضرَّ اللهَ شيئاً، إلا أنه آذى نفسه فحسب.

أحياناً يحب الإنسان أن يعاند، فيقول لك: لا أريد أن أصلي، وأريد أن آكل مالاً حراماً، كل مالاً حراماً، وقوانين الله ثابتة، قال تعالى:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

[سورة الروم:44]

خمسة من كن فيه كن عليه، البغي والمكر والخداع، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة البقرة:142]

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال:30]

الدين حقائقه ثابتة، في كل مكان وزمان، تؤمن به أو لا تؤمن به، تستخف به أو لا تستخف به، لك أو عليك، مثل قانون السقوط، فأنت حر، يقول: هذا كلام كله خرافة، أنا سوف أنزل ولن يصيبني شيء، تفضل وانزل، تحب أن تنزل من دون مظلة فتفضل وانزل، هذه قوانين مطبقة في كل أجواء الأرض، إذا أردتَ أن تتأدب مع مكتشفيها، فاعمل موازنة دقيقة، وانزل بمظلة، وستصل إلى الأرض سالماً، هذا مثل، ولله المثل الأعلى.

الدين قواعد من صنع خبير عليم :

هذا الدين قواعد من صنع خبير عليم، أنت حر، إنْ تطبقها فالخير لك، إنْ تؤمن بها فلك، إنْ تعظمها فلك، تأخذها مأخذ الجد فلك، تقول: هذا من عند الله، فالعاقبة الطيبة لك، تقول: حُط بالخرج، فالوبال عليك، تقول: الله عز وجل لا يدقق معنا، فهذا عليك، ليست القضية سيحاسبك أو لا يحاسبك، أضربُ مثلاً، إذا ركب سائقٌ شاحنة وزنها عشرة أطنان، ومر على جسر وليس في الطريق أحد، وكُتِب على الجسر: "الحمولة القصوى خمسة أطنان" ثم نظر أهناك شرطة فتخالفني أو لا، ليس الموضوع مخالفة، بل الموضوع أنك إذا مررت ستسقط أنت والسيارة، وتغرق في النهر هذا نظر سخيف، هذا الجسر حمولته خمسة أطنان، وحمولتك عشرة أطنان، فإذا مررت على هذا الجسر سوف تسقط أنت والسيارة. رأى أحدهم خطّاً كهربائياً " توتر عالٍ"، أريد أن أضع يدي على الأسلاك، ثم نظر أهناك مَن يخالفني؟ ليس الموضوع مخالفة، بل التيار هو الذي يخالفك، تمسك فتصبح فحماً خلال دقائق، الموضوع: قوانين ثابتة، هذا التيار قويّ، وهناك تيارات كهربائية تجذب على بُعد ستة أمتار، فإذا اقترب إنسان من بُعد ستة أمتار سحبته وصار فحماً فوراً، فإذا فهمت الدين هذا الفهم؛ قوانين ثابتة، حقائق كلية، علاقات ثابتة، صحيحة مطبقة، تطبيقها لك ومخالفتها عليك، وأنك سوف تحاسب نفسك بنفسك، قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء:30]

قال: يا رب قد عصيتك ولم تعاقبني، قال له: يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي، عندما يعصي الإنسان ربَّه يُحجب بحجاب، ويصبح في قلق، وضيق، وشرك، وتبرم، وضجر، ويأس، وتشاؤم، هذه أعراض الإعراض.

فإذا استقام أقبل، وإذا أقبل صارت لديه ثقة، وعنده طمأنينة، وشعر بالأمل، وشعر أنه إنسان مهم عند الله عز وجل، يمشي على الطريق الصحيح، هدفه واضح، لو أن الموت جاءه وهو مصيبة المصائب عند الناس لرآه مكسباً، وساعة اللقاء.

التكذيب بالدين نوعان؛ تكذيب لفظي قولي وتكذيب عملي :

لذلك الدين مجموعة الحقائق، المنهج التفصيلي، التوجيه الرباني، الذي يقول لك: افعلْ هذا، ولا تفعل هذا، إذا صدقته فلك، وإن طبقته فلك، والله سبحانه وتعالى جعل الدين ضمانات لسلامتك، وليس الدين كما يفهمه بعض الناس حجز لحريتك، وبعضهم سامحه الله فهم قوله تعالى:

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)

[سورة المزمل:5]

أن الدين أعباء شديدة، ليس أعباء، الدين مجموعة ضمانات لسلامتك، إذا قال الله لك: غض بصرك، فهذا لك، تسعد بزواجك طوال حياتك، إذا قال لك: حرر دخلك من الحرام فخيره لك، ويبارك الله لك فيه، وإذا قال لك: اصدق، فمن أجل مكانتك الاجتماعية، قال لك: كن أميناً، فمن أجل أن تكون غنياً.

((الأمانة غنىً))

[كنز العمال عن أنس]

إذاً (الدين) كما قلت لكم هذا مركز الثقل بالآية، أما قوله تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

الحقيقة التكذيب بالدين نوعان؛ تكذيب لفظي قولي، وتكذيب عملي، فأما التكذيب اللفظي فقلما نسمعه بآذاننا في العالم الإسلامي، بالألف واحد ممّن يقول لك: الدين باطل، معظم الناس مؤمنون، الآن أنت بحركتك اليومية، في البيت، في الطريق، بعملك، بالسوق، مع أصدقائك، مع جيرانك، مع أقرباءك، تقول له: الدين، يقول: نعم والله على العين والرأس، الجنة، الله يطعمنا إياها، لكن العبرة ليست هنا هذا التكذيب القولي نادر، لكن الشيء المنتشر هو التكذيب العملي.

من باب الطرفة، أحياناً أكون داخلاً إلى المسجد، وشخص خارج منه وقت دخولي، يقول: أستاذ، الله يبارك لنا فيك، طيب لمَ أنت خارج؟ احضر الدرس، إذا كنتَ قابضاً كلامي بشكل صحيح فادخل واحضر الدرس، لا هو خارج وهو يثني عليّ، هذا تكذيب سلوكي، باللسان ليس ثمة ألطف منه، أثنى

ثناءً عطراً، لأنه خارج من الدرس معناها هذا الدرس ما قابضه. فالتكذيب العملي أبلغ وأخطر لأن التكذيب القولي تناقشه أما العملي يسكتك.

ليس التكذيب الخطير أن تقول هذا الدين باطل بل التكذيب ألا تطبقه :

أعوذ بالله، الجنة حق، والنار حق، والدين حق، وهذا كلام ربنا، أعوذ بالله من كل ضلالة، إذاً فلمَ لا تطبقه؟ تخالفه بسلوكك اليومي، تخالفه بالبيع والشراء، تخالفه بعلاقتك مع زوجتك، تخالفه بعلاقتك مع أولادك فلِم لا تطبقه؟!!

لذلك التكذيب الخطير ليس أن تقول: هذا الدين باطل، هذا لا يقوله إلا القلة من الناس، التكذيب الخطير ألا تطبقه. مثلاً؛ لو زرت طبيباً ناشئاً، وأعطاك وصفة، وأنت أحببت بذكاء اجتماعي أن تشجعه تصافحه، وتقول له: أنا أشكرك وأمتن عليك كثيراً، وإن شاء الله أريد أن آخذ الأدوية، وأشفى على يدك، لكنك اتبعت وصفة غيرها، وقلت في نفسك: هذا طبيب جديد، وقد لا يفهم، فعدم شرائك هذه الوصفة مع أنك أثنيت على علمه نوع من أنواع التكذيب بعلم هذا الطبيب، هذا التكذيب خطير.

قال لك الله عز وجل: الربا حرام، تقول: واللهِ نحن مضطرون، عصرنا كله ربا، هذا تكذيب؛ تكذيب بالقرآن الكريم، أنا مضطر أو أصير في الطريق؟ الآمر ضامن، والآمر هو الله، وهو ضامن، ما عند الله لا ينال بمعصيته، ومن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى ".

فكل إنسان يخالف كلام الله عز وجل، من دون مجاملة مكذب بهذا القرآن، فلو أن نشرة رافقت آلة غالية، لحرص على سلامتها، ولنفذ تعليمات المصنع تنفيذاً دقيقاً، وربما كانت هذه الآلة أغلى عليه من نفسه التي بين جنبيه، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هذا الذي يكذب به، ولا يعبأ بأمره ولا بنهيه، بعضهم قال: لمجرد أن تخالف كلام الله فأنت مكذب به، انطلاقاً:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

[الترمذي عن صُهَيْبٍ]

المقصود من كلمة (أرأيت) :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

وضحنا كلمة (الدين) ووضحنا كلمة (يكذب)، فماذا تعني كلمة (أرأيت)؟ هذه (أرأيت) تختلف عن:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

الله سبحانه وتعالى أخبرك عن حدث تاريخي وقع وأنت لم تره، فإخبار الله سبحانه وتعالى هو أعلى درجة يقينية، فيجب أن تستقبل ما أخبرك الله به كأنك تراه، هذا معنى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

أما هذه الآية فلها معنى آخر، هذا الذي يكذب بالدين يعيش بيننا، قد يكون للإنسان جار، يكذب بالدين تكذيباً عملياً وليس تكذيباً قولياً، نساؤه كاسيات عاريات، ويوم الجمعة في المسجد، يقول لك: صلاة الجمعة فرض، وأعوذ بالله أنْ يجحدها جاحد، ما هذا الكلام، قد يأكل الربا، ويدفع الصدقة، هذا مكذب بالدين، فربنا عز وجل قال:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هذا الذي يكذب بالدين هل ترى معاملته؟ هل ترى سلوكه؟ هل ترى مواعيده؟ هل ترى إتقانه لعمله أم عدم إتقانه؟ هل ترى غشه للناس؟ هل ترى كذبه عليهم؟ هل ترى مماطلته؟ هل ترى استعلاءه؟ هل ترى دناءته؟ هذا الذي يكذب بالدين.

التكذيب من صفات الذي يكذب بالدين :

هناك تلازم قطعي يسمونه أعلى أنواع الترابط، ترابط وجودي، مثلاً، السيارة تسير والسير للسيارة صفة مترابطة مع وجود السيارة، فإذا ألغيت السير ألغيت السيارة، هذا ترابط وجودي أعلى أنواع الترابط.

الطائرة تطير، إذا ألغيت الطيران لم تبق طائرة، يعبر عنها علماء اللغة:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

هذه (كان) للترابط الوجودي، فمن صفات الباطل الثابتة أنه زائل، فإذا قلت: إنه دائم لم يكن باطلاً، بل صار حقاً:

(وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة النساء: 134]

السميع والبصير اسمان من أسماء الله مترابطان مع وجوده، الله موجود إذاً هو سميع، هذه (كان) ليست فعلاً ماضياً ناقصاً، هذه فعل تام بمعنى وجد، فربنا عز وجل يبين في هذه الآية أن الذي يكذب

بالدين من صفاته الثابتة التكذيب، ليس له موعد صحيح، مصلحته فوق كل مصلحة، يكذب، ينافق، يدجل، يتحايل، ويخادع، ويستعلي، ويحب ذاته، ويبني مجده على أنقاض الآخرين وغناه على فقر الآخرين:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

انظر إلى أخلاقه الدنيئة، انظر إلى أنانيته، وإلى صفاته الخسيسة، وإليه وهو في الوحول؛ وحول الشهوات، وانظر إليه وهو يؤثر نفسه على الآخرين.

الذي يكذب بالدين له أخلاق صارخة كالشمس :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

معناها الذي يكذب بالدين له أخلاق صارخة كالشمس، صارخ، يتحايل، يكذب، إن شاركك في شيء أخذ معظم الربح له، قال تعالى:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ)

[سورة ص: 23]

غير المؤمن يرى هذا المحل قد اشتغل، وشريكه ضعيف، بوثيقة الفروغ اسمه غير موجود يحتال عليه ويضعه خارج الشركة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هكذا يعمل. إن كان في وظيفة، وفيها موظف مستقيم يوشي به، ويفتري عليه افتراء باطلاً حتى يزيحه عن مكانه ليجلس مكانه:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

إن ذهب معك نزهة فلا يؤدي شيئاً من النفقات، يحب أن يكسب من دون أن يساهم:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

وإن فتح نافذته ورأى نافذة جاره مفتوحة ينظر لعل امرأة تمرُ فيراها.

بعض صفات المكذِّب بالدين :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

ينهش أعراض الناس، وإن صار محامياً يأكل حقوقهم، تكون القضية خاسرة تماماً فيقنع الموكّل بأنها رابحة، يقول: من الآن إلى خمس سنوات يفرجها الله، ويسحب منه أموالاً:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

الإنسان المكذب بالدين سواء كان مدرساً، أو طبيباً، أو تاجراً، أو مهندساً، أو صانعاً، أو صاحب مصلحة، أو موظفاً، له صفات كريهة، يأخذ ما له وما ليس له، يحب أن يحيا وحده وللناس الموت، هذا الذي يكذب بالدين، يحل مشاكله فحسب أما الناس فلهم مشاكلهم، وهذا شأنهم:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

انظر إلى أعماله، وإلى مواعيده، وإلى مزحه السخيف، وإلى نظراته الخبيثة وضحكته الساخرة، وإلى جيرانه المنزعجين منه، انظر كيف يغتاب الناس، ويسخر منهم، وينهش في أعراضهم:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

ظاهر، فاترك الكلام أنت، أحياناً أقول: قد تؤمن بالدين متأثّرا بسلوك رجل مؤمن صادق قبل أن يقول لك كلمة واحدة فأخلاقه تدعوك للإيمان، تراه صادقاً عفيفاً.

الحكمة من اختيار ربنا عز وجل هاتين الصفتين في الآية التالية :

المؤمن عفيف عن المطامع وعن المحارم، خجول، صاحب حياء، صاحب وعد، يحب الخير ولا يستعلي على أحد، متواضع، هذا هو المؤمن، أما هذا الذي يكذّب بالدين فربنا عز وجل قال:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

لماذا اختار ربنا عز وجل هاتين الصفتين فقط؟ قال:

(يَدُعُّ الْيَتِيمَ* وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

لو أنّ إنساناً ترك مساعدة إنسان عادي فهذا خطأ وتقصير، لكن إذا ترك مساعدة يتيم فهذا ليس له أحد، مهيض الجناح، فتركُ مساعدة الناس خطأ، لكن ترك مساعدة اليتيم خطأ كبير، ليته ترك مساعدته بل هو يدُعُّه، ويزجره، ويضربه، ويعنفه، وهذا ليس إنساناً عادياً، لكنه يتيم، لم يدُعه فحسب بل عنّفه، وربنا عز وجل ذكر لنا مثلاً حادّاً، خلاصته رجل ارتكب الفاحشة في المسجد، وفي رمضان مثلاً، الفاحشة ذنب كبير، وفي رمضان أكبر، وفي المسجد أكبر، ربنا عز وجل يضعنا أمام مثل حاد، يتيم لا أب له ولا أم، مهيض الجناح، مكسور الخاطر، ضعيف فقير، لا يدعه فحسب بل يعنفه، يعني ذلك أنه ليس في قلبه رحمة:

((لا تُنزع الرحمة إلا من شقي))

[أحمد عن أبي هريرة]

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هو نفسه، ولا أحد غيره، هناك آية أخرى قبل أشهر مرّت معنا، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْدًا إِذَا صَلَّى)

[سورة العلق]

انتهت الآية، أين الباقي؟ المعنى ما تم، بل تم يا أخي، أي أيها الأخ الكريم، انظر إلى هذا الذي ينهاك عن الصلاة، انظر إلى سلوكه، إلى معاملته، إلى شهواته المنحطة، إلى مزحه المنحط، إلى علاقاته البهيمية مع الآخرين، إلى نظراته الشيطانية، إلى خداعه، إلى مكره، انظر إليه، سلوكه ينبئك عن عقيدته، وهذا يكفي.

كل إنسان يكذب بالدين لا بد أن تظهر منه معاملة سيئة :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

انظر فإذا كان مؤمناً تُسر منه، تراه صادقاً، كريمَ النفس، جزيل العطاء، عفيفاً، حيياً، وقوراً، كلامه ثمين، بعيد عن اللغو، وعن المهاترات والفحش، صادق الوعد، أميناً، مخلصاً، هذا هو المؤمن قطعاً.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هو نفسه وليس أحداً سواه، فلا يمكن أن ترى إنساناً له معاملة طيبة إلا وفي قلبه خير، وكل إنسان يكذب بالدين لا بد أن تظهر منه معاملة سيئة، لكن أحياناً هؤلاء الذين كذبوا بالدين على شيء من الذكاء، فقد ينتزعون إعجابك بإنسانيتهم المزيفة.

قتل امرئ في غابة جريمة لا تُغتفر

وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

* * *

يتتبعون أموراً دقيقة جداً في حياتهم اليومية، ويتغافلون عن حقوق الشعوب بأكملها، مجاعات يصنعونها هم بأيديهم، ويندمون ويرفعون أصواتهم بأشياء تافهة، مخالفات طفيفة في مجتمعهم. فقد يكون هذا المكذب بالدين على شيء من الذكاء، لذلك يبدو لك إنسانياً، لكن إذا تضاربت مصالحه مع سلوكه كشّر عن أنيابه، فإذا هو وحش مفترس، تأكد هذا الناعم اللطيف اللبق حضاري كما يقال لك، لكنه يتظاهر في المناسبات بصورة زائفة، هذا الإنسان لو أن مصالحه تضاربت مع مصالحك لانقلب وحشاً كاسراً.

من يبخل بكلمة فهو أبخل البخلاء :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

عندما لا يطعم الإنسانُ المسكينَ قد يكون فقيراً، لكن منتهى البخل أنه لا يحض على الطعام أحداً، ربما لا يكلفه هذا إلا كلمة يقولها، ولكن لا يقولها أبداً، فلا يحب الخير، ولا يحب أن يجري الخير على يديه. أعلى أنواع البخل أنه يبخل بكلمة، من يبخل بالدرهم والدينار فهو بخيل، أما من يبخل بكلمة فهو أبخل البخلاء.

سألك رجل: بالله من أين الطريق إلى حمص؟ لا أعرف، إذا قال لك: أقرضني عشرة آلاف، وقلت: ليس عندي، فهذا معقول ألاّ تقرضه، أما أعطنا رغيفين من الخبز، وعندك رغيفان تريد أن تأكلهما مع أهلك، فأنْ تقول: ما عندنا واللهِ فهذا وارد، لكن من أين الطريق الفلاني؟ وتجيب: لا أعرف، فهذا منتهى البخل، ومنتهى الشح، وهذا إنسان مرذول حقّاً، قال ربنا عز وجل:

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

كلمة لا يقولها، ويبخل بها:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ*وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

الآية التالية آية دقيقة لها معان كثيرة :

الويل وعيد من الله عز وجل، وعيد للمصلين المتساهلين، هذه الآية دقيقة جداً، فيها وقف قبيح، إذا قُرئ فويل للمصلين، فَوَقَفَ، فهذا وقف قبيح، لأن المصلي لا ويل له، المصلي هنيئاً له، ولكن أكمل الآية، هنا يوجد (لا) أيْ لا تقف:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

الآية دقيقة جداً لها معان كثيرة:

1 ـالذي سها عن أداء صلاته أي مكلف بها وسها عنها :

أحد هذه المعاني؛ الله عز وجل سمى هذا الذي كُلف بالصلاة مصلياً، لا لأنه يصلي، لكن لأنه مُكلف بالصلاة، كأن تقول: هذا الطالب لا يجتهد، وهو ليس طالب علم، ولكن اسمه الاجتماعي طالب، هذا

الطالب لا يدرس أبداً، فليس بطالب علم، اسمه عند أبيه طالب، واسمه في السجلات طالب، الطالب فلان، فلما ربنا عز وجل قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)

يقصد أن هؤلاء الذين كُلفوا بالصلاة، وهم يعلمون أن الصلاة فرض عليهم، ومع ذلك عن صلاتهم ساهون، بعض المفسرين حمد الله كثيراً على أن الله عز وجل قال:

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

ولم يقل في صلاتهم ساهون، وبينَ (عن) و(في) مسافة كبيرة جداً، فقال بعض العلماء: عن صلاتهم ساهون، أي سهوُ تَرْكٍ وقلةُ التفاتٍ، فلو أن الله عز وجل قال: في صلاتهم ساهون، هذا سهو يعتري المصلي أحياناً إما لانشغاله بفكرة لديه أهم من الصلاة، كما فُسر هذا عن النبي عليه الصلاة والسلام، أو هي وسوسة الشيطان، هذا نأتي عليه بالتفصيل بعد قليل.

أولاً؛ المصلي في هذه الآية المكلف بالصلاة، أو الذي يصلي ولا يتصل بالله عز وجل يؤدي أشكال الصلاة، حركاتها، أقوالها، أفعالها، تكبيراتها، تسليمها، وهو لم يتصل بالله عز وجل، قلبه ساه ولاهٍ.

بعضهم عرف الصلاة بأنها: أقوال وأفعال تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم، فإذا فعلها الإنسان سقط الوجوب، وإن لم يحصل المطلوب. ولكن ربنا عز وجل يقول:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)

المعنى الأول؛ هذا الذي سها عن أداء صلاته، مكلف بها وسها عنها.

2 ـالذي أداها شكلاً :

والمعنى الثاني؛ هذا الذي أداها شكلاً، وقف ليصلي وجميع مشكلاته اليومية مرَّت في خاطره، قال لي مرةً رجل: وأنا أصلي رفعت أصبعي، وأنا واقف، ما هذا؟ بالصلاة لم تمر معي، قال: فإذا هو يقرأ التحيات وهو واقف! يقرأ التحيات وهو واقف، فوصل إلى أشهد ألا إله إلا الله فرفع أصبعه، هذا نوع من أنواع السهو في الصلاة:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

3 ـالمصلي الذي لم يرجُ لها ثواباً وإن تركها لم يخش على تركها عقاباً :

بعضهم فسر هذا المصلي؛ المصلي الذي لم يرج لها ثواباً، وإن تركها لم يخش على تركها عقاباً، هذا تعريف آخر للمصلي الذي سها عن صلاته،

4 ـالذين يؤخرونها عن أوقاتها :

وبعضهم قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

الذين يؤخرونها عن أوقاتها، وقد جاء في بعض الأقوال: أنه من أخر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره، ولا يهنأ لا بسهرة ولا بجلسة بعد الغداء، لم يصلِّ الظهر، أكل ولم يستطع الصلاة، وهو جالس وخائف أن يدخل وقت العصر، ومن قصة إلى قصة أذّن العصر فشعر بضيق، لأنه سها عنها وأخرها عن وقتها فشعر بضيق.

دخل إلى البيت مساءً، وقد وُضع طعام العشاء فتناوله، ولم يصلِّ العِشاء، بل أخّرها حتى صارت الساعة الثانية عشرة، وقد عمل إحدى عشرة ساعة، فصار متعب، ومال إلى الراحة، وصار الفراش له محبباً، لم يصل العشاء فصلاها كنقر الديك:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

5 ـالذين لا يتمون ركوعها وسجودها :

بعضهم قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

الذين لا يتمون ركوعها وسجودها، يركع ولا يطمئن، ويسجد كنقر الديك، وعندئذٍ تقول لصاحبها: ضيعكَ الله كما ضيعتني، قال: تُلف كما يُلف الثوب الخلق ثم يُضرب بها وجهه وتقول هذه الصلاة: ضيعك الله كما ضيعتني.

6 ـ الذي لا يقرأ بها ولا يذكر :

وبعضهم قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

أي لا يقرأ بها ولا يذكر، مِن عشرين سنة يصلي بآية واحدة، لم يحفظ غيرها، لم يعُد لها معنى، بل أُفرغت من فحواها، لكن إذا قام الإنسان ليصلي، وقد قرأ عن الصلاة، فنوّع في القراءة، احفظ من القرآن، احفظ جزء عمَّ واقرأه بالتسلسل، ولما تغيِّر السور تسمع من الله كلاماً جديداً، فهذا درس بليغ لك.

7 ـالمنافقون في صلاتهم

سهوهم ليس سهوَ وسوسة بل سهوُ ترك والتفات عن الله:

بعضهم قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

تنطبق على قوله تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء: 142]

كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: هم المنافقون في صلاتهم. كما قلت قبل قليل، سهوهم ليس سهوَ وسوسة، بل سهوُ ترك والتفات عن الله عز وجل، وأما سهو المؤمنين؛ فقد يسهو المؤمن، ما الدليل؟ وجود أحكام سجود سهو في الفقه، هناك أحكام مطولة حول سجود السهو، سهو المؤمن بالصلاة، لكن سهو المنافق عن الصلاة شيء آخر.

السهو في الصلاة :

الشيخ محي الدين قال: السلامة من السهو محال، لكن هناك سهو المنافقين وسهو المؤمنين، سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه يقول: ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس؛ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من كتاب الله، ولا صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، إذاً سيدنا سعد كان رجلاً في صلاته.

لكن يطالعنا الآن قول غريب قليلاً، يقول قائل: قد يسهو الرجل في صلاته، لأنه يتدبرها ويعقلها، قرأ القرآن في الصلاة فاستغرق بمعانيه، وذابت نفسه محبة لله عز وجل، قرأ وأطال، وقرأ أول ركعة والثانية والثالثة، فنسي كم ركعة صلى، هذا سهو من تدبرها وعقلها.

ذهب رجل ليطوف حول الكعبة، وله شيخ، قال له: يا بني طف، طاف ورجع، فقال: يا بني كيف حالك، قال له: والله طفت بالبيت، ولم أطف برب البيت، هذا أول طواف له، أنا من أين أمر ومن أين أبدأ؟ من هنا، ماذا أصنع؟ ماذا قال الفقهاء في هذا الوضع؟ ارتبك، هنا الميل، هنا كذا، قال: طفت بالبيت ولم أطف برب البيت، قال له: أعد الطواف، فلما طاف المرة الثانية، لم يعد يدقق بالأماكن، حدث له استغراق، فدعا إلى الله عز وجل، وانهمرت دموعه، فقال سائلاً نفسه: كم شوطاً طفت أنا؟ لقد نسي

كم شوطاً، قال له: كيف حالك يا ولدي؟ قال: طفت برب البيت ولم أطف بالبيت، قال: أعد الطواف، في المرة الثالثة جمع بين عدد الأشواط وبين وأماكن الطواف، وبين الوجهة إلى الله عز وجل، قال له: كيف حالك يا ولدي، قال: طفت بالبيت وبرب البيت.

أحياناً الإنسان بسبب استغراقه في آيات القرآن الكريم، يتأثر بالسورة، قرأ قصة في الصلاة تفاعل معها، نسي كم ركعة صلى هذا سهو مشروع، لذلك شُرع له سجود السهو.

قال: هذا الذي يتدبرها ويعقلها وليس همه بأعدادها، هذا كأنه يأكل اللب ويدع القشر، قال: وقد يسهو الإنسان في صلاته بسبب وساوس الشيطان، أو حديث النفس.

لكن النبي صلى الله عليه وسلم سها مرةً في صلاته، يمكن أنه تصنَّع السهو من أجل أن يعلمنا سجود السهو، وبعضهم فسر سهوه فقال: كان يسهو في صلاته لفكرة أعظم منها، استنباطاً من قوله تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

الروح من الله و من يعزو هذه لنفسه فهو مشرك :

إذا ورد في السنة المطهرة أن النبي سجد للسهو، هو لا يسهو عن الله أبداً، فقد ينشغل به عنه وقد ينشغل بفكرة أهم من الصلاة عن الصلاة نفسها، هذا سهو الأنبياء، والمؤمن يستغرق في الآيات فينسى كم ركعة صلى، أما المقصر فيسهو فيها، وقد يأتيه حديث النفس أو تأتيه وسوسة فيسهو فيها ولكن المنافقين والكفار يسهون عنها، وثمة فرق بين يسهون بها، ويسهون عنها.

ومعنى آخر بهؤلاء المصلين، عندما تشغل آلة على الكهرباء، ولتكن مسجلة تصدح مثلاً بالقرآن، إذا ذهبت إلى مأخذ الكهرباء وسحبت الخيط ماذا يحصل؟ ينقطع الصوت فجأةً، ماذا فعلت؟ قطعت عنها الإمداد، إذاً كان هناك إمداد كهربائي، هذه القوة الكهربائية جعلت الدواليب تدور والشريط يتحرك، والرأس يلقط الصوت ويكبره، فهذه المسجلة التيار موصول بها، إذا وسعنا المعنى؛ كل مخلوق فيه نبض، أو فيه حياة، أو حركة، فالله سبحانه وتعالى يتجلى عليه بالروح، فلو أن الله سبحانه وتعالى قطع إمداده لحظة لمات المخلوق، فهذا الذي تأتيه قوة الله المحركة وهي الروح وهو غافل عنه، يقول لك: أنا، من أنت؟ أنت كلمة زل فيزول، لو قطع الله عنك الإمداد ثانية لأصبحت جثةً هامدة، هؤلاء الذين يتجلى الله عليهم تجلّيَ إمداد لا تَجَلّيَ رحمةٍ، حياتهم قائمة بالله، ولولا أن روح الله فيهم لما تحركوا، ولولا أن الله سبحانه وتعالى أمدهم بالحياة لما عاشوا، هؤلاء كيف يسهون عن هذه القوة المحركة، ويقول أحدهم: أنا وأنا، من أنت؟ أنا، أنا سأفعل، أنا سأترك:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

هذا المعنى بعيد، لكن دقيق جداً، كل إنسان يتحرك، ويتكلم، ويمشي، ويفكر، ويكتب، ويذهب، ويعمل، ويصنع، فيه حياة، والحياة روح، والروح من الله عز وجل، فلما ينسى الإنسان هذه القوة الممدة ويعزوها لنفسه فهو مشرك، وكأنه غفل عن هذه الصلة.

الرياء وأنواعه :

بعضهم سأل هذا السؤال:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ*وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

الحقيقة أن الويل لا لواحد من هؤلاء، بل للصفات الثلاث مجتمعة:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

الآن إلى المراءاة، قال بعضهم: هناك من يصلي طاعة لله عز وجل، وهناك من يصلي تقية، فقد يكون الرجل متواجداً بمجلس، كل من فيه من المؤمنين، وأذن المغرب، ومضت ساعة، وإذا ما صلى المغرب يُتهم بالنفاق فقام وصلى، ولكنه صلى تقية، هؤلاء الذين يراؤون، لم يصلِّ طاعة لله عز وجل، صلى تقية، صلى لئلا يُقال عنه منافق:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

فتعريف الرياء، طلب ما في الدنيا بالدين، هذا هو الرياء، هناك رياء بالتصرفات، يظهر بمظهر الحليم الوقور، لكن إذا خلا فله تصرفات شاذة، وضرب وشتم، وأعمال لا تليق بالمؤمن، لكن أمام المجتمع يأخذ دور الحليم الهادئ الوقور، يفكر، فهذا نوع من أنواع الرياء بالتصرفات، بالسمت، وهناك نوع بالثياب، الآن غير وارد هذا الشيء أما قديماً كان الصوفيون يلبسون الصوف، فكان يرتدي ثياب صوفية خشنة ليُقال عنه صوفي، فهذا رياء بالثياب، وهناك رياء بالقول، طوال جلوسه يقول: أستغفر الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، الحمد لله رب العالمين، كلمات يرددها حتى يقال عنه: ولي، هذا أيضاً رياء، وهناك رياء بالعبادات، يصلي ليُقال عنه مصلٍّ، ويصوم ليُقال عنه: صائم، وهكذا.

أنواع الشرك :

هذا الرياء من أين يأتي؟ أتى من الشرك، وقال العلماء: الشرك على مراتب؛ أعظمها أن تشرك في الاعتقاد، أن تعتقد أن مع الله إله آخر، وقالوا: هذا هو الشرك الذي لا يغفر الله لصاحبه قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء: 84]

هذا أعظم أنواع الشرك، هناك شرك آخر أن تعتقد أن زيداً من الناس مستقل بفعله عن الله وهو يفعل ما يريد، هذا شرك كبير أيضاً، وهذا هو شرك الأفعال، فلا فاعل إلا الله، ولا رافع إلا الله، ولا معطي إلا الله، ولا خافض إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا مانع إلا الله، ولا قابض إلا الله، ولا باسط إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله.

إذا اعتقد أن فلاناً بيده الحول والطول، وهو مستقل بأفعاله عن الله عز وجل، وهو يفعل ما يشاء، وإذا قال لك شخص: أنا أفعل بك ما أفعل، وصدقت هذا الكلام، ورأيت أنه يفعل بمعزل عن الله عز وجل فهذا شرك خطير.

النوع الثالث: شرك في الطاعة، أن تطيع غير الله خوفاً منه وشرك بالعبادة، أن تصلي لغير الله، أو أن تطيع الله لغير الله، هذا شرك بالعبادة، وهناك شرك بالنية، وهناك شرك في الوجهة، وإن الشرك لظلم عظيم، والشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

وقد رُوي: أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، ألا إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجر، ولكن شهوة خفية وأعمال لغير الله.

سئل عليه الصلاة والسلام عن الشهوة الخفية، فقال: الرجل يتعلم العلم يحب أن يُجلس إليه، فإذا جلس الناس إلى عالم وشعر بنشوة وبمكانة كبيرة وبشأن عند الناس، والناس رحبوا به، وبجلوه، وعظموه، فهذه شهوة خفية، وهذا شرك، وهناك موضوع آخر عن الرياء.

دواء الرياء و درجاته :

قال تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ)

أحياناً الإنسان يعمل عملاً من أساسه يبتغي به غير الله، دخل به مشركاً وخرج به مشركاً، أي أحب أن يعمل وليمة له منها مقصد يريد أن يسترضي رجلاً يخاف منه، أقام له وليمة، وتكلّف لها، فهذا العمل من أساسه نوى به إرضاء فلان ليتقي شره، فهذا أوضح أنواع الرياء.

هناك رياء أقل من ذلك، بدأ بعمل صالح، في أثناء العمل الناس أثنوا عليه، انبسطت أساريره، وشعر أنه في موطن اعتبار، فعمل أعمالاً زائدة عن العادة حتى يثنوا عليه أكثر فأكثر فخرج منه مشركاً، دخل به مخلصاً خرج منه مشركاً، كان بشيء صار بشيء.

هناك درجة أخف، دخل به مخلصاً وخرج به مخلصاً، ولكن الناس أثنوا عليه فسُرَّ، سكت ارتاح، وصار بحاجة للمديح، إن شاء الله العمل أعجبكم؟ نعم والله، الله يجزيك الخير، ثم رأى آخر، إن شاء الله هذا العمل أعجبكم؟ نعم والله، صار يستجدي المديح، دخل به مخلصاً، وخرج به مخلصاً، ثم ركن إلى المديح، فهذا شرك مخفف، ورياء مخفف.

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

أنْ يبدي للناس ما ليس في نفسه:

(يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ)

[سورة البقرة: 9]

سئل أحد الصالحين؛ ما دواء الرياء؟ أجاب بكلمة واحدة، قال: كتمان العمل. صل قيام ليل واكتم ذلك، لا تحدث به أحداً، ادفع صدقة واكتم ذلك، لا يجرؤ الشيطان عندئذ أن يقول لك: إنك مراءٍ، لم تتكلم لأحد، لم يدر أحد، افعل الصالحات ولا تذكرها لأحد، هذا هو دواء الرياء، أكرر: قيل ما دواء الرياء؟ قال: كتمان العمل.

لا مراءاة في العمل إن كان فريضة :

لكن هناك عمل لا يكتم الصلاة، أيُعقل ألاّ أصلي؟ كنت مع أناس في نزهة أفلا أصلي؟ قال العلماء: لا رياء في الفرائض، يجب أن تصلي وهذا ليس رياء إطلاقاً، ولن تحس به أساساً. يُقال يوم القيامة لأهل الرياء: صمتم وصليتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك، وقد قيل إن هؤلاء أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة.

سئل بعضهم: منذ كم دخلت البصرة، فقال: منذ عشرين عاماً، وأنا صائم، قال: سألتك عن شيء واحد فأجبتني عن شيئين، هذا الرياء، أخي الاسم الكريم، الدكتور فلان، قلنا لك الاسم لا نريد الشهادة، تُسأل عن شيء وتجيب عن شيئين:

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

صلى رجل أمام جمع، فقيل له: ما أحسن صلاتك، قال: وأنا صائم أيضاً:

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

قال بعضهم: لا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل إذا كان فريضة، وفي الأثر: "لا غمة في فرائض الله"، لا خفاء فيها، رجل سجد في المسجد سجود الشكر فأطال، فقال له أحد العارفين: بالله لو كان هذا في بيتك لكان أحسن، أما هنا فصار فيه نوع من الرياء.

للماعون أربعة عشر معنى :

قال تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

هذه دقيقة جداً، قال المفسرون يمنعون زكاة أموالهم، للماعون أربعة عشر معنى.

أولاً: زكاة المال، والذي يمنعها يمنع الماعون، وثانياً: قال بعضهم في هذا الموطن لو خفيت الصلاة لما صلوها لقد ظهرت الصلاة فصلوها وخفيت الزكاة فمنعوها، فمنع الماعون منع الزكاة. المعنى الثالث: منع المال عن مستحقيه، بشكل مطلق، منع الصدقة منع المال عن مستحقيه، بقي للمشتري معك تتمة وأنت تتجاهل، موظف على الصندوق، على الهاتف، على الكهرباء، دفعت له مثلاً مئة، والمبلغ ثمانية وتسعون ونصف، يتغافل عنك، وتخجل أنْ تطالبه.

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

قال بعضهم: الماعون اسم جامع لمنافع البيت، عندك سلم، عندك شاكوش، عندك كرسي، طاولة، المؤمن يعير يحب الخير، هذا جاره، عنده ضيوف، عنده سبعة ضيوف وعنده خمسة كراسي، يريد كرسيين، يجيبه: ليس عندنا.

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

هذا باب من أبواب الخير كبير، ولكن رجلاً طلب أنْ يستعير سلَّماً، قال له: والله كتفي يؤلمني، قال: أنا سأحمله، قال: لا، من أجل إرجاعه، فأنت لا تعيده، فإذا استعار الإنسان شيئاً فليرجعه ولا يبقِه عنده. بعضهم قال: الماعون العارية، الشيء المعار أيضاً، وقال آخرون: مطلق الماعون الأولى حاجات البيت الأساسية، وبعضهم قال: مطلق الحاجات، وقيل: الماعون المعروف الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم، أي هذا البيت فيه شجرة ليمون، صار عندهم من العرف أن يُطرق الباب لطلب ليمونة، هكذا كان قديماً، شجرة تحمل أربعمئة ليمونة، ما في إنسان طرق الباب إلا أعطوه ليمونة، توفيت هذه العجوز، زوجة الابن أول ما طرق الطارق الباب طردته، الليمونة يبست في السنة الثانية، هذه حقوق الجيران، يمنعون الماعون، إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، وقال بعضهم: الماء فقط، فالماء لا يمنع.

وبعضهم قال: الماعون هو الحق، ومن منع الحق أهله فقد انطبقت عليه هذه الآية، وبعضهم قال: منافع الأموال، كرجل عنده بستان يمرُّ فيه نهر، ويجلس الناس ساعة يستظلون بأشجاره، فمنعهم، ووضع شريطاً شائكاً، لا يدع أحداً يأتي، ما خسر شيئاً، ولكن لا يريد خيراً.

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

منافعُ أموال، منافع أرض، شجرة لها ظل، جلس رجل تحت ظلها، فلا يدعه، دخل شخصٌ إلى بستان، ولا شيء به، أحب أن يجلس ربع ساعة فلم يدعه، بل أخرجه، منافع الأموال مطلقة، بعضهم قال: الماعون هو المعونة، الذي يمنع المعروف بين الناس، فهو إنما يمنع الناس أن يعين بعضهم بعضاً، هذا مانع للماعون، وبعضهم قال: ما لا يحل منعه، كالماء والنار والملح.

عندما يسيء الإنسان لصاحب المعروف يكون قد أساء للدين ومنع بذلك المعروف

رجل ركب جواداً في الصحراء، رأى رجلاً ينتعل الرمال المحرقة، فأشفق عليه، دعاه لركوب الجواد معه، وهذا الذي دعاه لركوب الجواد لصٌّ من لصوص الصحراء، وما إن امتطى ظهر الفرس حتى دفع صاحبها أرضاً، وعدا لا يلوي على شيء، فقال صاحب الفرس: يا هذا قد وهبت لك هذه الفرس، ولن أسأل عنها بعد اليوم، ولكن إياك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء، فتذهب منها المروءة، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها.

شاهد رجلٌ شخصاً مقطوعاً فأركبه في السيارة، فإذا معه حشيش، صادروا السيارة، فهل يُركب أحدٌ أحداً بعد هذه الحادثة؟ أبداً.

المعنى الدقيق خلاف كل هذه المعاني، إذا أسأت لصانع المعروف منعت المعروف، أركبك في سيارته أتحمل معه بضاعة ممنوعة؟ فالسيارة صادروها له، وسجنوه.

شاهد رجلٌ جريحاً، فأخذه إلى المشفى، فأوقفوه خمسة أيام، ليس لي علاقة، لم يسعف أحداً بعدها في حياته، فكل إنسان يسيء لصانع المعروف يمنع الماعون، أعارك كتاباً، والله ضاع مني، هل يعير مرة أخرى؟ يحلف يميناً معظماً أنه لن يعير كتاباً لأحد ما دام حيّاً.

كل إنسان يتلقى معروفاً ويرد بالإساءة، أو يسيء لصاحب معروف صاحب هذا المعروف لن يفعل خيراً أبداً، من الذي منع الماعون؟ هذا الذي أساء.

المعنى الدقيق أنك إذا رددت على معروف بإساءة، أو إذا أسأت لصاحب معروف فإنك منعت الخير بين الناس، قال: إياك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء فتذهب منها المروءة، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها.

أجمل ما في الحياة التعاون، فإذا فعل الإنسان خيراً شكَّ الناسُ فيه، ماذا تريد مني؟ لا أريد منك شيئاً، والله، لأن الناس تعودوا ألاّ يفعلوا خيراً. فعندما يسيء الإنسان لصاحب المعروف، يكون قد أساء إساءة بالغة للدين، ومنع بذلك المعروف.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ*وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ*الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكوثر 108-الدرس (1-1): تفسير الآية: 1 -3 عطاء الله للنبي الكريم وللمؤمنين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-07-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أسماء الله الحسنى كلها تدخل في أفعاله :

قال تعالى:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

إذ تدخل فيها أسماؤه الحسنى، فكل فعل من أفعاله فيه رحمة ولطف وحكمة وقدرة وغنى، وأسماؤه الحسنى كلها تدخل في أفعاله قال تعالى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة الإسراء: 14]

إنني (أنا)، يأتي الحديث عن ذاته بضمير المفرد، والحديث عن أفعاله بضمير الجمع، (إنا)، أما كلمة أعطيناك، الكاف للخطاب، والنبي عليه الصلاة والسلام هو المقصود بهذه السورة.

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّماً فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ.))

[مسلم عن أَنَس بْن مَالِكٍ]

الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعرِّفهم بذاته وإذا عرفوا ذاته سعدوا به :

كلمة (أعطينا) من قِبَل الله عز وجل تعني شيئاً عظيماً، ولو قلنا: الملك أعطى فلاناً، فلو لم تتابع الجملة، ما دمت تقول: الملك أعطى فلاناً فلا بد من أن يكون العطاء كبيراً، وهل يُعقل أن يعطي الملِكُ قلم حبر، ليس معقولاً، أقل شيء بيت وسيارة، فلما ربنا عز وجل يقول: (إنا أعطيناك) معنى هذا العطاء كثير، لذلك (الكوثر) ورد فيه تفسيرات عدة، أحد هذه التفسيرات " النبوة "، وهذا عطاء ما بعده

عطاء، لأن هؤلاء الأنبياء صفوة الخلق، والنبي عليه الصلاة والسلام في رأس القائمة، سيد الأنبياء والمرسلين، بعضهم قال: القرآن، إنما أُنزل عليه، وبعضهم قال: أصحابه الكرام، هؤلاء الرجال العظام الذين خصهم الله بالنبي الكريم، بعضهم قال: الحكمة، ويؤكد هذا قوله تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 269]

بالحكمة تعرف أن الدنيا زائلة، فتسعى للباقية، وبالحكمة تعرف لماذا خُلقتَ في هذه الدنيا، فتسعى للجنة، قبل أن أفصل في موضوع الكوثر لا بد من تمهيد يسير.

إنّ الله سبحانه وتعالى كان ولم يكن معه شيء، ثم شاءت إرادته أن يخلق الخلق، لماذا خلقهم؟ بادئ ذي بدء، سؤال كبير، ما من إنسان فيه ذرة من عقل يقوم بعمل ما إلا وله هدف، فإذا قمت من مكانك إلى مكان آخر، يبدو أن الصوت ضعيف فغيرت مكانك، إذا جلست في مكان معين، ويبدو أن هذا المكان فيه هواء، فما من إنسان فيه ذرة عقل يتحرك حركة إلا ولها سبب، ولن يتحرك حركة بلا هدف، فإذا كان المخلوق الضعيف لا يتحرك إلا بهدف، فالله سبحانه وتعالى حينما خلق الخلق، وحينما خلق المجرات، مثلاً مليون مليون مجرة، وهذا أحدثُ رقمٍ تقريبي لعدد المجرات، في كل مجرة مليون مليون كوكب، وبعض المجرات تبعد عنا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، وهذا الكون الكبير بمجراته وبأرضه وبشمسه وبقمره، وهذه الأرض وما فيها من مخلوقات وحيوانات ونباتات وتضاريس وجبال ووديان وصحارى وسهول وبحار وينابيع، إذاً الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعرِّفهم بذاته، وإذا عرفوا ذاته سعدوا به.

الإنس والجن قبلا الأمانة وتحملاها :

قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

الله عز وجل خلق الخلق، كل هذا الذي تراه أعينكم مخلوقات؛ الجبل مخلوق، الماء مخلوق، النبات مخلوق:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

فربنا عز وجل عرض عطاء غير متناهٍ، عطاء كبيراً جداً، بل هو أعظم عطاء عرضه على الخلق كلهم، فأبوا، والملائكة خافوا من الأمانة، فملّكوا أنفسهم لله عز وجل، يسبحون له لا يفترون، والحيوانات خافوا من الأمانة، طلبوا الدنيا من دون مسؤولية، فكان لهم ما أرادوا، يعيشون لشهواتهم من دون حساب، وأما الإنس والجن فقد قبلا الأمانة وتحملاها، فما هي الأمانة؟ عطاء لا حدود له، ولكن له ثمن باهظ، فما هو الثمن الباهظ؟ أن يأتي الإنسان إلى الدنيا، وقد ركبت فيه الشهوات وأعطي الفكر، وخلق الله الكون كي يتعرف إليه.

الميزة التي أعطاها الله للإنس والجن يقابلها عذاب لا نهاية له إذا خانوا الأمانة :

كونٌ يعرِّفه بالله، وفكرٌ هو أداة المعرفة، ونفسٌ فيها شهوات تعينه على الرقي إلى الله عز وجل، فبالفكر يَعرفُ، وبالشهوة يرقَى، فإذا فكر في الكون عرف الله، فإذا آثر رضاء الله على شهوته ارتقى إلى الله، فسبيل السعادة الأبدية غير متناهية، أن يُركَّب في الإنسان شهوة وفكر، وكون دال على أسمائه الحسنى، فإذا جاء الإنسان إلى الدنيا وفكّر في الكون وعرف الله عز وجل، واستقام على أمره، وآثر ما يرضي الله على ما يرضي شهواته ارتقى، فإذا جاء يوم القيامة سعد بهذا العمل إلى الأبد، فما هو العمل؟ قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

أنت أيها الإنسان مخلوق عُرضت عليك الأمانة وقبلتها، ومعنى قبلتها قبلت أن تأتي إلى الدنيا، وقد رُكِّبتْ فيك الشهوات، ومنحت الفكر، وسخر الله لك ما في السماوات والأرض لخدمتك، ولأجل أن تعرف الله من خلال خلق السماوات والأرض، فمن فكّر في الكون، وعمل الصالحات تقرباً إلى الله استحق هذا العرض الثمين، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

التكليف يعني كل المخلوقات، كل بني البشر والجن تحملوا الأمانة، وقد أتيح لهم أن يسعدوا سعادة ما بعدها سعادة، هم قمة الخلق.

رُكِّب الإنسان من عقل وشهوة، ورُكِّب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكِّب الملك من عقل بلا شهوة، ورُكِّب الإنسان من كليهما، فإنْ سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، إذاً النبي عليه الصلاة والسلام حمل الأمانة، وأداها حق الأداء، وجاء إلى

الدنيا فعبد الله عز وجل، وتعرف إليه، وأطاعه فسعد به، لذلك نقول في الصلاة على النبي: اللهم صل على سيدنا محمد، اللهم صل على أسعدنا محمد، إنه أسعد خلق الله قاطبة بمعرفة الله عز وجل، فلأنك إنسان إذاً أنت ممّن حمل الأمانة، وأنت الآن في فرصة، إما أن تسعد بها إلى الأبد، وإما أن تشقى بها إلى الأبد، طبعاً هذه الميزة الكبيرة التي أعطاها الله للإنس والجن يقابلها عذاب لا نهاية له إذا خانوا الأمانة.

عطاء الله في الدنيا :

كل ميزة يقابلها مسؤولية، فما دام الله عز وجل أعطى الإنس والجن أرقى سعادة، فقد أعدّ لهم أرقى سعادة، إنْ هم تنكّبوا سبيلها فسوف يحاسبهم أشد حساب، في حياتنا الدنيا مُنِح الإنسان صلاحية كبرى، له مظهر فخر، يقابل هذا الفخر أنه إذا لم يحسن استخدام هذه الصلاحية يُحاسب حساباً عسيراً، وكذلك إذا قصر في حق الله عز وجل، شقي شقاوة أبدية.

فيكفي أن النبي عليه الصلاة والسلام جاء إلى الدنيا ليعرّفنا هذه الأمانة، وليعرفنا الغاية من خلقنا، خُلقنا لماذا؟ جيء بنا إلى الدنيا لماذا؟ ما هو أثمن ما في الدنيا؟ قال الله سبحانه وتعالى:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

الآن أقف وقفة يسيرة عند عطاء الله في الدنيا، هذا الذي يعطيه الله لإنسان في الدنيا لا يُسمى عطاء، أبداً، لأنه ينتهي بالموت، المال ينتهي بالموت، والجاه العريض ينتهي بالموت، والرفاه الشديد ينتهي بالموت، والمنزل الفاخر ينتهي بالموت، وكل مباهج الدنيا يأتي الموت ويضع لها حداً، إذاً هذا ليس العطاء العظيم، هذا ليس عطاء الله سبحانه وتعالى، هذا يؤكده حديثُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

إن هذه الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، يا بني ما خير بعده النار بخير، أي ما هو الشيء الثمين جداً عند الناس، دخْله مليون كل يوم، تُحل كل مشاكله، أيخاف من ارتفاع الأسعار إذا كان دخله كل يوم مليوناً؟ ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية، الغنى والفقر بعد العرض على الله سبحانه وتعالى.

لو كُشف الغطاء لكانت السعادة الكبرى أن تعرف الله :

إذا ظننت أن الله سبحانه وتعالى إذا منح فلاناً مالاً، وإذا ظننت أن هذا عطاءً من الله عز وجل فأنت في ضلال مبين، هذا ليس عطاءً، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة: 126]

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك، فلأُسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي، وكنتَ عندي مَذْموماً.))

[ورد في الأثر]

هذه الجلسة لو كُشف الغطاء لكانت السعادة الكبرى أن تعرف الله، أن تعرف لماذا جاء بك إلى الدنيا، وأن تعرف أثمن ما فيها.

كل إنسان يرى شيئاً في الدنيا ثميناً؛ هذا يرى المال أثمن ما في الدنيا، وذاك يرى المتع الرخيصة أثمن ما في الدنيا، هذا يرى الشأن الكبير في الحياة أثمن ما في الدنيا، هذا يرى حيازة الشهادات العليا، أن يُقال له: دكتور مثلاً، الباحث الكبير العلامة، يشعر بالخدر حينما يسمع هذه الكلمات، هذا يرى هذا اللقب العلمي أثمن ما في الدنيا، لذلك يسعى إليه ليلاً ونهاراً.

تعريف العبادة المختصر :

إذا عرفت أثمن ما في الدنيا حقيقة وسلكت السبيل الصحيح فأنت أسعد الناس، فكم من إنسان أمضى حياته في عمل ظنه مسعداً فإذا ظنه يخيب به فيراه طريقاً مسدوداً، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً)

[سورة البقرة: 103-106]

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

ربنا عز وجل خلقنا ليسعدنا، خلقنا ليرحمنا، خلقنا لنعبده، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ *مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات: 56-58]

أي لنعرفه فنطيعه فنسعد بقربه، هذا تعريف العبادة المختصر، ثلاث مراحل؛ تعرفه أولاً، وتطيعه ثانياً، فتسعد بقربه ثالثاً، وهذا هو الهدف.

أقوال في معنى كلمة (الكوثر) :

حينما يأتي الإنسان إلى الدنيا ويعرف الهدف، يركز جهوده كلها في جهة واحدة، فيحقق نجاحاً كبيراً، وقد تقول عن إنسان: إنه ضائع، أي لا يعرف لماذا جاء إلى الدنيا، وقد ورد في الأثر: المنافق كالناقة ربطها أهلها ثم أطلقوها، فلا تدري لم عقلت ولا لم أطلقت، فربنا عز جل يسلّي نبيه ويطمئنه، ويَعِده بالخير الكثير.

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

ما هو الكوثر؟ بعضهم قال: نهر في الجنة، وقد ورد هذا عن النبي عليه الصلاة والسلام، وبعضهم قال: الحوض يوم القيامة، وبعضهم قال: القرآن الكريم، وبعضهم قال: النبوة، وبعضهم قال: أصحابه الكرام، وبعضهم قال: رفعة الذكر في السماء والأرض " لا إله إلا الله محمد رسول الله " قرن اسمه مع اسم الله عز وجل، في الأذان وفي الصلاة وفي عبادات كثيرة. وبعضهم قال: نور في قلب النبي عليه الصلاة والسلام دله على الله وقطعه عمن سواه، وبعضهم قال: الصلوات الخمس. والأصح من هذا كله؛ أن كلمة الكوثر تعني الخير الكثير، كل هذا الذي ذكرته مجتمعاً وشيء آخر لا نعرفه:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

وبعضهم قال: الحكمة، لقوله تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 269]

إذا عرفت أن في هذا البناء كنزاً يغنيك إلى آلاف السنين، فهذه المعرفة أثمن من الكنز، لأنك عرفت الكنز بها، هذه الحكمة، فالحكمة تعرفك أن الله أثمن من كل شيء، فإذا عرفته عرفت كل شيء وإذا فاتك فاتك كل شيء، تعرف هذا بالحكمة، وتعرف أنه من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً، وبالحكمة ترى أن الله سبحانه وتعالى وحده يستحق المحبة، ولا شيء في الأرض يستحق معه المحبة.

الحكمة هي عطاء الله الكبير للأنبياء :

الآيات التي ذكر الله بها عطاءه الكبير للأنبياء:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[سورة يوسف: 22]

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص: 76]

مفاتيحه فحسب، لا يستطيع سبعة رجال أشداء أن يحملوها، فكيف بالكنوز نفسها، لمن أعطى الله هذا؟ لقارون، وماذا أعطى الأنبياء والمرسلين؟ الحكمة، قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الجمعة: 2]

فلذلك إذا أوتيت طرفاً من الحكمة، لا أقول: الحكمة بكاملها، إذا أوتيت طرفاً منها فقد فُقْتَ الناس كلهم، وليس في الأرض من هو أسعد منك إلا أن يكون أتقى منك.

السعادة تأتي بالحكمة لا بالمال :

إذا شعرت أن فلاناً العاصي أعطاه الله مالاً وحرمك من هذا العطاء فأنت لست مؤمناً، قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

[سورة القصص: 79-81]

يعبر عنها الناس الآن بقولهم: فلان هنيئاً له، لديه بيت لا يوصف، وله محل فروغه ثلاثة ملايين، عنده فندق دخله اليومي خمسة آلاف، عنده أرض تضاعفت ثلاثين ضعفاً، عنده مزرعة إنتاجها في السنة خمسمئة ألف، عنده أرض زرعها من المادة المعينة فربحت مليوناً، ترى أن الناس يسيل لعابهم على هذه الأرقام، وهم لا يعرفون الله عز وجل، وليتهم عرفوا الله سبحانه وتعالى، فمن عرفه فقد عرف كل شيء، ومن جهله فقد جهل كل شيء، هذه السعادة، هذه تأتي بالحكمة، وحضور هذه المجالس يعلمك الحكمة، تعبر مسالك الحياة على بصيرة، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة يوسف: 108]

القرآن حمّال أوجه وإعجازه في إيجازه :

ربنا عز وجل قال:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

ماذا أعطاه؟ أعطاه كل شيء تقول: نبوة، نعم نبوة، سعادة لا توصف كذلك صحيح، حكمة ما بعدها حكمة كذلك صحيح، نهر في الجنة صحيح، الحوض المورود صحيح، القرآن مطلق يحتمل معان كثيرة، القرآن ذو وجوه، القرآن حمال أوجه، إعجازه في إيجازه:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

الآن إذا أُعطي رجل مِن كل شيء؛ مالاً كثيراً، وجاهةً، بيتاً، مزرعة، بيتاً في المصيف، زوجة، أولاداً، يقول: نال من كل شيء بطرف، وجمع أطراف المجد، هذا في الدنيا، فربنا عز وجل خاطب النبي عليه الصلاة والسلام وقال له:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

النبي عليه الصلاة والسلام فسر هذا الكوثر، فقال: الخير الكثير، وكلمة كثير من الله كثير، كلمة أعطيناك من الله تعني عطاءً كبيراً، ليس معقولاً مِن ملك أنْ يعطي قلم حبر، أنعمنا عليك بقلم، لا تصح هذه مع ملك، عطاء الكبير كبير، عطاء العظيم عظيم.

دائرة المسموعات لا حدود لها ودائرة الخواطر لا نهاية لها :

يروى أن امرأة وقفت بباب أمير تسأله حاجة، فأعطاها عطاءً كثيراً، فلامه بعض جلسائه، قالوا: أيها الأمير إنه يرضيها القليل، وهي لا تعرفك أنك كريم، فأجابه إجابة تُسجل بماء الذهب، قال: إن كان يرضيها القليل فأنا لا أرضى لها إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

هذه الآية تؤكد مدلول القصة آنفة الذكر، إلا قليل:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

العظيم يقول لك قليل:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

ما لا عين رأت، دائرة المشاهدات محدودة، لكن دائرة المسموعات كبيرة جداً، فأنت لم تر إنساناً وزنه ثلاثمئة كيلو، لكنك سمعت أو قرأت في كتاب أن وزنه ثلاثمئة كيلو، وأنت لم تر بناء مئة وطابقين رأيت في محيطك أربعين أو ثلاثين طابقاً أما حسب مسموعاتك فموجود، فدائرة المشاهدات محدودة جداً لكن دائرة المسموعات واسعة جداً، كل حدث يحدث في الأرض الآن مهما بدا غريباً يصل إلى أسماعنا، وإن كانت دائرة المسموعات لا حدود لها فدائرة الخواطر لا نهاية لها، قد يخطر لك بناء من ألف طابق، هذا خاطر، قد يخطر لك أن دخلَ فلانٍ مئة ألف مليون في اليوم، فهذا خاطر غير محقق، انظر إلى الحديث كم هو دقيق:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

الحياة كلها مدرسة جئنا إليها لنعرف الله عز وجل ونستقيم على أمره :

خُلقت لهذه الحياة، وأنت في الدنيا في مدرسة فيها من كل شيء من أجل أن تعرفه:

((عن قتادة أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ: هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

[أبو داود عَنْ قَتَادَةَ]

في الدنيا وسائل إيضاح، فيها كتب، هذا الكتاب المقرر، وكل كلمة بهذا الكتاب يقابلها وسيلة إيضاح، قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

[سورة الغاشية: 17-]

الإبل موجودة، السماء موجودة، الجبال موجودة، الأرض موجودة:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

[سورة الشمس: 1-2]

أنت في مدرسة، وهذه الحياة كلها مدرسة، جئت إليها لتعرف الله عز وجل، وتستقيم على أمره، وتفعل أفعالاً تقربك إليه، وتخالف فيها شهواتك التي أودعها الله فيك، فإذا جاء وقت اللقاء سعدت بقربه إلى الأبد، هذا هو سر الخلق، وهذا هو الهدف الكبير من خَلق الإنسان.

تمام النعمة الهدى :

قال تعالى:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

إنّ هذه النعم فيضٌ من الله، لكن العلماء قالوا: تمام النعمة الهدى، فالهدى واحد والمال صفر، فصاروا عشرة، ومع الهدى زواج، صفر ثان، فهو مهتدٍ، وله دخل يعيش به وله زوجة، الأولاد صفر ثالث، الشأن العالي في المجتمع صفر رابع. الآن لو حذفت الواحد لكان كل الذي أمامه أصفار، لذلك:

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

[سورة الدخان: 25-29]

سُميت نَعمة لِما فيها من ترف وضياع، وليست نِعمة، لكن النِّعمة المجردة من الترف وهي المطية لمرضاة الله سبحانه:

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً *وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً)

[سورة الفتح: 2-3]

الصلاة من لوازم النعمة :

المهتدي يسمى المال عنده نعمة:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ*كَلا)

[سورة الفجر: 15-17]

وهذه المقولة ليست صحيحة، ليس عطائي في الدنيا إكراماً، إنه ابتلاء، وليس حرماني إهانة، إنه معالجة، كلا، فالله سبحانه وتعالى نفى أن يكون عطاؤه في الدنيا إكراماً، إذا أعطاك المال وأنفقته في وجوهه الصحيحة فقد ابتلاك الله به، واستعملته فيما يرضيه، فانقلب الآن المال إلى نعمة كان ابتلاءً

فصار نعمة، أعطاك الله زوجة فعرّفتها بربها وحجبتها عن الأجانب، وعرفتها أمر دينها، فسعدت بها وسعدت بك الآن أصبحت الزوجة نعمة:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: 15]

إنسان هذا قوله، وهذه مقولته، وليس هذا صحيحاً،

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ)

إذا أُصيب رجل في صحته، أو أصيب في دخله، أُتلفت بعض بضاعته، احترق محله التجاري، فَقَدَ أحد أولاده، هذا ليس إهانة إنه معالجة،

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ*كلا)

(كلا) أداة ردع وزجر ونفي، كلا ليس عطائي إكراماً، عطائي ابتلاء، وليس حرماني إهانة، حرماني دواء، هذا هو المعنى.

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

من لوازم النعمة، ولئلا تُحجب بالنعمة عن المنعم صَلِّ، وكلمة (صل وانحر) هي الدين كله، وهناك آية مشابهة لها.

جوهر الدين الصلة بالله عز وجل والإحسان إلى الخلق :

إنّ جوهر الدين صلة بالله عز وجل، وإحسان إلى الخلق، هذا هو الدين كله، فإن عرفته اتصلت به، فإذا سعدت بقربه تشكره، وشكره الإحسان إلى خلقه، لأنّ الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، فجوهر الدين اتصال بالخالق، وإحسان إلى الخلق، إلى الخلق ليس للمسلمين فحسب بل للخلق قاطبة، انظر إلى هذه الآية ما أجملها:

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

لربك اجعل هذه الصلاة خالصة له، لا رياء فيها ولا سمعة:

((من لم يكن له ورع يحجزه عن معصية اللّه إذا خلا بها لم يعبأ اللّه بسائر عمله شيئاً))

[رواه الديلمي عن أنس]

إذا صلى عبدي صلاته في السر كصلاته في العلانية فهذا عبدي حقاً، لأنه مخلص، يصلي في السر كما يصلي في العلانية، يقبل على الله في السر كما يقبل عليه في العلانية.

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

أوجَهُ التفسيراتِ لهذه الكلمة؛ وانحر الأضاحي، فَذَكَرَ الجزءَ وأراد الكل، ذكر عملاً صالحاً من هذه الأعمال الكثيرة، وأراد بها مطلق العمل الصالح، كقوله تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1-2]

قد يسأل سائل: لماذا اختار الله سبحانه وتعالى هاتين الإساءتين بالذات؟ لأن الإساءة الأولى تمثل أشنع عمل، فلو منعت خيرك عن إنسان لكان هذا إساءة، ولو منعتها عن يتيم فهي أبلغ إساءة، لو آذيت اليتيم كان أبلغ وأبلغ ثلاث مراحل، أن يدع اليتيم، يزجره، يعنفه يدفعه بيده، الآن إلى الفقرة الثانية.

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

[سورة الماعون: 3]

أي العمل الصالح مهما خف إلى أن أصبح كلمة ومع هذا يضن بها، لا يفعلها، مهما خف العمل الطيب لا يفعله، ومهما كان العمل السيئ قبيحاً يفعله، فليس المقصود يحض على طعام المسكين، بل المقصود أنه يمتنع عن فعل الخيرات مهما قلّت، ويفعل السيئات مهما كانت فظيعة.

لو طلبنا لقاء الله عز وجل فالثمن محدد والباب مفتوح :

كذلك:

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

أي اتَّصل بالله، وافعل الخير تقرباً إليه.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

إذا رجوت لقاء إنسان، يقال لك هذه الأسبوع مشغول، والذي بعده عنده سفر، والذي بعده يقال لك: عندنا ثمانون إنساناً ينتظرون فانتظر معهم، هذا إنسان، أما لو طلبت لقاء الله عز وجل فالثمن محدد، والباب مفتوح.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

تعريف الدين كما ورد في القرآن الكريم :

قال بعضهم: هذه الآية تلخيص القرآن كله، (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلي)، ماذا يوحى إلي؟ (أنما إلهكم إله واحد)، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لا رازقَ ولا معطيَ ولا رافعَ ولا خافضَ ولا معزَّ ولا مذلَّ إلا الله، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الوجوه كلها:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُون * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح: 10]

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأعراف: 54]

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة غافر: 20]

(وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

[سورة الرعد: 11]

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر]

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال: 17]

هذا هو الدين، وهذا كل دين..

فحوى الديانات كلها قول (لا إله إلا الله) :

قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

هذا فحوى الديانات كلها، أفضل كلمة قلتها أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله.

عَنْ أُمِّ هَانِئٍ قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ وَلَا تَتْرُكُ ذَنْباً))

[ابن ماجه عن أُمِّ هَانِئٍ]

((لا إله إلا الله حصني من دخلها أمن من عذابي))

[كنز العمال عن عليّ]

هذه كلمة التوحيد أخطر كلمة في الدين، هي الدين كله، فاعلم - ليس فقل - أنه لا إله إلا الله، بل اعلم.

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الطبراني عن زيد بن أرقم]

((من لم يكن له ورع يحجزه عن معصية اللّه إذا خلا بها لم يعبأ اللّه بسائر عمله شيئاً))

[رواه الديلمي عن أنس]

قال تعالى:

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

هذا الدين كله، فإذا كانت صلاة الرجل شكلية وليس له عمل صالح، فكل أعماله غير مجدية، يقول: تعلَّمنا هذا العلم، يقال له: تعلمته لتباهي به الناس، خذوه إلى النار..

المحافظة على الصلاة أن تكون على جادة الاستقامة :

ألفنا هذا المؤلف الفلاني، هذا المؤلف دقيق فيه فهرس أعلام، وفهرس للموضوعات، وفهرس أماكن، وفهرس أزمنة، وفهرس للآيات وللأحاديث، وله مقدمة وفصول وقرَّظه كثير من الأدباء والعلماء، وتجليده جيد، وتباهيت به، لكنه لم يكن عملاً يُرجى به وجه الله.

الدين صلة بالله عز وجل، وإحسان إلى الخلق، فكل شيء ينتمي لهذين الشيئين فهو مجدٍ ومثمر، وكل عمل بعيد عن هذين الجوهرين فهو عمل لا جدوى منه، كأنه خسارة.

أحد كبار العلماء توفي ترك مئة مؤلف، رآه تلميذه في المنام، قال له: يا سيدي ماذا فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك العبارات، وذهبت تلك الإشارات، ولم يبق إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل، هذه الصلة، ألك صلة بالله عز وجل؟ إذا وقفت بين يدي الله، هل تشعر أنك أقبلت عليه؟ أما هذه الصلاة الشكلية، قال له: قم فصل فإنك لم تصل، إقامة الصلاة لا أن تقول الله أكبر، أن تقيم هذه الصلة: حافظوا على الصلوات، إنْ أذّن ذهبنا إلى المسجد، ليس هذه المحافظة، المحافظة أن تكون مستقيماً بين الصلاتين، حتى إذا جاء وقت الصلاة وقفت وأنت مقبل على الله ولست خجولاً منه سبحانه وتعالى، هذه المحافظة على الصلاة أن تكون على جادة الاستقامة.

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

أيْ افعل الخيرات من أجل أن ترقى في الدنيا والآخرة، لأنه كل إنسان جاء إلى الدنيا ولم يعمل صالحاً فليس عند الله مقبولاً، يا رسول الله إن فلانة تذكرُ أنها تكثر من صلاتها، تكثر، ليس تصلي، ما معنى تكثر؟ أي لها قيام ليل، ضحى، أوابين، وصدقتها، ليس الزكاة، زكاة وصدقة، وصيام، غير أنها تؤذي جيرانها، قال: هي في النار.

بني الإسلام على خمس، هل تسمى هذه الدعائم هي الإسلام، لا، هذه دعائم الإسلام، وليست هي الإسلام.

((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

المعنى الحقيقي للإسلام :

الإسلام بناء آخر؛ لما سأل النجاشي سيدنا جعفر عن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام فماذا قال له؟

((قال: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ))

[أحمد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ]

هذا هو الإسلام، الإسلام صدق، والإسلام عفة، والإسلام أمانة، والإسلام ورع واستقامة، والإسلام عمل صالح، هذا الإسلام، أما الصلاة فليست هي الإسلام، بل هي إحدى دعامات الإسلام، يقوم عليها الدين، هل المدرسة بناء؟ ليست بناء، ولا مقاعد، ولا سبورة، ولا كتباً، إذاً ما هي؟ المدرسة علم، قد ترى مدرسة، ولكن ليس فيها علم، ليس فيها مدرسون، بناء مدرسة وغرف صفوف، ومقاعد وسبورة وغرفة إدارة وملعب، وليس فيها مدرسون، لا نسمي هذا البناء علماً، العلم شيء آخر، العلم مدرس دخل الصف ألقى محاضرة علم، فيها الطلاب، فالإسلام غير الصلاة، قم فصل فإنك لم تصل:

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[أحمد في كتاب الزهد]

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

حجوا قبل ألاَّ تحجوا، قد يأتي زمان يحج الإنسان ويرجع كما ذهب، يبقى مقيماً على معاصيه.

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

لئلا تُحجب بالنعمة عن المنعم صلِّ، لئلا تكون جاحداً لهذه النعمة صلِّ، ومن أجل التقرب إلى الله عز وجل انحر، هذا هو الدين.

الأشرار عصيٌّ بيد الله عز وجل :

هناك أحاديث للنبي عليه الصلاة والسلام فيها جوامع الكلم، وفي الأثر الموقوف:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

[كنز العمال من قول عليّ]

إنّ الدين كله في هذا الحديث، لا تخف من إنسان، لا شيء يخيف إلا الله، هذا المخيف بيد الله عز وجل.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضى من أحبنا

ولذ بحمانا و احتم بجنابنــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنـا

*** * ***

الخلق الشريرون بيد الله عز وجل، إما أن يرخي لهم الحبل ليصلوا إليّ، وإما أن يبعدهم عني، علاقتي مع الله عز وجل. إذا تلقى رجل ضربةً بعصاً، فهل يتشاجر مع العصا، إذا فعل يكون أحمق، فهؤلاء الأشرار عصيٌّ بيد الله عز وجل، هذه أدوية في صيدليته، فيها أدوية منوعة، الشريرون أدوية في هذه الصيدلية، أحياناً لا بد له من إنسان شرير ليخيفه، ويأكل له ماله، فقد يكون ماله حراماً، قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 90]

كل شيء يحدث بقضاء من الله وقدر :

قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد: 22]

التفسير الوجيه لهذه الآية: إن كل إنسان له عند الله صفحة هي سِجِلُّ أحواله، دخله، إقباله، صلاته، طهارة نفسه، علاقاته الاجتماعية، فيها هل له معاصٍ أم لا معاصي له، فربنا عز وجل بناءً على هذه الصفحة، وعلى هذا الكتاب يرسل له مصيبة.

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد: 22]

قبل أن تنزل المصيبة، هناك دراسة مستفيضة حول حالة الإنسان، من قبل أن نبرأها، فما قُضِيَ للإنسان أنْ يأتيه فلا بد أن يأتيه، لأن الله سبحانه وتعالى حكيم عليم، اطلع على قلبه فرأى انحرافه، فقدّر له ما يرجعه، وهذا تفسير مبسط للقضاء والقدر، القضاء من الحكم، والقدر من التقدير، فربنا عز وجل اطلع على هذا الإنسان فحكم بإعراضه، فقدر له ما يرجعه إليه، كل شيء بقضاء من الله وقدر:

((والإيمان بالقضاء والقدر يذهب الهم والحزن))

[ابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي هريرة]

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

القضاء هو الحكم والقدر هو التقدير والقضاء والقدر دائماً لمصلحة الإنسان :

ربنا عز و جل كل يوم هو في شأن، اليوم نظر لهذا الإنسان فرآه مقبلاً فقدر له إكراماً، وإن رآه معرضاً قدَّر له معالجة، فالقضاء هو الحكم، والقدر هو التقدير، والقضاء والقدر دائماً لمصلحة الإنسان، بيده سبحانه الخير كله:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران:26]

الإعزاز خير والإذلال خير، العطاء خير والمنع خير، هذا تفسير قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

الظاهرة النعم والباطنة المصائب، نعم باطنة، إذاً:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

الذي تفضل به الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم لا نستطيع أن نحيط به إطلاقاً، نحن نفكر أن القرآن أحد العطاءات، النبوة أحد العطاءات، الحكمة أحد العطاءات، نهر في الجنة أحد العطاءات، الحوض المورود أحد العطاءات، وهناك عطاءات لا نعلمها، لا يعرف النبي إلا النبي، نحن دونه، لا نحيط بما أعطاه الله سبحانه وتعالى، لكن يكفيه:

((سَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، قالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَسِيلَةُ؟ قالَ: أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

إنه باب الله الأوحد، وما من مخلوق في الكون يستطيع أن يدخل على الله عز وجل إلا من باب رسول الله، أي امرئ أتاني من غيرك فلا يدخله، والأنبياء جميعاً يدخلون على الله من باب النبي عليه الصلاة والسلام.

الآية التالية لرسول الله ونحن لنا منها نصيب :

النبي الكريم هو سيد الأنبياء والمرسلين، صلاته بالأنبياء في الإسراء دليل رفعة مقامه:

((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ))

[مسلم عن أبي هريرة]

ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

هذه الآية لرسول الله ونحن لنا منها نصيب، فإذا استقمت استقامة تامة، وعملت أعمالاً طيبة، شعرتَ بشأن لك عند الله لا يعرفه إلا من ذاقه، وشعرت بطمأنينة عجيبة، لا قلق ولا خوف في حياتك، ولا حقد ولا شعور بالحرمان، هذه مشاعر الناس الساحقة لهم، أنت في منجاة منها، هذه بعض الكوثر، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

إحساس المؤمن أن له عند الله شأناً:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر: 54-55]

هذا المقعد، أنت مؤمن، مطيع لله عز وجل، تؤثر جانب الله، لا تعصي الله، محب لله، قائم على أمر الله، هذا الشعور وحده كوثر، أنت لك نصيب من هذه الآية، ولكن:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

* * *

المؤمن موعود من الله عز وجل بعطاء لا حدود له :

إنّ كل آية موجهة للنبي عليه الصلاة والسلام فللمؤمن منها نصيب بقدر إيمانه، واستقامته، وعمله الصالح، وبقدر إقباله وورعه، وبقدر زهده وحبه:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

أحد الصحابة قرأ هذه الآية في قيام الليل حتى أذان الفجر، وهو يعيدها ولم يشبع منها:

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً)

[سورة الكهف: 102]

هذا الكوثر، أنت مؤمن موعود من الله عز وجل بعطاء لا حدود له، يبدأ في الدنيا، فلا تقل: هو بعد الموت، وهذا يطول، بل يبدأ في الدنيا، لكنْ لمن؟

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

((أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ))

[الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف]

هكذا قال رسول الله، هو الآن في الجنة، والمؤمن في جنة، لو اطلعت على قلب المؤمن لرأيت فيه سعادة لو وزعت على أشقياء الأرض لأسعدتهم، لأنه مع الله.

إذا زار المسلم الحجرة النبوية الشريفة، يقول لك: بكيت نصف ساعة، لماذا بكيت؟ هذا مما فاض من أنوار رسول الله عليك، صار لك صلة به.

الجنة اتصال حقيقي ومباشر بالله عز وجل :

إذا جلس مع رجل ذي مكانة عالية، إيمانه عال، ليس علمه فحسب، يقول لك: شعرت بسرور، وشعرت بنفس متفائلة، ذهب عني الضيق، وانزاح عني القلق، وتلاشى لديّ التشاؤم، وفارقتني السوداوية، ونبتُ الإحساس بالضياع، فماذا صار لك؟ أولياء أمتي إذا رُؤوا ذُكر الله بهم:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

((إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: كثرة تلاوة كتاب الله تعالى، وكثرة الذكر لله عز وجل))

[كنز العمال عن عبد الله بن عمرو]

أنت عندما تصير لك وجهة إلى الله عز وجل تعرف معنى هذا الكلام، فالمؤمن في سعادة في الدنيا، ولو سكن بيتاً ضيقاً، ولو لم يكن له أولاد، ولو كان دخله قليلاً، لكنه في سعادة لأنه موصول بالله عز وجل، موصول بأصل السعادة، فلما يتصل الإنسان بمخلوق أعطاه مسحة من الجمال، أو كان له ابن جميل الصورة، تراه يقول لك: نحن مسرورون به كثيراً، سهرنا إلى الساعة الثانية عشر، فهذا مخلوق له مسحة من الجمال، فكيف إذا اتصلت بصاحب الجمال؟ إذا جلست بمكان على سفح جبل أخضر، والبحر أمامك، والنسيم العليل، فلعلك تقول: واللهِ مثل الجنة، فكيف إذا اتصلت بصاحب الجمال، مبدع المكان والجمال؟

الإنسان في الدنيا يتصل بمخلوقات الله عز وجل، التي أسبغ الله عليها مسحة من جماله، فيظن أنه قد سعد بها، لكن الجنة اتصال حقيقي ومباشر بالله عز وجل، ينظر المؤمن إلى الله عز وجل في الجنة نظرة يغيب بها خمسين ألف سنة من نشوتها، ففي بقلب أهل الجنة سرور لا يعلمه إلا الله إلى الأبد، لا خوف، ولا حزن، ولا قلق، ولا نقص يعتريه، ولا شيء يبعث فيهم الهم والحزن.

إرضاء الله والنبي واحد فهما شيئان يلتقيان في شيء :

قال تعالى:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

[سورة الزمر: 73]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة: 19-24]

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

إذ المقطوع من هو؟ من أبغض النبي عليه الصلاة والسلام، لماذا أبغضه؟ لأنه أبغض الله سبحانه وتعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

[سورة التوبة: 62]

هذه آية ورد سياقها على خلاف اللغة، السياق النحوي يقتضي أن تكون: والله ورسوله أحق أن يرضوهما، لأنه مثنى، الله قال: يرضوه، وهذا من إعجاز هذه الآية، لأن إرضاء النبي عليه الصلاة والسلام هو إرضاء لله، وإرضاء الله عز وجل هو عين إرضاء النبي، وإرضاء الله والنبي واحد، فهما شيئان يلتقيان في شيء.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

[سورة التوبة: 62]

ليس بين الخلق وبين الله قرابة إلا طاعتهم لله عز وجل فالقرابة هي الطاعة :

قال تعالى:

(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

إذ هذا الذي أبغض النبي عليه الصلاة والسلام لماذا أبغضه؟ لأنه أبغض الله سبحانه وتعالى. أحِبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحِبوني بحب الله، وأحِبوا آل بيتي بحبي، قيل: من هم آل البيت؟ قال: كل تقي من آل البيت، أنا منسوب، ما نسبتك؟ ثمانية عشر جداً، أنا أقصر منك، أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً، انتهت، ليس ثمة مبدأ أحلى من الإسلام فلا تفرقة، والخلق كلهم عيال الله، والناس سواسية كأسنان المشط، قال: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم لله عز وجل، القرابة هي الطاعة:

(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

أين أبو لهب؟ أين ذكره؟ قُطع ذكره، وأصبح في الأذلّين:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

[سورة المجادلة: 20]

العاقبة للمؤمن :

أين أبو جهل؟ هؤلاء الذين كذبوا النبي، هؤلاء الذين عادوه، هؤلاء الذين تآمروا عليه، أين هم الآن؟ في أسفل سافلين، لمن العاقبة؟ واللهِ الذي لا إله إلا هو، آية كلما أقرأها يقشعر بدني منها:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

هذه هي، العاقبة للمؤمن، الكافر يصول ويجول وينقصم، أما المؤمن فله العاقبة في الدنيا والآخرة، في الدنيا ترى حياته مباركة؛ زواجه مبارك، وفي بيته، وفي مستقبله، وفي خريف عمره، يقضي خريف

عمره كأجمل أيام حياته، يزداد عقلاً، ويزداد حلماً، يزداد إقبالاً ومعرفة بالله عز وجل، ويزداد شأناً، المؤمن خطه البياني صاعد، ولا يقف ولا ينحني ولا ينزل أبداً، والموت نقطة على هذا الخط الصاعد، ويبقى الخط صاعداً. إذا أخذت خطّاً بيانياً لمؤمن فالموت نقطة عليه، وهو صاعد ولا ينزل أبداً، أما غير المؤمن فقد يكون خطه البياني صاعداً صعوداً حاداً، ثم يهوي إلى الأسفل وإلى الحضيض، قال تعالى:

(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

الذين عادوا الدين أين هم؟ الذين حاربوا الله ورسوله أين هم؟ الذين أرادوا أن يطفئوا كلمة الله أين هم؟ في القبور يعذبون، والمؤمنون في روضات الجنات، لذلك:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

الناس أحد رجلين برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هيِّن على الله :

هذه يجب أن تبقى في ذهنك أبداً، العاقبة لك أيها المؤمن في الدنيا والآخرة، حياتك غالية على الله عز وجل، الناس أحد رجلين؛ بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيِّن على الله، فحياتك غالية على الله، وزواجك غالٍ على الله، فينتقي لك الزوجة المناسبة التي تسعدك في الدنيا، وتعينك على أمر دينك، وينتقي لك أولاداً إما أن ترقى بتربيتهم، وإما أن تسعد بهم، في الحالتين، إذا لم يكونوا كما تريد ترقى بتربيتهم، وإذا كانوا على ما يرام تسعد بهم، وقد ترقى بهم ثم تسعد بهم، والله أعلم.

ينتقي لك عملاً شريفاً، بدخل حلال نظيف، وله مكان عالٍ عند الناس، فإذا عرفته عرفك فأكرمك، اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك فيما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

هو المقطوع، والأغرب من ذلك سيدنا عكرمة من نسل أبي جهل، أليس كذلك؟ أحبَّ النبي، وأخلص له وباع نفسه في الحق، رغم أنه من نسل هذا العدو الماكر، فابنه تبع النبي، وكره أباه، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كريماً، قال:

((جاءكم عكرمة مسلماً فإياكم أن تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت))

[كنز العمال عن عبد الله بن الزبير]

إكراماً لابنه نهى أصحابه عن سب أبيه، أبي جهل، وقال: سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت، أمية بن خلف، أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، هؤلاء الصناديد الذين كفروا وعارضوا وحاربوا وائتمروا، وعاكسوا وعطّلوا عقولهم، أين هم؟ الإسلام في الأوج، القافلة تسير والكلاب تعوي، وما ضر السحاب نباح الكلاب، السحاب في السماء فلو أن الكلاب نبحت ساعات طويلة، فالسحاب هو السحاب لا يتوقف سيره، والإسلام هكذا، إذا أردت أن تعارضه كأنك تصب الزيت على النار يزداد تأججاً واتقاداً وقوةً وصلابة، فلذلك قال الله عز وجل:

(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

مقطوع، مقطوع الخير، مقطوع الذكر، التاريخ يطويهم، يهملهم، يحتقرهم، والتاريخ حكم عدل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكافرون 109-الدرس (1-1): تفسير الآيآت: 1 -6 التمايز. .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-07-26

بسم الله الرحمن الرحيم

تعْريف الكُفار :

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم هي سورة الكافِرون، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

قد يتساءل بعضُ الناس عن سِرِّ هذا التَّكْرار؟ وقد يبْدو لأوَّل وهْلة أنَّهُ تَكْرار مع أنَّهُ ليس في كتاب الله سبحانه وتعالى تَكْرار، فلِكُلِّ آيةٍ معْنى، ولو دقَّقْنا في الفُروق الدقيقة بين هذه الآيات المُتماثِلة في الظاهر، لَوَجَدْنا هناك فُروقاً تقْتضي معانيَ مُتغايرَة، على كُلٍّ قبل الحديث عن التَّكْرار فلا بدَّ من تعْريف الكُفار قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)

أما كلمة (قُل) فماذا تعْني؟ أحْياناً يُصْدِرُ مُديرُ مُؤَسَّسة قراراً فَيَكون في مُقَدّمة هذا القرار: إنَّ مدير مُؤَسَّسة كذا بناءً على كذا وكذا يُقَرِّر ما يلي؛ هذا القرار صادِر عن هذه المؤسَّسة ومُديرِها، أحْياناً يأتي قرار من رئيس الوُزراء، مُدير هذه المؤسَّسة لا يقول ولا يفْعل شيئاً إلا أنّه يُحيل هذا القرار للتعْميم، فهذا من مُسْتوى أعْلى، فما سَيَقولُه النبي عليه الصلاة والسلام في شأن الكُفار ليس من عِنْده؛ هذا مِن قِبَل الله وهو من أعلى مصْدر وهو الخالق.

الذي سَيَأتي في هذه السورة ليْس من عند رسول الله إنَّهُ من عند الله سبحانه :

كَلِمَة (قُلْ) في قوله تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)

وفي قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص: 1]

هذه السُّوَر الأخيرة التي تُفْتَتَحُ بـ (قُل) أيْ هذه ليْسَت من عِنْدك، إنما هي من عندي، فَشَتّان بين أنْ يصدر قرارٌ من مدير المؤسَّسة، وبين أنْ يأتي قرار من أعلى مصْدر في الدوْلة، حينها ليس على المدير

إلا أنْ يُعَمِّمَ هذا القرار، ويُبَلِّغُه من يلْزَم، لكن حينما نقول: نُحيلُ إليكم مَرْسوم رئيس الوُزراء، أصبح هناك وضْعٌ ثانٍ أكبر مما يُتَوَهَّم – طبْعاً هذه الأمْثِلَة للتَّوْضيح – فهذا الذي سَيَأتي في هذه السورة ليْس من عند رسول الله؛ إنَّهُ من عند الله سبحانه وتعالى، وما مُهِمَّةُ النبي عليه الصلاة والسلام إلا التبْليغ، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)

ما معنى كلمة الكافر؟ كلمةُ كَفَرَ؛ مِن معانيها الكَفْرُ، أيْ الغِطاء، والكُفْر الإعْراض، فالإنسان إذا كان في عمى عن حقيقة ما فهو كافِرٌ بها، فإذا غفل الإنسان عن نِعَم الله فهو كافِرٌ بها، وإذا أدْبر واسْتَكبر، وإذا ولى ظَهْرَهُ للدنيا، وأعْرض عن الله عز وجل فهو كافر، هناك من يكْفر من الخلق بالله خالقاً، وقليل ما هم، وهناك من يكْفر برَبِّ العالمين؛ يكْفُر بتَرْبيَتِه، لا يرى أنَّ الله سبحانه وتعالى يُمِدُّ كُلَّ مخْلوقٍ بما يحْتاج إليه؛ من طعامٍ وشرابٍ وهواءٍ، وتوفير الحرارة والرطوبة وأنواع المعادن وأشْباهها، وأنواع الفيتامينات، والكائِنات الحَيَّة، والأمْطار والسَّحاب؛ هذا كُلُّهُ تَرْبيَة الله سبحانه وتعالى، خَلَقَنا وخلق هذا الجَوَّ المُناسب، وخلق الحرارة المُناسِبَة، وخلق الهواء والماء؛ كُلُّ هذا من باب التَّرْبيَة، لذلك هناك من يكْفر بالله مُرَبِّياً يرى أنَّ الحياة تجْري هكذا وحْدها، وأنَّ الإنسان يعْمل ويكْسب الطعام ويأكل، وحينما يغْفل الإنسان عن تربْيَة الله عز وجل فَهُوَ كافِرٌ بها.

الكُفْر هو الإعْراض :

هناك من يكْفر بالله مُسَيِّراً وإلهاً، فلا يرى أنَّ الأمور بيَدِه، وأنَّهُ لا حركة ولا سَكَنَة، ولا عطاء ولا منْع، ولا رفْعَة ولا خفْض ولا رزْقَ إلا بيَد الله سبحانه وتعالى، لا يرى ذلك! إذاً هناك كفْرٌ بالألوهِيَّة، وهناك كُفْر بأسْماء الله الحُسْنى، فقد يُعايَن بعض الأخْبار السَيِّئَة؛ كوارث وفيضانات ومجاعات في العالم؛ تراهُ يشْمَئِزُّ قائِلاً: إنَّ الحياة كُلُّها قَسْوة وشقاء، والأغْنِياءُ وَحْدَهُم السُّعداء، والفقراء مسْحوقون؛ فهذا كُفْرٌ بأسْماء الله الحُسْنى، وكُفْر بحِكْمَتِهِ ورَحْمَتِه وعدالتِهِ، فالكُفْر أنْ تكون في عَمًى عن حقيقةٍ ما، فإذا كان شيء أمامي فإما أنْ أضَعَ بيني وبينه سِتاراً فأنا لا أراه وإما أنْ أنْصَرِفَ عنه فأنا لا أراه، فإما أنْ تكون الغشاوةُ سَبَب الكُفْر وإما أن يكون التَوَلي سبب الكُفْر، وعلى كُلٍّ يُخْطِئ من يظُنّ أنَّ الكافر هو الذي يُنكِرُ وُجود الله سبحانه وتعالى! ذلك هو المُلْحِد، فالإلْحادُ إنْكارُ وُجود الله، فهناك إلْحادٌ بوُجود الله، وهناك إلْحادٌ في أسْمائه، وهناك إلْحادٌ بتَصَرُّفاته، فهناك مَن يقول: الإنسان خالق أفْعاله، كالمُعْتزلة الذين يقولون: الإنسان خالق أفْعاله، هذا إلْحادٌ في تَصَرُّفاته، فلْنَدَع الإلْحاد جانِباً، فالكُفْرُ إعْراض، لِنَضْرب مَثَلاً، قد يكون الطالبُ في الصَفّ، وأمامه مُدَرِّس ملء السَّمْع والبصر، إنْ تلْهى عن دَرْسِه، وشُغِل عن

شَرْحه، والتَفَتَ إلى أشْياء سخيفة، مُعْرِضاً عن عِلْمِهِ، فهذا كافرٌ بِمُدَرِّسِه، مع أنَّهُ يملأ سمْعَهُ وبصرهُ، فالكُفْر هو الإعْراض، قال تعالى:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

يُنْفِقون أموالهم، وهم يُصَلُّون، وقد كفروا بالله ورسوله.

سورة الكافرون هي سورة حَسْمٍ :

الكُفْر تضيقُ معانيه حتى يُظَنَّ أنَّ الكافر هو المُلْحِد، وتَتَّسِعُ مَدْلولاته حتى يشْمل كُلَّ منافق، قال تعالى:

(الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة التوبة: 67]

المنافقُ يُصَلي ويصوم ويَحُجّ ويُزَكي، لأنَّهُ أعرض عن الله عز وجل واشْترى بآياته ثَمَناً قليلاً، وأدار ظَهْرهُ للدِّين، والتَفَتَ للدنيا فجعلها أكبر هَمِّهِ، ومَبْلَغَ عِلْمِه، فمن أصْبح وأكبر هَمِّهِ الدنيا، جَعَلَ الله الفقر بين عَيْنَيْه، وشَتَّتَ عليه شَمْلَهُ، ولم يُؤْتِهِ من الدنيا إلا ما قُدِّر له، ومن أصْبح وأكبر هَمِّه الآخرة جعل الله غِناهُ في قلبِهِ، وجمع عليه شَمْلَهُ وأتَتْهُ الدنيا وهي راغِمَة، نعوذ بالله من الكفر وأسبابه، فالكُفْر البُعْدُ عن الله عز وجل، والإعْراضُ عنه تعالى، والكُفْر الالْتفاتُ إلى الدنيا، وأنْ تكون الدنيا مالِئَةً قلبك، وشاغِلَةً بالك، هذا كُلُّهُ من معاني الكُفْر، فالكافرون لا يلْتَقون مع المؤمنين والحلُّ الوَسَط مُنعدم! لا وجود لأنْصاف الحُلول في الإسلام، والسَّيْر إلى نِصْف الطريق بهَذه الكلمات الحديثة، هذا لا مكان له في الإسلام، فالكُفْرُ هو الكُفْر، والإيمان هو الإيمان، وهو لا يلْتَقي مع الإيمان، فلا ترْقيع ولا تطْعيم ولا تداخل ولا حلَّ وسَط ولا لِقاءات ولا تعاوُن، لأنَّ الكافر له طريقتُهُ وتفْكيرهُ وقِيَمُه المُنْحَطَّة، وله شَهْوانِيَّتَهُ ومُيوله الدنيئة، وله مصالِحُه وأنانيَّتَهُ، مُتَعَلِّقٌ بالدنيا ولا يرى سِواها، ولا يعْرف الأخلاق ولا القِيَم ولا المَعاد، الدنيا عنده هي كُلُّ شيء! فَكَيف يلْتقي هذا الإنسان بإنْسان آخر يرى الآخرة هي كُلُّ شيء، والدنيا كُلُّها لا تعْدِلُ عند الله جناح بعوضَة، ويرى العَمَل الصالح هو الغِنى الحقيقي، ويرى أنَّ مَحَبَّة الله هي كُلُّ شيء، وأنَّ طاعَتَهُ هي الفَوْز العظيم، يرى أنَّ الحياة مُؤَقَّتة، وأنَّهُ في الدنيا كَعَابر سبيل أو مُسافر، ويرى أنَّهُ غريب فيها، فهذا الإنسان كيف يلْتقي مع ذاك؟ كيف يلْتقي الصحيح مع المريض؟ لا بد أن يمْرض هذا الصحيح! إذا كان هذا المريضُ مُصاباً بمَرَض سارٍ، فلا بدّ أن يُعْدِيَهُ، فالله عز وجل جعل الحسْم والمفاضلة، فهذه السورة هي سورة حَسْمٍ، فيا أيها الكفار لا نلْتقي معكم لا من قريبٍ ولا من بعيد، لا في أشْياء صغيرة ولا في أشْياء كبيرة، لا يُمْكن أنْ نتعاون لأنَّ تفاوُتاً كبيراً ومُفارقة

حادَّة بين مُنطَلقاتِنا ومُنطلقاتِهم، وبين أهدافِنا وأهْدافهم، وبين وسائِلِنا ووسائِلِهم، وبين قِيَمِنا وقِيَمِهم، وبين طُموحاتِنا وطُموحاتهم.

العُبودِيَّة لله هي قِمَّةُ الكمال البشري :

قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

أما العبادة، فقال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون)

[سورة الذاريات: 56]

هِيَ عِلَّةُ خلْق الله تعالى للبشر، خلقنا لِنَعْبُدَهُ ولا نعْبده إلا إذا عرفْناه، وإذا عرفناه عبدْناه، وإذا عبدناه سَعِدْنا بقُرْبه، خلقنا لِيُسْعِدنا، فالعبادة شيء ثمين جداً حتى قال بعضهم: إنَّ أعلى مقامٍ يبْلُغُه الإنسان في الأرض أنْ يكون عَبْداً لله؛ أشْهد أنْ لا إله إلا الله وأشْهد أنَّ محمَّداً عبْده ورسوله، فالعُبودِيَّة لله هي قِمَّةُ الكمال البشري، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

ما معنى هذه الآية؟ يبْدو أنَّ هذا من باب المعاني المُطْلقة، لكِنَّنا إذا أردْنا أن نُقَيِّد هذه السورة بأسْباب نُزولها، فقد ورد في بعض التفاسير أنَّ المُشْركين جاءوا للنبي عليه الصلاة والسلام وقالوا له: يا محمَّد، هَلُمَّ فَلْنَعْبُد ما تعبد، وتَعْبُد ما نعْبُد! – مُشاركة وأنصاف حُلول – ونَشْتَرك نحن وأنت في أمْرنا كُلِّه، فإنْ كان الذي جِئْتَ به خيراً مما في أيْدينا شارَكْناك فيه وأخَذْنا بحَظِّنا منه، وإنْ كان الذي بأيْدينا خيراً مما بيَدِك كنت قد شَرِكْتنا في أمْرنا، وأخَذْتَ بحَظِّكَ منه، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين)

إذا أردْنا أن نأخذ هذه السورة كَتَوْجيهٍ إليْنا نحن فلا بُدَّ من التمايُز :

إذا أردنا توْجيهَ هذه الآيات بِحَسَبِ نُزولِها، فَهُناك لِقاءٌ تمَّ بين كبار المُشْركين وبين النبي عليه الصلاة والسلام على أن تكون بينهما هُدْنَة وتَعايُشٌ سِلْمي - كما يقولون -نَعْبُد ما تعْبد وتعبدُ ما نعبد! تَوْجيهٌ آخر مما توحي به هذه السورة، أنَّهُ لا يسْتطيعُ الواحدُ منا أنْ يصِلَ إلى الإيمان الحق إلا إذا تَمَيَّزَ عن الكُفار، فما دام يعيشُ معهم، ويحْضُر نَدَواتِهم، ويذْهَبُ معهم إلى مُتَنَزَّهاتِهم، ويُعامِلُهم ويُحِبُّهم

ويُحِبُّونه، ويأخُذ منهم ويُعْطونه، ويُشاركُهم بأمواله، ويُزَوِّجُهم ويتَزَوَّجُ منهم، عندئذٍ لن يكون مؤمناً، فلا بدَّ من التمايُز، ولا بد للمؤمن أن يكون في حيِّزٍ مُسْتَقِلّ، لأنَّ له عاداتُه وقِيَمُهُ وورَعُهُ وطُموحُهُ، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

إذا أردْنا أن نأخذ هذه السورة كَتَوْجيهٍ إليْنا نحن فلا بُدَّ من التمايُز، قال تعالى:

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

قد يذهب إنْسانٌ وزَوْجَتُهُ لِيَجْلسَان في مَقْهى حيثُ الغناء والاخْتِلاط ويُقَدَّمُ المَشْروب وزَوْجَتُه مُحَجَّبَة حِجاباً شَرْعِياً! هذا المكان ليس لكما أنت لك مكانٌ آخر قال تعالى:

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

هذه السورة فيها تَوْجيهٌ حَيٌّ يَنْبُض بالحياة :

أنت لا يُمْكِنُكَ أنْ تسْتسيغَ هذه الجَلْسَة؛ في السَّهرات والندوات واللّقاءات والولائِم، دُعِيَ أُناسٌ إلى فُندق كبير مُخْتلط، وكلَّفهم هذا مليونين، ورواية أخرى نصف مليون، المُهمّ أنّ بعض الأُسَرُ ذَهَبَتْ إلى الحفل، فإذا لم تتَمَيَّز عن الكُفار في كُلِّ نمطِ حياتك فأنت منهم؛ بيْتٌ مَكْشوف يُطِلُّ على الجيران؟! أنت مُسْلم فلا بدّ أنْ تضع حِجاباً ساتِراً، وبَيْتُ المُسلم يبْدو واضِحاً ومُسَتّوَراً ومتميِّزاً، وهذا في عروس مع زوْجَتِه أمام خمسين امرأة، يقول: أحْرَجوني، وخِفْتُ أنْ يظُنوا بيَّ الظنون! وأنَّ فيَّ عَيْباً، أنا لا أجلسُ على هذا الكُرْسي، وهذه الجِلْسَة حرام، هل هذا الذي يفعله الناس دينٌ أم شَرْعٌ مُنَزَّل؟ تقاليد وعادات ما أنزل الله بها من سُلْطان، لا يبْلغ الإنسان درجة الإيمان حتى يضَع تحت قَدَمِه كُلَّ التقاليد والعادات التي تُخالِفُ الشَّرْع، ضرَبْتُ هذه الأمثلة لأنَّ بعضُهم يظنُّ أنَّ هذه السورة رَدٌّ من الله تعالى على المُشْركين في مكة فحسب، ولكِنَّها قُرْآن، وتُتْلى إلى آخر الزمان، معنى ذلك فيها تَوْجيهٌ حَيٌّ يَنْبُض بالحياة، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

بعد قليل سوف آتي على التفْصيلات، أما الآن أريد أنْ أصِل إلى أنَّ مِحْور هذه السورة أنَّ الكُفار شيء والمؤمنين شيء آخر، هؤلاء لهم عالم وهؤلاء لهم عالم آخر، وهؤلاء في وادٍ وأولئك في وادٍ آخر، لا يلْتَقِيان؛ فلا تعاوُن ولا تقْريب وجْهات نَظَر، هذه أنْصاف حُلول، وتَرْقيعٌ، وهذا كُلُّهُ مُسْتحيل، إنْ صاحَبْتَهُ خالطْكَ مع زَوْجَتِك على أساس أنَّها مثل أُخْتِه، وهذا زور وبهتان! وإنْ ذهَبْتَ معه إلى النُّزْهة

حَدَّثَكَ عن الأغاني وعن الناس، وإنْ كَلَّمْتَهُ عن الربا قال لك: معْقول مبْلَغُ كهذا لا أضَعُهُ في البنْك! أين تفْكيرُك؟ صَعْبٌ أنْ تُشارك الكافر وأنْ تُزَوِّجَهُ ابْنَتَك، قال تعالى:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

لذلك ما على الإنسان المؤمن إلا الاتصال بأهْل الإيمان، وليُعامِلْهُم وحْدَهُم، قال تعالى:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)

[سورة ص: 24]

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) و(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ) أربعة معانٍ من هذا التَّكْرار :

قولـه تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

1 ـ المعنى الأوَّل تَكْرار التَّعْظيم والتَّهْويل :

المعنى الأوَّل: لا أعبُدُ ما تعْبدون، فلا أعبُد أصْنامكم، فهذا هو المعنى الذي كان قائِماً عند نُزول هذه السورة، وإذا وَسَّعْنا هذا المعنى فَكُلُّ ما يعْبُدُهُ الناس من دون الله في العُصور اللاحِقَة يدْخُل في هذه الآية فقد يعْبدون الدِّرْهَم والدينار، قال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ]

من أجْل ألاّ تنكمش ثِيابَهُ لا يصلّي حتى يعود مساء إلى البيت! تَعِسَ عَبْدُ الفَرْج، وتعِسَ عبدُ البَطْن، سَواءٌ أكان المعنى الأوَّل، وهو أنَّ هذه الأصْنام؛ اللات والعُزى، ويغوث، ويعوق، ونسْراً التي كانت تُعْبَدُ من دون الله في الجاهِلِيَّة، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

وكذلك في الجاهِلِيَّة الثانِيَة أنْ يُعْبَد الدِّرْهم والدينار من دون الله، وأن تُعْبد المرأة من دون الله، الشَّهَوانِيُّون يعْبُدونها أيْ يخْضَعون لها فيما تأمر، قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ]

إنّ الدِّرْهم والدِّينار يُعْبدان من دون الله، والمرأة في عُصور الشَّهْوة والفِتَن تُعْبد من دون الله، وقد يعْبُدُ بعضُنا بعْضاً، وقد يتَّخِذُ بعضُنا أرْباباً من دون الله، ويَكْفي أنْ ترى أنَّ فُلاناً الفُلاني بِيَدِهِ أمْرُك ورزْقُك وتحْطيمُكَ، فأنت بهذا قد عَبَدْتَهُ وأنت لا تدْري، لذلك قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

لا من الأصْنام القديمة ولا من الشَّهَوات الحديثة، (ما) هنا على قول بعض المُفَسِّرين اسم موصول، أيْ لا أعْبُد الذي تعْبدون، وكذا قوله تعالى:

(وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

لا يُعْقَلُ أنْ تعْبدوا ما أعبُدهُ إذْ لو أنَّكم عَبَدْتُموهُ لكَفَّكم عن شَهَواتكم ولسْتُم بتاركيها! أحْياناً يتَكَلَّفُ الإنسان أنْ يُناقِش إنساناً شَهَوانياً، أنا أقول له: لا تُناقِشْهُ، إلهُ شَهْوَتُه، فلن يَدَعَها من أجلك، بمعنى ذلك أنَّهُ لا يكفُّ عن شَهَواتِهِ كُلِّها، وبالتالي لا ينْضَبط، إذاً:

(وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

فلا يتَحَمَّل هذا المُشْرك أن ينقطع عن بعض شَهَواتِهِ، هذا المعنى الأوَّل.

2 ـ المعْنى الثاني أنَّ نَفْيَ الإمْكانِيَّة أبْلَغُ من نَفْي الحَدَث :

المعنى الثاني: قوله تعالى:

(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ)

فما الفرق بينهما؟ لا فرق! قال بعض المُفَسِرين: هو التَّكْرار، وهو تَكْرار التَّهْويل والتعظيم، وقال بعضُهم الآخر: (لا أعبُدُ) هذا فِعْلٌ مُضارع، ولا أنا عابدٌ هذه اسمُ فاعل، وشَتَانَ بين الكلمتين، فإذا قلتَ: لا أعبد، فأنا أنْفي عن نفْسي فِعْل العِبادة، ولكن إذا قلت: ولا (أنا عابد)، فأنا أنْفي عن نفْسي إمْكانِيَّة العِبادة، كأن تقول: فُلانٌ لم يسْرِق، فأنت هنا نَفَيْتَ عنه فِعْلَ السرقة، أما إذا قلتَ: ما هو بسارِق فقد نَفَيْتَ عنهُ إمْكانِيَّة السَّرِقة، فلا يُعْقَلُ أنْ يسرِق، فاسمُ الفاعل أشَدُّ في النَّفْي من الفِعْل المُضارع، فله معنى الاسْتِمْرار، مثلاً أنا أكتب، يُمْكن أنْ أكْتُبَ مَرَّةً في حِياتي، فَيُقال: أنا أكتُب، فعل مُضارع، أما أنا كاتب، فَهيَ تعْني أنَّ مِهْنتي الكِتابة، فربنا عز وجل قال:

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

وفي الثانِيَة:

(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ)

فلا أعبد آلِهَتَكم، وليس عندي إمْكانٌ إطْلاقاً أنْ أعْبُدها، لا أعبُدها ولن أعْبُدها! فالإمْكانِيَّة مُنْعَدِمة، فالأوَّل نَفَيْنا به الفِعْل، وفي الثاني نَفَيْنا الإمْكانِيَّة؛ هذا معْنى آخر من معاني التَّكْرار.

3 ـ المعنى الثالث لا أعبدُ أصْنامكم ولا أتعبّد بطريقَتِكم :

المعْنى الثالث: قوله تعالى:

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

وقوله:

(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ)

(ما) الأولى اسم موصول، أيْ لا أعبدُ الذي تعْبدون، و(ما) الثانِيَة مَصْدَرِيَّة، أيْ ولا أنا عابدٌ عبادَتَكم، فكيف أصبح المعنى؟ أيْ: أنا لا أعبد الذي تعْبدونه، وليْسَتْ عبادَتي كَعِبادَتِكم؛ فلماذا وكيف؟! عبادتي فيها صِدْقٌ وإخْلاص، أما عِبادتكم ففيها الشِّرْك والنِّفاق، نَفَيْنا أنْ نعبدَ ما يعْبدون، ونَفَيْنا أنْ نعبد آلِهَتَهم كَعِبادَتِهم بإشْراكٍ ونِفاقٍ ودَجَلٍ، وما سِوى ذلك.

4 ـ المعنى الرابع لا أعبُدها الآن ولن أعْبُدها في المُسْتَقْبل :

وهناك معنى رابع: وهو قوله تعالى:

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

إنّ أكثر الناس إذا نظروا إلى شَخْصٍ تَدَيَّن يقولون: دَعْهُ بعد سَنَتَيْن يعود إلى ما كان عليه! لا يعرفون أنَّهُ سَيَزْداد تَدَيّناً، وأكثر الناس إذا وَجَدوا شَخْصاً تَدَيَّن وحَرَّرَ دَخْلَهُ، وحضر مجالس العِلم، والتَزَم بالشَّرْع يقولون لك: هذا ثَوَران عاطفي، وسَيَعود إلى ما كان عليه! والحياة سَتَجُرُّهُ إلى المتاعب، فهذا هو المعنى الرابع، الآن:

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

وإن كنتم تطْمَعون أنْ أعبُدَ آلِهَتَكم في المُسْتَقْبل فاطْمَئِنوا من الآن فلن أعْبُدَها، أصْبَحَ لدينا أربعة معانٍ من هذا التَّكْرار؛ الأوَّل تَكْرار التَّعْظيم والتَّهْويل، والمعْنى الثاني: أنَّ نَفْيَ الإمْكانِيَّة أبْلَغُ من نَفْي الحَدَث؛ إنْ قلتَ: فلان لم يسْرق، وفلان ليس بسَارِق، والمعنى الثالث: لا أعبدُ أصْنامكم، ولا أتعبّد بطَريقَتِكم، فَطَريقَتي فيها إخْلاص، وطريقتِكم فيها نِفاق، والمعنى الرابع: لا أعبُدها الآن، ولن أعْبُدها في المُسْتَقْبل،

فأين هو التَّكْرار؟! (ما) تَخْتَلِفُ؛ ففي الأولى مَوْصولة بمَعْنى الذي، والثانِيَة مَصْدَرِيَّة؛ ولا أنا عابدٌ عِبادتكم، أيْ طريقَتَكم في العِبادة، فثمّة فرقٌ بين أن تكون (ما) اسم موصول، وبين أنْ تكون مَصْدَرِيَّة، وثمة فَرْقٌ بين الفعل المضارع (أعْبُد) وبين اسم الفاعل (عابد)، والنَّفْيُ بالاسم أبْلغ من النَّفْي بالفِعْل، وفَرْقٌ بين الحال والاسْتِقْبال، وتَكْرار تعْظيم، وهذا هو وَجْهُ تَكْرار هذه الآية مَرَّتَيْن، قال تعالى:

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

وقوله تعالى:

(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ)

ما دام الكافر قد خَطَّ طريقه نحو الشَّهوات

فهو لن يعْبُد الله عز وجل ولن يُخْلِصَ له :

ثمَّ قال تعالى:

(وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

ما دام الكافر قد خَطَّ طريقه نحو الشَّهوات، وانْغَمَس فيها إلى قِمَّة رأسِهِ، وأصَرَّ عليها، وجعلها أكبر هَمِّه ومَبْلَغَ علمه، وقاتل من أجْلِها، وقد يُقْتَلُ المرء في سبيل شَهْوَتِه، فما دام كذلك فهذا لن يعْبُد الله عز وجل، ولن يأتمِرَ بأمْرِه، ولن ينْتَهيَ بنَهْيه، ولن يسْتقيم على أمره، ولن يُخْلِصَ له، ثمَّ قال تعالى:

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

فلا بدَّ من التمايز، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 24]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة المائدة: 57]

الحَلُّ الوَسَط لا وجود له ولا بدَّ لنا من التَمَايز :

الحَلُّ الوَسَط لا وجود له، فلا بدَّ لك أنْ تتَمَيَّز، فإذا كان للمرْء أصْحاب من أصْحاب الجاهِلِيَّة فَعَلَيْه أنْ يقْطعهم واحداً واحداً، فإذا بقِيَ على مَوَدَّتِهم فأغْلب الظنّ أنهم سيسْحبونه إلى طَرَفِهم، ولا بدَّ أن يسْحبوه، يقولون لك: لا زلْتَ صغيراً، عندما تكْبر اِلْتَزم، ولم يعلمون أنه مَن بلغ الأربعين ولم يغلب خيْرهُ شَرَّهُ فلْيَتَجَهَّز إلى النار، ومن شَبَّ على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه، ومن مات على شيءٍ حُشِرَ عليه.

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لذلك من كان صادِقاً في طَلَب الحقّ، أنتم تستَمِعون إلى الحقّ، فالاسْتِماعُ شيء والتَّطْبيق له شيءٌ آخر، الاسْتِماعُ شيء وأن تكون مؤمناً حقاً شيءٌ آخر، العُمْرُ ثمين، هذا الذي يسْتمعُ إلى الحقّ له حِسابٌ خاص، فإذا تَعَلَّمَ عِلْماً فهُوَ حُجَّةٌ عليه وليس له، الذي أُلاحظه أنَّ الله عز وجل يُعامل هؤلاء الذين يسْتمعون إلى العِلْم، ويتَعَلَّمون الحقائق، يُعامِلُهم معامَلَةً خاصَّة، ويُعاقِبُهُم عِقاباً أليماً؛ لماذا؟ أنتم تعرفون فَكَيْفَ تنْحرفون؟! فهذا الذي يفعل السوء بجَهالة تَوْبَتُهُ سَهْلة، أما هذا الذي يفْعَلُ المعاصي ويُقَصِّر ولا يُطيع الله تعالى؛ وهو يعْرف فهذا عِقابُه عند الله كبير، لذلك:

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

فلا بدّ أن تتَمَيَّز! ولا تَقُل: هذه نُزْهَةٌ مُغْرِيَة لن تفوتني! وفيها اخْتِلاط، أنت بهذا أذْهَبْتَ دينك، ومن علامات قِيام الساعة أنَّ الإنسان يُمْسي مؤمناً ويصبح كافراً، لِسَبَبٍ تافِهٍ تجِدُهُ ترك الدِّين، فحبّذا لو قرأ هذه السورة:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

هذه السورة من أجل كُلِّ زمان ومكان فهي تَحضُّ على التمايُز :

حَدَّثني أحدهم أنَّهُ دُعِيَ لِطَعامٍ نفيسٍ، حَفْلة كبيرة، وكان فيها مَشْروب، فقال: إنِّي أخاف الله ربَّ العالمين، وما وَجَد أكْلاً يأكُله إلا القليل؛ فهذا وِسامُ شَرَف، وهذا هو المؤمن لا يخْتَلِطُ مع المُشْركين، لا في احْتِفالاتِهم، ولا في مُتَنَزَّهاتِهم، ولا في جَلْساتِهم، ولا في مُزاحِهم، ولا في عاداتِهم، ولا في تقاليدِهم، لقد أصبح المسلمون وللأسَف أشَدَّ تَعَلُّقاً بالأعْياد الأجْنَبِيَّة كَعِيد الميلاد، وبالتقاليد الأجْنَبِيَّة، وبأنْماط

الطعام والشراب، فهذه الأصول المُتَّبَعة في كُلِّ المُناسبات أكثر اِلْتِصاقاً بالأجانب منهم بدينهم الحنيف، مع أنَّ كُلَّ هذا حرام! وهناك أمرٌ خطيرٌ جداً؛ من هَوِيَ الكَفَرَة حُشِرَ معهم، ولا يَنْفَعُهُ عَمَلُه شيئاً، ولو كان يُصَلي، لقد أصْبَحَ الناس ينسِبون لأنفسِهم سوء الفَهْم، ويُزَكون الأجانب، قائِلين: هؤلاء يفْهمون، وليسوا كَحالِنا، وانظُر إلى الأبْنِيَة والحدائِق والمِترو، لا بدّ لنا من خمْسين سنة حتى نُصبْح مِثْلَهم، فهذا التعْظيم الكبير للكَفَرة يجْعَلُهُ يُحْشَر معهم، أحْياناً يأتي مندوب شَرِكَة فَيَطْلُبُ الخَمْر فَيُقَدَّم له حُجّة: إنَّ مصالِحي مرْبوطةٌ معه، أين الدِّين؟! قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام كان قبل أنْ ينام يقرأ هذه السورة، ويَخْتُمُ نهارَهُ بهذا المَوْقِف، والتَّنَزُّه منهم ومن عاداتِهم الذميمة، وهناك أشْخاصٌ مُعْجبون بالنوادي والصالات الفُلانِيَّة، فَهُناك أماكن فيها أُبَّهة - كما يقولون - ورفاهَة، فهذا ليس لك، الفُنْدق الفُلاني يقدّم لك ثمانين صَحْناً بثمانين ليرة فحسب! لكن هناك نِساء كاسِيات وعارِيات، فهذه السورة من أجل كُلِّ زمان ومكان فهي تَحضُّ على التمايُز، فأنت لك مكانك المُناسب من مُتَنَزَّهات وسَهَراتِك البريئة، ولك حديثك الدّيني، لكَ تَرْتيبات خاصَّة فإياك أنْ تخْلِط هذا بهذا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النصر 110-الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 -3 نعي الرسول الكريم. .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-07-26

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذه السورة نَعْيُ النبي عليه الصلاة والسلام :

السورة الثانِيَة هي قوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً*فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

يُرْوى أنَّ سَيِّدنا عمر كان يُعَظِّمُ سيِّدنا ابن عباس وكان غُلاماً، عندنا أربعة عبد الله وكلهم صحابة، عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزُّبَيْر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، رضِيَ لله عنهم:

((وَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِي أَوْ عَلَى مَنْكِبِي شَكَّ سَعِيدٌ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ))

[أحمد عَن ابْن عَبَّاس]

مَرَّةً دعا عمر رضي الله عنه كُبَراء القوْم وسألهم عن هذه السورة، ويَبْدو أنَّهم لم يرْتاحوا لِتَعْظيم أمير المؤمنين لابن عباس، وهو فتىً صغير؛ يسْتشيرُهُ ويسْألُهُ في حَضْرَتِهم، فَعاتَبوهُ مَرَّةً فقال لهم: ما تقولون في هذه السورة؟ قال تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

فقالوا جميعاً: إنَّ الله سبحانه وتعالى يُبَشِّرُ نَبيَّهُ بالفَتْح والنَّصْر، فقال عمر حينها: قُل يا ابن عَباس؟ فقال: في هذه السورة نَعْيُ النبي عليه الصلاة والسلام.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما أُنْزِلَتْ عليه هذه السورة شَعَر بدُنُوِّ أجله :

يُرْوى أنَّ سيَّدنا عمر بن عبد العزيز دخل عليه وَفْدٌ، وكان من الحِجاز، يتَقَدَّمُهُم غُلامٌ لا تزيدُ سِنُّه عن إحْدى عشرة سنة، فَغَضِبَ سيّدنا عمر، وعدَّ هذا إهانَةً له - طبْعاً دخل هذا الغُلام لِيَتَكَلَّم عنهم - فقال: اِجْلس أيها الغُلام، ولْيَقُم من هو أكبر منك سِناً، فَتَبَسَّمَ هذا الغُلام وقال: أصْلَحَ الله الأمير، المَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ؛ قلبِهِ ولِسانِه، فإذا وَهَبَ الله العَبْد لِساناً لافِظاً وقَلْباً حافِظاً فقد اسْتَحَقَّ الكلام، ولو أنَّ الأمْر كما تقول: لكَان في الأُمَّة من هو أحَقُّ منك بهذا المَجْلِس!

ويُرْوى أنَّ أحَدَ الخُلفاء الأمَويِّين دخل عليه وَفْدٌ من البادِيَة يَتَقَدَّمُهُ غُلام، فَغَضِبَ أيْضاً، فقال الأمير لِحاجِبِهِ: ما شاء أحَدٌ أنْ يدْخُل عليَّ إلاّ دخل، حتَّى الصِّبْيان؟! فقال هذا الصَبِيُّ الناشئ: أصْلَحَ الله الأمير، إنَّ دُخولي عليك لم يُنْقِص من قَدْرك ولكنَّهُ شَرَّفَني، أيُّها الأمير، أصابتنا ثلاثُ سنين؛ سَنَةٌ أذابَتْ الشَّحْم، وسَنَة أكَلَت اللَّحْم، وسنةٌ دَقَّتِ العَظْم، وفي أيْديكم أمْوال، فإنْ كانت لله فعلامَ تَحْبسونها عن عِبادِهِ، وإنْ كانت لكم فَتَصَدَّقوا بها علينا، وإنْ كانت لنا فعلامَ تمْنَعوننا إياها، فقال هذا الخليفة - وأظنُّه هشام بن عبد الملك -: ما ترك لنا هذا الغُلام في واحِدَةٍ عُذْراً، فقوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

لقد انْتَهت مُهِمَّةُ النبي عليه الصلاة والسلام، والعظماء لا يأكلون لِيَشْبعوا مثلنا، بل يعيشون لِرسالَةٍ عظيمة، فإذا أدَّوْها انْتَهَتْ مُهِمَّتُهم، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما أُنْزِلَتْ عليه هذه السورة شَعَر بِدُنُوِّ أجله، فأسَرَّ إلى فاطِمة الزهْراء وقال لها: لقد دَنَتْ مَنِيَّتي، فَبَكَتْ، فقال لها: أنتِ أوَّلُ من يلْحَقُ بي فَضَحِكَتْ!

تَوَفى عليه الصلاة والسلام ولم يُبْق من الدنيا شيئاً :

النبي الكريم هكذا فَسَّر لنا هذه السورة؛ وهو أنَّ أجَلَهُ قد دنا واقْتَرَب، وحان مَوْعِدُ اللِّقاء، لذلك:

((أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: إنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ، فَبَكَى أبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأمَّهَاتِنَا فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إلَى هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرَ وَكَانَ أبُو بَكْرٍ هُوَ أعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّ مِنْ أمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أبَا بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً مِنْ أمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أبَا بَكْرٍ إلَّا خُلَّةَ الْإِسْلَامِ لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إلَّا خَوْخَةُ أبِي بَكْرٍ))

[البخاري عَنْ أبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فعَلِمَ هذا الصِدِّيق أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يَنْعى نَفْسَهُ، يَرْوي التاريخ أنَّ رجُلاً وقف وقال له: يا رسول الله لي عندك ثلاثة دراهم! قال: أين ومتى؟ فقال: في الوَقْت الفُلاني، كَلَّفْتني أن أُعْطِيَها لِفَقير، فقال له: يا فُلان أعْطِهِ هذه الدراهم، ثمَّ قام واحِدٌ ممنْ يسْمع هذا الكلام وقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنِّي مُنافقٌ كذاب! فَوَقَفَ عُمَرُ غاضِباً، وقال: وَيْحَكَ يا رَجُل فَضَحْتَ نفْسَكَ، فقال عليه الصلاة والسلام: دعْه يا عمر، فإنَّ فُضوح الدنيا خير من فُضوح الآخرة، فاللَّهُمَّ ألْهِمْهُ الصِّدْق والرشاد،

ولقد تَوَفى عليه الصلاة والسلام ولم يُبْقِ من الدنيا شيئاً، وقال له مرة وقد جاء بكل ماله: يا أبا بكر، ماذا أبْقَيْتَ لِنَفْسِك فقال: الله ورسوله - هذه أكبر ذخيرة - قال تعالى:

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 197]

أما الآن فتجد المرءَ عند الوفاة ترك أموالاً منقولة وغير منقولة ودولارات وسيارات وبُيوتاً، وأين هو؟! في القَبْر.

إذا عَزَوْتَ النصْر لِغَيْر الله فأنت مُشْرك :

(إذا) في قوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

(إذا) أداةُ شَرْط تُفيدُ تَحَقُّقَ الوُقوع، أيْ إنَّ نصْر الله تعالى والفتْح لا مَحَالَة آتٍ، أما إذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[سورة الحجرات: 6]

فهذا مع استعمال (إنْ) قد يأتي، وربما لا يأتي، أما قوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

فلا بدّ أن يأتيَ نصْرُ الله والفَتْح، الآن قوله:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

إذا عَزَوْتَ النصْر لِغَيْر الله فأنت مُشْرك، قال تعالى:

(الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

[سورة الروم: 1-3]

عَزْوُ النَّصْر في لحْظةٍ من لحَظات حَياتِك إلى غير الله فهذا هو الشِّرْك بعينه، فهو الذي ينْصر، وهو الذي يخْذل.

الله تعالى وَعَدنا بالاسْتِخلاف والتمْكين في الأرض والأمن شَرْط عِبادَته :

قال تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

[سورة الرعد: 11]

لكن نصْرُهُ ليس جُزافاً قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

[سورة محمد: 7]

عَمَلِيَّة مَشْروطة، فإنْ نَصَرْتُموهُ بطاعَتِكم له، نَصَرَكم النصر الحقيقي، قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة النور: 55]

الاسْتِخْلاف والتمْكينُ في الأرض، وعدمُ الخوف والشُّعور بالأمن، ثلاثة وُعودٍ قطعها الله على نفسه إنْ عَبَدْناه، فإنْ لم نَعْبُدْهُ فهُو تعالى في حِلٍّ من هذه الوُعود الثلاثة، فالله تعالى وَعَدنا بالاسْتِخلاف والتمْكين في الأرض، والأمن شَرْطَ عِبادَتِه.

الإيمان بعد النَّصْر سَهْلٌ وأجْرُهُ قليل لكنَّهُ في زَمَن العُسْرة بُطولة :

هذا النَّصْر هو نصْرُ الله، أما قولهُ: والفتْح، الإنسان قد ينْتَصِر لِأيام ثمَّ ينْهَزِم، أما نصْرُ الله عز وجل فهُوَ مُسْتَقِرّ، فالفتْح هو اسْتِقرار النَّصْر، فأنت قد تتقدَّم وتفْتَحُ هذه البلاد، وكلمة (فَتْح) تعْني فَتْح مكَّة بِكُلِّ تأكيد، لكنَّها مُطْلَقَة، قال تعالى:

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً)

[سورة الفتح: 3]

أما اليهود فلا ينْتَصِرون إلا بحَبْلٍ من الناس، فلا بدّ لهم من دَعْم ومَعونات، لكِنَّ الله سبحانه وتعالى نَصْرُهُ مُؤَزَّرٌ، وعجيب، وعزيز، لا خِذْلان بعْدهُ. قال تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً*فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

في الحقيقة من السَّهْل أنْ تُؤْمِن إذا عَمَّ الإسْلام الأرض، وإذا أصْبح الإسْلام قَوِياً، لكنَّ البُطولة أن تؤمن في ساعة العُسْرة، فأجْرُ الذي يُؤْمن وكُلُّ العالم ضَدَّ الإسْلام؛ هذا له أجْرٌ كبيرٌ، فَمَتى أقْبل الناسُ عليه؟ (إذا جاء نصْرُ الله والفتْح)، عندها ترى الناس يدْخُلون في دين الله أفْواجاً، لذلك بعض المذاهب الفِكْرِيَّة حينما كانت ضعيفة، فالذين اعْتَنقوها حالَ ضعفها وفي بدايتها كانت لهم مكانة كُبْرى، فإذا أصْبَحَتْ قَوِيَّة فإنَّ الذين يدْخُلون فيها لا قيمة لهم، فاعْتِناقُ المذْهب وهو في ضَعْفِهِ؛ هذا إيمانٌ كبير، لذلك هؤلاء الذين اتَّبعوا النبي عليه الصلاة والسلام في ساعة العُسْرة؛ كسيّدنا الصِدِّيق لهم مكانتهم في الإسلام، فأبو

سُفْيان أسْلم ودخل الإسْلام ووقف على باب عُمَر ساعات طويلة فلم يُؤْذَن له، وبلال وصُهَيْب يدْخُلان بلا اسْتِئذان فَعَظُمَ ذلك عنده، وعاتَبَ عمر بن الخطاب، وقال: زعيمُ قُرَيْش أبو سُفيان يقِفُ في بابك ساعاتٍ طِوالاً، وبلال وصُهَيْب يدْخُلان بلا اسْتِئذان! فقال له كلمة واحدة: وهل أنت مثلُهما؟! هؤلاء اتَّبَعوه في ساعة العُسْرة، واضْطَهَدَهُم المُشْركون وعذَّبوهم، وكانوا يَضَعون الصَّخْرة على صدْر بلال ويقول: أحَدٌ أحد، جاء الصدِّيق واشْتراهُ من أُمَيَّة بن خَلَف، وقال له: والله لو دفَعْتَ به درْهما لَبِعْتُكَهُ، فقال له الصدِّيق: أما إنك لو طلبْتَ مئة ألف لَاعْطَيْتُكَها! نَقَدَهُ الثَّمَن، ووضَعَ يدهُ تحت إبْطِهِ؛ رَمْزَ الأخوة في الدِّين، مع أن بلالاً عبدٌ حَبَشي، وسيّدنا الصدِّيق من كُبراء قُرَيْش، ورغم هذا قال: هذا أخي في الله، فَكان الصحابة إذا ذكروا الصدِّيق قالوا: هو سيِّدُنا وأعْتَقَ سَيّدنا، وكان سيدنا عمر يخْرج إلى ظاهر المدينة لاسْتِقْبال بلالٍ الحَبَشي إذا قدِم من سفر، لذلك فإنّ الإيمان بعد النَّصْر سَهْلٌ، وأجْرُهُ قليل، لكنَّهُ في زَمَن العُسْرة بُطولة.

إنْ أصبح المعْروف منكراً والمنكر معْروفاً فهذا زَمَنٌ صَعْبٌ :

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أَتَى إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ الْمَقْبَرَةِ فَقَالَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ثُمَّ قَالَ: وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا أَخواننا، قَالَ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا بِإِخوانك؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَأَخواني الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ مِنْ أُمَّتِكَ بَعْدُ؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً كَانَ لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ خَيْلٍ بُهْمٍ دُهْمٍ أَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقاً سُحقاً))

[أحمد عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

كيفَ بكم إنْ أصبح المعْروف منكراً والمنكر معْروفاً، هذا زَمَنٌ صَعْبٌ، فلذلك قال تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً*فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نبيهاً، فلما انتهى المَجْلس قال: من الرجل؟ فقال عَدِيُّ بن حاتم - ملِكٌ من ملوك الغساسِنَة الشامِيِّين - فانْطلق به ورَحَّب به إكْراماً له، وفي الطريق اسْتَوْقَفَتْهُ امْرأةٌ ضعيفة، فَوَقَفَ معها كثيراً يُكَلِّمُها في حاجَتِها، فقُلْت في نفْسي - القائل عديّ -: ما هذا بِأمْر ملِك! فلما دَخَلْتُ بيْتَهُ، دَفَعَ إلَيَّ وسادَةً من أدَمٍ مَحْشُوَّةً ليفاً، ويبْدو أنَّه ليس في بيْتِه غيرها! وقال: اجْلس عليها، فقلتُ: بل أنت، فقال: بل أنت، فَجَلَسْتُ عليها وجلس هو على الأرض فقال: إيهِ يا عَدِيَّ بن حاتم، ألَمْ تكُ

رُكوسِياً؟ فقال: بلى، فقال: أوَلَمْ تسِرْ في قَوْمِك بالمِرْباع، فقال: بلى، فقال: فإنَّ ذلك لم يكُن يَحِلُّ لك في دينك! فقال عَدِيّ: حينها علِمْتُ أنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسل يعْلمُ ما نجْهَل، ثمَّ قال لي: إيهِ يا عَدِيَّ بن حاتِم لَعَلَّهُ ما يمْنَعُك من دُخولٍ في هذا الدِّين أنَّك ترى أنَّ المُلْك والسُّلْطان في غَيْرِهم! وأيم الله، ليوشِكَنَّ أنْ تسْمع بالمرأة البابِلِيَّة تَحُجُّ البيتَ على بعيرِها لا تخاف - من بابل إلى مَكَّة كُلُّها تُصبْح للمُسْلمين - ثمَّ قال له: ولَعَلَّهُ يمْنَعُك من دُخولٍ في هذا الدِّين ما ترى من حاجَتِهم - أيْ فُقَراء - وَأيْمُ الله لَيُوشِكَنَّ المال أن يفيضَ فيهم حتى لا يوجد من يأخُذُهُ، في عَهْد سيّدنا عمر جيء بالغنائِم، ووُضِعَت على الأرض، ووقف فارسان طويلان وأمْسَكا بَيَدَيْهما رُمْحَيْهما، ورفعا رُمْحَيْهما ورُمْحَ أحدهما كُلُّهُ ذهبٌ وفِضَّة. سيّدنا عمر بن عبد العزيز، في عهْدِهِ جمع الزكاة، وأذاع في الناس: إنَّهُ من كان فقيراً فَلْيَتَقَدَّم لِيَأخذ حاجَتَهُ، فَلَم يتَقَدَّم أحد، ثمَّ قال: من كان مُعْرِماً فَلْيَتَقَدَّم، فلم يتقدَّم أحد! فلقد مَرَّ على الأمَّة الإسلامِيَّة حينٌ من الدَّهْر اكْتفى الناس.

ثمَّ قال لِعدِيّ: ولعلّ ما يمْنعك من دُخولٍ في هذا الدِّين: ما ترى من كَثْرة عَدُوِّهم- من كُلِّ حدْب وصوب- وَأيْمُ الله، لَيُوشِكَنَّ أنْ تسْمع بالقُصور البابِلِيَّة مُفَتَّحَةً للعَرَب، فقالوا: لقد عاشَ عدِيّ بن حاتِم حتى رأى بابل مُفَتَّحَةً للمُسْلمين، وحتى رأى المرأة تَحُجُّ على بعيرها لا تخاف، وحتى رأى أنَّ المال قد فاض فيهم.

إنْ آمنتَ بالله واقْتَنَعْتَ بالإسلام وطَبَّقْتَهُ في زَمَنِ الإسْلام فيه ضعيف فأنت البطل :

حينما يأتي نصْر الله والفتْح فالإيمان بالله سهْلٌ جداً، ولكنَّ البُطولة أنْ تؤمن بالله والأعْداءُ كُثُر، وأن تؤمن بالله والأموال في أيديهم قليلة، وأنَّك ترى الملك والسلطان في غيرهم، إنْ آمنتَ بالله واقْتَنَعْتَ بالإسلام، وطَبَّقْتَهُ في زَمَنِ الإسْلام فيه ضعيف، فأنت البطل:

ليس من يقْطع الطرُق بطلاً إنما من يؤمن بالله البطل

* * *

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً*فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

قبل أنْ نخرج من هذه الآية:

((روى أحمد في المسند عَنْ جَارٍ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَدِمْتُ مِنْ سَفَرٍ فَجَاءَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فَجَعَلْتُ أُحَدِّثُهُ عَنِ افْتِرَاقِ النَّاسِ وَمَا أَحْدَثُوا فَجَعَلَ جَابِرٌ يَبْكِي ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجاً))

[أحمد عن جابر رضي الله عنه]

ففي رمضان لا ترى من هو صائِم، مُعْظمُهم يأكلون، والمطاعِم مفتوحة، كما دخلوا فيه أفْواجاً يَخْرجون منه أفْواجاً، طبْعاً المُلْهيات والفِتَن والاختِلاط وكَسْب المال الحرام؛ هذا أمْرٌ شاع بين الناس، فإذا شاع الكَسْبُ الحرام والاخْتِلاط فماذا بقِيَ من الدِّين؟ فما هو الانْحِلال؟إنّه كَسْب مالٍ بالحرام، وانْحِلال أخْلاقي، فإذا توافر هذان الوَصْفان ماذا بَقِيَ من الدِّين؟ الصلاة لا قيمة لها، الصِّيام الشَّكْلي لا قيمة له، الحجُّ والعمرة أُفرِغا من مضمونهما، وأصبح الناس هَمُّهم الدِّرْهم والدِّينار، وهَمُّهم بطونهم، وفروجهم، وشَهواتِهم، قال تعالى:

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المسد 111-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 5 خسران الدنيا والآخرة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-08-02

بسم الله الرحمن الرحيم

من تصدّى لأهل الحق سيخسر الدنيا والآخرة وهذا هو مصير أعداء الله :

قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ*فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

سورة اليوم سورة المسد، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

الجو العام لهذه السورة يُبيِّن أن الإنسان إذا ضل عن سبيل الله، ونصّب نفسه عدواً لدين الله، وأراد أن يُطفئ نور الله، وتصدى لأهل الحق، وأراد بهم كيداً، فما مصيره في الدنيا؟ وما مصيره في الآخرة؟ مصيره في الآخرة أنه سيصلى ناراً ذات لهب، ومصيره في الدنيا الإخفاق والخسران، فكأن الله سبحانه وتعالى من خلال هذه القصة القصيرة، وهي حدث واحد، حيثما ذكر الله سبحانه وتعالى قصةً أو حدثاً أو ذكر اسماً، فيجب أن نعلم علم اليقين أن هذه القصة ليست مقصودةً بذاتها، وأن هذا الاسم ليس مقصوداً بذاته، إنما المقصود أمثال أبي لهب، الذي انتهى منذ أمد بعيد، لكن كل إنسان تصدى للحق، أو وقف في وجه الإسلام، أو أراد أن يطفئ نور الله، أو تصدى للدعاة إلى الله عز وجل، عاداهم، وأراد بهم كيداً، إنه سيخسر مرتين، سيخسر الدنيا، وسيخسر الآخرة، هذا هو الجو العام، هذا هو مصير أعداء الله.

هذه السورة ذات خصوص وعموم :

المقصد الكبير الثاني في هذه السورة أنه خسر حياته بعد أنْ خسر المعركة، فأبو لهب عمُّ النبي عليه الصلاة والسلام.

أولاً: من تصدى لأهل الحق فخسر الدنيا والآخرة، وفي الأثر: من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً.

قد يسأل سائل، لماذا هذا العداء؟ ما له وللنبي صلى الله عليه وسلم، لمَ ناصبه العداء؟ لمَ وقف في وجه دعوته؟ لِمَ جعل نفسه عقبة كؤوداً في وجه الإسلام؟ لماذا؟

أحدنا قد لا يفهم لماذا يفعل هذا أبو لهب، ولكن أبا لهب يفعل هذا لأنه توهم أن دنياه في خطر، ما دام النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله، هكذا توهم، فحفاظاً على دنياه، حفاظاً على ماله، حفاظاً على مكانته الاجتماعية ناصب النبي صلى الله عليه وسلم العداء، وجعل من نفسه ترساً للباطل، وعقبة في طريق الحق، لذلك ربنا عز وجل في سورة قصيرة لا تزيد عن سطرين بيَّن لنا أن كل إنسان يقف موقف أبي لهب يكون مصيره في الدنيا الإخفاق والخسران، ومصيره في الآخرة إلى جهنم وبئس المصير، فالذي يقرأ القرآن ويظنه كتاب تاريخ فقد ضل ضلالاً مبيناً.

هذه السورة ذات خصوص وعموم، فعلى العموم نحن المقصودون منها، وعلينا أن نتعظ منها، لأن أبا لهب أين أبو لهب؟ طواه الردى، وصار حديثاً، قال تعالى:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة المؤمنون: 44]

سبب نزول سورة المسد :

لكن الإنسان ينبغي أن يستنبط من هذه السور القصيرة العبرة، أمّا مناسبة هذه السورة فقد روى البخاري ومسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((لَمَّا نَزَلَتْ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقاً، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ))

[البخاري عن ابن عباس]

تروي كتب التفسير هذه القصة سبباً لنزول هذه السورة، وتروي الكتب قصةً أخرى، وهي أن أبا لهب التقى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: يا محمد ماذا أُعطى إن آمنت بك، عملية مساومة، قال: كما يُعطى المسلمون، قال: وما لي عليهم من فضل؟ قال: وأي شيء تبغي؟ قال: تباً لهذا الدين حينما أكون أنا وهؤلاء سواء، فنزل قوله تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

وقيل: حينما كان يجتمع الوفود في مكة للحج، كان النبي عليه الصلاة والسلام يقف فيهم خطيباً، ويقول: " اشهدوا أنه لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله تفلحوا " وكان أبو لهب يقف وراءه، فحينما ينتهي من قوله يقول له: لا تصدقوه إنه كذاب ساحر، تباً له وتعساً. فنزل قوله تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

تروي كتب التفسير قصةً رابعة، وهي أن أبا لهب كاد يرمي النبي صلى الله عليه وسلم بحجر، ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذه وأفشل خطته، ونزل قوله تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أربعة معان لكلمة (تبت) :

الجو العام لهذه السورة أن كل إنسان تصدى للحق، وأراد إطفاء نور الله، وأراد أن يكيد للمسلمين وللدعاة إلى الله سبحانه وتعالى فإنه سوف يبوء بالخسران المبين في الدنيا والآخرة. تبَّت بمعنى خسرت، والخسارة مؤلمة، حينما يعقد الإنسان صفقة ويجلبها ويعرضها ويبيعها ويحصل ثمنها خلال سنة، ويجري حسابات دقيقة، ثم يجد نفسه لم يربح منها شيئاً، يشعر بألم لا يعرفه إلا من ذاقه، هذا إذا لم يربح، فكيف إذا خسر الألوف أو مئات الألوف؟ فكيف لو خسر الملايين؟ كيف لو أُخذ ماله كله؟ الشعور بالخسارة شعور مؤلم، ربنا عز وجل يقول: تبت يدا، تبت بمعنى خسرت وبمعنى خابت وبمعنى هلكت، وبمعنى ضلَّت، أربعة معان لكلمة تبت:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

بعضهم قال: هذا دعاء عليه من الله سبحانه وتعالى، وبعضهم قال: هذا تقرير، وسواء كان دعاءً أو تقريراً فالخسارة تحققت له.

قد تقول مثلاً: أطعمك الله، وأنت تريد بهذا أن الله قد أطعمك وسقاك وكفاك، هذا تقرير، وقد تقول للسائل: أعطاك الله، وأنت بهذا تريد الدعاء، فبعضهم فسّر (تبت) على أنه دعاء من الله عز وجل، وبعضهم فسرها على أنها تقرير، وكونها تقريراً أرجح لأن الضعيف وحده هو الذي يدعو على خصمه.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

المعنى الأوجه أنه عجز عن تحقيق مراده، هذا الذي يتصدى للسحاب في السماء، ويدعوه أن يقف فهل يقف له؟ شيء مستحيل، هذا دين الله سبحانه وتعالى فالله سبحانه وتعالى هو الذي ينصره، فهل يستطيع إنسان ما مهما علا شأنه وكبرت قوته أن يحول بين الدين وبين البشر، فالمعنى الثاني التقريري أوجه:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أي خسر خسراناً مبيناً، وعجز عن تحقيق مراده، والقافلة تسير والكلاب تعوي، الذي يركب سيارة، ويتصدى له كلب في الطريق، هذا الكلب يقفز قفزات سريعة يظن أنه يحول بين هذه السيارة وبين المسير، لكنها تبقى ماضيةً في طريقها، والكلب يعوي ثم لا يلبث أن يسكت، فمعنى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أي إنه عجز عن تحقيق مراده، وفشل إن صَحَّ التعبير، بل إنه أخفق وخسر، خسر هذه المعركة التي تصدى لها، وخسر نفسه، بل خسر شيئين، أولهما خسر هذه المعركة، لقد خاض مع النبي صلى الله عليه وسلم معركة، وأراد أن يعيقه عن نشر هذه الدعوة أراد أن يحول بينه وبين نشر الهدى، لقد خسر هذه المعركة، وثانيهما خسر أيضاً حياته.

يَدَا الإنسان كناية عن الإنسان نفسه هذا من المجاز العقلي نريد الكل ونذكر البعض :

أما كلمة يدا:

(تَبَّتْ يَدَا)

رجل أراد أن يحفِّظ القرآن لإنسان بدوي، والبدو يعرفون العربية بالسليقة، ولا يعرفونها بالنحو، فأحب القارئ أن يقطِّع آيات السورة إلى أجزاء صغيرة، فقال له: تبت يدا، قال له: تبت يدان، لأن الاسم المثنى إذا أضيف إلى كلمة تحذف النون، فإذا قلت: تبت يدا، فهذه خلاف اللغة، أما تبت يدا أبي لهب فهي الأصح.

(تَبَّتْ يَدَا)

اليدان هنا كناية قرآنية عن الذات:

(بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ)

[سورة الحج: 10]

أيْ هذا ما قدَّمتَ أنت:

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

[سورة المائدة: 64]

هذه كنايات القرآن الكريم، فقد يكني القرآن الكريم عن الإنسان بيديه:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

لأنه يعمل بيديه، ويعطي بيديه، ويبطش بيديه، ويحسن بيديه، فيَدَا الإنسان كناية عن الإنسان نفسه، هذا من المجاز العقلي، نريد الكل ونذكر البعض.

علماء التفسير لهم في سبب تسمية أبي لهب بكنيته مذاهب شتى :

قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أما أبو لهب فمبدئياً إذا الإنسان نادوه باسمه لا يتأثر، لأن الله عز وجل قال: يا يحيى، يا زكريا، يا عيسى بن مريم، لقد نادى أنبياءه أكثرهم أو كلهم بأسمائهم، وذكر هذا الإنسان الضال المضل بكنيته:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

ولكن علماء التفسير لهم في سبب تسمية أبي لهب بكنيته مذاهب شتى.

أولاً كان اسمه عبد العزى، والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن ينسب العبودية لغيره في كتابه، مستحيل أن يذكر الله سبحانه وتعالى اسماً فيه تُنسب العبودية لغيره، إذاً صُرف النظر عن ذكر اسمه عبد العزى لهذا معنى.

المعنى الآخر أن كنيته كانت أشهر من اسمه، فالمتنبي أشهر من اسمه، والجاحظ كذلك، فكنيةُ أبي لهب أشهر من اسمه، أما لماذا سمي أبا لهب؟ فتروي الكتب أن له وجنتين متألقتين كأنهما لهب في خديه، وهذا دليل الجمال، كان جميلاً، وكان يميل إلى البياض والحمرة، فكان يُكنى أبا لهب، فربنا ذكره بكنيته، وكنيته تتناسب مع مصيره، أبو لهب مصيره إلى اللهب، وأبو لهب سيصلى ناراً ذات لهب، هذا توجيه آخر.

وشيء ثالث، أن الاسم عند العرب أشرف من الكنية، لكننا الآن نحن تواضعنا على أن كلمة أبا فلان أليق من أن تقول له يا فلان.

الأنبياء جميعاً ناداهم الله بأسمائهم إلا النبي عليه الصلاة والسلام :

لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم: 12]

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)

[سورة مريم: 7]

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي)

[سورة المائدة: 116]

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

[سورة آل عمران: 144]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 144]

الأنبياء جميعاً ناداهم الله بأسمائهم إلا النبي عليه الصلاة والسلام.

كرَّم الله سيدنا محمداً فلم يخاطبه باسمه بل خاطبه بمهمته وبمقام النبوة والرسالة :

ليس في القرآن كله آية واحدة نادى بها الله سبحانه وتعالى نبيه يا محمد، لكنه ذكره باسمه على سبيل الخبر، أما كيف خاطبه:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

[سورة المائدة: 67]

لقد كرَّم الله عز وجل سيدنا محمداً فلم يخاطبه باسمه، بل خاطبه بمهمته، وبمقام النبوة، وبمقام الرسالة، يا أيها النبي، ويا أيها الرسول، وبقية الأنبياء جميعاً خوطبوا بأسمائهم، وهذا لا يمنع أن يتحدث الله سبحانه وتعالى عن رسوله باسمه:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح: 29]

الدنيا هي الفرصة الوحيدة للتعرف إلى الله عز وجل فالدنيا مزرعة الآخرة :

قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

إذا فهمنا تبت يدا أبي لهب بمعنى الدعاء فتب تفيد التحقُّق، أيْ إنّ الله سبحانه أعطاه مالاً مثلاً، وقد أعطاه مالاً حقّاً، ثم حرمه الله المال وأنْ يسعد به:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

وإذا حملنا الأولى على أنها تقرير، فالثانية على أنه خسر المعركة التي خاضها، وخسر المعركة كلها دنيا وأخرى. أول معنى خسر المعركة التي خاضها مع النبي عليه الصلاة والسلام.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أيْ عجز وفشل وأخفق في تحقيق مراده، هذا المعنى الأول، (وتب) وخسر حياته كلها، خسر الدنيا، وهي أثمن ما عند الإنسان، الإنسان في الدنيا يرقى، وفي الدنيا يتعرف إلى الله، الدنيا هي الفرصة الوحيدة للتعرف إلى الله عز وجل، والفرصة الوحيدة للاستقامة على أمره، وللعمل الصالح، لأنّ الدنيا مزرعة الآخرة، فلا تلعنوا الدنيا، لماذا؟ لأن الإنسان يرقى في الجنة عن طريق الدنيا؛ كما قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تسبوا الدنيا فنعم مطية المؤمن))

[رواه الديلمي عن ابن مسعود]

يمتطيها للآخرة، بالدنيا يصل إلى الآخرة، والدليل قوله تعالى متحدثاً عن أهل الجنة حينما يدخلونا يقولون:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

[سورة الزمر: 74]

لولا الدنيا لما كانت الآخرة، ولولا الدنيا لما كانت الجنة، ولولا أن الله سبحانه وتعالى خلقك في الدنيا وأعطاك فكراً وكوناً لما عرفته، ولولا أنه أعطاك مالاً فأنفقته في طاعته لما ارتقيت إليه، ولولا أنه زرع في نفسك شهوات فكففت عن محارمه لما شعرت أنك منه قريب.

على الإنسان ألا يلعن الدنيا لأن كل سعادته الأبدية تبدأ من الدنيا :

بهذه الشهوات التي أودعها الله فيك ترقى، وبهذا الفكر الذي وهبه الله لك ترقى، وبهذا المال الذي أعطاك الله إياه ترقى، وبهذا الأسلوب أسلوب الزواج وإنجاب الذرية ترقى بأولادك، وترقى بزوجتك، وإن كان لك عمل فأتقنته ترقى، وإذا نصحت المسلمين ترقى، بعتهم سلعاً جيدة بأسعار معتدلة ترقى، صدقتهم ترقى، وضعت لقمة في فم زوجتك ترقى، أدَّبت ولدك ترقى، لاعبت ولدك ترقى، كيفما تحركت رقَيْت، إن كنت مؤمناً كيفما تحركت، فهذا كله عمل صالح مسجل في صحيفتك.

يوم القيامة يطّلع الإنسان على أعماله الصالحة، فيرى أن كل حركة وكل سكنة، وكل نظرة، إذا نظر الإنسان إلى أخيه نظرة ود رفعه الله بهذه النظرة، إذا نظر الإنسان إلى والديه ـ نظر فقط ـ نظرة رحمة رفعه الله بهذه النظرة، إذا حنا على زوجته، رفعه الله بهذا الحنو، إذا أطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب، هذا كله في الدنيا، هذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض متوقفة على الدنيا، لذلك هذا الذي يلعن الدنيا لا يعرف شيئاً:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟ قَالَتْ: الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا فَقَالَ لَا تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ))

[مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ]

لا تلعن الدنيا، كل سعادتك الأبدية تبدأ من الدنيا، وثمنها الدنيا، والبحث يطول، في الدنيا تتعرف إلى الله، كيف تعرفه، لو لم يخلق لك شمساً وقمراً وجبالاً وبحاراً وأنهاراً وطعاماً وشراباً وفواكه وأزهاراً ونباتات وأشجاراً، كيف تعرفه؟ كيف تعرفه لو لم يخلق لك من صلبك ابناً يشبهك تحبه ويؤنسك؟ كيف

تعرفه لو لم يخلق لك من نفسك زوجة تسكن إليها، وجعل بينك وبينها مودة ورحمة؟ كيف تعرفه؟ لا تعرفه إلا في الدنيا.

أولُ (تَبَّ) خسر المعركة و(تبَّ) الثانية خسر حياته :

كيف تتقرب منه؟ بالدنيا، ببذل المال، بالخوف منه، بالخوف من مال حرام، فبالترفع عن المال الحرام ترقى، وأخذ المال الحلال ترقى به، وإنفاق المال الحلال ترقى به، وغض البصر عن محارم الله ترقى به، والنظر إلى زوجتك ترقى بهذه النظرة، جبرت خاطرها بهذه النظرة، هناك أشخاص لؤماء، يبذلون كل مودتهم لغير زوجاتهم، فإذا دخل البيت صار عبوساً قمطريراً، هؤلاء يحاسبون، هذه مَن لها غيرك؟ لماذا المودة البالغة لأختها؟ لماذا اللطف الشديد لقريباتها؟ لماذا النعومة خارج المنزل والفظاظة والغلظة داخله؟ أبواب الجنة كلها في الدنيا مفتحة، فإذا أتقنت عملك ترقى به، وإذا نصحت المسلمين ترقى، وإذا اعتدلت بالسعر فلم تسهم في رفع الأسعار والتضييق على الناس ترقى، وإذا نفذت وعدك ترقى، وفي كل حركة من حركاتك، وكل سكنة من سكناتك، قال تعالى:

(وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة التوبة: 121]

فهذه في الدنيا، أولاً: تَبَّ وخسر أبو لهب المعركة مع رسول الله،، والدعوة انتشرت، والإسلام عمّ الأرض، والنبي صلى الله عليه وسلم رفعه الله إلى أعلى عليين، وسقط أبو لهب في وحل الدنيا، وكان ذكره قميئاً يبعث الاشمئزاز والاحتقار، لقد خسر أبو لهب المعركة مع النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه الخسارة ليست بشيء، إنه خسر دنياه التي هي فرصته الوحيدة لسعادته الأبدية:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أولُ (تَبَّ) خسر المعركة، و(تبَّ) الثانية خسر حياته، فإذا انتقل إلى الدار الآخرة سيصلى ناراً ذات لهب، هذا مصير كل من يعادي الحق، وكل من يضع نفسه ضد الدين أو ضد الهدى الإلهي.

التعبير بالماضي من قِبَلِ الله على شيء لم يحدث بعدُ إنما هو من باب تحقُّق الوقوع:

قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

أما كلمة (تبت) بالماضي، فلما نزلت هذه السورة كان أبو لهب حياً يُرزق وربما استهزأ بها، أنا خسرت!! مال عريض، وجاه كبير، وزعامة في قريش، فكيف خسر؟ قال العلماء: إن التعبير بالماضي من قِبَل الله عز وجل على شيء لم يحدث بعدُ إنما هو من باب تحقُّق الوقوع. إذا نظر شخص إلى ابنه وهو يهمل دراسته، ولا يبالي لا بوظيفة يكتبها، ولا بدرس يحفظه، ولا بدوام يباشره، فبحسب خبرة الأب يقول: خسر ابني، والابن لا يشعر بهذه الخسارة إلا بعد حين، فالله سبحانه وتعالى رآه معرضاً، معادياً، مبغضاً، فقال: (تبَّت)، وظن أبو لهب حينما تُليت عليه هذه السورة أو بلغت مسامعه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم يهجوه بالشعر، فقال: أقُلتَ فيَّ شعراً، فقال سيدنا الصديق رضي الله عنه: لا والله، ما قال فيك شعراً، النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول شعراً، لقد ظنه شعراً.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

أصبحت واضحة، المعنى الأوجَه؛ تبَّت الأولى: خسر المعركة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وتبَّت الثانية: خسر حياته كلها، وهي أثمن شيء عند الإنسان، وفرصة وحيدة لا تعوض.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

المال شيء ولكنه ليس كل شيء :

الإنسان أحياناً يتوهم أن المال كل شيء فيسعى له ليلاً ونهاراً:

((وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك ، فلأُسلِطَنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي .))

[ورد في الأثر]

هذا ما يفعله معظم الناس، يتوهمون أن سعادتهم كلها بالمال، وأن المال هو كل شيء، وأنه عصب الحياة، ومادة الشهوات، وأنه من ملك المال ملك كل شيء، وأنه من خسر المال خسر كل شيء، والدراهم مراهم، هكذا يتوهم الناس، فإذا لهثوا وراء المال وبلغوا خريف العمر ووجدوا أن المال لم يحقق لهم ما كانوا يتوقعون من سعادة، عندئذ يكون الشعور بالخسارة الكبرى، المال شيء ولكنه ليس كل شيء، سيدنا أبو ذر قال: حبذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي. شعور الإنسان في خريف العمر حينما يحبط عمله، وحينما يخفق في مسعاه، وحينما يشعر أنه أمضى حياة كلها شقاء في شقاء، وأن المال لم يسعده، وأنه أتعبه كثيراً وسبَّب له عداوات خطيرة عندئذ يعض على يديه، ويقول: يا ليتني لم أفعل هذا.

يقول الله عز وجل لعبده:

((أن عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول : يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، فيقول الله له : ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم - يسأل عبد آخر - أعطيتك مالاً فماذا صنعت في ؟ يقول : يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي بأنك خير حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله له: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

ترى المؤمن يتوفاه الله عز وجل، ولكن أولاده في رعاية الله، وفي حفظه الله، وفي توفيقه، وقد لا يدع لهم مالاً كثيراً، ولكنه ترك لهم سمعةً طيبة يعيشون بها بين الناس، أما أبو لهب فما أغنى عنه ماله وما كسب، ماذا يفعل المال؟

مرة كنت عند طبيب، جاءه هاتف، ولشدة ارتفاع الصوت بالهاتف سمعت الذي يخاطبه، قال له: يا دكتور نبعثه إلى أيِّ مكان تريد، وقدِّر المبلغ، وندفع، قال: واللهِ لا أمل له، سرطان مستفحل، لو استأصلناه ينمو بعد أسبوعين ليس عندي حل، وبقيت كلمة: ندفع المبلغ مهما كان، وإلى أي مكان في العالم نأخذه.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

أفضل كسب الرجل ولده :

المال لا يجدي شيئاً، هو شيء وليس كل شيء، إذاً أبو لهب ظن ماله يحميه من مغبة أعماله السيئة، ولكن المال لا يحميه، كان أبو لهب يقول: إن كان ما يقوله حقاً - إذا كانت الآخرة حقاً، وفيها جهنم - إن كان ما يقوله هذا الرجل - أي رسول الله - حقاً فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، وسأدبر أمري، أدفع مالاً في الآخرة وينقذني، هذا في الدنيا، تخرج بكفالة في الدنيا فحسب، هكذا كان يقول: إن كان ما يقول هذا الرجل حقاً فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، فربنا أجابه:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ))

[النسائي عَنْ عَائِشَةَ]

فكلمة (كسب) هنا تعني الولد:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

لقول النبي عليه الصلاة والسلام، أفضل كسب الرجل ولده، والنبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى الصدقة الجارية:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فالولد الصالح صدقة جارية، لذلك أفضل كسب الرجل ولده، أي أعظم عمل تقوم به أن تعتني بولدك، فإذا اعتنيت به وكان خليفة لك يدعو إلى الله من بعدك، كان عالماً، كان ديِّناً، كان إنساناً طيباً صالحاً، فإنه ذخر لك من بعد موتك.

من معاني الآية التالية أن الإنسان لا ينفعه ولده ولا ماله :

وما كسب مِن ولدٍ، بعض المفسرين قال: وما كسب أيْ مِن ولد، وولد الرجل من كسبه، وقد كان العرب في الجاهلية يعتزون بالمال والولد لذلك قال: إن كان ما يقول هذا الرجل حقاً فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، فقال الله عز وجل:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

هذا معنى، أي لا ينفعه ولده ولا نفعه ماله، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ *إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ *وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ* يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة: 19-33]

كسب الإنسان لا ينفعه إذا جاء الموت إلا ما كان على تقوى :

بعضهم قال:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

(ما) هنا نافية، أيْ لم يغن عنه ماله ولا أولاده، وبعضهم قال: (ما) استفهامية، ما أغنى عنه ماله؟ أم أغنى؟ أنتم احكموا في هذا الأمر، وبعضهم قال: ما أغنى عنه ماله وما كسب، (ما) في الآية مصدرية،

بمعنى ما أغنى عنه ماله وكسبُه، وقد تكون (ما) موصولة بمعنى: الذي كسب من عمل، صار المال شيئاً والعمل الطيب شيئاً آخر، عمله في الدنيا، الناس يعملون، هذا يؤسس مثلاً محلاً، وذاك يؤسس مصنعاً صغيراً، وآخر يقيم حقلاً، وغيره يعمل مشروعاً زراعياً، ثم يأتي الموت، وهذا كله من كسبه، ولا ينفعه إلا ما كان على تقوى.

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

قال لي شخص: بلّغوا صاحب شركة ضخمة أن أرباحنا هذه السنة بلغت خمسة ملايين، تبلّغ هذا صباحاً، وفي الساعة الخامسة مساءً تُوُفِّيَ:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

الآن يجب أن ينتبه، فمنجزاته في الدنيا لا تغني عنه شيئاً، لو فرضنا أنّ مهندساً أشاد أعظم بناء، فهذا البناء لا يشفع له عند الله، ولو فرضنا أنّ محامياً استطاع أن ينتصر في أعقد قضية، فهذا الانتصار في هذه القضية إن لم يكن في الحق فلا قيمة له عند الله، وقد يبلغ الرجل أعلى درجة، ويبلغ شهرة عريضة، وقد يكون غنياً كبيراً، هذا (أُنَسيف) الذي كان من أغنى الناس على الأرض، كان عنده أساطيل تجارية، وعنده جزر وكلها مِلكه، ومع ذلك ألم يأته الموت؟ وحينما توفي ماذا أخذ معه:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

ربنا عز وجل جعل الموت موعظة بليغة :

الحقيقة أن ربنا عز وجل جعل الموت موعظة بليغة، كان من الممكن أن نُخلَق جميعاً دفعة واحدة، ونموت جميعاً دفعة واحدة، وبهذه الطريقة لا يتعظ أحدنا بأحدنا، لكن هذا النظام الإلهي، أن أناساً يولدون، وأناساً يكبرون، وأناساً يموتون، الموت موعظة بليغة.

إنسان دُعِي إلى وليمة، والوليمة الساعة الثانية والنصف ظهراً، وفي الساعة الثانية كان عنده ثريا يجب أن يركّبها، في أثناء تركيب الثريا تكهرب فأغمي عليه، والذي أقام الوليمة انتظر، والطعام جاء ساخناً من المطعم، فقال: تفقدوه، فإذا هو في المشفى، دخلوا فإذا هو قد فارق الحياة، هذا الطعام الذي أُعِدّ له لم يُتَحْ له أن يأكله، بل لم يُتَحْ له أن يأكل منه لقمة واحدة. دخلنا في معنى آخر، منجزات الإنسان في الدنيا، إن كان حقق نجاحاً في التجارة، وإن كان حقق نجاحاً في الصناعة، وإن كان حقق نجاحاً في العلم، أخذ شهادة بورد، وإن كان حقق نجاحاً في كسب المال، وإن كان حقق نجاحاً في بناته، زوّجهم إلى أشخاص من وجهاء المجتمع، أصهارُهُ من الدرجة الأولى، وإن كان حقق نجاحاً في كل منحى من مناحي الحياة، وجاءه الموت وكان علمه سيئاً:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

إذاً لنجعل هذه الآية في بؤرة ذاكرتنا، الخلاصة إذاً: أنه تبت يدا أبي لهب، أخفق في مسعاه، وخسر حياته كلها، وحينما يموت سيصلى ناراً ذات لهب، أحياناً ارتفاع الحر فيه موعظة، قالوا: مرَّ القطر بمرتفع جوي، فالحرارة فوق معدلها، الناس لا ينامون الليل، وقال لي شخص: واللهِ ما استطعت أن أنام البارحة، خرجت إلى الشرفة الساعة الواحدة فما رأيت حركة ولا نسمة، فربنا عز وجل إذا رفع الحرارة قليلاً ضجّ الناس، تُرى ما هذه النار ذات اللهب؟

(سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ)

إذا أطاعت امرأةٌ زوجها في معصية فشأنها شأنه ومصيرها مصيره والعكس صحيح :

الحر لا يطاق إذا بلغ درجته أربعين أو أكثر، وتصل درجة الحرارة بمكة إلى تسع وأربعين، واثنين وخمسين درجة، بل أكثر من ذلك، هذا الحر الشديد ليس بشيء أمام حر جهنم.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

[سورة التوبة: 81]

إذا كان عند الإنسان مكيف في الدنيا فلن يكون له ذلك في الآخرة:

(سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ)

قال لي رجل: أنا عندي خمسة مكيفات، واحد بغرفة الضيوف، وآخر بغرفة النوم، ومكيف بالمطبخ، ومكيف بالصالون، وغير ذلك، ولكن ليس في الآخرة مِن مكيف، فإذا كان من أهل الدنيا العصاة فسيصلى ناراً ذات لهب.

(وَامْرَأَتُهُ)

أما كلمة (وامرأته) فينخلع لها القلب، إذا طاوعت امرأةٌ زوجها في معصية فشأنها شأنه، ومصيرها مصيره، والآية موجهة إليها:

(سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

وإذا طاوع الزوجُ امرأتَه في معصية فسيصلى ناراً ذات لهب معها، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والمرأة التي تقول لزوجها: لا أعصي الله وافعل ما شئت، طلقني إذا شئت، إنه لن يطلقها، وسوف يكرمها، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ]

إذا آذيت أولياء الله عز وجل فأنت في حرب مع الله فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم:

اعلمْ أنّ دين الرجل مؤلف من مئة ألف فقرة أو أكثر، فنظرُ الريبة يُحاسب عليه، وحلف يمين كاذبة يُحاسب عليها، ورفع السعر يُحاسب، وإنْ أخفى العيب فسيحاسب عليه، أو باعه تقسيطاً بسعر أغلى يحاسب، وهناك أكثر من ألف أو ألفي علاقة محرمة في البيع والشراء، وإذا دخل إلى البيت فقبَّل ابناً وما قبَّل الثاني فسيُحاسب، وإذا حكَّموه وظلم فسيُحاسب، فدينُ الرجل معقد جداً، فيجب أن يكون دقيقاً في معاملاته، وفي بيعه وشرائه، وفي جواره، وفي حديثه، وفي نظراته، أما المرأة إذا صلت خمسها وصامت شهرها، وحفظت نفسها، وأطاعت زوجها، دخلت جنة ربها، فإذا أطاعته في معصية انطبقتْ عليها هذه الآية:

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

يروي التاريخ أن لأبي لهب أولاداً ثلاثة، الأول معتب والثاني عتبة، وقد أسلما وتبعا النبي عليه الصلاة والسلام، وخدماه خدمة راقية وأحباه، وأما عتيبة فجاهر بإيذائه وعداوته للنبي عليه الصلاة والسلام، وكان زوج ابنة النبي فطلقها كي يغيظه بها، اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فأكله السبع في خرجة خرجها إلى الشام، فلما يتصدى الإنسانُ للأنبياء، ومن آذى لي ولياً آذنته بالحرب، هذا يدعو إلى الله اتركه، دعه وشأنه، فإذا آذيت أولياء الله عز وجل فأنت في حرب مع الله، فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم؟ عارضه عتيبة، وجاهره وناصبه العداء، وطلق له ابنته ليغيظه بها، فدعا عليه النبي عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فأكله السبع في خرجة خرجها إلى الشام.

العلاقات في الإسلام أساسها المبادئ لا العلاقات الشخصية :

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً، وعمه أبو لهب:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ))

[أبو داود عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ]

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُوماً فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِماً؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ))

[البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

العلاقات في الإسلام أساسها العلاقات المبدئية، أساسها المبادئ لا العلاقات الشخصية، ولا العلاقات النَّسَبية، ولا التجمعات الإقليمية، هذا كله في الإسلام مرفوض:

((سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

[البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلاً فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ أَخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))

[البخاري عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ]

الإسلام الحقيقي :

هذا هو الإسلام، الإسلام جعل الناس سواسية كأسنان المشط، سيدنا أسامة بن زيد كان شاباً لا تزيد سنه عن سبعة عشر عاماً، وكان أسود اللون أفطس الأنف، وكان حِبَّ رسول الله، وكان يسمى بين الصحابة الحِبَّ ابن الحِب، كان هو حِبَّ رسول الله، أي محبوب رسول الله، وكان أبوه كذلك، لما ولاه النبي صلى الله عليه وسلم قيادة الجيش، وتوفي ولم يُرسل هذا الجيش، فتابع سيدنا الصديق أمر إنفاذ الجيش، وفيه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، كبار الصحابة كانوا جنوداً تحت إمرته، وهو لا تزيد سنه عن سبعة عشر عاماً، والصحابة تكلموا، فقالوا: ما هذا؟ هذا يقودنا؟ رفعوا أمرهم إلى سيدنا عمر، وسيدنا عمر كان ذكياً، تبنَّى رأيهم ليسمعهم رد الصديق، فما كان من

سيدنا أبي بكر رضي الله عنه إلا أن أمسكه من لحيته وكادت تنخلع بيده، وهزه هزاً عنيفاً، وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، أجبَّار في الجاهلية خوَّار في الإسلام، أتمنعني أن أنفذ جيشاً جيَّشه رسول الله، واللهِ لينفذن يقوده أسامة، وخرج سيدنا الصديق وهو الخليفة الوقور، خرج يمشي وأسامة راكب على ناقة، لم يحتمل أسامة هذا الموقف، قال: واللهِ يا خليفة رسول الله لتركبنَّ أو لأنزلن، فقال: والله لا ركبت ولا نزلت، وما عليَّ أن تغبرَّ قدماي ساعة في سبيل الله، وسار بركابه، فلما وصلا إلى مكان تجمع الجيش استأذنه بعمر، أتأذن لي بعمر ليكون وزيراً معي، هذا الإسلام. إنّ اللون لا قيمة له، والأصل لا قيمة له، ومكان الولادة لا قيمة له، وكذا مكانة الأبوين، لا قيمة إلا قيمة واحدة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

[سورة الحجرات: 13]

من علامات المؤمن أدبه الشديد مع الناس ومن علامات غير المؤمن تكبره واستعلاؤه:

يا سعد لا يغرنَّك أنه قد قيل خال رسول الله، الخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له، لا أعتقد أن هناك صحابياً جليلاً سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعه سعد في بعض المعارك:

((عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفَدِّي أَحَداً غَيْرَ سَعْدٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي أَظُنُّهُ يَوْمَ أُحُدٍ))

[متفق عليه عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما قال النبي عليه الصلاة والسلام لأحد: فداك أبي وأمي إلا لسعد.

((أَقْبَلَ سَعْدٌ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ))

[الترمذي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

كان عليه الصلاة والسلام مرحاً، وكان ودوداً مع أصحابه، يعرف قيمتهم واحداً وَاحداً:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ هُوَ ابْنُ مُعَاذٍ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ قَرِيباً مِنْهُ فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ فَلَمَّا دَنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَجَاءَ فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ قَالَ: لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ومرة دخل سيدنا أبو بكر فما وجد مكاناً ليجلس فيه، فسيدنا علي رضي الله عنه أزاح له، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال: لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل، وأثنى على سيدنا علي، وعلى سيدنا أبي بكر في آن واحد، كان إذا دخل عليه سعد يقول هذا خالي، خال بعيد المرتبة، أروني خالاً مثل خالي، ارم سعد فداك أبي وأمي، ما هذا المقام؟ هل بعده من مقام، قال له عمر: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله ـ إياك أن تُغَرَّ بها ـ فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم له، إياك أن تستعلي على أحد، إياك أن ترى نفسك خيراً من أحد، كلهم عباد الله، هذا الذي تحتقره قد يكون مقامه عند الله عز وجل أضعاف مقامك، من علامات المؤمن أدبه الشديد مع الناس، ومن علامات غير المؤمن تكبره واستعلاؤه، يقول: أنا وأنا، قالها إبليس فأهلكه الله.

أربع كلمات مهلكات وعلامة الإيمان التواضع :

أربع كلمات مهلكات: أنا ونحن ولي وعندي، قال إبليس:

(أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ)

[سورة الأعراف: 12]

فأهلكه الله عز وجل، وقالها قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ)

[سورة القصص: 78]

وقالها فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي)

[سورة الزخرف: 51]

فأغرقه الله في البحر:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

[سورة غافر: 46]

وقال قوم بلقيس:

(نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ)

[سورة النمل: 33]

أربع كلمات مهلكات، فعلامة إيمانك التواضع، وهذا الذي أمامك عبد من عباد الله، فلا تدري قد يكون له عند الله شأن غير شأنك، فتأدَّب مع الناس.

((عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ]

تقييم البشر من شأن الله وحده :

إذاً وصلنا إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على عتيبة بالهلاك فأهلكه الله، فيا أيها الإنسان لا تستعدِ، ولا تكن عدواً للحق، ولا تهرف بما لا تعرف، فتقول: فلان مبطل، تأكَّدْ من هذا الكلام؟ لمَ نقلت كلام لستَ متأكداً منه لا تصم الناس بالباطل، ولا تكفِّر أحداً، فمن كفَّر الناس فهو أكفرهم، قل: لا أعلم، أنا أتبع هذه الطريقة، أقول: هذا من شأن الله وليس من شأن البشر، لأنّ تقييم البشر من شأن الله، والدليل قوله تعالى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ)

[سورة المائدة: 118]

هذا ليس من شأني، ما قولك بفلان؟ لا علاقة لي، أنا عليَّ بنفسي.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة المائدة: 105]

أنا لستُ مكلفاً بتقييم الناس، فلان على الحق أم على الباطل؟ لا أدري والله، إن كان مطبقاً لكتاب الله فهو على الحق، ونحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر.

علامة المؤمن أن كاهله ليس عليه شيء :

قال تعالى:

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

قالوا: حمالة الحطب أي حمالة الذنوب، الحطب هنا كناية عن الذنوب، حينما يفعل الإنسان أعمالاً سيئة، يؤذي إنساناً، يغتصب مالاً، يسبب خراب بيت إنسان آخر، أو دمار أسرة، فيفرق بين أم وابنها، وبين أخ وأخيه، وبين زوجة وزوجها، يجعل إنساناً يفلس، أو يورطه في ورطة كبيرة، أو يسبب له مرضاً خبيثاً على أثر صدمة آلمته، فهذه كلها أعمال كأنها أحمال فوق ظهره، المؤمن خفيف، ينام مساءً ولا أحد متعلق معه بحق، فلو أنّ نملة داسها لم يكن عليه أنْ ينام الليل، فقد سبَّب موت مخلوق، فعلامة المؤمن أن كاهله ليس عليه شيء، ما أكل مالاً حراماً، لا آذى إنساناً، ولا سبَّب شقاء أسرة، ولا دمار

مستقبل فتاة، فإذا خبَّب امرأةً، أو أفسد فتاة قضى معها شهوته وانصرف، لكنها أصبحت مومساً، وصارت هي وذريتها وذرية ذريتها إلى جهنم، أرأيت هذا الجيل؟ جيل من الفتيات المومسات هذه في صحيفته، ويوم القيامة يكشف له عن ذلك، انظر هذه التي قضيت شهوتك منها، دمّرتها في ساعة، وكان يمكن أن تكون أمّاً صالحة ولها زوج ولها أولاد وأصهار، فأفسدتها وجعلتها زانية. مثلاً امرأة التجأت إلى إنسان فراودها عن نفسها، يبدو أنها طاوعته، فقال لي شخص: إنها كانت تضع على وجهها حجاباً بعد ذلك نزعته، وصار بعد ذلك من دون شيء، وبعد ذلك أصبحتْ تدير الآن بيتاً للدعارة، مَن السبب؟ هذا الذي أفسدها، هذا العمل عندما ينكشف في الآخرة فمضاعفاته لا حصر لها، يمكن أن يلقى الزاني ثمانمئة ألف ساقطة في صحيفته، هذا صار عبئاً عليه:

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

أتستطيع أن تحمل كل هذه الأحمال، تكذب وتغش وتحلف يميناً باطلةً، وتؤذي إنساناً، وتورط آخر في ورطة، أين أنت سائر، القضية خطيرة جداً، فإذا أشقيت أسرة يكفي أنْ تفسد علاقة بين زوجين، فإذا طلقها كنتَ أنتَ سببَ تعاسة للأطفال.

علامة المؤمن أنه ينام مطمئناً، قالوا: في أوربا فندق مكتوب عليه، إذا ما ارتحت في النوم فالذنب ليس في الأثاث، إنما هو ذنب ضميرك الذي يعذبك.

المرأة على دين خليلها :

علامة المؤمن أنّ بالّه مرتاحٌ، لم يبن مجده على أنقاض الآخرين، ولا سعادته على شقائهم، ولا جمع ماله على إفقارهم، ولا بنى أمنه على قلقهم، بالعكس، فهو مصدر خير ومصدر سعادة للناس وطمأنينة، فلا يخيف أحداً، المرعبون في النار.

((عن عَائِشَةَ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ: ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ أَوْ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ مَا قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ فَقَالَ: أَيْ عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَهُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ))

[متفق عليه عن عَائِشَةَ]

إنّ الخير بيدي والشر بيدي، فطوبى لمن قُدر على يديه الخير، والويل لمن قدر على يديه الشر، فإياك أن تكون أداة بيد شرير، لذلك هذه حمالة الحطب من معانيها كل ذنب حطبة، هذا الحمل سوف يسحق صاحبه، هذا أول معنى من معانيها، والمعنى الثاني: كلمة امرأة بعضهم يرى أنها مشتقة من المرآة، المرأة على دين خليلها، الآن أنت وحدك صلِّ بإتقان، صل الصبح حاضراً، بعد أسبوع تستيقظ زوجتك معك، فإذا نمت إلى ما بعد طلوع الشمس بقيت هي نائمة، وإذا كنت ورعاً رأيتها ورعة، تكلَّمْ أنت على

النساء تتكلم هي على الرجال، كُفَّ عن الغيبة، استحتْ أن تغتاب، هذه الحقيقة ثابتة المرأة على دين خليلها، إنْ رأتك ورعاً تكن ورعة، شريفاً شريفة، لا تنظر فهي لا تنظر، عندك رحمة ترحم، كلامك قاس تقسو بكلامها، تسب أهلها تسب أهلك، المرأة على دين خليلها، فلينظر أحدكم من يخالل.

فكلمة (وامرأته) مرآة له، فهذا المعنى الثاني، حمالة الحطب، كانت هذه أم جميل، سموها العوراء، وأم قبيح وليست أم جميل، هذا الاسم لا يليق بها، كانت عوراء، وسماها المفسرون أيضاً أم قبيح:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ)

أي تحمل هذه الأوزار والذنوب التي سوف تحرقها في النار.

المرأة في الحساب كالرجل :

إذا أحضر الإنسان إلى بيته وقود بنزين مثلاً، وابنه بالخطأ أشعله فانفجر، يكون هذا الإنسان قد جلب إلى بيته شيئاً أحرقه، والذي يأكل مال اليتيم، والذي يأكل الحرام، والذي يأكل الربا، أو الذي يوكله، الذي يغصب أموال الناس، والذي يغشهم في البيع والشراء، الذي يبخسهم بضاعتهم، إن باعوا أطروا، وإن اشتروا ذموا، مَن يفعل هذا فإنما:

(يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)

[سورة النساء: 10]

هناك معنى آخر من قوله تعالى:

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

أي المرأة في الحساب كالرجل.

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ*فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

[سورة آل عمران: 194-195]

للمرأة دور خطير :

المرأة في الحساب هي والرجل على حدّ سواء، إذا قال ربنا عز وجل: إن المسلمين، فالمقصود من هذه الكلمة المسلمون والمسلمات، لماذا قال في بعض آياته في القرآن الكريم:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 35]

هذا إشعار من الله على أن المرأة تحاسب كالرجل إن خيراً فخير وإن شراً فشر، المرأة لها دور خطير:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ)

(وامرأته) فهي التي دعمته وأعانته ورضيت بفعله.

كلمة (حمالة الحطب)

لها أربعة معان :

1 ـتحمل ذنوباً لا تستطيع حملها سوف تحرقها في نار جهنم :

أما حمالة الحطب فتعني مشاءة بالنميمة، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ))

[مسلم عن حذيفة]

((إياكم والنميمة ونقل الحديث))

[كنز العمال عن ابن سعد]

وإن النمام ليعمل في الساعة ما لا يعمله الساحر في شهر، إنّ الساحر لا يستطيع أن يفسد بين الناس كما يفعله النمام، ونار الحقد لا تخبو ولا يدخل الجنة نمام، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لذلك كلمة حمالة الحطب، أي توقع بين الناس عن طريق النميمة والكذب. أولاً: تحمل ذنوباً لا تستطيع حملها سوف تحرقها في نار جهنم.

2 ـتوقع بين الناس العداوة والبغضاء :

ثانياً: توقع بين الناس العداوة والبغضاء.

3 ـتؤذي النبي عليه الصلاة والسلام :

ثالثاً: كانت تضع في طريق النبي عليه الصلاة والسلام الشوك كي تؤذيه، وقال بعض المفسرين: وكان هذا الشوك يأتي تحت أقدامه ألين من الحرير، وهي تريد أن تؤذيه، ولكن الله يحميه.

من هي هذه أم جميل؟ بل أم قبيح؟ قال: هي أخت أبي سفيان، وعمة سيدنا معاوية، فهي من نسل وجهاء قريش، ومن النساء الشريفات في قريش، لكن لا تغني عنها عراقتها ولا أصالتها ولا نسبها، اسمها أروى بنت حرب.

بنو إسرائيل أصابهم قحط، فدعا موسى ربه فقال: يا رب عبيدك، فقال الله عز وجل: إن فيكم عاصياً نماماً، فالمطر لم تهطل، والسماء لم تمطر وفجأة هطلت المطر، فقال: يا رب كيف حدث هذا؟ ـ والخبر بما معناه ـ فقال: لقد تاب، قال: ومن هو، قال عجبت لك يا موسى أأستره عاصياً وأفضحه طائعاً، أي إذا تاب انتهى الأمر، فباب التوبة مفتوح قال عليه الصلاة والسلام: " لا يدخل الجنة سافك دم، ولا مشاء بنميمة ولا تاجر يربي ماله بالربى، فقيل كيف جمع الله عز وجل بين المشاء بالنميمة وبين الربا وبين القتل، فقيل: وهل القتل، أو الربا إلا بسبب النميمة والكلام الفظيع،

إذاً حمالة الحطب، كناية عن أنها تمشي بالنميمة وتوقع بين الناس، أو أنها ترتكب الذنوب التي سوف تحرقها أو أنها وهذا هو المعنى الثالث تؤذي النبي عليه الصلاة والسلام.

4 ـ كانت بخيلة تلم الحطب وتجمعه مع أنها غنية :

والمعنى الرابع أنها كانت بخيلة تلم الحطب وتجمعه مع أنها غنية، أربعة معان لكلمة حمالة الحطب، وكانت تزين صدرها بعقد جميل جداً، مأخوذ من الودع فالله سبحانه وتعالى قال:

(فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ)

أيْ وفي جهنم سوف يكون مكان هذا العقد الجميل حبل من مسد. حين يريد الإنسان أنْ يزين نفسه فلا يزين جسمه بل ليزيِّن قلبه، لأنه إذا زين جسمه فهذا الجسم آخرته إلى الدود، وإلى التراب، فلو أنّ الإنسان نظر إلى ميت حديثاً لرآه منفوخاً، أحيانا يزيلون الدود عن الميت بسماكة خمسة سنتمترات، فمهما اعتنيت بجسمك وتعطرت واغتسلت، وهذا شيء مطلوب للنظافة، لكن إذا كان عملُ الإنسان سيِّئاً واعتنى بجسمه فكل هذه الزينة سوف تنتهي إلى النار، فهذا العقد الثمين الذي كان يزين صدرها أصبح في الآخرة في النار:

(فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ)

يقودها إلى النار، وبعضهم فسر هذا الحبل بأنه أعمالها تسوقها إلى النار. وبعد، فبئس الرجل أبو لهب، وبئست امرأته أم قبيح حمالة الحطب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإخلاص 112-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 4 صفات الألوهية وأسماء الله الحسنى .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-08-16

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن أنزل أثلاثاً

وقد جمعت سورة الإخلاص أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات :

أيها الأخوة الكرام، سورة اليوم هي سورة الإخلاص، ووالله ما تهيَّبْتُ شرح سورة تهيُّبي لشرح هذه السورة، كيف لا وهي تعدل ثلث القرآن، كيف لا وهي تتحدَّث عن الله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

لهذه السورة أسماء عديدة؛ سورة الإخلاص، سورة التوحيد، سورة التَّجريد، سورة التفريد، سورة الجمال، هذه كلها أسماء لهذه السورة العظيمة، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في سنة الفجر سورة الكافرون وسورة الإخلاص، و قد قيل: إن القرآن أُنزل أثلاثاً، ثلاثة أنواع، أو ثلاثة أقسام، ثلثٌ منه أحكام، وثلث منه وعدٌ ووعيد، وثلث منه أسماء وصفات لله عز وجل، وقد جمعت سورة الإخلاص أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ.))

[رواه البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

طائِفَةٌ من الأحاديث الشريفة التي تُبَيِّنُ عظمَةَ هذه السورة :

((أَنَّ رَجُلاً سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ))

[البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

((كَانَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ فَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ لَهُمْ فِي الصَّلَاةِ فَقَرَأَ بِهَا افْتَتَحَ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا ثُمَّ يَقْرَأُ بِسُورَةٍ أُخْرَى مَعَهَا وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا: إِنَّكَ تَقْرَأُ بِهَذِهِ السُّورَةِ ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِسُورَةٍ أُخْرَى فَإِمَّا أَنْ

تَقْرَأَ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِسُورَةٍ أُخْرَى، قَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِهَا فَعَلْتُ وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ وَكَانُوا يَرَوْنَهُ أَفْضَلَهُمْ وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ فَلَمَّا أَتَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: يَا فُلَانُ مَا يَمْنَعُكَ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا يَحْمِلُكَ أَنْ تَقْرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ حُبَّهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ. قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ ثَابِتٍ وَرَوَى مُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَقَالَ: إِنَّ حُبَّكَ إِيَّاهَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَجَاةُ هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: يَا عُقْبَةُ احْرُسْ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ قَالَ: ثُمَّ لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَابْتَدَأَنِي فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: يَا عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ ثَلَاثِ سُوَرٍ أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقَانِ الْعَظِيمِ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ: فَأَقْرَأَنِي قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ثُمَّ قَالَ: يَا عُقْبَةُ لَا تَنْسَاهُنَّ وَلَا تَبِيتَ لَيْلَةً حَتَّى تَقْرَأَهُنَّ قَالَ: فَمَا نَسِيتُهُنَّ مِنْ مُنْذُ قَالَ لَا تَنْسَاهُنَّ وَمَا بِتُّ لَيْلَةً قَطُّ حَتَّى أَقْرَأَهُنَّ قَالَ عُقْبَةُ: ثُمَّ لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ فَقَالَ: يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ))

[أحمد عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ]

هذه طائِفَةٌ من الأحاديث الشريفة التي تُبَيِّنُ عظمَةَ هذه السورة، وكيف أنَّها تعْدِلُ ثُلُثَ القرآن.

سورة قُلْ هو الله أحد الله سورةٌ تَصِفُ الله سبحانه وتعالى وتَصِفُ أحدِيَّتَهُ وصَمَدِيَّتَهُ:

بَقِيَ السؤال: ما وَجْهُ هذه العَظَمَة أو أين تَكْمُنُ هذه العَظَمَة؟ أقول وبالله المُستعان: إنَّ سورة قُلْ هو الله أحد الله سورةٌ تَصِفُ الله سبحانه وتعالى، وتَصِفُ أحدِيَّتَهُ وصَمَدِيَّتَهُ وأنَّهُ لا مثيل له، ولِهذا الكلام تفْصيلات، ربنا عز وجل يقول للنبي عليه الصلاة والسلام:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

جواباً لسؤال بعض الكفار الذين سألوا النبي عليه الصلاة والسلام قائِلين له: يا محمَّد، صِفْ لنا ربَّك؟! أمِنْ ذهب؟ أم من نحاس؟ فَنَزَلَ قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ)

لهذه:

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

وجاءَهُ جماعَةٌ أُخْرى وقالوا له: يا محمَّد أنْسُب لنا ربَّك؟ فَنَزَل قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ)

وبعض المفَسِّرين على أنَّ هذه السورة نَزَلَتْ عدَّة مرات، حينما اتَّحَدَتْ المناسبة نزلَتْ عِدَّة مرات، بعضُهم يقول: إنَّها مَكِّيَّة، وبعْضُهم يقول: إنَّها مَدَنِيَّة.

كَلِمَةُ (هو) إذا عادَتْ على ما بعْدها فَهيَ ضميرُ الشأن :

قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ)

(هو) يُسَمِّيها علماء النَّحْو والبلاغة ضَمير الشأن، لأنَّ الضمائِر كُلَّها تعود على ما قبلها، تقول: جاء زيْد، وأكل طعامَهُ، فالهاء ضمير يعود على زَيْد، وأيُّ الضمائر على الإطْلاق المُسْتَتِرة والمتَّصِلة والمنفصِلة حيثما ذُكِرَتْ تعود على ما قبلها، إلا ضميراً واحِداً في اللغة، هو هذا الضمير: قلْ هو، ضميرُ الشأن يعود على ما بعْدَهُ، فقال بعض العلماء: ضمير الشأن هو الخبر الحقُّ الصادِق، وهو يعود على الذي لا يغيبُ عن الأنْظار أبداً، ويعود على الشيء الذي لا يخْفى على أحَدٍ، وهو يعود على الله سبحانه وتعالى، قُلْ هُوَ - مثلاً - نبأٌ عظيم، قال بعضُ الشعراء:

لِكُلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصانُ فلا يُغَرَّ بطِيبِ العَيْشِ إنْسانُ

هي الأمور كما شاهَدْتها دُوَلٌ من سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أزْمانُ

وهذه الدارُ لا تُبْقي على أحَدٍ ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

* * *

كَلِمَةُ (هو) إذا عادَتْ على ما بعْدها فَهيَ ضميرُ الشأن، الشيءُ العظيم والذي لا يستَطيعُ أنْ يُنْكِرَهُ أحدٌ، والذي لا يخْفى على أحدٍ دون أنْ تعود على شيءٍ قبلها، فَهُوَ ضميرُ الشأن، أيْ يعود على شيءٍ عظيم لا يخْفى على أحدٍ، قل هو نبأٌ عظيم، قل هو الله أحد.

هي الأمور كما شاهَدْتها دُوَلٌ من سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أزْمانُ

* * *

وكلمة (قُلْ) أيْ أمْرٌ إلهي للنبي عليه الصلاة والسلام أنْ يُبَلِّغَ من حَوْلَهُ ممن يدْعوهم إلى عبادة الله، أنْ يبلِّغهم هذا النص بِحَرْفِيَّتِه، لأنَّ الحديث القدسي:

((إنَّ روح القُدُس نفث في رَوْعي أن لن تموت نفْس حتى تسْتكمل رزقها))

[رواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي أمامة]

روحُ القُدُس نفَثَ في رُوع النبي عليه الصلاة والسلام، فَنَطَقَ بما نفَثَ به روح القُدُس فكان الحديث القُدْسي، لكنَّ القرآن الكريم بِكَلِماته وحُروفِهِ وترْتيب سُوَرِهِ وحَرَكاتِهِ وسَكَناتِه وتفْصيلاته وجُزْئِياته من الله سبحانه وتعالى نصاً ومعْنىً، يُؤَكِّد هذا المعنى سورة:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

فضل أسماء الله الحسنى :

أما كلمة (الله) فقال العلماء: هذا اسم عَلَمٍ على واجب الوُجود، وواجب الوُجود هو الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى له أسْماءُ أفعال، وله أسماءُ ذات، وبعضهم يقولون: له صِفات، والحقيقة الصِّفَةُ تُكْتَسَب، مثلاً: فُلانٌ كريم، وكَرَمُ فُلان مُكْتَسَبٌ من الله عز وجل، فَهُوَ في الإنسان صِفَة، ولكنَّ كَرَم الله عز وجل ذاتِيٌّ في ذاته عز وجل، فهو اسم من أسْماء الله الحُسْنى، لذلك قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأعراف: 180]

وتقول: فُلانٌ غَنِيّ، فَهَذِهِ صِفَة، فإذا قُلْتَ: الغَنِيّ وعَرَّفْتها وأطْلَقْتَها فَهِيَ اسم من أسماء الله، الغَنِيّ والقدير والسميع البصير والحق والعدْل والحكيم وقد جاء في بعض الأحاديث الشريفة:

((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مئة إِلَّا وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مئة غَيْرَ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيظُ الْمُقِيتُ الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

معرفة كل اسم من أسْمَاء الله الحسنى معرفة وافية طريق دخول الجنَّة :

إياكم أنْ تفهموا أنَّهُ من قرأها أو من حفِظَها أو من عَدَّها ورَتَّبَها دخل الجنَّة، بل من عَرَفَ كُلَّ طرَفٍ منها وهنا مَوْطِنُ الشاهد، ماذا تعرف عن اسم اللطيف؟ وماذا تعرف عن اسم الرحيم؟ وماذا تعرف عن اسم القويّ؟ وماذا تعرف عن اسم الغنيّ؟ وماذا تعرف عن اسم الحكيم؟ لو سألنا أحداً من الناس: ماذا تعرف عن اسم الحكيم؟ قال: أيْ الحكيم حكيم، فربنا حكيم! معنى ذلك أنَّهُ لا يعرف شيئاً! فَلو ذكر لنا آيةً تُؤَكِّدُ حِكْمَتَهُ، وآية ثانية، وثالثة، ورابعة، ومضى من الوقت ساعة وساعتان وثلاثُ ساعات وهو يحدِّثُك عن الحكيم فهذا قد عرف طرَفاً من اسم الحكيم، يجب أن تَعْرِف كل اسم من أسْمَائِهِ الحسنى معرفة وافية حتى تَسْتَحِقَّ دخول الجنَّة.

((إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مئة إلَّا وَاحِداً مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة))

[البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

لذلك الله عز وجل قال:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة : 31]

قِيل في تفسير هذه الآية: الأسماء كلها هي أسماء الله سبحانه وتعالى، لأنَّه عَرَفَها، وتعلَّمَهَا، وأقْبَل عليها، وهفَتْ نفْسُه إليها، قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى)

[سورة طه: 116]

لأنَّه أعلى منْكُم، لقد تعرَّف إلى أسماء الله الحسنى، وهذا واجبٌ علينا أن نتَعَرَّف إلى أسمائه الحسنى.

آيات كونية دالة على لطف الله تعالى وجماله :

اسم (اللَّطِيفِ) مثَلاً هل عنْدَكَ دليل على لُطْفِ الله سبحانه وتعالى؟ قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل: 88]

أي هذه الجبال الشَامِخَة الرَّاسخَة التي تَظُنُّها لِرُسُوخِها ولِضخَامَتِها وشمُوخِها سَاكِنة إنَّما هي متَحَرِكة تَمُرُّ مَرَّ السَحَاب، والسَحَاب يَمُرُّ بلا صَوْت، هذا من لُطْفِ الله عز وجل، بخلاف مُحَرِّك صغير ليَولِد الطاقة الكهربائية فإنه يُزْعِج المَّارة، والمُشْتَرين، والبائِعِين، أو طائرة تَحْمِل ثَلاثمئة رَاكِبْ تَملأ الدُنْيا صَخَباً وضجِيجاً، فمن أسماء الله اللَّطِيف، بينما هذه الجبال، وهذه الأرض تَمُرُّ مَرَّ السَحَاب ثَلاثِين كيلو

متراً في الثَّانية الواحِدة، ففي الدقيقة ثَلاثون كيلو متراً ضرب سِتِّين، الحاصل ألف وثَمَانُمئة كيلو متر في الدقيقة، ففي الساعة ضرب سِتِّينْ، أرقام مُذْهِلة! ودون أن تسمع أدنى صوت، هذا من اسم اللَّطيفْ، والطفْل الصغير حينَما يُغَيِّر أسْنَانَه يَدُ الله اللطيفة تعمل، فهذه السِّنّ تَذُوبُ جُذُورها شَيْئاً فشَيْئاً حتّى تُصبْح السِّنُ مُتَحَركةً، ثم تخْتَلِط معَ لُقْمَة الطعام من دُون مُخَدِر، ومن دُون أَلمٍ شَديد، هذا اسم الله اللَّطيفْ، والهواء يؤَكِد اسم الله اللَّطِيفْ، والماء كذلك لا لونَ له ولا طعْمَ ولا رائِحَة، اسم الله الجميل، إنّ الله جَمِيل، خلَق الجَمال، والأزْهار، والأطْيَار، والأسْماك، والأشْجار، أشْجار الزينَة، الألوَان، زُرْقَة البَحر، زُرْقَة السَماء، وكلها جمال ساحر أخّاذ تؤكد اسم الله الجميل. من أسماء الله القَويْ، هذا له أرضْ التي نحن عليها ما وَزْنُها؟ خَمْسَة آلاف مِلْيار مِليار طُنْ، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[سورة الزمر: 67]

فلو اجْتَمَعُ سُكَّانُ الأرض كُلِهِمْ على زَحْزَحَة جبل قاسيون هل يَسْتَطيعون؟ قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل: 88]

آيات أخرى كونية دالة على اسم الواسع واسم الغنيّ والقويّ :

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[سورة الزمر: 67]

لذلك ماذا تَعْرف عن اسم القَوِيْ؟ هذه الأرض بضَخامتِها وبجِبالها وصحاريها وسُهولِها وبحارها، الماء مثلاً لا يَنْضَغِط، فَلَو وضعت الماء في مُكَعَّب، وفوق المُكَعَّب مِكْبس لا يسْمح بتَسَرُّب الماء، فَلَو وضَعْتَ على هذا المِكْبس مئة طن لم يَنْضَغِط الماء ولو مِلِيمِتْراً واحداً! قالوا: هناك منطقة في الكَوْن وفي الفضاء اسْمُها الثقوب السَّوْداء، لو دَخَلَتْها الأرض لأصبَحَتْ بحجم البيْضة لأنها تنضغط، وزْنُها كَوَزْن الأرض، خمْسَة آلاف مليار مليار طنّ، والمليار تِسْعَة أصْفار، ستة أصْفار المليون، والمليار ألف مليون، ومليار مليار تسعة وتسعة، وخمسة آلاف فيها ثلاثة أصفار، أي واحدٌ وعشرون صفراً أمامها خمسة، هذه الأرض بضَخَامتِها إذا دخَلَتْ إلى المناطق السوْداء في الكون تُصبح كالبيضة بالضبْط في

حجْمها، ويبقى لها وزْن الأرض، ما هذه القِوى الهائِلة التي تضْغط الأرض، مع أنَّ الماء وحْدَهُ لا يسْتطيع البشر جميعهم أنْ يضْغَطوه! هذا طرَفٌ عن اسم القَويْ.

وطرفٌ عن اسم الغَنِيّ، فهذا عطاؤُنا كثير كثير، وعلينا أنْ نُقَنِّنَ في الماء مهما كثُر وفاضت الأنهار، وهذا واجب ديني ووطَني، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يتوَضَّأ في بُسْتان فَفضَل من الإناء فضْلة فَرَدَّها في النَّهْر، وقال عليه الصلاة والسلام: " يَنْفَعُ بها الله قوْماً آخَرين"، فالتقْنين واجبٌ وطَني وديني، نَهْر الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعَّب في الثانِيَة، والمَجرَّة الواحدة فيها ألف مليون مليون كوْكَب أو نجْم، والعلماء بأحْدث رقم قَدَّروا أنَّ هناك مليون مليون مَجَرَّة! اسم الواسع واسم الغنيّ والقَويّ، فهذه البطيخة مثلاً كُلُّ بذْرة يُمْكن أنْ تكون نبات بطيخ، وفي كُلِّ نبات سبْع عشرة بطيخة تقْريباً، هذا عطاؤُنا، والبذور عالم قائِمٌ بذاتِه، فماذا تعرف عن اسم القويّ والغنيّ والحكيم والقدير والرحيم العَدْل الحَكَم؟

((إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، مئة إلَّا وَاحِداً، مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

الأسْماءُ الحُسْنى جُمِعَتْ في اسمٍ واحدٍ هو الله وهو عَلَمٌ على واجب الوُجود :

لا بد أنْ تشْهَدَ طرَفاً من رحْمَتَه حتى تعرف اسم الرحيم، ولا بدّ من أنْ تشْهَدَ طرَفاً من لطْفِهِ حتى تتيَقَّنَ من اسم اللَّطيف، هذه الأسْماءُ الحُسْنى جُمِعَتْ في اسمٍ واحدٍ هو الله، وهو عَلَمٌ على واجب الوُجود، والأسْماءُ كُلُّها أسْماءُ صِفات، لكِنَّ كلمة الله هي اسم الذات الأعْظم، لذلك: "قُلْ هو الله"، فَكَلِمَة الله جَمَعَتْ الأسْماء الحُسْنى كُلَّها، فماذا عَرَفْتَ عنها؟ وماذا عرفْتَ عن المانع؟ فَلو أنَّ هذه الأسْنان ظَلَّتْ تنْمو فماذا يحْدُث؟ ينْكسِرُ الفكّ، ولو أنَّ هذه العِظام ظَلَّتْ تنْمو ماذا يحْدُث؟ مرَضٌ خطير اسمُهُ العَمْلَقَة، أنْ يُصْبح الإنسان عِمْلاقاً، ولو أنَّ هرمونات النمو تَوَقَّفَتْ عن العمل، يُصبحُ الإنسانُ قزَماً، فهو سبحانه المانع القابض والباسط، مَن أمَدَّ هذه العِظام بالنُّمُو؟ الله سبحانه وتعالى، ومن أوْقَفَها عند هذا الحدّ؟ الله سبحانه وتعالى، فأسْماء الله سبحانه وتعالى لا بد أن تأخذ من حَيّز عقولنا وتفكيرنا اهْتِماماً كبيراً، ويجبُ أن نتعَرَّفَ إليها كُلَّ يوم، من أحْصاها دخل الجَنَّة، إذا أحْصَيْتَها سَعِدْتَ بها، وإذا أحْصَيْتها عَرَفْتَ الله سبحانه وتعالى،" قل هو الله أحد "، فكلمة (الله) تعني هذه الأسْماء كُلَّها، اسمُ الحكيم مثَلاً، ماذا تعرفُ عن حِكْمَتِهِ؟ جعل لك عَيْنَيْن، ولم يجْعَلْهُما واحدة، لو أنَّ هناك عَيْناً واحدة لَرَأيْتَ بُعْداً واحِداً، لَرَأيْتَ الأشْياءَ مَسَطَّحة، ولكنَّك بالعَيْنَيْن تراها بأبْعادٍ ثلاثة، ترى الطول والعرض والعُمْق، جعل العَيْنَيْن في مغارةٍ تقيهما التَّلف، في مَحْجَر العَيْن، جعل فوقهما حاجِبَيْن، وفوْقهما رُموشاً، وجعل لهما جَفْنَيْن، والجَفْنَان يمْسحان هذه الطَّبَقَة الشفافة، ويُعَقِّمانها من كُلِّ مادَّةٍ غريبة، ولئلا يلْتَهِبَ الجَفْنان جعل لهما

رُموشاً، وجَعَلك ترى الألوان الدقيقة، مئة وثلاثون مليون عُصَيَّة ومخْروط في شَبَكَة العَيْن، وهذه العَيْن جعل مُدَّة انْطِباع الصورة جزءاً من خمْسين من الثانِيَة، فأنت بها ترى الأشْياء مُتَّصِلة لا مُنْفَصِلة، ومن جعل هذه الأذن وعَتَبَةً للسَّمْع، ولو أنَّ هذه العَتَبَة انْخَفَضَتْ لما نِمْتَ الليل، صَوْتُ ارْتِطام الهواء على وَجْهك لا يجعلك تنام الليل، قال تعالى:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[سورة القمر: 49]

فهذه العَتَبَة لا تقِلُّ ولا تزيد، اسمُهُ الحكيم، من جعل الشعْر على رأسِك؟ ولم يجْعَل فيه أعْصاباً حِسِيَّة؟ الحكيم، لو أنَّ في الشَّعْر أعْصاباً حِسِيَّة لوَجَب أن تذهب للمستشفى لِتَحْلِقَ رأسك إذْ تحْتاج إلى تخدير، فالله اسمُهُ الحكيم، ومن جعل هذه العِظام وهذه المفاصِل، ولولا هذا المفْصل الذي في اليد كيف تأكل؟ ومن جعل هذه التجْعيدات في جِلْد الأصابع؟ لولاها لما أمْكَنَكَ أنْ تثْنِيَ أصابعَك، ومن جعل هذا الجلْد على عقد الأصابع مُخَطَّطاً؟ من أجل أن تُحْسِنَ مسْكَ الأشْياء، ومن جعل الشَّعْر ينْبُت في الأنف إذْ له وظيفة خطيرة ولا ينبت في الفم؟ اسمه الحكيم، ومن جعل طول اليَدَيْن بهذا الطول المُناسب؟ اسمه الحكيم، ومن جعلهما مُتساويتينْ؟ فالخياط يأخذ طول يَدٍ واحدة، اسمه الحكيم، ومن جعل لك الهضْم مُيَسّراً من دون أنْ تشْعُر؟ ومن جعل هذا الغذاء مُتناسباً في قِوامه ولونه وطعامه ومضْمونه وطَعْمه، فاسمُ الحكيم اسمٌ واسِع جداً، ولا بد لنا أنْ نُفَكِّر في هذا الاسم؛ اسْمُ الحكيم واسْم الجامع والمانع والباسط والقابض والرافع والخافض والمُعزّ والمُذِل.

إذا كان الله معك فمَن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمَن معك؟

* * *

التعمق في أسْماء الله الحُسْنى سبيل السعادة :

قال تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

[سورة الرعد: 11]

قد ترى رَجُلاً يبْكي وهو ملء السَّمْع والبصر، فَمَن أبْكاه؟ الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

[سورة النجم: 43]

قد تضيق الأمور وتضيقُ حتى تنْفجِرَ بالبُكاء، وأنت رجُلٌ ولك أوْلاد وزَوْجة، وقد تتيَسَّرُ الأمور حتى تضْحك، فَمَن أبْكاك؟ الله سبحانه وتعالى، ومن أضْحَكَكَ؟ الله سبحانه وتعالى، ومن أعْطاك؟ الله سبحانه

وتعالى، فلو تَعَمَّقْتَ في أسْماء الله الحُسْنى لَسَعِدْتَ بها، فيكْفي أن تقول: الله الرحيم، والله العَدْل، ولو عَرَفْتَ عدالته لذهلت، كان أحدهم يطوف حول الكعْبة ويقول: ربِّ اغفر لي، ولا أظنُّ أنَّك تغْفر لي، فقالوا: يا هذا ما أشَدَّ يأسَكَ من رحْمَة الله! فقال: ذَنْبي عظيم، فقالوا له: وما هو؟! فَحَدَّثَهُم عن ذنْب عظيمٍ جداً، دخل بيتَ رجل وقتله وولده وسلب ونَهَب، وأعْطَوْهُ فيما أعْطَوْهُ دِرْعاً ذَهَبِيَّةً عليها بَيتَين من الشِّعْر، فلما قرأهما وقع مغشيّاً عليه:

إذا جار الأمير وحاكِمــاهُ و قاضي الأرض أسْرف في القضاء

فَوَيْلٌ ثمَّ وَيْلٌ ثمَّ وَيْــلٌ لِقاضي الأرض من قاضي السمـاء

* * *

أسماء حسنى أخرى عن عظمة الله وعدالته :

هل تخاف الله سبحانه وتعالى؟ وهل تخاف عَدَالة الله سبحانه وتعالى؟ هل تخاف حكم السماء؟ وهل تخاف أن يقول لك أحدٌ: أشْكوك إلى الله؟ وهل تعرف ماذا تعني عدالة الله سبحانه وتعالى؟ قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

وهل تعرف عن اسمه: الجبار؟ والقهار؟ وماذا تعرف عن غِناه؟ كيف أخْشى الفقر، وأنا عبد الغَنِيّ، إذا أعْطى أدْهَش، وهو يُعْطي بِغَيْر حِساب، أنظر إلى السماوات والأرض وما فيها من كواكب ونجوم، جعلها زينةً للسماء والدنيا، نُجوم ومَجَرات من أجل أن تكون زينةً لك في الدنيا، اسمه الغنِيّ، لذلك الحديث يطول عن أسماء الله الحُسنى وحَبَّذا لو تَتَبَّع كُلُّ أخٍ كريم اسْماً من أسْماء الله الحسنى، وجاء على هذا الاسم بآيةٍ من الكون، على اسم اللطيف والودود والرحيم، هذه الأزْهار لِمَ خُلِقَت؟ لِتُأكل! لا والله، لِتُشاهَد وتُشمّ، فهذه مَوَدَّةٌ مِمَن؟ من الودود قال تعالى:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

[سورة البروج: 14]

أنواع الفواكه مصدرها من اسم الودود، أما القمْح فهو من اسم المُقيت، الله المُقيت، هناك غِذاءٌ أساسي تقْتاتُ به، وهناك غِذاء ثانوي تتفَكَّهُ به فهو من اسم الودود، إذْ يتَوَدَّدُ لك، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

معنى كلمة (أحد) :

من الآن فصاعِداً، كلما سمعتَ كلمة الله فإنَّما تعْني الأسْماء الحسنى كُلَّها، لأنَّ الأسْماء الحُسنى كُلَّها جُمِعَتْ في كلِمَة (الله)، اسمُ الله الأعْظم، يا الله يعني يا رحمن، يا رحيم، يا قوي، يا لطيف، يا حَكَم، يا قدير، يا مُقْتَدِر، يا مُعِزّ، ويا رافع، يا مُعْطٍ، "قل هو الله" أعرفْتُم الله تعالى؟ واللهِ لو مَضَتْ السِّنون ما عَرَفْنا طرَفاً من اسمٍ من أسْماء الله الحُسْنى! لكن أخْذُ القليل خيرٌ من تَرْك الكثير، لا يَحُدُّهُ حادٌّ ولا يُحيطُ به مخْلوق، نحن مخْلوقون ولكنَّ الله هو الخالق.

الآن كلمة (أحد) لا تعني واحداً، فالواحد شيءٌ، والأحدُ شيءٌ آخر، تقول: هناك قلَمُ واحِدٌ على هذه الطاولة، قد يكون هناك شيءٌ آخر، ونظارَةٌ واحِدة، أما أحد فَهيَ تعْني أنَّهُ واحِدٌ ولا شيء معه، ولا شيءَ سِواه، هذا قَوْلٌ، فَكَلِمَة أحد تعني أنَّه واحدٌ من جهة، ولا شيء معه من جِهَةٍ أُخْرى، وكلمة (أحد) تعني أنّه ليس كمثله شيء، أما كلمة (واحد) فهي تعْني أنَّهُ لا شريك له، فالله رحيم، وليس هناك مخْلوقٌ يرحم كالله عز وجل، هو وحده الرحيم والقويّ واللطيف، فلا قَوِيَّ معه ولا لطيف غيره، فَهُو أحَدٌ في أسْمائِه، هو رحيمٌ وليس معه رحيمٌ آخر، وَقَوِيٌّ وليس معه قَوِيٌّ آخر، وقديرٌ وليس معه قديرٌ آخر، كلمة (أحد) تعني واحِداً في أسْمائِه، أسْماؤُهُ حُسْنى، وهو أحَدِيٌّ في أسْمائِه، لو كان معه جِهاتٌ أُخْرى تسأله وتسأل غيره، ولكنَّهُ أحدٌ لا شيء قبله، ولا شيء بعده، ولا شيء مثله، ولا شيء مُقارب له، هذا معنى كلمة (أحد)، "قل هو الله أحد" لذلك لا يجوز أن يوصَفَ مخْلوقٌ في الأرض بِكَلِمَة أحد، كلمةُ (أحد) لا يُوصف بها إلا الله سبحانه وتعالى.

شيء آخر، وهي أنَّ كلمة أحد إذا تأمّلتها تيقَّنْتَ أنْ لا مَوْجود إلا الله، ولا فاعل في الكون إلا الله، هذه حقيقة يجب أن تُشاهِدَها فإن شاهَدْتَها سَعِدْتَ إلى الأبد، وإن لم تُشاهِدْها شَقيتَ إلى الأبد، فإذا قطعْتَ آمالك من غيرهِ وُجوداً وفِعْلاً، ماذا ينقطِعُ مع هذه الآمال؟ تنقطِعُ العلائِق والرغائِب، وتُخْلِصُ الوجْهة لله سبحانه وتعالى، وتكون بهذا ممن صَفَتْ نفْسُه، وممن رأى الله في كُلِّ شيء، وإذا رأيْتَهُ في كُلِّ شيء سَعِدْتَ بِقُرْبِهِ في كُلِّ شيء، وهذا هو الذي قاله الصُّوفِيون: لا بد من التوحيد، والفرق بين المؤمن وغيره أنَّ المؤمن لا يرى إلا الله، ولا موْجود سِواه، ولا أحد معه، هو الرب والإله والمُتَصَرِّف والمُعْطي والمُغْني والمُقيت والرزاق والمُعِزّ والمُذِلّ والحكيم والعليم، هو الحكيم ولا حكيم سِواه، وهو الرؤوف ولا رؤوف سِواه، وهو المُتعالي ولا مُتعالِيَ سِواه، هذا معنى الأحَد، فكلمة أحد تعني أنَّهُ أحَدٌ في أسْمائِه، وأسْماؤُهُ كُلُّها حُسْنى، فَـ (قُل هو الله أحد) تعْني أنَّهُ واحِدٌ في أسْمائِه.

الصَّمَد يعْني الذاتي :

ثمَّ قال تعالى:

(اللَّهُ الصَّمَدُ)

هذه الأسْماء ليسَتْ مأخوذة عن سِواه، ذاتِيٌ في أسْمائِهِ، أحَدِيٌّ في أسْمائِه، فهذه الأسماء الحسنى، التسْعة والتسْعون اسماً التي ذكَرْناها قبل قليل، الله سبحانه وتعالى واحِدٌ فيها، وَصَمَدٌ فيها، معنى أحَدٌ أيْ لا يُشْرِكُهُ فيها أحد، رحيمٌ ولا رحيمَ سِواه، أما الصَّمَد فَرَحْمتُهُ من ذاته وليْسَتْ من غيره، فإذا كان الإنسان صاحب منصب، وله سُلْطة وحَوْل وطَوْل ولكن بِكِتابٍ بسيطٍ يصدر عمَّن هو أعلى منه يعْزِلُهُ عن هذا المنصب! فهل هذا صَمَدٌ؟ لا، هو مُفْتَقِرٌ لِمَن هو فوْقَه كي يُقِرُّهُ على منصبِهِ، فهذا لا يُسَمى صَمَداً، لكنَّ الله تعالى وُجوده صَمَديّ، ليس مُفْتَقِراً لشيءٍ آخر، مثلاً الإنسان، هل هو صَمَدٌ؟ لا، هو مُفْتَقِرٌ للهواء، فَلو حُرِمَ الهواء لمات، ومُفْتَقِرٌ للماء فلو مُنِع عنه لمات، ولو مُنِعَ عنه الطعام يموت كذلك، فهل هو صَمَدٌ؟ لا، يفْتَقِرُ إلى زَوْجَة وإلى أوْلاد، فمعنى الصَّمَد يعْني الذاتي، وهناك معانٍ أُخْرى سَوْف أُحَدِّثُكم عنها بعد قليل، فالإنسان - كما قلتُ آنفاً - إذا عرف أحَدِيَّة الوُجود وعرف الفاعِلِيَّة تَحَرَّرَ من الرَّغْبة، والرغْبَة أصْل قُيودٍ كثيرة، الطَّمَعُ أذَلَّ رِقاب الرِّجال، وتَحَرَّر من الرَّهْبة وهي أصْل قُيودٍ كثيرة، فإذا تَحَرَّر من الرغبة والرَّهْبة صارَ حُراً وعَبْداً لله، كُنْ عبْد الله فعَبْدُ الله حُرٌّ، أما الكافر فهو عَبْدٌ لِشَهْوَتِهِ، وعَبْدٌ للدِّرْهم والدِّينار، وعَبْدٌ للخميصة، وعبْدٌ لِفَرْجِهِ وبطْنِهِ، أما عبد الله فَهُوَ مُتَحَرِّر مِن كُلِّ قَيْدٍ سببُهُ الخوف أو الطَّمَع، لأنَّك إذا رأيْتَهُ أحَداً في وُجودِه وفاعِلِيَّتِهِ قَطَعْتَ الآمال ممن سِواه.

إذا شَهِدْنا أحَدِيَّة الله واسْتَغْرَقْنا بها سَعِدْنا في الدنيا والآخرة :

مَعْنى (أحد) دقيقة جداً، كم هناك من قِوى تبْدو على السَّطْح وهي كُلُّها لا تعْني شيئاً، وليس إلا الله، هناك قُوَّتان عظيمتان تمْلِكان سِلاحاً نَوَوِياً، فَبِحَسَبِ الظاهر أنَّ مصير العالم بيَدِهِما، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدٌ)

هو القَويّ، قال تعالى:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة يونس: 24]

إنْ رأيْتَهُ أحَداً في أسْمائِهِ ورُبوبيَّتِه وصفاته وفي وُجوده وألوهِيَّتِه وفي تَصَرُّفِهِ وغِناه قَطَعْتَ الآمال عمن سِواه، وتَحَرَّرْتَ من القُيود التي أصْلُها الرغْبة والرَّهْبة، وهذه هي حال الكَشْف! شَهِدْتَ الله في كُلِّ شيء.

وفي كُلِّ شيء له آية تَدُلُّ على أنَّهُ واحِدٌ

* * *

فإذا شَهِدْتَ أحَدِيَّتَهُ واسْتَغْرَقْتَ بها سَعِدْتَ في الدنيا والآخرة، أيْ مفتاحُ السعادة كُلِّها أنْ تشْهَدَ أحَدِيَّتَهُ، وأنْ تشْهَدَهُ واحِداً لا مثيل له، ولا مُشابِهَ له، ولا شريك له، ولا مُقارب له، فإذا شَهِدْتَ هذه المُشاهَدَة ملكْتَ حالاً لا يعْرِفُها إلا من ذاقَها، هذه الحال هي الطمأنينة، إنَّ الله يُعْطي الصِحَّة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلْقِهِ، ولكِنَّهُ يُعْطي السكينة بِقَدَرٍ لأصْفِيائِه من المؤمنين، السكينة التي في قلب المؤمن طمأنينة لو وُزِّعَت على أهْل الأرض لَكَفَتْهُم، فلا يرى إلا الله عز وجل، ولا يخاف إلا من الله، ولا يرْجو إلا الله، ولا يرْغب إلا فيمَا عند الله.

شَرَفُ المؤمن قِيامُهُ بالليل وعِزُّهُ اسْتِغناؤُهُ عن الناس :

جاء ملِك إلى الكعبة المشرَّفة يطوف، فَطَلَب أحد علمائِها الكبار، فلما الْتَقى به قال: سَلْني كُلَّ حاجة، فقال: والله إنِّي أسْتَحي أنْ أسْألها غير الله وأنا في بَيْتِ الله، لكني أقول: اِحْمِني من النار، فقال له الملك: هذه لا امْلِكُها، فقال له: إذاً ليس لي عندك حاجة، سيّدنا أبو حنيفة دخل على المنصور، فقال له المنصور: يا أبا حنيفة تَغَشَّانا، أيْ زورنا، فنأنسَ بك ونتبارك بك، أنت الإمام الأعظم، قال: ولِمَ أتَغَشَّاكم وليس لي عندكم شيء أخافُكم عليه؟! وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء، معنى أحد ألاّ ترى إلا الله، وبه تصيرُ عزيزاً، فإن رأيْتَ مع الله أحداً فلا بدَّ أن تخاف منه، ولا بدّ أن ترْجوه وتُنافق له، أما إنْ رأيْتَ الله عز وجل وليس معه أحد كنت عزيزاً، وعلامة المؤمن عِزَّتُه، وشَرَفُ المؤمن قِيامُهُ بالليل، وعِزُّهُ اسْتِغناؤُهُ عن الناس، أحْياناً الإنسان يُعَلِّق آماله بزَوْجَتِهِ فإذا به يخيبُ ظنُّه، ويُعَلِّق آماله بابنه فإذا به يسافر ويتزوَّج ويتجنَّس ويبْقى بأوروبا! فهذا ما رأى الأحَدِيَّة، إنما رأى ابنه هو المُعِين، إذا رأيْتَ الله سبحانه وتعالى أحداً ولا شيء معه فهذه رؤْية عميقة، وبهذه العَيْن ترى معه آلاف الشُّركاء، فلان وفلان، لكنَّك إذا رأيْتَ الله وحْدَهُ تَحَرَّرْتَ من كُلِّ قَيْد، قَيْد الذُلَّ والخوف والطَّمَع والمُداهَنَة، وإذا رأيت أحَدِيَّتَهُ وحْده فلن تُطِيع معه جِهَةً أُخْرى، لا طاعة لِمَخْلوقٍ في مَعْصِيَة الخالق، وإذا عَرَفْتَ أحَدِيَّتَهُ اتَّجَهْت إليه وحْدَهُ، إقْبالكَ عليه لا على جِهَةٍ أُخْرى، وَمَوَدَّتُك إليه لا إلى سِواهُ، ورَغْبَتُك إليه لا إلى سِواه واتَّجَهْتَ إليه وحْده، كما أنَّك إنْ وَحَّدْتَهُ تلَقَّيْتَ عنه الشَّرْع والقِيَم والتَّصَوُّرات والأُسُس، إذْ لا مصْدر

آخر لك، أما المُشركون فيرون العالم الفُلاني والكتاب الفُلاني والمؤلَّف الفُلاني، أنت لك مصدر واحد للحقائق هو القرآن الكريم والسنَّة المُطهَّرة، الحلال ما أحلَّهُ الله، والحرام ما حرَّمَهُ الله، فإذا عرفت أحَدِيَّتَهُ تلقَّيْتَ عنه القِيَم، والشرائِع، والنُّظم، والمقاييس، تقيس الناس بمِقْياس الأخْلاق، ومِقْياس العِلْم، أما إذا تَلَقَّيْت المقاييس عن بني البشر تقيسُهم بالمال والقوَّة، فأنت إذا عرفت أحَدِيَّته تَلَقَّيْت عنه كُلَّ شيء، وقبلْتَ شَرْعه، ووسِعَتْك السنَّة، ولم تستَهْوِكَ البِدْعة، وإذا عرفْتَ أحَدِيَّتَهُ تَحَرَّكْت في الحياة لِتَتَقَرَّب منه فقط، وعبدْتَهُ وحْدَهُ، واتَّجَهْتَ إليه وحْده، وتلَقَّيْت عنه الشرائع والمقاييس والنظم، وما يجوز وما لا يجوز، وتَحَرَّكْتَ لِتَعْمَلَ تقرُّباً منه فحسب لا لِسِواه، وأحْسَنْتَ إلى الخلْق تعْبيراً عن حُبِّك له فهذه هي نتائِج الأحَدِيَّة، ونتائِج قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

في نفْس المؤمن عِزَّة لا يعْلَمُها إلا الله وهذه العِزَّة أتَتْهُ من التوحيد :

ليس معه شريك ولا نظير، وبالمعنى الدقيق للرحمة لا رحيم سِواه، سيِّدنا يعقوب ماذا قال؟ قال تعالى:

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف: 86]

فإذا جلس الإنسان إلى غَنِيٍّ يشْكوهُ ألَمَهُ وضيق ذات يدِهِ، فإنه ورد:

((من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله، ومن تضعضع لغني لينال من دنياه أحبط الله ثلثي عمله، ومن أعطي القرآن فدخل النار فأبعده الله))

[أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس]

لو رأيْتَ أحَدِيَّتَهُ لم تُذِلَّ نفْسَكَ لِسِواه، إلى الله أشْكو بثِّي وحُزْني.

ويُعابُ من يشْكو الرحيم إلى الذي لا يــرْحمُ

* * *

فالعِبْرة أنْ ترى أحَدِيَّتَهُ ولا سِواه، أما بالنظْرة القاصِرة فَهُناك آلاف مُؤلَّفة من الشركاء، عندها كُلُّ إنسانٍ إنْ تكلَّم معك كلمتين خفتَ منه، أمَّا إذا رأيْتَ أحَدِيَّتَهُ اِعْتَزَزْتَ بعَظيم، في نفْس المؤمن عِزَّة لا يعْلَمُها إلا الله، وهذه العِزَّة أتَتْهُ من التوحيد، وما تعلَّمَت العبيد أفضل من التوحيد، لذلك الإخلاص ليس أن تذهب إلى صَوْمَعَةٍ وتعبد الله هناك، هذا لا يريدهُ الله سبحانه وتعالى، هذا اسمه اِنْعِزال وانْسِحاب وهُروب من الحياة، أما إذا خُضْت غِمار الحياة، وكنت خليفة الله في الأرض، وطبَّقْتَ شرْع الله،

وامْتَثَلْتَ أمْرَهُ، وانْتَهَيْتَ عما نهى، وسِرْتَ بنُوره، وأقَمْتَ ميزانه، فقد حقَّقْتَ إنْسانِيَّتَك في الأرض، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 30]

يُقيمُ الحق، ويعْدِل بين الخلق، يرْحم الضعيف ويُوَقِّرُ الكبير، هذا هو الإنسان الذي استخلفه الله سبحانه.

من لم يتَّصِف بالكمال والأحَدِيَّة والصَّمَدِيَّة لا يكون إلهاً :

قال بعضُهم في قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ)

ما معنى الصَّمَد؟ قال: إنَّهُ المُسْتَغْني عن كُلِّ أحد، والمُحْتاجُ إليه كُلُّ أحد، والصَّمَد المقْصود في الرغائِب، والمُسْتعان عند المصائِب، وهو يفْعل ما يشاء ويحْكم ما يريد، وهو الكامل الذي لا عَيْب فيه، وهو الذي لا أحد فوقهُ.

فالله سبحانه وتعالى أحَدِيٌّ في أسْمائِهِ، صَمَدِيٌّ فيها، فلا أحَدَ يُشارِكُهُ فيها، وأسْماؤُه نابعَةٌ من ذاته، وليْسَت من جِهَةٍ أُخْرى، هذا هو معنى قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ)

تسعَةٌ وتِسْعون اسماً، واحِدٌ فيها صمَدِيٌّ فيها، بعضهم قال: من لم يتَّصِف بالكمال والأحَدِيَّة والصَّمَدِيَّة لا يكون إلهاً، فالأصْنامُ التي عبدها الجاهِلِيُّون من دون الله، أو الأصْنامُ البَشَرِيَّة التي يعْبُدها الناس من دون الله، هذه الأصْنام ليْسَتْ كاملة، وليْسَت أحَدِيَّة، وليْسَتْ صَمَدِيَّة، فلا يجوز أنْ تُتَّخَذَ آلهة! لكن الله سبحانه وتعالى هو الإله، لأنَّهُ كاملٌ في أسْمائِهِ، وَحْدانِيٌّ فيها، وصَمَدِيّ، فأحَدِيَّتُهُ الموجِبَة للتنزُّه عن شائِبة التَّعَدُّد والتركيب، فالسيارة مثلاً مؤلَّفة من أجْزاء، فما دامت مكوّنة من أجْزاء فهي ليْسَت صَمَدِيَّة، فإذا حَذَفْتَ المُحَرِّك وقفت، أو نفد البنْزين وقفت! لأنَّها مُرَكَّبَة، فلا يجوز على الصَّمد ترْكيب ولا تجْزيء، والصمدِيَّة اسْتِغْناؤُه الذاتِيّ عمَّن سِواه وافْتِقار جميعُ المخْلوقات إليه في وُجودِها وافْتِقارِها له في سائِر أحْوالِها.

عِلَّةُ الولادة لا تجوز على الله سبحانه وتعالى :

بَقِيَ قوله تعالى:

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

إنّ الله سبحانه وتعالى قديم ولا شيءَ قبلهُ، فلو أنَّهُ وُلِد لكان هناك شيءٌ قبله، ولكنه لم يَلِد ولم يُولَد، فالإنسانُ يلِدُ غُلاماً ليُعينَهُ إذا كبر، وليَكُون استِمراراً بعد موتِه، أمّا الله تعالى فهو حَيٌّ باقٍ على الدوام، فَعِلَّةُ الولادة لا تجوز على الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

لا شيء قبله ولا شيء بعده، وقوله تعالى:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

(كُفُواً) أي الزَّوْجة، فلا جِهة تُماثِلُه، ولا جِهة أكبر منه كان منها، ولا جهة أصغر منه هو قبْلها، طبْعاً هذا تفْسيرٌ للصَّمَد، ربنا عز وجل قال:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: 91]

وقال تعالى:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ)

[سورة الأنبياء: 26]

وقال تعالى:

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الأنعام: 101]

أيُّ تفْسير للقرآن يجْعل أسْماء الله ليْسَت حُسْنى تفسير مرْفوض :

وفي صحيح:

((لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ))

[مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى]

فمعنى لم يلِد أي لا شيء بعده، ولم يولد أيْ لا شيء قبله، وقوله تعالى:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

أيْ لا شيء كان قبله، ولا شيء سَيَكون بعده، ولا شيء سَيَكون مُمَاثِلاً له، بأيِّ نوع من أنواع المُماثَلة، فهذه سورة الإخْلاص، وهي سورة التجْريد، وسورة التوحيد، من قرأها وعرف أبْعادها، وعرف كلمة (الله) الاسم الجامع للأسْماء الحُسْنى، وعرف طرَفاً من أسْماء الله الحُسْنى، وفَكَّر فيها، وبحث عن شواهِد لها في الكون، فمن أحْصاها دخل الجنة، ومن عرف ذلك اسْتَحَقّ دُخول الجنَّة، وعرف أنَّ هذه الأسْماء كُلُّها حُسْنى، فأيُّ تفْسير للقرآن يجْعل هذه الأسْماء ليْسَت حُسْنى فَهُوَ مرْفوض، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأعراف: 180]

الله سبحانه أحد في أسْمائِهِ وصَمَديٌّ في أسْمائِه ولا شيء قبله ولا شيء بعده :

((عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: مَرِضَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يَعُودُونَهُ فَبَكَى فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُذْ مِنْ شَارِبِكَ ثُمَّ أَقِرَّهُ حَتَّى تَلْقَانِي؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَبَضَ قَبْضَةً بِيَمِينِهِ وَقَالَ هَذِهِ لِهَذِهِ وَلَا أُبَالِي وَقَبَضَ قَبْضَةً أُخْرَى بِيَدِهِ الْأُخْرَى جَلَّ وَعَلَا فَقَالَ هَذِهِ لِهَذِهِ وَلَا أُبَالِي فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ))

[أحمد عَنْ أَبِي نَضْرَةَ]

هذا الحديث تفْسيرُهُ الظاهِريّ لا يليق بحَضْرة الله تعالى، إنما له تفْسيرٌ آخر، فظاهِره يشير إلى أنه قبل أنْ يُخْلق الكافرُ خلقهُ شَقِياً، وقَدَّر عليه المَعْصِيَة، فلما عصى حاسَبَهُ وأدْخَلَهُ جهَنَّم خالِداً فيها! وهذا لا يليق بالله تعالى، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأعراف: 180]

هذا التفسير لا يليق بالله عز وجل، لكن الله علِم بعلمه الأزليّ أن هؤلاء صالحون، وهؤلاء سيكونون كفاراً وللنار.

إذاً يجب أنْ تعرف أنَّ أسماء الله تعالى حُسْنى، وأنَّه أحد في أسْمائِهِ، وأنَّهُ صَمَديٌّ في أسْمائِه، وأنَّهُ لا شيء قبله ولا شيء بعده، فإذا أيْقَنْتَ بهذا انْقَطَع رجاؤُك عمن سِواه، واتَّجَهْتَ إليه، وعَبَدْتَهُ وحْدَهُ، وأخْلَصْتَ له وحْده، فَسَعِدْتَ بِقُرْبِهِ، وقد خُلِقْتَ لِيُسْعِدك، وهو الهدف من خلْقِك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفلق 113-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 4 الشر والسحر والحسد .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-08-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث شريفة وردت عن فضل هذه السورة والسورة التي تليها :

أيها الأخوة الأكارم، سورة اليوم هي سورةُ الفلق، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُنْزِلَ أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ))

[البخاري عن عقبة بن عامر]

((أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ))

[مسلم عن عقبة بن عامر]

((اقْرَأْ يَا جَابِرُ، قُلْتُ: وَمَاذَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ اقْرَأْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ فَقَرَأْتُهُمَا فَقَالَ اقْرَأْ بِهِمَا وَلَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا))

[النسائي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

أحاديث كثيرة وردت عن النبي عليه الصلاة والسلام تتحدَّث عن فضل هذه السورة والسورة التي تليها، أمَّا كلمة:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

فالفعل (قُلْ) تحدَّثنا عها في الدَّرس الماضي على أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمورٌ أن يقول نصَّ هذه الآية، وأن القرآن الكريم من عند الله حرفاً بحرف، وحركة بحركة، ونصّاً بنصٍّ، وترْتيباً بِتَرْتيب، وكُلُّ شيء في القرآن الكريم إنما هو مُنْزل من عند الله بِنَصِّه.

كلمة (الْفَلَقِ) ذهب العلماء في تفسيرها مذاهب شتى :

قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

في هذه الآية مركز ثِقَل، وهي كلمة (الفَلَق)، فقد ذهب العلماء في تفْسيرها مذاهب شتى، ولكنَّ أرجح هذه التأويلات والتفسيرات أنَّ (الفَلَق) هو الكون كُلُّه، كان الله ولم يكن معه شيء فخلق الكَوْن، أي ظهر الكون، فالكون هو الفلق، والسماء تنشَقُّ عن المطر، والمطر هو الفلق، والأرض تنشَقُّ عن النبات، والنبات هو الفلق، والمرأةُ تلِدُ طِفْلاً، والطفل هو الفلق، والشجرة تُنْبِتُ بُرْعُماً، والبُرْعم هو الفلق، والبُرْعم يُنْبِـتُ زَهْرَةً، والزهرة هي الفلق، والزهرة تنْعَقِدُ ثَمَرَةً والثمرة هي الفلق، وأُنثى الحيوان تلِدُ ومَوْلودها فلق، كُلُّ شيءٍ خرج إلى حَيِّز الوُجود، كان غائباً عنا فَظَهَر، اِنْشَقَّ فَظَهَر هو الفلق، لكنَّ بعض المُفَسِّرين قالوا: سورة الفلق اِسْتِعاذة بالله سبحانه وتعالى من شَرِّ ما خلق، وسورة الناس اِسْتِعاذة بالله سبحانه وتعالى من شرِّ الوسواس الخناس، والشيء الذي تُخْطِئ فيه فَيُصيبُك، فثمن خطئِك أنْ تسْتَعِيذ منه بسورة الناس، فالأشْياء التي تُصيب الإنسان، والتي لا يستطيعُ الإنسانُ دَفْعَها كالتي تُسَمَّى قضاءً وقَدَراً اِسْتَعذ منها بسورة الفلق، والأشياء التي هي من أعْمال الإنسان، ومن أخْطاء الإنسان، والتي تُسَبِّبُ متاعب للإنسان فَلْيَسْتَعِذ منها بسُورة الناس، على كُلِّ معنى(أعوذ) ألْتَجِئُ وأحْتَمي وأسْتَغيثُ وأسْتَنْجِد وأستجير، كُلُّ هذه المعاني مُسْتفادة من كلمة (أعوذ)، نقول: عاذَ الطِّفْلُ بِأُمِّه، أيْ اِلْتَجأ إليها، واحْتَمَى بها، وأوى إليها، ورجا عندها الأمل، اِحتمى بها من أعْدائِهِ ومن وَحْشٍ مُخيف، فَسُبْحانه وتعالى له مخْلوقاتٌ شِرِّيرة ومخْلوقات من نوع الجَماد، الصواعِق والبراكين والزلازل والأمراض، ومخاطر من نوع الإنسان، إنْسانٌ شِرِّير يُحِبُّ لك الأذى ويُحِبُّ أنْ يوقِعَ بك.

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ الْفَلَق)

أطِعْ أمْرَنا نرْفع لِأجْلك حُجْب نا فإنا منَحنا بالرِّضى من أحَبَّنا

ولُذ بحِمانا واحْتَمِ بجَنابنــا لِنَحْميك ممَّا فيه أشْرار خَلْقِنـا

* * *

الله سبحانه وتعالى أراد بكَلِمة الفَلق الكَوْنَ كُلَّهُ :

أكرِّر معنى أعوذ أي أحْتمي، وألْتَجِئ، وأطلب الأمن والسلام، أحْتَمي وأسْتَغيثُ وأسْتَنْجِد، والفلق كما قلت قبل قليل الكون كُلُّه، وكُلُّ شيءٍ تنْطوي عليه عيْنُك فإنما هو الفلق.

قال بعضهم: الفلق هو الصبح، لكنَّ الفلق أعمّ من الصبح، في الاسْتِعاذة هناك المُسْتَعيذ، والمُسْتعاذ به، والمُسْتَعاذ منه، فالمُؤمن مأمور أنْ يستعيذ والمؤمن مُتواضِعٌ لله عز وجل وليس في قلبه كِبَر، يخاف عذاب الله وبطْشَهُ، يسْتعيذ بالله فهُو مُسْتعيذ، وأخْطار الحياة من شَرِّ ما خلق يُسْتعاذ منها، والله سبحانه

وتعالى يُسْتعاذ به، فلما يسْتَعيذ الإنسان بِغَير الله فقد أشْرك، إنْ اسْتعاذ بِقُوَّتِه، أو استعاذ بِقَرابته فقد أشْرك، إنْ احتمى بماله، وقال: المال هو كُلُّ شيء فقد أشْرك:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ الْفَلَق)

طبعاً الفلق على وَزْن فَعَل، كَقَوْلِك قَصَص، بِمَعْنى مَفْعول، أي مقْصوص، فَكُلُّ شيء أظْهره الله تعالى على حَيِّز الوُجود هو الفلق، فكأنَّ سبحانه وتعالى أراد بِكَلِمة الفلق الكَوْنَ كُلَّهُ، كُلُّ ما وقَعَتْ عليه عَيْنُك وما لم تقع، وكُلُّ ما رأيته وما لم ترهُ، وكُلَّ ما أحْسَسْتَ به وما لم تُحِسّ به إنما يِنْطوي تحت كلمة الفلق، فَخالقُ الفلق ربُّ الفلق، وهو وحْدَهُ أهْلٌ أنْ تسْتعيذ به لأنَّهُ القويّ المُبْدع الخالق، وهذا الذي تخاف منه هو بِيَد الله الذي بِيَده ملكوت كلِّ شيء، قال تعالى:

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

الله سبحانه وتعالى ربُّ الفلق وهو وحده أهل أنْ تسْتعيذ به :

قال تعالى:

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 56]

فالله سبحانه وتعالى ربُّ الفلق وهو وحده أهل أنْ تسْتعيذ به، وإذا اسْتَعَذْتَ بِمَخْلوقٍ دونه فقد وَقَعْتَ في الشِّرْك، وما من مخْلوقٍ يعْتَصِمُ بي من دون خلقي أعرف ذلك من نِيَّتِهِ فَتَكيد له أهل السماوات والأرض إلا جعَلْتُ له من بين ذلك مَخْرَجاً، وما من مخْلوقٍ يعْتَصِمُ بِمَخْلوقٍ دوني أعرف ذلك من نِيَّتِه إلا جَعَلْتُ الأرض هَوِياً تحت قَدَمَيْه، وقَطَّعْتُ أسباب السماء بين يَدَيْه، فاسْأل نفسك هذا السؤال: إذا ألمَّتْ بك مصيبة فأنت تسْتعيذ بِمَن؟ أتَفْزَعُ إلى قريبٍ لك من ذوي الحول والطول! أتفْزَعُ إلى واسِطَةٍ تُرَجِّحُ المَوْقف! أتفْزَعُ إلى مالك تدْفَعُهُ للناس؟! أم تفْزَعُ إلى الله عز وجل؟ كان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمرٌ بادر إلى الصلاة، ومن علامة الإيمان أنْ تسْتعيذ بالله عز وجل، وتلجأ إليه، وأنْ تكون في حِماه وظِلِّه، فَقُل أعوذ بِرَبِّ الفلق، هذا أمرٌ مُوَجَّهٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فَمَن أنت؟! وإنَّ الله أمَرَ المؤمنين بما أمر به المُرْسلين. مما يُؤَكِّدُ هذا التفْسير ويَدْعَمُهُ قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

[سورة الأنعام: 95]

آيةٌ أُخْرى، وهي قوله تعالى:

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

[سورة الأنعام: 96]

مُجَرَّد أنْ تسْتعيذ بغير الله فقد أشْرَكْتَ :

الله سبحانه وتعالى وَحْدَه أهلٌ للاسْتِعاذة به إنْ كنت مؤمناً به، وإذا اسْتَعَذْتَ بسِواه فإنَّ في إيمانك خَلَلاً، وفي إيمانك شِرْكاً، قال تعالى:

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

[سورة يوسف: 103]

وقال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

بمُجَرَّد أنْ تسْتعيذ بغير الله فقد أشْرَكْتَ، لذلك فالدعاءُ النبوي الشهير إذا أقْدَمَ المرءُ على عمَلٍ قال: " اللهمّ إني تَبَرَّأتُ من حَوْلي وقُوَّتي والتَجَأتُ إلى حَوْلك وقُوَّتِك يا ذا القوة المتين "، وكلما لاحَ لك شَبَحُ مصيبة وتَوَهَّمْتَ من إنسانٍ قُوَّةً وأنَّهُ يُريدُك بهذه القوّة فَقُل:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

أليس النبي عليه الصلاة والسلام قُدْوَةً لك في هذا؟ من علامة المؤمن الاسْتِعاذة بالله تعالى، وهناك من يرى لِنَفْسِهِ شأناً كبيراً، وأنّه أكبر من ذلك، هذا هو الكِبْر، والمُتَكبِّر دواؤُهُ القَصْم، وما من مُتَكَبِّر إلا قَصَمَهُ الله عز وجل.

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

الشَّرُّ طارئٌ والأصل هو الخير :

قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

هنا نقطة دقيقةٌ جداً أتمنى أنْ تكون واضِحَةً لدَيْكُم، الله سُبْحانه وتعالى لا يخْلق شَرّاً، وإذا سأل سائِلٌ من الذي خلق الشَرّ – طبْعاً في العَقيدة السليمة: آمنْتُ بالقَدَر خيره وشَرِّه – ولكنَّ الشرّ كَشَرٍّ ما مَبْعَثُهُ؟ كُلُّ شيء خلقه الله سبحانه وتعالى خيرٌ لنا، ولكن من أين يأتي الشرّ؟ حينما يغفل الإنسان عن الله تعالى، وتتحَرَّكُ شهواته كي تُرْوى، وبتَحَرُّكِهِ لِشَهَواته من دون بصيرة من الله عز وجل ومن دون هُدى يقعُ له الشرّ، إذاً متى يصْدُر الشرّ من الإنسان؟ إذا غفل عن الله عز وجل، فهُوَ تعالى أمره ألاّ يغفل عنه، سيارة مُنْدَفِعَة ما دام فيها سائِق ماهر وحكيم، والأدوات كلها بيَدِهِ، وتحت سَيْطَرَته، ومعه ضَوْءٌ كاشِف

يكون الخير، وتنقُله إلى مُبْتغاه، أما إذا كان سائِقُ السيارة مُدْمِنَ خَمْرٍ، قد يقعُ الحادث المُفْجِع، وإذا انْطَفَأ مصْباحه يقع الحادث كذلك، فالشَّرُّ طارئٌ والأصل هو الخير، فالإنسان إذا أقبل على الله عز وجل كانَ خَيِّراً، فإذا حُجِبَ عن الله عز وجل، وانْقَطع عنه وأعرَض، وكانت في نفسه شهَوات من دون هُدى من الله عز وجل هنا يقعُ الشرّ، فلا يصْدُر الشرّ من الإنسان إلا إذا تحَرَّك وهو في عَمى، أما إذا تحَرَّك لِقَضاء حاجاته وشَهَواته وَفْقَ ما أمر الله عز وجل، وَوفْقَ الهُدى الإلهي فلا يقعُ الشَرّ، يتَزَوَّجُ فَيَقَعُ الخير، يسْكُنُ إلى زَوْجَتِه وتسْكُنُ إليه، ويُنْجِبُ أوْلاداً أبْراراً، يُرَبِّيهم على حُبِّ الله ورسوله، وله عملٌ ينْفَعُ به المسلمين، فأيُّ حَرَكَة تتحَرَّكُها وَفق المنهج الإلهي فأنت في خير، لأنَّ هناك نقطة دقيقة وهي مع أنَّهُ شِرِّير بِحُكْمِ بُعْدِهِ عن الله عز وجل، وانْقِطاعه عنه، وبحُكْم العمل الذي وقع فيه، فهذا الإنسانُ الشِرِّير ليس طليقاً، بل هو بِيَد الله عز وجل، يسوقه لِمَن يسْتحقّ أنْ يوقِعَ الأذى به، الظالم سوط الله ينْتقم به ثمَّ ينْتقم منه، إذاً قال بعضُ علماء التوحيد: إنَّ الشرَّ ليس له وُجودٌ إلا في النُّفوس، أما في العالم المادِّي فإنَّ شرّ الإنسان يُوَظِّفُه الله تعالى في مصْلَحَة الإنسان، فهذا السارق يُحِبّ أن يسرق، والسَرِقَةُ شرّ ورَغْبَةٌ في الحُصول على المال من دون هُدىً من الله عز وجل، هذه السرقة شرّ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى آخِذٌ بِيَد السارق، يسوقه إلى مالٍ حرام فيُؤَدِّبُ به المسْروق؛ هذا هو الشّرّ الذي يصدر عن الإنسان.

أنواع الشرور :

أما الشرّ الذي يصدر عن الحيوان فَحينما يتجاوَزُ حُدوده يقع، فالأفْعى حَيَوانٌ نافِعٌ إذا بَقِيَتْ في باطن الأرض، فإذا خَرَجَت تُصْبِحُ شِرِّيرة، وأُمِرْنا بِقَتْلها، وكذا العَقْرب، وعلى مُستوى الإنسان إذا غفل عن الله عز وجل، وانْقَطَعَ، يُصْبِحُ شِرِّيراً، وَشَرُّهُ مُقَيَّد لا يسْتطيع أنْ يوقِعَ أذاهُ إلا بِمَن يشاؤه الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الشرّ الصادر عن الإنسان، وقد أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام بِقَتْل الفَوَيْسِقات؛ الفأرة والعَقْرَب والحَيّة، لأنَّها تجاوَزَتْ حُدودها، أما إذا تتبَّعْتَها إلى وَكْرِها فَقَتْلُها حرام، لأنها تُقَدِّمُ خِدْمَةً ثابِتَة، فقد اكتشف العلماء أنَّ هذه الحيوانات التي تعيش في باطن الأرض لها دَوْر خطير في تَهْوِيَة التربة، وفي إنْبات المزروعات، أما الشرّ الصادر عن الجمادات ففي سوء استعمالها، فالله سبحانه وتعالى خلق المواد كلَّها، فإذا اسْتعملتها في غير مَوْضِعها كمن يضع السكر في الطبخ! والملح في الشاي! والمنظِّف في الطبخ! والوَقود في الحليب! فَسوءُ اسْتعمال المواد يُسَبِّبُ ضَرَراً، فكما تُلاحِظون أنَّ الشرّ طارئ، وهو سَلْبي، وليس إيجابياً، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: 26]

الخنزير مُحَرَّمٌ أكله، لكنَّ الله سبحانه وتعالى خلقه لِوَظيفَةٍ، والضبعُ كذلك، لتنْظيفُ البَرِيَّة من الجِيَف، لأنّ هذه الجيفة إذا ماتت تملأ الفضاء بريحِها الكريهة، فتأتي مثل هذه الحيوانات فَتُريحُنا منها، أما أنْ تأكلها فهي شرّ، فَكُلُّ أنواع الشرور إما أن تنْتج عن غفلة من الإنسان، وقد أُمِرَ أنْ يكون مع الله سبحانه وتعالى، وإما أنْ تنتُجَ عن تجاوز الحيوان حَدَّهُ، أو اسْتِعماله في وَظيفَةٍ لم يُخْلَق لها، كأن تأكله وقد حَرَّم الله تعالى أكْلَهُ، أو أن تستخدم المواد التي خلقها الله عز وجل كلها لِمَصْلَحة الإنسان، أنْ تسْتَخْدِمها في غير مَوْضِعِها، فهذا هو الشرّ.

التملك لا يكون إلا بعد التذليل :

رَبُّنا عز وجل قال:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

طبعاً من شرِّ ما خلق على معنى أنَّ هذه المواد إذا أُسيء اسْتِخْدامها، وهذه الحيوانات إذا تجاوزَتْ حَدَّها، وهذا الإنسان إذا غفل عن الله يُصْبِحُ مُؤْذِياً، وقد تأتي النكبات والزلازل والبراكين والفَيضانات والأوْبِئَة والأمراض، كل هذا من شرّ ما خلق:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

هناك نقطة صغيرة تتعلق بالحيوانات، فمثلاً الجمل مُذَلَّل، والغنم مُذَلَّل، والبقر مُذَلَّل، والدجاج مُذَلَّل، والإنسان يأنسُ بها، ويرْتاحُ لها، ويَقْتَنيها، ويَتَمَلَّكُها، قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)

[سورة يس: 71]

من معاني هذه الآية: متى تَمَلَّكوها، وتنافَسوا على تَمَلُّكِها؟ لأنَّ الله سبحانه وتعالى ذَلَّلها لهم، أما الضبعُ والذِّئب والحيَّة والعقرب، هذه لم تُذلَّل، فهل تُملَّك؟

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس: 42]

فكأن الله سبحانه وتعالى بتذليل بعض الحيوانات، وعدم تذليل البعض الآخر أراد أن يُعرِّفنا نعمة التذليل، لولا أنه ذلَّل هذا الحيوان، ولولا أنه ترك هذا الحيوان مُخِيفاً لما عرفتَ نعمة التذليل، نعمة التذليل ندركها من وجودِ حيوانٍ غير مُذلَّلٍ، ولذلك التملك لا يكون إلا بعد التذليل:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ِ)

أيَّةَ سيِّئَةٍ على الإطلاق مهما كانت صغيرةً فمن نفسك :

هناك حيوانات غير مذللة، فلدغة عقرب وأفعى قد تُميتُ الإنسان، هناك حيوانات مُفْتَرِسَة الماءُ قد يُغْرِقُه، وبعض الأدوية قد تُفْقِدُهُ الحياة، وبعض الأعْشاب قد تُفْقِدُه الحركة:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ِ)

شيءٌ آخر أُحِبُّ أنْ تَقِفوا عنده وَقْفَةً مُتَأنِّيَة، سأقْرأُ على مسامِعِكم طائِفَة من الآيات الكريمة، القرآن كما يقول عُلماؤُه قَطْعِيُّ الثبوت، قطْعِيُّ الدلالة، فَقَطْعِيُّ الثبوت أنَّ القرآن كلام الله تعالى قَوْلاً واحِداً، وقَطْعِيُّ الدلالة أنَّ المعنى المُستفاد من هذه الآية حقيقةٌ ثابتة يقينِيَّةٌ لا مجال لِرَدِّها، اِسْتَمِعوا قوله تعالى:

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ِ)

[سورة النساء: 79]

سَيِّئَةٍ نكِرَة وهو تنْكيرُ شُمول، فأيَّةُ سيِّئَةٍ على الإطلاق مهما كانت صغيرةً ومهما كانت كبيرةً، ومهما كانت مُباشِرَة أو غير مُباشِرَة، مُؤلِمَةً أو طفيفة الألم، وما أصابك من سيِّئَةٍ فَمِن نفْسِك، فَمَن وجد خيراً فَلْيَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسَه، وهل تسْتطيع إنْ كنت مؤمناً بالله وبكِتابه الكريم أنْ تقول: إذا أصابَتْكَ مُصيبة، وأنا ماذا فَعَلْتُ؟!

آيات قرآنية تؤكد أن الشر من عند الإنسان :

اِسْمَع الآية:

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ِ)

[سورة النساء: 79]

قَوْلاً واحداً، آيةٌ ثانِيَة، وهي قوله تعالى:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

آية ثالثة، قوله تعالى:

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 165]

ما مِن عَثْرةٍ أو اخْتِلاج عِرْقٍ ولا خَدْشِ عودٍ إلا بما قَدَّمَتْ أيديكم، وما يعْفو الله أكثر:

((قالَ أبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْنِي بشَيْءٍ أقُولُهُ إذَا أصْبَحْتُ وَإذَا أمْسَيْتُ قالَ قُلْ اللَّهُمَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَاطِرَ السماوات وَالْأَرْضِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ أشْهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا أنْتَ أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ قالَ قُلْهُ إذَا أصْبَحْتَ وَإذَا أمْسَيْتَ وَإذَا أخَذْتَ مَضْجَعَكَ))

[الترمذي عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هناك دِقَّةٌ بالغة في أقْوال النبي عليه الصلاة والسلام، لم يقُل عليه الصلاة والسلام: اللهم إنِّي أعُوذُ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ ومن شَرِّ نفْسي، فلما قَدَّمَ شَرَّ النفْس على شَرِّ الشيطان أكَّدَ أنَّ كل شيء بيده، وأنّ الدواب كُلَّها بيَد الله عز وجل، وأنّ كل دابةٍ آخِذٌ بناصِيَتِها، وأنَّهُ إذا أطْلق دابَّةً من هذه الدواب لِتُصيبَ إنْساناً ما بأذى فبِسَبَبِ شرٍّ في نفْسه، وهذا الدعاءُ تعْليمي لنا، اللهم إنِّي أعوذ بك من شَرِّ نفْسي ومن شَرِّ كلِّ دابَّةٍ أنت آخِذٌ بناصِيتها، لذلك ورد: لا يخافَنَّ العبدُ إلا ذَنْبه، ولا يرْجُوَنَّ إلا ربَّهُ.

إذا اسْتَحقَّ العبدُ مُعالَجَةً سَلَّطَ الله عليه من لا يرْحَمُهُ :

إذا رَجَوْتَ الله سبحانه وتعالى، وإذا خِفْتَ الله تعالى خافَكَ كُلُّ شيء، وإذا لم تخَفِ الله تعالى أخافك من كلِّ شيء، قال تعالى:

(يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ هَمَّ قَوْمٌ أنْ يَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة المائدة: 11]

فحينما يكون الإنسان مع الله عز وجل يَكُفُّ عنه أيدي الأشرار، وهناك شيءٌ في التَّوْحيد يُسَمُّونه التَّسْليط، وهو من الله عز وجل، فإذا اسْتَحقَّ العبدُ مُعالَجَةً سَلَّطَ الله عليه من لا يرْحَمُهُ، وإذا اسْتَحقَّ إكْراماً كَفَّ الله عنه يد الأشرار، لذلك قال بعض العارفين:

أطِعْ أمْرَنا نرْفَعْ لِأجْلك حُجْبَ ... نا فإنا منَحنا بالرِّضى من أحَبَّنا

ولُذْ بحِمانا واحْتَمِ بجَنابنا ... لِنَحْميك ممّا فيه أشْرار خَلْقِنا

* * *

تَذَكَّر أنَّك إذا لم تسْتَقِم على أمر الله، ولم تلْتجِئ إليه، ولم تسْتَعِذ به، فالأشْرار كثيرون، والجِهات التي تُخيفُ الإنسانَ عديدة، فَمَصادِرُ القلق والخوف بالحياة الدنيا لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، وإذا عرَفْتَ الله سُبحانه وتعالى، واسْتَقَمْتَ على أمره، والتَجأتْ إليه، واسْتَعَذْتَ به دَخَلْتَ في أمْنٍ، قال تعالى:

(فَأيُّ الْفَرِيقَيْنِ أحَقُّ بِالْأَمْنِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام: 81]

الأصل هو الخير أما الشرّ فهُوَ طارئ، الخير إيجابي يحْتاجُ إلى خالق، والشرّ سَلْبي ناتِجٌ عن غفلة الإنسان، أو عن تجاوُز الحيوان، أو عن سوء اسْتِخْدام الجمادات، والشَّر عِلاجي، وهو بِيَد الله عز وجل، آمنتُ بالقَدَر خيره وشَرِّه من الله عز وجل.

الحكمة من خلق الشر والخوف في الأرض :

شيءٌ آخر:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

لماذا خلق الله سُبحانه وتعالى أشْياء تُخيفُنا؟ سؤال، لماذا خلق الأفعى والعقرب، وأشْخاصاً مُخيفين شِرِّيرين؟ قال علماء التوحيد: لو لم يجْعل الله سبحانه وتعالى في الأرض مصادر للخَوْف لاسْتَغْنَيْتَ عنه، وبهذه الأشياء المُخيفة تبْقى مُلْتَجِئاً إليه، وإذا الْتَجَأْتَ إليه سَعِدْتَ بقُرْبِه، من أجل أنْ يُسْعِدَك، فالطِّفْل إنْ ترك أُمَّه شقِيَ، فإذا كان هناك حيوان مُخيف للطفل في الطرف الآخر، فهذا الطفل يبْقى مع أُمِّه، فهذه الأشْياءُ المُخيفة التي بثَّها الله في الأرض من حيوانات، وجمادات، وأشْخاص شِرِّيرين، وأشياء مزعجة، تَصْنَعُ الوجْهَة إلى الله، والالْتِجاء إليه، وتحملك على أن تلوذ به، وتحْتمي بحِماه، وتُقْبِلَ عليه، وتسْتَعيذ به:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

حِكْمَةٌ بالغة، فلولا وجود مخْلوقاتٍ شِرِّيرة في الأرض لاسْتَغْنى الإنسان عن الله سبحانه وتعالى، ولو نام أحدكم بخَيْمَة فإنه يخْطُر بباله عقْرب، أو حَيَّة، فيقرأ آية الكرسي كي يحفظه الله تعالى، فلو لم يكن هناك خطر لنام مثل الحيوان، أما هذه الأشياء المُخيفة تدْعوه للالْتِجاء إلى الله - طبعاً بصورة عامة لا يوجد عند الإنسان حياتٍ بالبيْت، لكن هناك أشياء مُخيفة تُشابِهُها - لو جاءَتْكَ ورقة صغيرة: تعال إلى عندنا بعد أسبوع، لن تنام ذلك الأسبوع خَوْفاً من هذا الاسْتِدْعاء، فالأشياء المُخيفة هي في خِدْمَة الإنسان، صار الشرُّ إذاً نِسْبياً، يا ترى لو أُصِيب الإنسان بالزائِدَة والتَهَبَتْ أَلَيْسَ شقُّ البطن، ونُزول الدم منْظَراً يدعو للخَوْف، ومع ذلك هذه العمليَّة من أجل راحَتِهِ، أَلَيْسَ حفْرُ السِنِّ مُؤلماً، من أجل راحَةٍ أكبر منه فصار الشرّ نِسْبياً.

إيتاءُ المُلك ونَزْعُ المُلك والإعْزازُ والإذْلال كُلُّها خير عند الخبير والعليم والحكيم والمُعالج:

الآية الكريمة:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: 26]

قوله تعالى: تؤتي الملك من تشاء، وقوله: وتنْزِعُ الملك ممن تشاء، بِنَظَر الناس شرّ، وتُعِزُّ من تشاء خير، وتُذِلُّ من تشاء شرّ، لكن إيتاءُ المُلك ونَزْعُ المُلك، والإعْزازُ والإذْلال كُلُّها خير عند الخبير والعليم والحكيم والمُعالج، وعند الذي خلقك للآخرة، وعند الذي أعدَّ لك ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَت ولا خطر على قلب بشر، وعند الذي خلقك من أجْله، فآثَرْتَ أنْ تكون من أجل عباده، فأذاقَكَ الله بأسَهُم، فإما أنْ تكون عَبْداً لله، وإما أنْ تكون عَبْداً لِبشرٍ لئيم، فاخْتَرْ! ولا بد من العُبودِيَّة، إما أنْ تكون عَبْداً لله، فَعَبْدُ الله حُرٌّ وعزيزٌ وكريم، وإما أنْ تكون عبْداً لِعَبْدٍ لئيم، واللهِ والله مرَّتَيْن لَحَفْرُ بِئْرَيْن بِإبْرَتَيْن وكَنْسُ أرض الحِجاز في يوْمٍ عاصِفٍ بريشَتَين، ونقْلُ بَحْرَيْن زاخِرَيْن إلى أرض الصعيد بِمِنْخَلَيْن، وغَسْلُ عَبْدَيْن أسْوَدَيْن حتى يصيراَ أبيَضَيْن أهْوَنُ عليَّ من طلب حاجَةٍ من لئيمٍ لِوَفاءِ دَيْن، إما أنْ تكون عَبْداً لله، أو عَبْداً لِبشرٍ لئيم؛ إنْ أحْسَنْتَ لم يقْبل، وإن أسأتَ لم يقْبل، إنْ رأى خيراً دَفَنَهُ، وإن رأى شَرّاً أذاعه:

(مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

من هؤلاء، ولَعَلي أتيْتُ على بعض النواحي الدقيقة في هذا الموضوع، الشرّ نِسْبي، هو عندك شرّ، أما عند الله فهو خير، كما أنَّ الطِّفل يبْكي ويضْطرب إذا علِمَ أنَّ الطبيب سَيُعْطيه إبرة، مع أنَّ هذه الإبرة لِصالِحِه ولِتَسْكين ألمِه، وإزالةِ الالْتِهاب، فَعِنْدَ الطفل هذه الإبرة شرّ، أما عند الأب فهي خير.

المصائِبُ نِعَمٌ باطِنَة :

اليسر إيجابي، وأما الشرّ فهو طارئ، والشرّ ناتِجٌ عن غفلة، وتجاوز حُدود، وعن سوء اسْتِعمال، لذلك قال بعْضهم في قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

[سورة لقمان: 20]

المصائِبُ نِعَمٌ باطِنَة، رَجُلٌ أُصيبتْ ابنته بمَرَضٍ عُضال، بذل من أجل عِلاجها المُستحيل، فباع بيْتَهُ، وبعد سَنَواتٍ طويلة فكَّر ساعَةً، وقال: لو أنَّني تُبْتُ إلى الله لَعَلَّ الله يشْفِيَها، فبدأ يُصلي هو وزوْجَتُهُ، حَجَّب زوْجَتَهُ، وابْتَعدا عن المُنكر، فَشَفاها الله عز وجل، فَبَيْعُ بَيْتِهِ، وهذه السنوات الستِّ التي أمْضاها في ألمٍ لا يُحْتمل من جراء مرضٍ عضالٍ أصاب ابنتَه، ثمَّ انْتهى هذا كُلُّهُ بهُداه، واصْطِلاحه مع الله سبحانه وتعالى، أيُعَدُّ هذا المرض شرّاً؟ أيُعَدُّ بيْعُ بيْتِهِ شرّاً؟ لا والله، ولو أنَّ تاجِراً اِحْتَرَقَ متْجَرُهُ، ثم تاب عن التعامل بالربا، كما قال أحدهم: والله اِحْتَرَقَ لي مليونين من البضاعة، وكان احْتِراقُ هذه البضاعة سبباً لِتَوْبَتِهِ، وترْكِهِ الرِّبا، أيُعَدُّ هذا شراًّ؟ لا والله، لكنّ الله سماهُ شراً بِحَسَبِ مفْهومِنا نحن، وبِحَسَب مصطلحنا بيننا:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ الْفَلَق*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ِ)

الإعراضُ ظُلمة وأكبر هؤلاء المُعْرِضين هو الشيطان :

ثمَّ قال تعالى:

(وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ِ)

قال بعضُهم: الغاسِق هو الليل، وقال بعضهم: الشيطان، لماذا هو غاسِق؟ لأنه مُظْلم، ولأنَّهُ بعيدٌ عن الله تعالى، فبُعْدُهُ عن الله تعالى أوْقَعَهُ في ظُلْمة، وإذا أقْبَلْتَ على الله عز وجل صِرْتَ في نورٍ، قال عليه الصلاة والسلام:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

[مسلم عن أبي مالك الأشعري]

الإعراضُ ظُلمة، وأكبر هؤلاء المُعْرِضين هو الشيطان، في ظلامٍ دامِس، وفي غَسَقٍ:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ الْفَلَق*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

ثمَّ يعْني الشيْطانِ إذا وقب، ومعْنى وَقَب أيْ دخل في الوَقْب، والوَقْب الكُوَّة، وهي كِنايَةٌ عن صَدْر الإنسان، فإذا دخل الشيطان في الإنسان فالعِياذ بالله! قبل أيامٍ عديدة اثْنان في حالة سُكْرٍ شديد أرادا أنْ يفْعَلا الفاحِشَة بغُلامٍ، فاخْتَلفا، فأطْلَقَ أحدهما النار على الآخر بالمُسَدَّس، فأرْداهُ قتيلاً، وأُخِذ الثاني إلى السِّجْن، أنا قلتُ: هذا من عَمَلِ الشيطان، وهذا هو "من شرِّ غاسِقٍ إذا وقب "، هؤلاء الذين يُعْدِمونهم في الساحة العامة كُلَّ يومٍ أو يَوْمَيْن، من هم؟ هؤلاء دخل فيهم الشيطان فَسَوَّل لهم ارْتِكاب جريمَةٍ، أو سَرِقَة حانوتٍ، أو قتْلَ إنْسانٍ، أو سَرِقَة مرْكَبَةٍ، أو اغْتِصابَ فتاةٍ، فكان مصيرُهم ما كان:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

إذا قُلتَ (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) نجوت منه :

في مُقَدِّمة هذه الشرور الشيطان الغاسِق إذا وَقَب، إذا دخل في نفْس الإنسان جَعَلَهُ شِرِّيراً، يُحِبُّ شَهْوَتَهُ ولو كانت على حِساب الآخرين، يُحِبُّ قضاء لَذَّتِهِ ولو أدَّتْ إلى تحْطيم امرأة وجَعْلِها مُومِساً، يُحِبُّ اكْتناز المال ولو كان سلْباً أو سَرِقَةً، يحِبُّ أنْ يحْيا ويموت الناس، ويأكُلَ ويجوع الناس، يُحِبُّ أنْ يبْنِيَ مَجْدَهُ وحياته على موتِهم، أنْ يبْني أمْنَهُ على قَلَقِهم، أنْ يبْني مَجْدَهُ على ذُلِّهم:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

لكن معك سِلاحُ ضِدَّ الشيطان، وهو فعالٌ جداً، إذا قُلتَ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كان السلاح الخطير تُصَوِّبُهُ عليه فَتَجْعَلُهُ يَهْمَد، إذا قُلتَ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم نجوت منه، وربُّنا قال:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[سورة الأعراف: 200]

وقال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ)

[سورة المؤمنون: 97]

إنْ ألمّ بك خاطِرٌ خطيرٌ، ولا يُرْضي الله، كأنْ تأخُذَ شيئاً ليس لك، أو أن تَحْتال، أو أنْ تُدَلِّس، أو أن تخْدَع، أو تُخْفي عَيْبَ البضاعة، أو تكذِب في رأسمالك، أو تُزَوِّر، فاسْتَعِذ بالله من الشيطان الرجيم، لأنّ هذه وساوِسُ الشيطان الذي دخل إلى صَدْرِك، فقُل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا دَخَلْتَ إلى بيْتٍ، وَسَوَّلَتْ لك نفسُك أنْ تُلْقي نظْرةً على من فيه من دون أنْ يكون مُباحاً لك هذا، لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، يسَوِّل له فِعْلَ المُنْكر.

على الإنسان أنْ يُعينَ أخاهُ على الشيطان وليس أنْ يُعين الشيطان على أخيه :

قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

وفي رؤوس الأشرار شرٌّ غاسِقٍ إذا وقب، الآن هناك مَعْنيان: المعنى الأول: الشيطان إذا دخل إلى نفْس الإنسان. والمعنى الثاني: إذا دخل الشيطان إلى نفْس شخص آخر يُصْبِحُ وحْشاً يكاد ينقض عليك، وبطاشاً ومُؤْذِياً ومُجْرِماً، فاسْتَعِذ بالله أنْ يدخل الشيطان إلى صَدْرك فَيُوَسْوِس إليك، واسْتَعذ بالله أنْ يدْخُل الشيطان إلى صَدْر إنسانٍ آخر تتعامل معه فيقْلب أمامك شِرِّيراً، قال تعالى:

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

[سورة القصص: 15]

هذه مُشاحنة بين القِبْطي والإسْرائيلي، هذا من عمل الشيطان، الشيطان دخل بينهما، فلذلك الإنسان عليه أنْ يُعينَ أخاهُ على الشيطان، وليس أنْ يُعين الشيطان على أخيه، فإذا غضِبَ أخوك فاسْكُت، فإذا رَدَدْتَ عليه بِكَلِمَة قاسِيَة أعَنْتَ الشيطان عليه، فإذا سَكَتَّ أعَنْتَهُ على الشيطان، رَجُلٌ تلفَّظ بِكَلماتٍ قاسِيَة بِحَقِّ صحابيٍّ جليل، ما فعل هذا الصحابي شيئاً إلا أنْ قال: غفر الله لك إنْ كُنتَ مُخْطِئاً، وغفر الله لي إنْ كنتُ مُخْطِئاً، علاقتك مع زوْجَتِك، ومع أوْلادك، وجيرانك، وأصْحابك، وزُملائِك، أعِنْهُم على الشيطان، ولا تُعِن الشيطان عليهم، إذا استَفْزَزْتَهُم، وقَسَوْتَ معهم، وأخَذْتَ حقَّهُم فقد أعَنْتَ الشيطان عليهم، أما إذا تسامَحْتَ معهم وأحْسَنْتَ إليهم فقد أعَنْتَهم على الشيطان:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

السحر والتخاطر النفسي :

ثمَّ قال تعالى:

(وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)

النفاثات هي النفوس الساحِرَة، والسِّحْرُ أصْلُهُ التمْويه بالحِيَل والتَخايُل، كالسراب تراهُ ماءً، وهو انْعِكاسٌ شُعاعي على الأرض، سَحَرْتُ الصبيّ أيْ خَدَعْتُهُ، وأصْلُهُ الخفاءُ والصَّرْف، فإذا صَرَفْتَ إنْساناً عن شيءٍ فقد سَحَرْتَهُ، وأصْلُهُ الاسْتِمالة، قالوا: محمدٌ صلى الله عليه وسلم سحر أصْحابه، أي مالوا إليه، والسِّحْرُ أنْ تُؤخَذَ بِلُطْفٍ، والسِّحْرُ عند بعض المذاهب الإسلاميَّة خِداعٌ لا أصْل له، وعند الشافِعي رضي الله عنه وَسْوَسَةٌ وأمْراض، وعند الأحْناف حقٌّ، وله حقيقة، ولكن هناك أشْياءٌ حتى الآن طبيعتها بَقِيَتْ مجْهولة، دَرَسْنا شيئاً في عِلْمِ النفْس اسمه التخاطر، امْرأةٌ في إيطاليا وهي في مطْبَخِها رأت ابنها وهو في باريس، قد دهَسَتْهُ سيارة فصرَخَت، رأتْهُ بِأُمِّ عَيْنَيها، بعد أيامٍ ثلاثة جاء جُثْمان ابنها إلى البيت، مع تقْريرٍ يؤكِّدُ الدقيقة التي رأتْهُ فيها يُدْهَس، سماها عُلماءُ النفْس التخاطر النفسي، وهذا قائِدُ جيْشٍ في العِراق قال: أسْمَعُ صوتَ أمير المؤمنين يُحَذِّرُني، الجبلَ الجبلَ، هذه وَقَعَتْ كيف؟ لا نعْرف، العِلْمُ عاجِزٌ عن تفْسير هذه الخاطِرة التي سماها العُلماء التخاطر النفْسي، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 85]

وقال تعالى:

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة: 255]

فالتخاطر معْلومٌ ومجْهول، هو حدثٌ وَقَعَ، ولكنَّ تفْسيرهُ مجْهول، كذلك السِّحْر، فالأحْناف قالوا: هو شيءٌ حقيقي، ولكنَّ طبيعته مجْهولة، والإمام الشافِعي قال: هذه وساوِسٌ وأمْراض، وبعض الفرق الإسلاميَّة قالوا: وهْمٌ لا أصْل له، لكنَّ النبي الكريم استعاذ بالله من هؤلاء الذين يسْحَرون، هناك أشْياء دقيقة سَأوردُها لكم في هذا الموضوع.

لا يسْتطيعُ الساحر أنْ يضُرَّ أحداً إلا بإذْن الله :

هناك من السِّحْر ما يُكَفِّرُ صاحِبَه، ومن فعل السِّحْر لِيَصْرِفَ الناس إليه فهذا كُفْرٌ، وبعضُ المذاهب الإسلامِيَّة أباحَتْ دمَ هذا الساحِر لأنَّهُ يُضَلِّلُ الناس، ويصْرِفُهم عن الحقيقة الكُبرى إلى نفْسه، وربنا عز وجل قال:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 102]

لماذا كفروا؟ يُعَلِّمون الناس السِّحْر، قِصَّةٌ سخيفةٌ يَرْويها اليهود نفاها الله تعالى، فلا يسْتطيعُ الساحر أنْ يضُرَّ أحداً إلا بإذْن الله، فالساحِر لا يسْتطيع أنْ ينْفذ بسِحْرِهِ إلى إنْسانٍ إلا إذا كان غافِلاً عن الله سبحانه وتعالى.

العلاقات الإنسانِيَّة المتينة يأتي الساحر فيَفْصِمُ بينها ويُحِلُّها ويجْعَلُها واهِيَة :

إذا قال الإنسان:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

بطل السِّحْر، ومعنى النفاثات في العُقَد، هذه العُقَد المتينة، العلاقة الزوْجِيَّة عُقْدة، وعلاقة الأخوة عُقْدة، وعلاقة الشَّريكَيْن عُقْدة، وعلاقة الأُبُوَّة عُقْدة، وعلاقة الجوار عُقْدة، والسيّدة عائِشَة رضي الله عنها سألت النبي عليه الصلاة والسلام مرَّةً: كيفَ حُبُّكَ لي؟ قال: كَعُقْدة الحبل، فكانت تقول له من حينٍ لآخر: كيف العُقْدَةُ؟؟ فيقول لها: على حالِها، فَرَبُّنا عز وجل قال:

(وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)

فهذه العلاقات الإنسانِيَّة المتينة يأتي الساحر فَيَفْصِمُ بينها، ويُحِلُّها، ويجْعَلُها واهِيَة، فالخِلافُ الزوْجي يقع بِسَبَبِ زوْجَيْن غافِلَيْن عن الله عز وجل، ويأتي السِّحْر فَيَقْطَعُ هذه الصِّلَة.

الحسد نوعان :

الآية الأخيرة، هي قوله تعالى:

(وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

1 ـ حسد مذموم :

قال العلماء: الحسدُ مذْمومٌ ومحْمود! هو مذْمومٌ إذا تمنَّيْتَ زوال النِّعْمة عن أخيك المُسلم، وأنْ تتحَوَّل إليك، هذا هو الحسد:

قل لِمَن بات لي حاسِداً أتَدْري على من أسأتَ الأدَب؟
أسأتَ على الله في فِعْلِه إذْ لم ترْضَ لي ما وَهَــبَ

* * *

اِصْبر على حسد الحسود فإنَّ صبْرَكَ قاتِلُــه
فالنارُ تأكُلُ بعضهــا إنْ لم تجِد ما تأكلــه

* * *

هذا هو الحسدُ المذْموم، لماذا؟ لأنَّهُ تسْفيهٌ للحق سبحانه وتعالى على إنْعام نِعْمَةٍ ظَنَنْتَ صاحبها لا يسْتحِقُّها، هذا شِرْكٌ بالله، وكُفْرٌ به.

2 ـ حسد محمود :

وأما المحْمود فما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

[متفق عليه عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

إذا حَسَدْتَهما فهذا هو الحسد المحْمود، ولكنَّ العلماء سَمَّوْهُ غِبْطَةً، وسماهُ الله تعالى مُنافَسَةً، فقال تعالى:

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

وقال تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: 61]

فَسَماهُ الله مُنافِسَةً، وسماهُ النبي غِبْطَةً، وفي الأثر عن الفضيل بن عياض: المؤمن يغْبطُ والمنافق يحْسُد، قال عليه الصلاة والسلام:

((العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر))

[أبو نعيم في الحلية عن جابر]

فَلَن تتأثَّر بالسِّحْر ولا بالحَسَد - مرَّةً ثانِيَة - إلا إذا كنت غافِلاً عن الله تعالى فإذا تَلَوْتَ قوله تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

فلن يصل إليك شِرِّير، ولا شيطانٌ يستطيع أنْ يدخل في صدْرك، ولا ساحِرٌ أنْ يؤثِّر فيك، ولا حاسِد يمكنه أنْ يحْسُدك.

حال الحاسد :

ثم إنّ الحاسِد أبْغَضَ النِّعْمة على غيره، وفي هذا شكّ منه في حِكمة الله سبحانه وتعالى، والحاسِد ساخِطٌ لِقِسْمة الله تعالى، وضادَّ فِعْلَ الله، ولم يستَسْلم له، وخَذَلَ أوْلِياءَ الله عليه فَحَسَدَهم، وذَمَهُم بدل أنْ يَدْعَمَهُم، والحاسِد أعان الشيطان على أخيه، ولا ينال في المجلس إلا الندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا اللعنة، ولا ينال في الخلوة إلا الجَزَع والغَمّ، ولا ينال في الآخرة إلا الحُزْن والاحْتِراق، ولا ينال عند الله إلا بُعْداً ومَقْتاً، وقال عليه الصلاة والسلام: ثلاثة لا يُسْتجابُ دُعاؤُهم: آكل الحرام، ومُكْثِرُ الغيبة، ومن كان في قلبه غِلٌّ أو حسَدٌ للمسلمين، وقال بعضهم: أوَّلُ ذنْبٍ عُصِيَ الله به في السماء هو الحسد قال تعالى:

(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة الأعراف: 12]

وأوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ الله به في الأرض أنَّ قابيل حسد هابيل، فَنَعوذ بالله من الحسد، ونسْأله المنافَسَة والغِبْطة في الطاعة، والاسْتِقامة وحِفْظ كتاب الله، فهذا هو المطْلوب، فَهَذه السورة اِقْرأها قبل أنْ تنام، ولن تر مناماً مُخيفاً:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الناس 114-الدرس (1-1): تفسير الآيات1 - 6 الاستعاذة بالله ووسوسة الشياطين .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-08-30

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الناس وسورة الفلق هما المُعَوّذتان اللتان حضّ النبي على قِراءَتِهما مِراراً وتَكْراراً:

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم هي سورة الناس وهي آخر سورة في كتاب الله، وسورة الناس وسورة الفلق هما المُعَوّذتان اللتان حضّ النبي صلى الله عليه وسلم على قِراءَتِهما مِراراً وتَكْراراً.

وفي الدرس الماضي، في سورة الفلق تَوَجَّهَتْ الآيات إلى أنَّ الإنسان إذا خاف عَدُوّاً، وخطراً قريباً، وشَبَحَ مُصيبةٍ، وأشْرار الناس فَلْيَسْتَعِذ برَبِّ الفلق، والفلق هو الكون، ويُمْكِنُ أنْ تُوَجَّه آيات اليوم توْجيهاً آخرَ إضافَةً إلى ما تحْتَمِلُهُ أيْضاً من تَوْجيهات السورة السابقة.

فالنبي صلى الله عليه وسلَّم والكمال الذي ظَهَر منه، وعَقْلُهُ الراجح، وحِلْمُهُ الذي لا حُدود له، وشَجاعَتُه: أنا النبي لا كذب، أنا النبي لا كذِب، أنا ابن عبد المطّلب، ورأفَتُهُ، ورحْمَتُهُ، ورِفْقُهُ بالحيوان، وعطْفُهُ على الإنسان، ورجاحَةُ تفْكيره، كيف كان أباً ناجِحاً، وقائِداً ناجِحاً، وسِياسِياً مُحَنَّكاً، وأخاً كبيراً للمؤمنين، كيف جمع هذه الصِّفات من الرحمة إلى العِلْم، إلى الحِكْمة والحِلم والتواضع والفِطْنة والذكاء، إلى قُوَّة الحدْس، وإلى إشْراق النفْس، وإلى دِقَةِ النظْر ورجاحة الرأيْ، حتى إنَّ الله سبحانه وتعالى وصَفَهُ وصْفاً يِنْفردُ به، قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم: 4]

ولم يُقْسم الله سبحانه وتعالى بعُمُر نَبيٍّ إلا بعمره صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر: 72]

العِياذ بالله عز وجل هو سببٌ لِكُلِّ مكْرُمَة :

ولم يُخاطب النبي عليه الصلاة والسلام إلا بقَوْله: يا أيها النبي، ويا أيها الرسول، فَهُناك دلائل كُبْرى في كتاب الله تُبَيِّنُ عظمة هذا النبي صلى الله عليه وسلَّم، وقد يسأل سائِل: من أين جاءَت هذه العَظَمَة؟

ومن أين جاء هذا الخُلق العظيم؟ ومن أين جاء هذا الحِلْمُ والمروءة والرحمة والحِكمة والتواضع؟ فكان الجواب: قال تعالى:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ النَّاس)

أنا كذلك لأنَّني عُذْتُ برَبِّ الناس، فهذا الخُلُقُ العظيم وهذه النفسُ المُشْرِقَة والعَقْلُ الراجح والصِّفات الناميَة إنما اشْتَقَّها النبي عليه الصلاة والسلام من الله سبحانه وتعالى عن طريق الاتِّصال به تعالى والعِياذِ به، فكلمة أعوذ مُضارع ماضيها عاذَ ومصْدَرُها عِياذ وعَوْذٌ، فالعِياذ بالله عز وجل هو سببٌ لِكُلِّ مكْرُمَة.

والآن فإنك ترى أنّ الصورة قد انْقَلَبَتْ من وصْفٍ للنبي عليه الصلاة والسلام إلى طريقٍ سالِكٍ إلى الله عز وجل، فَكُلُّ واحِدٍ يسْمعُ هذا الكلام إذا أراد الخُلُق الرفيع والمقام المحْمود عند الله، وإذا أراد أنْ تكون له سعادته الأبَدِيَّة، وأن يكون حليماً كريماً ومُتواضِعاً وجريئاً وصاحِبَ مُروءة، حكيماً وذكِياً وفَطِناً فالطريق أنْ يتَّصِل بالله عز وجل، قال تعالى:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ النَّاس)

فلا تعْجبوا:

((أدَّبني ربي فأحْسن تأديبي))

[كنز العمال عن ابن مسعود]

هُناك دلائل كُبْرى في كتاب الله تُبَيِّنُ عظمة هذا النبي صلى الله عليه وسلَّم :

في السورة الماضِيَة وُجِّهَت الآياتُ على أساس أنَّك إذا خِفْتَ من مخْلوق شِرير، أو إذا بدَتْ لك مُصيبة أو شبَحُ مصيبة، أو خِفْتَ مرَضاً عُضالاً أو جُرْثوماً فتاكاً وعَدُوّاً قهاراً، إذا خِفْتَ من أمْثال هؤلاء فقُلْ أعوذ برَبِّ الفلق، اليوم هذا الكمال العظيم، وهذا الخُلُق العظيم، الرِّفْعَة العالية، والثبات على المبْدأ، وهذه السعادة التي لا توصَف، لو بقيتُم على الحال التي أنتم فيها عندي لَصافَحَتْكُم الملائِكة، ولزارَتْكُم في بُيوتِكم، فَمَن مِنا لا تسْتَهْويهِ أخْلاق النبي عليه الصلاة والسلام؟ ومن منا إنْ كان صادِقاً فعليه أنْ يذْهب إلى الحرَمِ النبوي الشريف ويقف أمام حُجْرَتِهِ الشريفة ولا يبْكي؟ ما الذي جَمَعَكَ به؟ فأنت لم ترَهُ! بعد ألف وأربعمئة عام تقِفُ أمام حُجْرَتِهِ فَتَبْكي، أليس لأنَّهُ على خلُقٍ عظيم، أليْس لأنَّ رحْمته وسِعَتْ أُمَّتَهُ كُلَّها؟ أليس لأنَّهُ كان نَبيَّ هذه الأُمَّة؟ أليس لأنَّهُ لم يقُل شيئاً بلِسانِهِ إلا طَبَّقَهُ في سُلوكِهِ؟ يكْفيهِ بعضُ المواقف! ففي رحلة العمُر التي انتهت عند الحديبية كانت الرواحل ثلاثمئة، والجُنود أكثر من ألف فما الحيلة؟! فقال عليه الصلاة والسلام وهو قائِدُ الجَيْش: لِيَتَناوَبْ كُلُّ ثلاثةٍ على راحِلَة، وأنا وعَلِيٌّ وأبو لُبابة على راحِلَة، فلما جاء دَوْرُهُ في المَشْي قال له صاحِباهُ: يا رسول الله اِبْقَ راكِباً، فقال

عليه الصلاة والسلام - وهو نَبيُّ هذه الأمَّة كلماتٍ لو أعَدتُها آلاف المرات لا أشْبَعُ منها: ما أنا بأغْنى منكما عن الأجْر، ولا أنتما بأقوى منِّي على المَشْي! وكان النبي عليه الصلاة والسلام مع أصْحابِهِ في نُزْهَة، فقال أحدهم: عَلَيَّ ذَبْحُ الشاة، وقال الآخر: عليَّ سَلْخُها، وقال الثالث: وعَلَيَّ طبْخُها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعَلَيَّ جمْعُ الحَطَب، فقال له أصْحابُهُ: يا رسول الله نكْفيكَ ذلك، فقال: أعلم ذلك، ولكِنَّ الله يكرهُ أنْ يرى عَبْدَهُ مُتَمَيِّزاً على أقْرانه! قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم: 4]

ما هذا التواضع؟! دخل مكَّة مُطأطِئ الرأس تواضعاً لله عز وجل.

خلق النبي الكريم مع أزواجه وأصحابه :

((عَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قالَ: لَمَّا أعْطى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أعْطى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ حَتَّى قالَ قائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَاماً فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، قالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ، قالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، قالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ؟ قالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ – تكلم ما في نفوسهم - أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إلَى إسْلَامِكُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ

الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْماً وَحَظّاً ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

ما هذا الموقف الحكيم؟! كيف ألّف قلوبهم وجمعهم عليه وكيف أزال من أنفسهم الألمَ؟ كيف أرضاهم؟! كيف أكرمهم؟! ما هذا الخُلُقُ العظيم؟ وهذا شأنه مع أزواجه الطاهرات، ومع أصحابه الكِرام، وكلُّ صحابيٍّ كان يظُنُّ أنَّه أقربُ الناس إليه، عرفَ قدرَ أصحابه، يقول لأحدهم: ارْمِ فِدَاكَ أبي وَأُمِّي، ويقول له إذا دخل عليه: هذا سعدُ هذا خالي أرُوني خالاً مثلَ خالي، ويقول لِأحدهم: واللَّهِ يا معاذ إنِّي لأُحبُّك، ويقول عن سيِّدنا أبي بكرٍ: لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ، ما دعوْتُ أحداً إلى الإسلام إلاَّ كانت له كَبوةٌ إلاَّ أخي أبا بكرٍ، ويقول عنه: ما طلعتْ شمسٌ بعد نبيٍّ على أفضلَ من أبي بكر، ويقول: ما ساءني قط فاحفظوا له ذلك، ويقول: تسابقْتُ أنا وأبو بكر فكُنَّا كهاتين، عرف قدرَه عليه الصلاة والسلام.

ما من صحابيٍّ إلا وأعطاه النبيُّ حقَّه ووصَفه وصفاً دقيقاً وهذا من عظمة خلقه :

يقول عليه الصلاة والسلام: لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر، يا عمر ما سلكتَ فجّاً إلاَّ سلك الشيطانُ فجّاً غيرَ فجِّك، أمّا سيدُنا عثمان:

((عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضْطَجِعاً فِي بَيْتِي كَاشِفاً عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَتَحَدَّثَ ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَوَّى ثِيَابَهُ فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ فَقَالَ: أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ))

[مسلم عن عَائِشَةَ]

سيدنا عليٌّ قال فيه عليه الصلاة والسلام: أنا مَدِينةُ العلم، وعليٌّ بابُها، سيدنا أبو عبيدة قال فيه:

((أمينُ هذه الأمَّة))

[متفق عليه عن أنس]

سيدنا خالد قال فيه:

((نِعم عبد الله خالد بن الوليد سيفٌ من سيوف الله))

[البخاري عن أبي هريرة]

ما من صحابيٍّ إلا وأعطاه النبيُّ حقَّه، ووصَفه وصفاً دقيقاً، ما هذا الخلُق العظيم؟! ما هذه الصفات العالية؟! ومكانة هذه النفسُ السَّامية؟! من أين جاء بهذا كلّه؟

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ النَّاس)

لأنه التجأ إلى الله عز وجل واتَّصل به واشتقَّ من كماله واقتبس من أسمائه الحسنى، قال الله تعالى:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ النَّاس)

جاءت رب الناس ملك الناس إله الناس تخْصيص تشْريف وتكْريمٍ لِهذا الإنسان :

وصْفٌ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، وسِرٌّ لعظمة النبي عليه الصلاة والسلام وطريقٌ لأن تكون عظيماً بنوعٍ من أنواع العظمة التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام، فهل تحبُّ أن تكون رحيماً حقيقة؟ هناك من يتظاهر بالرحمة أمام الناس، وهو ينطوي على قلبٍ قاسٍ كالحجر، هناك من يحكم حكماً عادلاً لِيُقال عنه عادل ولو خلا إلى نفسه لم يحكم هذا الحكم، لذلك إذا أردتَ أن تكون أخلاقياً حقيقةً، وأخلاقك أصيلةً فلتكنْ نابعةً من الإيمان لا من الذكاء، إنَّ هذا طريقُه الاتصالُ بالله عز وجل، قال تعالى:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ النَّاس*مَلِكِ النَّاس*إلَهِ النَّاس*مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاس الْخَنَّاس*الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُور النَّاس*مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاس)

ربُّ الناس، و ملك الناس، وإله الناس جُمِعتْ في قوله تعالى:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

[سورة الزمر: 6]

وقال تعالى:

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً)

[سورة المزمل: 9]

عندنا سؤالان: لماذا ربُّ الناس مع أنَّهُ رب العالمين؟ ولماذا ملكُ الناس مع أنَّهُ ملِكُ المُلك كُلِه؟ ولماذا إله الناس مع أنَّهُ إله العالمين؟ لأنّ هذا تخْصيصَ تشْريف للإنسان، هو رب العالمين، ولكن في هذه السورة جاءت رب الناس ملك الناس إله الناس، تخْصيص تشْريف وتكْريمٍ لِهذا الإنسان.

الله سبحانه وتعالى لأنَّهُ ربُّ العالمين وَجَبَ أنْ يكون عليماً بخَلْقِهِ وخبيراً بهم :

لماذا التَّكْرار؟ هو تَكْرار تَوْكيد، فما معنى ربُّ الناس؟ وما معنى مِلِكُ الناس؟ وما معنى إله الناس؟ الربُّ أيها الأخوة الأكارم هو المُربي، ولا يتَّضِحُ معنى الربوبيَّة إلا بمَثَلٍ نضْربه: لو أنَّ مُزارِعاً زرع فسيلةً، زرع نباتاً فَعَليه أنْ يسْقيه، وأن يُمِدَّهُ بالسماد، وإذا ظهر عليه مرضٌ فعليه أنْ يُكافِحَ هذا المرض بالمُبيدات، وعليه أنْ يعرفَ طبْعَ النبات، أيُحِبُّ الشمْس الساطعة؟ أم الشمس المُخَفَّفَة؟ أم ظلاً ظليلاً؟ أتَكون السُّقْيا كُلَّ يوم؟ أم في الأسْبوع مَرَّتان أو مَرَّة؟ فَسَقيُ هذا النبات وتَقْليمُهُ، وتسْميدُهُ، ونقْلُهُ من

مكانٍ لآخر، ومُكافحة أمْراضِهِ هذا نَوْعٌ من التربْيَة، فماذا تحْتاجُ التَّربية؟ إلى العِلْم، ما مِن مُرَبٍّ إلا وهو عليمٌ بِطَبيعَة الذي يُرَبيه، ماذا يحْتاج؟ وماذا يُصيبُهُ؟ وكيف تُكافَحُ هذه الأمْراض؟ ما طبيعة هذا النبات؟ فالله سبحانه وتعالى لأنَّهُ ربُّ العالمين وَجَبَ أنْ يكون عليماً بِخَلْقِهِ وخبيراً بهم، وفَرْقٌ دقيق بين العِلْم والخِبْرة فقد تكون عالِماً ولكِنَّك لا تسْتطيع أنْ تتنبَّأ بما سَيكون، وقد تصْنَعُ هذه الأداة، ولكن لا تعرفُ أين نِقاطُ ضَعْفِها، عند الاسْتِعْمال تبْدو لك نِقاط الضَّعْف فَتُقَوِّيها، فأنت لا تمْلكُ الخِبْرة الكافِيَة، معنى الخِبْرة: الحقائِق المُسْتَمَدَّة من التجارب الطويلة، لكنَّ الله سبحانه وتعالى عِلْمُهُ أزَلِّي، وخِبْرَتُهُ أزَلِيَّة، فلا بدّ أن يكون ربُّ الناس عالِماً، ولا بدّ أن يكون ربُّ الناس خبيراً بهذه النَّفْس، ولا بدَّ أن يكون قديراً وغَنِياً وحكيماً، فقد تَصُبُّ على نبْتَةٍ ماءً بقوة فَتَكْسِرُها! تقول: هي تحتاج إلى الماء! نعم تحْتاج إلى الماء ولكن إلى ماءٍ خفيف، لا بد من أنْ يكون عليماً وخبيراً وقديراً وحكيماً، ولا بدَّ أن يكون إشْرافُهُ مُسْتَمِراً، فلَوْ غاب صاحبُ هذه الفسيلة، وسافر ثمَّ عاد، قد يجِدُها ماتَتْ لِسَبَبِ غِيابِهِ عنها، فلا بد من إشْرافٍ دائِم، فالإشْرافُ الدائِم والغِنى والقدرة والحكمة والعلم والخبرة هذه بعض الأسْماء التي لا بد من توافُرها في المُرَبي، فإذا قلت:

(قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاس)

فَرَبُّ الناس هو الذي يُمِدُّهُم بِحاجاتِهم فإذا احْتَجْتَ إلى الهواء فَنِسْبَةُ الأكْسجين إلى غاز الفَحْم نِسْبَةٌ مدْروسة، فَلَو زاد هذا الغاز على حِساب ذاك الغاز لاختَلَّ التوازن في الأرض، فلو زاد الأكْسجين لاشْتَعَل كُلُّ شيءٍ في الأرض، ولو زاد غاز الفحْم لاخْتَنَقَ كُلُّ شيء، ولكن هذه النِّسْبَة دقيقة، وكيف أنَ النبات يُعْطينا الأكسجين في النهار، ويسْتهلكُ غاز الفحم، وكيف أنَّ الإنسان يُعْطي الأكْسجين للنبات ليلاً ويستهلكُ غاز الفحْم وكذا.

بعض نعم الله علينا التي لا تعد ولا تحصى :

أمَدَّنا الله تعالى بالهواء وبالماء الذي لا طعْمَ له ولا لوْنَ له ولا رائِحَة له، وهو يتبَخَّر في الدرجة الرابعة عشرة، فإذا تَجَمَّد قَلَّتْ كثافَتُه، على خِلاف عناصر الأرض كُلِّها، فلو أنَّه كعناصر الأرض إذا تَجَمَّد تقلّص وانكمش وزادَتْ كثافته لانْتَهَت الحياة على سطْح الأرض، وأعْطانا الهواء بِنِسَبٍ ثابِتَة، وأعْطانا الماء بِنِسَبٍ مِثالِيَّة، جعله عذْباً فُراتاً، وفي البحر جعله ملْحاً أُجاجاً، وَحَوَّل مياه البحْر المالِحَة إلى مياهٍ عَذْبَة عن طريق الأمْطار، ففي بعض البُلْدان العَرَبِيَّة هناك وحْدات تحليل، كُلُّ مترٍ من الماء يُكَلِّف ثلاثة ريالات، ومع هذا لا يصلُحُ للشرب، لأنها مِياهُ لا تُناسِبُ الإنسان، فلا بدّ من خلْطِها بِمِياه الآبار حتى يصلُحَ للشُّرْب، أمَدَّنا بالهواء والماء والنبات، فَلَو لم يكن النبات لما عاش الإنسان، لو أَلْقَيْتَ

نظْرَةً على النبات لوَجَدْتَ نباتات بمِحاصيل، وخُضْراوات شتْويّة وربيعِيَّة وصيْفِيّة وخريفيَّة، والمحاصيلُ تُقْطفُ دفْعةً واحدة وهي قِوام غِذاء الإنسان، وكذا الأشْجار قد تسْتفيد من ثمرها أو من ظِلِّها أو من جِذْعِها أو من أزْهارِها أو من أوْراقِها فهذا النبات بِشَتى أنْواعِهِ، وأمَدَّنا بالحيوان قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)

[سورة يس: 71]

ألْقِ نظْرَةً على طِفْلٍ يقود جَمَلاً، واتْلُ هذه الآية:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

[سورة يس: 72]

أما العقْرب فليس مُذَلَّلاً وكذا الأفْعى، فالرجل إذا رأى عَقْرباً قفزَ من مكانه، وصرخ بأعلى صَوْتِهِ، أما الطفْل فَيُمْسِكُ جمَلاً ويقودُهُ، فهو سبحانه وتعالى أمَدَّنا بالحيوان، هناك حيوانات نأكلُ لُحومِها، وأخرى نرْكَبُها، ونَحْمِلُ عليها أثْقالنا، وتلك نسْتفيدُ من جُلودِها، وهذه تَحْرُسنا، وهناك التي تُنَظِّفُ الأوْساخ، أنواعٌ لا يعْلَمُها إلا الله، هناك أسْماكٌ نتَغَذى منها، ونسْتَمْتِعُ بمَنْظرها، وأسْماك زينة، فهذا سمكٌ شَفاف، والآخر أسْود فاحِم، والرقيق والمُسَطَّح، وله الأجْنحة، وله ذَيْلان وشارِبَان، أنواعٌ لا يعْلَمُها إلا الله، لماذا خُلِقَتْ هذه؟! من أجلْ أن تستمتِعَ بها، أسْماك تأكل منها، وهذه تسْتفيد من أحْشائِها من كَبِدِها، حِيتان، أسماك صغيرة، الأطيار أنْواع منّوعة.

بعض

نماذِج الربوبيَّة وما يُمِدُّنا الله به من حاجات :

ما معنى ربُّ العالمين؟ أي أمَدَّنا بكُلِّ هذا، حياتنا فيها هواء وماء ونبات وأسماك وأطْيار، ثمَّ هناك جبال مثل الخزانات للمياه، ومِصَدات للرياح، أوتاد في الأرض، قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ)

[سورة المرسلات: 27]

وكذا الودْيان، بيت زِراعي دون مُقابل، تجد البيت يُكَلِّف أربعين أو خمسين ألفاً! وذات بيئة مَحْمِيَّة، تزرع فيها خضراوات مُبَكِّرة، وتربحُ منها أرْباحاً طائِلة، وكذا الغيران، والسهول، والجبال كلُّ هذه لها فائِدَة، فما معنى ربُّ العالمين؟ أمَدَّنا بكُلِّ هذا! ثمَّ سخَّر لنا الشمس وما فيها من حرارة، فلو انْطَفَأت فجأةً لانْتَهَت الحياة على سطْح الأرض، ولأصْبَحَت الأرض كَوْكباً جليدياً حرارته مئتان وخمسون تحت الصِّفْر، أمَدَّنا بالقمر، وبالبحار المُلَطِّفَة للأجْواء، فلولا الماء على سطْح الأرض لأصْبَحَتْ حرارة المكان الذي يرى الشمْس مئتين وخمسين فوق الصِّفْر، أصبحت وإلى جانبِهِ في الظلّ مئتين وخمسين

تحت الصفْر! كما هي الحال في القمر، فإذا وقف الرائد الفضائي في الشمْس كانت الحرارة مئتين وخمسين فوق الصفر، وإذا وقف تحت الظلّ كانت الحرارة مئتين وخمْسين تحت الصفر، لأنَّ الهواء والماء المُلطِّفين للجوّ منعدمان، فالماء والهواء أجْهزَة تكييف رائِعَة جداً للأرض، أمَدَّنا بالأنهار والبُحَيْرات، معنى الرَبّ المُمِدّ بالنعم، لكنَّ المُمِدّ يجب أن يكون عالِماً وخبيراً وحكيماً وغَنِياً وقديراً ومُشْرِفاً إشْرافاً دائِماً، وأنت تقول في الصلاة: الحمد لله ربِّ العالمين، والله الذي لا إله إلا هو لو بَقيتَ السنوات الطِّوال تتحَدَّثُ عن نماذِج الربوبِيَّة، وما يُمِدُّنا الله به من حاجات لما انتَهَتْ هذه الأيامُ والسنوات.

الجنين وخلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته سبحانه :

الجنين في بطْن أُمِّهِ من يُمِدُّه بالغذاء؟ ومن خلق له المشيمة ليأخذ الغذاء منها ويأخذ الدم عن طريقها! وفيها هرْمونات تُشْرف على الأجْهزة الداخِلِيَّة، فالمشيمة وحْدَها تكادُ تكونُ دِماغاً، ونُخاعاً شَوْكياً، وَكَبِداً، وجهاز تَصْفِيَة الدم، ورئتين، وقلباً، ومُسْتَوْدعاً للغذاء، هذه كُلُّها المشيمة، فَمَن كَوَّن هذا الجنين في بطْن أُمِّه؟ إذْ يحْتاج إلى بوتاسْيوم وكالِسْيوم، فهذا الوَحَم تعْبيرٌ عن حاجَةِ الجنين، قد يحْتاج الجنين إلى مادَّة البوتاسيوم، فَتَشْتَهي الأمُّ أكْلَةً مُعَيَّنة، لقد حار العُلماء في هذه الظاهرة، حالة المرأة الحامل عجيبةٌ جداً، تشْتهي أكْلات نادرة لا علاقة لها بالمَوْسِم، هذا الذي تشْتهيه تعْبير عن حاجة الجنين في بطْنِها، تدبير ربّ العالمين سبحانه وتعالى، فهذا الجنين لا يسْتطيع أنْ يتَكَلَّم ويقول: ينْقُصُني بوتاسْيوم! الله سبحانه وتعالى يخْلق حاجَةً في نفْس الأمِّ لِهذا الطعام، فَتَأكُلُهُ فَيَذْهَبُ إلى الجنين مُباشَرَةً، بمُجَرَّد أن ينْزل الجنين إلى الأرض - هكذا قال الأطباء - تأتي جلْطَة فَتُغْلِقُ الثُّقب الذي بيْن الأُذَيْنَيْن، ربنا عز وجل حِكْمَتُهُ بالغة، فما دامت الرئتان مُعَطَّلتين في بطْن الأم، والتنفُّس مُعَطَّل، كيفَ يُصَفَّى الدم؟ عن طريق المشيمة، فَدَوْرَةُ الدم الصغْرى من الأذين الأيْسر إلى الأُذَيْن الأيْمن دوْرَة مُغْلَقَة، هناك فَتْحَة بين الأُذَيْنَيْن كَشَفَها عالِمٌ اسمُهُ بوتال، ثم قالوا: هذا ثُقب بوتال يمُرُّ بِهِ الدم من أُذَيْن إلى آخر، أما الطريق نحو الرئتين فمُغْلَق، والرئتان مُعَطَّلتان، وبمُجَرَّد أنْ يولد الجنين وينزل إلى الدنيا تأتي جلْطَةٌ فَتُغْلِقُ هذا الثُّقب بين الأُذَيْنين، فَيَتَحَوَّل الدم إلى الرئَتَيْن، ويسْتنشِقُ الوليد الهواء ويتنفَّس، وهل تستطيع أنْ تصِلَ يَدُ الإنسان إلى هذا الثُّقب وتُغْلِقَهُ بِعَمَلِيَّة، هذه العَمَلِيَّة تحْتاج إلى سبعين أو ثمانين ألف ليرة، واحْتِمال نجاحِها بالمئة ثلاثون، ترْكيب قلْب صِناعي، وربْطُ الأوْرِدَة والشرايين بالقلب الصناعي، وفَتْحُ القلب، وخياطة هذا الثقب، ثمَّ إغْلاقه، ثمَّ تمْسيدُه، فإما أنْ ينبُض أو لا ينْبض! فإذا لم ينْبض يكون الأمر: عَظَّمَ الله أجْركم، لقد مات الغُلام! يدُ من تأتي فَتُغْلِقَ هذا الثقب؟! الله عز وجل حكيم، وإذا لم يُغْلق هذا الثقب

يمْشي الطِّفل مستقبلاً ثلاثة أمْتار ثمَّ يقع! لأنَّ الدم يخْتار الطريق الأيْسَر، وهذا الداء اسمه الزَّرَق، وهو نادر! وأصبح طريق الرئتين طويلاً عليه ما دام هناك ثقباً، ويموت غالِباً في الثالثة عشرة من عُمُره أو أكثر، لي صديق تَوَفَّت ابنته بهذا المرض، الزَّرَق، فمن يربي هذا الجنين وهو في بطْن أُمِّه؟ وحين نزل إلى الدنيا فإذا به يجدُ حليباً مُغَيَّراً، حتى قال بعض العلماء: تغْيِيرٌ لِكُلِّ وَجْبَة، فلو حَلَّلْنا حليب الأمّ في كُلِّ وَجْبَة لَوَجَدْنا عيارات خاصَّة به! ساخِنٌ في الشتاء، وباردٌ في الصَّيْف، ومُعَقَّمٌ تعْقيماً كامِلاً، فيه مناعة الأم، ويُهْضَمُ في أقَلَّ من ساعة قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ *وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد: 8-10]

حسب تفْسير بعضِهم.

أرْجَحُنا عقْلاً يعوذ بالله سبحانه وتعالى وكلما قلَّ عقْلُ الإنسان عاذ بغير الله :

الله عز وجل يقول:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

هذا الربُّ العظيم الذي أمَدَّ الإنْسان بكُلِّ ما يحْتاج؛ بالماء والهواء والطعام والشراب، والنبات والحيوان، والشمْس والقمر، وبالجبال والصحارى، والوِدْيان والأنْهار، وأمَدَّهُ بالبَنين، هذا الذي يسْتَحِقُ أن تعوذ به، وأن تحْتمي به، وتلْجأ إليه، وأن تسْتنصِرَهُ وتحْتمي بِحِماه لا أن تحْتمي بِحِمى إنْسان، فالإنسان ضعيفٌ لا يسْتطيعُ أنْ يَحْمِيَ نفْسَهُ، لذلك أرْجَحُنا عقْلاً يعوذ بالله سبحانه وتعالى، وكلما قلَّ عقْلُ الإنسان عاذ بغير الله، وما من مخْلوقٍ يعْتَصِمُ بي من دون خَلْقي أعْرِفُ ذلك من نِيَّتِهِ، فَتَكيدُهُ أهْلُ السماوات والأرض إلا جعلْتُ له من بين ذلك مخْرجاً، وما من مخْلوقٍ يعْتَصِمُ بِمَخْلوقٍ دوني أعْرِفُ ذلك من نِيَّتِهِ إلا جعَلْتُ الأرض هَوِياً تحت قَدَمَيْه، وقَطَّعْتُ أسْباب السماء بين يَدَيْه، عُذْ بِرَبِّ الناس، وفي الطائِف قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني أشْكو إليك ضَعْفَ قُوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمُني، أم إلى عَدُوٍّ ملَّكْتَهُ أمْري، إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي))

[الطبراني في الكبير عن عبد الله بن جعفر]

فلك مع الله مواقف، فهل تسْتعيذ به إذا خِفْتَ مخْلوقاً؟ وهل تلجأُ إليه وتحْتمي بِحِماه؟ إذا أردْت أن تكون أقْوى الناس فَتَوَكَّل على الله، إذا أردْتَ أنْ تكون أكْرم الناس فاتَّقِ الله، وإذا أرَدْتَ أنْ تكون أغْنى الناس فَكُن بما في يَدَي الله أوْثَقُ منك بما في يدَيْك، ربُّ الناس الذي رَباك في بَطْنِك، يدُ من امْتَدَّت فأغْلَقَتْ هذا الثُّقب، ولولا أنَّها أغْلَقَتْ هذا الثُّقب لكُنتَ في عِداد الموْتى وأنت صغير، قال تعالى:

(قُلْ أعُوذُ برَبِّ النَّاس)

الله عز وجل مالكٌ ومَلِكٌ :

شيءٌ آخر، وهو أنَّ كُلَّ عُضْوٍ في جَسَدِك يحْتاج إلى مواد خاصَّة، فقد قالوا: أقْسى مادَّة على سطْح الأرْض الألْماس، لأنَّها عبارة عن فَحْمٍ صافٍ تَعَرَّضَ لِضَغْطٍ مُنْقَطِع النظير، وحرارة تَفُوق الخمسة آلاف درجة، حرارة عالية جداً وضغط عالٍ فصار هناك ألْماس، وبعد الألْماس تأتي ميناء الأسْنان، لِوُجود مادَّة الكلور، التي لو نَقَصَتْ لسَقَطَتْ الأسْنان كُلُّها، فَمَن وفَّر هذه المادَّة؟ الكلور، فهو مُهِمٌّ جداً، وأحْياناً يُضيفونه للماء من أجْل سلامة الأسْنان، وهذه الغُدَّة الدَرَقِيَّة تقوم بأخْطر دَوْر في الإنْسان وهو الاسْتِقْلاب، تَحَوُّل الغِذاء إلى طاقة، تجد شَخْصاً نشيطاً جداً ويأكل أكلاً جيِّداً، وقِيامُهُ رشيق، حينها تكون الغُدَّة الدَرَقِيَّة في أعلى نشاط لأنَّها تُحَوِّل الغذاء إلى طاقة، وهذا الاسْتِقْلاب يحْتاج إلى مادَّة اسْمُها اليود فالسَّمك يحْتويها وكُلُّ طعامٍ مُسْتَخْرَجٍ من البحْر فيه اليود، وكذا البِنْكِرْياس هناك مادَّة اسْمُها الأنسولين، من وَفَّرَها في غِذائِنا؟ ما معْنى الربّ؟ المُمِدُّ، الذي مَدَّ الغُدَّة الدرَقِيَّة باليود، وأمَدَّ البِنْكرياس بالأنْسولين، والأسْنان بالكلور، والعِظام بالكِلْس، والأعْصاب بالفسْفور، والدَّمَ بالحديد، شيءٌ عجيبٌ جداً، فمن أمَدّ الإنسان بهذا الغِذاء المعْدني؟ العدس فيه الحديد، والتفاح كذلك، ومعنى الحديد أملاح الحديد وليس الحديد المُرَكَّب، فَرَبُّنا عز وجل هو الربُّ، ومعنى الربُّ هو المُمِدّ، فإذا أصابك مكْروهٌ فقُل: أعوذ برَبِّ الناس، ولا تقل: ابن أخي وصاحِبي! هذا نوعٌ من الشِّرْك بالله عز وجل، ثمَّ قال تعالى:

(مَلِكِ النَّاس)

قال بعضُ العلماء: المَلِك، هو الذي يحْكُم ولا يمْلِكُ، والمالك هو الذي يمْلِكُ ولا يحْكم، والله مالكٌ ومَلِكٌ، بعضُهم يقرأ في الفاتحة: مِلِكِ يوم الدِّين، والآخر مالك يوم الدِّين، فالله مالكٌ ومِلِك، وبعضهم قال: المِلِكُ هو الذي يمْلِكُ العُقَلاء يأمرهم وينْهاهم، والمالِكُ هو الذي يمْلِكُ الجمادات، وعلى كُلٍّ معنى مِلِك بأوْسَع معانيها: الله الذي يمْلِكُ سَمْعَك وبَصَرَك وقلبك ودِماغَك، ومن يمْلِكُ عَدُوَّك؟ الله سبحانه وتعالى، فمَعْنى المالك أنّه حُرُّ التَصَرُّف في ملكه، وفي ملك الله لا يسْتطيع هذا المخْلوق أن يتَحَرَّك إلا بأمْر الله إنْ شاء قَبَضَ وإن شاء أطْلَقَ، إنْ شاء أمَدَّ وإنْ شاء منع عنه الإمْداد.

معنى المِلِك والمالك هو الذي بيَدِهِ مقاليد الأمور :

معنى المِلِك والمالك هو الذي بيَدِهِ مقاليد الأمور، أحْياناً شركة تحْوي ثمانين مُوَظَّفاً، لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُوَقِّعَ لك إلا المُدير العام، إما أنْ يكتب "مُوافق "، أو " غير مُوافق"، ولله المَثَلُ الأعْلى، فالمَلِكُ هو الذي

يمْلِكُ كُلَّ شيء، أعْضاءَكَ وحواسَّك وأجْهِزَتَكَ وزَوْجَتَكَ وأعْداءَكَ وأصْحابَكَ وجيرانَكَ وخُصومَكَ ومُنافِسيك، القِوى الطبيعِيَّة كما يُسَميها بعضُ الناس، فالرِّياح من يمْلِكُها؟ الله سبحانه وتعالى، إذا أثارَها بسرعة ثمانمئة كيلو بالساعة تُدَمِّرُ كُلَّ شيء، هناك أعاصير بأمْريكا لا تُبْقي في المدينة شيئاً، ومن يمْلِكُ الأمْطار؟ الله سبحانه وتعالى، في إفْريقْيا سَبْعُ سنوات بلا أمْطار، وعندي صُوَرٌ تُظهر كيف تموت الحَيوانات بِعَرْض الصَّحْراء! جفافاً، كان الفُراتُ يفيضُ علينا، ويطوف ويُدَمِّر القُرى، أمّا الآن فقد أصبح كَنَهْر برَدى! فَمَنْ يمْلِكُ الماء؟ الله سبحانه وتعالى، مالكُ الماء والأمْطار والرياح، ومن يمْلِكُ دَوْرة الأرض حوْل نفْسِها؟ الله سبحانه وتعالى، ومن يمْلِكُ هذا الشيء الذي أمامك؟ الله تعالى، كلمة مالِك تعني أنَّ الأمر بِيَدِهِ، هذا مملوك والله هو المالك، فالإنسان إذا علِم أنَّ الله ملِك، فإذا نظر إلى عَيْنَيْه ووجَدَهُما كبيرتين دَعْجاوَيْن، فقال: ما أجْمَل هاتين العَيْنَيْن، فَهُوَ أحْمَق إن لم يحمد الله، لأنَّ الله هو مالك العَيْنَيْن! فإذا سَلَبَ الله منهما نورهما فَقَدَ بَصَرَهُ، فالله هو المالك لهذا السَّمْع والقُوَّة، تجد الواحد بِكامِلِ قِواه فإذا به يصاب بالشلل، فالله هو المالك للقوّة، والدعاء النبوي:

((ومتِّعْنا اللهم بأسْماعِنا وأبْصارنا وقُوَّتنا ما أحْيَيْتنا واجْعَلْهُ الوارثَ منا))

[الترمذي عن ابن عمر]

من يمْلكُ هذا العَقْل؟ الله سبحانه وتعالى، فإذا اخْتَلَّ فأقْربُ الناس إليه يَتَوَسَّطون كيْ يُدْخَلَ مشْفى المجانين، يُصْبحون خائِفين منه، مع أنَّهُ هو الذي رَتَّبَ البيْت، ومعه شهادات عُليا، وأبٌ لأولاد، إلا أنَّهم لا يريدونه! صار عِبئاً على أسرته، أحدهم أخذ دكتوراه بالجيولوجيا، وجاء لِبَلَده مع زوْجَةٍ فِرَنْسِيَّة، وتَمَتَّع بِمَنْصَب رفيع جداً، وأعْطَوْهُ سيارات وبيوتاً، فإذا به يفْقِدُ بَصَرَهُ! فزارَهُ صديق وقال لي: إنه يقول: والله أتمنَّى أن أجْلس على الرصيف، وأتَكَفَّفَ الناس، وليس على ظَهْري إلا هذا الرِّداء، وليس عندي شيءٌ في الدنيا، ويَرُدُّ الله لي بصَري، من هو مالك البصر؟ قد يكون المرءُ رفيع الإيمان، فليس معْنى فقْدِ البصر أنَّ الشخْص إيمانه ضعيف! هذا بِعِلْمِ الله، فالذي يفْقِدُ بَصَرَهُ يرْقى بِفَقْدِ بَصَرِهِ إذا صبر، فالبصر نِعْمَة، وفَقْدُهُ نِعْمَة، هذا إذا تَعَمَّقْتَ في التوحيد، لأنّ كُلَّ شيءٍ بيَدِه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ يُرِيدُ عَيْنَيْهِ))

[البخاري عن أنس]

كلمة (مُسَيِّر) تعْني الحركة وكلُّ شيء يتَحَرَّك فَهُوَ بيَد الله :

ثمَّ قال تعالى:

(مَلِكِ النَّاسِ)

أما الإله فهو المُسَيِّر، تحْريك الأفلاك بيَده تعالى، وكذا تحْريك الأرض والشمْس والقمر، وكذا حركة القُلوب، فإذا خَطَّط الإنسان قلبه، ورأى الشريط الطويل يقول الطبيب: حركة مُنتظمَة، وحركة الأمْعاء والعَضَلات كذلك، وحركة عَدُوِّك بيَد الله، فكلمة مُسَيِّر تعْني الحركة، وكلُّ شيء يتَحَرَّك فَهُوَ بيَد الله، قال تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

هناك مجموعة آيات وأحاديث، منها حديثُ ابْنِ عَبَّاسٍ قَال:

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْماً فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[الترمذي عن ابْن عَبَّاس]

((عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ لَهُ: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي قَالَ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْراً لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ))

[أبو داود عَن ابْن الدَّيْلَمِيِّ]

آيات قرآنية تؤكد أن المشيئة بيَد الله :

قال تعالى على لسان هود مخاطباً قومه:

(وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود: 54-55]

وقال تعالى:

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[سورة الأنعام: 80]

قال تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام: 81]

وقال تعالى:

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[سورة الأنعام: 80]

إنّ المشيئة بيَد الله، فإذا شاء أنْ يكون هذا عليَّ كان، هذا الشيء المُخيف بيَد الله، فإذا شاء الله له أنْ يصِلَ إليَّ فَهُوَ يصِل، فأنا أخافُ منه ولا أخافُ منه، أخاف منه إذا شاء الله له أن يُؤذِيَني، ولا أخاف منه إذا لم يشأ الله له أن يؤذِيَني، لذلك الأفعى كما قال المُوَحِّدون: تلْدَغُ عندها لا بها، أيْ عند إرادة الله لا بها، فَهيَ لا تلْدَغُ، وكذا العقْرب إلا إذا شاء الله، قال تعالى:

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[سورة الأنعام: 80]

كُلَّ شيءٍ في الأرض مبْعَثُهُ وَسْوَسَةُ الشيطان وهناك ثلاثة مصادِر للوَسْوَسَة :

ثمَّ قال تعالى:

(مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

قال بعضُ المُفَسِّرين إنَّ كُلَّ شيءٍ في الأرض مبْعَثُهُ وَسْوَسَةُ الشيطان، فالشيطان يُوَسْوِس، وبعضُهم قال: هناك ثلاثة مصادِر للوَسْوَسَة: الأوَّل كما قال تعالى:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

[سورة ق: 16]

أحْياناً النفسُ المُنْقَطِعَة عن الله عز وجل أمَّارةٌ بالسُّوء مصْدر داخِلي بحْت، وهناك وَسْوَسَة من شيطان الإنْس، وهناك وَسْوَسَة من شيطان الجنّ، ثلاثة مصادِر.

الدعوة لِكُلِّ شيء يُغْضِبُ الله عز وجل هي مِن وَسْوَسَة الشيطان الإنْسي :

أما ربنا عز وجل فقال:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

[سورة الأنعام:112]

هناك شياطين الإنس وشياطين الجنّ، فَشَياطين الإنْس يقولون لك: أين وَضَعْتَ مالك؟ بالبَيْت، غَفَرَ الله لك، ضَعْهُ في البنْك وتربَحُ الفائِدَة! هذا شيطان، ويقول لك مثلاً: هناك حفْلةٌ بالفُنْدُق الفُلاني، فيه مناظر بهيجَة جداً، اخْتِلاط ونِساء فهذا شيطانٌ كذلك، بل وكُلُّ إنسانٍ دعاك للمَعْصِيَة وزَيَّنها لك فَهُوَ شيطان، وهذه حقيقة، إنْ كان اخْتِلاطاً أو خمْراً أو رِباً أو سرقَة أو أكْل مالٍ حرامٍ أو كسْباً غيرَ مشْروع، ثمَّ يقول لك: الناس كُلُّها هكذا! فهذا هو الشيطان الإنْسي، لذلك قال بعضهم: ومن شياطين الإنْس المَشاؤون بالنَّميمة، ومن شياطين الإنْس بائِعو الشَّهَوات، فإذا فَتَح دار سينما مثَلاً، أو داراً لا تُرْضي الله عز وجل، أو فتَحَ محَلاً يبيعُ فيه أشْرِطَة غير مشْروعة، فَهُوَ شيْطان إنْسي، فالدعوة لِكُلِّ شيء يُغْضِبُ الله عز وجل هي مِن وَسْوَسَة الشيطان الإنْسي، والنبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن شيْطان الإنْس نهْياً قاطِعاً فقال:

((يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن؟ قال: قلت: يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: نعم، هم شر من شياطين الجن.))

[عوف بن مالك عن أبي ذر]

هذا الذي يُقْنِعُك بالمَعْصِيَة ويُزَيِّنُها لك، ويُفَلْسِفُها لك، ويُعْطيها شكْلاً مَنْطِقِياً هو شيطانُ الإنْس. هذا الوسْواس له صِفَة وهي أنَّهُ خناس، بمُجَرَّد أنْ تقول: أعوذ بالله خَنَسَ، فَهُوَ شيطان يُوَسْوِس، لكِنَّك إذا اسْتَعَذْتَ بالله خَنَسَ، فالصِّفَة المُلازِمَة له أنَّهُ يخْنُس، قال تعالى:

(مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

الوَسْواسُ الخناس :

الموضوع الدقيق هنا موضوع الوَسْواسُ الخناس، قال عليه الصلاة والسلام:

((الشيطان جاثِمٌ على قلب ابن آدم إذا ذَكَر الله خَنَس وإذا غَفَل وَسْوَسَ له.))

[أخرجه البخاري تعليقًا عن ابن عباس رضي الله عنهما]

إذا شَعَر الإنْسان بالوَسْوَسَة معنى ذلك أنَّهُ غافِل، وإذا كان يَقِظاً معنى ذلك له السلامة، كأنْ يقول أحدهم لابنه - وقد دُعِيَ لِحَفْلة لا تُرْضي الله -: اِذْهَب ولا عليك وتَعَرَّف على الناس واخْتَبِر الحياة، وتَعَرَّف على المعْصِيَة كي تجْتَنِبَها، فهذا هو كلام الشيطان، مع أنَّ ظاهِر الكلام منْطِقي: اُدْخُل مُعْتَرَكَ الحياة وجَرِّب، ولا تَكُن غَبِياً:

((الشيطان جاثِمٌ على قلب ابن آدم إذا ذَكَر الله خَنَس وإذا غَفَل وَسْوَسَ له.))

شيءٌ آخر، قال تعالى:

(كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الحشر: 16]

وقال تعالى حكاية عنه:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة إبراهيم: 22]

النِّسْيان والنعاس والخوف والتَّذكير بأمور ماضِيَة وحاضِرَة هذا كُلّه من عَمَل الشيطان:

إنّ الشيطان أحْياناً يُوَسْوِسْ لك أموراً قد مَضَتْ بأنْ يُذَكِّرُكَ بِسَفَرٍ مضى عليه خمْسُ سنوات بالتفْصيل، وتشاجرتَ مع ابن عَمِّك منذ عشْر سنوات، يأتي ويُذَكِّرُك بالحادِثَة، وكيفَ تحداك؟! وماذا قلتَ له؟ وماذا قال لك؟ كُلُّ هذا في الصلاة، فهذا فيما مضى، ويُوَسْوِسُ كذلك فيما سَيَأتي، غداً سَتُصْبِح صاحب مَحَلٍّ تِجاري، وتشْتري سيارة، وتقتني بيْتاً، وتقيم مَصْيَفاً، وتشْتري أرضاً يكون لك فيها مسبح ومسكن كبير، كُلُّ هذا في الصلاة، اشْترى وبنى وزرع وأثمر!! ثمَّ ينْسى إنْ كان واقِفاً في صلاته أم قاعِداً، وقد يقول أشْهد أنْ لا إله إلا الله وهو واقف! وأما في الحاضِر فَيُوَسْوِسُ له بالمَعْصِيَة، اِفْعَل وانْظر، ولا تدع هذه النَّظْرة تفوتُك، تَمُرُّ امْرأةً بالطريق فَيَقول له: تَعَرَّف على مُواصَفات الجمال كي تخْطُب! فالشيطان يأتي للإنسان من تفْكيره، ومبْدأ عقْلِهِ وقِيَمِهِ. ثمَّ مسْألة النِّسْيان، قال تعالى:

(وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة الأنعام: 68]

فهُوَ يُنْسيكَ العمل الصالح، وعَد أُخْتَهُ أنْ يُعْطيها كُلَّ شهْر مئة ليرة، فإذا جاء المَوْعِد أنْساهُ الشيْطان، يُمْضي أوَّل سبت وثانيه وثالثُه ورابعُهُ ولم يُعْطِها شيئاً، الطالب يكون عنده دَرْس، فَيَقول له الشيطان: تمهّل قليلاً فالأُسْتاذ لن يأتِيَ الآن، فإذا ذَهَب الطالب وَجَد الحِصَّة في آخِرها، فالنِّسْيان من الشيْطان، والنُّعاس كذلك من الشيْطان، فقد قيل: النعاس في مجْلِس العِلْم من الشيْطان، في أثناء الدرْس ينعس ويتثاءب، فإذا انتَهى نَشُط وسَهَر إلى الساعة الواحدة ليلاً! والخوف كذلك من الشيطان، قال تعالى:

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 175]

يُقابل الوَسْوَسةَ الإلْهامُ فالغافل يُوَسْوَسُ له أما المؤمن فيُلْهَم :

النِّسْيان والنعاس والخوف والتَّذْكير بأُمور ماضِيَة والتي ستأتي والحاضِرَة، هذا كُلُّه من عَمَل الشيطان، إلا أنَّه لا يمْلِكُ على ابن آدم سُلْطاناً، ويُقابل الوَسْوَسة الإلْهامُ، فالغافل يُوَسْوَسُ له، أما المؤمن فَيُلْهَم، قال ربنا عز وجل:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة البقرة: 257]

كان مُسْتقيماً فانْحَرَف، وهذه كانت مُسْتقيمة فأصْبَحَتْ سافِرَة، وهذا كان تعامله حلالاً فصار حراماً، قال تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

[سورة القصص: 7]

وقال تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[سورة النحل: 68]

هذا وَحْيُ إلْهام، تجد المؤمن مُسَدَّداً، اسْتِقامةً وعملاً طَيِّباً، لدينا فرق بين الوَسْوَسَة والإلْهام وهو فرق عِلْمي، كُلُّ ما يأمر به كتاب الله والسنّة المُطَهَّرة إذا جاءَكَ خواطِر من هذا الموضوع فَهي خواطِر من المَلَك، وكُلُّ ما نهى عنه الله في الكتاب والسنَّة إذا جاءَتك خواطر من هذا الموضوع فهُوَ من الشيْطان، فالمِقْياسُ إذاً الكتاب والسنّة ولا مِقْياس ثانٍ لذلك، فالذي يتوافق معهما هو إلْهام، والذي يتعارض معهما وسْواس من الشيْطان.

المنافق يمْشي مع الشيْطان إلى آخر الطريق بخِلاف المؤمن :

آخر شيء المؤمن إذا جاءَهُ شيْطانٌ - وقَلَّما يأتيه - لا يسْتَرْسِل معه، والدليل قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف: 201]

أما المنافق فيمْشي مع الشيْطان إلى آخر الطريق بخِلاف المؤمن، فحينما يشْعُر بالوَسْوَسَة الشيْطانِيَّة يقول: أعوذ بالله من الشيْطان الرجيم. ثمَّ قال تعالى:

(الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)

((وعَنْ جَابِر بْن عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُر اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَإِذَا لَمْ يَذْكُر اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

[مسلم عَنْ جَابِر بْن عَبْدِ اللَّهِ]

طوال الليل سباب وشجار وصِياح لأنَّهُ لم يُسَلِّم، وكذا إذا لم يذْكر الله عند الطعام، تَجِدُهم ما شَبِعوا! فإذا دخل الواحد منا بيتَه فعليه أنْ يُسَلِّم، كي يذْهب الشيطان.

ملخص سريع لسورة الناس :

ثمَّ قال تعالى:

(مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاس)

الآن رفيق السوء شيْطانُ الإنْس، وحاشِيَةُ السوء شيْطان الإنس، والنمام من شياطين الإنْس، وبائِعُ الشَهوات من شياطين الإنس، والدعوة إلى الربا من وسْوَسَة شياطين الإنْس، والدعوة إلى الزنا بكُلِّ أنواعه من وسْوَسَة الشيطان، وكذا الدعوة إلى الخمْر والمَيْسر والاخْتِلاط. كُلُّ معْصِيَة دُعِيَ إليها، مع فَلْسَفَتِها، وجعْلِ الكلام مُنَمَّقاً عليها، فهذا من شياطين الإنس. فهذه السورة أصْبحت بمَجْموعِها:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس*مَلِكِ النَّاس*إِلَهِ النَّاس*مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاس الْخَنَّاس*الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُور النَّاس*مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاس)

(قل أعوذ برب الناس)، عَرَفْنا ما معنى الرب؟ (ملك الناس)، أي بِيَدِهِ ملكوت كُلِّ شيء، (إله الناس)، أي المُسَيِّر، (من شر الوسواس الخناس)، أي بمُجَرَّد أنْ تقول: أعوذ بالله يَخْنس، (الذي يُوسوسُ في صدور الناس)، أي في النفْس، (من الجِنَّة والناس).

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة النبأ 078 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-17..... 1

سورة النبأ 078 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 16-30..... 14

سورة النبأ 078 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 31-40..... 27

سورة النازعات 079 - الدرس (1-4): تفسير الآيات 1-13..... 41

سورة النازعات 079 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 15-26..... 54

سورة النازعات 079 - الدرس (3-4): تفسير الآيات 27-33..... 68

سورة النازعات 079 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 34-46..... 79

سورة عبس 080 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-24..... 91

سورة عبس 080 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 24-42..... 106

سورة التكوير 081 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-14..... 118

سورة التكوير 081 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 15-29..... 133

سورة الانفطار 082 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01-06..... 149

سورة الانفطار 082 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 06-18..... 163

سورة المطففين 083 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 01 – 06..... 177

سورة المطففين 083 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 07 – 36..... 196

سورة الانشقاق 084 - الدرس (1-2): تفسير الآيات01-14..... 215

سورة الانشقاق 084 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 16-25..... 233
سورة البروج 085 - الدرس (2-1): تفسير الآيات 01-11..... 250
سورة البروج 085 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 12-22..... 269
سورة الطارق 086 - الدرس (2-1): تفسير الآيات 01-8..... 288
سورة الطارق 086 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 09- 17..... 303
سورة الأعلى 087 - الدرس (3-1): تفسير الآيات01- 03..... 324
سورة الأعلى 087 - الدرس (3-2): تفسير الآيات 3 -8..... 343
سورة الأعلى 087 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 8 -19..... 356
سورة الغاشية 088 - الدرس (3-1): تفسير الآيات 1 -16..... 370
سورة الغاشية 088 - الدرس (3-2): تفسير الآيات17-20..... 390
سورة الغاشية 088 - الدرس (3-3): تفسير الآيات21-26..... 405
سورة الفجر 089 - الدرس (2-1): تفسير الآيات 1 - 14..... 420
سورة الفجر 089 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 15 -30..... 436
سورة البلد 090 - الدرس (3-1): تفسير الآيات 1 - 2..... 453
سورة البلد 090 - الدرس (3-2): تفسير الآيات 2 - 7..... 466
سورة البلد 090 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 8 -20..... 478
سورة الشمس 091 - الدرس (2-1): تفسير الآيات 1 - 7..... 493
سورة الشمس 091 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 7 - 15..... 510

سورة الليل 092 - الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1-21..... 529

سورة الضحى 093 - الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 - 11..... 549

سورة الشرح 094 - الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 - 8..... 570

سورة التين 095 - الدرس (1- 1) : تفسير الآيآت 1 - 8..... 589

سورة العلق 096 - الدرس (1- 2) : تفسير الآيات 1 - 7..... 604

سورة العلق 096 - الدرس (2- 2) : تفسير الآية: 8 - 19..... 619

سورة القدر 097 - الدرس (1-1): تفسير الآيات: 1- 7..... 637

سورة البينة 098 - الدرس (1-2) : تفسير الآيات 1 - 7..... 649

سورة البينة 098 - الدرس (2-2) : تفسير الآيات 1 – 7..... 669

سورة الزلزلة 099 - الدرس (1-1): تفسير الآية: 1 - 8..... 683

سورة العاديات 100 -الدرس (1-1): تفسير الآية:1 - 8..... 695

سورة القارعة 101 -الدرس (1-1): تفسير الآيات: 1 - 8..... 712

سورة التكاثر 102 -الدرس (1-1): تفسير الآية: 1 - 8..... 727

سورة العصر 103 -الدرس (1-1): شرح السورة كاملة..... 737

سورة الهمزة 104 -الدرس (1-1): شرح السورة كاملة..... 748

سورة الفيل 105 -الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1- 5..... 754

سورة قريش 106-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 4..... 767

سورة الماعون 107-الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 - 7..... 776

سورة الكوثر 108-الدرس (1-1): تفسير الآية: 1 -3..... 799

سورة الكافرون 109-الدرس (1-1): تفسير الآيآت: 1 -6..... 822

سورة النصر 110-الدرس (1-1): تفسير الآيآت 1 -3..... 833

سورة المسد 111-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 5..... 840

سورة الإخلاص 112-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 4..... 863

سورة الفلق 113-الدرس (1-1): تفسير الآيات 1 - 4..... 879

سورة الناس 114-الدرس (1-1): تفسير الآيات1 - 6..... 896

الفهرس..... 913